الجزء الأول من السراج المنير في الإعانة
على معرفة بعض معاني كلام ربنا
الحكيم الخبير للشيخ الإمام
الخطيب الشربيني قدس
الله روحه وعم بالرحمة
ضريحه
آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملك السلام المهيمن العلام شارع الاحكام ذى الجلال والاكرام الذى أنزل القرآن بحسب المصالح منجما وجعله بالتحميد مفتتحا وبالاستعاذة مختتما وأوحاه على قسمين متشابها ومحكما فسبحان من استأثر بالاولية والقدم ووسم كل شئ سواه بالحدوث من العدم ومن علينا بنبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وأنعم علينا بكتابه المفرق بين الحلال والحرام والصلاة والسلام على خير من أوحى اليه حبيب الله أبى القاسم محمد النبى الامى المثبت بالعصمة المؤيد بالحكمة وعلى جميع الانبياء والملائكة البررة الكرام عدد ساعات الليالى والايام وعلى آله الاطهار وخلفائه وجميع المهاجرين والانصار وعلى بقية الصحابة الاخيار صلاة وسلاما دائمين متلازمين آناء الليل وأطراف النهار (أما بعد) فيقول فقير رحمة ربه القريب محمد الشربينى الخطيب ان الله جل ذكره أرسل رسوله بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين بشيرا للمؤمنين ونذيرا للمخالفين أكمل به تبيان النبوة وختم به ديوان الرسالة وأنزل عليه بفضله كتابا ساطعا تبيانه قاطعا برهانه ناطقا ببينات وحجج قرآنا عربيا غير ذى عوج مفتاحا للمنافع الدينية والدنيوية مصدقا لما بين يديه من الكتب السماوية حسناته ظاهرة باهرة فى وجه كل زمان دائرا من بين سائر الكتب على كل لسان فى كل مكان أعجز الخليقة عن معارضته وعن الاتيان بسورة من مثله فى مقابلته ثم سهل على الخلق مع اعجازه تلاوته ويسر على الالسن قراءته أمر فيه وزجر وبشر وأنذر فهو كلام معجز فى رقائق منطوقه ودقائق مفهومه لا نهاية لاسرار علومه (وقد ألف أئمة السلف) كتبا

فى معرفة احكامه ونزوله كل على قدر فهمه ومبلغ علمه فشكر الله تعالى سعيهم ورحم كافتهم ثم خطر لى أن اقتفى أثرهم وأسلك طريقتهم لعل الله أن يرزقنى من مددهم ويعود على من بركتهم فترددت فى ذلك مدة من الزمان خوفا من الدخول فى هذا الشان لقوله صلى الله عليه وسلم من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ وقول سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم من قال فى القرآن برأيه وفى رواية بغير علم فليتبوأ مقعده من النار وقول أبى بكر رضى الله تعالى عنه لما سئل عن قوله تعالى وفاكهة وأبا فقال أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى اذا قلت فى كتاب الله تعالى مالا أعلم الى أن يسر الله تعالى لى زيارة سيد المرسلين صلى الله وسلم عليه وعلى سائر النبيين والآل والصحب أجمعين فى أول عام تسعمائة واحد وستين فاستخرت الله تعالى فى حضرته بعد أن صليت ركعتين فى روضته وسألته أن ييسر لى أمرى فشرح الله سبحانه وتعالى لذلك صدرى فلما رجعت من سفرى واستمر ذلك الانشراح معى وكتمت ذلك فى سرى حتى قال لى شخص من أصحابى رأيت فى منامى اما النبى صلى الله عليه وسلم أو الشافعى يقول لى قل لفلان يعمل تفسيرا على القرآن فعن قليل الا وقد قررت فى وظيفة مشيخة تفسير فى البيمارستان ثم سألنى بعد ذلك جماعة من أصحابى المخلصين وعلى اقتباس العلم مقبلين بعد ان رأونى فرغت من شرح منهاج الطالبين أن أجعل لهم تفسيرا وسطا بين الطويل الممل والقصير المخل فأجبتهم الى ذلك ممتثلا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فيما رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه انه عليه الصلاة والسلام قال ان رجالا يأتونكم من أقطار الارض يتفقهون فى الدين فاذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا واقتداء بالماضين من السلف فى تدوين العلم ابقاء على الخلف وليس على ما فعلوه مزيد ولكن لا بد فى كل زمان من تجديد ما طال به العهد وقصر للطالبين فيه الجد والجهد تنبيها للمتوقفين وتحريضا للمتثبطين وليكون ذلك عونا لى وللقاصرين مثلى مقتصرا فيه على أرجح الاقوال واعراب ما يحتاج اليه عند السؤال وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية وأعاريب محلها كتب العربية وحيث ذكرت فيه شيأ من القرآآت فهو من السبع المشهورات . وقد أذكر بعض أقوال وأعاريب لقوة مداركها أو لورودها ولكن بصيغة قيل ليعلم ان المرضى أولها (وسميته) السراج المنير فى الاعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير وأسأله من فضله واحسانه أن يجعله عملا مقرونا بالاخلاص والقبول والاقبال وفعلا متقبلا مرضيا زكيا يعد من صالح الاعمال (وقد تلقيت) التفسير بحمد الله من تفاسير متعددة رواية ودراية عن أئمة ظهرت وبهرت مفاخرهم واشتهرت وانتشرت مآثرهم جمعنى الله واياهم والمسلمين فى مستقر رحمته بمحمد وآله وصحابته (وها أنا الآن أشرع) وبحسن توفيقه أقول وهو الموفق لكل خير ومعطى كل مسؤل

(سورة فاتحة الكتاب)

قوله فقال أى سماء كثيرا ما تستعمل اعادة العامل لطول الفصل وهو فى القول كثير اه مصححه

وتسمى أم القرآن لانها مفتتحه ومبدؤه فكأنها أصله ومنشؤه ولذلك تسمى أساسا أو لانها تشتمل على ما فيه من الثناء على الله تعالى والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده أو على جملة معانيه من الحكم النظرية والاحكام العملية التى هى سلوك الطريق المستقيم والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الاشقياء وسورة الكنز لانها نزلت من كنز تحت العرش والوافية والكافية لانها وافية كافية فى صحة الصلاة بخلاف غيرها عند القدرة عليها والشافية والشفاء لقوله عليه الصلاة والسلام هى شفاء لكل داء والسبع المثانى لانها سبع آيات باتفاق لكن من عد البسملة آية منها جعل السابعة صراط الذين الى آخرها ومن لم يعدها آية منها جعل السابعة غير المغضوب عليهم الى آخرها وسميت مثانى لانها تثنى فى الصلاة أى تكرر فيها بأن تقرأ فى كل صلاة وفى كل ركعة وقول بعضهم تثنى فى كل ركعة فيه تجوز وهى مكية على قول الاكثر وقال مجاهد مدنية وقيل نزلت مرتين مرة بمكة حين فرضت الصلاة ومرة بالمدينة حين حولت القبلة ولذلك سميت مثانى قال البغوى والاول أصح وقال البيضاوى وقد صح أنها مكية بقوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثانى وهو مكى بالنص انتهى وأراد بالنص السنة فقد ثبت ذلك عن ابن عباس وقول الصحابى فى القرآن خصوصا فى النزول له حكم المرفوع والقرآن العظيم والنور والراقية وسورة الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسئلة لاشتمالها على ذلك وسورة المناجاة وسورة التفويض وفاتحة القرآن وأم الكتاب وسورة الحمد الاولى وسورة الحمد القصوى وسورة السؤال والصلاة لخبر قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل يقول العبد الحمد لله رب العالمين يقول الله حمدنى عبدى يقول العبد الرحمن الرحيم يقول الله أثنى على عبدى يقول العبد مالك يوم الدين يقول الله مجدنى عبدى يقول العبد اياك نعبد واياك نستعين يقول الله عز وجل هذه الآية بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل يقول العبد اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين يقول الله فهؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل ولانها جزؤها فهو من باب تسمية جزء الشئ باسم كله * وقوله تعالى (بسم الله) أى الملك الاعظم الذى لا نعبد الا اياه (الرحمن) أى الذى عم بنعمتى ايجاده وبيانه جميع خلقه أسفله وأعلاه وأدناه وأقصاه (الرحيم) أى الذى خص من بينهم أهل وده برضاه آية من الفاتحة وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما وابن المبارك والشافعى وقيل ليست منها وعليه قراء المدينة والبصرة والشأم وفقهاؤها والاوزاعى ومالك ويدل للاول ما روى أنه صلى الله عليه وسلم عد الفاتحة سبع آيات وعد بسم الله الرحمن الرحيم آية منها رواه البخارى فى تاريخه وروى الدارقطنى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال اذا قرأتم الحمد لله فاقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم انها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى وبسم الله الرحمن الرحيم احدى آياتها وروى ابن خزيمة باسناد صحيح عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها ان النبى صلى الله عليه وسلم عد بسم الله الرحمن الرحيم آية والحمد لله رب العالمين الى آخرها ست آيات وآية من كل سورة الا براءة لاجماع الصحابة على اثباتها فى المصحف بخطه أوائل السور

سوى براءة مع المبالغة في تجريد القرآن من الاعشار وتراجم السور والتعوذ حتى لم تكتب امين فلو لم تكن قرآنا لما أجازوا ذلك لانه يحمل على اعتقاد ما ليس بقرآن قرآنا وأيضا هي آية من القرآن في سورة النمل قطعا ثم انا نراها مكررة بخط القرآن فوجب أن تكون منه كما أنا لما رأينا قوله فبأي آلاء ربكما تكذبان وقوله ويل يومئذ للمكذبين مكررا في القرآن بخط واحد وبصورة واحدة قلنا ان الكل من القرآن (فان قيل) لعلها ثبتت للفصل (أجيب) بأنه يلزم عليه اعتقاد ما ليس بقرآن قرآنا ولثبتت في أول براءة ولم تثبت في أول الفاتحة (فان قيل) القرآن انما يثبت بالتواتر (أجيب) بأن محله فيما ثبت قرآنا قطعا أما ما ثبت قرآنا حكما فيكفي فيه الظن كما يكفي في كل ظني خلافا للقاضي أبي بكر الباقلاني وأيضا اثباتها في المصحف بخطه من غير نكير في معنى التواتر وأيضا قد يثبت التواتر عند قوم دون آخرين (فان قلت) لو كانت قرآنا لكفر جاحدها (أجيب) بأنها لو لم تكن قرآنا لكفر مثبتها وأيضا التكفير لا يكون بالظنيات وقد أوضحت ذلك مع زيادة في شرحي التنبيه والمنهاج أما براءة فليست البسملة آية منها باجماع * (فائدة) * ما أثبت في المصحف الآن من أسماء السور والاعشار شيء ابتدعه الحجاج في زمنه والباء في بسم الله متعلقة بمحذوف تقديره بسم الله أقرأ لان الذي يتلوه مقروء اذ كل فاعل يبدأ في فعله باسم الله يضمر ما يجعل التسمية مبدأ له كما أن المسافر اذا حل أو ارتحل فقال بسم الله الرحمن الرحيم كان المعنى بسم الله أحل بسم الله أرتحل وذلك أولى من أن يضمر أبدأ لعدم ما يطابقه وما يدل عليه ومن أن يضمر ابتدائي لما ذكرنا (فان قيل) المصدر لا يعمل محذوفا (أجيب) بأنه يتوسع في الظرف والجار والمجرور ما لا يتوسع في غيرهما وتقديره مؤخرا كما قال الامام الرازي أولى كما في اياك نعبد واياك نستعين لانه أهم وأدل على الاختصاص وأدخل في التعظيم وأوفق للوجود فان اسمه تعالى مقدم ذاتا لانه قديم واجب الوجود لذاته فقدم ذكرا (فان قيل) قال الله تعالى اقرأ باسم ربك فقدم الفعل (أجيب) بأنه في مقام ابتداء القراءة وتعليمها لانها أول سورة نزلت فكان الامر بالقراءة أهم باعتبار هذا العارض وان كان ذكر الله تعالى أهم في نفسه وذكرت أجوبة غير ذلك في مقدمتي على البسملة والحمدلة والباء للاستعانة أو للمصاحبة والملابسة على جهة التبرك والمعنى متبركا باسم الله اقرأ والثاني أولى لما فيه من التحاشي عن جعل اسمه تعالى آلة والاحسن أن تكون لهما اعمالا للفظ في معنييه الحقيقيين أو الحقيقي والمجازي عند من يجوزه كامامنا الشافعي والبسملة وما بعدها الى آخر السورة مقول على ألسنة العباد ليعلموا كيف يتبرك باسمه ويحمد على نعمه ويسئل من فضله و يقدر في أول الفاتحة قولوا كما قال الجلال المحلي ليكون ما قبل اياك نعبد مناسبا له بكونه من مقول العباد (فان قيل) من حق حروف المعاني التي جاءت على حرف واحد أن تبنى على الفتحة التي هي أخت السكون نحو واو العطف وفائه (أجيب) بأنها انما كسرت للزومها الحرفية والجر ولتشابه حركتها عملها وحذفت الالف من بسم خطا كما حذفت لفظا دون باسم ربك وان كان وضع الخط على حكم الابتداء دون الدرج لكثرة الاستعمال وقالوا طولت الباء تعويضا من طرح الالف

وألحق بها بسم الله مجراها ومرساها وانه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم وان لم تكتب في القرآن الا مرة واحدة اشبهها الهاصورة (فان قيل) لم حذف في بسم الله دون الله والرحمن الرحيم (أجيب) خطان لا يقاس عليهما خط المصحف وخط العروضيين ولا تحذف الالف اذا أضيف الاسم لغير الله ولا مع غير الباء * والاسم مشتق من السمو وهو العلو لانه رفعة للمسمى وشعار له فهو من الاسماء المحذوفة الاعجاز كيد ودم لكثرة الاستعمال وبنيت أوائلها على السكون وأدخل عليها مبتدأ بها همزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن ولان من دأبهم أن يبتدؤا بالمتحرك ويقفوا على الساكن وقيل من الوسم وهو العلامة فوزنه على الاول افع محذوف اللام وعلى الثاني اعل محذوف الفاء وفيه عشر لغات نظمها بعضهم في بيت فقال

سم وسما واسم بتثليث أول * لهن سماء عاشرة تنجلي

والاسم ان أريد به اللفظ فغير المسمى لانه يتألف من أصوات مقطعة غير قارة ويختلف باختلاف الامم والاعصار ويتعدد تارة ويتحد أخرى والمسمى لا يكون كذلك وان أريد به ذات الشئ فهو المسمى لكنه لم يشتهر بهذا المعنى وقوله سبح اسم ربك الاعلى المراد به اللفظ لانه كما يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته يجب تنزيه الالفاظ الموضوعة لها عن الرفث وسوء الادب أو الاسم فيه مقحم كما في قول الشاعر

الى الحول ثم اسم السلام عليكما * ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وان أريد به الصفة كما هو رأى أبي الحسن الاشعري انقسم انقسام الصفة عنده الى ما هو نفس المسمى كالواحد والقديم والى ما هو غيره كالخالق والرازق والى ما ليس هو ولا غيره كالعلم والقدرة فانهما زائدان على الذات وليسا غير الذات لان المراد بالغير ما ينفك عن الذات وهما لا ينفكان (فان قيل) لم بدأ بسم الله دون بالله (أجيب) بأن التبرك والاستعانة بذكر اسمه وللفرق بين اليمين والتيمن * والله علم على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد وأصله اله قال الرافعي كامام ثم ادخلوا عليه الالف واللام ثم حذفت الهمزة ونقلت حركتها الى اللام فصار اللاه بلامين متحركين ثم سكنت الاولى وادغمت في الثانية للتسهيل انتهى والاله في الاصل يقع على كل معبود بحق أو باطل ثم غلب على المعبود بحق كما ان النجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا والحق انه أصل بنفسه غير مأخوذ من شئ بل وضع علما ابتداء فكما أن ذاته لا يحيط بها شئ ولا ترجع الى شئ فكذا اسمه تعالى وقيل مأخوذ من أله اذا تحير اذ العقول تتحير في معرفته وقيل غير ذلك وهو عربي عند الاكثر وعند المحققين انه اسم الله الاعظم وقد ذكره الله تعالى في ألفين وثلثمائة وستين موضعا واختار النووي تبعا لجماعة أنه الحي القيوم قال ولذلك لم يذكر في القرآن الا في ثلاثة مواضع في البقرة وآل عمران وطه * والرحمن الرحيم صفتان مشبهتان بنيتا للمبالغة من رحم بتنزيله منزلة اللازم أو بجعله لازما ونقله الى فعل بالضم والرحمة لغة رقة في القلب تقتضي التفضل والاحسان فالتفضل غايتها وأسماء الله تعالى المأخوذة من نحو ذلك انما تؤخذ باعتبار الغايات التي هي افعال دون المبادي التي تكون انفعالات فرحمة

الله تعالى ارادة ايصال الفضل والاحسان أو نفس ايصال ذلك فهى من صفات الذات على الاول ومن صفات الفعل على الثانى والرحمن أبلغ من الرحيم لانّ زيادة البناء تدل على زيادة المعنى كما فى قطع بالتخفيف وقطّع بالتشديد (فان قيل) حذرٌ أبلغ من حاذر (أجيب) بأنّ ذلك أكثرى لا كلىّ وبأنّ الكلام فيما اذا كان المتلاقيان فى الاشتقاق متحدى النوع فى المعنى كغرث وغرثان لا كحذر وحاذر للاختلاف وقدم الله عليهما لانه اسم ذات وهما اسما صفة والرحمن على الرحيم لانه خاص اذ لا يقال لغير الله بخلاف الرحيم والخاص مقدم على العامّ وانما قدم والقياس يقتضى الترقى من الادنى الى الاعلى كقولهم عالم نحرير لانه صار كالعلم من حيث انه لا يوصف به غيره ولذلك رجح جماعة انه علم ولانه لما دل على جلائل النعم وأصولها ذكر الرحيم كالتابع والتتمة والرديف ليتناول مادق منها ولطف فليس من باب الترقى بل من باب التعميم والتكميل والمحافظة على رؤس الآى وهل الرحمن مصروف أولا فيه قولان مال السعد التفتازانى الى جواز الامرين لانّ شرط منع صرف فعلان صفة وجود فعلى وشرط صرفه وجود فعلانة وكلاهما منتف هنا لكن أظهرهما أنه ممنوع الصرف الحاقاً له بما هو الغالب من نظائره فى الزيادة والوصف والثانى انه مصروف الحاقاً له بالاصل فى مطلق الاسم وهو الصرف هذا مع انّ المختار فى منع صرف ما ذكر انتفاء فعلانة لا وجود فعلى والحاصل انه تعارض فى صرفه وعدم صرفه الاصل والغالب (فان قيل) هذا اذا لم تدخله ال (أجيب) بأنّ المختار انّ غير المصروف اذا دخلت عليه ال والعلتان فيه باقٍ على منع صرفه وان جرّ بالكسرة (فوائد الاولى) الوقف على الله قبيح للفصل بين التابع والمتبوع وعلى الرحمن كذلك وقيل كاف وعلى الرحيم تام (الثانية) عدد حروف البسملة الرسمية تسعة عشر حرفاً وعدد ملائكة خزنة النار تسعة عشر قال ابن مسعود من أراد أن ينجيه الله تعالى من الزبانية فليقلها ليجعل الله تعالى له بكل حرف جنة أى وقاية من واحد (الثالثة) قال النسفىّ فى تفسيره قيل الكتب المنزلة من السماء الى الدنيا مائة وأربعة صحف شيث ستون وصحف ابراهيم ثلاثون وصحف موسى قبل التوراة عشرة والتوراة والانجيل والزبور والفرقان وجميع كل الكتب مجموعة فى الفاتحة ومعانى الفاتحة مجموعة فى البسملة ومعانيها مجموعة فى بائها ومعناها بى كان ما كان وبى يكون ما يكون زاد بعضهم ومعانى الباء فى نقطتها وتخصيص التسمية بهذه الثلاثة التى هى الله والرحمن والرحيم ليعلم العارف ان المستحق لان يستعان به فى جميع الامور هو المعبود الحقيق الذى هو مولى النعم كلها عاجلها وآجلها جليلها وحقيرها فيتوجه العارف بجملته حرصاً ومحبة الى جناب القدس ويتمسك بحبل التوفيق ويشغل سره بذكره والاستمداد به عن غيره (الحمد لله) الحمد اللفظى لغة الثناء باللسان على الجميل الاختيارى على قصد التبجيل أى التعظيم سواء أتعلق بالفضائل وهى النعم القاصرة أم بالفواضل وهى النعم المتعدية فدخل فى الثناء الحمد وغيره وخرج باللسان الثناء بغيره كالحمد النفسى وبالجميل الثناء باللسان على غير الجميل ان قلنا برأى ابن عبد السلام ان الثناء حقيقة فى الخير والشرّ وان قلنا برأى الجمهور وهو الظاهر انه حقيقة فى الخير فقط ففائدة

ذلك تحقيق الماهية أو دفع توهم ارادة الجمع بين الحقيقة والمجاز عند من يجوزه وبالاختياري المدح فانه يعم الاختياري وغيره تقول مدحت اللؤلؤة على حسنها دون حمدتها وظاهر قول الزمخشري الحمد والمدح أخوان انهما مترادفان وبه صرح في الفائق لكن الاوفق ما عليه الاكثر انهما غير مترادفين بل متشابهان معنى أو اشتقاقا كبيرا والاشتقاق ثلاثة أقسام كبير وأكبر وأصغر وقد يعبر عنه بالصغير فالكبير أن يشترك اللفظان في الحروف الاصول من غير ترتيب كالحمد والمدح والاكبر أن يشتركا في أكثر الحروف الاصول كالفلق والفلج والفلذ مع اتحاد في المعنى أو تناسب والاصغر أن يشتركا في الحروف الاصول المرتبة كضرب والضرب وبعلى قصد التبجيل ما كان على قصد الاستهزاء والسخرية نحو قوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم وتناول الظاهر والباطن اذ لو تجرد الثناء على الجميل عن مطابقة الاعتقاد أو خالفه أفعال الجوارح لم يكن حمدا بل تهكم أو تمليح وهذا لا يقتضي دخول الجنان والاركان في التعريف لان المطابقة وعدم المخالفة اعتبرا فيه شرطا لا شطرا وعرفا فعل ينبئ عن تعظيم المنعم من حيث انه منعم على الحامد أو غيره سواء كان ذكرا باللسان أم اعتقادا ومحبة بالجنان أم عملا وخدمة بالاركان كما قيل

أفادتكم النعماء مني ثلاثة * يدي ولساني والضمير المحجبا

فمورد اللغوي هو اللسان وحده ومتعلقه يعم النعمة وغيرها ومورد العرفي يعم اللسان وغيره ومتعلقه يكون النعمة وحدها فاللغوي أعم باعتبار المتعلق وأخص باعتبار المورد والعرفي بالعكس والشكر لغة هو الحمد عرفا وعرفا صرف العبد جميع ما أنعم الله تعالى به عليه من السمع وغيره الى ما خلق لاجله والمدح لغة الثناء باللسان على الجميل مطلقا على جهة التعظيم وعرفا ما يدل على اختصاص الممدوح بنوع من الفضائل فالشكر أعم من الحمد والمدح من وجه لانه لا يختص باللسان وأخص منهما من وجه آخر لانه يختص بالثناء على الانعام وضد الحمد الذم وضد الشكر الكفران وضد المدح الهجو * وجملة الحمد لله خبرية لفظا انشائية معنى لحصول الحمد بالتكلم بها مع الاذعان لمدلولها ويجوز أن تكون موضوعة شرعا للانشاء وقيل خبرية لفظا ومعنى قال بعضهم وهو التحقيق اذ ليس معنى كونها انشائية الا أنها جملة انشاء الحامد الثناء بها وذلك لا ينافي كونها خبرية معنى * ولام لله للملك أو الاستحقاق أو الاختصاص وقيل للتعليل والاولى أنها للاختصاص بالمعنى الاعم الصادق بالملك وبالاستحقاق لا بالمعنى الاخص المقابل لهما وعلى كل فهي متعلقة بمحذوف هو الخبر حقيقة فالحمد مختص بالله كما أفادته الجملة الاسمية سواء أجعلت لام التعريف فيه للاستغراق كما عليه الجمهور وهو ظاهر أم للجنس كما عليه الزمخشري لان لام لله للاختصاص كما مر فلا فرد منه لغيره أم للعهد كالتي في قوله تعالى اذ هما في الغار كما نقله ابن عبد السلام وأجازه الواحدي على معنى ان الحمد الذي حمد الله به نفسه وحمده به أنبياؤه وأولياؤه مختص به والعبرة بحمد من ذكر فلا فرد منه لغيره وأولى الثلاثة الجنس زاد بعضهم أو للكمال كما أفاده سيبويه في الداخلة على الصفات كالرحمن الرحيم قال البيضاوي اذ الحمد

فى الحقيقة كله له اذ مامن خير الا وهو موليه بوسط أو بغير وسط كما قال وما بكم من نعمة فمن الله انتهى (فان قيل) بل هو موليه مطلقا بغير وسط (أجيب) بان المراد بالوسط من تصل اليه النعمة أولا ثم تنتقل منه الى غيره لا أنه وسط فى التأثير (فان قيل) لم خص الحمد بالله ولم يقل الحمد للخالق أو نحوه من بقية الصفات (أجيب) بأن لا يتوهم اختصاص استحقاق الحمد بوصف دون وصف قال البيضاوى وفيه اشعار بأنه تعالى حى قادر مريد عالم اذ الحمد لا يستحقه الا من كان هذا شأنه (رب العالمين) أى مالك جميع الخلق من الانس والجن والملائكة والدواب وغيرهم اذ كل منها يطلق عليه عالم يقال عالم الانس وعالم الجن الى غير ذلك وسمى المالك بالرب لانه يحفظ ما يملكه ويربيه ولا يطلق على غيره تعالى الا مقيدا كقوله تعالى ارجع الى ربك والعالمين اسم جمع عالم بفتح اللام وليس جمعا له لان العالم عام فى العقلاء وغيرهم والعالمين مختص بالعقلاء والخاص لا يكون جمعا لما هو أعم منه قاله ابن مالك وتبعه ابن هشام فى توضيحه وذهب كثير الى أنه جمع عالم على حقيقة الجمع ثم اختلفوا فى تفسير العالم الذى جمع هذا الجمع فذهب أبو الحسن الى أنه أصناف الخلق العقلاء وغيرهم وهو ظاهر كلام الجوهرى وذهب أبو عبيدة الى انه أصناف العقلاء فقط وهم الانس والجن والملائكة وقيل عنى به الناس ههنا فان كل واحد منهم عالم من حيث انه يشتمل على نظائر ما فى العالم الكبير ووجه اشتمال الصغير وهو الانسان على نظائر ما فى الكبير وهو ما سوى الله تعالى أن تفاصيله شبيهة بتفاصيل العالم الكبير اذ الكبير ينقسم الى ظاهر محسوس كعالم الملك وهو ما ظهر للحواس وتكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض وتضمنه التغيير والى باطن معقول كعالم الملكوت وهو ما أوجده سبحانه وتعالى بالامر الازلى بلا تدريج وبقى على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولا نقصان منه والى عالم الجبروت وهو ما بين العالمين مما يشبه أن يكون فى الظاهر من عالم الملك فجبر بالقدرة الازلية بما هو من عالم الملكوت والانسان كذلك ينقسم الى ظاهر محسوس كاللحم والعظم والدم والى باطن كالروح والعقل والارادة والقدرة والى ما هو مشابه لعالم الجبروت كالادراكات الموجودة بالحواس والقوى الموجودة باجزاء البدن (فان قيل) لم جمع جمع قلة مع ان المقام يستدعى الاتيان بجمع الكثرة (أجيب) بأن فيه تنبيها على انهم وان كثروا قليلون فى جنب عظمته وكبريائه تعالى (الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) ذكر سبحانه وتعالى فى هذه السورة من اسمائه خمسة الله والرب والرحمن والرحيم والمالك والسبب فيه كأنه يقول خلقتك أولا فانا الله ثم ربيتك بوجود النعمة فانا رب ثم عصيت فسترت عليك فانا رحمن ثم تبت عليك فانا رحيم ثم لا بد من ايصال الجزاء اليك فانا مالك يوم الدين (فان قيل) انه تعالى ذكر الرحمن الرحيم فى التسمية ثم ذكرهما مرة ثانية دون الاسماء الثلاثة الباقية فما الحكمة فى ذلك (أجيب) بأن الحكمة فى ذلك كأنه قال تعالى اذكر أنى اله ورب مرة واحدة واذكر انى رحمن رحيم مرتين ليعلم أن العناية بالرحمة أكثر منه بسائر الامور ثم لما بين الرحمة المضاعفة فكأنه قال لا تغتروا بذلك فانى مالك يوم الدين ونظيره قوله تعالى غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب وقرأ عاصم والكسائى مالك

بألف بعد الميم ويعضده قوله تعالى لا تملك نفس لنفس شيأ والامر يومئذ لله وقرأ الباقون بغير ألف ويعضده قوله تعالى ملك الناس وبينهما عموم مطلق فكل ملك مالك ولا عكس لعموم ولاية الملك التزاما لا مطابقة ولا يقدح فيها أن تقول مالك الدواب والانعام والوحوش والطير دون ملكها لان ذلك ليس من جهة عدم شمول حياطته لذلك بل من جهة انه انما يضاف عرفا الى ما فيه انقياد وامتثال وينفذ فيه التصرف بالامر والنهى قاله السعد التفتازانى وقيل هما بمعنى وهو القادر على اختراع الاعيان من العدم الى الوجود ولا يقدر على ذلك الا الله ويوم الدين يوم الجزاء ومنه قولهم كما تدين تدان وهو يوم القيامة وخص بالذكر لانه لا ملك ظاهر فيه لاحد الا الله تعالى لمن الملك اليوم لله (فان قيل) اضافة اسم الفاعل غير حقيقية فلا تكون معطية معنى التعريف فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة (أجيب) بأنها انما تكون غير حقيقية اذا أريد باسم الفاعل الحال أو الاستقبال فكان فى تقدير الانفصال كقولك مالك الساعة أو غدا فاما اذا قصد به معنى الاستمرار أى هو موصوف بذلك دائما فتكون الاضافة حقيقية كغافر الذنب فصح وقوعه صفة للمعرفة (فان قيل) التقييد بيوم الدين ينافى الاستمرار لكونه صريحا فى الاستقبال (أجيب) بأن معناه الثبوت والاستمرار من غير اعتبار حدوث فى أحد الازمنة ومثل هذا المعنى لا يمتنع أن يعتبر بالنسبة الى يوم الدين كأنه قيل هو ثابت المالكية فى يوم الدين أو المراد انه جعل يوم الدين لتحقق وقوعه بمنزلة الواقع فتستمر مالكيته فى جميع الازمنة * (تنبيه) * اجراء هذه الاوصاف على الله تعالى من كونه رب العالمين موجدا لهم منعما عليهم بالنعم كلها ظاهرها وباطنها عاجلها وآجلها مالكا لامورهم يوم الثواب والعقاب للدلالة على انه تعالى الحقيق بالحمد لا أحد أحق به منه بل لا يستحقه على الحقيقة سواه فان ترتب الحكم على الوصف يشعر بعليته له (اياك نعبد واياك نستعين) ايا ضمير منصوب منفصل وما يلحقه من الياء والكاف والهاء حروف زيدت لبيان التكلم والخطاب والغيبة لا محل لها من الاعراب وفيه أقوال أخر ذكرتها فى شرح القطر (فان قيل) لم كرر ضمير اياك (أجيب) بأنه كرر للتنصيص على انه المستعان به لا غيره (فان قيل) لم قدمت العبادة على الاستعانة (أجيب) لتتوافق رؤس الآى وليعلم منه ان تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى الى الاجابة وأيضا المناسب المتكلم العبادة الى نفسه أوهم ذلك فرحا واعترافا منه بما يصدر عنه فعقبه بقوله واياك نستعين ليدل على أن العبادة أيضا مما لا تتم ولا تتيسر له الا بمعونة منه تعالى وتوفيق (فان قيل) لم عدل عن لفظ الغيبة الى لفظ الخطاب (أجيب) بان عادة العرب التفنن فى الكلام والعدول من أسلوب الى آخر تحسينا للكلام وتنشيطا للسامع فيكون أكثر اصغاء للكلام فتعدل من الخطاب الى الغيبة ومن الغيبة الى التكلم وبالعكس فيهما فهذه أقسام أربعة ذكرها البيضاوى والتحقيق كما قاله بعض المتأخرين انها ستة لان الملتفت اليه اثنان وكل منهما اما غيبة أو خطاب أو تكلم من ذلك قوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم الاصل بكم فهو التفات من الخطاب الى الغيبة وقوله تعالى والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الاصل فساقه فهو

التفات من الغيبة الى التكلم * والاستعانة طلب معونة وهى اما ضرورية أو غير ضرورية
فالضرورية ما لا يتأتى الفعل دونه كاقتدار الفاعل وتصوره وحصول آلة ومادة يفعل بها فيها
وعند استجماع ذلك يوصف الرجل بالاستطاعة ويصح أن يكلف بالفعل وغير الضرورية تحصيل
ما يتيسر به الفعل ويسهل كالراحلة فى السفر للقادر على المشى أو يقرب الفاعل الى الفعل ويحثه
عليه وهذا القسم لا يتوقف عليه صحة التكليف غالبا وقد يتوقف كأكثر الواجبات
المالية (فان قيل) لم أطلقت الاستعانة (أجيب) بأنها انما أطلقت لاجل أنها تتناول المعونة
فى المهمات كلها أو فى أداء العبادات واستحسن هذا الزمخشرى قال لتلاؤم الكلام
وأخذ بعضه بحجزة بعض * (تنبيه) * الضمير المستكن فى نعبد ونستعين للقارئ ومن معه من
الحفظة وحاضرى صلاة الجماعة أو له ولسائر الموحدين أدرج عبادته فى تضاعيف عبادتهم وخلط
حاجته بحاجتهم لعل عبادته تقبل ببركة عبادتهم وحاجته تجاب اليها ببركة حاجتهم ولهذا
شرعت الجماعة فى الصلاة (فان قيل) لم قدم المفعول (أجيب) بأن تقديمه للتعظيم والاهتمام به
والدلالة على الحصر ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه نعبدك ولا نعبد غيرك وتقديم
ما هو مقدم فى الوجود والتنبيه على أن العابد ينبغى أن يكون نظره الى المعبود أولا وبالذات
ومنه الى العبادة لا من حيث انها عبادة صدرت عنه بل من حيث انها نسبة شريفة اليه
ووصلة بينه وبين الحق فان العارف انما يحق وصوله اذا استغرق فى ملاحظة جناب القدس
وغاب عما عداه حتى انه لا يلاحظ نفسه ولا حالا من أحوالها الا من حيث انها ملاحظة له
ومنتسبة اليه ولذلك فضل ما حكى عن حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لا تحزن ان الله
معنا على ما حكاه عن كليمه موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال ان معى ربى سيهدين لان الاول قدم
ذكر الله تعالى على المعية والثانى بالعكس (اهدنا الصراط المستقيم) بيان للمعونة المطلوبة
فكأنه قال كيف أعينكم فقالوا اهدنا والهداية الدلالة بلطف ولذلك تستعمل فى الخير
(فان قيل) قال الله تعالى فاهدوهم الى صراط الجحيم (أجيب) بأنه وارد على التهكم
* (تنبيه) * هدى أصله أن يتعدى باللام أو بالى كقوله تعالى ان هذا القرآن يهدى للتى هى
أقوم وانك لتهدى الى صراط مستقيم فعومل معاملة اختار فى قوله تعالى واختار موسى قومه
سبعين رجلا لميقاتنا وقد يتعدى بنفسه كما هنا وهو حينئذ محتمل لاضمار الحرف ولعدم اضماره
وهداية الله تعالى تتنوع أنواعا لا يحصيها عدد كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها
ولكنها تنحصر فى أجناس مترتبة الاول افاضة القوى التى يتمكن بها المؤمن من الاهتداء الى
مصالحه كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة والثانى نصب الدلائل الفارقة
بين الحق والباطل والصلاح والفساد واليه أشار تعالى حيث قال وهديناه النجدين أى
طريقى الخير والشر وقال وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى والثالث الهداية
بارسال الرسل وانزال الكتب واياها عنى بقوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وقوله ان
هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم والرابع أن يكشف لقلوبهم السرائر ويريهم الاشياء

قوله واستحسن هذا الزمخشرى عبارته فان قلت لم أطلقت الاستعانة قلت لتتناول كل مستعان فيه والاحسن أن تراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة ويكون قوله اهدنا بيانا للمطلوب من المعونة كأنه قيل كيف أعينكم فقالوا اهدنا الصراط المستقيم وانما كان أحسن لتلاؤم الخ اه فتأمل اهـ مصححه

كما هي بالوحي والالهام والمنامات الصادقة وهذا القسم يختص بنيله الانبياء والاولياء وإياه عنى تعالى بقوله أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وقوله والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (فان قيل) مامعنى طلب الهداية وهم مهتدون (أجيب) بأنهم طلبوا زيادة ما منحوه من الهدى والثبات عليه كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى والصراط من قلب السين صادا ليطابق الطاء في الاطباق وقد تشم الصاد صوت الزاي ليكون أقرب الى المبدل منه قرأ حمزة الصراط المعرف في هذه السورة بالاشمام وهو أن ينطق القارئ بحرف متولد بين الصاد والزاي وأشم خلف صراط الثاني كالاول وكذا جميع ما في القرآن من معرف ومنكر وقرأ قنبل جميع ما في القرآن بالسين وقرأ الباقون بالصاد الخالصة في الجميع وهذه لغة قريش وهي الثابتة في الامام وهو مصحف سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه والمستقيم المستوى والمراد به طريق الحق وقيل ملة الاسلام وهذان القولان مرويان عن ابن عباس وهما متحدان صدقا وان اختلفا مفهوما (صراط الذين أنعمت عليهم) بالهداية بدل من الاول بدل كل من كل والعامل فيه مقدر على رأي الجمهور وقيل العامل فيه هو العامل في المبدل منه وهو ظاهر مذهب سيبويه واختاره ابن مالك (فان قيل) مافائدة ذكر صراط الذين أنعمت عليهم بدلا تابعا وهلا اقتصر عليه مع انه المقصود بالنسبة (أجيب) بأن فائدته التوكيد والتنصيص على أن طريق المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة على آكد وجه وأبلغه لانه جعل كالتفسير والبيان له فكأنه من البين الذي لا خفاء فيه ان الطريق المستقيم ما يكون طريق المؤمنين وهذا هو الموافق لما خرج ابن جرير عن ابن عباس ان المراد بالذين أنعمت عليهم الانبياء والملائكة والصديقون والشهداء ومن أطاعه وعبده وقيل الذين أنعمت عليهم الانبياء خاصة صلوات الله وسلامه عليهم وقيل أصحاب موسى وعيسى قبل التحريف والنسخ *(تنبيه)* أطلق الانعام ليشمل كل انعام لان من أنعم الله عليه بنعمة الاسلام لم تبق نعمة الا أصابته واشتملت عليه ويبدل من الذين بصلته (غير المغضوب عليهم) وهم اليهود لقوله تعالى فيهم من لعنه الله وغضب عليه (ولا) أي وغير (الضالين) وهم النصارى لقوله تعالى قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا الآية ونكتة البدل افادة ان المهتدين ليسوا يهودا ولا نصارى وقيل ان غير صفة على معنى انهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهي نعمة الايمان وبين السلامة من غضب الله تعالى والضلال وقيل المغضوب عليهم هم الكفار والضالون هم المنافقون وذلك لانه تعالى بدأ في أول البقرة بذكر المؤمنين والثناء عليهم في خمس آيات ثم اتبعه بذكر الكفار وهو المراد من قوله تعالى ان الذين كفروا ثم اتبعهم بذكر المنافقين وهو قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله الخ وكذا ههنا بدأ بذكر المؤمنين وهو قوله أنعمت عليهم ثم اتبعهم بذكر الكفار وهو قوله غير المغضوب عليهم ثم اتبعهم بذكر المنافقين بقوله ولا الضالين (فان قيل) كيف صح أن يقع غير صفة للمعرفة وهو لا يتعرف وان أضيف الى المعارف (أجيب) بأنه يصح بأحد تأويلين أحدهما اجراء الموصول مجرى النكرة اذ لم يقصد به معهود كالمحلى باللام في قول القائل * ولقد أمر على اللئيم يسبني * أي

لئلا يبنى اذ الامر ورعلى الكل والثانى جعل غير معرفة بالاضافة لانه أضيف الى ماله ضد واحد وهو المنعم عليه فليس فى غير اذن الابهام الذى يأبى عليه أن يتعرف * (تنبيه) * انما سمى كل من اليهود والنصارى بما ذكر مع أنه مغضوب عليه وضال لاختصاص كل منهما بما غلب عليه وقال صلى الله عليه وسلم ان المغضوب عليهم اليهود وان الضالين النصارى رواه ابن حبان وصححه وقيل المغضوب عليهم العصاة والضالين الجاهلون بالله لان المنعم عليه من وفق للجمع بين معرفة الحق لذاته والخير للعمل به فكان المقابل له من اختل احدى قوتيه العاقلة والعاملة والمخل بالعمل فاسق مغضوب عليه لقوله تعالى فى القاتل عمدا وغضب الله عليه والمخل بالعمل جاهل ضال لقوله تعالى فماذا بعد الحق الا الضلال (فان قيل) ما معنى غضب الله لان الغضب ثوران النفس عند ارادة الانتقام أو تغير يحصل عند ثوران دم القلب ارادة الانتقام وهو محال فى حقه تعالى (أجيب) بأنه اذا أسند الى الله تعالى أريد به المنتهى والغاية فمعناه ارادة الانتقام من العصاة وانزال العقوبة بهم وأن يفعل بهم ما يفعل الملك اذا غضب على من تحت يده نعوذ بالله من غضبه ونسأله رضاه ورحمته (فان قيل) أى فرق بين عليهم الاولى والثانية (أجيب) بأن محل مجرور الاولى النصب على المفعولية ومحل مجرور الثانية الرفع لانه نائب مناب الفاعل (فان قيل) لم دخلت لا فى ولا الضالين (أجيب) بأنها بمعنى غير كما قرّرته تبعا للجلال المحلى وأنها مزيدة كما قال الزمخشرى لتأكيد ما فى غير من معنى النفى كأنه قال لا المغضوب عليهم ولا الضالين وللتصريح بتعلق النفى بكل من المعطوف والمعطوف عليه * (فائدة) * أوّل السورة مشتمل على الحمد لله والثناء عليه والمدح له وآخرها مشتمل على الذمّ للمعرضين عن الايمان به والاقرار بطاعته وذلك يدل على أن مطلع الخيرات وعنوان السعادات هو الاقبال على الله ومطلع الآفات ورأس المخالفات هو الاعراض عن الله تعالى والبعد عن طاعته والاجتناب عن خدمته (فان قيل) ما فائدة غير المغضوب الخ بعد ذكر أنعمت عليهم (أجيب) بأن الايمان انما يكمل بالرجاء والخوف كما قال عليه الصلاة والسلام لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا فقوله صراط الذين أنعمت عليهم يوجب الرجاء الكامل وقوله غير المغضوب عليهم الخ يوجب الخوف الكامل وحينئذ يتقوى الايمان بركنيه وطرفيه وينتهى الى حدّ الكمال وقرأ حمزة عليهم غير المغضوب عليهم بضم الهاء وقفا ووصلا وكذا جميع ما فى القرآن وقرأ ابن كثير عليهم بواو بعد الميم فى الوصل فاذا وقف أسقط الواو وكذا يفعل فى كل ميم جمع بعدها حرف متحرك وأما قالون فهو مخير فى ميم الجمع ان شاء وصلها بواو كابن كثير وان شاء لا يصلها بواو وأما ورش فانه يصل ميم الجمع بواو ان كان بعدها همزة قطع فيصير عنده مدّ منفصل وفى ولا الضالين مدّ ان لازم وعارض فاللازم هو الذى على الالف بعد الضاد قبل اللام المشدّدة والعارض هو الذى على الياء قبل النون * والسنة للقارئ أن يقول بعد فراغه من الفاتحة آمين مفصولا عن الفاتحة بسكتة وهو اسم الفعل الذى هو استجب وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معناه فقال افعل بنى على الفتح كأين لالتقاء الساكنين ويجوز مدّ ألفه وقصرها قال مجنون ليلى

يارب لاتسلبني حبها أبدا * ويرحم الله عبدا قال آمينا

أي بالمد وقال جبير لما سأل الاسدى المسمى بفطحل

تباعد عني فطحل اذ سألته * أمين فزاد الله ما بيننا بعدا

فذكره مقصورا وكان من حقه التأخير لان التأمين انما يكون بعد الدعاء لكن قدمه للضرورة وليس امين من القران اتفاقا بدليل أنه لم يثبت في المصاحف كما مرت الاشارة اليه ولكن يسن ختم السورة به لقوله صلى الله عليه وسلم علمني جبريل عليه السلام امين عند فراغي من قراءة الفاتحة كما رواه البيهقي وغيره وقال صلى الله عليه وسلم انه كالختم على الكتاب كما رواه أبو داود في سننه وقال علي رضي الله تعالى عنه امين خاتم رب العالمين ختم به دعاء عبده رواه الطبراني وغيره لكن بسند ضعيف يقوله الامام ويجهر به في الجهرية لما روي عن وائل بن حجر أنه عليه الصلاة والسلام كان اذا قرأ ولا الضالين قال امين ورفع بها صوته وعن الحسن لا يقوله الامام لانه الداعي وعن أبي حنيفة مثله والمشهور عنه وعن أصحابه أنه يخفيه والمأموم يؤمن مع امامه لقوله صلى الله عليه وسلم اذا قال الامام ولا الضالين فقولوا امين فان الملائكة تقول امين وان الامام يقول امين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه زاد الجرجاني في أماليه وما تأخر وأحسن ما فسر به هذا الخبر ما رواه عبد الرزاق عن عكرمة قال صفوف أهل الارض تلي صفوف أهل السماء فاذا وافق تأمين من في الارض تأمين من في السماء غفر للعبد قال ابن حجر ومثل هذا لا يقال بالرأي فالمصير اليه أولى وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابي ألا أخبرك بسورة لم ينزل في التوراة والانجيل والقرآن مثلها قال بلى يارسول الله قال فاتحة الكتاب انها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته رواه الترمذي وقال حسن صحيح وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ ناداه مناد فقال أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفا منهما الا أعطيته وما رواه البيضاوي عن حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتما مقضيا فيقرأ صبي من صبيانهم في الكتاب الحمد لله رب العالمين فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة حديث موضوع

(سورة البقرة مدنية)

(وهي مائتان وسبع وثمانون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم الم) قال الشعبي وجماعة الم وسائر حروف الهجاء في أوائل السور من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه وهي سر القرآن فنحن نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها الى الله سبحانه وتعالى وفائدة ذكرها طلب الايمان بها والسبب في ذلك أن العقول الضعيفة لا تحتمل الاسرار القوية كما لا يحتمل نور الشمس ابصار الخفافيش والله تعالى استأثر بعلم لا تقدر عليه

عقول الانبياء والانبياء استأثروا بعلم لا تقدر عليه عقول العلماء والعلماء استأثروا بعلم لا تقدر عليه عقول العامة وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه فى كل كتاب سر وسر الله فى القرآن أوائل السور وقال على رضى الله عنه ان لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى قال داود بن أبى هند كنت أسأل الشعبى عن فواتح السور فقال ياداود ان لكل كتاب سرا وان سر القرآن فواتح السور فدعها واسأل عما سوى ذلك وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال معنى الم أنا الله أعلم ومعنى الر أنا الله أرى ومعنى المر أنا الله أعلم وأرى قال الزجاج وهذا حسن فان العرب تذكر حرفا من كلمة تريدها كقولهم * قلت لها قفى فقالت قاف اى وقفت وقيل هى أسماء السور وعليه اطباق أكثر المتكلمين واختاره الخليل وسيبويه سميت بها اشعارا بأنها كلمات معروفة التركيب فلولم تكن وحيا من الله تعالى لم تتساقط قدرتهم عند معارضتها ونقضه الامام الرازى بأنها لو كانت اسماء لها لوجب اشتهارها بها وقد اشتهرت بغيرها كسورة البقرة وآل عمران وقيل أسماء للقرآن قاله قتادة والحكمة فى الاتيان بهذه الاحرف الثلاثة أن الالف من أقصى الحلق وهو مبدأ المخارج واللام من طرف اللسان وهو وسطها والميم من الشفة وهى آخرها جمع الله تعالى بينها ايماء الى أن العبد ينبغى أن يكون أول كلامه وأوسطه وآخره ذكر الله تعالى ولما تكاثر وقوع الالف واللام فى تراكيب الكلام جاءتا فى معظم الفواتح مكررتين وهى فواتح سورة البقرة وأول آل عمران والاعراف ويونس وهود ويوسف والرعد وابراهيم والحجر والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة (فان قيل) هلا عددت هذه الاحرف بأجمعها فى أوائل القرآن وما لها جاءت مفرقة على السور (أجيب) بأن اعادة التنبيه على أن المتحدى به مؤلف منها لا غير وتجديده فى غير موضع واحد أوصل الى الغرض وأقرله فى الاسماع والقلوب من أن ينفرد ذكره مرة وكذلك مذهب كل تكرير جاء فى القرآن فطلوب به تمكين المكرر فى النفوس وتقريره (فان قيل) هلا جاءت على وتيرة واحدة ولم اختلفت أعداد حروفها فوردت ص وق ون على حرف وطه وطس ويس وحم على حرفين والم والر وطسم على ثلاثة أحرف والمص والمر على أربعة أحرف وكهيعص وحمعسق على خمسة أحرف (أجيب) بأن هذا على عادة افتنانهم فى أساليب الكلام وتصرفهم فيه على طرق شتى ومذاهب عدة وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين الى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك سلك بهذه الفواتح تلك المسالك (فان قيل) ما وجه اختصاص كل سورة بالفاتحة التى اختصت بها (أجيب) بأنه لما كان الغرض هو التنبيه والمبادى كلها فى تأدية هذا الغرض سواء لا مفاضلة كان تطلب وجه الاختصاص ساقطا كما اذا سمى الرجل بعض أولاده زيدا والآخر عمرا لم يقل له لم خصصت ولدك هذا بزيد وذاك بعمرو لان الغرض هو التمييز وهو حاصل بذلك (فان قيل) هل لهذه الفواتح محل من الاعراب (أجيب) بأن لها محلا عند من جعلها أسماء لانها عنده كسائر الاعلام محلها يحتمل ثلاثة أوجه اما الرفع بأنها مبتدأ أو خبر لمبتدا محذوف أى هذه الم أو النصب بفعل مقدر كاذكر أو اقرأ أو اتل الم أو الجر بتقدير حذف حرف القسم (ذلك الكتاب) الذى تقرؤه

يا محمد على الناس (لاريب فيه) لاشك فى أنه من عنـد الله تعالى (فان قيل) لم صحت الاشارة بذلك الى ماليس ببعيـد (أجيب) بأن الاشارة وقعت فيه للتعظيم ولذلك قال الطيبى أحسن ماقيل فى توجيه ذلك قول صاحب المفتاح قال ذلك الكتاب ذهابا الى بعده درجة وقيل وقعت الاشارة الى الم بعد ماسبق التكلم به وتقضى والمنقضى فى حكم المتباعد وهذا فى كل كلام يحدث الرجل بحـديث ثم يقول وذلك مالاشك فيـه ويحسب الحاسب ثم يقول فذلك كذا وكذا وقال تعالى لافارض ولابكر عوان بين ذلك وقال نبى الله يوسف صـلى الله عليه وسلم لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى ولانه لما وصل من المرسل سبحانه وتعالى الى المرسل اليه صلى الله عليه وسلم وقع فى حد البعد كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيأ احتفظ بذلك أى تمسك به وقيل معناه ذلك الكتاب الموعود انزاله بقوله تعالى انا سنلقى عليك قولا ثقيلا أو فى الكتب المتقدمة لان سورة البقرة مدنية كما مر وأكثرها احتجاج على اليهود وعلى بنى اسرائيل وقد كانت بنو اسرائيل أخبرهم موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ان الله يرسل محمدا وينزل عليه كتابا فقال تعالى ذلك الكتاب أى الذى أخـبر الانبياء المتقدمون بأن الله سينزله على النبى المبعوث من ولد اسمعيل وقيل انه تعالى لما أخبر عن القرآن بأنه فى اللوح المحفوظ بقوله وانه فى أم الكتاب لدينا وقد كان صلى الله عليه وسلم أخبر أمته بذلك فغير ممتنع أن يقول تعالى ذلك الكتاب ليعـلم أن هذا المنزل هو ذلك الكتاب المثبت فى اللوح المحفوظ والكتاب مصدر سمى به المفعول للمبالغة أو فعال بنى للمفعول كاللباس ثم أطلق على المنظوم عبارة قبـل أن يكتب لانه مما يكتب وأصـل الكتب الضم والجمع سمى الكتاب كتابا لانه جمع حرف الى حرف والكتاب جاء فى القرآن على وجوه أحدها الفرض قال تعالى كتب عليكم القصاص كتب عليكم الصـيام ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا وثانيها الحجة والبرهان قال تعالى فأتوا بكتابكم ان كنتم صـادقين أى برهانكم وثالثها الاجـل قال تعالى وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم أى أجـل ورابعها بمعـنى مكاتبة السـيد رقيقـه قال تعالى والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمـانكم فكاتبوهـم (فان قيل) كيف نفى الريب على سبيل الاستغراق وكم من مرتاب فيه (أجيب) بأن الله تعالى مانفى أن أحدا لايرتاب فيه وانما المنفى كـونه متعلقا للريب ومظنة له لانه لوضوحه وسطوع برهانه بحيث لاينبغى لاحـد أن يرتاب فيه ألاترى الى قوله تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله فانه لم ينف عنهـم الريب بل أرشدهـم الى الطريق المزيح للريب وهو أن يجتهدوا فى معارضة سورة من سوره ويبذلوا فيها غاية جهدهـم حتى اذا عجزوا عنها تحقق لهم ان ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخـل للريبة وقيل هو خبر بمعنى النهى أى لاترتابوا فيـه كقوله تعالى فـلا رفث ولا فسوق ولا جـدال فى الحج أى لاترفثوا ولاتفسـقوا ولاتجادلوا والريب فى الاصل مصدر رابنى الشئ اذا حصـل فيه الريبة وهى قلق النفس واضطرابها سمى به الشك لانه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة وفى الحديث دع مايريبك الى مالايريـبك فان الشـك ريبة والصـدق طمأنينة رواه الترمذى لكن بلفظ فان الصدق

طمأنينة والكذب ريبة وصححه ومعناه اترك ما فيه شك الى ما لا شك فيه فاذا ارتابت نفسك في شئ فاتركه أو اطمأنت اليه فافعله فان نفس المؤمن تطمئن الى الصدق وترتاب من الكذب وهذا مخصوص بذوى النفوس الشريفة القدسية الطاهرة * (تنبيه) * جملة النفى خبر مبتدؤه ذلك و (هدى) خبر ثان أى هاد (للمتقين) الصائرين الى التقوى بامتثال الاوامر واجتناب النواهى لاتقائهم بذلك النار وتخصيص المتقين بالذكر تشريفا لهم ولانهم هم المنتفعون بالهدى كما قال تعالى انما أنت منذر من يخشاها وقال تعالى انما تنذر من اتبع الذكر وقد كان صلى الله عليه وسلم منذرا لكل الناس لان هؤلاء هم الذين انتفعوا بانذاره * ولها ثلاث مراتب * الاولى التوقى من العذاب المخلد بالتبرى عن الشرك وعليه قوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى * والثانية التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم وهذا التجنب هو المتعارف بالتقوى فى الشرع وهو المعنى بقوله تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا وعلى هذا قول عمر بن عبد العزيز التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله فما رزق الله بعد ذلك فهو خير الى خير * والثالثة أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق تعالى وهذه هى التقوى الحقيقية المطلوبة بقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته وقال ابن عمر التقوى أن لا ترى نفسك خيرا من أحد قرأ ابن كثير فيه هدى فيصل الهاء من فيه بياء فى الوصل لانها مكسورة وقبلها ساكن فان كانت هاء الكناية مضمومة وقبلها ساكن وصلها بواو فان كان قبلها متحرك وبعدها متحرك فجميع القراء يصلونها مكسورة بياء ويصلونها مضمومة بواو فمثال المكسورة به أن يوصل ومثال المضمومة قال له صاحبه وهو وما أشبه ذلك فان كان قبلها متحرك وبعدها ساكن فالجميع على عدم الصلة مثال ذلك به الله وله الملك وما أشبه ذلك ويدغم أبو عمرو الهاء فى الهاء بخلاف عنه وكذا كل مثلين ما لم يكن الحرف المدغم تاء متكلم مثل كنت ترابا أو تاء مخاطب مثل أفأنت تكره الناس أو منونا مثل سميع عليم أو مشددا مثل فتم ميقات ربه * ثم وصف المتقين بما هو شأنهم بقوله (الذين يؤمنون بالغيب) أى يصدقون بما غاب عنهم من البعث والجزاء والجنة والنار والصراط والميزان والايمان لغة التصديق وشرعا قيل التصديق بما علم بالضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ومجموع ثلاثة أمور اعتقاد الحق والاقرار به والعمل بمقتضاه عند جمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج والاصح أنه التصديق وحده ويدل له أنه تعالى أضاف الايمان الى القلب فقال كتب فى قلوبهم الايمان وقال وقلبه مطمئن بالايمان وقال ولم تؤمن قلوبهم وعطف عليه العمل الصالح فى مواضع لا تحصى وقرنه بالمعاصى فقال وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى فلو لم يكن الايمان التصديق فقط بل هو وترك المعاصى لم يكونوا مؤمنين (فان قيل) قال الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه وغيره ان الايمان قول وعمل ويزيد وينقص (أجيب) بأن ذلك محمول على الايمان الكامل وقرأ ورش والسوسى بابدال الهمزة الساكنة فى يؤمنون واوا وكذا يقرأ حمزة فى الوقف (ويقيمون الصلاة) أى يديمونها

ويحافظون عليها في مواقيتها بحدودها وأركانها وهيآتها يقال قام بالامر وأقامه اذا أتى به
يعطى حقوقه لان الحقيق بالمدح من راعى حدودها الظاهرة من الفرائض والسنن وحقوقها
الباطنة كالخشوع والاقبال على الله تعالى لا المصلون الذين هم عن صلاتهم ساهون ولذلك
ذكر في سياق المدح والمقيمين الصلاة وفي معرض الذم فويل للمصلين والمراد بها الصلوات الخمس
ذكر بلفظ الوحدان كقوله تعالى فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب
بالحق يعني الكتب والصلاة في اللغة الدعاء قال الله تعالى وصل عليهم أي ادع لهم وفي الشرع
اسم لأفعال وأقوال مخصوصة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم وقرأ ورش بتغليظ اللام
في الصلاة حيث جاء (ومما رزقناهم) أي أعطيناهم (ينفقون) يخرجون المال في طاعة الله
فرضا كان أو نفلا ومن فسره بالزكاة ذكر أفضل أنواعه والاصل فيه أو خصصه بها لاقترانها
بالصلاة لانهما يذكران معا في القرآن ويحتمل أن يراد به الانفاق مما خصهم الله من النعم
الظاهرة والباطنة ويؤيده ما رواه الطبراني في الاوسط مرفوعا مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يحدث
به كمثل الذي يكنز الكنز فلا ينفق منه والى هذا ذهب من قال ومما خصصناهم به من أنوار المعرفة
يفيضون والرزق بالكسر في اللغة الحظ قال الله تعالى وتجعلون رزقكم أي حظكم ونصيبكم
من القرآن أنكم تكذبون وأما بالفتح فهو مصدر بمعنى اعطاء الحظ كما أنه بالكسر يكون
مصدرا أيضا كما قيل به في قوله تعالى ومن رزقناه منا رزقا حسنا وفي العرف اسم لكل
ما ينتفع به حتى الولد والرقيق والمعتزلة لما استحالوا من الله أن يمكن من الحرام لانه تعالى منع
من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه قالوا الرزق لا يتناول الحرام ألا ترى أنه تعالى أسند الرزق
ههنا الى نفسه ايذانا بأنهم ينفقون الحلال الصرف الطيب وأن انفاق الحرام لا يوجب المدح
وذم المشركين على تحريم بعض ما رزقهم الله تعالى بقوله تعالى قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من
رزق فجعلتم منه حراما وحلالا وأجاب أهل السنة عما ذكر بأن الاسناد للتعظيم والتحريض على
الانفاق والذم بتحريم ما لم يحرم واختصاص ما رزقهم بالحلال للقرينة وتمسكوا لشمول
الرزق له بما رواه ابن ماجه وغيره من حديث صفوان بن أمية قال كنا عند رسول الله صلى الله
عليه وسلم فجاءه عمرو بن قرة فقال يا رسول الله ان الله قد كتب علي الشقوة فلا أراني أرزق الا من
دفي بكفي فأذن لي في الغناء من غير فاحشة فقال لا آذن لك ولا كرامة كذبت أي عدو الله لقد
رزقك الله حلالا طيبا فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله وبأنه
لو لم يكن رزقا لم يكن المتغذي به طول عمره مرزوقا وليس كذلك لقوله تعالى وما من دابة
في الارض الا على الله رزقها * (تنبيه) * تقديم رزقناهم على ينفقون للاهتمام به وللمحافظة على
رؤس الآي وادخال من التبعيضية عليه للكف عن الاسراف المنهي عنه في حق من لم يصبر
على الاضاقة والافلاس باسراف فقد تصدق أبو بكر رضي الله تعالى عنه بجميع ماله ولم ينكر
عليه النبي صلى الله عليه وسلم (والذين يؤمنون بما أنزل اليك) أي القرآن بأسره والشريعة
عن آخرها وانما عبر عنه بلفظ المضي وان كان بعضه مترقبا تغليبا للموجود على ما لم يوجد فيكون

مجازا باعتبار تسمية الكل باسم البعض أو تنزيلا للمنتظر منزلة الواقع فيكون استعارة باعتبار تشبيه غير المتحقق بالمتحقق وفي كل من هذين الوجهين جمع بين الحقيقة والمجاز وهو جائز عند الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه (وما أنزل من قبلك) أي التوراة والانجيل وغيرهما من سائر الكتب السابقة على القرآن والايمان بالانزالين جملة فرض عين وبالاول دون الثاني تفصيلا من حيث انا متعبدون بتفاصيله فرض ولكن على الكفاية لان وجوبه على كل أحد يوجب الحرج ويشوش المعاش وهذه الآية في المؤمنين من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأمثاله * (فائدة) * الكتب المنزلة مائة وأربعة كتب أنزل على السيد شيث ستون صحيفة وعلى السيد ابراهيم ثلاثون وعلى السيد موسى قبل التوراة عشر فهذه مائة والاربعة الاخرى التوراة والانجيل والزبور والفرقان العظيم واختلف القراء في مد وقصر ما أنزل فقالون والدوري عن أبي عمرو يمدان ويقصران وابن كثير والسوسي يقصران بلا خلاف وباقي القراء وهم ورش وعاصم وحمزة والكسائي يمدون بلا خلاف ويتفاوتون في طول المد فأطولهم مدا ورش وحمزة ودونهما عاصم ودونه ابن عامر والكسائي وهكذا كل مد منفصل (وبالآخرة هم يوقنون) أي يعلمون أنها كائنة لان اليقين هو العلم بالشئ بعد ان كان صاحبه شاكا فيه قاله الامام الرازي ولذلك لا يوصف به العلم القديم ولا العلوم الضرورية فلا يقال تيقن الله كذا ولا تيقنت أن الكل أكبر من الجزء * (فائدة) * سميت الدنيا دنيا لدنوها من الآخرة وسميت الآخرة آخرة لتأخرها وكونها بعد فناء الدنيا وهي تأنيث الآخر صفة الدار بدليل قوله تعالى تلك الدار الآخرة قرأ ورش الاخرة بنقل حركة الهمزة الى الساكن قبلها حيث جاء وكذا الارض وقد افلح ومن امن وما أشبه ذلك (أولئك) الموصوفون بما ذكر (على هدى) أي رشد (من ربهم) ونكر هدى للتعظيم فكأنه أريد به ضرب لا يبالغ كنهه ولا يقادر قدره وأكد تعظيمه بأن الله مانحه والموفق له * (تنبيه) * جميع القراء يمدون أولئك بلا خلاف لانه متصل لكن مرتبة ابن كثير وابي عمرو دون مرتبة ابن عامر والكسائي في المتصل والمنفصل وأولاء كلمة معناها الكناية عن جماعة والكاف للخطاب كما في حرف ذلك (وأولئك هم المفلحون) أي الفائزون بالجنة والناجون من النار كرر فيه اسم الاشارة تنبيها على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضي كل واحد من الاختصاصين وأن كلا منهما كاف في تميزهم بها عن غيرهم فلا يحتاجون فيه الى مجموعهما (فان قيل) لم وسط العاطف بين هاتين الجملتين دون قوله تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون (أجيب) بأن الجملتين هنا مختلفتان باختلاف المسندين فيهما اذ على هدى من ربهم والمفلحون وان تناسبا تعلقا مختلفتان مفهوما ووجودا ومقصودا لان الهدى في الدنيا والفلاح في العقبى واثبات كل منهما مقصود في نفسه بخلاف كالانعام والغافلون فانهما وان اختلفا مفهوما فقد اتحدا مقصودا ووجودا اذ لا معنى للتشبيه بالانعام الا المبالغة في الغفلة في الدنيا فناسب العطف في الاول دون الثاني * (تنبيه) * تأمل كيف نبه سبحانه وتعالى على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد من وجوه شتى بناء الكلام على اسم الاشارة

للتعليل مع الايجاز وتكريره وتعريف الخبر وتوسط الفصل لاظهار قدرهم والترغيب في اقتفاء أثرهم وأصل الفلاح القطع والشق ومنه سمي الزراع فلاحا لانه يشق الارض فهم المقطوع لهم بالخير في الدنيا والآخرة * ولما ذكر الله تعالى خاصة عباده وخاصة أوليائه بصفاتهم التي أهلتهم للهدى والفلاح عقبهم بذكر أضدادهم العتاة المردة الذين لا ينفع فيهم الهدى ولا تغني عنهم الآيات والنذر بقوله تعالى (ان الذين كفروا) الكفر لغة ستر النعمة وأصله الكفر بالفتح وهو الستر ومنه قيل للزراع والليل كافر ولكمام الثمر كافور وفي الشرع انكار ما علم بالضرورة مجيء الرسول به وينقسم الى أربعة أقسام كفر انكار وكفر جحود وكفر عناد وكفر نفاق فكفر الانكار هو أن لا يعرف الله أصلا ولا يعترف به وكفر الجحود هو أن يعرف الله بقلبه ولا يقر بلسانه ككفر ابليس واليهود قال الله تعالى فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وكفر العناد هو أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به ككفر أبي طالب حيث يقول

ولقد علمت بأن دين محمد * من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة * لوجدتني سمحا بذاك مبينا

وأما كفر النفاق فهو أن يقر باللسان ولا يعتقد بالقلب وجميع هذه الاقسام من لقي الله تعالى بواحد منها لا يغفر له قال الله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به *(تنبيه)* احتجت المعتزلة بما جاء في القرآن بلفظ الماضي نحو ان الذين كفروا انا نحن نزلنا الذكر انا أرسلنا نوحا على حدوث القرآن لاستدعاء ما جاء فيه بلفظ الماضي سابقية المخبر عنه والقديم يستحيل أن يكون مسبوقا بغيره فأجاب أهل السنة بأن ما جاء فيه بلفظ الماضي مقتضى تعلق الحكم بالمخبر عنه وحدوث مقتضى التعلق لا يستلزم حدوث المخبر عنه فلا يستلزم حدوث كلام الله كما في علمه تعالى فانه قديم ومقتضى تعلقه بغيره حادث والحاصل أنه لا يلزم من حدوث مقتضى التعلق وهو الكلام اللفظي حدوث الكلام النفسي (سواء عليهم) أي متساو لديهم (أأنذرتهم أم لم تنذرهم) أي خوفتهم وحذرتهم أم لا والانذار اعلام مع تخويف وتحذير فكل منذر معلم وليس كل معلم منذرا وانما اقتصر عليه دون البشارة لانه أوقع في القلب وأشد تأثيرا في النفس من حيث ان دفع الضرر أهم من جلب النفع فاذا لم ينفع فيهم الانذار كانت البشارة بعدم النفع أولى (لا يؤمنون) بما جئت به وهذه الآية في أقوام حقت عليهم كلمة الشقاء في سابق علم الله تعالى كأبي جهل وأبي لهب وغيرهما فلا تطمع في ايمانهم واحتج بهذه الآية من جوز تكليف ما لا يطاق فانه سبحانه وتعالى أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون وأمرهم بالايمان فلو آمنوا وقع الخلف في كلامه تعالى وهو محال والحق ان التكليف بالممتنع لذاته جائز عقلا غير واقع بخلاف التكليف بالممتنع لغيره كالذي تعلق علم الله تعالى بعدم وقوعه فانه جائز وواقع اتفاقا *(تنبيه)* ههنا همزتان مفتوحتان من كلمة فقالون وأبو عمرو يسهلان الثانية ويدخلان بينهما ألفا وكذا ورش وابن كثير الا انهما لم يدخلا ألفا بينهما ولورش وجه آخر وهو أن يبدل الثانية حرف مد وهشام له وجهان تسهيل الهمزة الثانية وتحقيقها مع ادخال ألف بينهما

والباقون بالتحقيق والقصر وجميع القراء يحققون الاولى * ثم ذكر سبب تركهم الايمان بقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم) أى طبع واستوثق فلا يدخلها ايمان ولا خير والختم الكتم سمى به الاستيثاق من الشئ بضرب الخاتم عليه لانه كتم له (وعلى سمعهم) أى مواضعه فلا ينتفعون بما يسمعونه من الحق وقوله تعالى (وعلى أبصارهم) أى أعينهم (غشاوة) مبتدا وخبر أى على أعينهم غطاء من عند الله تعالى فلا يبصرون الحق وعبر الله تعالى عن احداث هذه الهيئة بالطبع فى قوله تعالى أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وبالاغفال فى قوله تعالى ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا وبالاقساء فى قوله تعالى وجعلنا قلوبهم قاسية وهذه الهيئة من حيث ان الممكنات بأسرها مستندة الى الله تعالى واقعة بقدرته أسندت اليه تعالى ومن حيث انها مسببة عما اقترفوه بدليل قوله تعالى بل طبع الله عليها بكفرهم وقوله تعالى ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم وردت الآية مظهرة عليهم شناعة صفتهم ووخامة عاقبتهم (فان قيل) لم وحد السمع دون القلوب والابصار (أجيب) بأنه على حذف مضاف مثل وعلى حواس سمعهم كمواضعه كما مرّ تقديره أو باعتبار الاصل فانه مصدر فى أصله والمصادر لا تثنى ولا تجمع والابصار جمع بصر وهو ادراك العين وقد يطلق مجازا على القوة الباصرة وعلى العضو وكذا السمع قال البيضاوى ولعل المراد بهما فى الآية العضو لانه أشد مناسبة للختم والتغطية وبالقلب ما هو محل العلم وقد يطلق القلب ويراد به العقل والمعرفة كما قال الله تعالى ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أى عقل وأمال أبو عمرو ألف أبصارهم وكذا كل ألف بعدها راء مكسورة متطرفة وانما جاز امالتها مع الصاد لان الراء المكسورة تغلب المستعلية لما فيها من التكرير (ولهم عذاب عظيم) أى قوى دائم فى الآخرة وهذا وعيد وبيان لما يستحقونه والعذاب كل ما يعيى الانسان ويشق عليه وقال الخليل العذاب ما يمنع الانسان عن مراده ومنه الماء العذب لانه يمنع العطش وانما وصف العذاب بالعظيم دون الكبير لان العظيم فوقه لان العظيم نقيض الحقير والكبير نقيض الصغير واذا كان الحقير مقابلا للعظيم والصغير للكبير كان العظيم فوق الكبير لان العظيم لا يكون حقيرا والكبير قد يكون حقيرا كما أن الصغير قد يكون عظيما وتنكير الغشاوة والعذاب للتنويع لانهما لما قرنا بالختم على القلوب كان المعنى نوعا عظيما منه أى على أبصارهم غشاوة ليس مما يتعارفه الناس وهو التعامى عن الآيات ولهم من الآلام العظام نوع لا يعلم كنهه الا الله * ونزل فى المنافقين حكاية لحالهم قوله تعالى (ومن الناس) أمال أبو عمرو الالف قبل السين المكسورة امالة محضة وهكذا كل ألف مثلها والباقون بالفتح (من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) أجمع المفسرون على أن ذلك وصف المنافقين قالوا صنف الله الاصناف الثلاثة من المؤمنين والكافرين والمنافقين فبدأ بذكر المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم وثنى بأضدادهم الذين محضوا الكفر ظاهرا وباطنا وثلث بالصنف الثالث المذبذب بين القسمين وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلا للتقسيم وهذا الصنف أخبث الكفرة وأبغضهم الى الله

تعالى لانهم مع مشاركتهم للكفار الاصليين فى أنهم جاهلون بالقلب كاذبون باللسان من حيث
انهم ينسبون الى الله تعالى ماهو برىء منه كالولد والزوجة والشريك زادوا عليهم بأمور
منكرة منها أنهم قصدوا التلبيس ورضوا لانفسهم بسمة الكذب ولبسوا الكفر على المسلمين فخلطوا
به خداعا واستهزاء ولذلك طوّل الله فى بيان خبثهم وجهلهم واستهزائهم وتهكم بأفعالهم وسجل
على عمههم وطغيانهم وضرب لهم الامثال وأنزل فيهم ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار
واللام فى الناس للجنس ومن موصوفة لا للعهد وكانه قال تعالى ومن الناس ناس يقولون وقيل
للعهد والمعهود هم الذين كفروا ومن موصولة مرادبها ابن أبىّ وأصحابه ونظراؤه فانهم من حيث
انهم صمموا على النفاق دخلوا فى عداد الكفار المختوم على قلوبهم واختصاصهم بزيادة زادوها
على الكفر لايأبى دخولهم تحت هذا الجنس (فان قيل) خصت من بالموصوفة على تقدير الجنس
وبالموصولة على تقدير العهد (أجيب) بأن الجنس لابهامه يناسب الموصوفة لتنكيرها والعهد
لتعيينه يناسب الموصولة لتعريفها واختصاص الايمان بالله وباليوم الآخر بالذكر تخصيص
لماهو المقصود الاعظم من الايمان وادّعاء بأنهم اختاروا الايمان من المبدا والمعاد وايذان بأنهم
منافقون فيما يظنون انهم مخلصون فيه فكيف بما يقصدون به النفاق وهو عدم التصديق
بالقلب لان القوم كانوا يهودا وكانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر ايمانا كلا ايمان لاعتقادهم
التشبيه واتخاذ الولد وأن الجنة لايدخلها غيرهم وأن النار لن تمسهم الا أياما معدودة وغير ذلك
ويرون المسلمين أنهم آمنوا مثل ايمانهم وفى تكرير الباء ادّعاء الايمان بكل واحد على الاصالة
والاستحكام والمراد باليوم الآخر من وقت الحشر الى مالا ينتهى أو الى أن يدخل أهل الجنة
الجنة وأهل النار النار لانه آخر الاوقات المحدودة بطرفين (وماهم بمؤمنين) لابطانهم الكفر
وهذا انكار لما ادّعوا اثباته ووحد الضمير فى يقول نظرا الى لفظة من لانها صالحة للتثنية
والجمع والواحد وجمع فيما بعدها نظرا الى معناها (فان قيل) كيف طابق قوله وماهم بمؤمنين
قولهم آمنا بالله فان الاول فى ذكر شأن الفعل لا الفاعل والثانى فى ذكر شأن الفاعل لا الفعل
فكان المطابق له وما آمنوا (أجيب) بأنه انما عدل الى ذلك لرد كلامهم بأبلغ وجه وآكده لان
اخراج ذواتهم عن عداد المؤمنين أبلغ من نفى الايمان عنهم فى ماضى الزمان ولذلك أكد النفى
بالباء ونظيره قوله تعالى يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها هو أبلغ من قولك
وما يخرجون منها وأطلق الايمان على معنى أنهم ليسوا من الايمان فى شىء ويحتمل أن يقيد بما
قيدوا به وهو قوله تعالى بالله وباليوم الآخر لان وماهم بمؤمنين جوابه والآية تدل على أن من
ادّعى الايمان وخالف قلبه لسانه بالاعتقاد لم يكن مؤمنا لان من تفوّه بالشهادتين فارغ القلب
عما يوافقه أو ينافيه لم يكن مؤمنا (يخادعون الله والذين آمنوا) اذ أظهروا خلاف ما أبطنوه من
الكفر ليدفعوا عنهم أحكامه الدنيوية ويحقنوا دماءهم ويحفظوا أموالهم وأصل الخدع فى اللغة
الاخفاء ومنه المخدع للبيت الذى يخفى فيه المتاع فالمخادع أظهر خلاف مايضمر والمخادعة
تكون بين اثنين وخداعهم مع الله ليس على ظاهره لانه تعالى لايخفى عليه خافية ولانهم

لم يقصدوا خديعته بل المراد اما مخادعة رسوله أو أوليائه على حذف المضاف لانهم لم يعتقدوا أن الله بعث الرسول اليهم فلم يكن قصدهم فى نفاقهم مخادعة الله تعالى فعلم أن خداعهم مع الله ليس المراد ظاهره كما فى قوله تعالى واسأل القرية أى أهلها أو على أن معاملة الرسول معاملة الله تعالى من حيث انه خليفته كما قال تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله واما أن صورة صنيعهم مع الله تعالى من اظهار الايمان واستبطان الكفر وصنيع الله معهم من اجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده أخبث الكفار وأهل الدرك الاسفل من النار استدراجا لهم وامتثال الرسول والمؤمنين أمر الله فى اخفاء حالهم واجراء حكم الاسلام مجازاة لهم بمثل صنيعهم صورة صنيع المتخادعين ويحتمل أن يراد بيخادعون يخدعون لانه بيان ليقول أو استئناف بذكر ما هو الغرض منه الا أنه أخرج فى زنة فاعل للمبالغة فان الزنة لما كانت للمغالبة والفعل متى غولب فيه كان أبلغ منه اذا جاء بلا مغالبة معارض استصحبت الزنة ما ذكر من المبالغة وقال الجلال المحلى والمخادعة هنا من واحد كعاقبت اللص وذكر الله فيها تحسين (وما يخدعون الا أنفسهم) لان وبال خداعهم راجع عليهم فيفتضحون فى الدنيا باطلاع نبيه على ما أبطنوه ويعاقبون فى الآخرة والنفس ذات الشئ وحقيقته وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم الياء وفتح الخاء وألف بعدها وكسر الدال وقرأ الباقون وهم عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى وما يخدعون بفتح الياء وسكون الخاء ولا ألف بعدها وفتح الدال ولا خلاف بين القراء فى الكلمة الاولى وهى يخادعون الله فالجميع قرؤا بضم الياء وفتح الخاء وألف بعدها وكسر الدال وأما الرسم فى الموضعين فبغير ألف (وما يشعرون) أى لا يحسون بمعنى لا يعلمون أن خداعهم لانفسهم لتمادى غفلتهم جعل لحوق وبال الخداع ورجوع ضرره اليهم فى الظهور كالمحسوس الذى لا يخفى الا على مؤف الحواس وهو المصاب بآفة (فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق لان ذلك يمرض قلوبهم أى يضعفها والمرض حقيقة هو فيما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال الخاص به ويوجب الخلل فى أفعاله ومجاز فى الاعراض النفسانية التى تخل بكمال أفعالها كالجهل وسوء العقيدة والحسد والبغض وحب المعاصى لانها مانعة من نيل الفضائل أو مؤدية الى زوال الحياة الحقيقية الابدية والآية تحتمل الحقيقة والمجاز وعلى المجاز اقتصر أكثر المفسرين لانه أبلغ من الحقيقة (فزادهم الله مرضا) بما أنزل من القرآن لانه كلما أنزل آية كفروا بها فازدادوا شكا ونفاقا واسناد الزيادة الى الله تعالى من حيث انه خلقها وأوجدها والى السورة فى قوله تعالى فزادتهم رجسا لكونها سببا وقرأ حمزة وابن ذكوان بامالة الالف التى بعد الزاى محضة والباقون بالفتح (ولهم عذاب أليم) أى مؤلم بفتح اللام وصف به العذاب للمبالغة اذ الالم انما هو للمعذب حقيقة لا للعذاب فنسبة الالم الى العذاب مجاز ويجوز كسر لام مؤلم كسميع بمعنى مسمع وعليه فنسبة الاليم الى العذاب حقيقة (بما كانوا يكذبون) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال أى بتكذيبهم النبى صلى الله عليه وسلم وقرأ الباقون بفتح الياء وسكون الكاف وتخفيف الذال أى بكذبهم

فى قولهم آمنا لان الايمان التصديق بالقلب والكذب هو الخبر عن الشئ على خلاف ماهو به قال البيضاوى تبعا للزمخشرى وهو حرام كله لانه علل به استحقاق العذاب حيث رتب على الكذب وما روى أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كذب ثلاث كذبات أى لما روى البخارى ومسلم فى حديث الشفاعة فيقول ابراهيم انى كذبت ثلاث كذبات وذكر قوله فى الكوكب هذا ربى وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله انى سقيم فالمراد التعريض أى وهو اللفظ المشار به الى جانب والغرض جانب آخر وقيل هو خلاف التصريح وهو تضمين الكلام دلالة ليس لها ذكر وسمى تعريضا لما فيه من التعريض عن المطلوب ولكن لما شابه الكذب فى صورته سمى به انتهى وهذا ليس على اطلاقه فان من الكذب ماهو مباح وماهو مندوب وماهو واجب وماهو حرام لان الكلام وسيلة الى المقصود فكل مقصود محمود ان أمكن التوصل اليه بالصدق فالكذب فيه حرام وان لم يمكن الا بالكذب فهو مباح ان كان المقصود مباحا ومندوب ان كان المقصود مندوبا وواجب ان كان المقصود واجبا وفى حديث الطبرانى فى الكبير كل الكذب يكتب على ابن آدم الا ثلاثا الرجل يكذب فى الحرب فان الحرب خدعة والرجل يكذب على المرأة فيرضيها والرجل يكذب بين الرجلين فيصلح بينهما وفى حديث فى الاوسط الكذب كله اثم الا ما نفع به مسلم أو دفع به عن دينه (واذا قيل لهم) أى لهؤلاء فهو عطف تفسير على يكذبون فمحله نصب لكونه معطوفا على خبر كان فيكون جزأ من السبب الذى استحقوا به العذاب الاليم أو على يقول فلا محل له من الاعراب لكونه معطوفا على صلة من فلا يكون جزأ من السبب والقائل هو الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم أو بعض المؤمنين (لا تفسدوا فى الارض) بالكفر والتعويق عن الايمان والفساد خروج الشئ عن الاعتدال والصلاح ضده والفساد يعم كل ضار والصلاح يعم كل نافع وكان من افسادهم فى الارض اثارة الحروب والفتن بمخادعة المسلمين ومعاونة الكفار المتمحض كفرهم على المسلمين فان ماذكر يؤدى الى فساد مافى الارض من الناس والدواب والحرث ومنه اظهار المعاصى والاهانة بالدين فان الاخلال بالشرائع والاعراض عنها مما يوجب القتل والاختلاط ويخل بنظام العالم لا أن ذلك افساد لان الافساد جعل الشئ فاسدا وصنيعهم لم يكن كذلك فقوله تعالى لا تفسدوا فى الارض مجاز باعتبار المآل أى لا تفعلوا مايؤدى الى الفساد وليس معنى الافساد هنا الاتيان بالفساد ليصح حمل الكلام على الحقيقة نبه على ذلك السعد التفتازانى (قالوا انما نحن مصلحون) جواب لاذا ورد للناصح على سبيل المبالغة والمعنى أنه لا يصح مخاطبتنا بذلك فان شأننا ليس الا الاصلاح وان حالنا متمحضة عن شوائب الفساد لان انما تفيد قصر مادخله على مابعده مثل انما زيد منطلق وانما ينطلق زيد وانما قالوا ذلك لانهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما فى قلوبهم من المرض كما قال تعالى أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا قال الله تعالى ردا عليهم أبلغ رد (ألا انهم هم المفسدون) أى بما ذكر (ولكن لا يشعرون) أى لا يفطنون بمعنى لا يعلمون أنهم هم المفسدون بذلك أى لانهم يظنون أن الذى هم عليه من ابطان الكفر صلاح وقيل لا يعلمون ما أعد الله لهم

من العذاب ووجه الابلغية فى ذلك تصديره بألا المنبهة على تحقيق ما بعدها فان همزة الاستفهام التى للانكار اذا دخلت على النفى أفادت تحقيقا وبأن المقررة للنسبة وتعريف الخبر وتوسط ضمير الفصل والاستدراك بلا يشعرون (واذا قيل لهم آمنوا) هذا من تمام النصح والارشاد فان كمال الايمان بمجموع أمرين الاعراض عما لا ينبغى وهو المقصود بقوله لا تفسدوا والاتيان بما ينبغى وهو المطلوب بقوله آمنوا (كما آمن الناس) أى كايمان الناس الكاملين فى الانسانية الموافق باطنهم فيه لظاهرهم العاملين بقضية العقل فاللام فى الناس للجنس فان اسم الجنس كما يستعمل لمسماه مطلقا يستعمل لما يستجمع المعانى المخصوصة به والمقصودة منه أو للعهد والمراد به الرسول ومن معه أو عبد الله بن سلام وغيره من مؤمنى أهل الكتاب وقرأ هشام والكسائى قيل باشمام القاف وهو أن تضم القاف قبل الياء ولورش فى الهمزة من آمنوا وآمن المد والتوسط والقصر (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) أى الجهال فاللام فى السفهاء للعهد وهم من تقدم أو لجنس السفهاء باسرهم وانما سفهوهم لاعتقاد فساد رأيهم أو لتحقير شأنهم فان أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موال كصهيب وبلال أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم ان فسر الناس بعبد الله بن سلام وأشياعه * قال الله تعالى ردا عليهم أبلغ رد (ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) أنهم سفهاء بما فعلوه من ابطان غير ما أظهروه ووجه الابلغية فى تجهيلهم أن الجاهل بجهله الجازم على خلاف ما هو الواقع أعظم ضلالة وأتم جهالة من المتوقف المعترف بجهله فانه ربما يعذر وتنفعه الآيات والنذر (فان قيل) كيف يصح النفاق مع المجاهرة بقولهم أنؤمن كما آمن السفهاء (أجيب) بأن هذا القول كانوا يقولونه فيما بينهم لا عند المؤمنين فأخبر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بذلك والسفه خفة وسخافة رأى يقتضيهما نقصان العقل والعلم يقابله (فان قيل) لم عبر فى هذه الآية بلا يعلمون وفى التى قبلها بلا يشعرون (أجيب) بأن التعبير بلا يعلمون أكثر مطابقة لذكر السفه لان السفه جهل فطابقه العلم ولان أمر الايمان أخروى يحتاج الى دقة نظر فعبر فى الآية التى اشتملت عليه بلا يعلمون وأمر البغى والفساد دنيوى فهو كالمحسوس لا يحتاج الى دقة نظر فعبر فى الآية التى اشتملت عليه بلا يشعرون ويشعر مضارع شعر يقال شعرت كذا أى حسست به أو أدركته أى فطنت له وقد استعمل بالمعنى الاول فى قوله وما يشعرون وفى الثانى بقوله لا يشعرون كما يعلم مما به قررته فى الآيتين وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى السفهاء ألا بتحقيق الهمزتين وكذا كل همزتين وقعتا فى كلمتين اتفقتا أو اختلفتا والباقون وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الثانية واوا خالصة (واذا لقوا الذين آمنوا) اللقاء المصادفة وهى الاجتماع من غير مواعدة يقال لقيته ولاقيته اذا صادفته واستقبلته وأصل لقوا لقيوا حذفت الضمة للاستثقال ثم الياء لالتقائها ساكنة مع الواو (قالوا آمنا) أى كايمانكم (واذا خلوا) منهم ورجعوا (الى شياطينهم) أى الذين ماثلوا الشياطين فى تمردهم وهم المظهرون كفرهم واضافتهم اليهم للمشاركة فى الكفر أو كبار المنافقين والقائلون صغارهم (قالوا انا معكم) أى فى الدين والاعتقاد خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية ومماثلى الشياطين

بالجملة الاسمية المؤكدة بان لانهم قصدوا بالاولى دعوى احداث الايمان وقصدوا بالثانية تحقيق ثباتهم على ما كانوا عليه ولانه لم يكن لهم باعث من عقيدة وصدق ورغبة فيما خاطبوا به المؤمنين ولا توقع رواج ادعاء الكمال فى الايمان على المؤمنين من المهاجرين والانصار بخلاف ما قالوه مع الكفار (انما نحن مستهزؤن) بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أى نسخر بهم باظهارنا الاسلام لان المستهزئ بالشئ المستخف به مصر على خلافه فهذا تأكيد لما قبله أو بدل منه لان من حقر الاسلام فقد عظم الكفر أو استئناف فكأن الشياطين قالوا لهم لما قالوا انا معكم ان صح ذلك فما بالكم توافقون المؤمنين وتدعون الايمان فأجابوا بذلك *(تنبيه)* بين سبحانه وتعالى بهذه الآية معاملة المنافقين مع المؤمنين والكفار وروى الواحدى وغيره ولكن بسند ضعيف ان ابن أبى وأصحابه استقبلهم نفر من الصحابة فقال لقومه انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم فأخذ بيد أبى بكر رضى الله تعالى عنه وقال مرحبا بالصديق سيد بنى تيم وشيخ الاسلام وثانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد عمر رضى الله تعالى عنه فقال مرحبا بسيد بنى عدى الفاروق القوى فى دينه الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد على رضى الله تعالى عنه فقال مرحبا بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه أى زوج بنته عند العامة وعند العرب كل من كان من قبل المرأة وكل منهما صحيح هنا سيد بنى هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ومصدر به قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا فسوق لبيان مذهبهم وتمهيد نفاقهم فليس بتكرير (الله يستهزئ بهم) أى يجازيهم على استهزائهم سمى جزاء الاستهزاء باسمه كما سمى جزاء السيئة سيئة اما لمقابلة اللفظ باللفظ أو لكونه مماثلا له فى القدر ومثل هذا يسمى مشاكلة أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذى هو لازم الاستهزاء والغرض منه أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزئ بهم أو يعاملهم معاملة المستهزئ أما فى الدنيا فباجراء أحكام الاسلام عليهم واستدراجهم بالامهال والزيادة فى النعمة مع التمادى فى الطغيان وأما فى الآخرة فبأن يفتح لهم وهم فى النار بابا الى الجنة فيسرعون نحوه فاذا صاروا اليه سد عليهم الباب وذلك قوله تعالى فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون وانما استؤنف به ولم يعطف ليدل على أنه تعالى تولى مجازاتهم ولم يحوج المؤمنين أن يعارضوهم وأن استهزاءهم لا يبالى به لحقارتهم (ويمدهم فى طغيانهم) أى فى ضلالتهم (يعمهون) يترددون متحيرين والطغيان بالضم والكسر تجاوز الحد فى العصيان والغلو فى الكفر وأصله تجاوز الشئ عن مكانه قال تعالى انا لما طغى الماء حملناكم قال البيضاوى والعمه فى البصيرة كالعمى فى البصر وهو التحير فى الامر يقال رجل عامه وعمه وأرض عمهاء لا منار لها اهـ وظاهر كلامه اختصاص العمه بالبصيرة والعمى بالبصر وهو ما ذكره ابن عطية فبينهما تباين وقال الامام وغيره العمه فى البصيرة والعمى عام فيها وفى البصر فبينهما عموم مطلق وأمال الدورى عن الكسائى ألف طغيانهم امالة محضة وفتحها الباقون (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أى اختاروها عليه واستبدلوها به وأصل الشراء بذل الثمن لتحصيل ما يطلب

من الاعيان فان كان أحد العوضين ناضا تعين من حيث انه لا يطلب لعينه أن يكون ثمنا وبذله اشتراء والا فالثمن ما دخلت عليه الباء فباذله مشتر وآخذه بائع ثم اتسع فيه فاستعمل للرغبة عن الشيء طمعا في غيره والمعنى انهم أخلوا بالهدى الذي جعله الله لهم بالفطرة التي فطر الناس عليها محصلين الضلالة التي ذهبوا اليها واختاروا الضلالة واستحبوها على الهدى وأمال ألف الهدى حمزة والكسائي محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (فما ربحت تجارتهم) أي ما ربحوا فيها والتجارة التصرف بالبيع والشراء والربح الفضل على رأس المال واسناده الى التجارة وهو لاربابها على سبيل الاتساع لتلبسها بالفاعل أو لمشابهتها اياه من حيث انها سبب للربح والخسران واتفق القراء على ادغام التاء في التاء وكذا كل مثلين الاول منهما ساكن (وما كانوا مهتدين) لطرق التجارة فان المقصود منها سلامة رأس المال والربح وهؤلاء قد أضاعوا الامرين لان رأس مالهم كان الفطرة السليمة والعقل الصرف فلما اعتقدوا هذه الضلالات بطل استعدادهم واختل عقلهم ولم يبق لهم رأس مال يتوصلون به الى ادراك الحق ونيل الكمال فبقوا خاسرين آيسين عن الربح فاقدين للاصل (مثلهم) أي شبههم وصفتهم في نفاقهم (كمثل الذي) بمعنى الذين بدليل سياق الآية ونظيره والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون وقوله تعالى وخضتم كالذي خاضوا أو قصد به جنس المستوقد أو الفوج الذي (استوقد) أي أوقد (نارا) في ظلمة لما جاء بحقيقة حالهم عقبها بضرب المثل وهو بيان تصوير تلك الحقيقة وابرازها في معرض المشاهد المحسوس زيادة في التوضيح والتقرير فانه أوقع في القلب وأقمع للخصم قال البيضاوي والاستيقاد طلب الوقود والسعي في تحصيله وهو سطوع النار وارتفاع لهبها اهـ والاكثر على أن استوقد هنا بمعنى أوقد كما قدرته لا بمعنى طلب الوقود (فلما أضاءت) أي أنارت النار وأضاء لازم ومتعد يقال أضاء الشيء بنفسه وأضاءه غيره (ما حوله) أي المستوقد فأبصر واستدفأ وأمن مما يخافه (ذهب الله بنورهم) أي أطفأه وهذا جواب لما واسناد الاذهاب الى الله تعالى اما لان الكل بفعله أو لان الاطفاء حصل بسبب خفي أو أمر سماوي كريح أو مطر أو للمبالغة ولذلك عدى الفعل بالباء دون الهمزة لما فيها من معنى الاستصحاب والاستمساك يقال ذهب السلطان بماله اذا أخذه وأمسكه وما أخذه الله تعالى وأمسكه فلا مرسل له ولذلك عدل عن الضوء الذي هو مقتضى اللفظ الى النور فانه لو قيل ذهب الله بضوئهم احتمل ذهابه بما في الضوء من الزيادة وبقاء ما يسمى نورا والغرض ازالة النور عنهم رأسا ألا ترى كيف قرر ذلك وأكده بقوله تعالى (وتركهم في ظلمات لا يبصرون) ما حولهم متحيرين عن الطريق خائفين فذكر الظلمة التي هي عدم النور وانطماسه بالكلية وكيف جمع الظلمة وكيف نكرها وكيف أتبعها بما يدل على أنها ظلمة خالصة وهو قوله لا يبصرون وظلماتهم ظلمة الكفر وظلمة النفاق وظلمة يوم القيامة يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم أو ظلمة الضلال وظلمة سخط الله وظلمة العقاب السرمدي أو ظلمة شديدة كأنها ظلمات متراكمة والآية وهي قوله مثلهم الخ مثل ضربه الله لايمان المنافقين من

حيث انه يعود عليهم بحقن الدماء وسلامة الاموال والاولاد ومشاركة المسلمين فى المغانم والاحكام بالنار الموقدة للاستضاءة ولذهاب أثره وانطماس نوره باهلاكهم وافشاء حالهم باطفاء الله تعالى اياها واذهاب نورها هذا هو الوارد أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وقيل مثل ضربه الله لمن آتاه ضربا من الهدى واضاعه ولم يتوصل به الى نعيم الابد فبقى متحيرا متحسرا تقريرا وتوبيخا لما تضمنه قوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى الخ ويدخل تحت عموم ما تضمنته الآية هؤلاء المنافقون فانهم أضاعوا ما نطقت به ألسنتهم من الحق باستبطان الكفر واظهاره حين خلوا الى شياطينهم ومن آثر الضلالة على الهدى المجعول له بالفطرة أو ارتد عن دينه بعد ما آمن وقرأ ورش بترقيق راء يبصرون هم (صم) عن الحق فلا يسمعونه سماع قبول وأصل الصمم صلابة من اجتماع الاجزاء ومنه قيل حجر أصم وقناة صماء وصمام القارورة سمى به فقدان حاسة السمع لان سببه أن يكون باطن الصماخ مجتمعا لا تجويف فيه يشتمل على هواء يسمع الصوت بتموجه (بكم) خرس عن الخير فلا يقولونه والخرس فى الاصل عدم القدرة على النطق (عمى) عن طريق الهدى فلا يرونه والعمى فى الاصل عدم البصر عما من شأن أن يبصر وقد يقال لعدم البصيرة (فهم لا يرجعون) أى لا يعودون الى الهدى الذى باعوه وضيعوه أو عن الضلالة التى اشتروها (أو) مثلهم (كصيب) فهو معطوف على الذى استوقد أى كمثل أصحاب صيب لقوله يجعلون أصابعهم فى آذانهم وأو فى الاصل للتساوى للشك ثم اتسع فيها فأطلق للتساوى من غير شك مثل جالس الحسن أو ابن سيرين وقوله تعالى ولا تطع منهم آثما أو كفورا فانه يفيد التساوى فى حسن المجالسة فى المثال الاول ووجوب العصيان فى الثانى ومن ذلك قوله أو كصيب من السماء ومعناه بقرينة السياق أن قصة المنافقين مشبهة بهاتين القصتين وأنهما سواء فى صحة التشبيه بهما وأنت مخير فى التمثيل بهما أو بأيتهما شئت وان كان الثانى أبلغ كما قاله الزمخشرى قال لانه أدل على فرط الحيرة وشدة الامر وفظاعته والصيب أصله صيوب من صاب يصوب وهو النزول يقال للمطر وللسحاب والآية تحتملهما أى ينزل (من السماء) ذلك فان قدرت الصيب بالمطر فالمراد بالسماء السحاب وان قدرته بالسحاب فالمراد السماء بعينها والسماء كل ما علاك وأظلك وهى من أسماء الاجناس فيكون واحدا وجمعا (فيه) أى الصيب وقيل السماء (ظلمات) جمع ظلمة فان أريد بالصيب المطر فظلماته ظلمة تكاثفه بتتابع القطر وظلمة غمامه مع ظلمة الليل وان أريد به السحاب فظلماته سواده وتكاثفه مع ظلمة الليل (ورعد) وهو صوت يسمع من السحاب قال البيضاوى والمشهور أن سببه اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها اذا ساقها الريح من الارتعاد (وبرق) وهو ما يلمع من السحاب من برق الشئ بريقا هذا ما جرى عليه الجوهرى وغيره وهو المناسب هنا وان أطلق الرعد على الملك أيضا فهو مشترك بين الصوت المذكور والملك الثابت فى الاحاديث ففى بعضها أنه ملك موكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه الى حيث شاء الله وصوته ما يسمع وفى بعضها أنه ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعى بغنمه وفى بعضها أنه ملك يسوق السحاب بالتسبيح كما يسوق الحادى الابل بحدائه

وفى

وفى بعضها أنه ملك مسمى به وهو الذى تسمعون صوته (يجعلون) أى أصحاب الصيب (أصابعهم) أى أناملها وانما أطلق الاصابع موضع الانامل للمبالغة لما فى ذلك من الاشعار بدخول أصابعهم فوق المعتاد فرارا من شدة الصوت (فى آذانهم) وقوله (من الصواعق) متعلق بيجعلون أى من أجلها يجعلون وهو جمع صاعقة وهى الصيحة التى يموت من يسمعها أو يغشى عليه ويقال لكل عذاب مهلك صاعقة وقيل الصاعقة قطعة عذاب ينزلها الله تعالى على من يشاء روى عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله تعالى عنهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا سمع الرعد والصواعق قال اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك وأمال الدورى عن الكسائى الالف التى بعد الذال فى آذانهم امالة محضة والباقون بالفتح * وقوله تعالى (حذر الموت) نصب على العلة كقول الشاعر

واغفر (أى استر) عوراء الكريم ادخاره * وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

قال البيضاوى والموت زوال الحياة زاد فى الطوالع عما من شأنه الحياة وفيه تساهل اذ يلزم منه أن يكون الجنين قبل حلول الحياة فيه ميتا والاظهر كما فى شرح المواقف أن يقال عدم الحياة عما اتصف بها بالفعل فبينهما تقابل العدم والملكة على التفسيرين وقيل عرض يضادها فبينهما تقابل التضاد لقوله تعالى خلق الموت والحياة فجعل الموت مخلوقا والعدم لا يخلق ورد بأن الخلق بمعنى التقدير لا بمعنى الايجاد والاعدام مقدرة ولو سلم بأنه بمعنى الايجاد فالمعنى خلق أسباب الموت والحياة وبذلك علم أن القول الاول هو المعتمد وكلام أئمة اللغة طافح به وحاصله ان الموت مفارقة الروح الجسد وما ورد فى الاحاديث من أنه جسم حيث قيل فى بعضها انه كبش وفى بعضها انه على صورة كبش لا يمر على أحد الا مات فمؤول بانه لم يقصد بالموت فيها حقيقته بل قصد انه يصور بصورة كبش كما فى خبر الشيخين وغيرهما انه يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار الخ (والله محيط بالكافرين) علما وقدرة فلا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط لا يخلصهم الخداع والحيل وقيل مهلكهم دليله قوله تعالى الا أن يحاط بكم أى تهلكوا والجملة اعتراضية لا محل لها قال أبو حيان لانها دخلت بين هاتين الجملتين وهما يجعلون أصابعهم ويكاد البرق وهما من قصة واحدة ويميل ورش الالف بعد الكاف بين بين وكذا الكافرين حيث جاء وقرأ أبو عمرو والدورى عن الكسائى بالامالة المحضة فيهما حيث جاء والباقون بالفتح (يكاد البرق) يقرب لان كاد من أفعال المقاربة وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لحصول سببه لكنه لم يوجد اما لفقد شرط أو لعروض مانع وخبرها مشروط فيه أن يكون فعلا مضارعا تنبيها على أنه المقصود بالقرب (يخطف أبصارهم) يختلسها والخطف الاخذ بسرعة (كلما أضاء لهم مشوا فيه) أى ضوئه (واذا أظلم عليهم قاموا) أى وقفوا متحيرين فالله تعالى شبههم فى كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا فى مفازة فى ليلة مظلمة أصابهم مطر فيه ظلمات من صفاتها أن السارى لا يمكنه المشى فيها ورعد من صفته أن يضم السامعون أصابعهم فى آذانهم من هوله وبرق من صفته أن يقرب من أن يخطف أبصارهم ويعميها من شدة توقده فهذا مثل

ضرب به الله تعالى للقرآن وصنيع الكافرين والمنافقين معه فالمطر القرآن لانه حياة القلوب كما أن المطر حياة الابدان والظلمات ما في القرآن من ذكر الكفر والشرك والرعد ما خوفوا به من الوعيد وذكر النار والبرق ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة والكافرون والمنافقون يسدون آذانهم عند قراءة القرآن مخافة ميل القلب اليه ولازعاج ما في القرآن من الحجج قلوبهم وانما قال الله تعالى مع الاضاءة كلما ومع الاظلام اذا لانهم حراص على المشي كلما صادفوا امنه فرصة مما يحبون انتهزوها ولا كذلك التوقف فيما يكرهون ومعنى قاموا وقفوا كما مر ومنه قامت السوق اذا ركدت أي سكنت ويقال قامت السوق بمعنى نفقت فهو من الاضداد (ولو شاء الله لذهب بسمعهم) بمعنى أسماعهم (وأبصارهم) الظاهرة كما ذهب بالباطنة أي ولو شاء أن يذهب بسمعهم بشدة صوت الرعد وأبصارهم بلمعان البرق لذهب بهما فحذف المفعول وهو أن يذهب لدلالة الجواب وهو لذهب عليه ولقد تكاثر حذف المفعول في شاء وأراد اذا وقعا في حيز الشرط كما هنا لدلالة الجواب على ذلك المحذوف حتى لا يكاد يذكر الا في الشيء المستغرب كقول القائل

فلو شئت ان أبكي دما لبكيته * عليك ولكن ساحة الصبر أوسع

وأتى فيه بالمفعول لان بكاء الدم مستغرب ونصب دما لتضمنه معنى الصب ولو من حروف الشرط قال البيضاوي وظاهرها الدلالة على انتفاء الاول لانتفاء الثاني ضرورة انتفاء الملزوم عند انتفاء لازمه اه وهذا مذهب ابن الحاجب وأما مذهب الجمهور وهو الاصح فانها في الاصل لانتفاء الثاني لانتفاء الاول فمعنى لو جئتني أكرمتك أن انتفاء الاكرام لانتفاء المجيء وقيل انها لمجرد الربط كان ومن ثم قال التفتازاني ان لو هنا لمجرد الشرط بمنزلة ان لا بمعناها الاصلي وفائدة هذه الجملة الشرطية ابداء المانع لذهاب سمعهم وأبصارهم مع قيام ما يقتضيه وهو أنه تعالى أمهل المنافقين فيما هم فيه ليتمادوا في الغي والفساد ليكون عذابهم أشد وللتنبيه على أن تأثير الاسباب في مسبباتها مشروط بمشيئة الله تعالى وأن وجودها مرتبط بأسبابها واقع بقدرته تعالى وقوله تعالى (ان الله على كل شيء) أي يشاؤه (قدير) كالتصريح بما ذكروا التقرير له والشيء يختص بالموجود فلا يطلق على المعدوم (فان قيل) لو اختص الشيء بالموجود لما تعلقت به القدرة لانها الصفة المؤثرة على وفق الارادة وتأثيرها الايجاد وايجاد الموجود محال فالذي تعلقت به القدرة معدوم وهو شيء فالمعدوم شيء (أجيب) بأن المحال ايجاد الموجود بوجود سابق وهو غير لازم واللازم ايجاد موجود هو أثر ذلك الايجاد وليس بمحال والقدرة هو التمكن من ايجاد الشيء وقيل صفة تقتضي التمكن وقيل قدرة الانسان هيئة بها يتمكن من الفعل وقدرة الله تعالى عبارة عن نفي العجز عنه والقادر هو الذي ان شاء فعل وان شاء لم يفعل والقدير الفعال لما يشاء ولذلك قلما يوصف به غير الباري تعالى واشتقاق القدير من القدرة لان القادر يوقع الفعل على مقدار قوته أو على مقدار ما تقتضيه مشيئته وفي ذلك دليل على ان الحادث حال حدوثه والممكن حال بقائه مقدوران وأن مقدور العبد مقدور الله تعالى خلافا لابي علي وأبي

هاشم لانه شيء وكل شيء مقدور واحتج بعض الفرق بأن هذه الآية تدل على أن الله تعالى ليس بشيء قال لانها تدل على ان كل شيء مقدور لله تعالى والله سبحانه وتعالى ليس بمقدور له فوجب أن لا يكون شيأ واحتج أيضا على ذلك بقوله تعالى ليس كمثله شيء قال لو كان هو تعالى شيأ فهو تعالى مثل مثل نفسه فكان يكذب قوله تعالى ليس كمثله شيء فوجب أن لا يكون شيأ حتى لا يناقض هذه الآية واعلم أن هذا الخلاف في الاسم لانه لا واسطة بين الموجود والمعدوم واحتج أصحابنا بوجهين الاول قوله تعالى قل أي شيء أكبر شهادة قل الله والثاني قوله تعالى كل شيء هالك الا وجهه والمستثنى داخل في المستثنى منه فوجب أن يكون شيأ (واجيب) عن قوله ان هذه الآية تدل على أن الله تعالى قادر على نفسه بأن تخصيص العام جائز في الجملة وأيضا تخصيص العام جائز بدليل العقل (فان قيل) اذا كان اللفظ موضوعا للكل ثم انه تبين انه غير صادق في الكل كان هذا كذبا وذلك يوجب الطعن في القرآن (أجيب) بأن لفظ الكل كما أنه يستعمل في المجموع فقد يستعمل مجازا في الاكثر فاذا كان ذلك مجازا مشهورا في اللغة لم يكن استعمال اللفظ فيه كذبا ورقق ورش الراء من قدير وصلا ووقفا وباقي القراء بالترقيق وقفا لا وصلا * ولما عد سبحانه وتعالى فرق المكلفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم أقبل تعالى عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات بقوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) تحريكا للسامع وتنشيطا له واهتماما بأمر العبادة وتفخيما لشأنها وجبرا لمشقة العبادة بلذة المخاطبة ويا حرف وضع لنداء البعيد وقد ينادى به القريب تنزيلا له منزلة البعيد اما لعظمته كقول الداعي يارب ويا الله وهو أقرب اليه من حبل الوريد أو لغفلته وقلة فهمه أو للاعتناء بالمدعو له وزيادة الحث عليه ولفظ الناس يعم الموجودين وقت النزول لفظا ومن سيوجد تنزيلا للمعدوم منزلة الموجود لما تواتر من دينه عليه الصلاة والسلام أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل للقبيلين ثابت الى قيام الساعة الا ما خصه الدليل وان قال الامام الرازي الاقرب أنه لا يتناوله لان يا أيها الناس صرف خطاب مشافهة وخطاب المشافهة مع المعدوم لا يجوز وتناوله له لدليل منفصل وهو ما تواتر من دينه عليه الصلاة والسلام أن أحكامه ثابتة في حق من سيوجد الى قيام الساعة (فان قيل) روى عن علقمة والحسن وابن عباس رضي الله تعالى عنهم أن كل شيء نزل فيه يا أيها الناس فمكي ويا أيها الذين آمنوا فمدني فكيف تكون هذه السورة مكية وقد نزلت بالمدينة (أجيب) بأن المراد بقولهم السورة مكية أو مدنية ان غالبها ذلك والاولى أن يقال ان ذلك أكثري لا كلي وأن سورة البقرة والنساء والحجرات مدنيات باتفاق وقد قال تعالى في كل منها يا أيها الناس وسورة الحج مكية سوى ما استثنى وفيها من غيره يا أيها الذين آمنوا اركعوا ولا يختص ذلك الخطاب بالكفار ولا بأمرهم بالعبادة فان المأمور به هو المشترك بين بدء العبادة والزيادة فيها والمواظبة عليها فالمطلوب من الكفار هو الشروع فيها بعد الايمان بما يجب تقديمه من المعرفة والاقرار بالصانع فان من لوازم وجوب الشيء وجوب ما لا يتم الا به وكما ان الحدث لا يمنع وجوب الصلاة فالكفر لا يمنع وجوب العبادة بل يجب رفع الكفر والاشتغال بالعبادة ومن المؤمنين ازديادهم

وثباتهم عليها وانما قال الله تعالى ربكم تنبيها على أن الموجب للعبادة هي الربوبية وقوله تعالى (الذى خلقكم) أى أنشأكم ولم تكونوا شيأ صفة جرت عليه للتعظيم والتعليل ويحتمل التقييد ان خص الخطاب بالمشركين وأريد بالرب أعم من الرب الحقيقى والآلهة التى يسمونها أربابا والخلق ايجاد الشئ على تقدير واستواء وأصله التقدير يقال خلق النعل اذا قدرها وسواها بالقياس وقرأ أبو عمرو خلقكم بادغام القاف فى الكاف بخلاف عنه (و) خلق (الذين من قبلكم) وهذا متناول لكل ما يتقدم الانسان بالذات أو الزمان كتقدم الجزء على الكل والواحد على الاثنين وهو منصوب عطف على الضمير المنصوب فى خلقكم كما علم من التقدير والجملة أخرجت مخرج المقرر عندهم اما لاعترافهم به كما قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله أو لتمكنهم من العلم به بادنى نظر وقوله تعالى (لعلكم تتقون) اما حال من الضمير فى اعبدوا كأنه قال اعبدوا ربكم راجين أن تدخلوا فى سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح المستوجبين لجوار الله تعالى نبه به على أن التقوى منتهى درجات السالكين وهو التبرى من كل شئ سوى الله الى الله وان العابد ينبغى أن لا يغتر بعبادته ويكون ذا خوف ورجاء كما قال تعالى يدعون ربهم خوفا وطمعا يرجون رحمته ويخافون عذابه واما من مفعول خلقكم والمعطوف عليه على معنى أنه خلقكم ومن قبلكم فى صورة من ترجى منه التقوى لترجح أمره باجتماع أسبابه وكثرة الدواعى اليه وغلب تعالى المخاطبين بقوله لعلكم على الغائبين فى اللفظ والمعنى على ارادتهم جميعا ولعل فى الاصل للترجى وفى كلامه تعالى للتحقيق والآية تدل على أن الطريق الى معرفة الله تعالى والعلم بوحدانيته والعلم باستحقاقه للعبادة النظر فى صنعه والاستدلال بافعاله وأن العبد لا يستحق بعبادته عليه تعالى ثوابا فانها لما وجبت عليه شكرا لما عدده عليه من النعم السابقة فهو كاجير أخذ الاجر قبل العمل وقوله تعالى (الذى جعل) أى خلق (لكم الارض فراشا) أى بساطا تفترش صفة ثانية أو منصوب بتقدير أمدح أو مرفوع خبر مبتدا محذوف ومعنى جعلها فراشا أن جعل بعض جوانبها بارزا عن الماء مع ما فى طبع الماء من الاحاطة بها وصيرها متوسطة بين الصلابة واللطافة حتى صارت مهيأة لان يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط وذلك لا يستدعى كونها مسطحة لان كرية شكلها مع عظم حجمها واتساع جرمها لا تأبى الفراش عليها فليس فى ذلك الا أن الناس يفترشونها كما يفعلون بالمفاريش وسواء كانت على شكل السطح أو على شكل الكرة (و) جعل لكم (السماء بناء) أى قبة مضروبة عليكم والسماء اسم جنس يقع على الواحد وعلى المتعدد كالدينار والدرهم وقيل جمع سماءة والبناء مصدر سمى به المبنى بيتا كان أو قبة أو خباء ومنه بنى على امرأته لانهم كانوا اذا تزوجوا ضربوا عليها خباء جديدا وقوله تعالى (وأنزل من السماء ماء) معطوف على جعل والمراد بها اما السحاب فان ما علاك سماء واما الفلك فان المطر يبتدئ اما من السماء الى السحاب ومنه الى الارض كما دلت عليه الظواهر من الآيات كقوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء وقوله تعالى أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الارض وعن خالد بن معدان قال المطر ماء يخرج من

تحت العرش فينزل من سماء الى سماء حتى يجتمع فى سماء الدنيا فيجتمع فى موضع فتجىء الريح السحاب السود فتدخله فتشرب به فيسوقها الله حيث شاء واما من أسباب سماويه تثير الاجزاء الرطبة من أعماق الارض الى جو الهواء فتنعقد سحابا ماطرا (فاخرج به من) أنواع (الثمرات رزقا لكم) تأكلونه وتعلفون منه دوابكم وخروجها بقدرة الله تعالى ومشيئته ولكن جعل الماء الممزوج بالتراب سببا فى اخراجها ومادة لها كالنطفة للحيوان بأن أجرى عادته بافاضة صورها وكيفياتها على المادة الممتزجة منهما أو أبدع فى الماء قوة فاعلة وفى الارض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار وهو تعالى قادر على أن يوجد الاشياء كلها بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الاسباب والمواد ولكن له فى انشائها مترقيا من حال الى حال صنائع وحكم يجدد فيها لاولى الابصار عبرا وسكونا الى عظيم قدرته ليس ذلك فى ايجادها دفعة * (تنبيه) * من الاولى للابتداء ومن الثانية للتبعيض بدليل قوله تعالى فأخرجنا به ثمرات لان ثمرات جمع قلة منكر وا كتناف المنكرين لها أعنى ماء ورزقا كأنه تعالى قال وأنزلنا من السماء بعض الماء فأخرجنا به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم وهذا التبعيض هو الموافق للواقع اذلم ينزل من السماء الماء كله ولا أخرج بالمطر كل الثمرات ولا جعل بالمطر كل المرزوق ويصح أن تكون من الثانية للتبيين ورزقا مفعول وهو المبين بمعنى المرزوق كقول القائل أنفقت من الدراهم ألفا فان من الدراهم بيان لقوله عقيبه ألفا (فان قيل) المحل محل جمع الكثرة فكيف أتى بجمع القلة (أجيب) بأن الجموع يتناوب بعضها موقع بعض كقوله تعالى كم تركوا من جنات وأوقع جمع القلة موقع جمع الكثرة بدليل ذكر كم وكقوله تعالى ثلاثة قروء فأوقع جمع الكثرة موضع جمع القلة لان مميز الثلاثة لا يكون الا جمع قلة أو لان الثمرات لما كانت محلاة باللام خرجت عن حد القلة (فلا تجعلوا لله أندادا) أى شركاء فى العبادة (فان قيل) لم سمى ما يعبده المشركون من دون الله أندادا مع انهم مازعموا أنها تساويه فى ذاته وصفاته ولا أنها تخالفه فى افعاله (أجيب) بأنهم لما تركوا عبادته الى عبادتها وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد انها ذوات واجبة بالذات قادرة على أنها تدفع عنهم بأس الله وتمنحهم مالم يرد الله بهم من خير فتهكم الله تعالى بهم وشنع عليهم بأن جعلوا أندادا لمن يمتنع أن يكون له ند ولذلك قال موحد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل حين فارق دين قومه

أربا واحدا أم ألف رب * أدين اذا تقسمت الامور

أدين أى أطيع من دان أى انقاد اذا تقسمت أى تفرقت

تركت اللات والعزى جميعا * كذلك يفعل الرجل البصير
ألم تعلم بأن الله أفنى * رجالا كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببر قوم * فيربو منهم الطفل الصغير

وقوله تعالى (وانتم تعلمون) حال من ضمير فلا تجعلوا ومفعول تعلمون متروك أى وحالكم انكم من أهل العلم والنظر واصابة الرأى فلو تأملتم أدنى تأمل اضطر عقلكم الى اثبات موجد للممكنات منفرد بوجود الذات متعال عن مشابهة المخلوقات أو مقدر وهو ان الانداد لا تماثله ولا تقدر على مثل ما يفعله كقوله تعالى هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء وعلى

كون وأنتم تعلمون حالا فالمقصود منه التوبيخ سواء أجعل مفعول تعلمون متروكا أو مقدرا وان كان التوبيخ فى الاول آكد كما صرح به الكشاف لاتقييد الحكم وقصره وهو النهى عن جعلهم لله أندادا بحال علمهم فان العالم والجاهل المتمكن من العلم سواء فى التكليف *(تنبيه)* قال البيضاوى واعلم أن مضمون الآيتين أى يا أيها الناس اعبدوا ربكم والذى جعل لكم الى آخرهما هو الامر بعبادة الله والنهى عن الاشراك به تعالى والاشارة الى ماهو العلة والمقتضى وبيانه انه تعالى رتب الامر بالعبادة على صفة الربوبية اشعارا بأنها العلة لوجوبها ثم بين ربوبيته بأنه تعالى خالقهم وخالق أصولهم وما يحتاجون اليه فى معايشهم من المقلة والمظلة أى الارض والسماء والمطاعم والملابس فان الثمرة أعم من المطعوم أى فتعم الثمرات الملابس كالمطاعم والرزق أعم من المأكول والمشروب ثم لما كانت هذه أمورا لا يقدر عليها غيره شاهدة على وحدانيته رتب عليها النهى عن الاشراك به ولعله سبحانه وتعالى أراد من الآية الاخيرة مع مادل عليه الظاهر وسيق فيه الكلام الاشارة الى تفصيل خلق الانسان وما أفاض عليه من المعانى والصفات على طريقة التمثيل فمثل البدن بالارض والنفس بالسماء والعقل بالماء وما أفاض عليه من الفضائل العملية والنظرية المحصلة بوساطة استعمال العقل للحواس وازدواج أى اقتران القوى النفسانية والبدنية بالثمرات المتولدة من ازدواج أى اقتران القوى السماوية الفاعلة والارضية المنفعلة بقدرة الفاعل المختار فان لكل آية ظهرا وبطنا ولكل حد مطلعا اه هذا روى عن الحسن مرفوعا مرسلا وظهر الآية ماظهر من معانيها لاهل العلم الظاهر وبطنها ماتضمنته من الاسرار التى أطلع الله عليها الخواص وقيل ظاهرها تلاوتها وباطنها فهمها والحد أحكام الحلال والحرام والمطلع الاشراف على معرفتها * ولما قرر سبحانه وتعالى وحدانيته وبين الطريق الموصل الى العلم بها ذكر عقبه ماهو الحجة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن المعجز بفصاحته التى غلبت فصاحة كل بليغ مع كثرتهم وافراطهم فى المضادة وتهالكهم على المغالبة بقوله تعالى (وان كنتم فى ريب) أى شك (مما نزلنا على عبدنا) محمد من القرآن انه من عند الله (فأتوا بسورة) وانما قال تعالى مما نزلنا لان نزوله نجما فنجما بحسب الوقائع على ما يرى عليه أهل الشعر والخطابة مما يريبهم كما حكى الله تعالى عنهم بقوله تعالى وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة فكان الواجب تحديهم على هذا الوجه ازالة للشبهة والزاما للحجة فان أهل الشعر والخطابة يأتون بأشعارهم وخطبهم على قدر الحاجة شيأ فشيأ ولما كان القرآن منزلا كذلك طعنوا فيه بأنه مثل كلامهم فقيل لهم ان ارتبتم فى نزوله منجما فأتوا بنجم منه لانهم اذا عجزوا عن نجم منه فعجزهم عن كله أولى وأضاف العبد الى نفسه تنويها بذكره وتنبيها على أنه مختص به منقاد لحكمه والسورة من القرآن الطائفة منه المترجمة التى لها أول وآخر وأقلها ثلاث آيات والحكمة فى تقطيع القرآن سورا افراد الانواع وتلاحق الاشكال وتجاوب النظم وتنشيط القارئ وتسهيل الحفظ والترغيب فيه فان القارئ اذا ختم سورة فرج ذلك عنه بعض كربه

كالمسافر اذا علم انه قطع ميلا أو طوى بريدا والحافظ اذا حفظ سورة اعتقد أنه أخذ من القرآن حظا تاما وفاز بطائفة محدودة مستقلة بنفسها فعظم ذلك عنده وابتهج به الى غيرها من الفوائد وقوله تعالى (من مثله) صفة سورة أى بسورة كائنة من مثله والضمير لما نزلنا ومن للتبعيض أو للتبيين وزائدة عند الاخفش أى بسورة مماثلة للقرآن فى البلاغة وحسن النظم وقيل الضمير لعبدنا ومن للابتداء أى بسورة كائنة ممن هو على حاله من كونه بشرا أميا لم يقرا الكتب ولم يتعلم العلوم والوجه الاول أولى لانه المطابق لقوله تعالى فى سورة يونس فأتوا بسورة مثله ولسائر آيات التحدى ولان الكلام فى المنزل لا فى المنزل عليه فحقه أن لا ينفك عنه ليتسق الترتيب والنظم اذ المعنى وان ارتبتم فى أن القرآن منزل من عند الله فأتوا بقرآن من مثله ولان مخاطبة الجم الغفير بأن يأتوا بمثل ما أتى به واحد من أبناء جنسهم أبلغ فى التحدى من أن يقال لهم ليأت بنحو ما أتى به عبدنا آخر مثله ولانه معجز فى نفسه لا بالنسبة اليه لقوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولان عود الضمير الى عبدنا يوهم امكان صدوره ممن لم يكن على صفته ولا يلائمه قوله تعالى (وادعوا شهداءكم من دون الله) فانه تعالى أمر أن يستعينوا بكل من ينصرهم ويعينهم سواء كان مثله أم لا والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة ومنه قيل للمقتول فى سبيل الله شهيد لانه حضر ما كان يرجوه أو الملائكة حضروه ومعنى دون أدنى مكان من الشئ ومنه تدوين الكتب لانه أدنى البعض من البعض ودونك هذا أى خذه من أدنى مكان منك ثم استعير للرتب فقيل عمرو دون زيد أى فى الشرف ومنه الشئ الدون ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل تجاوز حد الى آخر وتخطى أمر الى آخر وان خلى عن الرتبة قال تعالى لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أى لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين الى ولاية الكافرين ومن متعلقة بادعوا فهى لابتداء الغاية والمعنى وادعوا للمعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من انسكم وجنكم وادعوا آلهتكم التى تعبدونها غير الله وتزعمون أنها تشهد لكم يوم القيامة أى استعينوا بهم فى الاتيان بما ذكر (ان كنتم صادقين) فى ان محمدا صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه وان آلهتكم تشهد لكم بذلك وجواب هذا الشرط محذوف تقديره فافعلوا أى ما ذكر من الاتيان بسورة دل عليه قوله تعالى (فان لم تفعلوا) ذلك والصدق الاخبار المطابق وقيل مع اعتقاد المخبر أنه كذلك عن دلالة أو امارة لانه تعالى كذب المنافقين فى قولهم انك لرسول الله لما لم يعتقدوا مطابقته ورد هذا القول بصرف التكذيب الى قولهم نشهد لان الشهادة اخبار عما علمه وهم ما كانوا عالمين به وقوله تعالى (ولن تفعلوا) جملة معترضة أى لا يقع منكم ذلك أبدا لاعجاز القرآن (فاتقوا النار التى وقودها) أى ما تتقد به (الناس والحجارة) التى نحتوها واتخذوها أربابا من دون الله طمعا فى شفاعتها والانتفاع بها ويدل لذلك قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم عذبوا بما هو منشأ جرمهم كما عذب الكافرون بما كنزوه أو حجارة الكبريت كما رواه الطبرانى عن ابن مسعود والحاكم والبيهقى عن ابن عباس رضى الله تعالى

عنهما وعليه أكثر المفسرين وان قال البيضاوي انه تخصيص بغير دليل لان مثل هذا التفسير الوارد عن الصحابي فيما يتعلق بأمر الآخرة له حكم المرفوع وأيضا حجارة الكبريت أشد حرا وأكثر التهابا وتزيد على غيرها من الاحجار سرعة الايقاد ونتن الريح وكثرة الدخان وشدة الالتصاق بالابدان وقيل جميع الحجارة * (تنبيه) * تفعلوا مجزوم بلم لا بان لان لم واجبة الاعمال مختصة بالمضارع متصلة بالمعمول ولانها لما صيرته ماضيا صارت كالجزء منه وحرف الشرط كالداخل على المجموع وكأنه قال فان تركتم الفعل ولذلك ساغ اجتماعهما وحاصله ان ان تقتضي الاستقبال ولم تقتضي المضي فرجحت لم لما ذكر فيكون المعنى على المضي دون الاستقبال وقيل ان ان بمعنى اذ ولا اشكال حينئذ وقيل كل منهما على حقيقته والمعنى ان تبين في المستقبل عدم فعلكم في الماضي ولن تفعلوا في المستقبل فاتقوا النار ولن كلا في نفي المستقبل غير انه أبلغ وهو حرف بسيط ثنائي الوضع وقيل أصله لا ان حذفت الهمزة منها لكثرتها في الكلام ثم ألف لا لالتقاء الساكنين ولما كانت الآية مدنية نزلت بعد ما نزل بمكة قوله تعالى في سورة التحريم نارا وقودها الناس والحجارة وسمعوه صح تعريف النار ووقوع الجملة صلة فان الصلة يجب أن تكون معلومة وهي معلومة هنا من سورة التحريم حيث وقعت صفة (فان قيل) الصفة أيضا يجب أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف كالصلة والا لكانت خبرا ولهذا قالوا ان الصفات قبل العلم بها اخبار كما ان الاخبار بعد العلم بها أوصاف فيأتي في الصفة في آية التحريم ما ذكر في الصلة * (أجيب) * بأن الصلة والصفة يجب كونهما معلومين للمخاطب لا لكل سامع وما في التحريم خطاب للمؤمنين وقد علموا ذلك لسماعهم من النبي صلى الله عليه وسلم ولما سمع الكفار ذلك الخطاب أدركوا منه نارا موصوفة بتلك الجملة فجعلت فيما خوطبوا به (أعدت) أي هيئت (للكافرين) وجعلت عدة لعذابهم وفي ذلك دليل على ان النار مخلوقة معدة لهم الآن والجملة استئناف أو حال من النار باضمار قد والعامل في الحال اتقوا وهي حال لازمة فلا يشكل بأن النار أعدت للكافرين اتقوها أم لا * (تنبيه) * قال البيضاوي في الآيتين أي آية ان كنتم في ريب وآية فان لم تفعلوا ما يدل على النبوة من وجوه الاول ما فيهما أي في مجموعهما من التحدي والتحريض على الجد وبذل الوسع في المعارضة بالتقريع والتهديد وتعليق الوعيد على عدم الاتيان بما يعارض أقصر سورة من سور القرآن العزيز ثم انهم مع كثرتهم واشتهارهم بالفصاحة وتهالكهم على المضادة لم يتصدوا لمعارضته والتجؤا الى جلاء الوطن وبذل المهج لان قوله من التحدي راجع للآية الاولى والباقي راجع الى الثانية والثاني تضمنهما أي مجموعهما الاخبار عن الغيب على ما هو به فانهم لو عارضوه بشيء لامتنع خفاؤه عادة سيما والطاعنون فيه أكثر من الذابين عنه في كل عصر لان ذلك راجع للآية الثانية والثالث انه عليه الصلاة والسلام لو شك في أمره أي نفسه لما دعاهم الى المعارضة بهذه المبالغة مخافة أن يعارض فتذهب حجته وهذا راجع الى الآية الاولى * ثم عطف سبحانه وتعالى حال من آمن بالقرآن ووصف ثوابه على حال من كفر به وكيفية عقابه على عادة ما جرت به العادة الالهية من أن يشفع الترغيب

بالترهيب تنشيطا لاكتساب ما ينجي وتثبيطا عن اقتراف ما يردي بقوله تعالى (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي الطاعات (أن لهم جنات) أي حدائق ذات شجر ومساكن وانما أمر الله سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أو عالم كل عصر أو كل أحد يقدر على البشارة أن يبشر الذين آمنوا ولم يخاطبهم بالبشارة كما خاطب الكفرة تفخيما لشأنهم وايذانا بأنهم أحقاء بأن يبشروا ويهنؤا بما أعد لهم والبشارة الخبر الصدق السار أولا فانه يظهر أثر السرور في البشرة لان النفس اذا سرت انتشر الدم انتشار الماء في الشجرة ولذلك قال الفقهاء البشارة هو الخبر الاول حتى لو قال الرجل لعبيده من يبشرني بقدوم ولدي فهو حر فأخبروه فرادى عتق أولهم ولو قال من أخبرني عتقوا جميعا (فان قيل) ما الجواب عن قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم * (أجيب) * بان ذلك ورد على سبيل التهكم كقوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم وعطف سبحانه وتعالى العمل على الايمان مرتبا للحكم عليهما اشعارا بأن السبب في استحقاق هذه البشارة مجموع الامرين والجمع بين الوصفين فان الايمان الذي هو عبارة عن التيقن والتصديق أس والعمل الصالح كالبناء عليه ولا نفع تام بأس لا بناء عليه ولذلك قلما ذكرا مفردين وفي عطف العمل على الايمان دليل على أن الصالحات خارجة عن مسمى الايمان اذ الاصل أن الشئ لا يعطف على نفسه ولا على ما هو داخل فيه وجمع سبحانه وتعالى الجنة لان الجنان على ما ذكره ابن عباس سبع جنة الفردوس وجنة عدن وجنة النعيم ودار الخلد وجنة المأوى ودار السلام وعليون وفي كل واحدة من هذه السبع مراتب ودرجات متفاوتة على حسب تفاوت الاعمال والعمال واللام في الصالحات للجنس لا للاستغراق اذ لا يكاد المؤمن أن يعمل جميع الصالحات واللام في لهم تدل على استحقاقهم اياها لاجل ما ترتب عليه من الايمان والعمل الصالح لا لذاته فانه لا يكافئ النعم السابقة فضلا عن أن يقتضي ثوابا وجزاء فيما يستقبل بل بجعل الشارع ومقتضى وعده ولا على الاطلاق بل بشرط أن يستمر عليه حتى يموت وهو مؤمن لقوله تعالى ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم ولعله سبحانه وتعالى لم يقيدها هنا استغناء بهذه الآية وأشباهها (تجري من تحتها) أي من تحت أشجارها ومساكنها (الانهار) كما تراها جارية تحت الاشجار النابتة على شواطئها وعن مسروق أنهار الجنة تجري في غير أخدود قال الجوهري الاخدود شق مستطيل في الارض واللام في الانهار للجنس كما في قولك لفلان بستان فيه الماء الجاري قال البيضاوي أو للعهد والمعهود هي الانهار المذكورة في قوله تعالى أنهار من ماء غير آسن الآية اه قال التفتازاني انما يصح هذا لو ثبت سبق قوله تعالى أنهار من ماء غير آسن في الذكر اه والنهر بالفتح والسكون المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات والمراد بالانهار ماؤها على حذف مضاف أو تسمية للماء باسم مجراه مجازا واسناد الجري اليها مجاز كما في قوله تعالى وأخرجت الارض أثقالها (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا) أي أطعموا من تلك الجنان ثمرة ومن صلة (قالوا هذا الذي رزقنا) أي أطعمنا (من قبل) أي من قبل هذا في الدنيا جعل الله تعالى ثمر الجنة من جنس ثمر الدنيا لتميل النفس اليه

أول مايرى فان الطبائع مائلة الى المألوف مستنفرة من غيره أى هذا من نوعه لتشابه مايؤتون به فى الصورة كما قال تعالى (وأتوا به متشابها) أى فى اللون والصورة مختلفا فى الطعم وذلك أبلغ فى باب الاعجاز والداعى لهم الى ذلك فرط استغرابهم وافتخارهم بما وجدوا من التفاوت العظيم فى اللذة والتشابه البليغ فى الصورة وقيل فى الجنة لان طعامها متشابه الصورة كما حكى عن الحسن ان أحدهم يؤتى بالصحفة فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الاولى فيقول ذلك فتقول الملائكة كل فاللون واحد والطعم مختلف أوكما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال والذى نفس محمد بيده ان الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هى واصلة الى فيه حتى يبدل الله مكانها مثلها وعن مسروق نخل الجنة نضيد من أصلها الى فرعها وثمرها أمثال القلال كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى والعنقود اثنا عشر ذراعا (فان قيل) على الاول التشابه هو التماثل فى الصفة وهو مفقود بين ثمرات الدنيا والآخرة كما قال ابن عباس ليس فى الجنة من أطعمة الدنيا الا الاسماء *(أجيب)* بأن التشابه بينهما حاصل فى الصورة التى هى مناط الاسم دون المقدار والطعم وهو كاف فى اطلاق التشابه وللآية كما قال البيضاوى محمل آخر وهو أن مستلذات أهل الجنة فى مقابلة ما رزقوا فى الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة فى اللذة بحسب تفاوتها فيحتمل أن يكون المراد من هذا الذى رزقنا انه ثوابه ومن تشابههما تماثلهما فى الشرف والرتبة وعلو الطبقة فيكون هذا فى الوعد نظير قوله تعالى ذوقوا ما كنتم تعملون فى الوعيد (ولهم فيها) أى الجنات (أزواج) من الحور العين والآدميات (مطهرة) مما يستقذر من النساء ويذم من أحوالهن كالحيض والدرن أى الوسخ ودنس الطبع وسوء الخلق فان التطهير يستعمل فى الاجسام والاخلاق والافعال ومعنى تطهيرهن مما ذكر كما قال التفتازانى انها منزهة عن ذلك مبرأة عنه بحيث لا يعرض لهن لا التطهير الشرعى بمعنى ازالة النجس الحسى أو الحكمى كما فى الغسل عن الحيض والزوج يقال للذكر والانثى قال تعالى وأصلحنا له زوجه وهو فى الاصل لما له قرين من جنسه كزوج الخف (فان قيل) فائدة المطعوم هو التقوى ودفع ضرر الجوع وفائدة المنكوح التوالد وحفظ النوع وهذه الفوائد مستغنى عنها فى الجنة *(أجيب)* بأن مطاعم الجنة ومناكحها وسائر أحوالها انما تشارك نظائرها الدنيوية فى بعض الصفات والاعتبارات وتسمى بأسمائها على سبيل الاستعارة والتمثيل ولا تشاركها فى تمام حقيقتها حتى تستلزم جميع ما يلزمها وتفيد عين فائدتها (وهم فيها خالدون) أى دائمون أحياء لا يموتون ولا يخرجون والاصل فى الخلود الثبات المديد دام أو لم يدم اذ لو كان وضعه للدوام لكان التقييد بالتأبيد فى قوله تعالى خالدين فيها أبدا تأكيدا لا تأسيسا والاصل خلافه لكن المراد به الدوام فى الآية عند الجمهور لما يشهد له من الآيات والسنن (فان قيل) الابدان مركبة من أجزاء متضادة الكيفية معرضة للاستحالات المؤدية الى الانفكاك والانحلال فكيف يعقل خلودها فى الجنات *(أجيب)* بأنه تعالى يعيدها بحيث لا تعتريها الاستحالة بأن يجعل أجزاءها مثلا متقاومة فى الكيفية متساوية فى القوة لا يقوى شئ منها على

احالة الآخر متعانقة متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض كما يشاهد فى بعض المعادن ولما كان معظم اللذات الحسية مقصورا على المساكن والمطاعم والمناكح على مادل عليه الاستقراء وكان مآل ذلك كله الثبات والدوام وأن كل نعمة جليلة اذا قارنها خوف الزوال كانت منغصة غير صافية من شوائب الالم بشر المؤمنين بالمساكن والمطاعم والمناكح فبشر بالاول بقوله تعالى جنات تجرى من تحتها الانهار وبالثانى بقوله تعالى كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا الآية وبالثالث بقوله تعالى ولهم فيها أزواج مطهرة ومثل ما أعد لهم فى الآخرة بأحسن ما يستلذ منها وأزال عنهم خوف الفوات بوعد الخلود ليدل على كما لهم فى التنعم والسرور * ولما ضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله تعالى وان يسلبهم الذباب وقوله تعالى كمثل العنكبوت قالت اليهود ضرب المثل بذلك مما يستحيا منه لخسته فليس من عند الله تعالى فنزل ردا عليهم (ان الله لا يستحيى) أى لا يترك (أن يضرب مثلا ما بعوضة) وهى صغيرة البق نزل لمن يستحيى أن يمثل بها لحقارتها وأن بصلتها مخفوض المحل عند الخليل باضمار من منصوب بافضاء الفعل اليه بعد حذف من عند سيبويه ويجوز كما فى الكشاف نصبه بافضاء الفعل اليه بنفسه فان استحيا يتعدى بنفسه أيضا يقال استحييت منه واستحييته وما اما ابهامية تزيد النكرة قبلها ابهاما واما مزيدة لتأكيد معنى مضمون الجملة قبلها كالتى فى قوله تعالى فبما رحمة من الله ولا يراد بالمزيد اللغو الضائع فان القرآن كله هدى وبيان بل المراد بالمزيد مالم يوضع لمعنى يراد منه وانما وضعت لان تذكر مع غيرها فتفيده وثاقة وقوة وهو زيادة فى الهدى غير قادح فى القرآن و بعوضة عطف بيان أو بدل من مثلا أو مفعول ثان ليضرب بمعنى يجعل والحياء انقباض النفس عن القبيح مخافة الذم وهو الوسط بين الوقاحة التى هى الجراءة على القبائح وعدم المبالاة بها وبين الخجل الذى هو انحصار النفس عن الفعل مطلقا فاذا وصف به البارى سبحانه وتعالى كما جاء فى الحديث ان الله يستحيى من ذى الشيبة المسلم أن يعذبه ان الله حيى كريم يستحيى اذا رفع العبد يديه أن يردهما صفرا حتى يضع فيهما خيرا فالمراد به الترك كما قدرته اللازم للانقباض كما ان المراد من رحمته وغضبه اصابة المعروف والمكروه اللازمين لمعنييهما وتحتمل الآية خاصة أن يكون مجىء الحياء فيها للمشاكلة وهو أن يذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ولو تقديرا كما هنا وهو قول الكفرة اما يستحيى رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت ولما كان التمثيل يصار اليه لكشف المعنى الممثل له ورفع الحجاب عنه وابرازه فى صورة المشاهد المحسوس ليساعد فيه الوهم العقل ويصالحه عليه فان المعنى الصرف انما يدركه العقل مع منازعة من الوهم لان من طبعه ميل الحس وحب المحاكاة فشاعت الامثال فى الكتب الالهية وفشت فى عبارات البلغاء واشارات الحكماء فيمثل الحقير بالحقير كما يمثل العظيم بالعظيم وان كان الممثل أعظم من كل عظيم كما مثل سبحانه وتعالى فى الانجيل غل الصدر بالنخالة والقلوب القاسية بالحصاة ومخالطة السفهاء باثارة الزنابير ونصه على ما حكاه الفخر الرازى فى الاول لا تكونوا كمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويمسك النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم وتبقون الغل

في صدوركم وفي الثاني قلوبكم كالحصاة التي لا تطبخها النار ولا يلينها الماء ولا ينسفها الريح وفي الثالث لا تثيروا الزنابير فتلدغكم فكذلك لا تخالطوا السفهاء فيشتموكم وجاء في كلام العرب اسمع من قرادلات العرب تزعم أنه يسمع صوت أخفاف الابل من مسيرة يوم فيتحرك لها وقيل من مسيرة سبع ليال وأعزم من مخ البعوض يضرب لمن يكلف الامور الشاقة (فما فوقها) أي ما زاد على البعوضة في الجثة كالذباب والعنكبوت والمعنى أنه لا يستحيي من ضرب المثل بالبعوضة فضلا عما هو أكبر منه أو المعنى الذي جعلت فيه مثلا وهو الصغر والحقارة كجناحها فانه عليه الصلاة والسلام ضرب جناحها مثلا للدنيا بقوله في خبر الترمذي لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء ونظيره في احتمال الفوقية للجثة وللمعنى ما روى البخاري وغيره ان رجلا بمنى خر على طنب فسطاط فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها الا كتب له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة فانه يحتمل ما يجاوز الشوكة في الالم كالسقوط على الطنب وما زاد عليها في القلة كقرصة النملة والطنب حبل الخباء والفسطاط بيت من شعر (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه) أي ضرب المثل بذلك (الحق) أي الواقع موقعه (من ربهم) لان الحق هو الثابت الذي لا يسوغ انكاره وهو يعم الاعيان الثابتة والافعال الصائبة والاقوال الصادقة من قولهم حق اذا ثبت ومنه ثوب محقق أي محكم النسج وأما حرف تفصيل يفصل ما أجمل ويؤكد ما به صدر ويتضمن معنى الشرط ولذلك يجاب بالفاء قال سيبويه أما زيد فذاهب معناه مهما يكن من شئ فزيد ذاهب أي هو ذاهب لا محالة وأنه منه عزيمة وكان الاصل دخول الفاء على الجملة لانها الخبر لكن كرهوا ايلاءها حرف الشرط فأدخلوا الفاء على الخبر وعوضوا المبتدا عن جملة الشرط لفظا (وأما الذين كفروا فيقولون ماذا) يحتمل وجهين أن تكون ما استفهامية وذا بمعنى الذي وما بعده صلته والمجموع خبر ما وأن تكون ما مع ذا اسما واحدا بمعنى أي شئ (أراد الله بهذا) فهو منصوب المحل على المفعولية لاراد فماذا كما في الكشاف في حكم ما وحده لو قلت ما أراد الله وكان من حقه وأما الذين كفروا فلا يعلمون ليطابق قرينه وهو الذين آمنوا ويقابل قسيمه وهو يعلمون أنه الحق لكن لما كان قولهم هذا دليلا واضحا على كمال جهلهم عدل اليه على سبيل الكناية عن عدم علمهم ليكون كالبرهان عليه والارادة صفة ذاتية قديمة زائدة على العلم ترجح أحد مقدوريه على الآخر وتخصصه بوجه دون وجه بخلاف القدرة فانها لا تخصص الفعل ببعض الوجوه بل هي موجدة للفعل مطلقا وقوله تعالى (مثلا) نصب على الحال من اسم الاشارة والعامل فيه اسم الاشارة أو التمييز والمعنى أي فائدة في ذلك فقال تعالى (يضل به كثيرا) بأن يكذبوا به (ويهدي به كثيرا) بأن يصدقوا به وكثرة كل واحد من القبيلين بالنظر الى أنفسهم لا بالقياس أي لا بالنظر الى مقابليهم فان المهتدين قليلون بالاضافة الى أهل الضلال كما قال تعالى وقليل من عبادي الشكور ويحتمل أن تكون كثرة الضالين من حيث العدد وكثرة المهتدين باعتبار الفضل والشرف كما قال المتنبي في مدح علي بن يسار

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ * كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال اذا لاقوا خفاف اذا دعوا * قليل اذا عدوا كثير اذا شدوا

وقال * ان الكرام كثير (أى كرما) فى البلاد وان * قلوا (أى عددا) كما غيرهم قل (بضم القاف وكسرها أى قليل كرما) وان كثروا * أى عددا (وما يضل به الا الفاسقين) أى الخارجين عن حد الايمان بالكفر كقوله تعالى ان المنافقين هم الفاسقون وتخصيص الاضلال بهم مرتبا على صفة الفسق يدل على انه الذى أعدهم للاضلال وأدى بهم الى الضلال بالمثل وسبب ضلالتهم به ان كفرهم وعدولهم عن الحق واصرارهم بالباطل صرفت وجوه أفكارهم عن حكمة المثل الى حقارة الممثل به حتى رسخت به جهالتهم وازدادت به ضلالتهم فانكروا المثل واستهزؤا به وأما الفاسق فى الشرع فهو الخارج عن أمر الله بارتكاب كبيرة أو اصرار على صغيرة ولم تغلب طاعاته على معاصيه ولا يخرجه ذلك عن الايمان الا اذا اعتقد حل المعصية سواء كانت كبيرة أم صغيرة قال تعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا والمعتزلة جعلوا الفاسق قسما ثالثا نازلا بين منزلتى المؤمن والكافر لمشاركة كل واحد منهما فى بعض الاحكام * ثم بين سبحانه وتعالى صفة الفاسقين بقوله (الذين ينقضون عهد الله) وهو اما المأخوذ بالعقل وهو الحجة القائمة على عباده الدالة على توحيده ووجوب وجوده وصدق رسله وعليه يدل قوله تعالى وأشهدهم على أنفسهم واما المأخوذ بالرسل على الامم بأنهم اذا بعث اليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ولم يكتموا أمره ولم يخالفوا حكمه وعليه يدل قوله تعالى واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب الآية وقيل عهود الله ثلاثة عهد أخذه بواسطة العقل على جميع ذرية آدم بأن يقروا بربوبيته وعهد أخذه بواسطة الملك على النبيين بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه وعهد أخذه بواسطة الرسل على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه وقوله تعالى (من بعد ميثاقه) أى توكيده يحتمل عود الضمير للعهد فهو من اضافة المصدر الى المفعول أو لله فهو من اضافة المصدر الى الفاعل قال البيضاوى ويحتمل أن يكون بمعنى المصدر (واعترض) بأن النحويين لم يذكروا مفعالا فى صيغ المصادر وأصله أن يكون وصفا كمطعام ومقدام (وأجيب) بحمل ذلك على أنه اسم واقع موقع المصدر كما يشير اليه قوله بمعنى المصدر (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) وهو الرحم لانهم قطعوا رحم النبى صلى الله عليه وسلم بالمعاداة معه ويحتمل كل قطيعة لا يرضاها الله تعالى كقطع الرحم والاعراض عن موالاة المؤمنين والتفرقة بين الانبياء عليهم الصلاة والسلام والكتب فى التصديق وترك الجماعات وسائر ما فيه رفض خير او تعاطى شر فانه يقطع الوصلة بين الله وبين العبد المقصودة بالذات من كل وصل وفصل والامر هو القول الطالب للفعل وقيل مع العلو وقيل مع الاستعلاء وأن يوصل بدل من الهاء وقرأ ورش بتغليظ اللام وصلا واذا وقف رقق وغلظ وأدغم خلف النون فى الياء بغير غنة (ويفسدون فى الارض) بالمعاصى وتعويق الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والاستهزاء بالحق وقطع الوصل التى بها نظام العالم وصلاحه (أولئك هم الخاسرون) بفوات التوبة والمصير الى العقوبة باهمال

العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الابدية واستبدال الانكار والطعن فى الآيات بالايمان بها والنظر فى حقائقها والاقتباس من أنوارها واشتروا النقض بالوفاء والفساد بالصلاح والعقاب بالثواب * ثم وبخ سبحانه وتعالى الكفار بقوله (كيف تكفرون بالله) أى أخبرونى على أى حال تكفرون (وكنتم أمواتا) أى نطفا فى أصلاب آبائكم لا احساس لكم (فأحياكم) فى الارحام ثم فى الدنيا بخلق الارواح ونفخها فيكم وانما عطفه بالفاء لانه متصل بما عطف عليه غير متراخ عنه بخلاف البواقى وقرأ الكسائى بالامالة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) للبعث يوم ينفخ فى الصور أو للسؤال فى القبور قال التفتازانى ولا يجوز أن يراد مطلق الاحياء بعد الامانة على ما يعم الاحياء فى القبور والنشور ولا بعد فيه لشدة ارتباط الاحياءين واتصالهما فى الانقطاع عن أمر الدنيا (ثم اليه ترجعون) تردون بعد الحشر فيجازيكم بأعمالكم أو تنشرون اليه من قبوركم للحساب فما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه (فان قيل) ان علموا أنهم كانوا أمواتا فأحياهم ثم يميتهم لم يعلموا أنه يحييهم ثم اليه يرجعون (أجيب) بأن تمكنهم من العلم بما نصب لهم من الدلائل منزل منزلة علمهم فى ازاحة العذر سيما فى الآية تنبيه على ما يدل على صحتهما وهو انه تعالى لما قدر على احيائهم أولا قدر على أن يحييهم ثانيا فان بدء الخلق ليس بأهون عليه من اعادته (فان قيل) كيف تعد الامانة من النعم المقتضية للشكر (أجيب) بأنها لما كانت وصلة للحياة الدائمة التى هى الحقيقية كما قال تعالى وان الدار الآخرة لهى الحيوان يعنى الحياة كانت من النعم العظيمة مع أن المعدود عليهم نعمة هو المعنى المنتزع من القصة بأسرها كما أن الواقع حالا هو العلم بها لا كل واحدة من الجمل فان بعضها ماض وبعضها مستقبل وكلاهما لا يصح حالا ويصح أن يكون الخطاب مع الكفار والمؤمنين فانه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد والنبوة ووعدهم على الايمان وأوعدهم على الكفر أكد ذلك بأن عدد عليهم النعم العامة والخاصة واستبعد صدور الكفر منهم واستبعده عنهم مع تلك النعم الجليلة فان عظم النعم يوجب عظم معصية المنعم وأن يكون مع المؤمنين خاصة لتقرير المنة عليهم وتبعيد الكفر عنهم على معنى كيف يتصور الكفر منكم وكنتم أمواتا أى جهالا فأحياكم بما أفادكم من العلم والايمان ثم يميتكم الموت المعروف ثم يحييكم الحياة الحقيقية ثم اليه ترجعون فينبئكم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والحياة حقيقة فى القوة الحاسة أو ما يقتضيها وبها سمى الحيوان حيوانا مجاز فى القوة النامية لانها من طلائعها ومقدماتها وفيما يخص الانسان من الفضائل كالعلم والعقل والايمان من حيث انه كمالها وغايتها والموت بازائها يقال على ما يقابلها فى كل مرتبة مثال ما يقابل الحقيقة قوله تعالى قل الله يحييكم ثم يميتكم ومثال ما يقابل المجاز الاول قوله تعالى اعلموا أن الله يحيى الارض بعد موتها ومثال ما يقابل المجاز الثانى قوله تعالى أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس واذا وصف بها البارى تعالى أريد بها صحة اتصافه بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا

أومعنى قائم بذاته تعالى * ثم أومأ الى مشيئته وقدرته فقال (هو الذى خلق لكم مافى الارض) أى لاجلكم وانتفاعكم فى دنياكم باستنفاعكم بها فى مصالح أبدانكم بوسط كالادوية المركبة أو بغير وسط كالثمرة والادوية المفردة وفى دينكم بالاستدلال على موجدكم ففى ذلك نعمة على عباده سبحانه وتعالى ومانعم كل مافى الارض لا الارض الا ان أريد بالارض جهة السفل كما يراد بالسماء جهة العلو وقوله تعالى (جميعا) حال من الموصول الثانى وهو ماوهى حال مؤكدة لما لاتحادهما فى العموم وهذا أقرب من جعله حالا من ضمير لكم لان سياق الآيات انما هو فى تعداد النعم لا فى تعداد المنعم عليهم ولان المنة بتعداد النعم أظهر من المنة بتعداد المنعم عليهم لان مقدار النعم يصل الى كل أحد (ثم استوى الى السماء) أى قصد الى خلقها بارادته وأصل الاستواء طلب السواء واطلاقه على الاعتدال لما فيه من تسوية وضع الاجزاء ولا يمكن حمله على الله تعالى لانه من خواص الاجسام وقيل استوى استولى كما قيل

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق

والمراد بالسماء هذه الاجرام العلوية أو جهات العلو ليطابق قوله تعالى (فسواهن سبع سموات) فجمع الضمير العائد الى السماء لارادة الجنس وقيل لان السماء جمع سماءة أى جعلهن مستويات لاشقوق فيهن ولا تفاوت قال البيضاوى وثم لعله لتفاوت مابين الخلقين أى فى القدر والعظم وفضل خلق السماء على خلق الارض كقوله تعالى ثم كان من الذين آمنوا لا للتراخى فى الوقت فانه يخالف ظاهر قوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها فانه يدل على تأخر دحو الارض المتقدم على خلق مافيها عن خلق السماء وتسويتها اه (وأجيب) بأنه لايدل على ذلك لان تقدم خلق جرم الارض على خلق جرم السماء لاينافى تأخر دحوها عنه وهو بسطها ورده التفتازانى بأنه ليس على ما ينبغى لان ثم تدل على تأخر خلق السماء عن خلق مافى الارض من عجائب الصنع حتى أسباب اللذات والآلام وأنواع الحيوانات حتى الهوام لا عن مجرد خلق جرم الارض قال وسنذكر فى حم السجدة مايدل على تأخر خلق السماء عن خلق الارض ودحوها جميعا حتى قيل انه خلق الارض ومافيها فى أربعة أيام ثم خلق السماء ومافيها فى يومين وكثر ذلك فى الروايات فلا يفيد حمل ثم على تراخى الرتبة اه والاوجه كما قاله بعض المفسرين الموافق لظاهر ماهنا وما سيأتى فى فصلت تأويله مع الايضاح أن يقال ان خلق جرم الارض مقدم على خلق جرم السماء وخلق وصفها أعنى دحوها مقدم على خلق وصف السماء أعنى تسويتها سبعا فرجع الاشارة فى قوله تعالى بعد ذلك جرم السماء لا وصفها وبذلك علم أن جعل ثم للتراخى فى الوقت لا يخالف ماذكر خلافا لما زعمه البيضاوى (فان قيل) أليس أن أصحاب الارصاد أثبتوا بالبراهين تسعة أفلاك وهى كرة القمر فكرة عطارد فكرة الزهرة فكرة الشمس فكرة المريخ فكرة المشترى فكرة زحل فالفلك الذى فيه الكواكب الثابتة فالفلك الاعظم وهو متحرك كل يوم وليلة على التقريب دورة واحدة (وأجيب) بأن ماذكروه ليس مستندا الى دليل شرعى فلا ينبغى اعتباره قال البيضاوى

وان صح فليس فى الآية نفى الزائد مع أنه ان ضم اليها العرش والكرسى لم يبق خلاف وقوله تعالى (وهو بكل شئ عليم) أى مجملا ومفصلا فيه تعليل كأنه قال ولكونه عالما بكيفية الاشياء كلها خلق ما خلق على هذا النمط الاكمل والوجه الانفع واستدلال بأن من كان فعله على هذا النسق العجيب والترتيب الانيق كان عليما فان اتقان الافعال واحكامها وتخصيصها بالوجه الاحسن الانفع لا يتصور الا من عالم حكيم رحيم أفلا تعتبرون أن القادر على خلق ذلك ابتداء وهو أعظم منكم قادر على اعادتكم وقرأ حمزة والكسائى ثم استوى وفسواهن بالامالة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى وهو بسكون الهاء والباقون بضمها (و) اذكر يا محمد (اذ قال ربك للملائكة) وقيل اذ زائدة أى وقال ربك وكل ماورد فى القرآن من هذا النحو فهذا سبيله وهو اما أن يقدر اذكر وهو الاولى أو تكون اذ مزيدة واذ واذا ظرفا توقيت الا أن اذ للماضى واذا للمستقبل وقد يوضع أحدهما موضع الآخر قال المبرد اذا جاء اذ مع المستقبل كان معناه ماضيا كقوله تعالى واذ يمكر يعنى واذ مكروا واذا جاء اذا مع الماضى كان معناه مستقبلا كقوله تعالى اذا جاء نصر الله أى سيجئ وقرأ أبو عمرو بادغام اللام فى الراء بخلاف عنه والباقون بالاظهار والملائكة جمع ملك أصله ملأك والتاء لتأنيث الجمع وهو مقلوب مألك من الالوكة وهى الرسالة لانهم وسايط بين الله تعالى وبين الناس فهم رسل الله أو كالرسل اليهم لتوسط الانبياء بينهم وبين الناس واختلف العقلاء فى حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنها ذوات موجودة قائمة بأنفسها فذهب أكثر المسلمين الى أنها أجسام لطيفة شفافة ويعبرون عنها بنورانية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة والجن قادرة على ذلك واستدلوا على ذلك بأن الرسل كانوا يرونهم أجساما لطيفة متشكلة بأشكال مختلفة وزعم الحكماء يعنى الفلاسفة أنهم جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة فى الحقيقة وقالت طائفة من النصارى هى النفوس الفاضلة أى المتصفة بفضائل العلم والعمل بخلاف الشريرة فانها عندهم الشياطين البشرية الناطقة * قوله البشرية وما بعده صفة للنفوس المفارقة للابدان يعنى مادامت فى الابدان تسمى النفوس فاذا فارقتها كانت الملائكة والمقول له الملائكة كلهم لعموم اللفظ وعدم المخصص وقيل ملائكة الارض وذلك أن الله تعالى خلق السماء والارض وخلق الملائكة والجن فأسكن الملائكة السماء وأسكن الجن فى الارض فمكثوا فيها دهرا طويلا ثم ظهر فيهم الحسد والبغى فأفسدوا فيها فبعث الله تعالى اليهم جندا من الملائكة يقال له الجن وهم خزان الجنان اشتق لهم اسم من الجنة رأسهم ابليس فكان رئيسهم ومن أشدهم وأكثرهم علما فهبطوا الى الارض وطرد والجن الى شعوب الجبال وبطون الاودية وجزائر البحور وسكنوا الارض وخفف الله تعالى عنهم العبادة وأعطى الله تعالى ابليس ملك الارض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة وكان يعبد الله تارة فى الارض وتارة فى السماء وتارة فى الجنة فدخله العجب وقال ما أعطانى الله تعالى هذا الملك الا لانى أكرم الملائكة عليه فقال الله

تعالى

تعالى له وبلغه (انى جاعل فى الارض خليفة) وجاعل من جعل الذى له مفعولان وهما فى
الارض خليفة أعمل فيهما لانه بمعنى الاستقبال ومعتمد على مسند اليه ويجوز أن يكون بمعنى
خالق فيتعدى لمفعول واحد وهو خليفة والخليفة من يخلف غيره وينوب عنه أى جاعله بدلا
منكم ورافعكم الى فكرهوا ذلك لانهم كانوا أهون الملائكة عبادة والهاء فيه للمبالغة
والمراد به آدم صلى الله عليه وسلم لانه كان خليفة الله فى أرضه وكذا كل نبى استخلفه الله فى عمارة
الارض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم لا لحاجة به تعالى الى من ينوبه
بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه وتلقى أمره بغير وسط ولذلك لم يستنبئ ملكا كما قال
تعالى ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا أى فى صورة رجل ألا ترى أن الانبياء لما فاقت قوتهم
واشتعلت قريحتهم بحيث يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار أرسل اليهم الملائكة ومن كان من
الانبياء أعلى رتبة كلمه بلا واسطة كما كلم موسى صلاة الله وسلامه عليه فى الميقات ومحمدا صلى
الله عليه وسلم ليلة المعراج وقيل انه خليفة من سكن الارض قبله وقيل المراد آدم وذريته
لانهم يخلفون من قبلهم أو يخلف بعضهم بعضا وافراد اللفظ اما للاستغناء بذكره عن ذكر بنيه
أو على تأويل من يخلف وفائدة قوله هذا للملائكة تعليم المشاورة وتعظيم شأن المجعول بأن بشر
تعالى بوجوده سكان ملكوته ولقبه بالخليفة قبل خلقه واظهار فضله الراجح على ما فيه من
المفاسد بسؤالهم وجوابه وبيان أن الحكمة تقتضى ايجاد ما يغلب خيره فان ترك الخير الكثير
لاجل الشر القليل شر كثير الى غير ذلك (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها) بالمعاصى
(ويسفك الدماء) أى يريقها بالقتل كما فعل بنو الجان تعجبوا من أن يستخلف لعمارة
الارض واصلاحها من يفسد فيها وقصدهم استكشاف ما خفى عليهم من الحكمة
التى بهرت تلك المفاسد وألغتها وليس باعتراض على الله تعالى ولا طعن فى بنى آدم على
وجه الغيبة فانهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالى بل عباد مكرمون لا يسبقونه
بالقول وهم بأمره يعملون وانما عرفوا ذلك باخبار من الله تعالى أو تلق من اللوح أو استنباط
عما ركز فى عقولهم ان العصمة من خواصهم أو قياس لاحد الثقلين على الآخر والا فهم ما كانوا
يعلمون الغيب (ونحن نسبح) متلبسين (بحمدك) أى نقول سبحان الله وبحمده وهذه صلاة
ما عدا الآدميين وعليها يرزقون قال تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده أى يقول سبحان
الله وبحمده روى عن أبى ذر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أى الكلام أفضل قال
ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده وقيل ونحن نصلى بأمرك قال ابن عباس
كل ما فى القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة (ونقدس لك) ننزهك عما لا يليق بك فاللام
صلة والجملة حال مقررة لجهة الاشكال كقولك أتحسن الى أعدائك وأنا الصديق المحتاج
والمعنى أتستخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك والمقصود منه الاستفسار عما رجحهم
مع ما هو متوقع منهم على الملائكة المعصومين فى الاستخلاف لا العجب والتفاخر وقيل نقدس
لك نطهر نفوسنا عن الذنوب لاجلك كأنهم قابلوا الفساد المفسر بالشرك عند قوم بالتسبيح

وسفك الدماء الذى هو أعظم الافعال الذميمة بتطهر النفس عن الآثام (قال) تعالى (انى أعلم ما لا تعلمون) من المصلحة فى استخلاف آدم وان ذريته فيهم المطيع والعاصى فيظهر العدل بينهم وقيل انى أعلم أن فيكم من يعصينى وهو ابليس وجنوده وقيل انى أعلم أنهم مذنبون وأنا أغفر لهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون وهم على مراتبهم فى المد (وعلم آدم الاسماء) أى أسماء المسميات (كلها) حتى القصعة والمغرفة وقيل علمه اسم ما كان وما يكون الى يوم القيامة وقيل صيغة كل شئ قال أهل التأويل ان الله عز وجل علم آدم جميع اللغات ثم كل واحد من أولاده بلغة فتفرقوا فى البلدان واختص كل فرقة منهم بلغة وذلك اما بخلق علم ضرورى بما فيه أو ألقى فى قلبه علمها أو بارسال ملك أو بخطاب الله له أو بخلق الاصوات فى الاجسام المسميات والتعليم فعل يترتب عليه العلم غالبا ولذلك يقال علمته فلم يتعلم وآدم اسم أعجمى كسائر الانبياء الا صالحا وشعيبا ولوطا ومحمدا بل قيل ان آدم أيضا عربى وعلى هذا فاشتقاقه من الادمة بضم الهمزة وسكون الدال بمعنى السمرة أو الادمة بفتح الهمزة والدال بمعنى الاسوة أى القدوة أو من أديم الارض أى ظاهر وجهها روى الحاكم وصححه أنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله قبض قبضة من جميع الارض سهلها وحزنها وهو بفتح الحاء المهملة ما غلظ من الارض وصلب أى وعجنت بالمياه المختلفة فخلق منها آدم ونفخ فيه الروح فصار حيوانا حساسا بعد أن كان جمادا فلذلك يأتى بنوه مختلفين فى الالوان والاخلاق والهيآت وأما على الاول فلا اشتقاق له لان ذلك انما يأتى فى الاسماء العربية والاعجمى لا اشتقاق له وكنيته أبو محمد وأبو البشر والمعنى أنه تعالى خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباعدة مستعدا لادراك أنواع المدركات والمعقولات والمحسوسات والمخيلات والموهومات وألهمه معرفة ذوات الاشياء وخواصها وأسمائها وأصول العلوم وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها وقرأ ورش فى الهمزة من آدم بالمد والتوسط والقصر حيث جاء وقوله تعالى (ثم عرضهم على الملائكة) الضمير فيه للمسميات المدلول عليها ضمنا فى قوله تعالى وعلم آدم الاسماء اذ التقدير أسماء المسميات كما مر تقريره فحذف المضاف اليه لدلالة المضاف عليه وعوض عنه اللام فى الاسماء كقوله تعالى واشتعل الرأس شيبا لان العرض للسؤال عن أسماء المعروضات فلا يكون المعروض نفس الاسماء اذ العرض لا يصح فيها لانها من المسموعات والعرض يختص بالمحسوسات بالعين تقول عرضت الجند عرض العين اذا امررتهم عليك ونظرت ما حالهم (فان قيل) لم قال عرضهم ولم يقل عرضها (أجيب) بان الاسماء اذا جمعت جمع من يعقل ومن لا يعقل يكنى عنها بلفظ من يعقل كما يكنى عن الذكور والاناث بلفظ الذكور وقال مقاتل خلق الله كل شئ الحيوان والجماد ثم عرض تلك الشخوص على الملائكة والكناية راجعة الى الشخوص فلذلك قال عرضهم على الملائكة (فقال) لهم سبحانه وتعالى تبكيتا لهم وتنبيها على عجزهم عن أمر الخلافة (أنبئونى) أى أخبرونى (بأسماء هؤلاء) المسميات (ان كنتم صادقين) انى لا أخلق خلقا الا كنتم أفضل وأعلم منه وذلك ان الملائكة قالوا لما قال انى جاعل فى الارض خليفة ليخلق ربنا

مايشاء فلن يخلق خلقا أكرم عليه منا وان كان فنحن أعلم منه لانا خلقنا قبله ورأينا مالم يره فاظهر الله تعالى فضله عليهم بالعلم وجواب الشرط دل عليه ماقبله (قالوا) أى الملائكة اقرارا بالعجز واشعارا بأن سؤالهم كان استفسارا ولم يكن اعتراضا وأنه قد بان لهم ماخفى عليهم من فضل الانسان والحكمة فى خلقه واظهارا الشكر نعمته بما عرفهم وكشف لهم ما التبس عليهم (سبحانك) تنزيها عن الاعتراض عليك (لا علم لنا الا ما علمتنا) اياه وفى هذا مراعاة للادب بتفويض العلم كله اليه سبحانه وتعالى وتصدير الكلام بسبحان اعتذار عن الاستفسار والجهل بحقيقة الحال فانه تعالى منزه عن أن يفعل مايخرج عن الحكمة ولذلك جعل مفتاح التوبة فقال موسى عليه الصلاة والسلام سبحانك تبت اليك وقال يونس عليه الصلاة والسلام سبحانك انى كنت من الظالمين * (تنبيه) * اجتمع فى قوله تعالى أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين أربع مدات الاولى أنبئونى والثانية بأسماء والثالثة والرابعة هؤلاء ان فالاول بدل والثانى مد متصل والثالث مد منفصل والرابع مخير لامتصل قطعا ولا منفصل قطعا عند من يقول باسقاط احدى الهمزتين فأما الاول فلورش فيه المد والتوسط والقصر وأما الثانى فبالمد للجميع لانه متصل وأما الثالث ففيه المد والقصر كما تقدم لانه منفصل وأما الرابع وهو أولاء ان ففيه همزتان مكسورتان من كلمتين فقالون والبزى يسهلان الاولى مع المد والقصر وورش وقنبل يسهلان الثانية ويجعلانها حرف مد وأبو عمرو يسقط الاولى والثانية فمن قال باسقاط الاولى مد وقصر ومن قال باسقاط الثانية فبالمد فقط وباقى القراء يحققون الهمزتين وهم على مراتبهم فى المد (انك أنت العليم) الذى لايخفى عليه خافية (الحكيم) المحكم لمبدعاته الذى لايفعل الا مافيه حكمة بالغة وأنت ضمير فصل وقيل تأكيد للكاف كما فى قولك مررت بك أنت وان لم يجز مررت بأنت اذ التابع يسوغ فيه مالا يسوغ فى المتبوع وقيل مبتدأ خبره مابعده والجملة خبران (قال) تعالى (يا آدم أنبئهم) أى أخبر الملائكة (بأسمائهم) أى المسميات فسمى آدم كل شئ باسمه وذكر الحكمة التى لاجلها خلق (فلما أنبأهم بأسمائهم قال) الله تعالى لهم موبخا (ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض) أى ماغاب فيهما (وأعلم ماتبدون) أى تظهرون من قولكم أتجعل فيها الخ (وما كنتم تكتمون) أى تسرون من قولكم لن يخلق أكرم عليه منا ولا اعلم وقيل ما أظهروا من الطاعة وأسره ابليس من المعصية والهمزة فى ألم أقل للانكار بمعنى النفى دخلت على حرف الجحد فأفادت الاثبات والتقرير * (تنبيه) * هذه الآيات وهى آية وعلم آدم وآية سبحانك وآية قال يا آدم تدل على شرف الانسان ومزية العلم وفضله على العبادة والا لاظهر فضل آدم بها وان العلم بما يستخلف فيه شرط فى الخلافة بل العمدة فيها وان التعليم يصح اسناده الى الله تعالى وان لم يصح اطلاق المعلم عليه لاختصاصه بمن يحترف به وان اللغات توقيفية فان الاسماء تدل على الالفاظ بخصوص أو عموم وتعليمها ظاهر فى القائها على المتعلم مبينا له معانيها وذلك يستدعى سابقة وضع والاصل ينفى أن يكون ذلك الوضع ممن كان قبل آدم من الملائكة والجن فيكون من الله وان مفهوم الحكمة زائد على مفهوم

العلم لتغاير المتعاطفين والا لتكرر قوله انك أنت العليم الحكيم وان علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة وان آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لانه أعلم منهم والاعلم أفضل لقوله تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وان الانبياء أفضل من الملائكة وان كانوا رسلا كما ذهب اليه أهل السنة وانه تعالى يعلم الاشياء قبل حدوثها لانه أخبر عن علمه تعالى بأسماء المسميات جميعها ولم تكن موجودة قبل الاخبار (و) اذكر (اذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) لما أنبأهم بالاسماء وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم بالسجود له اعترافا بفضله وأداء لحقه واعتذارا عما قالوا فيه أو أمرهم به قبل أن يسوى خلقه لقوله تعالى فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين امتحانا لهم واظهارا لفضله وقضية الاول تأخر الامر به عن تسوية خلقه بدليل تأخيره عن انبائهم وتعليمهم المستلزمين لتسويته خلقه وعلى الثانى اقتصر بعض المفسرين وهو الظاهر وأجيب عن دليل الاول بأن الواو فى قوله واذ قلنا لا تقتضى الترتيب والسجود فى الاصل تذلل مع تطامن وفى الشرع وضع الجبهة على قصد العبادة والمأمور به اما المعنى الشرعى فالمسجود له فى الحقيقة هو الله تعالى وجعل آدم قبلة سجودهم تفخيما لشأنه أو سببا لوجوبه كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة والصلاة لله فعنى اسجدوا له أى اليه وكأنه تعالى لما خلقه بحيث يكون انموذجا أى مثالا للمبدعات كلها بل الموجودات بأسرها ونسخة لما فى العالم الروحانى والجسمانى وذريعة للملائكة الى استيفاء ما قدر لهم من الكمالات ووصلة الى ظهور ما تباينوا فيه من المراتب والدرجات أمرهم بالسجود تذللا لما رأوا فيه من عظيم قدرته وباهر آياته وشكرا لما أنعم عليهم بواسطته واما المعنى اللغوى وهو التواضع لآدم تحية وتعظيما له كسجود اخوة يوسف له فى قوله تعالى وخروا له سجدا ولم يكن فيه وضع الجبهة بالارض انما كان الانحناء فلما جاء الاسلام بطل ذلك بالسلام والكلام فى ان المأمورين بالسجود الملائكة كلهم أو طائفة منهم مثل ما مر (فسجدوا) أى الملائكة (الا ابليس أبى واستكبر) أى امتنع عما أمر به استكبارا من أن يتخذه وصلة فى عبادة ربه أو يعظمه أو يتلقاه بالتحية أو يخدمه ويسعى فيما فيه خيره وصلاحه وقال أنا خير منه والاباء امتناع واختيار والتكبر أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره والاستكبار طلب ذلك بالتشبع وهو التزين بأكبر مما عنده يتكبر بذلك ويتزين بالباطل (وكان من الكافرين) أى فى علم الله أو صار منهم باستقباحه أمر الله تعالى اياه بالسجود لآدم اعتقادا بأنه أفضل منه والافضل لا يحسن أن يؤمر بالتخضع للمفضول والتوسل به كما أشعر به قوله تعالى أنا خير منه جوابا لقوله تعالى ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين لا بترك الواجب وهو السجود وحده والآية تدل على ان ادم أفضل من الملائكة المأمورين بالسجود له وان ابليس كان من الملائكة والا لم يتناوله أمرهم ولم يصح استثناؤه منهم ولا يرد على ذلك قوله تعالى الا ابليس كان من الجن لجواز أن يقال كان من الجن فعلا ومن الملائكة نوعا (فان قيل) له ذرية والملائكة لا ذرية لهم (أجيب) بأن ابن عباس روى أن من الملائكة نوعا يتوالدون يقال لهم الجن ومنهم ابليس

وقيل

قوله لتغاير المتعاطفين ليس هنا متعاطفان ولذا لم يذكره البيضاوى اه مصححه

وقيل ان الله تعالى لما أخرجه من الملائكة جعل له ذرية وان من الملائكة من ليس بمعصوم وان كان الغالب فيهم العصمة كما ان من الانس معصومين وهم الانبياء والغالب في الانس عدم العصمة ولمن زعم انه لم يكن من الملائكة أن يقول انه كان جنيا نشأ بين أظهر الملائكة وكان مغمورا بالالوف منهم فغلبوا عليه لقوله تعالى الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه وهو أصل الجن كما ان آدم أصل الانس ولانه خلق من النار والملائكة خلقوا من النور قال البغوي والاول أصح لان خطاب السجود كان مع الملائكة وقوله تعالى كان من الجن أي من الملائكة الذين هم خزنة الجنة وقال سعيد بن جبير من الذين يعملون في الجنة وقال قوم من الملائكة الذين كانوا يصوغون حلى الجنة وقيل ان الجن أيضا كانوا مأمورين مع الملائكة لكنه استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم فاذا علم ان الاكابر وهم الملائكة مأمورون بالتذلل لاحد والتوسل به علم أيضا ان الاصاغر وهم الجن مأمورون به أيضا والضمير في فسجدوا راجع للقبيلين فكأنه قال فسجد المأمورون بالسجود الا ابليس * (تنبيه) * من فوائد الآية استقباح الاستكبار وانه يفضي بصاحبه الى الكفر والحث على الائتمار لامره وترك الخوض فيما لا ينبغي في سر نفسه وان الامر للوجوب وان الذي علم الله من حاله انه يتوفى على الكفر هو الكافر على الحقيقة

اذ العبرة بالخواتيم وان كان بحكم الوقت الحاضر مؤمنا (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) أي اتخذ الجنة مسكنا لتستقر فيها الانه الاستقرار واللبث ولفظة أنت تأكيد اكد به المستكن ليصح العطف عليه وانما لم يخاطبهما أولا بأن يقول اسكنا تنبيها على أنه المقصود بالحكم وهو الامر بالسكنى التي هي الاصل بالنسبة الى ما عطف عليها من الاكل وغيره والمعطوف عليه تبع له حتى في الوجود اذ لم يكن له من يؤنسه في الجنة فخلقت حواء بالمد من ضلعه الاقصر من جانبه الايسر وهو نائم فلما استيقظ من نومه رآها جالسة عند رأسه كأحسن ما خلق الله فقال من أنت قالت زوجتك خلقني الله لك أسكن اليك وتسكن الي وسميت حواء لانها خلقت من حي خلقها الله من غير أن يحس بها آدم ولا وجد لذلك ألما ولو وجد له ألما لما عطف رجل على امرأة قط وانما صح العطف على المستكن مع أن المعطوف لا يباشر فعل الامر لانه وقع تابعا ويغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع والجنة دار الثواب لان اللام للعهد ولا معهود غيرها ومن زعم أنها لم تخلق بعد قال ان الجنة بستان كان بأرض فلسطين أو بين فارس وكرمان خلقه الله تعالى امتحانا لآدم وحمل الاهباط على الانتقال منه الى أرض الهند كما في قوله تعالى اهبطوا مصرا (وكلا منها) أكلا (رغدا) أي واسعا لذيذا لا حجر فيه فرغدا صفة مصدر محذوف وقيل مصدر في موضع الحال (حيث) أي أي مكان من الجنة (شئتما) وسع الامر عليهما ازالة للعلة والعذر في التناول من الشجرة المنهي عنها من بين أشجارها التي لا تنحصر وقرأ أبو عمرو بادغام الثاء في الشين بخلاف عنه وأبدل السوسي الهمزة وقفا ووصلا وحمزة في الوقف فقط (ولا تقربا هذه الشجرة) بالاكل منها وهي شجرة الحنطة أو الكافور أو شجرة

قوله وترك الخوض فيما لا ينبغي في سر نفسه الذي في البيضاوي وترك الخوض في سره وفي زاده عليه قوله وترك الخوض مجرور بالعطف على الائتمار أي ومن فوائدها الحث على الامتثال لامره تعالى مع ترك الخوض في سر أمره بأن لا يستكشف سره ولا يطلب وجهه وحكمته كامتثال الملائكة اهـ

العنب أو التين أو شجرة من أكل منها أحدث والاولى كما قال البيضاوى أن لا تعين من غير دليل قاطع أو ظاهر كما لم تعين فى الآية لعدم توقف ماهو المقصود على التعيين (فتكونا) أى فتصيرا (من الظالمين) أى العاصين *(تنبيه)* فى هذه الآية مبالغتان الاولى تعليق النهى بالقرب الذى هو من مقدمات التناول مبالغة فى تحريمه ووجوب الاجتناب عنه وتنبيها على أن القرب من الشئ يورث داعية وميلا يأخذ بمجامع القلب ويلهيه عما هو مقتضى العقل والشرع كما روى أبو داود حبك الشئ يعمى ويصم أى يخفى عليك معايبه ويصم أذنيك عن سماع مساويه فينبغى أن لا يحوما حول ما حرّم عليهما مخافة أن يقعا فيه الثانية جعل قربانهما الى الشجرة سببا لان يكونا من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصى (فأزلهما الشيطان) أى ابليس سمى به لبعده عن الخير والرحمة وقرأ حمزة بألف بعد الزاى وتخفيف اللام أى نحاهما والباقون بغير ألف بعد الزاى وتشديد اللام أى أذهبهما (عنها) أى الجنة وازلاله قوله هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى وقوله ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ومقاسمته اياهما بقوله انى لكما لمن الناصحين واختلف فى أنه تمثل لهما فقال لهما ذلك أو ألقاه اليهما على طريق الوسوسة وكيف توصل الى ازلالهما بعد ما قيل له اخرج منها فانك رجيم فقيل انه منع من الدخول بعد خروجه الاول على جهة التكرمة كما كان يدخل مع الملائكة ولم يمنع أن يدخل لوسوسة ابتلاء لآدم وحوّاء فلما دخل وقف بين يدى آدم وحوّاء وهما لا يعلمان أنه ابليس فبكى وناح نياحة أحزنتهما وهو أوّل من ناح فقالا له ما يبكيك فقال أبكى عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة وكان آدم لما رأى ما فى الجنة من النعيم قال لو أن خلدا فاغتنم الشيطان ذلك منه فأتاه الشيطان من قبل الخلد فوقع قوله فى أنفسهما واغتما ومضى ابليس ثم أتاهما بعد ذلك وقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد فأبى أن يقبل منه فقاسمهما بالله انه لهما لمن الناصحين فاغترا وما ظنا أن أحدا يحلف بالله كاذبا فبادرت حوّاء الى أكل الشجرة ثم ناولت حوّاء آدم حتى أكلها وكان سعيد بن المسيب يحلف بالله ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل ولكن حوّاء سقته الخمر حتى سكر فأدته اليه فأكل وقيل قام عند الباب فناداهما وقيل تمثل بصورة دابة فدخل ولم تعرفه الخزنة وقيل دخل فى فم الحية حتى دخلت به وكانت صديقة لابليس وكانت من أحسن الدواب لها أربع قوائم كقوائم البعير وكانت من خزان الجنة فسألها ابليس أن تدخله الجنة فى فيها فأدخلته ومرّت به على الخزنة وهم لا يعلمون فأدخلته الجنة وقيل أرسل بعض أتباعه فأزلهما والعلم فى ذلك كما قال البيضاوى عند الله (فأخرجهما مما كانا فيه) من الكرامة والنعيم قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال الله تعالى لآدم أليس فيما أبحتك من الجنة مندوحة عن الشجرة قال بلى يا رب وعزتك ولكن ما ظننت أن أحدا يحلف بك كاذبا قال فبعزتى لأهبطنك الى الارض ثم لا تنال العيش الا كدا فاهبطا من الجنة وكانا يأكلان فيها رغدا فعلم من صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وزرع ثم سقى حتى اذا بلغ حصد ثم درسه ثم ذرّاه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ثم أكله فلم يبلغه حتى بلغ منه

ماشاء

ماشاء الله قال ابراهيم بن أدهم أورثتنا تلك الاكلة حزنا طويلا وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان آدم لما أكل من الشجرة التي نهي عنها قال الله عز وجل يا آدم ما حملك على ما صنعت قال يارب زينته لي حواء قال فاني أعقبتها أن لا تحمل الا كرها ولا تضع الا كرها ودميتها في الشهر مرتين فرنت حواء عند ذلك فقيل عليك الرنة وعلى بناتك فلما أكلا منها سقطت عنهما ثيابهما وبدت سوآتهما وأخرجا من الجنة فذلك قوله تعالى (وقلنا اهبطوا) خطاب لآدم وحواء لقوله تعالى قال اهبطا منها جميعا وجمع الضمير لانهما أصل الانس فكأنهما الانس كلهم أو هما وابليس أخرج منها ثانيا بعد ما كان يدخلها للوسوسة أو دخلها مسارقة أو من السماء لا من الباب على الخلاف المتقدم وقيل هما وابليس والحية فهبط آدم بسرنديب بأرض الهند على جبل يقال له نود وحواء بجدة وابليس بالابلة وقيل بيسان بالبصرة على أميال والحية باصبهان وقوله تعالى (بعضكم لبعض عدو) حال استغنى فيها عن الواو بالضمير والمعنى متعادين فان كان الخطاب لآدم وحواء فقط فالمراد بعضكم بعض الذرية أي بعض ذريتكم لبعض عدو من ظلم بعضهم بعضا وان كان الخطاب لهما ولابليس والحية فالمراد العداوة بين المؤمنين من ذرية آدم والحية وبين ابليس قال الله عز وجل ان الشيطان لكما عدو مبين وروى عكرمة عن ابن عباس انه كان يأمر بقتل الحيات وقال من تركهن خشية أو مخافة ثأر فليس منا وزاد موسى بن مسلم عن عكرمة في الحديث ما سالمناهن منذ حاربناهن وروى أنه نهي عن ذوات البيوت وروى عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أن بالمدينة جنا قد أسلموا فان رأيتم منهم شيأ فآذنوه ثلاثة أيام فان بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فانما هو شيطان (ولكم في الارض مستقر) أي موضع قرار (ومتاع) ما تتمتعون به من نباتها (الى حين) أي وقت انقضاء آجالكم (فتلقى آدم من ربه كلمات) أي استقبلها بالاخذ والقبول والعمل بها حين علمها وهي ربنا ظلمنا أنفسنا الآية وقيل سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك لا اله الا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي انه لا يغفر الذنوب الا أنت وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال آدم يارب ألم تخلقني بيدك قال بلى قال يارب ألم تنفخ في الروح من روحك قال بلى قال ألم تسكني جنتك قال بلى قال يارب ان تبت وأصلحت أراجعي أنت الى الجنة قال نعم رواه الحاكم وصححه وقول آدم أراجعي بتخفيف الياء اسم فاعل أضيف الى المفعول وأنت فاعل لاعتماده على الاستفهام أو مبتدأ خبره ما قبله وقرأ ابن كثير بنصب الميم من آدم ورفع التاء من كلمات على أنها تلقته والباقون برفع الميم وكسر التاء والكسر هذا علامة النصب لانه جمع مؤنث سالم فينصب بالكسرة (فتاب عليه) أي قبل توبته وانما رتب تاب عليه بالفاء على تلقي الكلمات لتضمن تلقي الكلمات معنى التوبة وهو الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على أن لا يعود اليه ورد المظالم ان كانت واكتفى بذكر آدم لان حواء كانت تبعا له في الحكم ولذلك طوى ذكر النساء في أكثر القرآن والسنن (انه هو التواب) الرجاع على عباده بالمغفرة أو الذي يكثر اعانتهم على التوبة واذا وصف بها الباري

أريد بها الرجوع من العقوبة الى المغفرة (الرحيم) البالغ في الرحمة وفي الجمع بين التوبة والرحمة وعد للتائب بالاحسان مع العفو (قلنا اهبطوا منها) أى من الجنة (جميعا) كرر للتأكيد أو لاختلاف المقصود فان الاول دل على هبوطهم الى دار بلية يتعادون فيها ولا يخلدون والثاني أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف فمن اهتدى اهتدى نجا ومن ضل هلك وقيل الهبوط الاول من الجنة الى السماء الدنيا والهبوط الثاني من السماء الدنيا الى الارض (فاما) فيه ادغام ان الشرطية في ما المزيدة (يأتينكم) يا ذرية آدم (مني هدى) أى رشد وبيان شريعة وقيل كتاب ورسول (فمن تبع هداى) بأن آمن بي وعمل بطاعتي وكرر لفظ الهدى ولم يضمر اما لاظهار شأنه وتفخامته خصوصا مع اضافته اليه أو لانه أراد بالثاني أعم من الاول وهو ما أتى به الرسل واقتضاه العقل أى فمن تبع ما آتاه راعيا فيه ما يشهد به العقل (فلا خوف عليهم) فضلا من أن يحل بهم مكروه (ولا هم يحزنون) بفوات محبوب عنهم وهو النظر الى وجهه تعالى فيحزنوا عليه بل يتنعمون بالنظر الى وجهه تعالى فانه المقصود الاعظم فالخوف على الواقع نفي عنهم العقاب فأثبت لهم الثواب على آكد وجه وأبلغه وقيل لا خوف عليهم في الدنيا ولا هم يحزنون في الآخرة وأمال الدوري عن الكسائي ألف هداى محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وانما جيء بحرف الشك واتيان الهدى واقع كائن لانه محتمل في نفسه غير واجب عقلا (والذين كفروا) أى جحدوا (وكذبوا بآياتنا) أى كتبنا (أولئك أصحاب النار) يوم القيامة (هم فيها خالدون) ماكثون فيها أبدا لا يخرجون منها ولا يموتون فيها والآية في الاصل العلامة الظاهرة وتقال للمصنوعات من حيث انها تدل على الصانع وعلمه وقدرته ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها بفصل *(تنبيه)* في هذه الآيات دلالة على أن الجنة مخلوقة وأنها في جهة عالية وأن التوبة مقبولة وأن متبع الهدى مأمون العاقبة وأن عذاب النار دائم وأن الكافر فيه مخلد وأن غيره لا يخلد فيه بمفهوم قوله تعالى هم فيها خالدون واستدل بعض الخوارج كالحشوية وهم قوم جوزوا الخطاب بما لا يفهم بها على عدم عصمة الانبياء بوجوه الاول ان آدم عليه السلام كان نبيا وارتكب المنهي والمرتكب له عاص والثاني انه جعل بارتكابه من الظالمين والظالم ملعون لقوله تعالى ألا لعنة الله على الظالمين والثالث أنه أسند اليه العصيان والغي وقال وعصى آدم ربه فغوى والرابع أنه تعالى لقنه التوبة وهي الرجوع عن الذنب والندم عليه والخامس اعترافه بأنه خاسر لولا مغفرة الله له بقوله وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين والخاسر من يكون ذا كبيرة والسادس أنه لولم يذنب ما جرى عليه ما جرى (وأجيب) عن ذلك بوجوه الاول أنه لم يكن نبيا حينئذ والمدعى مطالب بالدليل ولا دليل • الثاني أن النهي للتنزيه وانما سمي ظالما وخاسرا لانه ظلم نفسه وخسر حظه بترك الاولى وانما أجرى الله تعالى عليه ما جرى معاتبة على ترك الاولى ووفاء بما قاله تعالى للملائكة قبل خلق آدم اني جاعل في الارض خليفة ولا يكون خليفة في الارض الا بالاهباط اليها وأمر بالتوبة تلافيا لما فاته الثالث أنه فعله ناسيا لقوله تعالى فنسي

ولم نجد له عزما ولكن عوتب بترك التحفظ عن أسباب النسيان اذ رفع الاثم بالنسيان من خصائص هذه الامة كما ثبت فى الاخبار الصحيحة كخبر الشيخين رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وروى الترمذى وصححه أشد الناس بلاء الانبياء ثم الامثل فالامثل رواه الحاكم بلفظ أشد الناس بلاء الانبياء ثم العلماء ثم الصالحون * الرابع أنه عليه الصلاة والسلام أقدم عليه بسبب اجتهاد أخطأ فيه فانه ظن أن النهى للتنزيه أو الاشارة الى عين تلك الشجرة فتناول من غيرها من نوعها وكان المراد بالاشارة الاشارة الى النوع لا الى شجرة معينة كما روى أبو داود وغيره أنه عليه الصلاة والسلام أخذ حريرا وذهبا بيده وقال هذان حرام على ذكور أمتى حل لاناثها (فان قيل) المجتهدان أخطأ لا يؤاخذ (أجيب) بأنه انما عوتب على ذلك تعظيما لشأن الخطيئة ليجتنبها أولاده وقرأ ورش بامالة الف النار بين بين وقرأ أبو عمرو والدورى عن الكسائى بالامالة المحضة والباقون بالفتح (يابنى اسرائيل) أى أولاد يعقوب واسرائيل لقبه ومعنى اسرا بالعبرانية عبد وايل الله فمعناه عبد الله وقيل صفوة الله صلى الله وسلم عليه (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) أى بالتفكر فيها والقيام بشكرها والذكر يكون بالقلب ويكون باللسان وتقييد النعمة بهم لان الانسان غيور حسود بالطبع فاذا نظر الى ما أنعم الله على غيره حمله الغيرة والحسد على الكفران والسخط وان نظر الى ما أنعم به عليه حمله حب النعمة على الرضا والشكر لله وقيل أراد بها ما أنعم على آبائهم من فلق البحر وانجائهم من فرعون باغراقه وتظليل الغمام عليهم فى التيه وانزال المن والسلوى وغير ذلك من النعم التى لا تحصى قال الله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها (وأوفوا بعهدى) أى بامتثال أمرى ومنه ما عهدت اليكم من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم (أوف بعهدكم) أى الذى عهدته اليكم من الثواب عليه بدخول الجنة * (تنبيه) * للوفاء بالعهد درجات كثيرة فأول مراتبه منا هو الاتيان بكلمتى الشهادتين ومن الله تعالى حقن الدماء والمال وآخرها منا الاستغراق فى بحر التوحيد بحيث يغفل عن نفسه فضلا عن غيره ومن الله تعالى الفوز بالغنى الدائم وأما ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما من أن أوفوا بعهدى فى اتباع محمد أوف بعهدكم فى رفع الآصار أى الاثقال والاغلال وعن غير ابن عباس أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوف بالمغفرة والثواب أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أوف بالكرامة والنعيم المقيم فبالنظر الى الوسائط (واياى فارهبون) فيما تأتون وتذرون وخصوصا فى نقض العهد والرهبة خوف مع تحرز * (تنبيه) * الآية متضمنة للوعد والوعيد دالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد وأن المؤمن ينبغى ان لا يخاف أحدا الا الله (وآمنوا بما أنزلت) من القرآن وقوله تعالى (مصدقا) حال مؤكدة مما أنزلت أو من ضميره المحذوف (لما معكم) من التوراة بموافقته له ولغيره من الكتب الالهية فى القصص ونعت النبى صلى الله عليه وسلم والمواعيد والدعاء الى التوحيد والامر بالعبادة والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش وفيما يخالفها من جزئيات الاحكام بسبب تفاوت الاعصار فى المصالح من حيث ان كل واحد منها

حق بالاضافة الى زمانهما اى فيهما صلاح من خوطب بهما حتى لو نزل المتقدم فى أيام المتأخر لنزل على وفقه ولذلك قال عليه الصلاة والسلام كما رواه الامام أحمد وغيره لو كان موسى حيا لما وسعه الا اتباعى وفى ذلك تنبيه على أن اتباع تلك الكتب الالهية لا ينافى الايمان بالقرآن بل يوجبه ولذلك عرض بقوله (ولا تكونوا أول كافر به) أى بالقرآن بل يجب أن تكونوا أول مؤمن به لانكم أهل نظر فى معجزاته والعلم بشأنه (فان قيل) كيف نهوا عن التقدم فى الكفر وقد سبقهم مشركو العرب (أجيب) بأن المراد به التعريض بما يجب عليهم لمقتضى حالهم لا الدلالة على ما نطق الظاهر كقولك لمن أساء اما أنا فلست بجاهل أو ولا تكونوا أول كافر من أهل الكتاب لان خلفكم تبع لكم فاثمهم عليكم أو ممن كفر بما معه فان من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه أو مثل من كفر من مشركى مكة * (تنبيه) * أول كافر به وقع خبرا عن ضمير الجمع بتقدير أول فريق أو فوج أو بتأويل لا يكن كل واحد منكم أول كافر به كقولك كسانا حلة أى كل واحد منا (ولا تشتروا) تستبدلوا (بآياتى) التى فى كتابكم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم (ثمنا قليلا) أى عوضا يسيرا من الدنيا أى لا تكتموها خوف فوات ما تأخذونه من سفلتكم وذلك ان رؤساء اليهود وعلماءهم كانت لهم مآكل يصيبونها من سفلتهم وجهالهم يأخذون منهم كل سنة شيأ معلوما من زروعهم وضروعهم ونقودهم فخافوا أنهم ان بينوا صفة النبى صلى الله عليه وسلم وتابعوه أن يفوتهم تلك المآكل فغيروا نعته وكتموا اسمه فاختاروا الدنيا على الآخرة فنهوا عن ذلك فان حظوظ الدنيا وان جلت قليلة مسترذلة بالاضافة الى ما يفوت من حظوظ الآخرة (واياى فاتقون) خافون فى ذلك دون غيرى (ولا تلبسوا) أى تخلطوا (الحق) الذى أنزلت عليكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم (بالباطل) الذى تخترعونه وتكتبونه بأيديكم من تغيير صفته (و) لا (تكتموا الحق) أى لا تكتموا نعت النبى صلى الله عليه وسلم (وأنتم تعلمون) انكم لابسون الحق بالباطل كاتمون فانه أقبح اذ الجاهل يعذر (وأقيموا الصلاة) أى الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها (وآتوا الزكاة) أى أدوا زكاة أموالكم المفروضة أمرهم بفروع الاسلام بعد ما أمرهم بأصوله وفيه دليل على ان الكفار مخاطبون بها والزكاة مأخوذة من زكا الزرع اذا نما وكثر أو من الزكاة بمعنى الطهارة وكلا المعنيين موجود فى الزكاة فان اخراجها يستجلب بركة فى المال ويثمر للنفس فضيلة الكرم ويطهر المال من الخبث والنفس من البخل (واركعوا مع الراكعين) أى صلوا مع المصلين محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى جماعتهم فان صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ أى الفرد بسبع وعشرين لما فيها من تظاهر أى تعاون النفوس وعبر عن الصلاة بالركوع احترازا عن صلاة اليهود لان صلاتهم لم يكن فيها ركوع أى صلوا مع الذين فى صلاتهم ركوع وقيل الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع قال الشاعر

لا تذل الضعيف (ويروى لا تهين الفقير) علك (أى لعلك) ان * تركع يوما والدهر قد رفعه

فتركع من الركوع بمعنى الانحناء والميل واراد به الانحطاط من الرتبة * ونزل فى علماء اليهود

وكانوا

وكانوا يقولون لاقربائهم المسلمين سرا اثبتوا على دين محمد صلى الله عليه وسلم فانه حق ولا يتبعونه (أتأمرون الناس بالبر) أى بالايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فى ذلك تقريع مع توبيخ وتعجيب والبر شرعا التوسع فى الخير من البر بالفتح وهو الفضاء الواسع يتناول كل خير ولذلك قيل البر ثلاثة بر فى عبادة الله وبر فى معاملة الاقارب وبر فى معاملة الاجانب (وتنسون أنفسكم) أى تتركونها من البر كالمنسيات وقيل كانوا يامرون بالصدقة ولا يتصدقون (وأنتم تتلون الكتاب) أى التوراة وفيها الوعيد على العناد وترك البر ومخالفة القول العمل (أفلا تعقلون) سوء فعلكم فيصدكم عنه أو فلا عقل لكم يمنعكم عما تعملون من عدم موافقة عاقبته لكم والآية ناعية على من يعظ غيره ولا يتعظ بنفسه بسوء صنيعه وخبث نفسه وان فعله فعل الجاهل بالشرع أو الاحمق الخالى عن العقل فان الجامع بين العلم والعقل يأبى عن كونه واعظا غير متعظ نفسه والمراد بها حث الواعظ على تزكية النفس والاقبال عليها بالتكميل لها ليقوم نفسه ثم يقوم غيره لا منع الفاسق عن الوعظ فان الاخلال بأحد الامرين المأمور بهما لا يوجب الاخلال بالآخر ولكن روى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت ليلة اسرى بى رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب وعن اسامة رضى الله تعالى عنه انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه أى فتنقطع أمعاؤه فى النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أى فلان ما شأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر قال كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وانهاكم عن المنكر وآتيه وقال شعبة عن الاعمش فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه (واستعينوا) أى اطلبوا المعونة على أموركم (بالصبر) أى الحبس للنفس على ما تكره (والصلاة) أفردها بالذكر تعظيما لشأنها فانها جامعة لانواع العبادات النفسانية والبدنية من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما والتوجه الى الكعبة والعكوف للعبادة واظهار الخشوع بالجوارح واخلاص النية بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الرحمن وقراءة القرآن والتكلم بالشهادتين وكف النفس عن الاطيبين وهما الاكل والجماع روى الامام أحمد وغيره ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة أى لجأ اليها وحزبه بالحاء المهملة وزاى وباء موحدة أهمه ونزل به وقيل الخطاب لليهود فهو متصل بما قبله كأنهم لما أمروا بما شق عليهم لما فيه من الكلفة وترك الرياسة والاعراض عن المال أمروا بالصبر وهو الصوم ومنه سمى شهر رمضان شهر الصبر لانه يكسر الشهوة ويزهد فى الدنيا والصلاة لانها تورث الخشوع وتنفى الكبر وترغب فى الآخرة وقيل الواو بمعنى على أى واستعينوا بالصبر على الصلاة كما قال تعالى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ويحتمل أن يراد بالصلاة الدعاء (وانها) أى الصلاة ورد الكناية اليها لان الصبر داخل فيها لاستجماعها ضروبا من الصبر كما قال تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه

ولم يقل يرضوهما لان رضا الرسول داخل في رضا الله عز وجل أو لانه أعم كما في قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله رد الكناية الى الفضة لانها أعم وقيل رد الكناية الى كل منهما وأن كل خصلة منهما كما قال تعالى كلتا الجنتين آتت أكلها أي كل واحدة منهما وقيل معناه واستعينوا بالصبر وانه لكبير والصلاة وانها لكبيرة فحذف أحدهما اختصارا وقال الحسين بن الفضل رد الكناية الى الاستعانة (لكبيرة) أي ثقيلة شاقة كقوله تعالى كبر على المشركين ما تدعوهم اليه (الا على الخاشعين) أي الساكنين الى الطاعة والخشوع السكون قال تعالى وخشعت الاصوات للرحمن والخضوع اللين والانقياد ولذا يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب (الذين يظنون) أي يستيقنون واطلق الظن على العلم لتضمنه معنى التوقع (أنهم ملاقوا ربهم) بالبعث (وأنهم اليه راجعون) في الآخرة فيجازيهم بأعمالهم وانما لم تثقل عليهم ثقلها على غيرهم لان نفوسهم مرتاضة بامثالها متوقعة في مقابلتها ما يستحقر لاجل مشاقها وتستلذ بسببه متاعبها ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام وجعلت قرة عيني في الصلاة (يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) بالشكر عليها بطاعتي كرره للتوكيد وتذكير التفضل الذي هو أجل النعم خصوصا وربطه بالوعيد الشديد تخويفا لمن غفل عنها وأخل بحقوقها وعطف على نعمتي (وأني فضلتكم) أي آباءكم الذين كانوا في عصر موسى صلى الله عليه وسلم وبعده قبل أن يغيروا (على العالمين) أي عالمي زمانهم بما منحهم الله من العلم والايمان والعمل وجعلهم أنبياء وملوكا مقسطين وذلك التفضيل وان كان في حق الآباء ولكن يحصل به الشرف في الابناء واستدل بذلك على ان الاصلح لا يجب على الله لان تفضيلهم لو وجب عليه لم يجز جعله منة عليهم لان من أتى بما وجب عليه لا منة له به على أحد (واتقوا) خافوا (يوما) أي ما فيه من الحساب والعقاب وهو يوم القيامة (لا تجزى) أي لا تقضي (نفس عن نفس) فيه (شيأ) أي حقا لزمها ● (تنبيه) ● قول البيضاوي وايراده أي شيأ منكرا مع تنكير النفسين للتعميم والاقناط الكلي تبع فيه صاحب الكشاف وهو جار على مذهب المعتزلة من أنهم ينكرون الشفاعة للعصاة وسيأتي الجواب عن مذهبهم (ولا تقبل) بالتاء على التأنيث كما قرأ به ابن كثير وأبو عمرو بالياء على التذكير كما قرأ به الباقون (منها شفاعة) أي من النفس الثانية لقوله تعالى (ولا يؤخذ منها عدل) أي فداء (ولا هم ينصرون) أي يمنعون من عذاب الله اذ الضمير في الجملتين للنفوس العاصية ويصح رجوعه للنفس الاولى لانها المحدث عنها في قوله تعالى لا تجزي نفس عن نفس والثانية مذكورة على سبيل الفضلة لا العمدة وتذكير ضمير ولا هم ينصرون مع أن الضمير راجع للنفوس وكان المناسب هن بالتأنيث لانه بمعنى العباد أو الاناس كما تقول ثلاثة انفس بالتاء مع تأنيث النفس لتأويل النفوس بالاشخاص أو الرجال والنصرة أخص من المعونة لاختصاصه بدفع الضرر وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لاهل الكبائر وأجاب أهل السنة عن ذلك باجوبة ● منها ان الآية مخصوصة بالكفار للآيات والاحاديث الواردة في الشفاعة ويؤيد هذا أن الخطاب معهم وعلى هذا يتنزل قول البيضاوي المار

ويكون

ويكون المراد حينئذ أنه ليس لها شفاعة فتقبل كما قال تعالى حاكيا عنهم فما لنا من شافعين * ومنها ان الآية نزلت ردا لما كانت اليهود تزعم أن آباءهم تشفع لهم * ومنها أنها لا تشفع الا باذن الله (و) اذكروا (اذ نجيناكم) أى آباءكم الخطاب به وبما بعده للموجودين فى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم بما أنعم على آبائهم تذكيرا لهم بنعمة الله ليؤمنوا (من آل فرعون) أى أتباعه وأهل دينه والمشهور ان اصل آل أهل لان تصغيره أهيل وقال الكسائى وغيره أصله أول من آل يؤول اى رجع قلبت الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها وتصغيره أويل. (فان قيل) يرد الاول اختلاف أهل وآل معنى اذ الاهل القرابة والآل من يؤول اليك بقرابة أو رأى أو مذهب ولان الالف لم يثبت ابدالها من الهاء (أجيب) بأن القائل بالاول يجرى على القول بان اللفظتين بمعنى أو أراد بالاهل أحد معانى آل وأبدل الواو من الهاء لتقاربهما مخرجا وخص بالاضافة الى أولى القدر والشرف كالانبياء والملوك وانما قيل آل فرعون لتصوره بصورة الاشراف أو لشرفه فى قومه عندهم وفرعون هو الوليد بن مصعب بن ريان وكان من القبط من العمالقة وعمر أكثر من أربعمائة سنة (يسومونكم) يولونكم ويذيقونكم (سوء العذاب) أى أشده والجملة حال من الضمير فى نجيناكم أو من آل فرعون أو منهما جميعا لان فيها ضمير كل واحد منهم (يذبحون أبناءكم) المولودين (ويستحيون نساءكم) أى يتركونهن احياء هذا بيان ليسومونكم ولذلك لم يعطف وذلك ان فرعون لعنه الله رأى فى منامه كأن نارا أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر وأحرقت كل قبطى بها ولم تتعرض لبنى اسرائيل فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤياه فقالوا يولد فى بنى اسرائيل غلام يكون على يده هلاكك وزوال ملكك فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد فى بنى اسرائيل وجمع القوابل فقال لهن لا يسقطن على أيديكن غلام من بنى اسرائيل الا قتل ولا جارية الا تركت ووكل بالقوابل فكن يفعلن ذلك حتى قيل انه قتل فى طلب موسى اثنى عشر ألف صبى وقال وهب بلغنى أنه ذبح فى طلب موسى تسعين ألفا قالوا وأسرع الموت فى مشيخة بنى اسرائيل فدخل رؤس القبط على فرعون وقالوا ان الموت قد وقع فى بنى اسرائيل فتذبح صغارهم ويموت كبارهم فيوشك أن يقع العمل علينا فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة فولد هرون فى السنة التى لا يذبحون فيها وولد موسى فى السنة التى يذبحون فيها (وفى ذلكم بلاء) ان أشير به الى صنيعهم فهو محنة أو الى الانجاء فهو نعمة فان البلاء يكون بمعنى الشدة وبمعنى النعمة ويجوز أن يشار بذلكم الى الامرين فان الله تعالى قد يختبر على النعمة بالشكر وعلى الشدة بالصبر قال تعالى ونبلوكم أى نختبركم بالشر والخير فتنة (من ربكم) أى بتسليطهم عليكم أو ببعثة موسى وتوفيقه لتخليصكم أو بهما وقوله تعالى (عظيم) صفة بلاء وفى الآية تنبيه على أن ما يصيب العبد من خير أو شر اختبار من الله تعالى فعليه أن يشكر عند مساره ويصبر على مضاره ليكون من خير المختبرين (و) اذكروا (اذ فرقنا) فلقنا (بكم) أى بسببكم (البحر) حتى دخلتموه هاربين من عدوكم وذلك أن فرعون لما دنا هلاكه أمر الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام أن يسرى ببنى اسرائيل من مصر ليلا فأمر موسى

قومه أن يسرجوا في بيوتهم السرج الى الصبح وخرج موسى في ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتل لا يعدون ابن العشرين لصغره ولا ابن الستين لكبره وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب عليه الصلاة والسلام اثنين وسبعين انسانا ما بين رجل وامرأة فساروا وموسى على ساقتهم وهرون على مقدمتهم ثم علم بهم فرعون فجمع قومه وأمرهم أن لا يخرجوا في طلب بني اسرائيل حتى يصيح الديك قال ابن مسعود رضي الله عنه فوالله ما صاح ديك في تلك الليلة ثم خرج فرعون في طلبهم وعلى مقدمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف وكان فيهم سبعون ألفا من دهم الخيل سوى سائر الشيات قال محمد بن كعب وكان في عسكر فرعون مائة ألف حصان أدهم سوى سائر الشيات وكان فرعون في الدهم وقيل كان فرعون في سبعة آلاف ألف وكان بين يديه مائة ألف ناشب ومائة ألف أصحاب حراب ومائة ألف أصحاب الاعمدة فسارت بنو اسرائيل حتى وصلوا الى البحر والماء في غاية الزيادة ونظروا فاذا هم بفرعون حين أشرقت الشمس فبقوا متحيرين وقالوا يا موسى كيف تصنع وأين ما وعدتنا هذا فرعون خلفنا ان أدركنا قتلنا والبحر امامنا ان دخلناه غرقنا قال الله تعالى فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون قال موسى كلا ان معي ربي سيهدين فأوحى الله تعالى اليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فلم يطعه فأوحى الله تعالى اليه أن كنه فضربه وقال انفلق يا أبا خالد باذن الله فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم فظهر فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط طريق وارتفع الماء بين كل طريقين كالجبل وأرسل الريح والشمس على قعر البحر حتى صار يبسا فخاضت بنو اسرائيل البحر كل سبط في طريق وعن جانبيهم الماء كالجبل الضخم ولا يرى بعضهم بعضا فخافوا وقال كل سبط قد قتل اخواننا فأوحى الله تعالى الى جبال الماء أن تشبكي فصارت شبكا كالطاقات يرى بعضهم بعضا ويسمع بعضهم كلام بعض حتى عبروا البحر سالمين فذلك قوله تعالى (فَأَنجَيْنَاكُمْ) أي من آل فرعون (وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ) وذلك أن فرعون لما وصل البحر فرآه منفلقا قال لقومه انظروا الى البحر انفلق من هيبتي حتى أدرك عبيدي الذين أبقوا ادخلوا البحر فهاب قومه أن يدخلوه وقيل قالوا له ان كنت ربا فادخل البحر كما دخل يعني موسى وكان فرعون على حصان أدهم ولم يكن في خيل فرعون فرس أنثى فجاء جبريل على فرس أنثى فتقدمهم وخاض البحر فلما شم أدهم فرعون ريحها اقتحم البحر في أثرها وهم لا يرونه ولا يملك فرعون من أمره شيأ وهو لا يرى فرس جبريل واقتحمت الخيول خلفه في البحر وجاء ميكائيل على فرس خلف القوم يستحثهم ويسوقهم حتى لا يشذ رجل منهم ويقول لهم الحقوا بأصحابكم حتى خاضوا كلهم البحر وخرج جبريل من البحر وهم أولهم بالخروج فأمر الله البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم وغرقهم أجمعين وكان بين طرفي البحر أربعة فراسخ وهو بحر قلزم طرف من بحر فارس قال قتادة بحر من وراء مصر يقال له اساف وذلك بمرأى من بني اسرائيل فذلك قوله تعالى (وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) الى مصارعهم أو انطباق البحر عليهم أو انفلاق البحر عن طرق يابسة مذللة أو جثثهم التي قذفها البحر الى الساحل أو ينظر بعضكم بعضا واعلم أن هذه الواقعة من أعظم ما أنعم الله به على بني اسرائيل ومن

الايات

الآيات المبينة الى العلم بوجود الصانع الحكيم وتصديق موسى الكليم ثم انهم اتخذوا العجل
وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فهم بمعزل من الفطنة والذكاء وسلامة النفس وحسن
الاتباع عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم مع ان ما تواتر من معجزاته أمور نظرية مثل القرآن
والتحدي به والفضائل المجتمعة فيه الشاهدة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم دقيقة يدركها
الاذكياء (واذ وعدنا موسى) بغير ألف بين الواو والعين كما قرأه أبو عمرو والباقون بألف بين
الواو والعين لانه تعالى وعد موسى الوحي ووعد موسى ربه المجيء للميقات الى الطور وقيل
هذا من المفاعلة التي تكون من الواحد كعاقبت اللص وطارقت النعل وأمال حمزة ألف موسى
محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين (أربعين ليلة) أن يعطيه عند انقضائها
التوراة ليتعلوا بها وضرب له ميقاتا ذا القعدة وعشر ذي الحجة وعبر عنها بالليالي لانها غرر
الشهور وقيل لان الظلمة أقدم من الضوء وخلق الله تعالى الليل قبل النهار قال الله تعالى وآية
لهم الليل نسلخ منه النهار وقول البيضاوي ان ذلك الوعد لما عادوا الى مصر بعد هلاك فرعون
تبع في ذلك الكشاف ولم يعرف ذلك لغيرهما وانما كانوا بالشأم لان اتيان موسى للميقات كان
بطور سينا وهو بالشأم لا بمصر وقد قال البهاء بن عقيل في تفسيره لم يصرح أحد من المفسرين
والمؤرخين بأنهم دخلوا مصر بعد خروجهم منها (فان قيل) قوله تعالى فأخرجناهم من جنات
الى قوله تعالى وأورثناها بني اسرائيل يقتضي أنهم عادوا اليها (أجيب) بان المعنى أن الله تعالى
أورثهم وملكهم اياها ولم يردهم اليها وجعل مساكنهم الشأم (ثم اتخذتم) قرأ ابن كثير
وحفص عن عاصم اتخذتم باظهار الذال قبل التاء والباقون بادغام الذال في التاء (العجل)
الذي صاغه لكم السامري الها ومعبودا (من بعده) أي بعد ذهابه الى ميقاتنا وذلك أن بني
اسرائيل لما أمنوا من عدوهم ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون اليها فوعد الله تعالى موسى
أن ينزل عليهم التوراة فقال موسى لقومه اني ذاهب لميقات ربي آتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون
وما تذرون واستخلف أخاه هرون فلما أتاه الوعد جاءه جبريل على فرس يقال له فرس الحياة
لا يصيب شيأ الا حيي ليذهب بموسى الى ميقات ربه فلما رآه السامري وكان رجلا صائغا من
قبيلة يقال لها سامرة ورأى موضع قدم الفرس يخضر من ذلك وكان منافقا يظهر الاسلام وكان
من قوم يعبدون البقر ألقي في روعه انه اذا ألقي في شيء غيره وكانت بنو اسرائيل قد استعاروا
حليا كثيرا من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر لعمل عرس لهم فأهلك الله تعالى
فرعون وقومه فبقيت تلك الحلي في أيدي بني اسرائيل قال السدي فأمرهم هرون أن يلقوها
في حفرة حتى يرجع موسى ففعلوا فلما اجتمعت الحلي صاغها السامري عجلا من ذهب في ثلاثة أيام
مرصعا بالجواهر كأحسن ما يكون ثم ألقى فيه القبضة التي أخذها من تراب حافر فرس جبريل
فصار يخور ويمشي فقال السامري هذا الهكم واله موسى فنسي أي فتركه ههنا وخرج يطلبه
وكانت بنو اسرائيل قد أخلفوا الوعد فعدوا اليوم مع الليلة يومين فلما مضى عشرون يوما ولم
يرجع موسى وقعوا في الفتنة وقيل كان موسى وعدهم ثلاثين ليلة ثم زيدت العشرة قال تعالى

وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر وسيأتى الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى فى محله فكانت فتنتهم فى تلك العشرة فلما مضت الثلاثون ولم يرجع موسى ورأوا العجل وسمعوا قول السامرى عكف منهم ثمانية آلاف رجل على العجل يعبدونه وقيل كلهم عبدوه الا هرون مع اثنى عشر ألف رجل قال البغوى وهو الاصح وقال الحسن كلهم عبدوه الا هرون ولذلك قال تعالى (وأنتم ظالمون) أى باتخاذه لوضعكم العبادة فى غير محلها (ثم عفونا) محونا (عنكم) ذنوبكم حين تبتم والعفو محو الجريمة من عفى اذا درس (من بعد ذلك) أى الاتخاذ (لعلكم تشكرون) أى لكى تشكروا نعمتنا عليكم * (تنبيه) * انما قدرت لعل بكى أخذا مما قيل ان لعل فى القرآن بمعنى كى غير قوله تعالى فى الشعراء لعلكم تخلدون فانها بمعنى كأن أى كأنكم تخلدون (و) اذكروا (اذ آتينا موسى الكتاب) أى التوراة وقوله تعالى (والفرقان) عطف تفسير أى الفارق بين الحق والباطل والحلال والحرام وقيل أراد بالفرقان معجزات موسى كانفلاق البحر الفارقة بين المحق والمبطل فى الدعوى وبين الكفر والايمان (لعلكم تهتدون) أى لكى تهتدوا بتدبر الكتاب والتفكر فى الآيات من الضلال (و) اذكروا (اذ قال موسى لقومه) الذين عبدوا العجل (ياقوم انكم ظلمتم) قرأ ورش بتغليظ اللام والباقون بالترقيق (أنفسكم باتخاذكم العجل) الها قالوا فأى شئ نصنع قال (فتوبوا) أى ارجعوا عن عبادة العجل (الى بارئكم) أى خالقكم وقرأ أبو عمرو باسكان الهمزة وروى عن الدورى باختلاس الحركة وروى عن السوسى ابدالها ياء ساكنة وأمال الدورى عن الكسائى الالف بعد الباء الموحدة واذا وقف حمزة على بارئكم سهل الهمزة بين بين قالوا كيف نتوب قال (فاقتلوا أنفسكم) أى ليقتل منكم البرىء من عبادة العجل من عبده وقيل المراد بالقتل قطع الشهوة كما قيل من لم يعذب نفسه لم ينعمها ومن لم يقتلها لم يحيها ورد هذا جماعة باجماع المفسرين على أن المراد هنا القتل الحقيقى (ذلكم) أى القتل (خير لكم عند بارئكم) من حيث انه طهرة عن الشرك ووصلة الى الحياة الابدية والبهجة السرمدية فلما أمرهم موسى بالقتل قالوا نصبر لامر الله فجلسوا بالافنية محتبين وقيل لهم من حل حبوته أو مد طرفه الى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل فهو ملعون مردودة توبته وأصلت القوم عليهم الخناجر فكان الرجل يرى ابنه وأباه وأخاه وقريبه فلم يمكنه المضى لامر الله فقالوا ياموسى كيف نفعل فأرسل الله عليهم ضبابة تشبه سحابة تغشى الارض كالدخان وسحابة سوداء لا يبصر بعضهم بعضا فكانوا يقتتلون الى المساء فلما كثر القتل دعا موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام وبكيا وتضرعا وقالا يارب هلكت بنو اسرائيل البقية البقية فكشف الله تعالى السحابة عنهم وأمرهم أن يكفوا عن القتل فكشفت عن ألوف من القتلى روى عن على رضى الله تعالى عنه أنه قال عدد القتلى سبعون ألفا فاشتد ذلك على موسى فأوحى الله تعالى اليه أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة فكان من قتل منهم شهيدا ومن بقى مكفرا عنه ذنوبه فذلك قوله تعالى (فتاب عليكم) أى فعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم أى فتجاوز عنكم وقبل توبتكم * (تنبيه) * ذكر البارئ فى قوله تعالى

فتوبوا الى بارئكم وترتيب الامر بالقتل عليه اشعار بأنهم بلغوا غاية الجهالة والغباوة حتى تركوا عبادة خالقهم الحكيم الى عبادة البقر التى هى مثلهم فى الغباوة وأن من لم يعرف حق منعمه حقيق بأن يسترد منه ما أنعم به عليه ولذلك أمروا بفك تركيب ذواتهم بالقتل (انه هو التواب) أى الذى يكثر قبول التوبة من المذنبين (الرحيم) أى البالغ فى الانعام على خلقه

(واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وذلك أن الله تعالى أمر موسى عليه الصلاة والسلام أن يأتيه فى ناس من بنى اسرائيل يعتذرون اليه من عبادة العجل فاختار موسى سبعين رجلا من خيار قومه وقال لهم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ففعلوا فخرج موسى الى طور سينا لميقات ربه فقالوا لموسى اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال لهم افعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام فغشى الجبل كله فدخل فى الغمام وقال للقوم ادنوا فدنوا حتى دخلوا فى الغمام وخروا سجدا وكان موسى اذا كلمه ربه وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر اليه فضرب دونهم الحجاب وسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه وأسمعهم الله تعالى انى أنا الله لا اله الا أنا أخرجتكم من أرض مصر بيد شديدة فاعبدونى ولا تعبدوا غيرى فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل عليهم فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة عيانا وذلك أن العرب تجعل العلم بالقلب رؤية فقالوا جهرة ليعلم أن المراد منه العيان روى عن السوسى امالة الالف بعد الراء فى نرى وترقيق اللام من اسم الله وروى عنه تفخيم اللام مع الامالة وله وجه ثالث كالجماعة وهو عدم الامالة مع تفخيم اللام (فان قيل) كيف تمال الالف وهى تسقط عند التقاء الساكنين (أجيب) بأنه لولا امالتها ما أميلت الراء لان القارئ اذا أراد أن يميل الالف لا يتمكن من الامالة الا بامالة ما قبله (فأخذتكم الصاعقة) أى الصيحة فمتم وقيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم وذلك لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل فانهم ظنوا أنه تعالى يشبه الاجسام فطلبوا رؤيته رؤية الاجسام فى الجهات والاحياز المقابلة للرائى وهى محال بل المراد أن يرى رؤية منزهة عن الكيفية وذلك للمؤمنين فى الآخرة ولافراد من الانبياء فى بعض الاحوال فى الدنيا (وأنتم تنظرون) أى ينظر بعضكم الى بعض حين أخذكم الموت وقيل تعلمون ويكون النظر بمعنى العلم فلما هلكوا جعل موسى يبكى ويتضرع ويقول ماذا أقول لبنى اسرائيل اذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم لو شئت أهلكتهم من قبل واياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله تعالى رجلا بعد رجل بعد ما ماتوا ليلة ينظر بعضهم الى بعض كيف يحيون كما قال تعالى (ثم بعثناكم) أى أحييناكم والبعث اثارة الشئ عن محله يقال بعثت البعير فانبعث وبعثت النائم فانبعث (من بعد موتكم) بسبب الصاعقة قال قتادة أحياهم ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم ولو ماتوا بآجالهم لم يبعثوا وقيد البعث بعد الموت لانه قد يكون عن اغماء أو نوم كقوله تعالى فضربنا على آذانهم فى الكهف الى أن قال ثم بعثناهم أى من النوم (لعلكم تشكرون) نعمة البعث أو ما كفرتموه من النعم المتتابعة (وظللنا عليكم الغمام) فى التيه يقيكم حر الشمس

والغمام من الغم وأصله التغطية والستر سمى السحاب غماما لانه يغطى وجه الشمس وذلك أنه لم يكن لهم فى التيه كن يسترهم فشكوا الى موسى صلى الله وسلم عليه فارسل الله غماما أبيض رقيقا أطيب من غمام المطر وجعل لهم عمودا من نور يضئ لهم بالليل اذا لم يكن قمر يسيرون فى ضوئه وكانت ثيابهم لا تتسخ ولا تبلى وغلظ ورش اللام المفتوحة بعد الظاء (وأنزلنا عليكم المن والسلوى) فى التيه والاكثرون على أن المن هو الترنجبين قال مجاهد هو شئ كالصمغ كان يقع على الاشجار طعمه كالشهد وكان يقع كل ليلة على أشجارهم مثل الثلج لكل انسان منهم صاع فقالوا ياموسى قتلنا هذا المن بحلاوته فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم فأنزل الله عليهم السلوى جمع سلواة وهو الطير السمانى بتخفيف الميم والقصر جمع سماناة وهو الطير المعروف وقيل هو طائر يشبهه بعث الله سحابة فطرت السمانى فى عرض ميل وطول رمح فى السماء بعضه على بعض فكان الله تعالى ينزل عليهم المن والسلوى كل صباح من طلوع الفجر الى طلوع الشمس فكان كل واحد منهم يأخذ ما يكفيه يوما وليلة واذا كان يوم الجمعة يأخذ كل واحد منهم ما يكفيه ليومين لانه لم يكن ينزل يوم السبت وقرأ السلوى حمزة والكسائى بالامالة محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح و بين اللفظين (فان قيل) لم قدم فى الآية المن على السلوى مع أنها غذاء والمن حلواء والعادة تقديم الغذاء على الحلواء (أجيب) بأن نزول المن من السماء أمر مخالف للعادة فقدم لاستعظامه بخلاف الطيور المأكولة وأيضا هو مقدم فى النزول عليهم (كلوا) على ارادة القول أى قلنا لهم كلوا (من طيبات) حلالات (ما رزقناكم) ولا تدخروا لغد فكفروا النعمة وادخروا فقطع الله ذلك عنهم ودود وفسد ما ادخروه وقوله تعالى (وما ظلمونا) أى بذلك فيه اختصار وأصله فظلموا بأن كفروا بهذه النعم وما ظلمونا (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) لان وباله عليهم روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا بنو اسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر (واذ قلنا) لهم بعد خروجهم من التيه (ادخلوا هذه القرية) أى بيت المقدس كما قاله مجاهد أو أريحاء بفتح الهمزة وكسر الراء وبالحاء المهملة كما قاله ابن عباس وهى قرية الجبارين كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة ورأسهم عوج بن عنق قال ابن الاثير وهى قرية بالغور قريبة من بيت المقدس وقيل البلقاء وقيل الرملة والاردن وفلسطين وقيل الشأم سميت القرية قرية لانها تجمع أهلها ومنه المقراة للحوض لانها تجمع الماء (فكلوا منها حيث شئتم رغدا) أى واسعا لاحجر فيه (وادخلوا الباب) أى بابا من أبواب القرية وكان لها سبعة أبواب (سجدا) أى متطامنين منحنين أو ساجدين السجود الشرعى لله شكرا على اخراجكم من التيه (وقولوا) مسئلتنا (حطة) أى أن تحط عنا خطايانا قال قتادة أمروا بالاستغفار وقال ابن عباس بلا اله الا الله لانها تحط الذنوب وقيل معناه أمرنا حطة أى شأننا أن نحط فى هذه القرية ونقيم فيها حتى ندخل الباب سجدا مع التواضع (نغفر لكم خطاياكم) بسجودكم ودعائكم وقرأ نافع بياء مضمومة على التذكير مع فتح الفاء وقرأ ابن عامر تغفر بتاء مضمومة

على التأنيث مع فتح الفاء أيضا وقرأ الباقون بالنون مفتوحة مع كسر الفاء وقرأ الكسائي
خطايا كم بالامالة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (وسنزيد المحسنين) بالطاعة ثوابا
جعل الله تعالى امتثال قوله وقولوا حطة توبة للمسيء وسبب زيادة الثواب للمحسنين (فان قيل)
كيف عطف وسنزيد مع أنه مرفوع على نغفر مع أنه مجزوم جوابا للامر (أجيب) بأنه أخرجه
عن صورة الجواب الى الوعد ايهاما بأن المحسن بصدد ذلك وان لم يفعله فكيف اذا فعله وانه
يفعله لا محالة وسبب اخراج ما ذكر عن صورة الجواب الى الوعد أن الزيادة اذا كانت من وعد
الله كانت أعظم مما اذا كانت مسببة عن فعلهم (فبدل الذين ظلموا) منهم (قولا غير الذى قيل
لهم) فقالوا حبة فى شعرة ودخلوا يزحفون على استاههم مخالفة فى الفعل كما بدلوا القول روى
معمر عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل لبنى
اسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فبدلوا فدخلوا يزحفون على استاههم وقالوا حبة
فى شعرة وفى رواية فى شعيرة وقوله تعالى (فأنزلنا على الذين ظلموا) فيه وضع الظاهر موضع
المضمر مبالغة فى تقبيح أمرهم واشعارا بأن انزال الرجز عليهم لظلمهم بوضع غير المأمور به
موضعه أو على أنفسهم بأنهم تركوا ما يوجب نجاتها الى ما يوجب هلاكها (رجزا) أى عذابا
مقدرا (من السماء) وقيل أرسل الله عليهم طاعونا فهلك منهم فى ساعة واحدة سبعون ألفا
وقيل أربعة وعشرون ألفا (بما كانوا يفسقون) أى بسبب فسقهم أى خروجهم عن الطاعة
(واذ استسقى موسى) طلب السقيا (لقومه) وذلك أنهم عطشوا فى التيه فسألوا موسى أن
يستسقى لهم ففعل فأوحى الله اليه كما قال (فقلنا اضرب بعصاك الحجر) وكانت من آس الجنة
بالمد أى شجرها وهو المرسين وروى عن ابن عباس أنها كانت من عوسج طولها عشرة أذرع
على طول موسى وكان لها شعبتان تتقدان فى الظلمة نورا واسمها عليق وقال مقاتل اسمها نبعة
حملها آدم من الجنة فتوارثها الانبياء حتى وصلت الى شعيب فأعطاها موسى واللام فى الحجر
للعهد على ما روى أنه كان حجرا طوريا مكعبا حمله معه كان له أربعة أوجه ينبع من كل وجه
ثلاثة أعين تسيل كل عين فى جدول الى سبط وكانوا ستمائة ألف وسعة العسكر اثنا عشر ميلا
أو حجرا أهبطه آدم من الجنة ودفع الى شعيب فأعطاه لموسى مع العصا أو الحجر الذى فر بثوبه لما
وضعه عليه ليغتسل ومر به على ملا من بنى اسرائيل وهو حجر خفيف مربع كرأس الرجل رخام
أو كذان وبرأه الله تعالى به عما رموه به من الادرة وهى بضم الهمزة كبر الانثيين فلما وقف أتاه
جبريل عليه الصلاة والسلام فقال ان الله تعالى يقول ارفع هذا الحجر فلى فيه قدرة ولك فيه
معجزة أو للجنس قال البيضاوى وهذا أظهر فى الحجة ويدل له قول وهب لم يكن حجرا معينا
بل كان موسى يضرب أى حجر كان فينفجر عيونا لكل سبط عين ثم تسيل كل عين فى جدول الى
السبط الذى أمر أن يسقيهم وكان بنو اسرائيل اثنى عشر سبطا ولكن لما قالوا كيف بنا
لو أفضينا الى أرض لا حجارة فيها حمل حجرا فى مخلاته وكان يضرب بعصاه اذا نزل فينفجر ويضربه
بها اذا ارتحل فييبس فقالوا ان فقد موسى عصاه متنا عطشا فأوحى الله تعالى اليه لا تقرع

الحجارة وكلها قطعك لعلهم يعتبرون وقوله تعالى (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) متعلق بمحذوف أى فضرب به فانفجرت أى سالت قال أبو عمرو بن العلاء انبجست عرقت وانفجرت سالت وقال عطاء كان يضرب به موسى اثنتى عشرة ضربة فيظهر على كل موضع ضربة مثل ثدى المرأة فيعرق ثم تنفجر الانهار ثم تسيل (قد علم كل أناس) أى سبط منهم (مشربهم) أى عينهم التى يشربون منها لا يدخل سبط على غيره فى شربه وقلنا لهم (كلوا واشربوا من رزق الله) أى كلوا من المن والسلوى واشربوا من الماء فهذا كله من رزق الله الذى يأتيكم بلا مشقة (ولا تعثوا) أى لا تعتدوا (فى الارض مفسدين) أى حال افسادكم وانما قيده لانه وان غلب فى الفساد قد يكون منه ما ليس بفساد كمقابلة الظالم المعتدى بفعله ومنه ما يتضمن اصلاحا راجحا على الفساد كقتل الخضر الغلام وخرقه السفينة * (تنبيه) * من أنكر أمثال هذه المعجزات فلغاية جهله بالله تعالى وقلة تدبره فى عجائب صنعه فانه لما أمكن أن يكون من الاحجار ما يحلق الشعر كالنورة ويجذب الحديد كالمغناطيس وينفر الخل كالكهربان فانه اذا وضع فى اناء لا يحصل الخل فى ذلك الاناء لم يمتنع أن يخلق الله حجرا يسخره لجذب الماء من تحت الارض أو لجذب الهواء من الجوانب الاربعة ويصيره ماء بقوة التدبير ونحو ذلك (و) اذكروا (اذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد) وذلك أنهم سئموا من أكل المن والسلوى وانما عبر عنهما بطعام واحد لعدم تبدلهما كقول العرب طعام مائدة الامير واحد يريدون أنه لا يتغير ألوانه أو لان العرب تعبر عن الاثنين بلفظ الواحد كما تعبر عن الواحد بلفظ الاثنين كقوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وانما يخرج من الملح دون العذب أو لانهم كانوا يعجنون المن بالسلوى فيصيرا واحدا أو لانهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فكانا كطعام واحد أو ضرب واحد لانهما معا طعام أهل التلذذ وهم كانوا أهل فلاحة أى أهل زراعات فاشتاقوا الى أصلهم الردىء وعادتهم الخبيثة ولذا قالوا (فادع لنا ربك) أى فسل لاجلنا ربك (يخرج لنا) يظهر لنا ويوجد وجزمه بأنه جواب فادع فان دعوة موسى تسبب الاجابة وقوله تعالى (مما تنبت الارض) من الاسناد المجازى واقامة القابل وهى الارض لانها قابلة للنبات مقام الفاعل ومن فى قولهم مما تنبت للتبعيض ومن فى قولهم (من بقلها) للبيان والبقل ما تنبته الارض من الخضر وهو ما ليس له ساق والمراد به أطايبه التى تؤكل كالكرفس والنعناع والكراث (وقثائها وفومها) وهو الخبز كما قاله ابن عباس ومنه فوموا لنا أى اخبزوا أو الحنطة كما قاله عطاء أو الثوم كما قاله الكلبى (وعدسها وبصلها قال) أى الله أو موسى (أتستبدلون الذى هو أدنى) أى أخس وأردأ وأصل الدنو القرب فى المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد فى الشرف والرفعة فقيل بعيد الهمة بعيد المحل (بالذى هو خير) أى أشرف وهو المن والسلوى فانه خير فى اللذة والنفع وعدم الحاجة الى السعى أى أتأخذون هذا بدل هذا والهمزة للانكار فأبوا أن يرجعوا فدعا موسى ربه فقال تعالى (اهبطوا) اى انزلوا فان هبط يستعمل متعديا بنفسه كما هنا فيكون بمعنى النزول ويستعمل متعديا بمن فيكون بمعنى الخروج من مكان الى آخر مساوله أو أعلى منه (مصرا) من الامصار والمصر البلد العظيم

لا العلم بفتح اللام وقيل أراد به العلم وهي مصر موسى وفرعون قال البيضاوي ويؤيده أي القول بأن المراد بمصر العلم انه غير منوّن في مصحف ابن مسعود أي وهي قراءة شاذة وانما صرفه على هذا مع أن فيه العلمية والتأنيث لسكون وسطه كما في هند ودعد لمعادلة أحد سببي منع الصرف بخفة الاسم لسكون وسطه أو على تأويل مصر بالمكان فذكره فيبقى فيه سبب واحد فانصرف (فان لكم) فيه (ما سألتم) من نبات الارض (وضربت عليهم) أي أحيطت احاطة القبة بمن ضربت عليه أو ألصقت بهم من ضرب الطين على الحائط (الذلة) أي الذل والهوان وقيل الجزية (والمسكنة) أي الفقر وسمي الفقير مسكينا لان الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة وفعل بهم ذلك مجازاة لهم على كفران النعمة ولذلك تجد اليهود في غالب الامر أذلاء مساكين اما على الحقيقة أو على التكلف مخافة أن تضاعف جزيتهم وقيل الذلة فقر القلب فلا ترى في أهل الملل أذل وأحرص على المال من اليهود وقرأ حمزة والكسائي عليهم بضم الهاء والميم وصلا وفي الوقف حمزة على أصله والكسائي بكسرها وأبو عمرو بكسر الهاء والميم وقفا ووصلا وباقي القراء بكسر الهاء وضم الميم وصلا وفي الوقف بكسر الهاء وسكون الميم (وباؤا) رجعوا (بغضب من الله) ولا يقال باء الا بشر وأصل البوء المساواة وقال أبو عبيدة احتملوه وأقروا به ومنه الدعاء أبوء بنعمتك وأبوء بذنبي أي أقر وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى ما مرّ من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب (بأنهم) أي بسبب أنهم (كانوا يكفرون بآيات الله) بصفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم في التوراة ويكفرون بالانجيل والقرآن وبالمعجزات التي من جملتها ما عدّ عليهم من فلق البحر واظلال الغمام وانزال المنّ والسلوى وانفجار العيون من الحجر (ويقتلون النبيين بغير الحق) أي ظلما فانهم قتلوا شعياء وزكريا ويحيى وغيرهم روي ان اليهود قتلوا سبعين نبيا في أوّل النهار وقامت سوق بقلهم آخر النهار (فان قيل) لم قال بغير الحق وقتل النبيين لا يكون الا بغير الحق (أجيب) بأنه ذكره وصفا للقتل والقتل يوصف تارة بالحق وتارة بغير الحق وهو مثل قوله تعالى قل رب احكم بالحق ذكر الحق وصفا للحكم لان حكمه ينقسم الى الجور والحق أو أنه بغير الحق عندهم اذ لم يروا منهم ما يعتقدبه جواز قتلهم (فان قيل) ان الله تعالى قد أخبر بقتل الانبياء ونصر الرسل فكيف الجمع (أجيب) بأن المحل مختلف اذ الرسول غير النبي وبأن المراد بالنصر الغلبة باظهار الحجة لا العصمة من القتل وانما حملهم على ذلك اتباع الهوى وحب الدنيا كما أشار اليه تعالى بقوله (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أي بجرمهم العصيان والتمادي والاعتداء فيه الى الكفر بالآيات وقتل النبيين فان صغار الذنوب أسباب تؤدّي الى ارتكاب كبارها كما ان صغار الطاعات أسباب مؤدية الى تحري كبارها وكرر الاشارة للدلالة على ان ما لحقهم كما هو بسبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصي واعتدائهم حدود الله وقيل الاشارة الى الكفر والقتل والباء بمعنى مع وعلى هذا انما جوزت الاشارة بالمفرد الى شيئين فصاعدا على تأويل ما ذكر والذي حسن ذلك ان تثنية المضمرات والمبهمات وجمعها وتأنيثها ليست على الحقيقة ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع وقرأ النبيئين

نافع بالهمزة والباقون بالياء وورش على أصله في الهمز بالمد والتوسط والقصر (ان الذين آمنوا) بالانبياء من قبل (والذين هادوا) أى اليهود سموا به لقولهم انا هدنا اليك أى ملنا اليك وقيل لانهم هادوا أى تابوا من عبادة العجل وكأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه الصلاة والسلام وقال أبو عمرو بن العلاء لانهم يتهودون أى يتحركون عند قراءة التوراة و يقولون ان السموات والارض تحركت حين آتى الله موسى التوراة (والنصارى) جمع نصرانى كندامى والياء فى نصرانى للمبالغة سموا بذلك لانهم نصروا المسيح قال الحواريون نحن أنصار الله (فان قيل) هذا ليس جاريا على قواعد الاشتقاق فانه يقال للواحد ناصر وفاعل لا يجمع على فعالى (أجيب) بأن ذلك كاف فى الاشتقاق وان لم يجمع المفرد على فعالى أولانهم كانوا معه فى قرية يقال لها نصران أو ناصرة فسموا باسمها على الاول أو من اسمها على الثانى (والصابئين) هم طائفة من النصارى وقيل من اليهود وقيل قوم بين النصارى والمجوس وقيل أصل دينهم دين نوح عليه الصلاة والسلام وقيل هم عبدة الملائكة أو الكواكب وقرأ نافع وحده بالياء اما لانه خفف الهمزة أو لانه من صبا اذا مال لانهم مالوا عن سائر الاديان الى دينهم أو من الحق الى الباطل والباقون بالهمزة بعد الباء الموحدة (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) أى من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدقا بقلبه وبالمبدا والمعاد عاملا بمقتضى شرعه وقيل من آمن من هؤلاء الكفرة ايمانا خالصا ودخل الاسلام دخولا صادقا (فلهم أجرهم) أى ثواب أعمالهم (عند ربهم) بأن يدخلهم الجنة (ولا خوف عليهم) فى الدنيا (ولا هم يحزنون) فى الآخرة أوحين يخاف الكفار من العقاب ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب * (تنبيه) * روعى فى ضمير آمن وعمل لفظ من وفيما بعده معناها ومن مبتدأ خبره فلهم أجرهم والجملة خبر ان أو بدل من اسم ان وخبرها فلهم أجرهم والفاء لتضمن المسند اليه معنى الشرط وقد منع سيبويه دخولها فى خبر ان من حيث انها لا تدخل الشرطية ورد بقوله تعالى ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم (و) اذكروا (اذ أخذنا ميثاقكم) أى عهدكم باتباع موسى والعمل بما فى التوراة (و) قد (رفعنا فوقكم الطور) أى الجبل حتى أعطيتم الميثاق روى أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاءهم بالتوراة ورأوا ما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم لانها كانت شريعة ثقيلة وأبوا قبولها فأمر الله تعالى جبريل بقلع الطور فظلله فوقهم وكان على قدر عسكرهم وكان فرسخا فى فرسخ فرفعه فوق رؤسهم مقدار قامة رجل كالظلة وقال لهم ان لم تقبلوا التوراة أرسلت هذا الجبل عليكم وقال عطاء عن ابن عباس رفع الله فوق رؤسهم الطور وبعث نارا من قبل وجوههم وأتاهم البحر الملح من خلفهم وقيل لهم فان قبلتم والا رضختكم بهذا الجبل أو أغرقتكم فى هذا البحر أو أحرقتكم بهذه النار فلما رأوا أن لا مهرب لهم من ذلك قبلوا وسجدوا وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود فصارت سنة فى اليهود لا يسجدون الا على انصاف وجوههم ويقولون بهذا السجود رفع العذاب عنا (خذوا) هو على ارادة القول أى وقلنا خذوا

ما

(ما آتيناكم) من الكتاب (بقوة) بجد وعزيمة (واذكروا مافيه) بالعمل به أو تفكروا فيه فانه تذكر بالقلب كما ان الدرس ذكره باللسان أو ادرسوه ولا تنسوه (لعلكم تتقون) لكي تتقوا النار أو والمعاصي (ثم توليتم) أعرضتم عن الوفاء بالميثاق (من بعد ذلك) أي بعد أخذه (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) أي بتوفيقكم للتوبة أو بالامهال وتأخير العذاب عنكم أو بارسال محمد صلى الله عليه وسلم يدعوكم الى الحق ويهديكم اليه (لكنتم من الخاسرين) أي من المغبونين بالانهماك في المعاصي أو بالعقوبة وذهاب الدنيا والآخرة * (تنبيه) * لو في الاصل لامتناع الشيء لامتناع غيره فاذا دخل على لا أفاد اثباتا وهو امتناع الشيء لثبوت غيره والاسم الواقع بعده عند سيبويه مبتدأ خبره واجب الحذف لدلالة الكلام عليه وسد الجواب مسده وعند الكوفيين فاعل فعل محذوف (ولقد علمتم) اللام موطئة للقسم أي عرفتم (الذين اعتدوا) تجاوزوا الحد (منكم في السبت) بصيد السمك وذلك انهم كانوا زمن داود عليه الصلاة والسلام بأرض يقال لها ايلة حرم الله تعالى عليهم صيد السمك يوم السبت فكان اذا دخل السبت لم يبق حوت في البحر الا حضر هناك وأخرج خرطومه حتى لا يرى الماء من كثرتها فاذا مضى تفرقت ولزمت قعر البحر فذلك قوله تعالى اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ثم ان الشيطان وسوس اليهم وقال انما نهيتم عن أخذها يوم السبت فعمد رجال فحفروا الحياض حول البحر وشرعوا منه اليها الانهار فاذا كان عشية الجمعة فتحوا تلك الانهار فأقبل الموج بالحيتان الى الحياض فلا تقدر على الخروج لبعد عمقها وقلة مائها فاذا كان يوم الاحد أخذوها فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم ففعلوا ذلك زمانا ولم تنزل عليهم عقوبة فتجرؤا على الذنب وقالوا ما نرى السبت الا قد أحل لنا فأكلوا وملحوا وباعوا فلما فعلوا ذلك صار أهل القرية وكانوا نحوا من سبعين ألفا ثلاثة أصناف صنف أمسك ونهى وصنف أمسك ولم ينه وصنف انتهك الحرمة وكان الناهون اثني عشر ألفا فلما أبى المجرمون قبول نصحهم قالوا والله لا نساكنكم في قرية واحدة فقسموا القرية بجدار (فقلنا لهم) لاصرارهم على المعصية (كونوا قردة خاسئين) أي مبعدين فخرج الناهون ذات يوم من بابهم ولم يخرج من المجرمين أحد ولم يفتحوا بابهم فلما أبطأوا تسوروا على الحائط فاذا هم جميعا قردة لها اذناب يتعاوون قال قتادة صار الشبان قردة والشيوخ خنازير فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يمكث ممسوخ فوق ثلاثة أيام ولم يتوالدوا وقال مجاهد ما مسخت صورتهم ولكن قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار كما في قوله تعالى كمثل الحمار يحمل اسفارا رواه عنه ابن جرير ورده وقال انه مخالف لظاهر القرآن والاحاديث والآثار واجماع المفسرين وقوله تعالى كونوا ليس بأمر اذ لا قدرة لهم عليه وانما المراد به سرعة التكوين وانهم صاروا كذلك كما أراد بهم (فجعلناها) أي تلك العقوبة (نكالا) أي عبرة تنكل المعتبر بها أي تمنعه من ارتكاب مثل ما عملوا ومنه النكول عن اليمين وهو الامتناع (لما بين يديها وما خلفها) أي للامم التي في زمانها وبعدها أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد

عنها أو لاهل تلك القرية وما حواليها أو لاجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر منها (وموعظة للمتقين) الله من قومهم أو لكل متق سمعها وخصوا بالذكر لانهم المنتفعون بها بخلاف غيرهم (و) اذكر (اذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم) قرأ أبو عمرو بسكون الراء وروى عن الدورى اختلاس الحركة والباقون بالحركة الكاملة والحركة ضمة (أن تذبحوا بقرة) أول هذه القصة قوله تعالى واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها وانما فككت عنه وقدمت عليه لاستقلاله بنوع آخر من مساويهم وهو الاستهزاء بالامر والاستقصاء فى السؤال وترك المسارعة الى الامتثال وقصته أنه كان فيهم رجل غنى وله ابن عم فقير لا وارث له سواه فلما طال عليه موته قتله ليرثه وحمله الى قرية أخرى فألقاه ببابها ثم أصبح يطلب ديته وجاء بناس الى موسى يدعى عليهم القتل فسألهم فجحدوا فاشتبه أمر القتيل على موسى قال الكلبى وذلك قبل نزول القسامة فى التوراة فسألوا موسى ليدعو الله ليبين لهم بدعائه فدعا فأمرهم الله تعالى بذبح بقرة ويضربوا القتيل ببعضها ليحيا فيخبر بقاتله فقال موسى ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة (قالوا أتتخذنا هزوا) أى أتستهزئ بنا نحن نسأل عن أمر القتيل وتأمرنا بذبح بقرة وانما قالوا ذلك استبعادا لما قاله واستخفافا به قرأ حمزة بسكون الزاى فى الوصل واذا وقف قال هزا بنصب الزاى من غير همز وروى عنه الادغام وهو أن يشدد الزاى وقرأ حفص هزوا بضم الزاى بعدها واو مفتوحة وقفا ووصلا والباقون بضم الزاى بعدها همزة مفتوحة (قال أعوذ) أى امتنع (بالله) من (أن أكون من الجاهلين) لان الهزء فى مثل ذلك جهل وسفه نفى عن نفسه ما رمى به على طريقة البرهان وأخرج ذلك فى صورة الاستعاذة استفظاعا له فلما علم القوم أن ذبح البقرة عزم من الله استوصفوه ولو أنهم عمدوا الى أدنى بقرة فذبحوها لاجزأت عنهم ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم وكان تحته حكمة وذلك أنه كان فى بنى اسرائيل رجل صالح له ابن طفل وله عجلة أتى بها الى غيضة وقال اللهم انى استودعتك هذه العجلة لابنى حتى يكبر ومات الرجل فصارت العجلة فى الغيضة عوانا وكانت تهرب من كل من رآها فلما كبر الابن كان بارا بوالدته فكان يقسم الليل أثلاثا يصلى ثلثا وينام ثلثا ويجلس عند رأس أمه ثلثا فاذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره فيأتى به السوق فيبيعه بما شاء الله ثم يتصدق ثلثه ويأكل ثلثه ويعطى والدته ثلثه فقالت له أمه يوما ان أباك ورثك عجلة استودعها الله فى غيضة كذا فانطلق وادع الله اله ابراهيم واسمعيل واسحق أن يردها عليك وعلامتها انك اذا نظرت اليها يخيل لك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها وكانت تلك البقرة تسمى المذهبة لحسنها وصفرتها فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى فصاح بها وقال أعزم عليك باله ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب فأقبلت تسعى اليه حتى قامت بين يديه فقبض على عنقها يقودها فتكلمت البقرة باذن الله وقالت أيها الفتى البار بوالدته اركبنى فان ذلك أهون عليك فقال الفتى ان أمى لم تأمرنى بذلك ولكن قالت خذ بعنقها فقالت البقرة باله بنى اسرائيل لو ركبتنى ما كنت تقدر على أبدا فانطلق فانك لو أمرت الجبل أن ينقطع من أصله وينطلق معك لفعل لبرك بأمك فسار الفتى

بها الى أمه فقالت له انك فقير لا مال لك ويشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل فانطلق فبع هذه البقرة فقال بكم أبيعها قالت بثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتي وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير فانطلق بها الى السوق فبعث الله ملكا ليرى خلقه قدرته وليختبر الفتى كيف بره بوالدته وكان الله به خبيرا فقال الملك له بكم تبيع هذه البقرة فقال بثلاثة دنانير واشترط عليك رضا والدتي فقال الملك لك ستة دنانير ولا تستأمر والدتك فقال الفتى لو أعطيتني وزنها ذهبا لم آخذه الا برضا أمي فردها الى أمه وأخبرها بالثمن فقالت ارجع فبعها بستة دنانير على رضا مني فانطلق بها الى السوق وأتى الملك فقال استأمرت أمك فقال الفتى انها أمرتني أن لا أنقصها عن ستة دنانير على ان استأمرها فقال الملك انى أعطيك اثني عشر دينارا على أن لا تستأمرها فأبى الفتى ورجع الى أمه وأخبرها بذلك فقالت ان الذي يأتيك ملك في صورة آدمي ليختبرك فاذا أتاك فقل له أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا فقال الملك له اذهب الى أمك وقل لها امسكي هذه البقرة فان موسى بن عمران يشتريها منك لقتيل يقتل في بني اسرائيل فلا تبيعوها الا بملء مسكها أي جلدها ذهبا دنانير فأمسكوها وقدر الله تعالى على بني اسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها فما زالوا يستوصفونها حتى وصف لهم تلك البقرة مكافأة له على بره بوالدته فضلا منه تعالى ورحمة فذلك قوله عز وجل (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) أي ما سنها وكان من حقه أن يقولوا أي بقرة هي أو كيف هي لان لفظ ما يسأل به عن الجنس غالبا لكنهم لما رأوا ما أمروا به على حال لم يوجد بها شيء من جنسه أجروه مجرى ما لم يعرفوا حقيقته ولم يروا مثله (قال) موسى (انه) أي ربي (يقول انها بقرة لا فارض) أي مسنة وسميت فارضا لانها فرضت سنها أي قطعته وبلغت آخره (ولا بكر) أي صغيرة (عوان) أي نصف أي وسط قال الشاعر * نواعم بين أبكار وعون * جمع عوان (بين ذلك) أي بين ما ذكر من الفارض والبكر (فان قيل) بين يقتضي شيئين فصاعدا فمن أين جاز دخوله على ذلك (أجيب) بأنه في معنى شيئين حيث وقع مشارا به الى ما ذكر كما تقرر وعود هذه الكنايات واجراء تلك الصفات على بقرة يدل على أن المراد بها معينة ويلزمه تأخير البيان عن وقت الخطاب بالامر ومن أنكر ذلك زعم أن المراد بها بقرة من جانب البقر غير مخصوصة ثم انقلبت مخصوصة بسؤالهم ويلزمه النسخ قبل الفعل فان التخصيص ابطال التخيير الثابت بالنص والحق جواز تأخير البيان عن الوقت المذكور والنسخ قبل الفعل ويؤيد الرأي الثاني ظاهر اللفظ والمروي عنه عليه الصلاة والسلام لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لاجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم وتقريعهم بالتمادي وزجرهم عن المراجعة بقوله (فافعلوا ما تؤمرون) به من ذبحها (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال) موسى (انه) أي ربي (يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها) أي شديد الصفرة ولذلك تؤكد به الصفرة فيقال أصفر فاقع كما يقال أسود حالك وعن الحسن سوداء شديدة السواد وبه فسر قوله تعالى جمالات صفر قال البيضاوي ولعله عبر بالصفرة عن السواد لانه من مقدماته قال البغوي والاول أصح لانه لا يقال أسود فاقع انما يقال أصفر

فاقع وأسود حالك وأخضر ناصع (تسر الناظرين) اليها أى يعجبهم حسنها وصفاء لونها والسرور أصله لذة فى القلب عند حصول نفع أو توقعه (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى) أى أسائمة أم عاملة وعلى هذا فليس تكرار السؤال الاول (ان البقر) أى جنسه المنعوت كما ذكر (تشابه) أى التبس واشتبه أمره (علينا) لكثرته فلم يهتدوا الى المقصود *(تنبيه)* لم يقل تشابهت علينا لان المراد الجنس كما مر أو لتذكير لفظ البقر كقوله تعالى أعجاز نخل منقعر (وانا ان شاء الله لمهتدون) الى وصفها وفى الحديث لولم يستثنوا لما بينت لهم آخر الابد واحتج به أصحابنا على أن الحوادث بارادة الله تعالى وان الامر قد ينفك عن الارادة والا لم يكن للشرط بعد الامر معنى والمعتزلة والكرامية على حدوث الارادة لانها وقعت شرطا والشرط أمر يحدث فى المستقبل (وأجيب) بأن تعليق الاهتداء بالمشيئة التى هى الارادة باعتبار تعلق المشيئة بالاهتداء وهذا التعلق هو الحادث ولا يلزم من ذلك قيام الحوادث به تعالى لان التعلق أمر اعتبارى (قال) موسى (انه) أى ربى (يقول انها بقرة لا ذلول) أى غير مذللة بالعمل (تثير الارض) أى تقلبها للزراعة والجملة صفة ذلول داخلة فى النفى (ولا تسقى الحرث) أى الارض المهيأة للزراعة ولا الثانية مزيدة لتأكيد الاولى والفعلان صفتا ذلول كأنه قال لا ذلول مثيرة وساقية (مسلمة) من العيوب وآثار العمل (لا شية) أى لا لون (فيها) سوى لون جميع جلدها قال مجاهد لا بياض فيها ولا سواد (قالوا الآن جئت) أى نطقت (بالحق) أى بالبيان التام الشافى الذى لا اشكال فيه فطلبوها فوجدوها عند الفتى البار بأمه فاشتروها بملء مسكها أى جلدها ذهبا كما قال له الملك وقوله تعالى (فذبحوها) فيه اختصار والتقدير فحصلوا البقرة المنعوتة فذبحوها (وما كادوا) أى ما قاربوا (يفعلون) لتطويلهم وكثرة مراجعتهم أو لخوف الفضيحة فى ظهور القاتل أو لغلاء ثمنها ولا ينافى قوله وما كادوا يفعلون قوله فذبحوها لاختلاف وقتيهما اذ المعنى ما قاربوا أن يفعلوا حتى انتهت سؤالاتهم وانقطعت تعللاتهم ففعلوا كالمضطر الملجأ الى الفعل (واذ قتلتم نفسا) خطاب للجمع لوجود القتل فيهم (فادارأتم) فيه ادغام التاء فى الاصل فى الدال أى تخاصمتم وتدافعتم (فيها) أى فى شأنها اذ المتخاصمان يدفع بعضهم بعضا أو تدافعتم بأن طرح كل قتلها عن نفسه الى صاحبه (والله مخرج) أى مظهر (ما كنتم تكتمون) فان القاتل كان يكتم القتل وقوله تعالى (فقلنا اضربوه) أى القتيل عطف على ادارأتم وما بينهما اعتراض والضمير للنفس وتذكير الضمير على تأويل الشخص أو القتيل (ببعضها) أى ببعض البقرة واختلفوا فى ذلك البعض فقال ابن عباس رضى الله عنهما وأكثر المفسرين ضربوه بالعظم الذى يلى الغضروف وهو ما لان من العظام وقال مجاهد وسعيد بن جبير بعجب الذنب لانه أول ما يخلق وآخر ما يبلى ويركب عليه الخلق وقال الضحاك بلسانها قال الحسين بن الفضل لانه آلة الكلام وقال عكرمة والكلبى بفخذها الايمن وقيل بعضو منها لا بعينه ففعلوا ذلك فقام القتيل حيا باذن الله تعالى وأوداجه تشخب دما وقال قتلنى فلان ثم سقط ومات مكانه فحرم قاتله الميراث وقتل وفى الخبر ما ورث

قاتل بعد صاحب البقرة وفيه اضمار تقديره فضرب فحيي قال تعالى (كذلك) الاحياء (يحيي الله الموتى) والخطاب مع من حضر حياة القتيل أو نزول الآية (ويريكم آياته) دلائل قدرته (لعلكم تعقلون) لكي يكمل عقلكم وتعلموا أن من قدر على احياء نفس قدر على احياء الانفس كلها فتؤمنون قال البيضاوي ولعله تعالى انما لم يحيه ابتداء وشرط فيه ما شرط لما فيه من التقرب وأداء الواجب ونفع اليتيم والتنبيه على بركة التوكل أي توكل أبي اليتيم والشفقة على الاولاد وأن من حق الطالب أن يقدم قربة والمتقرب أن يتحرى الاحسن ويغالي بثمنه كما روي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه ضحى بنجيبة أي من الابل بثلثمائة دينار وأن المؤثر في الحقيقة هو الله تعالى اذ لا يتصور حياة ميت من غيره تعالى والاسباب أمارات لا أثر لها وأن من أراد أن يعرف أعدى عدوه الساعي في اماتته الموت الحقيقي فطريقه أن يذبح بقرة نفسه التي هي القوة الشهوية حين زال عنها أثر الصبا أي عدم التكليف وهو نظير لا بكر ولم يلحقها ضعف الكبر أي وهو نظير لا فارض وكانت معجبة رائقة المنظر أي وهو نظير تسر الناظرين غير مذللة في طلب الدنيا أي وهو نظير لا ذلول تثير الارض مسلمة من دنسها لا شية أي لا علامة بها من قبائحها بحيث يصل أثره أي الذبح الى نفسه فتحيا حياة طيبة ويعرب عما به ينكشف الحال ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ والنزاع أي لان العقل يأمر بالخير والوهم يأمر بالشهوات (ثم قست قلوبكم) أيها اليهود أي صلبت عن قبول الحق لان القساوة عبارة عن الغلظ مع الصلابة كما في الحجر وقساوة القلب مثل في بعده عن الاعتبار وثم لاستبعاد القسوة عن الاحياء لا للتراخي في الزمان بل للاستبعاد مجاز القرينة ما قبلها يعني أنه يبعد من العاقل قسوة القلب بعد ظهور تلك الآية العظيمة (من بعد ذلك) المذكور من احياء القتيل وما قبله من الآيات فان ذلك مما يوجب لين القلب (فهي كالحجارة) في قسوتها قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بكسرها (أو أشد قسوة) من الحجارة وقيل أو بمعنى الواو كقوله تعالى مائة ألف أو يزيدون وانما لم يشبهها بالحديد مع أنه أصلب من الحجارة لان الحديد قابل للين فانه يلين بالنار وقد لان لداود عليه الصلاة والسلام والحجارة لا تلين قط ثم فضل الحجارة على القلب القاسي فقال (وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار) أي من بعض الحجارة وقيل أراد به الحجر الذي كان يضرب عليه موسى للاسباط (وان منها لما يشقق) فيه ادغام التاء في الاصل في الشين (فيخرج منه الماء) أي عيونا دون الانهار (وان منها لما يهبط) أن ينزل من أعلى الجبل الى أسفله (من خشية الله) وقلوبكم لا تتأثر ولا تلين ولا تخشع يا معشر اليهود (فان قيل) الحجر جماد لا يفهم فكيف يخشى (أجيب) بأن الله يفهمه ويلهمه فيخشى بالهامه قال البغوي ومذهب أهل السنة أن لله تعالى علما في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لا يقف عليه غيره فلها صلاة وتسبيح كما قال جل ذكره وان من شئ الا يسبح بحمده وقال تعالى والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه وقال تعالى ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الارض والشمس والقمر الآية فيجب على المرء الايمان به ويكل علمه الى الله سبحانه وتعالى روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان على

ثبير والكفار يطلبونه فقال الجبل انزل عني فاني أخاف أن تؤخذ علي فيعاقبني الله بذلك فقال له جبل حراء الي الي يارسول الله وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اني لاعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث واني لاعرفه الآن وروي عن علي أنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا في نواحيها خارجا من مكة بين الجبال والشجر فلم يمر بشجر ولا جبل الا قال السلام عليك يارسول الله وروي عن جابر أنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا خطب استند الى جذع نخلة من سواري المسجد فلما صنع له المنبر فاستوى عليه اضطربت تلك السارية وحنت كحنين الناقة حتى سمعها أهل المسجد حتى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتنقها فسكتت وقال مجاهد لا ينزل حجر من أعلى الى أسفل الا من خشية الله ويشهد لذلك قوله تعالى لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله (وما الله بغافل) أي بساه (عما تعملون) وعيد وتهديد وقيل بتارك عقوبة ما تعملون بل يجازيكم به وقرأ ابن كثير بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (أفتطمعون) أي أفترجون أيها المؤمنون (أن يؤمنوا) أي اليهود (لكم) أي لاجل دعوتكم أو يصدقوكم بما تخبرونهم به (وقد كان فريق) أي طائفة (منهم) أي أحبارهم (يسمعون كلام الله) أي التوراة (ثم يحرفونه) يغيرونه كنعت محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم وقيل هؤلاء من السبعين المختارين الذين سمعوا كلام الله حين كلم موسى عليه الصلاة والسلام بالطور ثم قالوا سمعنا الله يقول في آخره ان استطعتم أن تفعلوا هذه الاشياء فافعلوا وان شئتم فلا تفعلوا (من بعد ما عقلوه) أي فهموه بعقولهم ولم يبق لهم فيه ريبة (وهم يعلمون) أنهم مفترون والهمزة للانكار أي لا تطمعوا في ايمانهم فلهم سابقة في الكفر (واذا لقوا) أي منافقو اليهود (الذين آمنوا قالوا آمنا) بأنكم على الحق وان رسولكم هو المبشر به في التوراة (واذا خلا) أي رجع (بعضهم الى بعض قالوا) أي رؤساؤهم الذين لم ينافقوا ككعب بن الاشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهودا لمن نافق (أتحدثونهم) أي المؤمنين (بما فتح الله عليكم) بما بين لكم في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم (ليحاجوكم) أي ليخاصموكم (به عند ربكم) أي بما أنزل ربكم في كتابه ويقيموا عليكم الحجة في ترك اتباعه مع علمكم بصدقه جعلوا محاجتهم بكتاب الله محاجة عند الله كما يقال عند الله كذا ويراد به أنه في كتابه وحكمه وقيل بين يدي رسول ربكم وقيل عند ربكم في الآخرة وقوله تعالى (أفلا تعقلون) اما من تمام كلام اللائمين وهم خلص اليهود وتقديره أفلا تعقلون أنهم يحاجونكم فيحجونكم واما من خطاب الله للمؤمنين متصل بقوله تعالى أفتطمعون والمعنى أفلا تعقلون حالهم وأنه لا مطمع لكم في ايمانهم (أولا يعلمون) أي اللائمون أو المنافقون أو كلاهما (ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) من اسرارهم الكفر واعلانهم الايمان واخفاء ما فتح الله عليهم واظهارهم غيره وغير ذلك فيرعووا عن ذلك (ومنهم) أي اليهود (أميون) أي عوام جهلة (لا يعلمون الكتاب) أي لا يعرفون التوراة أو الكتابة فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها وقوله تعالى (الا أماني) استثناء منقطع أي لكن أكاذيب تلقوها من رؤسائهم فاعتمدوها

(وان

(وان هم) أي ما هم (الا) قوم (يظنون) ظنا لا علم لهم وقد يطلق الظن بازاء العلم على كل رأي واعتقاد من غير قاطع وان جزم به صاحبه كاعتقاد المقلد وكالزائغ عن الحق بسبب شبهة قامت عنده (فويل) أي واد في جهنم كما رواه الترمذي قال سعيد بن المسيب لو سيرت فيه جبال الدنيا لانماعت من شدة حره وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هو شدة العذاب (للذين يكتبون الكتاب) أي المحرف من التأويلات الزائغة وقوله تعالى (بأيديهم) تأكيد كقولك كتبته بيمني (ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) من الدنيا وهم اليهود غيروا صفة النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة وآية الرجم وغيرها وكتبوها على خلاف ما أنزل الله فكانت صفته صلى الله عليه وسلم في التوراة أكحل العينين ربعة جعد الشعر حسن الوجه فكتبوها طويلا أزرق العينين سبط الشعر وغيروا آية الرجم بالجلد والتحميم أي تسويد الوجه (فويل لهم مما كتبت أيديهم) من المحرف (وويل لهم مما يكسبون) من الرشا (وقالوا) أي اليهود لما وعدهم النبي صلى الله عليه وسلم النار (لن تمسنا) أي تصيبنا (النار الا أياما معدودة) محصورة قليلة روي ان بعضهم قالوا نعذب بعدد أيام عبادتنا العجل أربعين يوما وبعضهم قالوا مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وانما نعذب مكان كل ألف سنة يوما واحدا ثم ينقطع العذاب بعد سبعة أيام (فان قيل) لم وصف الايام مع انها جمع بالمفرد (أجيب) بأنها في معنى الجماعة فتكون مفردا تقديرا ولان جمع القلة كما قاله الرضي في حكم المفرد فيوصف بالمفرد كما هنا ويوصف المفرد به كما في قوله تعالى نطفة أمشاج وقيل الامشاج مفرد وعلى هذا فلا اشكال ثم كذبهم الله تعالى بقوله (قل) لهم يا محمد (أتخذتم) حذف منه همزة الوصل استغناء بهمزة الاستفهام وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم باظهار الذال عند التاء والباقون بالادغام (عند الله عهدا) أي ميثاقا منه بذلك وقوله تعالى (فلن يخلف الله عهده) جواب شرط مقدر أي ان اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده وفيه دليل على ان الخلف في خبر الله تعالى محال (أم تقولون على الله ما لا تعلمون) أم اما منقطعة بمعنى بل أتقولون على التقرير والتقريع واما معادلة بهمزة الاستفهام بمعنى أي الامرين كائن على سبيل التقرير للعلم بوقوع أحدهما وقوله تعالى (بلى) اثبات لما نفوه من مساس النار لهم فان بلى وبل حرفا استدراك ومعناهما نفي الخبر الماضي واثبات الخبر المستقبل أي بل تمسكم وتخلدون فيها (من كسب سيئة) أي قبيحة (واحاطت به خطيئته) وقرأ نافع وحده خطيئاته بالجمع أي استولت عليه وشملت جميع أحواله حتى صار كالمحاط بها لا يخلو عنها شيء من جوانبه وهذا انما يصح في شأن الكافر لان غيره وان لم يكن له سوى تصديق قلبه واقرار لسانه لم تحط الخطيئة به ولذلك فسرها السلف بالكفر وقيل السيئة الكبيرة والاحاطة أن يصر عليها لان من أذنب ذنبا ولم يقلع عنه استجره الى معاودة مثله والانهماك فيه وارتكاب ما هو أكبر منه حتى تستولي عليه الذنوب وتأخذ بمجامع قلبه فيصير بطبعه مائلا الى المعاصي مستحسنا اياها معتقدا أن لا لذة سواها مبغضا لمن يمنعه عنها مكذبا لمن ينصحه فيها كما قال تعالى ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله الآية والفرق بين السيئة

والخطيئة ان السيئة قد تقال فيما يقصد بالذات والخطيئة تغلب فيما يقصد بالعرض لانها من الخطا والكسب استجلاب النفع وتعليقه بالسيئة على التهكم كقوله تعالى فبشره بعذاب أليم (فأولئك أصحاب النار) أى ملازموها فى الآخرة كما أنهم ملازمو أسبابها فى الدنيا (هم فيها خالدون) أى داءمون وروعى فيه معنى من والآية كما ترى لا حجة فيها على خلود صاحب الكبيرة لانها فى الكافر كما مر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) جرت عادته سبحانه وتعالى على أن يشفع وعده بوعيده لترجى رحمته ويخشى عذابه *(تنبيه)* عطف العمل على الايمان يدل على خروجه عن مسماه (و) اذكر (اذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل) فى التوراة وقلنا لهم (لا تعبدون الا الله) هذا اخبار فى معنى النهى كقوله تعالى ولا يضار كاتب ولا شهيد وهو أبلغ من صريح النهى لما فيه من ايهام ان المنهى سارع الى الانتهاء فهو مخبر عنه وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (وبالوالدين احسانا) أى برا بهما وعطفا عليهما ونزولا عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى قال البيضاوى وهذا متعلق بمضمر تقديره وتحسنون أو أحسنوا انتهى ويلزمه ان احسانا فى الآية منصوب على المصدر المؤكد لعامله المحذوف مع ان حذف عامل المؤكد ممنوع أو نادر وقوله تعالى (وذى القربى) أى القرابة (واليتامى والمساكين) عطف على الوالدين ويتامى جمع يتيم وهو الطفل الذى لا أب له كنديم وندامى وهو قليل ومسكين مفعيل من السكون كان الفقر أسكنه (وقولوا للناس حسنا) من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدق فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم والرفق بهم وقيل هو اللين فى القول والمعاشرة بحسن الخلق وقرأ حمزة والكسائى بفتح الحاء والسين والباقون بضم الحاء وسكون السين مصدر وصف به مبالغة (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) قال البيضاوى يريد أى الله بهما ما فرض عليهم فى ملتهم (ثم توليتم) فيه التفات عن الغيبة قال البيضاوى ولعل الخطاب مع الموجودين منهم فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن قبلهم على التغليب أى أعرضتم عن الميثاق ورفضتموه (الا قليلا منكم) أى وهو من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ومن أسلم منهم (وأنتم) قوم (معرضون) أى عادتكم الاعراض عن المواثيق والتولية كاعراض آبائكم (و) اذكروا (اذ أخذنا ميثاقكم) وقلنا (لا تسفكون دماءكم) أى تريقونها بقتل بعضكم بعضا (ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أى لا يخرج بعضكم بعضا من داره وانما جعل غير الرجل نفسه لاتصاله به نسبا أو دينا وقيل لا تفعلوا ما يرديكم ويصرفكم عن الحياة الابدية فانه القتل فى الحقيقة ولا تقترفوا ما تمنعون به عن الجنة التى هى داركم فانه الجلاء الحقيقى (ثم أقررتم) بهذا العهد أنه حق وقبلتم (وأنتم تشهدون) على أنفسكم هذا توكيد كقولك أقر فلان شاهدا على نفسه وقيل أنتم أيها الموجودون تشهدون على اقرار أسلافكم فيكون اسناد الاقرار اليهم مجازا (ثم أنتم) يا (هؤلاء تقتلون أنفسكم) فيه استبعاد لما ارتكبوه بعد الميثاق والاقرار والشهادة عليه أى ثم بعد ذلك يقتل بعضكم بعضا (وتخرجون فريقا منكم من ديارهم

(تظاهرون) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الظاء والباقون بتشديدها أي تتعاونون (عليهم بالاثم) أي المعصية (والعدوان) أي الظلم (وان يأتوكم أسارى) قرأ حمزة بفتح الهمزة وسكون السين ولا ألف بعد السين والباقون بضم الهمزة وفتح السين والف بعدها (تفدوهم) قرأ عاصم والكسائي بضم التاء وفتح الفاء وألف بعدها والباقون بفتح التاء وسكون الفاء ولا ألف بعدها أي تنقذوهم من الاسر بالمال أو غيره وقوله تعالى (وهو) أي الشأن (محرم عليكم اخراجهم) متعلق بقوله تعالى وتخرجون فريقا منكم من ديارهم وما بينهما اعتراض ومعنى الآية قال السدي ان الله أخذ على بني اسرائيل في التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضا ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم وترك المظاهرة عليهم مع أعدائهم وأيما عبد أو أمة وجدتموه في بني اسرائيل فاشتروه بما قام من ثمنه وأعتقوه وكانت قريظة حالفوا الاوس وحالفت النضير الخزرج فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه ويخرب ديارهم ويخرجهم فاذا أسروا فدوهم وكانوا اذا سئلوا لم تقاتلونهم وتفدونهم قالوا أمرنا بالفداء فيقال فلم تقاتلونهم فيقولون حياء أن يستذل حلفاؤنا فعيرهم الله تعالى بقوله (أفتؤمنون ببعض الكتاب) وهو الفداء (وتكفرون ببعض) وهو ترك القتل والاخراج والمظاهرة (فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي) أي هوان وعذاب (في الحياة الدنيا) فكان خزي قريظة القتل والسبي وخزي بني النضير الجلاء والنفي عن منازلهم الى أذرعات وأريحاء من الشام (ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب) أي عذاب جهنم وانما رد من فعل منهم ذلك الى أشد العذاب لان عصيانه أشد (وما الله بغافل عما تعملون) قرأ نافع وابن كثير وشعبة بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (أولئك الذين اشتروا) اي استبدلوا (الحياة الدنيا بالآخرة) بأن آثروها عليها (فلا يخفف عنهم العذاب) في الدنيا بنقصان الجزية والتعذيب في الآخرة (ولا هم ينصرون) أي بدفعها عنهم (ولقد آتينا) أي أعطينا (موسى الكتاب) أي التوراة جملة واحدة (وقفينا من بعده بالرسل) أي أتبعناهم رسولا في اثر رسول كقوله تعالى ثم أرسلنا رسلنا تترى يقال قفاه اذا اتبعه اياه (وآتينا عيسى بن مريم البينات) أي المعجزات الواضحات كاحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص والاخبار بالمغيبات أو الانجيل وعيسى بالعبرانية ايشوع ومريم بمعنى الخادم (وأيدناه) أي قويناه (بروح القدس) قرأ ابن كثير باسكان الدال حيث جاء والباقون بضمها وهذا من اضافة الموصوف الى الصفة أي الروح المقدسة وهو جبريل وصف به لطهارته وتأييده به أن أمر أن يسير معه حيث سار حتى يصعد به الى السماء وقيل روح عيسى عليه الصلاة والسلام ووصفها به لطهارته عن مس الشيطان أو لانه لم تضمه الاصلاب والارحام الطوامث أي الحيض وقيل اسم الله الاعظم الذي كان يحيي به الموتى * ولما سمعت اليهود ذكر عيسى عليه الصلاة والسلام قالوا يا محمد لا مثل عيسى كما تزعم عملت ولا كما تقص علينا من الانبياء فعلت فأتنا بما أتى به عيسى ان كنت صادقا فقال الله تعالى (أفكلما جاءكم) يا معشر اليهود (رسول بما لا تهوى) أي تحب (أنفسكم) من الحق

وقوله تعالى (استكبرتم) أى تكبرتم عن اتباعه جواب كلما وهو محل الاستفهام والمراد به التوبيخ (ففريقا) أى طائفة (كذبتم) كموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام والفاء للسببية الاستكبار للتكذيب أو التفصيل (وفريقا تقتلون) كزكريا ويحيى عليهما السلام (فان قيل) هلا قال وفريقا قتلتم (أجيب) بأنه انما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضارا لها فى النفوس فان الامر فظيع ومراعاة للفواصل قال الزمخشرى أو ان يراد وفريقا تقتلونهم بعد أى الآن لانكم درتم حول قتل محمد لولا انى أعصمه منكم ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة وقال صلى الله عليه وسلم عند موته مازالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان قطعت أبهرى (وقالوا) للنبى صلى الله عليه وسلم استهزاء (قلوبنا غلف) جمع أغلف أى مغشاة بأغطية لا يتوصل اليها ما جئت به ولا تفقهه مستعار من الاغلف الذى لم يختن كقولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وقيل أصل غلف بالسكون غلف بالضم فخفف والمعنى انها أوعية العلم لا تسمع علما الا وعته ولا تعى ما تقول أى فما تقوله ليس بعلم أو نحن مستغنون بما فيها عن غيره ثم رد الله تعالى عليهم أن تكون قلوبهم كذلك بقوله تعالى (بل) للاضراب (لعنهم الله بكفرهم) أى بسبب كفرهم والمعنى انها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق ولكن الله خذلهم بكفرهم فأبطل استعدادهم كما قال تعالى فأصمهم وأعمى أبصارهم أوهم كفرة ملعونون فمن أين لهم دعوى العلم والاستغناء عنك (فقليلا ما يؤمنون) ما مزيدة لتأكيد القلة أى ايمانهم ايمان قليل جدا وهو ايمانهم ببعض الكتاب وقيل أراد بالقلة العدم (ولما جاءهم كتاب من عند الله) هو القرآن (مصدق لما معهم) من كتابهم وهو التوراة لا يخالفه (وكانوا) أى اليهود (من قبل) أى من قبل مجيئه (يستفتحون) أى يستنصرون (على الذين كفروا) أى مشركى العرب اذا قاتلوهم يقولون اللهم انصرنا عليهم بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد صفته ونعته فى التوراة ويقولون لاعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم (فلما جاءهم) أى اليهود (ما عرفوا) من الحق وهو بعثة النبى صلى الله عليه وسلم (كفروا به) حسدا أو خوفا على الرياسة وجواب لما الاولى دل عليه جواب لما الثانية (فلعنة الله) أى عذابه وطرده (على الكافرين) أى عليهم وانما أتى بالمظهر للدلالة على انهم لعنوا لكفرهم فتكون اللام للعهد ويجوز أن تكون للعموم ويدخلون فيه دخولا أوليا وقصديا لانهم المقصودون بالذات وتناول الكلام لغيرهم على سبيل التبع فهو كما اذا ظلمك انسان فقلت ألا لعنة الله على الظالمين كان ذلك الظالم أوليا ومقصودا فى الدعاء والباقون تبعا (بئس ما اشتروا) أى باعوا (به أنفسهم) أى حظها من الثواب وما نكرة بمعنى شيأ مميزة لفاعل بئس المستكن أى بئس الشئ شيأ اشتروا به أنفسهم والمخصوص بالذم (أن يكفروا) أى كفرهم (بما أنزل الله) من القرآن (بغيا) أى حسدا وطلبا لما ليس لهم وهو علة يكفروا كما قال البيضاوى دون اشتروا وان قاله الزمخشرى لفصل المخصوص بين بغيا الذى هو العلة وبين المعلول وهو اشتروا وحسدوه على (أن ينزل الله من فضله) أى الوحى (على من يشاء) للرسالة

(من عباده) وهو محمد صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون نون ينزل وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى (فباؤا) اى رجعوا (بغضب على غضب) أى مع غضب واختلف فى معنى ذلك فقال ابن عباس ومجاهد الغضب الاول بتضييعهم التوراة وتبديلهم والثانى بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقال السدى الاول كفرهم بعبادة العجل والثانى الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وقال قتادة الاول بكفرهم بعيسى والانجيل والثانى بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (وللكافرين عذاب مهين) أى ذو اهانة بخلاف عذاب العاصى فانه طهرة لذنوبه (واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله) من القرآن وغيره فيعم سائر الكتب المنزلة (قالوا نؤمن بما أنزل علينا) أى التوراة يكفينا ذلك (ويكفرون) الواو للحال (بما وراءه) أى بما سواه من الكتب كقوله تعالى فمن ابتغى وراء ذلك أى سواه وقال أبو عبيدة بما بعده أى من القرآن وقوله تعالى (وهو) أى ماوراءه (الحق) حال وقوله (مصدقا لما معهم) أى من التوراة حال ثانية مؤكدة تتضمن رد مقالهم فانهم كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ثم اعترض الله تعالى عليهم بقتل الانبياء مع ادعاء الايمان بالتوراة بقوله تعالى (قل) لهم يا محمد (فلم تقتلون) أى قتلتم (أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين) بالتوراة والتوراة لا تسوغه بل نهيتم فيها عن قتلهم والخطاب للموجودين فى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم بما فعل آباؤهم لرضاهم به وعزمهم عليه قرأ نافع وحده أنبئاء الله بالهمز فى كل القرآن والباقون بالبدل وليس لورش الا المد فقط لانه منتصل (ولقد جاءكم موسى بالبينات) أى الآيات التسع فى قوله تعالى ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات كالعصا واليد وفلق البحر (ثم اتخذتم العجل) أى الها (من بعده) أى من بعد ذهابه الى الميقات وقوله تعالى (وأنتم ظالمون) أى باتخاذه حال أى اتخذتم العجل ظالمين بعبادته أو بالاخلال بآيات الله أو اعتراض أى وأنتم عادتكم الظلم (واذ أخذنا ميثاقكم) على العمل بما فى التوراة (و) قد (رفعنا فوقكم الطور) أى الجبل حين امتنعتم من قبولها ليسقط عليكم وقلنا (خذوا ما آتيناكم بقوة) أى بجد واجتهاد (واسمعوا) ما تؤمرون به سماع قبول (قالوا سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك وقيل سمعنا بالآذان وعصينا بالقلوب قال أهل المعانى انهم لم يقولوا هذا بألسنتهم ولكن لما سمعوا بالآذان وتلقوه بالعصيان نسب ذلك الى القول اتساعا (وأشربوا فى قلوبهم العجل) أى خالط حبه قلوبهم كما يتداخل الشراب أعماق البدن وفى قلوبهم بيان لمكان الاشراب كقوله تعالى انما يأكلون فى بطونهم نارا * (فائدة) * قال البغوى فى القصص ان موسى عليه السلام أمر أن يبرد العجل بالمبرد ثم يذر فى النهر وأمر بالشرب منه فمن بقى فى قلبه شئ من حب العجل ظهرت سحالة الذهب على شاربه (بكفرهم) أى بسبب كفرهم وذلك انهم كانوا مجسمة أو حلولية ولم يروا جسما أعجب منه فتمكن من قلوبهم ما سول لهم السامرى (قل) لهم يا محمد (بئسما) أى شيأ (يأمركم به ايمانكم) بالتوراة عبادة العجل واضافة الامر الى ايمانهم تهكم كما قال قوم شعيب أصلواتك تأمرك وكذلك اضافة الايمان اليهم فى قوله تعالى (ان كنتم مؤمنين) بعبادة العجل (قل) لهم (ان

كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة) أى خاصة (من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) فى قولكم وذلك ان اليهود ادعوا دعاوى باطلة مثل قولهم لن تمسنا النار الا أياما معدودة ولن يدخل الجنة الا من كان هودا وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه فكذبهم الله عز وجل وألزمهم الحجة فقال قل لهم يا محمد ذلك لان من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق اليها وتمنى سرعة الوصول الى النعيم والتخلص من الدار ذات الشوائب كما روى عن المبشرين بالجنة رضى الله تعالى عنهم فقد كان على رضى الله تعالى عنه يطوف بين الصفين فى غلالة فقال له ابنه الحسن ماهكذا زى المحاربين فقال له يا بنى لا يبالى أبوك على الموت سقط أم عليه سقط الموت وعن حذيفة انه كان يتمنى الموت فلما احتضر قال حبيب أى الموت جاء على فاقة أى وقت حاجة اليه وقيل بل أراد بالحبيب لقاء الله لا أفلح من ندم يعنى على التمنى أراد به أنه كان يتمنى الموت وماندم على التمنى حين جاء الموت وقال عمار بصفين الآن ألاقى الاحبة محمدا وحزبه وكان كل واحد من العشرة يحب الموت ويحن اليه روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لو تمنوا الموت لغص كل انسان منهم بريقه فمات مكانه ومابقى على وجه الارض يهودى الامات *(تنبيه)* خالصة نصبها على الحال من الدار أو من الضمير فى خبر كان العائد الى الدار وتعلق بتمنوا الشرطان على ان الاول قيد فى الثانى (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم) من موجبات النار من الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به وتحريف كتاب الله وسائر أنواع الكفر والعصيان ولما كانت اليد العاملة مختصة بالانسان آلة لقدرته بها عامة صنائعه ومنها أكثر منافعه عبر بها عن النفس تارة كما هنا وعن القدرة أخرى كما فى قوله تعالى يد الله فوق أيديهم وهذه الجملة اخبار بالغيب وكان أخبر به كقوله تعالى ولن تفعلوا (فان قلت) من أعلمك أنهم لم يتمنوا (أجيب) بأنهم لو تمنوا النقل ذلك كما نقل سائر الحوادث ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن فى الاسلام أكثر من الذر وليس أحد منهم نقل ذلك (فان قيل) التمنى من أعمال القلوب وهو سر لا يطلع عليه أحد فمن أين علمت أنهم لم يتمنوا (أجيب) بأن التمنى ليس من أعمال القلوب انما هو قول الانسان بلسانه ليت لى كذا فاذا قاله قالوا تمنى وليت كلمة تمن ومحال أن يقع التحدى بما فى الضمائر والقلوب ولو كان التمنى بالقلوب وتمنوا لقالوا قد تمنينا الموت فى قلوبنا ولم ينقل انهم قالوا ذلك (فان قيل) لم يقولوه لانهم علموا أنهم لا يصدقون (أجيب) بأنه كم حكى عنهم من أشياء قاولوا بها المسلمين من الافتراء على الله وتحريف كتابه وغير ذلك مما علموا أنهم غير مصدقين فيه ولا محمل له الا الكذب الصرف ولم يبالوا فكيف يمنعون من أن يقولوا ان التمنى من أفعال القلوب وقد فعلناه مع احتمال أن يكونوا صادقين فى قولهم واخبارهم عن ضمائرهم وكان الرجل يخبر عن نفسه بالايمان فيصدق مع احتمال أن يكون كاذبا لانه أمر خفى لا سبيل الى الاطلاع عليه (والله عليم بالظالمين) أى الكافرين فيجازيهم فى ذلك فيه تهديد لهم وتنبيه على انهم ظالمون فى دعوى ماليس لهم ونفيه عمن هو لهم (ولتجدنهم) اللام لام القسم والنون تأكيد القسم تقديره والله لتجدنهم يا محمد

أى اليهود (أحرص الناس على حياة) هو من وجد بمعنى علم المتعدى الى مفعولين ومفعولاه هم أحرص (فان قيل) لم قال على حياة بالتنكير (أجيب) بأنه أريد حياة مخصوصة هى فرد من افرادها وهى الحياة المتطاولة (و) أحرص (من الذين أشركوا) أى المنكرين البعث عليها لعلمهم بأن مصيرهم النار دون المشركين لانكارهم له (فان قيل) ألم يدخل الذين أشركوا تحت الناس (أجيب) ببلى ولكنهم أفردوا بالذكر لان حرصهم شديد وفيه توبيخ عظيم لان الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة وما يعرفون الا الحياة الدنيا فحرصهم عليها لا يستبعد لانها جنتهم فاذا زاد عليهم فى الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء كان حقيقا بأعظم التوبيخ (يود) يتمنى (أحدهم لو يعمر ألف سنة) لو مصدرية بمعنى أن وهى بصلتها فى تأويل مصدر مفعول يود يقول الله تعالى اليهود أحرص الناس على الحياة من المجوس الذين يقولون ذلك لان تحية المجوس فيما بينهم عش ألف سنة (وما هو) أى أحدهم (بمزحزحه) أى مبعده (من العذاب) أى النار وقوله تعالى (أن يعمر) فاعل مزحزحه أى تعميره (والله بصير بما يعملون) فيجازيهم به * وسأل عبد الله بن صوريا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ينزل عليه فقال جبريل فقال ذاك عدونا عادانا مرارا وأشدها انه لما نزل على نبينا أخبرنا أن بيت المقدس سيخربه بختنصر وأخبرنا بالحين الذى يجىء فيه فلما كان وقته بعثنا رجلا من بنى اسرائيل فى طلبه ليقتله فانطلق حتى لقيه ببابل غلاما مسكينا فأخذه ليقتله فدفع عنه جبريل وقال ان كان ربكم أمره بهلاككم فلا يسلطكم عليه والا فبم تقتلونه وكبر بختنصر وقوى فنزل (قل) لهم (من كان عدوا لجبريل) روى انه كان لعمر رضى الله تعالى عنه أرض بأعلى المدينة وكان ممره على مدارس اليهود وكان يجلس اليهم ويسمع كلامهم فقالوا يا عمر قد أحببناك وانا لنطمع فيك فقال والله ما أحبكم لحبكم ولا أسألكم لانى شاك فى دينى وانما أدخل عليكم لازداد بصيرة فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأرى آثاره فى كتابكم ثم سألهم عن جبريل فقالوا ذاك عدو لنا يطلع محمدا على اسرارنا وانه صاحب كل خسف وعذاب وميكائيل صاحب الخصب والسلام أى السلامة فقال عمر وما منزلتهما من الله قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة فقال لئن كان كما تقولون فليسا بعدوين أى لقرب منزلتهما عند الله ولانتم أكفر من الحمير أى لان الكفر نتيجة الجهل والبلادة والحمار مثل فيهما ومن كان عدو أحدهما فهو عدو الله تعالى ثم رجع فوجد جبريل قد سبقه بالوحى فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية وقال عليه الصلاة والسلام لقد وافقك ربك يا عمر قال عمر لقد رأيتنى فى دين الله بعد ذلك أصلب من الحجر وقال مقاتل قالت اليهود ان جبريل عدونا لانه أمر أن يجعل النبوة فينا فجعلها فى غيرنا ومعنى جبريل عبد الله فجبر هو الله وايل هو العبد وقرأ حمزة والكسائى بفتح الجيم والراء وهمزة بعد الراء مكسورة ممدودة أى بعدها ياء لفظية وقرأ شعبة كذلك الا انه حذف الياء بعد الهمزة وكسر الراء والباقون بكسر الجيم والراء من غير همز بعد الراء الا أن ابن كثير فتح الجيم ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة (فانه) أى جبريل (نزله) أى القرآن ونحو هذا الاضمار أعنى اضمار ما لا

قوله وكسر الراء كذا فى الاصول التى بايدينا والصواب حذفه اه مصححه

يسبق ذكره فيه فخامة لشأن صاحبه حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه ويكتفى
عن اسمه الصريح بذكر شئ من صفاته (على قلبك) يا محمد وقوله تعالى (باذن الله) أى بأمره حال
من فاعل نزل (مصدقا) أى موافقا (لما بين يديه) لما قبله من الكتب (وهدى) من الضلالة
(وبشرى) بالجنة (للمؤمنين) هذه أحوال من مفعول نزل وجواب الشرط فانه نزله
والمعنى من عادى منهم جبريل فقد خلع ربقة الانصاف أو كفر بما معه من الكتاب بمعاداته اياك
لنزوله عليك بالوحى لانه نزل كتابا مصدقا للكتب المتقدمة فحذف الجواب وأقيم علته مقامه أو
من عاداه فالسبب فى عداوته انه نزل عليك وقيل الجواب محذوف مثل فليمت غيظا أو فهو
عدو لى وأنا عدوه كما قال تعالى (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله
عدو للكافرين) والمراد بمعاداة الله مخالفته عنادا أو معاداة المقربين من عباده وصدر الكلام
بذكره تعالى تفخيما لشأنهم كقوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه (فان قيل) لم أفرد
الملكين بالذكر مع دخولهما فى الملائكة (أجيب) بأن ذلك لفضلهما فكأنهما من جنس آخر
وهو مما ذكر أن التغاير فى الوصف ينزل منزلة التغاير فى الذات وبان الحاجة كانت فيهما
والواو فيها بمعنى أو يعنى من كان عدوا لاحد هؤلاء لان الكافر بالواحد كافر بالكل وقدم جبريل
لشرفه وقدم الملائكة على الرسل كما قدم الله على الجميع لان عداوة الرسل بسبب نزول الكتب
ونزولها بتنزيل الملائكة وتنزيلهم لها بأمر الله فذكر الله ومن بعده على هذا الترتيب قرأ أبو عمرو
وحفص ميكال بغير همز ولا ياء بين الالف واللام وقرأ نافع بهمزة بعد الالف ولا ياء بعد الهمزة
والباقون بهمزة بعد الالف وياء وهم على مراتبهم فى المد ونزل فى ابن صوريا لما قال للنبى صلى
الله عليه وسلم ما جئتنا بشئ نعرفه وما أنزل عليك من آية أى زائدة فنتبعك (ولقد أنزلنا اليك)
يا محمد (آيات بينات) واضحات مفصلات بالحلال والحرام والحدود والاحكام (وما يكفر بها
الا الفاسقون) أى المتمردون من الكفرة والفسق اذا استعمل فى نوع من المعاصى دل على
أعظميته كأنه متجاوز عن حده (أو كلما عاهدوا عهدا) الهمزة للانكار والواو للعطف على
محذوف تقديره أكفروا بالآيات وكلما عاهدوا الله عهدا على الايمان بالنبى أو ان خرج النبى
أن لا يعاونوا عليه المشركين وقوله تعالى (نبذه) أى طرحه (فريق منهم) أى اليهود بنقضه
جواب كلما وهو محل الاستفهام الانكارى وانما قال فريق لان بعضهم لم ينقض وقوله تعالى (بل
أكثرهم لا يؤمنون) رد لما يتوهم ان الفريق هم الاقلون وقوله تعالى (ولما جاءهم رسول
من عند الله) هو محمد صلى الله عليه وسلم (مصدق لما معهم) من التوراة (نبذ فريق من الذين أوتوا
الكتاب كتاب الله) أى التوراة لان كفرهم بالرسول المصدق لها كفر بها فيما يصدقه ونبذ لما
فيها من وجوب الايمان بالرسل المؤيدين بالآيات وقيل كتاب الله هو القرآن نبذوه بعدما ألزمهم
تلقيه بالقبول وقوله تعالى (وراء ظهورهم) أى لم يعملوا بما فيها من الآيات بالرسل وغيره مثل
لاعراضهم عنه بالكلية بالاعراض عما يرمى به وراء الظهر لعدم الالتفات اليه (كأنهم لا يعلمون)
ما فيها من أنه نبى حق أو فيه شك يعنى ان علمهم بذلك رصين ولكنهم كابروا وعاندوا وعن سفيان

ادرجوه في الديباج والحرير وحلوه بالذهب ولم يحلوا حلاله ولم يحرموا حرامه وقوله تعالى (واتبعوا) عطف على نبذ (ما تتلو) أي ما تلت (الشياطين) والعرب تضع المستقبل موضع الماضي والماضي موضع المستقبل وقيل ما كانت تتلو أي تقرأ (على) عهد (ملك سليمان) من السحر وكانت دفنته تحت كرسيه لما نزع ملكه فلم يشعر بذلك سليمان فلما مات استخرجوه وقالوا للناس انما ملككم سليمان بهذا فتعلموه فأما علماء بني اسرائيل وصلحاؤهم فقالوا معاذ الله أن يكون هذا من علم سليمان عليه الصلاة والسلام وأما سفلاؤهم فقالوا هذا علم سليمان وأقبلوا على تعلمه ورفضوا كتب أنبيائهم وبقيت الملامة لسليمان فلم تزل هذه حالهم حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزل الله عليه براءة سليمان هذا قول الكلبي وقال السدي كانت الشياطين تسترق السمع فيسمعون كلام الملائكة فيما يكون في الارض من موت وغيره فيأتون الكهنة ويخلطون بما يسمعون في كل كلمة سبعين كذبة ويخبرونهم بها فاكتتب الناس ذلك وفشا في بني اسرائيل أن الجن تعلم الغيب فبعث سليمان في الناس وجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق ودفنها تحت كرسيه وقال لا أسمع أن أحدا يقول ان الشياطين تعلم الغيب الا ضربت عنقه فلما مات سليمان وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان ودفنه الكتب وخلف من بعدهم خلف تمثل شيطان على صورة انسان فأتى نفرا من بني اسرائيل فقال هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبدا قالوا نعم قال فاحفروا تحت الكرسي وذهب معهم فأراهم المكان وأقام ناحية فقالوا ادن فقال لا ولكني ههنا فان لم تجدوه فاقتلوني وذلك أنه لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسي الا احترق فحفروا وأخرجوا تلك الكتب قال الشيطان ان سليمان كان يضبط الجن والانس والشياطين والطير بهذا ثم طار الشيطان وفشا في الناس أن سليمان كان ساحرا وأخذ بنو اسرائيل تلك الكتب فلذلك أكثر ما يوجد السحر في اليهود فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم برأ الله سليمان من ذلك وأنزل تكذيبا لمن زعم ذلك واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان (وما كفر سليمان) أي لم يعمل السحر وعبر عنه بالكفر ليدل على أنه كفر اذا استحله أو احتيج فيه الى تقدم اعتقاد مكفر هذا مذهب الشافعي وعند أحمد يكفر مطلقا (ولكن الشياطين) هم الذين (كفروا) باستعمال السحر وتدوينه وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بكسر النون من ولكن مخففة ورفع نون الشياطين والباقون بنصب النون من ولكن مشددة ونصب نون الشياطين (يعلمون الناس السحر) يقصدون به اغواءهم واضلالهم والجملة حال من ضمير كفروا * (تنبيه) * السحر لغة صرف الشيء عن وجهه يقال ما سحرك عن كذا أي ما صرفك عنه واصطلاحا مزاولة النفوس الخبيثة لاقوال وأفعال يترتب عليها أمور خارقة للعادة * واختلف فيه هل هو تخييل أو حقيقة قال بالاول المعتزلة واستدلوا بقوله تعالى يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى وقال بالثاني أهل السنة ويدل لذلك الكتاب والسنة الصحيحة والساحر قد يأتي بفعل أو قول يتغير به حال المسحور فيمرض أو يموت منه ويفرق به بين المرء وزوجه ويحرم تعليمه وتعلمه قال امام الحرمين ولا يظهر السحر الا على يد فاسق ولا تظهر

الكرامة على يد فاسق ويحرم أيضا تعليم أو تعلم الكهانة ومنها التنجيم والضرب بالرمل والحصى
والشعير والشعبذة ويحرم إعطاء العوض أو أخذه عنها بالنص الصريح في حلوان الكاهن
والباقي بمعناه والكاهن من يخبر بواسطة النجم عن المغيبات في المستقبل بخلاف العراف فإنه
الذي يخبر عن المغيبات الواقعة كعين السارق ومكان المسروق والضالة قال في الروضة
ولا يغتر بجهالة من يتعاطى الرمل وإن نسب إلى علم وأما الحديث الصحيح كان نبي من الأنبياء
يخط فمن وافق خطه فذاك فمعناه من علمتم موافقته له فلا بأس ونحن لا نعلم الموافقة فلا يجوز لنا
ذلك وقول البيضاوي وأما ما يتعجب منه كما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات كالأدوية
أو يريه صاحب خفة اليد فغير مذموم وتسميته سحرا على التجوز لما فيه من الدقة لأنه أي السحر
في الأصل أي اللغة لما خفي سببه مردود بل هو مذموم أي حرام كما صرح به النووي في الروضة
وغيرها وقوله تعالى (وما أنزل على الملكين) عطف على السحر أي ويعلمونهم ما أنزل على الملكين
وقيل عطف على ما تتلو أي واتبعوا ما أنزل أي ما ألهماه وتعلماه من السحر فالإنزال بمعنى
الإلهام والتعليم قال البيضاوي وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس وتمييزا
بينه وبين المعجزة قال وما روي أي في كتب السير أنهما مثلا بشرين وركب فيهما الشهوة
فتعرضت امرأة يقال لها زهرة فحملتهما على المعاصي والشرك ثم صعدت إلى السماء بما تعلمت
منهما فمحكي عن اليهود ولعله من رموز الأوائل وحله أي الرمز أو ما روي لا يخفى على ذوي
البصائر اهـ قال شيخنا شيخ الإسلام زكريا بأن يقال عبر عن العقل والنفس المطمئنة بالملكين
وعن النفس الأمارة بالسوء بالزهرة وعن مفارقتها بالموت بالصعود إلى السماء وقيل هما رجلان
سميا ملكين باعتبار صلاحهما وقيل ما أنزل نفي معطوف على ما كفر تكذيبا لليهود في هذه
القصة وقد طول البغوي في هذه القصة واعتمد ما رده البيضاوي وقال شيخنا المذكور عن
شيخه ابن حجر إن لها طرقا تفيد العلم بصحتها فقد رواها مرفوعة الإمام أحمد وابن حبان والبيهقي
وغيرهم وموقوفة على علي وابن مسعود وابن عباس وغيرهم بأسانيد صحيحة والبيضاوي لما
استبعد ما روي ولم يطلع عليه قال ولعله إلخ وقوله تعالى (ببابل) ظرف أو حال من الملكين
أو الضمير في أنزل وهي بلد في سواد العراق وقوله تعالى (هاروت وماروت) بدل أو عطف بيان
للملكين ومنع صرفهما للعلمية والعجمة ومن جعل ما فيما أنزل نافية أبدل هاروت وماروت من
الشياطين بدل البعض وما بينهما اعتراض (وما يعلمان) أي الملكان (من أحد) أي أحدا ومن
صلة (حتى) ينصحاه و(يقولا) له (إنما نحن فتنة) أي ابتلاء من الله تعالى للناس ليمتحنهم بتعليمه
وأصل الفتنة الاختبار والامتحان من قولهم فتنت الذهب والفضة إذا أذبتهما بالنار لتميز الجيد
من الرديء وإنما وحد الفتنة لأنها مصدر والمصادر لا تثنى ولا تجمع (فلا تكفر) بتعليمه أي فلا
تتعلمه معتقدا حله فتكفر على ما تقدم فإن أبى إلا التعليم علماه قيل إنهما يقولان إنما نحن فتنة
فلا تكفر سبع مرات قال عطاء والسدي فإن أبى إلا التعليم قالا له ائت هذا الرماد فبل عليه
فيخرج منه نور ساطع في السماء فتلك المعرفة وينزل شيء أسود شبه الدخان حتى يدخل مسامعه

وذلك غضب الله تعالى وعلى القول بأنهما رجلان فلا يعلمانه حتى يقولا له انما نحن فتنة فلا تكفر مثلنا (فيتعلمون منهما) الضمير لما دل عليه من أحد أى فيتعلم الناس من الملكين (ما) أى سحرا (يفرقون به بين المرء وزوجه) بأن يبغض كلا منهما فى الآخر بسبب حيلة أو تموية كالنفث فى العقد ونحو ذلك مما يحدث الله تعالى عنده الفراق ابتلاء منه لا أن السحر له أثر فى نفسه بدليل قوله تعالى (وما هم) أى السحرة (بضارين به) أى السحر (من أحد) أى أحدا ومن صلة (الا باذن الله) أى ارادته لان الاسباب غير مؤثرة بالذات بل بارادته تعالى (ويتعلمون ما يضرهم) فى الآخرة (ولا ينفعهم) وهو السحر لانهم يقصدون به العمل أو لان العلم يجر الى العمل غالبا (ولقد) اللام لام القسم (علموا) أى اليهود (لمن) اللام لام الابتداء علقت علموا عن العمل ومن موصولة (اشتراه) أى استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله تعالى (ماله فى الآخرة من خلاق) أى نصيب فى الجنة (ولبئس ما) أى شيأ (شروا) أى باعوا (به أنفسهم) أى الشارين أى حظها من الآخرة أن يتعلموه حيث أوجب لهم النار (لو كانوا يعلمون) حقيقة ما يصيرون اليه من العذاب ما تعلموه (وقيل) معناه لو كانوا يعملون بعلمهم فان من لم يعمل بما علم كان كمن لم يعلم (ولو أنهم) أى اليهود (آمنوا) بالنبى والقرآن (واتقوا) عقاب الله بترك معاصيه كنبذ كتاب الله تعالى واتباع السحر وجواب لو محذوف أى لاثيبوا دل عليه (لمثوبة) أى ثواب وهو مبتدأ واللام فيه للقسم وقوله تعالى (من عند الله خير) خبره أى خير مما اشتروا به أنفسهم (لو كانوا يعلمون) أن ثواب الله تعالى خير لما آثروه عليه فجهلهم الله تعالى لترك التدبر والعمل بالعلم (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا) للنبى صلى الله عليه وسلم (راعنا) أمر من المراعاة وكانوا يقولون ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فلما سمع اليهود هذه اللفظة من المسلمين وكانت كلمة يتسابون بها عبرانية أو سريانية وهو راعنا قالوا فيما بينهم كنا نسب محمدا سرا فأعلنوا به الآن فكانوا يأتون ويقولون يا محمد راعنا وهم يعنون به تلك المسبة ويضحكون فيما بينهم فسمعها سعد بن معاذ ففطن لها وكان يعرف لغتهم فقال لليهود يا أعداء الله عليكم لعنة الله والذى نفسى بيده لئن سمعتها من أحد منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لاضربن عنقه فقالوا أولستم تقولونها فأنزل الله تعالى النهى عن ذلك لكى لا يجد اليهود بذلك سبيلا الى شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمروا بما هو فى معناها وهو قوله تعالى (وقولوا انظرنا) أى انظر الينا وقيل اسمع منا قاله مجاهد وقيل لا تعجل علينا قاله ابن زيد (واسمعوا) ما تؤمرون به سماع قبول لا كسماع اليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا أو واسمعوا ما أمرتم به بجد حتى لا ترجعوا الى ما نهيتم عنه من قولكم راعنا (وللكافرين) أى الذين تهاونوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وسبوه (عذاب أليم) أى مؤلم وهو النار ونزل فى تكذيب جمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين ويزعمون أنهم يودون لهم الخير (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب) وقوله تعالى (ولا المشركين) أى من العرب عطف على أهل الكتاب ومن للبيان لان الذين كفروا جنس تحته نوعان أهل الكتاب والمشركون كقوله تعالى لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين والمودة محبة الشئ مع تمنيه ولذلك

تستعمل في كل منهما (أن ينزل عليكم من خير من ربكم) فسر الخير بالوحي والمعنى أنهم يحسدونكم به وما يحبون أن ينزل عليكم من شيء منه وفسر بالعلم والنصرة والمراد به ما يعم ذلك كما قاله البيضاوي ومن الاولى مزيدة للاستغراق ومن الثانية لابتداء الغاية (والله يختص برحمته) أي بنبوته كما قاله علي رضي الله تعالى عنه ومجاهد أو بالاسلام كما قاله ابن عباس ومقاتل (من يشاء) ولا يشاء الا ما تقتضيه الحكمة ولا يجب عليه شيء وليس لأحد عليه حق (والله ذو الفضل) وهو ابتداء احسانه بلا علة وقوله تعالى (العظيم) فيه اشعار بأن اتيان النبوة والاسلام من الفضل العظيم ويدل للاول قوله تعالى ان فضله كان عليك كبيرا * ولما طعن الكفار في النسخ وقالوا ان محمدا يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ما يقوله الا من تلقاء نفسه يقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا كما أخبر الله تعالى بقوله واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر نزل (ما ننسخ من آية) فبين وجه الحكمة في النسخ بهذه الآية والنسخ في اللغة شيآن أحدهما بمعنى التحويل والنقل ومنه نسخ الكتاب وهو أن يحول من كتاب الى كتاب فعلى هذا الوجه كل القرآن منسوخ لانه نسخ من اللوح المحفوظ والثاني بمعنى الرفع يقال نسخت الشمس الظل أي ذهبت به وأبطلته فعلى هذا يكون بعض القرآن ناسخا وبعضه منسوخا وهو المراد من الآية وهذا على وجوه أحدها أن تثبت التلاوة وينسخ الحكم كآية الوصية للاقارب وآية عدة الوفاة بالحول والثاني أن ترفع التلاوة ويبقى الحكم كآية الرجم والثالث أن يرفع الحكم والتلاوة كما روي أن قوما من الصحابة قاموا ليلة ليقرؤا سورة فلم يذكروا منها الا بسم الله الرحمن الرحيم فغدوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال صلى الله عليه وسلم تلك سورة رفعت بتلاوتها وأحكامها وقيل كانت سورة الاحزاب مثل سورة البقرة فرفع أكثرها تلاوة وحكما ثم من نسخ الحكم ما يرفع ويقام غيره مقامه كما أن القبلة نسخت من بيت المقدس الى الكعبة والوصية للاقارب نسخت بالميراث وعدة الوفاة نسخت من الحول الى أربعة أشهر وعشر ومصابرة الواحد للعشرة بمصابرته للاثنين قال البغوي والنسخ انما يعترض على الاوامر والنواهي دون الاخبار اه والنسخ اصطلاحا رفع تعلق حكم شرعي بدليل شرعي ويفارق التخصيص بأن التخصيص لا يرد الا على متعدد وبأنه غير مشروط بالنص بخلاف النسخ فيهما وبأنه يفيد عدم ارادة المخرج في الاصل والنسخ يفيد ارادة المنسوخ في الاصل لكن غير مستمر وقرأ ابن عامر ننسخ بضم النون الاولى وكسر السين من أنسخ أي نأمرك أو جبريل بنسخها والباقون بفتح النون والسين وما شرطية جازمة لننسخ منتصبة به على المفعولية (أو ننسأها) أي نؤخرها فلا نزل حكمها ولا نرفع تلاوتها أو نؤخرها في اللوح المحفوظ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح النون الاولى وفتح السين وهمزة ساكنة بعد السين ولم يبدل هذه الهمزة أحد من السبعة وقرأ الباقون بضم النون وكسر السين ولا همزة بعد السين أي ننسها أي نمحها من قلبك وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نتركها لا ننسخها قال الله تعالى نسوا الله فنسيهم أي تركوه فتركهم وجواب الشرط (نأت بخير منها) أي بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم وأكثر لأجركم وان كان

كلام الله كله خيرا (أو مثلها) فى التكليف والثواب والمنفعة وتكون الحكمة فى تبديلها بمثلها الاختبار (ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير) فيقدر على النسخ والاتيان بمثل المنسوخ وبما هو خير والآية دلت على جواز النسخ وتأخير الانزال اذ الاصل اختصاص ان وما يتضمنها بالامور المحتملة وذلك لان الاحكام شرعت والآيات نزلت لمصالح العباد وتكميل نفوسهم فضلا من الله ورحمة وذلك يختلف باختلاف الاعصار والاشخاص كاسباب المعاش فان النافع فى عصر قد يضر فى غيره واحتج بها من منع النسخ بلا بدل أو ببدل أثقل ومن منع نسخ الكتاب بالسنة فان الناسخ هو المأتى به بدلا والسنة ليست كذلك قال البيضاوى والكل ضعيف اذ قد يكون عدم الحكم والاثقل أصلح والنسخ قد يعرف بغيره والسنة مما أتى به الله واستدل بهذه الآية المعتزلة على حدوث القرآن فان التغير والتفاوت من لوازم الحدوث وأجاب أهل السنة بأنهما من عوارض الامور المتعلق بها المعنى القائم بالذات القديم لا من عوارض هذا المعنى وقوله تعالى (ألم تعلم) هنا وفيما مر خطاب لمنكرى النسخ فالهمزة للانكار وقيل خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته فالهمزة للتقرير (أن الله له ملك السموات والارض) يفعل فيهما ما يشاء ويحكم ما يريد فهو يملك أموركم ويدبرها ويجريها على حسب ما يصلحكم وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ ومنسوخ وهذا كالدليل على قوله ان الله على كل شئ قدير أو على جواز النسخ ولذلك ترك العاطف (وما لكم من دون الله) أى غيره (من ولى) أى ولى يحفظكم ومن صلة (ولا نصير) يمنع عنكم عذابه وفرق بين الولى والنصير بأن الولى قد يضعف عن النصرة والنصير قد يكون أجنبيا عن المنصور فبينهما عموم وخصوص من وجه * ونزل لما سأل أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم أن يوسعها لهم وأن يجعل الصفا ذهبا (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى) أى سأله قومه (من قبل) أى من قولهم له أرنا الله جهرة وقيل قالوا له لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا أو تأتينا بكتاب نقرؤه تنزله من السماء علينا أو تفجر لنا أنهارا حتى نتبعك وقال عبد الله بن أمية لن نؤمن لك حتى تأتى بكتاب فيه من الله رب العالمين الى ابن أمية اعلم انى أرسلت محمدا الى الناس وأم اما معادلة للهمزة فى ألم تعلم أى ألم تعلموا أنه مالك الامور وقادر على الاشياء كلها يأمر وينهى كما أراد وتقترحون بالسؤال كما اقترحت اليهود على موسى عليه الصلاة والسلام واما منقطعة والمراد أن يوصيهم بالثقة وترك الاقتراح عليه (ومن يتبدل الكفر بالايمان) أى يأخذه بدله بترك النظر فى الآيات البينات واقتراح غيرها (فقد ضل سواء السبيل) أى أخطأ الطريق الحق والسواء فى الاصل الوسط وقرأ قالون وابن كثير وعاصم باظهار قد عند الضاد حيث جاء وأدغمها الباقون ونزل فى نفر من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد لو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعا الى ديننا فنحن أهدى سبيلا منكم فقال لهم عمار كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال فانى قد عاهدت الله أن لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ما عشت فقالت اليهود أما هذا فقد صبا وقال حذيفة وأما انا فقد رضيت بالله ربا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالاسلام دينا وبالقرآن

اماما وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين اخوانا ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبراه بذلك فقال أصبتما الخير وأفلحتما (ودّ) أى تمنى (كثير من أهل الكتاب) من اليهود (لو يردونكم) أى يردوكم يا معشر المؤمنين فلو مصدرية بمعنى ان فان لو تنوب عن ان فى المعنى دون اللفظ (من بعد ايمانكم كفارا) مرتدين وقوله (حسدا) مفعول له كائنا (من عند) أى من تلقاء (أنفسهم) أى لم يأمرهم الله بذلك وانما حملتهم عليه أنفسهم الخبيثة (من بعد ما تبين لهم) فى التوراة (الحق) فى شأن النبى محمد صلى الله عليه وسلم (فاعفوا) عنهم أى اتركوهم (واصفحوا) أى أعرضوا عنهم فلا تجازوهم وكان هذا قبل آية القتال ولهذا قال تعالى (حتى يأتى الله بأمره) فيهم من القتال وقد أذن فى قتالهم وضرب الجزية عليهم وروى عن ابن عباس وابن مسعود أن هذا منسوخ بقوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الآية وابى النسخ جماعة من المفسرين والفقهاء واحتجوا بان الله تعالى لم يأمر بالعفو والصفح مطلقا وانما أمر به الى غاية ومابعد الغاية يخالف ماقبلها وماهذا سبيله لا يكون من باب النسخ بل يكون الاول قد انقضت مدته والآخر يحتاج الى حكم آخر (ان الله على كل شئ قدير) فهو يقدر على الانتقام من الكفار وقوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) عطف على قوله فاعفوا كأنه تعالى أمرهم بالصبر والمخالفة واللجأ اليه بالعبادة والبر (وما تقدموا لانفسكم من خير) أى طاعة كصلاة وصدقة (تجدوه) أى ثوابه (عند الله) فيجازيكم به (ان الله بما تعملون بصير) لا يضيع عنده عمل عامل (وقالوا) أى كثير من أهل الكتاب من اليهود والنصارى (لن يدخل الجنة الا من كان هودا) جمع هائد كعائد وعود (أو نصارى) قال ذلك يهود المدينة ونصارى نجران لما تناظروا بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم أى قالت اليهود لن يدخل الجنة الا اليهود ولا دين الا دين اليهودية وقالت النصارى لن يدخل الجنة الا النصارى ولا دين الا دين النصرانية فجمع الله بين القولين ثقة بأن السامع يرد الى كل فريق قوله وأمنا من الالباس لما علم من التعادى بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه ونحوه (تلك) أى القولة (أمانيهم) أى شهواتهم الباطلة التى تمنوها على الله تعالى بغير حق (قل) لهم يا محمد (هاتوا برهانكم) أى حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة (ان كنتم صادقين) فى دعواكم اذ كل قول لا دليل عليه فهو غير صحيح وهذا متصل بقولهم لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى وتلك أمانيهم اعتراض وقوله تعالى (بلى) اثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة (من أسلم وجهه لله) أى انقاد لامره وخص الوجه لانه أشرف الاعضاء الظاهرة فغيره أولى (وهو محسن) فى عمله وقيل مخلص وقيل مؤمن (فله أجره) أى ثواب عمله ثابتا (عند ربه) لا يضيع ولا ينقص والجملة جواب من ان كانت شرطية وخبرها ان كانت موصولة والفاء فيها لتضمنها معنى الشرط فيكون الرد بقوله بلى وحده ويحسن الوقف عليه ويصح أن يكون قوله من اسلم فاعل فعل مقدر مثل بلى يدخلها من أسلم فلا يحسن الوقف عليه ويصح أن يكون قوله فله أجره عند ربه كلاما معطوفا على يدخلها من أسلم (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فى الآخرة ولما قدم نصارى نجران

على النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم فقالت لهم اليهود ما أنتم على شيء من الدين وكفروا بعيسى والانجيل وقالت النصارى لليهود ما أنتم على شيء من الدين وكفروا بموسى والتوراة أنزل الله تعالى (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء) أي يعتد به وكفروا بعيسى والانجيل (وقالت النصارى ليست اليهود على شيء) أي يعتد به وكفروا بموسى والتوراة (وهم) أي الفريقان (يتلون الكتاب) أي المنزل عليهم وفي كتاب اليهود تصديق عيسى وفي كتاب النصارى تصديق موسى والجملة حال وأل في الكتاب للجنس أي قالوا ذلك وهم من أهل العلم والكتاب (كذلك) أي كما قال هؤلاء (قال الذين لا يعلمون) كعبدة الاصنام والمعطلة وهم الذين لا يثبتون الصانع وقوله تعالى (مثل قولهم) بيان لمعنى ذلك أي قال كل ذي دين ليسوا على شيء وبخهم الله تعالى على المكابرة والتشبه بالجهال (فان قيل) لم وبخهم وقد صدقوا فان كلا الدينين بعد النسخ ليس بشيء (أجيب) بأنهم لم يقصدوا ذلك وانما قصد به كل فريق ابطال دين الآخر من أصله والكفر بنبيه وكتابه كما مر مع ان ما لم ينسخ حق واجب القبول والعمل به *(تنبيه)* اذا وقف حمزة وهشام على شيء فلهما أربعة وجوه السكون والروم والادغام والروم معه وسكن حمزة قبل الهمزة بخلاف عن خلاد في الوصل وأدغم أبو عمرو الكاف في القاف بخلاف عنه (فالله يحكم بينهم) أي بين الفرق الثلاثة وهم اليهود والنصارى والذين لا يعلمون (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) من أمر الدين فيقسم لكل فريق منهم من العقاب الذي استحقه وعن الحسن حكم الله بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار وقرأ أبو عمرو يحكم بسكون الميم عند الباء والاخفاء بخلاف عنه (ومن أظلم) أي لا أحد أظلم (ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) بالصلاة والتسبيح (وسعى في خرابها) بالهدم أو التعطيل هذا عام لكل من خرب مسجدا أو سعى في تعطيله وان نزل في أهل الروم الذين خربوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير فكان خرابا الى أن بناه المسلمون في أيام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أو في المشركين لما صدوا النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية عن البيت (فان قيل) قد قال مساجد الله وانما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام (أجيب) بأنه لا يمنع أن يجيء الحكم عاما وان كان السبب خاصا كما تقول لمن آذى صالحا ومن أظلم ممن آذى الصالحين وكما قال الله تعالى ويل لكل همزة لمزة والمنزول فيه الاخنس بن شريق (أولئك) أي المانعون (ما كان لهم أن يدخلوها) أي مساجد الله (الا خائفين) أي على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلا ان يستولوا عليها أو يخربوها أو يمنع النبي صلى الله عليه وسلم عنها وقال قتادة لا يوجد نصراني في بيت المقدس الا انهمك ضربا وأبلغ اليه في العقوبة وروي أنه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى الا متنكرا مسارقة وقيل نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم الا لا يحجن بعد هذا العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان وقيل ان هذا خبر بمعنى الامر أي أخيفوهم بالجهاد فلا يدخلها أحد آمنا واختلف في جواز دخول الكافر المسجد فجوزه أبو حنيفة ومنعه مالك وفرق

الشافعي بين المسجد الحرام وغيره فمنع من الاول وجوز في الثاني بشرط اذن المسلم والحاجة وغلظ ورش اللام من أظلم بعد الظاء (لهم في الدنيا خزي) أي هوان بالقتل والسبي والجزية (ولهم في الآخرة عذاب عظيم) بكفرهم وظلمهم وهو النار * ونزل لما عيرت اليهود المؤمنين في نسخ القبلة وقالوا ليست لهم قبلة معلومة فتارة يستقبلون هذا وتارة هذا كما قاله عكرمة أو في صلاة النافلة على الراحلة في السفر حيثما توجهت به راحلته كما قاله ابن عمر (ولله المشرق والمغرب) أي ناحيتا الارض أي له الارض كلها لا يختص به مكان دون مكان فان منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام والاقصى فقد جعلت لكم الارض كلها مسجدا (فأينما تولوا) وجوهكم أي جهة وهو الصدر في الصلاة (فثم) أي هناك (وجه الله) أي قبلته كما قاله مجاهد وقال الكلبي فثم الله يعلم ويرى والوجه صلة كقوله تعالى كل شيء هالك الا وجهه أي الا هو (ان الله واسع) أي غني يعطي من السعة يسع فضله كل شيء (عليم) بتدبير خلقه * ونزل لما قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال مشركو العرب الملائكة بنات الله (وقالوا اتخذ الله ولدا) فقال الله تعالى ردا عليهم (سبحانه) تنزيها له عن ذلك فانه يقتضي التشبيه والحاجة وسرعة الفناء وقرأ ابن عامر قالوا بغير واو قبل القاف والباقون بالواو قبل القاف (بل له ما في السموات والارض) ملكا وخلقا ومن جملة ذلك العزير والمسيح والملائكة والملكية تنافي الولدية وعبر بما تغليبا لما لا يعقل لكثرته (كل له قانتون) أي منقادون كل بما يراد منه لا يمتنعون عن مشيئته وتكوينه وفي ذلك تغليب للعاقل لشرفه والآية مشعرة على فساد ما قالوه من ثلاثة أوجه الاول قوله سبحانه والثاني قوله بل له ما في السموات والارض والثالث كل له قانتون واحتج بها الفقهاء على أن من ملك ولده عتق عليه لانه تعالى نفى الولد باثبات الملك وذلك يقتضي تنافيهما (بديع السموات والارض) أي موجدهما لا على مثال سبق وهذا وجه رابع يشعر بفساد ما قالوه أيضا لان الوالد عنصر الولد المنفصل بانفصال مادته عنه والله سبحانه وتعالى مبدع الاشياء كلها فاعل على الاطلاق منزه عن الصفات فلا يكون والدا (واذا قضى أمرا) أي أراد ايجاد شيء وأصل القضاء اتمام الشيء قولا كان كقوله تعالى وقضى ربك أو فعلا كقوله تعالى فقضاهن سبع سموات وأطلق على تعلق الارادة الالهية بوجود الشيء من حيث انه يوجبه (فانما يقول له كن فيكون) وهذا مجاز من الكلام وتمثيل وانما المعنى أن ما قضاه من الامور وأراد كونه فانما يكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الاباء وفيه تقرير لمعنى الابداع دائما وهذا وجه خامس يشعر بفساد ما قالوه أيضا لان اتخاذ الولد مما يكون بأطوار ومهلة وفعله تعالى مستغن عن ذلك وقرأ ابن عامر بنصب النون من يكون جوابا للامر والباقون بالرفع على معنى فهو يكون (فان قيل) المعدوم لا يخاطب (أجيب) بأنه لما قدر وجوده وهو كائن لا محالة كان كالموجود فصح خطابه (وقال الذين لا يعلمون) للنبي صلى الله عليه وسلم وهم اليهود كما قاله ابن عباس أو النصارى كما قاله مجاهد أو مشركو العرب كما قاله

قتادة ونفى عنهم العلم لانهم لم يعملوا به (لولا) أى هلا (يكلمنا الله) كما يكلم الملائكة أو يوحى الينا بأنك رسوله (أو تأتينا آية) أى علامة مما اقترحناه على صدقك (كذلك) أى كما قال هؤلاء (قال الذين من قبلهم) من كفار الامم الماضية لانبيائهم (مثل قولهم) من التعنت وطلب الآيات فقالوا أرنا الله جهرة وهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء (تشابهت قلوبهم) أى قلوب هؤلاء ومن قبلهم فى الكفر والعناد وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) الحقائق ولا يعتريهم شبهة ولا عناد وفيه اشارة الى أنهم قالوا ذلك لا لخفاء فى الآيات أو لطلب مزيد يقين وانما قالوه عتوا وعنادا (انا أرسلناك) يا محمد (بالحق) أى القرآن كما قاله ابن عباس كما قال تعالى بل كذبوا بالحق لما جاءهم أو الاسلام وشرائعه كما قاله ابن كيسان قال تعالى وقل جاء الحق (بشيرا) أى مبشرا من أجاب الى ذلك بالجنة (ونذيرا) أى منذرا من لم يجب اليه بالنار أى انما أرسلناك لان تبشر وتنذر لا لتجبر الناس على الايمان وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لانه كان يغتم ويضيق صدره لاصرارهم وتصميمهم على الكفر (ولا تسئل عن أصحاب الجحيم) أى النار وهم الكفار مالهم لم يؤمنوا بعد أن بينت وبلغت جهدك فى دعوتهم كقوله تعالى فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب وقرأ نافع تسأل بفتح التاء وسكون اللام على النهى قال عطاء عن ابن عباس وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ليت شعرى ما فعل أبواى فنزلت هذه الآية فنهى عن السؤال عن أحوال الكفرة والاهتمام بأعداء الله تعالى لكن الخبر ضعيف والمختار انها نزلت فى كفار أهل الكتاب وقرأ الباقون بضم التاء واللام على النفى أى ولست بمسؤل عنهم كما قال تعالى فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) أى دينهم أى لن ترضى عنك اليهود الا باليهودية ولا النصارى الا بالنصرانية وفى هذا مبالغة فى اقناطه صلى الله عليه وسلم عن اسلامهم وذلك انهم كانوا يسألونه الهدنة ويطمعونه انه ان أمهلهم اتبعوه فأنزل الله تعالى هذه الآية فانهم اذا لم يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم فكيف يتبعون ملته قال البيضاوى ولعلهم قالوا مثل ذلك فحكى الله تعالى ذلك عنهم ولذلك قال (قل) تعليما للجواب (ان هدى الله) الذى هو الاسلام (هو الهدى) أى هو الذى يصح أن يسمى هدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى وما يدعون الى اتباعه ما هو بهدى انما هو أهواء ألا ترى الى قوله تعالى (ولئن) اللام لام القسم (اتبعت أهواءهم) أى آراءهم الزائغة التى يدعونك اليها الخطاب معه صلى الله عليه وسلم والمراد منه أمته كقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك (بعد الذى جاءك من العلم) أى من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة (مالك من الله من ولى) يحفظك (ولا نصير) يمنعك منه * ونزل فى جماعة من أهل الكتاب قدموا من الحبشة وأسلموا (الذين آتيناهم الكتاب) وهو مبتدا (يتلونه حق تلاوته) أى يقرءونه كما أنزل لا يحرفونه ولا يغيرون ما فيه من نعت محمد صلى الله عليه وسلم والجملة حال مقدرة وحق نصب على المصدر والخبر (أولئك يؤمنون به) أى بكتابهم دون المحرفين (ومن يكفر به) أى بالكتاب المؤتى بأن يحرفه (فأولئك

هم الخاسرون) لمصيرهم الى النار المؤبدة عليهم * ولما صدر قصة بني اسرائيل بالامر بذكر النعم
والقيام بحقوقها والحذر عن اضاعتها والخوف من الساعة وأحوالها في قوله تعالى يابني
اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي الخ كرر ذلك بقوله تعالى (يابني
اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين) أي عالمي زمانهم
(واتقوا) أي خافوا (يوما لا تجزي) أي لا تغني (نفس عن نفس) فيه (شيأ ولا يقبل منها عدل)
أي فداء (ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون) أي يمنعون من عذاب الله وختم بالمكرر الكلام
معهم مبالغة في النصح * (تنبيه) * اتفق القراء على قراءة يقبل هنا بالياء على التذكير (و) اذكر
(اذ ابتلى) أي اختبر (ابراهيم ربه بكلمات) أي بأوامر ونواه وابتلاء الله العباد ليس ليعلم
أحوالهم بالابتلاء لانه عالم بهم ولكن ليعلم العباد أحوالهم حتى يعرف بعضهم بعضا * واختلفوا
في الكلمات التي ابتلى الله تعالى بها ابراهيم عليه الصلاة والسلام فقال عكرمة عن ابن عباس هي
ثلاثون من شرائع الاسلام عشر في براءة التائبون العابدون الخ وعشر في الاحزاب ان المسلمين
والمسلمات الخ وعشر في المؤمنين الى قوله والذين هم على صلواتهم يحافظون وفي سأل سائل الى
قوله تعالى والذين هم بشهاداتهم قائمون وقال طاوس عن ابن عباس ابتلاه الله تعالى بعشرة أشياء
هي الفطرة خمس في الرأس أي الشامل للوجه قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك
وفرق الرأس وخمس في الجسد تقليم الاظافر ونتف الابط وحلق العانة والختان والاستنجاء بالماء
وفي الخبر ان ابراهيم أول من قص الشارب وأول من اختتن وأول من قلم الاظافر وأول من
رأى الشيب فلما رآه قال يارب ما هذا قال الوقار قال يارب زدني وقارا وقال قتادة هي مناسك
الحج أي فرائضه وسننه كالطواف والسعي والرمي والاحرام والتعريف وغيرهن وقال الحسن
ابتلاه بالكواكب والقمر والشمس فأحسن فيها النظر وعلم أن ربه دائم لا يزول وبالنار فصبر
عليها وبالختان وبذبح ولده وبالهجرة فصبر عليها وقال مجاهد هي الآيات التي بعدها في قوله
تعالى اني جاعلك للناس اماما الى آخر القصة وقرأ ابن عامر ابراهام بفتح الهاء وألف بعدها جميع
ما في هذه السورة وهي خمسة عشر حرفا وفي النساء ثلاثة أحرف وهي الاخيرة وفي الانعام
الحرف الاخير وفي التوبة الحرفان الاخيران وفي ابراهيم حرف وفي النحل حرفان وفي مريم
ثلاثة أحرف وفي العنكبوت حرف وفي الشورى حرف وفي الذاريات حرف وفي النجم حرف
وفي الحديد حرف وفي الممتحنة الحرف الاول فذلك ثلاثة وثلاثون حرفا وقرأ ابن ذكوان
في البقرة خاصة بالوجهين وابراهيم اسم أعجمي ولذلك كان غير منصرف وهو ابن آزر كما
في سورة الانعام وكان مولده بالسوس من أرض الاهواز وقيل ببابل وقيل حران ولكن نقله أبوه
الى بابل أرض نمروذ بن كنعان والضمير في ربه لابراهيم وحسن لتقدمه لفظا وان تأخر رتبة لان
الشرط تقدمه لفظا أو رتبة (فأتمهن) أي أداهن تامات وقام بهن حق القيام لقوله وابراهيم الذي
وفى (قال اني جاعلك للناس اماما) يقتدى بك في الخير وجاعل من جعل الذي له مفعولان والامام
اسم من يؤتم به وامامة ابراهيم عامة مؤبدة اذ لم يبعث من بعده نبي الا كان من ذريته مأمورا

باتباعه (قال) ابراهيم صلى الله عليه وسلم (ومن ذريتي) أي أولادي اجعل أئمة يقتدى بهم في
الخير (قال) الله تعالى (لا ينال) أي لا يصيب (عهدي) بالامامة (الظالمين) منهم ففي ذلك اجابة الى
مطلوبه وتنبيه على انه قد يكون من ذريته ظلمة وانهم لا ينالون الامامة لانها امامة من الله تعالى
وعهده والظالم لا يصلح لها وانما ينالها البررة والاتقياء منهم وفيه دليل على عصمة الانبياء من
الكبائر قبل النبوة وأن الفاسق لا يصلح للامامة وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته
ولا تجب طاعته ولا يقبل خبره ولا يقدم للصلاة وقرأ حفص وحمزة عهدي بسكون الياء وفتحها
الباقون ومن سكن الياء أسقطها في الوصل لفظا لالتقاء الساكنين (و) اذكر (اذ جعلنا البيت)
أي الكعبة غلب عليها كالنجم على الثريا وأدغم أبو عمرو وهشام ذال اذ في الجيم وأظهرها
الباقون (مثابة) أي مرجعا (للناس) من الحجاج والعمار وغيرهم يثوبون اليه من كل جانب
(وأمنا) أي مأمنا لهم من الظلم وايذاء المشركين والاغارة الواقعة في غيره قال تعالى أولم يروا
انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم كان الجاني يأوي اليه فلا يتعرض له حتى يخرج
وهذا على طريق الحكم لا على وجه الخبر فقط فلا ينافي ذلك الوقوع قال القاضي أبو يعلى وصف
البيت بالامن والمراد جميع الحرم كما قال تعالى هديا بالغ الكعبة والمراد الحرم كله لانه لا يذبح في
الكعبة ولا في المسجد الحرام (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وهذا أمر استحباب ومقامه
الحجر وهو بفتح الحاء والجيم الذي فيه أثر قدميه كان يقوم عليه عند بناء البيت أو عند دعاء الناس
الى الحج وهو موضعه اليوم روي أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بيد عمر فقال هذا مقام ابراهيم
فقال عمر أفلا نتخذه مصلى فقال لم أومر بذلك فلم تغب الشمس حتى نزلت وعن ابن عباس انه قال
قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وافقت الله تعالى في ثلاث ووافقني ربي في ثلاث فقلت
يارسول الله لو اتخذت مقام ابراهيم مصلى فأنزل الله تعالى هذه الآية وقلت يارسول الله يدخل
عليك البر والفاجر لو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله تعالى آية الحجاب قال وبلغني
معاتبة النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه فدخلت عليهن وقلت لهن ان انتهيتن أو ليبدلن الله
تعالى لرسوله خيرا منكن فأنزل الله تعالى عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن وفي
الخبر الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة ولولا ما مسهما من أيدي المشركين لاضاءتا ما بين
المشرق والمغرب وقيل المراد باتخذوا الخ الامر بركعتي الطواف لما روى جابر أنه عليه الصلاة
والسلام لما فرغ من طوافه عمد الى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ واتخذوا من مقام
ابراهيم مصلى وللشافعي في وجوبهما قولان أرجحهما عدم الوجوب وقيل مقام ابراهيم الحرم
كله وقيل مواقف الحج واتخاذها مصلى أن يدعى فيها ويتقرب الى الله تعالى * (تنبيه) * من في
من مقام ابراهيم للتبعيض (وقيل) بمعنى في وقيل زائدة وقرأ نافع وابن عامر واتخذوا بفتح الخاء
بلفظ الماضي عطفا على جعلنا أي واتخذ الناس من مقام ابراهيم مصلى والباقون بكسرها بلفظ
الامر (وعهدنا) أي أمرنا (الى ابراهيم واسمعيل) قيل سمي به لان ابراهيم كان يدعو الله أن
يرزقه ولدا ويقول اسمع يا ايل وايل هو الله فلما رزق الولد سماه به (أن) أي بأن (طهرا بيتي)

من الاوثان والانجاس ومالا يليق به أو اخلصاه (للطائفين) حوله (والعاكفين) المقيمين عنده او المعتكفين فيه (والركع السجود) جمع راكع وساجد وهم المصلون وقرأ نافع وهشام وحفص بيتى بفتح الياء والباقون بالسكون (و) اذكر (اذ قال ابراهيم رب اجعل) هذا أى مكة أو الحرم (بلدا آمنا) أى ذا آمن كقوله تعالى فى عيشة راضية أو آمنا أهله كقول القائل ليل نائم (وارزق أهله من الثمرات) انما دعا بذلك لانه كان بواد غير ذى زرع وفى القصص ان الطائف كانت من مدائن الشام باردن فلما دعا ابراهيم هذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل عليه الصلاة والسلام حتى قطعها من أصلها وأدارها حول البيت سبعا ثم وضعها موضعها الآن فنها أكثر ثمرات مكة وقوله تعالى (من آمن منهم بالله واليوم الآخر) بدل من أهله قاس ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه الرزق على الامامة حيث قيده بالمؤمن كما قيدت به (قال) تعالى (و) أرزق (من كفر) لان الرزق رحمة دنيوية تعم المؤمن والكافر بخلاف الامامة والتقدم فى الدين (فأمتعه) فى الدنيا بالرزق وقرأ ابن عامر بسكون الميم وتخفيف التاء والباقون بفتح الميم وتشديد التاء وأما الهمزة بعد الالف فالجميع اتفقوا على ضمها (قليلا) أى مدة حياته والكفر وان لم يكن سبب التمتع لكنه يسبب تقليله بأن يجعله مقصورا بحظوظ الدنيا غير متوصل به الى نيل الثواب ولذلك عطف عليه (ثم اضطره) أى ألجئه فى الآخرة (الى عذاب النار) فلا يجد عنها محيصا (وبئس المصير) أى المرجع والمخصوص بالذم محذوف وهو العذاب قال مجاهد وجد عند المقام أنا الله ذو بكة أى صاحبها صنعتها يوم خلقت الشمس والقمر وحرمتها يوم خلقت السموات والارض وحففتها بسبعة أملاك حنفاء يأتيها رزقها مباركة لاهلها فى اللحم والماء (و) اذكر (اذ يرفع ابراهيم القواعد) أى الاسس والجدر (من البيت) حكاية حال ماضية كأنه قال اذ كان يرفع (فان قلت) وأى فرق بين العبارتين (أجيب) بأن فى ابهام القواعد وتبيينها بعد الابهام ماليس فى اضافتها لما فى الايضاح بعد الابهام من تفخيم شأن المبين وقوله تعالى (واسمعيل) عطف على ابراهيم يقولان يا (ربنا تقبل منا) بناءنا (انك أنت السميع) للقول فتسمع دعاءنا (العليم) بالفعل فتعلم بنياتنا روت الرواة ان الله تعالى خلق موضع البيت قبل الارض بألفى عام فكانت زبدة بيضاء على الماء فدحيت الارض من تحتها فلما أهبط الله تعالى آدم الى الارض استوحش فشكا الى الله تعالى فأنزل الله تعالى البيت المعمور من ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد أخضر باب شرقى وباب غربى فوضعه على موضع البيت وقال يا آدم انى أهبطت لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشى وتصلى عنده كما يصلى حول عرشى وأنزل الحجر الاسود وكان أبيض فاسود من لمس الحيض فى الجاهلية فتوجه آدم من أرض الهند الى مكة ماشيا وقيض الله تعالى له ملكا يدله على البيت فحج البيت وأقام المناسك قال ابن عباس حج آدم أربعين حجة من الهند الى مكة على رجليه فكان على ذلك الى أيام الطوفان فرفعه الله تعالى الى السماء الرابعة يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون اليه وبعث جبريل حتى خبأ الحجر الاسود فى

جبل أبي قبيس صيانة له من الغرق فكان موضع البيت خاليا الى زمن ابراهيم ثم ان الله تعالى أمر ابراهيم بعد ما ولد له اسمعيل واسحق ببناء بيت يذكر فيه اسمه تعالى فسأل الله عز وجل أن يبين له موضعه قال ابن عباس فبعث الله له سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وابراهيم يمشي في ظلها الى ان وافت به مكة ووقفت على موضع البيت فنودي منها ابراهيم أن ابن على ظلها ولا تزد ولا تنقص وقيل أرسل الله تعالى جبريل ليدله على موضع البيت فذلك قوله تعالى واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت فبنى ابراهيم واسمعيل البيت فكان ابراهيم يبنيه واسمعيل يناوله الحجارة ولما كان له مدخل في البناء عطف عليه وقيل كانا يبنيان في طرفين أو على التناوب قال ابن عباس بنى البيت من خمسة أجبل طور سيناء وطور زيتا ولبنان وهو جبل بالشأم والجودي وهو جبل بالجزيرة وبنيا قواعده من جبل حرا وهو جبل بمكة فلما انتهى ابراهيم الى موضع الحجر الاسود قال لاسمعيل ائتني بحجر حسن يكون للناس علما فأتاه بحجر فقال ائتني بأحسن من هذا فمضى اسمعيل يطلبه فصاح أبو قبيس يا ابراهيم ان لك عندي وديعة فخذها فأخذ الحجر الاسود فوضعه مكانه وقيل أول من بنى الكعبة آدم ثم اندرس من الطوفان ثم أظهره الله تعالى لابراهيم حتى بناه وقيل بنته الملائكة قبل آدم وقد بنى الى يومنا هذا سبع مرات المرة الاولى هل كان الباني الملائكة أو آدم ثم ابراهيم ثم العمالقة ثم جرهم ثم قريش وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم هذا البناء وكان ينقل معهم الحجارة ثم ابن الزبير في خلافته ثم الحجاج الثقفي وهو الموجود اليوم (ربنا واجعلنا مسلمين) أي منقادين مخلصين خاضعين (لك) والمراد طلب الزيادة في الاخلاص والاذعان (و) اجعل (من ذريتنا) أي أولادنا (أمة) أي جماعة (مسلمة) خاضعة منقادة (لك) ومن للتبعيض أي واجعل بعض ذريتنا وانما خصا الذرية بالدعاء لانهم أحق بالشفقة ولان أولاد الانبياء اذا صلحوا صلح بهم الاتباع الا ترى أن المتقدمين من العلماء والكبراء اذا كانوا على السداد كيف يتسببون لسداد من وراءهم وخصا بعضهم لتقدم قوله تعالى لا ينال عهدي الظالمين فعلما ان في ذريتهما ظلمة وأن الحكمة الالهية لا تقتضي اتفاق الناس كلهم على الاخلاص والاقبال الكلي على الله تعالى فانه مما يشوش المعاش ولذلك قيل لولا الحمقى الذين صرفوا أنفسهم الى الدنيا لخربت الدنيا ويصح أن تكون من للتبيين كقوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم قدم على المبين وفصل به بين العاطف وهو واو ومن والمعطوف وهو أمة كما في قوله تعالى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن وقيل أراد بالامة أمة محمد صلى الله عليه وسلم (وأرنا) علمنا (مناسكنا) شرائع ديننا واعلام حجنا والنسك في الاصل غاية العبادة وشاع في الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن المعتاد كالصيد والتمتع باللباس وغيره والناسك العابد فأجاب الله تعالى دعاءهما وبعث لهما جبريل عليه السلام فأراهما المناسك في يوم عرفة فلما بلغ عرفات قال عرفت يا ابراهيم قال نعم فسمي الوقت عرفة والموضع عرفات وقرأ ابن كثير والسوسي أرنا بسكون الراء وقرأ الدوري عن أبي عمرو باختلاس حركة الراء والباقون بالحركة الكاملة (وتب علينا) سألاه التوبة مع عصمتهما هضما لانفسهما

وارشاد الذريتهما أو لما سلف منهما سهوا قبل النبوة (انك أنت التواب) لمن تاب (الرحيم) به (ربنا وابعث فيهم) أى الامة المسلمة من ذرية ابراهيم واسمعيل (رسولا منهم) أى من أنفسهم روى انه قيل له قد استجيب لك وهو فى آخر الزمان فبعث الله فيهم محمدا صلى الله عليه وسلم اذلم يبعث من ذريتهما غير محمد صلى الله عليه وسلم اذلم يأت نبى من ولد اسمعيل الا النبى صلى الله عليه وسلم والكل من ولد اسحق فهو المجاب به دعوتهما كما قال عليه الصلاة والسلام انى عند الله مكتوب خاتم النبيين وان آدم لمنجدل فى طينته وسأخبركم بأول أمرى انا دعوة أبى ابراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمى التى رأت حين وضعتنى وقد خرج لها نور أضاءت له قصور الشأم وأراد بدعوة ابراهيم هذا قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كل الانبياء من بنى اسرائيل الاعشرة نوح وهود وشعيب وصالح ولوط وابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب ومحمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين (يتلو) أى يقرأ (عليهم آياتك) القرآن ويبلغهم مايوحى اليه من دلائل التوحيد والنبوة (ويعلمهم الكتاب) أى القرآن (والحكمة) أى ماتكمل به نفوسهم من المعارف والاحكام وقال ابن قتيبة هى العلم والعمل ولايكون الرجل حكيما حتى يجمعهما وقال أبو بكر بن دريد كل كلمة وعظتك أودعتك الى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهى حكمة وقيل هى فهم القرآن وقيل الفقه فى الدين وقيل السنة (ويزكيهم) أى يطهرهم من الشرك وقيل يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة اذا شهدوا هم للانبياء بالتبليغ والتعديل (انك أنت العزيز) الذى لايقهر ولايغلب على مايريد وقيل هو الذى لايوجد مثله وقيل هو المنيع الذى لاتناله الايدى ولايصل اليه شئ (الحكيم) فى صنعه (ومن) أى لا (يرغب) أحد (عن ملة ابراهيم) فيتركها لظهورها ووضوحها (الامن سفه نفسه) أى جهل أنها مخلوقة لله تعالى يجب عليه عبادته وذلك ان عبد الله بن سلام دعا ابنى أخيه سلمة ومهاجرا الى الاسلام فقال لهما قد علمتما ان الله عز وجل قال فى التوراة انى باعث من ولد اسمعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ومن لم يؤمن به فهو ملعون فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية قاله البيضاوى وغيره قال الاسيوطى لم أقف على ذلك فى شئ من كتب الحديث ولا التفاسير المسندة والمثبت مقدم على غيره وقد جاء من عرف نفسه فقد عرف ربه وفى الاخبار ان الله أوحى الى داود عليه الصلاة والسلام اعرف نفسك واعرفنى فقال يارب كيف اعرف نفسى وأعرفك فأوحى الله تعالى اليه اعرف نفسك بالضعف والعجز والفناء واعرفنى بالقوة والبقاء وهذا معنى من عرف نفسه فقد عرف ربه (ولقد اصطفيناه) أى اخترناه (فى الدنيا) بالرسالة والخلة (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) الذين لهم الدرجات العلا وفى هذا حجة وبيان لخطا من رغب عن ملته لان من جمع الكرامة عند الله فى الدارين وكان مشهودا له بالاستقامة والصلاح يوم القيامة كان حقيقا بالاتباع لايرغب عنه الاسفيه أومتسفه أذل نفسه بالجهل والاعراض عن النظر * (تنبيه) * قال الحسين بن الفضل فى الآية تقديم وتأخير تقديره ولقد اصطفيناه فى الدنيا والآخرة وانه لمن الصالحين وقوله تعالى (اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) اما ظرف

لاصطفيناه

لاصطفيناه أى اخترناه فى ذلك الوقت واما منصوب باضمار اذكر كأنه قال اذكر ذلك الوقت ليعلم انه المصطفى الصالح المستحق للامامة والتقدم وانه نال ما نال بالمبادرة الى الاذعان واخلاص السر حين دعاه ربه فكأنه قال له كما قال عطاء أسلم نفسك الى الله عز وجل وفوض أمرك اليه قال أسلمت أى فوضت قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقد حقق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقى فى النار (ووصى بها) أى بالملة المتقدم ذكرها أو بأسلمت على تأويل الكلمة أو الجملة وقيل بكلمة الاخلاص وهى لا اله الا الله وقرأ نافع وابن عامر وأوصى بسكون الواو الثانية وهمزة مفتوحة بين الواوين والباقون بواوين مفتوحتين ولا همزة بينهما وهذا أبلغ قال الزجاج لان أوصى يصدق بالمرة الواحدة ووصى لا يكون الا لمرات كثيرة وأمال ورش بين بين وحمزة والكسائى محضة والباقون بالفتح وقوله تعالى (ابراهيم بنيه) قال مقاتل وهم أربعة اسمعيل واسحق ومدين ومدان وقد ذكر غير مقاتل انهم ثمانية وقيل أربعة عشر (و) وصى بها أيضا (يعقوب) بنيه وهم اثنا عشر روبيل وشمعون ولاوا ويهوذا ويشنيوخور وزبويلون ودان ويفتونى وكودا وأوشير وبنيامين ويوسف وسمى بذلك لانه والعيص كانا توأمين فتقدم عيص فى الخروج من بطن أمه وخرج يعقوب عقبه وقوله تعالى (يا بنى) على اضمار القول عند البصريين متعلق بوصى عند الكوفيين (ان الله اصطفى لكم الدين) أى دين الاسلام الذى هو صفوة الاديان لقوله تعالى (فلا تموتن الا وأنتم مسلمون) نهى عن ترك الاسلام وأمر بالثبات عليه الى مصادفة الموت وعن الفضيل بن عياض انه قال الا وأنتم مسلمون أى محسنون بربكم الظن لما روى جابر رضى الله عنه انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول لا يموتن أحد الا وهو يحسن الظن بربه * ولما قالت اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم ألست تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية نزل (أم كنتم شهداء) جمع شهيد بمعنى الحاضر أى ما كنتم حاضرين وقول الاسيوطى لم أقف على ذلك فيه مامر (اذ حضر يعقوب الموت) أى حين احتضر وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الهمزة الاولى وتسهيل الثانية بين الهمزة والباقون بتحقيقهما وقوله تعالى (اذ) بدل من اذ قبله (قال لبنيه ما تعبدون من بعدى) أى بعد موتى أى أى شئ تعبدونه أراد به تقريرهم على التوحيد والاسلام وأخذ ميثاقهم على الثبات فليس الاستفهام على حقيقته قال عطاء ان الله تعالى لم يقبض نبيا حتى يخيره بين الموت والحياة فلما خير يعقوب قال أنظرنى حتى أسأل ولدى وأوصيهم ففعل الله ذلك به فجمع ولده وولد ولده وقال لهم قد حضر أجلى فما تعبدون من بعدى (قالوا نعبد الهك واله آبائك) وقوله تعالى (ابراهيم واسمعيل واسحق) عطف بيان لآبائك وجعل اسمعيل وهو عمه من جملة آبائه تغليبا للاب اسحق والجد ابراهيم أولان العم أب والخالة أم لانخراطهما فى سلك واحد وهو الاخوة لا تفاوت بينهما ومنه قوله عليه الصلاة والسلام عم الرجل صنو أبيه أى لا تفاوت بينهما كما لا تفاوت بين صنوا النخلة وقال فى العباس هذا بقية آبائى وقال ردوا على أبى فانى أخشى ان تفعل بى قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن

مسعود وقوله تعالى (الها واحدا) بدل من اله آبائك كقوله تعالى بالناصية ناصية كاذبة وقوله تعالى (ونحن له مسلمون) حال من فاعل نعبد أو من مفعوله أو منهما وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيه للانكار أى لم يحضروه وقت موته فكيف ينسبون اليه ما لا يليق به أو متصلة بمحذوف تقديره أكنتم غائبين أم كنتم شهداء وقيل الخطاب للمؤمنين بمعنى ما شهدتم ذلك وانما حصل لكم العلم به من طريق الوحى وقوله تعالى (تلك) مبتدأ والاشارة الى الامة المذكورة التى هى ابراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون وأنث لتأنيث خبره وهو (أمة قد خلت) أى سلفت وقوله تعالى (لها ما كسبت) أى من العمل جزاؤه استئناف (ولكم) الخطاب لليهود (ما كسبتم) والمعنى ان أحدا لا ينفعه كسب غيره متقدما كان أو متأخرا فكما ان أولئك لا ينفعهم الا ما اكتسبوا فكذلك أنتم لا ينفعكم الا ما كسبتم وذلك انهم افتخروا بأوائلهم ونحوه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بنى هاشم لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم (ولا تسئلون عما كانوا يعملون) كما لا يسئلون عن عملكم والجملة تأكيد لما قبلها (وقالوا) أى أهل الكتاب (كونوا هودا أو نصارى) أى قالت اليهود كونوا هودا وقالت النصارى كونوا نصارى فأو للتفصيل قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما نزلت فى رؤس يهود المدينة وفى نصارى نجران وذلك انهم خاصموا المسلمين فى الدين كل فرقة تزعم أنها أحق بدين فقالت اليهود نبينا موسى أفضل الانبياء وكتابنا التوراة أفضل الكتب وديننا أفضل الاديان وكفرت بعيسى والانجيل وبمحمد والقرآن وقالت النصارى نبينا عيسى أفضل الانبياء وكتابنا الانجيل أفضل الكتب وديننا أفضل الاديان وكفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وقال كل من الفريقين للمؤمنين كونوا على ديننا فلا دين الا ذلك وقوله تعالى (تهتدوا) جواب الامر وهو كونوا قال الله تعالى (قل) لهم يا محمد (بل) نتبع (ملة ابراهيم) وقال الكسائى هو نصب على الاغراء كأنه يقول اتبعوا ملة ابراهيم وقيل معناه بل نكون على ملة ابراهيم فحذف على فصار منصوبا وقوله تعالى (حنيفا) حال من المضاف اليه كقولك رأيت وجه هند قائمة لكن هذا جزء حقيقة وملة كالجزء والحنيف المائل عن كل دين باطل الى دين الحق وقوله تعالى (وما كان من المشركين) تعريض لاهل الكتاب وغيرهم لان كلا منهم يدعى اتباع ابراهيم وهو على الشرك (قولوا آمنا بالله) خطاب للمؤمنين وقول الكشاف ويجوز أن يكون خطابا للكافرين أى قولوا لتكونوا على الحق والا فأنتم على الباطل وكذلك قوله تعالى قل بل ملة ابراهيم يجوز أن يكون على تأويل اتبعوا ملة ابراهيم أو كونوا أهل ملته يرده قوله تعالى فان آمنوا بمثل ما آمنتم به (وما أنزل الينا) أى من القرآن وانما قدم ذكره لانه أول الكتب بالنسبة الينا أو لانه سبب للايمان بغيره (وما أنزل الى ابراهيم) من الصحف العشرة (واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط) جمع سبط وهو الحافد وكان الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما سبطى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد حفدة يعقوب أو أبناؤه وذراريهم فانهم حفدة ابراهيم واسحق (فان قيل) الصحف انما أنزلت على ابراهيم (أجيب) بأنهم لما كانوا متعبدين بتفاصيلها داخلين تحت أحكامها كانت أيضا منزلة

اليهم

اليهم كما أن القرآن منزل الينا (وما أوتي موسى) من التوراة (و) ما أوتي (عيسى) من الانجيل (فان قيل) لم أفرد التوراة والانجيل بحكم أبلغ وهو الايتاء لانه أبلغ من الانزال لكونه مقصودا منه ولم يقل والاسباط وموسى وعيسى (أجيب) بأن أمرهما بالاضافة الى موسى وعيسى مغاير لما سبق والنزاع وقع فيهما فلهذا أفردا بالذكر (وما أوتي) أي أعطي (النبيون) أي المذكورون (من ربهم) من الكتب والآيات وقرأ نافع بالهمزة والباقون بالياء ولورش في الهمز المد والتوسط والقصر (لانفرق بين أحد منهم) كاليهود والنصارى فنؤمن ببعض ونكفر ببعض بل نؤمن بجميعهم (فان قيل) كيف صح اضافة بين الى أحد وهو مفرد (أجيب) بأنه في معنى الجماعة وعلله السعد التفتازاني بأنه اسم لمن يصلح أن يخاطب يستوي فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث قال ويشترط أن يكون استعماله مع كلمة كل أوفي كلام غير موجب (ونحن له) أي لله (مسلمون) أي مذعنون أي مخلصون روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لاهل الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الينا الآية وقوله تعالى (فان آمنوا) أي اليهود والنصارى (بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) من باب التعجيز والتبكيت كقوله تعالى فأتوا بسورة من مثله لان دين الحق واحد لامثل له وهو دين الاسلام قال تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وأما ان مثل صلة أي آمنوا بما آمنتم به كقوله تعالى ليس كمثله شئ أي ليس كهو شئ وكما في قوله تعالى وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله أي عليه وقيل الباء صلة كما في قوله تعالى وهزي اليك بجذع النخلة وقيل معناه فان آمنوا بكتابكم كما آمنتم بكتابهم فقد اهتدوا (وان تولوا) أي أعرضوا عن الايمان به (فانما هم في شقاق) أي في خلاف ومنازعة معكم يقال شاق مشاقة اذا خالف كان كل واحد من المخالفين يحرص على كل مايشق على صاحبه (فسيكفيكهم الله) يامحمد شقاقهم في ذلك تسلية وتسكين للمؤمنين ووعد لهم بالحفظ والنصر على من عاداهم وقد كفاه اياهم بقتل بني قريظة ونفي بني النضير وضرب الجزية على اليهود والنصارى وقوله تعالى (وهو السميع العليم) اما من تمام الوعد بمعنى أنه يسمع أقوالكم ويعلم اخلاصكم وهو مجازيكم لامحالة واما وعيد للمعرضين بمعنى أنه يسمع مايبدون ويعلم مايخفون وهو معاقبهم عليه ولامانع من حمل الكلام على الوعد والوعيد معا (صبغة الله) أي دينه الذي فطر الناس عليه بظهور أثره على صاحبه كالصبغ للثوب أو للمشاكلة فان النصارى كانوا اذا ولد لهم ولد وأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم أصفر يقال له المعمودية ويقولون هو طهير لهم مكان الختان فاذا فعلوا به ذلك قالوا الآن صار نصرانيا حقا فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم قولوا آمنا بالله وصبغنا الله بالايمان صبغة لامثل صبغتكم وطهرنا به تطهيرا لامثل تطهيركم أو يقول المسلمون صبغنا الله بالايمان صبغة ولانصبغ صبغتكم وهو مصدر مؤكد لآمنا ونصبه بفعل مقدر أي صبغنا الله تعالى وقيل نصب على البدل من ملة ابراهيم وقيل نصب على الاغراء (ومن) أي لا أحد (أحسن

من الله صبغة) أى لا صبغة أحسن من صبغته أى لا دين احسن من دينه وصبغة تمييز وقوله تعالى (ونحن له عابدون) عطف على آمنا بالله قال الزمخشرى وهذا العطف يرد قول من زعم ان صبغة الله بدل من ملة ابراهيم أو نصب على الاغراء بمعنى عليكم صبغة الله لما فيه من فك النظم واخراج الكلام عن التئامه واتساقه وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذى ذكره سيبويه والقول ما قالت حذام اه ثم ان قدر قولوا فى ونحن له عابدون معطوفا على الزموا بتقدير الاغراء أو اتبعوا ملة ابراهيم بتقدير البدل لم يلزم ما قاله ولما قالت اليهود للمسلمين نحن أهل الكتاب الاول وقبلتنا أقدم ولم تكن الانبياء من العرب لانهم عبدة الاوثان ولو كان محمد نبيا لكان منا لانا أهل الكتاب نزل (قل) لهم (أتحاجوننا) أى تجادلوننا أو تخاصموننا (فى الله) أى فى شأنه أن اصطفى النبى صلى الله عليه وسلم من العرب دونكم ويقولون لو أنزل الله على أحد لانزل علينا وترون انكم أحق بالنبوة منا (وهو ربنا وربكم) نشترك جميعا فى أننا عباده وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده هم فوضى فى ذلك لا يختص به عجمى دون عربى اذا كان أهلا للكرامة (ولنا أعمالنا) نجازى بها (ولكم أعمالكم) تجازون بها أى كما ان لكم أعمالا يعتبرها الله فى اعطاء الكرامة ومنعها فنحن كذلك فالعمل هو أساس الامر وبه العبرة (ونحن له مخلصون) فى الدين والعمل دونكم فنحن أولى بالاصطفاء فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل اخلاصه لكرامته بالنبوة والهمزة للانكار والجمل الثلاث أحوال وقرأ أبو عمرو بادغام النون فى اللام بخلاف عنه وله فيه الروم والاشمام وقوله تعالى (أم يقولون) قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة والكسائى بالتاء والباقون بالياء على الغيبة فعلى القراءة الثانية أم منقطعة والهمزة للانكار وعلى القراءة الاولى يحتمل أن تكون معادلة للهمزة فى أتحاجوننا بمعنى أى الامرين تأتون المحاجة وادعاء اليهودية والنصرانية على الانبياء فى قولكم (ان ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هودا أو نصارى قل) لهم يا محمد (أأنتم أعلم أم الله) الله أعلم وقد نفى الله تعالى الامرين عن ابرهيم بقوله تعالى ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما واحتج تعالى على ذلك بقوله تعالى وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده والمذكورون معه تبع له فهم اتباعه فى الدين وفاقا (ومن) أى لا أحد (أظلم ممن كتم) اى أخفى عن الناس (شهادة عنده) كائنة (من الله) أى شهادة الله تعالى لابراهيم بالحنيفية والبراءة عن اليهودية والنصرانية وهم أهل الكتاب لانهم كتموا هذه الشهادة وكتموا شهادة الله تعالى لمحمد بالنبوة فى كتبهم وغيرها ومن للابتداء كما فى قوله تعالى براءة من الله ورسوله أى شهادة كائنة من الله فمن الله صفة لشهادة وقوله تعالى (وما الله بغافل عما تعملون) تهديد لهم وقوله تعالى (تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) تكرير للمبالغة فى التحذير والزجر عما استحكم فى الطبائع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم وقيل الخطاب فيما سبق لهم وفى هذه الآية لنا تحذيرا عن الاقتداء بهم وقيل المراد بالامة فى الاول الانبياء وفى الثانى أسلاف اليهود والنصارى (سيقول السفهاء) أى الجهال الذين خفت

أحلامهم (من الناس) وهم اليهود لكراهتهم التوجه الى الكعبة وأنهم لا يرون النسخ (ماولاهم) أى اى شئ صرف النبى والمؤمنين (عن قبلتهم التى كانوا عليها) وهى بيت المقدس وقيل هم المنافقون لحرصهم على الطعن والاستهزاء وقيل المشركون قالوا قد تردد على محمد أمره واشتاق الى مولده وقد توجه نحو بلدكم وهو راجع الى دينكم والاتيان بالسين الدالة على الاستقبال من الاخبار بالغيب (فان قيل) ما فائدة الاخبار بذلك قبل وقوعه (أجيب) بأن فائدته توطين النفس واعداد الجواب فان مفاجأة المكروه أشد والعلم به قبل وقوعه أبعد عن الاضطراب اذا وقع وقيل الرمى بريش السهم والقبلة فى الاصل الحالة التى عليها الانسان مأخوذة من الاستقبال وصارت عرفا للمكان المتوجه نحوه للصلاة قال الله تعالى (قل) لهم يا محمد (لله المشرق والمغرب) أى الجهات كلها ملكا والخلق عبيده لا يختص به مكان دون مكان بخاصية ذاتية تمنع اقامة غيره مقامه وانما العبرة بامتثال أمره لا بخصوص المكان فيأمر بالتوجه الى أى جهة شاء لا اعتراض عليه (يهدى من يشاء) هدايته (الى صراط) أى طريق (مستقيم) وهو ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من توجيههم تارة الى بيت المقدس وأخرى الى الكعبة وقوله تعالى (وكذلك) الكاف فيه للتشبيه أى كما اخترنا ابراهيم وذريته واصطفيناهم (جعلناكم) يا أمة محمد (أمة وسطا) أى خيارا عدولا قال تعالى قال أوسطهم أى خيرهم وأعدلهم وخير الاشياء أوسطها لا افراطها ولا تفريطها لان الافراط المجاوزة لما لا ينبغى والتفريط التقصير عما ينبغى كالجود بين الاسراف والبخل والشجاعة بين التهور وهو الوقوع فى الشئ بقلة مبالاة وبين الجبن لان الافراد يتسارع اليها الخلل والاوساط محمية محفوظة روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه أنه قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بعد العصر فما ترك شيأ الى يوم القيامة الا ذكره فى مقامه ذلك حتى اذا كانت الشمس على رؤس النخل وأطراف الحيطان فقال اما انه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها الا كما بقى من يومكم هذا ألا وان هذه الامة توفى سبعين أمة هى أخيرها وأكرمها على الله عز وجل وقوله تعالى (لتكونوا شهداء على الناس) أى يوم القيامة ان رسلهم بلغتهم (ويكون الرسول عليكم شهيدا) أى يزكيكم ويشهد بعدالتكم علة للجعل أى لتعلموا بالتأمل فيما نصب لكم من الحجج وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى ما بخل على أحد ولا ظلم بل اوضح السبل وأرسل الرسل فبلغوا ونصحوا ولكن الذين كفروا حملهم الشقاء على اتباع الشهوات والاعراض عن الآيات فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين قبلكم وبعدكم روى أن الله تعالى يجمع الاولين والآخرين فى صعيد واحد ثم يقول لكفار الامم ألم يأتكم نذير فينكرون ويقولون ما جاءنا من بشير ولا نذير فيطالب الله تعالى الانبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون فتقول الامم من أين علموا أنهم قد بلغوا وانما أتوا بعدنا فتسأل هذه الامة فيقولون علمنا ذلك باخبار الله تعالى فى كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق فيؤتى بمحمد صلى الله عليه وسلم فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم وذلك قوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد

قوله وقيل المشركون قالوا الخ كذا فى الاصول وفى الكشاف وقيل المشركون قالوا رغب عن قبلة آبائه ثم رجع اليها والله ليرجعن الى دينهم اه

وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (فان قيل) هلا قيل لكم شهيدا اذ شهادته لهم لا عليهم (أجيب) بأن الشهيد لما كان كالرقيب والمهيمن على المشهود له جيء بكلمة الاستعلاء ومنه قوله تعالى والله على كل شيء شهيد (فان قيل) لم أخرت صلة الشهادة أولا وقدمت آخرا (أجيب) بأن الغرض في الاول اثبات شهادتهم على الامم وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم (وما جعلنا) أي صيرنا لك (القبلة) الآن وقوله تعالى (التي كنت عليها) ليس بصفة للقبلة انما هو ثاني مفعولي جعل اي وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها أولا وهي الكعبة وكان صلى الله عليه وسلم يصلي اليها فلما هاجر أمر بالصلاة الى صخرة بيت المقدس تألفا لليهود فصلى اليها ستة أو سبعة عشر شهرا ثم حول الى الكعبة (الا لنعلم من يتبع الرسول) فيصدقه (ممن ينقلب على عقبيه) أي يرجع الى الكفر شكا في الدين وظنا أن النبي في حيرة من أمره وفي الحديث ان القبلة لما حولت ارتد قوم من المسلمين الى اليهودية وقالوا رجع محمد الى دين آبائه (فان قيل) كيف قال الله تعالى لنعلم وهو عالم بالاشياء كلها (أجيب) بأنه أراد به علم ظهور وهو العلم الذي يتعلق به الثواب والعقاب فانه لا يتعلق بما هو عالم به في الغيب انما يتعلق بما يوجد ومعناه أي لنعلم العلم الذي يستحق العامل عليه الثواب والعقاب ونظيره قوله تعالى ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين وقيل ليعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وانما أسند علمهم الى ذاته تعالى لانهم خواصه وأهل الزلفى عنده وقيل معناه التمييز التابع من الناكص كما قال الله تعالى ليميز الله الخبيث من الطيب فوضع العلم موضع التمييز التابع لان بالعلم يقع التمييز فالعلم سبب والتمييز مسبب فأطلق السبب وهو العلم على المسبب وهو التمييز *(تنبيه)* العلم في الآية اما بمعنى المعرفة فيتعدى الى مفعول واحد وهو من يتبع واما معلق لما في من من معنى الاستفهام واما أن يكون مفعوله الثاني ممن ينقلب أي ليعلم من يتبع الرسول مميزا ممن ينقلب (فان قيل) على الاول كيف يكون العلم بمعنى المعرفة والله تعالى لا يوصف بها لانها تقتضي سبق جهل والله تعالى منزه عن ذلك (أجيب) بأن ذلك لشيوعها فيما تقتضي أن يكون مسبوقا بالعدم وليس العلم الذي بمعنى المعرفة كذلك اذ المراد به الادراك الذي لا يتعدى الى مفعولين بل قال الولي العراقي قد وقع اطلاق المعرفة على الله تعالى في كلام النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة وكلام أهل اللغة وقوله تعالى (وان) هي المخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي وانها (كانت) أي التولية (لكبيرة) شاقة على الناس (الا على الذين هدى الله) منهم وهم الثابتون على الايمان (وما كان الله ليضيع ايمانكم) أي ثباتكم على الايمان وانكم لم تزلزلوا ولم ترتابوا بل شكر سعيكم وأعد لكم الثواب العظيم أو صلاتكم الى بيت المقدس بل يثيبكم عليه لان سبب نزولها ان حيي بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس ان كانت هدى فقد تحولتم عنها وان كانت ضلالة فقد دنتم الله بها ومن مات منكم عليها فقد مات على الضلالة فقال المسلمون ان الهدى ما أمر الله تعالى به والضلالة ما نهى الله تعالى عنه قالوا فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا وكان قد مات قبل أن تحول القبلة

من المسلمين أسعد بن زرارة من بني النجار والبراء بن معرور من بني سلمة وكانا من النقباء ورجال آخرون فانطلق عشائرهم الى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا يارسول الله لقد صرفك الله الى قبلة ابراهيم فكيف باخواننا الذين ماتوا وهم يصلون الى بيت المقدس فأنزل الله تعالى هذه الآية (ان الله بالناس لرؤف رحيم) فلا يضيع أجورهم ولا يدع صلاتهم (فان قيل) لم قدم الرؤف على الرحيم مع أنه أبلغ (أجيب) بأنه قدم محافظة على الفواصل وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي لرؤف بقصر الهمزة والباقون بمدها ولورش في الهمزة المد والتوسط والقصر على أصله (قد) للتحقيق (نرى تقلب) أي تردد (وجهك في السماء) أي في جهتها متطلعا الى الوحي ومتشوقا الى الامر باستقبال الكعبة وهذه الآية وان كانت متأخرة في التلاوة فهي متقدمة في المعنى فانها رأس القصة وأمر القبلة أول مانسخ من أمور الشرع وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصلون بمكة الى الكعبة فلما هاجر الى المدينة أمره الله تعالى أن يصلي الى نحو صخرة بيت المقدس ليكون أقرب الى تصديق اليهود اياه اذا صلى الى قبلتهم مع مايجدونه من نعته في التوراة وكان يحب أن يوجه الى الكعبة لانها كانت قبلة ابراهيم أبيه صلى الله عليه وسلم وقال مجاهد كان يحب ذلك من أجل أن اليهود كانوا يقولون يخالفنا محمد في ديننا ويتبع قبلتنا فقال لجبريل عليه السلام وددت لو حولني الله تعالى الى الكعبة فانها قبلة أبي ابراهيم فقال جبريل انما أنا عبد مثلك وأنت كريم على ربك فسل أنت ربك فانك عند الله بمكان فعرج جبريل وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم النظر الى السماء رجاء أن ينزل جبريل بما يحب من أمر القبلة وذلك يدل على كمال أدبه حيث انتظر ولم يسأل فنزل قوله تعالى (فلنولينك) أي فلنحولنك (قبلة) أي الى قبلة (ترضاها) أي تحبها وتهواها الاغراض الصحيحة التي أضمرتها ووافقت مشيئة الله تعالى وحكمته (فول) أي اصرف (وجهك شطر) أي نحو (المسجد الحرام) أي الكعبة أي استقبل عينها بصدرك في الصلاة وان كنت بعيدا عنها وقول البيضاوي والبعيد يكفيه مراعاة الجهة فان في استقبال عينها حرجا عليه وجه ضعيف والحرام المحرم فيه القتال وممنوع من الظلمة أن يتعرضوه وقوله تعالى (وحيث ما كنتم) من بحر أو بر شرق أو غرب خطاب للامة (فولوا وجوهكم) في الصلاة (شطره) وكان تحويل القبلة في رجب بعد الزوال قبل قتال بدر بشهرين وقول البيضاوي وقد صلى بأصحابه في مسجد بني سلمة ركعتين من الظهر فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب وتبادل الرجال والنساء صفوفهم فسمي المسجد مسجد القبلتين فيه تحريف فان ظاهره أنه صلى الله عليه وسلم كان اماما في قصة بني سلمة وانه تحول في الصلاة وليس كذلك فقد روى البخاري عن ابن عمر أنه قال بينما الناس يصلون في صلاة الصبح اذ أتاهم آت أي من بني سلمة فقال ان النبي صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها وكانت وجوههم الى الشأم فاستداروا الى الكعبة ولما تحولت القبلة قالت اليهود وماهو الا شيء يبتدعه محمد من تلقاء نفسه فتارة يصلي الى بيت المقدس وتارة الى الكعبة ولو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون

صاحبنا الذى ننتظره فأنزل الله تعالى (وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه) أى التولى الى الكعبة (الحق) أى الثابت (من ربهم) لما فى كتبهم من نعت النبى صلى الله عليه وسلم من أنه يحوّل اليها وقوله تعالى (وما الله بغافل عما تعملون) قرأه ابن عامر وحمزة والكسائى بالتاء على الخطاب للمؤمنين أى وما أنا بغافل عن جزائكم وثوابكم والباقون بالياء على الغيب أى عما يعمل اليهود أى فأجازيهم فى الدنيا والآخرة ففى الآية وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين ولما قالت اليهود والنصارى ائتنا بآية على أن الكعبة قبلة نزل (ولئن) اللام موطئة للقسم (أتيت الذين أوتوا الكتاب) أى اليهود والنصارى (بكل آية) أى برهان وحجة على أن التوجه الى الكعبة هو الحق وقوله تعالى (ما تبعوا قبلتك) جواب للقسم المضمر والمعنى ان تركهم اتباعك ليس على شبهة تزيلها بايراد الحجة انما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم لما فى كتبهم من نعتك أنك على الحق * (تنبيه) * كان مقتضى الظاهر ما يتبعون لكن أتى بالماضى لتحقق وقوعه كقوله تعالى أتى أمر الله وقوله تعالى (وما أنت بتابع قبلتهم) قطع لأطماعهم فانهم قالوا لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذى ننتظره تغريرا منهم له وطمعا فى رجوعه (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) أى انهم مع اتفاقهم على مخالفتك مختلفون فى شأن القبلة فان اليهود تستقبل الصخرة والنصارى مطلع الشمس لا يرجى توافقهم كما لا ترجى موافقتهم لك لتصلب كل حزب فيما هو فيه (فان قيل) كيف قال تعالى وما أنت بتابع قبلتهم ولهم قبلتان لليهود قبلة وللنصارى قبلة (أجيب) بأن كلتا القبلتين باطلة مخالفة لقبلة الحق فكانتا بحكم الاتحاد فى البطلان قبلة واحدة وقوله تعالى (ولئن اتبعت أهواءهم) خطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد به الامة أو على سبيل الفرض والتقدير (من بعد ما جاءك) بين لك (من العلم) بالوحى فى القبلة (انك اذا) ان اتبعتهم (لمن الظالمين) أى من المرتكبين الظلم الفاحش وفى هذا لطف للسامعين وزيادة تحذير واستفظاع لحال من ترك الدليل بعد انارته وتتبع الهوى وتهييج للثبات على الحق وقد أكد سبحانه وتعالى التهديد فى ذلك وبالغ فيه قال البيضاوى من سبعة أوجه الاول الاتيان باللام الموطئة للقسم الثانى القسم المضمر الثالث حرف التحقيق أى التأكيد وهى ان الرابع تركيبه من جملة اسمية الخامس الاتيان باللام فى الخبر أى وهو من الظلمين السادس جعله من الظالمين اى تعريف الظالمين الدال على المعروفين ولم يقل انك ظالم فان فى الاندراج معهم ايهاما بحصول أنواع الظلم لان أل فى الظالمين للاستغراق السابع التقييد بمجىء العلم تعظيما للحق المعلوم وتحريضا على اقتضائه وتحذيرا عن متابعة الهوى واستفظاعا لظهور الذنب عن الانبياء (الذين آتيناهم الكتاب) أى علماؤهم (يعرفونه) أى محمدا صلى الله عليه وسلم لسبق ذكره بلفظ الرسول مرتين وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى وان لم يسبق ذكره ممنوع وقيل القرآن وقيل التحويل ويدل للاول قوله تعالى (كما يعرفون أبناءهم) أى من بين الصبيان قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لعبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه كيف هذه المعرفة قال عبد الله يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ومعرفتى بمحمد صلى الله عليه وسلم اشد من معرفتى بابنى فقال عمر وكيف

ذلك

ذلك قال لست أشك فى محمد انه نبى وأما ولدى فلعل والدته خانت فقال عمر وفقك الله تعالى يا ابن سلام فقد صدقت (فان قيل) لم خص الابناء من الاولاد (أجيب) بأن الذكور أشهر وأعرف وهم لصحبة الآباء ألزم و بقلوبهم الصق (وان فريقا منهم) أى أهل الكتاب (ليكتمون الحق) أى صفته صلى الله عليه وسلم وأمر الكعبة (وهم يعلمون) ولا يظهرونه عنادا وقوله تعالى (الحق من ربك) كلام مستأنف والحق اما مبتدأ خبره من ربك والمعنى انه الحق اى ما ثبت أنه من الله تعالى كالذى أنت عليه لا مالم يثبت كالذى عليه أهل الكتاب واما خبر مبتدا محذوف أى هذا الحق ومن ربك حال أو خبر بعد خبر والمعنى أن ما جاءك من العلم أو ما يكتمونه هو الحق لا ما يزعمون (فلا تكونن من الممترين) أى من الشاكين فى أنه من ربك أو فى كتمانهم الحق عالمين به أى فلا تكونن من هذا النوع وهو أبلغ من لا تمتر وليس فيه نهى للرسول صلى الله عليه وسلم عن الشك فيه لانه غير متوقع منه بل اما لتحقيق الامر وانه بحيث لا يشك فيه ناظر واما ان المراد به أمته (ولكل) اى أمة من الامم (وجهة) أى قبلة أو لكل قوم من المسلمين جهة وجانب من الكعبة (هو موليها) وجهه فى صلاته وقرأ ابن عامر وحده مولاها بفتح اللام وألف بعدها أى هو مولى تلك الجهة قد وليها والباقون بكسر اللام وياء بعدها وعلى هذا أحد المفعولين محذوف أى هو موليها وجهه كما مر تقديره أو الله تعالى موليها اياه (فاستبقوا الخيرات) أى بادروا الى الطاعات وقبولها من أمر القبلة وغيره مما تنالوا به سعادة الدارين (أين ما تكونوا) أنتم وأهل الكتاب (يأت بكم الله جميعا) يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم (ان الله على كل شئ قدير) فيقدر على الاحياء والجمع * (تنبيه) * رقق ورش الراء المفتوحة بعد الياء الساكنة واتفق المصاحف على قطع أين من ما هنا (ومن حيث خرجت) أى من أى مكان خرجت للسفر (فول وجهك شطر المسجد الحرام) اذا صليت (وانه) أى هذا الامر (للحق من ربك) وقوله تعالى (وما الله بغافل عما تعملون) قرأه أبو عمرو بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) * (تنبيه) * ما مقطوعة من حيث فى موضعى هذه السورة وكرر سبحانه وتعالى التولى لشطر المسجد الحرام ثلاث مرات لتأكيد أمر القبلة وتشديده لان النسخ من مظان الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان فكرر عليهم ليثبتوا ويقوموا ويجدوا ولانه نيط بكل واحد مالم ينط بالآخر لانه تعالى علق بكل آية فائدة ففى الاولى ان أهل الكتاب يعلمون ان أمر محمد وأمر القبلة حق لمشاهدتهم له فى التوراة والانجيل وفى الثانية انه تعالى شهد انه حق وشهادة الله تعالى مغايرة لعلم أهل الكتاب وفى الثالثة بيان العلة وهى قطع حجة اليهود أو لان الاحوال ثلاثة أولها أن يكون الانسان فى المسجد الحرام وثانيها أن يخرج عنه ويكون فى البلد وثالثها أن يخرج عن البلد فالآية الاولى محمولة على الاول والثانية على الثانى والثالثة على الثالث وقوله تعالى (لئلا يكون للناس) أى اليهود والمشركين (عليكم حجة) أى مجادلة فى التولى علة لقوله فولوا والمعنى ان التولية عن الصخرة الى الكعبة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت فى التوراة قبلته الكعبة وان محمدا يجحد ديننا ويتبعنا

فى قبلتنا ويدفع احتجاج المشركين بأنه يدعى ملة ابراهيم ويخالف قبلته وقرأ ورش بابدال الهمزة من لئلا ياء مفتوحة وقفا ووصلا وحمزة يبدلها وقفا لا وصلا والباقون بهمزة مفتوحة وصلا ووقفا وقوله تعالى (الا الذين ظلموا منهم) بدل واستثناء متصل أى لئلا يكون لاحد من الناس حجة الا المعاندين منهم فانهم يقولون ما تحول الى الكعبة الا ميلا الى دين قومه وحبا لبلده أو بدا له فرجع الى دين آبائه ويوشك أن يرجع الى دينهم (فلا تخشوهم) أى فلا تخافوا مطاعنتهم فى قبلتكم فانهم لا يضرونكم (واخشونى) بامتثال أمرى فلا تخالفوا ما أمرتكم به *(تنبيه)* الياء هنا ثابتة فى الرسم وهى فى القراءة ثابتة وقفا ووصلا (فان قيل) أى حجة تكون لغير الذين ظلموا لو لم تحول حتى احترز من تلك الحجة ولم يبال بحجة المعاندين (أجيب) بانهم كانوا يقولون ماله لا يحول الى قبلة أبيه ابراهيم كما هو مذكور فى نعته فى التوراة (فان قيل) كيف أطلق الحجة على قول المعاندين (أجيب) بأن المراد بالحجة ما يتمسك به حقا كان أو باطلا كما قال تعالى حجتهم داحضة وقوله تعالى (ولاتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون) أى الى الحق علة لمحذوف أى وأمرتكم بذلك لاتامى النعمة عليكم وارادتى اهتداءكم أو عطف على علة مقدرة كأنه قيل واخشونى لاوفقكم ولاتم نعمتى عليكم قال الكشاف وقيل هو معطوف على لئلا يكون وجرى عليه البيضاوى والسيوطى قال البيضاوى تبعا للكشاف وفى الحديث تمام النعمة دخول الجنة أى ورؤية الله تعالى وعن على رضى الله تعالى عنه تمام النعمة الموت على الاسلام قال شيخنا القاضى زكريا روى الحديث الترمذى وذكره مع الاثر بعده ربما يرجح العطف على المقدر وقوله تعالى (كما أرسلنا) اما متعلق بما قبله وهو أتم أى ولاتم نعمتى عليكم فى أمر القبلة أو فى أمر الآخرة اتماما كاتمامها بارسالنا (فيكم رسولا منكم) وهو محمد صلى الله عليه وسلم واما متعلق بما بعده وهو فاذكرونى أذكركم أى كما ذكرتكم بالارسال فاذكرونى (يتلو عليكم آياتنا) أى القرآن (ويزكيكم) أى يطهركم من الشرك (ويعلمكم الكتاب) أى القرآن (والحكمة) أى ما فيه الاحكام *(تنبيه)* قدم هنا يزكيكم على يعلمكم باعتبار القصد وأخر فى دعوة ابراهيم يزكيكم على يعلمكم باعتبار الفعل (ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) أى بالتفكر والنظر اذ لا طريق لمعرفته سوى الوحى (فاذكرونى) بالطاعة كالصلاة والتسبيح (أذكركم) قال ابن عباس بمعونتى وقال سعيد بن جبير بمغفرتى وقيل اذكرونى فى النعمة والرخاء أذكركم فى الشدة والبلاء كما قال تعالى فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون وفى الحديث عن الله تعالى انا عند ظن عبدى بى وانا معه اذا ذكرنى فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وان ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير من ملئه وان تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا وان تقرب الى ذراعا تقربت منه باعا وان أتانى يمشى أتيته هرولة وفى رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى يقول يا ابن آدم ان ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى وان ذكرتنى فى ملا ذكرتك فى ملا خير منه وان دنوت منى شبرا دنوت منك ذراعا وان دنوت منى ذراعا دنوت منك باعا وان مشيت الى هرولت اليك وان سألتنى أعطيتك وان لم تسألنى غضبت عليك وفى رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

يقول الله عز وجل أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه وفي رواية جاء اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أي الاعمال أفضل قال ان تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله وقرأ ابن كثير بفتح الياء والباقون بالسكون وهم على مراتبهم في المد (واشكروا لي) نعمتي بالطاعة (ولا تكفرون) بجحد النعم وعصيان الامر فان من أطاع الله فقد شكره ومن عصاه فقد كفره (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر) على الطاعة والبلاء وعلى المعاصي وحظوظ النفس (والصلوة) خصها بالذكر لانها أم العبادات لاشتمالها على فعل القلب وغيره ومناجاة رب العالمين (ان الله مع الصابرين) بالنصر واجابة الدعوة (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله) هم (أموات بل) هم (أحيا ولكن لا تشعرون) أي لا تعلمون كيف حالهم في حياتهم قال البيضاوي وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يحس به من الحيوانات وانما هي أمر لا يدرك بالعقل بل بالوحي اه وهذا ما عليه أكثر المفسرين قال ابن عادل ويحتمل ان حياتهم بالجسد وان لم تشاهد وأيد بان حياة الروح ثابتة لجميع الاموات بالاتفاق فلو لم تكن حياة الشهيد بالجسد لاستوى هو وغيره ولم تكن له مزية اه وقد يرد بان الشهداء فضلوا على غيرهم بأنهم يرزقون من مطاعم الجنة ومآكلها وغيرهم من المؤمنين منعمون بما دون ذلك وفي الحديث أرواحهم في حواصل طيور خضر تسرح في أنهار الجنة حيث شاءت ثم تأوي الى قناديل تحت العرش وعن الحسن ان الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل اليهم الروح أي الاستراحة أي التلذذ والتنعم والفرح كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوا وعشيا فيصل اليهم الوجع والغم وعلى هذا فتخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله ومزيد السرور والكرامة والارواح جواهر قائمة بأنفسها تبقى بعد الموت دراكة كما عليه جمهور الصحابة والتابعين ونطقت به الآيات والسنن (ولنبلونكم) أي ولنختبرنكم يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم واللام لجواب القسم تقديره والله لنبلونكم والابتلاء اظهار المطيع من العاصي لا ليعلم شيأ لم يكن عالما به (بشيء) أي بقليل (من الخوف) أي خوف العدو (والجوع) أي القحط وانما قلله بالنسبة لما وقاهم عنه فيخفف عنهم ويريهم أن رحمته لا تفارقهم أو بالنسبة الى ما يصيب به معانديهم في الآخرة وانما أخبرهم قبل وقوعه ليوطنوا عليه نفوسهم (ونقص من الاموال) بالخسران والهلاك (والانفس) بالقتل والموت وقيل بالمرض والشيب (والثمرات) بالجوائح وعن الشافعي رضي الله تعالى عنه الخوف خوف الله والجوع صوم رمضان ومن الثمرات موت الاولاد وعن أبي سنان قال دفنت ولدي سنانا وأبو طلحة الخولاني على شفير القبر فلما أردت الخروج أخذ بيدي فأخرجني فقال الا أبشرك حدثني الضحاك بن عروب عن أبي موسى الاشعري رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة أقبضتم ولد عبدي فيقولون نعم فيقول أقبضتم ثمرة قلبه فيقولون نعم فيقول الله تعالى ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله تعالى ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد وقوله تعالى (وبشر الصابرين) أي على

مايصيبهم من المكروه عطف كما قال التفتازانى على ولنبلونكم عطف المضمون على المضمون أى الابتلاء حاصل لكم وكذا البشارة لكن لمن صبر ثم بينهم بقوله (الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله) عبيدا وملكا (وانا اليه راجعون) فى الآخرة والمصيبة تعم مايصيب الانسان من مكروه لقوله صلى الله عليه وسلم كل شئ يؤذى المؤمن فهو له مصيبة وعن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنها أنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مامن مصيبة تصيب عبدا فيقول انا لله وانا اليه راجعون اللهم أوجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرا منها الا آجره الله تعالى فى مصيبته واخلف عليه خيرا منها قالت فلما توفى أبو سلمة استرجعت الله لى فقلت اللهم أوجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرا منها قالت فأخلف لى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى رواية من استرجع عند المصيبة جبر الله تعالى مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفا صالحا يرضاه وقال سعيد بن جبير ما أعطى أحد ما أعطيت هذه الامة يعنى الاسترجاع ولو أعطيها أحد لاعطى يعقوب فى قصة فقد يوسف ألا تسمع الى قوله يا أسفا على يوسف وليس الصبر بالاسترجاع باللسان بل باللسان مع القلب بأن يتصور ما خلق لاجله فانه راجع الى ربه ويتذكر نعم الله عليه فيرى ما أبقى عليه أضعاف ما استرده منه فيهون على نفسه ويستسلم لربه والمبشر به محذوف دل عليه (أولئك عليهم صلوات) أى مغفرة (من ربهم ورحمة) أى لطف واحسان والصلاة فى الاصل من الآدمى أى ومن الجن تضرع ودعاء ومن الملائكة استغفار ومن الله تعالى رحمة مقرونة بتعظيم وجمع الصلاة للتنبيه على كثرتها كالتثنية فى لبيك بمعنى لا انقطاع لمغفرته (وأولئك هم المهتدون) الى الصواب حيث استرجعوا وسلموا لقضاء الله تعالى قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه نعم العدلان ونعمت العلاوة والعدلان الصلاة والرحمة والعلاوة الهداية وقد ورد أخبار فى ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين منها أنه صلى الله عليه وسلم قال من يرد الله به خيرا يصب منه ومنها انه صلى الله عليه وسلم قال مايصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه ومنها أن امرأة جاءت الى النبى صلى الله عليه وسلم وبها لمم فقالت يارسول الله ادع الله تعالى أن يشفينى فقال ان شئت دعوت الله أن يشفيك وان شئت فاصبرى ولا حساب عليك قالت بل أصبر ولا حساب على ومنها أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن أشد الناس بلاء قال الانبياء والامثل فالامثل يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان فى دينه صلبا ابتلى على قدر ذلك وان كان فى دينه رقة هون عليه فما زال كذلك حتى يمشى على الارض ماله ذنب ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال ان أعظم الجزاء مع عظم البلاء وان الله تعالى اذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال لايزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وماله وولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال مثل المؤمن كمثل الزرع لايزال الريح يثنيه ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء ومثل المنافق كمثل شجرة الارز لاتهتز حتى تستحصد ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال عجب للمؤمن ان أصابه خير حمد الله وشكر وان أصابته مصيبة حمد الله وصبر فالمؤمن يؤجر فى كل أمره

(ان الصفا والمروة) هما علما جبلين بمكة فى طرفى المسعى قال القرطبى وذكر الصفا لان آدم وقف عليه وأنث المروة لان حواء وقفت عليها (من شعائر الله) أى أعلام دينه جمع شعيرة وهى العلامة أى من أعلام مناسكه ومتعبداته (فمن حج البيت أو اعتمر) أى تلبس بالحج أو العمرة والحج لغة القصد والاعتمار الزيارة فغلبا شرعا على قصد البيت وزيارته على الوجهين المعروفين (فلا جناح) أى لا اثم (عليه أن يطوف) فيه ادغام التاء فى الاصل فى الطاء (بهما) أى بأن يسعى بينهما سبعا (فان قيل) كيف قيل انهما من شعائر الله ثم قيل لا جناح عليه أن يطوف بهما (أجيب) بأنه كان على الصفا اساف وعلى المروة نائلة وهما صنمان يروى أنهما كانا رجلا وامرأة زنيا فى الكعبة فمسخا حجرين فلما طالت المدة عبدا من دون الله فكان أهل الجاهلية اذا سعوا مسحوهما فلما جاء الاسلام وكسرت الاوثان كره المسلمون الطواف بينهما لاجل فعل الجاهلية فأذن الله تعالى فيه وأخبر أنه من شعائر الله والاجماع على أن السعى بين الصفا والمروة مشروع فى الحج والعمرة وانما الخلاف فى وجوبه فعن أحمد أنه سنة وبه قال أنس وابن عباس لقوله تعالى فلا جناح عليه فانه يفهم منه التخيير قال البيضاوى وهو ضعيف لان نفى الجناح يدل على الجواز الداخل فى معنى الوجوب فلا يدفعه وعن أبى حنيفة انه واجب يجبر بدم وعن مالك والشافعى انه ركن لقوله صلى الله عليه وسلم اسعوا فان الله تعالى كتب عليكم السعى رواه البيهقى وغيره وقال صلى الله عليه وسلم ابدؤا بما بدأ الله به يعنى الصفا رواه مسلم (ومن تطوع خيرا) أى فعل طاعة فرضا كان أو نفلا أو زاد على ما فرض الله عليه من حج أو عمرة أو طواف ونصب خيرا على أنه صفة مصدر محذوف أى تطوعا أو بحذف الجار وايصال الفعل اليه أى بخير وقرأ حمزة والكسائى يطوع بالياء على التذكير وتشديد الطاء والواو وسكون العين وأصله يتطوع فأدغم مثل يطوف والباقون بالتاء على الحضور وتخفيف الطاء وفتح العين (فان الله شاكر) لعمله بالاثابة عليه (عليم) بنيته * (تنبيه) * الشكر من الله أن يعطى العبد فوق ما يستحقه فانه يشكر اليسير ويعطى الكثير * ونزل فى علماء اليهود (ان الذين يكتمون) الناس كأحبار اليهود (ما أنزلنا من البينات) كآية الرجم ونعت محمد صلى الله عليه وسلم (والهدى) أى ما يهدى الى وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم والايمان به (من بعد ما بيناه) أوضحناه (للناس فى الكتاب) أى التوراة أى لم ندع فيه موضع اشكال ولا اشتباه على أحد منهم فعمدوا الى ذلك المبين الواضح فكتموه ولبسوا على الناس (أولئك يلعنهم الله) وأصل اللعن الطرد والبعد (ويلعنهم اللاعنون) أى يسألون الله أن يلعنهم ويقولون اللهم العنهم * (تنبيهان) * أحدهما اختلف فى هؤلاء اللاعنين فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هم جميع الخلائق الا الجن والانس وقال عطاء هم الجن والانس وقال الحسن هم جميع عباد الله وقال مجاهد البهائم تلعن عصاة بنى آدم اذا أمسك المطر وتقول هذا من شؤم ذنوب بنى آدم * ثانيهما هذه الآية توجب اظهار علوم الدين منصوصة ومستنبطة وتدل على امتناع أخذ الاجرة على ذلك وقد روى الاعرج عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال انكم تقولون أكثر أبو هريرة عن النبى صلى

الله عليه وسلم وايم الله لولا آية في كتاب الله ما حدثت أحدا بشيء أبدا وتلا ان الذين يكتمون الآية (الا الذين تابوا) أي رجعوا عن الكتمان وسائر ما يجب ان يتاب منه (وأصلحوا) ما أفسدوا من أحوالهم وتداركوا ما فرط منهم (وبينوا) ما بينه الله تعالى في كتابهم فكتموه (فأولئك أتوب عليهم) أتجاوز عنهم وأقبل توبتهم (وأنا التواب) أي الرجاع لقلوب عبادي المنصرفة عني الي (الرحيم) بهم بعد اقبالهم علي (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار) أي من لم يتب من الكاتمين حتى مات (أولئك عليهم لعنة الله و) لعنة (الملائكة و) لعنة (الناس أجمعين) لعنهم الله أحياء ثم لعنهم أمواتا وقال أبو العالية هذا يوم القيامة يوقف الكافر فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ثم تلعنه الناس فان قيل قد قال الله تعالى والناس أجمعين وفي الناس المسلم والكافر وأهل دينه لا يلعنونه (أجيب) بأجوبة منها ان المراد منهم من يعتد بلعنه وهم المؤمنون قاله ابن مسعود وعلى هذا فيكون من العام الذي أريد به الخاص ومنها أنهم يلعنونه في القيامة قال تعالى يلعن بعضكم بعضا وقال كلما دخلت أمة لعنت أختها ومنها ان اللعنة من الاكثر يطلق عليها لعنة جميع الناس تغليبا لحكم الاكثر على الاقل ومنها أنهم يلعنون الظالمين والكافرين ومن لعن الظالمين أو الكافرين وهم منهم فقد لعن نفسه ومعنى لعنة الله لهم تبرئه منهم وطردهم وتبعيدهم عن الرحمة والثواب أو دعاؤه عليهم بذلك (خالدين فيها) أي اللعنة أو النار المدلول بها عليها (لا يخفف عنهم العذاب) طرفة عين (ولا هم ينظرون) من الانظار أي لا يمهلون ولا يؤجلون أو لا ينظرون ليعتذروا كقوله تعالى ولا يؤذن لهم فيعتذرون أو لا ينظر اليهم نظر رحمة * ولما قال كفار قريش يا محمد صف لنا ربك وانسبه لنا نزل (والهكم اله واحد) وسورة الاخلاص والواحد هو الذي لا نظير له ولا شريك وقوله تعالى (لا اله الا هو) تقرير للوحدانية ودفع لان يتوهم أن في الوجود الها ولكن لا يستحق منهم العبادة وقوله تعالى (الرحمن الرحيم) كالدليل على الوحدانية فانه لما كان مولى النعم كلها أصولها بقوله الرحمن فانه مولى جلائل النعم وفروعها بقوله الرحيم فانه مولى لطائف النعم ودقائقها وما سواه تعالى اما نعمة أو منعم عليه فلم يستحق العبادة أحد غيره وهما خبران آخران لقوله الهكم أو لمبتدا محذوف وعن أسماء بنت يزيد أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان في هاتين الآيتين اسم الله الاعظم والهكم اله واحد الخ والله لا اله الا هو الحي القيوم * ولما سمع المشركون هذه الآية وكان لهم حول الكعبة ثلثمائة وستون صنما تعجبوا وقالوا ان كنت صادقا فائت بآية نعرف بها صدقك فنزل (ان في خلق السموات والارض) الى آخر الآية (فان قيل) لم جمع السموات وأفرد الارض (أجاب) البيضاوي بأن السموات طبقات متفاصلة بالذات مختلفة بالحقيقة بخلاف الارضين اه وهذا انما يأتي على قول بعض الحكماء ان المراد بالارضين الاقاليم والاولى ما أجاب به البغوي من أن كلا منها جنس آخر والارضون كلها من جنس واحد وهو التراب أي فهي طبقات كالسموات والآية في السموات سمكها وارتفاعها من غير عمد ولا علاقة وما يرى فيها من الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك والآية في الارض

مدها

مدّها وبسطها وسعتها وما يرى فيهما من الاشجار والانهار والجبال والبحار والجواهر والنبات وغير ذلك (واختلاف الليل والنهار) أي تعاقبهما في المجيء والذهاب يخلف أحدهما صاحبه اذا ذهب أحدهما جاء الآخر خلفه أي بعده قال تعالى وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة قال عطاء أراد اختلافهما في النور والظلمة والزيادة والنقصان والليل جمع ليلة والليالي جمع الجمع والنهار جمع نهر وقدّم الليل على النهار في الذكر لانه أقدم قال تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار (والفلك) أي السفن (التي تجري في البحر بما ينفع الناس) من التجارة والحمل والآية فيها تسخيرها وجريانها على وجه الماء وهي موقورة لا ترسب تحت الماء * (تنبيه) * انث الفلك لانه بمعنى السفينة لان واحد السفن وجمعه سواء اذ لو كانت بمعنى المركب لذكرها مع أنها في اللغة تذكر وتؤنث قال تعالى اذ أبق الى الفلك المشحون وضمة الجمع غير ضمة الواحد تقديرا اذ هي في الجمع كالضمة في حروف الواحد كالضمة في قفل قال البيضاوي والقصد به أي الفلك الى الاستدلال بالبحر وأحواله وتخصيص الفلك بالذكر لانه سبب الخوض فيه أي البحر والاطلاع على عجائبه ولذلك قدمه على ذكر المطر والسحاب لان منشأهما البحر في غالب الامر اهـ فجعل الآية في البحر لا في السفن والاولى جعل الآية فيهما وقوله لان منشأهما البحر هو قول الحكماء والاشاعرة على خلافه وهو الذي دلت عليه الاخبار قال شيخنا القاضي زكريا وحاصله أن السحاب من شجرة مثمرة في الجنة والمطر من بحر تحت العرش (وما أنزل الله من السماء من ماء) أي مطر * (تنبيه) * من الاولى للابتداء والثانية للبيان قال البغوي قيل أراد بالسماء السحاب يخلق الله الماء في السحاب ثم من السحاب ينزل وقيل أراد بالسماء المعروفة يخلق الله الماء في السماء ثم ينزل من السماء الى السحاب ثم من السحاب ينزل الى الارض اهـ وفيه ما مرّ (فأحيا به الارض) بالنبات (بعد موتها) أي يبسها وجدوبها (وبث) أي فرق ونشر بالماء (فيها) في الارض (من كل دابة) فان قيل هل بث عطف على انزل أو أحيا (أجيب) بأنه عطف على أنزل داخل تحت حكم الصلة لان قوله فأحيا به الارض عطف على أنزل فاتصل به وصارا جميعا كالشيء الواحد فكأنه قيل وما أنزل في الارض من ماء وبث فيها من كل دابة ويجوز عطفه على أحيا على معنى فأحيا بالمطر الارض وبث فيها من كل دابة لان الدواب ينمون بالخصب ويعيشون بالحيا أي المطر (وتصريف الرياح) الى قبول ودبور وجنوب وشمال فالقبول الصبا وهي التي تهب من مطلع الشمس اذا استوى الليل والنهار والدبور تقابلها والشمال التي تهب من جانب القطب والجنوب تقابلها قال ابن عباس أعظم جنود الله الريح والماء وسميت الريح ريحا لانها تريح النفوس قال شريح القاضي ما هبت ريح الا لشفاء سقيم أو لسقم صحيح (فائدة) البشارة في ثلاث من الرياح في الصبا والشمال والجنوب اما الدبور فهي الريح العقيم لا بشارة فيها وقيل الرياح ثمانية أربعة للرحمة وهي المبشرات والناشرات والذاريات والمرسلات وأربعة للعذاب وهي العقيم والصرصر في البر والعاصف والقاصف في البحر وقرأ حمزة والكسائي الريح بالتوحيد والباقون بالجمع (فائدة أخرى) كل ريح في القرآن ليس فيها ألف ولام اتفق القراء على توحيدها

ومافيها ألف ولام كما هنا اختلفوا في جمعها وتوحيدها الا الحرف الاول في سورة الروم الرياح مبشرات اتفقوا على جمعها والريح تذكر وتؤنث (والسحاب) أي الغيم (المسخر) أي المذلل بأمر الله يسير حيث شاء الله (بين السماء والارض) بلا علاقة لا ينزل ولا يرتفع مع ان الطبع يقتضي أحدهما حتى يأتي أمر الله وقيل تسخير السحاب تقليبه في الجو بمشيئة الله واشتقاقه من السحب لان بعضه يجر بعضا (لآيات) أي دلالات واضحات على وحدانية الله تعالى (لقوم يعقلون) أي ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون لانها دلائل على عظيم القدرة وباهر الحكمة وقول البيضاوي وعن النبي صلى الله عليه وسلم ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها أي لم يتفكر فيها ولم يعتبر بها قال الولي العراقي لم أقف عليه وقال السيوطي لم يرد في هذه الآية ولا بهذا اللفظ ثم قال عن عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال أنزل على الليلة ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها قيل للاوزاعي ماغاية التفكر فيهن قال يقرأهن وهو يعقلهن انتهى ولا ينافي هذا أنه ورد أيضا في هذه الآية ومن حفظ حجة على من لم يحفظ قال البيضاوي وفي الآية تنبيه على شرف علم الكلام وأهله وحث على البحث والنظر فيه انتهى ولا ينافي هذا قول الشافعي رضي الله تعالى عنه لان يلقى العبد ربه بكل ذنب ماعدا الشرك خير له من أن يلقاه بعلم الكلام لانه محمول على التوغل فيه فيصير فلسفيا (ومن الناس) وهم المشركون (من يتخذ من دون الله) أي غيره (أندادا) أي أصناما يعبدونها (يحبونهم) بالتعظيم والخضوع (كحب الله) أي كحبهم له كما قال الزجاج يحبون الاصنام كما يحبون الله لانهم اشركوها مع الله فسووا بين الله وبين أصنامهم في المحبة أو يحبون آلهتهم كحب المؤمنين الله (والذين آمنوا أشد حبا لله) أي أثبت وأدوم على حبه لانهم لا يختارون على الله ماسواه والمشركون محبتهم لاغراض فاسدة موهومة تزول بادنى سبب ولذلك كانوا اذا اتخذوا صنما أحسن منه طرحوا الاول واختاروا الثاني وربما أكلوه كما أكلت باهلة الهها من حيس عند المجاعة ويعرضون عن معبودهم في وقت البلاء ويقبلون على الله كما أخبر الله تعالى عنهم فقال فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين والمؤمن لا يعرض عن الله تعالى في السراء والضراء والشدة والرخاء وقيل انما قال الله تعالى والذين آمنوا أشد حبا لله لان الله أحبهم أولا ثم أحبوه ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتم قال الله تعالى يحبهم ويحبونه فمحبة العبد لله طاعته والاعتناء بتحصيل مراضيه ومحبة الله للعبد ارادة اكرامه واستعماله في الطاعة وصونه عن المعاصي (ولو يرى الذين ظلموا) أي باتخاذ الانداد (اذ يرون) أي يبصرون (العذاب) يوم القيامة واذ بمعنى اذا أو أجرى المستقبل وهو يرى مجرى الماضي لان اذ موضوعة للماضي والمعنى هنا على الاستقبال لتحققه كقوله تعالى ونادى أصحاب الجنة (ان) أي بان (القوة) أي القدرة والغلبة (لله) وقوله تعالى (جميعا) حال (وان الله شديد العذاب) وجواب لو محذوف والتقدير لو يعلمون ان القدرة لله جميعا اذ عاينوا العذاب لندموا أشد الندم والفاعل ضمير السامع والذين ظلموا ويرى بمعنى يعلم وأن ومابعدها سدت مسد المفعولين

وقرأنافع وحده بالتاء على الخطاب أى ولوترى يامحمد ذلك لرأيت أمرا عظيما وامال السوسى الالف المنقلبة بعد الراء فى الوصل بخلاف عنه وغلظ ورش اللام بعد الظاء وقرأ ابن عامر يرون بضم الياء والباقون بفتحها (اذ) بدل من اذ قبله (تبرأ الذين اتبعوا) وهم الرؤساء (من الذين اتبعوا) وهم الاتباع أى ينكر الرؤسا اضلال الاتباع يوم القيامة حين يجمع الله القادة والاتباع (و) قد (رأوا العذاب) أى رائين له قالوا والحال وقد مضمرة كما قدرتها وقيل عطف على تبرأ وقوله تعالى (وتقطعت) عطف على تبرأ وقوله تعالى (بهم) بمعنى عنهم (الاسباب) أى الوصل التى كانت بينهم فى الدنيا من القرابات والصدقات وصارت مخالفتهم عداوة (وقال الذين اتبعوا) أى الاتباع (لوأن لنا كرة) أى رجعة الى الدنيا (فنتبرأ منهم) أى الرؤساء (كما تبرؤا منا) اليوم ولو للتمنى ولذلك أجيب بالفاء (كذلك) أى مثل ذلك الاراء الفظيع (يريهم الله أعمالهم) أى السيئة وقوله تعالى (حسرات) أن تنقلب ندمات (عليهم) ثالث مفاعيل يرى ان كان من رؤية القلب والاحال وقوله تعالى (وماهم بخارجين من النار) أصله وما يخرجون لان المناسب ان تعطف جملة فعلية على جملة فعلية لكن عدل به الى هذه العبارة للمبالغة فى الخلود والاقناط عن الخلاص والرجوع الى الدنيا * واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الناس كلوا مما فى الارض حلالا) فقال البيضاوى نزلت فى قوم حرموا على أنفسهم رفيع الاطعمة والملابس أى لا على وجه التورع كما تفعله الصوفية وما قاله قول مرجوح كما قاله شيخنا القاضى زكريا والمشهور انها نزلت فيهم آية المائدة وهى يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم وأما هذه الآية فانها نزلت فى الكفار الذين حرموا البحائر والسوائب والوصائل ونحوها ومن ثم عبرهنا بيا أيها الناس وثم بيا أيها الذين آمنوا * (تنبيه) * حلالا مفعول كلوا أوحال وقوله تعالى (طيبا) اما صفة مؤكدة واما طاهرا من كل شبهة وهو ما يستطيبه الشرع قال الكشاف ومن للتبعيض لان كل ما فى الارض ليس بمأكول هذا ان جعلنا حلالا حالا فان جعلناه مفعولا فن للابتداء كما قاله السعد التفتازانى لان من التبعيضية فى موضع المفعول أى كلوا بعض ما فى الارض (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى طرقه كما قاله الزجاج أو المحقرات من الذنوب كما قاله أبو عبيدة فتدخلوا فى حرام أو شبهة أو تحريم حلال أو تحليل حرام وقرأ ابن عامر وقنبل وحفص والكسائى بضم الطاء والباقون بالسكون (انه لكم عدو مبين) أى بين العداوة أو مظهر العداوة عند ذوى البصيرة وان كان يظهر الموالاة لمن يغويه وقد أظهر عداوته بامتناعه من السجود لآدم ثم بين سبحانه وتعالى عداوته بأنه لا يأمر بخير قط بقوله (انما يأمركم بالسوء) أى القبيح شرعا (والفحشاء) أى ما تجاوز الحد فى القبح من العظائم وعن ابن عباس أن السوء من الذنوب ما لاحد فيه والفحشاء من المعاصى ما يجب به حد وقال السدى الفحشاء هى الزنا وقيل البخل قال البيضاوى واستعير الامر لتزيينه وبعثه لهم تسفيه الرأيهم وتحقير الشأنهم انتهى قال شيخنا القاضى زكريا ولا حاجة الى صرف الامر عن ظاهره لان حقيقته طلب الفعل

ولا ريب أن الشيطان يطلب السوء والفحشاء ممن يريد اغواءه (و) يأمركم ايضا (ان تقولوا على الله ما لا تعلمون) كتحليل المحرمات وتحريم الطيبات واتخاذ الانداد وقوله تعالى (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله) من التوحيد وتحليل الطيبات متصل بما قبله وهو نازل فى مشركى العرب وكفار قريش والضمير فى لهم عائد على الناس المذكورين فى قوله تعالى ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا اعدل عن الخطاب عنهم للنداء على ضلالتهم كأنه التفت الى العقلاء وقال لهم انظروا الى هؤلاء الحمقى ماذا يجيبون وقيل مستأنف والهاء والميم فى لهم كناية عن غير مذكور روى عن ابن عباس أنه قال دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود الى الاسلام فقال رافع بن خارجة ومالك بن عوف بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فأنزل الله تعالى هذه الآية (قالوا) لا نتبعه (بل نتبع ما ألفينا) أى وجدنا وأدركنا وعلمنا وألفى تتعدى الى مفعولين وهما قوله (عليه آباءنا) من عبادة الاصنام وتحريم البحائر والسوائب فانهم كانوا خيرا واعلم منا قال الله تعالى (أولو كان) أى أيتبعونهم ولو كان (آباؤهم لا يعقلون شيأ) أى من أمر الدين لا شيأ مطلقا فانهم كانوا يعقلون أمر الدنيا فلفظه عام ومعناه الخصوص (ولا يهتدون) الى الحق والهمزة للانكار والواو للحال أو العطف وجواب لو محذوف أى لو كان آباؤهم جهلة لا يتفكرون فى أمر الدين ولا يهتدون الى الحق لاتبعوهم (ومثل) أى صفة (الذين كفروا) ومن يدعوهم الى الهدى (كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء) أى صوتا ولا يفهم معناه والنعيق التصويت يقال نعق المؤذن ونعق الراعى بالضأن قال الاخطل

فانعق بضأنك يا جرير فانما * منتك نفسك فى الخلاء ضلالا

وأما نغق الغراب فبالغين المعجمة والمعنى أنهم فى سماع الموعظة وعدم تدبرها كالبهائم تسمع صوت راعيها ولا تفهمه (وقيل) معنى الآية مثل الذين كفروا فى دعاء الاصنام التى لا تفقه ولا تعقل كمثل الناعق بالغنم ولا ينتفع من نعيقه بشئ غير أنه فى عناء من الدعاء والنداء كذلك الكافر ليس له من دعاء الآلهة الا العناء والدعاء كما قال تعالى وان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ثم وصف سبحانه وتعالى الكفار بصفات ذم فقال (صم) أى هم صم عن سماع الحق تقول العرب لمن يسمع ولا يعقل ما يقال له انه أصم (بكم) عن الخير لا يقولونه (عمى) عن الهدى لا يبصرونه (فهم لا يعقلون) الموعظة لاضلال نظرهم (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات) أى حلالات (ما رزقناكم) روى ابو هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا أيها الناس ان الله طيب لا يقبل الا طيبا وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر يمد يديه الى السماء يارب يارب أشعث أغبر مطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك * ولما وسع الله تعالى الامر على الناس كافة وأباح لهم ما فى الارض سوى ما حرم عليهم أمر المؤمنين منهم أن يتحروا طيبات ما رزقوا ويقوموا بحقوقها فقال (واشكروا لله) على ما رزقكم وأحل لكم (ان كنتم اياه تعبدون) أى ان صح

انكم تخصونه بالعبادة وتقرون انه مولى النعم فان عبادته لا تتم الا بالشكر فالمعلق بفعل العبادة هو الامر بالشكر لاتمامه وهو يعدم عند عدمه روى البيهقى وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى انى والجن والانس فى نبإ عظيم أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر غيرى * ثم بين سبحانه وتعالى المحرمات بقوله (انما حرم عليكم الميتة) أى أكلها اذ الكلام فيه وكذا ما بعدها وهى التى ماتت من غير ذكاة شرعية وألحق بها بالسنة ما أبين من حى وخص منها السمك والجراد والحرمة المضافة الى العين تفيد عرفا حرمة التصرف فيها مطلقا الا ما خصه الدليل كالتصرف فى المدبوغ (والدم) أى المسفوح كما قال تعالى فى سورة الانعام أو دما مسفوحا روى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال وهو فى حكم المرفوع بل رفعه ابن ماجه وغيره لكن بسند ضعيف (ولحم الخنزير) أى جميع أجزائه وعبر عن ذلك باللحم لانه معظم المقصود منه وغيره تبع له (وما أهل به لغير الله) أى ذبح على اسم غيره والاهلال رفع الصوت وكانوا يرفعونه عند الذبح لآلهتهم (فمن اضطر) أى ألجأته الضرورة الى أكل شئ مما ذكر فأكله (غير باغ) أى خارج على المسلمين وقيل مجاوز للمقدار الذى أحل له (ولا عاد) أى متعد على المسلمين بقطع الطريق وقيل لا يقصر فيما أبيح له فيدعه وقال سهل بن عبد الله غير باغ مفارق للجماعة ولا عاد مبتدع مخالف للسنة فلم يرخص للمبتدع فى تناول المحرم عند الضرورة وقال مسروق من اضطر الى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل ولم يشرب حتى مات دخل النار واختلف العلماء فى قدر ما يحل للمضطر أكله من الميتة على قولين أحدهما أن يأكل مقدار ما يمسك رمقه وهو قول ابن أبى حنيفة والراجح عند الشافعى والقول الآخر يجوز أن يأكل حتى يشبع وبه قال مالك (فلا اثم) أى لا حرج (عليه) فى أكل ما ذكر وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر نون فمن اضطر فى الوصل والباقون بضمها * (فائدة) * قال البغوى غير نصب على الحال وقيل على الاستثناء واذا رأيت غير تصلح فى موضعها الا فهى حال واذا صلح فى موضعها الا فهى استثناء (ان الله غفور) لمن أكل فى حال الاضطرار (رحيم) حيث رخص للعباد فى ذلك (فان قيل) انما تفيد قصر الحكم على ما ذكر وكم من محرم لم يذكر (أجيب) بأن المراد قصر الحرمة على ما ذكر مما استحله الكفار لا مطلقا وقصر ما ذكر على حال الاختيار كأنه قيل انما حرم عليكم هذه الاشياء ما لم تضطروا اليها * (تنبيه) * ألحق بالباغى والعادى كل عاص بسفره كالآبق والمكاس فلا يحل لهم أكل شئ من ذلك ما لم يتوبوا وعليه الشافعى * ونزل فى علماء اليهود ورؤسائهم الذين كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والمآكل وكانوا يرجون أن يكون النبى المبعوث منهم فلما بعث صلى الله عليه وسلم من غيرهم خافوا ذهاب مأكلتهم وزوال رياستهم فعمدوا الى صفة محمد صلى الله عليه وسلم فغيروها ثم أخرجوها اليهم فاذا نظرت السفلة الى النعت المغير وجدوه مخالفا لصفة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يتبعونه (ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب) المشتمل على نعت محمد صلى الله عليه وسلم (ويشترون به) أى بالمكتوم (ثمنا) أى عوضا (قليلا) أى يسيرا أى المآكل التى

يصيبونها من سفلتهم (أولئك ما يأكلون فى بطونهم) أى مل‌ء بطونهم يقال أكل فلان فى بطنه وأكل فى بعض بطنه (الا النار) أى ما يؤديهم الى النار وهو الرشوة وثمن الدين ولما كان يفضى بهم الى النار لانها عقوبة عليهم فكأنهم أكلوا النار وقيل معناه انه يصير نارا فى بطونهم (ولا يكلمهم الله يوم القيامة) أى لا يكلمهم بالرحمة وبما يبشرهم انما يكلمهم بالتوبيخ أو يكون عليهم غضبان كما يقال فلان لا يكلم فلانا اذا كان عليه غضبان لما ثبت بالنصوص انه تعالى يسألهم والسؤال كلام فحمل نفى الكلام على الغضب فهو كناية ويجوز ابقاء الكلام على ظاهره وتحمل نصوص السؤال على أنه يقع بألسنة الملائكة (ولا يزكيهم) أى ولا يطهرهم من دنس الذنوب (ولهم عذاب أليم) أى مؤلم وهو النار (أولئك الذين اشتروا) أى استبدلوا (الضلالة بالهدى) فأخذوها بدله فى الدنيا (و) استبدلوا (العذاب بالمغفرة) أى المعدة لهم فى الآخرة لو لم يكتموا الحق للمطامع والاغراض الدنيوية (فما أصبرهم على النار) أى ما أشد صبرهم وهو تعجب للمؤمن من ارتكاب موجباتها من غير مبالاة والا فأى صبر لهم كما قال الحسن والله ما لهم عليها من صبر ولكن ما أجرأهم على العمل الذى يقربهم الى النار وقال الكسائى فما أصبرهم على عمل أهل النار أى ما أدومهم عليه روى عن الكسائى أنه قال قال لى قاضى اليمن بمكة اختصم الى رجلان من العرب فحلف أحدهما على حق صاحبه فقال ما أصبرك على عذاب الله تعالى (ذلك) أى الذى ذكر من أكلهم النار وما بعده (بأن) أى بسبب أن (الله نزل الكتاب) وقوله تعالى (بالحق) متعلق بنزل فرفضوه بالتكذيب أو الكتمان وقوله تعالى (وان الذين اختلفوا فى الكتاب) اللام فيه اما للجنس واختلافهم ايمانهم ببعض كتب الله تعالى وكفرهم ببعضها واما للعهد وحينئذ الاشارة اما الى التوراة واختلافهم حيث آمنوا ببعضها وكفروا ببعضها بكتمه واما الى القرآن واختلافهم فيه قولهم سحر وتقول وكلام علمه بشر وأساطير الاولين (لفى شقاق) أى خلاف (بعيد) عن الحق واختلف فى المخاطب بقوله تعالى (ليس البر) أى وهو كل فعل مرضى (أن تولوا وجوهكم) أى فى الصلاة (قبل المشرق والمغرب) على قولين أحدهما أنهم المسلمون والثانى أهل الكتابين فعلى الاول معناه ليس البر كله فى الصلاة ولكن البر ما فى هذه الآية قاله ابن عباس ومجاهد وعطاء وعلى الثانى ليس البر صلاة اليهود الى المغرب وصلاة النصارى الى المشرق فانهم أكثروا الخوض فى أمر القبلة حين حولت وادعى كل طائفة ان البر هو التوجه الى قبلته فرد الله تعالى عليهم وقال ليس البر ما أنتم عليه فانه منسوخ ولكن البر ما فى هذه الآية قاله قتادة والربيع ومقاتل وقال قوم هو عام لهم وللمسلمين أى ليس البر مقصورا بأمر القبلة وقرأ حفص وحمزة بنصب البر على انه خبر مقدم والباقون برفعه وقوله تعالى (ولكن البر من آمن) على تأويل حذف المضاف أى بر من آمن أو بتأويل البر بمعنى ذى البر أى ولكن البر الذى ينبغى أن يهتم به بر من آمن أو ولكن ذا البر من آمن (بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب) أى الكتب ان أريد به الجنس والا فالقرآن (والنبيين) والتأويل الاول أولى لان السابق فى الآية انما هو نفى كون البر تولية الوجه والذى يستدرك انما هو من جنس

ما ينبغى وقرأ نافع وابن عامر بكسر نون ولكن مخففة ورفع راء البر والباقون بنصب النون مشددة ونصب الراء والنبيين تقدم أن نافعا يقرؤه بالهمز والباقون على البدل وورش على أصله من المد والتوسط والقصر (وآتى المال على) أى مع (حبه) له كما قال عليه الصلاة والسلام لما سئل أى الصدقة أفضل أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش أى الحياة وتخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان وقيل الضمير لله أى على حب الله (ذوى القربى) أى القرابة قال صلى الله عليه وسلم الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان صدقة وصلة (واليتامى) جمع يتيم وتقدم تعريفه (والمساكين) جمع مسكين وهو من له مال أو كسب يقع موقعا من كفايته ولا يكفيه بخلاف الفقير فانه من لا مال له ولا كسب يقع موقعا من كفايته وسيأتى بيان ذلك ان شاء الله تعالى فى سورة براءة (وابن السبيل) أى المسافر يقال للمسافر ابن السبيل لملازمته الطريق وقيل هو الضيف ينزل بالرجل قال صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه (والسائلين) أى الطالبين الذين ألجأتهم الحاجة الى السؤال قال صلى الله عليه وسلم للسائل حق وان جاء على ظهر فرسه رواه الامام أحمد وفى رواية ردوا السائل ولو بظلف محرق (وفى الرقاب) أى فكها معاونة المكاتبين وقيل فرض الاسراء وقيل ابتياع الرقاب لعتقها (وأقام الصلوة) المفروضة (وآتى الزكوة) المفروضة (فان قيل) قد ذكر ايتاء المال فى هذه الوجوه ثم ثنى بايتاء الزكاة فقد دل ذلك على أن فى المال حقا سوى الزكاة (أجيب) بأن المتقدم فى التطوع وان قال الشعبى ان فى المال حقا سوى الزكاة وتلا هذه الآية ففى الحديث نسخت الزكاة كل صدقة رواه الدارقطنى والبيهقى أى نسخت الزكاة وجوب كل صدقة وروى ليس فى المال حق سوى الزكاة (والموفون بعهدهم اذا عاهدوا) فيما بينهم وبين الله عز وجل وفيما بينهم وبين الناس اذا وعدوا أنجزوا واذا حلفوا أو نذروا وفوا واذا قالوا صدقوا واذا ائتمنوا أدوا * (تنبيه) * الموفون عطف على من آمن وقيل رفع على المبتدا والخبر أى وهم الموفون وقوله تعالى (والصابرين فى البأساء) أى شدة الفقر (والضراء) أى المرض (وحين البأس) أى وقت شدة القتال فى سبيل الله تعالى نصب على المدح ولم يعطف لفضل الصبر على الشدائد ومواطن القتال على سائر الاعمال وروى عن على رضى الله تعالى عنه أنه قال كنا اذا حمى البأس أى اشتد الحرب ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يكون أحد أقرب الى العدو منه (أولئك) الموصوفون بما ذكر (الذين صدقوا) فى الدين واتباع الحق وطلب البر (وأولئك هم المتقون) الله التاركون للكفر وسائر الرذائل قال البيضاوى رحمه الله تعالى والآية كما ترى جامعة للكمالات الانسانية بأسرها دالة عليها صريحا أو ضمنا فانها بكثرتها وتشعبها منحصرة فى ثلاثة أشياء صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة وتهذيب النفس وقد أشير الى الاول بقوله تعالى من آمن الى والنبيين والى الثانى بقوله تعالى وآتى المال الى وفى الرقاب والى الثالث بقوله تعالى وأقام الصلاة الى آخرها ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظرا الى ايمانه

واعتقاده وبالتقوى اعتبارا بعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق واليه أشار بقوله عليه الصلاة والسلام من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان * ونزل في حيين من أحياء العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الاسلام بقليل فكان بينهما قتلى وجراحات يأخذ بعضهم من بعض حتى جاء الاسلام وكان لاحد الحيين طول على الآخر في الكثرة والشرف وكانوا ينكحون نساءهم بغير مهور فأقسموا لنقتلن بالعبد الحر منهم وبالمرأة منا الرجل منهم وبالرجل منا الرجلين منهم وجعلوا جراحاتهم ضعفي جراحات أولئك فرفعوا أمرهم الى النبي صلى الله عليه وسلم (يا أيها الذين آمنوا كتب) أي فرض (عليكم القصاص) وهو المساواة والمماثلة (في القتلى) وصفا وفعلا (الحر) يقتل (بالحر) ولا يقتل بالعبد (و) يقتل (العبد بالعبد و) يقتل (الانثى بالانثى) وبينت السنة أن الذكر يقتل بالانثى وان المماثلة تعتبر في الدين فلا يقتل مسلم ولو عبدا بكافر وللائمة في ذلك خلاف وأدلة مذكورة في الفقه وكلهم على هدى من ربهم (فمن عفي له) أي من القاتلين (من) أي دم (أخيه) المقتول (شيء) بأن ترك القصاص منه وتنكير شيء يفيد سقوط القصاص بالعفو عن بعضه ولو من بعض الورثة وفي ذكر أخيه تعطف الى العفو وايذان بأن القتل لا يقطع اخوة الايمان ومن مبتدأ شرطية أو موصولة والخبر (فاتباع) أي فعلى العافي اتباع للقاتل (بالمعروف) بأن يطالبه بالدية بلا عنف وترتيب الاتباع على العفو يفيد أن الواجب أحدهما وهو أحد قولي الشافعي والثاني وهو الاصح عنده الواجب القصاص عينا والدية بدل عنه فلو عفا ولم يسمها فلا شيء (فان قيل) ان عفا يتعدى بعن لا باللام فما وجه قوله فمن عفي له (أجيب) بأن عفا يتعدى بعن الى الجاني والى الذنب فيقال عفوت عن فلان وعن ذنبه قال تعالى عفا الله عنك وقال عفا الله عنها فاذا تعدى الى الذنب والجاني معا قيل عفوت لفلان عما جنى كما تقول غفرت له ذنبه وتجاوزت له عنه وعلى هذا ما في الآية كأنه قيل فمن عفي له عن جنايته فاستغنى عن ذكر الجناية (وأداء) أي وعلى القاتل أداء الدية (اليه) أي العافي وهو الوارث (باحسان) أي بلا مطل ولا بخس (ذلك) الحكم المذكور في العفو والدية (تخفيف من ربكم ورحمة) لما فيه من التسهيل والنفع لان أهل التوراة كتب عليهم القصاص البتة وحرم العفو وأخذ الدية وعلى أهل الانجيل العفو وحرم القصاص والدية وخيرت هذه الامة بين الثلاث القصاص والدية والعفو توسعة عليهم وتيسيرا (فمن اعتدى) أي ظلم القاتل بأن قتله (بعد ذلك) أي العفو على الدية أو مجانا (فله عذاب أليم) أي مؤلم في الآخرة بالنار أو في الدنيا بالقتل أو أخذ الدية ان عفي عنها وقوله تعالى (ولكم في القصاص حياة) كلام في غاية الفصاحة والبلاغة حيث جعل الشيء محل ضده وعرف القصاص ونكر الحياة ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعا من الحياة عظيما وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة قال الزمخشري وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفني بكر بن وائل وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التشاجر فلما جاء الاسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أو نوع من الحياة وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لان القاصد للقتل اذا علم أنه ان قتل يقتل يمتنع فيكون فيه بقاؤه وبقاء من

يهم بقتله وفى المثل القتل أنفى للقتل وقيل فى المثل القتل قلل القتل وقيل المراد بالحياة الحياة الاخروية فان القاتل اذا اقتص منه فى الدنيا لم يؤاخذ به فى الآخرة هذا بالنسبة للآدمى وأما بالنسبة لله تعالى فان تاب فكذلك والا فهو تحت المشيئة ثم نادى ذوى العقول الكاملة بقوله (يا أولى الالباب) للتأمل فى حكمة القصاص من استبقاء الارواح وحفظ النفوس ثم بين سبحانه وتعالى مشروعية ذلك بقوله (لعلكم تتقون) القتل مخافة القود أو تعملون عمل أهل التقوى فى المحافظة على القصاص والحكم به والاذعان له وهو خطاب له فضل اختصاص بالائمة (كتب) أى فرض (عليكم اذا حضر أحدكم الموت) أى حضرت أسبابه وظهرت أماراته (ان ترك خيرا) أى مالا نظيره قوله تعالى وما تنفقوا من خير وقيل مالا كثيرا لما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن رجلا أراد الوصية فسألته كم مالك فقال ثلاثة آلاف فقالت كم عيالك قال أربعة قالت انما قال الله تعالى ان ترك خيرا وان هذا الشئ يسير فاتركه لعيالك وعن على رضى الله تعالى عنه أن مولى له أراد أن يوصى وله سبعمائة درهم فمنعه وقال قال الله تعالى ان ترك خيرا والخير هو المال الكثير وقوله تعالى (الوصية) مرفوع بكتب وذكر فعلها للفاصل ولانها بمعنى أن يوصى ولذلك ذكر الراجع فى قوله فمن بدله بعدما سمعه والعامل فى اذا مدلول كتب لا الوصية لتقدمه عليها وجواب ان أى فليوص (للوالدين والاقربين بالمعروف) بالعدل فلا يفضل الغنى ولا يتجاوز الثلث لما روى عن سعد بن مالك رضى الله تعالى عنه قال جاءنى النبى صلى الله عليه وسلم يعودنى فقلت يا رسول الله أوصى بمالى كله قال لا قلت فالشطر قال لا قلت فالثلث قال الثلث والثلث كثير انك ان تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس بأيديهم أى يسألون الناس الصدقة بأكفهم وقوله تعالى (حقا) مصدر قال البيضاوى تبعا للزمخشرى وغيره مؤكد لمضمون الجملة قبله أى حق ذلك حقا ورده أبو حيان بأن قوله تعالى على المتقين متعلق بحقا أو صفة له وكل منهما يخرجه عن التأكيد أما الاول فلان المصدر المؤكد لا يعمل انما يعمل المصدر الذى ينحل الى حرف مصدرى والفعل أو المصدر الذى هو بدل من اللفظ بالفعل وأما الثانى فلان حقا مصدر مخصص بالصفة فلا يكون مؤكدا وقيل حقا نعت لمصدر كتب أو أوصى أى كتبا أو ايصاء حقا وقيل حال من مصدر أحدهما معرفا وقيل نصب على المفعولية أى جعل الوصية حقا (على المتقين) الله وهذا منسوخ بآية المواريث وبقوله صلى الله عليه وسلم ان الله أعطى كل ذى حق حقه ألا لا وصية لوارث بناء على الاصح من أن الكتاب ينسخ بالسنة وان لم تتواتر وبذلك ظهر ما فى قول بعضهم ان الكتاب لا ينسخ بالسنة وان الحديث من الآحاد (فمن بدله) أى غيره من الاوصياء والشهود (بعدما سمعه) أى وصل اليه علمه وتحقق عنده (فانما اثمه) أى الايصاء المبدل (على الذين يبدلونه) والميت برىء منه وفى هذا اقامة الظاهر مقام المضمر (ان الله سميع) لما أوصى به الموصى (عليم) بفعل الوصى فيجازيه عليه وفى هذا وعيد للمبدل بغير حق (فمن خاف من موص) أى توقع وعلم كقوله تعالى فان خفتم أن لا يقيما حدود الله أى علمتم وقرأ حمزة بامالة الالف بعد الخاء من خاف حيث جاء وقرأ شعبة وحمزة

والكسائي بفتح الواو من موص وتشديد الصاد والباقون بسكون الواو وتخفيف الصاد
(جنفا) أي ميلا عن الحق بالخطأ في الوصية (أو إثما) بأن تعمد الحيف في الوصية (فأصلح بينهم)
بين الوصي والموصى لهم بإجرائهم على نهج الشرع (فلا إثم عليه) في هذا التبديل لأنه تبديل
باطل إلى حق بخلاف الأول (إن الله غفور رحيم) فيه وعد للمصلح وذكر المغفرة لمطابقة ذكر
الإثم وكون الفعل من جنس ما يؤثم (يا أيها الذين آمنوا كتب) أي فرض (عليكم الصيام) هو
لغة الإمساك عما تنازع فيه النفس ومنه قوله تعالى فقولي إني نذرت للرحمن صوما أي صمتا لأنه
إمساك عن الكلام وفي الشرع الإمساك عن المفطرات مع النية فإنها معظم ما تشتهيه النفس
(كما كتب على الذين من قبلكم) من الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهدكم قال علي رضي الله
تعالى عنه أولهم آدم يعني أن الصوم عبادة قديمة أصلية ما أخلى الله أمة من افتراضها عليهم
لم يفرضها عليكم وحدكم وفي قوله تعالى كتب عليكم الخ توكيد للحكم وترغيب على الفعل
وتطييب على النفس وفي موضع التشبيه في كاف كما كتب قولان أحدهما أن التشبيه في حكم
الصوم وصفته لا في عدده قال سعيد بن جبير كتب عليهم إذا نام أحدهم قبل أن يطعم أنه لم يحل له
أن يطعم إلى الليلة القابلة والنساء عليهم حرام ليلة الصيام وهو عليهم ثابت وقد أرخص لكم هذا
فعلى هذا تكون هذه الآية منسوخة بقوله تعالى أحل لكم ليلة الصيام الرفث الآية فإنها
فرقت بين صوم أهل الكتاب وبين صوم المسلمين والثاني أنه كصومهم في عدد الأيام لما روى
أن رمضان كتب على أهل الإنجيل فأصابهم موتان أي وهو بضم الميم موت يقع على الماشية
فزادوا عشرا قبله وعشرا بعده فجعلوه خمسين وقيل كان يقع في الحر الشديد وكان يشق عليهم
في أسفارهم ويضرهم في معايشهم فاجتمع رأي علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوا صيامهم في
فصل من السنة بين الشتاء والصيف فجعلوه في الربيع وقالوا نزيد عشرين يوما تكفر ما صنعنا
قال السدي عن مشايخه وقيل زادوا فيه عشرة أيام أولا كفارة لما صنعوا فصار أربعين يوما ثم
إن ملكهم اشتكى فمه فجعل لله عليه إن هو شفي من وجعه أن يزيد في صومهم أسبوعا فبرأ فزاد فيه
أسبوعا ثم مات ذلك الملك وليهم ملك آخر فقال أتموه خمسين يوما وعلى هذا تكون الآية محكمة
لا منسوخة (لعلكم تتقون) بصومكم للمعاصي فإن الصوم يكسر الشهوة التي هي مبدؤها كما
قال عليه الصلاة والسلام يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة أي مؤن النكاح فليتزوج
فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء أي قاطع لشهوته
أو لعلكم تنتظمون في زمرة المتقين لأن الصوم شعارهم وقوله تعالى (أياما) نصب بصوموا
مقدرا لدلالة الصيام عليه لا بالصيام لوقوع الفصل بينهما (معدودات) أي قلائل كقوله تعالى
دراهم معدودة وأصله أن المال القليل يقدر بالعدد ويحكر فيه والكثير يهال هيلا ويحثى حثيا
أو موقتات بعدد معلوم وهي رمضان كما سيأتي وقلله تسهيلا على المكلفين وقيل هي عاشوراء
وثلاثة أيام من كل شهر كتب على رسول الله صلى الله عليه وسلم صيامها حين هاجر ثم نسخت
بشهر رمضان (فمن كان منكم مريضا) مرضا يضره الصوم ويعسر معه (أو على سفر) أي مسافرا

سفر قصر (فعدة من أيام أخر) أى فعليه صوم عدة أيام المرض والسفر من أيام أخر ان افطر فحذف الشرط وهو ان أفطر والمضاف وهو صوم والمضاف اليه وهو أيام المرض والسفر للعلم بها واختلفوا فى المرض الذى يبيح الفطر والاصح فيه ماقدرناه وذهب أهل الظاهر الى أن ما ينطلق عليه اسم المرض يبيح الفطر وهو قول ابن سيرين فقد دخل عليه فى رمضان وهو يأكل فاعتل بوجع اصبعه وفى السفر الذى يباح فيه الفطر والاصح فيه أيضا ماقدرناه وهو مرحلتان وقال الاوزاعى أقله مرحلة وقال أبو حنيفة وأصحابه ثلاثة أيام (وعلى الذين يطيقونه) أى ان أفطروا (فدية) هى (طعام مسكين) أى قدر ما يأكله فى يوم وهو مد على الاصح من غالب قوت بلده وقال بعضهم نصف صاع من القمح أو صاع من غيره وقال بعضهم ما كان المفطر يتقوته يومه الذى أفطره وقال ابن عباس يعطى كل مسكين عشاءه وسحوره واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية وحكمها فذهب أكثرهم الى أنها منسوخة وهو قول ابن عمر وسلمة ابن الاكوع وغيرهما وذلك انهم كانوا فى صدر الاسلام مخيرين بين أن يصوموا وبين أن يفطروا و يفدوا وانما خيرهم الله تعالى لانهم كانوا لم يتعودوا الصيام ثم نسخ التخيير ونزلت العزيمة بقوله تعالى فمن شهد منكم الشهر فليصمه قال ابن عباس الا الحامل والمرضع اذا أفطرتا خوفا على الولد فانها باقية بلا نسخ فى حقهما وذهب جماعة منهم الى أن لفظة لا مقدرة فى الآية أى وعلى الذين لا يطيقونه لكبر أو مرض لا يرجى برؤه فدية وهو قول سعيد بن جبير وجعل الآية محكمة وقرأ نافع وابن ذكوان بغير تنوين فى فدية وخفض الميم من طعام والباقون بتنوين فدية ورفع الميم من طعام وقرأ نافع وابن عامر مساكين بفتح الميم والسين وألف بعد السين وفتح النون والباقون بكسر الميم وسكون السين ولا ألف بعدها وكسر النون منونة (فمن تطوع خيرا) بالزيادة على القدر المذكور فى الفدية (فهو) أى التطوع (خير له) فيثيبكم الله عليه (وأن تصوموا) أى أيها المطيقون مبتدأ خبره (خير لكم) أى من الافطار والفدية (ان كنتم تعلمون) أى ما فى الصوم من الفضيلة وبراءة الذمة وجواب ان كنتم محذوف دل عليه خير لكم أى فالصوم خير لكم وقوله تعالى (شهر رمضان) مبتدأ خبره ما بعده أو بدل من الصيام فى قوله كتب عليكم الصيام بدل اشتمال أو بدل كل من كل ان قدر مضاف أو خبر مبتدا محذوف تقديره ذلكم شهر رمضان أو الشهر من الشهور ورمضان مصدر رمض اذا أحرق فأضيف اليه الشهر وجعل علما ومنع من الصرف للعلمية والالف والنون (فان قيل) اذا كانت التسمية واقعة مع المضاف والمضاف اليه جميعا فما وجه ما جاء فى الاحاديث من نحو قوله صلى الله عليه وسلم من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه وقوله صلى الله عليه وسلم بعد من أدرك رمضان فلم يغفر له (أجيب) بأن ذلك على حذف المضاف لامن اللبس قال التفتازانى وجاز الحذف من الاعلام وان كان من قبيل حذف بعض الكلمة لانهم أجروا مثل هذا العلم مجرى المضاف والمضاف اليه حيث أعربوا الجزأين وانما سماه العرب بذلك اما لارتماضهم فيه من حر الجوع والعطش واما لارتماض الذنوب فيه وقيل لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالازمنة

التى وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام رمضان الحر قال أئمة اللغة كان أسماء الشهور فى اللغة القديمة مؤتمر ناجر خوان وبصان حنين ورنه الاصم وعل ناتق عادل هواع برك فغيرت الى محرّم صفر ربيع الاوّل ربيع الثانى جمادى الاولى جمادى الثانية رجب شعبان رمضان شوّال ذى القعدة ذى الحجة على الترتيب وسمى المحرم لتحريم القتال فيه وصفر لخلو مكة عن أهلها الى الحروب والربيعان لارتباع الناس فيهما أى اقامتهم وجماديان لجمود الماء فيهما ورجب لترجيب العرب اياه أى تعظيمهم له وشعبان لتشعب القبائل فيه ورمضان لرمض الفصال فيه وشوّال لشول اذناب اللواقح فيه وذو القعدة للقعود فيه عن الحرب وذو الحجة لحجهم فيه (الذى أنزل فيه القرآن) جملة من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا ليلة القدر ثم نزل منجما الى الارض وقيل ابتدئ فيه انزاله وكان ذلك ليلة القدر وقيل أنزل فى شأنه القرآن وهو قوله تعالى كتب عليكم الصيام وعن النبى صلى الله عليه وسلم نزلت صحف ابراهيم أوّل ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين والانجيل لثلاث عشرة والقرآن لاربع وعشرين رواه الامام أحمد وغيره *(فائدة)* قال ابن عادل يروى انّ جبريل عليه السلام نزل على آدم اثنتى عشرة مرّة وعلى ادريس أربع مرّات وعلى ابراهيم اثنين وأربعين مرّة وعلى نوح خمسين مرّة وعلى موسى أربعمائة مرّة وعلى عيسى عشر مرّات وعلى محمد صلى الله عليه وسلم أربعة وعشرين ألف مرّة وقرأ ابن كثير القرآن بنقل حركة الهمزة الى الراء وتصير الراء مفتوحة وألف بعدها فى المعرف والمنكر حيث جاء وكذا يقرأ حمزة فى الوقف وقوله تعالى (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) حالان من القرآن أى أنزل وهو هداية للناس لاعجازه من الضلالة الى الحق وهو آيات واضحات مما يهدى الى الحق ويفرق بينه وبين الباطل بما فيه من الحكم والاحكام (فان قيل) فما معنى قوله وبينات من الهدى بعد قوله هدى للناس (أجيب) بأنه تعالى ذكر اولا انه هدى ثم ذكر أنه بينات من جملة ما هدى به الله وفرق به الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال (فمن شهد) أى حضر (منكم الشهر فليصمه) وقوله تعالى (ومن كان مريضا أو على سفر) أى فأفطر (فعدة من أيام أخر) تقدّم مثله وكرر لئلا يتوهم نسخه بتعميم من شهد (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) أى يريد أن ييسر عليكم ولا يعسر ولذلك أباح لكم الفطر فى المرض والسفر واختلفوا هل الفطر فى السفر أفضل أو الصوم والاصح انه ان شق عليه الصوم فالفطر أفضل والا فالصوم وروى عن ابن عباس وأبى هريرة وعروة بن الزبير وعلى بن الحسين انهم قالوا لا يجوز الصوم فى السفر ومن صام فعليه القضاء واحتجوا بقول النبى صلى الله عليه وسلم ليس من البرّ الصيام فى السفر وأجاب الاوّل عن الحديث بانه محمول على من يشق عليه الصوم فقول جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه انّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فرأى زحاما ورجلا قد ظلل عليه فقال ما هذا قالوا هذا صائم فقال صلى الله عليه وسلم ليس من البرّ الصيام فى السفر والدليل على جواز

قوله قال أئمة اللغة الخ الاسماء المذكورة هى كذلك فى النسخ التى بأيدينا وقد اختلف الناس فى ذلك اختلافا كثيرا قال بعضهم وتوجد للشهور أسامى قد كان أوائلهم يدعونها بها وهى هذه المؤتمر وناجر وخوان وصوان وحنين ورنى والاصم وعادل وناتق وواغل وهواع وبرك وقد توجد هذه الاسماء مخالفة لما أوردناه مختلفة الترتيب كما نظمها بعضهم بقوله
بمؤتمر وناجر بدأنا * وبالخوّان يتبعه الصوان * وبالرنى وبائدة تليه * يعود أصم صم به السنان
وواغله وناطله جميعا * وعادله فهم غرر حسان *
ورنة بعدها برك فتمت * شهور الحول يعقدها البنان *
وفى مروج الذهب أسماء أخرى فراجعه اه

الصوم فى السفر قول أبى سعيد رضى الله تعالى عنه كنا نسافر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان فمنا الصائم ومنا المفطر فلا يعيب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم وقوله تعالى (ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون) أى الله على نعمه علل لفعل محذوف دل عليه ما سبق أى وشرع جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص له بالقضاء ومراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص فى اباحة الفطر فقوله تعالى ولتكملوا العدة علة الامر بمراعاة العدة وقوله تعالى ولتكبروا علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر وقوله تعالى ولعلكم تشكرون علة الترخيص من تعظيم الله تعالى بالحمد والثناء عليه ولذلك عد نوعا من اللف والنشر لطيف المسلك ومعنى التكبير تعظيم الله تعالى بالحمد والثناء عليه ولذلك عدى بحرف الاستعلاء لكونه مضمنا معنى الحمد كأنه قيل ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم وقيل تكبير عيد الفطر وقيل التكبير عند الاهلال وقرأ شعبة ولتكملوا بفتح الكاف وتشديد الميم والباقون بسكون الكاف وتخفيف الميم * (تنبيه) * ورد فى فضل شهر رمضان وثواب الصائمين أخبار منها ما رواه أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب ونادى منادٍ يا باغى الخير أقبل ويا باغى الشر أقصر ولله عتقاء من النار وذلك كل ليلة ومنها ما رواه أيضا انه صلى الله عليه وسلم قال من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ومن قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ومنها ما رواه سلمان قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر يوم من شعبان فقال أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم شهر فيه ليلة القدر خير من ألف شهر جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوعا من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة وشهر المواساة وشهر يزاد فيه الرزق من فطر فيه صائما كان له مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شئ قالوا يا رسول الله ليس كلنا نجد ما يفطر الصائم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى الله هذا الثواب لمن فطر صائما على مذقة لبن أو تمرة أو شربة من ماء ومن أسقى صائما سقاه الله عز وجل من حوضى شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار فاستكثروا فيه من أربع خصال خصلتين ترضون بهما ربكم وخصلتين لا غنى لكم عنهما فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا اله الا الله وتستغفرونه وأما اللتان لا غنى لكم عنهما فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الا الصوم فانه لى وأنا أجزى به يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلى للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك الصوم جنة وعن سهل بن سعد انه قال قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم فى الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى الريان لايدخله الا الصائمون وعن ابن عمر انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصيام والقرآن يشفعان للعبد يقول الصيام رب انى منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعنى فيه و يقول القرآن رب منعته النوم بالليل فشفعنى فيه فيشفعان ه وسأل جماعة النبى صلى الله عليه وسلم أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزل (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب) أى فقل لهم انى قريب وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم ونحوه قوله تعالى ونحن أقرب اليه من حبل الوريد وقوله تعالى (أجيب دعوة الداع اذا دعان) أى بانالته ماسأل تقرير للقرب ووعد للداعى بالاجابة وقرأ ورش وأبو عمرو باثبات الياء فيهما وصلا لا وقفا واختلف عن قالون فيهما والباقون بحذفها وصلا ووقفا (فان قيل) ماوجه قوله تعالى أجيب دعوة الداع وقوله ادعونى أستجب لكم وقد يدعى كثيرا فلا يجيب (أجيب) بأنهم اختلفوا فى معنى الآيتين فقيل معنى الدعاء هنا الطاعة ومعنى الاجابة الثواب وقيل معنى الآيتين خاص وان لفظهما عام تقديره أجيب دعوة الداع ان شئت كما قال تعالى فيكشف ماتدعون اليه ان شاء أو أجيب دعوة الداعى ان وافق القضاء أو أجيبه ان كانت الاجابة خيراله أو أجيبه ان لم يسال محالا وعن أبى هريرة رضى الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يستجيب الله لاحدكم مالم يدع باثم أوقطيعة رحم أو يستعجل قالوا وما الاستعجال يارسول الله قال يقول قد دعوتك يارب فلا أراك تستجيب لى فيتحسر عند ذلك فيدع أى يترك الدعاء وقيل هو عام ومعنى قوله أجيب أى أسمع و يقال ليس فى الآية أكثر من اجابة الدعوة فاما اعطاء الامنية فليس بمذكور فيها وقد يجيب السيد عبده أو الوالد ولده ثم لايعطيه سؤله فالاجابة كائنة لامحالة عند حصول الدعوة وقيل معنى الآية أنه لايخيب دعاءه فان قدرله ماسأل أعطاه وان لم يقدرله ادخر الثواب له فى الآخرة أو كف عنه به سوأ لقوله صلى الله عليه وسلم ماعلى الارض رجل مسلم يدعو الله بدعوة الا آتاه الله اياها أو كف عنه من السوء مثلها مالم يدع باثم أوقطيعة رحم وقيل ان الله يجيب دعوة المؤمن فى الوقت ويؤخر اعطاء مراده ليدعوه فيسمع صوته ويعجل اعطاء من لا يحبه لانه يبغض صوته وقيل ان للدعاء آدابا وشرائط وهى أسباب الاجابة فمن استكملها كان من أهل الاجابة ومن أخل بها فهو من أهل الاعتداء فى الدعاء فلا يستحق الجواب (فليستجيبوا لى) اذا دعوتهم للايمان والطاعة كما أجيبهم اذا دعونى لمهماتهم وقوله تعالى (وليؤمنوا بى) أمر بالثبات والمداومة على الايمان (لعلهم) أى لكى (يرشدون) والرشد اصابة الحق (أحل لكم ليلة الصيام) أى الليلة التى تصبحون منها صائمين (الرفث الى نسائكم) الرفث كناية عن الجماع لانه لايكاد يخلو من رفث وهو الافصاح بما يجب أن يكنى عنه كلفظ الوطء والجماع فانه يجب أن يكنى عنه بلازم من لوازمه كالرفث وعدى بالى لتضمنه معنى الافضاء وكنى عن الجماع هنا بلفظ الرفث الدال على معنى القبح بخلاف قوله وقد أفضى بعضكم الى بعض استهجانا لما وجد منهم قبل الاباحة ولذلك سماه فيما يأتى خيانة قال ابن عباس رضى الله تعالى

عنهما

عنهما ان الله تعالى حيى كريم يكنى فى كل ما ذكر فى القرآن من المباشرة والملامسة والافضاء والدخول فالرفث انما عنى به الجماع وقال الزجاج الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجال من النساء قال أهل التفسير كان فى ابتداء الامر اذا أفطر الرجل حل له الطعام والشراب والنساء الى أوان العشاء الآخرة أو يرقد قبلها فاذا صلى العشاء أو رقد قبلها حرم عليه الطعام والشراب والنساء الى الليلة القابلة ثم ان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه واقع أهله بعد ما صلى العشاء فلما اغتسل أخذ يبكى و يلوم نفسه فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انى أعتذر الى الله واليك من نفسى هذه الخاطئة انى رجعت الى أهلى بعد ما صليت العشاء فوجدت رائحة طيبة فسوّلت لى نفسى فجامعت أهلى فهل تجد لى من رخصة فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما كنت جديرا بذلك ياعمر فقام رجال فاعترفوا بمثله فنزل فى عمر وأصحابه هذه الآية وفى تجويز المباشرة فى جميع الليل دليل على جواز تأخير الغسل الى الفجر وصحة صوم المصبح جنبا (هن لباس) أى سكن (لكم وأنتم لباس) أى سكن (لهن) كما قال تعالى وجعل منها زوجها ليسكن اليها وكما قيل لا يسكن شئ الى شئ كسكون أحد الزوجين الى الآخر وقيل سمى كل واحد من الزوجين لباسا لتجردهما عند النوم وتعانقهما واجتماعهما فى ثوب واحد حتى يصير كل واحد من الزوجين لصاحبه كالثوب الذى يلبسه قال الجعدى

اذا ما الضجيع ثنى عطفها * تثنت فكانت عليه لباسا

والضجيع المضاجع وما زائدة وثنى عطفها أمال شقها وتثنت مالت والشاهد فى قوله فكانت عليه لباسا وقيل أن كلا منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور كما جاء فى الخبر من تزوج فقد أحرز ثلثى دينه (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) أى تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيص حظها من الثواب بالمجامعة بعد العشاء كما وقع ذلك لعمر وغيره وقال البراء لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله هذه الآية (فتاب عليكم) أى قبل توبتكم (وعفا عنكم) أى محا ذنوبكم ولم يعل أحد الف عفا لانه واوى (فالآن) أى اذا نسخ عنكم التحريم (باشروهن) أى جامعوهن حلالا وسمى الجامعة مباشرة لتلاصق بشرة كل واحد منهما بصاحبه (وابتغوا) أى واطلبوا (ما كتب الله لكم) أى ما قسم لكم وأثبت فى اللوح من الولد بالمباشرة أى لا تباشروا لقضاء الشهوة وحدها ولكن لابتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل أو قصد العفة وقال مجاهد ابتغوا الولد فان لم تلد هذه فهذه وقال مقاتل وابتغوا الرخصة التى كتب الله لكم باباحة الاكل والشرب والجماع فى اللوح المحفوظ وقيل وابتغوا المحل الذى كتب الله لكم وحلله دون ما لم يكتب لكم من المحل المحرم وقيل هو نهى عن العزل لانه فى الحرائر فقوله تعالى (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر) أى الصادق نزل فى رجل من الانصار قال عكرمة اسمه أبو قيس وذلك انه ظل نهاره يعمل فى أرض وهو صائم فلما أمسى رجع الى أهله بتمر فقال لامرأته قدمى الطعام وأرادت المرأة أن تطعمه شيأ سخنا فأخذت تعمل له فى شئ وكان فى ابتداء الاسلام

من صلى العشاء أو نام قبلها حرم عليه الطعام والشراب فلما فرغ من طعامه اذ هو قد نام وكان قد أعيا وكل فأيقظته فكره أن يعصى الله ورسوله وأبى أن يأكل فأصبح صائما مجهودا فلم ينتصف النهار حتى غشى عليه فلما أفاق أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال يا أبا قيس مالك أمسيت طليحا فذكر له حاله فاغتم لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية وقد شبه سبحانه وتعالى أول ما يبدو من الفجر المعترض فى الافق وما يتدمعه من غبش الليل بخيطين أبيض وأسود واكتفى ببيان الخيط الابيض بقوله من الفجر عن بيان الخيط الاسود لدلالته عليه ويصح أن تكون من للتبعيض فانما يبدو بعض الفجر وعلى كل منهما فهى مع مدخولها فى محل الحال والمعنى على التبعيض حال كون الخيط الابيض بعضا من الفجر وعلى البيان حال كونه هو الفجر (فان قيل) كيف التبس على عدى بن حاتم مع هذا البيان حتى قال عمدت الى عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتى فجعلت أقوم من الليل فلا يتبين لى الاسود من الابيض فلما أصبحت غدوت الى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فضحك وقال ان كان وسادك اذا لعريضا وروى انك لعريض القفا انما ذاك بياض النهار من الليل (أجيب) بأنه غفل عن البيان ولذلك عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم قفاه لانه مما يستدل به على بلادة الرجل وقلة فطنته وقال سهل بن سعد الساعدى نزلت ولم ينزل من الفجر فكان رجال اذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجله الخيط الابيض والخيط الاسود فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبيناله فأنزل الله تعالى بعد ذلك من الفجر (فان قيل) كيف جاز فعل ذلك فى رمضان مع تأخير البيان وهو يشبه العبث حيث لا يفهم منه المراد (أجيب) بأن ذلك كان قبل دخول رمضان وتأخير البيان الى وقت الحاجة جائز واكتفى أولا باشتهارهما فى ذلك ثم صرح بالبيان لما التبس على بعضهم (ثم أتموا الصيام) من الفجر (الى الليل) أى الى دخوله بغروب الشمس كما روى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم أى دخل وقت افطاره

(تنبيه) انما قدرت فى الآية الكريمة من الفجر ليدل على عدم جواز النية فى النهار فى صوم رمضان كما هو مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه ولان الى يكون المغيا بها ينقضى شيأ فشيأ والاتمام فعل الجزء الاخير فقط وهو لا ينقضى كذلك وفى الآية دليل على نفى الوصال لانه تعالى جعل الليل غاية الصوم وغاية الشئ منتهاه وما بعدها يخالف ما قبلها

(ولا تباشروهن) أى نساءكم (وأنتم عاكفون) أى مقيمون (فى المساجد) بنية الاعتكاف والمراد بالمباشرة الوطء والآية نزلت فى نفر من الصحابة رضى الله تعالى عنهم كانوا يعتكفون فى المسجد فاذا عرضت للرجل منهم الحاجة الى أهله خرج اليها فجامعها ثم اغتسل ثم يرجع الى المسجد فنهوا عن ذلك ليلا ونهارا حتى يفرغوا من اعتكافهم وفيه دليل على أن الاعتكاف لا يختص بمسجد دون مسجد وأن يكون فى المسجد لا فى غيره اذ ذكر المساجد لا جائز أن يكون لجعلها شرطا فى منع مباشرة المعتكف لمنعه منها وان كان خارج المسجد ويمنع غيره أيضا منها

فيها فتعين كونها شرطا لصحة الاعتكاف وان الوطء محرم فى الاعتكاف ويفسده لان النهى فى العبادات يوجب الفساد اما مادون الجماع من المباشرات فان كان بشهوة فحرام ولا يبطل اعتكافه ان لم ينزل فان أنزل وكان بلا حائل فكالجماع والا فلا فعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اعتكف أدنى الى رأسه فأرجله وكان لا يدخل البيت الا لحاجة الانسان (تلك) الاحكام المذكورة وهى قوله تعالى فالآن باشروهن الى قوله تعالى فى المساجد (حدود الله) حدها لعباده ليقفوا عندها (فلا تقربوها) نهى تعالى أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل لئلا يدانى الباطل فضلا أن يتخطى عنه وهذا أبلغ من قوله تعالى فى آية أخرى فلا تعتدوها لكن فى ذلك مأمورات وهى لا ينهى عن قربانها فالمراد منها اضدادها بناء على أن الامر بالشئ نهى عن ضده أو مستلزم له ليصح النهى عن قربانها او يجوز أن يراد بحدود الله محارمه ونواهيه وعلى هذا فالنهى عن القربان ظاهر كما قال عليه الصلاة والسلام ان لكل ملك حمى وان حمى الله فى أرضه محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه رواه الشيخان (كذلك) أى كما بين لكم ما ذكر (يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) أى لكى يتقوا مخالفة الاوامر والنواهى فينجوا من العذاب (ولا تأكلوا أموالكم بينكم) أى لا يأكل بعضكم مال بعض (بالباطل) أى الحرام شرعا كالغصب والسرقة وقوله تعالى (وتدلوا) مجزوم داخل فى حكم النهى أو منصوب باضمار ان والادلاء الالقاء أى ولا تلقوا (بها) أى بحكومتها او بالاموال رشوة (الى الحكام لتأكلوا) بالتحاكم (فريقا) أى طائفة (من أموال الناس بالاثم) أى بما يوجب اثما كشهادة الزور واليمين الكاذبة أو متلبس بالاثم فالباء اما للسببية فتكون متعلقة بتأكلوا أو للمصاحبة فتتعلق بمحذوف وتكون مع مدخولها حالا من فاعل تأكلوا (وأنتم تعلمون) انكم مبطلون فان ارتكاب المعصية مع العلم أقبح روى ان عبدان الحضرمى ادعى على امرئ القيس الكندى قطعة أرض ولم يكن له بينة فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيس فهم بالحلف فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا فارتدع عن اليمين وسلم الارض لعبدان فنزلت وهو دليل على أن حكم القاضى لا ينفذ فى باطن الامر وفيه خلاف ظاهر ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم لخصمين اختصما اليه انما أنا بشر وأنتم تختصمون لدى ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته أى أقوم وأقدر عليها من بعض فأقضى له على ما أسمع منه فمن قضيت له بشئ من أخيه فانما أقطع له قطعة من نار فبكيا وقال كل واحد منهما حقى لصاحبى فقال اذهبا فتوخيا ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه وسأل معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بال الهلال يبدو دقيقا كالخيط ثم يزيد حتى يمتلئ نورا ويستوى ثم لا يزال ينقص حتى يعود دقيقا كما بدا ولا يكون على حالة واحدة كالشمس فنزل (يسئلونك) يا محمد (عن الاهلة) جمع هلال مثل رداء وأردية والهلال اسم له أول الليلة الاولى والثانية والثالثة وبعدها يسمى قمرا وهنا سماه بأول حالاته لان الناس يرفعون أصواتهم بالذكر عند رؤيته من قولهم استهل الصبى اذا صرخ حين يولد (قل) لهم

(هي مواقيت) جمع ميقات أي معالم (للناس) يعلمون بها أوقات زرعهم ومتاجرهم ومحال ديونهم وصيامهم وافطارهم وعدد نسائهم وأيام حيضهن ومدة حملهن وغير ذلك وقوله تعالى (والحج) عطف على الناس أي يعلمون بها وقته أداء وقضاء هذه هي الحكمة الظاهرة في ذلك ولهذا خالف بين الاهلة وبين الشمس فلو استمرت الاهلة على حالة لم يعرف حال ماذكر ولما كان الناس في الجاهلية وفي أول الاسلام اذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطا ولا بيتا ولا دارا من بابه فان كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته ويدخل منه ويخرج أو يتخذ سلما فيه فيصعد منه وان كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل ولا يخرج من الباب حتى يحل من احرامه ويرون ذلك برا الا أن يكون من الحمس وهم قريش وكنانة وخزاعة وثقيف و بنو عامر بن صعصعة وبنو نضر بن معاوية سموا حمسا لشدتهم في دينهم والحماسة الشدة والصلابة فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بيتا لبعض الانصار فدخل رجل من الانصار يقال له رفاعة بن تابوت على أثره من الباب وهو محرم فأنكروا عليه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلت من الباب وأنت محرم قال رأيتك دخلت فدخلت على اثرك فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فاني أحمس فقال الرجل فان كنت أحمس فاني أحمس رضيت بهداك وسمتك ودينك فأنزل الله تعالى (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر) أي ذا البر (من اتقى) الله بترك مخالفته ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها انهم سألوا عن الحكمة في اختلال حال القمر وعن حكم دخولهم بيوتهم من غير أبوابها أو انه تعالى لما ذكر أنها مواقيت الحج وهذا أيضا من افعالهم في الحج ذكره للاستطراد وانهم لما سألوا عما لا يعنيهم ولا يتعلق بعلم النبوة وتركوا السؤال عما يعنيهم وهو معرفة الحلال والحرام ويختص بعلم النبوة عقب بذكره جواب ما سألوه تنبيها على أن اللائق بهم أن يسألوا عن امثال ذلك ويهتموا بالعلم بها أو على أن المراد به التنبيه على تعكيسهم السؤال وتمثيلهم بحال من ترك باب البيت ودخل من ورائه والمعنى وليس البر أن تعكسوا في مسائلكم ولكن من اتقى ذلك ولم يجسر على مثله (وأتوا البيوت من أبوابها) في الاحرام كغيره اذ ليس في العدول بر وباشروا الامور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها والمراد توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعال الله تعالى حكم وصواب من غير اختلاج شبهة ولا اعتراض شك في ذلك حتى لا يسأل عنه كما في السؤال من الاتهام بمقارنة الشك لا يسأل عما يفعل وهم يسألون (واتقوا الله) في تغيير الاحكام (لعلكم تفلحون) لكي تفوزوا بالهدى والبر وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص البيوت بضم الباء حيث جاء معرفا كان أو منكرا وكسرها الباقون ولا خلاف في وليس البر هنا ان الراء مرفوعة للجميع وقرأ نافع وابن عامر ولكن بكسر النون مخففة ورفع الراء والباقون بفتح النون مشددة ونصب الراء ولما صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت عام الحديبية وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج مع أصحابه للعمرة وكانوا ألفا وأربعمائة فساروا حتى نزلوا الحديبية فصدهم المشركون

عن البيت الحرام وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة ثلاثة أيام فيطوف بالبيت فلما كان العام المقبل تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرة القضاء وخاف المسلمون أن لا يوفوا لهم ويقاتلوهم فى الحرم والاحرام والشهر الحرام وكره المسلمون ذلك نزل (وقاتلوا) أى جاهدوا (فى سبيل الله) لاعلاء كلمته واعزاز دينه (الذين يقاتلونكم) من الكفار (ولا تعتدوا) عليهم بالابتداء بالقتال (ان الله لا يحب المعتدين) أى لا يريد بهم الخير لانه غاية المحبة اذ المحبة حقيقتها محال فى حقه تعالى لانها ميل النفس وسبب ذلك انهم كانوا منعوا من قتال الكفار وأمروا بالصبر على أذاهم بقوله تعالى لتبلون فى أموالكم الآية ثم أمروا به اذا ابتدؤا به بهذه الآية ثم أبيح لهم ابتداؤه فى غير الاشهر الحرم بقوله تعالى فاذا انسلخ الاشهر الحرم الآية ثم أمروا به مطلقا من غير تقييد بشرط ولا زمان بقوله تعالى (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أى وجدتموهم فى حل أو حرم وقرأ أبو عمرو بادغام الثاء فى الثاء بخلاف عنه حيث جاء (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أى من مكة وقد فعل ذلك بمن لم يسلم عام الفتح (والفتنة) أى الشرك منهم (أشد) أى أعظم (من القتل) لهم فى الحرم أو الاحرام الذى استعظمتموه أو المحنة التى يفتتن بها الانسان كالاخراج من الوطن أصعب من القتل لدوام تعبها وتألم النفس بها قيل لبعض الحكماء ما أشد من الموت قال الذى يتمنى فيه الموت وقال القائل

لقتل بحد السيف أهون موقعا * على النفس من قتل بحد فراق

وقيل الفتنة عذاب الآخرة كما قال تعالى ذوقوا فتنتكم (ولا تقاتلوهم) أى لا تبدؤهم (عند المسجد الحرام) أى فى الحرم (حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم) فيه (فاقتلوهم) فيه فانهم هم الذين هتكوا حرمته وقرأ حمزة والكسائى ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم بفتح التاء الفوقية من تقتلوهم والياء من يقتلوكم وسكون القاف ولا ألف بعد القاف وضم التاء فيهما والباقون بفتح التاء والياء وفتح القاف وبعد القاف ألف وكسر التاء وأما فان قاتلوكم فحذف حمزة والكسائى الالف وأثبتها الباقون والمعنى على قراءة حمزة والكسائى حتى يقتلوا بعضكم جعل وقوع القتل فى بعضهم كوقوعه فيهم كقول بعض العرب قتلنا بنى أسد أى بعضهم وقال بعضهم وان تقتلونا نقتلكم (كذلك) أى القتل والاخراج (جزاء الكافرين) أى يفعل بهم مثل ما فعلوا (فان انتهوا) عن الكفر وأسلموا (فان الله غفور) يغفر لهم ما قد سلف (رحيم) بهم فلا يؤاخذ بذلك (وقاتلوهم حتى لا تكون) أى توجد (فتنة) أى شرك (ويكون الدين) أى العبادة (لله) وحده لا يعبدون سواه (فان انتهوا) عن الشرك فلا تعتدوا عليهم دل على هذا (فلا عدوان) أى اعتداء بقتل أو غيره (الا على الظالمين) أى فلا تعتدوا على المنتهين اذ لا يحسن أن يظلم الا من ظلم والفاء الاولى للتعقيب والثانية للجزاء وسمى جزاء الظالمين عدوانا للمشاكلة كقوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه (الشهر الحرام) أى المحرم مقابل (بالشهر الحرام) وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج معتمرا فى ذى القعدة سنة ست وصده المشركون عن البيت بالحديبية ورجع فى العام القابل فى ذى القعدة وقضى عمرته سنة سبع واستعظم المسلمون قتالهم فى الشهر الحرام

نزلت هذه الآية أي هذا الشهر بذلك وهتكه بهتكه فلا تبالوا به وقوله تعالى (والحرمات قصاص) احتجاج عليه أي كل حرمة وهو ما يجب أن يحافظ عليها يجري فيها القصاص وانما جمعها لانه أراد حرمة الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الاحرام أي فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله وادخلوا عليهم عنوة واقتلوهم ان قاتلوكم أي كما قال تعالى (فمن اعتدى عليكم) بالقتال في الحرم أو الاحرام أو الشهر الحرام (فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) سمي الجزاء باسم الاعتداء على ازدواج الكلام كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (واتقوا الله) في الانتصار لانفسكم منهم ولا تعتدوا الى مالم يرخص لكم (واعلموا أن الله مع المتقين) بالعون والنصر فيحرسهم ويصلح شأنهم (وأنفقوا في سبيل الله) أي طاعته سواء الجهاد وغيره (ولا تلقوا بأيديكم) أي بأنفسكم عبر بالايدي عن الانفس كقوله تعالى بما كسبت أيديكم أي بما كسبتم والباء زائدة (الى التهلكة) أي الهلاك بالامساك عن النفقة في الجهاد أو الاسراف فيها حتى يفقر نفسه ويضيع عياله أو عن ترك الغزو الذي هو تقوية للعدو روي ان رجلا من المهاجرين حمل على صف العدو فصاح به الناس ألقى بيده الى التهلكة فقال أبو أيوب الانصاري نحن أعلم بهذه الآية وانما نزلت فينا صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصرناه وشهدنا معه المشاهد وآثرناه على أهلنا وأولادنا وأموالنا فلما فشا الاسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها رجعنا الى اهلينا واولادنا واموالنا نصلحها ونقيم فيها فكانت التهلكة الاقامة في الاهل والمال وترك الجهاد فما زال أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية في زمن معاوية فتوفي هنالك ودفن في أصل سورها وهم يستسقون به وروي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق وقال محمد بن سيرين وعبيدة السلماني الالقاء الى التهلكة هو القنوط من رحمة الله تعالى قال أبو قلابة هو الرجل يصيب الذنب فيقول قد هلكت ليست لي توبة فييأس من رحمة الله وينهمك في المعاصي فنهاهم الله تعالى عن ذلك كما قال تعالى انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون (وأحسنوا) أي بالنفقة وغيرها (ان الله يحب المحسنين) أي يثيبهم (وأتموا الحج والعمرة لله) أي أدوهما بحقوقهما وفي الآية حينئذ دليل على وجوبهما اذ الاصل في الامر الوجوب وما روي عن جابر أنه قال يا رسول الله العمرة واجبة مثل الحج فقال لا معارض بما روي أن رجلا قال لعمر رضي الله تعالى عنه اني وجدت أي علمت الحج والعمرة مكتوبين علي أهللت بهما جميعا فقال هديت لسنة نبيك ولا يقال انه فسر وجدانهما مكتوبين بقوله أهللت بهما لانه رتب الاهلال بهما على الوجدان وذلك يدل على أنه سبب الاهلال دون العكس وقيل اتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك روي ذلك عن علي وابن عباس رضي الله تعالى عنهم وقيل ان تفرد لكل واحد منهما سفرا وقيل أن تكون النفقة حلالا وقيل أن تخلصهما للعبادة ولا تشوبهما بشيء من التجارة والاغراض الدنيوية (فان أحصرتم) أي منعتم عن اتمامهما يقال حصره واحصره العدو اذا منعه قال

تعالى الذين أحصروا فى سبيل الله وقال القائل

وما هجر ليلى أن تكون تباعدت * عليك ولا ان أحصرتك شغول

لكن الاشهر أن يقال فى العدو حصره وفى المرض أحصره والمراد هنا حصر العدو لقوله تعالى فاذا أمنتم ولنزول الآية فى الحديبية ولقول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لا حصر الا حصر العدو وأما ماروى عنه عليه الصلاة والسلام من كسر أو عرج فعليه الحج من قابل فمحمول على من شرطه لقوله عليه الصلاة والسلام لضباعة بنت الزبير حجى واشترطى وقولى اللهم محلى حيث حبستنى ومحلى بكسر الحاء محل الحبس والحصر ويجوز أن يكون مصدرا ميميا (فما استيسر من الهدى) أى فان أردتم التحلل فعليكم ما استيسر أو فالواجب أو فأهدوا ما استيسر من الهدى وهو بدنة أو بقرة أو سبع من أحدهما أو شاة يذبحها حيث أحصر فى حل أو حرم عند الاكثر لانه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهى من الحل وقيل لا بد أن يبعث بها الى الحرم لقوله تعالى (ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله) أى لا تحلقوا حتى تعلموا ان الهدى المبعوث الى الحرم بلغ محله أى مكانه الذى يجب أن يذبح فيه وحمل الاولون بلوغ الهدى محله على ذبحه حيث يحل ذبحه فيه حلا كان أو حرما لكن يندب ارساله الى الحرم خروجا من خلاف أبى حنيفة واقتصاره تعالى على الهدى دليل عدم القضاء كما قاله الشافعى وذهب أبو حنيفة الى وجوب القضاء ولا بد من نية التحلل عند الذبح أو الحلق أو التقصير بعده مع نية التحلل وبذلك يحصل التحلل والمحل بالكسر يطلق للمكان والزمان (فمن كان منكم مريضا) أى مرضا يحوجه الى الحلق (أو به أذى من رأسه) كقمل وصداع فحلق فى الاحرام (ففدية) أى فعليه فدية ان حلق ولو بعض شعر رأسه ثلاث شعرات فأكثر ولاء (من صيام) وهو ثلاثة أيام (أو صدقة) وهى ثلاثة آصع من غالب قوت البلد على ستة مساكين لكل واحد نصف صاع (أو نسك) وهو بدنة أو بقرة أو سبع واحد منهما أو شاة وعن كعب بن عجرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له لعلك آذاك هوام رأسك قال نعم يا رسول الله قال احلق وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك شاة وكان كعب يقول أنزلت فى هذه الآية والتخيير وألحق بالمعذور من حلق لغير عذر لانه أولى بالكفارة وكذا من استمتع بغير الحلق كالطيب والدهن واللبس لعذر أو غيره (فاذا أمنتم) من العدو بان ذهب أو كنتم فى حال سعة وأمن (فمن تمتع بالعمرة) أى بسبب فراغه منها بمحظورات الاحرام (الى الحج) أى الاحرام به بأن يكون أحرم بها فى أشهره (فما استيسر) أى فعليه ما تيسر (من الهدى) وهو ما تقدم يذبحه بعد الاحرام بالحج ويجوز تقديمه على الاحرام به بعد الفراغ من العمرة (فمن لم يجد) أى الهدى لفقده أو فقد ثمنه (فصيام) أى فعليه صيام (ثلاثة أيام فى الحج) أى فى حال احرامه به ولا يجوز له أن يقدمه على الاحرام لانه عبادة بدنية فلا يجوز تقديمه على وقته ولا تأخيره عنه والافضل أن يحرم قبل السادس لكراهة صوم عرفة ولا يجب عليه أن يحرم قبل زمن يسع الصوم بل يستحب له لكن اذا أحرم وجب عليه الصوم ولا يجوز أن يصوم يوم النحر ولا أيام التشريق على أصح قولى الشافعى وهو ما عليه

الاكثر (وسبعة) من الايام (اذا رجعتم) الى وطنكم مكة أو غيرها وقيل اذا فرغتم من أعمال الحج وفيه التفات عن الغيبة وفائدة قوله تعالى (تلك عشرة) أن لا يتوهم أن الواو بمعنى أو كقولك جالس الحسن وابن سيرين ألا ترى انه لو جالسهما جميعا أو واحدا منهما كان ممتثلا وأن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلا ليحاط به من جهتين فيتأكد العلم فان أكثر العرب لم يحسنوا الحساب وفي أمثال العرب علمان خير من علم وأن المراد بالسبعة العدد دون الكثرة فانه يطلق لهما وقوله تعالى (كاملة) صفة مؤكدة تفيد المبالغة في محافظة العدد بأن لا يتهاونوا بها ولا ينقص من عددها كما تقول للرجل اذا كان لك اهتمام بأمر تأمره به وكان منك بمنزلة الله الله لا تقصر أو مبينة كمال العشرة فانه أول عدد كامل اذ به تنتهي الآحاد وتتم مراتبها وقيل كاملة في وقوعها بدلا من الهدى بحيث لا يقصر ثواب الصوم عن ثواب الهدى (ذلك) أى الحكم المذكور من وجوب الهدى أو الصيام على من تمتع (لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) وهم من مساكنهم دون مرحلتين من الحرم اقربهم منه والقريب من الشيء يقال انه حاضره قال تعالى واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر أى قريبة منه وفي ذكر الاهل اشعار باشتراط الاستيطان فلو أقام قبل أشهر الحج ولم يستوطن وتمتع فعليه ذلك وهو أصح قولي الشافعي والثاني لا والاهل كناية عن النفس وألحق بالمتمتع فيما ذكر بالسنة القارن وهو من يحرم بالعمرة والحج معا أو يدخل الحج عليها قبل الطواف (واتقوا الله) بالمحافظة على أوامره ونواهيه وخصوصا في الحج (واعلموا أن الله شديد العقاب) لمن خالفه ليكون علمكم بشديد عقابه لطفا لكم في التقوى (الحج أشهر) أى وقته كقولك البرد شهران (معلومات) وهي شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذى الحجة الى طلوع الفجر من يوم النحر عندنا والعشر كله عند أبي حنيفة وذو الحجة كله عند مالك وعلى الاولين انما سمي شهرين وبعض شهر أشهرا اقامة للبعض مقام الكل أو اطلاقا للجمع على ما فوق الواحد كما في قوله تعالى فقد صغت قلوبكما لحفصة وعائشة (فمن فرض) على نفسه (فيهن الحج) بالاحرام به عندنا أو بالتلبية أو بسوق الهدى عند أبي حنيفة وفيه دليل على أن من أحرم بالحج في غير أشهر الحج لا ينعقد احرامه بالحج وهو قول ابن عباس وجماعة من الصحابة واليه ذهب الاوزاعي والشافعي وقال ينعقد احرامه عمرة لان الله تعالى خص هذه الاشهر بفرض الحج فيها فلو انعقد في غيرها لم يكن لهذا التخصيص فائدة كما أنه تعالى علق الصلاة بالمواقيت ثم من أحرم بفرض الصلاة قبل دخول وقته لم ينعقد احرامه عن الفرض وانما انعقد عمرة لان الاحرام شديد التعلق وذهب جماعة الى أنه ينعقد احرامه بالحج وهو قول مالك والثورى وأبي حنيفة أما العمرة فجميع السنة وقت لها الا أن يكون عليه بقية من أعمال الحج كالرمي (فلا رفث) أى جماع فيه كما قال ابن عباس وجماعة من الصحابة وقيل الرفث غشيان النساء والقبلة والغمز وان يعرض لها بالفحش من الكلام وقيل هو الفحش والقول القبيح (ولا فسوق) أى ولا خروج عن حدود الشرع بالسيآت وارتكاب المحظورات وقيل هو السباب والتنابز بالالقاب (ولا جدال) أى خصام مع الخدم

والرفث وغيرهما (في الحج) أي في أيامه نفي الثلاث على قصد النهي للمبالغة وللدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون وما كان منها مستقبحا في نفسه ففي الحج أقبح كلبس الحرير في الصلاة والتطريب بقراءة القرآن وهو مد الصوت وتحسينه بحيث يخرج الحروف عن هيآتها فانه يقبح في كل كلام لكنه في قراءة القرآن أقبح وقرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع الثاء من رفث والقاف من فسوق والتنوين فيهما على معنى لا يكون رفث ولا فسوق والباقون بنصبهما ولا خلاف في ولا جدال فالجميع بالنصب ولا تنوين على معنى الاخبار كأنه قيل ولا شك ولا خلاف في الحج وذلك أن قريشا كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام وسائر العرب يقفون بعرفة وكانوا يقدمون الحج سنة ويؤخرونه سنة وهو النسيء فرد الى وقت واحد ورد الوقوف الى عرفة فأخبر الله تعالى انه قد ارتفع الخلاف في الحج واستدل على أن المنهي عنه هو الرفث والفسوق دون الجدال بقوله صلى الله عليه وسلم من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج كهيئة يوم ولدته أمه فانه لم يذكر الجدال (وما تفعلوا من خير) كصدقة (يعلمه الله) فيه حث على الخير حيث عقب به النهي عن الشر وان يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن ومكان الفسوق البر والتقوى ومكان الجدال الوفاق والاخلاق الجميلة (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) أي وتزودوا لمعادكم التقوى فانه خير زاد روى البخاري وغيره ان أهل اليمن كانوا يخرجون الى الحج بغير زاد ويقولون نحن متوكلون ونحن نحج بيت الله تعالى أفلا يطعمنا فيكونون كلا على الناس فيسألونهم وربما يفضي الحال بهم الى النهب والغصب فقال الله جل ذكره وتزودوا أي ما تتبلغون به وتكفون به وجوهكم قال أهل التفسير الكعك والزيت والسويق والتمر ونحوها فان خير الزاد التقوى أي ما يتقي به سؤال الناس وغيره (واتقون يا أولي الالباب) أي يا ذوي العقول فان قضية اللب خشية الله تعالى وتقواه وحثهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شيء سواه وهو مقتضى العقل العري عن شوائب الهوى فلذلك خص أولي الالباب بهذا الخطاب (ليس عليكم جناح) في (أن تبتغوا) أي تطلبوا (فضلا) أي رزقا (من ربكم) بالتجارة في الحج نزلت رد على الناس من العرب كانوا يتأثمون أن يتجروا أيام الحج واذا دخل العشر كفوا عن البيع والشراء فلم تقم لهم سوق ويسمون من يخرج بالتجارة الداج ويقولون هؤلاء الداج وليسوا بالحاج وروى البخاري انه كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز اسواقهم في الجاهلية يتجرون فيها في أيام الموسم وكانت معايشهم منها فلما جاء الاسلام تأثموا فرفع عنهم الجناح في ذلك وابيح لهم وعن عمر رضي الله تعالى عنه انه قيل له هل كنتم تكرهون التجارة في الحج فقال وهل كانت معايشنا الا من التجارة في الحج وعكاظ سوق لقيس ومجنة وهي بفتح الميم أشهر من كسرها وبفتح الجيم وتشديد النون سوق لكنانة بمر الظهران وذو المجاز وهو بفتح الميم وبالزاي سوق لهذيل (فاذا أفضتم) دفعتم (من عرفات) وأصله أفضتم أنفسكم فحذف المفعول كما حذفوه من دفعوا من موضع كذا أي دفعوا أنفسهم واختلفوا في المعنى الذي لاجله سمي الموقف عرفات واليوم عرفة فقال عطاء كان جبريل عليه السلام يري ابراهيم

عليه الصلاة والسلام المناسك ويقول عرفت فيقول عرفت فسمي المكان لذلك عرفات واليوم عرفة وقال الضحاك كان آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط وقع في الهند وحواء بجدة فجعل كل واحد منهما يطلب صاحبه فاجتمعا بعرفات يوم عرفة فتعارفا فسمي المكان واليوم بما ذكر وقال السدى لما أذن ابراهيم في الناس بالحج وأجابوا بالتلبية وأتاه من أتاه أمره الله تعالى ان يخرج الى عرفات ونعتها له فلما بلغ الجمرة الاولى استقبله الشيطان يرده فرماه بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة فطار فوقع على الجمرة الثانية فرماه وكبر فطار ووقع على الجمرة الثالثة فرماه وكبر فلما رأى الشيطان انه لا يطيعه ذهب فانطلق ابراهيم حتى اتى ذا المجاز فلما نظر اليه لم يعرفه فجاز فسمي ذا المجاز ثم انطلق حتى وقف بعرفات فعرفها بالنعت فسمي المكان واليوم بما ذكر (فان قيل) هلا منعت الصرف وفيها السببان العلمية والتأنيث (أجيب) بأن التأنيث لا يخلو اما أن يكون بالتاء التي في لفظها واما بتاء مقدرة كما في سعاد فالتي في لفظها ليست للتأنيث وانما هي مع الالف التي قبلها علامة جمع التأنيث ولا يصح تقدير التاء فيها لان هذه التاء لاختصاصها بجمع المؤنث مانعة من تقديرها كما لا تقدر تاء التأنيث في بنت لان التاء التي فيها هي بدل من الواو ولاختصاصها بالمؤنث كتاء التأنيث فأبت تقديرها وفي الآية دليل على وجوب الوقوف بعرفة لان اذا تدل على ان المذكور بعدها محقق لا بد منه فكأنه قيل بعدا فاضتكم من عرفات التي لا بد منها اذكروا الله والافاضة من عرفات لا تكون الا بعد الوقوف بها فوجب أن يكون الوقوف بها واجبا وعن النبي صلى الله عليه وسلم الحج عرفة فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج (فاذكروا الله) بالتلبية والتهليل والتكبير والثناء والدعوات وقيل بصلاة المغرب والعشاء (عند المشعر الحرام) وهو جبل في آخر المزدلفة يقال له قزح وفي الحديث انه صلى الله عليه وسلم وقف به يذكر الله تعالى ويدعو حتى أسفر جدا رواه مسلم وقال جابر دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد واقامتين ولم يسبح بينهما شيأ ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذان واقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام استقبل القبلة فدعا وكبر وهلل ووحد ولم يزل واقفا حتى أصبح جدا وقوله تعالى عند المشعر الحرام معناه مما يلي المشعر الحرام قريبا منه وذلك للفضل كالقرب من جبل الرحمة والا فالمزدلفة كلها موقف الا وادى محسر ويسمى مشعرا من الشعار وهي العلامة لانه من معالم الحج ووصف بالحرام لحرمته وتسمى المزدلفة جمعا لانه يجمع فيها بين صلاتي المغرب والعشاء وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انه نظر الى الناس ليلة جمع فقال لقد أدركت الناس هذه الليلة لا ينامون وقيل سميت جمعا لان آدم اجتمع فيها مع حواء عليهما الصلاة والسلام وازدلف اليها أى دنا منها وقيل وصفت بفعل أهلها لانهم يزدلفون الى الله تعالى أى يتقربون بالوقوف فيها (واذكروه كما هداكم) لمعالم دينه ومناسك حجه والكاف للتعليل (وان كنتم من قبله) أى الهدى (لمن الضالين) أى الجاهلين بالايمان والطاعة وان هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة وقيل ان هي النافية واللام بمعنى الا كقوله تعالى وان نظنك لمن الكاذبين أى ما نظنك الا من

الكاذبين (ثم أفيضوا) يا قريش (من حيث أفاض الناس) وذلك أنهم وحلفاءهم ومن دان بدينهم وهم الحمس كانوا يقفون بالمزدلفة وسائر الناس بعرفة ويرون ذلك ترفعا عليهم ويقولون نحن أهل الله وقطان حرمه ولا نخرج منه فأمروا أن يساووهم وثم للترتيب في الذكر وفي الكلام تقديم وتأخير تقديره فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام وقيل لتفاوت ما بين الافاضتين أي لتراخي الثانية عن الاولى رتبة اذ الاولى هي الصواب والثانية خطأ كما في قولك أحسن الى الناس ثم لا تحسن الى غير كريم فانك تأتي بثم لتفاوت ما بين الاحسان الى الكريم والى غيره وبعد ما بينهما وقيل ثم بمعنى الواو وكما في قوله تعالى ثم كان من الذين آمنوا (واستغفروا الله) من ذنوبكم في تغيير المناسك ونحوه (ان الله غفور رحيم) يغفر ذنوب المستغفر وينعم عليه (فاذا قضيتم) أي أديتم (مناسككم) أي عبادات حجكم كان رميتم جمرة العقبة وطفتم واستقررتم بمنى وأدغم أبو عمرو الكاف في الكاف بخلاف عنه ولم يدغم مثلين من كلمة في القرآن الا هنا وفي سورة المدثر وهو قوله تعالى ما سلككم في سقر (فاذكروا الله) بالتكبير والتحميد والثناء عليه (كذكركم آباءكم) وذلك ان العرب كانت اذا فرغت من الحج وقفت بين المسجد بمنى وبين الجبل فيعدون فضائل آبائهم ويذكرون محاسن أيامهم فأمرهم الله تعالى بذكره وقال فاذكروني فانا الذي فعلت ذلك بكم وبآبائكم وأحسنت اليكم واليهم وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فاذكروا الله كذكر الصبيان الصغار الآباء وذلك ان الصبي أول ما يتكلم يلهج بذكر أبيه لا يذكر غيره فقال الله تعالى فاذكروا الله لا غير كذكر الصبي أباه (أو أشد ذكرا) من ذكركم آباءهم ونصب أشد على الحال المنصوب باذكروا اذ لو تأخر عنه لكان صفة له (فمن الناس من يقول ربنا آتنا) نصيبنا (في الدنيا) وهم المشركون كانوا لا يسألون الله تعالى في الحج الا الدنيا يقولون اللهم اعطنا غنما وابلا وبقرا وعبيدا وكان الرجل يقوم فيقول اللهم ان أبي كان عظيم القبة كبير الجفنة كثير المال فأعطني مثل ما أعطيته (وماله في الآخرة من خلاق) أي نصيب لان همه مقصور على الدنيا (ومنهم) أي الناس (من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) بعدم دخولها وهم المؤمنون واختلفوا في معنى الحسنتين فقال علي رضي الله تعالى عنه الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة والحسنة في الآخرة الجنة يدل له قوله صلى الله عليه وسلم الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة وروى عنه أيضا أنه قال الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة وفي الآخرة الحوراء وعذاب النار المرأة السوء وقال الحسن الحسنة في الدنيا العلم والعبادة والحسنة في الآخرة الجنة وقال السدي الحسنة في الدنيا الرزق الحلال والحسنة في الآخرة المغفرة والثواب وأدغم أبو عمرو اللام في الراء بخلاف عنه (أولئك) الداعون بالحسنتين (لهم نصيب) أي ثواب (مما كسبوا) أي من جنس ما كسبوا من الاعمال الحسنة أو من أجل ما كسبوا كقوله تعالى مما خطاياهم أغرقوا ويجوز أن يكون أولئك للفريقين جميعا وان لكل فريق نصيبا من جنس ما كسبوا (والله سريع الحساب)

أى اذا حاسب فحسابه سريع لا يحتاج الى عقد يد ولا وعى صدر ولا روية وفكر قال الحسن أسرع من لمح البصر وفى الحديث يحاسب الخلق كلهم فى قدر نصف نهار من أيام الدنيا (واذكروا الله) أى كبروه أدبار الصلوات وعند ذبح القرابين ورمى الجمار وغيرها (فى أيام معدودات) أى ايام التشريق الثلاثة وسميت معدودات لقلتهن كقوله تعالى دراهم معدودة والايام المعلومات عشر ذى الحجة آخرهن يوم النحر والتكبير فى الايام المعدودات عقب كل صلاة ولو فائتة ونافلة مشروع فى حق الحاج وغيره لكن غير الحاج يكبر من صبح يوم عرفة الى عقب عصر آخر أيام التشريق للاتباع رواه الحاكم وصحح اسناده وأما الحاج فيكبر من ظهر يوم النحر لانها اول صلاته بمنى ولا يسن التكبير عقب صلاة عيد الفطر لعدم وروده (فمن تعجل) أى استعجل بالنفر من منى (فى يومين) أى فى ثانى أيام التشريق بعد رمى جماره بعد الزوال عند الشافعى وأصحابه قال فى الكشاف وعند أبى حنيفة وأصحابه ينفر قبل طلوع الفجر (فلا اثم عليه) بالتعجيل (ومن تأخر) حتى بات ليلة الثالث ورمى جماره بعد زواله عندنا وقال فى الكشاف يجوز تقديم الرمى على الزوال عند أبى حنيفة (فلا اثم عليه) بذلك أى هم مخيرون فى ذلك (فان قيل) أليس التأخير أفضل (أجيب) بأن التخيير يقع بين الفاضل والافضل كما خير المسافر بين الصوم والافطار وان كان الصوم أفضل عند عدم المشقة وقيل ان أهل الجاهلية كانوا فريقين منهم من جعل المتعجل آثما ومنهم من جعل المتأخر آثما فورد القرآن بنفى الاثم عنهما جميعا وذلك التخيير ونفى الاثم عن المتعجل والمتأخر (لمن اتقى) الله تعالى فى حجه لانه الحاج على الحقيقة عند الله تعالى وقال النبى صلى الله عليه وسلم من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه (واتقوا الله) فى مجامع أموركم ليعبأ بكم (واعلموا أنكم اليه تحشرون) فى الآخرة فيجازيكم بأعمالكم (ومن الناس من يعجبك قوله) أى يعظم فى نفسك ومنه الشئ العجيب الذى يعظم فى النفس وهو الاخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة واسمه أبى وسمى الاخنس لانه خنس يوم بدر بثلثمائة رجل من بنى زهرة عن القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان منافقا حلو المنظر حلو الكلام للنبى صلى الله عليه وسلم يحلف انه مؤمن به ومحب له ويقول يعلم الله انى صادق وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنى مجلسه وقوله تعالى (فى الحياة الدنيا) متعلق بالقول أى يعجبك ما يقوله فى أمور الدنيا وأسباب المعاش أو فى معنى الدنيا لان ادعاءه المحبة بالباطل يطلب به حظا من حظوظ الدنيا ولا يريد به الآخرة كما يراد بالايمان الحقيقى والمحبة الصادقة للرسول صلى الله عليه وسلم فكلامه اذا فى الدنيا لا فى الآخرة أو يعجبك قوله فى الحياة الدنيا حلاوة وفصاحة ولا يعجبك فى الآخرة لما يرهقه فى الموقف من الدهشة واللكنة أو لانه لا يؤذن له فى الكلام فلا يتكلم حتى يعجبك كلامه (ويشهد الله على ما فى قلبه) أنه موافق لكلامه (وهو ألد الخصام) أى شديد الخصومة لك ولاتباعك لعداوته لك وقال الحسن ألد الخصام أى كاذب القول وقال قتادة شديد القسوة فى المعصية جدل بالباطل يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة وفى الحديث ان أبغض الرجال الى الله الالد الخصم (واذا تولى)

أى انصرف عنك بعد الانة القول وحلاوة المنطق (سعى) أى مشى (فى الارض ليفسد فيها) قال ابن جرير بقطع الرحم وسفك دماء المسلمين (ويهلك الحرث والنسل) وذلك ان الاخنس كان بينه وبين ثقيف خصومة فبيتهم ليلا فاحرق زرعهم وأهلك مواشيهم وقيل واذا كان واليا فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد فى الارض باهلاك الحرث والنسل وقيل يظهر الظلم حتى يمنع الله تعالى بشؤم ظلمه القطر فيهلك الحرث والنسل وحكى الزجاج عن قوم ان الحرث النساء والنسل الاولاد قال وهذا ليس بمنكر لان المرأة تسمى حرثا أى ويدل له قوله تعالى فأتوا حرثكم أنى شئتم (والله لا يحب الفساد) أى لا يرضى به لان المحبة وهى ميل القلب محالة فى حقه تعالى فهى مستعملة فى حقه تعالى فى معنى الرضا (واذا قيل له اتق الله) فى فعلك (أخذته العزة) أى حملته الانفة والحمية على العمل (بالاثم) الذى يؤمر باتقائه (فحسبه) أى كافيه (جهنم) جزاء وعذابا وهى علم لدار العقاب وهو فى الاصل مرادف للنار وسميت بذلك لبعد قعرها وأصلها من الجهم وهو الكراهة والغلظ فالنون زائدة وقيل معرب نقل من العجمية الى العربية وتصرف فيه وأصله كهنام أبدلت الكاف جيما وأسقطت الالف وقوله تعالى (ولبئس المهاد) جواب قسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف للعلم به تقديره جهنم والمهاد الفراش (ومن الناس من يشرى) أى يبيع (نفسه) أى يبذلها فى الجهاد أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل (ابتغاء مرضاة الله) أى طلبا لرضاه وقال أكثر المفسرين نزلت فى صهيب بن سنان الرومى أخذه المشركون فى رهط من المؤمنين فعذبوهم فقال لهم انى شيخ كبير لا يضركم أمنكم كنت أم من غيركم فهل لكم أن تأخذوا مالى وتذرونى ودينى ففعلوا وكان شرط عليهم راحلة ونفقة فاقام بمكة ماشاء الله ثم خرج الى المدينة فتلقاه أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما فى رجال فقال له أبو بكر ربح بيعك أبا يحيى فقال وماذاك فقال أنزل الله فيك قرآنا وقرأ عليه هذه الآية فعلى هذا يكون يشرى بمعنى يشترى لا بمعنى يبيع ويبذل وقيل نزلت فى الزبير والمقداد بن الاسود وذلك ان كفار قريش بعثوا الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة انا قد اسلمنا فابعث الينا نفرا من علماء أصحابك يعلمونا دينك وكان ذلك مكرا منهم فبعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو هريرة عشرة ومن جملتهم خبيب فقتلوهم وأسروا خبيبا قال آسره والله ما رأيت أسيرا خيرا من خبيب والله وجدته يوما يأكل قطفا من عنب فى يده وانه لموثوق بالحديد وما بمكة من ثمرة ان كان الا رزقا رزقه الله خبيبا ثم أرادوا قتله فخرجوا به من الحرم ليقتلوه فى الحل وأرادوا أن يصلبوه فقال دعونى أصلى ركعتين فتركوه حتى صلاهما ثم قال لولا أخشى أن تحسبوا ان ما بى من جزع لزدت اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا ثم انشأ يقول

ولست أبالى حين أقتل مسلما * على أى شق كان فى الله مصرعى

وذلك فى ذات الاله وان يشأ * يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم صلبوه حيا فقال اللهم انك تعلم انه ليس أحد حولى يبلغ سلامى رسولك فأبلغه سلامى ثم قام عقبة بن الحرث فقتله فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم هذا الخبر قال أيكم ينزل خبيبا عن خشبته

وله الجنة فقال الزبير أنا يارسول الله وصاحبي المقداد فخرجا يسيران بالليل ويكمنان بالنهار حتى وصلا اليه ليلا واذا حول الخشبة أربعون من المشركين نيام فأنزله الزبير وحمله على فرسه وسارا فاتبعه الكفار فلم يجدوه فأخبروا قريشا فركب منهم سبعون فلما لقوهما قذف الزبير خبيبا فابتلعته الارض فسمي بليع الارض ثم رفع الزبير العمامة عن رأسه وقال انا الزبير بن العوام وأمي صفية بنت عبد المطلب وصاحبي المقداد بن الاسود فان شئتم ناضلتكم وان شئتم نازلتكم وان شئتم انصرفتم فانصرفوا الى مكة وقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عنده فقال يا محمد ان الملائكة لتتباهى بهذين من أصحابك فنزلت فيهما هذه الآية (والله رؤف بالعباد) حيث أرشدهم لما فيه رضاه ونزل في مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم) أي الاسلام وقوله تعالى (كافة) حال من السلم لانها تؤنث كما تؤنث الحرب كما قال القائل

أبا خراشة أما أنت ذا نفر * فان قومي لم تأكلهم الضبع
في السلم تأخذ منا ما رضيت به * والحرب تكفيك من أنفاسها جرع

أي ادخلوا في جميع شرائعه وذلك انهم كانوا يعظمون السبت ويكرهون لحوم الابل وألبانها بعد ما أسلموا فأمروا أن يدخلوا في جميع شرائعه (ولا تتبعوا خطوات) أي طرق (الشيطان) أي تزيينه من تحريم السبت ولحوم الابل وألبانها وقرأ نافع وابن كثير والكسائي السلم بفتح السين والباقون بكسرها وتقدم الكلام في خطوات لابن عامر وقنبل وحفص والكسائي بضم الطاء (انه لكم عدو مبين) ظاهر العداوة (فان زللتم) أي ملتم عن الدخول في جميعه (من بعد ما جاءتكم البينات) أي الحجج الظاهرة انه حق (فاعلموا ان الله عزيز) لا يعجزه شيء عن انتقامه منكم (حكيم) في صنعه * (تنبيه) * قول البيضاوي حكيم لا ينتقم الا بحق تبع فيه الزمخشري وهو مذهب المعتزلة فانهم يقولون لا ينتقم الا بقدر ما يستحقه العاصي ومذهب أهل السنة انه ينتقم ويعاقب من شاء بما شاء وان كان مطيعا اذ هو متصرف في ملكه يفعل ما يشاء بمن شاء وان لم يقع منه الانتقام الا عن أسباء وروى أن قارئا قرأ غفور رحيم بدل عزيز حكيم فسمعه اعرابي لم يقرأ القرآن فأنكره وقال ان كان هذا كلام الله فلا يذكر الغفران عند الزلل لانه اغراء عليه قوله تعالى (هل ينظرون) استفهام في معنى النفي أي ما ينظرون (الا أن يأتيهم الله) أي أمره أو بأسه كقوله تعالى أو يأتي أمر ربك أي عذابه وقوله تعالى فجاءهم بأسنا أو يأتيهم الله ببأسه فحذف المأتي به للدلالة عليه بقوله تعالى ان الله عزيز حكيم (في ظلل) جمع ظلة وهي ما أظلك (من الغمام) أي من السحاب الابيض سمي غماما لانه يغم أي يستر وانما يأتيهم العذاب فيه لانه مظنة الرحمة وهي نزول المطر فاذا جاء منه العذاب كان افظع لان الشر اذا جاء من حيث لا يحتسب كان اصعب فكيف اذا جاء من حيث يحتسب الخير (و) تأتيهم (الملائكة) فانهم الواسطة في اتيان أمره أو الآتون على الحقيقة بيأسه قال البغوي والاولى في هذه الآية وفيما شاكلها أن يؤمن الانسان بظاهرها ويكل علمها الى الله تعالى ويعتقد أن الله تعالى منزه عن

سمات الحوادث وعلى ذلك مضت ائمة السلف وعلماء السنة انتهى وأما أئمة الخلف فانهم يؤولون هذه الآية بنحو ما أولنا به وأمثالها بحسب المقام وهو احكم ومذهب السلف اسلم وكان مكحول ومالك والليث وأحمد يقولون فى هذا وامثاله أمروها كما جاءت بلا كيف (وقضى الامر) أى تم أمر هلاكهم وفرغ منهم ووضع الماضى موضع المستقبل لدنوه وتيقن وقوعه (والى الله ترجع الامور) فى الآخرة فيجازيهم وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح التاء وكسر الجيم والباقون بضم التاء وفتح الجيم وقوله تعالى (سل) أمر للرسول أو لكل أحد (بنى اسرائيل) توبيخا (كم آتيناهم) كم استفهامية معلقة سل عن المفعول الثانى وهى ثانى مفعولى آتيناهم ومميزها (من آية) أى معجزة (بينة) أى ظاهرة فى الدلالة على صدق من جاء بها كقلب العصا حية وابراء الاكمه والابرص وفلق البحر وانزال المن والسلوى فبدلوها كفرا (ومن يبدل نعمة الله) أى ما أنعم به عليه من الآيات لانها سبب الهداية التى هى أجل النعم كفرا (من بعد ما جاءته) أى وصلته وتمكن من معرفتها (فان الله شديد العقاب) فيعاقبه أشد عقوبة لانه ارتكب أشد جريمة وهى التبديل (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) أى حسنت فى أعينهم وأشربت محبتها فى قلوبهم حتى تهالكوا عليها وأعرضوا عن غيرها والمزين فى الحقيقة هو الله تعالى اذ ما من شئ الا وهو فاعله وكل من الشيطان والقوة الحيوانية وما خلق الله فيها من الامور البهيمية والاشياء الشهية مزين بالعرض واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقيل نزلت فى مشركى العرب أبى جهل وأصحابه وكانوا يتنعمون بما بسط لهم فى الدنيا من المال ويكذبون بالمعاد (ويسخرون من الذين آمنوا) أى يستهزؤن بالفقراء من المؤمنين قال ابن عباس أراد بالذين آمنوا عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وصهيبا وبلالا وخبابا وأمثالهم وقال قتادة نزلت فى المنافقين عبد الله بن أبى وأصحابه كانوا يتنعمون فى الدنيا ويسخرون من ضعفاء المؤمنين وفقراء المهاجرين ويقولون انظروا الى هؤلاء الذين يزعم محمد انه يغلب بهم وقال عطاء نزلت فى رؤساء اليهود من بنى قريظة والنضير وقينقاع سخروا من فقراء المهاجرين فوعدهم الله أن يعطيهم أموال بنى قريظة والنضير بغير قتال (والذين اتقوا) أى الشرك وهم هؤلاء الفقراء (فوقهم يوم القيامة) لانهم فى أعلى عليين وهم فى أسفل السافلين أو حالهم عالية لحالهم لانهم فى كرامة وهم فى هوان أو هم غالبون عليهم متطاولون يضحكون منهم كما تطاول هؤلاء عليهم فى الدنيا ويرون الفضل لهم عليهم قال فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون روى عن اسامة بن زيد انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقفت على باب الجنة فرأيت أكثر أهلها المساكين ووقفت على باب النار فرأيت أكثر أهلها النساء واذا أهل الجد محبوسون الا من كان منهم من أهل النار فقد أمر به الى النار وروى عن سهل بن سعد الساعدى انه قال مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لرجل عنده جالس ما رأيك فى هذا قال رجل من أشراف الناس هذا والله حرى ان خطب أن ينكح وان شفع أن يشفع قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مر رجل آخر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأيك فى هذا فقال يا رسول

الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حرى أى حقيق ان خطب أن لا ينكح وان شفع ان لا يشفع وان قال أن لا يسمع لقوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا خير من ملء الارض من مثل هذا (والله يرزق من يشاء) فى الدارين (بغير حساب) أى رزقا واسعا بغير تقدير فى الدنيا للكافر استدراجا كما وسع على قارون وللمؤمن ابتلاء كما وسع على عبد الرحمن بن عوف وفى الآخرة للمؤمن خاصة تفضلا (كان الناس أمة واحدة) أى متفقين على الحق روى عن أبى العالية عن كعب قال كان الناس حين عرضوا على آدم وأخرجوا من ظهره وأقروا بالعبودية أمة واحدة مسلمين ولم يكونوا أمة واحدة قط غير ذلك اليوم ثم اختلفوا بعد آدم وقال الكلبى هم أهل سفينة نوح كانوا مؤمنين ثم اختلفوا بعد وفاة نوح وقال قتادة وعكرمة كان الناس من وقت آدم الى مبعث نوح وكان بينهما عشرة قرون كلهم على شريعة واحدة من الحق والهدى ثم اختلفوا فى زمن نوح وقال مجاهد أراد آدم وحده كان أمة واحدة سمى الواحد بلفظ الجمع لانه أصل النسل وأبو البشر ثم خلق الله حواء ونشر منهما الناس فكانوا مسلمين الى أن قتل قابيل وهابيل فاختلفوا وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال كان الناس على عهد ابراهيم عليه الصلاة والسلام أمة واحدة كافرين كلهم فبعث الله ابراهيم وغيره من النبيين عليهم السلام كما قال تعالى (فبعث الله النبيين) أى اختلفوا فبعث الله وانما حذف لدلالة فيما اختلفوا فيه عليه وجملة الانبياء كما رواه الامام أحمد مرفوعا فى حديث وردعن كعب مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا والرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر والمذكور منهم فى القرآن باسمه العلم الموضوع له ثمانية وعشرون نبيا وهم آدم وادريس ونوح وهود وصالح وابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب ويوسف ولوط وموسى وهرون وشعيب وزكريا ويحيى وعيسى وداود وسليمان والياس واليسع وذو الكفل وأيوب ويونس ومحمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين وذو القرنين وعزير ولقمان على القول بنبوة الثلاثة (مبشرين) من آمن وأطاع بالجنة (ومنذرين) من كفر وعصى بالنار (وأنزل معهم الكتاب) المراد به الجنس فهو بمعنى الكتب لكنه تعالى لم ينزل مع كل واحد كتابا يخصه فان أكثرهم لم يكن له كتاب يخصه وانما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم وقوله تعالى (بالحق) حال من الكتاب أى متلبسا بالحق شاهدا به (ليحكم بين الناس) أى الله أو الكتاب أو النبى المبعوث ورجح الثانى التفتازانى وقال لا بد فى عوده الى الله من تكلف فى المعنى أى ليظهر حكمه والى النبى من تكلف فى اللفظ حيث لم يقل ليحكموا ورجح أبو حيان الاول وهو الظاهر قال والمعنى أنه أنزل الكتاب ليفصل به بين الناس ونسبة الحكم الى الكتاب مجاز كما أن اسناد النطق اليه فى قوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق كذلك (فيما اختلفوا فيه) من الدين (وما اختلف فيه) أى الدين (الا الذين أوتوه) أى الكتاب المنزل لازالة الخلاف أى عكسوا الامر فجعلوا ما أنزل مزيلا للاختلاف سببا لاستحكام الخلاف فآمن بعض وكفر بعض (من بعد ما جاءتهم البينات) أى الحجج الظاهرة على التوحيد

ومن متعلقة باختلف وهى ومابعدها مقدم على الاستثناء فى المعنى (بغيا) من الكافرين (بينهم) حسدا وظلما لحرصهم على الدنيا (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه) وقوله تعالى (من الحق) بيان لما اختلفوا فيه أى فهدى الله الذين آمنوا للحق الذى اختلف فيه من اختلف (باذنه) أى بارادته قال ابن دريد فى هذه الآية اختلفوا فى القبلة فمنهم من يصلى الى المشرق ومنهم من يصلى الى المغرب ومنهم من يصلى الى بيت المقدس فهدانا الله للكعبة واختلفوا فى الصيام فهدانا الله لشهر رمضان واختلفوا فى الايام فأخذت اليهود السبت والنصارى الاحد فهدانا الله للجمعة واختلفوا فى ابراهيم فقالت اليهود كان يهوديا وقالت النصارى كان نصرانيا فهدانا الله للحق من ذلك واختلفوا فى عيسى فجعلته النصارى الها فهدانا الله للحق فيه (والله يهدى من يشاء) هدايته (الى صراط مستقيم) هو طريق الحق لا يضل سالكه (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل) أى شبه (الذين خلوا من قبلكم) من المؤمنين من المحن فتصبروا كما صبروا واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فقال قتادة نزلت فى غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد وشدة الخوف والبرد وضيق العيش وأنواع الاذى كما قال تعالى وبلغت القلوب الحناجر وقال عطاء لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة اشتد عليهم الامر لانهم خرجوا بلا مال وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدى المشركين وآثروا رضا الله ورسوله وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأسر قوم النفاق فأنزل الله تعالى هذه الآية تطمينا لقلوبهم وقيل نزلت فى حرب أحد واختلف فى معنى أم فقال الفراء الميم صلة أى أحسبتم وقال الزجاج هى بمعنى بل أى بل حسبتم ولما بمعنى لم أى ولم يأتكم وقوله تعالى (مستهم البأساء) أى شدة الفقر (والضراء) أى المرض والجزع جملة مستأنفة مبينة لما قبلها (وزلزلوا) أى أزعجوا ازعاجا شديدا بما أصابهم من الشدائد (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه) لتناهى الشدة واستطالة المدة بحيث تقطعت حبال الصبر (متى) يأتى (نصر الله) الذى وعدناه استطالة لتأخره فأجيبوا من قبل الله (ألا ان نصر الله قريب) اتيانه وفى هذا اشارة الى أن الوصول الى الله تعالى والفوز بالكرامة عنده برفض الهوى واللذات ومكابدة الشدائد والرياضات كما قال عليه الصلاة والسلام كما رواه الشيخان وغيرهما حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وفى رواية لهم حجبت أى جعلت المكاره حجابا دون الجنة فمن خرقه دخلها والشهوات حجابا دون النار فمن اقتحمه دخلها وقرأ نافع يقول بالرفع على أنها حكاية حال ماضية وفائدتها تصور تلك الحال العجيبة واستحضار صورتها فى مشاهدة السامع ليتعجب منها وقرأ الباقون بالنصب (يسئلونك) يا محمد (ماذا) أى الذى (ينفقون) والسائل كما قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عمرو بن الجموح الانصارى وكان شيخا فانيا ذا مال عظيم فقال يا رسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها فنزل (قل) لهم (ما أنفقتم من خير) أى مال قليلا كان أو كثيرا (فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) أى هم أولى به سأل عن المنفق فأجيب ببيان المصرف لانه أهم فان اعتداد النفقة باعتباره ولانه كان فى سؤال

عمرو وان لم يكن مذكورا فى الآية واقتصر فى بيان المنفق على ماتضمنه قوله ما انفقتم من خير (وماتفعلوا من خير) انفاق وغيره (فان الله به عليم) فيجازيكم به *(تنبيه)* ليس فى الآية ما ينافى فرض الزكاة لينسخ به كما قيل لان الزكاة لاتعطى للوالدين ولا للاقربين من الاولاد وأولاد الاولاد فالآية محمولة على الانفاق على من ذكر تطوعا أو على الانفاق على الفقراء من الوالدين والاولاد وأولاد الاولاد وذلك ليس بمنسوخ (كتب) أى فرض (عليكم القتال) للكفار (وهو كره) أى مكروه (لكم) طبعا للمشقة (وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم) وهو جميع ما كلفتم به فانه الموجب لسعادتكم فلعل لكم فى القتال وان كرهتموه خيرا لان فيه اما الظفر والغنيمة واما الشهادة والاجر (وعسى أن تحبوا شيأ وهو شر لكم) وهو جميع مانهيتم عنه فان النفس تحبه وتهواه وهو يهوى بها الى الردى فنى ترك القتال وان أحببتموه شر لان فيه الذل والفقر وحرمان الاجر واعاذكر عسى لان النفس اذا ارتاضت ينعكس الامر عليها (والله يعلم) ماهو خير لكم (وأنتم لاتعلمون) ذلك فبادروا الى ما يأمركم به (يسئلونك) يامحمد (عن الشهر الحرام) المحرم روى أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش ابن عمته على سرية فى جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين على رأس سبعة عشر شهرا من مقدمه المدينة ليترصد عيرا لقريش فيهم عمرو ابن عبد الله الحضرمى وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها التجارة من تجارة الطائف وكان ذلك غرة رجب وهم يظنونه جمادى الآخرة فقالت قريش قد استحل محمد الشهر الحرام الذى يأمن فيه الخائف ويتفرق فيه الناس الى معايشهم فسفك فيه الدماء وأخذ الاسارى وعير بذلك أهل مكة من كان بها من المسلمين وقالوا يامعشر الصباة استحللتم الشهر الحرام وقاتلتم فيه وشق ذلك على أصحاب السرية وقالوا مانبرح حتى تنزل توبتنا ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والاسارى وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنيمة وهى أول غنيمة فى الاسلام والسائلون هم المشركون كتبوا اليه تشنيعا وتعييرا وقيل أصحاب السرية قالوا يارسول الله انا قتلنا ابن الحضرمى ثم أمسينا فنظرنا الى هلال رجب فلاندرى أفى رجب أصبناه أم فى جمادى فأنزل الله تعالى هذه الآية وأكثر الاقاويل على أنها منسوخة بقوله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقوله تعالى (قتال فيه) بدل اشتمال من الشهر (قل) لهم (قتال فيه كبير) أى عظيم وزرا وقدتم الكلام ههنا ثم ابتدأ فقال (وصد) فهو مبتدأ أى منع الناس (عن سبيل الله) أى دينه (وكفر به) أى الله (و) صد عن (المسجد الحرام) أى مكة (واخراج أهله منه) وهم النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وخبر المبتدا وماعطف عليه (أكبر) أى أعظم وزرا (عند الله) مما فعلته السرية من قتل ابن الحضرمى فى الشهر الحرام خطأ أو بناء على الظن ومما تقرر علم أن والمسجد الحرام معطوف على سبيل الله وقول البيضاوى ولا يحسن عطفه على سبيل الله لان عطف قوله تعالى وكفر به على وصد مانع منه مجاب عنه بأن الكفر بالله والصد عن سبيله متحدان معنى فكأنه لافصل بالاجنبى بين سبيل الله وماعطف عليه ويصح أيضا أن يكون معطوفا على الهاء من به اذ يجوز العطف بدون اعادة الجار كما جرى

عليه ابن مالك وان كان مذهب البصريين خلافه وجرى عليه البيضاوي (والفتنة) أي الشرك منكم (أكبر من القتل) لكم فيه فلما نزلت هذه الآية كتب عبد الله بن أنيس الى مؤمني مكة اذا عيركم المشركون بالقتال في الشهر الحرام فعيروهم أنتم بالكفر واخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من مكة ومنعهم المسلمين عن البيت (ولا يزالون) أي الكفار (يقاتلونكم) أيها المؤمنون (حتى يردوكم عن دينكم) الى الكفر في ذلك اخبار عن دوام عداوة الكفار لهم وانهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم وحتى للتعليل لا للغاية كما قيل لانه أفيد من حيث ان فيه ذكر الحامل على المقاتلة بخلاف الغاية أي يقاتلونكم كي يردوكم وقوله تعالى (ان استطاعوا) فيه استبعاد لاستطاعتهم كقول الرجل لعدوه ان ظفرت بي فلا تبق على وهو واثق بأنه لا يظفر به (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت) أي بطلت (أعمالهم) أي الصالحة (في الدنيا والآخرة) فلا اعتداد بها ولا ثواب عليها والتقييد بالموت يفيد أنه لو رجع الى الاسلام لم يبطل عمله كما هو مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه خلافا لابي حنيفة رضي الله تعالى عنه حيث قال ان الردة تحبط الاعمال مطلقا لقوله تعالى ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله (وأجيب) بأنه محمول على المقيد عملا بالدليلين فلا يجب عليه أن يعيد الحج الذي أتى به قبل الردة وكذا غيره لكن يبطل ثوابه كما نص عليه الشافعي رضي الله تعالى عنه وان خالف فيه بعض المتأخرين (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) كسائر الكفرة ولما ظن السرية أنهم ان سلموا من الاثم فلا يحصل لهم أجر أنزل الله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هاجروا) أي فارقوا عشائرهم ومنازلهم وأموالهم (وجاهدوا) المشركين (في سبيل الله) لاعلاء دينه وكرر سبحانه وتعالى الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد وكأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء (أولئك يرجون رحمة الله) أي ثوابه أثبت لهم الرجاء اشعارا بان العمل غير موجب ولا قاطع في الدلالة سيما والعبرة بالخواتيم (والله غفور) للمؤمنين لما فعلوه خطأ وقلة احتياط (رحيم) بهم بأن يجزل لهم الاجر والثواب (يسئلونك عن الخمر والميسر) روى أنه لما نزل بمكة قوله تعالى ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا كان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال يومئذ ثم ان عمر ومعاذا في نفر من الصحابة قالوا أفتنا في الخمر يا رسول الله فانها مذهبة للعقل فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون ثم ان عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما فدعا ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا فحضرت صلاة المغرب فقدموا بعضهم ليصلي بهم فقرأ قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون هكذا الى آخر السورة بحذف لا فأنزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون فحرم السكر في أوقات الصلاة فتركها قوم وقالوا لا خير في شئ يحول بيننا وبين الصلاة وتركها قوم في أوقات الصلاة وشربوها في غير وقتها حتى كان الرجل يشرب بعد صلاة العشاء فيصبح وقد زال عنه السكر ويشرب بعد صلاة الصبح فيصحو اذا جاء وقت الظهر ثم ان عتبان بن مالك صنع طعاما ودعا رجالا من المسلمين فيهم سعد بن أبي وقاص رضي الله

تعالى عنه وقد كان شوى لهم رأس بعير فأكلوا منه وشربوا الخمر حتى اشتدت فيهم ثم افتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الاشعار فأنشد سعد قصيدة فيها هجاء للانصار وفخر لقومه فأخذ رجل من الانصار لحى البعير فضرب به رأس سعد فشجه موضحة فانطلق سعد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا له الانصارى فقال عمر اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزل انما الخمر والميسر الى قوله فهل أنتم منتهون فقال عمر رضى الله تعالى عنه انتهينا يارب قال القفال الحكمة فى وقوع التحريم على هذا الترتيب ان القوم كانوا ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم به كثيرا فعلم أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق عليهم فاستعمل فى التحريم هذا التدريج والرفق وسمى عصير العنب والتمر اذا اشتد وغلا خمرا لانه يخمر العقل كما سمى سكرا لانه يسكره أى يحجزه وهو حرام مطلقا وكذا كل ما أسكر عند أكثر العلماء وقال أبو حنيفة نقيع الزبيب والتمر اذا طبخ حتى ذهب ثلثاه ثم اشتد حل شربه مادون السكر وسمى القمار ميسرا لانه أخذ مال الغير بيسر والمعنى يسئلونك عن تعاطيهما لقوله تعالى (قل) لهم (فيهما) أى فى تعاطيهما (اثم كبير) أى عظيم لما يحصل بسببهما من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش وقرأ حمزة والكسائى بالثاء المثلثة والباقون بالباء الموحدة (ومنافع للناس) باللذات والفرح ومصادقة الفتيان وتشجيع الجبان وتوفر المروأة وتقوية الطبيعة فى الخمر واصابة المال بلا كد فى الميسر (واثمهما) أى ما ينشأ عنهما من المفاسد (أكبر) أى أعظم (من نفعهما) المتوقع منهما ولذا قيل ان هذا هو المحرم للخمر فان المفسدة اذا ترجحت على المصلحة اقتضت تحريم الفعل والظاهر أن المحرم لها آية المائدة كما مر (ويسئلونك) يا محمد (ماذا ينفقون) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حثهم على الصدقة فقالوا ماذا ننفق فقال الله تعالى (قل) لهم (العفو) قرأ أبو عمرو برفع الواو بتقدير هو والباقون بنصبها بتقدير انفقوا واختلفوا فى معنى العفو وهو نقيض الجهد فقيل ان ينفق مالا يبلغ انفاقه منه الجهد واستفراغ الوسع كما قال الشاعر

خذى العفو منى تستديمى مودتى ٭ ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب

وسورة الغضب شدته وحدته وقال قتادة وعطاء والسدى هو ما فضل عن الحاجة وكانت الصحابة رضى الله تعالى عنهم يكتسبون المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدقون بالفضل بحكم هذه الآية وقال مجاهد معناه التصدق عن ظهر غنى روى أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم ببيضة من ذهب أصابها فى بعض الغنائم فقال خذها منى صدقة فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم حتى كرر مرارا فقال هاتها مغضبا فأخذها فحذفه بها حذفا لو أصابه لشجه ثم قال يأتى أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس انما الصدقة عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول قال ابن الاثير والظهر قد يزاد فى مثل هذا اشباعا للكلام وتمكينا كأن صدقته مستندة الى ظهر قوى من المال وقال عمرو بن دينار الوسط من غير اسراف ولا اقتار كما قال تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (كذلك) كما بين لكم ما ذكر (يبين الله لكم الآيات) قال الزجاج انما قال كذلك على

الواحد

الواحد وهو مخاطب جماعة لان الجماعة معناها القبيل كأنه قيل كذلك أيها القبيل وقيل هو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لان خطابه يشتمل على خطاب الامة كقوله تعالى يا أيها النبي اذا طلقتم النساء (لعلكم تتفكرون في) زوال (الدنيا) وفنائها فتزهدوا فيها (و) في اقبال (الآخرة) وبقائها فترغبوا فيها (ويسئلونك) يا محمد (عن اليتامى) وقد مر أنهم جمع يتيم وان اليتيم طفل لا أب له قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما نزل قوله تعالى ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن وقوله ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما الآية تحرج المسلمون من اموال اليتامى تحرجا شديدا فان واكلوهم يأثموا وان عزلوا مالهم من مالهم وصنعوا لهم طعاما وحدهم فخرج فاشتد ذلك عليهم فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى (قل اصلاح لهم) أي اليتامى في أموالهم بتنميتها ومداخلتكم معهم (خير) من مجانبتكم (وان تخالطوهم) أي تخالطوا نفقتهم بنفقتكم (فاخوانكم) أي فهم اخوانكم في الدين ومن شأن الاخ أن يخالط أخاه أي فلكم ذلك وقيل المراد بالمخالطة المصاهرة (والله يعلم المفسد) لاموالهم بمخالطته (من المصلح) بها فيجازي كلا منهما ففي ذلك وعيد ووعد لمن خالطهم لافساد واصلاح (ولو شاء الله لاعنتكم) أي لضيق عليكم بتحريم المخالطة وما أباح لكم مخالطتهم وأصل العنت الشدة والمشقة ومعناه كلفكم في كل شئ ما يشق عليكم (ان الله عزيز) غالب على أمره يقدر على الاعنات وغيره (حكيم) يحكم بما تقتضيه الحكمة وتتسع له الطاقة (ولا تنكحوا) أي لا تتزوجوا أيها المسلمون (المشركات) أي الكافرات (حتى يؤمن) روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث مرثد بن أبي مرثد الغنوي الى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين سرا فلما قدمها سمعت به امرأة مشركة يقال لها عناق وكانت خليلته في الجاهلية فأتته وقالت يا مرثد ألا تخلو فقال لها ويحك يا عناق ان الاسلام قد حال بيننا وبينك فقالت هل لك أن تتزوج بي فقال نعم ولكن استأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رجع اليه قال يا رسول الله أيحل لي أن أتزوج بها فأنزلت هذه الآية هذا ما أورده الواحدي وغيره ولكن الذي رواه أبو داود وغيره انه سبب في نزول آية النور الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة الآية والآية وان كانت شاملة للكتابيات لكنها مخصوصة بغيرهن بقوله والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب وقد تزوج عثمان بنصرانية فأسلمت وتزوج حذيفة يهودية وطلحة بن عبيد الله بنصرانية (فان قيل) كيف أطلقتم اسم الشرك على من لم ينكر الا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قال أبو الحسن بن فارس لانه يقول القرآن كلام غير الله ومن يقول القرآن كلام غير الله فقد أشرك مع الله غير الله انتهى وقال تعالى وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله الى قوله سبحانه عما يشركون (ولامة مؤمنة خير من) أي من حرة (مشركة ولو أعجبتكم) لجمالها ومالها نزلت في خنساء وليدة سوداء كانت لحذيفة بن اليمان قال حذيفة يا خنساء قد ذكرت في الملا الاعلى على سوادك ودمامتك فأعتقها وتزوج بها وقال السدي نزلت في عبد الله بن رواحة كانت له أمة فأعتقها وتزوج بها فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا أتنكح أمة وعرضوا عليه

حرة مشركة فأنزل الله تعالى هذه الآية (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) أي ولا تزوجوا
منهم المؤمنات حتى يؤمنوا وهذا على عمومه باجماع (ولعبد مؤمن خير من) أي من حر
(مشرك ولو أعجبكم) لماله وجماله وقيل المراد بالامة والعبد المرأة والرجل حرين كانا
أو رقيقين لان الناس عبيد الله واماؤه (أولئك) أي أهل الشرك (يدعون الى النار) أي الى
الكفر المؤدي الى النار فلا تليق مصاهرتهم وموالاتهم (والله يدعو) أي أولياؤه المؤمنون
بحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه تفخيما لشأنهم أو يدعو على لسان رسله وهذا كما قال
أبو حيان أبلغ في التباعد من المشركين اجراء للفظ على ظاهره والاول ذكر لطلب المعادلة بين
المشركين والمؤمنين (الى الجنة والمغفرة) أي العمل الصالح الموصل اليها فهم الاحقاء بالمواصلة
(باذنه) أي بأمر الله ورضاه على التفسير الاول أو بقضائه وارادته على التفسير الثاني فتجب
اجابته بتزويج أوليائه (ويبين) أي الله (آياته للناس لعلهم يتذكرون) أي لكي يتذكروا
فيتعظوا (ويسئلونك) يا محمد (عن المحيض) أي الحيض أو مكانه ماذا يفعل بالنساء فيه روي
ان أهل الجاهلية كانوا لم يساكنوا الحيض ولم يؤاكلوهن كفعل اليهود فان اليهود كانت
اذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيت
واستمر ذلك الى أن سأل أبو الدحداح في نفر النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال الله تعالى
(قل) لهم (هو) أي الحيض أو مكانه (أذى) قذر أو محله قذر (فان قيل) لماذا ذكر الله تعالى يسئلونك
بغير واو ثلاثا ثم بها ثلاثا (أجيب) بأن السؤالات الاول كانت في أوقات متفرقة والثلاثة
الاخيرة كانت في وقت واحد فلذلك ذكرها بحرف الجمع وهو واو العطف وهي الجمع في الحكم
لا الزمان (واعترض) هذا الجواب بأنه كان يجب على هذا أن تدخل الواو على اثنين من الثلاثة
الاخيرة لان العطف يكون في الثانية والثالثة منها (وأجيب) بأنهم لما سألوا عما كانوا ينفقون
فأجيبوا بمصرف النفقة أعادوا سؤالهم بالواو وما ينفقون فأجيبوا بالعفو ولما كان السؤال
الثاني عن مخالطة اليتامى في النفقة وهو مناسب لما قبله عطف بالواو ولما كان الثالث سؤالا
عن اعتزال الحيض كما تعتزل اليتامى فناسب ما قبله في الاعتزال عطف بالواو ولا كذلك
الثلاثة الاول اذ لا تعلق بينها (فاعتزلوا النساء) أي اتركوا وطأهن (في المحيض) أي وقته
أو مكانه لان ذلك هو الاقتصاد بين افراط اليهود وتفريط النصارى فانهم كانوا يجامعونهن
ولا يبالون بالحيض وما استدل به البيضاوي من قوله صلى الله عليه وسلم انما أمرتم أن تعتزلوا
مجامعتهن اذا حضن ولم تأمركم باخراجهن من البيوت كفعل الاعاجم قال شيخنا القاضي
زكريا لم أره بهذا اللفظ في بعض التفاسير لغيره وقوله تعالى (ولا تقربوهن) أي بالجماع (حتى
يطهرن) تأكيد للحكم وبيان لغايته وهو أن يغتسلن بعد الانقطاع ويدل عليه صريحا قراءة
شعبة وحمزة والكسائي بتشديد الطاء والهاء أي يتطهرن بمعنى يغتسلن والباقون بسكون
الطاء وضم الهاء مخففة والتزاما قوله تعالى (فاذا تطهرن فأتوهن) أي للجماع فانه يقتضي تأخر
جواز الاتيان عن الغسل وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه ان طهرت لاكثر الحيض وهو

عنده عشرة أيام جاز قربانها قبل الغسل (من حيث أمركم الله) بتجنبه فى الحيض وهو القبل ولا تعدوه الى غيره أما الملامسة فيما عدا ما بين السرة والركبة والمضاجعة معها قبل الغسل ولو قبل انقطاع الحيض فجائز قالت عائشة رضى الله تعالى عنها كان يأمرنى صلى الله عليه وسلم فأتزر فيباشرنى وأنا حائض وكان يخرج رأسه الى وهو معتكف فاغسله وأنا حائض وعن أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت حضت وأنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الخميلة فانسللت فخرجت منها فأخذت ثياب حيضتى فلبستها فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنفست قلت نعم فدعانى فأدخلنى معه فى الخميلة (ان الله يحب) أى يثيب ويكرم (التوابين) من الذنوب (ويحب المتطهرين) أى المتنزهين عن الفواحش والاقذار كمجامعة الحائض والاتيان فى غير القبل (نساؤكم حرث لكم) أى مزرع ومنبت للولد كالارض للنبات (فأتوا حرثكم) أى محله وهو القبل (أنى) أى كيف (شئتم) من قيام وقعود واضطجاع واقبال وادبار روى الشيخان ان اليهود كانوا يقولون من جامع امرأته من دبرها أى من خلفها فى قبلها جاء ولدها أحول فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية (وقدموا لانفسكم) من الاعمال الصالحة كالتسمية عند الجماع وطلب الولد أى ما يدخر لكم من الثواب (واتقوا الله) فى أمره ونهيه (واعلموا أنكم ملاقوه) بالبعث فتزودوا ما لا تفتضحون به فانه مجازيكم بأعمالكم (وبشر المؤمنين) بالكرامة والنعيم الدائم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينصحهم ويبشر من صدقه وامتثل أمره منهم وقوله تعالى (ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم) نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لما حلف أن لا ينفق على مسطح حين خاض فى حديث الافك لافترائه على عائشة رضى الله تعالى عنها أو فى عبد الله بن رواحة حين حلف أن لا يكلم ختنه أى زوج أخته بشير بن النعمان ولا يصلح بينه وبين أخته فالعرضة كل ما يعرض فيمنع عن الشىء أى لا تجعلوا الحلف سببا مانعا لكم من البر والتقوى يدعى أحدكم الى صلة رحم أو بر فيقول حلفت بالله أن لا أفعله فيعتل بيمينه فى ترك البر كما قال تعالى (أن تبروا) أى مخافة أن لا تبروا فهو فى موضع نصب مفعول من أجله وعند الكوفيين لئلا تبروا كقوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا أى لئلا تضلوا وقال أبو اسحق فى موضع رفع بالابتداء والخبر محذوف أى أن تبروا وتتقوا خير لكم وقيل التقدير فى أن تبروا فلما حذف حرف الجر نصب وقيل هو فى موضع جر بالحرف المحذوف (وتتقوا وتصلحوا بين الناس) فتكره اليمين على ذلك ويسن فيها الحنث ويكفر لما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من حلف بيمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير بخلافها على فعل البر ونحوه فهى طاعة (والله سميع) لاقوالكم (عليم) بأحوالكم (لا يؤاخذكم الله باللغو) الكائن (فى أيمانكم) واللغو كل مطروح من الكلام لا يعتد به واختلف أهل العلم فى اللغو فى اليمين المذكورة فى الآية فقال قوم هو ما سبق الى اللسان على عجلة لصلة كلام من غير عقد ولا قصد كقول القائل لا والله وبلى والله وكلا والله وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت لغو اليمين كقول الانسان

لا والله وبلى والله ورفعه بعضهم وبهذا قال الشافعي رضي الله عنه وقال قوم هو أن يحلف على شيء يرى أنه صادق ثم يتبين أنه خلاف ذلك وبه قال أبو حنيفة رضي الله عنه وقال زيد بن أسلم هو دعاء الرجل على نفسه كقول الانسان أعمى الله بصري اذا لم أفعل كذا وكذا فهذا اللغو لا يؤاخذ الله به قال تعالى ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير وقال تعالى ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) أي قصدتموه من الايمان اذا حنثتم (والله غفور) حيث لم يؤاخذكم باللغو (حليم) حيث لم يعجل بالمؤاخذة على يمين الجد تربصا للتوبة * (تنبيه) * اليمين لا ينعقد الا بالله العظيم أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته فاليمين بالله كأن يقول والذي أعبده والذي نفسي بيده وبأسمائه كأن يقول والله والرحمن وبصفاته كأن يقول وعزة الله وعظمة الله وجلال الله فاذا حلف بشيء من ذلك على أمر مستقبل ثم حنث وجبت عليه الكفارة وسيأتي بيانها ان شاء الله تعالى في سورة المائدة واذا حلف على أمر ماض أنه كان ولم يكن وهو عالم به حالة ما حلف فهي اليمين الغموس وهي من الكبائر ويجب بها الكفارة كما قاله الشافعي رضي الله تعالى عنه وقال بعض العلماء لا كفارة فيها كأكثر الكبائر وأما الحلف بغير ما ذكر كالحلف بالكعبة وبيت الله ونبي الله أو بأبيه ونحوه فلا يكون يمينا ولا تجب به الكفارة اذا حنث وهو يمين مكروه وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدرك عمر وهو يسير في ركب وهو يحلف بأبيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت (للذين يؤلون من نسائهم) أي يحلفون أن لا يجامعوهن والايلاء الحلف وتعديته بعلى ولكن لما ضمن هذا القسم معنى البعد عدي بمن قال قتادة كان الايلاء طلاقا لأهل الجاهلية وقال سعيد بن المسيب كان ذلك من ضرار أهل الجاهلية كان الرجل لا يحب المرأة ولا يريد أن يتزوجها غيره فيحلف أن لا يقربها أبدا فيتركها لا أيما ولا ذات بعل وكانوا عليه في ابتداء الاسلام فضرب الله لهم أجلا في الاسلام كما قال تعالى (تربص) أي انتظار (أربعة أشهر) أي لهم ولهن حق التثبت في هذه المدة فلا يطالب بفيئة ولا طلاق ولذا قال الشافعي رضي الله تعالى عنه لا ايلاء الا في أكثر من أربعة أشهر ويؤيده (فان فاؤا) أي رجعوا في المدة أو بعدها عن اليمين الى الوطء لأن الفيئة وعزم الطلاق مشروعان عقب الايلاء وحصول التربص فلا بد أن يكون مدخول الفاء واقعا بعدهما (فان الله غفور) لهم ما أتوه من ضرر المرأة بالحلف (رحيم) بهم (وان عزموا الطلاق) أي صمموا عليه بأن لم يفيؤا فليوقعوه (فان الله سميع) لقولهم (عليم) بعزمهم أي ليس لهم بعد تربص ما ذكر الا الفيئة أو الطلاق ففيه دليل على أنها لا تطلق بعد مضي المدة ما لم يطلقها زوجها لأنه شرط فيه العزم وقال فان الله سميع فدل على أنه يقتضي مسموعا والقول هو الذي يسمع وقال بعض العلماء اذا مضت أربعة أشهر يقع عليه طلقة بائنة وهو قول ابن عباس وأصحاب الرأي وقال سعيد بن المسيب والزهري يقع عليه طلقة واحدة رجعية ولو حلف أن لا يطأها أقل من أربعة أشهر لا يكون موليا بل حالفا اذا وطئها قبل مضي تلك المدة وجبت عليه كفارة يمين ان كان الحلف بالله ولا يختص الايلاء بالحلف

بالله

بالله تعالى فلو قال لزوجته ان وطئتك فعبدى حر او ضرتك طالق أو فله على عتق رقبة أو صوم أو صلاة فهو مول لان المولى من يلزمه أمر يمتنع بسببه من الوطء (والمطلقات يتربصن) ينتظرن (بأنفسهن) عن النكاح (ثلاثة قروء) تمضى من حين الطلاق جمع قرء بفتح القاف وضمها وهو يطلق للحيض لقوله عليه الصلاة والسلام كما رواه أبو داود وغيره دعى الصلاة أيام اقرائك وللطهر الفاصل بين حيضتين وهو المراد فى الآية لانه الدال على براءة الرحم لا الحيض كما قال به بعض العلماء لقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن أى وقت عدتهن والطلاق المشروع لا يكون فى الحيض وأما ما رواه أبو داود والترمذى وغيرهما من قوله صلى الله عليه وسلم طلاق الامة تطليقتان وعدتها حيضتان فلا يقاوم ما رواه البخارى فى قصة ابن عمر مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم ان شاء أمسك وان شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التى امر الله تعالى ان تطلق لها النساء أى بقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن (فان قيل) ما معنى ذكر الانفس فهلا قيل يتربصن ثلاثة قروء (أجيب) بأن فى ذكر الانفس تهييجا لهن على التربص وزيادة بعث لان فيه ما يستنكفن منه فيحملهن على أن يتربصن وذلك أن نفس النساء طوامح أى نواظر الى الرجال فأمرن أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص وكان القياس فى جمع قرء ان يذكر بصيغة القلة التى هى الاقراء ولكنهم يتوسعون فى ذلك فيستعملون كل واحد من البناءين مكان الآخر ألا ترى الى قوله بأنفسهن وما هى الا نفوس كثيرة قال البيضاوى ولعل الحكم لما عم المطلقات ذوات الاقراء تضمن معنى الكثرة فحسن بناء الكثرة ووجوب ذلك فى المدخول بهن أما غيرهن فلا عدة لهن لقوله تعالى وان طلقتموهن من قبل ان تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها وفى غير الآيسة والصغيرة فعدتهن ثلاثة اشهر والحوامل فعدتهن أن يضعن حملهن كما فى سورة الطلاق والاماء فعدتهن قرآن بالسنة (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن) من الولد ان كانت حاملا ومن الحيض ان كانت حائضا (ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر) قال البيضاوى ليس المراد تقييد نفى الحل بايمانهن بل التنبيه على أنه ينافى الايمان أى كماله وأن المؤمن لا يجترئ عليه ولا ينبغى له أن يفعل (وبعولتهن) أى أزواج المطلقات والبعولة جمع بعل والتاء لاحقة لتأنيث الجمع كالعمومة والخؤلة ويجوز أن يراد بالبعولة المصدر من قولك بعل حسن البعولة نعت به مبالغة كما فى رجل عدل أو أقيم مقام المضاف المحذوف أى وأهل بعولتهن (أحق بردهن) أى براجعتهن (فى ذلك) أى فى زمن التربص (فان قيل) كيف جعلوا أحق بالرجعة فكان للنساء حقا فيها (أجيب) بأن أفعل ههنا بمعنى الفاعل فان غير البعل لا حق له فى الرد فكأنه قيل وبعولتهن حقيقون بردهن وقيل انه على بابه للتفضيل أى أحق منهن بأنفسهن لو أبين الرد أو من آبائهن وسمى الزوج بعلا لقيامه بأمر زوجته وأصل البعل السيد والمالك (ان أرادوا) أى البعولة (اصلاحا) بالرجعة لا اضرار المرأة وليس المراد من هذا اشتراط قصد الاصلاح للرجعة بل التحريض عليه والمنع من قصد الضرار والصارف عن اعتبار مفهوم هذا الشرط الاجماع

(ولهنّ) على الازواج (مثل الذى) لهم (عليهنّ) من الحقوق (بالمعروف) شرعا من حسن العشرة وترك الضرر ونحو ذلك قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى معنى ذلك انى أحب أن أتزين لامرأتى كما تحب أن تتزين لى لهذه الآية وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انّ أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم (فان قيل) ما المراد بالمماثلة (أجيب) بأنّ المراد أنّ لهنّ حقوقا على الرجال مثل حقوقهم عليهنّ فى الوجوب واستحقاق المطالبة عليها لا فى الجنس اذ ليس الواجب على كل منهما من جنس ما وجب على الآخر فلو غسلت ثيابه أو خبزت له لم يلزمه أن يفعل مثل ذلك ولكن يقابلها بما يليق بالرجال (وللرجال عليهنّ درجة) أى فضيلة فى الحق لان المرأة تنال من الرجل من اللذة مثل ما ينال الرجل وله الفضيلة بقيامه عليها وانفاقه فى مصالحها ولان حقوقهم فى أنفسهنّ بالوطء والتمتع وحقوقهنّ المهر والكفاف وترك الضرار وقيل بصلاحيته للامامة والقضاء والشهادة وقيل بالجهاد وقيل بالميراث وقيل بالدية وقيل بالعقل (والله عزيز) فى ملكه قادر على الانتقام ممن خالف الاحكام (حكيم) فيما دبره لخلقه بشرعها لحكم ومصالح (الطلاق) أى التطليق كالسلام بمعنى التسليم اى الذى يراجع به (مرّتان) أى اثنتان روى عن عروة بن الزبير قال كان الناس فى الابتداء يطلقون من غير حصر ولا عدد كان الرجل يطلق امرأته فاذا قاربت انقضاء عدّتها راجعها ثم طلقها كذلك ثم راجعها بقصد مضارتها فنزلت هذه الآية وروى أبو داود وغيره أنه صلى الله عليه وسلم سئل أين الثالثة فقال صلى الله عليه وسلم أو تسريح باحسان (فامساك) أى فعليكم امساكهنّ اذا راجعتموهنّ بعد الطلقة الثانية (بمعروف) وهو كل ما يعرف فى الشرع من أداء حقوق النكاح وحسن الصحبة (أو تسريح باحسان) بالطلقة الثالثة أو بأن لا يراجعها حتى تبين منه * (تنبيه) * اختلف العلماء فيما اذا كان أحد الزوجين رقيقا فذهب الاكثر ومنهم الشافعى رضى الله تعالى عنه الى أنه يعتبر عدد الطلاق بالزوج فالحرّ يملك على زوجته الامة ثلاث طلقات والعبد لا يملك على زوجته الحرّة الا طلقتين وذهب الاقل ومنهم أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه الى ان الاعتبار بالمرأة فى عدد الطلاق كالعدّة فيملك العبد على زوجته الحرّة ثلاث طلقات ولا يملك الحرّ على زوجته الامة الا طلقتين (ولا يحل لكم) أيها الازواج (أن تأخذوا مما آتيتموهنّ) من المهور (شيأ) اذا طلقتموهنّ روى أنها نزلت فى جميلة أخت عبد الله بن أبىّ ابن سلول كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس فشكته الى أبيها فقال ارجعى الى زوجك فانى أكره للمرأة ان لا تزال رافعة يديها تشكو زوجها فلما رأت أباها لم يشكها رجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل خلفه فجاء فقال له مالك ولاهلك فقال والذى بعثك بالحق نبيا ما على وجه الارض أحب الىّ منها غيرك فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقولين فقالت هو من أكرم الناس حبا لزوجته ولكن لا أنا ولا ثابت لا يجمع رأسى ورأسه شئ والله لا أعيبه فى دين ولا خلق ولكن أكره الكفر فى الاسلام ما أطيقه بغضا أى أكره ان أقف عنده ان أقع فيما يقتضى الكفر بغضا فيه ويحتمل أن تريد كفران العشرة انى رفعت

جانب الخباء فرأيته أقبل في عدة فاذا هو أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها فقال ثابت قد أعطيتها حديقة فقل لها فلتردها علي وأخلي سبيلها فقال لها تردين عليه حديقته وتملكين أمرك قالت نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ثابت خذ منها ما أعطيتها وخل سبيلها ففعل وفي رواية اقبل الحديقة وطلقها تطليقة (الا أن يخافا) أي الزوجان (أن لا يقيما حدود الله) أي لا يأتيا بما حده لهما من الحقوق وقرأ حمزة يخافا بضم الياء بالبناء للمفعول فان مع صلته ابدل اشتمال من الضمير في يخافا والباقون بفتحها بالبناء للفاعل (فان خفتم) أيها الائمة والحكام (أن لا يقيما حدود الله) أي ما حده من الاحكام (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) نفسها من المال ليطلقها أي لا حرج على الزوج في أخذه ولا على الزوجة في بذله وهذا هو الاصل والا فيجوز على عوض وان لم يخافا *(تنبيه)* علم مما تقرر أن الخطاب في الاول للزوجين وثانيا للائمة والحكام ونحو ذلك غير عزيز في القرآن وغيره ويجوز أن يكون الخطاب كله للائمة والحكام ولا ينافي ذلك قوله تعالى ان تأخذوا مما آتيتموهن شيأ لانهم الذين يأمرون بالاخذ والايتاء عند الترافع اليهم فكأنهم الآخذون والمؤتون (تلك) أي الاحكام المذكورة (حدود الله) وهي ما منع الشرع من المجاوزة عنه (فلا تعتدوها) أي فلا تتعدوها بالمخالفة وقوله تعالى (ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) تعقيب للنهي بالوعيد مبالغة في التهديد *(تنبيه)* ظاهر الآية يدل على أن الخلع لا يجوز من غير كراهة وشقاق ولا بجميع ما ساق الزوج اليها فضلا عن الزائد ويؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم كما رواه البيهقي أيما امرأة سألت زوجها طلاقا من غير بأس أي ضرر فحرام عليها رائحة الجنة وما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لجميلة أتردين عليه حديقته فقالت أردها وأزيد عليها فقال عليه الصلاة والسلام أما الزائد فلا فالجمهور استكرهوا الخلع ولكن نفذوه فان المنع عن العقد لا يدل على فساده وانه يصح بلفظ المفاداة فانه سماه افتداء (فان طلقها) أي الزوج بعد الثنتين (فلا تحل له من بعد) أي بعد الطلقة الثالثة (حتى تنكح) أي تتزوج (زوجا غيره) أي المطلق والنكاح يتناول العقد والوطء وتعلق بظاهر الآية من اقتصر على العقد كابن المسيب والجمهور على أنه لا بد من الاصابة لما روى الشيخان ان امرأة رفاعة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان رفاعة طلقني وان عبد الرحمن بن الزبير أي بفتح الزاي وكسر الباء تزوجني وانما معه مثل هدبة الثوب فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أتريدين أن ترجعي الى رفاعة لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك فالآية مطلقة قيدتها السنة ويحتمل أن يفسر النكاح بالاصابة ويكون العقد مستفادا من لفظ الزوج والعسيلة مجاز عن قليل الجماع اذ يكفي قليل انتشار شبهت تلك اللذة بالعسل وصغرت وألحقتها الهاء لان الغالب على العسل التأنيث قاله الجوهري وروي انها لبثت ما شاء الله ثم رجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت ان زوجي قد مسني فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم كذبت في قولك الاول فلن أصدقك في الآخر فلبثت حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتت أبا بكر فقالت يا خليفة رسول الله ارجع الى زوجي الاول

فان زوجى الآخر مسنى وطلقنى فقال لها أبو بكر قد شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اتيتيه وقال لك ما قال فلا ترجعى اليه فلما قبض أبو بكر أتت عمر وقالت له مثل ذلك فقال لها عمر لئن رجعت اليه لارجمنك والحكمة فى التحليل الردع عن المسارعة الى الطلاق والعود الى المطلقة ثلاثا والرغبة فيها والنكاح بشرط التحليل فاسد عند الاكثر وجوزه أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه مع الكراهة وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له رواه الترمذى والنسائى وصححه وعن عمر رضى الله تعالى عنه لا أوتى بمحلل ولا محلل له الا رجمتهما *(تنبيه)* شملت الآية الكريمة ما اذا طلق الزوج زوجته الامة ثلاثا ثم ملكها فانه لا يحل له أن يطأها بملك اليمين حتى تنكح زوجا غيره (فان طلقها) الزوج الثانى بعد ما أصابها (فلا جناح عليهما) أى المرأة والزوج الاول (أن يتراجعا) الى النكاح بعقد جديد بعد انقضاء العدة (ان ظنا) أى ان كان فى ظنهما (أن يقيما حدود الله) أى ما حده الله وشرعه من حقوق الزوجية هذا هو الاصل والا فهو ليس بشرط للجواز ولم يقل ان علما أنهما يقيمان لان اليقين مغيب عنهما لا يعلمه الا الله قال فى الكشاف ومن فسر الظن هنا بالعلم فقد وهم من طريق اللفظ والمعنى لانك لا تقول علمت أن يقوم زيد ولكن علمت أنه يقوم ولان الانسان لا يعلم ما فى الغد وانما يظن ظنا (وتلك) أى الاحكام المذكورة (حدود الله يبينها لقوم يعلمون) أى يتدبرون ما أمرهم الله تعالى به ويفهمونه ويعملون بمقتضى العلم (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) أى قاربن انقضاء عدتهن ولم يرد انقضاء العدة حقيقة لان العدة اذا انقضت لم يكن للزوج امساكها فالبلوغ ههنا بلوغ مقاربة وفى قوله تعالى بعد ذلك فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن حقيقة انقضاء العدة والبلوغ يتناول المعنيين يقال بلغ المدينة اذا قرب منها واذا دخلها (فامسكوهن) بان تراجعوهن (بمعروف) من غير ضرار وقيل بأن يشهد على رجعتها وان يراجعها بالقول لا بالوطء (أو سرحوهن بمعروف) أى اتركوهن حتى تنقضى عدتهن فيكن أملك بأنفسهن (ولا تمسكوهن) بالرجعة وقوله تعالى (ضرارا) مفعول له (لتعتدوا) أى لا تقصدوا بالمراجعة المضارة بتطويل الحبس نزلت هذه الآية فى رجل من الانصار يدعى ثابت بن يسار طلق امرأته حتى اذا قرب انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها بقصد مضارتها (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) أى أضربها بتعريضها الى عذاب الله وقرأ أبو الحرث الليث بادغام اللام من يفعل فى الذال حيث جاء والباقون بالاظهار (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) أى مهزوا بها بمخالفتها لان كل من خالف أمر الشرع فهو متخذ آيات الله هزوا وقيل كان الرجل يتزوج ويطلق ويعتق ويقول كنت ألعب فنزلت وروى عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال ثلاث جدهن جد وهزلهن جد الطلاق والنكاح والرجعة (واذكروا نعمت الله عليكم) التى من جملتها الاسلام والايمان وبعثة النبى صلى الله عليه وسلم (وما أنزل عليكم من الكتاب) أى القرآن (والحكمة) أى السنة أفردهما بالذكر اظهارا لشرفهما وذكرهما مقابلتهما بالشكر والقيام بحقوقهما (يعظكم به) أى بما أنزل عليكم ليدعوكم به اليه (واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شئ عليم) لا يخفى عليه شئ فى ذلك تأكيد وتهديد (واذا

طلقتم النساء فبلغن أجلهن) أى انقضت عدتهن (فلا تعضلوهن) أى تمنعوهن من (أن ينكحن أزواجهن) أى المطلقين لهن وعن الشافعى رضى الله تعالى عنه دل سياق الكلامين أى وهما أمسكوهن الخ وفلا تعضلوهن على افتراق البلوغين فالمراد بالاول المقاربة وبالثانى الوصول كما تقرر والعضل الحبس والتضييق ومن العضل بهذا المعنى عضلت الدجاجة اذا علقت بيضتها فلم تخرج * (فائدة) * رسمت التاء فى نعمت بالتاء المجرورة ووقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء ويميلها الكسائى فى الوقف ووقف الباقون بالتاء على الرسم والمخاطب بذلك الاولياء لما روى أنها نزلت فى معقل بن يسار حين عضل أخته ان ترجع الى الزوج الاول ففى الآية دليل على أن المرأة لا تزوج نفسها اذ لو تمكنت منه لم يكن لعضل الولى فائدة ولا يعارض ذلك باسناد النكاح اليهن لانه انما أسند اليهن لتوقف النكاح على اذنهن وقيل الخطاب للاولياء والازواج وقيل للناس كلهم أى لا يوجد فيما بينكم هذا الامر فانه ان وجد بينهم وهم راضون به كانوا كالفاعلين له وقوله تعالى (اذا تراضوا بينهم) أى الازواج والنساء ظرف لان ينكحن أو لا تعضلوهن وقوله تعالى (بالمعروف) أى بما يعرفه الشرع ويستحسنه من كونه بعقد حلال حال من ضمير تراضوا أو صفة مصدر محذوف أى تراضيا كائنا بالمعروف وفيه دلالة على أن العضل عن التزويج من غير كفء غير منهى عنه (ذلك) أى النهى عن العضل (يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر) لانه المتعظ أو المنتفع به (فان قيل) لم الخطاب فى قوله ذلك يوعظ به (أجيب) بأنه يجوز أن يكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكل أحد كما فى قوله تعالى يا أيها النبى اذا طلقتم النساء ونحوه (ذلكم) أى ترك العضل (أزكى) أى انفع (لكم وأطهر) لكم ولهن من دنس الآثام لما يخشى على الزوجين من الريبة بسبب العلاقة بينهما (والله يعلم) ما فيه المصلحة (وأنتم لا تعلمون) ذلك لقصور علمكم وقوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن) خبر بمعنى الامر كقوله تعالى والمطلقات يتربصن بأنفسهن وهو أمر استحباب لا أمر ايجاب لانه لا يجب عليهن الارضاع اذا كان يوجد من يرضع الولد لقوله تعالى فى سورة الطلاق فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن فان رغبت الام فى الارضاع فهى أولى من غيرها أما اذا لم يوجد من يرضعه فيجب عليها ارضاعه والوالدات يعم المطلقات وغيرهن وقيل يختص بالمطلقات اذ الكلام فيهن (حولين) أى عامين (كاملين) صفة مؤكدة كما فى قوله تعالى تلك عشرة كاملة لان العرب قد تسمى بعض الحول حولا وبعض الشهر شهرا كما قال الله تعالى الحج أشهر معلومات وانما هو شهران وبعض الثالث وقال تعالى فمن تعجل فى يومين فلا اثم عليه وانما يتعجل فى يوم وبعض يوم وقال قتادة فرض الله على الوالدات ارضاع حولين كاملين ثم أنزل التخفيف فقال (لمن أراد أن يتم الرضاعة) أى هذا منتهى الرضاع وليس فيما دون ذلك حد محدود وانما هو على مقدار اصلاح المولود وما يعيش به (وعلى المولود له) اى الوالد (رزقهن) أى اطعام الوالدات (وكسوتهن) أجرة لهن على الارضاع اذا كن مطلقات واختلف فى استئجار الام للارضاع فجوزه الشافعى ومنعه أبو حنيفة ما دامت زوجة أو معتدة نكاح

(فان قيل) لم قال تعالى المولود له دون الوالد (أجيب) بأنه تعالى انما ذكر ذلك ليعلم أن الوالدات انما ولدن لهم لان الاولاد للآباء ولذلك ينسبون اليهم لا الى الامهات وأنشد للمأمون ابن الرشيد

فانما أمهات الناس أوعية * مستودعات وللآباء ابناء

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن اذا أرضعن ولدهم الا ترى أنه ذكر باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى وهو قوله تعالى واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيأ وقوله تعالى (بالمعروف) يفسره ما بعده وهو قوله تعالى (لا تكلف نفس الا وسعها) أى طاقتها فلا يكلف واحد منهما ما ليس فى وسعه (لا تضار والدة بولدها) أى بسببه بأن تكره على ارضاعه أو تكلف فوق طاقتها (ولا) يضار (مولود له بولده) أى بسببه بأن يكلف فوق طاقته واضافة الولد الى كل منهما للاستعطاف وللتنبيه على أن الولد حقيق بأن يتفقا على استصلاحه وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وتضار برفع الراء بدل من قوله لا تكلف والباقون بفتحها (وعلى الوارث) أى وارث الاب وهو الولد أى على الولى فى مال الولد (مثل ذلك) أى الذى كان على الاب للوالدة من الرزق والكسوة وقيل هو وارث الولد الذى لو مات الولد لورثه وقيل الباقى من الابوين أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم اللهم متعنا باسماعنا وأبصارنا واجعلهما الوارث أى الباقى منا والمعنى واجعل كلا منهما فى لزومه لنا مدة الحياة كأنه باق بعد الموت (فان أرادا) أى الوالدان (فصالا) أى فطاما له صادرا (عن تراض) أى اتفاق (منهما وتشاور) بينهما فتظهر مصلحة الولد فيه (فلا جناح عليهما) فى ذلك زاد على الحولين أو نقص وهذه توسعة بعد التحديد وانما اعتبر تراضيهما مراعاة لصلاح الولد حذرا أن يقدم أحدهما على ما يضر به لغرض أو غيره (وان أردتم) خطاب للاولياء (أن تسترضعوا) مراضع غير الوالدات (أولادكم) يقال أرضعت المرأة الطفل واسترضعتها اياه فحذف المفعول الاول للاستغناء عنه كما يقال استنجحت الحاجة ولا تذكر من استنجحته وكذلك حكم كل مفعولين يكون أحدهما عبارة عن الاول هذا ما جرى عليه الزمخشرى من أن استرضع يتعدى لمفعولين بنفسه والجمهور على أنه انما يتعدى الى الثانى بحرف الجر وتقديره هنا لاولادكم (فلا جناح عليكم) فى ذلك (اذا سلمتم) اليهن (ما آتيتم) أى أردتم ايتاءه لهن من الاجرة كقوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وانما قدر ذلك لان ما تحقق ايتاؤه لا يتصور تسليمه فى المستقبل وقوله تعالى (بالمعروف) صلة سلمتم أى بالوجه المتعارف المستحسن شرعا وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله وليس اشتراط التسليم لجواز الاسترضاع بل لسلوك ما هو الاولى والاصلح للطفل وقرأ ابن كثير بقصر همزة أتيتم من أتى اليه احسانا اذا فعله ومنه قوله تعالى انه كان وعده مأتيا أى مفعولا والباقون بالمد وهم على مراتبهم وقوله تعالى (واتقوا الله) مبالغة فى المحافظة على ما شرع فى أمر الاطفال والمراضع ثم حثهم على ذلك وهددهم بقوله تعالى (واعلموا أن الله بما تعملون بصير) لا يخفى عليه شئ منه (والذين يتوفون) أى يموتون (منكم ويذرون) أى يتركون (أزواجا يتربصن)

أى ينتظرن (بأنفسهن) وهو خبر بمعنى الامر وهو أمر ايجاب أى يجب عليهن ان يتربصن بعدهم عن النكاح (أربعة أشهر وعشرا) أى عشرة أيام وكان القياس تذكير العدد بأن يؤتى فيه بالتاء ولكن لما حذف المعدود جاز فيه ذلك كما فى قوله تعالى ان لبثتم الا عشرا ثم ان لبثتم الا يوما لان قوله فى سورة طه ان لبثتم الا يوما بعد قوله ان لبثتم الا عشرا يدل على ان المراد بالعشر الايام وان ذكر بما يدل على الليالى لانهم اختلفوا فى مدة اللبث فقال بعضهم عشر وبعضهم يوم فدل على ان المقابل باليوم انما هو أيام الليالى وكما فى قوله صلى الله عليه وسلم من صام رمضان وأتبعه ستا من شوال قال البيضاوى ولعل المقتضى لهذا التقدير أى بهذه المدة ان الجنين فى غالب الامر يتحرك لثلاثة أشهر ان كان ذكرا ولاربعة ان كان أنثى فاعتبر أقصى الاجلين وزيد عليه العشر استظهارا اذ ربما تضعف حركته فى المبادى فلا يحس بها أى بالحركة اهـ وهذا فى غير الحوامل أما هن فعدتهن أن يضعن حملهن بآية الطلاق وفى غير الاماء فانهن على النصف من ذلك بالسنة وعن على وابن عباس رضى الله تعالى عنهم ان الحامل تعتد بأقصى الاجلين احتياطا وحكى عن أبى الاسود الدؤلى انه كان يمشى خلف جنازة فقال له رجل من المتوفى بكسر الفاء فقال الله وكان أحد الاسباب الباعثة لعلى رضى الله تعالى عنه على ان امره أن يضع كتابا فى النحو لكن يجوز الكسر على معنى أنه مستوف أجله ويدل له قوله تعالى والذين يتوفون بفتح الياء على قراءة شاذة نقلت عن على أى يستوفون آجالهم (فاذا بلغن أجلهن) أى انقضت عدتهن (فلا جناح) أى لا حرج (عليكم) أيها الاولياء (فيما فعلن فى أنفسهن) أى من التعرض للخطاب وسائر ما حرم عليهن للعدة دون العقد فان العقد الى الولى وقيل المخاطب بذلك الائمة أو المسلمون جميعا (بالمعروف) أى بالوجه الذى لا ينكره الشرع ومفهومه أنهن لو فعلن ما ينكر فعلى المخاطب أن يكفهن فان قصر فعليه الجناح (والله بما تعملون خبير) عالم بباطنه كظاهره فيجازيكم عليه (ولا جناح) أى لا حرج (عليكم فيما عرضتم به) والتعريض فى الكلام ما يفهم منه السامع مراده بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازا كقول السائل جئتك لاسلم عليك ولانظر الى وجهك الكريم ولذلك قالوا * وحسبك بالتسليم منى تقاضيا * ويسمى التلويح لانه يلوح منه ما يريده والفرق بينه وبين الكناية ان الكناية هى الدلالة على الشئ بذكر لوازمه وروادفه كقولك طويل النجاد للطويل وهو بكسر النون حمائل السيف وكثير الرماد للمضياف (من خطبة النساء) المعتدات للوفاة والخطبة بالضم والكسر اسم الهيئة غير أن المضمومة خصت بالموعظة والمكسورة بطلب المرأة للنكاح والتعريض بالخطبة مباح فى عدة الوفاة وهو أن يقول رب راغب فيك من يجد مثلك انك لجميلة وانك لصالحة وانك لعلى كريمة وانى فيك لراغب وان من غرضى ان أتزوج وان جمع الله بينى وبينك بالحلال أعجبنى ولان تزوجتك لاحسنن اليك ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه ان رغبت فيه من غير أن يصرح بالنكاح فلا يقول انكحينى والمرأة تجيبه بمثله ان رغبت فيه روى ابن المبارك عن عبد الرحمن بن سليمان عن خالته قالت دخل على أبو جعفر محمد بن على وانا فى عدتى

فقال قد علمت قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحق جدّي علي وقدمي في الاسلام فقلت قد غفر الله لك أتخطبني في عدّتي وأنت يؤخذ عنك فقال أو قد فعلت انما أخبرتك بقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعي قد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة وكانت عند ابن عمها أبي سلمة فتوفي عنها فلم يزل يذكر لها منزلته من الله تعالى وهو متحامل على يده حتى أثر الحصير في يده من شدة تحامله عليها فما كانت تلك خطبة وامّا عدّة الفرقة في الحياة فيحل لغير صاحب العدّة التعريض في غير رجعية لعدم سلطنة الزوج عليها امّا التصريح فحرام اجماعا وأما الرجعية فلا يحل التعريض لها لانها في حكم الزوجة أما صاحب العدّة فيحل له التعريض والتصريح ان حل له نكاحها والا فلا (أو أكننتم) أي أضمرتم (في أنفسكم) من نكاحهن فلم تذكروه تصريحا ولا تعريضا قال السدي هو ان يدخل فيسلم ويهدي ان شاء ولا يتكلم بشيء (علم الله انكم ستذكرونهن) بالخطبة ولا تصبرون عنهن فأباح لكم التعريض وفيه نوع توبيخ (ولكن لا تواعدوهن سرا) أي نكاحا فالسر كناية عن النكاح الذي هو الوطء لانه مما يسر قال الاعشى

ولا تقربن جارة ان سرها * عليك حرام فانكحن أو تأبدا

وقال امرؤ القيس

الا زعمت بسباسة اليوم انني * كبرت وأن لا يحسن السر امثالي

ثم عبر بالسر الذي هو كناية عن الوطء عن عقد النكاح لان العقد سبب في الوطء وقيل هو الزنا كان الرجل يدخل على المرأة من أجل الزنية وهو يعرض بالنكاح ويقول لها دعيني فاذا وفيت عدتك أظهرت نكاحك قاله الحسن وقيل هو أن يصف نفسه لها بكثرة الجماع كان يقول آتيك الاربعة والخمسة ونحو ذلك (فان قيل) أين المستدرك بقوله ولكن لا تواعدوهن سرا (أجيب) بأنه محذوف لدلالة ستذكرونهن عليه تقديره علم الله انكم ستذكرونهن فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن سرا (الا أن تقولوا قولا معروفا) أي ما عرف شرعا من التعريض فلكم ذلك (فان قيل) أين المستثنى منه (أجيب) بأنه محذوف أي لا تواعدوهن مواعدة الا مواعدة معروفة غير منكرة أو الا مواعدة بقول معروف قال في الكشاف ولا يجوز أن يكون استثناء منقطعا من سرا لادائه الى قولك لا تواعدوهن الا التعريض وقال البيضاوي وقيل انه استثناء منقطع من سرا وهو ضعيف لادائه الى قولك لا تواعدوهن الا التعريض وهو أي التعريض غير موعود أي بل منجز سرا أي في السر على أن المواعدة في السر عبارة عن المواعدة بما يستقبح لان مسارتهن في الغالب مما يستحيا من المجاهرة به (ولا تعزموا عقدة النكاح) أي على عقده وفي ذلك مبالغة في النهي عن عقد النكاح في العدّة لان العزم يتقدم على العقد فاذا نهي عما يتقدمه فهو أولى بالنهي كما في قوله تعالى ولا تقربوا الزنا (حتى يبلغ الكتاب) أي المكتوب (أجله) بأن ينتهي ما فرض فيه من العدّة (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم) من العزم وغيره (فاحذروه) أي

خافوا

خافوا عقابه (واعلموا أن الله غفور) لمن عزم ولم يفعل خوفا من الله (حليم) لا يعاجلكم بالعقوبة (لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن) أى تجامعوهن (أو) لم (تفرضوا لهن فريضة) أى مهرا وما مصدرية ظرفية أى لا تبعة عليكم فى الطلاق زمن عدم المسيس والفرض باثم ولا مهر والتبعة بكسر الباء ما يتبع المال أو البدن من نوائب الحقوق وهو من تبعت الرجل بحق وقرأ حمزة والكسائى بضم التاء وألف بعد الميم والباقون بفتح التاء ولا ألف بعد الميم وقوله تعالى (ومتعوهن) عطف على مقدر لانه طلب فلا يعطف على لا جناح لانه خبر أى فطلقوهن ومتعوهن والحكمة فى ايجاب المتعة جبر ايحاش الطلاق ويسن ان لا تنقص عن ثلاثين درهما أو ما قيمته ذلك واذا تراضيا بشئ فذاك وان تنازعا فى قدرها قدرها قاض باجتهاده بقدر حالهما من يساره واعساره ونسبها وصفاتها كما قال تعالى (على الموسع) أى الغنى منكم (قدره) أى ما يطيقه ويليق به (وعلى المقتر) أى ضيق الرزق (قدره) أى ما يطيقه ويليق به ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم لانصارى طلق امرأته المفوضة قبل أن يمسها أمتعها قال لم يكن عندى شئ قال متعها بقلنسوتك ومفهوم الآية يقتضى تخصيص ايجاب المتعة للمفوضة التى لم يمسها الزوج وألحق بها الشافعى رضى الله تعالى عنه الممسوسة المفوضة وغيرها قياسا وهو مقدم على المفهوم وقرأ ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى بفتح الدال والباقون بسكونها وقوله تعالى (متاعا) تأكيد لمتعوهن بمعنى تمتيعا وقوله تعالى (بالمعروف) أى شرعا صفة متاعا وقوله تعالى (حقا) صفة ثانية لمتاعا أى متاعا واجبا عليهم أو مصدر مؤكد أى حق ذلك حقا (على المحسنين) أى المطيعين الذين يحسنون الى أنفسهم بالمسارعة الى الامتثال أو الى المطلقات بالتمتيع وسماهم قبل الفعل محسنين كما قال عليه الصلاة والسلام من قتل قتيلا فله سلبه ترغيبا وتحريضا ولما ذكر الله تعالى حكم المفوضة اتبعها حكم قسيمها بقوله تعالى (وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم) يجب لهن ويرجع لكم النصف وهو دليل على أن الجناح المنفى ثم تبعة المهر وان لا متعة مع التشطير لانه قسيمها (الا) لكن (أن يعفون) أى الزوجات فلا يأخذن شيأ (فان قيل) أى فرق بين قولك الرجال يعفون والنساء يعفون (أجيب) بأن الواو فى الاول ضميرهم والنون علم الرفع والواو فى الثانى لام الفعل والنون ضميرهن والفعل مبنى لا أثر فى لفظه للعامل وهو فى محل النصب (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) وهو الزوج المالك لعقده وحله كما يعود اليه بالتشطير فيترك لها الكل وقيل هو الولى اذا كانت المرأة محجورة وهو قول قديم للشافعى وهو مروى عن ابن عباس وقوله تعالى (وان تعفوا) مبتدأ خبره (أقرب للتقوى) والخطاب للرجال والنساء جميعا لان المذكر والمؤنث اذا اجتمعا كانت الغلبة للمذكر أى وعفو بعضكم عن بعض أقرب للتقوى (ولا تنسوا الفضل بينكم) أى أن يتفضل بعضكم على بعض باعطاء الرجل تمام الصداق أو بترك المرأة نصيبها حثهما جميعا على الاحسان (ان الله بما تعملون بصير) لا يضيع فضلكم واحسانكم بل يجازيكم به (حافظوا على الصلوات) الخمس بأدائها فى أوقاتها ولعل الامر

بالصلاة انما وقع في تضاعيف أحكام الاولاد والازواج لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها (والصلاة الوسطى) أي الوسطى بين الصلوات أو الفضلى من قولهم للافضل الاوسط وانما أفردت وعطفت على الصلوات لانفرادها بالفضل وهي صلاة العصر على الراجح لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم نارا وفضلها لكثرة اشتغال الناس في وقتها واجتماع الملائكة قال صلى الله عليه وسلم يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار وقيل صلاة الصبح لانها بين صلاتي الليل والنهار والواقعة في الجزء المشترك بينهما ولانها مشهودة تشهدها الملائكة الحفظة نص عليها الشافعي رحمه الله تعالى لكن رجح الاصحاب الاول عملا بقوله حيث صح الحديث فهو مذهبي وقيل صلاة الظهر لانها وسط النهار وكانت أشق الصلوات عليهم فكانت أفضل لانه صلى الله عليه وسلم سئل أي الاعمال أفضل فقال أحزها وهو بحاء مهملة وزاي أقواها وأشدها وقيل صلاة المغرب لانها متوسطة بالعدد لان عددها بين عددي الركعتين والاربع وقيل صلاة العشاء لانها بين جهريتين واقعتين طرفي النهار لا يقصران وهما المغرب والصبح وقال بعضهم هي احدى الصلوات الخمس لا بعينها أبهمها الله تعالى تحريضا للعباد في المحافظة على أداء جميعها كما أخفى ليلة القدر في شهر رمضان وساعة اجابة الدعوة في يوم الجمعة وأخفى اسمه الاعظم في الاسماء ليحافظوا على جميعها (وقوموا لله) في الصلاة (قانتين) أي مطيعين لقوله صلى الله عليه وسلم كل قنوت في القرآن فهو طاعة أو ساكتين لحديث زيد بن أرقم كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام رواه الشيخان وقال ابن المسيب المراد به القنوت في الصبح (فان خفتم) من عدو أو سبع أو سيل أو نحو ذلك (فرجالا) جمع راجل أي مشاة صلوا (أو ركبانا) جمع راكب أي كيف أمكن مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ويومئ بالركوع والسجود ويجعل السجود أخفض من الركوع والصلاة في حال الخوف على أقسام وهذه صلاة شدة الخوف وسيأتي بقية الاقسام ان شاء الله تعالى في سورة النساء ولا ينتقص عدد الركعات بالخوف عند أكثر أهل العلم وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم قال فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعا وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة وفي الآية دليل على وجوب الصلاة حال المقاتلة واليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه لا يصلي حال المشي والمقاتلة ما لم يمكن الوقوف وقال سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه اذا كنت في القتال وضرب الناس بعضهم بعضا فقل سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر واذكر الله فتلك صلاتك (فاذا أمنتم) من الخوف (فاذكروا الله) أي صلوا الصلوات الخمس تامة بحقوقها (كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) قبل تعليمه من فرائضها وحقوقها والكاف بمعنى مثل وما موصولة أو مصدرية (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لازواجهم) قرأ نافع وابن كثير وشعبة والكسائي وصية بالرفع أي فعليهم وصية والباقون بالنصب أي فليوصوا وصية وقوله تعالى (متاعا) نصب على المصدر أي متعوهن متاعا أي ما يتمتعن به من النفقة والكسوة (الى) تمام (الحول) من

موتهم الواجب عليهن تربصه وقوله تعالى (غير اخراج) نصب على الحال أى غير مخرجات من مسكنهن نزلت هذه الآية فى رجل من أهل الطائف يقال له الحكم بن الحرث هاجر الى المدينة وله أولاد ومعه أبواه وامرأته فمات فأنزل الله هذه الآية فأعطى النبى صلى الله عليه وسلم والديه وأولاده من ميراثه ولم يعط امرأته شيأ وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها حولا وكانت عدة الوفاة فى ابتداء الاسلام حولا وكان يحرم على الوارث اخراجها من البيت قبل تمام الحول وكان نفقتها وسكناها واجبة فى مال زوجها تلك السنة مالم تخرج ولم يكن لها الميراث فان خرجت من بيت زوجها سقطت نفقتها وكان على الرجل أن يوصى بها فكان كذلك حتى نزلت آية الميراث فنسخ الله تعالى نفقة الحول بالربع والثمن ونسخ عدة الحول بآية أربعة أشهر وعشرا السابقة (فان قيل) كيف نسخت الآية السابقة المتأخرة (أجيب) بأنها متقدمة فى التلاوة متأخرة فى النزول كما فى قوله تعالى سيقول السفهاء مع قوله قد نرى تقلب وجهك فى السماء (فان خرجن) من قبل أنفسهن قبل الحول من غير اخراج الورثة (فلا جناح عليكم) يا أولياء الميت (فيما فعلن فى أنفسهن من معروف) شرعا كالتزين وترك الاحداد وقطع النفقة عنها خيرها الله تعالى بين أن تقيم حولا ولها النفقة والسكنى وبين أن تخرج ولا نفقة لها ولا سكنى الى أن نسخه بأربعة أشهر وعشرا (والله عزيز) فى ملكه (حكيم) فى صنعه لا يسئل عما يفعل (وللمطلقات متاع) أى يعطينه (بالمعروف) بقدر الامكان وقوله تعالى (حقا) نصب بفعله المقدر (على المتقين) الله (فان قيل) لم كرر الله تعالى ذلك (أجيب) بأن ذلك لحكمة وهى أن الآية السابقة فى غير الممسوسة وهذه أعم منها فتشمل الممسوسة أيضا (كذلك) أى كما بين لكم ما سبق من أحكام الطلاق والعدد (يبين الله لكم آياته) وعد سبحانه وتعالى انه سيبين لعباده من الدلائل والاحكام ما يحتاجون اليه معاشا ومعادا (لعلكم تعقلون) أى تتدبرون فتستعملون العقل فيها وقوله تعالى (ألم تر) استفهام تعجيب وتشويق الى استماع ما بعده لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب التواريخ وقد يخاطب به من لم ير ولم يسمع وهذا هنا أولى فانه صار مثلا فى التعجيب أى ينته علمك (الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف) أربعة أو ثمانية أو عشرة أو ثلاثون أو أربعون أو سبعون ألفا وقوله تعالى (حذر الموت) مفعول له هم قوم من بنى اسرائيل كانوا فى قرية يقال لها داوردان جهة واسط وقع بها الطاعون فخرجت طائفة منها وبقيت طائفة فهلك أكثر من بقى فى القرية وسلم الذين خرجوا فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال الذين بقوا أصحابنا كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ولئن وقع الطاعون ثانيا لنخرجن الى أرض لا وباء بها فوقع الطاعون من قابل فهرب عامة أهلها وخرجوا حتى نزلوا واديا أفيح فلما نزلوا المكان الذى يبتغون فيه النجاة ناداهم ملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه أن موتوا فماتوا جميعا ثم أحياهم الله تعالى كما قال تعالى (فقال لهم الله موتوا) أى فماتوا (ثم أحياهم) ليعتبروا ويتيقنوا أن لا مفر من قضاء الله وقدره وقيل قوم من بنى اسرائيل دعاهم ملكهم الى الجهاد ففروا حذر الموت فأماتهم الله ثمانية أيام أو أكثر

ثم أحياهم بدعاء نبيهم حزقيل بكسر المهملة والقاف وسكون الزاى ثالث خلفاء بنى اسرائيل بعد موسى وكان يقال له ابن العجوز لان أمه كانت عجوزا فسألت الله الولد بعد ما كبرت وعقمت فوهبه الله تعالى لها قال الحسن ومقاتل هو ذو الكفل وسمى حزقيل ذا الكفل لانه كفل سبعين نبيا وأنجاهم من القتل قال اذهبوا فانى ان قتلت كان خيرا من أن تقتلوا معى جميعا فلما جاء اليهود وسألوا حزقيل عن الانبياء السبعين قال انهم ذهبوا وما أدرى أين هم ومنع الله حزقيل من اليهود فلما مر حزقيل على تلك الموتى وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم فبكى وقال يارب كنت فى قوم يحمدونك ويسبحونك ويقدسونك ويكبرونك ويهللونك فبقيت وحدى لاقوم لى فأوحى الله تعالى اليه ان ناد أيتها العظام ان الله يأمرك أن تجتمعى فاجتمعت العظام من أعلى الوادى وأدناه حتى التزق بعضها ببعض كل عظم جسد التزق بجسده فصارت أجسادا من عظام لا لحم ولا دم ثم أوحى الله تعالى اليه ان ناد أيتها الاجسام ان الله يأمرك أن تكتسى لحما فاكتست لحما ثم أوحى الله اليه ان ناد أيتها الاجساد ان الله يأمرك أن تقومى فبعثوا احياء ورجعوا الى بلادهم وقال مجاهد انهم قالوا حين أحيوا سبحانك ربنا وبحمدك لا اله الا أنت فرجعوا الى قومهم وعاشوا دهرا عليهم أثر الموت لا يلبسون ثوبا الا عاد كالكفن حتى ماتوا لآجالهم التى كتبت لهم ولو جاءت آجالهم ما بعثوا واستمر ذلك فى أسباطهم قال ابن عباس وأن ذلك ليوجد اليوم فى ذلك السبط من اليهود وفائدة هذه القصة تشجيع المسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة وحثهم على التوكل والاستسلام للقضاء فان الموت اذا لم يكن منه بد ولم ينفع منه مفر فأولى أن يكون فى سبيل الله تعالى (ان الله لذو فضل على الناس) أى عامة فليذكر كل أحد ماله عليه من الفضل (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) كما ينبغى اما الكفار فلم يشكروا وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية شكره *(تنبيه)* انما كرر الناس ولم يضمر ليكون أنص على العموم لئلا يدعى مدع أن المراد بالناس الاول أهل زمان فيخص بالثانى أكثرهم (وقاتلوا فى سبيل الله) أعداء الله لتكون كلمة الله هى العليا (واعلموا أن الله سميع) لاقوالكم فيسمع ما يقوله المتخلفون والسابقون (عليم) بأحوالكم فيعلم ما تضمرونه فيجازيكم (من ذا الذى يقرض الله) الذى تفرد بالعظمة بانفاق ماله فى سبيل الله ومن استفهامية مرفوعة الموضع بالابتداء وذا خبره والذى صفة ذا أو بدل واقراض الله مثل لتقديم العمل الذى يطلب ثوابه فهو اسم لكل ما يعطيه الانسان ليجازى عليه فسمى الله تعالى عمل المؤمنين له على رجاء ما وعدهم من الثواب قرضا لانهم يعملون لطلب ثوابه وأصل القرض فى اللغة القطع سمى القرض به لانه يقطع من ماله شيأ يعطيه ليرجع اليه مثله وقيل فى الآية اختصار معناه من ذا الذى يقرض عباد الله المحتاجين من خلقه كقوله تعالى ان الذين يؤذون الله أى عباد الله كما جاء فى الحديث عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يقول يوم القيامة ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى قال يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه أما علمت انك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى (قرضا حسنا)

كذبوه وقالوا استعجلت بالنبوة فان كنت صادقا (ابعث) أى أقم (لنا ملكا نقاتل) معه (فى سبيل الله) فننتظم به كلمتنا ونرجع اليه ويكون ذلك آية من نبوتك وانما كان قوام بنى اسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعة الملوك أنبياءهم فكان الملك هو الذى يسير بالجموع والنبى يقيم له أمره ويشير عليه برشده ويأتيه بالخبر من ربه ولما قالوا له ذلك (قال) لهم (هل عسيتم) قرأ نافع بكسر السين والباقون بفتحها وقوله تعالى (ان كتب) أى فرض (عليكم القتال) مع ذلك الملك (أن لا تقاتلوا) خبر عسى والاستفهام لتقرير المتوقع بها بمعنى التثبت للمتوقع وان كان الشائع من التقرير هو الحمل على الاقرار (قالوا وما لنا ان لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) بسبيهم وقتلهم أى أى غرض لنا فى ترك القتال وقد عرض لنا ما يوجبه ويحث عليه من الاخراج عن الاوطان والافراد عن الاولاد (فلما كتب عليهم القتال تولوا) عنه وجبنوا وضيعوا أمر الله (الا قليلا منهم) وهم الذين عبروا النهر مع طالوت واقتصروا على الغرفة على ما سيأتى ان شاء الله تعالى وقوله تعالى (والله عليم بالظالمين) وعيد لهم على ظلمهم فى ترك الجهاد * (تنبيه) * هذه الاقاصيص ليس المراد منها حديثا عن الماضين وانما هو اعلام بما يستقبل الآتون كما قال القائل اياك أعنى واسمعى يا جاره فلذلك لا يسمع القرآن من لم يأخذ بجملته خطابا لهذه الامة بكل ما قص له من أقاصيص الاولين ثم سأل النبى صلى الله عليه وسلم ربه أن يبعث لهم ملكا فأتى بعصا وقرن فيه دهن القدس وقيل له ان صاحبكم الذى يكون ملكا يكون طوله طول هذه العصا وانظر القرن الذى فيه الدهن فاذا دخل عليك رجل ونش الدهن الذى فى القرن فهو ملك بنى اسرائيل فادهن به رأسه وملكه عليهم وكان طالوت واسمه بالعبرانية شاول بن قيس من أولاد بنيامين بن يعقوب سمى طالوت لطوله وكان أطول من كل أحد أى فى زمانه برأسه ومنكبيه وكان رجلا دباغا يعمل الاديم قاله وهب وقال السدى كان سقاء يسقى على حمار له من النيل فضل حماره فخرج فى طلبه وقال وهب بل ضلت حمر لابى طالوت فارسله وغلاما له فى طلبها فمرا ببيت شمويل فقال الغلام لطالوت لو دخلنا على هذا النبى فسألناه على أمر الحمر ليرشدنا ويدعو لنا فدخلا عليه فبينما هما عنده يذكران له شأن الحمر اذ نش الدهن الذى فى القرن فقام شمويل فقاس طالوت بالعصا فكانت على طوله فقال لطالوت قرب رأسك فقربه فدهنه بدهن القدس ثم قال له أنت ملك بنى اسرائيل الذى أمرنى الله أن أملكه عليهم فقال طالوت أما علمت أن سبطى أدنى اسباط بنى اسرائيل وبيتى أدنى بيوتهم قال بلى قال فبأى آية قال بآية أنك ترجع وقد وجدت الحمر فكان كذلك ثم أخبرهم نبيهم بذلك كما قال تعالى (وقال لهم نبيهم) الذى تقدم ذكره (ان الله قد بعث لكم) أى لاجل سؤالكم (طالوت ملكا) وهو اسم أعجمى كجالوت وداود وانما امتنع من الصرف لتعريفه وعجمته (قالوا أنى) أى كيف (يكون له الملك علينا) أى من أين يكون له ذلك (ونحن) أى والحال انا نحن (أحق) أى أولى (بالملك منه) وانما قالوا ذلك لانه كان فى بنى اسرائيل سبطان سبط نبوة وسبط مملكة فكان سبط النبوة سبط لاوى بن يعقوب ومنه كان موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام وسبط

المملكة سبط يهوذا بن يعقوب ومنه كان داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ولم يكن طالوت من أحدهما انما كان من سبط بنيامين بن يعقوب وكانوا عملوا ذنبا عظيما كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق جهارا فغضب الله عليهم ونزع الملك والنبوّة منهم وكانوا يسمون سبط الاثم فلما قال لهم نبيهم ذلك أنكروا لانه لم يكن من سبط المملكة ومع ذلك قالوا هو دباغ (ولم) أى والحال انه لم (يؤت سعة من المال) يستعين بها على اقامة الملك ولما استبعد وا تملكه لفقره وسقوط نسبه ردّ عليهم ذلك بأمور حكاها الله تعالى عن نبيهم بقوله تعالى (قال) أى نبيهم (ان الله اصطفاه) أى اختاره للملك (عليكم) والعمدة فى التملك اصطفاء الله تعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم هذا الامر الاول والثانى قوله (وزاده) عليكم (بسطة) أى سعة (فى العلم) الذى يحصل به نظام المملكة ويتمكن به من معرفة الامور السياسية (و) فى (الجسم) الذى به يتمكن من الظفر بمن بارزه من الشجعان وقصده من سائر الاقران ويكون أعظم خطرا فى القلوب وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب لا ما ذكرتم وقد زاده الله فى العلم فكان أعلم بنى اسرائيل يومئذ والجسم فكان أجملهم وأتمهم خلقا كان الرجل القائم يمد يده فيتناول رأس طالوت والثالث قوله (والله يؤتى ملكه) اى الذى هو له وليس لغيره فيه شئ (من يشاء) فانه تعالى مالك الملك على الاطلاق فله أن يؤتيه من يشاء سواء كان غنيا أم فقيرا كما آتاكموه بعد ان كنتم مستعبدين عند آل فرعون والرابع قوله (والله واسع) أى واسع الفضل يوسع على الفقير ويغنيه (عليم) بمن يليق بالملك من النسيب وغيره (وقال لهم نبيهم) لما أذعنوا لذلك وطلبوا منه آية تدل على أنه سبحانه وتعالى اصطفى طالوت وملكه عليهم (ان آية) أى علامة (ملكه أن يأتيكم التابوت) أى الصندوق وكان فيه صور الانبياء عليهم الصلاة والسلام أنزله الله تعالى على آدم صلى الله عليه وسلم وكان من عود الشمشار عجمتين أولاهما مكورة وبينهما ميم ساكنة خشب تعمل منه الامشاط مموها بالذهب نحوا من ثلاثة أذرع فى ذراعين فكان عند آدم الى أن مات ثم عند شيث ثم توارثه أولاد آدم الى أن بلغ ابراهيم ثم كان عند اسمعيل لانه كان أكبر ولده ثم عند يعقوب ثم كان فى بنى اسرائيل الى أن وصل الى موسى ثم تداوله أنبياء بنى اسرائيل ثم استمر عند بنى اسرائيل وكانوا اذا اختلفوا فى شئ تكلم أو حكم بينهم واذا حضروا القتال قدموه بين أيديهم فيستفتحون به على عدوهم كما قال تعالى (فيه سكينة) أى طمأنينة لقلوبكم (من ربكم) ففى أى مكان كان التابوت اطمأنوا اليه وسكنوا قاله قتادة والكلبى فلما عصوا وفسدوا سلط الله عليهم العمالقة أصحاب جالوت فغلبوهم على التابوت وأخذوه وقال على هى صورة لها رأس ووجه كوجه الانسان وقال مجاهد هى شئ يشبه الهرة له رأس كرأس الهرة وذنب كذنب الهرة وله جناحان وقيل له عينان لهما شعاع وجناحان من زمرد وزبرجد وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى طست من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الانبياء وقال وهب هى روح من الله تتكلم اذا اختلفوا فى شئ تخبرهم ببيان ما يريدون ولما كان الكليم وأخوه عليهما الصلاة والسلام أعظم أنبيائهم قال (و) فيه (بقية مما ترك آل موسى

وآل هرون) وآلهما أنفسهما والآل مقحم لتفخيم شأنهما وقيل أبناؤهما وقيل أنبياء بني اسرائيل لانهم أبناء عمهما موسى وهرون والبقية هي رضاض الالواح أي فتاتها وعصا موسى وثيابه ونعلاه وعمامة هرون وقفيز من المن الذي كان ينزل عليهم وقوله تعالى (تحمله الملائكة) حال من فاعل يأتيكم (ان في ذلك لآية لكم) على ملكه وقوله تعالى (ان كنتم مؤمنين) يحتمل أن يكون من كلام نبيهم وأن يكون ابتداء خطاب من الله تعالى فحملته الملائكة بين السماء والارض وهم ينظرون اليه حتى وضعته عند طالوت فاقروا بملكه وقيل رفعه الله تعالى بعد موسى فنزلت به الملائكة وهم ينظرون اليه فلما رأوه لم يشكوا في النصر به وافاقروا بملكه وتسارعوا الى الجهاد فقال طالوت لاحاجة لي في كل ما أرى لايخرج معي رجل يبني بناء لم يفرغ منه ولا صاحب تجارة مشتغل بها ولا رجل عليه دين ولا رجل تزوج امرأة ولم يبن بها ولا ابتغي الا الشاب النشيط الفارغ فاجتمع عليه ممن اختاره ثمانون ألفا وكان الوقت صيفا في حر شديد فشكوا قلة الماء بينهم وبين عدوهم وقالوا ان المياه لاتحملنا فادعوا الله أن يجري لنا نهرا كما قال تعالى (فلما فصل) أي خرج (طالوت) أي الذي ملكوه (بالجنود) من بيت المقدس أي التي اختارها والجنود جمع جند وهم أتباع يكونون نجدة للمستتبع (قال ان الله مبتليكم) أي مختبركم ليظهر منكم المطيع والعاصي وهو أعلم (بنهر) قال ابن عباس والسدي هو نهر فلسطين وقال قتادة نهر بين الاردن وفلسطين عذب (فمن شرب منه) أي من مائه فليس مني أي من أتباعي (ومن لم يطعمه) أي يذقه (فانه مني) أي من أتباعي وانما علم ذلك بالوحي ان كان نبيا كما قيل أو باخبار النبي عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (الا من اغترف غرفة بيده) أي فاكتفى بها ولم يزد عليها فانه مني استثناء من قوله تعالى فمن شرب وانما قدمت عليه الجملة الثانية للعناية بها كما قدم الصابئون على خبران في قوله ان الذين آمنوا والذين هادوا والمعنى الرخصة في القليل دون الكثير وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو غرفة بفتح الغين والباقون بضمها

(فائدة) قال أبو عمرو بن العلاء سمعت أعرابيا ينشد وقد كنت خرجت الى ظاهر البصرة متفرجا مما نالني من طلب الحجاج

صبر النفس عند كل ملم * ان في الصبر حيلة المحتال
لاتضيقن في الامور فقد تكشف لأواؤها بغير احتيال
ربما تجزع النفوس من الامر له فرجة كحل العقال *
قد يصاب الجبان في آخر الصف وينجو مقارع الابطال

فقلت ما وراءك يا أعرابي قال مات الحجاج فلم أدر بأيهما أفرح أبموت الحجاج أم بقوله فرجة لأني كنت أطلب شاهدا لاختيار القراءة في سورة البقرة غرفة بالضم (فشربوا منه) لما وافوه بكثرة وقوله تعالى (الا قليلا منهم) أي فاقتصر على الغرفة نصب على الاستثناء روي ان من اغترف غرفة كما أمر الله قوي قلبه وصح ايمانه وعبر النهر سالما وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه وداوته والذين شربوا وخالفوا أمر الله اسودت شفاههم وغلبهم العطش فلم يرووا وبقوا على

شط النهر وجبنوا عن لقاء العدو واختلفوا في عدد الذين لم يشربوا فقال البغوي الصحيح انهم ثلثمائة و بضعة عشر أي عدد أهل بدر وقال السدي كانوا أربعة آلاف ويؤيد الاول ماروى عن البراء أنه قال كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نتحدث ان عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه الا بضعة عشر وثلثمائة ويروى ثلثمائة وثلاثة عشر وفي هذا ايذان بأن أعظم الجيوش جيش يكون فيه من أهل الورع بعدد التابعين من أصحاب طالوت الذين كان بعددهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وهم ثلثمائة وثلاثة عشر عدد المرسلين من كثرة عدد النبيين ولما كان قصص بني اسرائيل مثلا لهذه الامة كان مبتلى هذه الامة بالنهر فابتلاهم بنهر الدنيا الجاري خلالها وفي افراد اليد ايذان بان الاخذ من الدنيا انما يكون بيد لا بيدين لاشتمال اليدين على جانبي الخير والشر (فلما جاوزه) أي النهر (هو) أي طالوت (والذين آمنوا معه) أي وهم الذين اقتصروا على الغرفة (قالوا) أي الذين شربوا (لا طاقة) أي لاقوة (لنا اليوم بجالوت وجنوده) أي بقتالهم وجبنوا ولم يجاوزوه * ولما أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بهذا القول نبه على أنه لا ينبغي أن يصدر ممن يظن أن أجله مقدر لا يزيد بالجبن والاحجام ولا ينقص بالجراءة والاقدام وانه يلقى الله تعالى فيجازيه على عمله وان النصر من الله لا بالقوة والعدد فقال (قال الذين يظنون) أي يوقنون (أنهم ملاقوا الله) بالبعث وهم الذين جاوزوه (كم من فئة) أي جماعة وهي جمع لا واحد له من لفظه وجمعه فئات وفئون في الرفع وفئين في النصب والخفض وكم يحتمل أن تكون خبرية بمعنى كثير ومن مبينة وأن تكون استفهامية ومن مؤكدة والاول أولى بقرينة المقام (قليلة) كما كان في هذه الامة في يوم بدر (غلبت فئة كثيرة باذن الله) أي بارادته وتيسيره ثم انظر الى هذا الحال العجيب وهو انه لما ندبهم انتدب جيش لا يحصون فاشترط عليهم الشاب الفارغ من بناء دار وبناء بامرأة فلم يكن الموجود بالشرط الا ثمانين ألفا ثم امتحنوا بالنصر فلم يثبت منهم الا ثلثمائة وثلاثة عشر وهم دون الثلث من ثمن العشر من المتصفين بالشرط من الذين هم دون الدون من المنتدبين الذين هم دون الدون من السائلين في بعث الملك الخارجين معه كما قال القائل

ألم تعلم بأني صيرفي * أحك الاصدقاء على محكي

فمنهم بهرج لاخير فيه * ومنهم من أجوزه بشك

وأنت الخالص الذهب المصفى * بتزكيتي ومثلي من يزكي

ثم بين سبحانه وتعالى أن ملاك كل ذلك الصبر بقوله (والله مع الصابرين) بالنصر والمعونة فلا يخذل من كان معه (ولما برزوا) أي ظهروا وهم على ماهم عليه من الضعف والقلة (لجالوت) اسم ملك من ملوك الكنعانيين بالشأم في زمن بني اسرائيل جبار من العمالقة من أولاد عمليق ابن عاد (وجنوده) على ماهم فيه من القوة والكثرة التجؤا الى الله بالدعاء كما نبه على ذلك بقوله (قالوا ربنا أفرغ) أي اصبب (علينا صبرا وثبت أقدامنا) بتقوية قلوبنا على الجهاد (وانصرنا

على القوم الكافرين) وفى الدعاء ترتيب بليغ اذ سألوا أولا افراغ الصبر فى قلوبهم الذى هو ملاك الامر ثم ثبات القدم فى مداحض الحرب المسبب عنه ثم النصر على العدو المترتب عليهما غالبا (فهزموهم باذن الله) أى بارادته (وقتل داود جالوت) قال أهل التفسير عبر النهر مع طالوت فيمن عبر ايشا أبو داود فى ثلاثة عشر ابناله وكان داود أصغرهم فأرسل جالوت الى طالوت ان ابرز الى أو أبرز من يقاتلنى فان قتلنى فلكم ملكى وان قتلته فلى ملككم فشق ذلك على طالوت فنادى فى عسكره من قتل جالوت زوجته ابنتى وناصفته ملكى فهابوا القاء جالوت فلم يجبه أحد فسأل طالوت نبيهم أن يدعو الله تعالى فدعا فى ذلك فأوحى الله تعالى اليه ان فى ولد ايشا من يقتل الله تعالى به جالوت وكان داود أصغرهم يرعى الغنم فأوحى الله تعالى الى نبيهم انه الذى يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء فقال له طالوت هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتى وأناصفك ملكى قال نعم قال آنست من نفسك أن تقوى به قال نعم أنا أرعى فيجىء الاسد فيأخذ شاة فأقوم اليه وأفتح لحييه عنها وأشقهما الى قفاه فخرج داود فى الطريق فكلمه ثلاثة أحجار وقالت له انك تقتل جالوت بنا فحملها فى مخلاته فلما تصافوا للقتال وبرز جالوت وسأل المبارزة وكان من أشد الناس وأقواهم كان يهزم الجيوش وحده وكان له بيضة فيها ثلثمائة رطل حديد انتدب له داود وأخذ مخلاته وتقلدها وأخذ المقلاع ومضى نحو جالوت فلما نظر الى داود ألقى فى قلبه الرعب فقال له أنت تبرز لى قال نعم وكان جالوت على فرس ابلق عليه السلاح التام فقال اتيتنى بالمقلاع والحجر كما يؤتى الكلب قال نعم أنت شر من الكلب قال لا جرم لأقسمن لحمك بين سباع الارض وطير السماء قال داود أو يقسم الله لحمك فقال داود باسم اله ابراهيم وأخرج حجرا ثم أخرج الآخر وقال باسم اله اسحق ووضعه فى مقلاعه ثم أخرج الثالث وقال باسم اله يعقوب ووضعه فى مقلاعه فصارت كلها حجرا واحدا ودوّر داود المقلاع ورمى به فسخر الله له الريح حتى أصاب أنف البيضة فخالط دماغه وخرج من قفاه وقتل من ورائه ثلاثين رجلا وهزم الله تعالى الجيش وخرّ جالوت قتيلا فأخذه داود يجره حتى ألقاه بين يدى طالوت وفرح المسلمون فرحا شديدا وانصرفوا الى المدينة سالمين غانمين فجاء داود الى طالوت وقال انجز لى ما وعدتنى فزوجه ابنته وأجرى خاتمه فى ملكه فمال الناس الى داود وأحبوه وأكثروا ذكره فحسده طالوت وأراد قتله فأخبر بذلك فهرب فسلط عليه العيون وطلبه أشد الطلب فلم يقدر عليه ثم ان طالوت ركب يوما فوجد داود يمشى فى البرية فقال اليوم أقتله فركض على أثره فاشتد داود وكان اذا فزع لم يدرك فدخل غارا فأوحى الله تعالى الى العنكبوت فنسجت عليه بيتا فلما انتهى طالوت الى الغار ونظر الى بناء العنكبوت فقال لو كان دخل ههنا لخرق بناء العنكبوت فتركه ومضى وانطلق داود الى الجبل مع المتعبدين فتعبد فيه الى أن قتل طالوت وكان ملك طالوت الى أن قتل أربعين سنة وأتى بنو اسرائيل بداود وأعطوه خزائن طالوت وملكوه على أنفسهم قال الكلبى والضحاك ملك داود بعد قتل طالوت سبعين سنة ولم يجتمع بنو اسرائيل على ملك واحد الا على داود فذلك قوله تعالى (وآتاه الله الملك والحكمة) أى النبوة بعد موت شمويل

وطالوت ولم يجتمعا لاحد قبله بل كان الملك فى سبط والنبوة فى سبط وقيل الملك والحكمة العلم والعمل (وعلمه مما يشاء) كصنعة الدروع كان يصنعها ويبيعها وكان لا يأكل الا من عمل يده ومنطق الطير والصوت الطيب والالحان ولم يعط الله تعالى أحدا من خلقه مثل صوته كان اذا قرأ الزبور تدنو الوحوش حتى يؤخذ باعناقها وتظله الطير ويركد الماء الجارى ويسكن الريح والسلسلة كان لا يمسها ذو عاهة الا برأ وكانوا يتحاكمون اليها بمده الى أن رفعت فمن تعدى على صاحبه وأنكر له حقا أتى السلسلة فمن كان صادقا مد يده اليها فتناولها ومن كان كاذبا لم ينلها وكان ذلك الى أن ظهر فيهم المكر والخديعة فأودع بعض ملوكهم رجلا جوهرة ثمينة فلما طلبها منه أنكرها فتحاكما الى السلسلة فعمد الذى عنده الجوهرة الى عكازة فنقرها وضمنها الجوهرة واعتمد عليها حتى حضر السلسلة فقام صاحب الجوهرة فتناول السلسلة بيده ثم قام المنكر وقال لصاحب الجوهرة خذ عكازتى هذه فاحفظها حتى أتناول السلسلة فقال الرجل اللهم ان كنت تعلم ان الوديعة التى يدعيها قد وصلت اليه فقرب منى السلسلة فمد يده فتناولها فتعجب القوم وشكوا فيها فأصبحوا وقد رفع الله السلسلة (ولولا دفع الله الناس بعضهم) بدل بعض من الناس (ببعض) أى ولولا دفع الله بجنود المسلمين الكفار (لفسدت الارض) بغلبة المشركين وقتل المسلمين وتخريب المساجد أو لفسدت الارض بشؤم الكفر فيكون المعنى ولولا دفع الله بالمؤمنين والابرار عن الكفار والفجار لهلكت الارض بمن فيها ولكن الله يدفع بالمؤمن عن الكافر وبالصالح عن الفاجر وقد روى ان الله عز وجل ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ ابن عمر الآية وروى عن ابن عباس أنه قال يدفع الله تعالى بمن يصلى عمن لا يصلى وبمن يحج عمن لا يحج وبمن يزكى عمن لا يزكى وعن جابر بن عبد الله ان الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون فى حفظ الله ما دام فيهم وعن ابن مسعود ان لله عز وجل فى الخلق ثلثمائة قلوبهم على قلب آدم ولله فى الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى ولله فى الخلق سبعة قلوبهم على قلب ابراهيم ولله فى الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبرائيل ولله فى الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل ولله فى الخلق واحد قلبه على قلب اسرافيل فاذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة واذا مات واحد من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة واذا مات واحد من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة واذا مات واحد من السبعة أبدل الله مكانه من الاربعين واذا مات واحد من الاربعين أبدل الله مكانه من الثلثمائة واذا مات واحد من الثلثمائة أبدل الله مكانه من العامة فيهم يحيى ويميت قال لانهم يسألون الله اكثار الامم فيكثرون ويدعون على الجبابرة فينقصمون ويستسقون فيسقون ويسألون فتنبت لهم الارض ويدعون فيدفع الله أنواع البلاء (ولكن الله ذو فضل على العالمين) أى كلهم أولا بالايجاد وثانيا بالدفاع فهو يكف من ظلم الظلمة اما بعضهم ببعض أو بالصالحين ويسبغ عليهم غير ذلك من أنواب نعمه ظاهرة وباطنة (تلك) أى هذه الآيات التى قصصناها عليك من حديث الاولين وغلبة طالوت واتيان

التابوت وانهزام الجبابرة على يد صبى وهو داود وقتل داود جالوت (آيات الله) الذى جلت عظمته وتمت قدرته وقوته (نتلوها) أى نقصها (عليك) يا محمد (بالحق) أى بالوجه المطابق الذى لا يشك فيه أهل الكتاب لانهم يجدونه فى كتبهم كذلك وأرباب التواريخ (وانك) أى والحال انك (لمن المرسلين) بما دلت هذه الآيات عليه من علمك بها من غير معلم من البشر ثم باعجازها الباقى على مدى الدهر ولما تقدم فى هذه السورة ذكر رسل كثيرة وختم هذه الآيات بانه صلى الله عليه وسلم منهم تشوفت النفس الى معرفة أحوالهم فى الفضل هل هم فيه سواء أو هم متفاضلون فأشار الى علو مقادير الكل فى قوله (تلك الرسل) بأداة البعد اعلاما ببعد مراتبهم وعلو منازلهم وانهما بالمحل الذى لا ينال والمقام الذى لا يطال *(تنبيه)* تلك مبتدأ والرسل صفة أى الرسل التى ذكرت قصصها فى السورة أو التى ثبت علمها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أو جماعة الرسل واللام للاستغراق والخبر (فضلنا بعضهم على بعض) بتخصيصه بمنقبة ليست لغيره لما أوجب ذلك من تفضيلهم فى الحسنات بعد ان فضلنا الجميع بالرسالة ولما كان أكثر السورة فى بنى اسرائيل وأكثر ذلك فى اتباع موسى عليه الصلاة والسلام ذكر وصفه مع وصف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقال (منهم من كلم الله) بلا واسطة وهو موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم كلم موسى ليلة الحيرة وهى بفتح الحاء تحيره فى معرفة طريقه من مسيره من مدين الى مصر و فى الطور ومحمد ليلة المعراج حين كان قاب قوسين أو أدنى وبين المتكلمين بون عظيم ومنهم أيضا آدم كما ورد فى الحديث (ورفع بعضهم) وهو محمد صلى الله عليه وسلم (درجات) على غيره بعموم الدعوة وختم النبوة به والاتباع الكثيرة فى الازمان الطويلة وبنسخ جميع الشرائع وبكونه رحمة للعالمين وبتفضيل أمته على سائر الامم وبالمعجزات المتكاثرة المستمرة وأظهرها القرآن الذى عجز أهل السموات والارض عن الاتيان بسورة من مثله والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر والفضائل العلمية والعملية الغالبة للعصر ولو لم يؤت الا القرآن وحده كفى به فضلا منيفا على سائر ما أوتى الانبياء لانه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات وبانشقاق القمر باشارته وحنين الجذع بمفارقته وتسليم الحجر عليه وكلام البهائم والشهادة برسالته ونبع الماء من بين أصابعه وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من نبى من الانبياء الا وقد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة وروى عنه أنه قال أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى نصرت بالرعب من مسيرة شهر وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى وأعطيت الشفاعة وكان النبى يبعث الى قومه وبعثت الى الناس عامة وروى عنه أنه قال فضلت على الانبياء بست أوتيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا وأرسلت الى الخلق كافة وختم بى النبيون (وآتينا عيسى ابن مريم البينات) من احياء الموتى وغيره (وأيدناه) أى قويناه (بروح القدس) وهو جبريل

يسير معه حيث سار وخص عيسى صلى الله عليه وسلم باسمه لافراط اليهود في تحقيره والنصارى
في تعظيمه حيث قالوا هو ابن الله وأبهم محمدا صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى بعضهم حيث لم يقل
ورفع محمدا صلى الله عليه وسلم لما في الابهام من تفخيم فضله واعلاء قدره مالا يخفى لما فيه من
الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه والمتميز الذي لا يلتبس ويقال للرجل من فعل هذا فيقول
أحدكم أو بعضكم يراد به الذي تعورف واشتهر فيكون أفخم من التصريح به وأنوه بصاحبه وسئل
الحطيئة عن أشعر الناس فذكر زهيرا والنابغة ثم قال ولو شئت لذكرت الثالث أراد نفسه ولو قال
ولو شئت لذكرت نفسي لم يفخم أمره (ولو شاء الله) أي الذي له جميع الامر هدى الناس جميعا
باتفاقهم على دين واحد (ما اقتتل الذين من بعدهم) أي بعد الرسل أي ما اقتتلت أممهم (من بعد
ما جاءتهم البينات) أي المعجزات الواضحات على أيدي رسلهم لاختلافهم في الدين وتضليل
بعضهم بعضا (ولكن اختلفوا) لمشيئته تعالى ذلك (فمنهم) أي فتسبب عن اختلافهم ان كان
منهم (من آمن) أي ثبت على ايمانه (ومنهم من كفر) كالنصارى بعد المسيح * ولما كان من
الناس من أعمى الله قلبه فنسب أفعال المختارين من الخلق اليهم استقلالا قال الله تعالى معلما
أن الكل بخلقه تأكيدا لما مضى من ذلك ومعيدا ذكر الاسم الاعظم (ولو شاء الله ما اقتتلوا)
بعد اختلافهم بالايمان والكفر (ولكن الله يفعل ما يريد) فيوفق من يشاء فضلا منه ويخذل
من يشاء عدلا منه والآية دليل على أن الانبياء متفاوتة الاقدام وانه يجوز تفضيل بعضهم على
بعض ولكن بنص لان اعتبار الظن فيما يتعلق بالعمل لا بالاعتقاد وان الحوادث بيد الله لقوله
تعالى يفعل ما يريد تابعة لمشيئته تعالى خيرا كان أو شرا ايمانا أو كفرا * ولما كان الاختلاف على
الانبياء سببا للجهاد الذي هو حظيرة الدين وكان عماد الجهاد النفقة أتبع ذلك قوله رجوعا الى
أول السورة من هنا الى آخرها وأتى التأكيد بلفظ الامر لما تقدم الحث عليه من أمر النفقة
(يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم) أي مما أوجبت عليكم انفاقه من الزكاة قاله السدي
وقال غيره أراد به صدقة التطوع والنفقة في الخير أي فلا تبخلوا بالانفاق فانه لا داء أدوأ من
البخل قال تعالى ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وصرف الامر بالتبعيض الى الحلال
الطيب يمنع احتجاج المعتزلة بها في أن الرزق لا يكون الا حلالا لا لكونه مأمورا به واتبعه بما
يرغب ويرهب من حلول يوم التناد الذي تنقطع فيه الاسباب التي أقامها سبحانه وتعالى في هذه
الدار فقال (من قبل أن يأتي يوم) موصوف بأنه (لا بيع فيه) أي فداء (ولا خلة) أي صداقة
تنفع (ولا شفاعة) بغير اذنه والمعنى أنه لا يفدى فيه أسير بمال ولا يراعى الصداقة من مساو
ولا الشفاعة من كبير لعدم ارادة الله تعالى لشيء من ذلك ولا يكون الا ما يريد وقرأ ابن كثير وأبو
عمرو بالنصب في بيع وخلة وشفاعة ولا تنوين على الاصل والباقون بالرفع والتنوين على أنه في
تقدير جواب هل فيه بيع أو خلة أو شفاعة * ولما حث سبحانه وتعالى على الانفاق ختم الآية
بذم الكافرين بكونهم لم يتحلوا بهذه الصفة لتخلصهم من الايمان وبعدهم منه وتكذيبهم بذلك
اليوم فهم لا ينفقون لخوفه وارهابه فقال بدل ولا نصرة لكافر (والكافرون) أي المعلوم

كفرهم فى ذلك اليوم (هم) المختصون بأنهم (الظالمون) أى الكاملون فى الظلم لا غيرهم وقوله سبحانه (الله لا إله إلا هو) مبتدأ وخبر والمعنى أنه المستحق للعبادة لا غير (الحى) أى الدائم البقاء (القيوم) أى الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظهم (لا تأخذه سنة) وهى ما يتقدم النوم من الفتور الذى يسمى النعاس قال ابن الرقاع العاملى

وسنان أقصده (أى أصابه) النعاس فرنقت * فى عينه سنة وليس بنائم

أى لا يأخذه نعاس (ولا نوم) وهو حالة تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الابخرة المتصاعدة بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الاحساس (فإن قيل) تقديم السنة على النوم قياس المبالغة عكسه (أجيب) بأن هذا ذكر على ترتيب الوجود اذ وجود السنة سابق على وجود النوم فهو على طريقة لا يغادر صغيرة ولا كبيرة قصدا الى الاحاطة والاحصاء ولانه لما عبر بالاخذ الذى هو بمعنى القهر والغلبة وجب تقديم السنة كما لو قيل فلان لا يغلبه أمير ولا سلطان وجملة لا تأخذه سنة ولا نوم نفى للتشبيه بينه وبين خلقه وتأكيد لكونه حيا قيوما فان من أخذه نعاس أو نوم كان مؤفة مختل الحياة قاصرا فى الحفظ والتدبير ولذلك ترك العاطف فيه وفى الجمل التى بعده من قوله له ما فى السموات وما فى الارض الخ وقوله تعالى (له) أى بيده وفى تصرفه واختصاصه (ما فى السموات وما فى الارض) أى ملكا وخلقا تقريرا لقيوميته واحتجاج على تفرده فى الالوهية والمراد بما فيهما ما وجد فيهما داخلا فى حقيقتهما كالكواكب والنبات والمعادن او خارجا عنهما متمكنا فيهما كالملائكة والانس والجن وقوله تعالى (من ذا الذى) أى لا أحد (يشفع عنده الا باذنه) له بيان لكبرياء شأنه وانه لا أحد يساويه أو يدانيه يستقل بأن يدفع ما يريده شفاعة وتواضعا فضلا أن يدفعه عنادا ومخاصمة (يعلم ما بين أيديهم) أى الخلق من أمر الدنيا (وما خلفهم) أى من أمر الآخرة قاله مجاهد وقال الكلبى ما بين أيديهم يعنى الآخرة لانهم يقدمون عليها وما خلفهم الدنيا لانهم يخلفونها وراء ظهورهم وقيل ما بين أيديهم ما قدموا من خير وشر وما خلفهم ما هم فاعلوه (ولا يحيطون بشئ) أى قليل ولا كثير (من علمه) أى لا يعلمون شيأ من معلوماته (الا بما شاء) أن يعلمهم به منها باخبار الرسل (وسع كرسيه السموات والارض) اختلف فى الكرسى فقال الحسن هو العرش نفسه وقال أبو هريرة هو موضع أمام العرش والاحاديث تدل عليه ومعنى وسع أن سعته مثل سعة السموات والارض وفى الاخبار ان السموات والارض فى جنب الكرسى كحلقة فى فلاة والكرسى فى جنب العرش كحلقة فى فلاة ويروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان السموات السبع فى الكرسى كدراهم سبعة القيت فى ترس وقال على ومقاتل كل قائمة من الكرسى طولها مثل السموات السبع والارضين السبع وهو بين يدى العرش ويحمل الكرسى أربعة أملاك لكل ملك أربعة وجوه وأقدامهم فى الصخرة التى تحت الارض السابعة السفلى مسيرة خمسمائة عام ملك على صورة أبى البشر آدم عليه الصلاة والسلام وهو يسأل للآدميين الرزق والمطر من السنة الى السنة وملك على صورة سيد الانعام وهو الثور

يسأل للأنعام الرزق من السنة الى السنة وعلى وجهه غضاضة منذ عبد العجل وملك على صورة سيد السباع وهو الاسد يسأل الرزق للسباع من السنة الى السنة وملك على صورة سيد الطير وهو النسر يسأل للطير الرزق من السنة الى السنة وفى بعض الاخبار ان ما بين حملة العرش وحملة الكرسى سبعين حجابا من ظلمة وسبعين حجابا من نور غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام لولا ذلك لاحترقت حملة الكرسى من نور حملة العرش وقيل المراد بالكرسى علمه وقيل ملكه وقيل تصوير لعظمته وتمثيل مجرد (ولا يؤده) أى لا يثقله ولا يشق عليه (حفظهما) أى السموات والارض (وهو العلى) أى الرفيع فوق خلقه المتعالى عن الاشباه والانداد (العظيم) أى الكبير الذى لا شئ أعظم منه المستحقر بالاضافة اليه كل ما سواه وهذه الآية تسمى آية الكرسى مشتملة على أمهات المسائل الالهية فانها دالة على أنه موجود واحد فى الالهية متصف بالحياة واجب الوجود لذاته موجد لغيره اذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره منزه عن التحيز والحلول مبرأ عن التغير والفتور لا يناسب الاشباح ولا يعتريه ما يعترى الارواح مالك الملك والملكوت ومبدع الاصول والفروع ذو البطش الشديد الذى لا يشفع عنده الا من أذن له عالم بالاشياء كلها جليها وخفيها كليها وجزئيها واسع الملك والقدرة اذ المقدور كل ما يصح أن يملك ويقدر عليه لا يؤده شاق ولا يشغله شان عن شان متعال عما يدركه وهم عظيم فلا يحيط به فهم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام ان أعظم آية فى القرآن آية الكرسى رواه مسلم وروى النسائى وابن حبان وغيرهما انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ آية الكرسى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة الا الموت أى فاذا مات دخل الجنة وروى البيهقى فى شعبه أنه صلى الله عليه وسلم قال لا يواظب عليها الا صديق أو عابد وروى البيهقى أيضا ان من قرأها اذا أخذ مضجعه امنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والابيات حوله وعن أبى بن كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم سأله أى آية من كتاب الله أعظم قال قلت الله لا اله الا هو الحى القيوم قال فضرب فى صدرى ثم قال ليهنك العلم أبا المنذر والذى نفسى بيده ان لها لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش وعن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ حين يصبح آية الكرسى وآيتين من أول حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم حفظ فى يومه ذلك حتى يمسى فان قرأهما حين يمسى حفظ فى ليلته تلك حتى يصبح وروى ما قرئت آية الكرسى فى دار الا هجرتها الشياطين ثلاثين يوما ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة يا على علمها ولدك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها وتذاكر الصحابة أفضل ما فى القرآن فقال لهم على رضى الله تعالى عنه أين أنتم عن آية الكرسى ثم قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا على سيد البشر آدم وسيد العرب محمد ولا فخر وسيد الفرس سلمان وسيد الروم صهيب وسيد الحبشة بلال وسيد الجبال الطور وسيد الايام يوم الجمعة وسيد الكلام القرآن وسيد القرآن البقرة وسيد البقرة آية الكرسى (لا اكراه فى الدين) أى على الدخول فيه أى فمن أعطى الجزية لم يكره على الاسلام فهو عام مخصوص بأهل الكتاب لما روى أن أنصاريا كان له ابنان تنصرا قبل المبعث ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال والله لا أدعكما حتى تسلما فأبيا فاختصموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الانصارى يا رسول الله

قوله ان ما بين حملة الخ كذا فى الاصول التى بأيدينا باثبات ما ونصب سبعين ولعله على حذف ان حراسا أسدا اه مصححه

أيدخل بعضى النار وأنا أنظر فنزلت وقيل عام منسوخ فكان هذا فى الابتداء قبل أن يؤمر بالقتال فصارت الآية منسوخة بآية السيف قاله ابن مسعود (قد تبين الرشد من الغى) أى ظهر بالآيات البينات أن الايمان رشد يوصل الى السعادة الابدية وان الكفر غى يؤدى الى الشقاوة السرمدية والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه الى الايمان طلبا للفوز بالسعادة والنجاة فلم يحتج الى الاكراه والالجاء (فمن يكفر بالطاغوت) أى فمن اختار الكفر بالشيطان أو الاصنام (ويؤمن بالله) أى بالتوحيد وتصديق الرسل (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى تمسك واعتصم بالعقد الوثيق المحكم فى الدين (لا انفصام) أى لا انقطاع (لها) قال التفتازانى شبه التدين بالدين الحق والثبات على الهدى والايمان بالتمسك بالعروة الوثقى المأخوذة من الحبل المحكم المأمون تقطعها ثم ذكر المشبه به وأراد المشبه وقال الزمخشرى وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصوره السامع كأنه ينظر اليه بعينه فيحكم اعتقاده والتيقن به اهـ والوثقى تأنيث الاوثق وقيل العروة الوثقى السبب الذى يتوصل به الى رضا الله تعالى (والله سميع) لما يقال (عليم) بالنيات والافعال وقيل سميع لدعائك اياهم الى الاسلام عليم بحرصك على ايمانهم (الله ولى) أى ناصر ومعين (الذين آمنوا) أى أرادوا أن يؤمنوا لقوله تعالى (يخرجهم) أى بلطفه وتأييده (من الظلمات) أى الكفر (الى النور) أى الايمان أو أنهم الثابتون على الايمان بأن يخرجهم من الشبهة فى الدين ان وقعت لهم بما يهديهم ويوفقهم له من أجلها حتى يخرجوا منها الى نور اليقين وعن ابن عباس أنهم قوم كانوا كفروا بعيسى وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) أى الشيطان وقال مقاتل هو كعب بن الاشرف وحيى بن أخطب وسائر رؤس الضلالة (يخرجونهم) أى يدعونهم (من النور) الذى منحوه بالفطرة (الى الظلمات) أى الكفر (فان قيل) كيف يخرجونهم من النور وهم كفار لم يكونوا فى نور قط (أجيب) بأن الطبرانى روى عن ابن عباس أنها نزلت فى قوم آمنوا بعيسى فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كفروا به أو أنه تعالى ذكر الاخراج فى مقابلة يخرجهم من الظلمات فهو على العموم فى حق جميع الكفار كما يقول الرجل لابيه أخرجتنى من مالك ولم يكن فيه كما قال تعالى اخبارا عن يوسف عليه الصلاة والسلام انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ولم يكن قط فى ملتهم وقيل نزلت فى قوم ارتدوا عن الاسلام واسناد الاخراج الى الطاغوت باعتبار السبب لا يأبى تعلق قدرته تعالى وارادته به والطاغوت يكون مذكرا ومؤنثا وواحدا وجمعا قال تعالى فى المذكر والواحد يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به وقال تعالى فى المؤنث والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وقال فى الجمع يخرجونهم من النور الى الظلمات وقوله تعالى (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وعيد وتحذير قال البيضاوى ولعل عدم مقابلته بوعد المؤمنين تعظيم لشأنهم ولما كان النمروذ المحاج للخليل ممن أخرجته الشياطين من النور الى الظلمات ذكره عقب ذلك فقال (ألم تر) أى تعلم بما نخبرك به علما هو عندك كالمشاهدة لما لك من كمال البصيرة وعيا أودعناه فيك من المعانى المنيرة

(الى الذى) وهو نمروذ (حاج) جادل وخاصم (ابراهيم فى ربه) وهو أول من وضع التاج على رأسه وتجبر فى الارض وادّعى الربوبية (ان) أى لان (آتاه الله الملك) فطغى أى كانت تلك المحاجة من بطر الملك وطغيانه فأورثه الكبر والعتو فحاج لذلك وقال مجاهد ملك الارض مشرقها ومغربها أربعة نفر مؤمنان وكافران أما المؤمنان فسليمان صلى الله عليه وسلم وذو القرنين وأما الكافران فنمروذ بن كنعان وبختنصر لم يملكها غيرهم وفى الآية دليل على أن الله تعالى يعطى الكافر الملك ففيها حجة على من منع ايتاء الملك للكافر من المعتزلة وأول الملك بالمال والخدم الذى يتسلط به على غلبة الناس لا الملك الحقيقى وبهذا أول الزمخشرى (اذ قال ابراهيم ربى الذى) قرأ حمزة ربى بسكون الياء والباقون بنصبها (يحيى ويميت) أى يخلق الموت والحياة فى الاجساد وهذا جواب سؤال غير مذكور تقديره قال له نمروذ من ربك فقال له ابراهيم ذلك واختلفوا فى وقت هذه المناظرة فقال مقاتل لما كسر ابراهيم الاصنام سجنه نمروذ ثم أخرجه ليحرقه بالنار فقال له من ربك الذى تدعونا اليه وقال آخرون كان هذا بعد القائه فى النار وذلك ان الناس قحطوا على عهد نمروذ وكان الناس يمتارون من عنده فكان اذا أتاه الرجل فى طلب الطعام سأله من ربك فان قال أنت باع منه الطعام فأتاه ابراهيم فقال له من ربك فقال له ذلك (قال أنا أحيى وأميت) قرأ نافع بمد الالف من أنا فيصير مدا منفصلا والباقون بالقصر قال أكثر المفسرين دعا نمروذ برجلين فقتل أحدهما واستحيا الآخر فجعل ترك القتل احياء فانتقل ابراهيم الى حجة أخرى لا عجزا بل لما رآه من غباوته فان حجته لازمة لانه أراد بالاحياء احياء الميت فكان له أن يقول فأحى من أمت ان كنت صادقا لكنه انتقل الى حجة أوضح من الاولى ذكرها الله تعالى بقوله (قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس) وهو الذى أوجدها (من المشرق) أى فى كل يوم قبل أن توجد أنت بدهور (فأت بها) أنت (من المغرب) ان كنت صادقا فيما تدعيه ولو يوما واحدا وفى ذلك اشعار بأن الله تعالى لابد وأن يأتى بالشمس من المغرب ليكون فى ذلك اظهار تصريفه لها حيث شاء يطلعها من حيث غربت كما يطلع الروح من حيث قبضت ليكون طلوع الشمس من مغربها آية مقاربة لقيام الساعة وطلوع الارواح من أبدانها (فبهت الذى كفر) تحير ودهش وانقطعت حجته ولم يعط ابراهيم طعاما فرجع فمر على كثيب رمل أعفر فأخذ منه تطييبا لقلوب أهله اذا دخل عليهم فلما أتى أهله ووضع متاعه نام فقامت امرأته الى متاعه ففتحته فاذا هو أجود طعام رأته فأخذته وصنعت له منه وقربته له فقال لها من أين هذا قالت من الطعام الذى جئت به فعرف ان الله تعالى رزقه فحمد الله تعالى (فان قيل) كيف بهت نمروذ وكان يمكنه ان يعارض ابراهيم فيقول له سل أنت ربك حتى يأتى بها من المغرب (أجيب) بأن الله تعالى صرفه عن ذلك اظهارا للحجة عليه أو معجزة لابراهيم عليه الصلاة والسلام أو أنه خاف ان لو سأل ذلك دعا ابراهيم ربه فكانت زيادة فى فضيحته وانقطاعه ثم بعث الله تعالى الى نمروذ بن كنعان ملكا أن آمن بى واتركك على ملكك قال فهل رب غيرى فجاءه الثانية فقال له ذلك فأبى عليه ثم أتاه الثالثة فأبى عليه فقال له ذلك الملك فاجمع جموعك الى ثلاثة أيام

فجمع الجبار جموعه فأمر الله تعالى الملك ففتح عليه بابا من البعوض فطلعت الشمس فلم يروها من كثرتها فبعثها الله عليهم فأكلت لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق الا العظام ونمروذ كما هو لم يصبه من ذلك شئ فبعث الله عليه بعوضة فدخلت فى منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق وأرحم الناس به من جمع يديه ثم ضرب بهما رأسه وكان جبارا أربعمائة سنة فعذبه الله تعالى أربعمائة سنة كملكه ثم أماته الله وهو الذى بنى صرحا طويلا ليصعد منه الى السماء ليقاتل أهلها فأرسل الله تعالى عليه الريح فهدمته وستأتى قصته فى غافر ان شاء الله تعالى (والله لايهدى القوم الظالمين) بالكفر الى محجة الاحتجاج (أو كالذى مر على قرية) فيه حذف تقديره أورأيت مثل الذى فحذف لدلالة ألم تر عليه لان كلتيهما كلمة تعجب وتخصيصه بحرف التشبيه لان المنكرين للاحياء كثيروالجاهل بكيفيته أكثرمن أن يحصى بخلاف مدعى الربوبية وقيل الكاف مزيدة وتقديرالكلام ألم تر الى الذى حاج أو الى الذى مر والمار عزير بن شرحيا أوالخضر أوالكافر بالبعث ويؤيد هذا نظمه مع نمروذ فى سلك وكلمة الاستبعاد التى هى أنى يحيى وأكثر المفسرين على الاول والقرية بيت المقدس حين خربها بختنصر وقتل بنى اسرائيل حتى أفناهم ثم أمر جنوده ان يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا فيقذفه فى بيت المقدس ففعلوا حتى ملؤه ثم أمرهم أن يجمعوا من كان فى بلدان بيت المقدس فاجتمع عنده صغيرهم وكبيرهم من بنى اسرائيل فاختار منهم سبعين ألف صبى فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل رجل منهم أربعة وفرق من بقى من بنى اسرائيل ثلاث فرق فثلثا قتلهم وثلثا سباهم وثلثا أقرهم بالشأم وقيل هى القرية التى خرج منها الالوف وقيل غيرهما (وهى خاوية) أى ساقطة (على عروشها) أى سقوفها بأن سقط السقف أولا ثم سقطت الجدران عليه لما أخربها بختنصر (قال أنى) أى كيف (يحيى هذه الله بعد موتها) أى بما صارت اليه من الخراب وذهاب الاهل فيعيدها الى ما كانت عليه عامرة آهلة وهذا اعتراف بالعجز عن معرفة طريق الاحياء واستعظام لقدرة المحيى ان كان القائل مؤمنا واستبعاد ان كان كافرا (فأماته الله) وألبثه (مائة عام) ميتا (ثم بعثه) بالاحياء ليريه كيفية ذلك (قال كم لبثت) أى مكثت أى لما أحياه الله بعث اليه ملكا فسأله كم لبثت وعن ابن عباس ان عزيرا كان عبدا صالحا حكيما خرج ذات يوم الى ضيعة له يتعاهدها فلما انصرف انتهى الى خربة حين قامت الظهيرة فأصابه الحر فدخل الخربة وهو على حمار له فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب فنزل فى ظل تلك الخربة وأخرج قصعة كانت معه فاعتصر من العنب الذى كان معه فى القصعة ثم أخرج خبزا يابسا معه فألقاه فى تلك القصعة فى العصير ليبتل فيأكله ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه الى الحائط فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهى ساقطة على عروشها ورأى عظاما بالية فقال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فلم يشك ان الله يحييها ولكن قالها تعجبا فبعث الله ملك الموت فقبض روحه فأماته الله مائة عام فلما أتت عليه مائة عام وكان فيما بين ذلك فى بنى اسرائيل أمور واحداث فبعث الله الى عزير ملكا فخلق قلبه ليعقل به وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحيى الله الموتى ثم ركب خلقه وهو ينظر ثم كسا عظامه اللحم والشعر والجلد ثم نفخ فيه الروح كل ذلك يرى

ويعقل

ويعقل فاستوى جالسا فقال له الملك كم لبثت (قال لبثت يوما) وذلك ان الله تعالى أماته ضحى فى أول النهار وأحياه بعد مائة عام فى آخر النهار قبل غيبوبة الشمس فقال لبثت يوما وهو يرى أن الشمس قد غربت ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال (أو بعض يوم) أى بل بعض يوم (قال) أى الله أو الملك له (بل لبثت مائة عام) قرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة فى كم لبثت وفى قال لبثت وفى بل لبثت والباقون بالادغام ثم قال له الله أو الملك (فانظر الى طعامك) وكان تينا أو عنبا (وشرابك) وكان عصيرا أو لبنا (لم يتسنه) أى لم يتغير بمرور الزمان فكان التين أو العنب كأنه قد قطف من ساعته والعصير كأنه قد عصر أو اللبن قد حلب من ساعته قال الكسائى أى كأنه لم يأت عليه السنون وانما أفرد الضمير لان الطعام والشراب كالجنس الواحد (فان قيل) اذا كان المار كافرا فكيف يسوغ ان يكلمه الله (أجاب الزمخشرى) بأن الكلام كان بعد البعث ولم يك اذ ذاك كافرا وقال أبو حيان لا نص فى الآية ان الله كلمه شفاها وقرأ حمزة والكسائى لم يتسن باسقاط الهاء اذا وصلها بما بعدها والباقون باثباتها وفى الوقف ثابتة للجميع (وانظر الى حمارك) كيف هو فرآه ميتا وعظامه بيض وكان له حمار قد ربطه وقيل رآه حيا مكانه كما ربطه حفظ بلا ماء ولا علف كما حفظ الطعام والشراب من التغير وقوله تعالى (ولنجعلك آية للناس) معطوف على محذوف تقديره فعلنا ذلك لتعلم ولنجعلك آية وقيل الواو زائدة مقحمة أى لنجعلك عبرة ودلالة على البعث بعد الموت (وانظر الى العظام كيف ننشرها) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالراء ومعناه نحييها والباقون بالزاى ومعناه نرفعها من الارض ونردها الى أماكنها من الجسد وفى الآية تقديم وتأخير وتقديرها وانظر الى حمارك وانظر الى العظام كيف ننشرها ولنجعلك آية للناس واختلفوا فى معنى الآية فقال الاكثرون انه أراد به عظام حماره وهذا يؤيد كون حماره كان ميتا قال السدى ان الله أحيا عزيرا ثم قال له انظر الى حمارك قد هلك وبليت عظامه فبعث الله ريحا فجاءت بعظام الحمار من كل سهل وجبل الذى ذهبت به الطيور والسباع فاجتمعت فركب بعضها فى بعض وهو ينظر فصار حمارا من عظام ليس فيه لحم ولا دم ثم كسا العظام لحما ودما كما قال تعالى (ثم نكسوها لحما) فصار حمارا لا روح فيه ثم أقبل ملك يمشى حتى أخذ بمنخر الحمار فنفخ فيه فقام الحمار ونهق باذن الله تعالى وقال الاقلون أراد به عظام هذا الرجل فأحيا الله عينيه ورأسه وسائر جسده ميت ثم قال انظر الى حمارك فنظر فرأى حماره قائما واقفا كهيئته يوم ربطه وهذا يؤيد كون حماره كان حيا وذلك من أعظم الآيات أن يعيش مائة عام من غير علف ولا ماء قال الضحاك وقتادة وتقدير الآية أى على هذا وانظر الى حمارك وانظر الى عظامك كيف ننشرها روى أن عزيرا لما أحياه الله تعالى ركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر الناس ومنازله فانطلق على وهم حتى أتى منزله فاذا هو بعجوز عمياء مقعدة أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت أمة لهم فخرج عزير عنهم وهى بنت عشرين سنة فقال لها عزير ياهذه هذا منزل عزير قالت نعم هذا منزل عزير وبكت وقالت ما رأيت أحدا من كذا وكذا سنة يذكر عزيرا فقال فانى أنا عزير فقالت سبحان الله فان عزيرا فقدناه من مائة سنة لم نسمع له بذكر قال ان الله أماتنى مائة سنة ثم

يعني قالت فان عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة يدعو للمريض وصاحب البلاء بالعافية فادع الله أن يرد على بصري حتى أراك فان كنت عزيرا عرفتك فدعا ربه ومسح يده على عينيها فصحتا وأخذ بيدها فقال قومي باذن الله تعالى فاطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال فنظرت اليه فقالت أشهد أنك عزير فانطلقت الى بني اسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم وابن العزير شيخ ابن مائة سنة وثمان عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ في المجلس قال الضحاك عاد الى قريته شابا وأولاده وأولاد أولاده شيوخ وعجائز وهو أسود الرأس واللحية فقالت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فرد على بصري واطلق رجلي وزعم أن الله أماته مائة عام ثم بعثه فنهض الناس واقبلوا عليه ونظروا اليه وقال ابنه كان لابي شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه فكشف عن كتفيه فاذا هو عزير فقال بنو اسرائيل فانه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عزير فقرأ لهم التوراة من الحفظ ولم يحفظها أحد قبله فعرفوه بذلك وقالوا هو ابن الله وسيأتي الكلام على ذلك في سورة براءة ان شاء الله تعالى (فلما تبين له) ذلك بالمشاهدة وفاعل تبين مضمر تقديره فلما تبين له ان الله على كل شيء قدير (قال أعلم ان الله على كل شيء قدير) فحذف من الاول لدلالة الثاني عليه كما في قولهم ضربني وضربت زيدا وقرأ حمزة والكسائي بوصل الهمزة قبل العين وسكون الميم والباقون بقطع الهمزة ورفع الميم (و) اذكر (اذ قال ابراهيم رب أرني) أي أبصرني قرأ ابن كثير والسوسي بسكون الراء من أرني وقرأ الدوري باختلاس الكسرة والباقون بكسرة كاملة (كيف تحيي الموتى) قال الحسن وقتادة والضحاك كان سبب هذا السؤال من ابراهيم عليه السلام أنه مر على دابة ميتة قال ابن جرير كانت جيفة حمار فرآها وقد توزعتها دواب البحر والبر فكانت اذا مد البحر جاءت الحيتان ودواب البحر فأكلت منها وما وقع منها يصير في البحر واذا انحسر البحر جاءت السباع فأكلت منها وما وقع منها يصير ترابا فاذا ذهبت السباع جاءت الطير فأكلت منها وما سقط قطعته الريح في الهواء فلما رأى ذلك ابراهيم تعجب منها وقال يارب قد علمت انك لتجمعها من بطون السباع وحواصل الطير وأجواف دواب البحر فأرني كيف تحييها فازداد يقينا فعاتبه الله بقوله (قال أولم تؤمن) بقدرتي على الاحياء سأله مع علمه بايمانه بذلك ليجيب بما أجاب به فيعلم السامعون غرضه (قال بلى) يارب آمنت (ولكن ليطمئن قلبي) أي ليسكن قلبي الى المعاينة والمشاهدة أراد أن يصير له بعد علم اليقين عين اليقين فان العيان يفيد في المعرفة والطمأنينة مالا يفيده الاستدلال وأما قوله صلى الله عليه وسلم نحن أحق بالشك من ابراهيم ولو لبثت في السجن طول مالبث يوسف لأجبت الداعي فقال أبو سليمان الخطابي ليس فيه اعتراف بالشك على نفسه ولا على ابراهيم لكن فيه نفي الشك عنهما يقول اذا لم أشك في قدرة الله تعالى على احياء الموتى فابراهيم أولى بأن لا يشك وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس وكذلك قوله ولو لبثت في السجن طول مالبث يوسف وقيل سبب سؤاله أنه لما قال له نمروذ أنا أحيي وأميت قال له ان احياء الله برد الروح الى بدنها فقال نمروذ هل عاينته فلم يقدر أن يقول نعم وانتقل الى تقرير آخر ثم سأل ربه أن يريه ليطمئن قلبه في الجواب ان سئل عنه مرة

أخرى (فان قيل) بم تعلقت اللام فى ليطمئن (أجيب) بأنها تعلقت بمحذوف تقديره ولكن سألت ذلك ارادة طمأنينة القلب (وقيل) بل كان قصده بالسؤال رؤية الحي ولكنه طلبها تلويحا فأجيب بالمنع منها تلويحا وموسى عليه الصلاة والسلام لما سألها تصريحا أجيب بالمنع تصريحا قال تعالى (فخذ أربعة من الطير) قال مجاهد وابن جرير أخذ طاوسا وديكا وحمامة وغرابا وانما خص الطير لانه أقرب الى الانسان شبها كتدوير الرأس والمشي على رجلين واجمع لخواص الحيوان لان فيها ما يتكلم وما يهتدى للطريق كالقطاة وللمياه كالهدهد وفي هذا ايماء الى أن احياء النفس بالحياة الابدية انما يتأتى باماتة حب الشهوات والزخارف التى هى صفة الطاوس والصولة المشهور بها الديك وخسة النفس وبعد الامل المتصف بهما الغراب والترفع والمسارعة الى الهوى الموسوم بهما الحمام ومنهم من ذكر النسر بدل الحمامة وروى بدلها البطة وبدل الغراب الغرنوق (فصرهن) أى فأمسكهن واضممهن (اليك) قرأ حمزة بكسر الصاد والباقون بضمها (فان قيل) ما معنى أمره بضم الطير الى نفسه بعد أن يأخذها (أجيب) بأنه ليتأملها ويعرف اشكالها وهيآتها وحلاها لئلا تلتبس عليه بعد الاحياء ولا يتوهم أنها غيرها ولذلك قال يأتينك سعيا وروى أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق اجزاءها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها وان يمسك رؤسها ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال كما قال تعالى (ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ) واختلفوا فى عدد الاجزاء والجبال فقال ابن عباس وقتادة أمره الله تعالى أن يجعل كل طائر أربعة أجزاء ويجعلها على أربعة أجبل على كل جبل جزء من كل طائر وقال السدى وابن جريج جزأها سبعة أجزاء ووضعها على سبعة أجبل وأمسك رؤسهن ثم دعاهن تعالين باذن الله فجعل كل قطرة من دم طائر تصير الى القطرة الاخرى وكل ريشة الى الريشة الاخرى وكل عظم يصير الى العظم الآخر وابراهيم ينظر حتى صارت جثثا بغير رؤس ثم أقبلن الى رؤسهن سعيا فالتقى كل طائر برأسه فذلك قوله تعالى (ثم ادعهن يأتينك سعيا) أى سريعا وقيل مشيا لانها لو طارت لربما توهم متوهم انها غير تلك الطير وان أرجلها غير سليمة قال البيضاوى وفى ذلك اشارة الى أن من أراد احياء نفسه بالحياة الابدية فعليه ان يقبل على القوى البدنية كالشهوة والغضب فيقتلها ويمزج بعضها ببعض حتى تنكسر سورتها فتطاوعه مسرعات متى دعاهن بداعية العقل أو الشرع وكفى لك شاهدا على فضل ابراهيم وعنه أى بركته حيث سلك مسلك الضراعة فى الدعاء وحسن الادب فى السؤال انه تعالى أراه ما أراد ان يريه فى الحال على أيسر الوجوه وأراه عزيرا بعد ان أماته مائة عام (واعلم ان الله عزيز) لا يعجز عما يريد (حكيم) ذو حكمة بالغة فى كل ما يفعله (مثل الذين ينفقون) أى يبذلون (أموالهم) بطيب النفس (فى سبيل الله) الذى له الكمال كله أى فى طاعته كمثل زراع ومثل ما ينفقون (كمثل حبة) مما زرعه فلا بد من حذف كما تقرر أو يقال مثل نفقتهم كمثل حبة أو مثلهم كمثل باذر حبة (أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) والمنبت هو الله سبحانه وتعالى ولكن الحبة لما كانت سببا أسند اليها الانبات كما يسند الى الارض والى الماء وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم

باظهار تاء التأنيث عند السين والباقون بالادغام ومعنى انباتها سبع سنابل أن يخرج منها ساق يتشعب منه سبع شعب لكل واحدة سنبلة وهذا التمثيل تصوير الاضعاف كأنها مصورة بين عيني الناظر (فان قيل) كيف صح هذا التمثيل ولم تر سنبلة فيها مائة حبة (أجيب) بأن ذلك موجود في الدخن والذرة وغيرهما وربما فرخت ساق البرة في الارض القوية المغلة فبلغ حبها هذا المبلغ وعلى تقدير عدم وجوده هو غير مستحيل ومالا يكون مستحيلا يجوز ضرب المثل به وتأول ذلك الضحاك فقال كل سنبلة أنبتت مائة حبة (فان قيل) هلا قال الله تعالى سبع سنبلات لانه جمع قلة كما قال الله تعالى وسبع سنبلات خضر (أجيب) بما تقدم في قوله تعالى ثلاثة قروء (والله يضاعف لمن يشاء) بفضله تلك المضاعفة أو يضاعف على هذا ويزيد لمن شاء ما بين سبعين الى سبعمائة الى ما شاء من الاضعاف مما لا يعلمه الا الله على حسب حال المنفق من اخلاصه وتعبه ومن أجل ذلك تتفاوت الاعمال في مقادير الثواب (والله واسع) أي غني يعطي عن سعة (عليم) بنية المنفق وقدر انفاقه وبمن يستحق المضاعفة (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) أي في طاعته قال الكلبي نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم صدقة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كان عندي ثمانية آلاف درهم فأمسكت منها لنفسي وعيالي أربعة آلاف وأربعة آلاف أقرضتها ربي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت وأما عثمان فجهز المسلمين في غزوة تبوك بألف بعير بأقتابها وأحلاسها وألف دينار قال عبد الرحمن بن سمرة جاء عثمان بألف دينار في جيش العسرة فصبها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يدخل فيها يده ويقلبها ويقول ماضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم وقال يارب عثمان رضيت عنه فارض عنه (ثم لا يتبعون ما انفقوا منا) أي على المنفق عليه بقولهم مثلا قد أحسنت اليه وجبرت حاله فيعتدون عليه النعمة فحذر الله عباده المن بالصنيعة واختص به صفة لنفسه لانه من العباد تعيير وتكدير ومن الله افضال وتذكير وكان السلف يقولون اذا صنعتم صنيعة فانسوها والعرب تمدحون بترك المن ويذمون عليه فمن الاول قول القائل

زاد معروفك عندي عظما * أنه عندك مستور حقير
تتناساه كأن لم تأته * وهو في العالم مشهور كبير

ومن الثاني قول القائل

وان امرأ أسدى الي صنيعة * وذكرنيها مرة لبخيل

وقيل طعم الآلاء أحلى من المن وهي أمر من الآلاء مع المن ويطلق المن أيضا على النعمة يقال لفلان علي منة أي نعمة وأنشد ابن الانباري

فمن علينا ابا السلام فانما * كلامك ياقوت ودر منظم

وقال تعالى لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا الآية (ولا أذى) له كان يذكر ذلك الى من لا يحب وقوفه عليه أو يتطاول عليه بسبب ما أنعم عليه وثم للتفاوت بين الانفاق وترك المن

والاذى

والاذى (لهم أجرهم) أى ثواب انفاقهم (عند ربهم ولا خوف عليهم) أى فلا يخافون فقد اجورهم (ولاهم يحزنون) فى الآخرة بسبب ان لا يوجد (قول معروف) أى كلام حسن ورد على السائل جميل لان القول الجميل وان كان رد السائل يفرح قلبه ويروح روحه وقيل عدة حسنة (ومغفرة) أى بأن يستر عليه خلته ولا يهتك ستره ويتجاوز عنه اذا وجد منه ما يثقل عليه عند رده (خير من صدقة) يدفعها اليه (يتبعها أذى) أى من وتعيير السائل أو قول يؤذيه (فان قيل) لم لم يعد ذكر المن فيقول يتبعها من أو أذى (أجيب) بأن الاذى يشمل المن وغيره كما تقرر وانما نص عليه فيما مر لكثرة وقوعه من المتصدقين وعسر تحفظهم منه ولذلك قدم على الاذى قال بعضهم الآية واردة فى صدقة التطوع لان الواجب لا يحل منعه ويحتمل أن يراد بها الواجب فانه قد يعدل به عن سائل الى سائل وعن نفر الى نفر وانما صح الابتداء بالنكرة وهى قول لاختصاصها بالصفة وهى معروف وأما المعطوف وهو مغفرة فلا يحتاج الى مخصص لتبعيتها (والله غنى) عن صدقة العباد وانما أمرهم ليثيبهم عليها (حليم) بتأخير العقوبة عن المان والمؤذى بصدقته (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم) أى أجورها لان الصدقة وقعت فلا يصح ان تبطل (بالمن والاذى) (فان قيل) ظاهر هذا اللفظ أن مجموع المن والاذى يبطل الاجر فيلزم انه لو وجد أحدهما دون الآخر لا يبطل الاجر (أجيب) بأن الشرط أن لا يوجد واحد منهما دون الآخر لان قوله تعالى ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى يقتضى أن لا يقع هذا ولا هذا أى فيبطل بكل واحد منهما ابطالا (كالذى) أى كابطال أجر نفقة الذى (ينفق ماله رئاء الناس) أى مرائيا لهم ليروا نفقته ويقولون انه كريم سخى (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) وهو المنافق لان الكافر معلن بكفره غير مراء (فمثله) أى هذا المرائى فى انفاقه (كمثل صفوان) وهو الحجر الاملس (عليه) أى استقر عليه (تراب) والتراب معروف وهو اسم جنس لا يثنى ولا يجمع وقال المبرد هو جمع واحده ترابة وفائدة هذا الخلاف أنه لو قال لزوجته أنت طالق عدد التراب أنه يقع عليه طلقة على الاول وهو الاصح وثلاث على الثانى (فأصابه وابل) وهو المطر الشديد العظيم القطر (فتركه صلدا) أى أملس نقيا من التراب وقوله تعالى (لا يقدرون على شئ مما كسبوا) استئناف لبيان مثل المنافق المنفق رياء أى لا يجدون له ثوابا فى الآخرة كما لا يوجد على الصفوان شئ من التراب الذى كان عليه لاذهاب المطر له (فان قيل) كيف قال تعالى لا يقدرون بعد قوله كالذى ينفق (أجيب) بأنه تعالى أراد بالذى ينفق الجنس أو الفريق الذى ينفق ولان من والذى يتعاقبان فكأنه قيل كمن ينفق وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الاصغر قال الرياء يقول الله تعالى لهم يوم يجازى العباد بأعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤن فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثه أن الله تعالى اذا كان يوم القيامة ينزل الى العباد أى أمره ليقضى بينهم وكل أمة جاثية وأول من يدعى به رجل جمع القرآن ورجل قتل فى سبيل الله ورجل كثير المال فيقول

الله تعالى للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى قال بلى قال فماذا عملت فيما علمت قال كنت أقوم به آناء الليل وأثناء النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال فلان قارئ وقد قيل ويؤتى بصاحب المال فيقول الله ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج الى أحد قال بلى يارب قال فماذا عملت فيما آتيتك قال كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقول الله له فيماذا قتلت فيقول يارب أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت ان يقال فلان جرىء وقد قيل ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتى فقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة (والله لا يهدى القوم الكافرين) الى الخير والرشاد وفيه تعريض بأن الرياء والمن والأذى على الانفاق صفة الكفار ولا بد أن تجتنبوا عنها (ومثل) نفقات (الذين ينفقون أموالهم ابتغاء) أى طلب (مرضاة الله) أى رضاه (وتثبيتا من أنفسهم) أى تثبيتا بالنظر فى اصلاح العمل واخلاصه بالحمل على الحلم والصبر على جميع مشاق التكاليف فان من راض نفسه بحملها على بذل المال الذى هو شقيق الروح فان بذله أشق شىء على النفس لان النفس اذا رضيت بالتحامل عليها وتكليفها ما يصعب عليها ذلت خاضعة لصاحبها وقل طمعها فى اتباعه لشهواتها فيسهل عليه حملها على سائر العبادات ومتى تركها وهى مطبوعة على النقائص زاد طمعها فى اتباع الشهوات فمن للتبعيض مفعول به مثلها فى قولهم هز من عطفه وحرك من نشاطه (فان قيل) ما معنى التبعيض (أجيب) بأن معناه ان من بذل ماله لوجه الله تعالى فقد ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه فهو الذى ثبتها كلها أو تصديقا للاسلام وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم لانه اذا أنفق المسلم ماله فى سبيل الله تعالى علم ان تصديقه وايمانه بالثواب من أصل نفسه ومن اخلاص قلبه فمن على هذا لابتداء الغاية كقوله تعالى حسدا من عند أنفسهم (كمثل جنة) أى بستان (بربوة) وهى المكان المرتفع الذى تجرى فيه الانهار فلا يعلوه الماء ولا يعلو على الماء وانما جعلها بربوة لان النبات عليها أحسن وأزكى وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء والباقون بضمها (أصابها وابل) أى مطر شديد كثير (فآتت) أى أعطت (أكلها) أى ثمرتها وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بسكون الكاف والباقون بضمها (ضعفين) أى مثلى ما يثمر غيرها بسبب الوابل والمراد بالضعف المثل وقيل أربعة أمثاله لان الضعف قدر الشىء ومثله معه فيكون الضعفان أربعة واستظهره البقاعى وقال أبو حيان يحتمل انه للتكثير أى ضعفا بعد ضعف أى اضعافا كثيرة لان النفقة لا تضاعف بحسنة فقط بل بعشر وسبعمائة وأزيد ونصبه على الحال أى مضاعفا (فان لم يصبها وابل فطل) أى مطر خفيف يصيبها ويكفيها لارتفاعها والمعنى تثمر وتزكو كثر المطر أو قل فكذلك نفقات من ذكر تزكو عند الله كثرت أو قلت (والله بما تعملون بصير) فيجازيكم به فيه وعد ووعيد (أيود أحدكم) أى أيحب حبا شديدا (أن تكون له جنة) أى بستان (من نخيل) جمع نخلة وهى الشجرة القائمة على ساق

ثمرها من اعلاها فى كلها نفع حتى فى خشبها مثلها كمثل المؤمن الذى ينتفع به كله (وأعناب) جمع عنب وهو شجر الكرم لا يختص ثمره بجهة العلو اختصاص النخلة بل يتفرع علوا وسفلا ويمنة ويسرة مثله كمثل المؤمن المتقى الذى يكرم بتقواه فى كل جهة * ولما كانت الجنان لا تقوم ولا تدوم الا بالماء قال تعالى (تجرى من تحتها الانهار) أى من تحت هذه الاشجار (له فيها) أى الجنة ثمر مع ثمر النخل والعنب (من كل الثمرات) فهى محتوية على سائر أنواع الاشجار وانما خص النخل والعنب بالذكر لشرفهما وكثرة منافعهما وحسن منظرهما (وأصابه) أى والحال انه أصابه (الكبر) أى كبر السن فصار لا يقدر على اكتساب (وله ذرية ضعفاء) بالصغر كما ضعف هو بالكبر (فأصابها) أى الجنة (اعصار) وهو الريح العاصف الذى يرتفع الى السماء كأنها عمود وتسميها العامة الزوبعة وجمعه أعاصير والاعصار من بين سائر الرياح مذكر ولهذا رجع اليه الضمير مذكرا فى قوله (فيه نار فاحترقت) تلك الجنة ففقدها أحوج ما كان اليها وبقى هو وأولاده عجزة متحيرين لا حيلة لهم وهذا مثل ضربه الله تعالى لعمل المنافق والمرائى يقول عمله فى حسنه كحسن الجنة ينتفع به كما ينتفع صاحب الجنة بها فاذا كبر وضعف وصار له أولاد ضعفاء صغار أصاب جنته اعصار فيه نار فاحترقت أحوج ما يكون اليها وضعف عن اصلاحها الكبره وضعفت أولاده عن اصلاحها ولم يجد هو ما يعود به على أولاده ولا أولاده ما يعودون به عليه فبقوا جميعا متحيرين عجزة لا حيلة لهم كذلك يبطل الله تعالى عمل المنافق والمرائى فى الآخرة حين لا مغيث لهما ولا توبة ولا اقالة والاستفهام بمعنى النفى وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ضرب لرجل عمل بالطاعات ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أحرق أعماله (كذلك) أى مثل هذا البيان (يبين الله) أى الذى له الكمال كله (لكم الآيات لعلكم) أى لكى (تتفكرون) فيها فتعتبرون بها * ولما ذكر سبحانه وتعالى ان الانفاق على قسمين وبين كل قسم وضرب له مثلا ذكر كيفية الانفاق بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا انفقوا) أى زكوا (من طيبات) أى جياد (ما كسبتم) من المال والتجارة والصناعة وفيه دلالة على اباحة الكسب وانه ينقسم الى طيب وخبيث وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أطيب ما أكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه وقال صلى الله عليه وسلم ما أكل أحد طعاما قط خيرا من ان يأكل من عمل يده وكان داود عليه السلام لا يأكل الا من عمل يده والزكاة واجبة فى مال التجارة فبعد الحول تقوم العروض فيخرج من قيمتها عشرين دينارا أو مائتى درهم فضة فيزكيها قال سمرة بن جندب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نخرج الصدقة من الذى يعد للبيع (ومما) أى ومن طيبات ما (أخرجنا لكم من الارض) من الحبوب والثمار والمعادن فحذف المضاف وهو طيبات من الثانى لتقدم ذكره وفى هذا أمر باخراج العشر من الثمار والحبوب واتفق أهل العلم على ايجاب العشر فى النخيل والكروم وفيما يقتات من الحبوب ان كان مسقيا بماء السماء أو من نهر يجرى الماء فيه من غير مؤنة وان كان مسقيا بساقية أو نضح ففيه نصف العشر لقوله صلى الله عليه وسلم فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشر وفيما يسقى بالنضح نصف العشر

وعنه صلى الله عليه وسلم ليس فى حب ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أوسق وقال قوم الآية فى صدقة التطوع قال صلى الله عليه وسلم ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه انسان أو طير أو بهيمة الا كانت له به صدقة (ولا تيمموا) أى لا تقصدوا (الخبيث) أى الردى (منه) اى المذكور (تنفقون) فى الزكاة حال من ضمير تيمموا (ولستم بآخذيه) أى الخبيث (الا أن تغمضوا) أى تسامحوا (فيه) بالحياء مع الكراهة مجاز من أغمض بصره اذا غضه وروى عن البراء قال لو أهدى ذلك لكم ما أخذتموه الا على استحياء من صاحبه وغيظ فكيف ترضون لى ما لا ترضون لانفسكم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كانوا يتصدقون بحشف التمر وشواره فنهوا عن ذلك هذا اذا كان المال كله أو بعضه جيدا فان كان كل ماله رديا فلا بأس باعطاء الردى. (واعلموا أن الله غنى) عن انفاقكم وانما يأمركم به لانتفاعكم (حميد) أى يجازى المحسن أفضل الجزاء على انه لم يزل محمودا ولا يزال عذب أو أثاب (الشيطان يعدكم الفقر) أى يخوفكم به ان تصدقتم ويقال وعدته خيرا ووعدته شرا قال تعالى فى الخير وعدكم الله مغانم كثيرة وقال فى الشر النار وعدها الله الذين كفروا فاذا لم يذكر الخير والشر قلت فى الخير وعدته وفى الشر أوعدته والفقر سوء الحال وقلة ما فى اليد وأصله من كسر الفقار ومعنى الآية أن الشيطان يخوفكم بالفقر ويقول للرجل أمسك مالك فانك اذا تصدقت افتقرت (ويأمركم بالفحشاء) أى بالبخل ومنع الزكاة قال الكلبى كل فحشاء فى القرآن فهو الزناء الا فى هذا الموضع (والله يعدكم مغفرة منه) لما وقع منكم من تقصير وفيه اشعار بأنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره لما له من الاحاطة بصفات الكمال ولما جبل عليه الانسان من النقص (وفضلا) بالزيادة فى الدارين وكل نعمة منه فضل ثم أكد ذلك بقوله تعالى (والله واسع) فضله (عليم) بالمنفق وغيره وفيه اشارة الى أنه لا يضيع شيأ وان دق وعن ابن عباس وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى قال يا ابن آدم أنفق أنفق عليك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والارض فانه لم ينقص ما فى يمينه قال وعرشه على الماء وبيده الاخرى القسط يرفع ويخفض وعن أسماء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنفقى ولا تحصى فيحصى الله عليك ولا توعى فيوعى الله عليك (يؤتى الحكمة) أى العلم النافع المؤدى الى العمل وقال السدى هى النبوة وقال ابن عباس وقتادة علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثال ذلك وقال الضحاك هى القرآن والفهم فيه وقال فى القرآن مائة وتسع آيات ناسخة ومنسوخة وألف آية حلال وحرام لا يسع المؤمنين تركهن حتى يتعلموهن وقال مجاهد هى القرآن والعلم والفقه وقوله تعالى (من يشاء) مفعول أول أخر للاهتمام بالمفعول الثانى وهو الحكمة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) لمصيره الى السعادة الابدية (وما يذكر) فيه ادغام التاء فى الاصل فى الذال أى ما يتعظ بما قص من الآيات أى ما يتفكر فان المتفكر كالمتذكر لما أودع الله تعالى فى قلبه من العلوم بالقوة (الا أولوا الالباب) أى أصحاب العقول الخالصة من

شوائب الوهم والركون الى متابعة الهوى (وما أنفقتم) أى أديتم (من نفقة) قليلة أو كثيرة سرا أو علانية زكاة أو صدقة تطوع (أو نذرتم من نذر) بشرط أو بغير شرط فوفيتم به (فان الله يعلمه) فيجازيكم به (فان قيل) لم وحد الضمير فى يعلمه وقد تقدم شيآن النفقة والنذر (أجيب) بأن العطف بأو وهى لاحد الشيئين تقول زيدا أو عمرا أكرمته ولا يجوز أكرمتهما بل يجوز أن يراعى الاول نحو زيد او هند منطلق والثانى نحو زيد او هند منطلقة والآية من هذا ومن مراعاة الاول واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها ولا يجوز أن يقال منطلقان ولهذا أول النحاة قوله تعالى ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما كما سيأتى ان شاء الله تعالى (وما للظالمين) بمنع الزكاة والنذر أو بوضع الانفاق فى غير محله من معاصى الله تعالى (من أنصار) أى من ينصرهم من الله ويمنعهم من عذابه فهو على طريق التوزيع والمقابلة أى لا ناصر لظالم قط فسقط ما يقال ان نفى الانصار لا يوجب نفى الناصر (ان تبدوا) أى تظهروا (الصدقات) أى النوافل (فنعما هى) أى فنعم شيأ ابداؤها وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح النون والباقون بكسرها وقرأ قالون وأبو عمرو باختلاس كسرة العين والباقون بالكسرة الكاملة (وان تخفوها) أى تسروها (وتؤتوها الفقراء) أى تعطوها لهم فى السر (فهو خير لكم) أى أفضل من ابدائها وايتاؤها للفقراء أفضل من ايتائها للاغنياء سئل صلى الله عليه وسلم هل صدقة السر أفضل أم صدقة العلانية فنزلت هذه الآية وفى الحديث صدقة السر تطفئ غضب الرب وقال صلى الله عليه وسلم سبعة يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ورجل قلبه متعلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود اليه ورجلان تحابا فى الله تعالى فاجتمعا على ذلك وتفرقا ورجل ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال انى أخاف الله تعالى ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه نعم ان كان ممن يقتدى به فالاظهار فى حقه أفضل أما صدقة الفرض فالافضل اظهارها كالصلاة المكتوبة فى الجماعة أفضل والنافلة فى البيت أفضل وليقتدى به ولئلا يتهم ولا يجوز دفع شئ منها للاغنياء وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفا وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا

* (تنبيه) * الصدقة تطلق على الفرض والنفل قال تعالى خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وقال عليه الصلاة والسلام نفقة المرء على عياله صدقة والزكاة لا تطلق الا على الفرض (ونكفر عنكم من سيآتكم) أى بعضها وقيل من صلة وقرأ ابن عامر وحفص بالياء التحتية والباقون بالنون وقرأ نافع وحمزة والكسائى بجزم الراء بالعطف على محل فهو والباقون بالرفع على الاستئناف وقوله تعالى (والله بما تعملون خبير) فيه ترغيب فى الاسرار لانه عالم بباطن الشئ كظاهره لا يخفى عليه شئ منه * ولما منع النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين من التصدق على فقراء المشركين كى تحملهم الحاجة ليسلموا نزل (ليس عليك هداهم) أى لا يجب عليك أن تجعل الناس مهديين فتمنعهم الصدقة ليدخلوا فى الاسلام حاجة منهم اليها وانما عليك الارشاد

والحث على المحاسن والنهي عن القبائح كالمن والاذى وانفاق الخبيث وقوله تعالى (ولكن الله يهدي من يشاء) أي هداية التوفيق صريح بأن الهداية من الله وبمشيئته وانما تخص بقوم دون قوم أما هدى البيان فكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطوهم بعد نزول الآية (وما تنفقوا من خير) أي من مال وقوله تعالى (فلانفسكم) خبر لمبتدا محذوف أي فهو لانفسكم لان ثوابه لها فلا تمنوا به على غيركم ولا تؤذوهم بالتطاول عليهم ولا تنفقوا الخبيث وقوله تعالى (وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله) عطف على ما قبله أي وليس نفقتكم الا ابتغاء وجه الله ولطلب ما عنده فمالكم تمنون بها وتنفقون الخبيث الذي لا يوجه مثله الى الله تعالى (وما تنفقوا من خير يوف اليكم) ثوابه اضعافا مضاعفة فلا عذر لكم في أن ترغبوا عن انفاقه وأن يكون على أحسن الوجوه وأجملها والجملتان تأكيد للاولى وهي وما تنفقوا من خير فلانفسكم أو ما يخلف المنفق استجابة لقوله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل لمنفق خلفا ولممسك تلفا رواه البخاري (وأنتم لا تظلمون) أي لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيأ تفضلا من الله تعالى عليكم وهذا في صدقة التطوع أباح الله تعالى ان توضع في أهل الاسلام وأهل الذمة وقيل حجت اسماء بنت أبي بكر فاتتها أمها تسألها وهي مشركة فأبت أن تعطيها فنزلت وروى النسائي والحاكم أن ناسا من المسلمين كانت لهم أصهار في اليهود ورضاع وقد كانوا ينفقون عليهم قبل الاسلام فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوا عليهم فنزلت وعن بعض العلماء لو كان المنفق عليه أشر خلق الله كان لك ثواب نفقتك وأما الصدقة المفروضة فلا يجوز وضعها الا في المسلمين أهل السهمان المذكورين في سورة التوبة لكن جوز أبو حنيفة رحمه الله صرف صدقة الفطر الى أهل الذمة وقوله تعالى (للفقراء) خبر مبتدا محذوف أي صدقاتكم للفقراء أو متعلق بفعل مقدر كاجعلوا ما تنفقون للفقراء (الذين احصروا في سبيل الله) أي حبسوا أنفسهم على الجهاد وهم فقراء المهاجرين كانوا نحوا من أربعمائة لم يكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر كانوا يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والعبادة وكانوا يخرجون في كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المشهورون بأصحاب الصفة حث الله عليهم الناس فكان من عنده فضل أتاهم به اذا أمسى (لا يستطيعون ضربا) أي سفرا (في الارض) للتجارة والمعاش لشغلهم عنه بالجهاد (يحسبهم الجاهل) بحالهم (اغنياء من التعفف) أي لاجل تعففهم عن السؤال وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها (تعرفهم) أيها المخاطب (بسيماهم) أي بعلامتهم من التخشع والتواضع وصفرة الوجوه ورثاثة الحالة (لا يسألون الناس) شيأ فيلحفون (الحافا) أي لا سؤال لهم أصلا فلا يقع منهم الحاف ومثل ذلك قول الشاعر

لا يفزع الارنب أهوالها * ولا ترى الضب بها ينجحر

أي ليس فيها أرنب فيفزع لهولها ولا ضب فينجحر وليس المعنى انه ينفي الفزع عن الارنب والانجحار عن الضب والالحاف الالحاح وهو اللزوم وأن لا يفارق الا بشئ يعطاه من قولهم لحفني من فضل لحافه أي اعطاني من فضل ما عنده وقيل انهم ان سألوا سألوا بتلطف ولم يلحفوا

قال

قال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الحيي الحليم المتعفف ويبغض البذي السائل الملحف وقال صلى الله عليه وسلم لان يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أشياءهم أعطوه أو منعوه وقال صلى الله عليه وسلم من سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خدوش قيل يارسول الله وما يغنيه قال خمسون درهما أو قيمتها (وما تنفقوا من خير) أي مال (فان الله به عليم) فيجازيكم وفي هذا ترغيب في الانفاق (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية) أي يعمون الاوقات والاحوال بالصدقة لحرصهم على الخير نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه تصدق بأربعين ألف دينار عشرة بالليل وعشرة بالنهار وعشرة بالسر وعشرة بالعلانية وفي علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه كانت عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرا وبدرهم علانية وقال الاوزاعي نزلت في الذين يربطون الخيل للجهاد فانها تعلف ليلا ونهارا سرا وعلانية روى انه صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا في سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة وقوله تعالى (فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) خبر الذين ينفقون والفاء للسببية (فان قيل) أي فرق بين قوله هنا فلهم أجرهم وفيما مر لهم أجرهم (أجيب) بأن الموصول ثم لم يضمن معنى الشرط وضمنه هنا (الذين يأكلون الربوا) أي يأخذونه وهو لغة الزيادة وشرعا عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد أو مع تأخير في البدلين أو أحدهما وهو ثلاثة أنواع ربا الفضل وهو البيع مع زيادة أحد العوضين على الآخر وربا اليد وهو البيع مع تأخير قبضهما أو قبض أحدهما وربا النساء وهو البيع الى أجل وانما ذكر الاكل لانه أعظم منافع المال كقوله تعالى ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما فنبه بالاكل على ما سواه من وجوه الاتلافات ولان نفس الربا الذي هو الزيادة لا يؤكل وانما يصرف في المأكول وقال صلى الله عليه وسلم لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه والمحلل له فعلمنا ان الحرمة غير مختصة بالاكل ٭ ولما كان بين الصدقة والربا مناسبة من جهة التضاد لان الصدقة عبارة عن تنقيص المال بأمر الله بذلك والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهي الله عنه فكانا كالمتضادين ذكر عقب الصدقة ويرسم بالواو والالف بعد الواو وانما رسم على لغة من يفخم وهو يميل الالف أي يخرج الواو كما كتبت الصلاة والزكاة وقيل لان أهل الحجاز تعلموا الخط من أهل الحيرة ولغتهم الربو بالواو الساكنة فعلموهم الخط على لغتهم وزيدت الالف بعدها تشبيها بواو الجمع (لا يقومون) اذا بعثوا من قبورهم (الا) أي قياما (كما يقوم الذي يتخبطه) أي يصرعه (الشيطان) وقوله تعالى (من المس) أي الجنون متعلق بيتخبطه من جهة الجنون فيكون في موضع نصب قاله أبو البقاء والمعنى ان آكل الربا يبعث يوم القيامة وهو كالمصروع تلك سيماه يعرف بها عند أهل الموقف (فان قيل) لم نسب هذا الشيطان (أجيب) بأنه وارد على ما تزعم العرب ان الشيطان يخبط الانسان فيصرع والخبط الضرب على غير استواء يقال ناقة خبوط للتي تطأ الناس

وتضرب الارض بقوائمها ويقال للرجل الذي يتصرف في أمر ولا يهتدي فيه انه يخبط خبط عشواء وتخبطه الشيطان اذا مسه بخبل او جنون لانه كالضرب على غير استواء في الادهاش (ذلك) أي الذي نزل بهم (بأنهم) أي بسبب انهم (قالوا انما البيع مثل الربوا) في الجواز (فان قيل) ما الحكمة في قلب القصة ومن حق القياس أن يشبه محل الخلاف بمحل الوفاق لان حل البيع متفق عليه وهم أرادوا قياس الربا عليه فكان نظم الكلام أن يقال انما الربا مثل البيع (أجيب) بأن هذا من عكس التشبيه مبالغة اذ به صار المشبه مشبها به وبالعكس وشأن المشبه به أن يكون أقوى من المشبه أو بأنهم لم يكن مقصودهم أن تمسكوا بنظم القياس بل كان غرضهم ان البيع والربا متماثلان في جميع الوجوه المطلوبة فكيف يجوز تخصيص أحد المثلين بالحل والآخر بالحرمة وعلى هذا التقدير فأيهما قدم أو أخر جاز وقوله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربوا) انكار لتسويتهم وابطال القياس لمعارضته النص *(تنبيه)* أظهر قولي الشافعي ان هذه الآية عامة في كل بيع الا ما خص بالسنة وانه صلى الله عليه وسلم نهى عن بيوع والثاني انها مجملة والسنة مبينة لها وتظهر فائدة الخلاف في الاستدلال بها في مسائل الخلاف فعلى الاول يستدل بها وعلى الثاني لا يستدل (فمن جاءه) أي بلغه (موعظة) أي وعظ (من ربه) وزجر بالنهي عن الربا (فانتهى) أي فاتبع النهي وامتنع من أكله (فله ما سلف) أي ما مضى قبل النهي فلا يسترد منه ما أخذه من الربا وقيل ما مضى من ذنبه قبل النهي مغفور له (وأمره الى الله) بعد النهي ان شاء عصمه حتى يثبت على الانتهاء وان شاء خذله حتى يعود وقيل أمره الى الله فيما يأمره وينهاه ويحل له ويحرم عليه وليس له من أمر نفسه شئ (ومن عاد) الى تحليل الربا مشبها له بالبيع في الحل (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لانهم كفروا بذلك وورد انه صلى الله عليه وسلم لعن آكل الربا وموكله والواشمة والمستوشمة والمصور وأنه صلى الله عليه وسلم قال الربا سبعون بابا أهونها عند الله عز وجل كالذي ينكح أمه (يمحق الله الربوا) أي يذهب بركته ويهلك المال الذي يدخل فيه وعن ابن مسعود الربا وان كثر فالى قل (ويربي الصدقات) أي يضاعف ثوابها ويبارك فيما أخرجت منه روى الشيخان انه صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى يقبل الصدقة ويربيها كما يربي أحدكم فلوه وروى الامام أحمد ما نقص مال من صدقة (والله لا يحب كل كفار) أي مصر على تحليل المحرمات كمن يحلل الربا (أثيم) منهمك في ارتكابه (ان الذين آمنوا) بالله وبرسوله وبما جاءهم عنه (وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) وانما عطفهما على ما يعمهما لشرفهما (لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم) من آت (ولا هم يحزنون) على فائت وتقدم مثل هذه الآية ولكن جرت عادة الله سبحانه وتعالى في القرآن مهما ذكر وعيدا ذكر بعده وعدا فلما بالغ هنا في وعيد الربا أتبعه بهذا الوعد (فان قيل) ان الانسان اذا بلغ عارفا بالله وقبل وجوب الصلاة والزكاة عليه مات فهو من أهل الثواب بالاتفاق فدل على ان استحقاق الثواب لا يتوقف على حصول العمل (أجيب) بأنه تعالى انما ذكر هذه الخصال لا لاجل ان استحقاق الثواب مشروط بها بل لاجل ان لكل

منهما

منهما أثر فى جلب الثواب كما قال تعالى فى ضد هذا والذين لا يدعون مع الله الها آخر ثم قال تعالى ومن يفعل ذلك يلق أثاما ومعلوم ان من ادعى أن مع الله الها آخر لا يحتاج فى استحقاقه العذاب الى عمل آخر وانما جمع الله تعالى الزنا وقتل النفس مع دعاء غير الله تعالى الها ليبان ان كل واحد من هذه الخصال يوجب العقوبة (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربوا) أى اتركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا الذى أخذتم بعضه قبل التحريم (ان كنتم مؤمنين) أى بقلوبكم أو ان ان بمعنى اذ فان دليل الايمان امتثال ما أمرتم به وروى انها نزلت لما طالب بعض الصحابة بعد النهى بربا كان له قبل (فان لم تفعلوا) أى تذروا ما بقى من الربا (فأذنوا) أى اعلموا من أذن بالشئ اذا علم به أى فاعلموا أنتم وأيقنوا (بحرب من الله ورسوله) لكم (فان قيل) هذا حكمهم ان تابوا فما حكمهم ان لم يتوبوا (أجيب) بأن مقتضى ذلك انهم يقاتلون ان لم يرجعوا قال سعيد ابن جبير عن ابن عباس يقال لآكل الربا يوم القيامة خذ سلاحك للحرب قال أهل المعانى حرب الله تعالى النار وحرب رسوله صلى الله عليه وسلم السيف وقرأ شعبة وحمزة فآذنوا بفتح الهمزة ومدها وكسر الذال أى فأعلموا بها غيركم وهو من الاذن وهو الاستماع لانه من طريق العلم والباقون بسكون الهمزة وفتح الذال (وان تبتم) أى تركتم استحلال الربا ورجعتم عنه (فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون) بطلب الزيادة (ولا تظلمون) بالنقصان عن رأس المال (فان قيل) هلا قال تعالى بحرب الله ورسوله (أجيب) بأن هذا أبلغ لان المعنى فأذنوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله ورسوله صلى الله عليه وسلم * ولما نزلت هذه الآية قال المرابون بل نتوب الى الله فانه لا يدان لنا بحرب من الله ورسوله فرضوا برأس المال فشكا من عليه الدين العسرة وقال لمن لهم الدين اخرونا الى أن تدرك الغلات فأبوا أن يؤخروا فأنزل الله تعالى (وان كان ذو عسرة فنظرة) له أى عليكم تأخيره (الى ميسرة) أى وقت يسره * (تنبيه) * فى كان هذه وجهان أظهرهما انها تامة بمعنى حدث ووجد أى وان حدث ذو عسرة فتكتفى بفاعلها كسائر الافعال والثانى انها ناقصة وخبرها محذوف قال أبو البقاء تقديره وان كان ذو عسرة لكم عليه حق أو نحو ذلك وقدره بعضهم وان كان ذو عسرة غريما وقرأ نافع بضم السين والباقون بفتحها (وأن تصدقوا) أى بالابراء وقرأ عاصم بتخفيف الصاد والباقون بالتشديد على ادغام التاء فى الاصل والتخفيف على حذفها (خير لكم) أى أكثر ثوابا من الانظار وهذا مما فضل المندوب فيه الواجب فان الابراء مندوب اليه والانظار واجب فيحرم حبس المعسر وهل القول قوله فى اعساره أو لا بد من بينة تشهد بذلك ينظر ان كان الدين عن عوض كالبيع والقرض فلا بد من بينة وان كان عن غير عوض كالضمان والاتلاف والصداق فالقول قول المعسر بيمينه وعلى الغريم البينة الا أن يعرف له مال فلا بد من بينة (ان كنتم تعلمون) فضل التصدق على الانظار فافعلوا وقيل المراد بالتصدق الانظار نفسه ورده هذا كما قال الامام بأن الانظار قد علم مما قبل فلا بد من حمله على فائدة جديدة قال عليه الصلاة والسلام لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره الا كان له بكل يوم صدقة وروى من أنظر معسرا أو وضع عنه أنجاه الله من كرب يوم القيامة

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الملائكة تلقت روح رجل كان قبلكم فقالوا له هل عملت خيرا قط قال لا قالوا تذكر قال الا انى رجل كنت أداين الناس فكنت آمر فتيانى بأن ينظروا الموسر ويتجاوزوا عن المعسر قال الله تعالى تجاوزوا عنه وقال صلى الله عليه وسلم من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله (واتقوا يوما ترجعون) أى تصيرون (فيه الى الله) هو يوم القيامة أى فتأهبوا لمصيركم اليه وقرأ أبو عمرو بفتح التاء وكسر الجيم والباقون بضم التاء وفتح الجيم (ثم توفى) فيه (كل نفس) جزاء (ما كسبت) أى عملت من خير أو شر (وهم لا يظلمون) بنقص حسنة أو زيادة سيئة *(فائدة)* قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هذه آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال جبريل ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة وعاش بعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم احدا وعشرين يوما وقال ابن جريج تسع ليال وقال سعيد بن جبير سبع ليال ومات يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الاول وقيل ثلاث ساعات وقال الشعبى عن ابن عباس آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الربا ولما منع الله من الربا أذن فى السلم والقرض بما يعمهما فقال (يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين) كسلم وقرض (الى أجل مسمى) أى معلوم ولذا قال بعض العلماء لا لذة ولا منفعة يتوصل اليها بالطريق الحرام الا والله سبحانه وتعالى وضع لتحصيل مثل تلك اللذة طريقا حلالا وسبيلا مشروعا (فان قيل) المداينة مفاعلة وحقيقتها أن يحصل من كل واحد منهما دين وذلك هو بيع الدين بالدين وهو باطل بالاتفاق (أجيب) بأن المراد من تداينتم تعاملتم والتقدير تعاملتم بما فيه دين (فان قيل) هلا اكتفى بقوله اذا تداينتم الى أجل وأى حاجة الى ذكر الدين (أجيب) بأنه ذكر ليرجع الضمير اليه فى قوله (فاكتبوه) اذ لو لم يذكر لوجب أن يقال فاكتبوا الدين فلم يكن النظم بذلك الحسن ولئلا يتوهم من التداين المجازاة ولانه أبين لتنويع الدين الى مؤجل وحال وفائدة قوله مسمى ليعلم أن من حق الاجل أن يكون معلوما كالتوقيت بالسنة والاشهر والايام ولو قال الى الحصاد أو الدراس أو رجوع الحاج لم يجز للجهل بوقت الاجل وانما أمر بكتابة الدين لان ذلك أوثق وآمن من النسيان وأبعد من الجحود (فان قيل) ان كلمة اذا لا تفيد العموم والمراد من الآية العموم لان المعنى كلما تداينتم بدين فاكتبوه فلم عدل عن كلما وقال اذا تداينتم (أجيب) بأن كلمة اذا وان كانت لا تقتضى العموم الا أنها لا تمنع من العموم وههنا قام الدليل على أن المراد هو العموم واختلفوا فى هذه الكتابة فقال بعضهم هى واجبة والاكثرون على أنه أمر استحباب فان ترك فلا بأس كقوله تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وقال بعضهم كانت كتابة الدين والاشهاد والرهن فرضا ثم نسخ الكل بقوله تعالى فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته ثم بين كيفية الكتابة فقال تعالى (وليكتب) أى كتاب الدين (بينكم كاتب بالعدل) أى بالحق فى كتابته لا يزيد فى المال أو الاجل ولا ينقص وهو فى الحقيقة أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه دين حتى يجىء مكتوبه موثوقا به معدلا بالشرع

مع أن ظاهره أمر للكاتب (ولا يأب) أى لا يمتنع (كاتب) من (أن يكتب) اذا دعى اليها (كما علمه) أى فضله (الله) بالكتابة فلا يبخل بها بل ينفع الناس بها كما نفعه الله بتعليمها كقوله تعالى وأحسن كما أحسن الله اليك والكاف متعلقة بيأب (فليكتب) تلك الكتابة المعلمة أمر بها بعد النهى عن الاباء تأكيدا (وليملل الذى عليه الحق) أى وليكن المملل على الكاتب من عليه الحق لانه المقر المشهود عليه والاملال والاملاء لغتان فصيحتان معناهما واحد جاء بهما القرآن فالاملال ههنا وهو لغة الحجاز والاملاء قوله تعالى فهى تملى عليه بكرة وأصيلا وهى لغة تميم (وليتق الله ربه) أى كل من المملى والكاتب (ولا يبخس) أى لا ينقص (منه) أى من الحق أو مما أملى عليه (شيأ فان كان الذى عليه الحق سفيها) أى مبذرا (أو ضعيفا) أى صغيرا أو كبيرا اختل عقله لكبره (أو لا يستطيع أن يمل هو) لخرس أو جهل باللغة أو نحو ذلك (فليملل وليه) أى متولى أمره من والد ووصى وقيم ووكيل ومترجم (بالعدل) وفى هذا دليل على جريان النيابة فى الاقرار قال البيضاوى ولعله مخصوص بما تعاطاه القيم أو الوكيل أى دون المترجم ودونهما فيما لم يتعاطياه (واستشهدوا) أى وأشهدوا (شهيدين) أى شاهدين (من رجالكم) أى البالغين الاحرار المسلمين دون الصبيان والعبيد والكفار وأجاز ابن سيرين شهادة العبيد وأبو حنيفة شهادة الكفار بعضهم على بعض (فان لم يكونا) أى الشاهدان (رجلين فرجل) أى فليشهد او فالمستشهد رجل (وامرأتان) وأجمع الفقهاء على أن شهادة النساء جائزة مع الرجال فى الاموال حتى تثبت برجل وامرأتين واختلفوا فى غير الاموال فذهبت جماعة الى أنه تجوز شهادتهن مع الرجال فى غير العقوبات وهو قول سفيان الثورى وأصحاب الرأى وذهب جماعة الى أن غير المال لا يثبت الا برجلين عدلين وذهب الشافعى الى أن ما يطلع عليه النساء غالبا كالولادة والرضاع والثيوبة والبكارة ونحوها تثبت بشهادة رجل وامرأتين وشهادة أربع نسوة واتفقوا على أن شهادة النساء غير جائزة فى العقوبات (ممن ترضون من الشهداء) أى من كان مرضيا لدينه وأمانته *(تنبيه)* شروط قبول الشهادة سبعة الاسلام والحرية والعقل والبلوغ والعدالة والمروأة وانتفاء التهمة فمتى فقد شرط منها لم تصح تلك الشهادة وانما اشترط التعدد فى النساء لاجل (أن تضل) أى تنسى (احداهما) أى الشهادة لنقص عقلهن وضبطهن (فتذكر) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون الذال وتخفيف الكاف والباقون بفتح الذال وتشديد الكاف وقرأ حمزة برفع الراء والباقون بالنصب (احداهما) أى الذاكرة (الاخرى) أى الناسية قال الزمخشرى ومن بدع التفاسير فتذكر أى فتجعل احداهما الاخرى ذكرا يعنى انهما اذا اجتمعتا كانتا بمنزلة الذكر وقرأ حمزة وحده ان تضل احداهما على الشرط فتذكر بالرفع والتشديد كقوله تعالى ومن عاد فينتقم الله منه وجملة الاذكار محل العلة أى لتذكر ان ضلت ودخلت على الضلال لان الضلال سبب الاذكار وهم ينزلون كل واحد من السبب والمسبب منزلة الآخر (ولا يأب) أى ولا يمتنع (الشهداء اذا ما) أى اذا (دعوا) لاداء الشهادة والتحمل فاللام بمعنى الى وسموا شهداء على هذا الثانى تنزيلا لما يشارف منزلة الواقع (ولا تسأموا)

أي تملوا من (أن تكتبوه) أي ما شهدتم عليه من الحق لكثرة وقوعه أو تكسلوا من أن تكتبوه فكنى عن السآمة التي تكون بعد الشروع للكثرة بالكسل الذي يكون ابتداء لكونها من لوازمه لأن الكسل صفة المنافق قال تعالى وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى وقال صلى الله عليه وسلم لا يقول المؤمن كسلت (صغيرا) كان ذلك الحق (أو كبيرا) قليلا أو كثيرا وقوله تعالى (إلى أجله) أي وقت حلوله الذي أقر به المديون حال من الهاء في تكتبوه (ذلكم) أي الكتب (أقسط) أي أعدل (عند الله وأقوم للشهادة) أي أعون على إقامتها لأنه يذكرها * (تنبيه) * يجوز على مذهب سيبويه أن يكون أقسط وأقوم مبنيين من أقسط وأقام وأن يكون أقسط من قاسط على طريقة النسب بمعنى ذي قسط وأقوم من قويم أو هما مبنيان من أقسط وأقام لا من قسط وقام لأن قسط بمعنى جار والمعنى هنا على العدل والفعل منه أقسط فلزم أن يكون أقسط في الآية من المزيد لقصد الزيادة في المقسط قال تعالى إن الله يحب المقسطين لا من المجرد لأن معناه الزيادة في القاسط وهو الجائر قال تعالى وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا وكذا أقوم معناه أشد إقامة لا قياما وبناؤهما من ذلك على غير قياس والقياس أن يكون البناء من المجرد لا من المزيد ويجوز أن يكون بناؤهما من قاسط بمعنى ذي قسط أي عدل وبمعنى قويم أي ذي استقامة على طريقة النسب كلابن وتامر فيكون أفعل لا فعل له وإنما صحت الواو في أقوم كما صحت في التعجب لجموده (وأدنى) أي وأقرب إلى (أن لا ترتابوا) أي تشكوا في قدر الحق وجنسه والشهود والأجل ونحو ذلك (إلا أن تكون تجارة حاضرة) وهي تم المبايعة بدين أو عين (تديرونها بينكم) أي تتعاطونها يدا بيد (فليس عليكم جناح) أي لا بأس إذا تبايعتم يدا بيد (أن لا تكتبوها) فهو استثناء من الأمر بالكتابة لبعده حينئذ عن التنازع والنسيان وقرأ عاصم بنصب التاء فيهما على أن تجارة هي الخبر والاسم مضمر تقديره إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة والباقون بالرفع فيهما على أن تجارة هي الاسم والخبر تديرونها أو على كان التامة (وأشهدوا) أي ندبا (إذا تبايعتم) عليه سواء كان ناجزا أو كالئا فإنه أدفع للاختلاف فهو تعميم بعد تخصيص احتياطا في جميع المبايعات ويجوز أن يراد هذا التبايع الذي هو التجارة الحاضرة على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة وقوله تعالى (ولا يضار كاتب ولا شهيد) أصله يضارر وأدغمت إحدى الراءين في الأخرى ونصبت لحق التضعيف لاجتماع الساكنين واختلفوا فمنهم من قال أصله يضارر بكسر الراء الأولى وجعل الفعل للكاتب والشهيد ومعناه نهيهما عن ترك الإجابة وعن التحريف والتغيير في الكتابة والشهادة ومنهم من قال أصله يضارر بفتح الراء على الفعل المجهول وجعلوا الكاتب والشاهد مفعولين ومعناه النهي عن الإضرار بهما مثل أن يعجلا عن مهم ويكلفا الخروج عما حد لهما ولا يعطى الكاتب جعله ولا الشهيد مؤنة مجيئه حيث كان والنهي حينئذ للمتبايعين فالآية محتملة للبناء للفاعل وللبناء للمفعول فتحمل عليهما معا أو على كل منهما والأولى أولى (وإن تفعلوا) ما نهيتم عنه من الضرار (فإنه فسوق بكم) أي معصية وخروج عن الأمر (واتقوا الله)

في مخالفة أمره ونهيه (ويعلمكم الله) أحكامه المتضمنة لمصالحكم (والله بكل شيء عليم) كرر لفظ الله في الجمل الثلاث لاستقلالها فان الاولى حث على التقوى والثانية وعد بانعامه والثالثة تعظيم الله لشأنه عز وجل ولانه أدخل في التعظيم من الضمير وهذا آخر آية الدين وقد حث سبحانه وتعالى فيها على الاحتياط في أمر الاموال لكونها سببا لمصالح المعاش والمعاد قال تعالى ولا تؤتوا السفهاء أموالكم الآية قال القفال رحمه الله تعالى ويدل على ذلك ان ألفاظ القرآن جارية في الاكثر على الاختصار وفي هذه الآية بسط شديد ألا ترى انه قال اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ثم قال ثانيا وليكتب بينكم كاتب بالعدل ثم قال ثالثا ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فكان هذا كالتكرار لقوله وليكتب بينكم كاتب بالعدل لان العدل هو ما علمه الله ثم قال رابعا فليكتب وهذا اعادة للامر الاول ثم قال خامسا وليملل الذي عليه الحق وفي قوله تعالى وليكتب بينكم كاتب بالعدل كفاية عن قوله وليملل الذي عليه الحق لان الكاتب بالعدل انما يكتب ما يملى عليه ثم قال سادسا وليتق الله ربه وهذا تأكيد ثم قال سابعا ولا يبخس منه شيأ وهذا كالمستفاد من قوله وليتق الله ربه ثم قال ثامنا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله وهو أيضا تأكيد لما مضى ثم قال تاسعا ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا فذكر هذه الفوائد التالية لتلك التأكيدات السالفة وكل ذلك يدل على المبالغة في التوصية بحفظ المال الحلال وصونه عن الهلاك ليتمكن الانسان بواسطته من الانفاق في سبيل الله والاعراض عن مساخط الله تعالى من الربا وغيره والمواظبة على تقوى الله (وان كنتم على سفر) أي مسافرين وتداينتم فعلى بمعنى في لئلا يتوهم ان المعنى على نية سفر (ولم تجدوا كاتبا فرهن) أي فعليكم رهن (مقبوضة) تستوثقون بها وبينت السنة جواز الرهن في الحضر ومع وجود الكاتب فقد رهن رسول الله صلى الله عليه وسلم درعه في المدينة من يهودي بعشرين صاعا من شعير أخذه لاهله فالتقييد بما ذكر لان التوثق به أشد وعن مجاهد والضحاك انهما لم يجوزاه الا في السفر أخذا بظاهر الآية وأفاد قوله تعالى مقبوضة اشتراط القبض أي في لزوم الرهن لا في صحته والاكتفاء به من المرتهن ووكيله ولا يشترط القبض عند مالك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم الراء والهاء ولا ألف بعدها والباقون بكسر الراء وفتح الهاء وألف بعدها وكلاهما جمع رهن بمعنى مرهون (فان أمن بعضكم) أي الدائن (بعضا) أي المدين واستغنى بأمانته عن الارتهان (فليؤد الذي ائتمن) أي المدين (أمانته) أي دينه سماه أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به وقرأ ورش فليؤد بابدال الهمزة واوا واذا وصل السوسي وورش الذي ائتمن أبدلا الهمزة ياء وفي الابتداء بهمزة مضمومة للجميع (وليتق الله ربه) في الخيانة وانكار الحق وفيه مبالغات من حيث الاتيان بصيغة الامر الظاهرة في الوجوب والجمع بين ذكر الله والرب وذكره عقب الامر بأداء الدين (ولا تكتموا الشهادة) أيها الشهود اذا دعيتم لاقامتها أو المديونون وعلى هذا فشهادتهم اقرارهم على أنفسهم (ومن يكتمها فانه آثم قلبه) فان قيل هلا اقتصر على قوله فانه آثم وما فائدة ذكر القلب والجملة هي الآثمة لا القلب وحده (أجيب) بأن كتمان الشهادة

هو أن يضمرها ولا يتكلم بها فلما كان أى الكتمان اثما مقترفا أى مختلطا بالقلب أسند اليه لانه محل كتمان الشهادة واسناد الفعل الى الجارحة التى يعمل بها أبلغ ألا ترى انك تقول اذا أردت التوكيد هذا مما أبصرته عينى ومما سمعته أذنى ومما عرفه قلبى ولان القلب هو رئيس الاعضاء والمضغة التى ان صلحت صلح الجسد كله وان فسدت فسد الجسد كله فكأنه قيل فقد تمكن الاثم فى أصل نفسه وملك أشرف مكان فيه ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط وليعلم ان القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه واللسان ترجمان عنه ولان أفعال القلوب أعظم من سائر أفعال الجوارح وهى لها كالاصول التى تتشعب منها ألا ترى ان أصل الحسنات والسيآت الايمان والكفر وهما من أفعال القلوب واذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بانه من معاظم الذنوب وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أكبر الكبائر الاشراك بالله لقوله تعالى فقد حرم الله عليه الجنة وشهادة الزور وكتمان الشهادة * (تنبيه) * آثم خبران وقلبه رفع بآثم على الفاعلية كأنه قيل فانه يأثم قلبه ويجوز أن يرتفع قلبه بالابتداء وآثم خبر مقدم والجملة خبران وقوله تعالى (والله بما تعملون عليم) تهديد لانه لا يخفى عليه منه شئ (لله ما فى السموات وما فى الارض) خلقا وملكا قال الجلال السيوطى وعبيدا ولعل ذكره بعد ملكا لئلا يتوهم ان ما لما لا يعقل (وان تبدوا) أى تظهروا (ما فى أنفسكم) من السوء والعزم عليه (أو تخفوه) أى تسروه (يحاسبكم) أى يجزكم (به الله) يوم القيامة والآية حجة على من أنكر الحساب كالمعتزلة والروافض (فيغفر لمن يشاء) مغفرته (ويعذب من يشاء) تعذيبه وهذا صريح فى نفى وجوبه وقرأ ابن عامر وعاصم برفع الراء من يغفر ورفع الباء من يعذب على الاستئناف والباقون بجزمهما عطفا على جواب الشرط وادغم الراء المجزومة فى اللام السوسى واختلف عن الدورى وقول الزمخشرى ومدغم الراء فى اللام لاحن مخطئ خطأ فاحشا وراويه عن أبى عمرو يعنى السوسى مخطئ مرتين لانه يلحن وينسب اللحن الى أعلم الناس بالعربية مايؤذن بجهل عظيم والسبب فى نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة والسبب فى قلة الضبط قلة الدراية ولا يضبط نحو هذا الا أهل النحو مردود لانه مبنى على القول بأن الراء انما تدغم فى الراء لتكرر فلا تدغم فى اللام ورد بأن ذلك قراءة أبى عمرو وهى متواترة مع أن القول بامتناع ادغام الراء فى اللام انما هو مذهب البصريين وأما الكوفيون بل وبعض البصريين كأبى عمرو فقائلون بالجواز كما نقله عنهم أبو حيان ونقل أبو عمرو والكسائى وأبو جعفر صحة ادغام صارلى وصارلك عن العرب ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ووجه الجعبرى ادغام الراء فى اللام بتقارب مخرجيهما على رأى سيبويه وتشاركهما على رأى الفراء وتجانسهما فى الجهر والانفتاح والاستفال (والله على كل شئ قدير) فيقدر على جزائكم ومحاسبتكم وقوله تعالى (آمن) أى صدق (الرسول) أى محمد صلى الله عليه وسلم (بما أنزل اليه من ربه) أى من القرآن فيه شهادة وتنصيص من الله تعالى على صحة ايمانه والاعتداد به وانه جازم فى أمره غير شاك فيه وقوله تعالى (والمؤمنون) عطف على الرسول

(كل) من الرسول والمؤمنين واختلف في تنوين كل فقيل تنوين عوض من المضاف اليه وقيل تنوين التمكين قال الشيخ خالد الوقاد وهو الاصح (آمن بالله وملائكته) وقرأ (وكتبه) حمزة والكسائي بكسر الكاف وفتح التاء وألف بعدها على التوحيد على أن المراد به الجنس والباقون بضم الكاف والتاء على الجمع (ورسله) يقولون (لا نفرق بين أحد) أي جمع (من رسله) فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى فأحد اسم لمن يصلح أن يخاطب يستوي فيه الواحد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث فحيث أضيف بين اليه أو أعيد ضمير جمع اليه أو نحو ذلك فالمراد به جمع من الجنس الذي يدل الكلام عليه ويجوز أن يقدر القول مفردا باعتبار كل وانما احتيج الى التقدير لاجل قوله تعالى لا نفرق ولو قال تعالى لا يفرقون لم يحتج الى ذلك (وقالوا سمعنا) أي ما أمرتنا به سماع قبول (وأطعنا) أمرك نسألك (غفرانك ربنا واليك المصير) أي المرجع بعد الموت وهو اقرار منهم بالبعث روى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه انه قال لما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم لله ما في السموات وما في الارض وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله الآية قال فاشتد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب وقالوا أي رسول الله كلفنا من الاعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير فلما اقرأها القوم وذلت ألسنتهم أنزل الله تعالى في اثرها آمن الرسول الآية فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى بقوله تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) أي ما تسعه قدرتها وان شق فضلا ورحمة (لها ما كسبت) من الخير أي ثوابه (وعليها ما اكتسبت) من الشر أي وزره فلا ينتفع بطاعتها غيرها ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد ولا عالم يكتسبه مما وسوست به نفسه كما يفيده تقديم الخبر وهو لها وعليها من الحصر وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به (فان قيل) لم خص الخير بالكسب والشر بالاكتساب (أجيب) بأن في الاكتساب اعتمالا أي اضطرابا في العمل مبالغة واجتهادا فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة اليه وامارة به كانت أشد حبا واجتهادا في تحصيله وأعملت فجعلت لذلك مكتسبة فيه ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال وقولوا (ربنا لا تؤاخذنا) أي لا تعاقبنا (ان نسينا أو أخطأنا) أي بما أدى بنا الى النسيان أو الخطا من تفريط وقلة مبالاة لان المؤاخذة انما هي بالمقدور والنسيان والخطا ليس بمقدورين ويجوز أن يراد نفس النسيان والخطا أي لا تؤاخذنا بهما كما آخذت به من قبلنا قال الكلبي كان بنو اسرائيل اذا نسوا شيأ مما أمروا به أو أخطؤا عجلت لهم العقوبة فحرم عليهم شيء من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب فأمر الله المؤمنين أن يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه

(فان قيل) النسيان والخطأ متجاوز عنهما فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما (أجيب) بأن المراد بذكرهما ماهما مسببان عنه من التفريط والاغفال ألا ترى الى قوله وما أنسانيه الا الشيطان والشيطان لا يقدر على فعل النسيان وانما يوسوس فتكون وسوسته سبب التفريط الذى منه النسيان ويجوز أن يدعو الانسان بما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته وذكره بلفظ الدعاء على معنى التحدث بنعمة الله فيه قال الله تعالى وأما بنعمة ربك فحدث (ربنا ولا تحمل علينا اصرا) أى لا تكلفنا أمرا يثقل علينا حمله (كما حملته على الذين من قبلنا) أى بنى اسرائيل من قتل النفس فى التوبة واخراج ربع المال فى الزكاة وقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب وغير ذلك قاله الكشاف قال البيضاوى وخمسين صلاة فى اليوم والليلة ونسبها غيره من المفسرين الى اليهود ولا تنافى بينهما اذ المراد من بنى اسرائيل هم اليهود منهم فلا يرد على هذا ما قيل ان بنى اسرائيل لم يفرض عليهم خمسون صلاة بل ولا خمس صلوات مع أن من حفظ حجة على من لم يحفظ (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة) أى قوة (لنا به) من البلاء والعقوبة ومن التكاليف التى لا تفى به الطاقة البشرية وهو يدل على جواز التكليف بما لا يطاق والا لما سئل التخلص منه والتشديد ههنا لتعدية الفعل الى مفعول ثان لا للمبالغة (واعف عنا) أى امح ذنوبنا (واغفر لنا) أى استر علينا ذنوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذة بها (وارحمنا) وتعطف بنا وتفضل علينا فاننا لا ننال العمل بطاعتك ولا نترك معصيتك الا برحمتك (أنت مولانا) أى سيدنا ومتولى أمورنا (فانصرنا على القوم الكافرين) باقامة الحجة والغلبة فى قتالهم فان من حق المولى أن ينصر مواليه على الاعداء أو المراد بالكافرين عامة الكفرة روى سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى غفرانك ربنا قال الله تعالى قد غفرت لكم وفى قوله لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا قال لا أؤاخذكم ربنا ولا تحمل علينا اصرا قال لا أحمل عليكم ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به قال لا أحملكم واعف عنا الخ قال قد عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم ونصرتكم على القوم الكافرين وكان معاذ اذا ختم سورة البقرة قال آمين وروى مسلم وغيره انه صلى الله عليه وسلم لما دعا بهذه الدعوات قيل له عقب كل كلمة قد فعلت وعن عبد الله انه قال لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به الى سدرة المنتهى وهى فى السماء السادسة اليها ينتهى ما يعرج به من الارض فيقبض منها واليها ينتهى ما يهبط به من فوقها فيقبض منها قال اذ يغشى السدرة ما يغشى قال فراش من ذهب قال وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا أعطى الصلوات الخمس وأعطى خواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيأ المقحمات وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال أنزل الله تعالى آيتين أولهما آمن الرسول من كنوز الجنة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفى سنة من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام الليل والكتابة باليد تمثيل وتصوير لاثباتهما وتقديرهما بألفى سنة تصوير لقدمهما الان مثل هذا يقال لطول الزمان لا للتحديد وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال أوتيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتهن نبى قبلى وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال

من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه أى عن قيام الليل أو عن كل ما يسوءه وهذا يرد قول من استنكر أن يقال سورة البقرة وقال ينبغى أن يقال السورة التى يذكر فيها البقرة كما قال عليه الصلاة والسلام السورة التى تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها فان تعلمها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة قيل وما البطلة قال السحرة أى انهم مع حذقهم لا يوفقون لتعلمها أو التأمل فى معانيها أو العمل بما فيها وسموا بطلة لانهماكهم فى الباطل أو لبطالتهم عن أمر الدين والفسطاط الخيمة أو المدينة الجامعة سميت به السورة لاشتمالها على معظم أصول الدين وفروعه والارشاد الى كثير من مصالح العباد ونظام المعاش ونجاة المعاد وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه انه رمى الجمرة ثم قال من ههنا والذى لا اله الا هو رمى الذى أزلت عليه سورة البقرة ولا فرق بين هذا وبين قولك سورة الزخرف والممتحنة والمجادلة وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والارض بألفى عام فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا يقرآن فى دار ثلاث ليال فلا يقربها الشيطان انتهى

(سورة آل عمران مدنية)

باتفاق وآياتها مائتان أو الا آية وثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون كلمة وأربعة عشر ألفا وخمسمائة وعشرون حرفا

(بسم الله) الذى له صفات الكمال فاستحق التفرد بالالوهية (الرحمن) الذى سرت رحمته خلال الوجود فشملت كل موجود بالكرم والجود (الرحيم) لمن توكل عليه بالعطف اليه وقوله تعالى (الم) تقدم الكلام عليه فى أول سورة البقرة (الله لا اله الا هو) لم يقطع أحد من القراء السبعة هذه الهمزة التى فى الله فى الوصل واذا وقف على الم يبدأ بالهمزة والكل من القراء مد على الميم ووصل فى الوصل وانما فتح الميم لالتقاء الساكنين كما هو مذهب سيبويه وجمهور النحاة (فان قيل) أصل التقاء الساكنين الكسر فلم عدل عنه (أجيب) بأنهم لو كسروا لكان ذلك مفضيا الى ترقيق لام الجلالة والمقصود تفخيمها للتعظيم فاوثر الفتح لذلك كما حركوها فى نحو من الله وأيضا فقبل الميم ياء وهى أخت الكسرة وقبل هذه الياء كسرة فلو كسرنا الميم الاخيرة لالتقاء الساكنين لتوالى ثلاث متجانسات فحركوها بالفتح وأما سقوط الهمزة فواضح وبسقوطها التقى الساكنان وقيل ان هذه الفتحة ليست لالتقاء الساكنين بل هى حركة نقل أى نقلت حركة الهمزة التى قبل لام التعريف على الميم الساكنة نحو قد افلح فى قراءة ورش وهذا مذهب الفراء وجرى عليه الزمخشرى وأطال الكلام فيه ورده أبو حيان بما يطول ذكره وقوله تعالى الله مبتدأ وما بعده خبره وقوله تعالى (الحى القيوم) نعت له والحى هو الفعال الدراك والقيوم هو القائم بذاته والقائم بتدبير خلقه روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان اسم الله الاعظم فى ثلاث سور فى البقرة الله لا اله الا هو الحى القيوم وفى آل عمران الله لا اله الا هو الحى القيوم وفى طه وعنت الوجوه

قوله فلا يقرآن الخ كذا فى النسخ التى هى بأيدينا وفى الجمل ان الله عز وجل كتب كتابا قبل ان يخلق الخلق بألفى عام فأنزل منه هذه الثلاث آيات التى ختم بهن سورة البقرة من قرأهن فى نفسه لم يقرب الشيطان بيته ثلاث ليال انتهى

للحيّ القيوم ونقل البندنيجي عن أكثر العلماء ان الاسم الاعظم هو الله قال الكلبي والربيع ابن أنس وغيرهما نزلت هذه الآية في وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكبا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم وفي الاربعة عشر ثلاثة نفر يؤول اليهم أمرهم العاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون الا عن رأيه واسمه عبد المسيح والسيد صاحب رحلهم واسمه الايهم وأبو حارثة بن علقمة حبرهم دخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات والحرث بن كعب يقول من وراءهم ما رأينا وفدا مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا للصلاة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوهم يصلوا الى المشرق فكلم السيد والعاقب فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلما قالا قد أسلمنا قبلك قال كذبتما يمنعكما من الاسلام ثلاثة أشياء دعاؤكما لله ولدا وعبادتكما للصليب وأكلكما الخنزير قالوا ان لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه وخاصموه جميعا في عيسى فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ألستم تعلمون انه لا يكون ولد الا وهو يشبه أباه قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء قالوا بلى قال ألستم تعلمون ان ربنا قيم على كل شئ يحفظه ويرزقه قالوا بلى قال فهل يملك عيسى من ذلك شيأ قالوا لا قال ألستم تعلمون ان الله لا يخفى عليه شئ في الارض ولا في السماء قالوا بلى قال فهل يعلم عيسى من ذلك الا ما علمه الله قالوا لا قال فان ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء وربنا لا يأكل ولا يشرب قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذي كما يغذى الصبي ثم كان يطعم ويشرب ويحدث قالوا بلى قال وكيف يكون هذا كما زعمتم فسكتوا فأنزل الله تعالى صدر سورة آل عمران الى بضع وثمانين آية منها (نزل عليك) يا محمد (الكتاب) أي القرآن متلبسا (بالحق) أي بالصدق في اخباره أو بالحجج المحققة أنه من عند الله وهو في موضع الحال أي محقا (مصدقا لما بين يديه) أي قبله من الكتب (فان قيل) كيف سمى ما مضى بأنه بين يديه (أجيب) بأن تلك الاخبار لغاية ظهورها وكونها موجودة سماها بهذا الاسم (وأنزل التوراة) جملة على موسى عليه الصلاة والسلام (والانجيل) جملة على عيسى عليه الصلاة والسلام (من قبل) أي قبل تنزيل القرآن واختلف الناس في هذين اللفظين هل يدخلهما الاشتقاق والتصريف أو لا يدخلانهما لكونهما أعجميين فلا يناسب كونهما مشتقين ورجح هذا الزمخشري وقال قالوا ان هذين اللفظين اسمان عبرانيان لهذين الكتابين الشريفين وقوله تعالى (هدى) حال بمعنى هادين من الضلالة ولم يثنه لانه مصدر (للناس) أي على العموم ان قلنا متعبدون بشرع من قبلنا وهو رأي والا فالمراد بالناس قومهما وانما عبر في التوراة والانجيل بأنزل وفي القرآن بنزل المقتضي للتكرير لانهما أنزلا دفعة واحدة بخلافه وقيل ان القرآن أنزل من اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا جملة واحدة ومن سماء الدنيا منجما في ثلاث وعشرين سنة فحيث عبر فيه بأنزل أريد الاول أو بنزل أريد الثاني (فان قيل) يرد الاول بقوله تعالى هو الذي أنزل عليك الكتاب وبقوله تعالى والذين يؤمنون بما أنزل اليك

وبقوله تعالى الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب وبقوله تعالى وبالحق أنزلناه ويرد الثانى بقوله تعالى وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة (أجيب) بأن القول بذلك جرى على الغالب (وأنزل الفرقان) أى الكتب الفارقة بين الحق والباطل وذكره بعد الكتب الثلاثة ليعم ماعداها فكأنه قال وأنزل سائر ما يفرق به بين الحق والباطل ولم يجمع لانه مصدر بمعنى الفرق كالغفران والكفران وقيل القرآن وكرر ذكره بما هو نعت له مدحا وتعظيما واظهارا لفضله من حيث انه يشاركهما فى كونه وحيا منزلا وتميز بأنه معجز يفرق به بين الحق والباطل وقيل أراد الكتاب الرابع وهو الزبور كما قال تعالى وآتينا داود زبورا قال الزمخشرى وهو ظاهر ولما قرر سبحانه جميع ما يتعلق بمعرفة الاله أتبع ذلك بالوعيد زجرا للمعرضين عن هذه الدلائل الباهرة فقال (ان الذين كفروا بآيات الله) من القرآن وغيره (لهم عذاب شديد) بسبب كفرهم (والله عزيز) أى غالب على أمره فلا يمنعه شئ من انجاز وعده ووعيده (ذو انتقام) ممن عصاه والنقمة عقوبة المجرم أى يعاقبه عقوبة شديدة لا يقدر على مثلها أحد (ان الله لا يخفى عليه شئ) كائن (فى الارض ولا فى السماء) لعلمه بما يقع فى العالم من كلى وجزئى (فان قيل) لم خصهما بالذكر مع انه عالم بجميع الاشياء (أجيب) بأنه تعالى انما خصهما به لان الحس لا يتجاوزهما (فان قيل) لم قدم الارض على السماء (أجيب) بأنها انما قدمت ترقيا من الادنى الى الاعلى وهذه الآية كالدليل على كونه حيا وقوله تعالى (هو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء) أى من ذكورة وأنوثة وبياض وسواد وحسن وقبح وتمام ونقص وغير ذلك كالدليل على القيومية والاستدلال على أنه تعالى عالم باتقان فعله فى خلق الجنين وتصويره وفى هذا رد على وفد نجران من النصارى حيث قالوا عيسى ولد الله واستدلوا على ذلك بأمور منها العلم فانه كان يخبر عن الغيوب ويقول لهذا انك أكلت فى دارك كذا ويقول لذاك انك صنعت فى دارك كذا ومنها القدرة وهى أن عيسى كان يحيى الموتى ويبرئ الاكمه والابرص ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا فكأنه تعالى يقول كيف يكون ولد الله وقد صوره فى الرحم والمصور لا يكون أب المصور ثم انه تعالى لما أجاب عن شبهتهم أعاد كلمة التوحيد زجرا للنصارى عن قولهم التثليث فقال (لا اله الا هو العزيز) فى ملكه وفيه اشارة الى كمال القدرة فقدرته تعالى أكمل من قدرة عيسى على الاماتة والاحياء (الحكيم) فى صنعه وفيه اشارة الى كمال العلم فعلمه أكمل من علم عيسى بالغيوب وأن علم عيسى ببعض الصور وقدرته على بعض الصور لا يدل على كونه الها بل على ان الله أكرمه بذلك اظهارا لمعجزته وعجزه عن الاحياء فى بعض الصور يوجب قطعا عدم الالهية لان الاله هو الذى يكون قادرا على كل الممكنات عالما بجميع الجزئيات والكليات قال عبد الله بن مسعود حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله اليه الملك أو قال يبعث اليه الملك بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد وقال وان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع فيسبق

عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال يدخل الملك على النطفة بعد ماتستقر فى الرحم أربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول يارب شقى أم سعيد فيكتبان فيقول أى رب ذكرا وأنثى فيكتبان فيكتب عمله وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص (هو الذى أنزل عليك) يامحمد (الكتاب) أى القرآن (منه آيات محكمات) أحكمت عبارتها بأن حفظت عن الاحتمال والاشتباه فهى واضحات الدلالة (هن أم الكتاب) أى أصله المعتمد عليه فى الاحكام ويحمل المتشابهات عليها وترد اليها ولم يقل أمهات الكتاب لان الآيات كلها فى تكاملها واجتماعها كالآية الواحدة وكلام الله واحد وقيل كل آية منهن أم الكتاب كما قال تعالى وجعلنا ابن مريم وأمه آية أى كل واحد منهما آية وقوله تعالى (وأخر) نعت لمحذوف تقديره وآيات أخر (متشابهات) أى محتملات لا يتضح مقصودها الاجمال أو مخالفة ظاهر الابالفحص والنظر (فان قيل) لم جعل بعضه متشابها وهلا كان كله محكما (أجيب) بأن فى المتشابه من الابتلاء حكمة عظيمة وهى التمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه وليظهر فيها فضل العلماء ويزداد حرصهم على أن يجتهدوا فى تدبرها وتحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها فينالوا بها وباتعاب القرائح فى استخراج معانيها والتوفيق بينها وبين المحكمات الدرجات العلى عند الله (فان قيل) لم فرق هنا بين المحكم والمتشابه وقد جعل كل القرآن محكما فى موضع آخر فقال الر كتاب أحكمت آياته وجعل كله متشابها فى موضع آخر فقال الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها (أجيب) بأنه حيث جعل الكل محكما فمعناه ان آياته حفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ وحيث جعل الكل متشابها فمعناه ان آياته يشبه بعضها بعضا فى صحة المعنى وجزالة اللفظ *(تنبيه)* أخر جمع أخرى وانما لم ينصرف لانه وصف معدول عن الاخريات ففيه الوصف والعدل وهما علتان تمنعان الصرف (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) أى ميل عن الحق كالمبتدعة (فيتبعون ما تشابه منه) أى فيتعلقون بظاهره أو بتأويل باطل (ابتغاء الفتنة) أى طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه (وابتغاء تأويله) أى وطلب أن يؤولوه على ما يشتهونه (وما يعلم تأويله) أى الذى يجب أن يحمل عليه (الا الله والراسخون فى العلم) أى الذين ثبتوا وتمكنوا فيه وسئل مالك بن أنس عن الراسخين فى العلم قال العالم العامل بما علم المتبع وقال غيره هو من وجد فى علمه أربعة أشياء التقوى بينه وبين الله تعالى والتواضع بينه وبين الخلق والزهد بينه وبين الدنيا والمجاهدة بينه وبين نفسه *(تنبيه)* اختلف العلماء فى نظم هذه الآية فقال قوم الواو فى قوله والراسخون واو العطف أى ان تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون فى العلم وهم مع علمهم

(يقولون)

(يقولون آمنا به) وهذا قول مجاهد والربيع وعلى هذا يكون قوله يقولون حالا معناه والراسخون في العلم قائلين آمنا به وذهب الاكثرون الى أن الواو في قوله والراسخون واو الاستئناف وتم الكلام عند قوله وما يعلم تأويله الا الله وهو قول أبي بن كعب وعائشة وغيرهما وقالوا لا يعلم تأويل المتشابه الا الله ويجوز أن يكون للقرآن تأويل استأثر الله بعلمه لم يطلع عليه أحدا من خلقه كما استأثر بعلم الساعة ووقت طلوع الشمس من مغربها وخروج الدجال وعدد الزبانية ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام ونحوها والخلق متعبدون في المتشابه بالايمان به وفي المحكم بالايمان به والعمل وقال عمر بن عبد العزيز في هذه الآية انتهى علم الراسخين في العلم بتأويل القرآن الى أن قالوا آمنا به قال في الكشاف والاول هو الاوجه اه ووجهه شيخنا القاضي زكريا بقوله لان المتشابه على الثاني يصير الخطاب به كالخطاب بالمهملات اه ومع هذا فالوجه هو الثاني لانه أشبه بظاهر الآية ويدل له وجوه أحدها انه ذم طالب المتشابه بقوله تعالى فأما الذين في قلوبهم زيغ الآية وثانيها انه مدح الراسخين في العلم بأنهم يقولون آمنا به وقال في أول البقرة فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم فهؤلاء الراسخون لو كانوا عالمين بتأويل المتشابه على التفصيل لما كان لهم في الايمان به مدح لان كل من عرف شيأ على سبيل التفصيل فلابد أن يؤمن به وثالثها لو كان قوله والراسخون معطوفا لصار قوله يقولون آمنا به ابتداء وهو بعيد عن الفصاحة وكان الاولى أن يقال وهم يقولون أو يقال ويقولون (فان قيل) في تصحيحه وجهان الاول أن يقولون خبر مبتدا والتقدير هؤلاء العالمون بالتأويل يقولون آمنا الثاني أن يكون يقولون حالا من الراسخون (أجيب) بأن الاول مدفوع بأن تفسير كلام الله تعالى بما لا يحتاج معه الى اضمار أولى والثاني أن ذا الحال هو الذي تقدم ذكره وهم الراسخون فوجب أن يكون قوله آمنا به حالا من الراسخون لا من الله وذلك ترك للظاهر ورابعها قوله تعالى (كل) أي من المحكم والمتشابه (من عند ربنا) معناه أنهم آمنوا بما عرفوا تفصيله وبما لم يعرفوا تفصيله ولو كانوا عالمين بالتفصيل في الكل لم يبق لهذا الكلام فائدة وخامسها نقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أنه قال تفسير القرآن على أربعة أوجه تفسير لا يسع أحدا جهله وتفسير تعرفه العرب بألسنتها وتفسير تعرفه العلماء وتفسير لا يعلمه الا الله تعالى وسئل مالك بن أنس رضي الله تعالى عنهما عن قوله تعالى الرحمن على العرش استوى فقال الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة (فان قيل) ما الفائدة في لفظ عند ولو قال كل من ربنا لحصل المقصود (أجيب) بأن الايمان بالمتشابه يحتاج فيه الى مزيد التأكيد (فان قيل) لم حذف المضاف اليه من كل (أجيب) بأن دلالته على المضاف اليه قوية فالامن من اللبس بعد الحذف حاصل (وما يذكر) بادغام التاء في الاصل في الذال أي ما يتعظ بما في القرآن (الا أولوا الالباب) أي أصحاب العقول *(تنبيه)* وجه اتصال هذه الآية وأولها هو الذي أنزل عليك الكتاب بما قبلها وأولها هو الذي يصوركم في الارحام انه لما بين أنه قيوم وهو القائم بمصالح الخلق والمصالح قسمان جسماني وروحاني

فالجسمانى أشرفها تعديل البنية على أحسن شكل وهو المراد بقوله تعالى هو الذى يصوركم فى الارحام وأما الروحانى فأشرفها العلم وهو المراد بقوله هو الذى أنزل عليك الكتاب ولما حكى سبحانه وتعالى عن الراسخين فى العلم أنهم يقولون آمنا به حكى أنهم يقولون (ربنا لاتزغ) أى لاتمل (قلوبنا) عن طريق الحق الى اتباع المتشابه بتأويل لاترتضيه (بعد اذهديتنا) وفقتنا لدينك والايمان بالمحكم والمتشابه قال عليه الصلاة والسلام قلب ابن آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن ان شاء أقامه أى القلب على الحق وان شاء أزاغه عنه رواه الشيخان وغيرهما وقيل لاتبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا وعلى هذا اقتصر الزمخشرى ووجه بأن ماذكر كناية أومجاز اذلاتحسن من الله الازاغة ليسئل نفيها وهذا بناء على مذهبه من الاعتزال وأما مذهب أهل السنة فالزيغ والهداية بخلق الله تعالى وكان صلى الله عليه وسلم يقول اللهم يامقلب القلوب والابصار ثبت قلوبنا على دينك وعن أبى موسى الاشعرى رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل القلب كريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح ظهرا وبطنا (وهب لنا) أى أعطنا (من لدنك) أى من عندك (رحمة) أى توفيقا وتثبيتا للذى نحن عليه من الايمان والهدى أومغفرة للذنوب (انك أنت الوهاب) لكل سؤل وفيه دليل على أن الهدى والضلال من الله تعالى وأنه متفضل بما ينعم على عباده لايجب عليه شئ ما (ربنا انك جامع الناس) أى تجمعهم (ليوم) أى فى يوم (لاريب) أى لاشك (فيه) أى فى وقوعه وما فيه من الحشر والجزاء وهو يوم القيامة فتجازيهم بأعمالهم كما وعدت وقوله تعالى (ان الله لايخلف الميعاد) أى موعده بالبعث يحتمل أن يكون من كلام الله تعالى وأن يكون من كلام الراسخين فيكون فيه التفات عن الخطاب وكأنهم لما طلبوا من ربهم الصون عن الزيغ وأن يخصهم بالهداية والرحمة قالوا ليس الغرض من هذا السؤال مايتعلق بمصالح الدنيا فانها منقضية وانما الغرض الاعظم منه مايتعلق بالآخرة فانا نعلم انك جامع الناس للجزاء فى يوم القيامة ووعدك حق فمن زاغ قلبه بقى هنالك فى العذاب أبد الآباد ومن وفقته وهديته ورحمته بقى هنالك فى السعادة والكرامة أبد الآباد ❊(تنبيه)❊ احتج الوعيدية بهذه الآية على القطع بوقوع وعيد الفساق قالوا لان الوعيد داخل تحت لفظ الوعد لقوله تعالى قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا والوعد والميعاد واحد وقد أخبر فى هذه الآية أنه لايخلف الميعاد وأجيب بأنا لانسلم القول بالقطع بوقوع وعيد الفساق مطلقا بل ذلك مشروط بعدم العفو كما هو مشروط بعدم التوبة بالاتفاق فكما أنكم أثبتم ذلك الشرط بدليل منفصل فكذا نحن أثبتنا شرط عدم العفو بدليل منفصل سلمنا أنه توعدهم ولكن لانسلم أن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد ويكون قوله فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا كقوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم وكقوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم فيكون من باب التهكم وذكر الواحدى فى البسيط أنه يجوز أن يحمل هذا على ميعاد الاولياء دون وعيد الاعداء لان خلف الوعيد كرم عند العرب لانهم يمدحون بذلك كما قال القائل

اذا وعد السراء أنجز وعده * وان وعد الضراء فالعفو مانعه

وقال الآخر أيضا

وانى وان أوعدته أو وعدته * لمخلف ايعادى ومنجز موعدى

ولما حكى الله سبحانه وتعالى دعاء المؤمنين وتضرعهم حكى كيفية حال الكافرين وشدة عقابهم بقوله تعالى (ان الذين كفروا) وهو عام فى الكفرة وقيل المراد بهم وفد نجران أو اليهود أو مشركو العرب (لن تغنى) أى لن تنفع ولن تدفع (عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيأ) أى من عذابه وقيل من رحمته أو من طاعته على معنى البدلية قاله البيضاوى أى على أن من للبدل والمعنى لن تغنى عنهم من رحمة الله أو من طاعته شيأ أى بدل رحمته وطاعته قال أبو حيان واثبات البدلية جمهور النحاة تأباه (وأولئك هم وقود النار) أى حطبها وفى ذلك كمال العذاب لان كماله أن يزول عنه ما ينتفع به ثم يجتمع عليه الاسباب المؤلمة فالاول هو المراد بقوله تعالى لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم فان المرء عند الشدة يفزع الى المال والولد لانهما أقرب الامور التى يفزع اليها فى دفع النوائب فبين تعالى أن صفة ذلك اليوم مخالفة لصفة الدنيا واذا تعذر عليه الانتفاع بالمال والولد وهما أقرب الطرق فاعداه بالتعذر أولى ونظيره يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم وأما الثانى من أسباب كمال العذاب وهو اجتماع الاسباب المؤلمة فهو المراد بقوله تعالى وأولئك هم وقود النار وهذا هو النهاية فى العذاب فانه لا عذاب أعظم من أن تشتعل النار فيهم كاشتعالها فى الحطب اليابس وقوله تعالى (كدأب آل فرعون) اما استئناف مرفوع المحل خبر لمبتدا مضمر تقديره دأبهم فى ذلك كدأب آل فرعون واما متصل بما قبله أى لن تغنى عنهم كما لم تغن عن أولئك أو توقد النار بهم كما توقد النار بآل فرعون وقوله تعالى (والذين من قبلهم) عطف على آل فرعون فيكون فى محل جر وقيل استئناف فيكون فى محل رفع على الابتداء والخبر وقوله تعالى (كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم) وعلى الاول تكون هذه الجملة مفسرة لما قبلها وقوله تعالى (والله شديد العقاب) فيه تهويل للمؤاخذة وزيادة تخويف للكفرة * ولما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا ببدر ورجع الى المدينة جمع اليهود فى سوق قينقاع وقال يا معشر اليهود احذروا من الله تعالى أن ينزل بكم مثل ما نزل بقريش يوم بدر وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم فقد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم فقالوا يا محمد لا يغرنك انك لقيت أقواما أغمارا أى جهالا جمع غمر لا علم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة وانا والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس نزل (قل) يا محمد (للذين كفروا ستغلبون) فى الدنيا بالقتل والاسر وضرب الجزية وقد وقع ذلك بقتل قريظة واجلاء بنى النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم (وتحشرون) فى الآخرة (الى جهنم وبئس المهاد) أى الفراش والمخصوص بالذم محذوف أى بئس المهاد جهنم وفى هذه الآية اخبار عن أمر يحصل فى المستقبل وقد وقع مخبره على موافقته فكان هذا اخبارا بالغيب فكان معجزة ولهذا المانزلت هذه الآية قال لهم صلى الله عليه وسلم ان الله غالبكم وحاشركم الى جهنم وقرأ حمزة والكسائى بالياء فيهما على

الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (فان قيل) أى فرق بين القراءتين من جهة المعنى (أجيب) بأن معنى قراءة التاء الامر بأن يخبرهم بما سيجرى عليهم من الغلبة والحشر الى جهنم فهو اخبار بما سيغلبون ويحشرون وهو الكائن من نفس المتوعد به والذى يدل عليه اللفظ ومعنى القراءة بالياء الامر بأن يحكى لهم ما أخبره به من وعيد بلفظه كأنه قال أد اليهم هذا القول الذى هو قولى لك سيغلبون ويحشرون (قد كان لكم آية) أى عبرة ودلالة على صدق ما أقول لكم انكم ستغلبون (فان قيل) لم لم يقل قد كانت لان الآية مؤنثة (أجيب) بأنه انما ذكر الفعل للفصل بينه وبين الاسم المؤنث بلكم فان الفصل مسوغ لذلك مع المؤنث الحقيقى كقوله

ان امرأ غره منكن واحدة * بعدى وبعدك فى الدنيا لمغرور

قال الفراء وكل ما جاء من هذا النحو فهذا وجهه والخطاب لمشركى قريش وقيل لليهود وقيل للمؤمنين (فى فئتين) أى فرقتين (التقتا) يوم بدر (فئة) مؤمنة (تقاتل فى سبيل الله) أى طاعته وهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله تعالى عنهم وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا سبعة وسبعون رجلا من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون رجلا من الانصار وصاحب راية المهاجرين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وصاحب راية الانصار سعد بن عبادة وكان فيهم سبعون بعيرا وفرسان فرس للمقداد بن عمرو وفرس لمرثد بن أبى مرثد وأكثرهم رجالة وكان معهم من السلاح ستة أدرع وثمانية سيوف (و) فئة (أخرى كافرة) تقاتل فى سبيل الشيطان وهم مشركو مكة وقوله تعالى (يرونهم مثليهم) قرأه نافع بالتاء على الخطاب أى ترى المؤمنون المشركين مثلى المؤمنين وكانوا ثلاثة أمثالهم ليثبتوا لهم ويوقنوا بالنصر الذى وعدهم به فى قوله ان تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين بعد ما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة فى قوله تعالى ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين والباقون بالياء على الغيبة أى يرى المشركون المؤمنين مثلى عدد المشركين وكانوا تسعمائة وخمسين أو مثلى عدد المسلمين وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر (فان قيل) هذا مناقض لقوله تعالى فى سورة الانفال ويقللكم فى أعينهم (أجيب) بأنه قللهم أولا حتى اجترؤا عليهم فلما لاقوهم كثروا امدادا من الله تعالى للمؤمنين فى أعينهم حتى غلبوا فكان التقليل والتكثير فى حالين مختلفين (رأى) أى فى رأى (العين) أى رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها معاينة كسائر المعاينات وقد نصرهم الله تعالى مع قلتهم (والله يؤيد) أى يقوى (بنصره من يشاء) نصره كما أيد أهل بدر بتكثيرهم فى عين العدو (ان فى ذلك) المذكور (لعبرة) أى عظة (لاولى الابصار) أى لذوى البصائر أفلا تعتبرون بذلك فتؤمنون (زين للناس حب الشهوات) أى ما تشتهيه النفس وتدعو اليه والمزين هو الله تعالى للابتلاء كقوله تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أولانه من أسباب التعيش وبقاء النوع الانسانى أولانه يكون وسيلة الى السعادة الاخروية اذا كان على وجه يرتضيه الله وقيل الشيطان هو المزين وذهب اليه المعتزلة واستدلوا بقول الحسن الشيطان والله زينها لانا لا نعلم أحدا أذم لها من خالقها وانما سميت شهوات مبالغة وايماء الى أنهم انهمكوا فى محبتها حتى أحبوا شهواتها كقوله تعالى

أحببت حب الخير والشهوة مسترذلة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية ثم بين ذلك بقوله تعالى (من النساء) انما بدأ بهن لانهن حبائل الشيطان (والبنين والقناطير) جمع قنطار وهو المال الكثير قيل ملء مسك ثور أى ملء جلده وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه القنطار مائة ألف دينار وقال ابن عباس والضحاك ألف ومائتا مثقال (المقنطرة) أى المجمعة وقال السدى المضروبة المنقوشة حتى صارت دراهم ودنانير وقال الفراء المضعفة فالقناطير ثلاثة والمقنطرة تسعة (من الذهب والفضة) قيل سمى الذهب ذهبا لانه يذهب ولا يبقى والفضة فضة لانها تنفض أى تتفرق (والخيل المسومة) أى الحسان وقال سعيد بن جبير هى الراعية يقال أسام الخيل وسومها والخيل جمع لا واحد له من لفظه واحده فرس كالقوم والنساء (والانعام) جمع النعم وهى الابل والبقر والغنم جمع لا واحد له من لفظه (والحرث) أى الزرع (ذلك) أى ماذكر من النساء ومابعده (متاع الحياة الدنيا) أى يتمتع به فيها ثم يفنى (والله عنده حسن المآب) أى المرجع وهو الجنة فينبغى الرغبة فيما عنده من اللذات الحقيقية الابدية دون غيره من الشهوات الناقصة الفانية (فان قيل) المآب قسمان الجنة وهى فى غاية الحسن والنار وهى خالية عن الحسن كما قال تعالى ان جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا (أجيب) بأن المقصود بالذات هو الجنة وأما النار فقصودة بالعرض والمقصود بالآية الترهيب فى الدنيا والترغيب فى الآخرة (قل) يا محمد لقومك (أؤنبئكم) أأخبركم (بخير من ذلكم) أى المذكور من الشهوات وهذا استفهام تقريرى * (تنبيه) * هنا همزتان مختلفتان من كلمة الاولى مفتوحة والثانية مضمومة قرأ قالون بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية وأدخل بينهما ألفا وورش يسهل الثانية من غير ادخال ألف وينقل حركة الهمزة الاولى الى اللام من قل فتصير اللام مفتوحة والثانية مضمومة وابن كثير كورش الا أنه لا ينقل الحركة الا فى لفظ القرآن وقرآن وأبو عمرو يسهل الثانية ويدخل بينهما ألفا كقالون وله وجه آخر وهو عدم ادخال ألف بينهما والباقون بتحقيقهما وقوله تعالى (للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) أى مقدرين الخلود فيها اذا دخلوها كلام مستأنف فيه دلالة على بيان ما هو خير من ذلكم كما تقول هل أدلك على رجل عالم عندى رجل عالم من صفته كيت وكيت ويجوز أن تتعلق اللام بخير وترتفع جنات على هو جنات (وأزواج مطهرة) من الحيض وغيره مما يستقذر من النساء وقوله تعالى (ورضوان من الله) قرأه شعبة بضم الراء والباقون بكسرها وهما لغتان الكسر لغة الحجاز والضم لغة تميم وقيل بالكسر اسم وبالضم مصدر وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تبارك وتعالى يقول لاهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك فيقول هل رضيتم فيقولون مالنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون يا ربنا وأى شئ أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا * (تنبيه) * قد نبه سبحانه وتعالى فى هذه الآية على نعمه فأدناها متاع الحياة الدنيا وأعلاها رضوان الله لقوله

تعالى ورضوان من الله أكبر وأوسطها الجنة ونعيمها (والله بصير) أى عالم (بالعباد) أى بأعمالهم فيجازى كلا منهم بعمله أو بأحوال الذين اتقوا فلذلك أعد لهم جنات وقوله تعالى (الذين) نعت للذين اتقوا أو للعباد أو بدل من الذين قبله (يقولون) يا (ربنا اننا آمنا) أى صدقنا (فاغفر لنا ذنوبنا) أى استرها علينا وتجاوز عنا (وقنا عذاب النار) * (تنبيه) * فى ترتيب سؤال المغفرة وما عطف عليها وسيلة على مجرد الايمان دليل على أن مجرد الايمان كاف فى استحقاق المغفرة أو الاستعداد لاسبابها وأسباب ما عطف عليها وقوله تعالى (الصابرين) أى على الطاعة وعن المعصية وعلى البأساء والضراء نعت (والصادقين) أى فى ايمانهم وأقوالهم قال قتادة هم قوم صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وألسنتهم فصدقوا فى السر والعلانية (والقانتين) أى المطيعين لله (والمنفقين) أى المتصدقين (والمستغفرين بالاسحار) أى أواخر الليل كأن يقولوا اللهم اغفر لنا خصت بالذكر لانها وقت الغفلة ولذة النوم وفى هذا كما قال البيضاوى حصر لمقامات السالك على أحسن الترتيب أى الذكرى فان معاملته مع الله اما توسل واما طلب والتوسل اما بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل والصبر يشملهما واما بالبدن وهو اما قولى وهو الصدق واما فعلى وهو القنوت الذى هو ملازمة الطاعة واما بالمال وهو الانفاق فى سبيل الخير واما الطلب فالاستغفار لان المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها انتهى وتوسيط الواو بين الصابرين وما بعده للدلالة على استقلال كل واحدة منها وكمالهم فيها أو لتغاير الموصوفين بالصفات وتخصيص الاسحار لان الدعاء فيها أقرب من الدعاء فى غيرها الى الاجابة لان العبادة حينئذ أشق والنفس أصفى والعقل أجمع لمعانى الالفاظ التى ينطق بها لاسيما للمتهجد قيل انهم كانوا يصلون الى السحر ثم يستغفرون ويدعون وعن الحسن كانوا يصلون فى أول الليل حتى اذا كان السحر أخذوا فى الدعاء والاستغفار فهذا نهارهم وهذا ليلهم وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ينزل الله الى سماء الدنيا أى أمره كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الاخير فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذى يدعونى فأستجيب له من ذا الذى يسألنى فأعطيه من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له وحكى عن الحسن أن لقمان قال لابنه يا بنى لا تكن أعجز من هذا الديك يصوت فى الاسحار وأنت نائم على فراشك وعن زيد بن أسلم أنه قال هم الذين يصلون الصبح فى جماعة وعبر بالسحر لقربه من الصبح (شهد الله) أى بين لخلقه بالدلائل وانزال الآيات (أنه لا اله) أى لا معبود بحق فى الوجود (الا هو) قال الكلبى قدم حبران من أحبار الشام على النبى صلى الله عليه وسلم فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبى صلى الله عليه وسلم الذى يخرج فى آخر الزمان فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة فقالا له أنت محمد قال نعم قالا له وأنت أحمد قال أنا محمد وأحمد قالا فانا نسألك عن شئ فان أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك فقال لهما سلا قالا أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله عز وجل فأنزل الله هذه الآية فأسلم الرجلان وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما خلق الله الارواح قبل الاجساد بأربعة آلاف سنة وخلق الله الارزاق قبل الارواح بأربعة آلاف سنة

فشهد لنفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ولم يكن سماء ولا أرض ولا بر ولا بحر فقال شهد الله أنه لا إله إلا هو (و) شهد بذلك (الملائكة) أي أقروا بذلك (و) شهد بذلك (أولوا العلم) أي بالإيمان بذلك والاحتجاج عليه (فإن قيل) ما المراد بأولي العلم الذين عظمهم الله تعالى هذا التعظيم حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله (أجيب) بأن المراد بهم أنهم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة وهم علماء العدل والتوحيد من الأنبياء والمؤمنين وفيه دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله وقوله تعالى (قائماً) أي بتدبير مصنوعاته حال من الله وإنما جاز إفراده تعالى بها لعدم اللبس وإن اختلف في جاءني زيد وعمرو راكباً فقد منعه الزمخشري وتبعه البيضاوي وجوّزه أبو حيان وقال يحمل على الأقرب كما في الوصف في نحو جاءني زيد وعمرو الطويل أو حال من هو والعامل فيها معنى الجملة أي تفرد (بالقسط) أي بالعدل وقوله تعالى (لا إله إلا هو) كرر للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحكم به بعد إقامة الحجة وليبنى عليه قوله تعالى (العزيز) أي في ملكه (الحكيم) أي في صنعه فيعلم أنه الموصوف بهما وقدم العزيز لأن العزة تلائم الوحدانية والحكمة تلائم القيام بالقسط فأتى بهما لتقرير الأمرين على ترتيب ذكرهما ورفعهما على البدل من الضمير الأول أو الثاني أو على الخبر المحذوف وعن أبي غالب القطان قال أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش وكنت أختلف إليه فلما كنت ذات ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة فقام من الليل يتهجد فمر بهذه الآية أي شهد الله إلى آخرها ثم قال الأعمش وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة إن الدين عند الله الإسلام قالها مراراً قلت لقد سمع فيها شيئاً فصليت معه وودعته ثم قلت إني سمعتك ترددها فما بلغك فيها قال والله لا أحدثك بها إلى سنة فكنت على بابه ذلك اليوم وأقمت سنة فلما مضت السنة قلت يا أبا محمد قد مضت السنة فقال حدثني أبو وائل عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله إن لعبدي هذا عندي عهداً وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدي الجنة روى هذا الحديث الطبراني والبيهقي لكن بسند ضعيف وقوله تعالى (إن الدين) أي المرضي (عند الله) هو (الإسلام) جملة مستأنفة مؤكدة للأولى أي لا دين مرضي عند الله سوى الإسلام وهو الشرع المبعوث به الرسل كما قال تعالى ورضيت لكم الإسلام ديناً وقال تعالى ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين وقرأ الكسائي بفتح همزة أن قيل على أنه بدل من أنه الخ بدل اشتمال وضعفه أبو حيان لأن فيه فصلاً بين البدل والمبدل منه بأجنبي قال والصواب أنه معمول للحكيم بإسقاط الجار أي الحكيم بأن الدين والباقون بكسرها على الاستئناف (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب) أي من اليهود والنصارى وقيل من أرباب الكتب المتقدمة في دين الإسلام فقال قوم إنه حق وقال قوم إنه مخصوص بالعرب ونفاه آخرون مطلقاً أو في التوحيد فثلثت النصارى وقالت اليهود عزير ابن الله وقالوا كنا أحق بأن تكون النبوة فينا من قريش لأنهم أميون ونحن أهل الكتاب (إلا من بعد ما جاءهم العلم)

بالتوحيد انه الحق الذى لامحيد عنه (بغيا) أى ما كان ذلك الاختلاف وتظاهر هؤلاء بمذهب وهؤلاء بمذهب الا حسدا (بينهم) وطلبا للرياسة وقيل هو اختلاف فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من بعد ما جاءهم العلم ببيان بعثته فى كتبهم حيث آمن به بعض وكفر به بعض وقيل هو اختلافهم فى الايمان بالانبياء فنهم من آمن بموسى ومنهم من آمن بعيسى ولم يؤمن ببقية الانبياء وقوله تعالى (ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب) أى المجازاة له وعيد لمن كفر منهم (فان حاجوك) أى جادلك الذين كفروا يا محمد فى الدين (فقل) لهم (أسلمت وجهى لله) أى أخلصت نفسى وجملتى لله وحده لم أجعل فيهما لغيره شركا بأن أعبده ولا أدعو الها معه يعنى أن دينى دين التوحيد وهو الدين القويم الذى ثبت عندكم صحته كما ثبت عندى وما جئت بشئ مبتدع حتى تجادلونى فيه وخص الوجه بالذكر لشرفه فهو تعبير عن جملة الشخص بأشرف أجزائه الظاهرة وقوله تعالى (ومن اتبعن) عطف على التاء فى أسلمت وحسن للفاصل ويجوز كما قال فى الكشاف أن تكون الواو بمعنى مع فيكون مفعولا معه اى نظرا الى أن المشاركة بين المتعاطفين فى مطلق الاسلام أى الاخلاص لا فيه بقيد وجهه حتى يمتنع ذلك لاختلاف وجهيهما (وقل للذين أوتوا الكتاب) وهم اليهود والنصارى (والاميين) أى الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب (أأسلمتم) أى فهل أسلمتم كما أسلمت أنا فقد أتاكم من البينات ما يوجب الاسلام ويقتضى حصوله لا محالة أم أنتم بعد على الكفر وهذا كقولك لمن لخصت له المسئلة ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقا الا سلكته هل فهمتها وفى هذا الاستفهام استقصار وتعيير بالمعاندة وقلة الانصاف لان المنصف اذا انجلت له الحجة لم يتوقف اذعانا للحق وكذلك فى هل فهمتها توبيخ بالبلادة وقيل المراد بالاستفهام هنا الامر أى أسلموا كما قال تعالى فهل أنتم منتهون أى انتهوا (فان أسلموا فقد اهتدوا) أى نفعوا أنفسهم حيث خرجوا من الضلال الى الهدى ومن الظلمة الى النور فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقال أهل الكتاب أسلمنا فقال لليهود أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله فقالوا معاذ الله وقال للنصارى أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله فقالوا معاذ الله أن يكون عيسى عبدا فقال عز وجل (وان تولوا) أى عن الاسلام لم يضروك (فانما عليك البلاغ) أى فانك رسول منبه ما عليك الا أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى وقد بلغت وليس اليك الهداية (والله بصير بالعباد) أى عالم بمن يؤمن وبمن لا يؤمن فيجازى كلا منهم بعمله وهذا قبل الامر بالقتال (ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط) أى بالعدل (من الناس) وهم اليهود قتل اوائلهم الانبياء وقتلوا أتباعهم ومن فى عصره صلى الله عليه وسلم كفروا به وقصدوا قتله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لكن الله تعالى عصمهم وعن أبى عبيدة بن الجراح قلت يا رسول الله أى الناس أشد عذابا يوم القيامة قال رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بمعروف ونهى عن منكر وروى أنهم قتلوا ثلاثة وأربعين نبيا فنهاهم مائة وسبعون من عبادهم فقتلوهم من يومهم وخبران (فبشرهم) أى أعلمهم (بعذاب أليم) أى مؤلم وذكر البشارة تهكم بهم (فان قيل) لم أدخل الفاء فى خبر ان مع أنه

لا يقال ان زيدا فقائم (أجيب) بأن الموصول متضمن معنى الشرط فكأنه قيل الذين يكفرون فبشرهم بمعنى من يكفر فبشرهم (أولئك الذين حبطت أعمالهم) أى ما عملوه من خير كصدقة وصلة رحم (فى الدنيا والآخرة) ولا يعتد به لعدم شرطها (وما لهم من ناصرين) أى مانعين عنهم العذاب (ألم تر) أى تنظر (الى الذين أوتوا نصيبا) أى حظا (من الكتاب) أى التوراة أو جنس الكتب السماوية ومن للتبعيض أو البيان قال البيضاوى وتنكير النصيب يحتمل التعظيم والتحقير انتهى أما التعظيم فظاهر وهو ما اقتصر عليه الزمخشرى وأما التحقير ففيه نظر اذ النصيب المراد به الكتاب أو بعضه لا حقارة فيه وقد يقال ان تحقيره بالنسبة اليهم حيث لم يعملوا به (يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم) الداعى هو محمد صلى الله عليه وسلم وكتاب الله القرآن أو التوراة واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فروى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس أى موضع صاحب دراسة كتبهم على جماعة من اليهود فدعاهم الى الله عز وجل فقال له نعيم بن عمرو والحرث ابن زيد على أى دين أنت قال دين ابراهيم فقالا له ان ابراهيم كان يهوديا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهلموا الى التوراة فهى بيننا وبينكم فأبيا عليه فأنزل الله عز وجل هذه الآية وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رجلا وامرأة من أهل خيبر زنيا وكان فى كتابهم الرجم فكرهوا رجمهما لشرفهما فيهم فرفعوا أمرهما الى النبى صلى الله عليه وسلم ورجوا أن تكون عنده رخصة فحكم عليهما بالرجم فقال له النعمان بن أوفى وعدى بن عمرو جرت علينا يا محمد ليس عليهما الرجم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينى وبينكم التوراة قالوا قد أنصفتنا قال فمن أعلمكم بالتوراة قالوا رجل يقال له عبد الله بن صوريا فأرسلوا اليه فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء من التوراة فيها الرجم مكتوب فقال له اقرأ فلما أتى على آية الرجم وضع كفه عليها وقرأ ما بعدها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن سلام يا رسول الله قد جاوزها وقام فرفع كفه عنها ثم قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى اليهود ان المحصن والمحصنة اذا زنيا وقامت عليهما البينة رجما وان كانت حبلى تتربص حتى تضع ما فى بطنها فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باليهوديين فرجما فغضب اليهود وانصرفوا فأنزل الله عز وجل هذه الآية (ثم يتولى فريق منهم) وأتى بثم لاستبعاد توليهم مع علمهم بأن الرجوع الى كتاب الله تعالى واجب لا للتراخى فى الزمان اذ لا تراخى فيه وقوله تعالى (وهم معرضون) أى عن قبول حكمه جملة حالية من فريق وانما ساغ لتخصيصه بالصفة (ذلك) اشارة الى ما ذكر من التولى والاعراض (بأنهم قالوا) أى بسبب قولهم (لن تمسنا النار الا أياما معدودات) أى قالوا ذلك بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم لهذا الاعتقاد المائل والطمع الفارغ عن حصول المطموع فيه وهو الخروج من النار بعد أيام قليلة وهى أربعون يوما مدة عبادة آبائهم العجل ثم تزول عنهم (وغرهم فى دينهم) والغرور هو الاطماع فيما لا يحصل منه شىء (ما كانوا يفترون) أى من أن النار لن تمسهم الا أياما قلائل أو ان آباءهم الانبياء يشفعون لهم

أو انه تعالى وعد يعقوب أن لا يعذب أولاده الا تحلة القسم *(تنبيه)* فى دينهم متعلق بغرّهم
ولا يصح تعلقه بيفترون خلافا للسيوطى لان ما قبل الموصول لا يتعلق بما بعده (فكيف) حالهم
أو فكيف صنعهم (اذا جمعناهم ليوم) أى فى يوم (لا ريب) أى لا شك (فيه) وهو يوم القيامة
وفى ذلك استعظام لما يحيق بهم فى الآخرة روى أن أوّل راية أى علم ترفع يوم القيامة من
رايات الكفار راية اليهود فيفضحهم الله تعالى على رؤس الاشهاد ثم يؤمر بهم الى النار
(ووفيت كل نفس) أى من أهل الكتاب وغيرهم جزاء (ما كسبت) أى عملت من خير
أو شر وفى ذلك دليل على أن العبادة لا تحبط وأن المؤمن لا يخلد فى النار وان دخلها لان توفية
ايمانه وعمله لا يكون فى النار ولا قبل دخولها فاذا هى بعد الخلاص ان دخلها (وهم لا يظلمون)
أى بنقص حسنة أو زيادة سيئة *(تنبيه)* ذكر ضمير وهم لا يظلمون وجمعه باعتبار معنى
كل نفس لانه فى معنى كل انسان ولما فتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة ووعد أمته
ملك فارس والروم قال المنافقون واليهود هيهات هيهات من اين لمحمد ملك فارس والروم أو لم
يكف محمدا مكة والمدينة حتى يطمع فى ملك فارس والروم فأنزل الله سبحانه وتعالى (قل اللهم)
أى يا ألله والميم عوض عن ياء النداء ولذلك لا يجتمعان والتعويض من خصائص هذا الاسم
كما اختص بدخولها عليه مع لام التعريف وقطع همزته وكما اختص بدخول تاء القسم عليه
وأما قولهم ترب الكعبة فنادر (مالك الملك) أى مالك العباد وما ملكوا قال الله تعالى فى بعض
الكتب المنزلة أنا الله ملك الملوك ومالك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدى فان العباد
أطاعونى جعلتهم عليهم رحمة وان عصونى جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك
ولكن توبوا الى أعطفهم عليكم وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم كما تكونوا يولى
عليكم (تؤتى) أى تعطى (الملك) أى فى الدنيا (من تشاء) من خلقك (وتنزع الملك ممن تشاء)
منهم وقيل المراد بالملك النبوّة ونزعها نقلها من قوم الى قوم وقال الكلبى تؤتى الملك محمدا
وأصحابه وتنزعه من أبى جهل وصناديد قريش وقيل تؤتيه لآدم وذريته وتنزعه من ابليس
وجنوده (وتعز من تشاء) من خلقك وقيل محمدا وأصحابه حتى دخلوا مكة فى عشرة آلاف
ظاهرين عليها (وتذل من تشاء) منهم وقيل أبا جهل وأصحابه حزت رؤسهم وألقوا فى القليب
وقيل تعز من تشاء بالطاعة وتذل من تشاء بالمعصية وقيل تعز من تشاء بالقناعة وتذل من تشاء
بالحرص والطمع وقيل تعز من تشاء بالتهجد وتذل من تشاء بتركه (بيدك) أى بقدرتك (الخير)
أى والشر واقتصر على الأوّل لمسارعة الادب فى الخطاب أو اكتفى بذكر أحد المقابلين
كما فى قوله تعالى سرابيل تقيكم الحر أى والبرد أو لان الكلام وقع فيه اذ روى البيهقى وغيره
أنه صلى الله عليه وسلم لما خط الخندق وقطع لكل عشرة أربعين ذراعا وأخذوا يحفرون فظهر فيه
صخرة عظيمة لم تعمل فيها المعاول فوجهوا سلمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فجاء
وأخذ المعول منه فضربها ضربة فصدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها أى المدينة فكان بها
مصباحا فى جوف بيت مظلم فكبر وكبر المسلمون وقال أضاءت لى منها قصور الحيرة كأنها

أنياب الكلاب أي في بياضها وصفرتها وانضمام بعضها الى بعض واللابتان حرتان يكتنفانها والحرة كل أرض ذات حجارة سوداء كأنها محترقة من الحر ثم ضرب الثانية فقال أضاءت لي منها القصور والحمر من أرض الروم ثم ضرب الثالثة فقال أضاءت لي قصور صنعاء وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة على كلها أي الاراضي التي أضاءت فأبشروا فقال المنافقون ألا تعجبون عنكم أيها المؤمنون ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب أي المدينة قصور الحيرة وأنها تفتح لكم وأنتم انما تحفرون الخندق من الفرق أي الخوف فنزلت ونبه أيضا على أن الشر بيده بقوله (انك على كل شئ قدير) والشر شئ ثم عقب ذلك ببيان قدرته على تعاقب الليل والنهار والموت والحياة وسعة فضله فقال (تولج) أي تدخل (الليل في النهار) حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات (وتولج) أي تدخل (النهار في الليل) حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة والنهار تسع ساعات فيزيد كل منهما ما نقص من الآخر (وتخرج الحيّ من الميت) كالانسان من النطفة والطائر من البيضة (وتخرج الميت من الحيّ) كالنطفة من الانسان والبيضة من الطائر وقال الحسن وعطاء تخرج المؤمن من الكافر وتخرج الكافر من المؤمن فالمؤمن حيّ الفؤاد والكافر ميت الفؤاد قال الله تعالى أو من كان ميتا فأحييناه وقال الزجاج تخرج النبات الغض الطري من الحب اليابس وتخرج الحب اليابس من النبات الحيّ النامي وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة الميت بسكون الياء والباقون بكسر الياء مشددة (وترزق من تشاء بغير حساب) أي رزقا واسعا عن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران شهد الله الى قوله ان الدين عند الله الاسلام وقل اللهمّ مالك الملك الى قوله بغير حساب معلقات ما بينهن وبين الله عز وجل حجاب قلن يارب تهبطنا الى أرضك والى من يعصيك قال الله عز وجل بي حلفت لا يقرأكن أحد دبر كل صلاة الا جعلت الجنة مثواه على ما كان فيه ولاسكنته حظيرة قدسي ولانظرت اليه بعيني المكنونة كل يوم سبعين مرّة ولاقضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة ولاعيذنه من كل عدوّ وحاسد ولانصرته منه (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء) يوالونهم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نزلت في المنافقين عبد الله بن أبيّ وأصحابه كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالاخبار يرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله هذه الآية ونهى المؤمنين أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة قبل الاسلام أو غير ذلك من الاسباب التي يتصادق بها ويتعاشر وقوله تعالى (من دون) أي غير (المؤمنين) اشارة الى أنهم الاحقاء بالموالاة وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة والمحبة في الله والبغض في الله باب عظيم وأصل من أصول الايمان (ومن يفعل ذلك) أي يوالي الكفرة (فليس من الله) أي من ولاية الله (في شئ) يصح أن يسمى ولاية شرعية فان ولاية المتعادين لا يجتمعان لما بينهما من التضاد كما قال القائل

فليس أخي من ودني رأي عينه * ولكن أخي من ودني في المغايب

تودّ عدوّى ثم تزعم أننى * صديقك ليس النوك عنك بعازب

بعين مهملة وزاى أى بغائب والنوك بضم النون الحمق والجنون ثم استثنى فقال (الا أن تتقوا منهم تقاة) أى الا أن تخافوا منهم مخافة فلكم موالاتهم باللسان دون القلب كما قال عيسى عليه الصلاة والسلام كن وسطا أى فى معاشرتهم ومخالفتهم وامش جانبا أى من موافقتهم فيما يأمرون ويذرون وهذا قبل عزة الاسلام ويجرى فى بلد ليس قويا فيها قال معاذ بن جبل ومجاهد كانت التقية فى بدء الاسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين وأما اليوم فقد أعز الله الاسلام فليس ينبغى لاهل الاسلام أن يتقوا من عدوهم (ويحذركم الله) أى يخوفكم (نفسه) أن يغضب عليكم ان واليتموهم (والى الله المصير) أى المرجع فيجازيكم فلا تتعرضوا للسخط بمخالفة أحكامه وموالاة أعدائه وهو تهديد عظيم مشعر بتناهى المنهى عنه فى القبح وذكر النفس ليعلم أن المحذر منه عقاب يصدر منه فلا يبالى عنده بما يحذر من الكفرة (قل) لهم يا محمد (ان تخفوا ما فى صدوركم) أى قلوبكم من موالاة الكفار أو غيرها مما لا يرضى الله (أو تبدوه) أى تظهروه (يعلمه الله) ويحفظه عليكم حتى يجازيكم به وقال الكلبى ان تسروا ما فى قلوبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم من التكذيب أو تظهروه بحربه وقتاله يعلمه الله (و) هو الذى (يعلم ما فى السموات وما فى الارض) لا يخفى عليه منه شئ قط فلا يخفى عليه سركم وعلانيتكم (والله على كل شئ قدير) فهو قادر على عقوبتكم ان لم تنتهوا عما نهيتم عنه وهذا بيان لقوله تعالى ويحذركم الله نفسه لان نفسه متصفة بعلم ذاتى محيط بالمعلومات كلها وقدرة ذاتية تعم المقدورات بأسرها فلا تجسروا على عصيانه اذ ما من معصية الا وهو مطلع عليها لا محالة قادر على العقاب بها ولو علم بعض عبيد السلطان انه أراد الاطلاع على أحواله بأن يوكل من يتجسس عن مواطن أموره لاخذ حذره منه كل الحذر فما بال من علم أن العالم الذى يعلم السر وأخفى مهيمن عليه وهو آمن اللهم انا نعوذ بك من اغترارنا بسترك ونسألك اليقظة من سنة الغفلة (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) نصب يوم بمضمر نحو اذكر وقوله تعالى (وما عملت) أى عملته (من سوء) مبتدأ خبره (تود لو أن بينها) أى النفس (وبينه) أى السوء (أمدا بعيدا) أى غاية فى نهاية البعد فلا يصل اليها وكرر سبحانه وتعالى (ويحذركم الله نفسه) قال البيضاوى للتأكيد والتذكير وقال التفتازانى الاحسن ما قيل ان ذكره أولا للمنع من موالاة الكافرين وثانيا للحث على عمل الخير والمنع من عمل الشر وقوله تعالى (والله رؤف بالعباد) اشارة الى أنه تعالى انما نهاهم وحذرهم رأفة بهم ومراعاة لصلاحهم وعن الحسن من رأفته بهم أن حذرهم نفسه وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى رؤف بقصر الهمزة والباقون بالمد وورش على أصله فى المد والتوسط والقصر ونزل فى اليهود والنصارى حيث قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه (قل) لهم يا محمد (ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وقال الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقف النبى صلى الله عليه وسلم على قريش وهم فى المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وهم يسجدون لها فقال يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم ابراهيم واسمعيل فقال له قريش انما نعبدها

حبا لله تعالى ليقربونا الى الله زلفى فقال الله تعالى قل لهم يا محمد ان كنتم تحبون الله وتعبدون الاصنام لتقربكم اليه فاتبعونى يحببكم الله فأنا رسوله اليكم وحجته عليكم أى اتبعوا شريعتى وسنتى يحببكم الله فحب المؤمنين لله اتباعهم أمره وايثار طاعته وابتغاء مرضاته وحب الله للمؤمنين ثناؤه عليهم وثوابه لهم وعفوه عنهم فذلك قوله تعالى (ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور) لمن اتبعنى ما سلف من ذنبه قبل ذلك (رحيم) به وعن الحسن زعم أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله فأراد أن يجعل لقولهم تصديقا من عملهم فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو كذاب وكتاب الله يكذبه واذا رأيت من يذكر محبة الله ويصفق بيديه مع ذكره ويطرب وينعر ويصعق فلا شك أنه لا يعرف ما الله ولا يدرى ما محبة الله وما تصفيقه وطربه ونعرته وصعقته الالانه تصور فى نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة فسماها الله بجهله وادعائه ثم صفق وطرب ونعر وصعق عند تصورها وربما رأيت المنى قد ملأ ازار ذلك المحب عند صعقته وحمق العامة حواليه قد ملؤا أذقانهم بالدموع لما رأوه من حاله * ولما نزلت هذه الآية قال عبد الله بن أبى لاصحابه ان محمدا يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نحبه كما أحب النصارى عيسى نزل قوله تعالى (قل) لهم (أطيعوا الله والرسول) فيما يأمركم به من التوحيد (فان تولوا) أى أعرضوا عن الطاعة (فان الله لا يحب الكافرين) أى لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم وانما أتى بالظاهر ولم يقل لا يحبهم لقصد العموم والدلالة على ان التولى كفر وأنه من هذه الحيثية ينفى محبة الله وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين ولما أوجب الله سبحانه وتعالى طاعة الرسل عليهم الصلاة والسلام وبين أنها الجالبة لمحبة الله عقب ذلك ببيان مناقبهم تحريضا على الطاعة فقال تعالى (ان الله اصطفى) أى اختار (آدم ونوحا وآل ابراهيم) وهم اسمعيل واسحق وأولادهما الرسل وقد دخل فى آل ابراهيم رسول الله صلى الله عليه وسلم (وآل عمران) موسى وهرون ابنا عمران ابن يصهر (على العالمين) بالرسالة والخصائص الروحانية والجسمانية ولذلك قووا على ما لم يقو عليه غيرهم وبهذه الآية استدل على فضل الرسل على الملائكة وقيل آل عمران عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان وكان بين العمرانين ألف وثمانمائة سنة وقيل آل ابراهيم وآل عمران أنفسهما وقوله تعالى (ذرية) بدل من آل ابراهيم وآل عمران (بعضها من) ولد (بعض) منهم وقيل بعضها من بعض فى الدين والذرية تقع على الواحد والجمع والذكر والانثى (والله سميع) لاقوال الناس (عليم) بأحوالهم فيصطفى من كان منهم مستقيم القول والحال واذكر (اذ قالت امرأت عمران) وهى حنة بنت فاقوذا أم مريم وعمران هو عمران بن ماثان رئيس بنى اسرائيل وليس هو عمران أبا موسى وهرون اذ كان بين العمرانين ألف وثمانمائة سنة كما مر وكان بنو ماثان رؤس بنى اسرائيل وأحبارهم وملوكهم (فائدة) رسمت امرأة بالتاء المجرورة ووقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء ووقف الكسائى بالفتح والامالة واذا وقف حمزة سهل الهمزة وروى أن حنة كانت عاقرا عجوزا فبينما هى فى ظل شجرة اذ رأت طائرا يطعم فرخه فحنت الى الولد وتمنته فقالت اللهم ان لك على نذرا شكرا ان رزقتنى ولدا أن أتصدق به على بيت

المقدس فيكون من خدمه فحملت فلما أحست بالحمل قالت يا (رب انى نذرت) أن أجعل (لك ما فى بطنى محررا) أى عتيقا خالصا من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس وكان هذا النذر مشروعا فى عهدهم فى الغلمان فقال لها زوجها ويحك ما صنعت أرأيت ان كان ما فى بطنك أنثى لا تصلح لذلك فوقعا جميعا فى هم من ذلك وهلك عمران وحنة حامل بمريم (فتقبل منى) ما نذرته (انك أنت السميع) لقولى (العليم) بنيتى (فلما وضعتها) أى ولدتها جارية والضمير لما فى بطنها وانما أنث على المعنى لان ما فى بطنها كان أنثى فى علم الله أو على تأويل النفس أو النسمة ولم يكن يحرر الا الغلمان وكانت ترجو أن يكون غلاما ولذلك نذرت تحريره (قالت) معتذرة يا (رب انى وضعتها أنثى) * فان قيل كيف جاز انتصاب أنثى حالا من الضمير فى وضعتها وهو كقوله وضعت الانثى أنثى (أجيب) بأن الاصل وضعته أنثى وانما أنث لتأنيث الحال لان الحال وصاحبها بالذات واحد وأما على تأويل النفس أو النسمة فهو ظاهر كأنها قالت انى وضعت النفس أو النسمة أنثى (والله أعلم) أى عالم (بما وضعت) قرأ ابن عامر وشعبة بسكون العين وضم التاء فيكون من كلامها قالته تسلية لنفسها أى ولعل لله فيه سرا أو حكمة ولعل هذه الانثى خير من الذكر وقرأ الباقون بفتح العين وسكون التاء فيكون من كلام الله تعالى تعظيما لموضوعها وتجهيلا لها بقدر ما وهب لها منه ومعناه والله أعلم بالانثى التى وضعت وما علق به من عظائم الامور وأن يجعلها وولدها آية للعالمين وهى جاهلة بذلك لا تعلم منه شيأ فلذلك تحسرت وقرأ أبو عمرو والله أعلم بسكون الميم واخفائها عند الباء بخلاف عنه والباقون بالاظهار وقوله تعالى (وليس الذكر كالانثى) بيان لما فى قوله والله أعلم بما وضعت من التعظيم للموضوع والرفع منه ومعناه وليس الذكر الذى طلبت كالانثى التى وهبت لها واللام فيهما للعهد أما معهود لام الانثى ففى قولها انى وضعتها أنثى وأما معهود لام الذكر ففى قولها محررا ويجوز أن يكون معنى قولها وليس الذكر كالانثى أى وليس الذكر والانثى سيين فيما نذرت لما يعترى الانثى من الحيض والنفاس فتكون اللام للجنس وقوله تعالى (وانى سميتها مريم) عطف على انى وضعتها أنثى وما بينهما جملتان معترضتان كقوله تعالى وانه لقسم لو تعلمون عظيم وانما ذكرت ذلك لربها تقربا اليه وطلبا لان يعصمها ويصلحها حتى يكون فعلها مطابقا لاسمها فان مريم فى لغتهم بمعنى العابدة *(تنبيه)* فى قوله تعالى حكاية عنها سميتها مريم دليل على ان الاسم والمسمى والتسمية امور متغايرة أو معنى سميتها مريم جعلت اسم المولود مريم (وانى أعيذها) أى أجيرها (بك) أى بحفظك (وذريتها) أى أولادها (من الشيطان الرجيم) أى المطرود روى الشيخان ما من مولود يولد الا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا الا مريم وابنها ولا يبعد كما قال الطيبى اختصاص عيسى وأمه بهذه الفضيلة دون الانبياء لجواز أن يمكن الله تعالى الشيطان من مسهم مع عصمتهم من الاغواء ولا يمتنع كما قال التفتازانى أن يمس الشيطان المولود حين يولد بحيث يصرخ كما ترى وتسمع وليست تلك المسة للاغواء ليدفع أنه لا يتصور فى حق المولود حيث يولد وحينئذ فقول البيضاوى معناه ان الشيطان يطمع فى اغواء كل مولود أى

لايمسه فيه اخراج الحديث عن ظاهره وتبع فيه الزمخشري وهو ماسلكه المعتزلة حيث أنكروا هذا الحديث وقدحوا في صحته لان الشيطان انما يدعو الى الشر من له تمييز وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل بني آدم يطعنه الشيطان في جنبيه باصبعيه حين يولد غير عيسى بن مريم ذهب يطعنه فطعنه في الحجاب (فتقبلها ربها) أي قبل مريم من أمها ورضي بها في النذر مكان الذكر (بقبول حسن) وهو اختصاصه لها باقامتها مقام الذكر في النذر ولم يقبل قبلها أنثى (وأنبتها نباتا حسنا) أي أنشأها بخلق حسن فكانت تنبت في اليوم كما ينبت المولود في العام (وكفلها زكريا) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بتشديد الفاء وقصروا زكريا غير عاصم في رواية ابن عياش على أن الفاعل هو الله تعالى وزكريا مفعول أي جعله كافلا لها وضامنا لمصالحها فلابد من تقدير مضاف في الآية وهو مصالح لان كفالة البدن لامعنى لها وقرأ الباقون بتخفيف الفاء ومدوا زكريا مرفوعا على الفاعلية روي أن حنة لما ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها الى المسجد الاقصى ووضعتها عند الاحبار وقالت دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لانها بنت امامهم الاعظم في العلم والصلاح فقال زكريا أنا أحق بها لان خالتها عندي فقالت الاحبار لاتقل ذلك فانها لو تركت لاحق الناس بها لتركت لامها التي ولدتها لكنا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه وكانوا تسعة وعشرين رجلا فانطلقوا الى نهر الاردن وألقوا فيه أقلامهم على أن من ثبت قلمه في الماء وصعد فهو أولى بها فثبت قلم زكريا فأخذها وضمها الى خالتها أم يحيى حتى اذا شبت وبلغت مبلغ النساء بني لها غرفة في المسجد وجعل بابها في وسطه لايرقى اليها الا بالسلم ولا يصعد اليها غيره وكان يأتيها بأكلها وشربها ودهنها فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء كما قال تعالى (كلما دخل عليها زكريا المحراب) أي الغرفة والمحراب أشرف المجالس ومقدمها وكذلك هو من المسجد ويقال أيضا للمسجد محراب قال المبرد لايكون المحراب الا أن يرتقى اليه بدرج (وجد عندها رزقا) قال الربيع بن أنس كان زكريا اذا خرج يغلق عليها سبعة أبواب فاذا دخل عليها غرفتها وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف فاذا وجد عندها ذلك (قال يامريم أنى لك هذا) أي من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه والابواب مغلقة عليك (قالت) وهي صغيرة (هو من عند الله) يأتيني به من الجنة قيل تكلمت في المهد وهي صغيرة كما تكلم ابنها عيسى وهو صغير في المهد ولم ترضع ثديا قط وكان رزقها ينزل عليها من الجنة وفي هذا دليل وأي دليل على كرامة الاولياء وليس ذلك معجزة لزكريا كما زعمه جماعة لان ذلك مدفوع باشتباه الامر عليه حتى قال لها أنى لك هذا ولو كان معجزة له لادعاها وقطع بها لان النبي شأنه ذلك ويدل عليها غير ذلك كقصة أصحاب الكهف ولبثهم في الكهف سنين عددا بلا طعام ولا شراب وقصة آصف من اتيانه بعرش بلقيس قبل ارتداد الطرف ورؤية عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وهو على المنبر جيشه بنهاوند حين قال ياسارية الجبل وسماع سارية ذلك وكان بينهما مسافة شهر وشرب خالد رضي الله عنه السم من غير أن يضره وبالجملة فكرامات الاولياء حق ثابتة بالكتاب والسنة

وليس بعجيب انكارهامن أهل البدع والاهواء اذا لم يشاهدوا ذلك من أنفسهم ولم يسمعوا به من رؤسائهم الذين يزعمون أنهم على شئ فوقعوا فى أولياء الله تعالى أصحاب الكرامات يمزقونهم ويسمونهم بالجهلة المتصوفة ولم يعرفوا ان مبنى هذا الامر على صفاء العقيدة ونقاء السريرة واقتفاء الطريقة واصطفاء الحقيقة وانما العجب من بعض فقهاء أهل السنة حيث قال فيما روى عن ابراهيم بن أدهم انهم رأوه بالبصرة يوم التروية وفى ذلك اليوم بمكة ان من اعتقد جواز ذلك يكفر والانصاف ماذكره الامام النسفى حين سئل عما يحكى أن الكعبة كانت تزور بعض الاولياء هل يجوز القول به فقال نقض العادة على سبيل الكرامة لاهل الولاية جائز عند أهل السنة وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم جاع فى زمن قحط فأهدت له فاطمة رضى الله تعالى عنها رغيفين وبضعة لحم فى طبق مغطى آثرته به فرجع بذلك اليها وقال هلمى يابنية فكشفت عن الطبق فاذا هو مملوء خبزا ولحما فبهتت وعلمت ان ذلك نزل من عند الله فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب فقال لها عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيدة نساء بنى اسرائيل ثم جمع صلى الله عليه وسلم عليا والحسن والحسين وجميع أهل بيته فأكلوا حتى شبعوا وبقى الطعام كما هو فأوسعت فاطمة على جيرانها فهذه كرامة لفاطمة رضى الله تعالى عنها وفى هذه الرواية دليل على ان قوله تعالى (ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) أى رزقا واسعا بلا تبعة من كلام مريم رضى الله تعالى عنها ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى * ولما رأى زكريا كرامة مريم ومنزلتها عند الله قال ان الذى قدر على أن يأتى مريم بالفاكهة فى غير حينها من غير سبب قادر على أن يصلح زوجتى و يهب لى ولدا فى غير حينه على الكبر فطمع فى الولد وذلك أن أهل بيته كانوا قد انقرضوا وكان زكريا قد شاخ وأيس من الولد قال الله عز وجل (هنالك دعا زكريا ربه) أى فى ذلك المكان أو الوقت قال الزمخشرى قد تستعار هنا وثم وحيث للزمان أى لمشابهة الزمان للمكان فى الظرفية فاستعيرله فدخل زكريا المحراب وناجى ربه فى جوف الليل (قال) يا (رب هب لى) أى اعطنى (من لدنك) أى من عندك (ذرية طيبة) كما وهبتها لحنة العجوز العاقر أى ولدا مباركا تقيا صالحا رضيا والذرية يكون واحدا وجمعا ذكرا وأنثى وهو هنا واحد بدليل قوله فهب لى من لدنك وليا يرثنى وانما قال طيبة لتأنيث لفظ الذرية (انك سميع) أى مجيب (الدعاء) لمن دعاك فلا تردنى خائبا (فنادته الملائكة) أى جنسهم كقولهم فلان يركب الخيل فان المنادى كان هو جبريل وحده وقرأ حمزة والكسائى فناداه بالامالة والتذكير والباقون بالتاء (وهو قائم يصلى فى المحراب) أى المسجد وذلك ان زكريا كان هو الحبر الكبير الذى يقرب القربان و يفتح باب المذبح فلا يدخلون حتى يأذن لهم فى الدخول فبينما هو قائم يصلى فى المحراب والناس ينتظرون أن يؤذن لهم فى الدخول فاذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض ففزع منه فناداه وهو جبريل وقرأ (ان الله يبشرك بيحيى) ابن عامر وحمزة بكسر الهمزة على ارادة القول أولان النداء نوع من القول والباقون بالفتح على بأن وقرأ حمزة والكسائى بفتح الياء من يبشرك وسكون الباء الموحدة وضم الشين

مخففة والباقون بضم الياء وفتح الباء الموحدة وكسر الشين المشددة واختلفوا في أنه لم سمي يحيى قال ابن عباس لان الله أحيا به عقر أمه وقال قتادة لان الله أحيا قلبه بالايمان وقيل لان الله تعالى أحيا قلبه بالطاعة حتى انه لم يهم بمعصية وهو اسم أعجمي منع صرفه للتعريف والعجمة كموسى وعيسى وقيل عربي ومنع صرفه للتعريف ووزن الفعل كيخشى وجمعه يحيون كموسون وعيسون (مصدقا بكلمة) كائنة (من الله) أي بعيسى أنه روح الله وسمي كلمة لانه خلق بكلمة كن وقيل لان الله أخبر الانبياء بكلامه في كتابه أنه يخلق نبيا بلا أب فسماه بكلمة لحصول ذلك الوعد وكان يحيى أول من آمن بعيسى وصدقه وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر ثم قتل يحيى قبل أن يرفع عيسى عليهما الصلاة والسلام وقول البيضاوي وكان يحيى وعيسى ابني خالة من الاب فيه تجوز اذ يحيى ابن خالة أم عيسى لا ابن خالته وعيسى ابن بنت خالة يحيى لا ابن خالته (وسيدا) أي يسود قومه فيصير متبوعا وقال الضحاك السيد الحسن الخلق وقال سعيد بن جبير السيد الذي يطيع ربه وقال سعيد بن المسيب السيد الفقيه العالم (وحصورا) أي مبالغا في حبس النفس عن الشهوات والملاهي روي أنه مر وهو طفل بصبيان فدعوه للعب فقال ما للعب خلقت وقال سعيد بن المسيب الحصور هو المعسر الذي لا مال له فيكون الحصور بمعنى المحصور كأنه ممنوع من النساء وقيل كان له مثل هدبة الثوب وقد تزوج مع ذلك ليكون أغض لبصره وقيل هو الممتنع من الوطء مع القدرة عليه واختار قوم هذا القول لوجهين أحدهما أن الكلام خرج مخرج الثناء وهذا أقرب الى استحقاق الثناء والثاني انه أبعد من الحاق الآفة بالانبياء (ونبيا) ناشئا (من الصالحين) لانه كان من أصلاب الانبياء أو كائنا من جملة الصالحين فمن على هذا للتبعيض كقوله تعالى وانه في الآخرة لمن الصالحين (قال رب أنى) أي كيف (يكون لي غلام) أي ابن (وقد بلغني الكبر) أي أدركني كبر السن وأثر في وكان عمره مائة وعشرين سنة وقيل تسعا وتسعين سنة (وامرأتي عاقر) أي لا تلد من العقر وهو القطع لانها ذات عقر من الاولاد وكانت بنت ثمان وتسعين سنة (فان قيل) كيف قال زكريا بعد ما وعده الله تعالى أن يكون له غلام أنى يكون لي غلام أكان شاكا في وعد الله وفي قدرته (أجيب) بأنه قال ذلك استبعادا من حيث العادة كما قالت مريم أو استعظاما وتعجبا أو استفهاما عن كيفية حدوثه أي أتجعلني وامرأتي شابين أو ترزقنا ولدا على الكبر منا أو ترزقني امرأة أخرى وقيل ان زكريا لما سمع نداء الملائكة جاءه الشيطان فقال يا زكريا ان الصوت الذي سمعت ليس هو من الله انما هو من الشيطان ولو كان من الله لاوحاه اليك كما يوحي اليك في سائر الامور فقال ذلك دفعا للوسوسة (قال) الامر (كذلك) أي من خلق غلام منكما (الله يفعل ما يشاء) لا يعجزه عنه شئ ولاظهار هذه القدرة العظيمة ألهمه الله السؤال ليجاب بها ولما تاقت نفسه الى سرعة المبشر به (قال رب اجعل لي آية) أي علامة أعرف بها حمل امرأتي لاتلقى النعمة اذا جاءت بالشكر (قال آيتك) عليه (أن لا تكلم الناس) أي تمتنع من كلامهم (ثلاثة أيام) أي بلياليها كما في سورة مريم ثلاث ليال (الا رمزا) أي اشارة بيد أو رأس والاستثناء منقطع وقيل متصل والمراد بالكلام حينئذ ما دل

على ما فى الضمير وانما خص تكليم الناس ليعلم انه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة مع ابقاء قدرته على التكلم بذكر الله ولذلك قال (واذكر ربك كثيرا وسبح) أى صل (بالعشى) وهو من حين زوال الشمس الى أن تغيب (والابكار) وهو من طلوع الفجر الى وقت الضحى (فان قيل) لم حبس لسانه عن كلام الناس (أجيب) بانه انما فعل به ذلك ليخلص المدة المذكورة لذكر الله تعالى لا يشغل لسانه بغيره توفرا منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة وشكرها التى طلب الآية من أجلها كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له آيتك أن يحبس لسانك الا عن الشكر وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال ومنتزعا منه وقال قتادة أمسك لسانه عن الكلام عقوبة له لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة اياه فلم يقدر على الكلام ثلاثة أيام (و) اذكر (اذ قالت الملائكة) أى جبريل قال لها شفاها (يا مريم ان الله اصطفاك) أى اختارك بان تقبلك من أمك ولم يقبل قبلك أنثى وفرغك للعبادة واغناك برزق الجنة عن الكسب وتكليمه اياها شفاها كرامة لها وقيل كان معجزة لزكريا وقيل كان ارهاصا أى تأسيسا لنبوة عيسى صلى الله عليه وسلم بطريق الخوارق قبل البعثة كاظلال الغمام لنبينا صلى الله عليه وسلم قبل البعثة بطريق الشأم وانما حمل على هذا التأويل لانها ليست بنبية على الاصح بل حكى البيضاوى الاجماع على انه تعالى لم ينبئ امرأة لقوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا لكن نوزع فى دعوى الاجماع لان الخلاف ثابت فى نبوة نسوة خصوصا مريم اذ القول بنبوتها مشهور (وطهرك) أى من مسيس الرجال وعما يستقذر من النساء (واصطفاك) ثانيا (على نساء العالمين) بهدايتك وارسال الملائكة اليك وتخصيصك بالكرامات السنية كالولد من غير أب ولم يكن لاحد من النساء * (فائدة) * أفضل نساء العالمين مريم كما فى الآية اذ قيل بنبوتها ثم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خديجة أمها ثم عائشة ثم آسية امرأة فرعون (فان قيل) روى الطبرانى خير نساء العالمين مريم بنت عمران ثم خديجة بنت خويلد ثم فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ثم آسية امرأة فرعون (أجيب) بأن خديجة انما فضلت فاطمة باعتبار الامومة لا باعتبار السيادة (يا مريم اقنتى لربك) أى أطيعه (واسجدى واركعى مع الراكعين) أى وصلى مع المصلين فى الجماعة أو وانظمى نفسك فى جملة المصلين وكونى معهم فى عدادهم ولا تكونى فى عداد غيرهم (فان قيل) لم قدم السجود على الركوع (أجيب) باحتمال أنه كان كذلك فى تلك الشريعة وقيل بل كان السجود قبل الركوع فى الشرائع كلها أو للتنبيه على أن الواو لا تقتضى الترتيب (ذلك) أى ما قصصناه عليك يا محمد من حديث زكريا ويحيى ومريم وعيسى (من أنباء الغيب نوحيه اليك) أى من الغيوب التى لم تعرفها الا بالوحى (وما كنت لديهم) أى عندهم (اذ يلقون أقلامهم) فى الماء أى سهامهم التى طرحوها فيه وعليها علامة على القرعة وقيل هى الاقلام التى كانوا يكتبون بها التوراة اختاروها للقرعة تبركا بها ليعلموا (أيهم يكفل مريم) أى يحضنها ويربيها فأى متعلق بمحذوف كما علم من التقدير (وما كنت لديهم اذ يختصمون) فى كفالتها فتعرف ذلك فتخبر به وانما عرفته

من جهة الوحي (فان قيل) لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم من غير شبهة وترك نفي استماع الانباء من حفاظها وهو موهوم (أجيب) بأنه كان معلوما عندهم علما يقينا انه ليس من أهل السماع والقراءة وكانوا منكرين للوحي مع علمهم بأنه لاسماع له ولا قراءة ومثل ذلك قوله تعالى وما كنت بجانب الغربي وما كنت بجانب الطور وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم واذكر (اذ قالت الملائكة) أي جبريل (يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه) أي بابن (اسمه المسيح عيسى بن مريم) وانما خاطبها بنسبته اليها تنبيها على أنها تلده بلا أب اذ عادة الابناء نسبتهم الى آبائهم لا الى أمهاتهم وبنسبته اليها فضلت واصطفيت على نساء العالمين (فان قيل) هذه ثلاثة أشياء الاسم منها عيسى وأما المسيح والابن فلقب وصفة (أجيب) بأن الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز عن غيره فكأنه قيل الذي يعرف به ويتميز عمن سواه مجموع هذه الثلاثة والمسيح لقب من الالقاب المشرفة كالصديق والفاروق وأصله مشيحا بالعبرانية ومعناه المبارك لقوله وجعلني مباركا أينما كنت واشتقاقه من المسح لانه مسح بالبركة أو بما طهره من الذنوب أو مسح الارض ولم يقم في موضع أو لانه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن أو لان جبريل مسحه بجناحه حتى لم يكن للشيطان عليه سبيل أو لانه كان مسيح القدم لاأخمص له وقال ابن عباس سمي مسيحا لانه ما مسح ذا عاهة الابرئ ويسمى الدجال مسيحا لانه ممسوح احدى العينين وعيسى معرب ايشوع وهو بالشين المعجمة السيد قال البيضاوي اشتقاقه من العيس وهو بياض تعلوه حمرة وهو تكلف لاطائل تحته وقوله تعالى (وجيها) أي ذا جاه حال مقدرة من كلمة وهي وان كانت نكرة لكنها موصوفة (فان قيل) لم ذكر ضمير الكلمة (أجيب) بأن المسمى بها مذكر (في الدنيا) أي بالنبوة والتقدم على الناس (و) في (الآخرة) بالشفاعة والدرجات العلى (ومن المقربين) عند الله تعالى لعلو درجته في الجنة ورفعه الى السماء وصحبته للملائكة (ويكلم الناس في المهد) أي صغيرا قبل أوان الكلام كما ذكر في سورة مريم قال اني عبد الله آتاني الكتاب الآية وحكى عن مجاهد قال قالت مريم كنت اذا خلوت أنا وعيسى حدثني وحدثته فاذا اشغلني عنه انسان سبح في بطني وأنا أسمع والمهد ما يمهد للصبي من مضجعه وقوله تعالى (وكهلا) عطف على في المهد أي ويكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الانبياء من غير تفاوت بين حال الطفولية وحال الكهولية التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الانبياء وقد رفع بعد كهولته وقيل انه رفع شابا وعلى هذا المراد كهلا بعد نزوله وذكر تعالى أحواله المختلفة المتنافية ارشادا الى أنه بمعزل عن الالوهية (فان قيل) فما فائدة البشارة بكلامه كهلا والناس في ذلك سواء (أجيب) بأنه بشرها بأنه يبقى الى أن يتكهل وبعدم التفاوت بين الحالين كما مر وقوله تعالى (ومن الصالحين) أي من عباد الله الصالحين حال من كلمة أو من ضميرها الذي في يكلم (فان قيل) لم ختم الصفات المذكورة بقوله ومن الصالحين بعد كونه وجيها في الدنيا وفسرت بالنبوة ولا شك أن النبوة أرفع من منصب الصلاح بل كل واحدة من الصفات المذكورة أشرف من كونه صالحا (أجيب) بأنه لا يكون كذلك الا ويكون في جميع الافعال والتروك مواظبا على المنهج الاصلح وذلك يتناول جميع

المقامات فى الدين والدنيا فى أفعال القلوب وفى أفعال الجوارح ولهذا قال نبى الله سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام بعد النبوة وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين فلما عدد صفات عيسى عليه الصلاة والسلام أردفها بهذا الوصف الدال على أرفع الدرجات (قالت رب) أى ياسيدى فقولها الله عز وجل وقيل قالته لجبريل قاله البغوى وقال الزمخشرى ومن بدع التفاسير ان قولها يارب نداء لجبريل بمعنى ياسيدى (أنى) أى كيف (يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر) أى ولم يصبنى رجل بتزوج ولا غيره قالت ذلك تعجبا اذلم تكن بجرت العادة بأن يولد مولود بلا أب أو استفهاما عن أن يكون بتزوج أو بغيره (قال) الامر (كذلك) من خلق ولد منك بلا أب (الله يخلق مايشاء) القائل جبريل أو الله وجبريل حكى لها وقوله تعالى (اذا قضى أمرا) أى أراد كون شئ (فانما يقول له كن) صر وقرأ (فيكون) ابن عامر بفتح النون والباقون بضمها أى فهو يكون لانه تعالى كما يقدر أن يخلق الاشياء مدرجا بأسباب ومواد يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك فنفخ جبريل فى جيب درعها فحملت وكان من أمرها ماذكر فى سورة مريم وسيأتى ان شاء الله تعالى الكلام عليه هنالك وقوله تعالى (ونعلمه الكتاب) أى الكتابة (والحكمة) أى العلم المقترن بالعمل (والتوراة والانجيل) كلام مستأنف ذكر تطييبا لقلبها وازاحة لما همها من خوف اللوم حين علمت أنها تلد من غير زوج وقيل المراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة وخص الكتابان لفضلهما وقرأ نافع وعاصم بالياء والباقون بالنون (و) نجعله (رسولا الى بنى اسرائيل) اما فى الصبا أو بعد البلوغ وتخصيص بنى اسرائيل لخصوص بعثه اليهم وللرد على من زعم انه مبعوث الى غيرهم (فائدة) كان أول أنبياء بنى اسرائيل يوسف بن يعقوب وآخرهم عيسى عليهم الصلاة والسلام ولما بعث اليهم قال لهم انى رسول الله اليكم (أنى) أى بأنى (قد جئتكم بآية) أى علامة (من ربكم) تصدق قولى وانما قال بآية وقد أتى بآيات لان الكل دل على شئ واحد وهو صدقه فى الرسالة * ولما قال ذلك لبنى اسرائيل قالوا وماهى قال هى (أنى) قرأ نافع وحده بكسر الهمزة على الاستئناف وفتح الياء من انى نافع وأبو عمرو وسكنها الباقون (أخلق) أى أصور (لكم من الطين كهيئة الطير) أى مثل صورته فيصير طيرا كسائر الطيور حيا طيارا والكاف اسم مفعول وقرأ ورش بالمد على الياء من هيئة والتوسط كما تقدم فى شئ (فأنفخ فيه) الضمير للكاف أى فى ذلك المماثل للطير أى فى فيه (فيكون طيرا باذن الله) أى بارادته نبه بذلك على أن احياءه من الله تعالى لامنه وقرأ نافع بألف بعد الطاء بعدها همزة مكسورة ورقق ورش الراء على أصله والباقون بياء ساكنة بعد الطاء من غير ألف فقراءة الجمع نظرا الى أنه خلق طيرا كثيرا وقراءة المفرد نظرا الى أنه نوع واحد من الطير لانه لم يخلق غير الخفاش وانما خص الخفاش لانه أكمل الطير خلقا لان له اسنانا وللانثى ثديا وتحيض قال وهب كان يطير مادام الناس ينظرون اليه فاذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز فعل الخلق من فعل الله وليعلم ان الكمال لله عز وجل (وأبرئ) أى أشفى (الاكمه) وهو الذى ولد أعمى أو ممسوح العينين قال الزمخشرى ويقال لم يكن فى هذه الامة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسى صاحب التفسير ولعل هذا على التفسير

الثاني (والابرص) وهو الذي به برص وهو بياض شديد يبقع الجلد ويذهب دمويته وانما خص هذين المرضين بالذكر لانهما أعييا الاطباء وكان الغالب في زمن عيسى الطب فأراهم المعجزة من جنس ذلك قال وهب ربما اجتمع على عيسى من المرضى في اليوم الواحد خمسون ألفا من أطاق منهم أن يبلغه أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى وما كانت مداواته الا بالدعاء وحده على شرط الايمان وانما قال ثانيا (وأحيي الموتى باذن الله) وكرر باذن الله دفعا لتوهم الالوهية فان الاحياء ليس من جنس الافعال البشرية قال ابن عباس قد أحيا عيسى أربعة أنفس عازر وابن العجوز وابنة العاشر وسام بن نوح عليه السلام فأما عازر فكان صديقا له فأرسلت أخته الى عيسى عليه السلام ان أخاك عازر يموت وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام فأتى هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام فقال لاخته انطلقي بنا الى قبره فانطلقت معهم الى قبره فدعا الله سبحانه وتعالى فقام وخرج من قبره وبقي وولد له وأما ابن العجوز فمر به ميتا على عيسى يحمل على سرير فدعا الله تعالى عيسى فجلس على سريره ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع الى أهله فبقي وولد له وأما ابنة العاشر فكان رجلا يأخذ العشور ماتت له بنت بالامس فدعا الله تعالى فأحياها فبقيت وولد لها وأما سام بن نوح فان عيسى عليه السلام جاء الى قبره ودعا فخرج من قبره وقد شاب نصف رأسه خوفا من قيام الساعة وما كانوا يشيبون في ذلك الزمان فقال قد قامت القيامة فقال لا ولكن قد دعوت الله تعالى فأحياك ثم قال له مت فقال بشرط أن يعيذني الله تعالى من سكرات الموت فدعا الله تعالى ففعل به ما قال (وأنبئكم) أي أخبركم (بما تأكلون) بما لم أعاينه (وما تدخرون) أي تخبؤن (في بيوتكم) حتى تأكلوه فكان يخبر الرجل بما أكل البارحة وبما أكل اليوم وبما ادخره للعشاء وقال السدى كان عيسى في الكتاب يحدث الغلمان بما تصنع آباؤهم ويقول للغلام انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا ورفعوا لك كذا وكذا فينطلق الصبي الى أهله ويبكي عليهم حتى يعطوه ذلك الشئ فيقولون من أخبرك بهذا فيقول عيسى فحبسوا صبيانهم عنه وقالوا لهم لا تلعبوا مع هذا الساحر فجمعوهم في بيت فجاء عيسى يطلبهم فقالوا ليسوا ههنا قال فما في هذا البيت قالوا خنازير قال عيسى كذلك يكونوا ففتحوا عنهم فاذا هم خنازير ففشا ذلك في بني اسرائيل فهمت به بنو اسرائيل فلما خافت عليه أمه حملته على حمار لها وخرجت هاربة الى مصر وقال قتادة انما هذا في المائدة وكان خوانا ينزل عليهم أينما كانوا كالمن والسلوى وأمروا أن لا يخونوا ولا يخبؤا لغد فخانوا وخبؤا فجعل عيسى يخبرهم بما أكلوا من المائدة وادخروا منها فمسخهم الله خنازير (ان في ذلك) الذي ذكرته لكم (لآية لكم ان كنتم مؤمنين) أي مصدقين للحق غير معاندين وقوله تعالى (ومصدقا) منصوب باضمار فعل يدل عليه قد جئتكم أي وجئتكم مصدقا (لما بين يدي) أي قبلي (من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم) فيها في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام فأحل لهم أكل الشحوم والثروب وهو شحم رقيق يغشى الكرش والسمك ولحوم الابل والعمل في السبت وقيل أحل الجميع فبعض بمعنى كل كقول لبيد

ترّاك أمكنة اذا لم أرضها * أو يرتبط بعض النفوس حمامها

يعني كل النفوس (فان قيل) كيف يكون مصدقا للتوراة والاحلال يدل على أن شرعه كان ناسخا لشرع موسى (أجيب) بانه لا تناقض كما لا يعود نسخ القرآن بعضه ببعض عليه بالتناقض والتكاذب فان النسخ في الحقيقة بيان وتخصيص في الازمان وانما كرر (وجئتكم بآية من ربكم) للتأكيد وليبني عليه (فاتقوا الله) أي في مخالفة أمره أي جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم من خلق الطير والابراء والاحياء والانباء بالخفيات وبغيره من ولادتي من غير أب ومن كلامي في المهد وغير ذلك فهي في الحقيقة آيات وانما وحدها الانها كلها جنس واحد في الدلالة على رسالته (وأطيعون) فيما أدعوكم اليه من توحيد الله وطاعته ثم شرع في الدعوة وأشار اليها بالقول المجمل فقال (ان الله ربي وربكم) لان جميع الرسل كانوا على هذا القول لم يختلفوا فيه (فاعبدوه) أي لازموا طاعته التي هي الاتيان بالاوامر والانتهاء عن المناهي (هذا) الذي دعوتكم اليه (صراط) أي طريق (مستقيم) أي هو المشهود له بالاستقامة روى الامام أحمد وغيره ان رجلا قال يارسول الله مرني بأمر في الاسلام لا أسئل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم * ولما قال لهم ذلك كذبوه ولم يؤمنوا به كما قال تعالى (فلما أحس عيسى) أي علم (منهم) علما لا شبهة فيه كعلم مايدرك بالحواس (الكفر قال من أنصاري) قرأ نافع بفتح الياء والباقون بالسكون أي اعواني وقوله (الى الله) متعلق بمحذوف حال من الياء أي من أنصاري ذاهبا الى الله تعالى ملتجئا اليه تعالى لأنصر دينه وقيل الى هنا بمعنى مع أو في أو اللام (قال الحواريون نحن أنصار الله) أي أعوان دينه واختلفوا في الحواريين فقال السدي لما بعث الله تعالى عيسى الى بني اسرائيل كذبوه وأخرجوه فخرج هو وأمه يسيحان في الارض فنزلا في قرية على رجل فأضافهما وأحسن اليهما وكان لتلك المدينة جبار متعد فجاء ذلك الرجل يوما مهتما حزينا فدخل منزله ومريم عند امرأته فقالت لها مريم ما شأن زوجك أراه كئيبا قالت لا تسئليني قالت اخبريني لعل الله يفرج كربته قالت ان لنا ملكا يجعل على كل رجل منا يوما أن يطعمه وجنوده ويسقيهم خمرا فان لم يفعل عاقبه واليوم نوبتنا وليس لذلك عندنا سعة قالت فقولي له لا يهتم فاني آمر ابني فيدعو له فيكفي ذلك فقالت مريم لعيسى في ذلك قال عيسى ان فعلت ذلك وقع شر قالت فلا تبال فانه قد أحسن الينا وأكرمنا قال عيسى قولي له اذا اقترب ذلك فأملأ قدورك وخوابيك ماء ثم اعلمني ففعل ذلك فدعا الله عيسى فتحول ماء القدور مرقا ولحما وماء الخوابي خمرا لم ير الناس مثله قط فلما جاء الملك أكل فلما شرب الخمر قال من أين هذا الخمر قال من أرض كذا قال فان خمري من تلك الارض وليست مثل هذه قال هي من أرض أخرى فلما خلط على الملك شدد عليه قال فأنا أخبرك عندي غلام لا يسأل الله تعالى شيأ الا أعطاه اياه وانه دعا الله فجعل الماء خمرا فلما أحضره وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام وكان أحب الخلق اليه فقال ان رجلا دعا الله تعالى فجعل الماء خمرا ليجابه الى حتى يحيى ابني فدعى بعيسى اليه فكلمه في ذلك فقال عيسى لا أفعل فانه ان عاش وقع شر قال الملك لا عليك

قال عيسى ان احييته تتركني أنا وأمى نذهب حيث نشاء قال نعم فدعا الله تعالى فعاش الغلام فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح وقالوا أكلنا هذا حتى اذا دنا موته يريد أن يستخلف علينا ابنه فيأكلنا كما أكلنا أبوه فاقتتلوا وذهب عيسى وأمه فمرّوا بالحواريين وهم يصطادون السمك فقال ما تصنعون قالوا نصطاد السمك قالوا ومن أنت قال عيسى بن مريم عبد الله ورسوله فقالوا (آمنا) أى صدقنا (بالله واشهد) يا عيسى (بأنا مسلمون) لتشهد لنا يوم القيامة حين تشهد الرسل لقومهم وعليهم (ربنا آمنا بما أنزلت) من الانجيل (واتبعنا الرسول) عيسى (فاكتبنا مع الشاهدين) لك بالوحدانية أو مع النبيين الذين يشهدون لاتباعهم أو مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم فانهم شهداء على الناس وقال الحسن كانوا قصارين سموا بذلك لانهم كانوا يحورون الثياب أى يبيضونها وعلى الاول سموا حواريين لبياض ثيابهم وقال عطاء سلمت مريم عيسى الى أعمال شتى فكان آخر ما دفعته الى الحواريين وكانوا قصارين وصباغين فدفعته الى رئيسهم ليتعلم منه فاجتمع عنده ثياب وعرض له سفر فقال يا عيسى انك قد تعلمت هذه الحرفة وأنا خارج فى سفر لا أرجع الى عشرة أيام وهذه ثياب مختلفة الالوان وقد علمت على كل واحد منها بخيط على اللون الذى يصبغ به فيجب أن تكون فارغا منها عند قدومى وخرج فطبخ عيسى جبا واحدا على لون واحد وأدخل فيه جميع الثياب وقال كونى باذن الله تعالى على ما أريد منك فقدم الحوارى والثياب كلها فى الجب فقال ما فعلت قال فرغت منها قال أين هى قال فى الجب قال كلها قال نعم قال لقد أفسدت تلك الثياب فقال قم فانظر فأخرج عيسى ثوبا أصفر وثوبا أخضر وثوبا أحمر الى أن أخرجها على الالوان التى أرادها فجعل الحوارى يتعجب وعلم ان ذلك من الله تعالى فقال للناس تعالوا فانظروا فآمن هو وأصحابه وهم الحواريون وقال الكلبى وعكرمة الحواريون الاصفياء وهم كانوا أصفياء عيسى أوّل من آمن به وكانوا اثنى عشر من الحور وهو البياض الخالص وحوارى الرجل صفوته وخالصته وقيل للحضريات الحواريات لخلوص ألوانهن ونظافتهن قال القائل

فقل للحواريات يبكين غيرنا ❊ ولا تبكنا الا الكلاب النوابح

قال الله تعالى (ومكروا) أى كفار بنى اسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر به وذلك أن عيسى عليه الصلاة والسلام بعد اخراج قومه اياه وأمه عاد اليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطؤا على الفتك به وكلوا به من يقتله غيلة وهى بالكسر أن يخدع غيره فيذهب به الى موضع فاذا صار اليه قتله فذلك مكرهم اذ المكر من المخلوق الخبث والخديعة والحيلة وأما من الخالق وهو قوله تعالى (ومكر الله) أى بهم (والله خير الماكرين) أى أعلمهم به فقال الزجاج مجازاتهم على مكرهم فسمى الجزاء باسم الابتداء لانه فى مقابلته كقوله تعالى الله يستهزئ بهم وهو خادعهم ومكر الله تعالى بهم فى هذه الآية بأن ألقى شبهه على صاحبهم الذى أراد قتل عيسى حتى قتل روى أن عيسى استقبل رهطا من اليهود فلما رأوه قالوا قد جاء الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فقذفوه وأمه فلما سمع ذلك عيسى دعا عليهم ولعنهم فمسخهم الله خنازير فلما رأى ذلك

يهوداراس اليهود وأميرهم فزع لذلك وخاف دعوته فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى وساروا اليه ليقتلوه فبعث الله تعالى اليه جبريل فأدخله فى خوخة فى سقفها كوة فرفعه الله تعالى الى السماء من تلك الكوة فأمر يهوداراس اليهود رجلا من أصحابه أن يدخل الخوخة ويقتله فلما دخل لم ير عيسى فأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها فألقى الله تعالى عليه شبه عيسى فلما خرج ظنوا أنه عيسى فقتلوه وصلبوه فلما صلب جاءت أم عيسى وامرأة كان عيسى دعا لها فأبرأها الله تعالى من الجنون يبكيان عند المصلوب فجاءهما عيسى فقال لهما على من تبكيان ان الله تعالى رفعنى ولم يصبنى الاخير وان هذا شبه لهم فلما كان بعد سبعة أيام قال الله تعالى لعيسى اهبط الى مريم فانه لم يبك عليك أحد بكاها ولم يحزن حزنها ثم لتجمع لك الحواريين فبثهم فى الارض دعاة الى الله عز وجل فأهبطه الله تعالى اليها فاشتعل حين أهبط نورا فجمعت له الحواريين فبثهم فى الارض دعاة ثم رفعه الله تعالى اليه وتلك الليلة هى التى تدخن فيها النصارى فلما أصبح الحواريون تحدث كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى عليه الصلاة والسلام اليهم وروى ان الله تعالى أرسل اليه سحابة فرفعته فتعلقت به أمه وبكت فقال لها ان القيامة تجمعنا وكان ذلك ليلة القدر ببيت المقدس وله ثلاث وثلاثون سنة وقالت أهل التواريخ حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة وولدته لمضى خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على أرض بابل فأوحى الله تعالى اليه على رأس ثلاثين سنة ورفعه اليه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وكانت نبوته ثلاث سنين وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين وقوله تعالى (اذ قال الله) ظرف لخير الماكرين أو لمكر الله أو لمضمر مثل اذكر (ياعيسى انى متوفيك) أى مستوفى أجلك ومعناه انى عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخرك الى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لا قتلا بأيديهم أو قابضك من الارض من توفيت مالى أى قبضته أو متوفيك نائما كما قال تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل أى يميتكم اذ روى انه رفع نائما أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج الى عالم الملكوت (ورافعك الى) أى الى محل كرامتى ومقر ملائكتى اذ روى ان الله تعالى رفعه وكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش وكان انسيا ملكيا سماويا أرضيا وقال محمد بن اسحق النصارى يزعمون ان الله تعالى توفاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه ورفعه وقال الضحاك ان فى الآية تقديما وتأخيرا معناه انى رافعك الى (ومطهرك من الذين كفروا) أى مخرجك من بينهم ومنجيك منهم ومتوفيك بعد انزالك من السماء روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وروى الشيخان حديث انه ينزل قرب الساعة ويحكم بشريعة نبينا ويقتل الدجال والخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية وفى حديث مسلم انه يمكث سبع سنين وفى حديث عند أبى داود والطيالسى أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون فيحمل على أن مجموع لبثه فى الارض قبل الرفع وبعده أربعون وقيل للحسين بن الفضل هل تجد نزول

عيسى فى القرآن قال ثم قوله تعالى ويكلم الناس فى المهد وكهلا وهو لم يتكهل فى الدنيا وانما معناه كهلا بعد نزوله من السماء انتهى وهذا انما يأتى على القول بأنه رفع شابا وأما على القول بأنه رفع بعد ثلاث وثلاثين فلا دليل فيه اذ الكهولة من الثلاثين الى الاربعين (وجاعل الذين اتبعوك) أى صدقوا بنبوتك من النصارى ومن المسلمين لانه متبوعهم فى أصل الاسلام وان اختلفت الشرائع (فوق الذين كفروا) بك من اليهود والنصارى أى يغلبونهم بالحجة والسيف (الى يوم القيامة) وقيل المراد بالذين اتبعوه النصارى وبالذين كفروا اليهود اذ لم تسمع غلبة اليهود عليهم ولم يتفق لهم ملك ودولة وملك النصارى قائم الى قريب من قيام الساعة وعلى هذا يكون الاتباع بمعنى الادعاء فى المحبة لا اتباع الدين (ثم الى مرجعكم) الضمير لعيسى ومن آمن معه ومن كفر به وغلب المخاطب على الغائبين (فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين ثم بين الحكم بقوله (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا) بالقتل والسبى والجزية والذلة (و) أعذبهم فى (الآخرة) بالنار (فان قيل) الحكم مرتب على الرجوع الى الله تعالى وذلك فى القيامة فكيف يصح فى تبيينه العذاب فى الدنيا (أجيب) بأن المقصود التأبيد من غير نظر الى الدنيا والآخرة كما فى قوله خالدين فيها ما دامت السموات والارض (وما لهم من ناصرين) أى مانعين منه (وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فنوفيهم أجورهم) أى أجور أعمالهم وقرأ حفص بالياء والباقون بالنون (والله لا يحب الظالمين) أى لا يرحم الكافرين ولا يثنى عليهم بالجميل وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى ما سبق من خبر عيسى ومريم وامرأة عمران وهو مبتدأ خبره (نتلوه) أى نقصه (عليك) يا محمد وقوله تعالى (من الآيات) خبر بعد خبر أو خبر مبتدا محذوف أو حال من الهاء (والذكر الحكيم) أى القرآن وصف بصفة من هو سببه أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه وقيل هو اللوح المحفوظ وهو معلق بالعرش من درة بيضاء ولما قال وفد نجران للرسول صلى الله عليه وسلم مالك تسب صاحبنا قال وما أقول قالوا تقول انه عبد قال أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى العذراء البتول فغضبوا وقالوا هل رأيت انسانا قط من غير أب نزل (ان مثل عيسى) أى شأنه وحالته الغريبة (عند الله كمثل آدم) أى كشأنه فى خلقه من غير أب وقوله تعالى (خلقه) أى آدم (من تراب) جملة مفسرة لما له شبه عيسى بآدم أى خلق آدم من تراب ولم يكن ثم أب ولا أم فكذلك حال عيسى (فان قيل) كيف شبه به وقد وجد هو من غير أب وآدم بغير أب وأم (أجيب) بأن مثله فى أحد الطرفين ولا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لان المماثلة مشاركة فى بعض الاوصاف ولانه شبه به فى أنه وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة وهما فى ذلك نظيران ولان الوجود من غير أب وأم اغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب فشبه الغريب بالاغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته اذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه وعن بعض العلماء انه أسر بالروم فقال لهم لم تعبدون عيسى قالوا لانه لا أب له قال فآدم أولى لانه لا أبوين له قالوا كان يحيى الموتى قال فحزقيل أولى لان عيسى أحيا أربعة أنفس وحزقيل ثمانية آلاف فقالوا كان يبرئ

لاكمه والابرص قال الفخر جبس أولى لانه طبخ وأحرق ثم قام بالماء ومعنى خلق آدم من تراب أى صور جسده من تراب (ثم قال له كن) أى أنشأه بشرا بأن نفخ فيه الروح كقوله تعالى ثم أنشأناه خلقا آخر وقوله تعالى (فيكون) حكاية حال ماضية أى فكان وكذلك عيسى قال له كن من غير أب فكان ويجوز أن تكون ثم لتراخى الخبر لا لتراخى المخبر عنه وقوله تعالى (الحق من ربك) خبر مبتدا محذوف أى أمر عيسى وقوله تعالى (فلا تكن من الممترين) أى الشاكين خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره لحاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ممتريا (فمن حاجك) أى جادلك من النصارى (فيه) أى عيسى (من بعد ما جاءك من العلم) أى من البينات الموجبة للعلم بأن عيسى عبد الله ورسوله (فقل) لهم (تعالوا) أى هلموا بالرأى والعزم (ندع) جزم فى جواب الامر وعلامة جزمه سقوط الواو (أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) أى ليدع كل منا ومنكم نفسه وأعزة أهله وانما قدمهم على النفس لان الرجل يخاطر بنفسه لاجلهم ويحارب دونهم فجمعهم (ثم نبتهل) أى نتضرع فى الدعاء ونبالغ فيه (فنجعل لعنت الله على الكاذبين) بأن نقول اللهم العن الكاذب بأمر عيسى فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على وفد نجران ودعاهم الى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر فى أمرنا ثم نأتيك غدا فخلا بعضهم ببعض وقالوا للعاقب وكان ذا رأيهم يا عبد المسيح ماترى فقال والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدا نبى مرسل ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لتهلكن فان أبيتم الا الاقامة على دينكم وعلى ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى خلفها رضى الله عنهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول لهم اذا أنا دعوت فأمنوا فقال أسقف نجران وهو اسم سريانى لرئيس النصارى وعالمهم وهو غير العاقب يا معشر النصارى انى لارى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لازاله فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الارض نصرانى الى يوم القيامة فقالوا يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وان نقرك على دينك ونثبت على ديننا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فان أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم فأبوا فقال انى أنابذكم فقالوا ما لنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدى اليك كل عام ألفى حلة ألف فى صفر وألف فى رجب تؤديها للمسلمين وعارية ثلاثين درعا وثلاثين فرسا وثلاثين بعيرا وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها والمسلمون ضامنون لها حتى يؤدوها فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وقال والذى نفسى بيده ان العذاب تدلى على أهل نجران ولولا عفوا المسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادى نارا ولاستأصل الله تعالى نجران وأهله حتى الطير على رؤس الشجر ولما حال الحول على النصارى حتى هلكوا كلهم وعن عائشة رضى الله تعالى عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه

مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله ثم فاطمة ثم علي ثم قال انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت وفي ذلك دليل على نبوته صلى الله عليه وسلم وعلى فضل أهل الكساء رضي الله تعالى عنهم وعن بقية الصحابة أجمعين * (فائدة) * رسمت لعنة هنا بالتاء المجرورة ووقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي عليها بالهاء والباقون بالتاء (ان هذا) أي الذي قص عليك من نبا عيسى (لهو القصص) أي الخبر (الحق) الذي لا شك فيه وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء من لهو والباقون بالرفع حيث جاء وهو اما فصل بين اسم ان وخبرها واما مبتدأ والقصص الحق خبره والجملة خبر ان (فان قيل) لم جاز دخول اللام على الفصل (أجيب) بأنه اذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أولى لانه أقرب الى المبتدا وأصلها أن تدخل على المبتدا (وما من اله الا الله) انما صرح فيه بمن المزيدة للاستغراق تأكيدا للرد على النصارى في تثليثهم (وان الله لهو العزيز) في ملكه (الحكيم) في صنعه فلا أحد يساويه في القدرة التامة والحكمة البالغة فلا يشاركه في الالوهية (فان تولوا) أي اعرضوا عن الايمان (فان الله عليم بالمفسدين) فيجازيهم وفيه وضع الظاهر موضع المضمر ليدل على ان التولي عن الحجج والاعراض عن التوحيد افساد للدين والاعتقاد المؤدي الى فساد النفس بل والى فساد العالم * ولما قدم وفد نجران المدينة والتقوا مع اليهود واختصموا في ابراهيم صلى الله عليه وسلم فزعمت النصارى انه كان نصرانيا وهم على دينه وأولى الناس به وقالت اليهود بل كان يهوديا وهم على دينه وأولى الناس به فقال النبي صلى الله عليه وسلم كلا الفريقين بريء من ابراهيم ودينه بل كان ابراهيم حنيفا مسلما وأنا على دينه فاتبعوا دينه الاسلام فقالت اليهود يا محمد ما تريد الا أن نتخذك ربا كما اتخذت النصارى عيسى وقالت النصارى يا محمد ما تريد الا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزير نزل (قل يا أهل الكتاب) وهو يعم أهل الكتابين وهم اليهود والنصارى (تعالوا الى كلمة) العرب تسمي كل قصة لها شرح كلمة ومنها سميت القصيدة كلمة وقوله تعالى (سواء) مصدر بمعنى مستو أمرها لا تختلف فيها الرسل والكتب (بيننا وبينكم) هو نعت الكلمة لان المصادر لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث فاذا فتحت السين مدت واذا كسرت أو ضمت قصرت كقوله تعالى مكانا سوى ثم فسر الكلمة بقوله (أن لا نعبد الا الله) أي نوحده بالعبادة ونخلص له فيها (ولا نشرك به شيأ) أي ولا نجعل غيره شريكا له في استحقاق العبادة ولا نراه أهلا لان يعبد (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) أي ولا نقول عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله ولا نطيع الاحبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لانهم بشر مثلنا روى الترمذي لما نزل قوله تعالى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال عدي بن حاتم ما كنا نعبدهم يا رسول الله قال أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم قال نعم قال هو ذلك أي أخذكم بقولهم (فان تولوا) أي أعرضوا عن التوحيد (فقولوا) أنتم لهم (اشهدوا بأنا مسلمون) أي موحدون دونكم فقد لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا بذلك كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع أو نحو ذلك

عترف بأنى الغالب وسلم لى الغلبة قال البيضاوى تنبيه انظر ماراعى أى الله سبحانه وتعالى فى هذه القصة من المبالغة والارشاد وحسن التدرج فى الحجاج فبين أولا أحوال عيسى وما تعاور عليه من الاطوار المنافية للالهية ثم ذكر ما يحل عقدتهم ويزيح أى يزيل شبهتهم فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم الى المباهلة بنوع من الاعجاز ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد عاد اليهم بالارشاد وسلك طريقا أسهل والزم بأن دعاهم الى ما وافق عليه عيسى والانجيل وسائر الانبياء والكتب ثم لما لم يجد أى ينفع ذلك أيضا عليهم وعلم أن الآيات والنذر لاتغنى عنهم أعرض عن ذلك وقال اشهدوا بأنا مسلمون (يا أهل الكتاب) وقدمر انه يعم اهل الكتابين اليهود والنصارى (لم تحاجون) اى تخاصمون (فى ابراهيم) بزعمكم انه على دينكم (وما انزلت التوراة) على موسى (والانجيل) على عيسى (الا من بعده) اى بزمن طويل اذ كان بين ابراهيم وموسى الف سنة و بين موسى وعيسى ألفا سنة وبعد نزول التوراة حدثت اليهودية و بعد نزول الانجيل حدثت النصرانية (أفلا تعقلون) بطلان قولكم حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال (ها أنتم) يا (هؤلاء) ها للتنبيه وأنتم مبتدا خبره (حاججتم) أى جادلتم (فيما لكم به علم) من أمر موسى وعيسى وزعمتم أنكم على دينهما (فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) من شأن ابراهيم وليس له ذكر فى كتابكم (والله يعلم) ما حاججتم فيه (وأنتم لا تعلمون) أى جاهلون به ثم قال تعالى تبرئة لابراهيم (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا) أى مائلا عن الاديان كلها الى الدين القيم (مسلما) أى موحدا منقادا لله تعالى وليس المراد انه كان على دين الاسلام والا لاشترك الالزام لانهم يقولون ملة الاسلام حدثت بعد نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وكان ابراهيم قبله بمدة طويلة فكيف يكون على ملة الاسلام الحادثة بنزول القرآن فعلم أن المراد بكون ابراهيم مسلما انه كان على ملة التوحيد لا على هذه الملة (وما كان من المشركين) كما لم يكن منكم أو أراد بالمشركين اليهود والنصارى لاشراكهم عزيرا والمسيح (ان أولى الناس) أى أحقهم (بابراهيم) من أمته (للذين اتبعوه) من أمته (وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين) أى ناصرهم وحافظهم ولما دعا اليهود معاذا وحذيفة وعمارا الى دينهم نزل (ودت) أى تمنت (طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) عن دينكم ويردونكم الى الكفر (وما يضلون الا أنفسهم) أى أمثالهم أو ان اثم اضلالهم عليهم والمؤمنون لا يطيعونهم فيه (وما يشعرون) بذلك (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) بما نطقت به التوراة والانجيل ودلت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأنتم تشهدون) انها آيات الله عز وجل أو بالقرآن العزيز وأنتم تشهدون نعته فى الكتابين أو تعلمون بالمعجزات انه حق (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق) أى القرآن المشتمل على نعت محمد صلى الله عليه وسلم (بالباطل) أى بالتحريف والتزوير (وتكتمون الحق) أى نعت محمد صلى الله عليه وسلم (وأنتم تعلمون) انه حق (وقالت طائفة من أهل الكتاب) أى اليهود قالوا لجماعة منهم (آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا) أى القرآن أى أظهروا الايمان به (وجه النهار) أى أوله وانما سمى أوله وجها لانه أحسنه ولانه أول ما يرى

بعد الليل (واكفروا) به (آخره لعلهم) أى المؤمنين (يرجعون) عن دينهم اذا رأوكم رجعتم واختلف فى هذه الطائفة فقال الحسن والسدى هى اثنا عشر من يهود خيبر وقيل قريظة تواطؤا وقال بعضهم لبعض ادخلوا فى دين محمد أول النهار وقولوا انا نظرنا فى كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمدا ليس بذلك فظهر لنا كذبه فاذا فعلتم ذلك شك أصحابه فى دينه واتهموه وقالوا انهم أهل كتاب وهم أعلم به منا فيرجعون عن دينهم وقال مجاهد ومقاتل والكلبى هم كعب بن الاشرف ومالك بن الصيف قالا لاصحابهما لما تحولت القبلة وشق ذلك على اليهود آمنوا بالذى أنزل على محمد من أمر الكعبة وصلوا اليها أول النهار ثم اكفروا وارجعوا الى قبلتكم آخر النهار وصلوا الى الصخرة لعلهم يقولون هؤلاء أهل كتاب وهم أعلم فيرجعون الى قبلتنا (ولا تؤمنوا الا لمن تبع) أى وافق (دينكم) أى ولا تقروا عن تصديق قلب الا لاهل دينكم أو لا تظهروا ايمانكم وجه النهار الا لمن كان على دينكم فان رجوعهم أولى وأهم فأطلع الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على سرهم *(تنبيه)* قال البغوى اللام فى لمن صلة أى لا تصدقوا الا من تبع دينكم اليهودية كقوله تعالى عسى أن يكون ردف لكم أى ردفكم (قل) يا محمد (ان الهدى هدى الله) الذى هو الاسلام وما عداه ضلال وقوله تعالى (أن يؤتى) بمعنى الجحد أى ما يؤتى (أحد مثل ما أوتيتم) يا أمة محمد (أو يحاجوكم) أى الا أن يجادلكم اليهود بالباطل فيقولوا نحن أفضل منكم وقوله تعالى (عند ربكم) أى عند فعل ربكم بكم ذلك وهذا معنى قول سعيد بن جبير والكلبى ومقاتل والحسن وهو حسن وقال الفراء ويجوز أن تكون أو بمعنى حتى كما يقال تعلق به أو يعطيك حقك أى حتى يعطيك حقك ويكون معنى الآية ما أعطى أحد مثل ما أعطيتم يا أمة محمد من الدين والحجة حتى يحاجوكم عند ربكم أى يوم القيامة وقال مجاهد قوله قل ان الهدى هدى الله كلام معترض بين كلامين وما بعده متصل بالكلام الاول اخبار عن قول اليهود بعضهم لبعض أى ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من العلم والحكمة والكتاب والآيات من المن والسلوى وفلق البحر وغيرها من الكرامات ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لانكم أصح دينا منهم وقرأ ابن كثير وحده بهمزة واحدة وقال الزمخشرى ويجوز أن يكون هدى الله بدلا من الهدى وأن يؤتى أحد خبر ان على معنى قل ان هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم حتى يحاجوكم عند ربكم فيقرع باطلكم بحقهم ويدحضوا حجتكم قال ويجوز أن ينتصب أن يؤتى بفعل مضمر يدل عليه قوله ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم كأنه قيل قل ان الهدى هدى الله فلا تنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم لان قولهم ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم انكار لان يؤتى أحد مثل ما أوتوا قال تعالى (قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) من عباده (والله واسع) أى كثير الفضل (عليم) بمن هو أهله (يختص برحمته) أى نبوته (من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ففى ذلك رد وابطال لما زعموه بالحجة الواضحة (ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار) أى بمال كثير (يؤده اليك) كعبد الله بن سلام استودعه رجل من قريش ألفا ومائتى أوقية

ذهبا فأداء اليه (ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك) كفنحاص بن عازوراء استودعه رجل آخر من قريش دينارا فجحده (الا ما دمت عليه قائما) أى الا أن أودعته واسترجعته منه وأنت قائم على رأسه لم تفارقه رده اليك وان فارقته وأخرته انكر ولم يرده وقيل المأمون على الكثير النصارى لغلبة الامانة عليهم والخائنون فى القليل اليهود لغلبة الخيانة عليهم وقرأ حمزة وأبو عمرو وشعبة يؤده ولا يؤده اليك باسكان الهاء فهو وصل بنية الوقف فهو سكون وقف بالنية لا بالفعل وقالون باختلاس حركة الهاء وحفص والكسائى بالحركة الكاملة والالف فى قنطار ودينار بالامالة لابى عمرو والدورى عن الكسائى وورش بين بين والباقون بالفتح (ذلك) أى ترك الاداء المدلول عليه بقوله تعالى لا يؤده (بأنهم قالوا) أى بسبب قولهم (ليس علينا فى الاميين) أى العرب (سبيل) أى اثم لاستحلالهم ظلم من خالفهم ونسبوا ذلك الى الله تعالى قالوا لن يجعل الله لهم فى التوراة حرمة فكذبهم الله عز وجل بقوله عز من قائل (ويقولون على الله الكذب) أى فى نسبة ذلك اليه (وهم يعلمون) أنهم كاذبون وقال الحسن وابن جريج ومقاتل بايع اليهود رجالا من المسلمين فى الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم بقية أموالهم فقالوا ليس لكم علينا حق ولا عندنا قضاء لانكم تركتم دينكم وانقطع العهد بيننا وبينكم وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم فكذبهم الله تعالى فى ذلك روى الطبرانى وغيره أنه صلى الله عليه وسلم قال عند نزول هذه الآية كذب أعداء الله ما من شئ فى الجاهلية الا وهو تحت قدمى أى منسوخ متروك الا الامانة فانها مؤداة الى البر والفاجر أى والديون من الامانة لان المراد من الامانة الرضا بالذمة وقوله تعالى (بلى) اثبات لما نفوه أى بلى على اليهود فى الاميين سبيل ثم ابتدأ فقال (من أوفى بعهده) أى ولكن من أوفى بعهد الله الذى عهد اليه فى التوراة من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وأداء الامانة (واتقى) الله بترك المعاصى وفعل الطاعات (فان الله يحب المتقين) فيه وضع الظاهر موضع المضمر أى يحبهم بمعنى يثيبهم (فان قيل) فأين الضمير الراجع من الخبر الى من (أجيب) بأن عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير * ونزل فى أحبار من اليهود حرفوا التوراة وبدلوا نعت محمد صلى الله عليه وسلم وحكم الامانة وغيرهما وأخذوا على ذلك رشوة (ان الذين يشترون) أى يستبدلون (بعهد الله) اليهم فى الايمان للنبى صلى الله عليه وسلم والوفاء بأداء الامانة (وايمانهم) أى حلفهم به تعالى كاذبا من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه (ثمنا قليلا) من الدنيا (أولئك لا خلاق) أى لا نصيب (لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله) أى بما يسرهم أو بشئ أصلا وان الملائكة يسألونهم يوم القيامة (ولا ينظر اليهم) أى ولا يرحمهم (يوم القيامة ولا يزكيهم) أى ولا يثنى عليهم بالجميل ولا يطهرهم من الذنوب (ولهم عذاب أليم) أى مؤلم وقيل نزلت فى رجل أقام سلعة فى السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يشترها به وقيل نزلت فى جماعة من اليهود جاؤا الى كعب بن الاشرف فى سنة أصابتهم ممتارين فقال لهم أتعلمون ان هذا الرجل رسول الله قالوا نعم قال لقد هممت ان أميركم وأكسوكم فحرمكم الله خيرا كثيرا فقالوا لعله اشتبه علينا فرويدا حتى نلقاه فانطلقوا فكتبوا صفة غير صفته ثم رجعوا اليه

وقالوا

وقالوا لقد غلطنا وليس هو بالنعت الذى نعت لنا ففرح ومارهم وعن الاشعث بن قيس نزلت فى كان بينى وبين رجل خصومة فى بئر وأرض فاختصمنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال شاهدك أو يمينه فقلت اذا يحلف ولا يبالى فقال من حلف على يمين يستحق بها مالا هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان فأنزل الله تصديق ذلك هذه الآية وعن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم قال فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فقال أبو ذر خابوا وخسروا من هم يارسول الله قال المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب وفى رواية المسبل ازاره وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولهم عذاب أليم رجل حلف على يمين على مال مسلم فاقتطعه ورجل حلف يمينا بعد صلاة العصر أنه أعطى بسلعته أكثر مما اعطى وهو كاذب ورجل منع فضل ماء فان الله تعالى يقول اليوم امنعك فضلى كما منعت فضل مالم تعمل يداك (وان منهم) اى اهل الكتاب (لفريقا) اى طائفة ككعب بن الاشرف ومالك بن الصيف وحيى بن اخطب (يلوون ألسنتهم بالكتاب) اى يفتلونها بقراءته عن المنزل الى ما حرفوه من نعت النبى صلى الله عليه وسلم وآية الرجم وغير ذلك يقال لوى لسانه عن كذا اى غيره (لتحسبوه) اى المحرف المدلول عليه بقوله تعالى يلوون (من الكتاب) الذى انزل الله (وماهو من الكتاب) قرأ ابن عامر وعاصم بفتح السين والباقون بكسرها وقوله تعالى (ويقولون هو من عند الله وماهو من عند الله) تأكيد لقوله وماهو من الكتاب وزيادة تشنيع عليهم به وبيان لانهم يزعمون ذلك تصريحا لا تعريضا اى ليس هو نازلا من عنده (فان قيل) نفى الله تعالى كون التحريف من عنده وهو فعل العبد فلا يكون فعل العبد مخلوقا لله تعالى والا لما صح نفيه عنه تعالى (اجيب) بأن المنفى هو الانزال كما تقرر لا كون التحريف غير مخلوق لله تعالى بكسب العبد وقوله تعالى (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) تأكيد ايضا وتسجيل عليهم بالكذب والتعمد فيه واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ما كان) أى ما ينبغى (لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم) اى الفهم للشريعة (والنبوة) اى المنزلة الرفيعة بالانبياء (ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله) فقال مقاتل والضحاك نزلت فى نصارى نجران كانوا يقولون ان عيسى امرهم ان يتخذوه ربا فقال تعالى ما كان لبشر اى عيسى ان يؤتيه الله الكتاب اى الانجيل وقال ابن عباس وعطاء ما كان لبشر أى محمد ان يؤتيه الله الكتاب اى القرآن وذلك ان ابا رافع القرظى من اليهود والسيد من نصارى نجران قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اتريد ان نعبدك ونتخذك ربا فقال معاذ الله ان نأمر بعبادة غير الله ما بذلك بعثنى الله ولا بذلك امرنى فنزلت وقيل قال رجل يارسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض افلا نسجد لك قال ما ينبغى ان يسجد لاحد من دون الله ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لاهله والبشر جميع بنى آدم لا واحد له من لفظه كالقوم ويوضع موضع الجمع والواحد (ولكن) يقول (كونوا ربانيين) أى علماء عاملين منسوب الى الرب بزيادة الف ونون تفخيما كما يقال رقبانى

وللحيانى وهو الشديد التمسك بدين الله تعالى وطاعته وقيل الربانى هو الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره وقيل الربانيون فوق الاحبار والاحبار العلماء والربانيون الذين جمعوا مع العلم البصارة لسياسة الناس وعن الحسن ربانيين علماء فقهاء وحكى عن على رضى الله تعالى عنه أنه قال هو الذى يربى علمه بعمله وقال محمد بن الحنفية يوم مات ابن عباس رضى الله تعالى عنهم اليوم مات ربانى هذه الامة (بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) أى بسبب كونكم تعلمون الكتاب وبسبب كونكم دارسين له فان فائدة التعليم والتعلم معرفة الحق والخير للاعتقاد والعمل فيكتفى بذلك دليلا على خيبة سعى من جهد نفسه وكدر روحه فى جمع العلم ثم لم يجعله ذريعة الى العمل فكان مثله كمثل من غرس شجرة حسناء تونقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها ويجوز أن يكون معناه تدرسونه على الناس كقوله تعالى لتقرأه على الناس وفيه ان من علم ودرس العلم ولم يعمل فليس من الله فى شئ وان السبب بينه وبين الله تعالى منقطع حيث لم يثبت النسبة اليه الا للمتمسكين بطاعته وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح التاء وسكون العين وفتح اللام مخففة والباقون بضم التاء وفتح العين وكسر اللام مشددة (ولا يأمركم) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بنصب الراء عطفا على يقول أى البشر والباقون برفع الراء على أنه استئناف أى الله (أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) كما اتخذت الصابئة الملائكة واليهود عزيرا والنصارى عيسى وقوله تعالى (أيأمركم بالكفر) انكار والضمير فيه للبشر أولله على الوجهين السابقين وقوله تعالى (بعد اذ انتم مسلمون) دليل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذنون على أن يسجدوا له (و) اذكر (اذ) أى حين (أخذ الله ميثاق النبيين) أى عهدهم (لما آتيتكم من كتاب وحكمة) قرأ حمزة والكسائى بكسر اللام من لما فتكون متعلقة بأخذ والباقون بالفتح على الابتداء وتوكيد معنى القسم الذى فى أخذ الميثاق وما موصولة على الوجهين أى للذى آتيتكموه لتؤمنن به وقرأ نافع آتيناكم بالنون مفتوحة بعد التاء بعدها ألف والباقون بتاء مضمومة (ثم جاءكم) تقدم أن حمزة وابن ذكوان يميلان الالف محضة والباقون بالفتح (رسول مصدق لما معكم) من الكتاب والحكمة وهو محمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (لتؤمنن به ولتنصرنه) جواب القسم أى ان أدركتموه وأممهم تبع لهم فى ذلك وقيل المراد أولاد النبيين على حذف المضاف وهم بنو اسرائيل أو سماهم نبيين تهكما لانهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد لانا أهل كتاب والنبيون كانوا منا (قال) الله تعالى لهم (أأقررتم) بذلك قرأ قالون وابو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية والف بينها وبين الهمزة الاولى وابن كثير كذلك الا أنه لا يدخل الفا بينهما ولورش وجهان احدهما كابن كثير والثانى انه يبدل الثانية حرف مد ولهشام فى الهمزة التحقيق والتسهيل مع دخول الف بينهما والباقون بتحقيق الهمزتين من غير دخول ألف بينهما (وأخذتم) اى قبلتم تقدم ان ابن كثير وحفصا يظهران الذال المعجمة عند التاء من اخذتم والباقون بالادغام (على ذلكم اصرى) اى عهدى سمى به لانه مما يؤصر اى يشد ويعقد ومنه الاصار الذى يعقد به (قالوا أقررنا قال فاشهدوا) على أنفسكم واتباعكم بذلك (وأنا معكم

من

من الشاهدين) عليكم وعليهم وهو توكيد وتحذير عظيم من الرجوع اذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض وقيل الخطاب للملائكة (فمن تولى) أى أعرض (بعد ذلك) أى الميثاق والتوكيد بالاقرار والشهادة (فأولئك هم الفاسقون) أى المتمردون من الكفرة روى أن أهل الكتاب اختصموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفوا فيه من دين ابراهيم عليه الصلاة والسلام وكل واحد من الفريقين ادعى انه اولى به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا الفريقين برىء من دين ابراهيم فقالوا ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك فنزل (أفغير دين الله يبغون) وهذه الجملة معطوفة على الجملة المتقدمة وهى فأولئك هم الفاسقون والهمزة متوسطة بينهما للانكار ويجوز أن تعطف على محذوف تقديره أيتولون فغير دين الله يبغون وقدم المفعول الذى هو غير دين الله على فعله لانه اهم من حيث ان الانكار الذى هو معنى الهمزة متوجه الى المعبود الباطل وقرأ أبو عمرو وحفص بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب على تقدير وقل لهم (وله) سبحانه وتعالى (اسلم) اى خضع وانقاد (من فى السموات والارض طوعا) اى بالنظر فى الادلة واتباع الحجة والانصاف من نفسه (وكرها) بالسيف ومعاينة ما يلجئ الى الاسلام كنتق الجبل على بنى اسرائيل وادراك الغرق فرعون وقومه والاشراف على الموت لقوله تعالى فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وقال الحسن اسلم اهل السموات طوعا وأهل الارض بعضهم طوعا وبعضهم كرها خوفا من السيف والسبى وقيل هذا يوم الميثاق حين قال ألست بربكم قالوا بلى فقال بعضهم طوعا وبعضهم كرها قال قتادة المسلم اسلم طوعا فنفعه والكافر كرها فى وقت البأس فلم ينفعه قال تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا وانتصب طوعا وكرها على الحال بمعنى طائعين ومكرهين (واليه ترجعون) قرأ حفص بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (قل) لهم يا محمد (آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط) أى أولاده (وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم) بالتصديق والتكذيب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخبر عن نفسه وعمن تبعه بالايمان فلذلك وحد الضمير فى قل وجمعه فى آمنا وعلينا لان القرآن كما هو منزل عليه منزل على متابعيه بتوسط تبليغه اليهم أو بأن يتكلم عن نفسه بالجمع على طريقة الملوك اجلالا له (فان قيل) لم عدى أنزل فى هذه الآية بعلى وفيما تقدم من مثلها فى سورة البقرة بالى (أجيب) بأن الوحى ينزل من فوق وينتهى الى الرسل فعدى تارة بالى لانه ينتهى الى الرسل وتارة بعلى لانه من فوق وما قيل من أنه انما خص ما هنا بعلى وما هناك بالى لان ما هنا خطاب للنبى وكان واصلا اليه من الملا الاعلى بلا واسطة بشرية فناسب الاتيان بعلى المختصة بالعلو وما هناك خطاب للامة وقد وصل اليهم بواسطة النبى الذى هو من البشر فناسب الاتيان بالى المختصة بالاتصال قال الزمخشرى فيه تعسف ألا ترى الى قوله بما أنزل اليك وأنزلنا اليك الكتاب والى قوله تعالى آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا (فان قيل) لم قدم المنزل عليه على المنزل على سائر الرسل (أجيب) بأنه انما قدم لان المنزل عليه هو المعرف للمنزل على سائر الرسل ولانه أفضل الكتب

المنزلة (ونحن له مسلمون) أى موحدون مخلصون له فى العبادة لانجعل له شريكا فيها ونزل فيمن ارتد ولحق بالكفار وهم اثناعشر رجلا ارتدوا عن الاسلام وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفارا منهم الحرث بن سويد الانصارى (ومن يبتغ غير الاسلام دينا) أى غير التوحيد والانقياد لحكم الله فهو مشتمل على الايمان بهذا التقدير ودينا تمييز مبين للاسلام والدين يشتمل على التصديق والاعمال الصالحة فالاسلام كذلك لان المبين لايخالف المبين وعلى هذا حمل الاسلام على الدين فى قوله تعالى ان الدين عند الله الاسلام والدين هو الوضع الالهى السائق لكل خير (فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) لمصيره الى النار المؤبدة عليه وقوله تعالى (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد ايمانهم) لفظه استفهام ومعناه جحد أى لايهديهم الله لما علم من تصميمهم على كفرهم بأنهم كفروا بعد ايمانهم (و) بعدما (شهدوا ان الرسول حق و) قد (جاءهم البينات) أى الحجج الظاهرة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم (والله لايهدى القوم الظالمين) أى الكافرين (أولئك جزاؤهم ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) والمراد بالناس المؤمنون أو العموم فان الكافر يلعن منكر الحق والمرتد عنه ولكن لايعرف الحق بعينه *(تنبيه)* دلت هذه الآية بمنطوقها على جواز لعن القوم المذكورين وبمفهومها على نفى جواز لعن غيرهم من الكفار الذين لم يكفروا بعد ايمانهم قال البيضاوى ولعل الفرق انهم أى هؤلاء مطبوعون على الكفر ممنوعون عن الهدى مايوسون عن الرحمة بخلاف غيرهم أى فلا يلعن الكافر الاصلى المعين حيا ولاميتا مالايعلم موته على الكفر وكالاصلى المرتد وأما لعن الكافر على العموم فيجوز (خالدين فيها) أى اللعنة أو النار أو العقوبة المدلول باللعنة عليها (لايخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون) أى يمهلون (الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) عملهم تصديقا لتوبتهم (فان الله غفور) لهم يقبل توبتهم (رحيم) بهم يتفضل عليهم وذلك أن الحرث بن سويد لما ارتد ولحق بالكفار ندم فأرسل الى قومه أن سلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لى من توبة فأرسل اليه أخوه الجلاس بالآية فأقبل الى المدينة فتاب وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم توبته * ونزل فى اليهود (ان الذين كفروا) بعيسى والانجيل (بعد ايمانهم) بموسى والتوراة (ثم ازدادوا كفرا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وقيل كفروا بمحمد بعدما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفرا بالاصرار والعناد والطعن فيه والصد عن الايمان ونقض الميثاق (لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون) أى الثابتون على الضلال (فان قيل) قد وعد الله تعالى قبول توبة من تاب فما معنى قوله تعالى لن تقبل توبتهم (أجيب) بأن محل القبول اذا كان قبل الغرغرة وهؤلاء توبتهم كانت بعدها وانهم لم يتوبوا أصلا فكنى عن عدم توبتهم بعدم قبولها أو ان توبتهم لاتكون الا نفاقا (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء) أى مقدار ما يملؤها من (الارض) شرقها الى غربها (ذهبا) تغليظا فى شأنهم وابرازحالهم فى صورة حال الآيسين من الرحمة (فان قيل) لم قال فى الآية الاولى لن تقبل بغير فاء وفى هذه بقوله فلن يقبل بالفاء (أجيب)

بأن الفاء انما دخلت فى خبران لشبه الذين بالشرط وايذانا بتسبب امتناع الفدية على الموت على الكفر بخلافه فى الآية الاولى لادليل فيه على السبب كما تقول الذى جاءنى له درهم لم تجعل المجىء سببا لاستحقاق الدرهم بخلاف قولك فله درهم ونصب ذهبا على التمييز كقولهم عشرون درهما وقوله تعالى (ولو افتدى به) محمول على المعنى كأنه قيل فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الارض ذهبا أو معطوف على مضمر تقديره فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهبا لو تقرب به فى الدنيا ولو افتدى به من العذاب فى الآخرة ويجوز أن يراد ولو افتدى بمثله كقوله تعالى ولو أن للذين ظلموا مافى الارض جميعا ومثله معه والمثل يحذف كثيرا فى كلامهم كقوله ضربته ضرب زيد وأبو يوسف أبو حنيفة تريد مثله (أولئك لهم عذاب أليم) أى مؤلم (ومالهم من ناصرين) أى مانعين عنهم العذاب ومن مزيدة للاستغراق روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله لاهون أهل النار عذابا يوم القيامة لو أن لك مافى الارض من شئ أكنت تفتدى به فيقول نعم فيقول أردت منك أهون من ذلك وأنت فى صلب آدم أن لاتشرك بى شيأ فأبيت الا أن تشرك بى (لن تنالوا البر) أى لن تبلغوا حقيقة البر الذى هو كمال الخير أو لن تنالوا بر الله تعالى الذى هو الرحمة والرضا والجنة (حتى تنفقوا مما تحبون) من أموالكم أو ما يعمها وغيرها كبذل الجاه فى معاونة الناس والبدن فى طاعة الله تعالى والنفس فى سبيله وقال الحسن لن تكونوا أبرارا روى أنه صلى الله عليه وسلم قال عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر وان البر يهدى الى الجنة ومايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا واياكم والكذب فان الكذب يهدى الى الفجور وان الفجور يهدى الى النار ومايزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا وكان السلف رحمهم الله اذا أحبوا شيأ جعلوه لله روى لما نزلت هذه الآية جاء أبو طلحة فقال يارسول الله ان أحب أموالى الى بيرحا وهو بفتح الباء الموحدة وكسرها وبفتح الراء وضمها مع المد والقصر ضيعة بالمدينة وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب فضعها يارسول الله حيث أراك الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخ بخ ذاك مال رابح أو قال رائح وانى أرى أن تجعلها فى الاقربين فقال أبو طلحة افعل يارسول الله فقسمها فى أقاربه قوله صلى الله عليه وسلم بخ بخ كلمة تقال عند المدح والرضا بالشئ وتكرر للمبالغة وهى مبنية على السكون فان وصلت كسرت ونونت وربما شددت وقوله رابح أو رائح يقال لضيعة الانسان مال رائح بالياء أى يروح نفعه اليه ورابح بالباء الموحدة أى ذو ربح كقولك لابن وتامر أى ذو لبن وذو تمر وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها فقال هذه فى سبيل الله فحمل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد بن حارثة فكان زيدا وجد فى نفسه وقال انما أردت أن أتصدق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما ان الله قد قبلها منك وكتب عمر رضى الله تعالى عنه الى أبى موسى الاشعرى أن يبتاع له جارية من سبى جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى فلما جاءت أعجبته فقال ان الله تعالى قال لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون

فأعتقها وقال لولا انى لاأعود فى شئ جعلته لله لنكحتها (وما تنفقوا من شئ) أى من أى شئ تحبونه أوغيره ومن بيان لما (فان الله به عليم) فيجازيكم بحسبه * ولما قالت اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك تزعم أنك على ملة ابراهيم وكان ابراهيم لايأكل لحوم الابل وألبانها وأنت تأكلها فلست أنت على ملته فقال النبى صلى الله عليه وسلم كان ذلك حلالا لابراهيم فقالوا كل ماتحرمه اليوم كان حراما على نوح وابراهيم حتى انتهى الينا نزل (كل الطعام) أى المطعومات أو كل أنواع الطعام (كان حلا) أى حلالا أكله (لبنى اسرائيل) والحل مصدر يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والجمع قال تعالى لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن (الاماحرم اسرائيل) وهو يعقوب صلى الله عليه وسلم (على نفسه من قبل أن تنزل التوراة) أى ليس الامر على ماقالوا من حرمة لحوم الابل وألبانها على ابراهيم بل كان الكل حلالا له ولبنى اسرائيل وانما حرمها اسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة فليس فى التوراة حرمتها واختلفوا فى الطعام الذى حرمه اسرائيل على نفسه وفى سببه فقال مقاتل والكلبى كان ذلك الطعام لحمان الابل وألبانها وسبب ذلك انه مرض مرضا شديدا وطال سقمه فنذر لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب اليه وكان ذلك أحب اليه فحرمه وقال ابن عباس والضحاك هى العروق وسبب ذلك انه اشتكى عرق النسا وهو بفتح النون والقصر عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ وكان أصل وجعه أنه كان نذر ان وهبه الله اثنى عشر ولدا وأتى بيت المقدس صحيحا أن يذبح آخرهم فتلقاه ملك من الملائكة فقال يايعقوب انك رجل قوى فهل لك فى الصراع فعالجه فلم يصرع واحد منهما صاحبه فغمزه الملك غمزة فعرض له عرق النسا ثم قال له أما انى لوشئت أن أصرعك لفعلت ولكن غمزتك هذه الغمزة لانك كنت نذرت ان أتيت بيت المقدس صحيحا ذبحت ولدك فجعل الله لك بهذه الغمزة من ذلك مخرجا فكان لاينام بالليل من الوجع فحلف يعقوب لئن عافاه الله تعالى أن لايأكل عرقا ولاطعاما فيه عرق فحرمه على نفسه وكان بنوه بعد ذلك يتتبعون العروق يخرجونها من اللحم وقال ابن عباس لما أصاب يعقوب عرق النسا وصف له الاطباء أن يجتنب لحمان الابل فحرمها يعقوب على نفسه ثم اختلفوا فى حال هذا الطعام المحرم على بنى اسرائيل بعد نزول التوراة فقال السدى حرم الله عليهم فى التوراة ما كانوا يحرمونه قبل نزولها وقال الضحاك لم يكن شئ من ذلك حراما عليهم وانما حرموا على أنفسهم اتباعا لابيهم ثم أضافوا تحريمه الى الله عز وجل وأكذبهم الله تعالى فقال تعالى (قل) لهم يامحمد (فأتوا بالتوراة فاتلوها) ليتبين صدق قولكم (ان كنتم صادقين) فيه فبهتوا ولم يأتوا بها وفى اخباره صلى الله عليه وسلم عما فى التوراة دليل على نبوته قال الله تعالى (فمن افترى) أى ابتدع (على الله الكذب من بعد ذلك) أى ظهور الحجة بأن التحريم انما كان من جهة يعقوب لاعلى عهد ابراهيم (فأولئك هم الظالمون) أى المتجاوزون الحق الى الباطل وقوله تعالى (قل) أى لهم (صدق الله) تعريض بكذبهم أى ثبت ان الله صادق فى هذا كجميع ماأخبر به وأنتم الكاذبون (فاتبعوا ملة ابراهيم) أى ملة الاسلام التى أناعليها التى هى فى الاصل ملة

ابراهيم

ابراهيم حتى تخلصوا من اليهودية التى ورطتكم فى فساد دينكم ودنياكم حيث اضطرتكم الى تحريف كتاب الله تعالى لتسوية اغراضكم وألزمتكم تحريم الطيبات التى أحلها الله تعالى لابراهيم عليه السلام ومن تبعه (حنيفا) أى مائلا عن كل دين الى دين الاسلام وقوله تعالى (وما كان من المشركين) فيه اشارة الى ان اتباع ابراهيم صلى الله عليه وسلم واجب فى التوحيد الصرف والاستقامة فى الدين والتجنب عن الافراط وهو تحريف التوراة وعن التفريط وهو ترك العمل وفيه اشارة الى التعريض بشرك اليهود * ولما قالت اليهود للمسلمين بيت المقدس قبلتنا وهو أفضل من الكعبة وأقدم وهو مهاجر الانبياء وقال المسلمون بل الكعبة أفضل نزل (ان أول بيت وضع للناس) أى جعله الله متعبدا لهم وهو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والارض خلقه الله تعالى قبل الارض بألفى عام وكان زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الارض تحته بناه الملائكة قبل خلق آدم ووضع بعده الاقصى وبينهما أربعون سنة كما فى حديث الصحيحين ولما أهبط آدم قالت له الملائكة طف حول هذا البيت فلقد طفنا قبلك بألفى عام وقيل أول من بناه آدم فانطمس فى الطوفان ثم بناه ابراهيم وقيل كان فى موضعه قبل آدم بيت يقال له الضراح بضاد معجمة وحاء مهملة سمى بذلك لانه ضرح من الارض أى بعد ويطوف به الملائكة فلما أهبط أمر بأن يحجه ويطوف حوله ورفع فى الطوفان الى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات قال البيضاوى وهذا القول لا يلائم ظاهر الآية وقيل أول من بناه ابراهيم ثم هدم فبناه قوم من جرهم ثم العمالقة ثم قريش (للذى) أى للبيت الذى (ببكة) بالباء لغة فى مكة سميت بذلك لانها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها فلم يرمها جبار بسوء الا وقصمه الله وسميت مكة بالميم لقلة مائها من قول العرب مك الفصيل ضرع أمه وامتكه اذا امتص كل مافيه من اللبن وتدعى أم رحم لان الرحمة تنزل بها وقوله تعالى (مباركا) حال من الذى أى ذا بركة لانه كثير الخير والنفع لما يحصل لمن حجه واعتمره واعتكف عنده أو طاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب (وهدى للعالمين) لانه قبلتهم ومتعبدهم ولان فيه آيات عجيبة كما قال تعالى (فيه آيات بينات) كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الاعصار فلا تعلو فوقه وأن ضوارى السباع تخالط الصيود فى الحرم ولا تتعرض لها واذا قصدت الجارحة صيدا فدخلت الحرم كفت عنه وأنه بلد صار اليه الانبياء والمرسلون والاولياء والابرار وان الصلاة فيه تضاعف بمائة ألف وان كل جبار قصده بسوء قهره الله تعالى كأصحاب الفيل وجملة فيه آيات بينات مفسرة لهدى أو حال كمباركا وهدى وقوله تعالى (مقام ابراهيم) مبتدأ حذف خبره أى منها مقام ابراهيم أو خبر مبتدا محذوف أى احدها أو بدل من آيات بدل بعض من كل وهو الحجر الذى قام عليه ابراهيم عليه الصلاة والسلام وكان أثر قدميه فيه فاندرس من كثرة المسح بالايدى ولعل الذى اندرس بعضه فانى رأيت أثر القدمين فيه وفى هذا دلالة على قدرة الله تعالى ونبوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام لان تأثير القدم فى الصخرة الصماء وغوصه فيها الى الكعبين والانه بعض الصخرة دون بعض وابقاءه دون سائر آيات الانبياء عليهم الصلاة والسلام وحفظه

مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنين معجزة عظيمة وا
في سبب هذا الاثر على قولين أحدهما أنه لما ارتفع بنيان الكعبة وضعف ابراهيم
الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه وهذا هو المشهور والقول الثاني انه لما جاز
من الشأم الى مكة قالت له امرأة اسمعيل انزل حتى تغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بهـ
فوضعته على شقه الايمن فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه ثم حولته الى شقه
حتى غسلت الشق الآخر فبقي أثر قدميه عليه قال البيضاوي وقيل عطف بيان ورد هذا
بأن آيات نكرة ومقام ابراهيم معرفة ولا يجوز التخالف في عطف البيان باجماع البص
والكوفيين وقوله تعالى (ومن دخله كان آمنا) جملة ابتدائية أو شرطية معطوفة من
المعنى على مقام لانه في معنى أمن من دخله أي ومنها آمن من دخله وذلك بدعوة ابراه
الصلاة والسلام رب اجعل هذا البلد آمنا وفي الاقتصار على ذكرهاتين الآيتين وط
غيرهما دلالة على تكاثر الآيات كأنه قيل فيه آيات بينات مقام ابراهيم وأمن من د
وكثير سواهما ونحوه في طي الذكر قول جرير

كانت حنيفة اثلاثا فثلثهم * من العبيد وثلث من مواليها

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم حبب الي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في ا
والامن من العذاب يوم القيامة قال عليه الصلاة والسلام من مات في أحد الحرمين بع
القيامة آمنا رواه أبو داود والدارقطني وغيرهما وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ا
والبقيع يؤخذ باطرافهما وينثران في الجنة والحجون مقبرة مكة والبقيع مقبرة المدينة
الامام أبي حنيفة رحمه الله تعالى من لزمه القتل بردة أو قصاص أو غيرهما لم يتعرض له
لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر الى الخروج فيقتل وكان عمر بن الخطاب
لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه وعند الامام الشافعي رحمه الله
لا يلجأ الى الخروج بل يقتل للامر في خبر الشيخين بقتل ابن خطل وقد كان ارتد وتعلق با
الكعبة وأما قوله ومن دخله كان آمنا وخبر من دخل المسجد فهو آمن فمعناه جمعا بين الا
من دخله بغير استحقاق قتل كان آمنا ومن دخله بعد استحقاق قتل قتل وأما اذا ارتكب ا
في الحرم فيستوفى منه بالاتفاق (ولله على الناس حج البيت) أي قصده للزيارة على وجه مخص
وهو أحد اركان الاسلام قال صلى الله عليه وسلم بني الاسلام على خمس شهادة ان لا اله الا الله
محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة والحج وصوم رمضان وقرأ حفص وحمزة والك
بكسر الحاء وهي لغة نجد وقرأ الباقون بالفتح وهي لغة أهل الحجاز وهما لغتان فصيحتان وم
واحد وقوله تعالى (من استطاع اليه) أي الحج أو البيت (سبيلا) أي طريقا بدل من ا
مخصص له وفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستطاعة بالزاد والراحلة رواه الحاكم وغيره
كفر) أي بما فرضه الله من الحج أو كفر بالله (فان الله غني عن العالمين) أي الانس
والملائكة وعن عبادتهم وقيل وضع كفر موضع لم يحج تأكيدا لوجوبه وتشديدا على

ولذلك

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من ملك زادا وراحلة تبلغه الى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا رواه الترمذى وضعفه ونحوه فى التغليظ من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر *(تنبيه)* فى هذه الآية أنواع من التأكيد والتشديد على طلب الحج منها قوله تعالى ولله على الناس حج البيت أى انه حق واجب لله فى رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج عن عهدته ومنها انه ذكر الناس ثم انه أبدل منه من استطاع اليه سبيلا وفيه ضربان من التوكيد أحدهما ان الابدال تثنية للمراد وتكريره والثانى أن الايضاح بعد الابهام والتفصيل بعد الاجمال ايراد له فى صورتين مختلفتين ومنها ذكر الاستغناء وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان ومنها قوله عن العالمين ولم يقل عنه وفيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان لانه اذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لامحالة ولانه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدل على عظم السخط الذى وقع عبارة عنه وعن سعيد بن المسيب نزلت فى اليهود فانهم قالوا الحج الى مكة غير واجب وروى انه لما نزل قوله تعالى ولله على الناس حج البيت جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الاديان كلهم فخطبهم فقال ان الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا فآمنت به ملة واحدة وهم المسلمون وكفرت به خمس ملل وهم المشركون واليهود والنصارى والصابئون والمجوس قالوا لانؤمن به ولا نصلى اليه ولا نحجه فنزل ومن كفر الخ وعنه صلى الله عليه وسلم حجوا قبل أن لا تحجوا فانه قد هدم البيت مرتين ويرفع فى الثالثة وروى حجوا قبل أن لا تحجوا حجوا قبل أن يمنع البر جانبه وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه حجوا هذا البيت قبل أن تنبت فى البادية شجرة لا تأكل منها دابة الا نفقت اى ماتت (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما يدعيه من وجوب الحج وغيره وتخصيص أهل الكتاب بالخطاب دليل على أن كفرهم أقبح وانهم وان زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة والانجيل فهم كافرون بهما (والله شهيد) أى والحال ان الله تعالى شهيد (على ما تعملون) فيجازيكم عليه (قل يا أهل الكتاب لم تصدون) أى تصرفون (عن سبيل الله) أى دينه الحق المأمور بسلوكه وهو الاسلام (من آمن) بتكذيبكم النبى صلى الله عليه وسلم وكتمكم نعته وكانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون فى صدهم عن دين الله ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم وقيل أتت اليهود الاوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم فى الجاهلية من العدوان والحروب ليعودوا لمثله وانما كرر الخطاب والاستفهام مبالغة فى التوبيخ ونفى العذر لهم واشعارا بأن كل واحد من الامرين مستقبح فى نفسه مستقل باستجلاب العذاب وقوله تعالى (تبغونها) أى السبيل (عوجا) حال من الواو أى باغين طالبين لها اعوجاجا أى ميلا عن القصد والاستقامة بأن تلبسوا على الناس وتوهموا ان فى دين الاسلام عوجا عن الحق بمنع النسخ وبتغيير صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحوهما *(فائدة)* قال أبو عبيدة العوج بالكسر فى الدين والقول والعمل وبالفتح فى الجدار وكل شخص قائم (وأنتم شهداء) أى عالمون بأن الدين المرضى هو دين الاسلام كما فى كتابكم (وما الله بغافل عما تعملون) من الكفر

والتكذيب وانما يؤخركم لوقتكم فيجازيكم (فان قيل) لم ختمت الآية الاولى بقوله تعالى والله شهيد على ما تعملون وهذه الآية بقوله تعالى وما الله بغافل عما تعملون (أجيب) بأنه لما كان المنكر في الآية الاولى كفرهم وهم يجهرون به ختمها بقوله تعالى والله شهيد على ما تعملون ولما كان في هذه الآية صدهم المؤمنين عن الاسلام وكانوا يخفونه ويحتالون فيه قال وما الله بغافل عما تعملون * ولما مر شاس بن قيس اليهودي وكان شيخا عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم على نفر من الانصار من الاوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون فغاظه ذلك حيث تألفوا واجتمعوا بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة وقال ما لنا معهم اذا اجتمعوا من قرار فأمر شابا من اليهود أن يجلس اليهم ويذكرهم يوم بعاث وهو موضع بالمدينة وينشدهم بعض ما قيل فيه من الاشعار وكان يوما اقتتلت فيه الاوس والخزرج وكان الظفر فيه للاوس ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا السلاح السلاح فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم فيمن معه من المهاجرين والانصار فقال أبدعوى الجاهلية وانا بين أظهركم بعد اذ أكرمكم الله بالاسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف به بينكم فعرف القوم انها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين نزل (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب) أي شاسا وأصحابه (يردوكم بعد ايمانكم كافرين) قال جابر ما رأيت يوما قط أقبح أولا وأحسن آخرا مثل ذلك اليوم ثم قال الله تعالى على وجه التعجب والتوبيخ (وكيف تكفرون) أي ولم تكفرون (وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى من أين يتطرق اليكم الكفر والحال ان آيات الله وهي القرآن المعجز تتلى عليكم على لسان النبي صلى الله عليه وسلم غضة طرية وبين أظهركم رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم (ومن يعتصم بالله) أي ومن يتمسك بدينه أو يلتجئ اليه في مجامع أموره (فقد هدى) أي فقد حصل له الهدى لا محالة كما تقول اذا جئت فلانا فقد أفلحت كان الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلا ومعنى التوقع في قد ظاهر لان المعتصم بالله متوقع للهدى كما ان قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده (الى صراط) أي طريق (مستقيم) أي واضح (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) أي واجب تقواه وما يحق منها وهو القيام بالواجب واجتناب المحارم وقال ابن مسعود بأن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى وروى مرفوعا لما نزلت هذه الآية قالت الصحابة رضي الله تعالى عنهم يا رسول الله من يقوى على هذا فنسخ بقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم وقال مقاتل ليس في آل عمران منسوخ الا هذه الآية (ولا تموتن الا وأنتم مسلمون) أي موحدون والمعنى لا تكونن على حال سوى حالة الاسلام اذا أدرككم الموت فان النهي عن المقيد بحال أو غيرها قد يتوجه بالذات الى القيد تارة والى المقيد أخرى والى المجموع منهما وهو هنا الى القيد كما تقول لمن تستعين به على لقاء العدو لا تأتني الا وأنت على حصان بكسر الحاء فلا تنهاه عن الاتيان

ولكنك تنهاه عن خلاف الحال التي شرطت عليه في وقت الاتيان فالنهي هنا متوجه الى القيد وحده وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته الآية فلو ان قطرة من الزقوم قطرت على الارض لامرّت على أهل الدنيا معيشتهم فكيف بمن هو طعامهم وليس لهم طعام غيره (واعتصموا بحبل الله) أي بدينه وهو دين الاسلام استعار له الحبل من حيث ان التمسك به سبب للنجاة من الردى كما أن التمسك بالحبل سبب للسلامة من التردي أو بكتابه وهو القرآن لقوله صلى الله عليه وسلم القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد من قال به صدق ومن عمل به رشد ومن اعتصم به هدى الى صراط مستقيم وقوله تعالى (جميعا) حال أي مجتمعين عليه (ولا تفرقوا) أي ولا تتفرقوا بعد الاسلام بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادي بعضكم بعضا ويحاربه (واذكروا نعمة الله) أي انعامه (عليكم) التي من جملتها الهداية والتوفيق للاسلام المؤدي الى التآلف (اذ كنتم أعداء) في الجاهلية بينكم الاحن والعداوات والحروب المتواصلة (فألف بين قلوبكم) بالاسلام وقذف فيها المحبة (فأصبحتم بنعمته اخوانا) متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد وهو الاخوة في الله وقيل هم الاوس والخزرج كانا أخوين لاب وأم فوقعت بينهما العداوة وتطاولت الحروب والعداوة بينهم مائة وعشرين سنة الى أن أطفأ الله ذلك بالاسلام وألف بينهم برسول الله صلى الله عليه وسلم (وكنتم على شفا) أي طرف (حفرة من النار) أي حفرة ليس بينكم وبين الوقوع فيها الا أن تموتوا كفارا (فأنقذكم منها) بالاسلام والضمير للحفرة أو النار أو الشفا وأنثه لتأنيث ما أضيف اليه كقول الشاعر * كما شرقت صدر القناة من الدم * (كذلك) أي مثل ذلك البيان البليغ (يبين الله لكم آياته) أي دلائله (لعلكم تهتدون) ارادة ان تزدادوا هدى (ولتكن منكم أمة) أي طائفة (يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) من للتبعيض لان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات ولانه لا يصلح له الا من علم المعروف والمنكر وعلم كيف يرتب الامر في اقامته وكيف يباشره فان الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر وقد يغلظ في موضع اللين ويلين في موضع الغلظة وعلى هذا فالمخاطب به الكل على الاصح ويسقط بفعل البعض الحرج عن الباقين وهكذا كل ما هو فرض كفاية فان تركوه أصلا أثموا جميعا وقيل من زائدة وقيل للتبيين بمعنى وكونوا أمة تأمرون بالمعروف كقوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف (وأولئك) أي الداعون الآمرون الناهون (هم المفلحون) أي الفائزون بكمال الفلاح وروى الامام أحمد وغيره انه صلى الله عليه وسلم سئل وهو على المنبر من خير الناس قال آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر واتقاهم لله وأوصلهم للرحم وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان وروى انه صلى الله عليه وسلم قال والذي نفسي

بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم وروى أن أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه قال أيها الناس انكم تقرؤن هذه الآية يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الناس اذا رأوا منكرا فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعذابه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال مثل المداهن فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا سفينة فصار بعضهم فى أسفلها وصار بعضهم فى أعلاها فكان الذى فى أسفلها يمر بالماء على الذى فى أعلاها فتأذوا به فأخذ فأسا فجعل ينقر أسفل السفينة فأتوه فقالوا مالك فقال تأذيتم بى ولابد لى من الماء فان أخذوا على يديه أنجوه وأنجوا أنفسهم وان تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم وعن حذيفة يأتى على الناس زمان يكون فيهم جيفة الحمار أحب اليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وعن سفيان الثورى اذا كان الرجل محببا فى جيرانه محمودا عند اخوانه فاعلم انه مداهن والامر بالمعروف تابع للمأمور به ان كان واجبا فواجب وان كان مندوبا فمندوب وأما النهى عن المنكر أى الحرام فواجب كله لان جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح والاظهر ان العاصى يجب عليه أن ينهى عما يرتكبه لانه يجب عليه تركه وانكاره فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر وعن السلف مروا بالخير وان لم تفعلوا وانما يجب الامر والنهى على المكلف اذا لم يخش ضررا ويجب ان يدفع بالاخف فالاخف كدفع الصائل (فان قيل) الدعاء للخير عام فى التكاليف من الافعال والتروك فهو شامل للامر بالمعروف والنهى عن المنكر فما فائدة ذكر ذلك (أجيب) بأنه من عطف الخاص على العام ايذانا بفضله كقوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا) عن دينهم (واختلفوا) فيه وهم اليهود والنصارى (من بعد ما جاءهم البينات) أى الآيات والحجج الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة وهى كلمة الحق وقيل هم مبتدعة هذه الامة وهم المشبهة والجبرية والحشوية وأشباههم وقوله تعالى (وأولئك لهم عذاب عظيم) وعيد للذين تفرقوا وتهديد للمتشبه بهم (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) هو يوم القيامة ونصب يوم بالظرف وهو لهم لما فيه من معنى الفعل أو باضمار اذكروا والبياض من النور والسواد من الظلمة فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون واسفاره واشراقه وابيضت صحيفته وأشرقت وسعى النور بين يديه وبيمينه ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه واسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمات الباطل وأهله (فأما الذين اسودت وجوههم) فهم الكافرون فيلقون فى النار ويقال لهم توبيخا (أكفرتم بعد ايمانكم) واختلفوا فى كيف كفروا بعد ايمانهم فقال أبى بن كعب أراد به الايمان يوم الميثاق حين قال لهم ألست بربكم قالوا بلى يقول أكفرتم بعد ايمانكم يوم الميثاق وعلى هذا هم جميع الكفرة وقال الحسن هم المنافقون تكلموا بالايمان بألسنتهم وأنكروا بقلوبهم وعن عكرمة انهم أهل الكتاب آمنوا بأنبيائهم وبمحمد صلى

الله عليه وسلم قبل أن يبعث فلما بعث كفروا به وقال قتادة هم أهل البدع وقال أبو أمامة هم الخوارج ولما رآهم على درج دمشق دمعت عيناه ثم قال كلاب أهل النار هؤلاء شر قتلى تحت أديم السماء وخير قتلى تحت أديم الارض الذين قتلهم هؤلاء فقال له أبو غالب أشئ تقوله برأيك أم شئ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة قال فما شأنك دمعت عيناك قال رحمة لهم كانوا من أهل الاسلام فكفروا ثم قرأ هذه الآية ثم أخذ بيده فقال ان بأرضك منهم كثيرا فأعاذك الله تعالى منهم وقوله تعالى (فذوقوا العذاب) أمر اهانة (بما كنتم تكفرون) أي بسبب كفركم أو بجزاء كفركم فالباء متعلقة بذوقوا على الاول وبمحذوف على الثانى (وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله) أى جنته عبر عنها بالرحمة تنبيها على أن المؤمن وان استغرق عمره فى طاعة الله تعالى لايدخل الجنة الا برحمته وفضله (فان قيل) كان حق الترتيب أن يقدم ذكرهم (أجيب) بأن القصد أن يكون مطلع الكلام ومقطعه حلية المؤمنين وثوابهم (فان قيل) مافائدة قوله تعالى (هم فيها خالدون) بعد قوله ففى رحمة الله (أجيب) بأن فائدته انه أخرج مخرج الاستئناف والتأكيد كأنه قيل كيف يكونون فيها فقال هم فيها خالدون لايظعنون عنها ولايموتون (تلك) أى هذه الآيات الواردة فى الوعد والوعيد (آيات الله نتلوها عليك) يامحمد (بالحق) أى متلبسة بالحق والعدل من جزاء المحسن والمسئ (وما الله يريد ظلما للعالمين) اذ يستحيل الظلم منه تعالى لانه لايجب عليه شئ بل هو المالك على الاطلاق كما قال تعالى (ولله مافى السموات ومافى الارض) ملكا وخلقا (والى الله ترجع) أى تصير (الامور) فيجازى كلا بما وعده وأوعد (كنتم) ياأمة محمد صلى الله عليه وسلم فى علم الله تعالى (خير أمة أخرجت) أى أظهرت (للناس) وقيل كنتم فى الامم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة موصوفين به روى انه صلى الله عليه وسلم قال ألا وان هذه الامة توفى سبعين أمة هى خيرها وأكرمها على الله تعالى وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال مثل أمتى مثل المطر لايدرى أوله خير أم آخره وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ان الجنة حرمت على الانبياء كلهم حتى أدخلها وحرمت على الامم حتى تدخلها أمتى وروى انه صلى الله عليه وسلم قال أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون من هذه الامة وقوله تعالى (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) استئناف بين به كونهم خير أمة كما تقول زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم أو خبر ثان لكنتم وقوله تعالى (وتؤمنون بالله) يتضمن الايمان بكل مايجب أن يؤمن به لان من آمن ببعض مايجب الايمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بايمانه فكأنه غير مؤمن بالله (فان قيل) لم أخر تؤمنون بالله وحقه أن يقدم (أجيب) بأنه انما أخر لانه قصد بذكره الدلالة على انهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ايمانا بالله تعالى وتصديقا به واظهارا لدينه *(تنبيه)* استدل بهذه الآية على ان اجماع هذه الامة حجة لانها تقتضى كونهم آمرين بكل معروف ناهين عن كل منكر اذ اللام فيها للاستغراق فلو أجمعوا على باطل كتحريم شئ هو فى نفس الامر معروف كان أمرهم على خلاف ذلك (ولو آمن

أهل الكتاب) بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم (لكان) الايمان (خيرا لهم) مما هم عليه لانهم انما آثروا دينهم على دين الاسلام حبا للرياسة واستتباع العوام (منهم المؤمنون) كعبد الله بن سلام وأصحابه (وأكثرهم الفاسقون) أى المتمردون فى الكفر (لن يضروكم) أى اليهود يا معشر المسلمين بشئ (الا أذى) أى ضررا يسيرا كسب وطعن فى الدين وتهديد ونحو ذلك (وان يقاتلوكم يولوكم الادبار) منهزمين ولا يضروكم بقتل أو أسر (ثم لا ينصرون) عليكم بل لكم النصر عليهم وفى هذا تثبيت لمن أسلم منهم لانهم كانوا يؤذونهم بأنهم لا يقدرون أن يتجاوزوا الأذى الى ضرر يبالى به مع أنه تعالى وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأن عاقبة أمرهم الخذلان والذل (فان قيل) هلا جزم المعطوف فى قوله ثم لا ينصرون (أجيب) بأنه عدل به عن حكم الجزاء الى حكم الاخبار ابتداء كأنه قيل ثم أخبركم انهم لا ينصرون والفرق بين رفعه وجزمه فى المعنى أنه لو جزم لكان نفى النصر مقيدا بقتالهم كتولية الادبار وحين رفع كان نفى النصر وعدا مطلقا كأنه قال ثم شأنهم وقصتهم التى أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر كما أخبر عن حال بنى قريظة والنضير وبهود خيبر (فان قيل) ما معنى التراخى فى ثم (أجيب) بأن معناه التراخى فى الرتبة لان الاخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الاخبار بتوليتهم الادبار (ضربت عليهم الذلة) أى هدر النفس والمال والاهل أو ذل التمسك بالباطل والجزية (أينما ثقفوا) أى حيثما وجدوا فلا عز لهم ولا اعتصام فى سائر أحوالهم (الا) فى حال اعتصامهم (بحبل من الله) أى بذمة الله أو كتابه (وحبل من الناس) أى بذمة المسلمين أو بدين الاسلام واتباع سبيل المؤمنين أى لا عز لهم قط الا هذه الواحدة وهى التجاؤهم الى الذمة لما قبلوه من الجزية أودين الاسلام (وباؤا) أى رجعوا (بغضب من الله) أى مستوجبين له (وضربت عليهم المسكنة) كما يضرب البيت على أهله فهم ساكنون فى المسكنة غير ظاعنين عنها يظهرون الفقر والمسكنة وفسر أكثر المفسرين المسكنة بالجزية وهم اليهود عليهم لعنة الله وغضبه قال البيضاوى واليهود فى غالب الامر فقراء مساكين اهـ (ذلك) أى ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب كائن (بأنهم) أى بسبب انهم (كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك) أى الكفر والقتل (بما عصوا وكانوا يعتدون) أى كائن بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى فان الاصرار على الصغائر يفضى الى الكبائر والاصرار على الكبائر يفضى الى الكفر والعياذ بالله تعالى (ليسوا) أى أهل الكتاب (سواء) أى مستوين وقوله تعالى (من أهل الكتاب أمة قائمة) أى مستقيمة ثابتة على الحق استئناف لبيان نفى الاستواء وهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام وأصحابه قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لما أسلم عبد الله بن سلام قالت أحبار اليهود ما آمن بمحمد الا أشرارنا ولولا ذلك ما تركوا دين آبائهم فانزل الله هذه الآية (يتلون آيات الله) أى يقرؤن كتاب الله (آناء الليل) أى فى ساعاته وقوله تعالى (وهم يسجدون) حال أى يصلون لان التلاوة لا تكون فى السجود واختلفوا فى معناها فقال

بعضهم

بعضهم هي قيام الليل وقال ابن مسعود هي صلاة العتمة لان أهل الكتاب لا يصلونها لما روى أنه عليه الصلاة والسلام أخرها ثم خرج الى المسجد فاذا الناس ينتظرون الصلاة فقال أما انه أى الشأن ليس من أهل الاديان أحد يذكر الله تعالى هذه الساعة غيركم رواه الامام أحمد والنسائي وغيرهما وقوله غيركم بالنصب خبر ليس ومن أهل الاديان حال من أحد قاله التفتازاني ثم وصف الله تعالى تلك الامة القائمة بصفات أخر فقال (يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك) أي الموصوفون بما ذكر (من الصالحين) أي ممن صلحت أحوالهم عند الله واستحقوا رضاه وثناءه أي والامة الاخرى غير قائمة بل منحرفون عن الحق غير متعبدين بالليل مشركون بالله ملحدون في صفاته واصفون لليوم الآخر بغير صفته متباطئون عن الخيرات فترك هذا اكتفاء بذكر أحد الفريقين (وما تفعلوا من خير فلن تكفروه) أي تعدموا ثوابه بل تجازون عليه وقرأ حفص وحمزة والكسائي بالياء فيهما أي الامة القائمة والباقون بالتاء على الخطاب أي أيها الامة القائمة وقوله تعالى (والله عليم بالمتقين) بشارة لهم واشعار بأن التقوى مبدأ الخير وحسن العمل وان الفائز عند الله هو أهل التقوى (ان الذين كفروا لن تغني) أي تدفع (عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله) اى من عذابه (شيأ) وخص الاموال والاولاد بالذكر لان الانسان يدفع عن نفسه تارة بفداء المال وتارة بالاستعانة بالاولاد (وأولئك أصحاب النار) أي ملازموها هم فيها خالدون مثل) أي صفة (ما ينفقون) أي الكفار (في هذه الحياة الدنيا) في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم ونحوها (كمثل ريح فيها صر) قال أكثر المفسرين فيها برد شديد وحكي عن ابن عباس أنها السموم الحارة التي تقتل وقيل فيها صر أي صوت (أصابت حرث) أي زرع (قوم ظلموا أنفسهم) بالكفر والمعاصي (فأهلكته) عقوبة لهم لان الاهلاك عن سخط أشد وأبلغ والمعنى مثل اهلاك ما ينفقون كمثل اهلاك ريح الزرع فلم ينتفعوا به فكذلك نفقة هؤلاء ذاهبة لا ينتفعون بها (وما ظلمهم الله) بضياع نفقاتهم (ولكن أنفسهم يظلمون) بالكفر الموجب لضياعها ويجوز أن يعود الضمير لاصحاب الحرث الذين ظلموا أنفسهم أي وما ظلمهم الله تعالى باهلاك حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة) أي أصفياء تطلعونهم على سركم ثقة بهم شبهوا ببطانة الثوب كما شبهوا بالشعار قال عليه الصلاة والسلام الانصار شعار والناس دثار رواه الشيخان والشعار ما يلي الجسد والدثار فوقه وقوله تعالى (من دونكم) أي من دون المسلمين متعلق بلا تتخذوا أو بمحذوف هو صفة بطانة أي كائنة من دونكم أي غيركم من الكفار والمنافقين (لا يألونكم خبالا) أي لا يقصرون لكم في الفساد والالو التقصير وأصله أن يعدى بالحرف وعدي الى مفعولين كقولهم لا آلوك نصحا على تضمين معنى المنع أو النقص والمعنى لا أمنعك نصحا ولا أنقصكه (ودوا) أي تمنوا (ما عنتم) أي عنتكم وهو شدة الضرر وما مصدرية أي تمنوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضرر وأبلغه (قد بدت) أي ظهرت (البغضاء من أفواههم) أي في كلامهم بالوقيعة فيكم واطلاع المشركين

على سركم لا يتمالكون أنفسهم لفرط بغضهم وعن قتادة قد بدت البغضاء لاوليائهم من المنافقين والكفار لاطلاع بعضهم بعضا على ذلك (وما تخفى صدورهم) من العداوة والغيظ (أكبر) أى أعظم مما بدا لان بدوه ليس عن روية واختيار (قد بينا لكم الآيات) الدالة على وجوب الاخلاص فى الدين وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين (ان كنتم تعقلون) ما بين لكم فلا توالوهم (فان قيل) كيف موقع هذه الجمل وهى لا يألونكم وودوا ما عنتم وقد بدت البغضاء وقد بينا لكم الآيات (أجيب) بأنها مستأنفات على وجه التعليل بمعنى ان كلا علة للنهى عن اتخاذهم بطانة (ها أنتم أولاء) ها تنبيه وأنتم كناية للمخاطبين وأولاء اسم للمشار اليهم وهم المؤمنون وقوله تعالى (تحبونهم) أى هؤلاء اليهود الذين نهيتكم عن مباطنتهم للاسباب التى بينكم من القرابة والرضاع والمصاهرة (ولا يحبونكم) لمخالفتهم لكم فى الدين بيان لخطئهم فى موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لاهل البغضاء (وتؤمنون بالكتاب كله) أى بالكتب كلها وهم لا يؤمنون بكتابكم وفى هذا توبيخ شديد للمؤمنين بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم ونحو هذا قوله تعالى فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون (واذا لقوكم قالوا آمنا) أى نفاقا وتغريرا (واذا خلوا) أى خلا بعضهم ببعض (عضوا عليكم الانامل) أى أطراف الاصابع (من الغيظ) أى شدة الغضب لما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم ويعبر عن شدة الغضب بعض الانامل مجازا وان لم يكن ثم عض فيوصف المغتاظ والنادم بعض الانامل والبنان والابهام قال الحرث بن ظالم المرى

فأقتل أقواما لئاما أذلة * يعضون من غيظ رؤس الاباهم

(قل موتوا بغيظكم) أى ابقوا الى الممات بغيظكم فلن تروا ما يسركم وقوله تعالى (ان الله عليم بذات الصدور) أى بما فى القلوب ومنه ما يضمره هؤلاء يحتمل أن يكون من المقول أى وقل لهم ان الله عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الانامل غيظا وأن يكون خارجا عنه بمعنى قل لهم ذلك ولا تتعجب من اطلاعى اياك على اسرارهم فانى عليم بالاخفى من ضمائرهم (ان تمسسكم) أى تصبكم أيها المؤمنون (حسنة) أى نعمة كنصر وغنيمة وخصب فى معاشكم وتتابع الناس فى دينكم (تسؤهم) أى تحزنهم (وان تصبكم سيئة) أى اساءة كهزيمة وجدب واختلاف يكون بينكم (يفرحوا بها) وجملة الشرط متصلة بالشرط قبل وما بينهما اعتراض والمعنى انهم متناهون فى عداوتكم فلم توالونهم فاجتنبوهم (فان قيل) كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالاصابة (أجيب) بأن المس مستعار بمعنى الاصابة فكان المعنى واحدا ألا ترى الى قوله تعالى ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك (وان تصبروا) على أذاهم (وتتقوا) الله فى موالاتهم وغيرها (لا يضركم كيدهم شيأ) بفضل الله وحفظه الموعود للصابرين والمتقين وهذا تعليم من الله تعالى وارشاد الى أنه يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى وقد قال الحكماء اذا أردت ان تكبت من يحسدك فازدد فضلا فى نفسك وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بكسر الضاد وسكون الراء من ضاره يضيره والباقون بضم الضاد وضم الراء مشددة للاتباع

كضمة مدوهى ضمة الامر المضاعف وكل مجزوم من المضاعف المضموم العين فانه يجوز ضمه للاتباع كما يجوز فتحه للخفة وكسر لاجل تحريك الساكن (ان الله بما تعملون محيط) أى عالم فيجازيكم به (و) اذكر يا محمد (اذ غدوت من أهلك) أى من حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها (تبوئ) أى تنزل (المؤمنين مقاعد) أى مراكز يقفون فيها (للقتال والله سميع) لاقوالكم (عليم) بأحوالكم روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الاربعاء فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ودعا عبد الله بن ابى ابن سلول ولم يدعه قط قبلها واستشاره فقال عبد الله وأكثر الانصار يارسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج اليهم فوالله ماخرجنا منها الى عدو قط الا أصاب منا ولا دخل علينا الا أصبنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم فان أقاموا أقاموا بشر محبس أى بكسر الباء وهو مكان لاماء فيه ولا طعام وان دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وان رجعوا رجعوا خائبين فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الرأى وقال بعض أصحابه اخرج بنا الى هؤلاء الاكلاب لايرون انا قد جبنا عنهم وضعفنا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى قد رأيت فى منامى بقرا مذبحة حولى فأولتها خيرا ورأيت فى ذباب سيفى ثلما فأولته هزيمة ورأيت كأنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة فان رأيتم ان تقيموا بالمدينة وتدعوهم فقال رجال من المسلمين قد فاتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد اخرج بنا الى أعدائنا فلم يزالوا به حتى دخل فلبس لأمته أى درعه فلما رأوه قد لبس لأمته ندموا وقالوا بئس ماصنعنا نشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والوحى يأتيه وقالوا اصنع يارسول الله مارأيت فقال لاينبغى لنبى أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة ونزل فى عدوة الوادى أى بالعين المهملة وهى جانبه وجعل ظهره وعسكره الى أحد وسوى صفوفهم وأجلس خمسين من الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير بسفح الجبل وقال انضحوا علينا بالنبل لايأتون من ورائنا ولا تبرحوا غلبنا أو نصرنا (اذ) بدل من اذ قبله (همت طائفتان منكم) بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الاوس وهما جناحا العسكر (ان تفشلا) أى تجبنا عن القتال وترجعا روى أنه صلى الله عليه وسلم خرج فى زهاء ألف رجل ووعدهم النصر ان صبروا وكان المشركون ثلاثة آلاف فلما بلغوا عند جبل أحد بالمدينة انعزل ابن أبى المنافق فى ثلثمائة وقال علام نقتل أنفسنا وأولادنا فتبعهم عمرو بن حزم الانصارى وقال أنشدكم الله فى نبيكم وأنفسكم فقال ابن أبى لو نعلم قتالا لاتبعناكم فهمت الحيان باتباعه فثبتهم الله ومضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الزمخشرى والظاهر أنها ما كانت الاهمة وحديث نفس وكما لاتخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع ثم يردها صاحبها الى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه كما قال عمرو بن الاطنابة

أقول لها اذا جشأت وجاشت * مكانك تحمدى أو تستريحى

(والله وليهما) أى ناصرهما فالهما تفشلان (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى ليثقوا به دون

غيره فينصرهم كما نصرهم ببدر ونزل لما هزموا من أحد تذكرة لهم بنعمة الله تعالى (ولقد نصركم الله ببدر) وهو ما بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدرا فسمى به وقوله تعالى (وأنتم أذلة) أى بقلة العدد والسلاح والمال حال من الضمير (فان قيل) قال الله تعالى وأنتم أذلة وقد قال تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (أجيب) بأنه بمعنى القلة وضعف الحال وقلة السلاح والمال كما مر فان نقيض ذلك العز وهو القوة والغلبة روى ان المسلمين كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلا ولم يكن فيهم الا فرس واحد وأكثرهم كانوا رجالة وربما كان الجمع منهم يركبون جملا واحدا والكفار كانوا قريبا من ألف مقاتل ومعهم مائة فرس مع الاسلحة الكثيرة والعدة الكاملة (فاتقوا الله) فى الثبات وعدم المخالفة (لعلكم تشكرون) أى بتقوا كم نعمه التى أنعم بها عليكم من نصرته وقوله تعالى (اذ تقول للمؤمنين) أى توعدهم تطمينا ظرف لنصركم وقوله تعالى (ألن يكفيكم أن يمدكم) أى يعينكم (ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) انكار أن لا يكفيهم ذلك وانما جىء بلن اشعارا بأنهم كانوا كالآيسين من النصر لضعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم وقرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد الزاى والباقون بسكون النون وتخفيف الزاى وقوله تعالى (بلى) ايجاب لما بعد لن أى بلى يكفيكم (فان قيل) قد قال تعالى فى سورة الانفال انى ممدكم بألف من الملائكة مردفين فكيف قال هنا بثلاثة آلاف (أجيب) بأنه مدهم أولا بألف ثم صارت ثلاثة ثم صارت خمسة كما قال تعالى (ان تصبروا) أى على لقاء العدو (وتتقوا) الله فى المخالفة (ويأتوكم) أى المشركون (من فورهم) أى من وقتهم (هذا) والفور العجلة والسرعة ومنه فارت القدر اشتد غليانها وسارع ما فيها الى الخروج (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) أى معلمين وقد صبروا وانجز الله وعده بأن قاتل معهم الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم صفر أو بيض أرسلوها بين اكتافهم وعن عروة بن الزبير كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء فنزلت الملائكة كذلك وعن الضحاك معلمين بالصوف الابيض فى نواصى الدواب وأذنابها وعن مجاهد مجزوزة أذناب خيلهم قال أكثر المفسرين ان الملائكة لم تقاتل فى غير يوم بدر روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه تسوموا فان الملائكة قد تسومت بالصوف الابيض فى قلانسهم ومغافرهم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بكسر الواو والباقون بفتحها (وما جعله الله) أى الامداد (الا بشرى) أى بشارة (لكم) أى بالنصر (ولتطمئن) أى ولتسكن (قلوبكم به) فلا تجزعوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم كما كانت السكينة لبنى اسرائيل بشارة بالنصر وطمأنينة لقلوبهم (وما النصر الا من عند الله) لا من العدة والعدد وهو تنبيه على أنه لا حاجة فى نصرهم الى مدد الملائكة وانما أمدهم ووعدهم به بشارة لهم وربطا على قلوبهم من حيث ان نظر العامة الى الاسباب أكثر (العزيز) الذى لا يغالب (الحكيم) الذى ينصر ويخذل من يشاء بوسط وبغير وسط على مقتضى الحكمة والمصلحة وقوله تعالى (ليقطع) متعلق بنصركم أى ليهلك (طرفا) أى طائفة (من الذين كفروا) بالقتل والاسر وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم

(أو يكبتهم) أي يذلهم بالهزيمة والكبت شدة غيظ أو وهن يقع في القلب (فينقلبوا) أي فيرجعوا (خائبين) أي لم ينالوا ما راموه وأو للتنويع لا للترديد * ونزل لما كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم وشج وجهه يوم أحد وقال كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم (ليس لك من الامر شئ) بل الامر كله لله فاصبر انما أنت عبد مبعوث لانذارهم ومجاهدتهم وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد اللهم العن الحرث بن هشام اللهم العن صفوان بن أمية فنزلت هذه الآية وقال قوم نزلت في أهل بئر معونة وهم سبعون رجلا من القراء بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بئر معونة في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد ليعلموا الناس القرآن والعلم أميرهم المنذر بن عمرو فقتلهم عامر بن الطفيل فوجد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدا شديدا وقنت شهرا في الصلوات كلها يدعو على جماعة من تلك القبائل باللعن والسنين وقوله تعالى (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) عطف على قوله أو يكبتهم وليس لك من الامر شئ اعتراض والمعنى ان الله تعالى مالك أمرهم فاما أن يهلكهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم ان أسلموا أو يعذبهم ان أصروا (فانهم ظالمون) بالكفر وقيل ان أو يتوب عليهم بمعنى الى أن يتوب عليهم (ولله ما في السموات وما في الارض) ملكا وخلقا فله الامر كله والمقصود من هذا تأكيد ما ذكره أولا من قوله ليس لك من الامر شئ والمعنى انما يكون ذلك لمن له الملك وليس هو لاحد الا لله تعالى (فان قيل) ظاهر ما ذكر يدل على أن ذلك ورد للمنع من أمر كان صلى الله عليه وسلم يريد أن يفعله وذلك الفعل ان كان بأمر الله تعالى فكيف يمنعه منه وان كان بغير أمره فكيف يصح مع قوله تعالى وما ينطق عن الهوى (أجيب) بأن ذلك كان من باب ترك الافضل والاولى فلا جرم أرشده الله تعالى الى اختيار الاولى نظيره قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله فكأنه تعالى قال أولا ان كان ولا بد أن تعاقب ذلك الظالم فاكتف بالمثل ثم قال ثانيا وان تركته كان ذلك أولى * ثم أمره أمرا جازما بتركه فقال واصبر وما صبرك الا بالله (يغفر لمن يشاء) مغفرته (ويعذب من يشاء) تعذيبه * ولما كان له فعل ذلك الا أن جانب المغفرة والرحمة غالب لا على سبيل الوجوب بل على سبيل التفضل والاحسان قال (والله غفور) لاوليائه (رحيم) بعباده فلا تبادر بالدعاء عليهم * ولما شرح سبحانه وتعالى عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بارشادهم الى الاصلح في أمر الدين والجهاد أتبع ذلك بما يدخل في الامر والنهي والترغيب والتحذير فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا) وهو جمع ضعف * ولما كان جمع قلة والمقصود الكثرة أتبعه بما يدل على ذلك وهو الوصف بقوله (مضاعفة) بأن تزيدوا في المال عند حلول الاجل وتؤخروا الطلب والتخصيص بحسب الواقع اذ كان الرجل منهم يربي الى أجل ثم يزيد في الدين زيادة أخرى حتى يستغرق بالشئ الطفيف مال المديون والافالربا حرام بلا مضاعفة بل هو من الكبائر مطلقا وقرأ ابن كثير وابن عامر بتشديد العين ولا ألف قبلها والباقون بتخفيف العين وألف قبلها (واتقوا الله) بترك ما نهيتم عنه

(لعلكم تفلحون) أى تفوزون ثم خوفهم فقال تعالى (واتقوا النار التى أعدت للكافرين) بالتحرز عن متابعتهم وتعاطى أفعالهم كان أبو حنيفة رحمه الله يقول هذه أخوف آية فى القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين ان لم يتقوه باجتناب محارمه وفى الآية تنبيه على ان النار بالذات للكفار وبالعرض للعصاة (وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) لما ذكر الوعيد أتبعه بالوعد ترهيبا عن المخالفة وترغيبا فى الطاعة على عادته تعالى المستمرة فى القرآن قال محمد بن اسحق بن يسار هذه الآية معاتبة للذين عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمرهم بما أمرهم يوم أحد ولعل وعسى فى أمثال ذلك دليل على عزة التوصل الى ما جعل خبرا لهما ومن تأمل هذه الآيات وأمثالها يحدث نفسه بالاطماع الفارغة والتمنى على الله تعالى (وسارعوا) أى بادروا وأقبلوا (الى مغفرة من ربكم) أى الى ما تستحق به المغفرة كالاسلام والتوبة وأداء الفرائض والهجرة والجهاد والتكبيرة الاولى والاعمال الصالحات وقرأ نافع وابن عامر بغير واو وقبل السين والباقون بواو قبلها (و) الى (جنة عرضها السموات والارض) أى عرضها كعرضهما كقوله تعالى عرضها كعرض السماء والارض وانما جمعت السماء وأفردت الارض لانها أنواع قيل بعض فضة وبعض غير ذلك والارض نوع واحد وذكر العرض للمبالغة فى وصف الجنة بالسعة لان العرض دون الطول كما دل عليه قوله تعالى بطائنها من استبرق على أن الظهارة أعظم يقول هذه صفة عرضها فكيف طولها قال الزهرى انما وصف عرضها فأما طولها فلا يعلمه الا الله تعالى وهذا على سبيل التمثيل لا أنها كالسموات والارض لا غير بل معناه كعرض السموات السبع والارضين السبع عند ظنكم كقوله تعالى خالدين فيها ما دامت السموات والارض أى عند ظنكم والا فهما زائلتان وعن ابن عباس الجنة كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض وعنه أيضا ان لكل واحد من المطيعين جنة بهذه السعة وروى أن ناسا من اليهود سألوا عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا كانت الجنة عرضها ذلك فأين تكون النار فقال لهم أرأيتم اذا جاء الليل فأين يكون النهار واذا جاء النهار فأين يكون الليل فقالوا انه لمثلها فى التوراة ومعناه أنه حيث شاء الله وسئل أنس بن مالك عن الجنة أفى السماء أم فى الارض فقال وأى أرض وسماء تسع الجنة قيل فأين هى قال فوق السموات السبع تحت العرش وقال قتادة كانوا يرون أن الجنة فوق السموات السبع وان جهنم تحت الارضين السبع (فان قيل) قال تعالى وفى السماء رزقكم وما توعدون وأراد بالذى وعدنا الجنة فاذا كانت الجنة فى السماء فكيف يكون عرضها ما ذكر (أجيب) بأن باب الجنة فى السماء وعرضها كما أخبر تعالى (أعدت) هيئت (للمتقين) الله بعمل الطاعات وترك المعاصى وفى ذلك دليل على ان الجنة مخلوقة الآن وقيل ان الجنة والنار يخلقان بعد قيام الساعة ثم وصف الله تعالى المتقين بصفات فقال (الذين ينفقون) أى فى طاعة الله (فى السراء والضراء) أى فى العسر واليسر أو الاحوال كلها لان الانسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة أى لا يخلون عن حال ما بانفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير كما يحكى عن بعض السلف أنه ربما تصدق ببصلة وعن

عائشة

عائشة رضي الله تعالى عنها انها تصدقت بحبة عنب فأول ما ذكر من أوصافهم الموجبة للجنة ذكر السخاء وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال السخى قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله قريب من النار ولجاهل سخى أحب الى الله من العالم البخيل (والكاظمين الغيظ) أى الممسكين عليه الكافين عن امضائه مع القدرة روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من كظم غيظا وهو يقدر على أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء وروى من كظم غيظا وهو يقدر على انفاذه ملأ الله قلبه أمنا وايمانا وروى ليس الشديد بالصرعة لكنه الذى يملك نفسه عند الغضب (والعافين عن الناس) أى التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذته روى انه صلى الله عليه وسلم قال ينادى مناد يوم القيامة أين الذين كانت أجورهم على الله فلا يقوم الا من عفا وعن ابن عيينة أنه رواه للرشيد وقد غضب على رجل فخلاه وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان هؤلاء فى أمتى قليل الا من عصم الله وقد كانوا كثيرا فى الامم التى مضت وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون منقطعا وهو ظاهر وأن يكون متصلا لما فى القلة من معنى العدم كأنه قيل ان هؤلاء فى أمتى لا يوجدون الا من عصم الله فانه يوجد فى أمتى وقوله تعالى (والله يحب المحسنين) يجوز أن تكون اللام فيه للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون وأن تكون للعهد فتكون اشارة الى هؤلاء وقوله تعالى (والذين اذا فعلوا فاحشة) أى ذنبا قبيحا كالزنا (أو ظلموا أنفسهم) أى بما دون الزنا كالقبلة وقيل الفاحشة ما يتعدى وظلم النفس ما ليس كذلك (ذكروا الله) أى ذكروا وعيده أو حكمه أو حقه العظيم (فاستغفروا لذنوبهم) بالندم والتوبة عطف على المتقين أو على الذين ينفقون واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال عطاء نزلت فى أبى معبد التمار أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمرا فقال لها ان هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه فذهب بها الى بيته وضمها الى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم على ذلك ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم وذكر ذلك له فنزلت هذه الآية وقال مقاتل والكلبى آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين رجلين أحدهما من الانصار والآخر من ثقيف فخرج الثقفى فى غزاة واستخلف الانصارى على أهله فاشترى لهم اللحم ذات يوم فلما ارادت المرأة أن تأخذ منه دخل على اثرها وقبل يدها ثم ندم وانصرف ووضع التراب على رأسه وهام على وجهه فلما رجع الثقفى لم يستقبله الانصارى فسأل امرأته عن حاله فقالت لا أكثر الله فى الاخوان مثله ووصفت له الحال والانصارى يسيح فى الجبال تائبا مستغفرا فطلبه الثقفى حتى وجده فأتى به أبا بكر رجاء أن يجد عنده راحة وفرجا وقال الانصارى هلكت وذكر القصة فقال أبو بكر ويحك اما علمت ان الله تعالى يغار للغازى ما لا يغار للمقيم ثم أتيا عمر فقال عمر مثل ذلك ثم أتيا النبى صلى الله عليه وسلم فقال مثل مقالهما فنزلت هذه الآية وقوله تعالى (ومن) أى لا احد (يغفر الذنوب الا الله) استفهام بمعنى النفى معترض بين المعطوفين والمراد به وصفه سبحانه وتعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة والحث على الاستغفار والوعد بقبول

التوبة (ولم يصروا على ما فعلوا) أى ولم يقيموا على قبيح فعلهم بل أقلعوا عنه مستغفرين روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ما أصر من استغفر وان عاد فى اليوم سبعين مرة وروى لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار وقوله تعالى (وهم يعلمون) حال من يصروا أى ولم يصروا على قبيح فعلهم عالمين به وقوله تعالى (أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الانهار) اشارة الى الفريقين ويجوز أن يكون والذين مبتدأ وأولئك خبره وقوله تعالى (خالدين فيها) حال مقدرة أى مقدرين الخلود فيها اذا دخلوها * (تنبيه) * لا يلزم من اعداد الجنة للمتقين والتائبين جزاء لهم أن لا يدخلها المصرون كما لا يلزم من اعداد النار للكافرين جزاء لهم أن لا يدخلها غيرهم فقول الزمخشرى فى الكشاف وفى هذه الآيات بيان قاطع على أن الذين آمنوا على ثلاث طبقات متقون وتائبون ومصرون وأن الجنة للمتقين والتائبين منهم دون المصرين ومن خالف فى ذلك فقد كابر عقله وعاند ربه جار على طريق الاعتزال من أن مرتكب الكبيرة اذا مات مصرا لا يدخل الجنة ونعوذ بالله من ذلك بل كل من مات على الاسلام يدخل الجنة وهو تحت المشيئة ان شاء الله عذبه وان شاء عفا عنه وقوله تعالى (ونعم أجر العاملين) المخصوص فيه بالمدح محذوف تقديره ونعم أجر العاملين ذلك أى المغفرة والجنات روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ما من عبد مؤمن أذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ثم يستغفر الله الا غفر الله له وروى أن عبدا أذنب ذنبا فقال يارب أذنبت ذنبا فاغفر لى فقال ربه علم عبدى أن له ربا يغفر الذنوب ويؤاخذ بها فغفر له فمكث ما شاء الله ثم أذنب ذنبا آخر فقال يارب أذنبت ذنبا آخر فاغفر لى قال ربه علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويؤاخذ به قد غفرت له فليعمل ما شاء أى ويستغفر فأغفر له وروى أنه تبارك وتعالى قال يا ابن آدم انك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ابن آدم انك ان تلقنى بقراب الارض خطايا لقيتك بقرابها مغفرة بعد أن لا تشرك بى شيأ ابن آدم انك ان تذنب ذنبا حتى يبلغ ذنبك عنان السماء ثم تستغفرنى أغفر لك وروى أن الله تبارك وتعالى قال من علم أنى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالى ما لم يشرك بى شيأ قال ثابت البنانى بلغنى أن ابليس بكى حين نزلت هذه الآية والذين اذا فعلوا فاحشة الى آخرها وروى ان الله تعالى أوحى الى موسى عليه الصلاة والسلام ما أقل حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل كيف أجود برحمتى على من يبخل بطاعتى وعن شهر بن حوشب طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة وعن الحسن يقول الله تعالى يوم القيامة جوزوا الصراط بعفوى وادخلوا الجنة برحمتى واقتسموها بأعمالكم وعن رابعة البصرية انها كانت تنشد

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لا تجرى على اليبس

ونزل فى هزيمة أحد (قد خلت) أى مضت (من قبلكم سنن) جمع سنة وهى الطريقة التى يكون عليها الانسان ويلازمها ومنه سنة الانبياء عليهم الصلاة والسلام أى قد مضت من قبلكم

طرائق فى الكفار بامهالهم ثم أخذهم (فسيروا) أيها المؤمنون (فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة) أى آخر أمر (المكذبين) الرسل من الهلاك فلا تحزنوا لغلبتهم فأنا أمهلهم لوقتهم (هذا) أى القرآن (بيان للناس) عامة (وهدى) من الضلالة (وموعظة للمتقين) خاصة (ولا تهنوا) أى تضعفوا عن قتال الكفار بما نالكم من القتل والجراح يوم أحد (ولا تحزنوا) على ما أصابكم وكان قد قتل يومئذ من المهاجرين خمسة منهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وقتل من الانصار سبعون رجلا (وأنتم الاعلون) أى وحالكم أنكم أعلى شأنا منهم فانكم على الحق وقتالكم لله وقتلاكم فى الجنة وانهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم فى النار أو لانكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم أوهى بشارة لهم بالعلو والغلبة أى وأنتم الاعلون فى العاقبة وان جندنا لهم الغالبون وقوله تعالى (ان كنتم مؤمنين) متعلق بالنهى بمعنى لا تهنوا ان صح ايمانكم على أن صحة الايمان توجب قوة القلب والثقة بالله تعالى وقلة المبالاة بأعدائه أو متعلق بالاعلون أى ان كنتم مصدقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة (ان يمسسكم قرح) جهد من جرح ونحوه يوم أحد (فقد مس القوم) الكفار (قرح مثله) يوم بدر ثم انهم لم يضعفوا ولم يجبنوا فأنتم أولى أن لا تضعفوا فانكم ترجون من الله ما لا يرجون وقيل كلا المسين كان يوم أحد فان المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ أبو بكر وشعبة وحمزة والكسائى بضم قاف قرح فى الموضعين والباقون بالفتح وهما لغتان بمعنى وقال الفراء القرح بالفتح الجرح وبالضم ألمه (وتلك الايام) تلك مبتدأ والايام صفته وقوله تعالى (نداولها) خبره ويصح أن تلك الايام مبتدأ وخبر كما تقول هى الايام تبلى كل جديد والمراد بالايام أوقات الظفر والغلبة أى نصرفها (بين الناس) قال البغوى فيوما عليهم ويوما لهم قال فى الكشاف كقوله وهو من أبيات الكتاب

فيوما علينا ويوما لنا * ويوما نساء ويوما نسر

تقديره فيوما يكون الامر علينا أى بالاضرار ويوما لنا أى بالنفع فيكون يوما ظرفا ملائما لقوله ويوما نساء ويوما نسر قاله الشيخ سعد الدين أى أديل تارة للمسلمين على المشركين وهو يوم بدر حتى قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين واديل تارة للكافرين على المسلمين وهو يوم أحد حتى جرحوا منهم سبعين وقتلوا خمسا وسبعين روى انه صلى الله عليه وسلم جعل عبد الله ابن جبير على الرجالة يوم أحد وكانوا خمسين رجلا فقال ان رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل اليكم فهزموهم قال فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وسوقهن رافعات ثيابهن فقال أصحاب عبد الله بن جبير الغنيمة الغنيمة فما تنتظرون فقال عبد الله ابن جبير أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين فذلك اذ يدعوهم الرسول فى اخراهم فلم يثبت مع النبى صلى الله عليه وسلم الا اثنا عشر رجلا فأصابوا منا سبعين وكان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة وسبعين أسيرا وسبعين

قتيلا فقال أبو سفيان أفي القوم محمد ثلاث مرات فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيبوه ثم قال أفي القوم ابن أبي قحافة ثلاث مرات ثم قال أفي القوم ابن الخطاب ثلاث مرات ثم رجع الى أصحابه وهو يقول أما هؤلاء فقد قتلوا فما ملك عمر نفسه فقال كذبت والله يا عدو الله ان الذين عددت لأحياء كلهم وقد بقي لك ما يسوءك قال يوم بيوم بدر والحرب سجال انكم ستجدون في القوم مثلة ثم أخذ يرتجز * اعل هبل اعل هبل * فقال النبي صلى الله عليه وسلم الا تجيبوه فقالوا يا رسول الله ما نقول قال قولوا الله أعلى وأجل قال * ان لنا العزى ولا عزى لكم * فقال النبي صلى الله عليه وسلم الا تجيبوه فقالوا يا رسول الله ما نقول فقال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم وفي حديث ابن عباس قال أبو سفيان يوم بيوم وان الايام دول والحرب سجال فقال عمر رضي الله تعالى عنه لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار وانما كانت الدولة يوم أحد للكفار على المسلمين لمخالفتهم لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم (وليعلم الله الذين آمنوا) أي أخلصوا ايمانهم من غيرهم (فان قيل) ظاهر هذه الآية ان الله تعالى انما فعل تلك المداولة ليكتسب هذا العلم وذلك في حقه تعالى محال ونظير هذا الاشكال قوله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم وقوله تعالى ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وقوله لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا وقوله ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم وقوله الا لنعلم من يتبع الرسول وقوله ليبلوكم أيكم أحسن عملا فظاهر هذه الآيات يدل على أنه تعالى انما صار عالما بحدوث هذه الاشياء عند حدوثها وأجاب المتكلمون عنها بأن الدلائل العقلية دلت على انه تعالى يعلم الحوادث قبل وقوعها فثبت أن التغير في العلم محال الا أن اطلاق لفظ العلم على المعلوم والقدرة على المقدور مجاز مشهور يقال هذا علم فلان والمراد معلومه وهذه قدرة فلان والمراد مقدوره فكل آية يشعر ظاهرها بتجدد العلم فالمراد تجدد المعلوم واذا عرف هذا فهذه الآية محتملة لوجوه أحدها ليظهر المخلص من المنافق والمؤمن من الكافر وثانيها ليعلم أولياء الله وأضاف الى نفسه تفخيما وثالثها ليحكم بالامتياز فأوقع العلم مكان الحكم بالامتياز لان الحكم لا يحصل الا بعد العلم ورابعها ليعلم ذلك واقعا كما كان يعلم أنه سيقع لان المجازاة تقع على الواقع دون المعلوم الذي لم يوجد (ويتخذ منكم شهداء) أي ويكرم ناسا منكم بالشهادة وهم المستشهدون يوم أحد أو وليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الامم يوم القيامة بما وجد منهم من الثبات والصبر على الشدائد كما قال تعالى لتكونوا شهداء على الناس وقوله تعالى (والله لا يحب الظالمين) قال ابن عباس أي المشركين كقوله تعالى ان الشرك لظلم عظيم وهو اعتراض بين بعض التعاليل وبعض وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة وانما يظفرهم احيانا استدراجا لهم وابتلاء للمؤمنين (وليمحص الله الذين آمنوا) أي ليطهرهم من الذنوب بما أصابهم (ويمحق) أي يهلك (الكافرين) أي ان كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز والاستشهاد والتمحيص وغير ذلك مما هو أصلح لهم وان كانت على الكافرين فلمحقهم ومحو آثارهم (أم) منقطعة مقدرة ببل ومعنى الهمزة فيها الانكار أي بل أ (حسبتم

أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) في الشدائد وقد مر معنى يعلم *(تنبيه)* قال البيضاوي والفرق بين لما يعلم ولم أن في لما توقع الفعل فيما يستقبل لكن قال أبو حيان لا أعلم أحدا من النحويين ذكره بل ذكروا انك اذا قلت لما يخرج زيد دل ذلك على انتفاء الخروج فيما مضى متصلا نفيه الى وقت الاخبار وأما أنها تدل على توقعه في المستقبل فلا انتهى لكن قال الفراء لما التعريض الوجود بخلاف لم (ولقد كنتم تمنون) فيه حذف احدى التاءين في الاصل أي تتمنون (الموت) أي الحرب فانها من أسباب الموت أو الموت بالشهادة والخطاب للذين لم يشهدوا بدرا وتمنوا أن يشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهدا لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة فألحوا يوم أحد على الخروج (من قبل أن تلقوه) أي تشاهدوه وتعرفوا شدته (فقد رأيتموه) أي الحرب أو الموت حتى قتل دونكم من قتل من اخوانكم (وأنتم تنظرون) أي بصراء تتأملون الحال كيف هم فلم انهزمتم (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) فسيخلو كما خلوا بالموت أو القتل ومحمد هو المستغرق لجميع المحامد لان الحمد لا يستوجبه الا الكامل والتحميد فوق الحمد فلا يستحقه الا المستولي على الامر في الكمال وأكرم الله تعالى نبيه وصفيه صلى الله عليه وسلم باسمين مشتقين من اسمه جل وعلا محمد وأحمد وفيه يقول حسان بن ثابت

وشق له من اسمه ليجله * فذو العرش محمود وهذا محمد

وقوله تعالى (أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) انكار لارتدادهم وانقلابهم على أعقابهم عن الدين لخلوه صلى الله عليه وسلم بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به (فان قيل) قوله تعالى أفان مات أو قتل شك وهو على الله محال (أجيب) بأن المراد أنه سواء وقع هذا أو ذاك فلا تأثير له في ضعف الدين ووجوب الارتداد قال ابن عباس وأصحاب المغازي لما رأى خالد بن الوليد الرماة يوم أحد اشتغلوا بالغنيمة ورأى ظهورهم خالية صاح في خيله من المشركين ثم حمل على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من خلفهم فهزموهم وقتلوهم ورمى عبد الله بن قمئة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجه في وجهه فأثقله وتفرق عنه أصحابه ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم الى صخرة ليعلوها وكان قد ظاهر بين درعين فلم يستطع فجلس تحته طلحة فنهض حتى استوى عليها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجب طلحة ووقعت هند والنسوة معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدعن الآذان والانوف حتى اتخذت هند من ذلك قلائد وأعطتها وحشيا وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها وأقبل عبد الله بن قمئة يريد قتل النبي صلى الله عليه وسلم فذب مصعب بن عمير وهو صاحب راية النبي صلى الله عليه وسلم عنه فقتله ابن قمئة وهو يرى أنه قتل النبي صلى الله عليه وسلم فرجع وقال اني قتلت محمدا وصاح صارخ ألا ان محمدا قد قتل فقيل ان ذلك الصارخ كان ابليس فانكفأ الناس وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الي عباد الله الي عباد الله فاجتمع اليه ثلاثون رجلا فحموه حتى كشفوا عنه المشركين ورمى سعد

ابن أبي وقاص حتى اندقت سية قوسه ونثل له رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانته فقال ارم فداك أبي وأمي وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع كسر يومئذ قوسين أو ثلاثا فكان الرجل يمر ومعه جعبته من النبل فيقول انثرها لأبي طلحة وكان اذا رمى يشرف النبي صلى الله عليه وسلم فينظر الى موضع نبله وأصيبت يد طلحة بن عبيد الله فيبست وقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصيبت عين قتادة بن النعمان يومئذ حتى وقعت على وجنته فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانها فعادت كأحسن ما كانت فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أدركه أبي بن خلف الجمحي وهو يقول لا نجوت ان نجوت فقال القوم يا رسول الله ألا يعطف عليه رجل منا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوه حتى اذا دنا منه وكان أبي قبل ذلك يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول عندي رمكة أعلفها كل يوم فرق ذرة أقتلك عليها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أنا أقتلك ان شاء الله فلما دنا منه تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحرث ابن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه وخدشه خدشة فتدهده عن فرسه وهو يخور كما يخور الثور وهو يقول قتلني محمد واحتمله أصحابه وقالوا ليس عليك بأس قال بلى لو كانت هذه الطعنة بربيعة ومضر لقتلتهم أليس قال لي أقتلك فلو بزق علي بعد تلك المقالة لقتلني فلم يلبث الا يوما حتى مات بموضع يقال له سرف قال ابن عباس اشتد غضب الله على من قتله نبي واشتد غضب الله على من رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وفشا في الناس أن محمدا قد قتل فقال بعض المسلمين ليت لنا رسولا الى عبد الله بن أبي فيأخذ لنا أمانا من أبي سفيان وبعض الصحابة جلسوا وألقوا بأيديهم وقال أناس من أهل النفاق ان كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الأول فقال أنس ابن مالك بن النضر يا قوم ان كان محمد قد قتل فان رب محمد لم يقتل وما تصنعون في الحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا على ما قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وموتوا على ما مات عليه ثم قال اللهم اني أعتذر اليك مما يقول هؤلاء يعني المسلمين وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء يعني المنافقين ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق الى الصخرة وهو يدعو الناس فأول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك وقال عرفت عينيه تحت المغفر تزهران فناديت بأعلى صوتي يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار الي أن أمسك فانحازت اليه طائفة من أصحابه فلامهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الفرار فقالوا يا نبي الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا الخبر بأنك قد قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين فأنزل الله تعالى هذه الآية (فان قيل) انه تعالى بين في آيات كثيرة انه عليه الصلاة والسلام لا يقتل فقال انك ميت وانهم ميتون وقال والله يعصمك من الناس وقال ليظهره على الدين كله واذا علم أنه لا يقتل فلم قال أو قتل (أجيب) بأن هذا ورد على سبيل الالزام فان موسى عليه الصلاة والسلام مات ولم ترجع أمته عن دينه والنصارى زعموا أن عيسى عليه الصلاة والسلام قتل ولم يرجعوا عن دينه فكذا ههنا (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيأ) بارتداده وانما يضر نفسه (وسيجزي الله الشاكرين) على نعمة الاسلام بالثبات عليه

كائن واضرابه (وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله) أي بقضائه ومشيئته أو باذنه لملك
الموت في قبضه روحه وقوله تعالى (كتابا) مصدر أي كتب الله ذلك (مؤجلا) أي مؤقتا لا يتقدم
ولا يتأخر فلم انهزمتم والهزيمة لا تدفع الموت والثبات لا يقطع الحياة * ونزل في الذين تركوا المركز
يوم أحد طلبا للغنيمة (ومن يرد) أي بعمله (ثواب الدنيا نؤته منها) ما نشاء مما قدرناه له كما قال
تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد وفي الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير
حتى قتلوا (ومن يرد) أي بعمله (ثواب الآخرة نؤته منها) أي من ثوابها (وسنجزي الشاكرين)
أي الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من كانت
نيته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت نيته
طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه أمره ولا يأتيه منها الا ما كتب له وقال صلى
الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله
فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى
ما هاجر اليه وقوله تعالى (وكأين) أصله أي دخلت الكاف عليها فصارت مركبة من كاف
التشبيه ومن أي وحدث فيهما بعد التركيب معنى التكثير المفهوم من كم الخبرية ومثلها
في التركيب وافهام التكثير كذا في قولهم عندي كذا كذا درهما واصله كاف التشبيه
وذا الذي هو اسم اشارة فلما ركبا حدث فيهما معنى التكثير فكم الخبرية وكأين وكذا كلها بمعنى
واحد والنون تنوين في المعنى أثبت في الخط على غير قياس قال البغوي لم يقع التنوين صورة
في الخط الا في هذا الحرف خاصة وقرأ ابن كثير بألف بعد الكاف بعدها همزة مكسورة
والباقون بهمزة بعد الكاف مفتوحة بعدها ياء مشددة ووقف أبو عمرو على الياء والباقون على
النون وسهل حمزة الهمزة وحققها الباقون وقوله تعالى (من نبي) تمييز لكأين لانها مثل كم
الخبرية وقوله تعالى (قتل) قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم القاف وكسر التاء ولا ألف بين
القاف والتاء والباقون بفتح القاف والتاء وألف بين القاف والتاء وقوله تعالى (معه) خبر
مبتدؤه (ربيون) وهم جمع ربي وهو العالم المتقي منسوب الى الرب وانما كسرت راؤه تغييرا
في النسب وقيل لا تغيير فيه وهو منسوب الى الربة وهي الجماعة للمبالغة وقوله تعالى (كثير)
صفة لربيون وان كان بلفظ الافراد لان معناه جمع (فما وهنوا) أي ضعفوا (لما أصابهم في سبيل
الله) من الجراح وقتل أنبيائهم وأصحابهم (وما ضعفوا) عن الجهاد (وما استكانوا) أي
خضعوا لعدوهم كما فعلتم حين قيل قتل نبيكم (والله يحب الصابرين) على الشدائد فيثيبهم ويعظم
أجرهم (وما كان قولهم) عند قتل نبيهم مع ثباتهم وصبرهم وكونهم ربانيين (الا أن قالوا ربنا
اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا) أي تجاوزنا الحد وقولهم (في أمرنا) ايذان بان ما أصابهم لسوء فعلهم
وهضما لانفسهم (وثبت أقدامنا) أي بالقوة على الجهاد (وانصرنا على القوم الكافرين) أي
فهلا قلتم وفعلتم مثل ذلك بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (فآتاهم الله ثواب الدنيا) أي بالنصر
والغنيمة والعز وحسن الذكر (وحسن ثواب الآخرة) أي بالجنة والنعيم المقيم وخص ثوابها

بالحسن اشعارا بفضله وانه المعتدّبه عند الله (والله يحب المحسنين) أى فيكثر لهم الثواب (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا) أى اليهود والنصارى فيما يأمرونكم به وقال على يعنى المنافقين فى قولهم للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا الى اخوانكم وادخلوا فى دينهم ولو كان محمد نبيا ماقتل (يردوكم على أعقابكم) أى الى الكفر (فتنقلبوا خاسرين) الدنيا والآخرة أما خسران الدنيا فلان أشق الاشياء على العقلاء فى الدنيا الانقياد الى العدو واظهار الحاجة اليه وأما خسران الآخرة فالحرمان عن الثواب المؤبد والوقوع فى العقاب المخلد (بل الله مولاكم) أى ناصركم وحافظكم على دينكم (وهو خير الناصرين) فاستغنوا به عن ولاية غيره ونصره (سنلقى) أى سنقذف (فى قلوب الذين كفروا الرعب) أى الخوف وذلك أن الكفار لما هزموا المسلمين فى أحد أوقع الله الرعب فى قلوبهم فتركوهم وفرّوا منهم من غير سبب حتى روى أن أبا سفيان صعد الجبل ونادى يا محمد موعدنا موسم بدر القابل ان شئت فقال عليه الصلاة والسلام ان شاء الله وقيل انهم لما ذهبوا متوجهين الى مكة فلما كانوا فى بعض الطريق ندموا وقالوا ما صنعنا شيأ قتلنا أكثرهم ولم يبق منهم الا الشريد تركناهم ارجعوا حتى نستأصلهم بالكلية فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب فى قلوبهم وقرأ ابن عامر والكسائى بضم العين والباقون بالسكون (بما أشركوا) أى بسبب اشراكهم (بالله مالم ينزل به سلطانا) أى حجة على عبادته وهو الاصنام وهذا كقوله * ولا ترى الضب بها ينجحر * أى ليس بها ضب فلا ينجحر فكذلك هؤلاء ليس لهم حجة أصلا وأصل السلطنة القوة ومنه السليط لقوة اشتعاله والسلاطة بحدة اللسان (ومأواهم النار وبئس مثوى) أى مأوى (الظالمين) أى الكافرين هى (ولقد صدقكم الله وعده) قال محمد بن كعب القرظى لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى المدينة من أحد وقد أصابهم ما أصابهم قال ناس من أصحابه من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فأنزل الله هذه الآية لان النصر كان للمسلمين فى الابتداء كما قال تعالى (اذ تحسونهم) أى تقتلونهم من حسه اذا أبطل حسه وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار ذال اذ عند التاء والباقون بالادغام (باذنه) أى بارادته (حتى اذا فشلتم) أى جبنتم عن القتال (وتنازعتم) أى اختلفتم (فى الامر) أى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالمقام فى سفح الجبل للرمى حين انهزم المشركون فقال بعضكم نذهب فقد نصر أصحابنا وقال آخرون لا تخالفوا أمر النبى فاثبتوا مكانكم فثبت عبد الله بن جبير أمير الرماة فى نفر دون العشرة ونفر الباقون للنهب وهو المعنى بقوله تعالى وعصيتم أى أمر النبى وتركتم المركز لطلب الغنيمة (من بعد ما أراكم) أى الله (ما تحبون) من الظفر والغنيمة وانهزام العدو وجواب اذا محذوف دل عليه ماقبله أى منعكم نصره ويجوز أن يكون المعنى صدقكم الله وعده الى وقت فشلكم وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل أحدا خلف ظهره واستقبل المدينة وأقام الرماة عند الجبل وأمرهم أن يثبتوا فى مكانهم ولا يبرحوا سواء كانت الدولة للمسلمين أو عليهم فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا

والمسلمون على آثارهم ثم اشتغل بعضهم بالغنيمة كما قال تعالى (منكم من يريد الدنيا) وهم التاركون المركز للغنيمة (ومنكم من يريد الآخرة) وهم الثابتون مع عبد الله بن جبير حتى قتلوا (فان قيل) فاذا كان البعض هو المخالف فكيف جاء العتاب عاما بقوله وعصيتم (أجيب) بأن اللفظ وان كان عاما فقد جاء المخصص بعده وهو قوله منكم وقوله تعالى (ثم صرفكم) أى ردكم بالهزيمة (عنهم) أى الكفار عطف على ماقبله والجملتان من قوله منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة اعتراض بين المتعاطفين وقيل عطف على جواب اذا المقدر (ليبتليكم) أى ليمتحنكم فيظهر الخاص من غيره (ولقد عفا عنكم) ما ارتكبتموه من مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم وميلكم الى الغنيمة تفضلا منه تعالى (فان قيل) ان ظاهر الآية يدل على أن الذنب من الصغائر لصحة العفو عنه من غير توبة لقيام الدليل على أن أصحاب الكبائر اذا لم يتوبوا لم يكونوا من أهل العفو والمغفرة (أجيب) بأن هذا الذنب لاشك أنه كبيرة لانهم خالفوا صريح نص الرسول صلى الله عليه وسلم وصارت تلك المخالفة سببا لانهزام المسلمين فلا بد من اضمار توبتهم (والله) أى المتفضل المنعم (ذو فضل على المؤمنين) أى يتفضل عليهم بالعفو أو فى الاحوال كلها سواء أجعلت الدولة لهم أم عليهم اذ الابتلاء أيضا رحمة وقوله تعالى (اذ) العامل فيها مضمر أى اذكر اذ (تصعدون) أى تبعدون فى الارض هاربين (ولا تلوون) أى تعرجون (على أحد) أى لا يقف أحد لاحد ولا ينتظره (والرسول يدعوكم) أى يقول الى عباد الله الى عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة (فى أخراكم) أى من ورائكم (فأثابكم) أى جازاكم (غما) بالهزيمة (بغم) أى بسبب غمكم الرسول بالمخالفة وقيل الباء بمعنى على أى مضاعفا على غم فوت الغنيمة والغموم كانت هنالك كثيرة أحدها غمهم بما نالهم من العدو فى الانفس والاموال وثانيها غمهم بما وقع منهم من المعصية وخوف عقابها وثالثها غمهم بما وصل الى الرسول صلى الله عليه وسلم ورابعها غمهم بسبب التوبة التى صارت واجبة عليهم لانهم اذا تابوا عن تلك المعصية لم تتم توبتهم الا بترك الهزيمة والعود الى المحاربة بعد الانهزام وذلك من أشق الاشياء لان الانسان بعد انهزامه يضعف قلبه ويجبن فاذا أمر بالمعاودة فان فعل خاف القتل وان لم يفعل خاف عقاب الآخرة وخامسها غمهم حين سمعوا أن محمدا قد قتل وسادسها غمهم حين أشرف عليهم خالد بن الوليد بخيل المشركين وسابعها غمهم حين أشرف عليهم أبو سفيان وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق يومئذ يدعو الناس حتى انتهى الى أصحاب الصخرة فلما رأوه وضع رجل سهما فى قوسه وأراد أن يرميه فقال أنا رسول الله ففرحوا حين وجدوه وفرح صلى الله عليه وسلم حين رأى من يمتنع به فأقبلوا على المشركين يذكرون الفتح وما فاتهم منه ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا فأقبل أبو سفيان وأصحابه حتى وقفوا بباب الشعب فلما نظر المسلمون اليهم همهم ذلك وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم فأنساهم هذا ما نالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لهم أن يعلونا اللهم ان تقتل هذه العصابة لا تعبد فى الارض ثم بدت أصحابه فرموهم بالحجارة حتى أنزلوهم واذا عرفت ذلك فلا يضر اختلاف المفسرين فان بعضهم

فسر هذين الغمين بغمين من هذه وبعضهم بخلافه وقال القفال وعندي أن الله تعالى ما أراد بقوله غما بغم اثنين وانما أراد مواصلة الغموم وطولها أي أن الله تعالى عاقبكم بغموم كثيرة مثل قتل اخوانكم وأقاربكم ونزول المشركين من فوق الجبل عليكم بحيث لم تأمنوا أن يهلك أكثركم فكأنه تعالى قال أثابكم هذه الغموم المتعاقبة ليصير ذلك زجرا لكم عن الاقدام على المعصية والاشتغال بما يخالف أمر الله تعالى والغم التغطية ومنه غم الهلال اذا لم ير وقوله تعالى (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) أي من الغنيمة متعلق بعفا أو بأثابكم فلا زائدة (ولا ما أصابكم) أي من القتل والهزيمة (والله خبير بما تعملون) أي عالم بأعمالكم وبما قصدتم بها (ثم أنزل عليكم) يا معشر المسلمين (من بعد الغم أمنة) أي أمنا والامن والامنة بمعنى واحد وقيل الامن يكون مع زوال سبب الخوف والامنة مع بقاء سبب الخوف وكان سبب الخوف ههنا قائما وقوله تعالى (نعاسا) بدل من أمنة وأمنة مفعول أو نعاسا هو المفعول وأمنة حال منه متقدمة (يغشى طائفة منكم) وهم المؤمنون وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على التأنيث ردا الى الامنة والباقون بالياء على التذكير ردا الى النعاس (وطائفة) وهم المنافقون (قد أهمتهم أنفسهم) أي حملتهم على الهزيمة فلا رغبة لهم الا نجاتها دون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يناموا فان الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فريقان أحدهما الجازمون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهؤلاء كانوا قاطعين بأن الله ينصر هذا الدين وان هذه الوقعة لا تؤدي الى الاستئصال فلا جرم كانوا آمنين وبلغ ذلك الامن الى أن غشيهم النعاس فان النوم لا يجيء مع الخوف قال أبو طلحة غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد فكان السيف يسقط من أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه وقال ثابت عن أنس عن أبي طلحة قال رفعت رأسي يوم أحد فجعلت ما أرى أحدا من القوم الا وهو يميل تحت حجفته من النعاس قال الزبير كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف فأرسل الله علينا النوم والله اني لأسمع قول معتب بن بشير والنعاس يغشاني ما أسمعه الا كالحلم يقول لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ههنا والفريق الثاني هم المنافقون كانوا شاكين في نبوته صلى الله عليه وسلم وما حضروا الا لطلب الغنيمة فهؤلاء اشتد جزعهم وعظم خوفهم قال ابن مسعود النعاس في القتال أمنة والنعاس في الصلاة من الشيطان وذلك لانه في القتال لا يكون الامن الوثوق بالله والفراغ من الدنيا ولا يكون في الصلاة الامن غاية البعد عن الله (فان قيل) ما فائدة هذا النعاس (أجيب) بأن له فوائد الاولى أن السهر يوجب الضعف والكلال والنوم يفيد عود القوة والنشاط والثانية أن الكفار لما اشتغلوا بقتل المسلمين ألقى الله تعالى النوم على الباقين لئلا يشاهدوا قتل غيرهم فيشتد خوفهم والثالثة أن الاعداء كانوا في غاية الحرص على قتلهم فبقاؤهم في النوم مع السلامة في تلك المعركة من أدل الدلائل على أن الله تعالى يحفظهم ويعصمهم وذلك مما يزيل الخوف من قلوبهم ويورثهم الامن * (تنبيه) * قوله تعالى وطائفة مبتدأ والخبر قد أهمتهم أنفسهم (فان قيل) كيف جاز الابتداء بالنكرة (أجيب) بأنه جاز لاحد

أمرين اما للاعتماد على واو الحال وقد عده بعضهم مسوغاوان كان الاكثر لم يذكروه وأنشد

سرينا ونجم قد أضاء فمذ بدا * محياك أخفى ضوءه كل شارق

واما لان الموضع موضع تفصيل فان المعنى يغشى طائفة وطائفة لم يغشاهم فهو كقوله

اذا ما بكى من خلفها انصرفت له * بشق وشق عندنا لم يحول

وقوله تعالى (يظنون بالله غير الحق) أى أن لا ينصر الله محمدا صفة أخرى لطائفة وغير الحق نصب على المصدر أى يظنون بالله غير الظن الحق الذى يحق أن يظن به (ظن) أى كظن (الجاهلية) حيث اعتقدوا أن النبى صلى الله عليه وسلم قتل أو لا ينصر وقوله تعالى (يقولون) أى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بدل من يظنون (هل لنا) أى ما لنا لفظه استفهام ومعناه جحد (من الامر) أى النصر الذى وعدناه (من شئ) أى شئ ومن صلة زيدت للتأكيد وهو اما مبتدأ خبره لنا واما فاعل للنا لاعتماده على الاستفهام ومن الامر حال من المبتدأ أو الفاعل وهو شئ لكونه مرفوعا حقيقة لا مجرورا وقيل ان عبد الله بن أبى ابن سلول لما شاوره النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الوقعة أشار اليه بان لا يخرج من المدينة ثم ان بعض الصحابة ألحوا على النبى صلى الله عليه وسلم فى أن يخرج اليهم فغضب ابن أبى من ذلك فقال عصانى وأطاع الولدان ثم لما كثر القتل فى بنى الخزرج ورجع ابن أبى فقيل له قتل بنو الخزرج فقال هل لنا من الامر من شئ يعنى أن محمدا لم يقبل قولى حين أمرته بأن لا يخرج من المدينة والمعنى هل لنا أمر يطاع فهو استفهام على سبيل الانكار (قل) لهم يا محمد (ان الامر كله لله) أى الغلبة الحقيقية لله ولاوليائه فان حزب الله هم الغالبون أو القضاء له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وقرأ أبو عمرو برفع اللام بعد الكاف على أنه مبتدأ والخبر لله والباقون بالنصب على انه توكيد * (تنبيه) * هذه الآية تدل على أن جميع المحدثات خلق الله تعالى بقضائه وقدره لان المنافقين قالوا ان محمدا لو قبل منا رأينا ونصحنا لما وقع فى هذه المحنة فأجابهم الله تعالى بأن الامر كله لله وهذا انما ينتظم اذا كانت أفعال العباد بقضائه وقدره اذ لو كانت خارجة عن مشيئته لم يكن هذا الجواب رافعا لشبهة المنافقين وقوله تعالى (يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون) أى يظهرون (لك) حال من ضمير يقولون وقل ان الامر كله لله اعتراض بين الحال وذى الحال أى يقولون مظهرين انهم مسترشدون طالبون للنصر مبطنين الانكار والتكذيب وقوله تعالى (يقولون) بيان لما قبله (لو كان لنا من الامر شئ) أى كما وعد محمد وزعم أن الامر كله لله ولاوليائه أو لو كان الاختيار لنا لم نخرج كما كان رأى ابن أبى وغيره (ما قتلنا ههنا) أى لما غلبنا ولما قتل من قتل منا فى هذه المعركة (قل) لهم (لو كنتم فى بيوتكم) وفيكم من كتب الله تعالى عليه القتل (لبرز) أى خرج (الذين كتب) أى قضى (عليهم القتل) منكم (الى مضاجعهم) أى مصارعهم فيقتلوا ولم ينجهم قعودهم لان قضاء الله تعالى كائن لا محالة فانه قدر الامور ودبرها فى سابق قضائه لا معقب لحكمه وقرأ أبو عمرو وحفص وورش بضم الباء فى بيوتكم والباقون بالكسر وقوله تعالى (وليبتلى) أى ليختبر (الله ما فى صدوركم) أى قلوبكم من الاخلاص والنفاق

عليه فعل محذوف تقديره فرض الله عليكم القتال ولم ينصركم يوم أحد ليبتلي وقيل معطوف على علة محذوفة تقديره ليقضي الله أمره وليبتلي وقوله تعالى (وليمحص ما في قلوبكم) فيه وجهان أحدهما ان هذه الواقعة تخرج ما في قلوبكم من الوساوس والشبهات وتظهرها والثاني انها تصير كفارة لذنوبكم فيمحصكم من تبعات المعاصي والسيآت (فان قيل) قد سبق ذكر الابتلاء في قوله تعالى ثم صرفكم عنهم ليبتليكم فلم أعاده (أجيب) بأنه أعيد لما طول الكلام بينهما وأما لان الابتلاء الاول هزيمة للمؤمنين والابتلاء الثاني بسائر الاحوال (والله عليم بذات الصدور) أي بما في القلوب قبل اظهارها وفيه وعد ووعيد وتنبيه على أنه تعالى غني عن الابتلاء وانما يبتلي ليظهر للناس حال المؤمنين من حال المنافقين (ان الذين تولوا منكم) عن القتال (يوم التقى الجمعان) أي جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد وكان قد انهزم أكثر المسلمين ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم الا ثلاثة عشر رجلا ستة من المهاجرين أبو بكر وعمر وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص (انما استزلهم الشيطان) أي طلب منهم الزلل بوسوسته (ببعض ما كسبوا) من الذنوب بترك المركز والحرص على الغنيمة ومخالفة النبي صلى الله عليه وسلم فأطاعوه فمنعوا التأييد وقوة القلب حتى تولوا (ولقد عفى الله عنهم) لتوبتهم واعتذارهم (ان الله غفور) للذنوب (حليم) لا يعاجل بعقوبته المذنب كي يتوب (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا) أي المنافقين وهم ابن أبي وأصحابه (وقالوا لاخوانهم) أي في شأنهم ومعنى اخوانهم اتفاقهم في النفاق والكفر وقيل في النسب (اذا ضربوا في الارض) أي سافروا فيها للتجارة أو غيرها فماتوا (أو كانوا غزا) أي غزاة جمع غاز فقتلوا (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) أي لا تقولوا كقولهم (ليجعل الله ذلك) القول في عاقبة أمرهم (حسرة في قلوبهم) أي لانهم اذا ألقوا تلك الشبهة على المؤمنين لم يلتفتوا اليهم فيضيع سعيهم ويبطل كيدهم فتحصل الحسرة في قلوبهم وقيل ان اجتهادهم في تكثير الشبهات والقاء الضلالات يعمي قلوبهم فيقعون عند ذلك في الحسرة والخيبة وضيق الصدر وهو المراد بقوله تعالى ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا (فان قيل) كيف قيل اذا ضربوا مع قالوا (أجيب) بان ذلك على حكاية الحال الماضية قال التفتازاني معناه انك تقدر نفسك كأنك موجود في ذلك الزمان الماضي أو تقدر ذلك الزمان كأنه موجود الآن وهذا كقولك قالوا ذلك حين يضربون والمعنى حين ضربوا الا انك جئت بلفظ المضارع استحضارا لصورة ضربهم في الارض وقوله تعالى (والله يحيي ويميت) رد لقولهم أي هو المؤثر في الحياة والممات لا الاقامة والسفر فانه تعالى قد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد (والله بما تعملون بصير) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء على الغيبة ردا على الذين كفروا والباقون بتاء الخطاب ردا على قوله ولا تكونوا وهو خطاب للمؤمنين وفيه تهديد لهم على أن يماثلوهم (ولئن قتلتم) اللام هي الموطئة لقسم محذوف (في سبيل الله) أي الجهاد (أو متم) أي أتاكم الموت في سبيل الله وجواب القسم قوله تعالى (لمغفرة) كائنة (من الله) وحذف جواب الشرط

لسد جواب القسم مسده لكونه دالا عليه (ورحمة) أى من الله فحذف صفتها لدلالة الاولى
عليها ولا بد من حذف آخر مصحح للمعنى تقديره لمغفرة من الله لكم ورحمة منه لكم (فان قيل)
المغفرة هى الرحمة فلم كررها ونكرها (أجيب) بأنه انما نكرها ايذانا بأن أدنى خير وأقل شئ
خير من الدنيا وما فيها وهو المراد بقوله (خير مما يجمعون) من الدنيا وأما التكرير فغير مسلم لان
المغفرة مترتبة على الرحمة فيرحم ثم يغفر (فان قيل) كيف تكون المغفرة موصوفة بأنها خير
مما يجمعون ولا خير فيما يجمعون أصلا (أجيب) بأن الذى يجمعونه فى الدنيا قد يكون من الحلال
الذى يعد خيرا وأيضا هذا وارد على حسب قولهم ومعتقدهم ان تلك الاموال خيرات فقيل
المغفرة خير من هذه الاشياء التى تظنونها خيرات (ولئن متم أو قتلتم) على أى وجه اتفق هلاككم
(لالى الله) لا غيره (تحشرون) فى الآخرة فيجازيكم وقرأ نافع وحمزة متم بكسر الميم والباقون
بالضم وقرأ حفص يحشرون بياء الغيبة والباقون بتاء الخطاب ورسمت لا الى الله بألف بعد اللام
(فان قيل) هنا ثلاثة مواضع فقدم الموت على القتل فى الاول والاخير وقدم القتل على الموت
فى المتوسط فما الحكمة فى ذلك (أجيب) بأن الاول لمناسبة ما قبله من قوله اذا ضربوا فى الارض
أو كانوا غزا فرجع الموت لمن ضرب فى الارض والقتل لمن غزا وأما الثانى فلانه محل تحريض
على الجهاد فقدم الاهم الاشرف وأما الاخير فلان الموت أغلب (فبما رحمة) أى فبرحمة (من الله
لنت لهم) فما مزيدة للتأكيد والجار والمجرور متقدم للدلالة على أن لينه صلى الله عليه وسلم
ما كان الا برحمة من الله ومعنى الرحمة توفيقه للرفق بهم حتى اغتم لهم بعد ان خالفوه
(ولو كنت فظا) أى سيئ الخلق (غليظ القلب) أى جافيا (لانفضوا) أى تفرقوا (من حولك)
أى عنك وذلك لان المقصود من البعثة أن يبلغ الرسول تكاليف الله تعالى الى الخلق وذلك
لا يتم الا بميل قلوبهم اليه وسكون نفوسهم لديه وهذا المقصود لا يتم الا اذا كان رحيما بهم
كريما يتجاوز عن ذنوبهم ويعفو عن سيآتهم ويخصهم بالبر والشفقة فلهذه الاسباب وجب
أن يكون الرسول مبرأ عن سوء الخلق وغلظ القلب ويكون كثير الميل الى اعانة الضعفاء كثير
القيام باعانة الفقراء وحمل القفال هذه الآية على واقعة أحد قال فبما رحمة من الله لنت لهم
يوم أحد حين عادوا اليك بعد الانهزام ولو كنت فظا غليظ القلب فشافهتهم بالملامة على ذلك
الانهزام لانفضوا من حولك هيبة منك وحياء بسبب ما كان منهم من الانهزام فكان ذلك مما
يطمع العدو فيك وفيهم (فاعف) أى تجاوز (عنهم) أى ما أتوه (واستغفر لهم) ذنبهم حتى
أشفعك فيهم فاغفر لهم واختلفوا فى معنى قوله تعالى (وشاورهم فى الامر) على وجوه أحدها
ان ذلك يقتضى شدة محبته لهم فلو لم يفعل ذلك لكان ذلك اهانة لهم فيحصل سوء الخلق
والفظاظة وثانيها انه عليه الصلاة والسلام وان كان أكمل الناس عقلا الا أن عقول الخلق
غير متناهية فقد يخطر ببال انسان من وجوه المصالح ما لا يخطر ببال آخر لاسيما فيما يتعلق
بأمور الدنيا قال عليه الصلاة والسلام أنتم أعرف بأمور دنياكم وأنا أعرف بأمور دينكم ولهذا
السبب قال صلى الله عليه وسلم ما شاور قوم قط الا هدوا لارشد أمورهم وثالثها قال الحسن

وسفيان بن عيينة انما أمر بذلك ليقتدى به غيره فى المشاورة وتصير سنة ورابعها انه عليه الصلاة والسلام شاورهم فى وقعة أحد فأشاروا عليه بالخروج وكان ميله أن لا يخرج فلما خرج وقع ماوقع فلو ترك مشاورتهم بعد ذلك لكان ذلك يدل على أنه بقى فى قلبه منهم بسبب مشاورتهم شئ فأمر الله تعالى بمشاورتهم بعد تلك الواقعة ليدل على انه لم يبق فى قلبه أثر من تلك الواقعة وخامسها أمره بالمشاورة لا ليستفيد منهم رأيا ولكن ليعلم مقادير عقولهم ومحبتهم له وذكروا أيضا وجوها أخر وفى هذا القدر كفاية واتفقوا على ان كل مانزل فيه وحى من عند الله لم يجز للرسول أن يشاور الامة فيه لان النص اذا جاء بطل الرأى (فاذا عزمت) أى قطعت الامر على امضاء ماتريد بعد المشاورة (فتوكل على الله) أى ثق به لا بالمشاورة فليس التوكل اهمال التدبير بالكلية بل بمراعاة الاسباب مع تفويض الامر الى الله تعالى (ان الله يحب المتوكلين) عليه فينصرهم ويهديهم الى الصلاح (ان ينصركم الله) أى يعنكم على عدوكم كيوم بدر (فلا غالب لكم) أى فلا يغلبكم أحد (وان يخذلكم) بترك نصركم كيوم أحد (فمن ذا الذى ينصركم من بعده) أى من بعد خذلانه أى لا أحد ينصركم وفى هذا تنبيه على المقتضى للتوكل وتحريض على مايستحق به النصر من الله وتحذير عما يستجلب خذلانه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى فليخصوه بالتوكل عليه لما علموا أن لا ناصر سواه لان ايمانهم يوجب ذلك ويقتضيه (وما كان لنبى أن يغل) أى ماصح لنبى أن يخون فى الغنائم فان النبوة تنافى الخيانة واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس نزلت فى قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها وقال مقاتل نزلت فى غنائم أحد حين ترك الرماة المركز وطلبوا الغنيمة وقالوا نخشى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ شيأ فهو له وان لا يقسم الغنائم كما لم تقسم يوم بدر فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم ألم أعهد اليكم ان لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمرى فقالوا تركنا بقية اخواننا وقوفا فقال لهم صلى الله عليه وسلم بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم وقال محمد بن اسحق بن يسار هذا فى الوحى يقول ما كان لنبى أن يكتم شيأ من الوحى رغبة أو رهبة أو مداهنة كان صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن وفيه سب دينهم وسب آلهتهم فسألوا أن يترك ذلك فنزلت وروى انه صلى الله عليه وسلم غنم فى بعض الغزوات وجمع الغنائم وتأخرت القسمة لبعض الموانع فجاء قوم وقالوا ألا تقسم غنائمنا فقال عليه الصلاة والسلام لو كان لكم مثل أحد ذهبا ماحبست عليكم منه درهما أتحسبون انى أغلكم مغنمكم فنزلت وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بفتح الياء وضم الغين على البناء للفاعل والباقون بضم الياء وفتح الغين على البناء للمفعول والمعنى على هذا وماصح لنبى أن يوجد غالا أو ينسب الى الغلول (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) قال أكثر المفسرين ان هذه الآية على ظاهرها قالوا وهى نظير قوله تعالى فى مانعى الزكاة يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ويدل له قوله صلى الله عليه وسلم لا ألفين أحدكم يجئ على رقبته يوم القيامة بعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة لها ثغاء فينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك

من

من الله شيأ قد بلغتك قال المحققون وفائدته أنه اذا جاء يوم القيامة وعلى رقبته ذلك الغلول ازدادت فضيحته وعن ابن عباس انه قال يمثل له ذلك الشئ في قعر جهنم ثم يقال له انزل اليه فخذه فينزل اليه فاذا انتهى اليه حمله على ظهره فاذا بلغ موضعه وقع في النار ثم يكلف ان ينزل اليه فيخرجه ففعل ذلك به وعن أبي هريرة قتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عبد فقال الناس هنيأ له الجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا والذي نفسي بيده ان الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم تشتعل عليه نارا فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك أو شراكين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم شراك من النار أو شراكان من نار وقال أبو مسلم ليس المقصود من الآية ظاهرها بل المقصود تشديد الوعيد على سبيل التمثيل كقوله تعالى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة او في السموات أو في الارض يأت بها الله فانه ليس المقصود نفس هذا الظاهر بل المقصود اثبات ان الله تعالى لا يعزب عن علمه وعن حفظه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء فكذا ههنا المقصود تشديد الوعيد والمعنى ان الله تعالى يحفظ عليه هذا المغلول ويقرره عليه يوم القيامة ويجازيه لانه تعالى لا يخفى عليه خافية وعن أبي حميد الساعدي قال استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من أسد على الصدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدى لي فقام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال ما بال العامل نبعثه على بعض أعمالنا فيقول هذا لكم وهذا اهدى لي فهلا جلس في بيت أمه أو في بيت أبيه فينظر أيهدى اليه أم لا فوالذي نفسي بيده لا يأخذ منها أحد شيأ الا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ان كان بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تثغو ثم رفع يديه حتى رؤيت عفرة ابطه ثم قال اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت (ثم توفى كل نفس) أي تعطى جزاء (ما كسبت) أي عملت وافيا الغال وغيره (فان قيل) هلا قيل ثم يوفى أي الغال ما كسب (أجيب) بأنه عم الحكم ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه فانه اذا كان كل كاسب مجزيا بعمله فالغال مع عظم جرمه بذلك أولى (وهم لا يظلمون) شيأ فلا ينقص ثواب مطيعهم ولا يزاد في عقاب عاصيهم وقوله تعالى (أفمن اتبع رضوان الله) الهمزة فيه للانكار والفاء للعطف على محذوف والتقدير أفمن اتقى فاتبع رضوان الله (كمن باء) أي رجع (بسخط من الله) بسبب المعاصي (ومأواه جهنم وبئس المصير) أي المرجع هي اى ليس مثله واختلف في المراد من هذه الآية فقال الكلبي والضحاك أفمن اتبع رضوان الله في ترك الغلول كمن باء بسخط من الله في فعل الغلول وقال الزجاج لما حمل المشركون على المسلمين دعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه الى أن يحملوا على المشركين ففعله بعضهم وتركه آخرون فقوله أفمن اتبع رضوان الله هم الذين امتثلوا أمره كمن باء بسخط من الله هم الذين لم يقبلوا قوله وقيل أفمن اتبع رضوان الله وهم المهاجرون كمن باء بسخط من الله وهم المنافقون وقيل أفمن اتبع رضوان الله بالايمان به والعمل بطاعته كمن باء بسخط من الله بالكفر به والاشتغال بمعصيته قال القاضي وكل واحد من هذه الوجوه صحيح ولكن لا يجوز قصر اللفظ عليه لان اللفظ عام فيجب أن يتناول الكل وان كانت الآية نزلت في واقعة معينة لكن عموم اللفظ لا يبطل

بخصوص السبب * (تنبيه) * الفرق بين المصير والمرجع أن المصير يجب أن يخالف الحالة الاولى ولا كذلك المرجع فانه قد يوافق المبدأ وقرأ شعبة رضوان بضم الراء والباقون بالكسر وقوله تعالى (هم درجات) مبتدأ وخبر أى الفريقان درجات ولابد من تأويل فى الاخبار بالدرجات عن هم لانها ليست اياهم فيجوز أن يكون جعلوا نفس الدرجات مبالغة والمعنى انهم متفاوتون فى الجزاء على كسبهم كما ان الدرجات متفاوتة فهو تشبيه بليغ بحذف الاداة أى هم مثل الدرجات فى التفاوت ويجوز أن يكون على حذف مضاف أى ذوو درجات أى أصحاب منازل ورتب فى الثواب والعقاب (عند الله) فلمن اتبع رضوانه الثواب ولمن باء بسخطه العقاب (والله بصير بما يعملون) أى عالم بأعمالهم ودرجاتها فيجازيهم على حسبها (لقد من الله على المؤمنين) أى انعم على من آمن مع النبى صلى الله عليه وسلم ووجه هذه المنة أن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى ما يخلصهم من عقاب الله تعالى ويوصلهم الى ثوابه كقوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (فان قيل) لم خصهم بالنعمة مع أن البعثة عامة (أجيب) بأنهم هم المنتفعون بها كقوله تعالى هدى للمتقين (اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) أى من جنسهم عربيا مثلهم ليفهموا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على أحواله فى الصدق والامانة فكان ذلك أقرب لهم الى تصديقه والوثوق به ويشرفوا به لا ملكا ولا عجميا وقرئ شاذا من أنفسهم بفتح الفاء أى من اشرفهم لانه صلى الله عليه وسلم كان من أشرف قبائل العرب وبطونهم وقد خطب أبو طالب لما تزوج صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله تعالى عنها وقد حضر معه بنو هاشم ورؤساء مضر فقال الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسمعيل وضئضئ معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا الحكام على الناس ثم ان ابن أخى هذا محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش الا رجح به وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل ولم أذكر فى التفسير قراءة شاذة الا هذه لكونها فى شرف الرسول صلى الله عليه وسلم وقراءة السيدة فاطمة رضى الله تعالى عنها (يتلو عليهم آياته) أى القرآن بعدما كانوا جهالا لم يسمعوا الوحى (ويزكيهم) أى ويطهرهم من دنس الطباع وسوء العقائد والاعمال (ويعلمهم الكتاب) أى القرآن (والحكمة) أى السنة من بعدما كانوا من أجهل الناس وأبعدهم من دراسة العلوم كما قال تعالى (وان كانوا من قبل) أى قبل بعثته صلى الله عليه وسلم (لفى ضلال مبين) أى بين ظاهر (أولما) أى حين (أصابتكم مصيبة) بأحد بقتل سبعين منكم (قد أصبتم مثليها) ببدر بقتل سبعين وأسر سبعين (قلتم) متعجبين (أنى) أى من أين لنا (هذا) القتل والهزيمة ونحن مسلمون ورسول الله صلى الله عليه وسلم فينا والجملة الاخيرة محل الاستفهام الانكارى (قل) لهم (هو من عند أنفسكم) أى هو مما اقترفته أنفسكم من مخالفة الامر بترك المركز فان الوعد كان مشروطا بالثبات فى المركز والمطاوعة فى الامر وعن على رضى الله تعالى عنه لاخذكم الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤذن لكم روى عبيدة السلمانى عن على رضى الله عنه قال جاء جبريل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان الله قد كره ما صنع قومك من أخذهم

الفداء من الاسارى وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يقدموا أى الاسارى فتضرب أعناقهم وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عددهم فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس فقالوا يارسول الله عشائرنا واخواننا الابل نأخذ منهم فداهم فنتقوى به على قتال أعدائنا ويستشهد منا عدتهم فقتل منهم يوم أحد سبعون عدد أسارى بدر وهذا معنى قوله قل هو من عند أنفسكم أى بأخذكم الفداء واختياركم للقتل (ان الله على كل شئ قدير) فيقدر على النصر وعلى منعه وعلى أن يصيب بكم تارة ويصيب منكم أخرى (وما أصابكم يوم التقى الجمعان) أى جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد من القتل والجرح والهزيمة (فباذن الله) أى فهو كائن بقضائه وارادته ودخلت الفاء فى الخبر لشبه المبتدا بالشرط نحو الذى يأتينى فله درهم (وليعلم المؤمنين) وقد تقدم ان معنى وليعلم الله كذا أى يميز ويظهر للناس ما كان فى علمه (وليعلم الذين نافقوا) قال الواحدى يقال نافق الرجل فهو منافق اذا أظهر كلمة الايمان وأضمر خلافها قال أبو عبيدة مشتق من نافقاء اليربوع لان جحر اليربوع له بابان القاصعاء والنافقاء فان طلب من أحدهما كان يخرج من الآخر فقيل للمنافق انه منافق وهو اسم اسلامى لانه صنع لنفسه طريقين اظهار الاسلام واضمار الكفر فمن أيهما طلب خرج من الآخر وقوله تعالى (وقيل لهم) عطف على نافقوا أى وليعلم الذين قيل لهم لما انصرفوا عن القتال وقالوا لم نلق أنفسنا فى القتل فرجعوا وهم عبد الله بن أبى وأصحابه وكانوا ثلثمائة من جملة الالف الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (تعالوا قاتلوا فى سبيل الله) الكفار (أو ادفعوا) عنا أى ان كان فى قلبكم حب الايمان فقاتلوا للدين وان لم تكونوا كذلك فقاتلوا دفعا عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم وقال السدى وابن جريج ادفعوا عنا العدو بتكثير سوادنا ان لم تقاتلوا معنا لان الكثرة أحد أسباب الهيبة روى عن سهل بن سعد الساعدى وقد كف بصره لو أمكننى لبعت دارى ولحقت بثغر من ثغور المسلمين فكنت بينهم وبين عدوهم قيل وكيف وقد ذهب بصرك قال لقوله تعالى أو ادفعوا أراد أكثروا سوادهم واختلفوا فى القائل فقال الاصم انه الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم الى القتال وقيل أبو جابر الانصارى قال لهم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عند حضور العدو (قالوا لو نعلم) أى نحسن (قتالا لاتبعناكم) فيه قال تعالى تكذيبا لهم (هم للكفر يومئذ) أى يوم اذ قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم (أقرب منهم للايمان) أى لانخذالهم وارتدادهم وكلامهم فان ذلك أول امارات ظهرت منهم مؤذنة بكفرهم وقيل المعنى على حذف مضاف أى هم لاهل الكفر أقرب منهم لاهل الايمان بما أظهروه من خذلانهم للمؤمنين وكانوا قبل أقرب الى الايمان من حيث الظاهر * (تنبيه) * فضلوا هنا على أنفسهم باعتبار حالين وقتين ولولا ذلك لم يجز تقول زيد قاعدا أفضل منه قائما أو زيد قاعدا اليوم أفضل منه قاعدا غدا ولو قلت زيد اليوم قاعدا أفضل منه اليوم قاعدا لم يجز (يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم) أى يظهرون خلاف ما يضمرون لا تواطئ قلوبهم ألسنتهم بالايمان فهم وان كانوا يظهرون الايمان باللسان لكنهم يضمرون فى قلوبهم الكفر * (تنبيه) *

اضافة القول الى الافواه تصوير لنفاقهم فان ايمانهم موجود فى أفواههم فقط وبهذا انتفى كونه للتأكيد كما قيل به لتحصيل هذه الفائدة وقال ابن عادل والظاهر أن القول يطلق على اللسانى وعلى النفسانى فتقييده بأفواههم تقييد لاحد محتمليه اللهم الا أن يقال اطلاقه على النفسانى مجاز (والله أعلم بما يكتمون) أى عالم بما فى ضمائرهم وبما يخلو به بعضهم الى بعض فانه يعلم ذلك مفصلا بعلم واجب وأنتم تعلمونه مجملا بامارات وجوزوا فى موضع (الذين قالوا) ألقاب الاعراب الثلاثة الرفع والنصب والجر فالرفع من ثلاثة أوجه أحدها أن يكون مرفوعا على خبر مبتدا محذوف تقديره هم الذين الثانى انه بدل من واو يكتمون الثالث انه مبتدأ والخبر قوله قل فادرؤا ولابد من حذف عائد تقديره قل لهم فادرؤا والنصب من ثلاثة أوجه أيضا أحدها النصب على الذم أى أذم الذين قالوا الثانى انه بدل من الذين نافقوا الثالث انه صفة لهم والجر من وجهين أحدهما انه بدل من الضمير فى بأفواههم والثانى انه بدل من الضمير فى قلوبهم كقول الفرزدق

على حالة لوأن فى القوم حاتما * على جوده اضن بالماء حاتم

بجر حاتم على انه بدل من الهاء فى جوده وضن مبنى للمفعول وهو بالماء أى ولوان حاتما مستقرا فى القوم كائنا على جوده وهم بتلك الحالة لبخل بالماء (لاخوانهم) أى لاجل اخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد أو اخوانهم فى النسب أو فى سكنى الدار أو فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (وقعدوا) حال مقدرة بقد أى قالوا قاعدين عن القتال (لو أطاعونا) فى القعود (ما قتلوا) كما لم نقتل واختلف فى قائل ذلك فقال أكثر المفسرين هو ابن أبى وأصحابه وقول الاصم هذا لايجوز لان ابن أبى خرج مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الجهاد يوم أحد وهذا القول واقع ممن تخلف فيه نظر لاحتمال أن المراد بالقعود القعود عن القتال لاعن الخروج الى القتال (قل) لهم (فادرؤا) أى ادفعوا (عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين) فى أن القعود ينجى منه لانكم ان دفعتم القتل الذى هو أحد أسباب الموت لم تقدروا على دفع سائر أسبابه المبثوثة ولابد لكم أن يتعلق بكم بعضها وروى انه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقا (فان قيل) ما وجه هذا الاستدلال فان التحرز عن القتل ممكن وأما التحرز عن الموت فغير ممكن (أجيب) بأن الكل بقضاء الله وقدره فلا فرق بين الموت والقتل وفى قوله تعالى فادرؤا عن أنفسكم الموت استهزاء بهم أى ان كنتم رجالا دفاعين لاسباب الموت فادرؤا جميع أسبابه حتى لاتموتوا ونزل فى شهداء أحد كما رواه الحاكم وكانوا سبعين رجلا أربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شماس وعبد الله بن جحش وسائرهم من الانصار (ولا تحسبن) أى ولا تظنن (الذين قتلوا فى سبيل الله) أى لاجل دينه والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد (أمواتا بل) هم (أحياء عند ربهم) أى ذوو زلفى منه فليس المراد القرب المكانى لاستحالته ولا بمعنى فى علمه وحكمه لعدم مناسبة المقام له بل بمعنى القرب شرفا ورتبة قال البيضاوى وقيل نزلت فى شهداء بدر أى وكانوا أربعة عشر رجلا ثمانية من الانصار وستة من المهاجرين قال شيخنا القاضى زكريا وهو غلط انما نزل فيهم آية البقرة

(يرزقون)

(يرزقون) من ثمار الجنة روى ابن عباس انه عليه الصلاة والسلام قال أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي الى قناديل معلقة في ظل العرش وروى ان الله تعالى يطلع عليهم ويقول سلوني ماشئتم فيقولون يارب كيف نسئلك ونحن نسرح في الجنة في أيها شئنا فلما رأوا أن لايتركوا من أن يسألوا شيأ قالوا نسئلك أن ترد أرواحنا الى أجسادنا في الدنيا نقتل في سبيلك لما رأوا من النعيم كما قال تعالى (فرحين بما آتاهم الله من فضله) وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الابدية والقرب من الله والتمتع بنعيم الجنة (ويستبشرون) أي ويفرحون (بالذين لم يلحقوا بهم) من اخوانهم الذين تركوهم أحياء في الدنيا على مناهج الايمان والجهاد لعلمهم أنهم اذا استشهدوا لحقوا بهم ونالوا من الكرامة مانالوا فلذلك يستبشرون (من خلفهم) اى الذين من خلفهم زمانا أو رتبة وأبدل من الذين (أن) أي بأن (لاخوف عليهم) أي الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم (ولاهم يحزنون) في الآخرة والمعنى انهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة وحال من تركوا خلفهم من المؤمنين وهو أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة لايكدرون بخوف وقوع محذور ولا بحزن فوات محبوب وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم عن خلفهم بعث للباقين بعدهم على ازياد الطاعة والجد في الجهاد والرغبة في نيل منازل الشهداء واصابة فضلهم واحماد لحال من يرى نفسه في خير فيتمنى مثله لاخوانه لان الله تعالى مدحهم على ذلك (يستبشرون بنعمة من الله وفضل) لما بين تعالى انهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم بين هنا انهم يستبشرون لانفسهم بما رزقوا من النعيم ولذلك أعاد لفظ الاستبشار (فان قيل) أليس انه ذكر فرحهم بأحوال أنفسهم والفرح عين الاستبشار فلزم التكرار (أجيب) بأن الاستبشار هو الفرح التام فلا يلزم التكرار وبأن المراد حصول الفرح بما حصل في الحال وحصول الاستبشار بما عرفوا أن النعمة العظيمة تحصل لهم في الآخرة والفرق بين النعمة والفضل أن النعمة هي الثواب والفضل هو التفضل الزائد (فان قيل) لم قال يستبشرون من غير عطف (أجيب) بأنه تأكيد للاول لانه قصد بالنعمة والفضل بيان متعلق الاستبشار الاول (وأن الله لايضيع أجر المؤمنين) لما ذكر ايصال الثواب العظيم الى الشهداء بين أن ذلك ليس مخصوصا بهم بل كل مؤمن يستحق شيأ من الاجر والثواب فان الله تعالى يوصل ثوابه اليه ولايضيعه وقوله تعالى (الذين استجابوا لله والرسول) أي دعاءه مبتدأ (من بعد ما أصابهم القرح) بأحد وخبر المبتدا (للذين أحسنوا منهم) بطاعته (واتقوا) مخالفته (أجر عظيم) هو الجنة روى أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان وقال لايخرجن معنا أحد الامن حضر يومنا بالامس فخرج صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حمراء الاسد وهي من المدينة على ثمانية أميال وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لايفوتهم الاجر روى أنه كان فيهم من يحمل صاحبه على عنقه ساعة ثم ان المحمول يحمل الحامل ساعة أخرى وذلك لكثرة الجراحات فيهم وكان فيهم

من يتوكأ على صاحبه ساعة ويتوكأ عليه صاحبه ساعة فمرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم معبد الخزاعى بحمراء الاسد وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعبد يومئذ مشرك فقال يا محمد والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ولوددنا ان الله قد أعفاك فيهم ثم خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقى أبا سفيان ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا الرجعة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى أبو سفيان معبدا قال ما وراءك يا معبد قال محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط قال ويلك ما تقول قال والله ما أراك ترحل حتى ترى نواصى الخيل فألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فذهبوا فنزلت * (تنبيه) * من فى الذين أحسنوا منهم للتبيين مثلها فى قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة لان الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا لابعضهم وقوله تعالى (الذين) بدل من الذين قبله أو نعت (قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم) أى الجموع ليستأصلوكم (فاخشوهم) روى أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد يا محمد موعد نا موسم بدر القابل ان شئت فقال صلى الله عليه وسلم ان شاء الله فلما كان القابل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل مرّ الظهران فألقى الله الرعب فى قلبه فبدا له أن يرجع فلقى نعيم بن مسعود الاشجعى وقد قدم معتمرا فقال يا نعيم انى واعدت محمدا أن نلتقى بموسم بدر وان هذا عام جدب ولا يصلحنا الاعام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن وقد بدا لى أن لا أخرج اليه وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جراءة ولأن يكون الخلف من قبلهم أحب الىّ من أن يكون من قبلى فالحق بالمدينة فثبطهم وأعلمهم أنى فى جمع كثير ولا طاقة لهم بنا ولك عندى عشرة من الابل أضعها فى يد سهل بن عمرو ويضمنها فقال له نعيم يا أبا يزيد أتضمن لى ذلك وأنطلق الى محمد وأثبطه قال نعم فخرج نعيم حتى أتى المدينة فوجد الناس يتجهزون لميعاد أبى سفيان فقال أين تريدون فقالوا واعدنا أبو سفيان بموسم بدر الصغرى أن نقتتل بها فقال بئس الرأى رأيتم أتوكم فى دياركم وقراركم فلم يفلت منكم أحد الا شريدا فتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم والله لا يفلت منكم أحد فكره بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لاخرجن ولو وحدى ولو لم يخرج معى أحد فخرج فى سبعين راكبا وهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل ولم يلتفتوا الى ذلك القول كما قال تعالى (فزادهم) ذلك القول (ايمانا) أى تصديقا بالله ويقينا (وقالوا حسبنا الله) أى كافينا أمرهم (ونعم الوكيل) أى المفوّض اليه الامر هو حتى وافوا بدرا الصغرى فجعلوا يلقون المشركين ويسألونهم عن قريش فيقولون قد جمعوا لكم يريدون أن يرهبوا المسلمين فيقول المسلمون حسبنا الله ونعم الوكيل وهذه هى الكلمة التى قالها ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه حين ألقى فى النار حتى بلغوا بدرا وكانت موضع سوق لهم فى الجاهلية يجتمعون اليها فى كل عام ثمانية أيام فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ينتظر أبا سفيان ثمان ليال ولم يلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أحدا من المشركين ووافوا السوق وكان معهم تجارات فباعوها واشتروا

أدما وزبيبا وأصابوا الدرهم درهمين وانصرفوا الى المدينة سالمين غانمين كما قال تعالى (فانقلبوا) أى انصرفوا (بنعمة من الله) أى بعافية لم يلقوا عدوا (وفضل) أى تجارة وربح وهو ما أصابوا فى السوق (لم يمسسهم سوء) أى لم يصبهم أذى ولا مكروه ورجع أبو سفيان الى مكة فسمى أهل مكة جيشه جيش السويق قالوا انما خرجتم لتشربوا السويق *(تنبيه)* الناس الاول المثبطون والا آخرون أبو سفيان وأصحابه (فان قيل) المثبط هو أبو نعيم فكيف قيل الناس (أجيب) بأنه من جنس الناس كما يقال فلان يركب الخيل ويلبس البرود وماله الا فرس واحد وبرد واحد ولانه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يثبطون مثل تثبيطه بل قيل انهم كانوا جماعة فقد مر بأبى سفيان ركب من عبد القيس يريدون المدينة للميرة فجعل لهم حمل بعير من زبيب ان ثبطوهم (فان قيل) كيف زادهم القول ايمانا (أجيب) بأنهم لما سمعوا ذلك وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد وأظهروا حمية الاسلام كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوى لاعتقادهم كما زداد الايمان والايقان بتناصر الحجج ولان خروجهم على أثر التثبيط الى وجه العدو طاعة عظيمة والطاعات تزيد الايمان فعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قلنا يارسول الله ان الايمان يزيد وينقص قال نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار وعن عمر رضى الله تعالى عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول قم بنا نزدد ايمانا وعنه رضى الله تعالى عنه لو وزن ايمان أبى بكر رضى الله تعالى عنه بايمان هذه الامة لرجح به (واتبعوا رضوان الله) الذى هو مناط الفوز بخير الدارين بجراءتهم وخروجهم (والله ذو فضل عظيم) قد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الايمان والتوفيق للمبادرة الى الجهاد والتصلب فى الدين واظهار الجراءة على العدو بالحفظ على كل من يسوءهم واصابة النفع من ضمان الاجر حتى انقلبوا بنعمة من الله وفضل وفيه تحسر المتخلف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فاز وا به (انما ذلكم) أى المثبط أو أبو سفيان (الشيطان يخوف أولياءه) أى القاعدين عن الخروج مع النبى صلى الله عليه وسلم أو يخوفكم أولياءه وهم أبو سفيان وأصحابه ويدل على ذلك قوله تعالى (فلا تخافوهم وخافون) فى مخالفة أمرى فجاهدوا مع رسولى (ان كنتم مؤمنين) حقا فان الايمان يقتضى ايثار خوف الله على خوف الناس وقرأ أبو عمرو باثبات الياء وصلا وحذفها وقفا والباقون بالحذف وقفا ووصلا

(ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) أى يقعون فيه وقوعا سريعا حرصا عليه وهم المنافقون من المتخلفين أو قوم ارتدوا عن الاسلام أى لا تهتم لكفرهم (انهم لن يضروا الله شيأ) بفعلهم وانما يضرون به أنفسهم وقرأ نافع يحزنك بضم الياء وكسر الزاى حيث وقع ما خلا قوله تعالى فى الانبياء لا يحزنهم الفزع الاكبر فانه على فتح الياء وضم الزاى فيه والباقون كذلك فى الكل من حزنه لغة فى أحزنه (يريد الله أن لا يجعل لهم حظا) أى نصيبا (فى الآخرة) أى الجنة فلذلك خذلهم وهو يدل على تمادى طغيانهم وموتهم على الكفر (ولهم) مع حرمان الثواب (عذاب عظيم) فى النار (ان الذين اشتروا الكفر بالايمان) أى أخذوه بدله (لن يضروا الله) بكفرهم (شيأ ولهم عذاب أليم) أى مؤلم وكرر ذلك للتأكيد أو هو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق

من المتخلفين أو ارتدوا من الاحزاب * ونزل في مشركي مكة كما قاله مقاتل أو في قريظة أو النضير كما قاله عطاء (ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي) أي نمهل (لهم) بتطويل الاعمار (خير لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما) بكثرة المعاصي (ولهم عذاب مهين) أي ذو اهانة روى أنه صلى الله عليه وسلم سئل أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قيل فأي الناس شر قال من طال عمره وساء عمله وقرأ حمزة ولا تحسبن الذين كفروا ولا تحسبن الذين يبخلون بالتاء فيهما على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة وفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة (ما كان الله ليذر) أي ليترك (المؤمنين على ما أنتم عليه) أيها الناس من اختلاط المسلم بغيره (حتى يميز) أي يفصل (الخبيث) أي المنافق (من الطيب) واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال الكلبي قالت قريش يا محمد تزعم أن من خالفك فهو في النار والله عليه غضبان وأن من اتبعك على دينك فهو في الجنة والله عنه راض فأخبرنا عن يؤمن بك ومن لا يؤمن فنزلت وقال السدي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضت على أمتي في صورتها في الطين كما عرضت على آدم وأعلمت من يؤمن ومن يكفر فبلغ ذلك المنافقين فقالوا استهزاء زعم محمد أنه يعلم من يؤمن به ومن يكفر ممن لم يخلق بعد ونحن معه وما يعرفنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام على المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما بال أقوام طعنوا في علمي لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة الا أنبأتكم به فقام عبد الله بن حذافة السهمي فقال من أبي يا رسول الله قال حذافة فقام عمر رضي الله تعالى عنه فقال يا رسول الله رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبالقرآن اماما وبك نبيا فاعف عنا عفا الله تعالى عنك فقال النبي صلى الله عليه وسلم فهل أنتم منتهون ثم نزل عن المنبر فنزلت (فان قيل) لمن الخطاب في أنتم (أجيب) بأنه للمصدقين جميعا من أهل النفاق والاخلاص كأنه قيل ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض وأنه لا يعرف مخلصكم من منافقكم لاتفاقكم على التصديق جميعا حتى يميزهم منكم بالوحي الى نبيه واخباره بأحوالكم أو بالتكاليف الشاقة التي لا يصبر عليها ولا يذعن لها الا الخلص المخلصون منكم كبذل الاموال والانفس في سبيل الله فيختبر بها بواطنكم ويستدل بها على عقائدكم ففعل ذلك يوم أحد حيث أظهروا النفاق وتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ حمزة والكسائي يميز بضم الياء وفتح الميم وتشديد الياء بعد الميم مع كسرها والباقون بفتح الياء وكسر الميم وسكون الياء بعد الميم (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) فتعرفوا المنافق من غيره قبل التمييز (ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء) فيوحي اليه ويخبره ببعض المغيبات أو ينصب له ما يدل عليها (فآمنوا بالله ورسله) أي بصفة الاخلاص أو بأن تعلموا أن الله وحده مطلع على الغيب وتعلموا أنهم عباد مجتبون لا يعلمون الا ما علمهم الله تعالى ولا يقولون الا ما يوحى اليهم روى أن الكفرة قالوا ان كان محمد صادقا فليخبرنا عن يؤمن ومن يكفر فنزلت الآية (وان تؤمنوا) حق الايمان (وتتقوا) النفاق (فلكم أجر عظيم) أي لا يقادر قدره (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو) أي بخلهم (خيرا لهم بل هو) أي بخلهم (شر لهم) لاستجلاب

العقاب

العقاب اليهم واختلفوا فى المراد بهذا البخل فقال اكثر العلماء المراد به منع الواجب واستدلوا بوجوه أحدها أن الآية دالة على الوعيد الشديد وذلك لا يليق الا بالواجب وثانيها ان الله تعالى ذم البخل والتطوع لا يذم على تركه وثالثها قال عليه الصلاة والسلام وأى داء أدوأ من البخل وتارك التطوع لا يليق به هذا الوصف وانفاق الواجب على أقسام منها انفاقه على نفسه وعلى أقاربه الذين تلزمه مؤنتهم ومنها الزكوات ومنها ما اذا احتاج المسلمون الى دفع عدو يقصد أنفسهم وأموالهم فيجب عليهم انفاق الاموال على من يدفعهم عنهم ومنها دفع ما يسد رمق المضطر (سيطوقون) أى سوف يطوقون (ما بخلوا به يوم القيامة) اختلفوا فى هذا الوعيد فقال ابن عباس وابن مسعود يجعل ما منعه من الزكاة حية يطوقها فى عنقه يوم القيامة تنهشه من فرقه الى قدمه وتنقر رأسه تقول أنا مالك وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعنى شدقيه ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ولا يحسبن الذين يبخلون الآية وعن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده أو والذى لا اله غيره أو كما حلف ما من رجل تكون له ابل أو بقر أو غنم لا يؤدى حقها الا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمنه تطؤه بأخفافها وتنطحه بقرونها كلما جازت عليه أخراها ردت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس وقال مجاهد معنى سيطوقون سيكلفون ان يأتوا بما بخلوا به يوم القيامة أى يؤمرون بأداء ما منعوا فلا يمكنهم الاتيان به فيكون ذلك توبيخا وقيل ان هذه الآية نزلت فى أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته وأراد بالبخل كتمان العلم كما فى سورة النساء الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ومعنى قوله على هذا سيطوقون أى يحملون وزره وإثمه كقوله تعالى يحملون أوزارهم على ظهورهم وقوله تعالى (ولله ميراث السموات والارض) فى معناه وجهان أحدهما أن له ما فيهما مما يتوارثه أهلهما من مال وغيره فهو الباقى الدائم بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه فى سبيله ونحوه قوله تعالى وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه والثانى وبه قال الاكثرون ان معناه أنه يفنى أهل السموات والارض ويفنى الاملاك ولا مالك لها الا الله فجرى هذا مجرى الوراثة قال ابن الانبارى يقال ورث فلان علم فلان اذا انفرد به بعد أن كان مشاركا فيه وقال تعالى وورث سليمان داود لانه انفرد بذلك الامر بعد ان كان داود مشاركا له فيه (والله بما تعملون) من المنع والاعطاء (خبير) فيجازيكم به وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء) قال الحسن ومجاهد لما نزل قوله تعالى من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا قالت اليهود ان الله فقير يستقرض منا ونحن أغنياء وذكر الحسن أن قائل هذه المقالة حيى بن أخطب وقال عكرمة والسدى ومقاتل ومحمد بن اسحق كتب النبى صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر الصديق الى يهود بنى قينقاع يدعوهم الى الاسلام والى اقامة الصلاة وايتاء الزكاة

وان يقرضوا الله قرضا حسنا فدخل أبو بكر ذات يوم بيت مدراسهم فوجد ناسا كثيرا من اليهود قد اجتمعوا الى رجل منهم يقال له فنحاص بن عازوراء وكان من علمائهم ومعه حبر آخر يقال له أشيع فقال أبو بكر لفنحاص اتق الله وأسلم فوالله انك لتعلم أن محمدا رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة فآمن وصدق وأقرض الله قرضا حسنا يدخلك الجنة ويضاعف لك الثواب فقال فنحاص يا أبا بكر تزعم ان ربنا يستقرض من أموالنا وما يستقرض الا الفقير من الغنى فان كان ما تقول حقا فان الله اذن لفقير ونحن أغنياء وانه ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنيا ما أعطانا الربا يعنى فى قوله فيضاعفه له أضعافا كثيرة فغضب أبو بكر رضى الله تعالى عنه وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله فذهب فنحاص الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد انظر ما صنع بى صاحبك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر ما حملك على ما صنعت فقال يا رسول الله ان عدو الله قال قولا عظيما زعم ان الله فقير وهم أغنياء فغضبت لله فضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص فأنزل الله عز وجل ردا على فنحاص وتصديقا لابى بكر رضى الله تعالى عنه لقد سمع الله الآية وهذا لا يدل على أن غيره لم يقل ذلك لان الآية دالة على أن القائل جماعة لقوله تعالى الذين قالوا (سنكتب) أى نأمر بكتب (ما قالوا) من الافك والفرية فى صحائف أعمالهم ليجازوا عليه ونحوه وانا له كاتبون أو سنحفظه فى علمنا لانهمله لانه كلمة عظيمة اذ هو كفر بالله واستهزاء بالله والرسول ولذلك نظمه مع قتل الانبياء كما قال تعالى (وقتلهم) أى ونكتب قتلهم (الانبياء بغير حق) وفى نظمه به تنبيه على أنه ليس أول جريمة ارتكبوها وان من اجترأ على قتل الانبياء لم يستبعد منه أمثال هذا القول (ونقول) أى الله لهم فى الآخرة على لسان الملائكة (ذوقوا عذاب الحريق) أى النار وهى بمعنى المحرق كما يقال عذاب أليم أى مؤلم وقرأ حمزة سيكتب بالياء المثناة تحت بعد السين مضمومة وفتح التاء بعد الكاف وضم اللام من قتلهم وبالياء فى ويقول والباقون بالنون بعد السين مفتوحة وضم التاء بعد الكاف ونصب اللام من قتلهم وبالنون فى ونقول ويقال لهم اذا ألقوا فى النار (ذلك) أى العذاب (بما قدمت أيديكم) من الافتراء وقتل الانبياء وغير ذلك من المعاصى وعبر بالايدى عن الانفس لان أكثر أعمالها بهن (وان الله ليس بظلام) أى بذى ظلم (للعبيد) فيعذبهم بغير ذنب (فان قيل) ظلام للمبالغة المقتضية للتكثير فهو أخص من ظالم ولا يلزم من نفى الاخص نفى الاعم (أجيب) بأنه لما قوبل بالعبيد وهم كثيرون ناسب أن يقابل الكثير بالكثير وبأنه اذا نفى الظلم الكثير ينفى القليل لان الذى يظلم انما يظلم لانتفاعه بالظلم فاذا ترك كثيره مع زيادة نفعه فيمن يجوز عليه النفع والضر كان لقليله مع قلة نفعه أترك وبأن ظلام للنسب كما قدرته فى الآية الكريمة كما فى بزاز وعطار أى لا ينسب اليه ظلم البتة وقوله تعالى (الذين) نعت للذين قبله (قالوا) لمحمد صلى الله عليه وسلم تزعم أن الله بعثك بالحق رسولا وأنزل عليك كتابا وأن نؤمن بك أى وقالوا (ان الله) قد (عهد الينا) أى أمرنا

وأوصانا فى كتبه (ان لا نؤمن لرسول) أى لا نصدق رسولا أنه قد جاء من عند الله (حتى يأتينا بقربان تأكله النار) أى حتى يأتينا بهذه المعجزة الخاصة التى كانت لانبياء بنى اسرائيل فيكون دليلا على صدقه والقربان كل ما يتقرب به العبد الى الله من نسيكة وعمل صالح وكانوا اذا قربوا قربانا أو غنموا غنيمة جاءت نار بيضاء من السماء لا دخان لها ولها دوى وحفيف فتأكل ذلك القربان وتأكل الغنيمة ومعنى أكلها أن تحيل ذلك الى طبعها بالاحراق فيكون ذلك علامة القبول واذا لم يتقبل بقى على حاله وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم لان أكل النار القربان لم يوجب الايمان الا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات فى ذلك سواء وقال السدى هذا الشرط جاء فى التوراة ولكنه مع شرط آخر وهو أن الله تعالى أمر بنى اسرائيل من جاءكم يزعم أنه رسول الله فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار حتى يأتيكم المسيح ومحمد فاذا أتياكم فآمنوا بهما فانهما يأتيان بغير قربان قال الله تعالى اقامة للحجة عليهم (قل) لهم يا محمد (قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات) أى بالمعجزات (وبالذى قلتم) من القربان كزكريا ويحيى فقتلتموهم (فلم قتلتموهم) والخطاب لمن فى زمن نبينا وان كان الفعل لاجدادهم لرضاهم به (ان كنتم صادقين) فى أنكم تؤمنون بالرسل عند الاتيان بذلك * ثم قال الله تعالى تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم من تكذيب قومه واليهود (فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤا بالبينات) أى المعجزات (والزبر) أى الصحف كصحف ابراهيم (والكتاب) أى التوراة والانجيل (المنير) أى الواضح فاصبر كما صبروا وقرأ نافع وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام وقرأ ابن عامر وبالزبر بالباء الموحدة والباقون بغير باء بعد الواو وقرأ هشام وبالكتاب بالباء الموحدة بعد الواو والباقون بغير باء وقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) زيادة تأكيد فى تسليته صلى الله عليه وسلم ومبالغة فى ازالة الحزن عن قلبه فان من علم أن عاقبته الى الموت زالت عن قلبه الغموم والاحزان روى ان الله تعالى لما خلق آدم اشتكت الارض الى ربها لما أخذ منها فوعدها ان يردّ فيها ما أخذ منها فما من أحد الا يدفن فى التربة التى أخذ منها ولان بعد هذه الدار دارا تميز فيها المحسن من المسىء والمحق من المبطل ويجازى كل بما يستحقه كما قال تعالى (وانما توفون أجوركم) أى جزاء أعمالكم (يوم القيامة) ان خيرا فخير وان شرا فشر (فمن زحزح) أى بعد (عن النار وادخل الجنة فقد فاز) بالنجاة ونيل المراد والفوز بالظفر بالبغية بالنظر الى وجه الله تعالى الكريم (وما الحياة الدنيا) أى العيش فيها (الا متاع الغرور) أى الباطل يتمتع به قليلا ثم يفنى روى أن الله تعالى يقول أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر اقرؤا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون وان فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها واقرؤا ان شئتم وظل ممدود ولموضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها واقرؤا ان شئتم فمن زحزح عن النار الآية وروى من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويؤتى الناس ما يحب أن يؤتى

اليه أى يفعل مهما يحب أن يفعل به وقوله تعالى (لتبلون) جواب قسم محذوف تقديره والله لتبلون وحذف منه نون الرفع لتوالى النونات والواو ضمير الجمع وحذفت واو الرفع لالتقاء الساكنين أى لتختبرن (فى أموالكم) بالفرائض فيها والجوائح (و) فى (أنفسكم) بالعبادات والبلاء والاسر والجراح وغير ذلك (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) أى اليهود والنصارى (ومن الذين أشركوا) أى مشركى العرب (أذى كثيرا) وذلك أنهم كانوا يقولون عزير ابن الله والمسيح ابن الله وثالث ثلاثة وكانوا يطعنون فى النبى صلى الله عليه وسلم بكل ما يقدرون عليه وهجاه كعب بن الاشرف وكانوا يحرضون الناس على مخالفته صلى الله عليه وسلم ويجمعون العساكر لمحاربته ويثبطون المسلمين عن نصرته (وان تصبروا) على ذلك (وتتقوا) الله (فان ذلك من عزم الامور) أى من صواب التدبير والرشد الذى ينبغى لكل عاقل أن يقدم عليه واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال ابن جريج والكلبى ومقاتل نزلت فى أبى بكر وفنحاص وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر الى فنحاص اليهودى ليستمده وكتب اليه كتابا لا تفتاتن على بشئ حتى ترجع الى فجاء أبو بكر رضى الله تعالى عنه وهو متوشح بالسيف فأعطاه الكتاب فلما قرأه قال احتاج ربك الى أن نمده فهم أبو بكر أن يضربه بالسيف فتذكر أبو بكر قول النبى صلى الله عليه وسلم وكف عنه فنزلت وقال الزهرى نزلت فى كعب بن الاشرف فانه كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعره ويسب المسلمين ويحرض المشركين على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه فى شعره ويتشبب بنساء المسلمين * (تنبيه) * فى الآية تأويلان أحدهما المراد بالمصابرة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على الابتلاء فى النفس والمال وتحمل الاذى وترك المعارضة والمقاتلة وذلك لانه أقرب الى دخول المخالف فى الدين كقوله تعالى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وقال تعالى قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله وقال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما وقال تعالى فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل وقال تعالى ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم قال الواحدى وهذا قبل نزول آية السيف وقال القفال والذى عندى ان هذا ليس بمنسوخ والظاهر أنها نزلت عقب قصة أحد والمعنى أنهم أمروا بالصبر على ما يؤذون به الرسول عليه الصلاة والسلام من طريق الاقوال الجارية فيما بينهم واستعمال مداراتهم فى كثير من الاحوال والامر بالقتال لا ينافى الامر بالمصابرة التأويل الثانى ان المراد الصبر على مجاهدة الكفار ومنابذتهم والانكار عليهم فالصبر عبارة عن احتمال المكروه والتقوى عبارة على الاحتراز عما لا ينبغى (و) اذكر (اذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب) أى العهد عليهم فى التوراة أى على علمائهم (لتبيننه) أى الكتاب (للناس ولا تكتمونه) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة بالياء فى الفعلين على الغيبة لان أهل الكتاب المخاطبين بذلك غيب والباقون بالتاء على الخطاب حكاية لمخاطبتهم (فنبذوه) أى طرحوا الميثاق (وراء ظهورهم) أى لم يعملوا به ولم يلتفتوا اليه ونقيض هذا جعله نصب عينيه (واشتروا به) أى أخذوا بدله (ثمنا قليلا) من حطام

الدنيا واعراضها من سفلتهم برياستهم فى العلم فكتموه خوف فوتها عليهم وقوله تعالى (فبئس مايشترون) العائد محذوف تقديره يشترونه قال قتادة رضى الله تعالى عنه هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم فن علم شيأ فليعلمه واياكم وكتمان العلم فانه هلكة وقال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشئ ثم تلا هذه الآية وقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار وقال أبو الحسن بن عمارة رضى الله تعالى عنه أتيت الزهرى بعد أن ترك الحديث فألفيته على بابه فقلت ان رأيت أن تحدثنى فقال أما علمت أنى قد تركت الحديث فقلت اما أن تحدثنى واما أن أحدثك فقال حدثنى فقلت حدثنى الحكم بن عيينة عن يحيى بن الخراز قال سمعت على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه يقول ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا قال فحدثنى أربعين حديثا (لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا) أى فعلوا من اضلال الناس (ويحبون أن يحمدوا) بما أوتوا من علم التوراة و(بما لم يفعلوا) من التمسك بالحق وهم على ضلال وهذا أيضا من جملة أذاهم لانهم يفرحون بما أتوا به من أنواع الخبث والتلبيس على ضعفة المسلمين ويحبون أن يحمدوا بأنهم أهل البر والصدق والتقوى ولاشك أن الانسان يتأذى بمشاهدة مثل هذه الاحوال فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالصبر عليها روى أنه صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شئ مما فى التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه وأروه أنهم قد صدقوا وفرحوا بما فعلوا فأطلع الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك وسلاه بما أنزل من وعيدهم أى لاتحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من اخبارك بالصدق عما سألتهم عنه ناجين من العذاب وقيل هم قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بأنهم رأوا المصلحة فى التخلف واستحمدوا به وقيل هم المنافقون فانهم يفرحون بمنافقتهم ويستحمدون الى المسلمين بالايمان الذى لم يفعلوه على الحقيقة ويجوز أن يكون شاملا لكل من يأتى بحسنة فيفرح بها فرح اعجاب ويحب أن يحمده الناس ويثنوا عليه بالديانة والزهد بما ليس فيه وقوله تعالى (فلاتحسبنهم) تأكيد (بمفازة) أى مكان ينجون فيه (من العذاب) فى الآخرة بل هم فى مكان يعذبون فيه وهو جهنم (ولهم عذاب أليم) أى مؤلم فيها وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة وفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة والباقون بالكسر ومفعولا تحسب الاولى دل عليهما مفعولا الثانية على قراءة التحتانية وعلى الفوقانية حذف الثانى فقط وقرأ ابن كثير وأبو عمرو فلايحسبنهم بالياء على الغيبة وضم الباء الموحدة والباقون بالتاء على الخطاب وفتح الباء الموحدة وفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة كما تقدم (ولله ملك السموات والارض) فهو يملك أمرهما ومافيهما من خزائن المطر والرزق والنبات وغير ذلك (والله على كل شئ قدير) ومنه تعذيب الكافرين وانجاء المؤمنين (ان فى خلق السموات والارض) ومافيهما من العجائب (واختلاف الليل والنهار) بالمجئ والذهاب والزيادة والنقصان (لآيات) أى دلالات واضحة على قدرته تعالى وباهر حكمته (لاولى الالباب)

لذوى العقول الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار ولا ينظرون اليها نظر البهائم غافلين عما فيهما من عجائب الفطر وفى النصائح الصغار املأ عينيك من زينة هذه الكواكب وأجلها فى جملة هذه العجائب متفكرا فى قدرة مقدرها متدبرا حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر ويحال بينك وبين النظر وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قلت لعائشة رضى الله تعالى عنها أخبرينى بأعجب ما رأيت من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وأطالت ثم قالت كل أمره عجب أتانى ليلة فدخل فى لحافى حتى التصق جلده بجلدى ثم قال ياعائشة هل لك أن تأذنى الليلة فى عبادة ربى فقلت يارسول الله انى لاحب قربك وأحب هواك قد أذنت لك فقام الى قربة من ماء فى البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء ثم قام يصلى فقرأ من القرآن وجعل يبكى حتى بلغ الدموع حقويه ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكى ثم رفع يديه فجعل يبكى حتى رأيت دموعه قد بلت الارض فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكى فقال يارسول الله أتبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال يابلال أفلا أكون عبدا شكورا ثم قال ومالى لا أبكى وقد أنزل الله على فى هذه الليلة ان فى خلق السموات والارض ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها وروى ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها وعن على رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر الى السماء ثم يقول ان فى خلق السموات والارض وحكى ان الرجل من بنى اسرائيل كان اذا عبد الله ثلاثين سنة أظلته سحابة فعبدها فتى من فتيانهم فلم تظله فقالت أمه لعل فرطة فرطت منك فى مدتك فقال ما أذكر قالت لعلك نظرت مرة الى السماء ولم تعتبر قال لعل قالت فما أوتيت الا من ذلك وقوله تعالى (الذين) نعت لما قبله أو بدل (يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) أى مضطجعين أى يذكرونه دائما على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين لان الانسان قل أن يخلو من احدى هذه الحالات الثلاث وروى الطبرانى وغيره انه صلى الله عليه وسلم قال من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه هذا فى الصلاة يصلى قائما فان لم يستطع فقاعدا فان لم يستطع فعلى جنب وعن عمران بن حصين قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة المريض فقال يصلى قائما فان لم يستطع فقاعدا فان لم يستطع فعلى جنب * (تنبيه) * قياما وقعودا حالان من فاعل يذكرون وعلى جنوبهم حال أيضا فيتعلق بمحذوف والمعنى يذكرونه قياما وقعودا ومضطجعين فعطف الحال المؤولة على الصريحة عكس الآية الاخرى وهى قوله دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما حيث عطف الصريحة على المؤولة (ويتفكرون فى خلق السموات والارض) وما أبدع فيهما ليدلهم ذلك على قدرة الله تعالى ويعرفون ان لهما مدبرا حكيما قال بعض العلماء الفكرة تذهب الغفلة وتحدث فى القلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النبات وما جليت القلوب بمثل الاحزان ولا استنارت بمثل الفكرة وروى عنه صلى الله عليه وسلم لا تفضلونى على يونس بن متى أى تفضيلا يؤدى الى تنقيصه والا فهو صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الارض قالوا وانما كان ذلك

التفكر

التفكر فى أمر الله تعالى الذى هو عمل القلب لان أحدا لا يقدر أن يعمل بجوارحه فى اليوم مثل عمل أهل الارض وقال صلى الله عليه وسلم لا عبادة كالتفكر أى لانه المخصوص بالقلب والمقصود من الخلق لكن الحديث رواه البيهقى وغيره وضعفوه وقال صلى الله عليه وسلم بينما رجل مستلق على فراشه اذ رفع رأسه فنظر الى السماء والنجوم فقال اشهد ان لك ربا وخالقا اللهم اغفر لى فنظر الله تعالى اليه فغفر له رواه الثعلبى بسند فيه من لا يعرف قال البيضاوى وهذا دليل واضح على شرف علم اصول الدين وفضل أهله وقوله تعالى (ربنا ما خلقت هذا باطلا) على ارادة القول أى يتفكرون قائلين ذلك وهذا اشارة الى الخلق بمعنى المخلوق من السموات والارض أو الى السموات والارض لانهما فى معنى المخلوق والمعنى ما خلقته عبثا وضائعا من غير حكمة بل خلقته لحكم عظيمة من جملتها أن يكون مبدأ لوجود الانسان وسببا لمعاشه ودليلا يدله على معرفتك ويحثه على طاعتك لينال الحياة الابدية والسعادة السرمدية فى جوارك * (تنبيه) * نصب باطلا على الحال من هذا وهى حال لا يستغنى عنها لانها لو حذفت لاختل الكلام وهى كقوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين وقيل على اسقاط حرف الخفض وهو الباء والمعنى ما خلقتهما بباطل بل بحق وقدرة (سبحانك) أى تنزيها لك عن العبث وهو معترض بين قوله ربنا وبين قوله (فقنا عذاب النار) أى للاخلال بالنظر فى خلق السموات والارض والقيام بما يقتضيه قال أبو البقاء ودخلت الفاء لمعنى الجزاء والتقدير اذا نزهناك أو وحدناك فقنا قال ابن عادل ولا حاجة اليه بل التسبب فيها ظاهر تسبب عن قولهم ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك طلبهم وقاية النار (ربنا انك من تدخل النار) أى للخلود فيها (فقد أخزيته) أى اهنته (وما للظالمين) أى للكافرين فيه وضع الظاهر موضع المضمر اشعارا بتخصيص الخزى بهم (من أنصار) أى انصار فمن زائدة زيدت لتأكيد النفى (ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى) اى يدعو الناس (للايمان) أى اليه وهو محمد صلى الله عليه وسلم أو القرآن العظيم (أن) أى بأن (آمنوا بربكم فآمنا) به (فان قيل) أى فائدة فى الجمع بين مناديا وينادى (أجيب) بأنه ذكر المبدأ مطلقا ثم مقيدا بالايمان تفخيما لشأن المنادى لانه لا منادى أعظم من مناد ينادى للايمان ونحوه قولك مررت بهاد يهدى للاسلام وذلك ان المنادى اذا أطلق ذهب الوهم الى مناد للحرب أو لاغاثة المكروب أو نحو ذلك وكذا الهادى قد يطلق على من يهدى للطريق ويهدى لسداد الرأى وغير ذلك فاذا قلت ينادى للايمان ويهدى للاسلام فقد رفعت من شأن المنادى والهادى وفخمته ويقال دعاه لكذا والى كذا (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا) أى الكبائر منها (وكفر عنا سيآتنا) أى الصغائر منها أو يكون ذلك من باب التعميم والاستيعاب كقوله الرحمن الرحيم ولان الالحاح والمبالغة فى الدعاء أمر مطلوب (وتوفنا مع الابرار) أى مخصوصين بصحبتهم معدودين فى جملتهم وهم الانبياء والصالحون وفيه تنبيه على انهم يحبون لقاء الله تعالى ومن أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه رواه الشيخان (ربنا وآتنا) أى اعطنا (ما وعدتنا) به (على) السنة (رسلك) من الرحمة والفضل وسؤالهم ذلك وان كان وعده تعالى لا يخلف سؤال أن يجعلهم من مستحقيه

لانهم لم يتيقنوا استحقاقهم لتلك الكرامة فسألوه أن يجعلهم مستحقين لها وتكرير ربنا مبالغة في التضرع وفي الآثار من حزبه أى اصابه أمر فقال ربنا خمس مرات أنجاه الله تعالى مما يخاف وأعطاه ما أراد (ولا تخزنا) أى ولا تعذبنا ولا تفضحنا ولا تهنا (يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد) أى الموعد باثابة المؤمن واجابة الداعى وعن ابن عباس الميعاد البعث بعد الموت (فاستجاب لهم ربهم) دعاءهم وهو أخص من أجاب لانه يفيد حصول جميع المطلوب الكثرة مبانيه لان كثرة المبانى تدل على كثرة المعانى ويتعدى بنفسه وباللام (أنى) أى بأنى (لا أضيع عمل عامل منكم) وقوله تعالى (من ذكر أو أنثى) بيان عامل (بعضكم من بعض) أى يجمع ذكركم وأنثاكم أصل واحد فكل واحد منكم من الآخر أى الذكور من الاناث والاناث من الذكور وقيل المراد وصلة الاسلام وهذه الجملة وهى بعضكم من بعض معترضة بين عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى وما فصل به عمل عامل من قوله فالذين هاجروا الخ بينت بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله تعالى عباده العاملين روى ان أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت يارسول الله أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء فنزلت وقوله تعالى (فالذين هاجروا) أى من مكة الى المدينة (وأخرجوا من ديارهم) تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم كأنه قال فالذين عملوا هذه الاعمال السنية الفائقة وهى المهاجرة عن أوطانهم فارين الى الله تعالى بدينهم من دار الفتنة واضطروا الى الخروج من ديارهم التى ولدوا فيها ونشؤا (وأوذوا في سبيلى) أى دينى (وقاتلوا) الكفار (وقتلوا) فى الجهاد وقرأ حمزة والكسائى بتقديم قتلوا وتأخير قاتلوا وشدد ابن كثير وابن عامر التاء من قتلوا للتكثير (لأكفرن عنهم سيئاتهم) أى استرها بالمغفرة (ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الانهار ثوابا) أى اثيبهم بذلك اثابة (من عند الله) أى تفضلا منه تعالى فهو مصدر مؤكد لما قبله لان قوله تعالى لأكفرن عنهم ولأدخلنهم فى معنى لأثيبنهم (والله عنده حسن الثواب) أى الجزاء ولما كان المشركون فى رخاء ولين من العيش يتجرون ويتنعمون وقال بعض المؤمنين ان أعداء الله فيما نرى من الخير ونحن فى الجهد نزل (لا يغرنك تقلب) أى تصرف (الذين كفروا فى البلاد) للتجارات وأنواع المكاسب والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد منه غيره وقوله تعالى (متاع قليل) خبر مبتدا محذوف أى ذلك التقلب متاع قليل يتمتعون به فى الدنيا يسيرا ويفنى فهو قليل فى جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة أو فى جنب ما أعد الله للمؤمنين من الثواب قال صلى الله عليه وسلم ما الدنيا فى الآخرة الا مثل ما يجعل أحدكم اصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع رواه مسلم وعن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشربة وانه لعلى حصير ما بينه وبينه شئ وتحت رأسه وسادة من ادم حشوها ليف فرأيت أثر الحصير فى جنبه فبكيت فقال ما يبكيك فقلت يارسول الله ان كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله فقال أما ترضى ان تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة (ثم مأواهم) أى مصيرهم (جهنم وبئس المهاد) أى الفراش هى (لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين) أى مقدرين الخلود (فيها نزلا من عند الله) وهو ما يعد للضيف ونصبه

على

على الحال من جنات لتخصيصها بالوصف والعامل فيها معنى الظرف (وما) أى والذى (عند الله) من الثواب لكثرته ودوامه (خير للابرار) مما يتقلب فيه الكفار من متاع الدنيا لقلته وسرعة زواله واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) فقال جابر وابن عباس وأنس نزلت فى النجاشى ملك الحبشة واسمه أصحمة وهو بالعربية عطية وذلك انه لما مات نعاه جبريل عليه الصلاة والسلام للنبى صلى الله عليه وسلم فى اليوم الذى مات فيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم فقالوا ومن هو قال النجاشى فخرج الى البقيع وكشف له الى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشى وصلى عليه وكبر عليه أربع تكبيرات واستغفر له فقال المنافقون انظروا الى هذا يصلى على علج حبشى نصرانى لم يره قط وليس على دينه فنزل الله تعالى هذه الآية وقال عطاء نزلت فى أربعين رجلا من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم وكانوا على دين عيسى فآمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم وقال ابن جريج نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه وقال مجاهد نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب (وما أنزل اليكم) اى القرآن (وما أنزل اليهم) اى التوراة والانجيل وقوله تعالى (خاشعين) حال من ضمير يؤمن مراعى فيه معنى من لانها فى معنى الجمع أى متواضعين (لله لا يشترون) أى لا يستبدلون (بآيات الله) التى عندهم فى التوراة والانجيل من نعت النبى صلى الله عليه وسلم (ثمنا قليلا) من الدنيا بأن يكتموها خوفا على الرياسة كما فعل غيرهم من اليهود (أولئك لهم أجرهم) أى ثواب أعمالهم (عند ربهم) وهو ما يختص بهم من الاجر وهو ما وعدوه فى قوله تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين وقوله تعالى يؤتكم كفلين من رحمته (ان الله سريع الحساب) لنفوذ علمه فى كل شئ فهو عالم بما يستوجبه كل عامل من الاجر بحساب الخلق فى قدر نصف نهار من أيام الدنيا (يا أيها الذين آمنوا اصبروا) على مشاق الطاعة وما يصيبكم من الشدائد وعن المعاصى (وصابروا) أى وغالبوا أعداء الله فى الصبر على شدائد الحرب فلا يكونوا أشد صبرا منكم (ورابطوا) أى أقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدين للغزو قال الله تعالى ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وروى انه صلى الله عليه وسلم قال من رابط يوما وليلة فى سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه لا يفطر ولا ينفتل عن صلاته الا لحاجة وروى انه صلى الله عليه وسلم قال من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة (واتقوا الله) فى جميع أحوالكم (لعلكم تفلحون) أى تفوزون بالجنة وتنجون من النار وقال بعض العلماء اصبروا على البأساء والضراء ورابطوا فى دار الاعداء واتقوا اله الارض والسماء لعلكم تفلحون فى دار البقاء روى الطبرى لكن باسناد ضعيف من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس أى تغيب وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى وتبعهما ابن عادل من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أمانا على جسر جهنم فهو من الاحاديث الموضوعة على أبى بن كعب فى فضائل السور فليتنبه لذلك ويحذر منه وقد نبه أئمة الحديث قديما وحديثا على ذلك وعابوا على من أورده من المفسرين فى تفاسيرهم والله تعالى أعلم

(سورة النساء مدنية)

مائة وخمس أو ست أو سبع وسبعون آية وثلاثة آلاف وخمس وأربعون كلمة وستة عشر ألف حرف وثلاثون حرفا

(بسم الله) الظاهر الملك العلام (الرحمن) الذي عم عباده بالانعام (الرحيم) الذي خص أهل ولايته بدار السلام وقوله تعالى (يا أيها الناس) خطاب يعم المكلفين من أولاد آدم من الذكور والاناث الموجودين منهم في زمن نبينا صلى الله عليه وسلم من العرب وغيرهم وقيل خطاب يختص بالعرب منهم لقوله تعالى واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام اذ المناشدة بالله وبالرحم عادة مختصة بهم فيقولون أنشدك بالله وبالرحم وأجيب بأن خصوص آخر الآية لا يمنع عموم أولها (اتقوا ربكم) أي عذابه بأن تطيعوه (الذي خلقكم من نفس واحدة) أي فرعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم وقوله تعالى (وخلق منها زوجها) معطوف على خلقكم أي خلقكم من شخص واحد هو آدم وخلق منها أمكم حواء بالمد من ضلع من اضلاعه اليسرى أو معطوف على محذوف كأنه قيل من نفس واحدة انشأها وابتدأها وخلق منها زوجها وانما حذف لدلالة المعنى عليه والمعنى شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها وهي انه انشأها من تراب وخلق منها زوجها حواء وهو تقرير لخلقكم من نفس واحدة وقوله تعالى (وبث منهما) أي من آدم وحواء (رجالا كثيرا ونساء) أي كثيرا بيان لكيفية تولدهم منهما والمعنى وبث أي نشر من تلك النفس والزوج المخلوقة منها بنين وبنات كثيرة واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها اذ الحكمة تقتضي أن يكون أكثر اذ للرجل أن يزيد في عصمته على واحدة بخلاف المرأة وذكر كثيرا حملا على الجمع ولا تكرار في الآية لان خلقكم من نفس واحدة مغاير لخلق حواء منها لانها خلقت من ضلعه وهم من مائهما ولبث الرجال والنساء لانه بين به أن خلقهم من نفس واحدة معناه من نفس آدم وحواء مع زيادة التصريح بالرجال والنساء (واتقوا الله الذي تساءلون) فيه ادغام التاء في الاصل في السين أي تتساءلون (به) فيما بينكم حيث يقول بعضكم لبعض أسألك بالله وأنشدك بالله (فان قيل) الذي يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته أن يجاء عقب الامر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو اليها ويبعث عليها فكيف كان خلقه اياهم من نفس واحدة على التفصيل الذي ذكره موجبا للتقوى وداعيا اليها (أجيب) بأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة ومن قدر على ذلك كان قادرا على كل شيء ومن المقدورات عقاب العصاة فالنظر فيه يؤدي الى ان يتقي القادر عليه ويخشى عقابه ولانه يدل على النعمة السابقة عليهم فحقهم أن يتقوه في كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف السين والباقون بتشديدها (و) اتقوا (الارحام) أي بأن تصلوها ولا تقطعوها وكانوا يتناشدون بالرحم وقد نبه سبحانه وتعالى اذ قرن الارحام باسمه على ان صلتها بمكان منه تعالى روى الشيخان انه صلى الله عليه وسلم قال الرحم معلقة

بالعرش تقول ألا من وصلني وصله الله تعالى ومن قطعني قطعه الله تعالى وقرأ غير حمزة بالنصب عطفا على الله تعالى فالعامل فيه اتقوا كما قدرته أو معطوف على محل الجار والمجرور كقولك مررت بزيد وعمرا وأما حمزة فقرأ بالجر عطفا على الضمير المجرور وقول البيضاوي وهو ضعيف أي كما هو مذهب البصريين ممنوع والحق انه ليس بضعيف فقد جوّزه الكوفيون وكيف يكون ضعيفا والقراءة به متواترة فيجب أن يضعف كلام البصريين ويرجع الى كلام رب العالمين وتعليلهم عدم الجواز بكونه كبعض كلمة لا يقتضي الحاقه به في عدم جواز العطف اذ حذف الشيء مع القرينة جائز ومنه * رسم دار وقفت في طلله * أي ورب رسم دار وقول الشاعر * اذهب فما بك والايام من عجب (انّ الله كان عليكم رقيبا) أي حافظا لاعمالكم فيجازيكم أي لم يزل متصفا بذلك (وآتوا اليتامى) أي بعد البلوغ والرشد (أموالهم) وسموا يتامى بعد البلوغ مع أنّ اليتيم في عرف الشرع صغير لا أب له على معنى انهم كانوا يتامى وان كان اليتم في اللغة الانفراد ومنه الدرّة اليتيمة وقيل اليتم في الاناس من قبل الآباء وفي البهائم من قبل الامهات وفي الطير من قبلهما والخطاب للاولياء والاوصياء روى انّ رجلا كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم فلما بلغ اليتيم طلب المال من عمه فمنعه فترافعا الى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فلما سمعها العم قال أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير فدفع اليه ماله فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن يوق شح نفسه ويطع ربه هكذا فانه يحله داره أي جنته وسيأتي تفسير الحوب الكبير فلما قبض الفتى ماله أنفقه في سبيل الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم ثبت الاجر وبقي الوزر فقالوا يا رسول الله قد عرفنا انه ثبت الاجر فكيف بقي الوزر وهو ينفق في سبيل الله فقال ثبت الاجر للغلام وبقي الوزر على والده أي ولعله كان لا يخرج زكاته (ولا تتبدلوا الخبيث) أي الحرام (بالطيب) أي الحلال أي لا تأخذوه بدله كما تفعلون في أخذ الجيد من مال اليتيم وجعل الرديء من مالكم مكانه قال الزمخشري وهذا ليس بتبدل وانما هو تبديل قال التفتازاني لانّ معنى تبدلت هذا بذاك انك أخذت هذا وتركت ذاك وكذا استبدلت لانّ معنى بدلت هذا بذاك أخذت ذاك وأعطيت هذا قال تعالى ومن يتبدل الكفر بالايمان فاذا أعطى الرديء وأخذ الجيد فقد أعطى الخبيث وأخذ الطيب كالواخذ الخبيث وترك الطيب ليكون تبدل الخبيث بالطيب فالحاصل انّ في التبدل ما دخلته الباء متروك وما تعدى اليه الفعل بنفسه مأخوذ وفي التبديل بالعكس اه وقد أوضحت ذلك في شرح المنهاج (ولا تأكلوا أموالهم الى) أي مع (أموالكم) كقوله تعالى من أنصاري الى الله أي مع الله أي لا تنفقوهما معا ولا تسووا بينهما فأ كلكم أموالكم حلال لكم وأكلكم أموالهم حرام عليكم فلا يحل لكم من أموالهم ما زاد على قدر الاقل من أجرتكم ونفقتكم (فان قيل) قد حرم الله عليهم أكل مال اليتيم وحده ومع أموالهم فلم ورد النهي عن أكلهما (أجيب) بأنهم كانوا يفعلون كذلك فأنكر عليهم فعلهم وسمع بهم ليكون أزجر لهم ولانهم اذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال وهم مع ذلك يطمعون فيها كان القبح أبلغ والذم

أحق (انه) أى أكلها (كان حوبا) أى ذنبا (كبيرا) أى عظيما ولما نزلت هذه الآية فى اليتامى وما كان فى أكل أموالهم من الحوب الكبير خاف الاولياء أن يلحقهم الحوب بترك العدل فى حقوق اليتامى وأخذوا يتحرجون من ولايتهم وكان الرجل منهم ربما كان تحته العشر من الازواج والثمان والست ولا يقوم بحقوقهن ولا يعدل بينهن نزل (وان خفتم) أى خشيتم (أن لا تقسطوا) أى تعدلوا (فى اليتامى) فتحرجتم من أمورهم فخافوا أيضا ترك العدل بين النساء وقللوا عدد المنكوحات (فانكحوا ما طاب) أى حل (لكم من النساء) لان منهن ما حرم كاللاتى فى آية التحريم (مثنى وثلاث ورباع) أى تزوجوا اثنتين أو ثلاثا أو أربعا لان من تحرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متحرج ولا تائب لانه انما وجب أن يتحرج من الذنب ويتاب عنه لقبحه والقبح قائم فى كل ذنب وانما عبر عنهن بما ومن يعقل انما يعبر عنه بمن ذاهبا الى الصفة لانه انما يفرق بين من وما فى الذوات لا فى الصفات أو اجراء لهن مجرى غير العقلاء لنقصان عقلهن وقيل كانوا لا يتحرجون من الزنا وهم يتحرجون من ولاية اليتامى فقيل ان خفتم الحوب فى حق اليتامى فخافوا الزنا فانكحوا ما حل لكم من النساء ولا تحوموا حول المحرمات وقيل كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجمال فيتزوجها ضنا أى بخلا بها فربما يجتمع عنده منهن عدد ولا يقدر على القيام بحقوقهن (فان قيل) الذى أطلق للناكح فى الجمع أن يجمع بين ثنتين أو ثلاث أو أربع فما معنى التكرير فى مثنى وثلاث ورباع حتى ان بعض الرافضة قال للشخص ان يتزوج بثمانية عشر (أجيب) بان الخطاب للجميع فوجب التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذى أطلق له كما تقول للجماعة اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ولو أفردت لم يكن له معنى (فان قيل) لم جاء العطف بالواو دون أو حتى قال بعض الرافضة ان له أن يتزوج بتسعة (أجيب) بأنه لو عطف بأو لذهب معنى تجويز أنواع الجمع بين أنواع القسمة التى دلت عليها الواو (فان خفتم أن لا تعدلوا) بين هذه الاعداد أيضا بالقسم والنفقة (فواحدة) اى فانكحوا واحدة وذروا الجمع (أو ما ملكت ايمانكم) أى اقتصروا على ذلك سواء بين الواحدة من الازواج والعدد من السرارى لخفة مؤنتهن وعدم وجوب القسم بينهن * (تنبيه) * هذا فى حق الحر أما من فيه رق فلا يتزوج أكثر من ثنتين باجماع الصحابة وقد يعرض للحر عوارض لا يزاد فيها على واحدة كجنون أو سفه (ذلك) أى نكاح الاربعة فقط أو الواحدة أو التسرى (أدنى) أقرب الى (أن لا تعولوا) أى تجوروا يقال عال الحاكم فى حكمه اذا جار وروى ان اعرابيا حكم عليه حاكم فقال له اتعول على وقد ورد عن عائشة رضى الله تعالى عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تعولوا أن لا تجوروا وحكى عن الشافعى رضى الله تعالى عنه انه فسر ان لا تعولوا بأن لا تكثروا عيالكم قال البغوى وما قاله أحد انما يقال من كثرة العيال أعال يعيل اعالة اذا كثرت عياله وقال الزمخشرى ووجهه أن يجعل من قولك عال الرجل عياله يعولهم كقولك مانهم يمونهم اذا أنفق عليهم لان من كثر عياله لزمه أن يعولهم ثم قال وكلام مثله من أعلام العلم وأئمة الشرع ورؤس المجتهدين حقيق بالحمل على الصحة والسداد وان لا يظن

به تجريف تعيلوا الى تعولوا فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لا تظنن بكلمة خرجت من فى أخيك سوأ وأنت تجد لها فى الخير محملا وكان الشافعى رحمه الله تعالى أعلى كعبا وأطول باعا فى علم كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا اه (وآتوا) أى أعطوا (النساء صدقاتهن) جمع صدقة أى مهورهن (نحلة) أى عطية يقال نحله كذا نحلة أى اعطاه اياه عن طيب نفس بلا توقع عوض ونصبها على المصدر لان النحلة والايتاء بمعنى الاعطاء فكأنه قيل وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة قال الكلبى وجماعة والخطاب للاولياء وذلك ان ولى المرأة كان اذا زوجها فان كان معهم فى العشيرة فلم يعطها من مهرها شيأ وان زوجها غريبا حملوها اليه على بعير ولا يعطوها من مهرها غير ذلك فنهاهم الله تعالى عن ذلك وأمرهم أن يدفعوا الحق الى أهله (فان طبن لكم عن شئ منه) أى الصداق وقوله تعالى (نفسا) محول عن الفاعل أى ان طابت نفسهن لكم عن شئ من الصداق فوهبنه لكم (فكلوه) أى خذوه وأنفقوه (هنيأ) أى طيبا (مريأ) أى محمود العاقبة لا ضرر فيه عليكم فى الآخرة روى ان ناسا كانوا يأثمون ان يرجع أحدهم فى شئ مما ساقه الى امرأته فقال الله تعالى ان طابت نفس واحدة من غير اكراه ولا خديعة فكلوه هنيأ مريأ قال الزمخشرى وفى الآية دليل على ضيق المسلك فى ذلك ووجوب الاحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس فقيل فان طبن ولم يقل فان وهبن أو سمحن اعلاما بأن المراعى هو تجافى نفسها عن الموهوب طيبة وعن الشعبى ان رجلا أتى مع امرأته شريحا فى عطية أعطتها اياه وهى تطلب أن ترجع فقال شريح رد عليها فقال الرجل أليس الله تعالى قد قال فان طبن لكم قال لو طابت نفسها عنه لما رجعت فيه وحكى ان رجلا من آل أبى معيط أعطته امرأته ألف دينار صداقا كان لها عليه فلبث شهرا ثم طلقها فخاصمته الى عبد الملك بن مروان فقال الرجل أعطتنى طيبة بها نفسها فقال عبد الملك فأين الآية التى بعدها ولا تأخذوا منه شيأ اردد عليها وعن عمر رضى الله تعالى عنه انه كتب الى قضاته ان النساء يعطين رغبة ورهبة فأيما امرأة أعطت ثم أرادت أن ترجع فذلك لها (ولا تؤتوا) أيها الاولياء (السفهاء) أى المبذرين من الرجال والنساء (أموالكم) اى أموالهم وانما أضاف الاموال الى الاولياء لانها فى تصرفهم وتحت ولايتهم وقيل نهى الى كل أحد أن يعمد الى ما خوله الله من المال فيعطيه امرأته وأولاده ثم ينظر الى ما فى أيديهم وانما سماهم سفهاء استخفافا بعقلهم واستهجانا لجعلهم قواما وهذا أوفق لقوله تعالى (التى جعل الله لكم قياما) أى تقوم بها مصالحكم ومصالح أولادكم فيضعوها فى غير وجهها وعلى القول الاول يؤول بأن أموال السفهاء التى من جنس ما جعل الله لكم قياما وسمى الله ما به القيام قياما للمبالغة وقرأ نافع وابن عامر قيما بغير ألف بعد الياء والقيم جمع قيمة ما يقوم به الامتعة والباقون بالالف مصدر قام (وارزقوهم) أى أطعموهم (فيها واكسوهم) فيها وانما قال تعالى فيها لجعله الاموال ظروفا للرزق فيكون الانفاق من الربح لا من الاموال التى هى الظروف بأن يتجروا فيها و يجعلوا من ربحها ما يحتاجون اليه ولو قيل منها لكان الانفاق من نفس الاموال (وقولوا لهم قولا

معروفا) أي عدوهم عدة جميلة باعطائهم أموالهم اذا رشدوا وكل ما سكنت اليه النفس وأحبته لحسنه عقلا أو شرعا من قول أو عمل فهو معروف وما أنكرته ونفرت منه لقبحه فهو منكر وعن عطاء اذا ربحت أعطيتك واذا غنمت في غزاتي جعلت لك حظا وقيل ان لم يكن ممن وجبت عليك نفقته فقل له عافانا الله واياك بارك الله فيك وقيل لا يختص ذلك بالاولياء بل هو أمر لكل أحد أن لا يخرج ماله الى أحد من السفهاء قريب أو أجنبي رجل أو امرأة يعلم انه يضيعه فيما لا ينبغي ويفسده (وابتلوا) أي اختبروا (اليتامى) في دينهم وتصرفهم بأن تختبروا ولد التاجر بالبيع والشراء والمماكسة فيهما وولد الزراع بالزراعة والنفقة على القوام بها والمرأة فيما يتعلق بالغزل والقطن وصون الاطعمة عن الهرة ونحوها وحفظ متاع البيت وولد الامير ونحوه بالانفاق مدة في خبز وماء ولحم ونحوها كل ذلك على العادة في مثله ويشترط تكرار الاختبار مرتين أو أكثر بحيث يفيد غلبة الظن برشده ووقت الاختبار قبل البلوغ ولا يصح عقده بل يمتحن في المماكسة فاذا أراد العقد عقد الولي (حتى اذا بلغوا النكاح) أي صاروا أهلا له اما بالسن وهو استكمال خمس عشرة سنة تحديدية لخبر ابن عمر رضي الله تعالى عنه عرضت على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزني ولم يرني بلغت وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني ورآني بلغت رواه ابن حبان وأصله في الصحيحين وابتداؤها من انفصال جميع الولد قيل عرض عليه صلى الله عليه وسلم سبعة عشر من الصحابة وهم أبناء أربع عشرة فلم يجزهم وعرضوا عليه وهم أبناء خمس عشرة فأجازهم واما بخروج المني في وقت امكانه وأقل تسع سنين قمرية تحديدية سواء أخرج في نوم أم يقظة بجماع أو غيره وتزيد المرأة على هذين الامرين الحيض لوقت امكانه وأقله تسع سنين قمرية تقريبية فيغتفر فيها زمن لا يسع حيضا وطهرا والولادة لانها يسبقها الانزال ويحكم بالبلوغ قبلها بستة أشهر وشيء وانبات شعر العانة الخشن دليل للبلوغ في حق الكفار ولا في حق المسلمين ولا عبرة بانبات شعر الابط واللحية (فان آنستم) أي أبصرتم (منهم رشدا) وهو صلاح الدين والمال أما صلاح الدين فلا يرتكب محرما يسقط العدالة من كبيرة أو اصرار على صغيرة ويعتبر في رشد الكافر دينه وأما صلاح المال فلا يضيعه بالقائه في بحر أو بصرفه في محرم او باحتمال الغبن الفاحش في المعاملة ونحوها وليس صرفه في الخير بتبذير ولا صرفه في الثياب والاطعمة النفيسة وشراء الجواري والاستمتاع بهن لان المال يتخذ لينتفع به نعم ان صرفه في ذلك بطريق الاقتراض له حرم عليه (فادفعوا اليهم أموالهم) من غير تأخير (ولا تأكلوها) أيها الاولياء وقوله تعالى (اسرافا) أي بغير حق (وبدارا) حالان أي مسرفين ومبادرين الى انفاقها مخافة (أن يكبروا) رشداء فيلزمكم تسليمها اليهم (ومن كان) من الاولياء (غنيا فليستعفف) أي يعف عن مال اليتيم ويمتنع من أكله (ومن كان فقيرا فليأكل) منه (بالمعروف) أي بقدر الاقل من حاجته وأجرة سعيه كما مر ولفظ الاستعفاف والاكل بالمعروف مشعر بان الولي له حق في مال الصبي وروى النسائي وغيره أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم ان في حجري يتيما أفآكل من ماله قال بالمعروف

(تنبيه)

(تنبيه) ايراد هذا التقسيم بعد قوله ولا تأكلوها يدل على أنه نهى للأغنياء منهم أن لا يأخذوا لأنفسهم من أموال اليتامى شيأ وللفقراء منهم أن لا يأخذوا منها شيأ بغير المعروف كما أن قوله ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا يدل على أنه نهى للفريقين عن أكلها اسرافا ومبادرة لكبرهم (فاذا دفعتم اليهم) أى اليتامى (أموالهم فأشهدوا) ندبا (عليهم) بأنهم قبضوها فان الاشهاد أنفى للتهمة وأبعد من الخصومة فتحتاجون الى البينة وهذا يدل على ان القيم لا يصدق فى دعواه الدفع ولو أبا الا ببينة وهو مذهب الشافعى ومالك خلافا لأبى حنيفة (وكفى بالله حسيبا) أى حافظا لأعمال خلقه ومحاسبتهم (للرجال) أى الذكور (نصيب) أى حظ (مما ترك الوالدان والأقربون) أى المتوفون (وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه) أى المال (أو كثر) جعله الله (نصيبا مفروضا) أى مقطوعا بتسليمه اليهم روى أن أوس بن ثابت الانصارى رضى الله تعالى عنه توفى وترك امرأته أم كحة بضم الكاف والحاء المشددة وثلاث بنات له منها فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه سويد وعرفجة فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيأ وكان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغار وان كان الصغير ذكرا انما كانوا يورثون الرجال ويقولون لا نعطى الا من قاتل وحاز الغنيمة فجاءت أم كحة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد الفضيخ وهو بالضاد والخاء المعجمتين موضع بالمدينة قيل لعله المسجد الذى كان يسكنه أصحاب الصفة لأنهم كانوا يرضخون فيه النوى فشكت اليه فقالت يا رسول الله ان أوس بن ثابت مات وترك على ثلاث بنات وأنا امرأته وليس عندى ما أنفق عليهن وقد ترك أبوهن مالا حسنا وهو عند سويد وعرفجة لم يعطيانى ولا بناته شيأ وهن فى حجرى لا يطعمن ولا يسقين فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يا رسول الله ولدها لا يركب فرسا ولا يحمل كلا ولا ينكى عدوا فنزلت هذه الآية فأثبت لهن الميراث فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقربا من مال أوس شيأ فان الله جعل لبناته نصيبا مما ترك ولم يبين كم هو حتى أنظر ما ينزل فيهن فأنزل الله تعالى يوصيكم الله فى أولادكم فأعطى صلى الله عليه وسلم أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقى ابنى العم وهذا دليل على جواز تأخير البيان عن الخطاب (واذا حضر القسمة) للميراث (أولو القربى) أى ذوو القرابة ممن لا يرث (واليتامى والمساكين فارزقوهم) أى أعطوهم (منه) أى المقسوم شيأ قبل القسمة تطييبا لقلوبهم وتصدقا عليهم وهو أمر ندب للبلغ من الورثة وقيل أمر وجوب واختلف العلماء فى حكم هذه الآية فقال قوم هى منسوخة بآية المواريث كالوصية وعن سعيد بن جبير ان ناسا يقولون نسخت والله ما نسخت ولكنها مما تهاون بها الناس (وقولوا لهم قولا معروفا) وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ولا يمنوا عليهم وعن الحسن والنخعى أدركنا الناس وهم يقسمون على القرابات والمساكين واليتامى من العين يعنيان الذهب والورق فاذا قسم الذهب والورق وصارت القسمة الى الأرضين والرقيق وما أشبه ذلك قالوا لهم قولا معروفا كانوا يقولون بورك فيكم (وليخش) أى وليخف على اليتامى (الذين لو تركوا) أى قاربوا أن

يتركوا (من خلفهم) أى بعد موتهم (ذرية ضعافا) أى أولادا صغارا (خافوا عليهم) أى الضياع (فليتقوا الله) فى أمر اليتامى وغيرهم وليأتوا اليهم ما يحبون أن يفعل بذريتهم من بعدهم (وليقولوا) أى للمريض (قولا سديدا) أى عدلا وصوابا بأن يأمروه أن يتصدق بدون ثلثه ويترك الباقى لورثته ولا يتركهم عالة وذلك انه كان اذا حضر أحدهم الموت يقول له من بحضرته انظر لنفسك فان أولادك وورثتك لا يغنون عنك شيأ قدم لنفسك أعتق وتصدق وأعط فلانا كذا وفلانا كذا حتى يأتى على عامة ماله فنهاهم الله عز وجل وأمرهم أن يأمروه أن ينظر لولده ولا يزيد فى وصيته على الثلث ولا يجحف بورثته (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) أى بغير حق (انما يأكلون فى بطونهم نارا) أى ملء بطونهم يقال أكل فلان فى بطنه وفى بعض بطنه قال الشاعر * كلوا فى بعض بطنكم تعفوا * ومعنى يأكلون نارا يأكلون ما يجر الى النار فكأنه نار فى الحقيقة روى أنه يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه فيعرف الناس انه كان يأكل مال اليتيم فى الدنيا وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال رأيت ليلة أسرى بى قوما لهم مشافر كمشافر الابل احداهما قالصة على منخريه والاخرى على بطنه وخزنة النار يلقمونهم جمر جهنم وصخرها فقلت يا جبريل من هؤلاء قال الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما (وسيصلون سعيرا) أى نارا شديدة يحترقون فيها وقرأ ابن عامر وشعبة بضم الياء والباقون بالفتح (يوصيكم الله) أى يأمركم (فى أولادكم) أى فى شأن ميراثهم بما هو العدل والمصلحة وهذا اجمال تفصيله (للذكر) منهم (مثل حظ) أى نصيب (الانثيين) اذا اجتمعتا معه فله نصف المال ولهما النصف فان كان معه واحدة فلها الثلث وله الثلثان وانما فضل الذكر على الانثى لاختصاصه بلزوم ما لا يلزم الانثى من الجهاد وتحمل الدية وغيرهما وله حاجتان حاجة لنفسه وحاجة لزوجته والانثى حاجة واحدة لنفسها بل هى غالبا مستغنية بالتزويج عن الانفاق من مالها ولكن لما علم الله تعالى احتياجها الى النفقة وان الرغبة تقل فيها اذا لم يكن لها مال جعل لها حظا من الارث وابطل حرمان الجاهلية لها (فان قيل) هلا قيل للانثيين مثل حظ الذكر أو للانثى نصف حظ الذكر (أجيب) بأنه انما بدأ ببيان حظ الذكر لفضله كما ضوعف حظه لذلك ولان قوله للذكر مثل حظ الانثيين قصد الى بيان فضل الذكورة وقولك للانثيين مثل حظ الذكر قصد الى بيان نقص الانثى وما كان قصدا الى بيان فضله كان أدل على فضله من القصد الى بيان نقص غيره عنه ولانهم كانوا يورثون الرجال دون النساء والصبيان وكان فى ابتداء الاسلام بالمحالفة قال تعالى والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ثم صارت الوراثة بالهجرة قال الله تعالى والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شئ ثم نسخ ذلك كله بالآية الكريمة واختلف فى سبب نزولها فعن جابر انه قال جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصب على من وضوئه فعقلت فقلت يا رسول الله لمن الميراث انما يرثنى كلالة فنزلت وقال مقاتل والكلبى نزلت فى أم كحة امرأة أوس بن ثابت وبناته وقال عطاء استشهد سعد بن الربيع النقيب يوم أحد وترك

امرأة

امرأة وبنتين وأخا فأخذ الاخ المال فأتت امرأة سعد الى النبي صلى الله عليه وسلم بابنتي سعد فقالت يارسول الله ان هاتين ابنتا سعد وان سعدا قتل يوم أحد شهيدا وان عمهما أخذ مالهما ولا ينكحان الا ولهما مال فقال صلى الله عليه وسلم ارجعي فلعل الله سيقضي في ذلك فنزلت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمهما وقال أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن ومابقي فهو لك فهذا أول ميراث قسم في الاسلام وكأنه قيل كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الاناث ولايضاررن في حظهن حتى يحرمن مع ادلائهن مع القرابة مثل مايدلون به (فان قيل) حظ الانثيين الثلثان فكأنه قيل للذكر الثلثان (أجيب) بأن المراد حالة الاجتماع كما مر أما في حالة الانفراد فالابن يأخذ المال كله والبنتان يأخذان الثلثين والدليل على ان الفرض حكم الاجتماع أنه اتبعه حكم الانفراد بقوله تعالى (فان كن) أى ان كان الاولاد (نساء) خلصا ليس معهن ذكر وأنث الضمير باعتبار الخبر أو على تأويل المولودات وقوله تعالى (فوق اثنتين) خبر ثان أو صفة لنساء أى نساء زائدات على اثنتين (فان قيل) قوله تعالى للذكر مثل حظ الانثيين كلام مسوق لبيان حظ الذكر من الاولاد لا لبيان حظ الانثيين فكيف صح أن يردف قوله فان كن نساء وهو لبيان حظ الاناث (أجيب) بأنه وان كان مسوقا لبيان حظ الذكر الا أنه لما علم منه حظ الانثيين مع أخيهما كان كأنه مسوق للامرين جميعا فلذلك صح أن يقال فان كن نساء (فلهن ثلثا ماترك) أى المتوفى منكم ويدل عليه المعنى (وان كانت) أى المولودة (واحدة فلها النصف) وقرأ نافع واحدة بالرفع على كان التامة والباقون بالنصب على كان الناقصة واختلف في ميراث الانثيين فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه حكمهما حكم الواحدة لانه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما وقال الباقون حكمهما حكم مافوقهما لانه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الانثيين اذا كان معه انثى وهو الثلثان اقتضى ذلك ان فرضهما الثلثان ثم لما أوهم ذلك أن يزاد النصيب بزيادة العدد رد ذلك بقوله تعالى فان كن نساء فوق اثنتين ويؤيد ذلك ان البنت الواحدة لما استحقت الثلث مع أخيها فبالاولى والاحرى أن تستحقه مع أخت مثلها ويؤيده أيضا ان البنتين أمس رحما من الاختين وقد فرض لهما الثلثين بقوله فلهما الثلثان مما ترك وقيل فوق صلة وقيل لدفع توهم زيادة النصيب بزيادة العدد لما فهم استحقاق البنتين من جعل الثلث للواحدة مع الذكر (ولابويه) أى الميت وقوله تعالى (لكل واحد منهما السدس مما ترك) بدل بعض من كل فالسدس مبتدأ ولابويه خبر وفائدة البدل دفع توهم أن يكون للاب ضعف ما للام أخذا من قوله تعالى للذكر مثل حظ الانثيين وبهذا اندفع كما قال التفتازاني ان البدل ينبغي أن يكون بحيث لو أسقط استقام الكلام معنى وهنا لو قيل لابويه السدس لم يستقم هذا (ان كان له) أى الميت (ولد) ذكرا أو غيره والحق بالولد ولد الابن وبالاب الجد (فان لم يكن له ولد وورثه أبواه) أى فقط بقرينة المقام (فلامه الثلث) مما ترك وانما لم يذكر حصة الاب لانه لما فرض ان الوارث أبواه فقط وعين نصيب الام علم ان الباقي للاب وكأنه قال فلهما ماترك اثلاثا ولو كان معهما أحد الزوجين كان لها ثلث مابقي بعد فرضه كما قال الجمهور

لا ثلث المال كما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنه فانه يفضي الى تفضيل الانثى على الذكر المساوي لها في الجهة والقرب وهو كما قال البيضاوي خلاف وضع الشرع (فان كان له اخوة) أي اثنان فصاعدا ذكورا أو اناثا كما عليه الجمهور (فلامه السدس) والباقي للاب ولا شئ للاخوة وقال ابن عباس لا يحجب الام من الثلث الى السدس الا ثلاثة اخوة ذكورا أخذا بظاهر اللفظ واطلاق اللفظ يدل على أن الاخوة يردونها من الثلث الى السدس وان كانوا لا يرثون مع الاب شيأ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أنهم يأخذون السدس الذي حجبوا عنه الام وقرأ حمزة والكسائي في الوصل فلامه بكسر الهمزة فرارا من ضمة الى كسرة لثقله في الموضعين والباقون بضمها وقوله تعالى (من بعد وصية يوصي بها أو دين) متعلق بما تقدمه من قسمة المواريث كلها أي هذه الانصباء للورثة من بعد وصية أو وفاء دين وانما عبر بأو دون الواو للدلالة على أنهما متساويان في الوجوب مقدمان على القسمة مجموعين ومفردين (فان قيل) لم قدمت الوصية في الذكر على الدين مع انها متأخرة في حكم الشرع عنه (أجيب) بأنها لما كانت شاقة على الورثة لكونها مأخوذة بلا عوض وهي مستحبة لكل مكلف بخلاف الدين فانه لا يكون على كل مكلف فقدمت لذلك وقرأ ابن كثير وابن عامر وشعبة يوصى بفتح الصاد ووافقهم حفص على فتح الصاد في الحرف الثاني والباقون بكسر الصاد فيهما وقوله تعالى (آباؤكم وأبناؤكم) مبتدأ خبره (لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) أي لا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وآجلكم فمنكم من يظن ان الاب أنفع له فيكون الابن أنفع له ومنكم من يظن ان الابن أنفع له فيكون الاب أنفع له وانما العالم بذلك هو الله تعالى وقد دبر أمركم على ما فيه المصلحة فاتبعوه وقال ابن عباس أطوعكم لله من الآباء والابناء أرفعكم درجة يوم القيامة والله يشفع المؤمنين بعضهم في بعض فان كان الوالد أرفع درجة في الجنة رفع اليه ولده وان كان الولد أرفع درجة من الآخر في الجنة سأل الله أن يرفع اليه فيرفع بشفاعته (فريضة) أي ما قدر من المواريث فرض فريضة (من الله ان الله كان عليما) بامور عباده (حكيما) فيما قضى وقدر أي لم يزل متصفا بذلك (ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد) ذكرا أو غيره منكم أو من غيركم (فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين) وولد الابن في ذلك كالولد اجماعا (ولهن) أي الزوجات تعددن أو لا (الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد) منهن أو من غيرهن (فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين) وولد الابن كالولد في ذلك اجماعا فقد فرض للرجل بحق العقد الصحيح ضعف ما للمرأة كما في النسب وهكذا قياس كل رجل وامرأة وارثين اشتركا في الجهة والقرب من الميت ولا يستثنى من ذلك الا أولاد الام والمعتق والمعتقة (وان كان رجل) أي الميت (يورث) أي منه من ورث صفة رجل وخبر كان (كلالة) أو يورث خبر كان وكلالة حال من الضمير في يورث واختلفوا في الكلالة فذهب أكثر الصحابة الى أنها من لا ولد له ولا والد قال الشعبي سئل أبو بكر رضي الله تعالى عنه عن الكلالة فقال اني سأقول فيها برأيي فان كان

صوابا فمن الله وان كان خطأ فمنى ومن الشيطان أراه ماخلا الوالد والولد فلما استخلف عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال انى لأستحى من الله ان أرد شيأ قاله أبو بكر وذهب طاوس ان الكلالة من لا ولد له وهى احدى الروايتين عن ابن عباس وأحد القولين عن عبد الله بن عمر وسأل رجل عقبة عن الكلالة فقال ألا تعجبون من هذا يسألنى وما أعضل بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شئ ما أعضلت بهم الكلالة وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ثلاث لأن يكون النبى بينهن لنا أحب الينا من الدنيا وما فيها الكلالة والخلافة وأبواب الربا وقال سعيد بن أبى طلحة خطب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقال انى لا أدع بعدى شيأ أهم عندى من الكلالة ما راجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شئ ما راجعته فى الكلالة وما أغلظ لى فى شئ ما أغلظ فيه حتى طعن باصبعه فى صدرى وقال يا عمر ألا يكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء وانى ان أعش أقض فيها بقضية يقضى بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن وقوله ألا يكفيك آية الصيف أراد أن الله تعالى أنزل فى الكلالة آيتين احداهما فى الشتاء وهى التى فى أول سورة النساء والاخرى فى الصيف وهى التى فى آخرها وفيها من البيان ما ليس فى آية الشتاء فلذلك أحاله عليها وقوله تعالى (أو امرأة) عطف على رجل أى أو امرأة تورث كلالة (وله) أى الرجل (أخ أو أخت) واكتفى بحكم الرجل عن حكم المرأة لدلالة العطف على تشاركهما فيه ويصح أن يعود الضمير على الموروث الكلالة فيشمل الرجل والمرأة (فلكل واحد منهما السدس) وقد أجمعوا على أن المراد به الاخ والاخت من الام (فان كانوا) أى الاخت والاخوات من الام (أكثر من ذلك) أى من واحد (فهم شركاء فى الثلث) يستوى فيه ذكورهم واناثهم لان الادلاء بمحض الانوثة (من بعد وصية يوصى بها أو دين) وقوله تعالى (غير مضار) حال من ضمير يوصى أى غير مدخل الضرر على الورثة بأن يوصى بأكثر من الثلث وعن قتادة كره الله الضرار فى الحياة وعند الممات ونهى عنه وعن الحسن المضارة فى الدين أن يوصى بدين ليس عليه ومعناه الاقرار وقوله تعالى (وصية من الله) مصدر مؤكد ليوصيكم أى يوصيكم بذلك وصية كقوله فريضة من الله (والله عليم) بما دبره لخلقه من الفرائض (حليم) بتأخير العقوبة عمن خالفه * (تنبيه) * خصت السنة توريث من ذكر عن ليس فيه مانع من قتل أو اختلاف دين أو رق (تلك) أى الاحكام المذكورة فى أمر اليتامى والوصايا والمواريث (حدود الله) أى شرائعه التى حدها لعباده ليعملوا بها ولا يتعدوها (ومن يطع الله ورسوله) فيما حكم به (يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار) وقوله تعالى (خالدين فيها) حال مقدرة كقولك مررت برجل معه صقر صائدا به غدا (وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده) أى الله (يدخله نارا) وقوله تعالى (خالدا فيها) حال كما مر ولا يجوز أن يكون خالدين وخالدا صفتين لجنات ونار لانهما جريا على غير من هما له فلابد من الضمير وهو قولك خالدين هم فيها وخالدا هو فيها هذا على مذهب البصريين أما على مذهب الكوفيين فهو جائز عندهم عند أمن اللبس كما هنا وهو الراجح كما جرى عليه ابن مالك وغيره (وله عذاب مهين)

أى ذو اهانة وروعى فى الضمائر فى الآيتين لفظ من وفى خالدين معناها وقرأ نافع وابن عامر ندخله جنات وندخله نارا بالنون فيهما على الالتفات والباقون بالياء (واللاتى يأتين الفاحشة) أى الزنا (من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) أى من رجال المسلمين وهذا خطاب للحكام أى فاطلبوا عليهن أربعة من الشهود وفيه بيان أن الزنا لا يثبت الا بأربعة من الشهود (فان شهدوا) عليهن بها (فأمسكوهن) أى احبسوهن (فى البيوت) واجعلوها سجنا لهن وامنعوهن عن مخالطة الناس وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء والباقون بكسرها (حتى يتوفاهن الموت) أى ملائكته (أو) الى أن (يجعل الله لهن سبيلا) أى طريقا الى الخروج منها أمروا بذلك أول الاسلام ثم جعل لهن سبيلا بجلد البكر مائة وتغريبها عاما ورجم المحصنة وفى الحديث لما بين الحد قال خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا رواه مسلم (واللذان) أى الزانى والزانية وقرأ ابن كثير بتشديد النون والباقون بالتخفيف (يأتيانها) أى فاحشة الزنا (منكم) أى الرجال (فآذوهما) بالسب والضرب بالنعال (فان تابا) أى منها (وأصلحا) أى العمل (فأعرضوا عنهما) ولا تؤذوهما (ان الله كان توابا) على من تاب (رحيما) به وهو علة الامر بالاعراض وترك المذمة وهذا منسوخ بالحد روى ابن مسعود عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى أنهما أخبراه ان رجلين اختصما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما يارسول الله اقض بيننا بكتاب الله فقال الآخر وكان أفقههما أجل يارسول الله فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لى أن أتكلم فقال ان ابنى كان عسيفا على هذا فزنى بامرأته فاخبرونى ان على ابنى الرجم فافتديت منه بمائة شاة وبجارية لى ثم انى سألت أهل العلم فاخبرونى أن ما على ابنى جلد مائة وتغريب سنة وانما الرجم على امرأته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله أما غنمك وجاريتك فرد عليك وجلد ابنه مائة وغربه عاما أى لانه كان غير محصن وأمر أنيسا الاسلمى أن يأتى امرأة الآخر فان اعترفت رجمها فاعترفت فرجمها وروى ابن عباس عن عمر رضى الله تعالى عنهم أنه قال ان الله بعث محمدا بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل الله آية الرجم فقرأناها وعقلناها ورعيناها رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده فأخشى ان طال بالناس زمان ان يقول قائل والله مانجد آية الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله والرجم فى كتاب الله حق على من زنى اذا أحصن من الرجال والنساء اذا قامت البينة أو الاعتراف وجملة حد الزنا أن الزانى اذا كان محصنا وهو الذى اجتمع فيه أربعة أوصاف العقل والبلوغ والحرية والاصابة بالنكاح الصحيح فحده الرجم مسلما كان أو ذميا وعند أبى حنيفة أن الاسلام من شرائط الاحصان فلا يرجم عنده الذمى ويرده ماصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رجم يهوديين زنيا وكانا قد أحصنا وان كان الزانى غير محصن بأن لم تجتمع فيه هذه الاوصاف نظر ان كان غير بالغ أو مجنونا فلا حد عليه وان كان حرا عاقلا بالغا غير أنه لم يصب بنكاح صحيح فعليه جلد مائة وتغريب عام وان كان رقيقا فعليه جلد خمسين وتغريب نصف عام ومثل الزنا

اللواط عند الشافعي رضي الله تعالى عنه لكن المفعول به لا رجم عليه وان كان محصنا بل
يجلد ويغرب وقيل نزلت آية واللاتي يأتين الفاحشة في المساحقات وآية واللذان يأتيانها
منكم في اللواطين (انما التوبة على الله) أي ان قبول التوبة كالمحتوم على الله تفضلا منه
بمقتضى وعده لانه تعالى وعد بقبول التوبة فاذا وعد شيأ لا بد أن ينجز وعده لان الخلف في وعده
سبحانه وتعالى محال (للذين يعملون السوء) أي المعصية وقوله تعالى (بجهالة) في موضع
الحال أي يعملون السوء جاهلين أي سفهاء فان ارتكاب الذنب مما يدعو اليه السفه والشهوة
لا مما تدعو اليه الحكمة والعقل وعن مجاهد من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع أي يخرج
من جهالته وقال قتادة أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل ما عصى به الله
فهو جهالة عمدا كان أو لم يكن وكل من عصى الله تعالى فهو جاهل (ثم يتوبون من) زمن (قريب)
أي قبل أن يغرغروا لقوله تعالى حتى اذا حضر أحدهم الموت وقوله صلى الله عليه وسلم ان
الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر رواه الترمذي وحسنه وعن عطاء ولو قبل موته بفواق ناقة
وعن الحسن ان ابليس قال حين أهبط الى الارض وعزتك لا أفارق ابن آدم ما دام روحه في
جسده فقال وعزتي وجلالي لا اغلق عليه باب التوبة ما لم يغرغر والغرغرة تردد الروح في الحلق
* (تنبيه) * معنى من في قوله تعالى من قريب التبعيض أي يتوبون بعض زمان قريب كأنه سمى
ما بين وجود المعصية وبين حضور الموت زمنا قريبا لان أمد الحياة قريب لقوله تعالى قل متاع
الدنيا قليل ففي أي جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب من قريب والا فهو تائب من بعيد
(فأولئك يتوب الله عليهم) أي يقبل توبتهم (فان قيل) ما فائدة ذلك بعد قوله تعالى انما
التوبة على الله (أجيب) بأن ذلك وعد بالوفاء بما وعد به وكتبه على نفسه كما يعد العبد الوفاء
بما عليه (وكان الله عليما) بخلقه (حكيما) في صنعه بهم (وليست التوبة للذين يعملون السيآت)
أي الذنوب (حتى اذا حضر أحدهم الموت) أي أخذ في النزع (قال) عند مشاهدة ما هو فيه
(اني تبت الآن) حين لا يقبل من كافر ايمان ولا من عاص توبة قال تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم
لما رأوا بأسنا ولذلك لم ينفع ايمان فرعون حين أدركه الغرق (ولا الذين يموتون وهم كفار) أي
اذا تابوا في الآخرة عند معاينة العذاب لا ينفعهم ذلك ولا تقبل توبتهم فسوى سبحانه وتعالى
بين الذين سوفوا توبتهم الى حضور الموت وبين الذين ماتوا على الكفر في أنه لا توبة لهم لان حضور
الموت أول أحوال الآخرة فكما أن المصرون على الكفر قد فاتتهم التوبة على اليقين فكذلك
المسوف الى حضور الموت لمجاوزة كل منهما أوان التكليف والاختيار وقوله تعالى (أولئك أعتدنا
لهم عذابا أليما) أي مؤلما تأكيد لعدم قبول توبتهم وبيان ان العذاب أعده لهم لا يعجزه عذابهم
متى شاء والاعتداد التهيئة من العتاد وهو العدة وقيل أصله أعددنا أبدلت الدال الاولى تاء
(يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء) أي ذواتهن (كرها) نزلت في أهل المدينة كانوا
في الجاهلية وفي أول الاسلام اذا مات الرجل وله امرأة وللرجل عصبة وألقى ثوبه على امرأة
الميت أو على خبائها صار أحق بها من نفسها ومن غيره ثم ان شاء تزوجها بصداقها الاول وان

شاء زوجها غيره وأخذ صداقها وان شاء عضلها ومنعها من الازواج يضارها لتفتدى منه بما ورثته من الميت أو تموت هى فيرثها فان ذهبت المرأة الى أهلها قبل أن يلقى عليها عصبة الميت ثوبه فهى أحق بنفسها وكانوا على هذا حتى توفى أبو القيس بن الاسلت الانصارى وترك امرأته فقام ابن له من غيرها فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها يضارها لتفتدى نفسها منه فأتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ان أبا قيس توفى وورث نكاحى ابنه فلا هو ينفق علىّ ولا يدخل بى ولا يخلى سبيلى فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم اقعدى فى بيتك حتى يأتى أمر الله فأنزل الله تعالى هذه الآية وقرأ حمزة والكسائى بضم الكاف والباقون بفتحها قال الكسائى وهما لغتان وقال الفراء الكره بالفتح ما أكره عليه وبالضم المشقة وقوله تعالى (ولا تعضلوهنّ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنّ) عطف على أن ترثوا أى لا تمنعوا أزواجكم عن نكاح غيركم بامساكهنّ ولا رغبة لكم فيهنّ ضرارا لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنّ من المهر وقيل هذا خطاب لاولياء الميت والصحيح كما قال البغوى انه خطاب للازواج قال ابن عباس هذا فى الرجل يكون له المرأة وهو كاره صحبتها ولها عليه مهر فيضارها لتفتدى وترد اليه ما ساق اليها من المهر فنهى الله تعالى عن ذلك قال الزمخشرى والعضل الحبس والضيق ومنه عضلت المرأة بولدها اذا اختنقت رحمها به فخرج بعضه وبقى بعضه (الا أن يأتين بفاحشة مبينة) كالزنا والنشوز وسوء العشرة فحينئذ يحل لكم اضرارهنّ ليفتدين منكم قال عطاء كان الرجل اذا أصابت امرأته فاحشة أخذ منها ما ساق اليها وأخرجها فنسخ ذلك بالحدود وقرأ ابن كثير وشعبة بفتح الياء المثناة تحت والباقون بالكسر وقوله تعالى (وعاشروهنّ بالمعروف) قال الحسن رجع الى أول الكلام يعنى وآتوا النساء صدقاتهنّ نحلة وعاشروهنّ بالمعروف وهو النصفة فى المبيت والنفقة والاجمال فى القول وقيل هو أن يتصنع لها كما تتصنع له (فان كرهتموهنّ) فاصبروا ولا تفارقوهنّ (فعسى أن تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) أى فربما كرهت النفس ما هو أصلح فى الدين وأحمد وأدنى الى الخير وأحبت ما هو بضد ذلك ولكن نظركم ما هو أصلح للدين وأدنى الى الخير فلعل أن يرزقكم الله تعالى منهنّ ولدا صالحا أو يعطفكم الله عليهنّ وقد بينت الآية جواز امساك المرأة مع الكراهة لها ونبهت على معنيين أحدهما ان الانسان لا يعلم وجوه الصلاح والثانى انّ الانسان لا يكاد يجد محبوبا ليس فيه ما يكره فليصبر على ما يكره لما يحب وأنشدوا فى هذا المعنى

ومن لم يغمض عينه عن صديقه * وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

ومن يتتبع جاهدا كل عثرة * يجدها ولم يسلم له الدهر صاحب

ولما كان الرجل اذا طمحت عينه الى استطراف امرأة بهت بالتى تحته ورماها بفاحشة حتى يلجئها الى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه الى زوج غيرها نزل (وان أردتم استبدال زوج مكان زوج) أى أخذها بدلها بأن طلقتموها (و) قد (آتيتم احداهنّ) أى الزوجات (قنطارا) أى مالا كثيرا صداقا (فلا تأخذوا منه) أى القنطار (شيأ) وقوله تعالى (أتأخذونه بهتانا)

أى ظلما (وإثما مبينا) أى بينا حال أى أتأخذونه باهتين وآثمين وعن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قام خطيبا فقال أيها الناس لا تغالوا بصداق النساء فلو كان مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصدق امرأة من نسائه أكثر من اثنتى عشرة أوقية فقامت اليه امرأة فقالت له يا أمير المؤمنين لم تمنعنا حقا جعله الله لنا والله تعالى يقول وآتيتم احداهن قنطارا فقال عمر رضى الله عنه كل أحد أعلم من عمر ثم قال لاصحابه تسمعوننى أقول مثل هذا القول ولا تنكرونه على حتى ترد على امرأة ليست من أعلم النساء وقوله تعالى (وكيف تأخذونه) استفهام توبيخ وانكار أى تأخذونه بأى وجه (وقد أفضى) أى وصل (بعضكم الى بعض) بالجماع المقرر للمهر وكنى الله تعالى عن الجماع بالافضاء وهو الوصول الى الشئ من غير واسطة تعليما لعباده لانه مما يستحيا منه (وأخذن منكم ميثاقا) أى عهدا (غليظا) أى شديدا وهو ما أخذه الله للنساء على الرجال من امساك بمعروف أو تسريح باحسان وعن النبى صلى الله عليه وسلم اتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله وقد قيل صحبة عشرين يوما قرابة فكيف بما جرى بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج ولما توفى أبو قيس وكان من صالحى الانصارى خطب ابنه قيس امرأة أبيه وكان أهل الجاهلية ينكحون أزواج آبائهم فقالت انى أعدك ولدا وأنت من صالحى قومك ولكنى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أستأمره فأتته وأخبرته بذلك فنزل (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) وانما عبر بما دون من لانه أريد به صفة ذات معينة وهى كونهن منكوحات الآباء وقيل ما مصدرية على ارادة المفعول من المصدر وقوله تعالى (الا ما قد سلف) استثناء من المعنى اللازم للنهى فكأنه قيل تستحقون العقاب بنكاح ما نكح آباؤكم الا ما قد سلف أو من اللفظ للمبالغة فى التحريم والمعنى لا تنكحوا حلائل آبائكم الا ما قد سلف ان أمكنكم أن تنكحوه ولا يمكن ذلك والغرض المبالغة فى تحريمه وسد الطريق الى اباحته كما يعلق بالمحال فى التأبيد فى نحو قوله تعالى حتى يلج الجمل فى سم الخياط أو منقطع أى لكن ما قد سلف من فعلكم ذلك فانه معفو عنه وقوله تعالى (انه) أى نكاحهن (كان فاحشة ومقتا) علة للنهى أى انه فاحشة فكان مزيدة أى قبيحا عند الله تعالى ما رخص فيه لامة من الامم ممقوتا عند ذوى المروآت من الجاهلية وغيرهم وكانت العرب تقول لولد الرجل من امرأة أبيه المقتى ويسمى به الرجل المذكور أيضا قال فى القاموس نكاح المقت أن يتزوج امرأة أبيه بعده فالمقتى ذلك المتزوج أو ولده أى ومن ثم قيل ومقتا كأنه قيل هو فاحشة فى دين الله بالغة فى القبح قبيح ممقوت فى المروأة ولا مزيد على ما يجمع القبحين (وساء) أى بئس (سبيلا) أى طريقا ذلك روى عن البراء بن عازب أنه قال مر بى خالى ومعه لواء فقلت أين تذهب فقال بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى رجل تزوج امرأة أبيه آتيه برأسه * واعلم أن أسباب التحريم المؤبد ثلاثة قرابة ورضاع ومصاهرة وضابط المحرمات بالنسب والرضاع أن يقال تحرم نساء القرابة الا من دخلت تحت ولد العمومة أو ولد الخؤلة وقد بدأ الله بالسبب الاول وهو القرابة فقال (حرمت عليكم

(أمهاتكم) أي العقد عليهن وكذلك يقدر في الباقي لان تحريم نكاحهن هو الذي يفهم من تحريمهن كما يفهم من تحريم الخمر تحريم شربها ومن تحريم لحم الخنزير تحريم أكله والامهات جمع أم وأصلها أمهة قاله الجوهري وضابط الام هي كل من ولدتك فهي أمك حقيقة أو ولدت من ولدك ذكرا كان أو أنثى كأم الاب وان علت وأم الام كذلك فهي أمك مجازا وان شئت قلت هي كل أنثى ينتهي اليها نسبك (وبناتكم) جمع بنت وضابطها هو كل من ولدتها فهي بنتك حقيقة أو ولدت من ولدها ذكرا كان أو أنثى كبنت ابن وان نزل و بنت بنت وان نزلت فبنتك مجازا وان شئت قلت كل أنثى ينتهي اليك نسبها وخرج بالبنت المخلوقة من ماء زنا الرجل فانها تحل له لانها أجنبية عنه بدليل منع الارث بالاجماع فلا تتبعض الاحكام ويحرم على المراة ولدها من زنا بالاجماع كما أجمعوا على أنه يرثها والفرق أن الابن كالعضو منها وانفصل منها انسانا ولا كذلك النطفة التي خلقت منها البنت بالنسبة للاب (وأخواتكم) جمع أخت وضابطها هو كل من ولدها أبواك أو أحدهما فهي أختك (وعماتكم) جمع عمة وضابطها هو كل من هي أخت ذكر ولدك بلا واسطة فعمتك حقيقة أو بواسطة كعمة أبيك فعمتك مجازا وقد تكون العمة من جهة الام كاخت أبي الام (وخالاتكم) جمع خالة وضابطها هو كل من هي أخت أنثى ولدتك بلا واسطة فخالتك حقيقة أو بواسطة كخالة أمك فخالتك مجازا وقد تكون الخالة من جهة الاب كاخت أم الاب (وبنات الاخ وبنات الاخت) من جميع الجهات وبنات أولادهم وان سفلن ثم ثنى بالسبب الثاني وهو الرضاع فقال (وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم) وضابط أمك من الرضاع هو كل من أرضعتك أو أرضعت من أرضعتك أو صاحب اللبن أو أرضعت من ولدك بواسطة أو غيرها أو ولدت مرضعتك بواسطة أو غيرها أو صاحب لبنها وهو الفحل بواسطة أو غيرها فأم رضاع (وأخواتكم من الرضاعة) وضابط أخت الرضاع هو كل من أرضعتها أمك أو ارتضعت بلبن أبيك أو ولدتها مرضعتك أو ولدها الفحل ويلحق بذلك بالسنة باقي السبع لخبر الصحيحين يحرم من الرضاع ما يحرم من الولادة وفي رواية حرموا من الرضاعة ما يحرم من الولادة وفي رواية حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب وضابط بنت الرضاع هو كل أنثى ارتضعت بلبنك أو لبن من ولدته بواسطة أو غيرها أو أرضعتها امرأة ولدتها بواسطة أو غيرها وكذا بناتها من نسب أو رضاع وان سفلن وضابط عمة الرضاع هو كل أخت للفحل أو اخت ذكر ولد الفحل بواسطة أو غيرها من نسب أو رضاع وضابط خالة الرضاع هو كل أخت للمرضعة أو أخت أنثى ولدت المرضعة بواسطة أو غيرها من نسب أو رضاع وضابط بنات الاخوة وبنات الاخوات من الرضاع كل أنثى من بنات أولاد المرضعة والفحل من الرضاع والنسب وكذا كل أنثى أرضعتها أختك أو ارتضعت بلبن أخيك وبناتها وبنات أولادها من نسب أو رضاع وانما تثبت حرمة الرضاع بشرطين أحدهما أن يكون قبل استكمال المولود حولين لقوله تعالى والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ولقوله صلى الله عليه وسلم لا يحرم من الرضاع الا ما فتق الامعاء وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم

لارضاع الا ما أنشر العظم وأنبت اللحم وانما يكون هذا في حال الصغر وعند أبي حنيفة مدة الرضاع ثلاثون شهرا لقوله تعالى وحمله وفصاله ثلاثون شهرا وهي عند الاكثرين لاقل مدة الحمل وأكثر مدة الرضاع وأقل مدة الحمل ستة أشهر وابتداء الحولين من تمام انفصاله والشرط الثاني ان توجد خمس رضعات متفرقات لما روى عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت فيما أنزل الله في القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخت بخمس معلومات فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي فيما يقرأ من القرآن أي يقرؤهن من لم يبلغه نسخهن فقد نسخت تلاوتهن وبقي حكمهن وهذا ما ذهب اليه الشافعي وذهب أكثر أهل العلم الى أن قليل الرضاع وكثيره محرم وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب واليه ذهب سفيان الثوري ومالك والاوزاعي وعبد الله بن المبارك وأبو حنيفة ويقوي الاول قوله صلى الله عليه وسلم لاتحرم المصة من الرضاع والمصتان ثم ثلث بالسبب الثالث وهو النكاح فقال تعالى (وأمهات نسائكم) أي بواسطة أو بغيرها من نسب أو رضاع سواء أدخل بزوجته أم لا لاطلاق الآية (وربائبكم) جمع ربيبة وهي بنت الزوجة من غيره وسميت ربيبة لانه يربيها كما يربي ولده في غالب الامر ثم اتسع فيه وسميت بذلك وان لم يربها وقوله تعالى (اللاتي في حجوركم) أي تربونهن صفة موافقة للغالب فلا مفهوم لها (من نسائكم اللاتي دخلتم بهن) أي جامعتموهن سواء أكان ذلك بعقد صحيح أم فاسد لاطلاق الآية (فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) أي في نكاح بناتهن اذا فارقتموهن (فان قيل) لم أعيد الوصف الى الجملة الثانية ولم يعد الى الجملة الاولى وهي وأمهات نسائكم مع أن الصفات عقب الجمل تعود الى الجميع (أجيب) بأن نساءكم الثاني مجرور بحرف الجر ونساءكم الاول مجرور بالاضافة واذا اختلف العامل لم يجز الاتباع وتعين القطع واعترض بأن المعمول الجر وهو واحد * (تنبيه) * قضية كلام الشيخ أبي حامد وغيره أنه يعتبر في الدخول أن يقع في حياة الام فلو ماتت قبل الدخول ووطئها بعد موتها لم تحرم بنتها لان ذلك لا يسمى دخولا وان تردد فيه الروياني (فان قيل) لم لم يعتبر الدخول في تحريم أصول البنت واعتبر في تحريمها الدخول (أجيب) بأن الرجل يبتلى عادة بمكالمة أمها عقب العقد لترتيب أموره فحرمت بالعقد ليسهل ذلك عليه بخلاف بنتها واستدخال الماء المحترم يثبت المصاهرة كالوطء وتحرم البنت المنفية باللعان وان لم يدخل بأمها لانها لا تنتفي عنه قطعا (وحلائل) أي أزواج (أبنائكم) واحدتها حليلة والذكر حليل سميا بذلك لان كل واحد منهما حلال لصاحبه وقيل سميا بذلك لان كل واحد يحل ازار صاحبه من الحل وهو ضد العقد وقوله تعالى (الذين من أصلابكم) احترازا عن حليلة المتبنى فانها لا تحرم على الرجل الذي تبناه فان النبي صلى الله عليه وسلم تزوج امرأة زيد بن حارثة وكان تبناه صلى الله عليه وسلم لا عن حليلة ولده من الرضاع فانها تحرم عليه ولا عن حلائل أبناء الولد وان سفلوا * (تنبيه) * كل امرأة تحرم عليك بعقد النكاح تحرم بالوطء في ملك اليمين والوطء بشبهة النكاح فاذا وطئ امرأة بشبهة أو جارية بملك اليمين حرم على الواطئ أمها وبنتها وتحرم الموطوأة على أبي الواطئ وابنه

ولو زنى بامرأة لم تحرم أمها ولا بنتها على الزاني ولا تحرم الزانية على أبي الزاني وابنه كما قاله ابن عباس وإليه ذهب مالك والشافعي وذهب قوم إلى التحريم يروى ذلك عن عمران بن حصين وأبي هريرة وهو قول أصحاب الرأي وهل المباشرة بشهوة كلمس وقبلة كالوطء في تحريم الربيبة فيه قولان أحدهما وهو الأصح من مذهب الشافعي لا لأن ذلك لا يوجب العدة فكذا لا يوجب الحرمة والثاني نعم لأن ذلك كالوطء بجامع التلذذ بالمرأة ولأنه استمتاع يوجب الفدية على المحرم فكان كالوطء وبهذا قال جمهور العلماء * ثم ذكر سبحانه وتعالى تحريم الجمع بقوله تعالى (وأن تجمعوا بين الأختين) أي ولا يجوز للرجل أن يجمع بين أختين في نكاح سواء كانتا من نسب أم رضاع سواء أنكحهما معا أم مترتبا فإذا نكح امرأة ثم طلقها بائنا جاز له نكاح أختها وخرج بالجمع في النكاح الجمع بملك اليمين فإنه جائز لكن لا يجوز أن يجمع بينهما في الوطء فإذا وطئ إحداهما لم يحل له وطء الأخرى حتى يحرم الأولى على نفسه ويلحق بالأختين بالسنة الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها من نسب أو رضاع ولو بواسطة قال صلى الله عليه وسلم لا تنكح المرأة على عمتها ولا العمة على بنت أخيها ولا المرأة على خالتها ولا الخالة على بنت أختها لا الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى رواه الترمذي وغيره وصححوه ولما فيه من قطيعة الرحم وإن رضيت بذلك فإن الطبع يتغير وإليه أشار صلى الله عليه وسلم في خبر النهي عن ذلك بقوله إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامهن كما رواه ابن حبان وغيره وضابط تحريم الجمع ابتداء ودواما هو كل امرأتين بينهما قرابة أو رضاع ولو فرضت إحداهما ذكرا حرم الجمع بينهما بنكاح أو وطء بملك اليمين وقوله تعالى (إلا ما قد سلف) استثناء عن لازم المعنى وهو المؤاخذة فكأنه قال تعالى تؤاخذون بذلك إلا ما قد سلف قبل النهي فلا تؤاخذون به أو منقطع أي لكن ما قد سلف من نكاح بعض ما ذكر فإنه مغفور لكم ويؤيد هذا قوله تعالى (إن الله كان غفورا) لما سلف منكم قبل النهي (رحيما) بكم في ذلك وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر من رواية ابن ذكوان وعاصم بإظهار دال قد عند السين والباقون بالإدغام (و) حرمت (المحصنات) أي ذوات الأزواج (من النساء) أن تنكحوهن قبل مفارقة أزواجهن سواء أكن حرائر أم لا مسلمات أم لا قال أبو سعيد الخدري نزلت في نساء كن هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهن أزواج فتزوجهن بعض المسلمين ثم قدم أزواجهن مهاجرين فنهى الله المسلمين عن نكاحهن ثم استثنى فقال (إلا ما ملكت أيمانكم) أي من الإماء بالسبي فلكم وطؤهن وإن كان لهن أزواج في دار الحرب بعد الاستبراء لأن بالسبي يرتفع النكاح بينها وبين زوجها قال أبو سعيد الخدري بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين جيشا إلى أوطاس فأصابوا سبايا لهن أزواج من المشركين فكرهوا غشيانهن وتحرجوا فأنزل الله هذه الآية * (فائدة) * قرأ الكسائي جميع ما في القرآن من لفظ المحصنات ومحصنات بكسر الصاد إلا هذا الحرف فإنه فتح الصاد موافقة للجميع ووجه تسميتهن بذلك لأنهن أحصن فروجهن بالتزويج فهن محصنات ومحصنات بالكسر في غير هذه الآية وقوله تعالى (كتاب الله) مصدر مؤكد لمضمون الجملة التي

قوله وهي حرمت عليكم الخ أي كتب الله (عليكم) تحريم هؤلاء كتابا وقوله تعالى (وأحل لكم) عطف على الفعل المضمر الذي نصب كتاب الله اذا قرئ بالبناء للفاعل كما قرأه غير حفص وحمزة والكسائي وأما هم فقرؤه بالبناء للمفعول عطفا على حرمت (ماوراء ذلكم) أي سوى ما حرم عليكم من النساء وقوله تعالى (أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) مفعول له والمعنى أحل لكم ماوراء ذلكم ارادة أن تبتغوا أي تطلبوا النساء بأموالكم التي جعل الله لكم قياما في حال كونكم محصنين أي متزوجين غير مسافحين أي زانين لئلا تضيعوا أموالكم وتفقروا أنفسكم فيما لا يحل لكم فتخسروا دنياكم ودينكم ولا مفسدة أعظم مما يجمع بين الخسرانين والاحصان العفة وتحصين النفس من الوقوع في الحرام والمسافح الزاني من السفح وهو صب المني وكان الفاجر يقول للفاجرة سافحيني ماذيني من المذي والاموال المهور وما يخرج في المناكح * (تنبيه) * يجوز ان يكون مفعول تبتغوا مقدرا وهو النساء كما قدرته لك قال الزمخشري والاجود ان لا يقدر وكأنه قيل أن تخرجوا أموالكم ويجوز أن يكون أن تبتغوا بدلا مما وراء ذلكم بدل اشتمال لان المبدل منه ذات والمبدل معنى والذات مشتملة عليه (فما) أي فمن (استمتعتم) أي تمتعتم (به منهن) أي ممن تزوجتم بالوطء (فآتوهن أجورهن) أي مهورهن فان المهر في مقابلة الاستمتاع وقوله تعالى (فريضة) حال من الاجور بمعنى مفروضة أو صفة مصدر محذوف أي ايتاء مفروضا أو مصدر مؤكد (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم) أنتم وهن (به من بعد الفريضة) فيما زاد على المسمى أو يحط عنه بالتراضي أو فيما تراضيا به من نفقة أو مقام أو فراق وقيل نزلت في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتح الله مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نسخت كان الرجل ينكح المرأة وقتا معلوما ليلة أو ليلتين أو اسبوعا بثوب أو غير ذلك ويقضي منها وطره ثم يسرحها سميت متعة لاستمتاعه بها أو لتمتعه لها بما يعطيها وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه أباحها ثم أصبح يقول يا أيها الناس اني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء الا ان الله حرم ذلك الى يوم القيامة وعن عمر رضي الله تعالى عنه انه قال لا أوتى برجل تزوج بامرأة الى أجل الا رجمتهما بالحجارة وعن ابن عباس انه قال هي محكمة أي لم تنسخ وكان يقرأ فما استمتعتم به الى أجل مسمى ويروى أنه رجع عن ذلك عند موته وقال اللهم اني أتوب اليك من قولي بالمتعة وقيل انها أبيحت مرتين وحرمت مرتين (ان الله كان عليما) بخلقه (حكيما) فيما دبره لهم (ومن لم يستطع منكم طولا) أي غنى وأصل الطول الفضل يقال لفلان على فلان طول أي زيادة فضل وقد طاله طولا فهو طائل كما قال القائل

لقد زادني حبا لنفسي انني * بغيض الى كل امرئ غير طائل

ومنه قولهم هذا أمر ما تحته طائل أي شيء يعتد به مما له فضل وخطر ومنه الطول في الجسم لانه زيادة فيه كما ان القصر قصور فيه ونقصان والمعنى ومن لم يستطع زيادة في المال وسعة (أن ينكح المحصنات) أي الحرائر وقوله تعالى (المؤمنات) جرى على الغالب فلا مفهوم له فان الحرائر الكتابيات كذلك (فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) أي اماتكم المؤمنات

أى ومن لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة أى أو الكتابية كما مر فليتزوج الامة المؤمنة وظاهر الآية حجة للشافعى رضى الله عنه فى تحريم نكاح الامة على من ملك ما يجعله صداق حرة ومنع نكاح الامة الكتابية مطلقا وأوّل أبو حنيفة رضى الله عنه طول المحصنات بأن يملك فراشهن على أن النكاح هو الوطء وحمل قوله من فتياتكم المؤمنات على الافضل كما حمل عليه قوله المحصنات المؤمنات ومن أصحابنا من حمله أيضا على التقييد وجوّز نكاح الامة لمن قدر على الحرة والكتابية دون المؤمنة حذرا من مخالطة الكفار وهو الاتهم والمحذور فى نكاح الامة رق الولد ولانها ممتهنة مبتذلة خراجة ولاجة وذلك كله نقصان راجع الى الناكح ومهانة والعزة من صفات المؤمنين واما وطؤها بملك اليمين فجائز باتفاق * (فائدة) * قوله تعالى فمن ما ملكت من مقطوعة عن ما (والله أعلم بايمانكم) أى يتفاضل ما بينكم وبين ارقائكم فى الايمان ورجحانه ونقصانه فيهم وفيكم وربما كان ايمان الامة أرجح من ايمان الحرة والمرأة أفضل فى الايمان من الرجل وحق المؤمنين أن لا يعتبروا الا فضل الايمان لا فضل الاحساب والانساب وهذا تأنيس بنكاح الاماء وترك الاستنكاف منه فانه العالم بالسرائر (بعضكم من بعض) أى أنتم واماؤكم سواء فى النسب والدين نسبكم من آدم ودينكم الاسلام فلا تستنكفوا من نكاحهن (فانكحوهن باذن أهلهن) أى مواليهن (وآتوهن أجورهن) أى أدوا اليهن مهورهن باذن أهلهن فحذف باذن لتقدم ذكره أو أدوا الى مواليهن فحذف المضاف للعلم بأن المهر للسيد لانه عوض حقه فيجب أن يؤدى اليه وقال مالك المهر للامة ذاهبا الى ظاهر الآية (بالمعروف) أى من غير مطل ولا ضرار وقوله تعالى (محصنات) أى عفيفات حال من ضمير فانكحوهن وهو محمول على الندب بناء على المشهور من جواز نكاح الزوانى (غير مسافحات) أى زانيات جهرا (ولا متخذات أخدان) أى اخلاء يزنون بهن سرا جمع خدن وهو الصديق فى السر وقيل المسافحات اللاتى يزنين مع أى رجل وذوات الاخدان اللاتى يزنين مع معين وذلك بحسب ما كان فى الجاهلية (فاذا أحصن) قرأ شعبة وحمزة والكسائى أحصن بفتح الهمزة والصاد على البناء للفاعل أى تزوجن والباقون بضم الهمزة وكسر الصاد على البناء للمفعول أى زوّجن (فان أتين بفاحشة) أى زنا (فعليهن نصف ما على المحصنات) أى الحرائر الابكار اذا زنين (من العذاب) أى الحد فيجلدن خمسين ويغربن نصف سنة ويقاس عليهن العبد (فان قيل) ما فائدة وجوب تنصيف الحد عليهن بتقييده بتزوجهن اذ تنصيف العذاب لازم للامة الزانية تزوجت أم لا (أجيب) بأن فائدة ذلك بيان أن لا رجم عليهن أصلا وبأنه انما ذكر لبيان جواب سؤال اذ الصحابة رضى الله تعالى عنهم عرفوا مقدار حد الامة قبل التزوج دون مقداره بعده فسألوا عنه النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية وذهب بعضهم الى أنه لا حد على من لم يتزوج من المماليك اذا زنا أخذا بظاهر الآية وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال اذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم ان عادت فليجلدها الحد ولا يثرب عليها فان زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر (ذلك) أى نكاح الاماء عند عدم الطول (لمن

خشى) أى خاف (العنت) أى الزنا وأصله المشقة سمى به الزنا لانه سببها بالحد فى الدنيا أو العقوبة فى الاخرى (منكم) أيها الاحرار بخلاف من لم يخفه أما العبيد فيجوز لهم نكاح الاماء مطلقا لكن ان كان العبد مسلما فلابد أن تكون الامة مسلمة (وان تصبروا) عن نكاح الاماء متعففين (خير لكم) لئلا يصير الولد رقيقا وعن النبى صلى الله عليه وسلم الحرائر صلاح البيت والاماء هلاك البيت (والله غفور) لمن لم يصبر (رحيم) بأن وسع له فى ذلك (يريد الله ليبين لكم) شرائع دينكم ومصالح أموركم (ويهديكم) أى يرشدكم (سنن) أى شرائع (الذين من قبلكم) من الانبياء فى التحريم والتحليل فتتبعوهم (ويتوب عليكم) أى ويتجاوز عنكم ما أصبتم قبل أن يبين لكم (والله عليم) بكم (حكيم) فيما دبره لكم (والله يريد أن يتوب عليكم) ان وقع منكم تقصير فى دينه (ويريد الذين يتبعون الشهوات) قال السدى هم اليهود والنصارى وقال بعضهم هم المجوس لانهم يستحلون نكاح الاخوات وبنات الاخ والاخت فلما حرمهن الله قالوا فانكم تحلون بنات الخالة والعمة والخالة والعمة عليكم حرام فانكحوا بنات الاخ والاخت فنزلت وقال مجاهد هم الزناة (أن تميلوا) أى تعدلوا عن الحق (ميلا عظيما) بارتكاب ما حرم عليكم فتكونوا مثلهم (يريد الله أن يخفف عنكم) أى يسهل عليكم احكام الشرع وقد سهل كما قال تعالى ويضع عنهم اصرهم وقال صلى الله عليه وسلم بعثت بالحنيفية السمحة أى السهلة (وخلق الانسان ضعيفا) لا يصبر عن الشهوات وعلى مشاق الطاعات وعن سعيد بن المسيب ما أيس الشيطان من أحد قط الا أتاه من قبل النساء فقد أتى على ثمانون سنة وذهبت احدى عينى وأنا أعشو بالاخرى وان أخوف ما أخاف على فتنة النساء وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ثمان آيات فى سورة النساء خير لهذه الامة مما طلعت عليه الشمس وغربت يريد الله ليبين لكم والله يريد أن يتوب عليكم يريد الله أن يخفف عنكم ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك ان الله لا يظلم مثقال ذرة ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه ما يفعل الله بعذابكم (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) أى بما لم تبحه الشريعة من نحو السرقة والخيانة والغصب والقمار والربا وقوله تعالى (الا أن تكون تجارة) استثناء منقطع أى لكن أن تقع تجارة على قراءة الرفع وهى قراءة غير عاصم وحمزة والكسائى وأما هؤلاء فقرؤا بالنصب على كان الناقصة واضمار الاسم أى الا أن تكون الاموال تجارة (عن تراض منكم) أى فلكم ان تأكلوها (ولا تقتلوا أنفسكم) أى بارتكاب ما يؤدى الى هلاكها فى الدنيا والآخرة وقال الحسن يعنى اخوانكم أى لا يقتل بعضكم بعضا أو لا يقتل الرجل نفسه كما يفعله بعض الجهلة روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قتل نفسه بشئ فى الدنيا عذب به يوم القيامة وروى ان الله تعالى يقول بادرنى عبدى بنفسه فحرمت عليه الجنة وعن عمرو بن العاص انه تأوله فى التيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه صلى الله عليه وسلم (ان الله كان بكم) يا أمة محمد (رحيما) حيث أمر بنى اسرائيل بقتل الانفس ونهاكم عنه (ومن يفعل ذلك) أى ما نهى عنه من قتل النفس وغيره من المحرمات

وقوله تعالى (عدوانا) حال أى متجاوزا للحلال وقوله تعالى (وظلما) تأكيد وقيل أراد بالعدوان التعدى على الغير وبالظلم ظلم الشخص نفسه بتعريضها للعقاب (فسوف نصليه) أى ندخله (نارا) يحترق فيها (وكان ذلك على الله يسيرا) أى هينا لا عسر عليه فيه (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) أى كلا منهما وفسر جماعة الكبيرة بأنها ما لحق صاحبها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة وقال جماعة هى المعصية الموجبة للحد والاول أولى لانهم عدوا الربا وأكل مال اليتيم وشهادة الزور ونحوها من الكبائر ولا حد فيها وقال الامام هى كل جريمة تؤذن أى تعلم بقلة اكتراث مرتكبها بالدين وقال سفيان الثورى الكبائر ما كان بينك وبين العباد والصغائر ما كان بينك وبين الله واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم ينادى مناد من بطنان العرش يوم القيامة يا أمة محمد ان الله قد عفا عنكم جميعا المؤمنين والمؤمنات تواهبوا المظالم وادخلوا الجنة برحمتى وهى أشياء كثيرة قال ابن عباس هى الى السبعين أقرب وقال سعيد بن جبير هى الى السبعمائة أقرب أى باعتبار أصناف أنواعها (نكفر عنكم سيئاتكم) أى الصغائر وهى ما عدا الكبائر أى نكفر بفعل الطاعات كالصلاة والصوم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر ولا بأس بذكر شئ من النوعين فمن الاول تقديم الصلاة أو تأخيرها عن وقتها بلا عذر ومنع الزكاة وترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر مع القدرة ونسيان القرآن واليأس من رحمة الله وأمن مكره تعالى والقتل عمدا أو شبه عمد والكفر والفرار من الزحف وأكل الربا وأكل مال اليتيم والافطار فى رمضان من غير عذر وعقوق الوالدين والزنا واللواط وشهادة الزور وشرب الخمر وان قل والسرقة والغصب وقيده جماعة بما يبلغ ربع مثقال كما يقطع به فى السرقة وكتمان الشهادة بلا عذر وضرب المسلم بغير حق وقطع الرحم والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسب الصحابة وأخذ الرشوة والنميمة وأما الغيبة فان كانت فى أهل العلم أو حملة القرآن فهى من الكبائر والا فهى صغيرة ومن الصغائر النظر المحرم وكذب لا حد فيه ولا ضرر والاشراف على بيوت الناس وهجر المسلم فوق ثلاث وكثرة الخصومات الا ان راعى حق الشرع فيها والضحك فى الصلاة والنياحة وشق الجيب فى المصيبة والتبختر فى المشى والجلوس بين الفساق ايناسا لهم وادخال مجانين وصبيان يغلب تنجيسهم ونجاسة المسجد واستعمال نجاسة فى بدن أو ثوب لغير حاجة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار وقيل الكبائر الشرك وما عداه من الصغائر قال الله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (وندخلكم مدخلا) قرأ نافع بفتح الميم أى موضعا (كريما) أى حسنا وهو الجنة وقرأ الباقون بضمها على المصدر بمعنى الادخال مع الكرامة (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) من جهة الدنيا والدين لئلا يؤدى الى التحاسد والتباغض لان ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم باحوال العباد وبما يصلح للمقسوم له من بسط فى الرزق وقبض ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض فعلى كل

أحد أن يرضى بما قسم له علما بأن ما قسم له هو المصلحة ولو كان خلافه لكان مفسدة له ولا يحسد أخاه على حظه قال مجاهد قالت أم سلمة يا رسول الله ان الرجال يغزون ولا نغزو ولهم ضعف ما لنا من الميراث فلو كنا رجالا غزونا وأخذنا من الميراث مثل ما أخذوا فنزلت هذه الآية وقيل لما جعل الله تعالى للذكر مثل حظ الانثيين فى الميراث قالت النساء نحن أحوج الى الزيادة من الرجال فانا ضعفاء وهم أقوياء وأقدر فى طلب المعاش منا فنزلت وقال قتادة والسدى لما أنزل الله تعالى للذكر مثل حظ الانثيين قال الرجال انا لنرجو أن نفضل على النساء فى الآخرة فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء كما فضلنا عليهن فى الميراث فأنزل الله تعالى (للرجال نصيب) أى ثواب (مما اكتسبوا) أى بسبب ما عملوا من الجهاد (وللنساء نصيب مما اكتسبن) أى من حفظ فروجهن وطاعة الله وطاعة أزواجهن فالرجال والنساء فى الاجر فى الآخرة سواء وذلك ان الحسنة تكون بعشر أمثالها يستوى فى ذلك الرجال والنساء وفضل الرجال على النساء انما هو فى الدنيا (واسألوا الله من فضله) أى لا تتمنوا ما للناس واسألوا الله ما احتجتم اليه يعطكم من خزائنه التى لا تنفد فنهى الله عن التمنى لما فيه من دواعى الحسد والحسد أن يتمنى الشخص زوال النعمة عن صاحبها سواء تمناها لنفسه أم لا والغبطة أن يتمنى لنفسه مثل ما لصاحبه وهو جائز قال صلى الله عليه وسلم لا حسد أى لا غبطة الا فى اثنتين الحديث (ان الله كان بكل شئ عليما) فهو يعلم ما يستحقه كل انسان فيفضل عن علم وتبيان (ولكل) من الرجال والنساء (جعلنا موالى) أى عصبة يعطون (مما ترك الوالدان والاقربون) لهم من المال فالوالدان والاقربون هم الموروثون وقيل معناه ولكل جعلنا موالى أى ورثة مما ترك أى من الذين تركهم فتكون ما بمعنى من ثم فسر الموالى فقال الوالدان والاقربون أى هم الوالدان والاقربون فعلى هذا القول الوالدان هم الوارثون (والذين عاقدت ايمانكم) والمعاقدة المعاهدة والمحالفة والايمان جمع يمين بمعنى القسم أو اليد وذلك أنهم كانوا عند المحالفة يأخذ بعضهم بيد بعض على الوفاء والتمسك بالعهد ومحالفتهم ان الرجل كان فى الجاهلية يعاقد الرجل فيقول دمى دمك وثأرى ثأرك وحربى حربك وسلمى سلمك وترثنى وأرثك وتطلب بى وأطلب بك وتعقل عنى وأعقل عنك فيكون للحليف السدس من مال الحليف وكان ذلك ثابتا فى ابتداء الاسلام فذلك قوله تعالى (فآتوهم نصيبهم) أى أعطوهم حظهم من الميراث ثم نسخ ذلك بقوله تعالى وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله وقال مجاهد أراد فآتوهم نصيبهم من النصر والرفد ولا ميراث وعلى هذا الآية غير منسوخة لقوله تعالى أوفوا بالعقود وقوله صلى الله عليه وسلم فى خطبته يوم فتح مكة لا تحدثوا حلفا فى الاسلام وما كان من حلف فى الجاهلية فتمسكوا به فانه لم يزده الاسلام الا شدة قال الزمخشرى وعند أبى حنيفة رحمه الله تعالى لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يتعاقلا ويتوارثا صح عنده وورث بحق الموالاة خلافا للشافعى رحمه الله تعالى اه وقرأ غير عاصم وحمزة والكسائى عاقدت بألف بين العين والقاف وأما هؤلاء الثلاثة فقرؤا عقدت بغير ألف بمعنى عقدت عهودهم ايمانكم فحذف العهود وأقيم الضمير المضاف

اليه مقامه ثم حذف كما حذف فى القراءة الاولى (ان الله كان على كل شئ شهيدا) أى مطلعا
فخافوه (الرجال قوامون على النساء) أى يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية وعلل ذلك
بأمرين أحدهما وهبى والآخر كسبى وقد ذكر الاول بقوله تعالى (بما فضل الله
بعضهم على بعض) أى بسبب تفضيله الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة
فى الاعمال والطاعات ولذلك خصوا بالنبوة والامامة والولاية واقامة الشعائر والشهادة
فى مجامع القضايا ووجوب الجهاد والجمعة والتعصيب وزيادة السهم فى الميراث والاستبداد
بالفراق والرجعة وعدد الازواج واليهم الانتساب وهم أصحاب اللحى والعمائم ثم ذكر
الثانى بقوله تعالى (وبما أنفقوا من أموالهم) فى نكاحهن كالمهر والنفقة روى أنه صلى الله
عليه وسلم قال لو أمرت أحدا أن يسجد لاحد لامرت الزوجة أن تسجد لزوجها وروى
أن سعد بن الربيع أحد نقباء الانصار نشزت عليه زوجته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير فلطمها
فانطلق بها أبوها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أفرشته كريمتى فلطمها فقال
لتقتص منه فنزلت فقال أردنا أمرا وأراد الله أمرا والذى أراد الله خير ورفع القصاص
(فالصالحات) منهن (قانتات) أى مطيعات لازواجهن (حافظات للغيب) أى لما يجب
عليهن حفظه فى حال غيبة أزواجهن من الفروج والبيوت والاموال وعن أبى هريرة رضى
الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير النساء امرأة اذا نظرت اليها سرتك
وان أمرتها أطاعتك وان غبت عنها حفظتك فى مالك ونفسها (بما حفظ الله) أى بما حفظهن
الله حين أوصى بهن الازواج فى كتابه وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال استوصوا بالنساء
خيرا أو بما حفظهن الله وعصمهن ووفقهن لحفظ الغيب أو بما حفظهن حين وعدهن الثواب
العظيم على حفظ الغيب وأوعدهن بالعذاب الشديد على الخيانة (واللاتى تخافون) أى
تظنون (نشوزهن) كما فى قوله تعالى فمن خاف من موص جنفا أو اثما (فعظوهن) أى خوفوهن
كأن يقول لزوجته اتقى الله فى الحق الواجب لى عليك واحذرى العقوبة ويبين لها أن النشوز
يسقط النفقة والقسم (واهجروهن فى المضاجع) أى اعتزلوهن فى الفراش (واضربوهن)
وان لم يتكرر النشوز ان أفاد الضرب والا فلا يضرب كما لا يضرب ضربا مبرحا ولا وجها ولا
مهالك ومع ذلك فالاولى له العفو وخرج بالعلم بالنشوز ما اذا ظهرت اماراته فقط اما بقول كأن
صارت تجيبه بكلام خشن بعد أن كان بلين واما بفعل كأن يجد منها اعراضا وعبوسا بعد تلطف
وطلاقة وجه فانه يعظها بلا هجر وبلا ضرب لعلها تبدى عذرا أو تتوب عما وقع منها بغير عذر
وخرج بالمضجع الهجر بالكلام فلا يجوز الهجر فوق ثلاثة أيام ويجوز فيها للخبر الصحيح لا يحل
لمسلم ان يهجر أخاه فوق ثلاث ان قصد بهجرها ردها لحظ نفسه فان قصد به ردها عن المعصية
واصلاح دينها فلا تحريم اذ النشوز حينئذ عذر شرعى والهجر له فى الكلام جائز مطلقا
ومنه هجره صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك وصاحبيه ونهيه الصحابة عن كلامهم
(فان أطعنكم) فيما يراد منهن (فلا تبغوا) أى لا تطلبوا (عليهن سبيلا) أى طريقا الى ضربهن ظلما

واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له رواه الطبراني وابن ماجه وغيرهما (ان الله كان عليا كبيرا) فاحذروه أن يعاقبكم ان ظلمتموهن فانه أقدر عليكم منكم على من تحت أيديكم (وان خفتم) أى علمتم (شقاق) أى خلاف (بينهما) أى بين المرء وزوجه وذكرهما بضميرهما وان لم يجر ذكرهما لجرى مايدل عليهما وهو الرجال والنساء واضافة الشقاق الى الظرف اما لاجرائه مجرى المفعول به كقوله ياسارق الليلة أهل الدار أو الفاعل كقولهم نهارك صائم (فابعثوا) أى أيها الحكام متى اشتبه عليكم حالهما اليهما لكن برضاهما (حكما من أهله) أى أقاربه (وحكما) آخر (من أهلها) أى أقاربها للنظر فى أمرهما بعد اختلاء حكمه به وحكمها بها ومعرفة ما عندهما فى ذلك ويصلحا بينهما أو يفرقا ان عسر الاصلاح على ما يأتى فان الاقارب أعرف ببواطن الاحوال وأطلب للصلاح *(تنبيه)* بعث الحكمين على سبيل الوجوب وكونهما من الاقارب على سبيل الندب وهما وكيلان لهما فاشترط رضاهما لا حكمان من جهة الحاكم لان الحال يؤدى الى الفراق والبضع حق الزوج والمال حق الزوجة وهما رشيدان فلا يولى عليهما فى حقهما فيوكل هو حكمه بطلاق أو خلع وتوكل هى حكمها ببذل عوض وقبول طلاق ويشترط فيهما اسلام وحرية وعدالة واهتداء الى المقصود من بعثهما له وانما اشترط فيهما ذلك مع انهما وكيلان لتعلق وكالتهما بنظر الحاكم كما فى أمينه ويسن كونهما ذكرين ولا يكفى حكم واحد (ان يريدا) أى الحكمان (اصلاحا يوفق الله بينهما) أى الزوجين أى ان قصدا اصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله تعالى بورك فى وساطتهما وأوقع الله بطيب أنفسهما وحسن سعيهما بين الزوجين الوفاق والالفة وألقى فى نفوسهما المودة والرحمة وقيل الضمير الاول للزوجين والثانى للحكمين أى ان يرد الزوجان اصلاحا يوفق الله بين الحكمين اختلافهما حتى يعملا بالاصلاح وقيل الضميران للحكمين أى ان قصدا الاصلاح يوفق الله بينهما لتتفق كلمتهما ويحصل مقصودهما وقيل للزوجين أى ان أرادا الاصلاح وزوال الشقاق أوقع الله بينهما الالفة والوفاق وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتحراه أصلح الله تعالى مبتغاه وان لم يرضيا ببعثهما ولم يتفقا على شئ أدب الحاكم الظالم واستوفى للمظلوم حقه (ان الله كان عليما) بكل شئ (خبيرا) بالبواطن كالظواهر فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق قال تعالى لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم (واعبدوا الله) أى وحدوه وأطيعوه (ولا تشركوا به شيأ) أى شيأ من الاشراك جليا كان أو خفيا وعن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه انه قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هل تدرى يا معاذ ما حق الله على الناس قال قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيأ أتدرى يا معاذ ما حق الناس على الله تعالى اذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله أعلم قال فان حق الناس على الله ان لا يعذبهم قال قلت يا رسول الله ألا أبشر الناس قال دعهم يعملون (و) أحسنوا (بالوالدين احسانا) أى برا ولين جانب (وبذى القربى) أى صاحب القرابة (واليتامى والمساكين) ويدخل فى المساكين

الفقراء روى انه صلى الله عليه وسلم قال أنا وكافل اليتيم فى الجنة وفى رواية من مسح رأس يتيم ولم يمسحه الا لله كان له بكل شعرة تمر عليها يداه حسنات ومن أحسن الى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين وقرن بين أصبعيه (والجار ذى القربى) أى القريب منك فى النسب أو الجوار (والجار الجنب) أى البعيد عنك فى النسب أو الجوار روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها انها قالت يارسول الله ان لى جارين فالى أيهما أهدى قال الى أقربهما منك بابا وروى انه صلى الله عليه وسلم قال لابى ذر لا تحقرن من المعروف شيأ ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق واذا طبخت مرقة فأكثر ماءها واغرف لجيرانك منها وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه يورثه (والصاحب بالجنب) أى الرفيق فى السفر كما قاله ابن عباس ومجاهد أو المرأة تكون معه الى جنبه كما قاله على والنخعى أو الذى يصحبك رجاء نفعك فى تعلم علم أو حرفة أو نحو ذلك كما قاله ابن جريج وابن زيد (وابن السبيل) أى المسافر لانه يلازم السبيل أو الضيف كما عليه الاكثر روى انه صلى الله عليه وسلم قال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن الى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت وفى رواية من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام فما كان بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يحرجه (وما ملكت أيمانكم) أى من الارقاء من عبيد واماء روى أنه صلى الله عليه وسلم قال هم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل ما يغلبه فان كلفه ما يغلبه فليعنه عليه وفى رواية انه صلى الله عليه وسلم كان يقول فى مرضه الصلاة وما ملكت أيمانكم فجعل يتكلم وما يفيض بها لسانه (ان الله لا يحب من كان مختالا) أى متكبرا على الناس من أقاربه وأصحابه وجيرانه وغيرهم ولا يلتفت اليهم (فخورا) أى يتفاخر عليهم بما آتاه الله روى أنه صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل يتبختر فى بردين وقد أعجبته نفسه خسف به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وفى رواية لا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ثوبه خيلاء وقوله تعالى (الذين) مبتدأ (يبخلون) أى بما يجب عليهم (ويأمرون الناس بالبخل) بذلك (ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) من العلم والمال وهم اليهود بخلوا ببيان صفته صلى الله عليه وسلم وكتموها وكانوا يأتون رجالا من الانصار ويخالطونهم فيقولون لا تنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون ما يكون وخبر المبتدأ محذوف تقديره لهم وعيد شديد ويصح أن يكون الذين بدلا من قوله من كان أو منصوبا على الذم أو مرفوعا عليه أى هم الذين وقرأ حمزة والكسائى بالبخل بفتح الباء والخاء والباقون بضم الباء وسكون الخاء (واعتدنا للكافرين) بذلك وبغيره (عذابا مهينا) أى ذا اهانة وضع الظاهر فيه موضع المضمر اظهارا بأن من هذا شأنه فهو كافر بالله لكتمانه صفة النبى صلى الله عليه وسلم وكافر بنعمة الله عليه وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا أنعم الله على عبد نعمة

أحب أن ترى نعمته على عبده وبنى عامل للرشيد قصرا حذاء قصره فنم به عنده فقال الرجل يا أمير المؤمنين ان الكريم يسره ان ترى أثر نعمته فأحببت ان أسر لك بالنظر الى آثار نعمتك فأعجبه كلامه وقوله تعالى (والذين) عطف على الذين قبله (ينفقون أموالهم رئاء الناس) أى مرائين لهم (ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) أى كالمنافقين ومشركى مكة المنفقين أموالهم فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم (ومن يكن الشيطان له قرينا) أى صاحبا يعمل بأمره كهؤلاء (فساء) أى فبئس (قرينا) هو حيث حملهم على البخل والرياء وكل شر وزينه لهم كقوله تعالى ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين والمراد ابليس وأعوانه الداخلة فى باطن الانسان والخارجة عنه ويجوز أن يكون وعيدا لهم بأن الشيطان يقرن بهم فى النار (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وانفقوا مما رزقهم الله) أى أى ضرر عليهم فى ذلك والاستفهام للانكار ولو مصدرية أى لا ضرر فيه وانما الضرر فيما هم عليه وقوله تعالى (وكان الله بهم عليما) وعيد لهم فمجازيهم بما عملوا (ان الله لا يظلم) أحدا (مثقال) أى وزن (ذرة) وهى أصغر نملة ويقال لكل جزء من أجزاء الهباء فى الكوة أى لا ينقص قدر ذلك من حسناته ولا يزيده فى سيآته كما قال تعالى ان الله لا يظلم الناس شيأ وفى ذكر المثقال ايماء الى أنه وان صغر قدره عظم جزؤه وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه أدخل يده فى التراب فرفعها ثم نفخ فيه فقال كل واحدة من هؤلاء ذرة (وان تك حسنة) أى وان يك المثقال حسنة (يضاعفها) أى ثوابها من عشر الى أكثر من سبعمائة وعن أبى عثمان النهدى أنه قال لابى هريرة بلغنى عنك أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يعطى عبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة قال أبو هريرة لا بل سمعته يقول ان الله يعطيه ألفى ألف حسنة ثم تلا هذه الآية وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة قال واما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى اذا أفضى الى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا وفى رواية اذا خلص المؤمنون من النار وأمنوا فما مجادلة أحدكم لصاحبه فى الحق يكون له فى الدنيا بأشد مجادلة من المؤمنين لربهم فى اخوانهم الذين أدخلوا النار قال يقولون ربنا اخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويحجون معنا فأدخلتهم النار قال فيقول اذهبوا فأخرجوا من عرفتم منهم فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم لا تأكل النار صورهم فمنهم من أخذته النار الى أنصاف ساقيه ومنهم من أخذته الى ركبتيه فيخرجونهم فيقولون ربنا قد أخرجنا من أمرتنا قال ثم يقول أخرجوا من كان فى قلبه وزن دينار ثم من كان فى قلبه وزن نصف دينار حتى يقول من كان فى قلبه مثقال ذرة قال أبو سعيد فمن لم يصدق فليقرأ هذه الآية ان الله الخ قال فيقولون ربنا قد أخرجنا من أمرتنا فلم يبق أحد فى النار فيه خير ثم يقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفعت الانبياء وشفعت المؤمنون وبقى أرحم الراحمين قال فيقبض قبضة من النار أو قال قبضتين ناسا لم يعملوا خيرا حتى احترقوا حتى صاروا حمما فيؤتى بهم الى ماء يقال له ماء الحياة فيصب عليهم فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل وهى بكسر

الحاء المهملة وتجمع على حبب قال فتخرج أجسادهم مثل اللؤلؤ في أعناقهم الخاتم عتقاء الله فيقال لهم ادخلوا الجنة فما تمنيتم أو رأيتم من شئ فهو لكم قال فيقولون ربنا أعطيتنا مالم تعط أحدا من العالمين قال فيقول الله تعالى فان لكم عندي أفضل منه فيقولون ربنا وما أفضل من ذلك فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم أبدا (فان قيل) لم أنث الضمير مع انه راجع للمثقال وهو مذكر (أجيب) بأنه أنثه لتأنيث الخبر أو لاضافة المثقال الى مؤنث وقيل ان الضمير راجع الى ذرة وهي مؤنثة لا الى مثقال وحذفت النون تشبيها بحروف العلة وقرأ نافع وابن كثير حسنة برفع التاء على كان التامة والباقون بنصبها على كان الناقصة وقرأ ابن كثير وابن عامر يضعفها بتشديد العين ولا ألف قبلها والباقون بتخفيف العين وألف قبلها (ويؤت) أي يعط صاحب الحسنة (من لدنه) أي من عند الله على سبيل التفضل زائدا على ما وعد في مقابلة العمل (أجرا عظيما) أي عطاء جزيلا وانما سماه أجرا لانه تابع للاجر مزيد عليه لا يثبت الا بثباته (فكيف) حال الكفار (اذا جئنا من كل أمة بشهيد) يشهد عليها بعملها وهو نبيها لقوله تعالى وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم (وجئنا بك) يا محمد (على هؤلاء) الشهداء (شهيدا) أي شاهدا تشهد على صدقهم لعلمك بعقائدهم واستجماع شرعك على مجامع قواعدهم وقيل هؤلاء اشارة الى المؤمنين لقوله تعالى لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وقيل الى الكافرين المستفهم عن حالهم وعن ابن مسعود أنه قرأ سورة النساء على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله وجئنا بك على هؤلاء شهيدا فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال حسبك (يومئذ) أي المجيء وهو يوم القيامة (يود) أي يتمنى (الذين كفروا وعصوا الرسول لو) أي أن (تسوى بهم الارض) كالموتى أولم يبعثوا أولم يخلقوا وكانوا هم والارض سواء وقال الكلبي يقول الله عز وجل للبهائم والوحوش والطيور والسباع كونوا ترابا فتسوى بهن الارض فعند ذلك تمنى الكافر أنه لو كان ترابا كما قال تعالى ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم تسوى بضم التاء المبناء للمفعول والباقون بالفتح بالبناء للفاعل مع حذف احدى التاءين في الاصل وشدد السين نافع وابن عامر وخففها الباقون (ولا يكتمون الله حديثا) أي مما عملوه لان جوارحهم تشهد عليهم وقال الحسن انها مواطن ففي موطن لا يتكلمون ولا تسمع الا همسا وفي موطن يتكلمون ويكذبون ويقولون ما كنا مشركين وما كنا نعمل من سوء وفي موطن يسألون الرجعة وآخر تلك المواطن أن يختم على أفواههم وتتكلم جوارحهم وهو قوله تعالى ولا يكتمون الله حديثا وقال سعيد بن جبير قال رجل لابن عباس اني أجد في القرآن شيأ يختلف علي فقال هات ما اختلف عليك قال قال الله تعالى فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وقال تعالى وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وقال تعالى ولا يكتمون الله حديثا وقال والله ربنا ما كنا مشركين فقد كتموا وقال تعالى أم السماء بناها الى قوله والارض بعد ذلك دحاها فذلك خلق السماء قبل خلق الارض ثم قال أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين الى طائعين فذكر في هذه الآية خلق الارض قبل خلق السماء وقال

تعالى وكان الله غفورا رحيما وقال وكان الله عزيزا حكيما فكأنه كان ثم مضى فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون في النفخة الاولى قال ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض فلا انساب عند ذلك ولا يتساءلون ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون في النفخة الآخرة ثم أقبل بعضهم على بعض يتساءلون وأما قوله والله ربنا ما كنا مشركين ولا يكتمون الله حديثا فان الله يغفر لاهل الاخلاص ذنوبهم فقال المشركون تعالوا نقل لم نك مشركين فختم على افواههم فتنطق أيديهم وأرجلهم فعند ذلك عرفوا ان الله لا يكتم حديثا وعنده يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الارض وخلق الارض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى الى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحا الارض في يومين ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والآكام وما بينهما في يومين آخرين فقال خلق الارض في يومين فخلقت الارض وما فيها من شئ في أربعة أيام وخلقت السموات في يومين وكان الله غفورا رحيما أى لم يزل كذلك فلا يختلف عليك القرآن فان كلا من عند الله (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة) أى لا تغشوها ولا تقوموا اليها واجتنبوها (وأنتم سكارى) من الشراب (حتى تعلموا ما تقولون) بأن تصحوا منه كقوله تعالى ولا تقربوا الزنا ولا تقربوا الفواحش روى أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما وشرابا فدعا نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان الخمر مباحا فأكلوا وشربوا فلما سكروا وجاء وقت صلاة المغرب فقدموا أحدهم يصلي بهم فقرأ قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون بحذف لا هكذا الى آخر السورة فنزلت وكانوا لا يشربونها في أوقات الصلاة فاذا صلوا العشاء شربوها فلا يصبحون الا وقد ذهب عنهم السكر وعلموا ما يقولون ثم نزل تحريمها وقيل أراد بالصلاة مواضعها وهي المساجد وقيل أراد بالسكر سكر النوم ونهى عن الصلاة عند غلبة النوم قال صلى الله عليه وسلم اذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم فان أحدكم اذا صلى وهو ناعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه وقوله تعالى (ولا جنبا) منصوب على الحال أى ولا تقربوا الصلاة وأنتم جنب بايلاج او انزال يقال رجل جنب وامرأة جنب ورجال ونساء جنب لانه يجرى مجرى المصدر لا أنه مصدر بل هو اسم مصدر لانه لم يستوف حروف الفعل لان فعله أجنب فمصدره اجنابا بالاجناب وأصل الجنابة البعد وسمى جنبا لانه يجتنب موضع الصلاة أو لمجانبته الناس وبعده منهم حتى يغتسل (الا عابرى) أى مجتازى (سبيل) أى طريق أو مسافرين (حتى تغتسلوا) أى فلكم أن تصلوا واستثناء المسافر له حكم آخر سيأتى وفي هذا دليل على أن التيمم لا يرفع الحدث لانه غياه بقوله حتى تغتسلوا ومن فسر الصلاة بمواضعها فسر عابرى سبيل بالمجتازين فيها وجوز للجنب عبور المسجد وبه قال الشافعي رضي الله تعالى عنه وقال أبو حنيفة لا يجوز له المرور الا اذا كان فيه الماء أو الطريق الى الماء (وان كنتم مرضى) أى مرضا يخاف معه من استعمال الماء فان الواجد كالفاقد (أو على سفر) أى مسافرين وأنتم جنب أو محدثون (أو جاء أحد منكم من الغائط) أى أحدثتم

بخروج الخارج من أحد السبيلين والغائط المكان المطمئن من الارض تقضى فيه الحاجة سمى باسمه الخارج للمجاورة (أو لامستم النساء) قرأ حمزة والكسائى بغير ألف بين اللام والميم والباقون بألف واختلف فى معنى اللمس والملامسة فقال قوم هما التقاء البشرتين سواء أكان بجماع أم بغيره وهو قول ابن مسعود وابن عمر والشعبى والنخعى وبه استدل الشافعى رضى الله تعالى عنه على أن اللمس ينقض الوضوء وقال قوم هما الجامعة وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة كنى باللمس عن الجماع لان باللمس يوصل الى الجماع (فلم تجدوا ماء) تطهرون به للصلاة بعد الطلب لانه لا يسمى غير واجد الا بعد الطلب وهذا راجع الى ماعدا المرض (فتيمموا) أى بعد دخول الوقت (صعيدا طيبا) أى ترابا طاهرا أى طهورا أما المرضى فيتيممون مع حضور الماء لان وجوده بالنسبة اليهم كالعدم (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) مع المرفقين منه بضربتين كما ثبت فى الحديث وقال الزجاج الصعيد وجه الارض ترابا كان أو غيره وان كان صخرا لا تراب عليه لو ضرب المتيمم يده عليه ومسح لكان ذلك طهوره والى هذا ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى وأجاب عن قوله تعالى فى آية المائدة فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه أى بعضه وهو لا يتأتى فى الصخر الذى لا تراب عليه بأن من لابتداء الغاية قال الزمخشرى وقولهم انها لابتداء الغاية فيه تعسف ولا يفهم أحد من العرب من قول القائل مسحت برأسى من الدهن ومن الماء ومن التراب الا معنى التبعيض قال والاذعان للحق أحق من المراء والتيمم من خصائص هذه الامة روى عن حذيفة رضى الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الارض كلها مسجدا وجعلت تربتها لنا طهورا اذا لم نجد الماء وكان بدء التيمم ماروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره حتى اذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لى فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى الناس أبا بكر فقالوا ألا ترى ماصنعت عائشة أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء فجاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع راسه على فخذى قد نام فقال حبست رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء فعاتبنى أبو بكر وقال ماشاء الله أن يقول وجعل يطعن بيده فى خاصرتى ولا يمنعنى من التحرك الا مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم فقال اسيد بن حضير وهو أحد النقباء ماهى بأول بركتكم يا آل أبى بكر فقالت عائشة فبعثنا البعير الذى كنت عليه فوجدنا العقد تحته وفى رواية أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا من أصحابه فى طلبها فأدركتهم الصلاة فصلوا بغير وضوء فلما أتوا النبى صلى الله عليه وسلم شكوا ذلك اليه فنزلت فقال أسيد بن حضير جزاك الله خيرا فوالله مانزل بك أمر قط الا جعل الله لك منه مخرجا وجعل للمسلمين فيه بركة وقوله تعالى

(انّ الله كان عفوّا غفورا) كناية عن الترخيص والتيسير لانّ من كانت عادته أن يعفو عن الخطائين ويغفر لهم آثر ما كان ميسورا غير معسر (ألم تر) أى تنظر (الى الذين أوتوا نصيبا) أى حظا يسيرا (من الكتاب) أى من علم التوراة وهم أحبار اليهود (يشترون) أى يختارون (الضلالة) على الهدى (ويريدون أن تضلوا) أيها المؤمنون (السبيل) أى تخطئوا طريق الحق لتكونوا أمثالهم (والله أعلم) منكم (بأعدائكم) فيخبركم بهم لتجتنبوهم ولا تستصحبوهم فانهم أعداؤكم (وكفى بالله وليا) أى حافظا (وكفى بالله نصيرا) أى مانعا لكم من كيدهم وقوله تعالى (من الذين هادوا) بيان للذين أوتوا نصيبا من الكتاب لانهم يهود ونصارى وقوله تعالى والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا جمل توسطت بين البيان والمبين على سبيل الاعتراض أو بيان لاعدائكم وما بينهما اعتراض أو صلة لنصيرا أى ينصركم من الذين هادوا كقوله تعالى ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا أو خبر مبتدا محذوف صفته (يحرّفون الكلم عن مواضعه) أى من الذين هادوا قوم يحرفون أى يغيرون الكلم الذى أنزل فى التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم عن مواضعه التى وضع عليها بازالته عنها واثبات غيره فيها وفى المائدة من بعد مواضعه والمعنيان متقاربان قال ابن عباس كانت اليهود يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألونه عن الامر فيخبرهم ويرى أنهم يأخذون بقوله فاذا انصرفوا من عنده حرّفوا كلامه (ويقولون) للنبى صلى الله عليه وسلم اذا أمرهم (سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك (واسمع غير مسمع) بمعنى الدعاء أى لاسمعت بصمم أو بموت أو بمعنى اسمع منا ولا نسمع منك أو بمعنى اسمع غير مسمع كلاما ترضاه (و) يقولون له (راعنا) يريدون به النسبة الى الرعونة وقد نهى عن خطابه صلى الله عليه وسلم بها وهى كلمة سب بلغتهم (ليا) أى تحريفا (بألسنتهم) أى يحرفون ما يظهرون من الدعاء والتوقير الى ما يضمرونه من السب والتحقير نفاقا (وطعنا) أى قدحا (فى الدين) أى الاسلام (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا) بدل وعصينا (واسمع) أى فقط (وانظرنا) أى انظر الينا بدل راعنا (لكان خيرا لهم) مما قالوه (وأقوم) أى أعدل وأصوب (ولكن لعنهم الله) أى أبعدهم عن رحمته (بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا) أى ايمانا قليلا لا يعبأ به وهو الايمان ببعض الآيات والرسل ويجوز أن يراد بالقلة العدم أو الا نفرا قليلا منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه (يا أيها الذين أوتوا الكتاب) يخاطب اليهود (آمنوا بما نزلنا) أى القرآن (مصدّقا لما معكم) أى التوراة وذلك أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم كلم أحبار اليهود عبد الله بن صوريا وأصحابه وكعب بن أسد وقال يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا فوالله انكم لتعلمون ان الذى جئتكم به لحق قالوا ما نعرف ذلك وانصرفوا على الكفر فنزلت (من قبل أن نطمس وجوها) أى نمحو تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم (فنردّها على أدبارها) أى فنجعلها كالاقفاء مطموسة مثلها أو ننكسها الى ورائها فى الدنيا أو فى الآخرة روى أنّ عبد الله بن سلام لما سمع هذه الآية جاء الى النبىّ صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتى أهله ويده على وجهه وأسلم وقال يا رسول الله ما كنت أرى أن أصل اليك حتى يتحوّل وجهى فى قفاى وكذلك

كعب الاحبار لما سمع هذه الآية أسلم في زمن عمر رضي الله تعالى عنه فقال يارب آمنت يارب
أسلمت مخافة أن يصيبه وعيد هذه الآية (فان قيل) قد أوعدهم الله بالطمس ان لم يؤمنوا ثم لم
يؤمنوا ولم يفعل بهم ذلك (أجيب) بأن هذا الوعيد باق ويكون طمس ومسخ في اليهود قبل قيام
الساعة أو أن هذا كان وعيدا بشرط فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه رفع ذلك عن الباقين
وقيل أراد به في القيامة وقال مجاهد أراد بقوله نطمس وجوها أي نتركهم في الضلالة فيكون
المراد طمس وجه القلب والرد عن بصائر الهدى على أدبارها في الكفر والضلالة (أو نلعنهم)
أي نمسخهم قردة وخنازير (كما لعنا) أي مسخنا (أصحاب السبت) منهم قردة وخنازير (وكان
أمر الله) أي قضاؤه (مفعولا) أي نافذا وكائنا فيقع لا محالة ما أوعدتم به ان لم تؤمنوا (ان الله
لا يغفر أن يشرك به) أي لا يغفر الاشراك به قال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما لما نزل يا عبادي
الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا قالوا يا رسول الله
والشرك فنزلت * ولما أخبر بعدله أخبر تعالى بفضله فقال (ويغفر ما دون ذلك) الامر الكبير
العظيم من كل معصية سواء أكانت صغيرة أم كبيرة سواء أتاب فاعلها أم لا ورهب بقوله اعلاما
بأنه مختار لا يجب عليه شئ (لمن يشاء) وقال الكلبي نزلت هذه الآية في وحشي بن حرب
وأصحابه وذلك انه لما قتل حمزة وذهب الى مكة ندم هو وأصحابه وكتبوا الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم انا قد ندمنا على ما صنعنا وانه ليس يمنعنا عن الاسلام الا انا سمعناك تقول وأنت بمكة
والذين لا يدعون مع الله الها آخر الآيات وقد دعونا مع الله الها آخر وقتلنا النفس التي حرم الله
قتلها وزنينا فلولا هذه الآيات لاتبعناك فنزل الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا الآيتين فبعث
بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فلما قرؤهما كتبوا اليه ان هذا شرط شديد نخاف أن لا
نعمل عملا صالحا فنزل ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فبعث بها اليهم فبعثوا
اليه انا نخاف أن لا نكون من أهل مشيئته فنزل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا
من رحمة الله الآية فبعث بها اليهم فدخلوا في الاسلام ورجعوا الى النبي صلى الله عليه وسلم
فقبل منهم ثم قال لوحشي أخبرني كيف قتلت حمزة فلما أخبره قال ويحك غيب وجهك عني فلحق
وحشي بالشأم فكان بها الى أن مات (ومن يشرك بالله فقد افترى) أي ارتكب (اثما عظيما)
أي كبيرا فالافتراء كما يطلق على القول يطلق على الفعل وكذا الاختلاق روى أن رجلا قال
يا رسول الله ما الموجبات قال من مات لا يشرك بالله شيأ دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيأ
دخل النار وروى أبو ذر أنه صلى الله عليه وسلم قال ما من عبد قال لا اله الا الله ثم مات على ذلك
الا دخل الجنة قلت وان زنى وان سرق قال وان زنى وان سرق قلت وان زنى وان سرق قال
وان زنا وان سرق قلت وان زنى وان سرق قال وان زنى وان سرق على رغم انف أبي ذر وكان
أبو ذر اذا حدث بهذا قال وان رغم انف أبي ذر (ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم) قال الحسن
وقتادة نزلت في اليهود والنصارى قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه وقالوا لن يدخل الجنة الا من
كان هودا أو نصارى وقال الكلبي نزلت في رجال من اليهود جاؤا الى رسول الله صلى الله

عليه وسلم بأطفالهم فقالوا هل على هؤلاء ذنب قال لا قالوا والله ما نحن الا كهيئتهم ما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل وما عملنا بالليل كفر عنا بالنهار ويدخل فى الآية كل من زكى نفسه ووصفها بزكاء العمل وزيادة الطاعة والتقوى والزلفى عند الله الا اذا كان لغرض صحيح وطابق الواقع كقول سيدنا يوسف صلى الله عليه وسلم اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم وقوله صلى الله عليه وسلم انى أمين فى السماء أمين فى الارض حين قال له المنافقون اعدل فى القسمة اكذابا انهم اذ وصفوه بخلاف ما وصفه به ربه ولكن شتان بين من شهد الله له بالتزكية ومن شهد لنفسه أو شهد له من لا يعلم (بل الله) الذى له صفات الكمال (يزكى من يشاء) أى بما له من العلم التام والقدرة الشاملة والحكمة البالغة وأصل التزكية نفى ما يستقبح فعلا وقولا (ولا يظلمون) أى ينقصون من أعمالهم (فتيلا) أى قدر ما يكون فى شق النواة قاله عكرمة عن ابن عباس فهو اسم لما فى شق النواة والقطمير اسم للقشرة التى على النواة والنقير اسم للنقطة التى تكون على ظهر النواة وقيل الفتيل من الفتل وهو ما يحصل بين الاصبعين من الوسخ عند الفتل * ولما أخبر سبحانه وتعالى أن التزكية انما هى اليه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (انظر) متعجبا (كيف يفترون) أى يتعمدون (على الله) الذى لا يخفى عليه شئ ولا يعجزه شئ (الكذب) من غير خوف منهم لذلك عاقبة ذلك (وكفى به) أى بهذا الكذب (اثما مبينا) أى بينا واضحا (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) وهما صنمان بمكة لقريش وذلك أن كعب بن الاشرف خرج فى سبعين راكبا من اليهود الى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقضوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه ونزلت اليهود فى دور قريش فقال أهل مكة انكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا نأمن أن يكون هذا مكرا منكم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن اليكم ففعلوا فهذا ايمانهم بالجبت والطاغوت لانهم سجدوا للاصنام وأطاعوا ابليس فيما فعلوا ثم قال أبو سفيان لكعب انك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقا نحن أم محمد قال كعب اعرضوا على دينكم فقال أبو سفيان نحن ولاة البيت نسقى الحاج الماء ونقرى الضيف ونفك العانى ونصل الرحم ونعمر بيت ربنا ونطوف به ونحن أهل الحرم ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم وديننا القديم ودين محمد الحديث فقال كعب أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد فأنزل الله تعالى ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا أى حظا من الكتاب وهم كعب بن الاشرف وأصحابه يؤمنون بالجبت والطاغوت أى الصنمين (ويقولون للذين كفروا) وهم أبو سفيان وأصحابه (هؤلاء) أى أنتم (أهدى من الذين آمنوا) وهم محمد وأصحابه (سبيلا) اى اقوم دينا وأرشد طريقا (أولئك الذين لعنهم الله) اى طردهم وأبعدهم من رحمته (ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) اى مانعا يمنع العذاب عنه بشفاعة او غيرها *(تنبيه)* فى هؤلاء أهدى همزتان من كلمتين الاولى مكسورة والثانية مفتوحة قرأ نافع وابن كثير

وابو عمرو بابدال الثانية ياء خالصة والباقون بالتحقيق (أم) منقطعة أى بل (لهم نصيب) أى حظ (من الملك) ومعنى الهمزة انكار أن يكون لهم شئ من الملك وجحد لما زعمت اليهود من ان الملك سيصير لهم ولو كان لهم نصيب منه (فاذا) أى فيتسبب عن ذلك أنهم (لايؤتون الناس) أى واحدا منهم (نقيرا) ومر أنه النقرة فى ظهر النواة وهو مثل فى القلة كالفتيل والقطمير والمراد بالملك اما ملك الدنيا واما ملك الله كقوله تعالى قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لامسكتم خشية الانفاق وهذا مبالغة فى شحهم فانهم بخلوا بالنقير وهم ملوك فما ظنك بهم اذا كانوا اذلاء منقادين ويصح أن يكون معنى الهمزة فى أم لانكار أنهم قد أوتوا نصيبا من الملك وكانوا أصحاب أموال وبساتين وقصور مشيدة كما تكون أحوال الملوك وانهم لايؤتون أحدا مما يملكون شيأ (أم) أى بل (يحسدون الناس) أى محمدا صلى الله عليه وسلم الذى جمع فضائل الناس الاولين والآخرين (على ما آتاهم الله من فضله) أى من النبوة والكتاب والنصرة والاعزاز وكثرة النساء أى يتمنون زواله عنه ويقولون لو كان نبيا لاشتغل عن النساء (فقد آتينا آل ابراهيم) وهو جد النبى صلى الله عليه وسلم ومن آل ابراهيم موسى وداود وسليمان (الكتاب) أى ما أنزل اليهم (والحكمة) أى النبوة (وآتيناهم ملكا عظيما) فلا يبعد أن يؤتيه الله تعالى مثل ما آتاهم فكان لداود تسع وتسعون امرأة وكان لسليمان ألف وثلثمائة حرة وسبعمائة سرية وقيل المراد بالناس الناس جميعا وقيل العرب وحسدوهم لان النبى الموعود منهم وقيل النبى وأصحابه لان من حسد على النبوة فكأنما حسد الناس كلهم على كمالهم ورشدهم (فمنهم) أى اليهود (من آمن به) أى بمحمد صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام واصحابه (ومنهم من صد) أى أعرض (عنه) فلم يؤمن به (وكفى بجهنم سعيرا) أى عذابا لمن لم يؤمن وقوله تعالى (ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم) أى ندخلهم (نارا) كالبيان والتقرير لذلك (كلما نضجت) أى احترقت (جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) بأن يعاد ذلك الجلد بعينه على صورة أخرى روى أن هذه الآية قرئت عند عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقال عمر للقارئ أعدها فأعادها وكان عنده معاذ بن جبل فقال معاذ عندى تفسيرها يبدله الله تعالى فى ساعة مائة مرة فقال عمر هكذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الحسن تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا (فان قيل) كيف تعذب جلود لم تكن فى الدنيا ولم تعص (أجيب) بأن المعاد انما هو الجلد الاول وانما قال جلودا غيرها لتبدل صفتها كما تقول صنعت من خاتمى خاتما غيره فالخاتم الثانى هو الاول الا أن الصناعة والصفة تبدلت وروى أن ما بين منكبى الكافر فى النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع وروى أن ضرسه أو نابه مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث (ليذوقوا العذاب) أى ليقاسوا شدته وقيل يخلق مكان ذلك الجلد جلد آخر والمعذب فى الحقيقة على كل حال هى النفس العاصية القائمة بالبدن لانها المدركة دونه (ان الله كان) ولم يزل (عزيزا) أى لايعجزه شئ (حكيما) فى خلقه يعاقب على وفق حكمته (والذين آمنوا) أى أقروا بالايمان (وعملوا الصالحات سندخلهم) أى بوعد لاخلف

فيه وربعا أفهم التنفيس لهم بالسين دون سوف كما فى الكافرين انهم أقصر الامم مدة أو انهم أقصرهم أعمارا راحة لهم من دار الكدر الى محل الصفاء وانهم يدخلون الجنة قبل جميع الفرق الناجية من أهل الموقف (جنات) أى بساتين ووصفها اعلاما يدبهجتها وبعظم نضرتها وزهرتها فقال (تجرى من تحتها الانهار) أى ان أرضها فى غاية الرى كل موضع صالح لان يجرى منه نهر ولما ذكر قيامها وما به دوامها أتبعه بعاتهوا دالنفوس من استقرار الاقامة بها فقال (خالدين فيها أبدا) وانما قدم تعالى ذكر الكفار ووعيدهم على ذكر المؤمنين ووعدهم لان الكلام فيهم وذكر المؤمنين بالعرض ولما وصف تعالى حسن الدار ذكر حسن الجار فقال تعالى (لهم فيها أزواج مطهرة) أى من الحيض والقذر (فان قيل) المطرد فى وصف جمع القلة لمن يعقل أن يكون بالالف والتاء فيقال مطهرات (أجيب) بأنه عدل عن ذلك الى الوحدة لافهام انهن لشدة الموافقة فى الطهر كذات واحدة (وندخلهم) أى فيها (ظلا) أى عظيما وأكده تعالى بقوله (ظليلا) أى متصلا لا فرج فيه منبسطا لا ضيق معه دائما لا تصيبه الشمس يوما ما لا حر فيه ولا برد بل هو فى غاية الاعتدال وهو ظل الجنة جعلنا الله تعالى ومن يحبنا ونحبه من أهلها السابقين مع النبيين والصديقين وقوله تعالى (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها) خطاب يعم المكلفين والامانات وان نزلت يوم الفتح فى عثمان بن طلحة بن عبد الدار لما أغلق باب الكعبة وصعد السطح فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم المفتاح ليدخلها فأبى وقال لو علمت أنه رسول لم أمنعه المفتاح فلوى على رضى الله تعالى عنه يده وأخذ منه المفتاح وفتح الباب فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت وصلى فيه ركعتين فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له بين السقاية والسدانة فأنزل الله هذه الآية فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا أن يرد المفتاح الى عثمان ويعتذر ففعل ذلك وقال هاك خالدة تالدة فعجب من ذلك وقال عثمان أكرهت وأذيت ثم جئت ترفق فقال قد أنزل الله فى شأنك قرآنا وقرأ عليه فقال عثمان أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فهبط جبريل وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السدانة تكون فى أولاد عثمان أبدا فلما مات عثمان دفعه الى أخيه شيبة فالمفتاح والسدانة فى أيديهم الى اليوم والى يوم القيامة فالآية وان وردت فى سبب خاص فعمومها معتبر بقرينة الجمع (واذا حكمتم بين الناس) أى قضيتم بين من ينفذ عليه أمركم أو يرضى بحكمكم (أن تحكموا بالعدل) أى بالسواء بأن تأمروا من وجب عليه حق بأدائه الى من هو له فان ذلك من أعظم الصالحات الموجبة لحسن المقيل فى الظل الظليل أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل الحديث وروى ان احب الناس الى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا امام عادل وان أبغض الناس الى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا امام جائر ولما أخبرهم بأمره زادهم رغبة بقوله (ان الله نعما) فيه ادغام ميم نعم فى ما النكرة الموصوفة أى نعم شيأ (يعظكم به) وهو تأدية الامانة والحكم بالعدل وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح النون وكسرها الباقون واختلس كسر العين قالون

وأبو عمرو وشعبة (ان الله كان) أى ولم يزل ولا يزال (سميعا) لكل ما يقال (بصيرا) بكل ما يفعل (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان وبدأ بهاهو العمدة فى الحمل على ذلك فقال (أطيعوا الله) أى فيما أمركم به (وأطيعوا الرسول) أى فيما بينه لكم (و) أطيعوا (أولى) أى أصحاب (الامر) أى الولاة (منكم) أى اذا أمروكم باطاعة الله ورسوله سواء كان ذلك فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أم بعده ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وامراء السرية روى أنه صلى الله عليه وسلم قال السمع والطاعة على المرء فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة وروى أنه صلى الله عليه وسلم خطب فى حجة الوداع فقال اتقوا الله وصلوا رحمكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا اذا أمركم تدخلوا جنة ربكم وقيل المراد بأولى الامر أبو بكر وعمر لقوله صلى الله عليه وسلم اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر وقال عطاء هم المهاجرون والانصار والتابعون لهم باحسان بدليل قوله تعالى والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان روى أنه صلى الله عليه وسلم قال مثل أصحابى وأمتى كالملح فى الطعام ولا يصلح الطعام الا بالملح قال الحسن فقد ذهب ملحنا فكيف نصلح وقيل المراد علماء الشرع لقوله تعالى ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم (فان تنازعتم) أى اختلفتم (فى شئ فردوه الى الله) أى كتابه (والرسول) أى مدة حياته وبعد وفاته الى سنته أى اكشفوا عليه منهما والرد الى الكتاب والسنة واجب ان وجد فيهما فان لم يوجد فسبيله الاجتهاد وقيل الرد الى الله والرسول أن يقول لما لا يعلم الله ورسوله أعلم (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أى فان الايمان يوجب هذا (ذلك) أى الرد اليهما (خير) لكم من التنازع والقول بالرأى (وأحسن تأويلا) أى من تأويلكم بلا رد أو عاقبة (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا) أى أوجدوا هذه الحقيقة وأوقعوها فى أنفسهم (بما أنزل اليك) أى القرآن (وما أنزل من قبلك) أى التوراة والانجيل قال الاصبهانى ولا يستعمل أى الزعم فى الاكثر الا فى القول الذى لا يتحقق يقال زعم فلان كذا اذا شك فيه فلا يعرف كذبه أو صدقه (يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت) أى الباطل المغرق فى البطلان وقيل هو كعب بن الاشرف روى عن ابن عباس أن بشرا المنافق خاصم يهوديا فقال اليهودى ننطلق الى محمد صلى الله عليه وسلم وقال المنافق بل الى كعب بن الاشرف فأبى اليهودى أن يخاصمه الا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى المنافق ذلك أتى معه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهودى فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال انطلق بنا الى عمر رضى الله عنه فأتيا عمر فقال اليهودى اختصمت انا وهذا الى محمد فقضى لى عليه فلم يرض بقضائه وزعم انه يخاصم اليك فقال عمر للمنافق أكذلك قال نعم فقال لهما عمر مكانكما حتى أخرج اليكما فدخل وأخذ سيفه ثم خرج فضرب عنق المنافق وقال هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله فنزلت هذه الآية وقال جبريل عليه السلام ان عمر فرق بين الحق والباطل فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أنت الفاروق والطاغوت على هذا هو كعب بن الاشرف سمى بذلك

لفرط طغيانه أو للتشبيه بالشيطان أو لان التحاكم اليه تحاكم الى الشيطان من حيث انه الحامل عليه (وقد) أى والحال انهم قد (أمروا) ممن له الامر فى كل ما أنزل اليك من كتاب وما قبله (أن يكفروا به) أى بالشيطان فتى تحاكموا اليه كانوا مؤمنين به كافرين بالله وهو معنى قوله (ويريد الشيطان) أى بارادتهم ذلك التحاكم اليه (أن يضلهم) أى المتحاكم اليه (ضلالا بعيدا) أى بحيث لا يمكنهم معه الرجوع الى الهدى ولما ذكر ضلالهم بالارادة ورغبتهم فى التحاكم الى الطاغوت ذكر فعلهم فيه فى نفرتهم عن التحاكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (واذا قيل لهم) أى من أى قائل كان وقرأ هشام والكسائى بضم القاف والباقون بالكسر وتقدم ذكر الادغام لابى عمرو (تعالوا) أى اقبلوا رافعين أنفسكم من وهاد الجهل الى شرف العلم (الى ما أنزل الله) أى الذى عنده كل شئ (والى الرسول) أى الذى تجب طاعته لاجل مرسله مع انه أكمل الرسل الذين هم أكمل الخلق رسالة (رأيت المنافقين يصدون) أى يعرضون (عنك) الى غيرك وأكد ذلك بقوله (صدودا) أى هو أعلى طبقات الصدود (فكيف) يكون حالهم (اذا أصابتهم مصيبة) أى عقوبة كقتل عمر رضى الله عنه المنافق (بما قدمت أيديهم) أى من التحاكم الى غيرك وعدم الرضا بحكمك ومن الكفر بغير ذلك أى أيقدرون على الاعراض والفرار منها لا وتم الكلام ههنا وقوله تعالى (ثم جاؤك) أى حين يصابون للاعتذار معطوف على يصدون وما بينهما اعتراض (يحلفون بالله ان) أى ما (أردنا) أى بالمحاكمة الى غيرك (الا احسانا) أى صلحا (وتوفيقا) أى تأليفا بين الخصمين ولم نرد مخالفتك وقيل جاء أصحاب القتيل طالبين بدمه وقالوا ما أردنا بالتحاكم الى عمر الا أن يحسن الى صاحبنا ويوفق بينه وبين خصمه بالتقريب فى الحكم دون الحمل على مر الحق (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم) أى من النفاق والبغض للاسلام وأهله وان اجتهدوا فى اخفائه وكذبهم فى حلفهم وعذرهم (فأعرض عنهم) أى عن عتابهم بالصفح لانهم أقل من أن يحسب لهم حساب (و) لكن (عظهم) أى خوفهم الله القادر على استئصالهم (وقل لهم فى أنفسهم) أى فى شأنها أو خاليا بهم فان النصح فى السر أنجع (قولا بليغا) أى مؤثرا فيهم أى ازجرهم ليرجعوا عن كفرهم وقيل هذا منسوخ بآية القتال ولما أمر الله تعالى بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذم من حاكم الى غيره وهدده وختم تهديده بأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالاعراض عنه والوعظ له فكان التقدير فما أرسلناك وغيرك من الرسل الا للرفق بالامة والصفح عنهم والدعاء لهم على غاية الجهد والنصيحة عطف عليه قوله (وما أرسلنا من رسول الا ليطاع) أى فيما يأمر به ويحكم لان منصبه الشريف يقتضى ذلك (باذن الله) أى بارادته من أنه يطاع فلا يعصى ولا يخالف (ولو أنهم اذ) أى حين (ظلموا أنفسهم) أى بالتحاكم الى الطاغوت أو غيره (جاؤك) أى تائبين (فاستغفروا الله) بالتوبة والاخلاص (واستغفر) أى شفع (لهم الرسول) اى اعتذروا اليه حتى انتصب لهم شفيعا وانما عدل عن الخطاب تفخيما لشأنه (لوجدوا الله توابا) عليهم (رحيما) بهم وقرأ أبو عمرو بادغام الراء فى اللام بخلاف عنه (فلا وربك) أى فوربك ولا مزيدة لتأكيد القسم (لا يؤمنون) أى يوجدون هذا

الوصف ويجدونه (حتى يحكموك) أى يجعلوك حكما (فيما شجر) أى اختلف واختلط (بينهم) من كلام بعضهم لبعض للتنازع حتى كانوا كأغصان الشجرة فى التداخل والتضايق (ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا) أى نوعا من الضيق (مما قضيت) به عليهم (ويسلموا تسليما) أى وينقادوا لك انقيادا بظواهرهم وبواطنهم وفى الصحيح ان الآية نزلت فى الزبير وخصم له من الانصار وقد شهد بدرا فى شراج من الحرة كانا يستقيان بها النخل فقال النبى صلى الله عليه وسلم للزبير اسق يا زبير ثم ارسل الى جارك فغضب الانصارى وقال يارسول الله أن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال اسق يا زبير ثم احبس حتى يبلغ الجدر واستوف حقك ثم ارسله الى جارك وقيل نزلت فى بشر المنافق واليهودى اللذين اختصما الى عمر (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) كما أمرنا بنى اسرائيل أو تعرضوا بها للقتل بالجهاد وان مصدرية أو مفسرة لان كتبنا فى معنى أمرنا وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائى بكسر النون فى الوصل والباقون بالضم (أو اخرجوا من دياركم) أى التى هى لاشباحكم كاشباحكم لارواحكم توبة لربكم (ما فعلوه) أى المكتوب عليهم أى انا ما كتبنا عليهم الا طاعة الله ورسوله والرضا بحكمه ولو كتبنا عليهم القتل والخروج من الديار ما كان يفعله (الا قليل منهم) قال الحسن ومقاتل لما نزلت هذه الآية قال عمر وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم القليل والله لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذى عافانا فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فقال ان من أمتى لرجالا الايمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى وقرأ ابن عامر قليلا بالنصب على الاستثناء والباقون بالرفع على البدل (ولو أنهم) أى هؤلاء المنافقين (فعلوا ما يوعظون به) من طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم (لكان خيرا لهم) فى عاجلهم وآجلهم مما اختاروه لانفسهم (وأشد تثبيتا) أى تحقيقا لايمانهم (واذا) أى لو ثبتوا (لآتيناهم من لدنا) أى من عندنا (أجرا عظيما) وهو الجنة (ولهديناهم صراطا مستقيما) يصلون بسلوكه جنات القدس وتفتح لهم أبواب الغيب قال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم رواه أبو نعيم فى حليته روى أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم قليل الصبر عنه فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه يعرف الحزن فى وجهه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غير لونك فقال يارسول الله ما بى مرض ولا وجع غير أنى اذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ثم ذكرت الآخرة وأخاف أن لا أراك لانك ترفع مع النبيين وانى ان دخلت الجنة كنت فى منزلة أدنى من منزلتك وان لم أدخل الجنة لا أراك أبدا فأنزل الله تعالى (ومن يطع الله) فى امتثال أوامره والوقوف عند زواجره (والرسول) أى فى كل ما أراده فان منصب الرسالة يقتضى ذلك لاسيما من بلغ نهايتها (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم) أى معدود من حزبهم فهو بحيث اذا أراد زيارتهم أو رؤيتهم وصل اليهم بسهولة وقوله تعالى (من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) بيان للذين حال منه أو من ضميره قسمهم أربعة أقسام بحسب منازلهم فى العلم والعمل وحث كافة الناس على

أن لا يتأخروا عنهم وهم الانبياء الفائزون بكمال العلم والعمل المتجاوزون حد الكمال الى درجة التكميل ثم الصديقون الذين صعدت نفوسهم تارة بمراقي النظر في الحجج والآيات وأخرى بمعارج التصفية والرياضات الى أوج العرفان حتى اطلعوا على الاشياء وأخبروا عنها على ما هي عليه ثم الشهداء الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجد في اظهار الحق حتى بذلوا مهجتهم في اعلاء كلمة الله تعالى ثم الصالحون الذين صرفوا أعمارهم في طاعته وأموالهم في مرضاته (وحسن) أي وما أحسن (أولئك) أي العالون الاخلاق السابقون (رفيقا) من الرفق وهو لين الجانب ولطافة الفعل وهو مما يستوي واحده وجمعه أي رفيقا في الجنة بأن يستمتع فيها برؤيتهم وزيارتهم والحضور معهم وان كان مقرهم في درجات عالية بالنسبة الى غيرهم روى عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رجلا قال يا رسول الله الرجل يحب قوما ولم يلحق بهم قال النبي صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب وروى أيضا أن رجلا قال يا رسول الله متى الساعة قال وما أعددت لها فلم يذكر كثيرا الا أنه يحب الله ورسوله قال فأنت مع من أحببت وقوله تعالى (ذلك) أي كونهم مع من ذكر مبتدأ خبره (الفضل من الله) أي تفضل به عليهم لا انهم نالوه بطاعتهم (وكفى بالله عليما) أي بجزاء من أطاعه أو بمقادير الفضل واستحقاق أهله روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قاربوا وسددوا واعلموا أنه لا ينجو أحد منكم بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل (يا أيها الذين آمنوا) أي أقروا بالايمان (خذوا حذركم) من عدوكم أي احترزوا منه وتيقظوا له والحذر والحذر كالاثر والاثر (فانفروا) أي اخرجوا الى قتاله مسرعين (ثبات) أي جماعات متفرقين سرية في اثر سرية جمع ثبة وهي الجماعة من الرجال فوق العشرة (أو انفروا جميعا) أي مجتمعين كوكبة واحدة قال البيضاوي والآية وان نزلت في الحرب لكن يقتضي اطلاق لفظها وجوب المبادرة الى الخيرات كلها كيفما أمكن قبل الفوات (وان منكم) الخطاب لعسكر النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين منهم والمنافقين (لمن ليبطئن) أي ليتأخرن وليتثاقلن عن القتال وهم المنافقون كعبد الله بن أبي المنافق وأصحابه وانما قال منكم لاجتماعهم مع أهل الايمان في الجنسية والنسب واظهار الاسلام لا في حقيقة الايمان (فان أصابتكم مصيبة) كقتل وهزيمة (قال) هذا المتبطئ جهلا منه وغلظة (قد أنعم الله علي اذ) أي حين (لم أكن معهم شهيدا) أي حاضرا فأصاب (ولئن) لام قسم (أصابكم فضل) أي فتح وظفر وغنيمة (من الله) الذي كل شئ بيده (ليقولن) نادما على ما فاته من الاغراض الدنيوية وأكده تنبيها على فرط تحسره وقوله تعالى (كأن) مخففة واسمها محذوف أي كأنه (لم تكن بينكم وبينه مودة) أي معرفة وصداقة رجع الى قوله قد أنعم الله علي اعتراض بين القول ومقوله وهو (يا) للتنبيه (ليتني كنت معهم فأفوز) أي بمشاركتهم في ذلك (فوزا عظيما) أي آخذ حظا وافرا من الغنيمة وقرأ ابن كثير وحفص بالتاء في تكن على التأنيث والباقون بالياء على التذكير ولما بين أن محط رحال القاعد عن الجهاد الدنيا علم أن قصد المجاهد الآخرة فقال تعالى (فليقاتل في سبيل الله) أي لاعلاء

دينه (الذين يشرون) أى يبيعون برغبة (الحياة الدنيا بالآخرة) وهم المؤمنون والمعنى ان تباطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المجاهدون الباذلون أنفسهم فى طلب الآخرة ويشرون أى يأخذون وهم المتباطئون فيختارونها على الآخرة والمعنى حثهم على ترك ما حكى عنهم وفى هذا استعمال للمشترك فى مدلوليه (ومن يقاتل فى سبيل الله) لاعلاء دينه (فيقتل) أى يستشهد (أو يغلب) أى يظفر بعدوه (فسوف نؤتيه أجرا عظيما) أى ثوابا جزيلا وانما وعده الاجر العظيم غلب أو غلب ترغيبا فى القتال وتكذيبا لقول المتبطئ قد أنعم الله على اذلم أكن معهم شهيدا وانما قال فيقتل أو يغلب تنبيها على أن المجاهد ينبغى أن يثبت فى المعركة حتى يعز نفسه بالشهادة أو الدين بالظفر والغلبة وان لا يكون قصده بالذات الى القتل بل الى اعلاء كلمة الحق واظهار الدين روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه من بيته الا الجهاد فى سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه الى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل القانت الصائم الذى لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجعه الله الى أهله انما يرجعه من غنيمة وأجر أو يتوفاه فيدخله الجنة وقوله تعالى (وما لكم لا تقاتلون) استفهام توبيخ أى لا مانع لكم من القتال (فى سبيل الله) لاعلاء دينه وقوله تعالى (والمستضعفين) عطف على اسم الله أى وفى سبيل المستضعفين وهو تخليصهم من الاسر وصونهم عن العدو وقوله تعالى (من الرجال والنساء والولدان) بيان للمستضعفين وهم المسلمون الذين حبسهم الكفار عن الهجرة وآذوهم قال ابن عباس كنت أنا وأمى منهم وانما ذكر الولدان مبالغة فى الحث وتنبيها على تناهى المشركين بحيث بلغ أذاهم الولدان وان دعوتهم أجيبت بسبب مشاركتهم فى الدعاء حتى يشاركوا فى استنزال الرحمة واستدفاع البلية وقيل المراد بهم العبيد والاماء وهم جمع وليد (الذين يقولون) أى داعين يا (ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) أى بالكفر (واجعل لنا من لدنك) أى من عندك (وليا) يتولى أمرنا (واجعل لنا من لدنك نصيرا) يمنعنا منهم وقد استجاب الله تعالى دعاءهم فيسر لبعضهم الخروج الى المدينة وبقى بعضهم الى أن فتحت مكة له صلى الله عليه وسلم فتولاهم ونصرهم ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد بفتح الهمزة وكسر السين فحماهم ونصرهم حتى صاروا أعز أهلها وكان حينئذ ابن ثمان عشرة سنة والقرية مكة والظالم صفتها وتذكيره لتذكير ما أسند اليه فان اسم الفاعل أو المفعول اذا جرى على غير من هو له كان كالفعل يذكر ويؤنث على حسب ما عمل فيه (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله) أى فى طاعة الله (والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) أى فى طاعة الشيطان (فقاتلوا) أيها المؤمنون (أولياء الشيطان) أى حزبه وجنوده وهم الكفار (ان كيد الشيطان) أى مكره بالمؤمنين (كان ضعيفا) بالاضافة الى كيد الله تعالى بالكافرين لا يعتد به فلا تخافوا أولياءه فان اعتمادهم على أضعف شئ وأوهنه كما فعل الشيطان يوم بدر لما رأى الملائكة خاف أن تأخذه فهرب وخذلهم (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم) أى عن قتال الكفار وهم جماعة من الصحابة كانوا يلقون

من

من المشركين أذى كثيرا قبل أن يهاجروا ويقولون يا رسول الله ائذن لنا في قتالهم فإنهم قد آذونا فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كفوا أيديكم فإني لم أومر بقتالهم (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فلما هاجروا إلى المدينة وأمرهم الله تعالى بقتال المشركين شق ذلك على بعضهم كما قال تعالى (فلما كتب) أي فرض (عليهم القتال) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم في الوصل وحمزة والكسائي بضم الهاء والميم في الوصل وأما الوقف فالجميع يسكنون الميم وحمزة بضم الهاء على أصله وكسرها الباقون (إذا فريق منهم يخشون) أي يخافون (الناس كخشية الله) أي كخشيتهم من الله (أو أشد خشية) من خشيتهم له * (تنبيه) * نصب أشد على الحال وجواب لما دل عليه إذا وما بعدها أي فاجأتهم الخشية (وقالوا) جزعا من الموت (ربنا لم كتبت علينا القتال لولا) أي هلا (أخرتنا إلى أجل قريب) وهو الموت أي هلا تركتنا حتى نموت بآجالنا واختلفوا في هؤلاء الذين قالوا ذلك فقيل قاله قوم من المنافقين لأن قوله لم كتبت علينا القتال لا يليق بالمؤمنين وقيل قاله جماعة من المؤمنين لم يكونوا راسخين في العلم قالوه خوفا وجبنا لا اعتقادا ثم تابوا وأهل الإيمان يتفاضلون فيه وقيل هم قوم كانوا مؤمنين فلما كتب عليهم القتال نافقوا من الجبن وتخلفوا عن الجهاد وقرأ البزي في الوقف لمه بهاء بعد الميم بخلاف عنه والباقون بالميم بغير هاء والهاء ساقطة في الوصل للجميع (قل) لهم يا محمد (متاع الدنيا) أي ما يتمتع به فيها أو الاستمتاع بها (قليل) أي آيل إلى الزوال (والآخرة) أي ثوابها وهو الجنة والنظر إلى الله تعالى (خير لمن اتقى) عقاب الله بترك معاصيه روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع (ولا تظلمون) أي تنقصون من أعمالكم (فتيلا) أي قدر ما يكون في شق النواة كما مر عن عكرمة وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ونزل في المنافقين الذين قالوا في قتلى أحد لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا (أينما تكونوا) أيها الناس كلكم مطيعكم وعاصيكم (يدرككم الموت) أي فإنه طالب لا يفوته هارب واختلف كتاب المصاحف في رسم أينما هنا فمنهم من كتب ما مقطوعة من أين ومنهم من وصلها (ولو كنتم في بروج) أي حصون بروج داخل برج أو كل واحد منكم داخل برج (مشيدة) أي مرتفعة كل واحد منها شاهق في الهواء منيع فلا تخشوا القتال خوف الموت ونزل في اليهود لما قالوا حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه (وإن تصبهم) أي اليهود (حسنة) أي خصب ورخص في السعر (يقولون هذه من عند الله) لنا لا مدخل لك فيها (وإن تصبهم سيئة) أي جدب وغلاء في الأسعار (يقولون هذه من عندك) أي من شؤم محمد وأصحابه وقيل المراد بالحسنة الظفر والغنيمة يوم بدر وبالسيئة القتل والهزيمة يوم أحد يقولون هذه من عندك أي أنت الذي حملتنا عليه يا محمد فعلى هذا يكون هذا قول المنافقين (قل) لهم يا محمد (كل) أي الحسنة والسيئة (من عند الله) ثم عيرهم بالجهل فقال (فما لهؤلاء القوم) أي اليهود والمنافقين (لا يكادون

يفقهون) اى لا يقاربون ان يفهموا (حديثا) يوعظون به وهو القرآن لانهم لوفهموه وتدبروا معانيه لعلموا ان الكل من عند الله او حديثا ما يلقى اليهم كبهائم لا افهام لهم وما استفهام تعجب من فرط جهلهم ونفى مقاربة الفعل اشد من نفيه (ما اصابك) اى أيها الانسان (من حسنة) اى نعمة دنيوية او اخروية (فمن الله) اتتك تفضلا منه والايمان احسن الحسنات قال الامام انهم اتفقوا على ان قوله ومن احسن قولا ممن دعا الى الله المراد به كلمة الشهادة (وما اصابك من سيئة) اى بلية وامر تكرهه (فمن نفسك) اتتك حيث ارتكبت ما يستوجبها من الذنوب (فان قيل) كيف الجمع بين قوله تعالى قل كل من عند الله وبين قوله فمن نفسك (اجيب) بأن قوله قل كل من عند الله اى الخصب والجدب والنصر والهزيمة كلها من عند الله وقوله فمن نفسك اى ما اصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك كما قال تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم وقيل ان هذه الآية متصلة بما قبلها والقول فيه مضمر تقديره فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا يقولون ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك قل كل من عند الله (وارسلناك) يا محمد (للناس) أى كافة رد لقوله تعالى (رسولا) حال قصد بها التأكيد (وكفى بالله شهيدا) على ارسالك بنصب المعجزات ولما قال النبى صلى الله عليه وسلم من أطاعنى فقد أطاع الله ومن أحبنى فقد أحب الله فقال بعض المنافقين ما يريد هذا الرجل الا أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم نزل (من يطع الرسول فقد أطاع الله) لانه فى الحقيقة مبلغ والآمر هو الله تعالى (ومن تولى) اى اعرض عن طاعتك فلا يهمنك (فما أرسلناك) يا محمد (عليهم حفيظا) اى حافظا لاعمالهم وتحاسبهم عليها انما عليك البلاغ وعلينا الحساب فنجازيهم وهذا قبل الامر بالقتال (ويقولون) اى المنافقون اذا امرتهم بشئ من امرنا وهم بحضرتك (طاعة) اى امرنا وشأننا طاعة أى نطيعك فيما تأمرنا به (فاذا برزوا) أى خرجوا (من عندك بيت طائفة منهم) اى اضمرت (غير الذى تقول) لك فى حضورك من الطاعة اى عصيتك وقرأ ابو عمرو وحمزة بادغام التاء فى الطاء فانها عندهما ساكنة اى التاء فاذا سكنت التاء قبل الطاء وجب ادغامها فيها والباقون بالاظهار فان التاء عندهم مفتوحة (والله يكتب) أى يأمر بكتب (ما يبيتون) أى ما يسرون من النفاق فى صحائفهم ليجازوا عليها (فأعرض عنهم) أى قلل المبالاة بهم (وتوكل على الله) أى ثق به فانه كافيك معرتهم وينتقم لك منهم (وكفى بالله وكيلا) اى مفوضا اليه (افلا يتدبرون) اى يتأملون (القرآن) وما فيه من المعانى البديعة (ولو كان من عند غير الله) اى ولو كان من كلام البشر كما زعم الكفار (لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) اى تناقضا فى معانيه وتباينا فى نظمه فكان بعضه فصيحا وبعضه ركيكا وبعضه تصعب معارضته وبعضه تسهل وتخالفا عن الصدق فى الاخبار عن الغيب بما كان وما يكون افلا يتفكرون فيه فيعرفون عدم التناقض فيه وصدق ما يخبرهم به انه كلام الله ولان ما لا يكون من عند الله لا يخلو عن تناقض واختلاف والمراد من التقييد بالكثير المبالغة فى اثبات الملازمة اى لو كان من عند غير الله للزم أن يكون فيه اختلاف كثير فضلا عن

القليل لكنه من عند الله فليس فيه اختلاف لا كثير ولا قليل (واذا جاءهم) اى المنافقين (امر) اى خبر عن سرايا النبي صلى الله عليه وسلم (من الامن) اى الغنيمة (او الخوف) اى القتل والهزيمة (اذاعوا به) اى افشوه وكانت اذاعتهم مفسدة والباء مزيدة ولتضمن الاذاعة معنى التحدث وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يبعث السرايا فاذا غلبوا بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم فيفشونه ويتحدثون به قبل أن يحدث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضعفون به قلوب المؤمنين ويتأذى النبي صلى الله عليه وسلم (ولو ردوه) اى ذلك الخبر (الى الرسول) اى لم يحدثوا به حتى يكون النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي يحدث به (والى أولى الامر منهم) اى ذوى الرأى من الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله تعالى عنهم (لعلمه) على اى وجه يذكر أى (الذين يستنبطونه منهم) اى يستخرجون تدابيره بتجاربهم وانظارهم هل ينبغي ان يكتم او يفشى (ولولا فضل الله عليكم) بالاسلام (ورحمته) لكم بارسال الرسل وانزال القرآن (لاتبعتم الشيطان) فيما يأمركم به من الكفر والمعاصي (الا قليلا) اى منكم فانهم لا يتبعونه حفظا من الله بما وهبهم الله من صحيح العقل والعصمة تقال فى حق غير الانبياء أيضا لانها المنع من المعصية ولكن الشائع ان يقال فى حق النبي معصوم وفى حق غيره محفوظ (فقاتل) يا محمد (فى سبيل الله لا تكلف الا نفسك) فلا تهتم بتخلفهم عنك اى قاتل ولو وحدك فانك موعود بالنصر من الله وليس النصر الا بيده وما كان لي أمر لشيء الا وأنت كفؤ له فأنت كفؤ لمقاتلة الكفار وان كانوا أهل الارض كلهم وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعد أبا سفيان بعد حرب أحد موسم بدر الصغرى فى ذى القعدة فلما بلغ الميعاد دعا الناس الى الخروج فكرهه بعضهم فأنزل الله هذه الآية *(تنبيه)* الفاء فى قوله تعالى فقاتل فى سبيل الله قال البغوى جواب عن قوله تعالى ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما فقاتل انتهى (وحرض المؤمنين) أى حثهم على القتال ورغبهم فيه اذ ما عليك فى شأنهم الا التحريض (عسى الله أن يكف بأس) أى حرب (الذين كفروا) وعسى فى كلام الله وعد واجب الوقوع بخلافها فى كلام المخلوق (والله أشد بأسا) أى صولة منهم (وأشد تنكيلا) أى عقوبة منهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لاخرجن ولو وحدى فخرج بسبعين راكبا الى بدر الصغرى فكف الله بأس الذين كفروا بالقاء الرعب فى قلوبهم ومنع أبا سفيان من الخروج كما تقدم فى سورة آل عمران (من يشفع شفاعة حسنة) راعى بها حق مسلم بأن دفع عنه بها ضررا أو جلب اليه نفعا ابتغاء وجه الله ومنها الدعاء للمسلم قال صلى الله عليه وسلم من دعا لاخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك ولك مثله أى مثل ذلك أى ودعاء الملك لا يرد (يكن له نصيب) أى أجر (منها) أى بسببها قال أبو موسى الاشعرى رضى الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا اذ جاءه رجل يسأل أو يطلب حاجة أقبل علينا بوجهه فقال اشفعوا فلتؤجروا وليقض الله على لسان نبيه ما شاء (ومن يشفع شفاعة سيئة) مخالفة للشرع (يكن له كفل) أى نصيب من الوزر (منها) أى بسببها (وكان الله على كل شيء مقيتا) قال ابن

عباس مقتدرا مجازيا قال الشاعر

وذى ضغن (أى رب صاحب حقد) كففت الضغن عنه

وكنت على اساءته (اى اساءتى لذى الضغن) مقيتا

أى مقتدرا وقال مجاهد شاهدا وقال قتادة حفيظا وقيل معناه على كل حيوان مقيتا أى يوصل القوت اليه وجاء فى الحديث كفى بالمرء اثما أن يضيع من يقوت (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها) التحية هى دعاء الحياة ولكن جمهور المفسرين على أن ذلك فى السلام أى اذا سلم عليكم مسلم فأجيبوه بأحسن مما سلم فاذا قال السلام عليكم فيزيد الراد ورحمة الله فاذا قال ورحمة الله فيزيد الراد وبركاته (أوردوها) اى بأن ترد عليه بمثل ما سلم روى ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليك فقال وعليك السلام ورحمة الله وقال آخر السلام عليك ورحمة الله فقال وعليك السلام ورحمة الله وبركاته وقال آخر السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال وعليك أى السلام ورحمة الله وبركاته فقال الرجل نقصتنى اى الفضل على سلامى فأين ما قال الله اى من الفضل وتلا الآية فقال لم تترك لى فضلا فرددت عليك مثله لان ذلك هو النهاية لاستجماعه اقسام المطالب وهى السلامة من المضار وحصول المنافع وثبوتها وظاهر الآية انه لورد عليه بأقل مما سلم عليه به انه لا يكفى وظاهر كلام الفقهاء انه يكفى وتحمل الآية على انه الاكمل وابتداء السلام على المسلم سنة عين من المنفرد وكفاية من الجماعة ورده فرض عين اذا كان المسلم عليه واحدا وكفاية من الجماعة ويشترط فى الرد الفور والوجوب مستفاد من الامر والفور من الفاء وأما كونه كفاية فلخبر أبى داود يجزئ عن الجماعة اذا مروا أن يسلم احدهم ويجزئ عن الجلوس ان يرد احدهم والراد منهم هو المختص بالثواب ويسقط الحرج عن الباقين وان أجابوا كلهم كانوا مؤدين للفرض سواء كانوا مجتمعين ام متفرقين كصلاة الجنازة ولا يسقط الفرض برد الصبى المميز (فان قيل) قد سقط به فرض الصلاة عن الجنازة (أجيب) بأن المقصود من الصلاة الدعاء والصبى أقرب الى الاجابة والمقصود من السلام الامان والصبى ليس من أهله ولا يسقط أيضا برد من لم يسمع ولو سلم على امرأة ان كان يباح له النظر اليها كمحرمه وزوجته يسن له السلام عليها ووجب عليها الرد والا كره له ابتداء وردا وحرم عليها ابتداء وردا هذا اذا كانت مشتهاة فان كانت عجوزا أو جماعة نسوة لم يكره ويجب الرد لانتفاء خوف الفتنة ولا يسن ابتداؤه على قاضى حاجة ولا على آكل ولا على من فى حمام ولا على مصل ومؤذن وخطيب وملب ومستغرق القلب بالدعاء ولا يجب الجواب عليهم ويحرم ابتداؤه على الكافر ويرد عليه اذا سلم بعليك فقط وهذا باب طويل قد بينته السنة وقد أكثرت منه فى شرح المنهاج (ان الله كان) أى ازلا وأبدا (على كل شئ حسيبا) أى محاسبا فيجازى عليه وقال مجاهد حفيظا وقال أبو عبيدة كافيا يقال حسبى هذا أى كفانى وقوله تعالى (الله لا اله الا هو) مبتدأ وخبر وقوله تعالى (ليجمعنكم) اللام لام القسم أى والله ليجمعنكم الله من قبوركم (الى) فى (يوم القيامة) وسميت بذلك لان الناس يقومون من قبورهم قال تعالى يوم يخرجون من الاجداث

سراعا وقيل لقيامهم الى الحساب قال تعالى يوم يقوم الناس لرب العالمين (لا ريب) أى لا شك (فيه) اى فى ذلك اليوم او فى الجمع (ومن أصدق من الله حديثا) أى قولا (فان قيل) الصدق لا يتفاوت كالعلم اذ لا يقال هذا الصدق أصدق من هذا الصدق كما لا يقال هذا العلم أعلم من هذا العلم (أجيب) بان الصدق صفة للقائل لا صفة للحديث أى لا أحد غير الله أصدق منه لان غيره يتطرق الى خبره الكذب وذلك مستحيل فى حقه تعالى والانبياء مخبرون عن الله تعالى وقرأ حمزة والكسائى باشمام الصاد أى بحرف متولد بين الصاد والزاى (فما لكم) أى فما شأنكم صرتم (فى المنافقين) أى فى أمرهم (فئتين) أى فرقتين ولم تتفقوا على كفرهم وذلك ان ناسا منهم استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج الى البدو لاجتواء المدينة فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا المشركين فاختلف المسلمون فى اسلامهم وقال مجاهد هم قوم خرجوا الى المدينة واسلموا ثم استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج الى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها فخرجوا وأقاموا بمكة واختلف المسلمون فيهم فقائل يقول هم منافقون وقائل يقول هم مؤمنون وقال قوم فى الذين تخلفوا يوم أحد من المنافقين فلما رجعوا قال بعض الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قتلهم فانهم منافقون وقال بعضهم اعف عنهم فانهم تكلموا بالاسلام (والله أركسهم) أى نكسهم بأن صيرهم الى النار أو ردهم الى حكم الكفرة (بما كسبوا) من الكفر والمعاصى (أتريدون أن تهدوا من أضل الله) أى أن تعدوهم من جملة المهتدين والاستفهام فى الموضعين للانكار (ومن يضلل الله) أى ومن يضله الله (فلن تجد له سبيلا) أى طريقا الى الهدى (ودوا) أى تمنوا (لو تكفرون كما كفروا فتكونون) أنتم وهم (سواء) فى الكفر * (تنبيه) * قوله تعالى فتكونون لم يرد به جواب التمنى لان جوابه بالفاء منصوب وانما أراد النسق أى ودوا لو تكفرون وودوا لو تكونون سواء مثل قوله ودوا لو تدهن فيدهنون أى ودوا لو تدهن وودوا لو يدهنون (فلا تتخذوا منهم أولياء) أى فلا توالوهم وان اظهروا الايمان (حتى يهاجروا فى سبيل الله) معكم هجرة صحيحة تحقق ايمانهم قال عكرمة هى هجرة أخرى والهجرة على ثلاثة أوجه هجرة المؤمنين فى أول الاسلام وهى قوله تعالى للفقراء المهاجرين وقوله تعالى ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ونحوهما من الآيات وهجرة المنافقين وهى خروج الشخص مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صابرا محتسبا لا لاغراض الدنيا وهى المرادة ههنا وهجرة عن جميع المعاصى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجر من هجر ما نهى الله عنه (فان تولوا) اى اعرضوا عن التوحيد والهجرة وأقاموا على ما هم عليه (فخذوهم) أى بالاسر (واقتلوهم حيث وجدتموهم) أى فى حل أو فى حرم كسائر الكفرة (ولا تتخذوا منهم وليا) توالونه (ولا نصيرا) تنتصرون به على عدوكم أى بل جانبوهم مجانبة كلية وقوله تعالى (الا الذين يصلون) استثناء من قوله فخذوهم واقتلوهم أى الا الذين يصلون أى ينتهون (الى قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى عهد بالامان لهم ولمن وصل اليهم كما عهد النبى صلى الله عليه وسلم وقت خروجه الى مكة هلال ابن عمير الاسلى على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن لجأ اليه فله من الجوار مثل ماله وقوله تعالى

(أوجاؤكم) عطف على الصلة أي أو الذين جاؤكم وقوله تعالى (حصرت) أي ضاقت حال باضمار قد أي وقد ضاقت (صدورهم ان يقاتلوكم) أي عن قتالكم مع قومهم (أو يقاتلوا قومهم) معكم أي ممسكين عن قتالكم وقتالهم فلا تتعرضوا لهم باخذ ولا قتل وهذا وما بعده منسوخ بآية القتال وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار تاء تأنيث حصرت عند الصاد وأدغمها الباقون (ولو شاء الله) تسليطهم عليكم (لسلطهم عليكم) بأن يقوى قلوبهم ويبسط صدورهم ويزيل الرعب (فلقاتلوكم) ولكنه لم يشأه فألقى في قلوبهم الرعب (فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم) أي بأن لم يتعرضوا لكم (وألقوا اليكم السلم) أي الاستسلام والانقياد (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) أي طريقا بالاخذ أو القتل (ستجدون) أي عن قريب بوعد لا شك فيه (آخرين) أي من المنافقين روى عن ابن عباس أنه قال هم أسد وغطفان كانوا حاضري المدينة تكلموا بالاسلام رياء وهم غير مسلمين وكان الرجل منهم يقول له قومه اذا أسلمت فيقول آمنت بهذا القرد وبهذا العقرب والخنفساء واذا لقوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا انا على دينكم يريدون بذلك الامن من الفريقين كما قال تعالى (يريدون أن يأمنوكم) باظهار الايمان عندكم (ويأمنوا قومهم) باظهار الكفر اذا رجعوا اليهم (كلما ردوا) أي دعوا (الى الفتنة) أي الكفر (اركسوا) أي انقلبوا منكوسين (فيها) أي الفتنة أقبح قلب (فان لم يعتزلوكم) أي بترك قتالكم (ويلقوا) أي ولم يلقوا (اليكم السلم ويكفوا) أي ولم يكفوا (أيديهم) عن قتالكم (فخذوهم) أي بالاسر (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أي وجدتموهم (وأولئكم) أي أهل هذه الصفة (جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) أي حجة واضحة في التعرض لهم بالقتل والسبي لظهور عداوتهم ووضوح كفرهم (وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمنا) أي ما ينبغي أن يصدر منه قتل له بغير حق (الا خطأ) أي مخطئا في قتله من غير قصد نزلت في عياش بن ربيعة وذلك انه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة وأسلم ثم خاف أن يظهر الاسلام لاهله فخرج هاربا الى المدينة وتحصن في أطم من آطامها فجزعت أمه لذلك جزعا شديدا وقالت لابنيها الحرث وأبي جهل ابن هشام وهما أخواه لامه والله لا يظلني سقف ولا أذوق طعاما ولا شرابا حتى تأتياني به فخرجا في طلبه وخرج معهما الحرث بن زيد حتى أتوا المدينة فأتوا عياشا وهو في الاطم وقالوا له انزل فان أمك لم يأوها سقف بيت بعدك وقد حلفت أن لا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى ترجع اليها ولك والله علينا عهد أن لا نكرهك على شئ ولا نحول بينك وبين دينك فلما ذكروا له ذلك أي جزع أمه وأوثقوا بالله نزل اليهم فأخرجوه من المدينة ثم أوثقوه وجلده كل واحد منهم مائة جلدة ثم قدموا به الى أمه فلما أتاها قالت له والله لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بالذي آمنت به ثم تركوه موثقا مطروحا في الشمس ما شاء الله فأعطاهم الذي أرادوا فأتاه الحرث بن زيد فقال يا عياش أهذا الذي أنت عليه فوالله لئن كان هدى لقد تركت الهدى ولئن كان ضلالة لقد كنت عليها فغضب عياش من مقالته وقال والله لا ألقاك خاليا أبدا الا قتلتك ثم ان عياشا بعد ذلك أسلم وهاجر ثم أسلم الحرث بن زيد بعده وهاجر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عياش حاضرا يومئذ ولم يشعر باسلامه فبينما عياش بظهر قباء اذ لقي الحرث فقتله فقال

الناس ويحك أى شئ صنعت انه قد أسلم فرجع عياش الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له قد كان من أمرى وأمر الحرث ما قد علمت وانى لم أشعر باسلامه حتى قتلته فنزلت الآية (تنبيه) قوله تعالى الا خطأ اما منصوب على الحال أى وليس من شأن المؤمن أن يقتل مؤمنا فى حالة من الاحوال الا حال الخطا واما مفعول لاجله أى لا يقتله لعلة الا للخطا وقيل الا بمعنى ولا أى ليس له قتله فى حال من الاحوال ولا خطا نظيره قوله تعالى انى لا يخاف لدى المرسلون الا من ظلم وقوله لئلا يكون للناس على الله حجة الا الذين ظلموا منهم (ومن قتل مؤمنا خطأ) كان قصد رمى غيره كصيد أو شجر فاصابه (فتحرير رقبة) أى فعليه أى فواجبه تحرير رقبة كاملة الرق فلا يجزى مكاتب كتابة صحيحة ولا أم ولد والتحرير الاعتاق ويعبر عن النسمة بالرقبة كما يعبر عنها بالرأس (مؤمنة) أى محكوم باسلامها وان كانت صغيرة ولو كان اسلامها بتبعية الدار أو السابى سليمة عما يخل بالعمل (ودية مسلمة) أى مؤداة (الى أهله) أى ورثة المقتول يقتسمونها كسائر المواريث (الا أن يصدقوا) أى يتصدقوا بها عليه بأن يعفوا عنها وسمى العفو عنها صدقة حثا عليه وتنبيها على فضله قال صلى الله عليه وسلم كل معروف صدقة وبينت السنة ان دية الخطا مائة من الابل عشرون بنت مخاض وعشرون بنت لبون وعشرون ابن لبون وعشرون حقة وعشرون جذعة وان عاقلة القاتل تحملها عنه وهم عصبته لا أصله وفرعه موزعة عليهم على ثلاث سنين على الغنى منهم نصف دينار والمتوسط ربع دينار كل سنة فان لم يفوا فمن بيت المال فان تعذر فعلى الجانى (فان كان) أى المقتول (من قوم عدو لكم) أى محاربين (وهو) أى والحال أنه (مؤمن) أى ولم يعلم القاتل ايمانه (فتحرير) أى فالواجب على القاتل تحرير (رقبة مؤمنة) ولا دية تسلم الى أهله اذ لا وراثة بينه وبينهم لانهم محاربون (وان كان) أى المقتول (من قوم) أى كفرة أيضا عدو لكم (بينكم وبينهم ميثاق) أى عهد كأهل الذمة وهو كافر مثلهم (فدية) أى فالواجب فيه دية (مسلمة) أى مؤداة (الى أهله) وهى ثلث دية المؤمن ان كان نصرانيا أو يهوديا تحل مناكحته وثلثا عشرها ان كان مجوسيا أو كتابيا لا تحل مناكحته (وتحرير رقبة مؤمنة) على قاتله (فمن لم يجد) أى الرقبة بأن فقدها وما يحصلها به (فصيام) أى فالواجب عليه صيام (شهرين متتابعين) حتى لو أفطر يوما واحدا لغير حيض أو نفاس وجب الاستئناف ولم يذكر تعالى الانتقال الى الطعام كالظهار وبه قال الشافعى رضى الله تعالى عنه فى أصح قوليه وقوله تعالى (توبة من الله) نصب على المصدر أى وتاب عليكم توبة أو على المفعول له أى وشرع لكم ذلك توبة مأخوذة من تاب الله عليه اذا قبل توبته (وكان الله) أى ولم يزل (عليما) أى بأحوالكم وبما يصلحكم فى الدنيا والآخرة (حكيما) فيما دبره لكم من نصب الزواجر بالكفارات أو غيرها فالزموا أوامره وباعدوا زواجره لتفوزوا بالعلم والحكمة (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) بأن يقصد قتله بما يقتل غالبا عالما بايمانه (فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه) أى أبعده من رحمته (وأعد له عذابا عظيما) فى النار وهذا مخصوص بالمستحل له كما قاله عكرمة وغيره ويؤيده ان الآية نزلت فى مقيس بن ضبابة وجد أخاه هشاما قتيلا فى بنى

النجار ولم يظهر قاتله فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يدفعوا اليه ديته فدفعوا اليه ثم حمل على مسلم فقتله ورجع الى مكة مرتدا والمراد من الآية التغليظ كقوله تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين على تفسير من كفر بمن لم يحج وكقوله صلى الله عليه وسلم للمقداد لا تقتله فان قتلته فانه بمنزلتك قبل أن تقتله وانك بمنزلته قبل أن تقول الكلمة التى قال أو ان هذا جزاؤه ان جوزى ولا بدع فى خلف الوعيد لقوله تعالى ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء أو المراد بالخلود المكث الطويل فان الدلائل متظاهرة على أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم ولهذا لم يذكر فى الآية أبدا وما روى عن ابن عباس أنه قال لا تقبل توبة قاتل المؤمن عمدا كما رواه الشيخان أراد به التشديد كما قاله البيضاوى اذ روى عنه خلافه رواه البيهقى فى سننه وبينت آية البقرة ان قاتل العمد يقتل به وان عليه الدية ان عفى عنه وسبق قدرها وبينت السنة ان بين العمد والخطا قتلا يسمى شبه العمد وهو أن يقتله بما لا يقتل غالبا فلا قصاص فيه بل فيه دية كالعمد فى الصفة والخطا فى التأجيل والحمل وهو أى العمد أولى بالكفارة من الخطا (يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم) أى سافرتم للجهاد (فى سبيل الله فتبينوا) روى أن سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم غزت أهل فدك فهربوا وبقى رجل يقال له مرداس لانه كان على دين المسلمين فلما رأى الخيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فألجأ غنمه الى عاقول من الجبل وصعد هو الى الجبل فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبرون فلما سمع التكبير علم انهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر ونزل وهو يقول لا اله الا الله محمد رسول الله السلام عليكم فتغشاه أسامة بن زيد فقتله واستاق غنمه فنزلت ثم رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وجدا شديدا وقد كان سبقهم قبل ذلك الخبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلتموه ارادة ما معه ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على أسامة بن زيد فقال يا رسول الله استغفر لى فقال وكيف بلا اله الا الله قال أسامة فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكررها على حتى وددت انى لم أكن أسلمت الا يومئذ ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لى ثلاث مرات وقال اعتق رقبة وقال عكرمة عن ابن عباس قال مر رجل من بنى سليم على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه غنم له فسلم عليهم قالوا ما سلم عليكم الا ليتعوذ منكم فقاموا فقتلوه وأخذوا غنمه وأتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وقرأ حمزة والكسائى بالثاء المثلثة مكان الباء الموحدة وبالباء الموحدة مكان الياء المثناة تحت وبالتاء المثناة فوق مكان النون فهو من التثبت والباقون من البيان (ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام) أى لمن حياكم بتحية الاسلام وقرأ نافع وابن عامر وحمزة بغير ألف بعد اللام من السلام أى الاستسلام والانقياد والباقون بالالف (لست مؤمنا) وانما فعلت ذلك متعوذا (تبتغون عرض الحياة الدنيا) أى تطلبون ماله الذى هو حطام سريع النفاد (فعند الله مغانم كثيرة) تغنيكم عن قتل مثله لماله (كذلك كنتم من قبل) أى أول ما دخلتم فى الاسلام تفوهتم بكلمة الشهادة فعصمتم بها أموالكم ودماءكم من غير أن تعلم

مواطأة قلوبكم ألسنتكم (فمنّ الله عليكم) أى بالاشتهار بالايمان والاستقامة فى الدين (فتبينوا) أى وافعلوا بالداخلين فى الاسلام كما فعل الله بكم ولا تبادروا الى قتلهم ظنا انهم دخلوا اتقاء وخوفا فان بقاء ألف كافر أهون عند الله من قتل امرئ مسلم وتكريره تأكيد لتعظيم الامر بالتبيين وترتيب الحكم على ماذكر من حالهم (ان الله كان) ولم يزل (بما تعملون خبيرا) أى عالما به وبالغرض منه فيجازيكم به فلا تتساهلوا فى القتل واحتاطوا فيه (لا يستوى القاعدون) أى عن الجهاد حال كونهم (من المؤمنين) روى أن زيد بن ثابت أخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها على فقال يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان رجلا أعمى فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذى فثقلت على حتى خفت أن ترض فخذى أى تكسر ثم سرّى عنه أى أزيل وكشف ما به من برحاء الوحى (غير أولى الضرر) أى من زمانة أو عمى أو نحوه فقال اكتب لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر وقرأ نافع وابن عامر والكسائى بنصب الراء على الحال من القاعدين أو الاستثناء والباقون بالرفع صفة للقاعدين لانه لم يقصد به قوم بأعيانهم بل أراد به الجنس كما فى قوله * ولقد أمر على اللئيم يسبنى * فصح جعل غير صفة للقاعدين (والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) أى لا مساواة بينهم وبين من قعد عن الجهاد من غير علة * (تنبيه) * فائدة ذكر قوله تعالى لا يستوى القاعدون الخ تذكير ما بينهما من التفاوت ليرغب القاعد فى الجهاد رفعا لرتبته وانفاقا عن انحطاط منزلته وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لما رجع من غزوة تبوك ودنا من المدينة قال ان فى المدينة لاقواما ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد الا كانوا معكم فيه قالوا يا رسول الله وهم بالمدينة قال نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين) لضرر (درجة) أى فضيلة لاستوائهما فى النية وزيادة المجاهد بالمباشرة (وكلا) من القاعدين لضرر والمجاهدين (وعد الله الحسنى) أى الجنة لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم وانما التفاوت فى زيادة العمل المقتضى لمزيد الثواب (وفضل الله المجاهدين على القاعدين) لغير ضرر (أجرا عظيما) ويبدل منه (درجات منه) أى منازل بعضها فوق بعض من الكرامة وقوله تعالى (ومغفرة ورحمة) منصوبان بفعلهما المقدر (وكان الله) أى ولم يزل (غفورا) لاوليائه (رحيما) بأهل طاعته وروى أبو سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا أبا سعيد من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا وجبت له الجنة قال فعجب بها أبو سعيد فقال أعدها يا رسول الله ففعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض فقال وما هى يا رسول الله قال الجهاد فى سبيل الله وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهد فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها قالوا يا رسول الله أفلا ننذر الناس بذلك فقال ان فى الجنة مائة درجة

أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض فاذا سألتموه فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة وانما يجب الجهاد على كل مسلم مكلف حر ذكر مستطيع له وهو فرض كفاية للآية المتقدمة اذا كان الكفار ببلادهم ويجب على الامام أن يغزوهم في كل عام مرة بنفسه أو بنائبه أو بشحن الثغور بما يقاوم العدو وأما اذا دخلوا بلادنا والعياذ بالله تعالى تعين على أهل البلدة وعلى من دون مسافة القصر حتى على فقير وولد ومدين ورقيق بلا اذن ويجب على من هو في مسافة القصر بقدر الكفاية وان أسروا مسلما لزمنا النهوض لخلاصه ان رجى وان لم يدخلوا بلادنا * ونزل في جماعة أسلموا ولم يهاجروا فلما خرجوا الى بدر رجعوا معهم فقتلوا مع الكفار (ان الذين توفاهم الملائكة) أي ملك الموت وأعوانه أو ملك الموت وحده كما قال تعالى قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم والعرب قد تخاطب الواحد بلفظ الجمع (ظالمى أنفسهم) أى في حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة وموافقة الكفرة بالمقام في دار الشرك فان الهجرة كانت واجبة قبل فتح مكة ثم نسخ الوجوب بعد فتحها فقال صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وقرأ البزى بتشديد التاء المثناة فوق من توفاهم في الوصل والباقون بالتخفيف وأدغم أبو عمرو التاء في الظاء بخلاف عنه والباقون بغير ادغام (قالوا) أى الملائكة لهم (فيم كنتم) أى في أى شئ كنتم من أمر دينكم وقرأ البزى فيمه بالهاء بعد الميم في الوقف بخلاف عنه (قالوا) معتذرين عما وبخوا به (كنا مستضعفين) أى عاجزين عن اظهار الدين واعلاء كلمته (في الارض) أى في أرض مكة (قالوا) أى الملائكة تكذيبا لهم وتوبيخا (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) من أرض الكفر الى بلد أخرى كما فعل غيركم من المهاجرين الى المدينة والحبشة قال تعالى (فأولئك مأواهم جهنم) أى لتركهم الواجب ومساعدتهم الكفار (وساءت مصيرا) أى جهنم وفي الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من اقامة دينه وعن النبى صلى الله عليه وسلم من فر بدينه من أرض الى أرض وان كان ما بينهما شبرا استوجبت أى وجبت له الجنة وكان رفيق أبيه ابراهيم ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم * ثم استثنى أهل العذر منهم فقال (الا المستضعفين) أى الذين وجد ضعفهم في نفس الامر وعدوا ضعفاء وتقوى عليهم غيرهم (من الرجال والنساء والولدان) ثم بين ضعفهم بقوله (لا يستطيعون حيلة) أى لا قوة لهم على الهجرة ولا نفقة لهم (ولا يهتدون سبيلا) أى طريقا الى أرض الهجرة (فأولئك عسى الله أن يعفو) أى يتجاوز (عنهم) وعسى من الله واجب للاطماع والله تعالى اذا أطمع عبده بشئ أوصله اليه ولكن في ذكر الاطماع والعفو ايذان بأن أمر الهجرة مضيق لا توسعة فيه حتى ان المضطر البين الاضطرار من حقه أن يقول عسى الله أن يعفو عنى فكيف بغيره (وكان الله عفوا غفورا) قال ابن عباس كنت أنا وأمى ممن عذر الله أى من المستضعفين وكان صلى الله عليه وسلم يدعو لهؤلاء المستضعفين في كل صلاة قال أبو هريرة كان اذا قال سمع الله لمن حمده في الركعة الاخيرة من صلاة العشاء قنت يقول اللهم أنج عياش بن ربيعة اللهم أنج الوليد بن الوليد اللهم أنج سلمة بن هشام

اللهم

اللهم أنج المستضعفين من المسلمين اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغما كثيرا) أي متحولا يتحول اليه وقيل طريقا يراغم بسلوكه قومه أي يفارقهم على رغم انوفهم مأخوذ من الرغام والرغم الذل والهوان وأصله لصوق الانف بالرغام وهو التراب يقال راغمت الرجل اذا فارقته وهو يكره مفارقتك لمذلة تلحقه بذلك (و) يجد (سعة) في الرزق كما قال صلى الله عليه وسلم صوموا تصحوا وسافروا تغنوا أخرجه الطبراني عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ولفظه واغزوا تغنموا وهاجروا وتفطروا ولما سمع هذه الآية رجل من بني قيس يقال له جندب بن ضمرة قال ما أنا ممن استثنى الله عز وجل واني لاجد حيلة ولي من المال ما يبلغني المدينة وأبعد منها والله لا أبيت الليلة بمكة اخرجوني فخرجوا به يحملونه على سرير حتى أتوا به التنعيم فادركه الموت فصفق بيمينه على شماله ثم قال اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعك عليه رسولك فمات قال التفتازاني الظاهر أن هذه اشارة الى اليمين وهذه الى الشمال لا قصد اسناد الجارحة الى الله تعالى بل على سبيل التصوير وتمثيل مبايعة الله تعالى على الايمان والطاعة بمبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم اياه وقيل اشارة الى البيعة والصفقة والمعنى أن بيعته كبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بيعة كبيعة الناس فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لو وافى المدينة كان أتم وأوفى أجرا وضحك المشركون وقالوا ما أدرك هذا ما طلب فنزل (ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت) أي في الطريق قبل مقصده (فقد وقع أجره على الله) أي ثبت أجره عنده تعالى ثبوت الاجر الواجب تفضلا منه ورحمة (وكان الله غفورا) لتقصيره ان كان (رحيما) يكرم بعد المغفرة بأنواع الكرامات ولما أوجب الله السفر للجهاد والهجرة وكان مطلق السفر مظنة المشقة فكيف بسفرهما مع ما ينضم الى المشقة فيهما من خوف الاعداء ذكر تخفيف الصلاة بالقصر بقوله تعالى (واذا ضربتم) أي سافرتم (في الارض) سفرا طويلا لغير معصية والطويل عند الشافعي رحمه الله تعالى أربعة برد وهي مرحلتان كما ثبت ذلك بالسنة وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى ثلاثة أيام ولياليهن بسير الابل ومشي الاقدام على القصد وقوله تعالى (فليس عليكم جناح) أي اثم وميل في (أن تقصروا من الصلاة) أي من أربع الى ركعتين وذلك في صلاة الظهر والعصر والعشاء يدل على جواز القصر دون وجوبه ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام أتم في السفر كما رواه الشافعي وغيره وعن عائشة رضي الله تعالى عنها اعتمرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة الى مكة حتى اذا قدمت مكة قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي قصرت وأتممت وصمت وأفطرت فقال أحسنت يا عائشة وما عاب علي رواه الدارقطني وحسنه البيهقي وصححه وكان عثمان رضي الله عنه يتم ويقصر وأوجب القصر أبو حنيفة لقول عمر رضي الله تعالى عنه صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم رواه النسائي وابن ماجه ولقول عائشة رضي الله عنها أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فأقرت في السفر وزيدت في الحضر رواه الشيخان (فان قيل) ظاهرهما يخالف الآية (أجيب) بأن

الاول مؤول بأن القصر كالتمام فى الصحة والاجزاء ومعنى الثانى لمن أراد الاقتصار عليهما جمعا بين الادلة وقوله تعالى (ان خفتم ان يفتنكم الذين كفروا) أى ينالوكم بمكروه بيان باعتبار الغالب فى ذلك الوقت فلا مفهوم له قال يعلى بن أمية قلت لعمر انما قال الله تعالى ان خفتم وقد أمن الناس قال قد عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته رواه مسلم (ان الكافرين كانوا) أى جبلة وطبعا (لكم عدوا مبينا) أى بين العداوة وقوله تعالى (واذا كنت) أى يا محمد حاضرا (فيهم) أى وأنتم تخافون العدو (فأقمت لهم الصلاة) تمسك بمفهومه من خص صلاة الخوف بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم وعامة الفقهاء على أنه تعالى علم نبيه صلى الله عليه وسلم كيفيتها ليقتدى به الائمة بعده فانهم نواب عنه فيكون حضورهم كحضوره روى ان المشركين لما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا الى الظهر يصلون جميعا ندموا أن لا كانوا أكبوا عليهم فقال بعضهم لبعض دعوهم فان لهم بعدها صلاة هى أحب اليهم من آبائهم وأبنائهم وهى صلاة العصر فاذا قاموا فيها فشدوا عليهم فاقتلوهم فنزل جبريل فقال يا محمد انها صلاة الخوف وان الله يقول واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فعلمه صلاة الخوف وهى أنواع * الاول اذا كان العدو فى جهة القبلة ولا ساتر والمسلمون كثيرون فيصلى بهم الامام ثم يسجد بصف أول ويحرس صف ثان فاذا قاموا سجد من حرس ولحقه وسجد معه بعد تقدمه وتأخر الاول بلا كثرة أفعال فى الركعة الثانية وحرس الآخرون فاذا جلس للتشهد جلس الآخرون وتشهد وسلم بالجميع روى هذا النوع مسلم وقد صلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان وهى قرية على مرحلتين من مكة بقرب خليص سميت بذلك لعسف السيول فيها وجاز عكس هذه الكيفية * والنوع الثانى اذا كان العدو فى غير جهة القبلة أو فيها وثم ساتر فيصلى الامام بهم ركعتين مرتين كل مرة بفرقة كما قال تعالى (فلتقم طائفة منهم معك) أى وتتأخر طائفة (وليأخذوا) أى الطائفة التى قامت معك (أسلحتهم) معهم (فاذا سجدوا) أى صلوا (فليكونوا) أى هذه الطائفة الاخرى (من ورائكم) يحرسون الى أن تقضوا الصلاة وتذهب هذه الطائفة الاخرى تحرس (ولتأت طائفة أخرى) تحرس (لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) معهم الى أن يقضوا الصلاة وقد فعل صلى الله عليه وسلم ذلك ببطن نخل رواه الشيخان وهذه الصلاة وان جازت فى غير الخوف سنت فيه عند كثرة المسلمين وقلة عدوهم وخوف هجومهم عليهم فى الصلاة (فان قيل) أخذ الحذر وهو الخوف مع التحفظ مجاز وأخذ الاسلحة حقيقة فلا يجمع بينهما (أجيب) بأن أخذ الحذر حقيقة أيضا تنزيلا له منزلة الآلة على سبيل الاستعارة بالكناية فالجمع انما هو بين حقيقتين على أن الجمع بين الحقيقة والمجاز جائز كما عليه الشافعى رضى الله تعالى عنه (فان قيل) لم ذكر أخذ الحذر فى الثانية دون الاولى (أجيب) بأن الكفار يتنبهون للثانية ما لا يتنبهون للاولى والنوع الثالث صلاة ذات الرقاع رواها الشيخان أيضا وهى والعدو فى غير جهة القبلة أو فيها وثم ساتر أن تقف فرقة فى وجه العدو ويصلى الامام بفرقة ركعة ثم عند قيامه للثانية تفارقه وتتم بقية صلاتها وتقف فى وجه العدو [illegible] والامام

ينتظر إلهما فيصلي بها ثانية فإذا جلس للتشهد قامت وأتت بركعة وتلحقه ويسلم بها ويصلي الثلاثية بفرقة ركعتين وبالثانية ركعة وهو أفضل من عكسه ويصلي الرباعية بكل فرقة ركعتين وبقي نوع رابع تقدم عند قوله تعالى فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً (ود) أي تمنى (الذين كفروا لو تغفلون) إذا قمتم إلى الصلاة (عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) بأن يحملوا عليكم فيأخذوكم وهذه علة الأمر بأخذ السلاح ولما كان الله تعالى قد تفضل على هذه الأمة ورفع عنها الحرج وكان المطر والمرض بشدان قال (ولا جناح) أي حرج (عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم) لأن حمل السلاح في المطر يكون سبباً لبله وفي المرض يزيد حملها المريض وهنا وهذا يفيد إيجاب حملها عند عدم العذر وهو أحد قولي الشافعي والثاني أنه سنة ورجح بشرط أن لا يؤذي ولا يحصل بترك حمله خطر ولا يمنع صحة الصلاة فإن أذى كرمح وسط الصف كره حمله بل إن غلب على ظنه ذلك حرم وإن حصل بتركه خطر وجب حمله ويمكن حمل الآية على هذه الحالة وكحمله وضعه بين يديه إن سهل مديده إليه بل يتعين إن منع حمله الصحة من نجس أو غيره (وخذوا حذركم) من العدو أي احترزوا منه ما استطعتم كيلا يهجم عليكم (فإن قيل) كيف طابق الأمر بالحذر قوله تعالى (إن الله أعد للكافرين عذاباً) أي قتلاً وأسراً ونهباً في الدنيا (مهيناً) أي ذا إهانة (أجيب) بأن الأمر بالحذر من العدو يوهم توقع غلبته واغتراره فنفى عنهم ذلك الإيهام بإخبارهم أن الله تعالى يهين عدوهم ويخذله وينصرهم عليه لتقوى قلوبهم ويعلموا أن الأمر بالحذر ليس لذلك وإنما هو تعبد من الله تعالى كما قال تعالى ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ولما أعلمهم بما يفعلون في الصلاة حال الخوف أتبع ذلك ما يفعلون بعدها لئلا يظن أنها تغني عن مجرد الذكر فقال مشيراً إلى تعقيبه (فإذا قضيتم الصلاة) أي فرغتم من فعلها وأديتموها على حالة الخوف أو غيرها (فاذكروا الله) أي بالتهليل والتسبيح والتحميد والتمجيد (قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم) أي مضطجعين أي اذكروه في كل حال وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه وقيل صلوا قياماً في حال الصحة وقعوداً في حال المرض وعلى جنوبكم عند الجرح والزمانة (فإذا اطمأننتم) أي أمنتم مما كنتم فيه من الخوف (فأقيموا الصلاة) أي أدوها بحقوقها على الحالة التي كنتم تفعلونها قبل الخوف (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً) أي مكتوباً أي مفروضاً (موقوتاً) أي مقدراً وقتها لا تؤخر عنه ولا تقدم عليه قال صلى الله عليه وسلم أمني جبريل عند البيت مرتين فصلى بي الظهر حين زالت الشمس والعصر حين كان ظله أي الشيء مثله والمغرب حين أفطر الصائم أي دخل وقت إفطاره والعشاء حين غاب الشفق الأحمر والفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم فلما كان الغد صلى بي الظهر حين كان ظله مثله والعصر حين كان ظله مثليه والمغرب حين أفطر الصائم والعشاء إلى ثلث الليل والفجر فأسفر وقال هذا وقت الأنبياء من قبلك رواه أبو داود وغيره وصححه الحاكم وغيره وقوله صلى الله عليه وسلم فصلى الظهر حين صار ظله مثله أي فرغ منها حينئذ كما شرع في العصر في اليوم الأول حينئذ قاله

الشافعي رضي الله عنه نافيا به اشتراكهما في وقت ويدل له خبر مسلم وقت الظهر اذا زالت الشمس مالم يحضر العصر ونزل لما بعث صلى الله عليه وسلم طائفة في طلب أبي سفيان وأصحابه لما رجعوا من أحد فشكوا الجراحات (ولاتهنوا) أي تضعفوا (في ابتغاء القوم) أي في طلب أبي سفيان وأصحابه (ان تكونوا تألمون) أي تتوجعون من ألم الجراح (فانهم يألمون) أي يتوجعون من الجراح (كما تألمون) ولم يجبنوا عن قتالكم فلا تجبنوا عن قتالهم (وترجون) أنتم (من الله) من النصر والثواب على جهادكم (مالا يرجون) هم فأنتم تزيدون عليهم بذلك فيجب أن تكونوا أرغب منهم في الحرب وأصبر عليها (وكان الله عليما) بأعمالكم وضمائركم (حكيما) أي فيما يأمر وينهى (انا انزلنا اليك الكتاب) أي القرآن وقوله تعالى (بالحق) متعلق بأنزل (لتحكم بين الناس بما أراك) الله أي عرفك وأوحى به اليك وليس أرى من الرؤية بمعنى العلم والالاستدعى ثلاثة مفاعيل وعن عمر رضي الله تعالى عنه لا يقولن أحدكم قضيت بما أراني الله فان الله لم يجعل ذلك الا لنبيه ولكن ليجتهد رأيه لأن الرأي من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مصيبا لان الله تعالى كان يريه اياه وهو منا الظن والتكليف وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في رجل من الانصار يقال له طعمة بكسر الطاء وفتحها والاول أفصح ابن أبيرق من بني ظفر بن الحرث سرق درعا من جار له يقال له قتادة بن النعمان وكانت الدرع في جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه حتى انتهى الى الدار ثم أخبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وماله بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا الى منزل اليهودي فأخذوها فقال دفعها الي طعمة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر انطلقوا بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واسألوه ان يجادل عن صاحبهم فقالوا ان لم تفعل افتضح صاحبنا فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل لانه بريء بحلفه وان يعاقب اليهودي لثبوت المال عنده وقيل هم أن يقطع يده فقال تعالى (ولاتكن للخائنين) كطعمة (خصيما) أي مخاصما مدافعا عنهم (واستغفر الله) أي مما هممت به أي من الذب عنه وهذا الاستغفار لا عن ذنب اذ هو منزه عن ذلك معصوم ولكن عن مقام عال سام للارتقاء الى أعلى منه وأتم (ان الله كان غفورا رحيما) لمن يستغفره (ولاتجادل عن الذين يختانون أنفسهم) أي يخونونها بالمعاصي لأن وبال خيانتهم عليهم (فان قيل) لم قال للخائنين ويختانون أنفسهم والخائن واحد فقط (أجيب) بأنه جمع ليتناول طعمة وكل من خان خيانته أو ليتناوله وقومه فانهم شاركوه في الاثم حين شهدوا على براءته وخاصموا عنه وقيل ان هذا خطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره كقوله تعالى فان كنت في شك مما أنزلنا اليك والاستغفار في حق الانبياء بعد النبوة على احد وجوه ثلاثة اما الذنب تقدم على النبوة أو لذنوب أمته أو لمباح جاء الشرع بتحريمه فيتركه بالاستغفار فالاستغفار يكون معناه السمع والطاعة لحكم الشرع (ان الله لا يحب) أي يعاقب (من كان خوانا) أي كثير الخيانة (أثيما) أي متهما كافيه روي ان طعمة هرب الى مكة وارتد ونقب حائطا ليسرق متاع أهله

فسقط الحائط عليه فقتله (فان قيل) لم قال خوّانا أثيما على المبالغة (أجيب) بأن الله تعالى كان عالما من طعمة بالافراط فى الخيانة وركوب المآثم ومن كانت تلك خاتمة أمره لم يشك فى حاله وقيل اذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم ان لها أخوات وعن عمر رضى الله تعالى عنه انه أمر بقطع يد سارق فجاءت أمه تبكى وتقول هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه فقال كذبت ان الله لا يؤاخذ عبده فى أول مرة (يستخفون) أى طعمة وقومه يستترون ويستحيون ويخافون (من الناس ولا يستخفون) أى ولا يستحيون ولا يخافون (من الله) وهو أحق أن يستحيا ويخاف منه (وهو معهم) بعلمه لا يخفى عليه سرهم (اذ يبيتون) أى يدبرون ليلا على طريق الامعان فى الكفر والاتقان للرأى (ما لا يرضى من القول) أى من رمى اليهودى بالسرقة وشهادة الزور عليه والحلف الكاذب على نفيها (فان قيل) لم سمى التدبير قولا وانما هو معنى فى النفس (أجيب) بأنه لما حدث بذلك نفسه سمى قولا مجازا قال فى الكشاف ويجوز أن يراد بالقول الحلف الكاذب الذى حلف به بعد أن بيته (وكان الله بما يعملون محيطا) أى علما وقدرة لا يفوت عنه شئ وقوله تعالى (ها أنتم هؤلاء) خطاب لقوم طعمة أى يا هؤلاء (جادلتم) أى خاصمتم (عنهم) أى عن طعمة وذويه (فى الحياة الدنيا) أى بما جعل لكم من الاسباب (فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة) اذا عذبهم (أم من يكون عليهم وكيلا) يتولى أمرهم ويذب عنهم أى لا أحد يفعل ذلك *(فائدة)* اتفق كتاب المصاحف على قطع أم عن من (ومن يعمل سوأ) أى ذنبا يسوء به غيره كرمى طعمة اليهودى (أو يظلم نفسه) أى يعمل ذنبا يختص به لا يتعداه وقيل المراد بالاول الصغيرة والثانى الكبيرة (ثم يستغفر الله) أى يطلب من الله تعالى غفرانه بالتوبة بشروطها (يجد الله غفورا) أى محاء للزلات (رحيما) أى مبالغا فى اكرام من يقبل اليه كما فى الحديث عن الله من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة وعن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه ان هذه الآية نسخت من يعمل سوأ يجز به (ومن يكسب اثما) أى ذنبا (فانما يكسبه على نفسه) أى لان وباله راجع عليه اذ الله له بالمرصاد فهو مجازيه عليه فلا يتعداه وباله قال تعالى وان أسأتم فلها (وكان الله عليما) بالغ العلم بدقيق ذلك وجليله فلا يترك شيأ منه (حكيما) فى صنعه فلا يجازيه الا بقدر ذنبه (ومن يكسب خطيئة) أى ذنبا صغيرا أو ما لا عمد فيه (أو اثما) أى كبيرة أو ما كان عن عمد (ثم يرم به بريأ) أى ينسبه الى من لم يعمله كما فعل طعمة باليهودى (فقد احتمل) أى تحمل (بهتانا) أى خطر كذب يبهت المرمى به (واثما) أى ذنبا كبيرا (مبينا) أى بينا يكسبه بسبب رمى البرئ (ولولا فضل الله عليك) يا محمد (ورحمته) بالعصمة (لهمت طائفة منهم) أى من قوم طعمة أى هموا مؤثرا عندك (أن يضلوك) أى عن القضاء بالحق مع علمهم بالحال بتلبيسهم عليك فلا ينافى ذلك أنهم قد هموا بذلك لان الهم المؤثر لم يوجد (وما يضلون الا أنفسهم) اذ وبال ذلك عليهم (وما يضرونك من شئ) فان الله عصمك وما خطر ببالك كان اعتمادا منك على ظاهر الامر لا ميلا فى الحكم *(تنبيه)* من شئ فى موضع نصب على المصدر أى شيأ من الضرر فمن مزيدة (وأنزل الله عليك

الكتاب) أى القرآن (والحكمة) أى السنة فانها ليست قرآنا يتلى وفسرت أيضا بانها علم الشرائع وكل كلام وافق الحق (وعلمك ما لم تكن تعلم) أى من المشكلات وغيرها غيبا وشهادة من أحوال الدين والدنيا (وكان فضل الله عليك عظيما) أى بهذا وبغيره من أمور لا تدخل تحت الحصر وفى هذا دليل على أن العلم من أشرف الفضائل (لا خير فى كثير من نجواهم) أى الناس قوم طعمة فانهم ناجوا النبى صلى الله عليه وسلم فى الدفع عنه وكذا غيرهم (الا) نجوى (من أمر بصدقة) واجبة أو مندوبة (أو معروف) أى عمل بر وقيل المراد بالصدقة الواجبة وبالمعروف صدقة التطوع (أو اصلاح بين الناس) وسواء اصلاح ذات البين وغيرهم قال صلى الله عليه وسلم كلام ابن آدم كله عليه لا له الا ما كان من أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله وسمع سفيان رجلا يقول ما أشد هذا الحديث فقال ألم تسمع الله يقول لا خير فى كثير من نجواهم فهو هذا بعينه أوما سمعته يقول والعصر ان الانسان لفى خسر فهو هذا بعينه وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال الا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة قلنا بلى يارسول الله قال اصلاح ذات البين وافساد ذات البين هى الحالقة وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ليس بالكذاب من أصلح بين الناس فقال خيرا أو نمى خيرا (ومن يفعل ذلك) أى هذا المذكور (ابتغاء) أى طلب (مرضاة الله) أى لا غيره من أمور الدنيا لان الاعمال بالنيات (فسوف نؤتيه) أى الله فى الآخرة بوعد لا خلف فيه (أجرا عظيما) هو الجنة والنظر الى وجهه الكريم وفى هذه الآية دلالة على أن المطلوب من أعمال الظاهر رعاية أحوال الباطن فى اخلاص النية وتصفية القلب من الالتفات الى غرض دنيوى وقرأ أبو عمرو وحمزة يؤتيه بالياء والباقون بالنون (ومن يشاقق الرسول) اى يخالفه فيما جاء به مأخوذ من الشق فان كلا من المخالفين فى شق غير شق الآخر (من بعد ما تبين) اى ظهر (له الهدى) اى الدليل الذى هو سببه (ويتبع) طريقا (غير سبيل المؤمنين) اى طريقهم الذى هم عليه من الدين بأن يتبع غير دين الاسلام (نوله ما تولى) اى نجعله واليا لما تولاه بأن نخلى بينه وبينه فى الدنيا (ونصله) أى ندخله فى الآخرة (جهنم) يحترق فيها (وساءت مصيرا) أى مرجعا هى وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة نوله ونصله بسكون الهاء واختلس كسرة الهاء قالون ولهشام وجهان الاختلاس كقالون واشباع الحركة كباقى القراء (فان قيل) ما الحكمة فى فك الادغام فى قوله تعالى ومن يشاقق الرسول والادغام فى سورة الحشر فى قوله تعالى ومن يشاق الله (أجيب) بأن أل فى لفظ الجلالة لازم بخلافه فى الرسول واللزوم يقتضى الثقل فخفف بالادغام فيما صحبته الجلالة بخلاف ما صحبه لفظ الرسول (فان قيل) يرد هذا قوله تعالى فى سورة الانفال ومن يشاقق الله ورسوله (اجيب) أنه لما انضم الرسول الى الله صار المعطوف والمعطوف عليه كالشئ الواحد (ان الله لا يغفر ان يشرك به) اى وقوع الشرك به من اى شخص كان وبأى شئ كان (ويغفر ما) اى كل شئ هو (دون ذلك) اى من سائر المعاصى لكن (لمن يشاء) لان جميع الامور بمشيئته روى ان شيخا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انى شيخ منهمك فى الذنوب الا أنى لم

أشرك بالله شيأ منذ عرفته وآمنت به ولم اتخذ من دونه وليا ولم أوقع المعاصي جراءة وما توهمت طرفة عين انى أعجز الله هربا وانى لنادم تائب مستغفر فما ترى حالى عند الله فنزلت (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) عن الحق فان الشرك أعظم أنواع الضلالة وابعدها عن الصواب والاستقامة وانما ذكر في الآية الاولى فقد افترى لانها متصلة بقصة اهل الكتاب ومنشأ شركهم نوع افتراء وهو دعوى التبنى على الله (ان) اى ما (يدعون) اى يعبد المشركون (من دونه) اى غير الله (الا اناثا) وهى اللات والعزى ومناة وعن الحسن لم يكن حى من احياء العرب الا ولهم صنم يعبدونه ويسمونه انثى بنى فلان وقيل كانوا يقولون فى اصنامهم هن بنات الله وقيل المراد الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله (وان) اى ما (يدعون) أى يعبدون بعبادتها (الا شيطانا مريدا) اى خارجا عن الطاعة وهو ابليس لانه الذى امرهم بعبادتها واغراهم عليها فكانت طاعته فى ذلك عبادة له (لعنه الله) أى ابعده عن رحمته (وقال) الشيطان المذكور (لأتخذن من عبادك نصيبا) أى حظا (مفروضا) أى مقطوعا ادعوهم فيه الى طاعتى قال الحسن من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين الى النار (ولأضلنهم) أى عن طريقك السوى بما سلطتنى به من الوسواس وتزيين الاباطيل (ولأمنينهم) أى بكل ما أقدر عليه من الباطل من عدم البعث والحساب ولا جنة ولا نار وغيره وألقى فى قلوبهم طول الاعمار وبلوغ الآمال من الدنيا والآخرة بالرحمة والحنو والاحسان ونحوه مما هو سبب للتسويف بالتوبة (ولآمرنهم فليبتكن) أى يقطعن (آذان الانعام) كما كانت العرب تفعله بالبحائر والسوائب التى حرموها على أنفسهم كانوا يشقون آذان الناقة اذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرا حرموا على أنفسهم الانتفاع بها (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) أى فطرة الله التى هى دين الاسلام بالكفر واحلال ما حرم الله وتحريم ما أحل الله ويدخل فى ذلك اللواط والسحر والوشم وهو أن يغرز الجلد بابرة ويحشى بحويلة والوشر وهو ان تحدد المرأة أسنانها وترققها ونحو ذلك وكالخصاء وهو حرام فى بنى آدم قال الزمخشرى وعند أبى حنيفة يكره شراء الخصيان وامساكهم واستخدامهم لان الرغبة فيهم تدعو الى خصائهم وأما فى البهائم فيجوز فى المأكول الصغير ويحرم فى غيره وقيل للحسن رحمه الله تعالى ان عكرمة يقول المراد هنا هو الخصاء فقال كذب عكرمة هو دين الله وعن ابن مسعود هو الوشم (ومن يتخذ الشيطان وليا) أى يتولاه ويطيعه (من دون الله) أى غيره (فقد خسر خسرانا مبينا) بينا لمصيره الى النار المؤبدة عليه (يعدهم) ما لا ينجزه بأن يخيل اليهم بما يصل الى قلوبهم بالوسوسة فى شئ من الاباطيل أنه قريب الحصول فيسعون فى تحصيله فيضيع عليهم فى ذلك الزمان ويرتكبوا ما لا يحل من الاهوال والهوان (ويمنيهم) نيل الآمال فى الدنيا ولا بعث ولا جزاء (وما) أى والحال انه ما (يعدهم الشيطان) بذلك (الا غرورا) أى باطلا وهو اظهار النفع فيما فيه الضر وهذا الوعد اما بالخواطر أو بلسان أوليائه (أولئك) أى الشيطان وأولياؤه (مأواهم) أى مقرهم (جهنم) يحترقون فيها (ولا يجدون عنها محيصا) أى معدلا ومهربا ولما ذكر ما للكافرين

ترهيبا اتبعه ما لغيرهم ترغيبا فقال (والذين آمنوا) أى أقروا بالايمان (وعملوا الصالحات) أى الطاعات تصديقا لاقرارهم (سندخلهم) بوعد لا خلف فيه (جنات تجرى من تحتها الانهار) أى أى أرضها فحيثما أجرى منها نهر جرى (خالدين فيها) ولما كان الخلود يطلق على المكث الطويل دفع ذلك بقوله تعالى (أبدا) أى لا الى آخر (وعد الله حقا) أى وعدهم الله ذلك وهو قوله تعالى سندخلهم وحقه حقا (ومن) أى لا أحد (أصدق من الله قيلا) أى قولا وأكثر سبحانه وتعالى من التأكيد هنا لانه فى مقابلة وعد الشيطان ووعد الشيطان موافق للهوى الذى طبعت عليه النفوس فلا تنصرف عنه الا بعسر شديد * ونزل لما افتخر المسلمون وأهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم وقال المسلمون نبينا خاتم الانبياء وكتابنا يقضى على الكتب وقد آمنا بكتابكم ولم تؤمنوا بكتابنا فنحن أولى (ليس) أى الامر منوطا (بأمانيكم) أيها المسلمون (ولا أمانى أهل الكتاب) بل بالايمان والعمل الصالح (من يعمل سوأ يجز به) قال ابن عباس لما نزلت هذه الآية شقت على المسلمين وقالوا يا رسول الله أينا لم يعمل سوأ غيرك فكيف الجزاء قال منه ما يكون فى الدنيا أى بالبلاء والمحن كما ورد فى الحديث فمن يعمل حسنة فله عشر أمثالها ومن جوزى بالسيئة نقصت واحدة من عشرة وبقى له تسع حسنات فويل لمن غلبت آحاده أعشاره وأما ما كان جزاء فى الآخرة فيقابل بين حسناته وسيآته فيلقى مكان كل سيئة حسنة وينظر فى الفضل فيعطى الجزاء فى الجنة فيؤتى كل ذى فضل فضله وعن أبى بكر رضى الله تعالى عنه قال كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه الآية من يعمل سوأ يجز به (ولا يجد له من دون الله) أى غيره (وليا) أى يحفظه (ولا نصيرا) أى يمنعه منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا بكر الا أقرئك آية نزلت على قلت بلى يا رسول الله قال فأقرأنيها قال ولا أعلم انى قد وجدت انفصاما فى ظهرى حتى تمطيت لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك يا أبا بكر فقلت يا رسول الله بأبى انت وامى وأينا لم يعمل سوأ وانا لمجزيون بكل سوء عملناه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فتجزون بذلك فى الدنيا أى بالبلاء والمحن كما مر حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا يوم القيامة (ومن يعمل) شيأ (من الصالحات) فان كل احد لا يتمكن من كلها وليس مكلفا بها وقوله تعالى (من ذكر أو أنثى) فى موضع الحال من المستكن فى يعمل ومن للبيان أو من الصالحات أى كائنة من ذكر أو أنثى ومن للابتداء وقوله تعالى (وهو مؤمن) حال شرط اقتران العمل بها فى استدعاء الثواب المذكور تنبيها على انه لا اعتداد بالعمل الصالح دون اقترانه بها (فأولئك) اى العالو الرتبة (يدخلون) اى ندخلهم (الجنة) اى الموصوفة (ولا يظلمون نقيرا) قدر نقرة النواة من ثواب اعمالهم وان لم ينقص ثواب المطيع فبالحرى ان لا يزاد عقاب العاصى لان المجازى هو أرحم الراحمين ولذلك اقتصر على ذكره عقب الثواب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة بضم الياء وفتح الخاء والباقون بفتح الياء وضم الخاء (ومن) اى لا احد (احسن دينا ممن اسلم وجهه)

أي انقاد وأخلص عمله (لله) فلا حركة ولا سكون إلا فيما يرضاه وفي هذا الاستفهام تنبيه على أن ذلك منتهى ما تبلغه القوة البشرية (وهو) أي والحال أنه (محسن) أي مؤمن مراقب آت بالحسنات تارك للسيئات لأنه يعبد الله كأنه يراه وقد اشتملت هذه الكلمات العشر على الدين كله أصلاً وفرعاً مع الترغيب بالمدح الكامل لمتبعه وإفهام الذم الكامل لغيره (واتبع ملة إبراهيم) أي الموافقة لملة الإسلام وقوله تعالى (حنيفاً) حال أي مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) أي صفياً خالص المحبة له وإنما أعاد ذكره ولم يضمره تفخيماً له وتنصيصاً على أنه الممدوح والخلة من الخلال فإنه ود تخلل النفس وخالطها قال الزجاج الخليل الذي ليس في محبته خلل والخلة الصداقة فسمي خليلاً لأن الله تعالى أحبه واصطفاه روي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يسمى أبا الضيفان وكان منزله على ظهر الطريق يضيف من مر به من الناس فأصاب الناس سنة فحشروا إلى باب إبراهيم يطلبون الطعام وكانت الميرة له كل سنة من صديق له بمصر فبعث غلمانه بالإبل إلى الخليل الذي بمصر فقال خليله لغلمانه لو كان إبراهيم يريده لنفسه لفعلت ولكن يريده للأضياف وقد أصابنا ما أصاب الناس من الشدة فرجع غلمانه فمروا ببطحاء أي بأرض ذات حصى فقالوا لو أنا حملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أنا قد جئنا بميرة فإنا نستحي أن نمر بهم وإبلنا فارغة فملؤوا تلك الغرائر ثم أتوا إبراهيم فلما أخبروه بذلك وسارة نائمة ساءه الخبر فغلبته عيناه فنام واستيقظت سارة وقد ارتفع النهار فقالت سبحان الله ما جاء الغلمان قالوا بلى فقامت إلى الغرائر ففتحتها فإذا هو أجود حواري أي وهو بضم الحاء المهملة وتشديد الواو وفتح الراء الدقيق الذي نخل مرة بعد أخرى فأمرت الخبازين فخبزوا وأطعموا الناس فاستيقظ إبراهيم فوجد رائحة الخبز فقال من أين هذا لكم فقالت من خليلك المصري فقال بل من عند خليلي الله عز وجل فسماه الله خليلاً (ولله ما في السموات وما في الأرض) خلقاً وملكاً يفعل فيهما ما يشاء (وكان الله بكل شيء محيطاً) علماً وقدرة أي ولم يزل متصفاً بذلك فمهما أراد كان في وعد ووعيد للمطيع والعاصي لا يخفى عليه أحد منهم ولا يعجزه شيء (ويستفتونك) أي يطلبون منك الفتوى (في) شأن (النساء) أي في شأن اليتامى (قل الله يفتيكم) أي يبين لكم حكمه (فيهن) والإفتاء تبيين المبهم (و) يفتيكم أيضاً في (ما يتلى عليكم في الكتاب) أي القرآن من آية الميراث (في يتامى النساء) أي في شأن اليتامى (اللاتي لا تؤتونهن ما كتب) أي فرض (لهن) أي من الميراث (وترغبون) أيها الأولياء (أن) أي في أن أو عن أن (تنكحوهن) لجمالهن أو دمامتهن قالت عائشة رضي الله تعالى عنها هي اليتيمة تكون في حجر الرجل وهو وليها فيرغب في نكاحها إذا كانت ذات جمال ومال بأقل من سنة صداقها وإن كانت مرغوباً عنها في قلة المال والجمال تركها وفي رواية هي اليتيمة تكون في حجر الرجل قد شركته في ماله فيرغب عنها أن يتزوجها لدمامتها ويكره أن يزوجها غيره فيدخل عليه في ماله فيحبسها حتى تموت فيرثها فنهاهم الله تعالى عن ذلك (و) يفتيكم في (المستضعفين) أي الصغار (من الولدان) أي أن تعطوهم حقوقهم لأن العرب كانوا لا يورثونهم كما لا يورثون النساء

وقوله تعالى (وان تقوموا) فى محل نصب باضمار فعل أى ويامركم ان تقوموا (لليتامى) بالقسط أى العدل من الميراث وغيره والخطاب للائمة فى ان ينظروا الهم ويستوفوا حقهم أو للقوام بالنصفة فى شأنهم (وما تفعلوا من خير) أى فى ذلك أو غيره (فان الله كان به عليما) أى فيجازيكم عليه فانه اكرم الاكرمين فطيبوا انفسا وقروا عينا قال سعيد بن جبير كان رجل له امرأة قد كبرت وله منها أولاد فاراد أن يطلقها ويتزوج غيرها فقالت له لا تطلقنى ودعنى على ولدى واقسم لى من كل شهرين ان شئت وان شئت فلا تقسم لى فقال ان كان يصلح ذلك فهو أحب الى فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى (وان امرأة) مرفوع بفعل يفسره (خافت) أى توقعت (من بعلها) أى زوجها (نشوزا) أى تجافيا عنها وترفعا عن صحبتها كراهة لها ومنعا لحقوقها (أو اعراضا) بأن يقل محادثتها ومجالستها (فلا جناح عليهما) أى الزوج والزوجة (ان يصالحا بينهما صلحا) أى فى القسم والنفقة وهو ان يقول الزوج لها انك قد دخلت فى السن وانى أريد أن أتزوج امرأة شابة جميلة أوثرها عليك فى القسم ليلا ونهارا فان رضيتِ بهذا فأقيمى وان كرهت خليت سبيلك فان رضيت كانت هى المحسنة ولا تجبر على ذلك وان لم ترض بدون حقها كان على الزوج أن يوفيها حقها من القسم والنفقة أو يسرحها باحسان فان أمسكها ووفاها حقها مع كراهته فهو المحسن وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بضم الياء وسكون الصاد ولا ألف من أصلح بين المتنازعين والباقون بفتح الياء وفتح الصاد مع التشديد وألف بعدها وفتح اللام وفيه ادغام التاء فى الاصل فى الصاد وغلظ ورش اللام من يصالحا بخلاف عنه (والصلح) بأن يترك كل منهما حقه أو بعض حقه (خير) من الفرقة والنشوز والاعراض كما روى أن سودة كانت امرأة كبيرة أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يفارقها فقالت لا تطلقنى واتركنى أن ابعث فى نسائك وقد جعلت نوبتى لعائشة فأمسكها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقسم لعائشة يومها ويوم سودة ثم بين سبحانه وتعالى ما جبل عليه الانسان بقوله (وأحضرت الانفس الشح) أى جبلت عليه فكأنها حاضرة لا تغيب عنه فلا تكاد المرأة تسمح بالاعراض عنها والتقصير فى حقها ولا بنفسه بأن يمسكها ويقوم بحقها على ما ينبغى اذ الزوج لا يكاد يسمح بنفسه اذا كرهها وخصوصا اذا أحب غيرها والشح أقبح البخل وحقيقته الحرص على منع الخير (وان تحسنوا) أى فى عشرة النساء وان كنتم كارهين (وتتقوا) أى النشوز والاعراض ونقص الحق (فان الله كان) أزلا وأبدا (بما تعملون) أى من الاحسان والخصومة (خبيرا) أى عليما به وبالغرض منه فيجازيكم عليه (ولن تستطيعوا) أى توجدوا من أنفسكم طواعية بالغة دائمة (ان تعدلوا) أى تسووا بين (النساء) اى فى المحبة لان العدل أن لا يقع ميل البتة وهو متعذر ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ويقول هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا املك رواه ابو داود وغيره وصححه الحاكم (ولو حرصتم) على تحرى ذلك وبالغتم فيه (فلا تميلوا) أى الى التى تحبونها (كل الميل) فى القسم

والنفقة فان مالا يدرك كله لا يترك كله (فتذروها) أي تتركوا المرأة الممال عنها (كالمعلقة) أي التي لا هي أيم ولا ذات بعل وعن النبي صلى الله عليه وسلم من كان له امرأتان يميل الى أحداهما جاء يوم القيامة واحدى شقيه مائل رواه أبو داود وغيره وصححه الحاكم وروى أن عمر رضي الله تعالى عنه بعث الى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بمال فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها الى كل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بعث عمر مثل هذا قالوا لا بعث الى القرشيات بمثل هذا والى غيرهن بغيره فقالت ارفع رأسك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل بيننا في القسمة بماله ونفسه فرجع الرسول فأخبره فأتم لهن جميعا وكان لمعاذ رضي الله تعالى عنه امرأتان فاذا كان عند احداهما لم يتوضأ في بيت الاخرى فماتتا في الطاعون فدفنهما في قبر واحد (وان تصلحوا) أي ما كنتم تفسدون من أمورهن (وتتقوا) فيما يستقبل (فان الله كان غفورا) أي لما في قلوبكم من الميل (رحيما) بكم في ذلك وغيره فانه أرحم الراحمين (وان يتفرقا) أي يفترق كل من الزوجين من صاحبه بالطلاق (يغن الله كلا) منهما عن الآخر ببدل بأن يرزقها زوجا ويرزقه غيرها أو سلوا (من سعته) أي من فضله وكرمه (وكان الله واسعا) أي واسع الفضل والرحمة بخلقه (حكيما) أي فيما دبره لهم وفي قوله تعالى (ولله ما في السموات وما في الارض) أي ملكا وعبيدا تنبيه على كمال سعته وقدرته (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب) أي جنس الكتب (من قبلكم) أي اليهود والنصارى ومن قبلهم وقوله تعالى (واياكم) عطف على الذين وهو خطاب لاهل القرآن (أن اتقوا الله) أي بأن اتقوا الله أي خافوا عقابه بأن تطيعوه وقوله تعالى (وان تكفروا) أي بما وصيتم به (فان لله ما في السموات وما في الارض) على ارادة القول قال التفتازاني لان الجملة الشرطية لا تصح أن تقع بعد أن المصدرية فلا يصح عطفها على الواقع بعدها أي وقلنا لهم ولكم ان تكفروا فان الله مالك الملك كله لا يتضرر بكفركم ومعاصيكم كما لا ينتفع بشكركم وتقواكم وانما وصيكم لرحمته لا لحاجته ثم قرر ذلك بقوله تعالى (وكان الله غنيا) عن الخلق وعبادتهم (حميدا) في ذاته حمد أولم يحمد (ولله ما في السموات وما في الارض وكفى بالله وكيلا) أي شهيدا بأن ما فيهما له (فان قيل) ما فائدة تكرير لله ما في السموات وما في الارض (أجيب) بأن لكل واحدة منها وجها أما الاول فمعناه لله ما في السموات وما في الارض وهو يوصيكم بالتقوى فاقبلوا وصيته وأما الثاني فمعناه لله ما في السموات وما في الارض وكان الله غنيا حميدا أي هو الغني المطلق فاطلبوا منه ما تطلبون فانه لا ينفد ما عنده وأما الثالث فمعناه لله ما في السموات وما في الارض وكفى بالله وكيلا ولا تتوكلوا على غيره فذكرت كل مرة دليلا على شيء غير الذي قبله وكررت لان الدليل الواحد اذا كان دالا على مدلولات كثيرة يحسن أن يستدل به على كل واحد منها واعادته مع كل واحد أولى من الاكتفاء بذكره مرة واحدة لان اعادته تحضر في الذهن ما يوجب العلم بالمدلول فيكون العلم الحاصل بذلك المدلول أقوى وأجل وفي ختم كل جملة بصفة من الصفات الحسنى تنبيه الذهن بها الى أن هذا الدليل محتو على أسرار شريفة ومطالب جليلة لا تنحصر

فيجتهد السامع فى التفكر لاظهار الاسرار والاستدلال على صفات الكمال لان الغرض الكلى من هذا الكتاب صرف العقول والافهام عن الاشتغال بغير الله الى الاستغراق فى معرفته سبحانه وتعالى وهذا التكرير مما يفيد حصول هذا المطلوب ويؤكده (ان يشأ يذهبكم) أى يفنكم (أيها الناس) كما أوجدكم (ويأت بآخرين) أى ويوجد قوما آخرين مكانكم أو خلقا آخرين مكان الانس (وكان الله على ذلك) أى الاعدام والايجاد (قديرا) أى بليغ القدرة لا يمتنع عليه شئ أراده وقيل هذا خطاب لمن كان يعادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب ان يشأ يمتكم ويأت بناس آخرين يوالونه وروى أنه لما نزلت ان يشأ يذهبكم الآية ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ظهر سلمان وقال انهم قوم هذا أى سلمان وهم بنو فارس (من كان يريد ثواب الدنيا) الخسيسة الفانية كالمجاهد يجاهد للغنيمة لقصور نظره على الخسيس الحاضر مع خسته كالبهائم (فعند الله ثواب الدنيا) الخسيسة الفانية (والآخرة) النفيسة الباقية لا عند غيره فماله يطلب الخسيس فليطلبهما منه كمن يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة أو ليطلب الاشرف منهما فان من غلب همته فأقبل بقلبه اليه وقصر همه عليه جمع له سبحانه وتعالى بينهما كمن يجاهد لله خالصا يجمع له بين الآخرة والمغنم (وكان الله سميعا) أى بالغ السمع لكل قول وان خفى (بصيرا) أى بالغ البصر لكل ما يبصر وان خفى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين) أى قائمين قياما بليغا مواظبا عليه مجتهدا فيه (بالقسط) أى بالعدل (شهداء لله) بالحق أى تقيمون شهاداتكم لوجه الله (ولو) كانت الشهادة (على أنفسكم) فاشهدوا عليها بأن تقروا بالحق ولا تكتموه (أو الوالدين والاقربين) أى ولو كانت الشهادة على والديكم وأقاربكم (ان يكن) أى المشهود عليه (غنيا) فلا تمنع الشهادة عليه لغناه طلبا لرضاه (أو فقيرا) فلا تمنع ترحما عليه (فالله أولى بهما) أى الغنى والفقير وبالنظر لهما ولو لم تكن الشهادة لهما أو عليهما صلاحا لما شرعها * (تنبيه) * الضمير فى بهما راجع الى ما دل عليه المذكور وهو جنس الغنى والفقير لا اليهما والا لوحد الضمير لكون العطف بأو فكأنه قال فالله أولى بجنس الغنى والفقير أى بالاغنياء والفقراء (فلا تتبعوا الهوى) أى فى شهادتكم بأن تحابوا الغنى لرضاه أو الفقير رحمة له (أن تعدلوا) أى ارادة ان تعدلوا فقد بان لكم أن لا عدل فى ذلك أو لئلا تعدلوا أى تميلوا عن الحق (وان تلووا) أى ألسنتكم لتحرفوا الشهادة (أو تعرضوا) أى عن آدائها (فان الله كان بما تعملون خبيرا) فيجازيكم به وقرأ ابن عامر وحمزة بضم اللام وحذف الواو الاولى والباقون بسكون اللام وواوين الاولى مضمومة (يا أيها الذين آمنوا آمنوا) أى داوموا على الايمان (بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله) محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن (والكتاب الذى أنزل من قبل) على الرسل بمعنى الكتب أى آمنوا بجميع كتب الله المنزلة وقيل ان الخطاب فى ذلك لاهل الكتاب روى ان ابن سلام وأصحابه قالوا يا رسول الله انا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم بل آمنوا بالله ورسوله محمد والقرآن وبكل كتاب كان قبله فأنزل الله تعالى هذه الآية

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم النون من نزل وضم الهمزة من أنزل وكسر الزاي فيهما والباقون بفتح النون والهمزة وفتح الزاي فيهما (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه) التي أنزلها على أنبيائه (ورسله) أي من الملائكة والبشر (واليوم الآخر) أي الذي أخبرت به رسله وهو يوم القيامة أي ومن يكفر بشيء من ذلك (فقد ضل ضلالا بعيدا) عن الحق بحيث لا يكاد يعود إليه وقرأ قالون وابن كثير وعاصم بإظهار دال قد عند الضاد والباقون بالإدغام (إن الذين آمنوا) أي بموسى وهم اليهود (ثم كفروا) حين عبدوا العجل (ثم آمنوا) بعد عود موسى إليهم (ثم كفروا) بعيسى (ثم ازدادوا كفرا) بمحمد صلى الله عليه وسلم (لم يكن الله ليغفر لهم) أي ما داموا على هذه الحالة لأنه لا يغفر أن يشرك به (ولا ليهديهم سبيلا) أي طريقا إلى الحق (بشر المنافقين) يا محمد (بأن لهم عذابا أليما) أي مؤلما وهو النار* (تنبيه)* وضع بشر مكان أنذر تهكما بهم وقوله تعالى (الذين) بدل أو نعت للمنافقين (يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) لما يتوهمون فيهم من القوة وقوله تعالى (أيبتغون) أي أيطلبون (عندهم العزة) استفهام إنكاري أي لا يجدونها عندهم (فإن العزة لله جميعا) في الدنيا والآخرة ولا ينالها إلا أولياؤه قال الله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (وقد) أي تتخذونهم والحال أنه قد (نزل عليكم) أي أيتها الأمة الصادقين منكم والمنافقين (في الكتاب) أي القرآن في سورة الأنعام النازلة بمكة المشرفة النهي عن مجالستهم فضلا عن ولايتهم (أن) أي أنه فهي مخففة واسمها محذوف (إذا سمعتم آيات الله) أي القرآن (يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم) أي الكافرين والمستهزئين (حتى يخوضوا في حديث غيره) أي حتى يأخذوا في حديث غير ذلك قال الضحاك عن ابن عباس دخل في هذه الآية كل محدث في الدين وكل مبتدع إلى يوم القيامة وقرأ عاصم نزل بفتح النون والزاي والباقون بضم النون وكسر الزاي (إنكم إذا) أي إن قعدتم معهم (مثلهم) أي في الإثم لأنكم قادرون على الإعراض عنهم والإنكار عليهم أو الكفران رضيتم به وقيل كان الذين يقاعدون الخائضين في القرآن من الأحبار هم المنافقون فقيل لهم إنكم إذا مثل الأحبار في الكفر ويدل عليه قوله تعالى (إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا) أي القاعدين والمقعود معهم كما اجتمعوا في الدنيا على الكفر والاستهزاء وقوله تعالى (الذين) إما بدل من الذين قبله وإما صفة للمنافقين وإما نصب على الذم منهم (يتربصون) أي ينتظرون وقوع أمر (بكم فإن كان لكم فتح من الله) أي ظفر وغنيمة (قالوا) لكم (ألم نكن معكم) أي في الدين والجهاد فاجعلوا لنا نصيبا من الغنيمة (وإن كان للكافرين نصيب) أي من الظفر فإن الحرب سجال وعبر بنصيب تحقيرا لظفرهم بالنسبة لما حصل للمسلمين من الفتح (قالوا) لهم (ألم نستحوذ) أي نستول (عليكم) ونقدر على أخذكم وقتلكم فأبقينا عليكم (ونمنعكم من المؤمنين) أي من تسلطهم عليكم بما كنا نخادعهم به ونشيع فيهم من الإرجافات والأمور المرعبات الصارفة لهم عن كثير من المقاصد لتصديقهم لنا لإظهارنا الإيمان ومراد المنافقين بذلك إظهار المنة على الكافرين (فالله يحكم بينكم) وبينهم (يوم القيامة) بأن يدخلكم الجنة

أو يستجلب به نفعا وهو الغني المطلق المتعالي عن النفع والضر والاستفهام بمعنى النفي أي لا يعذبكم (فان قيل) لم قدم الشكر على الايمان مع أنه لا ينفع مع عدم الايمان (أجيب) بأن الناظر يدرك النعمة أولا فيشكر شكرا مبهما فاذا انتهى الى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شكرا مفصلا فكان الشكر متقدما على الايمان وكأنه أصل التكليف ومداره فيؤمن به والشكر ضد الكفر فالكفر ستر النعمة والشكر اظهارها (وكان الله شاكرا) لاعمال المؤمنين بالاثابة يقبل اليسير ويعطي الجزيل (عليما) بخلقه (لا يحب الله الجهر بالسوء) أي القبيح (من القول) من أحد أي يعاقب عليه (الا من) أي جهر من (ظلم) وهو ان يدعو على الظالم ويذكره بما هو فيه من السوء فلا يؤاخذ به قال الله تعالى ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل قال الحسن البصري دعاؤه عليه أن يقول اللهم أعني عليه اللهم استخرج حقي منه وقيل ان شتم أجاز له ان يشتم بمثله لا يزيد عليه وقال مجاهد هذا في الضيف اذا نزل بقوم فلم يقروه ولم يحسنوا ضيافته فله ان يشكو ويذكر ما صنع به روي أن رجلا اضاف قوما أي نزل بهم ضيفا فلم يطعموه فأصبح شاكيا فعوتب على الشكاية فنزلت وعن عقبة بن عامر قال قلنا يا رسول الله انك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقروننا فما ترى فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا وان لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم (وكان الله سميعا) لكل ما يقال ومنه دعاء المظلوم (عليما) بكل ما يفعل ومنه فعل الظالم (ان تبدوا) أي تظهروا (خيرا) من أعمال البر (أو تخفوه) أي تعملوه سرا (أو تعفوا عن سوء) أي عن مظلمة (فان الله كان) أي دائما أزلا وأبدا (عفوا قديرا) أي يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام فأنتم أولى بذلك وهو حث للمظلوم على تمهيد العفو بعدما رخص له في الانتصار حملا على مكارم الاخلاق وقوله تعالى (ان الذين يكفرون بالله ورسله) نزل في اليهود وذلك انهم آمنوا بموسى والتوراة وعزير وكفروا بعيسى والانجيل وبمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) أي نؤمن ببعض الانبياء ونكفر ببعضهم (ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا) أي طريقا وسطا بين اليهودية والاسلام ولا واسطة اذ الحق لا يختلف فان الايمان بالله انما يتم بالايمان برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه تفصيلا واجمالا والكافر ببعض ذلك كالكافر بالكل في الضلال قال تعالى فماذا بعد الحق الا الضلال (أولئك هم الكافرون) أي الكاملون في الكفر وقوله تعالى (حقا) مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) اي ذا اهانة وهو عذاب النار ولما بين سبحانه وتعالى ما أعده للكافرين بين ما أعده للمؤمنين بقوله تعالى (والذين آمنوا بالله ورسله) كلهم (ولم يفرقوا بين أحد منهم) بان كفروا ببعض وآمنوا ببعض كما فعل الاشقياء منهم وانما أدخل بين على أحد وهو يقتضي متعددا لعمومه من حيث انه وقع في سياق النفي (أولئك) أي العالو الرتبة في رتب السعادة (سوف نؤتيهم) بوعد لا خلف فيه وان تأخر (أجورهم) الموعودة لهم بايمانهم بالله وكتبه ورسله وقرأ حفص بالياء على الغيبة والباقون

بالنون (وكان الله غفورا) لما يريد من الزلات (رحيما) أى لمن يريد اسعاده بالجنات ونزل لما قال أحبار اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم ان كنت نبيا فأتنا بكتاب جملة من السماء كما أتى به موسى (يسئلك) يا محمد (أهل الكتاب) أى أحبار اليهود (أن تنزل عليهم كتابا من السماء) جملة كما أنزل على موسى وقيل كتابا محررا أى مجلدا مصونا بخط سماوى على ألواح كما كانت التوراة وقيل كتابا نعاينه حين ينزل أو كتابا الينا بأعياننا بأنك رسول الله قالوا ذلك تعنتا قال الحسن لو سألوا لكى يتبينوا الحق لاعطاهم وفيما آتاهم كفاية وقوله تعالى (فقد سألوا) أى آباؤهم (موسى) جواب شرط مقدر معناه انك ان استكبرت ما سألوه منك فقد سألوا موسى (أكبر) أى أعظم (من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) أى عيانا وانما أسند السؤال اليهم وان وجد من آبائهم فى أيام موسى عليه الصلاة والسلام وهم النقباء السبعون لانهم كانوا على مذهبهم وراضين بسؤالهم ومضاهين لهم فى التعنت (فأخذتهم الصاعقة) أى عقب هذا السؤال وهى نار جاءت من السماء فأهلكتهم (بظلمهم) أى بسببه وهو تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل فى تلك الحال التى كانوا عليها وذلك لا يقتضى امتناع الرؤية مطلقا (ثم) بعد العفو عنهم واحيائهم من اماتة هذه الصاعقة (اتخذوا العجل) أى تكلفوا أخذه وجعلوه الها (من بعد ما جاءتهم البينات) المعجزات على وحدانية الله تعالى وليس المراد التوراة لانهم لم تأتهم فيما مضى بل أتتهم بعد (فعفونا عن ذلك) أى الذنب العظيم بتوبتنا عليهم من غير استئصالهم (وآتينا موسى سلطانا) تسلطا واستيلاء (مبينا) أى ظاهرا فانه أمرهم بقتل أنفسهم توبة من عبادة العجل فبادروا الى الامتثال (ورفعنا فوقهم الطور) أى الجبل العظيم (بميثاقهم) أى بسبب أخذ الميثاق عليهم ليخافوا فيقبلوه (وقلنا لهم) على لسان موسى صلى الله عليه وسلم والطور مظال عليهم (ادخلوا الباب) أى الذى لبيت المقدس (سجدا) أى سجود انحناء (وقلنا لهم) أى على لسان داود (لا تعدوا) أى لا تتجاوزوا ما حددناه لكم (فى السبت) أى لا تعملوا فيه عملا من الاعمال تسمية للشئ باسم سببه سمى عدوا لان العامل للشئ يكون لشدة اقباله عليه كانه يعدو ويحتمل أن يكون ذلك على لسان موسى حين ظال عليهم الجبل فانه شرع السبت أى ترك العمل فيه ولكن كان الاعتداء فى السبت والمسخ به فى زمن داود وقرأ ورش بفتح العين مع تشديد الدال وقرأ قالون باختلاس حركة العين مع تشديد الدال والباقون بسكون العين وتخفيف الدال (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) على ذلك وهو قولهم سمعنا وأطعنا ومعاهدتهم على ان يقيموا عليه ثم نقضوه بعد كما قال تعالى (فبما نقضهم) أى فبنقضهم وما مزيدة للتوكيد والباء للسببية متعلقة بمحذوف أى لعناهم بسبب نقضهم (ميثاقهم وكفرهم بآيات الله) أى القرآن أو بما فى كتابهم (وقتلهم الانبياء بغير حق) فانهم معصومون من كل نقيصة ومبرؤن من كل ريبة لا يتوجه عليهم حق (وقولهم قلوبنا غلف) أى أوعية للعلوم أوفى أكنة مما تدعونا اليه فلا نعى كلامك (بل طبع الله) أى ختم (عليها بكفرهم) فلا تعى وعظا (فلا يؤمنون الا قليلا) منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه أو ايمانا قليلا لا عبرة به بأن يؤمنوا وقتا يسيرا

كوجه النهار ويكفروا في غيره ويؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض وقوله تعالى (وبكفرهم) معطوف على فبما نقضهم ويجوز عطفه على بكفرهم وقد تكرر منهم الكفر لأنهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم فعطف بعض كفرهم على بعض وكرر الباء للفصل بينه وبين ما عطف عليه (وقولهم على مريم) أي بعد ما ظهر على يديها من الكرامات الدالة على براءتها وأنها ملازمة للعبادة بأنواع الطاعات (بهتانا عظيما) وهو نسبتها الى الزنا (فان قيل) كان مقتضى الظاهر أن يقول في مريم (أجيب) بأنه ضمن القول معنى الافتراء وهو يتعدى بعلى (وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) أي بمجموع ذلك عذبناهم (فان قيل) كانوا كافرين بعيسى أعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فكيف قالوا انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله (أجيب) بأنهم قالوه بزعم عيسى عندهم أو انهم قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون ان رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون قال الزمخشري ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفعا لعيسى عليه الصلاة والسلام عما كانوا يذكرونه به اهـ قال الله تعالى تكذيبا لهم في قتله (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) أي المقتول والمصلوب روى النسائي عن ابن عباس أن رهطا من اليهود سبوه وسبوا أمه فدعا عليهم فمسخهم الله قردة وخنازير فاجتمعت اليهود على قتله فأخبره الله تعالى بأنه يرفعه الى السماء ويطهره من صحبة اليهود فقال لأصحابه أيكم يرضى أن يلقى الله عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة فقال رجل منهم أنا فألقى الله عليه شبهه فقتل وصلب وقيل كان رجلا ينافق عيسى أي يظهر له الاسلام ويخفي الكفر فلما أرادوا قتله قال أنا أدلكم عليه فدخل في بيت عيسى فرفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى الله شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وصلبوه وهم يظنون انه عيسى وقيل انهم حبسوا عيسى عليه الصلاة والسلام في بيت وجعلوا عليه رقيبا فألقى الله شبه عيسى على الرقيب فقتلوه (وان الذين اختلفوا فيه) أي في شأن عيسى فانه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود انه كان كاذبا فقتلناه حقا وتردد آخرون وقال بعضهم ان كان هذا عيسى فأين صاحبنا وقال بعضهم الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا وكان الله ألقى شبه وجه عيسى عليه ولم يلق على جسده وقال من سمع من عيسى ان الله يرفعني الى السماء انه رفعه الى السماء وقال قوم صلب الناسوت أي الانسانية وصعد اللاهوت أي الالوهية (لفي شك منه) أي من قتله (ما لهم به) أي بقتله (من علم) وقوله تعالى (الا اتباع الظن) استثناء منقطع أي لكن يتبعون فيه الظن الذي تخيلوه (فان قيل) قد وصفوا بالشك والشك أن لا يترجح أحد الجائزين ثم وصفوا بالظن والظن أن يترجح أحدهما فكيف يكونون شاكين ظانين (أجيب) بأن الشك كما يطلق على ما لا يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد وعلى ما يقابل العلم فيشمل الاعتقاد (وما قتلوه) أي انتفى قتلهم له انتفاء (يقينا) أي انتفاؤه على سبيل القطع ويجوز أن يكون حالا من واو قتلوه أي ما فعلوا القتل متيقنين ان عيسى عليه الصلاة والسلام بل فعلوه شاكين فيه والحق انهم لم يقتلوا الا الرجل الذي ألقى عليه

شبهه قال البقاعي والوجه الاول أولى لقوله تعالى (بل رفعه الله اليه) أي الى مكان لا يصل اليه حكم آدمي وعن وهب انه أوحى اليه وهو ابن ثلاثين سنة ورفع وهو ابن ثلاث وثلاثين فكانت رسالته ثلاث سنين (وكان الله عزيزا) أي في ملكه لا يغلب عما يريد (حكيما) في صنعه لا يطمع أحد في نقص شيء منه (وان من أهل الكتاب) أي وما من أهل الكتاب أحد (الا ليؤمنن به) أي بعيسى عليه الصلاة والسلام هذا قول أكثر المفسرين واهل العلم (قبل موته) اختلف في عود هذا الضمير فقال عكرمة ومجاهد والضحاك يعود للكتابي أي ان الكتابي يؤمن بعيسى حين يعاين ملائكة الموت فلا ينفعه ايمانه سواء احترق أو غرق أو تردى أو سقط عليه جدار أو أكله سبع أو مات فجأة فقيل لابن عباس أرأيت من خر من فوق بيت فقال يتكلم به في الهوى فقيل أرأيت ان ضرب عنق أحدهم قال يتلجلج بها لسانه وذهب قوم الى عود الضمير الى عيسى أي وما من أهل الكتاب الا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وذلك عند نزوله من السماء في آخر الزمان فلا يبقى أحد الا آمن به حتى تكون الملة واحدة ملة الاسلام روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوشك ان ينزل فيكم عيسى بن مريم حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ويهلك في زمانه الملل كلها الا الاسلام ويقتل الدجال فيمكث في الارض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون قال أبو هريرة اقرؤا ان شئتم وان من أهل الكتاب الآية ثم أعادها أبو هريرة ثلاث مرات ولا يعارض هذا ما في مسلم في قصة الدجال ان الله يبعث عيسى بن مريم فيطلبه فيهلكه ثم يلبث الناس بعده سبع سنين ليس بين اثنين عداوة لان قوله ثم يلبث الناس بعده أي بعد موته فلا معارضة أولان السبع محمول على مدة اقامته بعد نزوله ويكون ذلك مضافا الى مكثه فيها قبل رفعه الى السماء وكان عمره اذذاك ثلاثا وثلاثين سنة على المشهور وروى عكرمة ان الهاء في قوله تعالى ليؤمنن به كناية عن محمد صلى الله عليه وسلم يقول لا يموت كتابي حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل الهاء راجعة الى الله عز وجل يقول وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن بالله عز وجل قبل موته عند المعاينة حين لا ينفعه ايمانه (ويوم القيامة يكون) أي عيسى على القول الاول (عليهم شهيدا) انه قد بلغهم رسالة ربه وأقر بالعبودية على نفسه كما قال تعالى مخبرا عنه وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم وكل نبي شاهد على أمته قال تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (فبظلم من الذين هادوا) وهو ما تقدم ذكره من نقضهم الميثاق وبكفرهم بآيات الله وبهتانهم على مريم وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم (حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) أي كان وقع احلالها لهم في التوراة ثم حرمت عليهم وهي التي في قوله تعالى في سورة الانعام وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر الآية (وبصدهم) أي الناس (عن سبيل الله) أي دينه وقوله تعالى (كثيرا) صفة مصدر محذوف أي صدا كثيرا بالاضلال عن الطريق فمنعوا استلذاذات تلك المآكل بما منعوا أنفسهم وغيرهم من لذاذة الايمان (وأخذهم الربا وقد) أي والحال انهم قد (نهوا عنه) في التوراة فكان محرما عليهم كما هو محرم علينا لانه قبيح في نفسه مضر بصاحبه وفي الآية دليل على ان النهي

للتحريم (وأكلهم أموال الناس بالباطل) أى من الرشا فى الحكم والمآكل أى التى كانوا يصيبونها من عوامهم عاقبناهم بأن حرمنا عليهم طيبات فكانوا كلما ارتكبوا كبيرة حرم عليهم شئ من الطيبات التى كانت حلالا لهم قال تعالى ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون (واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما) أى مؤلما دون من تاب وآمن * ولما بين سبحانه وتعالى ما للمطبوع على قلوبهم الفريقين فى الكفر من العقاب بين ما للنيرى البصائر بالرسوخ فى العلم والايمان من الثواب فقال (لكن الراسخون) أى الثابتون المتمكنون (فى العلم منهم) أى من أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام وأصحابه (والمؤمنون) أى من المهاجرين والانصار (يؤمنون بما أنزل اليك) أى القرآن (وما أنزل من قبلك) أى من سائر الكتب المنزلة وقوله تعالى (والمقيمين الصلاة) نصب على المدح لان الصلاة لما كانت أعظم دعائم الدين ولذلك كانت ناهية عن الفحشاء والمنكر نصبت على المدح من بين هذه المرفوعات اظهارا لفضلها وحكى عن عائشة رضى الله تعالى عنها وأبان بن عثمان ان ذلك غلط من الكاتب ينبغى أن يكتب والمقيمون الصلاة وكذلك قوله فى سورة المائدة ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى وقوله تعالى ان هذان لساحران قالا ذلك خطأ من الكاتب وقال عثمان ان فى المصحف لحنا وستقيمه العرب بألسنتها فقيل له الا تغيره فقال دعوه فانه لا يحل حراما ولا يحرم حلالا وعامة الصحابة وأهل العلم على انه صحيح كما قدمناه وقيل نصب باضمار فعل تقديره أعنى المقيمين الصلاة وقوله تعالى (والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر) رجوع الى النسق الاول (أولئك سنؤتيهم) بوعد لا خلف فيه على جمعهم بين الايمان الصحيح والعمل الصالح (أجرا عظيما) وهو الجنة والنظر الى وجهه الكريم وقوله تعالى (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده) جواب لاهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتابا من السماء واحتجاج عليهم بأن شأنه فى الوحى اليه كشأن سائر الانبياء الذين سلفوا وبدأ بذكر نوح عليه الصلاة والسلام لانه كان أبا البشر مثل آدم عليه الصلاة والسلام قال الله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين ولانه أول نبى من أنبياء الشريعة وأول نذير على الشرك وأول من عذبت أمته لردهم دعوته وأهلك أهل الارض بدعائه وكان أطول الانبياء عمرا وجعلت معجزته فى نفسه لانه عمر ألف سنة فلم ينقص له سن ولم يشب له شعرة ولم تنقص له قوة ولم يصبر أحد على أذى قومه ما صبر هو على طول عمره (و) كما (أوحينا الى ابراهيم واسمعيل واسحق) ابنى ابراهيم (ويعقوب) بن اسحق (والاسباط) أولاد يعقوب وظاهر هذا انهم كلهم أنبياء وهو أحد قولين والقول الآخر أن يوسف هو النبى فقط وعلى هذا فالمراد المجموع (وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا) أباه (داود زبورا) قرأ حمزة بضم الزاى مصدر بمعنى مزبورا أى مكتوبا والباقون بالنصب على انه اسم للكتاب المؤتى وكان فيه التحميد والتمجيد والثناء على الله عز وجل كان داود يبرز الى البرية فيقوم ويقرأ الزبور ويقوم معه علماء بنى اسرائيل فيقومون خلفه ويقوم الناس خلف العلماء ويقوم الجن خلف الناس الاعظم فالاعظم والشياطين خلف الجن وتجىء الدواب التى فى الجبال فيقمن بين

يديه تعجبا لما يسمع منه والطير ترفرف على رؤسهم فلما فارق الذنب لم ير ذلك فقيل له ذلك أنس الطاعة وهذا وحشة المعصية قال السيوطي في شرح التنبيه ان الزبور مائة وخمسون سورة ما بين قصار وطوال والطويلة منها قدر ربع حزب والقصيرة قدر سورة النصر اه وعن أبي موسى قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رأيتني البارحة وأنا أسمع لقراءتك لقد أعطيت مزمارا من مزامير داود وكان عمر اذا رآه قال ذكرنا يا أبا موسى فيقرأ عنده وانما خص هؤلاء بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تعظيما لهم وقوله تعالى (ورسلا) أي غير هؤلاء نصب بمضمر دل عليه أوحينا اليك مثل أرسلنا (قد قصصناهم) أي تلونا ذكرهم (عليك من قبل) أي قبل انزال هذه السورة أو هذه الآية (ورسلا لم نقصصهم عليك) أي الى الآن روي انه سبحانه وتعالى بعث ثمانية آلاف نبي أربعة آلاف من بني اسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس قاله الجلال المحلي في سورة غافر وقوله تعالى (وكلم الله موسى تكليما) هو منتهى مراتب الوحي أي كلمه على التدريج شيأ فشيأ بحسب المصالح بغير واسطة ملك فلا فرق في الوحي بين ما كان بواسطة وبين ما كان بلا واسطة وخص به موسى من بين سائر الانبياء غير نبينا وأما نبينا صلى الله عليه وسلم فقد فضله الله بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم وقوله تعالى (رسلا) بدل من رسلا قبله (مبشرين) أي بالثواب من آمن (ومنذرين) أي مخوفين بالعذاب من كفر وقوله تعالى (لئلا يكون للناس على الله حجة) متعلق بارسلنا أو بمبشرين ومنذرين أي حجة تقال (بعد) ارسال (الرسل) فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين فبعثناهم لقطع عذرهم (فان قيل) كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوجون بما نصبه الله تعالى من الادلة التي النظر فيها يوصل الى المعرفة (أجيب) بأن الرسل ينبهون عن الغفلة وباعثون على النظر في الادلة فارسالهم ضروري (وكان الله عزيزا) في ملكه لا يغلب فيما يريده (حكيما) في صنعه روي أن سعد بن عبادة قال لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أتعجبون من غيرة سعد والله لانا أغير منه والله أغير مني ومن أجل غيرة الله حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك بعث المنذرين والمبشرين ولا أحد أحب اليه المدحة من الله ومن أجل ذلك وعد بالجنة قال ابن عباس ان رؤساء مكة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد انا سألنا عنك اليهود وعن صفتك في كتابهم فزعموا أنهم لا يعرفونك ودخل عليهم جماعة من اليهود فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم والله انكم لتعلمون اني رسول الله فقالوا والله ما نعلم ذلك فأنزل الله عز وجل (لكن الله يشهد) أي يبين نبوتك (بما أنزل اليك) أي من القرآن المعجز الدال على نبوتك ان جحدوك وكذبوك (أنزله) متلبسا (بعلمه) الخاص به وهو العلم بتأليفه على نظم يعجز عنه كل بليغ وروي أنه لما نزل انا أوحينا اليك قالوا ما نشهد لك فنزلت (والملائكة يشهدون) لك أيضا (وكفى بالله شهيدا) على ذلك بما نظم من الحجج على صحة نبوتك عن الاستشهاد بغيره (ان الذين كفروا وصدوا) الناس

(عن سبيل الله) أى دين الاسلام بكتمهم دين محمد صلى الله عليه وسلم وهم اليهود (قد ضلوا ضلالا بعيدا) عن الحق لانهم جمعوا بين الضلال والاضلال ولان المضل يكون أعرق فى الضلال وأبعد من الانقلاع عنه (ان الذين كفروا) بالله (وظلموا) نبيه بكتمان نعته (لم يكن الله ليغفر لهم) لكفرهم وظلمهم (ولا ليهديهم طريقا) من الطرق (الا طريق جهنم) أى الطريق المؤدى اليها (خالدين) أى مقدرين الخلود (فيها) اذا دخلوها وأكد ذلك بقوله (أبدا) لان الله لا يغفر أن يشرك به (وكان ذلك على الله يسيرا) اى هينا لا يصعب عليه ولا يستعظمه (يا ايها الناس قد جاءكم الرسول) محمد صلى الله عليه وسلم (بالحق من ربكم) لما قرر من أمر النبوة وبين الطريق الموصل الى العلم بها ووعيد من أنكرها خاطب الناس عامة بالدعوة والزام الحجة والوعد بالاجابة والوعيد على الرد (فآمنوا) بالله وقوله تعالى (خيرا لكم) وكذلك قوله تعالى فيما يأتى انتهوا خيرا لكم منصوب بمضمر وذلك انه لما بعثهم على الايمان وعلى الانتهاء عن التثليث علم أنه يحملهم على أمر فقال خيرا لكم أى اقصدوا وأمر اخيرا لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث وهو الايمان والتوحيد وقيل تقديره يكن الايمان خيرا لكم قال البيضاوى ومنعه البصريون لان كان لا يحذف مع اسمه الا فيما لا بد منه ولانه يؤدى الى حذف الشرط وجوابه اه (وان تكفروا) بالله (فان لله ما فى السموات والارض) ملكا وخلقا فهو غنى عنكم فلا يضره كفركم كما لا ينفعه ايمانكم ونبه على غناه بقوله تعالى لله ما فى السموات والارض وهو يعم ما اشتملتا عليه وما تركبتا منه (وكان الله عليما) بأحوالكم (حكيما) أى فيما دبره لهم (يا أهل الكتاب لا تغلوا) أى تجاوزوا الحد (فى دينكم) الخطاب للفريقين غلت اليهود فى حط عيسى حتى رموه بالزنا والنصارى فى رفعه حتى اتخذوه الها وقيل للنصارى خاصة والمراد بالكتاب الانجيل فانه أوفق لقوله تعالى (ولا تقولوا على الله الا القول الحق) أى من تنزيهه عن الشريك والولد (انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها) أى أوصلها (الى مريم) وجعلها فيها (وروح) أى ذو روح (منه) لا بتوسط ما يجرى مجرى الاصل والمادة له وسمى عيسى كلمة الله وكلمة منه لانه وجد بكلمته وأمره لا غير من غير واسطة أب ولا نطفة وقيل له روح الله وروح منه لانه ذو روح وجسد من غير جزء من ذى روح كالنطفة المنفصلة من الاب الحى وانما اخترع اختراعا من عند الله وقدرته بأن أمر جبريل فنفخ فى جيب درعها فحملت به فأضيف الى الله تعالى تشريفا له وليس كما زعمتم أنه ابن الله أو الهمعه أو ثالث ثلاثة لان الروح مركب والاله منزه عن التركيب وعن نسبة المركب اليه روى انه صلى الله عليه وسلم قال من شهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل (فآمنوا بالله ورسله) أى عيسى وغيره ولا تؤمنوا ببعض وتكفروا ببعض (ولا تقولوا) كما قالت النصارى الآلهة (ثلاثة) الله وعيسى وأمه قال تعالى (انتهوا) عن ذلك وائتوا (خيرا لكم) من ذلك وهو التوحيد (انما الله اله واحد) أى لا تعدد فيه بوجه ما (سبحانه) تنزيها له (أن) أى عن ان (يكون له ولد) أى كما قلتم أيها النصارى فان ذلك يقتضى

الحاجة ويقتضي التركيب والمجانسة ثم علل ذلك بقوله (له ما في السموات وما في الارض) خلقا وملكا فلا يتصور أن يحتاج الى شئ منهما ولا الى شئ متميز فيهما ولا يصح بوجه أن يكون بعض ما يملكه المالك جزأ منه وولدا له لان الملكية تنافي البنوة وعيسى وأمه كل منهما محتاج الى ما في الوجود (وكفى بالله وكيلا) أي يحتاج اليه كل شئ ولا يحتاج هو الى شئ فهو غني عن الولد فان الحاجة اليه ليكون وكيلا لابيه والله سبحانه وتعالى قائم بحفظ الاشياء كاف في ذلك مستغن عمن يخلفه أو يعينه روى ان وفد نجران قالوا يا رسول الله لم تعيب صاحبنا قال ومن صاحبكم قالوا عيسى قال وأي شئ أقول قالوا تقول انه عبد الله قال انه ليس بعار أن يكون عبد الله قالوا بلى فنزل قوله تعالى (لن يستنكف) أي يتكبر ويأنف (المسيح) أي الذي زعمتم انه اله (أن) أي عن أن (يكون عبد الله) فان عبوديته له شرف يتباهى به وانما المذلة والاستنكاف في عبودية غيره وقوله تعالى (ولا الملائكة المقربون) أي عند الله عطف على المسيح أي ولا تستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيد الله وهذا من أحسن الاستطراد ذكر للرد على من زعم انها آلهة أو بنات الله كما رد بما قبله على النصارى الزاعمين ذلك المقصود خطابهم فلا حجة فيه على أن الملائكة أفضل من الانبياء كما زعمه بعض المعتزلة قائلا بأن المعطوف أعلى درجة من المعطوف عليه قال الطيبي وانما تنهض الحجة على النصارى اذا سلموا ان الملائكة أفضل من عيسى ودونه خرط القتاد فكيف والنصارى رفعوا درجة عيسى الى الالهية فظهر ان ذكر الملائكة للاستطراد كما رد على النصارى وأنه من باب التتميم لا من باب الترقي اه أو من باب الترقي في الخالق لا في المخلوق كما قاله البقاعي قال لان الملائكة أعجب خلقا من عيسى في كونهم ليسوا من ذكر ولا أنثى ولا مما يجانس عضو البشر فكانوا لذلك أعجب خلقا من آدم عليه الصلاة والسلام أيضا أو في القوة لانهم أقوى من عيسى لانهم يقتلعون الجبال ويأتون بالمبادي العظيمة والعبادات الدائمة المستمرة (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر) أي يطلب التكبر عن ذلك قال الراغب الاستنكاف تكبر في أنفة والاستكبار بخلافه (فسيحشرهم) أي المستكبرين وغيرهم (اليه جميعا) في الآخرة بوعد لا يخلف فيجازيهم (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات) تصديقا لاقرارهم بالايمان (فيوفيهم أجورهم) أي ثواب أعمالهم (ويزيدهم من فضله) أي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (وأما الذين استنكفوا واستكبروا) عن عبادته (فيعذبهم عذابا أليما) أي مؤلما هو عذاب النار بما وجدوا من لذاذة الترفع والتكبر (ولا يجدون لهم) أي حالا ولا مآلا (من دون الله) أي غيره (وليا) يدفعه عنهم (ولا نصيرا) يمنعهم منه (يا أيها الناس) أي كافة أهل الكتاب وغيرهم (قد جاءكم برهان من ربكم) أي حجة نيرة واضحة مفيدة لليقين التام وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم بالادلة القاطعة من المعجزات وغيرها (وأنزلنا اليكم نورا مبينا) أي واضحا في نفسه موضحا لغيره وهو القرآن الجامع باعجازه وحسن بيانه فلم يبق لكم عذر ولا علة وقيل المراد بالبرهان المعجزات وبالنور القرآن (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم) أي بوعد لا خلف فيه (في رحمة

منه)

منه) أى ثواب عظيم هو رحمته اياهم لا بشئ استوجبوه (وفضل) أى احسان زائد عليه (ويهديهم) أى فى الدنيا والآخرة (اليه صراطا مستقيما) أى طريقا مستقيما وهو الاسلام والطاعة فى الدنيا والجنة فى الآخرة (يستفتونك) أى فى الكلالة حذف لدلالة الجواب عليه روى ان جابر بن عبد الله قال عادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصب على من وضوئه فعقلت وقلت يارسول الله لمن الميراث وانما يرثنى كلالة فنزل يستفتونك (قل الله يفتيكم فى الكلالة) وقد تقدم معنى الكلالة وحكم الآية فى أول السورة وفى هذه الآية بيان حكم ميراث الاخوة للاب والام أو للاب وقوله تعالى (ان امرؤ) هو مرفوع بفعل يفسره (هلك) أى مات (ليس له ولد) أى ولا والد وهو الكلالة قال الاصبهانى عن الشعبى اختلف أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما فى الكلالة فقال أبو بكر هو ما عدا الوالد والولد وقال عمر ما عدا الوالد والولد ثم قال عمر انى لاستحى من الله أن أخالف أبا بكر وقوله تعالى (وله أخت) يحتمل الحال والعطف والمراد بالاخت الاخت من الابوين أو الاب لانه جعل أخوها عصبة والذى لام لا يكون عصبة والولد يشمل الذكر والانثى فان الاخت وان ورثت مع البنت قد لا ترث النصف وذلك عند تعدد البنت (فلها نصف ما ترك وهو) أى هذا الاخ للميت (يرثها) أى ان ماتت هى وبقى هو جميع مالها (ان لم يكن لها ولد) فان كان لها ولد ذكر فلا شئ له أو أنثى فله ما فضل عن نصيبها ولو كانت الاخت أو الاخ من الام ففرضه السدس كما مر أول السورة (فان كانتا) أى الاختان (اثنتين) أى فصاعدا لانها نزلت فى جابر وقد مات عن أخوات (فلهما الثلثان مما ترك) أى الاخ (وان كانوا) أى الورثة (اخوة رجالا ونساء فللذكر) منهم (مثل حظ الانثيين يبين الله لكم) أى ولم يكلكم فى بيانه الى بيان غيره وقال مرغبا مرهبا (أن) أى كراهة أن (تضلوا) وقيل لئلا تضلوا فحذف لا وهو قول الكوفيين وقيل يبين الله لكم ضلالكم أى الذى من شأنكم أى اذا خليتم وطباعكم لتحترزوا عنه وتحروا خلافه (والله بكل شئ عليم) فهو عالم بمصالح العباد فى المحيا والممات ومنه الميراث روى عن البراء رضى الله تعالى عنه انه قال آخر سورة نزلت كاملة براءة وآخر آية نزلت قال السيوطى أى من الفرائض خاتمة سورة النساء يستفتونك الآية وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان آخر آية نزلت آية الربا وآخر سورة نزلت اذا جاء نصر الله والفتح وروى عنه ان آخر آية نزلت قوله تعالى واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله وروى بعد ما نزلت سورة النصر عاش النبى صلى الله عليه وسلم بعدها عاما فنزلت بعدها سورة براءة وهى آخر سورة نزلت كاملة فعاش النبى صلى الله عليه وسلم بعدها ستة أشهر ثم نزل فى طريق حجة الوداع يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة فسميت آية الصيف ثم نزل هو واقف بعرفة اليوم أكملت لكم دينكم فعاش النبى صلى الله عليه وسلم بعدها احدا وثمانين يوما ثم نزلت آية الربا ثم نزلت واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فعاش النبى صلى الله عليه وسلم بعدها أحدا وعشرين يوما وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النساء فكأنما تصدق على كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة وورث ميراثا وأعطى

من الاجر كمن اشترى محررا أى رقيقا وحرره وبرئ من الشرك وكان فى مشيئة الله تعالى من الذين يتجاوز عنهم حديث موضوع

(سورة المائدة مدنية)

مائة وعشرون آية أو اثنتان أو ثلاث وكلماتها ألفان وثمانمائة وأربع كلمات وحروفها أحد عشر ألفا وسبعمائة وثلاثة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذى له الامر كله فلا يسئل عما يفعل (الرحمن) الذى عم بنعمة ايجاده وبيانه فنعمته أتم نعمة وأشمل (الرحيم) الذى خص خلص عباده بتوفيقه وأتم نعمته عليهم وأكمل (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) أى التى عقدها الله تعالى على عباده وألزمها اياهم من مواجب التكليف ومايعقدون بينهم من عقود الامانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به أو يحسن ان حملنا الامر على المشترك بين الوجوب والندب والعقد العهد الموثق شبه بعقد الحبل ونحوه قول الحطيئة

قوم اذا عقدوا عقدا لجارهم * شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا

والعناج حبل يشد فى أسفل الدلو ثم يشد الى العراقى ليكون عوناله والكرب الحبل الذى يشد فى وسط العراق والعرقوتان الخشبتان المعترضتان على الدلو كالصليب وقوله تعالى (أحلت لكم بهيمة الانعام) تفصيل للعقود لان العقود مجملة فهو شامل لجميع العقود لان ذلك أمهات التكاليف وجميع مافى هذه السورة من الاحكام تفصيل لذلك *(فائدة)* روى عن ابن مسعود قال أنزل الله تعالى فى هذه السورة ثمانية عشر حكما لم ينزلها فى غيرها قوله تعالى والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الاماذكيتم وماذبح على النصب وأن تستقسموا بالازلام وماعلمتم من الجوارح مكلبين وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وتمام الطهر فى قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة والسارق والسارقة ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم الآية وماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام وقوله تعالى شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت وزيد عليها تاسع عشر وهو قوله تعالى واذا ناديتم الى الصلاة ليس للاذان ذكر فى القرآن الافى هذه السورة وأمافى سورة الجمعة فهو مخصوص بالجمعة وهو فى هذه السورة عام فى جميع الصلوات والبهيمة كل حى لايميز أى من شأنه أنه لايميز فلا يدخل فى ذلك المجنون ونحوه والانعام الابل والبقر والغنم وهى الازواج الثمانية والحق بها الظباء وبقر الوحش *(تنبيه)* اضافة البهيمة الى الانعام للبيان كقولك ثوب خز ومعناه البهيمة من الانعام (فان قيل) لم أفرد البهيمة وجمع الانعام (أجيب) بارادة الجنس وقوله تعالى (الا مايتلى عليكم) أى تحريمه فى قوله تعالى حرمت عليكم الميتة الآية استثناء منقطع ويجوز أن يكون متصلا والتحريم عرض من الموت ونحوه وقوله تعالى (غير محلى الصيد) حال من ضمير لكم وقوله تعالى (وأنتم حرم) مبتدأ وخبر فى محل نصب على الحال من الضمير

في محل جمع حرام وهو المحرم (ان الله يحكم ما يريد) من تحليل وتحريم وغيرهما على سبيل الاطلاق لا يجب عليه مراعاة مصلحة ولا حكمة كما تقوله المعتزلة فلا يسئل عن تخصيص ولا تفصيل فما فهمتم حكمته فذاك وما لا فكلوه اليه وارغبوا في أن يلهمكم حكمته (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله) جمع شعيرة وهي اسم ما أشعر أي جعل شعارا وعلما للنسك من مواقف الحج ومرامي الجمار والمطاف والمسعى والافعال التي هي علامات الحاج يعرف بها من الاحرام والطواف والسعي والحلق والنحر وقيل معالم دينه وقيل فرائضه التي حدها لعباده (ولا) تحلوا (الشهر الحرام) أي بالقتال فيه قال تعالى ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب فيجوز أن يكون ذلك اشارة الى جميع هذه الاشهر كما يطلق اسم الواحد على الجنس لان الاشهر كلها في الحرمة سواء ولكن قال الزمخشري والشهر الحرام شهر الحج (ولا) تحلوا (الهدي) أي بالتعرض له وهو ما أهدي الى الحرم من النعم (ولا) تحلوا (القلائد) أي صاحب القلائد من الهدي وعبر بها مبالغة في تحريمها أو القلائد أنفسها والنهي عن احلالها مبالغة في النهي عن التعرض للهدي والقلائد جمع قلادة وهي ما قلد به الهدي من نعل أو غيره ليعلم به أنه هدي فلا يتعرض له (ولا) تحلوا (آمين) أي قاصدين (البيت الحرام) لزيارته أي بان تقاتلوهم (يبتغون فضلا من ربهم) وهو الثواب (ورضوانا) أي وأن يرضى عنهم والجملة في موضع الحال من المستكن في آمين أي لا تتعرضوا لقوم هذه صفتهم تعظيما لهم واستنكارا أن يتعرض لمثلهم وقيل معناه يبتغون من الله رزقا بالتجارة ورضوانا بزعمهم لانهم كانوا يظنون ذلك فوصفوا به بناء على ظنهم ولان الكافر لا نصيب له في الرضوان كقوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان المسلمون والمشركون يحجون جميعا فنهى الله تعالى المسلمين أن يمنعوا أحدا عن حج البيت بقوله تعالى لا تحلوا شعائر الله فعلى الاول الآية محكمة قال الحسن ليس في المائدة منسوخ وعلى الثاني قال البيضاوي فالآية منسوخة أي لما فيها من حرمة القتال في الشهر الحرام ومن حرمة منع المشركين عن المسجد الحرام والاول منسوخ بقوله تعالى اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم والثاني بقوله تعالى فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا فقوله منسوخ منزل على هذا لكن اذا قلنا بشمول آمين للمسلمين والمشركين انما يكون النسخ في حق المشركين خاصة وهو في الحقيقة تخصيص لا نسخ ففي تسميته نسخا تسمح وقرأ شعبة بضم الراء والباقون بالكسر (واذا حللتم) أي من الاحرام وقوله تعالى (فاصطادوا) أمر اباحة أباح لهم الاصطياد بعد حظره عليهم كأنه قيل واذا حللتم فلا جناح عليكم ان تصطادوا كما في قوله تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض (ولا يجرمنكم) أي يحملنكم أو يكسبنكم (شنآن قوم) أي شدة بغضهم وقرأ ابن عامر وشعبة بسكون النون بعد الشين والباقون بفتحها وقوله تعالى (أن صدوكم) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الهمزة على ان الشرطية والباقون بفتحها أي لاجل أن صدوكم في عام الحديبية أو غيره

(عن المسجد الحرام) وقوله تعالى (أن تعتدوا) أى يشتد عدوكم عليهم بأن تنتقموا منهم بالقتل وغيره ثانى مفعولى يجرمنكم فانه يتعدى الى واحد والى اثنين ككسب (وتعاونوا على البر والتقوى) أى بفعل ما أمرتم به (ولا تعاونوا) فيه حذف احدى التاءين فى الاصل (على الاثم) أى المعاصى للتشفى (والعدوان) أى التعدى فى حدود الله للانتقام (واتقوا الله) أى خافوا عقابه بأن تطيعوه (ان الله شديد العقاب) لمن خالفه فانتقامه اشد وقوله تعالى (حرمت عليكم الميتة) أى أكلها بيان ما يتلى عليكم والميتة ما فارقته الروح من غير ذكاة شرعية (والدم) أى المسفوح قال تعالى أو دما مسفوحا وكان أهل الجاهلية يصبونه فى الامعاء ويشوونها (ولحم الخنزير) قال العلماء الغذاء يصير جزأ من جوهر المتغذى ولابد أن يحصل للمتغذى أخلاق وصفات من جنس ما كان حاصلا فى الغذاء والخنزير مطبوع على حرص عظيم ورغبة شديدة فى المنهيات فحرم أكله على الانسان لئلا يتكيف بتلك الكيفية ولذلك ان الفرنج لما واظبوا على أكل لحم الخنزير أورثهم الحرص العظيم والرغبة الشديدة فى المنهيات وأورثهم عدم الغيرة فان الخنزير يرى الذكر من الخنازير ينزو على الانثى التى له ولا يتعرض له لعدم الغيرة (وما أهل لغير الله به) أى رفع الصوت به لغير الله بأن ذبح على اسم غيره والاهلال رفع الصوت ومنه يقال فلان أهل بالحج اذا لبى وكانوا يقولون عند الذبح باسم اللات والعزى قال ابن عادل وقدم هنا لفظ الجلالة فى قوله لغير الله به وأخرت فى البقرة لانها هناك فاصلة أو تشبه الفاصلة بخلافها هنا لان بعدها معطوفات (والمنخنقة) وهى التى ماتت بالخنق سواء أفعل بها ذلك آدمى أم اتفق لها ذلك (والموقوذة) وهى التى وقذت أى ضربت حتى ماتت ويدخل فى الموقوذة ما رمى بالبندق فمات (والمتردية) أى الساقطة من علو بأن سقطت من جبل أو مشرف أو فى بئر فماتت ولو رمى صيدا فى الهواء بسهم فأصابه فسقط على الارض ومات حل لان الوقوع على الارض من ضرورته وان سقط على جبل أو شجر ثم تردى منه فمات لم يحل لانه من المتردية الا أن يكون السهم ذبحه فى الهواء فيحل كيفما وقع لان الذبح قد حصل قبل التردية *(تنبيه)* دخلت الهاء فى هذه الكلمات لان المنخنقة هى الشاة المنخنقة كأنه قيل حرمت عليكم الشاة المنخنقة والموقوذة والمتردية وخصت الشاة لانها من أعم ما يأكل الناس والكلام يخرج على الاعم ويكون المراد الكل وأما الهاء فى قوله تعالى (والنطيحة) وهى التى تنطحها أخرى فتموت فللنقل من الوصفية الى الاسمية والا فكان من حقها أن لا تدخلها تاء التأنيث كقتيل وجريح وما فى قوله تعالى (وما أكل السبع) بمعنى الذى وعائده محذوف أى وما أكله السبع ولابد من حذف ولهذا قال الزمخشرى وما أكل بعضه السبع وهذا يدل على ان جوارح الصيد اذا أكلت مما اصطادته لم يحل أكله وقوله تعالى (الا ما ذكيتم) استثناء متصل أى الا ما أدركتم ذكاته وصار فيه حياة مستقرة من ذلك فهو حلال وقيل الاستثناء مخصوص بما أكل السبع وقيل الاستثناء منقطع أى ولكن ما ذكيتم من غيرها فحلال أو فكلوه وكان هذا القائل رأى انها وصلت بهذه الاسباب الى الموت او الى حالة قريبة منه فلم تفد تذكيتها عنده شيأ وقيل الاستثناء

من التحريم لامن المحرمات أى حرم عليكم ما مضى الا ماذكيتم فانه لكم حلال فيكون الاستثناء منقطعا أيضا وأقل الذكاة فى الحيوان المقدور عليه قطع الحلقوم والمرىء وكمالها أن يقطع الودجين معهما وهما عرقان فى صفحتى العنق و يجوز بكل محدد يجرح من حديد أو قصب أو زجاج أو غيرها الا السن والظفر لقوله صلى الله عليه وسلم ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ليس السن والظفر وقوله تعالى (وماذبح على النصب) فى محل رفع عطفا على الميتة أى وحرم عليكم ذلك والنصب واحد الانصاب وهى حجارة كانت حول الكعبة يذبح عليها تقربا اليها وتعظيما لها وقيل هى الاصنام لانها تنصب لتعبد وعلى بمعنى اللام أو على أصلها بتقدير وماذبح مسمى على الانصاب وقيل هو جمع والواحد نصاب ويدل للاول قول الاعشى

وذا النصب المنصوب لاتعبدنه * ولاتعبد الشيطان والله فاعبدا

وقوله تعالى (وان تستقسموا بالازلام) فى محل رفع أيضا فكان عطفا على الميتة أى وحرم عليكم ذلك والازلام جمع زلم بفتح الزاى وضمها مع فتح اللام قدح بكسر القاف صغير وهو سهم لاريش له ولانصل وذلك انهم كانوا اذا قصدوا فعلا ضربوا ثلاثة اقداح مكتوب على أحدها أمرنى ربى وعلى الآخر نهانى ربى والثالث غفل أى لاسمة عليه فان خرج الآمر مضوا على ذلك وان خرج الناهى تجنبوا عنه وان خرج الغفل أداروها ثانيا فمعنى الاستقسام طلب معرفة ماقسم لهم دون مالم يقسم بالازلام وقيل هو قسمة الجزور بالاقداح على الانصباء المعلومة وقوله تعالى (ذلكم فسق) اشارة الى ماذكر تحريمه أى خروج عن الطاعة وقيل اشارة الى الاستقسام وكونه فسقا لانه دخول فى علم الغيب الذى استأثر بعلمه علام الغيوب وقد قال تعالى قل لايعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله وضلال باعتقاد ان ذلك طريق اليه وقوله أمرنى ربى ونهانى ربى افتراء على الله عز وجل ان كان أراد بربى الله ومايدريه ان الله أمره أو نهاه فالكهنة والمنجمون بهذه المثابة وجهالة وشرك ان أراد به الصنم وقوله تعالى (اليوم) لم يرد به يوما بعينه وانما أراد الحاضر ومايتصل به ويدانيه من الازمنة الماضية والآتية وقيل الالف واللام للعهد قيل أراد يوم نزولها وقيل نزلت يوم الجمعة وكان يوم عرفة بعد العصر فى حجة الوداع وقيل هو يوم دخوله صلى الله عليه وسلم مكة سنة تسع وقيل ثمان وقوله تعالى (يئس الذين كفروا من دينكم) فيه قولان أحدهما يئسوا من أن يحلوا هذه الخبائث بعد أن جعلها الله تعالى محرمة والثانى يئسوا من أن يغلبوكم على دينكم فترتدوا عنه بعد طمعهم فى ذلك لما رأوا من قوته لانه تعالى كان وعد باعلاء هذا الدين على كل الاديان بقوله تعالى ليظهره على الدين كله فحقق ذلك النصر وأزال الخوف (فلاتخشوهم) أن يظهروا عليكم (واخشون) أجمع القراء السبعة على حذف الياء بعد النون لحذفها فى الرسم أى واخلصوا الخشية لى وحدى فان دينكم قد استكمل بدره و جل عن انمحاق محله وقدره ورضى به الآمر ومكنه على رغم أنوف الاعداء وهو قادر وذلك قوله تعالى مسوقا مساق التعليل (اليوم أكملت لكم دينكم) أى الذى أرسلت به أكمل خلقى محمدا صلى الله عليه وسلم

نزلت هذه الآية يوم الجمعة يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العضباء فكادت عضد الناقة تندق من ثقلها فبركت وعن عمر رضي الله تعالى عنه أن رجلا من اليهود قال له يا أمير المؤمنين آية من كتابكم تقرؤنها لو علينا معاشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا قال أي آية قال اليوم أكملت لكم دينكم (وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) قال عمر قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي أنزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم بعرفة يوم الجمعة أشار عمر الى أن ذلك اليوم كان عيدا قال ابن عباس كان ذلك اليوم خمسة أعياد جمعة وعرفة وعيد اليهود وعيد النصارى والمجوس ولم يجتمع اعياد أهل الملل في يوم قبله ولا بعده وروى أنها لما نزلت هذه الآية بكى عمر رضي الله عنه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما يبكيك يا عمر قال أبكاني انا كنا في زيادة من ديننا فاذا كمل فلم يكمل شئ الا نقص قال صدقت فكانت هذه الآية نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم عاش بعدها أحدا وثمانين يوما ومات يوم الاثنين بعد ما زاغت الشمس لليلتين خلتا من شهر ربيع الاول سنة احدى عشرة من الهجرة وقيل توفي يوم الثاني عشر من شهر ربيع الاول وكانت هجرته في الثاني عشر منه فقوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم أي الفرائض والسنن والحدود والجهاد والحلال والحرام فلم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام ولا شئ من الفرائض وهذا معنى قول ابن عباس وقال سعيد بن جبير وقتادة اليوم أكملت لكم دينكم فلم يحج معكم مشرك وقيل أظهرت دينكم وأمنتكم من عدوكم (فان قيل) قوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم يقتضي ان الدين كان ناقصا قبل ذلك وذلك يوجب ان الدين الذي كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم أكثر عمره كان ناقصا وانما وجد الدين الكامل في آخر عمره مدة قليلة (أجيب) بأن الدين لم يكن ناقصا بل كان أبدا كاملا وكانت الشرائع النازلة من عند الله في كل وقت كافية في ذلك الوقت الا أنه تعالى كان عالما في أول وقت المبعث بأن ما هو كامل في هذا اليوم ليس بكامل في الغد ولا مصلحة فيه فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت وكان ينزل بعد العدم وأما في آخر زمان المبعث فأنزل شريعة كاملة وحكم ببقائها الى يوم القيامة فالشرع أبدا كان كاملا الا أن الاول كمال الى زمان مخصوص والثاني كمال الى يوم القيامة فلهذا قال اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي باكماله وقيل بدخول مكة آمنين ورضيت أي اخترت لكم الاسلام دينا من بين الاديان وهو الذي عند الله لا غير قال الله تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وقوله تعالى (فمن اضطر) متصل بذكر المحرمات وما بينهما اعتراض بما يوجب التجنب عنها وهو ان تناولها فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والاسلام المرضي والمعنى فمن اضطر الى تناول شئ من هذه المحرمات (في مخمصة) أي مجاعة (غير متجانف) أي مائل (لاثم) أي معصية بأن يأكل ذلك تلذذا أو مجاوزا حد الرخصة كقوله تعالى غير باغ ولا عاد (فان الله غفور) له ما أكل (رحيم) به في اباحته له فلا يؤاخذه ومن المائل الى الاثم قاطع الطريق ونحوه فلا يحل له الاكل مما ذكر قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر

نون نحن اضطر فى الوصل والباقون بالضم (يسئلونك) يا محمد (ماذا أحل لهم) من الطعام وانما أتى بقوله لهم بلفظ الغيبة لتقديم ضمير الغيبة فى قوله تعالى يسئلونك ولو قيل فى الكلام ماذا أحل لنا لكان جائزا على حكاية الجملة كقولك أقسم زيد ليضربن ولاضربن بلفظ الغيبة والتكلم الا ان ضمير المتكلم يقتضى حكاية ما قالوه كما أن لاضربن يقتضى حكاية الجملة المقسم عليها وماذا مبتدأ وأحل لهم خبره كقولك أى شئ أحل لكم منها فقال تعالى (قل لهم (أحل لكم الطيبات) أى ما ليس بخبيث منها وهو كل ما لم يأت تحريمه فى كتاب أو سنة أو قياس مجتهد ولا مستقذر من ذى الطباع السليمة وهذا يشمل كل ما ذبح وهو مأذون فى ذبحه مما كانوا يحرمونه على أنفسهم من السائبة وما معها وكل ما أذن فيه من غير ذبح كحيوان البحر وما أذن فيه من غير المطاعم وقوله تعالى (وما علمتم من الجوارح) معطوف على الطيبات أى أحل لكم الطيبات وصيد ما علمتم فحذف المضاف للعلم به والجوارح جمع جارحة من سباع البهائم والطير كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والبازو الشاهين والهاء للمبالغة سميت بذلك لان الجرح الكسب لانها تكسب الصيد ومنه قوله تعالى ويعلم ما جرحتم بالنهار أى كسبتم أو لانها تجرح الصيد غالبا وقوله تعالى (مكلبين) حال من ضمير علمتم أى حال كونكم معلمين هذه الكواسب الصيد والمكلب المؤدب الجوارح ومغريها مأخوذ من الكلب بسكون اللام وهو الحيوان النابح لان التأديب أكثر ما يكون فى الكلاب فأخذ من لفظه لكثرته فى جنسه أو لان السبع يسمى كلبا ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى عتبة بن أبى لهب حين أراد سفر الشأم فغاظ النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى اللهم سلط عليه كلبا من كلابك فأكله الاسد وقوله تعالى (تعلمونهن) حال ثانية من ضمير علمتم أو استئناف (فان قيل) ما فائدة هذه الحال وقد استغنى عنها بعلمتم (أجيب) بأن فائدتها أن يكون من يعلم الجوارح فقيها عالما بالشرائط المعتبرة فى الشرع لحل الصيد وفى هذا فائدة جليلة وهى أن على كل طالب لشئ ان لا يأخذه الا من أجل العلماء به وأشدهم دراية له وأغوصهم على لطائفه وحقائقه وان احتاج فى ذلك الى أن يضرب اليه أكباد الابل فكم من آخذ من غير متقن قد ضيع أيامه وعض عند لقاء النحارير أنامله (مما علمكم الله) أى من علم التكليب لانه الهام من الله تعالى أو مكتسب بالعقل الذى هو منحة منه أو مما علمكم الله أن تعلموه من اتباع الصيد بارسال صاحبه وانزجاره بزجره وانصرافه بدعائه وامساك الصيد عليه وأن لا يأكل منه (فكلوا مما أمسكن) أى الجوارح مستقرا امساكها (عليكم) أى على تعليمكم وان قتلته بأن لم تأكل منه بخلاف غير المعلمة فلا يحل صيدها وشروط التعليم فيها ثلاثة أشياء اذا ارسلت استرسلت واذا زجرت انزجرت واذا أخذت الصيد أمسكته ولم تأكل منه وأقل ما يعرف به ذلك ثلاث مرات فان أكلت منه فليس مما أمسكن على صاحبها فلا يحل أكله كما فى حديث الصحيحين وان أكل منه فلا تأكل منه انما أمسك على نفسه وعن على رضى الله عنه اذا أكل البازى فلا تأكل والى هذا ذهب أكثر الفقهاء و بعضهم لا يشترط ذلك فى سباع الطير لان تأديبها الى هذا الحد متعذر وقال آخرون لا يشترط مطلقا وفى هذا

الحديث ان صيد السهم اذا أرسل وذكر اسم الله عليه كصيد المعلم من الجوارح (واذكروا اسم الله عليه) في هذه الكناية ثلاثة أوجه أحدها انها تعود الى المصدر المفهوم من الفعل وهو الاكل كأنه قيل واذكروا اسم الله عليه على الاكل ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم سم الله وكل مما يليك الثاني انها تعود الى ما علمتم أي اذكروا اسم الله على الجوارح عند ارسالها على الصيد ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم اذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله عليه الثالث انها تعود الى ما أمسكن أي اذكروا اسم الله تعالى على ما أدركتم ذكاته مما أمسكت عليكم الجوارح (واتقوا الله) أي في محرماته (ان الله سريع الحساب) فيؤاخذكم بما جل ودق وقوله تعالى (اليوم) الكلام فيه كالكلام فيما قبله (أحل لكم الطيبات) أي المستلذات (وطعام الذين أوتوا الكتاب) أي ذبائح اليهود والنصارى ومن دخل في دينهم قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم (حل) أي حلال (لكم) فأما من دخل في دينهم بعد المبعث فلا تحل ذبيحتهم ولو ذبح يهودي أو نصراني على اسم غير الله تعالى كالنصراني يذبح على اسم المسيح لم تحل ذبيحته وأما المجوس فقد سن بهم سنة أهل الكتاب في تقريرهم بالجزية دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم قال صلى الله عليه وسلم سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم رواه الامام مالك (وطعامكم) اياهم (حل لهم) فلا عليكم أن تطعموهم ولا تبيعوه منهم ولو حرم عليهم لم يجز ذلك (والمحصنات من المؤمنات) أي الحرائر (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) وهم اليهود والنصارى أي حل لكم أن تنكحوهن وان كن حربيات وقال ابن عباس لا تحل الحربيات وأما الاماء المسلمات فيحل نكاحهن في الجملة بخلاف الاماء الكتابيات فلا يحل نكاحهن عندنا ويحل عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى (اذا آتيتموهن أجورهن) أي مهورهن فتقييد الحل باتيانها لتأكيد وجوبها والحث على الاولى وان من تزوج امرأة وعزم أن لا يعطي صداقها كان في صورة الزاني وورد فيه حديث وتسميته بالاجر يدل على انه لا حد لاقله كما أن أقل الاجر في الاجارة لا يتقدر (محصنين) أي قاصدين الاعفاف والعفاف وقيل متزوجين (غير مسافحين) أي معلنين بالزنا بهن (ولا متخذي أخدان) أي مسرين بالزنا منهن والخدن الصديق يقع على الذكر والانثى قال الشعبي الزنا ضربان السفاح وهو الزنا على سبيل الاعلان واتخاذ الخدن وهو الزنا سرا والله تعالى حرمهما في هذه الآية وأباح التمتع بالمرأة على جهة الاحصان وهذه الآية مخصصة لقوله تعالى ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن فبقي على التحريم ما تضمنته تلك ما عدا الكتابيات من الوثنيات وغيرهن من جميع المشركات حتى المنتقلة من الكتابيات من دينها الى غير دين الاسلام وقرأ الكسائي بكسر صاد المحصنات والباقون بنصبها وقوله تعالى (ومن يكفر بالايمان) اختلف المفسرون في معناه فقال ابن عباس ومجاهد ومن يكفر بالايمان أي بالله الذي يجب الايمان به وانما حسن هذا المجاز لانه يقال رب الايمان ورب الشئ على سبيل المجاز وقال الكلبي ومن يكفر بالايمان أي بكلمة التوحيد وهي شهادة أن لا اله الا الله لان الايمان من لوازمها واطلاق الشئ على لازمه مجاز مشهور وقال قتادة ان ناسا من المسلمين قالوا كيف

تتزوج نساءهم مع كونهم على غير دينا فأنزل الله هذه الآية ومن يكفر بما أنزل الله في القرآن فهو كذا وكذا فسمي القرآن ايمانا لانه مشتمل على بيان كل ما لابد منه في الايمان والمراد من ذلك أن يأتي بشيء يصير به مرتدا (فقد حبط) أي فسد (عمله) الصالح قبل ذلك ان اتصل ذلك بالموت بدليل قوله تعالى (وهو في الآخرة من الخاسرين) وقوله تعالى في آية أخرى فيمت وهو كافر أما من أسلم قبل الموت فان ثوابه يفسد دون عمله فلا يجب عليه اعادة حج قد فعله ولا صلاة قد صلاها قبل الردة (يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة) أي أردتم القيام اليها كقوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله عبر عن ارادة الفعل بالفعل المسبب عنها للايجاز والتنبيه على ان من أراد العبادة ينبغي أن يبادر اليها بحيث لا ينفك الفعل عن الارادة وظاهر الآية الكريمة يوجب الوضوء على كل قائم الى الصلاة وان لم يكن محدثا لكن صح عنه الاجماع لما روى انه صلى الله عليه وسلم صلى الخمس بوضوء واحد يوم الفتح فقال له عمر صنعت شيأ لم تكن تصنعه فقال عمدا فعلته فقيل هو مطلق أريد به التقييد والمعنى اذا قمتم الى الصلاة محدثين وقيل الامر فيه للندب وقيل كان ذلك أول الامر ثم نسخ قال البيضاوي وهو ضعيف لقوله صلى الله عليه وسلم المائدة من آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها (فاغسلوا وجوهكم) أي أمروا الماء عليها ولا يجب الدلك خلافا لمالك رضي الله تعالى عنه (و) اغسلوا (أيديكم الى المرافق) أي معها ان وجدت وقدرها ان فقدت لما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه في صفة وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم انه توضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع في العضد الخ وللاجماع أو ان الى في الآية بمعنى مع كما في قوله تعالى من انصاري الى الله ويزدكم قوة الى قوتكم أو بجعل اليد التي هي حقيقة الى المنكب مجازا الى المرفق مع جعل الى غاية للغسل الداخلة هنا في المغيا بقرينة الاجماع والاحتياط للعبادة والمعنى اغسلوا أيديكم من رؤس الاصابع الى المرافق أو بجعل باقية على حقيقتها الى المنكب مع جعل الى غاية للترك المقدر فتخرج الغاية والمعنى اغسلوا أيديكم واتركوا منها الى المرافق والمرافق جمع مرفق بفتح الميم وكسر الفاء على الفصيح من اللغة وهو مفصل ما بين العضد والمعصم ولو قطع بعض ما يجب غسله وجب غسل الباقي لان الميسور لا يسقط بالمعسور وان قطع من المرفق فان سل عظم الذراع وبقي العظمان المسميان برأس العضد وجب غسل رأس عظم العضد لانه من المرفق وهو مجموع العظمين والابرة الداخلة بينهما وان قطع من فوق المرفق ندب غسل باقي عضده (وامسحوا برؤسكم) أي ببعضها لما روى مسلم انه صلى الله عليه وسلم مسح بناصيته وعلى عمامته واكتفى بمسح البعض لانه المفهوم من المسح عند اطلاقه ولم يقل أحد بوجوب خصوص الناصية وهي الشعر الذي بين النزعتين والاكتفاء بها يمنع وجوب الاستيعاب ويمنع وجوب التقدير بالربع أو أكثر لانها دونه والباء اذا دخلت على متعدد كما في الآية تكون للتبعيض أو على غيره كما في قوله تعالى وليطوفوا بالبيت العتيق تكون للالصاق (فان قيل) صيغة الامر بمسح الرأس والوجه في التيمم واحدة فهلا أوجبتم التعميم أيضا (أجيب) بأن المسح ثم بدل للضرورة فاعتبر بيدله

ومسح الرأس أصل فاعتبر افقاده (فان قيل) المسح على الخف بدل فهلا وجب تعميمه كبدله (أجيب) بقيام الاجماع على عدم وجوبه ولا فرق بين أن يمسح على بشرة الرأس أو شعرها ولو شعرة واحدة في حد الرأس لان ذلك يصدق عليها مسمى الرأس عرفا اذ الرأس اسم لما رأس وعلا وقوله تعالى (وأرجلكم) قرأه نافع وابن عامر وحفص والكسائي بنصب اللام عطفا على وجوهكم وقيل على أيديكم والباقون بالكسر على الجوار ومنهم من عطف على المجرور على قراءة الجر والممسوح ليفيد مسح الخف وعطف على المنصوب على قراءة النصب على المغسول ليفيد غسل الرجل المتجردة منه فيفيد كل من القراءتين غير ما أفادته الاخرى وقوله تعالى (الى الكعبين) وهما العظمان الناتئان في كل رجل من جانبين عند مفصل الساق والقدم دل على دخولهما في الغسل ما دل على دخول المرفقين فيه وقد مرّ * (تنبيه) * الفصل بين الايدي والارجل المغسولة بالرأس الممسوح فيه دليل على وجوب الترتيب في طهارة هذه الاعضاء وعليه الشافعي رضي الله عنه ولو قطع بعض القدم وجب غسل الباقي وان قطع فوق الكعب فلا فرض عليه وندب غسل الباقي كما مرّ في اليد ويؤخذ من السنة وجوب النية فيه كغيره من العبادات (وان كنتم جنبا) من جماع وغيره (فاطهروا) أي بالغسل لجميع البدن لانه أطلق ولم يخص الاعضاء كما في الوضوء (وان كنتم مرضى) أي مرضا يضره الماء (أو على سفر) أي مسافرين سفرا مباحا طويلا أو قصيرا (أو جاء أحد منكم من الغائط) أي الموضع المطمئن من الارض الذي يقضي فيه حاجته الانسان التي لا بد منها سمي باسمه الخارج للمجاورة قيل وفي ذلك حكمة وهي شدة عجز الانسان ليكف عن اعجابه وكبره وترفعه ونفره كما حكى أن بعض الامراء لقي بعض البله فلم يفسح له فغضب وقال كأنك لم تعرفني فقال بلى والله اني لاعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة وقرأ قالون والبزي وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل ورش وقنبل الهمزة الثانية وحقق الباقون الهمزتين معا (أولامستم النساء) بالذكر أو غيره أمنيتم أم لا وقرأ حمزة والكسائي بغير ألف بين اللام والميم والباقون بالالف (فلم تجدوا ماء) بعد طلبه لفقده حسا أو معنى بالعجز عن استعماله للمرض بجرح أو غيره (فتيمموا) أي اقصدوا (صعيدا) أي ترابا (طيبا) أي طهورا خالصا (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) مع المرفقين (منه) بضربتين والباء للالصاق وبينت السنة أن المراد استيعاب العضوين بالمسح وتقدم مثل هذه الآية في النساء قال البيضاوي ولعل تكريره ليتصل الكلام في بيان أنواع الطهارة (ما يريد الله ليجعل عليكم) في الدين (من حرج) أي ضيق بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم (ولكن يريد ليطهركم) من الاحداث والذنوب فان الوضوء يكفر الذنوب (وليتم نعمته عليكم) ببيان شرائع الدين (لعلكم تشكرون) نعمه فيثيبكم قال البيضاوي والآية مشتملة على سبعة أمور كلها مثنى طهارتان أصل وبدل والاصل اثنان مستوعب وغير مستوعب وغير المستوعب باعتبار الفعل غسل ومسح وباعتبار المحل محدود وغير محدود وان آلتيهما مائع وجامد

ومو جبهما

وموجبهما حدث أصغر أو أكبر وان المبيح للعدول الى البدل مرض أو سفر وان الموعود عليه تطهير الذنوب واتمام النعمة (واذكروا نعمة الله عليكم) أي في هدايته لكم الى الاسلام بعد ان كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها وفي غير ذلك من جميع النعم ليذكركم المنعم ويرغبكم في شكره لان كثرة النعم توجب على المنعم عليه الاشتغال بخدمة المنعم والانقياد لاوامره ونواهيه وقال تعالى نعمة الله ولم يقل نعم الله لان هذا الجنس لا يقدر عليه الا الله لان نعمة الحياة والصحة والعقل والهداية والصون من الآفات وايصال الخيرات في الدنيا والآخرة لا يعلمه الا الله تعالى وان المراد التأمل في هذا النوع من حيث انه ممتاز عن نعمة غيره (فان قيل) قوله تعالى واذكروا نعمة الله يشعر بسبق النسيان وكيف يعقل نسيانها مع أنها متواترة متوالية علينا في جميع الساعات والاوقات (أجيب) بأنها لكثرتها وتعاقبها صارت كالامر المعتاد فصار غاية ظهورها وكثرتها سببا لوقوعها في محل النسيان (و) اذكروا (ميثاقه) أي عقده الوثيق (الذي واثقكم به) أي بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بايعكم ليلة العقبة على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره والمنشط مفعل من النشاط وهو الامر الذي ينشط له والمكره مفعل من الكره وهو الامر الذي تكرهه النفس وأضاف الميثاق الصادر من رسول الله صلى الله عليه وسلم الى نفسه كقوله ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله وكذلك بأنكم التزمتموه (اذ) أي حين (قلتم سمعنا وأطعنا) وفي ذلك تذكير بما أوجب الله له صلى الله عليه وسلم عليكم من الشكر بهدايته لكم الى الاسلام ثم حذركم عن نقض تلك العهود بقوله (واتقوا الله) أي في ميثاقه أن تنقضوه (ان الله) الذي له صفات الكمال (عليم) أي بالغ العلم (بذات الصدور) أي بما في القلوب فبغيره أولى فيجازيكم عليها فضلا عن جليات أعمالكم وقيل المراد بالميثاق هو الذي أخذه الله منهم حين أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى قاله مجاهد وقيل المراد به الدلائل العقلية والشرعية التي نصبها الله على التوحيد والشرائع قاله السدي وأدغم أبو عمرو القاف في واثقكم في الكاف بخلاف عنه (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين) أي مجتهدين في القيام (لله) تعالى بحقوقه (شهداء) أي متيقظين محضرين افهامكم غاية الاحضار بحيث لا يشذ عنها شيء مما تريدون الشهادة به (بالقسط) أي العدل (ولا يجرمنكم) أي ولا يحملنكم (شنآن) أي شدة بغض (قوم) أي الكفار (على أن لا تعدلوا) فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفيا مما في قلوبكم (اعدلوا) أي تحروا العدل واقصدوه في كل شيء (هو) أي العدل (أقرب) من تركه (للتقوى) لكونه لطفا فيها وفيه تنبيه عظيم على أن وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله اذا كان بهذه الصفة فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه * (تنبيه) * يؤخذ من هذا أن التكاليف مع كثرتها محصورة في نوعين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله فقوله تعالى كونوا قوامين لله اشارة الى التعظيم لامر الله ومعنى القيام هو ان تقوم لله بالحق في كل ما يلزمك وقوله تعالى شهداء بالقسط اشارة الى الشفقة على خلق الله وفيه قولان الاول قال عطاء

لاتخاف فى شهادتك أهل ودك وقرابتك ولاتمنع شهادتك أعداءك واضدادك الثانى أمرهم بالصدق فى افعالهم وأقوالهم وتقدم نظير هذه الآية فى النساء الا أن هنالك قدم لفظة القسط وهنا أخرها قال ابن عادل فكان الغرض من ذلك والله أعلم ان آية النساء جىء بها فى معرض الاقرار على نفسه ووالديه وأقاربه فبدأ فيها بالقسط الذى هو العدل من غير محاباة نفس ولا والد ولا قرابة والتى هنا جىء بها فى معرض ترك العداوة فبدأ فيها بالامر بالقيام به لانه أردع للمؤمنين ثم ثنى بالشهادة بالعدل فجىء فى كل معرض بما يناسبه وقال البيضاوى وتكرير هذا الحكم اما لاختلاف السبب كما قيل ان الاولى نزلت فى المشركين وهذه فى اليهود ولمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة فى اطفاء ثائرة الغيظ (واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) فيجازيكم به (وعد الله الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان بألسنتهم (وعملوا) تصديقا لهذا الاقرار (الصالحات) وحذف ثانى مفعولى وعد استغناء بقوله (لهم مغفرة وأجر عظيم) فانه استئناف يبينه وقيل الجملة فى موضع المفعول فان الوعد ضرب من القول لانه لا ينعقد الا به فكأنه قال وعدهم هذا القول والاجر العظيم هو الجنة (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) أى النار التى اشتد توقدها فاشتد حرارها فلا يراها أحد الا أججم عنها فيلقون فيها ثم يلازمونها فلا ينفكون عنها كما هو شأن الصاحب وهذا من عادة الله سبحانه وتعالى انه يتبع حال أحد الفريقين حال الفريق الآخر وفاء بحق الدعوة وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطييب لقلوبهم (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم) رسمت نعمت هنا بالتاء فوقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء وفى الوصل الجميع بالتاء روى أن المشركين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا الى صلاة الظهر يصلون معا وذلك بعسفان وهو واد بينه وبين مكة مرحلتان فى غزوة ذى أنمار فلما صلوا ندموا ان لا كانوا أكبوا عليهم فقالوا ان لهم بعدها صلاة هى أحب اليهم من آبائهم وأبنائهم يعنون صلاة العصر وهموا بأن يوقعوا بهم اذا قاموا اليها فنزل جبريل عليه السلام بصلاة الخوف رواه مسلم وغيره والآية اشارة الى ذلك وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بنى قريظة ومعه الخلفاء الاربعة يستقرضهم أى يطلب منهم مالا قرض الدية مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى خطأ يحسبهما مشركين لكن فى رواية البيهقى أن المقتولين كانا معاهدين لا مسلمين وأن الخروج كان لبنى النضير لا الى قريظة فقالوا نعم يا أبا القاسم وكانوا قد عاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم على ترك القتال وعلى أن يعينوه فى الديات فقالوا قد آن لك ان تأتينا أو تسألنا حاجة اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذى تسألنا فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وخلا بعضهم ببعض وقالوا انكم لن تجدوا محمدا أقرب منه الآن فمن يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه فقال عمرو بن جحاش أنا فجاء الى رحا عظيمة ليطرحها عليه فامسك الله تعالى يده فنزل جبريل عليه السلام فأخبره فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا الى المدينة ثم دعا عليا وقال لا تبرح مقامك فمن خرج عليك من أصحابى فسأل عنى فقل توجه الى المدينة ففعل ذلك حتى

تناهوا اليه ثم تبعوه وقيل نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلا وتفرق الناس فى العضاه يستظلون بها فعلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سلاحه بشجرة فجاء اعرابى فسل سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل عليه فقال من يمنعك منى قال الله فاسقطه جبريل من يده فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال من يمنعك منى فقال لا أحد أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فنزلت (اذهم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم) ليفتكوا بكم يقال بسط اليه لسانه اذا شتمه وبسط اليه يده اذا بطش به قال تعالى ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ومعنى بسط اليد مدها الى المبطوش به ألا ترى الى قولهم فلان بسيط الباع ومديد الباع بمعنى (فكف أيديهم عنكم) أى منعها ان تمد اليكم ورد مضرتها عنكم (واتقوا الله) فى جميع أموركم (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فانه الكافى لايصال الخير ودفع الشر (ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل) أى العهد الموثق بما أخذ عليكم من السمع والطاعة (وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا) أى شاهدا على كل سبط نقيب يكفلهم بالوفاء بما عليهم الوفاء به كما بعثنا منكم ليلة العقبة اثنى عشر نقيبا وأخذنا منكم الميثاق على ما به كمال الاسلام والنقيب الذى ينقب عن احوال القوم كما قيل له عريف لانه يتعرفها ومن ذلك المناقب وهى الفضائل لانها لاتظهر الا بالتنقيب عنها روى أن بنى اسرائيل لما استقروا بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله تعالى بالمسير الى أريحاء بالاد أرض الشام وكان سكنها الكنعانيون الجبابرة وقال انى كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرجوا اليها وجاهدوا فيها وانى ناصركم وأمر موسى صلوات الله وسلامه عليه أن يأخذ من كل سبط نقيبا يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقه عليهم واختار النقباء وأخذ الميثاق على بنى اسرائيل وتكفل لهم بهم النقباء وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون فرأوا اجراما عظيمة وقوة وشوكة فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم وقد نهاهم موسى عليه السلام أن يحدثوهم فنكثوا الميثاق الا كالب بن يوفنا من سبط يهودا ويوشع بن نون من سبط افرائيم بن يوسف وكانا من النقباء (وقال) لهم (الله انى معكم) أى بالعون والنصرة (لان) لام قسم (أقمتم الصلاة) التى هى وصلة العبد والخالق بجميع شروطها وأركانها (وآتيتم الزكاة) التى تقرب العبد الى الله عز وجل (وآمنتم برسلى) أى بجميع الرسل (وعزرتموهم) أى نصرتموهم وقيل التعزير التعظيم وقيل هو الثناء بخير قاله يونس وهو قريب من الثانى (فان قيل) لم أخر الايمان بالرسل عن اقام الصلاة وايتاء الزكاة مع انه مقدم عليهما (أجيب) بأن اليهود كانوا مقرين بأنه لابد فى حصول النجاة من اقام الصلاة وايتاء الزكاة الا أنهم كانوا مصرين على تكذيب بعض الرسل فذكر أن بعد اقام الصلاة وايتاء الزكاة لابد من الايمان بجميع الرسل حتى يحصل المقصود والا لم يكن لاقام الصلاة وايتاء الزكاة تأثير فى حصول النجاة بدون الايمان بجميع الرسل (فان قيل) قوله تعالى (وأقرضتم الله قرضا حسنا) داخل تحت ايتاء الزكاة فما فائدة اعادته (أجيب) بأن المراد بالزكاة الواجبة وبالقرض الصدقة المندوبة وخصها تنبيها على شرفها وقرضا يحتمل المصدر والمفعول به

ولما كان الانسان محل النقصان فهو لا ينفك عن زلل أو تقصير وان اجتهد فى صلاح العمل قال سادا الجواب القسم المدلول عليه باللام فى لئن مسد جواب الشرط (لأكفرن) أى لأسترن (عنكم سيآتكم) أى فعلكم الذى من شأنه أن يسوء (ولأدخلنكم) فضلا ورحمة منى (جنات تجرى من تحتها الانهار) أى من شدة الرى (فمن كفر بعد ذلك) الميثاق (منكم فقد ضل) أى ترك وضيع (سواء السبيل) أى أخطأ طريق الحق والسواء فى الأصل الوسط (فان قيل) من كفر قبل ذلك أيضا فقد ضل سواء السبيل (أجيب) بأن الضلال بعد أظهر وأعظم لانه الكفر بعد البيان العظيم فهو أعظم من غيره لانه قد يكون له قبل ذلك شبهة يتوهم له معذرة وقرأ قالون وابن كثير وعاصم باظهار دال قد عند الضاد والباقون بالادغام وقد تقدم ولما نقضوا الميثاق مرة بعد مرة بتكذيب الرسل وقتل الانبياء وكتمهم صفة النبى صلى الله عليه وسلم كما تقدم فى سورة البقرة قال تعالى (فبما) ما مزيدة للتأكيد (نقضهم ميثاقهم لعناهم) قال عطاء أبعدناهم من رحمتنا وقال الحسن ومقاتل مسخناهم قردة وخنازير وقال ابن عباس ضربنا الجزية عليهم (وجعلنا قلوبهم قاسية) أى لا تلين لقبول الايمان وقرأ حمزة والكسائى بغير ألف بعد القاف وتشديد الياء بمعنى رديئة من قولهم درهم قسى اذا كان مغشوشا وهو أيضا من القسوة فان المغشوش فيه يبس وصلابة والباقون بألف بعد القاف وتخفيف الياء وقوله تعالى (يحرفون الكلم عن مواضعه) استئناف لبيان قسوة قلوبهم فانه لا قسوة أشد من تغيير كلام الله تعالى والافتراء عليه (ونسوا حظا) أى نصيبا نافعا (مما ذكروا به) أى من التوراة على أنبيائهم عيسى ومن قبله عليهم الصلاة والسلام تركوه ترك الناسى للشىء لقلة مبالاتهم به بحيث لم يكن لهم رجوع اليه وقيل معناه انهم حرفوها فزلت لشؤمهم أشياء منها عن حفظهم وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية وقيل تركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبيان نعته (ولا تزال) أى بما نطلعك عليه يا أكرم الخلق فهو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم (تطلع) أى تظهر (على خائنة) أى خيانة (منهم) بنقض العهد وغيره لان ذلك من عادتهم وعادة أسلافهم لا تزال ترى ذلك منهم (الا قليلا منهم) لم يخونوا وهم الذين آمنوا منهم (فاعف عنهم) أى امح ذنبهم ذلك (واصفح) أى أعرض عن ذلك أصلا ورأسا ان تابوا وآمنوا وعاهدوا والتزموا الجزية وقيل مطلق ونسخ بآية السيف وقوله تعالى (ان الله يحب المحسنين) تعليل للامر بالصفح وحث عليه وتنبيه على أن العفو عن الكافر الخائن احسان فضلا عن العفو عن غيره روى الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم سحره رجل من اليهود يقال له لبيد بن الاعصم وفى رواية البخارى أنه رجل من بنى زريق حليف لليهود وكان منافقا حتى كان يخيل اليه أنه يأتى النساء ولا يأتيهن وذلك أشد السحر ثم ان الله تعالى شفاه واعلمه أن السحر فى بئر ذروان فقالت له عائشة رضى الله عنها أفلا أخرجته فقال لا أما أنا فقد عافانى الله وكرهت ان أثير على الناس شرا فأمرت به فدفنته وهو فى معجم الطبرانى الكبير وهذا لفظه وعن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال

كان

كان رجل يدخل على النبي صلى الله عليه وسلم فعقد له عقدا فجعله في بئر رجل من الانصار فأتاه ملكان يعودانه فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال أحدهما أتدري ما وجعه قال فلان الذي يدخل عليه عقد له عقدا فألقاه في بئر فلان الانصاري فلو أرسل رجلا لوجد الماء أصفر فبعث رجلا فأخذ العقد فحلها فبرئ فكان الرجل بعد ذلك يدخل على النبي صلى الله عليه وسلم فلم يذكر له شيأ منه ولم يعاتبه وعن أنس رضي الله عنه أن امرأة يهودية سمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها عن ذلك فقالت أردت لاقتلك فقال ما كان الله ليسلطك على ذلك أو قال على قالوا أفلا نقتلها قال لا قال أنس فما زلت أعرفها في لهوات النبي صلى الله عليه وسلم فانظر الى عفوه صلى الله عليه وسلم واقتدبه وفي ذلك غاية العفو والاحسان امتثالا لامر ربه تعالى

وقيل فاعف عن مؤمنهم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم (ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم) أي وأخذنا من النصارى ميثاقهم كما أخذنا ممن قبلهم (فان قيل) هلا قال من النصارى (أجيب) بأنهم انما سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة الله تعالى لقولهم لعيسى نحن أنصار الله وليسوا موصوفين به قال الحسن فيه دليل على أنهم نصارى بتسميتهم لا بتسمية الله تعالى (فنسوا) أي تركوا ترك الناسي (حظا) أي نصيبا عظيما يتنافس في مثله (مما ذكروا به) أي في الانجيل من الايمان ومن أوصاف محمد صلى الله عليه وسلم وغير ذلك ونقضوا الميثاق (فأغرينا) أي أوقعنا (بينهم) أي النصارى بعد أن جعلناهم فرقا متباينين وهم نسطورية ويعقوبية وملكانية وكذا بينهم وبين اليهود (العداوة والبغضاء الى يوم القيامة) أي بتفرقهم واختلاف أهوائهم فكل فرقة تكفر الاخرى وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير بتحقيق الهمزة الاولى وتسهيل الثانية والباقون بتحقيقهما (وسوف ينبئهم الله) أي يجزيهم في الآخرة (بما كانوا يصنعون) فيجازيهم عليه وقوله تعالى (يا أهل الكتاب) خطاب لليهود والنصارى ووحد الكتاب لانه للجنس (قد جاءكم رسولنا) وهو أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم (يبين لكم) أي يوضح ايضاحا شافيا (كثيرا مما كنتم تخفون) أي تكتمون (من الكتاب) أي التوراة والانجيل كنعت محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم في التوراة وبشارة عيسى بأحمد في الانجيل (ويعفو عن كثير) أي مما تخفونه فلا يبينه اذا لم يكن فيه مصلحة في أمر دينى أو عن كثير منكم فلا يؤاخذه بجرمه (قد جاءكم من الله نور) هو محمد صلى الله عليه وسلم الذي جلا ظلمات الشك والشرك (وكتاب) هو القرآن العظيم (مبين) أي بين في نفسه مبين لما كان خافيا على الناس من الحق (يهدي به الله) أي بالكتاب وقيل بهما ووحد الضمير لان المراد بهما واحد لانهما كواحد في الحكم (من اتبع رضوانه) أي رضاه بأن آمن (سبل) أي طرق (السلام) أي السلامة من العذاب أو الله باتباع شرائع دينه (ويخرجهم من الظلمات) أي أنواع الكفر والوساوس الشيطانية (الى النور) أي الاسلام (باذنه) أي بارادته أو بتوفيقه (ويهديهم الى صراط مستقيم) أي طريق هي أقرب الطرق الى الله تعالى ومؤد اليه لا محالة وهو الدين الحق (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم) وذلك حيث جعلوه الها وهم اليعقوبية فرقة من النصارى وقيل ما صرحوا به ولكن مذهبهم يؤدي اليه حيث

اعتقدوا أنه يخلق ويحيي ويميت ويدبر أمر العالم (قل) لهم يا محمد (فمن يملك) أي يدفع (من عذاب (الله شيأ) أي من الاشياء التي يتوهم أنها قد تمنعه مما يريد (ان أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الارض جميعا) أي لا أحد يملك ذلك ولو كان المسيح الها القدر عليه فدل ذلك على انه بمعزل من الالوهية وانه مقدور مقهور قابل للفناء كسائر الممكنات وأراد بعطف من في الارض على المسيح وأمه انهما من جنسهم لا تفاوت بينهم وبينهما في البشرية (ولله ملك السموات والارض وما بينهما) أي بين النوعين وبين افرادهما عما به تمام أمرهما (يخلق ما يشاء) أي على أي كيف أراد (والله على كل شئ قدير) أي قادر على الاطلاق يخلق من غير أصل كما خلق السموات والارض ومن أصل كما خلق ما بينهما وينشئ من أصل ليس من جنسه كآدم وكثير من الحيوانات ومن أصل يجانسه اما من ذكر وحده كما خلق حواء من آدم أو من أنثى وحدها كعيسى بن مريم أو منهما كسائر الناس وقوله تعالى (وقالت اليهود والنصارى) أي كل طائفة قالت على حدتها (نحن أبناء الله وأحباؤه) اختلف المفسرون في معنى ذلك على أربعة أوجه أحدها أن هذا من باب حذف المضاف أي نحن أبناء رسل الله كقوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله الثاني ان لفظ الابن كما يطلق على ابن الصلب قد يطلق أيضا على من اتخذ ابنا بمعنى تخصيصه بمزيد الشفقة والمحبة فالقوم لما ادعوا عناية الله بهم ادعوا انهم ابناء الله الثالث ان اليهود زعموا ان العزير ابن الله والنصارى زعموا ان المسيح ابن الله ثم زعموا ان العزير والمسيح كانا منهم فصار كأنهم قالوا نحن أبناء الله ألا ترى ان أقارب الملك اذا فاخروا أحدا يقولون نحن ملوك الدنيا والمراد كونهم مختصين بالشخص الذي هو الملك فكذا هنا الرابع قال ابن عباس رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا جماعة من اليهود الى دين الاسلام وخوفهم من عقاب الله فقالوا كيف تخوفنا بعذاب الله ونحن أبناء الله تعالى وأحباؤه فهذه الرواية انما وقعت عن تلك الطائفة وأما النصارى فانهم يتلون في الانجيل ان المسيح قال لهم اني ذاهب الى أبي وأبيكم وقيل أرادوا ان الله كالاب لنا في الحنو والعطف ونحن كالابناء له في القرب والمنزلة وقال ابراهيم النخعي ان اليهود وجدوا في التوراة يا أبناء أحباري فبدلوه يا أبناء ابكاري فمن ذلك قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه وجملة الكلام ان اليهود والنصارى كانوا يرون لانفسهم فضلا على سائر الخلق بسبب أسلافهم من الانبياء الى ان ادعوا ذلك (قل) لهم يا محمد (فلم يعذبكم بذنوبكم) أي فان صح ما زعمتم فلم يعذبكم بذنوبكم ولا يعذب الاب ولده ولا الحبيب حبيبه وقد عذبكم في الدنيا بالقتل والاسر والمسخ واعترفتم بأنه سيعذبكم بالنار أياما معدودة وقرأ البزي في الوقف فلمه بخلاف عنه (بل أنتم بشر ممن) جملة (من خلق) ه الله تعالى من البشر لكم ما لهم وعليكم ما عليهم (يغفر لمن يشاء) أي ممن خلقه منكم ومن غيركم تفضلا منه تعالى (ويعذب من يشاء) كذلك كما تشاهدونه يكرم ناسا منكم في هذه الدار ويهين آخرين لا اعتراض عليه وقرأ أبو عمرو بادغام الراء في اللام من يغفر والباء في الميم من يعذب بخلاف عنه ورقق ورش الراء على أصله (ولله ملك السموات والارض وما بينهما)

أي وأنتم عما بينهما فمن كان هكذا وقدرته هكذا كيف يستحق عليه البشر الضعيف حقا واجبا وكيف يملك عليه الجاهل بعبادته الناقصة دينا لازما كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا ثم قال (واليه المصير) أي المرجع فيجزي المحسن باحسانه والمسيء باساءته (يا أهل الكتاب) أي من الفريقين (قد جاءكم رسولنا) محمد صلى الله عليه وسلم (يبين لكم) أي ما كتمتم وحذف لتقدم ذكره أو الدين وحذف لظهوره ويجوز أن لا يقدر مفعول على معنى ويبذل لكم البيان وجملة يبين لكم في موضع الحال أي جاءكم رسولنا مبينا لكم وقوله تعالى (على فترة من الرسل) متعلق بجاءكم أي جاءكم على حين فتور من ارسال الرسل وانقطاع من الوحي قال ابن عباس يريد على انقطاع من الانبياء فشبه فقدهم وبعد العهد بهم ونسيان أخبارهم وبلاء رسومهم وآثارهم وانطماس معالمهم وأنوارهم بشيء كان يغلي ففتر ولم يبق من وصفه المقصود منه الا أثر خاف ورسم دارس يقال فتر الشيء يفتر فتورا اذا سكنت حركته وصار أقل مما كان عليه وسميت المدة بين الانبياء فترة لفتور الدواعي في العمل بترك الشرائع واختلفوا في مدة الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم فقال أبو عثمان النهدي ستمائة سنة وقال قتادة خمسمائة وستون سنة وقال معمر والكلبي خمسمائة وستة وأربعون سنة وعن الكلبي بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبي وبين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم أربعة من الانبياء ثلاثة من بني اسرائيل وواحد من العرب وهو خالد بن سنان العبسي وفي الآية امتنان عليهم بان بعث اليهم حين انطمست آثار الوحي وكانوا أحوج ما يكونون اليه قال البقاعي ولعله عبر بالمضارع في يبين اشارة الى ان دينه وبيانه لا ينقطع أصلا بحفظ كتابه فكلما درست سنة منح الله تعالى بعالم يرد الناس اليها بالكتاب العزيز المعجز القائم أبدا فلذلك لا يحتاج الامر الى نبي مجدد الا عند الفتنة التي لا تطيقها العلماء وهي فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج ثم علل ذلك بقوله تعالى (أن) أي كراهة أن (تقولوا) أي اذا حشرتم وسئلتم عن أعمالكم (ما جاءنا من بشير) أي بشير فمن زائدة لتأكيد النفي أي يبشرنا بالترغيب فنعمل بما يسعدنا فنفوز (ولا نذير) أي يحذرنا بالترهيب فنترك ما يشقينا فنسلم وقوله تعالى (فقد جاءكم بشير ونذير) متعلق بمحذوف أي لا تعتذروا بما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير (والله على كل شيء قدير) أي فيقدر على الارسال تترا واحدا بعد واحد على التعاقب كما فعل بين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام وعلى الارسال على فترة كما فعل بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام (واذ قال موسى لقومه) أي من اليهود (يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم) أي انعامه فذكرهم بثلاثة أمور أولها قوله تعالى (اذ) أي حين (جعل فيكم) أي منكم (أنبياء) فأرشدكم وشرفكم بهم ولم يبعث في أمة ما بعث في بني اسرائيل من الانبياء وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم وحمزة والكسائي باظهار ذال اذ عند الجيم وأدغمها أبو عمرو وهشام وثانيها قوله تعالى (وجعلكم ملوكا) أي وجعل منكم أو فيكم فقد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الانبياء بعد فرعون حتى قتلوا يحيى وهموا بقتل عيسى وقال ابن عباس أصحاب خدم وحشم قال قتادة كانوا أول من ملك الخدم ولم يكن قبلهم خدم وعن أبي سعيد الخدري

عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كان بنو اسرائيل اذا كان لاحدهم خادم وامرأة ودابة يكتب ملكا وقال أبو عبد الرحمن الجبلي سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال الستا من فقراء المسلمين المهاجرين فقال عبد الله له يا هذا ألك امرأة تأوي اليها قال نعم قال ألك مسكن تسكنه قال نعم قال فأنت غني من الاغنياء قال ألك خادم قال نعم قال أنت من الملوك وقال السدي وجعلكم احرارا تملكون أمر أنفسكم بعدما كنتم في أيدي القبط يستعبدونكم وقال الضحاك كانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية فمن كان مسكنه واسعا وفيه نهر جار فهو ملك وثالثها قوله تعالى (وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) وذلك لانه تعالى خصهم بأنواع عظيمة من الاكرام كفلق البحر لهم وأهلاك عدوهم وأورثهم أموالهم وأنزل عليهم المن والسلوى وأخرج لهم المياه الغزيرة من الحجر وأظال فوقهم الغمام ولم يجتمع الملك والنبوة لقوم كما اجتمعا لهم وكانوا في تلك الايام هم العلماء بالله تعالى وهم أحباب الله وأنصار دينه وقيل المراد بالعالمين عالمو زمانهم وقال الكلبي ان جعلت العالمين عاما وجب تخصيص ما تلا يلزم انهم أوتوا مالم تؤت هذه الامة من الكرامة والفضل وغير ذلك وان خصصته بعالمي زمانهم فباقية على عمومها اذ لا محذور ولما ذكرهم هذه النعم وشرحها لهم أمرهم بعد ذلك بجهاد العدو فقال (يا قوم ادخلوا الارض المقدسة) أي المطهرة وهي أرض بيت المقدس سميت بذلك لانها كانت مسكن الانبياء والمؤمنين وقال مجاهد هي الطور وما حوله وقال الكلبي هي دمشق وفلسطين وبعض الاردن وهو بضم الدال وتشديد النون اسم نهر أو كورة بالشأم قاله الجوهري وقال قتادة هي الشأم كلها (التي كتب الله لكم) أي في اللوح المحفوظ انها لكم مساكن وقال السدي أمركم بدخولها (فان قيل) على القول الاول كيف كتبها لهم بعد قوله تعالى بعد فانها محرمة عليهم (أجيب) بأجوبة أولها قال ابن عباس انها كانت هبة ثم حرمها عليهم بشؤم تمردهم وعصيانهم ثانيها اللفظ وان كان عاما لكن المراد به الخصوص فكأنها كتبت لبعضهم وحرمت على بعضهم ثالثها ان الوعد بقوله تعالى كتب الله لكم مشروط بقيد الطاعة فلما لم يوجد الشرط لم يوجد المشروط رابعها انها محرمة عليهم أربعين سنة فلما مضت الاربعون حصل ما كتب (ولا ترتدوا على أدباركم) أي ولا ترجعوا مدبرين خوفا من العدو (فتنقلبوا خاسرين) أي في سعيكم وذلك ان قوم موسى لما أخرجوا من مصر وعدهم الله تعالى اسكان أرض الشأم قال الكلبي صعد ابراهيم عليه السلام جبل لبنان فقيل له انظر ما أدرك بصرك فهو مقدس وهو ميراث لذريتك وكان بنو اسرائيل يسمون أرض الشأم أرض الموعد ثم بعث موسى عليه السلام اثني عشر نقيبا ليتجسسوا لهم عن أحوال تلك الارض فلما دخلوا تلك الاماكن رأوا أجساما عظيمة قال ابن عادل قال المفسرون فأخذهم أحد أولئك الجبارين وجعلهم في كمه مع فاكهة قد حملها من بساتينه وأتى بهم للملك ونثرهم بين يديه وقال تعجبا للملك هؤلاء يريدون قتالنا فقال الملك ارجعوا الى صاحبكم فاخبروه بما شاهدتم ثم انصرف هؤلاء النقباء الى موسى عليه السلام فاخبروه بالواقعة فأمرهم أن يكتموا ما شاهدوه فلم يقبلوا قوله الا رجلين منهم وهما يوشع ابن نون بن افرائيم بن يوسف فتى موسى وكالب بن يوفنا فتى موسى وكان من سبط يهوذا فانهما

سهلا الامر وقالا هى بلاد طيبة كثيرة النعم والاقوام وان كانت أجسامهم عظيمة الا أن قلوبهم ضعيفة وأما العشرة الباقية من النقباء فانهم أوقعوا الجبن فى قلوب الناس حتى أظهروا الامتناع ورفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا ياليتنا متنا فى أرض مصر او ليتنا نموت فى هذه البرية ولا يدخلنا الله أرضهم فتكون نساؤنا وأولادنا وأثقالنا غنيمة لهم ويقولون لاصحابهم تعالوا نجعل علينا رؤساء وننصرف الى مصر فذلك قوله تعالى (قالوا ياموسى ان فيها قوما جبارين) أى عتاة قاهرين لغيرهم مكرهين لغيرهم على ما يريدون (وانا لن ندخلها) خوفا منهم (حتى يخرجوا منها) أى بأى وجه كان (فان يخرجوا منها فانا داخلون) لها وأصل الجبار المتعظم الممتنع عن القهر يقال نخلة جبارة اذا كانت طويلة ممتنعة عن وصول الايدى اليها وسمى هؤلاء القوم جبارين لامتناعهم بطولهم وقوة أجسادهم وكانوا من العمالقة وبقية قوم عاد فلما قال بنو اسرائيل ما قالوا وهموا بالانصراف الى مصر خر موسى وهرون عليهما السلام ساجدين وخرق يوشع وكالب ثيابهما وهما اللذان أخبر الله تعالى عنهما فى قوله (قال رجلان من الذين يخافون) أى مخالفة أمر الله تعالى (أنعم الله عليهما) أى بالتوفيق والعصمة (ادخلوا عليهم الباب) أى باب قرية الجبارين ولا تخشوهم فانا رأيناهم وأجسادهم عظيمة بلا قلوب (فاذا دخلتموه فانكم غالبون) أى لان الله تعالى منجز وعده (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) به ومصدقين بوعده فأراد بنو اسرائيل ان يرجموهما بالحجارة وعصوا أمرهما ثم (قالوا ياموسى انا لن ندخلها أبدا) نفوا دخولهم على التأكيد والتأبيد وقوله تعالى (ما داموا فيها) بدل من أبدا بدل البعض (فاذهب أنت وربك فقاتلا) هم (انا ههنا قاعدون) عن القتال لا القعود الذى هو ضد القيام قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما وقيل وربك أى هرون لانه أكبر منه وقيل تقديره اذهب أنت وربك يعينك فلما سمع من قومه ذلك (قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى) أى لا أملك التصرف ولا ينفذ أمرى الا فى نفسى وأخى لان الانسان لا يملك نفسه فى الحقيقة انما المراد به التصرف وانى أفعل ما أمرتنى به وأخى كذلك قاله لشكوى بثه وحزنه الى الله عز وجل لما خالفه قومه وأيس منهم ولم يبق معه موافق يثق به غير هرون عليه السلام والرجلان المذكوران وان كانا يوافقانه لم يثق بهما لما كابد من تلون قومه أو ان المراد بأخى من يواخينى فى الدين فيدخلان فيه وأظهر وجوه الاعراب فى أخى أنه منصوب عطفا على نفسى والمعنى ولا أملك الا أخى مع ملكى نفسى دون غيرنا (فافرق) أى فافصل (بيننا وبين القوم الفاسقين) بأن تحكم لنا بما نستحقه وتحكم عليهم بما يستحقونه أو بالتبعيد بيننا وبينهم (قال) تعالى (فانها) أى الارض المقدسة (محرمة عليهم) ان يدخلوها وقوله تعالى (اربعين سنة يتيهون) أى يتحيرون (فى الارض) اختلف فى العامل فى اربعين فقيل محرمة فيكون التحريم مؤقتا غير مؤبد فلا يخالف ظاهر قوله تعالى التى كتب الله لكم وقيل هو يتيهون أى يسيرون فيها متحيرين قال الزجاج والاول خطأ لانه جاء فى التفسير أنها محرمة عليهم ابدا فنصبها بيتيهون أى فيكون التحريم مطلقا قال البغوى لم يرد به تحريم تعبد وانما أراد تحريم منع وأوحى الله

تعالى الى موسى عليه الصلاة والسلام بى حلفت لاحرمن عليهم دخول الارض المقدسة غير عبدى يوشع وكالب ولا تيهنهم فى هذه البرية أربعين سنة مكان كل يوم من الايام التى تجسسوا فيها سنة ولألقين جيفهم فى هذه القفار وأما بنوهم الذين لم يعملوا الشر فيدخلونها فلبثوا أربعين سنة فى ستة فراسخ وقيل تسعة فراسخ قال ابن عباس وهم ستمائة ألف مقاتل وكانوا يسيرون كل يوم جادين فاذا أمسوا كانوا فى الموضع الذى ارتحلوا عنه وكان الغمام يظلهم من الشمس وعمود نور يطلع بالليل فيضىء لهم وكان طعامهم المن والسلوى وماؤهم من الحجر الذى يحملون فاذا ولد لاحدهم مولود كان عليه ثوب مثل الظفر فى رأى العين يطول بطوله ويتسع بقدرة الله والله أعلم بما يحكى من ذلك (فان قيل) كيف ينزل المن والسلوى فى حال العقوبة (أجيب) بأنه سبب البقاء وهو أبقى للعقوبة فهو كاقامة الحدود ومع بقاء الخطاب واختلفوا هل كان موسى وهرون عليهما السلام فيهم أولا قال البغوى الاصح انهما كانا فيهم الا انه كان ذلك راحة لهما وزيادة فى درجتهما وعقوبة لهم وهو أبلغ فى الاجابة أن يشاهدوهما فى حال العقوبة فلا يصيبهما ما أصابهم ولم يدخل الارض المقدسة أحد ممن قال لن ندخلها بل هلكوا فى التيه وانما قاتل الجبابرة أولادهم واختلفوا هل مات موسى وهرون فى التيه أم لا قال البيضاوى الاكثرون انهما كانا معهم فى التيه وانهما ماتا فيه مات هرون قبل موسى وموسى بعده بسنة قال عمرو بن ميمون مات هرون قبل موسى وكانا خرجا الى بعض الكهوف فمات هرون فدفنه موسى وانصرف الى بنى اسرائيل فقالوا قتله لحبنا اياه وكان محببا فى بنى اسرائيل فتضرع موسى الى ربه فأوحى الله تعالى اليه ان انطلق بهم الى هرون فانى باعثه فانطلق بهم الى قبره فناداه ياهرون فخرج من قبره ينفض رأسه فقال أنا قتلتك قال لا ولكن مت قال فعد الى مضجعك وانصرفوا وعاش موسى صلى الله عليه وسلم بعده سنة روى عن أبى هريرة رضى الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ملك الموت الى موسى فقال له أجب أمر ربك فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها فقال ملك الموت يارب انك أرسلتنى الى عبد لا يريد الموت وقد فقأ عينى قال فرد الله عينه وقال ارجع الى عبدى وقل له الحياة تريد فان كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعرة فانك تعيش بها سنة قال ثم مه قال ثم تموت قال الآن من قريب قال رب أدننى من الارض المقدسة رمية حجر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أنى عنده لاريتكم قبره الى جانب الطريق عند الكثيب الاحمر قال وهب خرج موسى ليقضى حاجة فمر برهط من الملائكة يحفرون قبرا لم ير شيأ أحسن منه ولا مثل ما فيه من الخضرة والنضرة والبهجة فقال لهم ياملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر فقالوا لعبد كريم على ربه فقال ان هذا العبد لمن الله بمنزلة ما رأيت كاليوم أحسن منه مضجعا فقالت الملائكة ياصفى الله تحب أن يكون لك قال وددت قالوا فانزل فاضطجع فيه وتوجه الى ربك قال فاضطجع فيه وتوجه الى ربه ثم تنفس أسهل نفس فقبض الله تعالى روحه ثم سوت عليه الملائكة التراب وقيل ان ملك الموت أتاه بتفاحة من الجنة فشمها فقبض الله روحه وكان عمر موسى مائة وعشرين سنة

فلما مات موسى عليه السلام وانقضت الاربعون سنة بعث الله تعالى يوشع عليه السلام نبيا فأخبرهم ان الله تعالى قد أمرهم بقتال الجبابرة فصدقوه وبايعوه فتوجه ببنى اسرائيل الى اريحاء ومعه تابوت الميثاق وأحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر وفتحوها فى الشهر السابع ودخلوها فقاتلوا الجبارين وهزموهم وهجموا عليهم يقتلونهم وكانت العصابة من بنى اسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها وكان القتال يوم الجمعة فبقيت منهم بقية وكادت الشمس تغرب وتدخل ليلة السبت فقال اللهم اردد الشمس على وقال للشمس انك فى طاعة الله وأنا فى طاعة الله فسأل الشمس ان تقف والقمر أن يقيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل دخول السبت فردت عليه الشمس وزيد فى النهار ساعة حتى قتلهم أجمعين وروى الامام أحمد فى مسنده حديثا ان الشمس لم تحبس على بشر الا ليوشع ليالى سار الى بيت المقدس ثم تتبع ملوك الشأم فاستباح منهم أحدا وثلاثين ملكا حتى غلب على جميع أرض الشأم وصارت الشأم كلها لبنى اسرائيل وفرق عماله فى نواحيها وجمع الغنائم فلم تنزل النار فأوحى الله تعالى الى يوشع ان فيها غلولا فرهم فليبايعوك فبايعوه فالتصقت يد رجل منهم بيده فقال هلم ما عندك فأتاه برأس ثور من ذهب مكلل باليواقيت والجواهر وكان قد غله فجعله فى القربان وجعل الرجل معه فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان ثم مات يوشع ودفن فى جبل ابراهيم وكان عمره مائة وستا وعشرين سنة وتدبر أمر بنى اسرائيل بعد موسى سبعا وعشرين سنة فسبحان الباقى بعد فناء خلقه * ولما ندم موسى عليه السلام على الدعاء عليهم قال تعالى (فلا تأس على القوم الفاسقين) فبين تعالى انهم أحقاء بذلك لفسقهم (واتل عليهم نبأ ابنى آدم) وهما هابيل وقابيل وقوله تعالى (بالحق) صفة مصدر محذوف أى تلاوة متلبسة بالحق * وقصتهما أن الله تعالى أوحى الى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأم الآخر وكانت حواء تلد لآدم كل بطن غلاما وجارية وظاهر كلام المؤرخين ان آدم لا يحل له أن يتزوج بواحدة من بناته ولا من بنات أولاده ولهذا ألغز بعضهم بقوله ماتت زوجة رجل فحرم عليه نساء الدنيا وكان جميع ما ولدته أربعين ولدا فى عشرين بطنا أولهم قابيل وتوأمته اقليما وثانيهم هابيل وتوأمته ليوذا وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أم المغيث ثم بارك الله تعالى فى نسل آدم عليه السلام قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفا فأراد آدم ان ينكح قابيل ليوذا أخت هابيل وينكح هابيل اقليما وكانت أخت قابيل أحسن من أخت هابيل فذكر ذلك لولده فرضى هابيل وسخط قابيل وقال هى أختى وأنا أحق بها فقال له أبوه انها لا تحل لك فأبى أن يقبل ذلك وقال ان الله لم يأمر بهذا وانما هو من رأيك فقال لهما آدم قربا قربانا فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها وكانت القرابين اذا كانت مقبولة نزلت من السماء نار بيضاء فأكلتها واذا لم تكن مقبولة لم تنزل النار وأكله الطير والسباع فخرجا ليقربا وكان قابيل صاحب زرع فقرب صبرة من طعام من أردإ زرعه وأضمر فى نفسه ما أبالى تقبل منى أم لا لا يتزوج أختى أبدا وكان هابيل صاحب غنم فعمد الى أحسن كبش فى غنمه فقربه وأضمر فى نفسه رضا الله عز وجل فوضعا

قربانهما على الجبل ثم دعا آدم فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل كما قال تعالى (اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما) وهو هابيل (ولم يتقبل من الآخر) وهو قابيل لانه سخط حكم الله ولم يخلص النية فى قربانه وقصد الى أخس ما عنده فغضب قابيل لرد قربانه وأضمر الحسد فى نفسه الى ان أتى آدم مكة لزيارة البيت الحرام فلما غاب آدم أتى قابيل لهابيل وهو فى غنمه (قال لاقتلنك) قال ولم قال لان الله تعالى قبل قربانك ورد قربانى وتنكح أختى الحسناء وأنكح أختك الدميمة فيتحدث الناس أنك خير منى و يفتخر ولدك على ولدى (قال) هابيل وما ذنبى (انما يتقبل الله من المتقين) ❊ فان قيل كيف كان قول هابيل انما يتقبل الله من المتقين جوابا لقوله لاقتلنك (أجيب) بأنه لما كان الحسد لاخيه على تقبل قربانه هو الذى حمله على توعده بالقتل قال له انما أوتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لا من قبلى فلم تقتلنى ومالك لا تعاقب نفسك ولا تحملها على تقوى الله تعالى التى هى السبب فى القبول فأجابه بكلام حليم مختصر جامع لمعان وفيه اشارة الى أن الحاسد ينبغى أن يرى حرمانه من تقصيره و يجتهد فى تحصيل ما صار به المحسود محظوظا لا فى ازالة حظ المحسود فان ذلك مما يضره ولا ينفعه وأن الطاعة لا تقبل الا من مؤمن متق وعن عامر بن عبد الله أنه بكى حين حضرته الوفاة فقيل له ما يبكيك وقد كنت وكنت فقال انى أسمع الله يقول انما يتقبل الله من المتقين (لئن) لام قسم (بسطت) أى مددت (الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لاقتلك انى أخاف الله رب العالمين) قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما وايم الله ان كان المقتول لاشد الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط الى أخيه يده خوفا من الله عز وجل لان الدفع لم يبح بعد أو تحريا لما هو الافضل قال عليه الصلاة والسلام كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل وانما قال ما أنا بباسط فى جواب لئن بسطت للتبرى عن هذا الفعل الشنيع رأسا والتحرز من أن يوصف به و يطلق عليه ولذلك أكد النفى بالباء وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بفتح الياء من يدى والباقون بالسكون واتفق القراء السبعة على بقاء صفة الطاء فى بسطت وادغام الطاء فى التاء لان مخرج الطاء والتاء واحد ولكن الصفة مختلفة فالطاء منطبقة والتاء منفتحة والطاء مستعلية والتاء مستفلة والطاء مجهورة والتاء مهموسة ويقال فى ذلك ادغام الحرف وابقاء الصفة (انى أريد أن تبوء) أى ترجع (باثمى) أى باثم قتلى (واثمك) الذى ارتكبته من قبل (فتكون من أصحاب النار) ولا أريد أن أبوء باثمك اذا قتلتك فأكون منهم (فان قيل) كيف قال أريد أن تبوء باثمى واثمك وارادة القتل والمعصية لا تجوز (أجيب) أن ذلك ليس بحقيقة ارادة لكنه لما علم انه يقتله لا محالة ووطن نفسه على الاستسلام طلبا للثواب فكأنه صار مريدا لقتله مجازا وان لم يكن مريدا حقيقة (وذلك جزاء الظالمين) أى الراسخين فى وصف الظلم وأكون أنا من أصحاب الجنة جزاء لى باحسانى فى ايثارى حياتك على حياتى وذلك جزاء المحسنين (فطوعت) قال قتادة فزينت (له نفسه قتل أخيه فقتله) قال ابن جريج تمثل له ابليس وأخذ له طائرا ووضع رأسه على حجر وشدخ رأسه بحجر آخر وقابيل ينظر اليه فعلمه القتل فرضخ قابيل

رأس

رأس هابيل بين حجرين وقتله وهو مستسلم وقيل اغتاله فى النوم وهو نائم فشدخ رأسه فقتله (فأصبح) أى فصار (من الخاسرين) بقتله ولم يدر ما يصنع به لانه أول ميت على وجه الارض من بنى آدم وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة فحمله بعد قتله فى جراب أربعين يوما وقال ابن عباس سنة حتى أروح وعكف عليه الطير والسباع تنظر متى يرمى فتأكله فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل احدهما صاحبه ثم حفر له بمنقاره ورجليه حتى مكنه ثم ألقاه فى الحفرة وواراه وقابيل ينظر اليه فذلك قوله تعالى (فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه) أى الله أو ليريه الغراب أى ليعلمه لانه لما كان سبب تعليمه فكأنه قصد تعليمه على سبيل المجاز (كيف يوارى) أى يستر (سوأة) أى جيفة (أخيه) وقيل عورته لانه كان سلبه ثيابه فلما رأى قابيل ذلك (قال ياويلتى) كلمة جزع وتحسر والالف فيها بدل من ياء المتكلم والمعنى ياويلتى احضرى فهذا أوانك والويل والويلة الهلكة (أعجزت) أى مع ما جعل الله لى من القوة الناطقة (أن) أى عن أن (أكون) مع مالى من الجوارح الصالحة لاعظم من ذلك (مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى) أى لاهتدى الى ما اهتدى اليه وقوله تعالى فأوارى عطف على أكون وليس جواب الاستفهام اذ ليس المعنى لو عجزت لواريت (فأصبح) أى بسبب قتله (من النادمين) أى على ما فعل لانه فقد أخاه وأغضب ربه وأباه وما انتفع من قتله بشئ قال المطلب بن عبد الله بن حنطب لما قتل ابن آدم أخاه رجفت الارض بما فيها سبعة أيام وعن ابن عباس لما قتله وكان آدم عليه السلام بمكة اشتاك الشجر وتغيرت الاطعمة وحمضت وأمر الماء واغبرت الارض فقال آدم عليه السلام قد حدث فى الارض حدث وروى أنه لما قتله اسود جسده وكان أبيض وشربت الارض الدم فسأله آدم عليه السلام بعد مجيئه من مكة عن أخيه فقال ما كنت عليه وكيلا فقال بل قتلته ولذلك اسود جسدك قال فأين دمه ان كنت قتلته فحرم الله عز وجل على الارض من يومئذ أن تشرب دما بعده أبدا وعن الواقدى ان السودان كلهم من ولده وعن محمد بن اسحق كان نوح نائما فرآه ابنه حام عريانا فلم يستره فاسود فى الوقت فالسودان من ولده ورآه ابنه سام فستره وروى ان آدم صلوات الله وسلامه عليه مكث بعد قتله مائة سنة لا يضحك وأنه لما اتى من مكة الى الهند رثاه بشعر وهو

تغيرت البلاد ومن عليها * فوجه الارض مغبر قبيح
تغير كل ذى طعم ولون * وقل بشاشة الوجه المليح

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه قال من قال ان آدم قال شعرا فقد كذب ان محمدا والانبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام فى النهى عن الشعر سواء وروى انه رثاه فلم يزل ينتقل حتى وصل الى يعرب ابن قحطان وكان يقول الشعر فنظر الى المرثية فاذا هى سجع فقال ان هذا يقوم منه شعر فرد المقدم الى المؤخر والمؤخر الى المقدم فوزنه شعرا وزيد فيه أبيات منها

أرى طول الحياة على غما * فهل أنا من حياتى مستريح
ومالى لا أجود بسكب دمع * وهابيل تضمنه الضريح

فلما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة وذلك بعد قتل هابيل بخمسين سنة ولدت له حواء شيئا وتفسيره هبة الله أى انه خلف الله من هابيل علمه الله ساعات الليل والنهار وأعلمه الله عبادة الخلق فى كل ساعة منها وأنزل عليه خمسين صحيفة وصار وصى آدم وولى عهده وأما قابيل فقيل له اذهب طريدا شريدا فزعا مرعوبا لا يأمن من يراه فأخذ بيد اخته اقليما وهرب بها الى عدن من أرض اليمن فأتاه ابليس لعنه الله تعالى وقال له انما أكلت النار قربان أخيك لانه كان يعبد النار فانصب أنت نارا تكون لك ولعقبك فبنى بيت النار فهو أول من عبد النار وقال مجاهد واتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من اليراع والطبول والمزامير والعيدان والطنابير وانهمكوا فى اللهو وشرب الخمر وعبادة النار والزنا والفواحش حتى أغرقهم الله تعالى بالطوفان أيام نوح عليه السلام وبقى نسل شيث عليه السلام قال البقاعى فى تفسيره والله أعلم بما يروى من ذلك ولا يعتمد على مثل هذه الاحاديث وقد أحسن الطبرى بقوله أخبر الله تعالى بقتله ولا خبر يقطع العذر بصفة قتله على ماذكرناه فى مثله ولا فائدة فى طلب الصحيح منه فى الدين اه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال لا تقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم الاول كفل من دمها لانه أول من سن القتل (من أجل ذلك) أى الذى فعله قابيل (كتبنا) أى قضينا (على بنى اسرائيل) فى التوراة لانهم كانوا أشد الناس جراءة على القتل ولذلك كانوا يقتلون الانبياء (انه) أى الشأن (من قتل نفسا) أى من بنى آدم (بغير نفس) أى بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص (أو) قتلها بغير (فساد) أتاه (فى الارض) كالشرك والزنا بعد الاحصان وقطع الطريق وكل ما يبيح اراقة الدم (فكأنما قتل الناس جميعا) أى من حيث هتك حرمة الدماء وسن القتل وجراءة الناس عليه أو من حيث ان قتل الواحد وقتل الجميع سواء فى استجلاب غضب الله والعذاب العظيم (ومن أحياها) أى بسبب من الاسباب كانقاذ من هلكة أو غرق أو دفع من يريد أن يقتلها ظلما (فكأنما أحيا الناس جميعا) قال ابن عباس من حيث عدم انتهاك حرمتها وصونها قال سليمان بن على قلت للحسن يا أبا سعيد أهى لنا أى هذه الآية كما كانت لبنى اسرائيل قال اى والذى لا اله غيره ما كانت دماء بنى اسرائيل أكرم على الله من دمائنا اه ومما يحسن ايراده هنا ما نسب لامير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وقيل انه للشافعى رحمه الله تعالى

الناس من جهة التمثيل أكفاء * أبوهم آدم والام حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة * وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فان يكن لهم فى أصلهم حسب * يفاخرون به فالطين والماء
ما الفخر الا لاهل العلم انهم * على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل أمرئ ما كان يحسنه * وللرجال على الافعال أسماء
وضد كل امرئ ما كان يجهله * والجاهلون لاهل العلم أعداء
فقز بعلم تعش حيا به أبدا * فالناس موتى وأهل العلم أحياء

(ولقد جاءتهم) أى بنى اسرائيل (رسلنا بالبينات) أى المعجزات وقرأ أبو عمرو بسكون السين

والباقون

والباقون بضمها (ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك) أى بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم وأرسلنا اليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيدا للامر وتجديدا للعهد (فى الارض لمسرفون) أى مجاوزون الحد بالكفر والقتل وغير ذلك ولا يبالون به وبهذا اتصلت القصة بما قبلها * ونزل فى العرنيين لما قدموا المدينة وهم مرضى أتوا النبى صلى الله عليه وسلم وبايعوه على الاسلام وهم كذبة فبعثهم النبى صلى الله عليه وسلم الى ابل الصدقة ليشربوا من ألبانها وأبوالها فلما صحوا قتلوا الراعى واستاقوا الابل (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) أى يحاربون أولياءهما وهم المسلمون جعل محاربتهم محاربتهما تعظيما (ويسعون فى الارض فسادا) أى بقطع الطريق (أن يقتلوا) أى ان قتلوا (أو يصلبوا) أى مع ذلك ان قتلوا وأخذوا المال أى والصلب ثلاثا بعد القتل (أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف) أى أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى ان اقتصروا على أخذ المال (أو ينفوا من الارض) أى ان أرعبوا ولم يأخذوا شيأ أى ينفوا من بلد الى بلد ان رأى الامام ذلك وان رأى حبسهم فله ذلك ولو فى بلدهم هكذا فسر الآية ابن عباس رضى الله عنهما فحمل كلمة أو على التنويع لا التخيير كما فى قوله تعالى وقالوا كونوا هودا أو نصارى أى قالت اليهود كونوا هودا وقالت النصارى كونوا نصارى اذلم يخير أحد منهم بين اليهودية والنصرانية (ذلك) أى الجزاء العظيم (لهم خزى) أى ذل واهانة (فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) هو عذاب النار واحتج أكثر أهل العلم على أن هذه الآية نزلت فى قطاع الطريق بقوله تعالى (الا الذين تابوا) أى رجعوا عما كانوا عليه من المحاربة خوفا من الله تعالى (من قبل أن تقدروا عليهم) أى فان حقوقه تعالى تسقط عنهم كالقطع والصلب وتحتم القتل ويبقى القصاص والمال لانه حق آدمى لا يسقط بالتوبة (فاعلموا أن الله غفور) لهم ما أتوه (رحيم) بهم ولو كانت نزلت فى الكفار لكانت توبتهم بالاسلام وهو رافع للعقوبة قبل القدرة وبعدها (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) أى خافوا عقابه بأن تطيعوه (وابتغوا اليه الوسيلة) أى اطلبوا ما تتوسلون به الى ثوابه والزلفى منه من فعل الطاعات وترك المعاصى من وسل الى كذا اذا تقرب اليه قال لبيد

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم * ألا كل ذى لب الى الله واسل

وفى الحديث الوسيلة منزلة فى الجنة (وجاهدوا فى سبيله) بمحاربة أعدائه لتكون كلمة الله هى العليا (لعلكم تفلحون) بالوصول الى الله عز وجل والفوز بكرامته (ان الذين كفروا لو) ثبت (أن لهم ما فى الارض) من صنوف الاموال وأكده بقوله (جميعا ومثله معه ليفتدوا به) أى ليجعلوه فدية لانفسهم (من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم) أى لان المدفوع اليه ذلك تام القدرة وله الغنى المطلق (ولهم) بعد ذلك (عذاب أليم) أى مؤلم (يريدون أن يخرجوا) أى أن يكون لهم الخروج فى وقت ما اذا رفعهم اللهب الى أن يكاد أن يلقيهم خارجا (من النار) ثم نفى خروجهم على وجه التأكيد فقال (وما هم بخارجين منها) أى ما يثبت لهم خروج اصلا (ولهم) خاصة دون عصاة المؤمنين (عذاب مقيم) أى دائم تارة بالبرد وتارة بالحر وتارة بغيرهما (فان قيل)

قال تعالى لا يذوقون فيها بردا فهو ينافى ما ذكر (أجيب) بأن المراد بالبرد فى الآية النوم فلا منافاة وأل فى قوله تعالى (والسارق والسارقة) موصولة مبتدأ أى والذى سرق والتى سرقت ولشبهه بالشرط دخلت الفاء فى خبره وهو (فاقطعوا أيديهما) أى يمين كل واحد منهما من الكوع كما بينته السنة كما بينت أنه لابد أن يكون المسروق ربع دينار فصاعدا من حرز مثله من غير شبهة له فيه وأنه اذا عاد قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم ثم اليد اليسرى ثم الرجل اليمنى ثم بعد ذلك يعزر ثم علل تعالى ذلك بقوله (جزاء بما كسبا) أى فعلا من ذلك ثم علل تعالى هذا الجزاء بقوله (نكالا) أى عقوبة لهما (من الله) وأعاد الاسم الاعظم تعظيما للامر فقال (والله عزيز) أى غالب على أمره (حكيم) أى بالغ الحكم والحكمة فى خلقه (فمن تاب) أى من السراق (من بعد ظلمه) أى سرقته (وأصلح) أمره بالتخلص من التبعات والعزم على أن لا يعود اليها (فان الله يتوب عليه) أى يقبل توبته تفضلا منه تعالى (ان الله غفور رحيم) فلا يعذبه فى الآخرة وأما القطع فلا يسقط عنه بالتوبة عند الاكثرين واذا قطع السارق يجب عليه غرم ما سرق من المال عند أكثر أهل العلم وقال سفيان الثورى وأصحاب الرأى لا غرم عليه وبالاتفاق ان كان المسروق قائما عنده يسترد وتقطع يده لان القطع حق الله عز وجل والغرم حق العبد ولا يمنع أحدهما الآخر وقوله تعالى (ألم تعلم) الاستفهام للتقرير والخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم وقيل معناه ألم تعلم أيها الانسان فيكون خطابا لكل أحد من الناس (أن الله له ملك السموات والارض) أى أن الملك خالص له عن جميع الشوائب (يعذب من يشاء) تعذيبه (ويغفر لمن يشاء) المغفرة له (والله على كل شئ قدير) أى ومنه التعذيب والمغفرة فليس هو كغيره من الملوك الذين قد يعجز أحدهم عن تقريب ابنه وتبعيد أعدا عدوه (يا أيها الرسول) أى المبلغ لما أرسل به وقوله تعالى (لا يحزنك) قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى والباقون بفتح الياء وضم الزاى (الذين يسارعون فى الكفر) أى يقعون فيه بسرعة بأن يظهروه اذا وجدوا منه فرصة وقوله تعالى (من الذين قالوا آمنا) للبيان وقوله تعالى (بأفواههم) أى بألسنتهم متعلق بقالوا (ولم تؤمن قلوبهم) وهم المنافقون وقوله تعالى (ومن الذين هادوا) عطف على من الذين قالوا وقوله تعالى (سماعون للكذب) خبر مبتدا محذوف أى هم سماعون والضمير فى سماعون للفريقين أو للذين يسارعون ويجوز أن يكون مبتدا ومن الذين خبره أى ومن اليهود قوم سماعون للكذب الذى افترته أحبارهم سماع قبول (سماعون) منك (لقوم) أى لاجل قوم (آخرين) من اليهود (لم يأتوك) أى لم يحضروا مجلسك وتجافوا عنك تكبرا وافراطا فى البغضاء (يحرفون الكلم) أى الذى فى التوراة كآية الرجم (من بعد مواضعه) أى التى وضعها الله عليها أى يبدلونه (يقولون) أى الذين يحرفونه لمن يرسلونهم للنبى صلى الله عليه وسلم (ان أوتيتم هذا) أى المحرف أى أفتاكم به محمد صلى الله عليه وسلم (فخذوه) أى فاقبلوه منه واعلموا أنه الحق واعملوا به (وان لم تؤتوه) أى بأن افتاكم بخلافه (فاحذروا) أن تقبلوه منه فانه الباطل والضلال، روى ان شريفا فى خيبر زنا بشريفة وكانا محصنين وحدهما الرجم فى التوراة

فكرهوا رجمهما لشرفهما وقالوا ان هذا الرجل الذى بيثرب ليس فى كتابه الرجم ولكن الضرب فأرسلوهما مع رهط منهم الى بنى قريظة ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وقالوا ان أمركم بالجلد والتحميم أى تسويد الوجه من الحمة بالضم والتشديد وهى السواد فاقبلوا وان أمركم بالرجم فلا فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يا محمد أخبرنا عن الزانى والزانية اذا أحصنا ما حدهما فى كتابك فقال هل ترضون بقضائى فقالوا نعم فنزل جبريل عليه السلام بالرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به فقال له جبريل اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا قالوا نعم فقال هو أى رجل فيكم فقالوا هو أعلم يهودى بقى على وجه الارض بما أنزل الله على موسى بن عمران فى التوراة قال فأرسلوا اليه ففعلوا فأتاهم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أنت ابن صوريا قال نعم قال أعلم اليهود قال كذلك يزعمون قال تجعلونه بينى وبينكم قالوا نعم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذى لا اله الا هو الذى فلق البحر لموسى ورفع فوقكم الطور وأنجاكم وأغرق آل فرعون والذى أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هل تجدون فيه الرجم على من أحصن قال نعم فوثب عليه سفلة اليهود فقال خفت ان كذبت أن ينزل علينا العذاب ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء كان يعرفها من أعلامه فقال أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله النبى الامى العربى الذى بشر به المرسلون فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزانيين فرجما عند باب مسجده وقال اللهم انى أول من أحيا أمرك اذ اماتوه فأنزل الله عز وجل يا أيها الرسول الآية وروى أن اليهود جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم قالوا نفضحهم ويجلدون قال عبد الله ابن سلام كذبتم ان فيها آية الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم وقرأ ما بعدها فقال له عبد الله ارفع يدك فرفع يده فاذا فيها آية الرجم قالوا صدقت يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فرأيت الرجل يقى بيده عن المرأة الحجارة ‌• (فائدة) • كانت آية الرجم فى القرآن فنسخت تلاوتها وبقى حكمها روى البيهقى عن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم أنه قال فى خطبته ان الله بعث محمدا وأنزل عليه كتابا وكان فيما أنزل عليه آية الرجم فتلوناها ووعيناها الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم وسيأتى الكلام فى سورة الاحزاب أن هذه الآية كانت فيها (ومن يرد الله فتنته) أى اضلاله أو فضيحته (فلن تملك) أى لن تستطيع (له من الله شيأ) فى دفعها واذا لم تملك أنت وأنت أقرب الخلق الى الله تعالى فمن يملك (أولئك) أى البعداء من الهدى (الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) اى من الكفر ولو أراده لكان وهذا كما ترى نص على فساد قول المعتزلة بأنه أراد ذلك (لهم فى الدنيا خزى) أى ذل بالفضيحة والجزية والخوف من المؤمنين (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) وهو الخلود فى النار والضمير للذين

هادوا ان استأنفت بقوله تعالى ومن الذين والا فلا ضريقين وقوله تعالى (سماعون للكذب) كرره للتأكيد (أكالون للسحت) وهو كل مالا يحل كسبه وهو من سحته اذا استأصله لانه مسحوت البركة كما قال الله تعالى يمحق الله الربا والربا باب منه وكانوا يأخذون الرشا على الاحكام وتحليل الحرام وعن الحسن رحمه الله تعالى كان الحاكم في بني اسرائيل اذا أتاه أحدهم برشوة جعلها في كمه فأراه اياها وتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر الى خصمه فيأكل الرشوة ويسمع الكذب وعنه صلى الله عليه وسلم كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بضم الحاء والباقون بالسكون (فان جاؤك) أي لتحكم فيهم (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) هذا تخيير لرسول الله صلى الله عليه وسلم واختلفوا هل نسخ هذا التخيير أم لا فقال أكثر أهل العلم هو محكم ثابت وليس في سورة المائدة منسوخ وحكام المسلمين بالخيار في الحكم بين أهل الكتاب ان شاؤا حكموا وان شاؤا لم يحكموا بحكم الاسلام وهو قول النخعي والشعبي وعطاء وقتادة وقال قوم يجب على حكام المسلمين ان يحكموا بينهم والآية منسوخة نسخها قوله تعالى وان احكم بينهم بما أنزل الله وهو قول مجاهد وعكرمة وروي ذلك أيضا عن ابن عباس وقال لم ينسخ من المائدة الا آيتان قوله تعالى لا تحلوا شعائر الله نسخها قوله تعالى اقتلوا المشركين وقوله تعالى فان جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم نسخها قوله تعالى وأن احكم بينهم بما أنزل الله ومذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه ان الذميين وان اختلفت ملتهما كيهودي ونصراني يجب الحكم بينهما عند الترافع وكذا الذمي مع المعاهد بخلاف المعاهدين فان الحكم لا يجب بينهما لانهم لم يلتزموا بأحكامنا ولا التزمنا دفع بعضهم عن بعض فيحمل التخيير على هذا والآية الاخرى على أهل الذمة ويعلم من ذلك ان الحكم بين الحربيين لا يجب بطريق الاولى ولو ترافع الينا ذميان في شرب خمر لم نحدهما وان رضيا بحكمنا لانهما لا يعتقدان تحريمه ولو ترافع الينا مسلم وذمي وجب الحكم بينهما اجماعا (وان تعرض عنهم فلن يضروك شيأ) بأن يعادوك لاعراضك عنهم فان الله تعالى يعصمك من الناس (وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط) أي بالعدل الذي أمر الله تعالى به (ان الله يحب) أي يثيب (المقسطين) أي العادلين في الحكم وقوله تعالى (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) استفهام تعجيب من تحكيمهم من لا يؤمنون به والحال ان الحكم منصوص عليه في كتابهم الذي هو عندهم وتنبيه على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق واقامة الشرع وانما طلبوا به ما يكون أهون عليهم وان لم يكن حكم الله تعالى في زعمهم (ثم يتولون) أي يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم (من بعد ذلك) التحكيم وهذا داخل في حكم التعجب فانه معطوف على يحكمونك (وما أولئك) أي البعداء من الله (بالمؤمنين) أي بكتابهم لاعراضهم عنه أولا وعنك ثانيا وأوبلو به (انا أنزلنا التوراة فيها هدى) يهدي من الضلالة الى الحق (ونور) يكشف ما اشتبه عليهم من الاحكام (يحكم بها النبيون) أي من بني اسرائيل وقوله تعالى (الذين أسلموا) ذكر على وجه الصفة للانبياء للتنويه بشأن الصفة دون التخصيص والتمييز لانهم كلهم بهذه الصفة متمسكا دون الله تعالى والتنبيه على عظم قدرها

حيث وصف بها عظيم كما وصف الانبياء بالصلاح والملائكة بالايمان فان أوصاف الاشراف أشراف الاوصاف وقوله تعالى (للذين هادوا) متعلق بأنزل أو بيحكم أي يحكمون بها في تحاكمهم وهو يدل على أن النبيين أنبياؤهم وقوله تعالى (والربانيون) أي الزهاد الذين انسلخوا من الدنيا وبالغوا فيما يوجب النسبة الى الرب (والاحبار) أي العلماء السالكون طريقة أنبيائهم عطف على النبيون (بما) أي بسبب الذي (استحفظوا) أي استودعوه (من كتاب الله) أي استحفظهم الله تعالى اياه بأن يحفظوه من التضييع والتحريف أو بأن يحفظ فلا ينسى وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتاب الله من هذين الوجهين معا أحدهما ان يحفظ في صدورهم ويدرسوه بألسنتهم والثاني أن لا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه والراجع الى ما محذوف ومن للتبيين والضمير في استحفظوا للانبياء والربانيين والاحبار جميعا وكذلك الضمير في قوله تعالى (وكانوا عليه شهداء) أي رقباء حاضرين لا يغيبون عنه ولا يتركون مراعاته أصلا وقوله تعالى (فلا تخشوا الناس واخشوني) نهي للحكام أن يخشوا غير الله تعالى في حكوماتهم خوفا من سلطان ظالم أو خيفة أذية أحد من الاقرباء والاصدقاء وقرأ أبو عمرو باثبات الياء في الوصل دون الوقف والباقون بحذفها وصلا ووقفا (ولا تشتروا) أي تستبدلوا (بآياتي) أي بأحكامي التي أنزلتها (ثمنا قليلا) أي من الرشا وغيرها للكتم أو تبديلها كما فعل أهل الكتاب وقوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون) قال عكرمة معناه ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحدا له فقد كفر ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق فحمل الآيات على هذا وهو ظاهر وقال الضحاك وقتادة نزلت هذه الآيات الثلاث في اليهود دون من أساء من هذه الامة (وقيل) أولئك هم الكافرون في المسلمين لاتصالها بخطابهم والظالمون في اليهود والفاسقون في النصارى (وكتبنا) أي فرضنا (عليهم) أي اليهود (فيها) أي التوراة (أن النفس) تقتل (بالنفس) اذا قتلتها (والعين) تفقأ (بالعين) أي بعين من فقأها (والانف) تجدع (بالانف) أي بأنف من جدعه (والاذن) تقطع (بالاذن) أي باذن من قطعها (والسن) تقلع (بالسن) أي بسن من قلعها (والجروح قصاص) أي يقتص فيها اذا أمكن كاليد والرجل والذكر ونحو ذلك وما لا يمكن فيه القصاص فيه الحكومة وهذا الحكم وان كتب عليهم فهو مفروض في شرعنا وقرأ الكسائي هذه الالفاظ الخمسة وهي العين بالعين الى آخرها بالرفع على انها جمل معطوفة على ان وما في حيزها باعتبار المعنى وكأنه قيل كتبنا عليهم النفس بالنفس والعين بالعين فان الكتابة والقراءة يقعان على الجمل كالقول أو مستأنفة ووافق الكسائي ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر في الجروح فقط والباقون بالنصب في الجميع وسكن نافع الذال من الاذن وقرأ الباقون برفعها (فمن تصدق به) أي القصاص بأن مكن من نفسه (فهو) أي التصدق بالقصاص (كفارة له) أي لما أتاه فلا يعاقب ثانيا في الآخرة وقيل فمن تصدق به من أصحاب الحق فالتصدق به كفارة للمتصدق يكفر الله تعالى به من سيآته ما تقتضيه الموازنة كسائر طاعاته وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما تهدم عنه ذنوبه بقدر ما تصدق به وقيل فهو كفارة للجاني اذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه ما لزمه (ومن لم يحكم بما أنزل الله) أي

في القصاص وغيره (فأولئك هم الظالمون) أي الذين تركوا العدل فضلوا فصاروا كمن يمشي في الظلام فان كان تدينا بالترك كان نهاية للظلم وهو الكفر والا كان عصيانا لان الله تعالى أحق أن يخشى ويرجى (وقفينا) أي أتبعنا (على آثارهم) أي النبيين الذين يحكمون بالتوراة (بعيسى بن مريم) صلى الله عليه وسلم ونسبه تعالى الى أمه اشارة الى أنه لا والد له تكذيبا لليهود والى أنه عبد مربوب تكذيبا للنصارى (مصدقا لما بين يديه) أي قبله مما أتى به موسى عليه السلام (من التوراة) وأشار تعالى بقوله (وآتيناه الانجيل) أي أنزلناه عليه كما أنزلنا التوراة على موسى عليهما الصلاة والسلام الى أنه ناسخ لكثير من أحكامها (فيه هدى) من الضلالة (ونور) أي بيان للاحكام وقوله تعالى (ومصدقا) أي الانجيل حال (لما بين يديه) أي قبله * ولما كان الذي نزل قبله كثيرا بين المراد بقوله (من التوراة) أي لما فيها من الاحكام فالاول صفة لعيسى عليه الصلاة والسلام والثاني صفة لكتابه أي فهو والتوراة والانجيل يتصادقون فكل من الكتابين يصدق الآخر وهو يصدقهما لم يخالفوا في شئ بل هو متخلق بجميع ما أتى به (وهدى وموعظة للمتقين) أي كل ما فيه يهتدون به ويتعظون فترق قلوبهم ويعتبرون به (وليحكم أهل الانجيل) وهم اتباع عيسى عليه الصلاة والسلام (بما أنزل الله فيه) أي من الاحكام وقرأ حمزة بكسر اللام ونصب الميم عطفا على معمول آتيناه والباقون بكسر اللام وسكون الميم على الامر أي فلمنته أهل التوراة عما نسخ منها وليحكم أهل الانجيل الخ (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) أي المختصون بكمال الفسق فان كان تدينا كان كفرا وان كان لاتباع الشهوات كان مجرد معصية لان الحظوظ والشهوات تحمل على الخروج من دائرة الشرع مرة بعد أخرى (وأنزلنا اليك) يا محمد خاصة (الكتاب) أي الكامل في جمعه لكل ما يطلب منه وهو القرآن وقوله تعالى (بالحق) متعلق بأنزلنا (مصدقا لما بين يديه) أي قبله * ولما كانت الكتب السماوية من شدة تصادقها كالشئ الواحد عبر تعالى بالمفرد فقال (من الكتاب) أي الكتب المنزلة التي جاء بها الانبياء من قبل فاللام الاولى في الكتاب للعهد لانه عني به القرآن والثانية للجنس لانه عني به جنس الكتب المنزلة (ومهيمنا عليه) أي رقيبا على سائر الكتب أي يحفظها من التغيير والتبديل ويشهد لها بالصحة والثبات (فاحكم بينهم) أي بين جميع أهل الكتاب اذا ترافعوا اليك (بما أنزل الله) اليك في هذا الكتاب الناسخ لكتبهم المهيمن عليها في اثبات ما أسقطوه منها من أمرهم باتباعك ونحو ذلك من أوصافك (ولا تتبع أهواءهم) فيما خالفه عادلا (عما جاءك من الحق) بالانحراف عنه الى ما يشتهونه (لكل جعلنا منكم) أيها الامم (شرعة) أي دينا موصلا الى الحياة الابدية والشرعة هي الطريقة الى الماء شبه بها الدين لانها موصلة الى الماء الذي به الحياة الدنيوية (ومنهاجا) أي طريقا واضحا في الدين ناسخا لما قبله وقد جعلنا شرعتك ناسخة لجميع الشرائع وأمثاله مما يدل على أنا لسنا متعبدين بالشرائع المتقدمة وأن كل رسول غير متعبد بشرع من قبله وهو محمول على الفروع وما دل على الاجتماع كآية شرع لكم من الدين محمول على الاصول (ولو شاء الله لجعلكم أمة)

أي جماعة (واحدة) أي متفقة على دين واحد في جميع الاعصار من غير نسخ وتحويل (ولكن) لم يشأ ذلك بل شاء أن تكونوا على شرائع مختلفة (ليبلوكم) أي ليختبركم (فيما آتاكم) من الشرائع المختلفة ليبرز الى الوجود المطيع منكم والعاصي (فاستبقوا الخيرات) أي ابتدروها انتهازا للفرصة بغاية الجهد فقد فاز من يسابق شخصا يخشى العار بسبقه وقوله تعالى (الى الله مرجعكم جميعا) أي بالبعث استئناف فيه تعليل للامر بالاستباق ووعد للمبادرين ووعيد للمقصرين (فينبئكم) أي يخبركم (بما كنتم فيه تختلفون) أي من أمر الدين ويجزي كلا منكم بعمله وقوله تعالى (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) عطف على الكتاب أي أنزلنا اليك الكتاب والحكم أو على الحق أي أنزلناه بالحق وبأن أحكم وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر نون وأن احكم والباقون بضمها (ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن) أي لئلا يفتنوك أي يضلوك ويصرفوك (عن بعض ما أنزل الله اليك) روي أن احبار اليهود قالوا اذهبوا بنا الى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فقالوا يا محمد قد عرفت أنا احبار اليهود وأنا ان اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت (فان تولوا) أي عن الحكم المنزل وأرادوا غيره (فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم) أي بالعقوبة في الدنيا (ببعض ذنوبهم) أي التي أتوها ومنها التولي ويجازيهم على جميعها في الآخرة (وان كثيرا من الناس) أي هم وغيرهم (لفاسقون) أي خارجون عن دائرة الطاعات ومعادن السعادات (أفحكم الجاهلية) أي خاصة مع ان احكامها لا يرضى بها عاقل لكونها لم يدع اليها كتاب بل هي مجرد أهواء وهم أهل الكتاب (يبغون) أي يريدون باعراضهم عن حكمك مع ما دعا اليه كتابهم من اتباعك وشهد كتابك المعجز عن معارضته من وجوب رسالتك الى جميع الخلائق وهذا استفهام انكاري وقرأ ابن عامر بالتاء على الالتفات من الغيبة الى الخطاب وهو أدل على الغضب والباقون بالياء على الغيبة وقيل نزلت في بني قريظة والنضير طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحكم بما كان يحكم به الجاهلية من التفاضل بين القتلى أي بين ديات بعضهم على بعض (ومن) أي لا أحد (أحسن من الله حكما لقوم) أي عند قوم (يوقنون) به خصوا بالذكر لانهم الذين يتدبرون الامور ويتحققون الاشياء بأنظارهم فيعلمون ان لا أحسن حكما من الله جل وعلا (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) أي توالونهم وتوادونهم وتعاشرونهم معاشرة الاحباب وقوله تعالى (بعضهم أولياء بعض) فيه ايماء الى علة النهي أي فانهم متفقون على خلافكم يوالي بعضهم بعضا لاتحادهم في الدين واجماعهم على مضارتكم (ومن يتولهم منكم) أي ومن والاهم منكم (فانه منهم) اي من جملتهم وهذا تشديد في وجوب مجانبتهم أولان الموالين كانوا منافقين (ان الله لا يهدي القوم الظالمين) أي الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار ومن لم يرد الله هدايته لم يقدر أحد أن يهديه * (تنبيه) * اختلف في سبب نزول هذه الآية فقال قوم نزلت في عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي ابن سلول المنافق وذلك انهما اختصما فقال عبادة ان لي أولياء من

اليهود كثيرا عددهم شديدة شوكتهم وانى ابرأ الى الله والى رسوله من موالاتهم ولا مولى لى الا الله ورسوله فقال عبد الله لكنى لا أبرأ من ولاية اليهود لانى اخاف الدوائر ولابد لى منهم فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال السدى لما كانت وقعة أحد اشتدت على طائفة من الناس وتخوفوا أن تدال عليهم الكفار فقال رجل من المسلمين أنا ألحق بفلان اليهودى آخذ منه أمانا انى أخاف أن تدال علينا اليهود وقال الآخر اما أنا فألحق بفلان النصرانى من أهل الشأم وآخذ منه أمانا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال عكرمة نزلت فى أبى لبابة بن المنذر بعثه النبى صلى الله عليه وسلم الى بنى قريظة حين حاصرهم فاستشاروه فى النزول وقالوا ماذا يصنع بنا اذا نزلنا فجعل اصبعه على حلقه يعنى أنه الذبح أى يقتلكم فنزلت (فترى الذين فى قلوبهم مرض) أى ضعف اعتقاد كعبد الله بن أبى (يسارعون فيهم) أى فى موالاتهم (يقولون) معتذرين عنها (نخشى) أى نخاف خوفا بالغا (أن تصيبنا دائرة) أى مصيبة تحيط بنا ويدور بها الدهر علينا من جدب أوغلبة ولا يتم أمر محمد فلا يميرونا (فعسى الله أن يأتى بالفتح) أى باظهار الدين على الاعداء (أو أمر من عنده) أى بهتك ستر المنافقين وافتضاحهم (فيصبحوا) أى هؤلاء المنافقون (على ما أسروا فى أنفسهم) أى على ما استبطنوه من الكفر والشك فى أمر الرسول فضلا عما أظهروه مما أشعر به نفاقهم (نادمين) أى ثابت لهم غاية الندم فى الصباح وغيره وقوله تعالى (ويقول الذين آمنوا) قرأه عاصم وحمزة والكسائى بالرفع على أنه كلام مبتدأ ويؤيده قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر مرفوعا بغير واو على أنه جواب قائل يقول فماذا يقول المؤمنون حينئذ وقرأ بالنصب ابو عمرو عطفا على يأتى باعتبار المعنى وكأنه قال عسى الله أن يأتى بالفتح ويقول الذين آمنوا (أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم) أى غاية اجتهادهم فيها (انهم لمعكم) فى الدين أى يقوله المؤمنون بعضهم لبعض تعجبا من حال المنافقين وتبجحا بما من الله تعالى عليهم من الاخلاص أو يقولون لليهود فان المنافقين حلفوا لهم بالمعاضدة كما حكى الله تعالى عنهم بقوله وان قوتلتم لننصرنكم (حبطت) أى بطلت (أعمالهم) أى الصالحة (فأصبحوا) أى فصاروا (خاسرين) الدنيا بالفضيحة والآخرة بالعقاب (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان (من يرتد) أى يرجع (منكم عن دينه) الى الكفر وهذا من الكائنات التى أخبر الله تعالى عنها فى القرآن قبل وقوعها وكان أهل الردة احدى عشرة فرقة ثلاثة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الاولى بنو مدلج وكان رئيسهم ذو الحمار بالحاء المهملة قال التفتازانى كان له حمار يقول له قف فيقف وسر فيسير وكانت النساء أى نساء أصحابه يتعطرون بروث حماره وقيل يعقدون روثه بخمرهن فسمى ذو الخمار أيضا بالخاء المعجمة وذوهنا وفيما قبله بالواو على الحكاية وهو العنسى بفتح العين وسكون النون منسوب الى عنس وهو يزيد بن مذحج بن ادد بن كعب العنسى ويلقب بالاسود كان كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلادها وأخرج عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه والى سادات اليمن وأمرهم أن يحثوا الناس على التمسك بدينهم والنهوض الى حرب الاسود فقتله

فيروز الديلمي على فراشه قال ابن عمر رضي الله عنهما وأتى الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من السماء الليلة التي قتل فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل الاسود البارحة قتله رجل مبارك قيل ومن هو قال فيروز فيروز فبشر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بهلاك الاسود وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد وأتى خبر مقتل العنسي المدينة في آخر شهر ربيع الاول وكان ذلك أول فتح جاء الى أبي بكر رضي الله تعالى عنه وأرضاه والفرقة الثانية بنو حنيفة باليمامة ورئيسهم مسيلمة الكذاب وكان تنبأ في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر سنة عشر وزعم أنه اشترك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في النبوة وكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله أما بعد فان الارض نصفها لي ونصفها لك وبعثه اليه مع رجلين من أصحابه فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما ثم أجاب من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب أما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ومرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفي فبعث أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد في جيش كبير حتى أهلكه الله تعالى على يد وحشي غلام مطعم بن عدي الذي قتل حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حرب شديد وكان وحشي يقول قتلت خير الناس في الجاهلية وشر الناس في الاسلام أراد في جاهليتي واسلامي الفرقة الثالثة بنو أسد ورئيسهم طليحة بن خويلد وكان طليحة أحد من ارتد وادعى النبوة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول من قوتل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الردة فبعث أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد رضي الله عنه اليه فهزمهم خالد بن الوليد رضي الله عنه بعد قتال شديد وأفلت طليحة فر على وجهه هاربا نحو الشأم ثم انه أسلم بعد ذلك وحسن اسلامه وسبع في عهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه الاولى فزارة قوم عيينة بن حصن والثانية غطفان قوم قرة بن سلمة والثالثة بنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل والرابعة بنو يربوع قوم مالك بن نويرة والخامسة بعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة التي زوجت نفسها مسيلمة الكذاب وفيها يقول أبو العلاء المعري أمت سجاح ووالاها مسيلمة * كذابة في بني الدنيا وكذاب والسادسة كندة قوم الاشعث بن قيس والسابعة بنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد وكفى الله تعالى أمرهم على يد أبي بكر رضي الله عنه وفرقة واحدة في عهد عمر رضي الله تعالى عنه وهي غسان قوم جبلة بن الايهم تنصر وسار الى الشأم والجمهور انه مات على ردته وذكرت طائفة انه عاد الى الاسلام وقرأ نافع وابن عامر يرتدد بدالين الاولى مكسورة مخففة والثانية ساكنة والباقون بدال مفتوحة مشددة واختلف في القوم في قوله تعالى (فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه) قال قتادة بن غنم الازدي لما نزلت الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم هذا وأشار الى أبي موسى الاشعري رضي الله عنه وكانوا من اليمن وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الايمان يمان والحكمة يمانية وقال الكلبي هم أحياء من اليمن ألفان من النخع وخمسة آلاف من كندة وبجيلة وثلاثة آلاف من

أفناه أى لم يعلم من هم قاله الجوهرى فجاهدوا فى سبيل الله يوم القادسية وقيل هم الانصار وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فضرب على عاتق سلمان رضى الله عنه فقال هذا وذووه ثم قال لو كان الايمان معلقا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس والراجع الى من محذوف تقديره فسوف يأتى الله بقوم مكانهم أو بقوم غيرهم أو ما أشبه ذلك ومحبة الله تعالى لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ويعظمهم ويثنى عليهم ويرضى عنهم ومحبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه (أذلة على المؤمنين) أى عاطفين عليهم متذللين لهم جمع ذليل وأما ذلول فجمعه ذلل ومن زعم أنه من الذل الذى هو نقيض الصعوبة فقد خفى عنه لان ذلولا لا يجمع على أذلة (فان قيل) هلا قال أذلة للمؤمنين (أجيب) بأنه تضمن معنى الحنو والعطف كأنه قال عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع وأنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم أو للمقابلة فى قوله تعالى (أعزة على الكافرين) أى شداد متغلبين عليهم من عزه اذا غلبه وقوله تعالى (يجاهدون فى سبيل الله) حال من الضمير فى أعزة أو صفة أخرى لقوم وقوله تعالى (ولا يخافون لومة لائم) يحتمل أن تكون الواو للحال على أنهم يجاهدون وحالهم فى المجاهدة خلاف حال المنافقين فانهم كانوا موالين لليهود فاذا خرجوا فى جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود فلا يعملون شيأ مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم وأما المؤمنون فكانوا يجاهدون لوجه الله لا يخافون لومة لائم قط وان يكون للعطف على يجاهدون بمعنى انهم الجامعون بين المجاهدة فى سبيل الله والتصلب فى دينه واللومة المرة من اللوم وفيها وفى تنكير لائم مبالغتان (ذلك) اشارة الى الاوصاف المذكورة وقوله تعالى (فضل الله يؤتيه من يشاء) أى يمنحه ويوفق له فيبذل الانسان جهده فى طاعته لينظر اليه هذا النظر برحمته (والله واسع) أى كثير الفضل (عليم) أى بمن هو أهله ونزل لما قال ابن سلام رضى الله عنه يا رسول الله ان قومنا هجرونا (انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) وانما قال وليكم ولم يقل أولياؤكم للتنبيه على أن الولاية لله على الاصالة ولرسوله وللمؤمنين على التبع اذ التقدير انما وليكم الله وكذا رسوله والمؤمنون ولو قيل انما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا لم يكن فى الكلام أصل وتبع ثم وصف المؤمنين بقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) أى متخشعون فى صلاتهم وزكاتهم وقيل يصلون صلاة التطوع (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا) أى ومن يتخذهم أولياء وقيل من يعنهم وينصرهم (فان حزب الله هم الغالبون) أى فانهم هم الغالبون ولكن وضع الظاهر موضع المضمر اظهارا لما شرفهم به ترغيبا لهم فى ولايته وتشريفا لهم بهذا الاسم فكأنه قيل ومن يتول هؤلاء فانهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون وتعريضا بمن يوالى هؤلاء بانه حزب الشيطان وأصل الحزب القوم يجتمعون لامر حزبهم ونزل فى رفاعة بن زيد وسويد ابن حارث اللذين أظهرا الاسلام ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم) أى الذى شرفكم الله به (هزوا) أى مهزوا به (ولعبا)

ثم بين المنهى عنه والاتهم بقوله تعالى (من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) أى اليهود ولما خصص عمم بقوله (والكفار) أى من عبدة الاوثان وغيرهم (أولياء) أى فان الفريقين اجتمعوا على حسدكم وازدرائكم فلا تصح لكم موالاتهم وقرأ أبو عمرو والكسائى بخفض الراء والباقون بالنصب عطفا على الذين اتخذوا على أن النهى عن موالاة من ليس على الحق وأساسه من كان ذا دين تبع فيه الهوى وحرفه عن الصواب كاهل الكتاب ومن لم يكن كالمشركين (واتقوا الله) أى بترك المناهى (ان كنتم مؤمنين) أى صادقين فى ايمانكم فان الايمان حقا يقتضى ذلك وقوله تعالى (واذا ناديتم) معطوف على الذين قبله أى ولا تتخذوا الذين اذا ناديتم أى دعوتم (الى الصلاة) بالاذان (اتخذوها) أى الصلاة (هزوا ولعبا) بأن يستهزؤا بها ويتضاحكوا ويقولوا صاحوا كصياح العير وفى هذا دليل على أن الاذان مشروع للصلوات المكتوبات روى الطبرانى أن نصرانيا بالمدينة كان اذا سمع المؤذن يقول أشهد أن محمدا رسول الله قال احرق الله الكاذب فدخل خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيام فتطاير شرره فى البيت فأحرقه وأهله (ذلك) أى الاتخاذ (بأنهم) اى بسبب انهم (قوم لا يعقلون) أى فان السفه يؤدى الى الجهل بالحق والهزء به والعقل يمنع منه ونزل لما سأل نفر من اليهود النبى صلى الله عليه وسلم عمن يؤمن به من الرسل فقال أومن بالله وما أنزل الينا الآية فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى ما نعلم أهل دين أقل حظا فى الدنيا والآخرة منكم ولا دينا شرا من دينكم (قل يا أهل الكتاب هل تنقمون) أى تنكرون (منا) وتعيبون يقال نقم منه كذا أنكره وانتقم اذا كافأه (الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل) أى الى الانبياء وقوله تعالى (وان أكثركم فاسقون) عطف على ان امنا والمعنى ما تنكرون منا الا ايماننا ومخالفتكم فى عدم قبول الايمان المعبر عن عدم قبوله بالفسق اللازم عن عدم القبول وليس هذا مما ينكر (قل) لهم يا محمد (هل أنبئكم) أى أخبركم (بشر من ذلك) أى الذى تنقمونه (مثوبة عند الله) نصب مثوبة على التمييز أى ثوابا بمعنى جزاء (فان قيل) المثوبة مختصة بالاحسان كما أن العقوبة مختصة بالشر (أجيب) بأن ذلك على سبيل التهكم كما فى قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم وقوله تعالى (من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير) بدل من بشر على حذف مضاف قبل لفظ ذلك أو قبل لفظ من لعنه وتقديره بشر من أهل ذلك من لعنه الله أو بشر من ذلك دين من لعنه الله لان الدين المشار اليه غير مطابق لقوله من لعنه الله فى معنى يشترك فيه لفظ شر فيقدر أهل قبل ذلك أو دين قبل من ليطابق (فان قيل) هذا يقتضى كون الموصوفين بذلك الدين محكوما عليهم بالشر ومعلوم انه ليس كذلك (أجيب) بأنه انما خرج الكلام على حسب قولهم واعتقادهم فانهم حكموا بأن اعتقاد ذلك الدين شر فقيل لهم هب ان الامر كذلك لكن لعنة الله وغضبه ومسخ الصور شر من ذلك والذين لعنهم الله فى هذه الآية هم اليهود أبعدهم الله من رحمته وسخط عليهم بكفرهم وانهماكهم فى المعاصى بعد وضوح الآيات ومسخ بعضهم قردة وهم أصحاب السبت وبعضهم خنازير وهم كفار أهل

مائدة عيسى وقيل كلا المسخين في أصحاب السبت مسخت شبانهم قردة ومشايخهم خنازير روى أنها لما نزلت كان المسلمون يعيرون اليهود ويقولون يا اخوة القردة والخنازير فينكسون رؤسهم وقوله تعالى (وعبد الطاغوت) عطف على صلة من كأنه قيل ومن عبد الطاغوت وقرأ حمزة بضم باء عبد وكسر تاء الطاغوت على انه اسم جمع لعبد عطف على من والباقون بنصب الباء من عبد والتاء من الطاغوت والطاغوت الشيطان أو العجل لانه معبود من دون الله ولان عبادتهم للعجل مما زينه لهم الشيطان فكانت عبادتهم له عبادة للشيطان وهو الطاغوت وعن ابن عباس رضي الله عنهما الطاغوت الكهنة وكل من أطاعوه في معصية الله تعالى *(تنبيه)* روعي في منهم معنى من وفيما قبلها لفظها وهم اليهود (أولئك) أي الملعونون الممسوخون (شر مكانا) لان مأواهم النار وجعلت الشرارة للمكان وهي لأهله وفيه مبالغة ليست في قولك أولئك شر ومكانا تمييز (وأضل عن سواء السبيل) أي طريق الحق وأصل السواء الوسط (فان قيل) ذكر شر وأضل يقتضي مشاركة المؤمنين والكفار في الشر والضلال وان الكفار أشر وأضل مع ان المؤمنين لم يشاركوا الكفار في شيء من ذلك (أجيب) بأن مكان هؤلاء في الآخرة شر وأضل من مكان المؤمنين في الدنيا لما يلحقهم فيها من الشر والضلال الحاصل لهم بالهموم الدنيوية كسماع الاذى وغيره أوان ذلك على سبيل التنزل والتسليم للخصم على زعمه الزاما له بالحجة وهذا أولى * ونزل في يهود نافقوا النبي صلى الله عليه وسلم (واذا جاؤكم قالوا آمنا وقد) أي قالوا ذلك والحال انهم قد (دخلوا) اليكم متلبسين (بالكفر وهم قد خرجوا) من عندكم متلبسين (به) أي الكفر كما دخلوا لم يتعلق بهم شيء مما سمعوا به من تذكيرك بآيات الله ومواعظك (والله أعلم بما كانوا يكتمون) من الكفر وغيره في جميع أحوالهم من أقوالهم وأفعالهم وفي هذا وعيد لهم (وترى كثيرا منهم) أي اليهود أو المنافقين (يسارعون) أي يقعون سريعا (في الاثم) أي الكذب بدليل قوله تعالى عن قولهم الاثم (والعدوان) أي الظلم وقيل الاثم ما يختص بهم والعدوان ما يتعدى الى غيرهم (وأكلهم السحت) أي الحرام كالرشا (لبئس ما كانوا يعملون) عملهم هذا (لولا) هلا (ينهاهم) أي يجدد لهم النهي (الربانيون) أي المدعون للتخلي من الدنيا الى سبيل الرب (والاحبار) أي العلماء (عن قولهم الاثم) أي الكذب (وأكلهم السحت) أي الحرام هذا تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك فان لولا اذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ واذا دخل على المضارع المستقبل أفاد التحضيض (لبئس ما كانوا يصنعون) تركهم نهيهم (فان قيل) لم عبر في الاول بيعملون وفي الثاني بيصنعون (أجيب) بأن كل عامل لا يسمى صانعا ولا كل عمل يسمى صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرب ولذلك ذم بهذا خواصهم ولان ترك الانكار على المعصية أقبح من مواقعة المعصية لان النفس تلتذ بها وتميل اليها ولا كذلك ترك الانكار عليها فكان جديرا بأبلغ الذم فيدخل في الذم كل من كان قادرا على النهي عن المنكر من العلماء أو غيرهم وتركه وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي أشد آية نزلت في القرآن وعن الضحاك ما في القرآن آية أخوف عندي منها (وقالت اليهود) مما ضيق عليهم

بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا أكثر الناس مالا وأخصبهم ناحية (يد الله مغلولة) أي هو ممسك يقتر بالرزق وغل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ومنه قوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ولا يقصد من يتكلم به اثبات يد ولا غل ولا بسط ولو أعطى الاقطع الى المنكب عطاء جزيلا لقالوا ما أبسط يده بالنوال لان بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود وقد استعملوها حيث لا تصح اليد كقوله بسط اليأس كفيه في صدري فجعلت لليأس الذي هو معنى من المعاني لا من الاعيان كفان (فان قيل) قد تقدم أن قوله يد الله مغلولة عبارة عن البخل فما تفعل في قوله تعالى (غلت أيديهم) ومن حقه أن يطابق ما تقدمه (أجيب) بأنه يجوز أن يكون معناه الدعاء عليهم بالبخل والنكد ومن ثم كانوا أبخل خلق الله تعالى وأنكدهم والمطابقة على هذا ظاهرة ويجوز أن يكون دعاء عليهم بغل الايدي حقيقة يغلون في الدنيا أسارى وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم كما قال تعالى اذ الاغلال في أعناقهم والسلاسل وعلى هذا تكون المطابقة حاصلة من حيث لفظ مغلولة وغلت من حيث ملاحظة ان الاصل في القول الشنيع أن يقابل بالدعاء على قائله (ولعنوا) أي أبعدوا مطرودين عن الجناب الكريم (بما قالوا) فمن لعنهم أنهم مسخوا قردة وخنازير ثم رد الله تعالى عليهم بقوله (بل يداه مبسوطتان) مشيرا بالتثنية الى غاية الجود وان غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطي بيديه جميعا (ينفق كيف يشاء) أي هو مختار في انفاقه يضيق تارة ويوسع أخرى على حسب مشيئته ومقتضى حكمته لا اعتراض عليه وقيل القائل هذه المقالة فنحاص بن عازوراء فلما لم ينهه الآخرون ورضوا بقوله أشركهم الله تعالى فيها (وليزيدن كثيرا منهم) أي ممن أراد الله فتنته ثم ذكر فاعل الزيادة فقال (ما أنزل اليك من ربك) من القرآن (طغيانا) أي تماديا في الجحود (وكفرا) بآيات الله فيزدادون على كفرهم وطغيانهم طغيانا وكفرا مما يسمعون من القرآن كما يزداد المريض مرضا من تناول الغذاء الصالح للاصحاء (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة) فكل فرقة منهم تخالف الاخرى فلا تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) أي كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا وقهروا ولم يقم لهم نصر من الله تعالى على أحد وقد أتاهم الاسلام وهم في ملك المجوس وقيل خالفوا حكم التوراة فبعث الله عليهم بختنصر ثم أفسدوا فسلط الله عليهم فطرس بالفاء الرومي ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المسلمين وقيل كلما حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نصر عليهم وعن قتادة لا تلقى اليهود ببلدة الا وجدتهم من أذل الناس (ويسعون في الارض فسادا) أي ويجتهدون في الكيد للاسلام ومحو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتبهم واثارة الحرب والفتن وهتك المحارم (والله لا يحب المفسدين) أي فلا يجازيهم الا شرا (ولو أن أهل الكتاب آمنوا) أي بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به (واتقوا) أي الكفر (لكفرنا عنهم سيآتهم) أي التي فعلوها ولم نؤاخذهم بها (ولأدخلناهم جنات النعيم) مع المسلمين وفي هذا اعلام بعظم معاصي اليهود والنصارى وكثرة سيآتهم ودلالة على سعة رحمة الله تعالى

وقصه باب التوبة على كل عاص وان عظمت معاصيه وبلغت مبالغ سيآت اليهود والنصارى وان الاسلام يجب ما قبله وان جل وان الكتابى لا يدخل الجنة ما لم يسلم (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل) أى أقاموا أحكامهما وحدودهما وما فيهما من نعت محمد صلى الله عليه وسلم (وما أنزل اليهم) أى من الكتب المنزلة (من ربهم) لانهم مكلفون بالايمان بجميعها فكأنها أنزلت اليهم وقيل هو القرآن وقوله تعالى (لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) عبارة عن التوسعة أى لوسع عليهم أرزاقهم بأن يفيض عليهم من بركات السماء والارض أو ان تكثر الاشجار المثمرة والزروع المغلة أو ان يرزقهم الجنان اليانعة الثمار فيجنونها من رأس الثمر والشجر ويلتقطون ما تساقط على الارض من تحت أرجلهم بين سبحانه وتعالى بذلك ان ما كف عنهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم لا بقصور الفيض ولو أنهم آمنوا وأقاموا ما أمروا به لوسع عليهم وجعل لهم خير الدارين (منهم أمة) أى جماعة (مقتصدة) أى عادلة غير غالية ولا مقصرة وهم عبد الله بن سلام وأصحابه وثمانية وأربعون من النصارى آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم وقيل متوسطة فى عداوته (وكثير منهم ساء) أى بئس (ما) أى شيأ (يعملون) فيه معنى التعجب كأنه قيل وكثير منهم ما أسوأ عملهم وقيل هو كعب بن الاشرف وأصحابه والروم روى مسروق عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت من حدثك أن محمدا كتم شيأ مما أنزل الله فقد كذب وهو يقول (يا أيها الرسول بلغ) جميع (ما أنزل اليك من ربك) أى لا تكتم شيأ منه خوفا ان تنال بمكروه (وان لم تفعل) أى وان لم تبلغ جميع ما أنزل اليك (فما بلغت رسالته) أى لان كتمان بعضها ككتمان كلها أى ولان بعضها ليس بالاولى بالاداء من بعض فاذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان كتمت آية لم تبلغ رسالتى واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقيل نزلت فى عتب اليهود وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم دعاهم الى الاسلام فقالوا أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزؤن به ويقولون تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى عيسى حنانا فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ذلك نزلت هذه الآية وقيل نزلت فى الجهاد وذلك ان المنافقين كانوا يكرهونه فكان يمسك أحيانا عن حثهم على الجهاد وقيل لما نزلت آية التخيير وهى قوله تعالى يا أيها النبى قل لازواجك فلم يعرضها عليهن خوفا من اختيارهن الدنيا فنزلت وقيل غير ذلك وقرأ نافع وابن عامر وشعبة بألف بعد اللام وكسر التاء والباقون بغير ألف ونصب التاء (والله يعصمك من الناس) أى يحفظك ويمنعك منهم (فان قيل) أليس قد شج وجهه وكسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم وأوذى بضروب من الاذى (أجيب) بأن معناه يعصمك من القتل فلا يصلون الى قتلك وفى هذا تنبيه على أنه يجب عليه أن يحتمل كل ما دون النفس من أنواع البلايا فما أشد تكليف الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل نزلت هذه الآية بعد ما شج رأسه لان سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن وروى اسحق بن راهويه فى مسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال بعثنى الله برسالاته فضقت بها ذرعا فأوحى الله الى ان لم تبلغ رسالاتى عذبتك وضمن لى العصمة فقويت وعن أنس

رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة أدم فقال انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمنى الله من الناس قال البيضاوى وظاهر الآية يوجب تبليغ كل ما أنزل ولعل المراد بالتبليغ ما يتعلق به مصالح العباد وقصد بانزاله اطلاعهم عليه فان من الأسرار الالهية ما يحرم افشاؤه اه قال بعض العارفين ولهذا قال تعالى بلغ ما أنزل اليك ولم يقل ما تعرّفنا به اليك واعلم أن المراد من الناس ههنا الكفار بدليل قوله تعالى (ان الله لا يهدى القوم الكافرين) أى لا يمكنهم مما يريدون وروى انه عليه الصلاة والسلام نزل تحت شجرة فى بعض أسفاره وعلق سيفه عليها فأتاه أعرابى وهو نائم وأخذ سيفه واخترطه وقال من يمنعك منى يا محمد قال الله تعالى فرعدت يد الاعرابى وسقط من يده وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه (قل يا أهل الكتاب لستم على شئ) أى دين يعتدّ به حتى يسمى شيأ لفساده وبطلانه كما تقول هذا ليس بشئ تريد تحقيره وتصغير شأنه وفى أمثالهم أقل من لا شئ (حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم) أى بأن تعملوا بما فيها ومن اقامتها الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والاذعان لحكمه فان الكتب الالهية بأسرها آمرة بالايمان بمن صدقته المعجزة ناطقة بوجوب الطاعة له والمراد اقامة أصولها وما لم ينسخ من فروعها (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك) أى من القرآن (طغيانا وكفرا) لكفرهم به (فلا تأس) أى تحزن (على القوم الكافرين) ان لم يؤمنوا بك أى لا تهتم بهم فان ضرر ذلك لاحق بهم لا يتخطاهم وفى المؤمنين مندوحة عنهم لك (ان الذين آمنوا والذين هادوا) هم اليهود (والصابئون) فرقة منهم (والنصارى) وقد سبق تفسير هذه الآية فى سورة البقرة (فان قيل) بم رفع الصابئون وكان حقه والصابئين (أجيب) بأنه رفع على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخير عما فى خبر ان مع اسمها وخبرها كأنه قيل ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا والصابئون كذلك وأنشد سيبويه شاهدا له

والا فاعلموا أنا وأنتم * بغاة ما بقينا فى شقاق

والشاهد فى أنتم فانه مبتدأ حذف خبره والتقدير والا فانا بغاة وأنتم كذلك (فان قيل) ما فائدة هذا التقديم والتأخير (أجيب) بأن الصابئين أشد الغرب المذكورين فى هذه الآية ضلالا وما سموا صابئين الا لانهم صبؤا عن الاديان كلها أى خرجوا فكأنه قال هؤلاء الفرق الذين آمنوا وأتوا بالعمل الصالح قبل الله توبتهم حتى الصابئون فانهم ان آمنوا كانوا أيضا كذلك وقيل منصوب بالفتحة فكما جوز بالفتحة مع الياء فى بنين وسنين جوز مع الواو كما هنا وقوله تعالى (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) فى محل رفع بالابتداء وخبره (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فى الآخرة والفاء لتضمن المبتدا معنى الشرط والجملة خبر ان (فان قيل) كيف قيل الذين آمنوا من آمن (أجيب) بأن المراد بالذين آمنوا الذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون أو ان المراد بمن آمن من ثبت على الايمان واستقام ولم تخالجه ريبة فيه (لقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل) أى على الايمان بالله ورسوله (وأرسلنا اليهم رسلا) أى ولم نكتف بهذا العهد بل

أرسلنا رسلا ليذكروهم وليبينوا لهم أمر دينهم (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم) أى بما يخالف هواهم من الشرائع ومشاق التكاليف (فريقا) أى من الرسل (كذبوا) أى كذبهم بنو اسرائيل من غير قتل كعيسى (وفريقا) منهم (يقتلون) كزكريا ويحيى وانما جيء بيقتلون موضع قتلوا على حكاية الحال الماضية استحضارا لتلك الحالة الشنيعة للتعجب منها وتنبيها على ان ذلك ديدنهم ماضيا ومستقبلا ومحافظة على رؤس الآى (وحسبوا) أى ظن بنو اسرائيل (أن لا تكون) أى توجد (فتنة) أى لا يصيبهم بها عذاب فى الدنيا ولا فى الآخرة بل استخفوا بأمرها ولا تعجب أنتم من جراءتهم فى ادعائهم انهم أبناء الله وأحباؤه وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى برفع النون تنزيلا للحساب منزلة العلم فتكون مخففة من الثقيلة وأصله أنه لا تكون فتنة والباقون بالنصب على أن الحساب على بابه (فعموا) أى عن الحق فلم يبصروه وهذا العمى هو الذى لا عمى فى الحقيقة سواه وهو انطماس البصائر فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور (وصموا) عنه فلم يسمعوه أى عموا وصموا بعد موسى ويوشع عليهما السلام والصمم أضر من العمى فصاروا كمن لا يهتدى الى سبيل أصلا لانه لا يبصر له بعين ولا قلب ولا سمع (ثم تاب الله عليهم) ببعث عيسى بن مريم فرفعوه الى الحق (ثم عموا وصموا) كرة أخرى بالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (كثير منهم) بدل من الضمير (والله بصير بما يعملون) أى وان دق فيجازيهم به وفق أعمالهم (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم) وهم اليعقوبية منهم القائلون بالاتحاد (وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم) أى انى عبد مربوب مثلكم فاعبدوا خالقى وخالقكم (انه من يشرك بالله) أى يشرك فى العبادة غيره (فقد حرم الله عليه الجنة) أى منعه من دخولها منعا متحتما فانها دار الموحدين (ومأواه النار) أى محل سكناه فانها المعدة للمشركين (وما للظالمين من أنصار) أى وما لهم أحد ينصرهم من النار لا بفداء ولا بشفاعة ولا بغيرهما فوضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا على أنهم ظلموا بالاشراك وعدلوا عن طريق الحق وهو يحتمل أن يكون من كلام الله تعالى نبه على أنهم عدلوا عن سبيل الحق فيما تقولوا على عيسى عليه السلام فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم ورده وأنكره وان كانوا معظمين له بذلك ورافعين من مقداره وأن يكون من كلام عيسى عليه السلام على معنى ولا ينصركم أحد منى فيما تقولون ولا يساعدكم عليه لاستحالته وبعده عن العقول أو لا ينصركم ناصر فى الآخرة من عذاب الله (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) أى أحد ثلاثة وهو حكاية عما قاله النسطورية والملكانية وفيه اضمار معناه ثالث ثلاثة الآلهة لانهم يقولون الالهية مشتركة بين الله ومريم وعيسى وكل واحد من هؤلاء اله فهم ثلاثة آلهة بين هذا قوله تعالى للمسيح أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ومن قال ان الله تعالى ثالث ثلاثة بالعلم ولم يرد به الآلهة لم يكفر فان الله يقول ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم وقال النبى صلى الله عليه وسلم لابى بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ثم قال الله تعالى ردا عليهم (وما من اله الا اله واحد) أى وما فى الموجودات واجب مستحق للعبادة من حيث انه مبدأ جميع الموجودات الا اله واحد موصوف بالوحدانية متعال

عن

عن الشرك ومن مزيدة للاستغراق (وان لم ينتهوا) أى الكفرة بجميع أصنافهم (عما يقولون) أى من هاتين المقالتين وما داناهما (ليمسن) أى مباشرة من غير حائل (الذين كفروا) أى داوموا على الكفر (منهم عذاب أليم) أى مؤلم لم ينقطع عنهم لعدم توبتهم ولذلك عقبه بقوله تعالى (أفلا يتوبون) أى يرجعون بعد هذا الكفر الذى لا أوضح من بطلانه ولا أبين من فساده (الى الله ويستغفرونه) أى يطلبون منه غفران ما أقدموا عليه من تلك العقائد والاقوال الزائغة ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عن الاتحاد والحلول بعد هذا التقريع والتهديد (والله غفور) أى بالغ المغفرة يمحو الذنوب فلا يعاقب عليها ولا يعاتب (رحيم) أى بالغ الاكرام لمن أقبل عليه فيغفر لهم ويمحصهم من فضله ان تابوا وفى هذا الاستفهام تعجيب من اصرارهم (ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت) أى مضت (من قبله الرسل) أى ليس هو بأله كالرسل الذين مضوا لم يكونوا آلهة وما من خارقة له الا وقد كان مثلها أو أعجب منها لمن كان قبله فان كان قد أحيا الموتى على يده فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى على يد موسى وهو أعجب وان كان قد خلقه من غير أب فقد خلق آدم من غير أب وأم وهو أغرب (وأمه صديقة) أى بليغة الصدق فى نفسها كسائر النساء اللاتى يلازمن الصدق او يصدقن الانبياء كما قال تعالى فى وصفها وصدقت بكلمات ربها وهذه الآية من أدلة من قال ان مريم عليها السلام لم تكن نبية فانه تعالى ذكر أشرف صفاتها فى معرض الرد على من قال بالهيتهما اشارة الى ما هو الحق فى اعتقاد ما لهما من اعلى الصفات فان أعظم صفات عيسى عليه السلام الرسالة وأكمل صفات أمه عليها السلام الصديقية * (فائدة) * مريم من أزواج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى الجنة * ولما بين سبحانه وتعالى أقصى مالهما من الكمالات بين أن ذلك لا يوجب لهما الالوهية بقوله (كانا يأكلان الطعام) لان من احتاج الى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم لم يكن الا جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وأعصاب واخلاط وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من الاجسام فكيف يكون الها وخص الاكل بالذكر لانه أصل الحاجات والاله لا يكون محتاجا وقيل هذا كناية عن الحدث لان من أكل وشرب لابد له من البول والغائط ومن كانت هذه صفته كيف يكون الها * ثم لما أوضح الله تعالى لهم الادلة فى أمرهما حتى ظهر كالشمس بعدهما عما ادعوا فيهما اتبعه التعجب بقوله (انظر) متعجبا (كيف نبين لهم الآيات) على وحدانيتنا (ثم انظر أنى) أى كيف (يؤفكون) أى يصرفون عن الحق مع قيام البرهان (فان قيل) ما معنى التراخى فى قوله تعالى ثم انظر (أجيب) بأن معناه التفاوت بين العجبين أى أن بياننا للآيات عجب واعراضهم عنها أعجب (قل أتعبدون من دون الله) أى غيره يعنى عليه السلام (ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا) أى لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم الله تعالى به من البلايا والمصائب فى الانفس والاموال ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم الله به من صحة الابدان والسعة والخصب وكل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فباقدار الله تعالى وتمكينه وكأنه لا يملك شيأ وهذا دليل قاطع على ان أمر عيسى مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضرا ولا نفعا وصفة الرب تعالى أن يكون قادرا

على كل شئ لا يخرج مقدور عن قدرته تعالى (فان قيل) اذا كان المراد السيد عيسى فلم عبر بما دون من مع ان المراد من يعقل (أجيب) بأنه أتى بما نظرا الى ماهو عليه فى ذاته توطئة لنفى القدرة عنه رأسا وتنبيها على أنه من هذا الجنس ومن كان له حقيقة تقبل المجانسة والمشاركة فبمعزل عن الالوهية أو ان المراد كل ما عبد من دون الله تعالى سواء كان ممن يعقل أم لا (والله هو السميع) لاقوال الكم (العليم) بأحوال الكم فيجازى عليها ان خيرا فخير وان شرا فشر والاستفهام للانكار (قل يا أهل الكتاب) أى عامة (لا تغلوا) أى تجاوزوا الحد (فى دينكم) وقوله تعالى (غير الحق) صفة للمصدر أى لا تغلوا فى دينكم غلوا غير الحق أى غلوا باطلا لان الغلو فى الدين غلوان حق وهو أن يجتهد فى تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون وغلو باطل وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالاعراض عن الادلة فيرفعوا عيسى عليه السلام الى أن يدعوا له الالهية أو يضعوه ويرتابوا فيه وقيل الخطاب للنصارى خاصة (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل) فى غلوهم وهم أسلافهم الذين قد ضلوا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شريعتهم (وأضلوا كثيرا) أى من الناس بتماديهم فى الباطل من التثليث وغيره حتى ظن حقا (وضلوا) أى بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (عن سواء السبيل) أى طريق الحق وهو الاسلام والسواء فى الاصل الوسط والاهواء ههنا المذاهب التى تدعو اليها الشهوة دون الحجة قال أبو عبيدة لم يذكر الهوى الا فى موضع الشر لا يقال فلان يهوى الخير انما يقال يريد الخير ويحبه وقيل سمى الهوى هوى لانه يهوى بصاحبه الى النار وقال رجل لابن عباس الحمد لله الذى جعل هواى على هواك فقال كل هوى ضلالة (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود) أى لعنهم الله فى الزبور على لسان داود وان أهل ايلة لما اعتدوا فى السبت قال داود عليه السلام اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا قردة وخنازير وقوله تعالى (وعيسى بن مريم) عطف على داود أى لعنهم الله فى الانجيل على لسان عيسى بن مريم وهم أصحاب المائدة لما لم يؤمنوا قال عيسى عليه السلام اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبى قال بعض العلماء ان اليهود كانوا يفتخرون بانا من أولاد الانبياء فذكر الله تعالى هذه الآية ليدل على أنهم ملعونون على ألسنة الانبياء (ذلك) أى اللعن المذكور (بما) أى بسبب ما (عصوا وكانوا يعتدون) ثم فسر المعصية والاعتداء بقوله تعالى (كانوا لا يتناهون) أى لا ينهى بعضهم بعضا (عن منكر) أى معاودة منكر (فعلوه) أو عن مثل منكر أو عن منكر ارادوا فعله وتهيؤا له وانما قدر ما ذكر لان التناهى عن منكر قد مضى محال (لبئس ما كانوا يفعلون) أى يفعلونه والمخصوص بالذم محذوف أى فعلهم هذا قال بعض المفسرين فيا حسرتا على المسلمين فى اعراضهم عن باب التناهى عن المناكير وقلة عبثهم به كأنه ليس من ملة الاسلام فى شئ مع ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات فى هذا الباب (ترى كثيرا منهم) أى من أهل الكتاب (يتولون الذين كفروا) أى يوالون المشركين بغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين (لبئس ما قدمت لهم أنفسهم) من العمل لمعادهم (أن سخط الله عليهم) أى غضب عليهم (وفى العذاب هم خالدون) أى دائما

(ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي) محمد صلى الله عليه وسلم (وما أنزل اليه) من عند الله تعالى أعم من القرآن وغيره ايمانا خالصا من غير نفاق (ما اتخذوهم) أي المشركين (أولياء) اذ الايمان يمنع ذلك (ولكن كثيرا منهم فاسقون) أي خارجون عن الايمان وقيل معناه ولو كانوا يؤمنون بالله وموسى كما يدعون ما اتخذوا المشركين أولياء كما لم يوالهم المسلمون (لتجدن) يا محمد (أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) من أهل مكة لتضاعف كفرهم وجهلهم وانهماكهم في اتباع الهوى وفي جعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين دلالة على شدة عداوتهم لهم بل نبه على تقدم قدمهم فيها على الذين أشركوا وكذلك فعل في قوله تعالى ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا وعنه صلى الله عليه وسلم ما خلا يهوديان بمسلم الا هما بقتله (ولتجدن أقربهم) أي الناس (مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى) انما أسند تسميتهم نصارى اليهم دون تسمية اليهود لانهم الذين سموا أنفسهم نصارى حين قال لهم عيسى عليه السلام من أنصاري الى الله الآية ولانهم كانوا يسكنون قرية يقال لها ناصرة وكأنهم لم يكونوا ساكنين فيها وعلى التقديرين فتسميتهم نصارى ليست حقيقة بخلاف تسمية اليهود يهودا فانها حقيقة سواء سموا بذلك لكونهم أولاد يهودا بن يعقوب أو لكونهم تابوا عن عبادة العجل بقولهم انا هدنا اليك أو لتحركهم في دراستهم ثم علل سبحانه وتعالى سهولة مأخذ النصارى وقرب مودتهم للمؤمنين بقوله تعالى (ذلك بأن منهم قسيسين) أي علماء (ورهبانا) أي عبادا (وأنهم لا يستكبرون) عن اتباع الحق كما استكبر اليهود والمشركون من أهل مكة نزلت في وفد النجاشي القادمين من الحبشة لا في كل النصارى لانهم في عداوتهم للمسلمين كاليهود في قتلهم المسلمين وأسرهم وتخريب ديارهم وهدم مساجدهم وحرق مصاحفهم قال أهل التفسير ائتمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يؤذونهم ويعذبونهم فافتتن من افتتن وعصم الله تعالى منهم من شاء ومنع الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بعمه أبي طالب فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بأصحابه ولم يقدر على منعهم ولم يؤمر بعد بالجهاد أمرهم بالخروج الى أرض الحبشة وقال ان بها ملكا صالحا لا يظلم ولا يظلم عنده أحد فاخرجوا اليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجا وأراد به النجاشي واسمه أصحمة وهو بالعربية عطية وانما النجاشي اسم الملك كقولهم قيصر وكسرى فخرج اليه سرا احد عشر رجلا وأربع نسوة من جملتهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجوا الى البحر وأخذوا سفينة الى أرض الحبشة بنصف دينار وذلك في شهر رجب في السنة الخامسة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه الهجرة الاولى ثم خرج جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب وتتابع المسلمون اليهما فكان جميع من هاجر الى الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلا سوى النساء والصبيان فلما علمت قريش بذلك أرسلوا الى النجاشي بالهدايا ليردهم اليهم فعصمهم الله تعالى وانصرفوا خائبين وأقام المسلمون هناك بحسن دار وخير جوار الى أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلا دينه في سنة ست من الهجرة كتب

رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشي على يد عمرو بن أمية الضمري ليزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان وكانت قد هاجرت اليه مع زوجها فمات زوجها فأرسل النجاشي الى أم حبيبة جارية تخبرها بخطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستبشرت بذلك وأذنت لخالد بن سعيد أن يزوجها وكان الخاطب لرسول الله صلى الله عليه وسلم النجاشي فأنفذ اليها أربعمائة دينار وقالت أم حبيبة فخرجنا الى المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر فخرج من خرج اليه وأقمت بالمدينة حتى قدم ووافى جعفر بن أبي طالب وأصحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلا عليهم ثياب الصوف منهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشأم فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكوا وأسلموا وقالوا ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى قال تعالى (واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول) من القرآن (ترى أعينهم تفيض من الدمع) أي جعلت أعينهم من فرط البكا كأنها تفيض بأنفسها (مما عرفوا من الحق) من الاولى للابتداء والثانية لتبيين ما عرفوا من الحق أو التبعيض فانه بعض الحق والمعنى انهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم فكيف اذا عرفوه كله وقال ابن عباس يريد النجاشي وأصحابه رضي الله عنهم بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه فقرئ عليهم ثم دعا بجعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه وأحضر الرهبان والقسيسين وأمر جعفرا أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ عليهم كهيعص فمازالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة قالوا آمنا كما قال تعالى (يقولون ربنا آمنا) أي صدقنا نبيك وكتابك (فاكتبنا مع الشاهدين) أي أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يشهدون على الامم يوم القيامة دليله قوله تعالى لتكونوا شهداء على الناس واذا نظرت مكاتبات النبي صلى الله عليه وسلم ازددت بصيرة في صدق هذه الآية فانه ما كاتب نصرانيا الا آمن أو كان لينا ولو لم يسلم كهرقل والمقوقس وهوذة بن علي وغيرهم وغايتهم أنهم ضنوا بملكهم وأما غير النصارى فانهم كانوا على غاية في الفظاظة ككسرى فانه مزق كتابه صلى الله عليه وسلم ولم يجز رسوله بشئ قال البقاعي السر في ذلك انه لما كان عيسى عليه الصلاة والسلام أقرب الانبياء زمنا من زمن النبي صلى الله عليه وسلم كان المنتمون اليه ولو كانوا كفرة أقرب الامم مودة لاتباع النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا في جواب من عيرهم بالاسلام من اليهود (ومالنا لانؤمن بالله وما جاءنا من الحق) وهو القرآن لامانع لنا من الايمان مع وجود مقتضيه وقوله تعالى (ونطمع) معطوف على نؤمن (أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) أي المؤمنين الجنة (فأثابهم الله بما قالوا) أي جعل ثوابهم على هذا القول المسند الى خلوص النية الناشئ عن حسن الطوية (جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك) أي الجزاء العظيم (جزاء المحسنين) أي بالايمان (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) أي الذين لا ينفكون عنها الا غيرهم من عصاة المؤمنين وان كثرت كبائرهم وعطف التكذيب بآيات الله على الكفر وهو ضرب منه لان القصد الى بيان حال المكذبين وذكرهم في معرض المصدقين بهما جمعا بين الترغيب والترهيب (يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا) أي

لاتمنعوا أنفسكم بنذر أو يمين أو غير ذلك (طيبات) أى مستلذات (ما أحل الله لكم) كمنع التحريم أى لاتقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم فى العزم على تركها تزهدا منكم وتقشفا (ولاتعتدوا) حدود ما أحل الله لكم الى ماحرم عليكم (ان الله لايحب المعتدين) أى لايفعل فعل المحب من الاكرام للمفرطين فى الورع بحيث يحرمون ما أحلت ولا للمفرطين فيه الذين يحللون ماحرمت أن يفعلوا فعل المحرم من المنع وفعل الحلال من التناول فالآية ناهية عن تحريم ما أحل وتحليل ماحرم داعية الى القصد بينهما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف يوم القيامة لاصحابه فبالغ وأشبع فى الكلام فى الانذار فرق الناس وبكوا واجتمع عشرة من الصحابة رضى الله عنهم فى بيت عثمان بن مظعون وهم أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وأبوذر الغفارى وسالم مولى أبى حذيفة والمقداد بن الاسود وسلمان الفارسى ومعقل بن مقرن وعثمان بن مظعون رضى الله تعالى عنهم وتشاوروا واتفقوا على أن يترهبوا ويلبسوا المسوح ويرفضوا الدنيا ويجبوا مذاكيرهم ويصوموا الدهر ويقوموا الليل ولاينامواعلى الفراش ولايأكلوا اللحم والودك ولايقربوا النساء والطيب ويسيحوا فى الارض فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا قالوا بلى يارسول الله ما أردنا الا الخير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى لم أومر بذلك ثم قال ان لانفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فانى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتى النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى ثم جمع الناس وخطبهم وقال مابال أقوام يحرمون النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا أما انى لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا فانه ليس فى دينى ترك اللحم ولا النساء ولا اتخاذ الصوامع وان سياحة أمتى الصوم ورهبانيتهم الجهاد اعبدوا الله ولاتشركوا به شيأ وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم فانما هلك من كان قبلكم بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فأولئك بقاياهم فى الديارات والصوامع فأنزل الله تعالى هذه الآية فقالوا يارسول الله فكيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها وكانوا حلفوا على ماعليه اتفقوا فأنزل الله تعالى لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم الآية وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأكل الدجاج والفالوذ وكان يعجبه الحلواء والعسل وقال المؤمن حلو يحب الحلاوة وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ان رجلا قال له انى حرمت الفراش فتلا هذه الآية وقال نم على فراشك وكفر عن يمينك وعن الحسن أنه دعى الى طعام ومعه فرقد السنجى وأصحابه فقعدوا على المائدة وعليها الالوان من الدجاج والفالوذ وغير ذلك فاعتزل فرقد ناحية فسأل الحسن أهو صائم فقالوا لا ولكنه يكره هذه الالوان فقال يافريقد أترى لعاب النحل بلباب البر بخالص السمن يعيبه مسلم وعنه انه قيل له فلان لايأكل الفالوذ يقول لاأؤدى شكره قال أفيشرب الماء البارد قال نعم قال أنه جاهل ان نعمة الله عليه فى الماء البارد أكثر من نعمته عليه فى الفالوذ وعنه ان الله تعالى أدب عباده

فأحسن أدبهم قال تعالى لينفق ذو سعة من سعته ماعاب الله قوما وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوه ولا عذر قوما ذواهاعنهم فعصوه وروى أن عثمان بن مظعون أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ائذن لى فى الاختصاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس منا من خصى ولا من اختصى ان خصاء أمتى الصيام فقال يارسول الله ائذن لى بالسياحة فقال ان سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله قال يارسول الله ائذن لى فى الترهب قال ان ترهب أمتى الجلوس فى المساجد لانتظار الصلاة وروى ان رجلا قال يارسول الله انى أصبت من اللحم فانتشرت فأخذتنى شهوة فحرمت اللحم فانزل الله تعالى هذه الآية ولا تعارض بين الخبرين لان الشئ الواحد قد يكون له أسباب جمة بعضها أقرب من بعض وروى أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن التبتل نهيا شديدا وقال تزوجوا الولود الودود فانى مكاثر بكم الامم يوم القيامة (وكلوا مما رزقكم الله) ولما كان الرزق يقع على الحرام قيده بعد القيد بالتبعيض بقوله (حلالا طيبا) وهو مفعول كلوا ومما حال منه تقدمت عليه لانه نكرة وقوله تعالى (واتقوا الله) تأكيد للتوصية بما أمر الله به وزاده تأكيدا بقوله (الذى أنتم به مؤمنون) لان الايمان به يوجب التقوى فى الانتهاء الى ما أمر به وعمانهى عنه (لا يؤاخذكم الله باللغو) الكائن (فى أيمانكم) هو ما يبدو من المرء بلا قصد كقول الانسان لاوالله وبلى والله واليه ذهب الشافعى رحمه الله تعالى وقيل هو الحلف على مايظن أنه كذلك ولم يكن واليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم) أى وثقتم (الايمان) عليه بأن حلفتم عن قصد روى أن الحسن سئل عن لغو اليمين وكان عنده الفرزدق فقال يا أبا سعيد دعنى أجب عنك فقال

ولست بمأخوذ بلغو تقوله * اذا لم تعمد عاقدات العزائم

والمعنى ولكن يؤاخذكم الله بما عقدتم اذا حنثتم أو بنكث ما عقدتم فحذف التقدير بأحد الامرين للعلم به وقرأ ورش يواخذكم بابدال الهمزة واوا مفتوحة وقرأ ابن ذكوان عاقدتم بألف بعد العين وتخفيف القاف والباقون بغير ألف مع تشديد القاف (فكفارته) أى اليمين اذا حنثتم فيه التى تذهب اثمه وتزيل أثره بحيث تصيرون كأنكم ما حلفتم (اطعام عشرة مساكين) أى لكل مسكين مد عندنا ونصف صاع عند أبى حنيفة رحمه الله (من أوسط) أى أعدل (ما تطعمون أهليكم) من بر أو غيره لامن أعلاه ولا من أدناه (أو كسوتهم) بما يسمى كسوة كقميص وعمامة وازار وسراويل ومقنعة من صوف وقطن وكتان وحرير ولو لرجل وان لم يجز له لبسه لوقوع اسم الكسوة عليه رديئا كان أو جيدا ويجزئ لبد أو فروة اعتبر فى البلد لبسهما ولا يكفى دفع ماذكر لمسكين واحد وعليه الشافعى ولا يكفى المكعب والنعل والخف والقلنسوة والتبان وهو سراويل قصيرة لاتبلغ الركبة ونحو ذلك مما لا يسمى كسوة (أو تحرير رقبة) أى مؤمنة كما فى كفارتى القتل والظهار حملا للمطلق على المقيد وجوز أبو حنيفة عتق الكافرة فى كل كفارة الا القتل وخرج بالتخيير بين هذه الثلاثة أنه لا يجزئ أن يطعم خمسة ويكسو خمسة كما لا يجزئ اعتاق نصف رقبة واطعام خمسة (فمن لم يجد) أى بان عجز عن أحد ماذكر

(فصيام ثلاثة أيام) أى فكفارته صيام ثلاثة أيام ولا يجب تتابعها (فإن قيل) قرئ شاذاً متتابعات والقراءة الشاذة كخبر الواحد فى وجوب العمل كما أوجبنا قطع يد السارق اليمنى بالقراءة الشاذة فى قوله تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما ولأن من عادة الشافعى رحمه الله تعالى حمل المطلق على المقيد من جنسه وهو الظهار والقتل (أجيب) بأن آية اليمين نسخ فيها متتابعات تلاوة وحكماً فلا يستدل بها بخلاف آية السرقة فإنها نسخت تلاوة لا حكماً وبأن المطلق ههنا متردد بين أصلين يجب التتابع فى أحدهما وهو كفارة الظهار والقتل ولا يجب فى الآخر وهو قضاء رمضان فلم يكن أحد الأصلين فى التتابع بأولى من الآخر وبين تتابعها خروجاً من خلاف أبى حنيفة فإنه شرط تتابعها *(تنبيه)* المراد بالعجز أن لا يقدر على المال الذى يصرفه فى الكفارة كمن يجد كفايته وكفاية من تلزمه مؤنته فقط ولا يجد ما يفضل عن ذلك وضابط ذلك أن من جاز له أن يأخذ سهم الفقراء والمساكين من الزكاة والكفارات جاز له أن يكفر بالصوم لأنه فقير فى الأخذ فكذا فى الإعطاء (ذلك) أى المذكور (كفارة أيمانكم إذا حلفتم) أى وحنثتم (واحفظوا أيمانكم) أى من أن تنكثوها ما لم تكن من فعل بر أو إصلاح بين الناس كما مر فى سورة البقرة (كذلك) أى مثل ما بين لكم ما ذكر (يبين الله لكم آياته) أى أعلام شريعته (لعلكم تشكرون) أى يحصل منكم شكر بحفظ جميع الحدود والآمرة والناهية (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر) أى المسكر الذى خامر العقل سواء فيه كثيره وقليله (والميسر) أى القمار (والأنصاب) أى الأصنام (والأزلام) أى قداح الاستقسام (رجس) أى خبيث مستقذر وإنما وحد الخبر للنص على الخمر والإعلام بأن أخبار الثلاثة حذفت وقدرت لأنها أهل لأن يقال فى كل واحدة منها على حدتها كذلك ولا يكفى عنها خبر واحد على سبيل الجمع ثم زاد فى التنفير عنها تأكيداً لرجسيتها بقوله تعالى (من عمل الشيطان) الذى يزينه (فاجتنبوه) أى الرجس المعبر به عن هذه الأشياء أن تفعلوه (لعلكم تفلحون) أى تظفرون بجميع مطالبكم واعلم أنه سبحانه وتعالى أكد تحريم الخمر والميسر فى هذه الآية بأن صدر الجملة بإنما وقرنهما بالأصنام والأزلام وسماهما رجساً وجعلهما من عمل الشيطان تنبيهاً على أن الاشتغال بهما شر خالص أو غالب وأمر بالاجتناب عن عينهما وجعل الاجتناب سبباً يرجى منه الفلاح ثم قرر ذلك بأن بين ما فيهما من المفاسد الدينية والدنيوية المقتضية للتحريم بقوله تعالى (إنما يريد الشيطان) أى بتزيين الشرب والقمار لكم (أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر) أى إذا أتيتموهما لما يحصل فيهما من الشر والفتن أما العداوة فى الخمر فإن الشارب إذا سكر عربد كما فعل الأنصارى الذى شج رأس سعد بن أبى وقاص بلحى الجمل وأما العداوة فى الميسر فقال قتادة كان الرجل يقامر على الأهل والمال ثم يبقى حزيناً مسلوب الأهل والمال مغتاظاً على حرفائه (ويصدكم) بالاشتغال بهما (عن ذكر الله وعن الصلاة) وذلك لأن من اشتغل بشرب الخمر والقمار ألهاه ذلك عن ذكر الله وشوش عليه صلاته كما فعل بأضياف عبد الرحمن بن عوف تقدم رجل منهم يصلى بهم صلاة المغرب بعدما شربوا فقرأ قل يا أيها الكافرون أعبد بحذف لا وإنما

خصهما باعادة الذكر وشرح مافيهما من الوبال تنبيها على أنهما المقصودان بالبيان وذكر الانصاب والازلام للدلالة على أنهما مثلهما فى الحرمة والشرارة لقوله صلى الله عليه وسلم شارب الخمر كعابد الوثن رواه البزار ورواه ابن حبان بلفظ مدمن الخمر كعابد الوثن قال ويشبه أن يكون فيمن يستحلها وهو كذلك وخص الصلاة بالذكر للافراد بالتعظيم والاشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الايمان من حيث انها عماده والفارق بينه وبين الكفر ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتبا على ماتقدم من أنواع الصوارف بقوله تعالى (فهل أنتم منتهون) ايذانا بأن الامر فى المنع والتحذير بلغ الغاية وأن الاعذار قد انقطعت فلفظه الاستفهام ومعناه أمر كقوله تعالى فهل أنتم شاكرون (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) فيما أمراكم به من اجتناب ذلك (واحذروا) مخالفتهما فيما نهياكم عنه (فان توليتم) أى عن الطاعة (فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) أى فلا يضره توليكم فانما عليه الابلاغ المبين وقد أدى وانما ضررتم أنفسكم * ولما نزل تحريم الخمر قال الصحابة رضى الله عنهم يارسول الله فكيف باخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر نزل (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات) تصديقا لايمانهم (جناح) أى حرج (فيما طعموا) أى من مال الميسر وشربوا من الخمر قبل التحريم (اذا ما اتقوا) أى المحرمات (وآمنوا وعملوا الصالحات) أى ثبتوا على الايمان والاعمال الصالحة (ثم اتقوا) ماحرم عليهم بعد الخمر (وآمنوا) بتحريمه (ثم اتقوا) أى استمروا وثبتوا على اتقاء المعاصى (وأحسنوا) أى وتحروا الاعمال الجميلة واشتغلوا بها وأن التكرير باعتبار الاوقات الثلاثة الماضى والحال والاستقبال التى تقع فيها الافعال المذكورة وباعتبار الحالات الثلاث استعمال الانسان التقوى والايمان بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله عز وجل ولاجل استعمال الانسان التقوى بينه وبين الله ابدل الايمان بالاحسان فى الكرة الثالثة اشارة الى ماقاله عليه الصلاة والسلام فى تفسير الاحسان من قوله الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك أو باعتبار المراتب الثلاثة المبدا والوسط والمنتهى أو باعتبار مايتقى به فانه ينبغى أن يترك المحرمات توقيا من العقاب والشبهات تحرزا للنفس عن الوقوع فى الحرام وبعض المباحات صونا لها عن الخسة وتهذيبا لها عن دنس الطبيعة (والله يحب المحسنين) أى يثيبهم * ونزل عام الحديبية وكانوا محرمين ابتلاهم الله بالصيد فكانت الوحوش تغشى رحالهم فهموا بأخذها (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله) أى ليختبرنكم (بشئ) يرسله لكم (من الصيد) وانما بعض لانه ابتلاهم بصيد البر خاصة وفائدة الابتلاء اظهار المطيع من العاصى والا فلا حاجة به الى البلوى (تناله أيديكم) أى ما لا يقدر أن يفر من الصيد لصغر أو غيره (ورماحكم) أى مايقدر على الفرار لكبر أو غيره (ليعلم الله) أى علم ظهور فانه تعالى يعلم ماتخفى الصدور (من يخافه بالغيب) أى ليتميز من يخاف عقاب الله وهو غائب منتظر فى الآخرة فيجتنب الصيد والمعنى أنه سبحانه وتعالى يخرج بالامتحان ما كان من أفعال العباد فى عالم الغيب الى عالم الشهادة فيصير تعلق العلم به تعلقا شهوديا كما كان تعلقا غيبيا

ليقوم بذلك على الفاعل الحجة فى مجارى عاداتكم (فمن اعتدى) اى فاصطاد (بعد ذلك) أى الابتلاء بالصيد (فله عذاب أليم) أى مؤلم وان من لا يملك نفسه فى مثل ذلك ولا يراعى حكم الله فيه فكيف به فيما تكون فيه النفس أميل اليه وأحرص عليه (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) أى محرمون بنسك أو فى الحرم والنهى عما يؤكل لحمه لانه الغالب فيه عرفا وأما غير المأكول فيحل قتله فانه لاحظ للنفس فى قتله الا الاراحة من أذاه ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم خمس يقتلن فى الحل والحرم الحدأة والغراب والعقرب والفأرة والكلب وفى رواية أخرى الحية بدل العقرب مع ما فيه من التنبيه على جواز قتل كل مؤذ وانما ذكر القتل دون الذبح والذكاة للتعميم فان مذبوح المحرم ميتة (ومن قتله منكم متعمدا) أى قاصدا للصيد ذاكرا للاحرام ان كان محرما والحرم ان كان فيه عالما بالتحريم وذكر العمد ليس لتقييد وجوب الجزاء فان اتلاف العامد والمخطئ واحد فى ايجاب الضمان بل لقوله تعالى ومن عاد فينتقم الله منه ولان الآية نزلت فيمن تعمد اذ روى أنه عن لهم فى عمرة الحديبية حمار وحش فطعنه أبو قتادة برمحه فقتله فنزلت وعن الزهرى نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطا وعن سعيد ابن جبير لا أرى فى الخطا شيأ باشتراط العمد فى الآية وعن الحسن روايتان وقوله تعالى (فجزاء) منون فى قراءة عاصم وحمزة والكسائى وما بعده مرفوع أى فعليه جزاء هو (مثل ما قتل من النعم) أى شبهه فى الخلقة لا التساوى فى القيمة وقرأ الباقون بغير تنوين فى جزاء وخفض لام مثل (يحكم به) أى المثل رجلان (ذوا عدل منكم) أى لهما فطنة يميزان بها أشبه الاشياء به فيحكمان به وقد ذهب الى ايجاب المثل جماعة من الصحابة حكموا فى بلدان مختلفة بالمثل من النعم فحكم ابن عباس وعمر وعلى فى النعامة ببدنة وهى لا تساوى بدنة وعمر فى الضبع بكبش وهو لا يساوى كبشا وابن عباس وأبو عبيدة فى بقر الوحش وحماره ببقرة وابن عمر وابن عوف فى الظبى بشاة وحكم بها ابن عباس وعمر وغيرهما فى الحمام لانه يشبهها فى العب والحمام كل ما عب وهدر من الطير كالفواخت والقمرى والدبسى فدل ذلك على أنهم ينظرون الى ما يقرب من الصيد شبها من حيث الخلقة لا من حيث القيمة وقوله (هديا) حال من جزاء وقوله تعالى (بالغ الكعبة) أى يبلغ به الحرم فيذبح فيه ويتصدق به على مساكينه ولا يجوز أن يذبح حيث كان وهو نعت لما قبله وان أضيف الى معرفة لان اضافته لفظية لا تفيد تعريفا فان لم يكن للصيد مثل من النعم كالعصفور والجراد فعليه قيمته (أو) عليه (كفارة طعام مساكين) فى الحرم من غالب قوت البلد ما يساوى قيمة الجزاء لكل مسكين مد وقرأ نافع وابن عامر كفارة بغير تنوين وخفض ميم طعام والباقون بالتنوين ورفع ميم طعام أى هى طعام (أو) عليه (عدل) أى مثل (ذلك) أى الطعام (صياما) يصومه فى كل موضع يتيسر له عن كل مد يوما فأو للتخيير لانه الاصل فيها قال البقاعى والقول بأنها للترتيب يحتاج الى دليل وقوله تعالى (ليذوق وبال أمره) متعلق بمحذوف أى فعليه الجزاء أو الطعام أو الصوم ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الاحرام والوبال المكروه والضرر الذى يناله فى العاقبة من عمل سوء لثقله عليه من قوله تعالى فأخذناه أخذا وبيلا أى

ثقيلا والطعام الوبيل الذى يثقل على المعدة ولا يستمرئ (عفا الله عما سلف) أى من قتل الصيد قبل تحريمه فلا يؤاخذكم به (ومن عاد) الى تعمد شئ من ذلك بعد النهى وقوله تعالى (فينتقم الله منه) خبر مبتدا محذوف تقديره فهو ينتقم الله منه ولذلك دخلت الفاء ونحو ذلك قوله تعالى فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا أى ينتقم الله تعالى منه فى الآخرة واذا تكرر من المحرم قتل الصيد تعددت عليه الكفارة عند عامة العلماء وعن ابن عباس وشريح لا كفارة عليه تعلقا بظاهر الآية فانه لم يذكر الكفارة قالا لان الانتقام من العائد يمنع وجوب الكفارة (والله) الذى له صفات الكمال (عزيز) أى غالب على أمره (ذو انتقام) أى ممن أصر على عصيانه • ولما كان هذا عاما فى كل صيد بين تعالى أنه خاص بصيد البر فقال (أحل لكم) أيها الناس حلالا كنتم أو محرمين (صيد البحر) أى ما صيد منه وهو ما لا يعيش الا فى الماء كالسمك بخلاف ما يعيش فيه وفى البر عند الشافعى رحمه الله تعالى وذهب قوم الى أن جميع ما فى البحر حلال وظاهر الآية حجة له وعند أبى حنيفة رحمه الله تعالى لا يحل منه الا السمك وقوله تعالى (وطعامه) عطف على صيد البحر أى وأحل لكم طعام البحر وهو ما يقذفه من السمك ميتا قال صلى الله عليه وسلم فى البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته رواه أبو داود والترمذى وغيرهما وصححوه وقال قتادة صيده طريه وطعامه مالحه وقيل الضمير للصيد وطعامه أكله وعلى هذا فالصيد بمعنى الاصطياد والمعنى أحل لكم اصطياد الصيد وأكل المصيد من الانهار والبرك وغيرهما من جميع المياه كالبحر وقوله تعالى (متاعا) مفعول أى أحل (لكم) تمتيعا لكم تأكلونه طريا (وللسيارة) أى المسافرين منكم يتزودونه قديدا كما تزود موسى صلى الله عليه وسلم فى سيره الى الخضر الحوت (وحرم عليكم صيد البر) أى اصطياده وأكل ما صيد منه لكم وهو ما لا يعيش الا فيه وما يعيش فيه وفى البحر فان صيد الحلال حل للمحرم أكله لقوله صلى الله عليه وسلم لحم الصيد حلال لكم ما لم تصطادوه أو يصد لكم (ما دمتم حرما) أى محرمين وقد ذكر تعالى تحريم الصيد على المحرم فى ثلاث مواضع من هذه السورة قوله تعالى غير محلى الصيد وأنتم حرم الى قوله تعالى واذا حللتم فاصطادوا وقوله تعالى لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم وقوله تعالى وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما تشديدا على المحرم أنه لا يتعاطى ذلك وأكد ذلك بقوله تعالى (واتقوا الله) أى فى ذلك الاصطياد وغيره (الذى اليه تحشرون) فانه مجازيكم بأعمالكم (جعل الله الكعبة) أى صيرها وهى البيت كعبة لتكعبه أى تربعه وقال مجاهد سميت كعبة لترفعها والعرب تسمى كل بيت مرتفع كعبة وقال مقاتل سميت كعبة لانفرادها من البناء وقوله تعالى (البيت الحرام) أى المحترم عطف بيان على جهة المدح لا على جهة التوضيح كما تجىء الصفة كذلك (قياما للناس) أى يقوم به أمر دينهم بالحج أو العمرة اليه ودنياهم بأمن داخله وعدم التعرض له وجبى ثمرات كل شئ اليه قال الرازى والمراد ببعض الناس وهم العرب وانما حسن هذا المجاز لان أهل كل بلد اذا قالوا الناس فعلوا كذا وصنعوا كذا فهم لا يريدون الا أهل بلدتهم فلهذا السبب خوطبوا بهذا الخطاب على وفق عادتهم وقرأ ابن عامر قيما بغير ألف مصدر قام غير معل والباقون بالالف

(والشهر

(والشهر الحرام) أى الاشهر الحرم وهى ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم ورجب أى صير الاشهر الحرم قياما للناس يأمنون فيها من القتال (والهدى) أى الذى لم يقلد (والقلائد) أى الهدى الذى يقلد فيذبح ويقسم على الفقراء ومرّ الكلام عليه فى أول السورة (ذلك) أى الجعل المذكور وهو الاربعة الاشياء التى جعلها الله قياما للناس (لتعلموا أنّ الله يعلم مافى السموات ومافى الارض) فان شرع الاحكام لدفع المضار قبل وقوعها وجلب المنافع المترتبة عليها دليل على علمه بمافى الوجود وماهو كائن وقوله تعالى (وانّ الله بكل شئ عليم) تعميم بعد تخصيص ومبالغة بعد اطلاق وقوله تعالى (اعلموا أنّ الله شديد العقاب) فيه وعيد لاعدائه ممن انتهك محارمه وقوله تعالى (وانّ الله غفور) فيه وعد لاوليائه ممن حافظ عليها (رحيم) بهم وقوله تعالى (ما على الرسول الا البلاغ) فيه تشديد على ايجاب القيام بما أمر به وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة فلا عذر لكم فى التفريط (والله يعلم ماتبدون) أى تظهرون من العمل (وماتكتمون) أى تخفون منه فيجازيكم به وقوله تعالى (قل لايستوى الخبيث والطيب) حكم عام فى نفى المساواة عند الله تعالى بين الردىء من الاشخاص والاعمال والاموال وجيدها رغب به فى صالح العمل وحلال المال (ولو أعجبك كثرة الخبيث) اذ لاعبرة بالقلة والكثرة بل بالجودة والرداءة فانّ المحمود القليل خير من المذموم الكثير والخطاب لكل معتبر ولذلك قال تعالى (فاتقوا الله) أى فى ترك الخبيث وان كثر فى الحس لنقصه فى المعنى وآثروا الطيب وان قلّ فى الحس لكثرته فى المعنى (ياأولى الالباب) أى أصحاب العقول السليمة (لعلكم تفلحون) أى لتكونوا على رجاء من أن تفوزوا بجميع المطالب * ونزل لما أكثروا سؤاله صلى الله عليه وسلم (ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء ان تبد) أى تظهر (لكم تسؤكم) أى لما فيها من المشقة فقيل سبب نزولها ما فى الصحيحين عن أنس رضى الله تعالى عنه انهم لما سألوا النبىّ صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه المسئلة أى بالغوا فى السؤال فغضب وصعد المنبر وقال لاتسألونى اليوم عن شئ الا بينته لكم وشرع يكرر ذلك واذا رجل كان اذا لاحى الرجال يدعى لغير أبيه فقال يارسول الله من أبى فقال حذافة فقال عمر رضى الله تعالى عنه رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا نعوذ بالله من الفتن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مارأيت فى الخير والشر كاليوم قط انه قد صورت لى الجنة والنار حتى رأيتهما وراء الحائط فى آخره فنزلت هذه الآية وروى أنّ عمر رضى الله تعالى عنه قال يارسول الله انا حديث عهد بجاهلية اعف عنا يعف الله عنك فسكن غضبه وللبخارىّ فى التفسير عن أنس أيضا قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ماسمعت مثلها قط قال لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم حنين فقال رجل من أبى قال فلان فنزلت هذه الآية وللبخارى أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان قوم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء فيقول الرجل من أبى ويقول الرجل تضلّ ناقته أين ناقتى فأنزل الله فيهم هذه الآية وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه صلى الله

عليه وسلم كان يخطب ذات يوم وهو غضبان من كثرة ما يسألون عنه مما لا يعنيهم فقال صلى الله عليه وسلم لا أسأل عن شيء الا وأجيب فقال رجل أين أنا قال في النار وقال آخر من أبي قال حذافة وكان يدعى لغيره فنزلت هذه الآية وقيل غير ذلك ولا تعارض بين هذه الاخبار ولو تعذر ردها الى شيء واحد لما مرّ عند قوله تعالى لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم من أن الامر الواحد قد تتعدد أسبابه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية مع تحقيق الاولى والباقون بتحقيقهما ولما كان ربما وقع في وهم متعنت ان هذا الزجر انما هو لقصد راحة المسؤل عن السؤال خوفا من عواقبه قال تعالى (وان تسألوا عنها) أي تلك الاشياء التي تسوءكم عند ابدائها (حين ينزل القرآن تبد لكم) المعنى اذا سألتم عن أشياء في زمنه صلى الله عليه وسلم ينزل القرآن بابدائها ومتى أبداها ساءتكم فلا تسألوا روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى قد فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها ثم عفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي والباقون بفتح النون وتشديد الزاي وقوله تعالى (عفا الله عنها) استئناف أي عفا الله عما سلف من مسئلتكم فلا تعودوا الى مسئلتها أو صفة أخرى أي عن أشياء عفا الله عنها ولا يكلف بها روى انه لما نزل ولله على الناس حج البيت قال سراقة بن مالك أكل عام فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أعاد ثلاثا فقال لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما استطعتم فاتركوني ما تركتكم فانما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فاذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه (والله غفور) يمحو الزلات عينا وأثرا ويعقبها بالاكرام (حليم) لا يعجل على العاصي بالعقوبة وقوله تعالى (قد سألها قوم) الضمير فيه للمسئلة التي دل عليها لا تسألوا ولذلك لم يعد بعن أو الاشياء بحذف الجار وقوله تعالى (من قبلكم) قال البيضاوي متعلق بسألها وليس صفة لقوم فان ظرف الزمان لا يكون صفة لجثة ولا حالا منها ولا خبرا عنها اه قال أبو حيان هذا محله في ظرف الزمان المجرد من الوصف أما اذا لم يتجرد عنه فيصح أن يكون صفة للجثة أو حالا منها أو خبرا عنها وقبل وبعد وصفان في الاصل فاذا قلت جاء زيد قبل عمرو فالمعنى جاء في زمان قبل زمان مجيئه أي تقدم عليه ولذا صح وقوعه صلة للموصول ولو لم يلحظ فيه الوصف ولو كان ظرف زمان مجرد لم يجز أن يقع صلة قال تعالى والذين من قبلكم ولا يجوز والذين اليوم وممن سألها قبلهم ثمود سألوا صالحا الناقة وسأل قوم عيسى المائدة (ثم أصبحوا) أي صاروا (بها) أي بسببها (كافرين) حيث لم يأتمروا بما سألوا وجحدوا وقوله تعالى (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) ردّ وانكار لما ابتدعته أهل الجاهلية روى ان أهل الجاهلية كانوا اذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أي شقوها وتركوا الحمل عليها وركوبها ولم يجزوا وبرها ولم يمنعوها الماء والكلأ وقيل انهم كانوا ينظرون الى خامس ولدها فان كان ذكرا نحروه فأكله الرجال والنساء وان كان أنثى بحروا أذنها أي شقوها وتركوها وحرم على النساء لبنها ومنافعها وكانت منافعها خاصة للرجال واذا

ماتت

ماتت حلت للرجال والنساء وأما السائبة فكان الرجل منهم يقول ان شفيت أو ردّ غائبي فناقتي سائبة ثم يسيبها فلا تحبس عن مرعى ولا ماء ولا تركب ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها وقيل كانت الناقة اذا تابعت ثنتي عشرة سنة اناثا سيبت فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها الا ضيف فان نتجت بعد ذلك أنثى شق أذنها ثم يخلى سبيلها مع أمها في الابل فلم تركب ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها الا ضيف كما فعل بأمها فهي البحيرة بنت السائبة وأما الوصيلة ففي الغنم كانت اذا ولدت سبعة أبطن نظر فان كان السابع ذكرا ذبحوه فأكل منه الرجال والنساء وان كانت أنثى تركوها في الغنم وقيل اذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وان ولدت ذكرا فهو لآلهتهم فان ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم وكان ابن الانثى حراما على النساء فان مات منهما شئ أكله الرجال والنساء جميعا وأما الحام فهو الفحل اذا ركب ولد ولده ويقال اذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى واذا مات أكله الرجال والنساء وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لاكثم الخزاعي يا أكثم رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار فما رأيت من رجل أشبه برجل منك به ولا به منك وذلك انه أول من غير دين اسمعيل ونصب الاوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي ولقد رأيته في النار يؤذي أهل النار بريح قصبه فقال أكثم أيضرني شبهه يارسول الله قال لا انك مؤمن وهو كافر ومعنى ماجعل الله أي ماشرع ذلك ولا أمر بالتبحير ولا التسييب ولا غير ذلك (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب) في قولهم ان الله أمرنا بها (وأكثرهم لا يعقلون) أن ذلك افتراء لانهم قلدوا فيه آباءهم كما قال تعالى (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا) أي كافينا (ما وجدنا عليه آباءنا) اذ لا مستند لهم سوى ذلك قال الله تعالى (أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيأ ولا يهتدون) اى الى الحق والاستفهام للانكار أي أحسبهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا جهلة ضالين وقرأ هشام والكسائي قيل بضم القاف قبل الياء والباقون بالكسر (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) أي احفظوها والزموا اصلاحها (لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) أي لا يضركم الضال اذا كنتم مهتدين ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته كما قال عليه الصلاة والسلام من رأى منكرا واستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال يا أيها الناس انكم تقرؤن هذه الآية يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم الآية وتضعونها غير موضعها ولا تدرون ما هي واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الناس اذا رأوا المنكر فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعذابه وفي رواية لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم ليدعون الله خياركم فلا يستجاب لهم قال أبو عبيدة خاف الصديق رضي الله عنه أن يتأول الناس الآية غير متأولها فدعوهم الى ترك الامر بالمعروف فأعلمهم أنها ليست كذلك قال أبو ثعلبة الخشني سألت عن هذه الآية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بل ائتمروا بالمعروف

وتناهوا عن المنكر حتى اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذى رأى برأيه ورأيت الامر لا بدلك منه فعليك نفسك ودع أمر العامة وان وراءكم أيام الصبر فمن صبر فيهن قبض على الجمر وان وراءكم أياما للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله قال ابن المبارك وزادنى غيره قال يارسول الله أجر خمسين منهم قال أجر خمسين منكم وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذه الآية قرئت عنده فقال ان هذا ليس بزمانها انها اليوم مقبولة ولكن يوشك أن يأتى زمان تأمرون فلا يقبل منكم فحينئذ عليكم أنفسكم فهى على هذا تسلية لمن يأمر وينهى فلا يقبل منه وبسط لعذره وعنه ليس هذا زمان تأويلها قيل فمتى قال اذا حال دونها السيف والسوط والحبس وروى المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خيرا حرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وان أصابك شئ فلا تقل لو أنى فعلت كان كذا وكذا فان لو تفتح عمل الشيطان ولكن قل قدر الله وما شاء فعل وقيل كان الرجل اذا أسلم قالوا له سفهت آباءك ولاموه فنزلت عليكم أنفسكم وعليكم من أسماء الفعل بمعنى الزموا أنفسكم ولذلك نصب أنفسكم (الى الله مرجعكم جميعا) الضال والمهتدى (فينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازيكم به وفى ذلك وعد ووعيد للفريقين وتنبيه على أن أحدا لا يؤاخذ بذنب أحد غيره (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) أى فيما أمرتم شهادة بينكم فشهادة مبتدأ خبره محذوف قيل هذه الآية وما بعدها من أشكل آى القرآن حكما واعرابا وتفسيرا والمراد بالشهادة الاشهاد بالوصية وقيل المراد بها اليمين بمعنى يمين ما بينكم أن يحلف اثنان قال القرطبى ورد لفظ الشهادة فى القرآن على أنواع مختلفة بمعنى الحضور قال تعالى فمن شهد منكم الشهر فليصمه و بمعنى قضى قال تعالى شهد الله أنه لا اله الا هو وبمعنى أقر قال تعالى والملائكة يشهدون وبمعنى حكم قال تعالى وشهد شاهد من أهلها وبمعنى حلف قال تعالى فشهادة أحدهم أربع شهادات وبمعنى وصى قال تعالى يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم (اذا حضر أحدكم الموت) أى أسبابه (حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم) وهذا خبر بمعنى الامر أى ليشهد واضافة شهادة لبين على الاتساع وحين بدل من اذا أو ظرف لحضر واثنان فاعل شهادة أو خبر مبتدأ محذوف أى الشاهدان اثنان وقوله تعالى (أو آخران من غيركم) عطف على اثنان ومن فسر الغير بأهل الذمة جعله منسوخا فان شهادته على المسلم لا تسمع اجماعا وقد اتفق الاكثرون على انه لا نسخ فى سورة المائدة وعن مكحول نسخها قوله تعالى وأشهدوا ذوى عدل منكم وانما جازت فى أول الاسلام لقلة المسلمين وتعذر وجودهم فى حال السفر (ان أنتم ضربتم) أى سافرتم (فى الارض فأصابتكم مصيبة الموت) أى قاربتم الاجل وقوله تعالى (تحبسونهما) أى توقفونهما وتصبرونهما صفة لآخران (من بعد الصلاة) أى صلاة العصر لانه وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار وقيل اى صلاة كانت (فيقسمان) أى يحلفان (بالله) وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان اليمين انما تكون اذا كانا من غيرنا فان كانا مسلمين فلا يمين وعن غيره ان كان الشاهدان على حقيقتهما فقد نسخ تحليفهما وان كانا الوصيين

فلا ثم شرط لهذا الحلف شرطا فقال اعتراضا بين القسم والمقسم عليه (ان ارتبتم) أى شككتم فيما أخبرا به عن الواقعة ثم ذكر المقسم عليه بقوله (لا نشترى به ثمنا) أى بهذا الذى ذكرناه ثمنا أى لم نذكره ليحصل لنا به غرض دنيوى وان كان فى نهاية الجلالة وليس قصدنا به الا اقامة الحق (ولو كان) أى المقسم له (ذا قربى) أى لنا (ولا نكتم شهادة الله) أى التى أمرنا باقامتها (انا اذا) أى اذا كتمناها (لمن الآثمين فان عثر) أى اطلع بعد حلفهما (على أنهما استحقا اثما) أى فعلا ما يوجبه من خيانة أو كذب فى الشهادة بان وجد عندهما مثلا ما اتهما به وادعيا أنهما ابتاعاه من الميت أو وصى لهما به (فآخران) أى فشاهدان آخران (يقومان مقامهما) أى فى توجيه اليمين عليهما (من الذين استحق عليهم) الوصية وهم الورثة على قراءة غير حفص بضم التاء وكسر الحاء على البناء للمفعول وعلى البناء للفاعل فهو الاوليان و يبدل من آخران (الاوليان) بالميت أى الاقربان اليه وقرأ حمزة وشعبة بتشديد الواو وكسر اللام وبسكون الياء وفتح النون على الجمع على أنه صفة للذين أو بدل منه أى من الاولين الذين استحق عليهم والباقون بسكون الواو وفتح اللام والياء وألف بعد الياء وكسر النون على التثنية على انه بدل من آخران كما مر أو خبر محذوف أى هما الاوليان (فيقسمان) اى هذان الآخران (بالله) ويقولان (لشهادتنا) أى يميننا (أحق) أى أصدق (من شهادتهما) أى يمينهما (وما اعتدينا) أى تجاوزنا الحق فى اليمين (انا اذا) أى اذا وقع منا اعتداء (لمن الظالمين) أى الواضعين الشئ فى غير موضعه ومعنى الآيتين أن المحتضر اذا أراد الوصية ينبغى أن يشهد عدلين من ذوى نسبه أو دينه على وصيته أو يوصى اليهما احتياطا فان لم يجدهما بان كان فى سفر فآخران من غيرهم ثم ان وقع نزاع وارتياب أقسما على صدق ما يقولان بالتغليظ فى الوقت فان اطلع على انهما كذبا بامارة أو مظنة حلف آخران من أولياء الميت والحكم منسوخ ان كان الاثنان شاهدين فان الشاهد لا يحلف ولا تعارض يمينه يمين الوارث وثابت ان كانا وصيين ورد اليمين الى الورثة اما لظهور خيانة الوصيين فان تصديق الوصى باليمين لامانته أو لتغيير الدعوى وتخصيص الحلف فى الآية باثنين من أقرب الورثة لخصوص الواقعة التى نزلت لها وهى ما روى أن رجلا من بنى سهم خرج مع تميم الدارى وعدى ابن زيد الى الشام للتجارة وكانا حينئذ نصرانيين ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلما فلما قدموا الشام مرض بديل فدون ما معه فى صحيفة وطرحها فى متاعه ولم يخبرهما بها وأوصى اليهما بأن يدفعا متاعه الى أهله ومات ففتشاه وأخذا منه اناء من فضة فيه ثلثمائة مثقال منقوشا بالذهب ثم قضيا حاجتهما وانصرفا الى المدينة ودفعا المتاع الى أهل الميت ففتشوا فأصابوا الصحيفة فيها تسمية ما كان معه فجاؤا تميما وعديا فقالوا هل باع صاحبنا شيأ قالا لا قالوا هل اتجر تجارة قالا لا قالوا فهل طال مرضه فأنفق على نفسه قالا لا قالوا فانا وجدنا فى متاعه صحيفة فيها تسمية ما معه وانا فقدنا منها اناء من فضة مموها بالذهب ثلثمائة مثقال من فضة قالا ما ندرى انما أوصى لنا بشئ وأمرنا أن ندفعه لكم فدفعناه وما لنا علم بالاناء فاختصموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجترآ على الانكار وحلفا فأنزل تعالى الله يا أيها الذين آمنوا الآية فلما نزلت هذه

وعدى بن زيد هكذا فى بعض النسخ كما فى البيضاوى والكشاف وفى نسخة ابن بداء كما فى حاشية العلامة الجمل وعبارته وعدى ابن بداء بفتح الموحدة وتشديد الدال المهملة ممدود مصروف اه

الآية صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العصر ودعا تميما وعديا فاستحلفهما عند المنبر بالله الذى لا اله الا هو انهما لم يختانا شيأ مما دفع اليهما فحلفا على ذلك وخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيلهما ثم وجد الاناء فى أيديهما فبلغ ذلك بنى سهم فأتوهما فى ذلك فقالا انا كنا قد اشتريناه منه فقالوا ألم تزعما ان صاحبنا لم يبع شيأ من متاعه قالا لم يكن عندنا بينة وكرهنا أن نقر لكم فكتمنا لذلك فرفعوهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فان عثر فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبى رفاعة السهميان وحلفا وتقدم ان تخصيص الحلف فى الآية باثنين من أقرب الورثة لخصوص الواقعة التى نزلت لها (ذلك) أى الحكم المذكور من رد اليمين على الورثة (أدنى) أى أقرب (أن) أى الى أن (يأتوا) أى الذين شهدوا أولا (بالشهادة) أى الواقعة فى نفس الامر (على وجهها) أى الذى تحملوها عليه من غير تحريف ولا خيانة (أو) أقرب الى أن (يخافوا أن ترد أيمان بعد ايمانهم) أى على الورثة المدعين فيحلفون على خيانتهم وكذبهم فيفتضحون ويغرمون فلا يكذبوا وانما جمع الضمير لانه حكم يعم الشهود كلهم (واتقوا الله) بترك الخيانة والكذب (واسمعوا) ما تؤمرون به سماع قبول (والله لا يهدى القوم الفاسقين) أى الخارجين من طاعته لا يهديهم الى حجة او الى طريق الجنة * وقوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل) أى يوم القيامة منصوب باضمار اذكر وقيل بدل من مفعول واتقوا بدل اشتمال (فيقول) لهم توبيخا لقومهم كما أن سؤال الموؤدة لتوبيخ الوائد (ماذا) أى الذى (أجبتم) به حين دعوتم الى التوحيد (قالوا لا علم لنا) أى لا علم لنا بما أنت تعلمه (انك أنت علام الغيوب) فتعلم ما أجابونا وأظهروا لنا وما لم نعلم مما أضمروا فى قلوبهم وقوله تعالى (اذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك) أى اشكرها منصوب باضمار اذكر وقيل بدل من يوم يجمع وهو على طريقة ونادى أصحاب الجنة والمعنى أنه تعالى يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن اجابتهم وتعديد ما أظهروا عليهم من الآيات فكذبتهم طائفة وسموهم سحرة وغلا آخرون فاتخذوهم آلهة وقوله تعالى (اذ أيدتك) أى قويتك ظرف لنعمتى أو حال منه (بروح القدس) أى جبريل عليه السلام فكان له فى الصغر حفظ لم يكن لغيره وقوله تعالى (تكلم الناس) حال من الكاف فى أيدتك (فى المهد) أى طفلا (وكهلا) أى تكلمهم فى الطفولية والكهولة على السواء والمعنى الحاق حاله فى الطفولية بحال الكهول فى كمال العقل والتكلم به وبه استدل على انه ينزل قبل الساعة لانه رفع قبل الكهولة كما سبق فى آل عمران (واذ علمتك الكتاب) أى الخط الذى هو مبدأ العلم (والحكمة) أى الفهم لحقائق الاشياء والعمل بما يدعو اليه العلم (والتوراة) أى المنزلة على موسى صلى الله عليه وسلم (والانجيل) أى المنزل عليك (واذ تخلق من الطين) أى هذا الجنس (كهيئة) أى كصورة (الطير) والكاف اسم بمعنى مثل مفعول (باذنى) أى بأمرى (فتنفخ فيها) أى فى الصورة المهيأة (فتكون) تلك الصورة التى هيأتها (طيرا باذنى) اى بارادتى وقرأ نافع بالمد بعد الطاء وبعد الالف همزة مكسورة وورش برقق الراء على أصله والباقون بياء ساكنة بعد الطاء (وتبرئ الاكمه والابرص باذنى) وسبق تفسيرهما فى سورة آل

عمران

عمران (واذ تخرج الموتى) أى من قبورهم احياء (باذنى واذ كففت بنى اسرائيل) أى اليهود (عنك) أى حين هموا بقتلك وقوله تعالى (اذ جئتهم) ظرف لكففت (بالبينات) أى المعجزات (فقال الذين كفروا منهم ان) أى ما (هذا) الذى جئت به (الا سحر مبين) أى بين ظاهر وقرأ حمزة والكسائى بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء اشارة الى عيسى عليه السلام والباقون بكسر السين وسكون الحاء ولا ألف بعدها اشارة الى ما جاء به (واذ أوحيت) أى بالالهام باطنا وبايصال الاوامر على لسانك ظاهرا (الى الحواريين) أى الانصار (أن) أى بان (آمنوا بى وبرسولى) عيسى صلى الله عليه وسلم (قالوا آمنا) بهما (واشهد بأننا مسلمون) أى منقادون أتم انقياد وقوله تعالى (اذ قال الحواريون) منصوب باذكر وقيل ظرف لقالوا فيكون تنبيها على أن ادعاءهم الاخلاص مع قولهم (يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك) قرأ الكسائى بالتاء على الخطاب وادغام لام هل فيها على أصله وفتح الباء الموحدة من ربك أى هل تستطيع ربك أى سؤال ربك والمعنى هل تسأل ذلك من غير صارف وقرأ الباقون بالياء على الغيبة ورفع الباء أى يجيبك ربك اذا سألته (أن ينزل علينا مائدة) وهى الطعام ويقال أيضا للخوان اذا كان عليه الطعام والخوان شئ يوضع عليه الطعام للاكل هو فى العموم بمنزلة السفرة لما يوضع فيه طعام المسافر بالخصوص وقال أهل الكوفة سميت مائدة لانها تميد بالآكلين أى تميل وقال أهل البصرة فاعلة بمعنى مفعولة أى تميد أيدى الآكلين اليها كقولهم عيشة راضية أى مرضية وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى وقولهم (من السماء) أى لاصنع للآدميين فيها تختص بها عن تقدمنا من الامم لم يكن بعد عن تحقيق واستحكام معرفة (قال) عيسى عليه الصلاة والسلام مجيبا لهم (اتقوا الله) أن تسألوا شيأ لم تسأله الامم من قبلكم (ان كنتم مؤمنين) بكمال قدرته تعالى وصحة نبوتى أو صدقتكم فى ادعائكم الايمان فنهاهم عن اقتراح الآيات بعد الايمان (قالوا نريد) أى بسؤالنا من أجل (أن نأكل منها) تبركا لا أكل حاجة وقولهم (وتطمئن) أى تسكن (قلوبنا) بانضمام علم المشاهدة الى علم الاستدلال بكمال قدرته بيان لما دعاهم الى السؤال وتمهيد عذرهم وقولهم (ونعلم) أى نزداد علما (أن) مخففة أى انك (قد صدقتنا) فى ادعاء النبوة وان الله يجيب دعوتنا وقيل ان عيسى عليه السلام أمرهم أن يصوموا ثلاثين يوما فاذا أفطروا لا يسألون الله شيأ الا أعطاهم ففعلوا وسألوا المائدة وقالوا ونعلم ان قد صدقتنا فى قولك أنا اذا صمنا ثلاثين يوما لا نسأل الله تعالى شيأ الا أعطانا (ونكون عليها من الشاهدين) اذا استشهدتنا أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر (قال عيسى بن مريم) لما رأى أن لهم غرضا صحيحا فى ذلك وأنهم لا يقلعون عنه فأراد الزامهم الحجة بكمالها (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة) وحقق موضع الانزال بقوله (من السماء تكون) هى أو يوم نزولها (لنا عيدا) نعظمه ونشرفه وقال سفيان نصلى فيه وروى أنها نزلت يوم الاحد فلذلك اتخذه النصارى عيدا وقيل ان عيسى عليه السلام اغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين وطأطأ رأسه وغض بصره وبكى ثم قال اللهم ربنا الخ وقيل العيد السرور العائد ولذلك سمى

يوم العيد عيدا وقوله (لأولنا وآخرنا) بدل من لنا باعادة العامل أى عيدا لأهل زماننا ولمن جاء بعدنا وقال ابن عباس يأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم وقوله (وآية) عطف على عيدا وقوله (منك) صفة لها أى آية كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتى (وارزقنا) المائدة والشكر عليها (وأنت خير الرازقين) أى من يرزق لانه تعالى خالق الرزق ومعطيه بلا عوض (قال الله) تبارك وتعالى مجيبا لعيسى عليه السلام (انى منزلها عليكم) أى المائدة وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح النون وتشديد الزاى والباقون بسكون النون وتخفيف الزاى (فمن يكفر بعد) أى بعد نزولها (منكم فانى أعذبه عذابا) أى تعذيبا أو مفعولا به على السعة والضمير فى (لا أعذبه) للمصدر ولو أريد بالعذاب ما يعذب به لم يكن بد من الباء (أحدا من العالمين) أى عالمى زمانهم أو العالمين مطلقا فانهم مسخوا قردة وخنازير ولم يعذب بمثل ذلك غيرهم قال عبد الله بن عمران أشد الناس عذابا يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وقوم فرعون واختلف العلماء هل نزلت المائدة أولا فقال مجاهد والحسن لم تنزل فان الله تعالى لما أوعدهم على كفرهم بعد نزول المائدة خافوا أن يكفر بعضهم فاستغفروا وقالوا لا نريدها فلم تنزل وقوله تعالى انى منزلها عليكم أى ان سألتم والصحيح الذى عليه الاكثرون أنها نزلت لقوله تعالى انى منزلها عليكم ولتواتر الاخبار فى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلفوا فى صفتها فقال عطاء بن أبى رباح عن سلمان الفارسى لما سأل الحواريون المائدة لبس عيسى عليه السلام صوفا وبكى وقال اللهم ربنا أنزل علينا مائدة الآية فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون اليها وهى منقضة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال اللهم اجعلنى من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة فقام فتوضأ وصلى وكشف المنديل وقال بسم الله خير الرازقين فاذا سمكة مشوية بلا فلوس أى بلا قشر كالفلوس ولا شوك تسيل دهنا وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث واذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثانى عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون الصفار وهو رأس الحواريين يا روح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة فقال ليس شيأ مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ولكنه شئ اخترعه الله تعالى بقدرته كلوا مما سألتم واشكروا يمددكم ويزدكم من فضله فقال يا روح الله كن أول من يأكل منها فقال معاذ الله أن آكل منها ولكن يأكل منها من سألها فخافوا أن يأكلوا منها فدعا أهل الفاقة والمرض وأهل البرص والجذام والمقعدين وقال كلوا من رزق الله لكم الهناء ولغيركم البلاء فأكلوا وصدروا عنها وهم ألف وثلثمائة رجل وامرأة من فقير وزمن ومريض ومبتلى كلهم شبعان والسمكة كهيئتها حين نزلت ثم طارت المائدة صعودا وهم ينظرون اليها حتى توارت فلم يأكل منها زمن ولا مريض ولا مبتلى الا عوفى ولا فقير الا استغنى وندم من لم يأكل فلبثت أربعين صباحا تنزل ضحا فاذا نزلت اجتمعت الاغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء

ولا تزال منصوبة يؤكل منها حتى اذا فاء الفيء أي زالت الشمس طارت وهم ينظرون في ظلها حتى توارت عنهم وكانت تنزل غبا تنزل يوما ولا تنزل يوما كناقة ثمود وقال قتادة كانت تنزل عليهم بكرة وعشيا حيث كانوا كالمن والسلوى لبني اسرائيل وقال وهب بن منبه أنزل الله تعالى أقراصا من شعير وحيتانا فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ويجيء آخرون فيأكلون حتى أكلوا جميعهم وقال عطية العوفي نزلت من السماء سمكة فيها طعم كل شيء وقال الكلبي كان عليها خبز أرز وبقل وقال قتادة كان عليها ثمر من ثمار الجنة وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس أنزل على المائدة كل شيء الا الخبز واللحم وقال كعب الاحبار نزلت منكسة تطير بها الملائكة بين السماء والارض عليها كل الطعام ويمكن الجمع بين هذه الروايات بأنها كانت تنزل تارة كذا وتارة كذا وقيل لما نزلت قالوا يا رسول الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى فقال يا سمكة احيي باذن الله تعالى فاضطربت ثم قال لها عودي كما كنت فعادت مشوية ثم طارت المائدة ثم عصوا بعدها فمسخوا فمسخ منهم ثلثمائة وثلاثون رجلا من ليلتهم على فراشهم مع نسائهم فأصبحوا خنازير يسعون في الطرقات والكناسات يأكلون العذرة في الحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا الى عيسى وبكوا فلما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطوف بعيسى وجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم فيشيرون برؤسهم ويبكون ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا وفي حديث أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما فأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا وادخروا ومسخوا قردة وخنازير (و) اذكر (اذ قال الله) أي يقول لعيسى في القيامة توبيخا لقومه واعبر بالماضي لتحقق وقوعه كقوله تعالى أتى أمر الله (يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله) أي غيره وقال السدي قال الله هذا القول لعيسى حين رفعه الى السماء لان حرف اذ يكون للماضي وسائر المفسرين على الاول وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية وأدخل ألفا بينهما قالون وأبو عمرو وورش وابن كثير لم يدخلا ألفا بينهما والباقون بتحقيق الهمزتين ولا ألف بينهما وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص أمي بفتح الياء والباقون بالسكون (فان قيل) ما وجه هذا السؤال مع علم الله عز وجل أن عيسى عليه السلام لم يقله (أجيب) بأنه ذكر لتوبيخ قومه كما مر ولتعظيم أمر هذه المقالة كما يقول القائل لآخر أفعلت كذا وكذا فيما يعلم أنه لم يفعله اعلاما واستعظاما لا استخبارا واستفهاما وأيضا أراد الله عز وجل أن يقر عيسى على نفسه بالعبودية فيسمع قومه ويظهر كذبهم عليه أنه أمرهم بذلك قال أبو روق اذا سمع عيسى عليه السلام هذا الخطاب ارتعدت فرائصه ومفاصله وانفجرت من أصل كل شعرة من جسده عين من دم ثم (قال) وهو يرعد مجيبا الله (سبحانك) أي أنزهك عن أن يكون لك شريك (ما يكون) اى ما ينبغي (لي أن أقول ما ليس لي بحق) خبر ليس ولي للتبيين وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو لي الاولى بفتح الياء والباقون بالسكون (ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما) أخفيه (في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) أي ما أخفيته عني من الاشياء وقوله في نفسك للمشاكلة وقيل المراد بالنفس الذات وقوله

(انك انت علام الغيوب) تقرير لجملتي تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك باعتبار منطوق انك أنت علام الغيوب ومفهومه لانه يدل بمنطوقه على أنه تعالى لا يعلم الغيب غيره فيكون تقريرا لقوله تعالى ولا أعلم ما في نفسك وقرأ حمزة وشعبة بكسر الغين والباقون بالضم (ما قلت لهم الا ما أمرتني به) وهو (أن اعبدوا الله ربي وربكم) أي فانا واياهم في العبودية سواء (وكنت عليهم شهيدا) أي رقيبا أمنعهم مما يقولون (ما دمت فيهم فلما توفيتني) بالرفع الى السماء لقوله تعالى اني متوفيك ورافعك الي والتوفي أخذ الشيء وافيا والموت نوع منه قال الله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها (كنت أنت الرقيب) أي الحفيظ (عليهم) أي لاعمالهم (وأنت على كل شيء) من قولي وقولهم وغير ذلك (شهيد) أي مطلع عالم به (ان تعذبهم) أي من أقام على الكفر منهم (فانهم عبادك) وأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك (وان تغفر لهم) أي لمن آمن منهم (فانك أنت العزيز) أي الغالب على أمره (الحكيم) في صنعه فان عذبت فعدل وان عفوت ففضل (قال الله) تعالى (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) أي في الدنيا كعيسى فان النافع ما كان حال التكليف لا صدقهم في الآخرة وقرأ نافع بنصب الميم على انه ظرف لقال وخبر هذا محذوف والمعنى هذا الذي من كلام عيسى عليه السلام واقع يوم ينفع والباقون بالرفع على الخبر وقيل أراد بالصادقين النبيين وقال الكلبي ينفع المؤمنين ايمانهم وقال قتادة متكلمان يخطبان يوم القيامة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو ما قص الله تعالى وعدو الله ابليس وهو قوله تعالى وقال الشيطان لما قضي الامر فصدق عدو الله يومئذ وكان كاذبا فلم ينفعه صدقه قال ولما كان عيسى صادقا في الدنيا والآخرة نفعه صدقه * ثم بين تعالى ثوابهم فقال (لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها) وأكد معنى ذلك بقوله تعالى (أبدا) ولما كان ذلك لا يتم الا برضا الله تعالى قال (رضي الله عنهم) بطاعته (ورضوا عنه) بثوابه (ذلك) أي هذا الامر العلي لا غيره (الفوز العظيم) وأما الكاذبون في الدنيا فلا ينفعهم صدقهم في ذلك اليوم كالكفار لما يؤمنون عند رؤية العذاب (لله ملك السموات والارض) أي خزائن المطر والنبات والرزق وغيرها (وما فيهن) من انس وجن وملك وغيرهم ملكا وخلقا وأتى بما دون من تغليبا لغير العاقل (وهو على كل شيء قدير) ومنه اثابة الصادق وتعذيب الكاذب قال السيوطي وخص العقل ذاته فليس عليها بقادر وقول البيضاوي عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المائدة أعطي من الاجر عشر حسنات ومحي عنه عشر سيآت ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودي ونصراني يتنفس في الدنيا حديث موضوع

(سورة الانعام مكية)

روي أنها نزلت بمكة جملة واحدة ليلا ونزل معها سبعون ألف ملك قد سدوا ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتمجيد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان ربي العظيم وخر

ساجدا

ساجدا والزجل بفتح الزاى والجيم القوة قال البغوى وروى مرفوعا من قرأ سورة الانعام يصلى عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره وقال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما نزلت سورة الانعام بمكة الا قوله تعالى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الى قوله تعالى لعلكم تتقون فهذه الست آيات مدنيات ويروى أنه صلى الله عليه وسلم دعا بالكتاب فكتبوها من ليلتهم الا الست ايات قال بعض العلماء واختصت هذه السورة بنوعين من الفضيلة أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة والثانى انها شيعها سبعون ألفا من الملائكة والسبب فيه أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وابطال مذاهب المبطلين والملحدين وهى مائة وخمسة وستون آية وعدد كلماتها ثلاثة آلاف واثنان وخمسون كلمة وعدد حروفها اثنا عشر ألفا وأربعمائة واثنان وعشرون حرفا (بسم الله) الذى تعالت عظمته عن كل شائبة نقص فكان له كل كمال (الرحمن) الذى عمت نعمته المحسن والمسيء فغمر الكل بالنوال (الرحيم) الذى خص أولياءه باتمام النعمة فهداهم بنعمة الايصال (الحمد) هو الوصف بالجميل ثابت (لله) وهل المراد الاعلام بذلك للايمان به أو الثناء به أو هما احتمالات قال الجلال المحلى فى سورة الكهف أفيدها الثالث وتقدم الكلام على الحمد لغة واصطلاحا فى أول الفاتحة وقال كعب الاحبار هذه الآية أول آية فى التوراة وآخر آية فى التوراة وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا الى آخر الآية وفى رواية ان آخر آية فى التوراة آخر سورة هود وقال ابن عباس رضى الله عنهما افتتح الله الخلق بالحمد فقال الحمد لله (الذى خلق السموات والارض) وختم بالحمد فقال تعالى وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين وقال أهل المعانى لفظ الحمد لله خبر ومعناه الامر أى احمدوا الله وانما جاء على صيغة الخبر وفيه معنى الامر لانه أبلغ فى البيان من حيث انه جمع الامرين ولو قيل احمدوا الله لم يجمع الامرين فكان قوله الحمد لله أبلغ وانما خص السموات والارض بالذكر لانهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد لان السماء بغير عمد ترونها فيها العبر والمنافع والارض مسكن الخلائق وفيها أيضا العبر والمنافع وجمع السموات دون الارض وهى مثلهن لان طبقاتها مختلفة الذات متفاوتة الآثار والحركات بالكواكب فى سيرها وحركاتها فى السرعة والبطء واستتار بعضها ببعض عند الخسوف وغيره وغير ذلك مما هو محرر عند أهله وقدمها لشرفها قدرا وعظما وان كانت الارض أشرف من حيث انها مسكن الانبياء (وجعل) أى خلق (الظلمات والنور) أى كل ظلمة ونور وجمعها دونه لكثرة أسبابها والاجرام الحاملة لها اذ ما من جرم الا وله ظل وظلمة بخلاف النور فانه من جنس واحد وهو النار ولا ترد الاجرام المنيرة كالكواكب لان مرجع كل نير الى النار على ما قيل ان الكواكب أجرام نورانية نارية وان الشهب منفصلة من نار الكواكب فصح أن النور من جنس النار وأن المراد بالظلمة الضلال وبالنور الهدى والهدى واحد والضلال متعدد وتقديمها لتقدم الاعدام على الملكات وقوله تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) عطف على قوله خلق أى انه تعالى خلق ما لا يقدر عليه أحد سواه ثم الذين كفروا يعدلون بربهم الاوثان

أى يسوونه به فى العبادة وعلى هذا فيعدلون من العدل وهو التسوية والباء متعلقة بيعدلون أو على قوله الحمد لله على معنى ان الله تعالى حقيق بالحمد على ما خلقه وانعمه على العباد ثم الذين كفروا بربهم يعدلون فيكفرون نعمته وعلى هذا فيعدلون من العدول والباء متعلقة بكفروا ومعنى ثم استبعاد عدولهم بعد وضوح آيات قدرته (هو الذى خلقكم من طين) أى ابتدأ خلقكم منه فانه المادة الاولى وان آدم الذى هو أصل البشر خلق منه أو خلق أباكم فحذف المضاف قال السدى بعث الله جبريل عليه السلام الى الارض ليأتيه بطائفة منها فقالت الارض انى أعوذ بالله منك ان تنقص منى فرجع جبريل عليه السلام ولم يأخذ قال يارب عاذت بك فبعث ميكائيل عليه السلام فاستعاذت فرجع فبعث ملك الموت عليه السلام فعاذت بالله منه فقال أنا أعوذ بالله ان أخالف أمره فأخذ من وجه الارض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء فلذلك اختلفت ألوان بنى آدم ثم عجنها بالماء العذب والملح والمر فلذلك اختلفت أخلاقهم فقال الله تعالى لملك الموت رحم جبريل وميكائيل الارض ولم ترحمها لاجرم اجعل أرواح الخلق من هذا الطين بيدك وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب وجعله طينا ثم تركه حتى كان حمأ مسنونا ثم خلقه وصوره وتركه حتى كان صلصالا كالفخار ثم نفخ فيه من روحه (ثم قضى أجلا) أى أجلا لكم تموتون عند انتهائه (وأجل مسمى) أى مضروب (عنده) أى وهو أجل القيامة وقال الحسن الاول بين وقت الولادة الى وقت الموت والثانى من وقت الموت الى البعث فان كان الرجل برا تقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث فى أجل العمر وان كان فاجرا قاطعا للرحم نقص من أجل العمر وزيد فى أجل البعث وذلك قوله تعالى وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب وقيل الاول النوم والثانى الموت وقيل الاول لمن مضى والثانى لمن بقى ولمن يأتى (ثم أنتم) أيها الكفار (تمترون) أى تشكون فى البعث بعد علمكم أنه ابتدأ خلقكم ومن قدر على الابتداء فهو على الاعادة أقدر ومعنى ثم استبعاد أيضا كما مر لان يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم (وهو الله) الضمير لله والله خبره وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء من وهو والباقون بالضم وقوله تعالى (فى السموات وفى الارض) متعلق بمعنى اسم الله كأنه قيل هو مستحق العبادة فيهما ومنه قوله تعالى وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله أو هو المعروف بالالهية أو المتوحد بالالهية فيهما وقال الزجاج فيه تقديم وتأخير تقديره وهو الله (يعلم سركم) أى ما تسرون (وجهركم) أى ما تجهرون به بينكم فى السموات والارض وقيل معناه وهو اله السموات والارض كقوله تعالى وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله (ويعلم ما تكسبون) أى ما تعملون من خير أو شر فيثيب عليه أو يعاقب (فان قيل) الافعال اما أفعال القلوب وهى المسماة بالسر واما أفعال الجوارح وهى المسماة بالجهر والافعال لا تخرج عن السر والجهر فقوله تعالى ويعلم ما تكسبون يقتضى عطف الشئ على نفسه وهو غير جائز (أجيب) بأن المراد بالسر ما يخفى وبالجهر ما يظهر من أحوال الانفس

وبالمكتسب

وبالمكتسب أعمال الجوارح فهو كما يقال هذا المال كسب فلان أى مكتسبه فلا يحمل على نفس الكسب والالزم عطف الشئ على نفسه (وما تأتيهم) أى الكفار (من آية من آيات ربهم) من الاولى مزيدة للاستغراق والثانية للتبعيض أى مايظهر لكم دليل قط من الادلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن (الا كانوا عنها معرضين) أى تاركين لها وبها مكذبين (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم) أى بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أتى به من المعجزات (فسوف يأتيهم أنباء) أى عواقب (ما كانوا به يستهزؤن) بنزول العذاب بهم فى الدنيا والآخرة أو عند ظهور الاسلام وارتفاع أمره (ألم يروا) أى فى اسفارهم الى الشام وغيرها (كم) خبرية بمعنى كثيرا (أهلكنا من قبلهم من قرن) أى أمة من الامم الماضية وعلى هذا القرن الجماعة من الناس وجمعه قرون وقيل القرن مدة من الزمان قيل انها عشرة أعوام وقيل عشرون وقيل ثلاثون وقيل أربعون وقيل خمسون وقيل ستون وقيل سبعون وقيل ثمانون وقيل تسعون وقيل مائة لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن بشر المازنى تعيش قرنا فعاش مائة سنة وقيل مائة وعشرون فيكون معناه على هذه الاقاويل من أهل قرن (مكناهم فى الارض) أى جعلنا لهم فيها مكانا بالقوة والسعة وقررناهم فيها (ما لم نمكن لكم) أى مالم نجعل لكم من السعة والقوة فيه التفات عن الغيبة والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عادا وثمودا وغيرهم من البسطة فى الاجسام والسعة فى الاموال والاستظهار بأسباب الدنيا (وأرسلنا السماء) هى المطر (عليهم مدرارا) أى متتابعا (وجعلنا الانهار تجرى من تحتهم) أى تحت مساكنهم (فأهلكناهم بذنوبهم) أى بسبب ذنوبهم بتكذيبهم الانبياء فلم يغن ذلك عنهم شيأ (وأنشأنا) أى أحدثنا (من بعدهم قرنا آخرين) بدلا منهم (فان قيل) ما فائدة ذكر أنشأنا قرنا آخرين بعدهم (أجيب) بأنه ذكر للدلالة على انه تعالى لا يتعاظمه أن يهلك قرنا ويخرب بلاده منهم فانه قادر على أن ينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده فهو قادر على أن يفعل ذلك بكم * ونزل لما قال النضر بن الحرث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد يا محمد لن نؤمن بك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وأنك رسوله (ولو نزلنا عليك كتابا) أى مكتوبا (فى قرطاس) أى رق كما اقترحوه (فلمسوه بأيديهم) أبلغ من عاينوه لانه أنفى للشك (لقال الذين كفروا ان) أى ما (هذا الا سحر مبين) أى تعنتا وعنادا كما قالوا فى انشقاق القمر (وقالوا لولا) أى هلا (أنزل عليه) أى محمد صلى الله عليه وسلم (ملك) يكلمنا انه نبى كقوله تعالى لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا (ولو أنزلنا ملكا كما اقترحوا) عاينوه كما اقترحوا فلم يؤمنوا (لقضى الامر) أى لحق اهلاكهم فان سنة الله تعالى جرت فيمن قبلهم أنهم اذا جاءهم مقترحهم فلم يؤمنوا به يهلكهم (ثم لا ينظرون) أى لا يمهلون لتوبة أو معذرة (ولو جعلناه) أى المنزل اليهم (ملكا لجعلناه) أى الملك (رجلا) أى على صورته ليتمكنوا من رؤيته اذ لا قوة للبشر على رؤية الملك فى صورته وانما رآه كذلك الافراد من الانبياء لقوتهم القدسية وقوله تعالى (وللبسنا

عليهم ما يلبسون) جواب محذوف أي ولو أنزلناه وجعلناه رجلا للبسنا أي لخلطنا عليهم بجعلنا اياه رجلا ما يخلطون على أنفسهم وعلى غيرهم فيقولون ما هذا الا بشر مثلكم وانما كان تلبيسا لانهم لبسوا على ضعفتهم في أمر النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا انما هو بشر مثلكم ولو رأوا الملك رجلا للحقهم من اللبس مثل ما لحق الضعفاء منهم فيكون اللبس نقمة من الله وعقوبة لهم على ما كان منهم من التخليط في السؤال واللبس على الضعفاء وقوله تعالى (ولقد استهزئ برسل من قبلك) فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم على ما يرى من قومه (فحاق) قال الربيع بن أنس فنزل وقال عطاء حل وقال الضحاك أحاط (بالذين سخروا منهم) أي من أولئك الرسل (ما كانوا به يستهزؤن) وهو العذاب فكذا يحيق بمن استهزأ بك (قل) لهم (سيروا في الارض) أي أوقعوا السير لاعتبار فيها ولا تغتروا بامهالكم وتمكينكم (ثم انظروا كيف كان عاقبة) أي آخر أمر (المكذبين) الرسل من هلاكهم بالعذاب فانكم اذا شاهدتم تلك الآثار كمل لكم الاعتبار بهم (قل) لهم (لمن ما في السموات والارض) خلقا وملكا وهو سؤال تبكيت (قل لله) ان لم يقولوه لا جواب غيره لانه المتعين للجواب بالاتفاق اذ لا يمكنهم ان يذكروا غيره (كتب) اى قضى (على نفسه الرحمة) تفضلا منه واحسانا فالرحمة تعم الدارين ومن ذلك الهداية الى معرفته والعلم بتوحيده بنصب الادلة وانزال الكتب والامهال على الكفرة والعصاة والمذنبين ولو شاء لسلط عليهم المضار وجعل عيشهم من غير اللذيذ كالتراب وبعض القاذورات التي تعيش فيها الحيوانات روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لما قضى الله الخلق كتب كتابا عنده فوق عرشه ان رحمتي غلبت غضبي وفي رواية سبقت غضبي وفي رواية ان لله تعالى مائة رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحوش على أولادها واخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة وروى أنه صلى الله عليه وسلم قدم عليه سبي فاذا امرأة من السبي قد غلب ثديها اذ وجدت صبيا في السبي أخذته والصقته ببطنها وأرضعته فقال النبي صلى الله عليه وسلم أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار وهي تقدر على أن لا تطرحه فقلنا لا والله يا رسول الله فقال الله أرحم بعباده من هذه بولدها وقوله تعالى (ليجمعنكم) استئناف واللام لام القسم أي والله ليجمعنكم (الى يوم القيامة) أي في يوم القيامة والى بمعنى في أو ليجمعنكم في القبور مبعوثين الى يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم وقيل بدل من الرحمة بدل البعض فان من رحمته بعثه اياكم وانعامه عليكم (لا ريب) أي لا شك (فيه) أي اليوم أو الجمع وقوله تعالى (الذين خسروا أنفسهم) في موضع نصب على الذم أو رفع على الخبر أي وأنتم الذين خسروا أنفسهم بتضييع رأس مالهم وهو الفطرة الاصلية أو مبتدأ خبره (فهم لا يؤمنون) (فان قيل) الفاء تدل على أن عدم ايمانهم مسبب عن خسرانهم مع أن الامر على العكس (أجيب) بأن ابطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك في التقليد واغفال النظر أدى بهم الى الاصرار على الكفر والامتناع عن الايمان وقوله تعالى (وله ما سكن) أي حل (في الليل والنهار) عطف على لله أي له كل شئ من حيوان وغيره لانه خالقه ومالكه وقيل له ما سكن

فيهما أو تحرك وا كتفى بأحد الضدين عن الآخر (وهو السميع) أى لكل ما يقال (العليم) أى بكل ما يفعل فلا يخفى عليه شئ سبحانه وتعالى * ونزل لما دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى دين آبائه (قل) لهم (أغير الله أتخذ وليا) أى ربا ومعبودا وناصرا ومعينا وهو استفهام ومعناه الانكار أى لا أتخذ غير الله وليا (فاطر السموات والارض) أى خالقهما ابتداعا من غير سبق وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ما عرفت معنى الفاطر حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما انى فطرتها أى ابتدأتها (وهو يطعم) أى يرزق (ولا يطعم) أى ولا يرزق وصف سبحانه وتعالى ذاته بالغنى عن الخلق باحتياجهم اليه لان من كان من صفته أن يطعم الخلق لاحتياجهم اليه ولا يطعم لاستغنائه عنهم وجب أن يتخذ ربا وناصرا ووليا (قل انى أمرت أن أكون أول من أسلم) لله من هذه الامة لان النبى سابق أمته فى الدين والدين وضع الهى سائق لذوى العقول السليمة بسبب اختيارهم المحمود الى ما هو خير لهم بالذات (ولا تكونن من المشركين) أى وقيل لى يا محمد لا تكونن من المشركين أى فى عدادهم باتباعهم فى شئ من اغراضهم وهذا التأكيد لقطع أطماعهم عنه صلى الله عليه وسلم فى سؤالهم أن يكون على دين آبائه وقوله تعالى (قل انى أخاف ان عصيت ربى) بعبادة غيره (عذاب يوم عظيم) مبالغة أخرى فى قطع أطماعهم وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب وقوله تعالى (من يصرف عنه) العذاب (يومئذ) أى يوم القيامة قرأه أبو بكر وحمزة والكسائى بفتح الياء وكسر الراء على البناء للفاعل والضمير لله تعالى والمفعول محذوف وقرأه الباقون بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول فالضمير للعذاب (فقد رحمه) ربه تعالى أى أراد به الخير (وذلك) أى الصرف أو الرحمة (الفوز المبين) أى النجاة الظاهرة (وان يمسسك الله بضر) أى ببلاء كمرض وفقر والضر اسم جامع لما ينال الانسان من ألم ومكروه وغير ذلك مما هو فى معناه (فلا كاشف) أى لا رافع (له الا هو) لا غيره (وان يمسسك بخير) أى بصحة وغنى والخير اسم جامع لكل ما ينال الانسان من لذة وفرح وسرور وغير ذلك (فهو على كل شئ قدير) من الخير والضر وهذه الآية وان كانت خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم فهى عامة لكل أحد والمعنى وان يمسسك الله بضر أيها الانسان فلا كاشف لذلك الضر الا هو وان يمسسك بخير أيها الانسان فهو على كل شئ قدير من رفع الضر وايصال الخير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه قال أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم بغلة أهداها له كسرى فركبها بحبل من شعر ثم أردفنى خلفه فسار بى مليا ثم التفت الى فقال لى يا غلام فقلت لبيك يا رسول الله قال أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم ان الامة لو اجتمعت على ان ينفعوك بشئ لم ينفعوك الا بشئ قد كتبه الله لك وان اجتمعت على أن يضروك بشئ لم يضروك الا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الاقلام وجفت الصحف وفى رواية واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا ولن يغلب عسر يسرين وفى رواية فقد مضى القلم بما هو كائن فلو جهد الخلق ان ينفعوك بما لم يقضه لك الله لم يقدروا عليه ولو جهدوا أن

يضر ولا بما لم يكتب الله عليك ما قدروا عليه (وهو القاهر) أى القادر الذى لا يعجزه شئ مستعليا (فوق عباده) فهم مقهورون تحت قدرته وكل من قهر شيأ فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة (وهو الحكيم) فى خلقه (الخبير) ببواطنهم كظواهرهم ونزل لما قالت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا ما يشهد لك (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك ويجحدون نبوّتك من قومك (أى شئ) بينى وبينكم (أكبر شهادة) تمييز محوّل عن المبتدا (قل الله) أكبر شهادة ان لم تقولوه ولا جواب غيره ثم ابتدأ (شهيد بينى وبينكم) أى هو شهيد بينى وبينكم ويحتمل أن يكون الله شهيد هو الجواب لانه تعالى اذا كان هو الشهيد كان أكبر شئ شهادة (وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم) يا أهل مكة (به) أى القرآن واكتفى بذكر الانذار عن ذكر البشارة وقوله تعالى (ومن بلغ) عطف على ضمير المخاطبين أى لانذركم به يا أهل مكة ومن بلغه من الانس والجن الى يوم القيامة وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم وأنه لا يؤاخذ بها من لم يبلغه قال محمد بن كعب القرظى من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى صلى الله عليه وسلم وقال أنس بن مالك لما نزلت هذه الآية كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم الى الله تعالى وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار وفى رواية نضر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها فرب مبلغ أوعى من سامع وفى رواية فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه وقال مقاتل من بلغه القرآن من الجن والانس فهو نذير له وقوله تعالى (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) استفهام انكارى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جحدوا نبوّتك واتخذوا آلهة غيرى ائنكم أيها المشركون لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى وهى الاصنام التى كانوا يعبدونها (قل) لهم (لا أشهد) بما تشهدون به ان مع الله آلهة أخرى بل أجحد ذلك وأنكره (قل انما هو اله واحد) لا شريك له وبذلك أشهد (واننى برئ مما تشركون) معه من الاصنام وفى الآية دليل على اثبات التوحيد ونفى الشريك لان كلمة انما تفيد الحصر فثبت بذلك ايجاب التوحيد والتبرى من كل معبود سوى الله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب) أى التوراة والانجيل وهم علماء اليهود والنصارى (يعرفونه) أى محمدا صلى الله عليه وسلم بنعته وصفته (كما يعرفون أبناءهم) من بين الصبيان روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام قال عمر رضى الله تعالى عنه ان الله تعالى أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بمكة هذه الآية فكيف هذا فقال عبد الله بن سلام قد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ولانا أشد معرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم من ابنى فقال له عمر كيف ذلك فقال أشهد أنه رسول الله حقا ولا أدرى ما تصنع النساء (الذين خسروا أنفسهم) من أهل الكتاب والمشركين (فهم لا يؤمنون) به لما سبق لهم من القضاء بالشقاء (ومن) أى لا أحد (أظلم ممن افترى على الله كذبا) كقولهم الملائكة بنات الله

واتخذ

واتخذ الله ولدا (أو كذب بآياته) الآتى بها الرسل كالقرآن وغيره من المعجزات (انه) اى الشأن (لا يفلح الظالمون) أى لا ينجح القائلون على الله الكذب والمفترون عليه الباطل (و) اذكر (يوم نحشرهم جميعا) أى أهل الكتاب والمشركين وغيرهم ومعبوداتهم وهو يوم القيامة (ثم نقول) توبيخا (للذين أشركوا) أى سموا شيأ من دوننا الها وعبدوه من الاصنام أو عزيرا أو المسيح أو الظلمة أو النور أو غير ذلك (أين شركاؤكم) أى آلهتكم التى جعلتموها شركاء لله تعالى وأضافها الى ضميرهم لتسميتهم اياها بذلك وقوله تعالى (الذين كنتم تزعمون) معناه كنتم تزعمونهم شركاء وانها تشفع لكم عند الله فحذف المفعولان (ثم لم تكن فتنتهم) أى معذرتهم (الا أن قالوا) أى قولهم (والله ربنا ما كنا مشركين) فيختم على أفواههم وتشهد جوارحهم عليهم بالشرك وقرأ حمزة والكسائى يكن بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص فتنتهم بضم التاء والباقون بالنصب وقرأ حمزة والكسائى ربنا بنصب الباء على النداء أو المدح والباقون بالكسر قال الله تعالى (انظر) يا محمد (كيف كذبوا على أنفسهم) باعتذارهم الباطل وتبريهم من الاصنام والشرك الذى كانوا عليه واستعمالهم الكذب مثل ما كانوا عليه فى دار الدنيا وذلك لا ينفعهم (وضل) أى غاب (عنهم ما كانوا يفترون) أى يكذبون وهو قولهم ان الاصنام تشفع لهم وتنصرهم فبطل ذلك كله فى ذلك اليوم (فان قيل) كيف يصح ان يكذبوا حين يطلعون على حقائق الامور وعلى ان الكذب والجحود لا وجه لمنفعته (أجيب) بأن الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشة الا تراهم يقولون ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون وقد أيقنوا الخلود ولم يشكوا فيه وقالوا ليقض علينا ربك وقد علموا انه لا يقضى عليهم (ومنهم من يستمع اليك) حين تتلو القرآن روى انه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم يستمعون القرآن فقالوا للنضر ما يقول محمد فقال والذى جعلها بيته يعنى الكعبة ما أدرى ما يقول الا أنه يحرك لسانه فيقول أساطير الاولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية وكان النضر كثير الحديث عن القرون الماضية وأخبارها فقال أبو سفيان انى لأرى بعض ما يقول حقا فقال أبو جهل كلا لا تقر بشئ من هذا فأنزل الله تعالى ومنهم من يستمع اليك (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أى أغطية (أن) أى كراهة ان (يفقهوه) أى يفهموا القرآن (و) جعلنا (فى آذانهم وقرا) أى صمما فلا يسمعونه سماع قبول ووجه اسناد الفعل الى ذاته تعالى وهو قوله تعالى وجعلنا الدلالة على أنه أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم كأنهم مجبولون عليه أو هى حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب (وان يروا كل آية) أى معجزة من المعجزات الدالة على صدقك (لا يؤمنوا بها) لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم (حتى اذا جاؤك يجادلونك) أى بلغ تكذيبهم الآيات الى انهم جاؤك يجادلونك ويناكرونك وحتى هى التى تقع بعدها الجمل لا عمل لها والجملة اذا وجوابها وهو (يقول الذين كفروا ان) أى ما (هذا الا أساطير) أى أكاذيب (الاولين) أى

أحاديثهم من الامم الماضية واخبارهم وأقاصيصهم وماسطروا وأعجب كتبوا والاساطير جمع أسطورة بالضم قال البخاري عن ابن عباس وهي الترهات (وهم ينهون) الناس (عنه) أي اتباع النبي صلى الله عليه وسلم أو القرآن (وينأون) أي يتباعدون عنه فلا يؤمنون به قال محمد بن الحنفية والسدي والضحاك نزلت في كفار مكة وقال ابن عباس ومقاتل في أبي طالب كان ينهى الناس عن أذى النبي صلى الله عليه وسلم ويمنعهم وينأى عن الايمان به أي يبعد حتى روى انه اجتمع له رؤس المشركين وقالوا خذ شابا من أحسن أصحابنا وجها وادفع الينا محمدا فقال أبو طالب ما أنصفتموني أدفع اليكم ولدي لتقتلوه وأربي ولدكم وروى انه صلى الله عليه وسلم دعاه الى الايمان فقال لولا ان تعيرني قريش لاقررت بها عينك ولكن أذب عنك ماحييت وروى انهم اجتمعوا الى أبي طالب وأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم سوأ فقال

والله لن يصلوا اليك بجمعهم * حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ماعليك غضاضة * وابشر بذاك وقرّ منه عيونا
ودعوتني وزعمت انك ناصح * ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا لامحالة انه * من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة * لوجدتني سمحا بذاك مبينا

(وان) أي ما (يهلكون) بالنأى عنه (الا أنفسهم) لان ضرره عليهم (ومايشعرون) أن ضررهم لايتعداهم الى غيرهم وقوله تعالى (ولو ترى) يامحمد (اذ وقفوا) أي عرضوا (على النار) جوابه محذوف أي لو تراهم حين يقفون على النار فيعرفون مقدار عذابها لرأيت أمرا شنيعا (فقالوا) أي الكفار (يا) للتنبيه (ليتنا نرد) أي الى الدنيا (ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) تمنوا أن يردوا الى الدنيا ولايكذبوا بآيات ربهم وقرأ حفص وحمزة بنصب الباء من يكذب على جواب التمني والباقون بالرفع على الاستئناف وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة بفتح النون من نكون على جواب التمني والباقون بالضم على العطف وقوله تعالى (بل بدا لهم) أي ظهر لهم (ما كانوا يخفون من قبل) للاضراب عن ارادة الايمان المفهوم من التمني والمعنى أنهم ظهر لهم ما كانوا يخفون من نفاقهم وقبائح أعمالهم فتمنوا ذلك ضجرا لاعزما على انهم لو ردوا لآمنوا كما قال تعالى (ولو ردوا) الى الدنيا أي لو فرض ذلك بعد الوقوف والظهور (لعادوا لما نهوا عنه) من الكفر والمعاصي (وانهم لكاذبون) في قولهم لو رددنا الى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا وكنا من المؤمنين (وقالوا ان) أي ما (هي الاحياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين) كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة ويجوز أن يعطف على قوله وانهم لكاذبون على معنى وانهم لقوم كاذبون في كل شئ وهم الذين قالوا ان هي الاحياتنا وكفى به دليلا على كذبهم (ولو ترى) يامحمد (اذ وقفوا) أي عرضوا (على ربهم) لرأيت أمرا عظيما (قال) لهم على لسان الملائكة توبيخا (أليس هذا) البعث والحساب (بالحق) وقوله تعالى (قالوا بلى وربنا) اقرار مؤكد باليمين لانجلاء الامر غاية الانجلاء (قال فذوقوا العذاب) أي الذي كنتم به توعدون (بما كنتم

تكفرون)

تكفرون) اى بسبب كفركم وجحودكم البعث (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) أى بالبعث واستمر تكذيبهم (حتى اذا جاءتهم الساعة) أى القيامة (بغتة) أى فجأة وسميت القيامة ساعة لانها تفجأ الناس بغتة فى ساعة لا يعلمها الا الله تبارك وتعالى وقيل لسرعة الحساب فيها لان حساب الخلائق يوم القيامة يكون فى ساعة واحدة وأقل من ذلك (قالوا يا حسرتنا) أى ياندامتنا والحسرة التلهف على الشئ الفائت وشدة التألم ونداؤها مجاز أى هذا أوانك فاحضرى (على ما فرطنا) أى قصرنا (فيها) أى الحياة الدنيا جئ بضميرها وان لم يجر لها ذكر لكونها معلومة لانها موضع التفريط فى الاعمال الصالحة ويجوز أن يكون للساعة على معنى قصرنا فى شأنها والايمان بها كما تقول فرطت فى فلان ومنه فرطت فى جنب الله وقوله تعالى (وهم يحملون أوزارهم) أى أثقالهم وآثامهم (على ظهورهم) تمثيل لاستحقاقهم آصار الآثام وقال السدى وغيره ان المؤمن اذا خرج من قبره استقبله أحسن شئ صورة وأطيبه ريحا فيقول هل تعرفنى فيقول لا فيقول أنا عملك الصالح فاركبنى فقد طال ما ركبتك فى الدنيا فذلك قوله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا أى ركبانا وأما الكافر فيستقبله أقبح شئ صورة وأنتنه ريحا فيقول هل تعرفنى فيقول لا فيقول أنا عملك الخبيث طال ما ركبتنى فى الدنيا واليوم أركبك فهو معنى قوله تعالى وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم (ألا ساء) أى بئس (ما يزرون) أى ما يحملون حملهم ذلك وقوله تعالى (وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو) جواب لقولهم ان هى الا حياتنا الدنيا أى وما أعمالها الا لعب ولهو يلهى الناس ويشغلهم عما يعقب منفعة دائمة ولذة حقيقية وقيل معناه ان أمر الدنيا والعمل فيها لعب ولهو فأما فعل الخير والعمل الصالح فهو من فعل الآخرة (وللدار الآخرة) أى الجنة واللام فيه لام القسم (خير) أى من الدنيا وأفضل لان الدنيا سريعة الزوال والانقطاع (للذين يتقون) أى الشرك وقيل اللهو واللعب (أفلا يعقلون) أى ان الآخرة خير من الدنيا فيعملوا لها وقرأ ابن عامر ولدار بتخفيف الدال وجر الآخرة والباقون وللدار بتشديد الدال ورفع التاء وقرأ نافع وابن عامر وحفص تعقلون على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة (قد) للتحقيق (نعلم انه) أى الشأن (ليحزنك الذى يقولون) من التكذيب وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى والباقون بفتح الياء وضم الزاى (فانهم لا يكذبونك) أى بقلوبهم ولكن يجحدون بألسنتهم أو انهم لا يكذبونك لانك عندهم الصادق الموسوم بالصدق (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) أى يكذبون وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الامين فعرفوا أنه لا يكذب فى شئ ولكنهم كانوا يجحدون قال السدى التقى الاخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام فقال الاخنس لابى جهل يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب فانه ليس ههنا أحد يسمع كلامك غيرى فقال أبو جهل والله ان محمدا لصادق ما كذب محمد قط ولكن اذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فأنزل الله تعالى هذه الآية وعن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ان أبا جهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم انا لا نكذبك ولكنا نكذب الذى جئت به فأنزلت

ووضع الظالمين موضع الضمير للدلالة على أنهم ظلموا فى جحودهم والباء لتضمن الجحود معنى التكذيب وقرأ نافع والكسائى يكذبونك بسكون الكاف وتخفيف الذال من أكذبه اذا وجده كاذبا أو نسبه للكذب والباقون بفتح الكاف وتشديد الذال من التكذيب وهو أن ينسبه الى الكذب وقوله تعالى (ولقد كذبت رسل من قبلك) تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وهذا دليل على أن قوله فانهم لا يكذبونك ليس بنفى لتكذيبه مطلقا وانما هو من قولك لغلامك ما أهانوك ولكنهم أهانونى (فصبروا على ما كذبوا) أى على تكذيبهم لهم (وأوذوا) أى وصبروا على ايذائهم لهم (حتى أتاهم نصرنا) باهلاك من كذبهم فتأس بهم واصبر حتى يأتيك النصر باهلاك من كذبك وفى ذلك ايماء بوعد النصر للصابرين (ولا مبدل لكلمات الله) أى لمواعيده من قوله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين الآيات (ولقد جاءك من نبإ المرسلين) أى من قصصهم وما كابدوا من قومهم مما يسكن به قلبك قيل من مزيدة وقيل للتبعيض ويدل له قوله تعالى منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك (وان كان كبر) أى عظم وشق (عليك اعراضهم) عنك وعن الايمان بما جئت به (فان استطعت أن تبتغى) أى تطلب بجهدك وغاية طاقتك (نفقا) أى منفذا (فى الارض) تنفذ فيه الى ما عساك تقدر الى الانتهاء اليه (أو سلما فى السماء) أى جهة العلو ترتقى فيه الى ما تقدر عليه (فتأتيهم بآية) أى مما اقترحوه عليك فافعل لتشاهد انهم لا يزدادون عند اتيانك بها الا اعراضا كما أخبرناك لان الله تعالى شاء ضلال بعضهم والمقصود بهذا بيان شدة حرصه صلى الله عليه وسلم على هدايتهم وأنه لو قدر أن يتكلف النزول الى تحت الارض أو فوق السماء فيأتيهم بما يؤمنون به لفعل (ولو شاء الله) هدايتهم (لجمعهم على الهدى) أى لوفقهم له ولكن لم يشأ ذلك فلم يؤمنوا والمعتزلة أولوا لو شاء الله بانه لو شاء لجمعهم على الهدى بأن يأتيهم بآية ملجئة ولكن لم يفعل لخروجه عن الحكمة وجرى على هذا الزمخشرى فى كشافه والمعنى أن اسناد مشيئة الجمع الى الله تعالى ظاهر فى أنه هو المهدى والمضل والمعتزلة لما قالوا انه بفعل العبد احتاجوا الى التأويل (فلا تكونن من الجاهلين) أى لا يشتد تحسرك على تكذيبهم ولا تجزع من اعراضهم عنك فتقارب حال الجاهلين الذين لا صبر لهم وانما نهاه عن هذه الحالة وغلظ عليه الخطاب تبعيدا له عن هذه الحالة (انما يستجيب) دعاءك الى الايمان (الذين يسمعون) سماع تفهم واعتبار كقوله تعالى أو ألقى السمع وهو شهيد وهم المؤمنون الذين فتح الله تعالى لهم أسماع قلوبهم فهم يسمعون الحق ويستجيبون له ويتبعونه دون من ختم الله على سمع قلبه وهو قوله (والموتى) أى الكفار لشبههم بهم فى عدم السماع (يبعثهم الله) فى الآخرة (ثم اليه يرجعون) أى يردون فيجازيهم بأعمالهم (وقالوا) أى رؤساء قريش (لولا) أى هلا (نزل عليه آية) مما اقترحوا (من ربه) المحسن اليه كالناقة والعصا والمائدة أو آية تضطرهم الى الايمان كنتق الجبل أو آية ان جحدوها هلكوا (قل) لهم (ان الله قادر على أن ينزل آية) مما اقترحوه أو آية تضطرهم الى الايمان أو آية ان جحدوها هلكوا لا يعجزه شئ (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى ماذا عليهم فى انزالها من العذاب ان لم يؤمنوا بها

ولهم فيما أنزل مندوحة عن غيره وقرأ ابن كثير ينزل بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى والمعنى واحد (ومامن دابة فى الارض) أى تدب على وجهها (ولاطائر يطير بجناحيه) فى الهواء وهو بالمد ما بين السماء والارض وهو المراد هنا وأما الهوى بالقصر فهوى النفس وليس مرادا وانما قال بجناحيه مع أن الطيران لا يكون الا بهما قطعا لمجاز السرعة ونحوها كما تقول كتبت بيدى ونظرت بعينى (الا أمم أمثالكم) أى محفوظة أحوالها مقدرة أرزاقها وآجالها قال العلماء جميع ما خلق الله تعالى لا يخرج عن هاتين الحالتين حتى ما فى البحر لان سيرها فى الماء اما أن يكون دبيبا أو طيرانا مجازا وانما خص ما فى الارض بالذكر دون ما فى السماء وان كان ما فى السماء مخلوقا له لان الاحتجاج بالمشاهد أظهر وأولى مما لا يشاهد واختلف العلماء فى وجه هذه المماثلة فقال مجاهد أصناف مصنفة تعرف بأسمائها مثل بنى آدم يعرفون بأسمائهم يريد أن كل جنس من الحيوان أمة فالطير أمة والدواب أمة والسباع أمة وقال ابن قتيبة أمم أمثالكم فى الغذاء وابتغاء الرزق وتوقى المهالك وقال عطاء أمثالكم فى التوحيد والمعرفة وقيل غير ذلك والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية (مافرطنا) أى ماتركنا وما أغفلنا (فى الكتاب) أى اللوح المحفوظ (من شئ) فلم نكتبه فانه مشتمل على ما يجرى فى العالم من الجليل والدقيق ولم يهمل فيه أمر حيوان وقيل المراد بالكتاب القرآن فانه قد دون فيه ما يحتاج اليه من أمر الدين مفصلا ومجملا ومن مزيدة وشئ فى موضع المصدر لا المفعول به فان فرط لا يتعدى بنفسه وقد عدى بفى الى الكتاب (ثم الى ربهم يحشرون) قال ابن عباس والضحاك حشرها موتها وقال أبو هريرة يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة الدواب والطير وكل شئ فيأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كونى ترابا فحينئذ يتمنى الكافر ويقول ياليتنى كنت ترابا وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لتؤدن الحقوق الى اهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء (والذين كذبوا بآياتنا) أى القرآن (صم) عن سماعها سماع قبول (وبكم) عن النطق بالحق (فى الظلمات) أى فى ضلالات الكفر (من يشأ الله) اضلاله (يضلله ومن يشأ) هدايته (يجعله على صراط مستقيم) هو دين الاسلام وهو دليل واضح لاهل السنة على المعتزلة فى قولهم انهم مامن العبد كما مر (قل) يا محمد لاهل مكة وقوله تعالى (أرأيتكم) استفهام تعجيب والكاف حرف خطاب أى أخبرونى (ان أتاكم عذاب الله) أى فى الدنيا كما أتى من قبلكم من الغرق أو الخسف والمسخ والصواعق ونحو ذلك من العذاب (أو أتتكم الساعة) أى القيامة المشتملة على العذاب (أغير الله تدعون) فى كشف العذاب عنكم (ان كنتم صادقين) ان الاصنام آلهة وجواب الاستفهام محذوف أى فادعوه وهو تبكيت لهم (بل اياه تدعون) أى تخصونه بالدعاء كما حكى الله تعالى ذلك عنهم فى موضع كما فى قوله تعالى واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما الآية (فيكشف ماتدعون اليه) أى ماتدعون الى كشفه (ان شاء) كشفه فى الدنيا تفضلا عليكم كما هو عادته معكم فى وقت شدائدكم ولكنه

لايشاء كشفه فى الآخرة لانه لايبدل القول لديه وان كان له ان يفعل مايشاء (وتنسون) اى تتركون فى تلك الاوقات دائما (ما تشركون) معه من الاصنام فلا تدعونها لعلمكم أنها لا تضر ولا تنفع (ولقد أرسلنا) رسلا (الى أمم من قبلك) أى قبلك ومن مزيدة فكذبوهم (فأخذناهم بالبأساء) أى شدة الفقر (والضراء) أى الامراض والاوجاع وهما صفتان أنيث لامذكر لهما (لعلهم يتضرعون) أى يتذللون ويتوبون عن ذنوبهم فيؤمنون (فلولا) أى فهلا (اذ جاءهم بأسنا) أى عذابنا (تضرعوا) أى لم يفعلوا ذلك مع قيام المقتضى له (ولكن قست قلوبهم) فلم تلن للايمان (وزين لهم الشيطان) أى بما أدخل عليهم من باب الشهوات (ما كانوا يعملون) من المعاصى فأصروا عليها (فلما نسوا) أى تركوا (ما ذكروا) أى وعظوا وخوفوا (به) وانما كان النسيان بمعنى الترك لان التارك للشئ معرضا عنه كأنه قد صيره بمنزلة ما قد نسى (فتحنا عليهم أبواب كل شئ) أى من الخيرات والارزاق والملاذ التى كانت مغلقة عنهم فنقلناهم من الشدة الى الرخاء استدراجا لهم وقرأ ابن عامر بتشديد التاء والباقون بالتخفيف (حتى اذا فرحوا بما أوتوا) أى فرح بطر (أخذناهم) بالعذاب (بغتة) أى فجأة (فاذا هم مبلسون) أى متحسرون آيسون من كل خير (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أى آخرهم بأن استؤصلوا (والحمد لله رب العالمين) أى على نصر الرسل واهلاك الكافرين والعصاة فان اهلاكهم من حيث انه تخليص لاهل الارض من شؤم عقائدهم وأعمالهم نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها (قل) أى لاهل مكة (أرأيتم) أى أخبرونى (ان أخذ الله سمعكم) أى أصمكم (وأبصاركم) أى أعماكم (وختم) أى طبع (على قلوبكم) أى بأن يغطى عليها مايزول به عقلكم وفهمكم فلا تعرفون شيأ (من اله غير الله يأتيكم به) أى بذلك أو بما أخذ منكم وختم عليه لان الضمير فى به يعود على معنى الفعل أو بأحد هذه المذكورات ويجوز أن يعود الى السمع الذى ذكر أولا ويندرج غيره تحته كقوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه فالهاء راجعة الى الله تعالى ورضا رسول الله صلى الله عليه وسلم يندرج فى رضا الله تعالى (انظر) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره أى انظر يا محمد (كيف نصرف) أى نبين لهم الآيات أى العلامات الدالة على التوحيد والنبوة ونكررها تارة من جهة المقدمات العقلية وتارة من جهة الترغيب والترهيب وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين (ثم هم يصدفون) أى يعرضون عنها فلا يؤمنون (قل) لهم (أرأيتكم) أى أخبرونى (ان أتاكم عذاب الله بغتة) أى فجأة (أو جهرة) أى معاينة ترونه عند نزوله وقال ابن عباس والحسن ليلا ونهارا (هل يهلك) أى ما يهلك به هلاك سخط وتعذيب (الا القوم الظالمون) أى المشركون لانهم ظلموا أنفسهم بالشرك (وما نرسل المرسلين الا مبشرين) من آمن بالجنة (ومنذرين) من كفر بالنار أى ليس فى ارسالهم أن يأتوا الناس بما يقترحون عليهم من الآيات انما أرسلوا بالبشارة والنذارة (فمن آمن) أى بهم (وأصلح) أى عمله (فلا خوف عليهم) أى من العذاب (ولا هم يحزنون) فى الآخرة بفوات الثواب (والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب) أى يصيبهم (بما كانوا يفسقون) أى بسبب خروجهم عن

الطاعة (قل) لهم (لا أقول لكم عندى خزائن الله) نزلت حين اقترحوا عليه الآيات فأمره الله تعالى أن يقول لهم انما بعثت بشيرا ونذيرا ولا أقول لكم عندى خزائن الله جمع خزانة وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشئ وخزن الشئ احرازه بحيث لا تناله الايدى خزائن رزقه أو مقدوراته فاعطيكم منها ما تريدون لانهم كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم ان كنت رسولا من الله فاطلب منه أن يوسع علينا ويغنى فقرنا فأخبر أن ذلك بيد الله لا بيدى (ولا) أقول لكم انى (أعلم الغيب) أى فأخبركم بما مضى وما هو آت وذلك أنهم قالوا له أخبرنا بمصالحنا ومضارنا فى المستقبل حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار فأجابهم بقوله ولا أعلم الغيب فأخبركم بذلك (ولا أقول لكم انى ملك) وذلك أنهم قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق ويتزوج النساء فأجابهم بذلك لان الملك يقدر على ما لا يقدر عليه البشر ويشاهد ما لا يشاهدونه أى لا أقول لكم شيأ من ذلك فتنكرون وتجحدون (فان قيل) قد يستدل بهذا على أن الملائكة أفضل من الانبياء لان معنى الكلام لا أدعى منزلة أقوى من منزلتى ولولا أن الملائكة أفضل لم يصح ذلك (أجيب) بأنه صلى الله عليه وسلم انما قال ذلك تواضعا لله تعالى واعترافا بالعبودية حتى لا يعتقد فيه مثل اعتقاد النصارى فى المسيح وبان المراد بما قاله نفى قدرته عن أفعال لا يقوى عليها الا الملائكة وذلك لا يدل على أنهم أفضل من الانبياء (ان أتبع الا ما يوحى الى) تبرأ صلى الله عليه وسلم من دعوى الالوهية والملكية وادعى النبوة مع الرسالة التى هى أعلى كمالات البشر ردا لاستبعادهم دعواه وجزمهم على فساد مدعاه وظاهر هذه الآية يدل على أنه صلى الله عليه وسلم ما كان يجتهد فى شئ من الاحكام بل جميع أوامر الله ونواهيه انما كانت بوحى ولكن المرجح أنه يجتهد (قل) لهم (هل يستوى الاعمى والبصير) أى هل يكونون سواء من غير مزية فان قالوا نعم كابروا الحس وان قالوا لا قيل فمن تبع هذه الآيات الجليات فهو البصير ومن أعرض فهو الاعمى وقيل المراد بالاول الكافر وبالثانى المؤمن وقيل الضال والمهتدى وقيل الجاهل والعالم (أفلا تتفكرون) فى أنهم لا يستويان فتؤمنوا (وأنذر) أى خوف اذ الانذار اعلام مع تخويف (به) أى القرآن وقوله تعالى (الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم) اما قوم داخلون فى الاسلام ومقرون بالبعث الا أنهم مفرطون فى العمل واما أهل الكتاب لانهم مقرون بالبعث واما ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون اذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقا فيهلكوا فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الانذار دون المتمردين منهم وقوله تعالى (ليس لهم من دونه) أى غير الله تعالى (ولى) أى ينصرهم (ولا شفيع) أى يشفع لهم حال من ضمير يحشروا بمعنى يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعا لهم ولا بد من هذه الحال لان كلا منهم محشور فالمخوف هو الحشر على هذه الحالة (فان قيل) اذا فسر ما ذكر بالمؤمنين كان مشكلا لانه قد ثبت بصحيح النقل شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم للمذنبين من أمته وكذا تشفع الملائكة والانبياء والمؤمنون بعضهم لبعض (أجيب) بأن الشفاعة لا تكون الا باذن الله تعالى كما قال من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه واذا كانت الشفاعة لا تكون

الا باذن الله صح قوله ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع حتى يؤذن لهم بالشفاعة فاذا أذن فيها كان للمؤمنين ولى وشفيع (لعلهم يتقون) الله باقلاعهم عما هم فيه وعمل الطاعات (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) بعدما أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بانذار غير المتقين ليتقوا أمره باكرام المتقين وتقريبهم وأن لا يطردهم ترضية لقريش روى أن رؤساءهم قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم لو طردت هؤلاء الاعبد يعنون الفقراء المسلمين وهم عمار وصهيب وخباب وسلمان واضرابهم وكانت عليهم جباب من صوف جلسنا اليك وحادثناك فقال عليه الصلاة والسلام ما أنا بطارد المؤمنين فقالوا فأقمهم عنا اذا جئنا فاذا قمنا فأقعدهم معك ان شئت قال نعم طمعا فى ايمانهم وروى أن عمر رضى الله عنه قال له لو فعلت حتى ننظر الى ماذا يصيرون قالوا فاكتب بذلك كتابا فدعا بالصحيفة وبعلى رضى الله تعالى عنه فنزلت فرمى بالصحيفة واعتذر عمر رضى الله تعالى عنه من مقالته قال سلمان وخباب فينا نزلت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا وندنو منه حتى تمس ركبتنا ركبته فكان يقوم عنا اذا أراد القيام فنزل واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم فترك القيام عنا الى أن نقوم عنه وقال لنا الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى ان أصبر نفسى مع قوم من أمتى معكم المحيا ومعكم الممات وقال الكلبى قالوا له اجعل لنا يوما ولهم يوما قال لا أفعل قالوا فاجعل واحدا وأقبل علينا وولهم ظهرك فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال مجاهد قالت قريش لولا بلال وابن أم معبد لبايعنا محمدا فانزل الله تعالى هذه الآية ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يعنى صلاة الصبح وصلاة العصر ويروى عنه أن المراد منه الصلوات الخمس وذلك أن ناسا من الفقراء كانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال ناس من الاشراف اذا صلينا فأخر هؤلاء فليصلوا خلفنا فنزلت هذه الآية وقوله تعالى (يريدون وجهه) حال من يدعون أى يدعون ربهم مخلصين فيه قيد الدعاء بالاخلاص تنبيها على انه ملاك الامر (ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ) أى ليس عليك حساب فى اختبار بواطنهم واخلاصهم لما اتسموا بسيرة المتقين وان كان لهم باطن غير مرضى كما ذكره المشركون وطعنوا فى دينهم فحسابهم عليهم لا يتعداهم اليك كما أن حسابك لا يتعداك اليهم كقوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى (فان قيل) هلا اكتفى بقوله ما عليك من حسابهم من شئ عن وما من حسابك عليهم من شئ (أجيب) بأن الجملتين جعلتا بمنزلة جملة واحدة وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنى فى قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى ولا يفيد هذا المعنى الا الجملتان جميعا كأنه قيل لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه وقيل الضمير للمشركين والمعنى لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم حتى يهمك ايمانهم بحيث تطرد المؤمنين طمعا فيه وقوله تعالى (فتطردهم) أى فتبعدهم جواب النفى وقوله تعالى (فتكون من الظالمين) جواب النهى وهو ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة واحتج الطاعنون فى عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية فقالوا ان النبى صلى الله عليه وسلم لما هم بطرد الفقراء عن مجلسه لاجل أشراف قريش عاتبه الله تعالى به على ذلك ونهاه عن طردهم وذلك قدح فى العصمة وقوله

تعالى فتطردهم فتكون من الظالمين (وأجيب) بأنه صلى الله عليه وسلم ما طردهم ولا هم به لاجل استخفاف بهم وانما كان هذا الهم لمصلحة وهي التلطف بهؤلاء الاشراف في ادخالهم في الاسلام فكان ترجيح هذا الجانب أولى وهو اجتهاد منه صلى الله عليه وسلم فاعلمه الله تعالى أن تقريب هؤلاء الفقراء أولى من الهم بطردهم فقربهم منه وأدناهم والظلم في اللغة وضع الشيء في غير محله أي فلا تهم بطردهم عنك فتضع الشيء في غير موضعه فهو من باب ترك الافضل والاولى لا من باب ترك الواجبات (وكذلك فتنا) أي ابتلينا (بعضهم ببعض) أي الشريف بالوضيع والغني بالفقير بأن قدمناه بالسبق للايمان (ليقولوا) أي الشرفاء والاغنياء (أهؤلاء) الفقراء (من الله عليهم من بيننا) بالهداية أي لو كان ما هم عليه هدى ما سبقونا اليه ونحن الاكابر والرؤساء وهم المساكين والضعفاء قال الله تعالى (أليس الله بأعلم بالشاكرين) أي بمن يقع منهم الايمان والشكر فيوفقه وبمن لا يقع منه فيخذله (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) وقوله تعالى (فقل لهم (سلام عليكم) اما أن يكون أمرا بتبليغ سلام الله تعالى اليهم واما أن يكون أمرا بأن يبدأهم بالسلام اكراما لهم وتطييبا لقلوبهم (كتب) أي قضى (ربكم على نفسه الرحمة) روى أنها نزلت في الذين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طردهم فوصفهم الله تعالى بالايمان بالقرآن واتباع الحجج بعدما وصفهم بالمواظبة على العبادة وأمره بأن يبدأ بالتسليم أو يبلغ سلام الله تعالى اليهم ويبشرهم بسعة رحمته وفضله بعد النهي عن طردهم ايذانا بأنهم الجامعون لفضيلتي العلم والعمل ومن كان كذلك ينبغي أن يقرب ولا يطرد ويعز ولا يذل ويبشر من الله تعالى بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة وقال عطاء نزلت في الخلفاء الاربع وجماعة من الصحابة وقيل الآية على اطلاقها في كل مؤمن وقيل لما جاء عمر بن الخطاب واعتذر من مقالته التي تقدمت وقال ما أردت الا الخير فنزلت وقيل ان قوما جاؤا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا انا أصبنا ذنوبا عظاما فلم يرد عليهم شيأ فانصرفوا فنزلت (انه من عمل منكم سوأ) أي سوء كان ملتبسا (بجهالة) أي عمله وهو جاهل وفيه معنيان أحدهما انه فاعل فعل الجهلة لان من عمل ما يؤدي الى الضرر في العاقبة وهو عالم بذلك أو ظان فهو من أهل السفه والجهل لا من أهل الحكمة والتدبير ومنه قول الشاعر

على أنها قالت عشية زرتها ۞ جهلت على عمد ولم تك جاهلا

والثاني انه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شيء حتى يعلم حاله وكيفيته وقيل انها نزلت في عمر رضي الله تعالى عنه حين أشار باجابة الكفرة الى ما سألوه ولم يعلم أنها مفسدة وقرأ نافع وابن عامر وعاصم انه بفتح الهمزة على انه بدل من الرحمة والباقون بالكسر على انه ضمير الشأن (ثم تاب) أي رجع (من بعده) أي من بعد ارتكابه ذلك السوء (وأصلح) عمله (فانه) أي الله (غفور) له (رحيم) به وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الهمزة على تقدير أن المغفرة له والباقون بالكسر (وكذلك) أي ومثل ذلك التفصيل الواضح وهو تفصيل أحوال الطوائف الاربع الاولى المطبوع على قلوبهم وهم من في آية والذين كذبوا بآياتنا والثانية

المرجو اسلامهم وهم من فى آية وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم والثالثة المطيعون وهم من فى آية ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى والرابعة الداخلون فى الاسلام لكنهم لا يحفظون حدوده وهم من فى آية واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا (نفصل الآيات) أى نبين آيات القرآن فى صفة المطيعين والمجرمين المصرين منهم والاوابين (ولتستبين سبيل) أى طريق (المجرمين) قرأ أبو بكر وشعبة وحمزة والكسائى بالياء بعد اللام على التذكير أى وليظهر ويتضح سبيل المجرمين يوم القيامة اذا صاروا الى النار والباقون بالتاء على الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى وليظهر لك الحق يا محمد ويتبين لك سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يحق له وقرأ نافع سبيل بنصب اللام والباقون بالرفع (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين (انى نهيت أن أعبد الذين تدعون) أى تعبدون (من دون الله) وهى الاصنام التى يعبدونها أو ما تدعونها آلهة أى تسمونها الا ان الجمادات أخس من ان تدعى وقوله تعالى (قل لا أتبع أهواءكم) تأكيد لقطع أطماعهم وبيان لمبدا ضلالهم وأن ماهم عليه هوى وليس بهدى (قد ضللت اذا) أى ان اتبعت أهواءكم فأنا ضال (وما أنا من المهتدين) أى وما أنا من المهديين فى شئ أى لانكم كذلك (قل انى على بينة) أى بيان (من ربى) أى معرفة وانه لا معبود سواه (و) قد (كذبتم به) أى بربى حيث أشركتم به غيره (ما عندى ما تستعجلون به) أى العذاب الذى استعجلوه بقولهم فأمطر علينا حجارة من السماء (ان) أى ما (الحكم) فى ذلك وغيره (الا لله) فهو يفصل بين المختلفين ويقضى بانزال العذاب متى شاء (يقص الحق) قرأ نافع وابن كثير وعاصم بضم القاف وصاد مهملة مشددة مع الرفع ومعناه يقول الحق لان كل ما أخبر به فهو حق والباقون بسكون القاف وضاد معجمة مخففة مع الكسر أى انه تعالى يقضى القضاء الحق (وهو خير الفاصلين) أى الحاكمين (قل) لهم (لو ان عندى) أى فى قدرتى وممكنتى (ما تستعجلون به) أى من العذاب (لقضى الامر بينى وبينكم) أى لانفصل ما بينى وبينكم بأن أهلككم عاجلا بما تستعجلون به من العذاب غضبا لربى ولكنه عند الله تعالى (والله أعلم بالظالمين) أى ما تستحقونه من العذاب والوقت الذى يستحقون فيه (وعنده) سبحانه وتعالى (مفاتح الغيب) أى خزائنه جمع مفتح بفتح الميم وهو المخزن او ما يتوصل به الى المغيبات مستعار من المفاتيح الذى هو جمع مفتح بالكسر وهو المفتاح (لا يعلمها الا هو) وهى الخمسة التى فى قوله ان الله عنده علم الساعة الآية كما رواه البخارى فيعلم أوقاتها وما فى تعجيلها وتأخيرها من الحكم فيظهرها على ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته وفيه دليل على انه تعالى يعلم الاشياء قبل وقوعها (ويعلم ما) يحدث (فى البر والبحر) قدم البر لان الانسان أكثر ملابسة له بما فيه من القرى والمدن والمفاوز والجبال والحيوان والنبات والمعادن وغير ذلك وأخر البحر لان احاطة العقل بأحواله أقل وقال مجاهد البر المفاوز والقفار والبحر القرى والامصار التى على الانهار وقوله تعالى (وما تسقط من ورقة) أى ورقة من يد (الا يعلمها) مبالغة فى احاطة علمه تعالى بالجزئيات وقوله تعالى (ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس) عطف على ورقة

واختلاف

واختلف فى الحبة فقيل هى من هذا الحب المعروف تكون فى بطن الارض قبل ان تنبت وقيل هى الحبة التى تنبت فى الصخرة التى فى أسفل الارض واختلف فى معنى الرطب واليابس فقال ابن عباس الرطب الماء واليابس البادية وقال عطاء يريد ما ينبت وما لا ينبت وقيل المراد بالرطب الحى وباليابس الميت وقيل هو عبارة عن كل شئ لان جميع الاشياء اما رطبة واما يابسة (فان قيل) جميع هذه الاشياء داخلة تحت قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو فلم أفرد هذه الاشياء بالذكر (أجيب) بأنه تعالى ذكرها أولا مجملة ثم فصل بعضا من ذلك الاجمال ليدل بها على غيرها وقوله تعالى (الا فى كتاب مبين) فيه قولان أحدهما انه علم الله الذى لا يغير ولا يبدل والثانى انه اللوح المحفوظ لان الله تعالى كتب فيه علم ما يكون وما قد كان قبل أن يخلق السموات والارض فهو على الاول بدل من الاستثناء الاول بدل الكل وعلى الثانى بدل الاشتمال (وهو الذى يتوفاكم بالليل) أى يقبض أرواحكم عند النوم (ويعلم ما جرحتم) أى كسبتم (بالنهار ثم يبعثكم) أى يوقظكم برد أرواحكم (فيه) أى النهار (فان قيل) لم خص الليل بالنوم والنهار بالكسب مع ان ذلك يقع فى غير هذا (أجيب) بأن ذلك جرى على الغالب (ليقضى أجل مسمى) أى ليبلغ المستيقظ آخر أجله المسمى له فى الدنيا (ثم اليه مرجعكم) بالموت والبعث (ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازيكم به (وهو القاهر) مستعليا (فوق عباده) لان من قهر شيأ وغلبه فهو مستعل عليه اما قهره للمعدوم فبالتكوين والايجاد وأما قهره للموجود فبالافناء والافساد بنقل الممكن من العدم الى الوجود تارة ومن الوجود الى العدم أخرى ويقهر النور بالظلمة والظلمة بالنور والنهار بالليل والليل بالنهار الى غير ذلك من ضروب الكائنات وصنوف الممكنات (ويرسل عليكم) من ملائكته (حفظة) أى تحفظ أعمالكم وهم الكرام الكاتبون وعن أبى حاتم السجستانى أنه كان يكتب عن الاصمعى كل شئ تلفظ به من فوائد العلم حتى قال فيه أنت شبيه الحفظة تكتب لفظ اللفظة فقال أبو حاتم وهذا أيضا مما يكتب (فان قيل) الله تعالى غنى عن كتابة الملائكة فما فائدتها (أجيب) بأن فيها لطفا للعباد لانهم اذا علموا أن الله رقيب عليهم والملائكة موكلون بهم يحفظون عليهم أعمالهم ويكتبونها فى صحائف تعرض على رؤس الاشهاد فى مواقف القيامة كان ذلك أزجر لهم عن القبيح وأبعد عن السوء (حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) أى ملك الموت وأعوانه (وهم لا يفرطون) أى لا يقصرون فيما يؤمرون وقيل ملك الموت وحده فذكر الواحد بلفظ الجمع وجاء فى الاخبار أن الله تعالى جعل الدنيا بين يدى الموت كالمائدة الصغيرة فيقبض من ههنا ومن ههنا فاذا كثرت عليه الارواح يدعوها فتستجيب له (فان قيل) قال الله تعالى فى آية أخرى الله يتوفى الانفس حين موتها وفى أخرى قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم وقال هنا توفته رسلنا فكيف الجمع (أجيب) بأن المتوفى فى الحقيقة هو الله تعالى فاذا حضر أجل العبد أمر الله تعالى ملك الموت أن يقبض روحه ولملك الموت اعوان من الملائكة يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده فاذا وصلت الى الحلقوم تولى قبضها ملك الموت بنفسه فحصل الجمع بين الآيات وقال

مجاهد ما من أهل بيت شعر ولا مدر الا وملك الموت يطوف بهم كل يوم مرتين وقرأ حمزة بعد فاء توفته بألف ممالة على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وسكن السين من رسلنا أبو عمرو ورفعها الباقون (ثم ردوا) أي الخلق (الى الله) أي الى حكمه وجزائه (مولاهم) أي سيدهم ومدبر أمورهم كلها (الحق) أي الثابت الولاية وكل ولاية غير ولايته تعالى عدم (الا له الحكم) أي القضاء النافذ فيهم فلا حكم عليه (وهو أسرع الحاسبين) يحاسب الخلق كلهم في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك لانه لا يحتاج الى فكرة وروية وعقد يد فيحاسب خلقه بنفسه لا يشغله حساب بعضهم عن بعض (قل) يا محمد لاهل مكة (من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) أي من الخسف في البر والغرق في البحر أو من شدائدهما استعيرت الظلمة للشدة لمشاركتهما في الهول وابطال الابصار فقيل لليوم الشديد يوم مظلم ولغيره يوم ذو كواكب وقيل حمله على الحقيقة أولى وظلمات البر هي ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب فيحصل من ذلك الخوف الشديد لعدم الاهتداء الى الطريق الصواب وظلمات البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح العاصفة والامواج الهائلة فيحصل من ذلك أيضا الخوف الشديد من الوقوع في المهالك والمقصود أن عند اجتماع هذه الاسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الانسان فيها الا الى الله تعالى لانه هو القادر على كشف الكروب وازالة الشدائد وهو المراد من قوله (تدعونه تضرعا) أي علانية (وخفية) أي سرا وقوله تعالى (لئن) اللام لام القسم على ارادة القول أي يقولون والله لئن (أنجيتنا من هذه) أي الظلمات والشدائد (لنكونن من الشاكرين) لك على هذه النعمة والشكر هو معرفة النعمة مع القيام بحقها لمن أنعم بها أي فنكون من المؤمنين وقرأ عاصم وحمزة والكسائي أنجانا بحذف التاء وألف بعد الجيم بدل الياء ليوافق قوله تعالى تدعونه وأمالها حمزة والكسائي والباقون بالتاء بعد الياء (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) أي غم سوى ذلك (ثم أنتم تشركون) أي تعودون الى شركة الاصنام معه التي لا تضر ولا تنفع ولا توفون بالعهد وانما وضع تشركون موضع لا تعبدون تنبيها على أن من أشرك في عبادة الله تعالى فكأنه لم يعبده (قل) لهم (هو القادر على أن يبعث) في كل وقت يريده (عليكم) في كل حالة (عذابا من فوقكم) بارسال الصيحة والحجارة والريح والطوفان كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الفيل (أو من تحت أرجلكم) بالغرق أو الخسف كما فعل بفرعون وقارون وعن ابن عباس ومجاهد عذابا من فوقكم السلاطين الظلمة أو من تحت أرجلكم العبيد السوء وقال الضحاك من فوقكم أي من قبل كباركم أو من تحت أرجلكم أي من أسفل منكم (أو يلبسكم) أي يخلطكم (شيعا) أي فرقا وينشب فيكم الاهوال المختلفة بقتل بعضكم بعضا روي لما نزلت هذه الآية قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم قال صلى الله عليه وسلم أعوذ بوجهك ومن تحت أرجلكم قال أعوذ بوجهك أو يلبسكم شيعا (ويذيق بعضكم بأس بعض) أي بالقتال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا أهون أو أيسر وفي رواية انه صلى الله عليه وسلم قال سألت ربي طويلا أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يهلك

أمتى بالسنين فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم سأل الله تعالى ثلاثا فأعطاه اثنتين ومنعه واحدة سأله أن لا يسلط على أمته عدوا من غيرهم يظهر عليهم فأعطاه ذلك وسأله أن لا يهلكهم بالسنين فأعطاه ذلك وسأله أن لا يجعل بأس بعضهم على بعض فمنعه ذلك (انظر) يا محمد (كيف نصرف) أى نبين لهم (الآيات) الدالة على قدرتنا (لعلهم يفقهون) أى يعلمون أن ما هم عليه باطل فيرجعوا عنه (وكذب به) أى القرآن أو العذاب (قومك) أى الذين من حقهم أن يقوموا بجميع أمرك ويسروا بسيادتك فان القبيلة اذا ساد أحدهم عزت به فان عزه عزها وشرفه شرفها ولاسيما اذا كان من بيت الشرف ومعدن السيادة واذا استقل أحدها اهتمت به غاية الاهتمام وسترت عيوبه مهما أمكنها فان عاره لاحق بها فهو من عظيم التوبيخ لهم ودقيق التقريع لهم وزاد ذلك بقوله (وهو) أى والحال أنه (الحق) أى الثابت الذى لا يضره التكذيب به ولا يمكن زواله (قل) لهم (لست عليكم بوكيل) أى حفيظ وكل الى أموركم فأجازيكم أو أمنعكم من التكذيب انما أنا منذر والله الحفيظ (لكل نبأ) أى خبر أخبركم به من هذه الاخبار (مستقر) أى وقت يقع فيه ويستقر ومنه عذابكم (وسوف تعلمون) صحة ذلك عند وقوعه اما فى الدنيا واما فى الآخرة وفى ذلك تهديد لهم (واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا) أى القرآن بالاستهزاء والتكذيب (فأعرض عنهم) أى فاتركهم ولا تجالسهم (حتى يخوضوا فى حديث غيره) أى حتى يكون خوضهم فى غير الآيات والاستهزاء بها وذكر الضمير على معنى الآيات لانها القرآن والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره ليكون أردع أو لغيره أى واذا رأيت أيها الانسان (واما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما المزيدة (ينسينك الشيطان) أى فقعدت معهم ثم تذكرت (فلا تقعد بعد الذكرى) أى التذكر لهذا النهى (مع القوم الظالمين) أظهره وضع الاضمار تقبيحا ودلالة على الوصف الذى هو سبب الخوض وروى ان المسلمين قالوا لئن كنا نقوم كلما استهزؤا بالقرآن لم نستطع أن نجلس بالمسجد ونطوف فنزل (وما على الذين يتقون) الله (من حسابهم) أى الخائضين (من شئ) أى شئ مما يحاسبون عليه اذا جالسوهم فمن مزيد للتأكيد (ولكن) عليهم (ذكرى) أى تذكرة لهم ووعظ ونهيهم من الخوض وغيره من القبائح ويظهروا كراهتها وقال سعيد بن جبير ومقاتل هذه الآية منسوخة بالآية التى فى سورة النساء وهى قوله تعالى وقد نزل عليكم فى الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله الآية وذهب الجمهور الى أنها محكمة لا نسخ فيها لانها خبر والخبر لا يدخله النسخ ولانه انما أباح لهم القعود معهم بشرط التذكرة والموعظة (لعلهم يتقون) الخوض فى الآيات (وذر الذين اتخذوا دينهم) أى الذى كلفوه (لعبا ولهوا) باستهزائهم به (وغرتهم الحياة الدنيا) أى خدعتهم وغلب حبها على قلوبهم فأعرضوا عن دين الحق أى فاتركهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم وهذا يقتضى الاعراض عنهم وهو قبل الامر بالقتال ثم نسخ ذلك الاعراض بآية السيف (وذكر) أى وعظ (به) أى القرآن الناس (أن) أى كراهة أن (تبسل نفس) أى تسلم الى الهلاك (بما كسبت) أى بسبب ما عملت وأصل الابسال والبسل المنع ومنه أسد باسل لان فريسته

قوله منسوخة بالآية الخ كذا فى النسخ ولينظر اه

لاتفلت منه والباسل الشجاع لامتناعه من قرنه وهذا بسل عليك أى حرام (ليس لها من دون الله) أى غيره (ولى) أى ناصر (ولا شفيع) يمنع عنها العذاب (وان تعدل) أى تلك النفس لاجل التوصل الى الفكاك (كل عدل) أى وان تفد كل فداء والعدل الفدية لانها تعادل المفدى (لا يؤخذ منها) ما تفتدى به (أولئك) أى الذين عملوا هذه الاعمال البعيدة عن الخير (الذين أبسلوا) أى سلموا الى العذاب (بما كسبوا) أى بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة (لهم شراب من حميم) أى ماء هو فى غاية الحرارة (و) لهم (عذاب أليم) أى مؤلم (بما) أى بسبب ما (كانوا يكفرون) أى هم بين ماء يغلى يتجرجر فى بطونهم ونار تشتعل فى أبدانهم بسبب كفرهم (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك الى دين آبائهم (أندعو) أى نعبد (من دون الله) أى غيره (مالا ينفعنا) أى بعبادته (ولا يضرنا) أى بتركها وهم الاصنام (ونرد على أعقابنا) أى نرجع الى الشرك (بعد اذ هدانا الله) تعالى الى التوحيد ودين الاسلام (كالذى استهوته) أى أضلته (الشياطين فى الارض) حالة كونه (حيران) تائها ضالا لا يهتدى لوجه ولا يدرى كيف يسلك وقرأ حمزة بعد الواو فى استهوته بألف ممالة على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث ورقق ورش راء حيران بخلاف عنه (له) أى المستهوى (أصحاب) أى رفقة (يدعونه الى الهدى) أى الى الطريق المستقيم وسماه هدى تسمية للمفعول بالمصدر يقولون له (ائتنا) فلا يجيبهم فيهلك والاستفهام للانكار وجملة التشبيه للحال من ضمير نرد وهذا مثل ضربه الله تعالى لمن يدعو الى عبادة الاصنام التى لا تضر ولا تنفع ومن يدعو الى عبادة الله عز وجل الذى يضر وينفع يقول مثلهما كمثل رجل فى رفقته ضل به الغيلان والشياطين عن الطريق المستقيم فجعل أصحابه من أهل رفقته يدعونه اليهم يقولون هلم الى الطريق المستقيم وجعل الغيلان يدعونه اليهم فيبقى حيران لا يدرى أين يذهب فان أجاب الغيلان ضل وهلك وان أجاب أصحابه اهتدى وسلم (قل) لهم (ان هدى الله) الذى هو الاسلام (هو الهدى) وحده وما عداه ضلال (وأمرنا لنسلم لرب العالمين) أى بأن نخلص العبادة له لانه المستحق العبادة لا غيره وقوله تعالى (وأن أقيموا الصلاة واتقوه) عطف على لنسلم أى للاسلام ولاقامة الصلاة لان فيهما ما يقرب الى الله وروى ان عبد الرحمن بن أبى بكر دعا أباه الى عبادة الاوثان فنزلت (فان قيل) اذا كان هذا واردا فى شأن أبى بكر رضى الله تعالى عنه فكيف قيل للرسول صلى الله عليه وسلم قل أندعو (أجيب) بان ذلك اظهار للاتحاد الذى كان بينه صلى الله عليه وسلم وبين المؤمنين خصوصا الصديق رضى الله تعالى عنه (وهو الذى اليه) لا الى غيره بعد بعثكم من الموت (تحشرون) يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم (وهو الذى خلق السموات والارض) على عظمهما (بالحق) أى بسبب اقامة الحق وقيل خلقهما بكلامه الحق الذى هو قوله تعالى كن وهو دليل على ان كلام الله تعالى ليس بمخلوق لانه لا يخلق مخلوق بمخلوق (و) اذكر (يوم يقول) الله للخلق (كن فيكون) أى فهو يكون وهو يوم القيامة يقول لخلق قوموا أحياء (قوله) تعالى (الحق) أى الصدق الواقع لا محالة (وله الملك يوم ينفخ فى الصور) أى

ـخة الثانية من اسرافيل عليه الصلاة والسلام وانما أخبر سبحانه وتعالى عن ملكه يومئذ
كان الملك له سبحانه وتعالى فى كل وقت فى الدنيا والآخرة لانه لامنازع له يومئذ فان من كان
ـه الملك من الجبابرة والفراعنة وسائر الملوك الذين كانوا فى الدنيا قدزال ملكهم فاعترفوا أن
الله الواحد القهار وأنه لامنازع له تعالى فيه وعلموا ان الذى كانوا يدعونه من الملك فى
ـا غرور وباطل *(تنبيه)* اختلفت العلماء فى الصور المذكور فى الآية فقال قوم هو قرن
ـخ فيه وهو لغة أهل اليمن وقال مجاهد الصور قرن كهيئة البوق ويدل على صحة هذا القول
ـوى ان أعرابيا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما الصور قال قرن ينفخ فيه وروى أنه
ـ الله عليه وسلم قال كيف أنتم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته واصغى سمعه
ـر أن يؤمر فينفخ فكان ذلك ثقل على الصحابة فقالوا كيف نعمل يا رسول الله أو كيف
ـ قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا وقال أبو عبيدة الصور جمع صورة
ـفخ فيها احياؤها والاول أصح لما مر فى الحديث ولاجماع أهل السنة أن المراد بالصور هو
ـن الذى ينفخ فيه اسرافيل نفختين نفخة الصعق ونفخة البعث للحساب (عالم الغيب
ـهادة) أى ما غاب وما شوهد فلا يغيب عن علمه تعالى شئ (وهو الحكيم) أى فى جميع أفعاله
ـر خلقه (الخبير) بباطن الاشياء كظاهرها بكل ما يعملونه من خير أو شر (واذ قال ابراهيم
ـ آزر) اختلف العلماء فى لفظة آزر فقال مجاهد آزر اسم أبى ابراهيم وهو تارح ضبطه
ـهم بالحاء المهملة وبعضهم بالخاء المعجمة وقال البخارى فى تاريخه الكبير ابراهيم بن آزر
ـفى التوراة تارخ فعلى هذا يكون لابى ابراهيم اسمان آزر وتارخ مثل يعقوب واسرائيل
ـن لرجل واحد فيحتمل أن يكون اسمه آزر وتارخ لقب له وبالعكس فالله سماه آزر
ـكان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارح ليعرف بذلك وكان آزر أبو ابراهيم من كوثى
ـقرية من سواد الكوفة وقال سعيد بن المسيب ومجاهد آزر اسم صنم كان والد ابراهيم
ـه وانما سماه بهذا الاسم لان من عبد شيأ أو أحبه جعل اسم ذلك المعبود أو المحبوب اسما له
ـكقوله تعالى يوم ندعو كل أناس بامامهم وقيل معناه واذ قال ابراهيم لابيه يا عابد آزر فحذف
ـف وأقيم المضاف اليه مقامه والاول أصح لان آزر اسم أبى ابراهيم لان الله تعالى سماه به
ـج البخارى فى افراده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يلقى ابراهيم عليه الصلاة والسلام
ـزر يوم القيامة على وجهه أى آزر قترة وغبرة الحديث سماه النبى صلى الله عليه وسلم آزر
ولم يقل أباه تارح كما نقل عن النسابين والمؤرخين فثبت بهذا ان اسمه الاصلى آزر لا تارح
ـكان أهل تلك البلاد وهم الكنعانيون يعتقدون الهية النجوم فى السماء والاصنام
ـرض فيجعلون لكل نجم صنما فاذا أرادوا التقرب الى ذلك النجم عبدوا ذلك الصنم
ـم لهم عند ذلك النجم فقال ابراهيم منكرا عليهم منبها لهم على ظهور فساد ما هو من تكبيه
ـذ) أى أتكلف نفسك الى خلاف ما تدعو اليه الفطرة الاولى بان تجعل (أصناما آلهة)
ـبدها وتخضع لها ولا نفع فيها ولا ضر (انى أراك وقومك) أى فى اتفاقكم على هذا

(في ضلال) أي بعد عن الصراط المستقيم (مبين) أي ظاهر جدا ببديهة العقل مع مخالفته لكل نبي أنبياء الله تعالى من آدم عليه السلام فمن بعده وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون (وكذلك) أي ومثل هذا التبصير العظيم الشأن (نري ابراهيم) أي نبصر وهي حكاية حال ماضية (ملكوت السموات والارض) أي عجائبهما وبدائعهما والملكوت أعظم الملك والتاء فيه للمبالغة كالرهبوت والرغبوت والرحموت من الرغبة والرهبة والرحمة وقال ابن عباس خلق السموات والارض وقال مجاهد وسعيد بن جبير يعني آيات السموات والارض وذلك انه أقيم على صخرة وكشف له عن السموات حتى رأى العرش والكرسي وما في السموات من العجائب وحتى رأى مكانه في الجنة فذلك قوله تعالى وآتيناه أجره في الدنيا معناه أريناه مكانه في الجنة وكشف له عن الارض حتى نظر أسفل الارضين ورأى ما فيها من العجائب وروى عن سلمان ورفعه بعضهم عن علي قال لما رأى ابراهيم ملكوت السموات والارض أبصر رجلا على فاحشة فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه فقال الرب تبارك وتعالى يا ابراهيم انك رجل مجاب الدعوة فلا تدعو على عبادي فانما أنا من عبدي على ثلاث خلال اما أن يتوب الي فأتوب عليه واما ان أخرج منه نسمة تعبدني واما أن يبعث الي فان شئت عفوت عنه وان شئت عاقبته وفي رواية فان تولى فان جهنم من ورائه وقال قتادة ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الارض الجبال والشجر والبحار وقيل ان هذه الرؤية كانت بعين البصيرة لان ذلك لا يدرك الا بالعقل فأريناه ذلك ليستدل به على توحيدنا (وليكون من الموقنين) واليقين عبارة عن علم يحصل بسبب التأمل بعد زوال الشبهة لان الانسان في أول الحال لا ينفك عن شبهة فاذا كثرت الدلائل وتوافقت صارت سببا لحصول اليقين والطمأنينة في القلب وزالت الشبهة عند ذلك قال ابن عباس في وليكون من الموقنين جلى له الامر سره وعلانيته فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله تعالى انك لا تستطيع هذا فرده الله تعالى كما كان قبل ذلك (فلما جن عليه الليل) أي دخل فيه (رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل) أي غاب (قال لا أحب الآفلين) وذلك ان ابراهيم صلى الله عليه وسلم ولد في زمن نمروذ بن كنعان وكان النمروذ أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس الى عبادته وكان له كهان ومنجمون فقالوا له انه يولد في بلدك هذه السنة غلام يغير دين أهل الارض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ويقال انهم وجدوا ذلك في كتب الانبياء وقال السدي ان النمروذ رأى في منامه كان كوكبا طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فزعا شديدا ودعا السحرة والكهنة فسألهم فقالوا هو مولود يولد في ناحيتك في هذه السنة فيكون هلاكك وهلاك ملكك وأهل بيتك على يديه فأمر بذبح كل غلام يولد في ناحيته في تلك السنة وأمر بعزل الرجال عن النساء وجعل على كل عشرة رجلا فاذا حاضت المرأة خلي بينها وبين زوجها لانهم كانوا لا يجامعون في الحيض فاذا طهرت حيل بينهما فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت فواقعها فحملت بابراهيم قال محمد بن

اسحق

اسحق بعث نمروذ الى كل امرأة حبلى بقريه يحبسها عنده الا ما كان من أم ابراهيم فانه لم يعلم بحبلها لانها كانت صغيرة لم يعرف الحبل ببطنها وقال السدى خرج نمروذ بالرجال الى العسكر ونحاهم عن النساء خوفا من ذلك ثم بدت له حاجة الى المدينة ولم يأمن عليها أحدا من قومه الا آزر فبعث اليه وأقسم عليه أن لا يدنو من أهله فقال آزر أنا أشح على ديني من ذلك فأوصاه بحاجته فدخل المدينة وقضى حاجته ثم قال لو دخلت على أهلي فنظرت اليهم فلما نظر الى أم ابراهيم لم يتمالك حتى واقعها فحملت بابراهيم قال ابن عباس لما حملت أم ابراهيم به قال الكهان لنمروذ ان الغلام الذى أخبرناك عنه قد حملته أمه الليلة فأمر نمروذ بذبح الغلمان قال محمد بن اسحق لما وجدت أم ابراهيم الطلق خرجت ليلا الى مغارة وكانت قريبة منها فولدت فيها ابراهيم عليه الصلاة والسلام وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود ثم سدت عليه المغارة ورجعت الى بيتها وكانت تختلف اليه فتنظر ما فعل فتجده يمص من اصبع ماء ومن اصبع لبنا ومن اصبع عسلا ومن اصبع تمرا ومن اصبع سمنا وقال محمد بن اسحق كان آزر قد سأل أم ابراهيم عن حملها فقالت ولدت غلاما فمات فصدقها وكان اليوم على ابراهيم فى الشباب كالشهر والشهر كالسنة فلم يمكث ابراهيم فى المغارة الا خمسة عشر شهرا حتى قال لامه اخرجينى فأخرجته عشاء فنظر وتفكر فى خلق السموات والارض وقال ان الذى خلقنى ورزقنى وأطعمنى وسقانى لربى مالى اله غيره ثم نظر فى السماء فرأى كوكبا فقال هذا ربى ثم أتبعه بصره ينظر اليه حتى غاب فلما أفل قال لا أحب الآفلين (فلما رأى القمر بازغا) أى مبتدئا فى الطلوع (قال هذا ربى) فاتبعه بصره (فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين) وقيل انه كان فى السرب سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة قال بعض أهل التفسير فلما شب ابراهيم وهو فى السرب قال لامه من ربى قالت أنا قال فمن ربك قالت ابوك قال فمن رب أبى قالت اسكت فسكت ثم رجعت الى زوجها فقالت الغلام الذى كنا نحدث أنه يغير دين أهل الارض فانه ابنك ثم أخبرته بما قال فأتاه أبوه فقال له ابراهيم يا أبتاه من ربى قال أمك قال فمن رب امى قال أنا قال فمن ربك قال نمروذ قال فمن رب نمروذ فلطمه وقال اسكت فلما أخرج من السرب وجن عليه الليل رأى المشترى قد طلع وقيل الزهرة وكانت تلك الليلة فى آخر الشهر فتأخر القمر فيها فرأى الكوكب فقال ذلك وهل ذلك جار على ظاهره أو مؤول جرى بعضهم على الاول وقال كان ابراهيم مسترشدا طالبا للتوحيد حتى وفقه الله تعالى فلم يضره ذلك وأيضا كان ذلك فى طفوليته قبل قيام الحجة عليه فلم يكن كفرا والاصح الثانى اذ لا يجوز أن يكون لله تعالى رسول يأتى عليه وقت من الاوقات الا وهو لله تعالى موحد وبه عارف ومن كل معبود سواه برىء ثم قال فى تأويله أوجه أحدها وهو الاصح ان ابراهيم ذكر ذلك على وجه الاحتجاج عليهم بقوله هذا ربى أى فى زعمكم فلما غاب قال لو كان الها لما غاب كما قال تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم أى عند نفسك وبزعمك وكما أخبر عن موسى انه قال وانظر الى الهك أى فى زعمك فلما أفل قال لا أحب الآفلين فضلا عن عبادتهم فان الانتقال والاحتجاج يقتضى الامكان والحدوث وينافى الالوهية فلم

يتحبح فيهم ذلك فلما رأى القمر بازغا قال لهم هذا ربي فلما أفل أى غاب قال لئن لم يهدني ربي أى
يثبتني على الهدى لانه لم يكن مهتديا والانبياء لم يزالوا يسألون الله تعالى الثبات على الايمان
وكان ابراهيم عليه السلام يقول واجنبني وبني أن نعبد الاصنام (فلما رأى الشمس بازغة) أى
عند طلوع النهار (قال) لهم (هذا ربي هذا أكبر) أى من الكواكب والقمر ولم يقل هذه مع
أن الشمس مؤنثة لانه أراد هذا الطالع أو ورده الى المعنى وهو الضياء والنور لانه رآه أضوأ من
النجم والقمر أو ذكره لتذكير خبره (فلما أفلت) أى غربت وقويت عليهم الحجة فلم يرجعوا
(قال يا قوم انى برىء مما تشركون) أى بالله من الاصنام والاجرام المحدثة المحتاجة الى محدث
التى تجعلونها شركاء لخالقها والوجه الثانى من التأويل أنه قال ذلك على وجه الاستفهام
تقديره أهذا ربي كقوله تعالى أفائن مت فهم الخالدون أى أفهم الخالدون وذكره على وجه
التوبيخ منكرا لفعلهم والوجه الثالث انه أراد أن يستدرجهم بهذا القول ويعرفهم خطأهم
وجهلهم ومثل هذا مثل من ورد على قوم يعبدون صنما فأظهر تعظيمه فأكرموه حتى صدروا
فى كثير من الامور عن رأيه الى أن دهمهم عدو فشاوروه فى أمره فقال الرأى أن ندعو
هذا الصنم حتى يكشف عنا ما أصابنا فاجتمعوا حوله يتضرعون فلما تبين لهم أنه لا ينفع
ولا يدفع دعاهم الى أن يدعوا الله تعالى فدعوه فصرف عنهم ما كانوا يحذرون فأسلموا (فان قيل)
لم احتج عليهم بالافول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال الى حال (أجيب) بأن الاحتجاج
بالافول أظهر لانه انتقال مع خفاء واحتجاب ولما أظهر خلاف قومه واستمروا فى شركهم وقالوا
له من تعبد أنت أظهر لهم ما هو عليه من الحق بقوله (انى وجهت وجهى) أى أخلصت
قصدى وصرفت عبادتى (للذى فطر السموات والارض) أى خلقهما وابتدعهما وهو الله تعالى
(حنيفا) أى مائلا الى الدين القويم عن كل دين يخالفه وأصل الحنيف الميل وهو عن طريق
الضلال الى طريق الاستقامة وقيل الحنيف هو الذى يستقبل الكعبة بصلاته (وما أنا من
المشركين) تبرأ من الشرك الذى كان عليه قومه أى وما أنا منكم ولا أعد فى عدادكم بشىء أقاربكم
به (وحاجه قومه) أى خاصموه فى التوحيد وهددوه بالاصنام أن تصيبه بسوء ان لم يرجع عن
الكلام فيها (قال) لهم (أتحاجونى) أى أتجادلونى (فى الله) أى فى وحدانيته وقرأ نافع وابن
عامر بتخفيف النون وهى نون الرفع عند النحاة ونون الوقاية عند الفراء والباقون بالتشديد
(وقد) أى والحال انه قد (هدانى) الى توحيده ومعرفته (ولا أخاف ما تشركون به)
شيأ وذلك ان ابراهيم لما رجع الى أبيه وصار من الشباب بحالة سقط عنه طمع الذابحين أى
ذابحى نمروذ وضمه آزر الى نفسه وجعل آزر يصنع الاصنام ويعطيها لابراهيم ليبيعها فيذهب
بها ابراهيم وينادى من يشترى ما يضره ولا ينفعه فلا يشتريها أحد فاذا بارت عليه ذهب بها
الى نهر فصوب رؤسها وقال اشربى استهزاء بقومه وما هم عليه حتى فشا استهزاؤه بها فى قومه
وأهل قريته فقالوا له احذر الاصنام فانا نخاف أن تمسك بخبل أو جنون بعيبك اياها فقال
انما يكون الخوف ممن يقدر على النفع والضر وهو قوله تعالى (الا أن يشاء ربي شيأ) وهذا

استثناء منقطع معناه لكن ان شاء ربي شيأ من المكروه يصيبني فيكون لانه قادر على النفع والضر وانما قال ابراهيم ذلك لاحتمال ان الانسان قد يصيبه في بعض حالاته وأيام عمره ما يكرهه فلو أصابه مكروه نسبوه الى الاصنام فنفى هذه الشبهة بذلك (وسع ربي كل شيء علما) أي أحاط علمه بكل شيء من معلومه (أفلا تتذكرون) أي يقع منكم تذكر فتميزوا بين الحق والباطل والقادر والعاجز (وكيف أخاف ما أشركتم) به أي الاصنام وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع (ولا تخافون) أنتم (أنكم أشركتم بالله) وهو تعالى حقيق بأن يخاف منه كل الخوف لانه اشراك المصنوع مع الصانع وتسوية بين المقدور العاجز والقادر الضار النافع (ما لم ينزل به) أي بعبادته (عليكم سلطانا) أي حجة وبرهانا وهو القادر على كل شيء (فأي الفريقين) أي حزب الله وحزب ما أشركتم ولم يقل فأينا تعميما للمعنى (أحق بالأمن) أهم الموحدون أو المشركون (ان كنتم تعلمون) من الاحق أي ان كان لكم علم فأخبروني عما سألتكم عنه والاحق بذلك هم الموحدون فاتبعوهم قال تعالى قاضيا بينهما (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) أي لم يخلطوا ايمانهم بشرك روى انه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقالوا يا رسول الله فأينا لم يظلم نفسه فقال ليس ذلك انما هو الشرك ألم تسمعوا الى ما قال لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم (أولئك) أي الموصوفون بما ذكر (لهم الامن) أي من العذاب المؤبد (وهم مهتدون) وقوله تعالى (وتلك) مبتدأ ويبدل منه (حجتنا) وهي ما احتج به ابراهيم على قومه من قوله تعالى فلما جن عليه الليل الى قوله وهم مهتدون أو من قوله تعالى أتحاجوني اليه والخبر (آتيناها ابراهيم) أي أرشدناه لها حجة (على قومه) ثم انه سبحانه وتعالى لما تفضل على خليله صلى الله عليه وسلم برفعه على قومه قال تعالى (نرفع درجات من نشاء) في العلم والحكمة وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتنوين التاء والباقون بغير تنوين (ان ربك حكيم) في صنعه فيرفع من يشاء ويخفض من يشاء (عليم) بخلقه فهو الفعال لما يريد (ووهبنا له) أي ابراهيم (اسحق) أي ابناله (ويعقوب) أي ابنا لاسحق فهو ابن ابنه (كلا) منهما ومن أبيهما (هدينا) الى سبيل الرشاد ووفقناه الى طريق الحق والصواب (ونوحا هدينا) ه (من قبل) أي قبل ابراهيم (ومن ذريته) أي نوح لا ابراهيم لانه تعالى ذكر في جملتهم يونس ولوطا ولم يكونا من ذرية ابراهيم وقيل الضمير لابراهيم ويكون ذلك من باب التغليب فان التغليب سائغ شائع في انتساب العرب (داود) وهو ابن ايشا هدينا وكان ممن آتاه الله الملك والنبوة (وسليمان) هو ابن داود وهما اللذان بنيا بيت المقدس بأمر الله تعالى داود بخطه وتأسيسه وسليمان باكماله وتشييده (وأيوب) هو ابن أموص ابن رزاح بن روم بن عيصو بن اسحق بن ابراهيم (ويوسف) هو ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم (فان قيل) لم قدم أيوب على يوسف مع ان يوسف أقرب منه (أجيب) بأنه قدمه للمناسبة بينه وبين سليمان لان كلا منهما ابتلي بأخذ كل ما في يده ثم رده الله تعالى اليه (وموسى) هو ابن عمران ابن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب (وهرون) هو أخو موسى أكبر منه بسنة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين (وكذلك) كما جزينا ابراهيم على توحيده وصبره على أذى قومه

بأن رفعنا درجته ووهبنا له أولادا أنبياء (نجزى المحسنين) على احسانهم (وزكريا) هو ابن أدن ابن بركيا وقرأ حفص وحمزة والكسائى بغير همز والباقون بالهمز (ويحيى) هو ابن زكرياء (وعيسى) هو ابن مريم بنت عمران (والياس) قال ابن مسعود هو ادريس وله اسمان مثل يعقوب واسرائيل قال البغوى والصحيح أنه غيره لان الله تعالى ذكره فى ولد نوح وادريس جد أبى نوح وهو الياس ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هرون بن عمران (كل) منهم (من الصالحين) أى الكاملين فى الصلاح وهو الاتيان بما ينبغى والتحرز عما لا ينبغى (واسمعيل) هو ابن ابراهيم وانما أخر ذكره الى هنا لانه ذكر اسحق وذكر أولاده من بعده على نسق واحد فلهذا السبب أخر ذكر اسمعيل الى هنا (واليسع) هو أخطوب بن العجوز وقرأ حمزة والكسائى بتشديد اللام وسكون الياء والباقون بسكون اللام وفتح الياء (ويونس) هو ابن متى (ولوطا) هو بن هاران أخى ابراهيم (وكلا) منهم (فضلنا على العالمين) أى بالنبوة وفيه دليل على فضلهم على من عداهم من الخلق من أنس وملك ويستدل بهذه الآية من يقول ان الانبياء أفضل من الملائكة وقوله تعالى (ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم) عطف على كلا أو نوحا ومن للتبعيض أى وفضلنا بعض آبائهم وبعض ذرياتهم واخوانهم لان آباء بعضهم كانوا مشركين وعيسى ويحيى لم يكن لهما ولد وكان فى ذرية بعضهم من كان كافرا كابن نوح وقوله تعالى (واجتبيناهم) أى اخترناهم عطف على فضلنا أو هدينا (وهديناهم) أى وأرشدناهم (الى صراط مستقيم) هو الدين الحق (ذلك) أى الذى هدوا اليه (هدى الله يهدى به من يشاء من عباده) سواء كان له أب يعلمه أو كان له من يحمله على الضلال ام لا فهو سبحانه وتعالى هو المتفضل بالهداية (ولو أشركوا) أى ولو فرض اشراك هؤلاء الانبياء بعد علو درجتهم وفضلهم (لحبط عنهم) أى لفسد وسقط (ما كانوا يعملون) أى لكانوا كغيرهم فى حبوط أعمالهم بسقوط ثوابها (أولئك الذين آتيناهم الكتاب) أى أولئك الذين سميناهم من الانبياء وهم ثمانية عشر نبيا أعطيناهم الكتاب فالمراد بالكتاب الجنس (والحكم) أى العمل المتقن بالعلم (والنبوة) أى وشرفناهم بالنبوة والرسالة (فان يكفر بها) أى بهذه الثلاثة (هؤلاء) أى أهل مكة الذين أنت بين أظهرهم (فقد وكلنا بها) أى وفقنا للايمان بها والقيام بحقوقها (قوما ليسوا بها بكافرين) كما يوكل الرجل بالشئ ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه واختلف فى ذلك القوم فقال ابن عباس هم الانصار وأهل المدينة وقال الحسن وقتادة هم الانبياء الثمانية عشر الذين تقدم ذكرهم واختاره الزجاج قال والدليل عليه قوله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وقال عطاء العطاردى هم الملائكة ونظر فيه لان اسم القوم لا يطلق الا على بنى آدم وقيل هم الفرس وقيل هم المهاجرون والانصار واستظهر وقال ابن زيد كل من لم يكفر فهو منهم سواء كان ملكا أم نبيا أم صحابيا أم تابعيا والمراد بهداهم ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين دون الفروع المختلف فيها فانها ليست هدى مضافا الى الكل ولا يمكن التأسى بهم جميعا فليس فيه دليل على أنه صلى الله عليه وسلم متعبد بشرع من قبله واستدل بعض العلماء بهذه الآية على أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الانبياء عليهم الصلاة والسلام

قوله ابن العجوز كذا فى النسخ والذى فى حاشية الجمل ابن العجرز اه

والسلام قال وبيانه ان جميع الخصال وصفات الشرف كانت متفرقة فيهم فكان نوح صاحب احتمال على أذى قومه وكان ابراهيم صاحب كرم وبذل مجاهدة فى الله عز وجل وكان اسحق ويعقوب من أصحاب الصبر على البلاء والمحن وكان داود وسليمان من أصحاب الشكر على النعمة كما قال تعالى اعملوا آل داود شكرا وكان أيوب صاحب صبر على البلاء كما قال تعالى انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب وكان يوسف قد جمع بين الحالتين أى الصبر والشكر وكان موسى صاحب الشريعة الظاهرة والمعجزات الباهرة وكان زكريا ويحيى وعيسى والياس من أصحاب الزهد فى الدنيا وكان اسمعيل صاحب صدق وكان يونس صاحب تضرع واحسان ثم ان الله تعالى أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بهم وجمع له جميع الخصال المحمودة والمتفرقة فثبت بهذا البيان أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الانبياء لما اجتمع فيه من الخصال التى كانت متفرقة فى جميعهم اه وقرأ حمزة والكسائى بحذف الهاء فى الوصل وحرك الهاء بحركة مختلسة ابن عامر ومد على الهاء ابن ذكوان بخلاف عنه وسكن الهاء الباقون فى الوصل وأما فى الوقف فجميع القراء يثبتون الهاء ويسكنونها (قل) يا محمد لاهل مكة (لا أسألكم عليه) أى القرآن أو التبليغ (أجرا) أى لا أطلب على ذلك جعلا (ان هو) أى القرآن أو التبليغ (الا ذكرى) أى عظة (للعالمين) أى الانس والجن (وما قدروا) أى اليهود (الله حق قدره) أى ما عرفوه حق معرفته أو ما عظموه حق عظمته (اذ قالوا) للنبى صلى الله عليه وسلم وقد خاصموه فى القرآن (ما أنزل الله على بشر من شئ) قال سعيد بن جبير جاء رجل من اليهود يقال له مالك ابن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم يخاصم النبى صلى الله عليه وسلم بمكة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى أما تجد فى التوراة أن الله تعالى يبغض الحبر السمين وكان حبرا سمينا والحبر بالفتح والكسر وهو أفصح العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه قاله الجوهرى فغضب فقال والله ما أنزل الله على بشر من شئ فقال له قومه ويلك ما هذا الذى بلغنا عنك فقال انه أغضبنى فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الاشرف وقال السدى نزلت فى فنحاص بن عازوراء وهو قائل هذه المقالة وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قالت اليهود يا محمد أنزل الله تعالى عليك كتابا قال نعم قالوا والله ما أنزل الله من السماء كتابا قال الله تعالى (قل) لهم (من أنزل الكتاب) أى التوراة (الذى جاء به موسى) أى الذى أنتم تزعمون التمسك بشرعه حال كون الكتاب (نورا) أى ذا نور أى ضياء من ظلمة الضلالة (وهدى) أى ذا هدى (للناس) أى يفرق بين الحق والباطل من دينهم وذلك قبل أن يبدل ويغير (يجعلونه قراطيس) أى يكتبونه فى دفاتر مقطعة (يبدونها) أى يظهرون ما يحبون اظهاره منها (ويخفون كثيرا) أى مما كتبوه فى القراطيس وهو ما عندهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ومما أخفوه أيضا آية الرجم وكانت مكتوبة عندهم فى التوراة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء فى المواضع الثلاثة على الغيبة حملا على قالوا وما قدروا والباقون بالتاء على الخطاب وتضمن ذلك توبيخهم على سوء جهلهم للتوراة وذمهم على تجزئتها

بابداء بعض اتخبوه وكتبوه فى ورقات متفرقة واخفاء بعض لايشتهونه وقوله تعالى (وعلمتم) أى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم (مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) خطاب لليهود أى علمتم زيادة على مافى التوراة وبيانا لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم ونظيره ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون يذكرهم النعمة فيما علمهم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الخطاب لمن آمن من قريش وقوله تعالى (قل الله) أنزله راجع الى قوله تعالى قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى أى فان أجابوك بأن الله أنزله فذاك والافقل أن الله أنزله اذلاجواب غيره (ثم ذرهم) أى اتركهم (فى خوضهم) أى باطلهم (يلعبون) أى يستهزؤن ويسخرون وفيه وعيد وتهديد للمشركين وقال بعضهم هذا منسوخ بآية السيف (وهذا) أى القرآن (كتاب أنزلناه مبارك) أى كثير الخير والبركة دائم النفع يبشر المؤمنين بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية وأصل البركة النماء والزيادة وثبوت الخير (مصدق الذى بين يديه) أى قبله من الكتب الالهية المنزلة من السماء على الانبياء لانها مشتملة على التوحيد والتنزيه لله تعالى وعلى البشارة والنذارة فثبت بذلك كون القرآن مصدقا لجميع الكتب المنزلة وقوله تعالى (ولينذر) قرأه شعبة بالياء على الغيبة أى لينذر الكتاب والباقون بالتاء على الخطاب أى ولتنذر يامحمد (أم القرى) أى أهل مكة وسميت أم القرى لانها قبلة أهل القرى ومحجهم ومجتمعهم وأعظم القرى شأنا وابعض المجاورين

فمن يلق فى بعض القريات رحله * فأم القرى ملقى رحالى ومنتابى

وقيل لان الارض دحيت من تحتها أولانها مكان أول بيت وضع للناس (ومن حولها) أى جميع البلاد والقرى التى حولها شرقا وغربا (والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) لان من صدق بالآخرة خاف العاقبة ولايزال الخوف يحمله على النظر والتدبر حتى يؤمن بالنبى والكتاب والضمير يحتملهما ويحافظ على الطاعة * وتخصيص الصلاة فى قوله تعالى (وهم على صلاتهم يحافظون) لانها عماد الدين وعلم الايمان ومن حافظ عليها كانت لطفا له فى المحافظة على أخواتها (ومن) أى لاأحد (أظلم ممن افترى) أى اختلق (على الله كذبا) فزعم أن الله بعثه نبيا كمسيلمة الكذاب والاسود العنسى أو اختلق عليه أحكاما كعمرو بن لحى ومتابعيه (أوقال أوحى الى ولم يوح اليه شئ) قال قتادة نزلت فى مسيلمة الكذاب من بنى حنيفة وكان يسجع ويتكهن فادعى النبوة وزعم أن الله تعالى أوحى اليه وكان قد أرسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتشهدان أن مسيلمة نبى قالا نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن الرسل لاتقتل لضربت أعناقكما وعن أبى هريرة رضى تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا نائم اذ أوتيت خزائن الارض فوضع فى يدى سواران من ذهب فكبرا على وأهمانى فأوحى الله تعالى الى أن انفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة مسيلمة الكذاب وفى لفظ الترمذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت فى المنام كأن فى يدى سوارين فأولتهما

كذا بين مخرجان بعدي يقال لاحدهما مسيلمة صاحب اليمامة والعنسي صاحب صنعاء وقوله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله الى أن انفخهما بالخاء المهملة ومعناه الرمي والدفع من نفحت الدابة برجلها وروى بالخاء المعجمة من النفخ وهو قريب من الاول فأما مسيلمة الكذاب فانه ادعى النبوة في اليمامة وتبعه قوم من بني حنيفة وقتل في خلافة أبي بكر قتله وحشي قاتل حمزة رضي الله تعالى عنهما وكان يقول قتلت خير الناس يعني حمزة وقتلت شر الناس يعني مسيلمة الكذاب قتل الاول وهو كافر وقتل الثاني وهو مسلم وأما الاسود العنسي بالنون ويقال له ذو الحمار ادعى النبوة باليمن في آخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل في حياته صلى الله عليه وسلم قبل موته بيومين وأخبر صلى الله عليه وسلم أصحابه بقتله قتله فيروز الديلمي فقال صلى الله عليه وسلم فاز فيروز بقتل الاسود العنسي (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) قال السدي نزلت في عبد الله بن أبي سرح وكان قد أسلم وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فكان اذا أملى عليه صلى الله عليه وسلم سميعا بصيرا كتب عليما حكيما واذا أملى عليه عليما حكيما كتب غفورا رحيما فلما نزلت ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين أملاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فعجب عبد الله من تفصيل خلق الانسان فقال تبارك الله أحسن الخالقين فقال النبي صلى الله عليه وسلم اكتبها هكذا نزلت فشك عبد الله بن أبي سرح وقال لئن كان محمد صادقا فقد أوحى الى مثل ما أوحى اليه فارتد عن الاسلام ولحق بالمشركين ثم رجع بعد ذلك الى الاسلام فأسلم قبل فتح مكة حين نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران وقال ابن عباس ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله يريد المستهزئين وهو جواب لقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا قال العلماء وقد دخل في حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذبا في ذلك الزمان وبعده لان خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم (ولو ترى) يا محمد (اذ الظالمون) حذف مفعوله لدلالة الظرف عليه أي ولو ترى الظالمين المذكورين (في غمرات) أي شدائد (الموت) من غمره الماء اذا غشيه فاستعير للشدة الغالبة (والملائكة باسطو أيديهم) أي لقبض أرواحهم كالمتقاضي الملازم لغريمه لا يفارقه أو بالعذاب أو الضرب يضربون وجوههم وأدبارهم يقولون لهم تعنيفا (أخرجوا أنفسكم) الينا لنقبضها (فان قيل) انه لا قدرة لاحد على اخراج روحه من بدنه فما فائدة هذا (أجيب) بأنهم يقولون لهم أخرجوها كرها لان المؤمن يحب لقاء الله بخلاف الكافر وقيل يقولون لهم خلصوا أنفسكم من هذا العذاب ان قدرتم على ذلك فيكون هذا القول توبيخا لهم لانهم لا يقدرون على خلاص أنفسهم من العذاب في ذلك الوقت (اليوم تجزون عذاب الهون) أي الهوان (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) أي كادعاء الولد والشريك له تعالى ودعوى النبوة والايحاء كذبا (وكنتم عن آياته تستكبرون) أي تتكبرون عن الايمان بها وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا فظيعا (و) يقال لهم اذا بعثوا للحساب والجزاء (لقد جئتمونا فرادى) أي منفردين عن الاهل والمال والولد وسائر ما آثرتموه من الدنيا أو عن الاعوان والاوثان التي زعمتم انها شفعاؤكم وهو جمع فرد والالف لتأنيث ككسالى وفي هذا تقريع

قوله وروى الخ هو الذي اقتصر عليه الزرقاني في شرح المواهب والذي في الصحاح نفحت الناقة برجلها ضربت اهـ

وتوبيخ لهم لانهم صرفوا هممهم فى الدنيا الى تحصيل المال والولد والجاه وافنوا أعمارهم فى عبادة الاصنام فلم يغن عنهم ذلك شيأ يوم القيامة فبقوا فرادى عن كل ما حصلوه فى الدنيا (كما خلقناكم أول مرة) أى حفاة عراة غرلا روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قرأت هذه الآية فقالت يارسول الله واسوأتاه ان الرجال والنساء يحشرون جميعا ينظر بعضهم الى سوأة بعض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه لا ينظر الرجال الى النساء ولا النساء الى الرجال وروى عنها انها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة غرلا أى غير مختونين وفى رواية زيادة على ذلك بهما قال الجوهرى وغيره أى ليس معهم شئ قالت عائشة رضى الله عنها فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم الى بعض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الامر أشد أن يهمهم ذلك (وتركتم ما خولناكم) أى ما تفضلنا به عليكم فى الدنيا فشغلتم به عن الآخرة (وراء ظهوركم) أى فى الدنيا فما أغنى عنكم ما كنتم منه تستكثرون (و) يقال لهم توبيخا (ما نرى معكم شفعاءكم) أى الاصنام (الذين زعمتم أنهم فيكم) أى فى استحقاق عبادتكم (شركاء) أى لله وقوله تعالى (لقد تقطع بينكم) قرأه نافع وحفص والكسائى بنصب النون أى لقد تقطع ما بينكم من الوصل والباقون بالرفع أى لقد تقطع وصلكم والبين من الاضداد يستعمل للوصل والفصل (وضل) أى ذهب (عنكم ما كنتم تزعمون) أى من أنها شفعاؤكم أو أن لا بعث ولا جزاء (ان الله فالق) أى شاق (الحب) أى عن النبات (والنوى) أى عن النخل وقيل المراد الشق الذى فى الحنطة والنواة والحب جمع الحبة وهو اسم لجميع البزور والحبوب من البر والشعير والذرة وكل ما لم يكن له نوى والنوى جمع نواة وهى كل ما لم يكن حبا كالتمر والمشمش وغيرهما وقال الضحاك فالق الحب والنوى يعنى خالق الحب والنوى (يخرج الحى من الميت) أى كالانسان من النطفة والطائر من البيضة (ومخرج الميت من الحى) كالنطفة من الانسان والبيضة من الطائر *(تنبيه)* مخرج معطوف على فالق كما قاله الزمخشرى ويصح عطفه على يخرج لان عطف الاسم المشابه للفعل على الفعل صحيح كعكسه وهو عطف الفعل على الاسم الشبيه بالفعل كقوله تعالى ان المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا فأقرضوا معطوف على المصدقين لشبهه بالفعل لكونه اسم فاعل ومخرج شبيه بالفعل لكونه اسم فاعل وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى بتشديد الياء والباقون بالتخفيف (ذلكم) المحيى والمميت هو (الله) الذى تحق له العبادة (فأنى) أى فكيف (تؤفكون) أى تصرفون عن الحق فتعبدون غير الله الذى هو خالق الاشياء كلها وقوله تعالى (فالق الاصباح) مصدر بمعنى الصبح أى شاق عمود الصبح وهو أول ما يبدو من النهار عن ظلمة الليل أو شاق ظلمة الاصباح وهو الغبش الذى عليه فى آخر الليل (وجاعل الليل سكنا) أى يسكن فيه الخلق راحة لهم قال ابن عباس اذ كل ذى روح يسكن فيه لان الانسان قد أتعب نفسه فاحتاج الى زمان يستريح فيه ليسكن فيه عن الحركة وذلك هو الليل وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بنصب العين واللام ولا ألف قبل العين على الماضى حملا على معنى المعطوف عليه

فانّ فالق بمعنى فلق والباقون بكسر العين ورفع اللام وألف قبل العين وقوله تعالى (والشمس والقمر) منصوبان باضمار فعل دلّ عليه جاعل الليل أى وجعل الشمس والقمر (حسبانا) أى حسابا للاوقات أو الباء محذوفة وهو حال من مقدر أى يجريان بحسبان كما فى آية الرحمن وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى ما تقدم ذكره فى هذه الآية من الاشياء التى خلقها بقدرته وكمال علمه وهو المراد بقوله (تقدير العزيز العليم) فالعزيز اشارة الى كمال قدرته والعليم اشارة الى كمال علمه (وهو الذى جعل) أى خلق (لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البرّ والبحر) أى فى ظلمات الليل فى البرّ والبحر واضافتها اليهما للملابسة أو فى مشتبهات الطرق وسماها ظلمات على الاستعارة وهو افراد لبعض منافعها بالذكر بعدما أجملها بقوله لكم ومن منافعها أنها زينة للسماء كما قال تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ومنها رمى الشياطين كما قال تعالى وجعلناها رجوما للشياطين (قد فصلنا) اى بينا (الآيات) أى الدالات على قدرتنا وتوحيدنا (لقوم يعلمون) أى يتدبرون فانهم المنتفعون به (وهو الذى أنشأكم) أى خلقكم (من نفس واحدة) أى من آدم عليه الصلاة والسلام فهو أبو البشر كلهم وحوّاء مخلوقة منه وعيسى أيضا لانّ ابتداء خلقه من مريم وهى من بنات آدم فثبت انّ جميع البشر من آدم عليه السلام (فمستقرّ ومستودع) أى فمستقرّ فى الرحم ومستودع فى القبر الى أن يبعث أو فمستقرّ فى أرحام الامّهات ومستودع فى أصلاب الآباء قال سعيد بن جبير قال لى ابن عباس هل تزوّجت قلت لا قال أما انه ما كان مستودعا فى ظهرك فسيخرجه الله عز وجلّ أو مستقرّ فى الرحم ومستودع فوق الارض قال تعالى ونقرّ فى الارحام ما نشاء أو فمستقرّ على وجه الارض ومستودع عند الله فى الآخرة أو فمستقرّ فى القبر ومستودع فى الدنيا وكان الحسن يقول يا ابن آدم أنت وديعة فى أهلك يوشك ان تلحق بصاحبك أو فمستقرّ فى القبر ومستودع فى الجنة أو النار قال تعالى فى صفة الجنة حسنت مستقرا وفى صفة النار وساءت مستقرا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر القاف على اسم الفاعل والمستودع مفعول أى فمنكم قار ومنكم مستودع لانّ الاستقرار من الله تعالى دون الاستيداع لانّ الاستقرار فى الاصلاب أو فوق الارض لا صنع للعبد فيه بخلاف الاستيداع فى الارحام أو تحت الارض والباقون بالنصب (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) أى يفهمون ما يقال لهم ذكر مع ذكر النجوم يعلمون لانّ أمرها ظاهر وذكر مع تخليقه بنى آدم يفقهون لانّ انشاءهم من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة دقيق غامض يحتاج الى استعمال فطنة وتدقيق نظر (وهو الذى أنزل من السماء ماء) أى مطرا وهو من السحاب أو من جانب السماء وقيل انّ الله تعالى ينزله من السماء الى السحاب ثم من السحاب الى الارض (فأخرجنا به) أى بالماء وفى ذلك التفات حيث لم يقل فأخرج على وفق أنزل (نبات كل شئ) أى شئ ينبت وينمو من جميع أصناف النبات فالسبب واحد وهو الماء والمسببات صنوف متفرّقة كما قال تعالى تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل (فأخرجنا منه) أى من النبات أو الماء (خضرا) أى شيأ أخضر يقال أخضر وخضر مثل أعور وعور والاخضر هو جميع البقول والزروع والبقول الرطبة (نخرج منه)

أى الخضر (حبامتراكبا) أى يركب بعضه بعضا كسنابل الحنطة والشعير والارز والذرة وقوله تعالى (ومن النخل) خبر مقدم ويبدل منه (من طلعها) وهو أول ما يخرج منها والمبتدأ (قنوان) أى عراجين (دانية) أى قريبة من المتناول ينالها القائم والقاعد أو قريب بعضها من بعض وانما اقتصر على ذكرها عن مقابلها وهى البعيدة لدلالتها عليها كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر أى والبرد وا كتفى بذكر أحدهما وحكمة تخصيص دانية بالذكر زيادة النعمة فيها وقوله تعالى (وجنات) عطف على نبات كل شئ أى وأخرجنا به بساتين (من أعناب) وقوله تعالى (والزيتون والرمان) عطف أيضا على نبات أى وأخرجنا به شجر الزيتون والرمان (مشتبها وغير متشابه) قال قتادة معناه مشتبها ورقها مختلفا ثمرها لان ورق الزيتون يشبه ورق الرمان وقيل مشتبها فى النظر مختلفا فى الطعم والله سبحانه ذكر فى هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع وقدم الزرع على سائر الاشجار لان الزرع غذاء وثمار الاشجار فواكه والغذاء مقدم على الفواكه وقدم النخل على غيرها لان ثمرها يجرى مجرى الغذاء وفيها من المنافع والخواص ما ليس فى غيرها من الاشجار قال بعضهم وليس لنا أنثى من الشجر تحتاج الى ذكر غير النخل أى فى تطييب ثمرها وذكر العنب عقب النخل لانه من أشرف أنواع الفواكه ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة والنفع ثم ذكر بعده الرمان لما فيه من المنافع أيضا (انظروا) أيها المخاطبون نظر اعتبار (الى ثمره) قرأ حمزة والكسائى بضم الثاء والميم والباقون بالنصب وهو جمع ثمرة كشجرة وشجر وخشبة وخشب (اذا أثمر) أى حين يبدو من أكمامه ضعيفا قليل النفع أوعديمه (و) انظروا الى (ينعه) أى الى ادراكه اذا أدرك وحان قطفه كيف يصير أنفع وألذ والمعنى انظروا نظر استدلال واعتبروا كيف أخرج الله هذه الثمرة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة وهو قوله تعالى (ان فى ذلكم لآيات) أى دلالات على قدرته تعالى على البعث وغيره فان حدوث الاجناس المختلفة والانواع المتفننة من أصل واحد ونقلها من حال الى حال لا يكون الا باحداث قادر يعلم تفاصيلها ويرجح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه أو ضد يعانده وخص المؤمنين بالذكر بقوله (لقوم يؤمنون) لانهم المنتفعون بها بخلاف الكافرين ولذلك عقبه بتوبيخ من أشرك به والرد عليه فقال تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) أى الشياطين لانهم أطاعوهم فى عبادة الاوثان فجعلوهم شركاء الله (فان قيل) لله مفعول ثان لجعلوا وشركاء مفعول أول ويبدل منه الجن فما فائدة التقديم (أجيب) بأن فائدته استعظام أن يتخذ لله شريك من جن أو انس أو ملك فلذلك قدم اسم الله تعالى على الشركاء وقيل المراد بالجن الملائكة بأن عبدوهم وقالوا الملائكة بنات الله وسماهم جنا لاجتنانهم تحقيرا لشأنهم وقال الكلبى نزلت فى الزنادقة أثبتوا الشركة لابليس فى الخلق فقالوا الله خالق النور والناس والدواب والانعام وابليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب فيقولون هو شريك الله فى تدبير هذا العالم فما كان من خير فمن الله وما كان من شر فمن ابليس تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا وقوله تعالى (وخلقهم) حال بتقدير قد والضمير اما أن يعود الى الجن فيكون المعنى والله خلق الجن فكيف

يكون شريك الله عز وجل محدثا مخلوقا واما أن يعود الى الجاعلين لله شركاء فيكون المعنى وجعلوا لله الذى خلقهم شركاء لا يخلقون شيأ وهذا كالدليل القاطع بأن المخلوق لا يكون شريكا لله وكل ما فى الكون محدث مخلوق والله تعالى خالق لجميع ما فى الكون فامتنع أن يكون لله شريك فى ملكه (وخرقوا) قرأه نافع بتشديد الراء والباقون بالتخفيف أى اختلقوا (له بنين وبنات بغير علم) وهو قول أهل الكتابين فى المسيح وعزير وقول قريش فى الملائكة يقال خلق الافك وخرقه واختلقه واخترقه بمعنى وسئل الحسن عنه فقال كلمة عربية كانت العرب تقولها كان الرجل اذا كذب كذبة فى نادى القوم يقول له بعضهم قد خرقها والله (سبحانه) تنزيها له (وتعالى عما يصفون) بأن له شريكا أو ولدا (بديع السموات والارض) أى مبتدعهما من غير سبق مثال ورفع بديع على الخبر والمبتدأ محذوف أى هو بديع أو على الابتداء والخبر (أنى يكون له ولد) أى من أين يكون له ولد (ولم تكن له صاحبة) يكون منها الولد لان الولد لا يكون الا من صاحبة أنثى (وخلق كل شئ) أى من شأنه أن يخلق (وهو بكل شئ عليم) لا تخفى عليه خافية وفى الآية استدلال على نفى الولد من وجوه الاول انه مبدع السموات والارض وهى أجسام عظيمة من جنس ما يوصف بالولادة لكونها مخلوقة لا يستقيم أن توصف بالولادة لاستمرارها وطول مدتها ومخترع الاجسام لا يكون جسما حتى يكون والدا الثانى أن الولادة لا تكون الا من ذكر وأنثى مجانسين وهو متعال عن مجانس فلم يصح ان تكون له صاحبة فلم تصح الولادة والثالث أنه ما من شئ الا وهو خالقه والعالم به ومن كان بهذه الصفة كان غنيا عن كل شئ والولد انما يطلبه المحتاج وقوله تعالى (ذلكم) اشارة الى الموصوف بما سبق من الصفات وهو مبتدأ وقوله تعالى (الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شئ) أخبار مترادفة ويجوز أن يكون البعض فى غير الله تعالى بدلا أو صفة لان الله تعالى أول وليس بصفة والبعض خبرا وقوله تعالى (فاعبدوه) مسبب عن مضمون ذلك فان من استجمع هذه الصفات استحق العبادة (وهو على كل شئ وكيل) أى وهو مع تلك الصفات مالك لكل شئ من الارزاق والآجال رقيب على الاعمال فيجازى عليها (لا تدركه الابصار) جمع بصر وهى حاسة النظر وقد يقال للعين من حيث انها محلها والادراك احاطة بكنه الشئ وحقيقته وتمسك بظاهر هذه الآية قوم من أهل البدع وهم الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة وقالوا ان الله تبارك وتعالى لا يراه أحد من خلقه وان رؤيته مستحيلة عقلا لان الله تعالى أخبر أن الابصار لا تدركه وادراك البصر عبارة عن الرؤية اذ لا فرق بين قولك أدركته ببصرى ورأيته ببصرى فثبت بذلك ان لا تدركه الابصار بمعنى لا تراه الابصار وهذا يفيد العموم ومذهب أهل السنة ان المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفى الجنة واستدلوا لمذهبهم بأشياء من الكتاب والسنة واجماع الصحابة ومن بعدهم من السلف فمن الكتاب قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ففى هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وقال تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون قال الشافعى رضى الله تعالى عنه حجب قوما بالمعصية وهى الكفر فثبت أن قوما يرونه بالطاعة وهى الايمان وقال مالك

قوله وهى اجسام عظيمة من جنس الخ عبارة البيضاوى وهى مع أنها من جنس ما يوصف بالولادة مبرأة عنها لاستمرارها الخ اه

رضى الله تعالى عنه لولم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الله تعالى الكفار بالحجاب وقال تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وهذه الزيادة مفسرة بالنظر الى الله تعالى يوم القيامة ومن السنة ماروى عن جرير بن عبدالله البجلى رضى الله تعالى عنه قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الى القمر ليلة البدر فقال انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لاتضامون فى رؤيته فان استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومنها أن ناسا قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تضامون فى القمر ليلة البدر أى هل تشكون قالوا لا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكم ترونه كذلك وعن أبى رزين العقيلى رضى الله عنه قال قلت يارسول الله أكلنا يرى ربه مخليا به يوم القيامة قال نعم قلت وما آية ذلك من خلقه قال ياأبارزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخليا به قلت بلى قال فالله أعظم انما هو خلق من خلق الله أى القمر فالله أعظم وأجل واحتج أهل السنة أيضا على جواز رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة بقول كليم الله موسى عليه السلام رب أرنى أنظر اليك اذ لا يسأل نبى مالا يجوز أو يمتنع وقد علق الله تعالى الرؤية على استقرار الجبل بقوله تعالى فان استقر مكانه فسوف ترانى واستقرار الجبل جائز والمعلق على الجائز جائز وأما قول المتمسكين بظاهر الآية وان الادراك بمعنى الرؤية فممنوع لان الادراك هو الوقوف على كنه الشئ والاحاطة به والرؤية المعاينة وقد تكون المعاينة بلا ادراك قال الله تعالى فى قصة موسى عليه السلام قال أصحاب موسى انا لمدركون قال كلا وكان قوم فرعون قد رأوا قوم موسى ولم يدركوهم فنفى موسى عليه السلام الادراك مع ثبوت الرؤية فالله تعالى يصح أن يرى من غير ادراك ولا احاطة كما يعرف فى الدنيا ولا يحاط به قال تعالى ولا يحيطون به علما فنفى الاحاطة مع ثبوت العلم قال سعيد بن المسيب لاتحيط به الابصار وقال عطاء كلت أبصار المخلوقين عن الاحاطة به وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ومقاتل لاتدركه الابصار فى الدنيا وهو يرى فى الآخرة وظاهر هذا التسوية بين الادراك والرؤية ويدل على هذا التخصيص قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فقوله ناظرة مقيد بيوم القيامة ويكون هذا جمعا بين الآيتين (وهو يدرك الابصار) أى يراها أو يحيط بها علما فلا يخفى عليه شئ ولا يفوته شئ (وهو اللطيف الخبير) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما اللطيف بأوليائه الخبير بهم وقال الزهرى اللطيف الرفيق بعباده وقيل اللطيف الموصل الشئ بالرفق واللين وقيل اللطيف الذى ينسى العباد ذنوبهم لئلا يخجلوا (قد جاءكم بصائر) جمع بصيرة أى حجج (من ربكم) تبصرون بها الهدى من الضلالة والحق من الباطل (فمن أبصر) أى عمل بالادلة (فلنفسه) أى خاصة ابصاره لانه خلصها من الضلال الى الهدى (ومن عمى) أى لم يهتد بالادلة (فعليها) أى خاصة عماه لانه يضل فلا يبصر الا نفسه (وما أنا عليكم بحفيظ) أى برقيب لاعمالكم وانما أنا منذر والله تعالى هو الرقيب عليكم يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها (وكذلك) أى كما بينا ما ذكر (نصرف) أى نبين (الآيات) من حال

الى حال فى المعانى المتنوعة سالكين من وجوه البراهين بما يفوت القوى ويعجز القدر ليعتبروا (وليقولوا) اعتذارا عند ظهور عجزهم (دارست) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بألف بين الدال والراء أى ذاكرت أهل الكتاب والباقون بغير ألف أى درست كتب الماضين وجئت بهذا منها وقرأ ابن عامر بفتح السين وسكون التاء من الدروس أى هذه الآيات التى تتلوها علينا قديمة قد درست وانمحت كقولهم أساطير الاولين وقيل اللام فيه لام العاقبة أى عاقبة أمرهم أن يقولوا دارست أى قرأت على غيرك وقيل قرأت كتب أهل الكتاب كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا (ولنبينه) أى الآيات وذكر الضمير لانها فى معنى القرآن كأنه قيل وكذلك نصرّف القرآن أو القرآن وان لم يجر له ذكر لكونه معلوما أو الى التبيين الذى هو مصدر الفعل كقولهم ضربته زيدا (لقوم يعلمون) فانهم المنتفعون به وقوله تعالى (اتبع) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى اتبع يا محمد (ما أوحى اليك) أى القرآن فالزم العمل به ثم أكد مدحه بقوله (من ربك) أى المحسن اليك بهذا البيان وقوله تعالى (لا اله الا هو) اعتراض أكد به ايجاب الاتباع لما فى كلمة التوحيد من التمسك بحبل الله والاعتصام به والاعراض عما سواه وقول البيضاوى أو حال مؤكدة من ربك بمعنى منفردا فى الالوهية مبنى على جواز تأكيد الجملة الفعلية بالاسمية وهو نادر (وأعرض عن المشركين) ولا تحتفل بأقوالهم ولا تلتفت الى رأيهم ومن جعله منسوخا بآية السيف حمل الاعراض على ما يعم الكف عنهم (ولو شاء الله) ايمانهم وعدم اشراكهم (ما أشركوا) وهذا نص صريح فى أن شركهم كان بمشيئة الله تعالى خلافا للمعتزلة فى قولهم لم يرد الله من أحد الكفر والشرك والآية ترد عليهم (وما جعلناك عليهم حفيظا) أى رقيبا فتجازيهم بأعمالهم (وما أنت عليهم بوكيل) أى فتجبرهم على الايمان وهذا قبل الامر بالقتال (ولا تسبوا الذين يدعون) أى يعبدون (من دون الله) وهى الاصنام أى ولا تذكروا آلهتهم التى يعبدونها بما فيها من القبائح (فيسبوا الله عدوا) أى اعتداء وظلما (بغير علم) أى جهلا منهم بالله وبما يجب أن يذكر به روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يطعن فى آلهتهم فقالوا لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون الهك فنزلت وقال السدى لما حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فانا نستحيى أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان يمنعه عمه فلما مات قتلوه فانطلق أبو سفيان وأبو جهل وأبى بن خلف ومعهم جماعة الى أبى طالب فقالوا يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وان محمدا قد اذانا وآلهتنا فنحب أن تدعوه وتنهاه عن ذكر آلهتنا وندعه والهه فطلبه وقال هؤلاء قومك وبنو عمك يقولون نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك والهك وقد أنصفك قومك فاقبل منهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان أعطيتكم هذا هل أنتم معطى كلمة ان تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم فقال أبو جهل نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها فما هى قال قولوا لا اله الا الله فأبوا ونفروا فقال أبو طالب قل غيرها يا ابن أخى فقال يا عم ما أنا بالذى أقول غيرها فقالوا لتكفن عن سبك آلهتنا أو لنشتمنك ومن يأمرك فنزلت وقيل كان المسلمون يسبونها

فنهوا لئلا يكون سبهم سببا لسب الله تعالى وفيه دليل على أن الطاعة اذا أدّت الى معصية راجحة وجب تركها فان ما يؤدى الى الشر شر (كذلك) أى كما زينا لهؤلاء ما هم عليه من عبادة الاوثان وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان (زينا لكل أمة عملهم) أى من الخير والشر باحداث ما يمكنهم منه ويحملهم عليه توفيقا وتخذيلا وفى هذه الآية دليل على تكذيب القدرية والمعتزلة حيث قالوا لا يحسن من الله تعالى خلق الكفر وتزيينه فهو الفعال لما يريد لا يسئل عما يفعل (ثم الى ربهم مرجعهم) فى الآخرة (فينبئهم بما كانوا يعملون) فى الدنيا فيجازيهم به (وأقسموا) أى كفار مكة (بالله جهد أيمانهم) أى غاية اجتهادهم فيها (لئن جاءتهم آية) أى مما اقترحوه (ليؤمنن بها) روى أن قريشا قالوا يا محمد انك تخبرنا ان موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فينفجر منه الماء اثنتى عشرة عينا وتخبرنا ان عيسى كان يحيى الموتى فأتنا من الآيات حتى نصدقك فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أى شئ تحبون قالوا تجعل لنا الصفا ذهبا وتبعث لنا بعض أمواتنا حتى نسأله عنك أحق ما تقول أم باطل وأرنا الملائكة يشهدون لك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فعلت بعض ما تقولون أتصدقونى قالوا نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين وسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يجعل الصفا ذهبا فجاء جبريل عليه السلام فقال يا رسول الله لك ما شئت ان شئت أصبح ذهبا ولكن ان لم يصدقوا ليعذبنهم الله وان شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يتوب تائبهم فنزلت قال الله تعالى (قل) لهم (انما الآيات عند الله) ينزلها كيف يشاء وانما أنا نذير (وما يشعركم) أى وما يدريكم أيها المسلمون بايمانهم اذا جاءت فانهم كانوا يتمنون مجىء الآية طمعا فى ايمانهم أى أنتم لا تدرون ذلك (انها اذا جاءت لا يؤمنون) لما سبق فى علمى وقرأ أبو عمرو بسكون الراء وروى عن الدورى اختلاس الضم وكسر الهمزة من انها ابن كثير وأبو عمرو على الابتداء وقالا تم الكلام عند قوله تعالى وما يشعركم والباقون بالفتح فهى بمعنى لعل وهو شائع فى كلام العرب ائت السوق أنك تشترى لنا شيأ بمعنى لعلك ومنه قول عدى بن زيد

أعاذل ما يدريك أن منيتى * الى ساعة فى اليوم أو فى ضحى غد

أى لعل منيتى وقرأ ابن عامر وحمزة لا تؤمنون بالتاء خطابا للكفار والباقون بالياء على الغيبة (ونقلب أفئدتهم) أى ونحول قلوبهم عن الحق فلا يفقهونه (و) نقلب (أبصارهم) عن الحق فلا يبصرونه فلا يؤمنون لان الله تعالى اذا صرف القلوب والابصار عن الايمان بقيت على الكفر (كما لم يؤمنوا به) أى بما أنزل من الآيات (أول مرة) أى التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر وغيره من المعجزات الباهرات وقيل معجزات موسى وغيره من الانبياء عليهم الصلاة والسلام كقوله تعالى أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان المرة الاولى دار الدنيا أى لو ردوا من الآخرة الى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الايمان كما لم يؤمنوا فى الدنيا قبل مماتهم كما قال تعالى ولو ردوا لعادوا

لما نهوا عنه (ونذرهم) أى نتركهم (فى طغيانهم) أى ضلالهم (يعمهون) أى يترددون متحيرين
لانه ديهم هداية المتقين (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى) كما اقترحوا (وحشرنا) أى
جمعنا (عليهم كل شئ قبلا) قرأ نافع وابن عامر بكسر القاف وفتح الباء أى معاينة فشهدوا
بصدقك والباقون بضم القاف والباء جمع قبيل أى فوجا فوجا (ما كانوا ليؤمنوا) لما سبق فى علم
الله وقوله تعالى (الا أن يشاء الله) استثناء منقطع أى لكن ان شاء الله ايمانهم فيؤمنون أو
استثناء من أعم الاحوال أى لا يؤمنون فى حال الاحال مشيئة الله تعالى ايمانهم (ولكن أكثرهم
يجهلون) أى انهم لو أتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون ولذلك
أسند الجهل الى أكثرهم لان بعضهم معاند مع ان مطلق الجهل يعمهم فيشمل المعاند أو لكن
أكثر المسلمين يجهلون انهم لا يؤمنون فيتمنون نزول الآية طمعا فى ايمانهم (وكذلك) أى ومثل
ما جعلنا لك أعداء من كفار الانس والجن (جعلنا لكل نبى) أى ممن كان قبلك (عدوا) ويبدل
منه (شياطين) أى مردة (الانس والجن) وفى هذا دليل على أن عداوة الكفرة للانبياء عليهم
الصلاة والسلام بفعل الله تعالى وخلقه (يوحى) أى يوسوس (بعضهم) أى الشياطين من النوعين
(الى بعض زخرف القول) أى مموهه من الباطل (غرورا) أى لاجل أن يغروهم بذلك (ولو شاء
ربك) ايمانهم (ما فعلوه) أى هذا الذى أنبأتك به من عداوتهم وما تفرع عليها وفى هذا دليل ايضا
فذرهم) أى اترك الكفرة على أى حالة اتفقت (وما يفترون) من الكفر وغيره مما زين لهم
وهذا قبل الامر بالقتال وقوله تعالى (ولتصغى) عطف على غرورا ان جعل علة أى ولتميل ميلا
قويا (اليه) أى الزخرف الباطل (أفئدة) أى قلوب (الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى ليس
فى طبعهم الايمان بها لانها غيب وهم لبلادتهم واقفون مع وهمهم ولذلك استولت عليهم الدنيا
التى هى من أصل الغرور أو متعلق بمحذوف أى وليكون ذلك جعلنا لكل نبى عدوا والمعتزلة
لما اضطروا فيه قالوا اللام لام العاقبة وهو قول الزمخشرى فى كشافه ان اللام للصيرورة
(وليرضوه) أى الزخرف الباطل لانفسهم (وليقترفوا) أى يكتسبوا (ما هم مقترفون) من
الآثام فيعاقبوا عليها ونزل لما قال مشركو قريش للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل بيننا
وبينك حكما من أحبار اليهود وان شئت من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك بما فى كتابهم من
أمرك (أفغير الله) أى قل لهم يا محمد أفغير الله (ابتغى) أى أطلب (حكما) أى قاضيا بينى وبينكم
(وهو الذى أنزل اليكم الكتاب) أى الاكمل المعجز وهو هذا القرآن الذى هو تبيان لكل شئ
(مفصلا) أى مبينا فيه الحق من الباطل (والذين آتيناهم الكتاب) أى المعهود انزاله من
التوراة والانجيل والزبور (يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) لما عندهم به من البشارة فى كتبهم
ولما له من موافقتهم فى ذكر الاحكام المحكمة والمواعظ الحسنة وكثرة ذكر الله على وجوه
ترقق القلوب وتفيض الدموع وتصدع الصدور مع ما يزيد به على ما فى كتبهم من التفصيل بما فيهم
المعارف الالهية والمقامات الصوفية فى ضمن الاحكام السياسية وانما وصف جميعهم بالعلم
لان أكثرهم يعلمون ومن لم يعلم فهو متمكن بادنى تأمل وقيل المراد مؤمنو أهل الكتاب كعبد

الله بن سلام وأصحابه وقرأ ابن عامر وحفص بفتح النون وتشديد الزاى والباقون بسكون النون وتخفيف الزاى (فلا تكونن) يا محمد (من الممترين) أى الشاكين فى أن علماء أهل الكتاب يعلمون أن هذا القرآن حق وأنه منزل من عند الله وقيل فلا تكونن فى شك مما قصصنا فيكون من باب التعريض فانه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط وقيل الخطاب وان كان فى الظاهر للنبى صلى الله عليه وسلم الا أن المراد به غيره أى فلا تكونن أيها الانسان السامع لهذا القرآن فى شك انه منزل من عند الله لما فيه من الاعجاز الذى لا يقدر على مثله الا الله تبارك وتعالى (وتمت كلمات ربك) أى بلغت الغاية أخباره وأحكامه ومواعيده وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بغير ألف بين الميم والتاء والباقون بالالف (صدقا) فى الاخبار والمواعيد لا يقدر أحد أن يبدى فى شئ منها خدشا بخلاف ما عن مطابقة الواقع (وعدلا) أى فى الاقضية والاحكام ونصبهما على التمييز ويحتمل الحال والمفعول له (لا مبدل لكلماته) بنقض أو خلف بل كل ما أخبرت به فهو كائن لا محالة رضى من رضى وسخط من سخط وقيل المراد بالكلمات القرآن لا مبدل له لا يزيد فيه المغيرون ولا ينقصون (وهو السميع) لكل ما يقال (العليم) بكل ما يفعل (وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله) أى دينه وأكثر أهل الارض كانوا على الضلالة وقيل الارض مكة وذلك أن المشركين جادلوا النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى أكل الميتة فقالوا للمسلمين انكم تزعمون انكم تعبدون الله فكيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم فنزلت وقيل لا تطعهم فى اعتقاداتهم الفاسدة فانك ان تطعهم يضلوك عن سبيل الله أى يضلوك عن طريق الحق ومنهج الصدق ثم علل ذلك بقوله (ان) أى لانهم ما (يتبعون) فى مجادلتهم لك (الا الظن) وهو ظنهم ان آباءهم كانوا على الحق (وان) أى ما (هم الا يخرصون) اى يكذبون على الله عز وجل فيما ينسبون اليه كاتخاذ الولد وجعل عبادة الاوثان وصلة اليه وتحليل الميتة وتحريم البحائر ونحو ذلك (ان ربك هو) أى لا غيره (أعلم) أى عالم (من يضل عن سبيله وهو) أى لا غيره (أعلم) أى عالم (بالمهتدين) فيجازى كلا منهم بما يستحقه وقوله تعالى (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) مسبب عن انكار اتباع المضلين الذين يحرمون الحلال ويحللون الحرام والمعنى كلوا مما ذكر اسم الله تعالى على ذبحه ولا تأكلوا مما ذكر عليه اسم غيره تعالى أو مات حتف أنفه (ان كنتم بآياته مؤمنين) أى ان كنتم محققين الايمان فكلوا مما ذكر اسم الله عليه فان الايمان يقتضى استباحة ما أحله الله تعالى واجتناب ما حرمه (وما لكم) أى أى غرض لكم فى (ان لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) من الذبائح (وقد فصل) أى بين (لكم ما حرم عليكم) أى مما لم يحرم فى آية حرمت عليكم الميتة تفصيلا واضح البيان ظاهر البرهان وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم الفاء وكسر الصاد والباقون بفتحهما وقرأ نافع وحفص بفتح الحاء والراء والباقون بضم الحاء وكسر الراء (الا ما اضطررتم اليه) أى مما حرم عليكم فانه أيضا حلال حال الضرورة (وان كثيرا) من الذين يجادلونكم فى أكل الميتة ويحتجون عليكم فى ذلك بقولهم كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم (ليضلون بأهوائهم) أى بما تهوى أنفسهم من تحليل الميتة وغيرها وقرأ

عاصم وحمزة والكسائى بضم الياء والباقون بفتحها (بغير علم) يعتقدونه فى ذلك وقيل المراد بذلك عمرو بن لحى فمن دونه من المشركين لانه أول من بحر البحائر وسيب السوائب وأباح الميتة وغير دين ابراهيم صلى الله عليه وسلم (ان ربك هو أعلم بالمعتدين) أى الذين تجاوزوا الحق الى الباطل والحرام الى الحلال (وذروا) أى اتركوا (ظاهر الاثم وباطنه) أى ما أعلنتم به وما أسررتم به من الذنوب كلها وقيل المراد بظاهر الاثم افعال الجوارح وباطنه أفعال القلوب فيدخل فيه الحسد والكبر والعجب وارادة الشر للمسلين ونحو ذلك وقيل ظاهر الاثم الزناة فى الحوانيت وباطنه المرأة يتخذها الرجل صديقة فيأتيها سرا (ان الذين يكسبون الاثم) فى الدنيا بارتكاب المعاصى (سيجزون) فى الآخرة (بما كانوا يقترفون) أى يكسبون وظاهر هذا النص يدل على عقاب المذنب ومذهب أهل السنة انه اذا لم يتب فهو فى خطر المشيئة ان شاء عاقبه وان شاء عفا عنه بفضله امّا اذا تاب من الذنب توبة صحيحة لم يعاقب فانّ التائب من الذنب كمن لاذنب له (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) قال ابن عباس الآية فى تحريم الميتات وما فى معناها من المنخنقة وغيرها وقال عطاء الآية فى تحريم الذبائح التى كانوا يذبحونها على اسم الاصنام واختلف أهل العلم فى ذبيحة المسلم اذا لم يذكر اسم الله تعالى عليها فذهب قوم الى تحريمها سواء أترك التسمية عمدا أم نسيانا وهو قول ابن سيرين والشعبى واحتجوا بظاهر الآية وذهب قوم الى حلها مطلقا ويروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الشافعى وأحمد وذهب قوم الى أنه ان ترك التسمية عامدا لم تحل أو ناسيا حلت وهو مذهب مالك ومن قال بالاباحة مطلقا قال المراد من الآية الميتات وما ذبح على غير اسم الله بدليل قوله تعالى (وانه لفسق) أى ما ذكر عليه اسم غير الله كما قال تعالى فى آخر السورة قل لا أجد فيما أوحى الى محرما الى قوله أو فسقا أهل لغير الله به والضمير لما يجوز أن يكون للاكل الذى دل عليه لا تأكلوا واحتجوا أيضا فى اباحتها بما روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت قالوا يا رسول الله انّ هنا أقواما حديث عهدهم بشرك يأتوننا بلحمان فلاندرى أيذكرون اسم الله عليها أم لا قال اذكروا أنتم اسم الله وكلوا فلو كانت التسمية شرطا للاباحة لكان الشك فى وجودها مانعا من أكلها كالشك فى أصل الذبح (وانّ الشياطين ليوحون) أى يوسوسون (الى أوليائهم) من الكفار (ليجادلوكم) فى تحليل الميتة بقولهم تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم وتدعون ما قتله الله وهذا يؤيد التأويل بالميتة (وان أطعتموهم) أى باستحلال ما حرم (انكم لمشركون) أى مثلهم فى الشرك قال الزجاج فيه دليل على أنّ كل من أحل شيأ مما حرم الله أو حرم شيأ مما أحل الله فهو مشرك (أومن كان ميتا) أى بالكفر (فأحييناه) أى بالايمان وانما جعل الكفر موتا لانه جعل الايمان حياة لانّ الحى صاحب بصر يهتدى به الى رشده ولما كان الايمان يهدى الى الفوز العظيم والحياة الابدية شبه بالحياة وقرأ نافع بتشديد الياء والباقون بالتخفيف (وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس) أى يتبصر به الحق من غيره وهو الايمان وقال قتادة هو كتاب الله القرآن بينة من الله مع المؤمن بها يعمل وبها يأخذ واليها ينتهى (كمن مثله) أى كمن هو

(فى الظلمات) مثل زائدة (ليس بخارج منها) وهو الكافر أى ليس مثله نزلت هذه الآية فى حمزة ابن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه وأبى جهل بن هشام وذلك ان أبا جهل رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بفرث فاخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس وحمزة لم يؤمن بعد فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس وهو يقول يا أبا يعلى ماترى ماجاء به سفه عقولنا وسفه آلهتنا وخالف آباءنا فقال حمزة ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وقيل فى عمر بن الخطاب أو عمار بن ياسر وأبى جهل (كذلك) أى كما زين للمؤمنين ايمانهم (زين للكافرين ما كانوا يعملون) أى من الكفر والمعاصى قال أهل السنة المزين هو الله تعالى ويدل عليه قوله تعالى زينا لهم أعمالهم وقالت المعتزلة المزين هو الشيطان ورد بالآية المذكورة (وكذلك) أى كما جعلنا فساق أهل مكة أكابرها (جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها) أى عظماءها وأكابر جمع أكبر كأفضل وأفاضل وأسود وأساود وذلك سنة الله تعالى انه جعل فى كل قرية اتباع الرسل ضعفاءهم كما قال فى قصة نوح أنؤمن لك واتبعك الارذلون وجعل فساقهم أكابرهم (ليمكروا فيها) بالصد عن الايمان وذلك انهم أجلسوا على طرق مكة أربع نفر ليصرفوا الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم يقولون لكل من يقدم اياكم وهذا الرجل فانه كاهن ساحر كذاب فكان هذا مكرهم (وما يمكرون الا بأنفسهم) لان وباله يحيق بهم (وما يشعرون) أى وما لهم نوع شعور بذلك (واذا جاءتهم) أى أهل مكة (آية) على صدق النبى صلى الله عليه وسلم (قالوا لن نؤمن) به (حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) أى من النبوة وذلك ان الوليد بن المغيرة قال للنبى صلى الله عليه وسلم لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك لانى أكبر منك سنا وأكثر منك مالا فنزلت وقال مقاتل نزلت فى أبى جهل حين قال زاحمنا بنو عبد مناف فى الشرف حتى اذا صرنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يوحى اليه والله لا نرضى الا أن يأتينا وحى كما يأتيه وقوله تعالى (الله اعلم حيث يجعل رسالاته) استئناف للرد عليهم بأن النبوة ليست بالنسب والمال وانما هى بفضائل نفسانية يخص الله بها من يشاء من عباده فيجتبى لرسالته من علم أنه يصلح لها وحيث مفعول به لفعل محذوف دل عليه أعلم لان أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به أى يعلم الموضع الصالح لوضعها فيه فيضعها وهؤلاء ليسوا أهلا لها وقرأ ابن كثير وحفص بنصب التاء ورفع الهاء ولا ألف قبل التاء على التوحيد والباقون بكسر التاء والهاء وألف قبل التاء على الجمع (سيصيب الذين أجرموا) بقولهم ذلك (صغار) أى ذل وهوان (عند الله) يوم القيامة وقيل تقديره من عند الله (وعذاب) أى مع الصغار (شديد) اى فى الدنيا بالقتل والاسر وفى الآخرة بالنار (بما) أى بسبب ما (كانوا يمكرون) من صدهم الناس عن الايمان وطلبهم ما لا يستحقونه (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) بأن يقذف فى قلبه نورا فينفسح له ويقبله ولما نزلت هذه الآية سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال نور يقذفه الله فى قلب المؤمن ينشرح له قلبه وينفسح قيل فهل لذلك أمارة قال نعم الانابة الى

دار

دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقى الموت (ومن يرد) أى الله (أن يضله يجعل صدره ضيقا) أى عن قبول الايمان حتى لا يدخله وقرأ ابن كثير بسكون الياء والباقون بتشديدها مع الكسر وقوله تعالى (حرجا) قرأه نافع وأبو بكر بكسر الراء أى شديد الضيق والباقون بالفتح وصفا بالمصدر وفى الآية دليل على أن جميع الاشياء بمشيئة الله وارادته حتى ايمان المؤمن وكفر الكافر (كأنما يصعد فى السماء) أى يشق عليه الايمان كما يشق عليه صعود السماء شبهه مبالغته فى ضيق صدره بمن يزاول ما لا يقدر عليه وقرأ ابن كثير بسكون الصاد وتخفيف العين من غير ألف بعد الصاد وقرأ شعبة بتشديد الصاد وتخفيف العين وألف بعد الصاد بمعنى يتصاعد (كذلك) أى مثل ما جعل الله الرجس على من أراد ضلاله من أهل هذا الزمان (يجعل الله الرجس) أى العذاب أو الشيطان أى يسلطه (على الذين لا يؤمنون) وقال الزجاج الرجس فى الدنيا اللعنة وفى الآخرة العذاب (وهذا) أى الدين الذى أنت عليه يا محمد (صراط) أى طريق (ربك مستقيما) لا عوج فيه ونصبه على الحال المؤكدة للجملة والعامل فيها معنى الاشارة (قد فصلنا) أى بينا (الآيات لقوم يذكرون) فيه ادغام التاء فى الاصل فى الذال أى يتعظون فيعلمون أن القادر على كل شئ هو الله عز وجل وأن كل ما يحدث من خير أو شر فهو بقضائه وقدره وخلقه وانه تعالى عالم بأحوال العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم وخصوا بالذكر لانهم المنتفعون (لهم) أى المتذكرين (دار السلام) هى الجنة وأضافها لنفسه فى قول جميع المفسرين فان السلام كما قال الحسن هو الله تعالى تشريفا لها أو تحيتهم فيها سلام أو أراد بها دار السلامة (عند ربهم) أى ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنهها غيره (وهو وليهم) أى المتكفل بتولى أمورهم ولا يكلهم الى أحد سواه (بما) أى بسبب ما (كانوا يعملون) من الاعمال الصالحة التى كانوا يتقربون بها اليه فى الدنيا (و) اذكر يا محمد (يوم نحشرهم) أى الخلق (جميعا) أى لا نترك منهم أحدا وقرأ حفص بالياء والباقون بالنون وقوله تعالى (يا معشر الجن) فيه حذف تقديره ويقال لهم يا معشر الجن والمعشر الجماعة والمراد من الجن الشياطين (قد استكثرتم من الانس) أى من اضلالهم واغوائهم حتى صار اكثرهم اتباعكم (وقال أولياؤهم) أى الذين أطاعوهم (من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض) أى انتفع الانس بتزيين الجن لهم الشهوات والجن بطاعة الانس لهم (وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا) أى ان ذلك الاستمتاع كان الى أجل معين ووقت محدود ثم ذهب وبقيت الحسرة والندامة قال الحسن الاجل الموت وقيل هو وقت البعث للحساب فى القيامة (قال) الله تعالى على لسان الملائكة لهؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض من الجن والانس (النار مثواكم) أى مأواكم (خالدين فيها) أى الى ما لا آخر له فان الجزاء من جنس العمل (الا ما شاء الله) أى من الاوقات التى ينقلون فيها من النار الى الزمهرير فقد روى انهم يدخلون واديا فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض فيتعاوون ويطلبون الرد الى الجحيم وقيل الا ما شاء الله قبل الدخول يعنى مدة بعثهم ووقوفهم للحساب وقال ابن عباس الاستثناء يرجع الى قوم سبق فى علم الله انهم يسلمون فيخرجون من النار قال البغوى فما بمعنى من

على هذا التأويل (ان ربك حكيم) في صنعه (عليم) بعواقب أمور خلقه وما هم صائرون اليه (وكذلك) أي كما متعنا عصاة الانس والجن بعضهم ببعض (نولي) من الولاية (بعض الظالمين بعضا) أي على بعض روي عن ابن عباس في تفسيرها هو ان الله تعالى اذا أراد بقوم خيرا ولى أمرهم خيارهم واذا أراد بقوم شرا ولى أمرهم شرارهم (بما) أي بسبب ما (كانوا يكسبون) من الكفر والمعاصي (يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) أي من مجموعكم وهم الانس اذ الرسل منهم خاصة ولكن لما جمع الجن مع الانس في الخطاب صح ذلك ونظيره قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فان ذلك يخرج من الملح دون العذب أو ان رسل الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسول فيبلغون قومهم كما قال تعالى واذ صرفنا اليك نفرا من الجن الآية وتعلق بظاهر الآية قوم فقالوا بعث الى كل من الثقلين رسل من جنسهم (يقصون عليكم آياتي) أي يخبرون بما أوحي اليهم من آياتي الدالة على توحيدي وتصديق رسلي (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) أي ويحذرونكم لقاء عذابي في يومكم هذا وهو يوم القيامة (قالوا شهدنا على أنفسنا) أي اعترفوا بأن الرسل قد أتتهم وبلغتهم رسالات ربهم وأنذرتهم لقاء يومهم هذا وانهم كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر قال الله تعالى (وغرتهم الحياة الدنيا) أي انما كان ذلك بسبب انهم غرتهم الحياة الدنيا ومالوا اليها (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) أي في الدنيا (فان قيل) كيف أقروا على أنفسهم بالكفر في هذه الآية وجحدوا في آية أخرى وهي قولهم والله ربنا ما كنا مشركين (أجيب) بتفاوت الاحوال والمواطن في ذلك اليوم المتطاول فيقرون في بعضها ويجحدون في بعض آخر (فان قيل) لم كرر شهادتهم على أنفسهم (أجيب) بأن الاولى حكاية لقولهم كيف يقولون وكيف يعترفون والثانية ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم فانهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات المخدجة وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم ان اضطروا الى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذيرا للسامعين عن مثل حالهم (ذلك) أي ارسال الرسل (أن) أي لاجل أن (لم يكن ربك مهلك القرى بظلم) أي بسبب ظلم ارتكبوه (وأهلها غافلون) أي لم يتنبهوا برسول يبين لهم (ولكل) أي من العاملين بطاعة أو معصية (درجات) أي جزاء (مما عملوا) أي من خير وشر ان كان خيرا فخير وان كان شرا فشر وانما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانخفاض كتفاضل الدرج (وما ربك بغافل عما يعملون) أي عن شئ يعمله أحد من الفريقين بل هو عالم بكل شئ من ذلك وبما يستحقه العامل من ثواب أو عقاب وقرأ ابن عامر بالتاء على تغليب الخطاب على الغيبة والباقون بالياء على الغيبة (وربك الغني) أي الغني المطلق عن كل عابد وعبادته فليعمل العامل لنفع نفسه أو ضرها (ذو الرحمة) أي التجاوز عن خلقه فمن رحمته ارسال الرسل وتأخير العذاب عن المذنبين لعلهم يتوبون ويرجعون (ان يشأ يذهبكم) يا أهل مكة بالاهلاك فيه وعيد وتهديد لهم (ويستخلف من بعدكم) أي بعد اهلاككم (ما يشاء) أي خلقا غيركم أمثل وأطوع منكم (كما أنشأكم من ذرية) أي نسل (قوم

آخرين)

آخرين) أذهبهم لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام ولكنه أبقاكم رحمة بكم (انما توعدون) من مجيء الساعة والبعث بعد الموت والحشر للحساب يوم القيامة (لآت) لا محالة (وما أنتم بمعجزين) أى فائتين عذابنا (قل) يا محمد لقومك من كفار قريش (يا قوم اعملوا على مكانتكم) أى حالتكم التى أنتم عليها (انى عامل) على حالتى التى انا عليها والمعنى اثبتوا على كفركم وعداوتكم لى فانى ثابت على الاسلام وعلى مصابرتكم والتهديد بصيغة الامر مبالغة فى الوعيد (فسوف تعلمون) غدا فى القيامة (من) موصولة مفعول العلم (تكون له عاقبة الدار) أى العاقبة المحمودة فى الدار الآخرة أنحن أم أنتم (انه لا يفلح) أى يسعد (الظالمون) أى الكافرون (وجعلوا) أى كفار مكة (لله مما ذرأ) أى خلق (من الحرث) أى الزرع (والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) وذلك أن المشركين كانوا يجعلون لله من حروثهم وانعامهم وثمارهم وسائر أموالهم نصيبا وللاوثان نصيبا فما جعلوه لله صرفوه الى الضيفان والمساكين وما جعلوه للاصنام أنفقوه على الاصنام وخدمها فان سقط شئ من نصيب الاوثان فيما جعلوه لله ردوه الى الاوثان وقالوا انها محتاجة وكان اذا هلك او انتقص شئ مما جعلوه لله لم يبالوا به واذا هلك شئ مما جعلوه للاصنام جبروه بما جعلوه لله فذلك قوله تعالى (فما كان لشركائهم) أى ما جعلوه لها من الحرث والانعام (فلا يصل الى الله) أى لجهته فلا يعطونه للمساكين ولا ينفقونه على الضيفان (وما كان لله فهو يصل الى شركائهم) وفى قوله تعالى مما ذرأ تنبيه على فرط جهالتهم فانهم أشركوا مع الخالق تعالى فى خلقه جمادا لا يقدر على شئ ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكى له وفى قوله تعالى بزعمهم تنبيه على ان ذلك مما اخترعوه لم يأمرهم الله تعالى به وقرأ الكسائى برفع الزاى والباقون بالنصب (ساء) أى بئس (ما يحكمون) حكمهم هذا (وكذلك) أى ومثل ما زين لجميع المشركين تضييع أموالهم والكفر بربهم شركاؤهم (زين لكثير من المشركين قتل أولادهم) أى بالوأد خشية الاملاق (شركاؤهم) من الجن أو من السدنة أى الخدمة وقرأ غير ابن عامر بفتح الزاى والياء ونصب لام قتل وكسر دال أولادهم وشركاؤهم بالواو ومضمومة الهمزة على أنه فاعل وقرأ ابن عامر بضم الزاى وكسر الياء ورفع لام قتل ونصب دال أولادهم وشركائهم بالياء مكسورة الهمزة باضافة القتل اليه مفصولا بينهما بمفعوله قال البيضاوى تبعا للزمخشرى وهو ضعيف فى العربية معدود من ضرورة الشعر اه وقد أنكر جماعة على الزمخشرى فى ذلك بأن القراءة المذكورة صحيحة متواترة وتركيبها صحيح فى العربية فلا يجوز الطعن فيها ولا فى ناقلها قال التفتازانى وهذا على عادته يطعن فى متواتر القراآت السبع ويسند الخطأ تارة اليهم كما هنا وتارة الى الرواية عنهم وكلاهما خطأ لان القراآت متواترة وكذا الروايات عنهم وأطال فى بيان ذلك وقال ابن مالك فى كافيته اضافة المصدر الى الفاعل مفصولا بينهما بمفعول المصدر جائزة فى الاختيار اذ لا محذور فيها مع ان الفاعل كجزء من عامله فلا يضر فصله واضافة القتل الى الشركاء لأمرهم (ليردوهم) أى ليهلكوهم بذلك الفعل الذى أمروهم به والارداء فى اللغة الاهلاك وقال ابن عباس ليردوهم

قوله مع أن الفاعل الخ فيه تأمل

في النار (وليلبسوا) أي وليخلطوا (عليهم دينهم) قال ابن عباس ليدخلوا عليهم الشك في دينهم وكانوا على دين ابراهيم واسمعيل عليهما الصلاة والسلام فوضعوا الهم هذه الاصنام وزينوها لهم (ولو شاء الله) عصمة هؤلاء من ذلك القبيح الذي زين لهم (مافعلوه) فجميع الاشياء بمشيئته وارادته (فذرهم) أي اتركهم يا محمد (وما يفترون) أي وما يختلقون من الكذب على الله فان الله لهم بالمرصاد وفي ذلك تهديد لهم كما مر (وقالوا) أي المشركون سفها وجهلا (هذه) اشارة الى قطعة من أموالهم عينوها لآلهتهم (أنعام وحرث حجر) أي حرام محجور عليه لا يصل أحد اليه وهو وصف يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لان حكمه حكم الاسماء غير الصفات (لا يطعمها) أي لا يأكل منها (الا من نشاء) أي من خدمة الاوثان والرجال دون النساء (بزعمهم) أي لا حجة لهم فيه (وانعام حرمت ظهورها) اى فلا يركبونها كالبحائر والسوائب والحوامي (وانعام لا يذكرون اسم الله عليها) أي عند ذبحها وانما كانوا يذكرون عليها اسم الاصنام وقيل لا يحجون عليها ولا يركبونها لفعل خير لان العادة لما جرت بذكر الله على الخير ذم هؤلاء على ترك فعل الخير ونسبوا ما فعلوه الى الله تعالى (افتراء عليه) أي اختلاقا وكذبا لانه أمرهم بها (سيجزيهم) أي بوعد صادق لاخلف فيه (بما) أي بسبب ما (كانوا يفترون وقالوا ما في بطون هذه الانعام) أي أجنة البحائر والسوائب وقوله تعالى (خالصة) حلال (لذكورنا) أي خاصة بهم دون الاناث كما قال تعالى (ومحرم على أزواجنا) أي النساء وحذف الهاء من محرم اما حملا على اللفظ أو تخفيفا لان المراد بخالصة المبالغة (وان يكن) أي ما في بطونها (ميتة فهم فيه شركاء) أي الذكور والاناث فيه سواء أي أن ما ولد منها حيا فهو للذكور دون الاناث وما ولد منها ميتا أكله الذكور والاناث جميعا وقرأ ابن عامر وشعبة بالتأنيث في تكن والباقون بالتذكير وقرأ ابن كثير وابن عامر ميتة بالرفع على أن تكن تامة والباقون بالنصب على أنها ناقصة (سيجزيهم) الله (وصفهم) أي سيكافئهم على وصفهم بالكذب على الله تعالى بالتحليل والتحريم (انه) أي الله (حكيم) في صنعه (عليم) بخلقه (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها) أي جهلا (بغير علم) نزلت في ربيعة ومضر وبعض من العرب من غيرهم كانوا يدفنون البنات أحياء مخافة السبي والفقر وكان بنو كنانة لا يفعلون ذلك وسبب حصول هذه السفاهة هو قلة العلم بل عدمه بأن الله هو رازق أولادهم لا هم لان الجهل كان غالبا عليهم قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا سموا الجاهلية وسبب هذا الخسران أن الولد نعمة عظيمة أنعم الله تعالى بها على الوالد فاذا تسبب في ازالة هذه النعمة وابطالها فقد استوجب الذم وخسر في الدنيا والآخرة أما خسارته في الدنيا فقد سعى في نقص عدده وازالة ما أنعم الله تعالى به عليه وأما خسارته في الآخرة فقد استوجب بذلك العذاب العظيم وقرأ أبو عمرو وابن عامر بتشديد التاء والباقون بالتخفيف (وحرموا ما رزقهم الله) وتفضل به عليهم رحمة لهم من تلك الانعام والغلات بغير شرع ولا نفع بوجه (افتراء) أي تعمدا للكذب (على الله) وهذا أيضا من أعظم الجهالة لان الجراءة على الله والكذب عليه من أعظم الذنوب والكبائر ولهذا قال تعالى (قد ضلوا) أي في فعلهم عن

قوله أو تخفيفا لان المراد الخ لا يخفى ما فيه وعبارة الكشاف وأنث خالصة للحمل على المعنى لان ما في معنى الاجنة وذكر محرم للحمل على اللفظ ونظيره ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك ويجوز ان تكون التاء للمبالغة مثلها في راوية الشعر وان تكون مصدرا وقع موقع الخالص كالعاقبة أي ذو خالصة ويدل عليه قراءة من قرأ خالصة بالنصب على ان قوله لذكورنا هو الخبر وخالصة مصدر مؤكد ولا يجوز ان يكون حالا متقدمة لان المجرور لا يتقدم عليه حاله وقرأ ابن عباس خالصه على الاضافة وفي مصحف عبد الله خالص اه

الحق والرشاد (وما كانوا مهتدين) أى الى طريق الحق والصواب فى فعلهم روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال اذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة فى سورة الانعام قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها الى قوله وما كانوا مهتدين وروى عن مهدى بن ميمون أنه قال سمعت ابا رجاء العطاردى يقول كنا نعبد الحجر فاذا وجدنا حجرا أحسن منه ألقيناه وأخذنا الآخر واذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به فاذا دخل شهر رجب قلنا منصل الاسنة فلا ندع رمحا فيه حديدة ولا سهما فيه حديدة الا نزعناه فألقيناه فى رجب (وهو الذى أنشأ) أى خلق (جنات) أى بساتين (معروشات) أى مبسوطات على الارض كالبطيخ والقثاء (وغير معروشات) بأن ارتفعت على ساق كالنخل وشجر الرمان وقال الضحاك كلاهما فى الكرم خاصة لان منه مايعرش بأن يبقى على وجه الارض منبسطا ومنه مالم يعرش بأن يرتفع على ساق وقيل المعروشات ماعرشه الناس فى البساتين واهتموا به فعرشوه من كرم وغيره وغير المعروشات هو ما أنبته الله تعالى فى البرارى والجبال من كرم أوشجر (و) أنشأ (النخل والزرع مختلفا أكله) أى ثمره وحبه فى الهيئة والطعم منها الحلو والحامض والجيد والردىء والضمير للزرع والباقى مقيس عليه أو للنخل والزرع داخل فى حكمه لكونه معطوفا عليه أو للجميع على تقدير كل ذلك أو كل واحد منها ومختلفا حال مقدرة لانه لم يكن كذلك عند الانشاء وقرأ نافع وابن كثير بجزم الكاف والباقون بالرفع (والزيتون والرمان متشابها) أى ورقهما (وغير متشابه) أى فى طعمهما وقيل متشابهين فى المنظر مختلفين فى الطعم * ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على عباده من خلق هذه الجنات المحتوية على أنواع الثمار ذكر ما هو المقصود الاصلى وهو الانتفاع بها فقال تعالى (كلوا من ثمره) أى كل واحد من ذلك (اذا أثمر) أى ولو قبل نضجه وهذا أمر اباحة وأما قوله تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده) فالامر فيه للوجوب والآية مدنية والحق هو الزكاة المفروضة والامر باتيانها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لا يؤخره عن أول وقت يمكن فيه الايتاء وليعلم ان الوجوب بالادراك لا بالتنقية وقيل الآية مكية والزكاة انما فرضت بالمدينة فالحق ما كان يتصدق به على المساكين يوم الحصاد وكان ذلك واجبا حتى نسخه افتراض العشر ونصف العشر وقرأ حمزة والكسائى برفع الثاء والميم من ثمره والباقون بنصبهما وقرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم بفتح حاء حصاده والباقون بكسرها ومعناهما واحد (ولا تسرفوا) أى باعطاء كله فلا يبقى لعيالكم شئ روى أن ثابت بن قيس صرم خمسمائة نخلة وقسمها فى يوم واحد ولم يترك لاهله شيأ فنزلت (انه لا يحب المسرفين) أى المتجاوزين ما حد لهم وفى ذلك وعيد وزجر عن الاسراف فى كل شئ قال مجاهد الاسراف ما قصرت به عن حق الله تعالى وقال لو كان أبو قبيس ذهبا لرجل أنفقه فى طاعة الله تعالى لم يكن مسرفا ولو أنفق درهما واحدا أو مدا فى معصية كان مسرفا وقوله تعالى (ومن الانعام) عطف على جنات أى وأنشأ من الانعام (حمولة) أى صالحة للحمل عليها كالابل الكبار والبغال (وفرشا) أى لا تصلح للحمل كالابل الصغار والعجاجيل والغنم سميت فرشا لانها كالفرش للارض لدنوها منها وقيل هو ما ينسج من وبره وصوفه وشعره للفرش (كلوا مما رزقكم الله) أى

مما أحله لكم من هذه الانعام والحرث (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى طرائقه فى التحليل والتحريم من عند أنفسكم كما فعل أهل الجاهلية وقرأ قنبل وابن عامر وحفص والكسائى بضم الطاء والباقون بالسكون (انه) أى الشيطان (لكم عدو مبين) أى بين العداوة وقوله تعالى (ثمانية أزواج) أى أصناف بدل من حمولة وفرشا والزوج لغة الفرد اذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه فيطلق لفظ الزوج على الواحد كما يطلق على الاثنين فيقال للذكر زوج وللانثى زوج (من الضأن) زوجين (اثنين) أى ذكر وأنثى والضان ذوات الصوف من الغنم والذكر ضائن والانثى ضائنة والجمع ضوائن (ومن المعز) زوجين (اثنين) أى ذكر وأنثى وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بفتح العين والباقون بالسكون والمعز والمعزى جمع لا واحد له من لفظه وهى ذوات الشعر من الغنم وقال البغوى جمع الماعز معيز وجمع الماعزة مواعز (قل) يا محمد ان حرم ذكور الانعام تارة واناثها أخرى وأولادها كيفما كانت ذكورا أو اناثا أو مختلطة تارة ونسبوا ذلك لله تعالى (آلذكرين) من الضأن والمعز (حرم) الله عليكم (أم الانثيين) منهما (أما) أى أم حرم ما (اشتملت) أى انضمت (عليه أرحام الانثيين) ذكرا كان أو أنثى (نبئونى) أى أخبرونى (بعلم) عن كيفية ذلك بأمر معلوم من جهة الله تعالى على تحريم ما حرمتم (ان كنتم صادقين) فى دعواكم والاستفهام للانكار والمعنى من أين جاء التحريم فان كان من قبل الذكورة فجميع الذكور حرام وان كان من قبل الانوثة فجميع الاناث حرام أو من قبل اشتمال الرحم فالزوجان حرام فمن أين التخصيص * (تنبيه) * اتفق القراء على أن فى همزة الوصل وهى التى بين همزة الاستفهام ولام التعريف وجهين وهما البدل والتسهيل والبدل هو مدها مبدلة والتسهيل هو ان تقصرها مسهلة (ومن الابل اثنين) ذكرا وأنثى (ومن البقر اثنين) كذلك (قل) يا محمد لهؤلاء الذين اختلفوا جهلا وسفها (آلذكرين حرم) الله عليكم (أم الانثيين) منهما (أما) أى أم حرم ما (اشتملت) أى انضمت (عليه أرحام) الانثيين ذكرا كان أو أنثى (أم كنتم) أى بل أكنتم (شهداء) أى حاضرين (اذ وصاكم الله بهذا) أى حين وصاكم بهذا التحريم اذ أنتم لا تؤمنون به فلا طريق لكم الى معرفة أمثال ذلك الا بالمشاهدة والسماع فكيف تثبتون هذه الاحكام وتنسبونها الى الله تعالى * ولما احتج عليهم بهذه الحجة وبين أنه لا سند لهم فى ذلك قال تعالى (فمن) أى لا أحد (أظلم ممن افترى) أى تعمد (على الله كذبا) كعمرو بن لحى فانه أول من بحر البحائر وسيب السوائب وغير دين ابراهيم عليه السلام ويدخل فى هذا الوعيد كل من كان على طريقته أو ابتدأ شيأ لم يأمر الله به ولا رسوله ونسب ذلك الى الله تعالى لان اللفظ عام فلا وجه للتخصيص فكل من أدخل فى دين الله ما ليس منه فهو داخل فى هذا الوعيد (ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدى القوم الظالمين) أى لا يرشد ولا يوفق من كذب عليه وأضاف اليه ما لم يشرع لعباده * ولما بين سبحانه وتعالى فساد طريقة أهل الجاهلية وما كانوا عليه من التحريم والتحليل من عند أنفسهم واتباع أهوائهم فيما أحلوه وحرموه من المطعومات أتبعه بالبيان الصحيح فى ذلك وبين أن التحريم والتحليل لا يكون الا بوحى سماوى وشرع نبوى فقال

قوله والمعز والمعزى جمع لا واحد له الخ الذى فى حاشية زاده أن معز بفتح العين وسكونها لغتان فى جمع ماعز وقد تقدم أن فاعلا يجمع تارة على فعل كابر وتجر وعلى فعل أخرى نحو خادم وخدم ويجمع أيضا على معزى اهـ

تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء الجهلة الذين يحللون ويحرمون من عند أنفسهم (لا أجد في ما أوحى الي محرما) أي طعاما محرما مما حرمتموه * (فائدة) * في ما أوحي الي في مقطوعة من ما في الرسم (على طاعم) أي طاعم كان من ذكر أو أنثى (يطعمه) أي يتناوله أكلا أو شربا أو دواء أو غير ذلك (الا أن يكون) أي ذلك الطعام (ميتة) وهي كل ما زالت حياته بغير ذكاة شرعية وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة تكون بالتأنيث والباقون بالتذكير ورفع ميتة ابن عامر على أن كان هي التامة وعلى هذه القراءة يكون قوله تعالى (أو دما مسفوحا) عطفا على أن مع ما في حيزه أي الا وجود ميتة أو دما مسفوحا أي مصبوبا كالدم في العروق لا كالكبد والطحال (أو لحم خنزير فانه) أي الخنزير (رجس) أي نجس فالضمير يعود على المضاف اليه لأن اللحم دخل في قوله ميتة وحينئذ ففي الآية دلالة على نجاسة الخنزير وهو حي فلحمه وكذا سائر أجزائه بطريق الأولى ثم اني رأيت البقاعي في تفسيره جرى على ذلك وقوله تعالى (أو فسقا أهل لغير الله به) أي ذبح على اسم غيره عطف على لحم خنزير وما بينهما اعتراض للتعليل * (تنبيه) * ظاهر الآية أن المحرمات محصورة في هذه الأربعة وأنه لا يحرم شيء من سائر المطعومات والحيوانات غيرها وهي الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما ذبح على اسم غير الله تعالى وروى ذلك عن ابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير رضي الله تعالى عنهم لأنه ثبت أنه لا طريق الى معرفة المحرمات الا بالوحي وثبت أن الله تعالى نص في هذه الآية على هذه الأربعة أشياء وقال تعالى في سورة البقرة انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله وانما تفيد الحصر فصارت هذه الآية المدنية مطابقة للآية المكية في الحكم ولكن الذي ذهب اليه جمهور العلماء أن التحريم لا يختص بهذه فقط بل المحرم ما كان بنص كتاب أو سنة وقد وردت السنة بتحريم أشياء غير ذلك منها تحريم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع أو مخلب من الطيور وورد النهي عن أكل الهر وأكل ثمنه ويحرم أيضا كل ما أمر بقتله كالحدأة والغراب الأبقع أو نهي عن قتله كالهدهد والخفاش وما لا نص فيه بتحريم أو تحليل أو بما يدل على أحدهما كالأمر بالقتل والنهي عنه ان استطابته عرب ذوو يسار وطباع سليمة حال رفاهية حل وان استخبثوه فلا يحل فان اختلفوا في استطابته اتبع الأكثر فان استووا فقريش لأنهم قطب العرب وفيهم الفتوة فان اختلفت أو لم تحكم بشيء اعتبر الأشبه به من الحيوانات فان استوى الشبهان أو لم يوجد ما يشبهه فحلال لهذه الآية وما جهل اسمه عمل بتسمية العرب له مما هو حلال أو حرام * ولما حرم الله تعالى هذه الأشياء أباحها كلها عند الاضطرار بقوله تعالى (فمن اضطر) أي حصل له جوع خشي منه التلف (غير باغ) أي على مضطر مثله (ولا عاد) أي ولا متجاوز قدر الضرورة وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي بضم النون في الوصل والباقون بالكسر (فان ربك غفور) لا يؤاخذه بالأكل (رحيم) به حيث أباح له ذلك (وعلى الذين هادوا) أي اليهود واليهود علم على قوم موسى عليه الصلاة والسلام وسموا به اشتقاقا من هادوا أي مالوا اما عن عبادة العجل واما عن دين موسى عليه السلام أو من هاد اذا رجع من خير الى شر أو من شر الى خير لكثرة انتقالهم عن مذاهبهم وقيل لأنهم يتهودون أي

يتحركون عند قراءة التوراة وقيل معرب من يهوذا بن يعقوب بالذال المعجمة ثم نسب اليه فقيل يهودى ثم حذف الياء فى الجمع فقيل يهود (حرمنا) أى بسبب ظلمهم عليهم (كل ذى ظفر) أى ماهو كالاصبع للآدمى من دابة أو طير وكان بعض ذوات الظفر حلالا لهم فلما ظلموا حرم عليهم ذم التحريم كل ذى ظفر بدليل قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم (ومن البقر والغنم) أى التى هى ذوات الاظلاف (حرمنا عليهم شحومهما) أى الصنفين والمراد شحم الجوف وهو الثروب قال الجوهرى هو شحم قد غشى الكرش والامعاء رقيق ثم استثنى من الشحوم ماذكره بقوله (الا ما حملت ظهورهما) أى الا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما (أو الحوايا) أى ما حملته الحوايا وهى الامعاء التى هى متعاطفة ملوية جمع حوية فوزنها فعائل كسفينة وسفائن وقيل جمع حاوية أو حاوياء كقاصعاء فهو فواعل (أو ما اختلط) أى من الشحوم (بعظم) مثل شحم الالية فان ذلك لا يحرم عليهم روى أنه صلى الله عليه وسلم قال عام الفتح وهو بمكة ان الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والاصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فانها تطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس فقال لا هو حرام أى بيعها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك قاتل الله اليهود ان الله تعالى لما حرم عليهم شحومهما أجملوه أى اذابوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه (ذلك) أى التحريم العظيم وهو تحريم الطيبات (جزيناهم) به (ببغيهم) أى بسبب مجاوزتهم الحدود (وانا لصادقون) أى فى الاخبار عما حرمنا عليهم وعن بغيهم (فان كذبوك) أى اليهود يا محمد فيما أخبرناك به عنهم (فقل) لهم (ربكم ذو رحمة واسعة) أى بتأخير العذاب عنكم فلم يعاجلكم بالعقوبة فى ذلك تلطفا بدعائهم الى الايمان (ولا يرد بأسه) أى عقابه (عن القوم المجرمين) اذا جاء وقته وقيل ذو رحمة واسعة للمطيعين وذو بأس شديد للمجرمين وقوله تعالى (سيقول الذين أشركوا) اخبار عن مستقبل ووقوع مخبره يدل على اعجازه ولما لزمتهم الحجة وتيقنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم مالم يحرمه الله قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ) أرادوا ان يجعلوا قولهم لو شاء الله ما أشركنا حجة لهم على اقامتهم على الشرك وقالوا ان الله قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن فيه حتى لا نفعله فلولا انه رضى ما نحن فيه واراده منا وأمرنا به لحال بيننا وبين ذلك فقال الله تعالى تكذيبا لهم (كذلك كذب الذين من قبلهم) أى من كفار الامم الماضية (حتى ذاقوا بأسنا) أى عذابنا ويستدل أهل القدر بهذه الآية يقولون انهم لما قالوا لو شاء الله ما أشركنا كذبهم الله ورد عليهم فقال كذلك كذب الذين من قبلهم وأجاب أهل السنة بأن التكذيب ليس فى قولهم لو شاء الله ما أشركنا بل ذلك القول صدق ولكن فى قولهم ان الله أمرنا بها ورضى ما نحن عليه كما أخبر تعالى عنهم فى سورة الاعراف واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها فالرد عليهم فى هذا كما قال تعالى قل ان الله لا يأمر بالفحشاء والدليل على أن التكذيب ورد فيما قلنا لا فى قولهم لو شاء الله ما أشركنا قوله تعالى كذب الذين من قبلهم بالتشديد ولو كان كذلك خبرا من الله عن كذبهم فى قولهم لو شاء الله ما أشركنا لقال كذب الذين من

قبلهم

قبلهم بالتخفيف وكان نسبهم الى الكذب لا الى التكذيب وقال الحسين بن الفضل لو ذكروا هذه المقالة تعظيما واجلالا لله تعالى ومعرفة منهم لما عابهم بذلك لان الله تعالى قال ولو شاء الله ما أشركوا وقال تعالى وما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله والمؤمنون يقولون ذلك ولكن المشركين قالوه تكذيبا وتعريضا وجدلا من غير معرفة بالله وبما يقولون نظيره قوله تعالى وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم قال الله تعالى ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون وقد علم من ذلك ان أمر الله تعالى بمعزل عن مشيئته وارادته فانه مريد لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد وعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته فان مشيئته لا تكون عذرا لاحد (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين ما ذكر (هل عندكم) أيها الجهلة (من علم) أى من أمر معلوم يصح الاحتجاج به على ما زعمتم من تحريم ما حرمتم وان الله راض بشرككم (فتخرجوه لنا) أى فتظهروه لنا وتبينوه لنا كما بينا لكم خطأكم (ان) أى ما (تتبعون) فى ذلك (الا الظن) أى فيما أنتم عليه ولا علم عندكم (وان أنتم الا تخرصون) أى وما أنتم فى ذلك كله الا تكذبون وتقولون على الله تعالى الباطل (قل) لهم حين عجزوا عن اظهار الحجة (فلله الحجة البالغة) أى التامة على خلقه بانزال الكتب وارسال الرسل قال الربيع بن أنس لا حجة لاحد عصى الله وأشرك به على الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده (فلو شاء) الله هدايتكم (لهداكم أجمعين) ولكنه لم يشأ ذلك بل شاء هداية بعض وضلال بعض آخر فوقع ذلك على الوجه الذى شاءه لا يسئل عما يفعل (قل) لهم (هلم) أى أحضروا (شهداءكم الذين يشهدون) لكم (ان الله حرم هذا) أى ما تقدم من تحريمهم الاشياء على أنفسهم ودعواهم أن الله أمرهم به وهلم اسم فعل لا يتصرف يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث عند الحجازيين وعند بنى تميم فعل يؤنث ويثنى ويجمع (فان شهدوا) أى فان تجرؤا على الشهادة كذبا (فلا تشهد معهم) أى فاتركهم ولا تسلم لهم فانهم على ضلال وليست شهادتهم مستندة الا الى الهوى (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) انما وضع المظهر موضع المضمر للدلالة على أن مكذب الآيات متبع الهوى لا غير وان متبع الحجة لا يكون الا مصدقا بها (و) لا تتبع أهواء (الذين لا يؤمنون بالآخرة) التى هى دار الجزاء فانهم لو جوزوها ما اجترؤا على ذلك (وهم بربهم يعدلون) أى يشركون فيجعلون له عديلا (قل) لهم (تعالوا) أى اقبلوا على (أتل) أى أقرأ (ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيأ) وذلك أنهم سألوا وقالوا أى الذى حرم الله فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم ذلك (فان قيل) ما معنى قوله تعالى حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به والمحرم هو الشرك لا ترك الشرك (أجيب) بأن موضع أن رفع أى هو أن لا تشركوا وقيل نصب واختلفوا فى وجهه فقيل معناه حرم عليكم ان تشركوا ولا صلة كقوله تعالى ما منعك أن لا تسجد أى ما منعك أن تسجد وقيل تم الكلام عند قوله حرم ربكم ثم قال عليكم ان لا تشركوا به شيأ على وجه الاغراء وقال الزجاج يجوز أن يكون هذا محمولا على المعنى أى أتل عليكم تحريم الشرك وجائز أن يكون على معنى أوصيكم أن لا تشركوا (وبالوالدين احسانا) أى فأحسنوا بهما احسانا ووضعه موضع النهى عن الاساءة اليهما للمبالغة وللدلالة

على أن ترك الاساءة فى شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما (ولا تقتلوا أولادكم من املاق) أى من أجل فقر تخافونه والمراد بالقتل وأد البنات وهن أحياء وكانت العرب تفعل ذلك فى الجاهلية فنهاهم الله تعالى عن ذلك وحرمه عليهم وقوله تعالى (نحن نرزقكم واياهم) منع لموجبية ما كانوا يفعلونه لاجله واحتجاج عليهم لان الله تعالى اذا تكفل برزق الوالد والولد وجب على الوالد القيام بحق الولد وتربيته والاتكال فى أمر الرزق على الله (ولا تقربوا الفواحش) أى سائر المعاصى (ما ظهر منها وما بطن) أى علانيتها وسرها وقيل المراد الزنا علانيته وسره وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا فى العلانية ولا يرون به بأسا فى السر فحرم الله عز وجل الزنا فى السر والعلانية وأجاب الاول بأن السبب اذا كان خاصا لايمنع من حمل اللفظ على العموم ثم صرح بالقتل لشدة أمره بالتخصيص بعد التعميم فقال (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله) عليكم قتلها (الا بالحق) وهى التى أبيح قتلها بردة أو قصاص أو زنا بعد احصان وهو الذى يوجب الرجم أو نحو ذلك قال صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا اله الا الله وانى رسول الله الا باحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة وقوله تعالى (ذلكم) اشارة الى ما ذكر مفصلا (وصاكم به) أى أمركم به وأوجبه عليكم (لعلكم تعقلون) أى تتدبرون ما فى هذه التكاليف من الفوائد والمنافع فان كمال العقل هو التدبر (ولا تقربوا مال اليتيم) أى بنوع من أنواع عمل فيه أو غيره (الا بالتى) أى بالخصلة التى (هى أحسن) بماله كحفظه وتنميته وتثميره ويستمر ذلك (حتى يبلغ أشده) وهو سن يبلغ به أوان حصول عقله عادة وهو البلوغ بالسن أو الاحتلام أو عقل يحصل به رشده وقيل الاشد من الثمانى عشر الى ثلاثين سنة وقيل الى أربعين وقيل الى ستين (وأوفوا) أى أتموا (الكيل والميزان بالقسط) أى العدل من غير تفريط ولا افراط (لا نكلف نفسا الا وسعها) أى طاقتها فى ايفاء الكيل والميزان لم يكلف المعطى أكثر مما وجب عليه ولا يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه حتى لا تضيق نفسه عليه بل أمر كل واحد منهما بما يسعه مما لا حرج عليه فيه وذكر عقب الامر معناه ان ايفاء الحق عسر فعليكم بما فى وسعكم وما وراء الوسع معفو عنه (واذا قلتم) أى فى حكم أو شهادة أو غير ذلك (فاعدلوا) فيه بالصدق (ولو كان) المقول له أو عليه (ذا قربى) أى من ذوى قرابتكم (وبعهد الله أوفوا) أى ما عهد اليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع (ذلكم) أى الذى ذكر فى هذه الآيات (وصاكم) بالعمل (به لعلكم تذكرون) أى تتعظون فتأخذون بما أمرتكم به وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد (وان هذا) الذى وصيتكم به (صراطى مستقيما) والاشارة فيه الى ما ذكر فى السورة فانها بأسرها فى اثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة وقرأ ابن عامر بتخفيف النون والباقون بالتشديد وكسر الهمزة حمزة والكسائى على الاستئناف وفتحها الباقون على تقدير اللام وفتح الياء من صراطى ابن عامر وسكنها الباقون وتقدم مذهب قنبل فى الصراط بالسين ومذهب خلف فى اشمام الصاد (فاتبعوه) أى بغاية جهدكم لانه الجامع للعباد على الحق الذى فيه كل خير

(ولا تتبعوا السبل) أى الطرق المخالفة لدين الاسلام (فتفرق) فيه حذف احدى التاءين أى فتميل (بكم) أى هذه الطرق المضلة (عن سبيله) أى طريقه التى ارتضاها العباده وبها أوصى (ذلكم) أى الامر العظيم من اتباعه (وصاكم به لعلكم تتقون) الضلال والتفرق عن الحق روى انه صلى الله عليه وسلم خط خطا ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه وقرأ وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه (ثم آتينا موسى الكتاب) أى التوراة (فان قيل) ثم للترتيب وايتاء موسى الكتاب كان قبل مجيء القرآن (أجيب) بأن ثم لترتيب الاخبار أى ثم أخبركم انا آتيناه موسى الكتاب فدخل ثم لترتيب الخبر لا لتأخير النزول وقوله تعالى (تماما) حال أى لم ينقص الكتاب عما يصلحهم شيأ (على) الوجه (الذى أحسن) أى أتى بالاحسان فأثبت الحسن وجمعه بما بين من الشرع و بما حى طوائف أهل الارض به من الاهلاك العام روى ان الله تعالى لم يهلك قوما هلاكا عاما بعد نزول التوراة وقيل تماما على المحسنين من قوم موسى فيكون الذى بمعنى من أى على من أحسن من قومه وكان فيهم محسن ومسيء وقيل الذى أحسن هو موسى عليه السلام أى اتماما للنعمة عليه لاحسانه بالعبادة أو الذى بمعنى ما أى ما أحسن وقوله تعالى (وتفصيلا) عطف على تماما أى وبيانا (لكل شئ) أى يحتاج اليه فى الدين (وهدى) أى فيه هدى من الضلالة (ورحمة) أى انزاله عليهم رحمة لهم (لعلهم) أى بنى اسرائيل (بلقاء ربهم) أى بالبعث والجزاء (يؤمنون) أى ليكون حالهم بعد انزال الكتاب لما يرون من حسن شرائعه ونخامة كلامه وجلالة أمره حال من يرجى وان يجدد الايمان فى كل وقت بلقاء ربه وليذكر دائما أنعم به عليهم من اخراجهم من مصر من العبودية والرق (وهذا) أى القرآن (كتاب) أى عظيم (أنزلناه) اليكم أى بلسانكم حجة عليكم (مبارك) أى كثير الخير والنفع والبركة (فاتبعوه) أى اتبعوا ما فيه من الاوامر والنواهى والاحكام (واتقوا) الكفر (لعلكم ترحمون) أى بواسطة اتباعه وهو العمل بما فيه ثم بين تعالى المراد من انزاله فقال (أن) أى كراهة ان (تقولوا انما أنزل الكتاب) أى التوراة والانجيل (على طائفتين من قبلنا) أى اليهود والنصارى (وان كنا) أى وقد كنا وان هى المخففة من الثقيلة ولذلك دخلت اللام الفارقة بينها وبين النافية فى خبر كان أى وانه كنا (عن دراستهم) قراءتهم لكتابهم قراءة مردودة (لغافلين) أى لانعرف حقيقتها ولا ثبت عندنا حقيتها ولا هى بلساننا (أو تقولوا) أى أيها العرب لم نكن عن دراستهم غافلين بل كنا عالمين بها ولكنه لا يجب اتباع الكتاب الاعلى المكتوب اليه فلم نتبعه و (لو أنا) أهلنا لما أهلوا له حتى (أنزل علينا الكتاب) أى جنسه (لكنا أهدى منهم) أى لما لنا من الاستعداد بوفور العقل وحدة الاذهان واستقامة الافكار واعتدال الامزجة والاذعان للحق (فقد جاءكم بينة من ربكم) أى القرآن فيه بيان وحجة واضحة تعرفونها على لسان رجل منكم تعرفون انه أولا كم بذلك (وهدى) من الضلالة لمن تدبره (ورحمة) أى وهو رحمة ونعمة أنعم بها عليكم فتأملوا فيه واعملوا به (فمن) أى لا أحد (أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف) أى أعرض (عنها) فضل وأضل (سنجزى الذين يصدفون

عن آياتنا) ولا يتوبون (سوء العذاب) أي شدته (بما كانوا يصدفون) أي بسبب اعراضهم (هل ينظرون) أي ما ينتظر هؤلاء المكذبون (الا أن تأتيهم الملائكة) أي لقبض أرواحهم أو بالعذاب وقرأ حمزة والكسائي بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث (أو يأتي ربك) أي أمره بالعذاب (أو يأتي بعض آيات) أي علامات (ربك) الدالة على الساعة كطلوع الشمس من مغربها وعن حذيفة والبراء بن عازب كنا نتذاكر الساعة اذ طلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما تذاكرون قلنا كنا نتذاكر الساعة فقال انها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات الدخان ودابة الارض وخسفا بالمشرق وخسفا بالمغرب وخسفا بجزيرة العرب والدجال وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى ونارا تخرج من عدن (يوم يأتي بعض آيات ربك) وهو طلوع الشمس من مغربها كما في حديث الصحيحين (لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل) صفة نفسا (أو) نفسا لم تكن (كسبت في ايمانها خيرا) أي طاعة لا ينفعها توبتها قال صلى الله عليه وسلم يد الله مبسوطتان لمسيء الليل ليتوب بالنهار ولمسيء النهار ليتوب بالليل حتى تطلع الشمس من مغربها وقال صلى الله عليه وسلم من تاب قبل ان تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه وقال صلى الله عليه وسلم ان الله جعل بالمغرب بابا مسيرة عرضه سبعون عاما للتوبة لا يغلق ما لم تطلع الشمس من قبله وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث اذا خرجن فلا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها (قل انتظروا) بعض هذه الاشياء (انا منتظرون) ذلك وحينئذ لنا الفوز عليكم ولكم الويل (ان الذين فرقوا دينهم) أي بددوه فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وافترقوا فيه قال صلى الله عليه وسلم افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية الا واحدة وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية الا واحدة وتفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية الا واحدة رواه أبو داود والترمذي والحاكم وصححاه وفي بعض الروايات قالوا من هم يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابي وقرأ حمزة بتخفيف الراء وألف قبلها والباقون بتشديدها ولا ألف (وكانوا شيعا) أي فرقا مختلفة وهم اليهود والنصارى في قول مجاهد وقتادة كأهل الكتاب فانهم ابتدعوا في دينهم بدعا أوصلتهم الى تكفير بعضهم بعضا فآمنوا ببعض الانبياء وكفروا ببعض وكالمجوس الذين فرقوا دينهم باعتقادان الاله اثنان النور والظلمة وعبدوا الاصنام والنجوم وجعلوا لكل نجم قسما يتوسل به في زعمهم اليه وقيل هم أهل البدع وأصحاب الاهواء من هذه الامة روى انه صلى الله عليه وسلم قال لعائشة يا عائشة ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أهل البدع وأصحاب الاهواء من هذه الامة وعن العرباض بن سارية قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح فوعظنا موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا قال أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وان كان عبدا حبشيا فانه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور فان كل محدثة بدعة وكل

بدعة

بدعة ضلالة وروى ان أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الامور محدثاتها (لست منهم في شيء) أي من السؤال عنهم فلا تتعرض لهم (انما أمرهم الى الله) يتولى جزاءهم (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) فيجازيهم به وهذا منسوخ بآية السيف (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) أي عشر حسنات أمثالها فضلا من الله تعالى (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها) أي جزاءها قضية للعدل (وهم لا يظلمون) أي بنقص الثواب وزيادة العقاب وماذكر في اضعاف الحسنات هو أقل ماعد من الاضعاف فقد قال صلى الله عليه وسلم اذا أحسن أحدكم اسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها حتى يلقى الله عزوجل وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله عزوجل من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد ومن جاء بالسيئة فله سيئة مثلها وأغفر ومن تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا ومن لقيني بقراب أهل الارض خطيئة لا يشرك بي شيأ لقيته بمثلها مغفرة وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى اذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فان عملها فاكتبوها بمثلها وان تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة وان عملها فاكتبوها بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وقال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما الآية في غير الصدقات من الحسنات فأما الصدقات فانها تضاعف سبعمائة ضعف (قل) يامحمد لهؤلاء المشركين من قومك (انني هداني ربي الى صراط مستقيم) بالوحي والارشاد الى مانصب من الحجج وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون وقوله تعالى (دينا) بدل من محل الى صراط مستقيم والمعنى وهداني صراطا كقوله تعالى ويهديك صراطا مستقيما (قيما) أي مستقيما وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح القاف وكسر الياء مشددة والباقون بكسر القاف وفتح الياء مخففة على انه مصدر نعت به وكان قياسه قوما فاعل لاعلال فعله كالقيام وقوله تعالى (ملة ابراهيم) عطف بيان لدينا اذ الملة بالكسر الدين وان فرق بينهما بأن الملة لا تضاف الا الى النبي الذي تستند اليه والدين لا تختص اضافته بذلك وقوله تعالى (حنيفا) حال من ابراهيم أي مائلا من الضلالة الى الاستقامة والعرب تسمي كل من حج أو اختتن حنيفا تنبيها على انه دين ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (وما كان) ابراهيم صلى الله عليه وسلم (من المشركين) رد على كفار قريش لانهم يزعمون انهم على دين ابراهيم فأخبر الله تعالى ان ابراهيم لم يكن من المشركين (قل) يامحمد (ان صلاتي ونسكي) أي عبادتي من حج وغيره (ومحياي ومماتي) أي وما أنا عليه في حياتي وأموت عليه من الايمان والطاعة أو طاعات الحياة والخيرات المضافة الى الممات كالوصية والتدبير أو الحياة والممات أنفسهما وقرأ نافع ومحياي بسكون الياء بخلاف عن ورش اجراء للوصل مجرى الوقف والباقون بالفتح وفتح الياء من مماتي نافع وسكنها الباقون (لله رب العالمين لا شريك له) في ذلك (وبذلك) أي وبهذا التوحيد (أمرت وأنا أول المسلمين) أي من هذه الامة لان اسلام كل نبي مقدم على اسلام أمته وقرأ نافع بمد أنا قبل الهمزة المفتوحة وقالون بالمد والقصر لانها عنده مد منفصل والباقون بلا مد أصلا (قل)

يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك (أغير الله أبغي) أي أطلب (ربا) أي الها فأشركه في عبادتي وهذا جواب عن دعائهم له الى عبادة آلهتهم والهمزة للانكار أي منكر ان أبغي ربا غيره (وهو رب كل شئ) فكل من دونه مربوب ليس في الوجود من له الربوبية غيره كما قال تعالى قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون (ولا تكسب كل نفس) ذنبا (الا عليها) أي اثم الجاني عليه لا على غيره وقوله تعالى (ولا تزر) أي ولا تحمل نفس (وازرة) أي آثمة (وزر) نفس (أخرى) جواب عن قولهم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم (ثم الى ربكم مرجعكم) يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) في الدنيا فيتبين الرشد من الغي والحق من المبطل (وهو الذي جعلكم خلائف الارض) جمع خليفة لان محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فخلفت أمته سائر الامم أو يخلف بعضهم بعضا فيها أو هم خلفاء الله تعالى في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) أي في الشرف والرزق (ليبلوكم) أي ليختبركم (في ما آتاكم) أي أعطاكم ليظهر المطيع منكم والعاصي * (فائدة) * في تكتب مقطوعة عن ما (ان ربك سريع العقاب) لمن عصاه لان ما هو آت قريب أو لانه يسرع اذا أراده (وانه لغفور) للمؤمنين (رحيم) بهم وصف الله تعالى العقاب ولم يضفه الى نفسه ووصف تعالى ذاته بالمغفرة وضم اليه الوصف بالرحمة وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة تنبيها على انه تعالى غفور بالذات معاقب بالعرض كثير الرحمة مبالغ فيها قليل العقوبة مسامح فيها فنسأل الله العظيم أن يسامحنا وأن يغفر زلاتنا ولا يؤاخذنا بسوء أفعالنا وان يفعل ذلك بوالدينا وأقاربنا وأحبابنا وأصحابنا وجميع المسلمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

(سورة الاعراف مكية)

الا ثمان آيات من قوله تعالى واسألهم عن القرية الى قوله تعالى واذ نتقنا الجبل وهي محكمة كلها وقيل الا قوله تعالى وأعرض عن الجاهلين وعدد آياتها مائتان وخمس آيات وكلماتها ثلاثة آلاف وثلثمائة وخمس وعشرون كلمة وحروفها أربعة عشر ألفا وثلثمائة وعشرة احرف

(بسم الله) الواحد الذي لا يقدر أحد قدره (الرحمن) الذي عم بنعمة البيان من أوجب عليهم شكره (الرحيم) الذي خص أهل وده فاجتنبوا نهيه وامتثلوا أمره (المص) سبق الكلام على معاني الحروف المقطعة في أول سورة البقرة وقوله تعالى (كتاب) خبر مبتدأ محذوف تقديره هو أو هذا أو خبر المص والمراد بالكتاب السورة أو القرآن وقوله تعالى (أنزل اليك) صفة والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم (فلا يكن في صدرك حرج) أي ضيق (منه) أي لا يضيق صدرك بالابلاغ وتأدية ما أرسلت به مخافة أن تكذب لانه كان يخاف قومه وتكذيبهم له واعراضهم عنه واذاهم وكان يضيق صدره من الاذى ولا ينبسط له فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم وقيل الحرج الشك والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته وسمي الشك حرجا لان الشاك ضيق الصدر كما ان المتيقن منشرح الصدر وقوله تعالى (لتنذر) متعلق بأنزل

أى للانذار به (وذكرى) أى وتذكرة (للمؤمنين) به وحذف المفعول يدل على عموم الرسالة لكل من أمكن انذاره وتذكيره من العقلاء قال بعض المفسرين وهذا من المؤخر الذى معناه التقديم تقديره كتاب أنزلناه اليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين فلا يكن فى صدرك حرج منه ويدل لهذا تعلق لتنذر بانزل وقوله تعالى (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم) يعنى القرآن والسنة لقوله تعالى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى ولقوله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا أى قل لهم يا محمد اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم وذروا ما أنتم عليه من الشرك (ولا تتبعوا من دونه) أى ولا تتخذوا من دون الله أى غيره (أولياء) تطيعونهم من شياطين الانس والجن فيأمروكم بعبادة الاصنام واتباع البدع والاهواء الفاسدة (قليلا ما تذكرون) أى تتعظون وقرأ ابن عامر بياء قبل التاء وتخفيف الذال وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال ولا ياء قبل التاء والباقون بتشديد الذال ولا ياء قبل التاء (وكم من قرية أهلكناها) أى أهلكنا أهلها وقيل لا يحتاج الى تقدير مضاف لان القرية تهلك كما يهلك أهلها وانما يقدر فى فجاءها لاجل قوله تعالى أو هم قائلون وكم خبرية مفعول أهلكنا وهى للتكثير والاهلاك على حقيقته أو يقدر اردنا اهلاكها لقوله تعالى (فجاءها) أى أهلها (بأسنا) أى عذابنا فان مجىء الباس قبل الاهلاك فتقدر الارادة وقيل الاهلاك الخذلان وعلى هذا فلا حاجة الى تقدير (بياتا) أى وقت الاستكان فى البيوت ليلا كما جاء قوم لوط عليه السلام (أو هم قائلون) أى نائمون وقت القائلة وهى نصف النهار أو مستريحون من غير نوم كما أهلكنا قوم شعيب عليه السلام أى مرة جاءها ليلا ومرة نهارا وانما خص هذين الوقتين لانهما وقت دعة واستراحة فيكون مجىء العذاب فيهما أفظع وفى هذا وعيد وتخويف للكفار كأنه قيل لا تغتروا بأسباب الامن والراحة فان عذاب الله اذا نزل نزل دفعة واحدة (فما كان دعواهم) أى قولهم (اذ جاءهم بأسنا) أى عذابنا (الا أن قالوا) أى الا قولهم (انا كنا ظالمين) أى فيما كنا عليه حيث لم نتبع ما أنزل الينا من ربنا وذلك حين لا ينفعهم الاعتراف (فلنسئلن الذين أرسل اليهم) أى المرسل اليهم وهم الامم يسألهم الله تعالى عن قبول الرسالة واجابتهم الرسل (ولنسئلن المرسلين) أى عما اجيبوا به كما قال تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم وقيل نسأل المرسلين عن الابلاغ والمراد من هذا السؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم والمنفى فى قوله تعالى ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون سؤال الاستعلام الاول فى موقف الحساب وهذا عند حصولهم على العقوبة (فلنقصن عليهم) أى الرسل والمرسل اليهم (بعلم) نخبرنهم عن علم بما فعلوه باطنا وظاهرا وبما قالوه سرا وعلانية (وما كنا غائبين) عنهم فيخفى علينا شىء من أحوالهم وأقوالهم (والوزن) أى لصحائف الاعمال بميزان له لسان وكفتان ينظر اليها الخلائق اظهارا للعدل وقطعا للمعذرة كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وتشهد بها جوارحهم ويؤيده ماروى ان رجلا يؤتى به الى الميزان فينشر عليه تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر فيخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة والبطاقة رقعة صغيرة

تجعل فى طى الثوب يكتب فيها عمله وقيل توزن الاعمال روى عن ابن عباس يؤتى بالاعمال الحسنة على صورة حسنة وبالاعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع فى الميزان وقيل توزن الاشخاص لما روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة وقوله تعالى (يومئذ) أى يوم السؤال المذكور وهو يوم القيامة خبر المبتدا الذى هو الوزن وقوله تعالى (الحق) أى العدل السوى صفته (فمن ثقلت موازينه) أى رجحت على مايعهد فى الدنيا بصحائف الاعمال أو حسناته أو به على الاقوال الماضية وعن الحسن وحق لميزان توضع فيه الحسنات ان يرجح ويثقل وحق لميزان توضع فيه السيآت ان يخف (فان قيل) الميزان واحد فما وجه الجمع (أجيب) بأن العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد وقيل انه ينصب لكل عبد ميزان وقيل انما جمعه لان الميزان يشتمل على الكفتين واللسان والساهون ولا يتم الوزن الا بذلك كله وقيل جمع لاختلاف الموزونات وتعدد الجمع فهو جمع موزون أو ميزان (فأولئك هم المفلحون) الفائزون بالنجاة والثواب (ومن خفت) أى طاشت (موازينه) أى السيآت أى بسببها (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) أى بتصييرها الى النار (بما كانوا بآياتنا يظلمون) أى يجحدون (ولقد مكناكم) يابنى آدم (فى الارض) أى فى مسكنها وزرعها والتصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معايش) جمع معيشة أى اسبابا تعيشون بها أيام حياتكم من أنواع التجارات والصنائع والمآكل والمشارب وذلك بفضل الله تعالى وانعامه على عبيده وكثرة الانعام توجب الطاعة للمنعم بها والشكر له عليها ثم بين تعالى انه مع هذا الافضال على عبيده وانعامه عليهم لا يقومون بشكرها كما ينبغى فقال تعالى (قليلا ما تشكرون) أى على ماصنعت لكم وأنعمت به عليكم وفيه دليل على انهم قد يشكرون لان الانسان قد يذكر نعمة الله فيشكره عليها فلا يخلو فى بعض الاوقات من الشكر على النعم وحقيقة الشكر تصور النعمة واظهارها ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها (ولقد خلقناكم) أى اباكم آدم (ثم صورناكم) أى أباكم آدم والمراد يعنى خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور ثم صورناه فنزل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويرهم وقيل خلقناكم فى اصلاب الرجال ثم صورناكم فى أرحام النساء (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) (فان قيل) ثم للترتيب والتراخى وهى ظاهرة على القول الاول فما وجهه على الثانى (أجيب) بأنها تكون بمعنى الواو أى وقلنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود تحية بالانحناء (فسجدوا) أى الملائكة كلهم لآدم (الا ابليس) أبا الجن كان بين الملائكة (لم يكن من الساجدين) أى ممن سجد (قال) الله تعالى لابليس (مامنعك ألا تسجد) أى ان تسجد (اذ أمرتك) فلا زائدة للتاكيد كما فى قوله تعالى لا أقسم أى أقسم وقوله تعالى وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون أى يرجعون نعم ان حمل مامنعك على ماحملك لم تكن زائدة (قال) ابليس مجيبا لله تعالى (أنا خير منه) (فان قيل) كيف يكون قوله أنا خير منه جوابا لما منعك وانما الجواب أن يقول منعنى كذا (أجيب) بأنه جواب من حيث المعنى استأنف به استبعاد الان يكون مثله مأمورا بالسجود

لمثله كأنه قال المانع أني خير منه ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول فكيف يحسن أن يؤمر به فهو الذي سن التكبر وقال بالحسن والقبح العقليين أولا وعلل الخيرية بقوله تعالى (خلقتني من نار) فهي أغلب أجزائي وهي مشرقة مضيئة عالية غالبة (وخلقته من طين) أي هو أغلب أجزائه وهو كدر مظلم سافل مغلوب فكل منهما مركب من العناصر الاربعة فالاضافة الى ماذكر باعتبار الجزء الغالب قال ابن عباس رضي الله عنهما أول من قاس ابليس فأخطأ فمن قاس الدين بشئ من رأيه قرنه الله تعالى مع ابليس قال ابن سيرين ما عبدت الشمس الا بالقياس وانما أخطأ ابليس لانه رأى الفضل كله باعتبار العنصر وغفل عما يكون باعتبار الفاعل كما أشار اليه بقوله تعالى ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أي بغير واسطة وباعتبار الصورة كما نبه عليه تعالى بقوله ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين وباعتبار الغاية وهي ملاكه ولذلك أمر الملائكة بالسجود لما تبين لهم انه أعلم منهم وان له خواص ليست لغيره وقال محمد بن جرير ظن الخبيث ان النار خير من الطين ولم يعلم ان المفضل ما جعل الله له الفضل وقد فضل الله الطين عن النار بوجوه منها ان من جوهر الطين الرزانة والوقار والحلم والصبر وهو الداعي لآدم بعد السعادة التي سبقت له الى التوبة والتواضع والتضرع فأورثه الاجتباء والمنزلة والهداية ومن جوهر النار الخفة والطيش والحدة والارتفاع وهو الداعي لابليس بعد الشقاوة التي سبقت له الى الاستكبار والاصرار فأورثته اللعنة والشقاوة ولان الطين سبب جمع الاشياء والنار سبب تفرقها ولان التراب سبب الحياة لان حياة الاشجار والنبات لا تكون الا مع الطين والنار سبب الهلاك (فان قيل) لم سأله الله تعالى عن المانع من السجود وهو عالم بما منعه (أجيب) بأنه للتوبيخ ولاظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدرائه أصل آدم عليه الصلاة والسلام (قال) الله تعالى لابليس (فاهبط منها) أي من الجنة وقيل من السماء الى الارض والهبوط الانزال والانحدار من فوق على سبيل القهر والهوان والاستخفاف (فما يكون) أي فما يصح (لك أن تتكبر فيها) عن أمري لان الجنة أو السماء مكان الخاشع المطيع لامر الله تعالى وفيه تنبيه على ان التكبر لا يليق بأهل الجنة والسماء وانه تعالى انما طرد ابليس لتكبره لا لمجرد المعصية قال صلى الله عليه وسلم كما رواه البيهقي من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله وعن عمر رضي الله عنه من تواضع رفع الله حكمته ومن تكبر وعلا طوره وضعه الله الى الارض (فاخرج) منها (انك من الصاغرين) أي الكفرة الاذلاء المهانين والصغار الذل والمهانة قال الزجاج استكبر عدو الله ابليس فابتلاه الله تعالى بالصغار والذلة وقيل كان له ملك الارض فأخرجه الله منها الى جزائر البحر الاخضر وعرشه عليه فلا يدخل الارض الا خائفا كهيئة السارق مثل شيخ عليه اطمار رثة يروغ فيها حتى يخرج منها (قال) ابليس عند ذلك (أنظرني) أي أخرني ولا تمتني ولا تعجل عقوبتي (الى يوم يبعثون) أي الناس وهو النفخة الاخيرة عند قيام الساعة وهذا من جهالة ابليس الخبيث لانه سأل ربه الامهال وقد علم انه لا سبيل لاحد من الخلق الى البقاء في الدنيا ولكنه كره أن يذوق الموت فطلب البقاء والخلود

فلم يجب الى ما سأل بل أجابه الله تعالى بقوله (قال انك من المنظرين) لا الى ذلك الوقت بل الى الوقت المعلوم كما بينه تعالى فى سورة الحجر بقوله تعالى فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم وذلك هو النفخة الاولى التى يموت فيها الخلق (فان قيل) لم أجيب الى الانظار وانما استنظر ليفسد عباده ويغويهم (أجيب) بأنه أجابه لما فى ذلك من ابتلاء العباد وفى مخالفته من عظيم الثواب وحكمة ما خلق الله تعالى من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهى وما ركب فى الانفس من الشهوات ليمتحن بها عباده (قال) أى ابليس (فبما أغويتنى) أى فباغوائك لى والباء للقسم أى اقسم باغوائك وجوابه (لاقعدن لهم) أى لبنى آدم (صراطك المستقيم) أى على الطريق الموصل اليك وانما أقسم بالاغواء لانه كان تكليفا والتكليف من أحسن افعال الله تعالى لكونه تعريضا لسعادة الابد فكان جديرا لان يقسم به ويجوز أن تتعلق الباء بفعل القسم المحذوف تقديره فبما أغويتنى أقسم بالله لاقعدن أى فبسبب اغوائك أقسم (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) أى من جميع الجهات الاربع ولذلك لم يقل من فوقهم ومن تحت أرجلهم قال ابن عباس رضى الله عنهما ولا يستطيع أن يأتى من فوقهم لئلا يحول بين العبد وبين رحمة ربه وقيل لم يقل من تحتهم لان الاتيان منه يوحش وعنه انه قال من بين أيديهم من قبل الآخرة فيخبرهم أن لا بعث ولا جنة ولا نار ومن خلفهم من قبل الدنيا فيزينها لهم وعن أيمانهم أى من قبل حسناتهم أى فيبطؤهم عنها وعن شمائلهم من قبل سيآتهم أى فيزين لهم المعاصى ويدعوهم اليها وانما عدى الفعل الى الاولين بحرف الابتداء لانه منهما متوجه اليهم والى الآخرين بحرف المجاوزة فان الآتى منهما كالمنحرف عنهم المار على عرضهم ونظيره قوله جلست عن يمينه وعن شقيق ما من صباح الا قعد لى الشيطان على أربع مراصد من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى أما من بين يدى فيقول لا تخف ان الله غفور رحيم فأقرأ وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى وأما من خلفى فيخوفنى الضيعة على من خلفى فاقرأ وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها وأما من قبل يمينى فيأتينى من قبل النساء فاقرأ والعاقبة للمتقين وأما من قبل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات فاقرأ وحيل بينهم وبين ما يشتهون (ولا تجد أكثرهم شاكرين) أى مطيعين (فان قيل) كيف علم الخبيث ذلك (أجيب) بأنه انما قال ذلك ظنا لقوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه لما رأى فيهم مبدأ الشر متعددا وهو الشيطان والنفس والهوى ومبدأ الخير واحدا وهو الملك الملهم وقيل سمع ذلك من الملائكة (قال) الله تعالى لابليس حين طرده عن بابه وأبعده عن جنابه بسبب عصيانه ومخالفته (اخرج منها) أى الجنة أو السماء كما مر فانه لا ينبغى أن تسكن فيها (مذؤما) أى محقورا ممقوتا (مدحورا) أى مبعدا مطرودا عن الرحمة وقوله تعالى (لمن تبعك منهم) أى من الناس اللام فيه موطئة للقسم وجوابه (لاملأن جهنم منكم أجمعين) وهو ساد مسد جواب الشرط وهو من تبعك أى لاملأن جهنم منك بذريتك ومن الناس وفيه تغليب الحاضر على الغائب (ويا آدم) أى وقلنا يا آدم (اسكن) فهذه القصة معطوفة على قوله تعالى قلنا للملائكة

قوله

وقوله تعالى (أنت) تأكيد للضمير في اسكن ليعطف عليه (وزوجك) أي حواء بالمد وذلك بعد ان أهبط منها ابليس وأخرجه وطرده من الجنة (الجنة فكلا من حيث شئتما) من ثمار الجنة أي من أي مكان شئتما (فان قيل) قال تعالى في سورة البقرة وكلا بالواو وهنا بالفاء فما الفرق أجاب الفخر الرازي بأن الواو تفيد الجمع المطلق والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو ولا منافاة بين النوع والجنس ففي سورة البقرة ذكر الجنس وهنا ذكر النوع (ولا تقربا هذه الشجرة) أي بالاكل منها مشيرا الى شجرة بعينها أو نوعها وهي الحنطة وقيل شجرة الكرم وقيل غيرهما (فتكونا من الظالمين) أي بالاكل منها أي فتصيرا بذلك من الذين ظلموا أنفسهم وتكونا يحتمل الجزم عطفا على تقربا والنصب على جواب النهي (فوسوس لهما الشيطان) أي ابليس بما مكنه الله تعالى منه من أنه يجري من الانسان مجرى الدم ويلقي له في سره ما يميل به قلبه الى ما يريد وهو أحقر وأذل من أن يكون له فعل وانما الكل بيد الله سبحانه وتعالى وهو الذي جعله آلة لمراده منه ومنهم فان من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ثم بين علة الوسوسة بقوله تعالى (ليبدي) أي ليظهر (لهما ما ووري) أي ستر وغطي (عنهما من سوآتهما) أي عوراتهما وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر وفيه دليل على ان كشف العورة في الخلوة وعند الزوجة من غير حاجة قبيح مستهجن في الطباع قالت عائشة رضي الله عنها ما رأيت منه صلى الله عليه وسلم ولا رأى مني أي الفرج (وقال) أي ابليس لآدم وحواء (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة) أي عن الاكل منها (الا ان) أي كراهة ان (تكونا ملكين) أي في عدم الشهوة وفي القدرة على الطيران والتشكل وغير ذلك من خواصهم (أو تكونا من الخالدين) أي الذين لا يموتون ولا يخرجون من الجنة أصلا كما في آية أخرى هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى (وقاسمهما) أي اقسم لهما بالله على ذلك وأخرجه على زنة المفاعلة للمبالغة وقيل أقسما له بالقبول وقيل اقسما عليه بالله انه لهما لمن الناصحين فاقسم لهما (اني لكما لمن الناصحين) فجعل ذلك مقاسمة وقال قتادة حلف لهما بالله حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله تعالى فقال اني خلقت قبلكما وأنا أعلم فاتبعاني أرشدكما وفيه تنبيه على الاحتراز من الحالف وان الاغلب أن كل حلاف كاذب وأنه لا يحلف الا عند ظنه ان سامعه لا يصدقه ولا يظن ذلك الا وهو معتاد للكذب وقال بعض العلماء من خادعنا بالله خدعنا له وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما انه كان اذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه وكان عبيده يفعلون ذلك طلبا للعتق فقيل له انهم يخدعونك فقال من خدعنا بالله انخدعنا له وابليس لعنه الله تعالى أول من حلف بالله تعالى كاذبا فلما حلف ظن آدم ان أحدا لا يحلف بالله تعالى كاذبا فاغتر به (فدلاهما بغرور) أي خدعهما يقال ما زال يدلي لفلان بالغرور يعني ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف القول الباطل وقيل حطهما من منزلة الطاعة الى حالة المعصية والغرور اظهار النصح مع ابطان الغش (فلما ذاقا الشجرة) أي أكلا من ثمرها وفي ذلك دليل على انهما تناولا اليسير من ذلك قصدا الى

معرفة طعمه اذ الذوق يدل على الاكل اليسير وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال قبل ازدرادهما أخذتهما العقوبة والعقوبة هي قوله تعالى (بدت) أي ظهرت (لهما سوآتهما) أي عوراتهما وتجافت عنهما ألباسهما حتى أبصر كل واحد منهما ما ورى عنه من سوأة صاحبه بأن رأى قبل نفسه وقبل صاحبه ودبره وكانا لا يريان ذلك وسمي كل منهما سوأة لان انكشافه يسوء صاحبه قال وهب كان لباسهما من النور يحول بينهما وبين النظر وقال قتادة كان ظفرا ألبسهما الله من الظفر لباسا فلما وقعا في الذنب بدت لهما سوآتهما فاستحيا (وطفقا) أي أقبلا وجعلا (يخصفان) أي يلزقان (عليهما من ورق الجنة) أي من ورق التين قال البغوي حتى صار كهيئة الثوب قال الزجاج يجعلان ورقة على ورقة ليستترا بها وأتم ما روى عن أبي ابن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان آدم رجلا طوالا كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع في الخطيئة بدت له سوأته وكان لا يراها فانطلق هاربا في الجنة فعرضت له شجرة من شجر الجنة فحبسته بشعره فقال لها ارسليني فقالت لست بمرسلتك فناداه الله عز وجل يا آدم أمني تفر فقال لا يا رب ولكني استحييتك (وناداهما) أي خاطبهما (ربهما) بقوله (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) أي عن الاكل من ثمرها (وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين) أي بين العداوة لكما وقد بان لكما عداوته بترك السجود تعنتا وحسدا وفي ذلك عتاب على مخالفة النهي وتوبيخ على الاغترار بقول العدو ودليل على أن مطلق النهي للتحريم قال محمد بن قيس لما أكل آدم من الشجرة ناداه ربه يا آدم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها قال حواء أمرتني وقال لحواء لم أطعمت آدم قالت أمرتني الحية وقال للحية لم أمرتيها قالت أمرني ابليس قال الله تعالى أما أنت يا حواء فكما أدميت الشجرة فتدمين في كل شهر وأما أنت يا حية فأقطع قوائمك فتمشين على وجهك وسيشدخ رأسك من لقيك وأما أنت يا ابليس فملعون مدحور وفي رواية لابن عباس انه قال لحواء فاني أعطيتها أن لا تحمل الا كرها ولا تضع الا كرها (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) أي ضررناها بمخالفة أمرك وطاعة عدونا وعدوك فان لم تتب علينا نستمر عاصين (وان لم تغفر لنا) أي تمحو ما عملنا عينا وأثرا (وترحمنا) أي تتفضل درجاتنا (لنكونن من الخاسرين) في الارض فأعربت الآية أنهما فزعا الى الانصاف وبالاعتراف بذنبهما وان كان انما هو خلاف الاولى لانه بطريق النسيان كما في سورة طه قال قتادة قال آدم أرأيت ان تبت اليك واستغفرتك قال أدخلك الجنة وأما ابليس فلم يسأل التوبة وسأل النظرة فاعطى كل واحد منهما ما سأله وقال الضحاك في قوله تعالى قالا ربنا ظلمنا أنفسنا قال هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه تعالى وقد استدل من يرى صدور الذنب من الانبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية ورد بأن درجة الانبياء في الرفعة والعلو والمعرفة بالله تعالى في اعلى الدرجات ولكن يؤاخذون بما لم يؤاخذ به غيرهم وانهم ربما عوتبوا بأمور صدرت منهم على سبيل التأويل فهم بسبب ذلك خائفون وجلون وهي ذنوب بالاضافة الى علو منصبهم ومعاص بالنسبة الى كمال طاعتهم لا انها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاص كمعاصي غيرهم فكان ما صدر منهم مع طهارتهم ونزاهتهم

وعمارة بواطنهم بالوحى السماوى والذكر القدسى وعمارة ظواهرهم بالعمل الصالح والخشية لله تعالى ذنوب بالنسبة الى أحوالهم فقالا ذلك على عادة المقربين فى استعظام الصغير من السيئات وتحقير العظيم من الحسنات وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة ومن جملة ذلك ان آدم انما أكل من الشجرة قبل النبوة (قال) الله تعالى (اهبطوا) أى آدم وحواء بما اشتملتما عليه من ذريتكما ويدل لذلك قوله تعالى فى سورة طه اهبطا بضمير التثنية (بعضكم) أى بعض الذرية (لبعض عدو) أى من ظلم بعضهم بعضا وقيل بعود الضمير لآدم وحواء وابليس وقيل لآدم وحواء وابليس والحية وعلى هذين فالعداوة ثابتة بين آدم وابليس والحية وذريته كل واحد من آدم وابليس (ولكم فى الارض) أى جنسها (مستقر) أى موضع استقرار (و) لكم فيها (متاع) أى تمتع (الى حين) أى انقضاء آجالكم وقيل الى انقطاع الدنيا وعن ثابت البنانى رحمه الله تعالى لما اهبط آدم وحضرته الوفاة أحاطت به الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم فقال لها خلى ملائكة ربى فانما أصابنى الذى أصابنى منك فلما توفى غسلته الملائكة بسرنديب بماء وسدر وترا وحنطته وكفنته فى وتر من الثياب وحفروا له ولحدوه بسرنديب بأرض الهند وقالوا لبنيه هذه سنتكم من بعده (قال) الله تعالى (فيها) أى الارض (تحيون) أى تعيشون أيام حياتكم (وفيها تموتون) أى وفيها وفاتكم وموضع قبوركم (ومنها تخرجون) أى يوم القيامة تخرجون للحشر والجزاء وقرأ ابن ذكوان وحمزة والكسائى بفتح التاء وضم الراء والباقون بضم التاء وفتح الراء (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا) أى خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة من مطر ونحوه ونظيره قوله تعالى وأنزل لكم من الانعام وقوله تعالى وأنزلنا الحديد وقيل كل بركات الارض منسوبة الى السماء (يوارى) أى يستر (سوآتكم) أى عوراتكم روى أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون لانطوف فى ثياب عصينا الله تعالى فيها وكان الرجال يطوفون بالنهار والنساء يطوفون بالليل عراة قال قتادة كانت المرأة تطوف وتضع يدها على فرجها وتقول

اليوم يبدو بعضه أوكله * وما بدا منه فلا أحله

فنزلت قال البيضاوى ولعله سبحانه ذكر قصة آدم تقدمة لذلك حتى تعلم ان انكشاف العورة أول سوء أصاب الانسان من الشيطان وانه أغواهم فى ذلك كما أغوى أبويهم (وريشا) أى ولباسا تتجملون به والريش للطائر معروف وهو لباسه وزينته كالثياب للانسان فاستعير للانسان لانه لباسه وزينته والمعنى وأنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم ولباسا لزينتكم لان الزينة غرض صحيح كما قال تعالى لتركبوها وزينة وقال تعالى ولكم فيها جمال وقال صلى الله عليه وسلم ان الله جميل يحب الجمال وقال ابن عباس وريشا أى مالا يقال تريش الرجل تمول ولما ذكر سبحانه وتعالى اللباس الحسى وقسمه الى ساتر ومزين أتبعه اللباس المعنوى فقال (ولباس التقوى) قال ابن عباس هو العمل الصالح ثم زاد الله تعالى فى تعظيم المعنوى بقوله (ذلك خير) أى ولباس التقوى هو خير من لباس الثياب لكونه أهم اللباسين لان نزعه يكشف العورة الحسية

والمعنوية فلو تجمل الانسان بأحسن الملابس وهو غير متق كان كله سوآت ولو كان متقيا وليس عليه الا خرقة ثوب توارى عورته كان في غاية الجمال والكمال وأنشدوا في المعنى

اذا أنت لم تلبس ثيابا من التقى * عريت وان وارى القميص قميص

وقال قتادة لباس التقوى هو الايمان وقال الحسن هو الحياء لانه يبعث على التقوى وقال عثمان ابن عفان رضي الله عنه هو السمت الحسن وقال ابن الزبير هو خشية الله تعالى والعمل الصالح يشمل هذه الامور كلها وقرأ نافع وابن عامر والكسائي بنصب السين عطفا على لباسا والباقون بالرفع على الابتداء والخبر ذلك خير (ذلك) أي انزال اللباس (من آيات الله) الدالة على فضله ورحمته (لعلهم يذكرون) فيعرفون نعمة الله فيتعظون ويتورعون عن القبائح وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر بدو السوآت وخصف الورق عليها اظهارا للمنة فيما خلق من اللباس ولما في العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة اظهارا واشعارا بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى (يا بني آدم) أي الذي خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي ثم أسكنته جنتي وانزلته منها الى دار محنتي (لا يفتننكم) أي يضلنكم (الشيطان) أي البعيد المحترق بالذنوب أي لا تتبعوه فتفتتنوا فيمنعكم بذلك من دخول الجنة ويدخلكم النار (كما أخرج أبويكم من الجنة) بفتنته بعد ان كانا سكناها وتمكنا فيها وتوطناها وقد علمتم ان الدفع أسهل من الرفع وقوله تعالى (ينزع عنهما لباسهما) حال من أبويكم أو من فاعل أخرج وانما أضاف نزع اللباس الى الشيطان وان لم يباشر ذلك لان نزع لباسهما بسبب وسوسة الشيطان وغروره فأسند اليه واختلفوا في اللباس الذي نزع عنهما فقال ابن عباس وقتادة كان لباسهما الظفر فلما أصابا المعصية نزع عنهما وبقيت الاظفار تذكرة وزينة ومنافع وقال وهب بن منبه كان نورا يحول بينهما وبين النظر وتقدم بعض ذلك وقال مجاهد كان لباسهما التقوى وقيل كان لباسهما من ثياب الجنة قال بعض المفسرين وهذا أقرب لان اطلاق اللباس يطلق عليه وان النزع لا يكون الا بعد اللبس اه وتقدم الكلام على قوله (ليريهما سوآتهما انه) أي الشيطان (يراكم هو وقبيله) أي جنوده وقال ابن عباس قبيله ولده وقال أبو زيد نسله وانما أعاد الكناية في قوله هو ليحسن العطف والقبيل جمع قبيلة وهي الجماعة المجتمعة التي يقابل بعضها بعضا (من حيث لا ترونهم) أي للطافة أجسامهم أو عدم ألوانهم وعن ابن عباس انه قال ان الله تعالى جعلهم يجرون من ابن آدم مجرى الدم وجعل صدور بني آدم مساكن لهم الا من عصمه الله تعالى كما قال تعالى الذي يوسوس في صدور الناس فهم يرون بني آدم وبنو آدم لا يرونهم وعن مجاهد قال ابليس جعل لنا أربعة نرى ولا نرى ونخرج من تحت الثرى ويعود شيخنا فتى وعن ابن دينار ان عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤنة الا من عصمه الله تعالى ومنع الرؤية اذا كانوا على خلقتهم الاصلية والا فقد يرون واعند تشكلهم بصورة حيوان أو طير أو غير ذلك فان للجن قوة التشكل وهذا أمر شائع ذائع وقد رؤي ابليس على صورة شيخ وتمثل لكثير من العباد على صورة حية بل قال شيخنا القاضي زكريا والحق جواز رؤيتهم حتى من تلك الجهة

كما هو ظاهر الاحاديث الصحيحة وتكون الآية مخصوصة بها فيكونون مرئيين فى بعض الاحيان لبعض الناس دون بعض (انا جعلنا الشياطين أولياء) أى اعوانا وقرناء (للذين لا يؤمنون) لما بينهم من التناسب فى الطباع (واذا فعلوا فاحشة) كالشرك وطوافهم بالبيت عراة فنهوا عنه (قالوا) معللين لارتكابهم اياها بأمرين أحدهما قولهم (وجدنا عليها) أى الفاحشة (آباءنا) فاقتدينا بهم والثانى قولهم (والله أمرنا بها) افتراء عليه سبحانه وتعالى فاعرض الله تعالى عن الاول لظهور فساده ورد عن الثانى بقوله (قل) لهم يا محمد (ان الله لا يأمر بالفحشاء) لان عادته سبحانه وتعالى جرت على الامر بمحاسن الافعال والحث على مكارم الخصال (أتقولون على الله ما لا تعلمون) انه قاله فانكم لم تسمعوا كلام الله من غير واسطة ولا أخذتموه عن الانبياء الذين هم وسايط بين الله وبين عباده وهو استفهام انكارى يتضمن النهى عن الافتراء على الله وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية ياء فى الوصل والباقون بالتحقيق (قل) يا محمد لهؤلاء الذين يقولون ذلك (أمر ربى بالقسط) أى بالعدل وهو الوسط من كلام المتجافى عن طرفى الافراط والتفريط وقال ابن عباس بلا اله الا الله (وأقيموا) أى وقل لهم أقيموا (وجوهكم) لله (عند كل مسجد) أى اخلصوا له سجودكم (فان قيل) قل أمر ربى خبر وأقيموا وجوهكم أمر وعطف الامر على الخبر لا يجوز (أجيب) بأن فيه اضمارا وحذفا تقديره قل أمر ربى بالقسط وقل أقيموا كما تقدم تقديره فحذف قل لدلالة الكلام عليه وقيل معنى الآية وجهوا وجوهكم حيثما كنتم فى الصلاة الى الكعبة وقيل معناه صلوا فى أى مسجد حضرتكم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا الى مساجدكم (وادعوه) أى اعبدوه (مخلصين له الدين) أى الطاعة ولا تشركوا به شيأ فان اليه مصيركم و (كما بدأكم) أى كما أنشأكم ابتداء (تعودون) أى يعيدكم احياء يوم القيامة حالة كونكم فريقين (فريقا هدى) أى خلق الهداية فى قلوبهم فحق لهم ثواب الهداية (وفريقا حق) أى ثبت ووجب (عليهم الضلالة) أى بمقتضى القضاء السابق وقيل ان الله تعالى بدأ خلق بنى آدم مؤمنا وكافرا كما قال تعالى هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ثم يعيدكم يوم القيامة كما خلقكم كافرا ومؤمنا وقيل يبعثون على ما كانوا عليه روى أنه صلى الله عليه وسلم قال يبعث كل عبد على ما مات عليه المؤمن على ايمانه والكافر على كفره وقيل من ابتدأ الله خلقه على الشقوة صار اليها وان عمل عمل أهل السعادة كما أن ابليس كان يعمل بعمل أهل السعادة ثم صار الى الشقاوة ومن ابتدأ الله خلقه على السعادة صار اليها وان عمل عمل أهل الشقاوة كما أن السحرة كانوا يعملون عمل أهل الشقاوة فصاروا الى السعادة روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وانه من أهل النار وانه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار وانه من أهل الجنة وانما الاعمال بالخواتيم وانتصاب فريقا بفعل يفسره ما بعده أى وخذل فريقا وقوله تعالى (انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) أى دونه تعليل لخذلانهم وتحقيق لضلالهم (ويحسبون) أى يظنون (انهم) مع ضلالهم (مهتدون) أى على هداية وحق وفيه دليل على ان

الكافر الذي يظن انه في دينه على الحق والجاحد والمعاند في الكفر سواء (يا بني آدم خذوا زينتكم) أي ما يستر العورة والتجمل عند الاجتماع للعبادة (عند كل مسجد) أي كلما صليتم أو طفتم وكانوا يطوفون عراة وعن طاوس رحمه الله لم يأمرهم بالحرير والديباج وانما أحدهم كان يطوف عريانا ويضع ثيابه وراء المسجد وان طاف وهي عليه ضرب وانتزعت منه لانهم قالوا لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها وقيل تفاؤلا ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب وقيل الزينة المشط وقيل الطيب والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة للصلاة وكان بنو عامر في أيام حجهم لا يأكلون الطعام الا قوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون فانا أحق أن نفعل فقيل لهم (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) بتحريم الحلال أو بالتعري في الطواف أو بافراط الطعام أو الشره عليه وعن ابن عباس رضي الله عنهما كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وروى أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال لعلي بن الحسين بن واقد ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان علم الابدان وعلم الاديان فقال له قد جمع الله تعالى الطب كله في نصف آية من كتابه فقال وما هي قال قوله تعالى وكلوا واشربوا ولا تسرفوا فقال النصراني ولا يؤثر عن نبيكم شيء في الطب فقال جمع رسولنا صلى الله عليه وسلم الطب في ألفاظ يسيرة قال وما هي قال قوله المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء فأعط كل بدن ما عودته فقال النصراني ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا (انه لا يحب المسرفين) أي لا يرتضي فعلهم ففي الآية الوعيد الشديد على الاسراف (قل) يا محمد لهؤلاء الجهلة من الذين يطوفون بالبيت عراة (من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) من الثياب كل ما يتجمل به فيدخل تحته انواع الملبوس والحلي ولولا النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير للرجال لدخل في هذا العموم ولكن ورد النص في تحريمه على الرجال دون النساء (و) قل أيضا لهؤلاء الجهلة الذين كانوا لا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم من حرم (الطيبات من الرزق) التي أخرج لعباده وخلقها لهم فيدخل تحت ذلك كل ما يستلذ ويشتهى من سائر المطعومات الا ما ورد نص بتحريمه وقد دلت الآية على أن الاصل في الملابس وأنواع التجملات والمطاعم الاباحة الا ما ورد النص بخلافه لان الاستفهام في من للانكار (قل هي) أي الزينة والطيبات (للذين آمنوا في الحياة الدنيا) أي بالاصالة والكفرة وان شاركوهم فيها تبع ولذا لم يقل تعالى للذين آمنوا وغيرهم (خالصة يوم القيامة) لا يشاركهم فيها غيرهم وقرأ نافع برفع التاء على أنها خبر بعد خبر والباقون بالفتح على الحال (كذلك) أي مثل هذا التفصيل البديع (نفصل الآيات) أي نبين احكامها ونميز بعض المشتبهات من بعض (لقوم يعلمون) أي يتدبرون فانهم المنتفعون بها (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يطوفون بالبيت عراة ويحرمون أكل الطيبات من الرزق وغير ذلك مما أحل الله تعالى (انما حرم ربي الفواحش) أي الكبائر والكبيرة ما توعد عليها بنحو لعن أو غضب بخصوصها في الكتاب أو السنة غالبا كالزنا جمع فاحشة (ما ظهر منها وما بطن) أي جهرها وسرها وقرأ حمزة بسكون الراء والباقون بفتحها

(و) حرم (الاثم) أي الصغائر وهي ماعدا الكبائر كالنظر الى بدن أجنبية (و) حرم (البغي) على الناس أي الظلم أو الكبر وأفرده بالذكر مع انه من الكبائر للمبالغة وقوله تعالى (بغير الحق) متعلق بالبغي مؤكد له معنى (و) حرم (أن تشركوا بالله مالم ينزل به) أي بالاشراك (سلطانا) أي حجة وفي ذلك تهكم بالمشركين وتنبيه على تحريم مالم يدل عليه برهان وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف والباقون بالتشديد (و) حرم (أن تقولوا على الله مالا تعلمون) في تحريم مالم يحرم وغيره (ولكل أمة أجل) أي وقت معلوم وفي ذلك وعيد لاهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالامم الماضية (فاذا جاء أجلهم) أي حان وقتهم (لايستأخرون ساعة) عنه (ولايستقدمون) ساعة عليه وانما ذكرت الساعة وان كان دونها كذلك لانها أقل اسم للاوقات في العرف وذلك حين سألوا نزول العذاب فأنزل الله تعالى هذه الآية وقرأ قالون والبزي وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها حرف مد والباقون بالتحقيق فيهما (يابني آدم اما) فيه ادغام نون ان الشرطية في ما الزائدة (يأتينكم رسل منكم) أي من نوعكم من عند ربكم (يقصون عليكم آياتي) أي يقرؤن عليكم كتابي وأدلة أحكامي وشرائعي التي شرعت لعبادي وجواب الشرط قوله تعالى (فمن اتقى) الشرك ومخالفة رسلي (وأصلح) عمله الذي أمرته به رسلي فعمل بطاعتي وتجنب معصيتي ومانهيت عنه (فلا خوف عليهم) حين يخاف غيرهم يوم القيامة من العذاب (ولاهم يحزنون) أي يتجدد لهم في وقت ما حزن على شئ فاتهم لان الله يعطيهم ماتقر به أعينهم (والذين كذبوا بآياتنا) أي جحدوها وكذبوا رسلنا (واستكبروا) أي تكبروا (عنها) أي عن الايمان بها لان كل مكذب وكافر متكبر قال تعالى انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون (أولئك) هؤلاء البعداء البغضاء (أصحاب النار هم فيها خالدون) أي لايخرجون منها أبدا وادخال الفاء في خبر المبتدا الاول دون خبر الثاني للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد (فمن) أي لا أحد (أظلم ممن افترى على الله كذبا) أي بنسبة الشريك والولد اليه أو قال عليه مالم يقله (أو كذب بآياته) أي القرآن (أولئك ينالهم) أي يصيبهم (نصيبهم) أي حظهم (من الكتاب) أي مما كتب لهم في اللوح المحفوظ من الرزق والاجل وغير ذلك (حتى اذا جاءتهم) أي هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب (رسلنا) أي ملك الموت وأعوانه (يتوفونهم) يقبض أرواحهم عند استكمال أعمارهم وأرزاقهم وقوله تعالى (قالوا) جواب اذا أي قال الرسل لهم تبكيتا وتوبيخا وتقريعا (أين ما كنتم تدعون) أي تعبدون (من دون الله) أي غيره ادعوهم ليدفعوا عنكم مانزل بكم وقيل ان هذا يكون في الآخرة أي اذا جاءتهم ملائكة العذاب يتوفونهم أي يستوفون عددهم عند حشرهم الى النار (قالوا) أي الكفار مجيبين للرسل (ضلوا) أي غابوا (عنا) وتركونا عند حاجتنا اليهم فلم ينفعونا (وشهدوا على أنفسهم) أي بالغوا في الاعتراف عند الموت أو عند معاينة العذاب (انهم كانوا كافرين) أي جاحدين وحدانية الله تعالى (قال) الله تعالى لهم يوم القيامة أو أحد من الملائكة (ادخلوا في أمم) أي في جملة جماعات وفرق أمم بعضها بعضا (قد خلت) أي مضت

وسلفت (من قبلكم من الجن والانس) أى كفار الامم الماضية من الفريقين وقوله تعالى (فى النار) متعلق بادخلوا (كلما دخلت أمة) أى جماعة النار (لعنت أختها) أى التى ضلت بالاقتداء بها (حتى اذا اداركوا) أى تلاحقوا واستقروا (فيها) أى النار (جميعا قالت أخراهم) أى منزلة أو دخولا وهم الاتباع (لاولاهم) أى لاجلهم وهم المتبوعون اذ الخطاب مع الله تعالى لامعهم (ربنا هؤلاء) أى الاولون (أضلونا) أى لانهم أول من سن الضلال وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية ياء فى الوصل والباقون بالتحقيق (فآتهم) أى أذقهم بسبب ذلك (عذابا ضعفا) أى يكون بقدر عذاب غيرهم مرتين لانهم ضلوا وأضلوا ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة ومنه لا تقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم الاول كفل من دمها لانه أول من سن القتل ثم أكدوا شدة العذاب بقولهم (من النار قال) الله تعالى (لكل) أى منكم ومنهم (ضعف) أى عذاب مضعف أما القادة فبكفرهم وتضليلهم وأما الاتباع فبكفرهم وتقليدهم لهم (ولكن لا تعلمون) أى ما أعد الله تعالى لكل فريق من العذاب وقرأ شعبة يعلمون بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (وقالت أولاهم) أى فى الكفر وهم القادة (لاخراهم) أى الاتباع (فما كان لكم علينا من فضل) أى لانكم لم تكفروا بسببنا فقد جاءتكم الرسل والنذر فارجعتم عن ضلالكم وكفركم فنحن وأنتم سواء قال الله تعالى لهم (فذوقوا العذاب بما) أى بسبب ما (كنتم تكسبون) أى من الكفر والاعمال الخبيثة (ان الذين كذبوا بآياتنا) أى بدلائل التوحيد فلم يصدقوا ولم يتبعوا رسلى (واستكبروا عنها) أى وتكبروا عن الايمان بها والانقياد لها والعمل بمقتضاها (لا تفتح لهم أبواب السماء) لصعود أعمالهم ولا لدعائهم ولا لارواحهم ولا لنزول البركات عليهم لانها طاهرة عن الارجاس الحسية والمعنوية فاذا صعدت أرواحهم الخبيثة بعد الموت مع ملائكة العذاب أغلقت الابواب دونها ثم ألقيت من هنالك الى سجين بخلاف المؤمن فيفتح له ويصعد بروحه الى السماء السابعة كما ورد فى حديث وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بسكون الفاء وتخفيف التاء بعدها الا أن أبا عمرو يقرأ بالتاء على التأنيث وحمزة والكسائى بالياء على التذكير وقرأ الباقون بالتأنيث وفتح الفاء وتشديد التاء بعدها (ولا يدخلون الجنة) أى التى هى أطهر المنازل وأشرفها (حتى) يكون ما لا يكون بان (يلج) أى يدخل (الجمل) على كبره (فى سم الخياط) أى ثقب الابرة وهو غير ممكن فكذا دخولهم الجنة فهو تعليق على محال وعن ابن مسعود انه سئل عن الجمل فقال زوج الناقة استجهالا للسائل واشارة الى أن طالب معنى آخر تكلف (وكذلك) أى ومثل ذلك الجزاء بهذا العذاب وهو ان دخولهم الجنة محال عادة (نجزى المجرمين) أى الكافرين لانه تقدم من صفتهم انهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها وهذه صفة الكفار فوجب حمل لفظ المجرمين على أنهم الكفار ولما بين تعالى أن الكفار لا يدخلون الجنة أبدا بين أنهم من أهل النار ووصف ما أعد الله لهم فيها فقال تعالى (لهم من جهنم مهاد) أى فراش وأصل المهاد المهد الذى يقعد عليه ويضطجع عليه كالبساط (ومن فوقهم غواش)

أى أغطية من النار جمع غاشية والتنوين فيه عوض من الياء التى هى حرف علة وقيل عن حركتها (وكذلك نجزى الظالمين) عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى اشعارا بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بهذه الاوصاف الذميمة وذكر الجرم مع الحرمان من الجنة والظلم مع التعذيب بالنار تنبيها على أنه أعظم الاجرام وقوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) مبتدا وقوله تعالى (لانكلف نفسا الا وسعها) أى طاقتها من العمل اعتراض بينه وبين خبره وهو (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) وانما حسن وقوع ذلك بين المبتدا والخبر لانه من جنس هذا الكلام لان الله تعالى لما ذكر عملهم الصالح دل ذلك على أن ذلك العمل من وسعهم وطاقتهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم قدرها وعلوها يوصل اليها بالعمل السهل من غير تحمل كلفة ولا مشقة صعبة وأتبع الوعيد بالوعد على عادته فقال تعالى (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) أى غش وعداوة كانت بينهم فى الدنيا فمن كان فى قلبه على أخيه غل فى الدنيا نزع فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم الا التوادد والتعاطف وعن على رضى الله عنه انى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لاحدهم أهدى بمنزلة فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا وقال السدى فى هذه الآية ان أهل الجنة اذا سيقوا الى الجنة وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشربوا من احداهما فنزع ما فى صدورهم من غل وهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلا يشعثوا ولا يشحنوا بعدها أبدا وقيل ان درجات الجنة متفاوتة فى العلو والكمال فبعض أهل الجنة أعلى من بعض فأخرج الله تعالى الغل والحسد من صدورهم وأزاله عنهم ونزعه من قلوبهم فلا يحسد صاحب الدرجة النازلة صاحب الدرجة العالية (تجرى من تحتهم الانهار) أى من تحت قصورهم زيادة فى لذتهم وسرورهم (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا) أى ان المؤمنين اذا دخلوا الجنة قالوا الحمد لله الذى وفقنا وأرشدنا للعمل الذى هذا ثوابه وتفضل علينا به رحمة منه واحسانا وصرف عنا عذاب جهنم بفضله وكرمه فله الحمد على ذلك (وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) أى لولا هداية الله وتوفيقه واللام لتوكيد النفى وجواب لولا محذوف دل عليه قوله تعالى وما كنا لنهتدى وتقديره لولا هداية الله لنا موجود لشقينا أوما كنا مهتدين وقرأ ابن عامر بحذف الواو وقيل ما والباقون بالواو واذا دخل أهل النعيم الجنة ورأوا ما أعد الله تعالى لهم من النعيم قالوا (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) فاهتدينا بارشادهم يقولون ذلك سرورا واغتباطا بما نالوا وتلذذا بالتكلم به وتبجحا بأن ما علموه يقينا فى الدنيا صار لهم عين اليقين فى الآخرة وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال والباقون بالادغام (ونودوا) اذا رأوها من بعيد أو بعد دخولها والمنادى هو الله تعالى أو الملائكة ينادون بأمر الله تعالى (أن تلكم الجنة) التى كانت الرسل وعدتكم بها فى الدنيا وروى أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادان لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا
وان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وان لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وان لكم أن تنعموا
فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله تعالى ونودوا أن تلكم الجنة (أورثتموها) أى أعطيتموها
(بما كنتم تعملون) أى بسبب أعمالكم الصالحة التى عملتموها لان الجنة جعلت جزاء وثوابا
لكم على الاعمال الصالحة ولا يعارض هذا ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لن يدخل
الجنة أحد بعمله انما يدخلونها برحمة الله تعالى فان الباء فى الحديث للعوض وهى الداخلة على
الاثمان نحو شريت الفرس بألف فلا تكون الجنة مشتراة له بعمله فيكون عمله ثمنا لها
أو ان دخول الجنة برحمة الله واقتسام الدرجات بالاعمال أو أن العمل الصالح لن يناله المؤمن
ولن يناله الا برحمة الله وتوفيقه واذا كان العمل الصالح بسبب الرحمة كان دخول الجنة فى
الحقيقة برحمة الله وجعلها الله تعالى ثوابا وجزاء لهم على تلك الاعمال الصالحة التى عملوها فى
دار الدنيا وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من أحد الا وله منزل فى الجنة ومنزل
فى النار فأما الكافر فيرث المؤمن منزله من الجنة والمؤمن يرث الكافر منزله من النار وأن فى
المواضع الخمسة التى فيها المناداة والتأذين هى المخففة أو المفسرة لان المناداة والتأذين من
القول وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الثاء عند التاء والباقون بالادغام
(ونادى أصحاب) أى أهل (الجنة أصحاب) أى أهل (النار) أى تقول أهل الجنة يا أهل النار
(أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا) أى فى الدنيا على لسان الرسل من الثواب على الايمان به وبرسله
وطاعته (حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم) أى من العذاب على الكفر (حقا قالوا) أى قال
أهل النار مجيبين لاهل الجنة (نعم) وجدنا ذلك حقا وهذا النداء انما يكون بعد استقرار أهل
الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار (فان قيل) الجنة فى السماء والنار فى الارض فكيف يصح
أن يقع هذا النداء (أجيب) بأن الله قادر على أن يقوى الاصوات والاسماع فيصير البعيد
كالقريب (فان قيل) هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل النار أو من البعض للبعض
(أجيب) بأن ظاهر الآية العموم ويحتمل أن كل واحد من أهل الجنة ينادى من كان يعرف
من الكفار فى دار الدنيا والله أعلم بحقيقة ذلك وقرأ الكسائى بكسر العين والباقون بالفتح
وهما لغتان (فأذن مؤذن) أى وهو اسرافيل صاحب الصور كما قاله ابن عباس وقيل واحد
من الملائكة وأصل الاذان فى اللغة الاعلام والمعنى نادى مناد (بينهم) أى الفريقين
أسمعهم (أن لعنة الله على الظالمين) وقرأ البزى وابن عامر وحمزة والكسائى بتشديد أن
ونصب التاء والباقون بتخفيف أن ورفع التاء ثم فسر الظالمين منهم بقوله تعالى (الذين يصدون
عن سبيل الله) أى يمنعون الناس عن الدخول فى دين الاسلام (ويبغونها) أى يطلبون السبيل
(عوجا) أى معوجة قال ابن عباس يصلون لغير الله ويعظمون ما لم يعظمه الله والعوج بكسر
العين فى الدين والامر وكل ما لم يكن قائما وبالفتح فى كل ما كان قائما كالحائط والرمح (وهم
بالآخرة كافرون) أى بكون الآخرة واقعة جاحدون منكرون لها (وبينهما) أى أهل الجنة

واهل

وأهل النار (حجاب) لقوله تعالى فضرب بينهم بسور أى وبين الجنة والنار ليمتنع وصول أثر أحداهما الى الاخرى (وعلى الاعراف) وهو سور الجنة جمع عرف وهو المكان المرتفع ومنه عرف الديك لارتفاعه على ما سواه من جسده وقال السدى سمى ذلك السور اعرافا لان أصحابه يعرفون الناس أى أهل الجنة والنار (رجال) أى طائفة من الموحدين استوت حسناتهم وسيآتهم كما فى الحديث فقصرت بهم سيآتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار فوقفوا هنالك حتى يقضى الله تعالى فيهم مايشاء ثم يدخلون الجنة بفضل الله تعالى ورحمته وهم آخر من يدخل الجنة وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيآته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيآته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ثم قرأ قوله تعالى فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم ثم قال ان الميزان تخف بمثقال حبة أو ترجح قال ومن استوت حسناته وسيآته كان من أصحاب الاعراف وقيل هم قوم خرجوا الى الغزو بغير اذن آبائهم فقتلوا فأعتقوا من النار بقتلهم فى سبيل الله وحبسوا عن الجنة بمعصية آبائهم فهم آخر من يدخل الجنة وقيل هم الذين ماتوا فى الفترة ولم يبدلوا دينهم وقيل هم أطفال المشركين (يعرفون) أى أصحاب الاعراف (كلا) من أهل الجنة والنار (بسيماهم) أى بعلاماتهم وهى بياض الوجوه للمؤمنين وسوادها للكافرين لرؤيتهم لهم اذ موضعهم عال (ونادوا) أى ونادى أصحاب الاعراف (أصحاب الجنة أن سلام عليكم) اذا نظروا اليهم سلموا عليهم (لم يدخلوها) أى أصحاب الاعراف الجنة (وهم يطمعون) فى دخولها قال الحسن لم يطمعهم الا لكرامة يريدها بهم وروى الحاكم عن حذيفة قال بينما هم كذلك اذ طلع عليهم ربك فقال قوموا ادخلوا الجنة فقد غفرت لكم وقال مجاهد أصحاب الاعراف قوم صالحون فقهاء علماء وعلى هذا انما يكون لبثهم على الاعراف على سبيل النزهة وليرى غيرهم شرفهم وفضلهم وحكى ابن الانبارى أنهم أنبياء وعلى هذا انما أجلسهم على ذلك العالى تمييزا لهم على أهل القيامة واظهارا لفضلهم وعلو مرتبتهم وليكونوا مشرفين على أهل الجنة والنار ومطلعين على أحوالهم ومقادير ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار وقال أبو مخلد هم ملائكة يرون فى صورة الرجال والاقوال الاول تدل على أن أصحاب الاعراف دون أهل الجنة فى الدرجات وان كانوا يدخلون الجنة برحمة الله والاقوال الاخيرة تدل على أنهم أفضل من أهل الجنة لانهم أعلى منهم منزلة وأفضل (واذا صرفت أبصارهم) أى أصحاب الاعراف (تلقاء) أى جهة (أصحاب النار) فنظروا اليهم والى سواد وجوههم وما هم فيه من العذاب (قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) أى الكافرين فى النار قال ابن عباس ان أصحاب الاعراف اذا نظروا الى أصحاب النار وما هم فيه تضرعوا الى الله تعالى وسألوه أن لا يجعلهم منهم وقرأ قالون وأبو عمرو والبزى باسقاط الهمزة الاولى وأبدلها ورش وقنبل حرف مد ومهلاها والباقون بالتحقيق (ونادى أصحاب الاعراف رجالا) أى كانوا عظماء فى الدنيا من أهل النار (يعرفونهم بسيماهم)

أى بسيما أهل النار (قالوا) أى أصحاب الاعراف لهؤلاء الذين عرفوهم فى النار (ما أغنى عنكم جمعكم) أى ما كنتم تجمعون من الاموال فى الدنيا أو كثرتكم واجتماعكم فيها (وما كنتم تستكبرون) أى وما أغنى عنكم تكبركم عن الايمان شيأ قال الكلبى ينادونهم على السور يا وليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام يا فلان ويا فلان ثم ينظرون الى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزؤن بهم مثل سلمان الفارسى وخبيب وصهيب وبلال وأشباههم فيقول أصحاب الاعراف لهؤلاء الكفار (أهؤلاء) لفظ استفهام أى أهؤلاء الضعفاء (الذين أقسمتم) أى حلفتم بالله (لا ينالهم الله برحمة) أى لا يدخلون الجنة وقد قيل لهم (ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وقيل أصحاب الاعراف اذا قالوا لاهل النار ما قالوا قال لهم أهل النار ان دخل هؤلاء فأنتم لم تدخلوها فيعيرونهم بذلك ويقسمون أنهم لا يدخلون الجنة ولا ينالهم الله برحمة فتقول الملائكة الذين حبسوا أهل الاعراف ادخلوا الجنة برحمة الله لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون وهذا ظاهر على الاقوال الاول وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر تنوين رحمة فى الوصل وابن ذكوان بوجهين الضم والكسر والباقون بالضم (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء) أى صبوه وهو دليل على أن الجنة فوق النار (أو مما رزقكم الله) أى من سائر الاشربة ليلائم الافاضة لان الافاضة ملائمة للماء وسائر المائعات فحملت الافاضة على افاضة جميع المائعات أو من سائر المشروب والمأكول بتضمين أفيضوا ألقوا كقوله

علفتها تبنا وماء باردا * حتى غدت همالة عيناها

أى فائضة عيناها (قالوا) أى أهل الجنة مجيبين لهم (ان الله حرمهما) أى منعهما (على الكافرين) أى منعهم طعام الجنة وشرابها كما يمنع المكلف ما يحرم عليه ويحظر كقوله * حرام على عينى أن تطعم الكرا * وقيل لما كانت شهواتهم فى الدنيا فى لذة الاكل والشرب وعذبهم الله فى الآخرة بشدة الجوع والعطش فسألوا ما كانوا يعتادونه فى الدنيا من طلب الاكل والشرب فأجيبوا بأن الله تعالى حرم طعام الجنة وشرابها على الكافرين ثم وصف الله تعالى الكافرين بقوله (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) وهو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والتصدية حول البيت وسائر الخصال الذميمة التى كانوا يفعلونها فى الجاهلية وقيل كانوا اذا دعوا الى الايمان سخروا ممن دعاهم وهزؤا به واللهو هو صرف الهم بما لا يحسن أن يصرف له واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب به (وغرتهم الحياة الدنيا) أى وخدعهم عاجل ما هم فيه من رغد العيش والدعة وشغلهم ما هم فيه من ذلك عن الايمان بالله ورسوله ومن الاخذ بنصيبهم فى الآخرة حتى أتتهم المنية وهم على ذلك والغرة غفلة فى اليقظة وهو طمع الانسان فى طول العمر وحسن العيش وكثرة المال ونيل الجاه ونيل الشهوات فاذا حصل له ذلك صار محجوبا عن الدين وطلب الخلاص لانه غريق فى الدنيا بلذاته وما هو فيه من ذلك ولما وصفهم الله تعالى بهذه الصفات الذميمة قال (فاليوم) أى يوم القيامة (ننساهم) أى نتركهم فى النار ونعرض

عنهم فلا نجيب دعاءهم ولا نرحم ضعفهم (كما نسوا لقاء يومهم هذا) أى كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا كفعل الناسين فلم يخطر ببالهم ولم يهتموا له وأعرضوا عن الايمان فقابل الله تعالى جزاء نسيانهم بالنسيان على المجاز لان الله تعالى لا ينسى شيأ فهو كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (وما كانوا بآياتنا يجحدون) أى وما كانوا منكرين أنها من عند الله تعالى (ولقد جئناهم) أى هؤلاء الكفار (بكتاب) أى قرآن أنزلناه عليك يا محمد (فصلناه) أى بينا معانيه من العقائد والاحكام والمواعظ مفصلة (على علم) أى عالمين بوجه تفصيله وقوله تعالى (هدى ورحمة لقوم يؤمنون) أى به حال من منصوب فصلناه كما ان على علم حال من مرفوعه (هل ينظرون) أى ما ينظرون (الا تأويله) أى الا عاقبة أمره وما يؤول اليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد (يوم يأتى تأويله) أى يوم القيامة لانه يوم الجزاء (يقول الذين نسوه من قبل) أى تركوه ترك الناسى (قد جاءت رسل ربنا بالحق) أى قد تبين لهم واعترفوا يوم القيامة بأن ما جاءت به الرسل من الايمان والحشر والنشر والبعث والثواب والعقاب حق حين لا ينفعهم ذلك الاعتراف * ولما رأوا أنفسهم فى العذاب قالوا (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) اليوم (أو نرد) أى أو هل نرد الى الدنيا وقولهم (فنعمل غير الذى كنا نعمل) فيما قبل الكفر بالايمان والتوحيد والمعاصى بالطاعة والانابة جواب الاستفهام الثانى (قد خسروا أنفسهم) أى اذ صاروا الى الهلاك لانهم كانوا فى الدنيا أول مرة فلم يعملوا بطاعة الله ولو ردوا الى الدنيا لعادوا الى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان لسابق علم الله فيهم (وضل) أى ذهب (عنهم ما كانوا يفترون) أى من دعوى الشريك فلم ينفعهم (ان ربكم) أى سيدكم ومولاكم ومصلح أموركم وموصل الخيرات اليكم ودافع المكاره عنكم هو (الله الذى خلق السموات والارض) أى ابتدعهما وأنشأ خلقهما على غير مثال سبق (فى ستة أيام) أى من أيام الدنيا وقيل من أيام الآخرة كل يوم ألف سنة (فان قيل) اليوم من أيام الدنيا عبارة عن مقدار من الزمان وذلك المقدار من طلوع الشمس الى غروبها ولم يكن اذ ذاك شمس ولا قمر ولا سماء (أجيب) بأن معنى ذلك فى مقدار ستة أيام فهو كقوله تعالى لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا أى على مقادير البكر والعشى فى الدنيا لان الجنة لا ليل فيها ولا نهار قال سعيد بن جبير كان الله عز وجل قادرا على خلق السموات والارض فى لمحة ولحظة فخلقهن فى ستة أيام تعليما لخلقه التثبت والتأنى فى الامور وقد جاء فى الحديث التأنى من الله والعجلة من الشيطان واختلف العلماء فى اليوم الذى ابتدأ الله خلق الاشياء فيه فقيل هو يوم السبت لخبر مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الاحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق الله آدم بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق فى آخر ساعة من النهار وفيما بين العصر الى الليل وقيل يوم الاحد لقول بعضهم سمى يوم الاثنين لانه ثانى الايام والخميس لانه خامس الايام قال الاسنوى والصواب الاول للخبر المذكور (ثم استوى على

العرش) أى استوى أمره وقال أهل السنة الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب الايمان به ونكل فيه العلم الى الله تعالى والمعنى أن له سبحانه وتعالى استواء على العرش على الوجه الذى عناه منزه عن الاستقرار والتمكن وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله تعالى الرحمن على العرش استوى فأطرق رأسه مليا وعلاه الرحضاء ثم قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أظنك الا ضالا ثم أمر به فأخرج وروى عن سفيان الثورى والاوزاعى والليث بن سعد وغيرهم من علماء السنة فى هذه الآيات التى جاءت فى الصفات المتشابهة أمروها كما جاءت اقروها بلا كيف واجماع السلف منعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية والعرش فى اللغة السرير قال كعب ان السموات فى العرش كالقنديل معلقا بين السماء والارض وقال الطائى العرش ياقوتة حمراء وشذ قوم فقالوا العرش بمعنى الملك وهذا عدول عن الحقيقة الى التجوز مع مخالفة الاثر ألم يسمعوا قوله تعالى وكان عرشه على الماء أتراه كان الملك على الماء وكيف يكون الملك ياقوتة حمراء وبعضهم يقول استوى بمعنى استولى ويحتج بقول الشاعر

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق

وقال آخر

هما استويا بفضلهما جميعا * على عرش الملوك بغير زور

وهذا منكر عند أهل اللغة قال ابن الاعرابى لا يعرف استولى فلان على كذا الا اذا كان بعيدا منه غير متمكن منه ثم تمكن منه والله تعالى لم يزل مستوليا على الاشياء والبيتان قال ابن فارس اللغوى لا يعرف قائلهما ولو صحا لا حجة فيهما لما بينا من استيلاء من لم يكن مستوليا نعوذ بالله من تعطيل الملحدة وتشبيه المجسمة وقيل هو ما علا فأظل ومنه عرش الكرم (يغشى الليل النهار) أى يغطيه ولم يذكر عكسه اما للعلم به واما لان اللفظ يحتملهما بأن يكون المعنى بأنه يلحق الليل بالنهار والنهار بالليل وقرأ شعبة وحمزة والكسائى بفتح الغين وتشديد الشين والباقون بسكون الغين وتخفيف الشين (يطلبه) أى يطلب كل منهما الآخر طلبا (حثيثا) اى سريعا فهو صفة مصدر محذوف ويحتمل أن يكون حالا من الفاعل بمعنى حاثا أو المفعول بمعنى المحثوث (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) أى مذللات لما يراد منهن من طلوع وأفول وسير على حسب ارادة المدبر لهن (بأمره) أى بقضائه وتصريفه وقرأ ابن عامر برفع الاربعة على الابتداء والخبر والباقون بالنصب عطفا على السموات ومسخرات منصوب بالكسرة (ألا له الخلق جميعا (والامر) كله فانه الموجد والمتصرف فى ذلك وفى هذا رد على من يقول ان الشمس والقمر والكواكب تخلق له الامر المطلق وليس لاحد أمر غيره فهو الآمر والناهى الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لاحد من خلقه عليه واستخرج سفيان بن عيينة من هذا ان كلام الله تعالى ليس بمخلوق فقال ان الله تعالى فرق بين الخلق والامر فمن جمع بينهما فقد كفر أى ان جعل الامر وهو كلامه من جملة ما خلقه فهو كفر لان المخلوق لا يقوم الا بمخلوق (تبارك الله رب العالمين) أى تعالى بالوحدانية وتعظم بالتفرد فى الربوبية قال البيضاوى وتحقيق الآية والله

اعلم

أعلم أنّ الكفرة كانوا متخذين أربابا فبين الله تعالى لهم أنّ المستحق للربوبية واحد وهو الله تعالى لانه الذى له الخلق والامر فانه تعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم فابدع الافلاك ثم زينها بالكواكب كما أشار اليه بقوله تعالى فقضاهنّ سبع سموات فى يومين وعمد الى ايجاد الاجرام السفلية فخلق جسما قابلا للصور المتبدلة والهيآت المختلفة ثم قسمها بصور نوعية متضادّة الآثار والافعال وأشار اليه بقوله تعالى خلق الارض فى يومين أى ما فى جهة السفل فى يومين ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة أى وهى النبات والحيوان والمعدن بتركيب موادها أولا وتصويرها ثانيا كما قال تعالى بعد قوله خلق الارض فى يومين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام أى مع اليومين الاوّلين اللذين خلق فيهما السموات لقوله تعالى فى سورة السجدة الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم لما تم له عالم الملك عمد الى تدبيره كالملك الجالس على عرشه لتدبير المملكة فدبر الامر من السماء الى الارض بتحريك الافلاك وتسيير الكواكب وتكوير الليالى والايام ثم صرّح بما هو نتيجة ذلك فقال ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين ثم أمرهم أن يدعوه متذللين مخلصين بقوله تعالى (ادعوا ربكم) لانّ الدعاء هو السؤال والطلب وهو نوع من أنواع العبادة لانّ الداعى لا يقدم على الدعاء الا اذا عرف من نفسه الحاجة الى ذلك المطلوب وهو عاجز عن تحصيله وعرف أنّ ربه سبحانه وتعالى يسمع الدعاء ويعلم حاجته وهو قادر على ايصالها الى الداعى فعند ذلك يعرف العبد نفسه بالعجز والنقص ويعرف ربه بالقدرة والكمال وهو المراد من قوله تعالى (تضرّعا) أى ادعوا ربكم تذللا واستكانة وهو اظهار الذل فى النفس والخشوع يقال ضرع فلان لفلان اذا ذل له وخشع (وخفية) أى سرّا فى أنفسكم وهو ضد العلانية والادب فى الدعاء أن يكون خفيا لهذه الآية وعن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس اربعوا على أنفسكم انكم لا تدعون أصم ولا غائبا انكم تدعون سميعا بصيرا وهو معكم قال أبو موسى وأنا خلفه أقول لا حول ولا قوّة الا بالله فى نفسى فقال يا عبد الله بن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قلت بلى قال لا حول ولا قوّة الا بالله وقال الحسن بين دعوة السرّ والجهر سبعون ضعفا ولقد كان المسلمون يجهدون فى الدعاء لا يسمع لهم صوت ان كان الا همسا بينهم وبين ربهم وذلك أنّ الله تعالى يقول ادعوا ربكم تضرّعا وخفية فانّ الله تعالى أثنى على زكريا عليه الصلاة والسلام فقال اذ نادى ربه نداء خفيا وعن الحسن أيضا انّ الله يعلم التقىّ والدعاء الخفىّ ان كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره وان كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر الناس به وان كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة وعنده الزوّار وما يشعرون به ولقد أدركنا أقواما ما كان على الارض من عمل يقدرون أن يفعلوه فى السرّ فيكون علانية أبدا (انه) تعالى (لا يحب المعتدين) أى المجاوزين ما أمروا به فى الدعاء وغيره ونبه به على أنّ الداعى ينبغى له أن لا يطلب ما لا يليق به كرتبة الانبياء عليهم الصلاة

والسلام والصعود الى السماء روى أن عبدالله بن مغفل سمع ابنه يقول اللهم انى أسألك القصر الابيض عن يمين الجنة اذا دخلتها فقال يابنى اسأل الله الجنة وتعوذ به من النار فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيكون فى هذه الامة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء وقيل أراد به الاعتداء فى الجهر قال ابن جريج من الاعتداء رفع الصوت والنداء بالدعاء والصياح وعنه صلى الله عليه وسلم سيكون قوم يعتدون فى الدعاء وحسب المرء أن يقول اللهم انى أسألك الجنة وماقرب اليها من قول وعمل وأعوذبك من النار وماقرب اليها من قول وعمل ثم قرأ انه لايحب المعتدين (ولاتفسدوا فى الارض) أى بالشرك والمعاصى (بعد اصلاحها) أى ببعث الرسل وشرع الاحكام وقيل لاتفسدوا فى الارض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم وعلى هذا فمعنى قوله تعالى بعد اصلاحها أى بعد اصلاح الله تعالى اياها بالمطر والخصب (وادعوه خوفا) منه ومن عذابه (وطمعا) أى فيما عنده من مغفرته وثوابه وقال ابن جريج خوف العدل وطمع الفضل (ان رحمت الله قريب من المحسنين) أى المطيعين وفى ذلك ترجيح الطمع وتنبيه على مايتوسل به الى الاجابة وتذكير قريب المخبر به عن رحمة لاضافتها الى الله تعالى وقال سعيد بن جبير الرحمة ههنا الثواب فرجع النعت الى المعنى دون اللفظ وقيل ان تأنيث الرحمة ليس بحقيقى وما كان كذلك جاز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة وقيل ذكره للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره حيث يجب التأنيث فى الاول فيقال فيه فلانة قريبة منى ويجوز فى الثانى فيقال فلانة قريبة وقريب منى فى المكان وكون الرحمة قريبا من المحسنين لان الانسان فى كل ساعة من الساعات فى ادبار من الدنيا واقبال على الآخرة واذا كان كذلك كان الموت أقرب اليه من الحياة وليس بينهم وبين رحمة الله التى هى الثواب فى الآخرة الا الموت وهو قريب من الانسان *(فائدة)* رحمت تكتب بالتاء المجرورة فوقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء وأمالها الكسائى فى الوقف وقوله تعالى (وهو الذى يرسل الرياح) عطف على ماقبله والمعنى ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض وهو الذى يرسل الرياح وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بالتوحيد والباقون بالجمع (نشرا بين يدى رحمته) أى متفرقة قدام المطر الذى هو من أجل النعم وأحسنها أثرا وقرأ عاصم بالباء الموحدة وسكون الشين أى مبشرا وحمزة والكسائى بالنون مفتوحة وسكون الشين على انه مصدر فى موضع الحال بمعنى ناشرات أو مفعول مطلق فان الارسال والنشر متقاربان وابن عامر بالنون مضمومة وسكون الشين تخفيفا والباقون بضم النون والشين جمع نشور بمعنى ناشر (حتى اذا أقلت) أى حملت الرياح (سحابا ثقالا) أى بالمطر يقال أقل فلان الشئ اذا حمله واشتقاق الاقلال من القلة فان من يرفع شيأ يراه قليلا (سقناه) أى السحاب وافراد الضمير باعتبار اللفظ وفيه التفات عن الغيبة ولو حمل على المعنى كالثقال لانث كما لو حمل على اللفظ على الوصف لقيل ثقيلا والسحاب جمع سحابة وهو الغيم فيه ماء أولم يكن فيه ماء سمى سحابا لانسحابه فى الهواء قال السدى ان الله سبحانه وتعالى يرسل الرياح فتأتى

بالسحاب من بين الخافقين وهما طرفا السماء والارض حيث يلتقيان فتخرجه ثم تنشره فتبسطه في السماء كما يشاء ثم تفتح له أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب ثم يمطر السحاب بعد ذلك (لبلد ميت) لانبات فيه أي لا حياته وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة بتخفيف الياء والباقون بالتشديد (فأنزلنا به) أي بالبلد أو السحاب (الماء فأخرجنا به) أي بذلك الماء لان انزال الماء كان سببا لاخراج الثمرات (من كل الثمرات) أي من كل أنواعها قال الازهري قال الليث بن سعد رحمه الله تعالى البلد هو كل موضع من الارض عامرا وغير عامر خال أو مسكون والطائفة منها بلدة والجمع بلاد (كذلك) أي مثل هذا الاخراج (نخرج الموتى) أحياء من قبورهم بعد فنائهم ودرس آثارهم (لعلكم تذكرون) أي لكي تعتبروا وتتذكروا والخطاب لمنكري البعث يقول انكم شاهدتم الاشجار وهي مزهرة مورقة مثمرة في أيام الربيع والصيف ثم انكم شاهدتموها يابسة عارية من تلك الاوراق والثمار ثم ان الله أحياها مرة أخرى فالقادر على احيائها بعد موتها قادر على أن يحيي الاجساد بعد موتها قال أبو هريرة وابن عباس رضي الله تعالى عنهم اذا مات الناس كلهم في النفخة الاولى أرسل الله تعالى عليهم مطرا كمني الرجال من ماء تحت العرش فينبتون في قبورهم نبات الزرع حتى اذا استكملت أجسادهم نفخ فيها الروح ثم يلقي عليهم نومة فينامون في قبورهم ثم يحشرون بالنفخة الثانية وهم يجدون طعم النوم في رؤسهم وأعينهم فعند ذلك يقولون يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد (والبلد الطيب) أي والارض الكريمة التربة السهلة السمحة (يخرج نباته باذن ربه) أي بمشيئته وتيسيره عبر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه لانها وقعت في مقابلة (والذي خبث) أي والبلد الذي خبث أرضه فهي سبخة (لا يخرج) نباته (الا نكدا) أي عسرا بمشقة وكلفة قال المفسرون وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر فشبه المؤمن بالارض الطيبة وشبه نزول القرآن على قلبه بنزول المطر على الارض الطيبة فاذا نزل المطر عليها أخرجت أنواع الازهار والاثمار فكذلك المؤمن اذا سمع القرآن آمن به وانتفع به وظهر منه الطاعات والعبادات وأنواع الاخلاق الحميدة وشبه الكافر بالارض الرديئة الغليظة السبخة التي لا ينتفع بها وان أصابها المطر فكذلك الكافر اذا سمع القرآن لا ينتفع به ولا يصدقه ولا يزيده الا عتوا وكفرا وان عمل الكافر حسنة في الدنيا كانت بمشقة وكلفة ولا ينتفع بها في الآخرة وقيل هو مثل ضربه الله تعالى لآدم وذريته كلهم منهم طيب ومنهم خبيث (كذلك) أي كما بينا ماذكر (نصرف) أي نبين (الآيات) الدالة على التوحيد والايمان آية بعد آية وحجة بعد حجة (لقوم يشكرون) نعمة الله تعالى فيتفكرون فيها ويعتبرون بها وانما خص الشاكرين بالذكر لانهم هم الذين ينتفعون بسماع القرآن * ولما ذكر الله تعالى في الآيات المتقدمة دلائل آثار قدرته الدالة على توحيده وربوبيته وأقام الادلة القاطعة على صحة البعث بعد الموت اتبع ذلك بقصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام وما جرى لهم مع أممهم فقال (لقد) جواب قسم محذوف تقديره والله لقد (أرسلنا نوحا) عليه السلام (الى قومه) ولا تكاد تطلق هذه اللام الا مع قد لانها مظنة

التوقع فان المخاطب اذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها ونوح هو ابن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو ادريس عليه السلام وهو أول نبي بعثه الله تعالى بعد ادريس وكان نجارا بعثه الله تعالى الى قومه وهو ابن خمسين سنة وقال ابن عباس رضي الله عنهما وهو ابن أربعين سنة وقيل وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة وقال ابن عباس سمي نوحا لكثرة ما ناح على نفسه واختلفوا في سبب نوحه فقال بعضهم لدعوته على قومه بالهلاك وقيل لمراجعته ربه في شأن ابنه كنعان وقيل لانه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالى اليه أعبتني أو أعبت الكلب وفي ذكر القصص تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لانه لم يكن اعراض قومه عن قبول الحق فقط بل قد أعرض عنه غالب الامم الخالية والقرون الماضية وفيه تنبيه على ان عاقبة أولئك الذين كذبوا الرسل كانت للخسار والهلاك في الدنيا والآخرة والعذاب الاليم فمن كذب محمدا صلى الله عليه وسلم من قومه كانت عاقبته مثل أولئك الذين خلوا من قبلهم من الامم المكذبة وفيه دليل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يلق أحدا من علماء زمانه وقد أتى بمثل هذه القصص والاخبار عن القرون الماضية والامم الخالية مما لم ينكره عليه أحد فعلم بذلك أنه انما أتى من عند الله وانه أوحى اليه بذلك فكان ذلك دليلا واضحا وبرهانا قاطعا على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم (فقال) نوح حال ارساله لقومه (يا قوم اعبدوا الله) أي اعبدوه وحده لقوله تعالى (ما لكم من اله غيره) فانه الذي يستحق العبادة لا غيره وقرأ الكسائي بكسر الراء والهاء على أنه صفة لاله والباقون برفعهما على البدل من محله (اني أخاف عليكم) ان لم تقبلوا ما آمركم به من عبادة الله تعالى واتباع أمره وطاعته (عذاب يوم عظيم) هو يوم القيامة أو يوم نزول الطوفان واهلاكهم فيه وقال اخاف على الشك وان كان يقينا من حلول العذاب بهم ان لم يؤمنوا به لانه لم يعلم وقت نزول العذاب بهم أيعاجلهم أم يتأخر عنهم العذاب الى يوم القيامة وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون (قال الملأ من قومه) أي الاشراف منهم فانهم يملؤن العيون منظرا (انا لنراك في ضلال) أي خطأ وزوال عن الحق (مبين) أي بين (قال) نوح مجيبا لهم (يا قوم ليس بي ضلالة) أي ليس بي شيء مما تظنون من الضلال (فان قيل) لم لم يقل ليس بي ضلال كما قالوا (أجيب) بأن الضلالة أخص من الضلال فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه كما لو قيل ألك تمر فقلت مالي تمرة فقد بالغ في النفي كما بالغوا في الاثبات وقوله تعالى (ولكني رسول من رب العالمين) استدراك باعتبار ما يلزمه وهو كونه كانه قال ولكني على هدى في الغاية لاني رسول الله (أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم) والنصح ارادة الخير لغيره كما يريده لنفسه ويقال نصحته ونصحت له كما يقال شكرته وشكرت له وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على امحاض النصيحة وانما وقعت خالصة للمنصوح له مقصودا بها جانبه لا غير فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعا ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله ورسوله وقيل حقيقة النصح تعريف وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه وقال بعض المفسرين والفرق بين ابلاغ نصيحة الرسالة وبين النصيحة

هو أن تبليغ الرسالة أن يعلمهم جميع أوامر الله تعالى ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التي أوجبها الله تعالى عليهم وأما النصيحة فهي أن يرغبهم في قبول تلك الاوامر والنواهي والعبادات ويحذرهم عقابه ان عصوه وقرأ أبو عمرو بسكون الباء وتخفيف اللام من الابلاغ كقوله تعالى لقد أبلغتكم رسالات ربي وقرأ الباقون بفتح الباء وتشديد اللام من التبليغ كقوله تعالى بلغ ما أنزل اليك من ربك (وأعلم من الله مالا تعلمون) أي من صفات الله وأحوال قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه وان بأسه لا يرد عن القوم المجرمين وقوله تعالى (أو عجبتم) الهمزة للانكار والواو للعطف على محذوف أي أكذبتم وعجبتم (ان جاءكم) أي من أن جاءكم (ذكر) أي موعظة (من ربكم على رجل) أي على لسان رجل (منكم) أي من جنسكم أو من جملتكم تعرفون نسبه وذلك أنهم كانوا يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين يعنون ارسال البشر ولو شاء ربنا لانزل ملائكة (لينذركم) أي لاجل أن ينذركم عاقبة الكفر والمعاصي (ولتتقوا) أي ولاجل أن تتقوا الله (ولعلكم ترحمون) بالتقوى ان وجدت منكم لان المقصود من ارسال الرسل الانذار والمقصود من الانذار التقوى عن كل مالا ينبغي والمقصود بالتقوى الفوز بالرحمة في الدار الآخرة وفائدة حرف الترجي التنبيه على أن التقوى غير موجبة والرحمة من الله تعالى محض تفضل وان المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه ولا يأمن من عذاب الله (فكذبوه) أي نوحا (فأنجيناه والذين) آمنوا به (معه) من الغرق وكانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة وقيل تسعة بنوه الثلاثة سام وحام ويافث وستة ممن آمن به وقوله تعالى (في الفلك) متعلق بمعه كأنه قيل والذين استقروا معه في الفلك أو صحبوه في الفلك أو بأنجيناه أي أنجيناهم في السفينة من الطوفان (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) بالطوفان (انهم كانوا قوما عمين) أي عمي القلوب عن الحق غير مستبصرين يقال رجل عم في البصيرة وأعمى في البصر وأنشدوا قول زهير

وأعلم علم اليوم والامس قبله * ولكنني عن علم ما في غد عم

(والى عاد) أي وأرسلنا الى عاد وهو عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح وهي عاد الاولى (أخاهم هودا) أي أخاهم في النسب لا في الدين وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص ابن ارم بن سام بن نوح وقيل هو ابن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام واختلف في سبب الاخوة من أين حصلت على وجهين الاول قال الزجاج انه كان من بني آدم ومن جنسهم لا من الملائكة ويكفي هذا القدر في تسمية الاخوة والمعنى انا أرسلنا الى عاد واحدا من جنسهم من البشر ليكون الفهم والانس بكلامه أتم وأكمل ولم يبعث اليهم من غير جنسهم مثل الملك والجن والوجه الثاني ان أخاهم بمعنى صاحبهم والعرب تسمي صاحب القوم أخاهم وكانت منازل عاد بالاحقاف باليمن والاحقاف الرمل الذي عند عمان وحضرموت (قال يا قوم اعبدوا الله) أي وحدوه ولا تجعلوا معه الها آخر (مالكم من اله غيره) (فان قيل) لم حذف العاطف من قوله قال ولم يقل فقال كما في قصة نوح (أجيب) بأن هذا على تقدير سؤال

سائل قال فقال لهم هود فقيل قال ياقوم وقيل ان نوحا كان مواظبا على دعوته قومه غير متوان فيها لان الفاء تدل على التعقيب وأما هود فلم يكن كذلك بل كان دون نوح في المبالغة في الدعاء فأخبر الله تعالى عنه بقوله قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره (أفلا تتقون) الله أى أفلا تخافون عقابه فتؤمنون ولما كانت هذه القصة معطوفة على قصة نوح وقد علم ما حل بهم من الغرق حسن قوله هنا أفلا تتقون أى أفلا تخافون ما نزل بهم من العذاب ولما لم يكن قبل واقعة قوم نوح شئ حسن تخويفهم من العذاب فقال هناك انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك في سفاهة) أى في حمق وجهالة وضلالة عن الصواب (فان قيل) لم قال قوم نوح انا لنراك في ضلال مبين وقوم هود انا لنراك في سفاهة (أجيب) بأن نوحا لما خوف قومه بالطوفان وطفق في عمل السفينة في أرض ليس فيها من الماء شئ قال له قومه انا لنراك في ضلال مبين حيث تتعب في اصلاح سفينة في هذه الارض وأما هود عليه السلام لما زيف عبادة الاصنام ونسب من عبدها الى السفه وهو قلة العقل قابلوه بمثله فقالوا انا لنراك في سفاهة (وانا لنظنك من الكاذبين) أى في ادعائك انك رسول من رب العالمين (قال) هود لهؤلاء الملا الذين نسبوه الى السفه (ياقوم ليس بي سفاهة) أى ليس الامر كما تزعمون ان بي سفاهة (ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي) أى أؤدى اليكم ما أرسلني به من أوامره ونواهيه وشرائعه وتكاليفه (وأنا لكم ناصح) أى فيما آمركم به من عبادة الله تعالى (أمين) أى مأمون على تبليغ الرسالة وأداء النصح والامين الثقة على ما ائتمن عليه (فان قيل) لم قال نوح وأنصح لكم بصيغة الفعل وقال هود وأنا لكم ناصح بصيغة اسم الفاعل (أجيب) بأن صيغة الفعل تدل على تجدده ساعة بعد ساعة وكان نوح يدعو قومه ليلا ونهارا كما أخبر الله تعالى عنه بقوله رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلما كان ذلك من عادته ذكره بصيغة الفعل فقال وأنصح لكم وأما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتا دون وقت فلهذا قال وأنا لكم ناصح أمين (فان قيل) مدح الذات بأعظم صفات المدح غير لائق بالعقلاء (أجيب) بأنه فعل هود ذلك لانه كان يجب عليه اعلام قومه بذلك ومقصوده الرد عليهم في قولهم وانا لنظنك من الكاذبين فوصف نفسه بالامانة وانه أمين في تبليغ ما أرسل به من عند الله وفيه دليل على جواز مدح الانسان نفسه في موضع الضرورة الى مدحها (أوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) سبق تفسيره *(تنبيه)* في اجابة الانبياء الكفرة عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا والاعراض عن مقالتهم كمال النصح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة وهكذا ينبغى لكل ناصح (واذكروا) نعمة الله عليكم (اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) أى خلفتموهم في الارض أو جعلكم ملوكا في الارض فان شداد بن عاد ممن ملك معمورة الارض من رمل عالج وهو موضع بالبادية بها رمل الى شحر عمان وهو بفتح الشين المعجمة وكسرها وبالحاء المهملة ساحل البحر بين عمان وعدن (وزادكم في الخلق بسطة) أى طولا وقوة قال الجلال المحلى في سورة الفجر كان طول الطويل منهم أربعمائة ذراع والقصير

القصير ستين ذراعا وقال أبو حمزة اليمانى سبعون ذراعا وعن ابن عباس رضى الله عنهما ثمانون
ذراعا وقال مقاتل كان طول كل رجل اثنى عشر ذراعا أخرج ابن عساكر عن وهب بذراعهم
أى على الاقوال كلها وقال وهب كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة وكان عين الرجل أى بعد
موته تفرخ فيها الضباع وكذا مناخرهم وقرأ نافع والبزى وشعبة والكسائى بالصاد
وأبو عمرو وهشام وقنبل وحفص وخلف بالسين وأما ابن ذكوان وخلاد فقرآ بالسين والصاد
(فاذكروا آلاء الله) أى أنعمه أى اعملوا عملا يليق بذلك الانعام وهو أن تؤمنوا به وتتركوا
ما أنتم عليه من عبادة الاصنام (لعلكم تفلحون) أى تفوزون بالنعيم المقيم فى الآخرة (قالوا)
أى قوم هود مجيبين له (أجئتنا) ياهود (لنعبد الله وحده ونذر) أى نترك (ما كان يعبد آباؤنا)
أى من الاصنام استبعدوا اختصاص الله تعالى بالعبادة والاعراض عما أشرك به آباؤهم
ومعنى المجيء فى أجئتنا امالان هودا كان معتزلا عن قومه كما كان يفعل النبى صلى الله عليه وسلم
بحراء قبل البعثة فلما أوحى اليه جاء قومه يدعوهم أو يريدون به الاستهزاء لانهم كانوا يعتقدون
ان الله تعالى لا يرسل الا الملائكة فكأنهم قالوا أجئتنا من السماء كما يجيء الملك أو ان المقصود
على المجاز كما تقول ذهب يشتمنى ولا يراد حقيقة الذهاب (فأتنا بما تعدنا) أى من العذاب
(ان كنت من الصادقين) أى فى قولك انى رسول الله (قال) هود مجيبا لهم (قد وقع عليكم) أى
نزل عليكم (من ربكم رجس) عقاب (وغضب) أى سخط (أتجادلوننى فى أسماء سميتموها) أى
وضعتموها (أنتم وآباؤكم) أى من عند أنفسكم والاستفهام للانكار عليهم لانهم سموا
الاصنام بالآلهة فعبدوها من دون الله (ما نزل الله بها) أى بعبادتها (من سلطان) أى حجة
وبرهان لان المستحق للعبادة بالذات هو الموجد للكل وانها لو استحقت كان استحقاقها بجعله
تعالى اما بانزال آية أو نصب دليل (فانتظروا) أى نزول العذاب بسبب تكذيبكم لى (انى معكم
من المنتظرين) ذلك فأرسلت عليهم الريح العقيم (فأنجيناه) أى هودا (والذين معه) أى من
المؤمنين (برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا) أى استأصلناهم وقوله تعالى (وما كانوا
مؤمنين) عطف على كذبوا وروى ان قوم هود كانوا يعبدون الاصنام فبعث الله تعالى اليهم
هودا فكذبوا وازدادوا عتوا فأمسك الله تعالى القطر عنهم ثلاث سنين حتى جهدوا وكان
الناس حينئذ مسلمهم وكافرهم اذا نزل بهم بلاء توجهوا الى البيت الحرام وطلبوا من الله تعالى
الفرج فجهزوا الى الحرم قيل بن عنز ومرثد بن سعد فى سبعين من أعيانهم وكان بمكة اذ ذاك
العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام وسيدهم معاوية بن بكر فلما قدموا عليه وهو بظاهر مكة
أنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فلبثوا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان
قينتان له وكان اسم احداهما وردة والاخرى جرادة فتسميتهما بالجرادتين فيه تغليب والقينة
الامة مغنية أو غير مغنية فلما رأى ذهولهم باللهو عما بعثوا له أهمه ذلك واستحى ان يكلمهم
فيه مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه فذكر ذلك للقينتين فقالتا قل شعرا نغنيهم به ولا يدرون
من قاله فعلم القينتين معاوية * الا يا قيل ويحك قم فهينم * والهينمة الصوت الخفى أى أخفى

الدعاء لعل الله يصبحنا غماما * والغمام هنا المطر

فيسقى أرض عاد ان عادا * قد امسوا لايبينون الكلاما

من العطش الشديد فليس نرجو * به الشيخ الكبير ولا الغلاما

فلما غنتا به أزعجهم ذلك وقالوا ان قومكم يتغوثون من البلاء الذى نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال لهم مرثد بن سعد والله لا تسقون بدعائكم ولكن ان أطعتم نبيكم وتبتم الى الله تعالى سقاكم وأظهر اسلامه فقالوا لمعاوية احبس عنا مرثدا لا يقدمن معنا مكة فانه قد اتبع دين هود وترك ديننا ثم دخلوا مكة فقال قيل اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء يا قيل اختر لنفسك ولقومك فقال اخترت السوداء فانها أكثر ماء فخرجت على عاد من واد لهم يقال له المغيث فاستبشروا به وقالوا هذا عارض ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود ومن معه من المؤمنين وأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا وروى أن النبى من الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين اذا هلك قومه هاجر والصالحون معه الى مكة يعبدون الله تعالى فيها حتى يموتوا وروى عن على رضى الله تعالى عنه ان قبر هود بحضرموت فى كثيب أحمر وقال عبد الرحمن بن سابط بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيا وان قبر هود وصالح وشعيب واسمعيل فى تلك البقعة (والى ثمود) أى وأرسلنا الى ثمود قبيلة أخرى من العرب سموا باسم أبيهم الاكبر وهو ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وقيل سموا به لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وكان مسكنهم الحجر وهو بكسر الحاء موضع بين الحجاز والشأم الى وادى القرى واتفق القراء السبعة هنا على عدم صرف ثمود مرادا به القبيلة وقرئ مصروفا فى غير هذه السورة بتأويل الحى أو باعتبار الاصل وهو انه اسم لابيهم الاكبر أو للماء القليل (أخاهم صالحا) أى أخاهم فى النسب لا فى الدين وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح ابن عبيد بن حاذر بن ثمود (قال) لهم صالح حين أرسله الله تعالى اليهم (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) أى فلا يستحق أن يعبد سواه (قد جاءتكم بينة من ربكم) أى معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتى وصدق ما أقول وادعو اليه من عبادة الله تعالى ثم فسر تلك البينة بقوله (هذه ناقة الله لكم آية) أى علامة على صدقى وآية نصبت على الحال عاملها ما دل عليه اسم الاشارة من معنى الفعل كأنه قال أشير اليها آية ولكم بيان لمن هى له آية موجبة عليه الايمان خاصة وهم ثمود لانهم عاينوها وسائر الناس أخبروا وليس الخبر كالمعاينة كأنه قال لكم خصوصا وانما أضيفت الى الله تعالى تعظيما لها وتفخيما لشأنها كما يقال بيت الله ولانها جاءت من عند الله تعالى بلا وسايط وأسباب معهودة ولذلك كانت آية (فذروها) أى اتركوها (تأكل فى أرض الله) أى العشب فليست الارض لكم ولا ما فيها من النبات انباتكم (ولا تمسوها بسوء) أى بشئ من أنواع الاذى لا بعقر ولا بغيره وقوله (فيأخذكم عذاب أليم) أى بسبب أذاها جواب النهى (واذكروا اذ جعلكم خلفاء) فى الارض (من بعد عاد) أى

انّ الله تعالى أهلك عادا وجعلكم تخلفونهم فى الارض وتعمرونها (وبوّأكم) أى أسكنكم وأنزلكم (فى الارض) أى أرض الحجر (تتخذون من سهولها قصورا) أى تبنون القصور من سهولة الارض لانّ القصور انما تبنى من اللبن والآجرّ المتخذ من الطين السهل اللين غالبا (وتنحتون الجبال بيوتا) أى وتنقبون فى الجبال البيوت وكانوا فى الصيف يسكنون بيوت الطين وفى الشتاء بيوت الجبال وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء والباقون بخفضها (فاذكروا آلاء الله) أى فاذكروا نعمة الله عليكم واشكروه عليها فانكم متنعمون مرفهون بمساكن فى الصيف ومساكن فى الشتاء (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) والعثو أشد الفساد وقال قتادة معناه لا تسيروا مفسدين فى الارض وقيل أراد به النهى عن عقر الناقة (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) أى تكبروا عن الايمان به (للذين استضعفوا) أى للذين استضعفوهم واستذلوهم وقوله تعالى (لمن آمن منهم) بدل من الذين استضعفوا بدل الكل ان كان الضمير لقومه وبدل البعض ان كان للذين وقرأ ابن عامر وقال الملأ بالواو والباقون بلا واو (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) أى أنّ الله أرسله الينا واليكم قالوا ذلك على الاستهزاء (قالوا) أى الضعفاء (انا بما أرسل به) أى صالح من الدين والهدى (مؤمنون) أى مصدقون وانما عدلوا عن الجواب السوىّ الذى هو نعم تنبيها على أنّ ارساله أظهر من أن يشك فيه عاقل أو يخفى على ذى لب (قال) الملأ (الذين استكبروا) عن أمر الله تعالى والايمان به وبرسوله صالح عليه السلام (انا بالذى آمنتم به كافرون) أى جاحدون متكبرون (فعقروا الناقة) أى عقرها قدار بأمرهم فاسند العقر اليهم والعقر قطع عرقوب البعير ثم جعل النحر عقرا فانه قتلها بالسيف فان ناحر البعير يعقره ثم ينحره (وعتوا عن أمر ربهم) أى تكبروا عن أمر ربهم وعصوه وكذبوا نبيهم صالحا عليه السلام (وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا) أى من العذاب (ان كنت من المرسلين) أى ان كنت تزعم أنك رسول الله فانّ الله ينصر رسله على أعدائه وانما قالوا ذلك لانهم كانوا مكذبين فى كل ما أخبرهم به من العذاب (فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة الشديدة من الارض والصيحة من السماء (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أى باركين على الركب ميتين روى ان عادا لما أهلكت عمرت ثمود بلادهم وخلفوهم فى الارض وكثروا وعمروا أعمارا طوالا حتى انّ الرجل كان يبنى البيت المحكم فينهدم فى حياته فنحتوا البيوت من الجبال وكانوا فى سعة ورخاء من العيش فعتوا وأفسدوا فى الارض وعبدوا الاصنام فبعث الله تعالى اليهم صالحا عليه السلام من أشرافهم غلاما شابا فدعاهم الى الله تعالى حتى كبر لا يتبعه الا قليل مستضعفون فلما ألحّ عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر عليهم التحذير والتخويف سألوه آية فقال لهم أى آية تريدون فقالوا تخرج معنا الى عيدنا فى يوم معلوم لهم فى السنة فتدعو الهك وندعو آلهتنا فان استجيب لك اتبعناك وان استجيب لنا اتبعتنا قال لهم صالح نعم فخرجوا بأوثانهم الى عيدهم وخرج صالح معهم ودعوا أوثانهم وسألوها الاستجابة فلم تجبهم ثم قال سيدهم جندع بن عمرو وأشار الى صخرة منفردة فى ناحية الجبل يقال لها الكاثبة أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة

مخترجة جوفاء وبراء والمخترجة هي التي شاكلت البخت والجوفاء ذات الجوف والوبراء ذات الوبر فان فعلت ذلك صدقناك فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتؤمنن ولتصدقن فقالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة أي تحركت للولادة تمخض النتوج بولدها فانصدعت أي انشقت عن ناقة عشراء وهي التي مر عليها من يوم أرسل عليها الفحل عشرة أشهر جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها الا الله تعالى عظما وعظما وهم ينظرون ثم نتجت ولدا مثلها في العظم فآمن به جندع ورهط من قومه وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا به ويصدقوه فنهاهم ذؤاب بن عمرو بن أسد والحباب صاحبا أوثانهم ورباب بن صمعر كاهنهم وكانوا من أشراف ثمود فلما خرجت الناقة قال لهم صالح هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد غبا فاذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ما فيها ثم تتفحج وهو بتقديم الحاء المهملة مثل التفسح وهو أن تفرج بين رجليها فيحلبون ما شاؤا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت تصيف أي تقيم زمن الصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم الى بطنه وتشتو أي تقيم زمن الشتاء ببطنه فتهرب مواشيهم الى ظهره فشق ذلك عليهم وزين عقرها لهم امرأتان عنيزة بنت غنم وصدقة بنت المختار لما أضرت به من مواشيهما وكانتا كثيرتي المواشي فعقروها واقتسموا لحمها فرقي سقبها وهو بفتح السين والقاف ولدها الذكر جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا وكان صالح عليه السلام قال لهم أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفجت وهو بتشديد الجيم أي انفتحت الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح تصبحون غدا وجوهكم مصفرة وبعد غد وجوهكم محمرة واليوم الثالث وجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله تعالى الى أرض فلسطين فلما كان اليوم الرابع واشتد الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالانطاع فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وهلكوا وسيأتي لهذه القصة زيادة ان شاء الله تعالى في سورة النمل ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بالحجر في غزوة تبوك قال لاصحابه لا يدخلن أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين الا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم وقال صلى الله عليه وسلم لعلي أتدري من أشقى الاولين قال الله ورسوله أعلم قال عاقر ناقة صالح عليه السلام أتدري من أشقى الآخرين قال الله ورسوله أعلم قال قاتلك (فتولى) أي أعرض صالح (عنهم) وفي هذا التولي قولان أحدهما أنه تولى عنهم بعد أن ماتوا وهلكوا ويدل عليه قوله تعالى فأصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم والفاء للتعقيب فدل على أنه حصل هذا التولي بعد جثومهم وهو موتهم والقول الثاني أنه تولى عنهم وهم أحياء قبل هلاكهم ويدل عليه أنه خاطبهم (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) وهذا الخطاب لا يليق الا بالاحياء وعلى هذا القول يحتمل أن في الآية تقديما وتأخيرا تقديره فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا

فى دارهم جاثمين (وأجيب) من جهة الاول بأنه خاطبهم بعد هلاكهم تقريعا وتوبيخا كما خاطب نبينا صلى الله عليه وسلم الكفار من قتلى بدر حين ألقوا فى القليب فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يناديهم بأسمائهم الحديث فى الصحيحين وفيه فقال عمر يا رسول الله تكلم أمواتا قد جيفوا فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون وقيل انما خاطبهم صالح عليه السلام بذلك ليكون عبرة لمن يأتى من بعدهم فينزجروا عن مثل تلك الطريقة وروى أن عقرهم الناقة كان يوم الاربعاء ونزل بهم العذاب يوم السبت وروى أنه خرج فى مائة وعشرين من المسلمين وهو يبكى فالتفت فرأى الدخان ساطعا فعلم أنهم قد هلكوا وكانوا ألفا وخمسمائة دار وروى أنه رجع بمن معه من المسلمين فسكنوا ديارهم (٢) وقال قوم من أهل العلم توفى صالح بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأقام فى قومه عشرين سنة (ولوطا) أى وأرسلنا لوط بن هاران بن تارخ ابن أخى ابراهيم (اذ قال لقومه) أى وقت قوله لهم وقيل معناه واذكر لوطا ويبدل منه اذ قال لقومه وهم أهل سذوم قال التفتازانى هو بفتح السين قرية قوم لوط والذال المعجمة فى رواية الازهرى دون غيره اه وصوّبه صاحب القاموس وغلط الجوهرى فى قوله انها مهملة وذلك أن لوطا عليه السلام لما هاجر مع عمه ابراهيم عليه السلام الى الشأم فنزل ابراهيم عليه السلام أرض فلسطين وأنزل لوطا الاردنّ وهو بضم الهمزة والدال وتشديد النون نهر وكورة بأعلى الشام فأرسله الله تعالى الى أرض سذوم يدعوهم الى الله تعالى وينهاهم عن فعلهم القبيح وهو قوله تعالى (أتأتون الفاحشة) أى أتفعلون الفاحشة الخبيثة التى هى غاية القبح وكانت فاحشتهم اتيان الذكران فى أدبارهم كما سيأتى (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) أى ما فعلها أحد قبلكم والباء للتعدية ومن الاولى زائدة لتوكيد النفى وافادة معنى الاستغراق والثانية للتبعيض والجملة استئناف مقرّر للانكار وبخهم أولا باتيان الفاحشة ثم باختراعها فانه أسوأ قال عمرو بن دينار ما نزا ذكر على ذكر فى الدنيا حتى كان من قوم لوط ثم بين الفاحشة بقوله (أئنكم لتأتون الرجال) أى فى أدبارهم (شهوة من دون النساء) أى انّ أدبار الرجال أشهى عندكم من فروج النساء وقرأ نافع وحفص بكسر الهمزة ولا ياء بينها وبين النون على الخبر وشهوة امّا مفعول له وامّا مصدر فى موضع الحال وفى التقييد بها وصفهم بالبهيمة الصرفة وتنبيه على أن العاقل ينبغى أن يكون الداعى له الى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لا قضاء الوطر وقرأ ابن كثير بهمزتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة مسهلة ولا مدّ بينهما وأبو عمرو كذلك الا أنه يمدّ بين الهمزتين وهشام بتحقيق الهمزتين بينهما مدّ والباقون بتحقيقهما من غير مدّ بينهما وقوله (بل أنتم) أيها القوم (قوم مسرفون) أى مجاوزون الحلال الى الحرام اضراب عن الانكار الى الاخبار عنهم بالحالة التى توجب ارتكاب القبائح وتدعو الى اتباع الشهوات وانما ذمّهم الله تعالى وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث لان الله تعالى خلق الانسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمارة الدنيا وجعل النساء محلا لتلك الشهوة وموضع النسل فاذا تركهنّ ووضع الشئ فى غير محله

(٢) قوله وقال قوم الخ الذى فى حاشية الجمل وعاش صالح مائتى سنة وثمانين سنة اه فليحرر

الذى خلق له فقد أسرف وجاوز واعتدى لان وضع الشئ فى غير محله الذى وضع له اسراف لان أدبار الرجال ليست محلا للولادة التى هى مقصودة بتلك الشهوة المركبة فى الانسان روى أن أول من عمل عمل قوم لوط ابليس لعنه الله تعالى لان بلادهم أخصبت بالزرع والثمار وانتجعها أهل البلدان فتمثل لهم ابليس لعنه الله تعالى فى صورة شاب ثم دعا الى نفسه فكان أول من نكح فى دبره وقال محمد بن اسحق كانت لهم ثمار وقرى لم يكن فى الارض مثلها فقصدهم الناس فآذوهم فعرض لهم ابليس لعنه الله تعالى فى صورة شيخ وقال لهم ان فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم منهم فلما ألح عليهم قصدوهم فأصابوا غلمانا حسانا فاستخبثوا واستحكم ذلك فيهم (وما كان جواب قومه) له حين وبخهم على فعلهم القبيح وارتكابهم ما حرم الله تعالى عليهم من العمل الخبيث (الا أن قالوا) أى قال بعضهم لبعض (أخرجوهم من قريتكم) أى ما جاؤا بما يكون جوابا عما كلمهم به لوط عليه السلام من انكار الفاحشة وتعظيم أمرها ولكنهم جاؤا بشئ آخر لا يتعلق بنصيحته وكلامه من الامر باخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ضجرا بهم وبما يسمعونه من وعظهم ونصحهم وقولهم (انهم أناس يتطهرون) أى يتنزهون عن فعلكم وعن أدبار الرجال سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش وافتخارا بما كانوا فيه من القاذورات كما تقول الفسقة لبعض الصلحاء اذا وعظهم أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزه (فأنجيناه) أى لوطا (وأهله) أى من آمن به وقوله تعالى (الا امرأته) استثناء من أهله فانها كانت تسر الكفر موالية لاهل سذوم (كانت من الغابرين) أى من الذين غبروا أى بقوا فى ديارهم فهلكوا وروى انها التفتت فأصابها حجر فماتت وانما قال تعالى من الغابرين ولم يقل من الغابرات لانها هلكت مع الرجال فغلب الذكور على الاناث (وأمطرنا عليهم مطرا) أى نوعا من المطر عجيبا وهو مبين بقوله تعالى وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل أى قد عجنت بالكبريت والنار يقال مطرت السماء وأمطرت وقال أبو عبيدة يقال فى العذاب أمطر وفى الرحمة مطر وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم (فانظر) أى أيها الانسان (كيف كان عاقبة المجرمين) روى ان تاجرا منهم كان فى الحرم فوقف الحجر أربعين يوما حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه وقال مجاهد نزل جبريل عليه السلام وأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط فاقتلعها ورفعها الى السماء ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها ثم أتبعوا بالحجارة كما قال تعالى فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل (والى مدين) أى وأرسلنا الى ولد مدين بن ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام (أخاهم) فى النسب لا فى الدين (شعيبا) بن ميكيل بن يشجر بن مدين وكان يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه عليه السلام وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان (قال) أى شعيب عليه السلام (ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة) أى معجزة تدل على صدق ما جئت به (من ربكم) أوجبت عليكم الايمان بى والاخذ بما آمركم به (فان قيل) ما كانت معجزته اذ لم تذكر له معجزة (أجيب) بأنه قد وقع العلم بأنه كان له معجزة لقوله قد جاءتكم بينة من ربكم ولانه

لابد لمدعى النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه والا لم تصح دعواه وكان متنبئا لا نبيا غير أن معجزته لم تذكر فى القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم فيه ومن معجزات شعيب عليه السلام الواردة فى غير القرآن ما روى من محاربة عصا موسى التنين حين دفع اليه الغنم وولادة الغنم الدرع حين وعده أن يكون له الدرع من أولادها والدرع بوزن الصرد وهى الغنم التى أوائلها سواد وأواخرها بياض ووقوع عصا آدم عليه السلام على يده فى المرات السبع وغير ذلك من الآيات لان هذه كلها كانت قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام فكانت معجزة لشعيب وهذا أولى من جعله كرامة لموسى أو ارهاصا وهو علامة تظهر قبل النبوة وقيل أراد بالبينة الموعظة وهى قوله تعالى (فأوفوا الكيل والميزان) أى أتموهما (ولا تبخسوا) أى تنقصوا (الناس أشياءهم) فتطففوا الكيل والوزن يقال بخس فلان الكيل والوزن اذا نقصه وطففه (فان قيل) هلا قال المكيال والميزان كما فى سورة هود (أجيب) بأنه أراد بالكيل آلة الكيل وهو المكيال أو سمى ما يكال به بالكيل أو أريد وأوفوا كيل المكيال ووزن الميزان وانما قال أشياءهم لانهم كانوا يبخسون الناس كل شئ فى مبايعاتهم أو كانوا مكاسين لا يدعون شيأ الا مكسوه كما يفعل أمراء الجور (ولا تفسدوا فى الارض) أى بالكفر والمعاصى (بعد اصلاحها) أى بعدما أصلح أمرها وأهلها الانبياء وأتباعهم بالشرائع (ذلكم) أى الذى ذكرت لكم وأمرتكم به من الايمان ووفاء الكيل والميزان وترك المظالم والبخس (خير لكم) أى مما أنتم عليه من الكفر وظلم الناس (ان كنتم مؤمنين) أى مصدقين بما أقول لكم ومعنى خير لكم أى فى الانسانية وحسن ما يتحدث به وجمع المال لان الناس ترغب فى متاجرتكم اذا عرفوا منكم الامانة والتسوية (ولا تقعدوا بكل صراط) أى طريق من طرق الدين (توعدون) أى تمنعون الناس من الدخول فيه وتهددونهم على ذلك وذلك انهم كانوا يجلسون على الطرقات فيخبرون من أتى عليهم ان شعيبا الذى تريدونه كذاب فلا يفتننكم عن دينكم وقيل كانوا يقطعون الطريق على الناس أو يقعدون لاخذ المكس منهم وقوله تعالى (وتصدون) أى تصرفون الناس (عن سبيل الله) أى دينه (من آمن به) دليل على أن المراد بالطريق سبيل الحق (فان قيل) صراط الحق واحد قال تعالى وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله فكيف قيل بكل صراط (أجيب) بأن صراط الحق وان كان واحدا لكنه يتشعب الى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة وكانوا اذا رأوا أحدا يشرع فى شئ منها أوعدوه وصدوه (وتبغونها) اى تطلبون الطريق (عوجا) أى تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة عن الحق غير مستقيمة لتصدوهم عن سلوكها والدخول فيها أو يكون ذلك تهكما بهم وانهم يطلبون لها ما هو محال فان طريق الحق لا يعوج (واذكروا) نعمة الله عليكم وآمنوا به (اذ كنتم قليلا فكثركم) أى كثر عددكم بعد القلة أو كثركم بالغنى بعد الفقر وكثركم بالقدرة بعد الضعف قيل ان مدين بن ابراهيم تزوج بنت لوط عليهما السلام فولدت فرمى الله تعالى فى نسلهما بالبركة والنماء فكثروا ونموا (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) قبلكم بتكذيبهم

رسلهم أى آخر أمرهم من الهلاك وأقرب الامم اليكم قوم لوط فانظروا كيف أرسل الله تعالى عليهم حجارة من السماء لما عصوه وكذبوا رسوله (وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا) به أى وان اختلفتم فى رسالتى فصرتم فرقتين فرقة آمنت بى وصدقت برسالتى وفرقة كذبت وجحدت برسالتى (فاصبروا) أى فتربصوا (حتى يحكم الله بيننا) أى بين الفريقين فيعز المؤمنين أى المصدقين وينصرهم ويهلك المكذبين الجاحدين ويعذبهم وفى هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين (وهو خير الحاكمين) أى لاحيف فى حكمه ولا معقب له لانه تعالى منزه عن الجور والميل فى حكمه وانما قال خير الحاكمين لانه قد يسمى بعض الاشخاص حاكما على سبيل المجاز والله تعالى هو الحاكم فى الحقيقة (قال الملأ) أى الجماعة (الذين استكبروا) أى تكبروا (من قومه) عن الايمان بالله ورسوله وتعظموا عن اتباع شعيب عليه الصلاة والسلام (لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن) أى ترجعن (فى ملتنا) أى لابد من أحد الامرين اما اخراجك ومن اتبعك على دينك من بلدنا أو عودكم فى الكفر (فان قيل) شعيب لم يكن قط على ملتهم حتى يرجع الى ما كان عليه (أجيب) بأن أتباع شعيب كانوا على ملة أولئك الكفار فخاطبوا شعيبا واتباعه جميعا فدخل هو فى الخطاب وان لم يكن على ملتهم قط لان الانبياء لايجوز عليهم الكفر مطلقا فاستعمل العود فى حقهم على سبيل المجاز وجرى بعضهم على ان العود يستعمل بمعنى صار كما يستعمل بمعنى رجع فلا يستلزم الرجوع الى حالة سابقة بل هو انتقال من حالة سابقة الى حالة مستأنفة كما قال القائل

فان تكن الايام تحسن مرة * الى فقد عادت لهن ذنوب

اراد فقد صارت لهن ذنوب ولم يرد أن ذنوبا كانت لهن قبل الاحسان (قال) لهم شعيب على سبيل الاستفهام الانكارى (أولو كنا كارهين) أى كيف نعود فيها ونحن كارهون لها وقيل لانعود فيها وان اكرهتمونا وجبرتمونا على الدخول فيها لانقبل ولا ندخل (قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها) والجواب عن هذا مثل ما أجيب به عن الاول وهو ان نقول ان الله نجى قومه الذين آمنوا به من تلك الملة الباطلة الا أن شعيبا نظم نفسه فى جملتهم وان كان بريأ مما كانوا عليه من الكفر فأجرى الكلام على حكم التغليب (وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا) أى الا أن يشاء خذلاننا وارتدادنا فحينئذ يمضى قضاء الله فينا وينفذ حكمه علينا وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله تعالى وقيل أراد به حسم طمعهم فى العود بالتعليق على ما لايكون (وسع ربنا كل شئ علما) أى وسع علمه كل شئ فلا يخفى عليه شئ مما كان وما يكون منا ومنكم (على الله توكلنا) فى أن يثبتنا على الايمان ويخلصنا من الاشرار ولما أيس شعيب من ايمان قومه دعا بهذا الدعاء فقال (ربنا افتح) أى اقض وافصل واحكم (بيننا وبين قومنا بالحق) أى بالعدل الذى لاجور فيه ولا ظلم ولا حيف (وأنت خير الفاتحين) أى الحاكمين (وقال الملأ الذين كفروا من قومه) أى قال جماعة من أشراف قوم شعيب ممن كفر به لآخرين منهم (لئن اتبعتم شعيبا) أى على دينه وتركتم دينكم وما أنتم عليه (انكم اذا لخاسرون) أى مغبونون

لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف أو لاستبدال ضلالته بهداكم وجواب القسم الذى وطأته اللام فى لئن اتبعتم شعيبا وجواب الشرط قوله انكم اذا لخاسرون فهو ساد مسد الجوابين (فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة الشديدة (فأصبحوا فى دارهم) أى مدينتهم (جاثمين) أى باركين على الركب ميتين قال ابن عباس رضى الله عنهما فتح الله عليهم بابا من جهنم فارسل عليهم حرا شديدا فأخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظل ولا ماء فدخلوا فى الاسراب ليتبردوا فيها فوجدوها أشد حرا من الظاهر فخرجوا الى البرية فبعث الله تعالى عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فأظلتهم وهى الظلة فوجدوا لها بردا ونسيما فنادى بعضهم بعضا حتى اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم نارا ورجفت بهم الارض فاحترقوا كما يحترق الجراد وصاروا رمادا وروى ان الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر سبعة أيام ثم رفع لهم جبل من بعيد فأتاه رجل فاذا تحته انهار وعيون فأتاهم وأخبرهم فاجتمعوا تحته كلهم فوقع ذلك الجبل عليهم فذلك قوله تعالى عذاب يوم الظلة وقال قتادة بعث الله تعالى شعيبا الى أصحاب الايكة وأصحاب مدين فأما أصحاب الايكة فأهلكوا بالظلة وأما أصحاب مدين فأخذتهم الصيحة صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا جميعا قال أبو عبد الله البجلى كان أبو جاد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت ملوك مدين وكان ملكهم فى زمن شعيب يوم الظلة كلمن فلما هلك قالت ابنته شعرا ترثيه وتبكيه

كلمن قد هد ركنى * هلكه وسط المحله

سيد القوم أتاه الـ * ـحتف نار تحت ظله

جعلت نارا عليهم * دارهم كالمضمحله

وقوله تعالى (الذين كذبوا شعيبا) مبتدأ خبره (كأن) مخففة واسمها محذوف أى كأنهم (لم يغنوا) أى لم يقيموا وينزلوا (فيها) أى فى ديارهم يوما من الدهر يقال غنيت بالمكان أى أقمت به والمغانى المنازل التى بها أهلها واحدها مغنى قال الشاعر

ولقد غنوا فيها بانعم عيشة * فى ظل ملك ثابت الاوتاد

أراد أقاموا فيها وقيل كأن لم يعيشوا فيها متنعمين يقال غنى الرجل اذا استغنى وهو من الغنى الذى هو ضد الفقر قال الشاعر

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى * وكل سقانا بكاسيهما الدهر

فما زادنا بغيا على ذى قرابة * غنى ولا أزرى باحسابنا الفقر

قال الزجاج معنى غنينا عشنا والتصعلك الفقر يقال للفقير صعلوك (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) أى دينا ودنيا دون الذين اتبعوه فانهم الرابحون فى الدارين وأكد ذلك باعادة الموصول وغيره للرد عليهم فى قولهم السابق (فتولى) أى أعرض شعيب (عنهم) أى عن قومه (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم) أى قال ذلك لما تيقن نزول العذاب بهم تأسفا وحزنا عليهم لانهم كانوا كثيرين وكان يتوقع منهم الاجابة والايمان ثم أنكر

على نفسه فقال (فكيف آسى) أي أحزن (على قوم كافرين) لانهم ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بسبب كفرهم وقيل قال ذلك اعتذارا عن عدم شدة حزنه عليهم والمعنى لقد بالغت في الابلاغ والانذار وبذلت وسعي في النصح فلم يصدقوا قولي فكيف أحزن عليهم وقوله تعالى (وما أرسلنا في قرية من نبي) فيه اضمار وحذف تقديره فكذبوه (الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء) قال ابن مسعود البأساء الفقر والضراء المرض وقيل البأساء الشدة وضيق العيش والضراء سوء الحال (لعلهم يضرعون) أي فعلنا بهم ذلك لكي يتضرعوا ويتوبوا والتضرع التذلل والخضوع والانقياد لامر الله (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) أي أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة السلامة والسعة كقوله تعالى وبلوناهم بالحسنات والسيئات فأخبر الله تعالى بهذه الآية أنه يأخذ أهل المعاصي والكفر تارة بالشدة وتارة بالرخاء على سبيل الاستدراج وهو قوله تعالى (حتى عفوا) أي كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم يقال عفا الشعر اذا كثر وطال ومنه قوله صلى الله عليه وسلم وأعفوا اللحى أي وفروها وأكثروا شعرها (وقالوا) كفرا للنعمة (قد مس آباءنا الضراء والسراء) وهذه عادة الدهر قديما وحديثا ولا تأثير ولم يكن ما مسنا من الشدة والضراء عقوبة لنا من الله تعالى على ما نحن عليه فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم من قبل فانهم لم يتركوا دينهم لما أصابهم من الضراء والسراء قال الله تعالى (فأخذناهم بغتة) أي فجأة أيمن ما كانوا ليكون ذلك أعظم لحسرتهم (وهم لا يشعرون) أي بنزول العذاب بهم والمراد بذكر هذه القصة وغيرها من القصص وعتبار من سمعها لينزجر عما هو عليه من الذنوب ويرجع الى الله تعالى ويزداد الذين آمنوا ايمانا (ولو أن أهل القرى) أي المكذبين (آمنوا) بالله ورسوله (واتقوا) أي الشرك والمعاصي (لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض) أي لاتيناهم بالخير من كل جهة وقيل بركات السماء المطر وبركات الارض النبات والثمار والانعام وجميع ما فيها من الخيرات وكل ذلك من فضل الله تعالى واحسانه وانعامه على عباده وقرأ ابن عامر بتشديد التاء والباقون بالتخفيف (ولكن كذبوا) أي فعلنا بهم ذلك ليؤمنوا فما آمنوا ولكن كذبوا الرسل (فأخذناهم) أي عاقبناهم بانواع العذاب (بما) أي بسبب ما (كانوا يكسبون) من الكفر والمعاصي وقوله تعالى (أفأمن أهل القرى) عطف على قوله تعالى فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون وما بينهما اعتراض والمعنى أبعد ذلك أمن أهل القرى (أن يأتيهم بأسنا) أي عذابنا (بياتا) أي ليلا وقوله تعالى (وهم نائمون) حال من ضميرهم البارز أو المستتر في بياتا (أو أمن أهل القرى) هو استفهام بمعنى الانكار وفيه وعيد وزجر وتهديد والمراد بالقرى مكة وما حولها وقيل هو عام في كل أهل القرى الذين كفروا وكذبوا وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بسكون الواو والباقون بفتح الواو (أن يأتيهم بأسنا ضحى) أي نهارا الان الضحى صدر النهار (وهم يلعبون) أي وهم ساهون لاهون غافلون عما يراد بهم وقوله تعالى (أفأمنوا مكر الله) تقرير لقوله تعالى أفأمن أهل القرى ومكر الله استعارة لاستدراج العبد بالنعم في الدنيا وأخذه من حيث لا يحتسب (فلا يأمن

مكر

مكر الله الا القوم الخاسرون) أى انه لا يأمن استدراجه اياهم بالنعم وأخذهم بغتة الا من خسر فى أخراه وهلك مع الهالكين فعلى العاقل أن يكون فى خوفه من الله تعالى كالمحارب الذى يخاف من عدوه المتمكن البيات والغيلة وعن الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى ان ابنته قالت له مالى أرى الناس ينامون ولا أراك تنام فقال يا ابنتاه ان أباك يخاف البيات أراد قوله تعالى أن يأتيهم بأسنا بياتا (أولم يهد) أى يتبين (للذين يرثون الارض) أن يسكنونها (من بعد) هلاك (أهلها) الذين كانوا من قبلهم فورثوها عنهم وخلفوهم فيها (أن لو نشاء أصبناهم) بالعذاب (بذنوبهم) كما أصبنا من قبلهم والهمزة للتوبيخ وأن لو نشاء مرفوع بأنه فاعل يهد أى اولم يهد للذين يخلفون من خلا قبلهم فى ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن وهو أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم أى بسببها كما أصبنا من قبلهم وأهلكنا الوارثين منهم كما أهلكنا المورثين وانما عدى فعل الهداية باللام لانه بمعنى التبيين كما مر وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية واوا فى الوصل والباقون بتحقيقهما وقوله تعالى (ونطبع) أى نختم (على قلوبهم) معطوف على مادل عليه أولم يهد كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع على قلوبهم أو على يرثون الارض أو يكون منقطعا بمعنى ونحن نطبع على قلوبهم (فهم لا يسمعون) موعظة أى لا يقبلونها ومنه سمع الله لمن حمده قال الشاعر

دعوت الله حتى خفت أن لا * يكون الله يسمع ما أقول

أى يقبله ويستجيبه (تلك القرى) أى القرى التى ذكرنا لك يا محمد أمرها وأمر أهلها وهى قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب (نقص عليك) يا محمد (من أنبائها) أى نخبرك عنها وعن أهلها وما كان من أمرهم وأمر رسلهم الذين أرسلوا اليهم لتعلم أنا ننصر رسلنا والذين آمنوا معهم على أعدائهم من أهل الكفر والعناد وكيف اهلكناهم بكفرهم ومخالفتهم رسلهم وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتحذير لكفار قريش أن يصيبهم مثل ما أصابهم (ولقد جاءتهم) أى أهل تلك القرى (رسلهم بالبينات) أى بالمعجزات الباهرات والبراهين الدالة على صدقهم وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بالاظهار والباقون بالادغام وأمال حمزة وابن ذكوان الالف وسكن السين أبو عمرو ورفعها الباقون (فما كانوا ليؤمنوا) أى عند مجيئهم بها (بما كذبوا) أى كفروا به (من قبل) أى قبل مجىء الرسل بل استمروا على الكفر واللام لتأكيد النفى والدلالة على أنهم ماصلحوا للايمان لمنافاته لحالهم فى التصميم على الكفر والطبع على قلوبهم (كذلك) أى كما طبع الله على قلوب كفار الامم الخالية وأهلكهم يطبع الله على قلوب الكافرين الذين كتب عليهم انهم لا يؤمنون من قومك (وما وجدنا لأكثرهم) أى لأكثر الناس على الاطلاق أو لأكثر الامم الخالية والقرون الماضية الذين قصصنا خبرهم عليك وأكد الاستغراق فقال (من عهد) أى من وفاء بالعهد الذى عهدناه اليهم وأوصيناهم به يوم أخذ الميثاق والآية على الاول اعتراض وعلى الثانى من تتمة الكلام السابق (وان) مخففة أى وانا (وجدنا) أى فى علمنا فى عالم الشهادة (أكثرهم لفاسقين) أى خارجين عن دائرة العهد طبق ما كنا نعلمه منهم فى عالم الغيب

وماأبرزناه فى عالم الشهادة الالنقيم عليهم به الحجة على مايتعارفونه بينهم فى مجارى عاداتهم ومدارك عقولهم (ثم بعثنا من بعدهم) أى الرسل المذكورين وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام أو الامم المهلكين (موسى) عليه السلام (بآياتنا) أى بحججنا الدالة على صدقه كاليد والعصا (الى فرعون) هو علم جنس لملوك مصر ككسرى لملوك فارس وقيصر لملوك الروم والنجاشى لملوك الحبشة وكان اسم فرعون موسى قابوس وقيل الوليد بن مصعب بن الريان وكان ملك القبط (وملائه) أى عظماء قومه وخصهم بالذكر لانهم اذا أذعنوا أذعن من دونهم فكأنهم المقصودون والارسال اليهم ارسال الى الكل (فظلموا) أى كفروا (بها) أى بسبب رؤيتها خوفا على رياستهم وعلى ملكهم الفانية أن تخرج من أيديهم (فانظر) أيها المخاطب بعين البصيرة (كيف كان عاقبة المفسدين) أى آخر أمرهم أى كيف فعلنا بهم وكيف أهلكناهم (وقال موسى) لما دخل على فرعون (يافرعون) خاطبه بما يحبه امتثالا لامر الله تعالى له أن يلين فى خطابه وذلك لان فرعون كان اقب مدح لمن ملك مصر (انى رسول) أى مرسل اليك والى قومك ثم بين مرسله بقوله تعالى (من رب العالمين) أى الاله الذى خلق الخلق وهو سيدهم ومالكهم وقوله تعالى (حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق) جواب لتكذيب فرعون اياه فى دعوى الرسالة وانما لم يذكره لدلالة قوله تعالى فظلموا بها والحق هو الثابت الدائم والحقيق مبالغة فيه وكان المعنى أنا ثابت مستمر على أن لا أقول على الله الا الحق قرأ نافع على بالتشديد فحقيق مبتدأ خبره أن ومابعدها والباقون بالسكون وعلى هذا تكون على بمعنى الباء أو يضمن حقيق معنى حريص وأن لا مقطوعة فى الرسم أى النون من لام الالف (قد جئتكم ببينة) أى معجزة (من ربكم) على صدقى فيما أدعى من الرسالة وهى العصا واليد البيضاء ثم ان موسى عليه السلام لما فرغ من تبليغ رسالته رتب على ذلك الحكم قوله (فأرسل معى بنى اسرائيل) أى خلهم حتى يرجعوا معى الى الارض المقدسة التى هى وطن آبائهم وكان قد استعبدهم واستخدمهم فى الاعمال الشاقة من ضرب اللبن ونقل التراب ونحوهما (قال) فرعون لعنه الله مجيبا لموسى عليه السلام (ان كنت جئت بآية) أى علامة على صحة رسالتك (فأت بها ان كنت من الصادقين) أى فى عداد أهل الصدق العريقين فيه لتصح دعواك عندى وتثبت (فألقى عصاه فاذا هى) أى العصا (ثعبان مبين) أى ظاهر أمره لا شك فيه أنه ثعبان والثعبان الذكر العظيم من الحيات فان قيل أليس قال الله تعالى فى موضع كأنها جان والجان الحية الصغيرة (أجيب) بانها كانت كالجان فى الخفة والحركة وهى فى جثتها حية عظيمة روى أنه لما ألقاها صارت حية عظيمة صفراء شقراء فاغرة فاها بين لحييها ثمانون ذراعا وارتفعت عن الارض بقدر ميل وقامت على ذنبها واضعة لحيها الاسفل فى الارض والاعلى على سور القصر وتوجهت نحو فرعون لتأخذه فوثب فرعون عن سريره هاربا وأحدث قيل أخذه البطن فى ذلك اليوم أربعمائة مرة وقد قيل انه كان يأكل الموز حتى لا يتغوط وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا ومات منهم خمسة وعشرون ألفا ودخل فرعون البيت وصاح ياموسى أنشدك الله

الذى أرسلك أن تأخذها وانا أومن بك وأرسل معك بنى اسرائيل فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت ثم قال هل معك آية أخرى قال نعم (ونزع يده) أى أخرجها من جيبه وقيل من تحت ابطه بعد أن أراه اياها محترقة أدما كما كانت وهى عنده (فاذا هى بيضاء) نورانية (للناظرين) لها شعاع غلب شعاع الشمس قال ابن عباس كان لها نور ساطع يضىء ما بين السماء والارض له لمعان مثل لمعان البرق فخروا على وجوههم ثم ردها الى جيبه فاذا هى كما كانت ولما كان البياض المفرط عيبا فى الجسد وهو البرص قال الله تعالى فى آية أخرى من غير سوء أى من غير برص (فان قيل) بم يتعلق قوله تعالى للناظرين (أجيب) بأنه يتعلق بقوله تعالى بيضاء والمعنى فاذا هى بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة الا اذا كان بياضها بياضا عجيبا خارجا عن العادة يجتمع الناس للنظر اليه كما تجتمع النظارة للعجائب (فان قيل) أحد هذين الامرين اما العصا واما اليد كان كافيا فما فائدة الجمع بينهما (أجيب) بأن كثرة الدلائل توجب القوة فى اليقين وزوال الشك وقول بعض الملحدين المراد بالثعبان وباليد البيضاء شئ واحد وهو أن حجة موسى عليه السلام كانت قوية ظاهرة قاهرة من حيث انها أبطلت أقوال المخالفين وأظهرت فسادها كانت كالثعبان العظيم الذى يتلقف حجج المبطلين ومن أنها كانت ظاهرة فى نفسها وصفت باليد البيضاء كما يقال فى العرف لفلان يد بيضاء فى العلم الفلانى أى قوة كاملة ومرتبة ظاهرة مردود اذ حمل هاتين المعجزتين على هذا الوجه يجرى مجرى دفع التواتر وتكذيب الله ورسوله ولما أتى بالبينات وأقام واضح البرهان (قال الملأ) أى الاكابر (من قوم فرعون ان هذا) أى موسى (لساحر عليم) أى عالم بالسحر ماهر فيه قد أخذ بأعين الناس ويريهم الشئ بخلاف ما هو عليه حتى يخيل اليهم ان العصا صارت حية وأن الآدم أبيض كما أراهم يده بيضاء وهو آدم اللون وانما قالوا ذلك لان السحر كان هو الغالب فى ذلك الزمان (فان قيل) قد أخبر الله تعالى فى هذه السورة ان هذا الكلام من قول الملا من قوم فرعون وقال فى سورة الشعراء وقال أى فرعون للملا حوله ان هذا لساحر عليم فكيف الجمع بينهما (أجيب) عن ذلك بجوابين الاول لا يمتنع أن يكون قاله فرعون أولا ثم انهم قالوه بعده فأخبر الله عنهم هنا وأخبر عن فرعون فى سورة الشعراء الثانى أن فرعون قال هذا القول ثم ان الملا من قومه وهم خاصته سمعوه منه ثم انهم بلغوه الى العامة فأخبر الله تعالى هنا عن الملا وأخبر هناك عن فرعون (يريد) أى موسى (أن يخرجكم) أيها القبط (من أرضكم) أى أرض مصر (فماذا تأمرون) أى أى شئ تشيرون أن نفعل به فقوله فماذا تأمرون من قول فرعون وان لم يذكره وقيل من قول الملا وتم كلام فرعون عند قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم فقال الملا مجيبين له فماذا تأمرون وانما خاطبوه بلفظ الجمع وهو واحد على عادة الملوك فى التعظيم والتفخيم والمعنى فما تأمرون أن نفعل به والقول الاول أصح لسياق الآية التى بعدها وهى قوله تعالى (قالوا ارجه) أى موسى (وأخاه) هرون عليهما السلام أى اخر أمرهما ولا تعجل فيه حتى تنظر فى أمرهما والارجاء فى اللغة التأخير وقيل الحبس أى احبسه وأخاه ورد بأن فرعون ما كان يقدر على حبس موسى بعد ما رأى من أمر العصا ما رأى

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بهمزة ساكنة والباقون بغير همز (وأرسل في المدائن) جمع مدينة واشتقاقها من مدن بالمكان أي أقام به أي مدائن صعيد مصر (حاشرين) أي أرسل رجالا من أعوانك وهم الشرط بضم الشين وفتح الراء طائفة من أعوان الولاة يحشرون إليك السحرة من جميع مدائن الصعيد وكان رؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد فإن غلبهم موسى صدقناه واتبعناه وإن غلبوه علمنا أنه ساحر فذلك قوله تعالى (يأتوك) أي الشرط (بكل ساحر عليم) أي ماهر بصناعته والباء يحتمل أن تكون بمعنى مع ويحتمل أن تكون باء التعدية وقرأ حمزة والكسائي بتشديد الحاء مفتوحة وألف بعدها ولا ألف قبلها والباقون بتخفيف الحاء مكسورة وألف قبلها ولا ألف بعدها ولم يختلفوا في سورة الشعراء أنه سحار وقيل الساحر الذي يعلم السحر ولا يعمل والسحار من يديم السحر روي أن فرعون لما رأى من سلطان الله وقدرته في العصا ما رأى قال إنا لا نقاتل موسى إلا بمن هو أقوى منه فاتخذ غلمانا من بني إسرائيل وبعث بهم إلى مدينة يقال لها الفرما يعلمونهم السحر فعلموهم سحرا كثيرا وواعد فرعون موسى موعدا ثم بعث إلى السحرة الذين أرسلهم فجاؤا ومعلمهم معهم فقال فرعون للمعلم ما صنعت فقال علمتهم سحرا لا تطيقه أهل الأرض إلا أن يأتي أمر من السماء فإنهم لا طاقة لهم به ثم بعث فرعون في مملكته فلم يترك في سلطانه ساحرا إلا أتي به وهذا يدل على أن السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان وهو يدل على صحة ما يقوله المتكلمون وهو أنه تعالى يجعل معجزة كل نبي من جنس ما كان غالبا على أهل ذلك الزمان فلما كان السحر غالبا على أهل زمان موسى كانت معجزته شبيهة بالسحر وإن كانت مخالفة للسحر في الحقيقة ولما كان الطب غالبا على أهل زمان عيسى عليه السلام كانت معجزته من جنس الطب ولما كانت الفصاحة غالبة على أهل زمان محمد صلى الله عليه وسلم كانت معجزته من جنس الفصاحة واختلفوا في عدد السحرة الذين جمعهم فرعون فمن مقل ومن مكثر وليس في الآية ما يدل على المقدار والكيفية والعدد ولذلك اختلف في عددهم فقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين اثنان من القبط وهما رؤساء القوم وسبعون من بني إسرائيل وقال الكلبي كان الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى بلدة يونس عليه السلام وكانوا سبعين غير رئيسهم وقال كعب الأحبار كانوا اثني عشر ألفا وقال محمد بن إسحق كانوا خمسة عشر ألفا وقال عكرمة كانوا سبعين ألفا وقال ابن المنكدر كانوا ثمانين ألفا وقال مقاتل كان رئيس السحرة شمعون وقال ابن جريج كان رئيسهم يوحنا (وجاء السحرة فرعون) أي بعد ما أرسل الشرط في طلبهم (قالوا أئن لنا لأجرا) أي جعلا وعطاء تكرمنا به (إن كنا نحن الغالبين) لموسى (فإن قيل) هلا قيل فقالوا بالفاء (أجيب) بأنه على تقدير سائل سأل ما قالوا إذ جاؤا فأجيب بقوله أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين وقرأ ابن كثير وحفص بهمزة مكسورة ونون مشددة بعدها على الخبر والباقون بهمزتين وسهل الثانية أبو عمرو وأدخل ألفا بينهما والباقون بتحقيقهما وأدخل بينهما ألفا هشام والباقون بغير ألف بينهما (قال) لهم فرعون (نعم) أي لكم الأجر والعطاء وقرأ الكسائي بكسر العين والباقون بالفتح وقوله تعالى (وإنكم لمن المقربين)

عطف

عطف على محذوف سد مسد الجواب كأنه قيل جوابا لقولهم أئن لنا لاجرا انّ لكم اجرا وانكم لمن المقربين أراد انى لا اقتصر لكم على الثواب بل أزيدكم عليه وتلك الزيادة انى أجعلكم من المقربين عندى قال الكلبي تكونون أول من يدخل وآخر من يخرج من عندى والآية تدل على ان كل الخلق كانوا عالمين بأنّ فرعون كان عبدا ذليلا مهينا عاجزا والا لما احتاج الى الاستعانة بالسحرة فى دفع موسى وتدل أيضا على أنّ كل السحرة ما كانوا قادرين على قلب الاعيان والا لما احتاجوا الى طلب الاجر والمال من فرعون لانهم لو قدروا على قلب الاعيان لقلبوا التراب ذهبا ولنقلوا ملك فرعون الى أنفسهم ولجعلوا أنفسهم ملوك العالم ورؤساء الدنيا والمقصود من هذه الآيات تنبيه الانسان لهذه الدقائق وأن لا يغتر بكلمات أهل الاباطيل والاكاذيب (قالوا) أى السحرة (ياموسى امّا أن تلقى) أى عصاك (وامّا أن نكون نحن الملقين) أى عصينا وحبالنا فراعوا مع موسى عليه السلام حسن الادب حيث قدموه على أنفسهم فى الالقاء فعوضهم الله تعالى حيث تأدبوا مع نبيه عليه السلام ان منّ عليهم بالايمان والهداية ولما راعوا الادب أولا وأظهروا مايدل على رغبتهم (قال) لهم موسى (ألقوا) انتم فقدمهم على نفسه فى الالقاء (فان قيل) كيف جاز لنبى الله تعالى موسى عليه السلام أن يأمر بالالقاء وقد علم أنه سحر وفعل السحر حرام أو كفر (أجيب) عن ذلك بأجوبة أحدها انّ معناه ان كنتم محقين فى فعلكم فالقوا والا فلا تلقوا الثانى أنّ القوم انما جاؤا الالقاء تلك الحبال والعصى وعلم موسى عليه السلام انه لا بدّ وأن يفعلوا ذلك ووقع التخير فى التقديم والتأخير فعند ذلك أذن لهم فى التقديم ازدراء لشأنهم وقلة مبالاته بهم وثقة بما وعده الله تعالى من التأييد والتقوية وأنّ المعجزة لا يغلبها سحر أبدا الثالث انه عليه السلام كان يريد ابطال ما أتوا به من السحر وابطاله ما كان يمكن الا بتقديمهم فأذن لهم فى الاتيان بذلك السحر ليمكنه الاقدام على ابطاله فلهذا المعنى أمرهم بالالقاء أولا (فلما ألقوا) حبالهم وعصيهم (سحروا) أى صرفوا (أعين الناس) عن ادراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل وهذا هو الفرق بين السحر الذى هو فعل البشر وبين معجزة الانبياء عليهم الصلاة والسلام الذى هو فعل الله تعالى وذلك لانّ السحر ليس فيه قلب الاعيان وانما فيه صرف أعين الناس عن ادراك ذلك الشئ بسبب التمويهات والمعجزة قلب ذلك الشئ حقيقة كقلب عصا موسى عليه السلام فاذا هى حية تسعى (واسترهبوهم) أى أرهبوهم والسين زائدة قاله المبرد وقال الزجاج استدعوا رهبة الناس حتى رهبهم الناس وذلك بأن بعثوا جماعة ينادون عند القاء ذلك أيها الناس احذروا فهذا هو الاسترهاب (وجاؤا) أى السحرة (بسحر عظيم) روى انّ السحرة قالوا قد علمنا سحرا لا تطيقه سحرة أهل الارض الا أن يكون أمرا من السماء فانه لا طاقة لنا به وذلك انهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا فاذا هى حيات تسعى كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا ويقال انهم طلوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا داخل تلك العصى زئبقا ايضا وألقوها على الارض فلما أثر حر الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض حتى تخيل للناس انها حيات تتحرك وتلتوى باختيارها

ويقال ان الارض كانت سعتها ميلا في ميل فصارت كلها حيات وأفاعي ففزع الناس من ذلك وأوجس في نفسه خيفة موسى وهذه الخيفة لم تحصل لموسى عليه السلام لاجل سحرهم لانه كان على ثقة ويقين من الله تعالى أنهم لم يغلبوه وهو غالبهم وكان عالما بأن ما أتوا به على وجه المعارضة لمعجزته فهو من باب السحر والتخييل وذلك باطل ومع هذا الجزم يمتنع حصول الخوف لموسى عليه السلام وانما كان خوفه لاجل فزع الناس واضطرابهم مما رأوه من أمر تلك الحيات فخاف موسى عليه السلام ان يتفرقوا قبل ظهور معجزته وحجته فلذلك أوجس في نفسه خيفة موسى (وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك) فألقاها فصارت حية عظيمة قد سدت الافق قال ابن زيد كان اجتماعهم بالاسكندرية وقال بلغ ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعا (فاذا هي تلقف) بحذف احدى التاءين من الاصل أي تبتلع (ما يأفكون) أي ما يزورونه من الافك وهو الصرف وقلب الشئ عن وجهه روى انها ابتلعت كل ما أتوا به من السحر فكانت تبتلع حبالهم وعصيهم واحدا واحدا حتى ابتلعت الكل ثم أقبلت على الذين حضروا ذلك المجمع ففزعوا ووقع الزحام عليهم فمات منهم بسبب ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفا ثم أخذها موسى عليه السلام فصارت في يده عصا كما كانت أول مرة فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أنه أمر من السماء وليس بسحر وعرفوا ان ذلك ليس في قدرة البشر وقوتهم فعند ذلك خروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين وذلك قوله تعالى (فوقع الحق) اى فظهر الحق الذى جاء به موسى (وبطل ما كانوا يعملون) أى من السحر وذلك أن السحرة قالوا لو كان ما صنع موسى سحرا لبقيت حبالنا وعصينا فلما فقدت وتلاشت في عصا موسى علموا ان ذلك من أمر الله تعالى وقدرته وقرأ حفص تلقف بسكون اللام وتخفيف القاف والباقون بفتح اللام وتشديد القاف وشدد التاء البزى (فغلبوا) أى فرعون وجموعه (هنالك) أى عند ذلك الامر العظيم العالى الرتبة (وانقلبوا صاغرين) أى رجعوا الى المدينة اذلاء مقهورين (وألقى السحرة ساجدين) اى ان الله تعالى الهمهم ذلك وحملهم عليه حتى ينكسر فرعون بالذين أرادبهم كسر موسى وينقلب الامر عليه قال الاخفش من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا (قالوا آمنا برب العالمين) قال فرعون اياى تعنون قالوا لا بل (رب موسى) فقال اياى تعنون لانى انا الذى ربيت موسى فلما قالوا (وهرون) زالت الشبهة وعرف الكل انهم كفروا بفرعون وآمنوا باله السماء قال مقاتل قال موسى لكبير السحرة أتؤمن بى ان غلبتك فقال لآتين بسحر لا يغلبه سحر ولئن غلبتنى لأؤمنن بك وفرعون ينظر اليهما ويسمع كلامهما فهذا قوله ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة ويقال ان الحبال والعصى التى كانت مع السحرة كانت حمل ثلثمائة بعير فلما ابتلعتها عصا موسى عليه السلام كلها قال بعضهم لبعض هذا أمر خارج عن حد السحر وما هو الا من أمر السماء فآمنوا وصدقوا (فان قيل) كان يجب ان يأتوا بالايمان قبل السجود فما فائدة تقديم السجود على الايمان (أجيب) بأن الله تعالى لما قذف في قلوبهم الايمان والمعرفة خروا سجدا لله تعالى شكرا على ما هداهم اليه وألهمهم من الايمان بالله

تعالى

تعالى وتصديق رسوله ثم أظهروا بعد ذلك ايمانهم قال قتادة كانوا أول النهار كفارا سحرة وفي آخره شهداء بررة وعن الحسن نرى من ولد في الاسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا وهؤلاء الكفار نشؤا في الكفر بذلوا أنفسهم لله تعالى (قال فرعون) للسحرة منكرا عليهم موبخا لهم بقوله (آمنتم) أي صدقتم (به) أي بموسى أو بالله تعالى والاستفهام فيه للانكار والتوبيخ * (فائدة) * هنا ثلاث همزات جميع القراء بابدال الثالثة ألفا وحقق الثانية شعبة وحمزة والكسائي وسهلها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأما حفص فانه أسقط الاولى وأبدلها قنبل في الوصل واوا (قبل ان آذن لكم) أي قبل أن آمركم بذلك وآذن لكم فيه (ان هذا لمكر مكرتموه) أي ان هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أنتم وموسى (في المدينة) أي مصر قبل خروجكم الى هذا الموضع وذلك ان فرعون رأى موسى يحدث كبير السحرة فظن فرعون ان موسى وكبير السحرة قد تواطؤا عليه وعلى أهل مصر ليستولوا على مصر كما قال (لتخرجوا منها أهلها) أي القبط وتخلص لكم ولبني اسرائيل وقوله تعالى (فسوف تعلمون) فيه وعيد وتهديد أي فسوف تعلمون ما أفعل بكم ثم فسر ذلك الوعيد بقوله (لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) أي يخالف الطرف الذي تقطع منه اليد الطرف الذي تقطع منه الرجل قال الكلبي لاقطعن أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى (ثم لاصلبنكم) أي أعاقبكم ممددة أيديكم لتصير على هيئة الصليب أو حتى يتقاطر صليبكم وهو الدهن الذي فيكم (أجمعين) أي لا أترك منكم أحدا تفضيحا لكم وتنكيلا لامثالكم قال ابن عباس أول من صلب وقطع الايدي والارجل فرعون أي انه أول من سن ذلك فشرعه الله تعالى للقطاع تعظيما لجرمهم ولذلك سماه محاربة الله ورسوله ولكن على التعاقب لفرط رحمته (قالوا) أي السحرة مجيبين لفرعون حين وعدهم بما ذكر (انا الى ربنا) بعد موتنا على أي وجه كان (منقلبون) أي راجعون اليه في الآخرة (وما تنقم) أي تنكر (منا) أي في فعلك ذلك بنا وتعيب علينا (الا أن آمنا) أي الا ما هو أصل المفاخر كلها وهو الايمان (بآيات ربنا لما جاءتنا) لم نتأخر عن معرفة الصدق وهذا موجب الاكرام لا الانتقام ثم فزعوا الى الله تعالى فقالوا (ربنا أفرغ علينا صبرا) عندما توعدهم فرعون به أي اصبب علينا صبرا كاملا تاما ولهذا أتى بلفظ التنكير أي صبرا وأي صبر عظيم (وتوفنا مسلمين) أي واقبضنا على دين الاسلام وهو دين خليلك عليه السلام قال ابن عباس كانوا في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء قال الطيبي ان فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم وقال غيره انه لم يقدر عليهم لقوله تعالى بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون (تنبيه) في الآية فوائد الاولى قولهم أفرغ علينا صبرا أكمل من قولهم أنزل علينا صبرا لان افراغ الاناء هو صب ما فيه بالكلية فكأنهم طلبوا من الله تعالى كل الصبر لا بعضه الثانية ان قولهم صبرا مذكور بصيغة التنكير وذلك يدل على تمام الكمال أي صبرا تاما كاملا الثالثة ان ذكر الصبر من قبلهم ومن أعمالهم ثم انهم طلبوه من الله تعالى وذلك يدل على أن فعل العبد لا يحصل الا بخلق الله تعالى وقضائه الرابعة احتج القاضي بهذه الآية على أن الايمان والاسلام واحد فقال انهم قالوا أولا

آمنا بآيات ربنا ثم قالوا أناباو توفنا مسلمين فوجب أن يكون ذلك الايمان هو ذلك الاسلام وذلك يدل على ان أحدهما هو الآخر واعلم ان فرعون بعد وقوع هذه الواقعة لم يتعرض لموسى لانه كان كلما رأى موسى عليه السلام خافه أشد الخوف فلهذا السبب لم يتعرض له الا أن القوم لم يعرفوا ذلك فقالوا له أتذر موسى وقومه كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى (وقال الملأ) أى الاشراف (من قوم فرعون) له (أتذر) أى تترك (موسى وقومه) من بنى اسرائيل (ليفسدوا فى الارض) أى أرض مصر وأرادوا بالافساد فيها أنهم يأمرونهم بمخالفة فرعون وهو قولهم (ويذرك وآلهتك) أى معبوداتك أى فلا يعبدك ولا يعبدها قال ابن عباس كان لفرعون بقرة حسنة يعبدها وكان اذا رأى بقرة حسنة أمرهم بعبادتها ولذلك أخرج لهم السامرى عجلا وقال السدى كان فرعون اتخذ لقومه أصناما وكان يأمرهم بعبادتها وقال لهم أنا ربكم ورب هذه الاصنام وذلك قوله أنا ربكم الاعلى (فان قيل) ان فرعون ان لم يكن كامل العقل لم يجز فى حكمة الله تعالى ارسال الرسل اليه وان كان عاقلا لم يجز ان يعتقد فى نفسه كونه خالق السموات والارض لان فساده معلوم بالضرورة (أجيب) بأن الاقرب أن يكون دهريا منكرا لوجود الصانع وكان يقول مدبر هذا السفلى هو الكواكب واتخذ اصناما على صورة الكواكب وكان يعبدها ويأمر بعبادتها وكان يقول فى نفسه انه المطاع المخدوم فى الارض ولهذا قال أنا ربكم الاعلى (قال) فرعون مجيبا للملأ حين قالوا له أتذر موسى وقومه (سنقتل أبناءهم) أى المولودين (ونستحيى نساءهم) أى نتركهم أحياء كما كنا نفعل من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ولا يتوهم انه المولود الذى حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكك على يديه وقرأ نافع وابن كثير بفتح النون وسكون القاف وضم التاء مخففة والباقون بضم النون وفتح القاف وكسر التاء مشددة (وانا فوقهم قاهرون) أى غالبون وهم مقهورون تحت أيدينا ولا أثر لغلبة موسى لنا فى هذه المناظرة فأعادوا عليهم القتل فشكت بنو اسرائيل لموسى فأمرهم بالصبر كما قال تعالى (قال موسى لقومه) أى بنى اسرائيل (استعينوا بالله واصبروا) أى استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما نزل بكم من البلاء فان الله تعالى هو الكافى لكم واصبروا على ما نالكم من المكاره فى أنفسكم وأبنائكم (ان الارض) أى أرض مصر وان كانت الارض كلها (لله) تعالى لان الكلام فيها (يورثها من يشاء من عباده) وفى هذا تسلية لهم وتقرير للامر بالاستعانة بالله عز وجل والتثبت فى الامر وقوله تعالى (والعاقبة) أى المحمودة (للمتقين) لان الله تعالى وعدهم بالنصر وتذكير لما وعدهم به من اهلاك القبط وتوريثهم ديارهم وتحقيق له ولما سمع بنو اسرائيل ما قال فرعون من توعدهم بالقتل مرة ثانية (قالوا) لموسى (أوذينا من قبل أن تأتينا) أى بالرسالة وذلك ان بنى اسرائيل كانوا مستضعفين فى يد فرعون وقومه وكان يأخذ منهم الجزية وكان يستعملهم فى الاعمال الشاقة الى نصف النهار ويمنعهم من الترفه والتنعم ويقتل أبناءهم ويستحيى نساءهم فلما جاء موسى بالرسالة وجرى له ما جرى شدد فرعون فى استعمالهم فكان يستعملهم جميع النهار بلا أجر وأراد أن يعيد القتل

عليهم فقالوا أوذينا من قبل أن تأتينا (ومن بعد ما جئتنا) أى بالرسالة (فان قيل) ظاهر هذا الكلام يوهم ان بنى اسرائيل كرهوا مجيء موسى بالرسالة وذلك كفر (أجيب) عن هذا الايهام بأن موسى عليه السلام كان قد وعدهم بزوال ما كانوا فيه من الشدة والمشقة فظنوا ان ذلك يكون على الفور فلما رأوا ان المشقة قد زادت عليهم قالوا ذلك أى فمتى يكون ما وعدتنا به من زوال ما نحن فيه (قال) موسى عليه السلام مجيبا لهم (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) أى فرعون وقومه (ويستخلفكم فى الارض) أى يجعلكم تخلفونهم فى أرضهم بعد هلاكهم قال البيضاوى ولعله أتى بفعل الطمع أى بعسى لعدم جزمه بأنهم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم وقد روى ان مصر انما فتح لهم فى زمن داود عليه السلام ثم سبب عن الاستخلاف قوله تعالى مذكرا لهم محذرا من سطواته تعالى (فينظر) أى وأنتم خلفاء متمكنون (كيف تعملون) أى يعاملكم معاملة المختبر وهو فى الازل أعلم بما تعملون منكم بعد ايقاعكم للاعمال ولكنه يفعل ذلك لتقوم الحجة عليكم على مجارى عاداته روى عن عمرو بن عبيد أنه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائدته رغيف أو رغيفان فطلب زيادة لعمرو فلم يجد فقرأ عمرو هذه الآية ثم دخل عليه بعد ما استخلف فذكر له ذلك وقال قد بقى فينظر كيف تعملون (ولقد أخذنا آل فرعون) أى فرعون وقومه (بالسنين) أى بالقحط والجوع سنة بعد سنة فان السنة تطلق بالغلبة على ذلك كما تطلق على العام ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف (ونقص من الثمرات) أى بالعاهات قال قتادة أما السنين فلاهل البوادى وأما نقص الثمرات فلاهل الامصار وعن كعب يأتى على الناس زمان لا تحمل النخلة الا ثمرة (لعلهم يذكرون) أى يتعظون فيؤمنون ويرجعون عما هم عليه من الكفر والمعاصى لان الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله تعالى من الخيرات والدليل على ذلك قوله تعالى واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه وقوله تعالى واذا مسه الشر فذو دعاء عريض وقال سعيد بن جبير عاش فرعون أربعمائة سنة لم ير مكروها فى نفسه ثلثمائة وعشرين سنة ولو أصابه فى تلك المدة وجع أو جوع أو حمى لما ادعى الربوبية ثم بين سبحانه وتعالى أنهم عند نزول تلك المحن عليهم يقدمون على ما يزيد فى كفرهم ومعصيتهم فقال (فاذا جاءتهم الحسنة) قال ابن عباس العشب والخصب والثمار والمواشى والسعة فى الرزق والعافية والسلامة (قالوا لنا هذه) أى نحن مستحقوه على العادة التى جرت من كثرة نعمتنا وسعة أرزاقنا ولم يعلموا انه من الله تعالى فيشكروه على انعامه (وان تصبهم سيئة) أى قحط وجدب ومرض وبلاء ورأوا ما يكرهونه فى أنفسهم (يطيروا) أى يتشاءموا وأصله يتطيروا (بموسى ومن معه) من المؤمنين ويقولون ما أصابنا الا بشؤمهم وهذا اغراق فى وصفهم فى الغباوة والقساوة فان الشدائد ترقق القلوب وتذلل العرائك وتزيل التماسك سيما بعد مشاهدة الآيات وهى لم تؤثر فيهم بل زادوا عندها عتوا وانهماكا فى البغى وانما عرف الحسنة وذكرها مع اداة التحقيق لكثرة وقوعها وتعلق الارادة باحداثها بالذات ونكر السيئة وأتى بها مع حرف الشك لندورها وعدم القصد لها الا بالتبع (الا انما

طائرهم عند الله) أى سبب خيرهم وشرهم عنده تعالى وهو حكمه ومشيئته أو سبب شؤمهم عند الله تعالى وهو أعمالهم المكتوبة عنده فانها التى ساقت اليهم ما يسوءهم (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى ان ما يصيبهم من الله تعالى وذلك لان أكثر الخلق يضيفون الحوادث الى الاسباب المحسوسة ويقطعونها عن قضاء الله تعالى وتقديره والحق ان الكل من الله تعالى لان كل موجود اما واجب لذاته أو ممكن لذاته والواجب لذاته واحد وما سواه ممكن لذاته والممكن لذاته لا يوجد الا بايجاد الواجب لذاته وبهذا الطريق يكون الكل من الله تعالى فاسناده الى غير الله تعالى يكون جهلا بكمال الله تعالى (وقالوا) أى فرعون وقومه القبط لموسى عليه السلام (مهما تأتنا به) وقوله تعالى (من آية) اى من عند ربك بيان لمهما وانما سموها آية على زعم موسى لا لاعتقادهم ولذلك قالوا (لتسحرنا بها) أى لتصرفنا عما نحن عليه من الدين (فما نحن لك بمؤمنين) أى بمصدقين *(تنبيه)* اختلف فى أصل مهما فقيل أصلها ماما الاولى ما الشرطية والثانية ما الزائدة ضمت اليها للتأكيد ثم قلبت ألف الاولى هاء استثقالا لتكرير المتجانسين فصارت مهما هذا قول الخليل والبصريين وقيل أصلها مه التى بمعنى اكفف وما الجزائية كانهم قالوا اكفف ما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فهو كذا وكذا هذا قول الكسائى فهى مركبة على هذين القولين والمعتمد الذى جرى عليه ابن هشام وغيره انها بسيطة لان دعوى التركيب لم يقم عليها دليل ووزنها فعلى والفها للالحاق أو للتأنيث والضميران فى به وبها راجعان لمهما الا أن أحدهما ذكر باعتبار اللفظ والثانى أنث باعتبار المعنى لانه فى معنى الآية ونحوه قول زهير

ومهما يكن عند امرئ من خليقة * واذ خالها تخفى على الناس تعلم

قال فى الكشاف وهذه الكلمة فى عداد الكلمات التى يحرفها من لا يد له فى علم العربية فيضعها فى غير موضعها ويحسب انها بمعنى متى ما ويقول مهما جئتنى أعطيتك قال ابن عباس ان القوم لما قالوا مهما تأتنا به من آية من ربك فهى عندنا من باب السحر ونحن لا نؤمن بها البتة وكان موسى عليه السلام رجلا حديدا فعند ذلك دعا عليهم فاستجاب الله تعالى له فقال تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان) وقال سعيد بن جبير لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوبا أبى هو وقومه الا الاقامة على الكفر والتمادى على الشر فتابع الله تعالى عليهم الآيات فأخذهم أولا بالسنين وهو القحط ونقص الثمرات وأراهم قبل ذلك من المعجزات اليد والعصا فلم يؤمنوا فدعا عليهم موسى وقال يارب ان عبدك فرعون علا فى الارض وبغى وعتا وان قومه قد نقضوا العهد فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومى عظة ولمن بعدهم آية وعبرة فبعث الله تعالى عليهم الطوفان وهو الماء فارسل الله تعالى عليهم المطر من السماء وبيوت بنى اسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا فى الماء الى تراقيهم ومن جلس منهم غرق ولم يدخل من ذلك الماء فى بيوت بنى اسرائيل شئ وركب ذلك الماء على ارضهم فلم يقدروا ان يحرثوا ولا يعملوا شيأ ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت حتى كان الرجل منهم لا يرى شمسا ولا قمرا ولا يستطيع الخروج من داره فصرخوا الى فرعون واستغاثوا به فأرسل الى موسى عليه

السلام

السلام فقال اكشف عنا العذاب فقد صار بحرا واحدا فان كشف هذا العذاب آمنا بك فأزال الله تعالى عنهم المطر وأرسل الرياح فجففت الارض وخرج من النبات مالم ير مثله قط فقالوا هذا الذي جزعنا منه خير لنا لكنا لم نشعر فلا والله لانؤمن بك ولا نرسل معك بني اسرائيل وقيل المراد بالطوفان الجدري وهو بضم الجيم وفتح الدال وبفتحهما قروح في البدن تنفط وتنفح وقيل هو الموتان وهو بضم الميم موت في الماشية وقيل هو الطاعون فنكثوا العهد (و) لم يؤمنوا وأقاموا اشهرا في عافية فارسل الله تعالى عليهم (الجراد) فأكل النبات والثمار وأوراق الشجر حتى كان يأكل الابواب وسقوف البيوت ومسامير الابواب من الحديد وابتلي الجراد بالجوع فكانت لاتشبع ولم يصب بني اسرائيل شئ من ذلك وعظم الامر عليهم حتى صارت عند طيرانها تغطي الشمس ووقع بعضها على بعض في الارض ذراعا فضجوا من ذلك وقالوا ياموسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك فأعطوه عهد الله وميثاقه فدعا موسى عليه السلام فكشف الله عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت وفي الخبر مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الاعظم ويقال ان موسى عليه السلام برز الى الفضاء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت الجراد من حيث جاءت وقيل أرسل الله تعالى ريحا فاحتمل الجراد فألقاه في البحر وكان قد بقي من زرعهم وغلاتهم بقية فقالوا قد بقي لنا ما يكفينا فانحن بتاركي ديننا (و) لم يؤمنوا وأقاموا اشهرا في عافية وعادوا الى أعمالهم الخبيثة فأرسل الله تعالى عليهم (القمل) واختلفوا في القمل فعن ابن عباس انه السوس الذي يخرج من الحنطة وعن قتادة انه أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها وعن عكرمة انه الحمنان وهو ضرب من القراد وعن عطاء القمل المعروف فأكل ما أبقاه الجراد ولحس الارض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه وكان أحدهم يأكل طعاما فيمتلئ قملا وكان أحدهم يخرج عشرة أجربة الى الرحا فلا يرد منها الا شيأ يسيرا وعن سعيد بن جبير كان الى جنبهم كثيب أعفر فضربه موسى عليه السلام بعصاه فصار قملا فأخذت ابشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كأنه الجدري ومنعهم النوم والقرار فصاحوا وصرخوا اهم وفرعون الى موسى عليه السلام وقالوا انا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء فدعا موسى فرفع الله القمل عنهم بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت فنكثوا وعادوا الى أخبث أعمالهم وقالوا ما كنا أحق أن نستيقن أنه ساحر منا اليوم جعل الرمل دواب (و) لم يؤمنوا فدعا موسى عليه السلام عليهم بعد ما أقاموا اشهرا في عافية فأرسل الله تعالى عليهم (الضفادع) فامتلأت منها بيوتهم وأطعمتهم وآنيتهم فلا يكشف أحدهم عن ثوب ولا طعام ولا شراب الا وجد فيه الضفادع وكان الرجل يجلس في الضفادع الى رقبته ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه وكان يثب في قدورهم فيفسد عليهم طعامهم ويطفئ نيرانهم وكان أحدهم يضطجع فتركبه الضفدع فيكون عليه ركاما حتى لايستطيع أن ينصرف الى شقه الآخر ويفتح فاه الى أكلة فيسبق الضفدع أكلته الى فيه ولا يعجن عجينا ولا يفتح قدرا الا امتلأت ضفادع وعن ابن عباس أن الضفادع كانت برية فلما أرسلها الله تعالى

الى آل فرعون سمعت فأطاعت فجعلت تلقى نفسها فى القدور وهى تغلى وفى التنانير وهى تفور فأثابها الله تعالى بحسن طاعتها برد الماء فلقوا منها أذى شديدا فشكوا الى موسى عليه السلام وقالوا ارحمنا هذه المرة فما بقى الا أن نتوب التوبة النصوح ولا نعود فأخذ عهودهم ومواثيقهم ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بأن أماتها وأرسل الله المطر والريح فاحتملها الى البحر بعدما أقام عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت ثم نكثوا العهد (و) لم يؤمنوا وعادوا لكفرهم وأعمالهم الخبيثة فدعا عليهم موسى بعدما أقاموا شهرا فى عافية فأرسل الله تعالى عليهم (الدم) فصارت مياههم كلها دما فما يستقون من بئر ولا نهر الا وجدوه دما عبيطا أحمر فشكوا الى فرعون وقالوا ليس لنا شراب فقال انه سحركم فقالوا من أين سحرنا ونحن لا نجد فى أوعيتنا شيأ من الماء الا دما عبيطا وكان فرعون لعنه الله تعالى يجمع بين القبطى والاسرائيلى على الاناء الواحد فيكون ما يلى الاسرائيلى ماء وما يلى القبطى دما ويقومان الى الجرة فيها الماء فيخرج للاسرائيلى ماء وللقبطى دم حتى كانت المرأة من آل فرعون تأتى للمرأة من بنى اسرائيل حين جهدهم العطش فتقول اسقينى من مائك فتصب لها من قربتها فيعود فى الاناء دما حتى كانت تقول اجعليه فى فيك ثم مجيه فى فى فتأخذ فى فيها ماء واذا مجته فى فيها صار دما واعترى فرعون العطش حتى انه كان ليضطر الى مضغ الاشجار الرطبة فاذا مضغها صار ماؤها دما فمكثوا على ذلك سبعة أيام لا يشربون الا الدم فأتوا موسى وشكوا اليه ما يلقونه وقالوا ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك ونرسل معك بنى اسرائيل فدعا موسى عليه السلام ربه فكشف عنهم وقيل الدم الذى سلط عليهم هو الرعاف وقوله تعالى (آيات) نصب على الحال (مفصلات) أى مبينات لا تشكل على عاقل انها آيات الله تعالى ونقمته عليهم أو مفصلات لامتحان أحوالهم اذ كان بين كل آيتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة اسبوعا كما مرت الاشارة الى ذلك وقيل ان موسى عليه السلام لبث فيهم بعدما غلب السحرة وآمنوا به عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل (فاستكبروا) عن الايمان فلم يؤمنوا (وكانوا) أى فرعون وقومه (قوما مجرمين) أى كافرين (ولما وقع عليهم الرجز) أى نزل بهم العذاب وهو ما ذكره الله تعالى من الطوفان وما بعده وقال سعيد بن جبير الرجز الطاعون وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس التى تقدمت فنزل بهم الطاعون فمات به من القبط فى يوم واحد سبعون ألفا وتركوا غير مدفونين قال الامام الرازى والقول الاول أقوى لان لفظ الرجز مفرد محلى بالالف واللام فينصرف الى المعهود السابق وههنا المعهود السابق هو الانواع الخمسة التى تقدم ذكرها وأما غيرها فمشكوك فيه فحمل اللفظ على المعلوم أولى من حمله على المشكوك فيه وعن أسامة بن زيد الطاعون رجز أرسل على طائفة من بنى اسرائيل وعلى من كان قبلكم فاذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه واذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارا منه (قالوا يا موسى ادع لنا ربك) ولم يقولوا ربنا كبرا وعتوا (بما عهد عندك) أى بعهده عندك وهو النبوة وسميت عهدا لان الله تعالى عهد أن يكرم النبى وهو عهد

أن يستقل باعيانها أو بالذى عهده اليك ان تدعوه به فيجيبك كما أجابك به فى آياتك والباء اما أن تتعلق بقوله ادع لنا ربك على وجهين أحدهما أسعفنا الى مانطلب منك من الدعاء لك بحق ماعندك من عهد الله وكرامته بالنبوة أو ادع الله لنا متوسلا اليه بعهده عندك واما أن يكون قسما مجابا بقوله تعالى (لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك) أى اقسمنا بعهد الله تعالى عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك (ولنرسلن معك بنى اسرائيل) أى لنصدقنك بما جئت به ولنطلقن بنى اسرائيل ليذهبوا حيث شاؤا (فلما كشفنا عنهم الرجز) أى بدعاء موسى عليه السلام (الى أجل هم بالغوه) أى الى حد من الزمان هم بالغوه لامحالة فعذبون فيه لا ينفعهم ماتقدم لهم من الامهال وكشف العذاب الى حلوله وهو وقت اهلاكهم بالغرق فى اليم وقوله تعالى (اذاهم ينكثون) جواب لما أى فلما كشفنا عنهم فاجؤا النكث من غير توقف وتأمل فيه (فان قيل) ان الله تعالى علم من حال هؤلاء انهم لايؤمنون بتلك المعجزات فما الفائدة فى توالها عليهم واظهار الكثير منها (أجيب) بأن الله تعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد لا يسئل عما يفعل قال تعالى (فانتقمنا منهم) أى كافأناهم على سوء صنيعهم وأصل الانتقام فى اللغة سلب النعمة بالعذاب لانه تعالى لما كشف عنهم العذاب مرات فلم يؤمنوا ولم يرجعوا عن كفرهم وبلغوا الاجل الذى أجل لهم انتقم منهم بأن أهلكهم كما قال تعالى (فأغرقناهم فى اليم) أى فى البحر الذى لايدرك قعره وقيل هو لجة البحر ومعظم مائه واشتقاقه من التيمم لان المنتفعين به يقصدونه قال الازهرى ويقع اليم على البحر الملح والبحر العذب ويدل على ذلك قوله تعالى فاقذفيه فى اليم والمراد نيل مصر وهو عذب واغراقهم (بأنهم) أى بسبب أنهم (كذبوا بآياتنا) الدالة على وحدانيتنا وصدق رسولنا (وكانوا عنها) أى الآيات (غافلين) أى لايتدبرونها وقيل الضمير فى عنها يرجع للنقمة التى دل عليها قوله تعالى انتقمنا أى وكانوا عن النقمة قبل حلولها غافلين (فان قيل) الغفلة ليست من فعل الانسان ولاتحصل باختياره فكيف جاء الوعيد على الغفلة (أجيب) بأن المراد بالغفلة هنا الاعراض عن الآيات وعدم الالتفات اليها فهم أعرضوا عنها حتى صاروا كالغافلين عنها (فان قيل) أليس قد ضموا الى التكذيب والغفلة معاصى كثيرة فكيف يكون الانتقام بهذين دون غيرهما (أجيب) بأنه ليس فى بيان انه تعالى انتقم منهم بهذين دلالة على نفى ماعداهما قال الرازى والآية تدل على أن الواجب فى الآيات النظر فيها فلذلك ذمهم بأنهم غفلوا عنها وذلك يدل على أن التقليد طريق مذموم ولما بين تعالى اهلاك القوم بالغرق على وجه العقوبة بين تعالى ما فعله بالمؤمنين من الخيرات وهو انه تعالى أورثهم أرضهم وديارهم فقال تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) أى بالاستعباد وذبح الابناء وأخذ الجزية والاعمال الشاقة وهم بنو اسرائيل (مشارق الارض ومغاربها) اى أرض الشام وهى من الفرات الى جدر بمرف الموضع الذى خرجوا منه من البحر وغرق فيه فرعون وآله كما نقله البقاعى فى المائدة عن التوراة وقيل المراد جملة الارض لانه خرج من جملة بنى اسرائيل داود وسليمان عليهما السلام وقد ملكا الارض ويدل للاول قوله

تعالى (التي باركنا فيها) أي بالخصب وسعة الارزاق وذلك لا يليق الا بأرض الشأم (وتمت كلمت ربك الحسنى على بني اسرائيل) أي مضت عليهم واستمرت من قولهم تم عليه الامر اذا قضى وهي قوله تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض الخ والحسنى تأنيث الاحسن صفة للكلمة ومعنى تمت عليهم انجاز الوعد الذي تقدم باهلاك عدوهم واستخلافهم في الارض وانما كان الانجاز تماما للكلام لان الوعد بالشيء يبقى كالشيء المعلق فاذا حصل الموعود به فقد تم ذلك الوعد وكمل * (فائدة) * رسمت كلمة بالتاء المجرورة ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ووقف الباقون بالتاء وانما حصل لهم ماذكر (بما صبروا) أي بسبب صبرهم وحسبك به حاثا على الصبر ودالا على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله تعالى اليه ومن قابله بالصبر وانتظار النصر ضمن الله تعالى له الفرج (ودمرنا) أي أهلكنا قال الليث الدمار الهلاك التام (ما كان يصنع فرعون وقومه) في أرض مصر من القصور والعمارات (وما كانوا يعرشون) أي من الجنان وما كانوا يرفعون من البنيان كصرح هامان وقرأ ابن عامر وشعبة بضم الراء والباقون بالجر وهذا آخر ماقص الله تعالى من نبأ فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعاصيهم ثم اتبعه اقتصاص نبأ بني اسرائيل وما أحدثوه بعد انقاذهم من مملكة فرعون واستعبادهم ومعاينتهم الآيات العظام بقوله تعالى (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر) أي قطعناه بهم روى أن جوازهم كان يوم عاشوراء وان موسى عليه السلام صامه شكرا لله تعالى على انجائهم واهلاك عدوهم ومع النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم لم يراعوها حق رعايتها كما حكى الله تعالى عنهم ذلك بقوله تعالى (فأتوا على قوم) أي مروا عليهم (يعكفون على أصنام لهم) أي يقيمون على عبادتها قال ابن جريج كانت تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل قيل كانوا قوما من لخم وكانوا نزولا بالرقة وقيل كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى بقتالهم وقرأ حمزة والكسائي بكسر الكاف والباقون بالضم (قالوا) أي قال بعضهم لبعض لانه كان مع موسى السبعون المختارون وكان فيهم من يرتفع عن مثل هذا السؤال الباطل وهو قولهم (ياموسى) سموه كما ترى باسمه جفاء وغلظة (اجعل لنا الها) أي صنما نعتكف عليه وهذا يدل على غاية جهلهم وذلك أنهم توهموا أنه يجوز عبادة غير الله تعالى بعدما رأوا الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وهي الآيات التي توالت على قوم فرعون حتى أغرقهم الله تعالى في البحر بكفرهم وهو عبادتهم غير الله سبحانه وتعالى فحملهم جهلهم الى أن قالوا لنبيهم موسى عليه السلام اجعل لنا الها (كما لهم آلهة) وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عما رأى من بني اسرائيل بالمدينة تذكر بحال الانسان وانه ظلوم جهول كنود الا من عصمه الله وقليل من عبادي الشكور (قال) موسى ردا عليهم (انكم قوم تجهلون) وصفهم بالجهل المطلق وأكده لبعد ماصدر عنهم بعدما رأوا من الآيات العظمى والمعجزة الكبرى لانه جهل أعظم مما رأى منهم وأشنع (ان هؤلاء) أي القوم (متبر) أي هالك مدمر (ما هم فيه) أي ان الله تعالى يهدم دينهم الذي هم عليه ويحطم أصنامهم ويجعلها

رضاضا (وباطل) أى مضمحل (ما كانوا يعملون) من عبادتها وان قصدوا بها التقرب الى الله تعالى لان الاشتغال بعبادة غير الله يزيل معرفة الله تعالى من القلب والمقصود من العبادة رسوخ معرفة الله تعالى فى القلب فكان هذا ضد الغرض ونقيضا للمطلوب (قال) موسى عليه السلام مجيبا لهم على سبيل الانكار عليهم والتعجب (أغير الله أبغيكم الها) وأصله أبغى لكم أى أطلب لكم معبودا (وهو) أى والحال أنه هو وحده (فضلكم على العالمين) اذ الاله ليس شيأ يطلب ويلتمس ويتخذ بل الاله هو الذى يكون قادرا على الانعام بالايجاد واعطاء الحياة وجميع النعم فهذا الموجود هو الاله الذى يجب على الخلق عبادته فكيف يجوز العدول عن عبادته الى عبادة غيره وفى تفضيلهم على العالمين قولان الاول أنه تعالى فضلهم على عالمى زمانهم الا ما يخصه العقل من الانبياء والملائكة والثانى أنه تعالى خصهم بتلك الآيات القاهرة ولم يحصل مثلها لاحد من العالمين وان كان غيرهم فضلهم بسائر الخصال مثاله رجل يعلم علما واحدا وآخر يعلم علوما كثيرة سوى ذلك العلم فصاحب العلم الواحد مفضل على صاحب العلوم الكثيرة بذلك العلم فى الحقيقة (واذ أنجيناكم من آل فرعون) أى واذكروا صنعه معكم فى هذا الوقت وقرأ ابن عامر بحذف الياء والنون والباقون باثباتهما وقوله تعالى (يسومونكم) أى يكلفونكم ويذيقونكم (سوء العذاب) أى أشده استئناف لبيان ما أنجاهم أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون أو منهما وقوله تعالى (يقتلون أبناءكم ويستحيون) أى يستبقون (نساءكم) بدل من يسومونكم سوء العذاب (وفى ذلكم) أى الانجاء أو العذاب (بلاء) أى نعمة أو محنة (من ربكم عظيم) أى أفلا تتعظون وتنتهون عما قلتم (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) نكلمه عند انتهائها بأن يصوم أيامها روى أن موسى عليه السلام وعد بنى اسرائيل بمصر أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من الله تعالى فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك سأل ربه فأمر بصوم ثلاثين وهو شهر ذى القعدة فصامه فلما تم أنكر خلوف فمه فتسوك فقالت الملائكة كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك وقيل أوحى الله تعالى اليه أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك فأمره الله تعالى بعشرة أخرى ليكلمه الله بخلوف فمه كما قال تعالى (وأتممناها بعشر) أى من ذى الحجة (فتم ميقات ربه) أى وقت وعده بتكليمه اياه (أربعين ليلة) وقيل أمره أن يتخلى ثلاثين بالصوم والعبادة ثم أنزل عليه التوراة فى العشر وكلمه فيها ولقد أجمل ذكر الاربعين فى سورة البقرة وفصلها هنا وقرأ أبو عمرو وعدنا بغير ألف قبل العين والباقون بألف (فان قيل) ما فائدة قوله تعالى فتم ميقات ربه أربعين ليلة مع أن كل أحد يعلم أن الثلاثين مع العشر تكون أربعين (أجيب) بأنه تعالى انما قال أربعين ليلة ازالة لتوهم أن ذلك العشر من الثلاثين لانه يحتمل أتممناها بعشر من الثلاثين كأنه كان عشرين ثم أتمه بعشر فصار ثلاثين فأزال هذا الايهام * (تنبيه) * الفرق بين الميقات والوقت أن الميقات ما قدر فيه عمل من الاعمال والوقت وقت للشئ قدره مقدر أم لا وقوله تعالى أربعين نصب على الحال أى تم بالغا هذا العدد وليلة نصب على التمييز (وقال موسى لاخيه هرون) عطف بيان لاخيه أى قال له عند ذهابه الى الجبل للمناجاة (اخلفنى) أى كن

خليفتي (في قومي وأصلح) أي ما يجب أن يصلح من أمورهم أو كن مصلحا (ولا تتبع سبيل المفسدين) أي ومن دعاك منهم الى الافساد فلا تتبعه ولا تطعه (فان قيل) ان هرون كان شريك موسى عليهما السلام في النبوة فكيف جعله خليفة لنفسه فان شريك الانسان أعلى حالا من خليفته ورد الانسان من منصبه الاعلى الى الادون يكون اهانة له (أجيب) بأن الامر وان كان كما ذكر الا أن موسى عليه السلام كان هو الاصل في تلك النبوة (فان قيل) لما كان هرون نبيا والنبي لا يفعل الا الاصلاح فكيف وصى اليه بالاصلاح (أجيب) بأن المقصود من هذا الامر التأكيد كقول الخليل ولكن ليطمئن قلبي (ولما جاء موسى لميقاتنا) أي للوقت الذي وعدناه للكلام فيه (وكلمه ربه) دلت الآية الكريمة على أنه تعالى كلم موسى عليه السلام والناس مختلفون في كلام الله تعالى قال الزمخشري في كشافه وكلمه ربه من غير واسطة كما يكلم الملك وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقا به في بعض الاجرام كما خلقه مخطوطا في اللوح اه وهذا مذهب المعتزلة ولا شك في بطلانه وفساده لان ذلك الجرم كالشجرة لا يقول أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري فثبت بذلك بطلان ما قالوه وذهب بعض الحنابلة والحشوية الى أن كلام الله تعالى حروف وأصوات متقطعة وانه قديم قال الامام الرازي وهذا القول أخس من أن يلتفت اليه العاقل والذي عليه أكثر أهل السنة والجماعة ان كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والاصوات وان موسى سمع تلك الصفة الحقيقية الازلية قالوا كما أنه لا يبعد رؤية ذاته مع أن ذاته ليست جسما ولا عرضا كذلك لا يبعد سماع كلامه مع أن كلامه لا يكون حرفا ولا صوتا وفيما روي أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة تنبيه على أن سماع كلامه تعالى القديم ليس من جنس كلام المحدثين وهل كان سبحانه وتعالى كلم موسى وحده أومع أقوام آخرين ظاهر الآية يدل للاول لان قوله تعالى وكلمه ربه يدل على تخصيص موسى عليه السلام بهذا التشريف والتخصيص بالذكر يدل على نفي الحكم عمن عداه وقال القاضي بل السبعون المختارون سمعوا أيضا كلام الله تعالى قال لان الغرض باحضارهم أن يخبروا قوم موسى عليه السلام عما يجري هناك وهذا المقصود لا يتم الا عند سماع الكل وأيضا فان تكليم الله تعالى موسى على هذا الوجه معجز وقد تقدمت نبوة موسى عليه السلام فلا بد من ظهور هذا المعنى لغيره * ولما سمع عليه السلام كلام ربه اشتاق الى رؤيته سبحانه وتعالى (قال رب أرني أنظر اليك) قال في الكشاف ثاني مفعولي أرني محذوف أي أرني نفسك أنظر اليك (فان قيل) الرؤية عين النظر فكيف قيل أرني أنظر اليك (أجيب) بأن معنى أرني نفسك اجعلني متمكنا من رؤيتك بأن تتجلى لي فانظر اليك وأراك وفي هذا دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة لان طلب المستحيل من الانبياء محال خصوصا ما يقتضي الجهل بالله تعالى ولذلك رده بأن (قال) له (لن تراني) دون لن أرى ولن أريك ولن تنظر الي تنبيها على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على معد في الرائي لم يوجد فيه بعد وجعل السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا أرنا الله جهرة كما قاله الزمخشري أشد خطأ اذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم

ويزيل شبهتهم كما فعل بهم حين قالوا اجعل لنا الها والاستدلال بالجواب وهو قوله تعالى لن ترانى على استحالتها أشد خطأ اذ لايدل الاخبار عن عدم رؤيته اياه على أنه لايراه أبدا وأن لايراه غيره أصلا فضلا عن أن يدل على استحالته فان أهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة قالوا لن تكون لتأبيد النفى وهو خطأ لانها لو كانت للتأبيد لزم التناقض بذكر اليوم فى قوله تعالى فلن أكلم اليوم انسيا ولزم التكرار بذكر أبدا فى قوله تعالى ولن يتمنوه أبدا ولن تجتمع مع ما هو لانتهاء الغاية نحو قوله تعالى فلن أبرح الارض حتى يأذن لى أبى وأما تأبيد النفى فى قوله تعالى لن يخلقوا ذبابا فلامر خارجى لا من مقتضيات لن ولا تقتضى تأكيد النفى أيضا خلافا للزمخشرى فى كشافه بل قولك لن أقوم محتمل لان تريد به أنك لا تقوم أبدا وأنك لاتقوم فى بعض الازمنة المستقبلة وهو موافق لقولك لا أقوم فى عدم افادة التأكيد وقوله تعالى (ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى) استدراك يريد أن يبين به أنه لايطيق الرؤية وفى تعليق الرؤية بالاستقرار أيضا دليل على جوازها لان استقرار الجبل عند التجلى ممكن بان يجعل الله تعالى له قوة على ذلك والمعلق على الممكن ممكن وترانى فى الطرفين الياء ثابتة وقفا ووصلا وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر النون والباقون بالضم قال وهب ابن منبه ومحمد بن اسحق لما سأل موسى ربه الرؤية أرسل الله الضباب والصواعق والرعد والبرق حتى أحاطت بالجبل الذى عليه موسى أربعة فراسخ من كل جانب وأمر الله تعالى ملائكة السموات أن يعرضوا على موسى عليه السلام فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد ثم مرت به ملائكة السماء الثانية كأمثال الاسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس ففزع مما رأى وسمع واقشعرت كل شعرة فى جسده ورأسه ثم قال لقد ندمت على مسئلتى فهل ينجينى من مكانى الذى أنا فيه شئ فقال له رئيس الملائكة ياموسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم مرت به ملائكة السماء الثالثة كأمثال النسور لهم قصف ورجف ولجب شديد وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس كلجب الجيش العظيم ألوانهم كلهب النار ففزع موسى عليه السلام واشتد فزعه وأيس من الحياة فقال له رأس الملائكة مكانك يا ابن عمران حتى ترى مالا صبر لك عليه ثم مرت به ملائكة السماء الرابعة لايشبههم شئ من الذين مروا به ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الابيض أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لايقاربهم شئ من الذين مروا به قبلهم فاصطكت ركبتاه وأرعب قلبه واشتد بكاؤه فقال له رأس الملائكة يا ابن عمران اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم مرت به ملائكة السماء الخامسة لهم سبعة ألوان فلم يستطع موسى أن يتبعهم بصره ولم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفا واشتد حزنه وكثر بكاؤه فقال له رأس الملائكة يا ابن عمران مكانك حتى ترى بعض مالا تصبر عليه ثم مرت به ملائكة السماء السادسة وفى يد كل واحد منهم مثل النخلة الطويلة نور أشد ضوأ من الشمس ولباسهم كلهب النار اذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم من ملائكة السموات

كلهم يقولون بشدة أصواتهم سبوح قدوس رب العزة أبد الا يموت في رأس كل ملك منهم أربعة أوجه فلما رآهم موسى رفع صوته يسبح معهم وهو يبكي ويقول يارب اذكرني ولا تنس عبدك لا أدري أنفلت مما أنا فيه ام لا ان خرجت احترقت وان مكثت احترقت فقال له رأس الملائكة قد أوشك يا ابن عمران أن يشتد خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذي سألت ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة فلما بدا نور العرش انصدع نور الجبل من عظمة الله تعالى ورفعت الملائكة أصواتهم جميعا يقولون سبحان الملك القدوس رب العزة أبد الا يموت بشدة أصواتهم فارتج الجبل واندك وذلك قوله تعالى (فلما تجلى ربه) أي أظهر من نوره قدر نصف أنملة الخنصر كما في حديث صححه الحاكم (للجبل) أي جبل زبير بفتح الزاي والاضافة فيه بيانية لقول الجوهري الزبير اسم للجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه (جعله دكا) أي مدكوكا مفتتا وحكى عن سهل بن سعد الساعدي ان الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نورا قدر الدرهم فجعل الجبل دكا مستويا بالارض والدك والدق اخوان وقال ابن عباس جعله ترابا وقال سفيان ساخ الجبل في الارض حتى وقع في البحر فهو يذهب فيه وقال الكلبي كسر جبالا صغارا قال البغوي ووقع في بعض التفاسير صار لعظمته ستة أجبل وقعت ثلاثة بالمدينة أحد وورقان ورضوى ووقعت ثلاثة بمكة ثور وثبير وحرا وقرأ حمزة والكسائي بألف بعد الكاف وهمزة مفتوحة من غير تنوين وصلا ووقفا أي مستويا ومنه ناقة دكاء للتي لا سنام لها والباقون بالتنوين بعد الكاف والوقف على ألف التنوين (وخر) أي وقع (موسى صعقا) أي مغشيا عليه من هول ما رأى غشية كالموت وروى أن الملائكة مرت عليه وهو مغشي عليه فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون له يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة (فلما أفاق) من غشيته (قال) تعظيما لما رأى (سبحانك) أي تنزيها لك من النقائص كلها (تبت اليك) أي من الجراءة والاقدام على السؤال بغير اذن وقيل لما كانت الرؤية مختصة بمحمد صلى الله عليه وسلم فمنعها قال سبحانك تبت اليك من سؤالي ما ليس لي وقيل لما سأل الرؤية ومنعها قال تبت اليك من هذا السؤال وحسنات الابرار سيآت المقربين (وأنا أول المؤمنين) أي في زماني وقيل أنا أول من آمن انك لا ترى في الدنيا أي لكل الانبياء والا فالرؤية ثابتة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء على الصحيح وللزمخشري هنا في كشافه على مذهبه الفاسد في عدم الرؤية مطلقا تأويلات فلتحذر (قال يا موسى اني اصطفيتك) أي اخترتك (على الناس) أي الموجودين في زمانك وهرون وان كان نبيا مرسلا كان مأمورا باتباعه ولم يكن كليما ولا صاحب شرع وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح ياء اني والباقون بالسكون وقوله تعالى (برسالاتي) أي بأسفار التوراة قرأه نافع وابن كثير بغير ألف بعد اللام على التوحيد والباقون بالالف بعد اللام على الجمع (وبكلامي) أي وبتكليمي اياك (فخذ ما آتيتك) أي ما أعطيتك من الرسالة (وكن من الشاكرين) لأنعمي لان موسى عليه السلام لما منع الرؤية عدد الله تعالى عليه وجوه نعمه العظيمة التي له عليه وأمره أن يشتغل بشكرها كأنه قال له ان كنت

منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا فلا يضيق صدرك بسبب منع الرؤية وانظر الى سائر أنواع النعم التي خصصتك بها واشتغل بشكرها والاشتغال بشكرها انما يكون بالقيام بلوازمها علما وعملا والمقصود تسلية موسى عليه السلام عن منع الرؤية قال الامام الرازي وهذا أيضا أحد مايدل على أن الرؤية جائزة على الله تعالى اذ لو كانت ممتنعة في نفسها لما كان الى ذكر هذا القدر حاجة وروى ان موسى عليه السلام كان بعدما كلمه ربه لايستطيع أحد أن ينظر اليه لما غشى وجهه من النور ولم يزل على وجهه برقع حتى مات وقالت له زوجته أنا لم أرك منذ كلمك ربك فكشف لها عن وجهه فأخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرت ساجدة وقالت ادع الله أن يجعلني زوجتك في الجنة قال ذاك ان لم تتزوجي بعدي لان المرأة لآخر أزواجها (وكتبناله) أى لموسى (في الالواح) أى ألواح التوراة قال البغوي وفي الحديث كانت من سدر الجنة طول اللوح اثناعشر ذراعا وجاء في الحديث خلق الله آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده والمراد بيده قدرته وقيل كانت من زبرجدة خضراء وقيل من ياقوتة حمراء وقيل من صخرة صماء لينها الله تعالى لموسى فقطعها بيده وأما كيفية الكتابة فقال ابن جريج كتبها جبريل بالقلم الذى كتب به الذكر واستمد من نهر النور وقال وهب سمع موسى صرير القلم بالكلمات العشر وكان ذلك في أول يوم من ذى القعدة وقيل ان موسى خر صعقا يوم عرفة وأعطى التوراة يوم النحر وكانت الالواح عشرة على طول موسى وقيل كانت تسعة وقيل سبعة وقال مقاتل وكتبناله في الالواح كنقش الخاتم وقال الربيع بن أنس نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير يقرأ الجزء منها في سنة ولم يقرأها الا أربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى عليهم السلام أى لم يحفظها ويقرأها عن ظهر قلب الا هؤلاء الاربعة قال الامام الرازي وليس في لفظ الآية مايدل على كيفية تلك الالواح وعلى كيفية تلك الكتابة فان ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل قوى وجب القول به والا وجب السكوت عنه وأما قوله تعالى (من كل شئ) فلا شبهة أنه ليس على العموم بل مما يحتاج اليه موسى عليه السلام وقومه من أمر الدين وقوله تعالى (موعظة وتفصيلا) أى تبيينا (لكل شئ) بدل من الجار والمجرور قبله أى كتبنا كل شئ من المواعظ وتفصيل الاحكام وقوله تعالى (فخذها) على اضمار القول عطفا على كتبنا أو بدلا من قوله فخذ ما آتيتك والهاء للالواح أو لكل شئ فانه بمعنى الاشياء أو الرسالة وعن كعب الاحبار أن موسى عليه السلام نظر في التوراة فقال انى أجد أمة هي خير الامم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الاول والكتاب الآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الاعور الدجال رب اجعلهم أمتى قال هي أمة محمد ياموسى قال يارب انى أجد أمة هم الحامدون رعاة الشمس المحكمون اذا أرادوا أمرا قالوا نفعل ان شاء الله فاجعلهم أمتى قال هم أمة محمد قال يارب انى أجد أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم وكان الاولون يحرقون صدقاتهم بالنار وهم المستجابون والمستجاب لهم الشافعون والمشفعون لهم فاجعلهم أمتى قال هم أمة محمد قال

يارب انى أجد أمة اذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله واذا هبط واديا حمد الله الصعيد لهم طهور والارض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء غر محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمتى قال هم أمة محمد قال يارب انى أجد أمة اذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة مثلها وان عملها كتبت له عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف فاجعلهم أمتى قال هم أمة محمد قال يارب انى أجد أمة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحدا الا مرحوما فاجعلهم أمتى قال هم أمة محمد قال يارب انى أجد أمة مصاحفهم فى صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصطفون فى صلاتهم كصفوف الملائكة أصواتهم فى مساجدهم كدوى النحل لا يدخل النار أحد منهم الا من برئ من الحسنات مثل ما برئ الحجر من ورق الشجر فاجعلهم أمتى قال هم أمة محمد فلما عجب موسى من الخير الذى أعطاه الله محمدا وأمته قال ياليتنى من أصحاب محمد فأوحى الله تعالى اليه انى اصطفيتك الخ فرضى موسى كل الرضا ومعنى (بقوة) أى بجد وعزيمة (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) أى بأحسن ما فيها (فان قيل) ظاهر هذا يقتضى أن فيها ما ليس بأحسن وأنه لا يجوز لهم الاخذ به وذلك متناقض (وأجيب) عن ذلك بأجوبة * الاول أن تلك التكاليف منها ما هو حسن ومنها ما هو أحسن كالاقتصاد والعفو والانتصار والصبر فمرهم أن يحملوا أنفسهم بما هو أدخل فى الحسن وأكثر للثواب كقوله تعالى واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم وقوله تعالى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه هذا ما أجاب به فى الكشاف وتبعه البيضاوى والامام الرازى لكن قال التفتازانى هذا ينافى ما تقرر من أن المكتوب على بنى اسرائيل هو القصاص قطعا والجواب بأنه مثال للحسن والاحسن لا لكونه فى التوراة بعيد جدا (فان قيل) يلزم عليه أيضا منع الاخذ بالحسن وذلك يقدح فى كونه حسنا (أجيب) عن هذا بأن الاخذ بالحسن الثانى على سبيل الندب فلا يقدح فى منع الاخذ بالحسن * الثانى ان الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح وأحسن هؤلاء الثلاثة الواجب * الثالث أن المراد بالاحسن البالغ فى الحسن مطلقا لا بالاضافة وهو المأمور به كقولهم الصيف أحر من الشتاء أى هو فى حره أبلغ من الشتاء فى برده فكذا هنا المأمور به أبلغ فى الحسن من المنهى عنه فى القبح (سأريكم دار الفاسقين) أى دار فرعون وقومه وهى مصر كيف أقفرت منهم ودمروا لفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل ما نكل بهم وقيل منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكهم الله لفسقهم فى ممركم عليها فى أسفاركم وقيل المراد دارهم فى الآخرة وهى جهنم (سأصرف عن آياتى) المنصوبات فى الآفاق والانفس كخلق السموات والارض وما بينهما (الذين يتكبرون فى الارض) أى أصرفها عنهم بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها وقال سفيان بن عيينة سأمنعهم فهم القرآن وقوله تعالى (بغير الحق) صلة يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل فان اظهار التكبر على الغير قد يكون بالحق فان للمحق أن يتكبر

على المبطال وفى الكلام المشم ورالتكبر على المتكبر صدقة (وان يروا كل آية) أى منزلة أو معجزة (لا يؤمنوا بها) أى لعنادهم وتكبرهم (وان يروا سبيل) أى طريق (الرشد) أى الهدى الذى جاء من عند الله (لا يتخذوه سبيلا) أى طريقا يسلكونه بقصد منهم ونظر وتعمد بل ان سلكوه فعن غير قصد وقرأ حمزة والكسائى بفتح الراء والشين والباقون بضم الراء وسكون الشين (وان يروا سبيل الغى) أى الضلال (يتخذوه سبيلا) أى بغاية الشهوة والتعمد والاعتماد لسلوكه (ذلك) أى هذا الصرف العظيم الذى زاد عن مطلق الصرف بالعمى عن الايمان واتخاذ الرسالة (بأنهم) أى بسبب أنهم (كذبوا بآياتنا) أى الدالة على وحدانيتنا (وكانوا عنها غافلين) أى كان دأبهم وديدنهم معاملتهم اياها بالاعراض عنها حتى كأنهم مغفول عنها فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها غفلة وانهما كافيما يشغلهم عنها من شهواتهم وعن الفضيل بن عياض ذكر لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا عظمت أمتى الدنيا نزع عنها هيبة الاسلام واذا تركوا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر حرمت عليهم بركة الوحى (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) أى وكذبوا بلقائهم الدار الآخرة التى هى موعد الثواب فهو من اضافة المصدر الى المفعول به ويجوز أن يكون من اضافة المصدر الى الظرف بمعنى ولقاء ما وعد الله فى الدار الآخرة (حبطت) أى بطلت (أعمالهم) أى ما عملوه فى الدنيا من خير كصلة رحم وصدقة فلا ثواب لهم لعدم شرطه (هل) أى ما (يجزون الا) جزاء (ما كانوا يعملون) أى من التكذيب والمعاصى (واتخذ قوم موسى من بعده) اى بعد ذهابه الى المناجاة (من حليهم) أى الذى استعاروه من القبط بسبب عرس فبقى عندهم (فان قيل) كيف قال من حليهم وكان معهم معارا (أجيب) بأنه لما أهلك الله تعالى قوم فرعون بقيت تلك الاموال فى أيديهم وصارت ملكا لهم كسائر املاكهم بدليل قوله تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين وقرأ حمزة والكسائى بكسر الحاء والباقون بضمها (عجلا) أى صاغه لهم منه السامرى وقوله تعالى (جسدا) بدل منه أى صار جسدا ذا لحم ودم (له خوار) أى صوت البقر روى أن السامرى لما صاغ العجل ألقى فى فمه قبضة من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام يوم قطع البحر فصار حيا له خوار وقيل صاغه بنوع من الحيل فيدخل الريح جوفه ويصوت وانما نسب الاتخاذ اليهم وهو فعله اما لانهم رضوا به أو لان المراد اتخاذهم اياه الها وقيل انه ما خار الا مرة واحدة وقيل انه كان يخور كثيرا فاذا خار سجدوا له واذا سكت رفعوا رؤسهم وقال وهب كان يسمع منه الخوار وهو لا يتحرك قال السدى كان يخور ويمشى وقوله تعالى (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) تقريع على فرط ضلالهم واخلالهم بالنظر لان هذا العجل لا يمكنه أن يتكلم بصواب ولا يهدى الى رشد ولا يقدر على ذلك ومن كان كذلك كان جمادا أو حيوانا ناقصا عاجزا وعلى كلا التقديرين لا يصلح أن يعبد * ثم وصفهم الله تعالى بالظلم بقوله (اتخذوه) أى العجل الها (وكانوا ظالمين) أى واضعين الاشياء فى غير موضعها فلم يكن اتخاذ العجل بدعا منهم ولا أول مناكيرهم واختلفوا هل كل قوم موسى عبدوا العجل أو بعضهم

قال الحسن كلهم عبدوا العجل غير هرون واحتج عليه بوجهين الاول عموم هذه الآية والثانى قول موسى عليه السلام فى هذه القصة رب اغفر لى ولاخى قال خص نفسه وأخاه بالدعاء وذلك يدل على أن من كان مغايرا لهما ما كان أهلا للدعاء ولو بقوا على الايمان ما كان الامر كذلك وقال غيره بل كان قد بقى فى بنى اسرائيل من ثبت على ايمانه وان ذلك الكفر انما وقع فى قوم مخصوصين والدليل عليه قوله ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (ولما سقط فى أيديهم) أى ولما ندموا على عبادة العجل تقول العرب لكل نادم على أمر قد سقط فى يده وذلك لان من شأن من اشتد ندمه على أمر أن يعض يده ثم يضرب بفخذه فتصير يده ساقطة لان السقوط عبارة عن النزول من أعلى الى أسفل (ورأوا) أى علموا (انهم قد ضلوا) عن الطريق الواضح باتخاذ العجل (قالوا) توبة ورجوعا الى الله تعالى كما قال أبوهم آدم عليه السلام (لئن لم يرحمنا ربنا) الذى لم يقطع قط احسانه عنا فيكف غضبه ويديم احسانه (ويغفر لنا) أى يمحو ذنوبنا عينا وأثرا لئلا ينتقم منا فى المستقبل (لنكونن من الخاسرين) أى فينتقم منا بذنوبنا وهذا كلام من اعترف بعظيم ما قدم عليه من الذنوب وندم على ما صدر منه ورغب الى الله تعالى فى اقالة عثرته وانما قالوا ذلك لما رجع موسى عليه السلام اليهم كما قال تعالى (ولما رجع موسى) أى من مناجاته (الى قومه غضبان) أى من جهتهم (أسفا) أى لان الله تعالى كان قد أخبره أنه قد فتن قومه وأن السامرى قد أضلهم فكان موسى فى حال رجوعه غضبان أسفا قال أبو الدرداء الاسف أشد الغضب وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الاسف الحزن والاسف الحزين قال الواحدى والقولان متقاربان لان الغضب من الحزن والحزن من الغضب وقرأ حمزة والكسائى بالخطاب فى يرحمنا ويغفر لنا ونصب ربنا والباقون بالغيبة ورفع الباء (قال) موسى لهم (بئسما خلفتمونى من بعدى) أى بئس الفعل فعلكم بعد فراقى اياكم وهذا الخطاب يحتمل أن يكون لعبدة العجل من السامرى وأتباعه أى بئسما خلفتمونى حيث عبدتم العجل وتركتم عبادة الله تعالى وأن يكون لهرون والمؤمنين أى بئسما خلفتمونى حيث لم تمنعوهم من عبادة غير الله تعالى والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعدى خلافتكم * (فائدة) * اتفقوا على وصل بئسما هنا فى الرسم (أعجلتم أمر ربكم) أى أتركتموه غير تام كأنه ضمن عجل معنى سبق فعدى تعديته أو أعجلتم أمر ربكم الذى وعدنيه من الاربعين وقدرتم موتى وغيرتم بعدى كما غيرت الامم بعد أنبيائهم وروى ان السامرى قال لهم حين أخرج لهم العجل وقال هذا الهكم واله موسى ان موسى لن يرجع وانه قد مات وروى انهم عدوا عشرين يوما بلياليها فجعلوها أربعين ثم أحدثوا ما أحدثوا (وألقى الالواح) أى الواح التوراة أى طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر أى عند استماعه حديث العجل حمية للدين وكان فى نفسه حديدا شديد الغضب روى ان التوراة كانت سبعة أسباع فى سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفع ستة أسباعها أى ستة أسباع ما فيها لا ستة أسباعها نفسها لقوله بعد وأخذ الالواح وكان فيها تفصيل كل شئ وبقى سبع فرفع ما كان من أخبار الغيب وبقى ما فيه المواعظ والاحكام والحلال

والحرام

والحرام قال الرازى ولقائل أن يقول ليس فى القرآن الا أنه ألقى الالواح فاما انه ألقاها بحيث تكسرت فهذا ليس فى القرآن وأنه جراءة عظيمة على كتاب الله ومثله لا يليق بالانبياء (وأخذ برأس أخيه) أى بشعر رأسه بيمينه وشعر لحيته بشماله (يجره) أى أخاه (اليه) غضبا وكان هرون عليه السلام أكبر من موسى بثلاث سنوات وأحب الى بنى اسرائيل من موسى لانه كان لين منه جانبا (قال) هرون عند ذلك (ابن أم) قراءة ابن عامر وشعبة والكسائى بكسر الميم وأصله يا ابن أمى فحذف الياء اكتفاء بالكسرة تخفيفا كالمنادى المضاف الى الياء والباقون بالنصب زيادة فى التخفيف لطوله أو تشبيها بخمسة عشر (فان قيل) هرون وموسى من أب وأم فلماذا ناداه بالام فقط (أجيب) بأنه انما ذكرها لانها كانت مؤمنة فاعتد بنسبها ولانها هى التى قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها ليرققه عليه والطاعنون فى عصمة الانبياء يقولون أخذ برأس أخيه يجره على سبيل الاهانة والاستخفاف والمثبتون لعصمة الانبياء قالوا جر رأس أخيه ليساره ويستكشف منه كيفية تلك الواقعة (فان قيل) فلماذا قال يا ابن أم (ان القوم) الذين عبدوا العجل (استضعفونى) أى انى قد بذلت وسعى فى كفهم فاستذلونى وقهرونى (وكادوا) أى قاربوا (يقتلوننى فلا تشمت بى الاعداء) أى فلا تفعل بى ما يشمتون بى لاجله وأصل الشماتة الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك يقال شمت فلان بفلان اذا سر بمكروه نزل به أى لا تسر الاعداء بما تنال منى من مكروه فكيف فعل بأخيه ذلك (أجيب) بأن هرون انما قال ذلك خوفا من أن يتوهم جهال بنى اسرائيل ان موسى غضبان عليه كما هو غضبان على عبدة العجل أى فلا تفعل بى ما تشمت به اعدائى فهم اعداؤك فان القوم يحملون هذا الفعل الذى تفعله بى على الاهانة لا على الاكرام (ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) أى الذين عبدوا العجل مع برا منهم بالمؤاخذة أو بنسبة التقصير ولما اعتذر له أخوه وذكر شماتة الاعداء (قال رب اغفر لى) أى ما حلى عليه مما صنعت بأخى (ولاخى) أى اغفر له ما فرط فى كفهم عن عبادة العجل ان كان وقع منه تفريط وضمه الى نفسه فى الاستغفار ترضية له ودفعا للشماتة عنه (وأدخلنا فى رحمتك) بمزيد الانعام علينا (وأنت أرحم الراحمين) فأنت أرحم بنا منا على أنفسنا قال الله تعالى (ان الذين اتخذوا العجل) أى الها يعبدونه من دون الله تعالى فهذا هو المفعول الثانى من مفعولى اتخذوا (سينالهم غضب) أى عقوبة (من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا) وهى خروجهم من ديارهم وللمفسرين فى هذه الآية طريقان الاول أن المراد بالذين اتخذوا العجل الذين باشروا عبادة العجل (فان قيل) أولئك تاب الله عليهم بسبب ان قتلوا أنفسهم فى معرض التوبة على ذلك الذنب واذا تاب الله عليهم فكيف ينالهم الغضب والذلة (أجيب) بأن ذلك الغضب انما حصل لهم فى الدنيا وهو نفس القتل فكان ذلك القتل غضبا عليهم والمراد بالذلة هو استسلامهم أنفسهم للقتل واعترافهم على أنفسهم بالضلال والخطا وقيل خروجهم من ديارهم لان ذل الغربة مثل مضروب (فان قيل) السين فى قوله سينالهم للاستقبال فكيف تكون للماضى (أجيب) بأن هذا انما هو خبر عما أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين

أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل ثم أخبره الله تعالى فى ذلك الوقت انه سينالهم غضب من ربهم وذلة فكان هذا الكلام سابقا لوقته وهو القتل الذى أمرهم الله تعالى به بعد ذلك والطريق الثانى أن المراد بالذين اتخذوا العجل الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فوصف اليهود الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم باتخاذ العجل وان كان ما فعل ذلك الا آباؤهم لانهم رضوا بفعلهم ولان العرب تعير الابناء بقبائح أفعال الآباء كما يفعل ذلك فى المناقب يقولون للامم أفعلتم كذا وكذا وانما فعله من مضى من آبائهم ثم حكم عليهم بأنهم سينالهم غضب من ربهم فى الآخرة وذلة فى الحياة الدنيا كما قال تعالى فى صفتهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة (وكذلك) أى كما جزيناهم (نجزى المفترين) أى كل مفتر فى دين الله فجزاؤه غضب الله فى الآخرة والذلة فى الدنيا قال مالك بن أنس ما من مبتدع الا ويجد فوق رأسه ذلة ثم قرأ هذه الآية لان المبتدع مفتر فى دين الله (والذين عملوا السيآت) أى عملوا الاعمال السيئة ويدخل فى ذلك كل ذنب حتى الكفر (ثم تابوا) أى رجعوا عنها الى الله تعالى (من بعدها) أى من بعد أعمالهم السيئة (وآمنوا) أى وصدقوا بالله تعالى بأنه لا اله غيره وأنه يقبل توبة التائب ويغفر الذنوب وان عظمت (ان ربك) أى يا محمد أو يا أيها الانسان التائب (من بعدها) أى التوبة (لغفور) أى ستور عليهم محاء لما كان منهم (رحيم) بهم أى منعم عليهم بالجنة وفى الآية دليل على أن السيآت بأسرها صغيرها وكبيرها مشتركة فى التوبة وأن الله تعالى يغفرها جميعا بفضله ورحمته فان عفوه وكرمه أعظم وأجل وهذا من أعظم ما يفيد البشارة والفرح للمذنبين التائبين وتقدير الآية أن من أتى بجميع السيآت ثم تاب الى الله تعالى وأخلص التوبة فان الله يغفرها له ويقبل توبته (ولما سكت) أى سكن (عن موسى الغضب) أى باعتذار هرون وبتوبتهم فعند ذلك سكن غضبه وهو الوقت الذى قال رب اغفر لى ولاخى وفى هذا الكلام استعارتان استعارة بالكناية فى الغضب عن الشخص الناطق واستعارة تصريحية أو تخييلية فى السكوت عن طفء غضب موسى وسكون هيجانه وغليانه وقال عكرمة ان المعنى سكت موسى عن الغضب فقلب كما قالوا أدخلت القلنسوة فى رأسى والمعنى أدخلت رأسى فى القلنسوة (أخذ الالواح) أى وكان دعا لاخيه منها بذلك على زوال غضبه عليه فكذلك أخذ الالواح التى ألقاها منها على زوال غضبه قال الامام الرازى وظاهر هذا يدل على ان شيأ منها لم ينكسر ولم يبطل وان الذى قيل من أن ستة اسباع التوراة رفعت الى السماء ليس الامر كذلك اه ومرت الاشارة الى ما يدل على الجمع بين ما هنا وبين ما مر (وفى نسختها) أى ما نسخ فيها من كتب والنسخ عبارة عن النقل والتحويل فاذا نسخت كتابا من كتاب حرفا بحرف فقد نسخت ذلك الكتاب فهو نقلك ما فى الاصل الى الفرع لان الالواح نسخت من اللوح المحفوظ والنسخة فعلة بمعنى مفعولة كالخطبة وقيل ان موسى عليه السلام لما ألقى الالواح فتكسرت صام أربعين يوما فردت عليه فى لوحين وعلى قول من قال ان الالواح لم تتكسر وأخذها موسى بعينها بعدما ألقاها يكون المعنى وفى نسختها أى المكتوب فيها (هدى) أى بيان للحق (ورحمة) أى ارشاد الى الصلاح

والخير وقال ابن عباس هدى من الضلالة ورحمة من العذاب (للذين هم لربهم يرهبون) أى يخافون (فان قيل) التقدير الذين يرهبون ربهم فما الفائدة فى اللام فى قوله لربهم (أجيب) بأوجه الاول ان تأخير الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفا فدخلت اللام للتقوية ونظيره قوله تعالى ان كنتم للرؤيا تعبرون الثانى انها لام الاجل والمعنى للذين هم لاجل ربهم يرهبون لا رياء ولا سمعة الثالث انه قد يزاد حرف الجر فى المفعول وان كان الفعل متعديا كقولك قرأت السورة وقرأت بالسورة (واختار موسى قومه) أى من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل اليه فنصب يقال اخترت من الرجال زيدا واخترت الرجال زيدا وأنشدوا قول الفرزدق

ومنا الذى اختير الرجال سماحة * وجودا اذا هب الرياح الزعازع

قال أبو على والاصل فى هذا الباب ان فى الافعال ما يتعدى الى المفعول الثانى بحرف الجر ثم يتسع فيحذف حرف الجر فيتعدى الى المفعول الثانى من ذلك قولك اخترت من الرجال زيدا ثم يتسع فيقال اخترت الرجال زيدا واستغفر الله من ذنبى واستغفر الله ذنبى قال الشاعر

استغفر الله ذنبا لست محصيه * ويقال أمرت زيدا بالخير وأمرت زيدا الخير قال الشاعر

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به * قال الرازى وعندى فيه وجه آخر وهو أن يكون التقدير واختاره موسى قومه لميقاتنا وأراد بقومه المعتبرين منهم اطلاقا لاسم الخير على ما هو المقصود منه وقوله (سبعين رجلا لميقاتنا) عطف بيان وعلى هذا الوجه فلا حاجة الى ما ذكر من التكلفات (فلما أخذتهم الرجفة) روى ان الله تعالى أمره أن يأتيه فى سبعين رجلا من بنى اسرائيل فاختار من كل سبط ستة فزاد اثنان فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال لمن قعد أجر من خرج فقعد كالب ويوشع وذهب معه الباقون روى أنه لم يصب الا ستين شيخا فأوحى الله تعالى اليه أن يختار من الشبان عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخا وقيل كانوا ابناء ما عدا العشرين ولم يتجاوزوا الاربعين قد ذهب عنهم الجهل والصبا فأمرهم موسى عليه السلام أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ثم خرج الى طور سينا لميقات ربه وكان أمره أن يأتيه فى سبعين من بنى اسرائيل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتى غشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى عليه السلام اذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر اليه فضرب دونه الحجاب ودنا القوم حتى دخلوا فى الغمام ووقعوا سجدا فسمعوه يكلم موسى يأمره وينهاه وافعل لا تفعل فلما فرغ من أمره ونهيه وانكشف عن موسى الغمام فأقبل اليهم فقالوا له لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهى الرجفة فماتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه (قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل) أى من قبل خروجهم الى الميقات (واياى) معهم فكان بنو اسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهمونى اذا رجعت اليهم وما هم معى وعنى بذلك انك قدرت على اهلاكهم قبل ذلك بحمل فرعون على اهلاكهم وباغراقهم فى البحر وغيرهما فترحمت عليهم بالانقاذ منهما فان ترحمت عليهم مرة أخرى لم يبعد من عميم احسانك وقال وهب لم تكن تلك الرجفة موتا ولكن القوم لما رأوا تلك الهيبة

أخذتهم الرجفة حتى كادت أن تبين منهم مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت واشتد عليه فقدهم وكانوا له وزراء على الخير سامعين مطيعين فعند ذلك دعا وبكا وناشد ربه فكشف الله تعالى عنهم تلك الرجفة واطمأنوا وسمعوا كلام ربهم وذلك قوله تعالى قال أى موسى رب لو شئت أهلكتهم من قبل أى من قبل عبادة العجل واياى بقتلى القبطى (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) أى عبدة العجل وظن موسى انهم عوقبوا باتخاذ بنى اسرائيل العجل وقال هذا على طريق السؤال وقال المبرد هو استفهام استعطاف أى لا تهلكنا وقد علم موسى عليه السلام أن الله تعالى أعظم من أن يأخذ بجريرة الجانى غيره وقيل بما فعل السفهاء من العناد والتجاسر على طلب الرؤية وكان ذلك قاله بعضهم (ان هى) أى ما هى (الا فتنتك) قال الواحدى الكناية فى هى تعود الى الفتنة كما تقول ان هو الا زيد والمعنى ان تلك الفتنة التى وقع فيها السفهاء لم تكن الا فتنتك أى اختبارك وابتلاؤك وهذا تأكيد لقوله تعالى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا لان معناه لا تهلكنا بفعلهم فان تلك الفتنة كانت اختبارا منك وابتلاء أضللت بها قوما فافتتنوا بأن أوجدت فى العجل خوارا فزاغوا به وأسمعتهم كلامك حتى طمعوا فى الرؤية هديت قوما فعصمتهم حتى ثبتوا على دينك فذلك معنى قوله (تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) ولما أثبت ان الكل بيده تعالى استأنف سؤاله فى أن يفعل لهم الاصلح فقال (أنت) أى وحدك (ولينا) أى نعتقد أن لا يقدر على عمل مصالحنا غيرك وأنت لا تنفع لك فى شئ من الامرين ولا ضر بل الكل بالنسبة اليك على حد سواء ونحن على بصيرة من أن أفعالك لا تعلل بالاغراض وعفوك عنا ينفعنا وانتقامك منا يضرنا ونحن فى حضرتك قد انقطعنا اليك وحططنا رحال افتقارنا لديك (فاغفر لنا) أى امح ذنوبنا (وارحمنا) أى اشملنا برحمتك التى وسعت كل شئ (وأنت خير الغافرين) أى لان غيرك يتجاوز عن الذنب طلبا للثناء أو للثواب أو دفعا للصفة الخسيسة وهى صفة الحقد ونحوه وأنت منزه عن ذلك فتغفر السيئة وتبدلها حسنة (واكتب) أى أوجب وأثبت واقسم (لنا) أى فى مدة احيائك لنا (فى هذه الدنيا) أى الحاضرة والدنية (حسنة) أى حسن معيشة وتوفيق طاعة (وفى الآخرة) أى واكتب لنا فى الحياة الآخرة حسنة وهى الجنة ثم علل ذلك بقوله (انا هدنا) أى تبنا (اليك) أى عما لا يليق بجنابك وأصل الهود الرجوع برفق والهود جمع هائد وهو التائب ولبعضهم

يا راكب الذنب هدهد * واسجد كأنك هدهد

قال بعضهم وبه سميت اليهود وكان اسم مدح قبل نسخ شريعتهم ثم صار اسم ذم بعد نسخها (قال) الله تعالى لموسى (عذابى أصيب به من أشاء) من خلق أذنب أو لم يذنب لا اعتراض على (ورحمتى وسعت) عمت وشملت (كل شئ) من خلق فى الدنيا ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص الا وهو متقلب فى نعمتى وهذا معنى حديث أبى هريرة فى الصحيحين ان رحمتى سبقت غضبى وفى رواية غلبت غضبى وأما فى الآخرة فقال تعالى (فسأكتبها للذين يتقون) الله (ويؤتون الزكاة) وخصها بالذكر لانفعها المتعدى ولانها كانت أشق عليهم قال قتادة لما نزل ورحمتى وسعت

كل

كل شئ قال ابليس أنا من ذلك الشئ فقال تعالى فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة (والذين هم بآياتنا يؤمنون) ولا يكفرون بشئ منها فأيس ابليس منها وتمناها اليهود والنصارى وقالوا نحن نتقي ونؤمن بآيات ربنا فأخرجهما الله تعالى بقوله (الذين يتبعون الرسول النبي الامي) وانما سماه رسولا باضافته الى الله عز وجل لانه الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه لرسالته وأوامره ونواهيه وشرائعه اليهم ونبيا لانه رفيع الدرجة عند الله ثم وصفه بالامي وهو الذي لا يكتب ولا يقرأ وهي صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قال صلى الله عليه وسلم نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب والعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرؤن أي الخط والنبي صلى الله عليه وسلم كان كذلك قال أهل التحقيق وكونه أميا بهذا التفسير كان من جملة معجزاته وبيانه من وجوه الاول أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوما مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته والخطيب من العرب اذا ارتجل خطبة ثم أعادها فلا بد وأن يزيد فيها أو أن ينقص عنها بالقليل والكثير ثم انه عليه الصلاة والسلام مع انه ما كان يكتب ولا يقرأ يتلو كتاب الله تعالى من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير فكان ذلك معجزة واليه الاشارة بقوله تعالى سنقرئك فلا تنسى الثاني انه لو كان يحسن الخط والقراءة لكان متهما في أنه ربما طالع كتب الاولين فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة كان ذلك من المعجزات وهذا هو المراد من قوله تعالى وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون الثالث تعلم الخط شئ سهل فان أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعي فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم في الفهم ثم انه تعالى آتاه علوم الاولين والآخرين وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل اليه أحد من الخلق ومع تلك القوة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذي يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلا وفهما فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جاريا مجرى الجمع بين الضدين وذلك من الامور الخارقة للعادة وجارية مجرى المعجزات وهذا الاتباع تارة يكون بالقوة فقط لمن تقدم موته على زمانه صلى الله عليه وسلم وتارة يخرج من القوة الى الفعل كمن لحق زمان دعوته فمن علم الله تعالى منه انه لا يتبعه اذا أدركه لا يغفر له ولو عمل جميع الطاعات غير ذلك وعرفه لهم بجميع خواصه حتى لا يتطرق اليه عند مجيئه ريب ولا يتعلل في أمره بعلة ولذلك اتبعه (الذي يجدونه) أي علماء بني اسرائيل (مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) باسمه ونعته ولكنهم كتموا ذلك وبدلوه وغيروه حسدا منهم له وخوفا على زوال رياستهم وقد حصل لهم ما كانوا يخافونه فقد زالت رياستهم ووقعوا في الذل والهوان وعن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فقال اجل انه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الاسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله تعالى حتى

يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا اله الا الله و يفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا انتهى (شرح غريب ألفاظه) الفظ السيء الخلق والغليظ الجافي القاسي والسخاب بالسين والصاد الكثير الصياح والاعوجاج ضد الاستقامة والملة العوجاء الكفر والقلب الاغلف الذى لا يصل اليه شيء يفهمه كأنه فى غلاف وقوله تعالى (يأمرهم بالمعروف) قال الزجاج يجوز ان يكون استئنافا ويجوز ان يكون المعنى يجدونه مكتوبا عندهم انه يأمرهم بالمعروف قال الرازى ومجامع المعروف فى قوله عليه الصلاة والسلام التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله وذلك لان الموجود اما واجب الوجود لذاته واما ممكن لذاته أما الواجب لذاته فهو الله تعالى ولا معروف أشرف من تعظيمه واظهار عبوديته واظهار الخشوع والخضوع على باب عزته والاعتراف بكونه موصوفا بصفات الكمال مبرأ عن النقائص والآفات منزها عن الاضداد والانداد وأما الممكن لذاته فان لم يكن حيوانا فلا سبيل الى ايصال الخير اليه لان الانتفاع مشروط بالحياة ومع ذلك فانه يجب النظر الى كلها بعين التعظيم من حيث انها مخلوقة لله ومن حيث ان كل ذرة من ذرات المخلوقات لما كانت دليلا ظاهرا وبرهانا باهرا على توحيده وتنزيهه فانه يجب النظر اليه بعين الاحترام ومن حيث ان لله سبحانه وتعالى فى كل ذرة من ذرات المخلوقات اسرارا عجيبة وحكما خفية فيجب النظر اليها بعين الاحترام وأما ان كان ذلك المخلوق من جنس الحيوان فانه يجب الشفقة عليه بأقصى ما يقدر الانسان عليه ويدخل فيه بر الوالدين وصلة الارحام وبث المعروف فثبت ان قوله صلى الله عليه وسلم التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله كلمة جامعة لجميع جهات الامر بالمعروف (وينهاهم عن المنكر) وهو ضد الامور المذكورة وقال عطاء يأمرهم بالمعروف بخلع الانداد وبمكارم الاخلاق وبصلة الارحام وينهاهم عن المنكر أى عبادة الاوثان وقطع الارحام (ويحل لهم الطيبات) أى ما حرم عليهم فى شرعهم كالشحوم (ويحرم عليهم الخبائث) كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة (ويضع عنهم اصرهم) أى ثقلهم الذى كان يحمل عليهم وقرأ ابن عامر بفتح الهمزة الممدودة والصاد وألف بعد الصاد على الجمع والباقون بكسر الهمزة وسكون الصاد ولا ألف بعدها على التوحيد (والاغلال التى كانت عليهم) أى ويضع الاثقال والشدائد التى كانت عليهم من الدين والشريعة وذلك مثل قتل النفس فى التوبة وقطع الاعضاء الخاطئة وقرض النجاسة من البدن والثوب بالمقاريض وغير ذلك من الشدائد التى كانت على بنى اسرائيل شبهت بالاغلال التى تجمع اليد الى العنق كما ان اليد لا تمتد مع وجود الغل فكذلك لا تمتد الى الحرام الذى نهيت عنه وكانت هذه الاثقال فى شريعة موسى عليه الصلاة والسلام فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم نسخ ذلك كله ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم بعثت بالحنيفية السهلة السمحة (فالذين آمنوا به) أى بمحمد صلى الله عليه وسلم (وعزروه) أى وقروه وعظموه وأصل التعزير المنع والنصرة وتعزير النبى صلى الله عليه وسلم تعظيمه واجلاله ودفع الاعداء عنه (ونصروه) على أعدائه (واتبعوا النور الذى أنزل معه) اى القرآن سمى نورا لانه به يستنير قلب المؤمن فيخرج من ظلمات الشك والجهالة الى ضياء

اليقين والعلم وقيل الهدى والبيان والرسالة وقيل الحق الذى بيانه فى القلوب كبيان النور (فان قيل) كيف يمكن حمل النور ههنا على القرآن والقرآن ما أنزل مع محمد صلى الله عليه وسلم وانما أنزل مع جبريل عليه السلام (أجيب) بان معناه انه أنزل مع نبوته لان نبوته ظهرت مع ظهور القرآن ثم انه تعالى لما ذكر هذه الصفات قال (أولئك هم المفلحون) أى الفائزون بالمطلوب فى الدنيا والآخرة ولما تم ما نظمه تعالى فى أثناء هذه القصص من جواهر أوصاف هذا النبى الكريم حثا على الايمان وايجابا له على وجه يعلم منه انه رسول الله الى كل مكلف تقدم زمانه أو تأخر قال تعالى (قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم) الخطاب عام وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثا الى كافة الثقلين بل والى الملائكة قاله السبكى والبقاعى وغيرهما وهذا هو اللائق بمقامه صلى الله عليه وسلم وان خالف فى ذلك بعضهم وأما سائر الرسل فيبعثون الى أقوامهم فقط لقوله صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى أرسلت الى الاحمر والاسود وجعلت لى الارض طيبة مسجدا وطهورا ونصرت على عدوى بالرعب يرعب منى مسيرة شهر وأطعمت الغنيمة دون من قبلى وقيل لى سل تعطه واختبأت شفاعتى لامتى (فان قيل) كان آدم عليه السلام مبعوثا الى جميع أولاده ونوح عليه السلام لما خرج من السفينة كان مبعوثا الى الذين كانوا معه مع ان جميع الناس فى ذلك الزمان ما كانوا الا ذلك القوم (أجيب) بأن ذلك لم يكن لعموم رسالتهما بل للحصر المذكور فليس ذلك من باب عموم الرسالة وقوله (جميعا) حال من اليكم أى ان الكل يشترط عليهم الايمان بى والاتباع لى وقد طار الخبر بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم الى كل أفق وتغلغل فى كل نفق ولم يبق الله أهل مدر ولا وبر ولا سهل ولا جبل ولا بحر ولا بر فى مشارق الارض ومغاربها الا وقد ألقاه اليهم وملأ به مسامعهم وألزمهم به الحجة وهو سائله عنهم يوم القيامة وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه حين رفع اليه الذراع فنهش منها فقال أنا سيد الناس يوم القيامة وعن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أول الناس خروجا اذا بعثوا وأنا قائدهم اذا وفدوا وأنا خطيبهم اذا أنصتوا وأنا مستشفعهم اذا حبسوا وأنا مبشرهم اذا يئسوا لواء الحمد يومئذ بيدى وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر وعن أبى بن كعب رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا كان يوم القيامة كنت امام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أكرم الاولين والآخرين ولا فخر وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدى لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وما من نبى يومئذ آدم فمن سواه الا تحت لوائى والفخر ادعاء العظمة والكبر والشرف أى لا أقول تبجحا ولكن شكرا وتحدثا بالنعمة وما اجتمع بهم فى مجمع الا كان امامهم قبل موته وبعده اجتمع بهم ليلة الاسراء فى بيت المقدس فصلى بهم اماما ثم اجتمع بهم فى السماء فصلى بجميع أهل السماء اماما وأما يوم

الجمع الاكبر والكرب الاعظم فيصيل الكل عليه وما سال بعض الاكابر على بعض الاعلام منهم بأن الختام يكون به ليكون أظهر للاعتراف بامامته والانقياد لطاعته لان الحيل على الحيل على الشئ محيل على ذلك والحاصل انه صلى الله عليه وسلم تظهر فى ذلك الموقف رسالته بالفعل الى كافة الخلق فيظهر سر هذه الآية الذين يتبعون الرسول قال البقاعى ولما دل بالاضافة الى اسم الذات مايدل على جميع الصفات على عموم دعوته وشمول رسالته حتى للجن والملائكة أيد ذلك بقوله (الذى له ملك السموات والارض) فيكون محله جرا على الوصف وان حيل بين الصفة والموصوف بقوله اليكم جميعا لانه متعلق المضاف اليه فهو كالمتقدم عليه قال الزمخشرى والاحسن أن يكون محله نصبا باضمار اعنى وهذا الذى يسمى النصب على المدح قال البيضاوى أو مبتدا خبره (لا اله الا هو) أى فالكل منقادون لامره خاضعون له ثم علل ذلك بقوله (يحيى ويميت) أى له هاتان الصفتان مختصا بهما ومن كان كذلك كان منفردا بما ذكر قال البقاعى واذا راجعت ما يأتى ان شاء الله تعالى فى أول الفرقان مع ما مضى فى أوائل الانعام لم يبق عندك شك فى دخول الملائكة عليهم السلام فى عموم الدعوة اه وقد مرت الاشارة الى ذلك ولما أمر الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يقول للناس انى رسول الله اليكم جميعا أمر الله تعالى جميع خلقه بالايمان به وبرسوله بقوله (فآمنوا بالله ورسوله) وذلك أن الايمان بالله هو الاصل والايمان برسوله فرع عليه فلهذا بدأ بالايمان بالله ثم ثنى بالايمان برسوله ثم وصفه تعالى بقوله (النبى الامى) وتقدم معناهما (الذى يؤمن بالله وكلماته) أى بما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه وقال قتادة المراد بكلماته القرآن وقال مجاهد عيسى بن مريم لانه خلق بقوله كن فكان ولم يكن من نطفة تمنى ولهذا سمى كلمة الله وقيل هو الكلمة التى تكون عنها عيسى وجميع خلقه وهى قوله كن (واتبعوه) أى واقتدوا به أيها الناس فيما يأمركم به وينهاكم عنه (لعلكم تهتدون) أى لكى تهتدوا وترشدوا وجعل تعالى رجاء الاهتداء أثر الايمان والاتباع تنبيها على ان من صدقه ولم يتابعه بالتزام شريعته فهو بعد فى خطيئة الضلالة (ومن قوم موسى) أى من بنى اسرائيل (أمة) أى جماعة (يهدون بالحق) أى يهدون الناس محقين أو بكلمة الحق (وبه) أى بالحق (يعدلون) أى يحكمون والمراد بتلك الامة الثابتون على الايمان القائلون بالحق من أهل زمان موسى عليه السلام اتبع ذكر المرتابين الكافرين من بنى اسرائيل بذكر اضدادهم كما هو عادة القرآن تنبيها على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل مستمر وقيل هم الذين أسلموا من اليهود فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه (واعترض) بأنهم كانوا قليلين فى العدد ولفظ الامة يقتضى الكثرة (وأجيب) بأنهم لما كانوا مخلصين فى الدين جاز اطلاق لفظ الامة عليهم كما فى قوله تعالى ان ابراهيم كان أمة وقيل ان بنى اسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثنى عشر سبطا تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين اخوانهم ففتح الله تعالى لهم نفقا فى الارض فساروا فيه سنة ونصفا حتى خرجوا من وراء الصين وهم

هنالك

هناك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا وذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم ان جبريل ذهب به ليلة الاسراء نحوهم فكلمهم فقال لهم جبريل عليه السلام هل تعرفون من تكلمون قالوا لا قال هذا محمد النبي الامي فآمنوا به وقالوا يا رسول الله ان موسى عليه السلام أوصانا ان من أدرك منكم أحمد فليقرأ مني عليه السلام فرد محمد على موسى صلى الله عليهما وسلم السلام ثم أقرأهم عشر سور من القرآن أنزلت بمكة ولم تكن فريضة نزلت غير الصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت ولا يتظالموا ولا يتحاسدوا ولا يصل اليهم منا أحد ولا الينا منهم أحد قال بعض المحققين هذا القول ضعيف وان كان البغوي صححه لوجوه الاول كونه اقرأهم عشر سور وقد نزل عليه أكثر من ذلك وكان فرض الزكاة بالمدينة فكيف يأمرهم بها قبل فرضها الثاني كون جبريل ذهب اليهم به ليلة الاسراء لم يرد بذلك نقل صحيح ولا رواه أحد من أئمة الحديث الثالث ان أحدا منهم لا يصل الينا ولا يصل اليهم منا أحد فمن الذي أوصل خبرهم الينا فثبت بذلك بطلان هذا القول (فان قيل) ان يأجوج ومأجوج قد وصل خبرهم الينا ولم يصل خبرنا اليهم (أجيب) بالمنع فمن أين يعرف أنه لم يصل خبرنا اليهم ثم قال فالمختار في تفسير هذه الآية انها اما أن تكون قد نزلت في قوم كانوا متمسكين بدين موسى قبل التبديل والتغيير ثم ماتوا وهم على ذلك واما ان تكون قد نزلت فيمن أسلم من اليهود على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه (وقطعناهم) أي فرقنا بني اسرائيل وقوله تعالى (اثنتي عشرة) حال وتأنيثه حملا على الامة (اسباطا) بدل منه ولذلك جمع قبائل والاسباط أولاد الولد وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولدا من ولد يعقوب عليه السلام (أمما) بدل بعد بدل أو نعت لاسباطا أي وقطعناهم أمما لان كل سبط كان أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمه الاخرى لا تكاد تأتلف (وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه) أي حين استسقوه في التيه (ان اضرب بعصاك الحجر فانبجست) اي انفجرت والمعنى واحد وهو الانفتاح بسعة وكثرة يقال بجست الماء فانبجس أي فجرته فانفجر قاله الجوهري وعلى هذا التقرير فلا تباين بين الانبجاس المذكور هنا وبين الانفجار المذكور في سورة البقرة وقال آخرون الانبجاس خروج الماء بقلة والانفجار خروجه بكثرة وطريق الجمع أن الماء ابتدأ بالخروج قليلا ثم صار كثيرا وهذا الفرق مروي عن عمرو بن العلاء (فان قيل) هلا قيل فضرب فانبجست (أجيب) بانه انما حذف ذلك للايماء على أن موسى لم يتوقف في الامتثال وان ضربه لم يكن مؤثرا يتوقف عليه الفعل في ذاته (منه) أي من الحجر (اثنتا عشرة عينا) أي بعدد الاسباط (قد علم كل أناس) أي كل سبط منهم (مشربهم) أي لا يدخل سبط على سبط في مشربهم (وظللنا عليهم الغمام) أي في التيه ليقيهم من حر الشمس (وأنزلنا عليهم المن) الترنجبيل (والسلوى) أي الطير السماني بتخفيف الميم والقصر جعل الله تعالى ذلك طعاما لهم في التيه وقيل المن الخبز والسلوى الادام وقال ابن يحيى السلوى طائر يشبه السماني وخاصيته ان أكل لحمه يلين القلوب القاسية يموت اذا سمع صوت

الرعد كانت الخطاف بقتله البرد فليمه الله تعالى أن يسكن بجزائر البحر التي لا يكون فيها مطر ولا رعد الى انقضاء أوان المطر والرعد فيخرج من الجزائر وينتشر في الارض (كلوا) أي وقلنا لهم كلوا (من طيبات مارزقناكم) مما لم تعالجوه نوع معالجة وقوله تعالى (وماظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فيه حذف ترك ذكره للاستغناء عنه ودلالة الكلام عليه تقديره كلوا من طيبات مارزقناكم فامتنعوا من ذلك وسئموه وقالوا لن نصبر على طعام واحد وسألوه غير ذلك لان المكلف اذا أمر بشئ فتركه وعدل عنه الى غيره يكون عاصيا بفعل ذلك فلهذا قال تعالى وماظلمونا أي بفعل شئ مما قابلوا به الاحسان بالكفران ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بمخالفتهم ما أمروا به وقد سبق تفسير هذه الآية في سورة البقرة (واذ قيل لهم) أي واذكر يا محمد لقومك اذ قيل لبني اسرائيل (اسكنوا هذه القرية) أي بيت المقدس (وكلوا منها) أي من القرية (حيث شئتم وقولوا) أمرنا (حطة وادخلوا الباب) أي باب القرية (سجدا) أي سجودا انحناء وقوله تعالى (نغفر لكم) قرأه نافع وابن عامر بضم التاء وفتح الفاء على التأنيث والباقون بنون مفتوحة وكسر الفاء وقوله تعالى (خطاياكم) قرأه نافع بكسر الطاء بعدها همزة مفتوحة ممدودة وبعد الهمزة تاء مضمومة على الجمع وابن عامر كذلك الا أنه يقصر الهمزة على التوحيد وأبو عمرو بفتح الخاء والطاء وبعد الطاء ألف بعدها ياء وبعد الياء الف على وزن قضاياكم والباقون بكسر الطاء بعدها همزة مفتوحة ممدودة بعدها تاء مكسورة (سنزيد المحسنين) أي بالطاعة ثوابا (فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم) فقالوا حبة في شعرة ودخلوا يزحفون على أستاههم أي ادبارهم (فأرسلنا عليهم رجزا) أي عذابا (من السماء بما كانوا يظلمون) وهذه القصة أيضا تقدمت في سورة البقرة لكن ألفاظ هذه الآية تخالف الآية المذكورة في سورة البقرة من وجوه الاول انه قال هنالك واذ قلنا ادخلوا هذه القرية وهنا قال واذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية والثاني انه قال هنالك فكلوا بالفاء وقال هنا وكلوا بالواو والثالث انه قال هنالك رغدا وأسقطه هنا والرابع انه قال هنالك وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة وقال هنا على التقديم والتأخير والخامس انه قال هنالك نغفر لكم خطاياكم وقال هنا نغفر لكم خطيئاتكم والسادس انه قال هنالك وسنزيد المحسنين وهنا حذف الواو والسابع انه قال هنالك فانزلنا على الذين ظلموا وقال هنا فارسلنا عليهم الثامن انه قال هنالك بما كانوا يفسقون وقال هنا بما كانوا يظلمون ولا منافاة بين هذه الالفاظ المختلفة اما الاول وهو أنه قال هنالك ادخلوا هذه القرية وقال هنا اسكنوا فلا منافاة بينهما لان كل ساكن في موضع فلا بد من الدخول فيه وأما الثاني وهو قوله هنالك فكلوا بالفاء وقال هنا وكلوا بالواو فالفرق بينهما أن للدخول حالة مقتضية للاكل عقب الدخول فحسن دخول الفاء التي هي للتعقيب ولما كانت السكنى حالة استقرار حسن دخول الواو وعقب السكنى فيكون الاكل حاصلا متى شاؤا فظهر الفرق وأما الثالث وهو انه ذكر هنالك رغدا واسقطه هنا فلان الاكل عقب الدخول ألذ وأكمل والاكل مع السكنى والاستقرار ليس كذلك فحسن

دخول

دخول لفظ رغدا هنالك دون هنا وأما الرابع وهو قوله هنالك ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة وقال هنا على التقديم والتأخير فلا منافاة في ذلك لان المقصود من ذلك تعظيم أمر الله تعالى واظهار الخضوع والخشوع له فلم يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير وأما الخامس وهو انه قال هنالك خطايا كم وقال هنا خطيا تكم فهو اشارة الى أن هذه الذنوب سواء كانت قليلة أم كثيرة فهي مغفورة عند الاتيان بهذا الدعاء والتضرع وأما السادس وهو قوله تعالى هنالك وسنزيد بالواو وقال هنا بحذفها فالفائدة في حذف الواو انه تعالى وعد بشيئين بالغفران وبالزيادة للمحسنين من الثواب واسقاط الواو لا يخل بذلك المعنى لانه استئناف مرتب على تقدير قول القائل ماذا حصل بعد الغفران فقيل انه سيزيد المحسنين وأما السابع وهو الفرق بين انزلنا وبين ارسلنا فلان الانزال لا يشعر بالكثرة والارسال يشعر بها فكأنه تعالى بدأ بانزال العذاب القليل ثم جعله كثيرا وهو نظير ما تقدم من الفرق بين انبجست وانفجرت وأما الثامن وهو الفرق بين قوله تعالى يفسقون وبين قوله تعالى يظلمون فلانهم لما ظلموا أنفسهم فيما غيروا وبدلوا فسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله فوصفوا بكونهم ظالمين لاجل انهم ظلموا أنفسهم وبكونهم فاسقين لانهم خرجوا عن طاعة الله فالفائدة في ذكر هذين الوصفين التنبيه على حصول هذين الامرين هذا ملخص كلام الرازي رحمه الله تعالى ثم قال وتمام العلم بذلك عند الله تعالى (واسألهم) أي اسأل يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك سؤال توبيخ وتقريع (عن القرية) أي عن خبرها وما وقع بأهلها الاسؤال استفهام لانه صلى الله عليه وسلم كان قد علم حال هذه القرية بوحي من الله تعالى اليه واخباره اياه بحالهم وانما القصد من هذا السؤال تقرير اعتداء اليهود واقدامهم على الكفر والمعاصي قديما وان اصرارهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وانكارهم نبوته ومعجزاته ليس بشيء قد حدث الآن في زمانه بل اصرارهم على الكفر كان حاصلا في قديم الزمان وفي الاخبار بهذه القصة معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم لانه كان أميا لم يقرأ الكتب القديمة ولم يعرف أخبار الاولين ثم أخبرهم بما جرى لاسلافهم في قديم الزمان وانهم بسبب مخالفتهم لامر الله تعالى مسخوا قردة واختلفوا في هذه القرية فقال ابن عباس رضي الله عنهما هي قرية يقال لها ايلة بين مدين والطور على شاطئ البحر وقال الزهري هي طبرية الشأم وقيل مدين والعرب تسمي المدينة قرية وعن أبي عمرو بن العلاء ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج يعني رجلين من أهل المدن (التي كانت حاضرة البحر) أي مجاورة بحر القلزم على شاطئه والحضور نقيض الغيبة كقوله تعالى ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام (اذ) أي حين (يعدون) أي يعتدون (في السبت) أي يتجاوزون حدود الله تعالى بالصيد فيه وقد نهوا عنه وقوله تعالى (اذ تأتيهم حيتانهم) ظرف ليعدون (يوم سبتهم شرعا) أي ظاهرة على الماء كثيرة جمع شارع وقال الضحاك متتابعة وعن الحسن تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض والحيتان السمك وأكثر ما تستعمل العرب الحوت في معنى السمكة والسبت مصدر سبتت اليهود اذا عظمت سبتها بترك الصيد

والاشتغال بالتعبد فمعناه يعدون فى تعظيم هذا اليوم وكذلك قوله يوم سبتهم معناه يوم تعظيمهم
أمر السبت يدل عليه قوله تعالى (ويوم لا يسبتون) أى لا يعظمون السبت أى سائر الايام
(لا تأتيهم) أى الحيتان ابتلاء من الله تعالى (كذلك) أى مثل ذلك البلاء الشديد (نبلوهم
بما) أى بسبب ما (كانوا يفسقون) وقوله تعالى (واذ) معطوف على اذ قبله (قالت أمة) أى
جماعة (منهم) أى من أهل القرية لم تصد ولم تنه لمن نهى (لم تعظون قوما الله مهلكهم)
فى الدنيا بعذاب من عنده لانهم لا ينتهون عن الفساد ولا يتعظون بالمواعظ (أو معذبهم عذابا
شديدا) فى الآخرة لتماديهم فى العصيان (قالوا) أى الواعظون موعظتنا (معذرة) نعتذر بها
(الى ربكم) أى لئلا ننسب الى تقصير فى ترك النهى فان النهى عن المنكر يجب وان علم الناهى
ان مرتكبه لا يقلع عن معصيته وقيل اذا علم الناهى حال المنهى وان النهى لا يؤثر فيه سقط
النهى وربما وجب الترك لدخوله فى باب العبث ألا ترى انك لو ذهبت الى المكاسين القاعدين
على المآصر والجلادين المرتبين للتعذيب لتعظهم وتكفهم عما هم فيه كان ذلك عبثا منك
ولم يكن الا سببا للتلهى بك (ولعلهم يتقون) أى وجائز عندنا أن ينتفعوا بالموعظة فيتقوا الله
ويتركوا ما هم فيه من الصيد اذ اليأس لا يحصل الا بالهلاك (فلما نسوا) أى تركوا ترك
الناهى (ما ذكروا) أى وعظوا (به) ولم يرجعوا (أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين
ظلموا) أى بالاعتداء ومخالفة أمر الله تعالى (بعذاب بئيس) أى شديد (بما) أى بسبب ما (كانوا
يفسقون) روى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال أسمع الله تعالى يقول أنجينا
الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس فلا أدرى مافعلت الفرقة الساكتة
وجعل يبكى قال عكرمة فقلت جعلنى الله تعالى فداك ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم
عليه قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم وان لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم قال فأعجبه قولى
ورضى به وأمر لى ببردين فالبسنيهما وقال نجت الساكتة وقال عمار بن زيان نجت الطائفتان
الذين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم والذين قالوا معذرة وأهلك الله الذين أخذوا الحيتان
وهذا قول الحسن (فان قيل) ان ترك الوعظ معصية والنهى أيضا عنه معصية فوجب دخول
هؤلاء التاركين للوعظ الناهين عنه تحت قوله تعالى وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ولهذا
قال ابن زيد نجت الناهية وهلكت الفرقتان (أجيب) بأن هذا غير لازم لان النهى عن المنكر
انما يجب على الكفاية فاذا قام به البعض سقط عن الباقين (فلما عتوا عما نهوا عنه) قال ابن
عباس ابوا أن يرجعوا عن المعصية والعتو عبارة عن الاباء والعصيان أى فلما تكبروا
عن ترك ما نهوا عنه وتمردوا فى العصيان من اعتدائهم فى السبت واستحلالهم ما حرم الله تعالى
عليهم من صيد السمك فى يوم السبت وأكله (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أى صاغرين
فكانوا كما كقوله تعالى انما قولنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون وهذا يقتضى ان الله
تعالى عذبهم أولا بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمسخهم ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريرا
وتفصيلا للاولى وروى ان اليهود أمروا باليوم الذى أمرنا به وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا

يوم السبت فابتلوا به وحرّم الله عليهم فيه الصيد وأمروا بتعظيمه فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعا بيضا سمانا كأنها المخاض لا يرى الماء من كثرتها ويوم لا يسبتون لا تأتيهم فكانوا كذلك برهة من الدهر ثم جاءهم ابليس فقال لهم انما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضا تسوقون الحيتان اليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج منها وتأخذونها يوم الاحد وأخذ رجل منهم حوتا وربط في ذنبه خيطا الى خشبة في الساحل ثم شواه يوم الاحد فوجد جاره ريح السمك فتطلع في تنوره فقال انى أرى الله سيعذبك فلما لم يره عذب أخذ في السبت القابل حوتين فلما رأوا ان العذاب لا يعاجلهم صادوا وأكلوا وملحوا وباعوا وكانوا نحوا من سبعين ألفا فصار أهل القرية أثلاثا ثلثا نهوا وكانوا نحوا من اثنى عشر ألفا وثلثا قالوا لم تعظون قوما وثلثا هم أصحاب الخطيئة فلما لم ينتهوا قال المسلمون انا لا نساكنكم فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتدين باب ولعنهم داود عليه السلام فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا ان للناس شأنا فعلوا الجدار فنظروا فاذا هم قردة ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القرود انسباءها من الانس والانس لا يعرفون أنسباءهم من القرود فجعل القرد يأتى نسيبه فيشم ثيابه ويبكى فيقول ألم ننهك فيقول برأسه بلى وقيل صار الشباب قردة والشيوخ خنازير واختلفوا فى ان الذين مسخوا هل بقوا قردة وهل هذه القردة من نسلهم أو هلكوا وانقطع نسلهم لا دلالة فى الآية على شئ من ذلك وعن الحسن أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها أثقلها خزيا فى الدنيا وأطولها عذابا فى الآخرة وعن جابر بين العبد وبين رزقه حجاب فان صبر خرج اليه والا هتك الحجاب ولم ينل الا ما قدر له قال الزمخشرى هاه وايم الله ما حوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم ولكن الله تعالى جعل موعدا والساعة أدهى وأمرّ وقوله تعالى (واذ) عطف على واسألهم أى واذكر لهم حين (تأذن) أى اعلم (ربك) وأجرى مجرى القسم كعلم الله وشهد الله ولذلك أجيب بجوابه وهو (ليبعثن عليهم) أى اليهود (الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) أى بالاهانة والذل وأخذ الجزية منهم فبعث الله تعالى عليهم سليمان وبعده بختنصر فقتلهم وسباهم وضرب عليهم الجزية وكانوا يؤدونها الى المجوس الى أن بعث الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فضربها عليهم ولا تزال مضروبة عليهم الى آخر الدهر حتى ينزل عيسى بن مريم فانه لا يقبل الجزية ولا يقبل الا الاسلام (فان قيل) انه يحكم بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وشريعته أخذ الجزية أو الاسلام (أجيب) بأن شريعته بذلك مغياة بنزول عيسى عليه السلام وقوله تعالى (ان ربك سريع العقاب) أى لمن أقام على الكفر كهيئة الدليل على انه يجمع لهم مع ذل الدنيا عذاب الآخرة فيكون العذاب مستمرا عليهم فى الدنيا والآخرة ثم انه تعالى ختم الآية بقوله (وانه لغفور) أى لمن آمن منهم ورجع عن الكفر واليهودية ودخل فى دين الاسلام (رحيم) بهم (وقطعناهم) أى فرقناهم (فى الارض أمما) أى فرقا بحيث لا يكاد يخلو قطر منهم تتمة لادبارهم حتى لا تكون لهم شوكة قط وأمما مفعول ثان أو حال وقوله تعالى (منهم الصالحون) صفة أو بدل منه وهم الذين آمنوا

بالمدينة ونظرائهم (ومنهم) أى اناس (دون ذلك) أى منحطون عن الصلاح فهم كفرتهم وفسقتهم (وبلوناهم) أى اختبرناهم جميعا الصالح وغيره (بالحسنات) أى بالخصب والعافية (والسيآت) أى بالجدب والشدة (لعلهم يرجعون) أى كى يرجعوا الى طاعة ربهم ويتوبوا اليه قال أهل المعانى وكل واحد من الحسنات والسيآت تدعو الى الطاعة اما النعم فلاجل الترغيب وأما النقم فلاجل الترهيب (فخلف من بعدهم) أى هؤلاء الذين وصفناهم (خلف) والخلف القرن الذى يجىء من بعد وهو بسكون اللام شائع فى الشر وبفتحها فى الخير يقال خلف صدق بفتح اللام وخلف سوء بسكونها وقد تحرك فى الذم وتسكن فى المدح قال حسان بن ثابت

لنا القدم الأولى اليك وخلفنا ... لاولنا فى طاعة الله تابع

وقال لبيد فى الذم

ذهب الذين يعاش فى اكنافهم ... وبقيت فى خلف كجلد الاجرب

فحرك اللام والخلف مصدر نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع والمراد به الذين كانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (ورثوا الكتاب) أى التوراة من اسلافهم يقرؤنها ويقفون على ما فيها (يأخذون عرض هذا الادنى) أى هذا الشئ الفانى الادنى أى الدنيا وما يتمتع به فيها وفى قوله هذا الادنى تخسيس وتحقير والادنى اما من الدنو بمعنى القرب لانه عاجل قريب واما من دون الحال وسقوطها وقلتها والعرض بالفتح جميع متاع الدنيا كما يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر والعرض بسكون الراء جميع المال سوى الدراهم والدنانير وجمعه عروض والمعنى انهم يأخذون حطام الدنيا وهو الشئ التافه الخسيس الحقير لان الدنيا بأسرها فانية حقيرة والراغب فيها أحقر منها فالبهود ورثوا التوراة وعلموا ما فيها وضيعوا العمل بما فيها وتركوه وأخذوا الرشا فى الاحكام ويعلمون أنه حرام (و) مع اقدامهم على هذا الذنب العظيم واصرارهم عليه (يقولون سيغفر لنا) أى لا يؤاخذهم الله تعالى بذلك فيتمنون على الله الامانى الباطلة وعن شداد بن أوس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى لان اليهود كانوا يقومون على الذنوب ويقولون سيغفر لنا وهذا هو التمنى بعينه وقوله تعالى (وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) الواو فيه للحال أى يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون الى مثل فعلهم غير تائبين وليس فى التوراة وعد المغفرة مع الاصرار وقوله تعالى (ألم يؤخذ) استفهام تقرير (عليهم ميثاق الكتاب) أى التوراة والاضافة بمعنى فى (ان لا يقولوا على الله الا الحق) أى المعلوم شأنه وليس من المعلوم اثبات المغفرة على القطع بغير توبة بل ذلك خروج عن ميثاق الكتاب وقوله تعالى (ودرسوا ما فيه) أى ما فى ذلك الميثاق الذى فى الكتاب أو الكتاب بتقرير القراءة للحفظ عطف على ألم يؤخذ من حيث المعنى فانه تقرير او على ورثوا وألم يؤخذ اعتراض (والدار الآخرة خير) أى وما فى الدار الآخرة مما اعده الله خير (للذين يتقون) الله ويخافون

عقابه (أفلا يعقلون) أن حين أخذوا ما يشقيهم ويفنى بدل ما يسعدهم ويبقى أن الدار الآخرة خير وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب ويكون المراد الاعلام بتناهي الغضب والباقون بالياء على الغيبة (والذين يمسكون بالكتاب) يقال مسكت بالشئ وتمسكت به وأمسكت به والتمسك بالكتاب العمل بما فيه واحلال حلاله وتحريم حرامه واقامة حدوده والتمسك بأحكامه وقرأ شعبة بسكون الميم وتخفيف السين والباقون بفتح الميم وتشديد السين (وأقاموا الصلاة) أي وداوموا على اقامتها في مواقيتها وانما أفردها بالذكر وان كانت الصلاة داخلة في التمسك بالكتاب تنبيها على عظم قدرها وانها من أعظم العبادات بعد الايمان بالله تعالى وهذه الآية نزلت في الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه وقوله تعالى (انا لا نضيع أجر المصلحين) الجملة خبر الذين وفيه وضع الظاهر موضع المضمر أي أجرهم (واذ) أي اذكر يا محمد اذ (نتقنا) أي رفعنا (الجبل فوقهم) أي من أصله (كأنه ظلة) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كأنه سقيفة والظلة كل ما أظلك من سقف بيت أو سحابة أو جناح حائط والجمع ظلل وظلال (وظنوا) أي ايقنوا (أنه واقع بهم) أي ساقط عليهم بوعد الله بوقوعه ان لم يقبلوا أحكام التوراة روى أنهم لم يقبلوا أحكام التوراة لعظمها وثقلها فرفع الله تعالى الطور على رؤسهم مقدار عسكرهم فكان فرسخا في فرسخ وقيل لهم ان قبلتموها بما فيها والا ليقعن عليكم فلما نظروا الى الجبل خر كل واحد منهم ساجدا على حاجبه وهو ينظر بعينه اليمنى خوفا من سقوطه فلذلك لا ترى يهوديا يسجد الا على حاجبه الايسر ويقولون هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة وقوله تعالى (خذوا) هو على اضمار القول أي قلنا لهم خذوا أو قائلين خذوا (ما آتيناكم) أي من الكتاب وقوله تعالى (بقوة) أي بجد وعزم على تحمل مشاقه حال من واو خذوا (واذكروا ما فيه) أي بالعمل به ولا تتركوه كالمنسي (لعلكم تتقون) أي فضائح الاعمال ورذائل الاخلاق (واذ) أي واذكر يا محمد حين (أخذ ربك من بني آدم) وقوله تعالى (من ظهورهم) بدل اشتمال مما قبله باعادة الجار كما قاله السيوطي أو بدل بعض كما قاله البيضاوي (ذرياتهم) أي بأن أخرج بعضهم من صلب بعض نسلا بعد نسل كنحو ما يتوالدون كالذر ونصب لهم دلائل على ربوبيته وركب فيهم عقلا عرفوا به كما جعل للجبال عقولا حين خوطبوا بقوله تعالى يا جبال أوبي معه والطير كما جعل تعالى للبعير عقلا حتى سجد للنبي صلى الله عليه وسلم وكذا الشجرة حين سمعت لامره وانقادت وكذا للنملة حين قالت يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر بألف بعد الياء وكسر التاء على الجمع والباقون بغير ألف وفتح التاء على التوحيد (وأشهدهم على أنفسهم) قال (ألست بربكم قالوا بلى) أنت ربنا وعن مسلم بن يسار الجهني أنه قال ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عنها فقال ان الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح على ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال هؤلاء

الى النار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يارسول الله ففيم العمل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله تعالى آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته الى يوم القيامة وجعل بين عيني كل انسان وبيصا من نور وعرضهم على آدم فقال أي رب من هؤلاء قال ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال يارب من هذا قال داود قال يارب كم جعلت عمره قال ستين سنة قال يارب زده من عمري أربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انقضى عمر آدم الا أربعين سنة جاءه ملك الموت فقال آدم أولم يبق من عمري أربعون سنة قال أولم تعطها ابنك داود فجحد آدم فجحدت ذريته ونسي آدم فأكل من الشجرة فنسيت ذريته وخطئ فخطئت ذريته أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أبصر آدم في ذريته قوما لهم نور فقال يارب من هم فقال الانبياء ورأى واحدا هو أشدهم نورا فقال يارب من هو قال داود قال فكم عمره قال ستون سنة قال آدم هو قليل وكان عمر آدم ألف سنة فقال يارب زده من عمري أربعين سنة فلما تم عمر آدم تسعمائة وستين سنة أتاه ملك الموت ليقبض روحه فقال بقي من أجلي أربعون سنة فقال ألست قد وهبتها من ابنك داود فقال ما كنت لاجعل لاحد من أجلي شيأ فعند ذلك كتب لكل نفس أجلها وعن مقاتل ان الله تعالى مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فخرج منه ذرية بيض كهيئة الذر تتحرك ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فخرج منه ذرية سود كهيئة الذر فقال يا آدم هؤلاء ذريتك ثم قال لهم ألست بربكم قالوا بلى فقال للبيض هؤلاء في الجنة برحمتي وهم أصحاب اليمين وقال للسود هؤلاء في النار ولا أبالي وهم أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة ثم أعادهم جميعا في صلب آدم فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء وقال تعالى فيمن نقض العهد الاول وما وجدنا لاكثرهم من عهد وقال بعض المفسرين ان أهل السعادة أقروا طوعا وقالوا بلى وأهل الشقاوة قالوا بغتة وكرها وذلك معنى قوله تعالى وله أسلم من في السموات والارض طوعا وكرها واختلفوا في موضع الميثاق فقال ابن عباس رضي الله عنهما ببطن نعمان وهو واد الى جنب عرفة وعنه أيضا أنه بدهناء من أرض الهند وهو الموضع الذي أهبط فيه آدم عليه السلام وقال الكلبي بين مكة والطائف (فان قيل) ما معنى قوله تعالى واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم وانما أخرجهم من ظهر آدم (أجيب) بأن الله تعالى أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض على ما يتوالدون فالابناء من الآباء في الترتيب فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لما علم انهم كلهم بنوه وأخرجوا من ظهره فالمخرج من ظهورهم مخرج من ظهره وقوله (شهدنا) أي على أنفسنا بذلك وانما أشهدهم على أنفسهم كراهة (أن يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا) التوحيد (غافلين) أي لعدم الادلة فلذلك أشركنا وقوله تعالى (أو يقولوا) أي

لولم ترسل اليهم الرسل عطف على أن يقولوا وقرأ أبو عمرو بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (إنما أشرك آباؤنا من قبل) أى قبل أن نوجد (وكنا ذرية من بعدهم) أى فلم نعرف لنا من باغ غيرهم فكنا لهم تبعا فشغلنا اتباعهم عن النظر ولم يأتنا رسول منبه فيتسبب عن ذلك انكارهم فى قولهم (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أى من آبائنا قال أبو حيان والمعنى ان الكفرة لولم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءهم رسول مذكر بما تضمن العهد من توحيد الله وعبادته لكانت لهم حجتان احداهما كنا غافلين والاخرى كنا تبعا لاسلافنا فكيف والذنب انما هو لمن طرق لنا وأضلنا انتهى (فان قيل) كيف يكون ذكر الميثاق عليهم حجة فانهم لما أخرجوا من ظهر آدم ركب فيهم العقل وأخذ عليهم الميثاق فلما أعيدوا الى صلبه بطل ما ركب فيهم فتوالدوا ناسين لذلك الميثاق (أجيب) بأن التذكير به على لسان صاحب المعجزة قائم مقام ذكره فى النفوس وبذلك قامت الحجة عليهم يوم القيامة لاخبار الرسل اياهم بذلك الميثاق فى الدنيا فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمتهم الحجة ولا تسقط الحجة بنسيانهم وعدم حفظهم بعد اخبار الصادق صاحب الشرع والمعجزات الباهرات والمقصود من ايراد هذا الكلام هنا الزام اليهود مقتضى الميثاق العام بعدما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية ومنعهم من التقليد وحملهم على النظر والاستدلال كما قال تعالى (وكذلك) أى ومثل ذلك التفصيل البديع الجليل الرفيع (نفصل الآيات) أى كلها لئلا يواقعوا مالا يليق بجنابنا جهلا لعدم الدليل (ولعلهم يرجعون) أى عن التقليد واتباع الباطل (واتل) أى يا محمد (عليهم) أى اليهود (نبأ) أى خبر (الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) أى خرج بكفره كما تخرج الحية من جلدها وهو بلعم بن باعوراء من علماء بنى اسرائيل وقيل من الكنعانيين سئل أن يدعو على موسى وأهدى اليه شئ فدعا فانقلبت عليه واندلع لسانه على صدره (فأتبعه الشيطان) أى لحقه وأدركه وصيره لنفسه تابعا فى معصية الله تعالى فخالف أمر ربه وأطاع الشيطان وهواه (فكان من الغاوين) أى من الضالين الهالكين وقصته على ما ذكره ابن عباس رضى الله عنهما وغيره أن موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض بنى كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعم وكان عنده اسم الله الاعظم فقالوا ان موسى رجل حديد ومعه جند كثير وانه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى اسرائيل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج فادع الله تعالى أن يردهم عنا فقال ويلكم نبى الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله مالا تعلمون وانى ان فعلت هذا ذهبت دنياى وآخرتى فراجعوه وألحوا عليه فقال حتى أوامر ربى وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمر به فى المنام فوامر فى الدعاء عليهم فقيل له فى المنام لا تدع عليهم فقال لقومه انى قد وامرت ربى وانى نهيت ان ادعو عليهم فأهدوا اليه هدية فقبلها وراجعوه فقال حتى أوامر ربى فوامر فلم يؤمر بشئ فقال قد وامرت ربى فلم يأمرنى بشئ فقالوا لو كره ربك ان تدعو عليهم لنهاك كما نهاك فى المرة الاولى فلم يزالوا يتضرعون اليه حتى فتنوه فافتتن فركب اتانا له متوجها الى جبل يطلعه على عسكر

بنى اسرائيل يقال له حسبان فلما سار على أتانه غير بعيد ربضت فنزل عنها وضربها فقامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فضربها فأذن الله تعالى لها فى الكلام وانطقها الله وكلمته حجة عليه فقالت ويحك يا بلعم أين تذهب أما ترى الملائكة امامى تردنى عن وجهى ويحك أتذهب الى نبى الله والمؤمنين فتدعو عليهم فلم ينزجر فخلى الله تعالى سبيل الأتان فانطلقت به حتى أشرف على جبل حسبان فجعل يدعو عليهم فلا يدعو بشر الا صرف الله تعالى به لسانه الى قومه ولا يدعو لقومه بخير الا صرف الله تعالى به لسانه الى بنى اسرائيل فقال له قومه يا بلعم أتدرى ماتصنع انما تدعو لهم وتدعو علينا فقال هذا مالا أملكه هذا شئ قد غلب الله عليه فاندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم قد ذهب الآن منى الدنيا والآخرة ولم يبق الا المكر والحيلة فسأمكر لكم واحتال احلوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن الى عسكر بنى اسرائيل يبعنها فيه ومروهن ان لاتمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فانه ان زنا رجل بواحدة كفيتموهم ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين على رجل من عظماء بنى اسرائيل وكان رأس سبط شمعون بن يعقوب فقام الى المرأة وأخذ بيدها حتى أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف على موسى وقال انى لاظنك أن تقول هذه حرام عليك قال أجل هى حرام عليك لاتقربها قال فوالله لا أطيعك ثم دخل بها قبته فوقع عليها فأرسل الله تعالى عليهم الطاعون فى الوقت فهلك منهم سبعون ألفا فى ساعة من النهار * وقيل الآية نزلت فى أمية ابن أبى الصلت كان قد قرأ الكتب وعلم ان الله تعالى يرسل رسولا فى ذلك الزمان ورجا أن يكون هو فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به * وقيل نزلت فى منافقى أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبى صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم * وقيل انها نزلت فى البسوس وهو رجل من بنى اسرائيل وكان قد أعطى ثلاث دعوات مستجابات وكان له امرأة وكان له منها أولاد فقالت له اجعل لى منها دعوة فقال لها لك منها واحدة فما تريدين قالت ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى اسرائيل فدعا الله تعالى فصارت أجمل النساء فى بنى اسرائيل فلما علمت أنه ليس فى بنى اسرائيل أجمل منها رغبت عنه فغضب ودعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهبت فيها دعوتان فجاء بنوها وقالوا ليس لنا على هذا قرار وقد صارت امنا كلبة نباحة وقد عيرنا الناس ادع الله أن يردها الى الحال التى كانت عليها فدعا الله تعالى فعادت كما كانت فذهب فيها الدعوات كلها وقيل غير ذلك ويدل للقول الاول قوله تعالى (ولو شئنا لرفعناه) أى منازل الابرار (بها) أى بسبب تلك الآيات (ولكنه أخلد الى الارض) أى مال الى الدنيا قال البيضاوى أو السفالة قال الجوهرى السفالة بالضم نقيض العلو وبالفتح النذالة (واتبع هواه) أى فى آثار الدنيا واسترضى قومه وأعرض عن مقتضى الآيات وانما علق رفعه بمشيئة الله تعالى ثم استدرك عنه بفعل العبد تنبيها على ان المشيئة سبب لفعله الموجب لرفعه وان عدمه دليل عدمها دلالة انتفاء المسبب على انتفاء سببه وان السبب الحقيقى هو المشيئة وان مانشاهده من هذه الاسباب وسايط معتبرة فى حصول المسبب من حيث ان المشيئة تعلقت به كذلك

وكان مقتضى ظاهر الكلام أن يقول ولكنه أعرض عنها فأوقع موقعه أخلد الى الارض واتبع هواه مبالغة وتنبيها على ما حمله عليه وإن حب الدنيا رأس كل خطيئة وهذه الآية من أشد الآيات على أصحاب العلم وذلك لانه بعد ان خص هذا الرجل بآياته وعلمه الاسم الاعظم وخصه بالدعوات المستجابة لما اتبع الهوى انسلخ من الدين فصار فى درجة الكلب وذلك يدل على ان كل من كانت نعم الله تعالى فى حقه أكثر فاذا أعرض عن متابعة الهدى وأقبل على متابعة الهوى كان بعده عن الله أعظم واليه الاشارة بقوله من ازداد علما ولم يزدد هدى فلم يزدد من الله الا بعدا (فمثله) أى فصفته التى هى مثل فى الخسة (كمثل الكلب) أى كمثله فى أخس أوصافه وهو (ان تحمل عليه) أى بالطرد والزجر (يلهث) أى يدلع لسانه (أو) ان (تتركه يلهث) فهو يلهث دائما سواء حمل عليه بالزجر والطرد أو ترك وليس غيره من الحيوان كذلك قيل كل شئ يلهث انما يلهث من اعياء أو عطش الا الكلب فانه يلهث فى حال الكلال والراحة لان اللهث طبيعة أصلية فيه فكذلك حال من كذب بآيات الله ان وعظته فهو ضال وان تركته فهو ضال وكذلك حال الحريص على الدنيا ان وعظته فهو حريص لا يقبل الوعظ ولا ينجع فيه وان تركته ولم تعظه فهو حريص أيضا لان الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما أن اللهث طبيعة لازمة للكلب وعن ابن عباس رضى الله عنهما الكلب منقطع الفؤاد يلهث ان حمل عليه أو لم يحمل عليه ومحل الجملة الشرطية النصب على الحال كأنه قيل كمثل الكلب ذليلا دائم الذلة لاهثا فى الحالتين وقيل لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فوقع على صدره وجعل يلهث كما يلهث الكلب (ذلك) أى المثل (مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) فعم بهذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها ووجه التمثيل بينهم وبين الكلب اللاهث انهم اذا جاءتهم الرسل ليرشدوهم لم يهتدوا بل هم فى ضلال على كل حال (فاقصص القصص) أى فاخبر يا محمد قومك بهذه الاخبار التى سبقت بها مواقع الوقائع وآثار الاعيان حتى لم تدع فى شئ منها لبسا على كل من يسمع لك من اليهود وغيرهم (لعلهم يتفكرون) أى يتدبرون فيها فيؤمنون (ساء) أى بئس (مثلا القوم) أى مثل القوم (الذين كذبوا بآياتنا) أى بعد قيام الحجة عليها وعلمهم بها (وأنفسهم كانوا يظلمون) أى كان ذلك فى طبعهم جبلة لهم لا يقدر غير الله تعالى على تغييره وتقديم المفعول به للاختصاص كأنه قيل وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعدها الى غيرها وقوله تعالى (من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون) تصريح بأن الهدى والضلال من الله تعالى وأن هداية الله تعالى تختص ببعض دون بعض وانها مستلزمة للاهتداء والافراد فى الاول والجمع فى الثانى باعتبار اللفظ والمعنى تنبيه على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقتهم بخلاف الضالين والاقتصار فى الاخبار عن هدى الله بالمهتدى تعظيم لشأن الاهتداء وتنبيه على انه فى نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه وانه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان له (ولقد ذرأنا) أى خلقنا (لجهنم كثيرا من الجن والانس) أخبر الله تعالى انه خلق كثيرا من الجن والانس للنار وهم الذين

حقت عليهم الكلمة الازلية بالشقاوة ومن خلقه الله تعالى للنار فلا حيلة له فى الخلاص منها روى عن عائشة رضى الله عنها انها قالت دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنازة صبي من الانصار فقلت يارسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال أو غير ذلك ياعائشة ان الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم أخرجه مسلم قال النووى فى شرح مسلم أجمع من يعتد به من علماء المسلمين أن من مات من أطفال المسلمين فهو فى الجنة لانه ليس مكلفا وتوقف فيه من لا يعتد به لهذا الحديث وأجاب العلماء عنه بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعله نهاها عن المسارعة الى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع كما أنكر على سعد بن أبى وقاص قوله اعطه فانى لأراه مؤمنا فقال أو مسلما قال بعضهم ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم قاله قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين فى الجنة فلما علم ذلك أخبر به قال وأما أطفال المشركين ففيهم ثلاثة مذاهب قال الاكثرون هم فى النار تبعا لآبائهم وتوقف طائفة منهم والثالث وهو الصحيح الذى ذهب اليه المحققون انهم من أهل الجنة واستدلوا بأشياء منها حديث ابراهيم الخليل عليه السلام حين رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة وحوله أولاد الناس قالوا يارسول الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين رواه البخارى فى صحيحه ومنها قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ولا يتوجه على المولود التكليف ولا يلزمه قبول قول الرسول حتى يبلغ وهذا متفق عليه وفى الآية دليل وحجة واضحة لمذهب أهل السنة فى ان الله تعالى خالق افعال العباد جميعها خيرها وشرها لانه تعالى بين باللفظ الصريح أنه خلق كثيرا من الجن والانس للنار ولا مزيد على بيان الله تعالى ولان العاقل لا يختار لنفسه دخول النار فلما عمل بما يوجب عليه دخول النار به علم أن له من يضطره الى ذلك العمل الموجب لدخول النار وهو الله تعالى وقالت المعتزلة ان اللام فى قوله لجهنم لام العاقبة واستدلوا لذلك بآيات واشعار فمن الآيات قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وهم ما التقطوه لهذا الغرض ومنها قول موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ومن الاشعار قول بعضهم

وللموت تغذو الوالدات سخالها * كما لخراب الدهر تبنى المساكن

وقال آخر أموالنا لذوى الميراث نجمعها * ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال آخر له ملك ينادى كل يوم * لدوا للموت وابنوا للخراب

وقال آخر وأم سماك فلا تجزعى * فللموت ما تلد الوالدات

وهذا مردود لان المصير الى التأويل انما يحسن اذا ثبت الدليل العقلى على امتناع حمل اللفظ على ظاهره فاذا لم يثبت كان المصير الى التأويل فى هذا المقام عبثا فالحق مذهب أهل الحق جعلنا الله تعالى وأهل مودتنا منهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وآله ثم وصف الله تعالى هؤلاء الذين أضلهم بقوله تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها) أى لا يبصرون بها طريق الحق والهدى (ولهم آذان لا يسمعون بها) أى الآيات والمواعظ سماع تأمل وتذكر

وقال

وقال اهل المعانى ان الكفار لهم قلوب يفقهون بها مصالحهم المتعلقة بالدنيا ولهم أعين يبصرون بها المرئيات وآذان يسمعون بها الكلمات وهذا لا شك فيه ولما وصفهم الله تعالى بأنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون مع وجود هذه الحواس الدراكة علم أن المراد من ذلك يرجع الى مصالح الدين وما فيه نفعهم فى الآخرة والعرب تقول مثل ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له ومنه قوله الشاعر

وعوراء الكلام صممت عنها * وانى ان أشاء بها سميع

فانه أثبت له صمما مع وجود السمع ولما سلب عنهم هذه المعانى كانت النتيجة (أولئك) اى البعداء من المعانى الانسانية (كالانعام) فى انهم لا تفهم ولا تعقل ذلك لان الانسان وسائر الحيوانات مشتركة فى هذه الحواس الثلاث التى هى القلب والبصر والسمع وانما فضل الانسان على سائر الحيوانات بالعقل والادراك والفهم المؤدى الى معرفة الحق من الباطل والخير من الشر فاذا كان الكافر لا يعرف ذلك ولا يدركه كان لا فرق بينه وبين البهائم التى لا تدرك شيأ ولما كانوا قد زادوا على ذلك بفقد نفع هذه الحواس قال تعالى (بل هم أضل) سبيلا من الانعام لان الانعام تعرف ما يضرها وما ينفعها فاذا رأت نارا مثلا لا تقع فيها واذا رأت كلأ مثلا دخلت فيه والكافر لا يعرف ذلك ولان الحيوان لا قدرة له على تحصيل هذه الفضائل والانسان أعطى القدرة على تحصيلها ومن أعرض عن اكتساب الفضائل العظيمة مع القدرة على تحصيلها كان أخس حالا ممن لم يكتسبها مع العجز عنها ولان الانعام مطيعة لله تعالى والكافر غير مطيع ولان الانعام تعرف ربها وتذكره وهم لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولانها تضل اذا لم يكن معها مرشد فأما اذا كان معها مرشد فقل أن تضل وهؤلاء الكفار قد جاءهم الانبياء وأنزل عليهم الكتب وهم يزدادون فى الضلالة ثم انه تعالى ختم الآية بقوله (أولئك هم الغافلون) قال عطاء عما أعد الله تعالى لاوليائه من الثواب ولاعدائه من العقاب (ولله الاسماء الحسنى) ذكر ذلك فى أربع سور أولها هذه السورة وثانيها فى آخر سورة بنى اسرائيل فى قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى وثالثها فى أول طه وهو قوله تعالى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى ورابعها فى آخر الحشر فى قوله تعالى هو الله الخالق البارئ المصور له الاسماء الحسنى والحسنى مؤنث الاحسن كالكبرى والصغرى (فادعوه بها) أى فسموه بتلك الصفات وللدعاء شروط منها أن يعرف الداعى معانى الاسماء التى يدعو بها ومنها أن يستحضر فى قلبه عظمة المدعو سبحانه وتعالى ومنها أن يخلص اليه فى دعائه وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان لله تسعة وتسعين اسما مائة الا واحدا من أحصاها دخل الجنة انه وتر يحب الوتر وكان صلى الله عليه وسلم يقول يا الله يا رحمن فقال المشركون ان محمدا وأصحابه يزعمون انهم يعبدون ربا واحدا فما بال هذا يدعو اثنين فأنزل الله تعالى هذه الآية والاسماء الحسنى كما فى الحديث الله الذى لا اله الا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق

البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الاحد الفرد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الاول الآخر الظاهر الباطن الوال المتعال البر التواب المنتقم العفو الرؤف مالك الملك ذوالجلال والاكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور رواه الترمذي قال النووي اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لاسمائه تعالى وليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين وقوله من أحصاها دخل الجنة المراد الاخبار عن دخول الجنة باحصائها لا الاخبار بحصر الاسماء ولهذا جاء في حديث آخر أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك وقد ذكر الحافظ أبو بكر ابن العربي المالكي عن بعضهم ان لله تعالى ألف اسم قال ابن العربي وهذا قليل وقوله صلى الله عليه وسلم من أحصاها دخل الجنة قال البخاري من حفظها وهو قول أكثر المحققين وتعضده الرواية الاخرى من حفظها دخل الجنة وقيل من أحضر بباله عند ذكرها معناها وتفكر في مدلولها وقوله صلى الله عليه وسلم ان الله وتر يحب الوتر الوتر الفرد ومعناه في وصف الله تعالى الواحد الذي لاشريك له ولا نظير واختلفوا اهل الاسم الاعظم الله أو الحي القيوم وهل الاسم عين المسمى أو غيره وفي ذلك خلاف وقد حققت ذلك في مقدمتي على البسملة والحمدلة (وذروا) أي اتركوا (الذين يلحدون) أي يميلون عن الحق (في أسمائه) أي حيث اشتقوا منها أسماء لآلهتهم كاللات من الله والعزى من العزيز ومنات من المنان وقال أهل المعاني الالحاد في أسمائه تعالى هو أن تسميه بما لم يسم الله به نفسه ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة لان أسماءه تعالى كلها توقيفية فيجوز أن يقال يا جواد ولا يجوز أن يقال يا سخي ويجوز أن يقال يا عالم ولا يجوز أن يقال يا عاقل ويجوز أن يقال يا حكيم ولا يجوز أن يقال يا طبيب (سيجزون) أي في الدنيا والآخرة (ما كانوا يعملون) وفي هذا وعيد شديد لمن الحد في أسمائه تعالى وهذا قبل الامر بالقتال وقرأ حمزة يلحدون بفتح الياء والحاء من لحد والباقون بضم الياء وكسر الحاء من ألحد ولما ذكر سبحانه وتعالى انه خلق للنار طائفة ضالين مضلين ملحدين عن الحق ذكر أنه خلق للجنة أمة هادين في الحق عادلين في الامر بقوله تعالى (وممن خلقنا أمة) أي جماعة (يهدون بالحق وبه) أي بالحق خاصة (يعدلون) أي يجعلون الامور متعادلة لا زيادة في شئ منها على ما ينبغي ولا نقص لانا وفقناهم فكشفنا عن أبصارهم حجاب الغفلة التي ألزمناها أولئك واستدل بذلك على صحة الاجماع لان المراد منه ان في كل قرن طائفة بهذه الصفة وأكثر المفسرين انهم أمة محمد صلى الله عليه

وسلم

وسلم لقوله صلى الله عليه وسلم لا تزال من أمتي طائفة على الحق الى أن يأتي أمر الله رواه الشيخان وعن معاوية رضي الله تعالى عنه قال وهو يخطب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك اذ لو اختص بعهد الرسول أو غيره لم يكن لذكره فائدة فانه معلوم وعن الكلبي هم الذين آمنوا من أهل الكتاب وقيل هم العلماء والدعاة الى الدين (والذين كذبوا بآياتنا) أي القرآن أو غيره من أهل مكة أو غيرهم (سنستدرجهم) أي سنستدنيهم الى الهلاك قليلا قليلا وأصل الاستدراج الاستبعاد والاستنزال درجة بعد درجة (من حيث لا يعلمون) أي سنأخذهم قليلا قليلا من حيث لا يحتسبون وذلك ان الله تعالى يفتح عليهم من النعم ما يغبطون به ويركنون اليه ثم يأخذهم على غرة أغفل ما يكونون وقيل سنقربهم الى ما يهلكهم ونضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم لانهم كانوا اذا أتوا بذنب فتح الله تعالى عليهم من أبواب الخير والنعمة في الدنيا فيزدادوا بذلك تماديا في الغي والضلالة ويتدرجوا في الذنوب والمعاصي بسبب ترادف النعم يظنون ان تواتر النعم يقرب من الله تعالى وانما هي خذلان منه وتبعيد فهو استدراج الله تعالى فيأخذهم الله تعالى أخذة واحدة اغفل ما يكونون عليه وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حمل اليه كنوز كسرى قال اللهم اني أعوذ بك أن أكون مستدرجا فاني سمعتك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون (وأملي لهم) أي أمهلهم وأطيل مدة أعمارهم ليتمادوا في الكفر والمعاصي ولا أعاجلهم بالعقوبة ولا أفتح لهم باب التوبة (ان كيدي) أي أخذي (متين) أي شديد وانما سماه كيدا لان ظاهره احسان و باطنه خذلان (أولم يتفكروا) فيعلموا (ما بصاحبهم) محمد صلى الله عليه وسلم (من جنة) أي جنون روي أنه صلى الله عليه وسلم صعد على الصفا فدعاهم فخذا فخذا يا بني فلان يا بني فلان يحذرهم بأس الله تعالى فقال قائلهم ان صاحبكم لمجنون بات يهوت الى الصباح فنزلت ومعنى يهوت يصوت يقال هيت به وهوت به أي صاح قاله الجوهري وانما نسبوه الى الجنون وهو بريء منه لانه صلى الله عليه وسلم خالفهم في الاقوال والافعال لانه كان معرضا عن الدنيا ولذاتها مقبلا على الآخرة ونعيمها مشتغلا بالدعاء الى الله تعالى وانذارهم بأسه ونقمته ليلا ونهارا من غير ملال ولا ضجر فعند ذلك نسبوه الى الجنون فبرأه الله تعالى من الجنون بقوله تعالى (ان) أي ما (هو الا نذير مبين) أي بين الانذار بحيث لا يخفى على ناظر (أولم ينظروا) أي نظر اعتبار واستدلال (في ملكوت السموات والارض) أي ملكهما البالغ (وما) أي وفيما (خلق الله من شيء) أي غيرهما مما يقع عليه الشيء من الاجناس التي لا يمكن حصرها ليدل لهم على كمال قدرة صانعها ووحدة مبدعها وعظم شأن مالكها ومتولي أمرها ليظهر لهم صحة ما يدعوهم اليه وقوله تعالى (وأن عسى أن يكون قد اقترب) أي دنا (أجلهم) عطف على ملكوت وان مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وكذا اسم يكون ولا يصح أن تكون أن مصدرية خلافا للبيضاوي قال التفتازاني لان المصدرية لا تدخل الافعال غير المتصرفة التي لا مصادر لها والمعنى أولم

ينظروا فى اقتراب آجالهم وتوقع حلولها فيبادروا الى طلب الحق والتوجه الى ماينجيهم قبل مفاجأة الموت ونزول العذاب فلعل أجلهم قد اقترب فيموتوا على الكفر قبل أن يؤمنوا فيصيروا الى النار فيجب على العاقل المبادرة الى التفكر والاعتبار والنظر المؤدى الى الفوز والنعيم الدائم (فبأى حديث) أى كتاب (بعده) أى الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم (يؤمنون) أى يصدقون وليس بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبى ولا بعد كتابه كتاب لانه خاتم الانبياء وكتابه خاتم الكتب لانقطاع الوحى بعده صلى الله عليه وسلم (فان قيل) قوله تعالى فبأى حديث بعده يؤمنون يدل على أن القرآن حادث كما تمسك به بعض المعتزلة (أجيب) من جهة أهل السنة بأن ذلك محمول على الالفاظ من الكلمات ولانزاع فى حدوثها * ثم ذكر تعالى علة اعراضهم عن الايمان بقوله تعالى (من يضلل الله فلا هادى له) بوجه من الوجوه اى ان اعراض هؤلاء عن الايمان لاضلال الله اياهم ولو هداهم لآمنوا (ويذرهم) أى يتركهم (فى طغيانهم) أى ضلالهم وتماديهم فى الكفر (يعمهون) أى يترددون متحيرين لايهتدون سبيلا وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر ونذرهم بالنون والباقون بالياء وجزم حمزة والكسائى الراء قال سيبويه انه عطف على محل الفاء ومابعدها من قوله تعالى فلا هادى له لان موضع الفاء ومابعدها جزم لجواب الشرط ورفعها الباقون استئنافا وهو مقطوع عما قبله * ولما بين تعالى التوحيد والنبوة والقضاء والقدر أتبعه المعاد لتكمل المطالب الاربعة التى هى أمهات مطالب القرآن مبينا ما اشتمل عليه عامة الكلام من تبلدهم فى العمه وتلددهم فى أشراك الشبه بقوله تعالى (يسئلونك) يامحمد سؤال استهزاء (عن الساعة) أى عن وقتها واختلفوا فى ذلك السائل فقال ابن عباس ان قوما من اليهود قالوا يامحمد أخبرنا متى تقوم الساعة ان كنت نبيا كما تقول فانا نعلم متى هى فنزلت هذه الآية وقال الحسن وقتادة ان قريشا قالوا يامحمد بيننا وبينك قرابة فاذكر لنا متى الساعة والساعة من الاسماء الغالبة كالنجم للثريا وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة أو لان حساب الخلق يقضى فيها فى ساعة واحدة فسميت بالساعة لهذا السبب أو لانها على طولها عند الله تعالى كساعة واحدة وقوله تعالى (أيان) سؤال استفهام عن الوقت الذى تقوم فيه الساعة ومعناه متى (مرساها) قال ابن عباس منتهاها والمرسى هنا مصدر بمعنى الارساء كقوله تعالى بسم الله مجراها ومرساها أى اجراؤها وارساؤها والارساء الاثبات يقال رسا يرسو اذا ثبت قال الله تعالى والجبال أرساها (قل) لهم يامحمد (انما علمها) أى متى تكون (عند ربى) أى لايعلم الوقت الذى تقوم فيه الساعة الا الله تعالى استأثر الله تعالى بعلمها فلم يطلع عليه أحدا من خلقه ولهذا لما سأل جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال متى الساعة فقال عليه الصلاة والسلام ما المسؤل عنها بأعلم من السائل قال المحققون والسبب فى اخفاء الساعة عن العباد أنهم اذا لم يعلموا متى تكون كانوا على حذر منها فيكون ذلك أدعى الى الطاعة وأزجر عن المعصية ثم انه تعالى أكد هذا المعنى فقال (لايجليها) أى يظهرها (لوقتها) أى فى وقتها المعين فاللام بمعنى فى وهو أولى من قول البيضاوى انها للتأقيت (الاهو)

أى لا يقدر على اظهار وقتها المعين بالاعلام والاخبار الا هو (ثقلت) أى عظمت (فى السموات والارض) أى ثقل أمرها وخفى علمها على أهل السموات والارض وكل شئ خفى فهو ثقيل شديد وقال الحسن اذا جاءت ثقلت وعظمت على أهل السموات والارض وانما ثقلت عليهم لان فيها فناءهم وموتهم وذلك ثقيل على القلوب وقوله تعالى (لا تأتيكم الا بغتة) تأكيد أيضا لما تقدم وتقرير لكونها بحيث لا تجيء الا فجأة على حين غفلة من الخلق وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة والرجل قد رفع الاكلة الى فيه فلا يطعمها ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه اللقحة بفتح اللام وكسرها الناقة القريبة العهد بالنتاج وقوله يليط حوضه ويروى يلوط حوضه أى يطينه ويصلحه يقال لاط حوطه يليطه ويلوطه اذا طينه والاكلة بضم الهمزة اللقمة وفى رواية ان الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقوم بسلعته فى سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه رواه بمعناه الشيخان (يسألونك) أى يسألك قومك عن الساعة (كأنك حفى عنها) أى عالم بها من قولهم أحفيت فى المسئلة اذا بالغت فى السؤال عنها حتى علمتها وقيل الحفى البار اللطيف ومنه قوله سبحانه وتعالى انه كان بى حفيا أى بارا لطيفا مجيب دعائى اذا دعوته أى يسألونك كأنك بار بهم لطيف العشرة معهم وهذا قول الحسن ويؤيده ماروى فى تفسيره أن قريشا قالت لمحمد صلى الله عليه وسلم ان بيننا وبينك قرابة فاذكر لنا متى الساعة والمعنى يسألونك عنها كأنك حفى تتحفى بهم أى فتخصهم لاجل قرابتك بتعليم وقتها وتزوى علمها عن غيرهم ولو أخبرت بوقتها لمصلحة علمها الله تعالى فى اخبارك به لكنت مبلغه القريب والغريب من غير تخصيص كسائر ما أوحى اليك وقيل كأنك حفى بالسؤال عنها تحبه وتؤثره أى انك تكره السؤال عنها لانه من علم الغيب الذى استأثر الله تعالى بعلمه ولم يؤته أحدا من خلقه كقوله تعالى (قل) يا محمد (انما علمها عند الله) أى استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلم متى الساعة الا هو (فان قيل) قوله تعالى يسئلونك عن الساعة أيان مرساها وقوله تعالى ثانيا يسألونك كأنك حفى عنها فيه تكرار (أجيب) بأنه لا تكرار ولان السؤال الاول عن وقت قيام الساعة والثانى عن كنه ثقل الساعة وشدتها ومهابتها فلا يلزم التكرار وقيل ذكر الثانى للتأكيد ولما جاء به من زيادة قوله كأنك حفى عنها وعلى هذا تكرار العلماء الحذاق فى كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة ومنهم محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة رحمهما الله تعالى (فان قيل) لم أجاب عن الاول بقوله انما علمها عند ربى وعن الثانى بقوله انما علمها عند الله (أجيب) بأن السؤال الاول لما كان واقعا عن وقت قيام الساعة والثانى كان واقعا عن مقدار شدتها ومهابتها عبر عن الجواب فيه بقوله علم ذلك عند الله لانه أعظم أسمائه مهابة وعظمة ثم انه تعالى ختم هذه الآية بقوله (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى لا يعلمون السبب الذى من أجله أخفيت معرفة علم وقت قيامها المغيب عن

الخلق وقيل لايعلمون ان علمها عند الله وانه استأثر بعلم ذلك حتى لايسألوا عنه وروى أن أهل مكة قالوا يا محمد ألا تخبرنا بالسعر الرخيصة قبل أن يغلو فنشتريه ونربح فيه عند الغلاء وبالارض التى تريد أن تجدب فنرحل عنها الى ما قد اخصبت فأنزل الله تعالى (قل) لهم (لا أملك لنفسى نفعا) اجتلاب نفع بأن أربح فيما اشتريه (ولا ضرا) أى ولا أقدر أدفع عن نفسى ضرا نزل بها بأن أرتحل الى الارض الخصبة أو من الارض الجدبة (الا ما شاء الله) من ذلك فيلهمنى اياه ويوفقنى له وقيل انه صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة بنى المصطلق عصفت ريح فى الطريق ففرت الدواب منها فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بموت رفاعة بالمدينة وكان فيه غيظ للمنافقين وقال صلى الله عليه وسلم انظروا أين ناقتى فقال عبد الله بن أبى المنافق مع قومه ألا تعجبون من هذا الرجل يخبر عن موت الرجل بالمدينة ولم يعرف أين ناقته فقال صلى الله عليه وسلم ان ناسا من المنافقين قالوا كيت وكيت وناقتى فى هذا الشعب قد تعلق زمامها بشجرة فوجدوها على ما قال صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية (ولو كنت) أى من ذاتى (أعلم الغيب) أى جنسه (لاستكثرت) أى أوجدت لنفسى كثيرا (من الخير وما مسنى السوء) أى ولو كنت أعلمه لخالفت حالى ما هى عليه من استكثار المنافع ويدخل فيه ما يتصل بالخصب واجتناب المضار حتى لا يمسنى سوء (ان) أى ما (أنا الا نذير) بالنار للكافرين (وبشير) بالجنة (لقوم يؤمنون) أى يصدقون وقيل لقوم يؤمنون متعلق بنذير وبشير لانهم المنتفعون بهما (هو الذى خلقكم) أى ولم تكونوا شيأ (من نفس واحدة) أى خلقها ابتداء من تراب وهى آدم عليه السلام (وجعل منها) أى من جسدها من ضلع من اضلاعها وقيل من جنسها لقوله تعالى وجعل لكم من أنفسكم أزواجا (زوجها) أى حواء قالوا والحكمة فى كونها خلقت منه ان الجنس الى الجنس أميل والجنسية علة الضم (ليسكن اليها) أى ليأنس بها ويطمئن اليها اطمئنان الشئ الى جزئه أو جنسه وانما ذكر الضمير فى يسكن بعد ان أنث فى قوله تعالى من نفس واحدة ذهابا الى معنى النفس ليناسب تذكير الضمير فى قوله تعالى (فلما تغشاها) أى جامعها ولئلا يوهم لو أنثه نسبة السكون الى الانثى والامر بخلافه ازالة لاستيحاشه فكانت نسبة المؤانسة اليه أولى (حملت حملا خفيفا) أى خف عليها ولم تلق منه ما يلقى الحوامل غالبا من الاذى أو هو ولا خفيفا وهو النطفة (فمرت به) أى فعالجت به أعمالها وقامت وقعدت ولم يعقها عن شئ من ذلك لخفته (فلما أثقلت) أى صارت ذا ثقل بكبر الولد فى بطنها (دعوا الله) أى آدم وحواء عليهما السلام (ربهما) مقسمين (لئن آتيتنا صالحا) أى ولدا سويا لا عيب فيه (لنكونن من الشاكرين) أى نحن وأولادنا على نعمتك علينا وذلك انهما جوزا ان يكون غير سوى لقدرة الله تعالى على كل ما يريد لانه الفاعل المختار (فائدة) اتفق القراء على ادغام تاء التأنيث الساكنة فى الدال (فلما آتاهما صالحا) أى جنس الولد الصالح فى تمام الخلق بدنا وقوة وعقلا فكثروا فى الارض وانتشروا فى نواحيها ذكورا واناثا (جعلا) أى النوعان من أولادهما الذكور والاناث لان صالحا صفة للولد وهو الجنس فيشمل الذكر والانثى

والقائل

قوله بالسعر الرخيصة كذا فى جميع النسخ ولعل فيه سقطا فليحرر

والقليل والكثير فكأنه قيل فلما آتاهما أولادا صالحي الخلقة من الذكور والاناث جعل النوعان (له شركاء) أي بعضهم أصناما وبعضهم نارا وبعضهم شمسا وبعضهم غير ذلك وقيل جعل أولادهما له شركاء (فيما آتاهما) أي فيما آتى أولادهما فسموه عبد العزى وعبد مناف على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ويدل عليه قوله تعالى (فتعالى الله عما يشركون أيشركون ما لا يخلق شيأ وهم يخلقون) أي الاصنام (فان قيل) كيف وحد يخلق ثم جمع فقال وهم يخلقون (أجيب) بأن لفظ ما يقع على الواحد والاثنين والجمع فوحد بحسب ظاهر اللفظ وجمع باعتبار المعنى (فان قيل) كيف جمع بالواو والنون لمن لا يعقل وهو جمع من يعقل من الناس (أجيب) بأنه لما اعتقد عابدو الاصنام أنها تعقل وتميز ورد هذا الجمع على ما يعتقدونه وقيل لما حملت حواء أتاها ابليس في صورة رجل فقال لها ما يدريك ما في بطنك ولعله بهيمة أو كلب وما يدريك من أين يخرج فخافت من ذلك وذكرت لآدم فهما منه وهو بضم الهاء وتشديد الميم من الهم وهو هنا الحزن ثم عاد اليها وقال اني من الله بمنزلة فان دعوت الله على أن يجعله خلقا مثلك ويسهل عليك خروجه فسميه عبد الحرث وكان اسم ابليس حارثا في الملائكة ففعلت ولما ولدته سمته عبد الحرث (فان قيل) قد قال البيضاوي وأمثال ذلك لا تليق بالانبياء ويحتمل أن يكون الخطاب في خلقكم لآل قصي من قريش فانهم خلقوا من نفس قصي وكان لها زوج من جنسها عربية قرشية فطلبا من الله تعالى الولد فأعطاهما أربعة بنين فسمياهم عبد شمس وعبد مناف وعبد قصي وعبد الدار ويكون الضمير في يشركون لهما ولأعقابهما المقتدين بهما اه (أجيب) بأنه نظر في ذلك الى الظاهر والا فقد روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لما ولدت حواء طاف بها ابليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحرث فانه يعيش فسمته فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره رواه الحاكم وقال صحيح والترمذي وقال حسن غريب وروي عن ابن عباس أنه قال كانت حواء تلد لآدم فتسميه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت فأتاهما ابليس فقال ان سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحرث فسمياه فعاش وجاء في حديث خدعهما ابليس مرتين مرة في الجنة ومرة في الارض وهو قول كثير كمجاهد وسعيد بن المسيب وهذا كما قال البغوي ليس اشراكا في العبادة ولا أن الحرث ربهما فان آدم كان نبيا معصوما من الشرك ولكن قصد الى أن الحرث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمه وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به انه مملوك كما يطلق اسم الرب على من لا يراد به أنه معبود هذا كالرجل اذا نزل به ضيف يسمي نفسه عبد الضيف على وجه الخضوع لا على وجه ان الضيف يملكه قال الشاعر

واني لعبد الضيف ما دام ثاويا * ولا شيمة لي بعدها تشبه العبدا

وتقول للغير أنا عبدك قال الرازي ورأيت بعض الافاضل كتب على عنوان عبد ودود فلان وقال يوسف عليه السلام لعزيز مصر انه ربي ولم يرد به معبوده كذلك هذا فقوله تعالى فتعالى الله عما يشركون ابتداء كلام وأريد به اشراك أهل مكة وقرأ نافع وشعبة شركا بكسر الشين وسكون الراء وألف منونة بعد الكاف في الوصل وفي الوقف بغير تنوين أي شركة

والباقون بضم الشين وفتح الراء وبعد الكاف ألف بعدها همزة مفتوحة (فان قيل) المطاع ابليس فكيف يعبر بالجمع (أجيب) بأن من أطاع ابليس فقد أطاع جميع الشياطين هذا ان حملت هذه الآية على القصة المشهورة أما اذا لم نقل به فلا حاجة الى التأويل (ولا يستطيعون) أى الاصنام (لهم) أى لعابديهم (نصرا) أى لا تقدر على النصر لمن أطاعها أو عبدها ولا تضر من عصاها والمعبود الذى تجب عبادته يكون قادرا على ايصال النفع والضر وهذه الاصنام ليست كذلك فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها (ولا أنفسهم ينصرون) أى وهى لا تقدر أن تدفع عن نفسها مكروها فان من أراد كسرها قدر عليه وهى لا تقدر على دفعه عنها والاستفهام للتوبيخ * ثم خاطب المؤمنين بقوله تعالى (وان تدعوهم) أى المشركين (الى الهدى) أى الى الاسلام (لا يتبعوكم) أى لان الله تعالى حكم عليهم بالضلالة فلا يقبلوا الهداية وقرأ نافع بسكون التاء وفتح الباء الموحدة والباقون بفتح التاء مشددة وكسر الباء الموحدة (سواء عليكم أدعوتموهم) الى الهدى (أم أنتم صامتون) أى ساكتون عن دعائهم فهم فى كلا الحالتين لا يؤمنون وقيل الضمير فى تدعوهم للاصنام أى ان هذه الاصنام التى يعبدها المشركون معلوم من حالها أنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع من دعاها الى خير وهدى وذلك أن المشركين كانوا اذا وقعوا فى شدة وبلاء تضرعوا الى أصنامهم واذا لم يكن لهم الى الاصنام حاجة سكتوا فقيل لهم لا فرق بين دعائكم الى الاصنام وسكوتكم عنها فانها عاجزة فى كل حال (ان الذين تدعون) أى تعبدون (من دون الله عباد) أى مملوكة (أمثالكم) فهى لا تملك ضرا ولا نفعا (فان قيل) كيف وصفها بأنها عباد مع أنها جماد (أجيب) بأن المشركين لما ادعوا أن الاصنام تضر وتنفع وجب أن يعتقدوا فيها كونها عاقلة فاهمة فوردت هذه الالفاظ على وفق معتقدهم تبكيتا لهم وتوبيخا ولذلك قال (فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين) فى كونها آلهة ولم يقل فادعوهن فليستجبن وقال ان الذين ولم يقل التى وبأن هذا اللفظ انما ورد فى معرض الاستهزاء بالمشركين لانهم لما نحتوها بصورة الاناسى قال لهم ان قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء أمثالكم فلا يستحقون عبادتكم كما انه لا يستحق بعضكم عبادة بعض فلم جعلتم أنفسكم عبيدا وجعلتموها آلهة وأربابا ثم أبطل أن يكونوا عبادا أمثالكم بقوله تعالى (ألهم أرجل يمشون بها أم) أى بل أ (لهم أيد يبطشون بها أم) أى بل أ (لهم أعين يبصرون بها أم) أى بل أ (لهم آذان يسمعون بها) وهذا الاستفهام انكارى أى ليس لهم شئ من ذلك مما هو لكم فكيف تعبدونهم وأنتم حالا منهم اذ لا يليق بالانسان العاقل أن يشتغل بعبادة الاخس الادون الارذل ونظير هذا قول ابراهيم الخليل عليه السلام لابيه لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيأ وقد تعلق بعض الجهال بهذه الآية فى اثبات هذه الاعضاء لله تعالى فقال ان الله تعالى جعل عدم هذه الاعضاء لهذه الاصنام دليلا على عدم الهيتها فلو لم تكن هذه الاعضاء موجودة لله لكان عدمها دليلا على عدم الالهية وذلك باطل فوجب القول باثبات هذه الاعضاء لله تعالى (أجيب) بأن المقصود من هذه الآية بيان أن الانسان أفضل وأحسن حالا من الصنم لان الانسان له رجل

حاشية

ماشية ويد باطشة وعين باصرة وأذن سامعة والصنم رجله غير ماشية ويده غير باطشة وعينه غير مبصرة وأذنه غير سامعة فكان الانسان أفضل وأكمل حالا من الصنم فاشتغال الافضل الاكمل بعبادة الاخس الادون جهل فهذا هو المقصود من ذكر هذا الكلام لاما ذهب اليه وهم هؤلاء الجهال (قل ادعوا) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا (شركاءكم) أى الى هلاكى (ثم كيدون) قال الحسن كانوا يخوفونه صلى الله عليه وسلم بآلهتهم فقال الله تعالى له قل لهم ادعوا شركاءكم ثم كيدون أى ليظهر لكم أنها لاقدرة لها على ايصال المضار الى بوجه وقرأ أبو عمرو باثبات الياء وصلا ووقفا وهشام له فيها وجهان الاثبات والحذف وصلا ووقفا والباقون يحذفونها وصلا ووقفا * ثم تهكم عليهم صلى الله عليه وسلم بقوله (فلا تنظرون) أى فاعجلوا فى كيدى أنتم وشركاؤكم فانكم لاتقدرون على ذلك وعلل عدم قدرتهم على ذلك بقوله (ان وليى الله) الذى يتولى حفظى ونصرى هو الله (الذى نزل الكتاب) المشتمل على هذه العلوم العظيمة النافعة فى الدين وهو القرآن (وهو) أى الله سبحانه (يتولى الصالحين) أى بنصره وحفظه فلا يضرهم عداوة من عاداهم قال ابن عباس يريد بالصالحين الذين لايعدلون بالله شيأ ولا يعصونه فمن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلا عن أنبيائه وفى هذا مدح للصالحين وأن من تولاه الله تعالى بحفظه لايضره شئ وعن عمر بن عبد العزيز أنه ما كان يدخر لاولاده شيأ فقيل له فيه فقال ولدى اما أن يكون من الصالحين أو من المجرمين فان كان من الصالحين فوليه هو الله تعالى ومن كان الله تعالى له وليا فلا حاجة له الى مالى وان كان من المجرمين فقد قال الله تعالى فلن أكون ظهيرا للمجرمين ومن رده الله تعالى لم أكن مشتغلا باصلاحه (والذين تدعون من دونه) أى الله (لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) أى فكيف أبالى بهم (فان قيل) هذه الاشياء قد صارت مذكورة فى الآيات المتقدمة فما الفائدة فى تكريرها (أجيب) بأن الاول مذكور على جهة التقريع وهذا مذكور على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة وبين من لاتجوز كأنه قيل الاله المعبود يجب أن يكون بحيث يتولى الصالحين وهذه الاصنام ليست كذلك فلا تكون صالحة للالهية (وان تدعوهم) أى الاصنام (الى الهدى لايسمعوا) دعاءكم (وتراهم) يا محمد (ينظرون اليك) أى يقابلونك كالناظر (وهم لايبصرون) لانهم صوروا بصورة من ينظر الى من يواجهه وقال الحسن المراد بهذا المشركون ومعناه ان تدعوا أيها المؤمنون المشركين الى الهدى لايسمعوا دعاءكم لان آذانهم قد صمت عن سماع الحق وتراهم ينظرون اليك يا محمد وهم لايبصرون أى ببصائر قلوبهم * ولما بين تعالى أن الله هو الذى يتولاه وان الاصنام وعابديها لايقدرون على الايذاء والاضرار بين ما هو المنهج القويم والصراط المستقيم فى معاملة الناس بقوله تعالى (خذ العفو) أى اقبل الميسور من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس وذلك مثل قبول الاعتذار ويدخل فى ذلك ترك التشديد فى كل ما يتعلق بالحقوق المالية ويدخل فيه أيضا التخلق مع الناس بالخلق الطيب وترك الغلظة والفظاظة قال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك وقال صلى الله عليه وسلم يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا وقال

الشاعر خذى العفو منى تستديمى مودتى * ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب
وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية قال عليه الصلاة والسلام يا جبريل ما هذا قال لا أدرى حتى أسأل ثم رجع فقال ان الله تعالى يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك (وأمر بالعرف) أى بالمعروف قال عطاء بلا اله الا الله (وأعرض عن الجاهلين) أى فلا تقابلهم بالسفه وذلك مثل قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وذلك سلام المتاركة وقال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه ليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الاخلاق من هذه الآية وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ولا سخابا فى الاسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح وعن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله بعثنى بمكارم الاخلاق وتمام محاسن الافعال * قال أبو زيد لما نزل قوله تعالى وأعرض عن الجاهلين قال النبى صلى الله عليه وسلم كيف يارب والغضب فنزل (واما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما الزائدة (ينزغنك من الشيطان نزغ) أى وسوسة وقوله تعالى (فاستعذ) أى فاستجر (بالله) جواب الشرط وجواب الامر محذوف أى يدفعه عنك * (تنبيه) * احتج الطاعنون فى عصمة الانبياء بهذه الآية وقالوا لولا أنه يجوز من النبى الاقدام على المعصية والذنب لم يحتج الى الاستعاذة (وأجيب) عن ذلك بأجوبة الاول ان معنى هذا الكلام ان حصل فى قلبك نزغ فاستعذ بالله كما أنه تعالى قال لئن أشركت ليحبطن عملك ولم يدل ذلك على أنه أشرك الثانى على تقدير أنه لو حصل وسوسة من الشيطان لكن الله تعالى قد عصم قلب نبيه صلى الله عليه وسلم من قبولها وثباتها فى قلبه وانما القادح لو قبل صلى الله عليه وسلم وسوسة والآية لا تدل على ذلك وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ما من انسان الا ومعه شيطان وفى رواية ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا واياك يارسول قال واياى الا أن الله تعالى أعانى عليه فأسلم فلا يأمرنى الا بخير وفى رواية لكنه أسلم بعون الله فلقد أتانى فأخذت بحلقه ولولا دعوة سليمان لاصبح فى المسجد طريحا قال النووى روى بفتح الميم وضمها فمن ضمها معناه فاسلم أنا من شره وفتنته ومن فتحها قال معناه ان القرين أسلم أى صار مسلما فلا يأمرنى الا بخير الثالث أن الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره أى واما ينزغنك أيها الانسان من الشيطان نزغ فاستعذ بالله كقوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله (انه سميع) للقول (عليم) بالفعل وفى الآية دليل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد الا اذا حضر فى القلب العلم بمعنى الاستعاذة فكأنه تعالى قال اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فانى سميع واستحضر معنى الاستعاذة بعقلك وقلبك فانى عليم بما فى ضميرك وفى الحقيقة القول اللسانى بدون المعارف القلبية عديم الفائدة والاثر (ان الذين اتقوا اذا مسهم) أى أصابهم (طيف) أى شئ ألم بهم (من الشيطان تذكروا) عقاب الله وثوابه (فاذا هم مبصرون) الحق من غيره فيرجعون وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بياء ساكنة بعد الطاء والباقون بألف بعد الطاء بعدها همزة

مكسورة

مكسورة (وإخوانهم) أي وإخوان الشياطين من الكفار (يمدونهم) أي يمدهم الشياطين (في الغي) أي يزيدونهم في الضلالة بالتزيين والحمل عليها (ثم لا يقصرون) أي لا يكفون عن الضلالة ولا يتركونها وهذا بخلاف حال المؤمنين المتقين لأن المؤمن إذا أصابه طيف من الشيطان تذكر وعرف ذلك فنزع عنه وتاب واستغفر والكافر مستمر في ضلاله لا يتذكر ولا يرعوي (وإذا لم تأتهم) أي أهل مكة (بآية) أي مما اقترحوها كقولهم لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا (قالوا لولا اجتبيتها) أي هلا تقولتها من عند نفسك كسائر ما تقرؤه فإنهم كانوا يقولون إن هذا الإفك مفترى تقول العرب اجتبيت الكلام اختلقته وافتعلته وأنشأته من عندك وهلا طلبتها من ربك منزلة عليك مقترحة قال الله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين سألوا الآيات (إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي) أي ليس لي أن أقترح على ربي في أمر من الأمور إنما أنتظر الوحي فكل شيء أكرمني به قلته وإلا فالواجب السكوت وترك الاقتراح * ثم بين أن عدم الإتيان بتلك المعجزات التي اقترحوها لا يقدح في الغرض لأن ظهور القرآن على وفق دعواه معجزة بالغة باهرة فإذا ظهرت هذه المعجزة الواحدة كانت كافية في تصحيح النبوة فكان طلب الزيادة من باب التعنت فذكر في وصف القرآن ألفاظا ثلاثة أولها قوله (هذا بصائر من ربكم) أي هذا القرآن فيه حجة وبرهان وأصل البصائر الإبصار وهو ظهور الشيء حتى يبصره الإنسان ولما كان القرآن سبب البصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه لفظ البصيرة فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب وثانيها (وهدى) أي وهو هدى وثالثها (ورحمة) أي وهو رحمة (لقوم يؤمنون) * فإن قيل ما الفرق بين هذه المراتب الثلاث (أجيب) بأنهم متفاوتون في درجات العلوم فمنهم من بلغ الغاية في علم التوحيد حتى صار كالمشاهد وهم أصحاب عين اليقين ومنهم من بلغ درجة الاستدلال والنظر وهم أصحاب علم اليقين ومنهم المسلم المستسلم وهم عامة المؤمنين وهم أصحاب حق اليقين فالقرآن في حق القسم الأول وهم السابقون بصائر وفي حق القسم الثاني وهم المستدلون هدى وفي حق القسم الثالث وهم عامة المؤمنين رحمة (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) أي عن الكلام (لعلكم ترحمون) أي لكي يرحمكم ربكم باتباعكم ما أمرتم به من أوامره واختلفوا في سبب نزول هذه الآية فذهب قوم إلى أنها نزلت في الصلاة كانوا يتكلمون فيها فأمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة بحوائجهم فأمروا بالسكوت والاستماع إلى قراءة القرآن وقال قوم نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام وروى زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة قال نزلت هذه الآية في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة وقال الكلبي كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار وعن ابن مسعود أنه سمع ناسا يقرؤون مع الإمام فلما انصرفوا قال أما آن لكم أن تفقهوا وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله وهذا قول الحسن والزهري إن الآية نزلت في القرآن في الصلاة وقال سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد إن الآية نزلت في الخطبة أمروا بالإنصات لخطبة الإمام يوم الجمعة وقال عمر بن عبد

العزيز الانصات لكل واعظ وقيل معناه واذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له وأنصتوا وقيل معنى فاستمعوا له فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه قال البغوى والاول أولاها وهو أنها فى القراءة فى الصلاة لان الآية مكية والجمعة وجبت بالمدينة قال البيضاوى وظاهر اللفظ يقتضى وجوبهما حيث يقرأ القرآن مطلقا وعامة العلماء على استحبابهما خارج الصلاة واحتج به من لا يرى وجوب القراءة على المأموم وهو ضعيف اه أى مردود بخبر الصحيحين لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وقوله تعالى (واذكر ربك فى نفسك) عام فى الاذكار من القراءة والدعاء وغيرهما والمراد بالذكر فى النفس أن يستحضر فى قلبه عظمة الله تعالى جل جلاله لان الذكر باللسان اذا كان عاريا عن ذكر القلب كان عديم الفائدة لان فائدة الذكر حضور القلب واشعاره عظمة المذكور تعالى قال الرازى سمعت بعض الاكابر من أصحاب القلوب كان اذا أراد أن يأمر واحدا من المريدين بالخلوة والذكر أمره أربعين يوما بالخلوة والتصفية ثم عند استكمال هذه المدة وحصول التصفية الكاملة يقرأ عليه الاسماء التسعة والتسعين ويقول للمريد اعتبر حال قلبك عند سماع هذه الاسماء فكل اسم وجدت قلبك عند سماعه قوى تأثره وعظم تشوقه فاعلم ان الله تعالى انما يفتح أبواب المكاشفات عليك بواسطة المواظبة على ذكر ذلك الاسم بعينه وهذا طريق حسن لطيف فى هذا الباب اه وقيل ذلك أمر للمأموم بالقراءة سرا بعد فراغ الامام من قراءة الفاتحة كما هو مذهب الشافعى رحمه الله تعالى (تضرعا) أى تذللا (وخيفة) أى خوفا منه * (فائدة) * انما قال تعالى واذكر ربك ولم يقل واذكر الهك ولا غيره من الاسماء وانما سماه فى هذا المقام باسم كونه ربا وأضاف نفسه اليه وكل ذلك يدل على نهاية الرحمة والتقريب والفضل والاحسان والمقصود منه أن يصير العبد فرحا مسرورا مبتهجا عند سماع هذا الاسم لان لفظ الرب مشعر بالتربية والفضل وعند سماع هذا الاسم يتذكر العبد أقسام انعام الله تعالى عليه وبالحقيقة لا يصل عقله الى أقل أقسامه كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فعند انكشاف هذا المقام فى القلب يقوى الرجاء فاذا سمع بعد ذلك قوله تضرعا وخيفة عظم الخوف وحينئذ يحصل فى القلب موجبات الرجاء وموجبات الخوف وعنده يكمل الايمان كما قال عليه الصلاة والسلام لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا وهذا جرى عليه بعضهم فى حالة الصحة فيكون الخوف والرجاء مستويان والذى جرى عليه الغزالى وهو التحقيق أنه ان قوى رجاؤه يقوى جانب الخوف والعكس بالعكس وأما حال المرض فيكون جانب الرجاء أرجح وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو فى الموت فقال كيف تجدك قال أرجو الله يا رسول الله وانى أخاف ذنوبى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجتمعان فى قلب مؤمن فى مثل هذا الموطن الا أعطاه الله ما يرجو وامنه مما يخاف (ودون الجهر من القول) أى ومتكلما كلاما فوق السر ودون الجهر أى قصدا بينهما فانه أدخل فى الخشوع والاخلاص (بالغدو) جمع غدوة وقيل انه مصدر (والآصال) جمع أصيل وهو ما بين صلاة العصر الى الغروب وانما خص هذين الوقتين بالذكر لان الانسان يقوم بالغداة من النوم الذى هو أخو الموت الى

اليقظة التي هي كالحياة فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم وهو وقت الحياة من موت النوم بالذكر ليكون أول أعماله ذكر الله تعالى وأما وقت الآصال وهو آخر النهار فان الانسان يريد أن يستقبل النوم الذي هو أخو الموت فيستحب الذكر لانها حالة تشبه الموت ولعله لا يقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله تعالى وهو المراد من قوله تعالى (ولا تكن من الغافلين) عن ذكر الله وقيل انما خصا بالذكر لان الصلاة بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر مكروهة واستحب للعبد أن يذكر الله تعالى فيهما ليكون في جميع أوقاته مشتغلا بما يقربه الى الله تعالى من صلاة وذكر وقيل ان أعمال العباد تصعد أول النهار وآخره فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر ويصعد عمل النهار بعد العصر الى الغروب فاستحب له الذكر فيهما ليكون ابتدأ عمله بالذكر وختامه بالذكر (ان الذين عند ربك) أي الملائكة المقربين بالفضل والكرامة (لا يستكبرون) أي لا يتكبرون (عن عبادته) لانهم عبيده خاضعون لعظمته وكبريائه (ويسبحونه) أي وينزهونه عن جميع النقائص ويقولون سبحان الله ربنا (وله يسجدون) أي ويخضعون له بالعبادة والتذلل لا يشركون به غيره وفي هذا اشارة الى أن الاعمال تنقسم الى قسمين أعمال القلوب وأعمال الجوارح فأعمال القلوب هي تنزيه الله تعالى عن كل ما سواه وهو الاعتقاد القلبي عبر عنه بقوله ويسبحونه وعبر عن أعمال الجوارح بقوله وله يسجدون ليوافق الملائكة المقربين في عبادتهم وعن معدان قال سألت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت حدثني حديثا ينفعني الله به قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد يسجد لله سجدة الا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة وفي رواية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عليك بكثرة السجود لله فانك لا تسجد سجدة الا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه حتى ما يجد بعضنا موضعا لمكان جبهته في غير وقت صلاة وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويلتي أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار والحديث الذي ذكره البيضاوي تبعا للزمخشري وهو من قرأ سورة الاعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين ابليس سترا وكان آدم شفيعا له يوم القيامة حديث موضوع

(سورة الانفال مدنية)

وقيل الا واذ يمكر بك الذين كفروا الآيات السبع فمكية وهي خمس أوست أوسبع وسبعون آية وألف وخمس وسبعون كلمة وخمسة آلاف وثمانون حرفا

(بسم الله) الذي له العظمة الظاهرة والحكمة الباهرة (الرحمن) الذي عم جميع خلقه بنعمه المتواترة (الرحيم) الذي خص من أراد من عباده بما يرضيه فكان حامده وشاكره (يسئلونك) يا أشرف الخلق يا محمد (عن الانفال) أي الغنائم لمن هي وكيف مصرفها وانما سميت الغنيمة

نفلا لانها عطية من الله تعالى وفضل منه كما يسمى به مايشرطه الامام لمقتحم خطر عطية له وزيادة على سهمه (قل) يا محمد لهم (الانفال لله والرسول) يجعلانها حيث شاآ وأكثر المفسرين ان سبب نزولها اختلاف المسلمين فى غنائم بدر كيف تقسم فقال الشبان هى لنا لانا باشرنا القتال وقال الشيوخ كنا ردأ لكم ولو انكشفتم لفئتم الينا فنزلت وقيل شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كان له غناء وهو بفتح الغين المعجمة والمد النفع أن ينفله فسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين ثم طلبوا نفلهم وكان المال قليلا فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات كنا ردأ أى عونا لكم وفئة تنحازون الينا فنزلت فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم على السواء رواه الحاكم فى المستدرك وعن عبادة بن الصامت نزلت فينا معاشر أصحاب بدر حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسوله صلى الله عليه وسلم فقسمه بين المسلمين على السواء وكان فى ذلك تقوى الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واصلاح ذات البين وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه انه قال لما كان يوم بدر وقتل أخى عمير وقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه وأتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستوهبته منه فقال هذا ليس لى ولا لك اطرحه فى القبض وهو بفتحتين ماقبض من الغنائم فطرحته وبى مالايعلمه الا الله تعالى من قتل أخى وأخذ سلبى فما جاوزت الا قليلا حتى نزلت سورة الانفال فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتنى السيف وليس لى وانه قد صار لى اذهب فخذه وقيل انها نزلت فيما يصل من المشركين الى المسلمين بغير قتال من عبد أو أمة أو متاع فهو للنبى صلى الله عليه وسلم يصنع فيه مايشاء واختلفوا اهل هذه الآية منسوخة أولا فقال مجاهد وعكرمة هى منسوخة بقوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول الآية فكانت الغنائم يومئذ للنبى صلى الله عليه وسلم فنسخها الله تعالى بالخمس وقال بعضهم هى ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه وذلك أن الغنائم كانت حراما على الامم الذين من قبلنا فى شرائع انبيائهم وأباحها الله تعالى بهذه الآية لهذه الامة وجعلها ناسخة لشرع من قبلنا ثم نسخت بآية الخمس وقال عبد الله بن زيد بن أسلم هى ثابتة غير منسوخة ومعنى الآية قل الانفال لله وللرسول يضعها حيث أمره الله تعالى وقد بين الله تعالى مصارفها فى قوله واعلموا أنما غنمتم من شئ فان لله خمسه الآية (فان قيل) مامعنى الجمع بين ذكر الله والرسول (أجيب) بأن معناه أن حكم الغنيمة مختص بالله ورسوله يأمر الله بقسمها على ماتقتضيه حكمته و يمتثل الرسول صلى الله عليه وسلم أمر الله تعالى فيها وليس الامر فى قسمها مفوضا الى رأى أحد (فاتقوا الله) بطاعته واتركوا مخالفته واتركوا المخاصمة والمنازعة فى الغنائم (وأصلحوا ذات بينكم) أى وأصلحوا الحال فيما بينكم بالمودة وترك النزاع وتسليم أمر الغنائم الى الله ورسوله (وأطيعوا الله ورسوله) فيما يأمركم به وينهاكم عنه (ان كنتم مؤمنين) حقا فان الايمان يقتضى ذلك (انما المؤمنون) أى الكاملون فى الايمان (الذين اذا ذكر الله) أى وعيده (وجلت) أى خافت وخضعت ورقت (قلوبهم) أى أن المؤمن انما يكون مؤمنا كاملا اذا كان خائفا من الله تعالى ونظيره قوله

تعالى

تعالى والذين هم من عذاب ربهم مشفقون وقوله تعالى الذين هم فى صلاتهم خاشعون (فان قيل) انه تعالى قال هنا وجلت قلوبهم وفى آية أخرى وتطمئن قلوبهم بذكر الله فكيف الجمع بينهما (أجيب) بأنه لامنافاة بينهما لان الوجل هو خوف العقاب والاطمئنان انما يكون من اليقين وشرح الصدر بمعرفة التوحيد وهذا مقام الخوف والرجاء وقد اجتمعا فى آية واحدة وهى قوله تعالى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله عند رجاء ثواب الله وقال أهل التحقيق الخوف على قسمين خوف العقاب وهو خوف العصاة وخوف الجلال والعظمة وهو خوف الخواص لانه تعالى غنى بذاته عن كل الموجودات وماسواه من المخلوقات محتاجون اليه والمحتاج اذا حضر عند الملك الغنى هابه وخافه وليست تلك الهيبة من العقاب بل بمجرد علمه بكونه غنيا عنه وكونه محتاجا اليه يوجب تلك المهابة وذلك الخوف وأما العصاة فيخافون عقابه والمؤمن اذا ذكر الله وجل قلبه وخافه على قدر مرتبته (واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا) أى تصديقا ويقينا لان زيادة الايمان بزيادة التصديق وذلك على وجهين الوجه الاول وهو الذى عليه عامة أهل العلم على ماحكاه الواحدى ان كل من كانت عنده الدلائل أكثر وأقوى كان أزيد ايمانا لان عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين فتكون معرفته بالله أقوى فيزداد ايمانه واليه الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام لو وزن ايمان أبى بكر بايمان أهل الارض لرجح الوجه الثانى وهو انهم يصدقون بكل مايتلى عليهم من عند الله ولما كانت التكاليف متوالية فى زمنه صلى الله عليه وسلم فكلما تجدد تكليف كانوا يزدادون تصديقا واقرارا ومن المعلوم أن من صدق انسانا فى شيئين كان أكثر ممن يصدقه فى شئ واحد فقوله تعالى واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا معناه انهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا باقرار جديد فكان ذلك زيادة فى الايمان والتصديق (فان قيل) ان تلك الآيات لاتوجب الزيادة وانما الموجب هو سماعها أو معرفتها (أجيب) بأن ذلك هو المراد من الآية واختلفوا هل الايمان يقبل الزيادة والنقصان أولا فالذين قالوا ان الايمان عبارة عن التصديق القلبى قالوا لا يقبل الزيادة ولا النقصان والذين قالوا انه مجموع الاعتقاد والاقرار والعمل قالوا يقبل الزيادة والنقصان واحتجوا بهذه الآية من وجهين الاول أن قوله تعالى زادتهم ايمانا يدل على أن الايمان يقبل الزيادة ولو كان عبارة عن التصديق فقط لماقبل الزيادة واذا قبل الزيادة فقد قبل النقص الوجه الثانى انه تعالى ذكر فى هذه الآية أوصافا متعددة من أحوال المؤمنين ثم قال بعد ذلك أولئك هم المؤمنون حقا وذلك يدل على أن تلك الاوصاف داخلة فى مسمى الايمان وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان ففى الحديث دليل على أن للايمان أدنى وأعلى فيكون قابلا للزيادة والنقص وقال عمير بن حبيب ان للايمان زيادة ونقصانا قيل له فما زيادته وما نقصانه فقال اذا ذكرنا الله وحمدناه فذلك زيادته واذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدى بن عدى ان

للايمان فرائض وشرائط وحدود اوسننا فمن استكملها فقد استكمل الايمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان * ثم وصف الله تعالى المؤمنين الكاملين بصفة أخرى ثالثة وهي الاتكال عليه بقوله تعالى (وعلى ربهم يتوكلون) أي يفوضون جميع أمورهم اليه لا يرجون غيره ولا يخافون سواه لان المؤمن اذا كان واثقا بوعد الله تعالى ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره وهذا الحال مرتبة عالية ودرجة شريفة وهي ان الانسان بحيث يصير لا يبقى له اعتماد في أمر من الامور الا على الله تعالى وهذه الصفات الثلاث مرتبة على أحسن صفات الترتيب فان المرتبة الاولى هي الوجل عند ذكر الله والمرتبة الثانية هي الانقياد لمقامات تكاليفه والمرتبة الاخيرة الانقطاع بالكلية عما سوى الله والاعتماد بالكلية على فضل الله بل الغني بالكلية عما سوى الله ثم ان هذه المراتب الثلاث أحوال معتبرة في القلوب والبواطن ثم انتقل منها الى رعاية أحوال الظاهر فقال (الذين يقيمون الصلاة) أي الذين يؤدونها بحقوقها (ومما رزقناهم) أي أعطيناهم (ينفقون) في طاعة الله لان رأس الطاعات المعتبرة في الظاهر ورئيسها بذل النفس في الصلاة وبذل المال في مرضاة الله ويدخل في ذلك صلاة الفرض والنفل والزكاة والصدقات والانفاق في الجهاد والانفاق على المساجد والقناطر ثم قال تعالى (أولئك) أي الموصوفون بهذه الصفات الخمسة (هم المؤمنون حقا) لانهم حققوا ايمانهم بأن ضموا اليه مكارم أعمال القلوب من الخشية والاخلاص والتوكل ومحاسن أعمال الجوارح التي المعيار عليها وهي الصلاة والصدقة وحقا مصدر مؤكد للجملة التي هي أولئك هم المؤمنون كقوله هو عبد الله حقا أي أحق ذلك حقا * (تنبيه) * اختلف العلماء في أنه هل للشخص أن يقول أنا مؤمن حقا أو لا فقال أصحاب الشافعي رضي الله تعالى عنه الاولى أن يقول الرجل أنا مؤمن ان شاء الله تعالى ولا يقول أنا مؤمن حقا وقال أصحاب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه الاولى أن يقول أنا مؤمن حقا ولا يجوز أن يقول ان شاء الله تعالى واستدل للاول بوجوه الاول أن قوله أنا مؤمن ان شاء الله تعالى ليس على سبيل الشك ولكن الشخص اذا قال أنا مؤمن فقد مدح نفسه بأعظم المدائح فربما حصل له بذلك عجب فاذا قال ان شاء الله تعالى زال ذلك العجب وحصل الانكسار له الثاني ان الله تعالى ذكر في أول الآية ما يدل على الحصر وهو قوله تعالى انما المؤمنون هم كذا وكذا وكلمة انما تفيد الحصر وذكر في آخر الآية قوله تعالى أولئك هم المؤمنون حقا وهذا أيضا يفيد الحصر فلما دلت هذه الآية على هذا المعنى ثم ان الانسان لا يمكنه القطع على نفسه بحصول هذه الصفات الخمس فكان الاولى له أن يقول ان شاء الله تعالى وعن الحسن أن رجلا سأله أمؤمن أنت فقال الايمان ايمانان فان كنت تسألني عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن بها وان كنت تسألني عن قوله تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الآية فلا أدري أنا منهم أم لا وقال سفيان الثوري من زعم أنه مؤمن حقا عند الله ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية وهذا الزام منه أي كما لا نقطع أنه من أهل الجنة قطعا فلا نقطع

أنه مؤمن حقا الثالث أن قوله أنا مؤمن ان شاء الله تعالى للتبرك فهو كقوله صلى الله عليه وسلم وانا ان شاء الله بكم لاحقون مع العلم القطعي بأنه لاحق بأهل القبور الرابع أن المؤمن لا يكون مؤمنا حقا الا اذا ختم له بالايمان ومات عليه وهذا لا يحصل الا عند الموت فلهذا السبب حسن أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله تعالى فالمراد صرف هذا الاستثناء الى الخاتمة الخامس أن ذكر هذه الكلمة لا ينافي حصول الجزم والقطع ألا ترى أنه تعالى قال لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين وهو تعالى منزه عن الشك والريب فثبت أنه تعالى انما ذكر ذلك تعليما منه لعباده فالاولى ذكر هذه الكلمة الدالة على تفويض الامور الى الله تعالى حتى يحصل ببركة هذه الكلمة دوام الايمان واستدل الثاني بوجهين الاول أن المتحرك يجوز أن يقول أنا متحرك ولا يجوز أن يقول أنا متحرك ان شاء الله تعالى وكذا القول في القائم والقاعد فكذا هذا الثاني أنه تعالى قال أولئك هم المؤمنون حقا فقد حكم الله لهم بكونهم مؤمنين حقا فكان قوله ان شاء الله يوجب الشك فيما قطع الله تعالى لهم به وذلك لا يجوز وأجاب الاول عن قولهم المتحرك لا يجوز أن يقول أنا متحرك ان شاء الله تعالى بالفرق بين وصف الانسان بكونه مؤمنا وبين وصفه بكونه متحركا اذ الايمان يتوقف حاله على الخاتمة والحركة فعل للانسان نفسي فحصل الفرق بينهما وعن قولهم انه تعالى قال أولئك هم المؤمنون حقا فحكم لهم بكونهم مؤمنين حقا اذا أتوا بتلك الاوصاف الحسنة على الحقيقة ونحن لا نعلم ذلك فثبت حينئذ أن الصواب مع أصحاب القول الاول (لهم) أي للموصوفين بتلك الصفات (درجات) أي منازل في الجنة (عند ربهم) بعضها أعلى من بعض لان المؤمنين تتفاوت أحوالهم في الاخذ بتلك الاوصاف المذكورة فلهذا تتفاوت منازلهم في الجنة على قدر أعمالهم قال عطاء درجات الجنة يرتفعون فيها بأعمالهم وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الجنة مائة درجة لو أن العالمين اجتمعوا في احداهن لوسعتهم (ومغفرة) أي لما فرط منهم (ورزق كريم) أعد لهم في الجنة لا ينقطع عدده ولا ينتهي أمده (فان قيل) أليس المفضول اذا علم حصول الدرجات العالية للفاضل وحرمانه منها فانه يتألم قلبه ويتنغص عيشه وذلك يخل كون الثواب رزقا حسنا (أجيب) بأن استغراق كل أحد في سعادته الحاضرة تمنعه من حصول النظر الى غيره وبالجملة فأحوال الآخرة لا تناسب أحوال الدنيا الا بالاسم وقوله تعالى (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) يقتضي تشبيه شيء بهذا الاخراج واختلفوا في تقدير ذلك فقال المبرد تقديره الانفال لله والرسول وان كرهوا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الى القتال وان كانوا كارهين له قال الرازي وهذا الوجه أحسن الوجوه المذكورة في هذا الموضع وقال عكرمة تقديره فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان ذلك خير لكم كما أن اخراج محمد من بيته خير لكم وان كرهه فريق منكم وقال الكسائي الكاف متعلق بما بعده وهو قوله يجادلونك في الحق والتقدير كما أخرجك

ربك من بيتك بالحق على كره فريق من المؤمنين كذلك هم يكرهون القتال ويجادلونك فيه وقيل الكاف بمعنى على تقديره امض على الذى أخرجك ربك وقيل الكاف بمعنى اذ تقديره واذكر

اذ أخرجك ربك من بيتك بالحق (وان فريقا من المؤمنين لكارهون) الخروج والجملة حال من كاف أخرجك وقيل كما خبر مبتدا محذوف أى هذه الحالة فى كراهتهم لها مثل اخراجك فى حال كراهتهم وقد كان خيرا لهم فكذلك هذه أيضا وذلك ان أبا سفيان قدم بعير من الشأم فى أربعين راكبا منهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهرى وفيها تجارة كثيرة فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين فأعجبهم لقى العير لكثرة المال وقلة العدو فلما سمع أبو سفيان بسير النبى صلى الله عليه وسلم اليه استأجر ضمضم بن عمرو الغفارى وبعثه الى مكة وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم ويخبرهم أن محمدا وأصحابه قد خرجوا العيرهم فخرج ضمضم سريعا الى مكة وكانت عاتكة أخت العباس بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رأت رؤيا فقالت لاخيها العباس انى رأيت عجبا رأيت راكبا أقبل على بعيرله حتى وقف بالابطح ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث فأرى الناس قد اجتمعوا عليه ورأيت كان ملكا نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها ورمى أى رمى بها الى فوق فلم يبق بيت من بيوت مكة الا أصابه حجر من تلك الصخرة فقال العباس اكتميها فلا تذكريها لاحد ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وكان صديقا له فذكرها له واستكتمه فذكرها الوليد لابيه عتبة ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش قال العباس فغدوت أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام فى رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة فلما رآنى أبو جهل قال يا أبا الفضل اذا فرغت من طوافك فأقبل علينا قال فلما فرغت من طوافى أقبلت حتى جلست معهم فقال أبو جهل يا بنى عبد المطلب متى حدثت هذه الفتنة فيكم قلت وماذا الذى قال الرؤيا التى رأت عاتكة قلت وما رأت قال يا بنى عبد المطلب أما رضيتم ان تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال انفروا فى ثلاث فنتربص بكم الثلاث فان يك ما قالت حقا فسيكون وان تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شئ نكتب عليكم كتابا أنكم اكذب أهل بيت فى العرب قال العباس فوالله ما كان منى اليه كبير أمر الا أنى جحدت ذلك وأنكرته ان لا تكون عاتكة رأت شيأ ثم تفرقنا فلما أمسيت لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب الا أتتنى فقالت أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم ثم تناول النساء وأنت تسمع ثم لم يكن عندك غيرة لشئ مما سمعت قال قلت والله ما كان منى اليه من شئ وايم الله تعالى لاتعرضن له فان عاد لأكفينكنه قال فغدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى ان قد فاتنى منه أمر أحب أن أدركه منه قال فدخلت المسجد فرأيته قال فوالله انى لامشى نحوه لاتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به وكان أبو جهل رجلا خفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر اذ خرج نحو باب المسجد يشتد قال قلت ماله لعنه الله اكل هذا فرقا منى أن أشاتمه قال فاذا هو سمع مالم أسمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره وقد حول

رحله وشق قميصه وهو يقول يامعشر قريش هذه أموالكم مع أبي سفيان وقد عرض لها محمد وأصحابه فنادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكة النجاء النجاء وهو بالمد الاسراع منصوب على الاغراء أي الزموا الاسراع على كل صعب وذلول أي أسرعوا مجتمعين ولا تفترقن لان تختاروا للركوب ذلولا دون صعب عيركم أموالكم ان أصابها محمد ان تفلحوا بعدها أبدا فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير في المثل لا في العير ولا في النفير فقيل له ان العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس فقال والله لا يكون ذلك أبدا حتى تنحر الجزور ونشرب الخمور ونقيم القينات والمعازف ببدر فيتسامع جميع العرب بمخرجنا وأن محمدا لم يصب العير فانا قد أعضضناه فمضى بهم الى بدر وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما في السنة ونزل جبريل عليه السلام وقال يا محمد ان الله وعدكم احدى الطائفتين اما العير واما قريشا فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال ما تقولون ان القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فالعير أحب اليكم أم النفير قالوا بل العير أحب الينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردد عليهم وقال ان العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل فقالوا يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو فقام عند غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا الكلام وأمالاه الى المضي الى العدو ثم قام سعد بن عبادة فقال انظر أمرك فامض فوالله لو سرت الى عدن أبين وهي مدينة معروفة باليمن وأبين بوزن أبيض اسم رجل من حمير عدن بها أي أقام ما تخلف عنك رجل من الانصار ثم قال المقداد بن عمرو يا رسول الله امض لما أمرك الله فانا معك حيثما أحببت لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال أشيروا علي أيها الناس وهو يريد الانصار لانهم قالوا له حين بايعوه على العقبة انا برآء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا فاذا وصلت الى ديارنا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخوف ان تكون الانصار لا ترى عليهم نصرته الا على عدو دهمه بالمدينة فقام سعد بن معاذ فقال لكأنك تريدنا يا رسول الله قال أجل قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالله الذي بعثك بالحق نبيا لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وانا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله تعالى يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسطه قول سعد رضي الله عنه قال سيروا على بركة الله تعالى وأبشروا فان الله وعدني احدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر الى مصارع القوم وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حدثه عن أهل بدر قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالامس يقول هذا مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى قال عمر فوالذي بعثه

بالحق نبيا ما أخطأ الحدود التي حدها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فجعلوا في بئر بعضهم على بعض فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى اليهم فقال يا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقا فاني وجدت ما وعدني الله حقا فقال عمر كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها فقال ما أنتم بأسمع لما أقول لهم منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا على شيأ وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر عليك بالعير ليس دونها شئ فناداه العباس وهو في وثاقه أي قيده وكان العباس حينئذ مأسورا مقيدا لا يصلح فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لم قال لان الله وعدك احدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك فكانت الكراهة من بعضهم لقوله تعالى وان فريقا من المؤمنين لكارهون (يجادلونك في الحق) أي القتال (بعد ما تبين) انك لا تصنع شيأ الا بأمر ربك (كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون) اليه أي يكرهون القتال كراهة من يساق الى الموت وهو يشاهد أسبابه وذلك ان المؤمنين لما يقنوا بالقتال كرهوا ذلك وقالوا لم يعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم وانما خرجنا لطلب العير اذ روى أنهم كانوا رجالة وما كان فيهم الا فارسان وفيه ايماء الى أن مجادلتهم كانت لفرط فزعهم ورعبهم (واذ) أي واذكر اذ (يعدكم الله احدى الطائفتين) أي العير أو النفير واحدى ثاني مفعولي يعدكم وقد أبدل منها (أنها لكم) بدل اشتمال (وتودون) أي تريدون (أن غير ذات الشوكة) أي القوة والشدة والسلاح وهي العير (تكون لكم) لقلة عددها وعددها اذ لم يكن فيها الا أربعون فارسا بخلاف النفير لكثرة عددهم وعددهم وقرأ أبو عمرو بادغام التاء في التاء بخلاف عنه (ويريد الله أن يحق الحق) أي يظهره (بكلماته) أي بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قليب بدر (ويقطع دابر الكافرين) أي يستأصلهم والمعنى انكم تريدون أن تصيبوا مالا ولا تلقوا مكروها والله يريد اعلاء الدين واظهار الحق وما يحصل لكم من فوز الدارين (ليحق الحق) أي يثبت الاسلام (ويبطل الباطل) أي يمحق الكفر (ولو كره المجرمون) أي المشركون ذلك (فان قيل) قوله تعالى ليحق الحق بعد قوله أن يحق الحق يشبه التكرار (أجيب) بأن المعنيين متباينان وذلك ان الاول لبيان المراد وما بينه وبين مرادهم من التفاوت والثاني لبيان الداعي الى حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة على غيرها ونصره عليها (اذ) أي واذكر اذ (تستغيثون ربكم) واستغاثتهم أنهم لما علموا أن لا محيص عن القتال أخذوا يقولون ربنا انصرنا على عدوك أغثنا يا غياث المستغيثين وعن عمر رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام نظر الى المشركين وهم ألف والى أصحابه وهم ثلثمائة أي وبضعة عشر فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الارض فما زال كذلك حتى سقط رداؤه وأخذه أبو بكر رضي الله تعالى عنه فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ما وعدك وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار ذال اذ عند التاء والباقون بالادغام (فاستجاب لكم أني) أي بأني فحذف الجار وسلط عليه استجاب فنصب محله

(ممدكم بألف من الملائكة مردفين) أى متتابعين يردف بعضهم بعضا وقرأ نافع بفتح الدال وقيل بالفتح والكسر والباقون بالكسر وعدهم بالالف أولا ثم صارت ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف كما فى آل عمران فقيل نزل جبريل عليه السلام فى خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر رضى الله تعالى عنه وميكائيل عليه السلام على الميسرة وفيها على رضى الله تعالى عنه فى صور الرجال عليهم عمائم بيض وثياب بيض قد أرخوا أذنابها بين أكتافهم فقاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا يوم الاحزاب ويوم حنين وروى أن أبا جهل قال لابن مسعود من أين كان ذلك الصوت الذى كنا نسمع ولا نرى شخصا قال من الملائكة فقال أبو جهل هم غلبونا لا أنتم وروى أن رجلا من المسلمين بينما هو يشتد فى طلب رجل من المشركين اذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه فنظر الى المشرك وقد خر مستلقيا وشق وجهه فحدث الانصارى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صدقت ذاك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يوم بدر سبعين وأسروا سبعين وعن أبى داود المازنى تبعت رجلا من المشركين لاضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدى قبل أن يصل اليه سيفى وروى أبو أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال لقد رأيتنا يوم بدر وان أحدنا ليشير بسيفه الى المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل اليه السيف وقيل انهم لم يقاتلوا وانما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين والافلك واحد كاف فى اهلاك أهل الدنيا كلهم فان جبريل عليه السلام أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط وأهلك بلاد ثمود وقوم صالح عليه السلام بصيحة واحدة وقيل يدل على هذا قوله تعالى (وما جعله الله الا بشرى) لكم أى وما جعل الارداف بالملائكة الا بشرى لكم (ولتطمئن به قلوبكم) فيزول ما بها من الوجل لقلتكم وذلتكم والصحيح أنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا فيما سواها لما تقدم (وما النصر الا من عند الله) أى لا من عند غيره وأما امداد الملائكة وكثرة العدد والاهب ونحوها فهى وسايط لا تأثير لها فلا تحسبوا ان النصر منها ولا تيأسوا منه بفقدها وفى ذلك تنبيه على أن الواجب على المسلم أن لا يتوكل الا على الله تعالى فى جميع أحواله ولا يثق بغيره فان الله تعالى بيده النصر والاعانة (ان الله عزيز) أى انه تعالى قوى منيع لا يقهره شئ ولا يغلبه غالب بل هو يقهر كل شئ ويغلبه (حكيم) فى تدبيره ونصره ينصر من يشاء ويخذل من يشاء من عباده (اذ) أى واذكر اذ (يغشاكم النعاس) وهو النوم الخفيف (أمنة) أى أمنا مما حصل لكم من الخوف من عدوكم (منه) أى من الله تعالى لانهم لما خافوا على أنفسهم لكثرة عددهم وعددهم وقلة المسلمين وقلة عددهم وعطشوا عطشا شديدا ألقى الله عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة وزال عنهم الكلال والعطش وتمكنوا من قتال عدوهم كان ذلك النوم نعمة فى حقهم لانه كان خفيفا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله اليهم وقدروا على دفعه عنهم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما النعاس فى القتال أمنة من الله تعالى وفى الصلاة وسوسة من الشيطان وقرأ نافع بضم الياء وكسر الشين مخففة وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والشين مع التخفيف فيهما والباقون بضم الياء وكسر الشين مشددة ورفع السين من النعاس ابن كثير وأبو عمرو ونصبها

الباقون على أن الله تعالى هو الفاعل (وينزل عليكم من السماء ماء) أى مطرا (ليطهركم به) أى من الاحداث والجنابات وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب رمل أعفر تسوخ فيه الاقدام وحوافر الدواب فناموا فاحتلم أكثرهم وكان المشركون قد سبقوهم على ماء بدر فنزلوا عليه وأصبح المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب وأصابهم العطش فوسوس اليهم الشيطان أو قال لهم المنافقون تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبى الله صلى الله عليه وسلم وأنتم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين فكيف ترجون أن تظهروا على عدوكم وما ينتظرون بكم الا أن يجهدكم العطش فاذا قطع العطش أعناقكم مشوا اليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم الى مكة فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا فأنزل الله تعالى مطرا أسال منه الوادى فشرب منه المؤمنون واغتسلوا وتوضؤا وسقوا الدواب وملؤا الاسقية وطفئ الغبار وعظمت النعمة من الله عليهم بذلك وكان دليلا على حصول النصر والظفر وزالت عنهم وسوسة الشيطان كما قال تعالى (ويذهب عنكم رجز الشيطان) أى وسوسة الشيطان التى ألقاها فى قلوبكم وقيل الجنابة لانها من تخييله (فان قيل) يلزم على هذا التكرار فان هذا تقدم فى قوله تعالى ليطهركم به (وأجيب) عنه بأن المراد من قوله تعالى ليطهركم به حصول الطهارة الشرعية ومن قوله تعالى ويذهب عنكم رجز الشيطان ان الرجز هو عين المنى فانه شئ مستخبث وطابت أنفسهم كما قال تعالى (وليربط) أى يحبس (على قلوبكم) باليقين والصبر ولبدت الارض حتى ثبتت عليها الاقدام كما قال تعالى (ويثبت به الاقدام) أى أن تسوخ فى الرمل والضمير فى به للماء ويجوز كما قال الزمخشرى أن يكون للربط لان القلب اذا تمكن فيه الصبر والجراءة ثبتت الاقدام فى مواطن القتال وقوله تعالى (اذ يوحى ربك) متعلق بيثبت أو بدل من اذ يعدكم (الى الملائكة) أى الذين أمد بهم المسلمين وقوله تعالى (انى) أى بأنى (معكم) أى بالعون والنصرة مفعول يوحى (فثبتوا الذين آمنوا) أى قووا قلوبهم بأن تقاتلوا المشركين معهم وقيل بالتبشير والاعانة فكان الملك يمشى فى صورة رجل امام الصف ويقول أبشروا فان الله تعالى ناصركم عليهم فانكم تعبدونه وهؤلاء لا يعبدونه وقيل بالقاء الالهام فى قلوبهم كما أن للشيطان قوة فى القاء الوسوسة فى قلب ابن آدم بالشر ويسمى ما يلقيه الشيطان وسوسة وما يلقيه الملك الهاما ثم بين تعالى المعية بقوله تعالى (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) أى الخوف فلا يكون لهم ثبات وكان ذلك نعمة من الله تعالى على المؤمنين حيث ألقى الخوف فى قلوب المشركين وقرأ ابن عامر والكسائى برفع العين والباقون بالسكون وقوله تعالى (فاضربوا) خطاب للمؤمنين وللملائكة (فوق الاعناق) أى أعاليها التى هى المذابح والمفاصل والرؤس فانها فوق الاعناق وقيل المراد الاعناق وفوق صلة أو بمعنى على أى اضربوا على الاعناق (واضربوا منهم كل بنان) قال ابن عطية يعنى كل مفصل وقال ابن عباس يعنى الاطراف والبنان جمع بنانة وهى أطراف الاصابع من اليدين والرجلين وقال ابن

الانبارى كانت الملائكة لاتعلم كيف تقاتل بنى آدم فعلمهم الله تعالى قيل انما خصت الرأس والبنان بالذكر لان الرأس أعلى الجسد وأشرف الاعضاء والبنان أضعف الاعضاء فيدخل فى ذلك كل عضو فى الجسد وقيل أمرهم بضرب الرأس وبه هلاك الانسان وبضرب البنان وبه تبطل حركته عن القتال لان بالبنان يتمكن من مسك السيف والسلاح وحمله والضرب به فاذا قطع بنانه تعطل ذلك كله (ذلك) أى التسليط العظيم الذى وقع من القتل والاسر يوم بدر والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد (بأنهم) أى الذين تلبسوا بالكفر (شاقوا الله) الذى لايطاق انتقامه (ورسوله) أى خالفوهما فى الاوامر والنواهى والمشاقة المخالفة وأصلها المجانبة كأنهم صاروا فى شق وجانب غير الذى يرضيانه (ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) له فان الذى أصابهم فى ذلك اليوم من الاسر والقتل شئ قليل فى جنب ما أعد الله تعالى لهم من العقاب يوم القيامة وقوله تعالى (ذلكم) خطاب للكفرة على طريق الالتفات من الغيبة فى شاقوا أى ذلكم الذى عجل لكم ببدر من القتل والاسر (فذوقوه) عاجلا (وأن للكافرين) آجلا فى الآخرة (عذاب النار) ووضع الظاهر فيه موضع المضمر للدلالة على أن الكفر سبب للعاجل والآجل (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا) أى مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون أى يدبون دبيبا من زحف الصبى اذا دب على استه قليلا قليلا سمى به وجمع على زحوف وانتصابه على الحال وهو مصدر موصوف به كالعدل والرضا ولذلك لم يجمع (فلا تولوهم الادبار) أى منهزمين منهم وان كنتم أقل منهم (ومن يولهم يومئذ) أى يوم لقائهم (دبره) أى يجعل ظهره اليهم منهزما (الا متحرفا) أى منعطفا (لقتال) بأن يريهم أنه منهزم خداعا ثم يكر عليهم وهو باب من مكايد الحرب (أو متحيزا) منضما وصائرا (الى فئة) أى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التى هو فيها على القرب يستنجدبها ومنهم من لا يعتبر القرب لما روى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه كان فى سرية بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ففروا الى المدينة فقلت يارسول الله نحن الفرارون فقال بل أنتم العكارون وفى رواية الكرارون أى المتعاطفون الى الحرب وأنا فئتكم وانهزم رجل من القادسية فأتى المدينة الى عمر رضى الله تعالى عنه فقال ياأمير المؤمنين هلكت فررت من الزحف فقال عمر أنا فئتك (فقد باء) أى رجع (بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) أى المرجع هى وعن ابن عباس ان الفرار من الزحف من أكبر الكبائر هذا اذا لم يزد العدد على الضعف لقوله تعالى الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا وقيل هذا فى أهل بدر خاصة لانه ما كان يجوز لهم الانهزام يوم بدر لان النبى صلى الله عليه وسلم كان معهم قاله مجاهد ولما انصرف المسلمون من قتال بدر كان الرجل يقول أنا قتلت فلانا ويقول الآخر أنا قتلت فلانا فنزل قوله تعالى (فلم تقتلوهم) أى بقوتكم (ولكن الله قتلهم) أى بنصره اياكم بأن هزمهم لكم قال البيضاوى تبعا للزمخشرى والفاء جواب شرط محذوف تقديره ان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم اهـ ورده ابن هشام بأن الجواب المنفى بلم لاتدخل عليه الفاء واختلف فى سبب نزول قوله تعالى

(وما رميت) يا محمد (اذ رميت ولكن الله رمى) على ثلاثة أقوال الاول وهو قول أكثر المفسرين نزلت في يوم بدر وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ندب الى قتال بدر نزلوا بدرا ووردت عليهم روّاد قريش وفيهم أسلم غلام أسود لبني الحجاج وأبو يسار غلام لبني العاصي بن سعد فأتوا بهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما أين قريش فقالا هم وراء هذا الكثيب الذي بالعدوة القصوى الكثيب العقنقل وهو الكثيب العظيم المتداخل الرمل قاله الجوهري فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم كم القوم قالا كثير قال ما عدتهم قالا لا ندري قال كم ينحرون كل يوم قالا يوما عشرة ويوما تسعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم ما بين التسعمائة الى الالف ثم قال لهما فمن فيهم من اشراف قريش قالا عتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة وأبو البختري بن هشام وأبو جهل بن هشام وعدا جماعة أخرى فقال صلى الله عليه وسلم هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها فلما طلعت قريش من العقنقل قال عليه الصلاة والسلام هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهم اني أسألك ما وعدتني فأتاه جبريل عليه السلام وقال له خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال لعلي رضي الله عنه أعطني قبضة من حصباء الوادي فرمى بها في وجوههم وقال شاهت الوجوه أي قبحت فلم يبق مشرك الا دخل في عينيه وفمه ومنخره فانهزموا وردفهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم والمعنى ان الرمية التي رميتها بلغ أثرها الى ما لا يبلغه أثر البشر لكونها كانت برمي الله حيث أثرت ذلك الاثر العظيم لان كفا من الحصباء لا يملأ عيون الجيش الكثير برمية البشر فأثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لان صورتها وجدت منه ونفاها عنه لان أثرها الذي لا تطيقه البشر فعل الله تعالى فكان الله تعالى هو فاعل الرمية على الحقيقة وكأنها لم توجد من الرسول صلى الله عليه وسلم أصلا القول الثاني انها نزلت يوم خيبر روي انه عليه الصلاة والسلام أخذ قوسا وهو على باب خيبر فرمى سهما فأقبل السهم حتى قتل لبابة بن أبي الحقيق وهو على فرسه فنزلت القول الثالث انها نزلت في يوم أحد في قتل أبي بن خلف وذلك انه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم وفتته وقال يا محمد من يحيي هذه وهي رميم فقال صلى الله عليه وسلم يحييه الله ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك النار فأسر يوم بدر فلما افتدى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان عندي فرسا أعلفها كل يوم فرقا من ذرة أقتلك عليه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أنا أقتلك ان شاء الله تعالى فلما كان يوم أحد اقبل أبي يركض على ذلك الفرس حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترض له رجال من المسلمين ليقتلوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم استأخروا ورماه بحربة كسر ضلعا من أضلاعه فمات ببعض الطريق فنزلت والاصح الاول والا دخل في اثناء القصة كلاما أجنبيا عنها وذلك لا يليق وقال الرازي لا يبعد أن يدخل تحته سائر الوقائع لان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ولكن الله قتلهم ولكن الله رمى بكسر النون مخففة ورفع الهاء من اسم الله فيهما والباقون بفتح النون مشددة ونصب الهاء وقوله تعالى (وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا) معطوف على قوله تعالى ولكن الله

رمى أى وليتم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ثم ختم الله تعالى هذه الآية بقوله تعالى (ان الله سميع) لاقوالكم (عليم) بأحوال قلوبكم وهذا جرى مجرى التحذير والترهيب لئلا يغتر العبد بظواهر الامور ويعلم ان الخالق تعالى يطلع على مافى الضمائر والقلوب وقوله تعالى (ذلكم) اشارة الى البلاء الحسن ومحله الرفع أى الغرض ذلكم وقوله تعالى (وان الله موهن كيد الكافرين) معطوف على ذلكم أى المقصود ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وابطال حيلهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الواو وتشديد الهاء وتنوين النون ونصب الدال وقرأ حفص بسكون الواو وتخفيف الهاء وعدم تنوين النون وخفض الدال والباقون بسكون الواو وتخفيف الهاء مع تنوين النون ونصب الدال وقوله تعالى (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) أكثر المفسرين على انه خطاب للكفار روى ان أبا جهل لعنه الله قال يوم بدر اللهم أينا كان أقطع للرحم وأفجر فاهلكه الغداة وقال السدى ان المشركين لما أرادوا الخروج الى بدر أخذوا باستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى القبيلتين وأكرم الحزبين بأفضل الدين فأنزل الله تعالى هذه الآية أى ان تستنصر والأهدى القبلتين وتستقضوا فقد جاءكم النصر والقضاء بهلاك من هو كذلك وهو أبو جهل ومن قتل معه دون النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل خطاب للمؤمنين وذلك انه صلى الله عليه وسلم لما رأى المشركين وكثرة عددهم وعددهم استغاث بالله تعالى وطلب ماوعده الله تعالى به من احدى الطائفتين وتضرع الى الله تعالى وكذلك الصحابة رضى الله تعالى عنهم فقال تعالى ان تستفتحوا أى ان تطلبوا النصر الذى تقدم به الوعد فقد جاءكم الفتح أى حصل ماوعدتم فاشكروا الله تعالى والزموا الطاعة قال القاضى عياض وهذا القول أولى لان قوله تعالى فقد جاءكم الفتح لا يليق الا بالمؤمنين اه وقال البيضاوى انه خطاب لاهل مكة عن سبيل التهكم اه ويدل له قوله تعالى (وان تنتهوا) أى عن الكفر ومعاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم (فهو خير لكم) أى لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين (وان تعودوا) أى لقتال النبى صلى الله عليه وسلم (نعد) أى لنصرته عليكم (ولن تغنى) أى تدفع (عنكم فئتكم) أى جماعتكم (شيأ) لان الله تعالى على الكافرين فيخذلهم (ولو كثرت) فئتكم (وان الله مع المؤمنين) بالنصر والمعونة وقرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح الهمزة على ولان الله تعالى والباقون بالكسر على الاستئناف (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا) أى تعرضوا (عنه) أى الرسول صلى الله عليه وسلم بمخالفة أمره فان المراد من الآية الامر بطاعته والنهى عن الاعراض عنه وذكر طاعة الله للتوطئة والتنبيه على ان طاعة الله فى طاعة الرسول لقوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله وقيل الضمير للجهاد (وأنتم تسمعون) أى القرآن والمواعظ سماع فهم وتصديق (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا) أى بألسنتهم (وهم لا يسمعون) سمعا ينتفعون به وهذه صفة المنافقين (ان شر الدواب عند الله) أى ان شر من دب على وجه الارض من خلق الله عنده (الصم) عن سماع الحق (البكم) عن النطق بالحق فلا يقولونه (الذين لا يعقلون) أمر الله وسماهم دواب لقلة

اتباعهم بعقولهم كما قال تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل قال ابن عباس هم نفر من بنى عبد الدار بن قصى كانوا يقولون نحن صم بكم عما جاء به محمد فقتلوا جميعا بأحد وكانوا أصحاب اللواء ولم يسلم منهم الا رجلان مصعب بن عمير وسويط بن حرملة (ولو علم الله فيهم خيرا) أى سعادة كتبت لهم أو انتفاعا بالآيات (لأسمعهم) سماع تفهم (ولو أسمعهم) على سبيل الفرض وقد علم أن لا خير فيهم (لتولوا) عنه ولم ينتفعوا به وارتدوا عن التصديق والقبول (وهم معرضون) لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره وقيل انهم كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحى لنا قصيا فانه كان شيخا مباركا يشهد لك بالنبوة فنؤمن بك فقال الله تعالى ولو أسمعهم كلام قصى لتولوا وهم معرضون (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول) أى أجيبوهما بالطاعة ووحد الضمير فى قوله تعالى (اذا دعاكم) لان دعوة الله تعالى تسمع من الرسول صلى الله عليه وسلم روى الترمذى أنه صلى الله عليه وسلم مر على أبى بن كعب وهو يصلى فدعاه فعجل فى صلاته ثم جاء فقال له صلى الله عليه وسلم ما منعك عن اجابتى قال كنت أصلى قال ألم تجد فيما أوحى الى استجيبوا لله وللرسول ويؤخذ من ذلك ان اجابته صلى الله عليه وسلم بالقول لا تقطع الصلاة وهو كذلك بل ولا بالفعل الكثير كما قاله بعض أصحابنا وهو ظاهر الحديث أيضا ولما كان اجتناء ثمرة الطاعة فى غاية القرب منه نبه على ذلك باللام دون الى فقال (لما يحييكم) من العلوم الدينية فانها حياة القلوب والجهل موتها قال أبو الطيب

لا تعجبن الجهول حلته * فذاك ميت وثوبه كفن

أو مما يورثكم الحياة الابدية فى النعيم الدائم من العقائد وقال السدى هو الايمان لان الكافر ميت فيحيا بالايمان وقال ابن اسحق هو الجهاد أعزكم الله تعالى به بعد الذل وقال العتبى هو الشهادة لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) أى انه يميته فتفوته الفرصة التى هو واجدها وهى التمكن من اخلاص القلب ومعالجة ادوائه وعلله ورده سليما كما يريده الله تعالى فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله وقال الضحاك يحول بين المرء المؤمن والمعصية وبين الكافر والطاعة وقال السدى يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا أن يكفر الا باذنه وقال مجاهد يحول بين المرء وقلبه فلا يعقل ولا يدرى ما يعمل وعن أنس بن مالك رضى الله عنه انه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك قالوا يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال القلوب بين اصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء (وانه) أى واعلموا أنه تعالى (اليه تحشرون) لا الى غيره فلا تتركوا مهملين معطلين فيجازيكم بأعمالكم وفى هذا تشديد فى العمل وتحذير عن الكسل والغفلة (واتقوا فتنة) أى ذنبا قيل هو اقرار المنكر بين أظهرهم وقيل افتراق الكلمة وقيل فتنة عذابا وقوله تعالى (لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) جواب الامر والمعنى ان أصابتكم لا تصب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم كما يحكى ان علماء بنى اسرائيل لم ينهوا عن المنكر فعمهم الله تعالى بالعذاب (فان قيل) كيف جاز ان تدخل

النون المؤكدة فى جواب الامر (أجيب) بأن فيه معنى النهى كقولك انزل عن الدابة لاتطرحك ولاتطرحنك وكقوله تعالى يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان (واعلموا ان الله شديد العقاب) لمن خالفه (واذكروا) يامعاشر المهاجرين (اذ أنتم) فى أوائل الاسلام (قليل) أى عددكم (مستضعفون) أى لامنعة لكم (فى الارض) أى أرض مكة واطلاقها لانها لعظمها كانها هى الارض كلها أو لان حالهم كان فى بقية البلاد كحالهم فيها أو قريبا من ذلك ولهذا عبر بالناس فى قوله تعالى (تخافون أن يتخطفكم الناس) أى تأخذكم الكفار بسرعة كما تتخطف الجوارح الصيد (فآواكم) الى المدينة أو جعل لكم مأوى تتحصنون فيه على أعدائكم (وأيدكم) أى قواكم (بنصره) أى بامداد الملائكة يوم بدر وبمظاهرة الانصار (ورزقكم من الطيبات) أى الغنائم أحلها لكم ولم يحلها لاحد قبلكم (لعلكم تشكرون) هذه النعم العظيمة (يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول) أى بأن تضمروا خلاف ماتظهرون روى انه صلى الله عليه وسلم حاصر يهود بنى قريظة احدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح كما صالح اخوانهم بنى النضير على أن يسيروا الى اخوانهم باذرعات وأريحا من الشأم فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك الا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل الينا أبا لبابة واسمه رفاعة أو مروان بن عبد المنذر وكان مناصحا لهم لان ماله وعياله عندهم فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فقالوا يا أبا لبابة ماترى أننزل على حكم سعد بن معاذ فأشار أبو لبابة بيده الى حلقه انه الذبح أى حكم سعد هو القتل فلا تفعلوا فقال أبو لبابة والله مازالت قدماى من مكانهما حتى علمت انى قد خنت الله ورسوله ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أما لو جاءنى لاستغفرت له وأما اذ فعل مافعل فانى لا أطلقه حتى يتوب الله تعالى عليه فمكث سبعة أيام لايذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له قد تيب عليك فحل نفسك فقال لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى فجاءه فحله بيده فقال ان من تمام توبتى ان أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى فقال له صلى الله عليه وسلم يجزيك الثلث ان تتصدق به فنزلت هذه الآية وعن المغيرة نزلت فى قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه وعن جابر بن عبد الله ان أبا سفيان خرج من مكة فعلم النبى صلى الله عليه وسلم خروجه وعزم على الذهاب اليه فكتب رجل من المنافقين اليه ان محمدا يريدكم فخذوا حذركم فنزلت وقيل معنى لاتخونوا الله بأن لاتعطلوا فرائضه ورسوله بأن لاتستنوا به وأصل الخون النقص كما ان أصل الوفاء التمام واستعماله فى ضد الامانة لتضمنه اياه وقوله تعالى (وتخونوا أماناتكم) أى ما ائتمنتم عليه من الدين وغيره مجزوم بالعطف على الاول أى ولاتخونوا أو منصوب بأن مضمرة بعد الواو على جواب النهى أى لاتجمعوا بين الخيانتين كقوله * لاتنه عن خلق وتأتى مثله * (وأنتم تعلمون)

أنكم تخونون أى وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) أى محنة من الله تعالى ليبلوكم فيهم فلا يحملنكم حبهم على الخيانة كأبى لبابة لانه يشغل القلب بالدنيا ويصيره حجابا عن خدمة المولى * ثم انه تعالى نبه بقوله تعالى (وان الله عنده أجر عظيم) على ان سعادات الآخرة خير من سعادات الدنيا لانها أعظم فى الشرف وأعظم فى القوة وأعظم فى المدة لانها تبقى بقاء لانهاية له فهذا هو المراد من وصف الله الاجر الذى عنده بالعظم قال الرازى ويمكن أن يتمسك بهذه الآية فى بيان ان الاشتغال بالنوافل أفضل من الاشتغال بالنكاح لان الاشتغال بالنوافل يفيد الاجر العظيم عند الله والاشتغال بالنكاح يفيد الولد ويوجب الحاجة الى المال وذلك فتنة ومعلوم ان ما يفضى الى الاجر العظيم عند الله هو خير مما يفضى الى الفتنة اهـ لكن محله فى غير المحتاج الى النكاح الواجد أهبته والا فالنكاح حينئذ أفضل وأولى من التخلى للعبادة * ولما حذر الله تعالى عن الفتنة بالاموال والاولاد رغب فى التقوى التى توجب ترك الميل والهوى فى محبة الاموال والاولاد بقوله (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله) أى بالامانة وغيرها (يجعل لكم فرقانا) أى هداية فى قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل (ويكفر عنكم سيآتكم) أى يسترها ما دمتم على التقوى (ويغفر لكم) أى يمح ما كان منكم غير صالح عينا وأثرا وقيل السيآت الصغائر والذنوب الكبائر وقيل المراد ما تقدم وما تأخر لانها فى أهل بدر وقد غفر الله تعالى لهم وقوله تعالى (والله ذو الفضل العظيم) تنبيه على ان ما وعدهم على التقوى تفضل منه واحسان وانه ليس مما توجبه تقواهم عليه كالسيد اذا وعد عبده انعاما على عمله * ولما ذكر سبحانه وتعالى المؤمنين بنعمه عليهم بقوله تعالى واذكروا اذ أنتم قليل الى آخره عطف عليه قوله تعالى (واذ يمكر بك الذين كفروا) فذكر رسوله صلى الله عليه وسلم نعمه عليه وهو دفع كيد المشركين ومكر الماكرين عنه وهذه السورة مدنية وهذا المكر كان بمكة ولكن الله تعالى ذكره بالمدينة مكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله تعالى عليه فى نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم وكان ذلك المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من المفسرين ان قريشا لما أسلمت الانصار وبايعوه فرقوا ان يتفاقم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعت رؤساؤهم كأبى جهل وعتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبى سفيان وهشام بن عمرو وطعيمة بن عدى والنضر بن الحرث وأبى البخترى ابن هشام فى دار الندوة متشاورين فى أمره صلى الله عليه وسلم فدخل عليهم ابليس لعنه الله تعالى فى صورة شيخ فلما رأوه قالوا من انت قال شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا منى رأيا ونصحا قالوا ادخل فدخل فقال أبو البخترى رأيى ان تحبسوه فى بيت وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون اليه طعامه وشرابه منها وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك مثل ما هلك من قبله من الشعراء فصرخ عدو الله النجدى وقال بئس الرأى رأيتم والله لئن حبستموه فى بيت ليأتينكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم قالوا صدق الشيخ

النجدى فقال هشام بن عمرو رأيى ان تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ماصنع واسترحتم فقال النجدى بئس الرأى تعمدون الى رجل قد أفسد سفهاءكم فتخرجوه الى غيركم فيفسدهم ألم تروا الى حلاوة منطقه وطلاوة لسانه وأخذ القلوب مايسمع من حديثه والله لئن فعلتم ذلك فيذهب ويستميل قلوب قوم ثم يسير بهم اليكم و يخرجكم من بلادكم قالوا صدق والله الشيخ النجدى فقال أبوجهل لعنه الله تعالى والله لأشيرن عليكم برأى لا رأى غيره انى أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابا وتعطوه سيفا صارما فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا تقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فاذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا فقال ابليس الملعون صدق هذا الفتى هو أجودكم رأيا القول ما قال لا رأى غيره فتفرقوا على قول أبى جهل مجمعين على قتله فأتى جبريل عليه الصلاة والسلام النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك وأمره ان لا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه وأذن الله تعالى له عند ذلك بالخروج الى المدينة فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه فنام فى مضجعه وقال له اتشح ببردتى فانه لن يخلص اليك أمر تكرهه ثم خرج النبى صلى الله عليه وسلم فأخذ قبضة من تراب وأخذ الله تعالى أبصارهم عنه وجعل ينثر التراب على رؤسهم وهو يقرأ انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا الى قوله تعالى فهم لا يبصرون ومضى الى الغار هو وأبو بكر وخلف عليا بمكة حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت بمكة عنده وكانت الودائع تودع عنده لصدقه وامانته وبات المشركون يحرسون عليا على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسبون انه النبى صلى الله عليه وسلم فلما أصبحوا بادروا اليه فرأوا عليا فقالوا له وأين صاحبك فقال لا أدرى فاقتصوا أثره وأرسلوا فى طلبه فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخله لم تكن تنسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاثا ثم قدم المدينة وأبطل الله مكرهم وهذا معنى قوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا (ليثبتوك) أى يوثقوك ويحبسوك (أو يقتلوك) كلهم قتلة رجل واحد (أو يخرجوك) من مكة (ويمكرون) بك (ويمكر الله) أى يرد مكرهم عليهم بتدبير أمرك بأن أوحى اليك ما دبروه وأمرك بالخروج الى المدينة وأخرجهم الى بدر وقلل المسلمين فى أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا (والله خير الماكرين) أى أعلمهم به فلا يتقدم مكرهم دون مكره قال البيضاوى واسناد أمثال هذا انما يحسن للمزاوجة ولا يجوز اطلاقها ابتداء لمافيه من ايهام الذم اهـ واعترض عليه بأنه لا يتعين فى مثل ذلك المشاكلة بل يجوز أن يكون ذلك استعارة لان اطلاق المكر على اخفاء الله تعالى ما أوعده لمن استوجبه ان جعل باعتبار أن صورته تشبه صورة المكر فاستعارة أو باعتبار الوقوع فى صحبة مكر العبد فمشاكلة وعلى هذا لا يحتاج كما قال الطيبى الى وقوعه فى صحبة مكر العبد قال ومنه قول على رضى الله عنه من وسع الله تعالى عليه فى دنياه ولم يعلم انه مكر به فهو مخدوع فى عقله (واذا تتلى عليهم آياتنا) أى القرآن (قالوا) أى هؤلاء الذين ائتمروا فى أمره صلى الله عليه وسلم (قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم اذ لو استطاعوا ذلك لفعلوه والا فما منعهم

لو كانوا مستطيعين وقرعهم بالعجز عشر سنين ثم قارعهم بالسيف فلم يعارضوا بسورة مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا خصوصا في باب البيان وقيل قائله النضر بن الحرث المقتول صبرا لانه كان يأتي الحيرة يتجر فيشتري كتب أخبار العجم ويحدث بها أهل مكة واسناده الى الجميع اسناد ما فعله رئيس القوم اليهم فكأنه كان قاضيهم وقد أسره المقداد يوم بدر فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله فقال المقداد أسيري يارسول الله فقال انه كان يقول في كتاب الله تعالى ما يقول فعاد المقداد لقوله فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم أغن المقداد من فضلك فقال ذاك الذي أردت يارسول الله فقتله النبي صلى الله عليه وسلم فأنشدت أخته

ما كان ضرك لو مننت وربما * من الفتى وهو المغيظ المحنق

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لو بلغني هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه (ان) أي ما (هذا) أي القرآن (الا أساطير الاولين) أي أخبار الامم الماضية وأسماؤهم وما سطر الاولون في كتبهم والاساطير جمع أسطورة وهي المكتوبة من قولهم سطرت أي كتبت وقيل أساطير جمع أسطور وأسطار جمع سطر (واذ قالوا اللهم ان كان هذا) أي الذي يقرؤه محمد (هو الحق) المنزل (من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) أي مؤلم على انكاره غير الحجارة قاله النضر وغيره استهزاء وايهاما أنه على بصيرة وجزم ببطلانه وعن معاوية رضي الله عنه أنه قال لرجل من سبا ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة قال أجهل من قومي قومك قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية وما قالوا ان كان هذا هو الحق فاهدنا اليه (فان قيل) قد حكى الله تعالى هذه المقالة عن الكفار وهي من حسن نظم القرآن فقد حصلت المعارضة في هذا القدر وأيضا حكى عنهم أنهم قالوا في سورة بني اسرائيل وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الآية وذلك أيضا كلام الكفار فقد حصل من كلامهم ما يشبه نظم القرآن وذلك يدل على حصول المعارضة (أجيب) بأن الاتيان بهذا القدر لا يكفي في حصول المعارضة لانه كلام قليل لا تظهر فيه وجوه المعارضة والفصاحة والبلاغة لان أقل ما وقع به التحدي سورة أو قدرها قال الله تعالى (وما كان الله ليعذبهم) أي بما سألوه (وأنت فيهم) أي لان العذاب اذا نزل عم ولم يعذب أمة الا بعد خروج نبيها والمؤمنين منها (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) أي وفيهم من يستغفر وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين وعن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه كان في هذه الامة أمانان أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد مضى وأما الاستغفار فهو كائن فيكم الى يوم القيامة فاللفظ وان كان عاما الا أن المراد بعضهم كما يقال قدم أهل البلدة الفلانية على القتال والمراد بعضهم (ومالهم أن لا يعذبهم الله) بالسيف بعد خروجك والمستضعفين فنفى تعالى في الآية أنه لا يعذبهم ما دام الرسول والمؤمنون فيهم وذكر في هذه الآية أنه يعذبهم اذا خرجوا من بينهم وقال الحسن الآية الاولى منسوخة بهذه وردّ بأن الاخبار لا يدخلها النسخ واختلفوا في هذا العذاب فقال بعضهم لحقهم هذا العذاب المتوعد به يوم بدر وقيل يوم فتح مكة وقال ابن عباس هذا العذاب هو عذاب

الآخرة

الآخرة والعذاب الذى نفى عنهم هو عذاب الدنيا ثم بين تعالى ما لاجله يعذبهم فقال (وهم يصدون) أى يمنعون النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين (عن المسجد الحرام) أن يطوفوا به وذلك عام الحديبية ونبه تعالى على انهم يصدونهم لادعائهم انهم أولياؤه فكانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء ثم بين تعالى بطلان هذه الدعوى بقوله تعالى (وما كانوا أولياءه) كما زعموا (ان) أى ما (أولياؤه الا المتقون) أى الذين يحترزون عن المنكرات الذين لا يعبدون فيه غيره وقيل الضمير ان لله (ولكن أكثرهم) أى الناس (لا يعلمون) أن لا ولاية لهم عليه وكأنه نبه بالأكثر على ان منهم من يعلم ويعاند أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم (وما كان صلاتهم عند البيت) أى دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة أو ما يضعون موضعها (الا مكاء) أى صفيرا (وتصدية) أى تصفيقا قال ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفرون ويصفقون وقال مجاهد كان نفر من بنى عبد الدار يعارضون النبى صلى الله عليه وسلم فى الطواف ويستهزؤن به ويدخلون أصابعهم فى أفواههم ويصفرون ويخلطون عليه طوافه وصلاته فالمكاء جعل الاصابع فى الشدق والتصدية الصفير وقال مقاتل كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا دخل المسجد الحرام قام رجلان عن يمينه ورجلان عن يساره يصفران ويصفقان ليخلطوا على النبى صلى الله عليه وسلم صلاته (فذوقوا العذاب) أى عذاب القتل والاسر ببدر فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة (بما) أى بسبب ما (كنتم تكفرون) اعتقادا وعملا ولما ذكر تعالى عبادة الكفار البدنية وهى المكاء والتصدية ذكر عقبه عبادتهم المالية التى لا جدوى لها فى الآخرة بقوله تعالى (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم) فى حرب النبى صلى الله عليه وسلم (ليصدوا عن سبيل الله) أى ليصرفوا عن دين الله تعالى نزلت فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا منهم أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وكلهم من قريش وكان يطعم كل واحد منهم أيام بدر عشر جزائر أو فى أبى سفيان استأجر يوم أحد ألفين من العرب سوى من استجاش أى اتخذه جيشا وأنفق عليهم أربعين أوقية والاوقية اثنان وأربعون مثقالا أو فى أصحاب العير فانه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك ثأرنا ففعلوا (فسينفقونها ثم تكون) أى عاقبة الامر (عليهم حسرة) أى ندامة لفواتها وفوات ما قصدوه (ثم يغلبون) أى آخر الامر وان كان الحرب بينهم سجالا قبل ذلك كما اتفق لهم فى بدر فانهم أنفقوا مع الكثرة والقوة ولم يغن عنهم شئ من ذلك بل كان وبالا عليهم فانه كان سببا لجراءتهم حتى قدموا انما كان فى الحقيقة الاقوة للمؤمنين (والذين كفروا) أى ثبتوا على الكفر (الى جهنم يحشرون) أى يساقون اليها يوم القيامة فهم فى خزى فى الدنيا والآخرة (فان قيل) لم لم يقل تعالى والى جهنم يحشرون (أجيب) بأنه اسلم منهم جماعة كأبى سفيان بن حرب والحرث بن هشام وحكيم بن حزام بل ذكر ان الذين ثبتوا على الكفر يكونون كذلك (ليميز الله الخبيث) أى الفريق الكافر (من الطيب) أى من الفريق المؤمن (ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا) أى يجمعه متراكما بعضه على بعض

كقوله تعالى كادوا يكونون عليه لبدا أي لفرط ازدحامهم وقيل ليميز المال الخبيث الذي
أنفقه الكافر على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم من المال الطيب الذي أنفقه المؤمن في جهاد
الكفار كانفاق أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما في نصرة النبي صلى الله عليه وسلم فيركمه جميعا
(فيجعله في جهنم) في جملة ما يعذبون به كقوله تعالى فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم
الآية واللام على هذا متعلقة بيكون من قوله تعالى ثم تكون عليهم حسرة وعلى الاول
متعلقة بيحشرون أو يغلبون وقرأ حمزة والكسائي بضم الياء الاولى وفتح الميم وتشديد
الياء الثانية مع الكسر والباقون بفتح الياء الاولى وكسر الميم وسكون الياء الثانية
وقوله تعالى (أولئك) اشارة الى الذين كفروا (هم الخاسرون) أي الكاملون في الخسران
لانهم خسروا أنفسهم وأموالهم * ولما بين تعالى ضلالهم في عباداتهم البدنية والمالية
أرشدهم الى طريق الصواب فقال (قل) يا محمد (للذين كفروا) كأبي سفيان وأصحابه
(ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) أي قل لاجلهم هذا القول وهو ان ينتهوا عن الكفر وقتال
النبي صلى الله عليه وسلم يغفر لهم ما قد سلف من ذلك ولو كان بمعنى خاطبهم به لقيل ان تنتهوا
يغفر لكم (وان يعودوا) أي الى الكفر ومعاداة النبي صلى الله عليه وسلم (فقد مضت سنة
الاولين) أي باهلاك أعدائه ونصر أنبيائه وأوليائه واجمع العلماء على أن الاسلام يجب ما قبله
واختلفوا هل الكافر الاصلي مخاطب بفروع الشريعة وهل يسقط عن المرتد ما مضى
في حال ردته كالكافر الاصلي كما هو ظاهر الآية وهل الردة تحبط ما مضى من العبادات قبلها
ذهب أصحاب الشافعي رضي الله تعالى عنه الى أنه مخاطب بدليل قوله تعالى ما سلككم
في سقر قالوا لم نك من المصلين الآية وأن المرتد لا تسقط عنه العبادات الفائتة في الردة
تغليظا عليه وأن الردة لا تحبط ما مضى وقد تقدم الكلام على ذلك في المائدة وعن يحيى بن معاذ
أنه قال توحيد لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر ارجو أن لا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب * ولما
بين تعالى أن هؤلاء الكفار ان انتهوا عن كفرهم حصل لهم الغفران وان عادوا فهم متوعدون
سنة الاولين أتبعه بالامر بقتالهم اذا أصروا فقال تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) أي شرك
كما قاله ابن عباس وقال الربيع حتى لا يفتن أحدكم عن دينه لان المؤمنين كانوا يفتنون عن دين
الله في مبدأ الدعوة فافتتن من المسلمين بعضهم وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا
الى الحبشة وفتنة ثانية وهو أنه لما بايعت الانصار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة
تآمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين بمكة عن دينهم فأصاب المؤمنين جهد شديد فأمر الله تعالى
بقتالهم حتى تزول هذه الفتنة (ويكون الدين كله) خالصا (لله) تعالى وحده لا يعبد غيره (فان
انتهوا) عن الكفر (فان الله بما يعملون بصير) أي فيجازيهم به (وان تولوا) عن الايمان
(فاعلموا أن الله مولاكم) أي ناصركم ومتولي أموركم (نعم المولى) هو فانه لا يضيع من تولاه (ونعم
النصير) أي الناصر فلا يغلب من ينصره فمن كان في حماية هذا المولى وفي حفظه وكفايته كان
آمنا من الآفات مصونا عن المخالفات (واعلموا أنما غنمتم) أي أخذتم من الكفار الحربيين

(من شئ) مما يقع عليه اسم شئ مما هو لهم ولو اختصاصا (فأن لله خمسه وللرسول) واعلم أن الغنيمة والفئ اسمان لما يصيبه المسلمون من الحربيين والصحيح أنهما مختلفان فالفئ ما حصل لنا مما هو لهم بلا ايجاف كجزية وعشر تجارة وما جلوا عنه ولو لغير خوف كضر أصابهم وتركة مرتد وكافر معصوم بلا وارث وكذا الفاضل عن وارث له غير حائز وسيأتي حكمه ان شاء الله تعالى عند قوله تعالى ما أفاء الله على رسوله وأما الغنيمة فهي ما حصل لنا منهم مما هو لهم بايجاف أو سرقة أو التقاط وكذا ما انهزموا عنه عند التقاء الصفين ولو قبل شهر السلاح أو أهداه الكافر لنا والحرب قائمة ولم تحل الغنائم لاحد قبل الاسلام بل كانت الانبياء اذا غنموا مالا جمعوه فتأتي نار من السماء تأخذه ثم أحلت للنبي صلى الله عليه وسلم وكانت في صدر الاسلام له خاصة لانه كالمقاتلين كلهم نصرة وشجاعة بل أعظم ثم نسخ ذلك واستقل الامر على أنها تجعل خمسة أقسام متساوية ويؤخذ خمس رقاع ويكتب على واحدة لله أو للمصالح وعلى أربع للغانمين ثم تدرج في بنادق مستوية ويخرج لكل خمس رقعة فما خرج لله أو للمصالح جعل بين أهل الخمس على خمسة أصناف وهو النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه وذكر الله تعالى في الآية للتبرك وأما ما كان له صلى الله عليه وسلم فهو لمصالح المسلمين كسد الثغور وأرزاق علماء بعلوم تتعلق بمصالحنا كتفسير وفقه وحديث والصنف الثاني ما ذكره الله تعالى بقوله (ولذي القربى) أي قرابة النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وبني المطلب دون من عداهم لاقتصاره صلى الله عليه وسلم في القسم عليهم مع سؤال غيرهم من بني عميهم نوفل وعبد شمس له ولقوله صلى الله عليه وسلم انما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد وشبك بين أصابعه فيعطون ولو أغنياء ويفضل الذكر على الانثى كالارث لانه عطية من الله تعالى تستحق بقرابة الاب كالارث فلا يعطى أولاد البنات من بني هاشم والمطلب شيأ لانه صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير وعثمان مع ان أم كل واحد منهما كانت هاشمية والصنف الثالث ما ذكره الله تعالى بقوله (واليتامى) اليتيم صغير ولو أنثى لخبر لا يتم بعد احتلام لا أب له وان كان له أم وجد ومن فقد أمه فقط يقال له منقطع واليتيم في البهائم من فقد أمه وفي الطير من فقد أباه وأمه والصنف الرابع ما ذكره الله تعالى بقوله (والمساكين) الصادقين بالفقراء والمسكين من له مال أو كسب لائق به يقع موقعا من كفايته ولا يكفيه العمر الغالب وقيل سنة كمن يملك أو يكسب سبعة أو ثمانية ولا يكفيه الا عشرة والفقير من لا مال له أوله ذلك ولا يقع موقعا من كفايته كمن يحتاج الى عشرة ولا يملك أو لا يكتسب الا درهمين أو ثلاثة والخامس ما ذكره الله تعالى بقوله (وابن السبيل) وهو المسافر المحتاج ولا معصية بسفره والاخماس الاربعة الباقية للغانمين وهم من حضر القتال ولو في أثنائه بنية القتال وان لم يقاتل أو حضر بلا نية وقاتل كأجير لحفظ أمتعة وتاجر ومحترف وقوله تعالى (ان كنتم آمنتم بالله) متعلق بمحذوف دل عليه واعلموا أي ان كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه اليهم واقنعوا بالاخماس الاربعة الباقية فان العلم العملي اذا أمر به لم يرد منه العلم المجرد لانه مقصود بالعرض والمقصود بالذات هو العمل وقوله تعالى (وما) عطف على بالله (أنزلنا على عبدنا)

محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات والملائكة والنصر (يوم الفرقان) أى يوم بدر فانه فرق به بين الحق والباطل (يوم التقى الجمعان) أى جمع المؤمنين وجمع الكافرين وهو يوم بدر وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسعة عشر أو لسبعة عشر من رمضان وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركون ما بين الالف والتسعمائة فهزم الله تعالى المشركين وقتل منهم سبعون وأسر منهم مثل ذلك (والله على كل شئ قدير) فيقدر على نصر القليل على الكثير والذليل على العزيز كما فعل ذلك بكم ذلك اليوم وقوله تعالى (اذ أنتم بالعدوة الدنيا) أى القربى من المدينة بدل من يوم الفرقان أو من يوم التقى الجمعان أو منصوب باذكروا مقدرا والعدوة الدنيا مما يلى المدينة (وهم بالعدوة القصوى) أى البعدى من المدينة وهى مما يلى مكة وكان الماء بها وكان استظهار المشركين من هذا الوجه أشد والقصوى تأنيث الاقصى وكان قياسه قلب الواو كالدنيا والعليا ولكن لم تقلب تفرقة بين الاسم والصفة فانها تقلب فى الاسم دون الصفة على الاكثر وقيل بالعكس وعلى الاول القصوى وان كان صفة للعدوة فى الآية كالدنيا لكن غلب عليها الاسمية لترك الوصف بها فى أكثر الاستعمالات كما قاله ابن جنى فالقصوى بالواو على القولين شاذ بالنظر الى اسميتها فى الاول والى وصفيتها فى الثانى ومثال الصفة الخالصة حلوى تأنيث الاحلى فهى بالواو مقيسة على الاول شاذة على الثانى ومثال الاسم الخالص حزوى اسم مكان فهو بالواو شاذ على الاول مقيس على الثانى وقرأ ابن كثير وأبو عمرو العدوة وهى شط الوادى بكسر العين فيهما والباقون بضم العين فيهما وأما الدنيا والقصوى فأمالهما حمزة والكسائى محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين (والركب) أى العير التى خرجوا لها التى يقودها أبو سفيان (أسفل منكم) أى أسفل منكم على ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر وأسفل نصب على الظرفية معناه مكانا أسفل من مكانكم وهو مرفوع المحل لانه خبر المبتدا (ولو تواعدتم) أنتم والنفير للقتال (لاختلفتم فى الميعاد) وذلك أن المسلمين خرجوا ليأخذوا العير راغبين فى الخروج وخرج الكفار مرعوبين مما بلغهم من تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لاموالهم فيمنعوها من المسلمين فالتقوا على غير ميعاد لقلتهم وكثرة عدوهم (ولكن) جمع الله تعالى بينهم على هذه الحالة من غير ميعاد (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) فى علمه وهو نصر أوليائه واعزاز دينه واعلاء كلمته وقهر أعدائه وقوله تعالى (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) بدل من ليقضى أو متعلق بقوله مفعولا واستعير الهلاك والحياة للكفر والاسلام أى ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالطة شبهة حتى لا يبقى له على الله حجة ويصدر اسلام من أسلم أيضا عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذى يجب الدخول فيه والتمسك به فان وقعة بدر من الآيات الواضحة التى من كفر بعدها كان مكابرا لنفسه مغالطا لها وقرأ نافع والبزى وشعبة بياءين الاولى مكسورة والثانية مفتوحة والباقون بياء واحدة مشددة ثم انه تعالى ختم الآية بقوله (وان الله لسميع عليم) أى يسمع دعاءكم

ويعلم

بعلم حاجتكم وضعفكم لا تخفى عليه خافية (اذ) أى واذكر يا محمد نعمة الله عليك اذ ريكهم الله) أى المشركين (فى منامك) أى نومك (قليلا) فأخبرت أصحابك فسروا وقالوا رؤيا نبى صلى الله عليه وسلم حق وصار ذلك سببا لجراءتهم على عدوهم وقوة لقلوبهم (فان قيل) رؤيا كثير قليلا غلط فكيف يجوز على الله تعالى (أجيب) بأن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسئل عما يفعل أو أنه تعالى أراه بعضهم دون بعض فحكم صلى الله عليه وسلم على أولئك الذين آهم بأنهم قليلون وقال الحسن ان هذه الاراءة كانت فى اليقظة قال والمراد من المنام العين التى ى موضع النوم (ولو اراكهم كثيرا لفشلتم) أى ولو أراكهم كثيرا لذكرته للقوم ولو سمعوا لك لفشلوا أى جبنوا (ولتنازعتم) أى اختلفتم (فى الامر) أى أمر القتال وتفرقت آراؤكم بين فرار والقتال (ولكن الله سلم) أى سلمكم من الفشل والتنازع فيما بينكم وقيل سلمكم من هزيمة والقتل (انه) تعالى (عليم) أى بالغ العلم (بذات الصدور) أى بما فى القلوب من الجراءة الجبن والجزع وغير ذلك (واذ يريكموهم) أيها المؤمنون (اذ التقيتم فى أعينكم قليلا) أى ان له تعالى قلل عدد المشركين فى أعين المؤمنين يوم التقوا فى القتال ليتأكد فى اليقظة ما رآه نبى صلى الله عليه وسلم فى منامه وأخبر به أصحابه وتقوى بذلك قلوب المؤمنين وتزداد جراءتهم لا يجبنوا عن قتالهم قال ابن مسعود لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل الى جنبى أتراهم سبعين ال أراهم مائة فأسرنا رجلا منهم فقلنا كم كنتم قال ألفا والضميران مفعولا يرى وقليلا ال من الثانى (ويقللكم فى أعينهم) أى ويقللكم يا معشر المؤمنين فى أعينهم أى المشركين لئلا هربوا واذا استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا فى الاستعداد والتأهب لقتالهم فيكون ذلك ببا لظهور المؤمنين قال السدى قال ناس من المشركين ان العير قد انصرفت فارجعوا فقال بو جهل الآن اذ برز لكم محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم انما محمد وأصحابه أكلة زور يعنى جمع آكل أى قليل يشبعهم جزور واحد يضرب مثلا فى القلة والامر الذى يعبأ به ثم قال فلا تقتلوهم واربطوهم بالحبال أراد بقوله ذلك القدرة والقوة (فان قيل) كيف كن تقليل الكثير وتكثير القليل (أجيب) بأن ذلك ممكن فى قدرة الله تعالى وان الله تعالى على ايشاء قدير ويكون ذلك معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم والمعجزة هى من خوارق العادات لا ينكر ذلك أو أن الله تعالى يستر عنهم بعضه بساتر أو يحدث فى أعينهم ما يستقلون له الكثير كما حدث فى عيون الحول ما يرون له الواحد اثنين قيل لبعضهم ان الاحول يرى الواحد اثنين وكان بن يديه ديك قال فمالى لا أرى هذين الديكين أربعة وهذا قبل التحام القتال فلما التحم أراهم اياهم ثليهم كما فى آل عمران (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) أى فى علمه وهو اعلاء كلمة الاسلام ونصر أهله فان قيل) قد تقدم ذلك فى الآية المتقدمة فكان ذكره هنا محض تكرار (أجيب) بأن المقصود ن ذكره فى الآية المتقدمة هو أنه تعالى فعل تلك الافعال ليحصل استيلاء المؤمنين على الكافرين لى وجه يكون معجزة دالة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم والمقصود من ذكره هنا ليس هو لك المعنى بل المقصود أنه تعالى ذكر هنا أنه قلل عدد المؤمنين فى أعين الكفار فبين تعالى أنه

انما فعل ذلك ليصير ذلك سببا لئلا يبالغ الكفار في تحصيل الاستعداد والحذر فيصير ذلك سببا لانكسارهم (والى الله ترجع الامور) كلها فلا ينفذ الا ما يريد انفاذه فلا تجري الامور على ما يظنه العباد وفي هذا تنبيه على أن أمور الدنيا غير مقصودة وانما المراد منها ما يصلح أن يكون زاد اليوم المعاد * ولما ذكر تعالى أنواع نعمه على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين يوم بدر علمهم اذا التقوا بالفئة وهي الجماعة من الكفار بين نوعين من الادب بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم) أي قاتلتم لان اللقاء سبب للقتال غالبا (فئة) أي جماعة كافرة (فاثبتوا) لقتالهم كما ثبتم في بدر ولا تحدثوا أنفسكم بفرار وهذا هو النوع الاول (واذكروا الله كثيرا) بقلوبكم وألسنتكم قال ابن عباس أمر الله تعالى أولياءه بذكره في أشد أحوالهم تنبيها على ان الانسان لا يجوز له أن يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله ولو أن رجلا أقبل من المشرق الى المغرب على ان ينفق الاموال سخاء والآخر من المغرب الى المشرق يضرب بسيفه في سبيل الله لكان الذاكر لله أعظم أجرا وقيل المراد من هذا الذكر الدعاء بالنصر والظفر لان ذلك لا يحصل الا بمعونة الله تعالى (لعلكم تفلحون) أي تظفرون بمرادكم من النصر والثبوت (فان قيل) هذه الآية توجب الثبات على كل حال وذلك يوهم أنها ناسخة لآية التحرف والتحيز (أجيب) بأن المراد من الثبات الجد في المحاربة بل كان الثبات في هذا المقصود لا يحصل الا بذلك التحرف والتحيز * ثم قال تعالى مؤكدا لذلك (وأطيعوا الله ورسوله) في سائر ما يأمران به لان الجهاد لا ينفع الا مع التمسك بسائر الطاعات (ولا تنازعوا) أي تختلفوا فيما بينكم (فتفشلوا) أي تجبنوا (وتذهب ريحكم) أي قوتكم ودولتكم والريح مستعارة للدولة شبهها في نفوذ أثرها بالريح ثم أدخل المشبه في جنس المشبه به ادعاء وأطلق اسم المشبه به على المشبه وقيل المراد بها الحقيقة لانه لم يكن قط نصر الا بريح يبعثها الله تعالى وفي حديث الشيخين نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور وعن النعمان بن مقرن قال شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اذا لم يقاتل من أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر أخرجه أبو داود (واصبروا) أي عند لقاء العدو ولا تنهزموا عنه (ان الله مع الصابرين) بالنصر والمعونة روى أنه صلى الله عليه وسلم قال أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف ثم قال صلى الله عليه وسلم اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الاحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم) أي ليمنعوا عيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها (بطرا) اى فخرا وطغيانا في النعمة وذلك ان النعم اذا كثرت من الله تعالى على العبد فان صرفها في المفاخرة على الاقران وكاثر بها أبناء الزمان وأنفقها في غير طاعة الرحمن فذلك هو البطر في النعمة وان صرفها في طاعة الله وابتغاء مرضاته فذلك شكرها (ورئاء الناس) أي ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وأتاهم رسول أبي سفيان ان ارجعوا فقد سلمت عيركم فقال أبو جهل لا والله حتى نقدم بدرا وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم فيها سوق في كل عام

ونشرب بها الخمور وتعزف علينا القينات والعزف اللعب بالمعازف وهي الدفوف وغيرها مما يضرب به قاله ابن الاثير وغيره والقينات الجواري ونطعم بها من حضرنا من العرب فذلك بطرهم ورياؤهم الناس بإطعامهم فوافوها فسقوا المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القينات فنهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مرائين وأمرهم ان يكونوا أهل تقوى واخلاص من حيث ان النهي عن الشيء أمر بضده (ويصدون عن سبيل الله) أي ويمنعون الناس الدخول في دين الله (والله بما يعملون محيط) لا يخفى عليه شيء لانه محيط بأعمال العباد كلها فيجازيهم بأعمالهم (واذ) أي واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم اذ (زين لهم) أي المشركين (الشيطان) أي ابليس (أعمالهم) الخبيثة بأن شجعهم على لقاء المسلمين لما خافوا الخروج من أعدائهم بني بكر بن الحرث جاء ابليس وجند من الشياطين معه راية فتمثل لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الشاعر الكناني وكان من أشرافهم (وقال) غاراً لهم في أنفسهم (لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم) أي مجير لكم من كنانة (فلما تراءت الفئتان) أي التقى الفريقان رأى ابليس الملائكة قد نزلوا من السماء علم عدو الله ابليس أنهم لا طاقة لهم بهم (نكص على عقبيه) قال الضحاك ولى مدبرا وقال النضر بن شميل رجع القهقرى على قفاه هاربا (وقال اني بريء منكم) قال الكلبي لما التقى الجمعان كان ابليس في صف المشركين على صورة سراقة بن مالك وهو آخذ بيد الحرث بن هشام فنكص عدو الله ابليس على عقبيه فقال له الحرث الى أين أتخذلنا في هذه الحالة فقال له عدو الله ابليس (اني أرى ما لا ترون) ودفع في صدر الحرث وانطلق فانهزموا قال الحسن رأى ابليس جبريل بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وفي يده اللجام يقود الفرس ما ركب قال قتادة قال ابليس اني أرى ما لا ترون وصدق وقال (اني أخاف الله) وكذب والله ما به مخافة الله ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة فأوردهم وأسلمهم وذلك من عادة عدو الله ابليس لعنه الله لمن أطاعه اذا التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرأ منهم وقال عطاء خاف ابليس ان يهلكه الله تعالى فيمن يهلك وقيل أخاف الله عليكم وقيل انه لما رأى جبريل خافه وقيل لما رأى الملائكة تنزل من السماء خاف أن يكون الوقت الذي أنظر اليه قد حضر فقال ما قال اشفاقا على نفسه ولما انهزموا وبلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغه ذلك فقال والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان وقوله تعالى (والله شديد العقاب) يجوز أن يكون من كلام ابليس أي اني أخاف الله لانه شديد العقاب وأن يكون مستأنفا أي والله شديد العقاب لمن خالفه وكفر به (فان قيل) كيف يقدر ابليس أن يتصور بصورة البشر واذا تشكل بصورة البشر فكيف يسمى شيطانا (أجيب) بأن الله تعالى أعطاه قوة وأقدره على فعل ذلك كما أعطى الملائكة قوة وأقدرهم على أن يتشكلوا بصورة البشر لكن النفس الباطنية لم تتغير فلم يلزم من تغير الصورة تغير الحقيقة وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال ما رؤي ابليس يوما فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة وما ذاك الا لما يرى من نزول الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام الا ما كان

من يوم بدر (اذ) أى واذكر اذ (يقول المنافقون) أى من أهل المدينة والمنافق هو من يظهر الاسلام ويخفى الكفر كما أن المرائى هو من يظهر الطاعة ويخفى المعصية (والذين فى قلوبهم مرض) أى شك وارتياب وهم قوم من أهل مكة تكلموا بالاسلام ولم يقع الاسلام فى قلوبهم ولم يتمكن فلما خرج قريش الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا معهم الى بدر فلما نظروا الى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا (غرّ هؤلاء) المسلمين (دينهم) اذ خرجوا مع قلتهم يقاتلون الجمع الكثير توهما أنهم ينصرون بسببه فقتلوا جميعا منهم قيس بن الوليد بن المغيرة وعدى بن أمية بن خلف الجمحى والعاص بن أمية بن الحجاج قال تعالى فى جوابهم (ومن يتوكل على الله) أى يثق به يغلب (فان الله عزيز) أى غالب على أمره (حكيم) أى فى صنعه يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن ادراكه ولما شرح تعالى أحوال هؤلاء الكفار شرح أحوال موتهم والعذاب الذى يصل اليهم فى ذلك الوقت بقوله تعالى (ولو ترى) أى عاينت وشاهدت يا محمد (اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) أى يقبض أرواحهم عند الموت (يضربون وجوههم وأدبارهم) أى ظهورهم واستاههم قال البيضاوى ولعل المراد تعميم الضرب أى يضربون ما أقبل منهم وما أدبر بمقامع من حديد (و) يقولون لهم (ذوقوا عذاب الحريق) أى النار قال ابن عباس كان المشركون اذا أقبلوا بوجوههم الى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيف واذا ولوا ضربوا أدبارهم فلا جرم قابلهم الله بمثله فى وقت نزع الروح وجواب لو محذوف والتقدير لرأيت منظرا هائلا وأمرا فظيعا وعقابا شديدا والملائكة مرفوع بالفعل ويضربون حال منهم ويجوز أن يكون فى قوله يتوفى ضمير الله تعالى والملائكة مرفوعة بالابتداء ويضربون خبر (ذلك) أى الذى نزل بكم من القتل والضرب والحريق (بما) أى بسبب ما (قدمت) أى كسبت (أيديكم) من الكفر والمعاصى وانما عبر بالايدى دون غيرها لان أكثر الافعال تزاول بها وقال التحقيق ان الانسان جوهر واحد وهو الفعال وهو الدراك وهو المؤمن وهو الكافر وهو المطيع وهو العاصى وهذه الاعضاء آلة له وأدوات فى الفعل فأضيف الفعل فى الظاهر الى الآلة وهو فى الحقيقة مضاف الى جوهر ذات الانسان (وأن الله ليس بظلام للعبيد) فلا يعذب أحدا من خلقه بغير ذنب وظلام للتكثير لاجل العبيد أى أنه بمعنى ذى ظلم (كدأب) أى دأب هؤلاء الكفار بكفرهم مثل دأب (آل فرعون) وهو عادتهم وعملهم الذى دأبوا فيه أى داموا عليه فجوزى هؤلاء بالقتل والاسر يوم بدر كما جوزى آل فرعون بالاغراق وأصل الدأب فى اللغة ادامة العمل يقال فلان دأب فى كذا أى داوم عليه وسميت العادة دأبا لان الانسان مداوم على عادته مواظب عليها (والذين من قبلهم) أى من قبل آل فرعون وقوله تعالى (كفروا بآيات الله) تفسير لدأب آل فرعون (فأخذهم الله بذنوبهم) أى بسبب كفرهم كما أخذ هؤلاء (ان الله قوى) أى على ما يريده فينتقم ممن كفر وكذب رسله (شديد العقاب) لمن كفر وكذب رسله وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى ما حل بهم من العقاب (بأن) أى

بسبب ان (الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم) أى مبدلا لها بالنقمة (حتى يغيروا ما بأنفسهم) أى بأن يبدلوا ما بهم من الحال الى حال أسوأ منه (فان قيل) فما كان من تغيير آل فرعون ومشركى مكة حتى غير الله تعالى نعمته عليهم ولم تكن لهم حال مرضية فيغيروها الى حال مسخوطة (أجيب) بأنه تعالى كما يغير الحال المرضية الى المسخوطة يغير الحال المسخوطة الى أسخط منها وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم كفرة عبدة أوثان فلما بعث اليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين فى اراقة دمه غيروا حالهم الى أسوأ مما كانت عليه فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من الامهال وعاجلهم بالعذاب (وان الله سميع) لما يقولون (عليم) بما يفعلون (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم) أى أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة وبعضهم بالريح وبعضهم بالمسخ كذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف (وأغرقنا آل فرعون) أى هو وقومه (فان قيل) ما فائدة تكرير هذه الآية مرة ثانية (أجيب) بأن فيها فوائد منها أن الكلام الثانى يجرى مجرى التفصيل للكلام الاول لان الكلام الاول فيه ذكر أخذهم وفى الثانى ذكر اغراقهم وذلك تفصيل ومنها أنه ذكر فى الآية الاولى انهم كفروا بآيات الله وفى الآية الثانية أنهم كذبوا بآيات ربهم ففى الآية الثانية اشارة الى أنهم كذبوا بها مع جحودهم لها وكفرهم بها ومنها أن تكرير هذه القصة للتأكيد ولما نيط به من الدلالة على كفران النعم بقوله بآيات ربهم وبيان ما أخذ به آل فرعون ومنها ان الاولى لسببية الكفر والثانية لسببية التغيير والنقمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم (وكل) أى من الفرق المكذبة أو من غرقى القبط وقتلى قريش (كانوا ظالمين) أنفسهم بالكفر والمعاصى وغيرهم بالاضلال واضعين الآيات فى غير موضعها وهم يظلمون بأنفسهم العدل ولما وصف تعالى كل الكفار بقوله تعالى وكل كانوا ظالمين أفرد بعضهم بمزية فى الشر والفساد فقال (ان شر الدواب عند الله) فى حكمه وعلمه (الذين كفروا) أى أصروا على الكفر (فهم لا يؤمنون) أى لا يتوقع منهم ايمان وقوله تعالى (الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة) بدل البعض من الذين كفروا وهم يهود قريظة عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لا يمالئوا أى يساعدوا عليه فنكثوا بأن أعانوا مشركى مكة بالسلاح وقالوا نسينا وأخطأنا ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤا معهم يوم الخندق وانطلق كعب بن الاشرف الى أهل مكة فحالفهم وانما جعلهم الله تعالى شر الدواب لان شر الناس الكفار وشر الكفار المصرون منهم وشر المصرين الناكثون العهود (وهم لا يتقون) الله فى حذرهم (فاما) فيه ادغام ان الشرطية فى ما الزائدة (تثقفنهم) أى تجدن هؤلاء الذين نقضوا العهد وظفرت بهم (فى الحرب فشرد) قال ابن عباس فنكل (بهم) أى بهؤلاء الذين نقضوا العهد (من خلفهم) أى من وراءهم من أهل مكة واليمن وغيرهما فيخافون أن تفعل بهم كفعل هؤلاء وقال عطاء أثخن فيهم القتل حتى يخافك غيرهم (لعلهم) أى الذين خلفهم (يذكرون) أى يتعظون بهم (واما تخافن) أى تعلمن يا محمد (من قوم) عاهدتهم (خيانة) فى العهد بامارات تلوح لك

كما ظهر من قريظة والنضير (فانبذ) أى اطرح عهدهم (اليهم) وقوله تعالى (على سواء) حال أى مستويا أنت وهم فى العلم بنقض العهد بأن تعلمهم به لئلا يتهموك بالغدر اذا نصبت الحرب معهم (ان الله لا يحب الخائنين) أى فى نقض العهد أو غيره روى ان معاوية كان بينه وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم حتى اذا انقضى العهد غزاهم فجاء رجل على فرس او برذون وهو يقول الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدرا فاذا هو عمرو بن عنبسة فأرسل اليه معاوية يسأله فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان بينه وبين قوم عهد فلا ينبذ عقدة ولا يحلها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ اليهم على سواء فرجع معاوية

قوله فرجع معاوية فى نسخة عاقبله تأمل اه مصححه

قال الرازى حاصل الكلام فى هذه الآية أنه تعالى أمره بقتل من ينقض العهد على أقبح الوجوه وأمره أن يتباعد على أقصى الوجوه من كل ما يوهم نكث العهد ونقضه قال أهل العلم اذا ظهرت آثار نقض العهد ممن عاهدهم الامام من المشركين بأمر ظاهر مستفيض اما أن يظهر ظهورا محتملا أو ظهورا مقطوعا به فان كان الاول وجب الاعلام عليه على ما هو مذكور فى هذه الآية وذلك أن قريظة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين الى مظاهرتهم على النبى صلى الله عليه وسلم فحصل للنبى صلى الله عليه وسلم خوف الغدر به وبأصحابه فههنا يجب على الامام أن ينبذ اليهم على سواء ويعلمهم بالحرب وأما اذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فههنا لا حاجة الى نبذ العهد بل يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم فى ذمة النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرعهم الا وجيش النبى صلى الله عليه وسلم بمر الظهران وذلك على أربعة فراسخ من مكة ولما بين تعالى ما يفعله صلى الله عليه وسلم فى حق من يجده فى الحرب ويتمكن منه وذكر أيضا ما يجب أن يفعله فيمن ظهر منه نقض العهد بين أيضا حال من فاته فى يوم بدر وغيره لكى لا تبقى حسرة فى قلبه فقد كان فيهم من بلغ فى أذية النبى صلى الله عليه وسلم مبلغا عظيما بقوله تعالى (ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا) أى خلصوا من القتل والاسر يوم بدر (انهم لا يعجزون) الله أى لا يفوتونه بهذا السبق فى الانتقام منهم اما فى الدنيا بالقتل واما فى الآخرة بعذاب النار وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منه فأعلمه الله تعالى انهم لا يعجزونه وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص يحسبن بالياء على الغيبة على أن الفعل للذين كفروا والباقون بالتاء على الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشرد من صدر منه نقض العهد الى من خاف منه النقض واتفق لاصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أنهم قصدوا الكفار بلا آلة ولا عدة أمرهم فى هذه الآية بالاعداد لهؤلاء الكفار بقوله تعالى (وأعدوا لهم) أى لقتالهم (ما استطعتم من قوة) الاعداد اتخاذ الشئ لوقت الحاجة اليه وفى المراد بالقوة أقوال الاول الرمى وقد جاءت مفسرة به عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول وأعدوا لهم ما استطعتم الا ان القوة الرمى ثلاثا أخرجه مسلم وعن أبى أسيد رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين

صففنا

صفقنا قريش وصفوا الناذا كبسوكم فعليكم بالنبل وفى رواية ليس من اللهو محمود الا ثلاثة تأديب الرجل فرسه وملاعبة أهله ورميه بقوسه أى نبله فانهن من الحق ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فانها نعمة تركها أو كفرها أخرجه الترمذى والثانى انها الحصون والثالث انها جميع الاسلحة والآلات التى تكون لكم قوة فى الحرب على قتال عدوكم وقوله تعالى (ومن رباط الخيل) مصدر بمعنى حبسها فى سبيل الله سواء كانت ذكورا أو اناثا وقال عكرمة المراد الاناث وروى عن خالد بن الوليد انه قال لا يركب فى القتال الا الاناث لقلة صهيلها وعن ابى محيريز انه قال كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف واناث الخيل عند البيات والغارات وقيل ربط الفحول أولى لانها أقوى على الكر والفر ويدل للاول ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا فى سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وبوله وروثه فى ميزانه يوم القيامة يعنى حسناته وعن عروة البارقى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة الاجر والمغنم وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمر فقال ما أنزل على فيها الا هذه الآية الجامعة الفاذة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (ترهبون) أى تخوفون (به) أى بتلك القوة أو بذلك الرباط (عدو الله وعدوكم) أى الكفار من أهل مكة وغيرهم وذلك ان الكفار اذا علموا ان المسلمين متأهبون للجهاد مستعدون له مستكملون لجميع الاسلحة وآلات الحرب واعداد الخيل مربوطة للجهاد خافوهم فلا يقصدون دخول دار الاسلام بل يصير ذلك سببا لدخول الكفار فى الاسلام أو بذل الجزية للمسلمين (و) ترهبون (آخرين من دونهم) أى غيرهم وهم المنافقون لقوله تعالى (لا تعلمونهم) لانهم معكم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم (الله يعلمهم) أى انهم منافقون (فان قيل) المنافقون لا يخافون القتال فكيف يوجب ما ذكر الارهاب (أجيب) بأن المنافقين اذا شاهدوا قوة المسلمين وكثرة آلاتهم وأسلحتهم كان ذلك مما يخوفهم ويقطع طمعهم من أن يصيروا غالبين فيحملهم ذلك على أن يتركوا الكفر من قلوبهم وبواطنهم ويصيروا مخلصين فى الايمان وقيل هم اليهود وقيل الفرس (وما تنفقوا من شئ) وان قل (فى سبيل الله) أى طاعته جهادا كان أو غيره (يوف اليكم) قال ابن عباس أجره أى لا يضيع فى الآخرة أجره ويعجل الله عوضه فى الدنيا (وأنتم لا تظلمون) أى لا تنقصون من الثواب ولما ذكر ابن عباس عن هذا التفسير تلا قوله تعالى آتت أكلها ولم تظلم منه شيأ ولما بين تعالى ما يرهب به العدو من القوة والاستظهار بين جواز الصلح بقوله تعالى (وان جنحوا) أى مالوا (للسلم) أى الصلح (فاجنح) أى مل (لها) وعاهدهم وتأنيث الضمير فى لها لحمل السلم مع انه مذكر على ضده وهو الحرب قال الشاعر

السلم تأخذ منها ما رضيت به * والحرب يكفيك من انفاسها جرع

فأنث ضمير السلم فى تأخذ حملا على ضده وهو الحرب وعن ابن عباس هذه الآية منسوخة بقوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله وعن مجاهد بقوله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم

وقال غيرهما الصحيح ان الامر موقوف على ما يرى فيه الامام صلاح الاسلام واهله من حرب أو سلم وليس بحتم أن يقاتلوا أبدا أو يجابوا الى الهدنة أبدا وهذا ظاهر وقرأ شعبة بكسر السين والباقون بالفتح (وتوكل على الله) أي فوض أمرك اليه فيما عقدته معهم ليكون عونا لك في جميع أحوالك (انه هو السميع) لاقوالهم فهو يسمع كل ما أبرموه في ذلك وفي غيره كما يسمعه علانية (العليم) بنياتهم فهو يعلم كل ما أخفوه كما انه يعلم كل ما أعلنوه (وان يريدوا) أي الكفار (أن يخدعوك) أي باظهار الصلح ليستعدوا لك (فان حسبك) أي كافيك (الله هو الذي أيدك بنصره) في سائر أيامك فان أمر النبي صلى الله عليه وسلم من أول حياته الى وقت وفاته كان أمرا الهيا وتدبيرا علويا وما كان لكسب الخلق فيه مدخل (و) أيدك (بالمؤمنين) أي الانصار (فان قيل) فاذا كان الله تعالى مؤيده بنصره فأي حاجة مع نصره تعالى الى المؤمنين (أجيب) بأن التأييد ليس الا من الله تعالى دائما لكنه على قسمين أحدهما ما يحصل من غير واسطة أسباب معلومة معتادة والثاني ما يحصل بذلك فالاول هو المراد من قوله تعالى أيدك بنصره والثاني هو المراد من قوله تعالى وبالمؤمنين والله تعالى هو مسبب الاسباب وهو الذي أقامهم بنصره ثم بين تعالى كيف أيده بالمؤمنين بقوله تعالى (وألف) أي جمع (بين قلوبهم) وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث الى قوم أنفتهم شديدة وحميتهم عظيمة حتى لو ان رجلا من قبيلة لطم لطمة واحدة قاتلت عنه قبيلته حتى يدركوا ثأره ثم انهم انقلبوا عن تلك الحالة حتى قاتل الرجل أباه وأخاه وابنه واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصارا دعاة فازالة تلك العداوة الشديدة وتبديلها بالمحبة القوية مما لا يقدر عليها الا الله تعالى وصارت تلك معجزة ظاهرة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولهذا قال تعالى (لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) أي تناهت عداوتهم الى حد لو أنفقت في اصلاح ذات بينهم ما في الارض من الاموال لم تقدر على الالفة والصلاح بينهم (ولكن الله ألف بينهم) بقدرته البالغة فانه تعالى المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء (انه) أي الله تعالى (عزيز) أي غالب على أمره لا يعصى عليه ما يريد (حكيم) لا يخرج شيء عن حكمته وقيل الآية نزلت في الاوس والخزرج كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك سادتهم ورؤساءهم فأنساهم الله تعالى ذلك وألف بين قلوبهم بالاسلام حتى تصادقوا وصاروا أنصارا وما ذاك الا بلطيف صنعه وبليغ قدرته (يا أيها النبي حسبك) أي كافيك (الله) * (فان قيل) هذا مكرر (أجيب) بأنه تعالى لما وعده بالنصر عند مخادعة الاعداء وعده بالنصر والظفر في هذه الآية مطلقا على جميع التقديرات فلا يلزم حصول التكرار لان المعنى في الآية الاولى ان أرادوا خداعك كفاك الله تعالى أمرهم والمعنى في هذه الآية عام في كل ما يحتاج اليه في الدين وقوله تعالى (ومن اتبعك من المؤمنين) اما في محل نصب على المفعول معه كقول الشاعر * فحسبك والضحاك سيف مهند * يروى الضحاك بالنصب على انه مفعول معه والمعنى كفاك وكفى اتباعك المؤمنين الله ناصرا أو رفع عطفا على اسم الله تعالى أي كفاك الله وكفى المؤمنون وهذه الآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال وعن سعيد بن

جبير أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر فتمم الله تعالى به الاربعين فنزلت هذه الآية (يا أيها النبي حرض المؤمنين) أي حثهم (على القتال) للكفار والتحريض في اللغة كالتحضيض وهو الحث على الشئ (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) منهم (وان يكن منكم مائة) صابرة (يغلبوا ألفا من الذين كفروا) وهذا خبر بمعنى الامر أي ليقاتل العشرون منكم المائتين والمائة الالف قتال عشرة امثالكم * (تنبيه) * تقييد ذلك بالصبر يدل على انه تعالى ما أوجب هذا الحكم الا بشرط كونه صابرا قادرا على ذلك وانما يحصل هذا الشرط عند حصول أشياء منها ان يكون شديد الاعضاء قويا جلدا ومنها ان يكون قوي القلب شديد البأس شجاعا غير جبان ومنها ان يكون غير متحرف لقتال أو متحيزا الى فئة فان الله تعالى استثنى هاتين الحالتين في الآيات المتقدمة فعند حصول هذه الشروط كان يجب على الواحد أن يثبت للعشرة (فان قيل) حاصل هذه العبارة المطولة ان الواحد يثبت للعشرة فما الفائدة في العدول الى هذه العبارة المطولة (أجيب) بان هذا انما ورد على وفق الواقعة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث السرايا والغالب ان تلك السرايا ما كان ينقص عددها عن العشرين وما كانت تزيد على المائة فلهذا المعنى ذكر الله تعالى هذين العددين وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بالتاء على التأنيث والباقون بالياء على التذكير (بأنهم) أي بسبب انهم (قوم لا يفقهون) أي جهلة بالله تعالى واليوم الآخر فلا يقاتلوا لطلب ثواب وخوف عقاب انما يقاتلون حمية فاذا صدقتموهم في القتال لا يثبتون معكم وكان هذا يوم بدر فرض الله تعالى على الرجل الواحد من المسلمين قتال عشرة من الكافرين فثقلت على المؤمنين قال عطاء عن ابن عباس لما نزل التكليف بهذه الآية صاح المهاجرون وقالوا يارب نحن جياع وعدونا شباع ونحن في غربة وعدونا في أهليهم ونحن قد أخرجنا من ديارنا وأموالنا وعدونا ليس كذلك فنسخها الله تعالى بقوله تعالى (الآن خفف الله عنكم) أيها المؤمنون (وعلم ان فيكم ضعفا) أي في قتال الواحد للعشرة (فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) منهم (وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين) منهم (باذن الله) أي بارادته تعالى فردوا من العشرة الى اثنين فاذا كان المسلمون على قدر النصف من عدوهم لا يجوز أن يفروا وقال عكرمة انما أمر الرجل أن يصبر لعشرة والعشرة لمائة حال ما كان المسلمون قليلين فلما كثروا خفف الله تعالى عنهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيما رجل فر من ثلاثة فلم يفر فان فر من اثنين فقد فر (والله مع الصابرين) بالنصر والمعونة فكيف لا يغلبون قال سفيان بن شبرمة وأرى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل ذلك ونزل لما أخذوا الفداء من أسرى بدر (ما كان) أي ما صح وما استقام (لنبي أن تكون له أسرى) قرأ أبو عمرو بالتاء على التأنيث والباقون بالياء على التذكير (حتى يثخن في الارض) أي يكثر قتل الكفار ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الاسلام ويستولي أهله لان الملك والدولة انما تقوى وتشتد بالقتل قال الشاعر

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى * حتى يراق على جوانبه الدم

روى انه صلى الله عليه وسلم أتى يوم بدر بسبعين أسيرا فيهم العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم وعقيل بن أبى طالب فاستشار فيهم فقال أبو بكر رضى الله عنه قومك وأهلك استبقهم لعل الله تعالى أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك وقال عمر رضى الله عنه كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم فان هؤلاء أئمة الكفر وان الله أغناك عن الفدا مكن عليا من عقيل وحمزة من العباس ومكنى من فلان لنسيب له فلنضرب أعناقهم وقال عبد الله بن رواحة يارسول الله انظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرمه عليهم نارا فقال له العباس قطعت رحمك فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم ثم دخل فقال ناس يأخذ بقول أبى بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول ابن رواحة ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وان الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال من تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم ومثل عيسى فى قوله وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ومثلك يا عمر مثل نوح قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ومثل موسى حيث قال ربنا اطمس على أموالهم ومال رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قول أبى بكر وروى انه صلى الله عليه وسلم قال لعمر يا أبا حفص وكان ذلك أول ما كناه أتامرنى أن أقتل العباس فجعل عمر يقول ويل لعمر ثكلته أمه ثم قال لاصحابه أنتم اليوم عالة ولا يفلتن أحد منهم الا بفداء أو ضرب عنق فقال ابن مسعود الا سهيل بن بيضاء فانى سمعته يذكر الاسلام فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد خوفى فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع على الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا سهيل بن بيضاء ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للقوم ان شئتم قتلتموهم وان شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم فقالوا بل نأخذ الفداء فاستشهدوا بأحد وكان فدا الاسارى عشرين أوقية والاوقية أربعون درهما فيكون مجموع ذلك ألفا وثمانمائة درهم وقال قتادة كان الفداء يومئذ لكل أسير أربعة آلاف قال عمر رضى الله عنه فلما كان من الغد جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه يبكيان قلت يارسول الله أخبرنى من أى شئ تبكى أنت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وان لم أجد بكاء تباكيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه (تريدون) أيها المؤمنون (عرض الدنيا) بأخذكم الفداء من المشركين وانما سمى منافع الدنيا عرضا لانها لا ثبات لها ولا دوام فكأنها تعرض ثم تزول بخلاف منافع الآخرة (والله يريد لكم (الآخرة) أى ثوابها بقهركم المشركين ونصركم الدين (والله عزيز) لا يقهر ولا يغلب (حكيم) أى لا يصدر منه فعل الا وهو فى غاية الاتقان قال ابن عباس كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى فى الاسرى فاما منا بعد واما فداء فجعل الله تعالى نبيه والمؤمنين فى أمر الاسرى بالخيار ان شاؤا قتلوهم وان شاؤا فادوهم وان شاؤا

أحقروهم أى فهذه الآية نسخت تلك قال ابن عباس رضى الله عنهما كانت الغنائم حراما على الانبياء والامم وكانوا اذا أصابوا مغنما جعلوه للقربان وكانت تنزل نار من السماء فتأكله فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون وأخذوا الفداء فأنزل الله تعالى (لولا كتاب من الله سبق) أى لولا قضاء الله سبق فى اللوح المحفوظ بأنه يحل لكم الغنائم (لمسكم) أى لنالكم (فيما أخذتم) أى من الفداء (عذاب عظيم) وقال الحسن ومجاهد لولا كتاب من الله سبق انه لا يعذب أحدا ممن شهد بدرا مع النبى صلى الله عليه وسلم قال ابن اسحق لم يكن من المؤمنين أحد الا أحب الغنائم الا عمر ابن الخطاب فانه أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الاسرى وسعد بن معاذ قال يا رسول الله كان الاثخان فى القتل أحب الى من استبقاء الرجال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو نزل من السماء عذاب ما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ روى لما نزلت هذه الآية كف رسول الله صلى الله عليه وسلم أيديهم أن يأخذوا من الفداء فنزلت (فكلوا مما غنمتم) أى من الفداء فانه من جملة الغنائم (حلالا طيبا) فأحل الله الغنائم بهذه الآية لهذه الامة وقال صلى الله عليه وسلم أحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى وروى انه صلى الله عليه وسلم قال لم تحل الغنائم لاحد قبلنا ثم أحل لنا الغنائم ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا (فان قيل) ما معنى الفاء فى قوله تعالى فكلوا (أجيب) بأنها سببية والسبب محذوف تقديره أبحت لكم الغنائم فكلوا وبهذه تشبث من زعم ان الامر الوارد بعد الحظر للاباحة وحلالا حال من المغنوم أو صفة للمصدر أى أكلا حلالا وفائدته ازاحة ما وقع فى نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة ولذلك وصفه بقوله طيبا (واتقوا الله) فى مخالفته (ان الله غفور) غفر ذنوبكم (رحيم) أباح لكم ما أخذتم وقوله تعالى واتقوا الله اشارة الى المستقبل وقوله تعالى ان الله غفور رحيم اشارة الى الحالة الماضية ولما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الفداء من الاسارى وشق عليهم أخذ أموالهم منهم ذكر الله تعالى هذه الآية استمالة لهم فقال عز من قائل (يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الاسارى) قرأ أبو عمرو بضم الهمزة وفتح السين بعدها ألف والباقون بفتح الهمزة وسكون السين ولا ألف بعدها وامال الالف بعد الراء أبو عمرو وحمزة والكسائى محضة وورش بين بين (ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا) أى خلوص ايمان وصحة نية (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) من الفداء قال ابن عباس نزلت فى العباس وعقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحرث كان العباس أسيرا يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس فكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لاهل بدر فلم تبلغه النوبة حتى أسر فقال العباس كنت مسلما الا أنهم أكرهونى فقال صلى الله عليه وسلم ان يكن ما تذكره حقا فالله يجزيك وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا قال العباس وكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يترك ذلك الذهب لى فقال أما شئ خرجت به تستعين به علينا فلا قال فكلفنى فداء ابن أخى عقيل بن أبى طالب عشرين أوقية وفداء نوفل بن الحرث فقال العباس تركتنى يا محمد أتكفف قريشا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين الذهب الذى دفعته الى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها ما أدرى ما يصيبنى فان

حدث بى حادث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقثم فقال العباس وما يدريك يا ابن أخى
قال أخبرنى به ربى فقال العباس أنا أشهد انك صادق وأشهد أن لا إله الا الله وانك عبده ورسوله
والله لم يطلع عليه أحد الا الله ولقد دفعته اليها فى سواد الليل ولقد كنت مرتابا فى أمرك فأما اذ
أخبرتنى بذلك فلا ريب قال العباس فأبدلنى الله خيرا من ذلك لى الآن عشرون عبدا وان أدناهم
ليضرب فى عشرين ألفا وأعطانى زمزم وما أحب ان لى بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر
المغفرة من ربى وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفا فتوضأ
لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه وأمر العباس أن يأخذ منه فأخذ منه ما قدر على حمله وكان يقول
هذا خير مما أخذ منى وأنا أرجو المغفرة من ربكم يعنى الدعوة بقوله تعالى (ويغفر لكم والله غفور
رحيم) واختلف المفسرون فى أن الآية نزلت فى العباس خاصة أو فى جملة الاسارى قال بعضهم
انها نزلت فى الكل قال الرازى وهذا أولى لان ظاهر الآية يقتضى العموم من ستة أوجه أحدها
قوله تعالى قل لمن فى أيديكم وثانيها قوله تعالى من الاسرى وثالثها قوله تعالى ان يعلم الله فى قلوبكم
خيرا ورابعها قوله تعالى يؤتكم خيرا وخامسها قوله تعالى مما أخذ منكم وسادسها قوله تعالى ويغفر
لكم فدلت هذه الالفاظ الستة على العموم فما الموجب للتخصيص أقصى ما فى الباب أن يقال
سبب نزول هذه الآية هو العباس الا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (وان يريدوا)
أى الاسارى (خيانتك) أى بما أظهروا من القول (فقد خانوا الله) بالكفر ونقض ميثاقه
المأخوذ بالعهد (من قبل) أى قبل بدر (فأمكن منهم) ببدر فقتلوا وأسروا فليتوقعوا مثل ذلك ان
عادوا (والله عليم) بما فى بواطنهم وضمائرهم من ايمان وتصديق وخيانة (حكيم) أى بالغ الحكمة
فهو يتقن كل ما يريده فيوهن كيدهم ويتقن ما يقابلهم به فيلحقهم لا محالة وكذا فعل تعالى فى
ابن عزة الجمحى فانه سأل النبى صلى الله عليه وسلم فى المن عليه بغير شئ لفقره وعياله وعاهده على
أنه لا يظاهر عليه أحدا ثم خان فظفر به فى غزوة حمراء الاسد عقب يوم أحد أسيرا فاعتذر له وسأله
العفو عنه فقال لا لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين وأمر به فضربت عنقه (ان الذين آمنوا) أى
بالله ورسوله (وهاجروا) أى وأوقعوا الهجرة من بلاد الشرك وهم المهاجرون الاولون هجروا
أوطانهم وعشائرهم وأحبابهم حبا فى الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم (وجاهدوا) أى
وأوقعوا الجهاد وهو بذل الجهد فى توهين الكفر (بأموالهم) وكانوا فى غاية العزة فى أول
الامر (وأنفسهم) باقدامهم على القتال مع شدة الاعداء وكثرتهم وقدم المال لانه سبب قيام
النفس أى بانفاقهم لها فى الجهاد وتضييع بعضها بالهجرة من الديار والنخيل وغيرها وأخر
قوله تعالى (فى سبيل الله) لذلك وفى سببية أى جاهدوا بسببه حتى لا يصد عنه صاد ويسهل المرور
فيه من غير قاطع (والذين آووا) أى من هاجر اليهم من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه
فأسكنوهم فى ديارهم وقسموا لهم من أموالهم وعرضوا عليهم أن ينزلوا لهم عن بعض نسائهم
ليتزوجوهن (ونصروا) أى الله ورسوله والمؤمنين وهم الانصار رضى الله عنهم حازوا هذين
الوصفين الشريفين فكانوا فى الذروة من هذين الجنسين ولكن المهاجرون الاولون أعلى منهم

أسبقهم

لسبقهم فى الايمان الذى هو رئيس الفضائل وتحملهم الاذى من الكفار زمانا طويلا وصبرهم على فرقة الاهل والاوطان وأشار تعالى الى القسمين باداة البعد لعلو مقامهم فقال (أولئك) أى العالو الرتبة (بعضهم أولياء بعض) أى دون أقاربهم من الكفار قال ابن عباس فى الميراث فكانوا يتوارثون بالهجرة فكان المهاجرون والانصار يتوارثون دون ذوى الارحام وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة انقطعت الهجرة وتوارثوا بالارحام حيث كانوا وصار ذلك منسوخا بقوله تعالى وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله (والذين آمنوا ولم يهاجروا) أى آمنوا وأقاموا بمكة (مالكم من ولايتهم من شئ) أى فلا ارث بينكم وبينهم ولا نصيب لهم فى الغنيمة (حتى يهاجروا) أى الى المدينة (وان استنصروكم فى الدين) أى ولم يهاجروا (فعليكم النصر) أى فيجب عليكم أن تنصروهم على المشركين (الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى عهد فلا تنصروهم عليهم وتنقضوا عهدهم (والله بما تعملون بصير) فى ذلك ترغيب فى العمل بما حث عليه من الايمان والهجرة وغير ذلك مما تقدم وترهيب من العمل باضدادها وفى البصير اشارة الى العلم بما يكون من ذلك خالصا أو مشوبا ففيه مزيد حث على الاخلاص (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) أى فى النصر لان كفار قريش كانوا معادين اليهود فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاونوا عليه جميعا وفى الميراث فيرث بعضهم بعضا ولا ارث بينكم وبينهم (الا تفعلوه) أى ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم لبعض حتى فى الميراث وقطع العلائق بينكم وبين الكفار (تكن) أى تحصل (فتنة) أى عظيمة (فى الارض) بضعف الايمان وقوة الكفر (وفساد كبير) فى الدين ولما تقدمت أنواع المؤمنين المهاجر والناصر والقاعد وذكر أحكام موالاتهم أخذ يبين تفاوتهم فى الفضل بقوله تعالى (والذين آمنوا) أى بالله ورسوله وما أتى به (وهاجروا) فى الله تعالى من يعادى نبيه صلى الله عليه وسلم سابقين (وجاهدوا فى سبيل الله) بما تقدم من المال والنفس وغيرهما فبذلوا الجهد فى اذلال الكفار ولم يذكر آلة الجهاد لانها مع تقدم ذكرها لازمة (والذين آووا) أى من هاجر اليهم (ونصروا) أى حزب الله (أولئك هم المؤمنون) أى الكاملون فى الايمان (حقا) أى لانهم حققوا ايمانهم بتحقيق مقتضاه من الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق ثم وعدهم الموعد الكريم بقوله تعالى (لهم مغفرة) أى لزلاتهم وهفواتهم لان مبنى الآدمى على العجز اللازم عند التقصير وان اجتهد ولن يشاد الدين أحد الا غلبه ❊ ولما ذكر تطهيرهم بالمغفرة ذكر تزكيتهم بالرحمة بقوله تعالى (ورزق) أى من الغنائم وغيرها فى الدنيا والآخرة (كريم) أى لا تبعة ولا منة فيه ثم ألحق بهم فى الامرين من يستلحق بهم ويتسم بسمتهم بقوله تعالى (والذين آمنوا من بعد) أى بعد السابقين الى الايمان والهجرة (وهاجروا) أى لاحقين للسابقين وعن ابن عباس رضى الله عنهما انهم من هاجر بعد الحديبية قال وهى الهجرة الثانية (وجاهدوا معكم) أى من تجاهدونه من حزب الشيطان (فأولئك منكم) أى من جملتكم أيها المهاجرون والانصار فلهم مالكم وعليهم ما عليكم من المواريث والمغانم وغيرها لان الوصف الجامع هو المدار للاحكام وان تأخرت رتبتهم عنكم بما

أبهمته اداة البعد (وأولو الارحام) أى ذووا القرابات (بعضهم أولى ببعض) قال ابن عباس كانوا يتوارثون بالهجرة والاخاء حتى نزلت هذه الآية فبين الله تعالى بها ان سبب القرابة أقوى وأولى من سبب الهجرة والاخاء ونسخ بها ذلك التوارث وقوله تعالى (فى كتاب الله) أى فى حكمه فى اللوح المحفوظ أو القرآن وتمسك أصحاب أبى حنيفة رحمه الله تعالى بهذه على توريث ذوى الارحام وأجاب عنه الشافعى رضى الله تعالى عنه بأنه لما قال فى كتاب الله كان معناه فى حكم الله الذى بينه فى سورة النساء فصارت هذه السورة مقيدة بالاحكام التى ذكرها فى سورة النساء فى قسمة المواريث واعطاء أهل الفروض فروضهم وما بقى فللعصبات فوجب أن يكون المراد من هذا هو ذلك فقط فلا يتعدى الى توريث ذوى الارحام ثم قال تعالى فى ختم السورة (ان الله بكل شئ عليم) اى ان هذه الاحكام التى ذكرتها وفصلتها كلها حكمة وصواب وصلاح وليس فيها شئ من العبث والباطل لان العالم بجميع المعلومات لا يحكم الا بالصواب وتطهيره ان الملائكة لما قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء قال الله تعالى مجيبا لهم انى أعلم ما لا تعلمون أى كما علمتم بكونى عالما بكل المعلومات فاعلموا أن حكمى يكون منزها عن الغلط فكذا هنا وقول البيضاوى فى بعض النسخ تبعا للزمخشرى وعن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الانفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة وشاهد أنه برئ من النفاق وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته فى الدنيا حديث موضوع

(سورة التوبة مدنية)

الا الآيتين من قوله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم وهى آخر ما نزلت وآيها مائة وثلاثون وقيل تسع وعشرون وعدد كلماتها ألفان وأربعمائة وسبع وتسعون كلمة وحروفها عشرة آلاف وثمانمائة وسبعة وثمانون حرفا ولها عدة أسماء التوبة براءة المقشقشة البحوثة المبعثرة المنقرة المثيرة الحافرة المخزية الفاضحة المنكلة المشردة المدمدمة سورة العذاب وانما سميت بذلك لما فيها من التوبة للمؤمنين والقشقشة من النفاق وهى التبرئ منه والبحث عن حال المنافقين واثارتها والحفر عنها وما يخزيهم ويفضحهم وينكلهم ويشردهم ويدمدم عليهم ولم تكتب فيها البسملة لانه صلى الله عليه وسلم لم يأمر بذلك كما يؤخذ من حديث رواه الحاكم وأخرج فى معناه عن على ان البسملة أمان وهى نزلت لرفع الامن بالسيف وعن حذيفة انكم تسمونها سورة التوبة وهى سورة العذاب وروى البخارى عن البراء انها آخر سورة نزلت وقيل كان صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه سورة أو آية بين موضعها فتوفى ولم يبين موضعها وكانت قصتها تشابه قصة الانفال وتناسبها لان فى الانفال ذكر العهود وفى براءة نبذها فضمت اليها قال القاضى يبعد أن يقال انه عليه الصلاة والسلام لم يبين كون هذه السورة تالية لسورة الانفال لان القرآن مرتب من قبل الله تعالى ومن قبل رسوله صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى نقل ولو جوزنا فى بعض السور أن لا يكون ترتيبها من الله تعالى على سبيل الوحى لجوزنا مثله فى سائر السور وفى آيات السورة الواحدة وذلك يخرجه عن كونه

حجة بل الصحيح انه عليه الصلاة والسلام أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الانفال وحيا وانه عليه الصلاة والسلام حذف بسم الله الرحمن الرحيم من هذه السورة وحيا والقول بأن قصتها تشابه قصتها وتناسبها فضمت اليها انما يتم اذا قلنا انهم انما وضعوا هذه السورة من قبل أنفسهم لهذه العلة وقيل ان الصحابة رضى الله عنهم اختلفوا فى أن سورة الانفال وسورة براءة سورة واحدة أم سورتان فقال بعضهم هما سورة واحدة لان كلتيهما نزل فى القتال ومجموعهما هو السورة السابعة من الطوال وهى سبع وما بعدها المؤن لانهما معا مائتان وست آيات فهما بمنزلة سورة واحدة ومنهم من قال سورتان فلما ظهر الاختلاف من الصحابة فى هذا تركوا بينهما فرجة تنبيها على قول من يقول هما سورة واحدة وقال بعض أصحاب الامام الشافعى رضى الله عنه لعل الله لما علم من بعض الناس انهم يتنازعون فى كون بسم الله الرحمن الرحيم من القرآن أمر أن لا تكتب ههنا ليدل ذلك على كونها آية من كل سورة فانها لما لم تكن آية من هذه السورة وجب كونها آية من كل سورة وقيل غير ذلك والصحيح من هذه الاقوال ما ذهب اليه القاضى من أن القرآن مرتب من قبل الله ومن قبل رسوله صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى نقل وانه صلى الله عليه وسلم حذف بسم الله الرحمن الرحيم من هذه السورة وحيا وانما ذكرت هذه الاقوال تشحيذا للاذهان وقوله تعالى (براءة) خبر مبتدا محذوف أى هذه براءة وقوله تعالى (من الله ورسوله) من ابتدائية متصلة بمحذوف تقديره واصلة من الله ورسوله ويجوز أن يكون براءة مبتدا لتخصصها بصفتها والخبر (الى الذين عاهدتم) أى أوقعتم العهد بينكم وبينهم (من المشركين) أى وان كانت معاهدتكم لهم انما كانت باذن من الله ورسوله فكما فعلتم المعاهدة باذنهما فافعلوا النقض بتعاليهما ودل سياق الكلام وما حواه من بديع النظام ان العهد انما هو لاجل المؤمنين واما الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فغنيان عن ذلك اما الله فبالغنى المطلق وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فبالذى اختاره للرسالة لانه ما فعل ذلك الا وهو قادر على نصره بسبب وبغير سبب روى ان النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج الى تبوك كان المنافقون يرجفون الاراجيف وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر الله تعالى بنقض عهودهم وذلك قوله تعالى واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء الآية ونقض العهد بما يذكر فى قوله تعالى (فسيحوا) أى سيحوا آمنين أيها المشركون (فى الارض أربعة أشهر) لا يتعرض لكم فيها ولا أمان لكم بعدها وكان ابتداء هذه الاشهر يوم الحج الاكبر وانقضاؤها الى عشر من ربيع الآخر وقال الازهرى هى شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لانها نزلت فى شوال وقيل فى ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الاول وعشرين من شهر ربيع الآخر وكانت حرما لانهم أومنوا فيها وحرم قتلهم وقتالهم أو على التغليب لان ذا الحجة والمحرم منها قال البغوى والاول هو الاصوب وعليه الاكثرون اه وقيل العشر من ذى القعدة الى عشر من شهر ربيع الاول لان الحج فى تلك السنة كان فى ذلك الوقت للنسىء الذى كان فيهم ثم صار فى السنة الثانية من ذى الحجة

وكان نزولها فى سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان وكان الامير فيها عتاب بن اسيد فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه على موسم الحج سنة تسع ثم اتبعه عليا رضى الله عنه راكب العضباء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقرأها على أهل الموسم فقيل له لو بعثت بها الى أبى بكر فقال لا يؤدى عنى الا رجل منى فلما دنا على من أبى بكر سمع أبو بكر الرغاء فوقف وقال هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصل العضباء المشقوقة الاذن ولم تكن ناقته صلى الله عليه وسلم كذلك ولكن كان ذلك علما عليها والرغاء بالمد صوت ذوات الخف قاله الجوهرى فلما لحقه قال أميرا أو مأمور وروى ان أبا بكر رضى الله عنه لما كان ببعض الطريق هبط جبريل وقال يا محمد لا يبلغن رسالتك الا رجل منك فأرسل عليا رضى الله عنه فرجع أبو بكر رضى الله عنه وقال يا رسول الله أشئ نزل قال نعم فسر وأنت على الموسم وعلى ينادى بالآى فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر وحدثهم عن مناسكهم وقام على يوم النحر عند جمرة العقبة فقال أيها الناس انى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم اليكم فقالوا بماذا فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية وعن مجاهد ثلاث عشرة ثم قال أمرت بأربع آى بأن أخبروا نادى بها أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ولا يطوف به عريان ولا يدخل الجنة الا كل نفس مؤمنة وان يتم الى كل ذى عهد عهده فقالوا عند ذلك أبلغ ابن عمك انا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وانه ليس بيننا وبينه عهد الا طعن بالرماح وضرب بالسيوف ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع (فان قيل) قد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة لان يؤدوا عنه كثيرا ولم يكونوا من عترته (أجيب) بأن هذا ليس على العموم بل مخصوص بالعهود لان العرب عاداتها أن لا يتولى العهد ونقضه على القبيلة الا رجل من الاقارب فلو تولاه أبو بكر رضى الله تعالى عنه لجاز أن يقولوا هذا خلاف ما يعرف فينا من نقض العهود فربما لم يقبلوا فلم يخف عليهم بتوليته عليا ذلك ويدل على ذلك ان فى بعض الروايات لا ينبغى لاحد أن يبلغ هذا الا رجل من أهلى وقيل لما خص أبا بكر بتولية الموسم خص عليا بهذا التبليغ تطييبا للقلوب ورعاية للجوانب وقيل قرر أبا بكر على الموسم وبعث عليا خليفة لتبليغ هذه الرسالة حتى يصلى خلف أبى بكر ويكون ذلك جاريا مجرى تنبيه على على امامة أبى بكر (فان قيل) ما وجه اطباق أكثر العلماء على جواز مقاتلة المشركين فى الاشهر الحرم وقد صانها الله تعالى عن ذلك (أجيب) بأنهم قالوا قد نسخ وجوب الصيانة وأبيح قتال المشركين فيها (واعلموا انكم غير معجزى الله) أى لا تفوتونه وان أمهلكم (وأن الله مخزى الكافرين) أى مذلهم فى الدنيا بالقتل والاسر وفى الآخرة بالعذاب (وأذان) أى اعلام واقع (من الله ورسوله الى الناس) اذ الاذان فى اللغة الاعلام ومنه الاذان للصلاة فانه اعلام بوقتها وارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين (فان قيل) لم علقت البراءة بالذين عاهدوا من المشركين وعلق الاذان بالناس (أجيب) بأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم واما الاذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث (يوم الحج الاكبر) أى يوم عيد النحر لان فيه معظم افعاله من طواف ونحر وحلق ورمى بقع

فيه

فيه ولان الاعلام كان فيه وروى انه صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات فى حجة الوداع فقال أى يوم هذا فقالوا يوم النحر فقال هذا يوم الحج الاكبر وروى ان عليا رضى الله عنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة فجاءه رجل فأخذ بلجام دابته وسأله عن يوم الحج الاكبر فقال يومك هذا خل سبيلها وقيل يوم عرفة لقوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفة وقيل أيام منى كلها لان اليوم قد يطلق ويراد به الحين والزمان كقوله يوم صفين ويوم الجمل لان الحرب دامت فى هذه الايام ويطلق عليها يوم واحد وقيل هو الذى حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود وعيد النصارى وعيد المشركين ولم يجتمع مثل ذلك قبله ولا بعده ووصف الحج بالاكبر لان العمرة تسمى الحج الاصغر وانما قيل لها الاصغر لنقصان أعمالها عن الحج وقيل وصف بذلك لموافقته حج النبى صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وكان ذلك اليوم يوم الجمعة وودع الناس فيه وخطبهم وعلمهم مناسكهم وقيل وصف بذلك لاجتماع اعياد الملل فى ذلك اليوم وقيل لانه ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين وقوله تعالى (ان الله برىء من المشركين) أى من عهودهم فيه حذف تقديره وأذان من الله ورسوله بأن الله برىء من المشركين وانما حذف الجار لدلالة الكلام عليه وقوله تعالى (ورسوله) مرفوع على انه مبتدا حذف خبره اى ورسوله كذلك وحكى ان اعرابيا سمع رجلا يقرأ ورسوله بالجر فقال ان كان الله برىء من رسوله فأنا منه برىء فلببه الرجل الى عمر رضى الله عنه فحكى الاعرابى الواقعة فحينئذ أمر عمر بتعليم العربية وحكى أيضا ان اعرابيا قدم فى زمن عمر فقال من يقرئنى مما أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم فأقرأه رجل براءة فقال ان الله برىء من المشركين ورسوله بالجر فقال الاعرابى أوقد برئ الله من رسوله ان يكن الله برئ من رسوله فأنا برىء منه فبلغ عمر رضى الله عنه مقالة الاعرابى فدعاه فسأله فأخبره الاعرابى بذلك فقال عمر ليس هكذا يا اعرابى فقال فكيف هى يا أمير المؤمنين فقال ان الله برىء من المشركين ورسوله بالرفع فقال وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه فأمر عمر ان لا يقرأ القرآن الا عالم باللغة وأمر أبا الاسود الدؤلى فوضع النحو (فان تبتم) أى عن الكفر والغدر (فهو) أى ذلك الامر العظيم وهو المتاب (خير لكم) أى من الاقامة على الشرك وهذا ترغيب من الله فى التوبة والاقلاع عن الشرك الموجب لدخول النار (وان توليتم) أى اعرضتم عن الايمان والتوبة من الشرك (فاعلموا انكم غير معجزى الله) وذلك وعيد عظيم واعلام بأن الله تعالى قادر على انزال أشد العذاب بهم كما قال تعالى (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) أى مؤلم وهو القتل والاسر فى الدنيا والنار فى الآخرة ولفظ البشارة هنا ورد على سبيل الاخبار أو على سبيل الاستهزاء كما يقال تحيتهم الضرب واكرامهم الشتم وقوله تعالى (الا الذين عاهدتم من المشركين) استثناء من المشركين وهم بنو ضمرة حى من كنانة أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم باتمام عهدهم الى مدتهم وكان قد بقى من مدتهم تسعة أشهر وكان السبب فيه انهم لم ينقضوا كما قال تعالى (ثم لم ينقصوكم شيأ) أى من عهودكم التى عاهدتموهم عليها (ولم يظاهروا) أى ولم يعاونوا (عليكم أحدا) من عدوكم (فأتموا

اليهم عهدهم الى مدتهم) أى الى انقضائها ولا تجروهم مجرى الناكثين وقوله تعالى (ان الله يحب المتقين) تعليل وتنبيه على ان اتمام عهدهم من باب التقوى (فاذا انسلخ) أى انقضى وخرج (الاشهر الحرم) التى حرم الله تعالى عليهم فيها قتالهم وضربت أجلا لسياحتهم والتعريف فيه مثله فى فارسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول والمراد بكونها حرما ان الله تعالى حرم القتل والقتال فيها وقيل هى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم قال البيضاوى وهذا مخل بالنظم أى نظم الآية اذ نظمها يقتضى توالى الاشهر المذكورة (فاقتلوا المشركين) أى الناكثين الذين ضربتم لهم هذا الاجل احسانا وكرما (حيث وجدتموهم) أى فى حل أو حرم أو فى شهر حرام أو غيره (وخذوهم) أى بالاسر (واحصروهم) أى بالحبس عن اتيان المسجد الحرام والتصرف فى بلاد الاسلام فى القلاع والحصون حتى يضطروا الى الاسلام أو القتل (واقعدوا لهم) أى لاجلهم خاصة فان ذلك من أفضل العبادات (كل مرصد) أى طريق يسلكونه لئلا ينبسطوا فى البلاد وانتصاب كل على الظرفية كقوله لاقعدن لهم صراطك المستقيم وقيل بنزع الخافض قال الحسين بن الفضل نسخت هذه الآية كل آية فيها ذكر الاعراض عن المشركين والصبر على أذى الاعداء (فان تابوا) أى عن الكفر بالايمان (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) تصديقا لتوبتهم وايمانهم فوصلوا ما بينهم وبين الخالق وما بينهم وبين الخلائق (فخلوا سبيلهم) أى فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشئ من ذلك وفى هذه الآية دليل على ان تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلى سبيله لانه ان كان جاحدا لوجوبهما فهو مرتد والا قتل بترك الصلاة وأخذت منه الزكاة قهرا وقوتل على ذلك كما نقل عن أبى هريرة رضى الله عنه انه قال لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر كفر من كفر من العرب قال عمر لابى بكر رضى الله تعالى عنهما كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت ان أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله محمد رسول الله فمن قال لا اله الا الله فقد عصم منى ماله ونفسه الا بحقها وحسابه على الله فقال أبو بكر والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى رواية عقالا كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها قال عمر فوالله ما هو الا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر الى القتال فعرفت انه الحق (ان الله غفور) أى بليغ المحو للذنوب التى تاب صاحبها عنها (رحيم) به (وان أحد من المشركين) أى الذين أمرت بقتالهم (استجارك) أى طلب أن تعامله فى الاكرام معاملة الجار بعد انقضاء مدة السياحة (فأجره) أى فأمنه ودافع عنه من يقصده بسوء (حتى يسمع كلام الله) أى القرآن بسماع التلاوة الدالة عليه فيعلم بذلك ما يدعى اليه من المحاسن ويتحقق انه ليس من كلام الخلق (ثم) ان أراد الانصراف ولم يسلم (أبلغه مأمنه) أى الموضع الذى يأمن فيه وهو دار قومه لينظر فى امره ثم بعد ذلك يجوز لك قتلهم وقتالهم من غير غدر ولا خيانة قال الحسن هذه الآية محكمة الى يوم القيامة

* (تنبيه) * أحد مرفوع بفعل مضمر يفسره الظاهر وتقديره وان استجارك أحد ولا يجوز أن

يرتفع بالابتداء لان ان من عوامل الفعل فلا تدخل على غيره (ذلك) أى الأمر بالاجارة للغرض المذكور (بأنهم) أى بسبب انهم (قوم لا يعلمون) أى لا علم لهم لانهم لا عهد لهم بنبوة ولا رسالة ولا كتاب فاذا علموا أوشك أن ينفعهم العلم وقوله سبحانه وتعالى (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) استفهام معناه الجحد أى لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله وهم يغدرون وينقضون العهد (الا الذين عاهدتم) أى من المشركين (عند المسجد الحرام) يوم الحديبية وهم المستثنون قبل (فما استقاموا لكم) أى أقاموا على العهد ولم ينقضوه (فاستقيموا لهم) أى على الوفاء وهو كقوله تعالى فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم غير انه مطلق وهذا مقيد وما تحتمل الشرطية والمصدرية (ان الله يحب المتقين) أى من اتقى يوفى بعهده لمن عاهده وقد استقام صلى الله عليه وسلم على عهدهم حتى نقضوه باعانة بنى بكر على خزاعة وقوله تعالى (كيف) تكرار للاستبعاد ثبات المشركين على العهد وحذف الفعل لكونه معلوما أى كيف يكون لهم عهد ثابت (وان) أى والحال انهم مضمرون لكم الغدر والخيانة فهم ان (يظهروا عليكم) أى يعلوا أمرهم على أمركم بأن يظفروا بكم بعد العهد والميثاق (لا يرقبوا) أى لا يراعوا (فيكم) أى فى اذاكم بكل جليل وحقير (الا) أى قرابة محققة قال حسان

لعمرك ان الك من قريش * كال السقب من رأل النعام

السقب ولد الناقة والرأل ولد النعامة والخطاب فى لعمرك لابى سفيان أى لا قرابة بينك وبين قريش كالا قرابة بين ولد الناقة وولد النعامة وقيل الاله وقيل جبريل (ولا ذمة) أى عهدا بل يؤذوكم ما استطاعوا وقوله تعالى (يرضونكم بأفواههم) أى بكلامهم كلام مبتدأ فى وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد (وتأبى قلوبهم) أى عن الوفاء به لمخالفة ما فيها من الاضغان (وأكثرهم فاسقون) أى راسخو الاقدام فى الفسق (فان قيل) الموصوفون بهذه الصفة كفار والكفر أقبح وأخبث من الفسق فكيف يحسن وصفهم بالفسق فى معرض المبالغة فى الذم وأيضا الكفار كلهم فاسقون فلا يبقى لقوله وأكثرهم فائدة (أجيب) بأن الكافر قد يكون عدلا فى دينه فلا ينقض العهد وقد يكون فاسقا خبيث النفس فى دينه فينقضه فالمراد بالفسق هنا نقض العهد وكان فى المشركين من وفى بعهده فلهذا قال وأكثرهم أى ان هؤلاء الكفار الذين من عادتهم نقض العهد أكثرهم فاسقون فى دينهم وعند اقوامهم وذلك يوجب المبالغة فى الذم وقال ابن عباس لا يبعد ان يكون بعض أولئك الكفار قد أسلم وتاب فلهذا السبب قال وأكثرهم فاسقون حتى يخرج عن هذا الحكم أولئك الذين دخلوا فى الاسلام (اشتروا) أى استبدلوا (بآيات الله) أى القرآن (ثمنا قليلا) أى عرضا يسيرا من الدنيا وهو اتباع الاهواء والشهوات مع مصاحبة الكفر وذلك ان أبا سفيان بن حرب اطعم حلفاءه وترك حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم فنقض العهد الذى بينهم بسبب تلك الاكلة (فصدوا) أى فتسبب لهم ذلك وأداهم الى ان صدوا (عن سبيله) أى منعوا الناس من الدخول فى دينه (انهم ساء) أى بئس (ما كانوا يعملون) أى عملهم

هذا وما دل عليه قوله تعالى (لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة) فهو تفسير لا تكرير وقيل الاول عام فى المنافقين وهذا خاص بالذين اشتروا وهم اليهود والاعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم (وأولئك) أى هؤلاء البعداء من كل خير (هم المعتدون) الذين تعدوا ما حده الله لهم فى دينه وما يوجبه العقد والعهد * ولما بين تعالى حال من لا يرقب فى الله الا ولا ذمة وينقض العهد وينطوى على النفاق ويتعدى ما حده الله تعالى له بين ما يصيرون به من أهل دينه بقوله تعالى (فان تابوا) أى رجعوا عن الشرك الى الايمان وعن نقض العهد الى الوفاء به (وأقاموا الصلاة) أى المفروضة عليهم بجميع حدودها وأركانها (وآتوا الزكاة) المفروضة عليهم طيبة بها نفوسهم (فاخوانكم) أى فهم اخوانكم (فى الدين) لهم ما لكم وعليهم ما عليكم وقوله تعالى (ونفصل الآيات لقوم يعلمون) اعتراض للحث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين وخصال التائبين (وان نكثوا) أى نقضوا (ايمانهم) أى عهودهم (من بعد عهدهم) الذى عاهدوكم عليه أن لا يقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم أحدا من أعدائكم (وطعنوا فى دينكم) أى وعابوا دينكم الذى أنتم عليه وقدحوا فيه (فقاتلوا أئمة الكفر) أى الكفار بأسرهم وانما خص الائمة منهم بالذكر لانهم هم الذين يحرضون الاتباع منهم على هذه الاعمال الباطلة وقال ابن عباس نزلت فى أبى سفيان بن حرب والحرث بن هشام وأبى جهل وسائر رؤساء قريش وهم الذين نقضوا عهودهم وهموا باخراج الرسول وفيه وضع الظاهر موضع المضمر وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية المكسورة وحققها الباقون وقول البيضاوى والتصريح بالياء لحن تبع فيه الكشاف التابع للفراء وهو مردود فانجمهور من النحاة والقراء على جواز قلب الهمزة الثانية حرف لين فبعضهم على جعلها بين بين وبعضهم على قلبها ياء خالصة وقوله تعالى (انهم لا ايمان لهم) قرأ ابن عامر بكسر الهمزة أى لا تصديق لهم ولا دين وليس فى ذلك دلالة على ان توبة المرتد لا تقبل والباقون بالفتح جمع يمين أى لا ايمان لهم على الحقيقة وايمانهم ليست بايمان والا لما طعنوا فى دينكم ولم ينكثوا وفيه دليل على ان الذمى اذا طعن فى الاسلام فقد نكث عهده أى ان شرط ذلك عليه كما هو مذهبنا وتمسك أبو حنيفة رحمه الله تعالى بهذا على ان يمين الكافر لا تكون يمينا وعند الشافعى رحمه الله تعالى يمينهم منعقدة ومعنى هذه الآية عنده انهم لما لم يؤمنوا بها صارت ايمانهم كأنها ليست بايمان والدليل على أن يمينهم منعقدة ان الله تعالى وصفها بالنكث فى قوله تعالى وان نكثوا ايمانهم ولو لم تكن منعقدة لما صح وصفها بالنكث وقوله تعالى (لعلهم ينتهون) متعلق بقاتلوا أى ليكن غرضكم فى مقاتلتهم بعد ما وجد منهم ما وجد من العظائم ان ينتهوا عما هم عليه من الكفر والطعن فى دينكم والمظاهرة عليكم وهذا فى غاية كرم الله تعالى وفضله على الانسان وليس الغرض ايصال الاذية لهم كما هو طريقة الموحدين * ولما قال تعالى فقاتلوا أئمة الكفر اتبعه بذكر ثلاثة أسباب تبعثكم على مقاتلتهم كل واحد منها يوجب مقاتلتهم لو انفرد فكيف بها حال الاجتماع أحدها ما ذكره تعالى بقوله (ألا تقاتلون قوما نكثوا ايمانهم) أى نقضوا عهودهم وهم الذين نقضوا

عقدا الصلح بالحديبية واعانوا بني بكر على خزاعة وهذا يدل على أن قتال الناكثين أولى من
قتال غيرهم من الكفار ليكون ذلك زجرا لغيرهم وثانيها قوله تعالى (وهموا باخراج الرسول)
من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة على ما ذكر في قوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا وقيل
هم اليهود نكثوا عهد الرسول وهموا باخراجه من المدينة وهذا من أوكد ما يجب القتال لاجله
وثالثها قوله تعالى (وهم بدؤكم) أي بالقتال (أول مرة) أي هم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة لان
رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم بالكتاب المنير وتحداهم به فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها
الى القتال فهم البادؤن بالقتال والبادئ أظلم فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله وان تصدموهم بالشر
كما صدموكم وبخهم الله تعالى بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها وتقرر
ان من كان في مثل صفاتهم من نكث العهد واخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب
حقيق بأن لا تترك مصادمته وأن يوبخ من فرط فيها (أتخشونهم) أي أتخافونهم أيها المؤمنون
فتتركون قتالهم (فالله أحق أن تخشوه) فقاتلوا أعداءه (ان كنتم مؤمنين) أي مصدقين بوعد
الله تعالى ووعيده لان قضية الايمان الصحيح ان لا يخشى المؤمن الا ربه ولا يبالي بمن سواه كقوله
تعالى ولا يخشون أحدا الا الله ولما وبخهم الله تعالى على ترك القتال جدد له الامر به بقوله
تعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) أي بالقتل والاسر واغتنام الاموال (فان قيل) قد قال الله
تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم فكيف قال تعالى هنا يعذبهم الله بأيديكم (أجيب) بأن
المراد بالعذاب في الآية الاولى عذاب الاستئصال وبهذه الآية القتل والاسر والفرق ان
عذاب الاستئصال قد يتعدى الى غير المذنب وانه في حقه لمزيد الثواب وعذاب القتل مقصور
على المذنب وهذا كالتصريح بأن هذا الفعل وما عطف عليه فعله تعالى وان كان جاريا
على أيدي العباد كسبا لا يرد على ذلك أنه لا يقال يعذب الله المؤمنين بأيدي الكافرين لان ذلك
انما امتنع لشناعة العبارة كما لا يقال يا خالق القاذورات والابوال والعذرات وان كان هو
الخالق لها (ويخزهم) أي بالذل والفضيحة في الدنيا والعذاب في الآخرة (وينصركم عليهم)
أي يمكنكم من قتلهم واذلالهم (ويشف صدور قوم مؤمنين) أي طائفة من المؤمنين وهم
خزاعة وقال ابن عباس رضي الله عنهما هم بطون من اليمن وسبا قدموا مكة فأسلموا فلقوا من
أهلها أذى شديدا فبعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون اليه فقال أبشروا فان
الفرج قريب (ويذهب غيظ قلوبهم) أي كربها ووجدها وقد وفى الله تعالى بما وعد والآية من
المعجزات وقوله تعالى (ويتوب الله على من يشاء) استئناف أي ان الله تعالى يهدي من يشاء
الى الاسلام كما فعل بأبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو فهؤلاء كانوا من أئمة
الكفر ورؤساء المشركين ثم من الله تعالى عليهم بالاسلام يوم فتح مكة فأسلموا وحسن اسلامهم
(والله عليم) أي يعلم ما سيكون كما يعلم ما قد كان فهو عليم بكل شئ فيعلم من يصلح للتوبة ومن
لا يصلح لها أو يعلم ما في قلوبكم من الاقدام والاحجام (حكيم) أي أحكم جميع أموره
(أم حسبتم) أي أظننتم (ان تتركوا) فلا تؤمروا بالجهاد ولا تمتحنوا ليظهر الصادق من

الكاذب والخطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال وقيل للمنافقين وأم بمعنى همزة الانكار (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) أى علما ظاهرا تقوم به الحجة عليكم فى مجارى عاداتكم على مقتضى عقولكم بأن يقع الجهاد فى الواقع بالفعل وعبر تعالى بلما دون لم لدلالتها مع استغراق الزمان على أن تبين ما بعدها متوقع كائن وقوله تعالى (ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) عطف على جاهدوا داخل فى حيز الصلة كأنه قيل ولما يعلم الله المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذى وليجة من دون الله والوليجة فعيلة من ولج كالدخيلة من دخل وهى البطانة من المشركين يتخذونهم يفشون اليهم اسرارهم وقال قتادة هى الخيانة وقال عطاء هى الاولياء (والله خبير بما تعملون) من موالاة المشركين وغيرها فيجازيكم عليه قال ابن عباس رضى الله عنهما ولما أسر العباس يوم بدر عيره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم وأغلظ على رضى الله عنه عليه القول فقال العباس ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا فقال له على وهل لكم محاسن قال نعم نحن أفضل منكم انا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحجيج ونفك العانى يعنى الاسير فأنزل الله تعالى ردا على العباس (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) أى ما ينبغى للمشركين أن يعمروا مسجد الله بدخوله والقعود فيه وخدمته فاذا دخل بغير اذن مسلم عزر وان دخل باذنه لم يعزر لكن لا بد من حاجة فيشترط للجواز الاذن والحاجة ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالاذن ان النبى صلى الله عليه وسلم شد ثمامة بن اثال الى سارية من سوارى المسجد وهو كافر وذهب جماعة الى أن المراد منه العمارة المعروفة من بناء المسجد وترميمه عند خرابه فيمنع منه الكافر وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون السين ولا ألف بعدها على التوحيد وفى هذا دلالة على أن المراد المسجد الحرام والباقون بفتح السين وألف بعدها على الجمع وفيه دلالة على أن المراد جميع المساجد وقيل المراد على القراءتين المسجد الحرام وانما جمع لانه قبلة المساجد وامامها فعامره كعامر الجميع وقوله تعالى (شاهدين على أنفسهم بالكفر) حال من الواو فى يعمروا أى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة متعبدات الله مع الكفر بالله وبعبادته ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر ظهور كفرهم قال الحسن لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم وعن ابن عباس رضى الله عنهما شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للاصنام وذلك أن كفار قريش كانوا نصبوا أصنامهم حول البيت وكانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون لا نطوف بثياب قد عملنا فيها المعاصى وكلما طافوا أسبوعا سجدوا للاصنام فلم يزدادوا من الله الا بعدا وقيل هو قولهم لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك وقال السدى شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصرانى يسئل من أنت فيقول نصرانى واليهودى يقول يهودى والمشرك يقول مشرك (أولئك حبطت) أى بطلت (أعمالهم) أى الاعمال التى عملوها من أعمال البر وافتخروا بها مثل العمارة والحجابة والسقاية وفك العناة مع الكفر لا تأثير لها (وفى النار هم خالدون) لجعلهم الكفر مكان الايمان

واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن مرتكب الكبيرة من أهل الايمان لايبقى مخلدا فى النار من وجهين الاول قوله تعالى وفى النار هم خالدون يفيد الحصر أى هم فيها خالدون لاغيرهم ولما كان هذا واردا فى حق الكفار ثبت أن الخلود لايحصل الا للكافر الثانى أنه تعالى جعل الخلود فى النار جزاء للكفار عن كفرهم فلو كان هذا الحكم جزاء لغير الكافر لما صح تهديد الكافر به وفى الكشاف أن الكبيرة تهدم الاعمال وهو جار على مذهبه الفاسد ولما بين تعالى أن الكافر ليس له أن يعمر مساجد الله بين المستحق لعمارتها بقوله تعالى (انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش) أحدا (الا الله) أى انما تتم عمارتها لهؤلاء الجامعين بين الكمالات العملية والعلمية (فان قيل) لم لم يذكر الايمان برسوله صلى الله عليه وسلم مع أن الايمان به شرط فى صحة الايمان (أجيب) بأنه تعالى لما ذكر الصلاة والصلاة لاتتم الا بالتشهد وهو مشتمل على ذكره كان ذلك كافيا وبما علم من أن الايمان بالله تعالى قرينه وتمامه الايمان به فكان الايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم مذكورا بطريق أبلغ وهو طريق الكناية لما اشتهر من مقارنتهما وعدم انفكاك أحدهما عن الآخر وقيل ان المشركين كانوا يقولون ان محمدا انما ادعى رسالة الله طلبا للرياسة والملك فلذلك ترك ذكر النبوة فكأنه يقول مطلوبي من تبليغ الرسالة ليس الا الايمان بالمبدا والمعاد فذكر المقصود الاصلى وحذف ذكر النبوة تنبيها للكفار على أنه لامطلوب له من الرياسة (فان قيل) كيف قال تعالى ولم يخش الا الله والمؤمن يخاف الظلمة والمفسدين (أجيب) بأن المراد من هذه الخشية الخوف والتقوى فى أبواب الدين وان لايختار على رضا الله تعالى عنه رضا غيره لتوقع مخوف واذا اعترضه أمران أحدهما حق الله تعالى والآخر حق نفسه أن يخاف الله تعالى فيؤثر حق الله تعالى على حق نفسه وقيل كانوا يخشون الاصنام ويرجونها فأريد نفى تلك الخشية عنهم ومن عمارة المساجد ترميمها وفرشها وتنويرها بالسرج التى لاسرف فيها وادامة العبادة فيها والذكر ومن الذكر درس العلم فيها بل هو أجله وأعظمه وصيانتها مما لم تبن المساجد لاجله كحديث الدنيا روى أنه صلى الله عليه وسلم قال يأتى فى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد فيقعدون حلقا ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لاتجالسوهم فليس لله بهم حاجة وفى الحديث الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش وفى الكشاف انه صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى ان بيوتى فى أرضى المساجد وان زوارى فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى فحق على المزور أن يكرم زائره قال شيخنا ابن حجر لم أجده هكذا وفى الطبرانى عن سلمان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم من توضأ فى بيته فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد فهو زائر الله وحق على المزور أن يكرم زائره وروى عنه صلى الله عليه وسلم من ألف المسجد ألفه الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان وعن أنس رضى الله عنه من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له مادام فى ذلك المسجد ضوءه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال من غدا الى المسجد وراح أعد الله تعالى له نزلا

من الجنة كلما غدا وراح وفى قوله تعالى (فعسى أولئك) أى الموصوفون بهذه الصفات (أن يكونوا من المهتدين) تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء وحسم اطماعهم والانتفاع باعمالهم التى قد استعظموها وافتخروا بها وأملوا عاقبتها فانه تعالى بين أن الذين آمنوا وضموا الى ايمانهم العمل بالشرائع وضموا اليه الخشية من الله تعالى فهؤلاء صار حصول الاهتداء لهم دائرا بين لعل وعسى فما بال هؤلاء المشركين يقطعون بأنهم مهتدون ويجزمون بفوزهم بخير من عند الله ومنع للمؤمنين من أن يغتروا بأحوالهم ويتكلوا عليها وذكر المفسرون فى سبب نزول قوله تعالى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله) أقوالا فعن النعمان بن بشير قال كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل لا أبالى ان لا أعمل عملا بعد ان أسقى الحاج وقال آخر ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر رضى الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ولكن اذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فنزلت وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال العباس حين أسر يوم بدر لئن كنتم سبقتمونا بالاسلام وبالهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج فنزلت وقيل ان المشركين قالوا لليهود نحن علينا سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه فقالت لهم اليهود أنتم أفضل فنزلت وقيل ان عليا قال للعباس رضى الله عنهما يا عم ألا تهاجرون الا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألست فى أفضل من الهجرة أسقى حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام فلما نزلت قال العباس ما أرانى الا تارك سقايتنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقيموا على سقايتكم فان لكم فيها خيرا وكان العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم بيده سقاية الحاج وكان يليها فى الجاهلية فلما جاء الاسلام وأسلم العباس أقره صلى الله عليه وسلم على ذلك وروى انه صلى الله عليه وسلم جاء السقاية فاستسقى فقال العباس رضى الله عنه لابنه الفضل يا فضل اذهب الى أمك فأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراب من عندها فقال له صلى الله عليه وسلم اسقنى قال يا رسول الله يجعلون أيديهم فيه قال اسقنى فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال اعملوا فانكم على عمل صالح وعن أبى بن عبد الله المزنى رضى الله عنه قال كنت جالسا مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه اعرابى فقال مالى أرى بنى عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ أمن حاجة بكم أم من بخل فقال ابن عباس رضى الله عنهما الحمد لله ما بنا من حاجة ولا بخل انما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه اسامة فاستسقى فأتيناه باناء من نبيذ فشرب وسقى فضله اسامة وقال أحسنتم وأجملتم كذا فاصنعوه فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم والنبيذ تمر ينقع فى الماء غدوة وهو حلال فان غلا وتخمر حرم *(تنبيه)* السقاية والعمارة مصدران من سقى وعمر كالصيانة والوقاية فلا بد من مضاف محذوف تقديره اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كايمان من آمن بالله (لا يستوون عند الله) أى لا يستوى حال هؤلاء الذين آمنوا بالله

وجاهدوا

وجاهدوا فى سبيل الله بحال من سقى الحاج وعمر المسجد الحرام وهو مقيم على كفره لان الله تعالى لا يقبل عملا الا مع ايمان به وبين عدم تساويهم بقوله تعالى (والله لا يهدى القوم الظالمين) أى الكفرة ظلمة بالشرك ومعاداة النبى صلى الله عليه وسلم منهمكون فى الضلال فكيف يساوون الذين عاهدهم الله تعالى ووفقهم للحق والصواب وقيل المراد بالظالمين الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين (الذين امنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله) أى اعلى مرتبة وأكثر كرامة ممن لم يستجمع هذه الصفات والمراد من كون العبد عند الله بالاستغراق فى عبوديته وطاعته وليس المراد منه قطع العندية بحسب الجهة والمكان لان الارواح البشرية اذا تطهرت من دنس الاوصاف البدنية أشرقت بأنوار الجلال وتجلى فيها أضواء عالم الكمال وسرت من العبودية الى العندية وقيل أعظم درجة عند الله ممن افتخر بالسقاية وعمارة المسجد الحرام (فان قيل) على هذا كيف قال فى وصفهم أعظم درجة مع انه ليس للكافر درجة (أجيب) بأن هذا ورد على حسب ما كانوا يقدرون لانفسهم من الدرجة والفضيلة عند الله ونظيره قوله تعالى قل آلله خير أم ما يشركون وقوله تعالى أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم (وأولئك) من هذه صفتهم (هم الفائزون) أى بسعادة الدنيا والآخرة (يبشرهم) أى يخبرهم (ربهم) والبشارة الخبر السار الذى يشرح الانسان عند سماعه وتستبشر بشرة وجهه عند سماع ذلك الخبر السار ثم ذكر سبحانه وتعالى الذى يبشرهم به بقوله تعالى (برحمة منه ورضوان) فهذا أعظم البشارات لان الرحمة والرضوان من الله تعالى سبحانه وتعالى على العبد نهاية مقصوده (وجنات) أى بساتين كثيرة الاشجار والثمار (لهم فيها) أى الجنات (نعيم) أى جزاء خالص عن كدر ما (مقيم) أى غير منقطع وقوله تعالى (خالدين فيها) حال مقدرة وحقق الخلود بقوله تعالى (أبدا) ولما ذكر تعالى هذه الاحوال قال (ان الله عنده أجر عظيم) وناهيك بما يصفه الله بالعظم وخص هؤلاء المؤمنين بهذا الثواب المعبر عن دوامه بهذه العبارات الثلاث المقرونة بالعظم والاسم الاعظم فكان أعظم الثواب لان ايمانهم أعظم الايمان ﴿ وذكر المفسرون فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء) أقوالا فقال مجاهد هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت فى العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة وقال ابن عباس رضى الله عنهما لما أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى المدينة فمنهم من تعلق به أهله وولده يقولون ننشدك الله ان لا تضيعنا فيرق لهم فيقيم عندهم ويدع الهجرة فنزلت فهاجروا فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقربائه فلا يلتفت اليه ولا ينزله ولا ينفق عليه حتى رخص لهم بعد ذلك قال مقاتل نزلت فى التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة أى لا تتخذوهم أولياء يمنعوكم عن الايمان ويصدوكم عن الطاعة لقوله تعالى (ان استحبوا) أى اختاروا (الكفر على الايمان) أى أقاموا عليه تركوا الايمان بالله ورسوله (ومن يتولهم منكم) أى ومن يختر المقام معهم على الهجرة والجهاد (فأولئك هم الظالمون) أى فقد ظلم نفسه بمخالفة أمر الله تعالى واختيار الكفار على

المؤمنين * ولما نزلت هذه الآية قال الذين أسلموا ولم يهاجروا ان نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا وخربت دورنا وقطعنا ارحامنا فنزل قوله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة (ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) أى أقرباؤكم مأخوذ من العشرة وقيل من العشيرة فان العشيرة جماعة ترجع الى عقد كعقد العشرة (وأموال اقترفتموها) أى اكتسبتموها (وتجارة تخشون كسادها) أى عدم نفاقها بفراقكم لها (ومساكن ترضونها) أى تستوطنونها راضين بسكناها (أحب اليكم من الله ورسوله) أى الهجرة الى الله ورسوله (وجهاد فى سبيله) فقعدتم لاجل ذلك عن الهجرة والجهاد أى ان كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة فى سبيل الله (فتربصوا) أى انتظروا متربصين وهو تهديد بليغ (حتى يأتى الله بأمره) قال مجاهد بقضائه أى عقوبة عاجلة أو آجلة وقال مقاتل بفتح مكة (والله لا يهدى القوم) أى لا يخلق الهداية فى قلوب (الفاسقين) أى الخارجين عن طاعته وفى هذا دليل على انه اذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا (لقد نصركم الله) النصرة المعونة على الاعداء باظهار المسلمين عليهم (فى مواطن) أى أماكن للحرب (كثيرة) كبدر وقريظة والنضير والمراد بذلك غزواته صلى الله عليه وسلم وسراياه وبعوثه وكانت غزواته صلى الله عليه وسلم على ماذكر فى الصحيحين من حديث زيد ابن أرقم تسع عشرة غزوة زاد بريدة فى حديثه قاتل فى ثمان منها وأما جميع غزواته وسراياه وبعوثه فقيل سبعون وقيل ثمانون (ويوم) أى واذكر يوم (حنين) وهو واد بين مكة والطائف أى يوم قتالكم فيه هوازن وقوله تعالى (اذ أعجبتكم كثرتكم) بدل من يوم حنين وكانت قصة حنين على مانقله الرواة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة وقد بقى من شهر رمضان أيام وخرج متوجها الى حنين لقتال هوازن وثقيف واختلفوا فى عدد عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما كانوا ستة عشر ألفا وقال الكلبى كانوا عشرة آلاف وقال قتادة كانوا اثنى عشر ألفا عشرة آلاف الذين حضروا فتح مكة وألفان انضموا اليهم من الطلقاء وهم الاسراء الذين أخذوا يوم فتح مكة وأطلقوا وبالجملة كانوا عددا كثيرا وكان هوازن وثقيف أربعة آلاف فلما التقوا قال رجل من المسلمين لن نغلب اليوم من قلة اعجابا بكثرتهم فساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه ووكلوا الى كلمة الرجل وقيل قائلها أبو بكر رضى الله عنه وقيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا القول بعيد جدا لانه صلى الله عليه وسلم كان فى أحواله كلها متوكلا على الله تعالى منقطع القلب عن الدنيا وأسبابها ثم اقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المشركون وخلوا عن الذرارى ثم تنادوا يا حماة السوادة اذكروا الفضائح فتراجعوا وانكشف المسلمون حتى بلغ منهزمهم مكة وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مركزه ليس معه الا عمه العباس آخذا بلجام بغلته وابن عمه أبو سفيان بن الحرث وناهيك بهذا شهادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على تناهى شجاعته قال البراء بن عازب كانت

هوازن رماة فلما حملنا عليهم انكشفوا وأكببنا على الغنائم واستقبلونا بالسهام فانكشف المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبق معه الا العباس وأبو سفيان قال البراء والذى لا اله الا هو ماولى رسول الله صلى الله عليه وسلم دبره قط قد رأيته وأبو سفيان آخذ بالركاب والعباس آخذ بلجام الدابة وهو يقول انا النبى لا كذب * انا ابن عبد المطلب فطفق يركض بغلته نحو الكفار ولا يولى ثم قال للعباس وكان صيتا صح ياعباس فنادى ياعباد الله يا أصحاب الشجرة وهم أصحاب بيعة الرضوان المذكورون فى قوله تعالى لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة يا أصحاب سورة البقرة قال الطيبى وهم المذكورون فى قوله تعالى آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون وقيل الذين أنزلت عليهم سورة البقرة فرجعوا جماعة واحدة يقولون لبيك لبيك ونزلت الملائكة فالتقوا مع المشركين فقال عليه الصلاة والسلام هذا حين حمى الوطيس أى اشتد الحرب ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا من تراب فرماهم ثم قال انهزموا ورب الكعبة فانهزموا وروى أنه صلى الله عليه وسلم نزل عن البغلة ثم أخذ قبضة من تراب الارض ثم استقبل بها وجوههم ثم قال شاهت الوجوه قال سلمة بن الاكوع فما خلق الله تعالى منهم انسانا الا ملا عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله تعالى (فلم تغن) أى الكثرة (عنكم شيأ وضاقت عليكم الارض بما رحبت) أى برحبها أى بسعتها لا تجدون فيها مقرا تطمئن اليه نفوسكم من شدة الرعب ولا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكانه (ثم وليتم مدبرين) أى الكفار ظهوركم مدبرين أى منهزمين والادبار الذهاب الى خلف خلاف الاقبال (ثم أنزل الله سكينته) أى رحمته التى سكنوا اليها وأمنوا (على رسوله وعلى المؤمنين) أى على الذين انهزموا فردوا الى النبى صلى الله عليه وسلم لما ناداهم العباس باذنه صلى الله عليه وسلم وقيل هم الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقع الحرب (وأنزل جنودا) أى ملائكة (لم تروها) بأعينكم قال سعيد ابن جبير مدالله نبيه صلى الله عليه وسلم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وقيل ثمانية آلاف وقيل ستة عشر ألفا وروى ان رجلا من بنى النضير قال للمؤمنين بعد القتال أين الخيل البلق والرجال الذين عليهم ثياب بيض ما كنا نراكم فيهم الا كهيئة الشامة وما قتلنا الا بأيديهم فأخبروا بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال تلك الملائكة (وعذب الذين كفروا) بالقتل والاسر وسبى العيال وسلب المال (وذلك جزاء الكافرين) أى مافعل بهم جزاء كفرهم فى الدنيا وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما قسم ما أفاء الله عليه يوم حنين فى الناس وفى المؤلفة قلوبهم لم يعط الانصار شيأ فكأنهم وجدوا اذلم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يامعاشر الانصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فألفكم الله بى وعالة فأغناكم الله بى كلما قال شيأ قالوا الله ورسوله أمن قال ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبى الى رحالكم لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار لوسلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادى الانصار وشعبهم الانصار

شعار والناس دثار انكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض وعن رافع بن خديج أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والاقرع بن حابس كل انسان منهم مائة من الابل واعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال العباس بن مرداس

أتجعل نهبى ونهب العبيـ ـد بين عيينة والاقرع

فما كان حصن ولا حابس * يفوقان مرداس فى مجمع

وما كنت دون امرئ منهما * ومن يخفض اليوم لا يرفع

قال فأتم رسول الله صلى الله عليه وسلم له مائة (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) منهم بالتوفيق للاسلام (والله غفور رحيم) فيتجاوز عنهم ويتفضل عليهم وروى ان ناسا منهم جاؤا فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام وقالوا يا رسول الله أنت خير الناس وأبر الناس وقد سبى أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا قيل سبى يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الابل ما لا يحصى فقال ان عندى ما ترون ان خير القول أصدقه اختاروا اما ذراريكم ونساءكم واما أموالكم قالوا ما كنا نعدل بالاحساب شيأ والحسب ما يعده الانسان من مفاخر آبائه كنوا بذلك عن اختيار الذرارى والنساء على استرجاع الاموال لان تركهم فى ذل الاسر يفضى الى الطعن فى احسابهم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان هؤلاء جاؤا مسلمين وانا خيرناهم بين الذرارى والاموال فلم يعدلوا بالاحساب شيأ فمن كان بيده شئ وطابت نفسه أن يرده فشأنه أى فليلزم شأنه وأمره ومن لا تطب نفسه ليعطنا وليكن قرضا علينا أى بمنزلة القرض حتى نصيب شيأ فنعطيه مكانه فقالوا رضينا وسلمنا فقال انى لا أدرى لعل فيكم من لا يرضى فروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك الينا فرفعت اليه العرفاء أن قد رضوا (يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس) أى ذوو نجس لان معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس أو انهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهى ملابسة لهم أو جعلوا كأنهم النجاسات بعينها مبالغة فى وصفهم بها وعن ابن عباس رضى الله عنهما اعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير وعن الحسن رحمه الله تعالى من صافح مشركا توضأ وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين والنجس مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع (فلا يقربوا المسجد الحرام) أى لنجاستهم وانما نهى عن الاقتراب للمبالغة والمنع من دخول الحرم قال العلماء وجملة بلاد الاسلام فى حق الكفار على ثلاثة أقسام أحدها الحرم فلا يجوز للكافر أن يدخل المسجد بحال ذميا كان أو مستأمنا لظاهر هذه الآية واذا جاء رسول من دار الكفر الى الامام والامام فى الحرم لا يؤذن له فى دخول الحرم بل يخرج اليه الامام أو يبعث اليه من يسمع رسالته خارج الحرم وجوز أبو حنيفة وأهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم القسم الثانى من بلاد الاسلام الحجاز فيجوز للكافر دخوله بالاذن ولا يقيم فيه أكثر من ثلاثة أيام لما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى

لا أدع

لادع الاسلما فأجلاهم عمر فى خلافته وأجـل لمن قدم منهم تاجرا ثلاثا وجزيرة العرب من أقصى عدن أبين الى ريف العراق فى الطول وأما فى العرض فمن جدة وما والاها من ساحـل البحر الى أطراف الشأم والقسم الثالث سائر بلاد الاسلام يجوز للكافر أن يقيم فيها بذمة أو أمان لكن لايدخل المساجد الا باذن مسلم لحاجة وقوله تعالى (بعد عامهم هذا) اشارة الى العام الذى حج فيه ابو بكر رضى الله تعالى عنه ونادى على رضى الله عنه ببراءة وهو سنة تسع من الهجرة وقيل سنة حجة الوداع ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا أن يقرأ على مشركى مكة أول براءة وينبذ اليهم عهدهم وان الله برىء من المشركين ورسوله قال اناس يا أهل مكة ستعلمون ما تلقون من الشدة لانقطاع السبيل وفقد الحمولات وذلك ان أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يأتون مكة بالطعام ويتجرون فلما امتنعوا من دخول الحرم خافوا الفقر وضيق العيش فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى (وان خفتم عيلة) أى فقرا وحاجة بانقطاع تجارتهم عنكم (فسوف يغنيكم الله من فضله) أى من عطائه وتفضله من وجه آخر وقد أنجز الله تعالى وعده بأن أرسل المطر عليهم مدرارا فكثر خيرهم وأسلم أهل جدة وصنعاء وتبالة وجرش وجلبوا الميرة الكثيرة الى مكة فكفاهم الله تعالى ما كانوا يخافون وتبالة بفتح التاء وجرش بضم الجيم وفتح الراء وشين معجمة قريتان من قرى اليمن وقيد ذلك بقوله تعالى (ان شاء) لتنقطع الآمال اليه تعالى ولينبه على أنه متفضل فى ذلك وان الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض وفى عام دون عام (ان الله) أى الذى له الاحاطة الكاملة (عليم) أى بوجوه المصالح (حكيم) أى فيما يعطى ويمنع وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ألقى الشيطان فى قلوبهم الخوف وقال من أين تأكلون فأمرهم الله تعالى بقتال أهل الكتاب كما قال تعالى (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) (فان قيل) اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فكيف أخبر الله تعالى عنهم بذلك (أجيب) بأن من اعتقد أن العزير ابن الله وأن المسيح ابن الله فليس بمؤمن بل هو مشرك وبأن من كذب رسولا من الرسل فليس بمؤمن واليهود والنصارى يكذبون أكثر الانبياء (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) من الشرك وأكل أموال الناس بالباطل وتبديل التوراة والانجيل وغير ذلك (ولا يدينون دين الحق) أى الثابت الذى هو ناسخ لسائر الاديان وهو الاسلام كما قال تعالى ان الدين عند الله الاسلام (من الذين أوتوا الكتاب) أى اليهود والنصارى بيان للذين لايؤمنون (حتى يعطوا الجزية) وهى الخراج المضروب على رقابهم فى نظير سكناهم فى بلاد الاسلام آمنين مأخوذ من المجازاة لكفنا عنهم وقيل من الجزاء بمعنى القضاء قال الله تعالى واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيأ أى لاتقضى وقوله تعالى (عن يد) حال من الضمير أى منقادين مقهورين يقال لكل من أعطى شيأ كرها من غير طيب نفس أعطى عن يد وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم وهل يجوز أن يوكلوا مسلما فى دفعها أولا ينبنى على تفسير الصغار المذكور فى قوله تعالى (وهم صاغرون)

أي أذلاء منقادون لحكم الاسلام ويكفي في الصغار أن يجرى عليهم الحكم بما لا يعتقدون حله أن يجوز التوكيل على هذا تفسيره أن يجلس الآخذ ويقوم الكافر ويطأطئ رأسه ويحني ظهره ويضع الجزية في الميزان ويقبض الآخذ لحيته ويضرب لهزمتيه وهما مجتمع اللحم بين الماضغ والأذن من الجانبين مردود بأن هذه الهيئة باطلة ودعوى سنيتها أو وجوبها أشد بطلانا ولم ينقل أن النبي صلى الله عليه وسلم ولا أحدا من الخلفاء الراشدين فعل شيأ من ذلك وعلى تفسيرها بما ذكر يمتنع التوكيل اذا قيل بوجوبه لا باستحبابه *(تنبيه)* مفهوم الآية يقتضي تخصيص الجزية بأهل الكتاب ولكن ألحق بهم المجوس لانه صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر وقال سنوا بهم سنة أهل الكتاب وكذا من زعم التمسك بصحف ابراهيم وزبور داود صلى الله عليهما وسلم ومن أحد أبويه كتابي والآخر وثني وأولاد من تهود أو تنصر قبل النسخ أو شككنا في وقت التهود والتنصر أكان قبل النسخ أم بعده فلا تعقد لأولاد من تهود أو تنصر بعد النسخ في ذلك الدين ولا لعبدة الأوثان والشمس والملائكة والسامرة والصابئون ان خالفوا اليهود والنصارى في أصول دينهم فليسوا منهم والا فهم وعن مالك تؤخذ الجزية من كل كافر الا المرتد وعن أبي حنيفة الا مشركي العرب وأقل الجزية دينار لكل سنة عن كل واحد لقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل لما بعثه الى اليمن خذ من كل حالم أي محتلم دينارا صححه ابن حبان والحاكم وتؤخذ من زمن وشيخ هرم وأعمى وراهب وأجير وفقير عجز عن كسب فاذا تمت سنة وهو معسر ففي ذمته حتى يوسر وقال أبو حنيفة على الغني ثمانية وأربعون درهما وعلى المتوسط نصفها وعلى الفقير المكسوب ربعها ولا شيء على فقير غير كسوب ولا بد أن يكون المأخوذ منه حرا ذكرا غير صبي ومجنون وتلفق افاقة مجنون كثرت فان قل زمن الجنون كساعة من شهر فلا أثر لها ولو بلغ ابن ذمي ولم يبذل جزية ألحق بمأمنه وان أعطاها عقد له وقيل عليه كجزية أبيه ولا يحتاج الى عقد له اكتفاء بعقد أبيه ومن مات ممن عقدت له الجزية أو أسلم أو جن أو حجر عليه بفلس أو سفه بعد سنة فجزيته كدين آدمي أو في أثنائها فقسط وتسقط بالاسلام والموت عند أبي حنيفة (وقالت اليهود عزير ابن الله) اختلفوا في قائل هذه المقالة على أقوال أحدها قال عبيد بن عمير انما قال هذا القول رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء وهو الذي قال ان الله فقير ونحن أغنياء وثانيها قال ابن عباس في رواية سعيد بن جبير وعكرمة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشاس ابن قيس ومالك بن الصيف فقالوا كيف نتبع دينك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم ان عزيرا ابن الله فأنزل الله تعالى هذه الآية وعلى هذين القولين القائل انما هو بعض اليهود الا أن الله تعالى نسب ذلك الى اليهود بناء على عادة العرب في ايقاع اسم الجماعة على اسم الواحد يقال فلان ركب الخيول ولعله لم يركب الا واحدا منها وفلان يجالس السلاطين ولعله لم يجالس الا واحدا وثالثها أن هذا المذهب لعله كان فاشيا فيهم ثم انقطع فحكى الله تعالى ذلك عنهم ولا عبرة بانكار اليهود لذلك فان الآية تليت عليهم فما أنكروا ولا كذبوا مع تهالكهم على

التكذيب واختلف فى السبب الذى قالوا ذلك لاجله فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان اليهود أضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فأنساهم الله تعالى التوراة ونسخها من صدورهم فتضرع عزير الى الله تعالى وابتهل اليه أن يرد اليه الذى نسخ من صدورهم فبينما هو يصلى مبتهلا الى الله تعالى نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت اليه التوراة فأذن فى قومه وقال يا قوم قد آتانى الله تعالى التوراة وردها الى فعلقوا به يعلمهم ثم مكثوا ما شاء الله تعالى ثم ان التابوت أنزل بعد ذهابه عنهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذى كان يعلمهم عزير فوجدوه مثله فقالوا ما أوتى عزير هذا الا أنه ابن الله وقيل لما رفع الله تعالى عنهم التوراة خرج عزير وهو غلام يسيح فى الارض فأتاه جبريل عليه السلام فقال له الى أين تذهب قال أطلب العلم فحفظه التوراة وأملاها عليهم عن ظهر قلبه لا يخرم منها حرفا فقالوا ما جمع الله التوراة فى قلبه وهو غلام الا أنه ابنه وقال الكلبى ان بختنصر لما ظهر على بنى اسرائيل وقتل من قرأ التوراة وكان عزير اذ ذاك صغيرا فاستصغره فلم يقتله فلما رجع بنو اسرائيل الى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة فبعث الله تعالى عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية بعدما أماته الله تعالى مائة سنة وأرسل اليه ملكا باناء فيه ماء فسقاه فمثلت التوراة فى صدره فلما أتاهم وقال لهم أنا عزير كذبوه وقالوا ان كنت كما تزعم فاتل علينا التوراة فكتبها لهم من صدره ثم ان رجلا منهم قال ان أبى حدثنى ان التوراة جعلت فى خابية ودفنت فى كرم فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوا بها ما كتبه عزير فلم يجدوه غادر حرفا فقالوا ان الله تعالى لم يقذف التوراة فى قلب عزير الا أنه ابنه فعند ذلك قالت اليهود عزير ابن الله وقرأ عاصم والكسائى عزير بالتنوين والباقون بغير تنوين قال الزجاج الوجه اثبات التنوين فقوله عزير مبتدأ وقوله ابن خبره واذا كان كذلك فلا بد من التنوين فى حال السعة لان عزيرا ينصرف سواء كان عربيا أم عجميا وسبب كونه منصرفا أمران أحدهما أنه اسم خفيف فينصرف وان كان أعجميا كهود ولوط والثانى أنه على صيغة التصغير وأن الاسماء الاعجمية لا تصغر وأما الذين تركوا التنوين فلهم فيه أوجه أحدها أنه أعجمى معرفة فوجب أن لا ينصرف وثانيها قال الفراء نون التنوين ساكنة من عزير والباء من ابن الله ساكنة فحصل ههنا التقاء الساكنين فحذف التنوين للتخفيف ورد هذا الوجه بأنه مخالف لما تقرر من ان الوجه عند ملاقاة التنوين للساكن التحريك لا الحذف وثالثها ان الابن وصف والخبر محذوف والتقدير عزير ابن الله معبودنا ورد هذا أيضا بأنه يؤدى الى تسليم النسب وانكار الخبر المقدر لان من أخبر عن ذات موصوفة بصفة بأمر من الامور وأنكر منكر توجه الانكار الى الخبر فكان المقصود بالانكار قولهم عزير ابن الله معبودنا وحصل تسليم كونه ابن الله ومعلوم أن ذلك كفر (وقالت النصارى المسيح) عيسى (ابن الله) واختلف فى السبب الذى قالوا ذلك لاجله فقيل انما قالوه استحالة لان يكون ولد بلا أب وقيل ان النصارى كانوا على دين الاسلام احدى وثمانين سنة بعد ما رفع عيسى عليه الصلاة والسلام يصلون الى القبلة ويصومون رمضان حتى وقع بينهم وبين اليهود حرب وكان فى اليهود رجل شجاع

يقال له بولص قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ثم قال بولص لليهود ان الحق مع عيسى وقد كفرنا ومصيرنا الى النار ونحن مغبونون ان دخلوا الجنة ودخلنا النار فانى سأحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار وكان له فرس يقاتل عليه يقال له العقاب فعرقبه وأظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه وقال للنصارى نوديت من السماء ليس لك توبة الا أن تتنصر وقد تبت وأتيتكم فأدخلوه الكنيسة ونصروه ودخل بيتا فيها مكث فيه سنة لا يخرج منه ليلا ولا نهارا حتى تعلم الانجيل ثم خرج منه وقال انه نودى ان الله قبل توبتك فصدقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم ثم عمد الى ثلاث رجال اسم واحد منهم نسطورا والآخر يعقوب والآخر ملكا فعلم نسطورا ان عيسى ومريم والاله ثلاث وعلم يعقوب أن عيسى ليس بانسان ولا جسم ولكنه ابن الله وعلم ملكا ان عيسى هو الاله لم يزل ولا يزال فلما اشتهر ذلك فيهم دعا كل واحد منهم وقال له أنت خالصتى فادع الناس لما علمتك وأمره أن يذهب الى ناحية من البلاد ثم قال لهم انى رأيت عيسى فى المنام وقد رضى عنى وقال لكل واحد منهم سأذبح نفسى تقربا الى عيسى ثم ذهب الى المذبح فذبح نفسه وتفرق أولئك الثلاثة فذهب واحد الى الروم وواحد الى بيت المقدس وواحد الى ناحية أخرى وأحكم كل واحد منهم مقالته ودعا الناس اليها فتبعه على ذلك طوائف من الناس فتفرقوا واختلفوا ووقع القتال فهذا هو السبب فى وقوع الكفر فى طوائف النصارى هذا ما حكاه الواحدى رحمه الله تعالى قال الرازى عقب هذه الحكاية والاقرب عندى أن يقال ورد لفظ الابن فى الانجيل على سبيل التشريف ثم ان القوم لاجل عداوة القوم بالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية والجهال قبلوا ذلك وفشا هذا المذهب الفاسد فى اتباع عيسى عليه السلام والله سبحانه وتعالى اعلم بالحقيقة (ذلك قولهم بأفواههم) أى لا مستند لهم عليه (فان قيل) كل قول يقال بالفم فما معنى بأفواههم (أجيب) بأنه قول لا يعضده برهان فما هو الا لفظ تفوهوا به فارغ من معنى تحته كالالفاظ المهملة التى لا تدل على معان وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر فى القلب وما لا معنى له مقول بالفم لا غير أو بأن يراد بالقول المذهب كقولهم قول الشافعى رحمه الله تعالى يريدون مذهبه وما يقول به كأنه قيل ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم لانه لا حجة معه ولا شبهة حتى تؤثر فى القلوب وذلك أنهم اذا اعترفوا أنه لا صاحبة له ولا ولد لم تكن لهم شبهة فى انتفاء الولد قال أهل المعانى لم يذكر الله تعالى قولا مقرونا بالافواه والالسن الا كان ذلك زورا (يضاهون) قال ابن عباس يشابهون وقال مجاهد يواطئون وقال الحسن يوافقون (قول الذين كفروا من قبل) أى من قبلهم ولا بد من حذف مضاف تقديره يضاهى قولهم قول الذين كفروا ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف اليه مقامه فانقلب مرفوعا والمعنى ان الذين كانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يضاهى قولهم قول قدمائهم فالكفر قديم فيهم غير مستحدث أو يضاهى قول المشركين الملائكة بنات الله وقيل الضمير للنصارى أى يضاهى قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزير ابن الله لانهم أقدم منهم وقرأ عاصم بكسر الهاء وبعدها همزة مضمومة والباقون بضم الهاء ولا همز بعدها وقوله تعالى (قاتلهم الله) دعاء

عليهم بالهلاك فان من قاتله الله تعالى هلك أو تعجب من شناعة قولهم كما يقال لمن فعل فعلا يتعجب منه قاتله الله ما أعجب فعله وقيل لعنهم الله روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال كل شئ فى القرآن مثله فهو لعن (أنى يؤفكون) أى كيف يصرفون عن الحق الى الباطل مع قيام الدليل بأن الله تعالى واحد أحد فجعلوا له ولدا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وهذا التعجب راجع الى الخلق لان الله تعالى لا يتعجب من شئ ولكن هذا الخطاب على عادة العرب فى مخاطباتهم فالله تعالى عجب نبيه صلى الله عليه وسلم من تركهم الحق واصرارهم على الباطل (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم) أى اتخذ اليهود أحبارهم أى علماءهم والحبر فى الاصل العالم من أى طائفة كان واختص فى العرف بعلماء اليهود من ولد هرون وكان أبو الهيثم يقول واحد الاحبار حبر بالفتح ويتكر الكسر واتخذ النصارى رهبانهم أى عبادهم أصحاب الصوامع والراهب فى الاصل من تمكنت الرهبة من قلبه فظهر آثارها على وجهه ولباسه واختص فى العرف بعلماء النصارى أصحاب الصوامع (أربابا من دون الله) لانهم أطاعوهم فى تحريم ما أحل الله تعالى وتحليل ما حرم الله تعالى كما تطاع الارباب فى أوامرهم ونحوه تسمية أتباع الشيطان فيما يوسوس به عبادة كما قال تعالى بل كانوا يعبدون الجن وقال ابراهيم الخليل عليه السلام يا أبت لا تعبد الشيطان وعن عدى بن حاتم أنه قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب فقال يا عدى اطرح هذا الوثن من عنقك فطرحته ثم انتهيت اليه وهو يقرأ سورة براءة فوصل الى هذه الآية فقلت انا لسنا نعبدهم فقال أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرمه فتحلونه قلت بلى قال تلك عبادتهم قال عبد الله بن المبارك

وهل بدل الدين الا الملوك * وأحبار سوء ورهبانها

(فان قيل) انه تعالى كفرهم بسبب ان أطاعوا الاحبار والرهبان فالفاسق يطيع الشيطان فوجب الحكم بكفره على ما هو قول الخوارج (أجيب) بأن الفاسق وان كان يقبل دعوى الشيطان الا أنه لا يعظمه بل يلعنه ويستخف به وأما هؤلاء فكانوا يقبلون قول الاحبار والرهبان ويعظمونهم وقد يبالغ بعض الجهال فى تعظيم شيخه بحيث يميل طبعه الى القول بالحلول والاتحاد وذلك الشيخ اذا كان طالبا للدنيا بعيدا عن الآخرة بعيدا عن الدين قد يلق اليهم ان الامر كما يقولون ويعتقدون وعن الفضيل رضى الله تعالى عنه ما أبالى أطعت مخلوقا فى معصية الخالق أو صليت لغير القبلة (والمسيح بن مريم) أى اتخذوه كذلك لكونهم جعلوه ابنا فأهلوه للعبادة بذلك مع كونه ابن مريم فهو لا يصلح للالهية بوجه لمشاركته للآدميين فى الحمل والولادة والاكل والشرب وغير ذلك من أحوال البشر الموجبة للحاجة المنافية للالهية (وما أمروا) أى فى التوراة والانجيل (الا ليعبدوا) أى ليطيعوا على وجه التعبد (الها واحدا) أى لا يقبل القسمة بوجه لا بالذات ولا بالمماثلة وهو الله تعالى وأما طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعة من أمر الله بطاعته فهى فى الحقيقة طاعة الله تعالى وقوله تعالى (لا اله الا هو) صفة ثانية أو استئناف مقرر للتوحيد (سبحانه عما يشركون) أى تعالى وتنزه عن أن يكون له

شريك فى العبادة والاحكام وأن يكون له شريك فى الالهية يستحق التعظيم والاجلال (يريدون) أى رؤساء اليهود والنصارى (أن يطفئوا نور الله) أى شرعه و براهينه الدالة على وحدانيته وتقديسه عن الولد أو القرآن أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (بأفواههم) أى بأقوالهم الكاذبة وشركهم وفى تسمية دينه أو القرآن أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم نورا ومعاندتهم اطفاء بأفواههم تمثيل لحالهم فى طلبهم أن يبطلوا نور الله بالتكذيب بالشرك بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم منبث فى الآفاق يريد الله أن يزيده و يبلغه الغاية القصوى فى الاشراق والاضاءة ليطفئه بنفخه ويطمسه (و يأبى الله) أى لا يرضى (الا أن يتم نوره) باعلاء التوحيد واعزاز الاسلام (فان قيل) كيف جاز أبى الله الا كذا ولا يقال كرهت أو أبغضت الا زيدا (أجيب) بأنه أجرى أبى مجرى لم يرد ألا ترى كيف قوبل يريدون أن يطفئوا بقوله و يأبى الله وكيف أوقع موقع ولا يريد الله الا أن يتم نوره وقوله تعالى (ولو كره الكافرون) محذوف الجواب لدلالة ما قبله أى ولو كرهوا اغلبته (هو الذى أرسل رسوله) محمدا صلى الله عليه وسلم (بالهدى) أى القرآن الذى أنزله عليه وجعله هاديا له (ودين الحق) أى دين الاسلام (ليظهره) أى ليعليه (على الدين كله) أى جميع الاديان المخالفة له وهذا كالبيان لقوله تعالى و يأبى الله الا أن يتم نوره ولذلك كرر (ولو كره المشركون) غير أنه وضع المشركون موضع الكافرون للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول الى الشرك بالله تعالى (فان قيل) الاسلام لم يصر غالبا لسائر الاديان فى أرض الصين والهند والروم وسائر بلاد الكفر (أجيب) عن ذلك بأوجه الاول بأنه لا دين بخلاف الاسلام الا وقد قهرهم المسلمون وظهروا عليهم فى بعض المواضع وان لم يكن ذلك فى جميع مواضعهم فقهروا اليهود وأخرجوهم من بلاد العرب وغلبوا النصارى على بلاد الشأم وما والاها الى ناحية الروم والمغرب وغلبوا المجوس على ملكهم وغلبوا عباد الاصنام على كثير من بلادهم مما يلى الهند والترك وكذا سائر الاديان فثبت ان الذى أخبر الله تعالى عنه فى هذه الآية قد وقع وحصل فكان ذلك اخبارا عن الغيب فكان معجزا الوجه الثانى ما روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال هذا وعد من الله تعالى بجعل الاسلام غالبا على جميع الاديان وتمام هذا انما يحصل عند خروج عيسى عليه السلام فانه لا يبقى أهل دين الا دخلوا فى الاسلام وقال السدى ذلك عند خروج المهدى لا يبقى أحد الا دخل فى الاسلام أو أدى الخراج الوجه الثالث أن المراد اظهاره فى جزيرة العرب وقد حصل ذلك فانه تعالى ما أبقى فيها أحدا من الكفار وقال ابن عباس الهاء فى ليظهره الى الرسول صلى الله عليه وسلم والمعنى ليعلمه شرائع الدين كلها و يظهره عليها حتى لا يخفى عليه شئ منها (يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار) أى علماء اليهود (والرهبان) أى عباد النصارى (ليأكلون) أى يتناولون (أموال الناس بالباطل) كالرشا وانما عبر بالاكل لانه معظم المراد من المال واشارة الى تحقير الاحبار والرهبان بأن يفعلوا ما ينافى مقامهم الذى أقاموا أنفسهم فيه باظهار الزهد والمبالغة فى التدين قال الرازى ولعمرى من تأمل أحوال الناس فى زماننا وجد هذه الآيات كأنها

ما

ما أنزلت الا في شأنهم وشرح أحوالهم فترى الواحد منهم يدعي أنه لا يلتفت الى الدنيا ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات وأنه في الطهارة والعظمة مثل الملائكة المقربين حتى اذا آل الامر الى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ويتحمل نهاية الذل والدناءة في تحصيله (ويصدون الناس (عن سبيل الله) أي دينه ولما كان مطلوب الخلق في الدنيا المال والجاه بين تعالى في صفة الاحبار والرهبان كونهم مشغوفين بهذين الامرين أما المال فهو المراد بقوله تعالى ليأكلون أموال الناس بالباطل وأما الجاه فهو المراد بقوله ويصدون عن سبيل الله فانهم لو أقروا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم على الحق لزمهم متابعته وحينئذ كان يبطل حكمهم وتزول حرمتهم ولاجل الخوف من هذا المحذور كانوا يبالغون في المنع من متابعته صلى الله عليه وسلم ويبالغون في القاء الشبهات وفي استخراج وجوه المكر والخديعة وفي منع الخلق من قبول دينه الحق (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) يحتمل أن يراد بقوله الذين أولئك الاحبار والرهبان فيكون مبالغة في وصفهم بالحرص الشديد على أخذ أموال الناس بقوله تعالى ليأكلون أموال الناس بالباطل ووصفهم أيضا بالبخل الشديد والامتناع من اخراج الواجبات عن أموال أنفسهم بقوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة وأن يراد المسلمون الذين يجمعون المال ولا يؤدون حقه ويكون اقترانهم بالمرتشين من اليهود والنصارى تغليظا ودلالة على ان من يأخذ منهم السحت ومن لا يعطي منكم بطيب زكاة ماله سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الاليم وأن يراد كل من كنز المال ولم يخرج منه الحقوق الواجبة سواء كان من الاحبار والرهبان أو كان من المسلمين لما روى عن زيد بن وهب قال مررت على أبي ذر بالربذة فقلت ما أنزلك بهذه الارض فقال كنا بالشأم فقرأت والذين يكنزون الذهب الآية فقال معاوية ما هذا فينا ما هذا الا في أهل الكتاب فقلت انها فيهم وفينا فصار ذلك سببا لوحشة بيني وبينه فكتب الى عثمان ان أقبل الي فلما قدمت المدينة انحرف الناس عني كأنهم لم يروني من قبل فشكوت ذلك الى عثمان فقال لي تنح قريبا فقلت اني والله لن أدع ما كنت أقول وأصل الكنز في كلام العرب الجمع وكل شئ جمع بعضه الى بعض فهو مكنوز يقال هذا جسم مكتنز الاجزاء اذا كان مجتمع الاجزاء واختلف علماء الصحابة في المراد بهذا الكنز المذموم على قولين الاول وهو ما عليه الاكثر أنه المال الذي لم تؤد زكاته لما روى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعني شدقيه ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله الآية والشجاع الحية والاقرع صفته لطول عمره لان من طال عمره تمرق شعره وذهب وهي صفة أخبث الحيات والزبيبتان الزائدتان في الشدقين وروى لما نزلت هذه الآية كبر على المسلمين فذكر عمر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله لم يفرض الزكاة الا ليطيب بها ما بقي من أموالكم وقال ابن عباس في قوله تعالى ولا ينفقونها في سبيل الله يريد الذين

لايؤدون زكاة أموالهم قال القاضي عياض تخصيص هذا المعنى بمنع الزكاة لاسبيل اليه بل الواجب أن يقال الكنز هو الذي ما أخرج عنه ما وجب اخراجه ولافرق بين الزكاة وبين ما يجب من الكفارات وبين ما يلزم من نفقة الحج وبين ما يجب اخراجه في الدين والحقوق والانفاق على الاهل والعيال وضمان المتلفات وأروش الجنايات فيجب في كل هذا الآثام وأن يكون داخلا في الوعيد والقول الثاني ان المال الكثير اذا جمع فهو الكنز المذموم واحتج الذاهبون الى هذا القول بعموم الآية وبما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه الآية تبا للذهب تبا للفضة قالها ثلاثا فقالوا له أى مال نتخذ قال لسانا ذاكرا وقلبا خاشعا وزوجة تعين أحدكم على دينه وقال عليه الصلاة والسلام من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها وتوفى شخص فوجد في مئزره دينار فقال صلى الله عليه وسلم كية وتوفى آخر فوجد في مئزره ديناران فقال كيتان وأجاب القائلون بالاول بأن هذا كان قبل فرض الزكاة فأما بعد فرض الزكاة فالله أعدل وأكرم أن يجمع عبده مالا من حيث أذن فيه ويؤدى ما أوجب عليه فيه ثم يعاقبه وقد روى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه سئل عن هذه الآية فقال كانت قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرة للاموال وقال ما بالى لو أن لى مثل أحد ذهبا أعلم عدده أزكيه وأعمل فيه بطاعة الله تعالى وروى انه صلى الله عليه قال نعم المال الصالح للرجل الصالح وقال صلى الله عليه وسلم ما أدى زكاته فليس بكنز وكان فى زمانه صلى الله عليه وسلم جماعة معهم الاموال كعثمان وعبد الرحمن بن عوف وكان عليه الصلاة والسلام يعدهم من أكابر الصحابة وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية لان الاعراض اختيار للافضل والادخل فى الورع والزهد فى الدنيا والاقتناء مباح موسع لا يذم صاحبه وكونه أدخل فى الورع لامور منها ان كسب المال شاق شديد وحفظه بعد حصوله أشد وأشق وأصعب فيبقى الانسان طول عمره تارة فى طلب التحصيل وأخرى فى طلب الحفظ ثم انه لا ينتفع منها الا بالقليل ومنها ان كثرة المال والجاه تورث الطغيان كما قال تعالى ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى فالطغيان يمنع من وصول العبد الى مقام رضوان الرحمن ويوقع فى الخذلان والخسران ومنها أنه تعالى أوجب الزكاة وذلك سعى فى تنقيص المال ولو كان تكثيره فضيلة لما سعى الشرع فى تنقيصه (فان قيل) قال عليه الصلاة والسلام اليد العليا خير من اليد السفلى (أجيب) بأن اليد العليا انما افادته صفة الخيرية لانه لما أعطى ذلك القليل تسبب أنه حصل فى ماله ذلك النقصان القليل فحصل له الخيرية وبسبب أنه حصل للفقير بذلك الزيادة القليلة حصلت له المرجوحية (فان قيل) انه تعالى ذكر شيئين وهما الذهب والفضة ثم قال ولا ينفقونها فلم أفرد الضمير (أجيب) بأن الضمير راجع الى المعنى دون اللفظ لان كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم فهو كقوله تعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا وقيل ذهب به الى المكنوز وقيل الى الاموال وقيل التقدير ولا ينفقون الفضة وحذف الذهب لانه داخل فى الفضة من حيث انهما معا يشتركان فى ثمنية الاشياء أو ان ذكر أحدهما يغنى عن الآخر كقوله تعالى واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها جعل

الضمير للتجارة وقيل التقدير والذهب كذلك كما أن قول القائل * فاني وقيار بها لغريب * أي وقيار كذلك (فان قيل) ما السبب في كونه خصهما بالذكر من سائر الاموال (أجيب) بأنهما خصا من دون سائر الاموال لأنهما أشرف الاموال وهما اللذان يقصدان بالكنز ومن كنزا عنده لم يعدم سائر أجناس المال فكان ذكر كنزهما دليلا على ماسواهما ثم انه تعالى لما ذكر من يكنز الذهب والفضة قال تعالى (فبشرهم) أي أخبرهم (بعذاب أليم) أي مؤلم وعبر بالبشارة على سبيل التهكم (يوم يحمى عليها) أي الكنوز بأن تدخل (في نار جهنم) فيوقد عليها (فتكوى) أي تحرق (بها) أي بهذه الاموال (جباههم وجنوبهم وظهورهم) قال ابن مسعود رضي الله عنه لا يوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم في موضع على حدته وسئل أبو بكر الوراق لم خصت الجباه والجنوب والظهور بالكي قال لأن الغني صاحب الكنز اذا رأى الفقير قبض جبهته واذا جلس الفقير بجنبه تباعد عنه وولى عليه ظهره وقيل المعنى انهم يكوون على الجهات الاربع أما من مقدمه فعلى الجبهة وأما من خلفه فعلى الظهر وأما من يمينه ويساره فعلى الجنبين وقيل لأن جمعهم وامساكهم المال كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية والملابس البهية وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مامن صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها الا اذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره كلما بردت عليه أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار وقوله تعالى (هذا ما كنزتم) على ارادة القول أي يقال لهم هذا ما كنزتم (لأنفسكم) أي لمنفعتها وكان عين مضرتها وسبب تعذيبها (فذوقوا ما كنتم تكنزون) أي تمنعون حقوق الله تعالى في أموالكم وعن أبي ذر رضي الله عنه قال انتهيت الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال هم الاخسرون ورب الكعبة فقلت يارسول الله فداك أبي وأمي من هم قال هم الاكثرون أموالا الا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ماهم (ان عدة الشهور) أي عددها (عند الله اثنا عشر شهرا) وهي المحرم وصفر وشهر ربيع الأول وشهر ربيع الثاني وجمادى الأول وجمادى الثاني ورجب وشعبان وشهر رمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة هذه شهور السنة القمرية التي هي مبنية على سير القمر في المنازل وهي شهور العرب التي يعتد بها المسلمون في صيامهم ومواقيت حجهم واعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوما والسنة الشمسية عبارة عن دوران الشمس في الفلك دورة واحدة تامة وهي ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام فبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية فيقع الصوم والحج تارة في الشتاء وتارة في الصيف قال المفسرون وسبب نزول هذه الآية من أجل النسيء الذي كانت العرب تفعله في الجاهلية

قوله وأيام هذه الشهور الخ المذكور في كتب الفقه أن السنة الهلالية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما وخمس يوم وسدسه وأن السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم الا جزأ من ثلاثمائة جزء من اليوم اهـ

فكان حجهم يقع تارة فى وقته وتارة فى المحرم وتارة فى صفر وتارة فى غيرهما من الشهور فأعلم الله تعالى ان عدة الشهور سنة المسلمين التى يعتدون بها اثنا عشر شهرا على منازل القمر وسيره فيها وهو قوله تعالى ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا أى فى علمه وحكمه (فى كتاب الله) أى فى اللوح المحفوظ الذى كتب فيه أحوال مخلوقاته بأسرها على التفصيل وهو أصل الكتب التى أنزلها الله تعالى على جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل فيما أثبته وأوجبه من حكمه ورآه حكمة وصوابا (يوم خلق السموات والارض) اى ان هذا الحكم حكم به وقضاه يومئذ أى السنة اثنا عشر شهرا (منها) أى الاشهر (أربعة حرم) ثلاثة سرد ذو القعدة بفتح القاف وذو الحجة بكسر الحاء على المشهور فيهما وسميا بذلك لقعودهم عن القتال فى الاول ولوقوع الحج فى الثانى والمحرم بتشديد الراء المفتوحة سمى بذلك لتحريم القتال فيه وقيل لتحريم الجنة فيه على ابليس ودخلته اللام دون غيره من الشهور لانه أولها فعرفوه كأنه قيل هذا الشهر الذى ابتدأ أول السنة وواحد فرد وهو رجب ويجمع على ارجاب ورجاب ورجوب ورجبات ويقال له الاصم والاصب وقيل لم يعذب الله أمة فى شهر رجب ورد عليه بأن الله تعالى أغرق قوم نوح فيه قاله الثعلبى وهذا الترتيب الذى ذكرناه فى عد الاشهر الحرم وجعلها من سنتين هو الصواب كما قاله النووى فى شرح مسلم ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم فى خطبته فى حجة الوداع ألا ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والارض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان وعدها الكوفيون من سنة واحدة فقالوا المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة قال ابن دحية وتظهر فائدة الخلاف فيما اذا نذر صيامها مرتبة فعلى الاول يبتدئ بذى القعدة وعلى الثانى بالمحرم ومعنى الحديث أن الاشهر رجعت الى ما كانت عليه وعاد الحج فى ذى الحجة و بطل النسىء الذى كان فى الجاهلية وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة وكانت حجة أبى بكر رضى الله عنه قبلها فى ذى القعدة ومعنى الحرم ان المعصية فيها أشد عقابا والطاعة فيها أكثر ثوابا والعرب كانوا يعظمونها جدا حتى لو لقى الرجل قاتل أبيه لم يتعرض له (فان قيل) أجزاء الزمان متشابهة فى الحقيقة فما السبب فى هذا التمييز (أجيب) بأن هذا المعنى غير مستبعد فى الشرائع فان أمثلته كثيرة ألا ترى أنه تعالى ميز البلد الحرام عن سائر البلاد بمزيد الحرمة وميز يوم الجمعة عن سائر أيام الاسبوع بمزيد الحرمة وميز يوم عرفة عن سائر الايام بتلك العبادة المخصوصة وميز شهر رمضان عن سائر الشهور بمزيد حرمة وهو وجوب الصوم وميز بعض ساعات اليوم بوجوب الصلاة فيها وميز بعض الليالى عن سائرها وهى ليلة القدر وميز بعض الاشخاص عن سائر الناس باعطاء خلع الرسالة واذا كانت هذه الامثلة ظاهرة مشهورة فأى استبعاد فى تخصيص بعض الاشهر بمزيد الحرمة (ذلك) أى تحريم الاشهر الاربعة (الدين القيم) أى المستقيم وهو دين ابراهيم واسمعيل عليهما السلام والعرب ورثوه منهما وقيل المراد بالدين الحساب يقال الكيس من دان نفسه أى حاسبها والقيم معناه المستقيم فتفسير الآية على

هذا

هذا التقدير ذلك الحساب المستقيم الصحيح والعدد المستوى وقال الحسن ذلك الدين القيم الذى لا يبدل ولا يغير فالقيم هنا بمعنى القائم الدائم الذى لا يزول وهو الدين الذى فطر الناس عليه (فلا تظلموا فيهن) أى الاشهر الحرم (أنفسكم) بالمعاصى فانها فيها أعظم وزرا لان الله تعالى خص هذه الشهور بمزيد احترام فى آية أخرى وهو قوله تعالى الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج فهذه الاشياء غير جائزة فى غير الحج أيضا الا انه تعالى أكد فى المنع منها فى هذه الايام تنبيها على زيادتها فى الشرف وقال ابن عباس ان المراد فلا تظلموا فى الشهور الاثنى عشر أنفسكم والمقصود منع الانسان من الاقدام على الفساد مطلقا فى جميع العمر قال الفراء والاول أولى لان العرب تقول فيما بين الثلاثة الى العشرة فيهن فاذا جاوزه هذا العدد قالوا فيها والاصل فيه ان جمع القلة يكنى عنه كما يكنى عن جماعة مؤنثة ويكنى عن جمع الكثرة كما يكنى عن واحدة مؤنثة كما قال حسان

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى * وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

قال يلمعن ويقطرن لان الاسياف والجفنات جمع قلة ولو جمع جمع الكثرة لقال تلمع وتقطر هذا فى الاختيار ثم يجوز اجراء أحدهما مجرى الآخر كقول النابغة

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

فقال بهن والسيوف جمع كثرة وقيل المراد بالظلم المقاتلة فى هذه الاشهر وقيل النسىء الذى كانوا يعملونه فينقلون الحج من الذى أمر الله تعالى باقامته فيه الى شئ آخر ويغيرون تكاليف الله تعالى والجمهور على ان حرمة المقاتلة فى الاشهر الحرم منسوخة وعن عطاء لا يحل للناس أن يغزوا فى الحرم والاشهر الحرم الا أن يقاتلوا ويؤيد الاول ماروى انه صلى الله عليه وسلم حاصر الطائف وغزا هوازن بحنين فى شوال وذى القعدة وقوله تعالى (وقاتلوا المشركين كافة) أى جميعا فى كل الشهور (كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين) بالعون والنصرة ومن كان معه نصر لا محالة (انما النسىء) أى التأخير لحرمة شهر الى آخر كما كانت الجاهلية تفعل كانوا اذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر ورفضوا خصوص الاشهر واعتبروا مجرد العدد فكانوا يؤخرون تحريم المحرم الى صفر فيحرمون صفر ويستحلون المحرم فاذا احتاجوا الى تأخير تحريم صفر اخروه الى ربيع وهكذا شهرا بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها وكانوا يحجون فى كل شهر عامين فحجوا فى ذى القعدة عامين ثم حجوا فى المحرم عامين ثم حجوا فى صفر عامين وكذا باقى شهور السنة فوافقت حجة أبى بكر رضى الله عنه فى السنة التاسعة فى ذى القعدة قبل حجة الوداع بسنة ثم حج النبى صلى الله عليه وسلم فى العام المقبل حجة الوداع فوافق حجه فى شهر ذى الحجة وهو شهر الحج المشروع فوقف بعرفة فى اليوم التاسع وخطب الناس فى اليوم العاشر وأعلمهم ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض الحديث المتقدم وأمرهم بالمحافظة على ذلك لئلا يتبدل فى مستأنف الايام وقد رجع المحرم الى موضعه الذى وضعه الله تعالى وذلك بعد دهر طويل وروى عن أبى

بكر رضي الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته لنا أي شهر هذا قلنا الله
ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس ذا الحجة قلنا بلى قال أي بلد هذا
قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس البلد الحرام قلنا بلى قال
فأي يوم هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس يوم النحر قلنا
بلى قال فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم
هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم
رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه
ألا هل بلغت ألا هل بلغت الا هل بلغت قلنا نعم قال اللهم اشهد واختلفوا في أول من نسأ
النسيء فقال ابن عباس بنو مالك بن كنانة وكان يليه أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية الكناني
كان يقوم على جمل بالموسم فينادي ان آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ثم ينادي في قابل ان
آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه وقال الكلبي أول من فعل ذلك رجل من بني كنانة يقال
له نعيم بن ثعلبة وقيل أول من فعل ذلك عمرو بن لحي وهو أول من سيب السوائب وقال فيه النبي
صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار وقوله تعالى (زيادة في الكفر) معناه انه
تعالى حكى عنهم أنواعا كثيرة من الكفر فلما ضموا تحريم ما أحل الله تعالى وتحليل ما حرم الله
تعالى وهو كفر كان ضم هذا العمل الى تلك الانواع المتقدمة من الكفر زيادة في الكفر لان
الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفرا فزادتهم رجسا الى رجسهم كما ان المؤمن كلما أحدث
طاعة ازداد ايمانا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وقرأ ورش النسي بقلب الهمزة ياء وادغام
الياء فيها فبقيت ياء مضمومة مشددة والباقون بهمزة مضمومة هذا في الوصل وأما الوقف
فورش يقف بياء مشددة ساكنة وحمزة كذلك وله فيه الروم والاشمام والباقون بهمزة ساكنة
(يضل به) أي بهذا التأخير الذي هو النسيء (الذين كفروا) قرأ حفص وحمزة والكسائي بضم
الياء وفتح الضاد لقوله تعالى زين لهم سوء أعمالهم والباقون بفتح الياء وكسر الضاد على معنى
انهم هم الضالون لقوله تعالى (يحلونه) أي يحلون النسيء من الاشهر الحرم (عاما) ويحرمون
مكانه شهرا آخر (ويحرمونه عاما) فيتركونه على حرمته وانما فعلوا ذلك (ليواطؤا) أي ليوافقوا
(عدة) أي عدد (ما حرم الله) من الاشهر فلا يزيدون على تحريم أربعة أشهر ولا ينقصون عنها
ولا ينظرون الى أعيانها (فيحلوا ما حرم الله) بمواطأة العدة من غير مراعاة الوقت الذي يحلون
اليه الاشهر الحرم (زين لهم سوء أعمالهم) قال ابن عباس زين لهم الشيطان هذا العمل حتى
حسبوا هذا القبيح حسنا (والله لا يهدي القوم الكافرين) أي هداية موصلة الى الاهتداء لما
سبق لهم في الازل انهم من أهل النار ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف الى المدينة
وحث على غزوة تبوك وكان ذلك الوقت زمان عسرة وشدة حر وطابت ثمار المدينة ولم يكن رسول
الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة الا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله
عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وجلى للناس أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم

فشق عليهم الخروج وتثاقلوا فنزل (يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم) بادغام التاء فى الاصل فى المثلثة واجتلاب همزة الوصل اذ أصله تثاقلتم ومعناه تباطأتم وملتم عن الجهاد (الى الارض) والقعود فيها والاستفهام للتوبيخ قال المحققون وانما تثاقل الناس من وجوه الاول شدة الزمان فى الصيف والقحط والثانى بعد المسافة والحاجة الى الاستعداد الكثير الزائد على ما جرت به عادتهم فى سائر الغزوات والثالث ادراك الثمار بالمدينة فى ذلك الوقت والرابع شدة الحر فى ذلك الوقت ثم قال لهم الله تعالى (أرضيتم بالحياة الدنيا) وغرورها (من الآخرة) بدل الآخرة ونعيمها (فما متاع الحياة الدنيا فى) جنب متاع (الآخرة الاقليل) أى حقير لان متاع الدنيا يفقد عن قريب ونعيم الآخرة باق على الدوام فلهذا السبب كان متاع الدنيا بالنسبة الى نعيم الآخرة قليلا وفى الآية دليل على وجوب الجهاد فى كل حال وفى كل وقت لان الله تعالى نص على ان تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر فلو لم يكن الجهاد واجبا لما عاتبهم الله على التثاقل ويؤكد هذا الوعيد المذكور فى قوله تعالى (الا) أى بادغام نون ان الشرطية فى لا فى الموضعين (تنفروا) أى تخرجوا مع النبى صلى الله عليه وسلم للجهاد (يعذبكم عذابا أليما) أى مؤلما فى الآخرة لان العذاب الاليم لا يكون الا فيها أو بالاهلاك بسبب فظيع كقحط وظهور عدو وقيل باحتباس المطر عنهم قال ابن عباس استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا من أحياء العرب فتثاقلوا فأمسك الله عنهم المطر فكان ذلك عذابهم (ويستبدل قوما غيركم) أى يأت بهم بدلكم قال ابن عباس هم التابعون وقال سعيد بن جبير ابناء فارس وقال أبو روق هم أهل اليمن قال الرازى وهذه الوجوه ليست تفسيرا للآية لان الآية ليس فيها اشعار بها بل حمل لذلك المطلق على صورة معينة شاهدوها وقال فى الكشاف بعد ذكره ذلك والظاهر مستغن عن التخصيص (ولا تضروه شيأ) أى لا يقدح تثاقلكم فى نصر دينه شيأ فانه الغنى عن كل شئ وفى كل أمر وقيل الضمير راجع الى الرسول صلى الله عليه وسلم أى ولا تضروه لان الله تعالى وعده أن ينصره ووعده كائن لا محالة (والله على كل شئ قدير) أى فيقدر على التبديل وتغيير الاسباب والنصرة بلا عدد كما قال تعالى (الا تنصروه) أى محمدا صلى الله عليه وسلم أيها المؤمنون (فقد نصره الله) فانه المتكفل بنصرة رسوله صلى الله عليه وسلم فى اعزاز دينه واعلاء كلمته أعنتموه أو لم تعينوه فانه قد نصره عند قلة الاولياء وكثرة الاعداء فكيف به اليوم وهو فى كثرة من العدد والعدد وقد نصره (اذ) أى حين (أخرجه الذين كفروا) من مكة حين مكروا به حيث تشاوروا فى قتله أو اخراجه أو اثباته فى دار الندوة فكان ذلك لاذن الله له فى الخروج من بينهم حالة كونه (ثانى اثنين) أى أحدهما أبو بكر رضى الله عنه لا ثالث لهما لم ينصرهما الا الله تعالى وقوله تعالى (اذ) بدل من اذ قبله (هما فى الغار) أى غار ثور الذى فى اعلى الجبل المواجه للركن اليمانى بأسفل مكة على مسيرة ساعة منها لما كمنا فيه ثلاث ليال ليفتر عنهما الطلب وذلك قبل أن يصلا الى المدينة ويعولا فى النصر عليكم وقوله تعالى (اذ) بدل ثان (يقول) صلى الله عليه وسلم (لصاحبه) أبى بكر الصديق رضى الله عنه وثوقا بربه غير منزعج من شئ وقد قال له أبو بكر لما رأى أقدام المشركين

لو نظر أحدهم تحت قدميه لابصرنا (لاتحزن) والحزن هم غليظ توجع يرق له القلب وانما كان خوفه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهما لما وصلا الغار نزل أبو بكر الغار أولا يلتمس ما فى الغار فقال له النبى صلى الله عليه وسلم مالك فقال بأبى أنت وأمى الغار مأوى السباع والهوام فان كان فيه شئ كان بى لابك وكان فى الغار جحر فوضع عقبه عليه لئلا يخرج ما يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما طلب المشركون الاثر وقربوا بكى أبو بكر خوفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له صلى الله عليه وسلم لاتحزن (ان الله معنا) فقال له أبو بكر وان الله لمعنا فقال الرسول صلى الله عليه وسلم نعم فجعل يمسح الدموع عن خده وروى لما طلع المشركون فوق الغار وأشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان تصب اليوم ذهب دين الله فقال عليه الصلاة والسلام ماظنك باثنين الله ثالثهما وروى لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين باضتا فى أسفله والعنكبوت نسجت عليه فقال صلى الله عليه وسلم اللهم أعم أبصارهم فجعلوا يترددون حول الغار ولا يرون أحدا ويقولون لو دخلا هذا الغار تكسر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت *(تنبيه)* دلت هذه الآية على تفضيل أبى بكر رضى الله عنه من وجوه منها ان الهجرة كانت باذن الله تعالى وكان فى خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من المخلصين وكانوا فى النسبة الى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرب من أبى بكر رضى الله عنه فلولا ان الله تعالى أمره بأن يستصحبه فى تلك الواقعة الصعبة الهائلة والا لكان الظاهر أن لا يخصه بهذه الصحبة وتخصيص الله تعالى له بهذا التشريف دال على منصب عال له فى الدين ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لاتحزن ان الله معنا ولا شك ان المراد من هذه المعية المعية بالحفظ والنصرة والحراسة والمعونة وقد شرك صلى الله عليه وسلم بين نفسه وبين أبى بكر فى هذه المعية وكفى بها شرفا ومنها أن قوله لاتحزن نهى عن الحزن مطلقا والنهى يوجب الدوام والتكرار وذلك يقتضى أنه لايحزن أبو بكر رضى الله عنه بعد ذلك البتة قبل الموت وعند الموت وبعد الموت ومنها اطباق الكل على ان أبا بكر هو الذى اشترى الراحلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ان عبد الرحمن بن أبى بكر واسماء بنت أبى بكر هما اللذان كانا يأتيانهما بالطعام وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لابى بكر أنت صاحبى فى الغار وصاحبى على الحوض قال الحسن بن الفضل من قال ان أبا بكر رضى الله عنه لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لانكاره نص القرآن وفى سائر الصحابة اذا أنكر يكون مبتدعا لا كافرا واختلف فى عود الضمير فى قوله تعالى (فأنزل الله سكينته) أى طمأنينته (عليه) هل هو للنبى صلى الله عليه وسلم أو لابى بكر رضى الله عنه رجح الثانى لوجوه الاول ان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورات وأقرب المذكورات المتقدمة فى هذه الآية هو أبو بكر لانه تعالى قال اذ يقول لصاحبه والتقدير اذ يقول محمد لصاحبه أبى بكر لاتحزن وعلى هذا التقدير فأقرب المذكورات السابقة هو أبو بكر فوجب عود الضمير اليه والثانى ان الحزن والخوف كانا حاصلين لابى بكر لا للرسول صلى الله عليه وسلم فانه كان آمنا

ساكن

ساكن القلب فيما وعده الله تعالى أن ينصره على قريش فلما قال لابى بكر لا تحزن صار آمنا فصرف السكينة لابى بكر ليصير ذلك سببا لزوال خوفه أولى من صرفها الى الرسول صلى الله عليه وسلم مع أنه كان قبل ذلك ساكن النفس قوى القلب الثالث انه لو كان المراد انزال السكينة على الرسول صلى الله عليه وسلم لوجب أن يقال ان الرسول كان قبل ذلك خائفا ولو كان خائفا لما أمكنه أن يقول لابى بكر لا تحزن ان الله معنا فمن كان خائفا لم يمكنه أن يزيل الخوف عن قلب غيره ولو كان راجعا الى الرسول لوجب أن يقال فأنزل الله سكينته عليه فقال لصاحبه لا تحزن فيكون ذلك مما يدل على فضيلة أبي بكر رضى الله تعالى عنه ومنها حديث الهجرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام عن عائشة رضى الله عنها وعن أبويها قالت لم أعقل أبوى الا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم الا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينا طرفى النهار بكرة وعشية فلما ابتلى المسلمون قال النبى صلى الله عليه وسلم لابى بكر انى رأيت دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة الى المدينة وتجهز أبو بكر رضى الله عنه قبل المدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على رسلك فانى أرجو أن يؤذن لى فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك يا رسول الله قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق الشجر وهو الخبط أربعة أشهر قالت عائشة فبينما نحن جلوس فى بيت أبى بكر فى حر الظهيرة قال قائل لابى بكر هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعا فى ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر والله ما جاء به فى هذه الساعة الا أمر قالت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فأذن له فدخل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر أخرج من عندك فقال أبو بكر انما هم أهلك يا رسول الله فقال قد أذن لى فى الخروج فقال أبو بكر الصحبة يا رسول الله قال نعم قال أبو بكر فخذ احدى راحلتى هاتين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثمن قالت عائشة فجهزناهما أحب الجهاز ووضعنا لهما سفرة فى جراب فقطعت اسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فسميت بذلك ذات النطاقين قالت ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار فى جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الرحمن بن أبى بكر وهو غلام شاب فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرا يكادان به الا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام وكان يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء يفعل ذلك كل ليلة من الليالى الثلاث واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بنى الديل هاديا عارفا بالهداية وهو على دين كفار قريش فأمناه ودفعا اليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال فأتاهما بعد صبح ثلاث فارتحلا وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الديلى فأخذ بهم طريق الساحل فعلم بهم سراقة بن مالك المدلجى وكان كفار قريش جعلوا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر كل واحد منهما لمن قتله أو أسره دية قال سراقة فتبعتهم حتى دنوت منهم فعثرت فرسى فخررت

عنها فقمت وأهويت بيدى الى كنانتى فاستخرجت منها الازلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا فخرج الذى أكره فركبت فرسى وعصيت الازلام فقربت بى حتى سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات فساخت يدا فرسى فى الارض حتى بلغت الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة اذا لاثر يديها غبار ساطع فى السماء مثل الدخان فاستقسمت بالازلام فخرج الذى أكره فناديتهم الامان فوقفوا فركبت فرسى حتى جئتهم و وقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم ان سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له ان قومك جعلوا فيك الدية وأخبرتهم بما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآنى ولم يسألانى الا ان قالا أخف عنا فسألته ان يكتب لى كتاب أمان فأمر عامر بن فهيرة فكتب لى رقعة من ادم ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا أقبلوا من الشأم فكسا الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثيابا بيضا فلما اقتربا من المدينة وصل الخبر الى الانصار فخرجوا مسرعين فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة فأخذ بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو ابن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الاول فقام فى بنى عمرو بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذى أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ركب راحلته وصار يمشى معه الناس حتى بركت عند مكان مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وكان مربدا لغلامين سهل وسهيل فساومهما صلى الله عليه وسلم ليتخذه مسجدا فقالا بل نهبه لك يا رسول الله ثم بناه مسجدا وصار صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن فى بنائه ويقول وهو ينقل اللبن

هذا الحمال لا حمال خيبر * هذا أبر ربنا وأطهر

ويقول أيضا ان الاجر أجر الآخرة * فارحم الانصار والمهاجرة

قال ابن شهاب لم يبلغنا فى الاحاديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا فاظهار خروجه صلى الله عليه وسلم لابى بكر رضى الله تعالى عنه مما يدل على فضيلته وفضائله رضى الله عنه وعن بقية الصحابة أجمعين وفيما ذكرناه كفاية وأما الضمير فى قوله تعالى (وأيده) فاتفقوا انه للنبى صلى الله عليه وسلم فهو معطوف على قوله تعالى فقد نصره الله (بجنود لم تروها) أى من الملائكة الكرام فى الغار ويوم بدر والاحزاب وحنين وجميع مواطن قتاله (وجعل كلمة) أى دعوة (الذين كفروا) الى الكفر (السفلى) أى المغلوبة بخيبة سعيهم ورد كيدهم (وكلمة الله) اى الى الاسلام (هى العليا) أى الغالبة الظاهرة وقيل كلمة الذين كفروا ما كانوا قدروها بينهم من الكيد بالنبى صلى الله عليه وسلم وكلمة الله هى ما وعده بالنصر والظفر بهم فكان ما وعده الله تعالى حقا وصدقا (والله عزيز) فى ملكه (حكيم) فى أمره وتدبيره لا يمكن أن ينتقض شئ من مراده ولا محيص عن نفوذ ما أراده ولما بلغت هذه المواعظ من القلوب الواعية مبلغا هيأها به للقبول اقبل عليها سبحانه وتعالى فقال (انفروا خفافا وثقالا) أى على الصفة التى يخف عليكم الجهاد فيها وعلى الصفة التى يثقل عليكم وهذان الوصفان يدخل تحتهما أقسام كثيرة ولهذا

اختلفت عبارات المفسرين فيها فقال ابن عباس نشاطا وغير نشاط وقال الحسن شبانا وشيوخا وقال عطية العوفي ركبانا ومشاة وقال أبو صالح فقراء وأغنياء وقال الحكم بن عيينة مشاغيل وغير مشاغيل وقال حمزة الهمداني أصحاء وأصحاب مرض وعن صفوان بن عمرو كنت واليا على حمص فلقيت شيخا كبيرا قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت يا عم لقد أعذر الله اليك فرفع حاجبيه وقال استنفرنا الله خفافا وثقالا ألا انه من يحبه الله يبتليه وعن الزهري خرج سعيد بن المسيب الى الغزو وقد ذهبت احدى عينيه فقيل انك عليل صاحب مرض فقال استنفرنا الله الخفيف والثقيل فان لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع وعن ابن أم مكتوم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلي أن أنفر قال ما أنت الا خفيف أو ثقيل فرجع الى أهله ولبس سلاحه ووقف بين يديه صلى الله عليه وسلم فنزل قوله تعالى ليس على الاعمى حرج أي فهي منسوخة بذلك وقال ابن عباس نسخت بقوله تعالى ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية وقال السدي لما نزلت اشتد شأنها على المسلمين فنسخها الله تعالى وأنزل ليس على الضعفاء ولا على المرضى وقال عطاء الخراساني منسوخة بقوله تعالى وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقوله تعالى (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) أمر ايجاب للجهاد أي بما امكن لكم بهما كليهما أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة (ذلكم) أي هذا الامر العظيم (خير لكم) أي خاص بكم ويجوز أن يكون أفعل تفضيل أي عبادة المجاهد بالجهاد خير من عبادة القاعد بغيره كما قال صلى الله عليه وسلم لمن سأله هل يمكن بلوغ درجة المجاهد فقال هل تستطيع ان تقوم فلا تفتر وتصوم فلا تفطر ثم ختم تعالى الآية بقوله تعالى (ان كنتم تعلمون) أي ما حصل من الخيرات في الآخرة على الجهاد لا يدرك الا بالتأمل ولا يعرفه الا المؤمن الذي عرف بالدليل ان القول بالقيامة حق وان القول بالثواب والعقاب صدق ونزل في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك (لو كان) ما تدعوهم اليه (عرضا) أي متاعا من الدنيا يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر (قريبا) أي سهل المأخذ وقوله تعالى (وسفرا قاصدا) أي وسطا فحذف اسم كان وهو ما قدرته قال الزجاج لدلالة ما تقدم عليه واعا سمى السفر قاصدا لان المتوسط بين الافراط والتفريط يقال له مقتصد قال تعالى فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد لان المتوسط بين الكثرة والقلة يقصده كل أحد وقوله تعالى قاصدا أي ذا قصد كقولهم لابن وتامر (لاتبعوك) أي وافقوك طلبا للغنيمة (ولكن بعدت عليهم الشقة) أي المسافة التي تقطع بمشقة (وسيحلفون) أي المتخلفون (بالله) اذا رجعت من تبوك معتذرين (لو استطعنا) أي لو كان لنا استطاعة بالبدن أو العدة (لخرجنا) أي في هذه الغزاة (معكم يهلكون أنفسهم) أي بسبب هذه الايمان الكاذبة كما قال تعالى (والله يعلم انهم لكاذبون) في ذلك لانهم كانوا مستطيعين الخروج (عفا الله عنك لم أذنت لهم) أي عفا الله تعالى عنك يا محمد ما كان منك في ذلك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك في ترك الخروج معك الى تبوك واختلفوا هل في ذلك معاتبة للنبي صلى الله عليه وسلم أم لا فقال عمرو بن ميمون اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه

وسلم لم يؤمر بهما اذنه للمنافقين وأخذه الفداء من أسارى بدر فعاتبه الله تعالى كما تسمعون وقال سفيان بن عيينة انظروا الى هذا اللطف بدأ الله تعالى بالعفو قبل أن يعيره وقال القاضى عياض فى الشفاء ان هذا أمر لم يتقدم للنبى صلى الله عليه وسلم فيه من الله تعالى نهى فيعد معصية ولا عده الله تعالى معصية عليه بل لم يعده أهل العلم معاتبة وغلطوا من ذهب الى ذلك وليس عفا بمعنى غفر بل كما قال النبى صلى الله عليه وسلم عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق ولم تجب عليهم قط أى لم يكن يلزمكم ذلك ونحوه للقشيرى قال وانما يقول العفو لا يكون الا عن ذنب من لا يعرف كلام العرب وقال مكى هو استفتاح كلام مثل أصلحك الله وأعزك وقال السمرقندى ان معناه عافاك الله وقال الرازى ان ذلك يدل على مبالغة الله فى توقيره وتعظيمه كما يقول الرجل لغيره اذا كان معظما عنده عفا الله عنك ما جوابك عن كلامى ورضى الله عنك ما صنعت فى أمرى فلا يكون غرضه من هذا الكلام الا مزيد التبجيل والتعظيم أى كما كانت عادة العرب فى مخاطبتهم لأكابرهم بأن يقولوا أصلح الله الامير والملك ونحو ذلك (حتى يتبين لك الذين صدقوا) أى فى اعتذارهم (وتعلم الكاذبين) أى فيما أظهروا من الايمان باللسان لو لم يؤذن لهم لقعدوا بلا اذن غير مراعين ميثاقهم الذى واثقوك عليه بالطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره قال ابن عباس لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين يومئذ حتى نزلت براءة (لا يستأذنك) أى لا يطلب اذنك بغاية الرغبة فيه (الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر) أى الذى يكون فيه الجزاء بالثواب والعقاب (ان) أى فى ان (يجاهدوا) وانما حسن هذا الحذف لظهوره (بأموالهم وأنفسهم) بل يبادرون الى الجهاد عند اشارتك اليه وبعثك عموما عليه فضلا عن أن يستأذنوك فى التخلف عنه فان الخلص من المهاجرين والانصار كانوا يقولون لا نستأذنه صلى الله عليه وسلم فى الجهاد فان ربنا ندبنا اليه مرة بعد مرة فأى فائدة فى الاستئذان ولنجاهد معه بأموالنا وأنفسنا وكانوا بحيث لو أمرهم صلى الله عليه وسلم بالقعود لشق عليهم كما وقع لعلى رضى الله عنه فى غزوة تبوك لما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبقى فى المدينة شق عليه ولم يرض حتى قال له صلى الله عليه وسلم ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى (والله عليم بالمتقين) أى الذين يتقون مخالفته ويسارعون الى طاعته (انما يستأذنك) يا محمد فى التخلف عن الجهاد معك من غير عذر (الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) وهم المنافقون لانهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا (وارتابت) أى شكت (قلوبهم) فى الدين وانما أضاف الشك والارتياب الى القلب لانه محل المعرفة والايمان فاذا دخله الشك كان ذلك نفاقا (فهم) أى فتسبب عن ذلك انهم (فى ريبهم يترددون) أى المنافقون يتحيرون لا مع الكفار ولا مع المؤمنين *(تنبيه)* اختلف علماء الناسخ والمنسوخ فى هذه الآيات فقيل انها منسوخة بالآية التى فى سورة النور وهى قوله تعالى ان الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم وقيل انها محكمات كلها ووجه الجمع بين هذه الآيات ان المؤمنين كانوا يسارعون الى طاعة الله تعالى وجهاد عدوهم من غير

استئذان فاذا اعرض لاحدهم عذر استأذن فى التخلف فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخيرا فى الاذن لهم بقوله تعالى فأذن لمن شئت منهم وأما المنافقون فكانوا يستأذنون فى التخلف من غير عذر فعيرهم الله تعالى بهذا الاستئذان لكونه بغير عذر (ولو أرادوا الخروج) الى الغزو معك (لاعدوا له) أى قبل حلوله (عدة) أى قوة وأهبة من المتاع والسلاح والكراع بحيث يكونون كالحاضرين فى صلب الحرب الواقفين فى الصف قد استعدوا لها بجميع عدتها ولما كان قوله تعالى ولو أرادوا الخروج يعطى معنى نفى خروجهم واستعدادهم للغزو أتى تعالى بحرف الاستدراك فقال تعالى (ولكن كره الله انبعاثهم) أى لم يرض خروجهم معك الى الغزو (فثبطهم) أى حبسهم بالجبن والكسل (وقيل) لهم (اقعدوا مع القاعدين) أى مع النساء والصبيان والمرضى وأهل الاعذار ومعنى قيل لهم أى قدر الله تعالى عليهم ذلك بان ألقى فى قلوبهم القعود لما كره الله انبعاثهم مع المؤمنين وقيل القائل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استأذنوه فى القعود فقال لهم اقعدوا مع القاعدين (فان قيل) خروج المنافقين مع النبى صلى الله عليه وسلم اما أن يكون فيه مصلحة أو مفسدة فان كان فيه مصلحة فلم قال تعالى ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وان كان فيه مفسدة فلم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم عفا الله عنك لم أذنت لهم فى ترك الخروج (أجيب) بأن خروجهم فيه مفسدة عظيمة بدليل قوله تعالى (لو خرجوا فيكم) أى معكم (ما زادوكم) بخروجهم (الا خبالا) أى فسادا وشرا بتخذيل المؤمنين وتقدم الكلام على قوله لم أذنت لهم *(تنبيه)* لا يصح أن يكون فيه الاستثناء منقطعا لان الاستثناء المنقطع يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه كقوله ما زادوكم خيرا الا خبالا والمستثنى منه فى هذا الكلام غير مذكور واذا لم يذكر وقع الاستثناء من أعم العام كأنه قيل ما زادوكم شيأ الا خبالا (ولا وضعوا) أى أسرعوا (خلالكم) أى بينكم فيما يخل بكم بالمشى بالنميمة (يبغونكم الفتنة) أى يطلبون منكم ما تفتتنون به وذلك انهم يقولون للمؤمنين لقد جمعوا لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وانكم ستهزمون منهم وسيظهرون عليكم ونحو ذلك من الاحاديث الكاذبة التى تجبنهم (وفيكم) أى والحال ان فيكم (سماعون لهم) أى عيون لهم يؤدون لهم أخباركم وما يسمعون منكم وهم الجواسيس أو مطيعون لهم يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم وذلك انهم يلقون اليهم أنواعا من الشبهات الموجبة لضعف القلب فيقبلونها منهم (فان قيل) كيف يكون فى المؤمنين الخالصين من يطيع المنافقين (أجيب) بأنهم ربما قالوا قولا أثر فى قلوب ضعفة المؤمنين فى بعض الاحوال وقوله تعالى (والله عليم بالظالمين) وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين (لقد ابتغوا الفتنة) أى العنت ونصب الغوائل والسعى فى تشتيت شملك وتفريق أصحابك عنك كما فعل عبد الله بن أبى يوم أحد وحين انصرف بمن معه وعن ابن جريج وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلا ليفتكوا به (من قبل) أى قبل غزوة تبوك (وقلبوا لك الامور) أى ودبروا لك الحيل والمكايد ودوروا الآراء بينهم فى ابطال أمرك (حتى جاء الحق) وهو تأييدك ونصرك

(وظهر أمر الله) أي غلب دينه وعلا شرعه (وهم كارهون) له أي على رغم منهم فدخلوا فيه ظاهرا * ولما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم الى غزوة تبوك قال للجد بن قيس وكان من المنافقين يا أبا وهب هل لك في جلاد بني الاصفر يعني الروم تتخذ منهم سراري ووصفاء فقال الجد ابن قيس يا رسول الله لقد علم قومي اني مغرم بالنساء واني أخشى ان رأيت بنات بني الاصفر ان لا أصبر عنهن ائذن لي بالقعود ولا تفتني واعينك بمالي قال ابن عباس اعتل الجد بن قيس ولم تكن له علة الا النفاق فاعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى فيه (ومنهم) أي المنافقين (من يقول ائذن لي) أي في القعود في المدينة (ولا تفتني) أي ببنات بني الاصفر وقيل لا توقعني في الفتنة وهي الاثم بأن لا تأذن لي فانك ان منعتني من القعود وقعدت بغير اذنك وقعت في الاثم وقيل لا تلقني في الهلاك فان الزمان زمان شدة الحر ولا طاقة لي بها وقيل لا تفتني بسبب ضياع المال والعيال اذ لا كافل لهم بعدي قال الله تعالى (ألا في الفتنة سقطوا) أي ان الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي فتنة التخلف وظهور النفاق لا ما أخبروا عنه (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) أي جامعة لهم لا محيص لهم عنها يوم القيامة أو هي محيطة بهم الآن لان اسباب الاحاطة معهم فكأنهم في وسطها (ان تصبك) يا محمد في بعض الغزوات (حسنة) أي نصرة وغنيمة (تسؤهم) أي تحزنهم لما في قلوبهم من الضعف والمرض (وان تصبك مصيبة) أي نكبة وان صغرت في بعض الغزوات كما وقع يوم أحد (يقولوا) أي سرورا وتبجحا بحسن رأيهم (قد أخذنا أمرنا) أي بالجد والحزم في القعود عن الغزو (من قبل) أي قبل هذه المصيبة (ويتولوا وهم فرحون) أي مسرورون بما نالك من المصيبة وسلامتهم منها قال الله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء الذين يفرحون بما يصيبك من المصائب والمكروه (ان يصيبنا الا ما كتب الله) أي قدره (لنا) في اللوح المحفوظ لان القلم جف بما هو كائن الى يوم القيامة من خير وشر فلا يقدر أحد أن يدفع عن نفسه مكروها نزل به أو يجلب لنفسه نفعا ان أراده مالم يقدر له (هو) أي الله (مولانا) أي ناصرنا وحافظنا وهو أولى بنا من أنفسنا في الموت والحياة ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) في جميع أمورهم لان حقهم أن لا يتوكلوا على غيره فليفعلوا ما هو حقهم (قل) يا محمد لهؤلاء المنافقين (هل تربصون) فيه حذف احدى التاءين من الاصل أي تنتظرون أن يقع (بنا) أيها المنافقون (الا احدى الحسنيين) تثنية حسنى تأنيث أحسن أي الا احدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هي حسنى العواقب وهما النصر أو الشهادة وذلك ان المسلم اذا ذهب الى الجهاد في سبيل الله اما أن يسلم ويغنم فيحصل له المال واما أن يقتل في سبيل الله فتحصل له الشهادة وهي العاقبة القصوى وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته الا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه الى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة (ونحن نتربص بكم) أي احدى السوأيين من العواقب اما (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) لا سبب لنا فيه كأن ينزل عليكم قارعة من السماء كما نزلت على عاد

وعود (أو) بعذاب (بأيدينا) أي بسببنا من قتل ونهب وأسر وغير ذلك (فتربصوا) بنا ما ذكرنا من عواقبنا (إنا معكم متربصون) ما هو عاقبتكم ولا بد أن يلقى كلنا ما يتربصه لا يتجاوزه (قل) يا محمد لهؤلاء المنافقين (أنفقوا طوعاً أو كرهاً) أي من غير إلزام من الله ورسوله أو ملزمين وسمى الإلزام إكراهاً لأنهم منافقون فكان إلزامهم الإنفاق شاقاً عليهم كالإكراه أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم لأن رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه أو مكرهين من جهتهم (لن يتقبل منكم) أي لا تقبل منكم نفقاتكم على أي حال كان (فإن قيل) كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال لن يتقبل منكم (أجيب) بأن هذا أمر في معنى الخبر كقوله تعالى قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً وروي أنها نزلت في الجد بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذا مالي أعينك به فاتركني ثم علل تعالى سبب منع القبول بقوله تعالى (إنكم) أي لأنكم (كنتم قوماً فاسقين) والمراد بالفسق هنا الكفر ويدل عليه قوله تعالى (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله) أي وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم وقرأ حمزة والكسائي يقبل بالياء على التذكير لأن تأنيث النفقات غير حقيقي والباقون بالتاء على التأنيث (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) أي متثاقلون لا يأتونها قط بنشاط (ولا ينفقون) أي نفقة من واجب أو غيره (إلا وهم كارهون) أي في حال الكراهة وإن ظهر خلاف ذلك وذلك كله لعدم النية الصالحة وهذا لا ينافي طوعاً لأن ذلك بحسب الظاهر وهذا بحسب الواقع (فلا تعجبك) يا محمد (أموالهم) أي وإن أنفقوها في سبيل الله وجهزوا بها الغزاة فإن ذلك من غير إخلاص منهم ولا حسن نية ولا جميل طوية (ولا أولادهم) الذين يتجملون بهم فإن ذلك استدراج ووبال كما قال تعالى (إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا) وإن كان يتراءى أنها لذيذة لأن ذلك من شأن الحياة وتعذيبهم فيها بسبب ما يكابدون من جمعها وحفظها من المتاعب وما يرون فيها من الشدائد والمصائب (فإن قيل) هذا لا يختص بالمنافق فما فائدة تخصيصه به (أجيب) بأن المؤمن قد علم أنه مخلوق للآخرة وأنه يثاب بالمصائب الحاصلة في الدنيا فلم يكن المال والولد في حقه عذاباً والمنافق لا يعتقد ذلك فبقي ما يحصل له في الدنيا من التعب والمشقة والغم والحزن على المال والولد عذاباً عليه في الدنيا (وتزهق) أي تخرج (أنفسهم) بسببها (وهم) أي والحال أنهم (كافرون) أي يموتون على الكفر فتكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة وهكذا كل من أراد الله تعالى استدراجه في الغالب كثر ماله وولده فكثر إعجابه بماله وولده وبطره وكفره نعمة الله تعالى والإعجاب السرور بالشيء مع نوع الافتخار به ومع اعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه وهذه الحالة تدل على استغراق النفس بذلك الشيء وانقطاعه عن الله تعالى فإنه لا يبعد في حكم الله تعالى أن يزيل ذلك الشيء عن ذلك الإنسان ويجعله لغيره والإنسان متى كان متذكراً لهذا المعنى زال إعجابه بذلك الشيء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه وكان صلى الله عليه وسلم يقول هلك المكثرون وقال أيضاً ما لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست

فأبليت أو تصدقت فأبقيت وروى من كثر ماله اشتد حسابه ومن أراد من السلطان قربا ازداد من الله بعدا والاخبار الواردة فى هذا الباب كثيرة والمقصود منها الزجر عن الاطناب من الدنيا والمنع من التهالك فى حبها والافتصار بها لان الانسان خلق للآخرة لا للدنيا فينبغى أن لا يشتد عجبه بالدنيا وان لا يميل قلبه اليها فان المسكن الاصلى له هو الآخرة لا الدنيا * ولما بين تعالى كون المنافقين مستجمعين لكل مضار الدنيا والآخرة خالين عن جميع منافع الآخرة والدنيا عاد الى ذكر فضائحهم وقبائحهم فنها اقدامهم على الايمان الكاذبة كما قال تعالى (ويحلفون) أى المنافقون (بالله) للمؤمنين اذا جاؤا معهم (انهم لمنكم) أى على دينكم وملتكم (وماهم منكم) أى لكفر قلوبهم (ولكنهم قوم يفرقون) أى يخافون منكم أن تفعلوا بهم ماتفعلوا بالمشركين فيظهرون الاسلام تقية (لو يجدون ملجأ) أى حصنا يلجؤن اليه وقيل لو وجدوا مهربا هربوا اليه وقيل لو يجدون قوما يأمنون عندهم على أنفسهم منكم اصاروا اليهم وفارقوكم (أو مغارات) أى سراديب جمع مغارة وهو الموضع الذى يغور فيه الانسان أى يستتر (أو مدخلا) أى موضعا يدخلونه (لولوا اليه) والمعنى انهم لو وجدوا مكانا على أحد هذه الوجوه الثلاثة مع انها شر الامكنة لدخلوا اليه وتحرزوا فيه (وهم يجمحون) أى يسرعون فى دخول ذلك المكان اسراعا لا يرد وجوههم شئ ومن هذا يقال جمح الفرس وهو فرس جموح وهو الذى اذا حمل لا يرده اللجام * ثم ذكر تعالى نوعا آخر من قبائح المنافقين وهو طعنهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب أخذ الصدقات بقوله تعالى (ومنهم من يلمزك) أى يعيبك (فى الصدقات) قال أبو على الفارسى ههنا محذوف والتقدير يعيبك فى تقسيم الصدقات واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال أبو سعيد الخدرى بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم مالا اذ أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بنى تميم رأس الخوارج وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين واستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم فقال يا رسول الله اعدل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلك ان لم أعدل فمن يعدل قد خبت وخسرت ان لم أكن أعدل فقال عمر رضى الله عنه يا رسول الله ائذن لى فيه أضرب عنقه فقال له صلى الله عليه وسلم دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية وقال الكلبى قال رجل من المنافقين يقال له الجواظ المنافق ألا ترون الى صاحبكم يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم و يزعم انه يعدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أبا لك أما كان موسى راعيا أما كان داود راعيا فلما ذهب قال صلى الله عليه وسلم احذروا هذا وأصحابه فانهم منافقون وقال ابن زيد قال المنافقون والله ما يعطيها محمد الا من أحب ولا يؤثر بها الا هواه فنزلت وروى أبو بكر الاصم فى تفسيره أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل من أصحابه ما علمك بفلان فقال مالى به علم الا انك تدنيه فى المجلس وتجزل له العطاء فقال صلى الله عليه وسلم انه منافق أداريه عن نفاقه وأخاف أن يفسد على غيره فقال لو أعطيت فلانا بعض ماتعطيه فقال صلى الله عليه وسلم انه مؤمن أكل ايمانه وأما

هذا المنافق أداره خوف فساده (فان أعطوا منها) أى من الصدقات (رضوا) أى رضوا عنك فى قسمتها (وان لم يعطوا منها اذاهم يسخطون) أى وان لم تعطهم عابوا عليك وسخطوا قال أهل المعانى ان هذه الآية تدل على ركاكة أخلاق المنافقين ودناءة طباعهم وذلك لانه لشدة شرههم الى أخذ الصدقات عابوا رسول صلى الله عليه وسلم ونسبوه الى الجور فى القسمة مع أنه كان أبعد خلق الله تعالى عن الميل الى الدنيا وقال الضحاك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بينهم ما آتاه الله تعالى من قليل المال وكثيره وكان المؤمنون يرضون بما أعطوا ويحمدون الله تعالى وأما المنافقون فان أعطوا كثيرا فرحوا وان أعطوا قليلا سخطوا وذلك يدل على أن رضاهم وسخطهم لطلب النصيب لا لاجل الدين وكلمة اذا للمفاجأة أى وان لم يعطوا منها فاجؤا السخط (ولو أنهم) أى المنافقين (رضوا ما آتاهم الله ورسوله) أى ما أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنائم والصدقات أو غيرها وذكر الله تعالى للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بأمره (وقالوا) أى مع الرضا (حسبنا الله) أى كافينا الله من فضله (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) أى من غنيمة أو صدقة أخرى ما يكفينا (انا الى الله) أى فى أن الله تعالى يغنينا عن الصدقة وغيرها من أموال الناس ويوسع علينا من فضله (راغبون) أى عريقون فى الرغبة ولذلك نكتفى بما يأتى من قبله كائنا ما كان وجواب لو محذوف والتقدير لكان خيرا لهم نقل عن عيسى عليه السلام أنه مر بقوم يذكرون الله تعالى فقال ما الذى حملكم عليه فقالوا الخوف من عقاب الله فقال أصبتم ومر على قوم يشتغلون بالذكر فسألهم فقالوا لا نذكره للخوف من العقاب ولا للرغبة فى الثواب بل لاظهار ذلة العبودية وعزة الربوبية وتشريف القلب بمعرفته وتشريف اللسان بالالفاظ الدالة على صفات قدسه فقال أنتم المحقون المحققون * ثم بين سبحانه وتعالى مصارف الصدقات تحقيقا لما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم فقال عز من قائل (انما الصدقات) أى الزكوات مصروفة (للفقراء) والفقير هو الذى لا يجد ما يقع موقعا من كفايته كأن يحتاج الى عشرة دراهم وهو لا يجد الا درهمين أو ثلاثا مأخوذ من الفقار كأنه أصيب فقاره (والمساكين) جمع مسكين وهو الذى يجد ما يقع موقعا من كفايته ولا يكفيه كأن يحتاج الى عشرة وهو يجد سبعة أو ثمانية مأخوذ من السكون كأن العجز أسكنه والمسكين أعلى من الفقير ويدل عليه قوله تعالى أما السفينة فكانت لمساكين وروى أنه صلى الله عليه وسلم تعوذ من الفقر وقيل الفقير أعلى لقوله تعالى أو مسكينا ذا متربة والعبرة عند الجمهور فى عدم كفاية الفقير والمسكين بالعمر الغالب بناء على أنه يعطى كفاية ذلك (والعاملين عليها) أى الزكاة فيعطى العامل وان كان غنيا ويدخل فى اسم العامل الساعى وهو الذى يبعثه الامام لاخذ الزكاة والكاتب والحاشر والعريف وهو الذى يعرف أرباب الاستحقاق والحاسب والحافظ للاموال والكيال والوزان والعداد عمال ان ميزوا أنصباء الاصناف لا المميزون للزكاة من المال وجامعوه فان أجرتهم على المالك (والمؤلفة قلوبهم) وهم اما ضعيف النية فى الاسلام فيعطى ليقوى اسلامه أو شريف فى قومه يتوقع باعطائه

اسلام غيره او كاف لناشر من يليه من الكفار أو مانعي الزكاة فيعطى حيث اعطاؤه اهون
علينا من بعث جيش وأما مؤلفة الكفار لترغيبهم فى الاسلام فلا يعطون من الزكاة ولا من
غيرها للاجماع ولان الله تعالى أعز الاسلام وأهله وأغنى عن التأليف (وفى الرقاب) وهم
المكاتبون كتابة صحيحة فيعطون ما يؤدون من النجوم ان عجزوا عن الوفاء ولو لم يحل النجم لان
قوله تعالى وفى الرقاب كقوله تعالى وفى سبيل الله وهناك يعطى المال للمجاهدين فيعطى للرقاب
فلا يشترى به رقاب للعتق كما قيل به (والغارمين) وهم من لزمتهم الديون وهم ثلاثة أضرب دين
لزمه لمصلحة نفسه ودين لزمه بضمان لا لتسكين فتنة ودين لزمه لتسكينها وهو اصلاح ذات البين
فمن استدان لمصلحة نفسه أعطى لا ان استدان فى معصية الا ان تاب عنها فيعطى اذا احتاج
وكان بحيث لو قضى دينه مما معه تمسكن فيترك له ما يكفيه ويعطى ما يقضى به بقية دينه ويعطى
ولو قدر على قضائه بالكسب وكذا المكاتب ويشترط حلول الدين فى اعطاء الغريم وان ضمن
لا لتسكين فتنة وهو معسر ملتزم بمال على معسر أعطى ما يقضى به دينه واذا قضى به دينه
لا يرجع على الاصيل وان ضمن باذنه وانما يرجع اذا غرم من عنده ويعطى معسر ملتزم بمال على
موسر بلا اذن من الاصيل لانه اذا غرم لا يرجع عليه بخلاف ما اذا ضمن باذنه ولا يعطى موسر
ملتزم بمال على موسر وان ضمن موسر ما على معسر أعطى الاصيل دون الضامن والغارم لاصلاح
ذات البين يعطى مع الغنى ولو فى غير دم ويعطى المستدين لقرى ضيف وعمارة مسجد وبناء
قنطرة وفك أسير ونحو ذلك من المصالح العامة عند العجز عن النقد (وفى سبيل الله) وهم الغزاة
المتطوعون أى الذين لا رزق لهم فى الفىء ويعطون ولو أغنياء اعانة لهم على الغزو وتحرم الزكاة
على الغازى المرتزق ولو كان عاملا فاذا عدم الفىء واضطررنا الى المرتزق لكف شر الكفار
اعانه الاغنياء لا من الزكاة (وابن السبيل) أى الطريق وهو من ينشئ سفرا مباحا من محل
الزكاة فيعطى ولو كان كسوبا أو كان مسافرا لنزهة ويعطى أيضا المسافر الغريب المجتاز بمحل
الزكاة وانما يعطيان ان لم يجدا معهما شيأ يكفيهما لسفرهما وقوله تعالى (فريضة من الله)
نصب بفعله المقدر أى فرض لهم الصدقات فريضة أو حال من الضمير المستكن فى للفقراء (والله
عليم) أى بالغ العلم بما يصلح الدين والدنيا ويؤلف بين قلوب المسلمين (حكيم) يضع الاشياء
فى مواضعها وانما أضيفت الصدقات الى الاصناف الاربعة الاولى بلام الملك والى الاربعة
الاخيرة بفى الظرفية للاشعار باطلاق الملك فى الاربعة الاولى وتقييده فى الاخيرة حتى اذا لم يحصل
الصرف فى مصارفها استرجع بخلافه فى الاولى ويجب تعميم الاصناف الثمانية فى القسم ان
أمكن بأن قسم الامام ولو بنائبه ووجدوا والظاهر الآية سواء فى ذلك زكاة الفطر وزكاة المال
وان لم يمكن بأن قسم المالك اذ لا عامل أو الامام ووجد بعضهم كأن جعل عاملا بأجرة من بيت
المال فتعميم من وجد منهم وعلى الامام تعميم آحاد كل صنف من الزكاة الحاصلة عنده اذ
لا يتعذر عليه ذلك وعلى المالك أيضا ان انحصر الآحاد بالبلد بأن سهل عادة ضبطهم ومعرفة
عددهم ووفى بهم المال فان أخل أحدهما بصنف ضمن وان لم ينحصر أو لم يف بهم المال ويجب

اعطاء ثلاثة فأكثر من كل صنف لذكره في الآية بصيغة الجمع وهو المراد في سبيل الله وابن السبيل الذي هو للجنس ولا عامل في قسم المالك ويجوز حيث كان أن يكون واحدا ان حصلت به الكفاية كما يستغنى عنه فيما مر وتجب التسوية بين الاصناف غير العامل لا بين آحاد الصنف الا أن يقسم الامام وتتساوى الحاجات فتجب التسوية لان عليه التعميم فعليه التسوية بخلاف المالك اذا لم ينحصروا أولم يف بهم المال ولا يجزيه نقل الزكاة من بلد وجوبها مع وجود المستحقين فيه الى بلد آخر أو حال الحول والمال ببادية فرقت الزكاة بأقرب البلاد اليه أما الامام ولو بنائبه فله نقلها ولو امتنع المستحقون من أخذها قوتلوا وشرط آخذ الزكاة من هذه الثمانية حرية واسلام وأن لا يكون هاشميا ولا مطلبيا ولا مولى لهما كما بينته السنة هذا مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه وقال الرازي وغيره لا دلالة في الآية على قول الشافعي في أنه لا بد من صرفها الى جميع الاصناف لانه تعالى جعل جملة الصدقات لهؤلاء الاصناف وأما ان صدقة زيد بعينها يجب توزيعها على الاصناف كلها فلا كما ان قوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه الآية يوجب قسم الخمس على الطوائف من غير توزيع بالاتفاق وما ذهب اليه الشافعي رضي الله تعالى عنه قول عكرمة وما ذهب اليه الائمة الثلاثة من جواز صرفها الى صنف واحد هو قول عمر وحذيفة وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين وكل على هدى من ربهم (فان قيل) كيف وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ومكايدهم (أجيب) بأنه تعالى ذكر ذلك ليدل على أن هذه الاصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسما لاطماعهم واشعارا باستحقاقهم الحرمان وانهم بعداء عنها وعن مصارفها فما لهم ومالها وما سلطهم على التكلم فيها ولمز قاسمها (ومنهم) أي المنافقين (الذين يؤذون النبي) هذا نوع آخر من جهالات المنافقين وهو أنهم كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم ويعيبونه وينقلون حديثه (ويقولون) اذا نهوا عن ذلك لئلا يبلغه (هو أذن) أي يسمع كل ما يقال له ويصدقه سمي بالجارحة للمبالغة كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة للسماع كما يسمى الجاسوس عينا لذلك واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض لا تفعلوا فانا نخاف أن يبلغه ما نقولون فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد وهو من المنافقين بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فننكر ما قلنا ونحلف له فيصدقنا فانما نقول فان محمدا أذن أي أذن سامعة يسمع كل ما يقال له ويقبله وقال محمد بن اسحق نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبيل بن الحرث وكان رجلا ثائر الشعر أحمر العينين أسفع الخدين مشوه الخلقة وقد قال صلى الله عليه وسلم من أراد أن ينظر الى الشيطان فلينظر الى نبيل بن الحرث وكان ينم حديث النبي صلى الله عليه وسلم الى المنافقين فقيل له لا تفعل ذلك فقال انما محمد أذن فمن حدثه شيئا صدقه فنقول ما شئنا ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا فنزلت وقال الحسن كان المنافقون يقولون ما هذا الرجل الا أذن من شاء صرفه حيث شاء لا عزيمة له ومقصود المنافقين بقولهم هو أذن ليس له ذكاء ولا بعد غور بل هو سليم القلب

سريع الاغترار بكل ما يسمع فلهذا السبب سموه بأذن وقوله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المنافقين (أذن خير لكم) تصديق لهم بأنه أذن لكن لا على الوجه الذى ذموه به بل من حيث انه يسمع الخير ويقبله ثم فسر تعالى ذلك بقوله تعالى (يؤمن بالله) أى يصدق به لما قام عنده من الادلة (ويؤمن للمؤمنين) أى ويصدقهم ويقبل قولهم ولا يقبل قول المنافقين (فان قيل) لم عدى فعل الايمان بالباء الى الله تعالى والى المؤمنين باللام (أجيب) بأن الايمان المعدى الى الله تعالى المراد منه التصديق الذى هو نقيض الكفر فعدى بالباء والايمان المعدى للمؤمنين معناه الاستماع منهم والتسليم لقولهم فعدى باللام كما فى قوله تعالى وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وقوله تعالى فما آمن لموسى الا ذرية من قومه وقوله تعالى أنؤمن لك واتبعك الارذلون وقوله آمنتم له قبل أن آذن لكم وقرأ نافع أذن فى الموضعين بتسكين الذال والباقون بالرفع (ورحمة) أى وهو رحمة (للذين آمنوا منكم) أى ان أظهر الايمان حيث يقبله ولا يكشف سره وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلا بحالكم بل رفقا بكم وترحما عليكم وقرأ حمزة ورحمة بالجر عطفا على خير والباقون بالرفع * ولما بين سبحانه وتعالى كونه سببا للخير بين أن كل من اذاه استوجب العذاب الاليم بقوله تعالى (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) أى مؤلم لانه اذا كان يسعى فى ايصال الخير والرحمة اليهم مع كونهم فى غاية الخبث والخزى ثم انهم مع ذلك يقابلون احسانه بالاساءة وخيراته بالشرور فلا شك انهم يستحقون العذاب الشديد من الله تعالى ثم ذكر نوعا آخر من قبائح أفعال المنافقين بقوله تعالى (يحلفون بالله لكم) أيها المؤمنون (ليرضوكم) أى لترضوا عنهم واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل والكلبى نزلت فى رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوا يعتذرون اليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم وقال قتادة والسدى اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد ووديعة بن ثابت فوقعوا فى النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا ان كان ما يقول محمد حقا فنحن أشر من الحمير وكان عندهم غلام من الانصار يقال له عامر بن قيس فحقروه وقالوا هذه المقالة فغضب الغلام وقال والله ما يقول محمد حق وأنتم أشر من الحمير ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فدعاهم فسألهم فحلفوا ان عامرا كذب وحلف عامر أنهم كذبة فصدقهم النبى صلى الله عليه وسلم فجعل عامر يدعو اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فنزلت (والله ورسوله أحق أن يرضوه) أى بالارضاء بالطاعة والوفاق وانما وحد الضمير لانه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم لتلازمهما كقولك احسان زيد واجماله نعشنى وجبرمنى أو ان العالم بالاسرار والضمائر هو الله تعالى واخلاص القلب لا يعلمه الا الله تعالى ولهذا السبب خص الله تعالى نفسه بالذكر أو لان الكلام فى ايذاء الرسول وارضائه أو خبر الله أو رسوله محذوف وفى كلام البيضاوى اشارة الى ان المذكور خبر الاول لانه المتبوع وفى كلام سيبويه انه للثانى لكونه أقرب مع السلامة من الفصل بين المبتدا والخبر (ان كانوا) أى هؤلاء المنافقون (مؤمنين) أى مصدقين بوعد الله ووعيده فى الآخرة

(ألم يعلموا) قال أهل المعاني هذا خطاب لمن علم شيأ ثم نسيه وتركه فيقال له ألم تعلم انه كان كذا وكذا ولما طال مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهر المؤمنين والمنافقين وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون اليه خاطب المنافقين بقوله تعالى ألم يعلموا أن من شرائع الدين التي علمهم رسولنا (انه) أي الشأن (من يحادد الله) أي من يخالف الله (ورسوله) وأصل المحادة في اللغة المخالفة والمجانبة والمعاداة واشتقاقه من الحد يقال حاد فلان فلانا أي صار في حد غير حده كقولك شاقه أي صار في شق غير شقه ومعنى يحادد الله أي يصير في حد غير حد أولياء الله تعالى بالمخالفة وقوله تعالى (فأن له نار جهنم) أي على حذف الخبر أي فحق ان له نار جهنم لان الفاء واقعة في جواب الشرط فتقتضي جملة وفأن له نار جهنم مفرد في موضع رفع بالابتداء وقدر خبره مقدما لان أن لا يبتدأ بها قال الرازي أو ان معناه فله نار جهنم وان تكررت للتوكيد واعترض بأن فيه الفصل بين المؤكد والمؤكد بأجنبي ثم قال أو جواب من محذوف والتقدير ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فأن له نار جهنم (خالدا فيها) أي دائما من غير انقضاء كما كانت نيته المحادة أبدا ثم نبه على عظم هذا الجزاء بقوله تعالى (ذلك) أي الامر البعيد الوصف العظيم الشأن (الخزي العظيم) أي الهلاك الدائم (يحذر) أي يخاف (المنافقون أن تنزل عليهم) أي المؤمنين (سورة تنبئهم) أي تخبرهم (بما في قلوبهم) أي بما في قلوب المنافقين من النفاق والحسد والعداوة للمؤمنين كانوا يقولون فيما بينهم ويستهزؤن ويخافون الفضيحة بنزول القرآن في شأنهم قال قتادة هذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة أثارت مخازيهم ومثالبهم قال ابن عباس أنزل الله تعالى ذكر سبعين رجلا من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الاسماء رحمة على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضا لان أولادهم كانوا مؤمنين (قل) يا محمد لهؤلاء المنافقين (استهزؤا) أمر تهديد (ان الله مخرج) أي مظهر (ما تحذرون) اخراجه من نفاقكم قال ابن كيسان نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلا من المنافقين وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به اذا علاها ومعهم رجل مسلم يخفيهم شأنه وتنكروا له في ليلة مظلمة فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدروا وأمره أن يرسل اليهم من يضرب وجوه رواحلهم وعمار بن ياسر يقود ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة اضرب وجوه رواحلهم فضربها حذيفة حتى نحاها عن الطريق فلما نزل قال لحذيفة من عرفت من القوم قال لم أعرف منهم أحدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم فلان وفلان حتى عدهم كلهم فقال حذيفة الا تبعث اليهم فتقتلهم فقال اكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفيناهم الله (ولئن) اللام لام القسم (سألتهم) أي المنافقين عن استهزائهم بك والقرآن وهم سائرون معك الى تبوك (ليقولن) معتذرين (انما كنا نخوض ونلعب) في الحديث لنقطع به الطريق ولم نقصد ذلك قال قتادة كان النبي صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان يستهزئان بالنبي صلى الله عليه وسلم والقرآن والثالث يضحك قيل كانوا يقولون ان محمدا يغلب الروم ويفتح

مدائنهم ما أبعده من ذلك وقيل كانوا يقولون ان محمدا يزعم انه نزل في أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن وانما هو قوله وكلامه فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال احبسوا الركب علي فدعاهم وقال لهم قلتم كذا وكذا فقالوا انما كنا نخوض ونلعب أي كنا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعل الركب لقطع الطريق بالحديث واللعب قال الله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المنافقين (أبالله) أي بفرائضه وحدوده وأحكامه (وآياته) أي القرآن وسائر ما يدل على الدين الذي لا يمكن تبديله ولا يخفى على بصير ولا بصيرة (ورسوله) محمد صلى الله عليه وسلم الذي عظمته من عظمته وهو مجتهد في اصلاحكم وتشريفكم واعلائكم (كنتم تستهزؤن) توبيخا وتقريعا لهم على استهزائهم بما لا يصلح الاستهزاء به والزاما للحجة عليهم ولا يعبأ باعتقادهم الكاذب

ولما كان الاستهزاء بذلك كفرا قال الله تعالى (لا تعتذروا) أي لا تشتغلوا باعتذاراتكم الباطلة (قد كفرتم) أي أظهرتم الكفر بقولكم هذا (بعد ايمانكم) أي بعد اظهار الايمان (فان قيل) المنافقون لم يكونوا مؤمنين فكيف قال تعالى قد كفرتم بعد ايمانكم (أجيب) بأنهم كانوا يكتمون الكفر ويظهرون الايمان فلما حصل ذلك الاستهزاء منهم وهو كفر فقد أظهروا الكفر بعدما أظهروا الايمان كما تقرر (ان نعف عن طائفة منكم) أي باخلاصهم التوبة واخلاصهم الايمان بعد النفاق (نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) أي مصرين على النفاق والاستهزاء قال محمد بن اسحق الذي عفا الله عنه رجل واحد وهو مخشي بن حمير الاشجعي يقال هو الذي كان يضحك ولا يخوض وكان يمشي مجانبا لهم وكان ينكر بعض ما يسمع والعرب توقع لفظ الجمع على الواحد فتقول خرج فلان الى مكة على الجمال والله تعالى يقول الذين قال لهم الناس يعني نعيم بن مسعود فلما نزلت هذه الآية تاب من نفاقه وقال اللهم اني لا أزال أسمع آية تقرأ تقشعر منها الجلود وتخفق منها القلوب اللهم اجعل وفاتي قتلا في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فأصيب يوم اليمامة فلم يعرف أحد من المسلمين مصرعه وقرأ عاصم نعف بالنون مفتوحة وضم الفاء ونعذب طائفة بنون مضمومة وكسر الذال وطائفة بالنصب والباقون ان يعف بياء مضمومة وتعذب بضم التاء وفتح الذال وطائفة بالرفع ثم بين تعالى نوعا آخر من أنواع فضائحهم وقبائحهم والمقصود منه بيان ان اناثهم كذكورهم في تلك الاعمال المنكرة والافعال الخبيثة بقوله تعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) أي متشابهة في النفاق والبعد عن الايمان كأبعاض الشيء الواحد كما يقول الانسان لغيره أنا منك وأنت مني أي أمرنا واحد لا مباينة فيه (يأمرون بالمنكر) أي يأمر بعضهم بعضا بالشرك والمعصية وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم (وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم) أي عن الانفاق في كل خير من زكاة وصدقة وانفاق في سبيل الله والاصل في هذا ان المعطي يمد يده ويبسطها بالعطاء فقيل لمن منع وبخل قد قبض يده فقبض اليد كناية عن الشح وقوله تعالى (نسوا الله فنسيهم) لا يمكن اجراؤه على ظاهره لانا لو حملنا النسيان على الحقيقة لما استحقوا عليه ذما لان النسيان ليس في وسع البشر ولخبر رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وأيضا فهو في حق الله تعالى محال

فلابد من التأويل وهو من وجهين الأول معناه انهم تركوا أمره حتى صار بمنزلة المنسى
لجازاهم بأن صيرهم بمنزلة المنسى من ثوابه ورحمته وجاء هذا على مزاوجة الكلام كقوله تعالى
وجزاء سيئة سيئة مثلها الثانى النسيان ضد الذكر فلما تركوا ذكر الله بالعبادة والثناء على الله ترك
الله تعالى ذكرهم بالرحمة والاحسان وانما حسن جعل النسيان كناية عن ترك الذكر لان من
نسى شيأ لم يذكره فجعل اسم الملزوم كناية عن اللازم (ان المنافقين هم الفاسقون) أى الكاملون
فى الفسق الذى هو التمرد فى الكفر والانسلاخ عن كل خير وكفى المسلم زاجرا أن يلم بما يكسبه
هذا الاسم الفاحش الذى وصف الله تعالى به المنافقين حتى بالغ فى ذمهم وقد كره رسول الله
صلى الله عليه وسلم للمسلم أن يقول كسلت لان المنافقين وصفوا بالكسل فى قوله تعالى
الا وهم كسالى فما ظنك بالفسق * ولما بين سبحانه تعالى كثيرا من أحوال المنافقين والمنافقات
وانه نسيهم أى جازاهم على تركهم التمسك بطاعة الله تعالى أكد هذا الوعيد وضم المنافقين
الى الكفار فيه بقوله تعالى (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار) أى المجاهرين فى عنادهم
يقال وعده بالخير وعدا وأوعده بالشر وعيدا (نار جهنم خالدين فيها) أى مقدرين الخلود ولاشك
ان النار المخلدة من أعظم العقوبات (هى حسبهم) أى كافيتهم فى العذاب (ولعنهم الله) أى
ابعدهم مع من أبعدهم من رحمته * ولما كان الخلود قد يتجوز به عن الزمن الطويل فيكون
بعده فرج نفى ذلك بقوله تعالى (ولهم عذاب مقيم) أى دائم لا ينقطع وقوله تعالى (كالذين من
قبلكم) رجوع من الغيبة الى خطاب الحضور والكاف فى كالذين للتشبيه والمعنى فعلتم كأفعال
الذين من قبلكم شبه فعل المنافقين بفعل الكافرين الذين كانوا من قبلهم فى الامر بالمنكر والنهى
عن المعروف وقبض الايدى عن فعل الخير والطاعة ثم انه تعالى وصف الكفار بأنهم كانوا أشد
من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر أموالا وأولادا بقوله تعالى (كانوا أشد منكم قوة) أى بطشا
ومنعا (وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم) أى فتمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع
الشهوات ورضوا بها عوضا عن الآخرة والخلاق النصيب وهو ما خلق للانسان وقدر له من خير
وشر كما يقال قسم له (فاستمتعتم بخلاقكم) أى فتمتعتم أيها المنافقون والكافرون بخلاقكم فهو
خطاب للحاضرين (كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) ذم الاولين باستمتاعهم بما أوتوا
من حظوظ الدنيا العاجلة وحرمانهم من سعادة الآخرة بسبب استغراقهم فى تلك الحظوظ
العاجلة تمهيد الذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم * ولما بين تعالى مشابهة هؤلاء المنافقين
لأولئك المتقدمين فى طلب الدنيا وفى الاعراض عن طلب الآخرة بين حصول المشابهة بين
الفريقين فى تكذيب الانبياء وفى المكر والخديعة بقوله تعالى (وخضتم) أى ودخلتم فى الباطل
والكذب على الله تعالى وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين (كالذى خاضوا) أى كالذين
خاضوا أو كالفوج الذى خاضوا هذا كله اذا جعلنا الذى موصولا اسميا فان جعلناه موصولا
حرفيا اول مع صلته بمصدر أى كخوضهم والفوج الجماعة (فان قيل) أى فائدة فى قوله تعالى
فاستمتعوا بخلاقهم وقوله تعالى كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم مغن عنه كما أغنى

قوله تعالى كالذى خاضوا عن أن يقال وخاضوا الخوض كالذى خاضوا (أجيب) بأن فائدة ذلك ان يذم الاولين بما مر ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم فيكون ذلك نهاية فى المبالغة كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على قبح ظلمه بقولك أنت مثل فرعون كان يقتل بغير جرم ويعذب من غير موجب وأما وخضتم كالذى خاضوا فمعطوف على ما قبله مستند اليه مستغن باسناده اليه عن تلك المتقدمة (أولئك) أى هؤلاء الاشقياء (حبطت) أى بطلت (أعمالهم فى الدنيا) أى بزوالها عنهم ونسيان لذاتها (والآخرة) أى وفى الدار الآخرة لانهم لم يسعوا لها سعيها فلم تنفعهم أعمالهم فى الدارين بل يعاقبون عليها وزاد فى التنبيه على بعدهما عما قصدوا لانفسهم من النفع بقوله تعالى (وأولئك هم الخاسرون) أى الذين خسروا الدنيا والآخرة والمعنى أنه كما بطل أعمال الكفار الماضين وخسروا أبطل أعمالكم أيها المنافقون وتخسرون وفى الالتفات الى مقام الخطاب اشارة الى تحذير كل سامع عن مثل هذه المقالة قال بعض كبراء التابعين أدركت سبعين ممن أدرك النبى صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه وذكر أن مالكا رحمه الله تعالى دخل المسجد بعد العصر وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر فجلس ولم يركع فقال له صبى يا شيخ قم فاركع فقام وركع ولم يحاجه بما يراه مذهبا فقيل له فى ذلك فقال خشيت أن أكون من الذين اذا قيل لهم اركعوا لا يركعون وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما وقال تعالى لا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ينظر المنافق الى ما يسقط فضائل أهل الفضل ويتعامى عن محاسنهم كما روى أن الله تعالى يبغض التارك لحسنة المؤمن الآخذ سيئته والمؤمن الصادق يتغافل عن مساوى أهل المساوى فكيف بمعايب أهل المحاسن والمنافق يأخذ من الدين ما ينفع فى الدنيا ولا يأخذ ما ينفع فى العقبى ويجتنب فى الدين ما يضر فى الدنيا ولا يجتنب ما يضر فى العقبى مما لا يضر فى الدنيا * ويذكر أن رجلا من صلحاء المسلمين دخل كنيسة فقال لراهب فيها دلنى على موضع طاهر أصلى فيه فقال له الراهب طهر قلبك مما سواه وقم حيث شئت قال المسلم فخجلت منه وقوله عز من قائل (ألم يأتهم) فيه رجوع من الخطاب الى الغيبة أى ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير أى قد أتاهم (نبأ) أى خبر (الذين من قبلهم) من الامم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف أهلكناهم حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا * ولما شبه تعالى المنافقين بالكفار المتقدمين فى الرغبة فى الدنيا وفى تكذيب الانبياء والمبالغة فى ايذائهم لرسلهم بين منهم ستة طوائف الاولى (قوم نوح) أهلكوا بالطوفان (و) الثانية (عاد) وهم قوم هود أهلكوا بالريح والثالثة ثمود وهم قوم صالح أهلكوا بالرجفة (و) الرابعة (قوم ابراهيم) أهلكوا بسلب النعمة وأهلك نمروذ ببعوضة سلطها الله تعالى على دماغه فقتلته (و) الخامسة (أصحاب مدين) وهم قوم شعيب ويقال انهم من ولد مدين بن ابراهيم أهلكوا بعذاب يوم الظلة (و) السادسة (المؤتفكات) وهم قوم لوط أى أهلها أهلكوا بأن جعل الله تعالى أعالى أرضهم سافلها وامطر عليهم حجارة وانما ذكر الله تعالى هذه الطوائف الستة لان آثارهم باقية وبلادهم بالشأم

والعراق واليمن وكل ذلك قريب من بلاد العرب فكانوا يمرّون عليهم ويعرفون أخبارهم وقوله تعالى (أتتهم رسلهم) راجع الى كل هؤلاء الطوائف (بالبينات) أى المعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا أمرنا كما فعلتم أيها الكفار والمنافقون فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فتعجل لكم النقمة كما عجلت لهم وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون بالرفع (فما كان الله ليظلمهم) بتعجيل العقوبة لهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب * ولما بالغ سبحانه وتعالى فى وصف المنافقين بالاعمال الفاسدة والافعال الخبيثة ثم ذكر عقبه أنواع الوعيد فى حقهم فى الدنيا والآخرة ذكر بعده صفات المؤمنين بقوله تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) فى الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة وهذا فى مقابلة قوله تعالى المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض (فان قيل) لم قال تعالى فى وصف المنافقين بعضهم من بعض وقال فى وصف المؤمنين بعضهم أولياء بعض ما الحكمة فى ذلك (أجيب) بأنه لما كان نفاق الاتباع حصل بسبب التقليد لاولئك الاكابر لسبب مقتضى الهوى والطبيعة والعادة قال فيهم بعضهم من بعض ولما كانت الموافقة الخالصة بين المؤمنين بتوفيق الله تعالى وهدايته لا بمقتضى الطبيعة وهوى النفس وصفهم بأن بعضهم أولياء بعض فظهر الفرق بين الفريقين وظهرت الحكمة وقوله تعالى (يأمرون بالمعروف) أى بالايمان بالله ورسوله واتباع أمره والمعروف كل ما عرف من الشرع من خير وطاعة (وينهون عن المنكر) أى الشرك والمعاصى والمنكر كل ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع فى مقابلة قوله تعالى فى المنافقين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف (ويقيمون الصلاة) أى المفروضة ويأتون أركانها وشروطها (ويؤتون الزكاة) أى الواجبة عليهم فى مقابلة قوله تعالى فى المنافقين ويقبضون أيديهم المعبر به عن البخل وقوله تعالى (ويطيعون الله ورسوله) أى فيما يأمرهم به فى مقابلة قوله تعالى فى المنافقين نسوا الله فنسيهم * ولما ذكر تعالى ما وعد به المنافقين من العذاب فى نار جهنم ذكر ما وعد به المؤمنين من الرحمة المستقبلة وهى ثواب الآخرة بقوله تعالى (أولئك) أى المؤمنون والمؤمنات الموصوفون بهذه الصفات (سيرحمهم الله) بوعد لا خلف فيه (ان الله عزيز) أى غالب على كل شئ لا يمتنع عليه ما يريده (حكيم) أى لا يقدر أحد على نقض ما يحكمه وحل ما يبرمه * ولما ذكر سبحانه وتعالى الوعد على سبيل الاجمال ذكره على سبيل التفصيل بقوله تعالى (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار) فذكر فى هذه الآية أن الرحمة هى هذه الانواع المذكورة فى هذه الآية أولها قوله تعالى جنات تجرى من تحتها الانهار فهى لا تزال خضرة ذات بهجة نضرة * ولما كان النعيم لا يكمل الا بالدوام قال تعالى (خالدين فيها) والمراد بالجنات التى تجرى من تحتها الانهار البساتين التى يحير فى حسنها الناظر لانه تعالى قال (ومساكن طيبة فى جنات عدن) أى اقامة وخلود وهذا هو النوع الثانى فتكون جنات عدن هى المساكن التى يسكنونها والجنات الاخر هى البساتين التى يتنزهون فيها فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه قد كثر كلام أصحاب الآثار

فى صفة جنات عدن فقال الحسن سألت عمران بن الحصين عن قوله تعالى ومساكن طيبة فقال على الخبير سقطت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قصر فى الجنة من اللؤلؤ فيه سبعون دارا من ياقوتة حمراء فى كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء فى كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون فراشا على كل فراش زوجة من الحور العين فى كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام وفى كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن من القوة فى غداة واحدة ما يأتى على ذلك أجمع وعن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عدن دار الله التى لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر أى دار الله تعالى التى أعدها لاوليائه وأهل طاعته والمقربين من عباده وعن أبى هريرة رضى الله عنه قلت يا رسول الله حدثنى عن الجنة ما بناؤها قال لبنة من ذهب ولبنة من فضة وبلاطها المسك الاذفر وتربتها الزعفران وحصباؤها الدر والياقوت فهى النعيم بلا بؤس والخلود بلا موت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه وقال ابن مسعود جنات عدن بطنان الجنة قال الازهرى بطنانها وسطها وقال عطاء عن ابن عباس هى قصر فى الجنة وسقفها عرش الرحمن وهى المدينة التى فيها الرسل والانبياء والشهداء وأئمة الهدى وسائر الجنان حولها وفيها عين التسنيم وفيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الاذفر وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما ان فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لا يدخله الانبى أو صديق أو شهيد أو حكم عدل وقال عطاء بن السائب عدن نهر فى الجنة قبابه على حافتيه وقال الرازى حاصل الكلام ان فى جنات عدن قولين أحدهما أنه اسم علم لموضع معين فى الجنة وهذه الاخبار والآثار تقوى هذا القول وقال فى الكشاف وعدن علم بدليل قوله تعالى جنات عدن التى وعد الرحمن عباده والقول الثانى انه صفة الجنة قال الازهرى مأخوذ من قولك عدن بالمكان اذا أقام به يعدن عدونا فبهذا الاشتقاق قالوا الجنات كلها جنات عدن جعلنا الله تعالى ومن نحبه من أهلها وأحل علينا رضوانه فانه المقصود الاعظم كما قال تعالى (ورضوان من الله أكبر) لانه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدى الى نيل الوصول والفوز باللقاء روى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تبارك وتعالى يقول لاهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك وسعديك والخير فى يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول أنا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون وأى شئ أفضل من ذلك قال تعالى أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا وهذا هو النوع الثالث وقرأ شعبة ورضوان بضم الراء والباقون بالكسر (ذلك) أى الرضوان أو جميع ما تقدم (هو الفوز العظيم) الذى تستصغر دونه الدنيا وما فيها ولما وصف الله تعالى المنافقين بالصفات الخبيثة وتوعدهم بأنواع العقاب وكانت عادة الله تعالى فى هذا الكتاب الكريم جارية بذكر الوعد مع الوعيد لاجرم ذكر عقبه وصف المؤمنين بالصفات الشريفة الطاهرة الطيبة ووعدهم بالثواب الرفيع والدرجة العالية ثم عاد الى شرح أحوال الكفار

والمنافقين بقوله تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار) أي المجاهرين (والمنافقين) أي الساترين كفرهم بظهور الاسلام (فان قيل) الآية تدل على وجوب مجاهدة المنافقين وهو غير جائز فان المنافق كامر من يستر كفره ويقر بلسانه ومن كان كذلك لم تجز محاربته ومجاهدته (أجيب) بأن ليس في الآية ما يدل على ان ذلك الجهاد بالسيف أو باللسان أو بطريق آخر وانما تدل على وجوب الجهاد مع الفريقين وكيفية تلك المجاهدة انما تعرف من دليل آخر وقد دلت الدلائل المنفصلة على ان المجاهدة مع الكفار يجب أن تكون بالسيف ومع المنافقين بالحجة والبرهان وحمل الحسن جهاد المنافقين على اقامة الحدود عليهم اذا تعاطوا أسبابها قال القاضي وهذا ليس بشئ لان اقامة الحدود واجبة على من ليس بمنافق فلا يكون لها تعلق بالنفاق * ولما كان صلى الله عليه وسلم مطبوعا على الرفق وحسن الخلق قال تعالى (واغلظ عليهم) أي بالانتهار والمقت في الجهادين لا تعاملهم بمثل ما عاملتهم به من اللين عند استئذانهم في القعود وهذا بخلاف ما مضى في وعيد المنافقين حيث قدمهم فقال المنافقون والمنافقات فقدم في كل سياق الاليق به (ومأواهم) أي مسكنهم في الآخرة (جهنم وبئس المصير) أي المرجع هي (يحلفون) أي المنافقون (بالله ما قالوا) أي ما بلغك عنهم من السب والمفسرون ذكروا في أسباب نزول هذه الآية وجوها الاول روى أنه عليه الصلاة والسلام أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المتخلفين فقال الجلاس بن سويد لئن كان ما يقول محمد في اخواننا الذين خلفناهم بالمدينة حقا لنحن شر من الحمير فقال عامر بن قيس الانصاري للجلاس أجل والله ان محمدا صادق وأنت شر من الحمار فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضره فحلف بالله عز وجل ما قاله فرفع عامر يده وقال اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب فنزلت فقال الجلاس لقد ذكر الله تعالى التوبة في هذه الآية ولقد قلت هذا الكلام وصدق عامر ثم تاب وحسنت توبته الثاني أنها نزلت في عبد الله بن أبي لما قال لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل وأراد به الرسول صلى الله عليه وسلم فسمع زيد بن أرقم ذلك فبلغه النبي صلى الله عليه وسلم فهم عمر رضي الله عنه بقتل عبد الله بن أبي فجاء عبد الله بن أبي وحلف أنه لم يقل الثالث روى قتادة أن رجلين اقتتلا احدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الانصار فظهر الجهني على الغفاري فقال عبد الله ابن أبي للاوس انصروا أخاكم فوالله ما مثلنا ومثل محمد الا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك فسعى بها رجل من المسلمين الى النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل اليه فسأله فحلف بالله ما قاله فنزلت (ولقد قالوا كلمة الكفر) وهي سب النبي صلى الله عليه وسلم وقيل هي كلمة الجلاس بن سويد وقيل هي كلمة عبد الله بن أبي (وكفروا بعد اسلامهم) أي واظهروا كفرهم بعد اظهارهم الاسلام (وهموا بما لم ينالوا) أي من قتل النبي صلى الله عليه وسلم عند مرجعه من تبوك توافق خمسة عشر منهم اذا تسنم العقبة أي علاها بالليل فأخذ عمار بن ياسر بخطام ناقته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها فبيناهم كذلك اذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الابل وبقعقعة

السلاح فالتفت فاذا اقوم متلثمون فقال الكم الكم يا أعداء الله فهربوا وقيل هم المنافقون هموا بقتل عامر حين ردّ على الجلاس وقيل أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وان لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما نقموا) أى وما أنكروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ (الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) فان أكثر أهل المدينة كانوا قبل قدوم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فى ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحرزون الغنيمة وبعد قدومه أخذوا الغنائم وفازوا بالاموال ووجدوا الدولة وذلك يوجب أن يكونوا محبين له مجتهدين فى بذل النفس والمال لاجله وقتل للجلاس مولى فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثنى عشر ألفا فاستغنى فالمنافقون عملوا بضد الواجب فوضعوا موضع شكره صلى الله عليه وسلم ان نقموا منه وقال ابن قتيبة معناه ليس هناك شئ ينقمون منه ولا يعيبون من الله الا الصنيع وهذا كقول الشاعر

مانقموا من بنى أمية الا انهم يحلمون ان غضبوا

وكقول النابغة

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم ● بهن فلول من قراع الكتائب

أى ليس فيها عيب (فان يتوبوا) أى من كفرهم ونفاقهم (يك خيرا لهم) فى العاجل والآجل من اصرارهم على ذلك وهذا الذى حمل الجلاس على التوبة والضمير فى يك للتوبة (وان يتولوا) أى يعرضوا عن الايمان والتوبة ويصروا على النفاق والكفر (يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا) بالقتل والاسر والاذلال (والآخرة) بالعذاب الاكبر الذى لا خلاص لهم منه وهو خلودهم فى النار (وما لهم فى الارض) أى التى لا يعرفون غيرها لسفول همتهم (من ولى) يحفظهم منه (ولا نصير) ينعهم وأما السماء فهم أقل من أن يطمعوا منها فى شئ ناصرا وغيره وأغلظ اكبادا من أن يرتقى فكرهم الى مابها من العجائب ومابها من الجنود واعلم أن هذه السورة أكثرها فى شرح أحوال المنافقين ولا شك انهم أقسام وأصناف فلهذا السبب يذكرهم الله تعالى على التفصيل فيقول تعالى ومنهم الذين يؤذون النبى ومنهم من يلمزك فى الصدقات ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) فيه ادغام التاء فى الاصل فى الصاد (ولنكونن من الصالحين) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان ثعلبة بن حاطب أبطأ عنه ماله بالشأم فلحقه شدة فحلف بالله وهو واقف ببعض مجالس الانصار لئن آتانا الله من فضله لاصدقن ولأؤدين منه حق الله تعالى والشم وروى فى سبب نزول هذه الآية ان ثعلبة بن حاطب الانصارى قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه فراجعه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أما لك فى رسول الله اسوة حسنة والذى نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك وقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لاعطين كل ذى حق حقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا فاتخذ غنما

فنمت كما تنمى الدود حتى كثرت ونزل بها واديا من أودية المدينة واشتغل بها حتى صار يصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ويصلى فى غنمه باقى الصلوات ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضا فصار لا يشهد الا الجمعة ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضا فصار لا يشهد لا جمعة ولا جماعة فكان اذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الاخبار فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال مافعل ثعلبة فقالوا يارسول الله اتخذ غنما مايسعها واد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياويح ثعلبة ثلاثا فنزلت آية الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين لاخذ الصدقة وكتب لهما اصناف الصدقة وكيف يأخذان وقال لهما مرا بثعلبة وخذا صدقاته فأتياه وسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماهذه الا جزية أو أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا الى فانطلقا فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ثم رجعا الى ثعلبة فقال كمقالته الاولى ولم يدفع اليهما شيأ فرجعا الى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبراه بالذى صنع ثعلبة فأنزل الله تعالى هذه الآية وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك ياثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبى صلى الله عليه وسلم وسأله أن يقبل صدقته فقال ان الله تعالى منعنى من أن أقبل صدقتك فجعل يحثو على رأسه التراب فقال صلى الله عليه وسلم لقد قلت لك فما أطعتنى فرجع الى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بها الى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبلها ثم جاء بها الى عمر أيام خلافته فلم يقبلها فلما ولى عثمان أتاه بها فلم يقبلها وهلك ثعلبة فى خلافة عثمان رضى الله عنه (فان قيل) العبد اذا تاب تاب الله عليه فلماذا منع الله تعالى من قبول صدقته (أجيب) بأن الله تعالى لما قال خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وكان هذا المقصود غير حاصل فى ثعلبة مع نفاقه فلهذا السبب امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ تلك الصدقة ثم قال الله تعالى (فلما آتاهم من فضله بخلوا به) أى منعوا حق الله تعالى منه (وتولوا) عن طاعة الله تعالى (وهم معرضون) أى عن طاعة الله تعالى (فأعقبهم) أى صير عاقبتهم (نفاقا) متمكنا (فى قلوبهم الى يوم يلقونه) أى الله يوم القيامة (بما أخلفوا الله ماوعدوه) أى بسبب اخلافهم ماوعدوه من التصدق والصلاح لان الجزاء من جنس العمل (وبما كانوا يكذبون) أى يجددون الكذب دائما مع الوعد ومنفكا عنه فقد استكملوا النفاق عاهدوا فغدروا ووعدوا فأخلفوا وحدثوا فكذبوا وقد قال صلى الله عليه وسلم آية المنافق أى علامته ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان (ألم يعلموا) أى المنافقون (ان الله يعلم سرهم) أى ما أسروا فى أنفسهم من النفاق والعزم على اخلاف ماوعدوه (ونجواهم) أى ماتناجوا بينهم من المطاعن فى الدين وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها فكيف يجترؤن على النفاق الذى الاصل فيه الاستسرار والتناجى فيما بينهم مع علمهم بأن الله تعالى يعلم ذلك من حالهم كما يعلم الظاهر وانه يعاقب عليه كما يعاقب على الظاهر (وان الله علام الغيوب) والعلام مبالغة فى العالم والغيب ما كان غائبا عن الخلق

فكيف يمكن الاخفاء عنه وقوله تعالى (الذين) مبتدا (يلمزون) أى يعيبون (المطوعين) المتنفلين (من المؤمنين) أى الراغبين فى الايمان (فى الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم) أى طاقتهم فيأتون به (فيسخرون منهم) أى يستهزئون بهم والخبر (سخر الله منهم) أى جازاهم على سخريتهم (ولهم عذاب أليم) على كفرهم وهذا نوع آخر من أعمال المنافقين القبيحة وهو لمزهم لمن يأتى بالصدقات روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم وحث على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله مالى ثمانية آلاف درهم جئتك بأربعة آلاف درهم فاجعلها فى سبيل الله وأمسكت أربعة آلاف لعيالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله تعالى فى مال عبد الرحمن حتى انه خلف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن ماله لهما مائة وتسعين ألف درهم وجاء عاصم بن عدى الانصارى بسبعين وسقا من تمر وجاء عثمان بن عفان بصدقة عظيمة وجاء أبو عقيل الانصارى بصاع من تمر وقال أجرت الليلة الماضية نفسى من رجل لارسال الماء الى نخله فأخذت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لعيالى وأتيتك بالآخر فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضعه فى الصدقات فلمزهم المنافقون وقالوا عبد الرحمن وعثمان ما يعطيان الارياء والله ورسوله لغنيان عن صاع أبى عقيل ولكن أحب أن يذكر نفسه ليعطى من مال الصدقات فنزلت وقوله تعالى (استغفر لهم) يا محمد (أو لا تستغفر لهم) تخيير للنبى صلى الله عليه وسلم فى الاستغفار لهم وتركه قال صلى الله عليه وسلم انى خيرت فاخترته يعنى الاستغفار رواه البخارى (ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبى وكان من المخلصين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض أبيه أن يستغفر له ففعل فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام سأزيد على السبعين وذلك لانه صلى الله عليه وسلم فهم من السبعين العدد المخصوص لانه الاصل لجواز أن يكون ذلك حدا يخالفه حكم ما وراءه فبين تعالى أن المراد التكثير دون التحديد وانما خص السبعين من العدد بالذكر لان العرب كانت تستكثر السبعين ولهذا كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة رضى الله عنه سبعين تكبيرة ولان آحاد السبعين سبع وهو عدد شريف فان السموات سبع والارضين سبع والايام سبع والاقاليم سبع والبحار سبع والنجوم سبع وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها فى التكثير لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد أى عدة مراتبه الاصلية والفرعية معدكر أول فروع فروعه وهى سبعة آحاد عشرات مئين آحاد ألوف عشرات ألوف مئين ألوف آحاد ألوف الالوف وقوله تعالى (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) اشارة الى أن اليأس من المغفرة وعدم قبول استغفارك ليس لبخل منا ولا قصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها (والله لا يهدى القوم الفاسقين) أى المتمردين فى كفرهم وهو كالتنبيه على عذر النبى صلى الله عليه وسلم فى استغفاره وهو عدم يأسه من ايمانهم ما لم يعلم انهم مطبوعون على الضلالة والممنوع هو الاستغفار بعد العلم لقوله تعالى ما كان

للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم (فرح المخلفون) عن غزوة تبوك (بمقعدهم) أي بقعودهم فهو اسم للمصدر (خلاف رسول الله) هذا نوع آخر من قبائح أعمال المنافقين وهو فرحهم بالقعود وكراهتهم الجهاد والخلف المتروك عن مضى (فان قيل) انهم احتالوا حتى تخلفوا فكانوا متخلفين لا مخلفين (أجيب) بأن من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خروجه الى الجهاد مع المؤمنين يوصف بأنه مخلف حيث لم ينهض وأقام * (تنبيه) * قوله تعالى خلاف فيه قولان الاول وهو قول الزجاج بمعنى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ساروا أقاموا قال وهو منصوب لانه مفعول له والمعنى بأن قعدوا لمخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والثاني قال الاخفش ان خلاف بمعنى خلف ومعناه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) تعريض للمؤمنين بتحملهم المشاق لوجه الله تعالى بما فعلوا من بذل أنفسهم وأموالهم وايثارهم ذلك على السكون والراحة وكره ذلك المنافقون وكيف لا يكرهون وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الايمان وداعي الايقان (وقالوا) أي قال بعض المنافقين لبعض أو قالوا للمؤمنين تثبيطا (لا تنفروا) أي لا تخرجوا الى الجهاد (في الحر) وكانت غزوة تبوك في شدة الحر فأجاب الله تعالى عن هذا بقوله تعالى (قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) أي يعلمون أن بعد هذه الدار دارا أخرى وان بعد هذه الحياة حياة أخرى وان هذه مشقة منقضية وتلك مشقة باقية ما تخلفوا ولبعضهم

مسرة أحقاب تلقيت بعدها * مساءة يوم اريها شبه الصاب

فكيف بأن تلقى مسرة ساعة * وراء تقضيها مساءة أحقاب

وقوله تعالى (فليضحكوا قليلا) أي في الدنيا (وليبكوا كثيرا) أي في الآخرة ورد بصيغة الامر ومعناه الاخبار بأنه سيحصل لهم هذه الحالة ودليل ذلك قوله تعالى (جزاء بما كانوا يكسبون) أي أن ذلك البكاء في الآخرة جزاء لهم على ضحكهم وأعمالهم الخبيث في الدنيا روى أن أهل النفاق يبكون في الآخرة في النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم فقرحهم وضحكهم طول أعمارهم في الدنيا قليل بالنسبة الى الآخرة لان الدنيا فانية والآخرة باقية والمنقطع الفاني بالنسبة الى الدائم الباقي قليل روى عن أنس انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا أيها الناس ابكوا فان لم تستطيعوا فتباكوا فان أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدما فتقرح العيون حتى لو أن سفنا اجريت فيها لجرت قال البيضاوي ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كنايتين عن السرور والغم والمراد من القلة العدم (فان رجعك) أي ردك (الله) من غزوة تبوك (الى طائفة منهم) أي ممن تخلف بالمدينة من المنافقين وانما قال الى طائفة منهم لان منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف أو اعتذر بعذر صحيح وقيل لم يكن المخلفون كلهم منافقين وأراد بالطائفة المنافقين

منهم (فاستأذنوك للخروج) معك الى غزوة أخرى بعد تبوك (فقل) يا محمد لهؤلاء الذين طلبوا الخروج معك وهم مقيمون على نفاقهم (لن تخرجوا معي أبدا) أى فى سفر من الاسفار ان الله تعالى قد أغنانى عنكم وأحوجكم الى (ولن تقاتلوا معي عدوا) اخبار بمعنى النهى للمبالغة وقوله تعالى (انكم رضيتم بالقعود أول مرة) تعليل له وكان اسقاطهم من ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم وأول مرة هى الخرجة الى غزوة تبوك (فاقعدوا مع الخالفين) أى المتخلفين عن الغزو من النساء والصبيان وغيرهم قال الرازى واعلم ان هذه الآية تدل على ان الرجل اذا ظهر له من بعض اخوانه مكر وخداع ورآه مشددا فيه مبالغا فى تقرير موجباته فانه يجب عليه أن يقطع العلقة بينه وبينه وأن يحترز عن مصاحبته * ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمنع المنافقين من الخروج معه الى الغزوات اذلالا لهم أمره بمنع الصلاة على من مات منهم اذلالا لهم أيضا بقوله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) روى أن ابن أبي رأس المنافقين دعا النبي صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى مات فيه فلما دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم سأله أن يصلى عليه واذا مات يقوم على قبره ثم أرسل للنبى صلى الله عليه وسلم يطلب منه قميصه ليكفن فيه فأرسل اليه القميص الفوقانى فرده وطلب الذى يلى جلده ليكفن فيه فقال عمر رضى الله عنه لم تعطى قميصك للرجس النجس فقال صلى الله عليه وسلم ان قميصى لا يغنى عنه من الله شيأ وانى أؤمل من الله أن يدخل فى الاسلام كثير بهذا السبب فيروى أنه اسلم ألف من الخزرج لما رأوه طلب الاستشفاء بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما مات جاء ابنه يعرفه وكان ابنه صحابيا خالصا صالحا فقال له النبى صلى الله عليه وسلم صل عليه وادفنه فقال ان لم تصل عليه يا رسول الله لم يصل عليه مسلم فقام عليه الصلاة والسلام ليصلى عليه فقام عمر رضى الله عنه بينه وبين القبلة فنزلت هذه الآية وأخذ جبريل عليه السلام بثوب النبى صلى الله عليه وسلم وقال لا تصل على أحد منهم مات أبدا قال عمر فعجبت من جرائتى على النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ وهذا يدل على منقبة عظيمة من مناقب عمر رضى الله عنه وذلك ان الوحى ينزل وفق قوله فى آيات كثيرة منها آية أخذ الفدية من أسارى بدر وقد سبق شرحه ومنها آية تحريم الخمر ومنها آية تحويل القبلة ومنها آية أمر النساء بالحجاب ومنها هذه الآية فصار نزول الوحى على مطابقة قول عمر منصبا عاليا ودرجة رفيعة له فى الدارين ولهذا قال فى حقه عليه الصلاة والسلام لو لم أبعث لبعثت يا عمر نبيا وانما لم ينه صلى الله عليه وسلم عن التكفين فى القميص ونهى عن الصلاة عليه لان الضنة بالقميص كانت تخل بالكرم وكان الله تعالى أمره أن لا يرد سائلا بقوله تعالى وأما السائل فلا تنهر ولان ابنه كان بالوصف المتقدم فأكرمه النبى صلى الله عليه وسلم لمكان ابنه ولان الرحمة والرأفة كانت غالبة عليه صلى الله عليه وسلم ولانها كانت مكافأة لالباسه العباس قميصه حين كان أسر ببدر والمراد من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له وهو ممنوع فى حق الكافر قال الواحدى مات فى موضع جر لانه صفة للنكرة كأنه قيل

على

على احـد منهم ميت وقوله تعالى أبدا متعلق بقوله ولا تصل والتقدير ولا تصل أبدا على أحـد منهم منعا كليا دائما وقال البيضاوى مات أبدا يعنى الموت على الكفر فان احياء الكافر للتعذيب لا للتمتع فكأنه لم يحي واختلف فى تفسير قوله تعالى (ولا تقم على قبره) فقال الزجاج كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دفن الميت وقف على قبره ودعاله فمنع ههنا منه قال الكلبى لا تقم لاصلاح مهمات قبره وهو من قولهم قام فلان بأمر فلان اذا كفاه أمره وتولاه وقيل لا تقم عند قبره لدفن أو زيارة والاول أولى لان النهى للتحريم ثم انه تعالى علل المنع من الصلاة عليه والقيام على قبره بقوله تعالى (انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) أى كافرون يعنى لم يتوبوا قبل موتهم عن كفرهم فسقط بذلك ما قيل ان الفسق أدنى من الكفر فما الفائدة فى وصفهم بعد ذلك بالفسق وأجيب أيضا بأن الكافر قد يكون عدلا فى دينه وقد يكون فاسقا فوصف الله تعالى المنافق بالفسق بعد ان وصفه بالكفر تنبيها على ان طريقة النفاق طريقة مذمومة عند كل أهل العلم (فان قيل) كيف هم صلى الله عليه وسلم أن يصلى على هذا المنافق مع قيام الكفر فيه وقيل انه صلى عليه (أجيب) بأن التكاليف مبنية على قوله صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر فانه كان ظاهره الاسلام فلما أعلمه الله تعالى بذلك امتنع فلم يصل على منافق بعد ذلك ولا قام على قبره حتى قبض (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) سبق ذكر هذه الآية فى هذه السورة بعينها ولكن حصل بينهما تفاوت فى ألفاظ أربعة أولها أن فى الآية المتقدمة فلا تعجبك بالفاء وههنا بالواو لان الآية الاولى ذكرت بعد قوله تعالى ولا ينفقون الا وهم كارهون وصفهم بكونهم كارهين للانفاق وانما كرهوا ذلك الانفاق لكونهم معجبين بكثرة تلك الاموال والاولاد فلهذا المعنى نهاه الله تعالى عن ذلك الاعجاب بفاء التعقيب وأما ههنا فلا تعلق لهذا الكلام بما قبله فجاء بحرف الواو ثانيها أنه قال تعالى فى الآية الاولى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم وههنا كلمة لا محذوفة لان مثل هذا الترتيب يبدأ فيه بالادون ثم يترقى الى الاشرف فيقال لا يعجبنى أمر الامير ولا أمر الوزير وهذا يدل على انه كان اعجاب أولئك الاقوام بأولادهم فوق اعجابهم بأموالهم وهذه الآية تدل على عدم التفاوت بين الامرين عندهم ثالثها أنه تعالى قال هناك انما يريد الله ليعذبهم وههنا قال انما يريد الله أن يعذبهم فالفائدة فيه التنبيه على ان التعليل فى أحكام الله تعالى محال وان ورد حرف التعليل ومعناه انه كقوله تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله وما أمروا الا بأن يعبدوا الله رابعها انه ذكر فى الآية الاولى فى الحياة الدنيا وههنا أسقط لفظ الحياة تنبيها على ان الحياة الدنيا بلغت فى الخسة مبلغا الى أنها لا تستحق أن تسمى حياة بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيها على كمال دناءتها قال الرازى فهذه وجوه فى الفرق بين هذه الالفاظ والعالم بحقيق القرآن هو الله تعالى (فان قيل) ما الحكمة فى التكرير (أجيب) بأنه أشد الاشياء جذبا وطلبا للخواطر الاشتغال بالدنيا وهى الاموال والاولاد وما كان كذلك يجب التحذير عنه مرة بعد أخرى فى المطلوبية والمرغوبية كما أعاده تعالى

قوله في سورة النساء ان الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء مرتين وقيل انما كرر هذا المعنى لان الآية الاولى في قوم منافقين انهم أموال وأولاد في وقت نزولها وهذه الآية في قوم آخرين والكلام الواحد اذا احتيج الى ذكره مع أقوام كثيرين في أوقات مختلفة لم يكن ذكره مع بعضهم مغنيا عن ذكره مع آخرين وقوله تعالى (واذا أنزلت سورة) يحتمل ان يراد بالسورة تمامها وان يراد بعضها أي طائفة من القرآن وقيل المراد بالسورة سورة براءة لان فيها الامر بالايمان والجهاد (ان آمنوا بالله) أي بأن آمنوا ويجوز أن تكون أن المفسرة (وجاهدوا مع رسوله) (فان قيل) كيف يأمر المؤمنين بالايمان فان ذلك يقتضي الامر بتحصيل الحاصل وهو محال (أجيب) بأن معناه الدوام على الايمان والجهاد في المستقبل وقيل هذا الامر وان كان ظاهره العموم لكن المراد به الخصوص وهم المنافقون أي اخلصوا الايمان بالله وجاهدوا مع رسوله صلى الله عليه وسلم وانما قدم الامر بالايمان على الامر بالجهاد لان الجهاد بغير الايمان لا يفيد شيأ ثم حكى الله تعالى ان عند نزول هذه السورة ماذا يقولون فقال تعالى (استأذنك أولوا الطول منهم) قال ابن عباس يعني أهل الغنى وهم أهل القدرة والثروة والسعة من المال وقيل هم رؤساء المنافقين وكبراؤهم (وقالوا) أي اولوا الطول (ذرنا نكن مع القاعدين) أي الذين قعدوا والعذر كالمرضى والزمنى وقيل مع النساء والصبيان ثم ذمهم الله تعالى بقوله (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) جمع خالفة أي النساء اللاتي تخلفن في البيوت وقيل الخوالف ادنياء الناس وسفلتهم يقال فلان خالفة قومه اذا كان دونهم وانما خص أولوا الطول بالذكر لان الذم لهم لازم لكونهم قادرين على السفر والجهاد وأما من لا مال له ولا قدرة له على السفر فلا يحتاج الى الاستئذان قال المفسرون كان يصعب على المنافقين تشبيههم بالخوالف (وطبع) أي وختم (على قلوبهم) أي هؤلاء المنافقين (فهم لا يفقهون) أي لا يعلمون ما في الجهاد من الفوز والسعادة وما في التخلف من الشقاوة والخذلان ولما شرح الله سبحانه وتعالى حال المنافقين من الفرار عن الجهاد بين حال الرسول والذين آمنوا معه بالضد منه بقوله تعالى (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أي بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله تعالى والتقرب اليه وفي قوله تعالى لكن فائدة وهي تقرير أنه وأن تخلف هؤلاء المنافقون عن الغزو فقد توجه اليه من هو خير منهم وأخلص نية واعتقادا كقوله تعالى ان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما الآية ولما وصفهم الله تعالى بالمسارعة الى الجهاد ذكر ما حصل لهم من الفوائد والمنافع وهو أنواع أولها ما ذكره تعالى بقوله سبحانه (وأولئك لهم الخيرات) أي منافع الدارين النصرة والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة وقيل الخيرات الحور العين لقوله تعالى فيهن خيرات حسان ثانيها ما ذكره الله تعالى بقوله (وأولئك هم المفلحون) أي الفائزون بالمطالب المتخلصون من العقاب والعتاب وثالثها ما ذكره بقوله تعالى (أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) هذا بيان ما لهم من الخيرات الاخروية (وجاء المعذرون) بادغام التاء في الاصل في الذال أي المعتذرون بمعنى المعذورين (من الاعراب) الى

النبي

النبي صلى الله عليه وسلم (ليؤذن لهم) فى القعود لعذرهم فأذن لهم واختلف فى هؤلاء المعذرين فقيل هم أسد وغطفان قالوا ان لنا عيالا وان بنا جهدا فائذن لنا فى التخلف وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا ان غزونا معك اغارت اعراب طيء على أهالينا ومواشينا فقال صلى الله عليه وسلم سيغنيني الله عنكم وقيل نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله وعن قتادة اعتذروا بالكذب والاعتذار فى كلام العرب على قسمين يقال اعتذر اذا كذب فى عذره ومنه قوله تعالى يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم فرد الله تعالى عليهم بقوله قل لا تعتذروا فدل ذلك على فساد عذرهم وكذبهم فيه ويقال اعتذر اذا أتى بعذر صحيح كما فى قول لبيد

* ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر * يريد فقد جاء بعذر صحيح وقيل هو التعذير الذى هو التقصير يقال عذر يعذر اذا قصر ولم يبالغ فعلى هذا المعنى يحتمل انهم كانوا صادقين فى اعتذارهم وانهم كانوا كاذبين ومن المفسرين من قال انهم كانوا صادقين بدليل انه تعالى لما ذكره قال بعده (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) أى فى ادعاء الايمان من منافقى الاعراب عن المجيء للاعتذار فلما فصل بينهم وميزهم عن الكاذبين دل ذلك على انهم ليسوا كاذبين ويروى عن عمرو بن العلاء انه لما قيل له هذا الكلام فقال ان اقواما تكلفوا عذرا بباطل فهم الذين عناهم الله تعالى بقوله وجاء المعذرون وتخلف الآخرون لا لعذر ولا لشبه عذر جراءة على الله وهم المراد بقوله تعالى وقعد الذين كذبوا الله ورسوله (سيصيب الذين كفروا منهم) أى من الاعراب أو من المعذرين فان منهم من اعتذر لكسله لا لكفره (عذاب أليم) فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار ولما بين سبحانه وتعالى الوعيد فى حق من توهم العذر مع أنه لا عذر له ذكر أصحاب الاعذار الحقيقية وبين أن تكليف الله تعالى بالغزو والجهاد عنهم ساقط بقوله تعالى (ليس على الضعفاء) كالشيوخ ومن خلق فى أصل الفطرة ضعيفا نحيفا (ولا على المرضى) كالزمنى والعرج والعمى (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) فى الجهاد (حرج) أى اثم فى التخلف عنه فنفى سبحانه وتعالى عن هذه الاقسام الثلاثة الحرج فيجوز لهم ان يتخلفوا عن الغزو وليس فى الآية بيان انه يحرم عليهم الخروج لان الواحد من هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بقدر قدرته اما لحفظ متاعهم أو لتكثير سوادهم بشرط ان لا يجعل نفسه كلا ووبالا عليهم كان ذلك طاعة مقبولة ثم انه سبحانه وتعالى شرط فى جواز هذا التأخر عن الغزو شرطا بقوله (اذا نصحوا لله ورسوله) فى حال قعودهم بالايمان والطاعة فى السر والعلانية وان يحترزوا عن القاء الارجافات وعن اثارة الفتن ويسعوا فى ايصال الخير الى المجاهدين الذين سافروا اما ان يقوموا باصلاح مهمات بيوتهم واما ان يسعوا الى ايصال الاخبار السارة من بيوتهم اليهم فان جملة هذه الامور جارية مجرى الاعانة على الجهاد وقوله تعالى (ما على المحسنين) فى موضع ما عليهم لبيان احسانهم بنصحهم مع عذرهم (من سبيل) أى طريق الى ذمهم أو لومهم والمعنى انه سد باحسانه طريق العتاب ومن أعظم الاحسان من شهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله مخلصا من قلبه فان ما عليه من سبيل فى نفسه وماله لاباحة الشرع بدليل منفصل اذ العبرة

بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والمحسن هو الآتي بالاحسان ورأس أبواب الاحسان ورئيسها هو قول لا اله الا الله محمد رسول الله (والله غفور) أى محاء للذنوب (رحيم) أى بجميع عباده وفى ذلك اشارة الى أن الانسان محل التقصير وان اجتهد فلا يسعه الا العفو ولما ذكر الله سبحانه وتعالى الضعفاء والمرضى والفقراء وبين انه يجوز لهم التخلف عن الجهاد بشرط ان يكونوا ناصحين لله ورسوله وهو كونهم محسنين وانه ليس لاحد عليهم سبيل ذكر قسما رابعا من المعذورين بقوله تعالى (ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم) الى الغزو وهم البكاؤن سبعة من الانصار معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن مغفل وعلبة بن زيد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ابدرنا بالخروج أى أسرعنا فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغزو فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم يبكون ولذلك سموا البكائين وقيل هم بنو مقرن من مزينة وكانوا ثلاثة اخوة معقل وسويد والنعمان وقيل أبو موسى وأصحابه وقيل نزلت فى العرباض بن سارية ويحتمل أنها نزلت فى كل من ذكر وقوله تعالى (قلت لا أجد ما أحملكم عليه) حال من الكاف فى أتوك باضمار قد وقوله تعالى (تولوا) جواب اذا (وأعينهم تفيض) أى تسيل (من الدمع) أى دمعها فمن ومن للبيان كقولك أفديك من رجل وهو أبلغ من يفيض دمعها لانه يدل على ان العين صارت دمعا فياضا وقوله تعالى (حزنا) منصوب على العلة (ان لا يجدوا) أى لئلا يجدوا محله نصب على انه مفعول له وناصبه المفعول له الذى هو حزنا (ما ينفقون) فى الجهاد ولما قال تعالى ما على المحسنين من سبيل قال تعالى فى حق من يعتذر ولا عذر له (انما السبيل) أى انما يتوجه الطريق بالعقوبة (على الذين يستأذنونك) يا محمد فى التخلف عنك والجهاد (وهم أغنياء) أى قادرون على أهبة الخروج معك وقوله تعالى (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) استئناف كأنه قيل ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء فقيل رضوا بالدناءة والضعة والانتظام فى جملة الخوالف وهم النساء والصبيان (وطبع الله على قلوبهم) فلاجل ذلك الطبع قال الله تعالى (فهم لا يعلمون) أى ما فى الجهاد من منافع الدارين أما فى الدنيا فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو وأما فى الآخرة فالثواب والنعيم الدائم الذى لا ينقطع (يعتذرون) أى هؤلاء المنافقون (اليكم) أى فى التخلف (اذا رجعتم) من الغزو (اليهم) بالاعذار الباطلة والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له ويحتمل ان يكون له وللمؤمنين روى ان الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من المنافقين كانوا بضعة وثلاثين رجلا فلما رجع النبى صلى الله عليه وسلم جاؤا يعتذرون اليه بالباطل قال تعالى (قل) لهم يا محمد (لا تعتذروا) بالمعاذير الباطلة (لن نؤمن لكم) أى لن نصدقكم فيما اعتذرتم به وقوله تعالى (قد نبأنا) أى أعلمنا (الله من أخباركم) أى بعض أحوالكم التى أنتم عليها من الشر والفساد علة لانتفاء تصديقهم لان الله تعالى اذا أوحى الى رسوله صلى الله عليه وسلم الاعلام بأحوالهم وما فى ضمائرهم من الشر والفساد لم يستقم مع ذلك تصديقهم فى معاذيرهم (وسيرى الله عملكم ورسوله) أى

أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه (ثم تردون) أى بالبعث (الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) أى الله المطلع على ما فى ضمائركم من الخيانة والكذب واخلاف الوعد وغير ذلك من الخبائث التى أنتم عليها فيجازيكم عليه (سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم) أى رجعتم (اليهم) من تبوك انهم معذورون فى التخلف (لتعرضوا عنهم) أى لتصفحوا عنهم فلا تعاتبوهم (فأعرضوا عنهم) أى فدعوهم وما اختاروا لانفسهم من النفاق قال ابن عباس يريد ترك الكلام والسلام قال مقاتل قال النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة لا تجالسوهم ولا تكلموهم قال أهل المعانى هؤلاء طلبوا اعراض الصفح فأعطوا اعراض المقت ثم ذكر تعالى علة الاعراض بقوله (انهم رجس) أى قذر لخبث باطنهم فكما يجب الاحتراز عن الانجاس الجسمانية يجب الاحتراز عن الارجاس الروحانية خوفا من سريانها الى الانسان وحذرا من أن يميل طبع الانسان الى تلك الاعمال وقوله تعالى (ومأواهم جهنم) من تمام العلة (جزاء بما كانوا يكسبون) من الاعمال الخبيثة فى الدنيا واختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية فقال ابن عباس نزلت فى الجد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما كانوا ثمانين رجلا من المنافقين فقال النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة لا تجالسوهم ولا تكلموهم وقال مقاتل نزلت فى عبد الله بن أبى حلف للنبى صلى الله عليه وسلم بالله الذى لا اله الا هو لا يتخلف عنه بعدها وطلب من النبى صلى الله عليه وسلم أن يرضى عنه فأنزل الله تعالى هذه الآية ونزل (يحلفون لكم لترضوا عنهم) أى يحلف لكم هؤلاء المنافقون لترضوا عنهم بحلفهم فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم (فان ترضوا عنهم) أى فان رضيتم عنهم أيها المؤمنون بما حلفوا لكم وقبلتم عذرهم (فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) لانه تعالى يعلم ما فى قلوبهم من النفاق والشك فلا يرضى عنهم والمقصود من الآية عدم الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم بعد الامر بالاعراض عنهم وعدم الالتفات نحوهم * ونزل فى سكان البادية (الاعراب) أى أهل البدو (أشد كفرا ونفاقا) أى من أهل الحضر لجفائهم وغلظ طباعهم وبعدهم عن أهل العلم وقلة استماعهم الكتاب والسنة واستيلاء الهواء الحار اليابس عليهم وذلك يوجب مزيد التيه والتكبر والنخوة والفخر والطيش عليهم وليسوا تحت سياسة سائس ولا تأديب مؤدب ولا ضبط ضابط فنشؤا كما شاؤا ومن كان كذلك خرج على أشد الجهات نفاقا ولو قابلت الفواكه الجبلية بالفواكه البستانية لعرفت الفرق بين أهل الحضر وأهل البادية قال العلماء من أهل اللغة يقال رجل عربى اذا كان له نسب فى العرب وجمعه العرب كما يقال مجوسى ويهودى ثم تحذف ياء النسب فى الجمع فيقال المجوس واليهود ورجل اعرابى بالالف اذا كان بدويا يطلب مساقط الغيث والكلا وسواء كان من العرب أم من مواليهم ويجمع الاعرابى على الاعراب والاعاريب والاعرابى اذا قيل له يا عربى فرح والعربى اذا قيل له يا اعرابى غضب له فمن استوطن القرى العربية فهم عرب ومن نزل البادية فهم اعراب والذى يدل على الفرق بينهما أنه صلى الله عليه وسلم قال حب العرب من الايمان وأما الاعراب فقد ذمهم الله تعالى فى هذه الآية وقيل سموا بالعرب لان ألسنتهم معربة عما

فى ضمائرهم ولاشك أن اللسان العربى مختص بأنواع من الفصاحة والجزالة لاتوجد فى سائر الالسنة قال الرازى ورأيت فى بعض الكتب عن بعض الحكماء انه قال حكمة الروم فى أدمغتهم وذلك لانهم يقدرون على التركيبات العجيبة وحكمة الهند فى أوهامهم وحكمة اليونان فى أفئدتهم وذلك لكثرة مالهم من المباحث العقلية وحكمة العرب فى ألسنتهم وذلك لحلاوة ألسنتهم وعذوبة عباراتهم ثم حكم الله تعالى على الاعراب بحكم آخر بقوله تعالى (وأجدر) أى أحق وأولى (أن) أى بان (لايعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) من الاحكام والشرائع فرائضها وسننها (والله عليم) بما فى قلوب عباده (حكيم) فيما فرض من فرائضه وأحكامه (ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق) فى سبيل الله تعالى (مغرما) أى غرامة وخسرانا والغرامة ما ينفقه الرجل وليس يلزمه لانه لا ينفق الا تقية من المسلمين ورياء لا لوجه الله تعالى وابتغاء المثوبة عنده وهم أسد وغطفان (ويتربص) أى ينتظر (بكم الدوائر) أى دوائر الزمان أن ينقلب عليكم فيموت النبى صلى الله عليه وسلم ويظهر المشركون قال الله تعالى (عليهم دائرة السوء) دعاء عليهم معترض قال التفتازانى بين كلامين لافى أثناء كلام ولافى آخره دعا عليهم بنحو ما دعوا به قال الله تعالى وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم أى يدور عليهم البلاء والحزن ولا يرون فى محمد صلى الله عليه وسلم ودينه وأصحابه الا ما يسوءهم ويكيدهم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم السين والباقون بالفتح مصدر اضيف اليه للمبالغة كقولك رجل سوء فى نقيض قولك رجل صدق (والله سميع) لاقوالهم (عليم) بما تخفى ضمائرهم ولما بين سبحانه وتعالى انه حصل فى الاعراب من يتخذ انفاقه فى سبيل الله مغرما بين ان فيهم قوما مؤمنين صالحين مجاهدين يتخذ انفاقه فى سبيل الله مغنما بقوله تعالى (ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر) كبعض جهينة ومزينة فوصفهم الله تعالى بوصفين كونهم مؤمنين بالله واليوم الآخر والمقصود التنبيه على انه لابد فى جميع الطاعات من تقديم الايمان وفى الجهاد أيضا كذلك والثانى ماذكره بقوله تعالى (ويتخذ ما ينفق قربات) جمع قربة أى يقربه (عند الله) الذى لا أشرف من القرب عنده (و) وسيلة الى (صلوات) أى دعوات (الرسول) صلى الله عليه وسلم لانه كان يدعو للمصدقين عنده بالخير والبركة ويستغفر لهم كقوله صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل أبى أوفى قال تعالى وصل عليهم أى ادع لهم ولما كان ما ينفق سببا لذلك قيل يتخذ ما ينفق قربات وصلوات الرسول (الا انها) أى نفقاتهم (قربة لهم) عند الله وهذا شهادة من الله تعالى للمؤمن المتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقاته قربات عند الله وصلوات الرسول وقد أكد تعالى هذه الشهادة بحرف التنبيه وهو قوله تعالى الا وبحرف التحقيق وهو قوله تعالى انها ثم زاد فى التأكيد فقال تعالى (سيدخلهم الله فى رحمته) فان دخول السين توجب مزيد التأكيد وهذه النعمة هى أقصى مرادهم وقرأ ورش قربة برفع الراء والباقون بالسكون والاصل هو الضم والاسكان تخفيف (ان الله غفور) أى بليغ الستر لقبائح من تاب (رحيم) بهم * ولما ذكر تعالى فضائل الاعراب الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله وما أعد لهم من الثواب بين تعالى ان فوق منزلتهم منازل أعلى وأعظم منها

بقوله تعالى (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار) أما من المهاجرين فقال سعيد ابن المسيب هم الذين صلوا الى القبلتين وقال عطاء بن أبي رباح هم أهل بدر وقال الشعبي هم أهل بيعة الرضوان وقال محمد بن كعب هم جماهير الصحابة وقيل هم الذين أسلموا قبل الهجرة واختلف في أول الناس اسلاما وأول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض العلماء أول من أسلم بعد خديجة على بن ابى طالب وهذا قول جابر واختلفوا في سنه وقت اسلامه فقيل كان ابن عشر سنين وقيل أقل من ذلك وقيل أكثر وقيل كان بالغا والاكثرون على انه لم يكن بالغا وقت اسلامه وقال بعضهم أول من اسلم بعد خديجة أبو بكر الصديق وهذا قول ابن عباس وقال بعضهم أول من أسلم بعد خديجة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا قول عروة بن الزبير وكان اسحق بن ابراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الروايات فيقول أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان على ومن الموالى زيد ابن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهؤلاء أربعة سباق الخلق الى الاسلام وأما من الانصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وهي الاولى وكانوا ستة نفر ثم العقبة الثانية من العام المقبل وكانوا اثنى عشر رجلا ثم أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلا فهؤلاء سباق الانصار وقيل المراد بالسابقين الاولين من سبق الى الهجرة والنصرة ويدل على هذا انه تعالى ذكر كونهم سابقين ولم يبين لهم انهم سابقون فيماذا فبقي اللفظ مجملا فوجب صرف ذلك اللفظ الى ماقد صاروا به مهاجرين وانصارا وهو الهجرة والنصرة فوجب أن يكون المراد منه السابقين الاولين في الهجرة والنصرة ازالة للاجمال عن اللفظ وأيضا فان الهجرة طاعة عظيمة ومرتبة عالية ومنقبة شريفة لانهم نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وآووه وواسوه وآووا أصحابه وواسوهم فلذلك اثنى الله تعالى عليهم ومدحهم (والذين اتبعوهم) أى الفريقين الى يوم القيامه (باحسان) أى في اتباعهم فلم يحولوا عن شئ من طريقتهم وقال عطاء هم الذين يذكرون المهاجرين والانصار ويترحمون عليهم ويدعون لهم ويذكرون محاسنهم وقيل بقية المهاجرين والانصار سوى السابقين الاولين وعن أبي سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا مابلغ مد احدهم ولانصيفه والمد ربع الصاع والنصيف نصفه والمعنى لو أن أحدا عمل مهما قدر عليه من اعمال البر والانفاق في سبيل الله مابلغ هذا القدر الصغير من عمل الصحابة وانفاقهم لانهم أنفقوا وبذلوا المجهود في وقت الحاجة وعن عمران بن حصين ان النبي صلى الله عليه وسلم قال خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران فلا أدرى أذكر بعده قرنين أم ثلاثا والقرن الامة من الناس يقارن بعضهم بعضا واختلفوا في مدته من الزمان من عشرين الى عشرين سنة وقيل من مائة الى مائة وهذا هو المشهور وقيل من مائة الى مائة وعشرين سنة ثم جمعهم الله تعالى في الثواب فقال (رضى الله عنهم) فالسابقون مرتفع بالابتداء وخبره رضى الله عنهم أى بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم (ورضوا عنه) بما أفاض عليهم

من نعمه الجليلة فى الدنيا والآخرة (وأعد لهم جنات تجرى تحتها الانهار) أى هى كثيرة المياه فكل موضع أردته نبع منه ماء يجرى منه نهر وقرأ ابن كثير بزيادة من قبلها وبجر التاء بعدها والباقون بغير من وفتح التاء ثم نفى سبحانه الانقطاع بقوله تعالى (خالدين فيها) وأكد المراد من الخلود بقوله تعالى (أبدا) ثم استأنف مدح هذا الذى أعده لهم بقوله تعالى (ذلك) أى الامر العالى الرتبة (الفوز العظيم) ولما شرح تعالى أحوال منافقى المدينة ثم ذكر بعده أحوال منافقى الاعراب ثم بين ان فى الاعراب من هو مؤمن صالح مخلص ثم بين ان رؤساء المؤمنين من هم وهم السابقون والمهاجرون والانصار ذكر أن جماعة من حول المدينة موصوفون بالنفاق بقوله تعالى (وممن حولكم) أى أهل بلدتكم وهى المدينة (من الاعراب منافقون) وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها وقوله تعالى (ومن أهل المدينة) عطف على خبر المبتدا الذى هو ممن حولكم ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدا والخبر اذا قدرت ومن أهل المدينة قوم (مردوا على النفاق) على ان مردوا صفة موصوف محذوف كقول الشاعر

* أنا ابن جلا وطلاع الثنايا * أى انا ابن رجل جلا فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه وقال الزجاج فى الآية تقديم وتأخير والتقدير وممن حولكم من الاعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق أى ثبتوا واستمروا فيه ولم يتوبوا عنه وأصل المرود الملاسة ومنه صرح ممرد وغلام أمرد (لا تعلمهم) بأعيانهم أى يخفون عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق فراستك لفرط توقيهم ما يشكك فى أمرهم ثم هددهم وبين خسارتهم بقوله تعالى (نحن نعلمهم) أى لا يعلمهم الا الله تعالى ولا يطلع على سرهم غيره لانهم يبطنون الكفر فى سويداوات قلوبهم ابطانا ويبرزون لك ظاهرا كظاهر المخلصين من المؤمنين لا تشك معه فى ايمانهم وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروا به فلهم فيه اليد الطولى واختلفوا فى تفسير قوله تعالى (سنعذبهم مرتين) فقال الكلبى والسدى قام النبى صلى الله عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة فقال اخرج يا فلان فانك منافق اخرج يا فلان فانك منافق فأخرج من المسجد جماعة من المنافقين وفضحهم فهذا هو العذاب الاول والثانى عذاب القبر (فان قيل) كيف هذا مع قوله تعالى لا تعلمهم نحن نعلمهم (أجيب) بأنه تعالى أعلمه بهم بعد ذلك وقال مجاهد الاول القتل والسبى والثانى عذاب القبر وقال ابن زيد الاول المصائب فى الاولاد والثانى عذاب الآخرة وقال ابن عباس الاول اقامة الحدود عليهم والثانى عذاب القبر وقيل عذبوا بالجوع مرتين وقيل الاول ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم والثانى عذاب القبر وقيل الاول احراق مسجدهم مسجد الضرار والثانى احراقهم بنار جهنم كما قال تعالى (ثم يردون) أى فى الآخرة (الى عذاب عظيم) هو النار وقوله تعالى (وآخرون) أى وقوم آخرون مبتدا وقوله تعالى (اعترفوا بذنوبهم) ولم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة نعته والخبر (خلطوا عملا صالحا) أى وهو جهادهم قبل ذلك أو اعترافهم بذنوبهم أو غير ذلك (وآخر سيأ) أى وهو تخلفهم (عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم) يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه نزلت فى طائفة من المتخلفين عن غزوة

تبوك واختلف فى عددهم فعن ابن عباس انهم كانوا ثلاثة عشر وروى عنه انهم كانوا خمسة وقال سعيد بن جبير كانوا ثمانية وقيل كانوا ثلاثة ندموا لما بلغهم ما نزل بالمتخلفين وتابوا وقالوا نكون فى الظلال ومع النساء ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الجهاد واللأواء فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره وقرب من المدينة قالوا والله لنوثقن انفسنا بالسوارى فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقها و يعذرنا فربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد على عادته فى رجوعه من سفره فصلى ركعتين فرآهم فسأل عنهم فذكر له انهم أقسموا لا يحلوا انفسهم حتى تحلهم وترضى عنهم فقال وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر باطلاقهم رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين فأنزل الله تعالى هذه الآية فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم وأطلقهم وعذرهم فلما أطلقوا قالوا يا رسول الله هذه أموالنا وانما تخلفنا عنك بسببها خذها فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا فقال عليه الصلاة والسلام ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيأ فأنزل الله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم) من الذنوب أو حب المال المؤدى الى مثله وتجرى لهم مجرى الكفارة هذا قول الحسن كان يقول ليس المراد من هذه الآية الصدقة الواجبة وانما هى كفارة الذنب الذى صدر ويدل عليه انه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلث أموالهم وتصدق بها وابقى لهم الثلثين ولم يأخذ الجميع لان الله تعالى قال خذ من أموالهم والصدقة الواجبة لا يؤخذ فيها ثلث المال (وتزكيهم بها) أى وتنمى بها حسناتهم وترفعهم الى منازل المخلصين (وصل عليهم) أى واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم والسنة أن يدعو آخذ الصدقة لصاحب الصدقة اذا أخذها وعن الشافعى رضى الله عنه انه كان يقول أحب أن يقول الوالى عند أخذ الصدقة اجرك الله فيما أعطيت وجعله لك طهورا وبارك لك فيما أبقيت (ان صلاتك سكن لهم) أى تسكن اليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم لان روحه صلى الله عليه وسلم كانت روحا قوية مشرقة صافية باهرة فاذا دعا صلى الله عليه وسلم لهم وذكرهم بالخير فاضت آثار من قوة روحه الروحانية على أرواحهم فأشرقت بهذا السبب أرواحهم وصفت اسرارهم وانتقلوا من الظلمة الى النور ومن الجسمانية الى الروحانية فحصل لهم بذلك غاية الطمأنينة وقرأ حفص وحمزة والكسائى صلاتك بغير واو وبعد اللام ونصب التاء على التوحيد والباقون بالواو وكسر التاء على الجمع لتعدد المدعو لهم وقيل ان هذه الآية كلام مبتدأ والمقصود منها ايجاب أخذ الزكوات من الاغنياء وعليه أكثر الفقهاء اذ استدلوا بهذه الآية فى ايجاب الزكاة وقالوا فى الزكاة انها طهرة (والله سميع) لاقوالهم واعترافهم ودعائك لهم (عليم) بندامتهم ونياتهم ولما حكى سبحانه عن القوم الذين تقدم ذكرهم انهم تابوا عن ذنوبهم وانهم تصدقوا وهناك لم يذكر الا قوله عسى الله أن يتوب عليهم وما كان ذلك صريحا فى قبول التوبة ذكر بعد ذلك انه يقبل التوبة وانه سبحانه يأخذ الصدقات ترغيبا لمن لم يتب فى التوبة وترغيبا لكل العصاة فى الطاعة بقوله تعالى (ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ) أى يقبل (الصدقات) والضمير اما للمتوب

عليهم والمراد أن يمكن في قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقاتهم وأما لغيرهم والمراد به
التحضيض عليها والآية وان وردت بصيغة الاستفهام الا ان المراد بها التقرير في النفس ومن
عادة العرب في افهام المخاطب وازالة الشك عنه أن يقولوا أما علمت أن من علمك يجب عليك
خدمته أما علمت أن من أحسن اليك يجب عليك شكره فبشر الله تعالى هؤلاء التائبين بقبول
توبتهم وصدقاتهم ترغيبا في التوبة وبذل الصدقات وذلك انه لما نزلت توبة هؤلاء التائبين قال
الذين لم يتوبوا من المتخلفين هؤلاء كانوا معنا بالامس لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم اليوم فأنزل
الله تعالى هذه الآية ترغيبا في التوبة ثم زاد تأكيدا بقوله تعالى (وأن الله هو التواب الرحيم)
أي وان من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم وفي هذا تعظيم أمر الصدقات وتشريفها
وأن الله يقبلها من عبده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول ما من عبد مؤمن يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله الا طيبا ولا يصعد الى
السماء الا الطيب الا يضعها في يد الرحمن عز وجل فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه حتى ان اللقمة
لتأتي يوم القيامة وانها كمثل الجبل العظيم ثم قرأ أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ
الصدقات (وقل اعملوا) أي وقل لهم أو للناس يا محمد اعملوا ما شئتم (فسيرى الله عملكم) فانه
لا يخفى عليه شيء خيرا كان أو شرا ففيه ترغيب عظيم للمطيعين ووعيد عظيم للمذنبين فكأنه قال
اجتهدوا في العمل في المستقبل فان الله تعالى يرى أعمالكم ويجازيكم عليها (و) يرى أيضا (رسوله
والمؤمنون) أعمالكم أما رؤية النبي صلى الله عليه وسلم فباطلاع الله اياه على أعمالكم وأما رؤية
المؤمنين فبقذف الله تعالى في قلوبهم من محبة الصالحين وبغض المفسدين (وستردون الى عالم
الغيب والشهادة) أي وسترجعون يوم القيامة الى من يعلم سركم وعلانيتكم ولا يخفى عليه شيء
من أعمال بواطنكم وظواهركم (فينبئكم) أي فيخبركم (بما كنتم تعملون) من خير وشر
فيجازيكم على أعمالكم واعلم ان الله تعالى قسم المتخلفين عن الجهاد ثلاثة أقسام أولهم
المنافقون الذين مردوا على النفاق والثاني التائبون وهم المرادون بقوله تعالى وآخرون
اعترفوا بذنوبهم وبين انه تعالى قبل توبتهم والقسم الثالث الذين بقوا موقوفين وهم
المذكورون في قوله تعالى (وآخرون) أي من المتخلفين (مرجون) أي مؤخرون عن التوبة
وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي بغير همز بين الجيم والواو والباقون بهمزة مضمومة بين
الجيم والواو (لأمر الله) أي لحكم الله تعالى فيهم والفرق بين القسم الثاني وبين هذا ان أولئك
سارعوا الى التوبة وهؤلاء لم يسارعوا اليها قال ابن عباس نزلت هذه الآية في كعب بن مالك
ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وستأتي قصتهم عند قوله تعالى وعلى الثلاثة الذين خلفوا
تخلفوا كسلا وميلا الى الراحة لا نفاقا ولم يعتذروا الى النبي صلى الله عليه وسلم كغيرهم فوقف
أمرهم خمسين ليلة حتى نزلت توبتهم بعد (اما يعذبهم) بأن يميتهم من غير توبة (واما يتوب
عليهم) ان تابوا (فان قيل) كلمة اما واما للشك والله تعالى منزه عن ذلك (أجيب) بأن الترديد
بالنسبة للعباد أي ليكن أمرهم عندكم على هذا في الخوف والرجاء فان الله تعالى لا تخفى عليه

خافية وفى هذا دليل على ان كلا الامرين بارادة الله تعالى (والله عليم) باحوال عباده (حكيم) فيما يفعل بهم * ولما ذكر تعالى اصناف المنافقين وطرائقهم المختلفة قال تعالى (والذين اتخذوا مسجدا) قال ابن عباس رضى الله عنه وهم اثنا عشر رجلا من المنافقين بنوا مسجدا (ضرارا) أى مضارة لاخوانهم أصحاب مسجد قباء (وكفرا) أى وتقوية للنفاق وقال ابن عباس يريدون به ضرارا للمؤمنين وكفرا بالنبى صلى الله عليه وسلم وماجاء به وقال غيره اتخذوه ليكفروا فيه بالطعن على النبى صلى الله عليه وسلم والاسلام (وتفريقا بين المؤمنين) لانهم كانوا جميعا يصلون بمسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلى فيه بعضهم فيؤدى ذلك الى الاختلاف وافتراق الكلمة (وارصادا) أى ترقبا (لمن حارب الله ورسوله) وهو أبو عامر والد أبى حنظلة الذى غسلته الملائكة وكان قد ترهب فى الجاهلية وتنصر ولبس المسوح فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة عاداه لانه زالت رياسته وقال للنبى صلى الله عليه وسلم ماهذا الذى جئت به قال جئت بالحنيفية دين ابراهيم عليه السلام فقال له أبو عامر انا عليها فقال له النبى صلى الله عليه وسلم انك لست عليها فقال أبو عامر أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا غريبا فقال النبى صلى الله عليه وسلم آمين وسماه الفاسق فلما كان يوم أحد قال أبو عامر لا أجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم ولم يزل يقاتله الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن خرج الى الشام وأرسل الى المنافقين ان استعدوا بما استطعتم من القوة والسلاح وابنوا الى مسجدا فانى ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه فبنوا مسجد الضرار الى جنب مسجد قباء وانتظروا مجىء ابى عامر ليصلى بهم فى ذلك المسجد وقوله تعالى (من قبل) متعلق بحارب أى حارب من قبل أن يبنى مسجد الضرار أو باتخذوا أى اتخذوا من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف * ولما وصف تعالى هذا المسجد بهذه الصفات الاربعة قال تعالى (وليحلفن ان أردنا الا الحسنى) أى وليحلفن ما أردنا ببنائه الا الفعلة الحسنى وهى الرفق بالمسلمين فى التوسعة على أهل الضعف والعلة والعجز عن المصير الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك انهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطلة والليلة الشاتية (والله يشهد انهم لكاذبون) فى قولهم * (تنبيه) * قوله تعالى والذى اتخذوا محله نصب على الاختصاص كقوله تعالى والمقيمين الصلاة أو رفع على الابتداء والخبر محذوف أى وممن ذكرنا الذين * ولما بنى المنافقون ذلك المسجد للاغراض الفاسدة عند ذهاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى غزوة تبوك وقالوا يارسول الله بنينا مسجدا لذى العلة والليلة المطلة والليلة المطيرة والشاتية ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو لنا فيه بالبركة فقال صلى الله عليه وسلم انى على جناح سفر فى حال شغل واذا قدمنا ان شاء الله تعالى صلينا فيه فلما قفل أى رجع صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك سألوه اتيان المسجد نزل قوله تعالى (لا تقم فيه أبدا) قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه لا تصل فيه أبدا وقال الحسن هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذهب الى ذلك المسجد فنادى جبريل لا تقم فيه أبدا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن

السكن ووحشيا فقال لهم انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه فخرجوا جميعا مسرعا حتى أتوا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك انظروني حتى أخرج لكم بنار من أهلي فدخل الى أهله وأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فهدموه وأحرقوه وتفرق عنه أهله وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتخذ ذلك الموضع كناسة تلقى فيه الجيف والقمامة ومات أبو عامر الراهب بالشام وحيدا فريدا غريبا وقيل كل مسجد بني مباهاة ورياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله تعالى أو بمال غير طيب فهو ملحق بمسجد الضرار وعن عطاء لما فتح الله تعالى الامصار على عمر رضي الله تعالى عنه أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وان لا يتخذوا في مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه وقوله تعالى (لمسجد) اللام فيه للابتداء وقيل لام القسم تقديره والله لمسجد (أسس) أي وضع أساسه وقواعده (على التقوى) أي تقوى الله تعالى (من أول يوم) أي من أول أيام وجوده لان من تم الزمان والمكان أي فأحاطت به التقوى لانها اذا أحاطت بأوله أحاطت بآخره (أحق) أي أولى (أن) أي بأن (تقوم) أي تصلي (فيه) واختلف في هذا المسجد الذي أسس على التقوى فقيل هو مسجد المدينة قاله زيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري قال أبو سعيد رضي الله عنه دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت بعض نسائه فقلت يا رسول الله أي المسجد الذي أسس على التقوى قال فأخذ كفا من حصباء فضرب به الارض ثم قال هو مسجدكم هذا مسجد المدينة وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي وعن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قوائم منبري هذا رواتب في الجنة أي ثوابت وقيل هو مسجد قباء قاله سعيد بن جبير وقتادة أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهو يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة ويدل على هذا قوله تعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) أي من المعاصي والخصال المذمومة طلبا لمرضاة الله تعالى عليهم (والله يحب المطهرين) أي يثيبهم ويرضى عنهم ويدنيهم من جنابه ادناء المحب حبيبه روى انها لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فاذا الانصار جلوس فقال أمؤمنون أنتم فسكت القوم ثم أعادها فقال عمر يا رسول الله انهم لمؤمنون وأنا معهم فقال عليه الصلاة والسلام أترضون بالقضاء فقالوا نعم قال أتصبرون على البلاء قالوا نعم قال عليه الصلاة والسلام مؤمنون ورب الكعبة فجلس ثم قال يا معشر الانصار ان الله عز وجل قد أثنى عليكم فاذا الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط فقالوا يا رسول الله نتبع الغائط الاحجار الثلاثة ثم نتبع الاحجار الماء فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال يحبون أن يتطهروا وروى ابن خزيمة في صحيحه عن ابن ساعدة انه صلى الله عليه وسلم أتاهم في مسجد قباء فقال ان الله تعالى قد أحسن اليكم الثناء في الطهور وفي قصة مسجدكم فما الطهور الذي تطهرون به قالوا والله يا رسول الله ما نعلم شيأ الا انه كان لنا جيران من اليهود فكانوا

يغسلون

يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا وفي حديث رواه البزار فقالوا نتبع الحجارة بالماء فقال هو ذاك فعليكموه وقيل كانوا لا ينامون الليل على الجنابة ويتبعون الماء أثر البول وعن الحسن هو التطهر من الذنوب بالتوبة وقيل يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم فحموا عن آخرهم (أفمن أسس بنيانه) أي بنيان دينه (على تقوى من الله ورضوان) أي على قاعدة قوية محكمة وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه (خير أم من أسس بنيانه على شفا) أي طرف (جرف) أي جانب (هار) أي على قاعدة هي أضعف القواعد وأقلها بقاء وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شفا جرف هار أي مشرف على السقوط (فانهار به) أي سقط مع بانيه (في نار جهنم) خير وهذا تمثيل للبناء على ضد التقوى بما يؤول اليه والاستفهام للتقرير أي الاول خير وهو مثال مسجد قباء والثاني مثال مسجد الضرار قال الرازي ولا نرى في العالم مثالا أحسن مطابقة لامر المنافقين من هذا المثال وحاصل الكلام ان أحد البنائين قصد بانيه ببنائه تقوى الله تعالى ورضوانه والبناء الثاني قصد بانيه ببنائه المعصية والكفر فكان البناء الاول شريفا واجب الابقاء وكان الثاني خسيسا واجب الهدم * قيل حفرت بقعة في مسجد الضرار فرؤي الدخان يخرج منها وقرأ نافع وابن عامر أفمن أسس بضم الهمزة وكسر السين الاولى مع التشديد وضم النون قبل الهاء والباقون بفتح الهمزة والسين مع التشديد أيضا ونصب النون قبل الهاء وقرأ شعبة رضوان بضم الراء والباقون بالكسر ورسمت أم هنا مقطوعة من من والكلام على أسس بنيانه كالكلام على التي قبلها وقرأ ابن عامر وشعبة وحمزة جرف بسكون الراء والباقون بالرفع وأما نفاقالا تمال بخلاف هار فان أبا عمرو وشعبة والكسائي يقرؤنه بالامالة المحضة وابن ذكوان بالفتح والامالة وورش بالامالة بين بين والباقون بالفتح (والله لا يهدي القوم الظالمين) أي الى ما فيه صلاح ونجاة (لا يزال بنيانهم الذي بنوا) أي بناؤهم الذي بنوه وهو مصدر كالغفران والمراد هنا المبني واطلاق لفظ المصدر على المفعول مجاز مشهور يقال ضرب الامير ونسج زيد والمراد مضروبه ومنسوجه وليس بجمع خلافا للواحدي في تجويزه ان يكون جمع بنيانة لانه وصف بالمفرد وأخبر عنه بقوله (ريبة) أي شكا (في قلوبهم) والمعنى ان بناء ذلك البنيان صار سببا لحصول الريبة في قلوبهم فجعل نفس ذلك البنيان ريبة وانما جعل سببا للريبة لان المنافقين فرحوا ببناء مسجد الضرار فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه عظم خوفهم في كل الاوقات وصاروا مرتابين في أنهم هل يتركهم على ما هم فيه أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم وقال الكلبي صار حسرة وندامة لانهم ندموا على بنائه وقال السدي لا يزال هدم بنائهم ريبة أي حرارة وغيظا في قلوبهم (الا أن تقطع قلوبهم) قطعا اما بالسيف واما بالموت بحيث لا يبقى لهم قابلية الادراك وقيل التقطع بالتوبة ندما وأسفا (والله عليم) بأحوالهم وأحوال عباده (حكيم) في الاحوال التي يحكم بها عليهم وعلى غيرهم * ولما تقدم الانكار على المتثاقلين عن النفر في سبيل الله في قوله تعالى ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله الآية ثم الحزم بالجهاد بالنفس والمال في قوله تعالى انفروا خفافا وثقالا الآية ذكر فضيلة الجهاد وحقيقته بقوله تعالى (ان الله اشترى) أي بعهود أكيدة ومواثيق غليظة شديدة (من

المؤمنين) بالله ورسوله وبما جاء به من عند ربه (أنفسهم) التي تفرد بخلقها (وأموالهم) التي تفرد برزقها وهو على كهادونهم وقدم النفس اشارة الى أن المبايعة سابقة على اكتساب المال والمذكر البيع اتبعه الثمن بقوله تعالى (بأن لهم الجنة) مثل الله تعالى اثابتهم على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشراء وروى تاجرهم الله تعالى فأغلى لهم الثمن وعن عمر رضي الله عنه فجعل لهم الصفقتين جميعا وعن الحسن أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها وروى أن الانصار لما بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفسا قال عبد الله بن رواحة اشترط لربك ولنفسك ماشئت فقال اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيأ ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون به أنفسكم وأموالكم قالوا فاذا فعلنا ذلك فمالنا قال الجنة قالوا ربح البيع لانقيل ولا نستقيل فنزلت ومر اعرابي على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرؤها فقال الاعرابي كلام من قال عليه الصلاة والسلام كلام الله عز وجل فقال الاعرابي والله بيع مربح لانقيله ولا نستقيله فخرج الى الغزو فاستشهد وقال الحسن اسمعوا والله بيعة رابحة وكفة راجحة بايع الله تعالى بها كل مؤمن والله ما على الارض مؤمن الا وقد دخل في هذه البيعة والمراد بالاموال انفاقها في سبيل الله وعلى أنفسهم وأهليهم وعيالهم وفي جميع وجوه البر والطاعات وقوله تعالى (يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) استئناف بيان مالاجله الشراء وقيل يقاتلون في معنى الامر وقرأ حمزة والكسائي بتقديم المقتولين على القاتلين لان الواو لا تقتضي الترتيب ولان فعل البعض قد يسند الى الكل أي فيقتل بعضهم ويقاتل الباقي والباقون بتقديم القاتلين وقوله تعالى (وعدا عليه حقا) مصدران منصوبان بفعليهما المحذوفين ثم أخبر الله تعالى بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت (في التوراة) كتاب موسى عليه السلام (والانجيل) كتاب عيسى عليه السلام (والقرآن) أي قد أثبته فيهما كما أثبته في القرآن أي الكتاب الجامع لكل ماقبله (ومن أوفى بعهده من الله) أي لا أحد أوفى منه سبحانه لان الاخلاف لا تقدم عليه الكرام من الناس فكيف بخالقهم الذي له الغنى المطلق وقوله تعالى (فاستبشروا) فيه التفات عن الغيبة أي فافرحوا غاية الفرح (ببيعكم الذي بايعتم به) فانه أوجب لكم عظائم المطالب كما قال تعالى (وذلك هو الفوز العظيم) * (تنبيه) * هذه الآية مشتملة على أنواع من التأكيد أولها قوله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بكون المشتري هو الله تعالى المقدس عن الكذب والخيانة وذلك من أدل الدلائل على تأكيد هذا العهد ثانيها انه تعالى عبر عن ايصال هذا الثواب بالبيع والشراء وذلك حق مؤكد ثالثها قوله تعالى وعدا ووعد الله تعالى حق رابعها قوله تعالى عليه وكلمة على للوجوب خامسها قوله تعالى حقا وهو لتأكيد التحقيق سادسها قوله تعالى في التوراة والانجيل والقرآن وذلك يجري مجرى اشهاد جميع الكتب الالهية وجميع الانبياء والرسل على هذه المبايعة سابعها قوله تعالى ومن أوفى بعهده من الله وهو غاية في التأكيد ثامنها قوله تعالى فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وأيضا هو مبالغة في التأكيد تاسعها قوله تعالى وذلك هو الفوز وعاشرها قوله تعالى العظيم فثبت

اشتمال

اشتمال هذه الآية على هذه الوجوه العشرة فى التأكيد والتقرير والتحقيق * ولما ذكر تعالى فى هذه الآية انه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بين أن أولئك المؤمنين هم الموصوفون بهذه الصفات التسعة الآتية أولها قوله تعالى (التائبون) وهو مرفوع على المدح أى هم التائبون يعنى المذكورين فى قوله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين وقال الزجاج لا يبعد أن يكون قوله التائبون مبتدأ وخبره محذوف تقديره التائبون من أهل الجنة وان لم يجاهدوا لقوله تعالى وكلا وعد الله الحسنى أو خبره ما بعده أى التائبون عن الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال والتائبون صيغة عموم محلاة بالالف واللام فتتناول التوبة من كل معصية والتوبة انما تحصل عند أربعة أمور أولها احتراق القلب عند صدور المعصية ثانيها الندم على ما مضى ثالثها العزم على الترك فى المستقبل رابعها أن يكون الحامل له على هذه الامور الثلاثة طلب رضوان الله تعالى وعبوديته فان كان غرضه منها رفع مذمة الناس وتحصيل مدحهم أو لغرض من الاغراض الدنيوية فليس بتائب ولابد من رد المظالم الى أهلها ان كانت الصفة الثانية قوله تعالى (العابدون) أى الذين أخلصوا العبادة لله وقال الحسن هم الذين عبدوا الله فى السراء والضراء وقال قتادة قوم أخذوا من ابدانهم فى ليلهم ونهارهم الصفة الثالثة قوله تعالى (الحامدون) وهم الذين يقومون بحق شكر الله تعالى على نعمه دينا ودنيا ويجعلون اظهار ذلك عادة لهم وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء الصفة الرابعة قوله تعالى (السائحون) واختلف فى المراد منهم فقال ابن مسعود وابن عباس هم الصائمون قال ابن عباس رضى الله عنهما كل ما ذكر فى القرآن من السياحة فهو الصوم وقال صلى الله عليه وسلم سياح أمتى الصوم وعن الحسن أن هذا صوم الفرض وقيل هم الذين يديمون الصيام قال الازهرى قيل للصائم سائح لان الذى يسيح فى الارض متعبدا لازاد معه كان ممسكا عن الاكل والصائم ممسك عن الاكل فلهذه المشابهة يسمى الصائم سائحا وقال عطاء السائحون الغزاة فى سبيل الله تعالى وروى عن عثمان بن مظعون انه قال يا رسول الله ائذن لنا فى السياحة فقال ان سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله وقال عطاء السائحون هم طلاب العلم والسياحة أمر عظيم فى تكميل النفس لانه يلقى أفاضل مختلفين فيستفيد من كل واحد فائدة مخصوصة وقد يلقى الاكابر من الناس فيستحقر نفسه فى مقابلتهم وقد يصل الى المدارسة الكثيرة فينتفع بها وقد يشاهد اختلاف أحوال أهل الدنيا بسبب ما خلق الله تعالى فى كل طرف من الاحوال الخاصة بهم فتقوى معرفته وبالجملة فالسياحة لها أثر قوى فى الدين الصفة الخامسة والسادسة قوله تعالى (الراكعون الساجدون) أى المصلون وانما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لان بهما تميز المصلى عن غيره بخلاف حالة القيام والقعود لانهما حالة المصلى وغيره ولان القيام أول مراتب التواضع لله تعالى والركوع وسطها والسجود غايتها فخص الركوع والسجود بالذكر لدلالتهما على غاية التواضع والعبودية تنبيها على أن المقصود من الصلاة

نهاية الخضوع والتعظيم الصفة السابعة والثامنة قوله تعالى (الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) أى الآمرون بالايمان والطاعة والناهون عن الشرك والمعصية ودخول الواو فى والناهون عن المنكر للدلالة على أنه بما عطف عليه فى حكم خصلة واحدة فكأنه قال الجامعون بين الوصفين ولان العرب تعطف بالواو على السبعة ومنه قوله تعالى وثامنهم كلبهم وقوله تعالى فى صفة الجنة وفتحت أبوابها ايذانا بأن التعداد قد تم بالسابع من حيث ان السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه ولذلك تسمى واو الثمانية وقيل الموصوفون بهذه الصفات هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وعلى هذا يكون قوله تعالى التائبون الى قوله الساجدون مبتدأ خبره هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر الصفة التاسعة قوله تعالى (والحافظون لحدود الله) أى لاحكامه بالعمل بها والمقصود أن تكاليف الله تعالى كثيرة وهى محصورة فى نوعين أحدهما ما يتعلق بالعبادات والثانى ما يتعلق بالمعاملات (فان قيل) ما الحكمة فى أن الله تعالى ذكر تلك الصفات الثمانية على التفصيل ثم ذكر عقبها سائر أقسام التكاليف على سبيل الاجمال فى هذه الصفة التاسعة (أجيب) بأن التوبة والعبادة والاشتغال بتحميد الله والسياحة والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمور لا ينفك المكلف عنها فى أغلب أوقاته فلهذا ذكرها الله تعالى على سبيل التفصيل وأما البقية فقد ينفك المكلف عنها فى أكثر أوقاته مثل احكام البيع والشراء وأحكام الجنايات ودخل فى هذه الصفة التاسعة رعاية أحوال القلوب بل البحث عنها والمبالغة فى الكشف عن حقائقها أولى لان أعمال الجوارح انما تراد لاجل تحصيل أعمال القلوب ثم ذكر سبحانه وتعالى عقب هذه الصفات التسعة قوله تعالى (وبشر المؤمنين) تنبيها على أن البشارة فى قوله تعالى فاستبشروا لم تتناول الا المؤمنين الموصوفين بهذه الصفات التسعة وحذف تعالى المبشر به للتعظيم فكأنه قيل وبشرهم بما يجل عن احاطة الافهام وتعبير الكلام ❊ واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى) فقال سعيد بن المسيب عن أبيه انه نزل فى شأن أبى طالب وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء لعمه أبى طالب لما حضرته الوفاة فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أمية فقال أى عم قل لا اله الا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان عليه الى تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم أنا على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا اله الا الله فقال صلى الله عليه وسلم والله لاستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك فنزل ذلك وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه قل لا اله الا الله أشهد لك بها يوم القيامة قال لولا أن يعيرنى قريش يقولون انما حمله على ذلك الجزع لاقررت بها عينك فأنزل الله تعالى انك لا تهدى من أحببت الآية وقال بريدة لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف عليه حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له يستغفر لها فنزل ما كان للنبى

الآية

الآية وقال أبو هريرة زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه آمنة فبكى وأبكى من حوله وقال استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي واستأذنته ان أزورها فأذن لي فزوروا القبور فانها تذكر الموت وقال قتادة قال النبي صلى الله عليه وسلم لاستغفرن لابي كما استغفر ابراهيم لابيه فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه سمعت رجلا يستغفر لابويه وهما مشركان فقلت له تستغفر لهما وهما مشركان فقال استغفر ابراهيم عليه السلام لابيه وهو مشرك فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية وروى الطبراني باسناده عن قتادة قال ذكر لنا أن رجالا قالوا يانبي الله ان من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الرحم ويفك العاني أفلا نستغفر لهم فقال صلى الله عليه وسلم والله لأستغفرن لابي كما استغفر ابراهيم لابيه فأنزل الله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى (من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) أي بأن ماتوا على الكفر وقال البيضاوي وفيه دليل على جواز الاستغفار لاحيائهم فانه طلب توفيقهم للايمان وبه دفع النقض باستغفار ابراهيم عليه السلام لابيه الكافر فقال (وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه) أي وعدها ابراهيم أباه بقوله لاستغفرن لك أي لاطلبن مغفرة لك بالتوفيق للايمان فانه يجب أي يقطع ويمحو ما قبله وقرأ هشام ابراهام بالالف بعد الهاء في الموضعين والباقون بالياء فيهما (فلما تبين له أنه عدو لله) بأن مات على الكفر أو أوحى الله تعالى اليه أنه لن يؤمن (تبرأ منه) أي قطع استغفاره (ان ابراهيم لأواه) أي كثير التضرع والدعاء (حليم) أي صبور على الاذى والجملة لبيان ما حمله على الاستغفار لابيه مع صعوبة خلق أبيه عليه (وما كان الله ليضل قوما) أي يفعل بهم ما يفعل بالضالين من العقوبة لاجل ارتكابهم المنهي عنه (بعد اذ هداهم) للاسلام (حتى يبين لهم) بيانا شافيا الداء العمي (ما يتقون) أي ما يجب اتقاؤه للنهي أما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا بيع الصاع بالصاعين قبل التحريم وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهي عنه وقيل انه في قوم مضوا على الامر الاول في القبلة والخمر وغير ذلك وفي الجملة دليل على أن الغافل غير مكلف (ان الله بكل شيء عليم) أي بالغ العلم فهو يبين لكم ما تأتون وما تذرون مما يتوقف عليه الهدى وما تركه تعالى فانما يتركه رحمة لكم لا يضل ربي ولا ينسى (ان الله له ملك السموات والارض) فلا يخفى عليه شيء فهو خبير بكل ما ينفعكم أو يضركم (يحيي ويميت) أي يحيي من شاء على الايمان ويميته عليه ويحيي من شاء على الكفر ويميته عليه لا اعتراض لأحد عليه في حكمه وعبيده (وما لكم) أيها الناس (من دون الله) أي غيره (من ولي) يحفظكم منه (ولا نصير) يمنع عنكم ضرره (لقد تاب الله) أي أدام توبته (على النبي والمهاجرين والانصار) وافتتح الله تعالى الكلام بذكر توبة النبي صلى الله عليه وسلم لانه كان سبب توبتهم فذكره معهم كقوله تعالى فان لله خمسه وللرسول ونحوه وقيل هو بعث على التوبة والمعنى ما من أحد الا وهو محتاج الى التوبة حتى النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرون والانصار لقوله تعالى وتوبوا

الى الله جميعا اذ ما من أحد الا وله مقام يستنقص دونه ما هو فيه والترقي اليه توبة من تلك النقيصة واظهار لفضلها بأنها مقام الانبياء والصالحين من عباده *(فائدة)* اتفق القراء على ادغام دال قد في التاء (الذين اتبعوه في ساعة العسرة) أي في وقت العسرة لم يرد ساعة بعينها وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة والجيش يسمى جيش العسرة والعسرة الشدة فكانت عليهم عسرة في الظهر والزاد والماء قال الحسن كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يتعقبونه يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر يخرجون ما معهم الا التمرات اليسيرة بينهم فاذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه فيمصها ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى تأتي على آخرهم ولا يبقى من التمرة الا النواة فمضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم على صدقهم ويقينهم رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين ورضي عنا بهم آمين وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستقطع حتى ان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه ويشربه ويجعل ما بقي على كبده وحتى ان الرجل كان يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع فقال أبو بكر يا رسول الله ان الله تعالى قد عودك في الدعاء خيرا فادع الله تعالى قال أتحب ذلك قال نعم فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فلم يرجعها حتى أظلت السماء ثم سكبت فملأنا ما معنا ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر (من بعد ما كاد تزيغ) أي قرب أن تميل (قلوب فريق منهم) أي همّ بعضهم عند تلك العسرة العظيمة أن يفارق النبي صلى الله عليه وسلم لكنه صبر واحتسب ولم يرد الميل عن الدين فلذلك قال الله تعالى (ثم تاب عليهم) لما صبروا وثبتوا وندموا على ذلك الامر العسير (فان قيل) قد ذكر الله تعالى التوبة أولا ثم ذكرها ثانيا فما فائدة التكرار (أجيب) بأن الله تعالى ذكر التوبة أولا قبل ذكر الذنب تفضلا منه وتطييبا لقلوبهم ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى تعظيما لشأنهم وليعلموا أنه تعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم وقرأ حفص وحمزة يزيغ بالياء على التذكير لأن تأنيث القلوب غير حقيقي والباقون بالتاء على التأنيث وأدغم أبو عمرو الدال من كاد في التاء بخلاف عنه (انه بهم رؤف رحيم) هاتان صفتان لله تعالى ومعناهما متقارب فالرأفة عبارة عن السعي في ازالة الضر والرحمة عبارة عن السعي في ايصال المنفعة وقيل احداهما للرحمة السابقة والأخرى للمستقبلة وقوله تعالى (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) أي عن غزوة تبوك وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع معطوف على الآية الاولى والتقدير لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة وعلى الثلاثة الذين خلفوا وفائدة هذا العطف بيان قبول توبتهم وهذه الثلاثة كلهم من الانصار وهم المذكورون في قوله تعالى وآخرون مرجون لامر الله روى عن ابن شهاب الزهري قال أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال وكان أعلم قومه وأوعاهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت كعب

بقية أحكام الجهاد فعلى الأول يقال وما استقام لهم ان ينفروا جميعا نحو غزو وطلب علم كما لا يستقيم لهم ان ينبطوا جميعا فانه يخل بأمر المعاش (فلولا) أى فهلا (نفر من كل فرقة) أى قبيلة (منهم طائفة) أى جماعة ومكث الباقون (ليتفقهوا) أى ليتكلفوا الفقاهة (فى الدين) ويتجشموا المشاق فى تحصيلها ليعرفوا الحلال من الحرام ويعودوا الى أوطانهم (ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم) أى وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة ارشاد القوم وانذارهم وتخصيصه بالذكر لانه أهم وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية وأنه ينبغى أن يكون غرض المتكلم فيه أن يستقيم ويقيم لا الترفع على الناس وصرف وجوههم اليه والتبسط فى البلاد ليدخل فى قوله صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وفى قوله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم وفى قوله صلى الله عليه وسلم من سلك طريقا يلتمس فيها علما سهل الله تعالى له طريقا الى الجنة (لعلهم يحذرون) عقاب الله تعالى بامتثال أمره ونهيه وعلى الاحتمال الثانى يقال انه لما نزل فى المتخلفين ما نزل سبق المؤمنون الى النفير وانقطعوا عن التفقه فأمروا بأن ينفر من كل فرقة طائفة الى الجهاد ويمكث الباقون يتفقهون حتى لا ينقطع التفقه الذى هو الجهاد الاكبر لان الجدال بالحجة هو الاصل والمقصود من البعثة فيكون الضمير فى ليتفقهوا ولينذروا للبواقى الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو وفى رجعوا للطوائف ولينذر والباقى قومهم النافرين اذا رجعوا اليهم بما حصلوا أيام غيبتهم من العلوم قال ابن عباس فهذه مخصوصة بالسرايا والتى قبلها بالنهى عن تخلف أحد فيما اذا خرج النبى صلى الله عليه وسلم (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) أمروا بقتال الاقرب منهم فالاقرب كما أمر صلى الله عليه وسلم أولا بانذار عشيرته الاقربين وقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ثم غيرهم من عرب الحجاز ثم غزا الشأم وقيل هم قريظة والنضير وفدك وخيبر وقيل الروم لانهم كانوا يسكنون الشأم والشأم أقرب الى المدينة من العراق وغيره وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ما لم يضطروا الى أهل ناحية أخرى (وليجدوا فيكم غلظة) أى شدة وصبرا على القتال والغلظة ضد الرقة أى اغلظوا عليهم (واعلموا أن الله مع المتقين) بالعون والنصرة والحراسة (واذا ما أنزلت سورة) من القرآن (فمنهم) أى المنافقين (من يقول) أى لاصحابه انكارا واستهزاء بالمؤمنين (أيكم زادته هذه) السورة (ايمانا) أى تصديقا قال الله تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا) بزيادة العلم الحاصل فى تدبر السورة وانضمام الايمان بها وبما فيها الى ايمانهم (وهم يستبشرون) أى يفرحون بنزولها لانه سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم (وأما الذين فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق سمى الشك فى الدين مرضا لانه فساد فى القلب يحتاج الى علاج كالمرض فى البدن اذا حصل يحتاج الى العلاج (فزادتهم) أى السورة أى نزولها (رجسا الى رجسهم) أى كفرا بها مضموما الى الكفر بغيرها (وماتوا) أى هؤلاء المنافقون (وهم كافرون) أى وهم جاحدون لما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم

قال مجاهد في هذه الآية دليل على أن الايمان يزيد وينقص وكان علي رضي الله تعالى عنه
يأخذ بيد الرجل والرجلين من الصحابة ويقول تعالوا حتى نزداد ايمانا وقوله تعالى (أولا يرون)
قرأه حمزة بالتاء أي أيها المؤمنون والباقون بالياء على الغيبة أي المنافقون (أنهم يفتنون) أي
يبتلون (في كل عام مرة أو مرتين) بالامراض والقحط والحرب (ثم لا يتوبون) من نفاقهم ونقض
عهودهم الى الله تعالى (ولا هم يذكرون) أي ولا يتعظون بما يرون من نصرته صلى الله عليه وسلم
وتأييده (واذا ما أنزلت سورة) فيها عيب المنافقين وتوبيخهم وقرأها صلى الله عليه وسلم (نظر
بعضهم الى بعض) أي تغامزوا بالعيون انكارا لها وسخرية أو غيظا لما فيها من عيوبهم
ويريدون الهرب يقولون (هل يراكم من أحد) أي من المؤمنين اذا قمتم فان لم يرهم أحد قاموا
وخرجوا من المسجد وان علموا ان أحدا يراهم ثبتوا على تلك الحالة (ثم انصرفوا) على كفرهم
ونفاقهم وقيل انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها ما يكرهون وقوله تعالى (صرف الله
قلوبهم) أي عن الهدى يحتمل الاخبار والدعاء (بأنهم) أي بسبب أنهم (قوم لا يفقهون)
أي لسوء فهمهم وعدم تدبرهم (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أي من جنسكم عربي مثلكم وهو
محمد صلى الله عليه وسلم تعرفون حسبه ونسبه قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ليس قبيلة من
العرب الا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم ولهم فيها نسب وقال جعفر بن محمد الصادق لم يصبه
شيء من ولادة الجاهلية من زمن آدم عليه السلام وعن الطبراني قال صلى الله عليه وسلم اني
خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ما ولدني من سفاح أهل الجاهلية شيء ما ولدني الا نكاح كنكاح الاسلام وعن واثلة بن الاسقع
قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله اصطفى كنانة من ولد اسمعيل واصطفى قريشا
من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي
بادغام دال قد في الجيم والباقون بالاظهار (عزيز) أي شديد شاق (عليه ما عنتم) أي عنتكم
واياكم المكروه وقيل يشق عليه ضلالتكم (حريص عليكم) أي ان تهتدوا أو على ايصال الخير
اليكم (بالمؤمنين) أي منكم ومن غيركم (رؤف) أي شديد الرحمة بالطائعين (رحيم) بالمذنبين
وقدم الابلغ وهو الرؤف محافظة على الفواصل وعن الحسين بن الفضل لم يجمع الله تعالى لاحد
من الانبياء بين اسمين من أسمائه الا لنبينا صلى الله عليه وسلم فسماه رؤفا رحيما وقال تعالى
ان الله بالناس لرؤف رحيم وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بمد الهمزة من رؤف
والباقون بالقصر (فان تولوا) أي فان أعرضوا هؤلاء الكفار والمنافقون عن الايمان بالله
ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وناصبوك الحرب (فقل حسبي الله) أي يكفيني الله وينصرني
عليكم وانما كان كافيا لانه (لا اله الا هو) فلا مكافئ له ولا راد لامره ولا معقب لحكمه (عليه
توكلت) أي فلا أرجو الا اياه ولا أخاف الا منه لان أمره نافذ في كل شيء (وهو رب العرش) أي
الكرسي (العظيم) وخصه بالذكر تشريفا له ولانه من أعظم مخلوقاته سبحانه وتعالى روى عن
أبي بن كعب قال آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم الى آخر

السورة وقال هو ما أحدث الآيات بالله عهدا وما رواه البيضاوي رحمه
الله تعالى تبعا للكشاف من أنه صلى الله عليه وسلم قال ما أنزل على
القرآن إلا آية آية وحرفا حرفا ما خلا سورة براءة وقل هو الله
أحد فإنهما أنزلا علي ومعهما سبعون ألف صف
من الملائكة حديث منكر ويخالف ما مر عن
أبي من أن آخر ما نزل الآيتان
انتهى والله سبحانه
وتعالى اعلم

●(تم الجزء الاول ويليه الجزء الثاني وأوله سورة يونس)●

فهرسة الجزء الاول من تفسير الخطيب الشربيني

سورة فاتحة الكتاب	سورة البقرة	سورة آل عمران	سورة النساء
٣	١٤	١٩٣	٢٧٨
سورة المائدة	سورة الانعام	سورة الاعراف	سورة الانفال
٣٥٠	٤٠٨	٤٦٢	٥٥١
	سورة التوبة		
	٥٨٦		

الجزء الثاني من السراج المنير في الاعانة على معرفة
بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للشيخ
الامام الخطيب الشربيني قدس الله
روحه ونعم بالرحمة
ضريحه
آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة يونس عليه السلام مكية)

الا فان كنت فى شك الا آيتين أو الثلاث أو ومنهم من يؤمن به الا آية مائة وتسع أو عشر آيات وعدد كلماتها ألف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة وحروفها سبعة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون حرفا وهى أول المئين ان جعلنا براءة مع الانفال من الطوال والا فبراءة أولاهن (بسم الله) جامع العباد بعد تفريقهم بماله من العظمة والامتنان (الرحمن) الذى عمهم بالايجاد وخص منهم من شاء بالايمان (الرحيم) الذى خص أولياءه بالرضوان المبيح للجنان (الر) قال ابن عباس والضحاك الر أنا الله أرى والمر أنا الله أعلم وأرى وقيل أنا الرب لا رب غيرى وقال سعيد بن جبير الر وحم ونون حروف اسم الرحمن وقد سبق الكلام على حروف الهجاء أول البقرة واتفقوا على أنّ الر وحده ليس آية واتفقوا على أنّ قوله طه وحده آية والفرق أنّ قوله تعالى الر لا يشاكل مقاطع الآى التى بعده بخلاف قوله تعالى طه فانه يشاكل مقاطع الآى التى بعده وقرأ قالون وابن كثير وحفص بفتح الراء والالف بعدها وورش بين اللفظين والباقون بالامالة المحضة (تلك) أى الآيات العظيمة جدا التى اشتملت عليها هذه السورة أو السورة التى تقدّمت هذه السورة أو هذه الحروف المقطعة المشيرة الى أنّ القرآن كلام الله تعالى قد أعجز القادرين على التلفظ بهذه الاحرف (آيات الكتاب) أى الذكر الجامع لكل خير وهو هذا القرآن الذى وافق كل ما فيه من القصص كل ما فى التوراة والانجيل من ذلك فدل ذلك على صدق الآتى به قطعا لانه لم يكن يعرف شيأ من الكتابين ولا جالس أحدا يعلمه (الحكيم)

أى المحكم وقوله تعالى (أكان للناس) أى أهل مكة استفهام انكار للتعجب وقوله تعالى (عجبا) خبر كان والعجب تغير النفس بما لا تعرف سببه مما خرج عن العادة ثم ذكر الحامل على العجب وهو اسم كان بقوله تعالى (أن أوحينا) أى ايحاؤنا (الى رجل منهم) أى من أهل مكة ومن قريش وهو محمد صلى الله عليه وسلم يعرفون صدقه ونسبه وأمانته قيل كانوا يقولون العجب ان الله تعالى لم يجد رسولا يرسله الى الناس الا يتيم أبى طالب وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم على الامور العاجلة وجهلهم بحقيقة الوحى والنبوة وهو لم يكن صلى الله عليه وسلم يقصر عن عظمائهم فيما يعتبر فيه الا فى المال وخفة المال أهون شئ فى هذا الباب ولذلك كان أكثر الانبياء عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك وقد قال تعالى وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى (أن أنذر الناس) عامة أى أعلمهم مع التخويف ما أمامهم من البعث وغيره وأن هى المفسرة لان الايحاء فيه معنى القول (وبشر الذين آمنوا) انما عمهم فى الانذار لانه قل أن يسلم أحد من كبيرة أو صغيرة أو هفوة جليلة أو حقيرة على اختلاف الرتب وتباين المقامات وخص البشارة اذ ليس للكافر ما يصح أن يبشر به (أن) أى بأن (لهم قدم) أى سلف (صدق عند ربهم) اختلفت عبارات المفسرين وأهل اللغة فى معنى قدم صدق فقال ابن عباس أجرا حسنا بما قدموا من أعمالهم وقال مجاهد الاعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم وقال الحسن عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه وقال عطاء مقام صدق لا زوال له ولا بؤس فيه وقال زيد بن أسلم هو شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وأضيف القدم الى الصدق وهو نعته كقولهم مسجد الجامع وصلاة الاولى وحب الحصيد وقال أبو عبيدة كل سابق فى خير أو شر فهو عند العرب قدم قال الشاعر

صل لذى العرش واتخذ قدما * ينجيك يوم العثار والندم

وهو مؤنث فيقال قدم حسنة وقدم صالحة وقوله تعالى (قال الكافرون ان هذا لسحر مبين) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر بكسر السين وسكون الحاء على أن الاشارة للقرآن المشتمل على ذلك والباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء على أن الاشارة للنبى صلى الله عليه وسلم (ان ربكم) الموجد لكم والمربى والمحسن هو (الله الذى خلق) أى قدر وأوجد (السموات والارض) على اتساعهما وكثرة ما فيهما من المنافع (فى ستة أيام) من أيام الدنيا أى فى قدرها لانه لم يكن ثم شمس ولو شاء لخلقهما فى لمحة والعدول عنه لتعليم خلقه التثبت (فان قيل) ان اليوم قد يراد به اليوم مع ليلته وقد يراد به النهار وحده فما المراد (أجيب) بأن الغالب فى اللغة أنه مراد باليوم اليوم بليلته ولما أوجد سبحانه وتعالى هذا الخلق الكبير المتباعد الاقطار الواسع الانتشار المفتقر الى عظيم التدبير ولطيف التصريف والتقدير عبر سبحانه وتعالى عن عمله فيه عمل الملوك فى ممالكهم بقوله مشيرا الى عظمته بأداة التراخى (ثم استوى) أى عمل فى تدبيره واتقان ما فيه واحكامه عمل المعتنى بذلك (على العرش) المتقدم وصفه فى الاعراف بالعظمة وليست ثم للترتيب بل كناية عن علو الرتبة وبعد منازلها ثم بين ذلك الاستواء بقوله (يدبر

(الامر) كله فلا يخفى عليه عاقبة أمر من الامور لان التدبير اعدل أحوال الملك فالاستواء كناية عنه وقوله تعالى (ما من شفيع الا من بعد اذنه) تقرير لعظمته جل وعلا ورد على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله وفيه اثبات الشفاعة لمن أذن له (ذلكم الله) أى الموصوف بتلك الصفات المقتضية للالوهية والربوبية (ربكم) أى الذى يستحق العبادة منكم (فاعبدوه) أى وحدوه ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو انسان فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع فان عبادتكم مع الشريك ليست عبادة ولولا فضله لم يكن لمن زل أدنى زلة طاعة وقوله تعالى (أفلا تذكرون) قرأه حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التاء فى الاصل فى الذال أى فلا تتفكرون أدنى تفكر فينبئكم عن أنه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه (اليه) تعالى (مرجعكم) أى رجوعكم بالموت والنشور حالة كونكم (جميعا) لا يتخلف منكم أحد فاستعدوا للقائه وقوله تعالى (وعد الله) مصدر منصوب بفعله المقدر مؤكد لنفسه لان قوله تعالى اليه مرجعكم وعد من الله وقوله تعالى (حقا) أى صدقا لا خلف فيه مصدر آخر منصوب بفعله المقدر مؤكد لغيره وهو ما دل عليه وعد الله (انه يبدأ الخلق) أى يحييهم ابتداء (ثم يعيده) أى ثم يميتهم ثم يحييهم وفى هذا دليل على الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ورد على منكرى البعث ووقوعه لان القادر على خلق هذه الاجسام المؤلفة والاعضاء المركبة على غير مثال سبق قادر على اعادتها بعد تفريقها بالموت والبلى فيركب تلك الاجزاء المتفرقة تركيبا ثانيا ويخلق الانسان الاول مرة أخرى فاذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه ايصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصى وهو قوله تعالى (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) أى بالعدل لا ينقص من أجورهم شيأ (والذين كفروا لهم شراب من حميم) وهو ماء حار قد انتهى حره (وعذاب أليم) أى بالغ فى الايلام (بما كانوا يكفرون) أى بسبب كفرهم (هو الذى جعل الشمس ضياء) أى ذات ضياء (والقمر نورا) أى ذا نور وخص الشمس بالضياء لانه أقوى وآكد من النور وخص القمر بالنور لانه أضعف من الضياء لان الشمس نيرة فى ذاتها والقمر نير بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها وقرأ قنبل بهمزة مفتوحة ممدودة بعد الضاد والباقون بياء مفتوحة والضمير فى قوله تعالى (وقدره منازل) يرجع الى الشمس والقمر أى قدر مسير كل واحد منهما منازل أو قدره ذا منازل أو يرجع الى القمر فقط وتخصيصه بالذكر لسرعة مسيره ومعاينة منازله واناطة أحكام الشرع به ولذلك علله بقوله تعالى (لتعلموا عدد السنين والحساب) أى حساب الاوقات من الاشهر والايام فى معاملاتكم وتصرفاتكم لان الشهور المعتبرة فى الشريعة مبنية على رؤية الاهلة والسنة المعتبرة فى الشريعة هى السنة القمرية كما قال تعالى ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله * (فائدة) * منازل القمر ثمانية وعشرون منزلا وأسماؤها الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعوا والسماك والغفر والزبانى والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة

وسعد

وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية وفرغ الدلو المقدم وفرغ الدلو المؤخر وبطن الحوت وهذه المنازل مقسومة على البروج وهى اثناعشر برجا الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت فلكل برج منزلان وثلث فينزل القمر فى كل ليلة منها منزلا فيستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين وان كان تسعا وعشرين فليلة واحدة فيكون انقضاء الشهر مع نزوله تلك المنازل ويكون مقام الشمس فى كل منزلة ثلاثة عشر يوما فيكون انقضاء السنة مع انقضائها وانتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر عظيم فالشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وبحركة الشمس تنفصل السنة الى هذه الفصول الاربعة وبالفصول الاربعة تنتظم مصالح هذا العالم وبسبب الحركة اليومية يحصل النهار والليل والنهار يكون زمانا للتكسب والطلب والليل يكون زمانا للراحة (ما خلق الله ذلك) المذكور (الا بالحق) أى لم يخلق ذلك باطلا ولا عبثا تعالى الله عن ذلك اظهارا لقدرته ودلائل وحدانيته ونظيره قوله تعالى فى آل عمران ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا وقال تعالى فى سورة أخرى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا (يفصل) أى يبين (الآيات) أى الدلائل الباهرة واحدة فى اثر واحدة بيانا شافيا (لقوم يعلمون) فانهم المنتفعون بالتأمل فيها وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بالياء والباقون بالنون * ولما استدل سبحانه وتعالى على اثبات الالهية والتوحيد بقوله تعالى ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض وثانيا بأحوال الشمس والقمر استدل ثالثا بقوله تعالى (ان فى اختلاف الليل والنهار) أى بالمجىء والذهاب والزيادة والنقصان ورابعا بقوله تعالى (وما خلق الله فى السموات) من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك (و) ما خلق الله فى (الارض) من حيوان وجبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك *(فائدة)* أقسام الحوادث فى هذا العالم محصورة فى أربعة أقسام أحدها الاحوال الحادثة فى العناصر الاربعة ويدخل فيها أحوال الرعد والبرق والسحاب والامطار ويدخل فيها أيضا أحوال البحار والصواعق والزلازل والخسف وثانيها أحوال المعادن وهى عجيبة كثيرة وثالثها اختلاف أحوال النبات ورابعها اختلاف أحوال الحيوانات وجملة هذه الاقسام الاربعة داخلة فى قوله تعالى وما خلق الله فى السموات والاستقصاء فى شرح هذه الاحوال لا يدخل تحت الحصر بل كل ما ذكر العقلاء فى أحوال أقسام هذا العالم فهو جزء مختصر من هذا الباب (لآيات) أى دلالات على قدرته تعالى (لقوم يتقون) الله فانه يحملهم على التفكر والتذكر وخصهم بالذكر لانهم المنتفعون بها قال القفال من تدبر فى هذه الاحوال علم أن الدنيا مخلوقة لشقاء الناس فيها وان خالقها وخالقهم ما أهملهم بل جعلها لهم دار عمل واذا كان كذلك فلا بد من أمر ونهى ثم من ثواب وعقاب ليتميز المحسن عن المسىء فهذه الاحوال فى الحقيقة دالة على صحة القول باثبات المبدا واثبات المعاد * ولما أقام الله سبحانه وتعالى الدلائل القاهرة على صحة القول باثبات الاله الرحمن وعلى صحة القول باثبات الاله الرحيم الحكيم

وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر شرع فى شرح أحوال من يكفر بها وشرح أحوال من يؤمن بها وقد ابتدأ بأولها ووصفه بأربع صفات مبتدئا بأولها بقوله تعالى (ان الذين لا يرجون لقاءنا) أى لا يخافونه لانكارهم البعث وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها فهم مكذبون بالثواب والعقاب والرجاء يكون بمعنى الخوف وبمعنى الطمع فمن الاول قول العرب فلان لا يرجو فلانا بمعنى لا يخافه ومنه قوله تعالى مالكم لا ترجون لله وقارا ومنه قول أبى ذؤيب الهذلى * اذا لسعته النحل لم يرج لسعها * أى لم يخفها ومن الثانى قولهم فلان يرجو فلانا أى يطمع فيه والمعنى لا يطمعون فى ثوابنا والصفة الثانية والثالثة قوله تعالى (ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) فيعملون لها عمل المقيم فيها مع ما يشاهدونه من سرعة زوالها منهمكين فى لذاتها وزخارفها وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها والصفة الرابعة قوله تعالى (والذين هم عن آياتنا) أى دلائل وحدانيتنا (غافلون) تاركون النظر فيها بمنزلة الغافل عن الشئ الذى لا يخطر بباله طول عمره ذكر ذلك الشئ وبالجملة فهذه الصفات الاربعة دالة على شدة بعدهم عن طلب الاستعداد بالسعادات الاخروية ويحتمل أن الصفة الاخيرة لفريق آخر ويكون المراد بالاولين من أنكر البعث ولم يرد الا الحياة الدنيا وبالآخر من ألهاه حب العاجل عن التأمل فى الآجل والاعداد له ولما وصفهم الله تعالى بتلك الصفات قال (أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) من الشرك والمعاصى ولما شرح أحوال المنكرين الجاحدين ذكر تعالى شرح من يؤمن بها فقال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) والاعمال الصالحة عبارة عن الاعمال التى تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة والاعمال المذمومة ما يكون بالضد من ذلك (يهديهم) أى يرشدهم (ربهم بايمانهم) أى بسبب ايمانهم الى سلوك سبيل يؤدى الى الجنة أو لما يريدونه فى الجنة أو لادراك الحقائق كما قال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم وقال مجاهد المؤمنون يكون لهم نور يمشى بهم الى الجنة وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان المؤمن اذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة حسنة فيقول أنا عملك فيكون له نورا وقائدا الى الجنة والكافر اذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة سيئة فيقول أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار ومفهوم ترتب الهداية على الايمان والعمل الصالح قد دل على أن سبب الهداية هو الايمان والعمل الصالح لكن دل منطوق قوله جل وعلا بايمانهم على استقلال الايمان بالسببية وان العمل الصالح كالتتمة والرديف ثم انه تعالى لما وصفهم بالايمان والاعمال الصالحة ذكر بعد ذلك درجات كراماتهم ومراتب سعاداتهم وهى أربعة الاولى قوله تعالى (تجرى من تحتهم الانهار فى جنات النعيم) أى يكونون جالسين على سرر مرفوعة فى البساتين والانهار تجرى من بين أيديهم ينظرون اليها من أعالى أسرتهم وقصورهم ونظيره قوله تعالى قد جعل ربك تحتك سريا فهى ما كانت قاعدة عليه ولكن المعنى بين يديك وكذا قوله وهذه الانهار تجرى من تحتى أى بين يدى فكذا هنا الثانية قوله تعالى (دعواهم فيها) قال بعض المفسرين أى طلبهم لما يشتهون فى الجنة أن يقولوا (سبحانك) أى تنزهك من كل سوء ونقيصة (اللهم) أى يا الله فاذا ما طلبوا

بين أيديهم على موائد كل مائدة ميل في ميل على كل مائدة سبعون ألف صحفة في كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضا فاذا فرغوا من الطعام حمدوا الله تعالى فذلك قوله تعالى وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين أو أن المراد بقوله سبحانك اللهم اشتغال أهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله تعالى والثناء عليه بما هو أهله وفي هذا الذكر سرورهم وابتهاجهم وكمال لذاتهم وهذا أولى ويدل عليه ما روى عن جابر رضي الله تعالى عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون قالوا فما بال الطعام قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس أي يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقا الثالثة قوله تعالى (وتحيتهم) فيما بينهم وتحية الملائكة لهم (فيها) أي الجنة (سلام) وتأتيهم الملائكة أيضا من عند ربهم بالسلام قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم وقال تعالى سلام قولا من رب رحيم الرابعة قوله تعالى (وآخر دعواهم) أي وآخر دعائهم (أن الحمد لله رب العالمين) أي أن يقولوا ذلك وأن هي المخففة من الثقيلة وقد ذكرنا أن بعض المفسرين حمل التسبيح والتحميد على أحوال أهل الجنة بسبب المأكول والمشروب فانهم اذا اشتهوا شيأ قالوا سبحانك اللهم فيحصل ذلك الشيء فاذا فرغوا منه قالوا الحمد لله رب العالمين فترتفع الموائد عند ذلك قال الرازي وهذا القائل ما رقى نظره في دنياه وأخراه عن المأكول والمشروب وحقيق بمثل هذا الانسان أن يعد في زمرة البهائم وأما المحققون فقد تركوا ذلك اه ولا ينبغي هذه المبالغة فقد قاله البغوي وتبعه جماعة من المفسرين وقال الزجاج أعلم الله ان أهل الجنة يفتتحون بتعظيم الله تعالى وتنزيهه ويختمون بشكره والثناء عليه قال البيضاوي المعنى انهم اذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات أو الله تعالى فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الاكرام ولما وصف الله تعالى الكفار بأنهم لا يرجون لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وكانوا عن آيات الله غافلين بين ان من غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب جهلا منهم وسفها بقوله تعالى (ولو يعجل الله للناس الشر) أي ولو يعجل الله للناس اجابة دعائهم بالشر فيما لهم فيه مضرة ومكروه (استعجالهم بالخير) أي كما يحبون أن يعجل لهم اجابتهم بالخير (لقضى اليهم أجلهم) أي لأهلكهم ولكن يمهلهم نزلت في النضر بن الحرث حين قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ويدل عليه قوله تعالى (فنذر) أي فنترك (الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم) أي في تمردهم وعتوهم (يعمهون) أي يترددون متحيرين وقال ابن عباس هذا في قول الرجل عند الغضب لأهله وولده لعنكم الله لا بارك الله فيكم وقال قتادة هو دعاء الرجل على نفسه وأهله وماله بما يكره ان يستجاب له فيه وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم اني أتخذ عندك عهدا لن تخلفنيه انما أنا بشر فأي المؤمنين اذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها اليك يوم

القيامة (فان قيل) قابل التعجيل فى الآية بالاستعجال وكان مقتضى النظم أن يقابل التعجيل بالتعجيل والاستعجال بالاستعجال أجيب بأن تقديرالكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالا كاستعجالهم بالخير فحذف منه ما حذف لدلالة الباقى عليه وقال فى الكشاف أصل هذا الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم بالخير الا أنه وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم بالخير اشعارا بسرعة اجابته لهم واسعافه بطلبتهم حتى كان استعجالهم بالخير تعجيل لهم * ولما حكى تعالى عنهم انهم يستعجلون فى نزول العذاب بين انهم كاذبون فى ذلك الطلب والاستعجال بقوله تعالى (واذا مس الانسان) أى الكافر (الضر) أى المرض والفقر (دعانا لجنبه) أى على جنبه مضطجعا (او قاعدا أو قائما) وفائدة الترديد تعميم الدعاء لجميع الاحوال أو لاصناف المضار والمعنى أنه لو نزل بالانسان أدنى شئ يكرهه ويؤذيه فانه يتضرع الى الله تعالى فى ازالته عنه وفى دفعه عنه وذلك يدل على أنه ليس صادقا فى طلب الاستعجال (فلما كشفنا عنه ضره) أى أزلناعنه ما نزل به (مر) أى مضى على ما كان عليه من الكفر (كان لم يدعنا) أى كأنه فأسقط الضمير على سبيل التخفيف ونظيره قوله تعالى كأن لم يلبثوا (الى ضر مسه) قال الحسن نسى ما كان دعا الله فيه وما صنع الله به فى ازالة ذلك البلاء عنه وانما حمل الانسان فى هذه الآية على الكافر لان العمل المذكور لا يليق بالمسلم البتة وقول بعضهم كل موضع فى القرآن ورد فيه ذكر الانسان فالمراد هو الكافر مردود فقد قال تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه وأما المؤمن اذا ابتلى ببلية ومحنة وجب عليه رعاية أمور أولها أن يكون راضيا بقضاء الله تعالى غير معترض بالقلب واللسان عليه وانما وجب عليه ذلك لانه تعالى مالك على الاطلاق وملك بالاستحقاق فله أن يفعل فى ملكه ما شاء ولانه تعالى حكيم على الاطلاق وهو منزه عن فعل العبث فكل ما فعله فهو حكمة وصواب فيجب عليه الصبر وترك القلق فان أبقى عليه تلك المحنة فهو عدل وان أزالها عنه فهو فضل وثانيها أنه فى ذلك الوقت ان اشتغل بذكر الله تعالى والثناء عليه بدلا عن الدعاء كان أفضل لقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ولان الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظ النفس ولاشك ان الاول أفضل وثالثها أنه تعالى اذا أزال عنه تلك البلية وجب عليه أن يبالغ فى الشكر وأن لا يخلو عن ذلك الشكر فى السراء والضراء وأحوال الشدة والرخاء فهذا هو الطريق الصحيح عند نزول البلاء وحينئذ يكون المؤمن على الضد من الكافر لان الكافر منهمك فى الشهوات والاعراض عن العبادات كما قال تعالى (كذلك) أى مثل ما زين لهؤلاء الكافرين هذا العمل القبيح (زين للمسرفين) أى المشركين (ما كانوا يعملون) من القبائح لاعراضهم عن الذكر واتباعهم الشهوات وانما سمى الكافر مسرفا لانه أتلف نفسه بتضييعها فى عبادة الاوثان وأتلف ماله فى البحيرة والسائبة والوصيلة والمزين هو الله تعالى لانه مالك الملك والخلق كلهم عبيده يتصرف

فيهم كيف شاء وقيل هو الشيطان وذلك باقدار الله تعالى اياه على ذلك والا فهو أخس وأحقر (ولقد أهلكنا القرون) أى الامم الماضية (من قبلكم) يا أهل مكة (لما ظلموا) أى حين أشركوا وقوله تعالى (وجاءتهم رسلهم بالبينات) أى بالحجج الدالة على صدقهم حال من الواو باضمار قد أو عطف على ظلموا (وما) أى والحال أنهم ما (كانوا ليؤمنوا) أى وما استقام لهم أن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية لعلمه تعالى بأنهم يموتون على كفرهم واللام لتأكيد النفى (كذلك) أى مثل ذلك الجزاء العظيم وهو اهلاكهم لما كذبوا رسلهم (نجزى القوم المجرمين) أى نجزيكم يا أهل مكة بتكذيبكم محمدا صلى الله عليه وسلم فوضع المظهر موضع المضمر للدلالة على كمال جرمهم وانهم اعلام فيه (ثم جعلناكم) أى أيها المرسل اليهم أشرف رسلنا (خلائف) جمع خليفة (فى الارض من بعدهم) أى استخلفناكم فيها بعد القرون التى أهلكناها استخلاف من يختبر (لننظر) ونحن أعلم بكم من أنفسكم فى علم الشهادة لاقامة الحجة (كيف تعملون) من خير أو شر فنجازيكم به وقد مر نظائر هذا ومنه قوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا وقال صلى الله عليه وسلم ان الدنيا خضرة حلوة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون وقال قتادة صدق الله ربنا ما جعلنا خلفاء الا لينظر الى أعمالنا فأروا الله من أعمالكم خيرا بالليل والنهار قال الزجاج وموضع كيف نصب بقوله تعملون أى لا معمول ننظر لانها حرف استفهام والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله لان له صدر الكلام فلا يتقدمه عامله وظاهر كلامه أن كيف مفعول لتعملون وجمهور النحاة على أنه حال من ضمير تعملون (واذا تتلى عليهم) أى واذا قرئ على هؤلاء المشركين (آياتنا) أى القرآن الذى أنزلناه اليك يا محمد حالة كون تلك الآيات (بينات) أى ظاهرات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوتك (قال الذين لا يرجون لقاءنا) أى لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لانهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت وكل من كان منكرا للبعث بعد الموت فانه لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا (ائت) أى من عندك (بقرآن) أى كلام مجموع جامع لما نريد (غير هذا) فى نظمه ومعناه (أو بدله) بألفاظ أخرى والمعانى باقية وقد كانوا عالمين بأنه صلى الله عليه وسلم مثلهم فى العجز عن ذلك ولكنهم قصدوا أن يأخذ فى التغيير حرصا على اجابة مطلوبهم فيبطل مدعاه أو يهلك واختلف فى هذا القائل فقال قتادة هم مشركو أهل مكة وقال مقاتل هم خمسة نفر عبد الله بن أمية المخزومى والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو ابن عبد الله بن أبى قيس العامرى والعاصى بن عامر بن هشام قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ان كنت تريد أن نؤمن بك فأت بقرآن ليس فيه ترك لعبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وان لم ينزله الله فقل أنت من عند نفسك أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة أو مكان حرام حلالا أو مكان حلال حراما ولما كان كأنه قيل فماذا أقول لهم قال الله تعالى (قل) لهم (ما يكون) أى ما يصح (لى) ولا يتصور بوجه من الوجوه (أن أبدله من تلقاء) أى قبل (نفسى) وانما اكتفى بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع الاتيان بقرآن آخر وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون (ان) أى ما (أتبع الا ما يوحى الى) فيما

قوله لانها حرف استفهام كذا فى النسخ وظاهر أن كيف اسم لا حرف اهـ مصححه

آمركم به أو أنهاكم عنه أى لا آتى بشئ ولا أذر شيأ من نحو ذلك الا متبعا لوحى الله تعالى وأوامره ان نسخت آية تبعت النسخ وان بدلت آية مكان آية تبعت التبديل وليس الى تبديل ولا نسخ (انى أخاف ان عصيت ربى) أى بتبديله (عذاب يوم عظيم) فانى مؤمن به غير مكذب ولا شاك كغيرى ممن يتكلم الهذيان بما لا يخاف عاقبته فى ذلك اليوم الذى تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو لى وانى بفتح الياء والباقون بالسكون (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله (لو شاء الله ما تلوته عليكم) أى لو شاء الله لم ينزل هذا القرآن ولم يأمرنى بقراءته عليكم (ولا أدراكم به) أى ولا أعلمكم به على لسانى وقرأ ابن كثير بخلاف عن البزى بقصر الهمزة بعد اللام جواب لو أى لأعلمكم به على لسان غيرى والباقون بالمد المنفصل وقوله تعالى (فقد لبثت) أى مكثت قراءة نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء عند التاء والباقون بالادغام (فيكم عمرا) سنين أربعين (من قبله) أى قبل أن يوحى الى هذا القرآن لا أتلوه ولا أعلمه ففى ذلك اشارة الى أن هذا القرآن معجز خارق للعادة وتقريره ان أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول عمره الى ذلك الوقت وكانوا عالمين بأحواله وأنه ما طالع كتابا ولا تلمذ لاستاذ ولا تعلم من أحد ثم بعد انقراض أربعين سنة على هذا الوجه جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الاصول ودقائق علم الاحكام ولطائف علم الاخلاق وأسرار قصص الاولين وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء وكل من له عقل سليم فانه يعرف أن مثل هذا لا يحصل الا بالوحى والالهام من الله تعالى (أفلا تعقلون) أى أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر لتعلموا أن مثل هذا الكتاب العظيم على من لم يتعلم ولم يتلمذ ولم يطالع كتابا ولم يمارس مجادلة أنه لا يكون الا على سبيل الوحى من الله تعالى لا من مثلى وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم ائت بقرآن غير هذا من اضافة الافتراء اليه * (تنبيه) * أقام صلى الله عليه وسلم بعد أن أوحى اليه بمكة ثلاث عشرة سنة ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة قال النووى وورد فى عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات احداها أنه توفى صلى الله عليه وسلم وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهى أصحها وأشهرها وتأولوا رواية ستين بأن راويها اقتصر فيها على العقود وترك الكسر ورواية الخمس أيضا متأولة وحصل فيها اشتباه ولما أقيمت الدلائل على أن هذا القرآن من عند الله وجب أن يقال انه ليس فى الدنيا أحد أجهل ولا أظلم على نفسه من منكر ذلك كما قال تعالى (فمن) أى لا أحد (أظلم ممن افترى) أى تعمد (على الله كذبا) أى أى كذب كان من شريك أو ولد أو غير ذلك وكان الاصل مبنى على تقدير أن يكون هذا القرآن من عند الله ولكنه وضع هذا الظاهر مكانه تعميما وتعليقا للحكم بالوصف (أو كذب بآياته) أى دلائل توحيده فكفر بها كما فعلتم أنتم وذلك من أعظم الكذب وقوله تعالى (انه) أى الشأن (لا يفلح) بوجه من الوجوه (المجرمون) أى المشركون تأكيدا لما سبق من هذين الوصفين (ويعبدون) أى هؤلاء المشركون (من دون الله) أى غيره (ما لا يضرهم) أى

ان لم يعبدوه (ولا ينفعهم) أى ان عبدوه وهو الاصنام لانها جمادات والجماد لا تضر ولا تنفع والكافرون قادرون على التصرف فيها تارة بالاصلاح وتارة بالافساد واذا كان العابد أصلح حالا من المعبود كانت العبادة باطلة لان العبادة أعظم أنواع التعظيم فلا تليق الا بمن يضر وينفع بان يثيب على الطاعة ويعاقب على المعصية وكان أهل الطائف يعبدون اللات وأهل مكة يعبدون العزى ومناة وهبل واسافا ونائلة (ويقولون هؤلاء) أى الاصنام التى نعبدها (شفعاؤنا عند الله) ونظيره قوله تعالى اخبارا عنهم مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وقيل انهم وضعوا هذه الاصنام والاوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فان أولئك الاكابر يكونون شفعاء لهم عند الله قال الرازى ونظيره فى هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الاكابر على اعتقاد أنهم اذا عظموا قبورهم فانهم يكونون شفعاء لهم عند الله اه ولكن تعظيمهم لهؤلاء ليس كتعظيم الكفار وفى هذه الشفاعة قولان أحدهما أنهم يزعمون أنها تشفع لهم فيما يهمهم من أمور الدنيا فى اصلاح معايشهم قاله الحسن لانهم كانوا لا يعتقدون بعث الموت والثانى أنهم يزعمون أنها تشفع لهم فى الآخرة ان يكن بعث قاله ابن جريج عن ابن عباس وكانهم كانوا شاكين فيه وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة موجدهم الضار النافع الى عبادة ما يعلم قطعا أنه لا يضر ولا ينفع على توهم أنه ربما يشفع لهم قال النضر بن الحرث اذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى وقوله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين (أتنبئون) أى تخبرون (الله) وهو العالم بكل شئ المحيط بكل محيط (بما لا يعلم) أى لا يوجد له به علم فى وقت من الاوقات استفهام انكار تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الاصنام واعلام بأن الذى انبؤا به باطل غير منطو تحت الصحة فكأنهم يخبرونه بشئ لا يتعلق به علمه وقوله تعالى (فى السموات ولا فى الارض) تأكيد لنفيه لان ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم وهذا على طريق الالزام والمقصود نفى علم الله بذلك الشفيع وأنه لا وجود له البتة لانه لو كان موجودا لكان معلوما لله تعالى وحيث لم يكن معلوما لله تعالى وجب أن لا يكون معلوما موجودا وهذا مثل مشهور فى العرب فان الانسان اذا أراد نفى شئ عن نفسه يقول ما علم الله ذلك منى ومقصوده أنه ما حصل ذلك الشئ منه قط ولا وقع (سبحانه) أى تنزيها له عن كل شئ فيه شائبة نقص (وتعالى عما يشركون) ما مصدرية أو موصولة أى عن اشراكهم أو عن الشركاء الذين يشركونهم به وقرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب لقوله أتنبئون الله والباقون بالياء على الغيبة فكأنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم قل أنت سبحانه وتعالى عما يشركون ويجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى هو الذى نزه نفسه عما قالوه فقال سبحانه وتعالى عما يشركون ولما أقام تعالى الدلالة القاهرة على فساد القول بعبادة الاصنام بين السبب فى كيفية حدوث هذا المذهب الفاسد بقوله (وما كان الناس الا أمة واحدة) أى جميعا على الدين الحق وهو دين الاسلام وقيل على الضلال فى فترة الرسل واختلف القائلون بالاول أنهم متى كانوا كذلك فقال ابن عباس ومجاهد كانوا على دين الاسلام من لدن

آدم الى أن قتل قابيل هابيل وقال قوم الى زمن نوح وكانوا عشرة قرون ثم اختلفوا فى عهد نوح فبعث الله تعالى اليهم نوحا وقال آخرون كانوا على دين الاسلام من زمن نوح بعد الغرق حيث لم يذر الله على الارض من الكافرين ديارا الى أن ظهر الكفر فيهم وقال آخرون من عهد ابراهيم عليه السلام الى زمن عمرو بن لحى وهذا القائل قال المراد من الناس فى قوله تعالى وما كان الناس الا أمة واحدة العرب خاصة (فاختلفوا) بأن ثبت بعض وكفر بعض (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهو تأخير الحكم الى يوم القيامة وقيل تلك الكلمة هى قوله سبحانه سبقت رحمتى غضبى فلما كانت رحمته غالبة اقتضت تلك الرحمة الغالبة اسبال الستر على الجاهل الضال وامهاله الى وقت الوجدان (لقضى بينهم) أى الناس بنزول العذاب فى الدنيا دون يوم القيامة (فيما فيه يختلفون) من الدين باهلاك المبطل وابقاء المحق وكان ذلك فصلا بينهم (ويقولون) أى كفار مكة (لولا) أى هلا (أنزل عليه) أى محمد صلى الله عليه وسلم (آية من ربه) أى غير ما جاء به كما كان للانبياء من الناقة والعصا واليد (فقل) يا محمد لهؤلاء الكفرة المعاندين (انما الغيب) أى ما غاب عن العباد أمره (لله) أى هو المختص بعلمه ومنه الآيات فلا يأتى بها الا هو وانما على التبليغ (فانتظروا) أى نزول ما اقترحتموه وقيل نزول العذاب ان لم تؤمنوا (انى معكم من المنتظرين) أى لما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجحودكم الآيات وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة فى الآيات رقيقة المسلك بين المعجزات مع عجزكم عن معارضته بتبديل أو غيره فأى عناد أعظم من هذا (واذا أذقنا الناس) أى كفار مكة (رحمة) أى صحة وسعة (من بعد ضراء) أى شدة وبلاء (مستهم) سلط الله تعالى القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم فأنزل عليهم المطر الكثير حتى اخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك فلم يتعظوا بذلك بل رجعوا الى العناد والكفر كما قال تعالى (اذا لهم مكر فى آياتنا) بالاستهزاء والتكذيب وقيل لا يقولون هذا من رزق الله انما يقولون سقينا بنوء كذا وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها فيصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون مطرنا بنوء كذا والنوء عند العرب هى منازل القمر اذا طلع نجم سقط نظيره (قل الله) أى قل لهم يا محمد الله (أسرع مكرا) منكم أى أعجل عقوبة وأشد أخذا وأقدر على الجزاء ومعنى الوصف بالاسرعية أنه قضى بعقابهم قبل تدبيرهم مكايدهم والمكر اخفاء الكيد وهو من الله تعالى اما الاستدراج أو الجزاء على المكر فانهم لما قابلوا نعمة الله بالمكر قابل مكرهم بأشد منه وهو امهالهم الى يوم القيامة (ان رسلنا) أى الحفظة الكرام الكاتبين (يكتبون ما تمكرون) لانهم وكلوا بكم قبل كونكم نطفا ولم يوكلوا بكم الا بعد علم موكلهم بكل ما تفعلونه ولا يكتبون مكركم الا بعد اطلاعهم عليه واما هو سبحانه وتعالى فانه اذا قضى قضاء لا يمكن أن يطلع عليه رسله الا باطلاعه فكيف بغيرهم واذا تبين أنه عالم بأمورهم وهم جاهلون بأموره علم أنه لابد عهم يدبرون كيدا الا وقد سبب له ما يجعله فى نحورهم وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون بالرفع ثم أخذ سبحانه وتعالى يبين ما يتضح به أسرعية مكره فى مثال دال على ما فى

الآية قبلها لان المعنى الكلى لا يصل الى أفهام السامعين الا بذكر مثال جلى واضح يكشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلى فقال (هو الذى يسيركم) أى يحملكم على السير فى كل وقت تسيرون فيه لا تقدرون على الانفكاك عنه ويمكنكم منه (فى البر والبحر) أى يسبب لكم أسبابا توجب سيركم فيهما وقرأ ابن عامر بعد الياء الاولى بنون ساكنة بعدها شين معجمة مضمومة والباقون بسين مهملة مفتوحة بعدها ياء مكسورة مشددة ولما كان العطب بسير البحر أظهر مع أن السير فيه من أكبر الآيات وأوضح البينات بينه معرضا عن ذكر البر بقوله تعالى (حتى اذا كنتم) أى كونا الابراح لكم منه (فى الفلك) أى السفن (فان قيل) كيف جعل الكون فى الفلك غاية للتسيير فى البحر مع أن الكون فى الفلك متقدم لامحالة على التسيير فى البحر (أجيب) بأنه لم يجعل الكون فى الفلك غاية للتسيير بل تقدير الكلام كأنه قيل هو الذى يسيركم حتى اذا وقع فى جملة تلك التسييرات الحصول فى الفلك كان كذا وكذا ولفظ الفلك يطلق على الواحد وعلى الجمع فان أريد الواحد كان كبناء قفل أو الجمع كان كبناء حمر والمراد هنا الجمع لقوله تعالى (وجرين بهم) أى بمن فيها وعدل عن الخطاب الى الغيبة للمبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الانكار والتقبيح والالتفات فى الكلام عن الغيبة الى الحضور والعكس فى فصيح كلام العرب (بريح طيبة) أى لينة الهبوب (وفرحوا بها) أى بتلك الريح وبالفلك الجارية بها وقوله تعالى (جاءتها) جواب اذا والضمير للفلك أو للريح الطيبة بمعنى تلقتها (ريح عاصف) أى شديدة الهبوب فأزعجت سفينتهم وأساءتهم (وجاءهم الموج) أى وجاء ركاب السفينة الموج وهو ما ارتفع وعلا من ضراب الماء فى البحر وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه (من كل مكان) أى يعتاد مجئ الموج منه فأرجف قلوبهم (وظنوا أنهم أحيط بهم) أى فظنوا ان الهلاك قد أحاط بهم وسدت عليهم مسالك الخلاص كمن أحاط بهم العدو (دعوا الله مخلصين) أى من غير اشتراك به (له الدين) أى الدعاء لانهم لا يدعون حينئذ غيره لان الانسان فى هذه الحالة لا يطمع الا فى فضل الله ورحمته ويصير منقطعا عن جميع الخلق ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرعا الى الله تعالى وقوله تعالى (لئن أنجيتنا من هذه) الشدائد التى نحن فيها وهى الريح العاصفة والامواج الشديدة (لنكونن من الشاكرين) على ارادة القول أو مفعول دعوا لانه من جملة القول أى لنكونن من الشاكرين لك بالايمان والطاعة على انعامك علينا بانجائنا مما نحن فيه من هذه الشدة (فلما أنجاهم) أى هؤلاء الذين ظنوا أنهم أحيط بهم من الشدة التى كانوا فيها اجابة لدعائهم (اذا هم يبغون) أى فاجؤا الفساد وسارعوا الى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصى (فى الارض) أى جنسها (بغير الحق) * فان قيل البغى لا يكون بحق فما معنى قوله بغير (أجيب) بأنه قد يكون بحق كاستيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم واحراق زروعهم وقطع أشجارهم كما فعل صلى الله عليه وسلم ببنى قريظة فان ذلك افساد بحق قال صاحب المفردات البغى على ضربين أحدهما غير محمود وهو مجاوزة الحق الى الباطل والى الشبهة والآخر كفعل المسلمين ماذكر (يا أيها الناس انما بغيكم) أى ظلمكم (على أنفسكم)

أمود وبالعلماء خاصة قال صلى الله عليه وسلم أسرع الخير ثوابا صلة الرحم وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة وروى ثنتان يعجلهما الله تعالى فى الدنيا البغى وعقوق الوالدين وعن ابن عباس لو بغى جبل على جبل لدك الباغى وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين فى أخيه

يا صاحب البغى ان البغى مصرعة * فاربع فخير فعال المرء أعدله

فلو بغى جبل يوما على جبل * لاندك منه أعاليه وأسفله

وعن محمد بن كعب ثلاث من كن فيه كن عليه البغى والنكث والمكر وعلى تقدير الانتفاع بالبغى هو عرض زائل كما قال تعالى (متاع الحياة الدنيا) أى لا يتهيأ لكم بغى بعضكم على بعض الا أياما قليلة وهى مدة حياتكم مع قصرها وسرعة انقضائها (ثم الينا) بعد البعث (مرجعكم) فى القيامة (فننبئكم) أى فنخبركم (بما كنتم تعملون) فى الدنيا من البغى والمعاصى فنجازيكم عليها وقرأ حفص متاع بنصب العين على أنه مصدر مؤكد أى تتمتعون متاع الحياة الدنيا والباقون بالرفع على أنه خبر بغيكم وعلى أنفسكم صلته أو خبر مبتدا محذوف تقديره ذلك متاع الحياة الدنيا وعلى أنفسكم خبر بغيكم ولما قال تعالى يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا أتبعه بمثل عجيب ضربه لمن يبغى فى الارض ويغتر بالدنيا ويشتد تمسكه بها ويقوى اعراضه عن أمر الآخرة والتأهب لها بقوله تعالى (انما مثل الحياة الدنيا) أى حالها العجيبة فى سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد اقبالها واغترار الناس بها والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثانى بالاول (كماء أنزلناه) وحقق أمره وبينه بقوله تعالى (من السماء فاختلط به) أى بسببه (نبات الارض) أى اشتبك بعضه ببعض والاختلاط تداخل الاشياء بعضها فى بعض (مما يأكل الناس) من الحبوب والثمار ونحو ذلك (و) مما يأكل (الانعام) من الحشيش ونحوه (حتى اذا أخذت الارض زخرفها) أى حسنها وبهجتها من النبات (وازينت) باظهار ألوان زهرها من أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الزهور كالعروس اذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين واصل ازينت تزينت أبدلت التاء زايا وأدغمت فى الزاى (وظن أهلها) أى أهل تلك الارض (انهم قادرون عليها) أى متمكنون من تحصيل جذاذها وحصادها (أتاها أمرنا) أى قضاؤنا من البرد والحر المفرط أو غيره (ليلا أو نهارا) أى فى الليل أو فى النهار (فجعلناها) أى زرعها (حصيدا) اى كالمحصود بالمناجل وقوله تعالى (كأن) مخففة أى كأنها (لم تغن) أى لم تكن (بالامس) تلك الزروع والاشجار قائمة على ظهر الارض وحذف المضاف من فجعلناها ومن كأن لم تغن للمبالغة * (تنبيه) * تشبيه الحياة الدنيا بهذا النبات يحتمل وجوها الاول ان عاقبة هذه الدنيا التى ينفقها المرء فى باب الدنيا كعاقبة هذا النبات الذى حين عظم الرجاء فى الانتفاع به وقع اليأس منه لان الغالب أن المتمسك بالدنيا اذا وضع قلبه عليها وعظمت رغبته فيها يأتيه الموت وهو معنى قوله تعالى حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون أى خاسرون الدنيا وقد أنفقوا أعمارهم فيها وخاسرون من الآخرة مع أنهم توجهوا اليها الثانى أنه تعالى بين

أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة محمودة فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة تحمد مع أن المنافع التي تحصل فيها مخلوطة بالمضار والمتاعب فإن سعادة الدنيا غير خالصة من الآفات بل هي ممزوجة بالبليات والاستقراء يدل عليه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق فقيل يا رسول الله وما هو قال سرور يوم بتمامه الثالث أن مالك ذلك البستان لما عمره باتعاب النفس وكد الروح وعلق قلبه على الانتفاع به فاذا حصل ذلك السبب المهلك صار العناء الشديد الذي تحمله في الماضي سببا لحصول الشقاء الشديد له في المستقبل وهو ما يحصل له في قلبه من الحسرات فكذا حال من وضع قلبه على الدنيا وأتعب نفسه في تحصيلها فاذا مات وفاته كل ما فات صار العناء الذي تحمله في تحصيل أسباب الدنيا سببا لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة (كذلك) أي مثل هذا التفصيل الذي ذكرناه (نفصل الآيات) أي نبينها (لقوم يتفكرون) لانهم المنتفعون بها ولما نفر تعالى الغافلين عن الميل الى الدنيا بالمثل السابق رغبهم في الآخرة بقوله تعالى (والله يدعو) أي يعلق دعاءه على سبيل التجدد والاستمرار بالمدعوين (الى دار السلام) قال قتادة السلام هو الله وداره الجنة وسمى سبحانه وتعالى بالسلام لانه واجب الوجود لذاته فقد سلم من الفناء والتغير وسلم من احتياجه في ذاته وصفاته ومن الافتقار الى الغير وهذه الصفة ليست الا له سبحانه كما قال تعالى والله الغنى وأنتم الفقراء وقال تعالى يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله وقيل السلام بمعنى السلامة وقيل المراد بالسلام الجنة سميت الجنة دار السلام لان أهلها يحيي بعضهم بعضا بالسلام والملائكة تسلم عليهم قال الله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ومن كمال رحمته وجوده وكرمه على عباده أن دعاهم الى الجنة التي هي دار السلام وفيه دليل على أن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لان العظيم لا يدعو الا الى عظيم ولا يصف الا عظيما وقد وصف الله تعالى الجنة في آيات كثيرة من كتابه وعن جابر قال جاءت ملائكة الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقالوا ان صاحبكم هذا مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مائدة وبعث داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة والدار الجنة والداعي محمد صلى الله عليه وسلم (و) الله (يهدي من يشاء) من عباده بما يخلق في قلبه من الهداية (الى صراط مستقيم) وهو دين الاسلام عمم سبحانه وتعالى بالدعوة أولا اظهارا للحجة وخص بالهداية ثانيا اظهارا للقدرة لان الحكم له في خلقه وقال الجنيد الدعوة عامة والهداية خاصة بل الهداية عامة والصحبة خاصة بل الصحبة عامة والاتصال خاص وقيل يدعو بالآيات ويهدي للحقائق والمعارف وقيل الدعوة لله والهداية من الله وقال بعضهم لا تنفع الدعوة لمن لم يسبق له من الله الهداية (للذين أحسنوا) أي بالايمان (الحسنى) وهي الجنة (وزيادة) وهي النظر اليه تعالى في الآخرة كما في الحديث الصحيح اذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا أهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم الله شيأ هو أحب اليهم منه والزمخشري في كشافه قال في هذا وزعمت المشبهة والمجبرة لان المعتزلة يشكرون

الرؤية ويرد عليهم قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فأثبت الله لاهل الجنة أمرين أحدهما النضارة وهي حسن الوجوه وذلك من نعيم الجنة والثاني النظر الى الله تعالى ؛ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الحسنى الحسنة والزيادة عشرة أمثالها وعن الحسن عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وعن مجاهد الزيادة مغفرة من الله ورضوان وعن يزيد بن شجرة الزيادة ان تمر السحابة بأهل الجنة فتقول ما تريدون ان أمطركم فلا يريدون شيأ الا أمطرتهم ولا مانع من أن تفسر الزيادة بذلك كله اذ لا تنافي فيها والفضل واسع (ولا يرهق) أي يغشى (وجوههم قتر) أي سواد (ولا ذلة) أي كآبة وكسوف يظهر منه الانكسار والهوان (أولئك) أي هؤلاء الذين وصفهم الله هم (أصحاب الجنة) وقوله تعالى (هم فيها خالدون) اشارة الى كونها دائمة آمنة من الانقطاع ولا زوال فيها ولا انقراض بخلاف الدنيا وزخارفها * ولما بين تعالى حال الفضل فيمن أحسن بين حال العدل فيمن أساء بقوله تعالى (والذين كسبوا السيئات) أي الشرك (جزاء سيئة) منهم (بمثلها) بعدل الله من غير زيادة وفي ذلك اشارة الى الفرق بين السيئات والحسنات لان الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى أضعاف كثيرة تفضلا منه تعالى وتكرما وأما السيئة فانه يجازى عليها بمثلها عدلا منه تعالى (وترهقهم) أي تغشاهم (ذلة) عكس أهل الجنة (مالهم من الله من عاصم) أي مانع عنهم من عذاب الله اذا نزل بهم (كأنما أغشيت) أي ألبست (وجوههم قطعا من الليل مظلما) لفرط سوادها وظلمتها وقرأ ابن كثير والكسائي بسكون الطاء أي جزأ والباقون بفتحها جمع قطعة أي أجزاء (أولئك) أي هؤلاء الاشقياء (أصحاب النار هم فيها خالدون) لا يتمكنون من مفارقتها (و) اذكر (يوم نحشرهم) أي الفريقين الناجين والهالكين العابدين منهم والمعبودين من كل جانب وناحية الى موقف الحساب حال كونهم (جميعا) لا يتخلف منهم أحد وهو يوم القيامة والحشر الجمع بكره الى موقف واحد (ثم نقول للذين أشركوا مكانكم) أي الزموا مكانكم لا تبرحوا منه حتى تنظروا ما يفعل بكم وقوله تعالى (أنتم) تأكيد للضمير المستتر في الفعل المقدر ليعطف عليه (وشركاؤكم) أي من كنتم تعبدونه من دون الله (فزيلنا) أي فرقنا (بينهم) أي بين المشركين وشركائهم وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا وذلك حين تبرأ كل معبود من دون الله ممن عبده وقيل فرقنا بينهم وبين المؤمنين كما في آية وامتازوا اليوم أيها المجرمون والاول أنسب بقوله تعالى (وقال شركاؤهم) لهؤلاء المشركين (ما كنتم ايانا تعبدون) أي انما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتخذوا لله أندادا فأطعتموهم واختلفوا في المراد بهؤلاء الشركاء فقال بعضهم الملائكة واستشهدوا بقوله تعالى ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون ومنهم من قال هي الاصنام والدليل عليه ان هذا الخطاب مشتمل على الوعيد والتهديد وذلك لا يليق بالملائكة المقربين وسموا شركاء لانهم جعلوا نصيبا من أموالهم لتلك الاصنام فصيروهم شركاء لانفسهم في تلك الاموال ثم اختلفوا في هذه الاصنام كيف ذكرت هذا الكلام فقال بعضهم ان الله تعالى خلق الحياة والعقل

والنطق فيها فقدرت على ذكر هذا الكلام وقال آخرون ان الله تعالى خلق فيها الكلام من غير أن يخلق فيها الحياة حتى سمع منها ذلك الكلام والاول أظهر لان ظاهر قوله تعالى وقال شركاؤهم يقتضي أن يكون فاعل ذلك القول هو الشركاء (فان قيل) اذا أحياها الله تعالى هل يبقيها أو يفنيها (أجيب) بأن الكل محتمل فان الله تعالى يفعل فى خلقه ما يشاء وأحوال القيامة غير معلومة الا القليل الذى أخبر الله تعالى عنه فى القرآن وعلى لسان أنبيائه وقال بعضهم المراد بهؤلاء الشركاء كل من عبد من دون الله من انس وملك وجن وشمس وقمر وصنم وهذا أظهر وعلى هذا والاول سموا شركاء لان الله تعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله تعالى مكانكم صاروا شركاء فى هذا الخطاب * ولما قال لهم شركاؤهم ذلك قالوا بل كنا نعبدكم فقال شركاؤهم (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) فانه تعالى العالم بكنه الحال (ان كنا عن عبادتكم لغافلين) أى لم نأمر بها ولم نعلم بها وعلى القول بأنها الاصنام فتقول ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل فانها جمادات لا حس لها بشئ ولا شعور البتة * (تنبيه) * ان هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة بين المخففة والنافية (هنالك) أى فى ذلك الموقف من المكان العظيم الاهوال المتوالى الزلزال (تبلو) أى تختبر (كل نفس) طائعة وعاصية (ما أسلفت) أى ما قدمت من عمل فتعاين نفعه وضره يؤدى الى سعادة أو شقاوة وقرأ حمزة والكسائى بتاءين من التلاوة أى تقرأ ذكر ما قدمت أو من التلو فيتبع كل شخص عمله فيقوده الى الجنة أو الى النار والباقون بعد التاء باء موحدة من البلوى وهو الاختبار (وردوا الى الله) أى الى جزائه اياهم عما أسلفوا فلم يكن لهم قدرة على قصد غيره (مولاهم الحق) أى ربهم ومتولى أمرهم على الحقيقة ولا التفات الى سواه من تلك الاباطيل بل انقطع رجاؤهم من كل ما يدعونه فى الدنيا وهو المراد بقوله تعالى (وضل عنهم) أى ذهب وبطل وضاع (ما كانوا يفترون) أى يتعمدون كذبه من أن معبوداتهم شركاء وتيقنوا فى ذلك المقام أن توليهم لغير الله كان باطلا غير حق * ولما بين فضائح عبدة الاوثان اتبعها بذكر الدلائل على فساد هذا المذهب بحجج الحجة الاولى قوله تعالى (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين (من يرزقكم من السماء) بالمطر (والارض) بالنبات فانحصر الرزق فى ذلك أما من السماء فبتنزل الامطار وأما من الارض فلان الغذاء اما أن يكون نباتا أو حيوانا أما النبات فلا ينبت الا من الارض وأما الحيوان فهو يحتاج أيضا الى الغذاء ولا يمكن أن يكون غذاء كل حيوان حيوانا آخر والا لزم الذهاب الى ما لا نهاية له وذلك محال فثبت ان أغذية الحيوانات يجب انتهاؤها الى النبات وثبت أن تولد النبات من الارض فثبت القطع بأن الارزاق لا تحصل الا من السماء والارض (أمن يملك السمع) أى الاسماع (والابصار) أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سويا عليه من الفطرة العجيبة * عن على رضى الله تعالى عنه كان يقول سبحان من بصر بشحم وأسمع بعظم وأنطق بلحم أو جمعهما وحفظهما من الآفات مع كثرتها فى المدد الطوال وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شئ بكلاءته وحفظه (ومن يخرج الحى من الميت) كأن يخرج الانسان من النطفة والطائر من البيضة (ويخرج الميت من

الحى) كان يخرج النطفة من الانسان والبيضة من الطائر وقيل المراد أن يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى ميت فى الموضعين بعد الميم بكسر الياء المشددة والباقون بعد الميم بسكون الياء (ومن يدبر الامر) أى ومن يلى تدبير أمر الخلائق وهو تعميم بعد تخصيص وذلك لان أقسام تدبير الله تعالى فى العالم السفلى وفى العالم العلوى وفى عالم الارواح والاجساد أمور لانهاية لها وذكر كلها كالمتعذر فلما ذكر بعض تلك التفاصيل عقبها بالكلام الكلى ليدل على الباقى ثم بين تعالى أن الرسول صلى الله عليه وسلم اذا سألهم عن مدبر هذه الاحوال (فسيقولون الله) اذ لا يقدرون على المكابرة والعناد فى ذلك لفرط وضوحه واذا كانوا يقرون بذلك (فقل) لهم يا محمد (أفلا تتقون) الشرك مع اعترافكم بأن كل الخيرات فى الدنيا والآخرة انما تحصل بفضل الله تعالى واحسانه (فذلكم الله ربكم الحق) أى الثابت ربوبيته ثباتا لاريب فيه واذا ثبت أن هذا هو الحق وجب أن يكون ماسواه ضلالا لان النقيضين يمتنع أن يكونا حقين وأن يكونا باطلين فاذا كان أحدهما حقا وجب أن يكون ماسواه باطلا كما قال تعالى (فماذا بعد الحق الا الضلال) اذ لا واسطة بينهما فهو استفهام تقرير أى ليس بعده غيره فمن اخطأ الحق وهو عبادة الله تعالى وقع فى الضلال ولذلك سبب عنه قوله تعالى (فأنى) اى فكيف ومن أى جهة (تصرفون) أى تعدلون عن عبادته وأنتم تقرون بأن الله هو الحق (كذلك) أى كما حقت الربوبية لله تعالى أو ان الحق بعده الضلال أو انهم مصروفون عن الحق (حقت كلمة ربك) فى الازل (على الذين فسقوا) أى تمردوا فى كفرهم وخرجوا عن حد الاستصلاح وقوله تعالى (أنهم لايؤمنون) بدل من الكلمة أى حق عليهم انتفاء الايمان وعلم الله منهم ذلك والمراد بكلمة الله العدة بالعذاب وهو لأملأن جهنم الآية وأنهم لايؤمنون تعليل بمعنى لانهم لايؤمنون أو ذلك تفسير لكلمته التى حقت وقرأ نافع وابن عامر كلمة بالالف بعد الميم على الجمع والباقون بغير الالف بعد الميم على الافراد الحجة الثانية قوله تعالى (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء (هل من شركائكم) الذين زعمتم وهم شركاء وأشركتموهم فى أموالكم من أنعامكم وزروعكم (من يبدأ الخلق) كما بدأ به ليصح لكم ما ادعيتم من الشركة (ثم يعيده) كما كان (فان قيل) هم غير معترفين بالاعادة فكيف احتج عليهم تعالى بها كالابتداء فى الالزام بها (أجيب) بأنها لظهور برهانها وان لم يقروا بها وضعت موضع ما ان دفعه دافع كان مكابرا اذ الظاهر البين الذى لامدخل للشبهة فيه دلالة على أنهم فى انكارهم لها منكرون أمرا مسلما معترفا بصحته عند العقلاء ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينوب عنهم فى الجواب بقوله تعالى (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) لان لجاجهم لايدعهم أن يعترفوا بها (فأنى) أى فكيف (تؤفكون) عن عبادته مع قيام الدلائل (فان قيل) ما الفائدة فى ذكر هذه الحجة على سبيل السؤال والاستفهام (أجيب) بان الكلام اذا كان ظاهرا جليا ثم ذكر على سبيل الاستفهام كان ذلك أبلغ وأوقع فى القلب الحجة الثالثة قوله تعالى (قل) أى قل يا محمد لهم (هل من شركائكم من يهدى الى الحق) بنصب الحجج وخلق الاهتداء وارسال الرسل ولما كانوا

جاهلين بالجواب الحق فى ذلك أو معاندين أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب بقوله تعالى (قل الله) أى الذى له الاحاطة الكاملة (يهدى للحق) من يشاء لا أحد ممن زعمتموه شركاء فالاشتغال بشئ منها بعبادة أو غيرها جهل محض قال الزجاج يقال هديت الى الحق وهديت للحق بمعنى واحد فالله تعالى ذكرها تين اللغتين فى قوله تعالى من يهدى الى الحق وفى قوله تعالى قل الله يهدى للحق وقوله تعالى (أفمن يهدى الى الحق) أى وهو الله تعالى (أحق أن يتبع أمن لا يهدى) أى يهتدى (الا أن يهدى) أحق أن يتبع استفهام تقرير وتوبيخ أى الاول أحق (فما لكم كيف تحكمون) هذا الحكم الفاسد من اتباع من لا يستحق الاتباع وقوله تعالى (وما يتبع أكثرهم) فى تفسيره وجهان الاول وما يتبع أكثرهم فى اقرارهم بالله تعالى (الا ظنا) لانه قول غير مستند الى برهان عندهم بل سمعوه من أسلافهم الثانى وما يتبع أكثرهم الا ظنا فى قولهم للاصنام آلهة وانها شفعاء عند الله تعالى الا الظن حيث قلدوا فيه آباءهم قال الرازى والقول الاول أقوى لانا فى القول الثانى نحتاج الى تفسير الاكثر بالكل (ان الظن لا يغنى من الحق) فيما المطلوب فيه العلم (شيأ) من الاغناء فدلت هذه الآية على أن كل من كان ظانا فى مسائل الاصول وما كان قاطعا لا يكون مؤمنا (فان قيل) فقول أهل السنة أنا مؤمن ان شاء الله يمنع من القطع فوجب أن يلزمهم الكفر (أجاب) الرازى بأن هذا ضعيف من وجوه الاول أن مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه أن الايمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والاقرار والعمل فالشك حاصل فى أن هذه الاعمال هل هى موافقة لامر الله تعالى والشك فى أحد أجزاء الماهية لا يوجب الشك فى تمام الماهية الثانى أن الغرض من قوله ان شاء الله تعالى بقاء الايمان عند الخاتمة الثالث الغرض هضم النفس وكسرها (ان الله عليم) أى بالغ العلم (بما يفعلون) أى من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين فيجازيهم عليه وقوله تعالى (وما كان) عطف على قوله ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى الخ فهو حينئذ مقول القول أى قل لهم ذلك الكلام (هذا القرآن) أى الجامع لكل خير مع التأدية بأساليب الحكمة المعجزة لجميع الخلق (أن يفترى) أى افتراء (من دون الله) أى غيره لان المفترى هو الذى تأتى به البشر وكفار مكة زعموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم أتى بهذا من عند نفسه فأخبر الله تعالى ان هذا القرآن وحى أنزله عليه وأنه مبرأ عن الافتراء والكذب وأنه لا يقدر عليه أحد الا الله ثم ذكر ما يؤكده هذا بقوله تعالى (ولكن) أنزل (تصديق الذى بين يديه) أى قبله من الكتب الذى أنزلها على أنبيائه كالتوراة والانجيل فثبت بذلك أنه وحى من الله أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم وأنه معجزة له فانه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يجتمع بأحد من العلماء ثم انه صلى الله عليه وسلم أتى بهذا القرآن العظيم المعجز وفيه أخبار الاولين وقصص الماضين وقيل تصديق الذى القرآن بين يديه من القيامة والبعث (وتفصيل الكتاب) أى تبيين ما كتب الله من الاحكام وغيرها (لا ريب) أى لا شك (فيه) وقوله تعالى (من رب العالمين) متعلق بتصديق أو بانزل المحذوف (أم) أى بل (يقولون افتراه) أى اختلقه محمد ومعنى الهمزة فيه للانكار

(قل) أى قل لهم يامحمد ان كان الامر كما تقولون (فأتوا بسورة مثله) فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فأنتم عرب مثله فى البلاغة والفطنة (فان قيل) هل يتناول ذلك جميع السور الصغار والكبار أو يختص بالسور الكبار (أجيب) بأن هذه الآية فى سورة يونس وهى مكية فيكون المراد مثل هذه السورة لانها أقرب ما يمكن أن يشار اليه هكذا أجاب الرازى والاولى التناول لجميع السور فانهم لا يقدرون أن يأتوا بأقصر سورة (فان قيل) لم قال فى البقرة بسورة من مثله وهنا بسورة مثله (أجيب) بأنه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ ولم يكتب ولم يتلمذ لاحد فقيل فى سورة البقرة فأتوا بسورة من مثله بناء على أن الضمير يرجع للنبى صلى الله عليه وسلم أى فليأت انسان يساوى محمدا صلى الله عليه وسلم فى عدم مطالعة الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوى هذه السورة وحيث ظهر العجز ظهر المعجز فهذا لا يدل على أن السورة فى نفسها معجزة ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من انسان مثل محمد صلى الله عليه وسلم فى عدم التعلم والتلمذ معجز ثم بين تعالى فى هذه السورة ان تلك السورة فى نفسها معجزة فان الخلق وان تلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا لا يمكنهم الاتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور وهو المراد من قوله تعالى (وادعوا من استطعتم) أى فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به (من دون الله) أى غيره فانه تعالى وحده قادر على ذلك (ان كنتم صادقين) أى فى أنى أتيت به من عندى لان العاقل لا يجزم بشئ الا اذا كان عنده منه مخرج وذلك لا يكون الا عن دليل ظاهر وسلطان قاهر باهر * (تنبيه) * مراتب تحدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن ستة أولها أنه تحداهم بكل القرآن كما قال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ثانيها أنه تحداهم بعشر سور فقال تعالى فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ثالثها أنه تحداهم بسورة واحدة كما قال تعالى فأتوا بسورة من مثله رابعها أنه تحداهم بحديث مثله خامسها أن فى تلك المراتب الاربعة كان يطلب منهم أن يأتى بالمعارضة رجل يساوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدم التلمذ والتعلم ثم فى هذه السورة طلب منهم معارضة سورة واحدة من أى انسان سواء تعلم العلوم أم لم يتعلمها سادسها أن فى المراتب المتقدمة تحدى واحد من الخلق وفى هذه المرتبة تحدى جميعهم وجوز أن يستعين البعض بالبعض فى الاتيان بهذه المعارضة كما قال تعالى وادعوا من استطعتم من دون الله وههنا آخر المراتب فهذا مجموع الدلائل التى ذكرها الله تعالى فى اثبات ان القرآن معجز ثم ان الله تعالى ذكر السبب الذى لاجله كذبوا بالقرآن فقال تعالى (بل كذبوا) أى أوقعوا التكذيب الذى لا تكذيب أشنع منه مسرعين فى ذلك (بما لم يحيطوا بعلمه) أى القرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته من غير شبهة أصلا بل عنادا وطغيانا ونفورا عما يخالف دينهم فهو من باب من جهل شيأ عاداه والاحاطة ادارة ما هو كالحائط حول الشئ واحاطة العلم بالشئ العلم به من جميع وجوهه (ولما يأتهم) أى الى زمن تكذيبهم (تأويله) أى تأويل ما فيه من الاخبار بالغيوب وعاقبة ما فيه من الوعيد حتى تبين لهم

أنه صدق أم كذب ومعنى التوقع فى لما أنه قد ظهر لهم بالآخرة اعجازه لما كرر عليهم التحدى فجربوا عقولهم فى معارضته فصغرت وضعفت دونها ومع هذا لم يقلعوا عن التكذيب تمردا وعنادا (كذلك) أى مثل تكذيبهم هذا التكذيب العظيم فى الشناعة قبل تدبر المعجزة (كذب الذين من قبلهم) أى من كفار الامم الماضية فظلموا فأهلكناهم بظلمهم (فانظر) يا محمد (كيف كان عاقبة الظالمين) بتكذيب الرسل أى آخر أمرهم من الهلاك فكذلك يهلك من كذبك من قومك وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون الخطاب لكل فرد من الناس والمعنى فانظر أيها الانسان كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر أن تفعل مثل فعله (ومنهم) أى من قومك يا محمد (من يؤمن به) أى القرآن أى يصدق به فى نفسه ويعلم أنه حق ولكنه يعاند بالتكذيب (ومنهم من لا يؤمن به) فى نفسه لغباوته وقلة تدبره أو ومنهم من يؤمن به فى المستقبل بأن يتوب عن الكفر ويبدله بالايمان ومنهم من يصر ويستمر على الكفر وانما فسرت هذه الآية بهذين التأويلين لان كلمة يؤمن تصلح للحال والاستقبال (وربك أعلم بالمفسدين) أى المعاندين على التفسير الاول والمصرين على التفسير الثانى وفى ذلك تهديد لهم (وان كذبوك) أى وان يكذبوك يا محمد بعد الزام الحجة (فقل) لهم (لى عملى) من الطاعة وجزاء ثوابها (ولكم عملكم) من الشرك وجزاء عقابه أى فتبرأ منهم فقد أعذرت والمعنى لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم حقا كان أو باطلا (أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) لا تؤاخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم واختلف فى معنى ذلك فقيل معنى الآية الزجر والردع وقيل بل معناه استمالة قلوبهم وقال مقاتل والكلبى هذه الآية منسوخة بآية السيف قال الرازى وهذا بعيد لان شرط الناسخ أن يكون رافعا لحكم المنسوخ ومدلول هذه الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وذلك لا يقتضى حرمة القتال وآية القتال ما رفعت شيأ من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلا انتهى ولا تنبغى هذه المبالغة مع مثل من ذكر وقد تبعهما جماعة من المفسرين ولما قسم تعالى الكفار قسمين منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به قسم من لا يؤمن به قسمين منهم من يكون فى نهاية البغض له والعداوة ونهاية النفرة عن قبول دينه ومنهم من لا يكون كذلك فوصف القسم الاول فى قوله تعالى (ومنهم) أى من هؤلاء المشركين (من يستمعون اليك) اذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع باسماعهم الظاهرة ولا ينفعهم لشدة عداوتهم وبغضهم لك فان الانسان اذا قوى بغضه لآخر وعظمت نفرته منه صارت نفسه معرضة عن جميع جهات محاسن كلامه (أفأنت تسمع الصم) أى أتقدر على اسماعهم (ولو كانوا) مع الصمم (لا يعقلون) أى لان الاصم العاقل ربما تفرس واستدل اذا وقع فى صماخه دوى الصوت فاذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الامر فكما أنك لا تقدر على اسماع الاصم الذى لا يعقل لا تقدر على اسماع من أصم الله تعالى قلبه فان الله تعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما يسمعون ولم يوفقهم لذلك فشبههم بالصم فى عدم الانتفاع بما يتلى عليهم ثم وصف القسم الثانى فى قوله تعالى (ومنهم من ينظرون

اليك) أى يعاينون دلائل نبوتك ولا يصدقونك (أفأنت تهدى العمى) أى أتقدر على هدايتهم (ولو كانوا) مع العمى (لا يبصرون) أى لا بصيرة لهم لان الاعمى الذى فى قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن فأما العمى مع الحمق فجهد البلاء فلا تقدر على هداية من أعمى الله تعالى بصيرته فهؤلاء فى اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والعمى الذين لا عقول لهم ولا بصائر فلا يقدر على اسماعهم وهدايتهم الا الله تعالى * (تنبيه) * اختلف فى أن السمع أفضل أو البصر فمنهم من قال السمع واحتج على ذلك بأمور منها تقدمه فى الآية ومنها أن القوة السامعة تدرك المسموع من جميع الجوانب والقوة الباصرة لا تدرك المرئى الا من جهة واحدة وهى المقابل ومنها أن الانسان انما يستفيد العلم من التعلم من الاستاذ وذلك لا يكون الا بقوة السمع فاستكمال النفس بالكمالات العلمية لا يحصل الا بقوة السمع ومنها أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام يراهم الناس ويسمعون كلامهم فنبوتهم ما حصلت بسبب ما معهم من الصفات المرئية وانما حصلت بسبب ما معهم من الاحوال المسموعة وهو الكلام وتبليغ الشرائع وبيان الاحكام ومنها أن المعنى الذى يمتاز به الانسان من سائر الحيوانات هو النطق بالكلام وانما ينتفع بذلك بالقوة السامعة فمتعلق السمع النطق الذى يحصل به شرف الانسان ومتعلق البصر ادراك الالوان والاشكال وذلك أمر مشترك فيه بين الناس وبين سائر الحيوانات ومنهم من قال البصر واحتج بأمور منها ان آلة القوة الباصرة هى النور وآلة القوة السامعة هى الهواء والنور أشرف من الهواء ومنها أن جمال الوجه يحصل بالبصر وبذهابه عيبه وذهاب السمع لا يورث الانسان عيبا فى جمال وجهه والعرب تسمى العينين الكريمتين ولا تصف السمع بمثل هذا وفى الحديث يقول الله تعالى من أذهبت كريمتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابا دون الجنة ومنها أنهم قالوا فى المثل المشهور ليس وراء العيان بيان وذلك يدل على أن أكمل وجوه الادراكات هو الابصار ومنها أن كثيرا من الانبياء سمع الله واختلفوا فى أنه هل رآه منهم أحد أم لا وأيضا فان موسى عليه السلام أسمعه الله تعالى كلامه من غير سبق سؤال والتماس فلما طلب الرؤية قال لن ترانى وذلك يدل على أن حال الرؤية أعلى من حال السماع وهذا هو الظاهر ولما حكم تعالى على أهل الشقاوة بالشقاوة بقضائه وقدره السابق فيهم أخبر تعالى ان تقدير الشقوة عليهم ما كان ظلما منه بقوله تعالى (ان الله لا يظلم الناس شيأ) أى لانه تعالى فى جميع أحواله متفضل وعادل فيتصرف فى ملكه كيف يشاء والخلق كلهم عبيده وكل من تصرف فى ملكه بالفضل والعدل لا يكون ظالما وانما قال تعالى (ولكن الناس أنفسهم يظلمون) لان فعلهم منسوب اليهم بسبب الكسب وان كان قد سبق قضاء الله تعالى وقدره فيهم ففى ذلك دليل على أن للعبد كسبا وأنه ليس مسلوب الاختيار كما زعمت الجبرة وقرأ حمزة والكسائى بكسر النون مخففة ورفع السين والباقون بنصب النون مشددة ونصب السين ولما وصف تعالى هؤلاء الكفار بقلة الاصغاء وترك التدبر أتبعه بالوعيد بقوله تعالى (ويوم نحشرهم) أى واذكر يا محمد يوم نحشر هؤلاء المشركين لموقف الحساب وأصل الحشر اخراج الجماعة

وازعاجهم عن مكانهم (كأن) أى كأنهم (لم يلبثوا) فى دنياهم والجملة فى موضع الحال من ضمير نحشرهم البارز أى مشبهين بمن لم يلبثوا (الا ساعة) حقيرة (من النهار) أى يستقصرون مدة مكثهم فى الدنيا وفى القبور لهول ما يرون (يتعارفون بينهم) أى يعرف بعضهم بعضا اذا بعثوا ثم ينقطع التعارف لشدة الاهوال والجملة حال مقدرة متعلق الظرف والتقدير يتعارفون يوم نحشرهم وقوله تعالى (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) أى بالبعث يحتمل وجهين الاول أن يكون على ارادة القول أى يتعارفون بينهم قائلين ذلك الثانى أن يكون كلام الله تعالى فيكون شهادة من الله تعالى عليهم بالخسران والمعنى أن من باع آخرته بالدنيا فقد خسر لانه أعطى الكثير الشريف الباقى وأخذ القليل الخسيس الفانى (وما كانوا مهتدين) أى الى رعاية مصالح التجارة وذلك لانهم اغتروا بالظاهر وغفلوا عن الحقيقة فصاروا كمن رأى زجاجة خسيسة فظنها جوهرة شريفة فاشتراها بكل ما ملكه فاذا عرضها على الناقدين خاب سعيه وفات أمله ووقع فى حرقة الروع وعذاب القلب وقوله تعالى (واما) فيه ادغام ان الشرطية فى ما الزائدة (نرينك) يا محمد (بعض الذى نعدهم) به من العذاب فى حياتك وجواب الشرط محذوف أى فذاك (أو نتوفينك) قبل أن نريك ذلك الوعد فى الدنيا فانك ستراه فى الآخرة وهو قوله تعالى (فالينا) بعد البعث (مرجعهم) فنريك هناك ما هو أقر لعينك وأسر لقلبك وقوله تعالى (ثم الله شهيد على ما يفعلون) فيه وعيد وتهديد لهم أى أنه تعالى شهيد على أفعالهم التى فعلوها فى الدنيا فيجازيهم عليها يوم القيامة ولما بين تعالى حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه بين أن حال كل الانبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم كذلك بقوله تعالى (ولكل أمة) أى من الامم التى خلت من قبلك (رسول) يدعوهم الى الله تعالى وقوله تعالى (فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط) فيه اضمار تقديره فاذا جاء رسولهم وبلغهم ما أرسل به اليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون قضى أى حكم وفصل بينهم بالقسط أى بالعدل وفى وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان أحدهما أنه فى الدنيا بأن يهلك الكافرين وينجى رسوله والمؤمنين لقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا والثانى فى الآخرة وذلك أن الله تعالى اذا جمع الامم يوم القيامة للحساب والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصى جىء بالرسل لتشهد عليهم لقوله تعالى وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم والمراد منه المبالغة فى اظهار العدل وهو قوله تعالى (وهم لا يظلمون) فى جزاء أعمالهم شيأ بل يجازى كل واحد على قدر عمله فكذلك يفعل بهؤلاء (ويقولون متى هذا الوعد) الذى تعدنا به يا محمد من نزول العذاب ومن قيام الساعة وانما قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد (ان كنتم صادقين) أى فيما تعدونا به وانما قالوا بلفظ الجمع على سبيل التعظيم أو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وان كان كل أمة قالوا لرسولها مثل ذلك وهو الموافق لقوله تعالى ولكل أمة رسول قال الله تعالى (قل) أى قل لهم يا محمد (لا أملك لنفسى ضرا) من مرض أو فقر أدفعه (ولا نفعا) من صحة أو غنى أجلبه (الا ما شاء الله) أن يقدرنى عليه فكيف أملك لكم حلول العذاب أو قيام

الساعة ولا يقدر على ذلك أحد الا الله تعالى (لكل أمة أجل) أى مدة مضروبة (اذا جاء أجلهم) أى انقضت مدة أعمارهم (فلا يستأخرون) أى لا يتأخرون (عنه ساعة) ثم عطف على الجملة الشرطية بكمالها (ولا يستقدمون) أى ولا يتقدمون أى ولا يستعجلون فان الوفاء بالوعد لا بد منه والسين فيهما بمعنى الوجدان أى لا يوجد لهم المعنى الذى منع منه الفعل ويجوز أن يكون المعنى لا يجدون التأخر ولا التقدم وان اجتهدوا فى الطلب فيكون فى السين معنى الطلب وتدل الآية على أن أحدا لا يموت الا بانقضاء أجله وكذا المقتول لا يقتل الا على هذا الوجه وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى وسهل ورش وقنبل الثانية وابدلها أيضا حرف مد والباقون بالتحقيق قال الله تعالى (قل) أى قل لهم يا محمد أيضا (أرأيتم ان أتاكم عذابه) الذى تستعجلون به (بياتا) أى فى الليل بغتة كما يفعل العدو (أو نهارا) أى وقت أنتم فيه تشتغلون بطلب المعاش والكسب (ماذا) أى أى شئ (يستعجل منه) أى من عذابه وعذاب كل مكروه لا يحتمل شئ منه (المجرمون) أى المشركون وضع المجرمون موضع المضمر للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغى أن يفزعوا من مجئ الوعيد لا أن يستعجلوا وجملة الاستفهام متعلقة بأرأيتم وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه (أثم اذا ما وقع) أى حل بكم (آمنتم) أى آمنتم بالله أو العذاب وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس والهمزة لانكار التأخير فلا يقبل منكم وقوله تعالى (الآن) على ارادة القول أى قيل لهم اذا آمنوا وقت نزول العذاب الآن (وقد كنتم به تستعجلون) تكذيبا واستهزاء

(تنبيه) اتفق قالون مع ورش على النقل هنا واتفق القراء كلهم على همزة الوصل التى بعد همزة الاستفهام ان فيها وجهين وهما البدل والتسهيل وقوله تعالى (ثم قيل للذين ظلموا) عطف على قيل المقدر أى من أى قائل كان استهانة بهم وقرأ هشام والكسائى باشمام القاف وهو أن تضم القاف قبل الياء والباقون بالكسر (ذوقوا عذاب الخلد) أى الذى تخلدون فيه والاتيان بثم اشارة الى تراخى ذلك عن الاهلاك فى الدنيا بالمكث فى البرزخ أو الى ان عذابه أدنى من عذاب يوم الدين (هل) أى ما (تجزون الا بما كنتم تكسبون) فى الدنيا من الكفر والمعاصى (ويستنبئونك) أى يستخبرونك يا محمد (أحق هو) أى ما وعدتنا به من نزول العذاب وقيام الساعة وهو استفهام على جهة الانكار والاستهزاء قاله حيي بن أخطب لما قدم مكة (قل) لهم فى جوابهم (اى وربى انه لحق) أى كائن ثابت لا بد من نزوله بكم *(تنبيه)* اى بمعنى نعم وهو من لوازم القسم ولذلك توصل بواوه فى التصديق فيقال اى والله ولا ينطقون به وحده (وما أنتم بمعجزين) أى بفائتين العذاب لان من عجز عن شئ فقد فاته (ولو أن لكل نفس ظلمت) أى أشركت (ما فى الارض) من الاموال (لافتدت به) من عذاب يوم القيامة ولم ينفعها الفداء لقوله تعالى ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) أى حين عاينوه وأبصروه وصاروا مبهوتين متحيرين فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا سوى اسرار الندم كالحال فيمن ذهب به ليصلب فانه يبقى مبهوتا متحيرا لا ينطق بكلمة وقيل انهم أخلصوا لله فى تلك الندامة

ومن أخلص فى الدعاء أمره وفيه تهكم بهم وباخلاصهم لانهم انما أتوا بهذا الاخلاص فى غير وقته بل كان من الواجب عليهم أن يأتوا به فى دار الدنيا وقت التكليف وقيل المراد بالاسرار الاظهار وهو من الاضداد لانهم انما أخفوا الندامة على الكفر والفسق فى الدنيا لاجل حفظ الرياسة وفى القيامة بطل هذا فوجب الاظهار وليس هناك تجلد (فان قيل) أسروا جاء على لفظ الماضى والقيامة من الامور المستقبلة (أجيب) بأنها لما كانت واجبة الوقوع جعل الله مستقبلها كالماضى (وقضى بينهم) أى بين الخلائق (بالقسط) اى بالعدل (وهم لا يظلمون) (فان قيل) هذه الآية مكررة (أجيب) بأن الاولى فى القضاء بين الانبياء وتكذيبهم وهذه عامة وقيل بين المؤمنين والكفار وقيل بين الرؤساء والاتباع فان الكفار وان اشتركوا فى العذاب فلا بد أن يقضى الله تعالى بينهم لانه لا يمتنع أن يكون قد ظلم بعضهم بعضا فى الدنيا وخانه فيكون فى ذلك القضاء تخفيف عذاب بعضهم وتثقيل لعذاب الباقين لان العدل يقتضى أن ينصف المظلومين من الظالمين ولا سبيل اليه الا أن يخفف من عذاب المظلومين ويثقل فى عذاب الظالمين وقوله تعالى (ألا ان لله ما فى السموات والارض) تقرير لقدرته تعالى على الاثابة والعقاب (ألا ان وعد الله) أى ما وعد به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من البعث للجزاء ومن ثواب الطائع وعقاب العاصى (حق) لا شك فيه (ولكن أكثرهم) أى الناس (لا يعلمون) أى جاهلون عن حقيقة ذلك فهم باقون على الجهل معدودون مع البهائم لقصور عقلهم الا ظاهرا من الحياة الدنيا (هو) أى الذى يملك ما فى السموات والارض (يحيى ويميت) أى قادر على الاحياء والاماتة لا يتعذر عليه شئ مما أراد (واليه ترجعون) بعد الموت للجزاء وقوله تعالى (يا أيها الناس) خطاب عام وقيل لاهل مكة (قد جاءتكم موعظة من ربكم) أى كتاب فيه ما لكم وعليكم وهو القرآن (وشفاء) أى دواء (لما فى الصدور) أى القلوب من داء الجهل لان داء الجهل أضر للقلب من المرض للبدن وأمراض القلب هى الاخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة والقرآن مزيل لهذه الامراض كلها لان فيه المواعظ والزواجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الشفاء لهذه الامراض القلبية وانما خص تعالى الصدر بالذكر لانه موضع القلب وغيره وهو أعز موضع فى الانسان لمكان القلب فيه (وهدى) من الضلالة (ورحمة) أى اكرام عظيم (للمؤمنين) لانهم هم الذين انتفعوا به دون غيرهم واختلف فى تفسير قوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته) فقال مجاهد وقتادة فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله وقال ابن عباس والحسن فضل الله الاسلام ورحمته القرآن وعن أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قل بفضل الله وبرحمته فقال بكتاب الله والاسلام وقال ابن عمر فضل الله الاسلام ورحمته تزيينه فى قلوبنا وقيل فضل الله الاسلام ورحمته الجنة وقيل فضل الله القرآن ورحمته السنن ولا مانع من أن تفسر الآية بجميع ذلك اذ لا تنافى بين هذه الاقوال والباء فى بفضل الله وبرحمته متعلقة بمحذوف يفسره ما بعده تقديره قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته (فبذلك فليفرحوا) والتكرير للتأكيد والتقرير وايجاب

اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد المفعولين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل ان فرحوا بشئ فليفرحوا بهما فانه لامفروح به أحق منهما (هو) أي المحدث عنه من الفضل والرحمة (خير مما يجمعون) أي من حطام الدنيا ولذاتها الفانية وقرأ ابن عامر بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة (قل) يا محمد لكفار مكة (أرأيتم) أي أخبروني (ما أنزل) أي خلق (الله لكم من رزق) وانه تعالى جعل الرزق منزلا لانه مقدر في السماء يحصل بأسباب منها (فجعلتم منه) أي من ذلك الرزق (حراما وحلالا) وهو مثل ماذكروه من تحريم السائبة والوصيلة والحام ومثل قولهم هذه أنعام وحرث حجر ومثل قولهم هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ومثل قولهم ثمانية أزواج من الضأن اثنين (قل) لهم يا محمد (آلله أذن لكم) في هذا التحريم والتحليل (أم) أي بل (على الله تفترون) أي تكذبون على الله بنسبة ذلك اليه (وما ظن الذين يفترون) أي يتعمدون (على الله الكذب) أي أي شئ ظنهم به (يوم القيامة) أيحسبون أن لايؤاخذهم ولايجازيهم على أعمالهم فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والتهديد والوعيد العظيم لمن يفتري على الله الكذب (ان الله لذو فضل على الناس) بنعم كثيرة لاتحصى منها انزال الكتب مفصلا فيها مايرضيه ومايسخطه ومنها ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام لبيانها عما يحتاج عقول الخلق منها ومنها طول امهالهم على سوء أفعالهم ومنها انعامه عليهم بالعقل فكان شكره واجبا عليهم (ولكن أكثرهم) أي الناس (لايشكرون) هذه النعم ولايستعملون العقل في دلائل الله تعالى ولايقبلون دعوة أنبيائه ولاينتفعون باستماع كتب الله وقوله تعالى (وما تكون) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم (في شأن) أي عمل من الاعمال وجمعه شؤن والضمير في قوله تعالى (وما تتلو منه) اما للشأن لان تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو معظم شأنه واما للتنزيل كأنه قيل وما تتلو من التنزيل (من قرآن) لان كل جزء منه قرآن والاضمار قبل الذكر تفخيم له واما لله تعالى والمعنى وما تتلو من الله من قرآن نازل عليك وقوله تعالى (ولا تعملون من عمل) أي أي عمل كان تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رئيسهم وهو النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك ذكر حيث خص بما فيه فخامة وهو الشأن وذكر حيث عم بقوله تعالى من عمل بما يتناول الجليل والحقير وقيل ان الكل داخلون في الخطابين الاولين أيضا لانه من المعلوم انه اذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين في ذلك الخطاب كما في قوله تعالى يا أيها النبي اذا طلقتم النساء (الا كنا عليكم شهودا) أي رقباء نحصي عليكم أعمالكم لان الله تعالى رقيب على كل شئ وعالم بكل شئ اذ لامحدث ولاخالق ولاموجد الا الله تعالى فكل مايدخل في الوجود هنا من أحوال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة داخل في علمه وشاهد عليه (اذ تفيضون) أي الله شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون (فيه) أي ذلك العمل وقيل الافاضة الدفع بكثرة وقال الزجاج اذ تنتشرون فيه يقال أفاض القوم في الحديث اذا انتشروا فيه (وما يعزب) أي يغيب (عن ربك) يا محمد

(من

أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة وأما البشرى في الآخرة فتلقي الملائكة اياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وما يرونه من بياض وجوههم واعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرؤن منها وسلام الله تعالى عليهم كما قال تعالى سلام قولا من رب رحيم وغير ذلك من المبشرات بما بشر الله تعالى به عباده المتقين في كتابه وعلى ألسنة أنبيائه من جنته وكريم ثوابه فان لفظ البشارة مشتق من خبر سار يظهر أثره في بشرة الوجه فكل ما كان كذلك دخل في هذه الآية ثم انه تعالى لما ذكر صفة أوليائه وشرح أحوالهم قال تعالى (لا تبديل) أي بوجه من الوجوه (لكلمات الله) أي لا تغيير لاقواله ولا اخلاف لمواعيده والكلمة والقول سواء ونظيره قوله تعالى ما يبدل القول لدي وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى كونهم مبشرين في الدارين (هو الفوز العظيم) هذه الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقق المبشر به وتعظيم شأنه وليس من شرطه أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله (ولا يحزنك) يا محمد (قولهم) أي هؤلاء المشركين أي لا يهمك تكذيبهم وتهديدهم وتشويرهم في تدبير هلاكك وابطال أمرك وسائر ما يتكلمون به في شأنك وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي من أحزنه والباقون بفتح الياء وضم الزاي وكلاهما بمعنى وقوله تعالى (ان العزة) أي القوة (لله جميعا) استئناف بمعنى التعليل كأنه قيل مالي لا أحزن فقيل ان العزة لله جميعا أي ان الغلبة والقهر في مملكة الله لله جميعا لا يملك أحد شيأ منها لا هم ولا غيرهم فهو يغلبهم وينصرك عليهم قال تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلي وقال تعالى انا لننصر رسلنا وقيل ان المشركين كانوا يتعززون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم فأخبر الله تعالى ان جميع ذلك في ملكه فهو قادر على أن يسلب جميع ذلك ويذلهم بعد العز (هو السميع) أي البليغ السمع لاقوالهم (العليم) أي المحيط العلم بضمائرهم وجميع أحوالهم فهو البالغ القدرة على كل شئ فيجازيهم وهو تعليل لتفرده بالعزة لانه تفرد بهذين الوصفين فانتفيا عن غيره ومن انتفيا عنه كان دون الحيوانات العجم فأنى يكون له عزة (فان قيل) قوله تعالى ان العزة لله جميعا يضاد قوله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (أجيب) بالمنع لان عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله فهي لله (ألا ان لله من في السموات ومن في الارض) ملكا وخلقا (فان قيل) لقد ذكر الله تعالى في الآية المتقدمة ألا ان لله ما في السموات والارض بلفظ ما وقال هنا بلفظ من فما فائدة ذلك (أجيب) بأنه تعالى غلب في الآية الاولى ما لا يعقل على من يعقل لكثرته وفي هذه غلب العاقل على غيره لشرفه وقيل مجموع الآيتين دال على ان الكل خلقه وملكه وقيل ان المراد بمن في السموات الملائكة وبمن في الارض الثقلان وانما خصهم بالذكر لشرفهم واذا كان هؤلاء في ملكه وتحت قهره فما لا يعقل منها أحق أن لا يكون له ندا وشريكا فهو كالدليل على قوله تعالى (وما يتبع الذين يدعون) أي يعبدون (من دون الله) أي غيره أصناما (شركاء) على الحقيقة وان كانوا يسمونها شركاء تعالى الله عن ذلك (ان) أي ما (يتبعون) في ذلك (الا الظن) أي ظنها انها آلهة تشفع لهم وانها تقربهم الى الله تعالى ثم بين تعالى ان هذا الظن لا حكم له بقوله تعالى (وان) أي ما (هم الا يخرصون) أي يكذبون في ذلك ويجوز

(من مثقال) أى وزن (ذرة) وهى النملة الحمراء الصغيرة خفيفة الوزن جدا وقيل المراد بها الهباء وهو الشئ المنبث الذى تراه فى البيت فى ضوء الشمس وقرأ الكسائى بكسر الزاى والباقون بالضم ومن صلة على القراءتين وانما قيدبقوله تعالى (فى الارض ولا فى السماء) تقريبا للعقول العامة (فان قيل) لم قدم ذكر الارض على السماء وقدم ذكر السماء على الارض فى سورة سبأ حيث قال تعالى ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض فما فائدة ذلك (أجيب) بأن الكلام هنا فى حال أهلها والمقصود منه هو البرهان على احاطة علمه على ان العطف بالواو حكمه حكم التثنية (ولا أصغر من ذلك) أى الذرة (ولا أكبر) أى منها (الا فى كتاب مبين) أى بين وهو اللوح المحفوظ وقرأ حمزة برفع الراء من أصغر وأكبر على الابتداء والخبر والباقون بالنصب على ان ذلك اسم لا وفى كتاب خبرها (ألا ان أولياء الله) أى الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة (لا خوف عليهم) من لحوق مكروه (ولا هم يحزنون) بفوات مأمول وفسرهم بقوله تعالى (الذين آمنوا وكانوا يتقون) الله بامتثال أمره ونهيه وهذا الذى فسر الله تعالى به الاولياء لامزيد عليه وعن على رضى الله عنه هم قوم صفر الوجوه من السهر عمش العيون من العبر خمص البطون من الخوا وعن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أولياء الله تعالى فقال هم الذين يذكر الله برؤيتهم يعنى السمت والهيئة وعن ابن عباس الاخبات والسكينة وعن عمر رضى الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان من عباد الله عبادا ماهم بأنبياء ولا شهداء تغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله قالوا يا رسول الله أخبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا فى الله بغير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس ثم قرأ الآية ونقل النووى فى مقدمة شرح المهذب عن الامامين الشافعى وأبى حنيفة رضى الله تعالى عنهما ان كلا منهما قال اذا لم تكن العلماء أولياء الله فليس لله ولى وذلك فى العالم العامل بعلمه وقال القشيرى من شرط الولى أن يكون محفوظا كما أن من شرط النبى أن يكون معصوما فكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخادع فالولى هو الذى توالت أفعاله على الموافقة ولما نفى الله عنهم الخوف والحزن زادهم فقال تعالى مبينا لتوليته لهم بعد أن شرع بتوليتهم له (لهم البشرى) أى الكاملة (فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) أما البشرى فى الدنيا فسرت بأشياء منها الرؤيا الصالحة فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال البشرى هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له وقال صلى الله عليه وسلم ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وقال الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا حلم أحدكم حلما يخافه فليتعوذ منه وليبصق عن شماله ثلاث مرات فانه لا يضره وقال الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة ومنها محبة الناس له وذكرهم اياه فى الثناء الحسن وعن أبى ذر قال قلت يا رسول الله ان الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال تلك عاجل بشرى المؤمن ومنها البشرى لهم عند الموت قال تعالى تتنزل عليهم الملائكة

أن يكون وما يتبع في معنى الاستفهام أي وأي شيء يتبعون وشركاء على هذا النصب يدعون وعلى الاول يتبع وكان حقه وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فاقتصر على أحدهما للدلالة وقوله تعالى (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) أي ليزول عنكم التعب والكلال فيه بما تقاسون في نهاركم من تعب التردد في المعاش (والنهار مبصرا) أي مضيئا تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم تنبيه على كمال قدرته وعظيم نعمته المتوحد هو بهما ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة واضافة الابصار الى النهار مع أنه يبصر فيه على طريق نقل الاسم من المسبب الى السبب كقولهم ليل نائم لان الليل سبب للسكون قال قطرب تقول العرب أظلم الليل أي صار ذا ظلمة وأضاء النهار أي صار ذا ضياء (ان في ذلك) المذكور (لآيات) أي دلالات على وحدانيته تعالى (لقوم يسمعون) سماع اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك ان الذي خلق الاشياء كلها هو الاله المعبود المتفرد بالوحدانية في الوجود ثم ذكر الله تعالى نوعا من أباطيل الكفار بقوله تعالى (قالوا) أي اليهود والنصارى ومن زعم ان الملائكة بنات الله (اتخذ الله ولدا) قال الله تعالى (سبحانه) أي تنزيها له عن الولد (هو الغني) عن كل أحد وانما يطلب الولد من يحتاج اليه ثم بين تعالى غناه بقوله تعالى (له ما في السموات وما في الارض) من ناطق وصامت ملكا وخلقا ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما أضافوا اليه عطف بالانكار والتوبيخ فقال (ان) أي ما (عندكم من سلطان) أي حجة (بهذا) أي الذي تقولونه ثم بالغ تعالى في ذلك الانكار عليهم بقوله تعالى (أتقولون على الله ما لا تعلمون) حقيقته وصحته وتضيفون اليه ما لا يجوز اضافته اليه تعالى جهلا منكم والاستفهام للتوبيخ (قل) يا محمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون عليه الباطل ويزعمون ان له ولدا (ان الذين يفترون) أي يتعمدون (على الله الكذب لا يفلحون) أي لا ينجحون في سعيهم ولا يفوزون بمطلوبهم بل خابوا وخسروا فانهم لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة ومن الناس من اذا فاز بشيء من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة ظن انه قد فاز بالمقصد والله سبحانه وتعالى أزال هذا الخيال بأن قال (متاع في الدنيا) وفيه اضمار تقديره لهم متاع في الدنيا على انه مبتدأ خبره محذوف ويصح أن يكون خبرا لمبتدا محذوف تقديره افتراؤهم متاع في الدنيا يقيمون به رياستهم في الكفر أو حياتهم أو تقلبهم متاع في الدنيا وهو أيام يسيرة بالنسبة الى طول بقائهم في العذاب (ثم الينا مرجعهم) بالموت (ثم نذيقهم العذاب الشديد) بعد الموت (بما) أي بسبب ما (كانوا يكفرون) ولما ذكر سبحانه وتعالى في هذه السورة من أحوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد شرع بعد ذلك في قصص الانبياء وما جرى لهم مع أممهم وذكر الله تعالى منهم في هذه السورة ثلاث قصص القصة الاولى قصة نوح عليه السلام المذكورة بقوله تعالى (واتل) يا محمد (عليهم) أي كفار قريش (نبأ) أي خبر (نوح) وذلك ليكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولاصحابه أسوة بمن سلف من الانبياء فانه كان صلى الله عليه وسلم اذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كان الا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة

اذا عمت خفت ولان الكفار اذا سمعوا هذه القصص وعلموا أن الجهال وان بالغوا في ايذاء الانبياء المتقدمين الا ان الله تعالى أعانهم بالآخرة ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم كان سماع هؤلاء الكفار لامثال هذه القصص سببا لانكسار قلوبهم ووقوع الخوف والوجل في صدورهم ولان الكلام اذا طال تقريرا في نوع من أنواع العلوم فربما حصل نوع من أنواع الملالة فاذا انتقل الانسان من ذلك الفن من العلم الى فن آخر شرح صدره وطاب قلبه ووجد في نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلا قويا ولانه صلى الله عليه وسلم لما لم يتعلم علما ولم يطالع كتابا ثم ذكر هذه القصص من غير تفاوت ومن غير زيادة ومن غير نقصان دل ذلك على أنه صلى الله عليه وسلم انما عرفها بالوحي والتنزيل ويبدل من نبأ نوح (اذ قال لقومه) وهم بنو قابيل (يا قوم ان كان كبر) أي شق وعظم (عليكم مقامي) أي لبثي فيكم ألف سنة الا خمسين عاما (وتذكيري) أي وعظي اياكم (بآيات الله) أي بحججه وبيناته فعزمتم على قتلي وطردي (فعلى الله توكلت) أي فهو حسبي وثقتي أو قيامي على الدعوة لانهم كانوا اذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بينا وكلامهم مسموعا كما يحكى عن عيسى عليه السلام أنه كان يعظ الحواريين قائما وهم قعود (فأجمعوا أمركم) أي فاعزموا على أمر تفعلونه في أذاي بالاهلاك أو غيره (وشركاءكم) أي وادعوا شركاءكم أو الواو بمعنى مع أي مع شركائكم وهي الاصنام وانما حثهم على الاستعانة بها بناء على مذهبهم الفاسد واعتقادهم أنها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لا تضر ولا تنفع تبكيتا وتوبيخا لهم (ثم لا يكن أمركم) أي الذي تقصدونني به (عليكم غمة) أي مستورا من غمه اذا ستره بل اظهروه وجاهروني مجاهرة فانه لا معارضة لي بغير الله الذي يستوي عنده السر والجهر (ثم اقضوا الي) أي أمضوا ما في أنفسكم وافرغوا منه يقال قضى فلان اذا مات ومضى وقضى دينه اذا فرغ منه وقيل معناه توجهوا الي بالقتل والمكروه وقيل فاقضوا ما أنتم قاضون وهذا مثل قول السحرة لفرعون فاقض ما أنت قاض أي اعمل ما أنت عامل (ولا تنظرون) أي ولا تؤخرون بعد اعلامكم اياي ما أنتم عليه وانما قال ذلك اظهارا لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته وانهم لن يجدوا اليه سبيلا (فان توليتم) أي أعرضتم عن تذكيري (فما سألتكم من أجر) أي من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فينفركم عني وتتهموني لاجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظتكم ومتى كان الانسان فارغا عن الطمع كان قوله أقوى تأثيرا في القلب (ان أجري الا على الله) وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة أي ما أنصحكم الا لوجه الله تعالى لا لغرض من أغراض الدنيا وهكذا ينبغي لكل من ينفع الناس بعلم أو ارشاد الى طريق الله تعالى (وأمرت أن أكون من المسلمين) أي اني مأمور بالاستسلام لكل مكروه يصل الي منكم لاجل هذه الدعوة وقيل بدين الاسلام وانا ماض فيه غير تارك له قبلتموه أو لم تقبلوه (فكذبوه) أي أصروا على تكذيبه بعد ما ألزمهم الحجة وبين أن توليهم ليست الا لعنادهم وتمردهم لا جرم حقت عليهم كلمة العذاب (فنجيناه) من الغرق (ومن معه في الفلك) أي السفينة وكانوا ثمانين

(وجعلناهم) أى الذين أنجيناهم معه فى الفلك (خلائف) فى الارض يخلفون الهالكين بالغرق (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) بالطوفان وقوله تعالى (فانظر) أى أيها الانسان أو يا محمد (كيف كان عاقبة المنذرين) تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله وتسلية له وهذه القصة اذا سمعها من صدّق النبى صلى الله عليه وسلم ومن كذب به كان زجرا للمكلفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الايمان ليصلوا الى مثل ما وصل اليه قوم نوح وهذه الطريقة فى الترغيب والتحذير اذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدا ولهذا الوجه أكثر تعالى ذكر أقاصيص الانبياء عليهم السلام (ثم بعثنا من بعده) أى نوح (رسلا الى قومهم) لم يسم هنا تعالى من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعده هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم (فجاؤهم بالبينات) أى بالمعجزات الواضحات التى تدل على صدقهم (فما كانوا ليؤمنوا) أى فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة عنادهم وخذلان الله تعالى اياهم (بما) أى بسبب ما (كذبوا به من قبل) أى أنهم كانوا قبل بعثة الرسل اليهم أهل جاهلية مكذبين بالحق فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها كان لم يبعث اليهم أحد (كذلك) أى مثل ما طبعنا على هؤلاء بسبب تكذيبهم الرسل (نطبع) أى نختم (على قلوب المعتدين) فى كل زمن لكل من تعمد العدول فيما لا يحل له فلا يقبل الايمان لانهماكهم فى الضلال واتباعهم المألوف وفى أمثال ذلك دليل على أن الافعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد

* القصة الثانية قصة موسى عليه السلام المذكورة بقوله تعالى (ثم بعثنا من بعدهم) أى هؤلاء الرسل (موسى وهرون الى فرعون وملئه) أى أشراف قومه وغيرهم تبع لهم فهو مرسل الى الجميع (بآياتنا) التسع (فاستكبروا) عن اتباعها والايمان بها وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن قبولها (وكانوا قوما مجرمين) أى كفارا ذوى آثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترؤا على ردها (فلما جاءهم الحق) أى جاء فرعون وقومه (من عندنا) أى الذى جاء به موسى من عند ربه وعرفوا أنه ليس من عند موسى وهرون لتظاهر المعجزات الظاهرات المزيحة للشك (قالوا) أى غير متأملين له ولا ناظرين فى أمره لفرط تمردهم (ان هذا لسحر مبين) أى بين ظاهر يعرفه كل أحد وهم يعلمون أن الحق أبعد شئ من السحر الذى لا يظهر الا على كافر أو فاسق وقوله تعالى (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) فيه حذف تقديره أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر أسحر هذا فحذف السحر الاول اكتفاء بدلالة الكلام عليه ثم قال أسحر هذا وهو استفهام على سبيل الانكار بمعنى انه ليس بسحر ثم احتج على صحة قوله تعالى فقال (ولا يفلح الساحرون) فانه لو كان سحرا لاضمحل ولم يبطل سحر السحرة فقلب العصا حية وفلق البحر معلوم بالضرورة انه ليس من باب التمويه والتخييل فثبت انه ليس بسحر (قالوا) أى قوم فرعون لموسى (أجئتنا لتلفتنا) أى لتردنا وتصرفنا واللفت والفتل أخوان (عما وجدنا عليه آباءنا) أى من الدين وعبادة الاصنام

ثم قالوا لموسى وهرون (وتكون لكما الكبرياء) أى الملك والعز (فى الارض) أى أرض مصر قال الزجاج سمى الملك كبرياء لانه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا وأيضا الملوك موصوفون بالكبر ولهذا وصف ابن الرقيات مصعبا فى قوله

ملكه ملك رأفة ليس فيه * جبروت منه ولا كبرياء

ينفى ما عليه الملوك من ذلك ويجوز ان يقصد وابذلك ذمهما وأنهما ان ملكا أرض مصر تجبرا وتكبرا كما قال القبطى لموسى عليه السلام ان تريد الا أن تكون جبارا فى الارض (وما نحن لكما بمؤمنين) أى بمصدقين فيما جئتمابه (وقال فرعون) لقومه ارادة للمناظرة لما أتى به موسى عليه السلام (ائتونى بكل ساحر عليم) أى بالغ فى علم السحر لئلا يفوت شئ من السحر تأخر البعض وقرأ حمزة والكسائى بغير ألف بين السين والحاء وتشديد الحاء مفتوحة وألف بعدها بصيغة فعال دال على زيادة قلق فرعون والباقون بألف بعد السين وتخفيف الحاء مكسورة ولا ألف بعدها (فلما جاء السحرة) أى كل من فى أرض مصر منهم قالوا لموسى اما أن تلقى واما ان نكون نحن الملقين (قال لهم موسى ألقوا) جميع (ما أنتم ملقون) (فان قيل) كيف أمرهم بالكفر والسحر والامر بالكفر كفر (أجيب) بأنه انما أمرهم بالقاء ما معهم من الحبال والعصى التى معهم ليظهر للخلق انما أتوا به عمل فاسد وسعى باطل لا على طريق أنه عليه السلام أمرهم بالسحر (فلما ألقوا) ما معهم من الحبال والعصى وخيلوا لسحرهم أعين الناس أنها تسعى (قال موسى) منكرا عليهم (ما جئتم به السحر) قرأه أبو عمرو بهمزتين الاولى همزة الاستفهام فهى مفتوحة والثانية همزة وصل وله فيها وجهان التسهيل والبدل فما استفهامية مبتدأ وجئتم به خبرها والسحر بدل منه وقرأ الباقون بهمزة وصل فتسقط فى الوصل أى الذى جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه سحرا ثم أخبرموسى عليه السلام بقوله (ان الله سيبطله) أى يهلكه ويظهر فضيحة صاحبه (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) أى لا يثبته ولا يقويه وقول البيضاوى وفيه دليل على أن السحر افساد وتمويه لا حقيقة له محمول على ما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والادوية والا فله حقيقة فهو حق عند أهل السنة وهو علم بكيفية استعدادات تقتدر بها النفوس البشرية على ظهور التأثير فى عالم العناصر (ويحق) أى يثبت ويظهر (الله الحق بكلماته) أى بقضائه ووعده الصادق لموسى عليه السلام وقد أخبر الله تعالى فى غير هذه السورة انه كيف أبطل ذلك السحر وذلك بسبب أن ذلك الثعبان قد تلقف تلك الحبال والعصى (ولو كره المجرمون) ذلك * ولما بين تعالى أن قوم موسى شاهدوا هذه المعجزات ومع ذلك لم يؤمن منهم الا القليل كما قال تعالى (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه) وانما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه كان يغتم بسبب اعراض القوم عنه واستقرارهم على الكفر بين تعالى أن له فى هذا الباب بسائر الانبياء اسوة لان الذى ظهر من موسى عليه السلام من المعجزات كان أمرا عظيما ومع ذلك فما آمن له الا ذرية من قومه والذرية اسم يقع على القليل من القوم قال ابن عباس الذرية القليل والهاء التى فى قومه

راجعة الى موسى أى فما آمن من قومه الا طائفة من ذرارى بنى اسرائيل كأنه قيل الا أولاد من أولاد قومه وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف وقيل راجعة الى فرعون والذرية امرأته آسية ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وماشطته (على خوف من فرعون وملائهم) أى خوف منه لانه كان شديد البطش وكان قد أظهر العداوة مع موسى واذا علم ميل القوم الى موسى كان يبالغ فى ايذائهم فلهذا السبب كانوا خائفين منه ومن أشراف قومه والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد فى ضمير العظمة لانه ذو أصحاب يأتمرون به وقيل المراد بفرعون آله كما يقال ربيعة ومضر (أن يفتنهم) أى يصرفهم ويصدهم عن الايمان (وان فرعون لعال) أى متكبر قاهر (فى الارض) أى أرض مصر (وانه لمن المسرفين) أى المجاوزين الحد فانه كان من أخس العبيد وادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب لبنى اسرائيل (وقال موسى) لقومه (ياقوم ان كنتم آمنتم بالله) أى صدقتم به وبآياته (فعليه توكلوا) أى ثقوا به واعتمدوا عليه فانه ناصر أوليائه ومهلك أعدائه (ان كنتم مسلمين) أى مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له وقيل ان كنتم آمنتم بالقلب وأسلمتم بالظاهر (فقالوا) مجيبين له (على الله توكلنا) أى عليه اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا ربهم فقالوا (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) أى لا تسلطهم علينا فيفتنونا (ونجنا) أى خلصنا (برحمتك من القوم الكافرين) أى من أيدى قوم فرعون لانهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم فى الاعمال الشاقة وانما قالوا ذلك لانهم كانوا مخلصين لا جرم ان الله تعالى قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء فى الارض وفى تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعى ينبغى أن يتوكل أولا لتجاب دعوته * ولما شرح الله تعالى خوف المؤمنين من الكافرين وما ظهر فيهم من التوكل على الله تعالى أتبعه بأن أمر موسى وهرون عليهما السلام باتخاذ البيوت بقوله تعالى (وأوحينا الى موسى وأخيه) أى الذى طلب موازرته ومعاضدته (أن تبوآ) أى اتخذا (لقومكما بمصر بيوتا) تسكنون فيها أو ترجعون اليها للعبادة (واجعلوا) أنتما وقومكما (بيوتكم) أى تلك البيوت (قبلة) مصلى أو مساجد كما فى قوله تعالى فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه موجهة نحو القبلة أى الكعبة وكان موسى عليه السلام يصلى اليها وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بيوتا وبيوتكم برفع الباء والباقون بالخفض (وأقيموا الصلاة) فيها ذكر المفسرون فى كيفية هذه الواقعة وجوها ثلاثة الاول أن موسى عليه السلام ومن معه كانوا فى أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا فى بيوتهم خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم ويؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون على هذه الحالة فى أول الاسلام بمكة الثانى انه قيل انه تعالى لما أرسل موسى اليهم أمر فرعون بتخريب مساجد بنى اسرائيل ومنعهم من الصلاة فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا مساجد فى بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون الثالث أنه تعالى لما أرسل موسى اليهم وأظهر فرعون تلك العداوة الشديدة أمر الله تعالى موسى

وهرون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الاعداء وتكفل الله تعالى بأن يصونهم من شر الاعداء وقد خص الله تعالى موسى وهرون فى أول هذه الآية بالخطاب بقوله تعالى أن تبوآ لقومكما لان التبوء للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤس القوم للتشاور ثم عم هذا الخطاب فقال واجعلوا بيوتكم قبلة لان جعل البيوت مساجد واقامة الصلاة مما ينبغى أن يفعله كل أحد ثم خص موسى عليه السلام فى آخر الكلام بالخطاب فقال تعالى (وبشر المؤمنين) أى بالنصر فى الدنيا والجنة فى العقبى لان الغرض الاصلى من جميع العبادات حصول هذه البشارة فخص الله تعالى موسى بها ليدل بذلك على أن الاصل فى الرسالة هو موسى عليه السلام وان هرون عليه السلام تبع له ثم ان موسى عليه السلام لما بالغ فى اظهار المعجزات القاهرة الظاهرة ورأى القوم مصرين على الجحد والعناد والانكار أخذ يدعو عليهم ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولا سبب اقدامه على الجرائم وكان جرمهم هو لاجل حبهم الدنيا ركو (و) لهذا السبب (قال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه) أى أشراف قومه على ماهم عليه من الكفر والكبر (زينة) أى عظيمة يتزينون بها من الحلية واللباس وغيرهما من الدواب والغلمان وأثاث البيت الفاخر ونحو ذلك (وأموالا) أى كثيرة من الذهب والفضة وغيرهما (فى الحياة الدنيا) روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كان لهم من فسطاط مصر الى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت ثم بين غايتها لهم فقال مفتتحا بالنداء باسم الرب لبعده واتباعه من مثل حالهم (ربنا) أى يا ربنا آتيتهم ذلك (ليضلوا) أى فى خاصة أنفسهم ويضلوا غيرهم (عن سبيلك) أى دينك واللام للعاقبة وهى متعلقة بآتيت كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقيل لام كى أى آتيتهم كى تفتنهم وقيل هو دعاء عليهم بما علم من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غير ذلك وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بضم الياء والباقون بالفتح (ربنا اطمس على أموالهم) أى امسخها وغيرها عن هيئتها قال قتادة صارت أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم حجارة وقال محمد بن كعب جعل سكرهم حجارة وقال ابن عباس بلغنا ان الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا وأرباعا ودعا عمر بن عبد العزيز بخريطة فيها أشياء من بقايا آل فرعون فاخرج منها البيضة مشقوقة والجوزة مشقوقة وانها كالحجر قال السدى مسخ الله تعالى أموالهم حجارة والنخيل والثمار والدقيق والاطعمة فكانت احدى الآيات التسع (واشدد على قلوبهم) أى اطبع عليها واستوثق حتى لا تنشرح للايمان وقوله (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم) جواب للدعاء أو دعاء بلفظ النهى أو عطف على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض وقوله تعالى (قال قد أجيبت دعوتكما) فيه وجهان الاول قال ابن عباس ان موسى كان يدعو وهرون كان يؤمن فلذلك قال دعوتكما وذلك أن من يقول عند دعاء الداعى آمين فهو أيضا داع لان قوله آمين تأويله استجب فهو سائل كما ان الداعى سائل أيضا الثانى أن يكون كل منهما ذكر هذا غاية ما فى الباب أن يقال انه تعالى حكى هذا الدعاء عن موسى بقوله تعالى وقال موسى ربنا وهذا لا ينافى أن يكون هرون قد ذكر

الدعاء

الدعاء أيضا وأما قوله تعالى (فاستقيما) فمعناه اثبتا على الدعوة والرسالة والزيادة في إلزام الحجة فقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما فلا تستعجلا قال ابن جريج ان فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) أي الجاهلين الذين يظنون انه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا في الحال فربما أجاب الله تعالى دعاء الانسان في مطلوبه الا انه انما ربما يوصله اليه في وقته المقدور والاستعجال لا يصدر الا من الجهال وهذا كما قال تعالى لنوح عليه الصلاة والسلام اني أعظك أن تكون من الجاهلين وهذا النهي لا يدل على ان ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما أن قوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن ذكوان بتخفيف النون والباقون بتشديدها لان نون التوكيد تثقل وتخفف ولما أجاب الله تعالى دعاءهما أمر بني اسرائيل وكانوا ستمائة ألف بالخروج من مصر في الوقت المعلوم ويسر لهم أسبابه وفرعون كان غافلا عن ذلك فلما سمع انهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته خرج في عقبهم كما قال تعالى (وجاوزنا) أي قطعنا (ببني اسرائيل) أي عبدنا المخلص لنا (البحر) حتى بلغوا الشط حافظين لهم (فأتبعهم فرعون وجنوده) أي لحقهم وأدركهم يقال تبعه وأتبعه اذا أدركه ولحقه (بغيا وعدوا) أي ظلما وعدوانا وقيل بغيا في القول وعدوا في الفعل فلما أدركهم فرعون قالوا لموسى أين المخلص والمخرج البحر أمامنا وفرعون وراءنا قد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم فأوحى الله تعالى الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق لموسى وقومه فكان كل فرق كالطود العظيم وكشف عنه وجه الارض وانتشر لهم البحر فلما وصل فرعون الى البحر هابوا دخوله وكان فرعون على حصان أدهم وكان معه في عسكره ثمانمائة ألف حصان على لون حصانه وميكائيل يسوقهم حتى لم يشذ منهم احد فلما خرج آخر بني اسرائيل من البحر تقدمهم جبريل على فرس وخاض البحر فلما وجد الحصان ريح الانثى لم يملك فرعون من أمره شيأ فنزل البحر واتبعه جنوده حتى اذا كملوا جميعا في البحر وهم أولهم بالخروج التطم البحر عليهم فلما أتاه الغرق أتى بكلمة الاخلاص كما قال تعالى (حتى اذا أدركه الغرق) أي لحقه (قال آمنت أنه) أي بأنه (لا اله الا الذي امنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين) (فان قيل) انه آمن ثلاث مرات أولها قوله آمنت وثانيها قوله لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وثالثها قوله وأنا من المسلمين فما السبب في عدم القبول (اجاب) العلماء عن ذلك بأجوبة منها انه انما آمن عند نزول العذاب والايمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبول ويدل عليه قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ودس جبريل في فيه من حمأ البحر مخافة أن تناله الرحمة وقال له (آلآن) تؤمن (وقد عصيت قبل) وضيعت التوبة في وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية (وكنت من المفسدين) بضلالك واضلالك عن الايمان والتوبة حتى أغلق بابها بحضور الموت ومعاينة الملائكة وانما قال له وكنت من المفسدين في مقابلة قوله وأنا من المسلمين ومنها ان فرعون انما قال هذه الكلمة ليتوصل بها الى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة ولم يكن قصده الاقرار بوحدانية

الله تعالى والاعتراف له بالربوبية فلم ينفعه ما قال فى ذلك الوقت ومنها ان فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى ولذلك قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل فلم ينفعه ذلك لحصول الشك فى ايمانه ومثل هذا الاعتقاد الفاسد لا تزول ظلمته الا بنور الحجة القطعية والدلائل اليقينية ومنها ما روى فى بعض الكتب أن بعض أقوام بنى اسرائيل لما جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل فلما قال فرعون آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل انصرف ذلك الى العجل الذى آمنوا بعبادته فى ذلك الوقت فكانت هذه الكلمة فى حقه سببا لزيادة الكفر ومنها ان الايمان انما كان يتم بالاقرار بوحدانية الله تعالى وبالاقرار بنبوة موسى عليه السلام وفرعون لم يقر بالنبوة فلم يصح ايمانه ونظيره ان الواحد من الكفار لو قال ألف مرة أشهد أن لا اله الا الله فانه لا يصح ايمانه الا اذا قال معه وأشهد أن محمدا رسول الله فكذا هنا ومنها أن جبريل عليه السلام أتى فرعون بفتوى ما قول الامير فى عبد نشأ فى مال مولاه ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب فرعون فيه يقول أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج عن سيده الكافر بنعمته أن يغرق فى البحر ثم ان فرعون لما اغرق رفع جبريل عليه السلام اليه خطه (فان قيل) فما فائدة دس جبريل فى فم فرعون ذلك لانه فى تلك الحالة اما أن يكون التكليف ثابتا أم لا فان كان فكيف يمنعه من التوبة وان كان غير مكلف فلا فائدة فى ذلك (أجيب) بأن التكليف كان ثابتا وجبريل عليه السلام لم يفعل ذلك من قبل نفسه فانه عبد مأمور والله تعالى يفعل ما يشاء كما قال تعالى فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وقال تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة وهكذا فعل بفرعون منعه من الايمان عند الموت جزاء على تركه الايمان أولا فدس الحما فى فم فرعون من جنس الختم والطبع على القلب ومن الناس من قال قائل هذا القول هو الله تعالى لانه ذكر بعده (فاليوم ننجيك) أى نخرجك من البحر (ببدنك) أى جسمك الذى لا روح فيه كاملا سويا لم يتغير أو نخرجك من البحر عريانا من غير لباس أو ان المراد بالبدن الدرع قال الليث البدن هو الدرع الذى يكون قصير الكمين وهذا منقول عن ابن عباس قال كان عليه درع من ذهب يعرف به فأخرجه الله تعالى من الماء مع ذلك الدرع ليعرف (لتكون لمن خلفك) أى بعدك (آية) أى عبرة فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك وعن ابن عباس أن بعض بنى اسرائيل شكوا فى موته فأخرج لهم ليروه ويشاهدوا ما لحق على ذلك الذل والمهانة بعد ما سمعوا منه قوله أنا ربكم الاعلى ليعلموا ان دعواه كانت باطلة وان ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره الى ما يرون لعصيانه ربه (وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) أى لا يعتبرون بها وهذا الكلام ليس الا كلام الله تعالى ولكن القول الاول أشهر (ولقد بوأنا) أى أنزلنا (بنى اسرائيل مبوأ صدق) أى منزلا صالحا مرضيا وهو مصر والشام وانما وصف المكان بالصدق لان عادة العرب اذا مدحت شيأ أضافته الى الصدق تقول العرب هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه أن الشئ اذا كان كاملا صالحا لابد أن يصدق الظن فيه وقيل أرض

الشأم والقدس والاردن لانها بلاد الخصب والخير والبركة (ورزقناهم من الطيبات) أى
الحلالات المستلذات من الفواكه والحبوب والالبان والاعسال وغيرها فأورث تعالى
بنى اسرائيل جميع ما كان تحت أيدى فرعون وقومه من الناطق والصامت والحرث والنسل
كما قال تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها (فما اختلفوا)
أى هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بنى اسرائيل فى أمر دينهم (حتى جاءهم العلم) أى
جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك أنهم كانوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم مقرين به مجمعين على
نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوبا عندهم وكانوا يخبرون بمبعثه وصفته ونعته ويفتخرون
بذلك على المشركين فلما بعث صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن
سلام وأصحابه وكفر به بعضهم بغيا وحسدا وايثارا لبقاء الرياسة وانهما اختلفوا فى دينهم الا
من بعد ما قرؤا التوراة وعلموا أحكامها (ان ربك) يا محمد (يقضى بينهم يوم القيامة) أى الذى
هو أعظم الايام (فيما كانوا) أى بأفعالهم الجبلية (فيه يختلفون) أى فيميز الحق من
الباطل والصديق من الزنديق ويسكن كلا داره واختلف المفسرون فى المخاطب بقوله تعالى
(فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب) أى التوراة (من قبلك) أى
فانه ثابت عندهم يخبرونك بصدقه فقيل هو النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر والمراد أمته
كقوله تعالى يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين وقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن
عملك وقوله تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله
ومن الامثلة المشهورة اياك أعنى واسمعى ياجارة والذى يدل على صحة ذلك وجوه الاول قوله
تعالى فى آخر السورة يا أيها الناس فبين أن ذلك المذكور فى أول الآية على سبيل الرمز هم
المذكورون فى هذه الآية على سبيل التصريح الثانى أنه صلى الله عليه وسلم لو كان شاكا فى
نبوة نفسه لكان شك غيره فى نبوته أولى وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية الثالث أنا اقدر
أن يكون شاكا فى نبوة نفسه فكيف يزول ذلك الشك باخبار أهل الكتاب عن نبوته مع أنهم
فى الاكثر كفار وثبت أن الخطاب وان كان فى الظاهر معه صلى الله عليه وسلم الا أن المراد هو
الامة ومثل هذا معتاد فان السلطان اذا كان له أمير وتحت راية ذلك الامير جمع فاذا
أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فانه لا يوجه خطابه عليهم بل يوجه ذلك الخطاب
على ذلك الامير الذى جعله أميرا عليهم ليكون ذلك أشد تأثيرا فى قلوبهم وقيل
الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم على حقيقته ولكن الله تعالى علم أنه صلى الله عليه وسلم
لا يشك فى ذلك الا أن المقصود أنه متى سمع هذا الكلام فانه يصرح ويقول يارب لا أشك ولا
أطلب الحجة من قول أهل الكتاب بل أكتفى بما أنزلته على من الدلائل الظاهرة ولهذا قال
صلى الله عليه وسلم لا أشك ولا أسأل أحدا منهم ونظيره هذا قوله للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا
يعبدون والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا
يعبدون الجن وكما قال تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين

والمقصود منه أن يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة من ذلك فكذلك هنا وقرأ ابن كثير والكسائي بنقل حركة الهمزة الى السين والباقون بالهمزة وسكون السين وقيل الخطاب لكل من يسمع أي ان كنت أيها السامع في شك مما أنزلنا على لسان نبينا اليك وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع الى حلها بالرجوع الى أهل العلم وأظهر هذه الاقوال أولها وهذه الاقوال تجري في قوله تعالى (لقد جاءك الحق من ربك) أي الآيات القاطعة لا مدخل للمرية فيه (فلا تكونن من الممترين) أي الشاكين فيه وفي قوله تعالى (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) أي الذين خسروا أنفسهم (ان الذين حقت عليهم كلمة ربك) أي ثبت عليهم قوله تعالى الذي كتبه في اللوح المحفوظ وأخبر به الملائكة أنهم (لا يؤمنون) أي يموتون كفارا فلا يكون غيره اذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه (ولو جاءتهم كل آية) فان السبب الاصلي لايمانهم وهو تعلق ارادة الله تعالى به مفقود فان الدليل لا يهدي الا باعانة الله تعالى واذا لم تحصل تلك الاعانة ضاعت تلك الدلائل (حتى يروا العذاب الاليم) فحينئذ لا ينفعهم الايمان كما لم ينفع فرعون وقرأ نافع وابن عامر كلمات بألف بعد الميم على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد * القصة الثالثة قصة يونس عليه السلام المذكورة بقوله تعالى (فلولا) أي فهلا (كانت قرية) واحدة من قرى الامم الماضية التي أهلكناها (آمنت) أي آمن أهلها عند اتيان الآيات أو عند رؤية أسباب العذاب (فنفعها) أي فتسبب عن ايمانها لذلك أنه نفعها (ايمانها) بأن تقبله الله تعالى منها وكشف العذاب عنها وقوله تعالى (الا قوم يونس) استثناء منقطع بمعنى لكن قوم يونس (لما آمنوا) أي لما أخلصوا الايمان أول ما رأوا آية العذاب ولم يؤخروه الى حلوله (كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا) ويجوز أن يكون متصلا والجملة في معنى النفي لتضمن حرف التحضيض معناه كأنه قيل ما آمن أهل قرية من القرى الهالكة فنفعهم ايمانهم الا قوم يونس (ومتعناهم الى حين) أي الى انقضاء آجالهم روي عن ابن مسعود وغيره ان قوم يونس كانوا بأرض نينوى من أرض الموصل فأرسل الله تعالى اليهم يونس عليه السلام يدعوهم الى الايمان فدعاهم فأبوا فقيل له ان العذاب مصبحهم الى ثلاثة أيام فأخبرهم بذلك فقالوا انا لم نجرب عليك كذبا فانظروا فان بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء وان لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم فلما كان في جوف تلك الليلة خرج يونس عليه السلام من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤسهم قدر ميل وقال وهب غامت السماء غيما عظيما أسود هائلا يدخن دخانا عظيما فهبط حتى غشي مدينتهم واسودت سطوحهم فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك فطلبوا يونس بينهم فلم يجدوه وقذف الله تعالى في قلوبهم التوبة فخرجوا الى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وأولادهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الايمان والتوبة وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب فحن بعضها الى بعض وعلت أصواتها واختلطت بأصواتهم وعجوا وتضرعوا الى الله تعالى وقالوا آمنا بما جاء به يونس عليه السلام فرحمهم الله تعالى واستجاب دعاءهم

وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلهم وكل ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه بلغ من توبتهم ان ترادّوا المظالم حتى انّ الرجل كان يقلع الحجر وكان قد وضع عليه أساس بنيانه فيردّه وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا ياحيّ حين لا حيّ وياحيّ محيي الموتى وياحيّ لا اله الا أنت فقالوها فكشف عنهم وعن الفضيل بن عياض اللهمّ انّ ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله وسيأتي بقية القصة ان شاء الله تعالى في سورة والصافات (فان قيل) قد حكى الله تعالى عن فرعون انه تاب في آخر الامر ولم يقبل توبته وحكى عن قوم يونس أنهم آمنوا وقبل توبتهم فما الفرق بين الحالين (أجيب) بأنّ فرعون انما تاب بعد أن شاهد العذاب وهو وقت اليأس من الحياة وأمّا قوم يونس فانهم تابوا قبل ذلك فانهم لما ظهرت أمارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل أن ينزل بهم ولم يباشرهم فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العاقبة وانّ الله تعالى قد علم صدق نياتهم في التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فانه لم يصدق في ايمانه ولا أخلص فلم يقبل منه قال الله تعالى (ولو شاء ربك) يا محمد (لآمن) بك وصدّقك (من في الارض كلهم) بحيث لم يشذ منهم أحد (جميعا) أى مجتمعين على ذلك في آن واحد لا يختلفون في شئ منه ولكن لم يشأ أن يصدّقك ويؤمن بك الا من سبقت له السعادة في الازل وفي هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم فانه كان حريصا على ايمانهم كلهم فأخبر الله تعالى أنه لا يؤمن به الا من سبقت له السعادة الازلية فلا تتعب نفسك على ايمانهم وهو قوله تعالى (أفأنت تكره الناس) أى الذين لم يرد الله ايمانهم (حتى يكونوا مؤمنين) أى ليس ايمانهم اليك حتى تكرههم عليه وتحرص عليه انما ايمان المؤمن واضلال الكافر بمشيئة الله تعالى وقضائه وليس لاحد ذلك سواه كما قال تعالى (وما كان) أى وما ينبغي وما يتأتى (لنفس) أى واحدة فما فوقها (أن تؤمن) أى يقع منها ايمان في وقت ما (الا باذن الله) أى بارادته لها بالايمان فانّ هدايتها الى الله فهو المهدى والمضل وقال ابن عباس بأمر الله وقال عطاء بمشيئة الله (ويجعل) الله (الرجس) أى العذاب والخذلان فانه سببه وقرأ شعبة وحده بالنون (على الذين لا يعقلون) أى لا يتدبرون في آيات الله تعالى فينتفعوا بها وهم يدعون انهم أعقل الناس ويتساقطون في مساوى الاخلاق وهم يدعون أنهم أبعد الناس عنها فلا تذهب نفسك عليهم حسرات

* ولما بين الله تعالى في الآيات السابقة أنّ الايمان لا يحصل الا بتخليق الله تعالى ومشيئته أمر بالنظر والاستدلال في الدلائل بقوله تعالى (قل انظروا) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات (ماذا) أى الذى (في السموات والارض) من الآيات وواضح الدلالات من عجائب صنعه ليدلكم على وحدته وكمال قدرته ففي العالم العلوى الشمس والقمر وهما دليلان على الليل والنهار والنجوم وحركات الافلاك ومقاديرها وأوضاعها والكواكب وما يختص بذلك من المنافع وفي العالم السفلى الجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان وأخصها حال الانسان كل ذلك من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وأنه خالقها كما قال

وقرأ عاصم وحمزة فى الوصل بكسر اللام والباقون بضمها وأما الهمزة من انظروا فكل القراء يبتدؤن بالضم (وما تغنى الآيات) أى وإن كانت فى غاية الوضوح (والنذر) جمع نذير أى الرسل (عن قوم لا يؤمنون) فى علم الله تعالى وحكمه * (تنبيه) * قال النحويون ماهنا تحتمل وجهين الأول أن تكون نفيا بمعنى أن هذه الآيات والنذر لا تفيد الفائدة فى حق من حكم الله تعالى عليه بأنه لا يؤمن كقولك لا يغنى عنك المال إذا لم تنفق والثانى أن تكون استفهاما كقولك أى شئ يغنى عنهم وهو استفهام بمعنى الانكار (فهل) أى ما (ينتظرون) أى أهل مكة بتكذيبك (إلا) أياما أى وقائع (مثل أيام) أى وقائع (الذين خلوا من قبلهم) أى من مكذبى الامم كالقبط وقوم نوح وما انطوى بينهما من الامم أى مثل وقائعهم من العذاب (قل) أى قل لهم يا محمد (فانتظروا) أى العذاب (إنى معكم من المنتظرين) أى لنزول العذاب بكم وقوله تعالى (ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا) عطف على محذوف دل عليه قوله تعالى الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم كأنه قيل نهلك الامم ثم ننجى رسلنا ومن آمن بهم على حكاية الاحوال الماضية وقرأ أبو عمرو وحده بسكون السين (كذلك) أى كما نجينا رسلنا والذين آمنوا معهم من الهلاك (حقا علينا ننج المؤمنين) أى ننجيك يا محمد ومن آمن معك وصدقك من الهلاك والعذاب (فان قيل) قوله تعالى حقا يقتضى الوجوب والله تعالى لا يجب عليه شئ (أجيب) بأن ذلك حق بحسب الوعد والحكم لا أنه حق بحسب الاستحقاق لما ثبت أن العبد لا يستحق على خالقه شيأ وهو اعتراض بين المشبه والمشبه به ونصب بفعله المقدر وقيل بدل من ذلك وقرأ حفص والكسائى بسكون النون الثانية والباقون بفتحها وأما الوقف عليها فجميع القراء يقفون على الجيم لانها مرسومة فى المصحف بالجيم بلا ياء فهى فى القرآن وقفا ووصلا بلا ياء لجميع القراء ولما ذكر تعالى الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات أمر رسوله صلى الله عليه وسلم باظهار دينه فقال (قل) يا محمد (يا أيها الناس) أى الذين أرسلت اليهم فشكوا فى أمرك ولم يؤمنوا بك (إن كنتم فى شك من دينى) أى الذى أدعوكم اليه انه حق وأصررتم على ذلك وعبدتم الاصنام التى لا تضر ولا تنفع (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) أى غيره وهو الاصنام التى لا قدرة لها على شئ (ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) بقبض أرواحكم التى لا شئ عندكم يعدلها فانه الذى يستحق العبادة وإنما خص الله تعالى هذه الصفة للتهديد وقيل انهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذى هو قادر على اهلاككم ونصرى عليكم (وأمرت أن) أى بأن (أكون من المؤمنين) أى المصدقين بما جاء من عند الله وقيل انه لما ذكر العبادة وهى من أعمال الجوارح أتبعها بذكر الايمان لانه من أعمال القلوب (فان قيل) كيف قال فى شك وهم كفار يعتقدون بطلان ما جاء به (أجيب) بأنه كان فيهم شاكون أو أنهم لما رأوا الآيات اضطربوا وشكوا فى أمره صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (وأن أقم وجهك للدين) عطف على أن أكون غير أن صلة

أن محكية بصيغة الامر ولافرق بينهما فى الغرض لان المقصود وصلها بما تضمن معنى المصدر ليدل معه عليه وصيغ الافعال كلها كذلك سواء الخبر منها والطلب والمعنى وأمرت بالاستقامة فى الدين والاستعداد فيه بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح أوفى الصلاة باستقبال القبلة وقوله (حنيفا) حال من فاعل أقم أو من الدين أو من الوجه ومعناه مائلا مع الدين غير معوج عنه الى دين آخر وقوله تعالى (ولاتكونن من المشركين) أى ممن يشرك بالله فى عبادته غيره فتهلك خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته أى ولاتكونن أيها الانسان وكذا قوله تعالى (ولاتدع) أى تعبد (من دون الله) أى غيره (مالا ينفعك) أى ان عبدته (ولايضرك) ان لم تعبده (فان فعلت) ذلك (فانك اذا من الظالمين) لنفسك لانك وضعت العبادة فى غير موضعها والظلم وضع الشئ فى غير محله فاذا كان ماسوى الحق معزولا عن التصرف كان اضافة التصرف الى ماسوى الحق وضعا للشئ فى غير موضعه فيكون ظلما * ولماذكر تعالى الاوثان وبين أنها لاتقدر على ضر ولانفع بين تعالى أنه هو القادر على كل شئ وأنه ذو الجود والكرم والرحمة بقوله تعالى (وان يمسسك) أى يصبك (الله بضر) كفقر ومرض (فلا كاشف) أى لادافع (له الا هو) لانه الذى أنزله بك (وان يردك بخير) كرخاء وصحة (فلاراد) أى دافع (لفضله) أى الذى أرادك به (يصيب به) أى بالخير (من يشاء من عباده وهو الغفور) أى البليغ الستر للذنوب (الرحيم) أى البالغ فى الاكرام وقرأ أبو عمرو وقالون والكسائى بسكون الهاء والباقون بالضم فرجح سبحانه وتعالى جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه الاول أنه تعالى لماذكر امساس الضر بين أنه لا كاشف له الا هو وذلك يدل على أنه تعالى يزيل المضار لان الاستثناء من النفى اثبات ولماذكر الخير لم يقل بأنه يدفعه بل قال انه لاراد لفضله وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات وأن الشر مطلوب بالعرض كما قال صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى انه قال سبقت رحمتى غضبى الثانى أنه سبحانه وتعالى قال فى صفة الخير يصيب به من يشاء من عباده وذلك يدل على أن جانب الخير أقوى وأغلب الثالث أنه تعالى قال وهو الغفور الرحيم وهذا أيضا يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام فى هذه الآية أنه سبحانه وتعالى بين أنه منفرد بالخلق والايجاد والتكوين والابداع وأنه لاموجد سواه ولا معبود الا اياه وأن جميع الممكنات مسندة اليه وجميع الكائنات محتاجة فالايدى مرفوعة اليه والحاجات منتهية اليه والعقول والهة فيه والرحمة والجود فائض منه * ولماقرر تعالى الدلائل المذكورة فى التوحيد والنبوة والمعاد وزين أمر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مبتدئا بالخلق والابداع والتكوين والاختراع ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية لئلا يبقى لاحد عذر بقوله تعالى (قل) يا محمد (يا أيها الناس) أى الذين أرسلت اليهم (قد جاءكم الحق من ربكم) هو رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالحق من الله تعالى والقرآن فلم يبق لكم عذر (فمن اهتدى) أى آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم وعمل بما فى الكتاب (فانما يهتدى لنفسه) لانه اتبع الحق الثابت وترك الباطل الزائل فأنقذ نفسه من النار وأوجب لها

الجنة فثواب اهتدائه له (ومن ضل) أى كفر بها أو بشئ منها (فانما يضل عليها) أى على نفسه لان وبال ضلاله عليها لان من ترك الباقى وتمسك بما ليس فى يده منه شئ فقد غر نفسه ثم قال صلى الله عليه وسلم (وما أنا عليكم بوكيل) أى حفيظ أى موكول الى أمركم وانما أنا بشير ونذير قال ابن عباس رهذه الآية منسوخة بآية السيف قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (واتبع) يا محمد (ما يوحى اليك) بالامتثال والتبليغ (واصبر) أى على دعوتهم وتحمل أذيتهم (حتى يحكم الله) أى بنصرك عليهم واظهار دينك أو بالامر بالقتال (وهو خير الحاكمين) اذ لا يمكن الخطأ فى حكمه تعالى لاطلاعه على السرائر كاطلاعه على الظواهر فحكم بقتل المشركين والجزية على أهل الكتاب يعطونها عن يد وهم صاغرون وأنشد بعضهم فى الصبر

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى * وأصبر حتى يحكم الله فى أمرى

سأصبر حتى يعلم الصبر أننى * صبرت على شئ أمر من الجمر

وروى أن أبا قتادة تخلف عن تلقى معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الانصار ثم دخل المدينة فقال له مالك لم تلقنا قال لم يكن عندنا دواب قال فأين النواضح قال قطعناها فى طلبك وطلب أبيك يوم بدر وقد قال صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار انكم ستلقون بعدى أثرة قال معاوية فماذا قال قال فاصبروا حتى تلقونى قال فاصبر قال اذا نصبر فقال عبد الرحمن بن حسان

ألا أبلغ معاوية بن حرب * أمير الظالمين نثا كلامى

بأنا صابرون فنظروكم * الى يوم التغابن والخصام

وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يونس أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق يونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون حديث موضوع

(سورة هود عليه السلام مكية)

الا أقم الصلاة الآية والا فلعلك تارك الآية وأولئك يؤمنون به الآية مائة وثنتان أو ثلاث وعشرون آية وكلماتها ألف وسبعمائة وخمس عشرة وحروفها سبعة آلاف وستمائة وخمسة أحرف وعن أبى بكر رضى الله عنه قال قلت يا رسول الله عجل اليك الشيب قال شيبتنى هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعم يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية

(بسم الله) أى الذى له تمام العلم وكمال الحكمة وجميع القدرة (الرحمن) لجميع خلقه بعموم البشارة والنذارة (الرحيم) لاهل ولايته بالحفظ فى سلوك سبيله وقوله تعالى (الر كتاب) مبتدأ وخبر أو كتاب خبر مبتدأ محذوف وتقدم الكلام على أوائل السور أول سورة البقرة وقرأ أبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائى بالامالة والباقون بالفتح وقوله تعالى (أحكمت آياته) صفة للكتاب وفسر الاحكام بوجوه الاول أحكمت آياته أى نظمت نظما محكما لا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم المرصف ولا يعتريه اخلال من جهة اللفظ والمعنى ولا يستطيع أحد

نقض شئ منه ولا الطعن فى شئ من بلاغته أو فصاحته الثانى ان الاحكام عبارة عن منع الفساد من الشئ فقوله أحكمت آياته أى لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع به كما قال ابن عباس الثالث أنها أحكمت بالحجج والدلائل أو جعلت حكيمة منقول من حكم بالضم اذا صار حكيما لانها مشتملة على أمهات الحكم النظرية والعملية وقوله تعالى (ثم فصلت) صفة أخرى للكتاب أى بينت بالاحكام والقصص والمواعظ والاخبار وبالانزال نجما نجما أو فصل فيها ولخص ما يحتاج اليه أو بجعلها سورا وقال الحسن أحكمت بالامر والنهى ثم فصلت بالوعد والوعيد *(تنبيه)* معنى ثم فى قوله ثم فصلت ليس للتراخى فى الوقت لكن فى الحال كما تقول هى محكمة أحسن الاحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل وفلان كريم الاصل ثم كريم الفعل وقوله تعالى (من لدن حكيم خبير) أى الله تعالى صفة أخرى للكتاب والتقدير الكتاب من حكيم خبير أو خبر بعد خبر والتقدير الر من لدن حكيم خبير أو صلة لاحكمت وفصلت أى أحكمت وفصلت من لدن حكيم خبير وعلى هذا التقدير قد حصل بين أوائل هذه السورة وبين آخرها مناسبة لطيفة كأنه يقول تعالى أحكمت آياته من لدن حكيم وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الامور وقوله تعالى (أن لا تعبدوا الا الله) يحتمل وجوها الاول أن تكون مفعولا له والتقدير كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لاجل أن لا تعبدوا الا الله الثانى أن تكون مفسرة لان فى تفصيل الآيات معنى القول قال الرازى والحمل على هذا أولى لان قوله تعالى وأن استغفروا معطوف على قوله تعالى أن لا تعبدوا فيجب أن يكون معناه أى لا تعبدوا ليكون الامر معطوفا على النهى فان كونه بمعنى لان لا تعبدوا يمنع عطف الامر عليه الثالث أن يكون كلاما مبتدأ منقطعا عما قبله على لسان النبى صلى الله عليه وسلم اغراء منه على اختصاص الله تعالى بالعبادة ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم (اننى لكم منه) أى الله (نذير) بالعقاب على الشرك (وبشير) بالثواب على التوحيد كأنه قيل ترك عبادة غير الله تعالى بمعنى اتركوها اننى لكم منه نذير وبشير كقوله تعالى فضرب الرقاب *(تنبيه)* هذه الآية الكريمة مشتملة على أشياء مترتبة الاول أنه تعالى أمر أن لا تعبدوا الا الله لان ما سواه محدث مخلوق مربوب وانما حصل بتكوين الله وايجاده والعبادة عبارة عن اظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل وذلك لا يليق الا بالخالق المدبر الرحيم المحسن فثبت ان عبادة غير الله تعالى منكرة المرتبة الثانية قوله تعالى (وان استغفروا ربكم) المرتبة الثالثة قوله (ثم توبوا اليه) واختلفوا فى بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه الاول أن معنى قوله وأن استغفروا أى اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم بين الشئ الذى يطلب به ذلك وهو التوبة فقال ثم توبوا اليه لان الداعى الى التوبة والمحرك عليها هو الاستغفار الذى هو عبارة عن طلب المغفرة فالاستغفار مطلوب بالذات والتوبة مطلوبة لكونها من مهمات الاستغفار وما كان آخرا فى الحصول كان أولا فى الطلب فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة الثانى وأن استغفروا من الشرك والمعاصى ثم توبوا أى ارجعوا

اليه بالطاعة الثالث الاستغفار طلب من الله تعالى لازالة مالا ينبغي والتوبة سعي من الانسان في ازالة مالا ينبغي فقدم الاستغفار ليدل على ان المؤمن يجب عليه أن لا يطلب الشئ الا من مولاه فانه هو الذى يقدر على تحصيله ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لانها عمل يأتى به الانسان ويتوسل به الى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى تقدم على الاستعانة بسعى النفس ثم انه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاثة ذكر بعدها ما يرتب عليها من الآثار المطلوبة ومن المعلوم ان المطالب محصورة في نوعين لانه انما يكون حصولها في الدنيا أو في الآخرة اما المنافع الدنيوية فهي المرادة من قوله تعالى (يمتعكم متاعا حسنا) أى بطيب عيش وسعة رزق (الى أجل مسمى) وهو الموت (فان قيل) ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقال أيضا خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وقال تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة فهذه النصوص دالة على أن نصيب المشتغل بالطاعات في الدنيا هو الشدة والبلية ومقتضى هذه الآية أن نصيب المشتغل بالطاعات الراحة في الدنيا فكيف الجمع بينهما (أجيب) بأن المشتغل بعبادة الله ومحبته مشتغل بحب شئ يمتنع تغيره وزواله وفناؤه فكلما كان امعانه في ذلك الطريق أكثر وتوغله فيه أتم كان انقطاعه عن الخلق أتم وأكمل وكلما كان الكمال في هذا الباب أكثر كان الابتهاج والسرور أكمل لانه أمن من تغير مطلوبه وأمن من زوال محبوبه وأما من كان مشتغلا بحب غير الله كان أبدا في ألم الخوف من فوات المحبوب وزواله وكان عيشه منغصا وقلبه مضطربا ولذلك قال تعالى في صفة المشتغلين بخدمته فلنحيينه حياة طيبة وقيل المراد بالمتاع الحسن عدم العذاب بعذاب الاستئصال كما استأصل أهل القرى الذين كفروا وسمى سبحانه وتعالى منافع الدنيا بالمتاع لاجل التنبيه على حقارتها وقلتها ونبه تعالى على كونها منقضية بقوله تعالى الى أجل مسمى فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية وأما المنافع الاخروية فقد ذكرها تعالى بقوله تعالى (ويؤت) أى في الآخرة (كل ذى فضل) أى في العمل (فضله) أى جزاءه لان مراتب السعادة في الآخرة مختلفة لانها مقدرة بمقدار الدرجات الحاصلة في الدنيا فلما كان الاعراض عن غير الحق والاقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية فكذلك مراتب السعادات الاخروية غير متناهية فلهذا السبب قال تعالى ويؤت كل ذى فضل فضله وقال أبو العالية من كثرت طاعاته في الدنيا زادت درجاته في الآخرة وقال ابن عباس من زادت حسناته على سيآته دخل الجنة ومن زادت سيآته على حسناته دخل النار ومن استوت سيآته وحسناته كان من أهل الاعراف ثم يدخلون الجنة وقال ابن مسعود من عمل سيئة كتبت له سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فان عوقب بالسيئة التى عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من حسناته العشر واحدة وبقى له تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود هلك من غلب آحاده أعشاره وقوله تعالى (وان تولوا) فيه حذف احدى التاءين أى وان تعرضوا عما جئتكم به من الهدى (فانى) أى فقل لهم انى (أخاف

عليكم

عليكم عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بالقحط حتى أكلوا الجيف (الى الله مرجعكم) أى رجوعكم فى ذلك اليوم فيثيب المحسن على احسانه ويعاقب المسىء على اساءته (وهو على كل شىء قدير) أى قادر على جميع المقدورات لادافع لقضائه ولامانع لمشيئته ومنه الثواب والعقاب وفى ذلك دلالة على قدرة عالية وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف لهذا العبد والملك القاهر العالى اذا رأى عاجزا مشرفا على الهلاك فانه يخلصه من الهلاك ومنه المثل المشهور ملكت فأسجح أى فاعف يقول مصنف هذا الكتاب قد أفنيت عمرى فى خدمة العلم ومطالعة الكتب ولارجاء لى فى شىء الا أنى فى غاية الذلة والقصور والكريم اذا قدر عفا فأسألك يا أكرم الاكرمين وأرحم الراحمين وساتر عيوب المعيوبين أن تفيض سجال رحمتك على وعلى والدى وأولادى واخوانى وأحبابى وأن تخصنى واياهم بالفضل والتجاوز والجود والكرم واختلفوا فى سبب نزول قوله تعالى (الا انهم يثنون صدورهم) فقال ابن عباس نزلت فى الاخنس بن شريق وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوى بقلبه على مايكره فمعنى قوله تعالى يثنون صدورهم يخفون مافى صدورهم من الشحناء والعداوة وقال عبد الله بن شداد نزلت فى بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كى لايراه النبى صلى الله عليه وسلم وقال قتادة كانوا يحنون ظهورهم كى لايسمعوا كلام الله تعالى ولاذكره وروى البخارى عن ابن عباس أنها نزلت فيمن كان يستحى أن يتخلى أو يجامع فيفضى الى السماء وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ويتغشى ثوبه ويقول هل يعلم الله مافى قلبى وقال السدى يثنون صدورهم أى يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عنانى (ليستخفوا منه) أى من الله تعالى بسرهم فلا يطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عليه وقيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قيل انها نزلت فى طائفة من المشركين قالوا ان أرخينا علينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم (ألا حين يستغشون ثيابهم) أى يأوون الى فراشهم ويتغطون بثيابهم (يعلم) تعالى (مايسرون) فى قلوبهم (ومايعلنون) بأفواههم أى أنه لاتفاوت فى علمه تعالى بين اسرارهم واعلانهم فلا وجه لتوصلهم الى مايريدون من الاخفاء (انه) تعالى (عليم بذات الصدور) أى بالقلوب وأحوالها ولما اعلم تعالى أنه يعلم مايسرون ومايعلنون أردفه بما يدل على كونه عالما بجميع المعلومات بقوله تعالى (ومامن دابة فى الارض الا على الله رزقها) فذكر تعالى ان رزق كل حيوان انما يصل اليه من الله تعالى فلو لم يكن عالما بجميع المعلومات لما حصلت هذه المهمات والدابة اسم لكل حيوان دب على وجه الارض ولاشك ان أقسام الحيوانات وأنواعها كثيرة وهى الاجناس التى تكون فى البر والبحر والجبال والله تعالى عالم بكيفية طباعها واعضائها واحوالها وأغذيتها ومساكنها ومايوافقها ويخالفها فالاله المدبر لاطباق السموات والارض ولطبائع الحيوانات والنبات كيف لايكون عالما بأحوالها

روى أنّ موسى عليه السلام عند نزول الوحى عليه تعلق قلبه بأحوال أهله فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه على صخرة فانشقت وخرج منها صخرة ثانية ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرج منها صخرة ثالثة ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت فخرجت منها دودة كالذرة وفى فيها شئ يجرى مجرى الغذاء لها ورفع الله تعالى الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع ان الدودة كانت تقول سبحان من يرانى ويسمع كلامى ويعرف مكانى ويذكرنى ولا ينسانى (فان قيل) انّ كلمة على للوجوب فيدل على انّ ايصال الرزق الى الدابة واجب على الله تعالى (أجيب) بأنه تعالى انما أتى بذلك تحقيقا لوصوله بحسب الوعد والفضل والاحسان وحملا على التوكل فيه وفى هذه الآية دليل على انّ الرزق قد يكون حراما لانه ثبت انّ ايصال الرزق الى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد والله تعالى لا يخل به ثم قد نرى انّ انسانا لا يأكل من الحلال طول عمره فلو لم يكن الحرام رزقا لكان الله تعالى ما أوصل رزقه اليه فيكون الله تعالى قد أخل بالواجب وذلك محال فعلمنا انّ الحرام قد يكون رزقا (ويعلم) تعالى (مستقرّها) قال ابن عباس هو المكان الذى تأوى اليه وتستقر فيه ليلا ونهارا (ومستودعها) هو الذى تدفن فيه اذا ماتت وقال عبد الله ابن مسعود المستقرّ أرحام الامهات والمستودع المكان الذى تموت فيه وقال عطاء المستقرّ أرحام الامهات والمستودع أصلاب الآباء وقيل الجنة أو النار والمستودع القبر لقوله تعالى فى صفة الجنة والنار حسنت مستقرا وساءت مستقرا ومقاما ولا مانع أن يفسر ذلك بهذا كله (كل) أى كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرّها ومستودعها (فى كتاب) أى ذكرها مثبت فى اللوح المحفوظ (مبين) أى بين كما قال تعالى ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين ولما أثبت تعالى بالدليل المتقدّم كونه عالما بالمعلومات أثبت كونه تعالى قادرا على كل المقدورات بقوله تعالى (وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام) أى من أيام الدنيا أوّلها الاحد وآخرها الجمعة وتقدّم الكلام على تفسير ذلك فى سورة الاعراف (وكان عرشه على الماء) قال كعب خلق ياقوتة خضراء ثم نظر اليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء وقال أبو بكر الاصم ومعنى قوله تعالى وكان عرشه على الماء كقولهم السماء على الارض وليس ذلك على سبيل كون أحدهما ملتصقا بالآخر وقال حمزة انّ الله عز وجل كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والارض وخلق القلم فكتب به ما هو خالقه وما هو كائن من خلقه ثم انّ ذلك الكتاب سبح الله تعالى ومجده ألف عام قبل أن يخلق شيأ من خلقه فى هذا دلالة على كمال قدرته تعالى لانّ العرش مع كونه أعظم من السموات والارض كان على الماء وقد أمسكه الله تعالى من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه وقوله تعالى (ليبلوكم) متعلق بخلق أى خلقها وما فيها منافع لكم ومصالح ليختبركم وهو أعلم بكم منكم (أيكم أحسن عملا) أى أطوع لله وأورع عن محارم الله وهذا القيام الحجة عليهم وقد مرّ أمثال ذلك ولما بين تعالى أنه انما خلق هذا العالم لاجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم وهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر لانّ الابتلاء والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة

والثواب

والثواب وتخصيص المسيء بالعقاب وذلك لا يتم الا مع الاعتراف بالمعاد والقيامة خاطب تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم فقال جلا وعلا (ولئن قلت) يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك (انكم مبعوثون من بعد الموت) أى للحساب والجزاء (ليقولن الذين كفروا ان) أى ما (هذا) أى القرآن بالبعث أو الذى تقوله (الا سحر مبين) أى بين وقرأ حمزة والكسائى بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء فيكون ذلك راجعا للنبي صلى الله عليه وسلم والباقون بكسر السين وسكون الحاء ولما حكى تعالى عن الكفار أنهم يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم حكى عنهم نوعا آخر بقوله تعالى (ولئن أخرنا عنهم العذاب الى) مجيء (أمة) أى جماعة من الاوقات (معدودة) أى قليلة (ليقولن) أى استهزاء (ما يحبسه) أى ما يمنعه من الوقوع قال الله تعالى (ألا يوم يأتيهم) كيوم بدر (ليس مصروفا) أى مدفوعا العذاب (عنهم وحاق) أى نزل (بهم) من العذاب (ما كانوا به يستهزؤن) أى الذى كانوا يستعجلون فوضع يستهزؤن موضع يستعجلون لان استعجالهم كان استهزاء (فان قيل) لم قال تعالى وحاق على لفظ الماضى مع أن ذلك لم يقع (أجيب) بأنه وضع الماضى موضع المستقبل تحقيقا ومبالغة فى التأكيد والتقرير والتهديد ولما ذكر تعالى أن عذاب الكفار وان تأخر الا أنه لا بد وأن يحيق بهم ذكر بعده ما يدل على كفرهم وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب بقوله تعالى (ولئن أذقنا) أى أعطينا (الانسان) أى الكافر (منا رحمة) أى نعمة كغنى وصحة بحيث يجد لذتها (ثم نزعناها) أى سلبنا تلك النعمة (منه انه ليؤس) أى قنوط من رحمة الله تعالى لقلة صبره وعدم ثقته به (كفور) أى جحود لنعمتنا عليه وأما المسلم الذى يعتقد أن تلك النعمة من جود الله تعالى وفضله واحسانه فانه لا يحصل له اليأس بل يقول لعله تعالى يردها على بعد ذلك أحسن وأكمل وأفضل مما كانت (ولئن أذقناه) أى الكافر (نعماء بعد ضراء مسته) كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم وفى اختلاف الفعلين وهما أذقناه ومسته من حيث الاسناد اليه تعالى فى الاول والى الضراء فى الثانى نكتة عظيمة وهى أن النعمة صادرة من الله تعالى تفضلا منه لخبر ما أحد يدخل الجنة الا برحمة الله تعالى قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا والضر صادر من العبد كسبا لانه السبب فيه باجتلابه اياه بالمعاصى غالبا لقوله تعالى ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ولا ينافى ذلك قوله تعالى قل كل من عند الله فان الكل منه ايجادا غير أن الحسنة احسان وامتنان والسيئة مجازاة وانتقام لخبر ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شسع نعله الا بذنب وما يعفو الله أكثر (ليقولن) أى الذى أصابه الصحة والغنى (ذهب السيئات) أى المصائب التى أصابتنى (عنى) ولم يتوقع زوالها ولا يشكر عليها (انه لفرح) أى فرح بطر (فخور) على الناس بما أذاقه الله تعالى من نعمائه وقد شغله الفرح والفخر عن الشكر فبين سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن أحوال الدنيا غير باقية بل هى أبدا فى التغير والزوال والتحول والانتقال فان الانسان اما أن يتحول من النعمة الى المحنة ومن اللذات الى الآفات كالقسم الاول واما أن يكون بالعكس من ذلك وهو أن ينتقل من المكروه الى المحبوب كالقسم

الثاني ولما بين تعالى أن الكافر عند الابتلاء لا يكون من الصابرين وعند الفوز بالنعماء لا يكون
من الشاكرين بين حال المتقين بقوله تعالى (الا) أى لكن (الذين صبروا) على الضراء (وعملوا
الصالحات) أى فى النعماء أى فانهم ان أصابتهم شدة صبروا وان نالتهم نعمة شكروا (أولئك
لهم مغفرة وأجر كبير) فجمع لهم تعالى بين هذين المطلوبين أحدهما زوال العقاب والخلاص
منه وهو المراد من قوله تعالى لهم مغفرة والثانى الفوز بالثواب ودخول الجنة وهو المراد
من قوله تعالى وأجر كبير (فلعلك) يا محمد (تارك بعض ما يوحى اليك) فلا تبلغهم اياه لتهاونهم
به فانهم كانوا يستهزؤن بالقرآن ويضحكون منه وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بين
اللفظين والباقون بالفتح (وضائق به صدرك) أى بتلاوته عليهم لاجل (أن يقولوا لولا) أى
هلا (أنزل عليه كنز) ينفقه فى الاستتباع كالملوك (أو جاء معه ملك) يصدقه كما اقترحنا وروى
عن ابن عباس أن رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال
آخرون ائتنا بالملائكة ليشهدوا بنبوتك فقال لا أقدر على ذلك فنزل (انما أنت نذير) فلا عليك
الا البلاغ لا الاتيان بما اقترحوه (والله على كل شئ وكيل) فتوكل عليه انه عالم بحالهم وفاعل
بهم جزاء أقوالهم وأفعالهم (أم) أى بل (يقولون) كفار مكة (افتراه) أى اختلقه من تلقاء
نفسه وليس هو من عند الله قال الله تعالى (قل) لهم يا محمد (فأتوا بعشر سور مثله) فى البيان
وحسن النظم (مفتريات) فانكم عربيون مثلى قال ابن عباس هذه السور التى وقع بها هذا
التحدى معينة وهى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف
والانفال والتوبة ويونس وهود وقيل التحدى وقع بمطلق السور وهو متقدم على التحدى
بسورة واحدة والتحدى بسورة واحدة وقع فى سورة البقرة وفى سورة يونس أما تقدم هذه
السورة على سورة البقرة فظاهر لان هذه السورة مكية وسورة البقرة مدنية وأما فى سورة يونس
فلان كل واحدة من هاتين السورتين مكية فتكون سورة هود متقدمة فى النزول على سورة
يونس كما قاله الرازى وأنكر المبرد هذا وقال بل سورة يونس أولا وقال معنى قوله فى سورة يونس
فأتوا بسورة مثله أى مثله فى الخبر عن الغيب والاحكام والوعد والوعيد فعجزوا فقال لهم
فى سورة هود ان عجزتم عن الاتيان بسورة مثله فى الاخبار والاحكام والوعد والوعيد فأتوا
بعشر سور من غير وعد ولا وعيد وانما هى مجرد البلاغة (وادعوا) أى وقل لهم يا محمد ادعوا
للمعاونة على ذلك (من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) فى أنه مفترى والضمير فى قوله
تعالى (فان لم يستجيبوا لكم) أى باتيان ما دعوتموهم اليه للنبى صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين
لانه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدونهم وقال تعالى فى موضع آخر فان لم يستجيبوا
لك فاعلم والتعظيم للنبى صلى الله عليه وسلم (فاعلموا انما أنزل) ملتبسا (بعلم الله) أى بما
لا يعلمه الا الله تعالى من نظم يعجز الخلق واخبار بغيوب لا سبيل لهم اليه ولا يقدر عليه سواه
وقوله تعالى (وان) مخففة من الثقيلة أى وانه (لا اله الا هو) وحده وان توحيده واجب
والاشراك به ظلم عظيم (فهل أنتم مسلمون) أى ثابتون على الاسلام راسخون مخلصون فيه اذ

تحقق عندكم اعجازه مطلقا وقيل الخطاب للمشركين والضمير في لم يستجيبوا لمن استطعتم أى فان لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله الى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه فاعلموا أنه منزل من عند الله وأن مادعاكم اليه من التوحيد حق فهل أنتم بعد هذه الحجة القاطعة مسلمون أى أسلموا وفى مثل هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) أى بعمله الذى يعمل من أعمال البر (نوف اليهم أعمالهم) أى التى عملوها من خير كصدقة وصلة رحم (فيها) أى فى الدنيا (وهم فيها لا يبخسون) أى نوصل اليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الاولاد ونحو ذلك (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط) أى بطل (ما صنعوا) أى عملوا (فيها) أى الآخرة فلا ثواب لهم (وباطل ما كانوا يعملون) لانه لغير الله تعالى فقال مجاهد نزلت فى أهل الرياء قال صلى الله عليه وسلم ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا يارسول الله وما الشرك الاصغر قال الرياء والرياء هو أن يظهر الانسان الاعمال الصالحة ليحمده الناس ويعتقدوا فيه الصلاح فهذا هو العمل الذى لغير الله تعالى نعوذ بالله من الخذلان وقال أكثر المفسرين انها نزلت فى الكافر وأما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة وارادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى اذا أفضى الى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا وقيل نزلت فى المنافقين الذين يطلبون بغزوهم مع النبى صلى الله عليه وسلم الغنائم من غير أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها وقيل فى اليهود والنصارى وهو منقول عن أنس ولما ذكر تعالى الذين يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ذكر من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة بقوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه) قيل هو النبى صلى الله عليه وسلم والبينة هى القرآن (ويتلوه) أى يتبعه (شاهد) يصدقه (منه) أى من الله تعالى وهو جبريل عليه السلام (ومن قبله) أى القرآن (كتاب موسى) وهو التوراة شاهد له أيضا وقوله تعالى (اماما) أى كتابا مؤتما به فى الدين (ورحمة) أى على المنزل عليهم لانه الوصلة الى الفوز بسعادة الدارين حال من كتاب موسى والجواب محذوف لظهوره والتقدير أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم فى الآخرة الا النار ليس مثله بل بينهم تفاوت بعيد وتباين بين وقيل هو من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره والمراد بالبينة هو البيان والبرهان والمراد بالشاهد هو القرآن ومنه أى من الله ومن قبله كتاب موسى أى ويتلو ذلك البرهان من قبل مجىء القرآن كتاب موسى أى فى دلالته على هذا المطلوب لا فى الوجود قال الرازى وهذا القول هو الاظهر لقوله تعالى (أولئك يؤمنون به) وهذه صفة جمع ولا يجوز رجوعه الى محمد صلى الله عليه وسلم انتهى ويجوز أن تكون للتعظيم اوله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه وربما يكون هذا أولى كما

جرى عليه بعض المفسرين والاشارة الى من كان على بينة والضمير في به للقرآن واذا كان هذا الفريق ليس له في الآخرة الا النار فهذا الفريق ليس له في الآخرة الا الجنة (ومن يكفر به) أي بالنبي صلى الله عليه وسلم أو القرآن (من الاحزاب) أي أصناف الكفار فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس (فالنار موعده) يعني في الآخرة روى سعيد بن جبير عن أبي موسى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يسمع بي يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي الا كان من أهل النار قال أبو موسى فقلت في نفسي ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا الا عن القرآن فوجدت الله تعالى يقول ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده قال بعض العلماء ولما دلت الآية على أن من يكفر به كانت النار موعده دل على أن من لا يكفر به كانت الجنة موعده وقوله تعالى (فلا تك في مرية) أي في شك (منه) أي القرآن أو الموعد (انه الحق من ربك) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره لانه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ويؤيد ذلك قوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أي لا يصدقون بما أوحينا اليك أو بأن موعد الكفار النار ثم وصف الله تعالى هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة في معرض الذم الصفة الاولى كونهم مفترين على الله كما قال تعالى (ومن) أي لا أحد (أظلم ممن افترى على الله كذبا) بنسبة الشريك والولد اليه أو أسند اليه ما لم ينزله أو نفى عنه ما أنزله الصفة الثانية أنهم يعرضون على الله تعالى في موقف الذل والهوان كما قال تعالى (أولئك يعرضون على ربهم) أي يوم القيامة (فان قيل) هم لا يختصون بهذا العرض لان العرض عام في كل العباد كما قال تعالى وعرضوا على ربك صفا (أجيب) بأنهم يعرضون فيفتضحون بشهادة الاشهاد عليهم كما قال تعالى (ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) فيحصل لهم من الخزي والنكال ما لا مزيد عليه وهذه هي الصفة الثالثة واختلف في هؤلاء الاشهاد فقال مجاهد هم الملائكة الذين يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا وقال مقاتل هم الناس كما يقال على رؤس الاشهاد أي على رؤس الناس وقال قوم هم الانبياء كما قال تعالى فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين والفائدة في اعتبار قول الاشهاد المبالغة في اظهار الفضيحة (فان قيل) العرض على الله يقتضي أن يكون الله تعالى في حيز وهو تعالى منزه عن ذلك (أجيب) بأنهم يعرضون على الاماكن المعدة للحساب والسؤال أو يكون ذلك عرضا على من يوبخ بأمر الله تعالى من الانبياء والمؤمنين والاشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب أو جمع شهيد كشريف وأشراف قال أبو علي الفارسي وكان هذا أرجح لان ما جاء من ذلك في التنزيل جاء على فعيل كقوله تعالى وجئنا بك شهيدا على هؤلاء وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى يدني المؤمن يوم القيامة فيستره من الناس فيقول أي عبدي تعرف ذنب كذا وكذا فيقول نعم حتى اذا قرره بذنوبه قال تعالى سترتها عليك في الدنيا وقد سترتها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته وأما الكافر والمنافق فيقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ولما أخبر الله تعالى عن حالهم في عقاب القيامة أخبر عن حالهم في الحال بقوله تعالى (ألا لعنة

الله

الله على الظالمين) فبين تعالى انهم فى الحال ملعونون من عند الله وهذه هى الصفة الرابعة ثم وصفهم بالصفة الخامسة بقوله تعالى (الذين يصدون عن سبيل الله) أى دينه ثم وصفهم بالصفة السادسة بقوله تعالى (ويبغونها) أى يطلبون السبيل (عوجا) أى معوجة أى كانهم ظلموا أنفسهم بالتزام الكفر والضلال فقد أضافوا اليه المنع من الدين الحق والقاء الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة لانه لا يقال فى العاصى انه يبغى عوجا وانما يقال ذلك فيمن يعرف كيف الاستقامة وكيفية العوج بسبب القاء الشبهات وتقرير الضلالات ثم وصفهم بالصفة السابعة بقوله تعالى (وهم) أى والحال انهم (بالآخرة هم كافرون) وتكرير لفظ هم تأكيد كفرهم وتوغلهم فيه الصفة الثامنة كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله كما قال تعالى (أولئك لم يكونوا معجزين فى الارض) أى ما كانوا معجزين الله فى الدنيا أن يعاقبهم اذ لا يمكنهم أن يهربوا من عذابه فان هرب العبد من عذاب الله تعالى محال لانه تعالى قادر على جميع الممكنات ولا تتفاوت قدرته بالقرب والبعد والقوة والضعف الصفة التاسعة انهم ليس لهم أولياء يدفعون عقاب الله تعالى عنهم كما قال تعالى (وما كان لهم من دون الله) أى غيره (من أولياء) أى أنصار يمنعونهم من عذابه الصفة العاشرة مضاعفة العذاب كما قال تعالى (يضاعف لهم العذاب) أى بسبب اضلالهم غيرهم وقيل لانهم كفروا بالله وكفروا بالبعث والنشور الصفة الحادية عشرة قوله تعالى (ما كانوا يستطيعون السمع) قال قتادة صم عن سماع الحق فلا يسمعون خيرا فينتفعون به (وما كانوا يبصرون) خيرا فيأخذوا به قال ابن عباس أخبر الله تعالى انه أحال بين أهل الشرك وبين طاعة الله تعالى فى الدنيا وفى الآخرة أما فى الدنيا فانه قال ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وأما فى الآخرة فانه قال فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم الصفة الثانية عشرة قوله تعالى (أولئك الذين خسروا أنفسهم) فانهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان مصيرهم الى النار المؤبدة عليهم وذلك أعظم وجوه الخسرانات الصفة الثالثة عشرة قوله تعالى (وضل) أى غاب (عنهم ما كانوا يفترون) على الله تعالى من دعوى الشريك وان الآلهة تشفع لهم الصفة الرابعة عشرة قوله تعالى (لا جرم أنهم فى الآخرة هم الاخسرون) أى لا أحد أبين وأكثر خسرانا منهم * (تنبيه) * قال الفراء ان لا جرم بمنزلة قولنا لا بد ولا محالة ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا تقول العرب لا جرم انك محسن على معنى حقا انك محسن وقال الزجاج ان كلمة لا نفى لما ظنوا أنه ينفعهم وجرم معناه كسب ذلك الفعل والمعنى لا ينفعهم ذلك وكسب ذلك الفعل لهم الخسران فى الدنيا والآخرة قال الازهرى وهذا من أحسن ما قيل فى هذا الباب وقال سيبويه لا رد على أهل الكفر كما مر وجرم معناه أحق والمعنى أنه أحق كفرهم وقوع العذاب والخسران بهم واحتج سيبويه بقول الشاعر

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة * جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أراد أحقت الطعنة فزارة أن يغضبوا * ولما ذكر تعالى عقوبة الكفار وخسرانهم اتبعه بذكر أحوال المؤمنين فى الدنيا وربحهم فى الآخرة بقوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا

الصالحات وأخبتوا الى ربهم) أى اطمأنوا اليه وخشعوا اليه اذ الاخبات فى اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ويتعدى بالى وباللام فاذا قلت أخبت فلان الى كذا فمعناه اطمأن اليه واذا قلت أخبت له فمعناه خشع وخضع له فقوله تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اشارة الى جميع عمل الجوارح وقوله تعالى وأخبتوا اشارة الى أعمال القلوب وهى الخشوع والخضوع لله تعالى وان هذه الاعمال الصالحة لا تنفع فى الآخرة الا بحصول أعمال القلب وهى الخشوع والخضوع (أولئك) أى الذين هذه صفتهم (أصحاب الجنة هم خالدون) فأخبر تعالى عن حالهم فى الآخرة بأنهم من أهل الجنة التى لا انقطاع لنعيمها ولا زوال * ولما ذكر سبحانه وتعالى أحوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الحق ومن الصمم عن سماعه وذكر أحوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة ذكر فيهما مثالا مطابقا بقوله تعالى (مثل) أى صفة (الفريقين) أى الكفار والمؤمنين (كالاعمى والاصم) هذا مثل الكافر شبه بالاعمى لتعاميه عن آيات الله وبالاصم لتصامه عن استماع كلام الله تعالى وتأبيه عن تدبر معانيه (والبصير والسميع) هذا مثل المؤمن شبه بالبصير والسميع لان أمره بالضد من الكافر فيكون كل منهما مشبها باثنين باعتبار وصفين أو يشبه الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضديهما على أن تكون الواو فى الاصم وفى السميع لعطف الصفة على الصفة بخلافه على التشبيه الاول فانه لعطف الموصوف على الموصوف ويعبر عنه بعطف الذات على الذات (هل يستويان) أى هل يستوى الفريقان (مثلا) أى تشبيها لا يستويان ويصح أن يكون مثلا صفة لمصدر محذوف أى استواء مثلا وأن يكون حالا من فاعل يستويان وقوله تعالى (أفلا تذكرون) فيه ادغام التاء فى الاصل فى الذال أى تتعظون بضرب الامثال والتأمل فيها وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد وقد جرت عادة الله تعالى بأنه اذا أورد على الكفار أنواع الدلائل اتبعها بالقصص ليصير ذكرها مؤكدا لتلك الدلائل وفى هذه السورة ذكر أنواعا من القصص القصة الاولى قصة نوح عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه) وقوله (انى لكم) قرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بفتح الهمزة أى بأنى والباقون بكسرها على ارادة القول (نذير مبين) أى بين النذارة أخوفكم العقاب لمن خالف أمر الله تعالى وقوله (أن لا تعبدوا الا الله) بدل من انى لكم أو مفعول مبين (انى أخاف عليكم) أى ان عبدتم غيره (عذاب يوم أليم) أى مؤلم موجع فى الدنيا أو الآخرة قال ابن عباس بعث نوح بعد أربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألف سنة وأربعمائة وخمسين ولما حكى تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا قومه الى عبادة الله تعالى حكى عنهم أنهم طعنوا فى نبوته بثلاثة أنواع من الشبهات بقوله تعالى (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) وهم الاشراف (ما نراك

الا بشرا مثلنا) هذه الشبهة الاولى أى انك بشر مثلنا لا مزية لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة وانما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلا منهم لان الله تعالى اذا اصطفى عبدا من عباده وأكرمه بنبوته ورسالته وجب على من أرسله اليهم اتباعه الشبهة الثانية ماذكره الله تعالى عنهم بقوله تعالى (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا) أى أسافلنا كالحاكة وأهل الصنائع الخسيسة وهو جمع أرذل بفتح الهمزة كقوله تعالى أكابر مجرميها وقوله صلى الله عليه وسلم أحاسنكم أخلاقا أو جمع أرذل بضم الذال جمع رذل بسكونها فهو على الاول جمع مفرد وعلى الثانى جمع جمع ثم قالوا ولو كنت صادقا لاتبعك الاكابر من الناس والاشراف منهم وانما قالوا ذلك جهلا منهم أيضا لان الرفعة بالدين واتباع الرسول لا بالمناصب العالية والمال (بادى الرأى) أى اتبعوك فى أول الرأى من غير تثبت وتفكر فى أمرك ولو تفكروا ما اتبعوك ونصبه على الظرف أى وقت حدوث أول رأيهم وقرأ أبو عمرو بادئ بهمزة مفتوحة بعد الدال والباقون بياء مفتوحة وأبدل السوسى همزة الرأى ألفا وقفا ووصلا وأما حمزة فأبدلها وقفا لا وصلا الشبهة الثالثة ماذكره الله تعالى عنهم فى قوله تعالى (وما نرى لكم) أى لك ولمن اتبعك (علينا من فضل) أى بالمال والشرف والجاه تستحقون به الاتباع منا وهذا أيضا جهل منهم لان الفضيلة المعتبرة عند الله تعالى بالايمان والطاعة لا بالشرف والرياسة وقولهم (بل نظنكم كاذبين) خطاب لنوح عليه السلام فى دعوى الرسالة وأدرجوا قومه معه فى الخطاب وقيل خاطبوه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم وقيل كذبوه فى دعوى النبوة وكذبوا قومه فى دعوى العلم بصدقه فغلب المخاطب على الغائبين ولما ذكروا هذه الشبهة لنوح عليه السلام (قال) لهم (يا قوم أرأيتم) أى أخبرونى (ان كنت على بينة) أى نبوة ورسالة (من ربى وآتانى رحمة) أى نبوة ورسالة (من عنده) من فضله واحسانه (فعميت) أى خفيت والتبست (عليكم) ووحد الضمير اما لان البينة فى نفسها هى الرحمة واما لانه لكل واحدة منهما وقرأ حفص وحمزة والكسائى بضم العين وتشديد الميم والباقون بفتح العين وتخفيف الميم (أنلزمكموها) أى أنكرهكم على قبولها (وأنتم لها كارهون) أى لا تختارونها ولا تتأملون فيها لا نقدر على ذلك قال قتادة والله لو استطاع نبى الله لالزمها قومه ولكنه لا يملك ذلك واتفق القراء على ضم الميم من أنلزمكموها لاتصالها باللام رسما وحيث اجتمع ضميران وليس أحدهما مرفوعا وقدمت الاعرف منهما جاز فى الثانى الوصل كما فى الآية والفصل كان يقال أنلزمكم اياها (ويا قوم لا أسألكم عليه) أى على تبليغ الرسالة وهو وان لم يذكر معلوم مما ذكر (مالا) أى جعلا تعطونيه (ان) أى ما (أجرى الا على الله) أى ما ثواب تبليغى الا عليه فانه المأمول منه تعالى وقرأ ابن كثير وشعبة وحمزة والكسائى بسكون الياء والباقون بالفتح وقول نوح عليه السلام (وما أنا بطارد الذين آمنوا) جواب لهم حين طلبوا طردهم فانهم طلبوا من نوح عليه السلام قبل أن يطرد الذين آمنوا وهم الأرذلون فى زعمهم فقال ما يجوز لى ذلك (انهم ملاقوا ربهم) أى بالبعث فيخاصمون طاردهم عنده ويأخذ لهم ممن

ظلمهم وطردهم أو أنهم يلاقونه ويفوزون بقربه فكيف أطردهم (ولكنى أراكم قوما تجهلون) أى ان هؤلاء المؤمنين خير منكم أو عاقبة أمركم أو تسفهون عليهم بأن تدعوهم أراذل (وياقوم من ينصرنى) أى يمنعنى (من الله) أى من عقابه (ان طردتهم) عنى وهم مؤمنون مخلصون (أفلا) أى فهلا (تذكرون) أى تتعظون وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التاء فى الاصل فى الذال (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) أى خزائن رزقه فكما أنى لا أسألكم مالا فكذلك لا أدعى انى أملك مالا ولا غرض لى فى المال لا أخذا ولا دفعا وقوله (ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك) فأتعاظم به عليكم حتى تقولوا ما أنت الا بشر مثلنا بل طريقى التواضع والخضوع ومن كان هذا شأنه وطريقته كذلك فانه لا يستنكف عن مخالطة الفقراء والمساكين ولا يطلب مجالسة الامراء والسلاطين ثم أكد ذلك بقوله (ولا أقول للذين تزدرى) أى تحتقر (أعينكم) أى لا أقول فى حقهم (لن يؤتيهم الله خيرا) فان ما أعد الله تعالى لهم فى الآخرة خير مما آتاكم فى الدنيا (الله أعلم بما فى أنفسهم) وهذا كالدلالة على أنهم كانوا ينسبون اتباعه مع الفقر والذلة الى النفاق (انى اذا) أى ان فعلت ذلك (لمن الظالمين) لنفسى ومن الظالمين لهم (فان قيل) هذه الآية تدل على تفضيل الملائكة على الانبياء عليهم الصلاة والسلام فان الانسان اذا قال لا أدعى كذا وكذا انما يحسن اذا كان ذلك الشئ أشرف من أحوال ذلك القائل (أجيب) بأن نوحا عليه السلام انما ذكر ذلك جوابا عما ذكروه من الشبه فانهم طعنوا فى اتباعه بالفقر فقال ولا أقول لكم عندى خزائن الله حتى أجعلهم أغنياء وطعنوا فيهم أيضا بأنهم منافقون فقال ولا أعلم الغيب حتى أعرف كيفية باطنهم وانما تكلفى بناء الاحوال على الظاهر وطعنوا فيه انه من البشر فقال ولا أقول انى ملك حتى تنفوا عنى ذلك وحينئذ فالآية ليس فيها ذلك (فان قيل) فى هذه الآية دلالة على أن طرد المؤمنين لطلب مرضاة الكفار من أصول المعاصى فكيف طرد محمد صلى الله عليه وسلم بعض فقراء المؤمنين لطلب مرضاة الله حتى عاتبه الله تعالى فى قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى (أجيب) بأن الطرد المذكور فى هذه الآية محمول على الطرد المطلق على سبيل التأبيد والطرد المذكور فى واقعة محمد صلى الله عليه وسلم محمول على التبعيد فى أوقات معينة رعاية للمصلحة ولما أن الكفار أوردوا تلك الشبهة وأجاب نوح عليه السلام عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة أوردوا عليه كلامين الاول ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى (قالوا يا نوح قد جادلتنا) أى خاصمتنا (فأكثرت جدالنا) أى فأطنبت فيه وهذا يدل على أنه عليه السلام كان قد أكثر فى الجدال معهم وذلك الجدال ما كان الا فى اثبات التوحيد والنبوة والمعاد وهذا يدل على أن الجدال فى تقرير الدلائل وازالة الشبهات حرفة الانبياء عليهم الصلاة والسلام وعلى أن التقليد والجهل حرفة الكفار والثانى ما ذكره الله تعالى عنهم بقوله (فأتنا بما تعدنا) أى من العذاب (ان كنت من الصادقين) فى الدعوى والوعيد فان مناظرتك لا تؤثر فينا (قال) لهم نوح عليه السلام فى جواب ذلك (انما يأتيكم به الله

ان

ان شاء) تعجيله لكم فان أمره اليه ان شاء عجله وان شاء أخره لا الى (وما أنتم بمعجزين) أى بفائتين الله تعالى ولما أجاب نوح عليه السلام عن شأنهم ختم الكلام بجملة قاطعة فقال (ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم) أى يضلكم وجواب الشرط محذوف فدل عليه ولا ينفعكم نصحى وتقدير الكلام ان كان الله يريد أن يغويكم فان أردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحى فهو من باب اعتراض الشرط على الشرط ونظير ذلك ما لو قال رجل لزوجته أنت طالق ان دخلت الدار ان كلمت زيدا فدخلت ثم كلمت لم تطلق فيشترط فى وجوب الحكم وقوع الشرط الثانى قبل وقوع الاول وفى الآية دليل على ان الله تعالى قد يريد الكفر من العبد فانه اذا أراد منه ذلك فانه يمتنع صدور الايمان منه (هو ربكم) أى خالقكم والمتصرف فيكم وفق ارادته (واليه ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم قال تعالى (أم) أى بل (يقولون افتراه) أى اختلقه وجاء به من عند نفسه والهاء ترجع الى الوحى الذى بلغه اليهم (قل) لهم (ان افتريته فعلى اجرامى) وهذا من باب حذف المضاف لان المعنى فعلى اثم اجرامى والاجرام اقتراف المحظور وفى الآية محذوف آخر وهو أن المعنى ان كنت افتريته فعلى عقاب جرمى وان كنت صادقا وكذبتمونى فعليكم عقاب ذلك التكذيب الا انه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليها (وأنا برىء مما تجرمون) أى من عقاب جرمكم فى اسناد الافتراء الى

* (تنبيه) * أكثر المفسرين على أن هذا من بقية كلام نوح عليه السلام مع قومه وقال مقاتل أم يقولون أى المشركون من كفار مكة افتراه أى محمد صلى الله عليه وسلم اختلق القرآن من عند نفسه وهذه الآية وقعت فى قصة محمد صلى الله عليه وسلم فى اثناء قصة نوح عليه السلام قال الرازى وقوله بعيد جدا (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك) أى لن يستمر على الايمان لقوله تعالى (الا من قد آمن) قال ابن عباس ان قوم نوح كانوا يضربون نوحا حتى يسقط فيلفونه فى لبد ويلقونه فى بيت يظنون أنه قد مات فيخرج فى اليوم الثانى ويدعوهم الى الله تعالى وروى أن شيخا منهم جاء متوكئا على عصاه ومعه ابنه فقال لابنه لا يغوينك هذا الشيخ المجنون فقال يا أبت امكنى من العصا فأخذها من أبيه وضرب بها نوحا عليه السلام حتى شجه شجة منكرة فأوحى الله تعالى اليه أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن (فلا تبتئس) أى لا تحزن عليهم فانى مهلكهم (بما) أى بسبب ما (كانوا يفعلون) من الشرك وتنقذك منهم فحينئذ دعا عليهم نوح عليه السلام فقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وحكى محمد بن اسحق عن عبيد بن عمير الليثى انه بلغه انهم كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه فاذا أفاق قال رب اغفر لقومى فانهم لا يعلمون حتى تمادوا فى المعصية واشتد عليه منهم البلاء وهو ينتظر من الجيل الى الجيل فلا يأتى قرن الا كان أخبث من الذين قبلهم ولقد كان يأتى القرن الآخر منهم فيقول قد كان هذا الشيخ مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنونا فلا يقبلون منه شيأ فشكى الى الله تعالى فقال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا حتى قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فأوحى الله تعالى اليه (واصنع الفلك) أى السفينة (بأعيننا) قال ابن

عباس بمرأى منا وقال مقاتل بعلمنا وقيل بحفظنا (ووحينا) أى بامرنا لك كيف تصنعها (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) أى ولا تراجعنى فى الكفار ولا تدعنى فى استدفاع العذاب عنهم (انهم مغرقون) أى محكوم عليهم بالاغراق فلا سبيل الى كفه وقيل لا تخاطبنى فى ابنك كنعان وامرأتك راعلة فانهما هالكان مع القوم ويروى ان جبريل عليه السلام أتى نوحا فقال ان ربك يأمرك أن تصنع الفلك قال كيف أصنع ولست بنجار قال ان ربك يقول اصنع فانك بأعيننا فأخذ القدوم فجعل ينجر ولا يخطئ وصنعها اذ عملها مثل جؤجؤ الطير وفى قوله تعالى (ويصنع الفلك) قولان أحدهما انه حكاية حال ماضية أى فى ذلك الوقت كان يصدق عليه أنه يصنع الفلك الثانى التقدير أقبل يصنع الفلك فاقتصر على قوله ويصنع الفلك ثم ان نوحا عليه السلام أقبل على عملها ولها عن قومه وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره وجعل قومه يمرون عليه ويسخرون منه كما قال تعالى (وكلما مر عليه ملأ) أى جماعة (من قومه سخروا منه) أى استهزؤا به ويقولون يا نوح قد صرت نجارا بعدما كنت نبيا فأعقم الله أرحام نسائهم فلا يولد لهم قال ابن عباس رضى الله عنهما اتخذ نوح عليه السلام السفينة فى سنتين وكان طول السفينة ثلثمائة ذراع وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون فجعل فى البطن الاول الوحوش والهوام وفى البطن الاوسط الدواب وركب هو ومن معه البطن الاعلى مع ما يحتاج اليه من الزاد وقال قتادة كان بابها فى عرضها وروى عن أنس كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ستمائة وقيل ان الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى بهم الى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال كعب بن حام قال فضرب الكثيب بعصاه فقال قم باذن الله فاذا هو قائم ينفض عن رأسه التراب وقد شاب فقال له عيسى عليه السلام هكذا هلكت قال لا ولكن مت وأنا شاب ولكننى ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت قال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألف ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة للدواب والوحوش وطبقة للانس وطبقة للطير ثم قال له عد باذن الله تعالى كما كنت فعاد ترابا قال البغوى والمعروف ان طولها ثلثمائة ذراع وعن زيد بن أسلم قال مكث نوح مائة سنة يغرس الاشجار ومائة سنة يعمل الفلك وعن كعب الاحبار ان نوحا عمل السفينة فى ثلاثين سنة وروى أنها كانت ثلاث طبقات الطبقة السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى فيها الانس والطبقة العليا فيها الطير فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله تعالى الى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث ولما أفسد الفأر فى السفينة فجعل يقرض حبالها أوحى الله تعالى اليه أن اضرب بين عينى الاسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة وهو القط فأقبلا على الفأر فأكلاه قال الرازى واعلم أن أمثال هذه المباحث لا تعجبنى لانها أمور لا حاجة الى معرفتها البتة ولا يتعلق بمعرفتها فائدة ألبتة فكان الخوض فيها من باب الفضول لا سيما مع القطع بأنه ليس ههنا ما يدل على

الجانب الصحيح والذى نعلمه انها كانت فى السعة بحيث تسع المؤمنين من قومه وما يحتاجون
اليه ولحصول زوجين من كل حيوان لان هذا القدر مذكور فى القرآن وما آمن معه الا قليل
فأما تعيين ذلك القدر فغير معلوم (قال) لهم لما سخروا منه (ان تسخروا منا فانا نسخر منكم
كما تسخرون) اذا نجونا وغرقتم (فان قيل) السخرية لا تليق بمنصب النبوة (أجيب) بأن ذلك
ذكر على سبيل الازدواج فى مشاكلة الكلام كما فى قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها والمعنى ان
تسخروا منا فسترون عاقبة سخريتكم وهو قوله تعالى (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه)
أى يهينه فى الدنيا وهو الغرق (ويحل عليه) فى الآخرة (عذاب مقيم) وهو النار التى
لا انقطاع لها وقوله تعالى (حتى اذا جاء أمرنا) أى باهلاكهم غاية لقوله ويصنع الفلك وما
بينهما حال من الضمير فيه أو حتى هى التى يبتدأ بعدها الكلام واختلف فى التنور فى قوله
تعالى (وفار التنور) فقال عكرمة والزهرى هو وجه الارض وذلك انه قيل لنوح عليه السلام
اذا رأيت الماء فار على وجه الارض فاركب السفينة وروى عن على رضى الله عنه أنه قال فار
التنور وقت طلوع الفجر ونور الصبح وقال الحسن ومجاهد والشعبى انه التنور الذى يخبز فيه
وهو قول أكثر المفسرين ورواية عطية وابن عباس لانه حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور
حقيقته هو الموضع الذى يخبز فيه وهو قول أكثر المفسرين فوجب حمل اللفظ عليه وهؤلاء
اختلفوا فمنهم من قال انه تنور لنوح ومنهم من قال انه كان لآدم عليه السلام قال الحسن كان
تنورا من حجارة كانت حواء تخبز فيه فصار الى نوح فقيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الماء
يفور من التنور فاركب السفينة أنت وأصحابك واختلفوا أيضا فى موضعه فقال مجاهد
والشعبى كان فى ناحية الكوفة وكان الشعبى يحلف بالله ما فار التنور الا من ناحية الكوفة
وقال اتخذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلى باب
كندة وكان فوران الماء منه علما لنوح وقال مقاتل كان ذلك تنور آدم عليه السلام
وكان بالشأم بموضع يقال له عين وردة وروى عن ابن عباس أنه كان بالهند ومعنى فار نبع على
قوة وشدة تشبيها بغليان القدر عند قوة النار ولا شبهة ان التنور لا يفور والمراد فار الماء من
التنور فلما فار أمر الله تعالى نوحا عليه السلام أن يحمل فى السفينة ثلاثة أنواع من الاشياء
الاول قوله تعالى (قلنا احمل فيها) أى السفينة (من كل زوجين اثنين) والزوجان عبارة
عن كل شيئين يكون أحدهما ذكرا والآخر أنثى والتقدير من كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما
فى السفينة اثنين واحد ذكر وواحد أنثى وفى القصة ان نوحا عليه السلام قال يارب كيف أحمل
من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى اليه السباع والطير فجعل يضرب بيديه فى كل جنس
فيقع الذكر فى يده اليمنى والانثى فى يده اليسرى فيحملهما فى السفينة وقرأ حفص بتنوين لام
كل أى واحمل من كل شئ زوجين اثنين الذكر زوج والانثى زوج (فان قيل) ما الفائدة فى قوله
زوجين اثنين والزوجان لا يكونان الا اثنين (أجيب) بأن هذا على مثال قوله تعالى لا تتخذوا
الهين اثنين وقوله تعالى نفخة واحدة والباقون بغير تنوين فهذا السؤال غير وارد النوع

الثانى من الاشياء التى أمر الله تعالى نوحا عليه السلام أن يحملها فى السفينة قوله تعالى (وأهلك) وهم أبناؤه وزوجته وقوله تعالى (الا من سبق عليه القول) بأنه من المغرقين وهو ابنه كنعان وأمه راعلة وكانا كافرين حكم الله تعالى عليهما بالهلاك بخلاف سام وحام ويافث وزوجاتهم ثلاثة وزوجته المسلمة (فان قيل) الانسان أشرف من سائر الحيوانات فلم بدأ بالحيوان (أجيب) بأن الانسان عاقل فهو لعقله مضطر الى دفع أسباب الهلاك عن نفسه فلا حاجة فيه الى المبالغة فى الترغيب بخلاف السعى فى تخليص سائر الحيوانات فلهذا السبب وقع الابتداء به النوع الثالث من الاشياء التى أمر الله تعالى نوحا عليه السلام بحملها فى السفينة قوله تعالى (ومن آمن) أى واحمل معك من آمن معك من قومك واختلف فى العدد الذى ذكره الله تعالى فى قوله تعالى (وما آمن معه الا قليل) فقال قتادة وابن جريج لم يكن معه فى السفينة الا ثمانية نفر نوح وامرأته المسلمة وثلاثة بنين له وهم سام وحام ويافث ونساؤهم وقال ابن اسحق كانوا عشرة سوى نسائهم نوح وبنوه الثلاثة وستة اناس ممن كان آمن به وأزواجهم جميعا وقال مجاهد كانوا اثنين وسبعين نفرا رجلا وامرأة وعن ابن عباس قال كان فى سفينة نوح ثمانون نصفهم رجال ونصفهم نساء وقال الطبرى والصواب من القول فى ذلك أن يقال كما قال الله تعالى وما آمن معه الا قليل فوصفهم بالقلة فلم يحد عددا بمقدار فلا ينبغى أن يجاوز فى ذلك حد الله تعالى اذ لم يرد عدد فى كتاب الله تعالى ولا فى خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدم نحو ذلك عن الرازى وقال مقاتل حمل نوح معه فى السفينة جسد آدم عليه السلام فجعله معترضا بين الرجال والنساء وقصد نوح عليه السلام جميع الدواب والطير ليحملها قال ابن عباس أول ما حمل نوح الذرة وآخر ما حمل الحمار فلما دخل الحمار أدخل صدره وتعلق ابليس بذنبه فلم تستقل رجلاه فجعل نوح يقول ويحك ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال ويحك ادخل وان كان الشيطان معك كلمة زلت على لسانه فلما قالها خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه فقال نوح ما أدخلك على يا عدو الله قال ما لك بد أن تحملنى معك فكان معه على ظهر السفينة هكذا نقله البغوى قال الرازى وأما الذى يروى ان ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم نارى أو هوائى فكيف يؤثر الغرق فيه وأيضا كتاب الله تعالى لم يدل عليه ولم يرد فى ذلك خبر صحيح فالاولى ترك الخوض فى ذلك قال البغوى وروى أن بعضهم قال ان الحية والعقرب أتيا نوحا عليه السلام فقالتا احملنا معك فقال انكما سبب البلاء فلا أحملكما فقالتا احملنا فانا نضمن لك أن لا نضر أحدا ذكرك فمن قرأ حين يخاف مضرتهما سلام على نوح فى العالمين لم يضراه وقال الحسن لم يحمل نوح فى السفينة الا ما يلد ويبيض فأما ما يتولد من الطين من حشرات الارض كالبق والبعوض فلم يحمل منها شيأ (وقال) نوح لمن معه (اركبوا) أى صيروا (فيها) أى السفينة وجعل ذلك ركوبا لانها فى الماء كركوب فى الارض وقوله تعالى (بسم الله مجراها ومرساها) متصل باركبوا حال من الواو فى اركبوا أى اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت اجرائها وارسائها قال الضحاك كان نوح اذا أراد أن تجرى السفينة قال بسم الله جرت

واذا أراد أن ترسو قال بسم الله رست وقرأ حفص وحمزة والكسائي بنصب الميم من جرت ورست أي جريها ورسوها وهما مصدران والباقون بضم الميم من أجريت وارسيت أي بسم الله اجراؤها وارساؤها وأمال الالف بعد الراء أبو عمرو وحفص وحمزة والكسائي محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح وذكروا في عامل الاعراب في بسم الله وجوها الاول اركبوا بسم الله الثاني ابدؤا بسم الله الثالث بسم الله اجراؤها (ان ربي لغفور رحيم) أي لولا مغفرته لفرطاتكم ورحمته اياكم لما نجاكم وقوله تعالى (وهي تجري بهم) متعلق بمحذوف دل عليه اركبوا أي فركبوا مسمين الله تعالى وهي تجري وهم فيها (في موج) وهو ما ارتفع من الماء اذا اشتدت عليه الريح (كالجبال) في عظمه وارتفاعه على الماء قال العلماء بالسير أرسل الله تعالى المطر أربعين يوما وليلة وخرج الماء من الارض فذلك قوله تعالى ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر فصار الماء نصفين نصف من السماء ونصف من الارض وارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا حتى أغرق كل شئ وروى أنه لما كثر الماء في السكك خافت امرأة على ولدها من الغرق وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت به الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما بلغها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بهما الماء فلو رحم الله تعالى منهم أحدا لرحم هذه المرأة وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والارض وكانت السفينة تجري في جوفه كما تسبح السمكة فليس بثابت قال البيضاوي والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا فان صح أي انه طبق ما بين السماء والارض فلعل ذلك أي ما ذكر من علو الموج قبل التطبيق (ونادى نوح ابنه) كنعان وكان كافرا كما مر وقيل كان اسمه يام (وكان في معزل) عزل فيه نفسه اما عن ابيه أو دينه ولم يركب معه واما عن السفينة واما عن الكفار كأنه انفرد عنهم وظن نوح عليه السلام أن ذلك انما كان لانه أحب مفارقتهم ولذلك ناداه بقوله (يا بني اركب معنا) في السفينة وقرأ عاصم بفتح الياء اقتصارا على الفتح من الالف المبدلة من ياء الاضافة في قولك يا بنيا والباقون بالكسر في الوصل ليدل على ياء الاضافة المحذوفة كما قال الشاعر

* يا ابنة عم لا تلومي واهجعي * ثم حذف الالف للتخفيف (ولا تكن مع الكافرين) أي في دين ولا مكان فتهلك ولما قال له ذلك (قال سآوي) أي التجئ وأصير (الى جبل يعصمني) أي يمنعني (من الماء قال) له نوح عليه السلام (لا عاصم) أي لا مانع (اليوم من أمر الله) أي من عذابه وقوله (الا من رحم) استثناء منقطع كأنه قيل ولكن من رحمه الله فهو المعصوم كقوله تعالى ما لهم به من علم الا اتباع الظن وقيل الا من رحم أي الا الراحم وهو الله تعالى وقيل الا مكان من رحمه الله تعالى فانه مانع من ذلك وهو السفينة (وحال بينهما) أي بين نوح وابنه أو بين ابنه والجبل (الموج) المذكور في قوله موج كالجبال (فكان) ابنه (من المغرقين) أي فصار من المهلكين بالماء (و) لما تناهى الطوفان وأغرق قوم نوح (قيل) أي قال الله تعالى أو ملك بأمره تعالى

(يا أرض ابلعي ماءك) أي اشربيه (ويا سماء أقلعي) أي أمسكي ماءك ناداهما بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والاقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل تمثيلا لكمال انقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما وههنا همزتان مختلفتان من كلمتين الاولى مضمومة والثانية مفتوحة قرأ أبو عمرو ونافع وابن كثير بابدال الثانية واوا خالصة والباقون بالتحقيق (وغيض الماء) أي نقص وذهب وقرأ هشام والكسائي باشمام الغين وهو ضم الغين قبل الياء والباقون بالكسر وكذا وقيل (وقضي الامر) أي وأنجز ما وعد من اهلاك الكافرين وانجاء المؤمنين (واستوت) أي استقرت السفينة (على الجودي) وهو جبل بالجزيرة قريب من الموصل (وقيل) أي قال الله تعالى أو ملك بأمره تعالى (بعدا) أي هلاكا (للقوم الظالمين) ومجيء اخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء وان تلك الامور العظام لا تكون الا بفعل فاعل قادر وبكون مكون قاهر وان فاعلها واحد لا يشارك في أفعاله فلا يذهب الوهم الى أن يقول غيره يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ولا أن يقضي ذلك الامر الهائل غيره ولا أن تستوي على متن الجودي وتستقر عليه الا بتسويته واقراره وروي ان السفينة لما استقرت بعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الارض فوقع على جيفة فلم يرجع فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت رجليها بالطين فعلم نوح أن الماء قد نقص فقيل انه دعا على الغراب بالخوف فلذا لا يألف البيوت وطوق الحمامة الخضرة التي في عنقها ودعا لها بالامان فمن ثم تألف البيوت وروي ان نوحا ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرت بالبيت العتيق وقد رفعه الله تعالى من الغرق وبقي موضعه فطافت به السفينة سبعا وأودع الحجر الاسود في جبل أبي قبيس وهبط نوح ومن معه في السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح وأمر من معه بصيامه شكرا لله تعالى وبنوا قرية بقرب الجبل وسميت سوق ثمانين فهي أول قرية عمرت على وجه الارض بعد الطوفان وقيل انه لم ينج أحد من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق وكان الماء يصل الى حجزته وهذا لا يأتي على القول باطباق الماء قال هذا القائل وسبب نجاته أن نوحا احتاج الى خشب ساج للسفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج اليه من الشأم فنجاه الله تعالى من الغرق بذلك (فان قيل) كيف أغرق الله تعالى من لم يبلغ الحلم من الاطفال (أجيب) بأنه تعالى يتصرف في خلقه لا يسئل عما يفعل وقيل ان الله تعالى أعقم أرحام نسائهم أربعمائة سنة فلم يولد لهم تلك المدة (ونادى نوح ربه) أي دعاه وسأله (فقال رب ان ابني من أهلي) وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي (وان وعدك الحق) أي الصدق الذي لا خلف فيه (وأنت أحكم الحاكمين) لانك أعلمهم وأعدلهم (فان قيل) اذا كان النداء هو قوله رب فكيف عطف قال رب على نادى بالفاء (أجيب) بأن الفاء تفصيل لمجمل نادى مثلها في توضأ فغسل وقيل نادى أي أراد نداءه فقال رب (قال) الله تعالى له (يا نوح انه) أي هذا الابن الذي سألت نجاته (ليس من أهلك) أي المحكوم بنجاتهم لايمانهم وكفره ولهذا علل بقوله تعالى (انه عمل غير صالح) وقرأ الكسائي بكسر الميم ونصب اللام بغير

تنوين ونصب الراء أي عمل الكفر والتكذيب وكل هذا غير صالح والباقون بفتح الميم ورفع اللام منونة ورفع الراء أي ذو عمل غير صالح أو صاحب عمل غير صالح فجعل ذات العمل للمبالغة كقول الخنساء تصف ناقة ترتع * فانما هي اقبال وادبار * واختلف علماء التفسير هل كان ذلك الولد ابن نوح أولا على أقوال الاول وهو قول ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والاكثرين أنه ابنه حقيقة ويدل عليه أنه تعالى نص عليه فقال ونادى نوح ابنه ونوح أيضا نص عليه فقال يابني وصرف هذا اللفظ الى أنه رباه وأطلق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقته الى مجازه من غير ضرورة القول الثاني أنه كان ابن امرأته وهو قول محمد ابن علي الباقر وقول الحسن البصري القول الثالث وهو قول مجاهد والحسن أنه ولد حنث ولد على فراشه ولم يعلم نوح بذلك واحتج هذا القائل بقوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط فخانتاهما قال الرازي وهذا قول واه حيث يجب صون منصب الانبياء عن هذه الفضيحة لاسيما وهو خلاف نص القرآن وقد قيل لابن عباس ما كانت تلك الخيانة فقال كانت امرأة نوح تقول زوجي مجنون وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه اذا نزل به (فلا تسألني ماليس لك به علم) أي بما لا تعلم أصواب هو ام لا لان اللائق بأمثالك من أولي العزم بناء أمورهم على التحقيق وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بفتح اللام وتشديد النون والباقون بسكون اللام وتخفيف النون وأثبت الياء بعد النون في الوصل دون الوقف ورش وأبو عمرو وحذفها الباقون وقفا ووصلا (اني أعظك) أي بمواعظي كراهة (أن تكون من الجاهلين) فتسأل كما يسأل ون واغا سمي نداءه سؤالا لتضمن ذكر الوعد بنجاة أهله واستنجازه في شأن ولده (قال) نوح (رب اني أعوذ بك أن) أي من أن (أسألك) في شئ من الاشياء (ماليس لي به علم) تأدبا بادبك واتعاظا بوعظك (والا تغفرلي) أي الآن ما فرط مني وفي المستقبل ما يقع مني (وترحمني) اي تسترزلاتي وتمحها وتكرمني (أكن من الخاسرين) أي الغريقين في الخسارة (فان قيل) هذا يدل على عصمة الانبياء لوقوع هذه الزلة من نوح عليه السلام (أجيب) بأن الزلة الصادرة من نوح انما هي كونه لم يستقص مايدل على نفاق ابنه وكفره لان قومه كانوا على ثلاثة أقسام كافر يظهر كفره ومؤمن يخفي ايمانه ومنافق لا يعلم حاله في نفس الامر وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة وحكم الكافرين هو الغرق وكان ذلك معلوما وأما أهل النفاق فبقي أمرهم مخفيا وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمنا وكانت الشفقة المفرطة التي تكون للاب في حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافرا بل على الوجوه الصحيحة فأخطأ في ذلك الاجتهاد كما وقع لآدم عليه السلام في الاكل من الشجرة فلم يصدر عنه الا الخطأ في الاجتهاد فلم تصدر منه معصية فلجأ الى ربه تعالى وخشع له ودعاه وسأله المغفرة والرحمة كما قال آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين لان حسنات الابرار سيآت المقربين (قيل) أي قال الله تعالى أو ملك بأمره تعالى (يانوح اهبط) أي انزل من السفينة أو من الجبل الى الارض المستوية (بسلام) أي بعظم وأمن وسلامة (منا) وذلك أن الغرق لما كان عاما في جميع

الارض فعندما خرج نوح عليه السلام من السفينة علم أنه ليس في الارض شيء مما ينتفع به من النبات والحيوان فكان كالخائف في أنه كيف يعيش وكيف يدفع جهات الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب فلما قال الله تعالى اهبط بسلام منا زال عنه ذلك الخوف لان ذلك يدل على حصول السلامة وأن لا يكون الا مع الامن وسعة الرزق ثم انه تعالى لما وعده بالسلامة أردفه بأن وعده بالبركة بقوله تعالى (وبركات عليك) وهو عبارة عن الدوام والبقاء والثبات لان الله تعالى صير نوحا عليه السلام أبا البشر لان جميع من بقي كانوا من نسله لان نوحا لما خرج من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل الا من ذريته فالخلق كلهم من نسله أو أنه لم يكن معه في السفينة الا من كان من نسله وذريته وعلى التقديرين فالخلق كلهم من ذريته ويدل على ذلك قوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فثبت أن نوحا كان آدم الاصغر فكان أبا الانبياء والخلق بعد الطوفان كلهم منه ومن ذريته وكان بين نوح وآدم ثمانية أجداد وقوله تعالى (وعلى أمم ممن معك) يحتمل أن تكون من للبيان فيراد الامم الذين كانوا معه في السفينة لانهم كانوا جماعات أو قيل لهم أمم لان الامم تتشعب منهم وأن تكون لابتداء الغاية أي على أمم ناشئة ممن معك وهي الامم الى آخر الدهر قال في الكشاف وهو الوجه وقوله تعالى (وأمم) بالرفع على الابتداء وقوله تعالى (سنمتعهم) أي في الدنيا صفة والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم سنمتعهم وانما حذف لان قوله ممن معك يدل عليه والمعنى أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤن ممن معك وممن معك أمم ممتعون في الدنيا (ثم يمسهم منا عذاب أليم) في الآخرة وهم الكفار وعن محمد بن كعب القرظي دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وقيل المراد بالامم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب ولما شرح تعالى قصة نوح عليه السلام على التفصيل قال تعالى (تلك) أي قصة نوح التي شرحناها ومحل تلك رفع على الابتداء وخبرها (من أنباء الغيب) أي من الاخبار التي كانت غائبة عن الخلق وقوله تعالى (نوحيها اليك) خبر ثان والضمير لها أي موحاة اليك وقوله تعالى (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) أي نزول القرآن خبر آخر والمعنى أن هذه القصة مجهولة عندك وعند قومك من قبل ايحائنا اليك ونظير هذا ان يقول انسان لآخر لا تعرف هذه المسألة لا أنت ولا أهل بلدك (فان قيل) قد كانت قصة طوفان نوح مشهورة عند أهل العلم (أجيب) بأن ذلك كان بحسب الاجمال وأما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة أو بأنه صلى الله عليه وسلم كان أميا لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها وكذلك كانت أمته ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (فاصبر) أي أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار (ان العاقبة للمتقين) الشرك والمعاصي وفي هذا تنبيه على ان عاقبة الصبر لنبينا صلى الله عليه وسلم النصر والفرج أي السرور كما كان لنوح ولقومه (فان قيل) هذه القصة ذكرت في يونس فما الحكمة والفائدة في اعادتها (أجيب) بأن القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه ففي السورة الاولى كان

الكفار يستعجلون نزول العذاب فذكر تعالى قصة نوح فى بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر ثم فى العاقبة ظهر فكذا فى واقعة محمد صلى الله عليه وسلم وفى هذه السورة ذكرت لاجل أن الكفار كانوا يبالغون فى الايحاش فذكرها الله تعالى لبيان أن اقدام الكفار على الايذاء والايحاش كان حاصلا فى زمان نوح عليه السلام فلما صبر فاز وظفر فكن يا محمد كذلك لتنال المقصود ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة فى كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليا عن الحكمة والفائدة * القصة الثانية من القصص التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة قصة هود عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (والى عاد) أى وأرسلنا الى عاد (أخاهم) فهو معطوف على قوله تعالى نوحا وقوله تعالى (هودا) عطف بيان ومعلوم أن تلك الاخوة ما كانت فى الدين وانما كانت فى النسب لان هودا كان رجلا من قبيلة عاد قبيلة من العرب كانوا بناحية اليمن (فان قيل) انه تعالى قال فى ابن نوح انه ليس من أهلك فبين أن قرابة النسب لا تفيد اذا لم تحصل قرابة الدين وهنا أثبت هذه الاخوة مع الاختلاف فى الدين (أجيب) بأن قوم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يستبعدون أن يكون رسولا من عند الله تعالى مع أنه واحد من قبيلتهم فذكر الله تعالى أن هودا كان واحدا من عاد وان صالحا كان واحدا من ثمود لازالة هذا الاستبعاد ولما تقدم أمر نوح عليه السلام مع قومه استشرف السامع الى معرفة ما قال هود عليه السلام هل هو مثل قوله أولا فاستأنف الجواب بقوله (قال يا قوم اعبدوا الله) أى وحدوه ولا تشركوا معه شيأ فى العبادة (مالكم من اله غيره) أى هو الهكم لان هذه الاصنام التى تعبدونها حجارة لا تضر ولا تنفع (فان قيل) كيف دعاهم الى عبادة الله تعالى قبل اقامة الدليل على ثبوت الاله (أجيب) بأن دلائل وجود الله تعالى ظاهرة وهى دلائل الآفاق والانفس وقلما يوجد فى الدنيا طائفة ينكرون وجود الاله ولذلك قال تعالى فى صفة الكفار ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقرأ الكسائى بكسر الراء والهاء صفة على اللفظ والباقون بالرفع صفة على محل الجار والمجرور ومن زائدة (ان أنتم الا مفترون) أى كاذبون فى عبادتكم غيره وكرر قوله (يا قوم) للاستعطاف وقوله (لا أسألكم عليه أجرا ان أجرى الا على الذى فطرنى) أى خلقنى خاطب به كل رسول قومه ازالة للتهمة وتمحيضا للنصيحة فانها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع (أفلا تعقلون) أى أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطا فتتعظون ثم قال (ويا قوم) أيضا لما ذكر (استغفروا ربكم) أى آمنوا به (ثم توبوا اليه) من عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان (يرسل السماء) أى المطر (عليكم مدرارا) أى كثير الدر (ويزدكم قوة الى قوتكم) أى ويضاعف قوتكم وانما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوة لان القوم كانوا أصحاب زرع وبساتين وعمارات حراصا عليها أشد الحرص فكانوا أحوج شئ الى الماء وكانوا مدلين غيرهم بما أوتوا من شدة القوة والبطش والبأس والنجدة مهابين فى كل ناحية وقيل أراد القوة فى المال وقيل القوة على النكاح وقيل حبس عنهم المطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم وعن الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما أنه

وفد على معاوية فلما خرج تبعه بعض حجابه فقال انى رجل ذو مال ولا يولد لى فعلمنى شيأ لعل الله يرزقنى ولدا فقال عليك بالاستغفار فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر فى يوم واحد سبعمائة مرة فولد له عشر بنين فبلغ ذلك معاوية فقال هلا سألته مم قال ذلك فوفد مرة أخرى فسأله الرجل فقال ألم تسمع قول هود ويزدكم قوة الى قوتكم وقول نوح ويمددكم بأموال وبنين (ولا تتولوا) أى ولا تعرضوا عن قبول قولى ونصحى حالة كونكم (مجرمين) أى مشركين * ولما حكى الله تعالى عن هود ما ذكره لقومه حكى أيضا ما ذكره قومه له وهو أشياء أولها ذكره تعالى بقوله (قالوا ياهود ما جئتنا ببينة) أى بحجة تدل على صحة دعواك وسميت بينة لانها تبين الحق ومن المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام كان قد أظهر لهم المعجزات الا ان القوم لجهلهم أنكروها وزعموا أنه ما جاء بشئ من المعجزات وثانيها قولهم (وما نحن بتاركى آلهتنا) أى عبادتها وقولهم (عن قولك) أى صادرين عن قولك حال من الضمير فى تاركى وهذا أيضا من جهلهم فانهم كانوا يعرفون أن النافع والضار هو الله تعالى وأن الاصنام لا تضر ولا تنفع وذلك بحكم فطرة العقل وبديهة النفس وثالثها قولهم (وما نحن لك بمؤمنين) أى مصدقين وفى ذلك اقناط له من الاجابة والتصديق ورابعها قولهم (ان) أى ما (نقول) فى شأنك (الا اعتراك) أى أصابك (بعض آلهتنا بسوء) لسبك اياها فجعلتك مجنونا وأفسدت عقلك ثم انه تعالى ذكر أنهم لما قالوا ذلك (قال) هود عليه السلام مجيبا لهم (انى أشهد الله) على (واشهدوا) أنتم أيضا على (أنى برئ مما تشركون من دونه) أى الله وهو الاصنام التى كانوا يعبدونها (فكيدونى) أى احتالوا فى هلاكى (جميعا) أنتم وأصنامكم التى تعتقدون أنها تضر وتنفع فانها لا تضر ولا تنفع *(فائدة)* اتفق القراء على اثبات الياء فى كيدونى هنا وقفا ووصلا لاثباتها فى المصحف (ثم لا تنظرون) أى تمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام لانه كان وحيدا فى قومه وقال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت ثقة بالله تعالى كما قال تعالى (انى توكلت على الله ربى وربكم) أى فوضت أمرى اليه واعتمدت عليه (ما من دابة) تدب على الارض ويدخل فى هذا جميع بنى آدم والحيوان لانهم يدبون على الارض (الا هو آخذ بناصيتها) أى مالكها وقاهرها فلا يقع نفع ولا ضر الا باذنه والناصية كما قال الازهرى عند العرب منبت الشعر فى مقدم الرأس وسمى الشعر النابت هنا ناصية باسم منبته والعرب اذا وصفوا انسانا بالذلة والخضوع قالوا ما ناصية فلان الا بيد فلان وكانوا اذا أسروا الاسير وأرادوا اطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخوطبوا فى القرآن بما يعرفون من كلامهم (ان ربى على صراط مستقيم) أى طريق الحق والعدل فلا يظلمهم ولا يعمل الا بالاحسان والانصاف فيجازى المحسن باحسانه والمسئ بعصيانه وقوله تعالى (فان تولوا) فيه حذف احدى التاءين أى تعرضوا (فقد أبلغتكم) جميع (ما أرسلت به اليكم) فان قيل الابلاغ كان قبل التولى فكيف وقع جزاء للشرط (أجيب) بأن معناه فان تتولوا لم أعاتب على تقصير من جهتى وصرتم محجوجين لانكم أنتم

الذين أصررتم على التكذيب وقوله (ويستخلف ربي قوماً غيركم) استئناف بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلكهم ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم يوحدونه تعالى ويعبدونه (ولا تضرونه) أي الله بإشراككم (شيأ) من الضرر إنما تضرون أنفسكم وقيل لا تنقصونه شيأ إذا أهلككم لان وجودكم وعدمكم عنده سواء (ان ربي على كل شئ) صغيراً وكبيراً حقيراً وجليل (حفيظ) أي رقيب عالم بكل شئ وقادر على كل شئ فيحفظني أن تنالوني بسوء أو حفيظ لاعمال العباد حتى يجازيهم عليها أو حفيظ على كل شئ يحفظه من الهلاك إذا شاء ويهلكه إذا شاء (ولما) لم يرجعوا ولم يرعوا ببينة ولا رغبة ولا رهبة (جاء أمرنا) أي عذابنا وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم عذبهم الله تعالى بها سبع ليال وثمانية أيام حسوما تدخل في مناخرهم وتخرج من أدبارهم وترفعهم وتضرب بهم على الارض على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية وهنا همزتان مفتوحتان من كلمتين قرأ قالون والبزي وأبو عمرو باسقاط الاولى وقرأ ورش وقنبل بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية والباقون بتحقيقهما (نجينا هودا والذين آمنوا معه) أي من هذا العذاب وكانوا أربعة آلاف (برحمة منا) لان العذاب اذا نزل قد يعم المؤمن والكافر فلما أنجى الله تعالى المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه (ونجيناهم من عذاب غليظ) هو عذاب الآخرة ووصفه بالغلظ لانه أغلظ من عذاب الدنيا أو نجيناهودا والذين آمنوا معه من أن يصل اليهم الكفار بسوء مع اجتهادهم في ذلك ونجيناهم من عذاب غليظ هو الريح المذكورة * ولما ذكر الله تعالى قصة عاد خاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال (وتلك عاد) وهو اشارة الى قبورهم وآثارهم كانه تعالى قال سيحوا في الارض فانظروا اليها واعتبروا ثم انه تعالى جمع أوصافهم ثم ذكر عاقبة أحوالهم في الدنيا والآخرة أما أوصافهم فثلاثة الصفة الاولى قوله تعالى (جحدوا بآيات ربهم) أي بالمعجزات التي أتى بها هود عليه السلام الصفة الثانية قوله تعالى (وعصوا رسله) أي هودا وحده وانما أتى به بلفظ الجمع اما للتعظيم أولان من عصى رسولا فقد عصى جميع الرسل لقوله تعالى لا نفرق بين أحد من رسله الصفة الثالثة قوله تعالى (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) أي ان السفلة كانوا يقلدون الرؤساء في قولهم ما هذا الا بشر مثلكم فأطاعوا من دعاهم الى الكفر وما يرديهم وعصوا من دعاهم الى الايمان ولا يرديهم والجبار المرتفع المتمرد والعنيد والعنود والمعاند هو المنازع المعارض * ولما ذكر تعالى اوصافهم ذكر أحوالهم بقوله تعالى (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) أي جعل اللعن رديفا لهم ومتابعا ومصاحبا في الدنيا والآخرة ومعنى اللعنة الابعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير وقيل اللعنة في الدنيا من الناس وفي الآخرة اللعنة على رؤس الاشهاد * ثم انه تعالى بين السبب الاصلي في نزول هذه الاحوال المكروهة بهم بقوله تعالى (ألا ان عادا كفروا ربهم) أي كفروا بربهم فحذف الباء أو أن المراد بالكفر الجحد أي جحدوا ربهم وقيل هو من باب حذف المضاف أي كفروا نعمة ربهم *(تنبيه)* ألا أداة استفتاح لا تذكر الا بين يدي كلام يعظم موقعه ويجل خطبه ثم قال (ألا بعدا لعاد) دعاء عليهم بالهلاك والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل بهم بسبب ما حكى

عنهم وأغاكر ألا وأعاذكرهم تفظيعا لامرهم وحثا على الاعتبار بحالهم وقوله تعالى (قوم هود) عطف بيان لعاد وفائدته تمييزهم من عاد الثانية عاد ارم والايماء الى استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود القصة الثالثة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة قصة صالح عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (والى ثمود) وهم سكان الحجر أى وأرسلنا الى ثمود (أخاهم) فهو معطوف على قوله تعالى نوحا كما عطف عليه والى عاد وقوله تعالى (صالحا) عطف بيان وتلك الاخوة كانت فى النسب لا فى الدين كما مر فى هود ثم أخرج قوله عليه السلام على تقدير سؤال بقوله (قال ياقوم) أى يامن يعز على أن يحصل لهم سوء (اعبدوا الله) أى وحدوه وخصوه بالعبادة (مالكم من اله غيره) هو الهكم المستحق للعبادة لا هذه الاصنام ثم ذكر الدلائل الدالة على وحدانيته تعالى بقوله (هو أنشأكم) أى ابتدأ خلقكم (من الارض) وذلك أنهم من بنى آدم وآدم خلق من الارض أوان الانسان مخلوق من المنى وهو متولد من الدم والدم متولد من الاغذية وهى اما حيوانية واما نباتية فأما الحيوانية فحالها كحال الانسان فوجب انتهاء الكل الى النبات والنبات متولد من الارض فثبت أنه تعالى أنشأ الانسان من الارض وقيل من بمعنى فى كما فى قوله تعالى اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة (واستعمركم فيها) أى جعلكم عمارها وسكانها وقال الضحاك أطال أعماركم فيها حتى ان الواحد منهم كان يعيش ثلثمائة سنة الى ألف سنة وكذا كان قوم عاد وروى ان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الانهار وغرس الاشجار وحصلت لهم الاعمار الطويلة فسأل نبى من أنبياء زمانهم ربه ما سبب تلك الاعمار فأوحى الله اليه انهم عمروا بلادى فعاش فيها عبادى وأخذ معاوية فى احياء الارض فى آخر عمره فقيل له فى ذلك فقال ما حملنى عليه الا قول القائل

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به * ولا يكون له فى الارض آثار

وقال مجاهد استعمركم من العمرى أى جعلها لكم ما عشتم فاذا متم انتقلت الى غيركم * ولما بين لهم عليه السلام عظمة الله تعالى بين لهم طريق الرجوع اليه بقوله (فاستغفروه) أى آمنوا به (ثم توبوا اليه) من عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان وقد مر مثل ذلك (ان ربى قريب) من خلقه بعلمه لكل من أقبل عليه من غير حاجة الى حركة (مجيب) لكل من ناداه لا كمعبوداتكم فى الامرين * ولما قرر لهم عليه السلام هذه الدلائل (قالوا) له (ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) أى القول الذى جئت به لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد فانك كنت تعطف على فقيرنا وتعين ضعيفنا وتعود مرضانا فقوى رجاؤنا فيك أن تنصرد بننا فكيف أظهرت العداوة * ثم انهم أضافوا الى هذا التعجب الشديد فقالوا (أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا) من الآلهة ومقصودهم بذلك التمسك بطرف التقليد ووجوب متابعة الآباء والاسلاف ونظير هذا التعجب ما حكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث قالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا الشئ عجاب ثم قالوا (واننا لفى شك مما تدعونا اليه) من التوحيد وترك عبادة الاصنام (مريب) أى موقع فى الريبة وهى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين والريب قلق

النفس

النفس بمجيء الخير على جهة الظن ونظيره الأمل والطمع والنهي المنع من الفعل بصيغة لا تفعل وقولهم هذا مبالغة في تزييف كلامه (قال) صالح عليه السلام مجيبا لهم (يا قوم أرأيتم) أي أخبروني (إن كنت على بينة) أي بيان وبصيرة (من ربي) وأتى بحرف الشك على سبيل الجزم ليلائم الخطاب حال المخاطبين (وآتاني منه رحمة) أي نبوة ورسالة (فمن ينصرني) أي يمنعني (من الله) أي عذابه (إن عصيته) أي إن خالفت أمره في تبليغ رسالته والمنع عن الإشراك به (فما تزيدونني) أي بأمركم لي بذلك (غير تخسير) أي غير تضليل قال الحسين بن الفضل لم يكن صالح في خسارة حتى يقول فما تزيدونني غير تخسير وإنما المعنى فما تزيدونني بما تقولون إلا نسبتي إياكم إلى الخسارة * ولما كانت العادة فيمن يدعي النبوة عند قوم يعبدون الأصنام أن يطلبوا المعجزة وأمر صالح عليه السلام هكذا كان روي أن قومه خرجوا في عيد لهم فسألوه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا إليها ناقة فدعا ربه فخرجت كما سألوا أشار إليها بقوله (ويا قوم هذه ناقة الله) وإضافتها إلى الله إضافة تشريف كبيت الله (لكم آية) أي معجزة من وجوه أحدها أنه خلقها الله تعالى من الصخرة ثانيها أنه تعالى خلقها في جوف الجبل ثم شق الجبل عنها ثالثها أنه تعالى خلقها حاملا من غير ذكر ثم ولدت فصيلا يشبهها رابعها أنه تعالى خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة خامسها ما روي أنه كان لها شرب يوم ولكل القوم شرب يوم آخر سادسها أنه كان يحصل منها لبن كثير يكفي الخلق العظيم به فكل واحد من هذه الوجوه معجز قوي وليس في القرآن إلا أن هذه الناقة كانت آية معجزة وأما بيان أنها كانت آية معجزة من أي الوجوه فليس فيه بيانه * (تنبيه) * آية نصب على الحال وعاملها معنى الإشارة ولكم حال منها تقدمت عليها لتنكيرها ولو تأخرت لكانت صفة لها فلما تقدمت انتصبت على الحال ثم قال لهم (فذروها) أي اتركوها على أي حالة كان تركتكم لها (تأكل) مما أرادت (في أرض الله) من العشب والنبات فليس عليكم مؤنتها فصارت مع كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم لأنهم كانوا ينتفعون بلبنها ثم إنه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهد من إصرارهم على الكفر فإن الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه بل يسعى في إخفائها وإبطالها بأقصى الإمكان فلهذا السبب كان يخاف من إقدامهم على قتلها فلهذا احتاط وقال (ولا تمسوها بسوء) أي بعقر أو غيره ثم توعدهم بقوله (فيأخذكم) إن مسستموها بسوء (عذاب قريب) أي في الدنيا لا يتأخر عن مسكم لها إلا يسيرا وذلك تحذير شديد لهم في الإقدام على قتلها فخالفوه (فعقروها) وذبحوها (فقال) لهم عند بلوغه الخبر (تمتعوا) أي عيشوا (في داركم) والتمتع التلذذ بالمنافع والملاذ التي تدرك بالحواس وذلك لا يحصل إلا للحي وفي المراد من الدار وجهان أحدهما البلد وتسمى البلد الديار لأنه يدار فيها أي يتصرف فيها يقال ديار بكر لبلادهم الثاني دار الدنيا أي تمتعوا في الدنيا (ثلاثة أيام) وذلك أنهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه الصلاة والسلام بنزول العقاب بعد هذه المدة قال ابن عباس إنه تعالى لما أمهلهم تلك الأيام الثلاثة فقد رغبهم في الإيمان ثم قالوا لصالح عليه السلام وما علامة ذلك قال تصير وجوهكم في اليوم الأول مصفرة وفي

الثاني محمرة وفي الثالث مسودة ثم يأتيكم العذاب في اليوم الرابع فلما رأوا وجوههم مسودة أيقنوا حينئذ بالعذاب فتحنطوا واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع كما قال تعالى (ذلك) أي الوعد العالي الرتبة في الصدق (وعد غير مكذوب) أي فيه فاتسع في الظرف بحذف الحرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله * ويوم شهدناه * (أي ورب يوم شهدنا فيه) سليما وعامرا * أو غير مكذوب على المجاز أو وعد غير كذب على أنه مصدر وقوله تعالى (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) في تفسيره وقراءة الهمزتين وعدد الذين آمنوا معه مثل ما تقدم في قصة عاد (و) نجيناهم (من خزي يومئذ) وهو هلاكهم بالصيحة أو ذلهم أو فضيحتهم يوم القيامة وقرأ نافع والكسائي بفتح الميم من يومئذ على البناء لاضافتها الى مبني وكسرها الباقون على الاعراب والاول أكثر (ان ربك هو القوي) فهو يغلب كل شيء (العزيز) أي القادر على منع غيره من غير أن يقدر أحد عليه ثم أخبر تعالى عن عذاب قوم صالح بقوله (وأخذ الذين ظلموا) أي أنفسهم بالكفر (الصيحة) أي صيحة جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا أو أتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم في صدورهم فماتوا جميعا كما قال تعالى (فأصبحوا في ديارهم جاثمين) أي باركين على الركب ميتين * (تنبيه) * انما قال تعالى وأخذ ولم يقل وأخذت لان الصيحة محمولة على الصياح وأيضا فصل بين الفعل والاسم المؤنث بفاصل فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث وقوله تعالى (كأن) مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي كأنهم (لم يغنوا) أي يقيموا (فيها) أي ديارهم ولم يسكنوها مدة من الدهر يقال غنيت بالمكان اذا أقمت به وقوله تعالى (ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) تفسيره ما تقدم في قوله تعالى ألا ان عادا كفروا ربهم الآية وقرأ حفص وحمزة ألا ان ثمود بغير تنوين للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة والباقون بالتنوين للذهاب الى الحي أو الى الأب الاكبر ومن نون وقف على ألف بعد الدال ومن لم ينون وقف على الدال ساكنة وقرأ الكسائي بعد لثمود بتنوين ثمود مع الكسر لما مر والباقون بغير تنوين مع الفتح لما مر أيضا القصة الرابعة التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة ابراهيم عليه الصلاة والسلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) أي باسحق ومن وراء اسحق يعقوب والمراد بالرسل الملائكة ولفظ رسلنا جمع وأقله ثلاثة واختلف في الزائد على ذلك وأجمعوا على أن الاصل فيهم كان جبريل عليه السلام واقتصر ابن عباس وعطاء على أقل الجمع فقالا كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل وهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة الذاريات بقوله تعالى هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين وفي الحجر ونبئهم عن ضيف ابراهيم وقال الضحاك كانوا تسعة وقال محمد بن كعب القرظي كان جبريل ومعه سبعة أملاك وقال السدي كان جبريل ومعه أحد عشر ملكا على صورة الغلمان الذين يكونون في غاية الحسن قال النحويون ودخلت كلمة قد ههنا لان السامع لقصص الانبياء يتوقع قصة بعد قصة وقد للتوقع ودخلت اللام في لقد لتأكيد الخبر (قالوا سلاما) أي سلمنا عليك سلاما ويجوز نصبه بقالوا

على معنى ذكروا سلاما أى سلموا (قال سلام) أى أمركم أو جوابى سلام أو وعليكم سلام
* (تنبيه) * قوله سلام أكمل من قوله السلام لان التنكير يفيد الكمال والمبالغة والتمام
ولهذا صح وقوعه مبتدأ لان النكرة اذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدأ وأما لفظ السلام
فانه لا يفيد الا الماهية (فان قيل) فلاى شئ ما كفى الاول فى التحلل من الصلاة عند النووى
(أجيب) بأن ذلك سنة متبعة وقرأ حمزة والكسائى بكسر السين وسكون اللام ولا ألف بعدها
والباقون بفتح السين واللام وبعدها ألف قال الفراء ولا فرق بين القراءتين كما يقال
حل وحلال وحرم وحرام وقيل سلم هو بمعنى الصلح أى نحن سلم صلح غير حرب (فما لبث أن جاء
بعجل حنيذ) أى فما أبطأ مجيئه به والحنيذ المشوى على الحجارة المحماة فى حفرة من الارض
وكان سمينا يقطر ودكه كما قال تعالى فى موضع آخر فجاء بعجل سمين قال قتادة كان عامة مال
ابراهيم البقر روى أن ابراهيم عليه السلام مكث خمس عشرة ليلة لم يأته ضيف فاغتم لذلك
وكان يحب الضيف ولا يأكل الا معه فلما جاءته الملائكة رأى أضيافا لم ير مثلهم فعجل
قراهم وجاء بعجل سمين مشوى (فلما رأى أيديهم) أى الاضياف (لا تصل اليه) أى
لا يمدون أيديهم اليه (نكرهم) أى أنكرهم وأنكر حالهم لامتناعهم من الطعام (وأوجس)
أى أضمر فى نفسه (منهم خيفة) أى خوفا قال قتادة وذلك انهم كانوا اذا نزل بهم ضيف فلم
يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير وانما جاء بشر (قالوا لا تخف) يا ابراهيم (انا) ملائكة
الله (أرسلنا الى قوم لوط) بالعذاب وانما لم نمد اليه أيدينا لانا لا نأكل (وامرأته) أى ابراهيم
سارة وهى ابنة عم ابراهيم (قائمة) وراء الستر تسمع محاورتهم أو على رؤسهم للخدمة فسمعت
البشارة بالولد التى دل عليها فيما مضى قوله بالبشرى (فضحكت) سرورا من تلك البشرى
لزوجها مع كبره وربما ظنته من غيرها لانها كانت عجوزا عقيما فأزيل ذلك الظن عنها بقوله تعالى
(فبشرناها) أى على لسان الملائكة تشريفا لها وتفخيما للشأن أنها (باسحق) تلده (ومن وراء
اسحق يعقوب) أى يكون يعقوب عليه السلام ابنا لاسحق عليه السلام فتعيش حتى ترى ولد
ولدها قال البقاعى والذى يدل على هذا التقدير من انهم بشروه بالولد قبل امرأته فسمعت
فعجبت ما يأتى عن نص التوراة وساق عن التوراة عبارة مطولة وقيل سبب سرورها زوال
الخيفة أو هلاك أهل الفساد وقيل فضحكت حاضت كما قال الشاعر

عهدى بسلمى ضاحكا فى لبانة * أى حائضا فى جماعة من النساء وهذا رد على الفراء حيث
قال ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة وقال آخر * تضحك الضبع لقتلى هذيل * أراد انها
تحيض فرحا * (تنبيه) * ههنا همزتان مكسورتان من كلمتين قرأ قالون والبزى بتسهيل الاولى
مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها أيضا حرف مد وقرأ أبو عمرو باسقاط
أحدهما مع المد والقصر والباقون بتحقيق الهمزتين ولا ألف بينهما (قالت يا ويلتا) هذه
كلمة تقال عند أمر عظيم والالف مبدلة من ياء الاضافة (أألد وأنا عجوز) وكانت ابنة تسعين
سنة فى قول ابن اسحق وقال مجاهد تسع وتسعين سنة (وهذا بعلى) أى زوجى سمى بذلك لانه

قيم أمرها وقولها (شيخا) نصب على الحال قال الواحدى وهذا من لطيف النحو وغامضه فان كلمة هذا للاشارة فكان قولها وهذا بعلى شيخا قائم مقام أن يقال أشير الى بعلى حال كونه شيخا والمقصود تعريف هذه الحالة المخصوصة وهى الشيخوخة وكان ابن مائة وعشرين سنة فى قول ابن اسحق وقال مجاهد مائة سنة وكان بين البشارة والولادة سنة (ان هذا الشئ عجيب) أى ان الولد من هرمين فهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة ولذلك (قالوا) أى الملائكة لسارة (أتعجبين من أمر الله) منكرين عليها ذلك أى لا تعجبين من ذلك فان الله تعالى قادر على كل شئ واذا أراد شيأ كان سريعا فان خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس بمستغرب (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) أى بيت ابراهيم وأهل منصوب على المدح أو النداء لقصد التخصيص كقولهم اغفر لنا أيتها العصابة وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة وفيه دليل على ان أزواج الرجل من أهل بيته (انه) تعالى (حميد) أى محمود على كل حال أو فاعل ما يستوجب به الحمد (مجيد) أى كثير الخير والاحسان * القصة الخامسة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة قصة لوط عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (فلما ذهب عن ابراهيم الروع) أى الخوف وهو ما أوجس من الخيفة حين أنكر أضيافه واطمأن قلبه بعرفانهم (وجاءته البشرى) بدل الروع بالولد أخذ (يجادلنا) أى يجادل رسلنا (فى) شأن (قوم لوط) وجواب لما أخذ يجادلنا الا أنه حذف اللفظ لدلالة الكلام عليه وقيل تقديره لما ذهب عن ابراهيم الروع جادلنا (فان قيل) كيف جادل ابراهيم الملائكة مع علمه بأنهم لا يمكنهم مخالفة امر الله وهذا منكر (أجيب) بأن المراد من هذه المجادلة تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصى لان الملائكة قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية أو ان مجادلته انما كانت فى قوم لوط بسبب مقام لوط فيهم ولهذا قال ابراهيم عليه السلام أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال أو أربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا قال فعشرون قالوا لا حتى بلغ خمسة قالوا لا قال أرأيتم لو كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا وقد ذكر الله تعالى هذا فى سورة العنكبوت فقال ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين قال ابن جريج وكان فى قرى لوط أربعة آلاف ألف ولو كانت هذه المجادلة مذمومة لما مدحه بقوله تعالى (ان ابراهيم لحليم) أى لا يتعجل مكافأة غيره بل يتأنى فيها فيؤخر او يعفو ومن هذا حاله يحب من غيره هذه الطريقة وهذا مدح عظيم من الله تعالى لابراهيم ثم ضم الى ذلك ما يتعلق بالحلم وهو قوله تعالى (أواه) أى كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس (منيب) أى رجاع فلما اطال مجادلتهم قالوا له (يا ابراهيم أعرض عن هذا) أى الجدال وان كانت الرحمة ديدنك فلا فائدة فيه (انه قد جاء أمر ربك) أى قضاؤه الازلى بعذابهم وهو أعلم بحالهم (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) أى لا سبيل

الى

الى دفعه ورده (ولما جاءت رسلنا لوطا) أى هؤلاء الملائكة الذين بشروا ابراهيم بالولد قال ابن عباس انطلقوا من عند ابراهيم الى لوط وهو ابن أخى ابراهيم عليهما الصلاة والسلام وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بنى آدم وكانوا فى غاية الحسن ولم يعرف لوط انهم ملائكة الله تعالى (سىء بهم) أى حزن بسببهم (وضاق بهم ذرعا) أى صدرا يقال ضاق ذرع فلان بكذا اذا وقع فى مكروه لايطيق الخروج منه وذلك ان لوطا نظر الى حسن وجوههم وطيب روائحهم فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم وقيل ساءه ذلك لانه عرف بالآخرة انهم ملائكة الله تعالى وانهم جاؤا لاهلاك قومه فرق قلبه على قومه (وقال هذا يوم عصيب) أى شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء أى شد به مأخوذ من العصابة التى تشد بها الرأس قال قتادة خرجت الملائكة من عند ابراهيم نحو قرية لوط فأتوا لوطا نصف النهار وهو فى أرض له يعمل فيها وروى أنه كان يحتطب وقد قال الله تعالى لهم لاتهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فاستضافوه وانطلق بهم فلما مضى ساعة قال لهم مابلغكم من أمر هذه القرية قالوا وما أمرهم قال أشهد بالله انها لشر قرية فى الارض عملا يقول ذلك أربع مرات وروى أن الملائكة جاؤا الى بيت لوط فوجدوه فى داره ولم يعلم بذلك أحد الا أهل بيت لوط فخرجت امرأته فأخبرت قومها وقالت ان فى بيت لوط رجالا مارأيت مثل وجوههم قط (وجاءه قومه) لما علموا بهم (يهرعون) أى يسرعون (اليه) قاله ابن عباس وقال الحسن الاهراع المشى بين مشيين (ومن قبل) أى قبل مجيئهم الى لوط وقيل من قبل مجىء الرسل اليهم (كانوا يعملون السيئات) أى الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة وهى اتيان الرجال فى أدبارهم لوط (قال) لقومه حين قصدوا أضيافه وظنوا انهم غلمان من بنى آدم (ياقوم هؤلاء بناتى) قال مجاهد وسعيد بن جبير أراد ببناته نساء قومه وأضافهن الى نفسه لان كل نبى هو أبو أمته كالوالد لهم أى فتزوجوا منهن وقيل أراد بنات نفسه عرضهن عليهم بشرط الاسلام وقيل كان فى ذلك الوقت وفى تلك الشريعة يباح تزويج المرأة المسلمة بالكافر كما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن الربيع قبل الوحى وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه (هن أطهر لكم) أى أنظف فعلا (فان قيل) افعل التفضيل يقتضى كون العمل الذى يطلبونه طاهرا ومعلوم انه فاسد لانه لاطهارة فى اتيان الرجال (أجيب) بان هذا جار مجرى قوله تعالى أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ومعلوم أن شجرة الزقوم لاخير فيها وكقوله صلى الله عليه وسلم لما قالوا يوم أحد اعل هبل قال الله اعلى وأجل ولامماثلة بين الله تعالى والصنم وانما هو كلام خرج مخرج المقابلة ولهذا نظائر كثيرة (فاتقوا الله) وراقبوه واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والمعاصى (ولاتخزون) أى تفضحونى (فى ضيفى) أى أضيافى (أليس منكم رجل رشيد) يهتدى الى الحق فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر (قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق) أى حاجة (وانك لتعلم مانريد) أى من اتيان الذكور ومالنا فيه الشهوة فعند ذلك (قال) أى لوط عليه السلام (لو أن لى بكم

قوله ابن الربيع هو كذلك فى متن المواهب قال شارحه على الصواب ورواه يحيى بن بكير ومعن ابن عيسى وأبو مصعب وغيره عن مالك وروى الجمهور عنه انه ابن ربيعة وادعى الاصيلى انه ابن الربيع بن ربيعة اه

قوة) أى طاقة (أو آوى الى ركن شديد) أى عشيرة تنصرنى شبهت بركن الجبل فى شدته وعنه صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى لوطا كان يأوى الى ركن شديد والركن الشديد نصر الله ومعونته فكان النبى صلى الله عليه وسلم استغرب من لوط عليه السلام قوله أو آوى الى ركن شديد وعده نادرة اذ لا ركن أشد من الركن الذى كان يأوى اليه وجواب لو محذوف تقديره لبطشت بكم أو لدفعتكم روى أنه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوّروا الجدار فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب (قالوا يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك) بسوء فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ربه فى عقوبتهم فأذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من درّ منظوم وهو براق الثنايا فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم كما قال تعالى فطمسنا أعينهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون الى بيوتهم فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان فى بيت لوط قوما سحرة * (تنبيه) * لن يصلوا اليك جملة موضحة للتى قبلها لانهم اذا كانوا رسل الله لن يصلوا اليه ولن يقدروا على ضرره ثم قالوا له (فأسر بأهلك بقطع) أى طائفة (من الليل) وقرأ نافع وابن كثير بعد الفاء بهمزة وصل من السرى والباقون بهمزة قطع من الاسراء (ولا يلتفت منكم أحد) أى لا ينظر الى ورائه لئلا يرى عظيم ما نزل بهم وقوله (الا امرأتك) قرأه ابن كثير وأبو عمرو برفع التاء على انه بدل من أحد والباقون بالنصب على انه استثناء من الاهل أى فلا تسر بها (انه مصيبها ما أصابهم) فلم يخرج بها وقيل خرجت والتفتت فقالت واقوماه فجاءها حجر فقتلها روى أنه قال لهم متى موعد هلاكهم فقالوا له (ان موعدهم الصبح) قال أريد أسرع من ذلك فقالوا (أليس الصبح بقريب) أى فأسرع الخروج بمن أمرت بهم (فلما جاء أمرنا) أى عذابنا بهلاكهم (جعلنا عاليها) أى قراهم (سافلها) روى ان جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات المذكورة فى سورة براءة وكانت خمس مدائن وفيها أربعمائة ألف وقيل أربعة آلاف ألف فرفع المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونهيق الحمير ونباح الكلاب لم يكفأ لهم اناء ولم ينتبه نائم ثم أسقطها مقلوبة الى الارض (وأمطرنا عليها) أى المدن بعد قلبها وقيل على شذاذها وهو بضم الشين المعجمة وبذالين معجمتين أولاهما مشددة وهم الذين ليسوا من أهلها يكونون فى القوم وليسوا منهم (حجارة من سجيل) أى من طين طبخ بالنار كما قال تعالى فى موضع آخر من طين وقيل مثل السجل وهو الدلو العظيمة (منضود) أى متتابع يتبع بعضها بعضا (مسوّمة) أى معلمة عليها اسم من يرمى بها وقال أبو صالح رأيت منها عند أم هانئ وهى حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع وقال الحسن عليها أمثال الخواتيم وقال ابن جريج كان عليها سيما يعلم بها انها ليست من حجارة الارض وقوله تعالى (عند ربك) ظرف لها (وما هى) أى تلك الحجارة (من الظالمين) أى مشركى مكة (ببعيد) أى بشئ بعيد او بمكان بعيد لانها وان كانت فى السماء وهو مكان بعيد الا انها اذا وقعت منها فهى أسرع شئ لحوقا بالمرمى فكأنها بمكان قريب منه وفيه وعيد لهم

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل فقال يعني ظالمي مكة ما من ظالم منهم الا وهو
يعرض عليه حجر فيسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير للقرى أي هي قريبة من ظالمي مكة
يمرون عليها في مسيرهم * القصة السادسة التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة شعيب عليه
السلام المذكورة في قوله تعالى (والى مدين) أي وأرسلنا الى مدين وهم قبيلة أبوهم مدين بن
ابراهيم عليه السلام وقيل هو اسم مدينة بناها مدين المذكور وعلى هذا فالتقدير وأرسلنا
الى أهل مدين فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه (أخاهم) أي في النسب لا في الدين و(شعيبا)
عطف بيان وكان قائلا قال فما قال لهم فقيل (قال) ما قال اخوته من الانبياء في البداءة بأصل
الدين (ياقوم) مستعطفا لهم مظهرا غاية الشفقة (اعبدوا الله) أي وحدوه ولا تشركوا به
شيأ (مالكم من اله غيره) فلقد اتفقت كما ترى كلمتهم واتحدت الى الله تعالى دعوتهم وهذا
وحده قطعي الدلالة على صدق كل منهم لما علم قطعا من تباعد اعصارهم وتنائي ديارهم
وان بعضهم لم يلم بالعلوم ولا عرف أخبار الناس الامن الحي القيوم ولما دعاهم الى
العدل فيما بينهم وبين الله تعالى دعاهم الى العدل فيما بينهم وبين عبيده في أقبح ما كانوا
اتخذوه بعد الشرك تدينا فقال (ولا تنقصوا) بوجه من الوجوه (المكيال والميزان) أي لا الكيل
ولا آلته ولا الوزن ولا آلته والكيل تعديل الشئ بالآلة في القلة والكثرة والوزن تعديله
في الخفة والثقل فالكيل العدل في الكمية والوزن العدل في الكيفية ثم علل ذلك بقوله (اني
أراكم بخير) أي بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف قال ابن عباس كانوا موسرين في نعمة
وقال مجاهد كانوا في خصب وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحلول النقمة
ان لم يؤمنوا ويتوبوا وهو قوله (واني أخاف عليكم) ان لم تؤمنوا (عذاب يوم محيط) أي يحيط
بكم فيهلككم جميعا وهو عذاب الاستئصال في الدنيا وعذاب النار في الآخرة ومنه قوله تعالى
وان جهنم لمحيطة بالكافرين والمحيط من صفة اليوم في الظاهر وفي المعنى من صفة العذاب
وذلك مجاز مشهور كقوله هذا يوم عصيب (وياقوم أوفوا) أي أتموا اتماما حسنا (المكيال
والميزان) أي الكيل والوزن وآلتهما (فان قيل) النهي عن النقصان أمر بالايفاء فما فائدة
قوله تعالى أوفوا (أجيب) بأنهم نهوا أولا عن القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان
لان في التصريح بالقبيح نعيا على المنهي وتعييرا له ثم ورد الامر بالايفاء الذي هو حسن في العقول
مصرحا بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه وجيء به مقيدا (بالقسط) أي ليكون الايفاء على
وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان أمر اعا هو الواجب لان ما جاوز العدل فضل
وأمر مندوب اليه غير المأمور به وقد يكون محظورا كما في الربا وقوله تعالى (ولا تبخسوا الناس
أشياءهم) تعميم بعد تخصيص فانه أعم من أن يكون في المقدار أو في غيره فانهم كانوا يأخذون
من كل شئ يباع كما تفعل السماسرة وكانوا يمكسون الناس وكانوا ينقصون من أثمان ما يشترون
من الاشياء فنهوا عن ذلك فظهر بهذا البيان ان هذه الاشياء غير مكررة بل في كل واحد منها فائدة
زائدة والحاصل انه تعالى نهى في الآية الاولى عن النقصان في المكيال والميزان وفي الثانية أمر

باعطاء قدر الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين بأداء الواجب الا عند أداء ذلك القدر من الزيادة ولهذا قال الفقهاء انه تعالى أمر بغسل الوجه وذلك لا يحصل الا عند غسل جزء من الرأس فكأنه تعالى نهى أولا عن سعي الانسان في أن يجعل مال غيره ناقصا لتحصل له تلك الزيادة وفي الثاني أمر بأن يسعى في تنقيص مال نفسه ليخرج بالتعيين عن العهدة كما قيده بقوله تعالى بالقسط وفي الآية الثالثة نهى عن النقص في كل الاشياء وكذا قوله تعالى (ولا تعثوا في الارض مفسدين) فان العثو يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد ومفسدين حال مؤكدة لمعنى عاملها وفائدتها اخراج ما يقصد به الاصلاح كما فعله الخضر عليه السلام (بقيت الله) قال ابن عباس يعني ما أبقى الله لكم من الحلال بعد ايفاء الكيل والوزن (خير لكم) مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد مما يحصل لكم في الدنيا من المال الحرام (ان كنتم مؤمنين) أى مصدقين بما قلت لكم وأمرتكم به *(فائدة)* بقيت رسمت هنا بالتاء المجرورة وقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي والباقون وقفوا عليها بالهاء (وما أنا عليكم بحفيظ) أعلم بجميع أعمالكم وأقدر على كفكم عما يكون منها فسادا ولما أمرهم شعيب عليه السلام بشيئين بالتوحيد وبترك البخس (قالوا) له (يا شعيب) سموه باسمه استخفافا وغلظة وأنكروا عليه متهزئين به (أصلواتك تأمرك) أى تفعل معك فعل من يأمر دائما بتكليفنا (أن نترك ما يعبد) أى على سبيل المواظبة (آباؤنا) من الاصنام فحذف الذى هو التكليف لان الانسان لا يؤمر بفعل غيره قالوا له ذلك في جواب أمره لهم بالتوحيد (أو) نترك (أن نفعل) أى دائما (في أموالنا ما نشاء) من قطع الدراهم والدنانير وافساد المعاملة والمقامرة ونحوها مما يكون افسادا للمال قالوا له ذلك في جواب النهي عن التطفيف والامر بالايفاء وانما أضافوا ذلك الى صلاته تهكما واستهزاء بها واشعارا بأن مثل هذا لا يدعو اليه داع عقلي وانما دعاك اليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه وكان شعيب عليه الصلاة والسلام كثير الصلاة في الليل والنهار وكان قومه اذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا وقصدوا بقولهم أصلواتك تأمرك السخرية والهزء كما انك اذا رأيت معتوها يطالع كتبا ثم يذكر كلاما فاسدا فيقال له هذا فائدة مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزء فكذا هنا وقرأ حفص وحمزة والكسائي أصلاتك بالافراد والباقون بالجمع والتاء بالرفع في القراءتين وغلظ ورش اللام في أصلواتك وقولهم له (انك لانت الحليم الرشيد) تهكم به وقصدوا وصفه بضد ذلك كما يقال للبخيل الخسيس لو رآك حاتم لسجد لك وعللوا انكار ما سمعوه منه واستبعدوه بأنه موسوم بالحلم والرشد المانعين من المبادرة الى مثل ذلك ثم أخرج قوله عليه الصلاة والسلام على تقدير سؤال بقوله (قال يا قوم) مستعطفا لهم لما بينهم من عواطف القرابة منبها لهم على أحسن النظر فيما ساقه على سبيل الفرض والتقدير ليكون أدعى الى سبيل الوفاق والانصاف (أرأيتم) أى أخبروني (ان كنت على بينة) أى برهان (من ربي) وعطف على جملة الشرط المستفهم عنه قوله (ورزقني) والضمير في (منه) لله تعالى أى من عنده باعانته بلا كد مني في تحصيله وعظم الرزق

بقوله (رزقا حسنا) جليلا وما لاحلالا لم أظلم فيه أحدا وجواب الشرط محذوف اى فهل يسوغ مع هذا الانعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية ان أخون فى وحيه فأخالفه فى أمره ونهيه وهذا اعتذار عما أنكروا عليه من تغيير المألوف والنهى عن دين الآباء (وما أريد أن أخالفكم) أى وأذهب (الى ما أنهاكم عنه) فارتكبه (ان) أى ما (أريد) أى فيما آمركم به وأنهاكم عنه (الا الاصلاح) أى ما أريد الا ان أصلحكم بموعظتى ونصيحتى وأمرى بالمعروف ونهيى عن المنكر (ما استطعت) أى وهو الابلاغ والانذار فقط ولا استطيع اجباركم على الطاعة لان ذلك الى الله تعالى فانه يضل من يشاء ويهدى من يشاء (وما توفيقى) أى لاصابة الحق والصواب (الا بالله) أى الا بعونته وتأييده (عليه) لا على غيره (توكلت) أى اعتمدت فى جميع أمورى فانه القادر على كل شئ وما عداه عاجز وهذه الصيغة تفيد الحصر فلا ينبغى للانسان أن يتوكل على أحد الا على الله تعالى وفيه اشارة الى محض التوحيد الذى هو أقصى مراتب المبدا وأما قوله (واليه أنيب) ففيه اشارة الى معرفة المعاد وهو أيضا يفيد الحصر لان قوله واليه أنيب يدل على انه لا مآب للخلق الا الى الله تعالى وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه كان اذا ذكر شعيبا قال ذلك خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه (ويا قوم لا يجرمنكم) أى لا يكسبنكم (شقاقى) أى خلافى وهو فاعل يجرم والضمير مفعول أول والمفعول الثانى (أن يصيبكم) عذاب العاجلة على كفركم وأفعالكم الخبيثة قال فى الكشاف جرم مثل كسب فى تعديه الى مفعول واحد والى مفعولين تقول جرم ذنبا وكسبه وجرمته ذنبا وكسبته اياه ومنه قوله تعالى لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم (مثل ما أصاب قوم نوح) من الغرق (أو قوم هود) من الريح العقيم (أو قوم صالح) من الرجفة (وما قوم لوط منكم ببعيد) لا فى الزمان ولا فى المكان لانهم كانوا حديثى عهد بهلاكهم وكانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم فان القرب فى الزمان والمكان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الاحوال فكأنه يقول اعتبروا بأحوالهم واحذروا من مخالفة الله ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب (فان قيل) لم قال ببعيد ولم يقل ببعيدين (أجيب) بأن التقدير وما اهلاكهم بشئ بعيد وأيضا يجوز أن يسوى فى قريب وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودهما على زنة المصادر التى هى الصهيل والنهيق ونحوهما انتهى (واستغفروا ربكم) أى آمنوا به (ثم توبوا اليه) عن عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان وقد تقدم مثل ذلك (ان ربى رحيم) أى عظيم الرحمة للتائبين (ودود) اى محب لهم * ولما بالغ عليه السلام فى التقرير والبيان أجابوه بأنواع فاسدة الاول (قالوا) له (يا شعيب ما نفقه) أى ما نفهم (كثيرا مما تقول) (فان قيل) انه كان يخاطبهم بلسانهم فلم قالوا ما نفقه (أجيب) بأنهم كانوا لا يلقون اليه اذهانهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو قوله تعالى وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه أو انهم فهموه ولكنهم ما أقاموا له وزنا فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه اذا لم يعبأ بحديثه ما أدرى ما تقول النوع الثانى قولهم له (وانا لنراك فينا ضعيفا) أى لا قوة لك فتمتنع منا ان أردناك بسوء أو ذليلا

لا عزلك وقيل أعمى بلغة حمير قاله قتادة وفي هذا تجويز العمى على الأنبياء الا ان هذا اللفظ لا يحسن الاستدلال به في اثبات هذا المعنى لانه ترك الظاهر من غير دليل وقيل ضعيف البصر قاله الحسن * النوع الثالث قولهم له (ولولا رهطك) أى عشيرتك وعزتهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم (لرجمناك) بالحجارة حتى تموت والرهط من الثلاثة الى عشرة وقيل الى السبعة والمقصود من هذا الكلام انهم بينوا له انه لا حرمة له عندهم ولا وقع له في صدورهم وانهم انما لم يقتلوه لاجل احترام رهطه * النوع الرابع قولهم له (وما أنت علينا بعزيز) أى لا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم وانما يعز علينا رهطك لانهم من أهل ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا ولما خوف الكفار شعيبا عليه السلام بالقتل والايذاء حكى الله تعالى عنهم ما ذكروه في هذا المقام وهو نوعان * الاول (قال) لهم (يا قوم) مستعطفا لهم مع غلظتهم عليه (أرهطي أعز عليكم من الله) المحيط بكل شئ قدرة وعلما حتى نظرتم اليهم في لقرابتي منهم ولم تنظروا الى الله تعالى في قربي منه لما ظهر على من كرامته تعالى (واتخذتموه وراءكم ظهريا) أى جعلتموه كالمنسي المنبوذ وراء الظهر باشراككم به والاهانة لرسوله قال في الكشاف والظهري منسوب الى الظهر والكسر من تغييرات النسب ونظيره قولهم في النسبة الى الامس امسي بكسر الهمزة وقوله (ان ربي بما تعملون محيط) أى انه عليم بأحوالكم فلا يخفى عليه شئ منها * النوع الثاني قوله (ويا قوم اعملوا على مكانتكم) والمكانة الحالة التي يمكن صاحبها من عمله والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة وكل ما في وسعكم وطاقتكم من ايصال الشرور الى (انى) أيضا (عامل) بما آتاني الله من القدرة والطاعة (سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) فمن موصولة مفعول العلم (فان قيل) لم لم يقل فسوف تعلمون (أجيب) بأن ادخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل وأما حذف الفاء فيجعله جوابا عن سؤال مقدر وهو المسمى في علم البيان بالاستئناف البياني تقديره انه لما قال ويا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فكأنهم قالوا فماذا يكون بعد ذلك فقال سوف تعلمون فظهر أن حذف حرف الفاء ههنا أكمل في باب الفصاحة والتهويل لانه استئناف (وارتقبوا) أى انتظروا عاقبة أمركم (انى معكم رقيب) أى منتظر والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم أو بمعنى المراقب كالعشير والنديم أو بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع (ولما جاء أمرنا) بعذابهم واهلاكهم (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة) أى بفضل (منا) بأن هديناهم للايمان ووفقناهم للطاعة (فان قيل) لم جاءت قصة عاد وقصة مدين بالواو وقصة صالح ولوط بالفاء (أجيب) بأن قصة عاد ومدين لم يسبقهما ذكر وعد يجري مجرى السبب له بخلاف قصتي صالح ولوط فانهما ذكرا بعد الوعد وذلك قوله تعالى وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح فلذلك جاآ بفاء السببية (وأخذت الذين ظلموا) أى ظلموا أنفسهم بالشرك والبخس (الصيحة) أى صيحة جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة خرجت أرواحهم وماتوا جميعا وقيل أتتهم صيحة من السماء (فأصبحوا

فى ديارهم جاثمين) أى باركين على الركب ميتين (كأن لم يغنوا) أى كأنهم لم يقيموا (فيها) أى ديارهم مدة من الدهر مأخوذ من قولهم غنى بالمكان اذا أقام فيه مستغنيا به عن غيره (ألا بعدا) أى هلاكا (لمدين كما بعدت ثمود) انما شبههم بهم لان عذابهم كان أيضا بالصيحة لكن صيحتهم كانت من تحتهم وصيحة مدين كانت من فوقهم قال ابن عباس لم يعذب الله تعالى أمتين بعذاب الا قوم شعيب وقوم صالح فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم وأما قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم * القصة السابعة التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة وهى آخر قصصها قصة موسى عليه الصلاة والسلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) أى التوراة مع ما فيها من الشرائع والاحكام (وسلطان مبين) أى برهان بين ظاهر على صدق نبوته ورسالته وقيل المراد بالآيات المعجزات وبالسلطان المبين العصا لانها أظهر الآيات وذلك لان الله تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات وهى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الثمرات والسنين ومنهم من أبدل نقص الثمرات والسنين باظلال الجبل وفلق البحر قال بعض المحققين سميت الحجة سلطانا لان صاحب الحجة يقهر من لا حجة له كالسلطان يقهر غيره والعلماء سلاطين بسبب كمالهم فى القوة العلمية والملوك سلاطين بحسب ما معهم من القدرة والمكنة الا أن سلطنة العلماء أكمل وأقوى من سلطنة الملوك لان سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك تقبلهما ولان سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء لان سلطنة العلماء من جنس سلطنة الانبياء وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة (الى فرعون) طاغية القبط (وملئه) أى أشراف قومه الذين تبعهم الاذناب لان القصد الاكبر رفع أيديهم عن بنى اسرائيل (فاتبعوا أمر فرعون) أى اتبعوا طريقة فرعون المنهمك فى الضلال والطغيان الداعى الى ما لا يخفى فساده على من له أدنى مسكة من العقل ولم يتبعوا موسى الهادى الى الحق المؤيد بالمعجزات الظاهرة الباهرة لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم (وما أمر فرعون برشيد) أى بسديد ولا حميد العاقبة ولا يدعو الى خير وقيل رشيد ذو رشد وانسلاخ فرعون من الرشد كان ظاهرا لانه كان دهريا نافيا للصانع والمعاد وكان يقول لا اله للعالم وانما يجب على أهل كل بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم وكل الرشد فى عبادة الله تعالى ومعرفته فلما كان هو نافيا لهذين الامرين كان خاليا عن الرشد بالكلية (يقدم قومه يوم القيامة) الى النار كما كان يقدمهم فى الدنيا الى الضلال أو كما تقدم قومه فى الدنيا فأدخلهم البحر وأغرقهم فكذا يتقدمهم فى القيامة فيدخلهم النار كما قال تعالى (فأوردهم النار) (فان قيل) لم لم يقل يقدم قومه فيوردهم النار بل أتى بلفظ الماضى (أجيب) بأنه انما أتى بلفظ الماضى مبالغة فى تحققه ونزل النار له منزلة الماء فسمى اتيانها موردا ولهذا قال تعالى (وبئس الورد المورود) وردهم لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار ضده (فان قيل) لفظ النار مؤنث فكان مقتضى ذلك أن يقال وبئست الورد المورود (أجيب) بأن لفظ الورد مذكر فكان التذكير

والتأنيث جائزين كما تقول نعم المنزل دارك ونعمت المنزل دارك فمن ذكر غلب المنزل ومن أنث بنى
على تأنيث الدار (واتبعوا في هذه) أي الدنيا (لعنة) أي طردا وبعدا عن الرحمة (ويوم القيامة)
أي واتبعوا يوم القيامة لعنة أخرى فهم ملعونون في الدنيا والآخرة ونظيره قوله تعالى في سورة
القصص وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين (بئس الرفد) أي العون
(المرفود) رفدهم سأل نافع بن الازرق ابن عباس عن ذلك فقال هو اللعنة بعد اللعنة وقال قتادة
ترادفت عليهم لعنتان من الله تعالى لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة وكل شيء جعلته عونا لشيء فقد
رفدته به وسميت اللعنة عونا لانها اذا اتبعتهم في الدنيا أبعدتهم عن الرحمة وأعانتهم على ما هم فيه من
الضلال وسميت رفدا أي عونا لهذا المعنى على التهكم كقول القائل * تحية بينهم ضرب وجيع *
وسميت معانا لانها أردفت في الآخرة بلعنة أخرى ليكونا هاديتين الى طريق الجحيم ولما ذكر تعالى
قصص الاولين قال تعالى (ذلك) أي المذكور وهو مبتدأ خبره (من أنباء القرى) أي أخبار
أهل القرى وهم الامم السالفة في القرون الماضية وقوله تعالى (نقصه عليك) أي نخبرك به
يا محمد خبرا بعد خبر وفائدة ذكر هذه القصص على النبي صلى الله عليه وسلم ليعلم السامع أن
المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة وان الكافر
يخرج مع اللعنة في الدنيا والعقاب في الآخرة واذا تكررت هذه الاقاصيص على السمع فلابد
وأن يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر
والاستدلال وفي اخباره صلى الله عليه وسلم بهذه القصص من غير مطالعة كتب ولا تعلم دلالة
على نبوته فان ذلك لا يكون الا بوحي من الله تعالى (منها) أي القرى (قائم) أي باق كالزرع القائم
هلك أهله دونه (و) منها (حصيد) أي عافي الاثر كالزرع المحصود هلك مع أهله (وما ظلمناهم) أي
باهلاكهم بغير ذنب (ولكن ظلموا أنفسهم) بالكفر والمعاصي وقال ابن عباس يريد
وما نقصناهم في الدنيا من النعيم والرزق ولكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفوا بحقوق الله
تعالى (فما أغنت) أي دفعت (عنهم آلهتهم) أي أصنامهم (التي يدعون) أي يعبدون (من دون
الله) أي غيره (من شيء) أي شيئا فمن مزيدة (لما جاء أمر ربك) أي عقابه (وما زادوهم) بعبادتهم
(غير تتبيب) أي غير تخسير وقيل تدمير ولما أخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في كتابه
بما فعله بأمم من تقدم من الانبياء عليهم الصلاة والسلام لما خالفوا الرسل وما ورد عليهم من
عذاب الاستئصال وبين أنهم ظلموا أنفسهم فحل بهم العذاب في الدنيا قال تعالى بعده (وكذلك)
أي ومثل ذلك الاخذ العظيم (أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي) أي القرى (ظالمة) والمراد
أهلها ونظيره قوله تعالى وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها وقوله تعالى وكم قصمنا من قرية
كانت ظالمة فبين تعالى أن عذابه ليس مقصورا على من تقدم بل الحال في أخذ كل الظالمين
يكون كذلك * ولما بين تعالى كيفية أخذ الامم المتقدمة ثم بين تعالى أنه انما يأخذ جميع الظالمين
على ذلك الوجه اتبعه بما يزيده تأكيدا وتقوية بقوله تعالى (ان أخذه أليم) أي مؤلم (شديد)
أي صعب مفتت القوى وعن أبي موسى الاشعري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله

عليه

عليه وسلم قال ان الله تعالى ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد وفى هذه الآية الكريمة والحديث الشريف دلالة على أن من أقدم على ظلم فانه يتداركه بالتوبة والانابة ورد الحقوق الى أهلها ان كان الظلم للغير لئلا يقع فى هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن ان هذه الآية مختصة بظالمى الامم الماضية بل هى عامة فى كل ظالم ويعضده الحديث (ان فى ذلك) أى ماذكر من عذاب الامم الماضية واهلاكهم (لآية) أى لعبرة وموعظة (لمن خاف عذاب) يوم الحياة (الآخرة) لانه ينظر ما أحل الله تعالى بالمجرمين فى الدنيا وما هو الا أنموذج لما أعد لهم فى الآخرة فاذا رأى عظمه وشدته اعتبر به عظم العذاب الموعود فيكون له عبرة وعظة ولطفا فى زيادة التقوى والخشية من الله تعالى وقوله (ذلك) اشارة الى يوم القيامة لان عذاب الآخرة دل عليه (يوم مجموع له) أى فيه (الناس) أى ان خلق الاولين والآخرين كلهم يحشرون فى ذلك اليوم ويجمعون ثم وصفه تعالى بوصف آخر بقوله تعالى (وذلك يوم مشهود) أى يشهده أهل السموات وأهل الارض (وما نؤخره) أى ذلك اليوم وهو يوم القيامة (الالاجل) أى وقت (معدود) أى معلوم محدود وذلك الوقت لا يعلمه الا الله تعالى (يوم يأتى) ذلك اليوم (لاتكلم) فيه حذف احدى التاءين أى لاتتكلم (نفس الا باذنه) تعالى وقرأ نافع وأبو عمرو والكسائى باثبات الياء بعد التاء من يأتى وصلا ووقفا وحذفها الباقون وأما التاء من تكلم فشددها البزى فى الوصل وخففها الباقون (فان قيل) كيف يوفق بين قوله تعالى يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وقوله تعالى هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون (أجيب) بأن ذلك اليوم يوم طويل له مواقف ومواطن ففى بعضها يجادلون عن أنفسهم وفى بعضها يكفون عن الكلام ولا يؤذن لهم وفى بعضها يؤذن لهم فيتكلمون وفى بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم (فمنهم) أى الناس (شقى و) منهم (سعيد) أى فمنهم من سبقت له الشقاوة فوجبت له النار بمقتضى الوعيد ومنهم من سبقت له السعادة فوجبت له الجنة بموجب الوعد وعن على رضى الله تعالى عنه قال كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله وبيده مخصرة ثم نكت بها الارض ساعة ثم قال مامن نفس منفوسة الا قد كتب مكانها من الجنة أو النار فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما من كان من أهل السعادة فسيصير الى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى الآية وبقيع الغرقد هو مقبرة أهل المدينة الشريفة ومدفنهم فيه والمخصرة كالسوط والعصا مما يمسكه الانسان بيده والنكت بالنون والتاء المثناة من فوق ضرب الشئ بتلك المخصرة أو باليد أو نحو ذلك حتى يؤثر فيه (فأما الذين شقوا) فى علمه تعالى (ففى النار لهم فيها زفير) وهو صوت شديد (وشهيق) وهو صوت ضعيف وقيل الزفير اخراج النفس والشهيق رده وقيل الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير بالنهيق والشهيق بمنزلة آخر صوت الحمار اذا ردده فى صدره وقيل الزفير

فى الحلق والشهيق فى الصدر وعلى كل المراد منهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم (خالدين فيها) وقوله تعالى (مادامت السموات والارض) فيه وجهان أحدهما سموات الآخرة وأرضها وهى مخلوقة دائمة للابد والدليل على أن لها سموات وأرضا قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقوله تعالى وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ولانه لابد لاهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم اما سماء يخلقها الله تعالى أو يظلهم العرش وكل ما أظلك فهو سماء وكل ما استقر قدمك عليه فهو أرض والوجه الثانى أن المراد مدة دوامهما فى الدنيا (الا) أى غير (ماشاء ربك) من الزيادة على مدتهما مما لا منتهى له وذلك هو الخلود فيها أبدا (ان ربك فعال لما يريد) من غير اعتراض (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك) كما تقدم ودل عليه قوله تعالى (عطاء غير مجذوذ) أى مقطوع وقيل الاستثناء فى أهل الشقاوة يرجع الى قوم من الموحدين يدخلهم الله تعالى النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها فيكون ذلك استثناء وذلك كاف فى صحة الاستثناء لان زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض من غير الجنس لان الذين أخرجوا من النار سعداء فى الحقيقة استثناهم الله تعالى من الاشقياء لما روى عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بالشفاعة وفى رواية ان الله تعالى يخرج ماشاء من النار فيدخلهم الجنة وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال ليصيبن قوما سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة ثم يدخلهم الله بفضله ورحمته الجنة وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فيدخلون الجنة فيسمون الجهنميين وعن عبد الله بن عمرو بن العاصى ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد أى من اهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن تخلى طبقتهم التى كانوا فيها وان نازع فى ذلك الزمخشرى على مذهبه الفاسد من ان أهل الكبائر يخلدون فى النار وأما الاستثناء فى أهل السعادة فيرجع الى مدة لبثهم فى النار قبل دخولهم الجنة أو ان الاستثناء راجع الى الفريقين فانهم مفارقوا الجنة أيام عذابهم وان التأبيد من مبدا معين ينقص باعتبار الابتداء كما ينقص باعتبار الانتهاء وهؤلاء وان شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بايمانهم ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله تعالى فمنهم شقى وسعيد تقسيما صحيحا لان شرطه أن تكون صفة كل قسم منتفية عن قسيمه لان ذلك الشرط حيث التقسيم لانفصال حقيقى أو مانع من الجمع من الجنة والنار مدة تعميرهم فى الدنيا واحتباسهم فى البرزخ وهو مابين الموت الى البعث ومدة وقوفهم للحساب ثم يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيكون المعنى خالدين فى الجنة والنار الا هذا المقدار وقيل معناه لو شاء ربك لاخرجهم منها ولكنه لايشاء لانه تعالى حكم لهم بالخلود وقال الفراء هذا الاستثناء استثناه الله تعالى ولا يفعله كقولك والله لاضربنك الا ان أرى غير ذلك وعزيمتك ان تضربه وقال أهل المعانى هذه عبارة عن التأبيد على عادة العرب يقولون لا آتيك مادامت السموات والارض ولا يكون كذا ما اختلف الليل والنهار يعنون أبدا وقيل ان أهل النار ينقلون منها الى الزمهرير وغيره من العذاب أحيانا

وكذلك

فكذلك أهل الجنة ينعمون بما هو أعلى من الجنة وهو الفوز برضوان الله تعالى ولقائه كما قال تعالى وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر وقرأ حفص وحمزة والكسائى سعدوا بضم السين على البناء للمفعول من سعده الله بمعنى أسعده والباقون بفتحها وعطاء نصب على المصدر المؤكد أى أعطوا عطاء أو الحال من الجنة ولما شرح الله تعالى أقاصيص عبدة الاوثان ثم اتبعه بأحوال الاشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول صلى الله عليه وسلم أحوال الكفار من قومه فقال (فلا تك) يا محمد (فى مرية) أى شك (مما يعبد هؤلاء) المشركون من الاصنام أنا نعذبهم كما عذبنا من قبلهم وهذه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم) أى كعبادتهم (من قبل) وقد عذبناهم (وانا لموفوهم) مثلهم (نصيبهم) أى حظهم من العذاب (غير منقوص) أى كاملا غير ناقص ولما ذكر تعالى فى هذه الآية اعراضهم عن الاتباع مع ما أتى به من المعجزات وأنزل عليه من الكتاب سلاه بأخيه موسى عليه السلام بقوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة الجامعة للخير (فاختلف فيه) أى الكتاب فآمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء فى القرآن (ولولا كلمة سبقت من ربك) بتأخير الحساب والجزاء للخلائق الى يوم القيامة (لقضى) أى لوقع القضاء (بينهم) أى بين من اختلف فى كتاب موسى فى الدنيا فيما اختلفوا فيه بانزال ما يستحقه المبطل ليتميز به المحق ولكن سبقت الكلمة ان القضاء الكامل انما يكون يوم القيامة كما قال تعالى فى سورة يونس عليه السلام فما اختلفوا حتى جاءهم العلم الآية ولما كان الاختلاف قد يكون بغير الكفر بين تعالى أنه به لان كل طائفة من اليهود تنكر شكها فيه وفعلها فعل الشاك فقال تعالى مؤكدا (وانهم لفى شك) أى عظيم محيط بهم (منه) أى من الكتاب والقضاء (مريب) أى موقع فى الريب والتهمة والاضطراب مع ما رأوا من الآيات التى منها سماع كلام الله تعالى ورؤية ما كان يتجلى فى جبل الطور من خوارق الاحوال وقيل الضمير فى وانهم راجع لكفار مكة وفى منه للقرآن (وان كلا) أى كل الخلائق وقوله تعالى (لما) ما زائدة واللام موطئة لقسم مقدر تقديره والله (ليوفينهم ربك أعمالهم) فيجازى المصدق على تصديقه الجنة ويجازى المكذب على تكذيبه النار وقرأ نافع وابن كثير وشعبة بتخفيف وان والباقون بالتشديد وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد ميم لما والباقون بالتخفيف *(فائدة)* قال بعض الفضلاء انه تعالى لما أخبر عن توفية الاجزية على المستحقين فى هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التأكيدات أولها كلمة ان وهى للتأكيد وثانيها كلمة كل وهى أم الباب فى التأكيد وثالثها اللام الداخلة على خبر ان تفيد التأكيد أيضا ورابعها حرف ما اذا جعلناه على قول الفراء موصولا وخامسها المضمر وسادسها اللام الثانية الداخلة على جواب القسم وسابعها النون المذكورة فى قوله تعالى ليوفينهم فجميع هذه الالفاظ السبعة الدالة على التوكيد فى هذه الكلمة الواحدة تدل على ان أمر الربوبية والعبودية لا يتم الا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر ثم أردفه بقوله

تعالى (انه بما يعملون خبير) وهو من أعظم المؤكدات فانه تعالى لا يخفى عليه شئ من أعمال عباده ففيه وعد للمحسنين ووعيد للمكذبين الكافرين ولما بين تعالى أمر الوعد والوعيد قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (فاستقم) أى على دين ربك والعمل والدعاء اليه (كما أمرت) والامر فى ذلك للتأكيد فانه صلى الله عليه وسلم كان على الاستقامة لم يزل عليها فهو كقولك للقائم قم حتى آتيك اى دم على ما أنت عليه من القيام حتى آتيك وتوطئة لقوله تعالى (ومن تاب معك) أى وليستقم أيضا على دين الله والعمل بطاعته من آمن معك قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الاستقامة أن تستقيم على الامر والنهى ولا تروغ عنه روغان الثعلب وأشار صلى الله عليه وسلم الى شدة الاستقامة بقوله شيبتنى هود وأخواتها وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ما نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم آية أشد ولا أشق من هذه الآية وعن بعضهم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت له يروى عنك انك قلت شيبتنى هود فقال نعم فقلت بأى آية قال قوله تعالى فاستقم كما أمرت وعن سفيان ابن عبد الله الثقفى قال قلت يارسول الله قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك قال قل آمنت بالله ورسوله ثم استقم قال الامام الرازى ان هذه الآية أصل عظيم فى الشريعة وذلك لان القرآن لما ورد بالامر بأعمال الوضوء مرتبة فى اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله تعالى فاستقم كما أمرت ولما ورد الامر فى الزكاة بأداء الابل من الابل والبقر من البقر وجب اعتبارها وكذا القول فى كل ما ورد أمر الله تعالى به انتهى ولما كانت الاستقامة هى التوسط بين طرفى الافراط والتفريط نهى عن الافراط بقوله تعالى (ولا تطغوا) أى لا تجاوزوا الحد فيما أمرتم به أو نهيتم عنه بالزيادة افراطا فان الله تعالى انما أمركم ونهاكم لتهذيب أنفسكم لا لحاجته الى ذلك ولن تطيقوا ان تقدروا الله حق قدره والدين متين لم يشاده أحد الا غلبه كما ورد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة فقوله صلى الله عليه وسلم ان الدين يسر ضد العسر اراد به التسهيل فى الدين وترك التشديد فان هذا الدين مع يسره وسهولته قوى فلن يغالب ولن يقاوى وقوله وسددوا أى اقصدوا السداد فى الامور وهو الصواب وقاربوا أى اطلبوا المقاربة وهى القصد الذى لا غلو فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والرواح الرجوع عشاء والمراد منه اعملوا بالنهار واعملوا بالليل أيضا وقوله واستعينوا بشئ من الدلجة اشارة الى تقليله ولما نهى تعالى عن الافراط وهو الزيادة تصريحا أفهم النهى عن التفريط وهو النقص عن المأمور تلويحا من باب أولى ثم علل ذلك مؤكدا تنزيلا لمن يفرط أو يفرط منزلة المنكر فقال (انه بما تعملون بصير) أى عالم بأعمالكم كلها لا يخفى عليه شئ منها فيجازيكم عليها (ولا تركنوا) أى تميلوا (الى الذين ظلموا) أدنى ميل (فتمسكم النار) أى تصيبكم بحرها والنهى متناول للانحطاط فى هواهم والانقطاع اليهم ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزيى بزيهم ومد العين الى زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم وتأمل قوله تعالى ولا تركنوا فان الركون هو الميل

البصير وحكى أن الموفق صلى خلف الامام فقرأ بهذه الآية فغشي عليه فلما أفاق قيل له في ذلك فقال هذا فيمن ركن الى من ظلم فكيف بالظالم ولما خالط الزهري السلاطين كتب اليه أخ له في الدين عافانا الله واياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو الله لك ويرحمك اصبحت شيخا كبيرا وقد أثقلتك نعم الله تعالى بما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيه وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله سبحانه وتعالى لتبيننه للناس ولا يكتمونه واعلم ان أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت انك آنست وحشة الظالم وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤد حقا ولم يترك باطلا حين ادناك اتخذوك قطبا تدور عليك رحى باطلهم وجسرا يعبرون عليك الى ملاذهم وسلما يصعدون فيك الى ضلالهم يدخلون بك الشك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهلاء فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا فانك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا يغفل فداو دينك فقد دخله سقم وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد وما يخفى على الله من شئ في الارض ولا في السماء والسلام وقال سفيان في جهنم واد لا يسكنه الا القراء الزائرون للملوك وعن الاوزاعي ما من شئ أبغض الى الله تعالى من عالم يزور عاملا أي من الظلمة وعن محمد بن سلمة الذباب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء وقال صلى الله عليه وسلم من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية هل يسقى شربة ماء فقال لا فقيل له يموت فقال دعه يموت وقوله تعالى (وما لكم من دون الله من أولياء) أي أعوانا وأنصارا يمنعوكم من عذابه حال من قوله فتمسكم النار أي فتمسكم النار وأنتم على هذه الحالة (ثم لا تنصرون) اى لا تجدون من ينصركم ويخلصكم من عذاب الله في القيامة ففي هذه الآية وعيد لمن ركن الى الظلمة بأن تمسه النار فكيف يكون حال الظالم في نفسه ولما أمر تعالى بالاستقامة أردفه بالامر بالصلاة بقوله تعالى (وأقم الصلاة) وذلك يدل على أن أعظم العبادات بعد الايمان بالله تعالى هو الصلاة وقوله تعالى (طرفي النهار) الغداة والعشي أي الصبح والظهر والعصر وقوله تعالى (وزلفا) جمع زلفة أي طائفة (من الليل) أي المغرب والعشاء (ان الحسنات) كالصلوات الخمس (يذهبن) أي يكفرن (السيآت) أي الذنوب الصغائر لما رواه مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر وزاد في رواية أخرى ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن اذا اجتنبت الكبائر وعن أبي هريرة رضي الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ما تقولون هل يبقى من درنه شئ قالوا لا يا رسول الله لا يبقى من درنه شئ فقال ذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات وعن الحسن ان الحسنات قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر

وسبب نزول هذه الآية مارواه الترمذى عن أبى اليسر بن عمرو قال أتتنى امرأة وزوجها بعثه النبى صلى الله عليه وسلم فى بعث فقالت بعنى بدرهم تمرا قال فأعجبتنى فقلت ان فى البيت تمرا هو أطيب من هذا فالحقينى فدخلت معى البيت فأهويت اليها فقبلتها فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فأتيت عمر فذكرت له ذلك فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال أخنت رجلا غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هذا حتى تمنى أنه لم يكن أسلم الا تلك الساعة حتى ظن انه من أهل النار وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا حتى أوحى اليه وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل الى قوله تعالى (ذلك ذكرى للذاكرين) أى عظة للمتقين قال أبو اليسر فأتيته فقرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ألهذا خاصة أم للناس عامة قال بل للناس عامة قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وعن عبد الله بن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فنزلت فقال رجل يارسول الله ألهذا خاصة فقال بل للناس كافة وعن معاذ بن جبل قال أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال يارسول الله أرأيت رجلا لقى امرأة ليس بينهما معرفة وليس يأتى الرجل الى امرأة شيأ الا قد أتى هو اليها الا أنه لم يجامعها قال فأنزل الله تعالى هذه الآية وأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ ويصلى فقال معاذ بن جبل فقلت يارسول الله أهى له خاصة أم للمؤمنين عامة قال بل للمؤمنين عامة. قال العلماء الصغائر من الذنوب تكفرها الاعمال الصالحة مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من أعمال البر وأما الكبائر من الذنوب فلا يكفرها الا التوبة النصوح ولها ثلاث شرائط الاول الاقلاع عن الذنب بالكلية الثانى الندم على فعله الثالث العزم التام على أن لا يعود اليه فى المستقبل فاذا حصلت هذه الشرائط صحت التوبة وكانت مقبولة ان شاء الله تعالى والاشارة فى قوله تعالى ذلك ذكرى الى ماتقدم ذكره من قوله تعالى فاستقم كما أمرت الى ههنا وقيل هو اشارة الى القرآن وقوله تعالى (واصبر) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى واصبر يامحمد على أذى قومك أو على الصلاة وهو قوله تعالى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها (فان الله لايضيع أجر المحسنين) أى أجر أعمالهم وعدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلا على ان الصلاة والصبر احسان وايماء بأنه لايعتد بهما دون الاخلاص ولما بين تعالى أن الامم المتقدمين حل بهم عذاب الاستئصال بين ان السبب فيه أمران السبب الاول انه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد فى الارض فقال تعالى (فلولا) أى فهلا (كان من القرون) أى من الامم الماضية (من قبلكم أولو بقية) أى أصحاب رأى وخير وفضل (ينهون عن الفساد فى الارض) وسمى الفضل والجود بقية لان الرجل يستبقى مما يخرجه أجوده وأفضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم وبه فسر بيت الحماسة • ان تذنبوا ثم يأتينى بقيتكم • ومنه قولهم فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى أى فهلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم

وصيانة لهامن سخط الله تعالى وعقابه * (فائدة) * حكى عن الخليل أنه قال كل مافى القرآن من كلمة لولا فمعناه هلا الا التى فى الصافات قال صاحب الكشاف وما صحت هذه الحكاية ففى غير الصافات لولا أن تداركه نعمة من ربه ولولا رجال مؤمنون ولولا أن ثبتناك انتهى و قوله تعالى (الا قليلا ممن أنجينا منهم) استثناء منقطع معناه ولكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهى السبب الثانى لنزول عذاب الاستئصال قوله تعالى (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) أى ما نعموا فيه من الشهوات واهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عما وراء ذلك (وكانوا مجرمين) أى كافرين * (تنبيه) * قوله تعالى واتبع الذين ظلموا ان كان معناه واتبعوا الشهوات كان معطوفا على مضمر لان المعنى الا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو عطف على نهوا وان كان معناه واتبعوا جزاء الاتراف فالواو للحال فكأنه قيل أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم وقوله تعالى وكانوا مجرمين عطف على أترفوا أى اتبعوا الاتراف وكونهم مجرمين لان تابع الشهوات مغمور بالآثام أو على اتبعوا أى اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك ثم بين تعالى انه ما أهلك أهل القرى بظلم بقوله تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) أى بشرك (وأهلها مصلحون) فيما بينهم والمعنى انه لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين اذا كانوا مصلحين فى المعاملات فيما بينهم والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لاجل كون القوم معتقدين الشرك بل انما ينزل ذلك العذاب اذا أساؤا فى المعاملات وسعوا فى الايذاء والظلم ولهذا قيل ان حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح ويقال فى الاثر الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم وانما نزل على قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عذاب الاستئصال لما حكى الله تعالى عنهم من ايذاء الناس وظلم الخلق (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) أى أهل ملة واحدة وهى الاسلام كقوله تعالى ان هذه أمتكم أمة واحدة وفى هذه الآية دليل على ان الامر غير الارادة وأنه تعالى لم يرد الايمان من كل أحد وأن ما أراده يجب وقوعه والمعتزلة يحملون هذه الآية على مشيئة الالجاء والاجبار ولهذا قال الزمخشرى يعنى لاضطرهم الى أن يكونوا أهل ملة واحدة (ولا يزالون مختلفين) أى على أديان شتى ما بين يهودى ونصرانى ومجوسى ومشرك ومسلم فكل أهل دين من هذه الاديان اختلفوا فى دينهم أيضا اختلافا كثيرا لا ينضبط عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تفترق اليهود على احدى وسبعين فرقة وفى رواية ألا ان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة فثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة والمراد بهذه الفرق أهل البدع والاهواء كالقدرية والمعتزلة والرافضة والمراد بالواحدة هى ملة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله (فان قيل) ما الدليل على أن الاختلاف فى الاديان فلم لا يجوز أن يحمل على الاختلاف فى الالوان والالسنة والارزاق والاعمال (أجيب) بأن الدليل عليه ما قبل هذه

الآية وهو قوله تعالى ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة فيجب حمل الاختلاف على ما يخرجهم من أن يكونوا أمة واحدة وما بعد هذه الآية وهو قوله تعالى (إلا من رحم ربك) أى أراد لهم الخير فلا يختلفون فيه فيجب حمل الاختلاف على معنى يصح أن يستثنى منه ذلك وفى هذه الآية دلالة على أن الهداية والإيمان لا تحصل الا بتخليق الله تعالى لان تلك الرحمة ليست عبارة عن اعطاء القدرة والعقل وارسال الرسل وانزال الكتب وازاحة العذر فان كل ذلك حاصل فى حق الكفار فلم يبق الا أن يقال تلك الرحمة هو أنه سبحانه وتعالى خلق فيهم تلك الهداية والمعرفة (ولذلك خلقهم) أى خلق أهل الاختلاف للاختلاف وخلق أهل الرحمة للرحمة روى عن ابن عباس أنه قال خلق الله أهل الرحمة لئلا يختلفوا وخلق أهل العذاب لان يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا والحاصل أن الله تعالى خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين فحكم على بعضهم بالاختلاف وهم أهل الباطل ومصيرهم الى النار وحكم على بعضهم بالاتفاق وهم أهل الحق ومصيرهم الى الجنة ويدل لذلك قوله تعالى (وتمت كلمة ربك) وهى (لاملأن جهنم من الجنة) أى الجن (والناس أجمعين) وهذا صريح بأن الله تعالى خلق أقواما للجنة والرحمة فهداهم ووفقهم لاعمال أهل الجنة وخلق أقواما للضلالة والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية ولما ذكر تعالى القصص الكثيرة فى هذه السورة ذكر نوعين من الفائدة أولهما تثبيت الفؤاد بقوله تعالى (وكلا) أى وكل نبأ (نقص عليك) وقوله تعالى (من أنباء الرسل) أى نخبرك به بيان لكل وقوله تعالى (ما نثبت به فؤادك) بدل من كلا ومعنى تثبيت فؤاده زيادة يقينه وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى وذلك لان الانسان اذا ابتلى بمحنة وبلية فاذا رأى له فيه مشاركا خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت واذا سمع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القصص وعلم أن حال جميع الانبياء مع اتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الاذى من قومه وأمكنه الصبر عليه * الفائدة الثانية قوله تعالى (وجاءك فى هذه الحق) أى فى السورة وعليه الاكثر أو فى هذه الانباء المقتصة فيها وقال الحسن فى هذه الدنيا قال الرازى وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع لانه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير لها (فان قيل) قد جاءه الحق فى غير هذه السورة بل القرآن كله حق وصدق (أجيب) بأنه انما خصها بالذكر تشريفا لها (وموعظة وذكرى للمؤمنين) وخصهم بالذكر لانتفاعهم بذلك بخلاف الكفار فذكر تعالى أمورا ثلاثة الحق والموعظة والذكرى أما الحق فهو اشارة الى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وأما الموعظة فهى اشارة الى السفر عن الدنيا وتقبيح أحوالها وأما الذكرى فهى اشارة الى الارشاد الى الاعمال النافعة الصالحة فى الدار الآخرة ولما بلغ تعالى الغاية فى الانذار والاعذار والترغيب والترهيب اتبع ذلك بأن قال لرسوله صلى الله عليه وسلم (وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم) أى حالتكم وفيه وعيد وتهديد وان كانت صيغته صيغة الامر فهو كقوله تعالى لابليس واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك

ورجلك

ودجلك وقرأ شعبة بعد النون بالف على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد (اناعاملون) أى على حالتنا التى أمرنا بها ربنا (وانتظروا) أى مايعدكم الشيطان به من الخذلان (انامنتظرون) أى مايحل بكم من نقم الله تعالى وعذابه نحو مانزل على أمثالكم وقيل انامنتظرون ماوعدنا الرحمن من أنواع الغفران والاحسان ثم انه تعالى ذكر خاتمة شريفة عالية جامعة لكل المطالب الشريفة المقدسة فقال (ولله غيب السموات والارض) أى علم ماغاب فيهما فعلمه سبحانه وتعالى نافذ فى جميع مخلوقاته خفيها وجليها (واليه) أى لا الى غيره (يرجع الامر كله) أى اليه يرجع أمر الخلق كلهم فى الدنيا والآخرة وقرأ نافع وحفص بضم الياء وفتح الجيم على البناء للمفعول والباقون بفتح الياء وكسر الجيم ولما كان أول درجات السير الى الله تعالى عبوديته وآخرها التوكل عليه قال تعالى (فاعبده) ولا تشتغل بعبادة غيره (وتوكل عليه) أى ثق به فى جميع أمورك فانه كافيك (وماربك بغافل عما تعملون) فيحفظ على العباد أعمالهم لا يخفى عليه شئ منها فيجزى المحسن باحسانه والمسئ باساءته وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة *(فائدة)* قال كعب الاحبار خاتمة التوراة خاتمة سورة هود وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة هود أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح ومن كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وابراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء حديث موضوع

(سورة يوسف عليه السلام مكية كلها)

مائة واحدى عشرة آية وعدد كلماتها ألف وتسعمائة وست وتسعون كلمة وعدد حروفها سبعة آلاف ومائة وستة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى وسع كل شئ قدرة وعلما (الرحمن) لجميع خلقه المبين لهم طريق الهدى (الرحيم) الذى خص حزبه بالابعاد عن مواطن الردى وقوله تعالى (الر) تقدم الكلام على أوائل السور أول سورة البقرة وقرأ ورش بالامالة بين بين وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائى بالامالة محضة والباقون بالفتح واختلف فى سبب نزول هذه السورة فعن سعيد بن جبير أنه قال لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يتلوه على قومه فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم فقالوا يارسول الله لو حدثتنا فنزل الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى فقالوا لو ذكرتنا فنزل ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وعن ابن عباس انه قال سألت اليهود النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف فنزلت هذه السورة وقوله تعالى (تلك) اشارة الى آيات هذه السورة أى تلك الآيات التى أنزلت اليك فى هذه السورة المسماة بالر هى (آيات الكتاب) أى القرآن (المبين) أى المبين فيه الهدى والرشد والحلال والحرام المظهر للحق من الباطل الذى ثبت فيه قصص الاولين والآخرين وشرحت فيه أحوال المتقدمين (انا أنزلناه) أى الكتاب (قرآنا عربيا) أى بلغة العرب لكى يعلموا معانيه ويفهموا مافيه روى ان علماء اليهود قالوا

لكبراء المشركين اسألوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشأم الى مصر وعن كيفية قصة يوسف
فأنزل الله تعالى هذه الآية وذكر فيها أنه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية ليتمكنوا من
فهمها والتقدير انا أنزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف حال كونه قرآنا عربيا وسمى بعض
القرآن قرآنا لان القرآن اسم جنس يقع على الكل والبعض (لعلكم) يا أهل مكة (تعقلون) أى
ارادة ان تفهموا وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت
آياته واختلف العلماء هل فى القرآن شئ بغير العربية فقال أبو عبيدة من زعم أن فى القرآن
لسانا غير العربية فقد أعظم على الله القول واحتج بهذه الآية انا أنزلناه قرآنا عربيا وروى عن
ابن عباس ومجاهد وعكرمة ان فيه من غير لسان العرب من سجيل ومشكاة واليم واستبرق
وجمع بعض المفسرين بين القولين بأن هذه الالفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم
صارت عربية فصيحة وان كانت غير عربية فى الاصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت اليهم
وصارت لهم لغة وهو جمع حسن (نحن نقص عليك أحسن القصص) أى أحسن الاقتصاص
لانه اقتص على أبدع الاساليب والقصص اتباع الخبر بعضه بعضا وأصله فى اللغة من قص الاثر
اذا اتبعه وانما سميت الحكاية قصة لان الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيأ فشيأ والمعنى
انا نبين لك يا محمد أخبار الامم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان أو قصة يوسف عليه
السلام خاصة وسماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التى تصلح
للدين والدنيا وما فيها من سير الملوك والممالك والعلماء ومكر النساء والصبر على ايذاء الاعداء
وحسن التجاوز عنهم بعد اللقاء وغير ذلك قال خالد بن معدان فى سورة يوسف ومريم يتفكه فيهما
أهل الجنة فى الجنة وقال ابن عطاء لايسمع سورة يوسف محزون الا استراح اليها (بما) أى بسبب
ما (أوحينا) أى بايحائنا (اليك) يا محمد (هذا القرآن) الذى قالوا فيه انه مفترى فنحن نتابع
القصص القصة بعد القصة حتى لايشك شاك ولا يمترى ممتر أنه من عند الله (وان كنت من
قبله) أى ايحائنا اليك أو هذا القرآن (لمن الغافلين) أى عن قصة يوسف واخوته لانه صلى الله
عليه وسلم انما علم ذلك بالوحى وقيل لمن الغافلين عن الدين والشريعة وان هى المخففة من
الثقيلة واللام هى الفارقة بينها وبين النافية وقوله تعالى (اذ قال يوسف لابيه) بدل من
أحسن القصص أو منصوب باضمار اذكر ويوسف اسم عبرى وقيل عربى ورد بأنه لو كان
عربيا لصرف وسئل أبو الحسن الاقطع عن يوسف فقال الاسف فى اللغة الحزن والاسيف العبد
واجتمعا فى يوسف فسمى به وعن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الكريم ابن
الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم وقوله (يا أبت) أصله
يا أبى فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما فى الزيادة ولذلك قلبها ابن كثير وابن عامر هاء فى
الوقف ووقف الباقون بالتاء كالرسم وفى الوصل بالتاء للجميع وفتح التاء فى الوصل ابن عامر
وكسرها الباقون (انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) قال أهل التفسير رأى يوسف
عليه الصلاة والسلام فى منامه وكان ابن اثنتى عشرة سنة وقيل سبع عشرة وقيل سبع سنين

ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر كأن أحد عشر كوكبا نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له وفسروا الكواكب باخوته وكانوا أحد عشر يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس والقمر بأبيه وأمه بجعل الشمس للام لانها مؤنثة والقمر للاب لانه مذكر والذى رواه البيضاوى تبعا للكشاف عن جابر من أن يهوديا قال للنبى صلى الله عليه وسلم أخبرنى عن النجوم التى رآهن يوسف فأخبره بأسمائها فقال اليهودى اى والله انها الاسماء أوها قال ابن الجوزى انه موضوع وقوله (رأيتهم لى ساجدين) استئناف لبيان حالهم التى رآهم عليها فلا تكرار لان الرؤية الاولى تدل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر والثانية تدل على انه شاهد كونها ساجدة له وقال بعضهم انه لما قال انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر قيل له كيف رأيت قال رأيتهم لى ساجدين وقال آخرون يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤيا وهذا القائل لم يبين أن أيهما يحمل على الرؤية وأيهما يحمل على الرؤيا قال الرازى فذكر قولا مجملا غير مبين (فان قيل) قوله رأيتهم وقوله ساجدين لا يليق الا بالعقلاء والكواكب جمادات فكيف جاءت اللفظة المخصوصة بالعقلاء فى حق الجمادات (أجيب) بأنها لما وصفت بالسجود صارت كأنها تعقل وأخبر عنها كما أخبر عمن يعقل كما قال تعالى فى صفة الاصنام وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون وكما فى قوله تعالى يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم (فان قيل) لم أفرد الشمس والقمر بالذكر مع أنهما من جملة الكواكب (أجيب) بأنه أفردهما لفضلهما وشرفهما على سائر الكواكب كقوله تعالى وملائكته وجبريل وميكال وهل المراد بالسجود نفس السجود حقيقة أو التواضع كلاهما محتمل والاصل فى الكلام حمله على الحقيقة قال أهل التفسير ان يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف عليه السلام فحسده اخوته لهذا السبب وظهر ذلك ليعقوب فلما رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها أن أبويه واخوته يخضعون له وخاف عليه حسدهم وبغيهم (قال) له أبوه (يا بنى) بصيغة التصغير للشفقة أو لصغر سنه على ما تقدم وقرأ حفص فى الوصل بفتح الياء والباقون بالكسر والتشديد للجميع (لا تقصص رؤياك على اخوتك) أى لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها (فيكيدوا لك كيدا) أى فيحتالوا فى هلاكك (فان قيل) لم لم يقل فيكيدوك كما قال فكيدونى (أجيب) بأن هذه اللام تأكيد للصلة كقوله للرؤيا تعبرون وكقوله نصحتك ونصحت لك وشكوتك وشكوت لك وقيل صلة كقوله لربهم يرهبون (ان الشيطان للانسان عدو مبين) أى ظاهر العداوة كما فعل بآدم وحواء فلا يألو جهدا فى تسويلهم واثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على الكيد وعن أبى قتادة قال كنت أرى الرؤيا تمرضنى حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا رأى أحدكم ما يحبه فلا يحدث به الا من يحب واذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتفل عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها فانها لا تضره وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فانها من

الله فليحمد الله عليها وليحدث بها واذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هي من الشيطان
فليستعذ بالله من شرها ولا يذكرها لاحد فانها لا تضره وعن أبي رزين العقيلي أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزأ من النبوة وهي على رجل طائر
مالم يحدث بها فاذا حدث بها سقطت قال وأحسبه قال ولا يحدث بها الا لبيبا أو حبيبا
وانما أضيفت الرؤيا المحبوبة الى الله اضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة وان كانتا جميعا
من خلق الله تعالى وتدبيره وارادته ولا فعل للشيطان فيهما ولكنه يحضر المكروهة ويرتضيها
فيستحب اذا رأى الشخص في منامه ما يحب أن يحدث به من يحب واذا رأى ما يكره فلا
يحدث به وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم من شرها وليتفل ثلاثا وليتحول عن جنبه الآخر
فانها لا تضره فان الله تعالى جعل هذه الاسباب سببا لسلامته من المكروه كما جعل الصدقة
سببا لوقاية المال قال الحكماء ان الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب والرؤيا الجيدة انما
يظهر تعبيرها بعد حين قالوا والسبب فيه ان رحمة الله تعالى تقتضي أن لا يحصل الاعلام بوصول
الشر الا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل وأما الاعلام بالخير فانه يحصل
متقدما على ظهوره بزمن طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير
أكثر وأتم ولهذا لم تظهر رؤيا يوسف عليه السلام الا بعد أربعين سنة وهو قول أكثر المفسرين
وقال الحسن البصري كان بينهما ثمانون سنة حتى اجتمع على ابويه واخوته وخروا له ساجدين
(وكذلك) أي وكما اجتباك ربك لاطلاع على هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكمال
نفس (يجتبيك) أي يختارك ويصطفيك (ربك) بالدرجات العالية واجتباء الله تخصيصه بفيض
الهي يحصل منه أنواع الكرامات بلا سعي من العبد وذلك مخصوص بالانبياء وبعض من
يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين وقوله (ويعلمك) كلام مستأنف خارج عن التشبيه
والتقدير وهو يعلمك (من) أي بعض (تأويل الاحاديث) من تأويل الرؤيا وغيرها من
كتب الله تعالى والاخبار المروية عن الانبياء المتقدمين وكان يوسف عليه السلام في تعبير الرؤيا
وغيرها غاية والتأويل ما تؤول اليه عاقبة الامر (ويتم نعمته عليك) بالنبوة قال ابن عباس لان
منصب النبوة أي ومع الرسالة أعلى من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الانبياء فهذا
من تمام النعمة عليهم لان جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة والنبوة فالكمال المطلق
والتمام المطلق في حق البشر ليس الا النبوة والرسالة وقيل يجتبيك بالنبوة ويتم نعمته عليك
بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة أما سعادات الدنيا فالاكثار من الاولاد والخدم والاتباع
والتوسع في المال والجاه والاجلال في قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد وأما سعادات الآخرة
فالعلوم الكثيرة والاخلاق الفاضلة والاستغراق في معرفة الله تعالى (وعلى آل يعقوب) أي
أولاده وهذا يقتضي حصول تمام النعمة لآل يعقوب وتمام النعمة هو النبوة والرسالة كما مر
فلزم حصولها لآل يعقوب وأيضا ان يوسف عليه السلام قال اني رأيت أحد عشر كوكبا وكان
تأويله أحد عشر نفسا لهم فضل وكمال ويستضيء بعلمهم ودينهم أهل الارض لانه لا شيء أضوأ

من

من الكواكب وبها يهتدي وذلك يقتضي أن تكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلا (فان قيل) كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه في حق يوسف عليه السلام (أجيب) بأن ذلك وقع منهم قبل النبوة والعصمة من المعاصي انما تعتبر بعد النبوة لا قبلها على خلاف فيه (كما أتمها على أبويك) بالنبوة والرسالة وقيل اتمام النعمة على ابراهيم عليه السلام خلاصه من النار واتخاذه خليلا وعلى اسحق خلاصه من الذبح وفداؤه بذبح عظيم على قول ان اسحق هو الذبيح (من قبل) أي من قبل هذا الزمان وقوله (ابراهيم واسحق) عطف بيان لابويك ثم ان يعقوب عليه السلام لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله (ان ربك عليم) أي بليغ العلم (حكيم) أي بليغ الحكمة وهي وضع الاشياء في أتقن مواضعها (لقد كان في) خبر (يوسف واخوته) وهم أحد عشر يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وزبلون قال البقاعي بزاي وباء موحدة ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهي ابنة خال يعقوب وولد له من سريتين احداهما زلفى والاخرى بلهة كذا قاله البغوي وقال الرازي والاخرى بلهمة أربعة اولاد وأسماؤهم دان ونفتالى قال البقاعي بنون مفتوحة وفاء ساكنة ومثناة فوقية ولام بعدها ياء وجاد وأشر ثم توفيت ليا فتزوج باختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين وقيل جمع بينهما ولم يكن الجمع محرما حينئذ (آيات) أي علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته في كل شيء (للسائلين) عن قصصهم قال الرازي ولمن لم يسأل عنها وهو كقوله تعالى في أربعة أيام سواء للسائلين وقيل آيات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك أن اليهود سألوه عن قصة يوسف وقيل سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من أرض كنعان الى أرض مصر فذكر لهم قصة يوسف فوجدوها موافقة لما في التوراة فعجبوا منه فكان دلالة على نبوته صلى الله عليه وسلم لانه لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يجالس العلماء وأصحاب الاخبار ولم يأخذ عنهم شيأ فدل ذلك على أن ما يأتي به وحي سماوي أوحاه الله تعالى اليه وعرفه به وهذه السورة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم منها رؤيا يوسف عليه السلام وما حقق الله تعالى فيها من حسد اخوته وما آل اليه أمره من الملك ومنها ما اشتمل على حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل اليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات التي اذا فكر فيها الانسان اعتبر وقرأ ابن كثير آية على التوحيد والباقون على الجمع (اذ) أي واذكر اذ (قالوا) أي بعض اخوة يوسف لبعض بعد أن بلغتهم الرؤيا وقالوا ما يرضى أن تسجد له اخوته حتى يسجد له أبواه (ليوسف واخوه) أي بنيامين (أحب الى أبينا منا) اللام لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أرادوا ان زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه وخبر المبتدا أحب ووحد لان أفعل يستوي فيه الواحد وما فوقه مذكرا كان أو مؤنثا اذا لم يعرف أو لم يضف وقيل اللام لام قسم تقديره والله ليوسف وانما قالوا وأخوه وهم جميعا اخوته لان أمهما كانت واحدة والواو في قولهم (ونحن عصبة) واو الحال أي يفضلهما في المحبة علينا وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة ونحن جماعة أقوياء نقوم بمرافقه فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة

والمنفعة عليهما والعصبة والعصابة العشرة فما فوقها وقيل الى الاربعين سموا بذلك لانهم جماعة تعصب بهم الامور ويستكفى بهم النوائب (ان أبانا لفى ضلال) أى خطا (مبين) أى بين فى ايثاره حب يوسف وأخيه علينا والقرب المقتضى للحب فى كلنا واحد لانا فى البنوة سواء ولنا مزية تقتضى تفضيلنا وهى انا عصبة لنا من النفع له والذب عنه والكفاية ماليس لهما * (تنبيه) * ههنا سؤالات * الاول ان من المعلوم أن تفضيل بعض الاولاد على بعض يورث الحقد والحسد فلم أقدم يعقوب عليه السلام على ذلك (أجيب) بأنه انما فضلهما فى المحبة والمحبة ليست فى وسع البشر فكان معذورا فيها ولا يلحقه فى ذلك لوم * الثانى كيف اعترضوا على أبيهم وهم يعلمون انه نبى وهم مؤمنون به وأجيب بانهم وان كانوا مؤمنين بنبوته لكن جوزوا أن يكون فعله باجتهاد ثم ان اجتهادهم أدى الى تخطئة أبيهم فى ذلك الاجتهاد لكونهم أكبر سنا وأكثر نفعا وغاب عنهم ان تخصيصهما بالبر كان لوجوه أحدها أن أمهما ماتت ثانيها أنه كان فى يوسف من آثار الرشد والنجابة مالم يجده فى سائر أولاده ثالثها أنه وان كان صغيرا الا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخدمة أعلى وأشرف مما كان يصدر عن سائر أولاده والحاصل أن هذه المسئلة كانت اجتهادية وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين فى دين الآخر الثالث أنهم نسبوا أباهم الى الضلال عن رعاية مصالح الدنيا والبعد عن طريق الرشد لا الضلال فى الدين * الرابع أن قولهم ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا محض حسد والحسد من أمهات الكبائر لاسيما وقد أقدموا بسبب ذلك الحسد على أمور مذمومة منها قولهم (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) أى بحيث يحصل اليأس من اجتماعه بأبيه ومنها القاؤه فى ذل العبودية ومنها أنهم أبقوا أباهم فى الحزن الدائم والاسف العظيم ومنها اقدامهم على الكذب وكل ذلك يقدح فى العصمة والنبوة (أجيب) بما تقدم أن ذلك كان قبل النبوة وقرأ نافع وابن كثير وهشام والكسائى بضم التنوين من مبين فى الوصل والباقون بالكسر فان وقف القارئ على مبين وامتحن فى الابتداء يبتدئ بالضم للجميع وقولهم (يخل لكم وجه أبيكم) جواب الامر أى يصف لكم وجه أبيكم فيقبل بكليته عليكم ولا يلتفت عنكم الى غيركم ولا ينازعكم فى محبته أحد وقولهم (وتكونوا) مجزوم بالعطف على يخل لكم أو منصوب باضمار ان (من بعده) أى قتل يوسف أو طرحه (قوما صالحين) بأن تتوبوا الى الله تعالى بعد فعلكم فانه يعفو عنكم وقال مقاتل يصلح أمركم فيما بينكم وبين أبيكم (قال قائل منهم) هو يهوذا وكان أحسنهم رأيا فيه وهو الذى قال فلن أبرح الارض وقيل روبيل وكان أكبرهم سنا (لا تقتلوا يوسف وألقوه) أى اطرحوه (فى غيابت الجب) أى فى أسفله وظلمته والغيابة كل موضع ستر شيأ وغيبه عن النظر قال القائل

فان أنا يوما غيبتنى غيابتى * فسيروا بسيرى فى العشيرة والاهل

اراد غيابة حفرته التى يدفن فيها والجب البئر الكبيرة التى ليست مطوية سميت جبا لانها قطعت قطعا ولم يحصل فيها شئ غير القطع من طى أو ما أشبهه واعاذكر الغيابة مع الجب دلالة على

ان

أن المشير أشار بطرحه فى موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين قال بعض أهل العلم انهم عزموا على قتله وعصمه الله تعالى رحمة بهم ولو فعلوا لهلكوا أجمعين واختلف فى موضع ذلك الجب فقال قتادة هو بيت المقدس وقال وهب هو بأرض الاردن وقال مقاتل هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وقرأ نافع بألف بين الباء والتاء على الجمع والباقون بغير ألف على التوحيد (يلتقطه) أى يأخذه (بعض السيارة) جمع سيار أى المبالغ فى السير وذلك الجب كان معروفا يرد عليه كثير من المسافرين فاذا أخذوه ذهبوا به الى ناحية أخرى فتستريحوا منه (ان كنتم فاعلين) أى ما أردتم من التفريق فاكتفوا بذلك ولما أجمعوا على التفريق بين يوسف وأبيه بضرب من الحيل (قالوا) اعمالا للحيلة فى الوصول اليه مستفهمين على وجه التعجب لانه كان أحس منهم السوء فكان يحذرهم عليه (يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف و) الحال (انا له لناصحون) أى قائمون بمصلحته وحفظه *(تنبيه)* اتفق القراء على اخفاء النون الساكنة عند النون المتحركة واتفقوا أيضا على ادغامها مع الاشمام (أرسله معنا غدا) أى الى الصحراء (نرتع) أى نتسع فى أكل الفواكه ونحوها وأصل الرتع أكل البهائم فى الخصب فى زمن الربيع ويستعار للانسان اذا أريد به الاكل الكثير (ونلعب) روى أنه قيل لابى عمرو كيف يقولون نلعب وهم أنبياء فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء وأيضا جاز أن يكون المراد باللعب الاقدام على المباحات لاجل انشراح الصدر كما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجابر فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وأيضا كان لعبهم الاستباق والانتضال والغرض منه المحاربة والمقاتلة مع الكفار والدليل عليه قولهم انا ذهبنا نستبق وانما سموه لعبا لانه فى صورته وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالنون فيهما والباقون بالياء وسكن العين أبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى وكسرها الباقون فى الوصل ولقنبل وجه آخر وهو أنه يثبت الياء فى نرتع بعد العين وقفا ووصلا (وانا له لحافظون) أى بليغون فى الحفظ له حتى نرده اليك سالما قال أبو حيان وانتصب غدا على الظرف وهو ظرف مستقبل يطلق على اليوم الذى يلى يومك وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد وأصل غدا غدو فحذفت الواو انتهى ثم ان يعقوب عليه السلام اعتذر لهم بعذرين الاول ما حكاه الله تعالى عنه بقوله (قال انى ليحزننى أن تذهبوا به) أى ذهابكم به والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب لانه كان لا يقدر أن يصبر عنه ساعة وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى والباقون بفتح الياء وضم الزاى والثانى قوله (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم به وكان يعقوب عليه السلام رأى فى النوم أن الذئب شد على يوسف فكان يحذره فمن أجل هذا ذكر ذلك وكأنه لقنهم العلة وفى أمثال العرب البلاء موكل بالمنطق والمراد به الجنس وكانت أرضهم كثيرة الذئاب (قالوا) مجيبين عن الثانى بما يلين الاب لارساله مؤكدين لتطييب خاطره دالين على القسم بلامه (لئن أكله الذئب ونحن) أى والحال أنا (عصبة) أى جماعة عشرة رجال بمثلهم تعصب الامور وتكفى الخطوب وأجابوا عن القسم بما أغنى عن جواب الشرط

بقولهم (انا اذا) أى اذا كان هذا (لخاسرون) أى كاملون فى الخسارة لانا اذا ضيعنا أخانا فنحن لما سواه من أموالنا أشد تضييعا وأعرضوا عن جواب الاول لان حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الاول وهو شدة حبه له فلما سمعوا ذلك المعنى تغافلوا عنه وأقله أن يقولوا ما وجه الشح بفراقه يوما والسماح بفراقنا كل يوم وقرأ الذيب ورش والسوسى والكسائى بابدال الهمزة ياء وقفا ووصلا وحمزة وقفا لا وصلا والباقون بالهمزة وقفا ووصلا وقوله تعالى (فلما ذهبوا به) فيه اضمار واختصار تقديره فأرسله معهم فلما ذهبوا به (وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب) أى وعزموا على القائه فيها ولا بد من تقدير جواب وهو فجعلوه فيها وحذف الجواب فى القرآن كثير بشرط أن يكون المذكور دليلا عليه وهنا كذلك قال وهب وغيره من أهل السير والاخبار ان اخوة يوسف قالوا له ماتشتاق أن تخرج معنا الى مواشينا فتصيد وتستبق قال بلى قالوا افاسأل أباك أن يرسلك معنا قال يوسف أفعل فدخلوا جميعا على أبيهم وقالوا ياأبانا ان يوسف قد أحب أن يخرج معنا الى مواشينا فقال يعقوب ماتقول يابنى قال نعم ياأبت انى أرى من اخوتى اللين واللطف فأحب أن تأذن لى وكان يعقوب عليه الصلاة والسلام يكره مفارقته ويحب مرضاته فأذن له فأرسله معهم فلما خرجوا به من عند أبيهم جعلوا يحملونه على رقابهم وأبوهم ينظر اليهم فلما بعدوا عنه وصاروا الى الصحراء ألقوه على الارض وأظهروا له ما فى أنفسهم من العداوة وأغلظوا له القول وجعلوا يضربونه فجعلوا كلما جاء الى واحد منهم واستغاث به يضربه فلم ير منهم رحيما فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح ياأبتاه ويايعقوب لو رأيت يوسف وما نزل به من اخوته لأحزنك ذلك وأبكاك ياأبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وجعل يبكى بكاء شديدا فأخذه روبيل فجلد به الارض ثم جلس على صدره وأراد قتله فقال له مهلا ياأخى لا تقتلنى فقال له يا ابن راحيل أنت صاحب الاحلام الكاذبة قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ولوى عنقه فاستغاث يوسف بيهوذا وقال له اتق الله فى وحل بينى وبين من يريد قتلى فأدركته رحمة ورقة فقال يهوذا يااخوتاه ما على هذا عاهدتمونى فانطلقوا به الى الجب ليطرحوه فيه فجاؤا به على بئر على غير الطريق واسع الاسفل ضيق الرأس فجعلوا يدلونه فى البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال يااخوتاه ردوا على قميصى أستتر به فى الجب فقالوا ادع الشمس والقمر والكواكب تخلصك وتؤنسك فقال انى لم أر شيأ فألقوه فيها وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة كانت فى البئر فقام عليها فنادوه فظن أنها رحمة أدركته فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمنعهم يهوذا من ذلك وكان يهوذا يأتيه بالطعام وبقى فيها ثلاث ليال (وأوحينا اليه) فى الجب فى صغره وهو ابن سبع عشرة سنة أودونها كما أوحى الى يحيى وعيسى عليهما السلام فى صغرهما وفى القصص ان ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار جرد عن ثيابه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه اياه ودفعه ابراهيم عليه السلام الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة علقها بيوسف فأخرجها جبريل وألبسه اياها (لتنبئنهم) أى لتخبرنهم بعد هذا اليوم

(بأمرهم)

(بأمرهم) أى بصنيعهم (هذا وهم لا يشعرون) أى انك يوسف لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم وطول العهد المغير للهيآت كما قال تعالى فعرفهم وهم له منكرون والمقصود من ذلك تقوية قلبه وأنه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير مستوليا عليهم ويصيرون تحت أمره ونهيه وقهره روى أنهم لما دخلوا عليه لطلب الحنطة عرفهم وهم له منكرون ودعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرني هذا الجام انه كان لكم أخ من ابيكم يقال له يوسف فطرحتموه وقلتم لابيكم أكله الذئب وقيل لا يشعرون بايحائنا اليك وأنت فى البئر بأنك ستخبرهم بصنيعهم هذا والفائدة فى اخفاء ذلك الوحى عنهم انهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم وكانوا يقصدون قتله وقيل ان المراد من هذا الوحى الالهام كما فى قوله تعالى وأوحينا الى أم موسى وقوله تعالى وأوحى ربك الى النحل (و) لما كان من المعلوم أنه ليس بعد هذا الفعل الذى فعلوه الا الاعتذار (جاؤا أباهم) دون يوسف (عشاء) فى ظلمة الليل لئلا يتفرس أبوهم فى وجوههم اذا رآها فى ضياء النهار ضد ما جاؤا به من الاعتذار وقد قيل لا تطلب الحاجة فى الليل فان الحياء فى العينين ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج فى الاعتذار (يبكون) والبكاء جريان الدمع من العين والآية تدل على أنه لا يدل على الصدق لاحتمال التصنع روى ان امرأة حاكمت الى شريح فبكت فقال الشعبى يا أبا أمية أما تراها تبكى فقال قد جاء اخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كذبة لا ينبغى للانسان أن يقضى الا بالحق فعند ذلك فزع يعقوب عليه السلام فقال هل أصابكم فى غنمكم شئ قالوا لا قال فما فعل يوسف (قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق) قال الزجاج يسابق بعضنا بعضا فى الرمى ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لا سبق الا فى خف أو نصل أو حافر يعنى بالنضل الرمى وقيل العدو ولنتبين أينا أسرع عدوا (وتركنا يوسف) أخانا (عند متاعنا) أى ما كان معنا مما نحتاج اليه فى ذلك الوقت من ثياب وزاد ونحو ذلك (فأكله) أى فتسبب عن انفراده أن أكله (الذئب وما) أى والحال انك ما (أنت بمؤمن) أى بمصدق لما علموا أنه لا يصدقهم بغير أمارة (لنا ولو كنا صادقين) فى هذه القصة لمحبة يوسف عندك فكيف وأنت تسيء الظن بنا وقيل لا تصدقنا لانه لا دليل لنا على صدقنا وان كنا صادقين عند الله تعالى (و) لما علموا أنه لا يصدقهم بغير أمارة (جاؤا على قميصه) أى يوسف عليه السلام (بدم كذب) قال الفراء أى مكذوب فيه الا أنه وصفه بالمصدر على تقدير ذى كذب أو مكذوب أطلق على المصدر مبالغة لانه غير مطابق للواقع لانهم ادعوا أنه دم يوسف عليه السلام والواقع أنه دم سخلة ذبحوها ولطخوا القميص بذلك الدم قال القاضى ولعل غرضهم فى نزع قميصه عند القائه فى غيابة الجب أن يفعلوا هذا لتوكيد الصدقهم اذ يبعد أن يفعلوا ذلك طمعا فى نفس القميص ولا بد فى المعصية من أن يقترن بها الخذلان فلو خرقوه مع لطخه بالدم لكان الاتهام أقوى فلما شاهد يعقوب عليه السلام القميص صحيحا علم كذبهم روى أن يعقوب عليه السلام أخذ القميص منهم وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق قميصه * (تنبيه) *

على قيصه محله النصب على الظرفية كأنه قيل وجاؤا فوق قيصه بدم كما تقول جاء على جماله باحماله ولا يصح أن يكون حالا متقدمة لان حال المجرور لا يتقدم عليه قال الشعبي قصة يوسف كلها في قيصه وذلك أنهم لما ألقوه في الجب نزعوا قيصه ولطخوه بالدم وعرضوه على أبيه ولما شهد الشاهد قال ان كان قيصه قدّ من قبل ولما أتى بقميصه الى يعقوب وألقى على وجهه ارتد بصيرا ثم ذكر تعالى ان اخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم (قال) يعقوب عليه السلام (بل سوّلت) أى زينت (لكم أنفسكم أمرا) ففعلتموه به واختلف في السبب الذى عرف به كونهم كاذبين على وجوه الاول أنه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم الثانى كان عالما بأنه حى لانه عليه السلام قال ليوسف وكذلك يجتبيك ربك وذلك دليل على كذبهم في ذلك القول الثالث أنه لما رأى قيصه صحيحا قال كذبتم لو أكله الذئب لخرق ثوبه وقيل انه لما قال ذلك قال بعضهم بل قتله اللصوص فقال كيف قتلوه وتركوا قيصه وهم الى قيصه أحوج منهم الى قتله فلما اختلفت أقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم وقوله (فصبر جميل) مرفوع بالابتداء لكونه موصوفا وخبره محذوف والتقدير فصبر جميل أولى من الجزع ومنهم من أضمر المبتدا قال الخليل الذى أفعله صبر جميل وقال قطرب معناه فصبرى صبر جميل وقال الفراء فهو صبر جميل وعن الحسن ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال صبر لا شكوى فيه فمن بث لم يصبر كما قال يعقوب انما أشكو بثى وحزنى الى الله وقال مجاهد فصبر جميل من غير جزع وقال الثورى ان من الصبر أن لا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك ولا تزكى نفسك وروى ان يعقوب عليه السلام كان قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقة فقيل له ما هذا فقال طول الزمان وكثرة الاحزان فأوحى الله تعالى اليه يا يعقوب أتشكونى فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى وروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها فى قصة الافك أنها قالت والله لئن حلفت لا تصدقونى ولئن اعتذرت لا تعذرونى فمثلى ومثلكم كمثل يعقوب وولده والله المستعان على ما تصفون فأنزل الله تعالى فى عذرها ما أنزل وقوله فصبر جميل يدل على أن الصبر على قسمين قد يكون جميلا وقد يكون غير جميل فالصبر الجميل أن ينكشف له ان هذا البلاء من الحق فاستغراقه فى شهود نور المبلى يمنعه من الاشتغال بالشكاية من البلاء ولذلك قيل المحبة التامة لا تزداد بالوفاء ولا تنقص بالجفاء لانها لو ازدادت بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ وموصل النصيب لا يكون محبوبا بالذات بل بالعرض فهذا هو الصبر الجميل وأما الصبر لا للرضا بقضاء الله تعالى بل كان لسائر الاغراض فذلك الصبر لا يكون جميلا (فان قيل) الصبر على قضاء الله تعالى واجب وأما الصبر على ظلم الظالمين فغير واجب بل الواجب ازالته لاسيما فى الضرر العائد الى الغير فلم صبر يعقوب على ذلك ولم يبالغ فى البحث مع شدة رغبته فى حضور يوسف ونهاية حبه له وكان من بيت عظيم شريف وكان الناس يعرفونه ويعتقدون فيه (أجيب) بأنه يحتمل أن يكون منع من الطلب بوحى تشديدا للمحنة عليه زيادة فى أجره أو أنه لو بالغ فى البحث لربما أقدموا على ايذائه ولم يمكنوه من الطلب والفحص

فرأى أنّ الاصوب الصبر والسكوت وتفويض الامر بالكلية الى الله تعالى وقال (والله المستعان) أى المطلوب منه العون (على ماتصفون) أى تذكرون من أمر يوسف والمعنى انّ اقدامه على الصبر لا يكون الا بمعونة الله تعالى لانّ الدواعى النفسانية تدعوه الى اظهار الجزع وهى قوية والدواعى الروحانية تدعوه الى الصبر فكان المحاربة وقعت بين الصنفين فما لم تحصل اعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة فقوله فصبر جميل يجرى مجرى قوله اياك نعبد وقوله والله المستعان على ماتصفون يجرى مجرى قوله واياك نستعين * ولما أراد الله تعالى خلاص يوسف من الجب بين سببه بقوله تعالى (وجاءت سيارة) وهم القوم المسافرون سموا بذلك لانهم يسيرون فى الارض وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فأخطؤا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق فهبطوا على أرض فيها جب يوسف وكان الجب فى قفرة بعيدة عن العمران أى لم يكن الا للرعاة روى أنّ ماءه كان ملحا فعذب حين ألقى يوسف فيه فلما نزلوا أرسلوا رجلا يقال له مالك بن ذعر لطلب الماء فذلك قوله تعالى (فأرسلوا واردهم) أى الذى يريد الماء ليستقى منه والوارد هو الذى يتقدم الرفقة الى الماء فيهيئ الارشية والدلاء (فأدلى) أى أرسل (دلوه) فى البئر يقال أدليت الدلو اذا أرسلتها فى البئر ودلوتها اذا أخرجتها والدلو معروف والجمع الدلاء فلما أرسلها تعلق بالحبل يوسف عليه السلام فلما خرج فاذا هو بغلام أحسن مايكون قال صلى الله عليه وسلم أعطى يوسف شطر الحسن ويقال انه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت جدته قد أعطيت سدس الحسن قال ابن اسحق ذهب يوسف وأمه بثلثى الحسن وحكى الثعلبى عن كعب الاحبار قال كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوى الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان اذا تبسم رأيت النور من ضواحكه واذا تكلم رأيت شعاع النور من ثناياه لا يستطيع أحد وصفه وكان حسنه كضوء النهار عند الليل وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله وصوّره قبل أن يصيب الخطيئة فلما رآه مالك بن ذعر (قال يابشرى هذا غلام) نادى البشرى بشارة لنفسه كأنه قال تعالى فهذا أوانك وعن الاعمش أنه قال دعا امرأة اسمها بشرى فقال يابشرى وعن السدى أنّ المدلى نادى صاحبه وكان اسمه بشرى فقال يابشرى كما قرأه حمزة وعاصم والكسائى فانهم قرؤا بحذف الياء بعد الالف والباقون باثبات الياء وقيل ذهب به فلما دنا من أصحابه صاح بذلك وروى أنّ جدران البئر كانت تبكى على يوسف حين أخرج منها واختلف فى ضمير (وأسرّوه بضاعة) الى من يعود وفيه قولان الاوّل أنه عائد الى الوارد وأصحابه أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه بالجب وذلك أنهم قالوا ان قلنا للسيارة التقطناه شاركونا وان قلنا اشتريناه سألونا الشركة فالاصوب أن نقول انّ أهلا لنا جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر والثانى ونقل عن ابن عباس أنه قال وأسرّوه يعنى اخوة يوسف أسرّوا شأنه وذلك أنّ يهوذا كان يأتيه بالطعام كل يوم فلم يجده فى البئر فأخبر اخوته فطلبوه فاذا هم بمالك بن ذعر وأصحابه نزول فأتوهم فاذا هم بيوسف فقالوا هذا عبد لنا أبق منا وتابعهم يوسف على ذلك

لانهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية قال الرازى والاول أولى لان قوله وأسروه بضاعة يدل على أن المراد أنهم أسروه حال ما حكموا بأنه بضاعة وذلك انما يليق بالوارد لا باخوة يوسف *(تنبيه)* البضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت الشئ اذا قطعته قال الزجاج وبضاعة منصوب على الحال كانه قال وأسروه حال ما جعلوه بضاعة ولما جعل تعالى هذا البلاء سببا لوصوله الى مصر ثم صارت وقائعه الى أن صار ملكا بمصر وحصل ذلك الذى رآه فى النوم فكان العمل الذى عمله الاعداء فى دفعه عن ذلك المطلوب صيره الله تعالى سببا لحصول ذلك المطلوب فلهذا المعنى قال تعالى (والله عليم) أى بالغ العلم (بما يعملون) أى لم يخف عليه ما فعلوه بيوسف وأبيهم (وشروه) أى باعوه اذ قد يطلق لفظ الشراء على البيع يقال شريت الشئ بمعنى بعته وانما حمل هذا الشراء على البيع لان الضمير فى شروه وفى كانوا فيه من الزاهدين يرجع الى شئ واحد وذلك ان اخوته زهدوا فيه فباعوه وقيل ان الضمير يعود الى مالك بن ذعر وأصحابه وعلى هذا يكون لفظ الشراء على بابه وقال محمد بن اسحق ربك أعلم أاخوته باعوه أم السيارة واختلفوا فى معنى قوله تعالى (بثمن بخس) فقال الضحاك أى حرام لان ثمن الحر حرام وسمى الحرام بخسا لانه مبخوس البركة وقال ابن مسعود أى زيوف وقال عكرمة أى بثمن قليل ويدل لهذا قوله تعالى (دراهم معدودة) لانهم كانوا فى ذلك الزمان لا يزنون ما كان أقل من أربعين درهما انما كانوا يأخذون ما دونها عدا فاذا بلغتها وهى أوقية وزنوها واختلفوا فى عدد تلك الدراهم فقال ابن عباس كانت عشرين درهما فاقتسموها درهمين درهمين وعلى هذا لم يأخذ أخوه بنيامين شقيقه منها شيأ وقال مجاهد كانت اثنين وعشرين درهما وقال عكرمة أربعين درهما (وكانوا) أى اخوته (فيه) أى يوسف (من الزاهدين) لانهم لم يعلموا منزلته عند الله تعالى ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان فى كذا اذا لم يرغب فيه وأصله القلة يقال رجل زهيد اذا كان قليل الطمع وقيل كانوا فى الثمن من الزاهدين لانهم لم يكن قصدهم تحصيل الثمن وانما كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه وقيل الضمير فى كانوا للسيارة لانهم التقطوه والملتقط للشئ متهاون به خائف من انتزاعه مستعجل فى بيعه لا جرم باعوه بأوكس الاثمان روى فى الاخبار أن مالك بن ذعر انطلق هو وأصحابه بيوسف وتبعهم اخوته يقولون استوثقوا منه لانه آبق فذهبوا به حتى أتوا مصر وعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير أو اطفير وهو العزيز الذى كان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العمالقة وقد آمن بيوسف ومات فى حياة يوسف فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف الى الاسلام فأبى واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام فى منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله تعالى العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل كان الملك فى أيامه فرعون موسى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف وقيل اشتراه العزيز بعشرين دينارا وزوجى نعل وثوبين أبيضين

وقال

وقال وهب بن منبه قدمت السيارة بيوسف مصر فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريرا وكان وزنه أربعمائة رطل وكان عمره حينئذ سبع عشرة سنة وقيل ثلاث عشرة سنة فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن فذلك قوله تعالى (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته) واسمها زليخا وقيل راعيل (أكرمى مثواه) قال الرازى اعلم ان شيأ من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ولم يثبت أيضا فى خبر صحيح وتفسير كتاب الله تعالى لا يتوقف على شئ من هذه الروايات فاللائق بالعاقل أن يحترز من ذكرها انتهى ولكن البغوى ذكرها وتبعه على ذلك جماعة من المفسرين واللام فى امرأته متعلقة بقال لا باشتراه والمثوى موضع الاقامة أى اجعلى منزله ومقامه عندنا كريما أى حسنا مرضيا بدليل قول يوسف انه ربى أحسن مثواى والمراد تفقديه بالاحسان وتعهديه بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة فى صحبتنا ساكنة فى كنفنا قال المحققون أمر العزيز امرأته باكرام مثواه دون اكرام نفسه يدل على أنه كان ينظر اليه على سبيل الاجلال والتعظيم وهو كما يقال سلام الله على المجلس العالى * ولما أمر باكرام مثواه علل ذلك بأن قال (عسى أن ينفعنا) أى يقوم باصلاح مهماتنا أو نبيعه بالربح ان أردنا بيعه (أو نتخذه ولدا) أى نتبناه وكان حصورا ليس له ولد قال ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة العزيز فى يوسف حيث قال لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا وابنة شعيب حين قالت لابيها فى موسى استأجره وأبو بكر فى عمر حيث استخلفه (وكذلك) أى وكما نجيناه من القتل والجب وعطفنا عليه قلب العزيز (مكنا ليوسف فى الارض) أى أرض مصر قال البقاعى التى هى كالارض كلها لكثرة منافعها بالملك فيها التمكنه من الحكم بالعدل والنبوّة وقوله تعالى (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) أى تعبير الرؤيا عطف على مقدر متعلق بمكنا أى لنمكنه أو الواو زائدة (والله غالب على أمره) أى الامر الذى يريده لانه تعالى فعال لما يريد ولا دافع لقضائه ولا مانع عن حكمه فى أرضه وسمائه أو على أمر يوسف أراد اخوته قتله فغلب أمره عليهم وأرادوا أن يلتقطه بعض السيارة ليندرس اسمه فغلب أمره وظهر اسمه واشتهر ثم باعوه ليكون مملوكا فغلب الله أمره حتى صار ملكا وسجدوا بين يديه ثم أرادوا أن يضرّوا أباهم ويطيبوا قلبه حتى يخلولهم وجهه فغلب أمره تعالى فأظهره على مكرهم واحتالت عليه امرأة العزيز لتخدعه عن نفسه فغلب أمره تعالى فعصمه حتى لم يهم بسوء بل هرب منه غاية الهرب ثم بذلت جهدها فى اذلاله والقاء التهمة عليه فأبى الله تعالى الا اعزازه وبراءته ثم أراد يوسف عليه السلام ذكر الساقى له فغلب أمره تعالى فأنساه ذكره حتى مضى الاجل الذى ضربه الله تعالى له وكم من أمر كان فى هذه القصة وفى غيرها يرشد الى أنه لا أمر لغيره (ولكن أكثر الناس) وهم الكفار (لا يعلمون) أن الامر كله بيد الله تعالى أو أن أكثر الناس لا يعلمون ما هو صانع بيوسف وما يريد منه فمن تأمل فى الدنيا وعجائب أحوالها عرف وتيقن ان الامر كله لله وان قضاء الله تعالى غالب * ولما بين تعالى أن اخوته أساؤا اليه وصبر على تلك الشدائد والمحن ومكنه

في الارض اتبعه الامر بتمام النعمة عليه بقوله تعالى (ولما بلغ أشده) أى منتهى شبابه وقوته وشدته تقول العرب بلغ فلان أشده اذا انتهى منتهاه في شبابه وقوته وهذا اللفظ مستعمل في الواحد والجمع يقال بلغ فلان أشده وبلغوا أشدهم وهو ثلاث وثلاثون سنة وقال السدى بلغ ثلاثين سنة وقال الضحاك عشرين سنة وقال الكلبي الاشد ما بين ثمانية عشر الى ثلاثين وقيل اقصاه اثنان وستون سنة قال الاطباء ان الانسان يحدث في أول الامر ويتزايد كل يوم شيأ فشيأ الى أن ينتهي الى غاية الكمال ثم يأخذ في التراجع الى أن ينتهي الى العدم والمحاق كالقمر (آتيناه حكما) أى حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل أو حكما بين الناس (وعلما) أى علم تأويل الاحاديث وقيل المراد بالحكم النبوة والرسالة وتقدم ان قوله تعالى وأوحينا أنه وحى حقيقة قال الرازى فلا يبعد أن يقال ان ذلك الوحى اليه في ذلك الوقت لا لاجل بعثته الى الخلق بل لاجل تقوية قلبه وازالة الحزن عن صدره ولاجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام (وكذلك) أى ومثل ذلك الجزاء الذى جزيناه به (نجزى المحسنين) قال ابن عباس يعنى المؤمنين وعنه أيضا يعنى المهتدين وقال الضحاك يعنى الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عليه السلام وعن الحسن من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله * ولما أخبر تعالى أن سبب النعمة عليه احسانه اتبعه دليله فقال تعالى (وراودته التى هو في بيتها) أى امرأة العزيز راودت يوسف (عن نفسه) لانها لما رأته في غاية الحسن والجمال طمعت فيه ويقال ان زوجها كان عاجزا والمراودة مفاعلة من راد يرود اذا جاء وذهب كان المعنى خادعته عن نفسه أى فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشئ الذى لا يريد أن يخرجه من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه وهو عبارة عن التمحل لمواقعته اياها (وغلقت الابواب) أى أطبقتها وكانت سبعة والتشديد للتكثير أو للمبالغة في الايثاق لان مثل هذا الفعل لا يكون الا في ستر وخفية لا سيما اذا كان حراما ومع قيام الخوف الشديد (وقالت) له (هيت) أى تهيأت وتصنعت (لك) خاصة فاقبل الى وامتثل أمرى قال الواحدى هيت لك اسم للفعل نحو رويد وصه ومه ومعناه هلم في قول جميع أهل اللغة وقرأ نافع وابن عامر بكسر الهاء والباقون بالفتح وقرأ هشام بعد الهاء بهمزة ساكنة والباقون بياء ساكنة وقرأ ابن كثير بضم التاء وفتحها والباقون بالفتح (قال) أى يوسف عليه السلام (معاذ الله) أى أعوذ بالله واعتصم به وألجأ اليه مما تدعيني اليه (انه) أى الذى اشترانى (ربى) أى سيدى (أحسن مثواى) أى أكرم منزلى فلا أخونه في أهله وقيل انه أى الله ربى أحسن مثواى أى آوانى ومن بلاء الجب أنجانى (انه لا يفلح الظالمون) أى ان فعلت هذه الفعلة فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون (ولقد همت به وهم بها) أى قصدت مخالطته وقصد مخالطتها والهم بالشئ قصده والعزم عليه ومنه الهمام وهو الذى اذا هم بشئ امضاه والمراد بهمته ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختيارى وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والاجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم ولهذا قال بعض أهل الحقائق الهم قسمان هم ثابت وهو اذا كان معه عزم وعقد ورضا مثل هم امرأة العزيز

فالعبد مأخوذ به وهمّ عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل همّ يوسف عليه السلام والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل كما روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل اذا تحدث عبدى بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها حسنة ما لم يعملها فاذا عملها فأنا أكتبها له بعشرة أمثالها واذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها فاذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها قال فى الكشاف ويجوز أن يريد بقوله وهم بها شارف أن يهم بها كما يقول الرجل قتلته لولم أخف الله يريد مشارفة القتل ومشافهته كأنه شرع فيه (لولا أن رأى) أى بعين قلبه (برهان ربه) أى الذى آتاه اياه من الحكم والعلم أى لهم بها لكنه كان البرهان حاضرا لديه حضور من يراه بالعين فلم يهم أصلا مع كونه فى غاية الاستعداد لذلك لما آتاه الله تعالى من القوة مع كونه فى سن الشباب فلولا المراقبة لهم بها لتوفر الداعى غير أن نور الشهود محاها أصلا وهذا التقدير هو اللائق بمثل مقامه عليه السلام مع أنه الذى تدل عليه أساليب هذه الآيات من جعله من المخلصين والمحسنين المصروف عنهم السوء وان السجن أحب اليه من ذلك مع قيام القاطع على كذب ما تضمنه قولها ما جزاء من أراد بأهلك سوأ الآية من مطلق الارادة ومع ما يتحتم من تقدير ما ذكر بعد لولا فى خصوص هذا التركيب من أساليب كلام العرب فانه يجب أن يكون المقدر بعد كل شرط من معنى ما دل عليه ما قبله وهذا مثل قوله تعالى ان كادت لتبدى به لولا ان ربطنا على قلبها أى لابدت به وأما ما ورد عن السلف مما يعارض ذلك من تفسيرهم بها بأن حل الهميان وجلس بها مجلس المجامع وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الاربع وهى مستلقية على قفاها ومن تفسير البرهان بأنه سمع صوتا اياك واياها فلم يكترث له فسمعه ثانيا فلم يعمل به فسمعه ثالثا أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضا على أنملته وقيل ضرب بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله وقيل كل ولد يعقوب ولد له اثنا عشر ولدا الا يوسف فانه ولد له أحد عشر ولدا من أجل ما نقص من شهوته حين هم وقيل صيح به يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنا قعد لاريش له وقيل بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها وان عليكم لحافظين كراما كاتبين فلم ينصرف ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فلم ينته ثم رأى فيها واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فلم ينجع فيه فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام أدرك عبدى قبل أن يدرك الخطيئة فانحط جبريل وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب فى ديوان الانبياء وقيل رأى تمثال العزيز وقيل قامت المرأة الى صنم كان هناك فسترته وقالت أستحى أن يرانا فقال يوسف استحييت مما لا يسمع ولا يبصر ولا أستحى من السميع العليم بذات الصدور فلم يصح منه شئ عن أحد منهم مع أن هذه الاقوال التى وردت عنهم اذا جمعت تناقضت وتكاذبت قال الزمخشرى وهذا ونحوه مما يورده أهل الجبر والحشو الذين دينهم بهت الله وأنبيائه فأخزى الله أولئك فى ايرادهم ما يؤدى الى أن يكون انزال الله السورة التى هى أحسن القصص فى القرآن العربى المبين ليقتدى بنبى من أنبياء الله تعالى فيما ذكروه وأهل العدل والتوحيد

ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل وأطال فى رد ذلك وكذا فعل الرازى وقيل وهمّ بها أى بزجرها ووعظها وقيل همّ بها أى غمه امتناعه منها وقيل همّ بها أى نظر اليها وقيل همّ بضربها ودفعها وقيل هذا كله قبل نبوّته وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يملن الى يوسف عليه السلام ميل شهوة حتى نبأه الله تعالى فألقى عليه هيبة النبوّة فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه (كذلك) أى مثل ذلك التثبيت نثبته فى كل أمر (لنصرف عنه السوء) أى الهمّ بالزنا وغيره (والفحشاء) أى الزنا وغيره وقيل السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة والفحشاء هى الزنا فكأنه قيل لم فعل به هذا فقيل انه (من عبادنا) أى الذين عظمناهم (المخلصين) أى فى عبادتنا الذين هم خير صرف لا يخالطهم غش وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام بعد الخاء والباقون بالفتح قال الرازى فوروده باسم الفاعل دل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الاخلاص ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه واصطفاه لحضرته وعلى كلا اللفظين فانه من أدل الالفاظ على كونه منزها عما أضافوه اليه وهذا مع قول ابليس لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين شهادة من ابليس أن يوسف عليه السلام برىء من الهم فمن نسبه الى الهمّ ان كانوا من أتباع دين الله فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وان كانوا من أتباع ابليس وجنوده فليقبلوا شهادة ابليس على طهارته قال ولعلهم يقولون كنا فى أوّل الامر تلامذة ابليس الا أنا زدنا وفخرنا عليه فى السفاهة كما قال الجزورى

وكنت فتى من جند ابليس فارتقى * بى الامر حتى صار ابليس من جندى
فلو مات قبلى كنت أحسن بعده * طرائق فسق ليس يحسنها بعدى

ثم ذكر سبحانه وتعالى مبالغة فى الامتناع بالجد فى الهرب دليلا على اخلاصه وأنه لم يهمّ أصلا فقال (واستبقا الباب) أى أوجدا المسابقة بغاية الرغبة من كل منهما هذا للهرب منها وهذه لمنعه فكل منهما بذل أقصى جهده فى السبق فلحقته عند الباب الاقصى مع أنه قد كان سبقها بقوّة الرجولية وقوّة الداعية الى الفرار الى الله تعالى ولكن عاقه اتقانها للمكر بكون الابواب كانت مغلقة فكان يشتغل بفتحها فتعلقت بأدنى ما وصلت اليه من قميصه وهو ما كان من ورائه خوف فواته فاشتد تعلقها به مع اعراضه هو عنها وهربه منها فقميصه فأراد الخروج فمنعته (و) لم تزل تنازعه حتى (قدّت) أى شقت (قميصه) وكان القد (من دبر) أى الناحية من الخلف منه وانقطعت منه قطعة فبقيت فى يدها (وألفيا) أى وجدا (سيدها) أى زوجها قطفير وهو العزيز تقول المرأة لبعلها سيدى ولم يقل سيدهما لان ملك يوسف لم يصح فلم يكن سيداله على الحقيقة (لدى) أى عند (الباب) جالسا مع ابن عم المرأة (فان قيل) كيف وحد الباب وقد جمعه فى قوله وغلقت الابواب (أجيب) بانه أراد الباب البرانى الذى هو المخرج من الدار والمخلص من العار فقد روى كعب الاحبار ان يوسف لما هرب جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الابواب فلما رأت المرأة ابن عمها دهشته وخافت التهمة فسابقت يوسف بالقول و (قالت) لزوجها (ما جزاء من أراد بأهلك سوأ) أى فاحشة زنا أو غيره ثم خافت عليه أن يقتل وذلك لشدة

حبها له فقالت (الا أن يسجن) أى يحبس فى السجن و يمنع التصرف (أو عذاب أليم) أى مؤلم بأن يضرب بالسياط ونحوها وانما بدأت بالسجن قبل العذاب لان المحب لا يشتهى ايلام المحبوب وانما أرادت أن يسجن عندها يوما أو يومين ولم ترد السجن الطويل فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال يجب أن يجعل من المسجونين ألا ترى أن فرعون هكذا قال فى حق موسى عليه السلام فى قوله لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين فلما سمع يوسف عليه السلام مقالتها (قال) مبرئا نفسه (هى) بضمير الغيبة لاستحيائه بمواجهتها باشارة أو ضمير خطاب (راودتنى عن نفسى) أى طلبت منى الفاحشة فأبيت وفررت منها وذلك أن يوسف عليه السلام ما كان يريد أن يذكر ذلك القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هى ما قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه وصدقه لعمرى فيما قال لا يحتاج الى بيان أكثر من الحال الذى كان فيه وهو أنهما عند الباب ولو كان الطلب منه لما كان الا فى محلها الذى تجلس فيه وهو صدر البيت وأشرف موضع فيه وأيضا هو عبد لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه الى هذا الحال وأيضا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه وأما يوسف فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس فكان الحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى ثم انه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلا آخر يقوى تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه برىء من الريب وان المرأة هى المذنبة وهو قوله تعالى (وشهد شاهد من أهلها) أى وحكم حاكم من أهل المرأة واختلفوا فى هذا الشاهد فقال سعيد بن جبير والضحاك كان صبيا فى المهد أنطقه الله تعالى كرامة ليوسف عليه السلام وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال تكلم فى المهد أربعة وهم صغار شاهد يوسف وابن ماشطة بنت فرعون وعيسى بن مريم وصاحب جريج الراهب رواه الامام أحمد وفى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج وصبى كان يرضع أمه فمر راكب حسن الهيئة فقالت أمه اللهم اجعل ابنى مثل هذا فقال الصبى اللهم لا تجعلنى مثله وبهذا الاعتبار صاروا خمسة وزاد الثعلبى سادسا وهو يحيى بن زكريا عليهما السلام وزاد غيره على ذلك ولعل الحصر فيما ذكر فى الحديث كان قبل العلم بالزيادة فلا تناقض وأوصلهم السيوطى الى أحد عشر ونظمهم فقال

تكلم فى المهد النبى محمد * ويحيى وعيسى والخليل ومريم
ومبرى جريج ثم شاهد يوسف * وطفل لدى الاخدود يرويه مسلم
وطفل عليه مر بالامة التى * يقال لها تزنى ولا تتكلم
وماشطة فى عهد فرعون طفلها * وفى زمن الهادى المبارك يختم

وقالت طائفة عظيمة من المفسرين انها كان لها ابن عم وكان رجلا حكيما واتفق فى ذلك الوقت أنه كان مع الملك يريد أن يدخل عليها فقال قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص الا أنا لا ندرى أيكما قدام صاحبه ولكن (ان كان قميصه قد من قبل) أى من قدام (فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر) أى من خلف (فكذبت وهو من الصادقين) لانه لولا ادباره

منها واقبالها عليه لما وقع ذلك فعرف سيدها صحة ذلك بلا شبهة كما قال تعالى (فلما رأى) أى سيدها (قميصه) أى يوسف عليه السلام (قدّ من دبر قال) لها زوجها قطفير وقد قطع بصدقه وكذبها مؤكدا لاجل انكارها (انه) أى هذا القذف له (من كيدكن) معشر النساء والكيد طلب الانسان بما يكره (ان كيدكن عظيم) والعظيم ما ينقص مقدار غيره عنه حسا أو معنى (فان قيل) كيف وصف كيد النساء بالعظم مع قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا وهلا كان مكر الرجال أقوى من مكر النساء (أجيب) بأن الانسان ضعيف بالنسبة لخلق ما هو أعظم منه كخلق السموات والارض وبأن كيدهن أدق من كيد الرجال وألطف وأخفى لان الشيطان عليهن لنقصهن أقدر ومكرهن فى هذا الباب أعظم من كيد جميع البشر لان لهن من المكر والحيل والكيد فى اتمام مرادهن ما لا يقدر عليه الرجال فى هذا الباب ولان كيدهن فى هذا الباب يورث العار ما لا يورثه كيد الرجال ولما ظهر للقوم براءة يوسف من ذلك الفعل المنكر حكى تعالى أنه قال (يوسف) أى يا يوسف (أعرض) أى انصرف بكليتك مجاوزا (عن هذا) الحديث فلا تذكره لاحد حتى لا يشيع وينتشر بين الناس ثم التفت الى المرأة وقال لها (واستغفرى لذنبك) أى توبى الى الله تعالى مما رميتى يوسف به من الخطيئة وهو برىء منها (انك كنت من الخاطئين) أى الآثمين قال أبو بكر الاصم ان ذلك الزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار وقيل ان القائل المذكور هو الشاهد (فان قيل) كيف قال من الخاطئين بلفظ التذكير (أجيب) بأنه قال ذلك تغليبا للذكور على الاناث أو أن المراد انك من نسل الخاطئين فمن ذلك النسل سرى ذلك العرق الخبيث فيك ثم شاع الخبر واشتهر (وقال نسوة) أى وقال جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقى وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقى ولذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث وقوله (فى المدينة) أى مدينة مصر ظرف أى أشعن الحكاية فى مصر أو صفة نسوة وقيل مدينة عين شمس (امرأت العزيز) وانما أضفنها الى زوجها ارادة لاشاعة الخبر لان النفس الى سماع أخبار أولى الاخطار أميل ويردن قطفير والعزيز الملك بلسان العرب ورسم امرأة بالتاء المجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء وأما الوصل فهو بالتاء للجميع (تراود فتاها) أى عبدها الكنعانى يقال فتاى وفتاتى أى عبدى وجاريتى (عن نفسه) أى تطلب منه الفاحشة وهو يمتنع منها (قد شغفها حبا) أى شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل الى فؤادها وحبا نصب على التمييز وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب قال النابغة

وقد حال هم دون ذلك والج * مكان الشغاف تبتغيه الاصابع

وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الشين والباقون بالادغام (انا لنراها) أى نعلم أمرها علما هو كالرؤية (فى ضلال) أى خطأ (مبين) أى بين ظاهر حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر بسبب حبها اياه (فلما سمعت) زليخا (بمكرهن) أى قولهن

وانما

وانما سمى ذلك مكرا لوجوه الاول ان النسوة انما ذكرن ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر الى وجهه لانهن عرفن أنهن اذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن الثانى ان زليخا أسرت اليهن حبها ليوسف عليه السلام وطلبت منهن كتمان هذا السر فلما أظهرن السر كان ذلك مكرا الثالث انهن وقعن فى غيبتها والغيبة انما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر (أرسلت اليهن) تدعوهن لتقيم عذرها عندهن قال وهب اتخذت مأدبة ودعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهن الخمس (واعتدت) أى أعدت (لهن متكأ) أى طعاما يقطع بالسكين وهو الاترج وانما سمى الطعام متكأ لانه يتكأ عنده قال جميل

فظللنا بنعمة واتكأنا ＊ وشربنا الحلال من قلله

والمتكأ ما يتكأ عليه عند الطعام والشراب والحديث لانهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك جاء النهى عنه فى الحديث أن يأكل الرجل متكئا وقال صلى الله عليه وسلم لا آكل متكئا وقيل انها زينت البيت بألوان الفواكه والاطعمة ووضعت الوسائد ودعت النسوة اللاتى عيرنها بحب يوسف عليه السلام (وآتت) أى أعطت (كل واحدة منهن سكينا) أى لتأكل بها وكانت عادتهن أن يأكلن اللحم والفواكه بالسكين (وقالت) زليخا ليوسف عليه السلام (اخرج عليهن) أى النسوة وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهن يوسف وكانت قد زينته واختبأته فى مكان وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائى بكسر التاء فى الوصل والباقون بالضم وأما الابتداء فجميع القراء يبتدئون الهمزة بالضم (فلما رأينه) أى النسوة (أكبرنه) أى أعظمنه ودهشن عند رؤيته اتفق الاكثرون على انهن انما أكبرنه بحبتهن الجمال الفائق والحسن الكامل وكان يوسف قد أعطى شطر الحسن وقال عكرمة كان فضل يوسف فى الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال رأيت يوسف ليلة أسرى بى الى السماء كالقمر ليلة البدر ذكره البغوى بغير سند وقال ابن اسحق كان يوسف اذا سار فى أزقة مصر يتلألأ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من الماء عليها ويقال انه ورث حسن آدم عليه السلام يوم خلقه الله تعالى قبل أن يخرج من الجنة وقيل ورث الجمال من جدته سارة وقيل أكبرنه يعنى حضن والهاء للسكت يقال أكبرت المرأة اذا حاضت وحقيقته دخلت فى الكبر لانها بالحيض تخرج من حد الصغر الى حد الكبر وكان أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع ＊ فان لحت حاضت فى الخدور العواتق

وقيل أمنين قال الكميت

ولما رأته الخيل من رأس شاهق ＊ صهلن وأمنين المنى المدفقا

وقال الرازى انما أكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والاخبات وشاهدن فيه شهادة الهيبة وهيبة ملكية وهى عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة فوقع الرعب والمهابة منه فى قلوبهن

(وقطعن أيديهن) أى جرحنها بالسكاكين التى معهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الاترج ولم يجدن الالم من فرط الدهشة بيوسف وقال وهب مات جماعة منهن (وقلن حاش لله) أى تنزيها لله الرسم بغير ألف بعد الشين وقرأ أبو عمرو فى الوصل دون الوقف بألف بعد الشين والباقون بغير الف وقفا ووصلا (ما هذا) أى يوسف عليه السلام (بشرا) واعمال ما عمل ليس هى اللغة القدمى الحجازية ويدل عليها هذه الآية وقوله تعالى ما هن أمهاتهم (ان) أى ما (هذا الا ملك كريم) أى على الله لما حواه من الحسن الذى لا يكون عادة فى النسمة البشرية فان الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة (قالت) أى زليخا للنسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته (فذلكن) أى فهذا هو (الذى لمتننى فيه) أى فى محبته قبل أن تتصورنه حق تصوره ولو تصورتنه بما عاينتن لعذرتننى ثم انها صرحت بما فعلت فقالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى فامتنع من ذلك الفعل الذى طلبت وانما صرحت بذلك لانها علمت انها لا ملامة عليها منهن وانهن قد أصابهن ما اصابها عند رؤيته ثم قالت (ولئن لم يفعل ما آمره) أى وان لم يطاوعنى فيما دعوته اليه (ليسجنن) أى ليعاقبن بالحبس (وليكونا من الصاغرين) أى الذليلين المهانين فقال النسوة ليوسف أطع مولاتك فيما دعتك اليه فاختار يوسف عليه السلام السجن على ما دعت اليه فلذلك (قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه) وان كان هذا مما تشتهيه النفس وذلك مما تكرهه نظرا الى العاقبة فان الاول فيه الذم فى الدنيا والعقاب فى الآخرة والثانى فيه المدح فى الدنيا والثواب الدائم فى الآخرة (فان قيل) ان الدعاء كان منها فلم أضافه اليهن جميعا (أجيب) بأنهن خوفنه من مخالفتها وزين له مطاوعتها وقيل انهن دعونه الى أنفسهن قال بعض العلماء لو لم يقل السجن أحب الى لم يبتل بالسجن والاولى بالعبد أن يسأل الله تعالى العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الله الصبر بقوله له سألت الله البلاء فاسأله العافية رواه الترمذى (والا) أى وان لم (تصرف عنى كيدهن) أى فيما أردن منى بالتثبيت على العصمة (أصب) أى أمل (اليهن) يقال صبا فلان الى كذا اذا مال اليه واشتاقه (وأكن) أى أصر (من الجاهلين) أى من السفهاء بارتكاب ما يدعوننى اليه فان الحكيم لا يفعل القبيح وفى ذلك دليل على أن من ارتكب ذنبا انما يرتكبه عن جهالة والقصد بذلك الدعاء ولذلك قال تعالى (فاستجاب له ربه) أى فأجاب الله تعالى دعاءه الذى تضمنه هذا الثناء لان الكريم يغنيه التلويح عن التصريح كما قيل

اذا أثنى عليك المرء يوما ✽ كفاك من تعرضه الثناء

(فصرف عنه كيدهن) أى فثبته بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن وآثرها على اللذة المتضمنة للعصيان (انه هو السميع) أى لدعاء الملتجئين اليه (العليم) أى للضمائر والنيات فيصيب ما صح فيه القصد وطاب منه العزم (ثم بدا) أى ظهر (لهم) أى العزيز وأصحابه (من بعد ما رأوا الآيات) أى الدالة على براءة يوسف عليه السلام كشهادة الصبى وقد القميص وقطع النساء أيديهن واستعصامه عنهن (ليسجننه حتى) أى الى (حين) ينقطع فيه كلام الناس وذلك ان

المرأة قالت لزوجها ان هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يقول لهم انى راودته عن نفسه وأنا لا أقدر على اظهار عذرى فاما أن تاذن لى فأخرج واعتذر واما ان تحبسه كما حبستنى فعند ذلك وقع فى قلب العزيز ان الاصلح حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة فسجنه *(تنبيه)* فى فاعل بدا أربعة أوجه أحسنها انه ضمير يعود على السجن بفتح السين أى ظهر لهم حبسه والثانى ان الفاعل ضمير المصدر المفهوم من الفعل وهو بدا أى بدا لهم بداء والثالث انه مضمر يدل عليه السياق أى بدا لهم رأى والرابع أنه محذوف وليسجننه قائم مقامه أى بدا لهم السجن فحذف وأقيمت الجملة مقامه وليست الجملة فاعلا لان الجمل لا تكون كذلك وقيل الحبس هنا خمس سنين وقيل سبع سنين وقال مقاتل بن سليمان حبس يوسف اثنتى عشرة سنة وقال الرازى والصحيح ان هذه المقادير غير معلومة وانما القدر المعلوم انه بقى مسجونا مدة طويلة لقوله تعالى وادكر بعد أمة وعن عكرمة قال قال رجل ذو رأى للعزيز متى تركت هذا العبد يعتذر الى الناس ويقص عليهم أمره فاتركه فى بيتها لا يخرج الى الناس فان خرج للناس عذروه وفضحوا أهلك فأمر به فسجن (ودخل معه السجن فتيان) وهما غلامان كانا للوليد بن نزوان العمليق ملك مصر الاكبر أحدهما خبازه صاحب طعامه والآخر ساقيه صاحب شرابه غضب الملك عليهما فحبسهما وكان السبب فيه ان جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالا على أن يسما الملك فى طعامه وشرابه فأجابا الى ذلك ثم ان الساقى ندم ورجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر الطعام بين يدى الملك قال الساقى لا تأكل أيها الملك فان الطعام مسموم وقال الخباز ولا تشرب فان الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشرب فشرب فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فأبى فأطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فأمر بحبسهما وكان يوسف عليه السلام حين دخل السجن قال لاهله انى أعبر الاحلام فقال أحد الفتيين لصاحبه هلم فلنجرب هذا العبد العبرانى فنتراءى له رؤيا قال ابن مسعود وما رأيا شيأ وانما تحالما ليجربا يوسف وقال قوم بل كانا رأيا حقيقة فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما فذكرا أنهما صاحبا الملك حبسهما وقد رأيا رؤيا غمتهما فقال يوسف قصا على ما رأيتما (قال أحدهما) وهو صاحب شراب الملك (انى أرانى أعصر خمرا) (فان قيل) كيف يعقل عصر الخمر (أجيب) عن ذلك بثلاثة أقوال أحدها أن يكون المعنى أعصر عنب خمر أى العنب الذى يكون عصيره خمرا فحذف المضاف الثانى ان العرب تسمى الشئ باسم ما يؤل اليه تقول فلان يطبخ دبسا وهو يطبخ عصيرا الثالث قال أبو صالح أزد وعمان يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة الى أهل مكة فنطقوا بها قال الضحاك نزل القرآن بألسنة جميع العرب وذلك انه قال انى رأيت فى المنام كأنى فى بستان واذا فيه شجرة فيها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدى فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه (وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه) وذلك انه قال رأيت فى المنام كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها الخبز وألوان

الطعام وسباع الطير تنهش منه (نبئنا) أى أخبرنا (بتأويله) أى بتفسيره (انا نراك من المحسنين) أى فى علم التفسير لانه متى عبر لم يخطئ كما قال وعلمتنى من تأويل الاحاديث وقيل فى أمر الدين لانه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فانه كان يصوم النهار ويقوم الليل كله ومن كان كذلك فانه يوثق بعنايته فى تعبير الرؤيا وفى سائر الامور وقيل فى حق الشركاء والاصحاب لانه كان يعود مرضاهم ويؤنس حزينهم واذا ضاق على أحدهم وسع عليه واذا احتاج أحدهم جمع له شيأ قيل انه لما دخل السجن وجد قوما اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يسكنهم ويقول اصبروا وأبشروا تؤجروا فيقولون بارك الله فيك يافتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يافتى قال أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله اسحق بن خليل الله ابراهيم فقال له عامل السجن والله يافتى لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأحسن جوارك فكن فى أى بيوت السجن شئت وروى أن الفتيين لما رأيا يوسف قالا لقد أحببناك حين رأيناك فقال لهما يوسف أنشدكما الله أن لا تحبانى فوالله ما أحبنى أحد قط الا دخل على من حبه بلاء لقد أحبتنى عمتى فدخل على بلاء ثم أحبنى أبى فألقيت فى الجب وأحبتنى امرأة العزيز فحبست فلما قصا عليه الرؤيا كره يوسف أن يعبر لهما ماسألاه لما علم فى ذلك من المكروه على أحدهما (قال) معرضا عن سؤالهما آخذا فى غيره من اظهار المعجزة فى الدعاء الى التوحيد (لا يأتيكما طعام ترزقانه) أى فى منامكما (الا نبأتكما بتأويله) أى فى اليقظة (قبل أن يأتيكما) تأويله وقيل أراد به فى اليقظة يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه من منازلكما تطعمانه الا نبأتكما بتأويله بقدره ولونه والوقت الذى يصل اليكما قبل أن يصل وأى طعام أكلتم ومتى أكلتم وهذه كمعجزة عيسى عليه السلام حيث قال وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم فقالا هذا فعل العرافين والكهنة فمن أين لك هذا العلم فقال ما أنا بكاهن (ذلكما) أى هذا التأويل والاخبار بالمغيبات (مما علمنى ربى) وفى ذلك حث على ايمانهم ثم قواه بقوله (انى تركت ملة) أى دين (قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) وكرر لفظة هم للتأكيد لشدة انكارهم للمعاد * ولما ادعى يوسف عليه السلام النبوة وأظهر المعجزة أظهر أنه من أهل بيت النبوة بقوله (واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب) ليسمعوا قوله ويطيعوا أمره فيما يدعوهم اليه من التوحيد فان الانسان متى ادعى حرفة أبيه وجده لم يستبعد ذلك منه وأيضا فكمال درجة ابراهيم واسحق ويعقوب أمر مشهور فى الدنيا فاذا أظهر أنه من أولاده عظموه ونظروا اليه بعين الاجلال فكان انقيادهم له أتم وتأثير قلوبهم بكلامه أكمل (فان قيل) انه كان نبيا فكيف قال اتبعت ملة آبائى والنبى لا بد وأن يكون مختصا بشريعة نفسه (أجيب) بأن مراده التوحيد الذى لا يتغير ولعله كان رسولا من عند الله تعالى الا انه كان نبيا على شريعة ابراهيم عليه السلام وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بسكون ياء آبائى والباقون بالفتح (ما كان) أى ما صح (لنا) معشر الانبياء (أن نشرك بالله من شئ) لان الله تعالى طهره وطهر آباءه عن الكفر ونظيره قوله تعالى ما كان لله أن يتخذ من ولد وانما قال من شئ

لان

لان أصناف الشرك كثيرة فمنهم من يعبد الاصنام ومنهم من يعبد النار ومنهم من يعبد الكواكب ومنهم من يعبد الملائكة فقوله من شئ رد على هؤلاء الطوائف وارشاد الى الدين الحق وهو أنه لا موجد ولا خالق ولا رازق الا الله (ذلك) أى التوحيد (من فضل الله علينا) بالوحى (وعلى الناس) أى سائرهم ببعثنا لارشادهم وتثبيتهم عليه (ولكن أكثر الناس) أى المبعوث اليهم (لا يشكرون) هذه النعمة التى أنعم الله تعالى بها عليهم لانهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ثم دعاهم الى الايمان فقال (ياصاحبى السجن) أى ياصاحبىّ فى السجن فأضافهما الى السجن كما تقول ياسارق الليلة فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب وانما المصحوب غيره وهو يوسف عليه السلام أو ياساكنى السجن كما قيل لسكان الجنة أصحاب الجنة ولسكان النار أصحاب النار (أأرباب) أى آلهة (متفرقون) أى متباينون من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وصغير وكبير ومتوسط وغير ذلك (خير) أى أعظم فى صفة المدح وأولى بالطاعة (أم الله الواحد القهار) أى المتوحد بالالوهية الذى لا يغالب ولا يشارك فى الربوبية غيره خير والاستفهام للتقرير وفى الهمزتين فى أأرباب من القرا آت ما فى أأنذرتهم وقد مر (فان قيل) هل يجوز التفاضل بين الاصنام وبين الله تعالى حتى يقال انها خير أم الله (أجيب) بأن ذلك خرج على سبيل الفرض والمعنى لو سلمنا أنه حصل منها ما يوجب الخير فهى خير أم الله الواحد القهار * ثم بين عجز الاصنام فقال (ما تعبدون) وانما خاطبهم بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية فى المخاطبة لانه أراد جميع من فى السجن من المشركين والعبادة خضوع القلب فى أعلى مراتب الخضوع وبين حقارة معبوداتهم وسفالتها بقوله (من دونه) أى الله الذى قام البرهان على الهيته وعلى اختصاصه بذلك (الا أسماء) وبين ما يريد وأوضحه بقوله (سميتموها) أى ذوات أوجدتم لها أسماء (أنتم) سميتموها آلهة وأربابا وهى حجارة جماد خالية عن المعنى لا حقيقة لها (وآباؤكم) من قبلكم سموها كذلك (ما أنزل الله بها) أى بعبادتها (من سلطان) أى حجة وبرهان (ان الحكم) أى ما الحكم (الا لله) أى المختص بصفات الكمال والحكم فصل الامر بما تدعو اليه الحكمة (أمر) وهو النافذ الامر المطاع الحكم (أن لا تعبدوا الا اياه) لانه المستحق للعبادة لا هذه الاسماء التى سميتموها آلهة * ولما أقام الدليل على هذا الوجه الذى كان جديرا بالاشارة الى فضله أشار اليه بأداة البعد تنبيها على علو مقامه وعظيم شأنه فقال (ذلك) أى الشأن الاعظم وهو توحيده وافراده عن خلقه (الدين القيم) أى المستقيم الذى لا عوج فيه (ولكن أكثر الناس) وهم الكفار (لا يعلمون) ما يصيرون اليه من العذاب فيشركون * ولما قرر يوسف عليه السلام أمر التوحيد والنبوة عاد الى الجواب عن السؤال الذى ذكراه فقال (ياصاحبى السجن) أى الذى يحصل فيه الانكسار للنفس والرقة فى القلب فتخلص فيه المودة ولما كان فى الجواب ما يسوء الخباز أبهم ليجوز كل منهما أنه الفائز فان ألجأه الى التعيين كان ذلك عذرا له فى الخروج عن الاليق فقال (أما أحدكما) وهو صاحب شراب الملك (فيسقى ربه) أى سيده (خمرا) على

عادته والعناقيد الثلاثة هي ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يدعو به الملك فيرده الى رتبته التي كان عليها هذا تأويل رؤياه (وأما الآخر) وهو صاحب طعام الملك (فيصلب) والسلال الثلاثة ثلاثة أيام ويدعو به الملك فيصلبه (فتأكل الطير من رأسه) هذا تأويل رؤياه قال ابن مسعود فلما سمعا قول يوسف عليه السلام قالا ما رأينا شيأ انما كنا نلعب فقال لهما يوسف عليه السلام (قضى) أي تم (الامر الذي فيه تستفتيان) أي تطلبان الافتاء فيه عملا بالفتوة فسألتما عن تأويله وهو تعبير رؤيا كما كذبتما أو صدقتما لم أقله عن جهل ولا غلط (وقال) يوسف عليه السلام (للذي ظن) أي علم وتحقق فالظن بمعنى العلم لانه قاله عن وحي لقوله قضى الامر ويجوز أن يكون ضمير ظن للساقي فهو حينئذ على بابه (أنه ناج منهما) وهو الساقي (اذكرني عند ربك) أي سيدك ملك مصر بما رأيت مني من معالي الاخلاق وطهارة الشيم الدالة على بعدي عما رميت به والمراد بالرب هنا غير المراد به في قوله أأرباب متفرقون فنجا الساقي وصلب صاحبه وفق ما قاله لهما يوسف عليه السلام واختلف في ضمير (فأنساه الشيطان ذكر ربه) على قولين أحدهما أنه يعود الى الساقي وهو قول جماعة من المفسرين أي فأنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف عند الملك قالوا لان صرف وسوسة الشيطان الى ذلك الرجل الساقي حتى أنساه ذكر يوسف أولى من صرفه الى يوسف والقول الثاني وعليه أكثر المفسرين أنه يرجع الى يوسف عليه السلام وقال الرازي انه الحق أي ان الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه تعالى حتى استعان بمخلوق مثله وتلك غفلة عرضت له عليه السلام فان الاستعانة بالمخلوق في رفع الظلم جائزة في الشريعة الا ان حسنات الابرار سيآت المقربين فهذا وان كان جائزا لعامة الخلق الا ان الاولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الاسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا الا بمسبب الاسباب فلهذا صار يوسف عليه السلام مؤاخذا بهذا القول ولم يؤاخذه تعالى في تلك القصة البتة بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء فعلم بذلك أنه عليه السلام كان مبرأ مما نسبه الجهال والحشوية اليه (فان قيل) كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى أنساه ذكر ربه (أجيب) بأن ذلك انما كان شغل خاطر وأما النسيان الذي هو عبارة عن ترك الذكر وازالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه واختلف في قدر البضع في قوله تعالى (فلبث في السجن بضع سنين) فقال مجاهد ما بين الثلاث الى التسع وقال ابن عباس ما دون العشرة قال البغوي وأكثر المفسرين ان البضع في هذه الآية سبع سنين وكان قد لبث قبله خمس سنين فجملته اثنتا عشرة سنة وقال وهب أصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف في السجن سبع سنين وقال مالك بن دينار لما قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك قيل له يا يوسف اتخذت من دوني وكيلا لاطيلن حبسك فبكى يوسف وقال يا رب أنسى قلبي كثرة البلوى فقلت كلمة قال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم رحم الله يوسف لولا كلمته التي قالها ما لبث في السجن ما لبث ثم بكى الحسن وقال نحن اذا نزل بنا بلاء فزعنا الى الناس ذكره الثعلبي مرسلا وبغير سند وقال الحسن أيضا دخل جبريل على يوسف عليهما السلام في السجن فلما رآه يوسف عرفه فقال له يا أخا المنذرين مالي أراك بين

الخاطئين فقال له جبريل ياطاهر يا ابن الطاهر بن يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك
أما استحييت منى واستشفعت للآدميين فوعزتى لالبثنك فى السجن بضع سنين قال يوسف وهو
فى ذلك عنى راض قال نعم قال اذا لا أبالى وقال كعب قال جبريل ليوسف ان الله تعالى يقول لك
من خلقك قال الله قال فمن علمك تأويل الرؤيا قال الله قال فمن حببك الى أبيك قال الله قال فمن
أنجاك من كرب البئر قال الله تعالى قال فمن صرف عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف
استشفعت بآدمى مثلك قال محمد بن عمر الرازى فى تفسيره والذى جربته من أول عمرى الى آخره
ان الانسان كلما عول فى أمر من الامور على غير الله تعالى صار ذلك سببا للبلاء والمحنة والشدة
والرزية واذا عول على الله تعالى ولم يرجع الى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن
الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لى من أول عمرى الى هذا الوقت الذى بلغت الى السابع
والخمسين فعند ذلك استقر قلبى على أنه لا مصلحة للانسان فى التعويل على شئ سوى فضل الله
تعالى واحسانه * ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر الاكبر الريان بن الوليد رؤيا
عجيبة هائلة كما قال تعالى (وقال الملك انى أرى) أى رأيت عبر بالمضارع حكاية للحال لشدة
ما هاله من ذلك (سبع بقرات سمان) أى خرجن من نهر يابس والسمن زيادة البدن من الشحم
واللحم وسمان جمع سمينة ويجمع سمين أيضا عليه يقال رجال سمان ونساء سمان كما يقال رجال
كرام ونساء كرام (يأكلهن) أى يبتلعهن (سبع) أى من البقر (عجاف) جمع عجفاء أى مهازيل
خرجن من ذلك النهر * (تنبيه) * جمع عجفاء على عجاف والقياس عجف نحو حمراء وحمر حملا له على
سمان لانه نقيضه ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض (و) انى أرى (سبع
سنبلات خضر) أى قد انعقد حبها (و) انى أرى سبع سنبلات (أخر يابسات) أى قد أدركت
فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها وانما استغنى عن بيان حالها بما نص من حال
البقرات والسنبلة نبات كالقصبة فيها حبوب منتظمة فكأنه قيل فكان ماذا فقيل قال
الملك بعد أن جمع السحرة والكهنة والمعبرين (يا أيها الملأ) أى الاشراف النبلاء الذين تملأ
العيون مناظرهم والقلوب مآثرهم (أفتونى فى رؤياى) اى أخبرونى بتأويلها (ان كنتم للرؤيا
تعبرون) أى ان كنتم عالمين بعبارة الرؤيا فاعبروها * (تنبيه) * اللام فى للرؤيا مزيدة فلا تعلق
لها بشئ وزيدت لتقدم المعمول تقوية للعامل كما زيدت اذا كان العامل فرعا كقوله تعالى فعال
لما يريد ولا تزاد فيما عدا ذينك الا ضرورة وقيل ضمن تعبرون معنى ما يتعدى باللام تقديره ان كنتم
تنتدبون لعبارة الرؤيا وقيل متعلقة بمحذوف على أنها للبيان كقوله تعالى وكانوا فيه من
الزاهدين تقديره أعنى فيه وكذلك هذا تقديره أعنى للرؤيا وعلى هذا يكون مفعول تعبرون
محذوفا تقديره تعبرونها وفى الآية ما يوجبه حال العلماء من حاجة الملوك اليهم فكأنه قيل فما
قالوا فقيل (قالوا) هذه الرؤيا (أضغاث) أى اخلاط (أحلام) مختلطة مختلفة مشتبهة جمع ضغث
بكسر الضاد واسكان الغين المعجمة وهى قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس والاحلام جمع حلم
بضم الحاء واسكان اللام وضمها وهو الرؤيا فقيدوها بالاضغاث وهو ما يكون من الرؤيا باطلا

لكونه من حديث النفس ووسوسة الشيطان لكونها تشبه أخلاط النبات التي لا تناسب بينها لان الرؤيا تارة تكون من الملك وهي الصحيحة وتارة تكون من تحزين الشيطان وتخليطاته وتارة من حديث النفس ثم قالوا (وما نحن) أي بأجمعنا (بتأويل الاحلام) أي المنامات الباطلة (بعالمين) أي ليس لها تأويل عندنا وانما التأويل للمنامات الصادقة كأنه مقدمة ثانية للعذر ولما سأل الملك عن هذه الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب تذكر ذلك الشرابي واقعة يوسف عليه السلام لانه كان يعتقد فيه كونه متبحرا في هذا العلم كما قال تعالى (وقال الذي نجا) أي تخلص (منهما) أي من صاحبي السجن وهو الشرابي ان في الحبس رجلا فاضلا صالحا كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق في كل ما ذكر وما أخطأ في حرف فكانت هذه الرؤيا سببا لخلاص يوسف عليه السلام ولم يتذكر الشرابي الا بعد طول المدة كما قال تعالى (وادكر) بالدال المهملة أي طلب الذكر بالذال المعجمة وزنه افتعل (بعد أمة) أي وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة أي مدة طويلة والجملة اعتراض ومقول القول (أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) أي الى يوسف عليه السلام فانه أعلم الناس فأرسلوه اليه قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ولم يكن السجن بالمدينة فأتاه فقال الساقي المرسل اليه مناديا له نداء القرب تحببا اليه (يوسف) وزاد في التحبب بقوله (أيها الصديق) أي البليغ في الصدق والتصديق لانه جرب أحواله وعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه وهذا يدل على أن من أراد أن يتعلم من رجل شيأ فانه يجب عليه أن يعظمه وأن يخاطبه بالالفاظ المشعرة بالاجلال ثم انه أعاد السؤال يعني اللفظ الذي ذكره الملك فقال (أفتنا) أي اذكر لنا الحكم (في سبع بقرات سمان) أي رآهن الملك (يأكلهن سبع) من البقر (عجاف و) في (سبع سنبلات) جمع سنبلة وهي مجمع الحب من الزرع (خضر و) في سبع (أخر) من السنابل (يابسات) أي في رؤيا ذلك ونعم ما فعل من ذكر السؤال بعين اللفظ فان تفسير الرؤيا قد يختلف بحسب اختلاف الالفاظ كما هو مذكور في ذلك العلم ثم قال (لعلي أرجع الى الناس) أي الى الملك وجماعته بفتوى المقبل مانع بمعنى (لعلهم يعلمون) أي بتأويل هذه الرؤيا وقيل بمنزلتك في العلم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بفتح الياء والباقون بالسكون (قال) يوسف عليه السلام معبرا للملك الرؤيا اما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبات وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة فذلك قوله (تزرعون سبع سنين) وهو خبر بمعنى الامر كقوله تعالى والمطلقات يتربصن والوالدات يرضعن وانما خرج الامر في صورة الخبر للمبالغة في الايجاب فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه والدليل على كونه في معنى الامر قوله فذروه في سنبله وقوله (دأبا) نصب على الحال أي دائبين أي سبع سنين متتابعة على عادتكم في الزراعة والدأب العادة وقيل ازرعوا بجد واجتهاد وهذا تأويل السبع السمان والسنبلات الخضر وقرأ حفص بفتح الهمزة وسكنها الباقون وأبدلها السوسي ألفا وقفا ووصلا وحمزة وقفا فقط (فما حصدتم فذروه) أي اتركوه (في سنبله) لئلا يفسد ولا يقع فيه السوس وذلك أبقى له على

طول الزمان (الا قليلا مما تأكلون) أى ادرسوا قليلا من الحنطة للاكل بقدر الحاجة أمرهم
بحفظ الاكثر لوقت الحاجة أيضا وهو وقت السنين المجدبة كما قال (ثم يأتى من بعد ذلك) أى
السبع المخصبات (سبع شداد) أى مجدبات صعاب وهى تأويل السبع العجاف والسنبلات
اليابسات (يأكلن ما قدمتم لهن) أى يأكل أهلهن ما ادخرتم لاجلهن فأسند اليهن على المجاز
تطبيقا بين المعبر وهو يأكلهن سبع عجاف والمعبر به وهو يأكلن ما قدمتم لهن (الا قليلا مما
تحصنون) أى تحرزون وتدخرون للبذر والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشئ فى الحصن بحيث
يحفظ ولا يضيع (ثم يأتى من بعد ذلك) أى السبع المجدبات (عام فيه يغاث الناس) أى يمطرون
من الغيث وهو المطر وقيل ينقذون من قول العرب استغثت فأغاثنى (وفيه يعصرون)
من العنب خمرا ومن الزيتون زيتا ومن السمسم دهنا وأراد بذلك كثرة النعم والخير وقال
أبو عبيدة ينجون من الكرب والشدة والجدب وقرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب لان
الكلام كله مع الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ردا الى الناس * ولما رجع الشرابى الى الملك
وعرض عليه التعبير الذى ذكره يوسف عليه السلام استحسنه (وقال الملك) أى الذى العزيز
فى خدمته (ائتونى به) لاسمع ذلك منه وأكرمه وهذا يدل على فضيلة العلم فانه سبحانه وتعالى
جعل علمه سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن
الاخروية فأتاه الرسول ليأتى به الى الملك (فلما جاءه) أى يوسف عليه السلام عن قرب من الزمان
(الرسول) بذلك وهو الساقى وقال له أجب الملك (قال) له يوسف عليه السلام (ارجع الى ربك)
أى سيدك الملك ولم يخرج معه حتى يظهر برهانه للملك ولا يراه بعين النقص ولذلك قال (فاسأله
ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) وانما قال يوسف عليه السلام فاسأله ما بال النسوة ولم يقل
فاسأله أن يفتش عن حالهن لان قوله فاسأله يحتمل أن يكون بمعنى المسئلة أى اسأله عن شأنهن
وان يكون بمعنى الطلب وهو ان يفتش عن شأنهن فحسن تقييده بلفظ ما التى يسأل بها عن
حقيقة الشئ ليهيجه أن يتحرك للتفتيش عن حالهن لان الانسان حريص على تحقيق الشئ
ويستنكف أن ينسب الى الجهل به بخلاف ما لو قال سله ان يفتش أى اطلب منه فانه لا يبالى
بهذا الطلب ولا يلتفت اليه لا سيما الملوك وانما لم يتعرض لسيدته مع ما صنعته به كرما
ومراعاة للادب وقدم سؤال النسوة وفحص حالهن لتظهر براءة ساحته لانه لو خرج فى الحال
لربما كان يبقى فى قلب الملك من تلك التهمة أثر فلما التمس من الملك أن يفحص عن حال تلك
الواقعة دل ذلك على براءته من تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة
وان يتوصل بها الى الطعن فيه وفى ذلك دليل على أنه ينبغى للشخص أن يجتهد فى نفى التهم
ويتقى مواقعها وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لقد عجبت من يوسف وصبره والله يغفر له
حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى اشترطت أن
يخرجونى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال ارجع الى ربك ولو كنت مكانه ولبثت
فى السجن ما لبثت لاسرعت الاجابة وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر ان كان حليما ذا اناة
وأصل الحديث فى الصحيحين مختصرا وانما قال صلى الله عليه وسلم ذلك على سبيل التواضع لا أنه

صلى الله عليه وسلم كان فى الامر منه مبادرة وعجلة لو كان مكان يوسف والتواضع لا يصغر كبيرا
ولا يضع رفيعا ولا يبطل لذى حق حقه لكنه يوجب لصاحبه فضلا ويلبسه جلالة وقدرا وقوله
والله يغفر له مثل هذه المقدمة مشعرة بتعظيم المخاطب من توقيره وتوقير حرمته كما تقول لمن تعظمه
عفا الله عنك ما صنعت فى أمرى ورضى الله تعالى عنك ما جوابك عن كلامى وقوله ان كان
لحليما ان هى المخففة من الثقيلة والاناة الوقار وقيل هو اسم من التأنى فى الامور وقرأ ابن
كثير والكسائى بفتح السين ولا همزة بعدها والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها
(انّ ربى) أى الله (بكيدهن عليم) حين قلن أطع مولاتك وفيه تعظيم كيدهن والاستشهاد
بعلم الله تعالى عليه وأنه برىء مما عيب به والوعيد لهن على كيدهن وقيل المراد بربى الملك
وجعله ربا لنفسه لكونه مربياله وفيه اشارة الى كون ذلك الملك عالما بكيدهن ومكرهن ولما
قال يوسف عليه السلام ذلك وأبى أن يخرج من السجن قبل تبين الامر رجع الرسول الى الملك
فأخبره بما قال عليه السلام فكانه قيل فما فعل الملك فقيل (قال) للنسوة بعد ان جمعهن وامرأة
العزيز معهن (ما خطبكن) أى ما شأنكن العظيم وقوله (اذ راودتن) أى خادعتن (يوسف
عن نفسه) دليل على أن براءته كانت متحققة عند كل من علم القصة وانما خاطب الملك جميع
النسوة بهذا الخطاب والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها وقيل ان امرأة العزيز
راودته عن نفسه وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن فكأنه قيل فما قلن قيل (قلن
حاش لله) أى عياذا بالملك الاعظم وتنزيها له من هذا الامر (ما علمنا عليه) أى يوسف عليه
السلام وأغرقن فى النفى فقلن (من سوء) أى من خيانة فى شئ من الاشياء ولما أن يوسف
عليه السلام راعى جانب امرأة العزيز حيث قال ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن فذكرهن
ولم يذكر تلك المرأة البتة وعرفت المرأة أنه انما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها واخفاء
للامر عنها ارادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم أزالت الغطاء والوطاء فلذلك
(قالت امرأت العزيز) مصرحة بحقيقة الحال (الآن حصحص الحق) أى ظهر وتبين (أنا
راودته) أى خادعته (عن نفسه) وأكدت ما أفصحت به مدحا ونفيا لكل سوء بقولها مؤكدا
لاجل ما تقدم (وانه لمن الصادقين) أى العريقين فى هذا الوصف فى نسبة المراودة الىّ وتبرئة
نفسه فقد شهد النسوة كلهن ببراءته وانه لم يقع منه ما ينسب به الى شئ من السوء البتة فمن
نسب بعد ذلك هما أو غيره فهو تابع لمجرد الهوى فى نبى من المخصلين قال الرازى رأيت فى بعض
الكتب ان امرأة جاءت بزوجها الى القاضى وادّعت عليه المهر فأمر القاضى بأن تكشف
عن وجهها حتى تمكن الشهود من اقامة الشهادة فقال الزوج لا حاجة الى ذلك فانى مقر
بصداقها فى دعواها فقالت المرأة لما أكرمتنى الى هذا الحد فاشهدوا انى أبرأت ذمتك من كل
حق لى عليك * ولما رجع الرسول الى يوسف عليه السلام وأخبره بشهادتهن ببراءته قال (ذلك)
أى الخلق العظيم فى تثبتى فى السجن الى أن تبين الحق (ليعلم) العزيز باقرارها وهى فى الامن
وأنا فى محل الضيق والخوف علما مؤكدا (انى لم أخنه) أى فى أهله ولا فى غيرها (بالغيب) أى

والحال أنّ كلا منا غائب عن صاحبه هـذا قول الاكثرين انه قول يوسف عليه السـلام قال الفراء ولا يبعد وصـل كلام انسان بكلام آخر اذا دلت القرينة عليـه ومثاله قوله تعالى ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسـدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة هـذا كلام بلقيس ثم قال الله تعالى وكذلك يفعلون وقوله تعالى ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيـه كلام الداعى ثم قال الله تعالى انّ الله لا يخلف الميعاد ثم ختم الكلام بقوله (وانّ الله لا يهدى) أى يسدّد وينجح بوجه من الوجوه (كيد الخائنين) أى ولو كنت خائنا لما خلصنى الله من هذه الورطة العظيمة وحيث خلصنى منها ظهر انى برىء عما نسبونى اليه وقيل انه كلام امرأة العزيز والمعنى انى وان كنت أحلت عليه الذنب فى حضوره لكنى ما أحلت الذنب عليه فى غيبته أى لم تقل فيه وهو فى السجن خلاف الحق ثم انها بالغت فى تأكيد هذا القول وقالت وانّ الله لا يهدى كيد الخائنين يعنى انى لما أقدمت على الكيد والمكر لاجرم افتضحت وانه لما كان بريأ من الذنب لاجرم طهره الله تعالى منه * واعلم انّ هذه الآية على القول الاول دالة على طهارة يوسف عليه السلام من وجوه كثيرة الاول قولها أنا راودته عن نفسه والثانى قولها وانه لمن الصادقين وهو اشارة الى أنه صادق فى قوله هى راودتنى عن نفسى والثالث قول يوسف عليه السـلام ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب والحشوية يذكرون أنه لما قال يوسف هذا الكلام قال له جبريل عليه السلام ولا حين هممت قال الرازى وهذا من رواياتهم الخبيثة وما صحت هذه الرواية فى كتاب معتمد أى وانما أسندها بعضهم لابن عباس بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعيا منهم فى تحريف ظاهر القرآن ورابعها أنّ اقدامه على قوله ذلك ليعلم أنى لم أخنـه بالغيب مع أنه خانه بأعظم وجوه الخيانة اقدام على وقاحـة عظيمة وعلى كذب عظيم من غير أن يتعلق به مصـلحة بوجه ما والاقدام على مثل هذه الوقاحة من غير فائدة أصـلا لا يليق بأحد من العقلاء فكيف يليق اسناده الى نبى مرسل من سلالة الانبياء الاصفياء فثبت أنّ هذه الآية تدل دلالة قاطعة على براءته مما يقول الجهال والحشوية واختلفوا فى تفسير قوله (وما أبرئ نفسى) لانّ ذلك يختلف باختلاف ما قبله لانّ قوله ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ان كان من كلام يوسف عليـه السلام وقد مرّ أنه قول الاكثرين فهو أيضا كلامه وان كان من كلام المرأة فهذا أيضا كلامها فعلى الاول قد تمسك به الحشوية وقالوا انه عليه السلام لما قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين حللت تكة سراويلك فعند ذلك قال يوسف عليه السلام وما أبرئ نفسى (انّ النفس لامّارة بالسوء) أى بالزنا (الا ما رحم) أى عصم منه (ربى انّ ربى غفور) أى للهم الذى هممته (رحيم) أى لو فعلته لتاب علىّ وهذا ضعيف كما قاله الرازى لما تقدم أنّ الآية المتقدمة برهان قاطع على براءته من الذنب وانما قال ذلك عليه السـلام لانه لما قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب كان ذلك جاريا مجرى مدح النفس وتزكيتها وقد قال تعالى فلا تزكوا أنفسكم فاستدرك ذلك على نفسه بقوله وما أبرئ نفسى والمعنى وما أزكى نفسى انّ النفس لامّارة بالسوء ميالة الى القبائح راغبة فى المعصية وعلى الثانى أنها لما قالت ذلك ليعلم أنى لم أخنـه

بالغيب قالت وما أبرئ نفسي من الخيانة مطلقا فاني قد خنته حين أحلت الذنب عليه وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوأ الا أن يسجن وأودعته في الحبس كأنها أرادت الاعتذار مما كان واختلف في قوله (وقال الملك) فمنهم من قال هو العزيز ومنهم من قال هو الريان الذي هو الملك الاكبر قال الرازي وهذا هو الاظهر لوجهين الاول ان قول يوسف اجعلني على خزائن الارض يدل عليه الثاني قوله استخلصه لنفسي يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصا وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصا للعزيز فدل هذا على ان هذا الملك هو الملك الاكبر انتهى وانما صرح به ولم يستغن بضميره كراهية الالتباس لما تخلل بينه وبين جواب امرأة العزيز من كلام يوسف عليه السلام ولو كان الكل من كلامها لاستغنى بالضمير ولم يحتج الى ابرازه (ائتوني به استخلصه لنفسي) أي اجعله خالصا لي دون شريك قال ابن عباس فأتاه الرسول فقال له ألق عنه ثياب السجن وألبسه ثيابا جددا وقم الى الملك فدعا له أهل السجن وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة واغتسل وتنظف ولبس ثيابا جددا بعد ان دعا لاهل السجن فقال اللهم عطف عليهم قلوب الاخيار ولا تعم عنهم الاخبار وكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الاحيا وبيوت الاحزان وتجربة الاصدقاء وشماتة الاعداء ثم أتى الملك فلما رآه غلاما حدثا فقال أيعلم هذا رؤياى ولا يعلمها السحرة والكهنة ثم أقعده قدامه وقال له لا تخف وألبسه طوقا من ذهب وثياب حرير وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك وروى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف وهو في الحبس وقال قل اللهم اجعل لي من عندك فرجا ومخرجا وارزقني من حيث لا أحتسب فقبل الله تعالى دعاءه وأظهر هذا السبب في تخليصه من السجن وروى أن يوسف لما دخل عليه قال اللهم اني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه بالعربية فقال ما هذا اللسان قال هذا لسان عمي اسمعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال هذا لسان آبائي قال وهب كان الملك يتكلم بسبعين لغة ولم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما كلمه بلسان أجابه يوسف عليه السلام وزاد بالعربية والعبرانية (فلما كلمه) أي كلم الملك يوسف عليه السلام وشاهد منه ما شاهد من جلال النبوة وجميل الوزارة وخلال السيادة ومخايل السعادة أقبل عليه وقال اني أحب أن أسمع منك تأويل رؤياى شفاها فأجابه بذلك الجواب شفاها وشهد قلبه بصحته فعند ذلك (قال) له (انك اليوم لدينا مكين أمين) أي ذو مكانة وأمانة على أمرنا فما ترى أيها الصديق (قال) أرى أن تزرع في هذه السنين المخصبة زرعا كثيرا وتبني الخزائن وتجمع فيها الطعام فاذا جاءت السنين المجدبة بعنا الغلال فيحصل بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك ومن لي بهذا الشغل فقال يوسف (اجعلني على خزائن الارض) جمع خزانة وأراد خزائن الطعام والاموال والارض أرض مصر أي خزائن أرضك مصر وقال الربيع بن أنس أي خرج مصر ودخله روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قال رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الارض لاستعمله من

ساعته لكنه لما قال ذلك أخره الله تعالى سنة فأقام في بيته سنة مع الملك قال الرازى وهذا من العجائب لانه لما تثاقل عند الخروج من السجن سهل الله تعالى عليه ذلك على أحسن الوجوه ولما سارع في ذكر هذا الالتماس أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على أن ترك التصرف أتم والتفويض بالكلية الى الله تعالى أولى ثم قال (انى حفيظ عليم) أى ذو حفظ وعلم بأمرها وقيل كاتب وحاسب (فان قيل) لم طلب يوسف عليه السلام الامارة والنبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة لاتسأل الامارة ولم طلب الامارة من سلطان كافر ولم يصبر مدة ولم أظهر الرغبة في طلبها في الحال ولم طلب أمر الخزائن في أول الامر مع ان هذا يورث نوع تهمة ولم مدح نفسه وقد قال تعالى فلا تزكوا أنفسكم ولم ترك الاستثناء في هذا وقد قال تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله فهذه سبعة أسئلة (أجيب) عنها بأن الاصل في جواب هذه الاسئلة ان التصرف في أمور الخلق كان واجبا عليه فجاز له أن يتوصل اليه بأى طريق كان وانما كان ذلك واجبا عليه لوجوه الاول أنه كان رسولا حقا من الله تعالى الى الخلق والرسول يجب عليه مراعاة الامة بقدر الامكان والثانى أنه علم بالوحى أنه سيحصل القحط والضيق الشديد فلعله تعالى أمره أن يدبر في ذلك ويأتى بطريق لاجله يقل ضرر ذلك القحط في حق الخلق والثالث أن السعى أيضا في ايصال النفع الى المستحقين ورفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول فكان مكلفا عليه السلام برعاية المصالح من هذه الوجوه وما كان يمكنه رعايتها الا بهذا الطريق ومالا يتم الواجب الا به فهو واجب وانما مدح نفسه لان الملك وان علم كماله في علوم الدين لكن ما كان عالما بأنه يفى بهذا الامر وأيضا مدح النفس انما يكون مذموما اذا قصد به الشخص التطاول والتفاخر والتوصل الى غير ما يحل وأما هذا الوجه فليس بمذموم وقوله تعالى فلا تزكوا أنفسكم المراد به تزكية حال من لا يعلم كونها مزكاة والدليل قوله تعالى بعد هذه الآية هو أعلم بمن اتقى أما اذا كان الانسان عالما بانه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه وانما ترك الاستثناء لانه لو ذكره لربما اعتقد الملك فيه انه انما ذكره لعلمه أنه لاقدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغى فلهذا المعنى ترك الاستثناء ولما سأل يوسف عليه السلام ما تقدم قال معلما بأنه قد أجيب بتنجيز الله تعالى له (وكذلك) أى كانعامنا عليه بالخلاص من السجن (مكنا ليوسف في الارض) أى أرض مصر (يتبوأ) أى ينزل (منها حيث يشاء) بعد الضيق والحبس قال ابن عباس وغيره ولما انقضت السنة من يوم سأل الامارة دعاه الملك فتوجه وجعل خاتم الملك في اصبعه وقلده سيفه وجعل له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة أذرع عليه ستون فراشا فقال يوسف عليه السلام أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى وأمره أن يخرج فخرج لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه في صفاء لونه فانطلق حتى جلس على ذلك السرير ودانت له الملوك ودخل الملك بيته وفوض اليه أمر مصر وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه قال ابن اسحق قال ابن زيد وكان لملك مصر خزائن

كثيرة فسلم سلطانه كله اليه وجعل أمره وقضاءه نافذا فى مملكته ثم مات قطفير بعد ذلك فزوجه الملك امرأته فلما دخل عليها قال أليس هذا خيرا مما كنت تريدين قالت أيها الصديق لا تلمنى فانى كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى فى ملك ودنيا وكان صاحبى لا يأتى النساء وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك فغلبتنى نفسى فوجدها يوسف عليه السلام عذراء فأصابها فولدت له ذكرين افرائيم وميشا فأقام العدل بمصر وأحبه الرجال والنساء وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام بالدراهم والدنانير فى السنة الاولى ثم بالحلى والجواهر فى السنة الثانية ثم بالدواب فى السنة الثالثة ثم بالعبيد والاماء فى السنة الرابعة ثم بالضياع والعقار فى السنة الخامسة ثم بأولادهم فى السنة السادسة ثم برقابهم فى السنة السابعة حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة الا صار عبدا له فقال الناس ما رأينا كاليوم ملكا أجل ولا أعظم من هذا صار كل الخلق عبيدا له فلما سمع ذلك قال انى أشهد الله انى أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم املاكهم وكان لا يبيع أحدا ممن يطلب الطعام أكثر من حمل بعير لئلا يضيق الطعام على الباقين هذا ملخص ما قاله البغوى والزمخشرى وغيرهما قال الرازى والله أعلم بحقيقة الحال وروى ان يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام فى تلك الايام فقيل له تجوع وبيدك خزائن الارض فقال ان شبعت نسيت الجائع وأمر يوسف طباخ الملك أن يجعل غداءه نصف النهار أراد بذلك أن يذيق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائعين قال البغوى فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار قال الله تعالى (نصيب) أى نخص (برحمتنا من نشاء) فى الدنيا والآخرة (ولا نضيع أجر المحسنين) بل نؤتيهم أجورهم عاجلا وآجلا لان اضاعة الاجر اما أن تكون للعجز أو للجهل أو للبخل والكل ممتنع فى حق الله تعالى فالاضاعة ممتنعة (ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) الشرك والفواحش قال الرازى وهذا تنصيص من الله تعالى على أن يوسف عليه السلام كان فى الزمان السابق من المتقين وليس ههنا زمان سابق يحتاج الى بيان أنه كان فيه من المتقين الا ذلك الوقت الذى قال الله تعالى فيه ولقد همت به وهم بها فكان هذا من الله تعالى شهادة بأنه عليه السلام كان فى ذلك الوقت من المتقين وايضا قوله ولا نضيع أجر المحسنين شهادة من الله تعالى على أنه كان من المخلصين فثبت أن الله تعالى شهد بأن يوسف كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين والجاهل الحشوى يقول انه كان من المذنبين ولا شك أن من لم يقبل قول الله تعالى مع هذه التأكيدات كان من الاخسرين * ولما اشتد القحط وعظم البلاء عم ذلك جميع البلاد حتى وصل الى بلاد الشام وأرض كنعان وقصد الناس مصر من كل مكان للميرة فجعل يوسف عليه السلام لا يعطى أحدا أكثر من حمل بعير وان كان عظيما تقسيطا بين الناس وتزاحم الناس عليه ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس من الشدة فبعث بنيه الى مصر للميرة وأمسك بنيامين أخا يوسف لامه وأبيه فذلك قوله تعالى (وجاء اخوة يوسف) وكانوا عشرة وكان منزلهم بالعربات من أرض فلسطين ثغور الشام وكانوا أهل ابل وشياه فدعاهم أبوهم يعقوب عليه السلام وقال بلغنى أن

بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا اليه واقصدوه لتشتروا منه ما تحتاجون من الطعام وههنا همزتان مختلفتان من كلمتين فقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الثانية والباقون بالتحقيق * ولما أمرهم أبوهم بذلك خرجوا حتى قدموا مصر (فدخلوا عليه فعرفهم) قال ابن عباس بأول نظرة اليهم عرفهم وقال الحسن لم يعرفهم حتى تعرفوا اليه (وهم له منكرون) أى لم يعرفوه وذلك لوجوه الاول أنه عليه السلام أمر حجابه بأن يوقفوهم من البعد وما كان يتكلم معهم الا بواسطة الثانى أنهم حين ألقوه فى الجب كان صغيرا ثم انهم رأوه بعد وفور اللحية وكبر الجثة قال ابن عباس وكان بين ان قذفوه فى البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة فلذلك أنكروه وقال عطاء انما لم يعرفوه لانه كان على سرير الملك وكان بزى ملوك مصر عليه ثياب حرير وفى عنقه طوق من ذهب ثم ان يوسف عليه السلام أمر بانزالهم واكرامهم وكانت عادته أن لا يزيد أحدا على حمل بعير وكانوا عشرة فاعطاهم عشرة أحمال كما قال تعالى (ولما جهزهم بجهازهم) أى وفاهم كيلهم والجهاز ما يعد من الامتعة للنقلة كعدد السفر وما يحمل من بلدة الى أخرى وما تزف به المرأة الى زوجها فقالوا ان لنا شيخا كبيرا وأخا آخر بقى معه وذكروا أن أباهم لاجل سنه وشدة حزنه لم يحضر وان أخاهم فى خدمة أبيه ولا بد لهما أيضا من حملين آخرين من الطعام فلما ذكروا ذلك قال يوسف عليه السلام فهذا يدل على أن حب أبيكم له أزيد من حبه لكم وهذا شئ عجيب لانكم أنتم مع جمالكم وعقلكم وأدبكم اذا كانت محبة أبيكم لذلك الاخ أكثر من محبته لكم دل ذلك على أنه أعجوبة فى العقل والادب فجيئونى به حتى أراه كما قال تعالى حكاية عنه (قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) أى الذى خلفتموه عنده وقيل انه لما نظر اليهم وكلموه بالعبرانية قال لهم اخبرونى من أنتم وما أمركم فانى أنكرت شأنكم قالوا قوم من أرض الشأم أصابنا ما أصاب الناس فجئنا نمتار فقال لعلكم جئتم لتنظروا الى عورة بلادنا قالوا لا والله لسنا بجواسيس انما نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق يقال له يعقوب نبى من أنبياء الله تعالى قال وكم كنتم قالوا كنا اثنى عشر فذهب أخ لنا الى البرية فهلك فيها وكان أحبنا الى أبينا قال فكم أنتم ههنا قالوا عشرة قال وأين الابن الآخر قالوا عند أبينا لانه أخو الذى هلك وأبوه مبتلى به قال فمن يعلم ان الذى تقولون حق قالوا أيها الملك انا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فقال يوسف عليه السلام فائتونى باخيكم الذى من أبيكم ان كنتم صادقين فأنا أرضى بذلك فقالوا ان أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه قال فدعوا بعضكم عندى رهينة حتى تأتونى بأخيكم فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأيا فى يوسف فخلفوه عنده ثم انه قال لهم (ألا ترون أنى أوفى الكيل) أى أتمه ولا أبخس منه شيأ وقرأ نافع بفتح الياء من أنى والباقون بالسكون وأما الياء من أوفى فجميع القراء يثبتونها فى الوقف لثباتها فى الرسم وحذفوها فى الوصل لالتقاء الساكنين (وأنا خير المنزلين) أى المضيفين فانه كان قد أحسن ضيافتهم مدة اقامتهم عنده قال الرازى وهذا يضعف قول من يقول من المفسرين انه اتهمهم ونسبهم الى أنهم عيون وجواسيس ولو شافههم بهذا الكلام

فلا يليق به أن يقول لهم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين وأيضا يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقا أن يقول لهم انتم عيون وجواسيس مع أنه يعرف براءتهم عن هذه التهمة لان البهتان لا يليق بحال الصديق ثم قال عليه السلام (فان لم تأتونى به) أى بأخيكم (فلا كيل) أى فلا ميرة (لكم عندى) ولم يمنعهم من غيره (ولا تقربون) نهى أو عطف على محل فلا كيل لكم أى تحرموا ولا تقربوا منى ولا تدخلوا ديارى فجمع لهم عليه السلام بين الترغيب والترهيب فالترغيب فى قوله الاول والترهيب فى قوله الثانى لانهم كانوا فى نهاية الحاجة الى الطعام وما كان يمكنهم تحصيله الا من عنده ومع ذلك لم يخطر ببالهم أنه يوسف فكأنه قيل فما قالوا فقيل (قالوا سنراود) أى بوعد لا خلف فيه حين نصل (عنه أباه) أى سنكلمه فيه ونتنازعه الكلام ونحتال فيه ونتلطف فى ذلك ولا ندع جهدا (وانا لفاعلون) أى ما أمرتنا به والتزمناه (و) لما أرغبهم وأرهبهم فى شأن أخيه (قال لفتيته) أى غلمانه الكيالين جمع فتى وقرأ حفص وحمزة والكسائى بألف بعد الياء المثناة تحت وبعد الالف نون مكسورة والباقون بالياء المثناة تحت ثم بتاء مثناة فوق مكسورة (اجعلوا بضاعتهم) أى التى أتوا بها عن الميرة وكانت دراهم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنها كانت النعال والادم (فى رحالهم) جمع رحل أوعيتهم التى يحملون فيها الطعام (لعلهم يعرفونها) أى بضاعتهم (اذا انقلبوا) أى رجعوا (الى أهلهم) وفتحوا أوعيتهم (لعلهم يرجعون) الينا واختلف فى السبب الذى من أجله رد يوسف عليه السلام بضاعتهم فى رحالهم على أوجه الاول أنه أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق فوضع تلك الدراهم فى رحالهم حتى تبقى مخفية الى أن يصلوا الى أبيهم الثانى أراد أن يعرف أباه أنه أكرمهم وطلبهم لمزيد الاكرام فلا يثقل على أبيه ارسال أخيه الثالث مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الاخ لاجل الايذاء والظلم ولا يطلب زيادة الثمن الرابع أراد أن يحسن اليهم على وجه لا يلحقهم فيه عيب ولا منة الخامس قال الفراء انهم متى شاهدوا بضاعتهم فى رحالهم وقع فى قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة فى رحالهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد أنبياء فيرجعون ليعرفوا السبب فيه ويردوا الملك الى مالكه السادس أراد به التوسعة على أبيه لان الزمان كان زمان القحط السابع رأى ان أخذ ثمن الطعام من أبيه ومن اخوته على شدة حاجتهم الى الطعام لؤم الثامن خاف أن لا يكون عند أبيه من المال ما يرجعون به مرة أخرى التاسع أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا ان ذلك كرم من يوسف عليه السلام وسخاء فيبعثهم ذلك الى العود اليه والحرص على معاملته عليه السلام (فلما رجعوا) أى اخوة يوسف عليه السلام (الى أبيهم قالوا يا أبانا) انا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة عظيمة لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامه فقال يعقوب عليه السلام اذا رجعتم الى ملك مصر فاقرؤه منى السلام وقولوا له ان أبانا يصلى عليك ويدعو لك بما أوليتنا ثم قال لهم أين شمعون قالوا ارتهنه ملك مصر وأخبروه بالقصة وقولهم (منع منا الكيل) فيه قولان أحدهما أنهم لما طلبوا الطعام

لاخيهم

لاخيهم الغائب عند أبيهم منعوا منه والثانى أنهم منعوا الكيل فى المستقبل وهو قول يوسف عليه السلام فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ويدل لهما قولهم (فأرسل معنا أخانا) بنيامين (نكتل) قرأ حمزة والكسائى قرآه بالياء أى يكتل لنفسه وهذا يدل للقول الاول والباقون بالنون أى نكتل نحن واياه وهذا يدل للقول الثانى (وانا له لحافظون) عن أن يناله مكروه حتى نرده اليك فلما قالوا ليعقوب عليه السلام هذه المقالة (قال) لهم (هل آمنكم) أى اقبل منكم الآن وفى مستقبل الزمان تأمينكم لى فيه بما يسوءنى تأمينا مستقبلا (عليه) أى بنيامين (الا كما أمنتكم) أى فى الماضى (على أخيه) يوسف عليه السلام (من قبل) فانكم أكدتم غاية التأكيد فلم تحفظوه لى ولم تردوه الىّ والامن اطمئنان القلب الى سلامة النفس فانا فى هذا لا آمن عليه الا الله تعالى (فالله) المحيط علما وقدرة (خير حفظا) منكم ومن كل أحد ففيه التفويض الى الله تعالى والاعتماد عليه فى جميع الامور وقرأ حفص وحمزة والكسائى بفتح الحاء وألف بعدها وكسر الفاء والباقون بكسر الحاء وسكون الفاء وهو منصوب على التمييز فى القراءتين ويحتمل الاولى النصب على الحال اللازمة (وهو أرحم الراحمين) أى أرحم بى من أن يفجعنى به بعد مصيبتى بأخيه فلا يجمع على مصيبتين (ولما) أرادوا تفريغ ما قدموا به من الميرة (فتحوا متاعهم) أى أوعيتهم التى حملوها من مصر (وجدوا بضاعتهم) أى ما كان معهم من كنعان لشراء القوت (ردت اليهم) والوجدان ظهور الشئ للنفس بحاسة أو ما يغنى عنها فكأنه قيل ما قالوا فقيل (قالوا) أى لابيهم عليه السلام (يا أبانا ما) استفهامية أى أى شئ (نبغى) أى نريد جميع القراء أثبتوا الياء وقفا ووصلا لثباتها فى الرسم فكأنه قال لهم ما الخبر فقالوا بيانا لذلك وتأكيدا للسؤال فى استصحاب أخيهم (هذه بضاعتنا ردت الينا) هل من مزيد على ذلك أكرمنا وأحسن مثوانا وباع منا ورد علينا متاعنا * ولما كان التقدير ونرجع بها اليه بأخينا فيظهر له نصحنا وصدقنا (ونمير أهلنا) أى نجلب اليهم الميرة برجوعنا اليه والميرة الاطعمة التى تحمل من بلد الى بلد (ونحفظ أخانا) فلا يصيبه شئ مما تخشى عليه تأكيدا للوعد بحفظه (ونزداد كيل بعير) لاخينا (ذلك كيل يسير) أى سهل على الملك لسخائه وحرصه على البذل وقيل قصير المدة ليس سبيل مثله أن تطول مدته بحسب الحبس والتأخير وقيل قليل فابعث أخانا معنا حتى نبدل تلك القلة بالكثرة فكأنه قيل ما قال لهم فقيل (قال) يعقوب عليه السلام (لن أرسله) أى بنيامين كائنا (معكم) أى فى وقت من الاوقات (حتى تؤتون موثقا) أى عهدا مؤكدا (من الله) قرأ ابن كثير باثبات الياء بعد النون وقفا ووصلا وأبو عمرو باثبات الياء وقفا لا وصلا وحذفها الباقون وقفا ووصلا وقوله (لتأتننى) أى كلكم (به) أى تحلفوا بالله لتأتننى به من الاتيان وهو المجئ فى كل حال جواب القسم أو المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتننى به (الا) أى فى حال (أن يحاط) أى تحصل الاحاطة بمصيبة من المصائب لا طاقة لكم بها (بكم) فتهلكوا من عند آخركم كل ذلك زيادة فى التوثق بما حصل له من المصيبة بيوسف عليه السلام وان كان الاعتماد فى حفظه انما هو على الله تعالى وهذا من باب

أعطلها ونؤكل فأجابوه الى ذلك كما قال تعالى (فلما آتوه موثقهم) بذلك (قال الله على ما نقول) نحن وأنتم (وكيل) أى شهيد وأرسله معهم بعد ذلك (فان قيل) لم أرسله معهم وقد شاهد منهم ما شاهد في يوسف عليه السلام (أجيب) بأن ذلك لوجوه أحدها أنهم كبروا ومالوا الى الخير والصلاح الثاني انه كان شاهد أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام الثالث لعل الله أوحى اليه وضمن حفظه وايصاله اليه (و) لما عزموا على الخروج الى مصر وكانوا موصوفين بالكمال والجمال وأبناء رجل واحد (قال) لهم (يا بنى لا تدخلوا) اذا قدمتم الى مصر (من باب واحد) من أبوابها (وادخلوا من أبواب) واحترز من أن تكون متلاصقة أو متقاربة جدا بقوله (متفرقة) أى تفرقا كثيرا وهذا حكم التكليف لئلا يصابوا بالعين وهى من قدر الله تعالى وقد ورد شرعنا بذلك ففى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال العين حق وفى رواية عن أحمد يحضرها الشيطان وحسد ابن آدم وفى رواية لمسلم العين حق ولو كان شئ سابق القدر لسبقته العين وفى رواية عن جابر ان العين لتدخل الجمل القدر والرجل القبر وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم كان يعوّذ الحسن والحسين فيقول أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ويقول هكذا كان يعوّذ ابراهيم اسمعيل واسحق صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر النبيين وعن عبادة بن الصامت قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول النهار فوجدته شديد الوجع ثم عدت اليه فى آخر النهار فرأيته معافى فقال ان جبريل عليه السلام أتانى فرقانى فقال بسم الله أرقيك من كل شئ يؤذيك من كل عين وحاسد الله يشفيك قال فأفقت وفى رواية ان بنى جعفر بن أبى طالب كانوا غلمانا بيضا فقالت أسماء يا رسول الله ان العين اليهم سريعة فاسترق لهم من العين فقال لها نعم وفى رواية دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أم سلمة وعندها صبى يشتكى فقالوا يا رسول الله أصابته العين فقال أما تسترقون له من العين وعن عائشة رضى الله تعالى عنها كان يؤمر العائن أن يتوضأ ثم يغتسل منه المعين الذى أصيب بالعين * ولما خاف يعقوب عليه السلام أن يسبق من أمره هذا الى بعض الاوهام أن الحذر يغنى عن القدر نفى ذلك بقوله عليه السلام (وما أغنى) أى ادفع (عنكم) بقولى ذلك (من الله من شئ) قدره عليكم وانما ذلك شفقة ومن مزيدة للتأكيد واعلم أن الانسان مأمور بأن يراعى الاسباب المعتبرة فى هذا العالم بأن يجزم بأنه لا يحصل الا ما قدره الله تعالى وان الحذر لا يدفع القدر فالانسان مأمور بأن يحذر الاشياء المهلكة والاغذية الضارة ويسعى فى تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الامكان ومع ذلك يكون جازما بأنه لا يصل اليه الا ما قدره الله تعالى ولا يحصل فى الوجود الا ما أراده الله تعالى فقوله عليه السلام لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة اشارة الى رعاية الاسباب المعتبرة فى هذا العالم وقوله وما أغنى عنكم من الله من شئ اشارة الى عدم الالتفات الى الاسباب بل الى التوحيد المحض والبراءة من كل شئ سوى الله تعالى * ولما قهر

الامر

الامر كله اليه تعالى وجب رد كل أمر اليه وقصر النظر عليه فقال منبها على ذلك (ان الحكم الا لله) وحده الذى ليس الحكم الا له (عليه) أى على الله وحده (توكلت) أى جعلته وكيلى فرضيت بكل مايفعل (وعليه) وحده (فليتوكل المتوكلون) أى الثابتون فى باب التوكل فان ذلك من أعظم الواجبات من فعله فاز ومن أغفله خاب وقد ثبت بالبرهان ان لا حكم الا لله فلزم القطع بأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله تعالى وذلك يوجب أن لا توكل الا على الله تعالى فهذا مقام شريف عال والشيخ أبو حامد الغزالى أكثر فى تقرير هذا المعنى فى كتاب التوكل من كتب احياء علوم الدين فمن أراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك الكتاب * ولما قال يعقوب عليه السلام وما أغنى عنكم من الله من شئ صدقه الله تعالى فى ذلك فقال (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) أى متفرقين (ما كان) ذلك التفرق (يغنى عنهم من الله) أى من قضائه وأغرق فى النفى فقال (من شئ) أى مما قضاه عليهم كما تقدم من قول يعقوب عليه السلام فسرقوا وأخذ بنيامين بوجدان الصواع فى رحله وتضاعفت المصيبة على يعقوب عليه السلام وقوله تعالى (الا حاجة) استثناء منقطع أى لكن حاجة (فى نفس يعقوب) وهى الوصول الى ما أمر به شفقة عليهم (قضاها) يعقوب عليه السلام وابرزها من نفسه الى أولاده فعملوا فيها بمراده فاغنى عنهم الخلاص من عقوق أبيهم فقط (وانه) أى يعقوب عليه السلام مع أمره لبنيه بذلك (لذو علم) أى معرفة بالحكمين حكم التكليف وحكم التقدير واطلاع على الكونين عظيم (لما علمناه) بالوحى ونصب الحجج ولذلك قال وما أغنى عنكم من الله من شئ ولم يغتر بتدبيره * ولما كان قد يظن أن كل أحد يكون كذلك أى يعلم ما علمه نفى ذلك سبحانه وتعالى بقوله جل شأنه (ولكن أكثر الناس) أى لاجل ما نالهم من الاضطراب (لا يعلمون) أى ليسوا بذوى علم لما علمناهم لاعراضهم عنه واستفراغ قواهم فى الاهتمام بما وقع التكليف لهم به ومن أحوال الدنيا ومقابلة فطرهم القويمة السليمة بردها الى ما تدعوهم اليه الحظوظ والشهوات حتى لا يكون طب لمخلوق * ولما أخبر تعالى عن دخولهم الى البلد أخبر عن دخولهم لحاجتهم الى يوسف عليه السلام فقال (ولما دخلوا) أى اخوة يوسف عليه السلام (على يوسف) فى المقدمة الثانية بأخيهم بنيامين قالوا هذا أخونا فقال أحسنتم واحتسبتم وستجدون خير ذلك عندى ثم أنزلهم وأكرم منزلهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا أجلسنى معه فقال يوسف لقد صار أخوكم هذا وحيدا فأجلسه معه على مائدته وصار يؤاكله فلما كان الليل أمر أن ينزل كل اثنين منهم بيتا فبقى بنيامين وحده فقال يوسف هذا ينام معى على فراشى كما قال تعالى (آوى) أى ضم (اليه أخاه) فبات معه وجعل يوسف يضمه اليه ويشمه ثم قال له ما اسمك فقال بنيامين قال وما بنيامين قال المثكل وذلك انه لما ولد هلكت أمه قال وما اسم أمك قال راحيل بنت لاوى قال فهل لك من ولد قال نعم عشرة بنين ولما رأى تأسفه لاخ له هلك قال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك فقال ومن يجد أخا مثلك ولكنك لم يلدك

يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام اليه وعانقه (وقال انى أنا أخوك فلا تبتئس) أى لا تحزن (بما كانوا يعملون) أى بشئ فعلوه بنا فيما مضى فان الله قد أحسن الينا فلا تلتفت الى أعمالهم المنكرة التى قد أقدموا عليها وقد جمعنا الله تعالى على خير ولا تعلمهم بشئ من ذلك وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون ومد بعد النون من أنا قبل الهمزة المفتوحة نافع والباقون بالقصر ثم انه ملأ لهم أوعيتهم كما أرادوا وكان فى المرة الاولى أبطأ فى تجهيزهم فى طول المدة ليتعرف أخبارهم من حيث لا يشعرون ولذلك لم يعطف بالفاء وأسرع فى تجهيزهم فى هذه المرة قصدا الى انفراده بأخيه من غير رقيب بالحيلة التى دبرها فلذلك أتت الفاء فى قوله (فلما جهزهم) أى اعجل جهازهم وأحسنه (بجهازهم جعل) بنفسه أو بمأذونه (السقاية) أى المشربة التى كان يشرب بها (فى رحل أخيه) أى وعاء طعام أخيه بنيامين كما فعل ببضاعتهم فى المرة الاولى قال ابن عباس كانت من زبرجد وقال ابن اسحق كانت من فضة وقيل من ذهب وقال عكرمة كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر وجعلها يوسف عليه السلام مكيالا لئلا يكال بغيرها وكان يشرب فيها قال الرازى هذا بعيد لان الاناء الذى يشرب فيه الملك لا يصلح أن يجعل صاعا وقيل كانت الدواب تسقى بها قال وهذا أيضا بعيد لان الآنية التى تسقى الدواب فيها لا تكون كذلك قال والاصوب أن يقال كان ذلك الاناء شيأ له قيمة اما الى هذا الحد الذى ذكروه فلا والسقاية والصواع واحد ثم ارتحلوا وأمهلهم يوسف عليه السلام حتى انطلقوا وذهبوا منزلا وقيل حتى خرجوا من العمارة ثم بعث خلفهم من استوقفهم وحبسهم (ثم أذن) أى أعلن فيهم بالنداء (مؤذن) قائلا برفع صوته وان كانوا فى غاية القرب منه بما دل عليه اسقاط الاداة (أيتها العير) أى القافلة قال أبو الهيثم كل ما سير عليه من الابل والحمير والبغال فهو عير قال وقول من قال العير الابل خاصة باطل فقوله أيتها العير أى أصحاب العير كقوله يا خيل الله اركبى قال الفراء كانوا أصحاب ابل وقال مجاهد كانت العير حميرا وقرأ ورش بابدال همزة مؤذن واوا وقفا ووصلا وحمزة فى الوقف فقط والباقون بالقصر (انكم لسارقون) فقفوا حتى ننظر الذى فقدنا والسرقة أخذ ما ليس له أخذه فى خفاء من حرز مثله (فان قيل) هل كان هذا النداء بأمر يوسف عليه السلام أوما كان بأمره فان كان بأمره فكيف يليق بيوسف عليه السلام مع علو منصبه أن يبهت أقواما وينسبهم الى السرقة كذبا وبهتانا وان كان بغير أمره فهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة (أجيب) بأجوبة الاول أنه عليه السلام لما أظهر لاخيه أنه يوسف قال لست أفارقك قال لا سبيل الى ذلك الا بتدبير حيلة أنسبك فيها الى ما لا يليق بك قال رضيت بذلك وعلى هذا لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام لانه قد رضى به فلا يكون ذلك ذنبا الثانى انكم لسارقون يوسف من أبيه الا أنهم ما أظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض وفى المعاريض مندوحة من الكذب الثالث أن المنادى انما ذكر النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا يخرج أن يكون كذبا الرابع ليس فى القرآن ما يدل على أنهم قالوا هذا بأمر يوسف عليه السلام قال الرازى والاقرب الى ظاهر الحال أنهم

فعلوا

فعلوا ذلك من أنفسهم لانهـم لماطلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم غلب على ظنهم أنهم الذين أخذوها * ولما وصل اليهم الرسول قال لهم ألم نحسن ضيافتكم ونكرم مثواكم ونفيكم كيلكم وفعلنا بكم مالم نفعل بغيركم قالوا بلى وماذاك قالوا سقاية الملك فقدناها ولانتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى (قالوا و) الحال أنهم قد (أقبلوا عليهم) أى على جماعة الملك المنادى وغيره (ماذا) اى ما الذى (تفقدون) مما يمكننا أخذه والفقدان ضد الوجود (قالوا نفقد) وكان للسقاية اسمان فعبروا بقولهم (صواع الملك) والصواع هو المكيال وهو السقاية المتقدمة سموه تارة كذا وتارة كذا وانما اتخذوا هذا الاناء مكيالا لعزة ما يكال به فى ذلك الوقت (ولمن جاء به حمل بعير) أى من الطعام والبعير يطلق لغة على الذكر خاصة وأطلقه بعضهم على الناقة أيضا وجعله نظير انسان وهو ماجرى عليه الفقهاء فى باب الوصية والجمع فى القلة على أبعرة وفى الكثرة على بعران (وأنا به زعيم) قال مجاهد هذا الزعيم هو الذى أذن والزعيم الكفيل وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة فى شرعهم وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله الزعيم غارم واذا ورد فى شرعنا ما يقرر شرع غيرنا هل يكون شرعا لنا فى ذلك خلاف والراجح أنه ليس بشرع لنا (فان قيل) كيف تصح هذه الكفالة مع أن السارق لا يستحق شيأ (أجيب) بأنهم لم يكونوا سراقا فى الحقيقة فيحمل ذلك على مثل رد الضائع فيكون ذلك جعالة أو أن مثل هذه الكفالة كانت جائزة عندهم فى ذلك الزمان (قالوا) أى اخوة يوسف عليه السلام (تالله) التاء حرف قسم وهى عند الجمهور بدل من واو القسم والواو بدل من الباء فهى فرع الفرع فلذلك ضعفت عن التصريف فى الاسماء فلا تدخل الا على الجلالة الكريمة أو الرب مضافا للكعبة أو الرحمن فى قول ضعيف ولو قلت تالرحمن لم يجز أى والله (لقد علمتم) أى بما جربتم من أمانتنا قبل هذا فى كون مجيئنا (ما جئنا) وأكدوا النفى باللام فقالوا (لنفسد) أى نوقع الفساد (فى الارض) أى أرض مصر (و) لقد علمتم (ما كنا) أى بوجه من الوجوه (سارقين) أى موصوفين بهذا الوصف قطعا (فان قيل) من أين علموا ذلك (أجيب) بأن ذلك يعلم مما رأوا من أحوالهم وقيل لانهم ردوا البضاعة التى جعلت فى رحالهم قالوا فلو كنا سارقين مارددناها وقيل قالوا ذلك لانهم كانوا معروفين بأنهم لا يتناولون ما ليس لهم وكانوا اذا دخلوا مصر كموا أفواه دوابهم كى لا تتناول شيأ من حروث الناس (قالوا) أى أصحاب يوسف عليه السلام المنادى ومن معه (فما جزاؤه) أى السارق وقيل الصواع (ان كنتم كاذبين) فى قولكم ما كنا سارقين ووجد فيكم والجزاء مقابلة العمل بما يستحق من خير وشر (قالوا) وثوقا منهم بالبراءة واخبارا بالحكم عندهم (جزاؤه من وجد فى رحله) ولتحققهم البراءة علقوا الحكم على مجرد الوجدان لا السرقة ثم أكدوا ذلك بقولهم (فهو جزاؤه) قال ابن عباس كان ذلك الزمان كل سارق بسرقته فلذلك قالوا ذلك أى فالسارق جزاؤه أن يسلم بسرقته الى المسروق منه فيسترق سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب فى حكم السارق وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفى قيمة المسروق فأراد يوسف أن يحبس

أخاه عنده فرد الحكم اليوم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم (كذلك) أى الجزاء (نجزى الظالمين) بالسرقة قال أصحاب يوسف فلا بدّ من تفتيش رحالكم فردّوهم الى يوسف عليه السلام فأمر بتفتيشها بين يديه (فبدأ بأوعيتهم) ففتشها (قبل وعاء أخيه) لنلا يتهم فلم يجد فيها شيأ (ثم) أى بعد تفتيش أوعيتهم والتأنى فى ذلك (استخرجها) أى السقاية أو الصاع لانه يذكر ويؤنث (من وعاء أخيه) فلما خرج الصاع من وعاء بنيامين نكس اخوته رؤسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له ايش الذى صنعت فضحتنا وسوّدت وجوهنا يا ابن راحيل مازال لنا منكم بلاء حتى أخذت هذا الصاع فقال بنيامين بل بنو راحيل مازال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخى فاهلكتموه فى البرية ان الذى وضع هذا الصاع فى رحلى هو الذى وضع البضاعة فى رحالكم فأخذ بنيامين رقيقا وقيل ان المنادى وأصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصاع من رحله فأخذوه برقبته وردّوه الى يوسف عليه السلام * (تنبيه) * ههنا همزتان مختلفتان من كلمتين قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الثانية ياء والباقون بالتحقيق (كذلك) أى مثل ذلك الكيد (كدنا ليوسف) خاصة بأن علمناه اياه جزاء لهم على كيدهم بيوسف عليه السلام فى الابتداء وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام فيكيدوا لك كيدا والكيد من الخلق الحيلة ومن الله تعالى التدبير بالحق فالمراد من هذا الكيد هو ان الله تعالى ألقى فى قلب اخوته بأن حكموا أن جزاء السارق هو أن يسترق لاجرم لما ظهر الصاع فى رحله حكموا عليه بالاسترقاق وصار ذلك سببا لتمكن يوسف عليه السلام من امساك أخيه عنده نفسه * ولما كان الكيد يشعر بالحيلة والخديعة وهو فى حق الله تعالى محال حمل على الغاية ونهايته هنا القاء الانسان من حيث لا يشعر فى أمر مكروه لا سبيل له الى دفعه فالكيد فى حق الله تعالى محال على هذا المعنى وقيل المراد بالكيد ههنا ان اخوة يوسف سعوا فى ابطال أمره والله تعالى نصره وقواه وأعلى أمره وقوله تعالى (ما كان) أى يوسف (ليأخذ أخاه فى دين الملك) أى حكمه بيان للكيد لان جزاءه كان عنده الضرب وتغريم مثلى ما أخذ لا أنه يستعبد وقوله تعالى (الا أن يشاء الله) فيه وجهان أحدهما أنه استثناء منقطع تقديره ولكن بمشيئة الله أخذه فى دين غير دين الملك وهو دين آل يعقوب عليه السلام ان الاسترقاق جزاء السارق والثانى انه مفرغ من الاحوال العامة والتقدير ما كان ليأخذه فى كل حال الا فى حال التباسه بمشيئة الله أى اذنه فى ذلك * ولما كان يوسف عليه السلام انما تمكن من ذلك بعلو درجته وتمكنه ورفعته بعد ما كان فيه عندهم من الصغار كان ذلك محل عجب فقال تعالى التفاتا الى مقام التكلم (نرفع درجات من نشاء) أى بالعلم كما رفعنا درجته وكان الاصل درجاته ولكنه عمم لانه أدل على العظمة فكان أليق بمظهرها وفى هذه الآية دليل على ان العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات لان الله تعالى لما هدى يوسف عليه السلام الى هذه الحيلة مدحه لاجل ذلك ورفع درجته على اخوته ووصف ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى نرفع درجات من نشاء عندما حكى عنه دلائل التوحيد والبراءة

عن

عن الهيئة الشمس والقمر والكواكب وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بتنوين التاء والباقون بغير تنوين (وفوق كل ذى علم عليم) قال ابن عباس فوق كل عالم عالم الى أن ينتهى العلم الى الله تعالى فالله تعالى فوق كل عالم لانه هو الغنى بعلمه عن التعلم وفى الآية دليل على ان اخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم قال ابن الانبارى يجب أن يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لربه تعالى ولا يطمع نفسه فى الغلبة فى العلوم لانه لا يخلو عالم من عالم فوقه * ولما حصل لاخوة يوسف من اخراج الصواع من رحل بنيامين ما حصل فكأنه قيل فما كان فعلهم عند ذلك فقيل (قالوا) تسلية لانفسهم ودفعا للعار عن خاصتهم (ان يسرق) ولم يجزموا بسرقته لعلمهم بامانته وظنهم ان الصواع دس فى رحله وهو لا يشعر كما دست بضاعتهم فى رحالهم وكان قد قال لهم ذلك (فقد سرق أخ له من قبل) أى يوسف وكان غرضهم من ذلك انا لسنا على طريقته ولا على سيرته وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لانهما من أم أخرى واختلفوا فى التى نسبوها الى يوسف عليه السلام على أقوال فقال سفيان بن عيينة أخذ دجاجة من الطير التى كانت فى بيت يعقوب فأعطاها سائلا وقال مجاهد جاءه سائل فأخذ بيضة من البيت فناولها للسائل وقال وهب كان يخبأ الطعام من مائدة يعقوب للفقراء وقال سعيد بن جبير كان جده أبو أمه كافرا يعبد الوثن وأمرته أمه أن يسرق تلك الاوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الاوثان ففعل ذلك فهذا هو السرقة وقال محمد بن اسحق ان يوسف عليه السلام كان عند عمته ابنة اسحق وكانت تحبه حبا شديدا فأرادت أن تمسكه عند نفسها وكان قد بقى معها منطقة لابيها اسحق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف عليه السلام من تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ثم قالت انه سرقها وكان علمهم أن من سرق يسترق فقال يعقوب عليه السلام ان كان قد فعل ذلك فهو سلم لك فأمسكته عندها حتى ماتت فتوصلت بهذه الحيلة الى امساكه عند نفسها قال ابن الانبارى وليس فى هذه الافعال كلها سرقة ولكنها تشبهها فعيروه بها عند الغضب وقيل انهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوأة من الغضب على يوسف بعد تلك الوقائع وبعد انقضاء المدة الطويلة قال الرازى وهذه الواقعة تدل على ان قلب الحاسد لا يطمئن من الغل البتة (فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها) أى يظهرها (لهم) والضمير للكلمة التى هى قوله (قال) أى فى نفسه (أنتم شر مكانا) أى من يوسف وأخيه أى اسرقتكم أخاكم من أبيكم وظلمكم له وقيل الضمير يرجع الى الكلمة التى قالوها فى حقه وهى قولهم فقد سرق أخ له من قبل وعلى هذا يكون المعنى فأسر يوسف جواب الكلمة التى قالوها فى حقه (والله أعلم) منكم (بما تصفون) أى تقولون وأنه ليس كما قلتم قال أصحاب الاخبار والسير ان يوسف عليه السلام لما استخرج الصاع من رحل بنيامين نقره وأدناه الى أذنه ثم قال ان صاعى هذا يخبرنى أنكم كنتم اثنى عشر رجلا لاب واحد وانكم انطلقتم بأخ لكم من أبيكم فبعتموه فقال بنيامين أيها الملك ان صاعك يخبرك من جعله فى رحلى ثم نقره وأدناه من أذنه فقال ان صاعى غضبان وهو يقول كيف تسألونى عن صاحبى وقد رؤيت مع من كنت قالوا فغضب

روبيل لذلك وكانوا أولاد يعقوب اذا غضبوا لم يطاقوا وكان روبيل اذا غضب لم يقم لغضبه شئ وكان اذا صاح ألقت كل حامل حملها اذا سمعت صوته وكان مع هذا اذا مسه أحد من ولد يعقوب عليه السلام يسكن غضبه وكان أقوى الاخوة وأشدهم وروى أنه قال لاخوته كم عدد الاسواق بمصر قالوا عشرة فقال اكفونى أنتم الاسواق وأنا أكفيكم الملك أو اكفونى أنتم الملك وأنا أكفيكم الاسواق ودخلوا على يوسف فقال روبيل لتردن علينا أخانا أو لاصيحن صيحة لا تبقى بمصر امرأة حامل الا ألقت ولدها وقامت كل شعرة فى جسده حتى خرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له صغير قم الى جنب روبيل فمسه ويروى خذ بيده فأتنى به فذهب الغلام فمسه فسكن غضبه فقال لاخوته من مسنى منكم قالوا لم يصبك منا أحد فقال روبيل ان هنا بذرا من بذر يعقوب فقال يوسف من يعقوب وروى أنه غضب ثانيا فقام اليه يوسف فركضه برجله وأخذ بتلابيبه فوقع على الارض وقال أنتم يامعشر العبرانيين تظنون أن لا أحد أشد منكم فلما صار أمرهم الى هذا ورأوا أن لا سبيل لهم الى تخليصه خضعوا وذلوا و(قالوا يا أيها العزيز) مخاطبوه بما يليق بالاكابر ليرق لهم (ان له) أى هذا الذى وجد الصواع فى رحله (أبا شيخا كبيرا) أى فى سنه وقدره وهو مغرم به لا يقدر على فراقه ولا يصبر عنه (فخذ أحدنا مكانه) وأحسن الى أبيه بارساله اليه (انا نراك) أى نعلمك علما هو كالرؤية أو بحسب ما رأيناه (من المحسنين) أى العريقين فى صفة الاحسان فاجر فى أمرنا على عادة احسانك فكأنه قيل فما أجابهم قيل (قال معاذ الله) هو نصب على المصدر وحذف فعله وأضيف الى المفعول أى نعوذ بالذى لا مثل له معاذا عظيما من (أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده) ولم يقل سرق متاعنا لانه لم يفعل فى الصواع فعل السارق ولم يقع منه قبل ذلك ما يصحح اطلاق الوصف عليه ثم علله بقوله (انا اذا) أى اذا أخذنا أحدا مكانه (لظالمون) أى عريقون فى الظلم فى دينكم فلم تطلبون ما هو ظلم عندكم ولما استيأسهم عما قال عن اطلاق بنيامين حكى الله تعالى ما تم لهم من الرأى فقال (فلما) دالا بالفاء على قرب زمن تلك المراجعات (استيأسوا) أى ايسوا (منه) لما رأوا من احسانه ولطفه ورحمته يأسا شديدا عبارا وامن ثباته على أخذه بعينه وعدم استبداله (خلصوا) أى انفردوا عن غيرهم حال كونهم (نجيا) وهو مصدر يصلح للواحد وغيره أى ذوى نجوى يناجى بعضهم بعضا فكأنه قيل فما قالوا فقيل (قال كبيرهم) فى السن وهو روبيل وقيل فى الفضل والعلم وهو يهوذا وقيل شمعون وكان له الرياسة على اخوته (ألم تعلموا) مقررا لهم بما يعرفونه مع قرب الزمان ليشتد توجههم فى بذل الجهد فى الخلاص من غضب أبيهم (ان أباكم) أى الشيخ الكبير الذى فجعتموه فى أحب ولده اليه (قد أخذ عليكم) أى قبل أن يعطيكم هذا الولد الآخر (موثقا) أى عهدا وثيقا (من الله) فى أخيكم وانما جعل حلفهم بالله موثقا منه لانه باذن منه وتأكيد من جهته وقوله (ومن قبل ما فرطتم) فى هذه الآية وجوه أظهرها أن ما مزيدة فيتعلق الظرف بالفعل بعدها والتقدير ومن قبل هذا فرطتم أى قصرتم فى حق يوسف وشأنه وزيادة ما كثيرة وبه بدأ الزمخشرى وغيره وقيل انها مصدرية فى محل رفع

بالابتداء والخبر هو قوله (في يوسف) أي وتفريطكم كائن أو مستقر في يوسف والى هذا ذهب الفارسي وقيل غير ذلك ولا نطيل بذكره اذ في هذا القدر كفاية (فلن أبرح) أي أفارق (الارض) اى أرض مصر (حتى يأذن لي أبي) أي بالعود اليه (أو يحكم الله لي) بخلاص أخي (وهو خير الحاكمين) أي أعدلهم (فان قيل) هذه الواقعة من أولها الى آخرها تزوير وكذب فكيف يجوز ليوسف عليه السلام أن يعمل مثل هذه الاعمال بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه أيضا عنده مع علمه بشدة وجدان أبيه عليه وشدة غمه وفيه ما فيه من العقوق وايذاء الناس من غير ذنب لاسيما ويعلم انه اذا حبس أخاه عنده بهذه التهمة فانه يعظم حزن أبيه ويشتد غمه فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة في التزوير الى هذا الحد (أجيب) بأجوبة كثيرة للعلماء وأحسنها انه انما فعل ذلك بأمر الله تعالى له لا عن أمره وانما أمره الله تعالى بذلك ليزيد بلاء يعقوب عليه السلام فيضاعف له الاجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه ولله تعالى أسرار لا يعلمها أحد من خلقه وهو المتصرف في خلقه بما يشاء فهو الذي أخفى خبر يوسف عن يعقوب في هذه المدة مع قرب المسافة لما يريد أن يدبره فيهم والله أعلم بأحوال عباده ثم قال كبيرهم (ارجعوا الى أبيكم) دوني (فقولوا) له أي متلطفين في خطابكم (يا أبانا) وأكدوا مقالتكم فانه ينكرها وقولوا (ان ابنك سرق) (فان قيل) كيف يحكمون عليه بأنه سرق من غير بينة وهو قد أجابهم بالجواب الشافي فقال الذي جعل الصاع في رحلي هو الذي جعل البضاعة في رحالكم (أجيب) بأنهم لما شاهدوا الصاع وقد أخرج من متاعه غلب على ظنهم أنه سرق فلذلك نسبوه الى السرقة في ظاهر الامر لا في حقيقة الحال ويدل على أنهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم (وما شهدنا) عليه (الا بما علمنا) ظاهرا من رؤيتنا الصاع يخرج من وعائه وأما قوله وضع الصاع في رحلي من وضع البضاعة في رحالكم فالفرق ظاهر لان هناك لما رجعوا بالبضاعة اليهم اعترفوا بأنهم هم الذين وضعوها في رحالهم وأما هذا الصاع فان أحدا لم يعترف بأنه هو الذي وضع الصاع في رحله فلهذا السبب غلب على ظنهم أنه سرق فشهدوا بناء على الظن (وما كنا للغيب) أي ما غاب عنا حين أعطينا الموثق (حافظين) أي ما كنا نعلم ان ابنك يسرق ويصير أمرنا الى هذا ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به معنا وانما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا الى حفظه سبيل وحقيقة الحال غير معلومة لنا فان الغيب لا يعلمه الا الله تعالى فلعل الصاع دس في رحله ونحن لا نعلم ذلك فلعل حيلة دبرت في ذلك غاب عنا علمها كما صنع في رد بضاعتنا (واسأل القرية) أي أهلها على حذف المضاف وهو مجاز مشهور وقيل انه مجاز لكنه من باب اطلاق المحل وارادة الحال (التي كنا فيها) وهي مصر عما أخبرناك به يخبروك بصدقنا فان الامر قد اشتهر عندهم وقيل هي قرية من قرى مصر كانوا ارتحلوا منها الى مصر (و) اسأل (العير) أي القافلة وهم قوم من كنعان جيران يعقوب عليه السلام (التي أقبلنا فيها) والسؤال طلب الاخبار بأداته من الهمزة أو هل أو غيرهما والقرية الارض الجامعة لحدود فاصلة وأصلها من قريت الماء جمعته والعير قافلة الحمير من العير بالفتح وهو الحمار هذا هو الاصل ثم كثر حتى استعمل في غير الحمير ولما كان ذلك

بالانكار لما يتحقق من كرم أخيهم أكدوه بقولهم (وانا) أى والله انا (لصادقون) فى أقوالنا ولما رجعوا الى أبيهم وقالوا له ما قال كبيرهم فكأنه قيل فما قال لهم فقيل (قال) لهم (بل سولت) أى زينت تزيينا فيه غى (لكم أنفسكم أمرا) أى حدثتكم بأمر ففعلتموه والا فما أدرى الملك أن السارق يؤخذ بسرقته (فصبر جميل) أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل صبرى أو أجمل وقدم مثل ذلك فى واقعة يوسف الا أنه قال فيها والله المستعان على ما تصفون وقال هنا (عسى الله أن يأتينى بهم) أى بيوسف وشقيقه بنيامين والاخ الثالث الذى أقام بمصر (جميعا) أى فلا يتخلف منهم أحد وانما قال يعقوب عليه السلام هذه المقالة لانه لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته علم ان الله تعالى سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله تعالى وتفرس ان هذه الافعال نشأت عن يوسف عليه السلام وان الامر يرجع الى سلامة واجتماع ثم علل هذا بقوله (انه هو العليم) أى البليغ العلم بما خفى عنا من ذلك فيعلم أسبابه الموصلة الى المقاصد (الحكيم) أى البليغ فيما يدبره ويقضيه (و) لما ضاق قلب يعقوب عليه السلام بسبب الكلام الذى سمعه من أبنائه فى حق بنيامين (تولى عنهم) أى انصرف بوجهه عنهم لما توالى عنده من الحزن (وقال يا أسفا) أى يا أسفى (على يوسف) أى تعال هذا أوانك والاسف أشد الحزن والحسرة والالف بدل من ياء المتكلم وانما تأسف على يوسف دون أخويه والحادث انما هو مصيبتهما الان مصيبته كانت قاعدة المصائب والحزن القديم اذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الاول كما قال متمم بن نويرة لما رأى قبرا جديدا جدد حزنه على أخيه مالك

فقالوا أتبكى كل قبر رأيته * لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت نعم ان الاسى يبعث الاسى * فدعنى فهذا كله قبر مالك

ولانه كان واثقا بحياتهما دون حياته وفى حديث رواه الطبرانى لم تعط أمة من الامم انا لله وانا اليه راجعون عند المصيبة الا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ألا ترى الى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال يا أسفا (وابيضت عيناه) أى انمحق سوادهما وبدل بياضا (من الحزن) أى من كثرة البكاء عليه وقيل عند غلبة البكاء يكثر الماء فى العين فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء وقيل ضعف بصره حتى صار يدرك ادراكا لطيفا وقيل عمى وقال مقاتل لم يبصر بهما ست سنين حتى كشفه الله تعالى بقميص يوسف عليه السلام قيل ان جبريل عليه السلام دخل على يوسف فى السجن فقال ان بصر أبيك ذهب من الحزن عليك فوضع يده على رأسه وقال ليت أمى لم تلدنى ولم أكن حزنا على أبى (فان قيل) هذا اظهار للجزع وجار مجرى الشكاية وهو لا يليق بمثل يعقوب عليه السلام (أجيب) بأنه لم يذكر الا هذه الكلمة ثم عظم بكاؤه ثم أمسك لسانه عن النياحة وذكر ما لا ينبغى ولم يظهر الشكاية مع أحد من الخلق ويدل لذلك قوله (فهو كظيم) أى مغموم مكروب لا يظهر كربه وقوله انما أشكو بثى وحزنى الى الله فكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبته وقويت محنته صبر وتجرع الغصة وما أظهر

الشكاية

الشكاية به فلاجرم استوجب به المدح العظيم والثناء الجزيل روى ان يوسف عليه السلام قال لجبريل عليه السلام هل لك علم بيعقوب قال نعم قال فكيف حزنه قال حزن سبعين ثكلى وهى التى لها ولد واحد يموت قال فهل له أجر قال نعم أجر مائة شهيد ولعل أمثال ذلك لايدخل تحت التكليف فانه قل من علك نفسه عند الشدائد وأيضا البكاء مباح فقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولانقول مايسخط الرب وانا على فراقك ياابراهيم لمحزونون رواه الشيخان * (تنبيه) * شرف الانسان باللسان والعين والقلب فبين تعالى أن هذه الثلاثة كانت غريقة فى الغم فاللسان كان مشغولا بقوله ياأسفا والعين بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد الذى يشبه الوعاء المملوء الذى سد فلايمكن خروج الماء منه وهذا مبالغة فى وصف ذلك الغم * ولما وقع من يعقوب عليه السلام ذلك كان قائلا يقول فما قال له أولاده فقيل (قالوا) له حنقا من ذلك (تالله تفتؤ) أى لاتفتؤ أى لاتزال (تذكر يوسف) تفجعا فتفتؤ جواب القسم وهو على حذف لا كقول الشاعر

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولوقطعوا رأسى اليك وأوصالى

ويدل على حذفها أنه لوكان مثبتا لاقترن بلام الابتداء ونون التوكيد معا عند البصريين أوأحدهما عند الكوفيين فتفتؤ هنا ناقصة بمعنى لاتزال كما تقرر ورسمت تفتؤ بالواو (حتى) الى أن (تكون حرضا) أى مشرفا على الهلاك لطول مرضك وهو مصدر يستوى فيه الواحد وغيره (أو تكون من الهالكين) أى الموتى (فان قيل) لم حلفوا على ذلك مع أنهم لم يعلموا ذلك قطعا (أجيب) بأنهم بنوا الامر على الظاهر قال أكثر المفسرين قائل هذا الكلام هم اخوة يوسف وقال بعضهم ليس الاخوة بل الجماعة الذين كانوا فى الدار من أولاده وخدمه * ولما قالوا له ذلك فكان قائلا يقول فما قال لهم فقيل (قال) لهم (انما أشكو بثى) والبث أشد الحزن سمى بذلك لانه من صعوبته لايطاق حمله فيباح به وينشر (وحزنى) مطلقا وان كان سببه خفيفا يقدر الخلق على ازالته (الى الله) المحيط بكل شئ علما وقدرة لا الى غيره فهو الذى تنفع الشكوى اليه (وأعلم من الله) أى الملك الاعلى من اللطف بنا أهل البيت (مالاتعلمون) فيأتينى بالفرج من حيث لا أحتسب وفى ذلك اشارة الى أنه كان يعلم حياة يوسف ويتوقع رجوعه اليه وذكروا لسبب هذا التوقع أمورا أحدها أن ملك الموت أتاه فقال له ياملك الموت هل قبضت روح ابنى يوسف قال لا ياني الله ثم أشار الى جانب مصر وقال اطلبه من ههنا ولذلك قال (يابنى اذهبوا فتحسسوا) أى والتحسس طلب الخبر بالحاسة وهو قريب من التجسس بالجيم وقيل التحسيس بالحاء يكون فى الخير وبالجيم يكون فى الشر ومنه الجاسوس وهو الذى يطلب الكشف عن عورة الناس والمعنى تحسسوا خبرا (من) أخبار (يوسف وأخيه) أى اطلبوا خبرهما وثانيها أنه علم أن رؤيا يوسف عليه السلام صادقة لان أمارات الرشد والكمال ظاهرة فى حق يوسف عليه السلام ورؤيا مثله لاتخطئ وثالثها لعله تعالى أوحى اليه أنه سيوصله اليه ولكنه تعالى ماعين الوقت فلهذا بقى فى القلق ورابعها قال السدى لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكماله

حاله وأقواله وأفعاله طمع فى أن يكون هو يوسف وقال بعد أن يظهر فى الكفار مثله ثم
تلطف بنيه وقال لهم (ولا تيأسوا) أى تقنطوا (من روح الله) قال ابن عباس من رحمة الله
وقال قتادة من فضل الله وقال ابن زيد من فرج الله (انه لا ييأس من روح الله الا القوم
الكافرون) أى المغرقون فى الكفر قال ابن عباس ان المؤمن من الله على خير يرجوه فى البلاء
ويحمده على الرخاء والكافر على الضد من ذلك فان اليأس من رحمة الله لا يحصل الا اذا اعتقد
الانسان أن اله العالم غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم بل هو
بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر واذا كان اليأس لا يحصل الا عند حصول أحد
هذه الثلاثة وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل الا لمن كان كافرا وقرأ البزى بعد التاء
من تيأسوا وبعد الياء من لا ييأس بألف وبعدها ياء مفتوحة بخلاف عنه والباقون بهمزة
مفتوحة قبلها ياء ساكنة ولما قال يعقوب عليه السلام لبنيه ذلك قبلوا منه هذه الوصية وعادوا
الى مصر (فلما دخلوا عليه) أى على يوسف عليه السلام (قالوا يا أيها العزيز) وكان العزيز
لقب الملك مصر يومئذ (مسنا وأهلنا) أى من خلفناهم وراءنا (الضر) أى لابستنا ملابسة
قصمتها (وجئنا ببضاعة) وقالوا (مزجاة) اما لنقصها أو لرداءتها أو لهما جميعا وقال الحسن
البضاعة المزجاة القليلة واختلفوا فى تلك الرداءة فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة
لا تقبل فى ثمن الطعام وقيل متاع الاعراب الصوف والسمن وقيل الاقط وقيل النعال والادم
وقيل ان دراهم مصر كان ينقش فيها صورة يوسف عليه السلام والدراهم التى جاؤا بها ما كان
فيها ذلك فما كانت مقبولة عند الناس ثم سببوا عن هذا الاعتذار لانه أقرب الى رحمة أهل
الكرم قولهم (فأوف لنا الكيل) أى شفقة علينا بسبب ضعفنا (وتصدق) أى تفضل (علينا)
زيادة على الوفاء كما عودتنا بفضل ترجو ثوابه ولما رأوا أفعاله تدل على تمسكه بدين الله تعالى عللوا
ذلك بقولهم (ان الله) أى الذى له الكمال كله (يجزى المتصدقين) أى وان كانت على غنى قوى
فكيف اذا كانت على أهل الحاجة والضعف * (فائدة) * سئل سفيان بن عيينة هل حرمت
الصدقة على نبى من الانبياء سوى نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام قال سفيان ألم تسمع قوله
وتصدق علينا الآية يريد أن الصدقة كانت حلالا لهم ولابيهم وروى أن الحسن سمع رجلا
يقول اللهم تصدق على قال ان الله لا يتصدق وانما يتصدق من يبغى الثواب قل اللهم أعطنى
وتفضل على * (فان قيل) اذا كان ابوهم أمرهم أن يتحسسوا من يوسف وأخيه فلم عادوا الى
الشكوى (أجيب) بأن المتحسس يتوصل الى مطلوبه بجميع الطرق والاعتراف بالعجز
وضيق اليد ورقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة وذلك مما يرقق القلب فقالوا نجربه فى هذه الامور
فان رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود والا سكتنا فقدموا هذه المقدمة قال أبو اسحق ذكر لى
أنهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته الرقة على اخوته فارفض دمعه فباح بالذى كان يكتم فلهذا
(قال) لهم (هل علمتم) مقررا لهم بعد ان استأنسوا به قال البقاعى والظاهر ان هذا كان بغير
ترجمان (ما) أى قبح الذى (فعلتم بيوسف) أى أخيكم الذى حلتم بينه وبين أبيه (وأخيه) فى

جعلكم اياه فريدا منه ذليلا بينكم ثم فى قولكم له لما وجد الصاع فى رحله لا يزال يأتينا البلاء من قبلكم يا بنى راحيل وانما قال لهم ذلك نصحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتثريبا وقيل أعطوه كتاب يعقوب عليه السلام فى تخليص بنيامين وذكروا له ما هو فيه من الحزن على فقد يوسف وأخيه فقال لهم ذلك وقوله (اذ أنتم جاهلون) أى فاعلون فعلهم أولانهم كانوا حينئذ صبيانا طياشين تلويحا الى معرفته فقد روى أنه لما قال هذا تبسم وكان فى تبسمه أمر من الحسن لا يجهله منه من رآه ولو مرة واحدة فعرفوه بذلك فلذلك (قالوا أئنك لأنت يوسف) استفهام تقرير ولذلك حقق بان واللام عليه وقيل عرفوه بنظره وخلقه حين كلمهم وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب واسحق مثلها وقرأ ابن كثير بهمزة مكسورة بعدها نون على الخبر وقرأ قالون وأبو عمرو بهمزة مفتوحة بعدها همزة مكسورة مسهلة بينهما ألف على الاستفهام وقرأ ورش بغير ألف بينهما والتسهيل فى الثانية على الاستفهام أيضا وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين مع القصر ولهشام وجه ثان وهو المد وقيل انهم لم يعرفوه حتى (قال) لهم (أنا يوسف) وزادهم بقوله (وهذا أخى) بنيامين شقيقى وانما ذكره لهم ليزيدهم ذلك معرفة له وتثبيتا فى أمره وليبنى عليه قوله (قد من الله علينا) قال ابن عباس بكل خير فى الدنيا والآخرة وقال آخرون بالجمع بيننا بعد التفرقة (انه من يتق) أى المعاصى (ويصبر) أى على البليات وأذى الناس وقال ابن عباس يتق الزنا ويصبر على العزوبة وقال مجاهد يتق المعصية ويصبر على السجن (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) والمعنى انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين وقرأ قنبل باثبات الياء بعد القاف وقفا ووصلا واختلف المعربون فى ذلك على وجهين أجودهما أن اثبات حرف العلة فى الجزم لغة لبعض العرب وأنشدوا عليه قول قيس بن زهير

ألم يأتيك والانباء تنمى * بما لاقت لبون بنى زياد

(وقول الآخر)

هجوت زبان ثم جئت معتذرا * من هجو زبان لم تهجو ولم تدع

(وقول الآخر)

اذا العجوز غضبت فطلق * ولا ترضاها ولا تملق

والثانى أنه مرفوع غير مجزوم ومن موصولة والفعل صلتها فلذلك ثبت باثبات لامه وسكن يصبر لتوالى الحركات وان كانت فى كلمتين وقرأ الباقون بالحذف وقفا ووصلا ولما ذكر يوسف عليه السلام لاخوته ان الله تعالى من عليه وأنه من يتق ويصبر فان الله تعالى لا يضيعهم صدقوه فيه واعترفوا له بالفضل والمرتبة ولذلك (قالوا) مقسمين بقولهم (تالله) أى الملك الاعظم (لقد آثرك) أى اختارك (الله علينا) بالعلم والعقل والحلم والحسن والملك والتقوى وغير ذلك واحتج بعضهم بهذه الآية على ان اخوته ما كانوا أنبياء لان جميع المناصب التى تكون مغايرة لمنصب النبوة

كالعدم بالنسبة اليه فلو شاركوه فى منصب النبوة لما قالوا ذلك ثم قالوا (وان كنا لخاطئين) أى والحال ان شأننا انا كنا مذنبين بما فعلنا معك ولذلك أذلنا الله تعالى لك فكأنه قيل ما قال لهم على قدرته وتمكنه مع ما سلف من اهانتهم له فقيل (قال) لهم قول الكرام اقتداء باخوانه من الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام (لا تثريب) أى لا لوم ولا تعنيف ولا اهلاك (عليكم اليوم) وانما خصه بالذكر لانه مظنة التثريب فاذا انتفى ذلك فيه فما ظنك بما بعده ولما أعفاهم من التثريب كانوا فى مظنة السؤال عن كمال العفو المزيل للعقاب من الله تعالى فاتبعه الجواب عن ذلك بالدعاء لهم بقوله (يغفر الله) أى الذى لا اله غيره (لكم) أى ما فرط منكم وعبر فى هذا الدعاء بالمضارع ارشاد الهم الى اخلاص التوبة ورغبهم فى ذلك ورجاهم بالصفة التى هى سبب الغفران فقال (وهو) تعالى (أرحم الراحمين) لجميع العباد لاسيما التائب فهو جدير بادراك النعم روى أنهم أرسلوا اليه انك لتدعونا الى طعامك وكرامتك بكرة وعشيا ونحن نستحى مما فرط منا فقال ان أهل مصر ينظرون الى وان ملكت فيهم بعين العبودية فيقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت الآن بكم وعظمت فى العيون حيث علم الناس أنكم اخوتى وانى من ذرية ابراهيم عليه السلام ولما اقر أعينهم بعد اجتماع شملهم بازالة ما يخشونه دنيا وأخرى سأل عن أبيه فقال ما فعل أبى بعدى قالوا ابيضت عيناه من الحزن فأعطاهم قميصه وقال (اذهبوا بقميصى هذا) وهو قميص ابراهيم عليه السلام الذى لبسه حين ألقى فى النار عريانا فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه اياه وكان ذلك عند ابراهيم فلما مات ابراهيم ورثه اسحق فلما مات اسحق ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك فى قصبة من فضة وسد رأسها وعلقها فى عنقه لما كان يخاف عليه من العين وكان لا يفارقه فلما ألقى فى البئر عريانا جاءه جبريل وعلى يوسف ذلك التعويذ فأخرج القميص وألبسه اياه ففى الوقت جاء جبريل عليه السلام وقال ارسل ذلك القميص فان فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا على سقيم الا عوفى فدفع يوسف ذلك القميص الى اخوته وقال اذا وصلتم الى أبى (فالقوه على وجه أبى يأت) أى يصر (بصيرا) أى يرد اليه بصره كما كان أو يأت الى حال كونه بصيرا (وأتونى) أى أبى وأنتم (بأهلكم) أى مصاحبين لكم (أجمعين) لا يتخلف منكم أحد فرجعوا بالقميص لهذا القصد وروى أن يهوذا هو الذى حمل القميص لما الطخوه بالدم فقال لا يحمل هذا غيرى لافرحه كما أحزنته فحمله وهو حاف من مصر الى كنعان وبينهما ثمانون فرسخا (ولما فصلت العير) من عريش مصر وهو آخر بلاد مصر الى أول بلاد الشأم (قال أبوهم) لولد ولده ومن حوله من أهله مؤكدا لعلمه أنهم ينكرون قوله (انى لأجد ريح يوسف) أوصلته اليه ريح الصبا باذن الله تعالى من مسيرة ثلاثة أيام أو ثمانية أو أكثر قال مجاهد هبت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة فى الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام أنه ليس فى الدنيا من ريح الجنة الا ما كان من ذلك القميص قال أهل المعانى ان الله تعالى أوصل اليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجىء وقت الفرج من المكان

البعيد ومنع من وصول خبره اليه مع قرب احدى البلدتين من الاخرى فى مدة ثمانين سنة وذلك يدل على أن كل سهل فهو فى زمان المحنة صعب وكل صعب فهو فى زمان الاقبال سهل ومعنى أجد ريح يوسف أشم وعبر بالوجود لانه وجدان له بحاسة الشم (لولا أن تفندون) أى تنسبونى الى الخرف قال أبو بكر الانبارى أفند الرجل اذا خرف وتغير عقله وعن الاصمعى اذا كثر كلام الرجل من خرف فهو مفند قال فى الكشاف يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة لانها لم تكن فى شبيبتها ذات رأى حتى تفند فى كبرها وقيل التفنيد الافساد يقال فندت فلانا اذا أفسدت رأيه ورددته قال بعضهم

يا صاحبى دعا لومى وتفنيدى * فليس ما فات من أمر بمردود

ولما ذكر يعقوب عليه السلام ذلك (قالوا) أى الحاضرون عنده (تالله انك لفى ضلالك) أى حبك (القديم) ليوسف لا تنساه ولا تذهل عنه على بعد العهد وهو كقول اخوة يوسف ان أبانا لفى ضلال مبين وقال مقاتل معنى الضلال هنا الشقاء أى شقاء الدنيا والمعنى انك لفى شقائك القديم بما تكابده من الاحزان على يوسف وقال الحسن انما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات فكان يعقوب فى ولوعه بذكره ذاهبا عن الرشد والصواب ثم انهم عملوا له بشرا فأسرع قبل وصولهم بالقميص (فلما) وزيدت (أن) لتأكيد مجيئه على تلك الحالة وزيادتها بعد لما قياس مطرد (جاء البشير) وهو يهوذا بذلك القميص (ألقاه) أى طرحه البشير (على وجهه) أى يعقوب وقيل ألقاه يعقوب على وجه نفسه (فارتد) أى رجع (بصيرا) أى صيره الله بصيرا كما كان كما يقال طالت النخلة والله تعالى هو الذى أطالها * ولما ألقى القميص على وجهه وبشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه وانشرح صدره وزالت أحزانه فعند ذلك (قال) لبنيه (ألم أقل لكم انى أعلم من الله ما لا تعلمون) من حياة يوسف وان الله تعالى يجمع بيننا قال السهيلى لما جاء البشير الى يعقوب عليه السلام أعطاه فى بشارته كلمات كان يرويها عن أبيه عن جده عليهم السلام وهى يا لطيفا فوق كل لطيف الطف بى فى أمورى كلها كما أحب ورضنى فى دنياى وآخرتى وروى أن يعقوب عليه السلام قال للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة فعند ذلك (قالوا يا أبانا) منادين بالاداة التى تدل على الاهتمام العظيم بما بعدها لما له من عظيم الوقع (استغفر) أى اطلب من الله تعالى أن يغفر (لنا ذنوبنا) أى التى اقترفناها ثم قالوا مؤكدين تحقيقا للاخلاص فى التوبة (انا كنا خاطئين) أى متعمدين للاثم بما ارتكبنا فى أمر يوسف عليه السلام ومن حق المعترف بذنبه أن يصفح عنه ويسئل له المغفرة. قال صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه فكأنه قيل فما قال لهم فقيل (قال) لهم (سوف أستغفر) أى أطلب أن يغفر (لكم ربى) الذى أحسن الى بأن يغفر لبنى حتى لا يفرق بينى وبينهم فى دار البقاء والربوبية ملك هو أتم الملك على الاطلاق وهو ملك الله تعالى وظاهر هذا الكلام أنه لم يستغفر لهم فى الحال بل وعدهم بأن يستغفر لهم بعد ذلك

واختلفوا فى سبب هذا المعنى على وجوه فقال ابن عباس والاكثرون أراد أن يستغفر لهم فى وقت السحر لان هذا الوقت أوفق الاوقات لرجاء الاجابة وفى رواية أخرى له أنه أخر الاستغفار الى ليلة الجمعة لانها أوفق لاوقات الاجابة وقال وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة وقال طاوس أخر الى السحر من ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشوراء وقيل استغفر لهم فى الحال وقوله سوف استغفر لكم معناه انى أداوم على هذا الاستغفار فى الزمان المستقبل وقيل قام الى الصلاة فى وقت السحر فلما فرغ رفع يديه وقال اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لاولادى مافعلوا فى حق يوسف فأوحى الله تعالى اليه انى قد غفرت لك ولهم أجمعين وعن الشعبى قال أسأل يوسف ان عفا عنكم أستغفر لكم ربى (انه هو الغفور الرحيم) كل ذلك تسكينا لقلوبهم وتصحيحا لرجائهم وروى أن يوسف عليه السلام كان بعث مع البشير الى يعقوب عليه السلام مائتى راحلة وجهازا كثيرا ليأتوا بيعقوب وأهله وولده فتهيأ يعقوب عليه السلام للخروج الى مصر فخرج بهم فلما دنا من مصر كلم يوسف الملك الذى فوقه فخرج يوسف عليه السلام والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء وركب أهل مصر معهما بأجمعهم يتلقون يعقوب وكان يعقوب يمشى وهو يتوكأ على يهوذا فنظر الى الخيل والناس فقال يا يهوذا هذا فرعون مصر قال لا هذا ابنك يوسف فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدؤه بالسلام فقال له جبريل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام فقال يعقوب السلام عليك يامذهب الاحزان وقال الثورى لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكى فقال يوسف ياأبت بكيت على حتى ابيضت عيناك ألم تعلم ان القيامة تجمعنا قال بلى يابنى ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بينى وبينك فذلك قوله تعالى (فلما دخلوا على يوسف آوى) أى ضم (اليه أبويه) قال الحسن أباه وأمه وكانت حية اكرامالهما بما تميزان به وغلب الاب فى التثنية لذكورته وعن ابن عباس أنها خالته ليا وكانت أمه قدماتت فى نفاس بنيامين قال البغوى وفى بعض التفاسير ان الله تعالى أحيا أمه حتى جاءت مع يعقوب الى مصر (فان قيل) مامعنى دخولهم عليه قبل مصر (أجيب) بأنه حين استقبلهم نزل بهم فى خيمة أو بيت هناك فدخلوا عليه وضم اليه أبويه (وقال) مكرما (ادخلوا مصر) أى البلد المعروف وأتى بالشرط للامن لا للدخول فقال (ان شاء الله آمنين) من جميع ماينوب حتى عما فرطتم فى حقى وفى حق أخى روى أن يعقوب عليه السلام وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى عليه السلام والمقاتلون منهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الصبيان والشيوخ (و) لما استقرت بهم الدار بدخول مصر (رفع أبويه) أى أجلسهما معه (على العرش) أى السرير الرفيع والرفع هو النقل الى العلو (وخروا له) أى انحنوا له أبواه واخوته (سجدا) أى سجود انحناء وتواضع قد يسمى سجودا كقول الشاعر ترى الاكم فيها سجدا للحوافر لا وضع جبهة وكانت تحيتهم فى ذلك الزمان أو أنهم وضعوا الجباه وكان ذلك على طريقة التحية والتعظيم لا على طريقة

العبادة وكان ذلك جائزا فى الامم السالفة فنسخت فى هذه الشريعة وروى عن ابن عباس أنه قال معناه خروا لله سجدا بين يدى يوسف عليه السلام فيكون سجود شكر لله لاجل وجدان يوسف ويدل عليه قوله تعالى ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وذلك يشعر بأنهم صعدوا على السرير ثم سجدوا لله تعالى ولو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لان ذلك أدخل فى التواضع (فان قيل) هذا التأويل لا يطابق قول يوسف عليه السلام (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل) والمراد منه قوله انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين أى رأيتهم ساجدين لاجلى أى انهم سجدوا لله لطلب مصلحتى والسعى فى اعلاء منصبى واذا كان هذا محتملا سقط السؤال قال الرازى وعندى أن هذا التأويل متعين لانه يبعد من عقل يوسف ودينه أن يرضى بأن يسجد له أبوه مع سابقته فى حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة أو أنهم جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا شكرا لنعمة وجدانه فانه يقال صليت للكعبة كما يقال صليت الى الكعبة قال حسان

ما كنت أعرف ان الامر منصرف * عن هاشم ثم منها عن أبى الحسن
أليس أول من صلى لقبلتكم * واعرف الناس بالآثار والسنن

ثم استأنف يوسف عليه السلام فقال (قد جعلها ربى) أى الذى ربانى بها وصلنى اليها (حقا) أى مطابقة للواقع لتأويلها وتأويل ما أخبرتنى به أنت والتأويل تفسير ما يؤول اليه معنى الكلام وعن سلمان رضى الله تعالى عنه أن ما بين رؤياه وتأويلها أربعون سنة وعن الحسن أنه ألقى فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وبقى فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ثم وصل الى أبيه وأقاربه وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة فكان عمره مائة وعشرين سنة (وقد أحسن) أى أوقع احسانه (بى) تصديقا لما بشرتنى به من اتمام النعمة وتعدية أحسن بالباء أدل على القرب من التعدية بالى وان كان أصل أحسن أن يتعدى بالى كما قال تعالى وأحسن كما أحسن الله اليك وقيل ضمن معنى لطف فتعدى بالباء كقوله تعالى وبالوالدين احسانا وقال (اذ أخرجنى من السجن) ولم يذكر اخراجه من الجب لوجوه أولها انه قال لاخوته لا تثريب عليكم اليوم ولو ذكر واقعة الجب لكان ذلك تثريبا لهم فكان اهماله جاريا مجرى الكرم ثانيها أنه لما خرج من الجب لم يصر ملكا بل صيروه عبدا واما صار ملكا بعد اخراجه من السجن فكان هذا الاخراج أقرب من أن يكون انعاما كاملا ثالثها أنه لما خرج من الجب وقع فى المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة ولما خرج من السجن وصل الى أبيه واخوته فكان هذا أقرب الى المنفعة مع أن اللفظ محتمل للجب أيضا لكنه احتمال خفى ولما كان يعقوب وولده بأرض كنعان وتحول الى بدو قال ابن عباس ومنه قدم على يوسف قال يوسف عليه السلام (وجاء بكم من البدو) أى من أطراف بادية فلسطين وذلك من أكبر النعم كما جاء فى الحديث من يرد الله به خيرا ينقله من البادية الى الحاضرة والبدو ضد الحاضرة وهو من الظهور يقال بدا يبدو اذا سكن فى البادية يروى عن عمر اذا بدونا جفونا أى تخلقنا بأخلاق البدويين قال الواحدى البدو بسط من الارض يظهر فيه

الشخص من بعيد وأصله من بدا يبدو بدوا ثم سمى المكان باسم المصدر وفى الآية دلالة على أن فعل العبد خلق الله تعالى لانه أضاف اخراجه من السجن الى الله تعالى ومجيئهم من البدو اليه (من بعد أن نزغ) أى أفسد (الشيطان) بسبب الحسد (بينى وبين اخوتى) وأصل النزغ دخول فى أمر لافساده (فان قيل) اضافة يوسف عليه السلام الخير الى الله تعالى والشر الى الشيطان تقتضى ان فعل الشر ليس من الله تعالى كما قاله بعض المبتدعة ولو كان منه لاضافه اليه (أجيب) بأن اضافة هذا الفعل الى الشيطان مجاز لان الفاعل المطلق هو الله تعالى فى الحقيقة قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فثبت بذلك ان الكل من عند الله تعالى وبقضائه وقدره وليس للشيطان فيه مدخل الا بالقاء الوسوسة والتحريش لافساد ذات البين وذلك باقدار الله تعالى اياه على ذلك كما حكى الله تعالى ذلك عنه بقوله تعالى وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى ولما كان حصول الاجتماع بينه وبين اخوته وأبويه مع الالفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال وكان فى غاية البعد عن العقول الا أنه تعالى لطيف قال يوسف عليه السلام (ان ربى لطيف لما يشاء) أى لطيف التدبير له اذ مامن صعب الا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهل دونها فاذا أراد حصول الشئ سهل أسبابه فحصل وان كان فى غاية البعد عن الحصول (انه هو العليم) بوجوه المصالح والتدابير (الحكيم) أى الذى يفعل كل شئ فى وقته وعلى وجه يقتضى الحكمة روى أن يوسف عليه السلام طاف بأبيه فى خزائنه فلما أدخله خزانة القرطاس قال يا بنى ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت الىّ على ثمان مراحل قال أمرنى جبريل بذلك قال أوما تسأله قال أنت أقرب منى اليه فسأله فقال جبريل الله أمرنى بذلك لقولك وأخاف أن يأكله الذئب قال فهلا خفتنى ولما حضر يعقوب عليه السلام الموت وصى يوسف عليه السلام أن يحمله ويدفنه عند أبيه فمضى بنفسه فدفنه ثمة ثم عاد الى مصر وأقام بعده ثلاثا وعشرين سنة ولما تم أمره وعلم أنه لا يدوم تاقت نفسه الى الملك الدائم فقال (رب قد آتيتنى) وافتتح بقد لان الحال حال توقع السامع لشرح حال الرؤيا (من الملك) أى بعضه بعد بعدى منه بدا وهو ملك مصر (وعلمتنى من) أى بعض (تأويل الاحاديث) طبق ما بشرنى به أبى وأخبرت به أنت من التمكين والتعليم قبل قولك والله غالب على أمره ثم ناداه بوصف جامع للعلم والحكمة فقال (فاطر) أى خالق (السموات والارض) ثم أعلمه بما هو أعلم به منه من أنه لا يعوّل على غيره فى شئ من الاشياء (أنت وليى) أى الاقرب الىّ باطنا وظاهرا (فى الدنيا والآخرة) أى لا ولى لى غيرك والولى يفعل لموليه الاصلح والاحسن فأحسن لى فى الآخرة أعظم مما أحسنت لى فى الدنيا روى أنه صلى الله عليه وسلم حكى عن جبريل عن رب العزة جل وعلا أنه قال من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين فلهذا المعنى من أراد الدعاء لابد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله تعالى فهذا يوسف عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض ثم ذكر عقبه الدعاء وهو قوله (توفنى) أى

اقبض

اقبض روحى وافيا تاما فى جميع أمرى حسا ومعنى حال كونى (مسلما) ولما كان المسلم حقيقة من كان عريقا فى الاخلاص عقبه بقوله (وألحقنى بالصالحين) ونظيره ما فعله الخليل عليه السلام فى قوله الذى خلقنى فهو يهدين فمن ههنا الى قوله رب هب لى حكما ثناء على الله تعالى ثم من قوله رب هب لى حكما الى آخر الكلام دعاء فكذا هنا *(تنبيه)* اختلف فى قوله توفنى مسلما هل هو طلب منه للوفاة أم لا فقال قتادة سأل ربه اللحوق به ولم يتمن نبى قط الموت قبله وكثير من المفسرين على هذا القول وقال ابن عباس فى رواية عطاء يريد اذا توفيتنى فتوفنى على الاسلام فهذا طلب لان يجعل الله تعالى وفاته على الاسلام وليس فيه ما يدل على انه طلب الوفاة واللفظ صالح للامرين ولا يبعد فى الرجل العاقل اذا كمل عقله أن يتمنى الموت وتعظم رغبته فيه لوجوه كثيرة منها ان الخطباء والبلغاء وان أطنبوا فى مذمة الدنيا الا أن حاصل كلامهم يرجع الى ثلاثة أمور أحدها ان هذه السعادات سريعة الزوال مشرفة على الفناء والالم الحاصل عند زوالها أشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها وثانيها انها غير خالصة بل هى ممزوجة بالمنغصات والمكدرات وثالثها ان الاراذل من الخلق يشاركون الافاضل فيها بل ربما كان حصة الاراذل أعظم بكثير من حصة الافاضل فهذه الجهات الثلاثة منفرة عن هذه اللذات ولما عرف العاقل انه لا يحصل تحصيل هذه اللذات الامع هذه الجهات الثلاثة المنفرة لاجرم تمنى الموت ليتخلص عن هذه الآفات ومنها أن تداخل اللذات الدنيوية قليلة وهى ثلاثة أنواع لذة الاكل ولذة النكاح ولذة الرياسة ولكل واحدة منها عيوب كثيرة أما لذة الاكل ففيها عيوب أحدها ان هذه اللذة ليست لذة قوية فانه لا يمكن ابقاؤها فان الانسان اذا أكل وشبع لم يبق فيه الالتذاذ بالاكل فهذه اللذة ضعيفة ومع ضعفها غير باقية وثانيها انها فى نفسها خسيسة وان الاكل عبارة عن ترطيب ذلك الطعام بالبزاق المجتمع فى الفم ولا شك انه شئ منفر ولما يصل الى المعدة يظهر فيه الاستحالة الى الفساد والنتن والعفونة وذلك أيضا منفر وثالثها ان جميع الحيوانات الخسيسة مشاركة له فيها ورابعها ان الاكل انما يطيب عند اشتداد الجوع والجوع نقص وآفة وخامسها ان الاكل مستحقر عند العقلاء حتى قيل من كانت همته ما يدخل فى بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه فهذه اشارات مختصرة الى معايب الاكل وأما لذة النكاح فما ذكر فى الاكل حاصل هنا مع أشياء أخر وهى ان النكاح سبب لحصول الولد وحينئذ تكثر الاشخاص فتكثر الحاجات الى المال فيحتاج الانسان بسببها الى الاحتيال فى المال بطرق لا نهاية لها وربما صار هالكا بسبب طلب المال وأما لذة الرياسة فعيوبها كثيرة منها أن يكون على شرف الزوال فى كل حين وأوان ومنها انه عند حصولها فى الخوف الشديد من الزوال ومنها أنه يكون عند زوالها فى الاسف العظيم والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال فالعاقل اذا تأمل فى هذه المعانى علم قطعا انه لا اصلاح له فى طلب هذه اللذات فيكون لقاء الله عنده أرجح فيتمنى الموت وعن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه ان ميمون بن مهران بات عنده فرآه كثير البكاء والمسئلة للموت فقال له صنع الله لك خيرا كثيرا أحييت سننا وأمت بدعا وفى حياتك خير وراحة للمسلمين فقال

أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقر الله عينه وجمع له أمره قال توفني مسلما وألحقني بالصالحين (فان قيل) الانبياء عليهم الصلاة والسلام يعلمون أنهم يموتون لا محالة على الاسلام فكان هذا الدعاء حاصله طلب تحصيل الحاصل وانه لا يجوز (أجيب) بأن حال كمال المسلم أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الاستسلام ويرضى بقضاء الله وتطمئن النفس وينشرح الصدر وينفسح القلب في هذا الباب وهذه حالة زائدة على الاسلام الذي هو ضد الكفر والمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى (فان قيل) ان يوسف عليه السلام كان من أكابر الانبياء والصلاح أول درجة المؤمنين فالواصل الى الغاية كيف يليق به أن يطلب البداية (أجيب) بأن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال يعني بأن يلحقه بآبائه ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والمعنى ألحقني بهم في ثوابهم ودرجاتهم وولد ليوسف عليه السلام من امرأة العزيز ثلاثة افرائيم وميشا وهو جد يوشع بن نون ورحمة امرأة أيوب عليهم السلام ولما تاقت نفسه الى الملك المخلد وتمنى الموت فلم يأت عليه أسبوع حتى توفاه الله عز وجل طيبا طاهرا وتشاح الناس في دفنه فطلب أهل كل محلة أن يدفن في محلتهم رجاء بركته حتى هموا بالقتال فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل حيث يتفرق الماء بمصر ليجري عليه الماء وتصل بركته الى جميعهم قال عكرمة دفن في الجانب الايمن من النيل فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر فنقل الى الجانب الايسر فأخصب ذلك الجانب وأجدب الآخر فدفنوه في وسطه وقدروا ذلك بسلسلة فأخصب الجانبان الى أن أخرجه موسى عليه السلام ودفنه بقرب آبائه بالشأم وقد يسر الله تعالى زيارته وزيارة آبائه في عام شرعت في هذا التفسير سنة أربع وستين وتسعمائة جمعني الله تعالى وآبائي وأهلي وأصحابي وأحبابي معهم في دار كرامته * ولما تم الذي كان من أمر يوسف عليه السلام واخوته على الوجه الاحكم والصراط الاقوم من ابتدائه الى انتهائه قال تعالى مشيرا الى أنه دليل كاف في تصحيح نبوته صلى الله عليه وسلم بقوله (ذلك) أي الذي ذكرته لك يا محمد من قصة يوسف عليه السلام وما جرى له مع اخوته ثم صار الى الملك بعد الرق (من أنباء الغيب) أي أخبار ما غاب عنك (نوحيه اليك) أي الذي أخبرناك به من أخبار يوسف وحي أوحيناه اليك (و) الحال انك (ما كنت لديهم) أي عند اخوة يوسف عليه السلام (اذ) أي حين (أجمعوا أمرهم) أي عزموا على أمر واحد وهو القاء يوسف في الجب (وهم يمكرون) أي يدبرون الاذى في الخفية بيوسف والمعنى ان هذا النبأ غيب لانه صلى الله عليه وسلم ما طالع الكتب ولا تتلمذ لاحد ولا كانت البلدة بلدة العلماء واتيانه صلى الله عليه وسلم بهذه القصة الطويلة على وجه لا يقع فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم ومن غير أن يقال انه حاضر معهم لا بد وأن يكون معجزا وقوله تعالى وما كنت لديهم ذكر على سبيل التهكم بهم لان كل أحد يعلم أن محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان معهم ولما سألت قريش واليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نقله أبو حيان عن ابن الانباري عن قصة يوسف عليه السلام فنزلت مشروحة هذا الشرح الشافي مبينة هذا البيان الوافي فأمل صلى الله عليه وسلم أن يكون

ذلك سبب اسلامهم نخالفوا تأميله عزاه الله تعالى بقوله (وما أكثر الناس) أى أهل مكة (ولو حرصت) على ايمانهم (بمؤمنين) لعنادهم وتصميمهم على الكفر وكان ذلك اشارة الى ماذكر الله تعالى فى قوله تعالى انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ثم نفى عنه التهمة بقوله تعالى (وما تسألهم عليه) أى على تبليغ هذا الكتاب الذى أوحيناه اليك وأغرق فى النفى فقال (من أجر) حتى يكون سؤالك سببا لان يتهموك أو يقولوا لولا أنزل عليه كنز يستغنى به عن سؤالنا ثم نفى عن هذا الكتاب كل غرض دنيوى بقوله تعالى (ان هو الاذكر) أى عظة من الله تعالى (للعالمين) عامة ثم ان الله تعالى أخبر عنهم انهم لما تأملوا الآيات الدالة على توحيده تعالى بقوله تعالى (وكأين) أى وكم (من آية) دالة على وحدانية الله تعالى (فى السموات) كالنيرين وسائر الكواكب والسحاب وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى (والارض) من الجبال والشجر والدواب وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى (يمرون عليها) أى يشاهدونها (وهم عنها معرضون) أى لا يتفكرون فيها فلا عجب اذا لم يتأملوا فى الدلائل على نبوتك فان العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ثم انهم يمرون عليها ولا يلتفتون اليها * ولما كان ربما قيل كيف يوصفون بالاعراض وهم يعتقدون ان الله تعالى فاعل تلك الآيات بين ان اشراكهم سقط لذلك بقوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله) حيث يقرون بأنه الخالق الرازق (الا وهم مشركون) بعبادته الاصنام قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله لكنهم كانوا يثبتون شريكا فى العبودية وعن ابن عباس ان هذه الآية نزلت فى تلبية مشركى العرب كانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك يعنون الاصنام وعنه أيضا أن أهل مكة قالوا الله ربنا وحده لا شريك له والملائكة بناته فلم يوحدوا بل أشركوا وقال عبدة الاصنام ربنا الله وحده والاصنام شفعاؤنا عنده وقالت اليهود ربنا الله وحده وعزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال عبدة الشمس والقمر ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا وقال المهاجرون والانصار ربنا الله وحده لا شريك له ولما كان أكثر هؤلاء لا ينقادون الا بالعذاب قال تعالى (أفأمنوا) انكار فيه معنى التوبيخ والتهديد (أن تأتيهم) فى الدنيا (غاشية) أى نقمة تغشاهم وتشملهم (من عذاب الله) أى الذى له الامر كله كما أتى من ذكرنا قصصهم من الامم (أو تأتيهم الساعة بغتة) أى فجأة وهم عنها فى غاية الغفلة وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) أى بوقت اتيانها قبله كالتأكيد لقوله بغتة * ولما كان صلى الله عليه وسلم مبلغا عن الله تعالى أمره أن يأمرهم باتباعه بقوله تعالى (قل) يا أعلى الخلق وأصفاهم وأعظمهم نصحا وأخلاصا (هذه) أى الدعوة الى الله تعالى التى أدعو اليها (سبيلى) أى طريقتى التى أدعو اليها الناس وهى توحيد الله تعالى ودين الاسلام وسمى الدين سبيلا لانه الطريق المؤدى الى ثواب الجنة (أدعو الى الله) أى الى توحيده والايمان به (على بصيرة) أى حجة واضحة وقوله (أنا) تأكيد للمستتر فى أدعو وعلى بصيرة لانه حال منه أو مبتدأ خبره على بصيرة وقوله (ومن اتبعنى) أى من آمن بى وصدق بما جاء فى عطف عليه لان كل من ذكر الحجة وأجاب عن الشبهة فقد دعا بقدر وسعه

الى الله وهذا دل على أن الدعاء الى الله انما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول و يقين فان لم يكن كذلك والا فهو محض الغرور وقال صلى الله عليه وسلم العلماء أمناء الرسل على عباد الله من حيث يحفظون ما يدعون اليه *(فائدة)* جميع القراء يثبتون الياء وقفا ووصلا لثباتها فى الرسم (وسبحان) أى وقل سبحان (الله) تنزيها له تعالى عما يشركون به (وما أنا من المشركين) أى الذين اتخذوا مع الله ضدا وندا ولما قال أهل مكة للنبى صلى الله عليه وسلم هلا بعث الله ملكا قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك) الى المكلفين (الا رجالا) أى مثل ما انك رجل لا ملائكة ولا اناثا كما قاله ابن عباس ولا من الجن كما قاله الحسن (يوحى اليهم) أى بواسطة الملائكة مثل ما يوحى اليك وقرأ حفص قبل الواو بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء وفتح الحاء وضم الهاء من اليهم حمزة على أصله وكسرها الباقون (من أهل القرى) أى من أهل الامصار والمدن المبنية بالمدر والحجر ونحوه لا من أهل البوادى لان أهل الامصار أفضل وأعلم وأكمل وأعقل من أهل البوادى ومكة أم القرى لانها مجمع لجميع الخلائق لما أمروا به من حج البيت وكان العرب كلهم يأتونها فكيف تعجبوا فى حقك قال الحسن لم يبعث الله نبيا من البادية لغلظهم وجفائهم ثم هددهم سبحانه وتعالى بقوله تعالى (أفلم يسيروا) أى هؤلاء المشركون المكذبون (فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من المكذبين للرسل والآيات فيحذروا تكذيبك ويعتبروا بهم وبما حل بهم من عذابنا * ولما ان الله تعالى نجى المؤمنين عند نزول العذاب بالامم الماضية المكذبة وما فى الآخرة خير لهم بين ذلك بقوله تعالى (ولدار الآخرة) أى ولدار الحال الآخرة أو الساعة الآخرة أو الحياة الآخرة (خير) وهى الجنة (للذين اتقوا) الله من حياة ما آلها الموت وان فرحوا فيها بالمحال وان امتدت ألف عام وكان عيشها كله رغدا من غير آلام (أفلا يعقلون) فيستعملون عقولهم فيتبعون الداعى الى هذا السبيل الاقوم وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتاء على الخطاب لاهل مكة والباقون بالياء على الغيبة لهم وللمشركين المكذبين وقوله تعالى (حتى اذا استيأس الرسل) غاية لمحذوف دل عليه الكلام أى لا يغررهم تمادى أيامهم فان من قبلهم أمهلوا حتى أيس الرسل من النصر عليهم فى الدنيا ومن ايمانهم لانهما كهم فى الكفر مترفين متمادين فيه من غير وازع (وظنوا) أى أيقن الرسل (أنهم قد كذبوا) بالتشديد كما قرأه غير حمزة وعاصم والكسائى تكذيبا لا ايمان بعده وأما بالتخفيف كما قرأه هؤلاء فالمعنى ان الامم ظنوا أن الرسل قد أخلفوا ما وعدوا به من النصر عليهم (جاءهم نصرنا) لهم بخذلان أعدائهم (فنجى من نشاء) أى النبى والمؤمنون وقرأ ابن عامر وعاصم بنون مضمومة بعدها جيم مشددة وياء بعد الجيم مفتوحة والباقون بنونين الاولى مضمومة والثانية ساكنة وتخفيف الجيم وسكون الياء (ولا يرد بأسنا) أى عذابنا (عن القوم المجرمين) أى المشركين ما نزل بهم * ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه القصص وحث على الاعتبار بها بقوله أفلم يسيروا أتبعه بأن فى أحاديثهم أعظم عبرة فقال حثا على تأملها والاستبصار بها (لقد كان فى قصصهم) أى يوسف واخوته أو فى قصص الرسل (عبرة) أى عظة

عظيمة (لأولى الألباب) أى لذوى العقول المبرأة من شوائب الكدر يعتبرون بها إلى ما يسعدهم لأن من قدر على ما قص من أمر يوسف عليه السلام لقادر على أن يعز محمداً صلى الله عليه وسلم ويعلى كلمته وينصره على من عاداه كائناً من كان كما فعل بيوسف وغيره * ولما كان من أجل العبرة فى ذلك القطع بحقية القرآن نبه تعالى على ذلك بتقدير سؤال فقال تعالى (ما كان حديثاً يفترى) أى يختلق لأن الذى جاء به من عند الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه أن يفتريه لأنه لم يقرأ الكتب ولم يتلمذ لأحد ولم يخالط العلماء فمن المحال أن يفترى هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد فى التوراة من غير تفاوت كما يعلم من قوله تعالى (ولكن تصديق الذى بين يديه) أى من الكتب الالهية المنزلة من السماء كالتوراة والانجيل ففى ذلك اشارة الى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما فى التوراة من ذكر قصة يوسف عليه السلام (و) زاد على ذلك بقوله (تفصيل) أى تبيين (كل شئ) أى يحتاج اليه من الدين اذ ما من أمر دينى الا وله سند من القرآن بوسط أو بغير وسط وقيل المراد تفصيل كل شئ من واقعة يوسف مع أبيه واخوته قال الواحدى وعلى التفسيرين جميعاً فهو من العام الذى أريد به الخاص كقوله تعالى ورحمتى وسعت كل شئ أى يجوز أن يدخل فيها وقوله تعالى وأوتيت من كل شئ (وهدى) من الضلال (ورحمة) ينال بها خير الدارين (لقوم يؤمنون) أى يصدقون خصهم بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا به كقوله تعالى هدى للمتقين فسبحان من أنزله معجزاً باهراً وقاضياً بالحق لا يزال ظاهراً وما رواه البيضاوى تبعاً للكشاف من أنه صلى الله عليه وسلم قال علموا أرقاءكم سورة يوسف فانه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد أحداً حديث موضوع والله أعلم

(سورة الرعد مكية)

الا ولا يزال الذين كفروا الآية ويقول الذين كفروا لست مرسلا الآية أو مدنية الا ولو أن قرآناً سيرت به الجبال وهى ثلاث أو أربع أو خمس أو ست وأربعون آية وعدد كلماتها ثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وسبعة أحرف

(بسم الله) الحق الذى كل ما عداه باطل (الرحمن) الذى عم الرغبة والرهبة بعموم الرحمة (الرحيم) الذى خص من شاء بجعل رضاه عظيم الرهبة (المر) قال ابن عباس معناه أنا الله أعلم وأرى وقال فى رواية عطاء أنا الله الملك الرحمن وقد تقدم الكلام على شئ من أوائل السور فى أول سورة البقرة وقرأ قالون وابن كثير وحفص بالفتح وقرأ ورش بين بين والباقون بالامالة (تلك) أى هذه الآيات (آيات الكتاب) أى القرآن والاضافة بمعنى من وقيل المراد بالكتاب السورة الكاملة ووصفت بالكمال من تعريف الكتاب بأل لأن خبر المبتدأ اذا عرف بلام الجنس أفاد المبالغة وقوله تعالى (والذى أنزل اليك من ربك) أى القرآن مبتدأ وخبره (الحق) أى الموضوع كل شئ منه فى موضعه على ما تدعو اليه الحكمة الواضح الذى لا يتخالف شئ منه

عن مطابقة الواقع من بعث ولا غيره (ولكن أكثر الناس) أى مشركى مكة (لا يؤمنون) لاخلالهم بالنظر والتأمل فيه قال مقاتل نزلت فى مشركى مكة حين قالوا ان محمدا يقوله من تلقاء نفسه فرد الله تعالى عليهم بذلك * ولما ذكر تعالى أن أكثر الناس لا يؤمنون ذكر عقبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد بأمور أحدها قوله تعالى (الله الذى رفع السموات بغير عمد) أى سوارى جمع عمود كأدم وأديم أو عماد كاهب واهاب والعمود جسم مستطيل يمنع المرتفع أن يميل (ترونها) أى وأنتم ترون السماء مرفوعة بغير عمد من تحتها تسندها ولا من فوقها علاقة تمسكها فالعمد منفية بالكلية قال اياس بن معاوية السماء مقببة على الارض مثل القبة ففى ذلك دلالة عظيمة على وحدانية الله تعالى لان هذه الاجرام العظيمة بقيت واقفة فى الجو العالى ويستحيل أن يكون بقاؤها هناك لاعيانها ولذاتها فهذا برهان باهر على وجود الاله القادر القاهر وقيل الضمير راجع الى العمد أى ان لها عمدا ولكن لا ترونها أنتم ومن قال بهذا القول يقول ان عمدها على جبل قاف وهو جبل من زمرد محيط بالدنيا والسماء عليه مثل القبة وهذا قول مجاهد وعكرمة قال الرازى وهذا التأويل فى غاية السقوط لان السموات لما كانت مستقرة على جبل قاف فأى دلالة تبقى فيها على وجود الاله * (تنبيه) * الله مبتدأ والذى رفع السموات خبره ويجوز أن يكون الموصول صفة والخبر يدبر الامر ثانيها قوله تعالى (ثم استوى على العرش) بالحفظ والتدبير والقهر والقدرة أى ان من فوق العرش الى ما تحت الثرى فى حفظه وتدبيره وفى الاحتياج اليه وتقدم الكلام على ذلك فى سورة الاعراف بما فيه كفاية وثالثها قوله تعالى (وسخر) أى ذلل (الشمس والقمر) لمنافع خلقه مقهوران يجريان على ما يريد (كل) منهما (يجرى) فى فلكه (لاجل مسمى) أى الى وقت معلوم وهو وقت فناء الدنيا وزوالها وعند مجىء ذلك الوقت تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك التسييرات كما وصف الله تعالى ذلك فى قوله اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت واذا السماء انشقت واذا السماء انفطرت وعن ابن عباس للشمس مائة وثمانون منزلا كل يوم لها منزل وذلك يتم فى ستة أشهر ثم انها تعود مرة أخرى الى واحد واحد منها فى ستة أشهر مرة أخرى وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلا فالمراد بقوله تعالى كل يجرى لاجل مسمى هذا وتحقيقه أنه تعالى قدر لكل واحد من تلك الكواكب سيرا الى جهة خاصة بقدر خاص من السرعة والبطء وحينئذ يلزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك * ثم انه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال (يدبر الامر) أى يقضى أمر ملكه من الايجاد والاعدام والاحياء والاماتة والاغناء والافقار ويدخل فيه انزال الوحى وبعثة الرسل وتكليف العباد وفى ذلك دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لان هذا العالم المعلوم من اعلاء العرش الى ما تحت الثرى أنواع وأجناس لا يحيط بها الا الله عز وجل والدليل المذكور دل على أن اختصاص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ليس الا من الله تعالى ومن المعلوم أن من اشتغل بتدبير شئ آخر فانه يشغله شأن عن شأن فالعاقل اذا تأمل فى هذه الآية يعلم أنه تعالى يدبر عالم

الاجساد

قوله جمع عمود كادم وأديم الخ فى حاشية الجمل والعامة على فتح العين والميم وهو اسم جمع وعبارة بعضهم انه جمع نظرا الى المعنى دون الصناعة وقرأ أبو حيوة ويحيى بن وثاب عمد بضمتين ومفرده يحتمل أن يكون عمادا كشهاب وشهب وكتاب وكتب وأن يكون عمودا كرسول ورسل اه

الاجساد وعالم الارواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شأن عن شأن ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على أنه تعالى متعال في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته عن مشابهة المحدثات والممكنات * ولما كان هذا بيانا شافيا لا لبس فيه قال تعالى (يفصل) أي يبين (الآيات) التي برزت الى الوجود وتدبيرها الدالة على وحدانيته وكمال حكمته المشتملة عليها بتدعاته فيفرقها ويباين بينها مباينة لا لبس فيها تقريبا العقولكم وتدريبا لفهومكم لتعلموا أنها فعل الواحد المختار * ولما كان هذا التدبير وهذا التفصيل دالا على تمام القدرة وغاية الحكمة وكان البعث لفصل القضاء والحكم بالعدل واظهار العظمة هو محط الحكمة عال ذلك بقوله (لعلكم) يا أهل مكة (بلقاء ربكم) بالبعث (توقنون) فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الاشياء وتدبيرها على عظمتها وكثرتها قادر على ايجاد الانسان واحيائه بعد موته يروى أن واحدا قال لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه انه تعالى كيف يحاسب الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الآن دفعة واحدة وكما يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة وحاصل الكلام أنه تعالى كما قدر على ابقاء الاجرام الفلكية والنيرات الكوكبية في الجو العالي لا يبعد أن يرد الارواح الى الاجساد وان كان الخلق عاجزين عنه وكما يمكنه أن يدبر من فوق العرش الى ما تحت الثرى لا يشغله شأن عن شأن فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن *(تنبيه)* اليقين صفة من صفات العلم وهي فوق المعرفة والدراية وهي سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك * ولما ذكر تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته من رفع السماء بغير عمد وأحوال الشمس والقمر أردفها بذكر الدلائل الارضية بقوله تعالى (وهو الذي مد الارض) أي بسطها طولا وعرضا لتثبت عليها الاقدام ويتقلب عليها الحيوان ولو شاء لجعلها كالجدار والازج لا يستطاع القرار عليها هذا اذا قلنا ان الارض مسطحة لا كرة وعند أصحاب الهيئة أنها كرة فكيف يقولون بذلك ومد الارض ينافي كونها كرة كما ثبت بالدليل (أجيب) بأن الارض جسم عظيم والكرة اذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح كما أن الله تعالى جعل الجبال أوتادا مع أن العالم من الناس يستقرون عليها فكذلك ههنا ومع هذا فالله تعالى قد أخبر أنه مد الارض ودحاها وبسطها وكل ذلك يدل على التسطيح والله تعالى أصدق قيلا وأبين دليلا من أصحاب الهيئة هذا هو الدليل الاول من الدلائل الارضية الثاني منها قوله (وجعل) أي وخلق (فيها) أي الارض (رواسي) أي جبالا ثوابت واحدها راسية أي ثابتة باقية في حيزها غير منتقلة عن مكانها لا تتحرك ولا يتحرك ما هي راسية فيه وهذا لابد وأن يكون بتخليق القادر الحكيم قال ابن عباس أول جبل وضع على وجه الارض جبل أبي قبيس ولما غلب على الجبال وصفها بالرواسي صارت الصفة تغني عن الموصوف فجمعت جمع الاسم كحائط وكاهل قاله أبو حيان الثالث منها قوله تعالى (وأنهارا) أي وجعل في الارض أنهارا جارية لمنافع الخلق والنهر المجرى الواسع من مجاري الماء وأصله الاتساع ومنه النهار لاتساع ضيائه الرابع منها قوله تعالى (ومن كل الثمرات) وهو متعلق

بقوله تعالى (جعل فيها) أى الارض (زوجين اثنين) أى وجعل فيها من جميع أنواع الثمار صنفين اثنين والاختلاف اما من حيث الطعم كالحلو والحامض أو اللون كالاسود والابيض أو الحجم كالصغير والكبير أو الطبيعة كالحار والبارد (فان قيل) الزوجان لابد وأن يكونا اثنين فما الفائدة فى اثنين (أجيب) بأنه قيل انه تعالى أول ما خلق العالم وخلق فيه الاشجار خلق من كل نوع من الانواع اثنين فقط فلو قال خلق زوجين لم يعلم أن المراد النوع أو الشخص فلما قال اثنين علم أنه تعالى أول ما خلق من كل زوجين اثنين لا أقل ولا أزيد فكما أن الناس وان كان فيهم الآن كثرة فابتداؤهم من زوجين اثنين بالشخص آدم وحواء فكذا القول فى جميع الاشجار والزروع الخامس منها قوله تعالى (يغشى) أى يغطى (الليل) بظلمته (النهار) أى والنهار الليل بضوئه فيعتدل فعلهما على ما قدره الله تعالى لهما فى السير من الزيادة والنقصان وذلك من الحكم النافعة فى الدين والدنيا الظاهرة لكل ذى عقل انها تدبيره بفعله واختياره وقهره واقتداره وقرأ شعبة وحمزة والكسائى بفتح الغين وتشديد الشين والباقون بسكون الغين وتخفيف الشين * ولما ذكر تعالى هذه الدلائل النيرة والقواطع القاهرة جمعها وناطها بالفكر فقال تعالى (ان فى ذلك) أى الذى وقع التحدث عنه من الآيات (لآيات) أى دلالات (لقوم يتفكرون) أى يجتهدون فى الفكر فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب والتفكر والتدبر تصرف القلب فى طلب معانى الاشياء ثم انه تعالى ذكر دليلا ظاهرا جدا بقوله تعالى (وفى الارض) أى التى أنتم سكانها تشاهدون ما فيها مشاهدة لا تقبل الشك (قطع) أى بقاع مختلفة (متجاورات) أى متقاربات يقرب بعضها من بعض واحدة طيبة والاخرى سبخة لا تنبت وأخرى صالحة للزرع لا للشجر وأخرى بالعكس وأخرى قليلة الريع وأخرى كثيرته مع انتظام الكل فى الارضية وهو من دلائل قدرته تعالى (وجنات) أى بساتين فيها أنواع الاشجار من نخيل وأعناب وغير ذلك كما قال تعالى (من أعناب وزرع ونخيل صنوان) جمع صنو وهى النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى عمه العباس عم الرجل صنو أبيه يعنى أنهما من أصل واحد (وغير صنوان) أى متفرقات مختلفة الاصول وسمى البستان جنة لانه يستتر بأشجاره الارض وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص برفع العين واللام والنون الثانية من صنوان والراء من غير مع التنوين فى العين واللام والنون وعدم التنوين فى الراء والباقون بالخفض فى الاربعة وعدم التنوين فى الراء * ولما كان الماء بمنزلة الاب والارض بمنزلة الام وكان الاختلاف مع اتحاد الاب والام أعجب وأدل على الاسناد الى الواحد المسبب لا الى شئ من الاسباب قال (تسقى) قراءة ابن عامر وعاصم بالياء على التذكير أى المذكور وقراءة الباقين بالتاء على التأنيث أى الجنات وما فيها (بماء واحد) فتخرج أغصانها وثمراتها فى وقت معلوم لا تتأخر عنه ولا تتقدم والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام وقيل فى حده جوهر سيال به قوام الارواح (ونفضل بعضها على بعض فى الاكل) أى فى الطعم ما بين حلو وحامض وغير ذلك

وفى الشكل والرائحة والمنفعة وغيرذلك وذلك أيضامما يدل على القادر الحكيم فان اختلافها مع اتحاد الاصول والاسباب لايكون الا بتخصيص قادر مختار قال مجاهد وذلك كمثل بنى آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد وقال الحسن هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بنى آدم وكانت الارض طينة واحدة فى يد أى فى قدرة الرحمن فسطحها فصارت قطعا متجاورات فينزل عليها الماء من السماء فتخرج هذه زهرتها وشجرها وثمرها ونباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد وكذلك الناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم فتخشع وتخضع وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع وقال الحسن والله ما جالس القرآن أحد الاقام من عنده بزيادة أو نقصان قال تعالى وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الاخسارا وقرأ حمزة والكسائى بالياء ليطابق قوله تعالى يدبر الامر والباقون بالنون وقرأ نافع وابن كثير بسكون الكاف والباقون بالرفع (ان فى ذلك) أى الامر العظيم الذى ذكرناه (لآيات) أى دلالات (لقوم يعقلون) أى يستعملون عقولهم بالتدبر والتفكر فى الآيات الدالة على وحدانيته تعالى * ولما ذكر تعالى الدلائل القاهرة الدالة على معرفة المبدا ذكر بعده مايدل على المعاد بقوله تعالى (وان تعجب) أى يا أكرم الخلق من تكذيب الكفار لك بعد ان كنت تعرف عندهم بالصادق الامين (فعجب) أى فحقيق أن يتعجب منه (قولهم) أى منكرى البعث (أئذا كنا ترابا) أى بعد الموت (أئنا لفى خلق جديد) أى خلق بعد الموت كما كنا قبله ولم يعلموا أن القادر على انشاء الخلق وماتقدم على غير مثال قادر على اعادتهم (وقيل) وان تعجب من اتخاذ المشركين ما لايضرهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها مع اقرارهم بأن الله تعالى خلق السموات والارض وهو يضر وينفع وقد رأوا قدرة الله تعالى وماضرب لهم به الامثال فعجب قولهم ذلك والعجب تغير النفس برؤية المستبعد فى العادة وقال المتكلمون العجب هو الذى لايعرف سببه وذلك فى حق الله تعالى محال لانه تعالى علام الغيوب لاتخفى عليه خافية وقرأ أبو عمرو وخلاد والكسائى بادغام الباء فى الفاء والباقون بالاظهار *(تنبيه)* هنا آيتان فى كل منهما همزتان فقرأ قالون بتحقيق الهمزة الاولى وتسهيل الثانية ويدخل بينهما ألفا على الاستفهام وفى الآية الثانية بهمزة مكسورة وبعدها نون مشددة على الخبر وورش كذلك الا أنه لايدخل بين الهمزتين فى أئذا ألفا وينقل فى الثانى على أصله وابن كثير يقرأ بالاستفهام فيهما من غير ادخال ألف بين الهمزتين مع تحقيق الاولى وتسهيل الثانية فيهما وأبو عمرو كذلك مع ادخال ألف بينهما وابن عامر فى الاول بهمزة مكسورة بعدها ذال مفتوحة على الخبر وفى الثانى بهمزة مفتوحة محققة وهمزة مكسورة محققة على الاستفهام وأدخل هشام بينهما ألفا بخلاف عنه والباقون بهمزتين محققتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة ولا ألف بينهما فى الموضعين *(فائدة)* جميع مافى القرآن من ذلك أحد عشر موضعا فى تسع سور والاحد عشر مكررة فتصير اثنين وعشرين فى هذه السورة موضع والثانى والثالث فى سورة الاسراء والرابع فى المؤمنون والخامس فى النمل والسادس فى العنكبوت والسابع فى السجدة

والثامن والتاسع فى الصافات والعاشر فى الواقعة والحادى عشر فى النازعات وأذكر ان شاء الله تعالى فى كل سورة من السور المذكورة منهم فى محله (أولئك) أى الذين جمعوا أنواعا من البعد من كل خير (الذين كفروا بربهم) أى غطوا ما يجب اظهاره بسبب الاستهانة بالذى بدأ خلقهم ثم رباهم بأنواع اللطف فاذا أنكروا معادهم فقد أنكروا بدأهم (وأولئك) البعداء البغضاء (الاغلال) يوم القيامة (فى أعناقهم) بسبب كفرهم والغل طوق من حديد تقيد به اليد فى العنق وقيل المراد بالاغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما يقاد الاسير الذليل بالغل وقيل انهم مقيدون بالضلال لا يرجى فلاحهم (وأولئك) أى الذين لا خسارة أعظم من خسارتهم (أصحاب النار هم فيها خالدون) أى ثابت خلودهم دائما لا يخرجون منها ولا يموتون ولما كان صلى الله عليه وسلم يهددهم تارة بعذاب يوم القيامة وتارة بعذاب الدنيا والقوم كلما هددهم بعذاب يوم القيامة أنكروا القيامة والبعث والحشر والنشر وهو الذى تقدم ذكره فى الآية الاولى وكلما هددهم بعذاب الدنيا قالوا له جئنا بهذا العذاب وطلبوا منه اظهاره وانزاله على سبيل الطعن واظهار ان الذى يقوله كلام لا أصل له نزل (ويستعجلونك) أى استهزاء وتكذيبا والاستعجال طلب التعجيل وهو تقديم الشئ قبل وقته الذى يقدر له (بالسيئة) أى العذاب (قبل الحسنة) أى الرحمة وذلك أن مشركى مكة كانوا يقولون اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم * (تنبيه) * قوله قبل الحسنة فيه وجهان أحدهما متعلق بالاستعجال ظرفا له والثانى أنه متعلق بمحذوف على أنه حال مقدرة من السيئة قاله أبو البقاء (وقد) أى والحال أنه قد (خلت من قبلهم المثلات) جمع مثلة بفتح الميم وضم المثلثة كصدقة وصدقات أى عقوبات أمثالهم من المكذبين أفلا يعتبرون بها (وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) والا لم يترك على ظهرها دابة كما قال تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة وقال ابن عباس معناه لذو تجاوز عن المشركين اذا آمنوا (وان ربك لشديد العقاب) للمصرين على الشرك الذين ماتوا عليه وقال مقاتل انه لذو تجاوز عن شركهم فى تأخير العذاب عنهم وشديد العقاب اذا عاقب * ولما بين سبحانه وتعالى أن الكفار طعنوا فى نبوة النبى صلى الله عليه وسلم بسبب طعنهم فى الحشر والنشر أولا ثم طعنوا فى نبوته بسبب طعنهم فى صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانيا ثم طعنوا فى نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة ثالثا وهو المذكور فى قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لولا) أى هلا (أنزل عليه) أى محمد صلى الله عليه وسلم (آية من ربه) أى مثل عصا موسى وناقة صالح وذلك لانهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا هذا كتاب مثل سائر الكتب واتيان الانسان بتصنيف معين وكتاب معين لا يكون معجزا مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام وكان نبينا صلى الله عليه وسلم راغبا فى اجابة مقترحاتهم لشدة التفاته الى ايمانهم قال الله تعالى له (انما أنت منذر) أى ليس عليك الا الانذار والتخويف وليس عليك اتيان الآيات (ولكل قوم هاد) أى نبى يدعوهم الى ربهم بما يعطيه من الآيات لا بما يقترحون

وقرأ

وقرأ ابن كثير في الوقف بياء بعد الدال وفي الوصل بغير ياء وتنوين الدال والباقون بغير ياء في الوقف والوصل مع تنوين الدال * ولما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات أخبرهم الله تعالى عن عظيم قدرته وكمال علمه بقوله تعالى (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) من ذكر وغيره وواحد ومتعدد وغير ذلك (وما تغيض) أي تنقص (الارحام) من مدة الحمل (وما تزداد) أي من مدة الحمل فقد تكون سبعة أشهر وأزيد عليها الى سنتين عند الامام أبي حنيفة والى أربع عند الامام الشافعي والى خمس عند الامام مالك رضي الله تعالى عنهم وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وهرم بن حيان بقي في بطن أمه أربع سنين ولذلك سمي هرما وقيل ما تنقصه الرحم من الاولاد وتزيده منهم روي ان شريكا كان رابع أربعة في بطن أمه وقيل من نقصان الولد فيخرج ناقصا والزيادة تمام خلقته وقيل ما تنقص بالسقط عن ان يتم وما يزداد بالتمام وقيل ما تنقص بظهور دم الحيض وذلك انه اذا سال الدم في وقت الحمل ضعف الولد ونقص بمقدار حصول ذلك قال ابن عباس كلما سال الحيض في وقت الحمل يوما زاد في مدة الحمل يوما ليحصل الجبر ويعتدل الامر والآية تحتمل جميع ذلك اذ لا تنافي في هذه الاقوال ويدل لذلك قوله تعالى (وكل شيء) من هذا وغيره من الآيات المقترحات وغيرها (عنده) أي في علمه وقدرته (بمقدار) في كيفيته وكميته لا يجاوزه ولا يقصر عنه لانه تعالى عالم بكيفية كل شيء وكميته على الوجه المفصل المبين * (تنبيه) * قوله تعالى عنده يجوز أن يكون مجرور المحل صفة لشيء أو مرفوعه صفة لكل أو منصوبه ظرفا لقوله بمقدار أو ظرفا للاستقرار الذي تعلق به الجار لوقوعه خبرا (عالم الغيب) وهو ما غاب عن كل مخلوق (والشهادة) وهو ما شاهدوه وقيل الغيب هو المعدوم والشهادة هو الموجود وقيل الغيب ما غاب عن الحس والشهادة ما حضر في الحس (الكبير) أي العظيم (المتعال) عن خلقه بالقهر المنزه عن صفات النقص فهو تعالى موصوف بالعلم الكامل والقدرة التامة وقرأ ابن كثير في الوقف والوصل بياء بعد اللام والباقون بغير ياء وقفا ووصلا * ولما كان علمه تعالى شاملا لجميع الاشياء قال تعالى (سواء منكم) أي في علمه تعالى (من أسر القول) أي أخفى معناه في نفسه (ومن جهر به) أي أظهره فقد استوى في علمه تعالى المسر بالقول والجاهر به (ومن هو مستخف) أي مستتر (بالليل) أي بظلامه (وسارب) أي ظاهر بذهابه في سربه (بالنهار) والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق وقال ابن عباس سواء ما أضمرته القلوب وأظهرته الالسنة وقال مجاهد سواء من يقدم على القبائح في ظلمات الليل ومن يأتي بها في النهار الظاهر على سبيل التوالي والضمير في (له) يعود الى من في قوله سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل أو للانسان (معقبات) أي ملائكة تعقبه والذي عليه الجمهور ان المراد بالملائكة الحفظة وانما صح وصفهم بالمعقبات اما لاجل أن ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس واما لاجل انهم يتعقبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والكتب وكل من عمل عملا ثم عاد اليه فقد عقب فعلى هذا المراد من المعقبات ملائكة الليل والنهار روي عن عثمان انه قال يا رسول الله اخبرني

عن العبد كم معه من ملك فقال صلى الله عليه وسلم ملك عن يمينك للحسنات وهو أمير على الذي
على الشمال فاذا عملت حسنة كتبت عشرا واذا عملت سيئة قال الذي على الشمال لصاحب
اليمين اكتب قال لا لعله أن يتوب أو يستغفر فيستأذنه ثلاث مرات فاذا قال ثلاثا قال اكتب
أراحنا الله منه فبئس القرين ما أقل مراقبته لله وأقل استحياءه منا فهو قوله تعالى له معقبات (من
بين يديه) أي قدامه (ومن خلفه) أي ورائه وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لربك
رفعك وان تجبرت قصمك وملكان على شفتيك يحفظان عليك الصلاة وملك على فيك لا يدع أن
تدخل الحية في فيك وملكان على عينيك فهذه عشرة أملاك على كل آدمي ملائكة بالليل وملائكة
بالنهار فهم عشرون ملكا على كل آدمي وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر
وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله تعالى وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي
فيقولون تركناهم وهم يصلون وقال مجاهد ما من عبد الا وله ملك موكل يحفظه من الجن
والانس والهوام في نومه ويقظته (فان قيل) الملائكة ذكور فلم ذكروا في جمع الاناث وهو
المعقبات (أجيب) بجوابين الاول قال الفراء المعقبات ملائكة معقبة واحدها معقب
ثم جمعت معقبة بمعقبات كما قيل أبناآت ورجالات جمع أبناء ورجال والذي على التذكير
قوله تعالى (يحفظونه) والثاني وهو قول الاخفش انما أنث لكثرة ذلك منها نحو نسابة
وعلامة وهو ذكر واختلف في المراد من قوله تعالى (من أمر الله) على أقوال أحدها انه
على التقديم والتأخير والتقدير له معقبات من أمر الله يحفظونه ثانيها ان فيه اضمارا أي ذلك
الحفظ من أمر الله أي مما أمر الله تعالى به فحذف الاسم وأبقى خبره وثالثها أن كلمة من معناها
الباء والتقدير يحفظونه بأمر الله وباعانته وقال كعب الاحبار لولا ان الله تعالى وكل بكم
ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن وقال ابن جريج
معنى يحفظونه أي يحفظون عليه الحسنات والسيئات (فان قيل) ما الفائدة في تخصيص هؤلاء
الملائكة مع بني آدم وتسليطهم عليهم (أجيب) بأن الانسان اذا علم أن الملائكة تحصي عليه
أعماله كان الى الحذر من المعاصي أقرب لان من اعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم فاذا
حاول الاقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونه زجره الحياء منهم عن الاقدام اليها كما يزجره
اذا حضر من يعظمه من البشر واذا علم أن الملائكة تحصي عليه تلك الاعمال كان ذلك أيضا
رادعا له عنها واذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردع أكمل * ولما دل ذلك على غاية القدرة
والعظمة قال تعالى (ان الله) مع قدرته (لا يغير ما بقوم) أي لا يسلبهم نعمته (حتى يغيروا ما) أي
الذي (بأنفسهم) من الاحوال الجميلة الى الاحوال القبيحة (واذا أراد الله بقوم سوأ) أي
هلاكا وعذابا (فلا مرد له) أي لا يقدر أحد لا من المعقبات ولا من غيرها أن يرد ما نزل بهم
من قضائه وقدره (ومالهم) أي ان أراد الله بهم سوأ (من دونه) أي غير الله (من وال)
يلي أمرهم وينصرهم ويمنع العذاب عنهم. وقرأ ابن كثير في الوقف باثبات الياء بعد اللام دون

الوصل والباقون بغيرياء بعد اللام وقفا ووصلا * ولما خوف الله تعالى بقوله واذا أراد الله بقوم سوأ اتبعه بذكر آيات تشبه النعم والاحسان من بعض الوجوه وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه بقوله تعالى (هو الذى يريكم البرق خوفا) أى للمسافرين من الصواعق (وطمعا) أى للمقيم فى المطر وقيل ان كل شئ يحصل فى الدنيا يحتمل الخير والشر فهو خير بالنسبة الى قوم وشر بالنسبة الى آخرين فكذلك المطر خير فى حق من يحتاج اليه فى أوانه وشر فى حق من يضره ذلك اما بحسب المكان واما بحسب الزمان والبرق معروف وهو لمعان يظهر من بين السحاب (وينشئ) أى يخلق (السحاب الثقال) أى بالمطر *(تنبيه)* خوفا وطمعا مصدران ناصبهما محذوف أى تخافون خوفا وتطمعون طمعا ويجوز غير ذلك والسحاب قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه غربال الماء وهو غيم ينسحب فى السماء وهو اسم جنس جمعى واحده سحابة وأكثر المفسرين على أن الرعد فى قوله تعالى (ويسبح الرعد بحمده) على أنه اسم للملك الذى يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه ولا يرد ذلك عطف الملائكة عليه فى قوله تعالى (والملائكة) أى تسبحه (من خيفته) أى الله لانه أفرد بالذكر تشريفا له كما فى قوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال قال ابن عباس أقبلت يهود على النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا أخبرنا عن الرعد ما هو فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب قال ابن الاثير والمخاريق جمع مخراق وهو فى الاصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا وهى آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه وقد جاء تفسير المخراق فى حديث آخر وهو سوط من نور تزجر به الملائكة السحاب وعن ابن عباس أنه قال من سمع صوت الرعد فقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شئ قدير فان أصابته صاعقة فعلى ديته وعن عبد الله بن الزبير أنه كان اذا سمع صوت الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وفى بعض الاخبار يقول الله تعالى لو أن عبادى أطاعونى لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت الشمس عليهم بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد وفى رواية عن ابن عباس الرعد ملك موكل بالسحاب يسوقه حيث يؤمر وانه يحوز الماء فى نقرة ابهامه وانه يسبح الله تعالى اذا سبح لا يبقى ملك فى السماء الا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر وعن الحسن أن الرعد خلق من خلق الله ليس بملك وقد اختلفت الروايات فى ذلك ففى بعضها أنه ملك موكل بالسحاب وفى بعضها انه ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعى بغنمه وفى بعضها انه ملك يسوق السحاب بالتسبيح كما يسوق الحادى الابل بحدائه وفى بعضها أنه ملك سمى به وهو الذى تسمعون صوته وقد مرت الاشارة الى ذلك فى البقرة وقيل هؤلاء الملائكة أعوان الرعد جعل الله تعالى له أعوانا فهم خائفون خاضعون طائعون وقيل المراد بهم جميع الملائكة واستظهر وقوله تعالى (ويرسل الصواعق) جمع صاعقة وهى العذاب المهلك تنزل من البرق فتحرق من تصيبه (فيصيب بها من يشاء) فيهلكه (وهم يجادلون فى الله) حيث يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكذيب التشديد فى الخصومة روى أن عامر

ابن الطفيل واربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدين لقتله فأخذه عامر بالمجادلة ودار اربد من خلفه ليضربه بالسيف فتنبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله تعالى على اربد صاعقة فقتلته ورمى عامر بغدة فمات في بيت سلولية فكان يقول غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية فنزلت وعن الحسن أنه قال كان رجل من طواغيت العرب بعث اليه النبي صلى الله عليه وسلم نفرا يدعونه الى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال لهم اخبروني عن رب محمد هذا الذي تدعونني اليه مم هو أمن ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس فاستعظم القوم مقالته فانصرفوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما رأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه فقال صلى الله عليه وسلم ارجعوا اليه فرجعوا اليه فجعل لا يزيدهم على مقالته الاولى وقال أجيب محمدا الى رب لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا وقالوا يا رسول الله ما زادنا على مقالته الاولى وأخبث فقال ارجعوا اليه فرجعوا فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونه وهو يقول هذه المقالة اذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فأحرقت الكافر وهم جلوس فجاؤا يسعون ليخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا احترق صاحبكم فقالوا من أين علمتم فقالوا أوحى الله تعالى الى النبي صلى الله عليه وسلم ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله (وهو شديد المحال) واختلف المفسرون في قوله تعالى وهو شديد المحال فقال علي رضي الله عنه شديد الاخذ وقال ابن عباس شديد الحول وقال مجاهد شديد القوة وقال أبو عبيدة شديد القوة والمغالبة واختلف في قوله تعالى (له) اى الله (دعوة الحق) فقال علي دعوة الحق التوحيد وقال ابن عباس شهادة أن لا اله الا الله وقال الحسن الحق هو الله تعالى وكل دعاء اليه دعوة الحق (والذين يدعون) أي وهم الكفار (من دونه) أي غير الله وهي الاصنام (لا يستجيبون) أي الاصنام (لهم) أي الكفار (بشيء) مما يطلبونه من نفع أو دفع ضر (الا) أي الا استجابة (كباسط) أي كاستجابة باسط (كفيه الى الماء) أي على شفير البئر يدعوه (ليبلغ فاه) أي بارتفاعه من البئر اليه (وما هو) أي الماء (ببالغه) أي فاه أبدا لانه جماد لا يشعر بدعائه ولا يقدر على اجابته فكذلك ما هم بمستجيبين لهم أبدا لان أصنامهم كذلك وقيل شبهوا في قلة فائدة دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فبسط كفيه ناشرا أصابعهما ولم يصل كفاه الى ذلك الماء ولم يبلغ مطلوبه من شربه ثم انه تعالى عم في أنه لا يستجاب لهم بقوله تعالى (وما دعاء الكافرين الا في ضلال) أي ضياع لا منفعة فيه لانهم ان دعوا الله لم يجبهم وان دعوا آلهتهم لم تستطع اجابتهم وقيل المراد بالدعاء في الآيتين العبادة وقوله تعالى (ولله يسجد من في السموات والارض) يحتمل أن يراد به السجود على حقيقته وهو وضع الجبهة وعلى هذا فيكون قوله تعالى (طوعا) للملائكة والمؤمنين من الثقلين حالتي الشدة والرخاء وقوله تعالى (وكرها) للكافرين والمنافقين الذين أكرهوا على السجود بالسيف وأن يراد به التعظيم والاعتراف بالعبودية فكل من في السموات والارض معترف بعبودية الله

تعالى

تعالى كما قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله وأن يراد به الانقياد والخضوع وترك
الامتناع وكل من في السموات والارض ساجد لله بهذا المعنى لان قدرته ومشيئته نافذة
في الكل *(تنبيه)* قوله تعالى طوعا وكرها اما مفعول من أجله واما حال أي طائعين وكارهين
واختلف في تفسير قوله تعالى (وظلالهم بالغدو) أي البكر (والآصال) أي العشايا أي تسجد
فقال أكثر المفسرين كل شخص سواء كان مؤمنا أو كافرا فان ظله يسجد لله قال مجاهد
ظل المؤمن يسجد لله تعالى وهو طائع وظل الكافر يسجد لله تعالى وهو كاره وقال الزجاج جاء
في التفسير ان الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله قال ابن الانباري ولا يبعد أن يخلق الله
تعالى في الظلال عقولا وأفهاما تسجد بها لله وتخشع وقيل المراد من سجود الظلال ميلها من
جانب الى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس وهي منقادة
مستسلمة في طولها وقصرها وميلها من جانب الى جانب وانما خص الغدو والآصال بالذكر
لان الظلال انما تعظم وتكثر في هذين الوقتين *(تنبيه)* الغدو جمع غداة كقنى وقناة
والآصال جمع الاصل والاصل جمع أصيل وهو ما بين العصر الى غروب الشمس * ولما بين تعالى
ان كل من في السموات والارض ساجد لله تعالى عدل الى الرد على عباد الاصنام بقوله تعالى
(قل) يا أشرف الخلق على الله تعالى لقومك (من رب السموات والارض) أي من مالكهما
وما فيهما ومدبرهما وخالقهما (قل الله) أي أجب عنهم بذلك ان لم يقولوه ولا جواب لهم غيره
ولانه البين الذي لا يمكن المراء فيه ولقنهم الجواب به وروى أنه لما قال للمشركين ذلك عطفوا
عليه وقالوا أجب أنت فأمره الله تعالى فأجاب بذلك ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الاصنام بقوله
تعالى (قل) لهم (أفاتخذتم من دونه) أي غير الله (أولياء) أي أصناما تعبدونها (لا يملكون
لانفسهم نفعا) يجلبونه (ولا ضرا) يدفعونه فكيف يملكون لكم ذلك وقرأ ابن كثير وحفص
باظهار الذال في اتخذتم عند التاء والباقون بالادغام ثم ضرب الله تعالى مثلا للمشركين الذين
يعبدون الاصنام والمؤمنين الذين يعبدون الله فقال تعالى (قل هل يستوي الاعمى والبصير)
قال ابن عباس يعني المشرك والمؤمن وانما مثل الكافر بالاعمى لانه لا يهتدي سبيلا فكذلك
الكافر لا يهتدي سبيلا * ثم ضرب الله مثلا للايمان والكفر بقوله تعالى (أم هل تستوي
الظلمات) أي الكفر (والنور) أي الايمان الجواب لا وقرأ شعبة وحمزة والكسائي يستوي
بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وأما اللام من هل هنا فلا تدغم على القراءتين
(أم جعلوا لله شركاء) والهمزة للانكار وقوله تعالى (خلقوا كخلقه) صفة شركاء أي خلقوا
سموات وأرضين وشمسا وقمرا وجبالا وبحارا وجنا وانسا (فتشابه الخلق) أي خلق الشركاء
بخلق الله (عليهم) من هذا الوجه فلا يدرون ما خلق الله ولا ما خلق آلهتهم فاعتقدوا استحقاق
عبادتهم بخلقهم وهذا استفهام انكار أي ليس الامر كذلك ولا يستحق العبادة الا الخالق
ولما كان من المعلوم قطعا أن جوابهم ان الخلق كله لله لزمتهم الحجة فقال تعالى (قل) لهؤلاء
المشركين (الله خالق كل شيء) أي مما يصح أن يكون مخلوقا فهو من العموم الذي يراد به

الخصوص فلا يدخل في ذلك صفات الله تعالى واذا كان لا خالق غيره فلا يشاركه في العبادة أحد فوجب أن ينفرد بالالهية كما قال تعالى (وهو الواحد) أي الذي لا يجانسه شئ وكل ماسواه لا يخلو عن مماثل يماثله وأين رتبة من يماثل من رتبة من لا مثل له (القهار) الذي كل شئ تحت قهره فيدخل تحت قضائه ومشيئته وارادته ثم ضرب تعالى مثلا للحق والباطل بقوله تعالى (أنزل من السماء) أي السحاب أو السماء نفسها (ماء) أي مطرا (فسالت أودية) أي أنهار جمع واد وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة فاتسع فيه واستعمل للماء الجاري فيه وتنكيرها لان المطر يأتي على تناوب بين البقاع (بقدرها) أي بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير ضار أو بمقداره في الصغر والكبر (فاحتمل السيل زبدا رابيا) أي عاليا عليه هو ما على وجهه من قذر ونحوه (ومما توقدون عليه في النار) أي من جواهر الارض الذهب والفضة والنحاس والحديد (ابتغاء) أي طلب (حلية) أي زينة (أو متاع) أي ينتفع به كالاواني اذا أذيبت وآلات الحرب والحرث والمقصود من هذا بيان منافعها (زبد مثله) أي مثل زبد السيل وهو خبثه الذي ينفيه الكير ومن للابتداء أو للتبعيض وقرأ حفص وحمزة والكسائي بالياء على الغيبة على ان الضمير للناس واضماره للعلم به والباقون بالتاء على الخطاب (كذلك) أي مثل هذا الضرب العلي الرتب المتين السبب (يضرب الله) أي الذي له الامر كله (الحق والباطل) أي مثلهما فانه تعالى مثل الحق في افادته وثباته بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الاودية على قدر الحاجة والمصلحة فينتفع به أنواع المنافع ويمكث في الارض بأن يثبت بعضه في منافعه ويسلك بعضه في عروق الارض الى العيون والقني والآبار ومثل الباطل في قلة نفعه وسرعة زواله بزبدهما وهو قوله تعالى (فأما الزبد) أي من السيل وما أوقد عليه من الجواهر (فيذهب جفاء) قال أبو حيان مضمحلا أي متلاشيا لا منفعة فيه ولا بقاء له وقال ابن الانباري متفرقا وانتصابه على الحال (وأما ما ينفع الناس) من الماء ومن الجواهر الذي هو مثل الحق (فيمكث في الارض) أي يثبت ويبقى لينتفع به أهلها (كذلك) أي مثل ذلك الضرب (يضرب) أي يبين (الله) الذي له الاحاطة الكاملة علما وقدرة (الامثال) فيجعلها في غاية الوضوح وان كانت في غاية الغموض قال أهل المعاني هذا مثل ضربه الله تعالى للحق والباطل فالباطل وان علا على الحق في بعض الاوقات والاحوال فان الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو على الماء فيذهب الزبد فيبقى الماء الصافي الذي ينفع وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ويذهب العلو الذي هو الكدر وهو ما ينفيه الكير مما اذاب من جواهر الارض كذلك الحق والباطل وقيل هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالايمان كمثل الماء الصافي الذي ينتفع به الناس ومثل الكافر وخبث اعتقاده كمثل الزبد الذي لا ينتفع به البتة * ثم انه تعالى لما ذكر الحق والباطل ذكر مالاهلهما من الثواب والعقاب فقال تعالى (للذين استجابوا لربهم) أي أجابوه الى مادعاهم اليه من التوحيد والعدل والنبوة وبعث الاموات والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم (الحسنى) قال ابن عباس وقال أهل المعاني الحسنى

هي

هى المنفعة العظمى فى الحسن وهى المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة الدائمة الخالصة عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والاجلال ولم يذكر تعالى الزيادة ههنا لانه تعالى ذكرها فى سورة أخرى وهى قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة هذا مآل الاهل الحق وأما مآل الاهل الباطل فهو ماذكره بقوله جل من قائل (والذين لم يستجيبوا له) وهم الكفرة فلهم أنواع ثلاثة من العذاب والعقوبة فالنوع الاول قوله تعالى (لو أن لهم ما فى الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به) أى جعلوه فكاك أنفسهم بغاية جهدهم لان المحبوب بالذات لكل انسان هو ذاته وكل ما عداه فهو انما يحبه لكونه وسيلة الى مصالح ذاته فاذا كانت النفس فى الضرر والالم والتعب وكان مالكا لما يساوى عالم الاجناس والارواح فانه يرضى بأن يجعله فداء نفسه لان المحبوب بالعرض لابد وأن يكون فداء لما كان محبوبا بالذات والكناية فى به عائدة الى ما فى قوله ما فى الارض والنوع الثانى من أنواع العذاب الذى أعده الله تعالى لهم ماذكره بقوله تعالى (أولئك لهم سوء الحساب) وهو المناقشة فيه وعن النخعى بأن يحاسب العبد بذنبه كله لا يغفر منه شئ وانما نوقشوا لانهم أحبوا الدنيا وأعرضوا عن المولى فلما ماتوا بقوا محرومين عن معشوقهم الذى هو الدنيا وبقوا محرومين من الفوز بسعادة خدمة المولى والنوع الثالث من عقوباتهم ماذكره بقوله تعالى (ومأواهم) أى مرجعهم (جهنم) وذلك لانهم كانوا غافلين عن الاشتغال بخدمة المولى عاشقين للذات الدنيا فاذا ماتوا فارقوا معشوقهم فيحترقون على مفارقتها وليس عندهم شئ آخر يجبر هذه المصيبة فلذلك كان مأواهم جهنم * ثم انه تعالى وصف هذا المأوى بقوله عز من قائل (وبئس المهاد) أى الفراش والمخصوص بالذم محذوف أى جهنم * ونزل فى حمزة وأبى جهل وقيل فى عمار وأبى جهل (أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق) أى يؤمن به ويعمل بما فيه وهو حمزة أو عمار رضى الله تعالى عنهما (كمن هو أعمى) أى أعمى البصيرة ولا يؤمن به ولا يعمل بما فيه وهو أبو جهل قال ابن الخازن فى تفسيره وحمل الآية على العموم أولى وان كان السبب مخصوصا والمعنى لا يستوى من يبصر الحق ويتبعه ومن هو لا يبصر الحق ولا يتبعه وانما شبه الكافر والجاهل بالاعمى لان الاعمى لا يهتدى لرشد (انما يتذكر) أى يتعظ (أولوا الالباب) أى أصحاب العقول الذين يطلبون من كل صورة معناها ويأخذون من كل قشرة لبابها ويعبرون من ظاهر كل حديث الى سره ولبابه (الذين يوفون بعهد الله) أى ما عاقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلى أو ما عهد الله تعالى عليهم فى كتبه (ولا ينقضون الميثاق) أى ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبينهم وبين العباد فهو تعميم بعد تخصيص (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) أى من الايمان والرحم وغير ذلك والاكثرون على أنه أراد به صلة الرحم عن أبى موسى ان عبد الرحمن بن عوف عاد أبا الدرداء فقال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما يحكى عن ربه تعالى أنا الرحمن وهى الرحم شققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته أو قال بتته وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحم متعلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله وعن

أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه ومعنى ينسأ يؤخر والمراد به تأخير الاجل وفيه قولان أحدهما وهو المشهور أنه يزاد في عمره زيادة حقيقية والثاني يبارك له في عمره فكأنه قد زيد فيه وعن ابن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي اذا انقطعت رحمه وصلها وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال تأتي يوم القيامة لها ألسنة ذلقة الرحم فتقول أي رب قطعت والامانة تقول أي رب تركت والنعمة تقول أي رب كفرت وعن الفضيل بن عياض ان جماعة دخلوا عليه بمكة فقال من أين أنتم فقالوا من خراسان قال اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم واعلموا ان العبد لو أحسن كل الاحسان وكان له دجاجة فأساء اليها لم يكن من المحسنين (ويخشون ربهم) أي وعيده عموما والخشية خوف يشوبه تعظيم (ويخافون سوء الحساب) خصوصا فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا (والذين صبروا) أي على طاعة الله تعالى وعن معاصيه وفي كل ما ينبغي الصبر فيه وقال ابن عباس صبروا على أمر الله وقال عطاء على المصائب والنوائب وقيل صبروا عن الشهوات وعن المعاصي ومرجع الكل واحد فان الصبر الحبس وهو تجرع مرارة منع النفس عما تحب مما لا يجوز فعله (ابتغاء) أي طلب (وجه ربهم) أي رضاه لا طلب غيره من جور أو سمعة أو رياء أو لغرض من أغراض الدنيا أو نحو ذلك (وأقاموا الصلاة) أي المفروضة وقيل مطلق الصلاة فيدخل فيه الفرض والنفل (وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) قال الحسن المراد به الزكاة فان لم يتهم بترك الزكاة فالاولى أن يؤديها سرا وان كان يتهم بترك أدائها فالاولى أن يؤديها علانية وقيل المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية الزكاة وقيل المراد بالسر ما يؤديه من الزكاة بنفسه وبالعلانية ما يدفعه الى الامام (ويدرؤن) أي يدفعون (بالحسنة السيئة) كالجهل بالحلم والاذى بالصبر روى عن ابن عباس قال يدفعون بالصالح من العمل السيء من العمل وهو معنى قوله تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات وقوله صلى الله عليه وسلم اذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية وعن عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيق قد خنقه ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل حسنة أخرى فانفكت أخرى حتى يخرج الى الارض وقال ابن عباس يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم وعن الحسن اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا وعن ابن عمر ليس الواصل من وصل ثم وصل تلك مجازاة لكن من قطع ثم وصل وعطف من لم يصله وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى اذا هيجه قوم اهتاج لكن الحليم من قدر ثم عفا وعن ابن كيسان اذا أذنبوا تابوا وقيل اذا رأوا منكرا أمروا بتغييره وروى أن شقيقا البلخي دخل على ابن المبارك متنكرا فقال له من أين أنت فقال من بلخ فقال وهل تعرف شقيقا قال نعم فقال وكيف طريقة أصحابه قال اذا منعوا صبروا واذا أعطوا شكروا فقال ابن المبارك طريقة كلابنا هكذا فقال شقيق فكيف ينبغي أن يكون الامر فقال الكاملون

هم الذين اذا منعوا اشكروا واذا أعطوا آثروا (أولئك) أى العالو الرتبة (لهم عقبى الدار) وبينها تعالى بقوله (جنات عدن) أى اقامة لا انفكاك لها يقال عدن بالمكان اذا أقام به ثم استأنف بيان تمكنهم بها بقوله تعالى (يدخلونها) ولما كانت الدار لا تطيب بدون الاحبة قال تعالى عاطفا على الضمير المرفوع (ومن صلح من آبائهم) أى الذين كانوا سببا فى ايجادهم فيشمل ذلك الآباء والامهات وان علوا (وأزواجهم وذرياتهم) أى الذين تسببوا عنهم والمعنى أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم وان لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم وتعظيما لشأنهم ويقال ان من أعظم موجبات سرورهم أن يجتمعوا فيتذاكروا أحوالهم فى الدنيا ثم يشكروا الله تعالى على الخلاص منها والفوز بالجنة ولذلك قال الله تعالى فى صفة أهل الجنة انهم يقولون ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين وفى ذلك دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة وان الموصوفين بتلك الصفات يقترن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة فى دخول الجنة زيادة فى أنسهم والتقييد بالصلاح دلالة على أن مجرد الانساب لا تنفع وفسر ابن عباس الصلاح بالتصديق فقال يريد من صدق بما صدقوا وان لم يعمل مثل أعمالهم قال الرازى قوله وأزواجهم ليس فيه مايدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الاولى من مات عنها أو ماتت عنه وماروى عن سودة انها لما هم الرسول صلى الله عليه وسلم بطلاقها قالت دعنى يارسول الله أحشر فى جملة نسائك كالدليل على ماذكرنا اه وعلى هذا من تزوجت بغيره قيل انها تخير بينهما ثم زاد تعالى فى ترغيبهم بقوله تعالى (والملائكة يدخلون عليهم) لان الاكثار من ترداد رسل الملك أعظم فى الفخر وأكثر فى السرور والعز * ولما كان اتيانهم من الاماكن المعتادة مع القدرة على غيرها أدل على الادب والكرم قال تعالى (من كل باب) قال ابن عباس لهم خيمة من درة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها ألف باب مصاريعها من ذهب يدخلون عليهم من كل باب يقولون لهم (سلام عليكم) أى فأضمر القول هنا لدلالة الكلام عليه (بما صبرتم) على أمر الله والباء للسببية أى بسبب صبركم أو البدلية أى بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه (فان قيل) بم يتعلق قوله بما صبرتم قال الزمخشرى بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم وقال البيضاوى متعلق بعليكم أو بمحذوف لا بسلام فان الخبر فاصل مع أن الزمخشرى قال ويجوز أن يتعلق بسلام أى نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم وهذا أظهر ورد الاول بأن الممنوع منه انما هو المصدر المؤول بحرف مصدرى وفعل والمصدر هنا ليس كذلك * ولما تم ذلك تسبب عنه قوله تعالى (فنعم عقبى الدار) وهى المسكن فى قرار المهيأ بالابنية التى يحتاج اليها والمرافق التى ينتفع بها والعقبى الانتهاء الذى يؤدى اليه الابتداء من خير أو شر والمخصوص بالمدح محذوف أى عقباكم * ولما ذكر تعالى صفات السعداء وما يترتب عليها من الاحوال الشريفة العالية أتبعها بذكر أحوال الاشقياء وذكر ما يترتب عليها من الاحوال المخزية المكربة وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب ليكون البيان كاملا فقال تعالى (والذين ينقضون عهد الله) أى فيعملون بخلاف موجبه والنقض التفريق الذى ينفى تأليف البناء (من بعد ميثاقه) أى الذى أوثقه عليهم من الاقرار والقبول

(ويقطعون ما) أى الذى (أمر الله به أن يوصل) وذلك فى مقابلة قوله من قبل والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل فجعل من صفات هؤلاء القطع بالضد من ذلك الوصل والمراد به قطع ما يوجب الله تعالى وصله أى لما له من المحاسن الجلية والخفية التى هى عين الصلاح ويدخل فى ذلك وصل الرسول صلى الله عليه وسلم بالموالاة والمعاونة ووصل المؤمنين ووصل الارحام ووصل سائر من له حق (ويفسدون) أى يوقعون الفساد (فى الارض) أى فى أى جزء كان منها بالظلم وتهييج الفتن والدعاء الى غير دين الله تعالى (أولئك) أى البعداء البغضاء (لهم اللعنة) أى الطرد والبعد (ولهم سوء الدار) والدار لهم هى جهنم وليس لهم فيها الا ما يسوء الصائر اليها * ولما حكم تعالى على من نقض عهده فى قبول التوحيد والنبوة بأنهم ملعونون فى الدنيا ومعذبون فى الآخرة فكأنه قيل لو كانوا أعداء الله تعالى لما فتح الله عليهم أبواب النعم واللذات فى الدنيا فأجاب الله تعالى بقوله تعالى (الله يبسط الرزق) أى يوسعه (لمن يشاء ويقدر) أى يضيقه على من يشاء سواء فى ذلك الطائع والعاصى ولا تعلق لذلك بالكفر والايمان فقد يوجد الكافر موسعا عليه دون المؤمن ويوجد المؤمن موسعا عليه دون الكافر فالدنيا دار امتحان * ولما كانت السعة مظنة الفرح الا عند من وفقه الله تعالى قال الله تعالى (وفرحوا) أى كفار مكة فرح بطر (بالحيوة الدنيا) أى بما نالوه فيها الافرح سرور بفضل الله والعافية عليهم ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة (وما الحيوة الدنيا) أى بكمالها (فى الآخرة) أى فى جنبها (الامتاع) أى حقير متلاش يتمتع به ويذهب كعجالة الراكب وهى ما يتعجله من تمرات أو شربة ماء سويق أو نحو ذلك (ويقول الذين كفروا) من أهل مكة (لولا) أى هلا (أنزل عليه) أى على هذا الرسول (آية) أى علامة بينة (من ربه) أى المحسن اليه كالعصا واليد لموسى والناقة لصالح لنهتدى بها فنؤمن به * وأمره الله تعالى أن يجيبهم بقوله (قل) أى لهؤلاء المعاندين (ان الله يضل من يشاء) اضلاله فلا تغنى عنه الآيات شيأ وان أنزلت كل آية (ويهدى) أى يرشد (اليه) أى الى دينه (من أناب) أى رجع اليه كأبى بكر الصديق وغيره ممن تبعه من العشرة المشهود لهم بالجنة وغيرهم ولو حصلت آية واحدة فلا تشتغلوا بطلب الآيات ولكن تضرعوا الى الله تعالى فى طلب الهداية وقوله تعالى (الذين آمنوا) بدل من أناب أو خبر مبتدا محذوف (وتطمئن) أى تسكن (قلوبهم بذكر الله) أى أنسا به واعتمادا عليه ورجاء منه أو بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته أو بذكر دلائله الدالة على وجوده أو بالقرآن الذى هو أقوى المعجزات وقال ابن عباس يريد اذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت (فان قيل) قد قال الله تعالى فى سورة الانفال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل ضد الاطمئنان فكيف الجمع بين هاتين الآيتين (أجيب) بأنهم اذا ذكروا العقاب ولم يأمنوا أن يقدموا على المعاصى فهناك يحصل الوجل واذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم الى ذلك وحينئذ حصل الجمع بينهما (ألا بذكر الله) أى الذى له الجلال والاكرام لا بذكر غيره (تطمئن) أى تسكن (القلوب) ويثبت اليقين فيها وقوله تعالى (الذين آمنوا وعملوا

الصالحات) مبتدأ خبره (طوبى لهم) واختلف العلماء فى تفسير طوبى فقال ابن عباس فرح لهم وقرة عين وقال عكرمة نعمى لهم وقال قتادة حسنى لهم وقال النخعى خير لهم وكرامة وقال سعيد بن جبير طوبى اسم الجنة بالحبشية قال الرازى وهذا القول ضعيف لانه ليس فى القرآن الا العربى لاسيما واشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر وعن أبى هريرة وأبى الدرداء ان طوبى شجرة فى الجنة تظل الجنان كلها وقال عبيد بن عمير هى شجرة فى جنة عدن أصلها فى دار النبى صلى الله عليه وسلم وفى كل دار وغرفة غصن منها لم يخلق الله لونا ولا زهرة الا وفيها منه الا السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة الا وفيها منها ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل وقال مقاتل كل ورقة منها تظل أمة عليها ملك يسبح الله تعالى بأنواع التسبيح وعن أبى سعيد الخدرى أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم ما طوبى قال شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه طوبى شجرة غرسها الله تعالى بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلى والحلل وان أغصانها لترى من وراء سور الجنة وفى رواية عن أبى هريرة انه قال ان فى الجنة شجرة يقال لها طوبى يقول الله تعالى لها تفتق لعبدى عما يشاء فتتفتق له عن فرس مسرجة بلجامها وهيئتها كما يشاء وتتفتق له عن راحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما يشاء وقيل طوبى فعلى من الطيب قلبت ياؤه واوا لضم ما قبلها مصدر لطاب كبشرى وزلفى ومعنى طوبى لك أصبت خيرا وطيبا (وحسن مآب) أى حسن المنقلب (كذلك) أى مثل ارسال الرسل الذين قدمنا الاشارة اليهم فى آخر سورة يوسف وفى غيرها (أرسلناك فى أمة) أى جماعة كثيرة (قد خلت من قبلها) أى تقدمتها (أمم) طال اذاهم لانبيائهم ومن آمن بهم واستهزاؤهم بهم فى عدم الاجابة حتى كأنهم تواصوا بهذا القول فليس ببدع ارسالك اليهم (لتتلو) أى لتقرأ (عليهم) أى على أمتك (الذى أوحينا اليك) من القران وشرائع الدين (وهم) أى والحال أنهم (يكفرون بالرحمن) أى بالبليغ الرحمة الذى وسعت رحمته كل شئ وقال قتادة هذه الآية مدنية نزلت فى صلح الحديبية وذلك ان سهل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهل بن عمرو لا نعرف الرحمن الا صاحب اليمامة يعنى مسيلمة الكذاب اكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن أى انهم يكفرونه ويجحدونه قال البغوى والمعروف ان الآية مكية وسبب نزولها ان أبا جهل سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى الحجر يدعو يا الله يا رحمن فرجع الى المشركين فقال ان محمدا يدعو الله ويدعو الها آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى وروى الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت فى كفار قريش حين قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن قال الله تعالى (قل) لهم يا محمد ان الرحمن الذى أنكرتم معرفته (هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت) أى اعتمدت عليه فى أمورى كلها (واليه متاب)

أى مرجعى ومرجعكم روى ان أهل مكة قعدوا فى فناء الكعبة فأتاهم النبى صلى الله عليه وسلم وعرض الاسلام عليهم فقال له عبد الله بن أمية المخزومى سير لنا جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا واجعل لنا فيها أنهارا نزرع فيها وأحى لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق ما تقول أم باطل فقد كان عيسى يحيى الموتى وسخر لنا الريح حتى نركبها الى البلاد فقد كانت الريح مسخرة لسليمان فلست بأهون على ربك من سليمان فنزل قوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) أى نقلت عن أماكنها (أو قطعت) أى شققت (به الارض) من خشية الله تعالى عند قراءته فجعلت أنهارا وعيونا (أو كلم به الموتى) أى بأن يحيوا وجواب لو محذوف أى لكان هذا القرآن فى غاية ما يكون من الصحة واكتفى بمعرفة السامعين مراده وهذا معنى قول قتادة قال لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وقيل تقديره لما آمنوا ونقل عن الفراء أن جواب لو هى الجملة من قوله وهم يكفرون ففى الكلام تقديم وتأخير وما بينهما اعتراض وتقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن لو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا لما سبق من علمنا فيهم (فان قيل) لم حذفت التاء فى قوله تعالى وكلم به الموتى وثبتت فى الفعلين قبله (أجيب) بأنه من باب التغليب لان الموتى يشمل المذكر والمؤنث (بل لله الامر) أى القدرة على كل شئ (جميعا) وهذا اضراب عما تضمنته لو من معنى النفى أى بل الله قادر على الاتيان بما اقترحوه من الآيات لكن الارادة لم تتعلق بذلك لعلمه تعالى بأنه لا يلين قلوبهم ويؤيد ذلك قوله تعالى (أفلم ييأس الذين آمنوا) عن ايمانهم مع ما رأوا من أحوالهم وذهب أكثرهم الى أن معناه أفلم يعلم الذين آمنوا (أن) أى بأنه (لو يشاء الله) أى الذى له صفات الكمال (لهدى الناس جميعا) أى الى الايمان من غير آية ولكنه تعالى لم يشأ هداية جميع الخلائق (ولا يزال الذين كفروا) أى جميع الكفار (تصيبهم بما) أى بسبب ما (صنعوا قارعة) أى نازلة وداهية تقرعهم بأنواع البلايا تارة بالجدب وتارة بالسلب وتارة بالقتل وتارة بالاسر وغير ذلك واختلف فى الكفار على قولين قيل أراد بهم جميع الكفار لان الوقائع الشديدة التى وقعت لبعض الكفار من ذلك أوجبت حصول الغم فى قلب الكل وقيل المراد الكفار من أهل مكة والالف واللام للمعهود السابق ويدل لهذا قول ابن عباس أراد بالقارعة السرايا التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها اليهم (أو تحل) أى تنزل نزولا ثابتا تلك القارعة (قريبا من دارهم) أى فتوهن أمرهم وقيل معناه أو تحل أنت يا محمد بجيشك قريبا من دارهم مكة كما حل بالحديبية (حتى يأتى وعد الله) أى بالنصر وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه بفتح مكة أو بالنصر على جميع الكفرة فى زمن عيسى عليه السلام فينقطع ذلك لانه لا يبقى على الارض كافر وقيل أراد بوعد الله يوم القيامة لان الله يجمعهم فيه فيجازيهم بأعمالهم (ان الله لا يخلف الميعاد) لامتناع الكذب فى كلامه تعالى * ولما كان الكفار يسألون هذه الآيات منه صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق عليه ويتأذى من تلك الكلمات أنزل الله تعالى تسلية له وتصبيرا له

على سفاهة قومه (ولقد استهزئ برسل من قبلك) كما استهزئ بك (فأمليت للذين كفروا) أى أطلت المدة بتأخير العقوبة (ثم أخذتهم) بالعقوبة (فكيف كان عقاب) أى هو واقع موقعه فكذلك أفعل بمن استهزأ بك والاملاء الامهال بأن يترك مدة من الزمان فى راحة وأمن كالبهيمة على لهاف المرعى وهذا استفهام معناه التعجب وفى ضمنه وعيد شديد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء ثم انه تعالى أورد على المشركين ما يجرى مجرى الحجاج وما يكون توبيخا لهم وتعجيبا من عقولهم فقال تعالى (أفمن هو قائم) أى رقيب (على كل نفس بما كسبت) أى عملت من خير وشر وهو الله تعالى القادر على كل الممكنات العالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات ولا بد لهذا الكلام من جواب ثان من موصولة صلتها هو قائم والموصول مرفوع بالابتداء وخبره محذوف تقديره كمن ليس بهذه الصفة وهى الأصنام التى لا تنفع ولا تضر دل على هذا المحذوف قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء) ونظيره قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام الآية تقديره كمن قسا قلبه يدل عليه قوله فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله وانما حسن حذفه كون الخبر مقابلا للمبتدا وقد جاء مبينا كقوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق وقوله تعالى (قل سموهم) فيه تنبيه على أن هؤلاء الشركاء لا يستحقون اسما والمعنى سموهم بأسمائهم الحقيقية فانهم اذا عرفت حقائقهم أنها حجارة أو غير ذلك مما هو مركز العجز ومحل الفقر عرف ما هم عليه من سخافة العقول وركاكة الآراء ثم قيل أرجعتم عن ذلك الى الاقرار بأنهم من جملة عبيده (أم تنبئونه) أى تخبرونه (بما لا يعلم) وعلمه محيط بكل شئ (فى الارض) من كونها آلهة ببرهان قاطع (أم) تسمونهم شركاء (بظاهر من القول) أى بحجة اقناعية تقال بالفم وكل ما لا يعلم فليس بشئ وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب ينادى على نفسه بالاعجاز * ولما كان التقدير ليس لهم على شئ من هذا برهان قاطع ولا قول ظاهر بنى عليه قوله تعالى (بل زين) أى وقع التزيين بأمر من لا يرد أمره على يد من كان من شياطين الانس أو شياطين الجن (للذين كفروا مكرهم) أى أمرهم الذى أرادوا به ما يراد بالمكر من اظهار شئ وابطان غيره وذلك أنهم أظهروا أن شركاءهم آلهة حقا وهم يعلمون بطلان ذلك وليس بهم فى الباطن الا التقليد للآباء وأظهروا أنهم يعبدونها للتقرب بهم الى الله زلفى والتشفع لهم وهم لا يعتقدون بعثا ولا نشورا فصار كل ذلك من فعلهم فعل الماكر (وصدوا) غيرهم (عن السبيل) أى طريق الهدى الذى لا يقال لغيره سبيل فان غيره عدم بل العدم خير منه فهم لم يسلكوا السبيل ولا تركوا غيرهم يسلكه فضلوا وأضلوا وليس ذلك بعجيب فان الله أضلهم (ومن يضلل الله) أى الذى له الامر كله بارادة اضلاله (فما له من هاد) وقرأ ابن كثير باثبات الياء بعد الدال فى الوقف دون الوصل والباقون بغير ياء وقفا ووصلا وكذلك من واق وكذا ولا واق ولما أخبر الله تعالى بتلك الامور المذكورة بين أنه جمع لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بقوله تعالى (لهم عذاب فى الحيوة الدنيا) بالقتل والاسر والذم والاهانة واغتنام الاموال واللعن ونحو ذلك مما فيه غيظهم (ولعذاب الآخرة أشق) أى أشد فى المشقة بسبب القوة والشدة

وكثرة الانواع والدوام وعدم الانقطاع ثم بين تعالى ان أحداً لا يقيهم من عذابه بقوله تعالى (ومالهم من الله من واق) أى مانع يمنعهم اذا أراد بهم سوأ لا فى الدنيا ولا فى الآخرة والواقى فاعل من الوقاية وهى الحجز عما يدفع الاذية * ولما ذكر تعالى عذاب الكفار فى الدنيا والآخرة أتبعه بذكر ثواب المتقين بقوله تعالى (مثل) أى صفة (الجنة) أى التى هى مقرهم (التى وعد المتقون) واختلف فى اعراب ذلك على أقوال الاول قال سيبويه مثل الجنة مبتدأ وخبره محذوف والتقدير فيما قصصناه عليك مثل الجنة والثانى قال الزجاج مثل الجنة جنة من صفتها كذا وكذا والثالث مثل الجنة مبتدأ وخبره (تجرى من تحتها الانهار) كما تقول صفة زيد أسمر والرابع الخبر (أكلها) أى مأكولها (دائم) لانه الخارج عن العادة فقد وصف الله تعالى الجنة بثلاثة أوصاف الاول تجرى من تحتها أى من تحت قصورها وأشجارها الانهار الثانى ان أكلها دائم لا ينقطع أبداً بخلاف جنة الدنيا والثالث قوله تعالى (وظلها) أى دائم ليس كظل الدنيا لا تنسخه الشمس ولا غيرها اذ ليس فيها شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول ثم انه تعالى لما وصف الجنة بهذه الصفات الثلاثة بين تعالى أنها للمتقين بقوله تعالى (تلك) أى الجنة العالية الاوصاف (عقبى) أى آخر أمر (الذين اتقوا) أى الشرك ثم ذكر الوعيد للكافرين بقوله تعالى (وعقبى) أى منتهى أمر (الكافرين النار) لا غير وفى ترتيب النظامين اطماع للمتقين واقناط للكافرين واختلف فى قوله تعالى (والذين آتيناهم الكتاب) على قولين الاول أنهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والمراد بالكتاب القرآن (يفرحون بما أنزل اليك) من أنواع التوحيد والعدل والنبوة والبعث والاحكام والقصص (ومن الاحزاب) أى الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار (من ينكر بعضه) وهذا قول الحسن وقتادة (فان قيل) الاحزاب منكرون كل القرآن (أجيب) بأنهم لا ينكرون كل ما فى القرآن لانه ورد فيه اثبات الله تعالى واثبات علمه وقدرته وحكمته وأقاصيص الانبياء والاحزاب لا ينكرون كل هذه الاشياء والقول الثانى أن المراد بالكتاب التوراة وبأهله الذين أسلموا من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام وأصحابه ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون من نجران وثمانية من اليمن واثنان وثلاثون من أرض الحبشة وفرحوا بالقرآن لانهم آمنوا به وصدقوه والاحزاب بقية أهل الكتاب وسائر المشركين وقيل كان ذكر الرحمن قليلا فى القرآن فى الابتداء فلما أسلم عبد الله بن سلام ومن تبعه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن مع كثرة ذكره فى التوراة فلما كرر الله تعالى ذكره فى القرآن فرحوا به فأنزل الله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه يعنى مشركى مكة حين كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتاب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم قالوا ما نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة يعنى مسيلمة فأنزل الله تعالى وهم بذكر الرحمن هم كافرون * ثم انه تعالى لما بين هذا جمع كل ما يحتاج المرء اليه فى معرفة المبدإ والمعاد وبينه بألفاظ قليلة فقال (قل) أى يا أكرم الخلق على الله تعالى (انما أمرت) أى وقع الى الامر الجازم الذى لا شك فيه ولا تغيير ممن له الامر كله (أن أعبد

الله)

الله) أي وحده ولذلك قال (ولا أشرك به) شيأ (اليه) وحده (أدعو واليه مآب) أي مرجعي للجزاء لا الى غيره (وكذلك) أي كما أنزلنا الكتب على الانبياء بلسانهم (أنزلناه) أي القرآن (حكما) والحكم فصل الامر على الحق (عربيا) بلسانك ولسان قومك وانما سمي القرآن حكما لان فيه جميع التكاليف والحلال والحرام والنقض والابرام فلما كان سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة وروى ان المشركين كانوا يدعون النبي صلى الله عليه وسلم الى ملة آبائه فوعده الله تعالى على متابعتهم فى تلك المذاهب بأن يصلي الى قبلتهم بعد ما حوله الله تعالى عنها بقوله تعالى (ولئن اتبعت أهواءهم) أي الكفار فيما يدعونك اليه من ملتهم (بعد ما جاءك من العلم) أي بأنك على الحق وأن قبلتك هي الكعبة (مالك من الله من ولي) أي ناصر (ولا واق) أي مانع من عذابه قال ابن عباس الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته * ونزل لما عير الكفار النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة النساء (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا) أي نساء ينكحونهن فكان لسليمان ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية وكان لداود عليه السلام مائة امرأة (وذرية) أي أولادا فأنت مثلهم وكانوا يقولون أيضا لو كان رسولا من عند الله لكان أي شئ طلبناه منه من المعجزات أتى به فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله) أي بارادته لان المعجزة الواحدة كافية فى ازالة العذر والعلة وفى اظهار الحجة والبينة وأما الزائد عليها فهو مفوض الى مشيئة الله تعالى ان شاء أظهرها وان لم يشأ لم يظهرها لا اعتراض لاحد عليه فى ذلك * ولما أوعدهم صلى الله عليه وسلم نزول العذاب وظهور النصرة له ولقومه وتأخر ذلك عنهم قالوا لو كان نبيا صادقا لما ظهر كذبه فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (لكل أجل) أي مدة (كتاب) أي مكتوب قد أثبت فيه ان أمر كذا يكون فى وقت كذا من الثواب والعقاب والاحكام والاتيان بالآيات وغيرها اثباتا ونسخا على ما تقتضيه الحكمة * ولما اعترضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ان محمدا يأمر أصحابه بأمر اليوم ثم يأمر بخلافه غدا وما سبب ذلك الا أنه يقوله من تلقاء نفسه فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (يمحو الله ما يشاء) أي يمحوه من الشرائع والاحكام وغيرها بالنسخ فيرفعه (ويثبت) ما يشاء اثباته من ذلك بأن يقره ويمضي حكمه كقوله تعالى ما ننسخ من آية الى قوله تعالى ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بسكون الثاء المثلثة وتخفيف الباء الموحدة والباقون بفتح الثاء وتشديد الباء الموحدة

* (تنبيه) * فى هذه الآية قولان أحدهما أنها عامة فى كل شئ كما يقتضيه ظاهر اللفظ وهذا مذهب عمر وابن مسعود وغيرهما قالوا ان الله يمحو من الرزق ويزيد فيه وكذا القول فى الاجل والسعادة والشقاوة والايمان والكفر وروى عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول اللهم ان كنت كتبتني فى أهل السعادة فأثبتني فيها وان كنت كتبت علي الشقاوة فامحني وأثبتني فى أهل السعادة والمغفرة فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ومثله عن ابن مسعود وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى بعض

الآثار أن الرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فيرد الى ثلاثة أيام والرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيرد الى ثلاثين سنة وروى أن الله تعالى ينزل أي أمره في آخر ثلاث ساعات تبقى من الليل فينظر في الساعة منهن في أم الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت والقول الثاني ان هذه الآية خاصة في بعض الاشياء دون بعض واختلفوا على هذا القول فقال سعيد بن جبير وقتادة يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه وقال ابن عباس يمحو الله ما يشاء ويثبت الا الرزق والاجل والسعادة والشقاوة واستدل لهذا بما رواه حذيفة بن أسيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثم قال يارب أذكر أم أنثى فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول الملك يارب رزقه فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول يارب أشقي أم سعيد فيكتبان فيكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد ولا ينقص وقال عطية عن ابن عباس هو الرجل يعمل بطاعة الله تعالى ثم يرجع لمعصية الله تعالى فيموت على ضلاله فهو الذي يمحو والذي يثبت يعمل الرجل بطاعة الله فيموت وهو في طاعته فهو الذي يثبت وقال الحسن يمحو ما يشاء أي من جاء أجله يذهب به ويثبت من لم يجئ أجله الى أجله وعن سعيد بن جبير قال يمحو ما يشاء من ذنوب العباد فيغفرها ويثبت ما يشاء فلا يغفرها وقال عكرمة يمحو الله ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات كما قال تعالى فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وقال السدي يمحو الله ما يشاء يعني القمر ويثبت ما يشاء يعني الشمس بيانه قوله تعالى فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة وقال الربيع هذا في الارواح يقبضها الله تعالى عند النوم فمن أراد موته أمسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده الى صاحبه بيانه قوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها الآية وقيل ان الله تعالى يثبت في أول كل سنة حكمها فاذا مضت السنة محاه وأثبت حكما آخر للسنة المستقبلة وقيل يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة وقيل ان الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحو الله من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب وقيل هذا في المحن والمصائب فهي مثبتة في الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة (وعنده) تعالى (أم الكتاب) أصل الكتب والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الاصل للشئ أما ومنه أم الرأس للدماغ وأم القرى لمكة وكل مدينة فهي أم لما حولها من القرى فكذلك أم الكتاب هو الذي يكون أصلا لجميع الكتب وفيه قولان الاول أنه اللوح المحفوظ الذي لا يغير ولا يبدل وجميع حوادث العالم العلوي والسفلي يثبت فيه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كان الله ولا شئ ثم خلق اللوح وأثبت فيه أحوال جميع الخلق الى قيام الساعة والقول الثاني ان أم الكتاب أصله الذي لا يغير منه شئ وهو الذي كتب في الازل وقال ابن عباس في رواية عكرمة هما كتابان كتاب سوى أم الكتاب يمحو ما يشاء منه ويثبت وعنده أم الكتاب لا يغير منه شئ وعلى هذا فالكتاب الذي يمحو منه ويثبت هو الكتاب الذي تكتبه الملائكة على الخلق وعن ابن

عباس

عباس قال ان الله لوحا محفوظا مسيرته خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة لله فيه فى كل يوم ثلثمائة وستون لحظة يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وسأل ابن عباس كعبا عن أم الكتاب فقال علم الله ما هو خالق وما خلقه * ولما كان من مقترحاتهم وطلباتهم استهزاء استعجال السيئة مما توعدوا به وكانت النفس ربما تمنت وقوع ذلك البعض واثباته ليؤمن به غيره تقريبا لفصل النزاع قال تعالى (وإما نرينك) يا محمد وأكده بما تأكيدا للاعلام بأنه لا حرج عليه فى ضلال من ضل بعد ابلاغه (بعض الذى نعدهم) أى من العذاب وأنت حى مما تريد أو تريد أصحابك قبل وفاتك فذلك شافيك من أعدائك والوعد الخبر عن خير مضمون والوعيد الخبر عن شر مضمون والمعنى ههنا عليه وسماه وعدا لتنزيلهم اياه فى طلب نزوله منزلة الوعد (أو نتوفينك) أى قبل أن نرينك ذلك فلا لوم عليك ولا عتب (فانما عليك البلاغ) أى ليس عليك الا تبليغ الرسالة اليهم وليس عليك أن تجازيهم ولا أن تأتيهم بالمقترحات والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ واما فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما الزائدة (وعلينا الحساب) أى علينا أن نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم فلا تحتفل باعراضهم ولا تستعجل بعذابهم *(تنبيه)* قال أبو حيان هنا شرطان لان المعطوف على الشرط شرط فيقدر لكل شرط ما يناسب أن يكون جزاء مرتبا عليه والتقدير وإما نرينك بعض الذى نعدهم فذلك شافيك من أعدائك واما نتوفينك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب وقد مرت الاشارة الى ذلك ولما وعد الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يريه بعض ما يعده أو يتوفاه قبل ذلك بين تعالى ان آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت بقوله تعالى (أولم يروا) أى كفار مكة (أنا نأتى الارض) أى نقصد أرض هؤلاء الكفرة (ننقصها من أطرافها) بما يفتح الله تعالى على المسلمين من ديار الشرك أرضا بعد أرض حوالى أرضهم هذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة وقال مجاهد هو خراب الارض وقبض أهلها وعن عكرمة قال هو قبض الناس وعن الشعبى مثله وعطاء وجماعة نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء ويؤيد هذا ما رواه عمرو بن العاص أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا وقال الحسن قال عبد الله بن مسعود عليكم بالعلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب أهله وقال على انما مثل الفقهاء كمثل الانف اذا قطعت لم تعد وقال سلمان لا يزال الناس بخير ما بقى الاول حتى يتعلم الآخر واذا هلك الاول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس وقيل لسعيد بن جبير ما علامة هلاك الناس قال هلاك علمائهم ثم أثبت تعالى لنفسه أمرا كليا فقال (والله) أى الملك الاعلى (يحكم) فى خلقه بما يريد لانه (لا معقب) أى راد لان التعقيب رد الشئ بعد فصله (لحكمه) وقد حكم للاسلام بالاقبال وعلى الكفر بالادبار وذلك كائن لا يمكن تغييره *(تنبيه)* محل جملة لا معقب لحكمه النصب على الحال كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاءنى زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة تريد حاسرا (وهو) عز

وجل مع تمام القدرة (سريع الحساب) فيحاسبهم عما قليل فى الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل والاجلاء فى الدنيا وقال ابن عباس يريد سريع الانتقام يعنى حسابه للمجازاة بالخير والشر فمجازاة الكفار بالانتقام منهم ومجازاة المؤمنين بايصال الثواب اليهم وقد تقدم الكلام فى معنى سريع الحساب قبل هذا وقوله تعالى (وقد مكر الذين من قبلهم) أى من كفار الامم الماضية قبل مكروا بأنبيائهم مثل نمرود مكر بابراهيم وفرعون مكر بموسى واليهود مكروا بعيسى فيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (فلله المكر جميعا) أى أن مكر جميع الماكرين حاصل بتخليقه وارادته لانه تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد فالمكر لا يضر الا باذنه ولا يؤثر الا بتقديره فيه أمان له صلى الله عليه وسلم من مكرهم فكأنه قيل اذا كان حدوث المكر من الله تعالى وتأثيره فى الممكور به من الله وجب أن لا يكون الخوف الا من الله تعالى لا من أحد من المخلوقين وذهب بعض المفسرين الى أن المعنى فلله جزاء المكر وذلك أنهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله تعالى أنه يجازيهم على مكرهم قال الواحدى والاول أظهر القولين بدليل قوله تعالى (يعلم ما تكسب كل نفس) أى ان اكساب العباد معلومة لله تعالى وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك فكان الكل من الله فيجازيهم على أعمالهم وفى ذلك وعيد وتهديد للكفار الماكرين ثم انه تعالى أكد ذلك التهديد بقوله تعالى (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) أى العاقبة المحمودة فى الدار الآخرة ألهم أم للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالالف بعد الكاف على الافراد والكاف مفتوحة والفاء مكسورة مخففة والباقون بالالف بعد الفاء على الجمع فالكاف مضمومة والفاء مفتوحة مشددة فمن قرأ بالافراد أراد الجنس كقوله تعالى ان الانسان لفى خسر ليوافق قراءة الجمع وقال عطاء المستهزؤن وهم خمسة والمقتسمون وهم ثمانية وعشرون وقال ابن عباس يريد أبا جهل قال الرازى والاول هو الصواب أى ليوافق قراءة الجمع كما مر * ولما تقدم قوله تعالى ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه عطف عليه بعد شرح ما استتبعه قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) أى لكونك لا تأتى بمقترحاتهم مع أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل يوما انه قادر عليها فكأنه قيل فما أقول لهم فقال تعالى (قل) لهم (كفى بالله) الذى له الاحاطة الكاملة (شهيدا) أى بليغ العلم فى شهادته بالاطلاع على ما ظهر وما بطن (بينى وبينكم) يشهد بتأييد رسالتى وتصحيح مقالتى بما أظهر لى من الآية وأوضح من الدلالة بهذا الكتاب ويشهد بتكذيبهم بادعائكم القدرة على المعارضة وترككم لها عجزا وهذا أعلى مراتب الشهادة لان الشهادة قول يفيد غلبة الظن بان الامر كما شهد به والمعجزة فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولا من عند الله واختلف فى قوله تعالى (ومن عنده علم الكتاب) فروى العوفى عن ابن عباس أنهم علماء اليهود والنصارى أى أن كل من كان عالما من اليهود بالتوراة ومن النصارى بالانجيل علم أن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من عند الله لما يجد من الدلائل الدالة على نبوته فيها شهد بذلك من شهد به وأنكره من أنكره منهم والثانى

ان

ان المراد شهادة أهل الكتاب من الذين آمنوا وهم عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري وقال الحسن ومجاهد والزجاج وسعيد بن جبير ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى قال الحسن لا والله لا يعني الا الله والمعنى كفى بالله الذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح الا هو شهيدا بيني وبينكم وهذا أظهر كما استظهره البقاعي وان كان عطف الصفة على الموصوف خلاف الاصل اذ يقال شهد بهذا زيد الفقيه لا زيد والفقيه لانه جائز في الجملة وقيل معناه أن علم أن القرآن الذي جئتكم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والاخبار عن الغيوب وعن الامم الماضية فمن علمه بهذه الصفة كان شهيدا بيني وبينكم والله أعلم بمراده وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري وتبعهما ابن عادل من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الرعد أعطي من الاجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون الى يوم القيامة وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله حديث موضوع

(سورة ابراهيم عليه السلام مكية)

الا قوله تعالى ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله الآيتين وهي اثنتان وخمسون آية وعدد كلماتها ثمانمائة واحدى وثلاثون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم) قوله تعالى (الر) تقدم الكلام عليها أول يونس وهود وقوله تعالى (كتاب) خبر لمبتدا محذوف أي هذا القرآن كتاب أو الر ان قلنا انها مبتدأ والجملة بعده صفة ويجوز أن يرتفع بالابتداء وخبره الجملة بعده وجاز الابتداء بالنكرة لانها موصوفة تقديرا تقديره كتاب أي كتاب يعني عظيما من بين الكتب السماوية (أنزلناه اليك) يا أشرف الخلق عند الله تعالى (لتخرج الناس) أي عامة قومك وغيرهم بدعائك اياهم (من الظلمات) أي الكفر وأنواع الضلالة (الى النور) أي الايمان والهدى قال الرازي والآية دالة على أن طرق الكفر والبدع كثيرة وأن طريق الحق ليس الا واحدا لانه تعالى قال لتخرج الناس من الظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الايمان والهدى بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل على أن طرق الجهل والكفر كثيرة وأن طريق العلم والايمان ليس الا واحدا *(تنبيه)* القائلون بأن معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها الا من تعليم الرسول احتجوا بهذه الآية وذلك يدل على أن معرفة الله تعالى لا تحصل الا من طريق التعليم وأجيب بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كالمنبه وأما المعرفة فهي انما تحصل من الدليل وقوله تعالى (باذن ربهم) متعلق بالاخراج أي بتوفيقه وتسهيله ويبدل من الى النور (الى صراط) أي طريق (العزيز) أي الغالب (الحميد) أي المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد وفي قوله (الله) قراءتان فقرأ نافع وابن عامر برفع الهاء وصلا وابتداء على انه مبتدأ خبره (الذي له ما في السموات وما في الارض) أي ملكا وخلقا وقرأ الباقون بالجر على أنه بدل أو عطف بيان وما

بعده صفة *(تنبيه)* ذهب جماعة من المحققين الى أنّ قولنا الله جار مجرى الاسم العلم لذات الله سبحانه وتعالى وذهب قوم آخرون الى أنه لفظ مشتق قال الرازى والحق عندنا هو الاول لانّ الامّة لما اجتمعت على أنّ قولنا لا اله الا الله يوجب التوحيد المحض علمنا أنّ قولنا الله جار مجرى الاسم العلم وقد قال تعالى هل تعلم له سميا أى هل تعلم من اسمه الله غير الله وذلك يدل على قولنا الله اسم لذاته المخصوصة ولذا استشكل قراءة الجرّ اذ الترتيب الحسن أن يذكر الاسم ثم يذكر عقبه الصفات كقوله تعالى هو الله الخالق البارئ المصوّر وأمّا الخالق الله فلا يحسن وأجيب عن ذلك بأنه لا يبعد أن تذكر الصفة أوّلا ثم يذكر الاسم ثم تذكر الصفة مرّة أخرى كما يقال مررت بالامام الاجل محمد الفقيه وهو بعينه نظير قوله تعالى صراط العزيز الحميد الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض والآية تفيد حصر ما فى السموات وما فى الارض له لا لغيره وذلك يدل على أنه لا مالك الا الله ولا حاكم الا الله وأنه تعالى خالق لاعمال العباد لانها حاصلة فى السموات والارض فوجب القول بأنّ أفعال العباد له بمعنى كونها مملوكة له والملك عبارة عن القدرة فوجب كونها مقدورة لله واذا ثبت أنها مقدورة لله وجب وقوعها بقدرة الله والا لكان العبد قد منع الله تعالى من ايقاع مقدوره وذلك محال ثم انه تعالى لما ذكر ذلك عطف على الكفار بالوعيد فقال تعالى (وويل للكافرين) أى الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذى له ما فى السموات وما فى الارض وعبدوا من لا يملك شيأ البتة بل هو مملوك لله تعالى لانه من جملة ما فى السموات وما فى الارض وويل مبتدأ وجاز الابتداء به لانه دعاء كسلام عليكم وللكافرين خبره وقوله تعالى (من عذاب شديد) أى يعذبهم فى الآخرة متعلق بويل ولا يضر الفصل بالخبر ثم وصفهم بقوله تعالى (الذين يستحبون) أى يختارون (الحياة الدنيا على الآخرة) أى يؤثرونها عليها (ويصدّون عن سبيل الله) أى يمنعون الناس عن قبول دين الله (ويبغونها) أى السبيل (عوجا) أى معوجة والاصل ويبغون لها زيغا وميلا فحذف الجار وأوصل الفعل الى الضمير (أولئك) أى الموصوفون بهذه الصفات (فى ضلال بعيد) أى عن الحق واسناد البعد الى الضلال اسناد مجازى لانّ البعيد هم الضلال عملهم عن الباقى الى الفانى * ثم ذكر ما يجرى مجرى تكميل النعمة والاحسان فى الوجهين بقوله تعالى (وما أرسلنا من رسول) أى فى زمن من الازمان (الا بلسان) أى لغة (قومه) أمّا بالنسبة الى الرسول فلانه تعالى بين أنّ سائر الانبياء كانوا مبعوثين الى قومهم خاصة وأمّا أنت يا محمد فمبعوث الى عامة البشر وكان هذا الانعام فى حقك أكمل وأفضل وامّا بالنسبة الى عامّة الخلق فهو أنه تعالى ذكر أنه ما بعث رسولا الا بلسان أولئك القوم (ليبين لهم) ما أمروا به فيفهموه عنه بيسر وسرعة لانّ ذلك أسهل لفهم أسرار تلك الشريعة والوقوف على حقائقها وأبعد عن الغلط والخطا *(تنبيه)* تمسك طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية بهذه الآية على أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم لم يرسل لغير العرب من وجهين الاوّل ان القرآن لما كان نازلا بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة الا العرب وحينئذ لا يكون القرآن حجة الا عليهم الثانى انّ قوله تعالى

وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه المراد بذلك اللسان لسان العرب وذلك يدل على أنه مبعوث الى العرب فقط ورد عليهم بأن المراد بالقوم أهل دعوته والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا بل الى الثقلين لان التحدى كما وقع مع الانس وقع مع الجن بدليل قوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا * ثم بين سبحانه وتعالى ان الاضلال والهداية بمشيئته بقوله تعالى (فيضل الله من يشاء) اضلاله (ويهدى من يشاء) هدايته فانه تعالى هو المضل الهادى وليس على الرسل الا التبليغ والبيان والله تعالى هو الهادى المضل يفعل ما يشاء (وهو العزيز) فى ملكه فلا رادله عن مشيئته (الحكيم) فى صنعه فلا يهدى ولا يضل الا لحكمة * ولما بين تعالى أنه انما أرسل محمدا عليه الصلاة والسلام الى الناس ليخرجهم من الظلمات الى النور وذكر كمال انعامه عليه وعلى قومه فى ذلك الارسال وفى تلك البعثة أتبع ذلك بشرح بعثة سائر الانبياء الى أقوامهم وكيفية معاملة أقوامهم لهم ليكون ذلك تصبيرا له صلى الله عليه وسلم على أذى قومه وارشادا له الى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم فذكر تعالى على العادة المألوفة قصص بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام فبدأ بذكر قصة موسى عليه السلام فقال (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) أى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وانفجار العيون من الحجر واظلال الجبل والمن والسلوى وسائر معجزاته (أن أخرج قومك) أى بنى اسرائيل (من الظلمات) أى الكفر والضلال (الى النور) أى الايمان والهدى * (تنبيه) * يجوز أن تكون أن مصدرية أى بأن أخرج والباء فى بآياتنا للحال وهذه للتعدية ويجوز أن تكون مفسرة للرسالة بمعنى أى ويكون المعنى أى أخرج قومك من الظلمات أى قلنا له أخرج قومك كقوله تعالى وانطلق الملأ منهم أن امشوا (وذكرهم بأيام الله) قال ابن عباس بنعم الله وقال مقاتل بوقائع الله فى الامم السالفة يقال فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم وفى المثل من سره يوما سره قال الرازى معناه من رأى فى يوم سروره بمصرع غيره رآه غيره فى يوم آخر بمصرع نفسه وقال تعالى وتلك الايام نداولها بين الناس والمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد والترغيب والوعد أن يذكرهم ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمنوا بالرسل فيما سلف من الايام والترهيب والوعيد أن يذكرهم بأمر الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل فيما سلف من الايام مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب ليرغبوا فى الوعد فيصدقوا ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب وقيل بأيام الله فى حق موسى أن يذكر قومه بأيام المحنة والبلاء حين كانوا تحت أيدى القبط يسومونهم سوء العذاب فخلصهم الله من ذلك وجعلهم ملوكا بعد أن كانوا مملوكين (ان فى ذلك) أى التذكير اعظيم (لآيات) على وحدانية الله تعالى وعظمته (لكل صبار) أى كثير الصبر على الطاعة وعن المعصية (شكور) أى كثير الشكر للنعم وانما خص الصبور والشكور بالاعتبار بالآيات وان كان فيها عبرة للكل لانهم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم بالآيات فكأنها ليست لغيرهم فهو كقوله تعالى هدى للمتقين فان

الانتفاع لا يمكن حصوله الالمن يكون صابرا شاكرا أمامن لا يكون كذلك فلا ينتفع بها البتة
* ولما أمر الله تعالى موسى أن يذكرهم بأيام الله حكى عنه أنه ذكرهم بها بقوله تعالى (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم) وقوله (اذ أنجاكم من آل فرعون) ظرف للنعمة بمعنى الانعام أى اذكروا انعام الله عليكم فى ذلك الوقت (يسومونكم سوء العذاب) بالاستعباد (ويذبحون) أى تذبيحا كثيرا (أبناءكم) أى المولودين (ويستحيون) أى يستبقون (نساءكم) أحياء وذلك كقول بعض الكهنة ان مولودا يولد فى بنى اسرائيل يكون سبب زوال ملك فرعون (فان قيل) لم ذكر تعالى فى سورة البقرة يذبحون بغير واو وذكره هنا مع الواو (أجيب) بأنها انما حذفت فى سورة البقرة لانها تفسير لقوله يسومونكم سوء العذاب وفى التفسير لا يحسن ذكر الواو وهنا أدخل الواو فيه لانه نوع آخر لانهم كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح فليس تفسيرا للعذاب (وفى ذلكم بلاء) أى انعام وابتلاء (من ربكم عظيم) لان الابتلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعا ومنه قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة (فان قيل) تذبيح الابناء فيه بلاء وأما استحياء النساء فكيف فيه ابتلاء (أجيب) بأنهم كانوا يستعبدونهن ويتركونهن تحت أيديهم كالاماء فكان ذلك ابتلاء وقوله تعالى (واذ) أى واذكروا اذ (تأذن ربكم) فهو أيضا من كلام موسى عليه السلام وتأذن بمعنى أذن كتوعد وأوعد غير أنه أبلغ لما فى التفعل من معنى التكلف والمبالغة (لئن شكرتم) يا بنى اسرائيل نعمتى بالتوحيد والطاعة (لازيدنكم) نعمة الى نعمة ولاضاعفن لكم ما آتيتكم فان الشكر قيد الموجود وصيد المفقود والشكر عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة ثم قد يرتقى العبد عن تلك الحالة الى أن يصير حبه للمنعم شاغلا له عن الالتفات الى النعمة ولا شك ان منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته وأما الزيادة فى النعمة فهى على قسمين روحانية وجسمانية فالاولى هى أن الشاكر يكون أبدا فى مطالعة أقسام نعمة الله تعالى وأنواع فضله وكرمه وأما الثانية فلان الاستقراء دل على أن كل من كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر كان وصول نعم الله اليه أكثر نسأل الله تعالى القيام بواجب شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه واحسانه ويفعل ذلك بأهلينا وأحبابنا ثم انه تعالى لما ذكر ما يستحقه الشاكر ذكر ما يستحقه مقابله بقوله تعالى (ولئن كفرتم) أى جحدتم النعمة بالكفر والمعصية لاعذبنكم دل عليه (ان عذابى لشديد) أى لمن كفر نعمتى ولا يشكرها ومن عادة أكرم الاكرمين أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد * ولما بين موسى أن الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات فى الدنيا والآخرة والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد وحصول الآفات فى الدنيا والآخرة بين بعده أن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود الا الى صاحب الشكر وصاحب الكفران وأما المعبود والمشكور فانه متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يستضر بالكفران فلا جرم قال تعالى (وقال موسى ان تكفروا أنتم) يا بنى اسرائيل (ومن فى الارض) وأكده بقوله تعالى (جميعا) أى من الثقلين فانما ضرر ذلك يعود على أنفسكم

وحرمتموها الخير كله (فان الله لغني) عن جميع خلقه فلا يزداد بشكر الشاكرين ولا ينقص بكفر الكافرين (حميد) أي محمود في جميع أفعاله لانه فيها متفضل عادل وقوله تعالى (ألم يأتكم) يا بني اسرائيل (نبأ) أي خبر (الذين من قبلكم قوم نوح) وكانوا ملء الارض (و) نبأ (عاد) قوم هود وكانوا أشد الناس أبدانا (و) نبأ (ثمود) قوم صالح وكانوا أقوى الناس على نحت الصخور وبناء القصور يحتمل أن يكون من كلام موسى أو كلام مبتدأ من الله تعالى لقوم محمد صلى الله عليه وسلم وهو استفهام تقرير وقوله تعالى (والذين من بعدهم) أي بعد هؤلاء الامم الثلاثة (لا يعلمهم الا الله) فيه قولان الاول أن يكون المراد لا يعلم كنه مقاديرهم الا الله تعالى لان المذكور في القرآن جملة فأما ذكر العدد والعمر والكيفية والكمية فغير حاصل والقول الثاني ان المراد ذكر أقوام ما بلغنا أخبارهم أصلا كذبوا رسلا لم نعرفهم أصلا ولا يعلمهم الا الله ولذلك كان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون يعني أنهم يدعون علم الانساب الى آدم عليه السلام وقد نفى الله علمها عن العباد وعن ابن عباس أنه قال بين عدنان واسمعيل ثلاثون أبا لا يعرفون ونظير هذه الآية قوله تعالى وقرونا بين ذلك كثيرا وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا وقوله تعالى منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وعنه صلى الله عليه وسلم أنه كان في انتسابه لا يجاوز معد بن عدنان بن أدد وقال تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم وتعلموا من النجوم ما تستدلون به على الطريق قال الرازي والقول الثاني أقرب ولما (جاءتهم) أي هؤلاء الاقوام الذين تقدم ذكرهم (رسلهم بالبينات) أي الدلائل الواضحات والمعجزات الباهرات أتوا بأمور أولها ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى (فردوا) أي الامم (أيديهم في أفواههم) وفي ذلك احتمالات الاول ان الكفار ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها غيظا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ والثاني أنهم لما سمعوا كلام الانبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فيضع يده على فيه والثالث أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك الى الانبياء أن كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث والرابع أنهم أشاروا بأيديهم الى ألسنتهم والى ما تكلموا به من قولهم الكفر كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به) أي على زعمكم أي ان هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره اقناطا لهم من التصديق هذا هو الامر الثاني الذي أتوا به وقيل الضمير في ردوا راجع للرسل عليهم السلام وفيه وجهان أحدهما أن الكفار أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوا ويقطعوا الكلام والثاني ان الرسل لما أيسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدي أنفسهم على أفواه أنفسهم فان من ذكر كلاما عند قوم وأنكروه وخافهم فذلك المتكلم ربما وضع يد نفسه على فم نفسه وغرضه أن يعرفهم أنه لا يعود الى ذلك الكلام البتة والامر الثالث قولهم (وانا لفي شك مما) أي شيء (تدعوننا) أيها الرسل (اليه) أي من الدين (مريب) أي موجب الريبة أي موقع في الريبة والشبهة والريبة قلق النفس وان لا تطمئن الى الامر الذي

يشك فيه (فان قيل) انهم قالوا أولا انا كفرنا بما أرسلتم به فكيف يقولون ثانيا وانا لفي شك والشك دون الكفر (أجيب) بأنهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل كأنهم حصل لهم شبهة توجب الشك لهم فقالوا ان لم ندع الجزم واليقين في كفرنا فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم وعلى التقديرين فلا سبيل الى الاعتراف بنبوتكم * ولما قال هؤلاء الكفار للرسل ذلك (قالت) لهم (رسلهم) مجيبين (أفي الله شك) أي هل تشكون في الله وهو استفهام انكار أي لاشك في توحيده للدلائل الظاهرة عليه منها قوله تعالى (فاطر) أي خالق (السموات والارض) أي ومافيهما من الانفس والارواح والارزاق وقرأ أبو عمرو رسلهم هنا وفيما ترقى جاءتهم رسلهم باسكان السين والباقون بالرفع * ولما أقاموا الدليل على وجود الله تعالى وصفوه بكمال الرحمة بقولهم (يدعوكم) أي الى الايمان بيعثنا وقولهم (ليغفر لكم) اللام متعلقة بيدعو أي لاجل غفران ذنوبكم كقوله

دعوت لما نالني مسورا * فلبى فلبي يدى مسور

ويجوز أن تكون معدية كقوله دعوتك لزيد والتقدير يدعوكم الى غفران ذنوبكم وقوله (من ذنوبكم) قال السيوطي من زائدة فان الاسلام يغفر به ماقبله أو تبعيضية لاخراج حقوق العباد اه أي والمغفور لهم مابينهم وبين الله تعالى قال الرازي والعاقل لايجوز له المصير الى كلمة من كلام الله تعالى بأنها زائدة من غير ضرورة اه وقال في الكشاف ماعلمته جاء هكذا الا في خطاب الكافرين كقوله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم وقال في خطاب المؤمنين ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين وأن لايسوى بين الفريقين في المعاد اه قال الرازي وأما قول الكشاف فهو من باب الطامات لان هذا التبعيض ان حصل فلا حاجة الى ذكر هذا الجواب وان لم يحصل كان هذا الكلام فاسدا (ويؤخركم) أي ولايفعل بكم فعل من تعهدون من الملوك في المعاجلة في الاهلاك لمن خالفهم بل يؤخركم (الى أجل مسمى) أي الى وقت قدسماه وبين مقداره يبلغكموه ان أنتم آمنتم به والاعاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت ان أنتم ما آمنتم (فان قيل) أليس قال تعالى فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون فكيف قال هنا ويؤخركم الى أجل مسمى (أجيب) بأن الاجل على قسمين معلق ومبرم (قالوا) أي الامم مجيبين للرسل (ان) أي ما (أنتم) أيها الرسل (الابشر مثلنا) أي لافضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوة دوننا ولو ارسل الله تعالى الى البشر رسلا لجعلهم من جنس أي من البشر في زعم القائلين أفضل وقول الكشاف وهم الملائكة جار على مذهبه (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) أي ماتريدون بقولكم هذا الاصدنا عن آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها (فأتونا بسلطان مبين) أي بحجة ظاهرة على صدقكم * ولما حكى الله تعالى عن الكفار شبهاتهم في الطعن في النبوة حكى عن الانبياء عليهم الصلاة والسلام جوابهم عنها بقوله تعالى (قالت لهم رسلهم) مجيبين لهم (ان) أي ما (نحن

الا بشر مثلكم) كما قلتم فسلموا أن الامر كذلك لكنهم بينوا أن التماثل فى البشرية لا يمنع من اختصاص بعض بمنصب النبوة بقولهم (ولكن الله يمن) أى يتفضل (على من يشاء من عباده) بالنبوة والرسالة فيصطفى من يشاء من عباده لهذا المنصب العظيم الشريف كما قال تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته (وما كان) أى ما صح واستقام (لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله) أى الا بأمره لانا عبيد مربوبون فليس الينا الاتيان بالآيات ولا تستبد به استطاعتنا حتى نأتيكم بما اقترحتموه وانما هو أمر متعلق بمشيئة الله تعالى فله أن يخص كل نبى بنوع من الآيات (وعلى الله فليتوكل) بأمرهم (المؤمنون) أى يثقوا به فلا نخاف من تخويفكم ولا نلتفت الى تهديدكم فان توكلنا على الله واعتمادنا على فضل الله فان الروح متى كانت مشرقة بالمعارف الالهية مشرقة باضواء علم الغيب قلما تمالى بالاحوال الجسمانية وقلما تقيم لها وزنا فى حالتى السراء والضراء فلهذا توكلوا على الله وعولوا على فضله وقطعوا أطماعهم عمن سواه وعمموا الامر للاشعار بما يوجب التوكل وقصدوا به أنفسهم قصدا أوليا ألا ترى الى قولهم (وما لنا أن لا نتوكل على الله) أى أى عذر لنا فى أن لا نتوكل عليه (وقد هدانا سبلنا) أى وقد عرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد فان من فاز بشرف العبودية ووصل الى مقام الاخلاص والمكاشفة يقبح عليه أن يرجع فى أمر من الامور الى غير الحق وفى هذه الآية دلالة على أنه تعالى يعصم أولياءه والخاصين فى عبوديته عن كيد أعدائهم ومكرهم وقرأ أبو عمرو بسكون الباء والباقون بالرفع وكذلك لرسلهم سكن أبو عمرو السين ورفعها الباقون ثم قالوا (ولنصبرن على ما آذيتمونا) فان الصبر مفتاح الفرج ومطلع الخيرات والحق لا بد وأن يصير غالبا قاهرا والباطل لا بد وأن يصير مغلوبا مقهورا ثم قالوا (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) فان قيل أى فرق بين التوكلين (أجيب) بأن الاول لاستحداث التوكل والثانى طلب دوامه أى فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم المسبب عن ايمانهم * ولما حكى الله تعالى عن الانبياء عليهم السلام انهم اكتفوا فى دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته حكى عن الكفار أنهم بالغوا فى السفاهة بقوله تعالى (وقال الذين كفروا لرسلهم) مستهينين لما قصروا النجاة هم عليه (لنخرجنكم من أرضنا) أى التى لنا الآن الغلبة عليها (أو لتعودن فى ملتنا) أى حلفوا ليكونن أحد الامرين اما اخراجكم أيها الرسل واما عودكم الى ملتنا أى ديننا (فان قيل) قد يفهم هذا بظاهره أنهم كانوا على ملتهم قبل ذلك (أجيب) بأن العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير فى كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار ولكن عاد يقولون ما عدت أراه عاد لا يكلمنى ما عاد لفلان مال وقد أجمعت الامة على ان الرسل من أول الامر انما نشؤا على التوحيد لا يعرفون غيره ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ولمن آمن معه فغلبوا الجماعات على الواحد وقيل أو لتعودن فى ملتنا أى الى ما كنتم عليه قبل ادعاء الرسالة من السكوت عند ذكر معايبه وعدم التعرض له بالطعن والقدح * ولما ذكر الكفار هذا الكلام قال تعالى (فأوحى اليهم) أى الرسل (ربهم) وقوله تعالى (لنهلكن الظالمين) أى الكافرين حكاية تقتضى اضمار

القول أو أجرى الايحاء مجرى القول لانه ضرب منه (ولنسكننكم الارض) أى أرضهم (من بعدهم) أى بعد هلاكهم ونظيره قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها وقوله تعالى وأورثكم أرضهم وديارهم قال الزمخشرى وعن النبي صلى الله عليه وسلم من آذى جاره ورثه الله داره قال ولقد عاينت هذا فى مدة قريبة كان لى خال يظلمه عظيم القرية التى أنا فيها ويؤذينى فيه فمات ذلك العظيم وملكنى الله ضيعته فنظرت يوما الى أبناء خالى يترددون منها ويأمرون وينهون فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثتهم به وسجدنا شكرا لله تعالى (ذلك) أى النصر وايراث الارض (لمن خاف مقامى) أى موقفى وهو موقف الحساب لان ذلك الموقف موقف الله الذى يوقف فيه عباده يوم القيامة ونظيره وأما من خاف مقام ربه وقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقيل ذلك لمن خاف مقامى أى خافنى فالمقام مقحم مثل ما يقال سلام على المجلس العالى والمراد السلام على فلان (وخاف وعيد) قال ابن عباس ما أوعدت من العذاب وهذا يدل على أن الخوف من الله غير الخوف من وعيده لان العطف يقتضى المغايرة وفى تفسير قوله تعالى (واستفتحوا) قولان أحدهما طلب الفتح أى واستنصروا الله تعالى على أعدائهم وهو كقوله تعالى ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح والثانى الفتح الحكم والقضاء أى واستحكموا الله وسألوه القضاء بينهم وهو مأخوذ من الفتاحة وهى الحكومة كقوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فعلى القول الاول المستفتح هم الرسل لانهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب لما أيسوا من ايمانهم قال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وقال موسى ربنا اطمس على أموالهم وقال لوط انصرنى على القوم المفسدين وعلى القول الثانى قال الرازى فالاولى أن يكون المستفتح هم الامم وذلك أنهم قالوا اللهم ان كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا ومنه قول كفار قريش اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء وكقول آخرين ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين (وخاب) أى خسر وهلك (كل جبار) أى متكبر عن طاعة الله وقيل هو الذى لا يرى فوقه أحدا وقيل هو المتعظم فى نفسه المتكبر على اقرانه واختلفوا فى قوله تعالى (عنيد) فقال مجاهد معاند للحق ومجانبه وقال ابن عباس هو المعرض عن الحق وقال مقاتل هو المتكبر وقال قتادة هو الذى يأبى أن يقول لا اله الا الله وقيل هو المعجب بما عنده ولما حكم تعالى على الكافر بالخيبة ووصفه بكونه جبارا عنيدا وصف كيفية عذابه بأمور الاول قوله تعالى (من ورائه) أى امامه (جهنم) أى هو صائر اليها قال أبو عبيدة هو من الاضداد وقال الشاعر

عسى الكرب الذى أمسيت فيه * يكون وراءه فرج قريب

ويقال أيضا الموت وراء كل أحد وقال تعالى وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا أى امامهم وقال ثعلب هو اسم لما توارى عنك سواء كان خلفك أم قدامك فيصح اطلاق لفظ الوراء على خلف وقدام وقال ابن الانبارى وراء بمعنى بعد قال الشاعر * وليس وراء الله للخلق مهرب ومعنى الآية على هذا ان الكافر بعد الخيبة يدخل جهنم الامر الثانى ماذكره تعالى بقوله

(ويسقى) أى فى جهنم (من ماء صديد) وهو ما يسيل من جوف أهل النار مختلطا بالقيح والدم جعل ذلك شراب أهل النار وقال محمد بن كعب هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر (فان قيل) علام عطف ويسقى (أجيب) بأنه عطف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى من ماء صديد (يتجرعه) أى يتكلف أن يبتلعه مرة بعد مرة لمرارته وحرارته ونتنه (ولا يكاد يسيغه) أى ولا يقدر على ابتلاعه قال الزمخشرى دخل كاد للمبالغة يعنى ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الاساغة كقوله تعالى لم يكد يراها أى لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها (فان قيل) كيف الجمع على هذا الوجه بين يتجرعه ولا يكاد يسيغه (أجيب) بجوابين أحدهما أن المعنى ولا يسيغ جميعه كأنه يتجرع البعض وما أساغ الجميع والثانى ان الدليل الذى ذكرناه دال على وصول ذلك الشراب الى جوف ذلك الكافر لان ذلك ليس باساغة لان الاساغة فى اللغة اجراء الشراب فى الحلق واستطابة المشروب والكافر يتجرع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه أى لا يستطيبه ولا يشربه شربا بمرة واحدة وعلى هذين الوجهين يصح حمل لا يكاد على نفى المقاربة الامر الثالث ما ذكره تعالى بقوله تعالى (ويأتيه الموت) أى أسبابه المقتضية له من أنواع العذاب (من كل مكان) أى من سائر الجهات وقيل من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وابهام رجله (وما هو بميت) فيستريح وقال ابن جريج تتعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع الى مكان من جوفه فتنفعه الحياة الامر الرابع ما ذكره تعالى بقوله تعالى (ومن ورائه) أى ومن بين يديه بعد ذلك العذاب (عذاب غليظ) أى شديد كل وقت يستقبله أشد مما قبله وقيل هو الخلود فى النار وقيل هو قطع الانفاس وحبسها فى الاجساد * ولما ذكر تعالى أنواع عذابهم بين بعده ان سائر أعمالهم تصير باطلة ضائعة وذلك هو الخسران الشديد بقوله تعالى (مثل) أى صفة (الذين كفروا بربهم أعمالهم) أى الصالحة كصدقة وصلة رحم وفك أسير واقراء ضيف وبر والد فى عدم الانتفاع بها (كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف) اى شديد هبوب الريح فجعلته هباء منثورا لا يقدر عليه كما قال تعالى (لا يقدرون) أى الكفار يوم الجزاء (مما كسبوا) أى عملوا فى الدنيا (على شئ) أى لا يجدون لهم ثوابا لفقد شرطه وهو الايمان وقرأ نافع الرياح بالجمع والباقون بالافراد (ذلك) اشارة الى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون (هو الضلال البعيد) أى الخسران الكبير لان أعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى عودها * (تنبيه) * فى ارتفاع قوله تعالى مثل أوجه أحدها وهو مذهب سيبويه أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا وتكون الجملة من قوله تعالى أعمالهم كرماد مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كرماد والثانى وهو مذهب الفراء التقدير مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد فحذف المضاف اعتمادا على ذكره بعد المضاف اليه وهو قوله تعالى أعمالهم ومثله قوله تعالى ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة المعنى ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة الثالث أن يكون التقدير صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد كقوله صفة

زيد غرضه مصون وماله مبذول الرابع أن تكون أعمالهم بدلا من قوله مثل الذين كفروا والتقدير مثل أعمالهم وقوله تعالى كرماد هو الخبر وقيل غير ذلك وقوله تعالى (ألم تر) أي تنظر خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته وقيل لكل واحد من الكفرة على الالتفات (أن الله خلق السموات) على عظمها وارتفاعها (والارض) على تباعد أقطارها واتساعها وقوله تعالى (بالحق) أي بالحكمة والوجه الذي يحق أن تخلق عليه متعلق بخلق وقرأ حمزة والكسائي بألف بعد الخاء وكسر اللام ورفع القاف وخفض الارض والباقون بغير ألف بعد الخاء وفتح اللام والقاف ونصب الارض (ان يشأ يذهبكم) أيها الناس (ويأت) بدلكم (بخلق جديد) أطوع منكم رتب ذلك على كونه خالق السموات والارض استدلالا به عليه فان من خلق أصولهم وما يتوقف عليه تخليقهم قدر أن يبدلهم بخلق آخر ولم يمتنع عليه كما قال تعالى (وما ذلك على الله بعزيز) أي بممتنع فانه تعالى قادر بذاته ولا اختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شأنه كان حقيقا أن يؤمن به ويعبد رجاء ثوابه وخوفا من عقابه يوم الجزاء * ولما ذكر تعالى أصناف عذاب هؤلاء الكفار وذكر عقبه أن أعمالهم تصير محبطة باطلة ذكر كيفية مجادلتهم عند تمسك أتباعهم بهم وكيفية افتضاحهم عندهم بقوله تعالى (وبرزوا) أي الخلائق من قبورهم (لله جميعا) والتعبير فيه وفيما يأتي بالماضي وان كان معناه الاستقبال لتحقق وقوعه لان كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو حق وصدق وكائن لا محالة فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ونظيره ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار * (تنبيه) * البروز في اللغة الظهور بعد الاستتار وهو في حق الله تعالى محال فلا بد من تأويله وهو من وجهين الاول أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله تعالى فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عن أنفسهم وعلموا أن الله تعالى لا يخفى عليه خافية الثاني انهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله تعالى وحكمه * ثم حكى الله تعالى عنهم أن الضعفاء يقولون للرؤساء هل تقدرون على دفع عذاب الله تعالى عنا بقوله تعالى (فقال الضعفاء) أي الاتباع جمع ضعيف يريد به ضعفاء الرأي (للذين استكبروا) أي المتبوعين الذين طلبوا الكبر وادعوه فاستغووهم به حتى تكبروا على الرسل وقوله تعالى (انا كنا لكم تبعا) يصح أن يكون مصدرا نعت به للمبالغة أو على اضمار مضاف وأن يكون جمع تابع أي تابعين لكم في تكذيب الرسل فكنتم سبب ضلالنا وقد جرت عادة الاكابر بالدفع عن أتباعهم المساعدين لهم على أباطيلهم (فهل أنتم) أي في هذا اليوم (مغنون) أي دافعون (عنا من عذاب الله) أي من انتقامه (من شيء) فان قيل فما الفرق بين من في عذاب الله وبين من في شيء (أجيب) بأن الاولى للتبيين والثانية للتبعيض كأنه قيل هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو من بعض عذاب الله ويجوز أن يكونا للتبعيض معا بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا أنهم قالوا (لو هدانا الله) أي الذي له صفات الكمال (لهديناكم) أي لو أرشدنا الله تعالى لارشدناكم ودعوناكم الى الهدى ولكنه لم يهدنا فضللنا

وكنتم لنا تبعا فأضللتمونا كم ولما كان الموجب لقولهم هذا الجزع قالوا (سواء علينا) أى نحن وأنتم (أجزعنا أم صبرنا) أى مستو علينا الجزع والصبر والجزع أبلغ من الحزن لانه يصرف الانسان عما هو بصدده و يقطعه عنه (ما لنا من محيص) أى منجى ومهرب مما نحن فيه من العقاب *(تنبيه)* يحتمل أن يكون هذا من كلام المتبوعين وأن يكون كلام الفريقين ويؤيد الثانى ماروى أنهم يقولون فى النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر فعند ذلك يقولون ذلك وقال محمد بن كعب القرظى بلغنى أن أهل النار استغاثوا بالخزنة كما قال الله تعالى وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فردت الخزنة عليهم أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى فردت الخزنة عليهم ادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا يا مالك ليقض علينا ربك سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلثمائة وستون يوما واليوم كألف سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله انكم ما كثون فلما أيسوا مما عنده قال بعضهم لبعض ذلك ولما ذكر تعالى المناظرة التى وقعت بين الرؤساء والاتباع من كفرة الانس أردفها بالمناظرة التى وقعت بين الشيطان وبين اتباعه بقوله تعالى (وقال الشيطان) الذى هو أول المتبوعين فى الضلال ورأس المضلين والمتكبرين (لما قضى الامر) أى أحكم وفرغ منه وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أخذ أهل النار فى لوم ابليس وتقريعه وتوبيخه فيقوم فيهم خطيبا قال مقاتل يوضع له منبر من نار فيجتمع أهل النار اليه يلومونه فيقول لهم ما أخبر الله تعالى بقوله (ان الله وعدكم وعد الحق) أى بالبعث والجزاء على الاعمال فصدقكم (ووعدتكم) أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب (فأخلفتكم) أى الوعد فلم أقل شيأ الا كان زيفا فاتبعتمونى مع كونى عدوكم وتركتم ربكم وهو وليكم *(تنبيه)* فى الآية اضمار من وجهين الاول ان التقدير ان الله وعدكم وعد الحق فصدقكم كما تقدم تقريره ووعدتكم فأخلفتكم وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد لانهم كانوا يشاهدونها وليس وراء العيان بيان ولانه ذكر فى وعد الشيطان الاخلاف فدل ذلك على الصدق فى وعد الله تعالى الثانى أن قوله ووعدتكم فأخلفتكم الوعد يقتضى مفعولا ثانيا وحذف هذا للعلم به والتقدير ووعدتكم أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب كما تقرر ولما بين غروره بين سهولة اغترارهم زيادة فى تندمهم فقال (وما كان لى عليكم من سلطان) أى سلطان فمن مزيدة أى قوة وقدرة أقهركم على الكفر والمعاصى وألجئكم على متابعتى وقوله (الا أن دعوتكم) استثناء منقطع قال النحويون لان الدعاء ليس من جنس السلطان فمعناه لكن دعوتكم (فاستجبتم لى) هكمين الشهوات لان النفس تدعو الى هذه الاحوال الدنيوية ولا يتصور كيفية السعادات الاخروية والكمالات النفسانية والله يدعو اليها ويرغب فيها كما قال والآخرة خير وأبقى قال الرازى وعندى انه يمكن أن يقال كلمة الا ههنا استثناء حقيقى لان قدرة الانسان على حمل الغير

على عمل من الاعمال تارة تكون بالقهر والقسر وتارة يكون بتقوية الداعية فى قلبه بالقاء الوساوس اليه فهذا نوع من أنواع التسليط اه ثم قال لهم (فلا تلومونى) أى لانه ما كان منى الا الدعاء والقاء الوسوسة (ولوموا أنفسكم) لانكم سمعتم دلائل الله تعالى وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم أن لا تلتفتوا الى ولا تسمعوا قولى فلما رجحتم قولى على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم أولى باللحاق ومتابعتى من غير حجة ولا دليل (فان قيل) لم قال الشيطان فلا تلومونى وهو ملوم بسبب اقدامه على تلك الحالة والوسوسة الباطلة (أجيب) بأنه أراد لا تلومونى على فعلكم ولوموا أنفسكم عليه لانكم عدلتم عما توجه من هداية الله تعالى لكم * ثم قال تعالى حكاية عن الشيطان انه قال (ما أنا بمصرخكم) أى بمغيثكم فيما يحصكم من العذاب فأزيل صراخكم منه (وما أنتم بمصرخى) أى بمغيثى فيما يحصنى منه وقرأ ماعدا حمزة بفتح الياء مع التشديد وقرأ حمزة بكسر الياء مع التشديد على الاصل فى التقاء الساكنين لان ياء الاعراب ساكنة وياء المتكلم أصلها السكون فلما التقيا كسرت لالتقاء الساكنين قال البيضاوى وهو أصل مرفوض فى مثله لما فيه من اجتماع ياءين وثلاث كسرات مع حركة ياء الاضافة اه فقوله أصل مرفوض أى متروك عند النحاة والافهو قراءة متواترة عند القراء فيجب المصير اليها لانها وردت من رب العالمين على لسان سيد المرسلين وقول القراء ولعلها من وهم القراء فانه قل من سلم منهم من الوهم ممنوع فقد قال أبو حيان هى قراءة متواترة نقلها السلف واقتفى آثارهم فيها الخلف فلا يجوز أن يقال فيها انها خطأ أو قبيحة أو رديئة وقد نقل جماعة من أهل اللغة أنها لغة لكن قل استعمالها ونص قطرب على أنها لغة فى بنى يربوع ونص على أنها صواب أبو عمرو بن العلاء لما سئل عنها والقاسم بن معن من رؤساء الكوفيين قال الله تعالى حكاية عن الشيطان انه قال (انى كفرت بما أشركتمونى من قبل) أى كفرت اليوم باشراككم اياى من قبل هذا اليوم أى فى الدنيا كقوله تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم ومعنى كفره باشراكهم اياه تبرؤه منه واستنكاره له كقوله تعالى انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم روى البغوى باسناده عن عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة يقول عيسى ذلك النبى الامى فيأتونى فيأذن الله لى أن أقوم فيثور مجلسى من أطيب ريح شمها أحد حتى آتى ربى فيشفعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى الى ظفر قدمى ثم يقول الكفار قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير الشيطان هو الذى أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فانك أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها أحد ثم يعظم لهم ويقول عند ذلك ان الله وعدكم وعد الحق الآية قال فى الكشاف وقوله (ان الظالمين) أى الكافرين (لهم عذاب أليم) أى مؤلم من كلام الله تعالى ويحتمل أن يكون من جملة قول ابليس وانما حكى الله تعالى ما سيقوله فى ذلك الوقت ليكون لطفا للسامعين فى النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لابد لهم من الوصول اليه وأن يتصوروا فى أنفسهم ذلك المقام الذى يقول فيه الشيطان

ما يقول

مايقول فيخافوا ويعملوا مايخلصهم منه وينجيهم * ولما بالغ سبحانه وتعالى فى شرح حال الاشقياء من الوجوه الكثيرة شرح أحوال السعداء وما أعد لهم من الثواب العظيم والاجر الجزيل وذلك أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم فالمنفعة الخالصة اليها الاشارة بقوله تعالى (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار) وكونها دائمة أشير اليها بقوله تعالى (خالدين فيها) وهو حال مقدرة والتعظيم حصل لهم من وجهين أحدهما قوله تعالى (باذن ربهم) لان تلك المنافع انما كانت تفضلا من الله تعالى وانعاما والثانى قوله تعالى (تحيتهم فيها سلام) لان بعضهم يحيى بعضا بهذه الكلمة والملائكة يحيونهم بها كما قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم والرب يحييهم أيضا بهذه التحية كما قال تعالى سلام قولا من رب رحيم ويحتمل أن يكون المراد انهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع آفات الدنيا وحسراتها وفنون آلامها واسقامها وأنواع همومها وغمومها لان السلام مشتق من السلامة * ولما شرح سبحانه وتعالى أحوال الاشقياء وأحوال السعداء ذكر مثلا يبين الحال فى حكم هذين القسمين بقوله تعالى (ألم تر) أى تنظر والخطاب يحتمل أن يكون للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره وأن يكون لكل فرد من الناس أى ألم تر أيها الانسان (كيف ضرب الله) أى المحيط بكل شئ علما وقدرة (مثلا) سيره بحيث يعم نفعه والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثانى بالاول ثم بينه بقوله تعالى (كلمة طيبة) قال ابن عباس وأكثر المفسرين هى لا اله الا الله (كشجرة طيبة) قال ابن مسعود وأنس هى النخلة وعن ابن عباس هى شجرة فى الجنة وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ان الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فاخبرونى ماهى قال عبد الله فوقع الناس فى شجر البوادى وكنت صبيا فوقع فى قلبى أنها النخلة فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقولها وأنا أصغر القوم وروى فمنعنى مكان عمر فاستحييت فقال له عمر يابنى لو كنت قلتها لكانت أحب الى من حمر النعم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا انها النخلة قيل الحكمة فى تشبيه الانسان بالنخلة من بين سائر الاشجار أن النخلة أشبه به من حيث انها اذا قطع رأسها يبست وسائر الاشجار يتشعب من جوانبها بعد قطع رأسها وأنها تشبه الانسان بحيث انها لا تحمل الا باللقاح لانها خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أكرموا عمتكم قيل ومن عمتنا قال النخلة (أصلها ثابت) أى فى الارض (وفرعها) أى غصنها (فى السماء) أى فى جهة العلو والصعود ولم يرد المظلة كقولك فى الجبل طويل فى السماء تريد ارتفاعه وشموخه (تؤتى) أى تعطى (أكلها) أى ثمرها (كل حين باذن ربها) أى بارادته والحين فى اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا فى مقداره هنا فقال مجاهد الحين هنا سنة كاملة لان النخلة تثمر فى كل سنة مرة وقال قتادة ستة أشهر يعنى من حين طلعها الى وقت صرامها وقال الربيع كل حين يعنى كل غدوة وعشية لان ثمر النخل يؤكل ليلا ونهارا وصيفا وشتاء فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والخلال والبسر والمنصف والرطب وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس الى

حين الطرى الرطب فأ كلها دائم فى كل وقت قال العلماء ووجه الحكمة فى تمثيل كلمة الاخلاص بالشجرة لان الايمان ثابت فى قلب المؤمن كثبوت أصل هذه الشجرة فى الارض وعمله يصعد الى السماء كما قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فكذلك فرع هذه عال فى السماء وتنال بركته وثوابه كل وقت والمؤمن كلما قال لا اله الا الله صعدت الى السماء وجاء بركتها وخيرها وثوابها ونفعها ولان الشجرة لا تكون شجرة الا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال كذلك الايمان لا يتم الا بثلاثة أشياء تصديق القلب وقول اللسان وعمل بالابدان ثم نبه تعالى على عظم هذا المثل ليقبل على تدبره ليعلم المراد منه فيلزم فقال (ويضرب الله) أى الذى له الاحاطة الكاملة (الامثال للناس لعلهم يتذكرون) أى يتعظون فان فى ضرب الامثال زيادة افهام وتذكير وتصوير للمعانى العقلية فيحصل الفهم التام والوصول الى المطلوب * ولما ذكر مثل حال السعداء اتبعه بمثل حال الاعداء فقال (ومثل كلمة خبيثة) هى كلمة الكفر (كشجرة خبيثة) هى الحنظل وقيل الثوم وقيل الكشوث بمثلثة فى آخره قال الجوهرى نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق فى الارض قال الشاعر

هى الكشوث لا أصل ولا ورق * ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر

وقيل شجرة الشوك (اجتثت) أى استؤصلت (من فوق الارض) أى عروقها قريبة منه (مالها من قرار) أى أصل ولا عرق فكذلك الكفر بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة وعن عبادة انه قيل لبعض العلماء ما تقول فى كلمة خبيثة فقال ما أعلم لها فى الارض مستقرا ولا فى السماء مصعدا الا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها يوم القيامة * ولما وصف الله سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة فى الآية المتقدمة أخبر بقوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) أنه تعالى يثبتهم بها (فى الحياة الدنيا) أى فى القبر وقيل قبل الموت (وفى الآخرة) أى يوم القيامة عند البعث والحساب وقيل فى القبر على القول الثانى * ولما وصف الكلمة الخبيثة فى الآية المتقدمة أخبر بقوله تعالى (ويضل الله الظالمين) أى الكفار أنه تعالى لا يهديهم للجواب الصواب (ويفعل الله ما يشاء) أى ان شاء هدى وان شاء أضل لا اعتراض عليه روى عن البراء بن عازب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المسلم اذا سئل فى القبر يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وروى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العبد اذا وضع فى القبر وتولى عنه أصحابه يسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل لمحمد صلى الله عليه وسلم فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة قال النبى صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعا قال قتادة ذكر لنا أنه يفسح له فى قبره ثم رجع الى حديث أنس قال وأما المنافق أو الكافر فيقال له ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس فيه فيقال ما دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير

النقلين

الثقلين وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال شهدنا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغنا من دفنها وانصرف الناس قال انه الآن يسمع خفق نعالكم أتاه منكر ونكير أعينهما مثل قدور النحاس وأنيابهما مثل صياصي البقر وأصواتهما مثل الرعد فيجلسانه فيسألانه ما كان يعبد ومن نبيه فان كان ممن يعبد الله تعالى قال كنت أعبد الله ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة فيقال له على اليقين حييت وعليه مت وعليه تبعث ثم يفتح له باب الى الجنة ويوسع له في حفرته وان كان من أهل الشك قال لا أدري سمعت الناس يقولون شيأ فقلته فيقال له على الشك حييت وعليه مت وعليه تبعث ثم يفتح له باب الى النار ويسلط عليه عقارب وتنانين لو نفخ أحدهم في الدنيا ما أنبتت شيأ فتنهشه وتؤمر الارض فتنضم عليه حتى تختلف أضلاعه فنسأل الله الثبات لنا ولوالدينا ولأحبابنا في الدنيا والآخرة انه كريم جواد ثم انه تعالى عاد الى وصف الكافرين فقال (ألم تر) أي تنظر وفي المخاطب ما تقدم (الى الذين بدلوا) والتبديل جعل الشئ مكان غيره (نعمة الله) أي التي أسبغها عليهم من كلمة التوحيد ومن جميع النعم الدنيوية وتيسير الرزق وغير ذلك بأن جعلوا مكان شكرها (كفرا) وهم يدعون أنهم أشكر الناس للاحسان وأعلاهم همما في الوفاء وأبعدهم عن الجفاء (وأحلوا) أي أنزلوا (قومهم) أي الذين تابعوهم في الكفر باضلالهم اياهم (دار البوار) أي الهلاك مع ادعائهم انهم أذب الناس عن الجار فضلا عن الاهل روى البخاري في التفسير انهم كفار أهل مكة وقوله تعالى (جهنم) عطف بيان (يصلونها) أي يدخلونها (وبئس القرار) أي المقر هي (وجعلوا لله) أي الذين يعلمون انه لا شريك له في خلقهم ولا رزقهم لان له الكمال كله (أندادا) أي شركاء وقوله تعالى (ليضلوا عن سبيله) أي دين الاسلام فيه قراءتان قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من ضل يضل والباقون بضم الياء من أضل يضل وليس الضلال ولا الاضلال غرضهم في اتخاذ الانداد لكن لما كان نتيجته جعل كالغرض * ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الانواع الثلاثة من الاعمال القبيحة قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أي تهديدا لهم فانهم لا يشكون في قولك وان عاندوا (تمتعوا) بدنياكم قليلا (فان مصيركم) أي مرجعكم (الى النار) في الآخرة ولما أمر الله تعالى الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا أمر المؤمنين بترك التمتع بالدنيا والمبالغة في المجاهدة بالنفس والمال بقوله تعالى (قل لعبادي) فوصفهم بأشرف أوصافهم وأضافهم الى ضميره الشريف تحبيبا لهم فيه ثم اتبع هذا الوصف ما يناسبه من اذعانهم لسيدهم بقوله تعالى (الذين آمنوا) أي أوجدوا هذا الوصف (يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم) فيه وجهان أحدهما يصح أن يكون جوابا لامر محذوف تقديره قل لعبادي الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا والثاني يصح أن يكون هو أمرا مقولا محذوفا منه اللام أي ليقيموا ليصح تعلق القول بهما وانما حسن ذلك ههنا ولم يحسن في قوله

محمد تفد نفسك كل نفس * اذا ما خفت من شئ تبالا

أى تبالى به أى تكترث به لدلالة قل عليه (سرا وعلانية) أى ينفقون أموالهم فى حال السر والعلانية وقيل المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية اخراج الزكاة الواجبة *(تنبيه)* فى انتصاب سرا وعلانية وجوه أحدها أن يكون على الحال أى ذوى سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين والثانى على الظرف أى وقت سر وعلانية وثالثها على المصدر أى انفاق سر وانفاق علانية * ولما أمرهم الله تعالى باقامة الصلاة والانفاق أشار الى عدم التهاون بذلك بقوله عز وجل (من قبل أن يأتى يوم) أى عظيم جدا ليس كشئ من الايام التى تعرفونها (لا بيع فيه) أى فيشترى المقصر ما يتدارك به تقصيره أو يفدى به نفسه (ولا خلال) أى مخالة أى صداقة تنفع فى ذلك اليوم قال مقاتل انما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة فكأنه تعالى يقول أنفقوا أموالكم فى الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الانفاق فى مثل هذا اليوم الذى لا يحصل فيه مبايعة ولا مخالة ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة البقرة لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة (فان قيل) كيف نفى الله تعالى المخالة فى هاتين الآيتين مع انه تعالى أثبتها فى قوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين (أجيب) بان الآية الدالة على نفى المخالة محمولة على نفى المخالة بسبب ميل الطبع ورغبة النفس والآية الدالة على حصول المخالة محمولة على حصول المخالة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى * ولما طال الكلام فى وصف أحوال السعداء وأحوال الاشقياء وكانت العمدة العظمى والمنزلة الكبرى فى حصول السعادات معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وفى حصول الشقاوة فقدان ذلك ختم تعالى أحوال الفريقين بقوله تعالى (الله) أى الملك الاعلى المحيط بكل شئ ثم اتبعه بالدلائل الدالة على وجوده وكمال علمه وقدرته وذكر هنا عشرة أنواع من الدلائل أولها قوله تعالى (الذى خلق السموات) وثانيها قوله تعالى (والارض) وهما أكبر خلقا منكم وأعظم شأنا وثالثها قوله تعالى (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) تعيشون به وهو يشمل المطعوم والملبوس *(تنبيه)* الله مبتدأ وخبره الذى خلق ورزقا مفعول لاخرج ومن الثمرات بيان له حال منه ويصح أن يكون المراد بالسماء هنا السحاب اشتقاقا من السمو والارتفاع وأن يكون الجرم المعهود فينزل من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الارض وقد ذكرت ذلك فى سورة البقرة وفى غيرها ورابعها قوله تعالى (وسخر لكم الفلك) أى السفن (لتجرى فى البحر) أى بالركوب والحمل (بأمره) أى بمشيئته وارادته وخامسها قوله تعالى (وسخر لكم الانهار) أى ذللها لكم تجرونها حيث شئتم لان ماء البحر لا ينتفع به فى سقى الزروع والثمرات ولا فى الشراب فكان ذلك نعمة من الله تعالى وسادسها وسابعها قوله تعالى (وسخر لكم الشمس والقمر) حال كونهما (دائبين) أى جاريين فى فلكهما لا يفتران فى سيرهما وانارتهما وتأثيرهما فى انارة الظلمة واصلاح النبات والحيوان الى آخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها والشمس سلطانها النهار وبها تعرف فصول السنة وهى أفضل من القمر لكثرة نفعها والقمر سلطانه الليل وبه يعرف انقضاء

الشهور وكل ذلك بتسخير الله تعالى وانعامه وثامنها وتاسعها قوله تعالى (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان فيكم بالضياء والظلمة والزيادة والنقصان وذلك من نعم الله تعالى على عباده حيث جعل لهم الليل ليسكنوا فيه والنهار ليبتغوا فيه من فضله وعاشرها قوله تعالى (وآتاكم من كل ما سألتموه) أي مما أنتم محتاجون اليه على حسب مصالحكم فأنتم سألتموه بالقوة * ولما ذكر سبحانه وتعالى بعض ما أنعم به على عباده بين أن العبد عاجز عن حصرها وعدها بقوله تعالى (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أي لا تحيطوا بها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها هذا اذا أرادوا أن يعدوها على الاجمال وأما على التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه الا الله تعالى (ان الانسان) أي الكافر وقال ابن عباس يريد أبا جهل (لظلوم) أي كثير الظلم لنفسه (كفار) أي كفور لنعم ربه وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع (فان قيل) لم قال تعالى هنا ان الانسان لظلوم كفار وفي النحل ان الله لغفور رحيم (أجيب) بأنه تعالى يقول للعبد اذا حصلت لك النعم الكثيرة فأنت الذي أخذتها وأنا الذي أعطيتها فحصل لك عند أخذها وصفان وهما كونك ظلوما كفارا ولي وصفان عند اعطائها وهما كوني غفورا رحيما والمقصود كأنه يقول ان كنت ظلوما فأنا غفور وان كنت كفارا فأنا رحيم أعلم عجزك وتقصيرك فلا أقابل تقصيرك الا بالتوقير ولا أجازي جفاءك الا بالوفاء ونسأل الله حسن العاقبة والرحمة * ولما بين الله تعالى بالدلائل المتقدمة أن لا معبود الا الله سبحانه وتعالى وانه لا تجوز عبادة غير الله البتة حكى عن ابراهيم عليه السلام مبالغة في انكاره عبادة الاوثان بقوله تعالى (واذ) أي واذكر لهم مذكرا بأيام الله خبر ابراهيم اذ (قال ابراهيم رب) أي المحسن الي باجابة دعائي (اجعل هذا البلد) أي مكة (آمنا) أي ذا أمن وقد أجاب الله تعالى دعاءه فجعله حرما لا يسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه (فان قيل) أي فرق بين قوله اجعل هذا بلدا آمنا وبين قوله اجعل هذا البلد آمنا (أجيب) بأن المسؤل في الاول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون وفي الثاني أن يزيل عنها الصفة التي كانت حاصلة لها وهي الخوف ويجعل لها تلك الصفة وهي الامن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا (فان قيل) كيف أجاب الله تعالى دعاءه مع ان جماعة من الجبابرة قد أغاروا عليها وأخافوا أهلها (أجيب) بجوابين أحدهما ان ابراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله تعالى فلم يقدر أحد على اخراب مكة (فان قيل) يرد على هذا ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة (أجيب) بأن قوله تعالى اجعل هذا البلد يعني الى قرب يوم القيامة وخراب الدنيا فهو عام مخصوص بقصة ذي السويقتين فلا تعارض بين النصين والجواب الثاني أن المراد جعل أهلها آمنين كقوله تعالى واسأل القرية أي أهلها وهذا الجواب عليه أكثر المفسرين وعلى هذا فقد اختص أهل مكة بزيادة الامن في بلدهم كما أخبر الله تعالى بقوله ويتخطف الناس من حولهم وأهل مكة آمنون من ذلك حتى ان

من التجأ الى مكة أمن على نفسه وماله وحتى ان الوحوش اذا كانت خارجة الحرم استوحشت واذا كانت داخلة الحرم استأنست لعلمها انه لا يهيجها أحد فى الحرم وهذا القدر من الامن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها (واجنبنى) أى بعدنى (وبنى أن) أى عن أن (نعبد الاصنام) أى اجعلنا فى جانب غير جانب عبادتها (فان قيل) الانبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون فما الفائدة فى قوله اجنبنى عن عبادة الاصنام (أجيب) بأنه عليه الصلاة والسلام انما سأل ذلك هضما لنفسه واظهارا للحاجة والفاقة الى فضل الله فى كل المطالب وفى ذلك دليل على أن عصمة الانبياء بتوفيق الله تعالى وحفظه اياهم (فان قيل) كان كفار قريش من أبنائه مع انهم كانوا يعبدون الاصنام فكيف أجيب دعاؤه (أجيب) بأن المراد من كان موجودا حال الدعاء ولا شبهة ان دعوته كانت مجابة فيهم أو ان هذا الدعاء مخصوص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال عليه السلام فى آخر الآية فمن تبعنى فانه منى وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فانه ليس منه ونظيره قوله تعالى انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح والصنم المنحوت على خلقة البشر وما كان منحوتا على غير خلقة البشر فهو وثن قاله الطبرى ولذا لما سئل ابن عيينة كيف عبدت العرب الاصنام فقال ما عبد أحد من بنى اسمعيل صنما واحتج بقوله تعالى واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام انما كانت انصاب الحجارة لكل قوم قالوا البيت حجر فحيثما نصبنا حجرا فهو بمنزلة البيت فكانوا يدورون بذلك الحجر أى يطوفون به أسابيع تشبيها بالكعبة ويسمونه الدوار بضم الدال مشددة وقد تفتح قال الجوهرى دوار بالضم صنم وقد تفتح فاستحب أن يقال طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت قال الرازى وهذا الجواب ليس بقوى لانه عليه السلام لا يجوز أن يريد بهذا الدعاء الا عبادة غير الله والحجر كالصنم فى ذلك * ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم أنه قال (رب انهن) أى الاصنام (أضللن كثيرا من الناس) بعبادتهم لها * (تنبيه) * اتفق كل الفرق على أن قوله أضللن مجاز لانها جمادات والجماد لا يفعل شيأ البتة الا انه لما حصل عند عبادتها أضيف اليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم أى افتتنوا بها واغتروا بسببها ثم قال (فمن تبعنى) أى على التوحيد (فانه منى) أى فانه جار مجرى بعضى لفرط اختصاصه بى وقربه منى (ومن عصانى) أى فى غير الدين (فانك غفور رحيم) وهذا صريح فى طلب الرحمة والمغفرة لاولئك العصاة واذا ثبت حصول هذه الشفاعة فى حق ابراهيم عليه الصلاة والسلام ثبت حصولها فى حق محمد صلى الله عليه وسلم لانه مأمور بالاقتداء به كما قال تعالى واتبع ملة ابراهيم وقيل ان هذا الدعاء كان قبل أن يعلم ابراهيم ان الله لا يغفر الشرك وقيل انك قادر أن تغفر له وترحمه بأن تنقله عن الكفر الى الاسلام وقيل المراد من هذه المغفرة أن لا يعاجلهم بالعقاب فلا يعجلهم حتى يتوبوا قال الرازى واعلم أن هذه الاوجه ضعيفة وارتضى ما تقرر أولا * (تنبيه) * حكى الله سبحانه وتعالى عن ابراهيم عليه السلام فى هذا الموضع انه طلب من الله تعالى سبعة أمور الاول طلب من الله تعالى نعمة الامان وهو رب اجعل هذا البلد آمنا المطلوب الثانى أن يرزقه الله تعالى التوحيد ويصونه عن الشرك وهو قوله واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام المطلوب

الثالث

الثالث قوله (ربنا انى أسكنت من ذريتى) أى بعض ذريتى أو ذرية من ذريتى فحذف المفعول على هذا القول وهم اسمعيل ومن ولد منه فان اسكانه متضمن لاسكانهم (بواد) هو وادى مكة المشرفة لكونه فى فضاء منخفض بين جبال تجرى فيه السيول (غير ذى زرع) أى لا يكون فيه من الزرع قط فانه حجرى لا ينبت كقوله تعالى قرآنا عربيا غير ذى عوج بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج (عند بيتك المحرم) أى الذى حرمت التعرض له والتهاون به وجعلت ما حوله حرما لمكانه أولانه لم يزل ممنعا عزيزا يهابه كل جبار كالشئ المحرم الذى حقه أن يجتنب أولانه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه أولانه حرم على الطوفان أى منع منه كما سمى عتيقا لانه أعتق منه فلم يستول عليه أولانه أمر الصائرين اليه أن يحرموا على أنفسهم أشياء كانت تحل لهم من قبل أولانه حرم موضع البيت حين خلق السموات والارض وحفه بسبعة املاك وهو مثل البيت المعمور الذى بناه آدم فرفع الى السماء السادسة وروى ان هاجر كانت أمة لسارة فوهبتها لابراهيم عليه السلام فولدت منه اسمعيل فقالت سارة كنت أريد أن يهب الله لى ولدا من خليله فمنعنيه ورزقه خادمتى وغارت عليهما وقالت لابراهيم بعدهما منى وناشدته بالله أن يخرجهما من عندها فنقلهما الى مكة واسمعيل رضيع حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى اعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفل ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسمعيل وقالت يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شئ فقالت له ذلك مرارا وهو لا يلتفت اليها فقالت له آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه وقال ربنا انى أسكنت من ذريتى حتى بلغ يشكرون وجعلت أم اسمعيل ترضعه وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية ان تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الارض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى من أحد فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت ان كان عندك غواث فاذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم اسمعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال الملك لا تخافوا الضيعة فان ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعا من الارض كالرابية يأتيه السيل فيأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كدا فنزلوا فى أسفل مكة فنظروا طائرا فقالوا ان هذا الطائر ليدور على الماء

لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فاذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأم اسمعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك فقالت نعم ولكن لا حق لكم فى الماء قالوا نعم قال ابن عباس قالت ذلك أم اسمعيل وهى تحب الانس فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم فشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حتى شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم اسمعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسمعيل وتقدم تمام هذه القصة فى سورة البقرة ثم قال (ربنا ليقيموا الصلاة) اللام لام كى متعلقة بأسكنت أى ما أسكنتهم بهذا الوادى المقفر الذى لا شئ فيه الا لاقامة الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك متبركين بالبقعة التى شرفتها على البقاع مستسعدين بجوارك الكريم متقربين اليك بالعكوف عند بيتك والطواف به والركوع والسجود حوله مستنزلين الرحمة التى آثرت بها سكان حرمك وتكرير النداء وتوسطه للاشعار بأنهما المقصود بالذات من اسكانهم هنالك والمقصود من الدعاء توفيقهم لها (فاجعل أفئدة) أى قلوبا محترقة بالاشواق (من الناس) ومن للتبعيض والمعنى واجعل أفئدة بعض الناس (تهوى) أى تميل (اليهم) ويدل عليه ما روى عن مجاهد لو قال أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم والترك والهند وقال سعيد بن جبير لو قال أفئدة الناس لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال أفئدة من الناس فهم المسلمون وقال ابن عباس لو قال أفئدة الناس لحنت اليه فارس والروم والناس كلهم * ولما دعا لهم بالدين دعا لهم بالرزق فقال (وارزقهم من الثمرات) ولم يقل وارزقهم الثمرات وذلك يدل على أن المطلوب بالدعاء ايصال بعض الثمرات اليهم ويحتمل أن يكون المراد بايصال بعض الثمرات اليهم ايصالها اليهم على سبيل التجارات كما قال تعالى تجبى اليه ثمرات كل شئ حتى توجد فيه الفواكه الصيفية والربيعية والخريفية فى يوم واحد وليس ذلك من آياته بعجب وأن يكون المراد عمارة القرى بالقرب منها لتحصل تلك الثمار وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال كانت الطائف من أرض فلسطين فلما قال ابراهيم ذلك رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم (لعلهم يشكرون) يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لاداء العبادات واقامة الطاعات فان ابراهيم عليه السلام بين أنه انما طلب تيسير المنافع على أولاده لاجل أن يتفرغوا لاقامة الطاعات واداء الواجبات * ولما طلب عليه السلام من الله تعالى تيسير المنافع لاولاده وتسهيلها عليهم ذكر أنه لا يعلم عواقب الاحوال ونهاية الامور فى المستقبل فانه تعالى هو العالم بها والمحيط بأسرارها فقال (ربنا انك تعلم ما نخفى) أى نسر (وما نعلن) وهذا هو المطلوب الرابع والمعنى أنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا منا قيل ما نخفى من الوجد بسبب حصول الفرقة بينى وبين اسمعيل وما نعلن من البكاء وقيل ما نخفى من الحزن المتمكن فى القلب وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع الى من تكلنا قال الى الله أكلكم قالت آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا واختلف فى قوله تعالى (وما يخفى على

الله

الله من شيء في الارض ولا في السماء) فقيل من تمة قول ابراهيم عليه السلام يعني وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في أي مكان والاكثرون على انه قول الله تعالى تصديقا لابراهيم فيما قال كقوله تعالى وكذلك يفعلون ولفظة من تفيد الاستغراق كأنه قيل وما يخفى عليه شيء ما * ولما تم ابراهيم عليه السلام مادعا به أتبعه الحمد على مارزقه من النعم بقوله تعالى (الحمد لله) أي المستجمع لصفات الكمال (الذي وهب لي) أي أعطاني (على الكبر) أي وهب لي وأنا كبير آيس من الولد قيد الهبة بحال الكبر استعظاما للنعمة واظهارا لما فيه من المعجزة (اسمعيل واسحق) ومقدار ذلك السن غير معلوم من القرآن وانما يرجع فيه الى الروايات فقال ابن عباس ولد اسمعيل لابراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة (فان قيل) ان ابراهيم عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء عندما اسكن اسمعيل وامه في ذلك الوادي وفي ذلك الوقت ما ولد اسحق فكيف يمكنه أن يقول ذلك (أجيب) بأن هذا يقتضي أن ابراهيم انما ذكر هذا الكلام في زمن آخر لاعقب ماتقدم من الدعاء قال الرازي ويمكن أيضا أن يقال انه عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء بعد كبر اسمعيل وظهور اسحق وان كان ظاهر الروايات بخلافه انتهى *(تنبيه)* قوله على الكبر بمعنى مع كقوله

انى على ماترين من كبرى * أعلم من حيث يؤكل الكتف

وهو في موضع الحال * ولما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الافصاح والتصريح قال (ان ربي) أي المحسن الي (لسميع الدعاء) أي لمجيبه (فان قيل) الله تعالى يسمع كل دعاء أجابه أولم يجبه (أجيب) بأن هذا من قولك سمع الملك كلامي اذا اعتد به وقبله ومنه سمع الله لمن حمده المطلوب الخامس قوله (رب اجعلني مقيم الصلاة) أي معدلا لها ومواظبا عليها *(تنبيه)* في الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لان قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام واجنبني وبني أن نعبد الاصنام يدل على ان ترك المنهيات لايحصل الا من الله تعالى وقوله رب اجعلني مقيم الصلاة يدل على ان فعل المأمورات لايحصل الا من الله تعالى وذلك تصريح بأن ابراهيم عليه السلام كان مصرا على أن الكل من الله تعالى وقوله تعالى (ومن ذريتي) عطف على المنصوب في اجعلني أي واجعل بعض ذريتي كذلك لان كلمة من في قوله ومن ذريتي للتبعيض وانما ذكر هذا التبعيض فلأنه علم باعلام الله تعالى انه يكون في ذريته جمع من الكفار وذلك قوله تعالى لاينال عهدي الظالمين المطلوب السادس أنه عليه السلام لما دعا الله تعالى في المطالب المذكورة دعا الله تعالى في أن يقبل دعاءه فقال (ربنا وتقبل دعاء) قال ابن عباس يريد عبادتي بدليل قوله تعالى وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وقيل دعائي المذكور المطلوب السابع قوله (ربنا) أي أيها المالك لامورنا المدبر لنا (اغفر لي) * فان قيل ان طلب المغفرة انما يكون بعد سابقة ذنب (أجيب) بأن المقصود من ذلك الالتجاء الى الله تعالى وقطع الطمع الا من فضله وكرمه ورحمته ثم أشرك معه أقرب الناس اليه وأحقهم بشكره فقال (ولوالدي) * فان قيل كيف جاز أن يستغفر لوالديه وكانا

كافرين (أجيب) بوجوه الاول ان المنع منه لا يعلم الا بتوقيف فلعله لم يجد منه منعا وظن كونه جائزا الثانى أراد بوالديه آدم وحواء الثالث كان ذلك بشرط الاسلام وقال بعضهم كانت أمه مؤمنة ولذلك خص أباه بالذكر فى قوله فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه * ثم دعا لمن تبعه فى الدين من ذريته وغيرهم بقوله (وللمؤمنين) أى العريقين فى هذا الوصف (يوم يقوم) أى يبدو ويظهر (الحساب) وقيل أراد يوم يقوم الناس فيه للحساب فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهوما عند السامع وهذا دعاء للمؤمنين بالمغفرة والله تعالى لا يرد دعاء خليله ابراهيم عليه السلام وفيه بشارة عظيمة للمؤمنين بالمغفرة فنسأل الله تعالى أن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولاحبابنا ولمن نظر فى هذا التفسير ودعا لمن كان سببا فيه بالمغفرة * ولما بين تعالى دلائل التوحيد ثم حكى عن ابراهيم عليه السلام انه طلب من الله تعالى أن يصونه عن الشرك وطلب منه أن يوفقه للاعمال الصالحة وان يخصه بالرحمة والمغفرة فى يوم القيامة عقبه بقوله تعالى مخاطبة لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) لان الغفلة معنى يمنع الانسان عن الوقوف على حقائق الامور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعترى الانسان من قلة التحفظ والتيقظ وهذا فى حق الله تعالى محال والمقصود من ذلك التنبيه على انه ينتقم للمظلوم من الظالم ففيه وعيد وتهديد للظالم واعلام له بأنه لا يعامله معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولا يتركه مغفلا عنه وعن سفيان بن عيينة فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم فقيل له من قال هذا فغضب وقال انما قاله من علمه (فان قيل) كيف يليق به صلى الله عليه وسلم أن يحسب الله موصوفا بالغفلة وهو أعلم الناس به (أجيب) بوجوه الاول أن المراد به التثبت على ما كان عليه من انه لا يحسب الله غافلا كقوله لا تدع مع الله الها آخر والثانى ان المقصود منه بيان انه لو لم ينتقم لكان عدم الانتقام لاجل غفلته عن ذلك الظلم والثالث أن المراد ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عما يعملون ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير والرابع أن يكون هذا الكلام وان كان خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر الا أنه يكون فى الحقيقة خطابا مع الامة * ثم بين تعالى انه (انما يؤخرهم) أى عذابهم (ليوم) موصوف بخمس صفات الصفة الاولى قوله تعالى (تشخص فيه الابصار) أى أبصارهم لا تقر مكانها من هول ما ترى فى ذلك اليوم الصفة الثانية قوله تعالى (مهطعين) أى مسرعين الى الداعى أو مقبلين بأبصارهم لا يطرقون هيبة وخوفا وقيل المهطع الخاضع الذليل الساكن الصفة الثالثة قوله تعالى (مقنعى رؤسهم) أى رافعيها اذ الاقناع رفع الرأس الى فوق فأهل الموقف من صفتهم أنهم رافعو رؤسهم الى السماء وهذا بخلاف المعتاد لان من يتوقع البلاء يطرق بصره الى الارض وقال الحسن وجوه الناس يوم القيامة الى السماء لا ينظر أحد الى أحد الصفة الرابعة قوله تعالى (لا يرتد اليهم طرفهم) أى بل تثبت عيونهم شاخصة لا يطرفون بعيونهم ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للاجفان قد شغلهم ما بين أيديهم الصفة الخامسة قوله تعالى (وأفئدتهم) أى قلوبهم (هواء) أى خالية من العقل لفرط الحيرة

والدهشة

والدهشة وقال قتادة خرجت قلوبهم عن صدورهم فصارت فى حناجرهم فلا تخرج من أفواههم ولا تعود الى أماكنها *(تنبيه)* اختلفوا فى وقت حصول هذه الصفات فقيل انها عند المحاسبة بدليل انه تعالى انما ذكر هذه الصفات عقب وصف ذلك بأنه يوم يقوم الحساب وقيل انها تحصل عندما يتميز فريق عن فريق فالسعداء يذهبون الى الجنة والاشقياء الى النار وقيل يحصل عند اجابة الداعى والقيام من القبور قال الرازى والاول أولى (وأنذر الناس) يامحمد أى خوفهم يوم القيامة وهو قوله تعالى (يوم يأتيهم العذاب) أى الذى تقدم ذكره وهو شخوص أبصارهم وكونهم مهطعين مقنعى رؤسهم (فيقول الذين ظلموا) أى كفروا (ربنا أخرنا) أى بأن تردنا الى الدنيا (الى أجل قريب) الى أمد واحد من الزمان قريب (نجب دعوتك) أى بالتوحيد ونتدارك مافرطنا فيه (ونتبع الرسل) فيما يدعوننا اليه فيقال لهم توبيخا (أولم تكونوا أقسمتم) أى حلفتم (من قبل) فى الدنيا (مالكم) وأكد النفى بقوله (من زوال) أى مالكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور كما قال فى آية أخرى وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت وكانوا يقولون لازوال لنا من هذه الحياة الى حياة أخرى ومن هذه الدار الى دار المجازاة لأنهم كانوا ينكرون أن يزولوا عن حياة الى موت أوعن شباب الى هرم أوعن غنى الى فقر ثم انه تعالى زادهم توبيخا آخر بقوله تعالى (وسكنتم) فى الدنيا (فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) بالكفر من الامم السابقة (وتبين لكم كيف فعلنا بهم) أى وظهر لكم بما تشاهدون فى منازلهم من آثار مانزل بهم وماتواتر عندكم من أخبارهم (وضربنا) أى وبينا (لكم الامثال) فى القرآن أن عاقبتهم عادت الى الوبال والخزى والنكال مما يعلم به انه قادر على الاعادة كما قدر على الابتداء وقادر على التعذيب المؤجل كما يفعل الهلاك المعجل وذلك فى كتاب الله تعالى كثير * ولما ذكر تعالى صفة عقابهم أتبعه بذكر كيفية مكرهم بقوله تعالى (وقد مكروا مكرهم) أى الشديد العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم واختلف فى عود الضمير فى مكروا على وجوه الاول أن يعود الى الذين سكنوا فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم لان الضمير يعود الى أقرب مذكور والثانى الى قوم محمد صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى وأنذر أى يامحمد الناس وقد مكر قومك مكرهم وذلك المكر هو الذى ذكر الله تعالى فى قوله واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك (وعند الله مكرهم) أى ومكتوب عند الله فعلهم فهو يجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه وقيل ان مكرهم لايزيل أمر محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو ثابت كثبوت الجبال وقد حكى عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فى الآية قول آخر وهو أنها نزلت فى نمروذ الجبار الذى حاج ابراهيم فى ربه فقال نمروذ ان كان مايقوله ابراهيم حقا فلا أنتهى حتى أصعد الى السماء فأعلم مافيها ثم أمر نمروذ صاحبه فاتخذ لنفسه تابوتا وجعل له بابا من أعلاه وبابا من أسفله وربط قوائمه الاربع بأربعة نسور وكان قد جوّعها ورفع فوق الجوانب الاربع من التابوت عصيا أربعة وعلق على كل واحدة منها قطعة لحم ثم انه جلس مع صاحبه فى ذلك التابوت فلما أبصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت فى جو

الهواء فطارت يوما حتى أبعدت فى الهوا فقال نمروذ لصاحبه افتح الباب الاسفل وانظر الى الارض كيف تراها ففعل فقال أرى الارض مثل اللجة والجبال مثل الدخان قال فطارت النسور يوما آخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال نمروذ لصاحبه افتح الباب الاعلى ففتح فاذا السماء كهيئتها وفتح الباب الاسفل فاذا الارض سوداء مظلمة ونودى ايها الطاغى أين تريد قال عكرمة كان معه فى التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب فرمى بسهم فعاد اليه السهم ملطخا بالدم بدم سمكة قذفت نفسها من بحر فى الهواء وقيل طائر أصابه السهم فقال كفيت اله السماء فنكس تلك العصى التى علق عليها اللحوم فتسفلت النسور وهبطت الى الارض فسمعت الجبال حفيف التابوت والنسور ففزعت وظنت ان قد حدث فى السماء حدث وأن القيامة قد قامت فكادت تزول عن أماكنها فذلك قوله تعالى (وان كان مكرهم) أى من القوة والضخامة (لتزول منه الجبال) قال الرازى ولا حاجة فى تأويل الآية الى هذا فانه لم يصح فيه خبر صحيح معتمد انتهى والمراد بالجبال هنا قيل حقيقتها وقيل شرائع الاسلام المشبهة بها فى القرار والثبات وقرأ الكسائى بفتح اللام الاولى ورفع الاخيرة والباقون بكسر الاولى وفتح الثانية والتقدير على القراءة الاولى وان كان بحيث انه تزول منه الجبال وقيل ان نافية واللام لتأكيد النفى (فلا تحسبن الله) الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد منه أمته (مخلف وعده رسله) من النصر واعلاء الكلمة واظهار الدين كما قال تعالى انا لننصر رسلنا وقال تعالى كتب الله لاغلبن أنا ورسلى (فان قيل) هلا قال مخلف رسله وعده ولم قدم المفعول الثانى على الاول (أجيب) بأنه تعالى قدم ذلك ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا كقوله تعالى ان الله لا يخلف الميعاد ثم قال رسله ليدل به على انه تعالى لما لم يخلف وعده أحدا وليس من شأنه اخلاف المواعيد فكيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته (ان الله) أى ذو الجلال والاكرام (عزيز) أى غالب يقدر ولا يقدر عليه (ذو انتقام) أى ممن عصاه وقوله تعالى (يوم تبدل الارض غير الارض) بدل من يوم يأتيهم أو ظرف للانتقام والمعنى يوم تبدل هذه الارض التى تعرفونها أرضا آخرى غير هذه المعروفة وقوله تعالى (والسموات) عطف على الارض وتقديره والسموات غير السموات والتبديل التغيير وقد يكون فى الذوات كقولك بدلت الدراهم دنانير ومنه بدلناهم جلودا غيرها وبدلناهم بجنتيهم جنتين وفى الاوصاف كقولك بدلت الحلقة خاتما اذا أذبتها وسويتها خاتما فنقلتها من شكل الى شكل آخر ومنه قوله تعالى فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات والآية محتملة لكل واحد من هذين المفهومين فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى تلك الارض وانما تغير أوصافها وأنشد

وما الناس بالناس الذين عهدتهم * ولا الدار بالدار التى كنت تعلم

فتبدل أوصافها فتسير عن الارض جبالها وتفجر بحارها وتستوى فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابا ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء

كقرصة النقاء ليس فيها علم لاحد أخرجاه فى الصحيحين العفراء بالعين المهملة وهى البيضاء الى حمرة ولهذا شبهها بقرصة النقاء وهو الخبز الابيض الجيد الفائق المائل الى الحمرة كأن النار ميلت بياض وجهه الى الحمرة وقوله ليس فيها علم لاحد يعنى ليس فيها علامة لاحد لتبديل هيئتها وصفتها وزوال جبالها وجميع بنائها فلا يبقى فيها أثر يستدل به وعن ابن مسعود انه قال تبدل الارض بأرض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم تعمل عليها خطيئة وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه الارض من فضة والسماء من ذهب وقال محمد بن كعب وسعيد بن جبير تبدل الارض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه وعن الضحاك أيضا من فضة كالصحائف وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله فقال على الصراط أخرجه مسلم وروى ثوبان أن حبرا من اليهود سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أين تكون الناس يوم تبدل الارض غير الارض قال هم فى الظلمة دون الجسر قال الرازى واعلم أنه لا يبعد أن يقال المراد من تبديل الارض والسموات هو انه تعالى يجعل الارض جهنم والسموات الجنة والدليل عليه قوله تعالى كلا ان كتاب الابرار لفى عليين وقوله تعالى كلا ان كتاب الفجار لفى سجين (وبرزوا) أى خرجوا من قبورهم (لله) أى لحكمه والوقوف بين يديه تعالى للحساب (الواحد) أى الذى لا شريك له (القهار) أى الذى لا يدافعه شئ عن مراده كما قال تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار * ولما وصف نفسه سبحانه وتعالى بكونه قهارا بين عجزهم وذلتهم بقوله تعالى (وترى) يا محمد أى تبصر (المجرمين) أى الكافرين (يومئذ) أى يوم القيامة ثم ذكر تعالى من صفات عجزهم وذلتهم أمورا الصفة الاولى قوله تعالى (مقرنين) أى مشدودين (فى الاصفاد) جمع صفد وهو القيد قال الكلبى كل كافر مع شيطان فى غل وقال عطاء هو معنى قوله تعالى واذا النفوس زوجت أى قرنت فتقرن نفوس المؤمنين بنفوس الحور العين ونفوس الكافرين بقرنائهم من الشياطين وقيل هو قرن بعض الكفار ببعض فتنضم تلك النفوس الشقية والارواح الكدرة الظلمانية بعضها الى بعض لكونها متشاكلة متجانسة وتتادى ظلمة كل واحدة منها الى الاخرى وقال ابن زيد قرنت أيديهم وأرجلهم الى رقابهم بالاغلال الصفة الثانية قوله تعالى (سرابيلهم) أى قمصهم جمع سربال وهو القميص (من قطران) وهو شئ يتحلب من شجر يسمى الابهل فيطبخ وتطلى به الابل الجربى فيحرق الجرب بحرارته وحدته وقد تصل حرارته الى داخل الجوف ومن شأنه أنه يتسارع فيه اشتعال النار وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يصير ذلك الطلاء كالسرابيل فيحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب لذع القطران وحرقته واسراع النار فى جلودهم واللون الوحش ونتن الريح وأيضا التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين الصفة الثالثة قوله تعالى (وتغشى) أى تعلو (وجوههم النار) ونظيره قوله تعالى أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب وقوله تعالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم * ولما كان موضع العلم والجهل هو القلب وموضع الكفر والوهم هو

الرأس وأثر هذه الاحوال يظهر فى الوجه فلهذا خص الله تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيهما فقال فى القلب نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة وقال فى الوجه وتغشى وجوههم النار وقوله تعالى (ليجزى الله) متعلق ببرزوا (كل نفس ما كسبت) أى من خير أو شر وهذا أولى من قول الواحدى المراد منه أنفس الكفار لان ماسبق ذكره لا يليق أن يكون جزاء لاهل الايمان * ولما كان حساب كل نفس جديرا بأن يستعظم قال (ان الله سريع الحساب) أى لا يشغله حساب نفس عن حساب أخرى ولا شأن عن شأن وقوله تعالى (هذا) اشارة الى القرآن الذى يخرج الناس من الظلمات الى النور نزل منزلة الحاضر وقيل الى السورة (بلاغ) أى كان غاية الكفاية فى الايصال (للناس) والموعظة لهم وقوله تعالى (ولينذروا) أى وليخوفوا (به) عطف على محذوف ذلك المحذوف متعلق ببلاغ تقديره أى لينصحوا ولينذروا وقيل الواو مزيدة ولينذروا متعلق ببلاغ (وليعلموا) أى بما فيه من الحجج على وحدانية الله تعالى (أنما هو) أى الله (اله واحد) فيستدلوا بذلك على أن الله واحد لا شريك له (وليذكر) بادغام التاء فى الاصل فى الذال أى يتعظ (أولوا الالباب) أى أصحاب العقول الصافية من الاكدار والافهام الصحيحة فانه موعظة لمن اتعظ * (تنبيه) * ذكر سبحانه وتعالى لهذا البلاغ ثلاث فوائد مستفادة من قوله تعالى ولينذروا به وتاليه والحكمة فى انزال الكتب تكميل الرسل للناس واستكمالهم القوة النظرية التى منتهى كمالها التوحيد واستصلاح القوة العملية التى هى التدرع بلباس التقوى جعلنا الله تعالى من الفائزين بها بمحمد وآله وفعل ذلك بوالدينا وأحبابنا وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة ابراهيم أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد كل من عبد الاصنام وعدد من لم يعبد حديث موضوع قال العلامة ابن جماعة فى شرح منظومة ابن فرج التى أولها غرامى صحيح فرع من غرائب الجوينى يكفر واضع الحديث أى والمشهور عدم تكفيره

(سورة الحجر مكية)

وهى تسع وتسعون آية وستمائة وأربع وخمسون كلمة وعدد حروفها ألفان وسبعمائة وستون حرفا

(بسم الله) الملك الواحد القهار (الرحمن) الذى أسبغ نعمه على سائر بريته فعجزت عن وصفه الافكار (الرحيم) الذى خص أهل ولايته بنجاتهم من النار وقوله تعالى (الر) ذكر فيه الفتح والامالة أول يونس وقيل معناه انا الله أرى وقدمنا الكلام على أوائل السور فى أول سورة البقرة وقوله تعالى (تلك) اشارة الى آيات هذه السورة أى هذه الآيات (آيات الكتاب) أى القرآن والاضافة بمعنى من وقوله تعالى (وقرآن مبين) أى مظهر للحق من الباطل عطف بزيادة صفة وقيل المراد بالكتاب هو السورة وكذا القرآن وقيل المراد بالكتاب التوراة والانجيل وبالقرآن هذا الكتاب ثم بين سبحانه وتعالى حال الكفار يوم القيامة بقوله تعالى (ربما يود)

أي تمنى (الذين كفروا) اذا عاينوا حالهم وحال المسلمين فى ذلك اليوم (لو كانوا مسلمين) وقيل حين يعاينوا حال المسلمين عند نزول النصر وحلول الموت ورب للتكثير فانه يكثر منهم تمنى ذلك وقيل للتقليل فان الاهوال تدهشهم فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك الا فى أحيان قليلة فان قيل لم دخلت رب على المضارع وقد أبوا دخولها الا على الماضى (أجيب) بأن المترقب فى أخبار الله تعالى بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحقيقه فكانه قيل ربما ودّ وقرأ عاصم ونافع بتخفيف باء ربما والباقون بالتشديد قال أبو حاتم أهل الحجاز يخففون ربما وقيس وبكر يثقلونها ولما تمادوا فى طغيانهم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (ذرهم) أى دعهم عن النهى عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم (يأكلوا ويتمتعوا) بدنياهم وتنفيذ شهواتهم والتمتع التلذذ وهو طلب اللذة حالا بعد حال كالتقرب فى أنه طلب القرب حالا بعد حال (ويلههم الامل) أى ويشغلهم توقعهم لطول الاعمار واستقامة الاحوال عن أخذ حظهم من السعادة وعن الاستعداد للمعاد وقرأ أبو عمرو فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى برفع الهاء والميم والباقون بكسر الهاء ورفع الميم وأما الوقف فالجميع بكسر الهاء والكلام على الهاء الثانية وأما الهاء الاولى فمكسورة للجميع وقفا ووصلا * ولما كان هذا أمرا لا يشتغل به الا أحمق تسبب عنه التهديد بقوله تعالى (فسوف يعلمون) أى ما يحل بهم بعد ما فسحنا لهم فى زمن التمتع من سوء صنيعهم وهذا قبل الامر بالقتال *(تنبيه)* فى الآية دليل على أن ايثار التلذذ والتنعم فى الدنيا يؤدى الى طول الامل وليس ذلك من أخلاق المؤمنين وعن بعضهم التمتع فى الدنيا من أخلاق الهالكين والاخبار فى ذم الامل كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر وعن على رضى الله تعالى عنه انما أخشى عليكم اثنتين طول الامل واتباع الهوى فان طول الامل ينسى الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق * ولما هددهم تعالى بآية التمتع والهاء الامل أتبعه بما يؤكد الزجر بقوله تعالى (وما أهلكنا من قرية) أى من القرى والمراد أهلها ومن مزيدة (الا ولها كتاب معلوم) أى أجل مضروب محدود مكتوب فى اللوح المحفوظ لهلاكها *(تنبيه)* المستثنى جملة واقعة صفة لقرية والاصل أن لا تدخلها الواو كقوله تعالى الا لها منذرون وانما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف كما يقال فى الحال جاءنى زيد عليه ثوب وجاءنى وعليه ثوب *(فائدة)* رسم كتاب هنا باثبات الالف * ثم بين تعالى الآية السابقة بقوله تعالى (ما تسبق) وأكد الاستغراق بقوله تعالى (من أمة) وقيل من مزيدة كقولك ما جاءنى من أحد أى أحد وبين ان المراد بالكتاب الاجل بقوله تعالى (أجلها) أى الذى قدرناه لها (وما يستأخرون) أى عنه *(تنبيه)* انث الامة أولا ثم ذكرها آخرا حملا على اللفظ فى الاول وعلى المعنى فى الثانى قال البقاعى وانما ذكره لئلا يصرفوه الى خطابه صلى الله عليه وسلم تعنتا وفى الآية دليل على أن كل من مات أو قتل فانما مات بأجله وان من قال يجوز أن يموت قبل أجله مخطئ * ولما بالغ تعالى فى تهديد الكفار ذكر

شبهوهم فى انكار نبوته صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر) أى القرآن فى زعمه (انك لمجنون) انما نسبوه الى الجنون اما لانهم كانوا يستبعدون كونه رسولا حقا من عند الله لان الرجل اذا سمع كلاما مستبعدا من غيره فربما قال به جنون واما لانه عليه الصلاة والسلام كان يظهر عليه عند نزول الوحى حالة شبيهة بالغشى فظنوا أنها جنون ويدل عليه قوله تعالى أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ثم أتبعوه مازعموا أنه دليل على قولهم فقالوا (لوما) أى هلا (تأتينا بالملائكة) أى يشهدون لك بأنك رسول من عند الله حقا (ان كنت من الصادقين) فى ادعائك للرسالة وان هذا القرآن من عند الله ولما كان فى قولهم أمران أجاب الله تعالى عن قولهم الثانى لانه أقرب بقوله تعالى (ماتنزل الملائكة الا بالحق) أى الا تنزلا ملتبسا بالحكمة والمصلحة ولا حكمة فى أن تأتيكم بهم عيانا تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبى صلى الله عليه وسلم لانكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ومثله قوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وقيل الحق الوحى أو العذاب وقرأ شعبة بضم التاء مع فتح الزاى ورفع الملائكة وحفص وحمزة والكسائى بنونين الاولى مضمومة والثانية مفتوحة وكسر الزاى ونصب الملائكة والباقون بالتاء مفتوحة مع فتح الزاى ورفع الملائكة وشدد التاء البزى فى الوصل وأما الزاى فهى مشددة للجميع من يفتح ومن يكسر (وما كانوا) أى الكفار (اذا) أى اذ تأتيهم الملائكة (منظرين) أى لزوال الامهال عنهم فيعذبوا فى الحال ان لم يؤمنوا ويصدقوا وكان حينئذ يفوت ما قضينا به من تأخيرهم واخراج من أردنا ايمانه من أصلابهم ثم أجاب تعالى عن الاول بقوله تعالى مؤكدا لتكذيبهم (انا نحن) بمالنا من العظمة والقدرة (نزلنا) أى بالتدريج على لسان جبريل عليه السلام (الذكر) أى القرآن (وانا له لحافظون) أى من التبديل والتحريف والزيادة والنقصان ونظيره قوله تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الاشياء كلها لا يقدر أحد من جميع الخلق من الجن والانس أن يزيد فيه أو ينقص منه كلمة واحدة أو حرفا واحدا وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان (فان قيل) فلم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن فى المصحف وقد وعد الله تعالى بحفظه وما حفظه الله تعالى فلا خوف عليه (أجيب) بأن جمعهم القرآن فى المصحف كان من أسباب حفظ الله تعالى اياه فانه تعالى لما أراد حفظه قيضهم لذلك قال أصحابنا وفى هذه الآية دلالة قوية على كون البسملة آية من أول كل سورة لان الله تعالى قد وعد حفظ القرآن والحفظ لا معنى له الا أن يبقى مصونا من الزيادة والنقصان فلو لم تكن البسملة آية من القرآن لما كان مصونا عن التغيير ولما كان محفوظا عن الزيادة ولو جاز أن يظن بالصحابة أنهم زادوا جاز أيضا أن يظن بهم النقصان وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة وقيل الضمير فى له راجع الى النبى صلى الله عليه وسلم والمعنى وانا لمحمد لحافظون عن أراد به سوأ فهو كقوله تعالى والله يعصمك من الناس ولما أساء الكفار عليه صلى الله عليه وسلم فى الاول وخاطبوه

بالسفاهة وقالوا انك لمجنون وكان عادة هؤلاء الجهال مع جميع الانبياء قال سبحانه وتعالى تسلية له على وجه رادّ عليهم (ولقد أرسلنا من قبلك) أى رسلا فحذف ذكر الرسل لدلالة الارسال عليه وقوله تعالى (فى شيع) اى فرق (الاولين) من باب اضافة الصفة الى الموصوف كقوله تعالى حق اليقين سموا شيعا لمتابعة بعضهم بعضا فى الاحوال التى يجتمعون عليها فى الزمن الواحد والشيع جمع شيعة وهى الفرقة المجتمعة المتفقة كلمتهم على مذهب وطريقة وقال الفراء الشيعة هم الاتباع وشيعة الرجل اتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم الانسان (وما يأتيهم) عبر بالمضارع على حكاية الحال الماضية فان ما لا تدخل على مضارع الا وهو فى معنى الحال ولا على ماض الا وهو قريب من الحال والاصل وما كان يأتيهم (من رسول) أى على أى وجه كان (الا كانوا به) جبلة وطبعا (يستهزؤن) كاستهزاء قومك بك فصبروا فاصبر كما صبروا (كذلك) أى مثل ادخالنا التكذيب فى قلوب هؤلاء المستهزئين بالرسل (نسلكه) أى ندخله (فى قلوب المجرمين) أى كفار مكة المستهزئين (لا يؤمنون به) أى بالنبى صلى الله عليه وسلم وقيل بالقرآن وفى الآية دليل على أن الله تعالى يخلق الباطل فى قلوب الكفار والسلك ادخال الشئ فى الشئ كالخيط فى المخيط والرمح فى المطعون ومنه قوله تعالى ما سلككم فى سقر وقيل الضمير فى نسلكه يعود للذكر كما أن الضمير فى به يعود اليه وجملة لا يؤمنون به حال من ذلك الضمير والمعنى على هذا مثل ذلك السلك نسلك الذكر فى قلوب المجرمين مكذبا به غير مؤمن به قال البيضاوى وهذا الاستدلال ضعيف اذ لا يلزم من تعاقب الضمائر توافقها فى المرجوع اليه اه وما أعدت الضمير عليه فى ذلك هو ما قاله ابن الخازن وجرى عليه الجلال السيوطى وقوله تعالى (وقد خلت سنة الاولين) أى سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم أنبياءهم وعيد شديد لكفار مكة بأنه ينزل بهم مثل ما نزل بالامم الماضية المكذبة وقال الزجاج قد مضت سنة الله فى أن يسلك الكفر والضلال فى قلوبهم قال الرازى وهذا أليق بظاهر اللفظ وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بادغام تاء التأنيث فى السين والباقون بالاظهار وقوله تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء) الآية هو المراد فى سورة الانعام فى قوله تعالى ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس الآية أى الذين يقولون لوما تأتينا بالملائكة فلو أنزلنا الملائكة (فظلوا فيه) أى فظلت الملائكة (يعرجون) أى يصعدون فى الباب وهم يرونها عيانا (لقالوا) أى من عتوهم فى الكفر (انما سكرت ابصارنا) اى سدت عن الابصار بالسحر من السكر ويدل عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف أو حيرت من السكر ويدل عليه قراءة الباقين بالتشديد (بل نحن قوم مسحورون) أى قد سحرنا محمد بذلك أى كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات كانشقاق القمر وما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن المعجز الذى لا يستطيع الجن والانس أن يأتوا بمثله وقيل الضمير فى يعرجون للمشركين أى فظل المشركون يصعدون فى ذلك الباب فينظرون فى ملكوت السموات وما فيها من العجائب لما آمنوا لعنادهم وكفرهم وقالوا انما سحرنا وقرأ الكسائى بادغام لام بل فى النون والباقون بالاظهار ولما أجاب الله تعالى عن شبهة منكرى

النبوة والقول بالنبوة مفرع على القول بالتوحيد ودلائل التوحيد منها سماوية ومنها أرضية بدأ منها بذكر الدلائل السماوية فقال مفتتحا بحرف التوقع (ولقد جعلنا) بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة (في السماء بروجا) قال الليث البروج واحدها برج من بروج الفلك والبروج هي النجوم الكبار مأخوذة من الظهور يقال تبرجت المرأة اذا ظهرت وأراد بها المنازل التي تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيارة وهي اثنا عشر برجا الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت وهي منازل الكواكب السبعة السيارة المريخ وله الحمل والعقرب والزهرة ولها الثور والميزان وعطارد وله الجوزاء والسنبلة والقمر وله السرطان والشمس ولها الاسد والمشتري وله القوس والحوت وزحل وله الجدي والدلو وهذه البروج مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس في كل سنة مرة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوما قال ابن عباس في هذه الآية يريد بروج الشمس والقمر يعني منازلهما وقال عطية هي قصور في السماء عليها الحرس وقال مجاهد هي النجوم العظام قال أبو اسحق يريد نجوم هذه البروج وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام (وزيناها) أي السماء بالشمس والقمر والنجوم والاشكال والهيآت البهية (للناظرين) أي المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها ومبدعها وهو الله الذي أوجد كل شيء وخلقه وصوره (وحفظناها من كل شيطان رجيم) أي مرجوم وقيل ملعون قال ابن عباس كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها على الكهنة فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها فما منهم من أحد يريد استراق السمع الارمي بشهاب فلما منعوا تلك المقاعد ذكروا ذلك لابليس فقال لقد حدث في الارض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن فقالوا والله هذا حدث وقوله تعالى (الا من استرق السمع) بدل من كل شيطان رجيم وقيل استثناء منقطع أي لكن من استرق السمع واستراق السمع اختلاسه قال ابن عباس يريد الخطفة اليسيرة وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب كما قال تعالى (فأتبعه شهاب مبين) وهو شعلة من نار ساطعة وقد يطلق على الكواكب لما فيها من البريق يشبه شهاب النار فلا يخطئ أحدا فنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه أو جنبه أو يده حيث يشاء الله ومنهم من يخبله فيصير غولا فيضل الناس في البوادي روى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قضى الامر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه

فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها الى لسان الساحر أو الكاهن وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا فيصدق تلك الكلمة التى سمعها من السماء (فان قيل) اذا جاز أن يسمع الشيطان أخبار الغيوب من الملائكة خرج الاخبار عن المغيبات عن كونه معجزا دليلا على الصدق لان كل غيب يخبر عنه النبى صلى الله عليه وسلم قام فيه الاحتمال وحينئذ يخرج عن كونه معجزا دليلا على الصدق (أجيب) بأنا أثبتنا كون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا بسائر المعجزات ثم بعد العلم بنبوته نقطع بأن الله تعالى أعجز الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق وعند ذلك يصير الاخبار عن الغيب معجزا ولما شرح الله تعالى الدلائل السماوية فى تقرير التوحيد أتبعها بذكر الدلائل الارضية وهى أنواع النوع الاول قوله تعالى (والارض مددناها) قال ابن عباس بسطناها على وجه الماء قال البغوى يقال انها مسيرة خمسمائة سنة فى مثلها دحيت من تحت الكعبة (فان قيل) فهل يدل ذلك على أنها بسيطة أو كرة عظيمة على ما يقوله أرباب الهيئة (أجيب) بان ليس فى الآية دلالة على شئ من ذلك لان الارض على تقدير كونها كرة فهى فى غاية العظمة والكرة العظيمة ترى كالسطح المستوى وتقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة وسيأتى زيادة على ذلك ان شاء الله تعالى فى سورة والنازعات النوع الثانى قوله تعالى (وألقينا فيها رواسى) أى جبالا ثوابت واحدها راس والجمع راسية وجمع الجمع رواسى وهو كقوله تعالى وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم قال ابن عباس لما بسط الله تعالى الارض على الماء مالت بأهلها كالسفينة فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكى لا تميد بأهلها وقيل ان الله تعالى خلقها لتكون دلالة للناس على طرق الارض ونواحيها لانها كالاعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون فى الضلال النوع الثالث قوله تعالى (وأنبتنا فيها) واختلف فى عود ضمير فيها فقيل يعود الى الارض لان أنواع النبات المنتفع به يكون فى الارض وقيل الى الجبال لانها أقرب مذكور وقوله تعالى (من كل شئ موزون) وانما يوزن ما يتولد من الجبال والاولى عوده لهما واختلفوا فى المراد بالموزون فقال ابن عباس أى معلوم وقال مجاهد أى مقدار معين تقتضيه حكمته وقال الحسن أعنى به الشئ الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن والاولى أنه جميع ما ينبت فى الارض والجبال لان ذلك نوعان أحدهما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون والثانى النبات فبعضه موزون وبعضه بالكيل وهو يرجع الى الوزن لان الصاع والمد مقداران بالوزن (وجعلنا لكم فيها) أى انعاما منا وتفضلا عليكم (معايش) وهى بياء صريحة من غير مد جمع معيشة وهو ما يعيش به الانسان مدة حياته فى الدنيا من المطاعم والملابس والمعادن وغيرها (و) جعلنا لكم (من لستم له برازقين) من العبيد والانعام والدواب والطير فانكم تنتفعون بها ولستم لها برازقين لان رزق جميع الخلق على الله تعالى وبعض الجهال يظنون فى أكثر الامر انهم هم الذين يرزقون العيال والخدم والعبيد

وذلك خطأ فان الله هو الرزاق يرزق المخدوم والخادم والمملوك والمالك لانه تعالى خلق الاطعمة والاشربة وأعطى القوة الغاذية والهاضمة والالم يحصل لاحد رزق (فان قيل) صيغة من مختصة عن يعقل (أجيب) بأنه تعالى أثبت لجميع الدواب رزقا على الله تعالى حيث قال ومامن دابة فى الارض الاعلى الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها فغلب من يعقل على غيره حكى أن الماء قد قل فى بعض الاودية والجبال واشتد الحر قال بعضهم فرأيت بعض تلك الوحوش رفعت رؤسها الى السماء عند اشتداد عطشها قال فرأيت الغيوم قد أقبلت وأمطرت وامتلأت الاودية *(تنبيه)* قيل لا يجوز أن يكون ومن لستم له برازقين مجرورا عطفا على الضمير المجرور لا يقال أخذت منك وزيد الا باعادة الخافض كما فى قوله تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح والراجح الجواز كما قرئ قوله تعالى تساءلون به والارحام بالخفض فى القراآت السبع وهذا أعظم دليل * ولما بين سبحانه وتعالى أنه أنبت لهم كل شئ موزون وجعل لهم معايش أشعر بذكر ما هو السبب لذلك فقال تعالى (وان) أى وما (من شئ) أى مما ذكر وغيره من الاشياء الممكنة وهى لانهاية لها (الاعندنا خزائنه) أى قادرون على ايجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه فضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال فى العرش تمثال جميع ما خلق الله فى البحر والبر والخزائن جمع خزانة وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه للحفظ وقيل أراد مفاتيح الخزائن وقيل المطر لانه سبب الارزاق لبنى آدم والوحش والطير والدواب ومعنى عندنا أى فى حكمه تعالى وتصرفه وأمره وتدبيره (وما ننزله) من بقاع القدرة (الابقدر معلوم) أى على حسب المصالح وقيل ان لكل أرض حدا ومقدارا من المطر يقال لا ينزل من السماء قطرة مطر الا ومعها ملك يسوقها الى حيث يشاء الله ولما أتم ما أراد من آيتى السماء والارض وختمه بشمول قدرته لكل شئ أتبعه ما ينشأ عنهما مما هو بينهما مودعا فى خزائن قدرته بقوله تعالى (وأرسلنا الرياح) جمع ريح وهو جسم لطيف منبث فى الجو سريع المر (لواقح) أى حوامل لانها تحمل الماء الى السحاب فهى لاقحة يقال ناقة لاقحة اذا حملت الولد وقال ابن مسعود يرسل الله تعالى الريح فتحمل الماء فتمجه فى السحاب ثم تمر به فتدر كما تدر اللقحة ثم تمطر وقال عبيد بن عمير يبعث الله تعالى الريح المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه الى بعض فتجعله ركاما ثم يبعث الله اللواقح تلقح الشجر وعن ابن عباس قال ما هبت ريح قط الاجثا النبى صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها ريحا وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا عصفت الريح قال اللهم انى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به وقرأ حمزة بالافراد والباقون بالجمع (فأنزلنا) أى بعظمتنا بسبب تلك السحاب التى حملتها الريح (من السماء) أى الحقيقية أو جهتها أو السحاب لان الاسباب المترقبة يسند الشئ تارة الى القريب منها وتارة الى البعيد (ماء) وهو جسم مائع سيال به حياة كل حيوان من شأنه الاغتذاء (فأسقيناكموه) أى جعلناه لكم سقيا يقال سقيته ماء يشرب به وأسقيته أى

مكنته منه ليسقى به ماشيته ومن يريد ونفى سبحانه وتعالى عن غيره ما أثبته أولا لنفسه بقوله (وما أنتم له) أى لذلك الماء (بخازنين) أى ليست خزائنه بأيديكم والخزن وضع الشئ فى مكان مهيإ للحفظ فثبت أن القادر عليه واحد مختار ومن دلائل التوحيد الاحياء والاماتة كما قال تعالى (وانا لنحن نحيى) أى لنا هذه الصفة على وجه العظمة فنحيى بها من نشاء من الحيوان بروح البدن ومن الروح بالمعارف ومن النبات بالنمو وان كان أحدهما حقيقة والآخر مجازا لان الجمع جائز (ونميت) أى لنا هذه الصفة فنبرز بها من عظمتنا ما نشاء (ونحن الوارثون) أى الارث التام اذا مات الخلائق الباقون بعد كل شئ كما كنا ولا شئ فليس لاحد تصرف باماتة ولا احياء فثبت بذلك الوحدانية والفعل بالاختيار فلما ثبت بهذا كمال قدرته وكانت آثار القدرة لا تكون محكمة الا بالعلم قال تعالى (ولقد علمنا المستقدمين منكم) وهو من قضينا بموته أولا من لدن آدم فيكون فى موته كأنه يسارع الى التقدم اليه وان كان هو وكل من أهله مجتهدا بالعلاج فى تأخيره (ولقد علمنا المستأخرين) أى الذين نمد فى أعمارهم فنؤخر موتهم حتى يكونوا كأنهم يسابقون الى ذلك وان عالجوا الموت بشرب سم أو نحوه أو عالجه لهم غيرهم بضربهم بسيف أو غيره فعرف من ذلك قطعا أن الفاعل واحد مختار وقال ابن عباس أراد بالمستقدمين الاموات وبالمستأخرين الاحياء وقال عكرمة المستقدمين من خلق الله تعالى والمستأخرين من لم يخلق وقال الحسن المستقدمين فى الطاعة والخير والمستأخرين المبطئون عنه وقيل المستقدمين من القرون الاولى والمستأخرين أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المستقدمين فى الصفوف والمستأخرين فيها وذلك ان النساء كن يخرجن الى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان فى الرجال من فى قلبه ريبة فيتأخر الى آخر صف الرجال ومن النساء من فى قلبها ريبة فتتقدم الى أول صف النساء لتقرب من الرجال فقال النبى صلى الله عليه وسلم خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها *(تنبيه)* فى سبب نزول هذه الآية قولان أحدهما أن امرأة حسناء كانت تصلى خلف النبى صلى الله عليه وسلم فكان بعضهم يستقدم حتى يكون فى أول صف حتى لا يراها ويتأخر بعضهم حتى يكون آخر صف فاذا ركع نظر من تحت ابطه فنزلت والثانى أن النبى صلى الله عليه وسلم حرض على الصف الاول فازدحموا عليه وقال قوم بيوتهم قاصية عن المسجد لنبيعن دورنا ولنشترين دورا قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم فنزلت (وان ربك هو يحشرهم) اى المستقدمين والمستأخرين للجزاء وتوسط الضمير للدلالة على أنه القادر والمتولى لحشرهم لا غيره وتصدير الجملة بان لتحقيق الوعد والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الاشياء يدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله تعالى (انه حكيم) أى باهر الحكمة متقن فى أفعاله (عليم) وسع علمه كل شئ ولما استدل سبحانه وتعالى بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد فى الآية المتقدمة أردفه بالاستدلال بتخليق الانسان على هذا المطلوب بقوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان) قال الرازى والمفسرون أجمعوا على أن المراد منه آدم عليه السلام ونقل

فى كتب الشيعة عن محمد بن على الباقر أنه قال قد انقضى قبل آدم الذى هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر سمى انسانا لظهوره وادراك البصر اياه وقيل من النسيان لانه عهد اليه فنسى (من صلصال) أى من الطين الشديد اليابس الذى لم تصبه نار اذا نقرته سمعت له صلصلة أى صوتا وقال ابن عباس هو الطين اذا نضب عنه الماء تشقق فاذا حرك تقعقع وقال مجاهد هو الطين المنتن واختاره الكسائى وقال الفراء هو طين خلط برمل فصار له صوت عند نقره وقال الرازى قال المفسرون خلق الله تعالى آدم من طين فصوره وتركه فى الشمس أربعين سنة فصار صلصالا لايدرى أحد ما يراد به ولم يروا شيأ من الصور يشبهه الى أن نفخ فيه الروح (من حما) أى طين أسود منتن (مسنون) أى مصور بصورة الآدمى وقال ابن عباس هو التراب المبتل المنتن وقال مجاهد هو المنتن المتغير قال البغوى وفى بعض الآثار ان الله تعالى خمر طينة آدم وتركه حتى صار متغيرا أسود ثم خلق منه آدم عليه السلام قال ابن الخازن والجمع بين هذه الاقوال على ماذكره بعضهم ان الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام قبض قبضة من تراب الارض واليه الاشارة بقوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم ان ذلك التراب بله بالماء وحتى اسود وأنتن ريحه وتغير واليه الاشارة بقوله تعالى من حما مسنون ثم ان ذلك الطين الاسود المتغير صوره الله صورة انسان أجوف فلما جف ويبس كانت تدخل فيه الريح فيسمع له صلصلة واليه الاشارة بقوله تعالى من صلصال كالفخار وهو الطين اليابس يفخر فى الشمس ثم نفخ فيه الروح فكان بشرا سويا * ولما ذكر سبحانه وتعالى خلق الانسان ذكر ما خلقه قبل من الجان فقال تعالى (والجان) قال ابن عباس هو أبو الجن كما ان آدم عليه السلام أبو البشر وابليس أبو الشياطين وفى الجن مسلمون وكافرون ويأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبنى آدم وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولايموتون الا اذا مات ابليس وقال وهب ان من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ومن الجن من هو بمنزلة الريح لايتوالدون ولايأكلون ولايشربون وهم الشياطين قال ابن الخازن والاصح ان الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم فى الاستتار سموا جنا لتواريهم واستتارهم عن الاعين من قولهم جن الليل اذا استتر والشيطان هو العاتى المتمرد الكافر والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر وانتصاب الجان بفعل يفسره (خلقناه من قبل) أى قبل خلق الانسان (من نار السموم) أى من ريح حارة تدخل مسام الانسان فتقتله من قوة حرارتها قال الرازى فالريح الحارة فيها نار ولها لفح كما ورد فى الخبر انها من فيح جهنم انتهى ويقال السموم بالنهار والحرور بالليل وقال الكلبى عن أبى صالح السموم نار لادخان لها والصواعق تكون منها وهى نار تكون بين السماء وبين الحجاب فاذا أحدث الله تعالى أمرا خرقت الحجاب فهوت الى ما أمرت به فالهدة التى تسمعون خرق ذلك الحجاب وعن ابن عباس هذه السموم جزء من سبعين جزأ من السموم التى خلق منها الجان وتلا هذه الآية وعن الضحاك عن ابن عباس كان ابليس من حى من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار وأما الملائكة فخلقوا

من النور * ولما ذكر الله تعالى حدوث الانسان الاول واستدل بذكره على وجود الاله القادر المختار ذكر بعده واقعته بقوله تعالى (واذ) أى واذكر يا أشرف الخلق قول ربك عز وجل اذ (قال ربك) أى المحسن اليك بتشريف أبيك آدم عليه السلام لتشريفك (للملائكة انى خالق بشرا) أى حيوانا كثيفا يباشر ويلاقى والملائكة والجن لا يباشرون للطف أجسامهم عن ابشار البشر والبشرة ظاهر الجلد من كل حيوان وقوله تعالى (من صلصال من حمأ مسنون) تقدم تفسيره (فاذا سويته) أى عدلته وأتممته وهيأته لنفخ الروح فيه بالفعل (ونفخت فيه من روحى) أى خلقت الحياة فيه وليس ثم نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل وأضاف الروح اليه تشريفا كما يقال بيت الله وهو ما يصير به الروح عالما وأشرف منه ما يصير به العالم عاملا خاشعا وسيأتى الكلام على الروح ان شاء الله تعالى فى سورة سبحان عند قوله تعالى ويسألونك عن الروح (فقعوا) أى اسقطوا (له) تعظيما حال كونكم (ساجدين) وتقدم فى سورة البقرة الكلام على من المخاطب بالسجود وهل هو كل الملائكة أو ملائكة السموات أو ملائكة الارض وهل هو سجود انحناء أو غيره (فسجد الملائكة) وقوله تعالى (كلهم أجمعون) قال سيبويه تأكيد بعد تأكيد وسئل المبرد عن ذلك فقال لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم زال هذا الاحتمال فظهر أنهم باسرهم سجدوا ثم عند هذا بقى احتمال وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد فى وقت آخر فلما قال أجمعون ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة قال الزجاج وقول سيبويه أجود لان أجمعين معرفة فلا يكون حالا وقوله تعالى (الا ابليس) أجمعوا على أن ابليس كان مأمورا بالسجود لآدم واختلفوا فى انه هل كان من الملائكة أم لا وقد سبقت هذه المسألة على الاستقصاء فى سورة البقرة وقوله تعالى (أبى أن يكون مع الساجدين) أى لآدم استئناف تقديره ان قائلا قال هل سجد فقيل أبى ذلك واستكبر عنه (قال) الله تعالى له (يا ابليس ما لك ألا تكون) أى أن تكون ولا مزيدة أى ما منعك أن تكون (مع الساجدين) لآدم (قال لم أكن لاسجد لبشر) جسمانى كثيف واللام لتأكيد النفى أى لا يصح منى وينافى حالى أن أسجد وانا ملك روحانى لبشر (خلقته من صلصال من حمأ مسنون) وهو أخس العناصر وخلقتنى من نار وهى أشرفها استنقص آدم باعتبار النوع والاصل وقد سبق الجواب عنه فى سورة الاعراف * (تنبيه) * قال بعض المتكلمين انه تعالى أوصل هذا الخطاب الى ابليس على لسان بعض رسله وضعف لان ابليس قال فى الجواب لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال فقوله خلقته خطاب الحضور لا خطاب الغيبة وظاهره يقتضى أن الله تعالى تكلم مع ابليس بغير واسطة وأن ابليس تكلم مع الله بغير واسطة فكيف يعقل هذا مع ان مكالمة الله تعالى من غير واسطة من أعظم المناصب وأشرف المراتب فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم * (وأجيب) * بأن مكالمة الله تعالى انما تكون منصبا عاليا اذا كانت على سبيل الاكرام والاعظام فأما اذا كانت على سبيل الاهانة والاذلال فلا (قال) الله تعالى له (فاخرج منها) أى من الجنة وقيل من السموات وقيل من زمرة الملائكة وقد تقدم الكلام

على ذلك أيضا في سورة الاعراف (فانك رجيم) أى مطرود من الخير والكرامة فان من يطرد يرجم بالحجر أو شيطان رجيم بالشهب وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته (وان عليك اللعنة) أى هذا الطرد والابعاد (الى يوم الدين) قال ابن عباس يريد يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم مثل قوله تعالى مالك يوم الدين (فان قيل) كلمة الى تفيد حصر انتهاء الغاية فهذا يفيد ان اللعنة لاتحصل الا الى يوم الدين وعند القيامة يزول اللعن (أجيب) بجوابين الاول أن المراد التأبيد وذكر القيامة أبعد غاية ذكرها الناس فى كلامهم كقوله تعالى مادامت السموات والارض فى التأبيد والثانى أنه مذموم مدعو عليه باللعن فى السموات والارض الى يوم القيامة من غير أن يعذب فاذا جاء ذلك اليوم عذب عذابا يقترن اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب أن شدة العذاب تذهل عنه ولما جعله الله تعالى رجيما ملعونا الى يوم القيامة فكان قائلا يقول فماذا قال فقيل (قال رب) فاعترف بالعبودية والاحسان اليه (فأنظرنى) أى أخرنى والانظار تأخير المحتاج للنظر فى أمره والفاء متعلقة بمحذوف دل عليه فاخرج منها فانك رجيم (الى يوم يبعثون) أى الناس أراد أن يجد فسحة فى الاغواء ونجاة من الموت اذ لاموت بعد وقت البعث (قال) الله تعالى مجيبا للاول دون الثانى بقوله تعالى (فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) وهو المسمى فيه أجلك عند الله وهو النفخة الاولى وما يتبعها من موت كل مخلوق لم يكن فى دار الخلد (فان قيل) كيف أجابه الله تعالى الى ذلك الامهال (أجيب) بأنه انما أجابه الى ذلك زيادة فى بلائه وشقائه وعذابه لا لاكرامه ورفع مرتبته * ولما أجيب لذلك كأنه قيل فماذا قال فقيل (قال رب) أى أيها الموجد والمدبر لى وقوله (بما أغويتنى) أى خيبتنى من رحمتك الباء فيه للقسم وما مصدرية وجواب القسم (لازينن) أى أقسم باغوائك اياى لازينن (لهم فى الارض) حب الدنيا ومعاصيك كقوله فبعزتك لاغوينهم أجمعين الا انه فى ذلك الموضع أقسم بعزة الله وهى من صفات الذات وهنا أقسم باغواء الله وهى من صفات الافعال والفقهاء قالوا القسم بصفات الذات صحيح واختلفوا فى القسم بصفات الافعال والراجح فيها الصحة (ولاغوينهم) أى بالاضلال عن الطريق الحميد بالقاء الوسوسة فى قلوبهم ولاحملنهم (أجمعين) على الغواية وقوله (الا عبادك منهم المخلصين) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام أى الذين أخلصوا دينك عن الشوائب وقرأه الباقون بفتحها أى الذين أخلصهم الله تعالى بالهداية وانما استثنى ابليس المخلصين لانه علم ان كيده لايعمل فيهم ولايقبلون منه قال الرازى والذى حمله على هذا الاستثناء أنه لايصير كاذبا فى دعواه فلما احترز ابليس عن الكذب علمنا ان الكذب فى غاية الخساسة *(تنبيه)* قال رويم الاخلاص فى العمل هو أن لايريد صاحبه عنه عوضا من الدارين ولاعوضا من الملكين وقال الجنيد الاخلاص سر بين العبد وبين الله تعالى لايعلمه ملك فيكتبه ولاشيطان فيفسده ولاهوى فيميله وذكر القشيرى وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال سألت جبريل عليه السلام عن الاخلاص ما هو قال سألت رب العزة عن الاخلاص ما هو قال سر استودعته قلب

من أخبر من عبادى * ولما ذكر ابليس أنه يغوى بنى آدم الا من عصمه الله بتوفيقه وتضمن هذا الكلام تفويض الامور الى الله تعالى والى ارادته (قال) تعالى (هذا) أى الذى ذكرته من حال المستثنى والمستثنى منه (صراط) أى طريق (على مستقيم) أى لا انحراف عنه لانى قضيت به وحكمت به عليك وعليهم ولو لم تقل أنت * ولما قال ابليس لازينن لهم فى الارض ولاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين أوهم هذا أن له سلطانا على عباد الله غير المخلصين فبين تعالى كذبه أنه ليس له سلطان على أحد من عبيد الله سواء كانوا مخلصين أو لم يكونوا مخلصين بل ومن اتبع منهم ابليس باختياره صار تبعا له ولكن حصول تلك المتابعات أيضا ليس لاجل ابليس وأوهم ان له على بعض عباد الله سلطانا فبين تعالى كذبه وذكر تعالى انه ليس له على أحد منهم سلطان ولا قدرة أصلا بقوله تعالى (ان عبادى) أى المؤمنين كلهم (ليس لك) أى بوجه من الوجوه (عليهم سلطان) أى لتردهم كلهم عما يرضينى ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن ابليس وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى وقال تعالى فى آية أخرى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون (الا من اتبعك) أى بتعمده منه ورغبة فى اتباعك (من الغاوين) أى ومات من غير توبة فانى جعلت لك عليهم سلطانا بالتزيين والاغواء وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال معناه ليس لك عليهم سلطان تلقيهم فى ذنب يضيق عنه عفوى وقيل ان الاضافة للتشريف فلا تشمل الا الخلص فحينئذ يكون الاستثناء منقطعا وفائدة سوقه بصورة الاستثناء على تقدير الانقطاع الترغيب فى رتبة التشريف بالاضافة اليه والرجوع عن اتباع العدو والى الاقبال عليه لان ذوى الانفس الابية والهمم العلية يتنافسون فى ذلك المقام ويرونه كما هو الحق أعلى مرام (وان جهنم لموعدهم) أى الغاوين وهم ابليس ومن تبعه (أجمعين) ثم بين تعالى أنهم متفاوتون فيها بقوله تعالى (لها) أى لجهنم (سبعة أبواب) أى سبع طبقات قال على رضى الله تعالى عنه أتدرون كيف أبواب النار هكذا ووضع احدى يديه على الاخرى أى سبعة أبواب بعضها فوق بعض وان الله تعالى وضع الجنات على العرض ووضع النيران بعضها على بعض قال ابن جريج النار سبعة دركات أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية * (تنبيه) * تخصص العدد لان أهلها سبع فرق وقيل جعلت سبعة على وفق الاعضاء السبعة من العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل لانها مصادر السيآت فكانت مواردها الابواب السبعة ولما كانت هى بعينها مصادر الحسنات بشرط النية والنية من أعمال القلب زادت الاعضاء واحدا فجعلت أبواب الجنان ثمانية قال تعالى (لكل باب) أى منها (منهم) أى من الغاوين خاصة لايشاركهم فيها مخلص (جزء) أى نصيب وقرأ شعبة بضم الزاى والباقون بالسكون (مقسوم) أى معلوم فلكل دركة قوم يسكنونها قال الضحاك فى الدرجة الاولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون وفى الثانية النصارى وفى الثالثة اليهود وفى الرابعة الصابئون وفى

الخامسة المجوس وفى السادسة أهل الشرك وفى السابعة المنافقون فذلك قوله تعالى ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار وروى عن عمر رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتى أو قال على أمة محمد ولما شرح تعالى أحوال أهل العقاب أتبعه بصفة أهل الثواب بقوله تعالى مؤكدا الانكار المكذبين بالبعث (ان المتقين) أى الذين اتقوا الشرك بالله تعالى كما قال جمهور الصحابة والتابعين وهو الصحيح لان المتقى هو الآتى بالتقوى مرة واحدة كما أن الضارب هو الآتى بالضرب مرة واحدة والقاتل هو الآتى بالقتل مرة واحدة فكما أنه ليس من شرط صدق الوصف بكونه ضاربا أو قاتلا كونه آتيا بجميع أنواع الضرب والقتل ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا كونه آتيا بجميع أنواع التقوى لان الآتى بفرد واحد من أفراد التقوى يكون آتيا بالتقوى لان كل فرد من افراد الماهية يجب كونه مشتملا على تلك الماهية (فى جنات) أى بساتين قال الرازى أما الجنات فأربعة لقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ثم قال ومن دونهما جنتان فيكون المجموع أربعة وقوله ولمن خاف مقام ربه جنتان يؤكد ماقلناه لان من آمن بالله لا ينفك قلبه من الخوف من الله تعالى وقوله تعالى ولمن خاف يكفى فى صدقه حصول هذا الخوف مرة واحدة وقوله تعالى (وعيون) قال الرازى يحتمل أن يكون المراد منها ما ذكره الله تعالى فى قوله مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ويحتمل أن يكون المراد من هذه العيون منابع مغايرة لتلك الانهار (فان قيل) هل كل واحد من المتقين مختص بعيون أو تجرى تلك العيون بعضها الى بعض (أجيب) بأن كل واحد من الوجهين محتمل فيجوز أن يختص كل واحد بعين ينتفع هو بها ومن يختص به من الحور والولدان ويكون ذلك على قدر حاجاتهم وعلى حسب شهواتهم ويحتمل أن يجرى من بعضهم الى بعض لانهم يطهرون عن الحقد والحسد وقرأ نافع وابو عمرو وهشام وحفص برفع العين والباقون بالكسر وقرأ بكسر التنوين فى الوصل أبو عمرو وابن ذكوان وعاصم وحمزة والباقون بالضم * ولما كان المنزل لا يحسن الا بالسلامة والانس قال تعالى (ادخلوها) أى يقال لهم ذلك (بسلام) أى سالمين من كل آفة مرحبا بكم (آمنين) من ذلك دائما ولما كان الانس لا يكمل الا بالجنس مع كمال المودة وصفاء القلوب عن الكدر قال تعالى (ونزعنا) أى بما لنا من العظمة والقدرة (مافى صدورهم من غل) أى حقد كامن فى القلب ويطلق على الشحناء والعداوة والحسد والبغضاء فكل هذه الخصال المذمومة داخلة فى الغل لانها كامنة فى القلب يروى ان المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد حالة كونهم (اخوانا) أى متصافين حالة كونهم (على سرر) جمع سرير وهو مجلس رفيع موطأ للسرور وهو مأخوذ منه لانه مجلس سرور قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل ما بين صنعاء الى الجابية (متقابلين) لا يرى بعضهم قفا بعض فان التقابل

التواجه وهو نقيض التدابر ولاشك أن المواجهة أشرف الاحوال وعن مجاهد رضى الله تعالى عنه تدور بهم الاسرة حيثما داروا فيكونون فى جميع أحوالهم متقابلين * (تنبيه) * ليس المراد الاخوة فى النسب بل المراد الاخوة فى المودة والمخالطة كما قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وعن الجنيد أنه قال ما أحلى الاجتماع مع الاصحاب وما أمر الاجتماع مع الاضداد وقوله تعالى (لايمسهم فيها نصب) أى اعياء وتعب وجهد ومشقة استئناف أو حال بعد حال أو حال من الضمير فى متقابلين وقوله تعالى (وماهم منها بمخرجين) المراد به كونه خلودا بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمالا بلا نقصان وفوزا بلا حرمان * ولما ذكر تعالى أحوال المتقين وأحوال غيرهم أتبع ذلك بقوله تعالى (نبئ) أى خبريا أفضل الخلق (عبادى) اخبارا جليلا (أنى أنا) أى وحدى (الغفور) أى للمؤمنين (الرحيم) بهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من عبادى وانى والباقون بالسكون وأما الهمزة فى نبئ فلم يبدلها الاحمزة فى الوقف فقط وكذا الهمزة من نبئهم ونقل عن حمزة كسر الهاء فى الوقف (وأن عذابى) أى وحدى للعصاة (هو العذاب الاليم) أى المؤلم * (تنبيه) * فى هذه الآية لطائف الاولى أنه سبحانه وتعالى أضاف العباد الى نفسه وهذا تشريف عظيم ألا ترى انه قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم سبحان الذى أسرى بعبده ليلا الثانية انه تعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيدات بالفاظ ثلاث أولها قوله تعالى أنى وثانيها قوله أنا وثالثها ادخال حرف الالف واللام على قوله تعالى الغفور الرحيم ولما ذكر العذاب لم يقل أنى أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال وأن عذابى هو العذاب الاليم الثالثة انه أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ اليهم هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة والرابعة انه لما قال نبئ عبادى كان معناه نبئ كل من كان معترفا بعبوديتى وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع كذلك يدخل فيه المؤمن العاصى وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك منها عنده تسعة وتسعين وأرسل فى خلقه رحمة فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار وعن عبادة رضى الله تعالى عنه قال بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لو يعلم العبد قدر عفو الله ماتورع من حرام ولو يعلم قدر عذابه لجمع نفسه الى قتلها وعنه صلى الله عليه وسلم أنه مر بنفر من أصحابه وهم يضحكون فقال أتضحكون وقد ذكر الجنة والنار بين أيديكم فنزل نبئ عبادى انى أنا الغفور الرحيم * ولما بالغ تعالى فى تقرير النبوة ثم أردفه بذكر دلائل التوحيد ثم ذكر تعالى عقبه أحوال القيامة ووصف الاشقياء والسعداء أتبع ذلك بقصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام ليكون سماعها مرغبا فى العبادة الموجبة للفوز بدرجات الاولياء ومحذرا عن المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الاشقياء وافتتح من ذلك بقصة ابراهيم عليه السلام فقال تعالى (ونبئهم) أى خبر ياسيد المرسلين عبادى

(عن ضيف ابراهيم) وهم ملائكة اثنا عشر أو عشرة أو ثلاثة منهم جبريل عليه السلام (فان قيل) الضيف هو المنضم الى غيره لطلب القرى (أجيب) بأن هؤلاء سموا بهذا الاسم لانهم على صورة الضيف فهو من دلالة التضمن وقيل أيضا ان من يدخل دار انسان ويلتجئ اليه يسمى ضيفا وان لم يأكل (اذ دخلوا عليه) أى ابراهيم وكان يكنى أبا الضيفان كان لقصره أربعة أبواب لكي لا يفوته أحد (فقالوا سلاما) أى نسلم عليك سلاما أو سلمت سلاما (قال) ابراهيم عليه السلام بلسان الحال أو المقال (انا) أى أنا ومن عندى (منكم وجلون) أى خائفون وكان خوفهم لامتناعهم من الاكل أو لانهم دخلوا بغير اذن وبغير وقت والوجل اضطراب النفس لتوقع ما تكره (قالوا لا توجل) أى لا تخف (انا) رسل ربك (نبشرك بغلام) أى ولد ذكر فى غاية القوة ليس كأولاد الشيوخ ضعيفا وقرأ حمزة بفتح النون وسكون الباء وضم الشين مخففة والباقون بضم النون وفتح الباء وكسر الشين مشددة (عليم) أى ذى علم كثير هو اسحق عليه السلام كما ذكر فى هود وتقدم ذكر القصة هناك بأسرها (قال) ابراهيم عليه السلام (أبشرتمونى) أى بالولد وقوله (على أن مسنى الكبر) حال أى مع مسه اياى (فان قيل) كيف قال (فبم) أى فبأى شئ (تبشرون) أى بينوا الى ذلك بيانا شافيا مع أنهم قد بينوا ما بشروا به وما فائدة هذا الاستفهام (أجيب) بأنه أراد أن يعرف ان الله تعالى هل يعطيه الولد مع بقائه على صفة الشيخوخة أو يقلبه شابا ثم يعطيه الولد والسبب فى هذا الاستفهام ان العادة جارية بأنه لا يحصل فى حالة الشيخوخة التامة وانما يحصل فى حال الشباب أو انه استفهام تعجب ويدل لذلك قولهم (قالوا بشرناك بالحق) قال ابن عباس يريدون بما قضاه الله تعالى والمعنى ان الله تعالى قضى أن يخرج من صلب ابراهيم اسحق ويخرج من صلب اسحق ذرية مثل ما أخرج من صلب آدم وقولهم (فلا تكن) أى بسبب تبشيرنا (من القانطين) أى الآيسين نهى لابراهيم عليه السلام عن القنوط ونهى الانسان عن الشئ لا يدل على كونه فاعلا للمنهى عنه كما فى قوله تعالى ولا تطع الكافرين والمنافقين ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام أنه (قال ومن يقنط) أى ييأس من هذا اليأس (من رحمة ربه) أى الذى لم يزل احسانه عليه (الا الضالون) أى المخطئون طريق الاعتقاد الصحيح فى ربهم من تمام القدرة وانه لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة وقرأ أبو عمرو والكسائى بكسر النون والباقون بفتحها ولما تحقق عليه السلام البشرى ورأى أنهم مختفين على غير الصفة التى يأتى عليها الملك للوحى وكان هو وغيره من العارفين بالله عالمين بأنه ما ينزل الملك الا بالحق كان ذلك سببا لان يسألهم عن أمرهم لنزول وجله كله ولذلك (قال) عليه السلام (فما) بفاء السبب (خطبكم) أى شأنكم قال أبو حيان والخطب لا يكاد يقال الا فى الامر الشديد اه وقال الرمانى انه الامر الجليل. (أيها المرسلون) فانكم ما جئتم الا لامر عظيم يكون فصلا بين هالك وناج (قالوا انا أرسلنا) أى أرسلنا العزيز الحكيم الذى أنت أعرف الناس به فى هذا الزمان به (الى) اهلاك (قوم) أى ذوى منعة (مجرمين) أى كافرين وهم قوم لوط وقوله تعالى (الا آل لوط)

فيه وجهان أحدهما انه استثناء متصل على أنه مستثنى من الضمير المستكن في مجرمين بمعنى أجرموا كلهم الا آل لوط فانهم لم يجرموا ويكون معنى قوله تعالى (انا لمنجوهم أجمعين) أى لاعمانهم استئناف اخبار بنجاتهم لكونهم لم يجرموا ويكون الارسال حينئذ شاملا للمجرمين ولآل لوط لاهلاك أولئك وانجاء هؤلاء والثانى انه استثناء منقطع لان آل لوط لم يندرجوا في المجرمين البتة فيكون قوله تعالى انا لمنجوهم أجمعين جرى مجرى خبر لكن في اتصاله بآل لوط لان المعنى لكن آل لوط منجوهم وقرأ حمزة والكسائى بسكون النون وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون وتشديد الجيم وقوله تعالى (الا امرأته) استثناء من آل لوط أو من ضميرهم على الاول وعلى الثانى لا يكون الامن ضميرهم لاختلاف الحكمين اللهم الا أن يجعل انا لمنجوهم اعتراضا وقوله تعالى (قدرنا) قرأ شعبة بتخفيف الدال والباقون بالتشديد (انها لمن الغابرين) أى من الباقين في العذاب لكفرها * (تنبيه) * معنى التقدير في اللغة جعل الشئ على مقدار غيره يقال قدر هذا الشئ لهذا أى اجعله على مقداره وقدر الله تعالى الاقوات أى جعلها على مقدار الكفاية ويفسر التقدير بالقضاء فيقال قضى الله تعالى عليه وقدره عليه أى جعله على مقدار ما يكفى في الخير والشر وقيل معنى قدرنا كتبنا وقال الزجاج دبرنا (فان قيل) لم أسند الملائكة فعل التقدير الى أنفسهم مع أنه لله عز وجل (أجيب) بأنهم انما ذكروا هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى كما تقول خاصة الملك دبرنا كذا وأمرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك لاهم وانما يريدون بهذا الكلام اظهار ما لهم من الاختصاص بذلك الملك فكذا هنا * ولما بشر الملائكة عليهم السلام ابراهيم عليه السلام بالولد وأخبروه بأنهم مرسلون بعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد ابراهيم عليه السلام الى لوط وآله وهذه هى القصة الثانية المذكورة في هذه السورة قال تعالى (فلما جاء آل لوط المرسلون) ههنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط واحدة منهما مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها حرف مد والباقون بتحقيق الهمزتين وكذا وجاء أهل المدينة (قال) لهم (انكم قوم منكرون) لانهم دخلوا عليه هجما فاستنكرهم وخاف من دخولهم لاجل شر يوصلونه اليه ولاجل انهم كانوا شبابا مردا حسان الوجوه فخاف أن يهجم قومه عليهم بسبب طلبهم فقال هذه الكلمة وقيل ان النكرة ضد المعرفة فقوله عليه السلام انكم قوم منكرون أى لا أعرفكم ولا أعرف انكم من أى الاقوام أنتم ولاى غرض دخلتم على فعند ذلك (قالوا) أى الملائكة (بل جئناك بما) أى بالعذاب الذى (كانوا) أى قومك (فيه يمترون) أى يشكون في نزوله بهم والجاهل يوصف بالشك وان كان مكذبا من جهة ما يعرض له منه من حيث أنه لا يرجع الى نفسه فيما هو عليه ثم أكدوا ما ذكروه بقولهم (وأتيناك بالحق) أى باليقين الذى لا يشك فيه ثم أكدوا هذا التأكيد بقولهم (وانا لصادقون) أى فيما أخبرناك به (فأسر بأهلك) أى فاذهب بهم في الليل (بقطع من الليل) أى في طائفة من الليل وقيل هى آخره قال الشاعر

افتحى الباب وانظرى في النجوم * كم علينا من قطع ليل بهيم

كأنه طال عليه الليل فخاطب خصيمته بذلك أو كان يحب طول الليل للوصال وقرأ نافع وابن
كثير بوصل همزة فاسر بعد الفاء من السرى والباقون بالقطع وهما بمعنى (واتبع أدبارهم)
أى وكن على آثار أهلك وسر خلفهم وتطلع على أحوالهم (ولا يلتفت منكم أحد) أى لئلا يرى
أليم ما نزل بهم من البلاء وقيل جعل ترك الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط (وامضوا
حيث تؤمرون) أى الى المكان الذى أمركم الله بالمضى اليه قال ابن عباس هو الشأم وقال
الفضيل حيث يقول لكم جبريل وذلك ان جبريل أمرهم أن يمضوا الى قرية معينة ما عمل أهلها
عمل قوم لوط وقيل الى الاردن وقيل الى مصر * (تنبيه) * حيث ههنا على بابها من كونها ظرف
مكان مبهم ولابهامها تعدى اليها الفعل من غير واسطة (وقضينا) أى وأوحينا (اليه) ولما ضمن
قضينا معنى الايحاء تعدى بالى ومثله وقضينا الى بنى اسرائيل وقوله تعالى (ذلك الامر) مبهم
تفسيره (أن دابر هؤلاء مقطوع) أى مستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد وقوله تعالى
(مصبحين) حال من هؤلاء أو من الضمير فى مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان دابر هؤلاء فى
معنى مدبرى هؤلاء أى يتم استئصالهم فى الصباح (وجاء أهل المدينة) أى مدينة من مدائن قوم
لوط وهى سذوم بسين مهملة وذال معجمة وأخطأ من قال بمهملة (يستبشرون) أى بأضياف لوط
طمعا فيهم وليس فى الآية دليل على المكان الذى جاؤه الا أن القصة تدل على انهم جاؤا دار
لوط وقيل ان الملائكة لما كانوا فى غاية الحسن اشتهر خبرهم حتى وصل الى قوم لوط وقيل
امرأة لوط أخبرتهم بذلك قال الرازى وبالجملة فالقوم قالوا نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط
أصبح وجها ولا أحسن شكلا منهم فذهبوا الى دار لوط طلبا منهم لاولئك المرد والاستبشار
اظهار السرور ولما وصلوا اليه (قال) لهم لوط (ان هؤلاء ضيفى) أى وحق على الرجل اكرام
الضيف (فلا تفضحون) فيهم يقال فضحه يفضحه اذا أظهر من أمره ما يلزم به العار واذا قصد
الضيف بسوء كان ذلك اهانة لصاحب المحل ثم أكد ذلك بقوله (واتقوا) أى خافوا (الله)
فى أمرهم (ولا تخزون) أى ولا تخجلونى فيهم بقصدكم اياهم بفعل الفاحشة من الخزاية وهى
الحياء أو لا تذلونى بسببهم من الخزى وهو الهوان (قالوا) أى قومه فى جواب قوله لهم
(أولم ننهك عن العالمين) أى عن أن تضيف أحدا من العالمين وقيل أولم ننهك أن تدخل الغرباء
المدينة فانا نطلب منهم الفاحشة وقيل أولم ننهك أن تمنع بيننا وبينهم فانهم كانوا يتعرضون لكل
أحد وكان لوط عليه السلام يمنعهم عنهم بقدر وسعه ثم (قال) لهم (هؤلاء بناتى) أى نساء القوم
لان كل أمة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونساؤهم بناته فكأنه قال لهم هؤلاء بناتى فانكحوهن
وخلوا بنى فلا تتعرضوا لهم (ان كنتم فاعلين) أى ما أقول لكم أو قضاء الشهوة والكلام فى ذلك
قدمته بالاستقصاء فى سورة هود وقرأ نافع بفتح ياء بناتى والباقون بسكونها قال الله تعالى لنبيه
محمد صلى الله عليه وسلم على لسان ملائكته (لعمرك) أى وحياتك وما أقسم بحياة أحد غيره
وذلك يدل على أنه أكرم الخلق على الله تعالى (انهم لفى سكرتهم) أى شدة غفلتهم التى أزالت
عقولهم (يعمهون) أى يتحيرون الخطاب للوط عليه السلام قالت له الملائكة ذلك أى

فكيف يعقلون قولك ويلتفتون الى نصيحتك *(تنبيه)* لعمرك مبتدأ محذوف الخبر وجوبا وانهم وما في حيزه جواب القسم تقديره لعمرك قسمي أو يميني انهم والعمر والعمر بالفتح والضم واحد وهو البقاء الا انهم خصوا القسم بالمفتوح لايثار الاخف فيه وذلك لان الحلف كثير الدور على ألسنتهم بلعمري ولعمرك (فأخذتهم الصيحة) أي صيحة هائلة مهلكة وهل هي صيحة جبريل عليه السلام قال الرازي ليس في الآية دليل على ذلك فان ثبت بدليل قوي قيل به والا ليس في الآية دليل الا انهم جاءتهم صيحة عظيمة مهلكة وقوله تعالى (مشرقين) أي داخلين في وقت الشروق وهو بزوغ الشمس حال من مفعول أخذتهم ثم بين سبحانه وتعالى ما تسبب عن الصيحة معقبا لها بقوله تعالى (فجعلنا) أي بما لنا من العظمة والقدرة (عاليها) أي مدائنهم (سافلها) بأن رفعها جبريل عليه السلام الى السماء وأسقطها مقلوبة الى الارض (وأمطرنا عليهم) أي أهل المدائن التي قلبت المدائن لاجلهم (حجارة من سجيل) أي طين طبخ بالنار *(تنبيه)* دلت الآية الكريمة على أن الله تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب أحدها الصيحة الهائلة المنكرة وثانيها أنه جعل عاليها سافلها وثالثها انه أمطر عليهم حجارة من سجيل وتقدمت الاشارة الى ذلك في سورة هود (ان في ذلك) أي المذكور من هذه الانواع (لآيات) أي دلالات على وحدانية الله تعالى (للمتوسمين) أي للناظرين المعتبرين جمع متوسم وهو الناظر في السمة حتى يعرف حقيقة الشيء وسمته (وانها) أي هذه المدائن (لبسبيل) أي طريق قريش الى الشأم (مقيم) أي لم يندرس بل يشاهدون ذلك ويرون أثره أفلا يعتبرون ثم قال سبحانه وتعالى مشيرا الى زيادة الحث على الاعتبار بالتأكيد (ان في ذلك) أي هذا الامر العظيم (لآية) أي علامة عظيمة في الدلالة على وحدانيته تعالى (للمؤمنين) أي كل من آمن بالله وصدق الانبياء والرسل عرف ان ذلك انما كان لاجل ان الله تعالى انتقم لانبيائه من أولئك الجهال أما الذين لا يؤمنون بالله فانهم يحملونه على حوادث العالم ووقائعه ثم ذكر تعالى القصة الثالثة وهي قصة شعيب عليه السلام بقوله تعالى (وان) مخففة من الثقيلة أي وانه (كان) أي جبلة وطبعا (أصحاب الايكة) وهم قوم شعيب عليه السلام وقد ذكر الله تعالى قصتهم في سورة الشعراء والايكة الشجر المتكاثف وقيل الشجر الملتف وقال ابن عباس هي شجر المقل وقال الكلبي الايكة الغيضة أي غيضة شجر بقرب مدين (لظالمين) أي عريقين في الظلم بتكذيبهم شعيبا عليه السلام (فانتقمنا منهم) أي بسبب ذلك قال المفسرون اشتد الحر فيهم أياما ثم اضطرم عليهم المكان نارا فهلكوا عن آخرهم وقوله تعالى (وانهما) فيه قولان الاول ان المراد قرى قوم لوط والايكة والقول الثاني أن الضمير للايكة ومدين لان شعيبا كان مبعوثا اليهما فلما ذكر الايكة دل بذكرها على مدين فجاء ضميرهما (لبامام) أي طريق (مبين) أي واضح والامام اسم لما يؤتم به قال الفراء انما جعل الطريق اماما لانه يؤم ويتبع وقال ابن قتيبة لان المسافر يأتم به حتى يصل الى الموضع الذي يريده ثم ذكر تعالى القصة الرابعة وهي قصة صالح عليه السلام بقوله

تعالى (ولقد كذب أصحاب الحجر) وهم ثمود قوم صالح عليه السلام وديارهم بين المدينة
الشريفة والشام (المرسلين) أى كلهم بتكذيب رسولهم كما كذب هؤلاء المرسلين بتكذيبك
لان الرسل يشهد بعضهم لبعض بالصدق فمن كذب واحدا منهم فقد كذب الجميع وهم فى اثبات
الرسالة بالمعجزة على حد سواء ثم أتبع ذلك قوله تعالى (وآتيناهم) أى بما لنا من العظمة والقدرة
على يد رسولهم صالح عليه السلام (آياتنا) أى آيات الكتاب المنزل على نبيهم أو معجزات كالناقة
وكان فيها آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظيم خلقها وقرب ولادتها وغزارة لبنها وانما
أضاف الآيات اليهم وان كانت لنبيهم صالح عليه السلام لانه مرسل من ربهم اليهم بهذه الآيات
(فكانوا عنها) أى الآيات (معرضين) أى تاركيها غير ملتفتين اليها لا يتفكرون فيها ثم أخبر تعالى
عنهم أنهم كانوا مثل هؤلاء فى الأمن من العذاب والغفلة عما يراد بهم مع أنهم كانوا أشد منهم
فقال تعالى (وكانوا ينحتون) والنحت قلع جزء بعد جزء من الجسم على سبيل المسح (من الجبال)
أى التى تقدم انا جعلناها رواسى (بيوتا آمنين) عليها من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب
الاعداء لوثاقتها لا كبيوتكم التى لا بقاء لها على أدنى درجة وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص
برفع الباء والباقون بكسرها (فأخذتهم الصيحة) أى صيحة العذاب (مصبحين) أى وقت الصبح
(فما أغنى) أى ما دفع (عنهم) الضر والبلاء (ما كانوا يكسبون) أى يعملون من بناء البيوت
الوثيقة واستكثار الاموال والعدد وعن جابر رضى الله تعالى عنه مررنا مع رسول الله صلى
الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم الا أن تكونوا باكين
حذرا أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فأسرع حتى
خلفها ولما ذكر تعالى هذه القصص تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم فانه اذا سمع ان الامم السالفة
كانوا يعاملون أنبياء الله بمثل هذه المعاملات سهل تحمل تلك السفاهة قال تعالى (وما خلقنا
السموات والارض) أى على ما لها من العلو والسعة والارض على ما لها من المنافع والغرائب
(وما بينهما) من هؤلاء المشركين المكذبين وعذابهم ومن المياه والرياح والسحاب المسبب عنه
النبات وغير ذلك (الا بالحق) أى الا خلقا ملتبسا بالحق فيتفكر فيه من وفقه الله تعالى ليعلم
النشأة الآخرة بهذه النشأة الاولى (وان الساعة) أى القيامة (لآتية) لا محالة فيجازى الله
تعالى كل أحد بعمله ثم انه تعالى لما صبره على أذى قومه رغبه بعد ذلك فى الصفح عن سيآتهم
بقوله تعالى (فاصفح الصفح الجميل) أى اعرض عنهم اعراضا لا جزع فيه ولا تعجل بالانتقام
منهم وهذا منسوخ بآية السيف قال الرازى وهو بعيد لان المقصود من ذلك أن يظهر الخلق
الحسن والعفو والصفح فكيف يصير منسوخا اهـ والاول جرى عليه البغوى وجماعة من
المفسرين ثم علل تعالى هذا الامر بقوله (ان ربك) أى المحسن اليك الآمر لك بهذا (هو) أى
وحده (الخلاق) أى المتكرر منه هذا الفعل (العليم) أى البالغ العلم بكل المعلومات فليست
أقوالهم وأفعالهم الا منه سبحانه وتعالى لانه خالقها وقد علمت أنه لا يضيع مثقال ذرة فاعتمد
عليه فى أخذ حقك فانه نعم المولى ونعم النصير ولما صبره الله تعالى على أذى قومه وأمره أن يصفح

الصفح الجميل اتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التى خص الله تعالى أفضل خلقه بها بقوله تعالى (ولقد آتيناك) يا أفضل الخلق بمالنا من العظمة والقدرة كما آتيناه الماتقدم (سبعا) يكون كل سبع منها كفيلا باغلاق باب أبواب من النيران السبعة وهى أم القرآن الجامعة لجميع معانى القرآن التى أمرنا باعادتها فى كل ركعة زيادة فى حفظها وتبركا بلفظها وتذكرا لمعانيها وتخصيصا لها عن بقية الذكر الذى تكفلنا بحفظه والسبب فى وقوع هذا الاسم على الفاتحة لانها سبع آيات وهذا ما عليه أكثر المفسرين روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال هى السبع المثانى رواه أبو هريرة وقيل المراد سبع سور وهى الطوال واختلف فى السابعة فقيل الانفال وبراءة لانهما فى حكم سورة ولذلك لم يفصل بينهما بآية البسملة وقيل الحواميم السبع وقيل سبع صحائف وهى الاسباع وقوله تعالى (من المثانى) صفة للسبع وهو جمع واحده مثناة والمثناة كل شئ يثنى أى يجعل اثنين من قولك ثنيت الشئ ثنيا أى عطفته وضممت اليه آخر ومنه يقال لركبتى الدابة ومرفقيها مثانى لانها تثنى بالفخذ والعضد ومثانى الوادى معاطفه أما تسمية الفاتحة بالمثانى فلوجوه الاول أنها تثنى فى كل صلاة بمعنى أنها تقرأ فى كل ركعة الثانى أنها تثنى بما بعدها فيما يقرأ معها الثالث أنها قسمت قسمين اثنين لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين والحديث مشهور وقد ذكرته فى وجه تسميتها صلاة عند ذكرها الرابع أنها قسمان اثنان ثناء ودعاء وأيضا النصف الاول منها حق الربوبية وهو الثناء والنصف الثانى حق العبودية وهو الدعاء الخامس أن كلماتها مثناة مثل الرحمن الرحيم اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم وأما السور والاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ولما فيها من الثناء كأنها تثنى على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى *(تنبيه)* من فى من المثانى اما للبيان أو للتبعيض اذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال وللبيان ان أردت الاسباع قال الزمخشرى ويجوز أن تكون كتب الله كلها مثانى لانها تثنى عليه لما فيها من المواعظ المكررة ويكون القرآن بعضها وقوله تعالى (والقرآن العظيم) أى الجامع لجميع معانى الكتب السماوية المتكفل بخيرى الدارين مع زيادات لا تحصى فيه أوجه أحدها أنه من عطف بعض الصفات على بعض أى الجامع بين هذين النعتين الثانى أنه من عطف العام على الخاص اذ المراد بالسبع اما الفاتحة واما الطوال فكأنه ذكر مرتين بجهة الخصوص ثم باندراجه فى العموم الثالث أن الواو مقحمة * ولما عرف سبحانه وتعالى رسوله عظيم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين وهو أنه آتاه سبعا من المثانى والقرآن العظيم نهاه عن الرغبة فى الدنيا بقوله تعالى (لا تمدن عينيك) أى لا تشغل سرك وخاطرك بالالتفات (الى ما متعنا به أزواجا منهم) أى أصنافا من الكفار والزوج فى اللغة الصنف وقد أوتيت القرآن العظيم الذى فيه غنى عن كل شئ قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه من أوتى القرآن فرأى أن أحدا أوتى فى الدنيا أفضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وتأول سفيان بن عيينة هذه الآية بقول النبى صلى الله

عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن أي لم يستغن وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما
تمدن عينيك أي لا تتمن ما فضلنا به أحدا من متاع الدنيا وقيل أتت من بعض البلاد سبع
قوافل ليهود قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجوهر وسائر الامتعة فقال المسلمون
لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في طاعة الله تعالى فقال الله تعالى لقد أعطيتكم
سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع وقرر الواحدي هذا المعنى فقال انما يكون ماذا
عينيه الى الشيء اذا أدام النظر نحوه وادامة النظر الى الشيء تدل على استحسانه وتمنيه وكان
النبي صلى الله عليه وسلم لا ينظر الى ما يستحسن من متاع الدنيا روي أنه نظر الى نعم بني المصطلق
وقد عبست في أبوالها وأبعارها وهو أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها اذا تركت من
العمل أيام الربيع فتكثر شحومها ولحومها وهي أحسن ما تكون وعن أبي هريرة رضي الله
تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى
من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم وقوله تعالى (ولا تحزن عليهم) نهى له عن
الالتفات اليهم ان لم يؤمنوا فيخلصوا أنفسهم من النار ولما نهاه سبحانه وتعالى عن الالتفات
الى أولئك الاغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين بقوله تعالى (واخفض جناحك)
أي ألن جانبك (للمؤمنين) أي الفريقين في هذا الوصف واصبر نفسك معهم وارفق بهم * ولما
أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالزهد في الدنيا والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ
ما أرسل به اليهم بقوله تعالى (وقل اني أنا النذير) من عذاب الله أن ينزل عليكم ان لم تؤمنوا
وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون (المبين) أي البين الانذار وقوله
تعالى (كما أنزلنا) أي العذاب (على المقتسمين) قال ابن عباس هم اليهود والنصارى سموا بذلك
لانهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به
وقال عكرمة انهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد هذه السورة لي وقال آخر هذه السورة لي
وانما فعلوا ذلك استهزاء به وقال مجاهد انهم اقتسموا كتبهم فآمن بعضهم ببعضها وكفر بعضهم
ببعضها وقال قتادة أراد بالمقتسمين كفار قريش قال سموا بذلك لان أقوالهم تقسمت في القرآن
فقال بعضهم انه سحر وزعم بعضهم أنه كهانة وزعم بعضهم أنه أساطير الاولين وقال ابن
السائب سموا بالمقتسمين لانهم اقتسموا طرق مكة وذلك أن الوليد بن المغيرة بعث رهطا من أهل
مكة قيل ستة عشر وقيل أربعين وقال انطلقوا وافترقوا على طرق مكة حيث يمر بكم أهل
الموسم فاذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم انه مجنون وليقل بعضكم انه كاهن وليقل بعضكم
انه ساحر وليقل بعضكم انه شاعر فذهبوا وقعدوا على طرق مكة يقولون ذلك لمن يمر بهم من حجاج
العرب وقعد الوليد بن المغيرة على باب المسجد الحرام نصبوه حكما فاذا جاؤا سألوا عما قال أولئك
فيقول صدقوا فأهلكهم الله تعالى يوم بدر وقوله تعالى (الذين جعلوا القرآن عضين) نعت
للمقتسمين وقال ابن عباس هم اليهود والنصارى جزؤا القرآن أجزاء فآمنوا بما وافق التوراة
والانجيل وكفروا بالباقي وقال مجاهد قسموا كتاب الله ففرقوه وبددوه وقيل كانوا يستهزؤن به

فيقول بعضهم سورة البقرة لى ويقول بعضهم سورة آل عمران لى وقيل اقتسموا القرآن فقال بعضهم سحر وقال بعضهم شعر وقال بعضهم كذب وقال بعضهم أساطير الاولين وقيل هم أهل الكتاب آمنوا ببعض كتبهم وكفروا ببعض على أن القرآن ما يقرؤنه من كتبهم فيكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم وقولهم سحر وشعر وأساطير الاولين بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم * (تنبيه) * عضين جمع عضة وهى الفرقة والعضين الفرق وتقدم معنى جعلهم القرآن كذلك وقيل العضة السحر بلغة قريش يقولون هو عاضه وهى عاضهة وفى الحديث لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضهة والمستعضهة أى الساحرة والمستسحرة وقيل هو من العضه وهو الكذب والبهتان يقال عضهه عضها وعضيهة أى رماه بالبهتان وقيل جمع عضو مأخوذ من قولهم عضيت الشئ أعضيه اذا فرقته وجعلته أجزاء وذلك أنهم جعلوا القرآن أعضاء مفرقة فقال بعضهم سحر وقال بعضهم أساطير الاولين ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه على أنه يسأل هؤلاء المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين بقوله تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) فيكون الضمير عائدا على المقتسمين لانه الاقرب ويحتمل أن يعود على جميع المكلفين لان ذكرهم تقدم فى قوله تعالى وقل انى أنا النذير المبين أى لجميع الخلق قال جماعة من المفسرين يسئلون عن لا اله الا الله وقال أبو العالية يسئلون عما كانوا يعبدون وما أجابوا به المرسلين (فان قيل) كيف الجمع بين قوله تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين وبين قوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان (أجيب) بأن النفى ينصرف الى بعض الاوقات والاثبات الى وقت آخر لان يوم القيامة يوم طويل وفيه مواقف يسئلون فى بعضها ولا يسئلون فى بعض آخر ونظيره قوله تعالى هذا يوم لا ينطقون وقال فى آية أخرى ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (فاصدع) أى اجهر بعلو وشدة فارقا بين الحق والباطل وقرأ حمزة والكسائى باشمام الصاد الساكنة قبل الدال والباقون بالصاد الخالصة (بما) أى بسبب ما (تؤمر) به أمر النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية باظهار الدعوة وروى عن عبد الله بن عبيدة قال كان مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه (وأعرض) أى اعراض من لا يبالى (عن المشركين) بالصفح الجميل عن الاذى والاجتهاد فى الدعاء ولا تلتفت الى لومهم اياك على اظهار الدعوة قال بعض المفسرين كالبغوى وهذا منسوخ بآية القتال قال الرازى وهو ضعيف لان معنى هذا الاعراض ترك المبالاة بهم فلا يكون منسوخا * ولما كان هذا الصدع فى غاية الشدة عليه صلى الله عليه وسلم لكثرة ما يلقى عليه من الاذى خفف عنه سبحانه وتعالى بقوله معللا له (انا) أى بما لنا من العظمة والقدرة (كفيناك المستهزئين) أى شر الذين هم عريقون فى الاستهزاء وهم خمسة نفر من رؤساء قريش الوليد بن المغيرة والعاصى بن وائل وعدى بن قيس والاسود ابن عبد المطلب والاسود بن عبد يغوث ووصف سبحانه وتعالى هؤلاء بقوله تعالى (الذين يجعلون مع الله الها آخر) وقيل ليس بصفة بل مبتدأ ولتضمنه معنى الشرط دخلت الفاء فى خبره

وهو (فسوف يعلمون) أى عاقبة أمرهم فى الدارين * ولما ذكر سبحانه وتعالى ان قومه يسفهون عليه ولاسيما أولئك المقتسمون قال له تعالى (ولقد نعلم) أى تحقق وقوع علمنا (انك) أى على مالك من الحلم وسعة البطان (يضيق صدرك) أى يوجد ضيقه و يتجدد (بما يقولون) أى من الاستهزاء والتكذيب بك و بالقرآن لان الجبلة البشرية والمزاج الانسانى يقتضى ذلك فعند هذا قال تعالى (فسبح) ملتبسا (بحمد ربك) أى نزهه عن صفات النقص وقال الضحاك قل سبحان الله و بحمده وقال ابن عباس فصل بأمر ربك (وكن من الساجدين) أى من المصلين روى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة وتقدمت معناه فى سورة البقرة * (تنبيه) * اختلف الناس كيف صار الاقبال على الطاعات سببا لزوال ضيق القلب والحزن فقال العارفون المحققون اذا اشتغل الانسان بهذه الانواع من العبادات يتنور باطنه و يشرق عليه و ينفسح و ينشرح صدره فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت اليها وقال بعض الحكماء اذا نزل بالانسان بعض المكاره ففزع الى الطاعات فكأنه يقول يارب يجب على عبادتك سواء أعطيتنى الخيرات أو ألقيتنى فى المكروهات فأنا عبدك بين يديك فافعل بى ماتشاء (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) قال ابن عباس يريد الموت وسمى الموت يقينا لانه أمر متيقن وهذا مثل قوله تعالى فى سورة مريم وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا وروى البغوى بسنده عن ابن جبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله الى أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى الى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (فان قيل) أى فائدة لهذا التوقيت مع أن كل أحد يعلم أنه اذا مات سقطت عنه العبادات (أجيب) بأن المراد منه واعبد ربك فى جميع زمان حياتك فلا تخل لحظة من لحظات الدنيا بهذه العبادات وعن عمر رضى الله عنه قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى هذا الذى نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراها أو قال شريت له بمائتى درهم فدعاه حب الله وحب رسوله الى ماترون وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحجر كان له من الاجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والانصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم حديث موضوع

(سورة النحل مكية)

الا قوله تعالى وان عاقبتم الى آخر السورة وحكى الاصم عن بعضهم أنها كلها مدنية وقال آخرون من أولها الى قوله كن فيكون مدنى وما سواه مكى وعن قتادة بالعكس وتسمى سورة النعم والمقصود من هذه السورة الدلالة على أنه تعالى تام القدرة والعلم فاعل بالاختيار منزه عن شوائب النقص وأدل مافيها على هذا المعنى أمر النحل لما ذكر من شأنها فى دقة الفهم فى ترتيب

بيوتها

بيوتها وزحيها وسائر أمرها من اختلاف ألوان ما يخرج منها من أعسالها وجعله شفاء مع أكلها من الثمار النافعة والضارة وغير ذلك من الامور ووسمها بالنعم واضح وهي مائة وثمانية وعشرون آية وألفان وثمانمائة وأربعون كلمة وعدد حروفها سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف (بسم الله) أي المحيط بدائرة الكمال فما شاء فعل (الرحمن) أي الذي عمت نعمته جليل خلقه وحقيره صغيره وكبيره (الرحيم) أي الذي خص من شاء بنعمته النجاة مما يسخطه بما يرضاه وقوله تعالى (أتى أمر الله) فيه وجهان أحدهما أنه ماض لفظا مستقبل معنى اذ المراد به يوم القيامة وانما برزه في صورة ما وقع وانقضى تحقيقا له واصدق المخبر به والثاني أنه على بابه والمراد مقدماته وأوائله وهو نصر رسوله صلى الله عليه وسلم أي جاء أمر الله ودنا وقرب فانه يقال في الكلام المعتاد انه قد أتى ووقع اجراء لما يجب وقوعه مجرى الواقع يقال لمن طلب الاعانة وقرب حصولها جاءك الغوث أي أتى أمر الله وعدا (فلا تستعجلوه) وقوعا قبل مجيئه فانه واقع لا محالة روى أنه صلى الله عليه وسلم قال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار باصبعيه السبابة والوسطى قال ابن عباس كان مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من اشراط الساعة * ولما مر جبريل بأهل السموات مبعوثا الى النبي صلى الله عليه وسلم قالوا الله أكبر قامت الساعة وروى أنه لما نزلت اقتربت الساعة قال الكفار بعضهم لبعض ان هذا أي محمدا صلى الله عليه وسلم يزعم أن القيامة قد اقتربت فأمسكوا عن بعض ما تقولون حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا ما نرى شيأ فنزل اقترب للناس حسابهم فاشفقوا وانتظروا فلما امتدت الايام قالوا يا محمد ما نرى شيأ مما تخوفنا به فنزل أتى أمر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزل فلا تستعجلوه فاطمأنوا فكان الكفار قالوا سلمنا لك يا محمد الا أنا نعبد هذه الاصنام لتشفع لنا عند الله تعالى فتخلصنا من هذا العذاب المحكوم به فأجابهم الله تعالى بقوله تعالى (سبحانه) أي تنزيها له (وتعالى عما يشركون) أي تبرأ سبحانه وتعالى بالاوصاف الحميدة عن أن يكون له شريك في ملكه وقرأ حمزة والكسائي أتى بالامالة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقرأ حمزة والكسائي عما تشركون في الموضعين بالتاء على وفق قوله فلا تستعجلوه والباقون بالياء على الغيبة على تلوين الخطاب أو على أن الخطاب للمؤمنين أولهم ولغيرهم * ولما أجاب سبحانه وتعالى الكفار عن شبهتهم بقوله تنزيها لنفسه عما يشركون وكان الكفار قالوا هب ان الله تعالى قضى على بعض عبيده بالشر وعلى آخرين بالخير ولكن كيف يمكنك أن تعرف هذه الامور التي لا يعلمها الا الله تعالى وكيف صرت بحيث تعرف أسرار الله تعالى وأحكامه في ملكه وملكوته فأجابهم الله تعالى بقوله (ينزل الملائكة) قال ابن عباس يريد بالملائكة جبريل وحده قال الواحدي يسمى الواحد بالجمع اذا كان ذلك الواحد رئيسا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الزاي والباقون بتشديدها والمراد (بالروح) الوحي أو القرآن فان القلوب تحيا به من موت الجهالات وقوله تعالى (من أمره) أي بارادته حال من الروح (على من يشاء من عباده) وهم الانبياء (أن أنذروا) أي خوفوا الكافرين بالعذاب وأعلموهم (أنه)

أى الشان (لا اله الا أنا) أى لا اله غيرى وقوله تعالى (فاتقون) أى خافونى رجوع الى مخاطبتهم بما هو المقصود *(تنبيه)* فى قوله تعالى ان أنذروا ثلاثة أوجه أحدها أنها المفسرة لان الوحى فيه ضرب من القول والانزال بالروح عبارة عن الوحى قال تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا الثانى أنها المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف الثالث أنها المصدرية التى من شأنها نصب المضارع ووصلت بالامر كقولهم كتبت اليه بأن قم والآية تدل على أن نزول الوحى بواسطة الملائكة وان النبوة عطاءة * ولما وحد سبحانه وتعالى نفسه ذكر الآيات الدالة على وحدانيته من حيث انها تدل على أنه تعالى هو الموجد لاصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة بقوله تعالى (خلق السموات) أى التى هى السقف المظل (والارض) أى التى هى البساط المقل (بالحق) أى أوجدهما على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصصها بحكمته (تعالى) أى تعالى فات الوصف (عما يشركون) به من الاصنام * ولما كان خلق السموات والارض غيبا التقدمه وكان خلق الانسان على هذه الصفة شهادة فتكون أقوى فى الدلالة على وحدانيته تعالى قال تعالى (خلق الانسان) أى هذا النوع (من نطفة) أى آدم عليه السلام من مطلق الماء ومن تفرع منه بعد زوجه حواء من ماء مقيد بالدفق الى أن صيره قويا شديدا (فاذا هو خصيم) أى شديد الخصومة (مبين) أى بينها روى أن أبى بن خلف الجمحى وكان ينكر البعث جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال تزعم يا محمد ان الله يحيى هذا العظم بعد ما قد رم فنزلت هذه الآية ونزل فيه أيضا قوله تعالى قال من يحيى العظام وهى رميم قال الخازن فى تفسيره والصحيح ان الآية عامة فى كل ما يقع فيه الخصومة فى الدنيا ويوم القيامة وحملها على العموم أولى ولما كان أشرف الاجسام الموجودة فى العالم السفلى بعد الانسان سائر الحيوانات وأشرفها الانعام ذكرها بقوله تعالى (والانعام) أى الازواج الثمانية الضأن والمعز والابل والبقر ونصبه بفعل يفسره (خلقها) قال الواحدى تم الكلام عند قوله والانعام خلقها ثم ابتدأ فقال (لكم فيها دفء) أى ما يدفأ به من اللباس والاكسية ونحوها المتخذة من الاصواف والاوبار والاشعار قال ويجوز أيضا أن يكون تمام الكلام عند قوله والانعام خلقها لكم ثم ابتدأ فقال تعالى فيها دفء قال الرازى قال صاحب النظم وأحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله تعالى خلقها والدليل عليه أنه عطف عليه ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال * ولما ذكر تعالى الانعام ذكر لها أنواعا من المنافع الاول قوله تعالى لكم فيها دفء النوع الثانى قوله تعالى (ومنافع) أى ولكم فيها منافع من نسلها ودرها وركوبها والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الانعام وانما عبر تعالى عن ذلك بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الاعم لان الدر والنسل قد ينتفع به فى الاكل وقد ينتفع به فى البيع بالنقود وقد ينتفع به بأن يبدل بالثياب وسائر الضروريات فعبر عن جملة هذه الاقسام بلفظ المنافع ليتناول الكل النوع الثالث قوله تعالى (ومنها تأكلون) فان قيل تقديم الظرف يفيد الحصر لان تقديم

الظرف موذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها (أجيب) بأن الاكل من هذه الانعام هو الذى يعتمده الناس فى معايشهم وأما الاكل من غيرها كالدجاج والبط والاوز وصيد البر والبحر فليس يعتمد به فى الاغلب وأكله يجرى مجرى التفكه به فخرج ومنها تأكلون مخرج الغالب فى الاكل من هذه الانعام (فان قيل) منفعة الاكل مقدمة على منفعة اللباس فلم قدمت منفعة اللباس عليه (أجيب) بأن منفعة اللباس أكثر من منفعة الاكل فلهذا قدمت على منفعة الاكل (ولكم فيها جمال) أى زينة (حين تريحون) أى تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشى (وحين تسرحون) أى تخرجونها بالغداة الى المرعى فان الافنية تتزين بها فى الوقتين ويجل أهلها فى أعين الناظرين اليها (فان قيل) لم قدمت الاراحة على التسريح (أجيب) بأن الجمال فى الاراحة أظهر اذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ثم أوت الى الحظائر حاضرة لاهلها فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها الى المرعى فانها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع ثم تأخذ فى التفرق والانتشار للمرعى فى البرية فليس فى التسريح تجمل كما فى الاراحة النوع الرابع قوله تعالى (وتحمل أثقالكم) جمع ثقل وهو متاع المسافر (الى بلد) أى غير بلدكم أردتم السفر اليه (لم تكونوا بالغيه) أى غير واصلين اليه على غير الابل (الا بشق الانفس) أى الا بكلفة ومشقة والشق بكسر الشين نصف الشئ أى لم تكونوا بالغيه الا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها وقال ابن عباس يريد من مكة الى اليمن والى الشأم والى مصر قال الواحدى والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير ابل شق عليكم وخص ابن عباس هذه البلاد لان متاجر أهل مكة كانت الى هذه البلاد (فان قيل) المراد من قوله تعالى والانعام خلقها لكم الابل فقط بدليل أنه وصفها الى آخر الآية بقوله وتحمل أثقالكم الى بلد وهذا الوصف لا يليق الا بالابل (أجيب) بأن المقصود من هذه الآيات تعديد منافع الانعام فبعض تلك المنافع حاصل فى الكل وبعضها مختص بالبعض والدليل عليه أن قوله ولكم فيها جمال حاصل فى البقر والغنم مثل حصوله فى الابل * (تنبيه) * احتج منكرو كرامات الاولياء بهذه الآية فانها تدل على أن الانسان لا يمكنه الانتقال من بلد الى بلد الا بشق الانفس وحمل الاثقال على الابل ومثبتو الكرامات يقولون ان الاولياء قد ينتقلون من بلد الى بلد آخر بعيد فى ليلة واحدة من غير تعب وتحمل مشقة وكان ذلك على خلاف هذه الآية فيكون باطلا واذا بطل القول بالكرامات فى هذه الصورة بطل القول بها فى سائر الصور اذ لا قائل بالفرق وأجاب المثبتون بأنا نخصص عموم هذه الآية بالادلة الدالة على وقوع الكرامات (ان ربكم) أى الموجد لكم والمحسن اليكم (لرؤف) أى بليغ الرحمة لمن يتوسل اليه بما يرضيه وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى بقصر الهمزة والباقون بالمد (رحيم) أى بليغ الرحمة بسبب وبغير سبب وقوله تعالى (والخيل) أى الصاهلة وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه كالابل والرهط (والبغال) أى المتولدة بينها وبين الحمير (والحمير) الناهقة عطف على الانعام أى وخلق هذه الحيوانات (لتركبوها) أى لاجل أن تركبوها وفى نصب قوله تعالى (وزينة) أوجه أحدها انه مفعول من أجله وانما وصل الفعل الى

الاول باللام فى قوله تعالى لتركبوها والى هذا بنفسه لاختلاف شرطه فى الاول وهو عدم اتحاد الفاعل فان الخالق هو الله تعالى والراكب المخاطبون بخلاف الثانى الثانى انها منصوبة على الحال وصاحب الحال اما مفعول خلقها واما مفعول لتركبوها فهو مصدر أقيم مقام الحال الثالث أن ينتصب بتقدير فعل قدره الزمخشرى بقوله وخلقها زينة وقدره ابن عطية وغيره بقولهم وجعلها زينة الرابع أنها مصدر لفعل محذوف أى وتتزينون بها زينة *(تنبيه)* احتج القائلون وهم ابن عباس والحاكم وأبو حنيفة ومالك بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية قالوا منفعة الأكل أعظم من منفعة الركوب فلو كان أكل لحم الخيل جائزا لكان هذا المعنى أولى بالذكر وحيث لم يذكره تعالى علمنا أنه يحرم أكله لان الله تعالى خص الانعام بالأكل حيث قال تعالى ومنها تأكلون وخص هذه بالركوب فقال لتركبوها فعلمنا أنها مخلوقة للركوب لا للأكل واحتج القائلون باباحة أكل اللحم من الخيل وهم سعيد بن جبير وعطاء وشريح والحسن والشافعى بما روى عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة وبما روى عن جابر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية وأذن فى الخيل وفى رواية أكلنا فى زمن خيبر الخيل وحمر الوحش ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الحمار الاهلى هذه رواية البخارى ومسلم وفى رواية أبى داود قال ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد أصابتنا مخمصة فنهانا النبى صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل وأجابوا عن هذه الآية بأن ذكر الركوب والزينة لا يدل على أن منفعتها مختصة بذلك وانما خص هاتين المنفعتين بالذكر لانهما معظم المقصود ولهذا سكت عن حمل الاثقال على الخيل مع قوله تعالى فى الانعام وتحمل أثقالكم ولم يلزم من ذلك تحريم الاثقال على الخيل وقال الواحدى لو دلت هذه الآية على تحريم أكل هذا الحيوان لكان تحريم أكلها معلوما فى مكة لاجل أن هذه السورة مكية ولو كان الامر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين ان لحوم الحمر الاهلية حرمت عام خيبر أى وذلك فى المدينة باطلا لان التحريم لما كان حاصلا قبل هذا اليوم لم يكن لتخصيص هذا التحريم بهذه السنة فائدة قال الرازى وهذا جواب حسن متين وقال ابن الخازن والدليل الصحيح المعتمد عليه فى اباحة لحوم الخيل ان السنة مبينة للكتاب * ولما كان نص الآية يقتضى أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الأكل مسكوتا عنه ودار الامر فيه على الاباحة والتحريم فوردت السنة باباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير أخذنا به جمعا بين النصين * ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الانواع من الحيوان ذكر باقيها على سبيل الاجمال بقوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) وذلك لان أنواعها وأصنافها وأقسامها كثيرة خارجة عن الحد والاحصاء ولو خاض الانسان فى شرح عجائب أحوالها لكان المذكور بعد كتبه المجلدات الكثيرة كالقطرة فى البحر فكان أحسن الاحوال ذكرها على سبيل الاجمال كما ذكر الله تعالى فى هذه الآية وروى عطاء

ومقاتل

ومقاتل والضحاك عن ابن عباس أنه قال ان عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار السبعة يدخل فيه جبريل كل يوم و يغتسل فيزداد نورا الى نوره وجمالا الى جماله ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل نفضة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل كل يوم منهم سبعون ألفا البيت المعمور وفى الكعبة أيضا سبعون ألفا لا يعودون اليه الى أن تقوم الساعة سبحان من له هذا الملك العظيم قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وفسر قتادة الآية بالسوس فى النبات والدود فى الفواكه وفسرها بعضهم بما أعد الله تعالى لاهل الجنة فى الجنة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر * ولما شرح الله تعالى دلائل التوحيد قال تعالى (وعلى الله) أى الذى له الاحاطة بكل شئ (قصد السبيل) أى بيان الطريق المستقيم انما ذكرت هذه الدلائل وشرحها ازاحة للعذر وازالة للعلة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة والمراد بالسبيل الجنس ولذلك أضاف اليها القصد وقال (ومنها) أى السبيل (جائر) أى حائد عن الاستقامة (فان قيل) هذه الآية تدل على أن الله تعالى يجب عليه الارشاد والهداية الى الدين وازاحة العلل والاعذار كما قال به المعتزلة لانه تعالى قال وعلى الله قصد السبيل وكلمة على للوجوب قال تعالى ولله على الناس حج البيت (أجيب) بأن المراد على الله تعالى بحسب الفضل والكرم أن يبين الدين الحق والمذهب الصحيح (فان قيل) لم غير أسلوب الكلام حيث قال فى الاول وعلى الله قصد السبيل وفى الثانى ومنها جائر دون وعليه جائر (أجيب) بأن المقصود بيان سبيله وتقسيم السبيل الى القصد والجائر انما جاء بالعرض ثم قال تعالى (ولو شاء) هدايتكم (لهداكم) الى قصد السبيل (أجمعين) فتهتدون اليه باختيار منكم قال الرازى وهذا يدل على أن الله تعالى ما شاء هداية الكفار وما أراد منهم الايمان لان كلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره * ولما ذكر تعالى نعمه على عباده بخلق الحيوانات لاجل الانتفاع والزينة عقبه بذكر انزال المطر لانه من أعظم النعم على عباده فقال (هو) أى لا غيره مما تدعى فيه الالهية (الذى أنزل) أى بقدرته الباهرة (من السماء) اما من نفسها أو من غيرها أو من جهتها أو من السحاب كما هو مشاهد (ماء) أى واحدا تحسونه بالذوق والبصر (لكم منه) أى من ذلك الماء (شراب) أى تشربونه وقد بين تعالى فى آية أخرى ان هذه النعمة جليلة فقال وجعلنا من الماء كل شئ حى (فان قيل) ظاهر هذا ان شرابنا ليس الا من المطر (أجيب) بأنه تعالى لم ينف أن يشرب من غيره وبتقدير الحصر لا يمتنع أن يكون الماء العذب تحت الارض من جملة ماء المطر سكن هناك بدليل قوله فى سورة المؤمنون وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الارض (ومنه) أى من الماء (شجر) أى ينبت بسببه والشجر هنا كل نبات من الارض حتى الكلأ وفى الحديث لا تأكلوا ثمن الشجر فانه سحت يعنى الكلأ (فان قيل) قال المفسرون فى قوله تعالى والنجم والشجر يسجدان المراد من النجم ما ينجم من الارض مما ليس له ساق ومن الشجر ما له ساق (أجيب) بأن عطف الجنس على النوع وبالضد مشهور وأيضا فلفظ الشجر يشعر بالاختلاط يقال تشاجر القوم اذا اختلط

أصوات بعضهم ببعض وتشاجرت الرياح اذا اختلطت وقال تعالى حتى يحكموك فيما شجر بينهم ومعنى الاختلاط حاصل فى العشب والكلا فوجب اطلاق لفظ الشجر عليه ويصح أن يكون المراد بالشجر هنا ماله ساق لان الابل تقدر على رعى ورق الاشجار الكبار وحينئذ فاطلاق الشجر على الكلا مجاز (فيه) أى الشجر (تسيمون) أى ترعون مواشيكم يقال أسمت الماشية اذا خليتها ترعى وسامت هى اذا رعت حيث شاءت قال الزجاج أخذ ذلك من السومة وهى العلامة لانها تؤثر فى الارض برعيها علامات وقال غيره لانها تعلم للارسال فى المرعى * ولما ذكر تعالى الحيوانات تفصيلا واجمالا ذكر الثمار تفصيلا واجمالا بقوله تعالى (ينبت) أى الله (لكم به) أى بذلك الماء (الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات) فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذى يقتات به كالحنطة والشعير والارز لان به قوام البدن وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الادم والدهن وبارك الله فيه وثلث بذكر النخيل لان ثمرها غذاء وفاكهة وختم بذكر الاعناب لانه شبيه النخيل فى المنفعة من التفكه والتغذية ثم ذكر تعالى سائر الثمار اجمالا لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده لان الحبة الواحدة تقع فى الطين فاذا مضى عليها مقدار معين من الوقت نفذ فى داخل تلك الحبة أجزاء من رطوبة الارض ونداوتها فتنفتح الحبة فينشق أعلاها وأسفلها فيخرج من أعلى تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الارض الى الهواء ومن أسفلها شجرة أخرى غائصة فى قعر الارض وهذه الغائصة هى المسماة بعروق الشجرة ثم ان تلك الشجرة لا تزال تزداد وتنمو وتقوى ثم تخرج منها الاوراق والازهار والاكمام والثمار ثم ان تلك الثمرة تشتمل على أجسام مختلفة الطبائع مثل العنب فان قشره وعجمه باردان يابسان كثيفان ولحمه وماؤه حاران رطبان لطيفان والى ذلك الاشارة بقوله تعالى (ان فى ذلك لآية) بينة على أن فاعل ذلك تام القدرة يقدر على الاعادة وانه مختار يفعل ذلك فى الوقت الذى يريده وانما تحصل معرفة ذلك (لقوم يتفكرون) فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته فيؤمنون * ثم ذكر سبحانه وتعالى أشياء تدل على أنه الفاعل المختار بقوله تعالى (وسخر لكم) أى أيها الناس لاصلاح أحوالكم (الليل) للسكنى (والنهار) للمعاش ثم ذكر آية النهار فقال (والشمس) أى للمنافع اختصاصها ثم آية الليل فقال (والقمر) لامور علقها به (والنجوم) أى الآيات نصبها لها * ثم نبه على تغيرها بقوله تعالى (مسخرات) أى بأنواع التغير لما خلقها له على أوضاع دبرها (بأمره) أى بارادته سببا لصلاحكم وصلاح ما به قوامكم دلالة على وحدانيته تعالى وفعله بالاختيار ولو شاء تعالى لاقام أسبابا غيرها أو أغنى عن الاسباب وقرأ ابن عامر برفع الاربع وهى الشمس والقمر والنجوم ومسخرات على الابتداء والخبر ووافقه حفص فى الاثنين الاخيرين والنجوم مسخرات لاغير والباقون بالنصب عطفا على ما قبله فى الثلاثة الاول وفى الرابع وهو مسخرات على الحال * ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الاشياء وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم ذلك بقوله (ان فى ذلك) أى التسخير العظيم (لآيات) أى دلالات متعددة كثيرة عظيمة

(لقوم يعقلون) أي يتدبرون فيعلمون أن جميع الخلق تحت قدره وقدرته وتسخيره لما أراده منهم وقوله تعالى (وماذرأ) أي خلق (لكم في الارض) عطف على الليل أي وسخر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات وقيل انه في موضع نصب بفعل محذوف أي وخلق هكذا قدره أبو البقاء وكأنه استبعد تسلط سخر على ذلك فقدر فعلا لائقا وقوله تعالى (مختلفا) حال منه وقوله تعالى (ألوانه) أي في الخلقة والهيئة والكيفية فاعل به (ان في ذلك لآية لقوم يذكرون) أي يتعظون * (تنبيه) * ختم تعالى الآية الاولى بالتفكر لان ما فيها يحتاج الى تأمل ونظر وختم الثانية بالعقل لان مدار ما تقدم عليه وختم الثالثة بالتذكر لانه نتيجة ما تقدم وجمع الآيات في الثانية دون الاولى والثالثة لان ما نيط بها أكثر ولذلك ذكر معها العقل * ولما استدل سبحانه وتعالى على اثبات الاله أولا باجرام السموات والارض وثانيا ببدن الانسان وثالثا بعجائب خلقة الحيوان ورابعا بعجائب النبات ذكر خامسا عجائب العناصر وبدأ بالاستدلال بعنصر الماء بقوله تعالى (وهو) أي لا غيره وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بضمها (الذي سخر البحر) أي ذلله وهيأه لعيش ما فيه من الحيوان وتكون الجواهر وغير ذلك قال علماء الهيئة ثلاثة ارباع كرة الارض غائصة في الماء وذلك هو البحر المحيط وجعل في هذا الربع المسكون سبعة أبحر قال تعالى والبحر يمده من بعده سبعة أبحر والبحر الذي سخره الله تعالى للناس هو هذه البحار وتسخيرها للخلق ما مر ومنه جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها بالركوب وبالغوص وبغير ذلك فمنافع البحار كثيرة وذكر سبحانه وتعالى منها هنا ثلاثة منافع الاولى قوله تعالى (لتأكلوا منه) أي بالاصطياد وغيره من لحوم الاسماك (لحما طريا) لا تجد أنعم منه ولا ألين وهو أرطب اللحوم فيسرع اليه الفساد فيبادر الى أكله عذبا ففي ذلك دلالة على كمال قدرته تعالى وذلك أن السمك لو كان كله مالحا لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري لانه لما اخرج من البحر الملح اللحم الطري في غاية العذوبة علم انه بخلق الله وقدرته لا بحسب الطبع وعلم بذلك ان الله تعالى قادر على اخراج الضد من الضد المنفعة الثانية قوله تعالى (وتستخرجوا منه) أي بجهدكم في الغوص وما يتبعه (حلية) أي اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (تلبسونها) أي نساؤكم وهن بعضكم فكان اللابس أنتم ولان زينة النساء بالحلي انما هو لاجل الرجال فكان ذلك زينة لهم المنفعة الثالثة قوله تعالى (وترى الفلك) أي السفن (مواخر) أي تمخر الماء أي تشقه بجريها (فيه) أي مقبلة ومدبرة وذلك انك ترى سفينتين احداهما تقبل والاخرى تدبر بريح واحدة وقال مجاهد تمخر الريح السفن يعني أنها اذا جرت يسمع لها صوت وقال الحسن مواخر يعني مملوأة متاعا وقوله تعالى (ولتبتغوا) أي لتطلبوا عطف على تأكلوا وما بينهما اعتراض وقيل عطف على محذوف تقديره لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا (من فضله) أي من سعة رزقه بركوبها للتجارة والوصول الى البلدان الشاسعة (ولعلكم تشكرون) الله على هذه النعم التي أنتم عاجزون عنها لولا تسخيره ثم انه تعالى ذكر بعض النعم التي خلقها الله تعالى في الارض بقوله تعالى (وألقى

في الارض رواسي) أي جبالا ثوابت (أن تميد) أي كراهة أن تميل وتضطرب (بكم) وقيل لئلا تميل بكم والاول قدره البصريون والثاني قدره الكوفيون وقد تقدم مثل ذلك في قوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا روى أن الله تعالى خلق الارض فجعلت تمور فقالت الملائكة ماهي بمقر أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت وقوله تعالى (وأنهارا) عطف على رواسي لان الالقاء بمعنى الخلق والجعل ألا ترى أنه تعالى قال في آية أخرى وجعل فيها رواسي من فوقها وقال تعالى وألقيت عليك محبة مني وذكر تعالى الانهار بعد الجبال لان معظم عيون الانهار وأصولها تكون من الجبال (و) جعل لكم فيها (سبلا) أي طرقا مختلفة تسلكون فيها في أسفاركم والتردد في حوائجكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان (لعلكم تهتدون) أي بتلك السبل الى مقاصدكم والى معرفة الله تعالى فلا تضلون (و) جعل لكم فيها (علامات) أي من الجبال وغيرها جمع علامة تهتدون بها في أسفاركم * ولما كانت الدلالة بالنجم أنفع الدلالات وأوضحها برا وبحرا ليلا ونهارا نبه على عظمها بالالتفات الى مقام الغيبة لافهام العموم لئلا يظن أن الخطاب مخصوص والامر لا يتعداه فقال تعالى (وبالنجم) أي الجنس (هم) أي أهل الارض كلهم وأولى الناس بذلك المخاطبون وهم قريش ثم العرب كلها لفرط معرفتهم بالنجوم (يهتدون) وقدم الجار تنبيها على أن الدلالة بغيره بالنسبة اليه سافلة وقيل المراد بالنجم الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي وقيل الضمير لقريش لانهم كانوا كثيري الاسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء في مسايرهم بالنجوم * ولما ذكر سبحانه وتعالى من عجائب قدرته وبديع خلقه ما ذكر على الترتيب الاحسن والنظم الاكمل وكانت هذه الاشياء المخلوقة المذكورة في الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة الله ووحدانيته وأنه تعالى المنفرد بخلقها جميعها قال على سبيل الانكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة هذه الاصنام العاجزة التي لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شئ (أفمن يخلق) أي هذه الاشياء الموجودة وغيرها (كمن لا يخلق) شيأ من ذلك بل على ايجاد شئ ما فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادة من لا يستحق العبادة وترك عبادة من يستحقها وهو الله تعالى (فان قيل) ذلك الزام للذين عبدوا الاوثان وسموها آلهة تشبيها بالله فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق فكان حق الالزام أن يقال أفمن لا يخلق كمن يخلق (أجيب) بأنهم لما جعلوا غير الله مثل الله تعالى في تسميته باسمه والعبادة له وسووا بينه وبينه فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيها بها فأنكر عليهم ذلك بقوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق (فان قيل) من لا يخلق ان أريد به جميع ما عبد من دون الله كان ورود من واضحا لان العاقل يغلب على غيره فيعبر عن الجميع بمن ولو جيء أيضا بما لجاز وان أريد به الاصنام فلم جيء بمن الذي هو لاولي العلم (أجيب) بأنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولي العلم ألا ترى الى قوله تعالى على اثره والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيأ وهم يخلقون والى قول الشاعر

بكيت الى سرب القطا اذ مررن بي * فقلت ومثلي بالبكاء جدير

أسرب القطا هل من يعير جناحه * لعلي الى من قد هويت أطير
وكل قطاة لا تعير جناحها * تعيش بذل والجناح قصير

فأوقع من على سرب لما عامله معاملة العقلاء وقيل للمشاكلة بينه وبين من يخلق وقيل لمعنى ان من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم فكيف بما لا علم عنده كقوله تعالى ألهم أرجل يمشون بها يعني أن الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب لان هؤلاء أحياء وهم أموات فكيف تصح لهم العبادة الا انها لو صحت لهم هذه الاعضاء لصح أن يعبدوا * ولما كان هذا القدر ظاهرا غير خاف على أحد فلا يحتاج فيه الى تدقيق الفكر والنظر بل مجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل ختم تعالى ذلك بقوله تعالى (أفلا تذكرون) بما تشاهدونه من ذلك ولو من بعض الوجوه فتؤمنون * (تنبيه) * احتج أهل السنة بهذه الآية على أن العبد غير خالق لافعال نفسه لانه تعالى ميز نفسه عن الاشياء التي يعبدونها بصفة الخالقية لان الغرض من قوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق بيان تميزه عن هذه الاشياء بصفة الخالقية وانه انما استحق الالهية والعبودية لكونه تعالى خالقا وهذا يقتضي ان العبد لو كان خالقا لشيء لوجب كونه الها معبودا ولما كان ذلك باطلا علمنا ان العبد لا يقدر على الخلق والايجاد ولما كانت المقدورات لا تحصى وأكثرها نعم على العباد مذكرة لهم بخالقهم قال ممتنا عليهم باحسانه من غير سبب منهم (وان تعدوا) كلكم (نعمت الله) أي انعام الملك الاعظم الذي لا رب غيره عليكم من صحة البدن وعافية الجسم واعطاء النظر الصحيح والعقل السليم وبطش اليدين ومشي الرجلين الى غير ذلك مما أنعم به عليكم وما خلق لكم مما تحتاجون اليه من أمر الدنيا حتى لو رام أحدكم معرفة أدنى نعمة من هذه النعم لعجز عنها وعن معرفتها وحصرها فان تتبعها يفوت الحصر (لا تحصوها) أي لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم مع كثرتها واعراضكم جملة عن شكرها والعبد وان أتعب نفسه في القيام بالطاعات والعبادات وبالغ في شكر نعم الله تعالى فانه يكون مقصرا لان نعم الله كثيرة وأقسامها عظيمة وعقل الخلق قاصر عن الاحاطة بمباديها فضلا عن غاياتها لكن الطريق الى ذلك أن يشكر الله تعالى على جميع نعمه مفصلها ومجملها (ان الله لغفور) أي لتقصيركم في القيام بشكرها يعني النعمة كما يجب عليكم (رحيم) بكم فوسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصي وقوله تعالى (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) فيه وجهان الاول ان الكفار مع كفرهم كانوا يسرون أشياء وهو ما كانوا يمكرون بالنبي صلى الله عليه وسلم وما يعلنون أي وما يظهرون من أذاه صلى الله عليه وسلم فأخبر الله تعالى بأنه عالم بكل أحوالهم سرها وعلانيتها لا يخفى عليه خافية وان دقت وخفيت والوجه الثاني أنه تعالى لما ذكر الاصنام وذكر عجزها في الآية المتقدمة ذكر في هذه الآية أن الاله الذي يستحق العبادة يجب أن يكون عالما بكل المعلومات سرها وجهرها وهذه الاصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة * ثم وصف تعالى هذه الاصنام بصفات الاولى مذكورة في قوله تعالى (والذين تدعون) أي تعبدون (من دون الله) أي الاصنام وتعتقدون

انها آلهة وقرأ عاصم بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (لا يخلقون شيأ وهم يخلقون) أي يصورون من الحجارة وغيرها (فان قيل) قوله تعالى في الآية المتقدمة أفمن يخلق كمن لا يخلق يدل على أن هذه الاصنام لا تخلق شيأ وهم يخلقون وهذا هو المعنى المذكور في تلك الآية المذكورة فما فائدة هذا التكرار (أجيب) بأن فائدته أن المعنى المذكور في الآية المتقدمة أنهم لا يخلقون شيأ فقط والمذكور في هذه الآية أنهم لا يخلقون شيأ وهم يخلقون كغيرهم فكان هذا زيادة في المعنى وهو فائدة التكرار فكأنه تعالى بدأ بشرح نقصهم في ذواتهم وصفاتهم فبين أولا أنها لا تخلق شيأ ثم بين ثانيا أنها كما لا تخلق غيرها فهي مخلوقة كغيرها الصفة الثانية قوله تعالى (أموات) أي جمادات لا روح لها (غير أحياء) اذ الاله الذي يستحق أن يعبد هو الحي الذي لا يموت (فان قيل) علم من قوله أموات أنها غير أحياء فما الفائدة في ذكره (أجيب) بأن من الاموات ما يعقب موته حياة كالنطف التي ينشئها الله تعالى حيوانا وأجساد الحيوانات التي تبعث بعد موتها وأما الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة وذلك أعرق في موتها وقيل ذكر للتأكيد لان الكلام مع الكفار الذين يعبدون الاوثان وهم في نهاية الجهالة والضلالة ومن تكلم مع الجاهل الغبي فقد يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة وغرضه الاعلام بكون المخاطب في غاية الغباوة في أنه لا يفهم المعنى المقصود بالعبارة الواحدة الصفة الثالثة قوله تعالى (وما يشعرون) أي الاصنام (أيان) أي وقت (يبعثون) أي وما تعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الاحياء تهكما بحالها لان شعور الجماد محال فكيف بشعور ما لا يعلمه حي الا الحي القيوم سبحانه وتعالى وقيل الضمير راجع للاصنام قال ابن عباس ان الله تعالى يبعث الاصنام لها أرواح ومعها شياطينها فيؤمر بالكل الى النار وقيل المراد بقوله تعالى والذين تدعون من دون الله الملائكة وكان ناس من الكفار يعبدونهم فقال الله تعالى انهم أموات أي لا بد لهم من الموت غير أحياء أي باقية حياتهم وما يشعرون أي لا علم لهم بوقت بعثهم * ولما زيف سبحانه وتعالى طريقة عبدة الاصنام وبين فساد مذهبهم قال تعالى (آلهكم) أي أيها الخلق جميعا المعبود بحق (اله) أي متصف بالالهية على الاطلاق بالنسبة الى كل أوان وكل زمان وكل مكان (واحد) لا يقبل التعدد الذي هو مثال النقص بوجه من الوجوه لان التعدد يستلزم امكان التمانع المستلزم للعجز المستلزم للبعد عن رتبة الالهية (فالذين) أي فتسبب عن هذا أن الذين (لا يؤمنون بالآخرة) أي دار الجزاء ومحل اظهار الحكم الذي هو ثمرة الملك والعدل الذي هو مدار العظمة (قلوبهم منكرة) أي جاحدة للوحدانية (وهم) أي والحال أنهم بسبب انكار ذلك (مستكبرون) أي متكبرون عن الايمان بها (لا جرم) أي حقا (ان الله يعلم) علما غيبيا وشاهديا (ما يسرون) أي ما يخفون مطلقا أو بالنسبة الى بعض الناس (وما يعلنون) أي يظهرون فيجازيهم بذلك * ولما كان في ذلك معنى التهديد علل ذلك بقوله تعالى (انه) أي العالم بالسر والعلن (لا يحب المستكبرين) أي على خلقه فما بالك بالمستكبرين على التوحيد واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى عدم محبتهم انه يعاقبهم

وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل يارسول الله ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا قال ان الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمص الناس ومعنى بطر الحق أنه يستكبر عند سماع الحق فلا يقبله ومعنى غمص الناس استنقاصهم وازدراؤهم * ولما بالغ سبحانه وتعالى فى دلائل التوحيد وأورد الدلائل القاهرة فى ابطال مذاهب عبدة الاصنام قال تعالى عاطفا على قلوبهم منكرة (واذا قيل لهم) أى لهؤلاء الذين لايؤمنون بالآخرة وقوله تعالى (ما) استفهامية و(ذا) موصولة أى ما الذى (أنزل ربكم) على محمد صلى الله عليه وسلم واختلف فى قائل هذا القول فقيل كلام بعضهم لبعض وقيل قول المسلمين لهم وقيل قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سألهم وفود الحاج عما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم (قالوا) مكابرين فى انزال القرآن هو (أساطير) أى أكاذيب (الاولين) مع عجزهم بعد تحديهم عن معارضتهم أقصر سورة منه مع علمهم بأنهم أفصح الناس وأنه لايكون من أحد من الناس متقدم أو متأخر قول الا قالوا أبلغ منه (فان قيل) هذا كلام متناقض لانه لايكون منزلا من ربهم وأساطير (أجيب) بأنهم قالوه على سبيل السخرية كقوله ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون واللام فى قوله تعالى (ليحملوا) لام العاقبة كما فى قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وذلك لما وصفوا القرآن بكونه أساطير الاولين كان عاقبتهم بذلك أن يحملوا (أوزارهم) أى ذنوب أنفسهم وانما قال تعالى (كاملة) لئلا يتوهم أنه يكفر عنهم شئ بسبب البلايا التى أصابتهم فى الدنيا وأعمال البر التى عملوها فى الدنيا بل يعاقبون بكل أوزارهم (يوم القيامة) الذى لاشك فيه ولا محيص عن اتيانه قال الرازى وهذا يدل على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا فى حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة (و) يحملوا أيضا (من) جنس (أوزار) الجهلة الضعفاء (الذين يضلونهم) وقوله تعالى (بغير علم) حال من مفعول يضلونهم أى يضلون من يعلم أنهم ضلال أو من الفاعل وانما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وان لم يعلم لانه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين الحق والمبطل وانما حصل للرؤساء الذين أضلوا غيرهم وصدوهم عن الايمان مثل أوزار الاتباع لانهم دعوهم الى الضلال فاتبعوهم فاشتركوا فى الاثم وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيأ ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيأ أخرجه مسلم ومعنى الآية والحديث أن الرئيس والكبير اذا سن سنة حسنة أو سيئة قبيحة فتبعه عليها جماعة فعملوا بها فان الله تعالى يعظم ثوابه وعقابه حتى يكون ذلك الثواب والعقاب مساويا لكل مايستحقه كل واحد من الاتباع الذين عملوا بالسنة الحسنة أو القبيحة وليس المراد بأن الله يوصل جميع الثواب أو العقاب الذى يستحقه

الاتباع الى الرؤساء ويدل لذلك قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى وقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى *(تنبيه)* قال الواحدى لفظة من فى قوله تعالى ومن أوزار ليست للتبعيض لانها لو كانت كذلك لنقص عن الاتباع بعض الاوزار وقد قال صلى الله عليه وسلم لا ينقص ذلك من آثامهم شيأ لكنها للجنس كما قدرت ذلك فى الآية الكريمة أى ليحملوا من جنس أوزار الاتباع وقيل انها للتبعيض وجرى عليه البيضاوى تبعا للزمخشرى (ألا ساء) أى بئس (ما يزرون) أى يحملون حملهم هذا وفى هذا وعيد وتهديد لهم (فان قيل) ان الله تعالى حكى هذه الشبهة عن القوم ولم يجب عنها بل اقتصر على محض الوعيد فما السبب فى ذلك (أجيب) بأن السبب فيه أنه تعالى بين كون القرآن معجزا بطريقين الاول أنه صلى الله عليه وسلم تحداهم أولا بكل القرآن وثانيا بعشر سور وثالثا بسورة فعجزوا عن المعارضة وذلك يدل على كونه معجزا الثانى أنه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها فى آية أخرى وهى قوله تعالى اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا وأبطلها بقوله تعالى قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض ومعناه أن القرآن يشتمل على الاخبار بالغيوب وذلك لا يتأتى الا ممن يكون عالما بأسرار السموات والارض *ولما ثبت كون القرآن معجزا بهذين الطريقين وتكرر شرح هذين الطريقين مرارا كثيرة لا جرم اقتصر فى هذه الآية على مجرد الوعيد ولم يذكر ما يجرى مجرى الجواب عن هذه الشبهة ثم انه سبحانه وتعالى بالغ فى وصف وعيد هؤلاء الكفار بقوله تعالى (قد مكر الذين من قبلهم) أى ممن رأوا آثارهم ودخلوا فى ديارهم (فأتى الله) أى أمره (بنيانهم من القواعد) أى من جهة العمد التى بنوا عليها مكرهم (فخر) أى سقط (عليهم السقف من فوقهم) وصار سبب هلاكهم وقرأ أبو عمرو فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم وأما الوقف فحمزة بضم الهاء على أصله والباقون بالكسر (وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) أى من جهة لا تخطر ببالهم وهذا على سبيل التمثيل أى التشبيه والتخييل لافساد ما أبرموه من المكر بالرسل فجعل الله هلاكهم فيما أبرموه كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فأتى البنيان من الاساطين بأن تضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا ونحوه من حفر لاخيه جبا وقع فيه منكبا وقيل هو نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح ببابل ليصعد الى السماء قال ابن عباس كان طول الصرح فى السماء خمسة آلاف ذراع وقال كعب كان طوله فرسخين فأهب الله تعالى الريح فألقت رأسه فى البحر وخر عليهم الباقى وهم تحته قال البغوى ولما سقط الصرح تبلبلت ألسن الناس يومئذ من الفزع فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية فذلك قوله تعالى فأتى الله بنيانهم من القواعد أى أتى أمره بخرب بنيانهم من أصلها فخر عليه وعلى قومه السقف أى أعلى البيوت من فوقهم فهلكوا *(تنبيه)* قال ابن الخازن فى قول البغوى وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية نظر لان صالحا عليه السلام كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية وكان أهل اليمن عربا منهم جرهم الذين نشأ اسمعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكان ببابل من العرب طائفة

قديمة قبل ابراهيم عليه السلام انتهى وقد يقال انه كان لسان أكثر الناس بالسريانية فلا ينافي ذلك (فان قيل) ما فائدة قوله تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم والسقف من فوقهم (أجيب) بأنهم قد لا يكونون تحته فلما قال تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم دل على انهم كانوا تحته وحينئذ يفيد هذا الكلام بأن الابنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها * ولما ذكر الله تعالى حال أصحاب المكر في الدنيا ذكر حالهم في الآخرة بقوله عز وجل (ثم يوم القيامة يخزيهم) أي يذلهم ويهينهم بعذاب النار (ويقول) لهم الله تعالى على لسان الملائكة توبيخا (أين شركائي) أي في زعمكم واعتقادكم (الذين كنتم تشاقون) أي تخالفون المؤمنين (فيهم) أي في شأنهم وقرأ نافع بكسر النون والباقون بفتحها (قال) أي يقول (الذين أوتوا العلم) أي من الانبياء والمؤمنين وقال ابن عباس يريد الملائكة (ان الخزى) أي البلاء المذل (اليوم) أي يوم الفصل الذي يكون للفائز فيه العاقبة المأمونة (والسوء) أي كل ما يسوء (على الكافرين) أي الغريقين في الكفر الذين تكبروا في غير موضع التكبر وفائدة قولهم اظهار الشماتة وزيادة الاهانة وحكايته لتكون لطفا لمن سمعه *(تنبيه)* في الآية دلالة على ان ماهية الخزى وماهية السوء في يوم القيامة مختصة بالكافرين وهذا ينفي حصول هذه الماهية في حق غيرهم ويؤكد هذا قول موسى عليه السلام انا قد اوحي الينا أن العذاب على من كذب وتولى ثم انه تعالى وصف عذاب هؤلاء الكافرين من وجه آخر فقال سبحانه وتعالى (الذين تتوفاهم الملائكة) أي يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه عليهم السلام وقرأ حمزة في هذه الآية وفي الآية بالياء في الموضعين على التذكير لان الملائكة ذكور والباقون بالتاء على التأنيث لان لفظ الجمع مؤنث (ظالمي أنفسهم) أي بأن عرضوها للعذاب المخلد بكفرهم (فألقوا السلم) أي استسلموا وانقادوا حين عاينوا الموت قائلين (ما كنا نعمل من سوء) أي شرك وعدوان فتقول لهم الملائكة (بلى) أي بل كنتم تعملون أعظم السوء ثم علل تكذيبهم بقوله تعالى (ان الله عليم بما كنتم تعملون) أي فلا فائدة لكم في انكاركم فيجازيكم به * ولما كان هذا الفعل مع العلم سببا لدخول جهنم قال تعالى (فادخلوا) أي أيها الكفرة (أبواب جهنم) أي أبواب طبقاتها ودركاتها (خالدين) أي مقدرين الخلود (فيها) أي جهنم لا يخرجون منها وانما قال تعالى ذلك لهم ليكون أعظم في الخزى والغم وفي ذلك دليل على أن الكفار بعضهم أشد عذابا من بعض ثم قال تعالى (فلبئس مثوى) أي مأوى (المتكبرين) عن قبول التوحيد وسائر ما أتت به الرسل * ولما بين تعالى أحوال المكذبين ذكر أحوال المصدقين بقوله تعالى (وقيل للذين اتقوا) أي خافوا عقاب الله (ماذا) أي أي شئ (أنزل ربكم قالوا خيرا) أي أنزل خيرا وذلك ان احياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم فاذا جاء سأل الذين قعدوا على الطرق عنه فيقولون ساحر شاعر كاهن كذاب مجنون ولو لم تلقه خير لك فيقول السائل أنا شر وافد ان رجعت الى قومي دون أن أدخل مكة وألقاه فيدخل مكة فيرى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيخبرونه بصدقه وانه نبي مبعوث

من الله تعالى نذلك قوله تعالى وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم الآية (فان قيل) لم رفع الاول وهو قولهم أساطير الاولين ونصب الثانى وهو قولهم خيرا (أجيب) بأنه ذكر ذلك للفصل بين جواب المقر وجواب الجاحد وذلك أنهم لما سألوا الكفار عن المنزل على النبى صلى الله عليه وسلم عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا أساطير الاولين وليس هو من الانزال فى شئ لانهم لم يعتقدوا كونه منزلا ولما سألوا المؤمنين عن المنزل على النبى صلى الله عليه وسلم لم يتلعثموا وطابقوا الجواب عن السؤال بينا مكشوفا مفعولا للانزال فقالوا خيرا أى أنزل خيرا وتم الكلام عند قوله خيرا فهو وقف تام ثم ابتدأ بقوله تعالى (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) أى حياة طيبة أو ان للذين أتوا بالاعمال الصالحات الحسنة لهم ثوابها حسنة مضاعفة من الواحدة الى العشرة الى السبعمائة الى أضعاف كثيرة أو انه تعالى بين أن اعترافهم بذلك الاحسان فى هذه الدنيا حسنة أى جزاءلهم على احسانهم هل جزاء الاحسان الا الاحسان * ولما كانت هذه الدار سريعة الزوال أخبر عن حالهم فى الآخرة فقال (ولدار الآخرة) أى الجنة (خير) أى ما أعد الله لهم فى الجنة خير مما حصل لهم فى الدنيا ثم مدحها ومدحهم بقوله تعالى (ولنعم دار المتقين) أى دار الآخرة فحذف لتقدم ذكرها وقال الحسن هى الدنيا لان أهل التقوى يتزودون فيها للآخرة وقوله تعالى (جنات) أى بساتين (عدن) أى اقامة خبر مبتدا محذوف ويصح أن يكون المخصوص بالمدح (يدخلونها) أى تلك الجنات حالة كونها (تجرى من تحتها) أى من تحت غرفها (الانهار) ثم كان سائلا سأل عما فيها من الثمار وغيرها فأجيب بأن (لهم فيها ما يشاؤن) أى ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين مع زيادات غير ذلك فهذه الآية تدل على حصول كل الخيرات والسعادات فهى أبلغ من قوله تعالى وفيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين لان هذين القسمين داخلان فى قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن مع أقسام أخرى وعلى أن الانسان لا يجد كل ما يريده فى الدنيا لان قوله لهم فيها ما يشاؤن يفيد الحصر (كذلك) أى مثل هذا الجزاء العظيم (يجزى الله) أى الذى له الكمال كله (المتقين) أى الراسخين فى صفة التقوى ثم حث تعالى على ملازمة التقوى بالتنبيه على أن العبرة بحال الموت فقال (الذين تتوفاهم الملائكة) أى تقبض أرواحهم وقوله تعالى (طيبين) كلمة مختصرة جامعة للمعانى الكثيرة وذلك لانه يدخل فيه اتيانهم بكل ما أمروا به واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين بالاخلاق الفاضلة مبرئين عن الاخلاق المذمومة ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين الى حضرة القدس ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الارواح وانها لم تقبض الامع البشارة بالجنة حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها ومن هذا حاله لا يتألم بالموت وأكثر المفسرين على أن هذا التوفى هو قبض الارواح كما مر وان كان الحسن يقول انه وفاة الحشر واستدل بقوله تعالى ادخلوا الجنة لانه لا يقال عند قبض الارواح فى الدنيا ادخلوا الجنة وأجاب الاكثرون بما سيأتى وأدغم أبو عمرو التاء فى الطاء بخلاف عنه ثم بين تعالى ان الملائكة (يقولون) لهم عند الموت (سلام عليكم) فتسلم عليهم أو تبلغهم السلام

من

من الله تعالى كما روى ان العبد المؤمن اذا أشرف على الموت جاءه ملك فقال السلام عليك ياولى الله الله يقرأ عليك السلام و يبشره بالجنة ويقال لهم فى الآخرة هذا جواب الاكثرين (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) أو انهم لما بشروهم بالجنة صارت الجنة كأنها دارهم وكأنهم فيها فيكون المراد بقولهم ادخلوا الجنة أى هى خاصة لكم كأنكم فيها * ولما طعن الكفار فى القرآن بقولهم أساطير الاولين وذكر أنواع التهديد والوعيد ثم أتبعه بذكر الوعد لمن وصف القرآن بكونه خيرا عاد الى بيان ان أولئك الكفار لا ينزجرون عن كفرهم وأقوالهم الباطلة الا اذا جاءتهم الملائكة او أتاهم أمر ربك فقال تعالى (هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة) لقبض ارواحهم وقرأ حمزة والكسائى بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وتقدم توجيه ذلك (أو يأتى أمر ربك) اى يوم القيامة وقيل العذاب وقيل انهم طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم ان ينزل الله تعالى ملكا من السماء يشهد على صدقه فى ادعاء النبوة فقال تعالى هل ينظرون فى التصديق بنبوتك الا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك * وعلى كلا التقديرين فقد قال تعالى (كذلك) أى مثل ما (فعل) هؤلاء هذا الفعل البعيد الشنيع فعل (الذين من قبلهم) من الامم السالفة كذبوا رسلهم فأهلكوا (وما ظلمهم الله) باهلاكهم بغير ذنب (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بكفرهم وتكذيبهم للرسل فاستوجبوا ما نزل بهم (فأصابهم) اى فتسبب عن ظلمهم لانفسهم ان أصابهم (سيآت) أى عقوبات او جزاء سيآت (ما عملوا وحاق) أى نزل (بهم ما كانوا به يستهزؤن) تكبرا عن قبول الحق فحاق بهم جزاؤه والحيق لا يستعمل الا فى الشر وقرأ حاق حمزة بالامالة والباقون بالفتح (وقال الذين أشركوا) للنبى صلى الله عليه وسلم استهزاء ومنعا للبعثة والتكليف (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا) لانهم اعتقدوا أن كون الامر كذلك يمنع من جواز بعثة الرسل وهو اعتقاد باطل فلذلك استحقوا عليه الذم والوعيد ثم قالوا لهم (ولا حرمنا من دونه من شئ) أى من السوائب والبحائر والحامى فهو راض به وبمشيئته وحينئذ فلا فائدة فى مجيئك وفى ارسالك وهذا عين ما حكاه الله تعالى عنهم فى سورة الانعام فى قوله تعالى سيقول الذين أشركوا لو شاء الله الآية قال الله تعالى (كذلك فعل الذين من قبلهم) أى من تقدم هؤلاء من الكفار من الامم الماضية كانوا على هذه الطريقة وهذا الفعل الخبيث فانكار بعثة الرسل كان قديما فى الامم الخالية ففى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وكذا فى قوله تعالى (فهل على الرسل الا البلاغ) أى الابلاغ (المبين) أى البين فليس عليهم هداية أحد انما عليهم تبليغ ما أرسلوا به الى من أرسلوا اليه * ثم بين تعالى ان البعثة أمر جرت به السنة الالهية فى الامم كلها سببا لهدى من أراد اهتداءه وزيادة لضلال من أراد ضلاله كالغذاء الصالح فانه ينفع المزاج السوى ويقويه ويضر المزاج المنحرف ويفنيه بقوله تعالى (ولقد) أى والله لقد (بعثنا) أى بما لنا من العظمة التى من اعترض عليها قصم (فى كل أمة) من الامم الذين من قبلكم (رسولا) أى كما بعثنا فيكم محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا (أن اعبدوا الله) أى الملك

الا على وحده وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر النون فى الوصل والباقون بالضم (واجتنبوا الطاغوت) أى الاوثان ان تعبدوها (فنهم من هدى الله) أى وفقهم للايمان بارشاده (ومنهم من حقت) أى وجبت (عليه الضلالة) أى فى علم الله تعالى فلم ينفعهم ولم يرد هداهم *(تنبيه)* فى هذه الآية ابين دليل على أن الهادى والمضل هو الله تعالى لانه المتصرف فى عباده يهدى من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض عليه فيما حكم به لسابق علمه ثم التفت سبحانه وتعالى الى مخاطبتهم اشارة الى أنه لم يبق بعد هذا الدليل القطعى فى نظر البصيرة الا الدليل المحسوس للبصر فقال تعالى (فسيروا) أى فان كنتم أيها المخاطبون فى شك من أخبار الرسل فسيروا (فى الارض) أى جنسها (فانظروا) أى اذا سرتم ومررتم بديار المكذبين وآثارهم ثم أشار تعالى بالاستفهام الى أن أحوالهم مما يجب ان يسئل عنه للاتعاظ به فقال (كيف كان عاقبة) أى آخر أمر (المكذبين) أى من عاد ومن بعدهم من الذين تلقيتم أخبارهم عمن قلدتموهم فى الكفر من أسلافكم لعلكم تعتبرون *ولما كان من المحقق انه ليس بعد الايصال فى الاستدلال الى الامر المحسوس الا العناد أعرض عنهم ملتفتا الى الرؤف بهم الشفيق عليهم محمد صلى الله عليه وسلم فقال مسليا له (ان تحرص على هداهم) فتطلبه بغاية جدك واجتهادك وقد أضلهم الله تعالى لا تقدر على ذلك ثم قال تعالى (فان الله لا يهدى من يضل) أى من يرد ضلاله وهو معين لمن حقت عليه الضلالة وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بفتح الياء وكسر الدال والباقون بضم الياء وفتح الدال على البناء للمفعول قال البيضاوى وهو أبلغ ثم قال تعالى (ومالهم) أى هؤلاء الذين أضلهم الله وجميع من يضله (من ناصرين) أى وليس لهم أحد ينصرهم فى الدنيا والآخرة عند مجازاتهم على الضلالة لينقذوهم مما لحقهم عليه من الوبال كما فعل بالمكذبين ممن قبلهم ثم حكى الله عن هؤلاء القوم انهم ينكرون الحشر والنشر بقوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) أى غاية اجتهادهم فيها (لا يبعث الله من يموت) وذلك أنهم قالوا ان الانسان ليس هو الا هذه البنية المخصوصة فاذا مات وتفرقت أجزاؤه وبلى امتنع عوده بعينه لان الشئ اذا عدم فقد فنى ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه فكذبهم الله تعالى فى قولهم بقوله تعالى (بلى) أى يبعثهم بعد الموت فان لفظة بلى اثبات لما بعد النفى والجواب عن شبهتهم ان الله تعالى خلق الانسان وأوجده من العدم ولم يكن شيأ فالذى أوجده ولم يكن شيأ قادر على ايجاده بعد اعدامه لان النشأة الثانية أهون من الاولى وقوله تعالى (وعدا عليه حقا) مصدران مؤكدان منصوبان بفعلهما المقدر أى وعد ذلك وعدا وحقه حقا (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك أى لا علم لهم يوصلهم لذلك لانه من عالم الغيب لا يمكن عقولهم الوصول اليه بغير ارشاد من الله تعالى ولاهم يقبلون أقوال الدعاة اليه الذين أيدهم الله بروح منه لتقيدهم بما يوصل الى عقولهم انها قاصرة على عالم الشهادة لا يمكنها الترقى منه الى عالم الغيب بغير واسطة منه سبحانه وتعالى فلذلك ترى الانسان منهم يأبى ذلك استبعادا وهو خصيم مبين وقوله تعالى (ليبين لهم الذى

يختلفون فيه) يتعلق بما دل عليه بلى اى يبعثهم ليبين لهم والضمير لمن يموت وهو عام للمؤمنين والكافرين والذى اختلفوا فيه هو الحق (وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين) فى قولهم لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شئ وقولهم لايبعث الله من يموت وقيل يجوز أن يتعلق بقوله ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أى بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه وانهم كانوا على الضلالة قبله مفترين على الله الكذب ثم بين سبحانه وتعالى تيسر الاعادة بقوله تعالى (انما قولنا) أى بمالنا من العظمة والقدرة (لشئ) ابداء واعادة (اذا أردناه أن نقول له كن فيكون) أى يتسبب عن ذلك القول أنه يكون *(تنبيه)* قوله تعالى قولنا مبتدا وأن نقول خبره فيكون وكن من كان التامة التى بمعنى الحدوث والوجود أى اذا أردنا حدوث شئ فليس الا أن نقول له احدث فيحدث عقب ذلك من غير توقف (فان قيل) قوله تعالى كن ان كان خطابا مع المعدوم فهو محال وان كان خطابا مع الموجود فكان أمرا بتحصيل الحاصل وهو محال (أجيب) بأن هذا تمثيل لنفى الكلام والغايات وخطاب مع الخلق بما يعقلون ليس هو خطاب المعدوم لان ما أراد فهو كائن على كل حال وعلى ما أراده من الاسراع ولو أراد تعالى خلق الدنيا والآخرة بما فيهما من السموات والارض فى قدر لمح البصر اقدر على ذلك ولكن خاطب تعالى العباد بما يعقلون وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يشتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى ويكذبنى وما ينبغى له اما شتمه اياى فيقول ان لى ولدا وأما تكذيبه فيقول ليس يعيدنى كما بدأنى وفى رواية كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه اياى فقوله لن يعيدنى وليس أول الخلق بأهون على من اعادته واما شتمه اياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الله الاحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وقرأ ابن عامر والكسائى بفتح النون من يكون عطفا على يقول أو جوابا للامر والباقون بالرفع ولما حكى الله تعالى عن الكفار انهم أقسموا بالله جهد أيمانهم على انكار البعث والقيامة دل ذلك على انهم تمادوا فى الغى والجهالة والجهل والضلال وفى مثل هذه الحالة لا يبعد اقدامهم على ايذاء المسلمين وانزال العقوبة بهم وحينئذ يلزم على المؤمنين أن يهاجروا من تلك الديار والمساكن فبين تعالى حكم تلك الهجرة وما لهؤلاء المهاجرين من الحسنة فى الدنيا والآخرة بقوله تعالى (والذين هاجروا فى الله) أى فى حقه ولوجهه لاقامة دينه (من بعد ما ظلموا) وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله تعالى عنهم ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم الى الله فمنهم من هاجر الى الحبشة ثم الى المدينة فجمع لله تعالى بين الهجرتين ومنهم من هاجر الى المدينة أو المحبوسون المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل أخذهم المشركون بمكة يعذبونهم ليرجعوا عن الاسلام الى الكفر فأما بلال فكان أصحابه يخرجونه الى بطحاء مكة فى شدة الحر ويشدونه ويجعلون على صدره الحجارة وهو يقول أحد أحد فاشتراه منهم أبو بكر رضى الله عنه وأعتقه واشترى معه ستة نفر أخر وأما صهيب فقال أنا رجل كبير ان كنت معكم لم أنفعكم

وان كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه أبو بكر قال له ربح البيع يا صهيب وقال عمر له نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه وهو ثناء عظيم يريد لو لم يخلق الله نارا لاطاعه (لنبوّئنهم) أى لننزلنهم (فى الدنيا) دارا (حسنة) وهى المدينة وقيل لنحسنن اليهم فى الدنيا بأن نفتح لهم مكة ونمكنهم من أهلها الذين ظلموهم وأخرجوهم منها وقيل أراد بالحسنة فى الدنيا التوفيق والهداية الى الدين (ولاجر الآخرة) وهى الجنة والنظر الى وجهه الكريم (أكبر) أى أعظم (لو كانوا يعلمون) أى الكفار والمتخلفون عن الهجرة ما للمهاجرين من الكرامة لوافقوهم وقيل انه راجع الى المهاجرين أى لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا فى اجتهادهم وصبروا وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان اذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله به فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ثم يقرأ هذه الآية وقوله تعالى (الذين صبروا) أى على الشدائد وعلى مفارقة الوطن الذى هو حرم الله وعلى المجاهدة وبذل الاموال والانفس فى سبيل الله محله رفع على تقديرهم أو نصب على المدح ويجوز أن يكون تابعا للموصول قبله نعتا أو بدلا أو بيانا فمحله محله (وعلى ربهم يتوكلون) أى منقطعين اليه مفوّضين الامر كله اليه *(تنبيه)* ذكر الله تعالى فى هذه الآية الصبر والتوكل وهما مبدأ السلوك الى الله تعالى ومنتهاه أمّا الصبر فهو قهر النفس وحبسها على أعمال البر وسائر الطاعات واحتمال الاذى من الخلق وأمّا التوكل فهو الانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه الى الحق كما مرّت الاشارة اليه فالاوّل هو مبدأ السلوك والثانى هو آخر الطريق ومنتهاه * ونزل لما أنكر مشركو مكة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا الله أعظم وأجل ان يكون رسوله بشرا فهلا بعث ملكا الينا (وما أرسلنا من قبلك) يا محمد الى الامم من طوائف البشر (الا رجالا) لا ملائكة بل آدميين هم فى غاية الاقتدار على الصبر والتوكل الذى هو محط الرحال (نوحى اليهم) بواسطة الملائكة فعادة الله جارية مستمرة من أول مبتدا الخلق الى الآن لم يبعث رسولا الا من البشر (فاسألوا أهل الذكر) أى أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وانما أمرهم الله تعالى بسؤالهم لان كفار مكة كانوا يعتقدون ان أهل الكتاب أهل علم وقد أرسل اليهم رسلا مثل موسى وعيسى عليهما السلام من البشر وكانوا بشرا مثلهم فاذا سألوهم فلابد أن يخبروهم أن الرسل الذين أرسلوا اليهم كانوا بشرا فاذا أخبروهم بذلك فربما زالت هذه الشبهة وقال ابن عباس يريد أهل التوراة والدليل عليه قوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر يعنى التوراة والذكر هو التوراة وقال الزجاج معناه اسألوا كل من يذكر بعلم وتحقيق * ولما كان عندهم أحسن من ذلك سماع أخبار الامم قبلهم أشار اليه بقوله تعالى (ان كنتم) أى جبلة وطبعا (لا تعلمون) ذلك فانهم يعلمونه وأنتم الى تصديقهم أقرب من تصديق المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (بالبينات) متعلق بمحذوف أى أرسلناهم بالحجج الواضحة وقيل التقدير ان كنتم لا تعلمون بالبينات (والزبر) أى الكتب فاسألوا أهل الذكر وقيل انه متعلق بمحذوف جواب لسؤال مقدر كأنه قيل بم أرسلوا فقيل أرسلوا بالبينات والزبر وقوله

تعالى

تعالى (وأنزلنا اليك الذكر) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والذكر هو القرآن وانما سمى ذكرا لانه موعظة وتذكير (لتبين للناس) كافة أى أعطاك الله تعالى من الفهم الذى فقت فيه جميع الخلق واللسان الذى هو أعظم الالسنة وأفصحها وقد أوصلك الله تعالى فيه الى رتبة لم يصل اليها أحد (ما نزل) أى ما وقع تنزيله (اليهم) من هذا الشرع المؤدى الى سعادة الدارين بتبيين المجمل وشرح ما أشكل من علم أصول الدين الذى رأسه التوحيد ومن البعث وغيره فان القرآن فيه محكم وفيه متشابه فالمحكم يجب أن يكون مبينا والمتشابه هو المجمل فيطلب بيانه من السنة (ولعلهم يتفكرون) فيما أنزل اليهم اذا نظروا أساليبه الفائقة ومعانيه العالية الرائقة فيعتبرون (فان قيل) ان هذه الآية تدل على أن المبين لكل التكاليف والاحكام هو النبى صلى الله عليه وسلم فالقياس ليس بحجة (أجيب) بأنه صلى الله عليه وسلم لما بين أن القياس حجة فمن رجع فى تبيين الاحكام والتكاليف الى القياس كان ذلك فى الحقيقة رجوعا الى بيان النبى صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (أفأمن الذين مكروا السيآت) فيه اضمار تقديره المكرات السيآت وهم كفار قريش مكروا بالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وبالقرآن فى أذيتهم والمكر عبارة عن السعى بالفساد على سبيل الاخفاء ثم انه تعالى ذكر فى تهديدهم أربعة أمور الاول قوله تعالى (أن يخسف الله بهم الارض) كما خسف بقارون وأصحابه فاذا هم فى بطنها لا يقدرون على نوع تقلب بمتابعة ولا غيرها الثانى قوله تعالى (أو يأتيهم العذاب) على غير تلك الحال (من حيث لا يشعرون) به فيأتيهم بغتة فيهلكهم كما فعل بقوم لوط عليه السلام الثالث قوله تعالى (أو يأخذهم) أى الله بعذابه (فى) حالة (تقلبهم) ومشاعرهم حاضرة وقواهم مستجمعة وفى تفسير هذا التقلب وجوه أولها أنه تعالى يأخذهم بالعقوبة فى أسفارهم فانه تعالى قادر على اهلاكهم فى السفر كما أنه قادر على اهلاكهم فى الحضر (فما هم بمعجزين) أى بفائتين العذاب بسبب ضربهم فى البلاد البعيدة بل يدركهم الله تعالى حيث كانوا ثانيها أنه تعالى يأخذهم بالليل والنهار وفى حال اقبالهم وادبارهم وذهابهم ومجيئهم وثالثها أن الله تعالى يأخذهم فى حال ما يتقلبون فى قضايا أفكارهم فيحول الله بينهم وبين اتمام تلك الحيل وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى وقلبوا لك الامور فانهم اذا قلبوها فقد تقلبوا فيها الامر الرابع قوله تعالى (أو يأخذهم على تخوف) وفى تفسير التخوف قولان الاول التخوف تفعل من الخوف يقال خفت الشئ وتخوفته والمعنى أنه تعالى لا يأخذهم بالعذاب أولا بل يخيفهم أولا ثم يعذبهم بعده وتلك الاخافة هو أنه تعالى يهلك قرية فتخاف التى تليها فيأتيهم العذاب والثانى التخوف بمعنى التنقص أى أنه تعالى ينقص شيأ بعد شئ فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا من تخوفه اذا تنقصه روى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال على المنبر ما تقولون فى هذه الآية فسكتوا فقال شيخ من هذيل هذه لغتنا التخوف التنقص فقال عمر هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها قال نعم قال شاعرنا أبو كبير

تخوف (أى تنقص) الرحل (أى رحل ناقته) منها تامكا (أى سناما) قردا

(أى مترا كما أومرتفعا وهو بسكون الراء) كما تخوّف عود النبعة السفن والنبعة بالضم واحدة النبع وهو شجر يتخذ منه السفن والسفن بفتح السين والفاء ما ينحت به الشئ وهو فاعل تخوّف ومفعوله عود فقال عمر عليكم بديوانكم قالوا وما ديواننا قال شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم ومعنى البيت ان رحلى ناقته ينقص سنامها المتراكم أو المرتفع كما ينقص السفن عود النبعة (فان ربكم) أى المحسن اليكم باهلاك من يريد وابقاء من يريد وقوله تعالى (لرؤف) قرأه أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى بقصر الهمزة والباقون بالمد ومعناه بليغ الرحمة لمن يتوسل اليه بنوع وسيلة وكذا من قاطعه أتم مقاطعة واليه أشار بقوله تعالى (رحيم) أى حيث لم يعاجلهم بالعذاب * ولما خوّف سبحانه وتعالى المشركين بالانواع الاربعة المذكورة من العذاب أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته فى تدبير أحوال العالم العلوى والسفلى وتدبير أحوال الارواح والاجسام ليظهر لهم أنه مع كمال هذه القدرة الباهرة والقوّة الغير المتناهية لا يعجز عن ايصال العذاب اليهم على أحد تلك الاجسام الاربعة بقوله تعالى (أولم يروا الى ما خلق الله من شئ) أى من الاجرام التى لها ظل كشجر وجبل (تتفيؤ) أى تميل (ظلاله عن اليمين والشمائل) جمع شمال أى عن جانبى كل واحد منهما وشقيه وقرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب على نسق ما قبله والباقون بالياء على الغيبة الى ما خلق استعارة من يمين الانسان وشماله لجانبى الشئ أى ترجع الظلال من جانب الى جانب منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له وقال قتادة والضحاك أما اليمين فأوّل النهار وأما الشمائل فآخره لان الشمس وقت طلوعها الى وقت انتهائها الى وسط الفلك تقع الظلال الى الجانب الغربى فاذا انحدرت الشمس من وسط الفلك الى الجانب الغربى وقعت الظلال فى الجانب الشرقى والظلال فى أوّل النهار تبتدئ من يمين الفلك على الربع الغربى من الارض ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك تبتدئ من شمال الفلك واقعة على الربع الشرقى من الارض (فان قيل) ما السبب فى ذكر اليمين بلفظ الواحد والشمائل بصيغة الجمع (أجيب) بأشياء الاوّل انه وحد اليمين والمراد الجمع ولكنه اقتصر فى اللفظ على الواحد كقوله تعالى ويولون الدبر الثانى قال الفراء كأنه اذا وحد ذهب الى واحد من ذوات الظلال واذا جمع ذهب الى كلها وذلك لان قوله الى ما خلق الله من شئ لفظه واحد ومعناه الجمع على ما مرّ فيحتمل كلا الامرين الثالث أن العرب اذا ذكرت صيغتى جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله تعالى وجعل الظلمات والنور وقوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم * (تنبيه) * الهمزة للاستفهام وهو استفهام انكار أى قد رأوا أمثال هذه الصنائع فما بالهم لم يتفكروا فيه ليظهر لهم كمال قدرته وقهره فيخافوا منه وما موصولة مبهمة بمعنى الذى ومن شئ بيان لها (فان قيل) كيف بين الموصول وهو مبهم بشئ وهو مبهم بل أبهم مما قبله (أجيب) بأن شيأ قد اتضح وظهر بوصفه بالجملة بعده وهو تتفيؤ ظلاله وقيل الجملة بيان لما وقوله تعالى (سجدا لله) حال من الظلال جمع ساجد كشاهد وشهد وراكع وركع واختلف فى المراد من السجود على قولين أحدهما أن المراد منه

الاستسلام والانقياد يقال سجد البعير اذا طأطأ رأسه ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل ويقال اسجد للقرد في زمانه أي اخضع له وقال الشاعر * ترى الاكم فيها سجدا للحوافر أي متواضعة والثاني أن هذه الظلال واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد فلما كانت الظلال يشبه شكلها شكل الساجدين أطلق الله تعالى عليها هذا اللفظ وكان الحسن يقول أما ظلك فيسجد لربك وأما أنت فلا تسجد لربك بئسما صنعت وعن مجاهد ظل الكافر يصلي وهو لا يصلي وقيل ظل كل شيء يسجد لله سواء أكان ذلك الشيء ساجدا أم لا قال الرازي والاول أقرب الى الحقائق العقلية والثاني أقرب الى الشبهات الظاهرة وقوله تعالى (وهم داخرون) أي صاغرون حال أيضا من الظلال فينتصب عنه حالان وقيل حال من الضمير المستتر في سجدا فهي حال متداخلة (فان قيل) الظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون (أجيب) بأنه تعالى لما وصفها بالطاعة والدخور أشبهت العقلاء أو ان في جملة ذلك من يعقل فغلب * ولما حكم على الظلال بما يعم أصحابها من جماد وحيوان وكان الحيوان أشرف من الجماد رقى الحكم اليه بخصوصه فقال (ولله يسجد ما في السموات وما في الارض) وقوله تعالى (من دابة) يجوز أن يكون بيانا لما في السموات وما في الارض جميعا على أن في السموات خلقا لله يدبون فيها كما تدب الاناسي في الارض وأن يكون بيانا لما في الارض وحده ويراد بما في السموات الخلق الذي يقال له الروح وأن يكون بيانا لما في الارض ويراد بما في السموات الملائكة وكرر ذكرهم بقوله تعالى (والملائكة) خصوصا من بين الساجدين لانهم أطوع الخلق وأعبدهم ويجوز أن يراد بما في السموات ملائكتهن وبقوله تعالى والملائكة ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم (فان قيل) سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد (أجيب) بأن المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم وبسجود غيرهم انقياده لارادة الله تعالى وأنه غير ممتنع عليه وكلا السجودين يجمعهما معنى الانقياد فلم يختلفا فلذلك جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد (فان قيل) هلا جيء بمن دون ما تغليبا للعقلاء من الدواب على غيرهم (أجيب) بانه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب فكان متناولا للعقلاء خاصة فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم ارادة للعموم (وهم) أي الملائكة (لا يستكبرون) عن عبادته ثم عال تخصيصهم بقوله تعالى دلالة على أنهم كغيرهم في الوقوف بين الخوف والرجاء (يخافون ربهم) أي الموجد لهم المدبر لامورهم المحسن اليهم خوفا مبتدأ (من فوقهم) اشارة الى علو الخوف عليهم وغلبته لهم أو ان يرسل عليهم عذابا من فوقهم أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده وقوله تعالى وانا فوقهم قاهرون والجملة حال من الضمير في لا يستكبرون أو بيان له أو تقرير لان من خاف الله لا يستكبر عن عبادته (ويفعلون ما يؤمرون) أي من الطاعة والتدبير وفي ذلك دليل على أن الملائكة مكلفون مدارون على الامر والنهي والوعد والوعيد كسائر المكلفين وأنهم بين الخوف والرجاء كما مرت الاشارة اليه وأنهم معصومون من الذنوب لان قوله تعالى وهم لا يستكبرون يدل

على أنهم منقادون لخالقهم وأنهم ما خالفوا فى أمر من الامور كما قال تعالى لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * ولما بين تعالى أن كل ما سوى الله تعالى سواء أكان من عالم الارواح أم من عالم الاجساد فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبريائه أتبعه بالنهى عن الشرك وبالامر بأن كل ما سواه فهو ملكه وانه غنى عن الكل بقوله تعالى (وقال الله) فعبر لاجل تعظيم المقام بالاسم الاعظم الخاص (لا تتخذوا) أى لا تكلفوا فطرتكم الاولى السليمة المجبولة على معرفة ان الاله واحد أن تأخذ فى اعتقادها (الهين اثنين) (فان قيل) انما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا عندى رجال ثلاثة وأفراس أربعة لان المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص فأما رجل ورجلان وفرس وفرسان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة الى أن يقال رجل واحد ورجلان اثنان فما وجه قوله تعالى الهين اثنين (أجيب) بأجوبة أولها قال الرازى وهو الاقرب عندى ان الشئ اذا كان مستنكرا مستقبحا فمن أراد المبالغة فى التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالى تلك العبارات سببا لوقوف العقل على ما فيه من القبح والقول بوجود الهين مستقبح فى العقول فان أحدا من العقلاء لم يقل بوجود الهين متساويين فى الوجود والقدم وصفات الكمال فالمقصود من تكرار اثنين تأكيد التنفير عنه وتوقيف العقل على ما فيه من القبح الثانى أن قوله تعالى الهين لفظ واحد يدل على أمرين ثبوت الاله وثبوت التعدد فاذا قيل لا تتخذوا الهين لم يعرف من هذا اللفظ ان النهى وقع عن اثبات الالهين أو عن اثبات التعدد أو عن مجموعهما فلما قال لا تتخذوا الهين اثنين ظهر أن قوله لا تتخذوا نهى عن اثبات التعدد فقط الثالث فى الآية تقديم وتأخير والتقدير لا تتخذوا اثنين الهين الرابع أن الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فاذا أريدت الدلالة على ان المعنى به منهما والذى يساق اليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد اليه والعناية به ألا ترى أنك لو قلت انما هو اله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل أنك تثبت الالهية لا الوحدانية ثم علل تعالى ذلك النهى بما اقتضاه السياق من الوحدانية فقال جل ذكره (انما هو) أى الاله المفهوم من لفظ الهين الذى لا يستحق غيره أن يطلق عليه هذا الضمير الا مجازا لانه لا يطلق اطلاقا حقيقيا الا على من وجوده من ذاته (اله) أى مستحق هذا الوصف على الاطلاق (واحد) لا يمكن أن ينقى بوجه ولا أن يجزأ بغاية وغير غاية لغناه المطلق عن كل شئ واحتياج كل شئ اليه * ولما دلت الدلائل على أنه لا بد للعالم من اله وثبت أن القول بوجود الهين محال وثبت أنه لا اله الا الواحد الاحد الفرد الصمد قال تعالى بعده (فاياى فارهبون) أى خافون دون غيرى والرهبة مخافة مع حزن واضطراب وانما نقل الكلام من الغيبة الى خطاب الحضور وهو من طريقة الالتفات لانه أبلغ فى الترهيب من قوله فاياه فارهبوه ومن أن يجئ ما قبله على لفظ المتكلم * ولما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح أن اله العالم لا شريك له فى الالهية وجب أن يكون جميع المخلوقات عبيده وفى ملكه وتصرفه وتحت قهره وذلك قوله تعالى (وله) أى الله وأعاد الضمير فى قوله تعالى له

على الله الاسم الاعظم العلم الجامع لجميع الاسماء الحسنى (ما فى السموات والارض) أى ماتعبدونه وغيره فكيف يتصور أن يكون شئ من ذلك الها وهو ملكه مع كونه محتاجا الى الزمان والمكان وغيرهما (وله الدين) أى الطاعة وقوله تعالى (واصبا) أى دائما حال من الدين والعامل فيه مافى الظرف من معنى الفعل قال ابن قتيبة ليس من أحد يدان له ويطاع الا انقطع ذلك لسبب فى حال الحياة أو بالموت الا الحق سبحانه وتعالى فاطاعته واجبة أبدا ولانه المنعم على عباده المالك لهم فكانت طاعته واجبة دائما أبدا وقوله تعالى (أفغير الله) أى الذى له العظمة كلها (تتقون) استفهام انكار والمعنى أنكم بعد ماعرفتم ان اله العالم واحد وعرفتم أن كل ماسواه محتاج اليه فى وقت دوامه وبقائه فبعد العلم بذلك كيف يعقل أن يكون للانسان رغبة فى غير الله تعالى أو رهبة من غير الله تعالى * ولما بين تعالى أن الواجب على العاقل أن لا يتقى غير الله بين أنه يجب عليه أن لا يشكر أحدا الا الله تعالى بقوله تعالى (وما بكم من نعمة) أى من نعمة الاسلام وصحة الابدان وسعة فى الارزاق وكل ما أعطاكم من مال أو ولد أو جاه (فمن الله) هو المتفضل على عباده فيجب عليكم شكره على جميع انعامه لان الشكر انما يجب على النعمة فثبت بهذا أن العاقل يجب عليه أن لا يخاف وأن لا يشكر الا الله تعالى * (تنبيه) * احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الايمان حصل بخلق الله فقالوا الايمان نعمة وكل نعمة فمن الله ينتج أن الايمان من الله وأيضا النعمة عبارة عن كل مايكون منتفعا به وأعظم الاشياء فى النفع هو الايمان فثبت أن الايمان نعمة والمسلمون مطبقون على قولهم الحمد لله على نعمة الايمان والنعم اما دينية واما دنيوية أما النعم الدينية فهى اما معرفة الحق لذاته واما معرفة الخير لاجل العمل به والنعم الدنيوية اما نفسانية واما بدنية واما خارجية وكل واحد من هذه الثلاثة جنس تحته أنواع خارجة عن الحصر كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وقد مرت الاشارة الى ذلك عند ذكر هذه الآية * ولما كان اخلاصهم له مع ادعائهم الوهية غيره أمرا مستبعدا عبر بأداة التراخى والبعد فى قوله تعالى (ثم اذا مسكم) أى أصابكم أدنى مس (الضر) بزوال نعمة مما أنتم به عليكم وقال ابن عباس يريد الاسقام والامراض والحاجة (فاليه) أى لا الى غيره (تجأرون) أى ترفعون أصواتكم بالاستغاثة لما ركز فى فطرتكم الاولية السليمة من أنه لا ملجأ ولا منجى منه الا اليه (ثم اذا كشف) سبحانه وتعالى (الضر) أى الذى مسكم (عنكم) ونبه على مسارعة الانسان فى الكفران فقال (اذا فريق) أى جماعة هم أجل فرقة وضلال (منكم) أى أيها العباد (بربهم) الذى تفرد بالانعام عليهم (يشركون) أى يوقعون الاشراك بعبادة غيره (ليكفروا بما آتيناهم) أى من النعم * (تنبيه) * فى هذه اللام وجهان الاول انها لام كى فيكون المعنى على هذا أنهم انما أشركوا بالله ليجحدوا نعمه عليهم فى كشف الضر الثانى أنها لام العاقبة كما فى قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا والمعنى عاقبة أمرهم هو كفرهم بما آتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضر والبلاء ثم انه تعالى توعدهم بعد ذلك بقوله تعالى (فتمتعوا) أى باجتماعكم على عبادة الاصنام وهذا اللفظ أمر والمراد منه التهديد كقوله تعالى

قل آمنوا به أولا تؤمنوا وقوله تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (فسوف تعلمون) عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب * ولما بين تعالى بالدلائل القاهرة فساد قول أهل الشرك والتشبيه شرح تفاصيل أقوالهم وبين فسادها بأنواع الاول قوله تعالى (ويجعلون) أى المشركون (لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) من الحرث والانعام بقولهم هذا لله وهذا لشركائنا * (تنبيه) * الضمير فى قوله تعالى لما لا يعلمون عائد على الاصنام أى ان الاصنام لا تعلم شيأ البتة لانها جماد والجماد لا علم له وقيل عائد الى المشركين ومعنى لا يعلمونها أنهم يسمونها آلهة فيعتقدون فيها جهالات مثل أنها تنفعهم وتشفع لهم وليس الامر كذلك * ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه على نفسه أنه يسألهم يوم القيامة بقوله تعالى (تالله لتسئلن) سؤال توبيخ وفيه التفات من الغيبة الى الحضور وهو من بديع الكلام وبليغه (عما كنتم تفترون) على الله من أنه أمركم بذلك * (تنبيه) * فى وقت السؤال احتمالان الاول أنه يقع عند القرب من الموت الثانى انه يقع فى الآخرة قال الرازى وهذا أولى النوع الثانى قوله تعالى (ويجعلون لله البنات) ونظيره قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا كانت خزاعة وكنانة يقولون الملائكة بنات الله قال الرازى أظن أن العرب انما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة لاستتارهم عن العيون فأشبهوا النساء فى الاستتار فأطلقوا عليهم البنات قال ابن عادل وهذا الذى ظنه ليس بشئ فان الجن أيضا مستترون عن العيون ولم يطلقوا عليهم لفظ البنات * ولما حكى الله تعالى عنهم هذا القول قال تعالى (سبحانه) وفيه وجهان الاول أن يكون المراد تنزيه ذاته عن نسبة الولد اليه الثانى تعجيب الخلق من هذا الامر والجهل الصريح وهو وصف الملائكة بالانوثة ثم نسبتها بالولدية الى الله تعالى قيل فى التفسير معناه معاذ الله وذلك مقارب للوجه الاول * ولما ذكر الله تعالى ما جعلوا له مع الغنى المطلق بين ما نسبوا لانفسهم مع لزوم الحاجة والضعف بقوله تعالى (ولهم ما يشتهون) من البنين وقد يكونون أعداء أعدائهم * ثم انه تعالى ذكر ان الواحد من هؤلاء المشركين لا يرضى بالولد البنت لنفسه فكيف يثبته لله تعالى فقال (واذا بشر أحدهم بالانثى) أى أخبر بولادتها (ظل وجهه) أى صار أو دام النهار كله (مسودا) من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتخجيل كما أن بياض الوجه واشراقه كناية عن الفرح والسرور (وهو كظيم) أى مملوء غيظا على المرأة ولا ذنب لها بوجه والبشارة فى أصل اللغة الخبر الذى يغير البشرة من حزن أو سرور ثم خص فى عرف اللغة بالسرور ولا يكون الا بالخبر الاول فالمراد بالبشارة هنا الاخبار كما مر وقول الرازى ان اطلاقه على الخبر والشر داخل فى التحقيق خلاف المشهور (يتوارى) أى يستخفى (من القوم) أى من الرجال الذين هو فيهم (من سوء ما بشر به) خوفا من التعيير وذلك أن العرب كانوا فى الجاهلية اذا قرب ولادة زوجة أحدهم توارى عن القوم الى أن يعلم ما ولد له فان ولد له ذكرا بتهج وسر بذلك وظهر وان كانت أنثى حزن ولم يظهر أياما مترددا ماذا يفعل بذلك الولد (أيمسكه) أى يتركه بغير قتل (على هون) هوان وذل (أم يدسه فى التراب) وذكر الضمير فى يمسكه ويدسه نظرا للفظ الولد أو

لكون الانثى ولدا كما علم مما مر قال ابن ميلق قال المفسرون كانت المرأة اذا أدركها المخاض احتفرت حفرة وجلست على شفيرها فان وضعت ذكرا أظهرته وظهر السرور على أهله وان وضعت انثى استأذنت مستولدها فان شاء أمسكها على هون وان شاء أمرها بالقائها فى الحفرة وردت التراب عليها وهى حية لتموت انتهى وعن قيس بن عاصم أنه قال يارسول الله انى واريت ثمان بنات فى الجاهلية فقال له صلى الله عليه وسلم اعتق عن كل واحدة منهن رقبة فقال يانبى الله انى ذو ابل قال اهد عن كل واحدة منهن هديا وروى أن رجلا قال يارسول الله والذى بعثك بالحق ما أجد حلاوة الاسلام منذ قد أسلمت فقد كانت لى فى الجاهلية ابنة فأمرت امرأتى أن تزينها فأخرجتها فلما انتهيت الى واد فيه بئر بعيدة القعر ألقيتها فيها فقالت يا أبت قتلتنى فكلما ذكرت قولها لم ينفعنى شئ فقال صلى الله عليه وسلم ما كان فى الجاهلية فقد هدمه الاسلام وما فى الاسلام يهدمه الاستغفار وكانوا فى الجاهلية مختلفين فى قتل البنات فمنهم من يحفر الحفرة ويدفنها فيها الى أن تموت ومنهم من يرميها من شاهق جبل ومنهم من يغرقها ومنهم من يذبحها وكانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية خوفا من أن يطمع فيهن غير الاكفاء وتارة خوفا من الفقر وكثرة العيال ولزوم النفقة وكان الذى منهم يريد أن يحيى ابنته تركها حتى تكبر ثم يلبسها جبة من صوف أو شعر ويجعلها ترعى الابل والغنم فى البادية قال الله تعالى (ألا ساء) أى بئس (ما يحكمون) حكمهم هذا وذلك لانهم بلغوا فى الاستنكاف من البنت الى أعظم الغايات فاولها أنه يسود وجهه وثانيها أنه يختفى من القوم من شدة نفرته عن البنت وثالثها ان الولد محبوب بحسب الطبيعة ثم انه بسبب نفرته عنها يقدم على قتلها وذلك يدل على أن النفرة عن البنت والاستنكاف عنها قد بلغ مبلغا لا يزاد عليه فكيف يليق بالعاقل أن يثبت ذلك لاله عالم مقدس عال عن مشابهة جميع المخلوقات ونظير هذه الآية قوله تعالى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى ثم قال تعالى (للذين لا يؤمنون بالآخرة) وهم الكفار (مثل السوء) أى الصفة السوء بمعنى القبيحة وهى قتلهم البنات مع احتياجهم اليهن للنكاح (ولله المثل الاعلى) أى الصفة العليا وهى انه لا اله الا هو وان له جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء السرمدى وغير ذلك من الصفات التى وصف الله بها نفسه وقال ابن عباس مثل السوء النار والمثل الاعلى شهادة أن لا اله الا الله (فان قيل) كيف جاء لله المثل الاعلى مع قوله تعالى فلا تضربوا لله الامثال (أجيب) بأن المثل الذى يضربه الله تعالى حق وصدق والذى يذكره غيره باطل (وهو العزيز) الذى لا يمتنع عليه شئ فلا نظير له (الحكيم) الذى لا يوقع شيأ الا فى محله * ولما حكى الله تعالى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم بين أنه تعالى يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة اظهارا للفضل والرحمة والكرم بقوله تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) أى بسبب كفرهم ومعاصيهم (ما ترك عليها) أى على الارض وانما أضمر ذكرها من غير ذكر لدلالة الناس والدابة عليها (من دابة) أى ان الله تعالى لو آخذ الناس بظلمهم لاهلك جميع الدواب التى على وجه الارض (فان قيل) اسم الناس جنس يشمل الكل

فيدخل فى ذلك الانبياء فيدل ذلك على عدم عصمتهم (أجيب) بأن ذلك عام مخصوص بقوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله فالمذكور فى هذه الآية اما كل العصاة المستحقين العقاب أو الذين تقدم ذكرهم من المشركين ومن الذين أثبتوا لله البنات أو جميع الكفار بدليل قوله تعالى ان شر الدواب عند الله الذين كفروا وقال قتادة قد فعل الله تعالى ذلك فى زمن نوح عليه السلام فأهلك جميع الدواب التى على وجه الارض الا من كان فى السفينة مع نوح عليه السلام روى أن أبا هريرة رضى الله تعالى عنه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بئسما قلت ان الحبارى تموت هزالا من ظلم الظالم وقال ابن مسعود ان الجعل تعذب فى جحرها بذنب ابن آدم والجعل بضم الجيم وفتح العين دويبة قاله الجوهرى وقيل فى معنى الآية ولو يؤاخذ الله الآباء الظالمين بسبب ظلمهم لانقطع النسل ولم توجد الابناء ولم يبق فى الارض أحد (ولكن يؤخرهم) أى يمهلهم بفضله وكرمه وحلمه (الى أجل مسمى) أى الى انتهاء آجالهم وانقضاء أعمارهم (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة) عنه (ولا يستقدمون) أى لا يؤخرون ساعة من الاجل الذى جعله الله تعالى لهم ولا ينقصون منه *(تنبيه)* ههنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط احدى الهمزتين مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها حرف مد والباقون بتحقيق الهمزتين النوع الثالث من الاقاويل الفاسدة التى كان يذكرها الكفار وحكاها الله تعالى عنهم قوله (ويجعلون لله ما يكرهون) لانفسهم من البنات وأراذل الاموال والشركاء فى الرياسة ثم وصف الله تعالى جراءتهم مع ذلك بقوله تعالى (وتصف) أى وتقول (ألسنتهم الكذب) أى مع ذلك مع أنه قول لا ينبغى أن يتخيله عاقل ثم بينه بقوله تعالى (أن لهم الحسنى) أى عنده أى الجنة كقوله تعالى ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى ولا جهل أعظم ولا أحكم سوأ من أن تقطع بأن من تجعل له ما تكره أن يجعل لك ما تحب فكأنه قيل ما لهم عنده فقيل (لا جرم) أى لا ظن ولا تردد فى (أن لهم النار) أى هى جزاء الظالمين وقيل لا جرم بمعنى حقا (وأنهم مفرطون) أى متركون فيها أو مقدمون اليها وقرأ نافع بكسر الراء أى متجاوزون الحد والباقون بالفتح (فان قيل) انهم لم يقروا بالبعث فكيف يقولون ان لنا الحسنى عند الله (أجيب) بأنهم قالوا ان كان محمد صادقا فى البعث بعد الموت فان لنا الجنة وقيل انه كان فى العرب جمع يقرون بالبعث والقيامة وانهم كانوا يربطون البعير النفيس على قبر الميت ويتركونه الى أن يموت ويقولون ان ذلك الميت اذا حشر فانه يحشر معه مركوبه ثم بين تعالى أن مثل هذا الصنيع الذى يصدر من مشركى قريش قد صدر من سائر الامم السابقين فى حق الانبياء المتقدمين بقوله تعالى (تالله) أى الملك الاعلى (لقد أرسلنا) أى بما لنا من القدرة رسلا من الماضين (الى أمم من قبلك) كما أرسلنا الى هؤلاء (فزين لهم الشيطان) أى المحترق بالغضب المطرود باللعنة (أعمالهم) الخبيثة من الكفر والتكذيب كما زين لهؤلاء فضلوا كما ضلوا فأهلكناهم وهذا يجرى مجرى التسلية

للنبي صلى الله عليه وسلم فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم والمزين في الحقيقة هو الله تعالى هذا مذهب أهل السنة وانما جعل الشيطان آلة بالالقاء للوسوسة في قلوبهم وليس له قدرة على أن يضل أحدا أو يهدي أحدا وانما له الوسوسة فقط فمن أراد الله تعالى شقاوته سلطه الله عليه حتى يقبل وسوسته (فهو وليهم اليوم) أي في الدنيا وانما عبر باليوم عن زمانها أي فهو وليهم حين كان يزين لهم أو يوم القيامة على أنه حكاية حال ماضية أو آتية أي لا ولي لهم غيره وهو عاجز عن نصر نفسه فكيف ينصرهم وقيل الضمير لقريش أي زين الشيطان للكفرة المتقدمين أعمالهم وهو ولي هؤلاء القوم يغرهم ويغريهم وقيل يجوز أن يقدر مضاف أي فهو ولي أمثالهم والولي القرين والناصر فيكون نفيا للناصر لهم على أبلغ الوجوه (ولهم عذاب أليم) أي مؤلم في الآخرة * ثم ذكر تعالى انه مع هذا الوعيد الشديد قد أقام الحجة وأزاح العلة بقوله تعالى (وما أنزلنا) أي بما لنا من العظمة من جهة العلو (عليك) يا أشرف المرسلين (الكتاب) أي القرآن (الا لتبين لهم) أي للناس (الذي اختلفوا فيه) من أمر الدين مثل التوحيد والشرك واثبات المعاد ونفيه فانه كان فيهم من ينكر البعث ومنهم من يؤمن به ومنهم عبد المطلب ومثل تحريم الحلال كالبحيرة والسائبة وتحليلهم أشياء محرمة كالميتة (فان قيل) اللام في لتبين لهم تدل على ان أفعال الله تعالى معللة بالاغراض كقوله تعالى كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس وقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون (أجيب) بأنه لما ثبت بالعقل امتناع التعليل وجب صرفه الى التأويل وقوله تعالى (وهدى ورحمة) أي واكراما بجعبة معطوفان على محل لتبين الا انهما انتصبا على أنهما مفعول لهما الا انهما فعلا الذي أنزل الكتاب ودخلت اللام على لتبين لانه فعل المخاطب لا فعل المنزل وانما ينتصب مفعولا لهما كان فعل فاعل الفعل المعلل ولما كان ذلك ربما شملهم وهم على ضلالهم نفاه بقوله تعالى (لقوم يؤمنون) ونظيره قوله تعالى في أول البقرة هدى للمتقين وانما خص المؤمنين بالذكر من حيث انهم قبلوه وانتفعوا به كما في قوله تعالى انما أنت منذر من يخشاها الا انه انما انتفع بانذاره هذا القوم فقط * ولما انقضى الدليل على أن قلوبهم منكرة استكبارا وما يتعلق به وختمه بما أحيا به القلوب في الايمان والعلم بعد موتها بالكفر والجهل وكان المقصود الاعظم من القرآن تقرير أصول أربعة الالهيات والنبوات والمعاد واثبات القضاء والقدر والفعل بالاختيار وكان أجل هذه المقاصد الالهيات شرع في ذكر الوحدانية والقدرة والفعل بالاختيار المستلزم للقدرة على البعث على وجه غير المتقدم ليعلم أن أدلة ذلك أكثر من أوراق الاشجار وأجلى من ضياء النهار فعطف على قوله والله يعلم ما تسرون وما تعلنون قوله جامعا في الدليل بين العالم العلوي والعالم السفلي (والله) أي الذي له الامر كله (أنزل من السماء) في الوقت الذي يريده (ماء) بالمطر والثلج والبرد (فأحيا به) أي بذلك الماء (الارض) بأنواع النبات (بعد موتها) أي يبسها (ان في ذلك) المذكور (لآية) أي دلالة واضحة على كمال قدرته تعالى (لقوم يسمعون) أي سماع تدبر وانصاف وتطرلان سماع القلوب هو النافع لاسماع الآذان فمن سمع آيات القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها

انتفع ومن لم يسمع بقلبه فكأنه أصم لم يسمع لم ينتفع بالآيات ومن الدلائل المذكورة في هذه الآية الاستدلال بعجائب أحوال الحيوانات وهو قوله (وان لكم في الانعام لعبرة) أي اعتبارا اذا تفكرتم فيها وعرفتم كمال قدرتنا وقوله تعالى (نسقيكم مما في بطونه) استئناف بيان للعبرة وانما ذكر لفظ الضمير لانه لفظ الانعام مفرد وضع لافادة الجمع كالرهط والقوم ولا من اللبس والدلالة على قوة المعنى لكونها سورة النعم وأنثه في سورة المؤمنون للمعنى فان الانعام اسم جمع ولذلك عده سيبويه في باب مالا ينصرف في الاسماء المفردة الواردة على أفعال كقولهم ثوب أكياش بياء تحتية وشين معجمة ضرب من الثياب يغزل مرتين ومن قال انه جمع نعم جعل الضمير للبعض فان اللبن لبعضها دون جميعها وقرأ نافع وابن عامر وشعبة بفتح النون تقول سقيته حتى روى قال تعالى وسقاهم ربهم شرابا طهورا والباقون بضمها من قولك اسقاه اذا جعل له شرابا كقوله تعالى وأسقيناكم ماء فراتا ولما كان في موضع العبرة تخليص اللبن من غيره قدم قوله تعالى (من بين فرث) وهو الثفل الذي نزل الى الكرش فاذا اخرج منه لم يسم فرثا (ودم لبنا خالصا) أي صافيا خلقه الله وسطا بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغى عليه أحدهما بلون أو رائحة أو طعم روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما اذا أكلت البهيمة العلف واستقر في كرشها طحنته فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما والكبد متسلطة على هذه الاصناف الثلاثة تقسمها فيجري الدم في العروق واللبن في الضرع ويبقى الفرث في الكرش فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل وسئل شقيق عن الاخلاص فقال تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم (سائغا للشاربين) أي سهل المرور في الحلق وقيل لم يغص أحد باللبن قط * (تنبيه) * قال أهل التحقيق اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار فكذلك يدل على امكان الحشر والنشر وذلك لان هذا العشب الذي يأكله الحيوان انما يتولد من الماء والارض فخالق العالم دبر تدبيرا آخر بقلب ذلك الدم لبنا ثم دبر تدبيرا آخر فأحدث من ذلك اللبن السمن والجبن فهذا الاستقراء يدل على انه تعالى قادر على أن يقلب هذه الاجسام من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة فاذا كان كذلك لم يمتنع أيضا أن يكون قادرا على أن يقلب أجزاء أبدان الاموات الى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على أن البعث والقيامة أمر ممكن غير ممتنع وفي حدوث اللبن في الثدي واتصافه بالصفات التي باعتبارها يكون موافقا لتغذية الطفل مشتملة على حكمة عجيبة يشهد صريح العقل بأنها لا تحصل الا بتدبير الفاعل الحكيم المدبر وبيانه من وجوه الاول انه تعالى خلق في أسفل المعدة منفذا يخرج منه ثفل الغذاء فاذا تناول الانسان غذاء أو شربا انطبق ذلك المنفذ انطباقا كليا لا يخرج منه شيء من ذلك المأكول والمشروب الى أن يكمل انهضامه في المعدة وينجذب ما صفى منه الى الكبد ويبقى الثفل هنالك فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ وينزل منه ذلك الثفل وهذا من العجائب التي لا يمكن حصولها الا بتدبير الفاعل الحكيم لانه متى كانت الحاجة الى خروج ذلك الجسم من المعدة انفتح فحصل

الانطباق تارة والانفتاح تارة أخرى بحسب الحاجة وبقدر المنفعة مما لا يتأتى الا بتقدير الفاعل الحكيم الثانى عند تولد اللبن فى الضرع يحدث الله تعالى فى حلمة الثدى ثقبا صغيرة ومسام ضيقة وجعلها بحيث اذا اتصل المص والحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن عنها ولما كانت تلك المسام ضيقة جدا كان لا يخرج منها الا ما كان فى غاية الصفاء واللطافة وأما الاجزاء الكثيفة فانه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى فى الداخل فالحكمة فى احداث تلك الثقب الصغيرة والمنافذ الضيقة فى رأس حلمة الثدى انها تكون كالمصفاة فكل ما كان لطيفا خرج وكل ما كان كثيفا احتبس فى الداخل ولم يخرج فبهذا الطريق يصير اللبن خالصا موافقا لبدن الطفل سائغا للشاربين الثالث أنه تعالى ألهم ذلك الطفل الى المص فان الام كلما ألقت حلمة الثدى فى فم الطفل فذلك الطفل فى الحال يأخذ فى المص ولولا ان الفاعل المختار الرحيم ألهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص والا لم يحصل الانتفاع بتخليق ذلك اللبن فى الثدى وقوله تعالى (ومن ثمرات النخيل والاعناب) متعلق بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والاعناب أى من عصيرهما وحذف لدلالة نسقيكم عليه وقوله تعالى (تتخذون منه سكرا) بيان وكشف عن كنه الاسقاء قال الواحدى الاعناب عطف على الثمرات لا على النخيل لانه يصير التقدير ومن ثمرات الاعناب والعنب نفسه ثمرة وليس له ثمرة أخرى (ورزقا حسنا) كالتمر والزبيب والدبس والخل *(تنبيه)* فى تفسير السكر وجوه الاول هو الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو رشد رشدا ورشدا فان قيل الخمر محرمة فكيف ذكرها الله تعالى فى معرض الانعام (أجيب) عن ذلك بوجهين أحدهما ان هذه السورة مكية وتحريم الخمر نزل فى سورة المائدة فكان نزول هذه الآية كان فى الوقت الذى كانت الخمرة فيه غير محرمة وممن قال بنسخها النخعى والشعبى الثانى أن الآية جامعة بين العتاب والمنة فالعتاب بالنسبة الى السكر والمنة بالنسبة الى رزقا حسنا الوجه الثانى أن السكر هو النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر فاذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد فهو حلال عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى الى حد السكر ويحتج بهذه الآية وبقوله صلى الله عليه وسلم الخمر حرام لعينها وهذا يقتضى أن يكون السكر شيأ غير الخمر وكل من أثبت هذه المغايرة قال انه النبيذ المطبوخ الوجه الثالث أن السكر هو الطعام قاله أبو عبيدة واحتج عليه بقول الشاعر * جعلت اعراض الكرام سكرا * أى تنقلت باعراضهم بان جعلتها نقلا وتنا ولتها والنقل ما يتنقل به على الشراب قال البغوى وأولى الاقاويل ان قوله تعالى تتخذون منه سكرا منسوخ انتهى ويدل له قول الحسن ذكر الله نعمته عليهم فى الخمر قبل أن يحرمها عليهم وروى عن ابن عباس قال السكر ما حرم من ثمرها والرزق الحسن ما أحل من ثمرها وروى عنه أيضا السكر الحرام منه والرزق زبيبه وعنبه ومنافعه * ثم قال تعالى (ان فى ذلك) المذكور (لآية) أى دلالة على قدرته تعالى (لقوم يعقلون) أى يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل فى الآيات فيعلمون ان هذه الاحوال لا يقدر عليها الا الله تعالى فيحتج بحصولها على وجود الاله القادر

الحكيم * ولما بين تعالى أن اخراج الالبان واخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والاعناب دليل قاطع وبرهان ساطع على ان لهذا العالم الها قادرا مختارا حكيما ذكر أن اخراج العسل الذى جعله الله تعالى شفاء للناس من دابة ضعيفة وهى النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على اثبات هذا المقصود بقوله تعالى (وأوحى ربك الى النحل) وحى الهام قال الضحاك الهمها ولم يرسل اليها رسولا والمراد من الالهام انه تعالى قدر فى أنفسها هذه الاعمال العجيبة التى يعجز عنها العقلاء من البشر وبيانه من وجوه الاول ما ذكر الله بقوله تعالى (أن اتخذى) أى بأن اتخذى ويجوز أن تكون مفسرة لان فى الايحاء معنى القول (من الجبال بيوتا) تأوين اليها واعاسمى ما تبنيه لتتعسل فيه بيتا تشبيها ببيت الانسان فتبنى البيوت المسدسة من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طبعها والعقلاء من البشر لا يمكنهم مثل تلك البيوت الا بآلات وانظار دقيقة الثانى انه ثبت فى الهندسة ان تلك البيوت لو كانت مشكلة بأشكال سوى المسدسات كأن كانت مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الاشكال فانه تبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة فاهتداء هذا الحيوان الضعيف الى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الاعاجيب الثالث ان النحل يحصل بينها واحد كالرئيس للبقية وذلك الواحد يكون أعظم جثة من الباقى ويكون نافذ الحكم على تلك البقية وهم يخدمونه ويحملونه عند تعبه وذلك أيضا من الاعاجيب الرابع انها اذا انفردت عن وكرها ذهبت مع الجمعية الى موضع آخر فاذا أرادوا عودها الى وكرها ضربوا الطبول وآلات الموسيقى فبواسطة تلك الالحان يقدرون على ردها الى أوكارها وهذه أيضا حالة عجيبة فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة كان ليس الا على سبيل الالهام وهو حالة شبيهة بالوحى والوحى قد ورد فى حق الانبياء كقوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب وفى حق الاولياء قال تعالى واذ أوحيت الى الحواريين وبمعنى الالهام فى حق البشر قال تعالى وأوحينا الى أم موسى وفى حق سائر الحيوانات خاص قال الزجاج يجوز أن يقال سمى هذا الحيوان نحلا لان الله تعالى نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها وقال غيره النحل يذكر ويؤنث وهى مؤنثة فى لغة الحجاز ولذلك أنثها الله تعالى وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحده الا الهاء (و) اتخذى (من الشجر) أى الصالحة بيوتا (و) اتخذى (مما يعرشون) أى الناس فيبنون تلك الاماكن وذلك أن النحل منه وحشى وهو الذى يسكن الجبال والشجر والكهوف ومنه أهلى وهو الذى يأوى الى البيوت وتربيه الناس عندهم وقد جرت العادة أن الناس يبنون للنحل الاماكن حتى يأوى اليها وذكر ذلك بحرف التبعيض لانها لا تبنى فى كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش من الكرم أو سقف ولا فى كل مكان منها وقرأ ابن عامر وشعبة بضم الراء والباقون بكسرها * (تنبيه) * ظاهر قوله تعالى اتخذى أمر وقد اختلفوا فيه فمن الناس من يقول لا يبعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول ولا يبعد أن يتوجه عليها من الله أمر ونهى وقال آخرون بل المراد منه أنه تعالى خلق فيها

غرائز وطبائع توجب هذه الاحوال وسيأتى الكلام على ذلك ان شاء الله فى سورة النمل عند قوله تعالى يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم * ولما كان أهم شئ للحيوانات بعد الراحة من هم المقيل أكل شئ أتى به فقال (ثم كلى من كل الثمرات) أى من كل ثمرة يشتهيها مرّها وحلوها وذكر ذلك بحرف التراخى اشارة الى عجيب الصنع فى ذلك وتيسيره لها *(تنبيه)* لفظ من هذا للتبعيض أو لابتداء الغاية * ولما أذن لها فى ذلك كله وكان من المعلوم عادة أن تعاطيه لا يكون الا بمشقة عظيمة فى معاناة السير اليه نبه على خرقه العادة فى تيسيره لها بقوله تعالى (فاسلكى سبل ربك) أى الطرق التى ألهمك الله تعالى أن تسلكيها وتدخلى فيها لاجل طلب الثمار وقوله تعالى (ذللا) جمع ذلول حال من السبل أى مسخرة لك فلا تعسر عليك وان توعرت ولا تضلى عن العود فيها وان بعدت وقيل من الضمير فى اسلكى أى منقادة لاربابها حتى انهم ينقلونها من مكان الى مكان آخر حيث شاؤا وأرادوا لا تستعصى عليهم وقوله تعالى (يخرج من بطونها) فيه عدول عن خطاب النحل الى خطاب الناس لانه محل الانعام عليهم والمقصود من خلق النحل والهامه لاجلهم (شراب) أى عسل (مختلف ألوانه) ما بين أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل وذلك على قدر ما تأكل من الثمار والازهار ويستحيل فى بطونها عسلا بقدرة الله تعالى ثم يخرج من أفواهها يسيل كاللعاب وقال الرازى انه رأى فى بعض كتب الطب ان العسل طل من السماء ينزل كالترنجبين فيقع على الازهار وأوراق الشجر فتجمعه النحل فتأكل بعضه وتدخر بعضه فى بيوتها لانفسها لتتغذى به فاذا اجتمع فى بيوتها من تلك الاجزاء الطلية شئ كثير فذلك هو العسل وقال هذا القول أقرب الى العقل لان طبيعة الترنجبين تقرب من طبيعة العسل وأيضا انا نشاهد ان النحل يتغذى بالعسل وأجاب عن قوله تعالى يخرج من بطونها شراب ان كل تجويف داخل البدن يسمى بطنا فقوله يخرج من بطونها أى من أفواهها انتهى والاول كما قال ابن الخازن وغيره أظهر لانا نشاهد ان العسل يوجد فيه طعم تلك الازهار التى يأكلها النحل وكذا توجد لذتها وريحها وطعمها فيه أيضا ويعضد هذا قول بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم له أكلت مغافير قال لا قالت ما هذه الريح التى أجد منك قال سقتنى حفصة شربة عسل قالت جرست نحله العرفط والعرفط شجر الطلح له صمغ يقال له المغافير كريه الرائحة فمعنى جرست نحله العرفط أكلت ورعت من العرفط الذى له الرائحة الكريهة فثبت بهذا أنه يوجد فى طعم العسل ولونه وريحه طعم ما يأكله النحل ولونه وريحه لا ما قاله الاطباء من انه طل لانه لو كان طلا لكان على لون واحد وقوله كل تجويف فى داخل البدن يسمى بطنا خلاف الظاهر لان لفظ البطن اذا أطلق لم يرد به الا العضو المعروف بطن الانسان وغيره (فيه) أى الشراب الذى يخرج من بطون النحل (شفاء للناس) من الاوجاع كما قال ابن عباس وابن مسعود اما لبعضها كما دل عليه تنكير شفاء واما للكل بضميمته الى غيره اذ قل معجون من المعاجين لم يذكر الاطباء فيه العسل أو بدونه بنيته وبهذا اسقط ما قيل انه يضر بأصحاب الصفراء ويهيج الحرارة ويضر بالشباب

المحرورين ويعطش قال ابن مسعود العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور وفي رواية عنه عليكم بالشفاءين القرآن والعسل وروى نافع أن ابن عمر ما كانت قرحة ولا شئ الا لطخ الموضع بالعسل و يقرأ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان أخي يشتكي بطنه فقال صلى الله عليه وسلم اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع فقال اذهب فاسقه العسل فقد صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فشفاه الله فبرأ فكأنما انشط من عقال فقوله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم علم بنور الوحي الالهي أن العسل الذي أمره بشربه سيظهر نفعه بعد ذلك فلما لم يظهر نفعه في الحال قال صدق الله يعني فيما وعده من أن فيه شفاء للناس وكذب بطن أخيك يعني باستعجاله الحكم للشفاء في أول مرة وقال مجاهد الضمير في فيه شفاء للناس راجع للقرآن لان فيه شفاء من أمراض الشرك والجهالة والضلالة وهو هدى ورحمة للناس وعلى هذا تمت قصة تولد العسل من النحل عند قوله تعالى يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ثم ابتدأ وقال فيه شفاء للناس أي في هذا القرآن قال الرازي وهذا قول ضعيف ويدل عليه وجهان الاول أن الضمير في قوله تعالى فيه شفاء للناس يجب عوده الى أقرب المذكورات وما ذاك الا قوله تعالى شراب مختلف ألوانه وأما الحكم بعوده هذا الضمير الى القرآن مع أنه غير مذكور فيما سبق فهو غير مناسب والثاني حديث أبي سعيد الخدري المتقدم * ثم انه تعالى ختم الآية بقوله تعالى (ان في ذلك) أي المذكور (لآية لقوم يتفكرون) أي في اختصاص النحل بتلك الطعوم الرقيقة واللطائف الخفية مثل بناء البيوت المسدسة وغير ذلك فيعتبرون ويستدلون بما ذكرنا على وحدانيتنا وقدرتنا وقد كثر في هذه السورة اضافة الآيات الى المخاطبين تارة بالافراد وتارة بالجمع ونوعها تارة بالعقل وتارة بالفكر وتارة بالذكر وتارة بغيرها * ثم انه تعالى لما أيقظهم من رقدتهم ونبههم على عظيم غفلتهم ثنى ببعض ما في أنفسهم من الادلة على ذلك فقال (والله) أي المحيط بكل شئ قدرة وعلما (خلقكم) أي أوجدكم من العدم وأخرجكم الى الوجود ولم تكونوا شيأ (ثم يتوفاكم) أي عند انقضاء آجالكم على اختلاف الانسان فلا يقدر الصغير أن يؤخر ولا الكبير على أن يقدم فمنكم من يموت على حال قوته (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) أي أخسه من الهرم والخرف قال بعض العلماء عمر الانسان له أربع مراتب سن الطفولية والنمو وهو من أول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية سن الشباب وبلوغ الاشد ثم المرتبة الثانية سن الوقوف وهو من ثلاثة وثلاثين سنة الى أربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل والمرتبة الثالثة سن الكهولة وهو من الاربعين الى الستين وهذه المرتبة يشرع فيها الانسان في النقص لكنه يكون نقصا خفيا لا يظهر ثم المرتبة الرابعة سن الشيخوخة والانحطاط من الستين الى آخر العمر خمسة وستون سنة يتبين النقص ويكون الهرم والخرف قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه أرذل العمر خمسة وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة وقال قتادة تسعون سنة وعن أنس رضي الله

تعالى قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انى أعوذ بك من العجز والهرم والبخل وأعوذ بك من عذاب القبر وفتنة المحيا والممات وفى رواية عنه كان يقول اللهم انى أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات (لكيلا يعلم بعد علم شيأ) أى ليصير الى حالة شبيهة بحال الطفولية فى نقصان القوة والعقل وسوء الفهم * (تنبيه) * هل ذلك عام فى المسلم والكافر أو مختص بالكافر فيه قولان أحدهما انه عام والقول الثانى انه مختص اذ المسلم لا يزداد بطول العمر الا كرامة على الله تعالى ولا يقال فى حقه انه رد الى أرذل العمر قال الرازى والدليل عليه قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين امنوا وعملوا الصالحات فبين ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ما ردوا الى أسفل السافلين وقال عكرمة من قرأ القرآن لم يصر الى هذه الحالة وقال فى قوله تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين قرؤا القرآن وقال ابن عباس قوله ثم رددناه أسفل سافلين يريد الكافرين ثم استثنى المؤمنين فقال الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهذا يؤيد ما مر (ان الله عليم) بمقادير أعمارهم (قدير) يميت الشاب النشيط ويبقى الهرم الفانى وفى ذلك تنبيه على ان تفاوت آجال الناس ليس الا بتقدير قادر حكيم ركب أبنيتهم وعدل أمزجتهم على قدر معلوم ولو كان مقتضى الطباع كما يقول الطبائعيون لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ * ولما ذكر تعالى المفاوتة فى الاعمار المنادية بابطال الطبائع الموجبة للمسابقة الى الاعتبار لأولى الابصار لخوف كل لحظة من مصيبة الموت أتبعها بالمفاوتة فى الارزاق فقال (والله) أى الذى له الامر كله (فضل بعضكم) أيها الناس (على بعض فى الرزق) فمنكم غنى ومنكم فقير ومنكم مالك ومنكم مملوك كل ذلك بتقدير العزيز الحكيم فيجعل الضعيف العاجز الجاهل أغنى من القوى المحتال العالم فترى أكيس الناس وأكثرهم عقلا يفنى عمره فى طلب القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك وترى أجلف الخلق وأقلهم عقلا وفهما تفتح له أبواب الدنيا فكل شئ خطر بباله أودار فى خياله فانه يحصل له بسهولة ولو كان السبب فى ذلك هو جهل الانسان وعقله لوجب أن يكون الاعقل أفضل فى هذه الاحوال فلما رأينا ان الاعقل أقل نصيبا وان الاجهل الاخس أوفر نصيبا علمنا ان ذلك بسبب قسمة القسام كما قال تعالى أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا فاتقوا الله وأجملوا فى طلب الرزق وأقبلوا فى جمع قلوبكم على ما ينفعكم من الاستبصار وأنشد سفيان بن عيينة يقول

كم من قوى قوى فى تقلبه * مهذب الرأى عنه الرزق منحرف
ومن ضعيف ضعيف العقل مختلط * كأنه من خليج البحر يغترف

(وحكى) أن سليمان المهلبى أرسل الى الخليل بن أحمد بمائة ألف درهم فردها الخليل وكتب اليه هذه الابيات

أبلغ سليمان انى عنه فى سعة * وفى غنى غير انى لست ذا مال
شحى بنفسى أنى لا أرى أحدا * يموت جوعا ولا يبقى على حال

فالعجز عن قدرها العجز ينقصه * ولا يزيد له فيه حول محتال
والفقر في النفس لا في المال تعرفه * ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

وقال الشافعي رحمه الله تعالى

ومن الدليل على القضاء وكونه * بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق

(تنبيه) هذا التفاوت ليس مختصا بالمال بل هو حاصل في الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والاسم القبيح وهذا بحر لا ساحل له قال الرازي وقد كنت مصاحبا لبعض الملوك في بعض الاسفار وكان ذلك الملك كثير المال والجاه فكانت الجنائب الكثيرة تقاد بين يديه وما كان يمكنه ركوب واحد منها وربما أحضرت الاطعمة الشهية والفواكه الكثيرة العطرة عنده وما كان يمكنه أن يتناول شيأ منها وكان من الفقراء من هو صحيح المزاج وقوي البنية كامل القوة وما كان يجد مل بطنه طعاما فذلك الملك وان كان يفضل هذا الفقير في المال الا أن هذا الفقير كان يفضل ذلك الملك في الصحة والقوة وهذا باب واسع اذا اعتبره الانسان عظم تعجبه فيه فنسأل الله تعالى أن يغنينا من فضله وأن يرضينا بما قسم لنا انه كريم جواد * ثم ضرب الله تعالى مثلا للذين جعلوا لله شركاء بقوله تعالى (فما الذين فضلوا) أي في الرزق وهم الموالي (برادّي رزقهم على ما ملكت ايمانهم) أي بجاعلي ما رزقناهم من الاموال وغيرها بينهم وبين مماليكهم (فهم) أي المماليك والموالي (فيه سواء) أي شركاء يقول الله تعالى هم لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقناهم سواء فكيف يجعلون بعض عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني وقيل معنى الآية أن الموالي والمماليك أنا الله رازقهم جميعا فهم في رزقه سواء فلا تحسبن الموالي يردون أرزاقهم على مماليكهم من عند أنفسهم بل ذلك رزق الله اجراه على أيدي الموالي للمماليك والمقصود منه بيان أن الرازق هو الله تعالى لجميع خلقه وأن الموالي والمماليك في ذلك الرزق سواء وأن المالك لا يرزق المملوك وانما ذلك رزق أجريته اليهم على أيديهم فالرازق للمالك والمملوك هو الله تعالى * ولما قرر سبحانه وتعالى هذه الدلائل وبينها وأظهرها بحيث يفهمها كل عاقل كان ذلك انعاما عظيما منه على الخلق فعند هذا قال (أفبنعمة الله) في تقرير هذه البيانات وايضاح هذه البينات (يجحدون) أي يكفرون وفي ذلك انكار على المشركين حيث جحدوا نعمته وعبدوا غيره وجعلوا له شركاء يضيفون اليهم بعض ما أنعم به عليهم فيسوون بينهم وبينه في ذلك وقرأ شعبة بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ثم انه تعالى ذكر نوعا آخر من أحوال الناس ليستدل به على وجود الاله المختار الحكيم وتنبيها على انعام الله تعالى على عبيده بمثل هذه النعم بقوله تعالى (والله) أي الذي له تمام القدرة وكمال العلم (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) أي من جنسكم لتستأنسوا بها ولتكون أولادكم منكم فخلق حواء من ضلع آدم وسائر الناس من نطف الرجال والنساء فهو خطاب عام فتخصيصه بآدم وحواء فقط خلاف الدليل والمعنى أنه تعالى خلق النساء لتتزوج بهن الذكور ومعنى من أنفسكم كقوله تعالى فاقتلوا أنفسكم فسلموا على

أنفسكم

أنفسكم أى بعضكم بعضا ونظيره قوله تعالى ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) والحفدة جمع حافد وهو المسرع بالخدمة المسارع الى الطاعة ومنه قول القانت واليك نسعى ونحفد أى نسرع الى طاعتك هذا أصله فى اللغة واختلف فيه أقوال المفسرين فقال ابن مسعود والنخعى الحفدة أختان الرجل على بناته وعن ابن مسعود انهم أصهاره فهو بمعنى الاول وعلى هذا يكون معنى الآية وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهن فيحصل لكم بسببهن الاختان والاصهار وقال الحسن وعكرمة والضحاك هم الخدم وقال مجاهد هم الاعوان وكل من أعانك فهو حفيدك وقال عطاء هم ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه وقال الكلبي ومقاتل البنون هم الصغار والحفدة كبار الاولاد الذين يعينون الرجل الذين ليسوا منه أى أولاد المرأة من الزوج الاول قال الرازى والاولى دخول الكل فيه لان اللفظ محتمل للكل بحسب المعنى المشترك قال الزمخشرى ويجوز أن يراد بالحفدة البنون أنفسهم كأنه قيل جعل لكم منهن أولادا هم بنون وهم حافدون أى جامعون بين الامرين انتهى ومع هذا فالمشهور ان الحافد ولد الولد من الذكور والاناث *(فائدة)* قال الاطباء وأهل الطبيعة المنى اذا انصب الى الخصية اليمنى من الذكر ثم انصب منه الى الجانب الايمن من الرحم كان الولد ذكرا تاما فى الذكورة واذا انصب من الخصية اليسرى ثم انصب الى الجانب الايسر من الرحم كان الولد أنثى تاما فى الانوثة واذا انصب الى الخصية اليمنى وانصب منها الى الجانب الايسر من الرحم كان ذكرا فى طبيعة الاناث واذا انصب الى الخصية اليسرى ثم انصب منها الى الجانب الايمن من الرحم كان هذا الولد أنثى فى طبيعة الذكور وحاصل كلامهم ان الذكور الغالب عليهم الحرارة واليبوسة والغالب على الاناث البرودة والرطوبة وهذه العلة ضعيفة فان فى النساء من مزاجها فى غاية السخونة وفى الرجال من مزاجه فى غاية البرودة فخالق الذكر والانثى هو الاله القادر الحكيم * ولما ذكر تعالى انعامه على عبيده بالمنكوح وما بينه فيه من المنافع والمصالح ذكر انعامه عليهم بالمطعومات الطيبة فقال (ورزقكم من الطيبات) سواء كانت من النبات وهى الثمار والحبوب والاشربة أو كانت من الحيوان والمراد بالطيب المستلذ أو الحلال ومن فى من الطيبات للتبعيض لان كل الطيبات فى الجنة وما طيبات الدنيا الا أنموذج منها واختلف فى تفسير قوله تعالى (أفبالباطل يؤمنون) فقال ابن عباس يعنى بالاصنام وقال مقاتل يعنى بالشيطان وقال عطاء يصدقون ان لى شريكا وصاحبة وولدا (وبنعمت الله هم يكفرون) أى بأن يضيفوها الى غير الله تعالى ويتركون اضافتها الى الله تعالى وقيل الباطل ما سوّل لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله ما أحل لهم من هذه الطيبات وتحريم الخبائث *(فائدة)* رسمت نعمت هنا بالتاء ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء والكسائى يقرأ بالامالة * ولما شرح الله تعالى الدلائل على صحة التوحيد واتبعها بذكر أقسام النعم العظيمة أتبعها بالرد على عبدة الاصنام فقال (ويعبدون من دون الله) أى غيره (ما لا يملك لهم رزقا)

أى تاركين عبادة من بيده جميع الارزاق وهو ذو العلو المطلق الذى رزقهم من الطيبات ويعبدون غيره ثم بين تعالى جهة الرزق بقوله تعالى (من السموات والارض) اما الرزق الذى يأتى من جانب السماء فالمطر وأما الذى من جانب الارض فالنبات والثمار التى تخرج منها وقوله تعالى (شيأ) فيه ثلاثة أوجه أحدها أنه منصوب على المصدر أى لايملك لهم ملكا أى شيأ من الملك والثانى أنه بدل من رزقا أى لايملك لهم شيأ قال ابن عادل وهذا غير مفيد اذ من المعلوم أن الرزق شئ من الاشياء ويؤيد ذلك أن البدل لايأتى الالاحد معنيين البيان أو التأكيد وهذا ليس فيه بيان لانه أعم ولاتأكيد والثالث انه منصوب برزقا على انه اسم مصدر واسم المصدر يعمل عمل المصدر على خلاف فى ذلك * ولما كان من لايملك شيأ قد يكون موصوفا باستطاعة أن يتملك بطريق من الطرق نفى الله تعالى عنهم ذلك بقوله تعالى (ولا يستطيعون) أى وليس لهم نوع استطاعة أصلا (فان قيل) انه تعالى قال ويعبدون من دون الله مالا يملك فعبر عن الاصنام بصيغة ماوهى لغير العاقل ثم جمع بالواو والنون فقال ولا يستطيعون وهو مختص بمن يعقل (أجيب) بأنه عبر عنها ثانيا اعتبارا باعتقادهم انها آلهة وفى تفسير قوله تعالى (فلاتضربوا لله الامثال) وجهان الاول قال أكثر المفسرين لاتشبهوا الله بخلقه فانه واحد لامثل له ولاشبيه ولاشريك من خلقه لان الخلق كلهم عبيده وفى ملكه فكيف يشبه الخالق بالمخلوق والرازق بالمرزوق والقادر بالعاجز الثانى ان عبدة الاوثان كانوا يقولون ان اله العالم أجل وأعظم من ان يعبده الواحد منا بل نحن نعبد الكواكب أونعبد هؤلاء الاصنام ثم ان الكواكب والاصنام عبيد الاله الاكبر الاعظم كما ان أصاغر الناس يخدمون أكابر حفدة الملك وأولئك الاكابر كانوا يخدمون الملك فكذا ههنا (ان الله) أى الذى له الامر كله ولاأمر لغيره (يعلم) أى خطأ ماأنتم عليه من ضرب الامثال له (وأنتم لاتعلمون) ذلك وقيل معناه وأنتم لاتعلمون ماعليكم من العقاب العظيم بسبب عبادة هذه الاصنام ولوعلمتموه لتركتم عبادتها * ولما تمم تعالى ابطال مذهب عبدة الاصنام بسبب العلم الذى هومناط السداد عنهم أكد ذلك بضرب مثل بقوله تعالى (ضرب الله) أى الذى له كمال العلم وتمام القدرة (مثلا) بالاحرار والعبيد ثم أبدل من مثلا (عبدا) وقيده بقوله تعالى (مملوكا) ليخرج الحر لان العبد يطلق على الحر بالنسبة الى الله تعالى وقيده بقوله تعالى (لايقدر على شئ) ليخرج المكاتب ومن فيه شائبة حرية وهذا مثل شركائهم ثم عطف على عبدا قوله (ومن) أى وحرا فهى نكرة موصوفة ليطابق عبدا (رزقناه منا رزقا حسنا) أى واسعا طيبا (فهو ينفق منه) دائما وهو معنى قوله تعالى (سرا وجهرا) أى يتصرف فيه كيف يشاء وهذا مثل الاله وله المثل الاعلى ثم بكتهم انكارا عليهم بقوله تعالى (هل يستوون) أى هذان الفريقان الممثل بهما لان المراد الجنس فاذا كان لايسوغ فى عقل أن يسوى بين مخلوقين أحدهما حر مقتدر والآخر مملوك عاجز فكيف يسوى بين حجر من صوان أو غيره وبين الله تعالى الذى له القدرة التامة على كل شئ وقيل ذلك تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق

(تنبيه)

(تنبيه) جواب هل يستوون هو لايستوون وقوله تعالى (الحمد لله) قال ابن عباس الحمد لله على مافعل باوليائه وأنعم عليهم بالتوحيد وقيل المعنى ان كل الحمد لله وليس شئ من الحمد للاصنام لانه لانعمة لها على أحد لانها جماد عاجز أى انما الحمد لله لالغيره فيجب على جميع العباد حمد الله لانه تعالى أهل المحامد والثناء الحسن فكأنهم قالوا نحن نعلم ذلك فقيل (بل أكثرهم) أى الكفار (لايعلمون) لكونهم يسوّونه غيره ومن نفى عنه أصل العلم الذى هو أعلى صفات الكمال كان فى عداد الانعام فهم لذلك يشبهون به ماذكر ويضربون له الامثال الباطلة ويضيفون نعمه الى غيره ثم انه تعالى ضرب لعبدة الاوثان مثلا آخر بقوله تعالى (وضرب الله مثلا) ثم أبدل منه (رجلين) ثم استأنف البيان لما أجل فقال (أحدهما أبكم) وهو الذى ولد أخرس فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم وروى ثعلب عن ابن الاعرابى الأبكم الذى لايسمع ولا يبصر وصف الله تعالى هذا الرجل بصفة ثانية بقوله تعالى (لايقدر على شئ) لانه لايفهم ولا يفهم وفى ذلك اشارة الى العجز التام والنقصان الكامل ثم وصفه الله تعالى بصفة ثالثة بقوله تعالى (وهو) أى ذلك الابكم العاجز (كلّ على مولاه) أى ثقيل على من ولى أمره ويعوله قال أهل المعانى أصله من الغلظ الذى هو نقيض الحدة يقال كل السكين اذا غلظت شفرته فلم تقطع وكلّ اللسان اذا غلظ فلم يقدر على الكلام وكل فلان عن الامر اذا ثقل عليه فلم ينهض فيه ثم وصفه تعالى بصفة رابعة بقوله (أينما يوجهه) أى يرسله ويصرفه ذلك المولى (لا يأت بخير) لانه عاجز لايحسن ولا يفهم قيل هذا مثل شركائهم الذين هم عيال ووبال على عبدتهم وبخهم الله تعالى بقوله (هل يستوى هو) أى هذا الموصوف بهذه الصفات الاربع (ومن) أى ورجل آخر على ضد صفته فهو ناطق قادر عالم فطن قوى خبير مبارك ميمون (يأمر) أى ورجل آخر يأمر عياله من العلم والقدرة (بالعدل) أى يبذل النصيحة لغيره (وهو) فى نفسه ظاهرا وباطنا (على صراط) أى طريق واضح (مستقيم) أى عامل فيه بما يأمر به قيل هذا مثال المعبود بالحق الذى يكفى عابده جميع المؤن وهو دال على كمال علمه وتمام قدرته وقيل المراد من هذا الابكم عبد لعثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه كان ذلك العبد يكره الاسلام وما كان فيه خير ومولاه وهو عثمان يأمر بالعدل وكان على الدين القويم والصراط المستقيم وقيل المراد كل عبد موصوف بهذه الصفات المذمومة وكل حر موصوف بتلك الصفات الحميدة وهذا القول كما قال الرازى أولى من الاول لان وصفه تعالى اياهما بكونهما رجلين يمنع من حمل ذلك على الوثن وكذلك بالبكم وبالكل وبالتوجه فى جهات المنافع وكذلك وصف الآخر بأنه على صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى وأيضا المقصود تشبيه صورة بصورة فى أمر من الامور وذلك التشبيه لايتم الاعند كون احدى الصورتين مغايرة للاخرى وأما القول الثانى فضعيف أيضا لان المقصود ابانة التفرقة بين رجلين موصوفين بالصفات المذكورة وذلك غير مختص بشخص معين بل اذا حصل التفاوت فى الصفات المذكورة فانه يحصل المقصود ثم وصف سبحانه وتعالى نفسه بكمال العلم بقوله تعالى (ولله) أى لالغيره (غيب السموات

(والارض) وهو ما غاب فيهما عن العباد بأن لم يكن محسوسا ولم يدل عليه محسوس وقيل الغيب هنا هو قيام الساعة فان علمه غائب عن أهل السموات والارض ثم وصف سبحانه وتعالى كمال قدرته بقوله تعالى (وما أمر الساعة) وهو الوقت الذى يكون فيه البعث (الا كلمح البصر) أى الا كرجع الطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها والمعنى وما أمر قيام الساعة فى السرعة والسهولة الا كطرف العين والمراد منه تقدير كمال القدرة ومعنى قوله تعالى (أو هو أقرب) ان لمح البصر عبارة عن انتقال الجسم المسمى بالطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها ولا شك أن الحدقة مؤلفة من أجزاء فلمح البصر عبارة عن المرور على جملة تلك الاجزاء التى منها تألف الحدقة ولا شك أن تلك الاجزاء كثيرة والزمان الذى يحصل فيه لمح البصر مركب من آنات متعاقبة والله تعالى قادر على اقامة القيامة فى آن واحد من تلك الآنات فلذلك قال أو هو أقرب الا أنه لما كان أسرع الاحوال والحوادث فى عقولنا وأفكارنا هو لمح البصر لاجرم ذكره ثم قال أو هو أقرب تنبيها على ما مر ولا شبهة فى أنه ليس المراد طريقة الشك فالمراد اذا بل هو أقرب وقال الزجاج المراد به الابهام على المخاطبين لا أنه تعالى يأتى بالساعة اما بقدر لمح البصر أو بما هو أسرع وقيل معناه ان قيام الساعة وان تراخى فهو عند الله كالشئ الذى تقولون فيه هو كلمح البصر أو هو أقرب مبالغة كقوله تعالى وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون (ان الله) أى الملك الاعظم (على كل شئ قدير) فيقدر على أن يحيى الخلائق دفعة واحدة كما قدر على احيائهم فانه تعالى مهما أراده كان فى أسرع ما يكون ثم انه تعالى عاد الى الدلائل الدالة على وجود الصانع المختار فعطف على قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا قوله عز وجل (والله) أى الذى له العظمة كلها (أخرجكم) بقدرته (من بطون أمهاتكم) حال كونكم عند الاخراج (لا تعلمون شيأ) من الاشياء قل أو جل فالذى أخرجكم منها قادر على اخراجكم من بطون الارض بلا فرق بل بطريق الاولى وقرأ حمزة والكسائى بكسر الهمزة والباقون بضمها وقرأ حمزة بكسر الميم والباقون بفتحها ثم عطف على أخرجكم قوله تعالى (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) آلات لازالة الجهل الذى وقعت الولادة عليه وفتق مواضعها وسواها وعدلها وأنتم فى البطون حيث لا تصل اليه يد ولا تتمكن من شق شئ منه بآلة فالذى قدر على ذلك فى البطن ابداعا قادر على اعادته فى بطن الارض بل بطريق الاولى قال البقاعى ولعله تعالى جمعهما أى الابصار والافئدة دون السمع لان التفاوت فيهما أكثر من التفاوت فيه بما لا يعلمه الا الله والافئدة هى القلوب التى هيأها الله تعالى للفهم واصلاح البدن بما أودعها من الحرارة اللطيفة للمعانى الدقيقة (لعلكم تشكرون) لتصيروا بمعارف القلوب التى وهبكموها اذا سمعتم المواعظ وأبصرتم الآيات فى حال يرجى فيها شكركم لما أفاض عليكم من لطائف صنعه بأن تعرفوا ماله من العلم والقدرة فانه انما أنعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها فى شكر من أنعم بها عليكم (فان قيل) عطف وجعل لكم السمع على أخرجكم يقتضى أن يكون جعل السمع والبصر متأخرين عن الاخراج من البطون مع أن

الامر ليس كذلك (أجيب) بأن حرف الواو لا يوجب الترتيب وأيضا اذا حملنا السمع على الاسماع والابصار على الرؤية زال السؤال ثم انه تعالى ذكر دليلا آخر على كمال قدرته وحكمته بقوله تعالى (ألم يروا الى الطير مسخرات) أى مذللات للطيران (فى جو السماء) أى فى الهواء بين الخافقين مما لا يقدرون عليه بوجه من الوجوه مع مشاركتكم اياها فى السمع والبصر وزيادتكم عليها بالعقول فعلم قطعا أنه تعالى خلق الطير خلقة معها يمكنه الطيران فيها والا لما أمكن ذلك لانه تعالى أعطى الطير جناحا يبسطه مرة ويكسره مرة أخرى مثل ما يعمل السابح فى الماء وخلق الجو خلقة لطيفة رقيقة يسهل خرقه والنفاذ فيه ولولا ذلك لما كان الطيران ممكنا ومع ذلك (ما يمسكهن) فى الجو عن الوقوع (الا الله) أى الملك الاعظم فان جسد الطير جسم ثقيل والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه فى الجو معلقا من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه فوجب أن يكون الممسك له فى ذلك الجو هو الله تعالى وقرأ ابن عامر وحمزة بالتاء على أنه خطاب العامة والباقون بالياء على الغيبة (ان فى ذلك) المذكور (لآيات) أى دلالات (لقوم يؤمنون) وخصهم بذلك لانهم هم المنتفعون بها وان كانت هذه الآيات آيات لكل العقلاء ثم ذكر تعالى نوعا آخر من دلائل التوحيد بقوله تعالى (والله) أى الذى له الحكمة البالغة (جعل لكم من بيوتكم) وأصل البيت المأوى ليلا ثم اتسع فيه (سكنا) أى موضعا لتسكنوا فيه *(تنبيه)* البيوت التى يسكن الانسان فيها على قسمين أحدهما البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التى بها يمكن تسقيف البيوت واليها الاشارة بقوله تعالى والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقلها بل الانسان ينتقل اليها والقسم الثانى القباب والخيام والفساطيط واليها الاشارة بقوله تعالى (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) المتخذة من الادم ويجوز أن يتناول المتخذة من الوبر والصوف والشعر فانها من حيث انها نابتة على جلودها يصدق عليها انها من جلودها (تستخفونها) أى تتخذونها خفيفة يخف عليكم حملها ونقلها (يوم ظعنكم) أى وقت ترحالكم وعبر باليوم لان الترحال فى النهار (ويوم اقامتكم) أى وقت الحضر أو وقت النزول وهذا القسم من البيوت يمكن نقلها وتحويلها من مكان الى مكان وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح العين والباقون بالسكون وأضاف قوله تعالى (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) الى ضمير الانعام لانها من جملتها قال المفسرون وأهل اللغة الاصواف للضأن والاوبار للابل والاشعار للمعز (أثاثا) أى ما يلبس ويفرش (ومتاعا) أى ما يتجر به وقيل الاثاث ما يكتسى به المرء ويستعمله فى الغطاء والوطاء والمتاع ما يفرش فى المنازل ويتزين به واختلف فى معنى قوله تعالى (الى حين) فقيل الى حين تبلى وقيل الى حين الموت وقيل الى حين بعد حين وقيل الى يوم القيامة *(تنبيه)* فى نصب أثاثا وجهان أحدهما أنه منصوب عطفا على بيوتا أى وجعل لكم من أصوافها أثاثا والثانى أنه منصوب على الحال واعلم أن الانسان اما أن يكون مقيما أو مسافرا والمسافر اما أن يكون غنيا يستصحب معه الخيام أولا فالقسم الاول أشار اليه بقوله تعالى جعل لكم من بيوتكم سكنا

وأشار الى القسم الثانى بقوله تعالى وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا وأشار الى القسم الثالث بقوله تعالى (والله) أى الذى له الجلال والاكرام (جعل لكم) أى من غير حاجة منه تعالى (مما خلق) من شجر وجبال وأبنية وغيرها وقوله تعالى (ظلالا) جمع ظل تتقون به شدة الحر وقوله تعالى (وجعل لكم) مع غناه المطلق (من الجبال أكنانا) جمع كن موضع تسكنون فيه من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها (وجعل لكم) أى امتنانا منه عليكم (سرابيل) جمع سربال قال الزجاج كل ما لبسته فهو سربال من قميص أو درع أو جوشن أو غيره أى وسواء كان من صوف أو كتان أو قطن أو غير ذلك (تقيكم الحر) ولم يقل تعالى والبرد لتقدمه فى قوله تعالى فيها دفء وقيل انه اكتفى بأحد المتقابلين وقيل كان المخاطبون بهذا الكلام العرب وبلادهم حارة فكان حاجتهم الى ما يدفع الحر فوق حاجتهم الى ما يدفع البرد كما قال تعالى ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها وسائر أنواع الثياب أشرف الا أنه تعالى ذكر ذلك النوع لانه كان الفهم بها أشد واعتيادهم للبسها أكثر ولما كانت السرابيل نوعا واحدا لم يكرر لفظ جعل فقال (وسرابيل) أى دروعا من حديد وغيرها (تقيكم بأسكم) أى حربكم أى فى الطعن والضرب فيها * ولما عدد الله تعالى أنواع نعمه قال (كذلك) أى كاتمام هذه النعمة المتقدمة (يتم نعمته عليكم) فى الدنيا والدين بالبيان والهداية لطريق النجاة والمنافع والتنبيه على دقائق ذلك (لعلكم) يا أهل مكة (تسلمون) أى تخلصون لله الربوبية وتعلمون أنه لا يقدر على هذه الانعامات أحد سواه وقيل تسلمون من الجراح بلبس الدروع (فان تولوا) فلم يقبلوا منك وآثروا لذات الدنيا ومتابعة الآباء والمعاداة فى الكفر (فانما عليك) يا أفضل الخلق (البلاغ المبين) هذا جواب الشرط وفى الحقيقة جواب الشرط محذوف أى فقد تمهد عذرك بعد ما أديت ما وجب عليك من التبليغ فذكر سبب العذر وهو البلاغ ليدل على المسبب وذلك لان تبليغه سبب فى عذره فأقيم السبب مقام المسبب وهذا قبل الامر بالقتال ثم انه تعالى ذمهم بأنهم (يعرفون نعمة الله) أى الملك الاعظم التى تقدم عد بعضها فى هذه السورة وغيرها (ثم ينكرونها) بعبادتهم غير المنعم بها وقال السدى نعمة الله يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم أنكروه وكذبوه وقيل نعمة الله هى الاسلام وهو من أعظم النعم التى أنعم الله تعالى بها على عباده ثم ان كفار مكة أنكروه وجحدوه واختلف فى معنى قوله تعالى (وأكثرهم الكافرون) مع أنهم كلهم كانوا كافرين على وجوه الاول انما قال تعالى وأكثرهم لانه كان فيهم من لم تقم عليه الحجة ممن لم يبلغ حد التكليف أو كان ناقص العقل فأراد بالاكثر البالغين الاصحاء الثانى أن يكون المراد بالكافر الجاحد المعاند وكان فيهم من لم يكن معاندا بل كان جاهلا بصدق الرسول وما ظهر له كونه نبيا حقا من عند الله الثالث انه ذكر الاكثر والمراد الجميع لان أكثر الشئ يقوم مقام الكل فذكر الاكثر كذكر الجميع وهذا كقوله تعالى الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * ولما بين تعالى من حال القوم انهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها وذكر أيضا من حالهم أن أكثرهم كافرون اتبعه بالوعيد فذكر حال يوم القيامة بقوله تعالى (ويوم) أى وخوفهم

يوم أو واذكر لهم يوم (نبعث) بعد البعث (من كل أمة شهيدا) هو نبيها كما قال تعالى
فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا يشهد نبيها لها وعليها يوم
القيامة ليحكم تعالى بقوله اجراء للامر على ما يتعارفون وان كان تعالى غنيا عن شهيد وقوله
تعالى (ثم لا يؤذن للذين كفروا) فيه وجوه أحدها لا يؤذن لهم في الاعتذار كقوله تعالى ولا
يؤذن لهم فيعتذرون ثانيها لا يؤذن لهم في كثرة الكلام ثالثها لا يؤذن لهم في الرجوع الى
دار الدنيا والى التكليف رابعها لا يؤذن لهم في حال شهادة الشهود بل يسكت أهل الجمع كلهم
ليشهد الشهود (فان قيل) ما معنى ثم ههنا (أجيب) بأن معناها أنهم يمنعون أي يبتلون بغير
شهادة الانبياء عليهم السلام بما هو أطم منها وانهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم في القاء معذرة
ولا ادلاء بحجة (ولا هم يستعتبون) أي لا تزال عتباهم وهي ما يعتبون عليها ويلامون يقال
استعتبت فلانا بمعنى اعتبته اي ازلت عتباه (واذا رأى الذين ظلموا) أي ظلموا أنفسهم بالكفر
والمعاصي (العذاب) أي عذاب جهنم بعد الموقف وشهادة الشهداء (فلا يخفف عنهم)
ذلك العذاب (ولا هم ينظرون) أي لا يمهلون * ولما بين تعالى حاصل أمرهم في البعث وما بعده
وكان من أهم المهم أمرهم في الموقف مع شركائهم الذين كانوا يرجونهم عطف على ذلك بقوله
تعالى (واذا رأى) أي بالعين يوم القيامة (الذين أشركوا شركاءهم) أي الآلهة التي كانوا
يدعونها شركاء من الشياطين وغيرها (قالوا ربنا) أي يا من أحسن الينا وربانا (هؤلاء شركاؤنا)
أضافوهم الى أنفسهم لانه لا حقيقة لشركتهم سوى تسميتهم لها الموجبة لضرهم ثم بينوا
المراد بقولهم (الذين كنا ندعوا) أي نعبدهم (من دونك) ليقربونا اليك فأكرمنا لاجلهم جريا
على مناهجهم في الدنيا في الجهل والغباوة فخاف شركاؤهم من عواقب هذا القول والاقرار
عليه سطوات الغضب (فألقوا) أي الشركاء (اليهم) أي المشركين (القول) أي بادروا به حتى
كان اسراعهم اليه اسراع شئ ثقيل يلقى من علو وأكدوا قولهم فقالوا (انكم لكاذبون)
في جعلنا شركاء وانكم عبدتمونا حقيقة وانما عبدتم أهواءكم كقوله تعالى كلا سيكفرون
بعبادتهم ولا يبعد أن تنطق الاصنام بذلك يومئذ في انهم حملوهم على الكفر وألزموهم اياه
كقوله وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي (وألقوا) أي الشركاء
(الى الله) أي الملك الاعلى (يومئذ) أي يوم القيامة (السلم) أي الاستسلام بحكمه بعد
الاستكبار في الدنيا (وضل) أي غاب (عنهم) أي الكفار (ما كانوا يفترون) أي من أن
آلهتهم تشفع لهم * ولما ذكر تعالى وعيد الذين كفروا أتبعه بوعيد من ضم الى كفره صد الغير
عن سبيل الله بقوله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) أي ضموا مع كفرهم انهم
منعوا الناس عن الدخول في الايمان بالله وبرسوله (زدناهم عذابا) لصدهم (فوق العذاب)
المستحق بكفرهم (بما كانوا يفسدون) أي بكونهم مفسدين بصدهم وقيل زدناهم عذابا بالحيات
وعقارب كأمثال البخت يستغيثون بالهرب منها الى النار ومنهم من ذكر أن لكل عقرب ستمائة
فقرة في كل فقرة ثلثمائة قلة من سم وقيل عقارب لها أنياب كالنخل الطوال ثم كرر سبحانه

وتعالى التحذير من ذلك اليوم على وجه يزيد على ما أفهمته الآية السابقة وهو أن الشهادة تقع على الامم لا لهم وتكون بحضرتهم فقال (ويوم) أى وخوفهم أو واذكر لهم يوم (نبعث) أى بما لنا من القدرة (فى كل أمة) من الامم والامة عبارة عن القرن والجماعة (شهيدا عليهم) قال ابن عباس يريد الانبياء قال المفسرون كل نبى شاهد على أمته وهو أعدل شاهد عليها (من أنفسهم) أى منهم لان كل نبى انما بعث من قومه الذين بعث اليهم ليشهدوا عليهم بما فعلوا من كفر وايمان وطاعة وعصيان (وجئنا) بما لنا من العظمة (بك) يا خير المرسلين (شهيدا على هؤلاء) أى الذين بعثناك اليهم وهم أهل الارض وأكثرهم ليس من قومه صلى الله عليه وسلم ولذلك لم تقيد بعثته بشئ وقال ابو بكر الاصم المراد بذلك الشهيد هو أنه تعالى ينطق عشرة من أعضاء الانسان حتى انها تشهد عليه وهو الاذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان قال والدليل عليه ما قاله فى صفة الشهيد أنه من أنفسهم وهذه الاعضاء لا شك أنها من أنفسهم ورد بأنه تعالى قال شهيدا عليهم فيجب أن يكون غيرهم وأيضا قال من كل أمة فيجب أن يكون ذلك الشهيد من الامة وآحاد هذه الاعضاء لا يصح وصفها بأنها من الامة ثم بين تعالى أنه أزاح عللهم فيما كلفوا به فلا حجة لهم ولا معذرة بقوله تعالى (ونزلنا) أى بعظمتنا بحسب التدريج والتنجيم (عليك) يا خير خلق الله (الكتاب) أى القرآن الجامع للهدى (تبيانا) أى بيانا بليغا (لكل شئ) (فان قيل) كيف كان القرآن تبيانا لكل شئ (أجيب) بأن المعنى من كل شئ من أمور الدين حيث كان نصا على بعضها واحالة على السنة حيث أمر فيه باتباع النبى صلى الله عليه وسلم وطاعته وقد قال تعالى وما ينطق عن الهوى وحثا على الاجماع فى قوله تعالى ويتبع غير سبيل المؤمنين وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته اتباع أصحابه والاقتداء بآثارهم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق القياس والاجتهاد فكانت السنة والاجماع والقياس والاجتهاد مستندة الى تبيان الكتاب فمن ثم كان تبيانا لكل شئ (وهدى) أى من الضلالة (ورحمة) لمن آمن به وصدقه (وبشرى) بالجنة (للمسلمين) أى الموحدين خاصة * ولما استقصى سبحانه وتعالى فى شرح الوعد والوعيد والرغبة والترهيب أتبعه بقوله (ان الله) أى الملك المستجمع لصفات الكمال (يأمر بالعدل) قال ابن عباس فى بعض الروايات العدل شهادة أن لا اله الا الله (والاحسان) أداء الفرائض وقال فى رواية أخرى العدل خلع الانداد والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحب للناس ما تحب لنفسك فان كان مؤمنا أحببت له أن يزداد ايمانا وان كان كافرا أحببت له أن يكون أخاك فى الاسلام وقال فى رواية ثالثة العدل هو التوحيد والاحسان هو الاخلاص فيه وقال آخرون يعنى بالعدل فى الافعال والاحسان فى الاقوال فلا تفعل الا ما هو عدل ولا تقل الا ما هو احسان وأصل العدل المساواة فى كل شئ من غير زيادة ولا نقصان فالعدل هو المساواة فى المكافأة ان خيرا فخير وان شرا فشر والاحسان أن تقابل الخير بأكثر منه والشر بأن تعفو عنه وعن الشعبى قال عيسى بن مريم انما الاحسان أن تحسن

الى من أساء اليك ليس الاحسان أن تحسن الى من أحسن اليك وقيل العدل الانصاف والانصاف أعدل من الاعتراف للمنعم بانعامه والاحسان ان تحسن الى من أساء اليك وعن محمد بن كعب القرظى قال دعانى عمر بن عبد العزيز فقال صف لى العدل فقلت بخ سألت عن أمر جسيم كن لصغير الناس أبا ولكبيرهم ابنا وللمثل منهم أخا وللنساء كذلك (وايتاء) أى ومن الاحسان ايتاء (ذى القربى) أى القرابة القربى والبعدى فيندب أن تصلهم من فضل مارزقك الله فان لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتودد وروى أبو سلمة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم ان أهل هذا البيت ليكونون تجارا فتنمى أموالهم ويكثر عددهم اذا وصلوا أرحامهم * ولما أمر تعالى بالمكارم نهى عن المساوى بقوله تعالى (وينهى عن الفحشاء) قال ابن عباس أى الزنا فانه اقبح احوال الانسان وأشنعها وقال غيره الفحشاء ماقبح من القول والفعل فيدخل فيه الزنا وغيره من جميع الاقوال والافعال المذمومة جميعها (والمنكر) قال ابن عباس يعنى الشرك والكفر وقال غيره المنكر مالا يعرف فى شريعة أو سنة (والبغى) هو الاستيلاء على الناس والتجبر عليهم قيل ان أعجل المعاصى عقابا البغى ولو أن جبلين بغى أحدهما على الآخر لدك الباغى ونص تعالى على البغى مع دخوله فى المنكر اهتماما به كما بدأ بالفحشاء لذلك وقال ابن قتيبة فى هذه الآية العدل استواء السر والعلانية والاحسان أن تكون سريرته خيرا من علانيته والفحشاء والمنكر والبغى أن تكون علانيته أحسن من سريرته وقال بعض العلماء ان الله تعالى ذكر من المأمورات ثلاثة أشياء ومن المنهيات ثلاثة أشياء فذكر العدل وهو الانصاف والمساواة فى الاقوال والافعال وذكر فى مقابلته الفحشاء وهو ماقبح من الاقوال والافعال وذكر الاحسان وهو ان يعفو عمن ظلمه ويحسن الى من أساء اليه وذكر فى مقابلته المنكر وهو أن ينكر احسان من أحسن اليه وذكر ايتاء ذى القربى والمراد به صلة القرابة والتودد اليهم والشفقة عليهم وذكر فى مقابلته البغى وهو أن يتكبر عليهم أو يظلمهم حقوقهم ولما كان هذا المذكور من أبلغ المواعظ نبه عليه بقوله تعالى (يعظكم) أى يأمركم بما يرقق قلوبكم من مصاحبة الثلاثة الاول وهى العدل والاحسان وايتاء ذى القربى ومجانبة الثلاثة الاخيرة وهى الفحشاء والمنكر والبغى (لعلكم تذكرون) أى لكى تتعظوا فتعملوا بما فيه رضا الله تعالى وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد وفيه ادغام التاء فى الاصل فى الذال وروى البيهقى فى شعب الايمان عن ابن مسعود انه قال أعظم آية فى كتاب الله تعالى الله لا اله الا هو الحى القيوم وأجمع آية فى كتاب الله للخير والشر الآية التى فى النحل ان الله يأمر بالعدل والاحسان وأكثر آية فى كتاب الله تفويضا ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وأشد آية فى كتاب الله تعالى رجاء قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم الآية وقال أهل المعانى لما قال الله تعالى فى الآية الاولى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ بين فى هذه الآية المأمور به والمنهى عنه على سبيل الاجمال فما من شئ يحتاج

اليه الناس فى أمر دينهم مما يجب أن يؤتى به أو يترك الا وقد اشتملت عليه هذه الآية وعن قتادة ليس من خلق حسن كان من أهل الجاهلية يعملون به ويعظمونه ويخشونه الا أمر الله تعالى به وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم الا نهى الله عنه وعن عكرمة ان النبى صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة ان الله يأمر بالعدل والاحسان الى آخر الآية فقال له يا ابن أخى أعد على فأعادها عليه فقال الوليد والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وما هو بقول البشر ولما تقررت هذه الجمل التى جمعت بجمعها المأمورات والمنهيات ما تضيق عنه الدفاتر والصدور وشهد لها المعاندون من بلغاء العرب انها بلغت من البلاغة مبلغا يصل به غاية السرور ذكر بعض تلك الاقسام وبدأ بما هو مع جمعه أهم وهو الوفاء بالعهد بقوله تعالى (وأوفوا) أى أوقعوا الوفاء الذى لا وفاء فى الحقيقة غيره (بعهد الله) أى الملك الاعلى الذى عاهدكم عليه بادلة العقل من التوحيد والبيع والايمان وغيرها من أصول الدين وفروعه (اذا عاهدتم) بتقبلكم له باذعانكم لامتثاله (ولا تنقضوا الايمان) واحترز عن لغو اليمين بقوله تعالى (بعد توكيدها) أى تشديدها فتحنثوا فيها وفى ذلك دليل على أن المراد بالعهد غير اليمين لانه أعم منه وقرأ أبو عمرو بادغام الدال فى التاء بخلاف عنه (و) الحال انكم (قد جعلتم الله) أى الذى له العظمة كلها (عليكم كفيلا) أى شاهدا ورقيبا وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام وعن جابر رضى الله عنه قال نزلت هذه الآية فى بيعة النبى صلى الله عليه وسلم كان من أسلم بايع على الاسلام فقال تعالى وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الاسلام (ان الله) أى الذى له الاحاطة الكاملة (يعلم ما تفعلون) من وفاء العهد ونقضه ثم ضرب الله تعالى لنقض العهد مثلا فقال (ولا تكونوا) أى فى نقض العهد (كالتى نقضت غزلها) أى ما غزلته فهو مصدر بمعنى المفعول (من بعد قوة) أى ابرام واحكام وقوله تعالى (أنكاثا) جمع نكث وهو ما ينقض من الغزل والحبل قال مقاتل هذه امرأة من قريش يقال لها رائطة وقيل ريطة وتلقب بجعواء وكانت خرقاء حمقاء لها وسوسة اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل اصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل من الصوف والشعر والوبر هى وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن وكان هذا دأبها وقال السدى كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء مكة تغزل فاذا برمت غزلها نقضته وقال مجاهد نقضت حبلها بعد ابرامها اياه وقال قتادة لو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد ابرامه لقلتم ما أحمق هذه وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده وقال فى قوله تعالى (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) خيانة وغدرا انتهى والدخل ما يدخل فى الشىء على سبيل الفساد وقيل الدخل والدغل أن يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه وانما كانوا يفعلون ذلك (أن) أى بسبب أن (تكون) أو مخافة أن تكون وتكون يجوز أن تكون تامة فتكون (أمة) أى جماعة فاعلها وأن تكون ناقصة فتكون أمة اسمها و (هى) مبتدأ و (أربى) أى أكثر (من أمة)

خبره والجملة فى محل نصب على الحال على الوجه الاول وفى موضع الخبر على الثانى وأربى مأخوذ من ربا الشئ يربو اذا زاد وهذه الزيادة قد تكون فى العدد وفى القوة وفى الشرف قال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء ثم يجدون من كان أعز منهم وأشرف فينقضون حلف الاولين ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز فنهاهم الله تعالى عن ذلك (انما يبلوكم الله) الذى له الملك كله أى يختبركم (به) أى يعاملكم معاملة المختبر ليظهر للناس تمسككم بالوفاء وانخلاعكم عنه اعتمادا على كثرة أنصاركم وقلة أنصار من نقضتم عهده من المؤمنين أو غيرهم مع قدرته سبحانه وتعالى على ما يريد فيوشك أن يعاقب بالمخالفة فيضعف القوى ويقال الكثير ويكثر القليل (وليبينن لكم) أى اذا تجلى لفصل القضاء (يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) أى اذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب فاحذروا يوم العرض على مالك السموات والارض وأن من نوقش الحساب يهلك (ولو شاء الله) أى الملك الاعلى الذى لا أثر لاحد معه أن يجعلكم أمة واحدة لا خلاف بينكم فى أصول الدين ولا فروعه (لجعلكم أمة واحدة) أى متفقة على أمر واحد وهو دين الاسلام (ولكن) لم يشأ ذلك بل شاء اختلافكم فهو تعالى (يضل من يشاء) عدلا منه تعالى لانه تام الملك ولو كان الذى أضله على أحسن الحالات (ويهدى) بفضله (من يشاء) ولو كان على أخس الحالات والاحوال فبذلك تكونون مختلفين لا يسئل عما يفعل سبحانه وتعالى (ولتسئلن عما كنتم تعملون) فى الدنيا فيجازى المحسن باحسانه ويعاقب المسىء بعدله تعالى * ولما حذر سبحانه وتعالى عن نقض العهد والايمان مطلقا قال تعالى (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا) أى فسادا ومكرا وخديعة (بينكم) وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق الايمان والالزم التكرار الخالى عن الفائدة فى موضع واحد بل المراد نهى أولئك الاقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن بعض أيمان مخصوصة أقدموا عليها فلهذا المعنى قال المفسرون المراد نهى الذين بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم عن نقض العهد لان قوله تعالى (فتزل) أى فيكون ذلك سببا لان تزل (قدم) هى فى غاية العظمة (بعد ثبوتها) أى عن مركزها التى كانت به من دين أو دنيا فلا يصير لها قرار فتسقط عن مرتبتها لا يليق بنقض عهد قبله وانما يليق بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان به وبشرائعه * (تنبيه) * فتزل منصوب باضمار أن على جواب النهى وزلل القدم مثل يذكر لكل من وقع فى بلاء بعد عافية أو سقط فى ورطة بعد سلامة أو محنة بعد نعمة (وتذوقوا السوء) أى العذاب فى الدنيا (بما) أى بسبب ما (صددتم) أى أنفسكم ومنعتم غيركم بأيمانكم التى قد أردتم بها الافساد وخفاء الحق (عن سبيل الله) أى دينه وذلك أن من نقض العهد سهل على غيره طرق نقض العهد فيستن به (ولكم) مع ذلك (عذاب عظيم) أى ثابت غير منفك اذا متم على ذلك ثم أكد سبحانه وتعالى هذا التحذير بقوله تعالى (ولا تشتروا) أى ولا تتكلفوا أنفسكم لجاجا وتركا للنظر أن تأخذوا وتستبدلوا (بعهد الله) الذى له الكمال كله (ثمنا قليلا) أى من حطام الدنيا وان كنتم ترونه كثيرا ثم علل قلته بقوله تعالى (انما عند الله)

أى الذى له الجلال والاكرام من ثواب الدارين (هو خير لكم) ولا يعدل عن الخير الى غيره الا لجوج ناقص العقل ثم شرط علم خيريته لكونهم من ذوى العلم بقوله تعالى (ان كنتم تعلمون) أى ان كنتم من أهل العلم والتمييز فتعلمون فضل ما بين العوضين ثم بين ذلك بقوله تعالى (ما عندكم) أى من متاع الدنيا ولذاتها (ينفد) أى يفنى فصاحبه منغص العيش أشد ما يكون به اغتباطا بانقطاعه (وما عند الله) أى الذى له الامر كله من ثواب الآخرة ونعيم الجنة (باق) أى دائم روى عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى وقرأ ابن كثير باقى فى الوقف بالياء والباقون بغيرياء وأما فى الوصل فالجميع بالتنوين (ولنجزين الذين صبروا) على الوفاء بما يرضيه من الاوامر والنواهى فى السراء والضراء (أجرهم) أى ثواب صبرهم (بأحسن ما كانوا يعملون) أى بجزاء أحسن من أعمالهم أو يجزيهم على أحسن أعمالهم وذلك لان المؤمن قد يأتى بالمباحات وبالمندوبات وبالواجبات ولا شك أن الواجبات والمندوبات مما يثاب على فعلها لا على فعل المباحات وقرأ ابن كثير وعاصم بالنون قبل الجيم أى ولنجزين نحن والباقون بالياء أى وليجزين الله ثم انه تعالى رغب المؤمنين فى الايمان بكل ما كان من شرائع الاسلام بقوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) اذ لا اعتداد بأعمال الكفار فى استحقاق الثواب وانما المتوقع عليها تخفيف العذاب (فان قيل) من عمل صالحا يفيد العموم فما فائدة من ذكر أو أنثى (أجيب) بأنه ذكر دفعا للتخصيص بأحد الفريقين واختلف فى قوله تعالى (فلنحيينه حياة طيبة) فقال سعيد بن جبير وعطاء هى الرزق الحلال وقال مقاتل هى العيش فى الطاعة وقال الحسن هى القناعة لان عيش المؤمن فى الدنيا وان كان فقيرا أطيب من عيش الكافر وان كان غنيا لان المؤمن لما علم أن رزقه من عند الله تعالى وذلك بتقديره وتدبيره تعالى وعرف أن الله تعالى محسن كريم حكيم يضع الاشياء فى محلها فكان المؤمن راضيا بقضاء الله وبما قدره له ورزقه اياه وعرف أن مصلحته فى ذلك القدر الذى رزقه فاستراحت نفسه من الكدر والحرص فطاب عيشه بذلك وأما الكافر والجاهل بهذه الاصول فدائم الحرص على طلب الرزق فيكون أبدا فى حزن وتعب وعناء وحرص فى الدنيا ولا ينال من الرزق الا ما قدر له فظهر بهذا أن عيش المؤمن القنوع أطيب من غيره وقال السدى الحياة الطيبة انما تحصل فى القبر لان المؤمن يستريح بالموت من كد الدنيا وتعبها وقال مجاهد وقتادة هى الجنة لانها حياة بلا موت وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم وملك بلا هلك وسعادة بلا شقاوة فأثبت بهذا أن الحياة الطيبة لا تكون الا فى الجنة ولا مانع من أن المؤمن الكامل يحصل جميع ذلك ثم ان الله تعالى ختم الآية بقوله تعالى (ولنجزينهم أجرهم) أى فى الدنيا والآخرة (بأحسن ما كانوا يعملون) أى من الطاعة وقد سبق تفسيره ولما قال تعالى ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون أرشد به الى العمل الذى به تخلص أعماله من الوسواس بقوله تعالى (فاذا قرأت القرآن) أى أردت قراءته (فاستعذ) أى ان شئت جهرا وان شئت سرا قال الشافعى رضى الله

تعالى

تعالى عنه والاسرار أولى فى الصلاة وفى قول يجهر كما يفعل خارج الصلاة (بالله) أى سل الذى له الكمال كله أن يعيذك (من الشيطان) أى المحترق باللعنة (الرجيم) أى المطرود عن الرحمة من أن يصلك بوساوسه عن اتباعه ويدخل فى ذلك جميع المردة من الشياطين لان لهم قدرة على القاء الوسوسة فى قلوب بنى آدم باقدار الله تعالى على ذلك وقيل المراد ابليس خاصة والاستعاذة بالله تعالى هى الاعتصام به والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته وظاهر الآية وجوب الاستعاذة واليه ذهب عطاء سواء كانت القراءة فى الصلاة أم فى غيرها واتفق سائر الفقهاء على أنها سنة فى الصلاة وغيرها والصارف لهذا الامر عن الوجوب أحاديث كثيرة منها القراءة بدون ذكر تعوذ كحديث البخارى وغيره عن أبى سعيد بن العلاء رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما منعك أن تجيبنى قال كنت أصلى قال ألم يقل الله استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم ثم قال لاعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن الحمد لله رب العالمين وفى رواية الموطا أنه صلى الله عليه وسلم نادى أبيا وأنه قال له كيف تقرأ اذا افتتحت الصلاة قال أبى فقرأت الحمد لله رب العالمين حتى أتيت الى آخرها وظاهر الآية يدل على أن الاستعاذة بعد القراءة واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين وهو قول أبى هريرة واليه ذهب مالك وداود الظاهرى قالوا لان قارئ القرآن يستحق ثوابا عظيما وربما حصل الوسواس فى قلب القارئ هل حصل له ذلك الثواب أولا فاذا استعاذ بعد القراءة اندفعت تلك الوساوس وبقى الثواب مخلصا والذى ذهب اليه الاكثرون من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وفقهاء الامصار أن الاستعاذة مقدمة على القراءة قالوا ومعنى الآية اذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله وتبعتهم على ذلك فلهذا قدرت ذلك فى الآية الكريمة ومثل ذلك قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ومثله من الكلام اذا أكلت فسم أى اذا أردت أن تأكل فقل بسم الله الرحمن الرحيم واذا سافرت فتأهب أى اذا أردت السفر فتأهب وأيضا الوسوسة انما تحصل فى أثناء القراءة فتقديم الاستعاذة على القراءة لتذهب الوسوسة عنه أولى من تأخيرها عن وقت الحاجة اليها * ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان وكان ذلك يوهم أن للشيطان قدرة على التصرف فى ابدان الانسان أزال الله تعالى ذلك الوهم وبين أنه لاقدرة له ألبتة الا على الوسوسة بقوله تعالى (انه ليس له سلطان) أى بحيث لا يقدر المسلط عليه على الانفكاك عنه (على الذين آمنوا) أى بتوفيق ربهم لهم (وعلى ربهم) وحده (يتوكلون) أى على أوليائه المؤمنين به والمتوكلين عليه فانهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته وعن سفيان الثورى قال ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر لهم ثم وصل تعالى بذلك ما أفهمه من أن له سلطانا على غيرهم بقوله (انما سلطانه) أى الذى يتمكن به غاية التمكن بامكان الله تعالى له (على الذين يتولونه) أى يحبونه ويطيعونه (والذين هم به) أى بالله تعالى (مشركون) وقيل الضمير راجع الى الشيطان والمعنى هم بسببه مشركون بالله ولما كان المشركون اذا

نزلت آية فيها شدة ثم نزلت آية ناسخة لها فيقولون ان محمدا يستهزئ بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ما هو الا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه نزل (واذا بدلنا) أى بقدرتنا بالنسخ (آية) سهلة كالعدة بأربعة شهور وعشر وقتال الواحد من المسلمين لاثنين من الكفار أو شاقة كتحريم الخمر وايجاب الصلوات الخمس فجعلناها (مكان آية) شاقة كالعدة بحول ومصابرة عشرة من الكفار أو سهلة كالآيات المتضمنة لاباحة الخمر والتبديل رفع الشئ ووضع غيره مكانه (والله) أى الذى له الاحاطة الشاملة (أعلم بما ينزل) من المصالح بحسب الاوقات والاحوال بنسخ أو غيره (قالوا) أى الكفار (انما أنت) يا محمد (مفتر) أى متقوّل على الله تعالى تأمر بشئ ثم يبدو لك فتنهى عنه وهو جواب اذا والله أعلم بما ينزل اعتراض والمعنى والله أعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ والتغليظ والتخفيف أى هو أعلم بجميع ذلك ومصالح العباد وهذا توبيخ للكفار على قولهم انما أنت مفتر أى اذا كان هو أعلم بما ينزل فما لهم ينسبون محمدا الى الافتراء لاجل التبديل والنسخ (بل أكثرهم) وهم الذين يستمرون على الكفر (لا يعلمون) حكمة فائدة النسخ والتبديل ولا يميزون الخطأ من الصواب فان الله تعالى أعلم بمصالح العباد كما أن الطبيب يأمر المريض بشربة ثم بعد مدة ينهاه عنها ويأمره بغيرها بضد تلك الشربة ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم بقوله تعالى (قل) لمن واجهك بذلك منهم (نزله) أى القرآن بحسب التدريج لاجل اتباع المصالح باحاطة علم المتكلم به (روح القدس) أى جبريل عليه السلام واضافة الروح الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وزيد الخير والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد وزيد الخير والمقدس المطهر من المآثم (من ربك بالحق) أى متلبسا بالحكمة (ليثبت الذين آمنوا) أى ليثبت بالقرآن قلوب الذين آمنوا فيزدادوا ايمانا ويقينا (وهدى) أى بيانا واضحا (وبشرى للمسلمين) أى المنقادين لحكمك (فان قيل) ظاهر الآية ان القرآن لا ينسخ بالسنة لقوله تعالى واذا بدلنا آية مكان آية اذ مقتضاه أن الآية لا تنسخ الا بأخرى (أجيب) بأن هذه الآية دلت على أنه تعالى يبدل آية بآية ولا دلالة فيها على أنه لا يبدل آية الا بآية وأيضا فجبريل عليه السلام ينزل بالسنة كما ينزل بالآية ، ولما كان المشركون يقولون ان محمدا انما يتعلم هذه القصص وهذه الاخبار من انسان آخر وهو آدمى مثله وليس هو من عند الله كما يزعم نزل قوله تعالى (ولقد نعلم) أى علما مستمرا (أنهم يقولون انما يعلمه بشر) واختلف فى البشر الذى قال المشركون ان النبى صلى الله عليه وسلم يتعلم منه فقيل هو عبد لبنى عامر بن لؤى يقال له يعيش كان يقرأ الكتب وقيل عداس غلام عتبة بن ربيعة وقيل عبد لبنى الحضرمى صاحب كتب وكان اسمه خبرا فكانت قريش تقول عبد بنى الحضرمى يعلم خديجة وخديجة تعلم محمدا وقيل كان بمكة نصرانى أعجمى اللسان اسمه بلعام ويقال ابن ميسرة يتكلم بالرومية وقيل سلمان الفارسى وبالجملة فلا فائدة فى تعداد هذه الاسماء والحاصل أن القوم اتهموه بأنه يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم انه يظهرها من نفسه ويزعم أنه انما عرفها بالوحى وهو كاذب فيه فأجاب

الله

الله تعالى عنه تكذيبا لهم فيما رموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب بقوله تعالى (لسان الذى يلحدون) أى يميلون اليه أو يشيرون (اليه) أى أنه يعلمه (أعجمى) أى لا يعرف لغة العرب وهو مع ذلك ألكن فى التأدية غير مبين (وهذا) أى القرآن (لسان عربى مبين) أى ذو بيان وفصاحة فكيف يعلمه أعجمى وروى أن الرجل الذى كانوا يشيرون اليه أسلم وحسن اسلامه (ان الذين لا يؤمنون) أى لا يصدقون كل تصديق معترفين (بآيات الله) أى الذى له العظمة كلها (لا يهديهم الله) أى لا يرشدهم ولا يوفقهم للايمان (ولهم عذاب أليم) أى مؤلم فى الآخرة ثم أخبر الله تعالى أن الكفار هم المفترون بقوله تعالى (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) أى القرآن بقولهم هذا من قول البشر (وأولئك) أى البعداء البغضاء (هم الكاذبون) أى الكاملون فى الكذب لان تكذيب آيات الله أعظم من الكذب أولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به فى كل شئ لا يحجبهم عنه مروأة ولا دين * ولما ذكر تعالى الذين لا يؤمنون مطلقا أتبعهم صنفا منهم هم أشد كفرا بقوله تعالى (من) أى أى مخلوق وقع له أنه (كفر بالله) أى الذى له صفات الكمال بأن قال أو عمل ما يدل على الكفر (من بعد ايمانه) بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم (الا من أكره) أى على التلفظ بالكفر فتلفظ به (وقلبه مطمئن بالايمان) فلا شئ عليه لان محل الايمان هو القلب روى ان قريشا أكرهوا عمارا وأباه ياسرا وأمه سمية على الارتداد فربطوا سمية بين بعيرين وقالوا انك أسلمت من أجل الرجال فقتلت وقتل ياسر وهما أول قتيل فى الاسلام وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا مكرها وهو كاره بقلبه فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بأنه كفر فقال صلى الله عليه وسلم كلا ان عمارا امتلأ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فجاء الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ويقول مالك ان عادوا لك فقل لهم مثل ما قلت *(تنبيه)* فى الآية دليل على اباحة التلفظ بالكفر وان كان الافضل أن يتجنب عنه اعزازا للدين كما فعله أبواه ولما روى ان مسيلمة أخذ رجلين فقال لاحدهما ما تقول فى محمد فقال رسول الله قال فما تقول فى قال أنت أيضا فخلاه وقال للآخر ما تقول فى محمد فقال رسول الله قال فما تقول فى قال أنا أصم فأعاد عليه ثلاثا فأعاد جوابه فقتله فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما الاول فقد أخذ برخصة الله وأما الثانى فقد صدع بالحق فهنيأ له واختلف الائمة فى وقوع الطلاق بالاكراه فقال الشافعى وأحمد رحمهما الله تعالى لا يقع طلاق المكره وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقع واستدل الشافعى بقوله تعالى لا اكراه فى الدين ولا يمكن أن يكون المراد نفى ذاته لان ذاته موجودة فوجب حمله على نفى آثاره أى لا أثر له ولا عبرة به وقال عليه الصلاة والسلام رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وقال أيضا لا طلاق فى اغلاق أى اكراه وتمسك أبو حنيفة بقوله تعالى فان طلقها فلا تحل له وهذا قد طلقها وأجيب بأن الآية مخصوصة بغير ذلك جمعا بين الادلة (ولكن من شرح بالكفر صدرا) أى فتحه ووسعه لقبول الكفر واختاره ورضى به (فعليهم غضب) أى غضب لم تبين جهة عظمه لكونه (من الله)

أى الملك الاعظم (ولهم) أى بظواهرهم وبواطنهم (عذاب عظيم) فى الآخرة لارتدادهم على أعقابهم (ذلك) أى الوعيد العظيم (بأنهم) أى بسبب أنهم (استحبوا) أى أحبوا حبا عظيما (الحياة الدنيا) الكائنة الحاضرة الفانية فآثروها (على الآخرة) الباقية الفاخرة لانهم رأوا مافيه المؤمنون من الضيق والكافرون من السعة (وأن الله) أى الذى له الغنى المطلق (لايهدى القوم الكافرين) أى لايرشدهم الى الايمان ولا يوفقهم للعمل (أولئك) أى البعداء البغضاء (الذين طبع الله) أى الملك الذى لا أمر لاحد معه (على قلوبهم) أى ختم عليها واستوثق * ولما كان التفاوت فى السمع نادرا وحده بقوله تعالى (وسمعهم) أو يعنى اسماعهم ليناسب قوله تعالى (وأبصارهم) فصاروا بعدم انتفاعهم بهذه المشاعر كأنهم لايفهمون ولايسمعون ولايبصرون (وأولئك) أى الاباعد من كل خير (هم الغافلون) عما يراد بهم من العذاب فى الآخرة (لاجرم) أى لاشك (أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) أى أكمل الناس خسارة لان الله تعالى وصفهم بست صفات الاولى أنهم استوجبوا غضب الله تعالى الثانية أنهم استوجبوا العذاب الاليم الثالثة أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة الرابعة أن الله تعالى حرمهم من الهداية الخامسة أنه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم السادسة أنه جعلهم من الغافلين عن العذاب الشديد يوم القيامة اذ كل واحدة من هذه الصفات من أعظم الاحوال المانعة من الفوز بالخيرات والسعادات ومعلوم أنه تعالى انما أدخل الانسان فى الدنيا ليكون كالتاجر الذى يشترى بطاعته سعادات الآخرة فاذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظم خسرانه فلهذا السبب حكم تعالى عليهم بالخسران * ولما ذكر تعالى حال من كفر بالله من بعد ايمانه وحال من أكره على الكفر ذكر بعده حال من هاجر من بعد مافتن بقوله تعالى (ثم ان ربك) أى المحسن اليك (للذين هاجروا) الى المدينة الشريفة بالولاية والنصر وقوله تعالى (من بعد مافتنوا) قرأ ابن عامر بفتح الفاء والتاء على استناد الفعل الى الفاعل والباقون بضم الفاء وكسر التاء على فعل مالم يسم فاعله وجه القراءة الاولى انه عاد الضمير على المؤمنين فالمعنى فتنوا أنفسهم بما أعطوا المشركين من القول ظاهرا وأنهم لما صبروا على عذاب المشركين فكأنهم فتنوا أنفسهم وان عاد على المشركين فهو ظاهر أى فتنوا المؤمنين لان أولئك المفتونين هم المستضعفون الذين حملهم أقوياء المشركين على الردة والرجوع عن الايمان فبين تعالى أنهم هاجروا (ثم جاهدوا وصبروا) على الطاعة (ان ربك من بعدها) أى الفتنة (لغفور) أى بليغ الاكرام (رحيم) فهو يغفر لهم ويرحمهم * (تنبيه) * حذف خبر ان الاولى لدلالة خبر الثانية عليه أو مقدر بعامل (يوم) أى اذكر يوم (تأتى كل نفس) أى وان عظم جرمها (تجادل) أى تحاج (عن نفسها) أى لايهمها غيرها وهو يوم القيامة (فان قيل) مامعنى النفس المضافة الى النفس (أجيب) بأنه يقال لعين الشئ وذاته نفسه وفى نقيضه غيره والنفس الجملة كما هى فالنفس الاولى هى الجملة والثانية عينها وذاتها فكأنه قيل يوم يأتى كل انسان يجادل عن ذاته لايهمه شأن غيره كل يقول نفسى نفسى ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها

كقولهم هؤلاء الذين أضلونا وما كنا مشركين (وتوفى كل نفس) صالحة أو غير صالحة (ما عملت) أي جزاءه من جنسه (وهم لا يظلمون) أي شيأ * ولما هدد تعالى الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة هددهم أيضا بآفات الدنيا وهي الوقوع في الجوع والخوف بقوله تعالى (وضرب الله) أي المحيط بكل شئ (مثلا) ويبدل منه (قرية) هي مكة والمراد أهلها (كانت آمنة) أي ذات أمن ويأمن بها أهلها في زمن الخوف قال تعالى أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم والامن في مكة كان كذلك لان العرب كان يغير بعضهم على بعض دون أهل مكة فانهم كانوا أهل حرم الله والعرب كانوا يحترمونهم ويخصونهم بالتعظيم والتكريم (مطمئنة) أي قارة بأهلها لا يحتاجون فيها الى نجعة وانتقال بسبب زيادة الامن بكثرة العدد وقوة المدد وكف الله تعالى الناس عنها ووجود ما يحتاج اليه أهلها (فان قيل) الاطمئنان هو الامن فيلزم التكرار (أجيب) بأن قوله تعالى آمنة اشارة الى الامن وقوله تعالى مطمئنة أي لا يحتاجون فيها الى نجعة كما مر وقيل أشار تعالى بذلك الى الصحة لان هواء ذلك البلد كان ملائما لامزجتهم فلذلك اطمأنوا اليه واستقروا قالت العقلاء ثلاثة ليس لها نهاية الامن والصحة والكفاية (يأتيها) أي على سبيل التجدد والاستمرار (رزقها رغدا) أي واسعا طيبا (من كل مكان) بر وبحر بتيسير الله تعالى * ولما كانت السعة تجر الى البطر غالبا نبه تعالى على ذلك بقوله تعالى (فكفرت بأنعم الله) أي الذي له الكمال كله وأنعم جمع نعمة قال الزمخشري على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع وقال قطرب هي جمع نعم والنعم النعمة يقال هذه أيام نعم وطعم فلا تصوموا وقيل جمع نعماء مثل بأساء وأبؤس (فان قيل) الانعم جمع قلة فكان تلك القرية كفرت بأنواع قليلة من نعم الله فعذبها الله تعالى فلم يقل تعالى كفروا بنعم عظيمة فاستوجبوا العذاب (أجيب) بأن المقصود التنبيه بالادنى على الاعلى فان كفران النعم القليلة لما أوجب العذاب فبكفران النعم الكثيرة أولى وبأن الله تعالى أنعم عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به وبالغوا في ايذائه (فأذاقها الله) أي المحيط بكل شئ (لباس الجوع) بعد رغد العيش سبع سنين وقطعت العرب عنهم الميرة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا وأكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب الميتة وقيل ان القرية غير مكة لانها ضربت مثلا لمكة ومثل مكة يكون غير مكة (والخوف) بسرايا النبي صلى الله عليه وسلم

* (تنبيه) * استعير الذوق لادراك أثر الضرر واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف وأوقع الاذاقة عليه بالنظر الى المستعار له كقول كثير عزة

غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا * غلقت لضحكته رقاب المال

فانه استعار الرداء للمعروف لانه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه وأضاف اليه الغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا وصف الرداء نظرا الى المستعار له ولو نظر الى المستعار لقال ضافي الرداء أي سابغه ومعنى البيت اذا ضحك المسؤل ضحكة أيقن السائل بذلك التبسم استرقاق رقاب ماله وأنه يعطى بلا خلاف وقد ينظر الى المستعار له كقوله

ينازعنى ردائى عبد عمرو * رويدك يا أخا عمرو بن بكر
لى الشطر الذى ملكت يمينى * ودونك فاعتجر منه بشطر

استعار الرداء للسيف ثم قال فاعتجر نظرا الى المستعار ولو نظر الى المستعار منه لقال تعالى فى الآية وكساهم لباس الجوع والخوف ولقال كثير ضافى الرداء اذا تبسم ضاحكا وهذا نهاية مايقال فى الاستعارة وقال ابن عطية لما باشرهم ذلك صار كاللباس وهذا كقول الاعشى

اذا ما الضجيع ثنى جيدها * تثنت عليه فكانت لباسا

ومثله قوله تعالى هن لباس لكم وانتم لباس لهن ومثله قول الشاعر

وقد لبست بعد الزبير مجاشع * لباس التى حاضت ولم تغسل الدما

كان العار لما باشرهم ولصق بهم كانهم نسوة وقوله تعالى فأذاقها نظير قوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم ونظير قول الشاعر دون ماجنيت فاحس وذق * وقوله تعالى (بما كانوا يصنعون) يجوز أن تكون ما مصدرية أى بسبب صنعهم أو بمعنى الذى والعائد محذوف أى بسبب الذى كانوا يصنعونه والواو فى يصنعون عائد على أهل البلد وقيل قرية تطير قوله تعالى أوهم قائلون بعد قوله تعالى وكم من قرية أهلكناها * ولما ذكر الله تعالى المثل ذكر الممثل له فقال تعالى (ولقد جاءهم) أى أهل هذه القرية (رسول منهم) من نسبهم يعرفونه بأصله ونسبه وهو محمد صلى الله عليه وسلم (فكذبوه فأخذهم العذاب) قال ابن عباس يعنى الجوع الذى كان بمكة وقيل القتل الذى كان يوم بدر (وهم ظالمون) أى فى حال تلبسهم بالظلم كقوله تعالى الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم نعوذ بالله من مفاجأة النقمة والموت على الغفلة وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام ثم قال تعالى (فكلوا) أى أيها المؤمنون (مما رزقكم الله) قال ابن عباس يريد من الغنائم وقال الكلبى ان رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا وقالوا عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان وكانت الميرة قد قطعت عنهم فأذن فى الحمل اليهم فحمل الطعام اليهم فقال الله تعالى كلوا مما رزقكم الله قال الرازى والقول ما قال ابن عباس يدل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية انما حرم عليكم الميتة يعنى انكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا مما رزقكم الله (حلالا طيبا) وهو الغنيمة واتركوا الخبائث وهى الميتة والدم * ولما أمرهم تعالى بأكل الحلال أمرهم بشكر النعمة بقوله تعالى (واشكروا نعمت الله ان كنتم اياه تعبدون) أى تطيعون * (تنبيه) * رسمت نعمت بالتاء وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالهاء والباقون بالتاء والكسائى يقف بالامالة وتقدم تفسير قوله تعالى (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) فى سورة البقرة فلا اعادة فى تفسير ذلك وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة فمن اضطر فى الوصل بكسر النون والباقون بالضم * (تنبيه) * حصر المحرمات فى هذه الاشياء الاربعة مذكور أيضا فى سورة الانعام عند قوله تعالى قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الآية وفى سورة المائدة فى قوله تعالى أحلت

لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم واجمعوا على أن المراد بقوله تعالى الا ما يتلى عليكم هو قوله تعالى فى سورة البقرة حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله وقوله تعالى فى المائدة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم فهذه الاشياء داخلة فى الميتة ثم قال تعالى وما ذبح على النصب وهو أحد الاشياء الداخلة تحت قوله تعالى وما أهل به لغير الله فثبت أن هذه السور الاربعة دالة على حصر المحرمات فى هذه الاربعة سورتان مكيتان وسورتان مدنيتان فان سورة البقرة مدنية وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله بالمدينة فمن أنكر حصر التحريم فى هذه الاربعة الا ما خصه الاجماع والدلائل العقلية القاطعة كان فى محل أن يخشى عليه لان هذه السورة دلت على أن حصر المحرمات فى هذه الاربعة كان مشروعا ثابتا فى أول زمان مكة وآخره وأول زمان المدينة وأنه تعالى أعاد هذا البيان فى هذه السور الاربعة قطعا للاعذار وازالة للشبهة * ولما حصر تعالى المحرمات فى هذه الاربع بالغ فى تأكيد ذلك الحصر وزيف طريقة الكفار فى الزيادة على هذه الاربعة تارة وفى النقصان عنها أخرى بقوله تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) لما لم يحله الله ولم يحرمه فانهم كانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وكانوا يقولون ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا فقد زادوا فى المحرمات وزادوا أيضا فى المحللات لانهم حللوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فبين تعالى أن المحرمات هى هذه الاربعة وبين أن الاشياء التى يقولون هذا حلال وهذا حرام كذب وافتراء على الله تعالى *(تنبيه)* فى انتصاب الكذب وجهان أحدهما قال الكسائى ما مصدرية والتقدير ولا تقولوا لاجل وصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام نظيره أن يقال لا تقولوا لكذا وكذا كذا وكذا (فان قيل) حمل الآية على هذا يؤدى الى التكرار لان قوله تعالى (لتفتروا على الله الكذب) عين ذلك (أجيب) بأن قوله تعالى لما تصف ألسنتكم الكذب ليس فيه بيان أنه كذب على الله فأعاده ليحصل فيه هذا البيان الزائد ونظيره فى القرآن كثير وهو أنه تعالى يذكر كلاما ويعيده بعينه مع فائدة زائدة الثانى أن تكون ما موصولة والتقدير ولا تقولوا للذى تصف ألسنتكم الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام وحذف لفظ فيه لكونه معلوما وقيل اللام فى لتفتروا لام العاقبة كما فى قوله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا (فان قيل) ما معنى وصف ألسنتهم الكذب (أجيب) بأن ذلك من فصيح الكلام وبليغه جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه واذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته كقولهم وجهها يصف الجمال أى هى جميلة وعينها تصف السحر أى هى ساحرة فلما أرادوا المبالغة فى وصف الوجه بالجمال ووصف العين بالسحر عبروا بذلك ثم انه تعالى أوعد المفترين بقوله تعالى (ان الذين يفترون على الله) أى الذى له الملك كله (الكذب) منكم ومن غيركم (لا يفلحون) أى لا يفوزون بخير لان المفترى يفترى لتحصيل مطلوب فنفى الله تعالى عنه الفلاح لانه الفوز بالخير والنجاح ثم بين

تعالى ان ماهم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب بقوله تعالى (متاع قليل) أى منفعة قليلة تنقطع عن قريب لفنائه وان امتد ألف عام (ولهم) بعده (عذاب أليم) أى مؤلم فى الآخرة * ولما بين تعالى مايحل ويحرم لاهل الاسلام اتبعه ببيان مايختص اليهود به من المحرمات بقوله تعالى (وعلى الذين هادوا) أى اليهود (حرمنا) عليهم عقوبة لهم بعدا وتهم وكذبهم على ربهم (ماقصصنا عليك) ياأجل المرسلين (من قبل) أى فى سورة الانعام وهو قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية (وماظلمناهم) أى بتحريم ذلك عليهم (ولكن كانوا) أى دائما طبعا لهم وخلقا مستمرا (أنفسهم) خاصة (يظلمون) بالبغى والكفر فضيقنا عليهم معاملة بالعدل وعاملنا كم أنتم حيث ظلمتم بالفضل فاشكروا النعمة واحذروا غوائل النقمة * ولما بين تعالى هذه النعمة الدنيوية عطف عليها نعمة هى أكبر منها جدا استجلابا لكل ظالم وبين عظمتها بحرف التراخى فقال تعالى (ثم ان ربك) أى المحسن اليك (للذين عملوا السوء) وهو يتناول كل مالا ينبغى فعله فيشمل الكفر وسائر المعاصى (بجهالة) أى بسببها أو ملتبسين بها اليم الجهل بالله وبقضائه وعدم التدبر فى العواقب فكل من عمل سوأ انما يفعله بالجهالة أما الكفر فلان أحدا لا يرضى به مع العلم بكونه كفرا لانه لولم يعتقد كونه حقا فانه لا يختاره ولا يرتضيه وأما المعصية فلان العالم لم تصدر منه المعصية مالم تصر الشهوة غالبة للعقل فثبت أن كل من عمل السوء فانما يقدم عليه بسبب الجهالة (ثم تابوا من بعد ذلك) أى الذنب ولو كان عظيما واقتصروا على ما أذن فيه خالقهم (وأصلحوا) بالاستمرار على ذلك (ان ربك) أى المحسن اليك بتسهيل دينك وتيسيره (من بعدها) أى التوبة (لغفور) أى بالغ الستر لما عملوا من السوء (رحيم) أى بالغ الرحمة محسن بالاكرام فضلا منه ونعمة * ولما دعاهم الله تعالى الى مكارم الاخلاق ونهاهم عن مساويها بقبوله لمن أقبل اليه وكان ابراهيم عليه الصلاة والسلام رئيس الموحدين لاجرم ذكره الله تعالى فى آخر هذه السورة ووصفه بتسع صفات الصفة الاولى قوله تعالى (ان ابراهيم كان أمة) أى لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد الامتفرقة فى أشخاص كثيرة كقول القائل

وليس لله (أى من الله) بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

أى أن يجمع صفاتهم فى شخص واحد وقال مجاهد كان مؤمنا وحده والناس كلهم كانوا كفارا فلهذا المعنى كان وحده أمة واحدة وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى زيد بن عمرو بن نفيل يبعثه الله أمة وحده وعن شهر بن حوشب لم تبق الارض الا وفيها أربعة عشر يدفع الله تعالى بهم عن أهل الارض الا زمن ابراهيم فانه كان وحده وقيل أمة فعلة بمعنى مفعول كالدخلة والنخبة من أمه اذا قصده واقتدى به فان الناس كانوا يؤمونه للاستفادة ويقتدون بسيره كقوله تعالى انى جاعلك للناس اماما وقرأ هشام ان ابراهام وملة ابراهام بالالف بعد الهاء فيهما وقرأ الباقون بالياء فيهما الصفة الثانية قوله تعالى (قانتا لله) أى مطيعا له قائما بأوامره الصفة الثالثة قوله تعالى (حنيفا) أى مائلا عن الباطل قال ابن عباس انه أول من اختتن وأقام

مناسك الحج وهى وهذه السنة الحنيفية الصفة الرابعة قوله تعالى (ولم يك من المشركين) أى انه عليه الصلاة والسلام كان من الموحدين فى الصغر والكبر وقد أبطل عبادة الاصنام والكواكب بقوله لا أحب الآفلين ثم كسر تلك الاصنام حتى آل الامر الى أن القوم ألقوه فى النار وذلك دليل اثبات الصانع مع ملك زمانه وهو قوله ربى الذى يحيى ويميت ثم طلب من الله تعالى أن يريه كيف يحيى الموتى ليحصل له زيادة الطمأنينة قال الرازى ومن وقف على علم القرآن علم أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان غريقا فى بحر علم التوحيد الصفة الخامسة قوله تعالى (شاكرا لأنعمه) فان قيل لفظ الانعم جمع قلة ونعمة الله تعالى على ابراهيم عليه السلام كانت كثيرة فلم قال شاكرا لانعمه (أجيب) بأنه ذكر القلة للتنبيه على أنه كان لا يخل بشكر القليلة فكيف بالكثيرة وروى أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يتغدى الا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فأخر غداءه فاذا هو بقوم من الملائكة فى صورة البشر فدعاهم الى الطعام فخيلوا له ان بهم جذاما فقال لهم الآن وجبت مواكلتكم شكرا لله على انه عافانى وابتلاكم بهذا البلاء الصفة السادسة قوله تعالى (اجتباه) أى اصطفاه للنبوة واختاره لخلته الصفة السابعة قوله تعالى (وهداه الى صراط مستقيم) أى وهداه الى دين الاسلام لانه الصراط المستقيم والدين القويم ونظيره قوله تعالى وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه الصفة الثامنة قوله تعالى (وآتيناه فى الدنيا حسنة) قال قتادة حببه للناس حتى ان أرباب الملل يتولونه ويثنون عليه أما المسلمون واليهود والنصارى فظاهر وأما كفار قريش وسائر العرب فلا فخر لهم الا به وتحقيق القول ان الله تعالى أجاب دعاءه فى قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين وقال آخرون هو قول المصلى منا كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وقيل أولادا ابرارا على الكبر الصفة التاسعة قوله تعالى (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) فى الجنة (فان قيل) لم يقل تعالى فى أعلى مقامات الصالحين (أجيب) بأنه تعالى حكى عنه أنه قال رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين فقال تعالى هنا وانه فى الآخرة لمن الصالحين تنبيها على أنه تعالى أجاب دعاءه ثم ان كونه من الصالحين لا ينفى أن يكون فى أعلى مقامات الصالحين فان الله تعالى بين ذلك فى آية أخرى وهى قوله تعالى وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء * ولما وصف الله تعالى ابراهيم عليه السلام بهذه الصفات العالية الشريفة أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فى اتباعه مشيرا الى علو مرتبته بحرف التراخى بقوله تعالى (ثم أوحينا اليك) يا أشرف الرسل وقيل أتى بثم للتراخى أى لتراخى أيامه عن أيام ابراهيم عليهما أفضل الصلاة والسلام (أن اتبع ملة ابراهيم) فى التوحيد والدعوة اليه بالرفق وايراد الدلائل مرة بعد أخرى والمجادلة مع كل أحد على حسب فهمه ولا بعد فى أن يفهم ذلك الهجرة أيضا وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم مأمورا بشريعة ابراهيم عليهما الصلاة والسلام الا ما نسخ منها وما لم ينسخ صار شرعا له وقوله تعالى (حنيفا) حال من النبى صلى الله عليه وسلم ويصح أن يكون حالا من ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (وما كان من المشركين) كرره

رداعلى من زعم من اليهود والنصارى أنهم على دينه وقوله سبحانه وتعالى (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) فيه قولان الاول روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال أمرهم موسى عليه السلام بالجمعة وقال تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوما واحدا وهو يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيأ من أعمالكم فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا لا نريد الا اليوم الذى فرغ الله تعالى فيه من الخلق وهو يوم السبت فجعل عليهم السبت وشدد عليهم فيه ثم جاء عيسى عليه السلام أيضا بالجمعة فقالت النصارى لا نريد أن يكون عيدهم أى اليهود بعد عيدنا فاتخذوا الاحد وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى كتب يوم الجمعة على من كان قبلكم فاختلفوا فيه وهدانا الله له فهم لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد (فان قيل) هل في العقل وجه يدل على أن الجمعة أفضل من السبت والاحد فان أهل الملل اتفقوا على أنه تعالى خلق العالم في ستة أيام وبدأ تعالى بالخلق والتكوين في يوم الاحد وتم في يوم الجمعة فكان يوم السبت يوم الفراغ فقالت اليهود نحن نوافق ربنا في ترك الاعمال فعينوا يوم السبت لهذا المعنى وقالت النصارى مبدأ الخلق والتكوين يوم الاحد فنجعل هذا اليوم عيدنا فهذان الوجهان معقولان لنا فما وجه جعل يوم الجمعة عيدا (أجيب) بأن يوم الجمعة هو يوم التمام والكمال وحصول التمام والكمال يوجب الفرح الكامل والسرور فجعل يوم الجمعة يوم العيد أولى من هذا الوجه القول الثانى اختلافهم في السبت هو أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة (وان ربك) أى المحسن اليك بطواعية أصحابك لك (ليحكم بينهم) أى هؤلاء المختلفين (يوم القيامة) وهو يوم اجتماع جميع الخلائق (فيما كانوا فيه يختلفون) فيحكم للمحقين بالثواب وللمبطلين بالعقاب * ولما أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم باتباع ابراهيم عليه الصلاة والسلام بين الشئ الذى أمره بمتابعته فيه بقوله تعالى (ادع) أى كل من تمكن دعوته ممن بعثت اليه (الى سبيل ربك) أى المحسن اليك بتسهيل السبيل الذى تدعو اليه واتساعه وهو الاسلام الذى هو الملة الحنيفية (بالحكمة) أى المعاملة المحكمة وهو الدليل الواضح المزيل للشبهة (والموعظة الحسنة) أى بالدعاء الى الله تعالى بالترغيب والترهيب بالخطابات المقنعة والعبارات النافعة والاولى لدعوى خواص الامة الطالبين للحقائق والثانية لدعوى عوامهم (وجادلهم) أى وجادل معانديهم (بالتى) أى بالمجادلة التى (هى أحسن) كالدعاء الى الله تعالى بآياته والدعاء الى حججه بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير غلظ ولا تعسف فان ذلك أنفع في تسكين لهبهم وتبيين شبههم وقيل المراد بالحكمة القرآن أى ادعهم بالقرآن والموعظة الحسنة الرفق واللين في الدعوة وفي الامر بالمجادلة التى هى أحسن الاعراض عن أذاهم وعدم التقصير في تبليغ الرسالة والدعاء الى الحق وعلى هذا القول قال بعض علماء التفسير هذا منسوخ بآية السيف وقيل ان الناس خلقوا وجبلوا على ثلاثة أقسام القسم الاول العلماء الكاملون وهم أصحاب العلوم الصحيحة والبصائر الشافية الذين يطلبون معرفة الاشياء على حقائقها فهؤلاء

هم المشار اليهم بقوله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة أى ادعهم بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الاشياء بحقائقها وينفعوا الناس وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم القسم الثانى أصحاب الفطرة السليمة والخلقة الاصلية وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا الى حضيض النقصان فهم أوسط الاقسام وهم المشار اليهم بقوله تعالى والموعظة الحسنة أى ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة القسم الثالث أصحاب جدال وخصام ومعاندة وهؤلاء هم المشار اليهم بقوله تعالى وجادلهم بالتى هى أحسن أى حتى ينقادوا الى الحق ويرجعوا اليه (ان ربك) المحسن اليك بالضعيف عنك (هو أعلم) أى من كل من يتوهم فيه علم (بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أى فهو سبحانه وتعالى أعلم بالفريقين فمن كان فيه خير كفاه الوعظ والنصيحة اليسيرة ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل وكأنك تضرب فى حديد بارد فما عليك الا البلاغ والدعوة وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فليس ذلك اليك وهذا قبل الامر بالقتال وذكر فى قوله تعالى (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) أقوال أحدها وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء وأبى بن كعب والشعبى ان النبى صلى الله عليه وسلم لما رأى عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وأذنه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تلبث فى بطنها حتى رمت بها فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال أما انها لو أكلته لم تدخل النار أبدا حمزة أكرم على الله من أن يدخل شيأ من جسده النار فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه نظر الى شئ لم ينظر الى شئ قط أوجع لقلبه منه فقال النبى صلى الله عليه وسلم رحمة الله عليك فانى ما علمتك الا فعالا للخيرات وصولا للرحم ولولا حزن من بعدك عليك لسرنى أن أدعك حتى تحشر من أفواج شتى أما والله لئن ظفرنى الله بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك فنزلت فامسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أراد وكفر عن يمينه وقال المسلمون أيضا لما رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أحد من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين الا مثل به الا حنظلة بن الراهب فان أباه أبا عامر الراهب كان مع أبى سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال المسلمون حين رأوا ذلك لئن ظفرنا عليهم لنزيدن عليهم يعنى على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب بأحد القول الثانى أن هذا كان قبل الامر بالسيف والجهاد حتى كان المسلمون قد أمروا بالقتال مع من يقاتلهم ولا يبدؤا بالقتال وهو قوله تعالى وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا وفى هذه الآية أمر الله تعالى أن يعاقبوا بمثل ما يصيبهم من العقوبة ولا يزيدوا القول الثالث أن المقصود من هذه الآية نهى المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم وهذا قول مجاهد والنخعى وابن سيرين قال الرازى وحمل هذه الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب فى كلام الله وهو فى غاية البعد بل الاصوب عندى أن يقال انه تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بدعوة الخلق الى الدين الحق باحدى الطرق الثلاثة وهى الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالطريق الاحسن ثم ان تلك

الدعوة تنقض أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم والحكم عليهم بالكفر والضلالة وذلك مما يشوش قلوبهم ويوحش صدورهم ويحمل أكثرهم على قصد ذلك الداعي بالقتل تارة وبالضرب ثانيا وبالشتم ثالثا ثم ان ذلك الداعي المحق اذا سمع تلك السفاهات لابد وأن يحمله طبعه على تاديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة بالضرب فعند هذا أمر المحقين فى هذا المقام برعاية العدل والانصاف وترك الزيادة فهذا هو الوجه الصحيح الذى يجب حمل الآية عليه (فان قيل) فهل تقدحون فيما روى أنه عليه الصلاة والسلام ترك العزم على ترك المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الآية (أجيب) بانه لا حاجة الى القدح فى تلك الرواية لان تلك الواقعة داخلة فى عموم هذه الآية فيمكن التمسك فى تلك الواقعة بعموم هذه الآية وذلك لا يوجب سوء الترتيب فى كلام الله تعالى *(تنبيه)* أمر الله تعالى برعاية العدل والانصاف فى هذه الآية ورتب ذلك على أربع مراتب المرتبة الاولى قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به أى ان رغبتم فى استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم والظالم ممنوع منه فى عدل الله تعالى ورحمته وفى قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به دليل على ان الاولى له أن لا يفعل كما أنك اذا قلت للمريض ان كنت تأكل الفاكهة فكل التفاح كان معناه أن الاولى بك أن لا تأكله فذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض أن الاولى تركه المرتبة الثانية الانتقال من التعريض الى التصريح وهو قوله تعالى (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وهذا تصريح بأن الاولى ترك ذلك الانتقام لان الرحمة أفضل من القسوة والانتفاع أفضل من الانتقام وقرأ الهو قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون برفعها المرتبة الثالثة هو الامر الجازم بالترك وهو قوله تعالى (واصبر) لانه فى المرتبة الثانية ذكر أن الترك خير وأولى وفى هذه المرتبة الثالثة صرح بالامر بالصبر فى هذا المقام * ولما كان الصبر فى هذا المقام شديدا شاقا ذكر بعده ما يفيد سهولته بقوله تعالى (وما صبرك الا بالله) أى الملك الاعظم الذى شرع لك هذا الشرع الاقوم فذلك بتوفيقه ومعونته وهذا هو السبب الكلى الاصلى ثم ذكر بعده ما هو السبب الجزئى القريب بقوله سبحانه وتعالى (ولا تحزن عليهم) أى فى شدة كفرهم فتبالغ فى الحرص الباخع للنفس (ولا تك فى ضيق) ولو قل كما لوح اليه بتنوين التحقير (مما يمكرون) أى من استمرار مكرهم بك واعبد ربك حتى يأتيك اليقين وكانك به وقد أتى فاصبر فان الله معزك ومظهر دينك وقرأ ابن كثير بكسر الضاد والباقون بنصبها *(تنبيه)* هذا من الكلام المقلوب لان الضيق صفة والصفة تكون حاصلة فى الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلا فى الصفة فكان المعنى ولا يكن الضيق فيك الا ان الفائدة فى قوله تعالى ولا تك فى ضيق هو أن الضيق اذا عظم وقوى صار كالشئ المحيط بالانسان من كل الجوانب وصار كالقميص المحيط به فكانت الفائدة فى ذكر هذا اللفظ هذا المعنى المرتبة الرابعة قوله تعالى (ان الله) أى الجامع لصفات الكمال بلطفه وعونه (مع الذين اتقوا) أى وجد منهم الخوف من الله تعالى واجتنبوا المعاصى (والذين هم محسنون) فى أعمالهم والشفقة على خلقه وهذا يجرى مجرى

التهديد

التهديد لان في المرتبة الاولى رغبة في ترك الانتقام على سبيل الرمز وفي الثانية عدل عن الرمز الى التصريح وهو قوله تعالى ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وفي المرتبة الثالثة أمر بالصبر على سبيل الجزم وفي هذه المرتبة الرابعة كأنه ذكر الوعيد على فعل الانتقام فقال ان الله مع الذين اتقوا أى عن استيفاء الزيادة والذين هم محسنون أى في ترك أصل الانتقام فكأنه تعالى قال ان أردت أن أكون معك فكن من المتقين ومن المحسنين وهذه المعية بالرحمة والفضل والتربية وفي قوله تعالى اتقوا اشارة الى التعظيم لامر الله وفي قوله والذين هم محسنون اشارة الى الشفقة على خلق الله تعالى قيل لهرم بن حيان عند قرب وفاته أوص فقال ان الوصية في المال ولا مال لى ولكن أوصيكم بخواتيم سورة النحل * (تنبيه) * قال بعضهم ان قوله تعالى وان عاقبتم الى آخره خير للصابرين منسوخ بآية السيف قال الرازى وهذا في غاية البعد لان المقصود من هذه الآية تعليم حسن الادب في كيفية الدعوى الى الله تعالى وترك التعدى وطلب الزيادة ولا تعلق لهذه الاشياء بآية السيف وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما أنعم عليه في دار الدنيا وان مات في يوم تلاها أو ليلته كان له من الاجر كالذى مات وأحسن الوصية حديث موضوع قال الرازى في آخر هذه السورة يقول مصنف الكتاب الحق عزيز والطريق بعيد والمركب ضعيف والقرب بعد والوصل هجر والحقائق مصونة والمعالى في غيب الغيب مكنونة والاسرار فيما وراء أقفال العزة مخزونة وبيد الخلق القيل والقال والكمال ليس الا لله تعالى ذى الاكرام والجلال

(سورة الاسراء وتسمى سبحان وبنى اسرائيل مكية)

الا وان كادوا الآيات الثمان مائة وعشر آيات أو احدى عشرة وألف وخمسمائة وثلاث وثلاثون كلمة وعدد حروفها ستة آلاف وأربعمائة وستون حرفا

(بسم الله) الملك المالك لجميع الامر (الرحمن) لكل ما أوجده بما رباه (الرحيم) لمن خصه بالتزام العمل بما يرضاه وقوله تعالى (سبحان) اسم بمعنى التسبيح الذى هو التنزيه وقد يستعمل علما له فيقطع عن الاضافة ويمنع من الصرف للعلمية وزيادة الالف والنون قال الاعشى في مدحه عامر بن الطفيل

قد قلت لما جاءنى فخره * سبحان من علقمة الفاخر

أى العجب منه اذ يفخر والعرب تقول سبحان من كذا اذا تعجبوا منه الشاهد في سبحان حيث جعله علما على التنزيه فمنعه الصرف وعلقمة المذكور صحابى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شيخ فأسلم وبايع واستعمله عمر بن الخطاب رضى الله عنه على حوران فمات بها (الذى أسرى بعبده) هو محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو أشرف عباده على الاطلاق وأخصهم بالاضافة اليه وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى أسرى بالامالة محضة وورش بين بين

والباقون بالفتح وقوله تعالى (ليلا) نصب على الظرف والاسراء سير الليل وفائدة ذكره الاشارة بتنكيره الى تقليل مدته فكان هذا الامر الجليل في جزء يسير من الليل والى أنه عليه الصلاة والسلام لم يحتج في الاسراء والعروج الى سدرة المنتهى وسماع الكلام من العلي الاعلى الى رياضة بصيام ولا غيره بل كان مهيأ لذلك متأهلا له فأقامه تعالى من الفرش الى العرش (من المسجد الحرام) أي بعينه وهو الذي يدل عليه ظاهر لفظ القرآن وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ أتاني جبريل بالبراق وقيل كان نائما في الحطيم وقيل في بيت أم هانئ بنت أبي طالب قال البقاعي وهو قول الجمهور والمراد بالمسجد حينئذ الحرم لانه فناء المسجد (الى المسجد الاقصى) أي بيت المقدس الذي هو بعيد المسافة حينئذ وأبعد المسجدين الاعظمين مطلقا من مكة المشرفة بينهما أربعون ليلة فصلى بالانبياء كلهم ابراهيم وموسى ومن سواهما على جميعهم أفضل الصلاة والسلام ورأى من آياتنا الكبرى ما قدرناله كما سيأتي في حديث المعراج ورجع بين أظهركم الى المسجد الاقرب منكم في ذلك الجزء اليسير من الليل وأنتم تضربون أكباد الابل في هذه المسافة شهرا ذهابا وشهرا ايابا ثم وصفه تعالى بما يقتضي تعظيمه وانه أهل للقصد بقوله تعالى (الذي باركنا حوله) أي بما لنا من العظمة بالمياه والاشجار وقال مجاهد سماه مباركا لانه مقر الانبياء ومهبط الملائكة والوحي ومنه يحشر الناس يوم القيامة وموطن العبادات ومعدن الفواكه والارزاق والبركات وباركنا تعالى حوله لاجله فما ظنك به نفسه فهو أبلغ من باركنا فيه ثم منه الى السموات العلا الى سدرة المنتهى الى ما لم ينله بشر غيره صلى الله عليه وسلم قال البقاعي ولعل حذف ذكر المعراج من القرآن هذا القصور أفهامهم عن ادراك أدلته لو أنكروه بخلاف الاسراء فانه أقام دليله عليهم بما شاهدوه من الامارات التي وصفها لهم وهم قاطعون بأنه صلى الله عليه وسلم لم يرها قبل ذلك فلما بان صدقه بما ذكر من الامارات أخبر بعد ذلك من أراد الله تعالى بالمعراج * ثم ذكر سبحانه وتعالى الغرض من الاسراء بقوله تعالى (لنريه) بعينه وقلبه (من آياتنا) أي عجائب قدرتنا السماوية والارضية كما أرينا أباه الخليل عليه السلام ملكوت السموات والارض (انه) أي الله (هو السميع) لجميع الاقوال (البصير) أي العالم بأحوال عباده فيكرم ويقرب من شاء منهم وقيل انه أي هذا العبد الذي اختصصناه بالاسراء هو أي خاصة السميع أي أذنا وقلبا بالاجابة لنا والاذعان لاوامرنا البصير بصرا وبصيرة بدليل ما أخبر به من الآيات وصدقه من الدلالات حتى نعت ما سألوه عنه من بيت المقدس ومن أمر عيرهم وغيرهما مما هو مشهور في قصة الاسراء واختلف هل أسرى بروحه أو بجسده صلى الله عليه وسلم فعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها كانت تقول ما فقدت جسد النبي صلى الله عليه وسلم ولكن أسرى بروحه والاكثرون على أنه أسرى بجسده في اليقظة وتواترت الاخبار الصحيحة على ذلك منها قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس

قوله الذي هو الخ كلام غير مستقيم اه

فربطت الدابة بالحلقة التى تربط فيها الانبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن قال جبريل عليه السلام أصبت الفطرة قال صلى الله عليه وسلم ثم عرج بى الى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بآدم فرحب بى ودعالى بخير ثم عرج بى الى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من أنت فقال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل قد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى فرحبابى ودعوا الى بخير ثم عرج بى الى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل وقد أرسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بيوسف واذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بى ودعالى بخير ثم عرج بى الى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل وقد أرسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بادريس فرحب بى ودعالى بخير ثم عرج بى الى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت فقال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل قد أرسل اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بهرون فرحب بى ودعالى بخير ثم عرج بى الى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بموسى فرحب بى ودعالى بخير ثم عرج بى الى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابراهيم فاذا هو مستند الى البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون اليه ثم ذهب بى الى السدرة المنتهى فاذا ورقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها قال صلى الله عليه وسلم فأوحى الى عبده ما أوحى وفرض على فى كل يوم وليلة خمسين صلاة فنزلت حتى انتهيت الى موسى فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة فى كل يوم وليلة قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك لا تطيق ذلك وانى قد بلوت بنى اسرائيل وخبرتهم قال فرجعت الى ربى فقلت له أى رب خفف عن أمتى فحط عنى خمسا فرجعت الى موسى فقال ما فعلت فقلت قد حط عنى خمسا قال ان أمتك لا تطيق ذلك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لان أمتك لا تطيق ذلك قال فلم أزل أرجع بين ربى وبين موسى ويحط عنى خمسا خمسا حتى قال يا محمد هى خمس صلوات فى كل يوم وليلة بكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فان عملها كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت الى موسى فأخبرته فقال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك فان أمتك لا تطيق فقلت قد رجعت الى ربى حتى استحييت رواه الشيخان . وروى أنه قال بعد ذلك ولكن أرضى وأسلم فلما جاوزت نادى مناد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى ثم أدخلت الجنة فاذا فيها جنابذ اللؤلؤ واذا ترابها المسك وروى أنه لما

وصل الى سدرة المنتهى فاذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ما هذان
يا جبريل قال أما الباطنان فنهران فى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ثم رفع الى البيت
المعمور ثم أوتيت باناء من خمر واناء من لبن واناء من عسل فاخترت اللبن فقال هى الفطرة التى
انت عليها وأمتك قال ثم فرضت على الصلاة خمسين صلاة يوم فرضت فررت على موسى وساق
الحديث ومنها مارواه الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم رأيت ربى عز وجل قال هى رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم
ليلة أسرى به الى بيت المقدس قال والشجرة الملعونة فى القرآن هى شجرة الزقوم ومنها
مارواه قتادة عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أن نبى الله صلى الله عليه وسلم حدثهم
عن ليلة الاسراء به قال بينا أنا فى الحطيم وربما قال فى الحجر مضطجع ومنهم من قال بين النائم
واليقظان وذكر بين رجلين وأتيت بطشت من ذهب مملوأة حكمة وايمانا فشق من النحر
الى مراق البطن واستخرج قلبى فغسل ثم حشى ثم أعيد وقال سعيد وهشام ثم غسل البطن
بماء زمزم ثم ملئ ايمانا وحكمة ثم أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل
يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته وساق بقية الحديث ومنها ماروى أنه صلى الله عليه
وسلم كان نائما فى بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسرى به ورجع من ليلته وقص القصة على أم
هانئ وقال مثل لى النبيون فصليت بهم وقام ليخرج الى المسجد فتشبثت أم هانئ بثوبه فقال
مالك قالت أخشى أن يكذبك الناس وقومك ان أخبرتهم قال وان كذبونى فخرج اليهم
وروى أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به فكان بذى طوى قال يا جبريل
ان قومى لا يصدقونى قال يصدقك أبو بكر وهو الصديق قال ابن عباس وعائشة عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم لما كانت ليلة أسرى بى فأصبحت بمكة قطعت بأمرى وعرفت أن
الناس يكذبونى فروى أنه عليه الصلاة والسلام قعد معتزلا حزينا فمر به أبو جهل فجلس
اليه فقال كالمستهزئ هل استفدت من شئ قال نعم أسرى بى الليلة قال الى أين قال الى بيت
المقدس قال ثم أصبحت بين ظهرانينا قال نعم فقال أبو جهل يا معشر بنى كعب بن لؤى
هلموا فانقضت اليه المجالس فجاؤا حتى جلسوا اليهما قال حدث قومك بما حدثتنى قال نعم
انى قد أسرى بى الليلة قالوا الى أين قال الى بيت المقدس قالوا ثم أصبحت بين أظهرنا قال نعم
فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وانكارا وارتد ناس ممن كان آمن به وسعى رجال الى
أبى بكر رضى الله عنه فقالوا له هل لك فى صاحبك يزعم أنه اسرى به الليلة الى بيت المقدس قال
أوقد قال قالوا نعم قال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا تصدقه على ذلك قال انى لاصدقه على
أبعد من ذلك أصدقه على خبر السماء فى غدوة أو روحة فسمى الصديق قال وفى القوم من كان
يأتى المسجد الاقصى فقالوا فهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد الاقصى قال نعم قال فذهبت
أنعت وأنعت فمازلت أنعت حتى التبس على قال فجىء بالمسجد وأنا أنظر اليه حتى وضع دون
دار عقيل فنعت المسجد وأنا أنظر اليه فقال القوم أما النعت فوالله لقد أصاب ثم قالوا يا محمد

أخبرنا عن عيرنا فهي أهم الينا هل لقيت منها شيأ قال ثم مررت على عير بني فلان وهي بالروحاء وقد أضلوا بعيرا لهم وهم في طلبه وفي رحالهم قدح من ماء فعطشت فأخذته وشربته ثم وضعته كما كان فاسألوهم هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا اليه قالوا هذه آية قال ومررت بعير بني فلان وفلان وفلان راكبان قعودا لهما فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان فانكسرت يده فاسألوهما عن ذلك قالوا وهذه آية قالوا فأخبرنا عن عيرنا متى تجيء قال مررت بها بالتنعيم قالوا فما عدتها وما حملها وما أحمالها ومن فيها فقال هيئتها كذا وكذا وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا وهذه آية ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون والله لقد قص محمد شيأ وبينه حتى أتوا كداء فجلسوا عليه فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه اذ قال قائل منهم هذه الشمس والله قد أشرقت فقال آخر والله وهذه العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا وقالوا ما هذا الا سحر مبين والاورق من الابل الذي في لونه بياض الى سواد وهو أطيب الابل لحما قاله الجوهري ومنها ما روي عن أنس بن مالك قال كان أبوذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم وجاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وايمانا فأفرغها في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي وعرج بي الى السماء فلما جئنا الى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء افتح قال ومن هذا قال جبريل قال هل معك أحد قال نعم معي محمد قال فأرسل اليه قال نعم ففتح قال فلما علونا السماء الدنيا فاذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم وهذه الاسودة التي عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين منهم أهل الجنة والاسودة التي عن شماله أهل النار واذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى ثم عرج بي جبريل حتى أتى الى السماء الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا فقال أنس بن مالك فذكر أنه وجد في السموات آدم وادريس وموسى وعيسى وابراهيم ولم يبين كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وابراهيم في السماء السادسة قال فلما مر جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم بادريس فقال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح قال فقلت من هذا قال انه ادريس قال ثم مررت بموسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال قلت من هذا قال هذا موسى فقال ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال فقلت من هذا قال عيسى ثم مررت بابراهيم فقال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح قال فقلت من هذا قال هذا ابراهيم قال ابن شهاب أخبرني ابن حزم ان ابن عباس كان يقول كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الاقلام وروى معمر عن قتادة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بالبراق ليلة أسري به مسرجا ملجما فاستصعب عليه فقال جبريل أبمحمد تفعل هذا فما ركبك أحد أكرم على الله منه فارفض عرقا وقال ابن زيد

عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهيت الى بيت المقدس قال جبريل باصبعه فخرق بها الحجر وشد به البراق وفى رواية أنه جاء جبريل بالبراق الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له يا محمد اركب فركبه صلى الله عليه وسلم وصحبه جبريل وطار به البراق فى الهواء فاخترق به الجو فعطش صلى الله عليه وسلم واحتاج الى الشراب فأتاه جبريل باناءين اناء من لبن واناء من خمر وذلك قبل تحريم الخمر فعرضهما عليه فتناول اللبن فقال له جبريل عليه السلام أصبت الفطرة أصاب الله تعالى بك أمتك ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يتأول اللبن بالعلم فلما وصل الى السماء الدنيا استفتح الى أن قال ثم عرج بى الى سدرة المنتهى وأخبره جبريل أن أعمال بنى آدم تنتهى الى تلك السدرة وانها مقر الارواح فهى نهاية لما ينزل عما فوقها ونهاية لما يعرج اليها عما هو دونها وبها مقام جبريل عليه السلام فنزل صلى الله عليه وسلم عن البراق وجىء اليه بالرفرف وهو نظير المحفة عندنا فقعد عليه وسلمه جبريل الى الملك النازل بالرفرف فسأله الصحبة ليأنس به فقال له لا أقدر لو خطوت خطوة لاحترقت فما منا الا له مقام معلوم وما أسرى الله بك يا محمد الا ليريك من آياته فلا تغفل فودعه وانصرف مع ذلك الملك والرفرف والملك يمشى به الى أن ظهر لمستوى سمع فيه صريرالاقلام فى الالواح وهى تكتب ما يجرى به الله تعالى فى خلقه وما تنسخه الملائكة من أعمال عباده قال تعالى انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ثم زج بى فى النور زجة فأفرده الملك الذى كان معه وتأخر عنه فلم يره معه فعلم أن الرفرف ما تدلى الا ليكون البراق له مكان لا يتعداه كجبريل لما بلغ الى المكان الذى لا يتعداه وقف وكذلك الرفرف لما وصل الى مقام لا يتعداه زج به فى النور فغمره النور من جميع نواحيه وأعطى علما آخر لم يكن يعلمه قبل ذلك عن وحى من حيث لا يدرى وجهته وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد رأيتنى وأنا فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط فرفعه الله الى لانظر اليه فما سألونى عن شئ الا أنبأتهم به وقد رأيتنى فى جماعة من الانبياء فاذا موسى قائم يصلى فاذا رجل جعد كأنه من رجال شنوأة واذا عيسى بن مريم قائم يصلى أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفى واذا ابراهيم قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم يعنى به نفسه صلى الله عليه وسلم فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت قال قائل يا محمد هذا مالك خازن النار فسلم عليه فالتفت اليه فبدأنى بالسلام وعن جابر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما كذبنى قريش قمت الى الحجر فجلى الله لى بيت المقدس وذكر الحديث وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت موسى ليلة أسرى بى عند الكثيب الاحمر وهو قائم يصلى فى قبره (فان قيل) رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى يصلى فى قبره وكيف تصلى الانبياء بعد الموت وهم فى دار الآخرة (أجيب) بأن صلاته صلى الله عليه وسلم بالانبياء عليهم السلام ببيت المقدس يحتمل أن الله تعالى جمعهم له ليصلى بهم ويعرفوا فضله وتقدمه عليهم ثم ان الله تعالى أراه اياهم فى السموات على مراتبهم ليعرف هو مراتبهم وفضلهم وأما مروره بموسى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكثيب الاحمر

فيحتمل

فيحتمل انه كان بعد رجوعه من المعراج وأما حكم صلاة الانبياء وهم فى الدار الآخرة فهم فى حكم الشهداء بل هم أفضل منهم وقد قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء فالانبياء بعد الموت أولى وأما حكم صلاتهم فيحتمل أنها بالذكر والدعاء وذلك من أعمال الآخرة قال تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم وورد فى الحديث أنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ويحتمل أن الله تعالى خصهم بخصائص فى الآخرة كما خصهم فى الدنيا بخصائص لم يخص بها غيرهم منها أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أنه رآهم يلبون ويحجون فكذلك الصلاة والله أعلم بحقائق الامور وروى عن شريك بن عبد الله قال سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة انه جاء ثلاثة نفر قبل أن يوحى اليه وهو نائم فى المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم وساق حديث المعراج بقصته قال فاذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان قال ماهذان ياجبريل قال هذان النيل والفرات عنصرهما ثم مضى به فى السماء فاذا هو بنهر آخر عليه نهر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فاذا هو مسك أذفر قال ماهذا ياجبريل قال هو الكوثر الذى خبأ لك ربك وذكر فى آخر حديثه أنه صلى الله عليه وسلم قال فى آخر الحديث ثم علا بى حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى فكان منه كقاب قوسين أو أدنى فاوحى اليه وذكرت عائشة ان الذى دنا فتدلى جبريل عليه السلام وسيأتى الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى فى سورة النجم (فان قيل) قوله تعالى لنريه من آياتنا يدل على انه تعالى ما أراه الا بعض الآيات لان كلمة من تفيد التبعيض وقال فى حق ابراهيم عليه الصلاة والسلام وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض أى ملكهما فيلزم أن يكون معراج ابراهيم أفضل من معراج محمد عليهما السلام (أجيب) بأنه لما أضيفت تلك الآيات الى الله تعالى دل على انها أفضل مما رآه ابراهيم *(تنبيه)* قال النووى فى شرح مسلم قد جاء فى رواية شريك فى حديثه أوهام أنكر عليه العلماء فيها منها قوله وذلك قبل أن يوحى اليه وهو غلط لم يوافق عليه وان الاسراء أقل ماقيل فيه انه كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر شهرا وقال الطبرانى كان ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة وقال الزهرى كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمس سنين قال ابن اسحق أسرى به صلى الله عليه وسلم وقد فشا الاسلام بمكة والقبائل وقيل كان الاسراء فى رجب ويقال فى رمضان قال النووى وأشبه الاقوال قول الزهرى وابن اسحق ومما يدل على أنه أسرى بجسده صلى الله عليه وسلم قوله تعالى أسرى بعبده ولفظ العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقوله صلى الله عليه وسلم أتيت بالبراق وهو اسم للدابة وهى التى ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به واشتقاقه من البرق لسرعته أو لشدة صفائه وبياضه ولمعانه وتلألؤ نوره والحلقة باسكان اللام ويجوز فتحها والمراد بربط البراق بالحلقة الاخذ بالاحتياط فى الامور وتعاطى الاسباب وان ذلك لا يقدح فى التوكل اذا كان الاعتماد على الله تعالى وقوله جاءنى جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فيه اختصار

قوله عليه نهر الخ هكذا فى النسخ ولعله محرف عن قوله عليه جنابذ من لؤلؤ وزبرجد اه

والتقدير قال لي اختر فاخترت اللبن وقول جبريل اخترت الفطرة يعني فطرة الاسلام وجعل اللبن علامة الفطرة الصحيحة السليمة لكونه سهلا طيبا سائغا للشاربين وانه سليم العاقبة بخلاف الخمر فانها أم الخبائث وجالبة لانواع الشر وقوله ثم عرج بي حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فيه بيان الادب لمن استأذن أن يقول أنا فلان ولا يقول أنا فقط فانه مكروه وفيه أن للسماء أبوابا وبوابين عليها حرسا وقول بواب السماء وقد أرسل اليه وفي الرواية الاخرى وقد بعث اليه معناه للاستواء وصعود السماء وليس مراده الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة فان ذلك لا يخفى عليه الى هذه المدة وقوله فاذا أنا بآدم وذكر جماعة من الانبياء فيه استحباب لقاء أهل الفضل والصلاح بالبشر والترحيب والكلام الحسن وان كان الزائر أفضل من المزور وفيه جواز مدح الانسان في وجهه اذا أمن عليه من الاعجاب وغيره من أسباب الفتنة وقوله فاذا أنا بابراهيم مسند ظهره الى البيت المعمور وفيه دليل على جواز الاستناد الى القبلة وتحويل ظهره اليها وقوله ذهب بي الى السدرة المنتهى هكذا وقع في هذه الرواية بالالف واللام وفي باقي الروايات الى سدرة المنتهى قال ابن عباس وغيره من المفسرين سميت بذلك لان علم الملائكة ينتهي اليها ولم يجاوزها أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن مسعود سميت بذلك لكونه ينتهي اليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله عزوجل وقوله واذا ثمرها مثل القلال هو بكسر القاف جمع قلة بضمها وهي الجرة الكبيرة التي تسع قربتين أو أكثر وقوله فرجعت الى ربي قال النووي معناه رجعت الى الموضع الذي ناجيته منه أولا فناجيته فيه ثانيا وقوله فلم أزل أرجع بين موسى وبين ربي معناه بين موضع مناجاة ربي وقوله ففرض على أمتي خمسين صلاة الى قوله فوضع عني خمسا وفي رواية شطرها وفي رواية عشرا ليس بين هذه الروايات منافاة لان المراد بالشطر الجزء وهو الخمس وليس المراد منه التنصيف وأما رواية العشر فهو رواية شريك ورواية الخمس رواية قتادة وهو أثبت من شريك والمراد حط عني خمسا الى آخره ثم قال هي خمس وهن خمسون يعني خمسين في الاجر والثواب لان الحسنة بعشر أمثالها واحتج العلماء بهذا الحديث على جواز نسخ الشئ قبل فعله وفي الحديث انه شق صدره ليلة المعراج وقد شق صدره أيضا في صغره وهو عند حليمة التي كانت ترضعه فالمراد بالشق الثاني زيادة التطهير لما يراد به من الكرامة ليلة المعراج وقوله أتيت بطست من ذهب قد يتوهم انه يجوز استعمال الذهب لنا وليس الامر كذلك لان هذا الفعل من فعل الملائكة وهم مباح لهم استعمال الذهب أو لعل هذا كان قبل تحريمه وقوله ممتلئ حكمة وايمانا فافرغها في صدري قد يقال الحكمة والايمان من المعاني والافراغ صفة الاجسام فما معنى ذلك أجيب بأنه يحتمل انه جعل في الطست شئ يحصل به كمال الايمان والحكمة وزيادتهما فسمي ايمانا وحكمة لكونه سببا لهما وهذا من أحسن المجاز وقوله في صفة آدم فاذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة هو جمع سواد وقد فسره في الحديث بأنه نسم بنيه يعني أرواح بنيه (فان قيل) أرواح المؤمنين في السماء وأما أرواح الكفار فتحت

الارض السفلى فكيف تكون فى السماء (أجيب) بأنه يحتمل ان أرواح الكفار تعرض على آدم عليه السلام وهو فى السماء فوافق وقت عرضها على ادم مرور النبى صلى الله عليه وسلم فأخبر بما رأى وقوله اذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر عن شماله بكى فيه شفقة الوالد على أولاده وسروره وفرحه بحسن حال المؤمن منهم وحزنه على حال الكافر منهم وقوله فى ادريس مرحبا بالاخ الصالح والنبى الصالح قد اتفق المؤرخون انه هو أخنوخ جد نوح فيكون جد النبى صلى الله عليه وسلم كما أن ابراهيم جده فكان ينبغى أن يقول بالنبى الصالح والابن الصالح كما قال آدم وابراهيم (وأجيب) بأنه قيل ان ادريس المذكور هنا هو الياس وهو من ذرية ابراهيم فليس هو جد نوح قاله القاضى عياض وقال النووى ليس فى هذا الحديث ما يمنع كون ادريس أبا لنبينا صلى الله عليه وسلم وان قوله الاخ الصالح يحتمل أن يكون قاله تلطفا وتأدبا وهو أخ وان كان ابنا لان الانبياء اخوة والمؤمنون اخوة انتهى وانما أطلت فى بيان ذلك لان الكلام مع الاحبة يحلو ولولا خوف الملل ما اقتصرت على ذلك فقد قال بعض المفسرين لا أعلم فى الكتاب العزيز سورة تضمنت من خصائصه التى فضل بها كافة الانبياء ما تضمنته هذه السورة ولكن فى هذا القدر كفاية لاولى الالباب * ولما ثبت بهذه الخارقة ما أخبر به صلى الله عليه وسلم عن نفسه المقدسة من عظيم القدرة وما جاء به صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات فى هذا الوقت اليسير أتبعه ما منح فى السير من مصر الى الارض المقدسة من الآيات فى مدد طوال موسى عليه الصلاة والسلام الذى كان أعظم الانبياء بركة على هذه الامة ليلة الاسراء لما أرشد النبى صلى الله عليه وسلم اليه من مراجعة الله تعالى فى تخفيف الصلاة حتى رجعت من خمسين الى خمس مع أجر خمسين فقال (وآتينا) أى بعظمتنا (موسى الكتاب) أى التوراة (وجعلناه) أى الكتاب بما لنا من العظمة (هدى لبنى اسرائيل) بالحمل على العدل فى التوحيد والاحكام وأسرينا بموسى عليه السلام وبقومه من مصر الى بلاد المسجد الاقصى فأقاموا سائرين اليها أربعين سنة ولم يصلوا ومات كل من خرج الا المتقين الموفين بالعهد فقد بان الفضل بين الاسراءين كما بان الفضل بين الكتابين فذكر الاسراء أولا دليل على حذف مثله ثانيا فالآية من الاحتباك ثم نبه على ان المراد من ذلك كلمة التوحيد اعتقادا وعبادة بقوله تعالى (أن لا) أى لئلا (يتخذوا) على قراءة أبى عمرو بالياء على الغيبة وقرأ غيره بالتاء على أن لا تتخذوا كقولك كتبت اليه أن افعل كذا (من دونى وكيلا) أى ربا تكلون اليه أموركم وذلك هو التوحيد فلا معراج أعلى ولا درجة أشرف ولا نعمة أعظم من أن يصير المرء غريقا فى بحر التوحيد وأن لا يعوّل فى أمر من الامور الا على الله تعالى فان نطق نطق بذكر الله وان تفكر تفكر فى دلائل تنزيه الله وان طلب طلب من الله فيكون كله لله وبالله والى الله وقوله تعالى (ذرية) نصب على الاختصاص فى قراءة أبى عمرو وعلى النداء عند الباقين أى يا ذرية (من حملنا) أى فى السفينة بعظمتنا على ظهر ذلك الماء الذى طبق ما تحت أديم السماء ونبه تعالى على شرفهم وتمام نعمتهم بقوله تعالى (مع نوح) ففى ذلك تذكير بانعام الله تعالى

عليهم وانجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح فى السفينة قال قتادة الناس كلهم من ذرية نوح لانه كان معه فى السفينة ثلاث بنين سام وحام ويافث فالناس كلهم من ذرية أولئك قال البقاعى لان الصحيح أن من كان معه من غير ذريته ماتوا ولم يعقبوا ولم يقل ذرية نوح ليعلم انهم عقب أولاده المؤمنين لتكون تلك منة أخرى * ثم انه تعالى أثنى على نوح حثا على الاقتداء به فى التوحيد كما اقتدى به آباؤهم فى ذلك بقوله تعالى (انه كان عبدا شكورا) أى مبالغا فى الشكر الذى هو صرف العبد جميع ما أنعم الله تعالى به عليه لما خلق له روى انه عليه الصلاة والسلام كان اذا أكل قال الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء أجاعنى وفى رواية انه يسمى اذا أكل ويحمد اذا فرغ واذا شرب قال الحمد لله الذى سقانى ولو شاء أظمانى واذا اكتسى قال الحمد لله الذى كسانى ولو شاء أعرانى واذا احتذى قال الحمد لله الذى حذانى ولو شاء أحفانى واذا قضى حاجته قال الحمد لله الذى أخرج عنى أذاه فى عافية ولو شاء حبسه وفى رواية انه كان يقول الحمد لله الذى اذاقنى لذته وأبقى منفعته فى جسدى وأخرج عنى أذاه وفى رواية أنه كان اذا أراد الافطار عرض طعامه على من مر به فان وجده محتاجا آثره به * ولما ذكر تعالى انعامه على بنى اسرائيل بانزال التوراة عليهم وبأنه جعل التوراة هدى لهم بين انهم ما اهتدوا بهداها بل وقعوا فى الفساد بقوله تعالى (وقضينا) أى أوحينا (الى بنى اسرائيل) أى الى بنى عبدنا يعقوب عليه السلام الذى كان أطوع أهل زمانه وحيا مقطوعا مثبوتا (فى الكتاب) أى التوراة التى قد أوصلناها اليهم على لسان موسى عليه السلام وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ وقوله تعالى (لتفسدن) جواب قسم محذوف ويجوز أن يجرى القضاء المثبوت مجرى القسم فيكون لتفسدن جوابا له كأنه قال وأقسمنا لتفسدن (فى الارض) أى أرض الشأم قاله السيوطى وقال الرازى أرض مصر ويوافق الاول قول البقاعى أى المقدسة التى كأنها لشرفها هى الارض (مرتين) أى افسادتين قال فى الكشاف أولاهما قتل زكريا عليه السلام وحبس أرمياحين أنذرهم بسخط الله تعالى والاخرى قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى بن مريم وقال البيضاوى الاولى مخالفة أحكام التوراة وقتل شعيا أو قتل أرميا وثانيتهما قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم السلام (ولتعلن) أى بما صرتم اليه من البطر لنسيان المنعم (علوا كبيرا) بالظلم والتمرد لانه يقال لكل متجبر قد علا وتعظم (فاذا جاء وعد أولاهما) أى أولى مرتى الفساد وهو الوقت الذى حددناه لهم الانتقام فيه (بعثنا عليكم عبادا لنا) أى لايذان لكم بهم كما قال تعالى (أولى بأس شديد) أى أصحاب قوة فى الحرب واختلف فيهم فقال فى الكشاف سنحاريب وجنوده وقيل بختنصر وقال ابن عباس جالوت قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وخربوا المساجد وسبوا منهم سبعين ألفا وقال البيضاوى عبادا لنا بختنصر عامل لهراسف على بابل وجنوده وقيل جالوت الجزرى وهو بجاء وزاى مفتوحتين فراء نسبة الى الجزر وهو ضيق العين وصغرها وهو الذى قتله داود أو جيل من الناس وذكر الرازى فى ذلك قولين الاول ان الله تعالى سلط عليهم بختنصر فقتل منهم أربعين ألفا ممن يقرأ التوراة وذهب

بالبقية

بالبقية الى أرض نفسه فبقوا هنالك في الذل الثاني أن الله تعالى ألقى الرعب من بني اسرائيل في قلوب المجوس فلما كثرت المعاصي فيهم أزال الله ذلك الرعب عن قلوب المجوس فقصدوهم وبالغوا في قتلهم وافنائهم واهلاكهم وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية قال أفسدوا المرة الاولى فأرسل الله عليهم جالوت فقتلهم وأفسدوا المرة الثانية فقتلوا يحيى بن زكريا فبعث الله عليهم بختنصر وعن ابن مسعود قال كان أول الفساد من قتل زكريا فبعث الله عليهم ملك القبط وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال الاولى قتل زكريا والاخرى قتل يحيى قاله الرازي واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض في معرفة أولئك الاقوام بأعيانهم بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصي سلط الله عليهم أقواما فقتلوهم وافنوهم ثم قال الله تعالى (فجاسوا) أي ترددوا الطلبكم (خلال الديار) أي وسطها للقتل والغارة قال البيضاوي فقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم وحرقوا التوراة وخربوا المسجد والمعتزلة لما منعوا تسليط الله الكافر على ذلك أولوا البعث بالتخلية انتهى وفي ذلك تعريض بالزمخشري فانه قال في كشافه (فان قلت) كيف جاز أن يبعث الله تعالى الكفرة على ذلك ويسلطهم عليه (قلت) معناه خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم على ان الله عز وجل أسند بعث الكفرة عليهم الى نفسه فهو كقوله تعالى وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون (وكان) أي ذلك البعث ووعد العقاب به (وعدا مفعولا) أي قضاء كائنا لازما لا شك في وقوعه ولا بد أن يفعل (ثم رددنا لكم الكرة) أي الدولة والغلبة (عليهم) حتى تبتم عن ذنوبكم ورجعتم عن الفساد في زمن داود بقتله جالوت وذلك بعد مائة سنة (وأمددناكم بأموال) تستعينون بها على قتال عدوكم (وبنين) تتقوون بهم (وجعلناكم أكثر) من عدوكم (نفيرا) أي عشيرة تنفر معكم عند ارادة القتال وغيره من المهمات والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر وهم المجتمعون للذهاب الى العدو * ولما حكى الله تعالى عنهم أنهم لما عصوا سلط الله عليهم أقواما قصدوهم بالقتل والنهب والسبي ولما تابوا أزال عنهم تلك المحنة وأعاد عليهم الدولة فعند ذلك ظهر أنهم ان أطاعوا الله فقد أحسنوا الى أنفسهم وان أصروا على المعصية فقد أساؤا على أنفسهم وقد تقرر في العقول أن الاحسان الى النفس حسن مطلوب وان الاساءة اليها قبيحة فلهذا المعنى قال تعالى (ان أحسنتم) أي بفعل الطاعة على حسب الامر في الكتاب الداعي الى العدل والاحسان (أحسنتم لانفسكم) أي لان ثوابها لها (وان أسأتم) بارتكاب المحرمات والافساد (فلها) أي الاساءة لان وبالها عليها قال النحويون وانما قال وان أسأتم فلها للتقابل والمعنى فاليها أو فعليها كما مر مع أن حروف الاضافة يقوم بعضها مقام بعض كقوله تعالى يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها أي اليها * (تنبيه) * قال أهل الاشارات هذه الآية تدل على ان رحمة الله غالبة على غضبه بدليل أنه تعالى لما حكى عنهم الاحسان ذكره مرتين فقال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم ولما حكى عنهم الاساءة اقتصر على ذكرها مرة واحدة فقال تعالى وان أسأتم فلها ولولا ان جانب الرحمة غالب والا لما كان كذلك ثم قال (فاذا جاء وعد الآخرة) أي ثانية في

الافساد وهو الوقت الذي حددناه الانتقام فيه (ليسوؤا) أي بعثنا عليكم عبادا لنا ليسوؤا (وجوهكم) أي يجعل آثار الاساءة بائنة فيها وحذف متعلق اللام لدلالة الاول عليه وقرأ الكسائي بعد اللام بنون مفتوحة على التوحيد والضمير فيه لله والباقون بالياء مفتوحة وأما الهمزة التي بعد الواو التي بعد السين فقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص بضم الهمزة ومدها والباقون بفتح الهمزة ولا مد وقوله تعالى (وليدخلوا المسجد) عطف على ليسوؤا والمراد بالمسجد الاقصى الذي سقناكم اليه من مصر في تلك المدد الطوال وأعطيناكم بلاده بالتدريج وجعلناه محل عزكم وأمنكم ثم جعلناه محلا لاكرام أشرف خلقنا بالاسراء به اليه وجمع أرواح النبيين كلهم فيه وصلاته بهم وهذا تعريض بتهديد قريش بأنهم ان لم يرجعوا ابدل الله أمنهم في الحرم خوفا وعزهم ذلا وأدخل عليهم جنودا لا قبل لهم بها وقد فعل ذلك عام الفتح لكنه فعل اكرام لا اهانة ببركة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم (كما دخلوه) أي الاعداء (أول مرة) بالسيف ويقهروا جميع جنودكم دفعة واحدة (وليتبروا) أي يهلكوا ويدمروا مع التقطيع والتفريق (ما علوا) أي عليه من ذلك وقيل ما مصدرية أي مدة علوهم (تتبيرا) أي اهلاكا قال الزجاج وكل شئ جعلته مكسرا مفتتا فقد تبرته ومنه قيل تبر الزجاج وتبر الذهب لمكسره ومنه قوله تعالى ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال الرازي وهذه المرة الاخيرة هي اقدامهم على قتل زكريا ويحيى عليهما السلام قال البيضاوي وذلك بأن سلط عليهم الفرس مرة أخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه حردون وقيل جودوس قيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم بجمع قربان فوجد فيه دما يغلي فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال ما صدقتموني فقتل عليه ألوفا منهم فلم يهدأ الدم ثم قال ان لم تصدقوني ما تركت منكم أحدا فقالوا انه دم يحيى فقال لمثل هذا ينتقم ربكم منكم ثم قال يا يحيى أي خطابا لدمه قد علم ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ باذن الله قبل أن لا يبقى أحد منهم فهدأ أي سكن وقال الواحدي فبعث الله تعالى عليهم بختنصر البابلي المجوسي أبغض خلقه اليه فسبى بني اسرائيل وخرب بيت المقدس قال الرازي أقوال التواريخ تشهد أن بختنصر كان قبل وقت عيسى ويحيى وزكريا بسنين متطاولة ومعلوم ان الملك الذي انتقم من اليهود ملك الروم يقال له قسطنطين الملك والله أعلم بأحوالهم ولا يتعلق غرض من اغراض تفسير القرآن بمعرفة أعيان هؤلاء الاقوام انتهى ولما انقضى ذلك كان كأنه قيل هل بقي لهم نصرة على عدوهم فقال تعالى (عسى ربكم أن يرحمكم) يا بني اسرائيل بعد انتقامه منكم فترد الدولة اليكم ثم بعد أن أطمعهم فزعهم بقوله تعالى (وان عدتم) أي الى المعصية (عدنا) اي الى صب البلاء عليكم في الدنيا مرة أخرى قال القفال انما حملنا هذه الآية على عذاب الدنيا لقوله تعالى في سورة الاعراف خبرا عن بني اسرائيل واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ثم قال وانهم قد عادوا الى فعل ما لا ينبغي وهو التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم وكتمان ما ورد في التوراة والانجيل فعاد الله تعالى عليهم بالتعذيب على أيدي

العرب

العرب بجرى على بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع ويهود خيبر ما جرى من القتل والجلاء ثم الباقى منهم مقهورون بالجزية لا ملك لهم ولا سلطان ثم قال تعالى (وجعلنا) أى بعد ذلك بعظمتنا (جهنم) أى التى تلقى داخلها بالتجهم والكراهة (للكافرين) وذكر الوصف الظاهر موضع الضمير لبيان تعلق الحكم به على سبيل الرسوخ سواء فى ذلك هم وغيرهم وقوله تعالى (حصيرا) يحتمل أن يكون فعيلا بمعنى الفاعل أى جعلنا جهنم حاصرا لهم ويحتمل أن يكون بمعنى مفعول أى جعلناها موضعا محصورا لهم والمعنى ان عذاب الدنيا وان كان شديدا قويا الا انه قد ينقلب بعض الناس عنه والذى يقع فى ذلك العذاب يتخلص منه اما بالموت واما بطريق آخر وأما عذاب الآخرة فانه يكون حاصرا للانسان محيطا به لا رجاء فى الخلاص عنه فهؤلاء الاقوام لهم من عذاب الدنيا ما وصفناه ويكون لهم بعد ذلك من عذاب الآخرة ما يكون محيطا بهم من جميع الجهات ولا يتخلصون منه أبدا * ولما بين سبحانه وتعالى كتاب موسى عليه السلام الذى أنزل عليه فيما بين مصر وبيت المقدس فى تلك المدة المتطاولة وجعله هدى لبنى اسرائيل صادق الوعد والوعيد بين تعالى كتاب محمد صلى الله عليه وسلم الذى أنزل عليه منه فى سبب مسيره اليه فى ذلك ووصفه بثلاثة أنواع من الصفات الاولى قوله تعالى (ان هذا القرآن) أى الجامع لكل حق والفارق بين كل ملتبس (يهدى للتى) أى الى الطريق التى (هى أقوم) أى أصوب من كل طريق فقوله تعالى للتى هى أقوم نعت لموصوف محذوف كما تقرر ويصح أن يقدر الملة والشريعة أى يهدى الى الملة والشريعة التى هى أقوم الملل والشرائع ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال فى القرآن كقوله تعالى ادفع بالتى هى أحسن وقيل الى الكلمة التى هى أعدل وهى شهادة أن لا اله الا الله * (تنبيه) * لفظ افعل قد جاء بمعنى الفاعل كقولنا الله أكبر أى الله الكبير وكقولنا الاشج والناقص أعدلا بنى مروان فأقوم يحتمل أن يكون كذلك وأن يبقى على ظاهره الصفة الثانية قوله تعالى (ويبشر المؤمنين) أى الراسخين فى هذا الوصف ولهذا قيدهم بيانا لهم بقوله (الذين) أى يصدقون ايمانهم بأنهم (يعملون) أى على سبيل التجديد والاستمرار والبناء على العلم (الصالحات) من التقوى والاحسان (أن لهم أجرا كبيرا) هو الجنة والنظر الى وجه الله تعالى وقرأ حمزة والكسائى بفتح الياء وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم الياء وفتح الباء الموحدة وكسر الشين مشددة (فان قيل) قال هنا أجرا كبيرا وفى الكهف أجرا حسنا (أجيب) بوقوع ذلك لموافقة الفواصل قبل وبعد فى كل منهما الصفة الثالثة قوله تعالى (وان الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا) أى أحضرنا وهيأنا (لهم عذابا أليما) وهو النار فى الآخرة وهو عطف على أن لهم أجرا كبيرا والمعنى أنه تعالى بشر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب أعدائهم نظيره قولك بشرت زيدا بأنه سيعطى وبأن عدوه سيمنع (فان قيل) كيف يليق لفظ البشارة بالعذاب (أجيب) بأن هذا مذكور على سبيل التهكم أو انه من باب اطلاق أحد الضدين على الآخر كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها أو على يبشر باضمار يخبر (فان قيل) هذه الآية واردة فى شرح أحوال اليهود

وهم ما كانوا ينكرون الايمان بالآخرة (أجيب) بأن أكثر اليهود ينكرون الثواب والعقاب الجسمانيين وبأن بعضهم قال لن تمسنا النار الا أياما معدودات فهم بذلك صاروا كالمنكرين للآخرة * ولما بين سبحانه وتعالى ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم والانسان قد يقدم على مالا فائدة فيه بينه بقوله تعالى (ويدع الانسان بالشر) عند ضجره على نفسه وأهله وماله (دعاءه) أى مثل دعائه (بالخير) ولو استجيب له فى الشر كما يستجاب له فى الخير لهلك روى أنه صلى الله عليه وسلم دفع الى سودة بنت زمعة أسيرا فأقبل يئن فى الليل فقالت له مالك فبكى وشكا فرحمته فارخت كتافه فهرب فلما أصبح النبى صلى الله عليه وسلم دعا به فاعلم بشأنه فقال صلى الله عليه وسلم اللهم اقطع يدها فرفعت سودة يدها تتوقع أن يقطع الله تعالى يدها فندم النبى صلى الله عليه وسلم وقال اللهم انما أنا بشر اغضب كما يغضبون فمن دعوت عليه فاجعل دعائى رحمة له وقيل المراد النضر ابن الحرث حيث قال اللهم انصر خير الحزبين اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الى آخره فأجاب الله تعالى دعاءه وضربت رقبته يوم بدر صبرا وكان بعضهم يقول ائتنا بعذاب الله وآخرون يقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين وانما فعلوا ذلك للجهل ولاعتقاد أن محمدا كاذب فيما يقول وقيل المراد أن الانسان قد يبالغ فى الدعاء طالبا الشئ قد يعتقد أن خيره فيه مع ان ذلك الشئ منبع لشره وضرره وهو يبالغ فى طلبه لجهله بحال ذلك الشئ وانما يقدم على مثل هذا العمل لكونه عجولا مغترا بظواهر الامور غير متفحص عن حقائقها وأسرارها كما قال تعالى (وكان الانسان) أى الجنس (عجولا) أى يسارع الى كل ما يخطر بباله ولا ينظر الى عاقبته وقيل المراد آدم عليه السلام لما انتهى الروح الى سرته ذهب لينهض فسقط *(تنبيه)* حذفت واو ويدع أى التى هى لام الفعل خطا فى جميع المصاحف ولا موجب لحذفها لفظا فى العربية لكنها لما كانت لا تظهر فى اللفظ حذفت فى الخط ونظيره قوله تعالى سندع الزبانية وسوف يؤت الله المؤمنين ويوم يناد المنادى فما تغن النذر قال الفراء ولو كان ذلك بالواو والياء لكان صوابا وقال الرازى أقول هذا يدل على انه سبحانه وتعالى قد عظم هذا القرآن المجيد عن التحريف والتغيير فان اثبات الواو والياء فى أكثر ألفاظ القرآن وعدم اثباتها فى هذه المواضع المعدودة يدل على ان هذا القرآن نقل كما سمع وان أحدا لم يتصرف فيه بمقدار فهمه وقوة عقله * ولما بين تعالى ما أوصل من نعم الدين وهو القرآن اتبعه بما وصل اليهم من نعم الدنيا فقال (وجعلنا الليل والنهار آيتين) دالتين على تمام العلم وشمول القدرة آية الليل كالآيات المتشابهة وآية النهار كالمحكمة فكما ان المقصود من التكليف لا يتم الا بذكر المحكم والمتشابه فكذلك الزمان لا يتيسر الانتفاع به الا بهاتين الآيتين (فمحونا) أى بعظمتنا الباهرة (آية الليل) أى طمسنا نورها بالظلام ليسكنوا فيه فجعلناها لا يبصر فيها المرئيات كما لا يبصر الكتاب اذا محى (وجعلنا) بما لنا من القدرة (آية النهار مبصرة) أى مبصرا فيها بالضوء فلا تزال هذه الدار الناقصة فى تنقل من نور الى ظلمة ومن الظلمة الى النور كما ان الانسان بجهلته التى يدعو اليها طبعه وتأنيه الداعى اليه عقله من انتقال من نقصان الى كمال ومن كمال الى

نقصان

نقصان كان القمر الذى هو أنقص من الشمس كذلك قال ابن عباس جعل الله نور الشمس سبعين جزأ ونور القمر كذلك فمحى من نور القمر تسعة وستين جزأ فجعلها مع نور الشمس وحكى ان الله تعالى أمر جبريل فأمر بجناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقى فيه النور وسأل ابن الكواء عليا رضى الله عنه عن السواد الذى فى القمر قال هو أثر المحو * (تنبيه) * المراد من الآيتين بعض الليل والنهار فالاضافة للبيان أى انه تعالى جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا اما الدين فلان كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير له مع كونهما متعاقبين على الدوام وهو من أقوى الدلائل على انهما غير موجودين بذاتهما بل لابد لهما من فاعل يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة واما فى الدنيا فلان مصالح الدنيا لاتتم الا بالليل والنهار فلولا الليل ماحصل السكون والراحة ولولا النهار لماحصل الكسب والتصرف وقيل الليل والنهار ظرفان والتقدير وجعلنا آيتين فى الليل والنهار والمراد بالآيتين على هذا اما الشمس والقمر واما تكوير هذا على هذا وهذا على هذا ثم ذكر تعالى بعض المنافع المرتب على ذلك بقوله تعالى (لتبتغوا) أى تطلبوا طلبا شديدا (فضلا من ربكم) أى المحسن اليكم فيهما بضياء هذا تارة ونور هذا أخرى (ولتعلموا) بفصل هذا عن هذا (عدد السنين والحساب) لان الحساب يبنى على أربع مراتب الساعات والايام والشهور والسنين والعدد للسنين والحساب لما دون السنين وهى الشهور والايام والساعات وبعد هذه المراتب الاربعة لايحصل الا التكرار كأنهم رتبوا العدد على أربع مراتب الآحاد والعشرات والمئات والالوف وليس بعدها الا التكرار * ولما ذكر تعالى أحوال آيتى الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان عظيمتان من الله تعالى على أهل الدنيا وقد ذكر تعالى فى آيات كثيرة منافعهما كقوله تعالى وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وكقوله تعالى جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله وشرح تعالى حالهما وفصل مافيهما من وجوه الدلالة على الخالق ومن وجوه النعم العظيمة على الخلق كان ذلك تفصيلا نافعا وتبيانا كاملا فلا جرم قال تعالى (وكل شئ) أى لكم اليه حاجة فى مصالح دينكم ودنياكم (فصلناه تفصيلا) أى بيناه تبيينا وهو كقوله تعالى ما فرطنا فى الكتاب من شئ وكقوله تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وقوله تدمر كل شئ بأمر ربها وانما ذكر تعالى تفصيلا لاجل توكيد الكلام وتقريره فكأنه قال فصلناه حقا * ولما بين تعالى انه أوصل الى الخلق أصناف الاشياء النافعة لهم فى الدنيا والدين مثل آيتى الليل والنهار وغيرهما كان منعما عليهم بوجود النعم وذلك يقتضى وجوب اشتغالهم بخدمته وطاعته فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فانه يكون مسؤلا عن اعماله وأقواله كما قال تعالى (وكل انسان ألزمناه) أى بعظمتنا (طائره) أى عمله الذى قدرناه عليه من خير وشر لان العرب كانوا اذا أرادوا الاقدام على عمل من الاعمال وأرادوا أن يعرفوا ان ذلك العمل يسوقهم الى خير أو الى عمل شر اعتبروا أحوال الطير وهو انه يطير بنفسه أو يحتاج الى ازعاجه واذا طار فهو يطير متيامنا أو متياسرا

أو صاعدا الى الجو الى غير ذلك من الاحوال التى كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة فلما كثر ذلك منهم سموا نفس الخير والشر بالطائر تسمية للشئ باسم لازمه فقوله تعالى وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه أى وكل انسان ألزمناه عمله (فى عنقه) الذى هو محل التزين بالقلادة ونحوها ومحل الشين بالغل ونحوه فان كان عمله خيرا كان كالقلادة والحلى فى العنق وهذا مما يزينه وان كان عمله شرا كان كالغل فى عنقه وهو مما يشينه وقال مجاهد مامن مولود يولد الا وفى عنقه ورقة مكتوب فيها شقى أو سعيد قال الرازى والتحقيق فى هذا الباب أنه تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والفهم والعلم والعمر والرزق والسعادة والشقاوة والانسان لا يمكنه أن يتجاوز ذلك المقدار وان كان ينحرف عنه بل لابد وأن يصل اليه ذلك القدر بحسب الكمية والكيفية فتلك الاشياء المقدرة كأنها تطير اليه وتصير اليه فلهذا المعنى لا يبعد أن يعبر عن تلك الاحوال المقدرة بلفظ الطائر فقوله تعالى ألزمناه طائره فى عنقه كناية عن كل ماقدره الله ومعنى فى عنقه حصوله له فهو لازم له واصل اليه غير منحرف عنه واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة انتهى ملخصا ثم قال تعالى (ونخرج له يوم القيامة كتابا) أى مكتوبا فيه عمله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذى عن شمالك فيحفظ لك سيآتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك فى قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة وقوله تعالى (يلقاه منشورا) صفتان لكتابا وقرأ ابن عامر بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف على البناء للمفعول من لقيته كذا أى استقبلته به والباقون بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف وامال الالف بعد القاف حمزة والكسائى محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح ثم انه اذا اتى كتابه يوم القيامة يوم العرض قيل له (اقرأ كتابك) أى بنفسك (كفى بنفسك اليوم) الذى تنكشف فيه الستور وتظهر جميع الامور (عليك حسيبا) أى حاسبا بليغا فانك تعطى القدرة على قراءته أميا كنت أو قارئا ولا ترى فيه زيادة ولا نقصانا ولا تقدر أن تنكر منه حرفا وان أنكره لسانك شهدت عليك اركانك فيالهامن قدرة باهرة وقوة قاهرة ونصفة ظاهرة قال الحسن عدل والله فى حقك من جعلك حسيب نفسك وقال السدى يقول الكافر يومئذ انك قضيت انك لست بظلام للعبيد فاجعلنى أحاسب نفسى فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (فان قيل) قد قال تعالى وكفى بنا حاسبين فكيف الجمع فى ذلك (أجيب) بأن المراد بالحسيب هنا الشهيد أى كفى بشخصك اليوم شاهدا عليك أو ان القيامة مواقف مختلفة ففى موقف يكل الله تعالى حسابهم الى أنفسهم وعلمه محيط بهم وفى آخر يحاسبهم هو وقوله تعالى (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه) لان ثواب اهتدائه له لا يتخطى غيره (ومن ضل فانما يضل عليها) أى اثمه عليها فلا يضر فى ضلاله سواه كما قال الكلبى دلالة على ان العبد متمكن

من

من الخير والشر وانه غير مجبور على عمل بعينه أصلا لان قوله تعالى من اهتدى الى آخره انما يليق بالقادر على الفعل المتمكن منه كيف شاء وأراد أما المجبور على احد الطرفين الممنوع عن الطرف الثانى فهذا لا يليق به هذا مذهب أهل السنة والجماعة فاتبعه ترشد ثم انه تعالى أعاد تقرير ان كل أحد مختص بأثر عمل نفسه بقوله تعالى (ولا تزر) أى نفس (وازرة) أى آثمة أى لا تحمل (وزر) نفس (أخرى) بل انما تحمل وزرها فقط (فان قيل) ورد أن المظلوم يأخذ من حسنات الظالم فاذا لم يوف يؤخذ من سيآت المظلوم وتطرح على الظالم (أجيب) بأن ذلك بسببه فهو كفعله (فان قيل) قد ورد أن الميت يعذب ببكاء أهله (اجيب) بأن ذلك محمول على ما اذا أوصى بذلك وكان ذلك الفعل كقول طرفة بن العبد

اذا مت فانعينى بما أنا أهله * وشقى على الجيب يا ابنة معبد

وعليه حمل الجمهور الاخبار الواردة بتعذيب الميت على ذلك (فان قيل) ذنب الميت فيما اذا أوصى أو أمر بذلك فلا يختلف عذابه بامتثالهم وعدمه (أجيب) بأن الذنب على السبب يعظم بوجود المسبب وشاهده من سن سنة سيئة الخ وقال الشيخ أبو حامد ان ماذكر محمول على الكافر وغيره من أهل الذنوب ثم قال تعالى (وما كنا) أى على مالنا من القدرة (معذبين) أحدا (حتى نبعث رسولا) يبين له ما يجب عليه فمن بلغته دعوته فخالف أمره واستكبر عن اتباعه عذبناه بما يستحقه وهذا أمر قد تحقق بارسال آدم عليه السلام ومن بعده من الانبياء الكرام عليهم السلام فى جميع الامم قال تعالى ولقد أرسلنا فى كل أمة رسولا وقال تعالى وان من أمة الا خلا فيها نذير فان دعوتهم الى الله تعالى قد انتشرت وعمت الاقطار واشتهرت (فان قيل) الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسول لان معهم أدلة العقل التى بها يعرف الله تعالى وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه واستحقاقهم العذاب لاغفالهم النظر فيما معهم وكفرهم لذلك لا لاغفال الشرائع التى لا سبيل اليها الا بالتوقيف والعمل بها لا يصح الا بعد الايمان (أجيب) بان بعثة الرسول من جملة التنبيه على النظر والايقاظ من رقدة الغفلة لئلا يقولوا انا كنا عن هذا غافلين فهلا بعثت الينا رسولا ينبهنا على النظر فى أدلة العقل وفى الآية دليل على أن لا وجوب قبل الشرع * (فائدة) فى حكم أهل الفترتين بين نوح وادريس وبين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة عشر قسما ستة سعداء وأربعة أشقياء وثلاثة تحت المشيئة فأما السعداء فقسم وحد الله تعالى بنور وجده فى قلبه كقس بن ساعدة فانه كان يقول اذا سئل هل لهذا العالم اله قال البعرة تدل على البعير وأثر الاقدام يدل على المسير وقسم وحد الله تعالى بما تجلى لقلبه من النور الذى لا يقدر على دفعه وقسم ألقى فى نفسه واطلع من كشفه على منزلة محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به فى عالم الغيب وقسم اتبع ملة حق ممن تقدمه وقسم طالع فى كتب الانبياء فعرف شرف محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به وقسم آمن بنبيه الذى أرسل اليه وأدرك رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وآمن به فله أجران وأما الاشقياء فقسم عطل لا عن نظر بل عن تقليد وقسم عطل بعد ما أثبت لا عن استقصاء بنظر وقسم أشرك عن

تقليد محض وقسم علم الحق وعانده وأما الذى تحت المشيئة فقسم عطل فلم يقر بوجوده عن نظر قاصر لضعف فى مزاجه وقسم أشرك عن نظر أخطأ فيه وقسم عطل بعد ما أثبت لا عن نظر بلغ فيه أقصى القوة هكذا قسم محيى الدين بن عربى فى الباب العاشر من الفتوحات المكية نقل ذلك عنه شيخ وقته الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ونقل عن السيوطى ان أبوى النبى صلى الله عليه وسلم لم تبلغهما الدعوة والله تعالى يقول وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وحكم من لم تبلغه الدعوة أنه يموت ناجيا ولا يعذب ويدخل الجنة قال وهذا مذهب لا خلاف فيه بين المحققين من أئمتنا الشافعية فى الفقه والاشاعرة فى الاصول ونص على ذلك الامام الشافعى رضى الله عنه وتبعه على ذلك الاصحاب قال السيوطى وقد ورد فى الحديث ان الله تعالى أحيا أبويه حتى آمنا به وعلى ذلك جماعة من الحفاظ منهم الخطيب البغدادى وأبو القاسم بن عساكر وأبو حفص بن شاهين والسهيلى والقرطبى والطبرى وابن المنير وابن سيد الناس وابن ناصر الدين الدمشقى والصفدى وغيرهم والاولى لنا الامساك عن ذلك فان الله تعالى لم يكلفنا بذلك ونكل الامر فى ذلك الى الله تعالى ونقول كما قال النووى لما سئل عن طائفة ابن عربى تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون * ولما أشار تعالى الى عذاب المخالفين قرر أسبابه وعرف أنها بقدره وان قدره لا يمنع حقوق العذاب بقوله تعالى (واذا أردنا) أن نحيى قرية الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة ألقينا فى قلوب أهلها الامتثال أو أمرنا والتقييد باتباع رسلنا واذا أردنا (ان نهلك قرية) فى الزمن المستقبل (أمرنا) أى بما لنا من القدرة التامة الشاملة (مترفيها) أى منعميها الذين لهم الامر والنهى قال الاكثرون أمرهم الله تعالى بالطاعة والخير على لسان رسله (ففسقوا فيها) أى خرجوا عن طاعة الله ورسوله وقال صاحب الكشاف ظاهر اللفظ يدل على أنه تعالى يأمرهم بالفسق فيفسقون الا أن هذا مجاز ومعناه أنه يفتح عليهم أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا قال والدليل على أن ظاهر اللفظ يقتضى ما ذكرناه ان المأمور به انما حذف لان قوله ففسقوا يدل عليه يقال أمرته فقام وأمرته فقرأ لا يفهم منه الا أن المأمور به قيام وقراءة فكذا هنا لما قال أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وجب أن يكون المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا لا يقال يشكل هذا بقولهم أمرته فعصانى وخالفنى فان هذا كلام لا يفهم منه أنى أمرته بالمعصية والمخالفة لانا نقول ان المعصية منافية للامر ومناقضة له فيكون كونها مأمورا بها مخالفا فلهذه الضرورة تركنا هذا الظاهر انتهى قال الرازى ولقائل أن يقول كما أن قوله أمرته فعصانى يدل على أن المأمور به شئ غير المعصية من حيث ان المعصية منافية للامر ومناقضة له فكذلك قوله أمرته ففسق يدل على ان المأمور به غير الفسق لان الفسق عبارة عن الاتيان بضده فكونه فسقا ينافى كونه مأمورا به كما أن كونه معصية ينافى كونها مأمورا بها فوجب أن يدل هذا اللفظ على أن المأمور به ليس بفسق وهذا الكلام فى غاية الظهور فلم أدر لم أصر صاحب الكشاف على قوله مع ظهور فساده فثبت أن الحق ما ذكره الكل وهو أن المعنى

أمرناهم

أمرناهم بالأعمال الصالحة وهي الإيمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الأمر عنادا وأقدموا على الفسق (فحق عليها القول) أي الذي توعدناهم به على لسان رسولنا (فدمرناها تدميرا) أي أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريب ديارهم وخص المترفين بالذكر لأن غيرهم يتبعهم ولأنهم أسرع إلى الحماقة وأقدر على الفجور وقيل معناه كثرنا وروى الطبراني وغيره حديث خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أي كثيرة النتاج والسكة بكسر السين وتشديد الكاف الطريقة المصطفة من النخل والمأبورة الملقحة قال ذلك الجوهري وروي أن رجلا من المشركين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إني أرى أمرك هذا حقيرا فقال صلى الله عليه وسلم إنه سيأمر أي سيكثر وسيكبر وعن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بين أصبعيه الإبهام والتي تليها قالت زينب قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم إذا كثر الخبث أي الشر وويل يقال لمن وقع في هلكة أو أشرف أن يقع فيها وقوله تعالى (وكم أهلكنا) أي بما لنا من العظمة وبين مدلول كم بقوله تعالى (من القرون) أي المكذبين (من بعد نوح) كعاد وثمود من الأمم الماضية يخوف به الكفار أي كفار مكة قال عبد الله بن أبي أوفى القرن عشرون ومائة سنة وقيل مائة سنة روى عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بشر المازني أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع يده على رأسه وقال سيعيش هذا الغلام قرنا قال محمد بن القاسم ما زلنا نعد له حتى تمت له مائة سنة ثم مات وقال الكلبي القرن ثمانون سنة وقيل أربعون ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (وكفى بربك) أي المحسن اليك (بذنوب عباده خبيرا بصيرا) أي عالما ببواطنها وظواهرها فكم من إنسان كنتم ترونه من أكابر الصالحين ثم استقرت عاقبته على خلاف ذلك وكم من شخص ترونه مجتهدا في العبادة فإذا خلا بارز ربه بالعظائم وتقديم الخبر لتقديم متعلقه * ولما قرر أنه سبحانه وتعالى عالم ببواطن عباده وظواهرهم قسمهم إلى قسمين الأول قوله تعالى (من كان يريد العاجلة) أي الدنيا مقصورا عليها همه (عجلنا له فيها) أي العاجلة بأن نفيض عليه من منافعها (ما نشاء) أي من البسط والتقتير (لمن نريد) أي أن نفعل به ذلك فقيد تعالى الأمر بقيدين أحدهما تقييد المعجل بإرادته ومشيئته والثاني تقييد المعجل له بإرادته وهكذا الحال ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضا منه وكثير منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة * (تنبيه) * لمن نريد بدل بعض من كل من الضمير في له بإعادة العامل تقديره لمن نريد تعجيله له ويقال إن الآية في المنافقين كانوا يراؤون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم إلا مساهمتهم في الغنائم ونحوها وهذا هو المناسب لقوله تعالى (ثم جعلنا له جهنم يصلاها) أي في الآخرة (مذموما) أي مفعولا به الذم (مدحورا) أي مدفوعا مطرودا مبعدا وإن ذكره البيضاوي بصيغة قيل * ثم ذكر تعالى القسم الثاني وشرط فيه ثلاثة شروط الأول قوله تعالى (ومن أراد الآخرة) أي أراد بعمله ثواب الآخرة فإنه إن لم ينو

ذلك لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى وقوله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات الثانى قوله تعالى (وسعى لها سعيها) وذلك يقتضى أن يكون ذلك العمل من باب القرب والطاعات وكثير من الضلال يتقربون بعبادة الاوثان ولهم فيها تأويلات أحدها انهم يقولون اله العالم أجل وأعظم من أن يقدر الواحد منا على اظهار عبوديته وخدمته ولكن غاية قدرتنا أن نشتغل بعبادة بعض المقربين من عباد الله بأن نشتغل بعبادة كوكب أو ملك من الملائكة ثم ان الملك أو الكوكب يشتغل بعبادة الله تعالى فهؤلاء يتقربون الى الله تعالى بهذا الطريق وهذه طريقة فاسدة فلا جرم أنه لم ينتفع بها ثانيها انهم قالوا اتخذنا هذه التماثيل على صورة الانبياء والاولياء والمراد من عبادتها أن تصير تلك الانبياء والاولياء شفعاء لنا عند الله وهذا الطريق أيضا فاسد فلا جرم لم ينتفع بها ثالثها أنه نقل عن أهل الهند أنهم يتقربون الى الله بقتل أنفسهم تارة وباحراق أنفسهم أخرى وهذه الطريقة أيضا فاسدة فلا جرم لم ينتفع بها وكذا القول فى جميع الفرق المبطلين الذين يتقربون الى الله تعالى بمذاهبهم الباطلة الثالث قوله تعالى (وهو مؤمن) لان الشرط فى كون أعمال البر مقتضية للثواب هو الايمان فان لم يوجد لم يحصل المشروط وعن بعض المتقدمين من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا هذه الآية ثم انه تعالى أخبر عند وجود هذه الشروط بقوله تعالى (فأولئك) أى العالو الرتبة لجمعهم الشرائط الثلاثة (كان سعيهم مشكورا) أى مقبولا مثابا عليه بالتضعيف وبعضهم يفتح له أبواب الدنيا مع ذلك كداود وسليمان عليهما السلام ويستعمله فيها بما فيه مرضاة الله تعالى وبعضهم يزويها عنه كرامة له لا هوانا به فربما كان الفقر خيرا له وأعون على مراده فالحاصل أنها ان وجدت عند الولى لم تشرفه وان عدمت عنه لم تحقره وانما التشريف وغيره عند الله تعالى بالاعمال *(تنبيه)*

كل من أتى بفعل اما أن يقصد به تحصيل خيرات الدنيا واما أن يقصد به خيرات الآخرة واما أن يقصد به مجموعهما واما أن لا يقصد به واحدا منهما فان قصد به تحصيل الدنيا فقط أو تحصيل الآخرة فقط فالله ذكر حكم هذين القسمين فى هذه الآية وأما القسم الثالث فينقسم الى ثلاثة أقسام اما أن يكون طلب الآخرة راجحا أو مرجوحا أو يكون الطلبان متعادلين فان كان طلب الآخرة راجحا فهل يكون هذا العمل مقبولا عند الله تعالى فيه رأيان أحدهما أنه غير مقبول لقوله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن الله تعالى أنه قال أنا أغنى الاغنياء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشركه وأيضا طلب رضوان الله اما أن يكون سببا مستقلا لكونه باعثا لهم على ذلك الفعل وداعيا اليه واما أن لا يكون فان كان الاول امتنع أن يكون لغيره مدخل فى ذلك البعث والدعاء لان الحكم اذا أسند لسبب تام كامل امتنع أن يكون لغيره مدخل فيه وان كان الثانى فيكون الداعى الى ذلك الفعل هو المجموع وذلك المجموع ليس هو طلب رضوان الله لان المجموع الحاصل من الشئ ومن غيره يجب أن يكون مغايرا لطلب رضوان الله فوجب أن لا يكون مقبولا الرأى الثانى أنه مقبول لان طلب الآخرة لما كان راجحا على

طلب الدنيا تعارض المثل بالمثل فبقي القدر الزائد داعية خالصة لطلب الآخرة فوجب كونه مقبولا وأما اذا كان طلب الدنيا وطلب الآخرة متعادلين أو كان طلب الدنيا راجحا فقد اتفقوا على أنه غير مقبول الا أنه على كل حال خير مما اذا كان طلب الدنيا خاليا بالكلية عن طلب الآخرة وأما القسم الرابع وهو الاقدام على الفعل من غير داع فهذا مبني على أن صدور الفعل من القادر هل يتوقف على حصول الداعي أم لا فالذين يقولون انه يتوقف على حصول الداعي قالوا هذا القسم ممتنع الحصول والذين قالوا لا يتوقف قالوا هذا الفعل لا أثر له في الباطن وهو محرم في الظاهر لانه عبث * ثم انه تعالى قال (كلا) أي من الفريقين مريد الدنيا ومريد الآخرة (نمد) أي بالعطاء ثم أبدل من كلا قوله تعالى (هؤلاء) أي الذين طلبوا الدنيا نمد (وهؤلاء) أي الذين طلبوا الآخرة نمد (من عطاء ربك) أي المحسن اليك ان ضيق على مؤمن فبالحماية من الدنيا الفانية التي انما هي لعب ولهو وان وسع فبالاستعمال فيها على حسب ما يرضيه (وما كان عطاء ربك) أي الموجد لك المدبر لامرك (محظورا) أي ممنوعا في الدنيا عن مؤمن ولا كافر بل هو ملء السهل والجبل من الذهب والفضة والحديد والنحاس والجواهر والثمار وأقوات الناس والبهائم وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى حتى لو اجتمع كل الناس على جمعه ليلا ونهارا ولم يكن لهم شغل سوى ذلك لاعياهم ولم يقدروا عليه فسبحان الجواد المعطي المانع ثم انه تعالى أمر بالنظر في عطائه هذا على وجه مرغب في الآخرة مزهد في الدنيا بقوله تعالى (انظر) أي أيها الانسان أو يا محمد (كيف فضلنا بعضهم على بعض) فأوسعنا على مؤمن وقترنا على مؤمن آخر وأوسعنا على كافر وقترنا على كافر آخر وبين سبحانه وتعالى وجه الحكمة في التفاوت في سورة الزخرف بقوله تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات الآية وقال تعالى في آخر سورة الانعام ورفع بعضكم فوق بعض درجات * (تنبيه) * كيف نصب اما على التشبيه بالظرف واما على الحال وهي معلقة لانظر بمعنى فكر وأبصر * ولما نبه تعالى على ان ما نراه من التفضيل انما هو بمحض قدرته أخبر أن ما بعد الموت كذلك بقوله تعالى (وللآخرة أكبر) أي أعظم (درجات وأكبر تفضيلا) من درجات الدنيا ومن تفضيلها فان نسبة التفاضل في درجات الآخرة الى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا فان كان الانسان تشتد رغبته في طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته في طلب الآخرة أحرى لانها دار المقامة روى أن قوما من الاشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله تعالى عنه فخرج الاذن لبلال وصهيب فشق على أبي سفيان فقال سهيل بن عمرو انما أوتينا من قبلنا انهم دعوا ودعينا يعني الى الاسلام فأسرعوا وأبطأنا وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة * ولما بين تعالى ان الناس فريقان منهم من يريد بعمله الدنيا فقط وهم أهل العذاب ومنهم من يريد طاعة الله وهم أهل الثواب ثم شرط في ذلك ثلاثة شروط فصل تلك المجملات وبدأ أولا بشرح حقيقة الايمان وأشرف أجزاء الايمان هو التوحيد ونفي الشريك والاضداد بقوله تعالى (لا تجعل مع الله)

أى الذى له جميع صفات الكمال (الها آخر) قيل الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره والاولى أنه للانسان فيكون خطابا عاما لكل من يصلح أن يخاطب به (فتقعد) أى فيتسبب عن ذلك أن تقعد أى تصير فى الدنيا قبل الآخرة (مذموما مخذولا) لان المشرك كاذب والكاذب يستوجب الذم والخذلان ولانه قد ثبت بالدليل أنه لا اله ولا مدبر الا الله تعالى فحينئذ تكون جميع النعم حاصلة من الله تعالى فمن أشرك بالله فقد أضاف بعض تلك النعم الى غير الله فاستحق الذم والخذلان *(تنبيه)* قال الواحدى قوله تعالى فتقعد انتصب لانه وقع بعد الفاء جوابا للنهى وانتصابه باضمار ان كقولك لا تنقطع عنا فنجفوك والتقدير لا يكن منك انقطاع فيحصل أن نجفوك فما بعد الفاء متعلق بالجملة المتقدمة بحرف الفاء وانما سماه النحويون جوابا لكونه مشابها للجزاء وأن الثانى مسبب عن الاول كما تقرر * ولما ذكر تعالى ما هو الركن الاعظم فى الايمان أتبعه بذكر ما هو من شعائر الايمان وشرائعه وذلك أنواع الاول أن يشتغل الانسان بعبادة الله تعالى ويحترز عن عبادة غيره وهذا هو المراد من قوله تعالى (وقضى) أى أمر (ربك) أى المحسن اليك وقوله تعالى (أن لا تعبدوا) أى أنت وجميع أهل دعوتك وهم جميع الناس (الا اياه) فيه وجوب عبادة الله تعالى والمنع من عبادة غيره لان العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق الا بمن له الانعام والافضال على عباده ولا منعم الا الله تعالى فكان هو المستحق للعبادة لا غيره *(تنبيه)* روى ميمون بن مهران عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية كان الاصل ووصى ربك فالتصقت احدى الواوين بالصاد فقرئ وقضى ربك ثم قال ولو كان على القضاء ما عصى الله أحد قط لان خلاف قضاء الله ممتنع وهذا القول كما قاله الرازى بعيد جدا اذ لو فتح هذا الباب لارتفع الامان عن القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك أنه طعن عظيم فى الدين ويندفع ما قاله بما فسر قضى به * ولما أمر تعالى بعبادة نفسه اتبعه بالامر ببر الوالدين بقوله تعالى (وبالوالدين) أى وأحسنوا أى وأوقعوا الاحسان بهما (احسانا) أى بأن تبروهما ليكون الله معكم فانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون *(تنبيهان)* أحدهما المناسبة بين الامر بعبادة الله تعالى والامر ببر الوالدين من وجوه الاول أن السبب الحقيقى لوجود الانسان هو تخليق الله تعالى وايجاده والسبب الظاهر هو الابوان فأمر الله تعالى بتعظيم السبب الحقيقى ثم اتبعه بالامر بتعظيم السبب الظاهرى الثانى ان الموجود اما قديم واما محدث ويجب أن تكون معاملة الانسان مع الموجود القديم بالتعظيم والعبودية ومع المحدث باظهار الشفقة وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله وأحق الخلق بالشفقة الابوان لكثرة انعامهما على الانسان فقوله تعالى وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه اشارة الى التعظيم لامر الله تعالى وقوله تعالى وبالوالدين احسانا اشارة الى الشفقة على خلق الله الثالث ان الاشتغال بشكر المنعم واجب ثم المنعم الحقيقى هو الخالق سبحانه وتعالى وقد يكون بعض المخلوقين منعما عليك وشكره أيضا واجب لقوله صلى الله عليه وسلم من لم يشكر الناس لم يشكر الله وليس لاحد

من

من الخلائق نعمة على الانسان مثل الابوين لان الولد قطعة من الوالدين قال صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة مني وأيضا فشفقة الوالدين على الولد عظيمة وايصال الخير الى الولد نهما أمر طبيعي واحترازهما عن ايصال الضرر اليه أمر طبيعي أيضا فوجب أن تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة بل هي أكبر من كل نعمة تصل من الانسان الى الانسان وأيضا حال ما يكون الانسان في غاية الضعف ونهاية العجز يكون انعام الابوين في ذلك الوقت واصلا الى الولد واذا وقع الانعام على هذا الوجه كان موقعه عظيما وأيضا فايصال الخير الى الغير قد يكون لداعية ايصال الخير اليه وايصال الخير الى الولد ليس لهذا الغرض فكان الانعام فيه أتم وأكمل فثبت بهذه الوجوه أنه ليس لاحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد فلهذا بدأ الله بشكر نعمة الخالق وهو قوله تعالى وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله تعالى وبالوالدين احسانا (فان قيل) الوالدان انما طلبا تحصيل اللذة لانفسهما فلزم منه دخول الولد في الوجود ودخوله في عالم الآفات والمخافات فأي انعام للابوين على الولد حتى ان بعض المتسمين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول هو الذي أدخلني في عالم الكون والفساد وعرضني للموت والفقر والعمى والزمانة وقيل لابي العلاء المعري ماذا نكتب على قبرك فقال اكتبوا على قبري هذا جناية أبي علي وما جنيت على أحد وقال في ترك التزوج والولد

وتركت فيهم نعمة العدم التي * فيهم لقد سبقت نعيم العاجل
ولو أنهم ولدوا لعانوا شدة * ترمي بهم في موبقات الآجل

وقيل لاسكندر استاذك أعظم منة عليك أم والدك فقال أستاذي أعظم منة لانه تحمل أنواع الشدائد عند تعليمي فأوقعني في نور العلم وأما الوالد فانه طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه فأخرجني الى آفات عالم الكون والفساد ومن الكلمات المأثورة المشهورة خير الآباء من علمك (أجيب) بأنه وان كان له في أول الامر طلب لذة الوقاع الا أن الاهتمام بايصال الخيرات اليه ودفع الآفات عنه من أول دخوله في الوجود الى وقت بلوغه الكبر أليس أنه أعظم من جميع ما يصل اليه من جهات الخيرات والمبرات فسقطت تلك الشبهات (التنبيه الثاني) ان لفظ الآية يدل على معان كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة في الاحسان الى الوالدين منها أنه تعالى قال في الآية المتقدمة ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ثم أردفه بهذه الآية المشتملة على الاعمال التي بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة وجعل من جملتها البر بالوالدين وذلك يدل على أن هذه الطاعة من أصول الطاعات التي تفيد سعادة الآخرة ومنها أنه تعالى بدأ بذكر الامر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى وثلث ببر الوالدين وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة في تعظيم هذه الطاعة ومنها أنه تعالى لم يقل واحسانا بالوالدين بل قال وبالوالدين احسانا فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام بهما ومنها أنه تعالى قال احسانا بلفظ التنكير والتنكير يدل على التعظيم أي احسانا عظيما كاملا لان احسانهما اليك

قد بلغ الغاية العظيمة فوجب أن يكون احسانك اليهما كذلك ثم على جميع التقديرات لا تحصل المكافأة لان انعامهما عليك على سبيل الابتداء وفى الامثال المشهورة انّ البادئ بالبرّ لا يكافأ ● ولما كان سبحانه وتعالى عليما بما فى الطباع من ملال الولد لهما عند أخذهما فى السنّ قال تعالى (اما) مؤكدا بادخال ما على ان الشرطية لزيادة التقرير للمعنى اهتماما بشأن الوالدين (يبلغن عندك الكبر) أى كان يضطرا اليك فى حالة الضعف والعجز فلا يكون لهما كافل غيرك فيصيرا عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أوّله (أحدهما أو كلاهما) وقرأ حمزة والكسائى بألف بعد الغين وكسر النون فالالف ضمير الوالدين لتقدّم ذكرهما وأحدهما بدل منه أو كلاهما عطف عليه فاعلا أو بدلا (فان قيل) هلا كان كلاهما توكيدا لا بدلا أجيب بأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيد الاثنين فوجب أن يكون مثله (فان قيل) لم لا يجوز أن يكون أحدهما بدلا وكلاهما توكيدا ويكون ذلك عطفا للتوكيد على البدل (أجيب) بأنّ العطف يقتضى المشاركة فجعل أحدهما بدلا والآخر توكيدا خلاف الاصل وقرأ الباقون بغير ألف وفتح النون والاعراب على هذا ظاهر وجميع القرّاء يشدّدون النون ثم انه تعالى أمر الانسان فى حق والديه بخمسة أشياء الاوّل منها قوله تعالى (فلا تقل لهما أفّ) أى لا تتضجر منهما قال الزجاج أف معناه النتن وهذا قول مجاهد لانه قال معنى قوله فلا تقل لهما أف أى لا تتقذرهما كما انهما كانا لا يتقذران منك حين كنت تخرأ وتبول وفى رواية أخرى عن مجاهد اذا وجدت منهما رائحة تؤذيك فلا تقل لهما أفّ فلقد بالغ سبحانه وتعالى بالوصية بهما حيث شفع الاحسان اليهما بتوحيده ونظمهما فى سلك القضاء بهما معا ثم ضيق الامر فى مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من التضجر مع موجبات الضجر ومقتضياته ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الانسان معها فى الاستطاعة وقد قال صلى الله عليه وسلم اياكم وعقوق الوالدين فانّ الجنة يوجد ريحها من مسيرة ألف عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جارّ ازاره خيلاء ان الكبرياء لله رب العالمين وسئل الفضيل بن عياض عن برّ الوالدين فقال لا يقوم الى خدمتهما عن كسل وقرأ نافع وحفص بالتنوين فى الفاء مع الكسر وابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين والباقون بكسر الفاء من غير تنوين الثانى قوله تعالى (ولا تنهرهما) أى لا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك يقال نهره وانتهره اذا استقبله بكلام يزجره قال تعالى وأمّا السائل فلا تنهر (فان قيل) المنع من التأفيف يدل على المنع من الانتهار بالاولى فما فائدة ذكره (أجيب) بأن المراد بالمنع من التأفيف المنع من اظهار الضجر بالقليل والكثير والمراد من منع الانتهار المنع من اظهار المخالفة فى القول على سبيل الردّ عليهما والتكذيب لهما الثالث قوله تعالى (وقل لهما قولا كريما) أى حسنا جميلا طيبا لينا كما يقتضيه حسن الادب معهما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو أن يقول يا أبتاه يا أمّاه وسئل سعيد بن المسيب رضى الله عنه عن القول الكريم فقال هو قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ وعن عطاء أنه قال هو أن يتكلم معهما بشرط أن لا يرفع اليهما بصره

ولا

ولا يشتد اليهما نظره وذلك أن هذين الفعلين ينافيان القول الكريم (فان قيل) ابراهيم الخليل عليه السلام قال لابيه انى أراك وقومك فى ضلال مبين مع أنه عليه السلام من أعظم الناس أدبا وحلما وكرما (أجيب) بأن حق الله تعالى مقدم على حق الابوين فاقدام ابراهيم عليه السلام على ذلك الايذاء انما كان تقديما لحق الله تعالى والرابع قوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) أى لامن أجل الامتثال للامر وخوف العار فقط بل من أجل الرحمة لهما بأن لا تزال تذكر نفسك بالاوامر والنواهى وبما تقدم لهما من الاحسان اليك والمقصود المبالغة فى التواضع وهذه استعارة بليغة قال القفال وفى تقريره وجهان الاول ان الطائر اذا أراد ضم فرخه اليه للتربية خفض له جناحه فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية فكأنه قال للولد اكفل والديك بأن تضمهما الى نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك والثانى أن الطائر اذا أراد الطيران نشر جناحيه ورفعهما ليرتفع واذا أراد ترك الطيران خفض جناحيه ولم يرفع فجعل خفض الجناح كناية عن التواضع واللين (فان قيل) كيف أضاف الجناح الى الذل والذل لا جناح له (أجيب) بوجهين الاول أنه أضيف الجناح الى الذل كما يقال حاتم الجود فكما أن المراد هناك حاتم الجواد فكذا هنا المراد اخفض لهما جناحك الذليل الثانى أن مدار الاستعارة على الخيلان فهنا تخيل للذل جناحا خفيضا كما جعل لبيد للشمال يدا وللقرة زماما فى قوله

وغداة ريح قد كشفت وقرة * اذ أصبحت بيد الشمال زمامها

فأثبت للشمال يدا وللقرة زماما ووضع زمامها فى يد الشمال فكذا هنا ومن ظريف ما حكى أن أبا تمام لما نظم قوله

لا تسقنى ماء الملام فاننى * صب قد استعذبت ماء بكائى

جاءه رجل بقصعة وقال له اعطنى شيأ من ماء الملام فقال له حتى تأتينى بريشة من جناح الذل يريد أن هذا مجاز استعارة لذلك وقال بعضهم

واشوا جناحى ثم بلوه بالندى * فلم أستطع من حبهم أن أطيرا

الخامس قوله تعالى (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) أى لا تكتف برحمتك عليهما التى لا بقاء لها وادع الله أن يرحمهما برحمته الباقية واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك فى صغرك وتربيتهما لك هذا اذا كانا مسلمين فان كانا كافرين فان الدعاء لهما بالرحمة منسوخ بقوله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى بل يدعو الله تعالى لهما بالهداية والارشاد فاذا هداهما فقد رحمهما وسئل بعضهم عن بر الوالدين فقال لا ترفع صوتك عليهما ولا تنظر اليهما شزرا ولا يريا منك مخالفة فى ظاهر ولا باطن وأن تترحم عليهما ما عاشا وتدعو لهما اذا ماتا وتقوم بخدمة أوداء ابهما من بعدهما لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه *(تنبيه)* قد ورد فى بر الوالدين أحاديث كثيرة منها ما روى عن أبى هريرة انه قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله من أحسن الناس بصحبتى فقال أمك ثم أمك ثم أبوك ثم أبوك ثم أدناك فأدناك

ومنها عنه أيضا أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أرغم الله أنفه أرغم الله أنفه أرغم الله أنفه قيل من يا رسول الله قال من أدرك والديه أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة ومنها ما روى عنه أيضا أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يجزى ولد والده الا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه ومنها ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى الجهاد فقال أحى والداك قال نعم قال ففيهما فجاهد ومنها ما رواه الترمذى أنه صلى الله عليه وسلم قال رضا الرب فى رضا الوالدين وسخط الرب فى سخط الوالدين ومنها ما روى عن أبى الدرداء أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الوالد أوسط أبواب الجنة فحافظ ان شئت أو ضيع ومنها ما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه انه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى العمل أحب الى الله تعالى قال الصلاة على وقتها قلت ثم أى قال بر الوالدين قلت ثم أى قال الجهاد فى سبيل الله وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت فقال ذلك واصل اليه ولا شئ أنفع لهم من الاستغفار ولو كان شئ أفضل منه لأمركم به فى الوالدين ولقد كرر الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز الوصية بالوالدين ومنها ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال رضا الله فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما ومنها ما روى عن سعيد بن المسيب ان البار بوالديه لا يموت ميتة سوء ومنها ما روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبوى بلغا من الكبر أنى ألى منهما ما وليا منى فى الصغر فهل قضيتهما قال لا فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما ومنها ما رواه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رغم انف رجل ذكرت عنده فلم يصل على ورغم أنف رجل أتى عليه شهر رمضان فلم يغفر له ورغم أنف رجل أدرك أبويه الكبر فلم يدخلاه الجنة ومنها ما روى أن رجلا شكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أباه وأنه يأخذ ماله فدعاه فاذا هو شيخ يتوكأ على عصا فسأله فقال انه كان ضعيفا وأنا قوى وفقيرا وأنا غنى فكنت لا أمنعه شيأ من مالى واليوم أنا ضعيف وهو قوى وأنا فقير وهو غنى ويبخل على بماله فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما من حجر ولا مدر يسمع بهذا الا بكى ثم قال للولد أنت ومالك لابيك وشكا اليه آخر سوء خلق أمه فقال لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر قال انها سيئة الخلق قال لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين قال انها سيئة الخلق قال لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها وأظمأت لك نهارها قال لقد جازيتها قال ما فعلت قال حججت بها على عنقى قال ما جزيتها وعن ابن عمر أنه رأى رجلا فى الطواف يحمل أمه ويقول

أنا لها مطيـــــة لا تذعر * اذا الركائب نفرت لا تنفر
ما حملت وأرضعتنى أكثر * الله ربى ذو الجلال الاكبر

تظننى جزيتها يا ابن عمر قال لا والله ولا زفرة واحدة ولما كان ما ذكر فى حق الوالدين عسرا جدا يعذر من التهاون به أشار بقوله تعالى (ربكم) أى المحسن اليكم فى الحقيقة فانه هو الذى عطف عليكم من يربيكم وهو الذى أعانهم على ذلك (أعلم) أى من كل أحد (بما فى نفوسكم)

قوله أنفع لهم كذا فى الاصول ولو جرى على ما قبله لافرد ولعله راجع الى الاموات المفهومين من الميت اه

من قصد البر بهما أو غيره فلا يظهر أحدكم غير ما يبطن فإن ذلك لا ينفعه ولا يضيعه إلا أن يحمل نفسه على ما يكون سببا لرحمتهما (إن تكونوا صالحين) أي متقين محسنين في نفس الامر والاصلاح استقامة الفعل على ما يدعو الدليل اليه * وأشار تعالى الى أنه لا يكون ذلك الا بمعالجة النفس وترجيعها كرة بعد كرة بقوله تعالى (فإنه كان للأوابين) أي الرجاعين الى الخير مرة اثر مرة بعد جماح أنفسهم عنه (غفورا) أي بالغ الستر لمن وقع منه تقصير فرجع عنه فإنه مغفور له * ولما حث تعالى على الاحسان للوالدين بالخصوص عمّ بالامر بالاحسان لكل ذي قرابة ورحم وغيره بقوله تعالى (وآت ذا القربى) من جهة الاب والام وإن بعد (حقه) والخطاب لكل أحد أن يؤتي أقاربه حقوقهم من صلة الرحم والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمعاضدة ونحو ذلك وقيل ان كانوا محتاجين ومحاويج وهو موسر لزمه الانفاق عليهم عند الامام أبي حنيفة وقال الشافعي لا يلزم الا نفقة الوالد على والده والولد على والده فقط وقيل المراد بالقرابة قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم (و) آت (المسكين) حقه وإن لم يكن قريبا (و) آت (ابن السبيل) وهو المسافر المنقطع عن ماله ليكون متقيا محسنا * ولما رغب تعالى في البذل وكانت النفس قلما يكون فعلها قواما بين الافراط والتفريط اتبع ذلك بقوله تعالى (ولا تبذر) بتفريق المال سرفا وهو بذله فيما لا ينبغي وقد كانت الجاهلية تبذر أموالها في الفخر والسمعة وتذكر ذلك في أشعارها فأمر الله تعالى بالنفقة في وجوهها مما يقرب منه ويزلف اليه وفي قوله تعالى (تبذيرا) تنبيه على أن الارتفاع نحو ساحة التبذير أولى من الهبوط الى مضيق الشح والتقتير والتبذير بسط اليد في المال على حسب الهوى وقد سئل ابن مسعود عن التبذير فقال انفاق المال في غير حقه وأما الجود فهو اتباع أمر الله تعالى في حقوق المال وعن مجاهد لو أنفق الانسان ماله كله في الحق ما كان تبذيرا ولو أنفق مدا في باطل كان تبذيرا وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر فقال له صاحبه لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير وعن عبد الله بن عمر قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال ما هذا السرف يا سعد قال أوفي الوضوء سرف قال نعم وإن كنت على نهر جار ثم نبه تعالى على قبح التبذير باضافته اياه الى أفعال الشياطين بقوله تعالى (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) أي على طريقتهم أو هم اخوانهم واصدقاؤهم لانهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الاسراف أو هم قرناؤهم وهم في النار على سبيل التوعد ثم انه تعالى بين صفة الشيطان بقوله تعالى (وكان الشيطان) أي هذا الجنس البعيد من كل خير المحترق بكل شر (لربه) أي الذي أحسن اليه بايجاده وتربيته (كفورا) أي ستورا لما يقدر على ستره من آياته الظاهرة ونعمته الباهرة مع الجلية فلا ينبغي أن يطاع لانه لا يدعو الا الى مثل فعله قال بعض العلماء خرجت هذه الآية على وفق عادة العرب وذلك لانهم كانوا يجمعون الاموال بالنهب والغارة ثم كانوا ينفقونها في الخيلاء والتفاخر وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الاسلام وتوهين أهله واعانة أعدائه فنزلت هذه الآية تنبيها على قبح أفعالهم في هذا الباب

وقوله تعالى (واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) نزل فى مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب وكانوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم فى الاحايين ما يحتاجون اليه ولا يجد فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك لانتظار رزق من الله يرجوه أن يأتيه فيعطيه (فقل لهم) أى فى حالة الاعراض (قولا ميسورا) أى ذا يسر يشرح صدورهم ويبسط رجاءهم لان ذلك أقرب الى طريق المتقين المحسنين قال أبو حيان روى أنه عليه الصلاة والسلام كان بعد نزول هذه الآية اذا لم يكن عنده ما يعطى وسئل يقول يرزقنا الله تعالى واياكم من فضله انتهى وقد وقع هذا الابتغاء موضع الفقد لان فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سببا للابتغاء والابتغاء مسببا عنه فوضع المسبب موضع السبب ثم أمر تعالى نبيه بما وصف له عباده المؤمنين فى الانفاق فى سورة الفرقان بقوله تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فقال تعالى (ولا تجعل يدك) أى بالبخل (مغلولة) أى كأنها بالمنع مشدودة بالغل (الى عنقك) أى لا تستطيع مدها أى لا تمسك عن الانفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك فى وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات والمعنى لا تجعل يدك فى انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط (ولا تبسطها) بالبذل (كل البسط) فتبذر بحيث لا يبقى فى يدك شئ ذكر الحكماء فى كتب الاخلاق أن لكل خلق طرفى افراط وتفريط وهما مذمومان والخلق الفاضل هو العدل والوسط فالبخل افراط فى الامساك والتبذير افراط فى الانفاق وهما مذمومان والمعتدل هو الوسط وعن جابر أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبى فقال يا رسول الله ان أمى تستكسيك درعا أى قميصا ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا قميصه فقال للصبى من ساعة الى ساعة هذا متعلق بمحذوف أى أخر سؤالك من ساعة ليس لنا فيها درع الى ساعة يظهر لنا فيها درع فعد الينا فذهب الى أمه فقالت له قل له ان أمى تستكسيك الدرع الذى عليك فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزع قميصه فأعطاه وقعد عريانا أى فى ازار ونحوه فأذن بلال بالصلاة فانتظروه فلم يخرج فشغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عريانا فأنزل الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتعطى جميع ما عندك *(تنبيه)* ماذكرته عن جابر تبعا للكشاف والبيضاوى والرازى وغيرهم قال الولى العراقى لم أقف عليه وكذا قال الحافظ ابن حجر وقد يقال من حفظ حجة على من لم يحفظ (فتقعد) أى توجد كالمقعد (ملوما) أى بليغ الرسوخ فيما يلام بسببه عند الله لان ذلك مما نهى الله عنه عند نفسك وعند الناس لانه يلوم نفسه وأصحابه أيضا يلومونه على تضييع المال بالكلية (محسورا) أى منقطعا بك لذهاب ما تقوى به قال القفال شبه حال من أنفق كل ماله بمن انقطع فى سفره بسبب انقطاع مطيته لان ذلك المقدار من المال كأنه مطية تحمل الانسان الى آخر الشهر والسنة كما أن ذلك البعير يحمله ويبلغه الى آخر المنزل فاذا انقطع ذلك البعير بقى فى وسط الطريق عاجزا متحيرا فكذلك الانسان اذا أنفق مقدار ما يحتاج اليه فى مدة شهر فى أقل منه بقى فى وسط ذلك الشهر عاجزا متحيرا ومن فعل ذلك لحقه اللوم من أهله والمحتاجين الى انفاقه عليهم بسبب

سوء تدبيره وترك الحزم في مهمات معاشه ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (ان ربك) أي المحسن اليك (يبسط الرزق) أي يوسعه (لمن يشاء) البسط دون غيره (ويقدر) أي يضيقه سواء قبض يده أم بسطها لان الرب هو الذي يربي المربوب ويقوم باصلاح مهماته ورفع درجاته على مقدار الصلاح في الصواب فيوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض لان ذلك هو الصلاح قال تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء (انه كان بعباده خبيرا) أي بالغ الخبر (بصيرا) أي بالغ البصر بما يكون من كل من القبض والبسط لهم مصلحة ومفسدة فالتفاوت في انه ربي العباد ليس لاجل بخل بل لاجل رعاية مصلحة لا يعلمها العبد فسبحان المتصرف في عباده كيف يشاء * ولما أتم سبحانه وتعالى الوصية بالاصول وما يتبع ذلك أوصى بالفروع بقوله تعالى (ولا تقتلوا أولادكم) فذكرهم بلفظ الولد الذي هو داعية الى الحنو والعطف (خشية املاق) أي فقر متوقع لم يقع بعد ثم وصل بذلك استئنافا بقوله تعالى (نحن نرزقهم واياكم) مقدما ضمير الاولاد لكون الاملاق مترقبا من الانفاق عليهم ثم علل تعالى ذلك بما هو أعم منه فقال تعالى (ان قتلهم) أي مطلقا لهذا أو لغيره (كان خطأ) أي اثما (كبيرا) أي عظيما وقرأ ابن كثير بفتح الطاء ومد بعدها مدا متصلا وقرأ ابن ذكوان بفتح الخاء والطاء ولا مد بعد الطاء والباقون بكسر الخاء وسكون الطاء قال الرماني الخطء بكسر ثم سكون لا يكون الا تعمدا الى خلاف الصواب والخطأ أي محركا قد يكون من غير تعمد وانما وجب بر الاولاد لامور أحدها أنهم في غاية الضعف ولا كافل لهم غير الوالدين وانما وجب بر الوالدين مكافأة لما صدر منهما من أنواع البر الى الولد الثاني أن امتناع الآباء من البر بالاولاد يقتضي خراب العالم الثالث أن قرابة الولادة قرابة الجزئية والبعضية وهي من أعظم الموجبات للمحبة فلو لم تحصل المحبة دل ذلك على غلظ شديد في الروح وقسوة في القلب وذلك من أعظم الاخلاق الذميمة فرغب الله تعالى في الاحسان الى الاولاد ازالة لهذه الخصلة الذميمة وعبر تعالى بالاولاد ليشمل الاناث فان العرب كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب وقدرة البنين عليه بسبب اقدامهم على النهب والغارة عليهم وأيضا كانوا يخافون أنهن بعد كبرهن تفقد أكفاؤهن فيحتاجون الى انكاحهن من غير أكفاء وفي ذلك عار شديد فنهاهم الله تعالى عن ذلك فان الموجب للرحمة والشفقة هو كونه ولدا وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور والاناث وأما ما يخاف من الفقر في البنات فقد يخاف مثله في الذكور في حال الصغر وقد يخاف أيضا في العاجزين من البنين وكما أنه سبحانه وتعالى يفتح أبواب الرزق على الذكور فكذلك على الاناث * ولما كان في قتل الاولاد حظ من البخل وفي فعل الزنا داع من الاسراف أتبعه به فقال تعالى (ولا تقربوا الزنا) أدنى قرب ولو بفعل شيء من مقدماته وانما أتى تعالى بالقربان تعظيما له لما فيه من المفاسد الجارة الى الفتن بالقتل وتضييع النسب والتسبب في ايجاد نفس بالباطل وغير ذلك ثم علل تعالى النهي عن ذلك بقوله تعالى مؤكدا ابلاغا في التنفير عنه لما للنفس من شدة الداعية اليه (انه كان فاحشة) أي فعلة ظاهرة القبح زائدته وقد نهاكم الله تعالى عن

الفحشاء فى قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء الآية (وساء) أى وبئس الزنا (سبيلا) أى طريقا طريقه ثم نهى سبحانه وتعالى عن القتل مطلقا عن التقييد بالاولاد بغير حق بقوله تعالى (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله) أى بالاسلام والعهد (الا بالحق) وهو المبيح للقتل من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث رجل كفر بالله بعد ايمانه أو زنى بعد احصانه أو قتل نفسا بغير حق ومثل انتقال المسلم من دين الاسلام الى دين الكفر انتقال كافر من دين الى دين آخر سواء كان ذلك الدين يقر عليه أم لا ومن ذلك قوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وقوله تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا واختلف الفقهاء فى أشياء غير ذلك منها أن تارك الصلاة كسلا هل يقتل فعند الشافعى يقتل بشروط معلومة وعند أبى حنيفة لا يقتل التارك كالزانى ومنها أن عمل اللواط هل يوجب القتل فعند الشافعى يوجب قتل الفاعل كالزانى وعند أبى حنيفة لا يوجبه ومنها أن الساحر اذا قال قتلت فلانا بسحرى عمدا هل يوجب القتل فعند الشافعى يوجبه وعند أبى حنيفة لا يوجبه ومنها أن القتل بالمثقل هل يوجب القصاص فعند الشافعى يوجب وعند أبى حنيفة لا يوجب ومنها الامتناع من أداء الزكاة هل يوجب القتل اختلفوا فيه فى زمان أبى بكر رضى الله عنه ومنها أن اتيان البهيمة هل يوجب القتل فعند أكثر الفقهاء لا يوجب وعند قوم يوجبه ولكل ممن ذكر أدلة يستدل بها رضى الله تعالى عنهم أجمعين ثم قال تعالى (ومن قتل مظلوما) أى بأى ظلم كان من غير أن يرتكب ما يبيح قتله (فقد جعلنا لوليه) أى سواء كان قريبا أم بعيدا (سلطانا) أى أمرا متسلطا به وقوله تعالى (فلا يسرف فى القتل) قرأ حمزة والكسائى بالتاء على الخطاب أى أيها الولى والباقون بالياء على الغيبة أى الولى وفسر الاسراف بوجوه الاول أن يقتل القاتل وغير القاتل وذلك ان أولياء المقتول كانوا اذا قتل واحد من قبيلة شريفة قتلوا خلقا من القبيلة الدنيئة فنهى الله تعالى عنه وحكم بقتل القاتل وحده الثانى ان الاسراف هو أن لا يرضى بقتل القاتل فان الجاهلية كانوا يقصدون أشرف القبائل ثم يقتلون منهم قوما معينين ويتركون القاتل الثالث أن الاسراف هو أن لا يكتفى بقتل القاتل بل يقتله ثم يمثل به ويقطع أعضاءه قال القفال ولا يبعد حمله على الكل لان حمله على هذه المعانى مشترك فى كونه اسرافا واختلف فى رجوع الهاء الى ماذا فى قوله تعالى (انه كان منصورا) فقال مجاهد راجعة الى المقتول فى قوله تعالى ومن قتل مظلوما أى ان المقتول منصور فى الدنيا بايجاب القود على قاتله وفى الآخرة بتكفير خطاياه وايجاب النار لقاتله وقال قتادة راجعة لولى المقتول أى انه منصور على القاتل باستيفاء القصاص أو الدية فليكتف بهذا القدر ولا يطمع فى الزيادة وقيل راجعة الى القاتل الظالم أى ان القاتل يكتفى منه باستيفاء القصاص ولا يطلب منه زيادة لانه منصور من عند الله تعالى فى تحريم طلب الزيادة منه أو انه اذا عوقب فى الدنيا بأزيد مما فعل نصر فى الآخرة وقيل راجعة الى الدم وقيل الى الحق * ولما ذكر تعالى النهى عن اتلاف النفوس أتبعه بالنهى

عن اتلاف الاموال لان اعز الاشياء بعد النفوس الاموال وأحق الناس بالنهى عن اتلاف أموالهم هو اليتيم لانه لصغره وضعفه وكمال عجزه يعظم ضرره باتلاف ماله فلهذا السبب خصهم الله تعالى بالنهى عن اتلاف أموالهم بقوله تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم) عبر بالقربان الذى هو قبل الاخذ تعظيما للمقام فهو أبلغ من قوله تعالى ولا تأكلوها اسرافا وبدارا وفى تفسير قوله تعالى (الا بالتى هى أحسن) وجهان الاول الا بالتصرف الذى ينميه ويكثره الثانى روى مجاهد عن ابن عباس انه قال اذا احتاج أكل بالمعروف واذا أيسر قضاه فان لم يوسر فلا شئ عليه والولى تبقى ولايته على اليتيم (حتى يبلغ أشده) وهو ايناس الرشد منه بعد بلوغه كما بين تعالى ذلك فى آية أخرى وهى قوله تعالى وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم * ولما نهى سبحانه وتعالى عن ثلاثة أشياء وهى الزنا والقتل وأكل مال اليتيم أتبعها بثلاثة أوامر الاول قوله تعالى (وأوفوا بالعهد) أى اذا عاهدتم الله تعالى على فعل المأمورات وترك المنهيات أو الناس على فعل أو قول جائز وفى تفسير قوله تعالى (ان العهد كان مسؤلا) وجوه الاول أن يراد ان صاحب العهد كان مسؤلا فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه كقوله تعالى واسأل القرية ثانيها ان العهد كان مسؤلا أى مطلوبا يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفى ثالثها أن يكون هذا تخييلا كان يقال للعهد لم نكثت وهلا أوفى بك تبكيتا للناكث كما يقال للموؤدة بأى ذنب قتلت وكقوله تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين والمخاطبة لعيسى عليه السلام والانكار على غيره الامر الثانى قوله تعالى (وأوفوا الكيل اذا كلتم) أى لغيركم فان كلتم لانفسكم فلا جناح عليكم ان نقصتم عن حقكم ولم تفوا الكيل الامر الثالث قوله تعالى (وزنوا) أى وزنا متلبسا (بالقسطاس) أى ميزان العدل الذى هو أقوم الموازين وزاد فى تأكيد معناه فقال (المستقيم) دون شئ من الحيف * (تنبيه) * القسطاس رومى عرب ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن لان الاعجمى اذا استعملته العرب وأجرته مجرى كلامهم فى الاعراب والتعريف والتنكير ونحوها صار عربيا وقرأ حفص والكسائى وحمزة بكسر القاف والباقون بضمها (ذلك) أى الامر العالى الرتبة الذى أخبرنا كم به من الايفاء بالتمام والكمال (خير) لكم فى الدارين الدنيا والآخرة من التطفيف بالكيل أو الوزن من حيث ان الانسان يتخلص بواسطته عن الذكر القبيح فى الدنيا والعذاب الشديد فى الآخرة وان تراءى لكم ان التطفيف خير (وأحسن تأويلا) أى عاقبة فى الدارين اما فى الدنيا فلانه اذا اشتهر بالاحتراز عن التطفيف عول الناس عليه ومالت القلوب اليه وحصل له الاستغناء فى الزمان القليل وكم رأينا من الفقراء من اشتهر واعند الناس بالامانة والاحتراز عن الخيانة انقلبت القلوب عليهم وحصلت الاموال الكثيرة لهم واما فى الآخرة فالفوز بالثواب العظيم والخلاص من العقاب الاليم والتأويل وهو تفعيل من الاول وهو الرجوع وأفعل التفضيل هنا لاستعمال النصفة بارخاء العنان أى على تقدير أن يكون فى كل منهما خير فهذا المعنى الذى ذكرناه أزيد خيرا والعاقل لا يرضى لنفسه بالدون * ولما شرح

الله تعالى الاوامر الثلاثة عاد الى ذكر النواهي فنهى عن ثلاثة أشياء أولها قوله تعالى (ولا تقف) أى لا تتبع أيها الانسان (ما ليس لك به علم) من قول أو فعل وحاصله يرجع الى النهى عن الحكم بما لا يكون معلوما وهو قضية كلية يندرج تحتها أنواع كثيرة واختلف المفسرون فيها فقال ابن عباس لا تشهد الا بما رأته عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك وقال قتادة لا تقل سمعت ولم تسمع ورأيت ولم تر وعلمت ولم تعلم وقيل المراد النهى عن القذف وقيل المراد النهى عن الكذب وقيل المراد نهى المشركين عن اعتقاداتهم وتقليد أسلافهم لان الله تعالى نسبهم فى تلك العقائد الى اتباع الهوى فقال تعالى ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس وقيل القفو هو البهت وأصله من القفا كأنه يقال خلفه وهو فى معنى الغيبة قال صلى الله عليه وسلم من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله تعالى فى ردغة الخبال رواه الطبرانى وغيره وردغة بسكون الدال وفتحها عصارة أهل النار وقال الكميت

ولا أرمى البرىء بغير ذنب * ولا أقفو الحواصن ان قفينا

بناء قفينا للمفعول والحواصن النساء العفائف واللفظ عام يتناول الكل فلا معنى للتقييد *(تنبيه)* يقال قفوت اثر فلان أقفو اذا اتبعت أثره وسميت قافية الشعر قافية لان البيت يقفو البيت وسميت القبيلة المشهورة بالقافة لانهم يتبعون آثار أقفاء الناس أو آثار أقدامهم ويستدلون بها على أحوال الناس وقال تعالى ثم قفينا على آثارهم برسلنا وسمى القفا قفا لانه مؤخر بدن الانسان فان مشى يتبعه ويقفوه (فان قيل) ان هذه الآية تدل على منع القياس فانه لا يفيد الا الظن والظن مغاير للعلم (أجيب) بأن ذلك عام دخله التخصيص فان الحكم فى الدين بمجرد الظن جائز باجماع الامة وبأن المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند سواء كان قطعيا أم ظنيا واستعماله بهذا المعنى شائع ذائع وقد استعمل فى مسائل كثيرة منها ان العمل بالفتوى عمل بالظن ومنها ان العمل بالشهادة عمل بالظن ومنها الاجتهاد فى طلب القبلة ولا يفيد الا الظن ومنها قيم المتلفات وارش الجنايات لا سبيل اليهما الا بالظن ومنها الفصد والحجامة وسائر المعالجات تبنى على الظن ومنها بعث الحكمين فى الشقاق قال تعالى وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها وحصول ذلك الشقاق مظنون لا معلوم ومنها الحكم على الشخص المعين بكونه مؤمنا مظنون ويبنى على هذا الظن أحكام كثيرة مثل حصول التوارث ومثل الدفن فى مقابر المسلمين ومنها الاعتماد على صدق الاصدقاء وعداوة الاعداء كلها مظنونة وبناء الامر على تلك الظنون وقال صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر وذلك تصريح بأن الظن معتبر فبطل قول من يقول انه لا يجوز بناء الامر على الظن ثم علل تعالى النهى مخوفا بقوله تعالى (ان السمع والبصر) وهما طريقا الادراك (والفؤاد) الذى هو آلة الادراك ثم عول تعالى الامر بقوله تعالى (كل أولئك) أى هذه الاشياء العظيمة العالية المنافع البديعة التكوين *(تنبيه)* أولاء وجميع أسماء

الاشارة يشاربها العاقل وغيره كقول الشاعر

ذم المنازل بعد منزلة اللوى * والعيش بعد أولئك الايام

يجوز في ذم فتح الميم وكسرها وضمها وقوله بعد منزلة اللوى أي بعد مفارقتها والاضافة في منزلة اللوى للبيان وهو ممدود ولكن قصره هنا للضرورة والعيش عطف على المنازل والايام صفة لاسم الاشارة أو عطف بيان له (كان عنه) أي بوعد لاخلف فيه (مسؤلا) بسؤال يخصه *(تنبيه)* ظاهر الآية يدل على ان الجوارح مسؤلة وفيه وجوه الاول ان معناه ان صاحب السمع والبصر والفؤاد هو المسؤل لان السؤال لا يصح الاممن كان عاقلا وهذه الجوارح ليست كذلك بل العاقل الفاهم هو الانسان كقوله تعالى واسأل القرية أي أهلها والمعنى أنه يقال للانسان لم سمعت مالم يحل سماعه ولم نظرت مالم يحل نظره ولم عزمت على مالم يحل لك العزم عليه الثاني ان تقدير الآية ان أولئك الاقوام كلهم مسؤلون عن السمع والبصر والفؤاد فيقال لهم استعملتم السمع فيماذا أفي الطاعة أم في المعصية وكذا القول في بقية الاعضاء وذلك لان الحواس آلات النفس والنفس كالامير لها والمستعمل لها في مصالحها فان استعملها في الخيرات استوجب الثواب وان استعملها في المعاصي استحق العقاب الثالث أن الله تعالى يخلق الحياة في الاعضاء ثم انها تسأل لقوله تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فكذلك لا يبعد أن يخلق العقل والحياة والنطق في هذه الاعضاء ثم انها تسأل روى عن شكل بن حميد قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا نبي الله علمني تعويذا أتعوذ به فأخذ بيدي ثم قال قل أعوذ بك من شر سمعي وشر بصري وشر لساني وشر قلبي وشر مني قال فحفظتها قال سعد المني ماؤه النهي الثاني قوله تعالى (ولا تمش في الارض) أي جنسها (مرحا) أي ذا مرح وهو شدة الفرح والمراد من الآية النهي عن أن يمشي الانسان مشيا يدل على الكبرياء والعظمة قال الزجاج ولا تمش في الارض مختالا فخورا ونظيره قوله تعالى في سورة الفرقان وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وقال تعالى في سورة لقمان واقصد في مشيك واغضض من صوتك وقال تعالى فيها ولا تمش في الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ثم علل تعالى النهي عن ذلك بقوله تعالى (انك لن تخرق الارض) أي تنقبها حتى تبلغ آخرها بكبرك (ولن تبلغ الجبال طولا) أي بتطاولك وهو تهكم بالمختال لان الاختيال حماقة مجردة لا تفيد شيأ ليس في التذلل وفي ذلك اشارة الى أن العبد ضعيف لا يقدر على خرق أرض ولا وصول الى جبال فهو محاط به من فوقه ومن تحته بنوعين من الجمادات وهو أضعف منهما بكثير والضعيف المحصور لا يليق به التكبر فكأنه قيل له تواضع ولا تتكبر فانك خلق ضعيف من خلق الله محصور بين حجارة وتراب فلا تفعل فعل المقتدر القوي وقيل ذكر ذلك لان من مشى خيلاء يمشي مرة على عقبيه ومرة على صدور قدميه فقيل له انك لن تنقب الارض ان مشيت على عقبيك ولن تبلغ الجبال طولا ان مشيت على صدور قدميك قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مشى تكفأ تكفأ كأنما ينحط من صبب وروى

أبوهريرة رضي الله عنه قال ما رأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجري في وجهه وما رأيت أحدا أسرع في مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الارض تطوى له انا لنجهد أنفسنا وانه غير مكترث وقوله تعالى (كل ذلك) اشارة الى ما نهى عنه مما تقدم فان الذي تقدم منهيات ومأمورات وجملة ذلك من قوله تعالى لا تجعل مع الله الها آخر الى هنا خمسة وعشرون وها أنا أسردها لك تسهيلا عليك فأولها لا تجعل مع الله الها آخر وثانيها وثالثها وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه لاشتماله على تكليفين الامر بعبادة الله تعالى والنهي عن عبادة غيره رابعها وبالوالدين احسانا خامسها فلا تقل لهما أف سادسها ولا تنهرهما سابعها وقل لهما قولا كريما ثامنها واخفض لهما جناح الذل من الرحمة تاسعها وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا عاشرها وآت ذا القربى حقه حادي عشرها والمسكين ثاني عشرها وابن السبيل ثالث عشرها ولا تبذر تبذيرا رابع عشرها فقل لهم قولا ميسورا خامس عشرها ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك سادس عشرها ولا تبسطها كل البسط سابع عشرها ولا تقتلوا أولادكم ثامن عشرها ولا تقتلوا النفس تاسع عشرها ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا عشروها فلا يسرف في القتل حادي عشريها وأوفوا بالعهد ثاني عشريها وأوفوا الكيل ثالث عشريها وزنوا بالقسطاس المستقيم رابع عشريها ولا تقف ما ليس لك به علم خامس عشريها ولا تمش في الارض مرحا فكل هذه تكليفات بعضها أوامر وبعضها نواه فالمنهي عنه هو الذي قال تعالى فيه (كان سيئه عند ربك مكروها) أي يبغضه والعاقل لا يفعل ما يكرهه المحسن اليه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الهمزة وبالتاء منونة منصوبة وقرأ الباقون بضم الهمزة والهاء مضمومة من غير تنوين والمعنى على هذا ظاهر أي ان سيئ تلك الاقسام يكون مكروها وأما على القراءة الاولى فسيئة خبر كان وأنث حملا على معنى كل ثم قال مكروها حملا على لفظها وقال الزمخشري ان السيئة في حكم الاسماء بمنزلة الذنب والاسم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه ولا فرق بين سيئة وسيأ الا ترى انك تقول الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة فلا فرق بين اسنادها الى مذكر ومؤنث وفي نصب مكروها أوجه أحدها أنه خبر ثان لكان الثاني أنه بدل من سيئة وضعف بأن البدل بالمشتق قليل الثالث أنه حال من الضمير المستتر في عند ربك لوقوعه صفة لسيئة الرابع أنه نعت لسيئة وانما ذكر وصف سيئة لان تأنيثه وتأنيث موصوفه مجازي ورد بان ذلك انما يجوز حيث أسند الى المؤنث المجازي اما اذا أسند الى ضميره فلا نحو الشمس طالعة فلا يجوز طالع وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى الاحكام المتقدمة في الاوامر والنواهي (مما أوحى اليك) يا أشرف الخلق (ربك) أي المحسن اليك (من الحكمة) التي هي معرفة الحق لذاته والخير للعمل به وانما سميت هذه الامور حكمة لوجوه الاول ان حاصلها يرجع الى الامر بالتوحيد وأنواع الطاعات والخيرات والاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة فالآتي بمثل هذه الشريعة لا يكون داعيا الى دين الشيطان بل الفطرة الاصلية تشهد بأنه يكون داعيا الى دين الرحمن الثاني ان هذه الاحكام المذكورة في هذه

الآيات شرائع واجبة الرعاية في جميع الاديان والملل ولاتقبل النسخ والابطال فكانت محكمة وحكمة من هذا الاعتبار الثالث ان الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير للعمل به كما مرت الاشارة اليه فالامر بالتوحيد عبارة عن القسم الاول وسائر التكاليف عبارة عن تعليم الخيرات حتى يواظب عليها ولا ينحرف عنها فثبت ان الاشياء المذكورة من هذه الآيات عين الحكمة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان هذه الآيات كانت فى ألواح موسى عليه السلام وجعل سبحانه وتعالى فاتحتها قوله تعالى لاتجعل مع الله الها آخر وخاتمتها قوله تعالى (ولاتجعل مع الله الها آخر) تنبيها على ان التوحيد مبدأ الامور ومنتهاه وان من قصد بفعل أو ترك غيره ضاع سعيه وانه رأس الحكمة وملاكها ورتب عليه ماهو عائدة الشرك فى قوله تعالى أولا لاتجعل مع الله أى فى الدنيا وثانيا ماهو نتيجته فى العقبى فقال (فتلقى) أى فيفعل بك فى الآخرة فى الحشر (فى جهنم) من الاسراع فيه وعدم القدرة على التدارك فعل من ألقى من عال حال كونك (ملوما) أى تلوم نفسك (مدحورا) أى مبعدا من رحمة الله * (تنبيه) * ذكره سبحانه وتعالى فى الآية الاولى بقوله تعالى مذموما مخذولا وفى هذه الآية ملوما مدحورا والفرق بين الذم واللوم هو أن يذكر له ان الفعل الذى أقدم عليه قبيح ومنكر فهذا معنى كونه مذموما ثم يقال له فعلت هذا الفعل القبيح وما الذى حملك عليه فهذا هو اللوم فأول الامر يصير مذموما وآخره يصير ملوما والفرق بين المخذول والمدحور هو ان المخذول عبارة عن الضعيف يقال تخاذلت أعضاؤه أى ضعفت والمدحور هو المطرود والطرد عبارة عن الاستخفاف والاهانة فكونه مخذولا عبارة عن ترك اعانته وتفويضه الى نفسه وكونه مدحورا عبارة عن اهانته فيصير أول الامر مخذولا وآخره مدحورا وقوله تعالى (أفأصفاكم ربكم بالبنين) خطاب للذين قالوا الملائكة بنات الله والهمزة للانكار أى أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الاولاد وهم البنون ولم يجعل فيهم نصيبا لنفسه (واتخذ من الملائكة اناثا) أى بنات لنفسه وهذا خلاف ماعليه معقولكم وعادتكم فان العبيد لا يستأثرون بأجود الاشياء واصفاها من الشوائب ويكون أردؤها وأدونها للسادات (انكم لتقولون قولا عظيما) باضافة الاولاد اليه لان اثبات الولد يقتضى كونه تعالى مركبا من الابعاض والاجزاء وذلك يقدح فى كونه قديما واجب الوجود لذاته وأيضا فبتقدير ثبوت الولد فقد جعلوا أشرف القسمين لانفسهم وأخس القسمين لله تعالى وهذا جهل عظيم وأيضا جعلوا الملائكة الذين هم من أشرف خلق الله الذين منهم من يقدر على حمل الارض وقلب اسفلها على أعلاها اناثا فى غاية الرخاوة * ولما كان فى هذا من البيان مالا يخفى على انسان ولم يرجعوا أشار الى أن لهم مثل هذا الاعراض عن أمثال هذا البيان فقال تعالى (ولقد صرفنا) أى بينا بيانا عظيما بأنواع طرق البيان من العبر والحكم والامثال والاحكام والحجج والاعلام فى قوالب الوعد والوعيد والامر والنهى والمحكم والمتشابه الى غير ذلك (فى هذا القرآن) أى فى مواضع منه من الامثال كما قال تعالى ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل

مثل قيل لفظة في زائدة كما في قوله تعالى وأصلح لي في ذريتي وورد بأن في لا تزاد وما ذكرته أولى كما يأتي ان شاء الله تعالى في الاحقاف والتصريف لغة صرف الشيء من جهة الى أخرى ثم صار كناية عن التبيين قاله أبو حيان وقوله تعالى (ليذكروا) متعلق بصرفنا وقرأ حمزة والكسائي بسكون الذال ورفع الكاف من غير تشديد من الذكر الذي هو بمعنى التذكر والباقون بفتح الذال والكاف مع تشديدهما (وما يزيدهم) أي التصريف (الا نفورا) أي تباعدا عن الحق وقلة طمأنينة اليه وعن سفيان كان اذا قرأها قال زادني ذلك خضوعا ما زاد أعداءك نفورا * ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أي لهؤلاء المشركين ولا تيأس من رجوع بعضهم (لو كان معه آلهة كما تقولون) من هذه الاقوال التي لو قالها أعظمكم في حق أدناكم وهو يريد بها حقيقتها لصار ضحكة للعباد (اذا لابتغوا) أي طلبوا طلبا عظيما (الى ذي العرش) أي صاحب السرير الاعظم المحيط الذي من ناله كان منفردا بالتدبير (سبيلا) أي طريقا سالكا يتوصلون به اليه ليقهروه ويزيلوا ملكه كما ترون فعل ملوك الدنيا بعضهم مع بعض أو ليتخذوا عنده يدا يقربهم اليه وقرأ ابن كثير وحفص بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب وأدغم أبو عمرو الشين من العرش في السين بخلاف عنه ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه فقال عز من قائل (سبحانه) أي تنزه التنزه الاعظم عن كل شائبة نقص (وتعالى) أي علا أعلى العلو بصفات الكمال (عما يقولون) أي من هذه النقائص التي لا يرضاها لنفسه أحد من عقلاء خلقه (علوا) أي تعاليا (كبيرا) أي متباعدا غاية البعد عما يقولون فانه تعالى في أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود والبقاء لذاته * (تنبيه) * جعل العلو مصدر التعالي ومصدره تعاليا كما قدرته فهو المراد ونظيره قوله تعالى والله أنبتكم من الارض نباتا (فان قيل) ما الفائدة في وصف ذلك العلو بالكبير (أجيب) بأن المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثبوت الصاحبة والولد والشركاء والاضداد والانداد منافاة بلغت في القوة والكمال الى حيث لا تعقل الزيادة عليها لان المنافاة بين الواجب لذاته وبين الممكن لذاته وبين القديم والمحدث وبين الغني والمحتاج منافاة لا تعقل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ثم استأنف تعالى بيان عظمة هذا التنزيه مقرونا بالوصف بالكمال فقال (تسبح) أي توقع التنزيه الاعظم (له) أي الاله الاعظم الذي تقدم وصفه بالجلال والاكرام خاصة (السموات السبع والارض) أي السبع (ومن فيهن) أي من ذوي العقول (وان) أي وما وأغرق في النفي فقال (من شيء) أي ذي عقل أو غيره (الا يسبح بحمده) أي يقول سبحان الله العظيم وبحمده أو يقول سبحان الله وبحمده وقال ابن عباس وان من شيء حي الا يسبح بحمده وقال قتادة يعني الحيوانات والناميات وقال عكرمة الشجرة تسبح والاسطوانة تسبح وعن المقداد بن عدي التراب يسبح ما لم يبتل فاذا ابتل ترك التسبيح والورقة تسبح مادامت على الشجرة فاذا سقطت تركت التسبيح والماء يسبح مادام جاريا فاذا ركد ترك التسبيح والثوب يسبح مادام جديدا فاذا وسخ ترك التسبيح وقال السيوطي

في جواب سؤال عن ذلك

قد خصصت آية الاسرى بمتصف * وصف الحياة كرطب الزرع والشجر
فيابسات لا تسبيح منه كذا * مازال عن موضع كالقطع للحجر

وقال ابراهيم النخعي وان من شئ جماد وحي الا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف وقال مجاهد كل الاشياء تسبح لله تعالى حيوانا كانت أو جمادا وتسبيحها سبحان الله وبحمده يدل على ذلك ماروى عن ابن مسعود كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقل الماء فقال صلى الله عليه وسلم اطلبوا فضلة من ماء فجاؤا باناء فيه ماء قليل فأدخل يده صلى الله عليه وسلم في الاناء ثم قال حي على الطهور المبارك والبركة من الله فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وعن جابر بن سمرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان بمكة حجرا كان يسلم على ليالي بعثت اني لاعرفه الآن وعن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم كان يخطب الى جذع فلما اتخذ المنبر تحول اليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه وفي رواية فنزل فاحتضنه وساره بشئ ففي هذه الاحاديث دليل على ان الجماد يتكلم وأنه يسبح وقال بعض أهل المعاني تسبيح السموات والارض والجمادات والحيوانات سوى العقلاء بلسان الحال حيث تدل على الصانع وقدرته ولطيف حكمته فكأنها تنطق بذلك ويصير لها بمنزلة التسبيح قال البغوي والاول أصح وهو المنقول عن السلف وقال ابن الخازن القول الاول أصح لما دلت عليه الاحاديث وأنه منقول عن السلف قال البغوي واعلم ان لله تعالى علما في الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغي أن يوكل علمه اليه (ولكن لا تفقهون) أي لا تفهمون (تسبيحهم) أي لانه ليس بلغتكم (انه كان حليما غفورا) ولما ذكر سبحانه وتعالى اثبات الالهية اتبعه بذكر تقرير النبوة بقوله تعالى (واذا قرأت القرآن) أي الذي لا يدانيه واعظ ولا يساويه مفهم وهو تبيان لكل شئ (جعلنا) أي بما لنا من العظمة (بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) أي يحجب قلوبهم عن فهم ما تقرؤه عليهم والانتفاع به قال قتادة هو الاكنة فالمستور بمعنى الساتر كقوله تعالى كان وعده مأتيا مفعول بمعنى فاعل وقيل مستورا عن أعين الناس فلا يرونه وفسره بعضهم بالحجاب عن الاعين الظاهرة كما روى عن سعيد بن جبير أنه لما نزلت تبت يدا أبي لهب جاءت امرأة أبي لهب ومعها حجر والنبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر رضي الله عنه فلم تره فقالت لابي بكر أين صاحبك لقد بلغني أنه هجاني فقال والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لارضخ به رأسه فقال أبو بكر ما رأتك يارسول الله قال لا لم يزل ملك بيني وبينها يسترني (وجعلنا) أي بما لنا من العظمة (على قلوبهم أكنة) أي أغطية كراهة (أن يفقهوه) أي يفهموه أي يفهموا القرآن حق فهمه (وفي آذانهم وقرا) أي شيأ ثقيلا يمنع سماعهم وعن أسماء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا ومعه أبو بكر اذ أقبلت امرأة أبي لهب ومعها فهر تريد الرسول صلى الله عليه وسلم وهي تقول مذمما أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا فقال أبو بكر يارسول الله معها

فهرا اخشاها عليك فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فجاءت ومارأت رسول صلى الله عليه وسلم وقالت انى رأيت قريشا قد علمت أنى ابنة سيدها وان صاحبك هجانى فقال أبو بكر لا ورب الكعبة ورب هذا البيت ماهجاك وروى ابن عباس ان أباسفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي صلى الله عليه وسلم ويسمعون حديثه فقال النضر يوما ما أرى ما يقول محمد غيرأنى أرى شفتيه يتحركان بشئ وقال أبو سفيان انى لا أرى بعض ما يقوله الاحقا وقال أبو جهل هو مجنون وقال أبو لهب هو كاهن وقال حويطب بن عبد العزى هو شاعر فنزلت هذه الآية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد تلاوة القرآن قرأ قبلها ثلاث آيات وهي في سورة الاسراء وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى اذانهم وقرا وفى سورة النحل أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وفى حم الجاثية أفرأيت من اتخذ الهه هواه الى آخر الآية فكان الله تعالى يحجبه ببركة هذه الآيات عن عيون المشركين (واذا ذكرت ربك) أى المحسن اليك واليهم (فى القرآن وحده) أى مع الاعراض عن آلهتهم كان قلت وأنت تتلو القرآن لا اله الا الله *(تنبيه)* فى نصب وحده وجهان أحدهما أنه منصوب على الحال وان كان معرفة لفظا لانه فى قوة النكرة اذ هو فى معنى منفردا والثانى أنه منصوب على الظرف (ولوا على أدبارهم نفورا) أى هربا من استماع التوحيد *(تنبيه)* فى نفورا وجهان أحدهما مصدر من غير لفظه مؤكد لان التولى والنفور بمعنى والثانى أنه حال من فاعل ولوا وهو حينئذ جمع نافر كقاعد وقعود وشاهد وشهود والضمير فى ولوا يعود الى الكفار وقيل يعود الى الشيطان وان لم يجرلهم ذكر قال المفسرون ان القوم كانوا عند استماع القرآن على أقسام منهم من كان يلهو عند استماعه روى أنه عليه الصلاة والسلام كان كلما قرأ القرآن قام عن يمينه ويساره اخوان من ولد قصى يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار ومنهم من كان اذا سمع من القرآن ما فيه ذكر الله تعالى بقوا مبهوتين لا يفهمون منه شيأ ومنهم من اذا سمع آيات فيها ذكر الله تعالى وذم المشركين ولوا نفورا وتركوا ذلك المجلس * ولما كانوا بما ادعوا السمع والفهم فشككوا بعض من لم يرسخ ايمانه أتبعه تعالى بقوله تعالى (نحن أعلم) أى من كل عالم (بما يستمعون) أى يبالغون فى الاصغاء والميل لقصد السمع (به) من الآذان والقلوب أو بسببه ولاجله من الهزء بك وبالقرآن (اذ يستمعون) أى يصغون بجهدهم (اليك) أى الى قراءتك (واذ) أى حين (هم) ذو (نجوى) أى يتناجون بأن يرفع كل منهم بصره الى صاحبه بعد اعراضهم عن الاستماع ثم ذكر تعالى ظرف النجوى بقوله تعالى (اذ) وهو بدل من اذ قبله (يقول الظالمون) وقولهم (ان) أى ما (تتبعون الا رجلا مسحورا) أى مخدوعا مغلوبا على عقله روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عليا أن يتخذ طعاما ويدعو اليه أشراف قريش من المشركين ففعل ذلك ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم الى التوحيد وقال قولوا لا اله الا الله حتى تطيعكم العرب وتدين لكم العجم فأبوا عليه ذلك وكانوا عند استماعهم من النبى صلى الله عليه وسلم القرآن والدعوى الى الله تعالى يقولون ان تتبعون الا رجلا مسحورا

(فان قيل) انهم لم يتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يصح أن يقولوا ان تتبعون الا رجلا مسحورا (أجيب) بأن معناه ان اتبعتموه فقد اتبعتم رجلا مسحورا وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان وعاصم وحمزة بكسر التنوين فى الوصل والباقون بالضم ثم قال تعالى (انظر كيف ضربوا) أى هؤلاء الضلال (لك الامثال) التى هى أبعد شئ من صفتك من قولهم كاهن وساحر وشاعر ومعلم ومجنون (فضلوا) عن الحق فى جميع ذلك (فلا) أى فتسبب عن ذلك أنهم لا (يستطيعون سبيلا) أى وصولا الى طريق الحق * ولما جرت عادة القرآن باثبات التوحيد والنبوة والمعاد وقدم الدلالة على الاولين وختم باثبات جهلهم فى النبوة مع ظهورها أتبع ذلك أمرا جليا فى ضلالهم عن السبيل فى أمر المعاد وقرره غاية التقرير وحرره أتم تحرير قال تعالى معجبا منهم (وقالوا) أى المشركون المنكرون للتوحيد والنبوة والبعث مع اعترافهم بأنا ابتدأنا خلقهم ومشاهدتهم فى كل وقت أنا نحيى الارض بعد موتها وقولهم (أئذا) استفهام انكارى كأنهم على ثقة من عدم ما ينكرونه والعامل فى اذا فعل من لفظ مبعوثون لا هو فان ما بعد ان لا يعمل فيما قبلها فالمعنى أنبعث اذا (كنا) أى بجملة أجسامنا كونا لازما (عظاما ورفاتا) أى حطاما مكسرا مفتتا أو غبارا وقال الفراء هو التراب وهو قول مجاهد ويؤيده أنه قد يكرر فى القرآن ترابا وعظاما ويقال للتبن الرفات لانه دقاق الزرع (أئنا لمبعوثون) حال كوننا مخلوقين (خلقا جديدا) * (تنبيه) * تقرير شبهة هؤلاء الضلال هى أن الانسان جفت أعضاؤه وتناثرت وتفرقت فى جوانب العالم واختلطت تلك الاجزاء بسائر أجزاء العالم فالاجزاء المائية مختلطة بمياه العالم والاجزاء الترابية مختلطة بالتراب والاجزاء الهوائية مختلطة بالهواء فكيف يعقل اجتماعها بأعيانها مرة أخرى وكيف يعقل عود الحياة اليها بأعيانها مرة أخرى هذا تقرير شبهتهم (أجيب) عنها بأنها لا تتم الا بالقدح فى كمال علم الله تعالى وفى كمال قدرته فانه تعالى قادر على كل الممكنات فهو قادر على اعادة التأليف والتركيب والحياة والعقل الى تلك الاجزاء بأعيانها فمن سلم كمال علم الله تعالى وكمال قدرته زالت عنه هذه الشبهة بالكلية * ولما كان كأنه قيل فماذا يقال لهم فى الجواب فقال (قل) لهم يا أشرف الخلق لا تكونوا رفاتا بل (كونوا) أصلب من التراب (حجارة) أى هى فى غاية اليبس (أو حديدا) أى زائدا على يبس الحجارة لشدة اتصال الاجزاء * (تنبيه) * ليس المراد به أمر الزام بل المراد انكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله تعالى عن الاعادة وذلك كقول القائل أتطمع فى وأنا فلان فيقول كن من شئت كن ابن الخليفة فسأطلب منك حقى (أو خلقا) غير ذلك (مما يكبر) أى يعظم عظمة كبيرة (فى صدوركم) أى مما يكبر عندكم عن قبول الحياة لكونه أبعد شئ منها فان الله تعالى قادر على اعادة الحياة اليها وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأكثر المفسرين انه الموت فانه ليس فى نفس ابن آدم شئ أكبر من الموت أى لو كنتم الموت بعينه لاميتنكم ولابعثنكم وقيل السموات والارض والجبال لانها من أعظم المخلوقات (فسيقولون) تماديا فى الاستهزاء (من يعيدنا) اذا كنا كذلك (قل الذى فطركم) أى ابتدأ خلقكم (أول مرة) ولم تكونوا شيأ يعيدكم بالقدرة التى ابتدأكم بها فكما لم تعجز تلك

عن البداءة فهي لا تعجز عن الاعادة (فسينغضون) أي يحركون (اليك رؤسهم) تعجبا واستهزاء كأنهم في شدة جهلهم على غاية البصيرة من العلم بما يقولون والنغض والانغاض تحريك بارتفاع وانخفاض (ويقولون) استهزاء (متى هو) أي البعث والقيامة قال الرازي واعلم ان هذا السؤال فاسد لانهم حكموا بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التي تقدمت ثم ان الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه ممكنا في نفسه فقولهم متى هو كلام لا تعلق له بالبعث فانه لما ثبت بالدليل العقلي كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بامكانه فأما أنه متى يوجد فذلك لا يمكن اثباته من طريق العقل بل انما يمكن اثباته بالدليل السمعي فان أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف والا فلا سبيل الى معرفته لانه تعالى بين في القرآن أنه لا يطلع أحدا من الخلق على وقته المعين فقال تعالى ان الله عنده علم الساعة وقال انما علمها عند ربي وقال تعالى ان الساعة آتية أكاد أخفيها فلا جرم قال تعالى (قل عسى أن يكون قريبا) قال المفسرون عسى من الله واجب ومعناه أنه قريب اذ كل آت قريب وأمال متى وعسى حمزة والكسائي امالة محضة وورش بالفتح و بين اللفظين والباقون بالفتح وقوله تعالى (يوم يدعوكم) بدل من قريبا والمعنى عسى أن يكون البعث يوم يدعوكم أي بالنداء الذي يسمعكم وهو النفخة الاخيرة كما قال تعالى يوم ينادى المنادى من مكان قريب روى أن اسرافيل ينادى أيها الاجسام البالية والعظام النخرة والاجزاء المتفرقة عودى كما كنت (فتستجيبون) أي تجيبون والاستجابة موافقة الداعي فيما دعا اليه وهي الاجابة الا أن الاستجابة تقتضى طلب الموافقة فهي آكد من الاجابة واختلف في معنى قوله تعالى (بحمده) فقال ابن عباس بأمره وقال سعيد بن جبير يخرجون من قبورهم وينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون سبحانك اللهم وبحمدك فيحمدونه حين لا ينفعهم الحمد وقال قتادة بمعرفته وطاعته وقال أهل المعاني تستجيبون بحمده أي تستجيبون حامدين كما تقول جاء بغضبه أي جاء غضبان وركب الامير بسيفه أي وسيفه معه وقال الزمخشري بحمده حال منهم أي حامدين وهي مبالغة في انقيادهم للبعث كقولك لمن تأمره بركوب مايشق عليه فيأبى ويمتنع ستركبه وأنت حامد شاكر يعني أنك تحمل عليه وتقسر عليه قسرا حتى انك تلين لين المستهج الراغب فيه الحامد عليه (وتظنون ان) أي ما (لبثتم الا قليلا) أي مع استجابتكم وطول لبثكم وشدة ماترون من الهول فعندها تستقصرون مدة لبثكم في الدنيا وتحسبونها يوما أو بعض يوم وعن قتادة تحاقرت الدنيا في أنفسهم حين عاينوا الآخرة وقال الحسن معناه تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا ولم تكن وبالآخرة ولم تزل فهذا يرجع الى استقلال مدة اللبث في الدنيا وقيل المراد استقلال مدة لبثهم في برزخ القيامة لانه لما كان عاقبة أمرهم الدخول في النار استقصروا لبثهم في برزخ القيامة وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة عند التاء المثناة والباقون بالادغام * ولما ذكر تعالى الحجة اليقينية في صحة المعاد وهو قوله تعالى قل الذي فطركم أول مرة قال تعالى (وقل) يا محمد (لعبادي) أي المؤمنين لان لفظ العباد في أكثر

آيات القرآن مختص بالمؤمنين قال تعالى فبشر عبادي الذين يستمعون القول وقال تعالى فادخلي في عبادي وقال تعالى عينا يشرب بها عباد الله (يقولوا) للكفار الذين كانوا يؤذونهم الكلمة (التي هي أحسن) ولا يكافؤهم على سفههم بل يقولون يهديكم الله وكان هذا قبل الاذن بالقتال وقيل نزلت في عمر بن الخطاب شتمه بعض الكفار فأمره الله تعالى بالعفو وقيل أمر المؤمنين بأن يقولوا ويفعلوا الخلة التي هي أحسن وقيل الاحسن قول لا اله الا الله ثم علل بقوله تعالى (ان الشيطان) أي البعيد عن الرحمة المحترق باللعنة (ينزغ بينهم) أي يفسد ويغري بعضهم على بعض ويوسوس لهم لتقع بينهم المشارة والمشاقة وأصل النزغ الطعن وهم غير معصومين فيوشك أن يأتوا بما لا يناسب الحال ثم علل تعالى هذه العلة بقوله تعالى (ان الشيطان كان) أي في قديم الزمان وأصل الطبع كونا هو مجبول عليه (للانسان عدوا) أي بليغ العداوة (مبينا) أي بين العداوة ثم فسر تعالى التي هي أحسن بما علمهم وبهم من النصفة بقوله تعالى (ربكم أعلم بكم) فعلم أن قوله تعالى ان الشيطان الى آخره جملة اعتراضية بين المفسر والمفسر وسكن أبو عمرو الميم واخفاها عند الباء بخلاف عنه وكذا أعلم بمن ثم استأنف تعالى (ان يشأ) أي رحمتكم (يرحمكم) أي بهدايتكم (أو ان يشأ) تعذيبكم (يعذبكم) أي باضلالكم فلا تحتقروا أيها المؤمنون المشركين فتقطعوا بأنهم من أهل النار فتعيروهم بذلك فانه يجر الى غيظ القلوب فلا فائدة لان الخاتمة مجهولة ولا تجاوزوا فيهم ما أمركم الله به من قول وفعل * ثم رقى الله الخطاب الى أعلى الخلق ورأس أهل الشرع ليكون من دونه أولى بالمعنى منه فقال تعالى (وما أرسلناك) أي مع ما لنا من العظمة الغنية عن كل شئ (عليهم وكيلا) أي حفيظا وكفيلا تقسرهم على ما يرضي الله وانما أرسلناك على حسب ما نأمرك به بشيرا ونذيرا فدارهم ومر أصحابك بمداراتهم وقدمر أن هذا قبل الاذن بالقتال * ولما أمرهم بأن ينسبوا الاعلمية بهم اليه تعالى أخبر بما هو أعم من ذلك قاصرا الخطاب على أعلم خلقه بقوله تعالى (وربك) أي المحسن اليك بأن جعلك أكمل الخلق (أعلم بمن في السموات والارض) فعلمه غير مقصور عليكم بل متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذات الارضين والسموات فيعلم تعالى حال كل أحد ويعلم ما يليق به من المفاسد والمصالح ويعلم اختلاف صورهم وأديانهم وأخلاقهم وأحوالهم وجميع ما هم عليه سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية فيفضل بعض الناس على بعض على حسب احاطة علمه وشمول قدرته وبعض النبيين على بعض كما قال تعالى (ولقد فضلنا) بما لنا من العظمة (بعض النبيين) سواء كانوا رسلا أم لا (على بعض) بعد أن جعلنا الكل فضلا لتقوى كل منهم واحسانه فخصصنا كلا منهم بفضيلة كموسى بالكلام وابراهيم بالخلة ومحمد صلى الله عليه وسلم بالاسراء فلا ينكر أحد من العرب أو بني اسرائيل أو غيرهم تفضيلنا لهذا النبي الكريم الذي صدرنا السورة بتفضيله على جميع الخلائق فاذا نفعل ما نشاء بما لنا من القدرة التامة والعلم الشامل وقرأ نافع بالهمزة والباقون بالياء وورش على أصله بمد على الهمزة وبوسط ويقصر (وآتينا) موسى التوراة

و (داود زبورا) وعيسى الانجيل فلم يبعد أيضا أن نوتى محمدا صلى الله عليه وسلم القرآن ولم يبعد أن نفضله على جميع الخلق (فان قيل) ما السبب فى تخصيص داود عليه السلام بالذكر هنا (أجيب) بأوجه الاول انه تعالى ذكر انه فضل بعض النبيين على بعض ثم قال وآتينا داود زبورا يعنى ان داود أوتى ملكا عظيما ثم انه تعالى لم يذكر ما آتاه من الملك وذكر ما آتاه من الكتاب تنبيها على أن الفضل الذى ذكره قبل ذلك المراد منه التفضيل بالعلم والدين لا بالمال الثانى انه تعالى كتب فى الزبور أن محمدا خاتم الانبياء وأن أمة محمد خير الامم قال تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته (فان قيل) هلا عرفه كقوله ولقد كتبنا فى الزبور (أجيب) بأن التنكير هنا يدل على تعظيم حاله لان الزبور عبارة عن المزبور فكان معناه الكتاب وكان معنى التنكير أنه كامل فى كونه كتابا ويجوز أن يكون زبورا علما فاذا دخلت عليه أل كقوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور كانت للمح الاصل كعباس والعباس وفضل والفضل الثالث ان كفار قريش ما كانوا أهل نظر وجدل بل كانوا يرجعون الى اليهود فى استخراج الشبهات واليهود كانوا يقولون انه لا نبى بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فنقض الله عليهم كلامهم بانزال الزبور على داود وروى البخارى فى التفسير عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه لتسرج فكان يقرأ قبل أن يفرغ أى القرآن قال البقاعى ومن أعظم المناسبات لتخصيص داود عليه السلام وزبوره بالذكر هنا ذكر البعث الذى هذا مقامه فيه صريحا وكذا ذكر النار مع خلو التوراة عن ذلك اما البعث فلا ذكر له فيها أصلا وأما النار فلم يذكر شئ مما يدل عليها الا الجحيم فى موضع واحد وأما الزبور فذكر فيه النار والهاوية والجحيم فى غير موضع انتهى وقرأ حمزة بضم الزاى والباقون بالفتح واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم) أنهم آلهة (من دونه) أى من سواه كالملائكة وعزير والمسيح وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائى بضم اللام من قل وكسرها عاصم وحمزة كل هذا فى حال الوصل وأما الابتداء فالجميع ابتدؤا بهمزة مضمومة (فلا يملكون كشف الضر) أى البؤس الذى من شأنه أن يعرض الجسم كله (عنكم) حتى لا يدعوا شيأ منه (ولا تحويلا) له الى غيركم فقال ابن عباس انها نزلت فى الذين عبدوا المسيح وعزيرا والملائكة والشمس والقمر والنجوم وقيل ان قوما عبدوا نفرا من الجن فأسلم النفر من الجن وبقى أولئك القوم متمسكين بعبادتهم فنزلت فيهم هذه الآية وقيل ان المشركين أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم فنزل قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه وليس المراد الاصنام لانه تعالى قال فى وصفهم (أولئك الذين يدعون) أى يدعونهم الكفار ويتألهونهم (يبتغون) أى يطلبون طلبا عظيما (الى ربهم) أى المحسن اليهم (الوسيلة) أى المنزلة والدرجة والقربة لاعمالهم الصالحة وابتغاء الوسيلة الى الله تعالى لا يليق بالاصنام البتة وقرأ أبو عمرو فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم

الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم * (تنبيه) * أولئك مبتدأ وخبره يبتغون ويكون الموصول نعتاً أو بياناً أو بدلاً والمراد باسم الاشارة الانبياء أو الملائكة الذين عبدوا من دون الله والمراد بالواو العباد لهم ويكون العائد على الذين محذوفاً والمعنى أولئك الانبياء الذين يدعونهم المشركون لكشف ضرهم يبتغون الى ربهم الوسيلة (أيهم أقرب) أى يتسابقون بالاعمال مسابقة من يطلب كل منهم أن يكون اليه أقرب ولديه أفضل (ويرجون رحمته) رغبة فيما عنده (ويخافون عذابه) فهم كغيرهم موصوفون بالعجز والحاجة فكيف يدعونهم آلهة وقيل معناه ان الكفار ينظرون أيهم أقرب الى الله تعالى فيتوسلون به ثم علل خوفهم بأمر عام بقوله تعالى (ان عذاب ربك) أى المحسن اليك برفع انتقام الاستئصال منه عن أمتك (كان) أى كوناً لازماً (محذوراً) جديراً بأن يحذر لكل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلاً عن غيرهم لما شوهد من اهلاكه للقرون الماضية * ولما قال تعالى ان عذاب ربك كان محذوراً بين بقوله تعالى (وان) أى وما (من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً) أن كل قرية أى أهلها لابد وان يرجع حالهم الى أحد أمرين اما الاهلاك بالموت والاستئصال واما العذاب بالقتل وأنواع البلاء وقال مقاتل أما الصالحة فبالموت وأما الطالحة فبالعذاب وقال عبد الله بن مسعود اذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله تعالى في هلاكها (كان ذلك) أى الامر العظيم (في الكتاب) أى اللوح المحفوظ (مسطوراً) أى مكتوباً قال عبادة بن الصامت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أول ما خلق الله القلم فقال اكتب فقال وما أكتب قال القدر ما كان وما هو كائن الى أبد الابد أخرجه الترمذي * ولما كان كفار قريش قد تكرر اقتراحهم للآيات وكان صلى الله عليه وسلم لشدة حرصه على ايمان كل أحد يحب أن الله تعالى يجيبهم الى مقترحهم طمعاً في ايمانهم فأجاب الله تعالى بقوله (وما منعنا) أى على ما لنا من العظمة التى لا يعجزها شئ ولا يمنعها مانع (أن نرسل بالآيات) أى التى اقترحوها كما حكى الله تعالى عنهم ذلك في قولهم فأتنا بآية كما أرسل الاولون وقال آخرون لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً الآيات وقال سعيد بن جبير انهم قالوا انك تزعم انه كان قبلك أنبياء منهم من سخرت له الريح ومنهم من أحيا الموتى فأتنا بشئ من هذه المعجزات فكان كأنه لا آيات عندهم سوى ذلك (الا) علمنا في عالم الشهادة بما وقع من (أن كذب بها) أى المقترحات (الاولون) وعلمنا في عالم الغيب ان هؤلاء مثل الاولين ان الشقى منهم لا يؤمن بالمقترحات كما لم يؤمن بغيرها وانه يقول فيها ما قال في غيرها من انها سحر ونحو ذلك والسعيد لا يحتاج في ايمانه اليها فكم أجبنا أمة الى مقترحها فما زاد ذلك أهل الضلالة منهم الا كفراً فأخذناهم لان سنتنا جرت انا لا نمهل بعد الاجابة الى المقترحات من كذب بها قال ابن عباس سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً وان ينحي الجبال عنهم ليزرعوا تلك الاراضي فطلب صلى الله عليه وسلم ذلك من الله تعالى فأوحى الله تعالى اليه ان شئت فعلت ذلك لكن بشرط ان لم يؤمنوا أهلكتهم فقال صلى الله

عليه وسلم لا أريد ذلك فتفضل الله تعالى برحمته هذه الامة وتشريفها على الامم السالفة بعدم استئصالها لما يخرج من أصلاب كفرتها من خلص عباده فلهذا السبب ما أجابهم الله تعالى الى مطلوبهم فقال جل ذكره بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ثم ذكر تعالى من تلك الآيات التى اقترحها الاولون ثم كذبوا بها لما ارسلت اليهم فأهلكوا ما ذكره تعالى بقوله تعالى (وآتينا ثمود الناقة) حالة كونها (مبصرة) أى مضيئة بينة جديرة بأن يستبصر بها من كل شاهدها فيستدل بها على صدق قول ذلك النبى (فظلموا بها) أى ظلموا أنفسهم بتكذيبها وقال ابن قتيبة جحدوا بأنها من الله تعالى فأهلكناهم فكيف يتمناها هؤلاء على سبيل الاقتراح والتحكم على الله تعالى وخص تعالى هذه الآية بالذكر لان آثار اهلاكهم فى بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم ثم قال تعالى (وما نرسل بالآيات) أى المقترحات وغيرها (الا تخويفا) للمرسل اليهم بها فان خافوا نجوا والا اهلكوا بعذاب الاستئصال من كذب بالآيات المقترحات وبعذاب الآخرة من كذب بغيرها كالمعجزات وآيات القرآن فأمر من بعث اليهم مؤخر الى يوم القيامة (فان قيل) المقصود الاعظم من اظهار الآيات أن يستدل بها على صدق المدعى فكيف حصل المقصود من اظهارها فى التخويف (أجيب) بأنه لما كان هو الحامل والغالب على التصديق فكأنه هو المقصود ولما طلب القوم من النبى صلى الله عليه وسلم تلك الآيات المقترحات وأجاب الله تعالى بأن اظهارها ليس بمصلحة صار ذلك سببا لجراءة أولئك الكفار بالطعن فيه وأن يقولوا له لو كنت رسولا حقا من عند الله لاتيت بهذه المعجزات التى اقترحناها كما أتى بها موسى وغيره من الانبياء فعند هذا قوى الله تعالى قلبه وبين له أنه ينصره ويؤيده فقال تعالى (و) اذكر يا أشرف الخلق (اذ قلنا لك ان ربك) أى المتفضل بالاحسان اليك بالرفق لامتك (أحاط بالناس) علما وقدرة فهم فى قبضته وقدرته لا يقدرون على الخروج عن مشيئته فلا يقدرون على أمر من الامور الا بقضائه وقدره وهو حافظك ومانعك منهم فلا تهتم باقتراحهم وامض فيما أمرك به من تبليغ الرسالة فهو ينصرك ويقويك على ذلك كما وعدك بقوله تعالى والله يعصمك من الناس وقيل ان المراد بالناس أهل مكة بمعنى أنه يغلبهم ويقهرهم روى أنه لما تزاحف الفريقان يوم بدر ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى العريش مع أبى بكر رضى الله عنه كان يدعو ويقول اللهم انى أسألك عهدك ووعدك ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر وكان صلى الله عليه وسلم يقول حين ورد بدرا والله كأنى أنظر الى مصارع القوم وهو يومئ الى الارض ويقول هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان فتسامعت قريش بما أوحى الى النبى صلى الله عليه وسلم ثم عطف تعالى على وما نرسل بالآيات قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك) أى التى شاهدتها ليلة الاسراء (الا فتنة) أى امتحانا واختبارا (للناس) لانه صلى الله عليه وسلم لما ذكر لهم قصة الاسراء كذبوه وكفر به كثير ممن كان قد آمن به وازداد المخلصون ايمانا فلهذا السبب كانت امتحانا وروى البخارى فى التفسير عن ابن عباس انه قال هى رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به وتقدم

أنه قول الاكثرفنهم سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وما قاله بعضهم من ان الرؤيا تدل على أنها رؤيا منام ضعيف اذ لا فرق بين الرؤية والرؤيا فى اللغة يقال رأيته بعينى رؤية ورؤيا * (فائدة) * قال بعض العلماء كانت اسرا آته صلى الله عليه وسلم أربعا وثلاثين مرة واحدة بجسده والباقى بروحه رؤيا رآها قال ومما يدل على أن الاسراء ليلة فرض الصلاة كانت بالجسم ماورد فى بعض طرق الحديث انه صلى الله عليه وسلم استوحش لما زج به فى النور ولم ير معه أحدا اذ الارواح لا توصف بالوحشة ولا بالاستيحاش قال ومما يدل على أن الاسراء كان بجسمه ماوقع له من العطش فان الارواح المجردة لا تعطش ولما كان صلى الله عليه وسلم قد وصل الجيم وأخبر صلى الله عليه وسلم ان شجرة الزقوم تنبت فى أصل الجحيم وكان ذلك فى غاية الغرابة ضمها الى الاسراء فى ذلك بقوله تعالى (والشجرة الملعونة فى القرآن) لان فيها امتحانا أيضا بل قال بعض المفسرين هى على التقديم والتأخير والتقدير وما جعلنا الرؤيا التى أريناك والشجرة الملعونة فى القرآن الا فتنة للناس واختلف فى هذه الشجرة فالاكثرون قالوا انها شجرة الزقوم المذكورة فى قوله تعالى ان شجرة الزقوم طعام الاثيم فكانت الفتنة فى ذكر هذه الشجرة من وجهين الاول أن أبا جهل قال زعم صاحبكم ان نار جهنم تحرق الحجارة حيث قال وقودها الناس والحجارة ثم يقول فى النار شجرة والنار تأكل الشجر فكيف يولد فيها الشجر والثانى قال ابن الزبعرى ما نعلم الزقوم الا التمر والزبد فتزقموا منه فأنزل الله تعالى حين عجبوا أن يكون فى النار شجرا انا جعلناها فتنة للظالمين الآيات وما قدروا الله حق قدره من قال ذلك فان الله تعالى قادر على أن يجعل الشجرة من جنس لا تأكله النار فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك يتخذ منه مناديل اذا اتسخت طرحت فى النار فيذهب الوسخ وبقيت سالمة لا تعمل فيها النار وترى النعامة تبلع الجمر وتبلع الحديد المحمر باحماء النار فلا يضرها ثم أقرب من ذلك انه تعالى جعل فى الشجر نارا فلا تحرقه قال تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا (فان قيل) ليس فى القرآن لعن هذه الشجرة (أجيب) عن ذلك بوجوه الاول المراد لعن الكفار الذين يأكلونها لان الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة وانما وصفت بلعن أصحابها على المجاز الثانى ان العرب تقول لكل طعام ضار انه ملعون الثالث ان اللعن فى اللغة الابعاد ولما كانت هذه الشجرة مبعدة عن صفات الخير سميت ملعونة وقيل ان الشجرة الملعونة فى القرآن هى اليهود لقوله تعالى لعن الذين كفروا الآية وقيل هى الشيطان وقيل أبو جهل وعن ابن عباس هى الكشوث التى تلتوى بالشجر تجعل فى الشراب * ولما ذكر سبحانه وتعالى أنه يرسل بالآيات تخويفا قال هنا أيضا (ونخوفهم فما يزيدهم) أى الكافرين والتخويف بالقرآن (الا طغيانا كبيرا) أى تجاوزا للحد هو فى غاية العظم فبتقدير أن يظهر الله تعالى لهم المعجزات التى اقترحوها لم يزدادوا بها الا تماديا فى الجهل والعناد فاقتضت الحكمة أن لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الآيات والمعجزات فانهم قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر وخوفوا بعذاب الآخرة وبشجرة الزقوم فما أثر فيهم فكيف يخاف قوم هذه حالهم بارسال

مايقترحون من الآيات * ولما نازع القوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لامرين الكبر والحسد أمّا الكبر فلان تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد وأمّا الحسد فلانهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوّة فبين تعالى ان هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا ابليس على الخروج عن الايمان والدخول فى الكفر بقوله تعالى (وإذ) أى واذكر اذ (قلنا) بمالنا من العظمة التى لا ينقض مرادها (للملائكة) حين خلقنا أباك آدم وفضلناه (اسجدوا لآدم) أى امتثالا لامرى (فسجدوا الا ابليس) أى أبى أن يسجد لكونه ممن حقت عليه الكلمة ولم ينفعه مايعلمه من قدرة الله وعظمته وذلك معنى قوله تعالى (قال) أى منكرا متكبرا (أأسجد) أى خضوعا (لمن خلقت) حال كون أصله (طينا) فكفر بنسبته لنا الى الجور متخيلا انه أفضل من آدم عليه السلام من حيث ان الفروع ترجع الى الاصول وان النار التى هى أصله أكرم من الطين الذى هو أصل آدم وذهب عنه ان الطين أنفع من النار وعلى تقدير التنزل فالجواهر كلها من جنس واحد والله تعالى هو الذى أوجدها من العدم يفضل بعضها على بعض بما يحدث فيها من الاعراض وقد ذكر الله تعالى هذه القصة فى سبع سور وهى البقرة والاعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص والكلام المستقصى فيها قد تقدم فى البقرة ولعل هذه القصة انما كررت تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فانه كان فى محنة عظيمة من قومه وأهل زمانه فكأنه تعالى يقول ألا ترى ان أوّل الانبياء هو آدم عليه السلام ثم انه كان فى محنة شديدة من ابليس وان الكبر والحسد كل منهما بلية عظيمة ومحنة عظيمة للخلق وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية وأدخل قالون وأبو عمرو بينهما ألفا ولم يدخل ورش وابن كثير بينهما ألفا ولورش أيضا ابدال الثانية ألفا واذا وقف حمزة سهل الثانية كقراءة ابن كثير وقرأ هشام بالتحقيق فى الثانية والتسهيل وادخال ألف بينهما وقرأ الباقون بتحقيقهما بلا ادخال * ولما أخبر تعالى بتكبره كان كأنه قيل ان هذه لوقاحة عظيمة واجتراء على الجناب الاعلى فهل كان منه غير ذلك قيل (قال أرأيتك) أى أخبرنى وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء ولورش وجه ثان وهو أن يبدلها ألفا وأسقطها الكسائى والباقون بالتحقيق (هذا الذى كرّمت علىّ) لم كرّمته علىّ مع ضعفه وقوّتى فكأنه قيل لقد أتى بالغاية فى اساءة الادب فما كان بعد هذا فقيل قال مقسما لاجل استبعاد أن يجترئ أحد هذه الجراءة على الملك الاعلى (لئن أخرتن) أى أيها الملك الاعلى تأخيرا ممتدا (الى يوم القيامة) حياممتكنا وجواب القسم الموطأله باللام (لأحتنكنّ) أى بالاغواء (ذريته) أى لاستولين عليهم استيلاء من جعل فى حنك الدابة الاسفل حبلا يقودها به فلا تأبى عليه وقرأ نافع وأبو عمرو بزيادة ياء بعد النون فى أخرتنى عند الوصل وحذفها فى الوقف وأثبتها ابن كثير وصلا ووقفا وحذفها الباقون وقفا ووصلا اتباعا للرسم * ولما علم أنه لا يقدر على الجميع قال (الا قليلا) وهم أولياؤك الذين حفظتهم منى كما قال تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان (فان قيل) كيف ظن ابليس هذا الظن الصادق بذرية آدم (أجيب) بأوجه الاوّل انه سمع الملائكة يقولون أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء

فعرف هذه الاحوال الثانى انه وسوس الى آدم ولم يجد له عزما فقال الظاهر ان أولاده يكونون مثله فى ضعف العزم الثالث انه عرف انه مركب من قوة بهيمية شهوية وقوة وهمية شيطانية وقوة عقلية ملكية وقوة سبعية غضبية وعرف ان بعض تلك القوى تكون هى المستولية فى بعض أول الخلقة ثم ان القوة العقلية انما تكمل فى آخر الامر ومن كان كذلك كان ماذكره ابليس لازما له ثم كأنه قيل لقد أطال عدو الله الاجتراء فما قال له ربه بعد ذلك فقيل (قال) عدا له (اذهب) أى امض لما قصدته وهو طرد وتخلية بينه وبين ما سولت له نفسه وتقدم فى الحجر أنه انما يؤخر الى يوم الوقت المعلوم وهو يوم ينفخ فى الصور لا أنه يؤخر الى يوم القيامة كما طلب وقرأ أبو عمرو وخلاد والكسائى بادغام الباء الموحدة فى الفاء وأظهرها الباقون * ولما حكم تعالى بشقاوته وشقاوة من أراد طاعته له تسبب عنه قوله تعالى (فمن تبعك منهم) أى أولاد آدم عليه السلام (فان جهنم) أى الطبقة النارية التى تجهم داخلها (جزاؤكم) أى جزاؤك وجزاء أتباعك تجزون ذلك (جزاء موفورا) أى مكملا وافيا بما تستحقون على أعمالكم الخبيثة * ولما طلب ابليس اللعين من الله تعالى الامهال الى يوم القيامة لاجل أن يحتنك ذرية آدم ذكر الله تعالى له أشياء الاول اذهب أى امض كما مر فانى أمهلتك هذه المدة وليس من الذهاب الذى هو ضد المجىء الثانى قوله تعالى (واستفزز) أى استخف (من استطعت منهم) أن تستفزه وهم الذين سلطناك عليهم (بصوتك) قال ابن عباس معناه بدعائك الى معصية الله وكل داع الى معصية الله تعالى فهو من جند ابليس وقيل أراد بصوتك الغناء واللهو واللعب الثالث قوله تعالى (وأجلب) أى صح (عليهم) من الجلبة وهى الصياح (بخيلك ورجلك) واختلفوا فى الخيل والرجل على أقوال الاول روى أبو الضحى عن ابن عباس انه قال كل راكب أو راجل فى معصية الله تعالى وعلى هذا الخيله ورجله كل من شاركه فى الدعاء الى المعصية الثانى يحتمل أن يكون لابليس جيش من الشياطين بعضهم راكب وبعضهم راجل الثالث ان المراد منه ضرب المثل كما يقال للرجل المجد فى الامر جئت بالخيل والرجل قال الرازى وهذا أقرب وقال الزمخشرى هو كلام ورد مورد التمثيل مثل فى تسلطه على من يغويه بمغوار وقع على قوم فصوت بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم ويقلقلهم عن مراكزهم وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم والخيل تقع على الفرسان قال صلى الله عليه وسلم يا خيل الله اركبى وقد تقع على الافراس خاصة وقرأ حفص عن عاصم بكسر الجيم وسكنها الباقون جمع راجل كصاحب وصحب وراكب وركب ورجل بالكسر والضم لغتان مثل حدث وحدث وهو مفرد أريد به الجمع الرابع قوله تعالى (وشاركهم فى الاموال والاولاد) أما المشاركة فى الاموال فقال مجاهد هو كل ما أصيب من حرام أو أنفق فى حرام وقال قتادة هو جعلهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وقال الضحاك هو ما يذبحونه لآلهتهم وقال عكرمة هو تبتيكهم آذان الانعام وقيل هو جعلهم من أموالهم شيأ لغير الله كقولهم هذا لله وهذا لشركائنا ولا منافاة بين جميع هذه الاقوال وأما المشاركة فى الاولاد فقال عطاء عن ابن عباس هو تسمية الاولاد بعبد شمس وعبد العزى

وعبد الحرث وعبد الدار ونحوها وقال الحسن هو أنهم هوّدوا أولادهم ونصروهم ومجسوهم وروى عن جعفر بن محمد أنّ الشيطان يعقد ذكره على ذكر الرجل فاذا لم يقل بسم الله أصاب معه امرأته وأنزل فى فرجها كما ينزل الرجل ويقال فى جميع هذه الاقوال أيضا ما تقدّم وروى أنّ رجلا قال لابن عباس ان امرأتى استيقظت وفى فرجها شعلة نار قال ذلك من وطء الجنّ وفى الآثار ان ابليس لما خرج الى الارض قال يارب أخرجتنى من الجنة لاجل آدم فسلطنى عليه وعلى ذرّيته قال أنت مسلط قال لا أستطيعه الابك فزدنى قال استفزز من استطعت منهم بصوتك قال آدم يارب سلطت ابليس علىّ وعلى ذرّيتى وانى لا أستطيعه الابك قال لا يولد لك ولد الا وكلت به من يحفظونه قال زدنى قال الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها قال زدنى قال التوبة مفروضة مادام الروح فى الجسد فقال زدنى فقال ياعبادى الذين أسرفوا الآية وفى الخبر انّ ابليس قال يارب بعثت أنبياء وأنزلت كتبا فاقرآنى قال الشعر قال فما كتابى قال الوشم قال ومن رسولى قال الكهنة قال فما طعامى قال مالم يذكر عليه اسمى قال فما شرابى قال كل مسكر قال وأين مسكنى قال الحمامات قال وأين مجلسى قال الاسواق قال وما حبائلى قال النساء قال وما أذانى قال المزمار الخامس قوله تعالى (وعدهم) أى من المواعيد الباطلة مايستخفهم ويغرّهم من ذلك وعدهم بأن لا جنة ولا نار ومن ذلك شفاعة الآلهة والكرامة على الله تعالى بالانساب الشريفة وتسويف التوبة وايثار العاجل على الآجل ونحو ذلك وقوله تعالى (ومايعدهم الشيطان) من باب الالتفات واقامة الظاهر مقام الضمير ولو جرى على سنن الكلام الاوّل لقال وما تعدهم بالتاء من فوق وقوله تعالى (الاغرورا) فيه أوجه أحدها أنه نعت مصدر محذوف وهو نفسه مصدر والاصل الا وعدا غرورا الثانى أنه مفعول من أجله أى ما يعدهم من الامانى الكاذبة الا لاجل الغرور الثالث أنه مفعول به على الاتساع أى مايعدهم الا الغرور نفسه والغرور تزيين الباطل بما يظنّ أنه حق (فان قيل) كيف ذكر الله تعالى هذه الاشياء لابليس وهو يقول انّ الله لا يأمر بالفحشاء (أجيب) بانّ هذا على طريق التهديد كقوله تعالى اعملوا ماشئتم وكقول القائل اعمل ماشئت فسوف ترى وكما يقال اجهد جهدك فسوف ترى ماينزل بك * ولما قال الله تعالى له افعل ماتقدر عليه قال تعالى (انّ عبادى) أى الذين أهلتهم للاضافة الىّ فقاموا بحق عبوديتى بالتقوى والاحسان (ليس لك عليهم سلطان) أى فلا تقدر أن تغويهم وتحملهم على ذنب لا يغفر فانى وفقتهم للتوكل علىّ فكفيتهم أمرك (وكفى بربك) أى الموجد لك (وكيلا) أى حافظا لهم منك * ولما ذكر تعالى انه الوكيل الذى لا كافى غيره أتبعه بعض أفعاله الدالة على ذلك بقوله تعالى (ربكم) أى المتصرف فيكم هو (الذى يزجى) أى يجرى (لكم الفلك) ومنها التى حملكم فيها مع أبيكم نوح عليه الصلاة والسلام (فى البحر لتبتغوا) أى لتطلبوا (من فضله) الربح وأنواع الامتعة التى لا تكون عندكم ثم انه تعالى علل ذلك بقوله عز وجل (انه) أى فعل سبحانه وتعالى ذلك لانه (كان) أى أزلا وأبدا (بكم رحيما) حيث هيأ لكم ماتحتاجون اليه وسهل عليكم مايعسر من أسبابه * (تنبيه) * الخطاب

فى قوله ربكم وفى قوله تعالى انه كان بكم عام فى حق الكل والمراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها وأمّا قوله تعالى (واذا مسكم الضر) أى الشدة (فى البحر) خطاب للكفار بدليل قوله تعالى (ضل) أى غاب عن ذكركم وخواطركم (من تدعون) أى تعبدون من الآلهة (الا اياه) وحده فأخلصتم له الدعاء علمًا منكم أنه لا ينجيكم سواه (فلما نجاكم) من الغرق وأوصلكم بالتدريج (الى البر أعرضتم) عن الاخلاص له ورجعتم الى الاشراك (وكان الانسان) أى هذا النوع (كفورا) أى جحودا للنعم بسبب أنه عند الشدة يتمسك بفضله ورحمته وعند الرخاء والراحة يعرض عنه ويتمسك بغيره وقوله تعالى (أفأمنتم) الهمزة فيه للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم من البحر فأمنتم بعد خروجكم منه (أن نخسف بكم جانب البر) فنغيبكم فى أى جانب كان منه لان قدرتنا على التغييبين فى الماء والتراب على السواء فعلى العاقل أن يستوى خوفه من الله تعالى فى جميع الجوانب (أو) أمنتم ان (نرسل عليكم) من جهة الفوق شيأ من أمرنا (حاصبا) أى نمطر عليكم حجارة من السماء كما أمطرناها على قوم لوط قال الله تعالى انا أرسلنا عليهم حاصبا وقيل الحاصب الريح (ثم لا تجدوا لكم) أيها الناس (وكيلا) يحميكم من ذلك ولا من غيره كما لم تجدوا فى البحر وكيلا غيره (أم أمنتم) أى جاوزت بكم الغباوة حدها فلم تجوّزوا ذلك (أن نعيدكم فيه) أى البحر الذى يضطركم الى ذلك فنقسركم عليه وان كرهتم (تارة أخرى) بأسباب تضطركم الى أن ترجعوا فتركبوه (فنرسل عليكم قاصفا من الريح) أى ريحا شديدة لا تمر بشئ الا قصفته فتكسر فلككم (فنغرقكم) فى البحر الذى أعدناكم فيه بقدرتنا (بما كفرتم) أى بسبب اشراككم وكفرانكم نعمة الانجاء (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) أى مطالبا يطالبنا بما فعلنا بكم * (تنبيه) * تارة بمعنى مرة وكرة فهى مصدر وتجمع على تير وتارات قال الشاعر

وانسان عينى يحسر الماء تارة * فيبدو وتارات يجم فيغرق

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو أن نخسف أو نرسل أن نعيدكم فنرسل فنغرقكم جميع هذه الخمسة بنون العظمة والباقون بياء الغيبة والقراءة الاولى على سبيل الالتفات من الغائب فى قوله تعالى ربكم الى آخره والقراءة الثانية على سنن ما تقدم من الغيبة * ثم ان الله تعالى ذكر نعمة أخرى رفيعة جليلة على الانسان وذكر فيها أربعة أنواع النوع الاوّل قوله تعالى (ولقد كرّمنا) أى بعظمتنا تكريما عظيما (بنى آدم) وحذف متعلق التكريم فلذا اختلف المفسرون فيه فقال ابن عباس كل شئ يأكل بفيه الا ابن آدم فانه يأكل بيده وعن الرشيد أنه أحضر طعاما عنده فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف فقال له جاء فى تفسير جدك ابن عباس ولقد كرّمنا بنى آدم جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فأحضرت الملاعق فردّها وأكل بأصابعه وروى عن ابن عباس أنه قال بالعقل وقال الضحاك بالنطق والتمييز وقيل على سائر الطين بالنموّ وعلى النامى بالحياة وعلى سائر الحيوان بالنطق وقال عطاء بتعديل القامة وامتدادها والدواب منكسة على وجوهها قال بعضهم وينبغى أن يشترط مع هذا شرط وهو طول القامة مع استكمال القوّة

العقلية والحسية والحركية والافالاشجار أطول قامة من الانسان وقيل الرجال باللحى والنساء بالذوائب وقيل بأن سخر لهم سائر الاشياء وقيل بأن منهم خير أمة أخرجت للناس وقيل بحسن الصورة قال تعالى وصوركم فأحسن صوركم ولما ذكر الله تعالى خلقة الانسان وهي ولقد خلقنا الانسان الآية قال فتبارك الله أحسن الخالقين قال الرازى فان شئت فتأمل عضوا واحدا من أعضاء الانسان وهي العين فخلق الحدقة سوداء ثم أحاط بذلك السواد بياض العين ثم أحاط بذلك البياض سواد الاشفار ثم أحاط بذلك السواد بياض الاجفان ثم خلق فوق بياض الجفن سواد الحاجبين ثم خلق فوق ذلك السواد بياض الجبهة ثم خلق فوق ذلك البياض سواد الشعر وليكن هذا المثال الواحد أنموذجا لك في هذا الباب انتهى واستدل أيضا لشرف الانسان بأن الموجود اما أن يكون أزليا وأبديا وهو الله تعالى واما أن لا يكون لا أزليا ولا أبديا وهو عالم الدنيا مع كل ما فيه من المعادن والنبات والحيوان وهذا أخس الاقسام واما أن يكون أزليا ولا يكون أبديا وهذا ممتنع الوجود لان ما ثبت قدمه امتنع عدمه واما أن لا يكون أزليا ولكنه يكون أبديا وهو الانسان والملك ولا شك أن هذا القسم أشرف من الثاني والثالث وذلك يقتضي كون الانسان أشرف من أكثر المخلوقات * النوع الثاني قوله تعالى (وحملناهم في البر) على الدواب وغيرها (و) في (البحر) على السفن وغيرها من حملته حملا اذا جعلت له ما يركبه أو حملناهم فيهما حتى لم تخسف بهم الارض ولم نغرقهم في الماء * النوع الثالث قوله تعالى (ورزقناهم من الطيبات) أي المستلذات من الثمرات والاقوات وذلك لان الاغذية اما حيوانية واما نباتية وكلا القسمين فان الانسان انما يتغذى بألطف أنواعها وأشرف أقسامها بعد التنقية التامة والطبخ الكامل والنضج البالغ وذلك مما لا يحصل الا للانسان * النوع الرابع قوله تعالى (وفضلناهم) في أنفسهم باحسان الشكل وفي صفاتهم بالعلم المنتج لسعادة الدارين (على كثير ممن خلقنا) أي بعظمتنا التي خلقناهم بها * وأكد الفعل بالمصدر اشارة الى اعراقهم في الفضيلة فقال تعالى (تفضيلا) * (تنبيه) * ظاهر الآية يدل على فضلهم على كثير من خلقه لا على الكل وقال قوم فضلوا على جميع الخلق الا على الملائكة وهو قول ابن عباس واختيار الزجاج على ما رواه الواحدي في بسيطه وقال الكلبي فضلوا على جميع الخلائق كلهم الا على طائفة من الملائكة جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت وأشباههم وقال قوم فضلوا على جميع الخلق وعلى جميع الملائكة كلهم وقد يوضع الاكثر موضع الكل كقوله تعالى هل أنبئكم على من تنزل الشياطين الى قوله تعالى وأكثرهم كاذبون أي كلهم وروى جابر يرفعه قال لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال تعالى لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان والاولى كما قاله بعض المفسرين كالبغوي وابن عادل أن يقال عوام الملائكة أفضل من عوام المؤمنين وخواص المؤمنين أفضل من خواص الملائكة قال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية وروى عن أبي هريرة رضي الله تعالى

عنه قال المؤمن أكرم على الله من الملائكة عنده رواه البغوى ورواه الواحدى فى بسيطه (فان قيل) قال تعالى فى أول الآية ولقد كرمنا بنى آدم وقال فى آخرها وفضلناهم فلا بد من الفرق بين التكريم والتفضيل والالزم التكرار (أجيب) بأنه تعالى فضل الانسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية كالعقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة ثم انه سبحانه وتعالى عرّضه بواسطة العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والاخلاق الفاضلة * ولما ذكر تعالى أنواع كرامات الانسان فى الدنيا شرح أحوال درجاته فى الآخرة بقوله تعالى (يوم) أى اذكر يوم (ندعو) أى بتلك العظمة (كل أناس) أى منكم (بامامهم) الامام فى اللغة كل من ائتم به قوم كانوا على هدى أو ضلالة فالنبى امام أمته والخليفة امام رعيته والقرآن امام المسلمين وامام القوم هو الذى يقتدون به فى الصلاة وذكروا فى تفسير الامام هنا أقوالا أحدها امامهم نبيهم روى ذلك مرفوعا عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فينادى يوم القيامة يا أمة ابراهيم يا أمة موسى يا أمة عيسى يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الانبياء فيأخذون كتبهم بأيمانهم ثم ينادى الاتباع يا أتباع نمرود يا أتباع فرعون يا أتباع فلان وفلان من رؤساء الضلال وأكابر الكفر الثانى أن امامهم كتابهم الذى أنزل عليهم فينادى فى القيامة يا أهل القرآن يا أهل التوراة يا أهل الانجيل الثالث امامهم كتاب أعمالهم قال تعالى وكل شئ أحصيناه فى امام مبين فسمى الله تعالى هذا الكتاب اماما قال الزمخشرى ومن بدع التفاسير ان الامام جمع أم وان الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم وان الحكمة فيه رعاية حق عيسى واظهار شرف الحسن والحسين وأن لا تفتضح أولاد الزنا قال وليت شعرى أيهما أبدع البدع أصحة لفظه أم بهاء حكمته قال ابن عادل وهو معذور لان أمّا لا يجمع على امام هذا قول من لا يعرف الصناعة ولا لغة العرب (فمن أوتى) أى من المدعوين (كتابه) أى كتاب عمله (بيمينه) وهم السعداء أولو البصائر فى الدنيا (فأولئك يقرؤن كتابهم) ابتهاجا وتبجحا بما يرون فيه من الحسنات (ولا يظلمون) بنقص حسنة تامن ظالم ما (فتيلا) أى شيأ فى غاية القلة والحقارة بل يزدادون بحسب اخلاص النيات وطهارة الاخلاق وزكاء الاعمال *(تنبيه)* الفتيل القشرة التى فى شق النواة تسمى بذلك لانه اذا رام الانسان اخراجه انفتل وهذا مثل يضرب للشئ الحقير التافه ومثله القطمير وهو الغلافة التى فى ظهر النواة والنقير وهى النقرة التى فى ظهر النواة وروى مجاهد عن ابن عباس قال الفتيل هو الوسخ الذى يفتله الانسان بين سبابته وابهامه (فان قيل) لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع أن أهل الشمال يقرؤنه (أجيب) بان أصحاب الشمال اذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على المهلكات العظيمة والقبائح الكاملة فيستولى الخوف على قلوبهم ويثقل لسانهم فيعجزون عن القراءة الكاملة وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك لا جرم أنهم يقرؤن كتابهم على أحسن الوجوه ثم لا يقنعون بقراءتهم وحدهم بل يقول القارئ لاهل المحشر هاؤم اقرؤا كتابيه جعلنا الله تعالى وجميع أحبابنا منهم * ثم قال الله تعالى (ومن كان) منهم (فى هذه)

أى الدار (أعمى) أى ضالا يعمل فى الافعال فعل الاعمى فى أخذ الاعيان لايهتدى الى أخذ ما ينفعه وترك ما يضره ولا يميز بين حسن وقبيح (فهو فى الآخرة أعمى) أى أشد عمى مما كان عليه فى هذه الدار لا ينجح له قصد ولا يهتدى لصواب ولم يقل تعالى أشد عمى كما يقال فى الخلق اللازمة لحالة واحدة مثل العور والحمرة والسواد ونحوها لان هذا مراد به عمى القلب الذى من شأنه التزايد والحدوث فى كل لحظة شيأ بعد شئ (وأضل سبيلا) لان هذه الدار دار الاكتساب والترقى فى الاسباب وأما تلك فليس فيها شئ من ذلك وقال عكرمة جاء نفر من أهل اليمن الى ابن عباس فسأله رجل عن هذه الآية فقال اقرؤا ما قبلها فقرؤا ربكم الذى يزجى لكم الفلك الى قوله تفضيلا فقال ابن عباس من كان أعمى فى هذه النعم التى قد رأى وعاين فهو فى الآخرة التى لم يعاين ولم ير أعمى وأضل سبيلا وعلى هذا فالاشارة فى قوله هذه الى النعم المذكورة فى الآيات المتقدمة وحمل بعضهم العمى الثانى على عمى العين والبصر كما قال تعالى ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وقال تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما وهذا العمى زيادة فى عقوبتهم * ولما عدد تعالى فى الآيات المتقدمة أقسام نعمه على خلقه وأتبعها بذكر درجات الخلق فى الآخرة وشرح أحوال السعداء أردفه بما يجرى مجرى تحذير السعداء عن الاغترار بوسواس أرباب الضلال والانخداع بكلماتهم المشتملة على المكر والتلبيس فقال تعالى (وان كادوا) أى قاربوا فى هذه الحياة الدنيا العماهم فى أنفسهم عن عصمة الله تعالى لك ولما كانت ان هذه هى المخففة من الثقيلة أتى باللام الفارقة بينها وبين النافية بقوله تعالى (ليفتنونك) أى ليخالطونك مخالطة تميل الى جهة قصدهم لكثرة خداعهم واختلف فى سبب نزول هذه الآية فروى عطاء عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية فى وفد ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال قال وماهن قالوا أن لانجبى فى الصلاة بفتح الجيم والباء الموحدة المشددة أى لا ننحنى فيها ولا نكسر أصنامنا الا بأيدينا وأن لاتمنعنا من اللات والعزى سنة من غير أن نعبدها فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا خير فى دين لاركوع فيه ولا سجود وأما أن تكسروا أصنامكم بأيديكم فذلك لكم وأما الطاغية يعنى اللات والعزى فانى غير ممتعكم بها وفى رواية وحرم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم فقالوا يارسول الله انا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا مالم تعط غيرنا فان خشيت أن تقول العرب أعطيتهم مالم تعطنا فقل الله أمرنى بذلك فسكت النبى صلى الله عليه وسلم فطمع القوم فى سكوته أن يعطيهم ذلك فصاح عليهم عمر وقال أما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمسك عن الكلام كراهة لما تذكرونه فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال سعيد بن جبير كان النبى صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الاسود فمنعه قريش وقالوا لاندعك حتى تلم بآلهتنا وتمسها فحدث صلى الله عليه وسلم نفسه ما على أن أفعل ذلك والله يعلم انى لها لكاره بعد أن يدعونى

حتى استلم الحجر فأنزل الله تعالى هذه الآية وروى ان قريشا قالوا له اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك فنزلت وان كادوا ليفتنونك (عن الذى أوحينا اليك) من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا (لتفترى) أى لتقول (علينا غيره) أى مالم نقله (واذا) أى لو ملت الى مادعوك اليه (لاتخذوك) أى بغاية الرغبة (خليلا) أى لو الوك وصافوك وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم وراض بشركهم ومن يكن خليل الكفار لم يكن خليل الله تعالى ولكنك أبصرت رشدك فلزمت أمر الله واستمروا على عماهم اتماما لتفضيلنا لك على كل مخلوق (ولولا أن ثبتناك) أى على الحق بعصمتنا اياك (لقد كدت) أى قاربت (تركن) أى تميل (اليهم) أى الى الاعداء (شيأ) أى ركونا (قليلا) لمحبتك فى هدايتهم وحرصك على منفعتهم ولكنا عصمناك فمنعناك أن تقرب من الركون فضلا من أن تركن اليهم لان كلمة لولا تفيد انتفاء الشئ لثبوت غيره تقول لولا زيد لهلك عمرو ومعناه ان وجود زيد منع من حصول الهلاك لعمرو فكذلك ههنا قوله تعالى ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم معناه لولا حصل تثبيت الله لمحمد صلى الله عليه وسلم فكان تثبيت الله مانعا من حصول قرب الركون وهذا صريح فى أنه عليه الصلاة والسلام ماهم باجابتهم مع قوة الداعى اليها ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه (اذا) أى لو قاربت الركون الموصوف اليهم (لاذقناك ضعف) عذاب (الحياة وضعف) عذاب (الممات) أى مثلى مايعذب غيرك فى الدنيا والآخرة وكان أصل الكلام عذابا ضعفا فى الحياة وعذابا ضعفا فى الممات ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ثم أضيفت كما يضاف موصوفها وقيل المراد بضعف الحياة عذاب الآخرة وضعف الممات عذاب القبر والسبب فى تضعيف هذا العذاب ان أقسام نعمة الله تعالى فى حق الانبياء عليهم الصلاة والسلام أكثر فكانت ذنوبهم أعظم فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر ونظيره قوله تعالى يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وقيل الضعف من أسماء العذاب (ثم لاتجد لك) أى وان كنت أعظم الخلق وأعلاهم مرتبة وهمة (علينا نصيرا) أى مانعا يمنعك من عذابنا واختلفوا فى سبب نزول قوله تعالى (وان) أى وان هم (كادوا) أى الاعداء (ليستفزونك) أى ليزعجونك بعداوتهم (من الارض ليخرجوك منها) فقال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فقالوا ياأبا القاسم ان الانبياء انما بعثوا بالشأم وهى بلاد مقدسة وكانت مسكن ابراهيم فلو خرجت الى الشأم آمنا بك واتبعناك وقد علمنا أنه لايمنعك من الخروج الا خوف الروم فان كنت رسول الله فالله يمنعك منهم فعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أميال من المدينة وقيل بذى الحليفة حتى يجتمع اليه أصحابه ويراه الناس عازما على الخروج الى الشأم فيدخلون فى دين الله فنزلت هذه الآية فرجع وهذا قول الكلبى وعلى هذا فالآية مدنية والمراد بالارض أرض المدينة وقال قتادة ومجاهد الارض أرض مكة والآية مكية هم المشركون أن يخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكفهم الله تعالى عنه حتى أمره

بالهجرة فخرج بنفسه قال ابن عادل تبعا للرازى وهذا أليق بالآية لان ما قبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية وهذا اختيار الزجاج وكثير فى التنزيل ذكر الارض والمراد منها مكان مخصوص كقوله تعالى أو ينفوا من الارض أى من مواضعهم وقوله تعالى حكاية عن أخى يوسف فلن أبرح الارض يعنى الارض التى كان قصدها لطلب الميرة (فان قيل) قال تعالى وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك يعنى أهل مكة فالمراد أهلها فذكر تعالى أنهم أخرجوه وقال تعالى وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها فكيف الجمع بينهما على القول الثانى (أجيب) بأنهم هموا باخراجه وهو صلى الله عليه وسلم ما خرج بسبب اخراجهم وانما خرج بأمر الله تعالى وحينئذ فلا تناقض (واذا) أى واذا أخرجوك (لا يلبثون خلفك) أى بعد اخراجك لو أخرجوك (الا) زمنا (قليلا) وقد كان كذلك على القول الثانى فانهم أهلكوا ببدر بعد هجرته وعلى القول الاول قتل منهم بنى قريظة وأجلى بنى النضير بقليل وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة بفتح الخاء وسكون اللام والباقون بكسر الخاء وفتح اللام وبعدها ألف قال الشاعر

عفت الديار (أى اندرست) خلافهم (أى خلفهم) فكأنما * بسط الشواطب بينهن حصيرا

الشواطب النساء اللاتى يشققن الجريد ليعملن منه الحصير والشطب والشواطب سعف النخل الاخضر يصف دروس ديار الاحبة بعدهم وانها غير مكنوسة كأنما بسط فيها سعف النخل ولما أخبره بذلك أعلمه أنه سنة فى جميع الرسل بقوله تعالى (سنة) أى كسنة أو سننا بك سنة (من قد أرسلنا قبلك) أى فى الازمان الماضية كلها (من رسلنا) أنا نهلك كل أمة أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم والسنة لله واضافتها الى الرسل لانها من أجلهم ويدل عليه قوله تعالى (ولا تجد لسنتنا تحويلا) أى تغييرا * ولما قرر تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم الالهيات والمعاد والنبوات أردفها بذكر الامر بالطاعة وأشرف الطاعة بعد الايمان الصلاة فلذلك قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (أقم الصلاة) بفعل جميع أركانها وشرائطها بحيث تصير كأنها قائمة بنفسها فانها باب العبادة لما فيها من المناجاة والاعراض عن كل غير وفناء عن كل سوى بما أشرق من أنوار الحضرة التى قد اضمحل اليها كل فان وفى ذلك اشارة عظيمة الى ان الصلاة أعظم ناصر على الاعداء الذين يريدون بمكرهم استفزاز الاولياء ولذلك كان صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة ثم عين له الاوقات بقوله تعالى (لدلوك الشمس) فى هذه اللام قولان أحدهما انها بمعنى بعد أى بعد دلوك الشمس ومثله قول متمم

فلما تفرقنا كأنى ومالكا * لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

والثانى انها على بابها لانها انما تجب بزوال الشمس والدلوك مصدر دلكت الشمس وفيه أقوال أحدها انه الزوال وهو قول ابن عباس وابن عمر وجابر وأكثر التابعين ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم أتانى جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بى الظهر وقول أهل اللغة معنى الدلوك فى كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة والثانى انه

الغروب

الغروب وهو قول ابن مسعود ونقله الواحدى فى البسيط عن على رضى الله عنه وبه قال ابراهيم النخعى والضحاك والسدى وهو اختيار الفراء وحكى ايضا يقال للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة يقال لها أيضا اذا غربت دالكة لانها فى الحالين زائلة قال الازهرى والثالث انه من الزوال الى الغروب وقال فى القاموس دلكت الشمس غربت أو اصفرت أومالت أو زالت عن كبد السماء فحينئذ فى هذه اللفظة دلالة على الظهر والعصر والمغرب من استعمال المشترك فى معانيه أما فى الظهر والمغرب فواضح لما مر وأما العصر فلان أول وقتها اول أخذ الشمس فى الاصفرار وأدل دليل على ذلك أنه تعالى غيا الاقامة لوقت العشاء بقوله تعالى (الى غسق الليل) أى ظلمته وهو وقت صلاة عشاء الآخرة والغاية أيضا هنا داخلة لما يأتى وقد أجمعوا على أن المراد من قوله تعالى (وقرآن الفجر) أى صلاة الصبح وهو منصوب قيل على الاغراء أى وعليك بقرآن الفجر ورد بأن أسماء الافعال لا تعمل مضمرة وقال الفراء انه منصوب بالعطف على الصلاة فى قوله تعالى أقم الصلاة والتقدير أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر وحينئذ تدخل الصلوات الخمس فى هذه الآية قال ابن عادل كالرازى وحمل كلام الله تعالى على ما يكون أكثر فائدة أولى انتهى وسميت صلاة الصبح قرآنا لاشتمالها عليه وان كانت بقية الصلوات أيضا مشتملة عليه لانه يطول فيها فى القراءة ما لا يطول فى غيرها فالمقصود من قوله تعالى وقرآن الفجر الحث على طول القراءة فيها أكثر من غيرها لان التخصيص بالذكر يدل على كونه أكمل من غيره * ولما كان القيام من المنام يشق علل مرغبا مظهرا غير مضمر لان المقام مقام تعظيم فقال (ان قرآن الفجر كان مشهودا) أى تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو فى آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار قال الرازى ثم ان ملائكة الليل اذا صعدت قالت يارب انا تركنا عبادك يصلون لك وتقول ملائكة النهار ربنا اتينا عبادك وهم يصلون فيقول الله تعالى للملائكته اشهدوا بأنى قد غفرت لهم وقال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تفضل صلاة الجمع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر ثم يقول أبو هريرة اقرؤا ان شئتم ان قرآن الفجر كان مشهودا وهذا يدل على ان التغليس أولى من التنوير لان الانسان اذا شرع فيها من أول الوقت ففى ذلك الوقت ظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرة ثم اذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار وأما اذا ابتدأ بهذه الصلاة فى وقت التنوير فهنالك لم يبق أحد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور فقوله كان مشهودا يدل على ان التغليس أفضل وأيضا الانسان اذا شرع فى صلاة الصبح من أول هذا الوقت فكانت الظلمة القوية فى العالم فاذا امتدت القراءة ففى أثناء هذا الوقت ينقلب العالم من الظلمة الى الضوء والظلمة مناسبة للموت والعدم والضوء مناسب للحياة والوجود فالانسان لما قام من منامه فكأنه انتقل من الموت الى الحياة ومن العدم الى الوجود ومن السكون الى الحركة وهذه الحالة العجيبة

تشهد العقول بأنه لا يقدر على هذا التقليب الا الخالق المدبر بالحكمة البالغة فحينئذ يستنير العقل بنور هذه المعرفة و يتخلص من مرض قلبه فان أكثر الخلق وقعوا فى امراض القلوب وهى حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر وهذه الدنيا مثل دار المرضى اذا كانت مملوأة من المرضى والانبياء كالاطباء الحاذقين والمريض ربما كان قد يقوى مرضه فلا يعود الى الصحة الا بعلاجات قوية وربما كان المريض جاهلا فلا ينقاد للطبيب ويخالفه فى أكثر الامر لان الطبيب اذا كان مشفقا حاذقا فانه يسعى فى ازالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه وان لم يقدر على ازالته فانه يسعى فى تقليله وفى تخفيفه فلما كان مرض الدنيا مستوليا على الخلق ولا علاج له الا بالدعوى الى معرفة الله سبحانه وتعالى وخدمته وطاعته وهذا علاج شاق على النفوس وقل من يقبله وينقاد له لا جرم أن الانبياء اجتهدوا فى تقليل هذا المرض فحملوا الخلق على الشروع فى الطاعة والعبودية من أول وقت القيام من النوم لانه مما ينفع فى ازالة هذا المرض * ثم حث سبحانه وتعالى على التهجد لافضليته وارشديته بقوله عز من قائل (ومن الليل) أى وعليك أو وقم بعض الليل (فتهجد به) أى واترك الهجود للصلاة يقال هجد وتهجد نام ليلا وهجد وتهجد سهر فهو من الاضداد ومنه قيل لصلاة الليل التهجد قاله فى الصحاح والضمير فى به لمطلق القرآن والمراد من الآية قيام الليل لصلاة النافلة فلا يحصل التهجد الا بصلاة نفل بعد نوم وكانت فريضة على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى أمته فى الابتداء بقوله تعالى يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا ثم نسخ بما فى آخرها ثم نسخ بما فى الصلوات الخمس وبقى قيام الليل على الاستحباب بقوله تعالى فاقرؤا ما تيسر منه وبقى الوجوب فى حقه صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى (نافلة لك) أى زيادة لك مختصة بك وروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ثلاث هن على فريضة وهن سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل والصحيح أنه نسخ فى حقه أيضا ودليل النسخ رواه مسلم وقد وردت أحاديث كثيرة فى قيام الليل منها ما روى عن المغيرة بن شعبة أنه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا ومنها ما روى عن زيد بن خالد الجهنى أنه قال لارمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فتوسدت عتبته أو فسطاطه فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ثم أوتر فذلك ثلاثة عشر ركعة فلهذا قيل انه أكثر الوتر وهو أحد قولى الشافعى والمرجح عنده ان أكثره احدى عشرة ركعة لما رواه أبو سلمة أنه سأل عائشة رضى الله تعالى عنها عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ما كان يزيد فى رمضان ولا فى غيره على احدى عشرة ركعة أى وترا يصلى أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلى أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلى ثلاثا قالت عائشة رضى الله تعالى عنها فقلت يا رسول الله أتنام قبل أن توتر فقال يا عائشة ان عينى تنام ولا ينام قلبى ومنها ما روى عن أنس ابن مالك قال ما كنا نشاء أن نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الليل مصليا الا رأيناه وما نشاء

أن نراه نائما الا رأيناه وفي رواية غيره قال وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيأ
ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيأ ثم قال تعالى (عسى أن يبعثك ربك) أي المحسن اليك (مقاما
محمودا) اتفق المفسرون على أن كلمة عسى من الله واجب قال أهل المعاني لان لفظة عسى
تفيد الاطماع ومن أطمع انسانا في شيء ثم حرمه كان عارا والله أكرم من أن يطمع احدا في
شيء ثم لا يعطيه ذلك وأما المقام المحمود فقال الواحدي أجمع المفسرون على أنه مقام الشفاعة كما
قال صلى الله عليه وسلم في هذه الآية هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي وقال حذيفة يجمع الناس
في صعيد واحد فلا تتكلم نفس فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر
ليس اليك والمهدي من هديت وعبدك بين يديك وبك واليك لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك
تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت فقال هذا هو المراد من قوله تعالى عسى أن يبعثك ربك
مقاما محمودا ويدل للأول أحاديث منها ما روي عن أبي هريرة انه قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم لكل نبي دعوة مستجابة واني اختبأت دعوتي شفاعتي لامتي وهي نائلة منكم ان شاء الله
تعالى من مات لا يشرك بالله شيأ ومنها ما روي عن جابر أنه قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة
والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة ومنها ما روي عن
أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهموا بذلك فيقولون
لو استشفعنا الى ربنا فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده
وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من
مكاننا هذا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب أكله من الشجرة وقد نهي عنها
ولكن ائتوا نوحا أول نبي بعثه الله الى أهل الارض فيأتون نوحا فيقول لست هناكم ويذكر
خطيئته التي اصاب بسؤال ربه بغير علم ولكن ائتوا ابراهيم خليل الرحمن فيأتون ابراهيم
فيقول لست هناكم ويذكر ثلاث كذبات كذبهن ولكن ائتوا موسى عبدا آتاه الله التوراة
وكلمه وقربه نجيا قال فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب قتله النفس
ولكن ائتوا عيسى عبد الله وكلمته قال فيأتون عيسى فيقول لست هناكم ولكن ائتوا محمدا
عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال فيأتوني فأستأذن على ربي فيؤذن لي فاذا رأيته
وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني فيقول ارفع رأسك يا محمد وقل تسمع واشفع تشفع
وسل تعطه قال فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه قال ثم أشفع فيحد لي حدا
فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود فأقع ساجدا فيدعني ما شاء الله ان يدعني
ثم يقول ارفع يا محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه قال فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء
وتحميد يعلمنيه قال ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة قال فلا أدري
في الثالثة أو الرابعة فأقول يا رب ما بقي الا من حبسه القرآن أي وجب عليه الخلود وعن
ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مقاما محمودا يحمدك فيه الاولون والآخرون وتشرف

فيه على جميع الخلائق سل فتعطى واشفع فتشفع ليس أحد الا تحت لوائك والاخبار فى الشفاعة كثيرة وفى هذا القدر كفاية لاولى البصائر جعلنا الله تعالى وجميع أحبابنا من أهلها الداخلين تحت شفاعة سيد الانبياء والمرسلين آمين واختلف أهل التفسير فى قوله تعالى (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) فقال ابن عباس والحسن أدخلنى مدخل صدق المدينة وأخرجنى مخرج صدق مكة نزل حين أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالهجرة وقال الضحاك أخرجنى مخرج صدق من مكة آمنا من المشركين وأدخلنى مدخل صدق ظاهرا عليها بالفتح وقال مجاهد أدخلنى فى أمرك الذى أرسلتنى به من النبوة مدخل صدق وأخرجنى من الدنيا وقد قمت بما وجب على من حقها مخرج صدق وقيل ادخاله الغار واخراجه منه سالما وقيل أدخلنى مدخل صدق الجنة وأخرجنى مخرج صدق من مكة وقيل ادخلنى فى القبر مدخل صدق ادخالا مرضيا وأخرجنى منه عند البعث مخرج صدق اخراجا ملقى بالكرامة والجامع لهذه الاقوال ما جرى عليه البقاعى فى تفسيره بقوله فى كل مقام تريد ادخالى فيه حسى ومعنوى دنيا وأخرى مدخل صدق يستحق الداخل فيه أن يقال له أنت صادق فى قولك وفعلك فان ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيها وأخرجنى من كل ما تخرجنى منه مخرج صدق انتهى والمراد من المدخل والمخرج الادخال والاخراج ومعنى اضافة المدخل والمخرج الى الصدق مدحهما كأنه سأل الله تعالى ادخالا حسنا واخراجا حسنا لا يرى فيهما ما يكره * ثم سأل الله تعالى أن يرزقه التقوية بالحجة وبالقهر والقدرة فقال (واجعل لى من لدنك) أى عندك (سلطانا نصيرا) أى حجة ظاهرة تنصرنى بها على جميع من خالفنى وقد أجاب الله تعالى دعاءه وأعلمه أنه يعصمه من الناس بقوله تعالى والله يعصمك من الناس وقال تعالى ألا ان حزب الله هم الغالبون وقال تعالى ليظهره على الدين كله وقال تعالى ليستخلفنهم فى الارض ووعده تعالى ليظهره على الدين ووعده تعالى لينزعن ملك فارس والروم فيجعله له وعنه صلى الله عليه وسلم أنه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال انطلق فقد استعملتك على أهل الله فكان شديدا على المرائين المنافقين لينا على المؤمنين وقال والله لا أعلم متخلفا يتخلف عن الصلاة الامنافقا فقال أهل مكة يارسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد اعرابيا جافيا فقال صلى الله عليه وسلم انى رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب ابن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالا شديدا حتى فتح له فدخلها فأعز الله تعالى الاسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم فذلك السلطان النصير ثم أمره الله تعالى أن يخبر بالاجابة بقوله تعالى (وقل) أى لاوليائك وأعدائك (جاء الحق) وهو ما أمرنى به ربى وأنزله الى (وزهق) أى اضمحل وبطل وهلك (الباطل) وهو كل ما يخالف الحق ثم علل زهوقه بقوله تعالى (ان الباطل) أى وان ارتفعت له دولة وصولة (كان) فى نفسه بجبلته وطبعه (زهوقا) أى لا يبقى بل يزول على أسرع الوجوه وقت وأسرع رجوع قضاء قضاه الله تعالى من الازل روى البخارى فى التفسير عن ابن مسعود قال دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول

قوله على أسرع الوجوه وقت الخ هكذا فى جميع النسخ ولعله على أسرع الوجوه كل وقت ويرجع اهـ

الكعبة ثلثمائة وستون صنما صنم كل قوم بحيالهم فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل فجعل الصنم ينكب لوجهه وعن ابن عباس كانت لقبائل العرب أصنام يحجون اليها ويحرون لها فشكى البيت الى الله تعالى فقال أى رب الى متى تعبد هذه الاصنام حولى دونك فأوحى الله تعالى الى البيت انى سأحدث لك توبة جديدة فاملؤك خدودا سجدا يدفون اليك دفيف النسور ويحنون اليك حنين الطير الى بيضها لهم عجيج حولك بالتلبية * ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح جاء جبريل عليه السلام وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم خذ مخصرتك ثم ألقها فجعل يأتى صنما صنما وهو ينكت بالمخصرة فى عينه ويقول جاء الحق وزهق الباطل فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعا وبقى صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر فقال يا على ارم به فحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد ورمى به فكسره فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون ما رأينا رجلا أسحر من محمد قال الزمخشرى وشكاية البيت والوحى اليه تخييل وتمثيل * ولما بين سبحانه وتعالى الالهيات والنبوات والحشر والنشر والبعث واثبات القضاء والقدر ثم أتبعه بالامر بالصلاة ونبه على ما فيها من الاسرار وكان القرآن هو الجامع لجميع ذلك أتبعه ببيان كونه شفاء ورحمة بقوله تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) أى ما هو شفاء فى تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافى للمريض *(تنبيه)* فى من هذه ثلاثة أوجه أحدها انه لبيان الجنس قاله الزمخشرى والبيضاوى وابن عطية وأبو البقاء ورد عليهم أبو حيان بأن التى للبيان لا بد أن تتقدمها ما تبينه لا أن تتقدم عليه وهنا قد وجد تقدمها عليه الثانى أنها للتبعيض وأنكره الحوفى لانه يلزم أن لا يكون بعضه شفاء وأجاب أبو البقاء بأن منه ما يشفى من المرض وهذا قد وجد بدليل رقية بعض الصحابة سيد الحى الذى لدغ بالفاتحة فشفى من المرض فيكون التبعيض بالنسبة للامراض الجسمانية والا فهو كله شفاء للابدان والقلوب من الاعتقادات وغيرها الثالث أنها لابتداء الغاية وهو كما قال ابن عادل واضح (و) من العجيب ان هذا الشفاء (لا يزيد الظالمين) وهم الذين يضعون الشئ فى غير موضعه باعراضهم عما يجب قبوله (الا خسارا) أى نقصانا لانه اذا جاءهم وقامت به الحجة عليهم أعرضوا عنه فكان اعراضهم ذلك زيادة فى كفرهم كما ان قبول المؤمنين له واقبالهم على تدبره زيادة فى ايمانهم وفى الدارمى عن قتادة قال ما جالس أحد القرآن فقام عنه الا بزيادة أو نقصان ثم قرأ هذه الآية ثم انه تعالى ذكر السبب الاصلى فى وقوع هؤلاء الكافرين الجاهلين الضالين فى أودية الضلال ومقامات الخزى والنكال وهو حب الدنيا والرغبة فى المال والجاه واعتقادهم أن ذلك انما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم فقال تعالى (واذا أنعمنا) أى بما لنا من العظمة (على الانسان) أى هذا النوع هؤلاء وغيرهم وقال ابن عباس ان الانسان ههنا هو الوليد بن المغيرة قال الرازى وهذا بعيد بل المراد أى نوع الانسان اذا أنعمنا عليه (أعرض) أى عن ذكرنا ودعائنا اذ شأن نوع الانسان أنه اذا فاز بمقصوده ووصل الى مطلوبه اغتر وصار غافلا عن عبودية الله متمردا عن طاعة الله كما قال تعالى ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى (ونأى) عن ذكر الله

(بجانبه) أى لوى عطفيه وبعد نفسه كأنه مستغن بأمره ويجوز أن يكون كناية عن الاستكبار لانه من عادة المستكبرين ومعنى النأى فى اللغة البعد والاعراض عن الشئ أن يوليه عرض وجهه وقرأ ابن ذكوان بألف ممدودة بعد النون وتأخير الهمزة مثل جاء وفى هذه القراءة تخريجان أحدهما من ناء ينوء أى نهض والثانى انه مقلوب من نأى فيكونان بمعنى قال ابن عادل ولكن متى أمكن عدم القلب فهو أولى وقرأ الباقون بالهمزة بعد النون وألف بعد همزة وأمال الالف بعد الهمزة السوسى وشعبة وخلاد محضة بخلاف عن السوسى وأمالها ورش بين بين وأمال الهمزة والنون محضة خلف والكسائى وفتح الباقون (واذا مسه الشر) أى هذا النوع وان قل (كان يؤسا) أى شديد اليأس مما عهده من رحمة ربه والحاصل أنه ان فاز بالنعمة والدولة اغتربها ونسى ذكر الله وان بقى فى الحرمان عن الدنيا استولى عليه الاسف والحزن ولم يتفرغ لذكر الله فهذا المسكين محروم أبدا عن ذكر الله تعالى ونظيره قوله تعالى فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن وكذلك ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا من حفظه الله وشرفه بالاضافة اليه فليس للشيطان عليه سلطان ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل كل) من الشاكر والكافر (يعمل على شاكلته) أى طريقته التى تشاكل روحه وتشاكل ما طبعناه عليه من خير أوشر (فربكم) أى فتسبب عن ذلك ان الذى خلقكم وصوركم (أعلم) من كل أحد (بمن هو) منكم (أهدى سبيلا) أى أوضح طريقا واتباعا للحق فيشكر ويصبر احتسابا فيعطيه الثواب ومن هو منكم أضل سبيلا فيجعل له العقاب لانه يعلم ما طبعهم عليه فى أصل الخلقة وغيره تعالى انما يعلم أمور الناس فى طرائقهم بالتجربة وقد روى الامام أحمد لكن بسند منقطع عن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا واذا سمعتم برجل تغير عن طبعه فلا تصدقوا فانه يصير الى ما جبل عليه واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ويسألونك) أى تعنتا وامتحانا (عن الروح) فعن عبد الله بن مسعود قال بينما أنا أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض اسألوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه لا يجئ بشئ تكرهونه فقال بعضهم لنسألنه فقام رجل منهم فقال يا أبا القاسم ما الروح فسكت فقلت انه يوحى اليه فقمت فلما انجلى عنه قال ويسألونك عن الروح (قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا) قال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لا تسألوه وقال ابن عباس ان قريشا اجتمعوا فقالوا ان محمدا نشأ فينا بالصدق والامانة وما اتهمناه بكذب وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفرا الى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فانهم أهل كتاب فبعثوا جماعة اليهم فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة أشياء فان أجاب عن كلها أولم يجب عن شئ منها فليس بنبى وان أجاب عن اثنين فهو نبى فسألوه عن فتية فقدوا فى الزمن الاول ما كان أمرهم فانه كان لهم حديث عجيب وعن رجل بلغ مشرق الارض

ومغربها وعن الروح فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال أخبركم بما سألتم غدا ولم يقل ان شاء الله فلبث الوحي قال مجاهد اثني عشر ليلة وقيل خمسة عشر يوما وقيل أربعين يوما وأهل مكة يقولون وعدنا محمد غدا وقد أصبحنا لا يخبرنا بشيء حتى حزن صلى الله عليه وسلم من مكث الوحي وشق عليه ما يقوله أهل مكة ثم نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ونزل في الفتية أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب ويسئلونك عن ذى القرنين ونزل في الروح ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وقول الرازى ومن الناس من طعن في هذه الرواية من وجوه وذكر من جملة ذلك كيف يليق به أن يقول انى لا أعرف هذه المسئلة مع أنها من المسائل المشهورة المذكورة مع جمهور الخلق غير لائق لان ذلك علامة على نبوته قال الزمخشرى فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة فندموا على سؤالهم انتهى واختلفوا في الروح الذى وقع السؤال عنه فروى عن ابن عباس أنه جبريل عليه السلام وهو قول الحسن وقتادة وروى عن على أنه قال ملك له سبعون ألف وجه لكل وجه سبعون ألف لسان يسبح الله تعالى بكلها وقال مجاهد خلق على صورة بنى آدم لهم أيد وأرجل ورؤس وليسوا ملائكة ولا ناس يأكلون الطعام وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله تعالى خلقا أعظم من الروح غير العرش لو شاء أن يبتلع السموات السبع والارضين السبع ومن فيهن بلقمة واحدة لفعل صورة خلقه على صورة الملائكة وصورة وجهه على صورة وجه الادميين يقوم يوم القيامة على يمين العرش وهو أقرب الخلق الى الله تعالى عند الحجب السبعين وأقرب الى الله تعالى وهو ممن يشفع لاهل التوحيد ولولا أن بينه وبين الملائكة سترا من نور لاحترق أهل السموات من نوره وقيل الروح هو القرآن وقيل المراد منه عيسى فانه روح الله تعالى وكلمته ومعناه أنه ليس كما تقوله اليهود ولا كما تقوله النصارى وقال بعضهم هو الروح المركب في الخلق الذى يحيا به الانسان قال البغوى وهو الاصح وتكلم فيه قوم فقال بعضهم هو الدم ألا ترى أن الحيوان اذا مات لا يفوت منه الا الدم وقال قوم هو نفس الحيوان بدليل أنه يموت باحتباس النفس وقال قوم عرض وقال قوم هو جسم لطيف وقال بعضهم الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء ألا ترى أنه اذا كان موجودا يكون الانسان موصوفا بجميع هذه الصفات واذا خرج ذهب الكل قال البغوى وأولى الاقاويل أن يوكل علمه الى الله عز وجل وهو قول أهل السنة قال عبد الله بن بريدة ان الله تعالى لم يطلع على الروح ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا بدليل قوله تعالى قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا أى في جنب علم الله تعالى *(تنبيه)* اختلف في المخاطب بقوله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا فقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم وقيل اليهود فانهم يقولون أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير وقيل عام روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه فقال نحن وأنتم لم نؤت من العلم الا قليلا فقالوا ما أعجب شأنك ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا

له دوى تحت العرش كدوى النحل فيقول الرب مالك فيقول يارب أتلى ولا يعمل بى وفى رواية لابن مسعود أول ما تفقدون من دينكم الامانة وآخر ما تفقدون الصلاة وليصلين قوم ولا دين لهم وان هذا القرآن تصبحون يوما وما فيكم منه شئ فقال رجل كيف ذلك وقد أثبتناه فى قلوبنا وأثبتناه فى مصاحفنا وتعلمه أبناؤنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم فقال يسرى عليه ليلا فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينزع ما فى القلوب وقوله تعالى (ان فضله كان) أى ولم يزل (عليك كبيرا) فيه قولان أحدهما المراد منه ان فضله كان عليك كبيرا بسبب ابقاء العلم والقرآن عليك ثانيهما أن المراد أن فضله كان عليك كبيرا بسبب أنه جعلك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام المحمود وقد أنعم عليك أيضا بابقاء العلم والقرآن عليك ونزل حين قال الكفار للنبى صلى الله عليه وسلم لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن (قل) أى لهؤلاء البعداء (لئن اجتمعت الانس) الذين تعرفونهم وتعرفون ما أوتوا من البلاغة والحكمة والذين لا تعرفونهم (والجن) الذين يأتون كهانهم ويعلمونهم بعض المغيبات عنهم وغيرهم وترك الملائكة لانهم لا عهد لهم بشئ من التصدى ولانهم كانوا وسايط (على أن يأتوا بمثل هذا القرآن) فى البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى (لا يأتون بمثله) أى لا يقدرون على ذلك فالقرآن معجز فى النظم والتأليف والاخبار عن الغيوب وهو كلام فى أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق ولو كان مخلوقا لأتوا بمثله *(تنبيه)* فى قوله تعالى لا يأتون بمثله قولان أظهرهما أنه جواب للقسم الموطأ له باللام والثانى أنه جواب للشرط واعتذروا عن رفعه بأن الشرط ماض فهو كقوله

*وان أتاه خليل (أى فقير) يوم مسغبة * يقول لا غائب مالى ولا حرم

لان الشرط وقع ماضيا وناقشه أبو حيان بأن هذا ليس مذهب سيبويه ولا الكوفيين والمبرد لان مذهب سيبويه فى مثله ان النية به التقديم ومذهب الكوفيين والمبرد أنه على حذف الفاء وهذا مذهب ثالث قال به بعض الناس (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) أى معينا بضم أقوى ما فيه الى أقوى ما فى صاحبه *(تنبيه)* قد تقدم فى سورة البقرة أن الله تعالى قال فأتوا بسورة من مثله وقدمنا الكلام على ذلك وفى وجه كون القرآن معجزا قولان أحدهما أنه معجز فى نفسه والثانى أنه ليس فى نفسه معجزا الا أنه تعالى لما صرف دواعيهم عن الاتيان بمعارضته وكانت الدواعى متوفرة على الاتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضا للعادة فيكون معجزا والقول الاول أظهر (ولقد صرفنا) أى بينا بوجوه مختلفة زيادة فى التقرير والبيان (للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى من كل معنى هو كالمثل فى غرابته ووقوعه متوقعا فى الانفس وقيل معناه من كل وجه من العبر والاحكام والوعد والوعيد والقصص وغيرها وقيل صفة لمحذوف أى مثلا من جنس كل مثل ليتعظوا (فأبى أكثر الناس) وهم من هم فى صورة الناس ككفار قريش وقد سلبوا معانيهم (الا كفورا) أى جحودا (فان قيل) كيف جاز فأبى أكثر الناس الا كفورا ولم يجز ضربت الا زيدا (أجيب) بأن أبى متأول بالنفى كأنه قيل فلم يرضوا الا كفورا *ولما تبين بالدليل اعجاز القرآن على وفق دعوى محمد

صلى الله عليه وسلم ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فعل المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة وذكروا من ذلك ستة أنواع من المعجزات أولها (وقالوا) أي كفار قريش ومن والاهم (لن نؤمن لك حتى تفجر) أي تفجيرا عظيما (لنا من الارض ينبوعا) أي عينا غزيرة الماء من شأنها ان تنبع بالماء ولا ينضب ماؤها وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة والباقون بضم التاء وفتح الفاء وكسر الجيم المشددة ثانيها قولهم (أو تكون لك) أنت وحدك (جنة من نخيل وعنب) أي وأشجار عنب عبر عنه بالثمرة لان الانتفاع منه بغيرها قليل (فتفجر الانهار) الجارية (خلالها) أي وسطها (تفجيرا) أي تشقيقا والفجر شق الظلام عن عمود الصبح والفجور شق جلباب الحياء بما يخرج الى الفساد ثالثها قولهم (أو تسقط السماء) أي نفسها (كما زعمت) فيما تتوعدنا به (علينا كسفا) أي قطعا جمع كسفة وهي القطعة وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بنصب السين مثل قطعة وقطع وسدرة وسدر والباقون بسكونها مثل دمنة ودمن وسدرة وسدر وهو نصب على الحال في القراءتين جميعا كانه قيل أو تسقط السماء علينا مقطعة رابعها قولهم (أو تأتي) معك (بالله) أي الملك الاعظم (والملائكة قبيلا) أي عيانا ومقابلة ننظر اليه لا يخفى علينا شيء منه وقال الفضال هو جمع قبيلة أي أصناف الملائكة قبيلة قبيلة قال ابن هانئ كفلا أي يكفلون بما تقول خامسها قولهم (أو يكون لك) أي خاصا بك (بيت من زخرف) أي ذهب كامل الحسن والزينة سادسها قولهم (أو ترقى) أي تصعد (في السماء) درجة درجة ونحن ننظر اليك صاعدا (ولن نؤمن) أي نصدق مذعنين (لرقيك) أي أصلا (حتى تنزل) وحققوا معنى كونه من السماء بقولهم (علينا كتابا) ومعنى كونه في رق أو نحوه بقولهم (نقرؤه) يأمرنا فيه باتباعك روى عكرمة عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وابا البحتري بن هشام وعبد الله بن أمية وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام والعاصي بن وائل ونبيها ومنبها ابني الحجاج اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا اليه ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك يكلمونك فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا وهو يظن أنهم بدا لهم في أمره بداء وكان عليهم حريصا يحب رشدهم حتى جلس اليهم فقالوا يا محمد انا بعثنا اليك لنعذر فيك وانا والله لا نعلم أن رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الاحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فما بقي أمر قبيح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك فان كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وان كنت تريد الشرف سودناك علينا وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا وان كان هذا الذي بك رئيا تراه قد غلب عليك لا تستطيع رده بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بي مما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف عليكم ولا للملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا وأنزل علي كتابا

وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردّوه الي أصبر لامر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم فقالوا يا محمد فان كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد أضيق بلادا وأشدّ عيشا منا فسل لنا ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت ويبسط لنا بلادنا ويفجر فيها أنهارا كأنهار الشأم والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن منهم قصي بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فان صدّقوك صدّقناك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ما أرسلت به وان تقبلوه فهو حظكم وان تردّوه أصبر لامر الله قالوا فان لم تفعل فسل ربك أن يبعث ملكا يصدّقك وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك فانا نقوم بالاسواق ونلتمس المعاش كما تلتمسه فقال صلى الله عليه وسلم ما بعثت بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا قالوا فأسقط السماء كما زعمت ان ربك ان شاء فعل فقال ذلك الى الله ان شاء فعل ذلك بكم فقال قائل منهم لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا فلما قالوا ذلك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام معه عبد الله بن أمية وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب وقال له عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك أن تجعل ما تخوّفهم به من العذاب فلم تفعل فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ الى السماء سلما ترقى به وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدّقك فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهله حزينا لما رأى من مباعدتهم فأنزل الله هذه الآية وفيها اشارة الى أنه ليس من شرط كونه نبيا صادقا تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها اذ لو فتح هذا الباب لزم أن لا ينتهي الامر فيه الى مقطع وكلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمعجز اقترحوا عليه بمعجز آخر ولا ينتهي الامر فيه الى حدّ ينقطع عنه عناد المعاندين وتعنت الجاهلين مع أنه صلى الله عليه وسلم أعطى من الآيات والمعجزات ما أغنى عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر وتفجير العيون من بين الاصابع وما أشبه ذلك * ولما تم تعنتهم وكان لسان الحال طالبا من الله تعالى الجواب عنه أمر الله تعالى بجوابهم بقوله تعالى (قل) أي لهؤلاء البعداء والاشقياء (سبحان ربي) أي تعجبا من اقتراحاتهم وتنزيها لله من أن يأتي أو يتحكم عليه أو يشاركه أحد في القدرة وقرأ ابن كثير وابن عامر بصيغة الماضي والباقون قل بصيغة الامر و (هل كنت الا بشرا) لا يقدر على غير ما يقدر عليه البشر (رسولا) كما كان من قبلي من الرسل وكانوا لا يؤتون قومهم الا بما يظهره الله تعالى على أيديهم بما يلائم حال قومهم ولم يكن أمر الآيات اليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله حتى يتخيروها هذا هو الجواب المجمل وأما التفصيلي فقد ذكر في آيات أخر كقوله تعالى ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم ولو فتحنا عليهم بابا ونحو ذلك * ولما أمر بما تضمن أنه كاخوانه من الرسل في كونه بشرا أتبعه قوله عطفا على قال أو وقالوا (وما منع الناس) أي قريشا ومن قال بقولهم لما لهم من الاضطراب (أن يؤمنوا) أي لم يبق لهم مانع من الايمان والجملة مفعول

منع (اذجاءهم الهدى) أى الدليل القاطع على الايمان وهو القرآن وغيره من الادلة وقرأ أبو عمرو وهشام بادغام ذال اذ عند الجيم والباقون بالاظهار وأمال الالف بعد الجيم حمزة وابن ذكوان محضة واذا وقف حمزة على جاءهم سهل الهمزة مع المد والقصر (الا أن قالوا) فاعل منع أن قالوا أى منكرين عليه غاية الانكار متعجبين متهكمين (أبعث الله بشرا رسولا) لان الكفار كانوا يقولون لن نؤمن لك لانك بشر ولو بعث الله تعالى رسولا الى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة فأجابهم الله تعالى بقوله (قل) أى لهؤلاء المطرودين عن الرحمة (لو كان فى الارض ملائكة يمشون) عليها كالآدميين (مطمئنين) أى مستوطنين فيها كالبشر (لنزلنا عليهم) مرة بعد مرة كما فعلنا فى تنزيل جبريل عليه السلام على الانبياء من البشر وحقق الامر بقوله تعالى (من السماء ملكا رسولا) يعلمهم الخير ويهديهم المراشد لتمكنهم من التلقى منه لمشاكلتهم له بخلاف البشر كما هو مقتضى الحكمة لان رسول كل جنس ينبغى أن يكون منهم اذ الشئ عن شكله أفهم وبه آنس واليه أحن وله آلف الامن فضله الله تعالى بتغلب روحه على نفسه وبتغلب عقله على شهوته فأقدره بذلك على التلقى من الملك كالمرسلين ثم أجابهم الله تعالى جوابا آخر بقوله عز وجل (قل كفى بالله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما وأمال الالف حمزة والكسائى محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (شهيدا بينى وبينكم) على أنى رسوله اليكم ليظهر المعجزات على وفق دعواهم وانى بلغت ما أرسلت به اليكم وانكم عاندتم ومن يشهد الله على صدقه فهو صادق فعند ذلك قول القائل بأن الرسول يجب أن يكون ملكا لا انسانا تحكم فاسد لا يلتفت اليه *(تنبيه)* شهيدا نصب على الحال أو التمييز ثم انه تعالى ذكر ما هو كالتهديد والوعيد بقوله تعالى (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) يعلم ظواهرهم وبواطنهم ويعلم من قلوبهم أنهم لا يذكرون هذا الا لمحض الحسد وحب الرياسة والاستنكاف من الانقياد للحق * ولما تقدم أنه تعالى أعلم بالمهتدى والضال عطف عليه قوله تعالى (ومن يهد الله) بأن يخلق الهداية فى قلبه (فهو المهتدى) لا يمكن أحد غيره أن يضله *(تنبيه)* أثبت نافع وأبو عمرو الياء بعد الدال مع الوصل دون الوقف وحذفها الباقون وقفا ووصلا (ومن يضلل فلن تجد لهم) أى الضالين (أولياء) يهدونهم (من دونه) ولا ينفعونهم بشئ أراد الله تعالى غيره * ولما كان يوم القيامة يظهر الله فيه لكل أحد ما كان يعمله نبه على ذلك بقوله تعالى (ونحشرهم) بنون العظمة أى نجمعهم بكره (يوم القيامة) الذى هو محط الحكمة (على وجوههم) مسحوبين عليها اهانة لهم فيها كما لم يذلوها بالسجود لنا قال تعالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم أى يمشون عليها روى أبو هريرة قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى يمشيهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم قال حكماء الاسلام ان الكفار أرواحهم شديدة التعلق بالدنيا ولذاتها وليس لها تعلق بعالم الانوار وحضرة الاله سبحانه وتعالى فلما كانت وجوه قلوبهم وأرواحهم متوجهة الى الدنيا لاجرم كان حشرهم على وجوههم وأما قوله تعالى (عميا وبكما وصما) فقد استشكله نخص على ابن عباس

فقال

فقال أبليس قد قال الله تعالى ورأى المجرمون النار وقال تعالى سمعوا لها تغيظا وزفيرا وقال تعالى دعوا هنالك ثبورا وقال تعالى يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وقال تعالى حكاية عن الكفار والله ربنا ما كنا مشركين فثبت بهذه الآيات أنهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف قال تعالى هنا عميا وبكما وصما أجاب ابن عباس وتلامذته عنه من وجوه الاول قال ابن عباس عميا لا يرون شيأ يسرهم صما لا يسمعون شيأ يسرهم بكما لا ينطقون بحجة الثانى قال فى رواية عطاء عميا عن النظر أى عما جعله الله تعالى لاوليائه وبكما عن مخاطبة الله تعالى ومخاطبة الملائكة المقربين صما عن ثناء الله تعالى عليهم الثالث قال مقاتل انه حين يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون يصيرون عميا بكما صما أما قبل ذلك فهم يرون ويسمعون وينطقون الرابع أنهم يكونون رائين سامعين ناطقين فى الموقف ولولا ذلك لما قدروا أن يطالعوا كتبهم ولا أن يسمعوا الالزام بحجة الله تعالى عليهم الا أنهم اذا أخذوا يذهبون من الموقف الى النار جعلهم الله تعالى عميا بكما صما قال الرازى والجواب الاول أولى لان الآيات السابقة تدل على أنهم فى النار يبصرون ويسمعون ويصيحون ثم بين تعالى مكانهم بقوله عز وجل (مأواهم جهنم) تسعر عليهم (كلما خبت) أى أخذ لهيبها فى السكون عند أكلها لحومهم وجلودهم (زدناهم سعيرا) توقدا باعادة الجلود واللحوم ملتهبة مسعرة كأنهم لما كذبوا بالاعادة بعد الافناء جزاهم الله تعالى بأن لا يزالوا على الاعادة والافناء وقرأ نافع وابن كثير وعاصم وابن عامر باظهار تاء التأنيث عند الزاى وأدغمها الباقون ثم بين علة تعذيبهم ليرجع منهم من قضى بسعادته بقوله تعالى (ذلك) أى العذاب العظيم (جزاؤهم بأنهم) أى أهل الضلالة (كفروا بآياتنا) القرآنية وغيرها وكانوا كل يوم يزدادون كفرا وهم عازمون على الدوام على ذلك ما بقوا (وقالوا) انكارا لقدرتنا (أئذا كنا عظاما ورفاتا) ممزقين فى الارض ثم كرروا الانكار كأنهم على ثقة من أمرهم هذا الذى بطلانه أوضح من الشمس بقولهم (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) فنحن نريهم جزاء على هذا الانكار المكرر الخلق الجديد فى جلودهم ولحومهم مكررا كل لحظة قال تعالى كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ثم أتبعه بقاطع فى بيان جهلهم بقوله تعالى (أولم يروا) أى يعلموا بعيون بصائرهم على ما هو كالرؤية بعيون أبصارهم لما قام عليه من الدلائل بصحته من الشواهد الجلائل (أن الله الذى خلق السموات) جمعها لما دل على ذلك من الحس ولما لم تكن الارض مثل ذلك أفردها مريدا الجنس الصالح للجميع بقوله تعالى (والارض) على كبر أجرامها وعظم احكامها وقوله تعالى (قادر على أن يخلق مثلهم) فيه قولان الاول المعنى قادر على أن يخلقهم ثانيا فعبر عن خلقهم ثانيا بلفظة المثل كما يقوله المتكلمون ان الاعادة مثل الابتداء الثانى أن المراد قادر على أن يخلق عبيدا آخرين يوحدونه ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويتركون ذكر هذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا فهو كقوله تعالى ويأت بخلق جديد وقوله تعالى ويستبدل قوما غيركم قال الواحدى والقول هو الاول لانه أشبه بما قبله * ولما بين الله تعالى بالدليل المذكور ان البعث والقيام أمر ممكن

الوجود في نفسه أردفه ببيان أن لوقوعه في الوجود وقتا معلوما عند الله وهو قوله تعالى (وجعل لهم أجلا لاريب) أي لاشك (فيه) وهو الموت أو القيامة (فأبى الظالمون الا كفورا) أي بعد هذه الدلائل الظاهرة أبوا الا الكفر والجحود * ولما قال الكفار لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا فطلبوا اجراء الانهار والعيون في بلدتهم لتكثر أموالهم و يتسع عيشهم بين تعالى أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم وشحهم بقوله تعالى (قل) أي لهؤلاء المتعنتين (لو أنتم) أي دون غيركم (تملكون خزائن) عبر بصيغة منتهى الجموع لان المقام جدير بالمبالغة (رحمة ربي) أي خزائن رزقه وسائر نعمه وذلك غير متناه (اذا لامسكتم) أي لوقع منكم الامساك عن الانفاق في بعض الوجوه التي تحتاجونها (خشية) أي مخافة عاقبة (الانفاق) أي الموصل الى الفقر فكان المعنى انكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لانهاية لها لبقيتم على الشح والدناءة وهذا مبالغة عظيمة في وصفهم بهذا الشح وقول البيضاوي تبعا للزمخشري أنتم مرفوع بفعل يفسره مابعده قال الزمخشري تقديره لو تملكون جرى فيه على مذهب الكوفيين من أن لو يليها الفعل مضمرا كما يليها ظاهرا والبصريون يمنعون ايلاءها مضمرا الافي شذوذ كقول حاتم لوذات سوار لطمتني وأصل هذا المثل ان امرأة عطلاء من الحلى والهيئة لطمت حاتما على نحر الناقة وقالت له بقوة انما أردناك بفصدها والفصد عندهم أن يقطع عرق من عروق ثم يجمع دمها فيشوى وقيل أصله ان المرأة المذكورة لطمت رجلا فقال لوذات سوار لطمتني لاحتملتها فصار مثلا يضرب لكريم يلطمه الدنى ثم استدل على صحة هذا المفروض بالشاهد من مضمون قولهم (وكان) أي جبلة وطبعا (الانسان) أي الذي من شأنه الانس بنفسه فهو لذلك لايعقل الامور حق عقلها (قتورا) أي بخيلا * (تنبيه) * فتح الياء في ربي نافع وأبو عمرو وسكنها الباقون وهم على مراتبهم في المد (فان قيل) قد يوجد في جنس الانسان من هو جواد كريم (أجيب) من وجوه الاول ان الاصل في الانسان البخل لانه خلق محتاجا والمحتاج لابد وأن يحبس مابه يدفع الحاجة وأن يمسكه لنفسه الا أنه قد يجود به لاسباب من خارج فثبت أن الاصل في الانسان البخل الثاني أن الانسان انما يبذل لطلب الثناء والحمد وليخرج عن عهدة الواجب فهو في الحقيقة ما أنفق الاليأخذ العوض فهو في الحقيقة بخيل الثالث أن المراد بهذا الانسان المعهود السابق وهم الذين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا * ولما قدم سبحانه وتعالى أن أكثر الناس جحدوا الآيات لكونه تعالى حكم بضلالهم ومن حكم بضلاله لايمكن هداه شرع يسلي نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بما اتفق لمن قبله من الانبياء بقوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) أي واضحات واختلف في هذه الآيات فقال ابن عباس والضحاك هي العصا واليد البيضاء والعقدة التي كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وقال مجاهد وعطاء هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون ونقص من الثمرات وقال البقاعي وهي كما في التوراة العصا ثم الدم ثم الضفادع ثم القمل ثم موت البهائم ثم البرد السكار التي أنزلها

الله تعالى مع النار المضطرمة فكانت تهلك كل ما مرّت عليه من نبات وحيوان ثم الجراد ثم الظلمة ثم موت الابكار من الآدميين وجميع الحيوان ثم قال وقد نظمها اليهود حفظها فقلت

عصا قمل موت البهائم ظلمة * جراد دم ثم الضفادع والبرد

وموت بكور الآدمى وغيره * من الحى آتاه الذى عز وانفرد

قال وكأنه عدّ اليد مع العصا آية ولم تفرد اليد لانه ليس فيها ضرر عليهم اهـ وقال البيضاوى هى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفجار الماء من الحجر وانفلاق البحر ونتق الطور على بنى اسرائيل وذكر محمد بن كعب القرظى الطمس والبحر بدل السنين ونقص من الثمرات وقال كان الرجل منهم مع أهله فى فراشه وقد صارا حجرين والمرأة منهم قائمة تخبز وقد صارت حجرا وقال بعضهم هى آيات الكتاب وهى أحكام يدل عليها ما روى عن صفوان ان يهوديا قال لصاحبه تعالى نسأل هذا النبى فقال الآخر لا تقل نبى فانه لو سمع صارت له أربعة أعين فأتياه فسألاه عن هذه الآية ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فقال لا تشركوا بالله شيأ ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله الا بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا بالبرى الى سلطان ليقتله ولا تسرفوا ولا تقذفوا المحصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا فى السبت فقبلوا يديه وقالوا نشهد انك نبى قال فما منعكم أن تتبعونى قالوا ان داود دعا ربه أن لا يزال فى ذريته نبى وانا نخاف ان اتبعناك أن تقتلنا اليهود وقال الرازى علم أنه تعالى ذكر فى القرآن أشياء كثيرة من معجزات موسى عليه السلام أحدها أنه تعالى أزال العقدة من لسانه قيل فى التفسير ذهب أعجم وباء فصيحا ثانيها انقلاب العصا حية ثالثها تلقف الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها رابعها اليد البيضاء وخمسة أخرى وهى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعاشر شق البحر وهو قوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر والحادى عشر الحجر وهو قوله تعالى أن اضرب بعصاك الحجر والثانى عشر اظلال الجبل وهو قوله تعالى واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة والثالث عشر انزال المن والسلوى عليه وعلى قومه والرابع عشر والخامس عشر قوله تعالى ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات والسادس عشر الطمس على أموالهم حجارة من النخل والدقيق والاطعمة والدراهم والدنانير روى أن عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب عن قوله تعالى تسع آيات بينات فذكر محمد بن كعب فى جملة التسع حل عقدة اللسان والطمس فقال عمر بن عبد العزيز هكذا يجب أن يكون الفقيه ثم قال يا غلام أخرج ذلك الجراب فأخرجه فنفضه فاذا بيض مكسور ونصفين وجوز مكسور وفوم وعدس وحمص كلها حجارة وقوله تعالى (فاسأل) أى يا أعظم خلقنا (بنى اسرائيل) يجوز أن يكون الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره وقرأ ابن كثير والكسائى بفتح السين ولا همزة بعدها والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ويجوز أن يكون الخطاب له خاصة وأمر بالسؤال لهم ليتبين له كذبهم مع قومهم أى فاسأل بنى اسرائيل عامة الذين نبهوا قريشا على السؤال عن الروح كما فى بعض الروايات وعن أهل الكهف وذى

القرنين وعن حديث موسى عليه السلام والمؤمنين منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه (اذ) أى عن ذلك حين (جاءهم) أى جاء آباءهم فوقع له من التكذيب بعد اظهار المعجزات الباهرات ما وقع لك (فقال) أى فذهب الى فرعون فأمره بارسالهم معه فأبى فأظهر له الآيات واحدة بعد أخرى فتسبب عن ذلك صدق ما يقتضيه الحال وهو أن قال (له فرعون) عتوّا واستكبارا (انى لاظنك يا موسى مسحورا) أى مخدوعا مغلوبا على عقلك فكل ما ينشأ عنك فهو من آثار السحر وهذا كما قالت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وقال فى موضع آخر ساحر وانهم ربما أطلقوا اسم المفعول مريدين اسم الفاعل مبالغة لانه كالمخبر عن الفعل وفى الامر بسؤال اليهود تنبيه على ضلالهم ولما لم يؤمن فرعون على تواتر تلك الآيات وعظمها فكأنه قيل فما قال موسى عليه السلام فقيل (قال) لفرعون (لقد علمت) بفتح التاء قراءة غير الكسائى وقرأ الكسائى بضمها على اخباره عن نفسه (ما أنزل هؤلاء) أى الآيات (الا رب السموات والارض) أى خالقهما ومدبرهما حال كون هذه الآيات (بصائر) أى بينات يبصر بها صدق وأما السحر فانه لا يخفى انه خيال لا حقيقة له ولكنك تعاند *(تنبيه)* قوله تعالى هؤلاء الكلام عليه من جهة الهمزتين كالكلام على هؤلاء ان كنتم فى البقرة وقد تقدم الكلام على ذلك * ثم حكى الله تعالى ان موسى قال لفرعون (وانى) أى وان ظننتنى يا فرعون مسحورا (لاظنك يا فرعون مثبورا) أى ملعونا مطرودا ممنوعا من الخير فاسد العقل فعارضه موسى بذلك وشتان بين الظنين فان ظن فرعون كذب صرف لعناده لرب العالمين لوضوح مكابرته للبصائر التى كشف عنها ربها الغطاء فهى أوضح من الشمس وظن موسى عليه السلام قريب الى الصحة واليقين من تظاهر أماراته لان هذه الآيات ظاهرة وهذه المعجزات قاهرة ولا يرتاب العاقل أنها من عند الله وفى أنه تعالى أظهرها لاجل تصديقى وأنت منكرها فلا يحملك على هذا الانكار الا الحسد والعناد والبغى والجهل وحب الدنيا ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور (فأراد) أى فما تسبب عن هذا الذى هو موجب للايمان فى العادة الا أن فرعون أراد (أن يستفزهم) أى يستخف موسى ومن آمن معه ويخرجهم فيكونوا كالماء اذا سال من قولهم فز الجرح اذا سال (من الارض) بالنفى والقتل للتمكن منهم كما أراد هؤلاء أن يستفزوك منها بما هم عليه من الكفر والعناد ثم أخذ تعالى يحذرهم سطواته بما فعل بمن كان قبلهم وأكثر منهم وأشد بقوله تعالى (فأغرقناه) أى فتسبب عن ذلك ان رددنا كيده فى نحره كما قال تعالى ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله أراد فرعون أن يخرج موسى من أرض مصر لتخلص له تلك البلاد والله تعالى أهلك فرعون وجعل تلك الارض خالصة لموسى ولقومه فأدخله البحر حين أدخل بنى اسرائيل فأنجاهم وأغرق آل فرعون (ومن معه جميعا) كما جرت به سنة الله تعالى فمن عاند بعد أن رأى الخوارق وكفر النعمة وأفرط فى البغى بعد ظهور الحق فليحذر هؤلاء مثل ذلك ولاسيما اذا خرج رسولنا من بين أظهرهم ففى هذه الآية وأمثالها بشارة له صلى الله عليه وسلم فى ان الله تعالى يسلك به فى النصرة والتمكن سبيل اخوانه من الرسل عليهم الصلاة

والسلام

والسلام (وقلنا من بعده) أي الاغراق (لبني اسرائيل) الذين كانوا تحت يده أذل من العبيد لتقواهم واحسانهم (اسكنوا الارض) أي التي أراد أن يستفزكم منها (فاذا جاء) أي مجيأ محققا (وعد الآخرة) أي القيامة بعد ان سكنتم الارض أحياء ودفنتم فيها أمواتا (جئنا) أي بما لنا من العظمة والقدرة (بكم) منها (لفيفا) أي بعثنا كم واياهم مختلطين لا حكم لاحد على آخر ولا دفع لاحد عن آخر على غير الحالة التي كانت في الدنيا ثم ميزنا بعضكم عن بعض ثم عطف سبحانه وتعالى على قوله تعالى ولقد صرفنا قوله عز وجل (وبالحق) أي من المعاني الثابتة التي لا مرية فيها لا بغيره (أنزلناه) نحن أي القرآن فهو ثابت لا يزول كما أن الباطل هو الذاهب الزائل وهذا القرآن الكريم مشتمل على أشياء لا تزول وذلك لانه مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والاكرام وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوة الانبياء واثبات الحشر والنشر والقيامة وكل ذلك مما لا يقبل الزوال ويشتمل أيضا على شريعة باقية لا يتطرق اليها النقص والتغيير والتحريف وأيضا هذا القرآن تكفل الله تعالى بحفظه عن تحريف الزائغين وتبديل الجاهلين كما قال تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (وبالحق) لا بغيره (نزل) هو ووصل اليهم على لسانك بعد انزاله عليك كما أنزلناه سواء غضا طريا محفوظا لم يطرأ عليه طارئ فليس فيه من تحريف ولا تبديل كما وقع في كتاب اليهود الذين سألهم قومك ثم قال تعالى (وما أرسلناك) يا أفضل الخلق بما لنا من العظمة (الا مبشرا) للمطيع (ونذيرا) للعاصي من العقاب فلا عليك الا التبشير والانذار لا ما يقترحونه عليك من المعجزات فان قبلوا الدين الحق انتفعوا به والا فليس عليك من كفرهم شئ ثم ان الله تعالى أخبر أن الحكمة في انزال القرآن مفرقا بقوله عز وجل (وقرآنا) أي وفصلنا أو وأنزلنا قرآنا (فرقناه) أي أنزلناه منجما في أوقات متطاولة قال سعيد ابن جبير نزل القرآن كله ليلة القدر من السماء العليا الى السماء السفلى ثم فصل في السنين التي نزل فيها قال قتادة كان بين أوله وآخره عشرون سنة وقيل ثلاث وعشرون سنة والمعنى قطعناه آية آية وسورة سورة ولم ينزل جملة (لتقرأه على الناس) أي عامة (على مكث) أي مهل وتؤدة ليفهموه (ونزلناه) من عندنا بما لنا من العظمة (تنزيلا) بعضه اثر بعض مفرقا بحسب الوقائع لانه أتقن في فصلها وأعون على الفهم لطول التأمل لما نزل من نجومه في مدة ما بين النجمين لغزارة ما فيه من المعاني ثم ان الله تعالى هددهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل) لهؤلاء المضلين (آمنوا به) أي القرآن (أولا تؤمنوا) فالايمان به غير محتاج اليكم ولا موقوف عليكم لانكم ان آمنتم به كان الحظ لكم والا لم تضروا الا أنفسكم فاختاروا ما تريدون فان ايمانكم بالقرآن لا يزيده كمالا وامتناعكم منه لا يورثه نقصانا وقوله تعالى (ان الذين أوتوا العلم من قبله) أي من قبل انزاله ممن آمن به من بني اسرائيل تعليل له أي ان لم تؤمنوا به وانتم أهل جاهلية وشرك فان خيرا منكم وأفضل وهم العلماء الذين قرؤا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع قد آمنوا به وصدقوه وثبت عندهم أنه النبي العربي الموعود في كتبهم (اذا يتلى عليهم) أي القرآن (يخرون للاذقان) منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام

قال الزجاج الذقن مجمع اللحيين وكما يبتدئ الانسان بالخرور الى السجود فأقرب الاشياء من وجهه الى الارض الذقن وقيل ان الاذقان كناية عن اللحى والانسان اذا بالغ عند السجود في الخشوع والخضوع ربما مسح لحيته على التراب فان اللحية يبالغ في تنظيفها فاذا عفرها الانسان بالتراب في حوض المبالغة فقد أتى بغاية التعظيم وقيل ان الانسان اذا استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على الارض في معرض السجود كالمغشى عليه فيكون حينئذ خروره على الذقن فقوله يخرون للاذقان كناية عن غاية وله وخوفه وخشيته (فان قيل) لم قال يخرون للاذقان سجدا ولم يقل يسجدون (أجيب) بأن المقصود من ذكر هذا اللفظ مسارعتهم الى ذلك حتى كأنهم يسقطون (فان قيل) لم قال يخرون للاذقان ولم يقل على الاذقان (أجيب) بأن العرب تقول اذا خر الرجل فوقع لوجهه خر للذقن ثم بين أن ذلك ليس سقوطا اضطراريا من كل جهة بقوله تعالى (سجدا) أى يفعلون ذلك لما يعلمون من خيفته علما أو توا من العلم السالف ومافى قلوبهم من الاذعان والخشية للرحمن (ويقولون) أى على وجه التجديد المستمر (سبحان ربنا) تنزيها له عن خلف الوعد (ان) أى انه (كان) أى كونا لا ينفك (وعد ربنا) أى المحسن الينا بالايمان وما تبعه من وجوه العرفان (لمفعولا) أى دون خلف ولا بد أن يأتى جميع ما وعد به فى الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وانزال الفرقان عليه ومن الثواب والعقاب وهو تعريض بقريش حيث كانوا يستهزؤن بالوعيد فى قولهم أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ونحوه مما فى معناه الطعن فى قدرة الله تعالى القادر على كل شئ وقوله تعالى (ويخرون للاذقان يبكون) كرره لاختلاف الحال والسبب فان الاول للشكر عند انجاز الوعد والثانى لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله (ويزيدهم) أى سماع القرآن (خشوعا) أى خضوعا وتواضعا ولين قلب ورطوبة عين * ولما طالت الكلامات فى المناظرة مع المشركين ومنكرى النبوات والجواب عن شبهاتهم أتبعها بيان كيف يدعون الله ويطيعونه وكيف يذكرونه فى وقت الاشتغال بأداء العبودية فقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) لهم (ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات ليلة وهو ساجد يا الله يا رحمن فسمعها أبو جهل وهم لا يعرفون الرحمن فقال ان محمدا ينهانا أن نعبد الهين وهو يدعو الها آخر مع الله تعالى يقال له الرحمن فأنزل الله تعالى هذه الآية أى ان شئتم قولوا يا الله وان شئتم قولوا يا رحمن وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر بالدعاء يقول يا الله يا رحمن فسمعه أهل مكة فأقبلوا عليه فأنزل الله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن الآية وعن ابن عباس ان ذكر الرحمن كان فى القرآن قليلا فى أول ما أنزل وكان الذين قد أسلموا من اليهود يسوءهم قلة ذلك لكثرته فى التوراة كابن سلام وابن يامين وابن صوريا وغيرهم فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فنزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن فقال قريش ما بال محمد كان يدعو الها واحدا وهو الآن يدعو الهين ما نعرف الرحمن

الاصلحب اليمامة فنزل وهم بذكر الرحمن هم كافرون ونزل أيضا قوله تعالى قالوا وما الرحمن وفرح مؤمنوا أهل الكتاب وهو قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب أى مشركى قريش من ينكر بعضه وعن ابن عباس سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن الى آخر الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أمان من السرقة فان رجلا من المهاجرين تلاها حين أخذ مضجعه فدخل عليه سارق فجمع ما فى البيت وحمله والرجل ليس بنائم حتى انتهى الى الباب فوجد الباب مردودا فوضع الكارة ففعل ذلك ثلاث مرات فضحك صاحب الدار فقال انى أحصنت بيتى (فان قيل) اذا قال الرجل ادع زيدا أو عمرا فهم منه كون زيد مغايرا لعمرو فيوهم كون الله تعالى غير الرحمن وحينئذ تقوى شبهة أبى جهل لعنه الله تعالى (أجيب) بأن الدعاء هنا بمعنى التسمية لا بمعنى النداء والتسمية تتعدى الى مفعولين يقال دعوته زيدا ثم يترك أحدهما استغناء عنه فيقال دعوت زيدا والله والرحمن المراد بهما الاسم لا المسمى وأو للتخيير فمعنى الآية ادعوا باسم الله أو ادعوا باسم الرحمن أى اذكروه بهذا الاسم أو اذكروه بذلك الاسم فقوله ادعوا الله ينبه على ما لزم فى كرمه بحكم الوعد من افاضة الرحمة والكرم وأيضا تخصيص هذين الاسمين بالذكر يدل على أنهما أشرف من سائر الاسماء وتقديم اسم الله على اسم الرحمن يدل على أن قولنا الله أعظم الاسماء وتقدم الكلام على ذلك فى تفسير بسم الله الرحمن الرحيم والتنوين فى قوله تعالى (أياما تدعوا) عوض عن المضاف اليه وما صلة للابهام المؤكد والمعنى أيا تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله تعالى (فله الاسماء الحسنى) لانه اذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان لانهما منها ومعنى كونها أحسن الاسماء أنها مستقلة بمعانى التمجيد والتقديس والتعظيم وقد قدمنا ذكر الاسماء الحسنى فى الاعراف عند قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وبعض الاحاديث الواردة فى فضلها فليراجع ووقف حمزة والكسائى على الالف بعد الياء ووقف الباقون على الالف بعد الميم واختلف فى تفسير ونزول قوله تعالى (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) فروى عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم كان يرفع صوته بالقراءة فاذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من جاء به فأوحى الله تعالى اليه ولا تجهر بصلاتك فيسمعه المشركون فيسبوا الله تعالى عدوا بغير علم ولا تخافت بها فلا تسمع أصحابك (وابتغ بين ذلك سبيلا) وروى أنه صلى الله عليه وسلم طاف بالليل على دور الصحابة فكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه يخفى صوته بالقراءة فى صلاته وكان عمر يرفع صوته فلما جاء النهار وجاء أبو بكر وعمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر لم تخفى صوتك فقال أناجى ربى وقد علم حاجتى وقال لعمر لم ترفع صوتك فقال أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع صوته قليلا وعمر أن يخفض صوته قليلا وقيل معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلا بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار وقيل ان المراد بالصلاة الدعاء وهذا قول عائشة رضى الله تعالى عنها وأبى هريرة ومجاهد قالت عائشة هى الدعاء وروى هذا مرفوعا أن

النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية اتخاذ ذلك في الدعاء والمسئلة قال عبد الله بن شداد كان اعراب من بني تميم اذا سلم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا اللهم ارزقنا مالا وولدا يجهرون فأنزل الله تعالى هذه والمخافتة خفض الصوت والسكون يقال صوت خفيت أى خفيض ويقال للرجل اذا مات قد خفت أى انقطع كلامه وخفت الزرع اذا ذبل والمستحب من ذلك التوسط وهو أن يسمع نفسه كما روى عن ابن مسعود أنه قال من لم يخافت لم يسمع أذنيه وقد مدح الله تعالى المؤمنين بقوله تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال عز من قائل ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وبعضهم قال الآية منسوخة بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية قال الرازى وهو بعيد * ولما أمر الله تعالى أنه لا يذكر ولا ينادى الا بأسمائه الحسنى علم كيفية التحميد بقوله تعالى (وقل الحمد لله) أى الملك الاعظم ثم ذكر سبحانه وتعالى من صفات التنزيه والجلال وهي السلوب ثلاثة أنواع الاول قوله تعالى (الذى لم يتخذ) أى لكونه محيطا بالصفات الحسنى (ولدا) والسبب فيه وجوه الاول أن الولد هو الشئ المتولد من جزء من أجزاء ذلك الشئ فكل من له ولد فهو مركب من الاجزاء والمركب محدث والمحدث محتاج والمحتاج لا يقدر على كمال الانعام فلا يستحق كمال الحمد الثانى أن كل من له ولد فانه يمسك جميع النعم لولده فاذا لم يكن له ولد أفاض تلك النعم على عبيده الثالث أن الولد هو الذى يقوم مقام الوالد بعد انقضائه وفنائه فلو كان له ولد لكان منقضيا ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الانعام فى كل الاوقات فوجب أن لا يستحق الحمد على الاطلاق النوع الثانى من الصفات السلبية قوله تعالى (ولم يكن له) بوجه من الوجوه (شريك فى الملك) والسبب فى اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك لم يعرف حينئذ أن هذه النعم والمنافع حصلت منه أو من شريكه فلا يعرف كونه مستحقا للحمد والشكر النوع الثالث قوله تعالى (ولم يكن له ولى من الذل) أى ولم يوال له من أجل مذلة به يدفعها بموالاته والسبب فى اعتباره أنه لو جاز عليه ولى يلى أمره كان مستوجبا الاعظم أنواع الحمد ومستحقا لاقسام الشكر فنفى عنه أن يكون له ما يشاركه من جنسه ومن غير جنسه اختيارا أو اضطرارا أو ما يعاونه ويقويه ورتب الحمد عليه للدلالة على أنه الذى يستحق جنس الحمد لانه الكامل الذات المنفرد بالايجاد المنعم على الاطلاق وما عداه ناقص مملوك نعمة أو منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله تعالى (وكبره تكبيرا) أى وعظمه تعظيما على نفى اتخاذ الولد والشريك والذل وكل ما لا يليق به وترتيب الحمد على ذلك للدلالة على أنه المستحق لجميع المحامد لكمال ذاته وتفرده فى صفاته روى الامام أحمد فى مسنده عن معاذ الجهنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقول آية العز الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك الى آخر السورة وعن ابن عباس أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدونه فى السراء والضراء وعن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم ان أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا اله الا الله وعن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الكلام الى الله تعالى أربع لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بأيهن بدأت أخرجه مسلم وروى أن قول العبد الله أكبر خير له من الدنيا وما فيها وعن عمرو بن شعيب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه وقل الحمد لله الآية يقال أفصح الصبى فى منطقه فهم ما يقول وعن عبد الله بن كعب قال افتتحت التوراة بفاتحة سورة الانعام وختمت بخاتمة هذه السورة وأما ما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى وتبعهما ابن عادل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة بنى اسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار فى الجنة والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية فحديث موضوع

(سورة الكهف مكية)

الا واصبر نفسك الآية وهى مائة وعشر آيات وألف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة وعدد حروفها ستة آلاف وثلثمائة وستون حرفا

(بسم الله) الذى لا كفء له ولا شريك (الرحمن) الذى أقام عباده على أوضح الطرق بانزال هذا الكتاب (الرحيم) بتفضيل من اختصه بالصواب وهو قوله تعالى (الحمد لله) تقدم الكلام عليه مستقصى فى أول الفاتحة (الذى أنزل على عبده الكتاب) أى القرآن رتب تعالى استحقاق الحمد على انزاله تنبيها على أنه أعظم انعامه وخص رسوله صلى الله عليه وسلم بالذكر لان انزال القرآن نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم أما كونه نعمة عليه فلان الله تعالى أطلعه بواسطة هذا الكتاب الكريم على أسرار علوم التوحيد والتنزيه وصفات الجلال والاكرام وأسرار أحوال الملائكة والانبياء وأحوال القضاء والقدر وتعلق أحوال العالم السفلى بأحوال العالم العلوى وتعلق أحوال عالم الآخرة بعالم الدنيا وكيفية نزول القضاء من عالم الغيب وكيفية ارتباط عالم الجسمانيات بعالم الروحانيات ولا شك أن ذلك من أعظم النعم وأما كون هذا الكتاب نعمة علينا فلانه مشتمل على التكاليف والاحكام والوعد والوعيد والعقاب وبالجملة فهو كتاب كامل فى أقصى الدرجات فكل أحد ينتفع به بمقدار طاقته وفهمه فوجب عليه صلى الله عليه وسلم وعلى أمته أن يحمدوه على هذه النعم الجزيلة وقال تعالى على عبده لما فى ذلك من الوصف بالعبودية والاضافة اليه سبحانه وتعالى من الاعلام بتشريفه واشارة الى أنه الذى أسرى به الى حضرات مجده ليريه من آياته ثم انه تعالى وصف الكتاب بوصفين الاول قوله تعالى (ولم يجعل له) أى فيه (عوجا) أى اختلافا وتناقضا كما قال تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا والجملة حال من الكتاب الوصف الثانى قوله تعالى (قيما) قال ابن عباس يريد مستقيما أى معتدلا لا افراط فيه ولا تفريط قال الرازى وهذا عندى مشكل لانه لا معنى لنفى الاعوجاج الا حصول الاستقامة فتفسير القيم بالمستقيم

يوجب التكرار بل الحق أن المراد من كونه قيما كونه سببا لهداية الخلق وأنه يجري مجرى من يكون قيما للاطفال فالارواح البشرية كالاطفال والقرآن كالقيم المشفق القائم بمصالحهم وقال قبل ذلك ان الشئ يجب أن يكون كاملا في ذاته ثم يكون مكملا لغيره ويجب أن يكون تاما في ذاته ثم يكون فوق التمام بأن يفيض عنه كمال الغير فقوله تعالى ولم يجعل له عوجا اشارة الى كونه كاملا في ذاته وقوله قيما اشارة الى كونه مكملا لغيره ونظيره قوله تعالى في سورة البقرة في صفة الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين فقوله لا ريب فيه اشارة الى كونه في نفسه بالغا في الصحة وعدم الاخلال الى حيث يجب على العاقل أن لا يرتاب فيه وقوله هدى للمتقين اشارة الى كونه سببا لهداية الخلق ولكمال حالهم فقوله تعالى ولم يجعل له عوجا قائم مقام قوله تعالى لا ريب فيه وقوله تعالى قيما قائم مقام قوله تعالى هدى للمتقين واختلف النحويون في نصب قوله تعالى قيما على أوجه الاول قال في الكشاف لا يجوز جعله حالا من الكتاب لان قوله تعالى ولم يجعل له عوجا معطوف على قوله تعالى أنزل فهو داخل في حيز الصلة وانه لا يجوز قال ولما بطل هذا وجب أن ينتصب بمضمر والتقدير ولم يجعل له عوجا جعله قيما لانه تعالى اذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة قال فان قلت فما فائدة الجمع بين نفي العوج واثبات الاستقامة وفي أحدهما غنى عن الآخر قلت فائدته التأكيد ورب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح الوجه الثاني انه حال ثانية والجملة المنفية قبله حال أيضا كما مر وتعدد الحال لذي حال واحد جائز والتقدير أنزله غير جاعل له عوجا قيما الوجه الثالث أنه حال أيضا ولكنه بدل من الجملة قبله لانها حال وابدال المفرد من الجملة اذا كانت بتقدير مفرد جائز * ولما ذكر تعالى أنه أنزل على عبده هذا الكتاب الموصوف بما ذكر أردفه ببيان ما لاجله أنزله بقوله عز وجل (لينذر) أي يخوف الكتاب الكافرين (بأسا) أي عذابا (شديدا من لدنه) أي صادرا من عنده وقرأ شعبة باسكان الدال وكسر النون والهاء وصلة الهاء بياء والباقون بضم الدال وسكون النون وضم الهاء وابن كثير على أصله بضم الهاء في الوصل بواو (ويبشر المؤمنين) أي الراسخين في هذا الوصف وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء التحتية وسكون الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم التحتية وفتح الموحدة وكسر الشين مشددة (الذين يعملون الصالحات) وهي ما أمر به خالصا له وذلك الشأن من مفتاح الايمان (أن لهم) أي بسبب أعمالهم (أجرا حسنا) هو الجنة حال كونهم (ماكثين فيه أبدا) بلا انقطاع أصلا فان الابد زمان لا آخر له وقوله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) معطوف على قوله تعالى لينذر بأسا شديدا من لدنه والمعطوف يجب كونه مغايرا للمعطوف عليه فالاول عام في حق كل كافر والثاني خاص بمن أثبت لله ولدا وعادة القرآن جارية بانه اذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيها على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي كقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال فكذا ههنا هذا العطف يدل على أن أقبح أنواع الكفر اثبات الولد لله تعالى * (تنبيه) * الذين أثبتوا لله ولدا ثلاث طوائف الاولى

كفار العرب الذين قالوا الملائكة بنات الله الثانية النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله الثالثة اليهود الذين قالوا عزير ابن الله * ثم انه تعالى أنكر على القائلين ذلك من وجهين الاول قوله تعالى (ما لهم به) أى القول (من علم) أى أصلا لانه مما لا يمكن أن يتعلق العلم به لانه لا وجود له ولا يمكن وجوده ثم قرر تعالى هذا المعنى وأكده بقوله (ولا لآبائهم) الذين يغتبطون بتقليدهم فى الدين حتى فى هذا الذى لا يتخيله عاقل ولو أخطؤا فى تصرف دنيوى لم يتبعوهم فيه (فان قيل) اتخاذ الله ولدا محال فى نفسه فكيف قيل ما لهم به من علم (أجيب) بأن انتفاء العلم بالشئ قد يكون للجهل بالطريق الموصل اليه وقد لا يكون لانه فى نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به ونظيره قوله تعالى ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به الوجه الثانى (كبرت) أى مقالتهم (كلمة) أى ما أكبرها من كلمة وصور فظاعة اجترائهم على النطق بها بقوله تعالى (تخرج من أفواههم) أى لم يكفهم خطورها فى أنفسهم وترددها فى صدورهم حتى تلفظوا بها وكان صدورهم بها على وجه التكرير كما يشير اليه التعبير بالمضارع *(تنبيه)* سميت هذه كلمة كما يسمون القصيدة كلمة * ثم بين تعالى ما أفهمه الكلام من أنه كما أنهم لا علم لهم بذلك لا علم لاحد به أصلا لانه لا وجود له فقال تعالى (ان) أى ما (يقولون الا كذبا) أى قولا لا حقيقة له بوجه من الوجوه * ولما كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على ايمان قومه شفقة عليهم وغيرة على المقام الالهى الذى ملأ قلبه تعظيما خفض عليه سبحانه وتعالى بقوله تعالى (فلعلك باخع) أى قاتل (نفسك) من شدة الغم والوجد وأشار تعالى الى شدة نفرتهم وسرعة مفارقتهم وعظيم مباعدتهم بقوله عز من قائل (على آثارهم) أى حين تولوا عن التوحيد وعن اجابتك (ان لم يؤمنوا بهذا الحديث) أى القرآن المتجدد تنزيله على حسب التدريج (أسفا) منك على ذلك والاسف شدة الحزن والغضب (فان قيل) ذلك يدل على حدوث القرآن (أجيب) بأنه محمول على الالفاظ وهى حادثة * ثم بين سبحانه وتعالى علة ارشاده الى الاعراض عنهم بغير ما يقدر عليه من التبليغ للبشارة والنذارة بأنهم لم يخرجوا عن مراده تعالى وأن الايمان لا يقدر على ادخاله قلوبهم غيره بقوله عز وجل (انا) أى انا لا نفعل ذلك لانا (جعلنا ما على الارض) من الحيوان والنبات والشجر والانهار والمعادن وغير ذلك وقال بعضهم بل المراد الناس فهم زينة الارض وبالجملة فليس فى الارض الا المواليد الثلاثة وهى المعادن والنبات الشامل للشجر والحيوان وأشرف أنواع الحيوان الانسان (زينة لها) أى الارض قيل المراد أهلها أى زينة لاهلها قال الرازى ولا يمتنع أن يكون ما يحسن به الارض زينة لها كما جعل الله السماء مزينة بالكواكب * ولما أخبر تعالى بزينتها اخبر تعالى بعلته بقوله تعالى (لنبلوهم) أى نعاملهم معاملة المختبر (أيهم أحسن عملا) باخلاص الخدمة له فيصير ما كان علمه منهم ظاهرا فان الله تعالى يعلم السر وأخفى لتقام به عليهم الحجة على ما يتعارفونه بينهم بأن من أظهر موافقة الامر فيما نال من الزينة حاز المثوبة ومن اجترأ على مخالفة الامر بما آتاه منها استحق العقوبة فكأنه تعالى يقول يا محمد انى خلقت الارض وزينتها وأخرجت منها أنواع المنافع

والمصالح والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ثم انهم يكفرون ويتمردون ومع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم فأنت أيضا يا محمد لا ينبغي أن تنتهي في الحزن بسبب كفرهم الى أن تترك الاشتغال بدعوتهم الى الدين الحق * ثم انه تعالى لما بين أنه انما زين الارض لاجل الامتحان والابتلاء لا لاجل أن يبقى الانسان فيها متنعما بها أبدا زهد فيها بقوله تعالى (وانا لجاعلون ما عليها) من جميع تلك الزينة لا يصعب علينا شئ منه (صعيدا) أى فتاتا (جرزا) أى يابسا لا ينبت ونظيره قوله تعالى كل من عليها فان وقوله تعالى فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا وتخصيص الاهلاك بما على الارض يوهم بقاء الارض الا أن سائر الآيات على أن الارض أيضا لا تبقى كما قال تعالى يوم تبدل الارض غير الارض * ولما أن القوم تعجبوا في قصة أصحاب الكهف وسألوها النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل الامتحان قال تعالى (أم حسبت) أى ظننت على ما لك من العقل الرزين والرأي الرصين (أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) على ما زعم من تهويل السائلين من الكفرة من اليهود والعرب والواقع أنهم كانوا من العجائب ليسوا بعجب بالنسبة الى كثرة آياتنا فان من كان قادرا على تخليق السموات والارض كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلثمائة سنة وأكثر في النوم والكهف الغار الواسع في الجبل واختلف في الرقيم فقيل هو اسم كلبهم قال أمية بن أبي الصلت

* وليس بها الا الرقيم مجاورا *

وصيدهم (وهو بكسر الصاد مفعول مجاورا أى فناءهم) والقوم في الكهف هجد (أى نوم) وقيل هو لوح من رصاص رقمت فيه أسماؤهم وقصصهم جعل على باب الكهف قال البغوي وهذا أظهر الاقاويل وقيل ان الناس رقموا حديثهم نقرا في الجبل وقيل هو الوادي الذي فيه الكهف وقيل الجبل وقيل قريتهم وقيل أصحاب الرقيم قوم آخرون غير أصحاب الكهف كانوا ثلاثة يطلبون الكلأ أو ضوءه لاهاليهم فأخذهم المطر فأووا الى الكهف فانحطت صخرة وسدت عليهم بابه فقال أحدهم اذكروا أيكم عمل حسنة لعل الله يرحمنا ببركته فقال واحد استعملت أجراء ذات يوم فجاء رجل منهم وسط النهار وعمل في بقيته مثل عملهم فأعطيته مثل أجرهم فغضب أحدهم وترك أجره فوضعته في جانب البيت ثم مر بي بقر فاشتريت فصيلة والفصيلة ولد الناقة اذا انفصل عن أمه فبلغت ما شاء الله فرجع الى بعد حين شيخا ضعيفا لا أعرفه وقال ان لى عندك حقا وذكره حتى عرفته فدفعتها اليه جميعا اللهم ان كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنا فانصدع عنهم الجبل حتى رأوا الضوء والصدع الشق والصداع وجع الرأس وقال آخر كان في فضل وأصاب الناس شدة فجاءتني امرأة تطلب مني معروفا فقلت والله ما هو دون نفسك فأبت وعادت ثم رجعت ثلاثا ثم ذكرت ذلك لزوجها فقال أجيبي له وأغيثي عيالك فأتت وسلمت الى نفسها فلما كشفتها وهممت بها ارتعدت فقلت لها ما لك فقالت أخاف الله تعالى فقلت لها خفتيه في الشدة ولم أخفه في الرخاء فتركتها وأعطيتها ملتمسها اللهم ان كنت فعلته لوجهك

فافرج عنا فانصدع حتى تعارفوا وقال الثالث كان لي أبوان هرمان وكان لي غنم وكنت أطعمهما وأسقيهما ثم أرجع الى غنمي فحبسني ذات يوم غيم فلم أرجع حتى أمسيت فأتيت أهلي وأخذت محلبي فحلبت فيه ومضيت اليهما فوجدتهما نائمين فشق علي أن أوقظهما فوقفت حابسا محلبي على يدي حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما اللهم ان كنت فعلت ذلك لوجهك الكريم فافرج عنا ففرج الله عنهم فخرجوا وقد رفع ذلك النعمان بن بشير وقد قدمنا سبب نزول قصة أصحاب الكهف عند قوله تعالى ويسئلونك عن الروح وذكر محمد بن اسحق سبب نزول هذه القصة مشروحا فقال كان النضر بن الحرث من شياطين قريش وكان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جلس مجلسا ذكر فيه الله تعالى وحذر قومه ما أصاب من كان قبلهم من الامم وكان النضر يخلفه في مجلسه اذا قام وقال أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه فهلموا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ثم قال ان قريشا بعثوه وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط الى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما سلاهم عن محمد وصفته فانهم أهل الكتاب الاول وعندهم من العلم ماليس عندنا من علم الانبياء فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن أحوال محمد فقال لهم اليهود سلوه عن ثلاثة عن فتية ذهبوا في الدهر الاول فان حديثهم عجيب وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الارض ومغاربها وسلوه عن الروح وماهي فان أخبركم فهو نبي والا فهو متقول فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمد وأخبراهم بما قالته اليهود فجاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبركم بما سألتم عنه غدا ولم يستثن فانصرفوا عنه فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمس عشرة ليلة لم ينزل عليه وحي وشق عليه ذلك ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله بسورة أهل الكهف وفيها معاتبة الله تعالى اياه على حزانه عليهم وفيها خبر أولئك الفتية وخبر الرجل الطواف ثم بدأ بالفتية فقال (اذ) أي واذكر اذ (أوى الفتية) وهم أصحاب الكهف المسؤل عنهم جمع فتى وهو الشاب الكامل والشباب أقبل الى الحق وأهدى للسبيل من الشيوخ (الى الكهف) خائفين على ايمانهم من قومهم الكفار واختلفوا في سبب مصيرهم الى الكهف فقال محمد بن اسحق بن يسار مرج أهل الانجيل وكثرت فيهم الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكين بعبادة الله وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس عبد الاصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه وكان ينزل قرى الروم فلا يترك في قرية نزلها أحدا الا فتنه عن دينه حتى يعبد الاصنام أو يقتله ثم نزل مدينة أهل الكهف وهي افسوس فلما نزل بها كبر على أهل الايمان فاستخفوا منه وهربوا في كل وجه واتخذ شرطا من الكفار وأمرهم أن يتبعوهم في أماكنهم ويخرجوهم اليه فيخيروهم بين القتل وبين عبادة الاوثان والذبح للطواغيت فمنهم من يرغب في الحياة ومنهم من يأبى أن

يعبد غير الله تعالى فيقتل فلما رأى ذلك أهل الشدة في الايمان جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ويقطعون ثم يجعل ما قطع من أجسامهم على سور المدينة من نواحيها وعلى كل باب من أبوابها حتى عظمت الفتنة فلما رأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والدعاء والتسبيح وكانوا من أشراف المدينة ومن أشراف الروم وكانوا ثمانية نفر بكوا وتضرعوا الى الله تعالى وجعلوا يقولون ربنا اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وارفع عنهم هذا البلاء حتى يعلنوا عبادتك فبينما هم على ذلك وقد دخلوا مصلى لهم أدركهم الشرط فوجدوهم سجودا على وجوههم يبكون ويتضرعون الى الله تعالى فقالوا لهم ما خلفكم عن أمر الملك انطلقوا اليه ثم خرجوا فرفعوا أمرهم الى دقيانوس فقالوا تجمع الناس للذبح لآلهتك وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يستهزؤن بك ويعصون أمرك فلما سمع ذلك بعث اليهم فأتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم في التراب فقال لهم ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التي تعبد في الارض وتجعلوا أنفسكم أسوة سراة أهل مدينتكم اختاروا اما ان تذبحوا لآلهتنا واما أن أقتلكم فقال له كبيرهم واسمه مكسلمينا ان لنا الها ملء السموات والارض عظمته لن ندعو من دونه الها أبدا له الحمد والتكبير والتسبيح من أنفسنا خالصا أبدا اياه نعبد واياه نسأل النجاة والخير وأما الطواغيت فلن نعبدها أبدا اصنع ما بدا لك وقال أصحابه مثل ما قال فلما قالوا ذلك أمر الملك بنزع لباسهم وحلية كانت عليهم من الذهب والفضة وقال سأفرغ لكم وأنجز لكم ما وعدتكم من العقوبة وما يمنعني أن أعجل لكم ذلك الا أني أراكم شبابا حديثة أسنانكم فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلا تذكرون فيه وترجعون الى عقولكم ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده وانطلق الى مدينة أخرى قريبة منهم لبعض أموره فلما رأى الفتية خروجه بادروا قدومه وخافوا اذا قدم مدينتهم أن يذكرهم فائتمروا بينهم أن يأخذ كل واحد منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقي ثم ينطلقوا الى كهف قريب من المدينة فيمكثوا فيه ويعبدوا الله تعالى حتى اذا جاء دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما يشاء فلما قال ذلك بعضهم لبعض عمد كل فتى منهم الى بيت أبيه فأخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقي معهم واتبعهم كلب كان لهم حتى اذا أتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه وقال كعب الاحبار مروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مرارا فقال لهم الكلب ما تريدون مني لا تخشوا جنايتي أنا أحب أحباب الله عز وجل فناموا حتى أحرسكم وقال ابن عباس هربوا ليلا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعه كلبه فخرجوا من البلد الى الكهف وهو قريب من البلد قال ابن اسحق فلبثوا فيه ليس لهم عمل غير الصلاة والصيام والتسبيح والتحميد ابتغاء وجه الله تعالى وجعلوا نفقتهم الى فتى منهم يقال له تمليخا فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرا وكان من أجملهم وأجلدهم وكان اذا دخل المدينة يضع ثيابا كانت عليه حسانا ويأخذ ثيابا كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها ثم يأخذ ورقه وينطلق الى المدينة فيشتري لهم طعاما وشرابا

ويتجسس لهم الخبر هل ذكروا وأصحابه بشيء ثم يرجع الى أصحابه فلبثوا في ذلك ماشاء الله أن يلبثوا ثم قدم دقيانوس المدينة وأمر عظماء أهلها أن يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الايمان وكان تمليخا يشتري لاصحابه طعامهم فرجع الى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل فأخبرهم أن الجبار قد دخل المدينة وأنهم قد ذكروا والتمسوا من عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجودا يدعون ويتضرعون ويتعوذون من الفتنة ثم ان تمليخا قال لهم يا اخوتاه ارفعوا رؤسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم فرفعوا رؤسهم وأعينهم تفيض من الدمع فطعموا ذلك مع غروب الشمس ثم جعلوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضا فبينما هم كذلك اذ ضرب الله على آذانهم في الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابهم ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤسهم فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس فالتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض عظمائه وعظماء المدينة لقد ساءني شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد كانوا ظنوا ان بي غضبا عليهم لجهلهم ما جهلوا من أمري ما كنت لأجهل عليهم ان هم تابوا وعبدوا الهتي فقال عظماء المدينة ما أنت بحقيق أن ترحم قوما فجرة مردة عصاة فقد كنت أجلت لهم أجلا ولو شاؤا لرجعوا في ذلك الاجل ولكنهم لم يتوبوا فلما قالوا ذلك غضب غضبا شديدا ثم أرسل الى آبائهم فأتى بهم فسألهم عنهم وقال أخبروني عن أبنائكم المردة الذين عصوني فقالوا له أما نحن فلم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة قد ذهبوا بأموالنا وأهلكوها في أسواق المدينة ثم انطلقوا فارتقوا الى جبل يدعى بنجلوس فلما قالوا ذلك خلا سبيلهم وجعل ما يدري ما يصنع بالفتية فألقى الله تعالى في قلبه أن يسد باب الكهف عليهم وأراد الله تعالى أن يكرمهم بذلك ويجعلهم آية لامة تستخلف من بعدهم وأن يبين لهم ان الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور فأمر دقيانوس بالكهف أن يسد عليهم وقال دعوهم كما هم في الكهف يموتون جوعا وعطشا ويكون كهفهم الذي اختاروه قبرا لهم وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم وقد توفى الله أرواحهم وفاة النوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال ثم ان رجلين مؤمنين في بيت الملك دقيانوس يكتمان ايمانهما ائتمرا أن يكتبا شأن الفتية وخبرهم في لوحين من رصاص ويجعلاهما في تابوت من نحاس ويجعلا التابوت في البنيان وقالا لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من يفتح عليهم خبرهم حين يقرأ الكتاب ففعلا ذلك وبنيا عليه وبقي دقيانوس ما بقي ثم مات وقومه وقرون بعده كثيرة * وقد حكى الله تعالى عنهم أنهم لما أووا الى الكهف (فقالوا) أي عقب استقرارهم فيه (ربنا آتنا من لدنك) أي من عندك (رحمة) توجب لنا المغفرة والرزق والامن من عدوك (وهيئ لنا من أمرنا) أي من الامر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار (رشدا) الرشد والرشد والرشاد نقيض الضلال وفي تفسير اللفظ وجهان الاول أن التقدير هيئ لنا أمرا ذا رشد أي حتى نصير بسببه راشدين مهتدين الثاني اجعل أمرنا رشدا كله كقولك رأيت منك رشدا * ولما أجابهم سبحانه وتعالى عبر عن ذلك بقوله تعالى (فضربنا) أي عقب هذا القول

قوله بنجلوس هكذا في النسخ والذي في حياة الحيوان منجلوس اهـ

وبسببه (على آذانهم) حجابا يمنع السماع أي أنمناهم نومة لا تنبههم الاصوات الموقظة فحذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبة ثم بين تعالى أنه انما ضرب على آذانهم (في الكهف) أي المعهود وهو ظرف مكان وقوله تعالى (سنين) ظرف زمان وقوله تعالى (عددا) أي ذوات عدد يحتمل التكثير والتقليل فان مدة لبثهم كبعض يوم عنده كقوله تعالى لم يلبثوا الا ساعة من نهار وقال الزجاج اذا قل الشئ فهم مقدار عدده فلم يحتج الى أن يعد واذا كثر احتاج الى أن يعد (ثم بعثناهم) أي أيقظناهم من ذلك النوم (لنعلم) أي علم مشاهدة وقد سبق نظير هذه الآية في القرآن كثيرا منها ما سبق في سورة البقرة الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وفي آل عمران ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم وقد نبهنا على ذلك في محله (أي الحزبين) أي الفريقين المختلفين في مدة لبثهم (أحصى لما لبثوا أمدا) واختلفوا في الحزبين المختلفين فقال عطاء عن ابن عباس المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك وأصحاب الكهف وقال مجاهد الحزبان من الفتية أصحاب الكهف لما تيقظوا اختلفوا في أنهم كم لبثوا ويدل له قوله تعالى قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فالحزبان هما هذان وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا ان لبثهم قد تطاول وقال الفراء ان طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم *(تنبيه)* أحصى فعل ماض أي أيهم ضبط أمر أوقات لبثهم واما من جعله أفعل تفضيل فقال في الكشاف ليس بالوجه السديد وذلك ان بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس ونحو أعدى من الجرب وأفلس من ابن المذلق شاذ والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع فكيف به ثم قال الله تعالى (نحن) أي بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة (نقص عليك) يا أشرف الخلق (نبأهم) أي خبرهم العظيم قصا ملتبسا (بالحق) أي الصدق (انهم فتية) أي شبان (آمنوا بربهم) أي المحسن اليهم الذي تفرد بخلقهم ورزقهم ثم وصفهم الله تعالى بقوله (وزدناهم) بعد أن آمنوا (هدى) بما قذفناه في قلوبهم من المعارف (وربطنا على قلوبهم) أي قويناها فصار ما فيها من القوى مجتمعا غير مبدد فكانت حالهم في الجلوة حالهم في الخلوة (اذ قاموا) أي وقت قيامهم بين يدي الجبار دقيانوس من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام (فقالوا ربنا رب السموات والارض) وذلك لانه كان يدعو الناس الى عبادة الطواغيت فثبت الله تعالى هؤلاء الفتية حتى عصوا ذلك الجبار وأقروا بربوبية الله تعالى وصرحوا بالبراءة من الشرك والانداد بقولهم (لن ندعو من دونه الها) لان ما سواه عاجز والله (لقد قلنا اذا) أي اذا دعونا من دونه غيره (شططا) أي قولا ذا بعد عن الحق جدا وقال مجاهد كانوا أبناء عظماء مدينتهم فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد فقال رجل منهم هو أكبر القوم اني لاجد في نفسي شيأ ما أظن أن أحدا يجده قالوا ما تجد قال أجد في نفسي أن ربي رب السموات والارض قالوا نحن كذلك في أنفسنا فقاموا جميعا فقالوا ربنا رب السموات والارض وقال عطاء قالوا ذلك عند قيامهم من النوم قال الرازي وهو بعيد

لان الله تعالى استأنف قصتهم بقوله تعالى نحن نقص عليك وقال عبيد بن عمير كان أصحاب الكهف فتيانا مطوقين مسورين ذوى ذوائب وكان معهم كلب صيدهم فخرجوا فى عيد لهم عظيم فى زى وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التى يعبدونها وقد قذف الله تعالى فى قلوب الفتية الايمان وكان أحدهم وزير الملك فآمنوا وأخفى كل واحد ايمانه فقالوا فى أنفسهم نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لا يصيبنا عقاب بجرمهم فخرج شاب منهم حتى انتهى الى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده فرجا أن يكون على مثل أمره من غير أن يظهر ذلك ثم خرج آخر فخرجوا كلهم جميعا فاجتمعوا فقال بعضهم لبعض ما جمعكم وكل واحد يكتم صاحبه مخافة على نفسه ثم قالوا ليخرج كل فتيين فيخلوا ثم يفشى كل واحد سره الى صاحبه ففعلوا فاذا هم جميعا على الايمان واذا بكهف فى الجبل قريب منهم فقال بعضهم لبعض (هؤلاء قومنا) وان كانوا أسن منا وأقوى وأجل فى الدنيا (اتخذوا من دونه آلهة) أشركوهم معه تعالى لشبهة واهية (لولا) أى هلا (يأتون عليهم بسلطان) أى دليل (بين) أى ظاهر مثل ما نأتى نحن على تقرير معبودنا بالادلة الظاهرة فتسبب عن عجزهم عن دليل أنهم أظلم الظالمين فلذلك قالوا (فمن أظلم) أى لا أحد أظلم (ممن افترى) أى تعمد (على الله) أى الملك الاعظم (كذبا) بنسبة الشريك اليه تعالى ثم قال بعض الفتية لبعض (واذ) أى وحين (اعتزلتموهم) أى قومكم (وما يعبدون) أى واعتزلتم معبودهم وقولهم (الا الله) يجوز أن يكون استثناء منه متصلا على ما روى أنهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه كما كان أهل مكة وأن يكون منقطعا وقيل هو كلام معترض اخبار من الله تعالى عن الفتية بأنهم لم يعبدوا غير الله تعالى (فأووا الى الكهف) أى الغار الذى فى الجبل (ينشر) أى يبسط (لكم) ويوسع عليكم (ربكم) أى المحسن اليكم (من رحمته) ما يكفيكم به المهم من أمركم فى الدارين (ويهيئ لكم من أمركم) أى الذى من شأنه أن يهمكم (مرفقا) أى ما ترتفقون به وتنتفعون وجزمهم بذلك لخلوص نيتهم وقوة وثوقهم بفضل الله وقرأ نافع وابن عامر بفتح الميم وكسر الفاء والباقون بكسر الميم وفتح الفاء قال الفراء وهما لغتان واشتقاقهما من الارتفاق وكان الكسائى لا يذكر فى مرفق الانسان الذى فى اليد الا كسر الميم وفتح الفاء والفراء يجيزه فى الامر وفى اليد وقيل هما لغتان الا أن الفتح أقيس والكسر أكثر والخطاب فى قوله تعالى (وترى الشمس) للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد وليس المراد أن من خوطب بهذا يرى هذا المعنى ولكن العادة فى المخاطبة تكون على هذا النحو ومعناه انك لو رأيته على هذه الصورة (اذا طلعت تزاور) أى تميل (عن كهفهم ذات اليمين) أى ناحيته (واذا غربت تقرضهم) أى تعدل فى سيرها عنهم (ذات الشمال) أى فلا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم لان الله تعالى زواها عنهم وقيل ان باب ذلك الكهف كان مفتوحا الى جانب الشمال فاذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف واذا غربت كانت على شماله وقرأ السوسى بامالة ألف ترى المنقلبة بعد الراء فى الاصل بخلاف عنه والباقون بالفتح فى الوصل وهم على أصولهم فى الوقف وأبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون

بالفتح وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو تزاور بتشديد الزاى وتخفيف الراء مضمومة وابن عامر بسكون الزاى ولا ألف بعدها وتشديد الواو على وزن تحمر والباقون وهم عاصم وحمزة والكسائى بتخفيف الزاى والواو ولا خلاف فى ضم الراء * ولما بين أنه تعالى حفظهم من حر الشمس بين أنه أنعشهم بروح الهواء وألطفهم بسعة الموضع فى فضاء الغار فقال تعالى (وهم فى فجوة منه) أى فى وسط الكهف ومتسعه ينالهم برد الريح ونسيمها ثم بين تعالى نتيجة هذا الامر الغريب فى النبا العجيب بقوله تعالى (ذلك) أى المذكور العظيم (من آيات الله) أى دلائل قدرته (من يهد الله) أى الذى له الملك كله يخلق هذه الهداية فى قلبه كأصحاب الكهف (فهو المهتد) فى أى زمان كان فلن تجد له مضلا مغويا ففى ذلك اشارة الى أن أهل الكهف جاهدوا فى الله وأسلموا له وجوههم فلطف بهم وأعانهم وأرشدهم الى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة وأن كل من سلك طريق المهتدين الراشدين فهو الذى أصاب الفلاح واهتدى الى السعادة وقرأ نافع وأبو عمرو بزيادة ياء بعد الدال فى الوصل دون الوقف والباقون بحذفها وقفا ووصلا (ومن يضلل) أى يضله الله تعالى ولم يرشده كدقيانوس وأصحابه (فلن تجد له وليا) أى معينا (مرشدا) أى يرشده للحق ثم انه تعالى عطف على مامضى بقية أمرهم بقوله تعالى (وتحسبهم) أى لو رأيتهم أيها المخاطب (أيقاظا) أى منتبهين لان أعينهم مفتحة للهواء لانه يكون أبقى لها جمع يقظ بكسر القاف (وهم رقود) أى نيام جمع راقد قال الزجاج لكثرة تقلبهم يظن أنهم ايقاظ والدليل عليه قوله تعالى (ونقلبهم) اى فى ذلك حال نومهم تقلبا كثيرا بحسب ما ينفعهم كما يكون النائم (ذات) اى فى الجهة التى هى صاحبة (اليمين) منهم (وذات الشمال) لينال روح النسيم جميع أبدانهم ولا يتأثر ما يلى الارض منها بطول المكث * (تنبيه) * اختلف فى مقدار مدة التقليب فعن أبى هريرة أن لهم فى كل عام تقليبتين وعن مجاهد يمكثون رقودا على أيمانهم تسع سنين ثم ينقلبون على شمائلهم فيمكثون رقودا تسع سنين وقيل لهم تقليبة واحدة فى يوم عاشوراء قال الرازى وهذه التقديرات لاسبيل للعقل اليها ولفظ القرآن لايدل عليها وما جاء فيه خبر صحيح فكيف يعرف انتهى ولهذا قلت بحسب ما ينفعهم وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فائدة تقليبهم لئلا تأكل الارض لحومهم ولا ثيابهم اه قال الرازى وهذا أعجب من ذلك لانه تعالى لما قدر على أن يمسك حياتهم ثلثمائة سنة وأكثر أفلا يقدر على حفظ أجسادهم أيضا من غير تقليب اه وهذا ليس بعجيب لان القدرة صالحة لذلك وأكثر بحسب العادة وأما امساك أرواحهم فهو خرق للعادة فلا يقاس عليه (وكلبهم باسط ذراعيه) أى يديه أى ملقيهما على الارض مبسوطتين غير مقبوضتين ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب قال المفسرون كان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهما * (تنبيه) * باسط اسم فاعل ماض وانما عمل على حكاية الحال والكسائى يعمله ويستشهد بالآية الكريمة وأكثر المفسرين على أن الكلب من جنس الكلاب وروى عن ابن جريج أنه كان أسدا

ويسمى الاسد كلبا فان النبى صلى الله عليه وسلم دعا على عتبة بن أبى لهب فقال اللهم سلط عليه كلبا من كلابك فافترسه الاسد وقال ابن عباس كان كلبا أغر واسمه قطمير وعن على اسمه ريان واختلف فى قوله تعالى (بالوصيد) فقال ابن عباس هو باب الكهف وقيل العتبة قال السدى والكهف لا يكون له باب ولا عتبة وانما أراد موضع الباب والعتبة وقال الزجاج الوصيد فناء البيت وفناء الدار قال الشاعر

بأرض فضاء لايسد وصيدها * على ومعروفى بها غير منكر

وقال مجاهد والضحاك الوصيد الكهف (لو اطلعت عليهم) بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين أى وهم على تلك الحالة (لوليت منهم) حال وقوع بصرك عليهم (فرارا) لما ألبسهم الله تعالى من الهيبة وجعل لهم من الجلالة تدبيرا منه لما أراد منهم حتى لا يصل اليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله (ولملئت منهم رعبا) أى فزعا واختلف فى ذلك الرعب كان لماذا فقال الكلبى لان أعينهم مفتحة كالمستيقظ الذى يريد أن يتكلم وهم نيام وقيل من وحشة الكلام وقيل لكثرة شعورهم وطول أظفارهم وتقلبهم من غير حس كالمستيقظ وقيل ان الله تعالى منعهم بالرعب حتى لا يراهم أحد وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال غزونا مع معاوية نحو الروم فررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف فقال معاوية لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم فقال ابن عباس قد منع ذلك من هو خير منك لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا فبعث معاوية ناسا فقال اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأخرجتهم وقرأ نافع وابن كثير بتشديد اللام بعد الميم والباقون بتخفيفها والسوسى بابدال الهمزة ياء على أصله وقفا ووصلا وحمزة فى الوقف فقط وقرأ ابن عامر والكسائى رعبا بضم العين والباقون بسكونها (وكذلك) أى كما فعلنا بهم ما ذكرنا آية (بعثناهم) أى أيقظناهم آية (ليتساءلوا بينهم) أى ليسأل بعضهم بعضا عن أحوالهم فى نومهم ويقظتهم فيتعرفوا حالهم وما صنع الله تعالى بهم فيزدادوا يقينا على كمال قدرة الله تعالى وليستبصروا به أمر البعث ويشكروا ما أنعم الله به عليهم (قال قائل منهم) مستفهما من اخوانه (كم لبثتم) نائمين فى هذا الكهف من ليلة أو يوم وهذا يدل على ان هذا القائل استشعر طول لبثهم مما رأى من هيئتهم أو بغير ذلك من الامارات (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) لانهم دخلوا الكهف طلوع الشمس وبعثوا آخر النهار فلما رأوا الشمس باقية قالوا أو بعض يوم فلما نظروا الى طول أظفارهم وشعورهم (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) فأحالوا العلم على الله تعالى قال ابن عباس القائل ذلك هو رئيسهم تمليخا رد علم ذلك الى الله تعالى وعلم أن مثل هذا التغير لا يحصل الا فى الايام الطويلة وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة عند المثناة والباقون بالادغام ثم لما علموا أن الامر ملتبس عليهم لا طريق لهم الى علمه أخذوا فيما يهمهم وقالوا (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه) أى بفضتكم وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة بسكون الراء والباقون بكسرها والورق اسم للفضة سواء كانت مضروبة أم لا ويدل عليه ماروى أن عرفجة اتخذ

أنفاس ورق ويقال لها الرقة وفي الحديث في الرقة ربع العشر (الى المدينة) أى التى خرجتم منها وهى مدينة طرسوس وهذه الآية تدل على أن السعى فى امساك الزاد أمر مهم مشروع وانه لا يبطل التوكل على الله تعالى اذ حقيقة التوكل على الله تعالى تهيئة الاسباب واعتقاد أن لا مسبب للاسباب الا الله تعالى فحمل النفقة وما يصلح المسافر هو رأى المتوكلين على الله دون المتوكلين على الانفاقات على ما فى أوعية القوم من النفقات ومنه قول عائشة رضى الله تعالى عنها لمن سألها عن محرم يشد عليه هميانه أوثق عليك نفقتك وما حكى عن بعض صعاليك العلماء أنه كان شديد الحب الى أن يرزق حج بيت الله الحرام وعلم منه ذلك فكانت مياسير أهل بلده كلما عزم قوم على حج أتوه أن يحجوا به وألحوا عليه فيعتذر اليهم ويحمد اليهم بذلهم فاذا انفضوا عنه قال لمن عنده ما لهذا السفر الا شيآن شد الهميان والتوكل على الرحمن (فلينظر أيها أزكى طعاما) قال ابن عباس يريد ما حل من الذبائح لان عامة أهل بلدهم كانوا مجوسا وفيهم قوم يخفون ايمانهم وقال مجاهد كان ملكهم ظالما فقولهم أيها أزكى طعاما أى أيها أبعد عن الغصب وكل سبب حرام وقيل أيها أطيب وألذ وقيل أيها أرخص قال الزجاج قولهم أيها رفع بالابتداء وأزكى خبره وطعاما تمييز ولا بد هنا من حذف أى أى أهلها أزكى أى أحل وقيل لا حذف والضمير عائد على الاطعمة المدلول عليها من السياق (فليأتكم) ذلك الاحد (برزق منه) لنأكل (وليتلطف) أى وليكن فى ستر وكتمان فى دخول المدينة وشراء الاطعمة حتى لا يعرف (ولا يشعرن) أى ولا يخبرن (بكم أحدا) من أهل المدينة (انهم) أى أهل المدينة (ان يظهروا) أى يطلعوا عالين (عليكم يرجموكم) أى يقتلوكم والرجم بمعنى القتل كثير فى القرآن كقوله ولولا رهطك لرجمناك وقوله لا رجمنك وقوله أن ترجمون وقال الزجاج أى يقتلوكم بالرجم والرجم أخبث أنواع القتل (أو يعيدوكم فى ملتهم) ان لنتم لهم (ولن تفلحوا اذا) أى ان رجعتم الى ملتهم (أبدا) بل تكونوا خاسرين قال بعض العلماء ولا خوف على المؤمن الفار بدينه أعظم من هذين الامرين أحدهما ما فيه هلاك النفس وهو الرجم الذى هو أخبث أنواع القتل والآخر هلاك الدين (فان قيل) أليس انهم لو أكرهوا على الكفر حتى أظهروا الكفر لم يكن عليهم مضرة فكيف قالوا ولن تفلحوا اذا أبدا (أجيب) بأنهم خافوا أنهم لو بقوا على الكفر مظهرين له فقد يميل بهم ذلك الى الكفر الحقيقى فكان خوفهم بسبب هذا الاحتمال (فان قيل) ما النكتة فى العدول عن واحدكم الى أحدكم وكل ذلك دال على الوحدة (أجيب) بأن النكتة فيه أن العرب اذا قالوا أحد القوم أرادوا به فردا منهم واذا قالوا واحد القوم أرادوا رئيسهم والمراد فى القصة أى واحد كان والقرآن الكريم أنزل بلغتهم فراعى ما راعوا (وكذلك) أى ومثل ما فعلنا بهم ذلك الامر العظيم من الربط على قلوبهم والستر والحماية من الطالبين لهم والحفظ لاجسادهم على ممر الزمان وتعاقب الحدثان وغير ذلك (أعثرنا) أى أطلعنا غيرهم (عليهم) يقال عثرت على كذا علمته وأصله أن من كان غافلا عن شئ فعثر به نظر اليه فعرفه فكان العثر سببا لحصول العلم فأطلق السبب على المسبب بقوله تعالى (ليعلموا) متعلق بأعثرنا

والضمير قيل يعود على مفعول أعثرنا المحذوف تقديره أعثرنا الناس وقيل يعود الى أهل الكهف وهذا هو الظاهر (أن وعد الله) الذى له صفات الكمال بالبعث للروح والجثة معا (حق) لان قيامهم بعد نومهم يتقلبون نيفا وثلثمائة سنة مثل من مات ثم بعث قال بعض العارفين علامة اليقظة بعد النوم علامة البعث بعد الموت * ولما كان من الحق ما قد يداخله شك قال تعالى (وأن) أى وليعلموا أن (الساعة) أى آتية (لاريب) أى لاشك (فيها) * (تنبيه) * اختلف فى السبب الذى عرف الناس واقعة أصحاب الكهف فقال محمد بن اسحق ان ملك تلك البلاد رجل صالح يقال له تندوسيس فلما ملك بقى فى ملكه ثمانية وستين سنة فتحزب الناس فى مملكته فكانوا أحزابا منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح فبكى وتضرع الى الله تعالى وحزن حزنا شديدا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق ويقولون لاحياة الا الدنيا وانما تبعث الارواح ولا تبعث الاجساد وجعل الملك يرسل الى من يظن فيهم خيرا وأنهم أئمة فى الخلق فلم يقبلوا منه وجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا يخرجون الناس عن الحق وملة الحواريين فلما رأى ذلك الملك دخل بيته وأغلق بابه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا الجلس عليه ودأب ليله ونهاره زمانا يتضرع الى الله تعالى ويبكى أى رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم ثم ان الله تعالى الذى يكره هلكة عباده أراد أن يظهر على الفتية أصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لاريب فيها ويستجيب لعبده تندوسيس ويتم نعمته عليه وأن يجمع من كان تبدد من المؤمنين وألقى الله فى نفس رجل من تلك البلد الذى فيه الكهف أن يهدم ذلك البنيان الذى على فم الكهف فيبنى به حظيرة لغنمه فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان تلك الحظيرة حتى اذا نزعا ما على فم الكهف وفتحا باب الكهف أذن الله تعالى ذو القدرة والسلطان محيى الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهرى الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التى كانوا يستيقظون لها اذا أصبحوا من ليلتهم ثم قاموا الى الصلاة فصلوا كالذى كانوا يفعلون لايرى فى وجوههم ولا فى ألوانهم شئ يكرهونه كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن ملكهم دقيانوس فى طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم أنبئنا ما قال الناس فى شأننا عشية أمس عند الجبار وهم يظنون أنهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون وقد تخيل لهم أنهم قد ناموا أطول ما كانوا ينامون حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض كم لبثتم نياما قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكل ذلك فى أنفسهم يسير فقال لهم تمليخا التمستم بالمدينة وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم فتذبحون للطواغيت أو يقتلكم فما شاء الله بعد ذلك فعل فقال لهم مكسلمينا يا اخوتاه اعلموا أنكم ملاقوا الله فلا تكفروا بعد ايمانكم اذا دعاكم عدو الله ثم قالوا لتمليخا انطلق الى المدينة فتسمع ما يقال لنا بها وما الذى يذكر عند دقيانوس وتلطف ولا تشعرن بك أحدا وابتع لنا طعاما وأتنا به وزدنا على الطعام الذى جئتنا به فقد أصبحنا

قوله يقال له تندوسيس الذى فى حياة الحيوان أن يقال له بادوسيس فليحرر اه

جياعا ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التي كان يتنكر فيها وأخذ ورقا من نفقتهم التي كانت معهم التي ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع فانطلق تمليخا خارجا فلما مر بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مر ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفيا يصد عن الطريق متخوفا أن يراه أحد من أهلها فيعرفه ولا يشعر أن دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلثمائة سنة فلما أتى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة تكون لاهل الايمان اذا كان أمر الايمان ظاهرا فلما رأى عجب وجعل ينظر اليها مستخفيا وينظر يمينا وشمالا ثم ترك الباب وتحول لباب آخر من أبوابها فرأى مثل ذلك فجعل يخيل اليه أن المدينة ليست بالتي كان يعرفها ورأى ناسا كثيرا محدثين لم يكن رآهم قبل ذلك فجعل يمشي ويتعجب ويخيل اليه أنه حيران ثم رجع الى الباب الذي أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول ياليت شعري ما هذا أما عشية أمس فكان المسلمون يخبؤن هذه العلامة ويستخفون بها وأما اليوم فانها ظاهرة لعلي حالم ثم يرى أنه ليس بنائم فأخذ بكسائه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشي بين ظهري سوقها فيسمع ناسا يحلفون باسم عيسى بن مريم فزاده فرقا ورأى أنه حيران فقام مسندا ظهره الى جدار من جدران المدينة ويقول في نفسه والله ما أدري ما هذا أما عشية أمس فليس على وجه الارض انسان يذكر عيسى بن مريم الا قتل وأما اليوم فأسمع كل انسان يذكر عيسى ولا يخاف ثم قال في نفسه لعل هذه ليست المدينة التي أعرف ووالله ما أعلم مدينة بقرب مدينتنا وقام كالحيران ثم لقي فتى فقال له ما اسم هذه المدينة يافتى فقال اسمها أفسوس فقال في نفسه لعل بي مسا أو أمرا أذهب عقلي والله يحق لي أن أسرع الخروج منها قبل أن أخزى فيها أو يصيبني شر فأهلك ثم انه أفاق فقال والله لو عجلت الخروج من هذه المدينة قبل أن يفطن بي لكان أكيس فدنا من الذين يبيعون الطعام فأخرج الورق التي كانت معه فأعطاها رجلا منهم فقال بعني بهذا الورق طعاما فأخذها الرجل فنظر الى ضرب الورق ونقشها فعجب منها ثم طرحها الى رجل من أصحابه فنظر اليها ثم الى آخر ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل الى رجل ويتعجبون منها ثم جعلوا يتشاورون بينهم ويقول بعضهم لبعض ان هذا أصاب كنزا مخبأ في الارض منذ زمان ودهر طويل فلما رآهم تمليخا يتشاورون من أجله فرق فرقا شديدا وجعل يرتعد ويظن أنهم فطنوا به وعرفوه وانهم انما يريدون أن يذهبوا به الى ملكهم دقيانوس وجعل أناس آخرون يأتونه فيتعرفونه فقال لهم وهو شديد الفرق أفضلوا علي قد أخذتم ورقي فأمسكوها وأما طعامكم فليس لي حاجة به فقالوا من أنت يافتى وما شأنك والله لقد وجدت كنزا من كنوز الاولين وأنت تريد أن تخفيه انطلق معنا وأرناه وشاركنا فيه نخفف عليك ما وجدت وانك ان لم تفعل نأت بك السلطان فنسلمك اليه فيقتلك فلما سمع قولهم قال ما وجدت شيأ وقال قد وقعت في كل شئ أحذر منه قالوا يافتى انك والله لا تستطيع أن تكتم ما وجدت فجعل تمليخا لايدري ما يقول لهم وخاف حتى انه لم يرد اليهم جوابا فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه وطرحوه

فى عنقه وجعلوا يقودونه فى سكك المدينة حتى سمع من فيها فقيل أخذ رجل عنده كنز واجتمع
عليه أهل المدينة صغيرهم وكبيرهم فجعلوا ينظرون اليه ويقولون والله ماهذا الفتى من أهل
هذه المدينة وما رأيناه قط وما نعرفه فجعل تمليخا مايدرى ما يقول لهم فلما اجتمع عليه أهل المدينة
وكان متيقنا أن أباه واخوته فى المدينة وانه من عظماء أهلها وانهم سيأتونه اذا سمعوا به فبينما
هو قائم كالحيران ينظر متى يأتيه بعض أهله فيخلصه من بين أيديهم اذا اختطفوه وانطلقوا به الى
رئيسى المدينة ومدبريها اللذين يدبران أمرها وهما رجلان صالحان اسم أحدهما اريوس واسم
الآخر اسطيوس فلما انطلقوا به اليهما ظن تمليخا انه ينطلق به الى دقيانوس الجبار فجعل يلتفت
يمينا وشمالا وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون وجعل تمليخا يبكى ويرفع رأسه
الى السماء وقال اللهم اله السماء واله الارض أفرغ اليوم على صبرا وأولج معى روحا منك
تؤيدنى بها عند هذا الجبار وجعل يقول فى نفسه فرق ما بينى وبين اخوتى ياليتهم يعلمون مالقيت
وياليتهم يأتونى فنقوم جميعا بين يدى هذا الجبار فانا كنا توافقنا على الايمان بالله سبحانه وتعالى
وأن لانشرك به شيأ ولانفترق فى حياة ولاموت فلما انتهى به الى الرجلين الصالحين ورأى انه لم
يذهب به الى دقيانوس أفاق وسكن عنه البكاء فأخذ أريوس واسطيوس الورق فنظرا اليها وعجبا
منها ثم قال أحدهما أين الكنز الذى وجدت يافتى فقال تمليخا ما وجدت كنزا ولكن هذا ورق
آبائى ونقش المدينة وضربها ولكن والله ما أدرى ما شأنى وما أقول لكم فقال أحدهما ممن أنت
فقال تمليخا أما أنا فكنت أرى أنى من أهل هذه المدينة قالوا فمن أبوك ومن يعرفك بها فأنبأهم
باسم أبيه فلم يجدوا أحدا يعرفه ولا أباه فقال له أحدهما أنت رجل كذاب لاتأتينا بالحق فلم يدر
تمليخا ما يقول لهم غير أنه نكس بصره الى الارض فقال بعض من حوله هذا رجل مجنون وقال
بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمدا حتى ينفلت منكم فقال له أحدهما ونظر اليه نظرا
شديدا أتظن أنا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ونقش هذه الورق وضربها أكثر من ثلثمائة
سنة وأنت غلام شاب وتظن أنك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ وشمط كما ترى وحولك سراة هذه
المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه البلدة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار
وانى لأظننى سآمر بك فتعذب عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذى وجدته
فلما قال ذلك قال لهم تمليخا أنبئونى عن شئ أسألكم عنه فان فعلتم صدقتكم عما عندى فقالوا
سل لانكتمك شيأ قال مافعل الملك دقيانوس قالوا ليس نعرف اليوم على وجه الارض ملكا
يسمى دقيانوس ولم يكن الا ملكا هلك منذ زمان ودهر طويل وهلكت بعده قرون كثيرة فقال
تمليخا انى اذا لحيران وما هو بمصدقى أحد من الناس بما أقول لقد كنا فتية وان الملك أكرهنا على
عبادة الاوثان والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فنمنا فلما انتبهنا خرجت لاشترى طعاما
وأتجسس الاخبار فاذا أنا كما ترون فانطلقوا معى الى الكهف الذى فى جبل بنجلوس أريكم
أصحابى فلما سمع اريوس ما يقول تمليخا قال ياقوم لعل هذه آية من آيات الله تعالى جعلها الله
تعالى لكم على يد هذا الغلام فانطلقوا بنا معه ليرينا أصحابه فانطلق معه اريوس واسطيوس

ومعهما جميع أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا اليهم فلما رأى
الفتية أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذى كان يأتى فيه
فظنوا أنه قد أخذ وذهب به الى ملكهم دقيانوس فبينما هم يظنون ذلك ويتحققونه اذ سمعوا
الاصوات وجلبة الخيل مصعدة عندهم فظنوا أنهم رسل الجبار دقيانوس بعث اليهم ليأتوا بهم
فقاموا الى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضا وقالوا انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا
فانه الآن بين يدى الجبار وهو ينتظرنا حتى نأتيه فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس على هذه
الحالة اذا هم باريوس وأصحابه وقوف على باب الكهف فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكى فلما
رأوه يبكى بكوا معه ثم سألوه عن خبره فقص عليهم الخبر كله فعرفوا أنهم كانوا نياما بأمر الله
تعالى ذلك الزمن الطويل وانما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث وليعلم الناس أن
الساعة آتية لاريب فيها ثم دخل على اثر تمليخا اريوس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم من
فضة فقام بباب الكهف ثم دعا رجالا من عظماء أهل المدينة ففتح التابوت عندهم فوجد فيه
لوحين من رصاص مكتوب فيهما مكسلمينا ومحشلمينا وتمليخا ومطرونس وكشطونس وبيرونس
ويطونس كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا
هذا الكهف فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وانا كتبنا أسماءهم
وخبرهم ليعلمه من بعدهم ان عثر عليهم فلما قرؤه عجبوا وحمدوا الله تعالى الذى أراهم آية البعث
فيهم ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله تعالى وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا
مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر اريوس وأصحابه سجودا وحمدوا الله تعالى الذى أراهم
آية من آياته ثم كلم بعضهم بعضا وأنبأهم الفتية عن الذى لقوه من ملكهم دقيانوس ثم ان اريوس
وأصحابه بعثوا بريدا الى ملكهم الصالح تندوسيس أن عجل لعلك تنظر الى آية من آيات الله
جعلها الله تعالى على ملكك وجعلها آية للعالمين ليكون لهم نورا وضياء وتصديقا للبعث فاعجل
الى فتية بعثهم الله تعالى وكان قد توفاهم منذ أكثر من ثلثمائة سنة فلما أتى الملك الخبر قام ورجع
اليه عقله وذهب همه فقال أحمد الله رب السموات والارض وأعبدك وأسبح لك تطولت
على ورحمتنى فلم تطفئ النور الذى جعلته لآبائى وللعبد الصالح قسطيطينوس الملك فلما نبئ به
أهل المدينة ركبوا اليه وساروا معه حتى أتوا مدينة افسوس فتلقاهم أهل المدينة وساروا معه
نحو الكهف فلما صعد الجبل ورأى الفتية تندوسيس فرحوا به وخروا سجدا على وجوههم وقام
تندوسيس قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الارض يسبحون الله تعالى
ويحمدونه ثم قالوا له نستودعك الله السلام عليك ورحمة الله وبركاته وحفظك وحفظ ملكك
ونعيذك بالله من شر الانس والجن فبينما الملك قائم اذ رجعوا الى مضاجعهم فناموا وتوفى الله
أنفسهم وقام الملك تندوسيس اليهم فجعل ثيابه عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم فى تابوت من
ذهب فلما أمسى ونام أتوه فى المنام وقالوا له انا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكن خلقنا من تراب
والى التراب نصير فاتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى منه فأمر الملك

حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله تعالى حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد
على أن يدخل عليهم وقيل ان تمليخا الماحمل الى الملك الصالح قال له الملك من أنت قال أنا رجل من
أهل هذه المدينة وذكر أنه خرج أمس أو منذ أيام وذكر منزله وأقواما لم يعرفهم أحد وكان الملك
قد سمع ان فتية فقدوا فى الزمان الاول وان أسماءهم مكتوبة على لوح فى خزانته فدعا باللوح
فنظر فى أسمائهم فاذا اسمه مكتوب فى ذكر أسماء الآخرين فقال تمليخا هم أصحابى فلما سمع الملك
ذلك ركب هو ومن معه من القوم فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا دعونى حتى أدخل على أصحابى
وأبشرهم فانهم ان رأوكم معى أرعبتموهم فدخل فبشرهم فقبضت روحه وأرواحهم وأعمى
على الملك وأصحابه اثرهم فلم يهتدوا عليهم * ثم وقع التنازع فى أمرهم بين أهل المدينة كما قال
تعالى (اذ يتنازعون) أى أهل المدينة (بينهم أمرهم) أى أمر الفتية فى البناء حولهم (فقالوا)
أى الكفار (ابنوا عليهم) أى حولهم (بنيانا) يسترهم فانهم كانوا على ديننا وقوله تعالى
(ربهم أعلم بهم) يجوز أن يكون من كلام الله تعالى وأن يكون من كلام المتنازعين فيهم (قال
الذين غلبوا على أمرهم) أى أمر الفتية وهم المؤمنون (لنتخذن عليهم) أى حولهم (مسجدا)
يصلى فيه وفعل ذلك على باب الكهف وقيل ان بعضهم قال الاولى أن نسد باب الكهف عليهم
لئلا يدخل أحد عليهم ولا يقف على أحوالهم انسان وقال الآخرون بل الاولى أن نبنى على باب
الكهف مسجدا وهذا القول يدل على أن أولئك الاقوام كانوا عارفين بالله ومعترفين بالعبادة
والصلاة وقيل تنازعوا فى مقدار مكثهم وقيل فى عددهم وأسمائهم * (تنبيه) * بنيانا يجوز
أن يكون مفعولا به جمع بنيانة وأن يكون مصدرا * ولما ذكر أصحاب الكهف عند النبى صلى
الله عليه وسلم وقع الاختلاف فى عددهم كما قال تعالى (سيقولون) أى الخائضون فى قصتهم من
أهل الكتاب والمؤمنين فقال بعض أهل الكتاب (ثلاثة رابعهم كلبهم) أى هم ثلاثة رجال
ورابعهم كلبهم بانضمامه اليهم (ويقولون) أى بعضهم (خمسة سادسهم كلبهم) فهذان القولان
لنصارى نجران وقيل الاول قول اليهود والثانى قول النصارى (فان قيل) لم جاءت سين
الاستقبال فى الاول دون الاخيرين (أجيب) بأن فى ذلك وجهين أن تدخل الاخيرين فى حكم
السين كما تقول قد اكرم وأنعم تريد معنى التوقع فى الفعلين جميعا وأن تريد بفصل معنى الاستقبال
الذى هو صالح له * ولما كان قولهم ذلك بغير علم كان (رجما بالغيب) أى ظنا فى الغيبة عنهم
فهو راجع الى القولين معا ونصب على المفعول له أى لظنهم ذلك (ويقولون) أى المؤمنون
(سبعة وثامنهم كلبهم) قال أكثر المفسرين هذا الاخير هو الحق ويدل عليه وجوه الاول انه
تعالى لما حكى قوله ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قال بعده (قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل)
وأتبع القولين الاولين بقوله تعالى رجما بالغيب وتخصيص الشئ بالوصف يدل على أن الحال
فى الباقى بخلافه فوجب أن يكون المخصوص بالظن الباطل هو القولان الاولان وأن يكون
القول الثالث مخالفا لهما فى كونه رجما بالغيب الوجه الثانى أن الواو فى قوله تعالى وثامنهم هى
الواو التى تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالا من المعرفة فى نحو

قولك جاءني رجل ومعه آخر توكيد للصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر فكانت هذه الواو دالة على ان الذين كانوا في الكهف كانوا سبعة وثامنهم كلبهم وقول محمد بن اسحق انهم كانوا ثمانية مردود فكما أن الله تعالى حكى اختلافهم وتم الكلام عند قوله ويقولون سبعة ثم حقق هذا القول بقوله تعالى وثامنهم كلبهم والثامن لا يكون الا بعد السبع وهذه الواو يسمونها واو الثمانية لان العرب تعد فتقول واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية لان العقد كان عندهم سبعة كما هو اليوم عندنا عشرة ونظير هذه الآية في ثلاث آيات وهو قوله تعالى والناهون عن المنكر وقوله تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها لان أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة وقوله تعالى ثيبات وأبكارا قال القفال وقولهم واو الثمانية ليس بشيء بدليل قوله تعالى هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ولم يذكر الواو في النعت الثامن اه وقد يجاب بأن ذلك جرى على الغالب الوجه الثالث أنه تعالى قال ما يعلمهم الا قليل وهذا يقتضي أنه حصل العلم بعدتهم لذلك القليل وكان ابن عباس يقول أنا من أولئك العدد القليل وكان يقول انهم سبعة وثامنهم كلبهم وكان علي رضي الله تعالى عنه يقول كانوا سبعة قال الرازي وأسماؤهم تمليخا مكسلمينا مشلينا وهؤلاء الثلاثة كانوا أصحاب يمين الملك وعن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان الملك يستشير هؤلاء الستة ليتصرفوا في مهماته والسابع كشفططيوش وهو الراعي الذي وافقهم لما هربوا من ملكهم وروى عن ابن عباس انه قال هم مكشلمينا وتمليخا ومرطونس وبدنونس ودونواقس وكفشططونس وهو الراعي واسم كلبهم قطمير واسم مدينتهم أفسوس * (تنبيه) * في الآية حذف والتقدير سيقولون هم ثلاثة كما تقدم تقديره فحذف المبتدأ لدلالة الكلام عليه وقيل الاقوال الثلاثة لاهل الكتاب والقليل منهم أي ولا علم بذلك الا في قليل منهم وأكثرهم على الظن * ثم انه تعالى لما ذكر هذه القصة أتبعها بأن نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن شيئين عن المراء وعن الاستفتاء أما النهي عن المراء فبقوله تعالى (فلا تمار) أي تجادل (فيهم) أي في شأن الفتية (الا مراء) أي جدالا (ظاهرا) أي غير متعمق فيه وهو أن تقص عليهم ما في القرآن من غير أن تكذبهم في تعيين ذلك العدد ونظيره قوله تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن وأما النهي عن الاستفتاء فقوله تعالى (ولا تستفت فيهم) أي ولا تسأل (منهم) أي من أهل الكتاب اليهود (أحدا) عن قصتهم سؤال مسترشد لانه لما ثبت أنه ليس عندهم علم في هذا الباب وجب المنع من استفتائهم وفيما أوحى اليك مندوحة عن غيره ولا سؤال متعنت تريد تفضيح المسؤل عنه وتزييف ما عنده فانه يخل بمكارم الاخلاق * ولما سأل أهل مكة عن خبر أهل الكهف فقال النبي صلى الله عليه وسلم أخبركم به غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوما وفي رواية أخرى أربعين يوما نزل (ولا تقولن لشئ) أي لاجل شئ تعزم عليه (اني فاعل ذلك الشئ) (غدا) أي فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة (الا أن يشاء الله) أي الا متلبسا بمشيئته بأن تقول ان شاء الله والسبب في ذلك ان الانسان اذا قال سأفعل الفعل

الفلانى غدا لم يبعد ان يموت قبل مجىء الغد ولم يبعد أيضا ان بقى حيا أن يعيقه عن ذلك الفعل سائر العوائق فاذا لم يقل ان شاء الله صار كاذبا فى ذلك الوعد والكذب منفر لا يليق بالانبياء عليهم الصلاة والسلام فلهذا السبب وجب عليه أن يقول ان شاء الله حتى اذا تعذر عليه الوفاء بذلك الوعد لم يصر كاذبا ولم يحصل التنفير * (تنبيه) * قال كثير من الفقهاء اذا قال الرجل لامرأته أنت طالق ان شاء الله لم يقع عليه الطلاق لانه لما علق وقوع الطلاق على مشيئته تعالى لم يقع عليه الطلاق الا اذا علمنا حصول المشيئة ومشيئة الله تعالى غيب لا سبيل لنا الى العلم بحصولها الا اذا علمنا أن متعلق المشيئة وقع وهو الطلاق وعلى هذا لا يعرف حصول المشيئة الا اذا وقع الطلاق ولا يعرف وقوع الطلاق الا اذا عرفت المشيئة فيتوقف العلم بكل واحد منهما على العلم بالآخر وهو دور فلهذا لا يقع الطلاق وقيل المراد الا أن يشاء الله أى الا أن يأذن لك الله تعالى فى ذلك القول والمعنى أنه ليس لك أن تخبر عن نفسك بأنك تفعل الفعل الفلانى الا أن يأذن لك الله تعالى فى ذلك الاخبار وقد احتج القائلون بأن المعدوم شئ بهذه الآية لان الشئ الذى سيفعله غدا معدوم فى الحال فوجب تسمية المعدوم بأنه شئ (وأجيب) بأن هذا الاستدلال لا يفيد الا ان المعدوم يسمى بكونه شيأ وعندنا ان السبب فيما سيصير شيأ يجوز تسميته بكونه شيأ فى الحال كما قال تعالى أتى أمر الله فلا تستعجلوه والمراد سيأتى أمر الله واختلف فى معنى قوله تعالى (واذكر ربك اذا نسيت) فقال ابن عباس ومجاهد والحسن معناه اذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن وعند هذا اختلفوا فقال ابن عباس لو لم يحصل التذكر الا بعد مدة طويلة ثم ذكر ان شاء الله كفى فى رفع الحنث وعن سعيد بن جبير بعد سنة أو شهر أو أسبوع أو يوم وعن طاوس لا يقدر على الاستثناء الا فى مجلسه وعن عطاء يستثنى على مقدار حلب ناقة غزيرة وعند عامة الفقهاء انه لا أثر له فى الكلام ما لم يكن موصولا واحتج ابن عباس بأن قوله اذا نسيت غير مختص بوقت غير معين بل هو متناول لكل الاوقات وظاهره ان الاستثناء لا يجب أن يكون متصلا أما عامة الفقهاء فقالوا لو جوزنا ذلك للزم أن لا يستقر شئ من العقود والايمان يحكى ان المنصور بلغه ان أبا حنيفة خالف ابن عباس فى الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال له الامام أبو حنيفة هذا يرجع عليك لانك تأخذ البيعة بالايمان أترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن المنصور كلامه ورضى عنه واستدل بأن الآيات الكثيرة دلت على وجوب الوفاء بالعقد والعهد قال تعالى أوفوا بالعقود وقال تعالى وأوفوا بالعهد فاذا أتى بالعقد أو العهد وجب عليه الوفاء بمقتضاه لاجل هذه الآيات خالفنا الدليل فيما اذا كان الاستثناء متصلا لان الاستثناء مع المستثنى منه كالكلام الواحد بدليل أن الاستثناء وحده لا يفيد شيأ فهو جار مجرى بعض الكلمة الواحدة فجملة الكلام كالكلمة الواحدة المفيدة فاذا لم يكن متصلا أفاد الالتزام التام فوجب الوفاء بذلك الملتزم وقيل ان قوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله قال عكرمة واذكر ربك اذا غضبت وقال وهب مكتوب فى الانجيل ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب وقال

الضحاك والسدى هذا فى الصلاة المنسية قال الرازى وتعلق هذا الكلام بما قبله يفيد اتمام الكلام فى هذه القصة وجعله مستأنفا يصير الكلام مبتدأ منقطعا وذلك لا يجوز وفى قوله تعالى (وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا) وجوه الاول أن يكون قوله تعالى الا ان يشاء الله ليس بحسن تركه وذكره أولى من تركه وهو قوله لأقرب من هذا رشدا والمراد منه ذكر هذه الجملة الثانى أنه لما وعدهم بشئ وقال معه ان شاء الله فيقول وعسى أن يهدين ربى لشئ أحسن وأكمل مما وعدتكم به الثالث أن قوله عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا اشارة الى قصة أصحاب الكهف أى لعل الله يوفقنى من البينات والدلائل على صحة نبوتى وصدقى فى ادعاء النبوة ماهو أعظم فى الدلالة وأقرب رشدا من قصة أصحاب الكهف وقد فعل الله تعالى ذلك حين آتاه من قصص الانبياء والاخبار بالغيوب ماهو أعظم من ذلك * ثم شرع تعالى فى آية هى آخر الآيات المذكورة فى قصة أصحاب الكهف بقوله تعالى (ولبثوا فى كهفهم) أى نياما (ثلثمائة) أى مدة ثلثمائة (سنين) قال بعضهم وهذه السنون الثلثمائة عند أهل الكتاب شمسية وتزيد القمرية عليها تسع سنين وقد ذكرت فى قوله (وازدادوا تسعا) أى تسع سنين لان التفاوت بين الشمسية والقمرية فى كل مائة سنة ثلاث سنين لان السنة الشمسية تزيد على السنة القمرية عشرة أيام واحدى وعشرين ساعة وخمس ساعة فالثلثمائة سنة الشمسية ثلثمائة وتسع قمرية قال الرازى وهذا مشكل لانه لا يصح بالحساب هذا القول ويمكن أن يقال لعلهم لما استكملوا ثلثمائة سنة قرب أمرهم من الانتباه ثم اتفق ما أوجب بقاءهم فى النوم بعد ذلك تسع سنين وقرأ حمزة والكسائى بغير تنوين فى الوصل والباقون بالتنوين فسنين عطف بيان لثلثمائة لانه لما قال ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة لم يعرف انها أيام أو شهور أو سنون فلما قال سنين صار هذا بيانا لقوله ثلثمائة فكان ذلك عطف بيان له وقيل هو على التقديم والتأخير أى لبثوا سنين ثلثمائة وأما وجه القراءة الاولى فهو أن الواجب فى الاضافة أن يقال ثلثمائة سنة الا أنه يجوز وضع الجمع موضع الواحد فى التمييز كقوله تعالى بالاخسرين أعمالا وحذف تمييز تسع لدلالة ما تقدم عليه اذ لا يقال عندى ثلثمائة درهم وتسعا الا وأنت تعنى تسعة دراهم ولو أردت ثيابا أو نحوها لم يجز لانه الغاز ثم ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم اذا نازعوه فى مدة لبثهم فى الكهف بقوله تعالى (قل الله أعلم بما لبثوا) أى فهو أعلم منكم وقد أخبر بمدة لبثهم وقيل ان أهل الكتاب قالوا ان المدة من حين دخلوا الكهف الى يومنا هذا وهو اجتماعهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ثلثمائة سنين وازدادوا تسع سنين فرد الله تعالى عليهم ذلك وقال الله أعلم بما لبثوا يعنى بعد قبض أرواحهم الى يومنا هذا لا يعلمه الا الله (له غيب السموات والارض) أى ما غاب فيهما وخفى من أحوال أهلهما فالغيب ما يغيب عن ادراكك والله عز ذكره لا يغيب عن ادراكه شئ فيكون عالما بهذه الواقعة لا محالة وقوله تعالى (أبصر به وأسمع) كلمة تذكر فى التعجب أى ما أبصر الله تعالى بكل موجود وما أسمعه بكل مسموع (ما لهم) أى أهل السموات والارض (من دونه) أى الله (من ولى) أى ناصر (ولا يشرك فى حكمه) أى فى

قضائه

قضائه (أحدا) منهم ولا يجعل له فيه مدخلا لانه غني بذاته عن كل أحد وقيل الحكم هنا علم
الغيب أي لا يشرك في علم غيبه أحدا وقرأ ابن عامر بالمثناة فوق قبل الشين وبسكون الكاف
على نهي كل أحد عن الاشراك والباقون بالتحتية وضم الكاف *(تنبيه)* احتج أصحابنا
رحمهم الله تعالى بهذه القصة على صحة القول بالكرامة للاولياء وقد قدمنا معرفة الولي
في سورة يونس عند قوله تعالى ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فمما يدل على جواز
كرامات الاولياء القرآن والاخبار والآثار والمعقول أما القرآن فالمعتمد فيه عندنا آيات الحجة
الاولى قصة مريم عليها السلام وقد شرحناها في سورة آل عمران فلا نعيدها الحجة الثانية قصة
أصحاب الكهف وبقاؤهم في النوم سالمين من الآفات مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين وأن الله
تعالى كان يعصمهم من حر الشمس ومن الناس من تمسك أيضا في هذه المسئلة بقوله تعالى قال
الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك على أنه غير السيد سليمان
والسيد جبريل وأما الاخبار فكثيرة منها ما أخرج في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال لم يتكلم في المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم وصبي في زمن جريج وصبي
آخر أما عيسى فقد عرفتموه وأما جريج فكان رجلا عابدا في بني اسرائيل وكانت له أم فكان
يوما يصلي اذ اشتاقت اليه أمه فقالت يا جريج فقال يارب أمي وصلاتي الصلاة خير أم رؤيتها ثم
يصلي فدعته ثانيا فقال مثل ذلك حتى تم ثلاث مرات وكان يصلي ويدعها فاشتد ذلك على أمه
فقالت اللهم لا تمته حتى تريه المومسات وكانت زانية في بني اسرائيل فقالت لهم أنا أفتن جريجا
حتى يزني بي فأتته فلم تقدر على شئ وكان هناك راع يأوي بالليل الى صومعته فلما أعياها جريج
راودت الراعي على نفسها فأتاها فولدت ثم قالت ولدي هذا من جريج فأتاه بنو اسرائيل وكسروا
صومعته وشتموه ثم نخس الغلام قال أبو هريرة كأني أنظر الى النبي صلى الله عليه وسلم حين قال
بيده يا غلام من أبوك فقال الراعي فندم القوم على ما كان منهم واعتذروا اليه وقالوا نبني لك
صومعتك من ذهب أو فضة فأبى عليهم وبناها كما كانت وأما الصبي الآخر فان امرأة كان
معها صبي لها ترضعه اذ مر بها شاب جميل ذو شارة فقالت اللهم اجعل ابني مثل هذا فقال
الصبي اللهم لا تجعلني مثله ثم مر بها امرأة ذكروا أنها سرقت وزنت وعوقبت فقالت اللهم
لا تجعل ابني مثل هذه فقال الصبي اللهم اجعلني مثلها فقالت له أمه في ذلك فقال ان الراكب
جبار من الجبابرة فكرهت أن أكون مثله وان هذه قيل لها زنيت ولم تزن وقيل لها سرقت ولم
تسرق وهي تقول حسبي الله فأحببت أن أكون مثلها ومنها خبر الغار وهو مشهور في الصحيح
عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق ثلاثة رهط ممن كان
قبلكم فأواهم المبيت الى غار فدخلوه فانحدرت عليهم صخرة من الجبل فسدت عليهم باب الغار
وقد ذكرت ذلك عند قوله تعالى كانوا من آياتنا عجبا ومنها قوله صلى الله عليه وسلم رب أشعث
أغبر ذي طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لابره ولم يفرق من شئ وشئ فيما يقسم به على الله تعالى
ومنها ما روى عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل

يسوق بقرة قد حمل عليها التفتت البقرة وقالت انى لم أخلق لهذا وانما خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنت بهذا وأبو بكر وعمر ومنها ماروى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بينا رجل سمع رعدا أوصوتا فى السحاب ان اسق حديقة فلان قال فغدوت الى تلك الحديقة فاذا رجل قائم فيها فقلت له ما اسمك قال فلان ابن فلان قلت فما تصنع بحديقتك هذه اذا صرمتها قال ولم تسأل عن ذلك قلت لانى سمعت صوتا فى السحاب أن اسق حديقة فلان قال اما اذ قلت فانى أجعلها أثلاثا فاجعل لنفسى ولاهلى ثلثا واجعل للمساكين وأبناء السبيل ثلثا وأنفق عليها ثلثا وأما الآثار فكثيرة أيضا ولنبدأ منها ببعض مانقل انه ظهر على يد الخلفاء الراشدين من الكرامات ثم ببعض ماظهر على يد بعض الصحابة اما أبو بكر رضى الله تعالى عنه فمن كراماته أنه لما حملت جنازته الى باب قبر النبى صلى الله عليه وسلم ونودى السلام عليك يارسول الله هذا أبو بكر بالباب فاذا بالباب قد فتح واذا بهاتف يهتف من القبر أدخلوا الحبيب الى الحبيب وأما عمر رضى الله تعالى عنه فقد ظهرت أنواع كثيرة من كراماته النوع الاول ماروى أنه لما بعث جيشا وأمّر عليهم رجلا يدعى سارية بن الحصين فبينما عمر يوم الجمعة يخطب جعل يصيح فى خطبته وهو على المنبر ياسارية الجبل الجبل قال على بن أبى طالب رضى الله عنه كتبت تاريخ هذه الكلمة فلما قدم رسول ذلك الجيش فقال ياأمير المؤمنين غدونا يوم الجمعة فى وقت الخطبة فهزمونا فاذا بانسان يصيح ياسارية الجبل فأسندنا ظهرنا الى الجبل فهزم الله تعالى الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة ذلك الصوت قال الرازى قلت سمعت بعض المذكرين قال كان ذلك معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه قال لابى بكر وعمر أنتما منى بمنزلة السمع والبصر فلما كان عمر بمنزلة البصر لمحمد صلى الله عليه وسلم لاجرم قدر على أن يرى من ذلك البعد العظيم النوع الثانى ماروى أن نيل مصر كان فى الجاهلية يقف فى كل سنة مرة واحدة فكان لايجرى حتى تلقى فيه جارية حسناء فلما جاء الاسلام كتب عمرو بن العاص الى عمر فكتب عمر على خرقة أيها النيل ان كنت تجرى بأمر الله فاجر وان كنت انما تجرى بأمرك لاحاجة بنا اليك فألقيت تلك الخرقة فى النيل فجرى ولم يقف بعد ذلك النوع الثالث لما وقعت الزلزلة فى المدينة فضرب عمر بالدرة على الارض وقال اسكنى باذن الله فسكنت وماحدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك الوقت النوع الرابع وقعت النار فى بعض دور المدينة فكتب عمر على خرقة يانار اسكنى باذن الله فألقوها فى النار فانطفأت فى الحال النوع الخامس ماروى أن رسول ملك الروم جاء الى عمر وطلب داره فظن أن داره مثل قصور الملوك فقالوا ليس له ذلك وانما هو فى الصحراء يضرب اللبن فلما ذهب الى الصحراء رأى عمر وضع درته تحت رأسه ونام على التراب فتعجب الرسول من ذلك وقال أهل المشرق والمغرب يخافون هذا الانسان وهو على هذه الصفة ثم قال فى نفسه ان وجدته خاليا فأقتله وأخلص الناس منه فلما رفع السيف أخرج الله تعالى من الارض أسدين فقصداه فخاف وألقى السيف من يده وانتبه عمر ولم ير شيأ فسأله عن الحال فذكر له الواقعة وأسلم قال الرازى وأقول هذه

الواقعة

الواقعة وبنت بالآحاد وههنا ماهو معلوم بالتواتر وهو أنه مع بعده عن زينة الدنيا واحترازه عن التكلفات والتمويلات ساس الشرق والغرب وغلب الممالك والدول ولو نظرت في كتب التواريخ علمت أنه لم يتفق لاحد من أول عهد عمر الى الآن ماتيسر له فانه مع غاية بعده عن التكلفات كيف قدر على تلك السياسات ولا شك أن هذا من أعظم الكرامات وأما عثمان رضي الله تعالى عنه فأشياء كثيرة منها ماروى عن أنس قال سرت في الطريق فوقعت عيني على امرأة ثم دخلت على عثمان فقال مالي أراكم تدخلون علي وآثار الزنا ظاهرة عليكم فقلت أجاء الوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا ولكن فراسة صادقة ومنها انه لما طعن بالسيف فأول قطرة من دمه سقطت وقعت على المصحف على قوله تعالى فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ومنها أن جهجاها الغفاري انتزع العصا من يد عثمان فكسرها على ركبته فوقعت الاكلة في ركبته وأما علي رضي الله تعالى عنه فأشياء كثيرة أيضا منها ماروى أن واحدا من محبيه سرق وكان عبدا أسود فأتى به الى علي فقال له أسرقت فقال بلى فقطع يده فانصرف من عنده فلقيه سلمان الفارسي وابن الكواء فقال ابن الكواء من قطع يدك فقال له أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول فقال له سلمان قطع يدك وتمدحه فقال ولم لا أمدحه وقد قطع يدي بحق وخلصني من النار فسمع سلمان ذلك فأخبر به عليا فدعا الاسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات فسمعنا صوتا من السماء ارفع الرداء عن اليد فرفعناه فاذا اليد قد برئت وأما ماروى عن بعض الصحابة فشئ كثير ونذكر منها شيأ قليلا منها ماروى محمد بن المنكدر عن سفينة قال ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها وركبت لوحا من ألواحها فطرحني اللوح في خيسة فيها أسد فخرج الاسد الي يريدني فقلت يا أبا الحرث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فتقدم الاسد الي ودلني على الطريق ثم همهم فظننت أنه يودعني ورجع ومنها ماروى ثابت عن أنس أن أسيد بن حضير ورجلا آخر من الانصار تحدثا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة لهما حتى ذهب من الليل زمان ثم خرجا من عنده وكانت الليلة شديدة الظلمة وكان في يد كل واحد منهما عصا فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها فلما افترقت بينهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فمشى حتى بلغ منزله ومنها ماروى أنه قيل لخالد بن الوليد ان في عسكرك من يشرب الخمر فركب فرسه ليلة فطاف بالعسكر فلقي رجلا على فرس ومعه خمر فقال ماهذا قال خل فقال خالد اللهم اجعله خلا فذهب الرجل الى أصحابه فقال أتيتكم بخمر ماشربت العرب مثله فلما فتحوا فاذا هو خل فقالوا والله ماجئتنا الا بخل فقال والله هذا دعاء خالد ومنها الواقعة المشهورة وهي ان خالد بن الوليد أكل كفا من السم على اسم الله وماضره ومنها ماروى أن ابن عمر كان في بعض أسفاره فلقي جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع فطرد السبع من طريقهم ثم قال انما يسلط على ابن آدم مايخافه ولو أنه لم يخف غير الله لما سلط عليه شئ ومنها ماروى أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث العلاء الحضرمي في غزاة فحال بينهم وبين المطلوب قطعة من البحر فدعا

باسم الله الاعظم ومشوا على الماء وفى كتب الصوفية من هذا الباب روايات متجاوزة عن الحد والحصر فمن أراد هاطالعها وأما الدلائل العقلية على جواز الكرامات فمن وجوه الاوّل أنه صلى الله عليه وسلم قال حاكيا عن رب العزة من آذى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة فجعل ايذاء الولى قائما مقام ايذائه وتأكد هذا بالخبر المشهور أنه تعالى يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى استسقيتك فما سقيتنى استطعمتك فما أطعمتنى فيقول يارب كيف أفعل هذا وأنت رب العالمين فيقول ان عبدى فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدت ذلك عندى وكذا فى السقى والاطعام فدلت هذه الاخبار على أنّ أولياء الله يبلغون هذه الدرجات العالية والمراتب الشريفة فاذا جاز اتصال العبد الى هذه الدرجات فأى بعد أن يعطيه الله تعالى كسرة خبز أو جرعة ماء أو يسخر له كلبا أو دودة الوجه الثانى أنه صلى الله عليه وسلم قال عن رب العزة ما تقرب الىّ عبدى بمثل أداء ما افترض عليه ولا يزال يتقرب الىّ بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا وقلبا ولسانا ويدا ورجلا فبى يسمع وبى يبصر وبى ينطق وبى يمشى وهذا الخبر يدل على أنه لم يبق فى سمعهم نصيب لغير الله تعالى لما قال أنا سمعه وأنا بصره وهذا المقام أشرف من تسخير الحية والسبع واعطاء عنقود من العنب أو شربة من الماء فلما أوصل برحمته عبده الى هذه الدرجات العالية فأى بعد فى أن يعطيه رغيفا واحدا أو شربة من الماء فى مفازة الوجه الثالث لو امتنع اظهار الكرامة لكان ذلك امّا لاجل أنّ الله تعالى ليس أهلا لان يفعل مثل هذا الفعل أو لاجل أنّ المؤمن ليس أهلا لان يعطيه الله هذه العطية والاوّل قدح فى قدرة الله تعالى وهو كفر والثانى باطل فانّ معرفة الله تعالى ومحبته وطاعته والمواظبة على ذكر تقديسه وتمجيده وتهليله أشرف من اعطاء رغيف واحد فى مفازة وتسخير حية أو أسد فان اعطاء المحبة والذكر والشكر من غير سؤال أولى من أن يعطيه شربة ماء فى مفازة فأى بعد فيه واحتج المنكر للكرامات بوجوه الاوّل أنّ ظهور الفعل الخارق للعادة جعله الله تعالى دليلا على النبوّة فلو حصل لغير النبىّ لبطلت هذه الدلالة الوجه الثانى أنّ الله تعالى قال وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس والقول بأنّ الولىّ ينتقل من بلد الى بلد بعيد لاعلى هذا الوجه طعن فى هذه الآية وأيضا انّ النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يصل من مكة الى المدينة الا فى أيام كثيرة مع التعب الشديد فكيف يعقل أن يقال انّ الولىّ ينتقل من بلد نفسه الى الحج فى اليوم الواحد الوجه الثالث أنّ هذا الولىّ الذى يظهر عليه الكرامات اذا ادّعى على انسان درهما واحدا فهل يطالب بالبينة أم لا فان طالبناه بها كان عبثا لانّ ظهور الكرامة عليه يدل على أنه لا يكذب ومع قيام الدليل القاطع كيف يطلب الدليل الظنى وان لم يطالب بها فقد تركنا قوله صلى الله عليه وسلم البينة على المدعى فهذا يدل على انّ القول بالكرامة باطل وأجيب عن الاوّل بأنّ الناس اختلفوا هل يجوز للولى دعوى الولاية فقال قوم من المحققين انه لا يجوز فعلى هذا الفرق بين المعجزة والكرامة أنّ المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوّة والكرامة لا تكون مسبوقة

بدعوى الولاية وعلى القول بالجواز الفرق بينهما أن النبي يدعى المعجزة ويقطع بها والولى اذا ادعى الكرامة لا يقطع بها لان المعجز يجب ظهوره والكرامة لا يجب ظهورها وأجيب عن الثانى بأن قوله تعالى ويحمل أثقالكم الى آخره محمول على المعهود المتعارف وكرامات الاولياء أحوال نادرة فتصير كالمستثنيات من ذلك العموم المتعارف وأجيب عن الثالث بأن التمسك بالامور النادرة لا يعول عليه فى الشرع فلا ينافى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم البينة على المدعى ومع هذا فصاحب الكرامة يجب عليه أن يكون خائفا وجلا ولهذا قال المحققون أكثر ما حصل الانقطاع عن حضرة الله انما وقع فى مقام الكرامات فلا جرم ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من أشد أنواع البلاء والذى يدل على أن الاستئناس بالكرامة قاطع عن الطريق وجوه الاول أن الكرامات أشياء مغايرة للحق سبحانه وتعالى فالفرح بالكرامة فرح بغير الحق والفرح بغير الحق حجاب والمحجوب عن الحق كيف يليق به الفرح والسرور الوجه الثانى أن من اعتقد فى نفسه أنه صار مستحقا للكرامة بسبب عمله حصل لعمله وقع عظيم فى قلبه ومن كان لعمله وقع عظيم فى قلبه كان جاهلا اذ لو عرف ربه لعلم ان كل طاعات الخلق فى جنب جلاله تقصير وكل شكر فى جنب آلائه ونعمائه قصور وكل معارفهم وعلومهم فهى فى مقابلة عزته حيرة وجهل وجدت فى بعض الكتب أنه قرئ فى مجلس الاستاذ أبى على الدقاق قوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فقال علامة أن الحق رفع عملك أن لا يبقى عندك منه شئ فى نظرك فان بقى عملك فى نظرك فهو غير مرفوع وان لم يبق عملك فى نظرك فهو مرفوع مقبول الوجه الثالث أن صاحب الكرامة انما وجد الكرامة لاظهار الذل والتضرع فى حضرة الله تعالى فاذا ترفع وتكبر وتجبر بسبب الكرامات فقد بطل ما به وصل الى الكرامات فهذا طريق يؤدى ثبوته الى عدمه فكان مردودا ولهذا المعنى لما ذكر صلى الله عليه وسلم مناقب نفسه وفضائلها كان يقول فى آخر كل واحد منها ولا فخر أى لا أفخر بهذه الكرامات وانما أفخر بالمكرم والمعطى الوجه الرابع أنه تعالى وصف عباده المخلصين بقوله تعالى ويدعوننا رغبا أى فى ثوابنا ورهبا أى من عذابنا وقيل رغبا فى وصالنا ورهبا من عقابنا قال بعض المحققين والاحسن أن يقال رغبا فينا ورهبا عنا وفى هذا القدر كفاية لاولى الالباب جعلنا الله تعالى وأحبابنا من أهل ولايته بمحمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحابته * ثم لما دل اشتمال القرآن على قصة أصحاب الكهف من حيث انها من المغيبات بالاضافة الى النبى صلى الله عليه وسلم على أنه وحى معجز أمره أن يداوم درسه ويلازم أصحابه بقوله تعالى (واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك) أى القرآن واتبع ما فيه واعمل بما فيه (لا مبدل لكلماته) أى لا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره وقال بعضهم مقتضى هذا أن لا يتطرق النسخ اليه وأجاب بأن النسخ فى الحقيقة ليس تبديلا لان المنسوخ ثابت فى وقته الى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالمغاير فكيف يكون تبديلا وهذا لا يحتاج اليه مع التفسير المذكور (ولن تجد من دونه) أى الله (ملتحدا) أى ملجأ فى البيان والارشاد وقيل ان لم تتبع

القرآن * ونزلت في عيينة بن حصن الفزاري لما أتى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء فيهم سلمان الفارسي وعليه شملة قد عرق فيها وبيده خوص يشقه ثم ينسجه فقال له أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر واشرافها فان أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك الا هؤلاء أي كما قال قوم نوح أنؤمن لك واتبعك الارذلون فنحهم حتى تتبعك أو اجعل لنا مجلسا واجعل لهم مجلسا (واصبر نفسك) أي احبسها وثبتها (مع الذين يدعون ربهم) ونظير هذه الآية قد سبق في سورة الانعام وهو قوله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ففي تلك الآية نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن طردهم وفي هذه الآية أمره بمجالستهم والمصابرة معهم وفي قوله تعالى (بالغدوة والعشي) وجوه الاول انهم مواظبون على هذا العمل في كل الاوقات كقول القائل ليس لفلان عمل بالغداة والعشي الا شتم الناس الثاني المراد صلاة الفجر والعصر الثالث أن المراد الغداة وهو الوقت الذي ينتقل فيه الانسان من النوم الى اليقظة وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من الموت الى الحياة والعشي هو الوقت الذي ينتقل الانسان فيه من الحياة الى الموت ومن اليقظة الى النوم والانسان العاقل يكون في هذين الوقتين كثيرا لذكر الله تعالى عظيم الشكر لآلاء الله ونعمائه وقرأ ابن عامر بضم الغين المعجمة وسكون الدال وبعدها واو مفتوحة والباقون بفتح الغين والدال وألف بعدها والرسم في المصحف بالواو هنا وفي سورة الانعام (يريدون) بعبادتهم (وجهه) تعالى أي رضاه وطاعته لا شيأ من اعراض الدنيا (ولا تعد) أي تنصرف (عيناك عنهم) الى غيرهم وعبر بالعينين عن صاحبهما فنهى صلى الله عليه وسلم أن يصرف بصره ونفسه عنهم لاجل رغبته في مجالسة الاغنياء لعلهم يؤمنون وقوله تعالى (تريد زينة الحياة الدنيا) في موضع الحال أي انك ان فعلت ذلك لم يكن اقدامك عليه الا لرغبتك في زينة الحياة الدنيا ولما بالغ تعالى في أمره في مجالسة الفقراء من المسلمين بالغ في النهي عن الالتفات الى أقوال الاغنياء والمتكبرين بقوله تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) أي جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا أي عيينة بن حصن وقيل أمية بن خلف (واتبع هواه) أي في طلب الشهوات (وكان أمره فرطا) أي اسرافا وباطلا وهذا يدل على أن أشر أحوال الانسان أن يكون قلبه خاليا عن ذكر الحق ويكون مملوأ من الهوى الداعي الى الاشتغال بالخلق لان ذكر الله تعالى نور وذكر غيره ظلمة لان الوجود طبيعة النور والعدم منبع الظلمة والحق تعالى واجب الوجود لذاته فكان النور الحق هو الله تعالى وما سواه فهو ممكن الوجود لذاته والامكان طبيعة عدمية فكان منبع الظلمة فالقلب اذا أشرق فيه ذكر الله تعالى فقد حصل فيه النور والضوء والاشراق واذا توجه القلب الى الخلق فقد حصل فيه الظلم والظلمة بل الظلمات فلهذا السبب اذا أعرض القلب عن الحق وأقبل على الخلق فهو الظلمة الخالصة التامة والاعراض عن الحق هو المراد بقوله تعالى أغفلنا قلبه عن ذكرنا والاقبال على الخلق هو المراد بقوله تعالى واتبع هواه روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال كنت جالسا في عصابة من ضعفاء المهاجرين وان بعضهم

ليستتر بعض من العرى وقارئ يقرأ من القرآن لجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما الذى كنتم تصنعون قلنا يارسول الله كان واحد يقرأ من القرآن ونحن نسمع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذى جعل من أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم ثم جلس وسطنا وقال أبشروا يا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة فتدخلون الجنة قبل الاغنياء بمقدار خمسمائة سنة ٭ ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا يلتفت الى أولئك الاغنياء الذين قالوا ان طردت الفقراء آمنا بك قال تعالى بعده (وقل الحق) أى وقل لهؤلاء ولغيرهم هذا الذى جئتكم به فى أمر أهل الكهف وغيرهم من هذا الوجه العربى المعرى عن العوج الظاهر الاعجاز الباهر الحجج الحق كائنا (من ربكم) المحسن اليكم فى أمر أهل الكهف وغيرهم من صبر نفسى مع المؤمنين والاعراض عمن سواهم وغير ذلك لا ما قلتموه فى أمرهم ويجوز أن يكون الحق مبتدأ وخبره الجار بعده (فمن شاء) أى منكم ومن غيركم (فليؤمن) بهذا الذى قصصناه فيهم وفى غيرهم فهو مقبول مرغوب فيه وان كان فقيرا رث الهيئة ولم ينفع الا نفسه (ومن شاء) منكم ومن غيركم (فليكفر) فهو أهل لان يعرض عنه ولا يلتفت اليه وان كان أغنى الناس وأحسنهم هيئة وان تعاظمت هيئته وهذا لا يقتضى استقلال العبد بفعله كما تقول المعتزلة فعن ابن عباس فى معنى الآية من شاء الله له الايمان آمن ومن شاء له الكفر كفر ونقل عن على رضى الله عنه أنه قال هذه الصيغة تهديد ووعيد أى فهى كقوله تعالى اعملوا ما شئتم فان الله تعالى لا ينتفع بايمان المؤمنين ولا يستضر بكفر الكافرين بل نفع الايمان يعود على المؤمن وضرر الكفر يعود على الكافر كما قال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها ٭ ولما هدد السامعين بما حاصله ليختار كل امرئ لنفسه ما يجده غدا عند الله أتبعه بذلك الوعيد والافعال الباطلة وبذكر الوعد على الايمان والاعمال الصالحة أما الوعيد فقوله تعالى (انا أعتدنا) أى هيأنا بما لنا من العظمة والقدرة (للظالمين) أى لمن أنف عن قبول الحق لاجل ان الذين قبلوه فقراء ومساكين وكذا كل من لم يؤمن (نارا) وهى الجحيم ثم وصف الله تعالى تلك النار بصفتين الاولى قوله تعالى (أحاط بهم) كلهم (سرادقها) أى فسطاطها شبه به ما يحيط بهم من النار وقيل هو الحجرة التى تكون حول الفسطاط وقيل حائط من نار والمراد أنه لا مخلص لهم منها ولا فرجة يتفرجون بالنظر الى ما وراءها من غير النار بل هى محيطة من كل الجوانب وقيل هو دخان يغشاهم قبل دخولهم النار يحيط بهم كالسرادق حول الفسطاط الصفة الثانية قوله تعالى (وان يستغيثوا) أى يطلبوا الغوث (يغاثوا بماء) ووصف هذا الماء بصفتين الاولى قوله تعالى (كالمهل) وهو كما فى حديث مرفوع دردى الزيت وعن ابن مسعود أنه دخل بيت المال وأخرج نفاعة كانت فيه وأوقد عليها النار حتى تلألأت ثم قال هذا هو المهل وقال أبو عبيدة والاخفش كل شئ أذيب من نحاس أو ذهب أو فضة فهو المهل وقيل انه الصديد والقيح وقيل انه ضرب من القطران ثم يحتمل أن تكون هذه الاستغاثة لانهم طلبوا ماء للشرب فيعطون هذا المهل قال تعالى تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية ويحتمل أن يستغيثوا

من حر جهنم فيطلبوا ما يصبونه على أنفسهم للتبريد فيعطون هذا الماء قال تعالى حكاية عنهم أفيضوا علينا من الماء وقال تعالى في آية أخرى سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار فإذا استغاثوا من حر جهنم صب عليهم القطران الذي يعم كل أبدانهم كالقميص والصفة الثانية للماء قوله تعالى (يشوى الوجوه) أي إذا قرب إلى الفم ليشرب فكيف بالفم والجوف ثم وصل تعالى بذلك ذمه فقال تعالى (بئس الشراب) أي ذلك الماء الذي هو كالمهل لأن المقصود من شرب الشراب تسكين الحرارة وهذا يبلغ في احراق الانسان مبلغا عظيما ثم عطف عليه ذم النار المعدة لهم بقوله تعالى (وساءت) أي النار وقوله تعالى (مرتفقا) تمييز منقول من الفاعل أي قبح مرتفقها وهو مقابل لقوله تعالى الآتي في الجنة وحسنت مرتفقا والا فأي ارتفاق في النار ولما ذكر تعالى وعيد المبطلين أردفه بوعد المحقين فقال تعالى (إن الذين آمنوا) ولما كان الايمان هو الاذعان للأوامر عطف عليه ما يحقق ذلك بقوله تعالى (وعملوا الصالحات) ثم عظم جزاءهم بقوله تعالى (إنا لا نضيع) أي بوجه من الوجوه (أجر من أحسن عملا) وهذه الجملة خبر إن الذين وفيها اقامة الظاهر مقام المضمر والمعنى أجرهم أي نثيبهم بما تضمنه (أولئك لهم جنات عدن) أي اقامة فكأنه قيل فما لهم فيها فقيل (تجري من تحتهم) أي من تحت منازلهم (الأنهار) وذلك لأن أفضل المساكن ما كان تجري فيه الأنهار أو الماء فكأنه قيل ثم ماذا فقيل (يحلون فيها) وبنى الفعل للمجهول لأن المقصود وجود التحلية وهي أعزها انما يؤتى بها من الغيب فضلا من الله تعالى ولما كانت نعم الله لا تحصى نوع منها قال تعالى مبعضا (من أساور) جمع أسورة كأحمرة جمع سوار كما يلبس ذلك ملوك الدنيا من جبابرة الكفرة في بعض الأقاليم كأهل فارس وقيل من زائدة وقيل للابتداء ومن في قوله تعالى (من ذهب) للبيان صفة لأساور وتنكيرها لتعظيم حسنها عن الاحاطة به وقيل للتبعيض ولما كان اللباس جزاء العمل فكان موجودا عندهم أسند الفعل اليهم فقال (ويلبسون ثيابا خضرا) لأن الخضرة أحسن الألوان وأكثرها طراوة ثم وصفها بقوله تعالى (من سندس) وهو مارق من الديباج (واستبرق) وهو ما غلظ منه جمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وفي آية أخرى بطائنها من استبرق فيكون الغليظ بطانة للرقيق ثم استأنف الوصف عن حال جلوسهم فيها بأنه جلوس الملوك المتمكنين من النعيم فقال تعالى (متكئين فيها) أي لأنهم في غاية الراحة (على الأرائك) جمع أريكة وهي السرير في الحجلة وهي بيت يزين بالثياب والستور للعروس ثم مدح هذا بقوله تعالى (نعم الثواب) أي الجزاء الجنة لو لم يكن لهم وصف غير ما سمعت فكيف ولها من الأوصاف ما لا يعلمه حق علمه الا الله تعالى والى ذلك أشار بقوله تعالى (وحسنت) أي الجنة كلها وبين ذلك بقوله تعالى (مرتفقا) أي مقرا ومرتفقا ومجلسا ولما افتخر الكفار بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين بين الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنيا والغني فقيرا وأما الذي يجب الافتخار به فطاعة الله تعالى وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور

بقوله تعالى (واضرب لهم) أى لهؤلاء الاغنياء المتجبرين الذين يستكبرون على المؤمنين ويطلبون طردهم لضعفهم وفقرهم (مثلا) لما آتاهم الله من زينة الحياة الدنيا واعتمدوا عليه وركنوا اليه ولم يشكروا من آتاهم اياه عليه بل أداهم الى الافتخار والتكبر على من زوى ذلك عنه اكراماله وصيانة عنه (رجلين) الى آخر الآية واختلف فى سبب نزولها فقيل نزلت فى رجلين من أهل مكة من بنى مخزوم أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة وكان زوج أم سلمة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم والآخر كافر وهو الاسود بن عبد ياليل وهما ابنا عبد الاسد بن عبد ياليل وقيل مثال لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وأصحابه شبههما برجلين من بنى اسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا فى قول ابن عباس وقال مقاتل تمليخا والآخر كافر واسمه فطروس وقال وهب قطفر وهما اللذان وصفهما الله تعالى فى سورة والصافات وكانت قصتهما على ما حكى عبد الله بن المبارك عن معمر عن عطاء الخراسانى قال كانا رجلين شريكين لهما ثمانية آلاف دينار وقيل كانا أخوين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها فاشترى أحدهما أرضا بألف دينار فقال صاحبه اللهم ان فلانا قد اشترى أرضا بألف دينار وانى مشتر منك أرضا فى الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال صاحبه اللهم ان فلانا بنى دارا بألف دينار وانى اشتريت منك دارا فى الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم تزوج صاحبه امرأة فأنفق عليها ألف دينار فقال هذا اللهم انى أخطب اليك من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه اشترى خدما ومتاعا بألف دينار فقال هذا اللهم انى اشترى خدما ومتاعا من الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم أصابته حاجة شديدة فقال لو أتيت صاحبى لعله ينالنى منه معروف فجلس على طريقه حتى مر به فى حشمه فقام اليه فنظر اليه الآخر فعرفه فقال له فلان قال نعم قال ما شأنك قال أصابتنى حاجة بعدك فأتيت لتصيبنى بخير قال فما فعل مالك وقد اقتسمنا مالا وأخذت شطره فقص عليه قصته فقال وانك لمن المصدقين بهذا اذهب فلا أعطيك شيأ فطرده وروى انه لما أتاه أخذ بيده فجعل يطوف به ويريه أموال نفسه فنزل فيهما واضرب لهم مثلا رجلين أى اذكر لهم خبر رجلين (جعلنا لاحدهما جنتين) أى بستانين يسر ما فيهما من الاشجار من يدخلهما (من أعناب) لانهما من أشجار البلاد الباردة وتصبر على الحر وهى فاكهة وقوت بالعنب والزبيب والخل وغيرها ثم انه تعالى وصف الجنتين بصفات الصفة الاولى قوله تعالى (وحففناهما) أى أطفناهما من جوانبهما (بنخل) لانها من أشجار البلاد الحارة وتصبر على الحرور وبما منعت عن الاعناب بعض أسباب العاهات وثمرها فاكهة بالبسر والرطب وقوت بالتمر والخل فكان النخل كالاكليل من وراء العنب * (تنبيه) * الحفاف الجانب وجمعه أحفة يقال أحف به القوم أى أطافوا بجوانبه الصفة الثانية قوله تعالى (وجعلنا بينهما) أى أرض الجنتين (زرعا) ليعم شمول الآفة للكل لان زمان الزرع ومكانه غير زمان ثمار الشجر ومكانه وذلك هو العمدة فى القوت فكانت الجنتان أرضا جامعة لخير الفاكهة وأفضل الاقوات وعمارتهما متواصلة

متشابكة لم يتوسطهما ما يقطعهما ويفصل بينهما مع سعة الاطراف وتباعد الاكناف وحسن الهيئات والاوصاف الصفة الثالثة قوله تعالى (كلتا) أى كل واحدة من (الجنتين) المذكورتين (آتت أكلها) أى ما يطلب منها ويؤكل من ثمر وحب كاملا غير منسوب شئ منهما الى نقص ولا رداءة وهو بمعنى (ولم تظلم) أى ولم تنقص (منه شيأ) يعهد فى سائر البساتين فان الثمار تتم فى عام وتنقص فى عام غالبا والظلم النقصان تقول الرجل ظلمنى حقى أى نقصنى *(تنبيه)* كلا اسم مفرد معرفة يؤكد به مذكران معرفتان وكلتا اسم مفرد ومعرفة يؤكد به مؤنثان معرفتان وانما اذا أضيفا الى المظهر كانا بالالف فى الاحوال الثلاثة كقولك جاءنى كلا أخويك ورأيت كلا أخويك ومررت بكلا أخويك وجاءنى كلتا أختيك ورأيت كلتا أختيك ومررت بكلتا أختيك واذا أضيفا الى المضمر كانا فى الرفع بالالف وفى الجر والنصب بالياء وبعضهم يقول مع المضمر بالالف فى الاحوال الثلاثة أيضا فقوله تعالى آتت أكلها حمل على اللفظ لان كلتا لفظ مفرد ولو قيل آتتا على المعنى لجاز الصفة الرابعة قوله تعالى (وفجرنا خلالهما نهرا) أى وسطهما وبينهما ومنه قوله تعالى ولاوضعوا خلالكم ومنه يقال خللت القوم أى دخلت القوم وذلك ليدوم شربهما ويستغنيا عن المطر عند القحط ويزيد بهاؤهما الصفة الخامسة قوله تعالى (وكان له) أى صاحب الجنتين (ثمر) أى أنواع من المال سوى الجنتين قال ابن عباس من ذهب وفضة وغير ذلك من أثمر ماله اذا كثر وعن مجاهد الذهب والفضة خاصة أى كان مع الجنتين أشياء من الاموال ليكون متمكنا من العمارة بالاعوان والآلات وجميع ما يريد وقرأ أبو عمرو وثمر هنا وثمره الآتى بسكون الميم فيهما بعد ضم الثاء المثلثة وقرأ عاصم بفتح المثلثة والميم فيهما والباقون بضم المثلثة والميم فيهما ذكر أهل اللغة ان الضم أنواع المال من الذهب والفضة وغيرهما وبالفتح حمل الشجر قال قطرب وكان أبو عمرو بن العلاء يقول الثمر المال والولد وأنشد للحرث بن حلزة

ولقد رأيت معاشرا * قد أثمروا مالا وولدا

وقال النابغة مهلا فداء لك الاقوام كلهم * وما أثمر من مال ومن ولد

(فقال) أى هذا الكافر (لصاحبه) أى المسلم المجعول مثلا للفقراء المؤمنين (وهو) أى صاحب الجنتين (يحاوره) أى يراجعه الكلام من حار يحور اذا رجع افتخارا عليه وتقبيحا لحاله بالنسبة اليه والمسلم يحاوره بالوعظ وتقبيح الركون الى الدنيا (أنا أكثر منك مالا) لما ترى من جناتى وقصورى وقرأ نافع بمد الالف بعد النون والباقون بالقصر هذا فى الوصل وأما فى الوقف فبالالف للجميع وسكن قالون وأبو عمرو والكسائى هاء وهو وضمها الباقون ورقق ورش راء يحاوره (وأعز نفرا) أى ناسا يقومون معى فى المهمات وينفعون عند الضرورات لان ذلك لازم لكثرة المال غالبا وترى أكثر الاغنياء من المسلمين وان لم يطلقوا بمثل هذا ألسنتهم فان ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه (ودخل جنته) بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها وأفرد الجنة لارادة الجنس ودلالة ما أفاده الكلام من أنهما لاتصالهما كالجنة الواحدة واشارة

الى أنه لاجنة له غيرها لانه لاحظ له فى الآخرة (وهو) أى والحال أنه (ظالم لنفسه) لاعتماده على ماله والاعراض عن ربه ثم استأنف بيان ظلمه بقوله تعالى (قال ما أظن أن تبيد) أى تنعدم (هذه) أى الجنة (أبدا) لطول أمله وتمادى غفلته واغتراره بجهله ثم زاد فى الطغيان والبطر بقصر النظر على الحاضر فأنكر البعث بقوله (وما أظن الساعة قائمة) أى كائنة استلذاذا بما هو فيه واخلادا اليه واعتمادا عليه وقوله (ولئن رددت الى ربى) المحسن الى فى هذه الدار فى الساعة اقسام منه على أنه ان رد الى ربه على سبيل الفرض والتقدير وعلى ما يزعم صاحبه أن الساعة قائمة (لأجدن خيرا منها) أى من هذه الجنة (منقلبا) أى مرجعا لانه لم يعطنى الجنة فى الدنيا الا ليعطينى فى الآخرة أفضل منها قال ذلك طمعا وتمنيا على الله وادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده وانه ما أولاه الجنتين الا لاستحقاقه واستئهاله وأن معه هذا الاستحقاق أينما توجه كقوله ان لى عنده للحسنى لأوتين مالا وولدا (قال له صاحبه) أى المؤمن (وهو) أى والحال أن ذلك الصاحب (يحاوره) أى يراجعه منكرا عليه (أكفرت بالذى خلقك من تراب) أى خلق أصلك آدم من تراب لان خلق أصله سبب فى خلقه فكان خلقه خلقا له (ثم من نطفة) متولدة من أغذية أصلها تراب هى مادتك القريبة (ثم سواك) أى عدلك بعد أن أولدك وطورك فى أطوار النشأة (رجلا) أى كملك انسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال جعل كفره بالبعث كفرا بالله تعالى لان منشأه الشك فى كمال قدرة الله تعالى ولذلك ترتب الانكار على خلقه اياه من التراب فان من قدر على بدء خلقه مرة قدر على أن يعيده منه ولما أنكر على صاحبه أخبر عن اعتقاده بما يضاد اعتقاد صاحبه فقال مؤكدا لاجل انكار صاحبه مستدركا لاجل كفرانه (لكنا) أصله لكن أنا نقلت حركة الهمزة الى النون وحذفت الهمزة ثم أدغمت النون فى مثلها كما قال القائل

وترمينني بالطرف أى أنت مذنب * وتقلينني لكن اياك لا أقلى

أى لكن أنا لا أقليك * ولما كان سبحانه وتعالى لا شئ أظهر منه ولا شئ أبطن منه أشار الى ذلك جميعا باضماره قبل الذكر فقال (هو) أى الظاهر أتم ظهور فلا يخفى أصلا ويجوز أن يكون الضمير للذى خلقك (الله) أى المحيط بصفات الكمال (ربى) وحده لم يحسن الى خلقا ورزقا أحد غيره وهذا اعتقادى فى الماضى والحال وقرأ ابن عامر باثبات الالف بعد النون وقفا ووصلا لاتباع المرسوم والباقون باثبات الالف بعد النون وقفا وحذفها وصلا (فان قيل) قوله لكنا استدراك لماذا (أجيب) بأنه لقوله أكفرت فكأنه قال لاخيه أكفرت بالله لكنى مؤمن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمرو حاضر وذكر القفال فى قول المؤمن (ولا أشرك بربى) أى المحسن الى فى عبادتى (أحدا) وجوها أحدها انى لا أرى الفقر والغنى الا منه فأحمده اذا أعطى وأصبر اذا ابتلى ولا أكفر عندما ينعم على ولا أرى كثرة الاموال والاعوان من نفسى وذلك لان الكافر لما اغتر بكثرة المال والجاه فكأنه قد أثبت لله شريكا فى اعطاء العز والغنى وثانيها لعل ذلك الكافر مع كونه منكر البعث كان عابد صنم فبين هذا

المؤمن فساد قوله باثبات الشركاء وثالثها ان هذا الكافر لما عجز الله تعالى عن البعث والحشر فقد جعله مساويا للخلق في هذا العجز واذا أثبت المساواة فقد أثبت الشريك ثم قال المؤمن للكافر (ولولا اذ) أى وهلا حين (دخلت جنتك قلت) عند اعجابك بها ما يدل على تفويضك الامر فيها وفي غيرها الى الله تعالى وهو (ما شاء الله) أى الامر ما شاء الله أو ما شاء الله كائن على ان ما موصولة أى وأى شئ شاء الله كان على أنها شرطية والجواب محذوف أى اقرارا بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى ان شاء أبقاها وان شاء أهلكها وقرأ ابن ذكوان وحمزة بالامالة والباقون بالفتح واذا وقف حمزة وهشام على شاء أبدل الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر وأظهر اذ عند الدال نافع وابن كثير وعاصم والباقون بالادغام وهلا قلت (لا قوة الا بالله) اعترافا بالعجز على نفسك والقدرة لله وأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها فبمعونة الله تعالى واقداره أو لا يقوى أحد في بدنه ولا في غير ذلك الا بالله وفي الحديث من أعطى خيرا من أهل أو مال فيقول عند ذلك ما شاء الله لا قوة الا بالله لم ير فيه مكروها ثم ان المؤمن لما أعلم الكافر بالايمان أجابه عن افتخاره بالمال والنفس فقال (ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا) أى من جهة المال والولد ويحتمل أن يكون أنا فصلا وأن يكون تأكيدا للمفعول الاول وقرأ قالون وأبو عمرو باثبات الياء وصلا وحذفها وقفا وابن كثير باثباتها وصلا ووقفا والباقون بالحذف وقفا ووصلا وقوله تعالى (فعسى ربى) أى المحسن الى (أن يؤتين) من خزائن رزقه (خيرا من جنتك) اما في الدنيا واما في الآخرة لايماني جواب الشرط (ويرسل عليها) أى جنتك (حسبانا) جمع حسبانة أى صواعق (من السماء فتصبح) بعد كونها قرة للعين بما تهتز به من الاشجار والزروع (صعيدا زلقا) أى أرضا ملساء باستئصال نباتها وأشجارها فلا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قدم وقوله (أو يصبح ماؤها غورا) أى غائرا في الارض لا تناله الايدى والدلاء مصدر وصف به كالزلق (فلن تستطيع) أنت (له) أى للماء الغائر (طلبا) يصير بحيث لا تقدر على ردّه الى موضعه ثم انه أخبر الله تعالى أنه حقق ما قدره هذا المؤمن فقال (وأحيط) أى وقعت الاحاطة بالهلاك المبنى للمفعول لان النكد حاصل باحاطة الهلاك من غير نظر الى فاعل مخصوص والدلالة على سهولته (بثمره) أى الرجل المشرك كله واستؤصل هالكا ما في السهل منه وما في الجبل وما يصبر منه على البرد والحر وما لا يصبر قال بعض المفسرين ان الله تعالى أرسل عليها نارا فأهلكتها وغار ماؤها (فأصبح يقلب كفيه) ندما ويضرب احداهما على الاخرى تحسرا فتقلب الكفين كناية عن الندم والتحسر لان النادم يقلب كفيه ظهرا لبطن كما يكنى عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد لانه في معنى الندم فعدى تعديته كأنه قيل فأصبح يندم (على ما أنفق فيها) أى في عمارتها وغائها (وهى خاوية) أى ساقطة (على عروشها) أى دعائمها التى كانت تحت الفقطت على الارض وسقطت هي فوقها وقوله تعالى (ويقول) عطف على يقلب أو حال من ضميره (يا) للتنبيه (ليتنى) عند ارتداده لما قاله له وعظه ورده وجزعه وذهول عقله ودهشته وعدم اعتماده على الله تعالى من غير الشرك بالاعتماد على المال (لم أشرك بربى

أحدا)

النّدامة كما قال له صاحبه فندم حيث لا تنفعه الندم على ما فرّط في الماضي لا لأجل ما فاته على الدنيا الآخر صا على الايمان لحصول الفوز في العقبى لقصور عقله ووقوفه مع المحسوسات المشاهدة (فان قيل) انّ هذا الكلام يوهم انّ جنّته انما هلكت بشؤم شركه وليس مرادا لان أنواع البلاء أكثرها انما يقع للمؤمنين قال تعالى ولولا أن يكون الناس أمّة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون وقال صلى الله عليه وسلم خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وأيضا لما قال يا ليتني لم أشرك بربي أحدا فقد ندم على الشرك ورغب في التوحيد فوجب أن يصير مؤمنا فلم قال تعالى بعده (ولم تكن له فئة) أي جماعة من نفره الذين افتخر بهم ولا من غيرهم (ينصرونه) مما وقع فيه (من دون الله) عند هلاكها (وما كان) هو (منتصرا) بنفسه بل ليس الامر في ذلك الا لله وحده (أجيب) عن الاول بأنه لما عظمت حسراته لا لاجل أنه أنفق عمره في تحصيل الدنيا وكان معرضا في عمره كله عن طلب الدين فلما ضاعت الدنيا بالكلية بقي محروما من الدنيا والدين وعن الثاني بأنه انما ندم على الشرك لاعتقاده أنه لو كان موحدا غير مشرك ابقيت عليه جنته فهو انما رغب في ذلك لاجل طلب الدنيا فلذلك لم يقبل الله توحيده وقرأ حمزة والكسائي يكن بالتحتية على التذكير والباقون بالفوقية على التأنيث * ولما أنتج هذا المثل قطعا أنه لا أمر لغير الله تعالى المرجو لنصر أوليائه بعد ذلهم ولاغنائهم بعد فقرهم ولاذلال أعدائهم بعد عزهم وكبرهم وافقارهم بعد اغنائهم وحده وان غيره انما هو كالخيال لا حقيقة له صرح بذلك في قوله تعالى (هنالك) اى في مثل هذه الشدائد العظيمة (الولاية لله) أى الذي له الكمال كله وقرأ حمزة والكسائي بكسر الواو أى الملك والباقون بفتحها أى النصرة وقوله تعالى (الحق) قرأه أبو عمرو والكسائي برفع القاف على الاستئناف والقطع تعليلا تنبيها على انّ فزعهم في مثل هذه الازمان اليه تعالى دون غيره برهان قاطع على أنه الحق وما سواه باطل وانّ الفخر بالعرض الزائل من أجهل الجهل وانّ المؤمنين لا يصيبهم فقر ولا يسوغ طردهم لاجله وأنه يوشك أن يعود فقرهم غنى وضعفهم قوّة وقرأه الباقون بخفضها على الوصف أى الثابت الذي لا يحول يوما ولا يزول ولا يغفل ساعة ولا ينام ولا ولاية لغيره بوجه (هو خير ثوابا) من ثواب غيره لو كان يثيب (وخير عقبا) أى عاقبة للمؤمنين وقرأ عاصم وحمزة بسكون القاف والباقون بضمها ونصب على التمييز * ولما تم المثل لدنياهم الخاصة بهم التي أبطرتهم فكانت سبب شقاوتهم وهم يحسبون أنها عين اسعادهم ضرب لدار الدنيا العامة لجميع الناس في قلة ثوابها وسرعة فنائها وانّ من تكبر كان أخس منها فقال (واضرب) أى صير (لهم) اى لهؤلاء الكفار المفتخرين بالعرض الفاني المفتخرين بكثرة ذكر الاموال والاولاد وعزة النفر وقوله تعالى (مثل الحياة الدنيا) مفعول أول ثم ذكر المثل بقوله تعالى (كماء) وهو المفعول الثاني (أنزلناه) بعظمتنا وقدرتنا وقال تعالى (من السماء) تنبيها على بليغ القدرة في امساكه في العلو وانزاله في وقت الحاجة (فاختلط) أى فتعقب وتسبب عن انزاله أنه اختلط (به نبات الارض) أى التف بسببه حتى

خالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه كما قال تعالى فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وقيل اختلط ذلك الماء بالنبات حتى روى واهتز ونما وكان حق اللفظ على هذا التفسير فاختلط بنبات الارض لكن لما كان كل من المختلطين موصوفا بصفة صاحبه عكس للمبالغة فى كثرته ثم اذا انقطع ذلك بالمطر مدة جف ذلك النبات (فأصبح هشيما) أى يابسا متفرقة أجزاؤه (تذروه) أى تنثره وتفرقه (الرياح) فتذهب به والمعنى أنه تعالى شبه الدنيا بنبات حسن فيبس فتكسر ففرقته الرياح حتى يصير عماله المبل كأنه بقدرة الله تعالى لم يكن وقرأ حمزة والكسائى بالتوحيد والباقون بالجمع (وكان الله) أى المختص بصفات الكمال (على كل شئ) من دون ذلك وغيره انشاء وافناء واعادة (مقتدرا) أزلا وأبدا بتكوينه أولا وتنميته وسطا وابطاله آخرا فاحوال الدنيا أيضا كذلك تظهر أولا فى غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلا قليلا ثم تأخذ فى الانحطاط الى أن تنتهى الى الهلاك والفناء ومثل هذا الشئ ليس للعاقل أن يبتهج به

* (تنبيه) * قوله تعالى فأصبح يجوز أن يكون على بابه فان أكثر ما يطرق من الآفات صباحا كقوله تعالى فأصبح يقلب كفيه ويجوز أن يكون بمعنى صار من غير تقييد بصباح كقول القائل

أصبحت لا أحمل السلاح ولا * أملك رأس البعير ان نفرا

* ولما بين سبحانه وتعالى أن الدنيا سريعة الانقراض والانقضاء مشرفة على الزوال والبوار والفناء بين بقوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) ادخال هذا الجزئى تحت هذا الكلى فينعقد به قياس بين الانتاج وهو أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا ولما كانت زينة الحياة الدنيا سريعة الانقضاء والانقراض أنتج انتاجا بديهيا ان المال والبنون سريع الانقضاء والانقراض وما كان كذلك فانه يقبح بالعقل أن لا يفتخر به أو يفرح بسببه أو يقيم له فى نظره وزنا وهذا برهان ظاهر باهر على فساد قول أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الاموال * ثم ذكر تعالى ما يدل على رجحان أولئك الفقراء على أولئك الكفار من الاغنياء فقال (والباقيات الصالحات خير) أى من الزينة الفانية لان خيرات الدنيا منقرضة منقضية وخيرات الآخرة دائمة باقية والدائم الباقى خير من المنقرض المنقضى وهذا معلوم بالضرورة لاسيما وقد ثبت أن خيرات الدنيا حقيرة خسيسة وأن خيرات الآخرة رفيعة شريفة والمفسرون ذكروا فى الباقيات الصالحات أقوالا أحدها أنها سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وزاد بعضهم ولا حول ولا قوة الا بالله وللغزالى فى تفسير غير الزيادة وجه لطيف فقال روى أن من قال سبحان الله حصل له من الثواب عشر حسنات فاذا قال الحمد لله صارت عشرين فاذا قال ولا اله الا الله صارت ثلاثين فاذا قال والله أكبر صارت أربعين وتحقيق القول فيه أن مراتب الثواب أعظمها هو الاستغراق فى معرفة الله تعالى وفى محبته فاذا قال سبحان الله فقد عرف كونه تعالى منزها عن كل ما لا يليق به وكل ما لا ينبغى لحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة فاذا قال مع ذلك الحمد لله فقد أقر بأن الحق سبحانه وتعالى مع كونه منزها عن كل ما لا ينبغى فهو المبتدئ لكل ما ينبغى ولافاضة كل خير وكال

فقد تضاعفت درجات المعرفة فلاجرم قلنا بمضاعفة الثواب فاذا قال مع ذلك لا اله الا الله فقد أقر بأن الذى تنزه عن كل مالا ينبغى وهو المبتدئ لكل ما ينبغى ليس فى الوجود موجود هكذا الا هو الواحد فقد صارت مراتب المعرفة ثلاثة فلاجرم صارت درجات الثواب ثلاثة فاذا قال العبد والله أكبر فمعنى انه أكبر أنه أعظم من ان يصل العقل الى كنه كبريائه وجلاله فقد صارت مراتب المعرفة أربعة فلاجرم صارت درجات الثواب أربعة وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر أحب الى مما طلعت عليه الشمس وعن أبى سعيد الخدرى أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استكثروا من الباقيات الصالحات قيل وما هن يا رسول الله قال التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله ثانيها أنها الصلاة الخمس ثالثها أنها الطيب من القول رابعها وهو أعمها وأولاها انها أعمال الخيرات التى تبقى ثمراتها أبد الآباد فيندرج فى ذلك الصلاة وأعمال الحج وصيام رمضان وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله والكلام الطيب وغير ذلك من كل عمل وقول دعاك لمحبة الله تعالى ومعرفته وخدمته وأما ما دعاك من قول أو عمل الى الاشتغال بأحوال الخلق فهو خارج عن ذلك لان كل ما سوى الحق فهو فان لذاته فكان الاشتغال به والاتفاق عليه باطلا وسعيا ضائعا وأما الحق لذاته فهو الباقى الذى لا يقبل الزوال لاجرم كان الاشتغال بمحبته ومعرفته وطاعته وخدمته هو الذى يبقى بقاء لا يزول ولما كان أهم ما الى من حصل البقاء ليس لكفايته بل لمن يحفظها له لوقت حاجته قال تعالى (عند ربك) أى الجليل المواهب العالم بالعواقب وخير من المال والبنين فى العاجل والآجل (ثوابا وخير) من ذلك كله (أملا) أى من جهة ما يرجوه فيها من الثواب ويرجوه فيهما من الامل لان ثوابها الى بقاء آملها كل ساعة فى تحقق وعلو وارتقاء وآمل المال والبنين بخلاف أحوج ما يكون اليهما وعن قتادة كل ما أريد به وجه الله تعالى خير ثوابا أى ما يتعلق بها من الثواب وما يتعلق بها من الامل لان صاحبها يأمل فى الدنيا ثواب الله ونصيبه فى الآخرة * ولما بين سبحانه وتعالى خساسة الدنيا وشرف الآخرة أردفه بأحوال يوم القيامة وذكر منها أنواعا النوع الاول قوله تعالى (ويوم) أى واذكر لهم يوم (نسير) بأيسر أمر (الجبال) عن وجه الارض بعواصف القدرة كما نسير نبات الارض بعد أن صار هشيما بالرياح كما قال تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب * (تنبيه) * ليس فى لفظ الآية ما يدل الى أين تسير قال الرازى ويحتمل أن يقال ان الله يسيرها الى الموضع الذى يريده ولم يبين ذلك لخلقه والحق ان المراد ان الله تعالى يسيرها الى العدم لقوله تعالى ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ولقوله وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم التاء الفوقية وفتح الياء التحتية بعد السين على فعل ما لم يسم فاعله ورفع الجبال باسناد تسير اليها كما فى قوله تعالى واذا الجبال سيرت والباقون بالنون المضمومة وكسر الياء التحتية بعد السين باسناد فعل التسيير اليه تعالى نفسه ونصب الجبال لكونه مفعول نسير والمعنى نحن نفعل بها ذلك

اعتبارا بقوله تعالى وحشرناهم والمعنى واحد لانها اذا سيرت غيرها ليس الا الله تعالى * النوع الثاني قوله تعالى (وترى الارض) بكمالها (بارزة) لا غار فيها ولا صدع ولا جبل ولا نبت ولا شجر ولا ظل فبقيت بارزة ظاهرة ليس عليها ما يسترها وهو المراد من قوله تعالى لا ترى فيها عوجا ولا أمتا وقيل انها أبرزت ما في بطنها وقذفت الموتى المقبورين فيها فاذا هي بارزة الجوف والبطن فحذف ذكر الجوف كما قال تعالى وألقت ما فيها وتخلت وقال تعالى وأخرجت الارض أثقالها النوع الثالث قوله تعالى (وحشرناهم) أي الخلائق قهرا الى الموقف الذي تنكشف فيه الخبآت وتظهر القبائح والمغيبات ويقع الحساب فيه على النقير والقطمير والناقد فيه بصير (فلم نغادر) أي نترك (منهم) اي الاولين والآخرين (أحدا) لانه لا ذهول ولا عجز ونظيره قوله تعالى قل ان الاولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم (فان قيل) لم جيء بحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى (أجيب) بأن ذلك يقال للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الاحوال العظائم كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك * ولما ذكر تعالى حشرهم وكان من المعلوم أنه للعرض ذكر كيفية ذلك العرض فقال بانيا الفعل للمفعول على طريقة كلام القادرين ولان المخوف العرض لا لكونه من معين (وعرضوا على ربك) المحسن اليك برفع أوليائك وخفض أعدائك وقوله تعالى (صفا) حال أي مصطفين واختلف في تفسيره على وجوه الاول أن تعرض الخلق كلهم صفا واحدا لاتساع الارض ظاهرين لا يحجب بعضهم بعضا ثانيها لا يبعد أن يكونوا صفا يقف بعضهم وراء بعض مثل الصفوف المحيطة بالكعبة التي تكون بعضها خلف بعض وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى صفا صفوفا كقوله تعالى يخرجكم طفلا أي أطفالا ثالثها المراد بالصف القيام كما في قوله تعالى فاذكروا اسم الله عليها صواف أي قياما وقيل كل أمة صف ويقال لهم (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) أي فرادى حفاة عراة غرلا وليس المراد حصول المساواة من كل وجه لانهم خلقوا صغارا ولا عقل لهم ولا تكليف عليهم بل المراد ما مر ويقال لمنكري البعث (بل زعمتم أن) أي انا (لن نجعل لكم موعدا) أي مكانا ووقتا نجمعكم فيه هذا الجمع فننجز لكم ما وعدناكم به على ألسنة رسلنا فكنتم مع التعزز على المؤمنين بالاموال والانصار منكرين البعث والقيامة فالآن قد تركتم الاموال والانصار في الدنيا وشاهدتم ان القيامة والبعث حق وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين ألا وان أول خلق يكسى يوم القيامة ابراهيم عليه السلام ألا وانه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقول انك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم الى قوله العزيز الحكيم قال فيقال لي انهم لم يزالوا مدبرين على أعقابهم منذ فارقتهم وفي رواية فأقول سحقا سحقا وقوله غرلا أي قلفا الغرلة القلفة التي تنقطع من جلد الذكر وهو موضع الختان وقوله سحقا أي بعدا قال بعض العلماء المراد بهؤلاء الذين ارتدوا من العرب بعده وعن عائشة رضي الله تعالى

عنها

عنهما قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة غرلا فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم الى بعض فقال الامر أشد من ان يهمهم ذلك زاد النسائي في رواية لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسوا (ووضع) بعد العرض المستعقب للجمع بأدنى اشارة (الكتاب) المضبوط فيه دقائق الاعمال وجلائلها على وجه بين لا يخفى على قارئ ولا غيره شيء منه فيوضع كتاب كل انسان في يده اما في اليمين واما في الشمال والمراد الجنس وهو صحف الاعمال (فترى المجرمين مشفقين) أي خائفين خوف العقاب من الحق وخوف الفضيحة من الخلق (مما فيه) من قبائح أعمالهم وسيء أفعالهم وأقوالهم (ويقولون) عند معاينتهم ما فيه من السيآت وقولهم (يا) للتنبيه (ويلتنا) أي هلكتنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه كناية عن انه لا نديم لهم اذ ذاك الا الهلاك (مال هذا الكتاب) أي أي شيء له حال كونه على غير حال الكتب في الدنيا (لا يغادر) أي لا يترك (صغيرة ولا كبيرة) من ذنوبنا وقال ابن عباس الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة وقال سعيد بن جبير الصغيرة اللمم والمسيس والقبلة والكبيرة الزنا (الا أحصاها) أي عدها وأثبتها في هذا الكتاب ونظيره قوله تعالى وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون وقوله تعالى انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون *(تنبيه)* ادخال التاء في الصغيرة والكبيرة على تقدير أن المراد الفعلة الصغيرة والكبيرة قال بعض العلماء احتجبوا من الصغائر قبل الكبائر لان الصغائر هي التي جرتهم الى الكبائر واحترزوا من الصغائر حذرا من أن تقعوا في الكبائر وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم ومحقرات الذنوب فانما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا بطن واد فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود فطبخوا خبزهم وان محقرات الذنوب لموبقات (ووجدوا ما عملوا حاضرا) أي مثبتا في كتابهم (ولا يظلم ربك) أي الذي رباك بخلق القرآن (أحدا) منهم ولا من غيرهم في كتاب ولا عقاب ولا ثواب بل يجازي الاعداء بما يستحقونه تعذيبا لهم ويجازي أولياءه الذين عادوهم بما يستحقون تنعيما لهم روى الامام أحمد في المسند عن جابر بن عبد الله أنه سافر الى عبد الله بن أنيس مسيرة شهر يستأذن فاستأذن عليه قال فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته قلت حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم في القصاص فخشيت أن أموت قبل أن أسمعه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الله عز وجل الناس أو قال العباد حفاة عراة بهما قلت وما بهما قال ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لاحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق ولا ينبغي لاحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولاحد من أهل النار عليه حق حتى أقصه منه حتى اللطمة قال فقلنا كيف وانا

تأتي حفاة عراة بهما قال بالحسنات والسيآت وروى الرازي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يحاسب الله الناس في القيامة على ملة يوسف وأيوب وسليمان فيدعو المملوك فيقال ماشغلك عني فيقول جعلتني عبد الآدمي فلم يفرغني فيدعو يوسف فيقول كان هذا عبدا مثلك فلم يمنعه ذلك أن عبدني فيؤمر به الى النار ثم يدعو المبتلي فاذا قال شغلتني بالبلاء دعا أيوب فيقول قد ابتليت هذا بأشد من بلائك فلم يمنعه ذلك من عبادتي ثم يؤتى بالملك في الدنيا مع ما آتاه الله تعالى من الغنى والسعة فيقول ماعملت فيما آتيتك فيقول شغلني الملك عن ذلك فيدعى سليمان فيقول هذا عبدي آتيته أكثر مما آتيتك فلم يشغله ذلك عن عبادتي اذهب فلاعذر لك ويؤمر به الى النار وعن معاذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لن يزول قدم العبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع عن جسده فيم أبلاه وعن عمره فيم أفناه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه كيف عمل به * ولما كان المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين وهذه الآية المذكورة في قوله تعالى (واذ) أي واذكر اذ (قلنا للملائكة) الذين هم أطوع شئ لاوامرنا المقصود من ذكرها عين هذا المعنى وذلك لان ابليس انما تكبر على آدم لانه افتخر بأصله ونسبه وقال خلقتني من نار وخلقته من طين وأنا أشرف منه في الاصل والنسب فكيف أسجد له وكيف أتواضع له وهؤلاء المشركون عاملوا فقراء المسلمين بعين هذه المعاملة فقالوا كيف نجالس هؤلاء الفقراء مع أنا أناس من أنساب شريفة وهم من أنساب بإذلة ونحن أغنياء وهم فقراء ذكر الله تعالى هذه القصة تنبيها على أن هذه الطريقة هي نفسها طريقة ابليس حين أمره الله تعالى في جملة الملائكة بقوله تعالى (اسجدوا لآدم) سجود انحناء بلى وضع جبهة تحية له (فسجدوا الا ابليس كان من الجن) قيل هم نوع من الملائكة فالاستثناء متصل وقيل هو منقطع وابليس أبو الجن فله ذرية ذكرت معه بعد والملائكة لاذرية لهم وكررت هذه القصة لهذا المقصود المذكور قال البيضاوي وهكذا مذهب كل تكرير في القرآن أي انما يكرر لمناسبة ذلك المحل الذي يذكر فيه (ففسق) أي خرج بتركه السجود (عن أمر ربه) أي سيده ومالكه المحسن اليه والفاء للسببية وفيه دليل على ان الملك لايعصي البتة وانما عصى ابليس لانه كان خبيثا في أصله والكلام المستقصى فيه تقدم في سورة البقرة ثم انه تعالى حذر عن اتباعه بقوله تعالى (أفتتخذونه) الخطاب لآدم وذريته والهاء هنا وفيما سيأتي لابليس والهمزة للانكار والتعجب اى يفسق باستحقاركم فنطرده لاجلكم فيكون ذلك سببا لان تتخذوه (وذريته) شركائي (أولياء) لكم (من دوني) تطيعونهم بدل طاعتي وقوله تعالى (وهم لكم عدو) أي أعداء حال ولما كان هذا الفعل أجدر شئ بالذم وصل به قوله تعالى (بئس للظالمين بدلا) من الله ابليس وذريته وكان الاصل لكم ولكنه أبرز الضمير ليعلق الفعل بالوصف لافادة التعميم روى مجاهد عن الشعبي قال اني لقاعد يوما اذ أقبل جمال فقال أخبروني هل لابليس زوجة قلت ان ذلك لعرس ماشهدته ثم ذكرت قوله تعالى أفتتخذونه

وذريته

وذريته أولياء من دونى فعلمت أن لا تكون ذرية الا من زوجة فقلت نعم وقال قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو ادم وقيل انه يدخل ذنبه فى دبره فيبيض البيضة فتنفلق عن جماعة من الشياطين قال مجاهد من ذرية ابليس لاقيس وولهان وهما صاحبا الطهارة والصلاة والهفاف ومرة وبه يكنى وزلنبور وهو صاحب الاسواق يزين اللغو والايمان الكاذبة ومدح السلع وثبر وهو صاحب المصائب يزين خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب والاعور وهو صاحب الزنا ينفخ فى احليل الرجل وعجز المرأة ومطوس وهو صاحب الاخبار الكاذبة يلقيها فى أفواه الناس لا يجدون لها أصلا وداسم وهو الذى اذا دخل الرجل بيته ولم يسم الله ولم يذكر الله دخل معه واذا أكل ولم يسم الله أكل معه قال الاعمش ربما دخلت البيت ولم أذكر الله ولم أسلم فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا وخاصمتهم ثم اذكر فأقول داسم داسم وعن عثمان بن أبى العاص قال قلت يارسول الله ان الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى وقراءتى يلبسها على فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك شيطان يقال له خنزب فاذا أحسسته فتعوذ بالله واتفل عن يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عنى وعن أبى بن كعب ان النبى صلى الله عليه وسلم قال للوضوء شيطان يقال له الولهان فاتقوا وساوس الماء وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابليس يضع فرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيأ قال ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه ويقول نعم أنت قال الاعمش أراه قال فيلتزمه واختلفوا فى عود الضمير فى قوله تعالى (ما أشهدتهم) على وجوه أحدها وهو الذى ذهب اليه الاكثرون ان المعنى ما أشهدت الذين اتخذوهم أولياء (خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) أى ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى اقتلوا أنفسكم نفى احضار ابليس وذريته خلق السموات والارض واحضار بعضهم خلق بعض ليدل على نفى الاعتضاد بهم فى ذلك كما صرح به بقوله تعالى (وما كنت متخذ المضلين) أى الذين يضلون الناس ووضع الظاهر موضع المضمر اظهارا لاضلالهم وذمالهم (عضدا) أى اعوانا وثانيها قال الرازى وهو الاقوى عندى ان الضمير عائد الى الكفار الذين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ان لم تطرد عن مجلسك هؤلاء الفقراء من عندك فلا نؤمن بك فكأنه تعالى قال ان هؤلاء الذين اتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركائى فى تدبير العالم بدليل انى ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم ولا اعتضدت بهم فى تدبير الدنيا والآخرة بل هم قوم كسائر الخلق فلم أقدموا على الاقتراح الفاسد قال والذى يؤكد هذا ان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورات فالاقرب فى هذه الآية هو أولئك الكفار وهو قوله تعالى بئس للظالمين بدلا والمراد بالظالمين أولئك الكفار وثالثها أن يكون المراد من قوله ما أشهدتهم الى آخره دون هؤلاء الكفار جاهلين بما جرى به القلم فى الازل من أحوال السعادة والشقاوة فكأنه قيل لهم السعيد من حكم الله بسعادته والشقى من حكم الله بشقاوته

في الازل وأنتم غافلون عن أحوال الازل فانه تعالى قال ما أشهدتهم الى آخره واذا جهلتم هذه الحالة فكيف يمكنكم أن تحكموا لانفسكم بالرفعة والعلو والكمال ولغيركم بالذل والدناءة بل ربما صار الامر في الدنيا والآخرة على العكس مما حكمتم به * ولما قرر تعالى ان القول الذي قالوه في الافتخار على الفقراء اقتدوا فيه بابليس عاد بعده الى التهويل بأهوال القيامة فقال (ويوم) التقدير واذكر لهم يا محمد يوم عطفا على قوله واذ قلنا للملائكة (يقول) أي الله يوم القيامة لهؤلاء الكفار تهكما بهم وقرأ حمزة بالنون والباقون بالياء (نادوا شركائي) أي ما عبد من دوني وقيل ابليس وذريته ثم بين تعالى ان الاضافة ليست على حقيقتها بل توبيخ لهم فقال تعالى (الذين زعمتم) انهم شركائي أو شفعاؤكم ليمنعوكم من عذابي (فدعوهم) تماديا في الجهل والضلال (فلم يستجيبوا لهم) أي فلم يغيثوهم استهانة بهم واشتغالا بأنفسهم فضلا عن أن يعينوهم (وجعلنا بينهم) أي المشركين والشركاء (موبقا) أي واديا من أودية جهنم يهلكون فيه جميعا وهو من وبق بالفتح هلك نقل ابن كثير عن عبد الله بن عمر انه قال هو واد عميق فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلال وقال الحسن البصري عداوة أي يؤل بهم الى الهلاك والتلف كقول عمر رضي الله تعالى لا يكون حبك كلفا ولا بغضك تلفا أي لا يكن حبك يجر الى الكلف ولا بغضك يجر الى التلف وقيل الموبق البرزخ البعيد أي وجعلنا بين هؤلاء الكفار وبين الملائكة وعيسى برزخا بعيدا يهلك فيه الساري لفرط بعده لانهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان * ولما قرر سبحانه وتعالى ما لهم مع شركائهم ذكر حالهم في استمرار جهلهم فقال تعالى (ورأى المجرمون) أي العريقون في الاجرام (النار) من مكان بعيد (فظنوا) ظنا (انهم مواقعوها) أي مخالطوها في تلك الساعة من غير تأخير ومهلة لشدة ما يسمعون من تغيظها وزفيرها كما قال تعالى اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا فان مخالطة الشئ لغيره اذا كانت قوية تامة يقال لها مواقعة (ولم) أي والحال انهم لم (يجدوا عنها مصرفا) أي مكانا ينصرفون اليه لان الملائكة تسوقهم اليها والموضع موضع التحقق ولكن ظنهم جريا على عادتهم في الجهل كما قالوا اتخذ الله ولدا بغير علم وما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين مع قيام الادلة التي لا شك فيها وقيل الظن هنا بمعنى العلم واليقين * ولما افتخر هؤلاء الكفار على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم وأتباعهم وبين الله تعالى بالوجوه الكثيرة ان قولهم فاسد وشبههم باطلة ذكر فيه المثلين المتقدمين ثم قال بعده (ولقد صرفنا) وأظهر نافع وابن ذكوان وعاصم الدال وأدغمها الباقون (في هذا القرآن) أي القيم الذي لا عوج فيه مع جمعه للمعاني (للناس) أي المزلزلين والثابتين وقوله (من كل مثل) صفة لمحذوف أي مثلا من جنس كل مثل ليتعظوا أو انا حولنا الكلام وصرفناه في كل وجه من وجوه المعاني وألبسناه من العبارات الرائقة والاساليب المتناسقة ما صار بها في غرابته كالمثل يقبله كل من سمعه وتضرب به آباط الابل في سائر البلاد بين العباد فتسير به قلوبهم وتلهج به ألسنتهم فلم يقبلوه ولم يتركوا المجادلة الباطلة كما قال تعالى (وكان الانسان أكثر شئ) يتأتى منه الجدال

ومیزا لا كثر یة بقوله تعالى (جدلا) أی خصومة قال بعض المحققين والآية دالة على أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام جادلوهم فى الدين لان المجادلة لا تحصل الامن الطرفين ولهذا قيل أراد بالانسان الكافر وقيل الآية على العموم قال ابن الخازن وهو الاصح وكذا قال البغوى فعن على رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله تعالى عنها ليلة فقال الاتصليان فقلت يا رسول الله أنفسنا بيد الله فاذا شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت ذلك ولم يرجع الى شيأ ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول وكان الانسان أكثر شئ جدلا وقال ابن عباس أراد النضر بن الحرث وجداله فى القرآن وقال الكلبى أراد به خلفا الجمحى * ولما بين سبحانه وتعالى اعراضهم بين موجبه عندهم فقال تعالى (وما منع الناس) أى الذين جادلوا بالباطل الايمان هكذا كان الاصل ولكنه عبر عن هذا المفعول الثانى بقوله (أن يؤمنوا) ليفيد التجديد وذمهم على الترك (اذ) أى حين (جاءهم الهدى) أى القرآن على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وعطف على المفعول الثانى معبرا بمثل ما مضى لما مضى قوله تعالى (ويستغفروا ربهم) أى لا مانع لهم من الايمان ولا من الاستغفار والتوبة * ولما كان الاستثناء مفرغا أتى بالفاعل فقال (الا أن) أى طلب أن (تأتيهم سنة الاولين) أى سنتنا فيهم وهى الاهلاك المقدر عليهم (أو) طلب أن (يأتيهم العذاب قبلا) أى مقابلة وعيانا وهو القتل يوم بدر وقيل عذاب الآخرة وقرأ الكوفيون برفع القاف والباء الموحدة والباقون بكسر القاف وفتح الباء الموحدة * ولما كان ذلك ليس الى الرسول وانما هو الى الله تعالى نبه بقوله تعالى (وما نرسل المرسلين الا مبشرين) بالثواب على أفعال الطاعة (ومنذرين) بالعقاب على أفعال المعصية فيطلب منهم الظالمون من أممهم ما ليس اليهم (ويجادل الذين كفروا) أى يجددون الجدال كلما أتاهم أمر من قبلنا (بالباطل) من قولهم ما أنتم الا بشر مثلنا ولو كنتم صادقين لأتيتم بما يطلب منكم مع ان ذلك ليس كذلك اذ ليس لاحد غير الله من الامر شئ (ليدحضوا به) أى ليبطلوا بجدالهم (الحق) أى القرآن والمعجزات المثبتة لصدقهم (واتخذوا آياتى) أى القرآن (وما أنذروا) أى وانذارهم أو والذى أنذروا به من العقاب (هزوا) أى استهزاء وقرأ حفص بالواو وقفا ووصلا وحمزة بالواو وقفا لا وصلا وسكن الزاى حمزة ورفعها الباقون ولحمزة فى الوقف أيضا النقل * ولما حكى الله تعالى عن الكفار أحوالهم الخبيثة وصفهم بما يوجب الخزى بقوله تعالى (ومن أظلم) أى لا احد أظلم وهو استفهام على سبيل التقرير (ممن ذكر بآيات ربه) أى المحسن اليه بها وهى القرآن (فأعرض عنها) تاركا لما يعرف من تلك العلامات العجيبة وما يوجب ذلك الاحسان من الشكر (ونسى ما قدمت يداه) من الكفر والمعاصى فلم يتفكر فى عاقبتها ثم علل تعالى ذلك الاعراض بقوله تعالى (انا جعلنا على قلوبهم) فجمع رجوعا الى أسلوب واتخذوا آياتى لانه أنص على ذم كل واحد (أكنة) أى أغطية مستعلية عليها استعلاء يدل سياق العظمة على أنه لا يدع شيأ من الخير يصل اليها فهى لا تعى شيأ من آياتنا ودل تذكير الضمير وافراده على أن المراد بالآيات

القرآن فقال (أن) أي كراهة أن (يفقهوه) أي يفهموه (وفي آذانهم وقرا) أي ثقلا فهم لا يسمعون حق السمع ولا يعون حق الوعي (وان تدعهم) أي تكرر دعاءهم كل وقت (الى الهدى) لتنجيهم بما عندك من الحرص والجد على ذلك (فلن يهتدوا) أي بسبب دعائك (اذا) أي اذا دعوتهم (أبدا) لان الله تعالى حكم عليهم بالضلال فلا يقع منهم ايمان ثم قال تعالى (وربك) مشيرا بهذا الاسم الى ما اقتضاه حال الوصف من الاحسان (الغفور) أي البليغ المغفرة الذي يستر الذنوب اما بمحوها واما بالحلم عنها الى وقت آخر (ذو الرحمة) أي الموصوف بالرحمة الذي يعامل وهو قادر مع موجبات الغضب معاملة الراحم بالاكرام ثم استشهد تعالى على ذلك بقوله تعالى (لو يؤاخذهم) أي هؤلاء الذين عادوك وهو عالم أنهم لا يؤمنون أو يعاملهم معاملة المؤاخذة (بما كسبوا) من الذنوب (لعجل لهم العذاب) أي في الدنيا (بل لهم موعد) وهو اما يوم القيامة واما في الدنيا وهو يوم بدر وسائر أيام الفتح (لن يجدوا من دونه) أي الموعد (موئلا) أي ملجأ ينجيهم منه فاذا جاء موعدهم أهلكناهم فيه بأول ظلمهم وآخره وقوله تعالى (وتلك) مبتدأ وقوله تعالى (القرى) أي الماضية من عاد وثمود ومدين وقوم لوط وأشكالهم صفته لان أسماء الاشارة توصف بأسماء الاجناس والخبر (أهلكناهم) والمعنى وتلك أصحاب القرى أهلكناهم (لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) أي وقتا معلوما لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون وقرأ شعبة بفتح الميم واللام أي اهلاكهم وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام والباقون بضم الميم وفتح اللام أي لاهلاكهم ثم عطف سبحانه وتعالى على قوله تعالى واذ قلنا للملائكة (واذ) أي واذكر لهم حين (قال موسى لفتاه) يوشع ابن نون بن افرائيم بن يوسف عليهم الصلاة والسلام وانما قال فتاه لانه كان يخدمه ويتبعه وقيل كان يأخذ منه العلم وقيل فتاه عبده وفي الحديث ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي *(تنبيه)* أكثر العلماء على أن موسى المذكور في هذه الآية هو موسى بن عمران صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة وعن كعب الاحبار أنه موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب وهو قد كان نبيا قبل موسى بن عمران قال البغوي والاول أصح واحتج له القفال بأن الله تعالى لم يذكر في كتابه موسى الا أراد به صاحب التوراة فاطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف اليه ولو كان المراد شخصا آخر يسمى موسى غيره لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وازالة الشبهة كما انه لما كان المشهور في العرف عن أبي حنيفة هذا الرجل المعين فلو ذكرنا هذا الاسم وأردنا به رجلا سواه لقيدناه مثل أن نقول قال أبو حنيفة الدينوري وعن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس ان نوفا البكالي يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني اسرائيل فقال ابن عباس كذب عدو الله ونوف البكالي هو نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي ويقال انه دمشقي وكانت أمه زوجة كعب الاحبار نقله ابن كثير وحجة الذين قالوا موسى هذا غير صاحب التوراة أنه يقال بعد أن أنزل عليه التوراة وكلمه بلا واسطة وخصه بالمعجزات الباهرة العظيمة التي لم يتفق مثلها لاكبر أكابر الانبياء يبعد أن يبعثه بعد ذلك الله تعالى للتعلم

والاستفادة

والاستفادة (وأجيب) بأنه لا يبعد أن يكون العالم الكامل في كثرة العلوم يجهل بعض العلوم فيحتاج في تعلمها الى من هو دونه وهو أمر متعارف روى البخاري حديث ان موسى قام خطيبا في بني اسرائيل فسئل أي الناس أعلم قال انا فعتب الله تعالى عليه اذ لم يرد العلم اليه فأوحى الله تعالى اليه ان لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال يا رب فكيف لي به قال تأخذ حوتا فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتا فجعله في مكتل ثم قال (لا أبرح) أي لا أزال أسير في طلب العبد الذي أعلمني ربي بفضله (حتى أبلغ مجمع البحرين) أي ملتقى بحر الروم وبحر فارس مما يلي الشرق قاله قتادة أي المكان الجامع لذلك فألقاه هنالك (أو أمضي حقبا) أي دهرا طويلا في بلوغه ان لم أظفر به بمجمع البحرين الذي جعله ربي موعدا الى في لقائه والحقب قال في القاموس ثمانون سنة أو أكثر والدهر والسنة والسنون انتهى فسارا وتزودا حوتا مشويا في مكتل كما أمر به فكانا يأكلان منه الى أن بلغا المجمع كما قال تعالى (فلما بلغا مجمع بينهما) أي بين البحرين قال لفتاه اذا فقدت الحوت فأخبرني وناما واضطرب الحوت في المكتل وخرج وسقط في البحر فلما استيقظا (نسيا حوتهما) أي نسي يوشع حمله عند الرحيل ونسي موسى عليه السلام تذكيره وقيل الناسي يوشع فقط وهو على حذف مضاف أي نسي أحدهما كقوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (فاتخذ) الحوت (سبيله في البحر) أي جعله يجعل الله (سربا) أي مثل السرب وهو الشق الطويل لا نفاذ له وذلك ان الله تعالى أمسك عن الحوت جري الماء فانجاب عنه فبقي كالكوة لم يلتئم وجمد ما تحته وقد ورد في حديثه في الصحيح ان الله تعالى أحياه وأمسك عن موضع جريه في الماء فصار طاقا لا يلتئم وكان المجمع كان ممتدا فظن عليه السلام ان المطلوب امامه أو ظن ان المراد بمجمع البحرين آخر فسارا (فلما جاوزا) ذلك المكان بالسير بقية يومهما وليلتهما واستمرا الى وقت الغداء من ثاني يوم (قال) موسى عليه السلام (لفتاه آتنا) أي أحضر لنا (غداءنا) وهو ما يؤكل أول النهار لنقوى به على ما حصل لنا من الاعياء ولذلك وصل به قوله (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) أي تعبا ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله تعالى به فقوله هذا اشارة الى السفر الذي وقع بعد مجاوزتهما الموعد او مجمع البحرين ونصبا مفعول بلقينا (قال) له فتاه (أرأيت) أي ما دهاني وقرأ نافع بتسهيل الهمزة التي هي عين الكلمة ولورش وجه آخر وهو ابدالها حرف مد وأسقطها الكسائي والباقون بالتحقيق (اذ أوينا الى الصخرة) التي بمجمع البحرين (فاني نسيت الحوت) أي نسيت أن أذكر لك أمره ثم علل عدم ذكره بقوله (وما أنسانيه الا الشيطان) بوسواسه وقرأ حفص بضم الهاء وأمال الالف الكسائي محضة وورش بين بين وبالفتح والباقون بالفتح وقوله (أن أذكره) لك في محل نصب على البدل من هاء أنسانيه بدل اشتمال أي أنساني ذكره (واتخذ سبيله) أي طريقه الذي ذهب فيه (في البحر عجبا) وهو كونه كالسرب معجزة لموسى أو الخضر وذكره الآن مانع من أن يكون للشيطان عليه سلطان على ان هذا النسيان ليس مفوتا للطاعة بل فيه ترقية لهما في معراج المقامات العالية لوجدان التعب بعد

المكان الذى فيه البغية وحفظ الماء منجابا على طول الزمان وغير ذلك من الآيات الظاهرة وقوله تعالى انما سلطانه على الذين يتولونه مبين ان السلطان الحمل على المعاصى وقوله وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وقد كان فى هذه القصة خوارق منها احياء الحوت ومنها ايجاد ما كان أكل منه ومنها امساك الماء عن مدخله وقد اتفق لنبينا صلى الله عليه وسلم نفسه وأتباعه ببركته مثل ذلك أما اعادة ما أكل من الحوت المشوى وهو جنبه فقد روى البيهقى فى أواخر دلائل النبوة عن اسامة بن زيد رضى الله تعالى عنه انه صلى الله عليه وسلم أتى بشاة مشوية فقال لبعض أصحابه ناولنى ذراعها وكان أحب الشاة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدمها ثم قال ناولنى ذراعها فناوله ثم قال ناولنى ذراعها فقال يارسول الله انما هما ذراعان وقد ناولتك فقال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لو سكت مازلت تناولنى ذراعا ما قلت لك ناولنى ذراعا فقد أخبر صلى الله عليه وسلم انه لو سكت أوجد الله تعالى ذراعا ثم ذراعا وهكذا وأما احياء الحوت المشوى ففى قصة الشاة المشوية المسمومة ان ذراعها أخبر النبى صلى الله عليه وسلم انه مسموم فهذا أعظم من عود الحياة من غير نطق وكذا حنين الجذع وتسليم الحجر وتسبيح الحصى ونحو ذلك أعظم من عود الحياة الى ما كان حيا وروى البيهقى فى الدلائل عن عمرو بن سواد قال قال الشافعى ما أعطى الله تعالى نبيا ما أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم قلت أعطى عيسى عليه السلام احياء الموتى فقال أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم احياء الجذع الذى كان يخطب الى جنبه حين هيئ له المنبر وحن الجذع حتى سمع صوته فهذا أكبر من ذلك انتهى وقد ورد أشياء كثيرة من احياء الموتى له صلى الله عليه وسلم ولبعض أمته وروى عن أنس رضى الله تعالى عنه انه قال كنا فى الصفة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتته امرأة ومعها ابن لها فأضاف المرأة الى النساء وأضاف ابنها الينا فلم يلبث ان أصابه وباء المدينة فمرض أياما ثم قبض فغمضه النبى صلى الله عليه وسلم وأمر بجهازه فلما أردنا أن نغسله قال ائت أمه فأعلمها فجاءت حتى جلست عند قدميه فأخذت بهما ثم قالت اللهم انى أسلمت لك تطوعا وخلعت الاوثان زهدا وهاجرت اليك رغبة اللهم لا تشمت بى عبدة الاوثان ولا تحملنى من هذه المصيبة ما لا طاقة لى بحملها قال فوالله ما انقضى كلام المرأة حتى حرك قدميه وألقى الثوب عن وجهه وعاش حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم وحتى هلكت أمه وأما آية الماء فرجعها الى صلابته ولا فرق بين جموده بعدم الالتئام بعد الانخراق وبين جموده وصلابته بالامتناع من الانخراق وقد جهز عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه جيشا واستعمل عليه العلاء بن الحضرمى فحصل لهم حر شديد وجهدهم العطش قال بعض الجيش فلما مالت الشمس لغروبها صلى بنا ركعتين ثم مد يده وما نرى فى السماء شيأ فوالله ما حط يده حتى بعث الله تعالى ريحا وأنشأ سحابا فأفرغت حتى ملأت القدور والشعاب فشربنا وسقينا واستقينا ثم اتينا عدونا وقد جاوزنا خليجا فى البحر الى جزيرة فوقف على الخليج وقال يا على يا عظيم يا حليم يا كريم ثم قال أجيزوا بسم الله فاجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا فأصبنا العدو عليه فقتلنا وأسرنا

وسبينا

وسبيناثم اتينا الخليج فقال مثل مقالتهم فاجزنا ومابل الماء حوافر دوابنا والاخبار في ذلك كثيرة * ولما قال فتاه ذلك كأنه قيل فما قال موسى عليه السلام حينئذ (قال) له (ذلك) أي الامر العظيم من فقد الحوت (ما كنا نبغ) أي نريد من هذا الامر المغيب عنا فان الله تعالى جعله موعدا في لقاء الخضر وقرأ نافع وأبو عمرو والكسائي باثبات الياء وصلا لا وقفا وابن كثير يثبتها وصلا ووقفا والباقون بالحذف (فارتدا على آثارهما) أي فرجعا في الطريق الذي جاآ فيه يقتصانها (قصصا) أي يتبعان اثرهما اتباعا أو مقتصين حتى يأتيا الصخرة قال البقاعي يدل على ان الارض كانت رملا لاعلم فيها فالظاهر والله أعلم انه مجمع النيل والملح عند دمياط أو رشيد من بلاد مصر ويؤيده نقر العصفور في البحر الذي ركب في سفينته للتعدية كما في الحديث فان الطير لايشرب من الملح ومن المشهور في بلاد رشيد ان الامر كان عندهم وان عندهم سمكا ذاهب الشق يقولون انه من نسل تلك السمكة والله أعلم انتهى وتقدم عن قتادة أنه ملتقى بحر فارس والروم وقال محمد بن كعب طنجة وقال أبي بن كعب افريقية وقيل البحران موسى والخضر لانهما كانا بحري علم قال ابن عادل وليس في اللفظ مايدل على تعيين هذين البحرين فان صح في الخبر الصحيح شيء فذاك والا فالاولى السكوت عنه انتهى ثم استمرا يقصان حتى انتهيا الى موضع فقد الحوت (فوجدا عبدا من عبادنا) مضافا الى حضرة عظمتنا قيل كان ملكا من الملائكة والصحيح الذي جاء في التواريخ وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه الخضر واسمه بليا بن ملكان وكنيته أبو العباس قيل كان من بني اسرائيل وقيل من أبناء الملوك الذين تزهدوا وتركوا الدنيا والخضر لقب سمي بذلك لانه جلس على فروة بيضاء فاذا هي تهتز تحته خضراء والفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة وقيل سمي خضرا لانه كان اذا صلى اخضر ما حوله روي ان موسى عليه السلام رأى الخضر مسجى بثوب فسلم عليه فقال الخضر وأنى بأرضك السلام قال انا موسى أتيتك تعلمني مما علمت رشدا وفي رواية لقيه مسجى بثوب مستلقيا على قفاه بعض الثوب تحت رأسه وبعضه تحت رجليه وفي رواية لقيه وهو يصلي ويروى لقيه وهو على طنفسة خضراء على كبد البحر وروى أن موسى عليه السلام لما وصل اليه قال السلام عليك فقال وعليك السلام يانبي بني اسرائيل فقال موسى ماعرفك هذا فقال الذي بعثك الي وكان الخضر في أيام افريدون وكان على مقدمة ذي القرنين الاكبر وبقي الى أيام موسى وقيل ان موسى سأل ربه أي عبادك أحب اليك قال الذي يذكرني ولا ينساني قال فأي عبادك أقضى قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى فقال فأي عبادك أعلم قال الذي يبتغي علم الناس الى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى فقال ان كان في عبادك أفضل مني فادللني عليه قال أعلم منك الخضر قال أين أطلبه قال على ساحل عند الصخرة قال كيف لي به قال تأخذ حوتا في مكتل فحيث فقدته فهو هناك (آتيناه) بعظمتنا (رحمة من عندنا) أي وحيا ونبوة وكونه نبيا هو قول الجمهور وقيل انه ليس بنبي قال البغوي عند أكثر أهل العلم أي فعندهم انه ولي (وعلمناه من لدنا) أي مما لم يجر على قوانين العادات على أنه ليس بمستغرب عند أهل

الاصطفاء (علما) قذفناه فى قلبه بغير واسطة وأهل التصوف سموا العلم بطريق المكاشفة العلم اللدنى فاذا سعى العبد فى الرياضات بتزين الظاهر بالعبادات وتخلى النفس عن العلائق وعن الاخلاق الرذيلة بتحليتها بالاخلاق الجميلة صارت القوى الحسية والخيالية ضعيفة فاذا ضعفت قويت القوى العقلية وأشرقت الانوار الالهية فى جوهرة العقل وحصلت المعارف وكملت العلوم من غير واسطة سعى وطلب فى التفكر والتأمل وهذا هو المسمى بالعلوم اللدنية ثم اورد سبحانه وتعالى القصة على طريق الاستئناف على تقدير سؤال سائل عن كل كلام يرشد اليه ماقبله وذلك انه من المعلوم ان الطالب للشخص اذا لقيه كلمه لكن لا يعرف عين ذلك الكلام فقال لمن كانه سأل عن ذلك (قال له موسى) طالبا منه على سبيل التأدب والتلطف باظهار ذلك فى قالب الاستئذان (هل أتبعك) أى اتباعا بليغا حيث توجهت والاتباع الاتيان بمثل فعل الغير لمجرد كونه آتيا به وبين أنه لا يطلب منه غير العلم بقوله (على أن تعلمنى) أثبت الياء نافع وأبو عمرو وصلا لا وقفا وابن كثير وصلا ووقفا والباقون بالحذف وزاد فى التعطف بالاشارة الى أنه لا يطلب جميع ماعنده ليطول عليه الزمان بل جوامع منه يسترشد بها الى باقيه فقال (مما علمت) وبناه للمفعول لعلم المخاطبين لكونهما من المخلصين بأن الفاعل هو الله تعالى وللاشارة الى سهولة كل أمر الى الله تعالى (رشدا) أى علما يرشدنى الى الصواب فيما أقصده وقرأ أبو عمرو بفتح الراء والشين والباقون بضم الراء وسكون الشين * ولما أتم موسى عليه السلام العبارة عن السؤال (قال) له الخضر عليه السلام (انك) ياموسى (لن تستطيع معى صبرا) نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجوه من التأكيد كأنها لا تصح ولا تستقيم وفتح الياء من معى صبرا فى المواضع الثلاثة هنا حفص وسكنها الباقون ثم علل عدم الصبر معه واعتذر عنه بقوله (وكيف تصبر) ياموسى (على مالم تحط به خبرا) أى وكيف تصبر على أمور وأنت نبى ظاهرها مناكير والرجل الصالح لا يتمالك أن يصبر اذا رأى ذلك بل يبادر ويأخذ فى الانكار وخبرا مصدر لمعنى لم تحط به أى لم تخبر حقيقته (قال) له موسى عليه السلام آتيا بنهاية التواضع لمن هو أعلم منه ارشادا لما ينبغى فى طلب العلم رجاء تسهيل الله تعالى له النفع به (ستجدنى) فأكد الوعد بالسين ثم أخبر تعالى انه قوى تأكيده بالتبرك بذكر الله تعالى لعلمه بصعوبة الامر على الوجه الذى تقدم الحث عليه فى هذه السورة فى قوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ليعلم أنه منهاج الانبياء فقال (ان شاء الله) أى الذى له صفات الكمال (صابرا) على ما يجوز الصبر عليه ثم زاد التأكيد بقوله عطفا بالواو على صابرا لبيان التمكن فى كل من الموضعين (ولا أعصى) أى وغير عاص (لك أمرا) تأمرنى به غير مخالف لظاهر أمر الله تعالى * (تنبيه) * دلت هذه الآية الكريمة على ان موسى عليه السلام راعى أنواعا كثيرة من الادب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر منها انه جعل نفسه تبعا له بقوله هل أتبعك ومنها انه استأذن فى اثبات هذه التبعية كأنه قال هل تأذن لى أن أجعل نفسى تبعا لك وهذه مبالغة عظيمة فى التواضع ومنها قوله صلى الله عليه وسلم على أن تعلمنى وهذا اقرار منه على نفسه بالجهل وعلى أستاذه بالعلم ومنها قوله

مما علمت وصيغة من للتبعيض وطلب منه تعليم بعض ما علم وهذا أيضا اقرار بالتواضع كأنه يقول لا أطلب منك أن تجعلني مساويا لك في العلم بل أطلب منك أن تعطيني جزأ من أجزاء ما علمت ومنها ان قوله مما علمت اعتراف منه بان الله تعالى علمه ذلك العلم ومنها قوله رشدا طلب منه الارشاد والهداية ومنها قوله ستجدني ان شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا ومنها انه ثبت بالاخبار ان الخضر عرف أولا أن موسى صاحب التوراة وهو الرجل الذي كلمه الله من غير واسطة وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة ثم انه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الانواع الكثيرة من التواضع وذلك يدل على كونه عليه السلام آتيا في طلب العلم بأعظم أبواب المبالغة في التواضع وذلك يدل على أن هذا هو اللائق به لان كل من كانت احاطته بالعلوم التي علم ما فيها من البهجة والسعادة أكثر كان طلبه لها أشد فكان تعظيمه لارباب العلم أكمل وأرشد وكل ذلك يدل على أن الواجب على المتعلم اظهار التواضع بكل الغايات وأما المعلم فان رأى ان في التغليظ على المتعلم ما يفيد نفعا وارشادا الى الخير فالواجب عليه ذكره فان السكوت عنه يوقع المتعلم في الغرور وذلك يمنعه من التعلم وروى أن موسى عليه السلام لما قال هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا قال له الخضر كفى بالتوراة علما وبني اسرائيل شغلا فقال له موسى الله أمرني بهذا (قال) له الخضر (فان اتبعتني) أي صحبتني ولم يقل اتبعني ولكن جعل الاختيار اليه الا أنه شرط عليه شرطا فقال (فلا تسئلني عن شيء) أقوله أو أفعله (حتى أحدث لك) خاصة (منه ذكرا) أي حتى أبدأ لك بوجه صوابه فاني لا أقدم على شيء الا وهو صواب جائز في نفس الامر وان كان ظاهره غير ذلك فقبل موسى شرطه رعاية لادب المتعلم من العالم ولما تشارطا وتراضيا على الشرط تسبب عن ذلك قوله تعالى (فانطلقا) أي موسى والخضر عليهما السلام على الساحل فأتيا الى موضع احتاجا فيه الى ركوب السفينة فلما ركبا اتفقا لما بان سفينة ركبا فيها واستمرا (حتى اذا ركبا في السفينة) التي مرت بهما وأجاب الشرط بقوله (خرقها) أي أخذ الخضر فأسا فخرق السفينة بأن قلع لوحا أو لوحين من ألواحها من جهة البحر لما بلغت اللجة ولم يقترن خرق بالفاء لانه لم يكن مسببا عن الركوب ثم استأنف قوله (قال) أي موسى عليه السلام منكرا لذلك لما في ظاهره من الفساد باتلاف المال المفضي الى فساد أكبر منه باهلاك النفوس ناسيا لما عقد على نفسه على انه لو لم ينس لم يترك الانكار كما فعل عند قتل الغلام لان مثل ذلك غير داخل في الوعد لان المستثنى شرعا كالمستثنى وضعا (أخرقتها) وبين عذره في الانكار لما في غاية الخرق من الفظاعة فقال (لتغرق أهلها) فان خرقها سبب لدخول الماء فيها المفضي الى غرق أهلها وقرأ حمزة والكسائي بالياء التحتية مفتوحة وفتح الراء ورفع اللام من أهلها والباقون بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الراء ونصب لام أهلها ثم قال لموسى والله (لقد جئت شيأ امرا) أي عظيما منكرا (قال) الخضر (ألم أقل انك) يا موسى (لن تستطيع معي صبرا) فذكره بما قال له عند الشرط (قال) موسى (لا تؤاخذني) يا خضر (بما نسيت) أي غفلت عن التسليم لك وترك الانكار عليك قال ابن

عباس انه لم ينس ولكنه من معاريض الكلام أى وهى التورية بالشئ عن الشئ وفى المثل ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب أى سعة فكانه نسى شيأ آخر وقيل معناه بما تركت من عهدك والنسيان الترك وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كانت الاولى من موسى نسيانا والوسطى شرطا والثالثة عمدا (ولا ترهقنى من أمرى عسرا) أى لا تكلفنى مشقة يقال أرهقه عسرا وأرهقته عسرا أى كلفته ذلك يقول لا تضيق على أمرى ولا تعسر متابعتك على ويسرها على بالاغضاء وترك المناقشة وعاملنى باليسر ولا تعاملنى بالعسر وعسرا مفعول ثان لترهقنى من أرهقه كذا اذا حمله اياه وغشاه به ومافى بما نسيت مصدرية أو بمعنى الذى والعائد محذوف وروى أن الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء وروى ان موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فحشا به الخرق وروى ان الخضر أخذ قدحا من زجاج ورقع به خرق السفينة (فان قيل) قول موسى عليه السلام أخرقتها لتغرق أهلها ان كان صادقا فى هذا دل ذلك على صدور ذنب عظيم من الخضر ان كان نبيا وان كان كاذبا دل ذلك على صدور الذنب من موسى وأيضا فقد التزم موسى أن لا يعترض عليه وجرت العهود المذكورة بذلك ثم انه خالف تلك العهود وذلك ذنب (أجيب) بأن كلا منهما صادق فيما قال موف بحسب ما عنده أما موسى عليه السلام فانه ما خطر له قط أن يعاهد على أن لا ينهى عما يعتقده منكرا وأما الخضر فانه عقد على مافى نفس الامر أنه لا يقدم على منكر (فانطلقا) بعد نزولهما من السفينة وسلامتهما من الغرق والعطب (حتى اذا لقيا غلاما) قال ابن عباس لم يبلغ الحنث (فقتله) حين لقيه كما دلت عليه الفاء العاطفة على الشرط قال البغوى فى القصة انهما خرجا من البحر يمشيان فمرا بغلمان يلعبون فأخذ غلاما ظريفا وضىء الوجه فأضجعه ثم ذبحه بالسكين قال السدى كان أحسنهم وجها كان وجهه يتوقد حسنا قال البغوى وروينا أنه أخذ رأسه فاقتلعه بيده وروى عبد الرزاق هذا الخبر وأشار بيده بأصابعه الثلاثة الابهام والسبابة والوسطى وقلع رأسه وروى أنه رضخ رأسه بالحجارة وقيل ضرب رأسه بالجدار فقتله وكونه لم يبلغ الحنث هو قول الاكثرين وقال الحسن كان رجلا قال شعيب الجبائى وكان اسمه جيسور وقال الكلبى كان فتى يقطع الطريق ويأخذ المتاع ويلتجئ الى أبويه وقال الضحاك كان غلاما يعمل بالفساد ويتأذى منه أبواه وعن أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش لارهق أبويه طغيانا وكفرا قال الرازى وليس فى القرآن كيف لقياه هل كان يلعب مع جمع من الغلمان أو كان منفردا وهل كان مسلما أو كافرا وهل كان بالغا وصغيرا وكان اسم الغلام بالصغير أليق وان احتمل الكبير الا أن قوله بغير نفس أليق بالبالغ منه بالصبى لان الصبى لا يقتل وان قتل قال البقاعى الا أن يكون شرعهم لا يشترط البلوغ وقال ابن عباس ولم يكن نبى الله يقول أقتلت نفسا زاكية بغير نفس الا وهو صبى قال الرازى أيضا وكيفية قتله هل قتله بان حز راسه أو بأن ضرب رأسه بالجدار أو بطريق آخر فليس فى القرآن ما يدل على شئ من هذه الاقسام انتهى ثم أجاب الشرط بقوله مشعرا بأن شروعه فى الانكار فى هذه أسرع

(قال) موسى (أقتلت) ياخضر (نفسا زاكية بغير نفس) قتلتها لكون قتلها لها قودا وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بألف بعد الزاى وتخفيف الياء التحتية والباقون بغير ألف بعد الزاى وتشديد التحتية قال الكسائى الزاكية والزكية لغتان ومعنى هذه الطهارة وقال أبو عمرو الزاكية التى لم تذنب والزكية التى اذنبت ثم تابت ثم استأنف قوله (لقد) أظهر الدال نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم وأدغمها الباقون (جئت) فى قتلك اياها (شيأ) وصرح بالانكار فى قوله (نكرا) لان مباشرة الخرق سبب ولهذا قال بعضهم النكر أعظم من الامر فى القبح لان قتل الغلام أعظم من خرق السفينة لانه يمكن أن لا يحصل الغرق وأما هنا فقد حصل الاتلاف قطعا والنكر ما أنكرته العقول ونفرت منه النفوس فهو أبلغ فى القبح من الامر وقيل الامر أعظم لان خرق السفينة يؤدى الى اتلاف نفوس كثيرة وهذا القتل ليس الا اتلاف شخص واحد وقرأ نافع وابن ذكوان وشعبة برفع الكاف والباقون بسكونها * ولما كانت هذه ثانية (قال) له الخضر (ألم أقل لك انك) ياموسى (لن تستطيع معى صبرا) وهذا عين ماذكره فى المسئلة الاولى الا أنه هنا زاد لفظة لك (فان قيل) لم زادها هنا (أجيب) بأنه زادها مكافحة بالعقاب على رفض الوصية ووسما بقلة الصبر والثبات لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير أول مرة قال ابن الاثير المكافحة المدافعة والمضاربة والاشمئزاز من اشمأز الرجل اى انقبض قلبه قال البغوى وفى القصة ان يوشع كان يقول لموسى يانبى الله اذكر العهد الذى أنت عليه (قال) موسى حياء منه لما أفاق بتذكيره ماحصل من فرط الوجد لامر الله تعالى فذكر أنه ماتبعه الا بأمر الله تعالى (ان سألتك عن شئ بعدها) أى بعد هذه المرة وأعلم بشدة ندمه على الانكار بقوله (فلا تصاحبنى) أى لا تتركنى أتبعك بل فارقنى ثم علل ذلك بقوله (قد بلغت) وأشار الى أن ماوقع منه من الاخلال بالشرط من أعظم الخوارق التى اضطر اليها فقال (من لدنى) أى من قبلى (عذرا) باعتراضى مرتين واحتمالك لى فيهما وقد أخبر الله بحسن حالك فى غزارة علمك فدحه بهذه الطريقة من حيث انه احتمله مرتين أولا وثانيا مع قرب المدة روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال رحم الله أخى موسى استحيا فقال ذلك ولو لبث مع صاحبه لابصر أعجب الاعاجيب وعن أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله علينا وعلى موسى وكان اذا ذكر أحدا من الانبياء بدأ بنفسه لولا أن عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة أى حياء واشفاق فقال ان سألتك الى آخره وقرأ نافع بضم الدال وتخفيف النون وقرأ شعبة كذلك الا أنه يشم الدال فتصير ساكنة قريبة من الضم والباقون بضم الدال وتشديد النون (فانطلقا) أى موسى والخضر يمشيان لينظر الخضر أمرا ينفذ فيه ماعنده من علمه وورش يغلظ اللام فى لفظ انطلقا على أصله بعد قتل الغلام (حتى اذا أتيا أهل قرية) قال ابن عباس هى انطاكية وقال ابن سيرين هى الايلة وهى أبعد أرض الله من السماء وعبر عنها بالقرية دون المدينة لانه أدل على الذم وقيل برقة وعن أبى هريرة بلدة بالاندلس (استطعما أهلها) أى طلبا من أهل القرية أن يطعموهما وفى الحديث انهما كانا يمشيان على

مجالس أولئك القوم يستطعمانهم (فأبوا أن يضيفوهما) أى أن ينزلوهما ويطعموهما يقال ضافه اذا كان له ضيفا وحقيقته مال اليه من ضاف السهم عن الغرض وضيفه وأضافه أنزله وجعله ضيفا (فان قيل) الاستطعام ليس من عادة الكرام وكيف قدم عليه موسى والخضر وقد حكى الله تعالى عن موسى أنه قال عند وروده ماء مدين رب انى لما أنزلت الى من خير فقير (أجيب) بأن اقدام الجائع على الاستطعام أمر مباح فى كل الشرائع بل ربما وجب ذلك عند الخوف من الضرر الشديد (فان قيل) لم قال حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ولم يقل استطعماهم (أجيب) بأن التكرير قد يكون للتأكيد كقول الشاعر

ليت الغراب غداة ينعب دائبا * كان الغراب مقطع الاوداج

وعن قتادة شر القرى التى لا تضيف الضيف (فائدة) قال الرازى وفى كتب الحكايات ان أهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الآية استحيوا وجاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمل من الذهب وقالوا يا رسول الله جئناك بهذا الذهب لتجعل الباء تاء حتى تصير القراءة هكذا فأتوا أن يضيفوهما أى أتيناهم لاجل الضيافة حتى يندفع عنا هذا اللوم فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال تغيير هذه النقطة يوجب دخول الكذب فى كلام الله تعالى وذلك يوجب القدح فى الالهية فعلمنا أن تغيير النقطة الواحدة من القرآن يوجب بطلان الربوبية والعبودية * ولما أبوا أن يضيفوهما انصرفا (فوجدا فيها) أى القرية ولم يقل فيهم ايذانا بأن المراد وصف القرية بسوء الطبع (جدارا) أى حائطا مائلا مشرفا على السقوط ولذا قال مستعير المالم يعقل صفة من يعقل (يريد أن ينقض) أى يسقط وهذا من مجاز كلام العرب لان الجدار لا ارادة له وانما معناه قرب ودنا من السقوط كما تقول العرب دارى تنظر الى دار فلان اذا كانت تقابلها فاستعير الارادة للمشارفة كما استعير لها الهم والعزم فى قوله

يريد الرمح صدر أبى براء * ويعدل عن دماء بنى عقيل

وقول الآخر   ان دهرا يلف صدرى بجمل * لزمان يهم بالاحسان

ففى البيت الاول دليل على استعارة الارادة للمشارفة وفى الثانى دليل على استعارة الهم لها وجمل اسم محبوبته يقول ان دهرا يجمع بينى وبينها زمان قصده الاحسان لا الاساءة ونظير ذلك من القرآن قوله تعالى ولما سكت عن موسى الغضب وقوله تعالى أن يقول له كن فيكون وقوله تعالى قالتا أتينا طائعين قال الزمخشرى ولقد بلغنى ان بعض المحرفين لكلام الله تعالى ممن لا يعلم كان يجعل الضمير للخضر وقيل ان الله تعالى خلق للجدار حياة وارادة كالحيوان (فأقامه) أى سواه وفى حديث أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم فقال الخضر بيده فأقامه وقال ابن عباس هدمه وقعد يبنيه وقال سعيد بن جبير مسح الجدار بيده فاستقام وذلك من معجزاته وقال السدى بل طينا وجعل يبنى الحائط فشق ذلك على موسى عليه السلام (فان قيل) الضيافة من المندوبات فتركها ترك مندوب وذلك غير منكر فكيف يجوز من موسى عليه السلام مع علو منصبه أنه غضب عليهم الغضب الشديد الذى لاجله ترك العهد الذى التزمه فى

قوله ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى وأيضا مثل الغضب لاجل ترك الاكل فى ليلة واحدة لا يليق بأدون الناس فضلا عن كليم الله تعالى (أجيب) بأن تلك الحالة كانت حالة افتقار واضطرار الى الطعام فلاجل تلك الضرورة نسى موسى عليه السلام ما قاله فلا يجرم (قال) موسى (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) أى لطلبت على عملك أجرة تصرفها فى تحصيل المطعوم وتحصيل سائر المهمات وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف التاء بعد اللام وكسر الخاء وأظهر ابن كثير الذال عند التاء على أصلها وأدغمها أبو عمرو والباقون بتشديد التاء وفتح الخاء وأظهر حفص الذال على أصله وأدغمها الباقون * ولما كان كلام موسى هذا متضمنا للسؤال (قال) له الخضر (هذا) أى هذا الانكار على ترك الاجر (فراق بينى وبينك) وقيل ان موسى عليه السلام لما شرط أنه ان سأله بعد ذلك سؤالا آخر حصل به الفراق حيث قال ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى فلما ذكر هذا السؤال فارقه وهذا فراق بينى و بينك أى هذا الفراق المعهود الموعود (فان قيل) كيف ساغ اضافة بين الى غير متعدد (أجيب) بأن مسوغ ذلك تكريره بالعطف بالواو ألا ترى أنك لو اقتصرت على قولك المال بينى لم يكن كلاما حتى تقول بيننا أو بينى وبين فلان ثم قال له الخضر (سأنبئك) أى سأخبرك يا موسى قبل فراقى لك (بتأويل) أى بتفسير (ما لم تستطع عليه صبرا) لان هذه المسائل الثلاثة مشتركة فى شئ واحد وهو أن أحكام الانبياء عليهم الصلاة والسلام مبنية على الظواهر كما قال صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظواهر والله يتولى السرائر والخضر ما كانت أموره وأحكامه مبنية على ظواهر الامور بل كانت مبنية على الاسباب الخفية الواقعة فى نفس الامر وذلك لان الظاهر فى أموال الناس وفى أرواحهم أنه يحرم التصرف فيها والخضر تصرف فى أموال الناس وفى أرواحهم فى المسئلة الاولى وفى الثانية من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف لان الاقدام على خرق السفينة وقتل الانسان من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف محرم والاقدام على اقامة ذلك الجدار المائل فى المسئلة الثالثة تحمل للتعب والمشقة من غير سبب ظاهر ثم أخذ الخضر فى تأويل ذلك مبتدئا بالمسئلة الاولى بقوله (أما السفينة) أى التى أحسن الينا أهلها فخرقتها (فكانت لمساكين) عشرة اخوة خمسة زمنى وخمسة (يعملون فى البحر) أى يؤاجرون ويكتسبون واحتج الشافعى رضى الله عنه بهذه الآية على أن حال الفقير أشد فى الحاجة والضرر من حال المسكين لان الله تعالى سماهم مساكين مع أنهم كانوا يملكون تلك السفينة (فأردت أن أعيبها) أى ان أجعلها ذات عيب بأن تفوت منفعتها بذلك ساعة من نهار وتكلف أهلها الوحا أو لوسين يسدونها بذلك أخف عليهم من أن تفوتهم منفعتها بالكلية كما يعلم من قوله (وكان وراءهم) أى أمامهم كقوله تعالى ومن ورائهم برزخ وقيل خلفهم وكان طريقهم فى رجوعهم عليه (ملك) كان كافرا واسمه الجلندى وقال محمد ابن اسحق اسمه سولة بن خليد (٣) الازدى وقيل اسمه هدد بن بدد (يأخذ كل سفينة) أى صالحة وحذف التقييد للعلم به (غصبا) من أصحابها ولم يكن عند أصحابها علم به فاذا مرت به تركها لعيبها فاذا جاوزته أصلحوها فانتفعوا بها قيل سدوها بقارورة وقيل بالقار (فان قيل) قوله

(٣) قوله سولة بن خليد الخ هكذا فى النسخ والذى فى البيضاوى منوار بن جلندى الازدى فليحرر اه

فأردت أن أعيبها مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب فلم قدم عليه (أجيب) بأن النية به التأخر وإنما قدم للعناية ولان خوف الغصب ليس هو السبب وحده ولكن مع كونها للمساكين فلما كان كل من الغصب والمسكنة سبب الفعل قدمها على الغصب اشارة الى أن أقوى السببين الحاملين على فعله الرأفة بالمساكين * ثم شرع فى تأويل المسئلة الثانية بقوله (وأما الغلام) الذى قتلته (فكان أبواه مؤمنين) التثنية للتغليب يريد أباه وأمه فغلب المذكر وهو شائع ومثله العمران قيل ان ذلك الغلام كان بالغا وكان يقطع الطريق ويقدم على الافعال المنكرة وكان أبواه يحتاجان الى دفع شر الناس عنه والتعصب له وتكذيب من يرميه بشئ من المنكرات وكان يصير سببا لوقوعهما فى الفسق وربما أداه ذلك الفسق الى الكفر وقيل انه كان صبيا الا أنه علم منه أنه لو صار بالغا حصلت فيه هذه المفاسد وفى الحديث انه طبع كافرا ولو عاش لأرهقهما ذلك كما قال (فخشينا) اى خفنا والخشية خوف يشوبه تعظيم (أن يرهقهما) أى يغشيهما ويلحقهما (طغيانا وكفرا) أى لمحبتهما له يتبعانه فى ذلك (فان قيل) هل يجوز الاقدام على قتل الانسان بمثل ذلك (أجيب) بأنه اذا تأكد ذلك بوحى من الله تعالى جاز وعن ابن عباس أن نجدة الحرورى كتب اليه كيف قتله أى كيف قتل الخضر الغلام وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان فكتب اليه ان علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل رواه بمعناه مسلم * ولما ذكر ما يلزم على تقدير بقائه من الفساد تسبب عنه قوله (فأردنا) أى بقتله واراحتهما من شره (أن يبدلهما ربهما) أى المحسن اليهما باعطائه وأخذه قال مطرف فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقى كان فيه هلاكهما فليرض كل امرئ بقضاء الله تعالى فان قضاء الله تعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب ولهذا أبدلهما الله تعالى (خيرا منه زكاة) أى طهارة وبركة من الذنوب والاخلاق الرديئة وصلاحا وتقوى (وأقرب رحما) أى رحمة وعطفا عليهما وقيل هو من الرحم والقرابة قال قتادة أى أوصل للرحم وأبر للوالدين قال الكلبى أبدلهما الله تعالى جارية فتزوجها نبى من الانبياء فولدت له نبيا فهدى الله تعالى على يديه أمة من الامم وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال أبدلهما الله تعالى جارية ولدت سبعين نبيا وقال ابن جريج أبدلهما بغلام مسلم وقرأ نافع وأبو عمرو أن يبدلهما بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال والباقون بسكون الموحدة وتخفيف الدال وقرأ ابن عامر رحما برفع الحاء والباقون بالسكون * ثم شرع فى تأويل المسئلة الثالثة بقوله (وأما الجدار) أى الذى أشرت بأخذ الاجر عليه (فكان لغلامين) ودل على كونهما دون البلوغ بقوله (يتيمين) وكان اسم أحدهما أصرم والآخر صريما * ولما كانت القرية لا تنافى التسمية بالمدينة وكان التعبير بالقرية أولا أليق عبر بها لانها مشتقة من معنى الجمع فكان أليق بالذم فى ترك الضيافة ولما كانت المدينة بمعنى محل الاقامة عبر بها فقال (فى المدينة) فكان التعبير بها أليق للاشارة به الى أن الناس يعملون فيها فينهدم الجدار وهم مقيمون فيأخذون الكنز كما قال (وكان تحته كنز لهما) فلذلك أقمته احتسابا واختلف فى ذلك الكنز فعن أبى الدرداء أن

النبي صلى الله عليه وسلم قال كان ذهبا وفضة رواه البخاري في تاريخه والترمذي والحاكم وصححه والذم على كنزهما في قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة لمن لا يؤدي زكاتهما وما يتعلق بهما من الحقوق وعن سعيد بن جبير قال كان الكنز صحفا فيها علم رواه الحاكم وصححه وعن ابن عباس قال كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبا لمن أيقن بالموت كيف يفرح عجبا لمن أيقن بالقدر كيف يغضب عجبا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب عجبا لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل عجبا لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله وفي الجانب الآخر مكتوب أنا الله لا اله الا أنا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه والويل كل الويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه قال البغوي وهذا قول أكثر أهل التفسير وروي أيضا ذلك مرفوعا قال الزجاج الكنز اذا أطلق ينصرف الى كنز المال ويجوز عند التقييد أن يقال عنه كنز علم وهذا اللوح كان جامعا لهما وقوله (وكان أبوهما صالحا) فيه تنبيه على أن سعيه في ذلك كان لصلاحه فيراعى وتراعى ذريته وكان سياحا واسمه كاسح قال ابن عباس حفظا لصلاح أبيهما وقيل كان بينهما وبين الاب الصالح سبعة آباء قال محمد بن المنكدر ان الله تعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته وأهل دويرات حوله فما زالوا في حفظ الله ما دام فيهم قال سعيد بن المسيب اني أصلي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي وعن الحسن أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما بم حفظ الله الغلامين قال بصلاح أبيهما قال فأبي وجدي خير منه قال قد أنبأنا الله أنكم قوم خصمون وذكروا أيضا أن ذلك الاب الصالح كان من الذين تضع الناس الودائع عنده فيردها اليهم (فأراد ربك أن يبلغا) أي الغلامان (أشدهما) أي الحلم وكمال الرأي (ويستخرجا كنزهما) لينتفعا به وينفعا الصالحين *(تنبيه)* أسند الارادة في قوله فأردت أن أعيبها الى نفسه لانه المباشر للتعييب وثانيا في قوله فاردنا الى الله والى نفسه لان التبديل باهلاك الغلام وايجاد الله تعالى بدله وثالثا في قوله فأراد ربك الى الله وحده لانه لا مدخل له في بلوغ الغلامين أو لان الاول في نفسه شر والثالث خير والثاني ممتزج أو لانه لما ذكر العيب أضافه الى ارادة نفسه ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيها على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل الا لحكمة عالية ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لاجل صلاح أبيهما أضافه الى الله تعالى لان التكفل بصلاح الابناء لرعاية حق الآباء ليس الا الله تعالى أو لاختلاف حال العارف في الالتفات الى الوسايط (فان قيل) اليتيمان هل أحد منهما عرف حصول ذلك الكنز تحت ذلك الجدار أم لا فان كان الاول امتنع أن يتركوا سقوط ذلك الجدار وان كان الثاني فكيف يمكنهم بعد البلوغ استخراج ذلك الكنز ومعرفته والانتفاع به (وأجيب) لعلهما كانا جاهلين به الا أن وصيهما كان عالما به ثم ان ذلك الوصي غاب وأشرف ذلك الجدار في غيبته على السقوط ولما قرر الخضر هذه الجوابات قال (رحمة من ربك) أي انما فعلت هذه الافعال لغرض أن تظهر رحمة الله لانها باسرها ترجع الى حرف واحد وهو تحمل الضرر الادنى لدفع الضرر الاعلى كما تقرر

(وما فعلته) أى شيأ من ذلك (عن أمرى) أى عن اجتهادى ورأيى بل بأمر من له الامر وهو الله تعالى *(تنبيه)* احتج من ادعى نبوة الخضر بأمور أحدها قوله تعالى آتيناه رحمة من عندنا والرحمة هى النبوة قال تعالى وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك والمراد من هذه الرحمة النبوة قال الرازى ولقائل أن يقول مسلم ان النبوة رحمة ولكن لا يلزم أن تكون كل رحمة نبوة الثانى قوله تعالى وعلمناه من لدنا علما وهذا يقتضى أن الله تعالى علمه بلا واسطة تعليم معلم ولا ارشاد مرشد وكل من علمه الله تعالى بلا واسطة البشر وجب أن يكون نبيا يعلم الامور بالوحى من الله تعالى قال الرازى وهذا الاستدلال ضعيف لان العلوم الضرورية تحصل ابتداء من الله وذلك لا يدل على النبوة الثالث أن موسى عليه السلام قال هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت والنبى لا يتبع غير نبى فى التعلم قال الرازى وهذا أيضا ضعيف لان النبى لا يتبع غير نبى فى العلوم التى باعتبارها صار نبيا أما غير تلك العلوم فلا الرابع أنه أظهر على موسى الترفع حيث قال وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا وأما موسى فانه أظهر له التواضع حيث قال ولا أعصى لك أمرا وهذا يدل على أنه كان فوق موسى ومن لا يكون نبيا لا يكون فوق نبى قال الرازى وهذا أيضا ضعيف لانه يجوز أن يكون غير النبى فوق النبى فى علوم لا تتوقف نبوته عليها الخامس قوله وما فعلته عن أمرى وفى المعنى أنى فعلته بوحى من الله وهذا يدل على النبوة قال الرازى وهذا أيضا ضعيف ظاهر الحجة السادس ما روى أن موسى عليه السلام لما وصل اليه قال السلام عليك قال وعليك السلام يا نبى بنى اسرائيل فقال موسى من عرفك هذا قال الذى بعثك الى وهذا يدل على أنه انما عرف ذلك بالوحى والوحى لا يكون الا مع النبوة قال الرازى ولقائل أن يقول لم لا يجوز أن يكون ذلك من باب الكرامات والالهامات انتهى وبالجملة فالجمهور على أنه نبى كما مر واختلفوا هل هو حى أو ميت فقيل ان الخضر والياس حيان يلتقيان كل سنة بالموسم قال البغوى وكان سبب حياته فيما يحكى أنه شرب من عين الحياة وذلك أن ذا القرنين دخل الظلمة لطلب عين الحياة وكان الخضر على مقدمته فوقع الخضر على العين فنزل فاغتسل وشرب وشكر الله تعالى وأخطأ ذو القرنين الطريق وذهب آخرون الى أنه ميت لقوله تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد وقال النبى صلى الله عليه وسلم بعد ما صلى العشاء ليلة أرأيتكم ليلتكم هذه فان رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الارض أحد ولو كان الخضر حيا لكان لا يعيش بعده * ولما بين لموسى سر تلك القضايا قال له (ذلك) أى هذا التأويل العظيم (تأويل ما لم تسطع) يا موسى (عليه صبرا) وحذف تاء الاستطاعة هنا تخفيفا فان استطاع واسطاع بمعنى واحد *(تنبيه)* من فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعمله ولا يبادر الى انكار ما لا يستحسنه فلعل فيه سرا لا يعرفه وأن يداوم على التعلم ويتذلل للعلماء ويراعى الادب فى المقال وأن ينبه المجرم على جرمه ويعفو عنه حتى يتحقق اصراره ثم يهاجره روى أن موسى لما أراد أن يفارق الخضر قال له أوصنى قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه للعمل به * ولما فرغ من هذه القصة التى حاصلها أنها طواف فى الارض لطلب العلم

عقبها بقصة من طاف الارض لطلب الجهاد وقدم الاول اشارة الى علو درجة العلم لانه أساس كل سعادة وقوام كل امرئ فقال عاطفا على و يجادل الذين كفروا بالباطل (ويسئلونك) أى اليهود وقيل مشركو مكة يا أشرف الخلق (عن ذى القرنين) وذكروا فى سبب تسميته بذلك وجوها الاول قال أبو الطفيل سئل على رضى الله عنه عن ذى القرنين أكان نبيا أم ملكا قال لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان عبدا صالحا أمر قومه بتقوى الله تعالى فضربوه على قرنه الايمن فمات ثم بعثه الله تعالى فأمرهم بتقوى الله تعالى فضربوه على قرنه الايسر فمات ثم بعثه الله تعالى فسمى ذا القرنين فيكم مثله يعنى نفسه الثانى أنه انقرض فى وقته قرنان من الناس الثالث أنه كان صفحتا رأسه من نحاس الرابع كان على رأسه مايشبه القرنين الخامس كان لتاجه قرنان السادس أنه طاف قرنى الدنيا شرقها وغربها السابع كان له قرنان أى ضفيرتان الثامن ان الله تعالى سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من أمامه وتمتد الظلمة من ورائه التاسع أنه لقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشا لانه ينطح أقرانه العاشر أنه رأى فى المنام كأنه صعد الفلك وتعلق بطرفى الشمس وقرنيها أى جانبيها فسمى بذلك لهذا السبب الحادى عشر أنه كان له قرنان تواريهما العمامة الثانى عشر أنه دخل النور والظلمة وذكروا فى اسمه أيضا وجوها الاول اسمه مرزبان اليونانى من ولد يونان بن يافث ابن نوح الثانى اسمه اسكندر بن فيلقوس الرومى اشتهر فى كتب التواريخ أنه بلغ ملكه أقصى المشرق والمغرب وأمعن حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم عاد الى مصر وبنى الاسكندرية وسماها باسم نفسه الثالث شمر بن عمر بن افريقيس الحميرى وهو الذى بلغ ملكه مشارق الارض ومغاربها وافتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال

قد كان ذو القرنين قبلى مسلما * ملكا علا فى الارض غير مفند
بلغ المشارق والمغارب يبتغى * أسباب ملك من كريم سيد

واختلفوا فى نبوته مع الاتفاق على ايمانه فقال بعضهم كان نبيا واحتجوا على ذلك بوجوه الاول قوله تعالى انا مكنا له فى الارض وحمل على التمكين فى الدنيا والتمكين الكامل فى الدين هو النبوة الثانى قوله تعالى وآتيناه من كل شئ سببا وهذا يدل على أنه تعالى آتاه من النبوة سببا الثالث قوله تعالى ياذا القرنين اما أن تعذب الخ والذى تكلم الله معه لابد أن يكون نبيا ومنهم من قال انه كان عبدا صالحا ملكه الله تعالى الارض وأعطاه الله سبحانه وتعالى الملك والحكمة وألبسه الهيبة وقد قالوا ملك الارض مؤمنان ذو القرنين وسليمان وكافران نمروذ وبختنصر ومنهم من قال انه كان ملكا من الملائكة عن عمر رضى الله تعالى عنه انه سمع رجلا يقول ياذا القرنين فقال اللهم غفرا أما رضيتم أن تتسموا بأسماء الانبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة والاكثر على القول الثانى ويدل له قول على رضى الله تعالى عنه المتقدم *(تنبيه)* قد قدمنا ان اليهود امروا المشركين أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة أصحاب الكهف وعن قصة ذى القرنين وعن الروح والمراد من قوله تعالى ويسألونك عن ذى القرنين

هو ذلك السؤال ثم قال الله تعالى (قل) أى لهؤلاء المتعنتين (سأتلو) أى أقص قصاصتتابعا فى مستقبل الزمان أعلمنى الله تعالى به (عليكم) أى أيها البعداء والضمير فى قوله تعالى (منه) لذى القرنين وقيل لله تعالى (ذكرا) أى خبرا كافيا لكم فى تعرف أمره جامعا لمجامع ذكره (انا مكناله فى الارض) أى مكناله أمره من التصرف فيها مكنة يصل بها الى جميع مسالكها ويظهر بها على سائر ملوكها (وآتيناه) بعظمتنا (من كل شئ) يحتاج اليه فى ذلك (سببا) أى وصلة توصله اليه من العلم والقدرة والآلة (فأتبع سببا) أى سلك طريقا نحو المغرب قال البقاعى ولعله بدأ به لان باب التوبة فيه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو اتبع فى المواضع الثلاثة بتشديد التاء الفوقية ووصل الهمزة قبل الفوقية والباقون بقطع الهمزة وسكون التاء الفوقية واستمر متبعا له (حتى اذا بلغ) فى ذلك السير (مغرب الشمس) أى موضع غروبها (وجدها تغرب فى عين حمئة) أى ذات حمأة وهى الطين الاسود أى بلغ موضعا فى الغرب لم يبق بعده شئ من العمران وجد الشمس كأنها تغرب فى وهدة مظلمة وغروبها فى رأى العين كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغرب فى البحر اذا لم ير الشط وهى فى الحقيقة تغيب وراء البحر والا فهى أكبر من الارض مرات كثيرة فكيف يعقل دخولها فى عين من عيون الارض قال البيضاوى ولعله بلغ ساحل المحيط فرآى ذلك اذ لم يكن فى مطمح بصره غير الماء ولذلك قال وجدها تغرب ولم يقل كانت تغرب وقرأ شعبة وحمزة والكسائى وابن عامر بألف بعد الحاء وياء مفتوحة بعد الميم عن أبى ذر قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال أتدرى يا أباذر أين تغرب هذه قلت الله ورسوله أعلم قال فانها تغرب فى عين حمئة وقرأ الباقون بغير ألف بعد الحاء وبعد الميم همزة مفتوحة واتفق ان ابن عباس كان عند معاوية فقرأ معاوية حامية فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأ قال كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار وسأله كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين كذلك نجده فى التوراة (ووجد عندها) أى عند تلك العين على الساحل المتصل بها (قوما) أى أمة قال ابن جريج مدينة لها اثنا عشر ألف باب لولا ضجيج أهلها لسمعت وجبة الشمس حين تجب أى تغرب قيل كان لباسهم جلود الوحش وطعامهم ما يلفظه البحر كانوا كفارا فخيره الله تعالى بين أن يعذبهم أو يدعوهم الى الايمان كما حكى ذلك بقوله تعالى (قلنا يا ذا القرنين) اما بواسطة الملك ان كان نبيا أو بواسطة نبى زمانه ان لم يكن أو باجتهاد فى شريعته (اما أن تعذب) بالقتل على كفرهم (واما أن تتخذ) أى بغاية جهدك (فيهم حسنا) بالارشاد وتعليم الشرائع وقيل خيره بين القتل والاسر وسماه حسنا فى مقابلة القتل ويؤيد الاول قوله (قال أما من ظلم) باستمراره على الكفر فانا نرفق به حتى نيأس منه ثم نقتله والى ذلك أشار بقوله (فسوف نعذبه) بوعد لا خلف فيه بعد طول الدعاء والترفق وقال قتادة كان يطبخ من كفر فى القدور وهو العذاب المنكر (ثم يرد الى ربه) فى الآخرة (فيعذبه عذابا نكرا) أى شديدا جدا فى النار وتقدم فى نكرا سكون الكاف وضمها (وأما من آمن وعمل صالحا) تصديقا لما أخبره من تصديقه

(فله) فى الدارين (جزاء الحسنى) أى الجنة وقرأ حفص وحمزة والكسائى بفتح الهمزة بعد الزاى منونة وتكسر فى الوصل لالتقاء الساكنين قال الفراء نصبه على التفسير أى لجهة النسبة وقيل منصوب على الحال أى فله المثوبة الحسنى مجزيا بها والباقون بضم الهمزة من غير تنوين فالاضافة للبيان قال المفسرون والمعنى على قراءة النصب فله الحسنى جزاء كما تقول له هذا الثوب هبة وعلى قراءة الرفع وجهان الاول فله جزاء الفعلة الحسنى والفعلة الحسنى هى الايمان والعمل الصالح والثانى فله جزاء المثوبة الحسنى واضافة الموصوف الى الصفة مشهورة كقوله ولدار الآخرة وأمال ألف الحسنى حمزة والكسائى محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح والامالة بين بين (وسنقول) بوعد لا خلف فيه بعد اختباره بالاعمال الصالحة (له) أى لاجله (من أمرنا) اى ما نأمره به (يسرا) أى قولا غير شاق من الصلاة والزكاة والخراج والجهاد وغيرها وهو ما يطيقه ولا يشق عليه مشقة كثيرة (ثم أتبع) لارادة طلوع مشرق الشمس (سببا) من جهة الجنوب يوصله الى المشرق واستمر فيه لا يمل ولا تغلبه أمة مر عليها (حتى اذا بلغ) فى مسيره ذلك (مطلع الشمس) أى الموضع الذى تطلع عليه أولا من المعمور من الارض (وجدها تطلع على قوم) قال الجلال المحلى هم الزنج وقوله تعالى (لم نجعل لهم من دونها) أى الشمس (سترا) فيه قولان الاول انه لا شئ لهم من سقف ولا جبل يمنع من وقوع شعاع الشمس عليهم لان أرضهم لا تحمل بنيانا قال الرازى ولهم سروب يغيبون فيها عند طلوع الشمس ويظهرون عند غروبها فيكونون عند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف فى المعاش وعند غروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش وأحوالهم بالضد من أحوال سائر الخلق وقال قتادة يكونون فى أسراب لهم حتى اذا زالت الشمس عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم والثانى ان معناه لا ثياب لهم ويكونون كسائر الحيوانات عراة أبدا وفى كتب الهيئة ان أكثر حال الزنج كذلك وحال كل من سكن البلاد القريبة من خط الاستواء كذلك قال الكلبى هم عراة يفرش أحدهم احدى أذنيه ويلتحف بالاخرى وقال الزمخشرى وعن بعضهم قال خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء القوم فقيل بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم واذا أحدهم يفرش احدى أذنيه ويلبس الاخرى فلما قرب طلوع الشمس سمعت صوتا كهيئة الصلصلة فغشى على ثم أفقت فلما طلعت الشمس فاذا هى فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونى سربا لهم فلما ارتفع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج لهم وعن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الارض وقوله تعالى (كذلك) فيه وجوه الاول ان معناه كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها الثانى ان أمره كما وصفناه من رفعة المكان وبسطة الملك قال البغوى والصحيح ان معناه كما حكم فى القوم الذين هم عند غروب الشمس كذلك فى القوم الذين هم عند مطلعها (وقد أحطنا بما لديه) أى عند ذى القرنين من الآلات والجند وغيرهما (خبرا) أى علما تعلق بظواهره وخفاياه والمعنى ان كثرة ذلك بلغت مبلغا لا يحيط به الا علم اللطيف الخبير (ثم) ان ذا القرنين لما بلغ المغرب والمشرق

(أتبع سببا) آخر من جهة الشمال في ازالة ناحية السد لخروج يأجوج ومأجوج واستقر آخذا فيه (حتى اذا بلغ) في مسيره ذلك (بين السدين) أي بين الجبلين وهما جبلا أرمينية وأذربيجان وقيل جبلان في أواخر الشمال وقيل هذا المكان في منقطع بلاد الترك من ورائهما يأجوج ومأجوج قال الرازي والاظهر أن موضع السد في ناحية الشمال سد الاسكندر ما بينهما كما سيأتي وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح السين والباقون بضمها وهما لغتان معناهما واحد وقال عكرمة ما كان من صنع بني آدم فهو السد بالفتح وما كان من صنع الله فهو بالضم وقاله أبو عمرو وقيل بالعكس (وجد من دونهما) أي بقربهما من الجانب الذي هو أدنى منهما الى الجهة التي أتى منها ذو القرنين (قوما) أي أمة من الناس لغتهم في غاية البعد من لغات بقية الناس لبعد بلادهم عن بقية البلاد فهم كذلك (لا يكادون) أي لا يقربون (يفقهون) أي يفهمون (قولا) ممن مع ذي القرنين فهما جيدا كما يفهم غيرهم لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرأ حمزة والكسائي بضم الياء وكسر القاف والباقون بفتحهما وقال ابن عباس لا يفقهون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم واستشكل بقولهم (قالوا ياذا القرنين) وأجيب بأنه تكلم عنهم مترجم ممن هو مجاورهم ويفهم كلامهم (ان يأجوج ومأجوج) وهما اسمان أعجميان لقبيلتين فلم ينصرفا وقرأ عاصم بهمزة ساكنة بعد الياء والميم والباقون بالالف فيهما وهما لغتان أصلهما من أجيج النار وهو ضوءها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم وهم من أولاد يافث بن نوح عليه السلام قال الضحاك هم جيل من الترك قال السدي الترك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم وعن قتادة انهم اثنان وعشرون قبيلة بنى ذو القرنين السد على احدى وعشرين قبيلة وبقيت قبيلة واحدة فهم الترك سموا الترك لانهم تركوا خارجين قال أهل التواريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج وقال ابن عباس في رواية عطاء هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء وروى عن حذيفة مرفوعا ان يأجوج أمة ومأجوج أمة وكل أمة أربعمائة ألف أمة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر الى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح وهم من ولد آدم يسيرون في خراب الارض وقال هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الارز شجر بالشأم طوله عشرون ومائة ذراع في السماء وصنف منهم طوله وعرضه سواء عشرون ومائة وهؤلاء لا تقوم لهم الجبال ولا الحديد وصنف منهم يفرش احدى أذنيه ويلتحف بالاخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير الا أكلوه ومن مات منهم أكلوه مقدمتهم بالشأم وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية ومنهم ان ثبت لهم مخالب في أظفارهم وأضراسهم كأضراس السباع وعن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال منهم من طوله شبر ومنهم من هو مفرط في الطول وقال كعب هم نادرة في ولد آدم وذلك أن آدم احتلم ذات

يوم

يوم وامتزجت نطفته بالتراب فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج فهم يتصلون بنا من جهة الاب دون الام وذكر وهب بن منبه أن ذا القرنين كان رجلا من الروم ابن عجوز فلما بلغ كان عبدا صالحا قال الله تعالى انى باعثك الى أمم مختلفة ألسنتهم منهم أمتان بينهما طول الارض احداهما عند مغرب الشمس يقال لها ناسك والاخرى عند مطلعها يقال لها منسك وأمتان بينهما عرض الارض احداهما فى القطر الايمن يقال لها هاويل والاخرى فى قطر الارض الايسر يقال لها تاويل وأمم فى وسط الارض منهم الجن والانس ويأجوج ومأجوج فقال ذو القرنين بأى قوة أكاثرهم وبأى لسان أناطقهم قال الله تعالى انى سأطوقك وأبسط لك لسانك وأشد عضدك فلا يهولنك شئ وألبسك الهيبة فلا يروعنك شئ وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما من جنودك يهديك النور من أمامك وتحفظك الظلمة من ورائك فانطلق حتى أتى مغرب الشمس فوجد جمعا وعددا لا يحصيه الا الله تعالى فكاثرهم بالظلمة حتى جمعهم فى مكان واحد فدعاهم الى الله تعالى والى عبادته فنهم من آمن ومنهم من كفر ومنهم من صد عنه فعمد الى الذين تولوا عنه وأدخل عليهم الظلمة فدخلت أجوافهم وبيوتهم فدخلوا فى دعوته فجند من أهل المغرب جندا عظيما فانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم حتى أتى هاويل فعمل فيهم كعمله فى ناسك ثم مضى حتى انتهى الى منسك عند مطلع الشمس فعمل فيها وجند منها جنودا كفعله فى الاثنتين ثم أخذ بناحية الارض اليسرى فأتى تاويل فعمل فيها كعمله فيما قبلها ثم عمد الى الامم التى وسط الارض فلما كان مما يلى منقطع الترك نحو المشرق قالت له أمة صالحة من الانس ياذا القرنين ان بين هذين الجبلين خلقا أشباه البهائم أى وهم يأجوج ومأجوج (مفسدون فى الارض) يفترسون الدواب والوحوش والسباع ويأكلون الحيات والعقارب وكل ذى روح خلقه الله فى الارض وليس يزداد خلق كزيادتهم فلا يشك أنهم سيملكون الارض ويظهرون عليها ويفسدون فيها وقال الكلبى فسادهم انهم كانوا يخرجون أيام الربيع الى أرضهم فلا يدعون فيها شيأ أخضر الا أكلوه ولا يابسا الا احتملوه وأدخلوه أرضهم وقد بالغوا ولقوا منهم أذى شديدا وقتلا وقيل فسادهم انهم كانوا يأكلون الناس وقيل معناه انهم سيفسدون فى الارض بعد خروجهم (فهل نجعل لك خرجا) أى جعلا من المال وقرأ حمزة والكسائى بفتح الراء وألف بعدها والباقون بسكون الراء ولا ألف بعدها فقيل هما بمعنى وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك (على أن تجعل) فى جميع ما (بيننا وبينهم) من الارض التى يمكن توصلهم الينا منها بما آتاك الله من المكنة (سدا) أى حاجزا بين هذين الجبلين فلا يصلون الينا وقرأ نافع وابن عامر وشعبة برفع السين والباقون بالنصب (قال) لهم ذو القرنين (ما مكنى فيه ربى) أى المحسن الى مما ترونه من الاموال والرجال والتوصل الى جميع الممكن للمخلوق (خير) من خراجكم الذى تريدون بذله كما قال سليمان عليه السلام فما آتانى الله خير مما آتاكم وقرأ ابن كثير بنون مفتوحة بعد الكاف وبعدها نون مكسورة والباقون بنون واحدة مكسورة مشددة (فأعينونى بقوة) أى انى لا أريد المال بل أعينونى بأيديكم وقوتكم

وبالآلات التى أتقوى بها فى فعل ذلك فان ما معى انما هو للقتال وما يكون من أسبابه لا لمثل هذا (أجعل بينكم) أى بين ما تختصون به (وبينهم ردما) أى حاجزا حصينا موثقا بعضه فوق بعض من التلاصق والتلاحم وهو أعظم من السد من قولهم ثوب ردم اذا كان رقاعا فوق رقاع قالوا وما تلك القوة قال فعلة وصناع يحسنون البناء قالوا وما تلك الآلات قال (آتونى) أى اعطونى (زبر الحديد) أى قطعه وهو جمع زبرة كغرفة وغرف قال الخليل الزبرة من الحديد القطعة الضخمة فأتوه به وبالحطب حفر له الاساس حتى بلغ الماء وجعل الاساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم (حتى اذا ساوى) أى بذلك البناء (بين الصدفين) أى بين جانبى الجبلين أى سوى بين طرفى الجبلين سميا بذلك لانهما يتصادفان أى يتقابلان من قولهم صادفت الرجل لاقيته وقابلته وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر برفع الصاد والدال وشعبة برفع الصاد وسكون الدال والباقون بنصب الصاد والدال ثم وضع المنافخ وأطلق النار فى الحطب والفحم و (قال) أى للعملة (انفخوا) فنفخوا (حتى اذا جعله) أى الحديد (نارا) أى كالنار (قال آتونى) أى اعطونى (أفرغ عليه قطرا) أى أصب النحاس المذاب على الحديد المحمى فصبه عليه فدخل فى خلال الحديد مكان الحطب لان النار أكلت الحطب حتى لزم الحديد النحاس فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلا صلدا قال الزمخشرى قيل ما بين السدين مائة فرسخ وروى ان عرضه كان خمسين ذراعا وارتفاعه مائتى ذراع وعن قتادة قال ذكر لنا أن رجلا وفى رواية عن رجل من أهل المدينة قال يارسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال انعته لى قال كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء وهذه معجزة عظيمة ان كان نبيا أو كرامة ان لم يكن لان هذه الزبرة الكبيرة اذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر الحيوان ان يقرب منها والنفخ عليها لا يكون الا بالقرب منها فكأنه تعالى صرف تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين عليها حتى تمكنوا من العمل فيها *(تنبيه)* قطرا هو المتنازع فيه وهذه الآية اشهر أمثلة النحاة فى باب التنازع وبها تمسك البصريون على ان اعمال الثانى من العاملين المتوجهين نحو معمول واحد أولى اذ لو كان قطرا مفعول آتونى لاضمر مفعول أفرغ حذرا من الالباس ثم قال تعالى (فما) أى فتسبب عن ذلك انه لما أكمل عمل الردم وأحكمه ما (اسطاعوا) أى يأجوج ومأجوج وغيرهم (أن يظهروه) أى يعلوا ظهره لعلوه وملاسته وقرأ حمزة بتشديد الطاء والباقون بالتخفيف (وما استطاعوا له نقبا) أى خرقا لصلابته وسمكه وزيادة التاء هنا تدل على أن العلو عليه أصعب من نقبه لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس فى علو الجبل فانهم ولو احتالوا ببناء درج من جانبهم أو وضع تراب حتى ظهروا عليه لم ينفعهم ذلك لانهم لا حيلة لهم على النزول من الجانب الآخر ويؤيده أنهم انما يخرجون فى آخر الزمان بنقبه لا بظهورهم عليه ولا ينافى نفى الاستطاعة لنقبه ما رواه الامام أحمد والترمذى فى التفسير وابن ماجه فى الفتن عن أبى رافع عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان يأجوج

ومأجوج

ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعودون اليه كأشد ما كان حتى اذا بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا ان شاء الله تعالى فيستثنى فيعودون اليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس الحديث وفى حديث الصحيحين عن زينب بنت جحش عن النبى صلى الله عليه وسلم فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ورواه عن أبى هريرة وفيه مثل هذا وعقد تسعين لان هذا فى آخر الزمان ثم انه قيل فما قال حين فراغه قيل (قال هذا) أى السد يعنى الاقدار عليه (رحمة) أى نعمة (من ربى) أى المحسن الى باقدارى عليه ومنع العادية (فاذا جاء وعد ربى) بقرب قيام الساعة أو بوقت خروجهم (جعله دكا) أى مدكوكا مبسوطا روى أنهم يخرجون على الناس فيتبعون المياه ويتحصن الناس فى حصونهم منهم فيرمون بسهامهم الى السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون قهرنا من فى الارض وعلونا من فى السماء قسوة وعلوا فيبعث الله تعالى عليهم نغفا فى رقابهم وفى رواية فى آذانهم فيهلكون قال صلى الله عليه وسلم فوالذى نفسى بيده ان دواب الارض لتسمن وتشكر من لحومهم شكرا أخرجه الترمذى قوله قسوة وعلوا أى غلظة وفظاظة وتكبرا والنغف دود يخرج فى أنوف الابل والغنم وقوله وتشكر من لحومهم شكرا يقال شكرت الشاة تشكر اذا امتلأ ضرعها لبنا والمعنى أنها تمتلئ أجسادها لحما وتسمن وعن النواس بن سمعان قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه فى طائفة من النخل فلما رحلنا اليه عرف ذلك فينا فقال ما شأنكم قلنا يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل فقال غير الدجال أخوفنى عليكم ان يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه والله خليفتى على كل مسلم وانه شاب قطط أى شديد الجعودة وقيل حسن الجعودة عينه طافية أى بارزة وقيل مخسوفة كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف انه خارج من خلة بين الشام والعراق فعاث أى أفسد يمينا وعاث شمالا يا عباد الله فاثبتوا قلنا يا رسول الله وما مكثه فى الارض قال أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يا رسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم قال لا اقدروا له قدره أى واليوم الثانى والثالث كذلك وسكت عن ذلك للعلم به من الاول قلنا يا رسول الله وما اسراعه فى الارض قال كالغيث استدبرته الريح فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والارض فتنبت وتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت درا وأسبغه ضروعا وأمده خواصر ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شئ من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها أخرجى كنزك فيتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلا ممتلئا شابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل

ويتهلل وجهه يضحك فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء فى دمشق بين مهرودتين أى حلتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين اذا طأطأ رأسه قطر واذا رفعه تحدر منه مثل جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه الامات ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه حتى يدركه بباب لد قرية بالشأم قريبة من الرملة فيقتله ثم يأتى عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويخبرهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك اذ أوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام انى قد أخرجت عبادا الى لا يدان لاحد بقتالهم فحرز عبادى الى الطور ويبعث يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون مافيها ويمر آخرهم فيقول لقد كان بهذه مرة ماء ويحصر نبى الله وأصحابه حتى يكون رأس الثور لاحدهم خيرا من مائة دينار لاحدكم اليوم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه الى الله تعالى فيرسل الله تعالى عليهم النغف فى رقابهم وهو بالتحريك دود يكون فى أنوف الابل والغنم كأمر واحدتها نغفة فيصبحون فرسا أى قتلى الواحد فريس ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه الى الارض فلا يجدون فى الارض موضع شبر الاملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه الى الله فيرسل الله تعالى عليهم طيرا كأعناق البخت فتحملهم حيث شاء الله تعالى ثم يرسل الله تعالى مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الارض حتى يتركها كالزلفة وهى بالتحريك جمعها زلف مصانع الماء ويجمع على المزالف أيضا أى فتصير الارض كأنها مصنعة من مصانع الماء وقيل كالمرآة وقيل الزلفة الروضة وقيل بالقاف أيضا ثم يقال للارض انبتى ثمرتك وردى بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك فى الرسل وهو بتحريك الراء والسين من الابل والغنم من عشرة الى خمسة وعشرين حتى ان اللقحة من الابل لتكفى الفئام من الناس وهو مهموز الجماعة الكثيرة واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس فبينماهم كذلك اذ بعث الله تعالى عليهم ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة (وكان وعد ربى) الذى وعد به فى خروج يأجوج ومأجوج واحراقهم الارض وافسادهم لها قرب قيام الساعة (حقا) كائنا لامحالة فلذلك أعان تعالى على هدمه هذا آخر حكاية ذى القرنين وفى القصة ان ذا القرنين دخل الظلمة فلما رجع توفى بشهرزور وذكر بعضهم أن عمره كان نيفا وثلاثين سنة سبحان من يدوم عزه وبقاؤه ثم انه تعالى قال عاطفا على ما تقديره فقد بان أمر ذى القرنين أى بيان وصدق فى قوله فاذا جاء وعد ربى فانه اذا جاء وعدنا جعلناه بقدرتنا التى نؤتيها ليأجوج ومأجوج دكا فأخرجناهم على الناس بعد خروج الدجال (وتركنا بعضهم) أى يأجوج ومأجوج (يومئذ) أى حين يخرجون (يموج) أى يضطرب (فى بعض) كموج البحر أو يموج بعض الخلق فى بعض فيضطربون ويختلطون انسهم وجنهم حيارى ويؤيده (ونفخ فى الصور) أى القرن النفخة الثانية لقوله تعالى (فجمعناهم) أى الخلائق فى مكان واحد يوم

القيامة قال البقاعي ويجوز أن تكون هذه الفاء فاء الفصيحة فيكون المراد النفخة الاولى أى ونفخ نفخات الخلائق كلهم فبليت أجسامهم وتفتت عظامهم كما كان من تقدمهم ثم نفخ الثانية فجمعناهم من التراب بعد تفرقهم فيه وتفرقهم فى أقطار الارض بالسيول والرياح وغير ذلك (جمعا) فأمتناهم دفعة واحدة كلمح البصر وحشرناهم الى الموقف للحساب ثم الثواب والعقاب (وعرضنا) أى أظهرنا (جهنم يومئذ) أى اذ جمعناهم لذلك (للكافرين عرضا) ظاهرة لهم بكل ما فيها من الاهوال وهم لا يجدون لهم عنها مصرفا * ثم وصفهم بما أوجب لهم ذلك بقوله تعالى (الذين كانت) كونا كأنه جبلة لهم (أعينهم) وهو بدل من الكافرين (فى غطاء عن ذكرى) أى عن القرآن فهم لا يهتدون به وعما جعلناه على الارض من زينة دليلا على الساعة بافنائه ثم احيائه واعادته بعد ابداده (وكانوا) بما جعلناهم عليه (لا يستطيعون سمعا) أى لا يقدرون أن يسمعوا من النبى صلى الله عليه وسلم ما يتلو عليهم بفضاله فلا يؤمنون به * ولما بين تعالى أمر الكافرين أنهم أعرضوا عن الذكر وعن استماع ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم أتبعه بقوله تعالى (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى) من الاحياء كالملائكة وعزير والمسيح والاموات كالاصنام (من دونى) وقوله تعالى (أولياء) أى أربابا مفعول ثان ليتخذوا والمفعول الثانى لحسب محذوف والمعنى أظنوا أن الاتخاذ المذكور ينفعهم ولا يغضبنى ولا أعاقبهم عليه كلا وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها وهم على مراتبهم فى المد * ولما كان معنى الاستفهام الانكارى ليس الامر كذلك حسن جدا قوله تعالى مؤكدا لاجل انكارهم (انا اعتدنا جهنم) التى تقدم أنا عرضناها لهم (للكافرين) أى هؤلاء وغيرهم (نزلا) أى هى معدة لهم كالمنزل المعد للضعيف وهذا على سبيل التهكم ونظيره قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم * ثم ذكر تعالى ما فيه تنبيه على جهل القوم فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) لهم (هل ننبئكم) أى نخبركم وأدغم الكسائى لام هل فى النون والباقون بالاظهار (بالاخسرين أعمالا) أى الذين أتعبوا أنفسهم فى عمل يرجون به فضلا ونوالا فنالوا هلاكا وبوارا واختلفوا فيهم فقال ابن عباس وسعد بن أبى وقاص هم اليهود والنصارى وهو قول مجاهد قال سعد بن أبى وقاص أما اليهود فكذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأما النصارى فكفروا بالجنة فقالوا لا طعام فيها ولا شراب انتهى قال البقاعى وكذا قال اليهود لان الفريقين أنكروا الحشر الجسمانى وخصوه بالروحانى وقيل هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم فى الصوامع * (تنبيه) * أعمالا تمييز للاخسرين جمع عمل وان كان مصدرا لتنوع أعمالهم ثم وصفهم تعالى بضد ما يدعونه لانفسهم من نجاح السعى واحسان الصنع فقال تعالى (الذين ضل) أى ضاع وبطل (سعيهم فى الحياة الدنيا) لكفرهم * (تنبيه) * محل الموصول الجر نعتا أو بدلا أو بيانا أو النصب على الذم أو الرفع على الخبر المحذوف فانه جواب السؤال ومعنى خسرانهم أنه مثلهم بمن يشترى سلعة يرجو فيها ربحا فخسر وخاب سعيه كذلك أعمال هؤلاء الذين أتعبوا أنفسهم مع ضلالهم فبطل جدهم

واجتهادهم في الحياة الدنيا (وهم يحسبون) أي يظنون وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بالكسر (أنهم يحسنون صنعا) أي عملا يجازون عليه لاعتقادهم انهم على الحق * ثم بين تعالى السبب في بطلان سعيهم بقوله تعالى (أولئك) أي البعداء البغضاء (الذين كفروا بآيات ربهم) أي بدلائل توحيده من القرآن وغيره (ولقائه) أي رؤيته لانه يقال لقيت فلانا أي رأيته (فان قيل) اللقاء عبارة عن الوصول قال تعالى فالتقى الماء على أمر قد قدر وذلك في حق الله تعالى محال فوجب حمله على لقاء ثواب الله تعالى كما قال بعض المفسرين (أجيب) بأن لفظ اللقاء وان كان عبارة عن الوصول الا أن استعماله في الرؤية مجاز ظاهر مشهور والذي يقول ان المراد لقاء ثواب الله قال لا يتم الا بالاضمار وحمل اللفظ على المجاز المتعارف المشهور أولى من حمله على ما يحتاج الى الاضمار ثم قال تعالى (فحبطت) أي فبسبب جحدهم الدلائل بطلت (أعمالهم) فصارت هباء منثورا فلا يثابون عليها وفي قوله تعالى (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) قولان أحدهما انا نزدري بهم وليس لهم عندنا وزن ومقدار تقول العرب ما لفلان عندي وزن أي قدر لخسته وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرؤا ان شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا الثاني لا نقيم لهم ميزانا لان الميزان انما وضع لاهل الحسنات والسيآت من الموحدين ليتميز مقدار الطاعات ومقدار السيآت وقال أبو سعيد الخدري تأتي ناس بأعمالهم يوم القيامة عندهم في التعظيم كجبال تهامة فاذا وزنوها لم تزن شيأ فذلك قوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا * ولما كان هذا السياق في الدلالة على ان لهم جهنم أوضح من الشمس قال تعالى (ذلك) أي الامر العظيم الذي بيناه من وعيدهم (جزاؤهم) ثم بين ذلك الجزاء بقوله تعالى (جهنم) وصرح بالسببية بقوله تعالى (بما كفروا) أي بما أوقعوا التغطية للدلائل (واتخذوا آياتي) الدالة على وحدانيتنا (ورسلي) المؤيدين بالمعجزات الظاهرات (هزوا) أي مهزوأ بهما فلم يكتفوا بالكفر الذي هو طعن في الالهية حتى ضموا اليه الهزو الذي هو أعظم احتقارا * ولما بين سبحانه وتعالى ما للاحد قسمي أهل الجمع تنفيرا عنهم بين ما للآخرين على تقدير الجواب لسؤال يقتضيه الحال ترغيبا في اتباعهم والاقتداء بهم بقوله (ان الذين آمنوا) أي باشروا الايمان (وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) من الخصال (كانت لهم) أي في علم الله قبل أن يخلقوا البناء أعمالهم على الاساس (جنات) أي بساتين (الفردوس) أي أعلى الجنة وأوسطها والاضافة اليه للبيان روى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة وقال كعب ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال قتادة الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وأرفعها وقال كعب الفردوس هو بستان الجنة الذي فيه الاعناب وقال مجاهد هو البستان بالرومية وقال الزجاج هو بالرومية منقول الى لفظ العربية

وقال

وقال عكرمة هي الجنة بلسان الحبش وقال الضحاك هي الجنة الملتفة الاشجار (نزلا) أي منزلا كما كان السعير والاغلال لاولئك نزلا وقوله تعالى (خالدين فيها) حال مقدرة (لا يبغون) أي لا يريدون أدنى ارادة (عنها حولا) أي تحويلا الى غيرها قال ابن عباس لا يريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار اذا لم توافقه الى دار أخرى * ولما ذكر تعالى في هذه السورة أنواع الدلائل والبينات وشرح فيها أقاصيص الاولين والآخرين نبه على حال كمال القرآن بقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) يا أشرف الخلق للخلق (لو كان البحر) أي ماؤه على عظمته عندكم (مدادا) وهو اسم لما يمد به الشئ كالحبر للدواة والسليط للسراج (لكلمات) أي لكتب كلمات (ربي) أي المحسن الي (لنفد) أي فني مع الضعف فناء لا تدارك له (البحر) لانه جسم متناه (قبل أن تنفد) أي تفنى وتفرغ (كلمات ربي) لان معلوماته تعالى غير متناهية والمتناهي لا يفي البتة بغير المتناهي وقرأ حمزة والكسائي بالياء التحتية على التذكير والباقون بالفوقية على التأنيث * ولما لم يكن أحد غيره يقدر على امداد البحر قال تعالى (ولو جئنا بمثله) أي بمثل البحر الموجود (مددا) أي زيادة ومعونة ونظيره قوله تعالى ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال البغوي وابن عباس قالت اليهود تزعم يا محمد انا قد أوتينا الحكمة وفي كتابك ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ثم تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال البيضاوي وسبب نزولها أن اليهود قالوا في كتابكم ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وتقرؤن وما أوتيتم من العلم الا قليلا انتهى وقال في الكشاف يعني ان ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله وقيل لما نزل وما أوتيتم من العلم الا قليلا قالت اليهود أوتينا التوراة وفيها علم كل شئ فأنزل الله تعالى هذه الآية * ولما كانوا ربما قالوا مالك لا تحدث من هذه الكلمات بكل ما سألناك عنه قال الله تعالى (قل) يا خير الخلق لهم (انما أنا بشر) في استبداد القدرة على ايجاد المعدوم والاخبار بالغيب (مثلكم) أي لا أمر لي ولا قدرة الا ما يقدرني ربي عليه ولكن (يوحى الي) أي من الله تعالى الذي خصني بالرسالة كالوحي الى الرسل قبلي (أنما الهكم) الذي يجب أن يعبد (اله واحد) لا ينقسم بمجانسة ولا غيرها قادر على ما يريد لا منازع له لم يؤخر جواب ما سألتموني عنه من عجز ولا من جهل هذا الذي يعني كل أحد علمه وأما ما سألتم عنه في أمر الروح والقصتين تعنتا فأمر لو جهلتموه ما ضركم جهله (فمن) أي فتسبب عن وحدته المستلزمة لقدرته أنه من (كان يرجو لقاء ربه) أي يخاف المصير اليه وقيل يأمل رؤية ربه والرجاء يكون بمعنى الخوف والامل جميعا قال الشاعر

فلا كل ما ترجو من الخير كائن * ولا كل ما ترجو من الشر واقع

فجمع بين المعنيين (فليعمل عملا) ولو قليلا (صالحا) يرتضيه الله (ولا يشرك) أي وليكن ذلك العمل مبنيا على الاساس وهو أن لا يشرك ولو بالرياء (بعبادة ربه أحدا) فاذا عمل ذلك حاز فخار علوم الدنيا والآخرة روى أن جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اني لأعمل

العمل لله فاذا اطلع عليه سرّنى فقال ان الله لا يقبل ما شورك فيه فنزلت تصديقا وروى أنه قال له لك أجران أجر السر وأجر العلانية وذلك اذا قصد أن يقتدى به وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال اتقوا الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر قال الرياء وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء هو للذى عمله وعن سعيد بن فضالة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا جمع الله تبارك وتعالى الناس ليوم لا ريب فيه نادى منادٍ من كان يشرك فى عمل عمله لله فليطلب ثوابه منه فان الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك والآية جامعة لخلاصتى العلم والعمل وهما التوحيد والاخلاص فى الطاعة *(خاتمة)* روى فى فضائل سورة الكهف أحاديث كثيرة منها ما رواه الترمذى وغيره من قرأها عند مضجعه كان له نور يتلألأ فى مضجعه الى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وان كان مضجعه بمكة كان له نور يتلألأ من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ وروى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال وقال البيضاوى وعنه عليه السلام من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورا من قرنه الى قدمه ولكن الذى رواه الامام أحمد من قرأ أول سورة الكهف كانت له نورا من فرقه الى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء وروى البغوى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قدمه الى رأسه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء فنسأل الله تعالى أن ينور قلوبنا وأبصارنا وان يغفر زلاتنا ولا يؤاخذنا بسوء أفعالنا وان يفعل ذلك بوالدينا وأولادنا وأقاربنا وأصحابنا ومشايخنا وجميع اخواننا المسلمين وأحبابنا آمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما الى يوم الدين

(سورة مريم عليها السلام مكية)

وهى ثمان وتسعون آية وسبعمائة واثنان وستون كلمة
وثلاثة آلاف وثمانمائة حرف وحرفان

(بسم الله) المنزه عن كل شائبة نقص القادر على كل ما يريد (الرحمن) الذى عم نواله سائر مخلوقاته (الرحيم) بسائر خلقه واختلف فى تفسير قوله تعالى (كهيعص) قال ابن عباس هو اسم من أسماء الله تعالى وقال قتادة هو اسم من أسماء القرآن وقيل هو اسم الله الاعظم وقيل هو اسم السورة وقيل قسم أقسم الله به وعن الكلبى هو ثناء أثنى الله به على نفسه وعنه معناه كاف لخلقه هاد لعباده يده فوق أيديهم عالم ببريته صادق فى وعده وعن ابن عباس قال الكاف من كريم وكبير والهاء من هاد والياء من رحيم والعين من عليم وعظيم والصاد من صادق وقيل انه من المتشابه الذى استأثر الله تعالى بعلمه وقد تقدم الكلام على ذلك فى أول سورة البقرة

وقرأ

وقرأ نافع باماله الهاء والياء بين بين وأمالهما محضة شعبة والكسائي وأمال الهاء محضة أبو عمرو وابن عامر وحمزة وللسوسي في الياء خلاف في الامالة محضة والفتح والباقون وهم ابن كثير وحفص بفتحهما بلا خلاف ولجميع القراء في العين المد والتوسط وقوله تعالى (ذكر) مبتدأ محذوف الخبر تقديره مما يتلى عليكم أو خبر محذوف المبتدا تقديره المتلو ذكر أو هذا ذكر (رحمت ربك) وقوله تعالى (عبده) مفعول رحمة لانها مصدر بني على التاء لانها دالة على الوحدة ورحمت بتاء مجرورة ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ووقف بالتاء على الرسم الباقون وقوله تعالى (زكريا) بيان له *(تنبيه)* اعلم أنه تعالى ذكر في هذه السورة قصص جملة من الانبياء* الاولى هذه القصة وهي قصة زكريا فيحتمل أن المراد من قوله تعالى رحمة ربك أنه عنى عبده زكريا ثم في كونه رحمة وجهان أحدهما أنه يكون رحمة على أمته لانه هداهم الى الايمان والطاعة والثاني أن يكون رحمة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لان الله تعالى لما شرع له صلى الله عليه وسلم طريقته في الاخلاص والابتهال في جميع الامور الى الله تعالى صار ذلك لطفا داعيا له ولامته الى تلك الطريقة فكان زكريا رحمة ويحتمل أن يكون المراد أن هذه السورة فيها ذكر الرحمة التي يرحم بها عبده زكريا (اذ نادى ربه نداء) مشتملا على دعاء (خفيا) أي سرا جوف الليل لانه أسرع الى الاجابة وان كان الجهر والاخفاء عند الله سيان وقيل أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في زمن الشيخوخة وقيل أسره من مواليه الذين خافهم وقيل خفت صوته لضعفه وهرمه كما جاء في صفة الشيخ صوته خفات وسمعه تارات (فان قيل) من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين كونه نداء وخفيا (أجيب) بوجهين الاول أنه أتى بأقصى ما قدر عليه من رفع الصوت الا أن صوته كان ضعيفا لنهاية ضعفه بسبب الكبر فكان نداء نظرا الى القصد خفيا نظرا الى الواقع الثاني أنه دعا في الصلاة لان الله تعالى أجابه في الصلاة لقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ان الله يبشرك وكون الاجابة في الصلاة يدل على كون الدعاء فيها فيكون النداء فيها خفيا *(تنبيه)* في ناصب اذ ثلاثة أوجه أحدها أنه ذكر ولم يذكر الحوفي غيره والثاني رحمة ولم يذكر الجلال المحلي غيره وذكر الوجهين أبو البقاء والثالث أنه بدل من زكريا بدل اشتمال لان الوقت مشتمل عليه ثم كأنه قيل ماذلك النداء فقيل (قال رب) بحذف الاداة للدلالة على غاية القرب (اني وهن) أي ضعف جدا (العظم مني) أي هذا الجنس الذي هو أقوى ما في بدني ولو جمع لاوهم أنه وهن مجموع عظامه لا جميعها وقوله (واشتعل الرأس) أي مني (شيبا) تمييز محول عن الفاعل أي انتشر الشيب في شعره كما ينتشر شعاع النار في الحطب واني أريد أن أدعوك (ولم أكن بدعائك) أي بدعائي اياك (رب شقيا) أي خائبا فيما مضى فلا تخيبني فيما يأتي وان كان ما أدعو به في غاية البعد في العادة لكنك فعلت مع أبي ابراهيم مثله فهو دعاء وشكر واستعطاف ثم عطف على قوله اني وهن قوله (واني خفت الموالي) أي الذين يلونني في النسب كبني العم أن يسيئوا الخلافة (من ورائي) أي في بعض الزمان الذي بعدي (وكانت

امرأتي عاقرا) لاتلد أصلا بما دل عليه فعل الكون (فهب لي) أي فتسبب عن شيخوختي وضعفي وتعويدك لي بالاجابة وخوفي من سوء خلافة أقاربي ويأسي عن الولد عادة بعقم امرأتي وبلوغي من الكبر حد الاحرا الذي معه أني أقول لك يا قادرا على كل شئ هب لي (من لدنك) أي من الامور المستبطنة المستغربة التي عندك لم تجرها على مناهج العادات والاسباب المطردات (وليا) أي ابنا من صلبي (يرثني) في جميع ما أنا فيه من العلم والنبوة والعمل (ويرث) زيادة على ذلك (من آل يعقوب) جزأ مما خصصتهم به من المنح وفضلتهم به من النعم ومحاسن الاخلاق ومعالي الشيم فان الانبياء لايورثون المال وقيل يرثني الحبورة أي العلم بتحبير الكلام وتحسينه فانه كان حبرا هو بالفتح والكسر وهو أفصح يقال للعالم بتحبير الكلام وتحسينه وهو يعقوب ابن اسحق عليهما السلام وقيل يرثني العلم ويرث من آل يعقوب النبوة ولفظ الارث يستعمل في المال وفي العلم والنبوة أما في المال فلقوله تعالى وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأما في النبوة فلقوله تعالى وأورثنا بني اسرائيل الكتاب الآية وقال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء ولان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما يورثون العلم وخص اسم يعقوب اقتداء به نفسه اذ قال ليوسف عليه السلام ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ولان اسرائيل قد صار علما على الاسباط كلهم وكانت قد غلبت عليهم الاحداث وقرأ أبو عمرو والكسائي بجزم الثاء المثلثة فيهما على أنهما جواب الامر اذ تقديرهما ان تهب يرث والباقون بالضم فيهما على أنهما صفة (واعترض) بأن زكريا دعا الله تعالى أن يهبه ولدا يرثه مع أن يحيى قتل قبله فلم يجبه الى ارثه منه (وأجيب) بأن اجابة دعاء الانبياء غالبة لا لازمة فقد يتخلف لقضاء الله تعالى بخلافه كما في دعاء ابراهيم عليه السلام في حق أبيه وكما في دعاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في قوله وسألته أن لايذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها ولما كان من قضاء الله تعالى وقدره أن يوجد يحيى نبيا صالحا ثم يقتل استجيب دعاء زكريا في ايجاده دون ارثه * ولما ختم دعاءه بقوله (واجعله رب) أي أيها المحسن الي (رضيا) أي مرضيا عندك أجابه الله تعالى بقوله تعالى (يازكريا انا نبشرك بغلام) يرث كما سألت (اسمه يحيى) وقرأ حمزة بفتح النون وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم النون وفتح الموحدة وكسر الشين مشددة وكذلك في آخر السورة *(تنبيه)* يحيى اسم أعجمي ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة وقيل منقول من الفعل المضارع كما سموا بيعمر وانما تولى تعالى تسميته تشريفا له قال تعالى (لم نجعل له من قبل سميا) أي مسمى بيحيى قال قتادة والكلبي لم يسم أحد قبله بيحيى *(تنبيه)* سميا مأخوذ من السمو وفيه دلالة لقول البصريين ان الاسم من السمو ولو كان من الوسم لقيل وسيما وقال سعيد ابن جبير وعطاء لم نجعل له شبيها ومثلا كما قال تعالى هل تعلم له سميا أي مثلا والمعنى انه لم يكن له مثل لانه لم يعص ولم يهم بمعصية قط ورد هذا لان هذا يقتضي تفضيله على الانبياء قبله كابراهيم وموسى وليس كذلك وقيل لم يكن له ميل الى أمر النساء لانه كان سيدا وحصورا وعن ابن عباس لم تلد العواقر مثله ولدا ثم كأنه قيل فما قال في جواب هذه البشارة العظيمة فقيل (قال) عالما

قوله يرث كما سألت هذا يناقض ما قدمه من أنه لم يجب الى ارثه لتخلفه بكونه قتل قبل والده وعبارة الجمل قوله يرث كما سألت قد يستشكل بأنه سأل ولدا يرثه منه ولم يفعل ذلك لقتل يحيى في حياة زكريا والجواب ان المراد وراثة العلم والنبوة ولو في حياة زكريا الذي ا هـ

بصدقها طالبا للتأكيدها وللتلذذ بترديدها وهل ذلك من امرأته أومن غيرها وهل اذا كان منها يكونان على حالتهما من الكبر أو غيرها غير طائش ولا عجل (رب) أيها المحسن الى باجابة الدعاء دائما (أنى) أى من أين وكيف وعلى أى حال (يكون لى غلام) يولد لى فى غاية القوة والنشاط والكمال فى الذكورة (وكانت) أى والحال أنه كانت (امرأتى) اذ كانت شابة (عاقرا) غير قابلة للولد وأنا وهى شابان فلم يأتنا ولد لاختلال أحد السببين فكيف بها وقد أيست قال الجلال المحلى بلغت ثمانا وتسعين سنة (وقد بلغت) انا (من الكبر عتيا) من عتا يبس أى نهاية السن قال الجلال المحلى مائة وعشرين سنة وبما تقرر سقط ما قيل لم تعجب زكريا عليه السلام بقوله أنى يكون لى غلام مع أنه هو الذى طلب الغلام وقرأ حفص وحمزة والكسائى عتيا وصليا وجثيا بكسر عين الاول وصاد الثانى وجيم الثالث وضم الباقون وأما بكيا فكسر الباء الموحدة حمزة والكسائى وضمها الباقون وأصل عتى عتو وكسرت التاء تخفيفا وقلبت الواو الاولى ياء لمناسبة الكسرة والثانية ياء لتدغم فيها وانما استعجب للولد من شيخ فان وعجوز عاقر اعترافا بأن المؤثر فيه كامل القدرة وأن الوسايط عند المحققين ملغاة ولذلك (قال) أى الله تعالى كما قال الاكثرون لان زكريا انما كان يخاطب الله ويسأله بقوله رب انى وهن العظم منى أو الملك المبلغ للبشارة تصديقا له لقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى وأيضا فانه لما قال وقد بلغت من الكبر عتيا قال (كذلك) أى الامر كذلك فهو خبر مبتدا محذوف ثم علله بقوله (قال ربك) أى الذى عودك بالاحسان فدل ذلك على أنه كلام الملك قال ابن عادل ويمكن أن يجاب بأنه يحتمل أن يحصل النداآن نداء الله تعالى ونداء الملك ثم ذكر مقول القول فقال (هو) أى خلق يحيى منكما على هذه الحالة (على) أى خاصة (هين) أى بأن أرد عليك قوة الجماع وافتق رحم امرأتك للعلوق (وقد خلقتك) أى قدرتك وصورتك وأوجدتك (من قبل ولم) أى والحال أنك لم (تك شيأ) بل كنت معدوما صرفا وفيه دليل على أن المعدوم ليس بشئ ولاظهار الله تعالى هذه القدرة العظيمة ألهمه السؤال ليجاب بما يدل عليها وقرأ حمزة والكسائى بعد القاف بنون بعدها ألف والباقون بعد القاف بتاء مضمومة * ولما تاقت نفسه الى سرعة المبشر به (قال رب اجعل لى) على ذلك (آية) أى علامة تدلنى على وقوعه (قال آيتك) على وقوع ذلك (أن لا تكلم الناس) أى لا تقدر على كلامهم بخلاف ذكر الله تعالى (ثلاث ليال) أى بأيامها كما فى آل عمران ثلاثة أيام حال كونك (سويا) من غير خرس ولا مرض وجعلت الآية الدالة عليه سكوت ثلاثة أيام ولياليهن من غير ذكر الله دلالة على اخلاصه وانقطاعه بكليته الى الله تعالى دون غيره (فخرج) عقب اعلام الله تعالى له بهذا (على قومه من المحراب) أى من المسجد وهم ينتظرونه أن يفتح لهم الباب متغيرا لونه فأنكروه وهو منطلق اللسان بذكر الله تعالى منحبسه عن كلام الناس فقالوا مالك يا نبى الله (فأوحى اليهم) أى أشار بشفتيه من غير نطق وقال مجاهد كتب لهم فى الارض (أن سبحوا) أى أوجدوا التنزيه والتقديس لله تعالى بالصلاة وغيرها (بكرة وعشيا) أى أوائل النهار وأواخره على العادة فعلم بمنعه من كلامهم حمل امرأته

يحيى قال الجلال المحلي وبعد ولادته بسنين قال الله تعالى له (يا يحيى خذ الكتاب) أي التوراة (بقوة) أي بجد ثم ان الله تعالى وصفه بصفات الاولى قوله تعالى (وآتيناه الحكم) قال ابن عباس النبوة (صبيا) قال الجلال المحلي تبعا للبغوي ابن ثلاث سنين أي أحكم الله عقله في صباه واستنبأه وقيل المراد بالحكم الحكمة وفهم التوراة فقرأ التوراة وهو صغير قال البغوي وعن بعض السلف من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو ممن أوتي الحكم صبيا * الصفة الثانية قوله تعالى (وحنانا) أي وآتيناه رحمة وهيبة ووقارا ورقة قلب ورزقا وبركة (من لدنا) أي من عندنا بلا واسطة تعليم ولا تجربة * الصفة الثالثة قوله تعالى (وزكاة) أي وآتيناه طهارة في دينه قال ابن عباس يعني بالزكاة الطاعة والاخلاص وقال قتادة هي العمل الصالح وقال الكلبي يعني صدقة تصدق الله بها على أبويه * الصفة الرابعة قوله تعالى (وكان) أي جبلة وطبعا (تقيا) أي مخلصا مطيعا روى أنه لم يعمل خطيئة ولم يهم بها * الصفة الخامسة قوله تعالى (وبرا بوالديه) أي بارا لطيفا بهما محسنا اليهما لانه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى أعظم من بر الوالدين يدل عليه قوله تعالى وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا * الصفة السادسة قوله تعالى (ولم يكن جبارا) أي متكبرا والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب وذلك من صفات المؤمنين قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم واخفض جناحك للمؤمنين وقال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ولان رأس العبادة معرفة الانسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال ومن عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به التجبر والترفع ولذلك لما تجبر ابليس وتمرد صار مبعدا عن رحمة الله تعالى وعن المؤمنين وقيل الجبار هو الذي لا يرى لاحد على نفسه حقا وهو من التعظيم والذهاب بنفسه من أنه لا يلزمه قضاء حق لاحد وقيل هو كل من عاقب على غضب نفسه * الصفة السابعة قوله تعالى (عصيا) أي عاقا أو عاصي ربه وهو أبلغ من العاصي كما أن العليم أبلغ من العالم * الصفة الثامنة قوله تعالى (وسلام عليه) منا (يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) * فان قيل لم خص هذه الاوقات الثلاثة (أجيب) بوجوه الاول قال محمد بن جرير الطبري وسلام عليه يوم ولد أي أمان من الله تعالى عليه يوم ولد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بني آدم ويوم يموت أي أمان من الله من عذاب القبر ويوم يبعث أي ومن عذاب الله يوم القيامة الثاني قال ابن عيينة أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن يوم ولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه ويوم يموت فيرى قوما ما شاهدهم قط ويوم يبعث فيرى في محشر عظيم فاكرم الله تعالى يحيى عليه السلام فخصه بالسلام في هذه المواطن الثالث قال عبد الله بن نفطويه وسلام عليه يوم ولد أي أول ما يرى في الدنيا ويوم يموت أي أول يوم يرى فيه أمر الآخرة ويوم يبعث حيا أي أول يوم يرى فيه الجنة والنار وهو يوم القيامة وانما قال حيا تنبيها على كونه من الشهداء لانه قتل وقد قال تعالى أحياء عند ربهم يرزقون * (فروع) * الاول هذا السلام يمكن أن يكون من الله وأن يكون من الملائكة وعلى التقديرين ففيه دلالة على تشريفه لان الملائكة لا يسلمون الا عن أمر الله تعالى * الثاني ليحيى مزية في هذا السلام على ما لسائر الانبياء

لقوله تعالى سلام على نوح سلام على ابراهيم لانه تعالى قال يوم ولد وليس كذلك سائر الانبياء
الثالث روى ان عيسى عليه السلام قال ليحيى عليه السلام أنت أفضل مني لان الله تعالى قال
سلام عليه وأنا سلمت على نفسي قال الرازي وهذا ليس بقوي لان سلام عيسى على نفسه يجري
مجرى سلام الله تعالى على يحيى لان عيسى معصوم لا يفعل الا ما أمر الله تعالى انتهى ولكن
بين السلامين مزية *(تنبيه)* هذه القصة قد ذكرت في آل عمران بقوله تعالى كلما دخل
عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا الى أن قال هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي
من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء فنادته الملائكة وهو قائم لان زكريا عليه السلام لما رأى
خرق العادة في حق مريم طمع في حق نفسه فدعا وقد وقعت المخالفة في ذكر ما هنا وهنالك في
الالفاظ من وجوه الاول منها أن الله تعالى صرح في آل عمران بان المنادي هو الملائكة بقوله
تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب وفي هذه السورة الاكثر على ان المنادي بقوله
يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى هو الله تعالى (وأجيب) بأن الله تعالى هو المبشر سواء كان
بواسطة أم لا الثاني انه قال تعالى في آل عمران أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي
عاقر فذكر أولا كبر سنه ثم عقر امرأته وفي هذه السورة قال أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي
عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا وأجيب بأن الواو لا تقتضي الترتيب الثالث قال في آل
عمران وقد بلغني الكبر وقال هنا وقد بلغت من الكبر عتيا وأجيب بأن ما بلغك فقد بلغته
الرابع قال في آل عمران آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا وقال هنا ثلاث ليال سويا
وأجيب بأن الآيتين دلتا على ان المراد ثلاثة أيام بلياليهن كما مر *القصة الثانية قصة مريم
وابنها عيسى عليهما السلام ولما كانت قصة عيسى عليه السلام أغرب من قصة يحيى لان خلق
الولد من شخصين فانيين أقرب الى مناهج العادات من خلق الولد لا من أب البتة وأحسن
طرق التعليم والفهم الاخذ من الاقرب فالاقرب مرتقيا الى الاصعب فالاصعب أشار الى
ذلك بتغيير السياق فقال عاطفا على ما تقديره اذكر هذا لهم (واذكر) بلفظ الامر (في الكتاب)
أي القرآن (مريم) أي قصتها وهي ابنة عمران خالة يحيى كما في الصحيح من حديث أنس بن
مالك بن صعصعة الانصاري في حديث الاسراء فلما خلصت فاذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة
ثم أبدل من مريم بدل اشتمال فقال (اذ) أي اذكر ما اتفق لها حين (انتبذت) أي كلفت نفسها
أن اعتزلت وانفردت (من أهلها) حالة (مكانا شرقيا) أي شرقي بيت المقدس وقال الرازي
شرقي دارها وعن ابن عباس اني لأعلم خلق الله تعالى لاي شيء اتخذت النصارى الشرق قبلة
لقوله تعالى مكانا شرقيا فاتخذت ميلاد عيسى قبلة واقتصر الجلال المحلي على الشرق من
الدار وتردد البيضاوي بينهما فقال شرقي بيت المقدس أو شرقي دارها انتهى ويحتمل أن
يكون شرقي بيت المقدس هو شرقي دارها فلا مخالفة (فاتخذت) أي اخذت بقصد وتكلف
ودل على قرب المكان بالاتيان بالجار فقال (من دونهم) أي أدنى مكان من مكانهم (حجابا) أي
أرسلت سترا استترت به لغرض صحيح وليس بمذكور واختلف المفسرون فيه على وجوه أحدها

أنها طلبت الخلوة كيلا تشتغل عن العبادة ثانيها أنها عطشت فخرجت الى المفازة لتستقي ثالثها أنها كانت في منزل زوج أختها زكريا وفيه محراب على حدة تسكنه وكان زكريا اذا خرج أغلق عليها الباب فتمنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها وثوبها فانفجرت لها الشمس فخرجت فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك كما قال تعالى (فأرسلنا) لامر يدل على عظمتنا (اليها روحنا) أي جبريل عليه السلام ليعلمها بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب لئلا يشتبه عليها الامر فتقتل نفسها غما (فتمثل لها) أي تشبح بشين معجمة ثم باء موحدة ثم حاء مهملة وهو روحاني بصورة الجسماني (بشرا سويا) في خلقه حسن الشكل رابعها أنها قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض متحجبة بشئ يسترها وكانت تتحول من المسجد الى بيت خالتها اذا حاضت وتعود اليه اذا طهرت فبينما هي في مغتسلها أتاها جبريل بعد لبسها ثيابها متمثلا بصورة شاب أمرد سوي الخلق تستأنس بكلامه اذ لو أتاها في الصورة الملكية لنفرت منه ولم تقدر على استماع كلامه قال البيضاوي ولعله لتهيج شهوتها فتنحدر نطفتها الى رحمها أي مع أمنها الفتنة لعفتها قال الرازي وكل هذه الوجوه محتملة وليس في اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها * ولما رأت مريم جبريل نحوها (قالت اني أعوذ) أي أعتصم (بالرحمن) ربي الذي رحمته عامة لجميع خلقه (منك) أي أن تقرب مني وفتح ياء اني نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون وهم على مراتبهم في المد ولما تفرست فيه بما أنار الله تعالى من بصيرتها وأصفى من سريرتها التقوى قالت (ان كنت تقيا) أي مؤمنا مطيعا وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي فاني عائذة منك أو فتعوذ لك دل تعوذها من تلك الصورة الحسنة على عفتها وورعها (فان قيل) انما يستعاذ من الفاجر فكيف قالت ان كنت تقيا (أجيب) بأن هذا كقول القائل ان كنت مؤمنا فلا تظلمني أي ينبغي أن يكون ايمانك مانعا لك من الظلم كذلك هنا ينبغي أن تكون تقواك مانعة لك من الفجور وهذا في نهاية الحسن لانها علمت أنها لا تؤثر الاستعاذة الا في التقي وهو كقوله تعالى وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين أي ان شرط الايمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يخشى في حال دون حال وقيل كان في ذلك الزمان انسان فاجر يتبع النساء اسمه تقي فظنت مريم ان ذلك الشخص المشاهد هو ذلك فاستعاذت منه قال الرازي والاول هو الوجه * ولما علم جبريل عليه السلام خوفها (قال) مجيبا لها بما معناه اني لست ممن تخشين أن يكون متهما مؤكدا لاجل استعاذتها (انما أنا رسول ربك) أي الذي عذت به فأنا لست متهما بل متصف بما ذكرت وزيادة الرسالة وعبر باسم الرب المقتضي للاحسان لطفا بها ولان هذه السورة مصدرة بالرحمة ومن أعظم مقاصدها تعداد النعم على خلص عباده وقوله (ليهب لك) قرأ ورش وأبو عمرو وقالون بخلاف عنه بالياء أي ليهب الله تعالى لك وقرأ الباقون بالهمز أي لاهب أنا لك وفي مجازه وجهان الاول أن الهبة لما جرت على يده بأن كان هو الذي ينفخ في جيبها بأمر الله تعالى جعل نفسه كأنه هو الذي وهب لها واضافة الفعل الى من هو سبب مستعمل قال الله تعالى في الاصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس الثاني أن جبريل عليه السلام لما

بشرها بذلك كانت البشارة الصادقة بأنه يجرى الهبة * ثم بين الموهوب بقوله (غلاما) اى ولدا ذكرا فى غاية القوة والرجولية ثم وصفه بقوله (زكيا) أى نبيا طاهرا من كل ما يدنس البشر ناميا على الخير والبركة (قالت) مريم (أنى) أى من أين وكيف (يكون لى غلام) ألده (ولم يمسسنى بشر) بنكاح (ولم أك بغيا) أى زانية فتعجبت مما بشرها به جبريل عليه السلام لانها قد عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون الا من رجل والعادة عند أهل المعرفة معتبرة فى الامور وان جوزوا خلاف ذلك فى القدرة فليس فى قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر على هذا الحد ولانها كانت منفردة للعبادة ومن يكون كذلك لا بد أن يعرف قدرة الله تعالى على ذلك وبما تقرر سقط ما قيل قولها ولم يمسسنى بشر يدخل تحته قولها ولم أك بغيا ولهذا اقتصر عليه فى سورة آل عمران بقولها قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر فلم تذكر البغى ويجوز أن يقال انها أفردت ذكر البغى مع دخوله فى الكلام الاول لانه أعظم ما فى بابه فهو نظير قوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال (قال) لها جبريل عليه السلام الامر (كذلك) من خلق غلام منك بغير أب * ولما كان لسان الحال قائلا كيف يكون بغير سبب أجاب جبريل بقوله (قال ربك هو) أى المذكور وهو ايجاد الولد على هذه الهيئة (على) وحدى لا يقدر عليه غيرى (هين) أى بأن ينفخ بأمرى جبريل فيك فتحملى به ولكون ما ذكر فى معنى العلة عطف عليه (ولنجعله) بما لنا من العظمة (آية للناس) أى علامة على كمال قدرتنا على البعث أدل من الآية فى يحيى عليه السلام وبه تمام القسمة الرباعية فى خلق البشر فانه أوجده من أنثى بلا ذكر وحواء من ذكر بلا أنثى وآدم عليه السلام لا من ذكر ولا أنثى وبقية أولاده من ذكر وأنثى معا (ورحمة منا) على العباد يهتدون به (وكان) ذلك كله (أمرا مقضيا) به فى علمى وقوله تعالى (فحملته) فيه حذف تقديره فنفخنا فيها فحملته دل على ذلك قوله تعالى فى سورة التحريم ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا واختلف فى النافخ فقال بعضهم كان النفخ من الله تعالى لهذه الآية ولانه تعالى قال ان مثل عيسى عند الله كمثل ادم ومقتضى التشبيه حصول المشابهة الا فيما أخرجه الدليل وفى حق آدم النافخ هو الله تعالى قال تعالى فنفخت فيه من روحى فكذا ههنا وقال بعضهم النافخ جبريل لان الظاهر من قول جبريل عليه السلام لاهب لك على أحد القراءتين أنه النافخ واختلف فى كيفية نفخه فقيل ان جبريل عليه السلام رفع درعها فنفخ فى جيبها فحملت حين لبسته وقيل مد الى جيب درعها أصابعه ونفخ فى الجيب وقيل نفخ فى كم قميصها وقيل فى فيها وقيل نفخ جبريل نفخا من بعيد فوصل النفخ اليها فحملت بعيسى فى الحال وقيل نفخ فى ذيلها فدخلت النفخة فى صدرها فحملت فجاءت أختها امرأة زكريا تزورها فلما التزمتها عرفت أنها حبلى وذكرت مريم حالها فقالت امرأة زكريا انى وجدت ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك قوله تعالى مصدقا بكلمة من الله وقيل حملت وهى بنت ثلاث عشرة سنة وقيل بنت عشرين وقد

كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل قال الرازى وليس فى القرآن مايدل على شئ من هذه الاقوال المذكورة * ثم عقب بالحمل قوله (فانتبذت به) أى فاعتزلت به وهو فى بطنها حالة (مكانا قصيا) أى بعيدا من أهلها أومن المكان الشرقى وأشار الى قرب الولادة من الحمل بفاء التعقيب فى قوله (فأجاءها) أى فأتى بها وألجأها (المخاض) وهو تحرك الولد فى بطنها للولادة (الى جذع النخلة) وهو مابرز منها من الارض ولم يبلغ الاغصان وكان تعريفها لانه لم يكن فى تلك البلاد الباردة غيرها فكانت كالعلم لما فيها من العجب لان النخل من أقل الاشجار صبرا على البرد ولعلها ألجئت اليها دون غيرها من الاشجار على كثرتها المناسبة حال النخلة لها لانها لاتحمل الابالقاح من ذكر النخل فحملها بمجرد هزها أنسب شئ باتيانها بولد من غير والد فكيف اذا كان ذلك فى غير وقته وكانت يابسة مع مالها فيها من المنافع بالاستناد اليها والاعتماد عليها وكون رطبها خرسة للنفساء وغاية فى نفعها وغير ذلك والخرسة بخاء معجمة مضمومة طعام النفساء وهو مراد الجوهرى بقوله طعام الولادة قال ابن عباس الحمل والولادة فى ساعة واحدة وقيل ثلاث ساعات حملته فى ساعة وصور فى ساعة ووضعته فى ساعة حين زالت الشمس من يومها وقيل كانت مدته تسعة أشهر كحمل سائر النساء وقيل كانت مدة حملها ثمانية أشهر وذلك آية أخرى له لانه لايعيش من ولد لثمانية أشهر وولد عيسى لهذه المدة وعاش وقيل ولد لستة أشهر * ولما كان ذلك أمرا صعبا عليها جدا كان كانه قيل ياليت شعرى ما كان حالها فقيل (قالت) لما حصل عندها من خوف العار (ياليتنى مت) وأشارت الى استغراق الزمان بالموت بمعنى عدم الوجود فقالت من غير جار (قبل هذا) أى الامر العظيم وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى مت بكسر الميم والباقون بالضم (وكنت نسيا) أى شيأ من شأنه أن يطرح وينسى (منسيا) أى متروكا بالفعل لايخطر على بال (فان قيل) لم قالت ذلك مع أنها كانت تعلم ان الله تعالى بعث جبريل عليه السلام اليها ووعدها بأن يجعلها وولدها آية للعالمين (أجيب) عن ذلك بأجوبة الاول أنها تمنت ذلك استحياء من الناس فأنساها الاستحياء بشارة الملائكة بعيسى الثانى أن عادة الصالحين اذا وقعوا فى بلاء أن يقولوا ذلك كما روى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه نظر الى طائر على شجرة فقال طوبى لك ياطائر تقع على الشجر وتأكل من الثمر وددت أنى ثمرة ينقرها الطائر وعن عمر رضى الله عنه أنه أخذ تبنة من الارض فقال ياليتنى هذه التبنة ولم أكن شيأ وعن على رضى الله عنه يوم الجمل ليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة وعن بلال ليت بلالا لم تلده أمه فثبت ان هذا الكلام يذكره الصالحون عند اشتداد الامر عليهم الثالث لعلها قالت ذلك لئلا يقع فى المعصية من يتكلم فيها والا فهى راضية بما بشرت به وقرأ حفص وحمزة نسيا بفتح النون والباقون بالكسر وقوله تعالى (فناداها من تحتها) قرأه نافع وحفص وحمزة بكسر من وجر التاء من تحتها والباقون بفتح من ونصب تحتها وأمال ألف ناداها حمزة والكسائى امالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وفى المنادى أوجه أحدها أنه عيسى عليه السلام وهو قول الحسن وسعيد بن جبير ثانيها أنه جبريل عليه

السلام

السلام وأنه كالقابلة للولد ثالثها أن المنادى على القراءة بالفتح هو عيسى وعلى القراءة بالكسر هو جبريل وهو مروى عن ابن عيينة وعاصم قال الرازى والاول أقرب وصدر به البيضاوى واقتصر الجلال المحلى على الثانى والمعنى على الاول أن الله تعالى أنطقه لها حين ولدته تطييبا لقلبها وازالة للوحشة عنها حتى تشاهد فى أول الامر مابشرها به جبريل من علو شأن ذلك الولد وعلى الثانى ان الله تعالى أرسله اليها ليناديها بهذه الكلمات كما أرسل اليها فى أول الامر تذكيرا للبشارات المتقدمة والضمير فى تحتها للسيدة مريم وعلى تقدير أن يكون المنادى هو عيسى فهو ظاهر وان كان جبريل فقيل انه كان تحتها يقبل الولد كالقابلة وقيل تحتها أسفل من مكانها وقيل الضمير فيه للنخلة أى ناداها من تحتها (أن لاتحزنى) يجوز فى أن أن تكون مفسرة لتقدمها ماهو بمعنى القول ولا على هذا ناهية وحذف النون للجزم وأن تكون الناصبة ولا حينئذ نافية وحذف النون للنصب ومحل أن امانصب أوجر لانها على حذف حرف الجرأى فناداها بكذا (قد جعل ربك) أى المحسن اليك (تحتك) فى هذه الارض التى لاماء جارفيها (سريا) أى جدولا من الماء تطيب به نفسك قال الرازى اتفق المفسرون الا الحسن وعبد الرحمن بن زيد أن السرى هو النهر والجدول سمى بذلك لان الماء يسرى فيه وأما الحسن وابن زيد فانهما جعلا السرى هو عيسى والسرى هو النبيل الجليل يقال فلان من سروات قومه أى أشرافهم واحتج من قال هو النهر بأن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن السرى فقال هو الجدول وبقوله تعالى فكلى واشربى فدل على أنه النهر حتى يضاف الماء الى الرطب فتأكل وتشرب واحتج من قال انه عيسى بأن النهر لايكون تحتها بل الى جنبها ولا يجوز أن يجاب عنه بأن المراد انه جعل النهر تحت أمرها يجرى بأمرها ويقف بأمرها كقول فرعون وهذه الانهار تجرى من تحتى لان هذا حمل للفظ على مجازه ولو حملناه على عيسى لم يحتج الى هذا المجاز وأيضا فانه موافق لقوله وجعلنا ابن مريم وأمه آية (وأجيب) بأن المكان المستوى اذا كان فيه مبدأ معين فكل من كان أقرب منه كان فوق وكل من كان أبعد منه كان تحت *(تنبيه)* اذا قيل بأن السرى هو النهر ففيه وجهان الاول قال ابن عباس ان جبريل ضرب برجله الارض وقيل عيسى فظهر عين ماء عذب وجرى وقيل كان هناك ماء جار قال ابن عادل والاول أقرب لان قوله قد جعل ربك تحتك سريا يدل على الحدوث فى ذلك الوقت ولان الله تعالى ذكره تعظيما لشأنها وقيل كان هناك نهر يابس أجرى الله فيه الماء وحييت النخلة اليابسة وأورقت وأثمرت وأرطبت قال أبو عبيدة والفراء السرى هو النهر مطلقا وقال الاخفش هو النهر الصغير (وهزى اليك) أى أوقعى الهز وهو جذب بتحريك (بجذع النخلة) أى التى أنت تحتها مع يبسها وكون الوقت ليس وقت حملها (تساقط عليك) من أعلاها (رطبا جنيا) طريا آية أخرى عظيمة روى أنها كانت نخلة يابسة لارأس لها ولا ثمر وكان الوقت شتاء فهزتها فجعل الله تعالى لها رأسا وخوصا ورطبا وقرأ حمزة بفتح التاء والسين مخففة وفتح القاف وحفص بضم التاء وفتح السين مخففة وكسر القاف والباقون بفتح التاء

وتشديد السين مفتوحة وفتح القاف * (تنبيه) * الباء في بجذع زائدة والمعنى هزي اليك جذع النخلة كما في قوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم قال الفراء تقول العرب هزه وهز به وخذ الخطام وخذ بالخطام وزوجتك فلانة وبفلانة وقال الاخفش يجوز أن يكون على معنى هزي اليك رطبا بجذع النخلة أي على جذعها ورطبا تمييز وجنيا صفته والرطب اسم جنس لرطبة بخلاف تخم فانه جمع لتخمة والفرق أنهم التزموا تذكيره فقالوا هو الرطب وتأنيث ذلك فقالوا هي التخم فذكروا الرطب باعتبار الجنس وأنثوا التخم باعتبار الجمعية قال ابن عادل وهو فرق لطيف والرطب ما قطع قبل يبسه وجفافه وخص الرطب بالذكر قال الربيع بن خيثم ما للنفساء عندي خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل وهذه الافعال الخارقة للعادة كرامات لمريم او ارهاص لعيسى وفي ذلك تنبيه على أن من قدر أن يثمر النخلة اليابسة في الشتاء قدر أن يحبلها من غير فحل وتطييب لنفسها فلذلك قال (فكلي) أي من الرطب (واشربي) من السري أو كلي من الرطب واشربي من عصيره (وقري عينا) أي وطيبي نفسك وارفضي عنها ما أحزنها وقدم الاكل على الشرب لان حاجة النفساء الى الرطب أشد من احتياجها الى شرب الماء لكثرة ما سال منها من الدم (فان قيل) ان مضرة الخوف أشد من مضرة الجوع والعطش لان الخوف ألم الروح والجوع ألم البدن وألم الروح أقوى من ألم البدن روى أنه أجيعت شاة فقدم اليها علف وعندها ذئب فبقيت الشاة مدة مديدة لا تتناول العلف مع جوعها خوفا من الذئب ثم كسر رجلها وقدم اليها العلف فتناولت العلف مع ألم البدن فدل ذلك على أن ألم الخوف أشد من ألم البدن واذا كان كذلك فلم قدم ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف (أجيب) بأن هذا الخوف كان قليلا لان بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت فما كانت تحتاج الا الى التذكير مرة أخرى وقيل قري عينا بولدك عيسى وقيل بالنوم فان المهموم لا ينام وقوله (فاما) فيه ادغام نون ان الشرطية في ما الزائدة (ترين) حذفت منه لام الفعل وعينه وألقيت حركتها على الراء وكسرت ياء الضمير لالتقاء الساكنين (من البشر أحدا) ينكر عليك (فقولي) يا مريم لذلك المنكر جوابا له مع التأكيد تنبيها على البراءة لان البريء يكون ساكنا لاطمئنانه والمرتاب يكثر كلامه وحلفه (اني نذرت للرحمن) أي الذي عمت رحمته (صوما) أي أي امساكا عن الكلام في شأنه وغيره مع الاناسي بدليل (فلن أكلم اليوم انسيا) فان كلامي يقبل الرد والمجادلة ولكن يتكلم عني المولود الذي كلامه لا يقبل الدفع وأما أنا فأنزه نفسي عن مجادلة السفهاء قالوا ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها فلا أكلم الا الملائكة أو الخالق بالتسبيح والتقديس وسائر أنواع الذكر وقيل صياما لانهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم فعلى هذا كان ذكر الصوم دالا على الصمت وهذا النوع من النذر كان جائزا في شرعهم وهل يجوز مثل هذا النذر في شرعنا قال القفال لعله يجوز لان الاحتراز عن كلام الآدميين وتجريد الفكر بذكر الله تعالى قربة ولعله لا يجوز لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام في الشمس وروى أنه دخل أبو بكر رضي الله عنه على امرأة قد نذرت أنها لا تتكلم فقال

أو بكر ان الاسلام قد هدم هذا فتكلمي * (تنبيه) * اختلفوا فى أنها هل قالت لهم انى نذرت للرحمن صوما فقال قوم انها ما تكلمت معهم بذلك لانها كانت مأمورة بأنها تأتى بهذا النذر فلو تكلمت معهم بعد ذلك لوقعت فى المناقضة ولكنها سكتت وأشارت برأسها وقال آخرون انها ما نذرت فى الحال بل صبرت حتى أتاها القوم فذكرت لهم أنها نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا بعد هذا الكلام (فأتت) أى فلما سمعت هذا الكلام اشتد قلبها وزال حزنها فأتت (به) أى عيسى (قومها) وان كان فيهم قوة المحاولة لكل ما يريدون اتيانه البرىء الموقن بأن الله معه حالة كونها (تحمله) غير مبالية بأحد ولا مستحيية واختلفوا فى أنها كيف أتت به فقيل ولدته ثم حملته فى الحال الى قومها وقيل احتمل يوسف النجار مريم وابنها الى غار ومكثت فيه أربعين يوما حتى طهرت من نفاسها ثم حملته الى قومها فكلمها فى الطريق فقال يا أماه أبشرى فانى عبد الله ومسيحه فلما دخلت على أهلها ومعها الصبى بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين قال الرازى وليس فى القرآن ما يدل على التعيين ثم كأنه قيل فلما أتت به قومها ماذا قالوا لها فقيل (قالوا يا مريم) ما هذا الولد لان حالها فى اتيانها به أمر عجيب (لقد جئت شيأ فريا) أى عظيما منكرا فيكون ذلك منهم على وجه الذم فهو من أفرى الجلد يقال أفريت الاديم اذا قطعته على جهة الافساد لا من فريته يقال فريته قطعته على جهة الاصلاح ويدل على أن مرادهم الاول قولهم بعده (يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء) أى زانيا (وما كانت أمك بغيا) أى زانية فمن أين لك هذا الولد لان هذا القول ظاهره التوبيخ وفى هرون هذا أربعة أقوال أحدها أنه رجل صالح من بنى اسرائيل ينسب اليه كل من عرف بالصلاح والمراد أنك كنت فى الزهد كهرون فكيف صرت هكذا وروى أن هرون هذا لما مات تبع جنازته أربعون ألفا كلهم يسمى هرون من بنى اسرائيل تبركا باسمه سوى سائر الناس شبهوها به على معنى انا ظننا أنك مثله فى الصلاح وليس المراد منه الاخوة فى النسب كقوله تعالى ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وروى المغيرة بن شعبة قال لما قدمت نجران سألونى فقالوا انكم تقرؤن يا أخت هرون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال انهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم قال ابن كثير وأخطأ محمد بن كعب القرظى فى زعمه أنها أخت موسى وهرون نسبا فان بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على من عنده أدنى علم وكأنه غره فى أول التوراة ان مريم أخت موسى وهرون ضربت بالدف يوم نجى الله تعالى موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه وجنوده فاعتقد أن هذه هى تلك وهذا فى غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح المتقدم الثانى أنه هرون أخو موسى لانها كانت من نسله كما يقال للتميمى يا أخا تميم وللهمدانى يا أخا همدان أى يا واحدا منهم الثالث انه كان فاسقا فى بنى اسرائيل فنسبت اليه أى شبهوها به الرابع انه كان لها أخ من أبيها يسمى هرون من صلحاء بنى اسرائيل فعيرت به قال الرازى وهذا هو الاقرب لوجهين الاول ان الاصل فى الكلام الحقيقة فيحمل الكلام على أخيها المسمى بهرون الثانى انها

أضيفت اليه ووصف أبواها بالصلاح فحينئذ يصير التوبيخ أشد لان من كان حال أبويه وأخيه بهذا الحال يكون صدور الذنب منه أفحش (فأشارت اليه) أى لما بالغوا فى توبيخها سكتت وأشارت الى عيسى عليه السلام انه هو الذى يجيبكم قال ابن مسعود لما لم يكن لها حجة أشارت اليه ليكون كلامه حجة لها وعن السدى لما أشارت اليه غضبوا وقالوا سخريتها بنا أشد من زناها ثم (قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) لم يبلغ سن هذا الكلام الذى لا يقوله الا الاكابر العقلاء بل الانبياء والتعبير بكان يدل على أنه عند الاشارة اليه لم يوجههم الا أن يكلموه بل حين سمع المحاورة ورأى الاشارة بدا منه قول خارق لعادة الرضعاء بل الصبيان روى انه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاعة وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابة يمينه وقيل كلمهم ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان * (تنبيه) * فى كان هذه أقوال أحدها انها زائدة وهو قول أبى عبيد أى كيف نكلم من فى المهد وصبيا على هذا نصب على الحال من الضمير المستتر فى الجار والمجرور الواقع صلة ثانيها أنها تامة بمعنى حدث ووجد والتقدير كيف نكلم من وجد صبيا وصبيا حال من الضمير فى كان قال الرازى وهذا هو الاقرب الثالث انها بمعنى صار أى كيف نكلم من صار فى المهد صبيا وصبيا على هذا خبرها (فان قيل) كيف عرفت مريم من حال عيسى انه يتكلم (أجيب) بأن جبريل أو عيسى عليه السلام لما ناداها من تحتها أن لا تحزنى وأمرها عند رؤية الناس بالسكوت صار ذلك كالتنبيه لها على أن المجيب هو عيسى عليه السلام أو لعلها عرفت ذلك بالوحى الى زكريا أو اليها على سبيل الكرامة واختلفوا فى المهد فقيل هو حجرها لما روى أنها أخذته عليه السلام فى خرقة فأتت به قومها فلما رأوها قالوا لها ما قالوا فأشارت اليه وهو فى حجرها ولم يكن لها منزل بعد حتى يعد لها المهد وقيل هو المهد بعينه والمعنى كيف نكلم صبيا سبيله أن ينام فى المهد وقال وهب أتى زكريا مريم عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى انطق بحجتك ان كنت أمرت بها فوصف نفسه بثمان صفات * الصفة الاولى (قال انى عبد الله) أى الملك الاعظم الذى له صفات الكمال لا أتعبد لغيره وفى ذلك اشارة الى أن عبد الله لا يتخذ الها من دونه ولا يستعبده شيطان ولا هوى * الصفة الثانية قوله تعالى (آتانى الكتاب) واختلف فى ذلك الكتاب فقال بعضهم هو التوراة لان الالف واللام فى الكتاب تنصرف للمعهود والكتاب المعهود لهم هو التوراة وقال أبو مسلم هو الانجيل لان الالف واللام ههنا للجنس وقال قوم التوراة والانجيل لان الالف واللام تفيد الاستغراق (٣) واقتصر البيضاوى على الاول والبقاعى على الثالث وزاد عليه والزبور وغيرها من الصحف * الصفة الثالثة قوله (وجعلنى نبيا) واختلف فى معنى ذلك فقيل معناه سيؤتينى الكتاب ويجعلنى نبيا وأتى بلفظ الماضى بجعل المحقق وقوعه كالواقع كما فى قوله تعالى أتى أمر الله فلا تستعجلوه وقيل هو اخبار عما كتب فى اللوح المحفوظ كما قيل للنبى صلى الله عليه وسلم متى كنت نبيا قال كنت وآدم بين الروح والجسد وقال الاكثرون أوتى الانجيل وهو صغير طفل وكان يعقل عقل الرجال وقال الحسن ألهم التوراة وهو فى بطن أمه * الصفة الرابعة قوله (وجعلنى مباركا) بأنواع البركات

(٣) قوله واقتصر البيضاوى على الاول الذى فى البيضاوى تفسير الكتاب بالانجيل وهو الثانى هنا فلعل مراده بالاول جعل أل للجنس اﻫ

(ايضا)

(أينما) أي في أي مكان (كنت) وذكروا في تفسير المبارك وجوها أحدها ان البركة في اللغة هي الثبات وأصله من بروك البعير ومعناه وجعلني ثابتا على دين الله تعالى مستقرا عليه ثانيها انما كان مباركا لانه كان يعلم الناس دينهم ويدعوهم الى طريق الحق فان ضلوا فمن قبل أنفسهم لامن قبله روى الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سلمت أم عيسى عيسى الى الكتاب فقالت للمعلم أدفعه اليك على أن لاتضربه فقال له المعلم اكتب فقال أي شئ أكتب فقال اكتب أبجد فرفع عيسى عليه السلام رأسه فقال هل تدري ما أبجد فعلاه بالدرة ليضربه فقال يامؤدب لاتضربني ان كنت لاتدري فاسألني فاني أعلمك الالف من آلاء الله والباء من بهائه والجيم من جماله والدال من أداء الحق الى الله تعالى ثالثها البركة الزيادة والعلو فكأنه قال جعلني في جميع الاحوال منجحا مفلحا لاني مادمت أبقى في الدنيا أكون مستعليا على الغير بالحجة فاذا جاء الوقت المعلوم أكرمني الله تعالى بالرفع الى السماء رابعها مباركا على الناس من حيث يحصل بسبب دعائه احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وعن قتادة أن امرأة رأته وهو يحيي الموتى ويبرئ الاكمه والابرص فقالت طوبى لبطن حملك وثدي أرضعت به فقال عيسى مجيبا لها طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع مافيه ولم يكن جبارا شقيا *(تنبيه)* قوله أينما كنت يدل على ان حاله لم يتغير كما قيل انه عاد الى حال الصغر وزوال التكليف الصفة الخامسة قوله (وأوصاني بالصلاة) له طهرة للنفس (والزكاة) طهرة للمال فعلا في نفسي وأمرا الغيري (مادمت حيا) ليكون ذلك حجة على من ادعى أنه اله لانه لاشبهة في أن من يصلي الى اله ليس باله (فان قيل) كيف يؤمر بالصلاة والزكاة مع أنه كان طفلا والقلم مرفوع عن الصغير لقوله صلى الله عليه وسلم رفع القلم عن ثلاث الحديث (أجيب) بوجهين الاول أن ذلك لايدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما في الحال بل بعد البلوغ فيكون المعنى أوصاني بأدائهما في وقت وجوبهما علي وهو وقت البلوغ الثاني أن عيسى لما انفصل صيره الله بالغا عاقلا تام الخلقة ويدل عليه قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم فكما أنه تعالى خلق آدم تاما كاملا دفعة فكذا القول في عيسى عليه السلام قال الرازي وهذا أقرب الى ظاهر اللفظ لقوله مادمت حيا فهذا يفيد أن هذا التكليف متوجه عليه في جميع زمان حياته (فان قيل) لو كان الامر كذلك لكان القوم حين رأوه رأوا شخصا كامل الاعضاء تام الخلقة وصدور الكلام عن مثل هذا الشخص لايكون عجيبا فكان ينبغي أن لايتعجبوا (أجيب) بأنه تعالى جعله مع صغر جثته قوي التركيب كامل العقل بحيث كان يمكنه أداء الصلاة والزكاة والآية دالة على أن تكليفه لم يتغير حين كان في الارض وحين رفع الى السماء وحين ينزل *الصفة* السادسة قوله (وبرا) أي وجعلني بارا ولما كان السياق لبراءة والدته قال (بوالدتي) أي التي أكرمها الله تعالى باحصان الفرج والحمل بي من غير ذكر وفي ذلك اشارة الى تنزيه أمه عن الزنا اذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأمورا بتعظيمها الصفة السابعة قوله (ولم يجعلني جبارا) متعاظما (شقيا) أي عاصيا بأن أفعل فعل الجبارين بغير استحقاق انما أفعل ذلك بمن يستحق وروي عن عيسى عليه السلام أنه قال قلبي لين واني ضعيف في نفسي وعن بعض العلماء

لا أجد العاق الا جبارا شقيا ولا اجد سيء الملكة الا مختالا فخورا وتلا وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا الصفة الثامنة قوله (والسلام) من الله (على) فلا يقدر أحد على ضري (يوم ولدت) فلا يضرني شيطان (ويوم أموت) فلا يضرني أيضا ومن يولد ويموت فليس باله (ويوم أبعث حيا) يوم القيامة كما تقدم في يحيى عليه السلام وفي ذلك اشارة الى أنه في البشرية مثله سواء لم يفارقه أصلا الا في كونه من غير ذكر واذا كان جنس السلام عليه كان اتباعه كذلك ولم يبق لاعدائه الا اللعن ونظيره قول موسى عليه السلام والسلام على من اتبع الهدى يعني ان العذاب على من كذب وتولى (ذلك) أي الذي تقدم نعته بقوله اني عبد الله الى آخره هو (عيسى بن مريم) لا ما يصفه النصارى بقولهم انه الله أو ابنه أو اله ثالث فهو تكذيب لهم فيما يصفونه على الوجه الابلغ والطريق البرهاني حيث جعل الموصوف باضداد ما يصفونه وفي ذلك تنصيص على أنه ابن هذه المرأة وقوله تعالى (قول الحق) قرأ عاصم وابن عامر بنصب اللام على أنه مصدر مؤكد والباقون بالرفع على أنه خبر محذوف أي هو قول الحق الذي لا ريب فيه والاضافة للبيان والضمير للكلام السابق أو لتمام القصة ثم عجب تعالى من ضلالهم فيه بقوله تعالى (الذي فيه يمترون) أي يشكون شكا يتكلفونه ويجادلون فيه فتقول اليهود ساحر وتقول النصارى ابن الله مع ان أمره في غاية الوضوح ليس موضعا للشك أصلا ثم دل على كونه حقا في كونه ابنا لامه مريم لا غيرها بقوله ردا على من ضل (ما كان) أي ما صح ولا يتأتى ولا يتصور في العقول ولا يصح ولا يأتي لانه من المحال لكونه يلزم منه الحاجة (لله) الغني عن كل شيء (أن يتخذ من ولد) وأكده بمن لان المقام يقتضي النفي العام ولما كان اتخاذ الولد من النقائص أشار الى ذلك بالتنزيه العام بقوله تعالى (سبحانه) أي تنزه عن كل نقص أي من احتياج الى ولد أو غيره ثم علل ذلك بقوله عز وجل (اذا قضى أمرا) أي أي أمر كان أي أراد أن يحدثه (فانما يقول له كن) أي يريده ويعلق قدرته به وقوله تعالى (فيكون) قرأه ابن عامر بنصب النون بتقدير أن أو على الجواب والباقون بالرفع بتقدير هو وقوله (وان الله ربي وربكم) اخبار عن عيسى عليه السلام انه قال ذلك وقرأ ابن عامر والكوفيون بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بفتحها بتقدير حذف حرف الجر متعلق بما بعده والتقدير ولان الله ربي وربكم (فاعبدوه) وحده لتفرده بالاحسان كما أعبده كقوله تعالى وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا والمعنى لوحدانيته أطيعوه وقيل انه عطف على الصلاة والتقدير وأوصاني بالصلاة وبأن الله واليه ذهب الفراء (هذا) أي الذي أمرتكم به (صراط) أي طريق (مستقيم) أي يقود الى الجنة وقرأ قنبل بالسين وخلف باشمام الصاد والباقون بالصاد الخالصة واختلف في قوله تعالى (فاختلف الاحزاب من بينهم) فقيل هم النصارى واختلافهم في عيسى أهو ابن الله أو اله معه أو ثالث ثلاثة وسموا أحزابا لانهم تحزبوا ثلاث فرق في أمر عيسى النسطورية والملكانية واليعقوبية وقيل هم اليهود والنصارى فجعله بعضهم ولدا وبعضهم كذابا وقيل هم الكفار الشامل لليهود والنصارى وغيرهم من الذين كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قال

ابن عادل وهذا هو الظاهر لانه لا تخصيص فيه ويؤيده قوله تعالى (فويل للذين كفروا) أى شدة عذاب لهم (من مشهد يوم عظيم) أى حضور يوم القيامة وأهواله وقوله تعالى (أسمع بهم وأبصر) أى بهم صيغتا تعجب بمعنى ما أسمعهم وما أبصرهم (يوم يأتوننا) فى الآخرة لان حالهم فى شدة السمع والبصر جديرة بأن يتعجب منها فيندمون حيث لا ينفعهم الندم ويتمنون المحال من الرجوع الى الدنيا ليتداركوا فلا يجابون الى ذلك بل يسلك بهم فى كل ما يؤذيهم ويهلكهم ويرديهم وقوله تعالى (لكن الظالمون) من اقامة الظاهر مقام المضمر اشعارا بأنهم ظلموا أنفسهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر والاصل ولكنهم (اليوم) أى فى الدنيا (فى ضلال مبين) أى بين بذلك الضلال صموا عن سماع الحق وعموا عن ابصاره أى اعجب منهم يا مخاطب فى سمعهم وابصارهم فى الآخرة بعد ان كانوا فى الدنيا صما عميا وقيل معناه التهديد بما سيسمعونه وسيبصرون ما يسوءهم ويصدع قلوبهم ثم ان الله تعالى أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن ينذر قومه بقوله (وأنذرهم) أى خوفهم (يوم الحسرة) هو يوم القيامة يتحسر فيه المسيء على ترك الاحسان والمحسن على عدم الازدياد من الاحسان لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من أحد يموت الا ندم قالوا وما ندمه يا رسول الله قال ان كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد وان كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع وفى قوله تعالى (اذ قضى الامر) وجوه أحدها اذ قضى الامر ببيان الدلائل وشرح أمر الثواب والعقاب ثانيها اذ قضى الامر يوم الحسرة بفناء الدنيا وزوال التكليف ثالثها قضى الامر فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وذبح الموت كما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى اذ قضى الامر فقال حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظران فيزداد أهل الجنة فرحا الى فرح وأهل النار غما الى غم وقوله تعالى (وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون) جملتان حاليتان وفيهما قولان أحدهما انهما حالان من الضمير المستتر فى قوله فى ضلال مبين أى استقروا فى ضلال مبين على هاتين الحالتين السيئتين والثانى انهما حالان من مفعول أنذرهم أى أنذرهم على هذه الحالة وما بعدها وعلى الاول يكون قوله وأنذرهم اعتراضا والمعنى وهم فى غفلة عما يفعل بهم فى الآخرة وهم لا يصدقون بذلك اليوم * ولما كان الارث هو حوز الشيء بعد موت أهله وكان سبحانه وتعالى قد قضى بموت الخلائق أجمعين وانه تعالى يبقى وحده عبر عن ذلك بالارث مقررا به مضمون الكلام السابق فقال مؤكدا تكذيبا لقولهم ان الدهر لا يزال هكذا حياة لناس وموت لآخرين (انا نحن) بعظمتنا التى اقتضت ذلك (نرث الارض) فلا ندع بها شيأ من عاقل ولا غيره ولما كان العاقل أقوى من غيره صرح به بعد دخوله فقال (ومن عليها) أى من العقلاء بأن نسلبهم جميع ما فى أيديهم (والينا) لا الى غيرنا (يرجعون) فنجازيهم بأعمالهم * القصة الثالثة قصة ابراهيم عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (واذكر فى الكتاب ابراهيم) أى خبره وقرأ هشام ابراهام بالف بعد الهاء والباقون بالياء وانما أمر الله تعالى نبيه بالذكر لذلك لانه صلى الله عليه وسلم ما كان هو ولا قومه ولا أهل بلده مشتغلين بالتعليم ومطالعة الكتب فاذا أخبر

عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك اخبارا عن الغيب ومعجزا باهرا دالا على نبوته واعاذكر الاعتبار بقصة ابراهيم عليه السلام لوجوه الاول ان منكرى التوحيد والذين أثبتوا توحيدا ومعبودا سوى الله تعالى فريقان منهم من أثبت معبودا غير الله تعالى حيا عاقلا وهم النصارى ومنهم من أثبت معبودا غير الله تعالى جمادا ليس بحى ولا عاقل وهم عبدة الاوثان والفريقان وان اشتركا فى الضلال الا أن ضلال عبدة الاوثان أعظم فلما بين الله تعالى ضلال الفريق الاول تكلم فى ضلال الفريق الثانى وهم عبدة الاوثان الثانى أن ابراهيم عليه السلام كان أبا العرب وكانوا مقرين بعلو شأنه وطهارة دينه على ما قال تعالى ملة أبيكم ابراهيم وقال تعالى ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه فكأنه تعالى قال للعرب ان كنتم مقلدين لآبائكم على قولكم انا وجدنا آباءنا على أمة فأشرف آبائكم وأعلاهم قدرا هو ابراهيم عليه السلام فقلدوه فى ترك عبادة الاصنام والاوثان وان كنتم مستدلين فانظروا فى هذه الدلائل التى ذكرها ابراهيم عليه السلام لتعرفوا فساد عبادة الاوثان وبالجملة فاتبعوا ابراهيم اما تقليدا واما استدلالا الثالث ان كثيرا من الكفار فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون نترك دين آبائنا وأجدادنا فذكر الله تعالى قصة ابراهيم عليه السلام وهو أنه ترك دين أبيه وأبطل قوله بالدليل ورجح متابعة الدليل على متابعة أبيه ثم قال تعالى فى صفة ابراهيم (انه كان) جبلة وطبعا (صديقا) أى بليغ الصدق فى نفسه فى أقواله وأفعاله أى كان من أول وجوده الى انتهائه موصوفا بالصدق والصيانة وسيأتى الكلام على قوله بل فعله كبيرهم هذا وانى سقيم فى محله ولما كانت مرتبة النبوة أرفع من مرتبة الصديقية قال تعالى (نبيا) أى استنبأه الله تعالى اذ لا رفعة أعلى من رفعة من جعله الله واسطة بينه وبين عباده وقوله تعالى (اذ قال) بدل من ابراهيم وما بينهما اعتراض أو متعلق بكان أو بصديقا نبيا أى كان جامعا لخصائص الصديقين والانبياء حين قال (لابيه) آزر هاديا له من تيه الضلال بعبادة الاصنام مستعطفا له فى كل جملة بقوله (يا أبت) والتاء عوض عن ياء الاضافة ولا يجمع بينهما وقرأ ابن عامر بفتح التاء فى الوصل والباقون بكسرها وأما الوقف فوقف ابن كثير وابن عامر بالهاء والباقون بالتاء ثم ان الله تعالى حكى عنه أيضا أنه تكلم مع أبيه بأربعة أنواع من الكلام النوع الاول قوله (لم تعبد) مريدا بالاستفهام المجاملة واللطف والرفق واللين والادب الجميل فى نصحه له كاشفا الامر غاية الكشف بقوله (ما لا يسمع ولا يبصر) أى ليس عنده قابلية لشئ من هذين الوصفين ليرى ما أنت فيه من خدمته أو يجيبك اذا ناديته حالا أو مآلا (ولا يغنى عنك شيأ) فى جلب نفع ودفع ضر فوصف الاوثان بصفات ثلاث كل واحدة منها قادحة فى الالهية وبيان ذلك من وجوه أحدها أن العبادة غاية التعظيم فلا تستحق الا لمن له غاية الانعام وهو الاله الذى منه أصول النعم وفروعها على ما تقرر فى تفسير قوله وان الله ربى وربكم وكما انه لا يجوز الاشتغال بشكر ما لم تكن منعمة وجب أن لا يجوز الاشتغال بعبادتها وثانيها أنها اذا لم تسمع ولا تبصر ولا تميز من يطيعها عن يعصيها فأى فائدة فى عبادتها وهذا تنبيه على أن الاله يجب أن يكون عالما بكل المعلومات

وثالثها أن الدعاء عن العبادة فاذا لم يسمع الوثن دعاء الداعي فأي منفعة في عبادته واذا لم يبصر تقرب من يتقرب اليه فأي منفعة في ذلك التقرب ورابعها ان السامع المبصر الضار النافع أفضل ممن كان عاريا عن كل ذلك والانسان موصوف بهذه الصفات فيكون أفضل وأكمل من الوثن فكيف يليق بالافضل عبودية الاخس وخامسها ان كانت لا تنفع ولا تضر فلا يرجى بها منفعة ولا يخاف من ضررها فأي فائدة في عبادتها وسادسها اذا كانت لا تحفظ نفسها عن الكسر والافساد حين جعلها ابراهيم عليه السلام جذاذا فأي رجاء فيها للغير فكأنه عليه السلام قال ليست الالهية الا لرب يسمع ويبصر ويجيب دعوة الداعي اذا دعاه النوع الثاني قوله (يا أبت اني قد جاءني) من المعبود الحق (من العلم ما لم يأتك) منه (فاتبعني) اي فتسبب عن ذلك اني أقول لك وجوبا علي للنهي عن المنكر ونصيحة لمالك علي من الحق اجتهد في تبعي (أهدك صراطا) أي طريقا (سويا) أي مستقيما كما اني لو كنت معك في طريق محسوس وأخبرتك ان أمامنا مهلكا لا ينجو منه أحد وأمرتك أن تسلك مكانا غيره لذلك لاطعتني ولو عصيتني فيه عدك كل أحد غاويا النوع الثالث قوله (يا أبت لا تعبد الشيطان) فان الاصنام ليس لها دعوة أصلا والله تعالى قد حرم عبادة غيره مطلقا على لسان كل ولي فتعين أن يكون الآمر بذلك الشيطان فكأنه هو المعبود بعبادتها في الحقيقة ثم علل هذا النهي بقوله (ان الشيطان) البعيد من كل خير المحترق باللعنة (كان للرحمن عصيا) بالقوة من حين خلق وبالفعل من حين أمره بالسجود لابيك آدم عليه السلام فأبى فهو عدو لله وله والمطيع للعاصي لشئ عاص لذلك الشئ لان صديق العدو عدو (فان قيل) هذا القول يتوقف على اثبات أمور أحدها اثبات الصانع وثانيها اثبات الشيطان وثالثها ان الشيطان عاص ورابعها أنه لما كان عاصيا لم تجز طاعته وخامسها أن الاعتقاد الذي كان عليه آزر مستفاد من طاعة الشيطان ومن شأن الدلالة التي تورد على الشخص أن تكون مركبة من مقدمات معلومة ليسلمها الخصم ولعل ابراهيم كان منازعا في هذه المقدمات وكيف والمحكي عنه انه ما كان يثبت الها سوى نمروذ فكيف يسلم وجود الرحمن واذا لم يسلم وجوده فكيف يسلم أن الشيطان عاص للرحمن وبتقدير تسليم ذلك فكيف يسلم الخصم بمجرد هذا الكلام ان مذهبه مقتبس من الشيطان بل لعله يقلب ذلك على خصمه (وأجيب) بأن الحجة المعول عليها في ابطال مذهب آزر هو قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيأ وهذا الكلام جرى مجرى التخويف والتحذير الذي يحمله على النظر في تلك الدلالة فيسقط السؤال النوع الرابع قوله (يا أبت اني أخاف) لمحبتي لك وعزتي عليك (أن يمسك عذاب) أي كائن (من الرحمن) الذي هو مولى كل من تولاه لعصيانك اياه (فتكون) أي فتسبب عن ذلك أن تكون (للشيطان وليا) أي ناصرا وقرينا في النار ولما دعا ابراهيم عليه السلام اباه الى التوحيد وذكر الدلائل على فساد عبادة الاوثان وأردف تلك الدلائل بالوعظ البليغ وأورد كل ذلك مقرونا بالرفق واللطف قابله أبوه بجواب يضاد ذلك فقابل حجته بالتقليد فانه لم يذكر في مقابلة حجته الا أن (قال أراغب أنت عن آلهتي) باضافتها الى نفسه

فقط اشارة الى مبالغته فى تعظيمها والرغبة عن الشئ تركه عمدا فأصر على ادعاء الهيتها جهلا وتقليدا وقابل قوله بالرفق يا أبت بالعنف حيث لم يقل يا بنى بل قال (يا ابراهيم) وقابل وعظه بالسفاهة حيث هدده بالضرب والشتم بقوله مقسما (لئن لم تنته) عما أنت عليه (لارجمنك) أى لاقتلنك أو لارجمنك بالحجارة حتى تموت أو تبعد عنى أو بالكلام القبيح فاحذرنى (واهجرنى) أى ابعد عنى بالمفارقة من الدار والبلد وهى كهجرة النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أى تباعد عنى (مليا) أى دهرا طويلا لكى لا أراك وقيل اهجرنى بالقول ولا تخاطبنى دهرا طويلا لاجل ما صدر منك من هذا الكلام وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتأسية فيما كان يلقى من الاذى ويقاسى من قومه من العناد ومن عمه أبى لهب من الشدائد بأعظم آبائه وأقربهم به شبها فلما سمع ابراهيم عليه السلام كلام أبيه أجاب بأمرين أحدهما أن (قال) له مقابلا لما كان منه من طيش الجهل بما يحق لمثله من رزانة العقل والعلم (سلام عليك) توديع ومتاركة أى سلمت منى لا أصيبك بمكروه ما لم أومر فيك بشئ فانه لم يؤمر بقتاله على كفره كقوله لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وهذا يدل على جواز متاركة المنصوح اذا ظهر منه اللجاج وعلى انه يحسن مقابلة الاساءة بالاحسان ويجوز أن يكون دعاء له بالسلامة استمالة ألا ترى أنه وعده بالاستغفار فيكون سلام بر ولطف وهو جواب الحليم للسفيه كقوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ثم استأنف قوله (سأستغفر لك ربى) أى المحسن الى بأن أطلب لك منه غفران ذنوبك بأن يوفقك للاسلام (انه كان بى حفيا) أى مبالغا فى اكرامى مرة بعد مرة وكرة فى اثر كرة وقد وفى بوعده بقوله المذكور فى الشعراء واغفر لابى وهذا قبل أن يتبين له أنه عدو لله كما ذكره فى براءة وثانيهما أنه قال له انقيادا لامر أبيه (وأعتزلكم) أى جميعا بترك بلادكم وأشار الى ان من شرط المعبود أن يكون أهلا للمناداة فى الشدائد بقوله (وما تدعون) أى تعبدون (من دون الله) الذى له الكمال كله فمن أقبل عليه وحده أصاب ومن أقبل على غيره ولو طرفة عين فقد خاب وخسر (وادعو) أى اعبد (ربى) وحده لاستحقاقه ذلك منى ولم يقيد الاعتزال بزمن بل أشار الى أنهم ما داموا على هذا الدين فهو معتزل لهم ثم دعا لنفسه بما ينبههم به على خسة مسعاهم فقال غير جازم باجابة دعوته وقبول عبادته اجلالا لربه وهضما لنفسه (عسى أن لا أكون بدعاء ربى) المنفرد بالاحسان الى (شقيا) أى كما شقيتم بعبادة الاصنام فانها لا تجيب دعاءكم ولا تنفعكم ولا تضركم ولما رأى من أبيه ومعاشرته ما رأى عزم على غربة مشقة النوى مختارا للغربة فى البلاد على غربة الاضداد فكان كما قال الامام أبو سليمان الخطابى

وما غربة الانسان فى شقة النوى * ولكنها والله فى عدم الشكل
وانى غريب بين بست وأهلها * وان كان فيها أسرتى وبها أهلى

وحقق ما عزم عليه فبين سبحانه وتعالى تحقيق رجائه واجابة دعائه فقال (فلما اعتزلهم) أى بالهجرة الى الارض المقدسة (وما يعبدون من دون الله) لم يضره ذلك دينا ولا دنيا بل نفعه

وعوضه الله أولادا كما قال تعالى (وهبناله) كما هو الشأن فى كل من ترك شيأ لله (اسحق) ولدا له لصلبه من زوجته العاقر العقيم بعد تجاوزهما سن اليأس وأخذه هو فى السن الى حد لا يولد لمثله (ويعقوب) ولدا لاسحق وخصهما بالذكر للزومهما محل اقامته وقيامهما بعد موته بخلافته فيه وأما اسمعيل عليه السلام فكان الله سبحانه وتعالى هو المتولى لتربيته بعد نقله رضيعا الى المسجد الحرام واحيائه تلك المشاعر العظام فأفرده بالذكر بجاعلا له أصلا برأسه بقوله بعد واذكر فى الكتاب اسمعيل فترك ذكره مع اسحق الذى هو أخوه لذلك ثم صرح بما وهب لاولاده جزاء على هجرته بقوله تعالى (وكلا) أى منهما (جعلنا نبيا) عالى المقدار ويخبر بالاخبار العظيمة كما جعلنا ابراهيم عليه السلام نبيا (ووهبنا لهم) كلهم (من رحمتنا) أى شيأ منها عظيما من النسل الطاهر والذرية الطيبة واجابة الدعاء واللطف فى القضاء والبركة فى المال والاولاد وغير ذلك من خيرى الدنيا والآخرة (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) وهو الثناء الحسن وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهو العطية واستجاب الله تعالى دعوته فى قوله تعالى واجعل لى لسان صدق فى الآخرين فصيره قدوة حتى ادعاه أهل الاديان كلهم فقال تعالى ملة أبيكم ابراهيم وقد اجتمعت فيه خصال لم تجتمع فى غيره اولها انه اعتزل عن الخلق على ما قال وأعتزلكم وما تدعون من دون الله فلا جرم بارك الله له فى أولاده فقال ووهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ثانيها انه تبرأ من أبيه كما قال عز وجل فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه لا جرم سماه الله أبا المسلمين فقال ملة أبيكم ابراهيم ثالثها تله ولده للجبين ليذبحه فى الله على ما قال تعالى وتله للجبين لا جرم فداه الله تعالى على ما قال وفديناه بذبح عظيم رابعها أسلم نفسه فقال أسلمت لرب العالمين فجعل الله تعالى النار بردا وسلاما عليه فقال يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم خامسها أشفق على هذه الامة فقال ربنا وابعث فيهم رسولا منهم لا جرم أشركه الله تعالى فى الصلوات فى قوله تعالى كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم سادسها فى حق سارة فى قوله تعالى وابراهيم الذى وفى لا جرم جعل موطئ قدميه مباركا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى سابعها عادى كل الخلق فى الله فقال فانهم عدو لى الا رب العالمين فاتخذه الله خليلا كما قال واتخذ الله ابراهيم خليلا ليعلم صحة قولنا ما خير على الله أحد * القصة الرابعة قصة موسى عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (واذكر فى الكتاب) أى الذى لا كتاب مثله فى الكمال (موسى) أى الذى أنقذ الله به بنى اسرائيل من العبودية ثم ان الله تعالى وصفه بأمور أحدها قوله تعالى (انه كان مخلصا) قرأه عاصم وحمزة والكسائى بفتح اللام أى مختارا اختاره الله تعالى واصطفاه وقيل أخلصه الله تعالى من الدنس والباقون بالكسر أى أخلص التوحيد لله والعبادة ومتى ورد القرآن بقراءتين فكل منهما ثابت مقطوع به فجعل الله تعالى من صفة موسى عليه السلام كلا الامرين ثانيها قوله تعالى (وكان رسولا) الى بنى اسرائيل والقبط (نبيا) ينبئه الله بما يريد من وحيه لينبئ به المرسل اليهم فيرتفع بذلك قدره فلذلك صرح بها بعد دخولها فى الرسالة ضمنا اذ كل رسول نبى وليس

كل نبي رسولا خلافا للمعتزلة فانهم زعموا كونهما متلازمين فكل رسول نبي وكل نبي رسول وسيأتي الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى في سورة الحج عند قوله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ثالثها قوله تعالى (وناديناه) أي بما لنا من العظمة (من جانب الطور) هو اسم جبل (الايمن) أي الذي يلي يمين موسى حين أقبل من مدين فأنبأناه هنالك حين كان متوجها الى مصر بأنه رسولنا ثم واعدناه اليه بعد اغراق آل فرعون فكان لبني اسرائيل به من العجائب في رحمتهم بانزال الكتاب والالذاذ بالخطاب من جوف السحاب وفي اماتتهم لما طلبوا الرؤية ثم احيائهم وغير ذلك مما يجل عن الوصف رابعها قوله تعالى (وقربناه) بما لنا من العظمة تقريب تشريف حالة كونه (نجيا) نخبره من أمرنا بلا واسطة من النجوى وهي السر والكلام بين اثنين كالسمر وقيل قرب مكان أي مكانا عاليا عن أبي العالية أنه قرب حتى سمع صرير القلم حيث يكتب التوراة في الالواح وقيل أنجيناه من أعدائه خامسها قوله تعالى (ووهبنا له) أي هبة تليق بعظمتنا (من رحمتنا) أي من أجل رحمتنا أو بعض رحمتنا (أخاه) أي معاضدة أخيه وموازرته لا شخصه واخوته وذلك اجابة لدعوته واجعل لي وزيرا من أهلي هرون فانه كان أسن من موسى * (تنبيه) * أخاه مفعول أو بدل على تقدير أن تكون من للتبعيض وقوله (هرون) عطف بيان وقوله (نبيا) حال منه هي المقصودة بالهبة * القصة الخامسة قصة اسمعيل عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (واذكر في الكتاب اسمعيل) بن ابراهيم عليهما السلام الذين هم معترفون بنبوته ومفتخرون برسالته وأبوته فلزم من ذلك فساد تعليلهم انكار نبوتك بأنك من البشر ثم ان الله تعالى وصف اسمعيل بأمور أولها قوله تعالى (انه كان) أي جبلة وطبعا (صادق الوعد) في حق الله وفي حق غيره لمعونة الله له على ذلك بسبب أنه لا يعد وعدا الا مقرونا بالاستثناء كما قال لابيه حين أخبره بأمر ذبحه ستجدني ان شاء الله من الصابرين وخصه بالمدح به وان كان الانبياء كلهم كذلك لقصة الذبح فلا يلزم منه تفضيله مطلقا وروى عن ابن عباس أنه وعد صاحبا له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة وروى أن عيسى عليه السلام قال له رجل انتظرني حتى آتيك فقال عليه السلام نعم وانطلق الرجل ونسي الميعاد فجاء الى حاجته الى ذلك المكان وعيسى عليه السلام هنالك للميعاد وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه واعد رجلا ونسي ذلك الرجل فانتظره من الضحى الى غروب الشمس وسئل الشعبي عن الرجل يعد ميعادا الى أي وقت ينتظره قال ان واعده نهارا فكل النهار وان واعده ليلا فكل الليل وسئل ابراهيم بن زيد عن ذلك فقال اذا واعدته في وقت الصلاة فانتظره الى وقت صلاة أخرى ثانيها قوله تعالى (وكان رسولا نبيا) تقدم تفسيره وثالثها قوله تعالى (وكان يأمر أهله بالصلاة) أي التي هي طهرة البدن وقرة العين وخير العون على جميع المآرب (والزكاة) أي التي هي طهرة المال كما أوصى الله تعالى بذلك جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام والمراد بالاهل قومه وقيل أهله جميع أمته فانه كان رسولا الى جرهم قاله الاصفهاني والى أهل تلك البراري بدين أبيه ابراهيم والمراد بالصلاة قال ابن عباس يريد التي افترضها الله تعالى عليهم قال

البغوي

البغوي وهي الحنيفية التي افترضت علينا قيل كان يبدأ بأهله في الامر بالعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم كما قال تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين وأمر أهلك بالصلاة قوا أنفسكم وأهليكم نارا وبالزكاة قال ابن عباس انها طاعة الله والاخلاص فكأنه تأوله على ما يزكو به الفاعل عند ربه تعالى والظاهر كما قال ابن عادل ان الزكاة اذا قرنت بالصلاة أن يراد بها الصدقات الواجبة رابعها قوله تعالى (وكان عند ربه) بعبادته على حسب ما أمره به (مرضيا) وهذا في نهاية المدح لان المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعة بأعلى الدرجات فاقتد أنت به فانه من أجل آبائك لتجمع بين طهارة القول والبدن والمال فتنال رتبة الرضا * القصة السادسة قصة ادريس عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (واذكر في الكتاب) أي الجامع لكل ما يحتاج اليه حتى ما يحتاج اليه من قصص المتقدمين والمتأخرين (ادريس) وهو جد أبي نوح عليه السلام قيل سمي ادريس لكثرة دراسته الكتب واسمه أخنوخ بمهملة ونون وآخره خاء معجمة وصفه الله تعالى بأمور أحدها وثانيها قوله تعالى (انه كان صديقا نبيا) أي صادقا في أفعاله وأقواله ومصدقا بجميع ما آتاه الله من آياته وعلى ألسنة الملائكة ثالثها قوله تعالى (ورفعناه مكانا عليا) وفيه قولان أحدهما انه من رفع المنزلة كقوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم ورفعنا لك ذكرك فان الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة وهو أول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب وأول من خاط الثياب ولبسها وكانوا من قبله يلبسون الجلود وأول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار وثانيهما أنه من رفعة المكان ثم اختلفوا فقال بعضهم رفعه الله تعالى الى السماء الرابعة وهي التي رآه النبي صلى الله عليه وسلم بها ليلة الاسراء وقيل الى الجنة وهو حي لا يموت وقالوا أربعة من الانبياء احياء اثنان في الارض الخضر والياس واثنان في السماء عيسى وادريس وقال وهب كان يرفع لادريس كل يوم من العبادة ما يرفع لجميع أهل الارض في زمانه فعجبت منه الملائكة واشتاق له ملك الموت فاستأذن ربه في زيارته فأذن له فأتاه في صورة بني آدم وكان ادريس يصوم الدهر فلما كان وقت افطاره دعاه الى طعامه فأبى أن يأكل معه ففعل ذلك ثلاث ليال فأنكره ادريس وقال له الليلة الثالثة اني أريد أن أعلم من أنت قال أنا ملك الموت استأذنت ربي أن أصحبك فقال لي اليك حاجة قال ماهي قال تقبض روحي فأوحى الله تعالى اليه أن اقبض روحه فقبض روحه وردها اليه بعد ساعة فقال له ملك الموت ما الفائدة في سؤالك قبض الروح قال لأذوق كرب الموت وغمته فأكون أشد استعدادا له ثم قال له ادريس ان لي اليك حاجة أخرى قال وما هي قال ترفعني الى السماء لأنظر اليها والى الجنة والنار فأذن الله تعالى له في ذلك فرفعه فلما قرب من النار قال لي اليك حاجة قال وما تريد قال تسأل مالكا أن يفتح أبوابها فأردها ففعل ثم قال كما أريتني النار فأرني الجنة فذهب به الى الجنة فاستفتح ففتح أبوابها فادخله الجنة ثم قال له ملك الموت اخرج لتعود الى مكانك فتعلق بشجرة وقال ما أخرج منها فبعث الله تعالى ملكا حكما بينهما فقال له الملك مالك لا تخرج قال ان الله تعالى قال كل نفس ذائقة الموت وقد

ذقته وقال وان منكم الا واردها وقد وردتها وقال وما هم منها بمخرجين فلست أخرج فأوحى الله تعالى الى ملك الموت باذنى دخل الجنة وباذنى لا يخرج فهو حى هناك وقال آخرون بل رفع الى السماء وقبض روحه وقال كعب الاحبار ان ادريس سار ذات يوم فى حاجة فاصابه وهج الشمس فقال يا رب انى مشيت يوما فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرفه فقال يا رب خففت عنى حر الشمس فما الذى قضيت فيه فقال تعالى ان عبدى ادريس سألنى ان أخفف عنك حملها وحرها فأجبته قال يا رب اجعل بينى وبينه خلة فأذن له حتى أتى ادريس فكان ادريس يسأله فكان مما سأله ان قال له انى أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت فاشفع لى ليؤخر أجلى فازداد شكرا وعبادة فقال الملك لا يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها وأنا مكلمه فرفعه الى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ثم أتى ملك الموت فقال لى حاجة اليك لى صديق من بنى آدم تشفع بى اليك لتؤخر أجله فقال ليس ذلك الى ولكن ان أحببت أعلمته أجله فيقدم لنفسه قال نعم فنظر فى ديوانه فقال انك كلمتنى فى انسان ما أراه يموت أبدا قال وكيف ذلك قال لا أجده يموت الا عند مطلع الشمس قال انى أتيتك وتركته هناك قال فانطلق فلا أراك تجده الا وقد مات فوالله ما بقى من أجل ادريس شئ فرجع الملك فوجده ميتا * ولما انقضى كشف هذه الاخبار العلية المقدار الجليلة الاسرار شرع سبحانه وتعالى ينسب أهلها بأشرف نسبهم ويذكر المتن بينهم فقال عز من قائل (أولئك) أى العالو الرتبة الشرفاء النسب المذكورون فى هذه السورة من لدن زكريا الى ادريس وهو مبتدا وقوله (الذين أنعم الله عليهم) بما خصهم به من مزيد القرب اليه وعظيم المنزلة لديه صفة له وقوله تعالى (من النبيين) أى المصطفين بالنبوة الذين أنبأهم الله تعالى بدقائق الحكم ورفع محالهم بين الامم بيان لهم وهو فى معنى الصفة وما بعده الى جملة الشرط صفة للنبيين فقوله (من ذرية آدم) أى ادريس لقربه منه لانه جد أبى نوح (وممن حملنا مع نوح) فى السفينة أى ابراهيم ابن ابنه سام (ومن ذرية ابراهيم) أى اسمعيل واسحق ويعقوب (و) من ذرية (اسرائيل) وهو يعقوب أى موسى وهرون وزكريا ويحيى وكذا عيسى لان مريم من ذريته (وممن هدينا) الى أقوم الطرق (واجتبينا) للنبوة والكرامة أى من جملتهم * وخبر أولئك (اذا تتلى عليهم) من أى تال كان (آيات الرحمن خروا سجدا) للمنعم عليهم تقربا اليه لما لهم من البصائر النيرة فى ذكر نعمه عليهم واحسانه اليهم (وبكيا) خوفا منه وشوقا اليه فكونوا مثلهم * (تنبيه) * سجدا حال مقدرة قال الزجاج لانهم وقت الخرور ليسوا سجدا وهو جمع ساجد وبكيا جمع باك وليس بقياس بل قياس جمعه على فعلة كقاض وقضاة ولم يسمع فيه هذا الاصل وأصل بكيا بكويا قلبت الواو ياء والضمة كسرة واختلف فى هذا السجود فقال بعضهم انه الصلاة وقال بعضهم سجود التلاوة على حسب ما تعبدوا به قال الرازى ثم يحتمل أن يكون المراد سجود القرآن ويحتمل أنهم عند الخوف كانوا قد تعبدوا بسجود فيفعلون ذلك لاجل ذكر السجود فى الآية انتهى وروى ابن

ماجه وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وعن صالح المزني قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي يا صالح هذه القراءة فاين البكاء وعن ابن عباس اذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فان لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ما اغرورقت عين بماء الاحرم الله تعالى على النار جسدها وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فتحازنوا وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يلج النار من بكى من خشية الله وقال العلماء يدعو في سجدة التلاوة بما يليق بآيتها فان قرأ آية تنزيل السجدة قال اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المتكبرين عن أمرك واذا قرأ سجدة سبحان قال اللهم اجعلني من الباكين اليك الخاشعين لك وان قرأ هذه قال اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين الباكين عند تلاوة آيات كتابك وقرأ حمزة والكسائي بكيا بكسر الباء والباقون بضمها * ولما وصف سبحانه وتعالى هؤلاء الانبياء بصفة المدح ترغيبا لنا في التأسي بهم ذكر بعدهم من هو بالضد منهم فقال (فخلف من بعدهم) أي في بعض الزمان الذي بعدهؤلاء الاصفياء سريعا (خلف) في غاية الرداءة من أولادهم يقال خلفه اذا عقبه خلف سوء باسكان اللام والخلف بفتح اللام الصالح كما قالوا وعد في ضمان الخير ووعيد في ضمان الشر وفي الحديث في الله خلف من كل هالك وفي الشعر

ذهب الذين يعاش في أكنافهم * وبقيت في خلف كجلد الاجرب

وقال السدي أراد بهم اليهود ومن لحق بهم وقال قتادة في (أضاعوا الصلاة) تركوا الصلاة المفروضة وقال ابن مسعود وابراهيم أخروها عن وقتها وقال سعيد بن المسيب هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا يصلي العصر حتى تغرب الشمس (واتبعوا الشهوات) أي المعاصي قال ابن عباس هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمور واستحلوا نكاح الاخت من الاب وقال مجاهد هؤلاء قوم يظهرون في آخر الزمان ينزو بعضهم على بعض في الاسواق والازقة (فسوف يلقون غيا) وهو كما قال وهب وابن عباس واد في جهنم بعيد قعره تستعيذ منه أوديتها كما رواه الحاكم وصححه وقيل هو الخسران وقيل هو الشر كقول القائل

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

على الغي متعلق بلائما وقيل يلقون جزاء الغي كقوله يلق أثاما أي مجازاة الآثام * (تنبيه) * قوله تعالى يلقون ليس معناه يرون فقط بل معناه الاجتماع والملابسة مع الرؤية * ولما أخبر تعالى عن هؤلاء بالخيبة فتح لهم باب التوبة وحداهم الى غسل هذه الحوبة بقوله (الا من تاب) أي عما هو عليه من الضلال وبادر بالاعمال وحافظ على الصلوات وكف نفسه عن الشهوات (وآمن) بما أخذ عليه به العهد (وعمل) بعد ايمانه تصديقا له (صالحا) من الصلوات والزكوات وغيرها (فاولئك) العالو الهمم الطاهرو الشيم (يدخلون الجنة) التي وعد المتقون (ولا يظلمون) من ظالم ما (شيأ) من أعمالهم (فان قيل) الاستثناء دل على أنه لا بد من التوبة والايمان والعمل

الصالح وليس الامر كذلك لان من تاب عن كفره ولم يدخل وقت الصلاة أو كانت المرأة حائضا فانه لا يجب عليهما الصلاة والزكاة أيضا غير واجبة وكذلك الصوم فهذا لو مات في ذلك الوقت كان من أهل النجاة مع أنه لم يصدر منه عمل فلم يجز توقف الاجر على العمل الصالح (أجيب) بأن هذه الصورة نادرة والاحكام انما تناط بالاعم الاغلب *(تنبيه)* في هذا الاستثناء وجهان قال ابن عادل أظهرهما انه متصل وقال الزجاج هو منقطع وهذا بناء منه على أن المضيع للصلاة من الكفار ووافق الزجاج الجلال المحلي * ولما ذكر تعالى في التائب انه يدخل الجنة وصفها بأمور أحدها قوله تعالى (جنات عدن) أي اقامة لا يظعن عنها بوجه من الوجوه وصفها بالدوام على خلاف وصف الجنان في الدنيا التي لا تدوم ثم بين تعالى انها (التي وعد الرحمن عباده) الذين هو أرحم بهم وقوله (بالغيب) فيه وجهان أحدهما ان الباء حالية وفي صاحب الحال احتمالان أحدهما ضمير الجنة وهو عائد الموصول أي وعدها وهي غائبة عنهم لا يشاهدونها والثاني عباده أي وهم غائبون عنها لا يرونها انما آمنوا بها بمجرد الاخبار منه والوجه الثاني أن الباء سببية أي بسبب تصديق الغيب وبسبب الايمان به * ولما كان من شأن الوعود الغائبة على ما يتعارفه الناس بينهم احتمال عدم الوقوع بين ان وعده ليس كذلك بقوله تعالى (انه كان) أي كونا هو سنة ماضية (وعده مأتيا) أي مقصودا بالفعل فلا بد من وقوعه فهو كقوله ان كان وعد ربنا لمفعولا ثانيها قوله تعالى (لا يسمعون فيها لغوا) وهو فضول الكلام وما لا طائل تحته وفيه تنبيه ظاهر على تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله تعالى عنه الدار الآخرة التي لا تكليف فيها وقد مدح الله تعالى أقواما بقوله واذا مروا باللغو مروا كراما واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا وقوله تعالى (الا سلاما) استثناء منقطع أي ولكن يسمعون قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة أو سلاما من الله أو من الملائكة أو من بعضهم على بعض ويجوز أن يراد باللغو مطلق الكلام قال في القاموس لغا لغوا تكلم فيكون الاستثناء متصلا أي لا يسمعون فيها كلاما الا كلاما يدل على السلامة أو سلاما من الله أو من الملائكة أو من بعضهم على بعض ثالثها قوله تعالى (ولهم رزقهم فيها) أي على ما يتمنونه ويشتهونه على وجه لا بد من اتيانه ولا كلفة عليهم فيه ولا منة عليهم به (بكرة وعشيا) أي على قدرهما في الدنيا وليس في الجنة نهار ولا ليل بل ضوء ونور أبدا وقيل انهم يعرفون النهار برفع الحجب والليل بارخائها (فان قيل) المقصود من هذه الآيات وصف الجنة بأحوال مستعظمة ووصول الرزق اليهم بكرة وعشيا ليس من الامور المستعظمة (أجيب) بوجهين الاول قال الحسن أراد الله تعالى أن يرغب كل قوم بما أحبوه في الدنيا فلذلك ذكر أساور الذهب والفضة ولبس الحرير التي كانت عادة العجم والارائك التي هي الحجال المضروبة على الاسرة وكانت عادة أشراف اليمن ولا شئ كان أحب الى العرب من الغداء والعشاء فوعدهم بذلك الثاني أن المراد دوام الرزق تقول أنا عند فلان صباحا ومساء وبكرة وعشية تريد الدوام ولا تقصد الوقتين المعلومين وقيل المراد رفاهية العيش وسعة الرزق أي لهم رزقهم

متى شاؤا * ولما باينت بهذه الاوصاف دار الباطل أشار الى علو رتبتها وما هو سببها بقوله تعالى (تلك الجنة) باداة البعد لعلو قدرها وعظم أمرها (التى نورث من عبادنا) أى نعطى عطاء الارث الذى لا كدّ فيه ولا استرجاع وتبقى له الجنة كما يبقى للوارث مال الموروث وقيل تنقل تلك المنازل عمن لو أطاع لكانت له الى عبادنا الذين اتقوا ربهم فجعل النقل ارثا قاله الحسن (من كان تقيا) أى المتقين عن عباده (فان قيل) الفاسق المرتكب للكبائر لم يوصف بذلك الوصف فلا يدخلها (أجيب) بأن الآية تدل على أن الجنة يدخلها المتقى وليس فيها دلالة على أن غير المتقى لا يدخلها وأيضا صاحب الكبيرة متق عن الكفر ومن صدق عليه انه متق عن الكفر فقد صدق عليه أنه متق واذا كان صاحب الكبيرة يصدق عليه أنه متق وجب أن يدخل الجنة فدلالة الآية على أن صاحب الكبيرة يدخلها أولى من أن تدل على أنه لا يدخلها * واختلف فى سبب نزول قول جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم (وما نتنزل الا بأمر ربك) فقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت الآية وقال مجاهد أبطأ الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال لعلى أبطأت قال قد فعلت قال ولم لا أفعل وأنتم لا تتسوّكون ولا تقصون أظفاركم ولا تنقون براجمكم وقال وما نتنزل الا بأمر ربك فنزلت وقال قتادة والكلبى احتبس جبريل عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح وسبب سؤالهم عن ذلك ما روى ان قريشا بعثت خمسة رهط الى يهود المدينة يسألونهم عن صفة النبى صلى الله عليه وسلم وهل يجدونه فى كتابهم وسألوا النصارى فزعموا أنهم لا يعرفونه وقالت اليهود نجده فى كتابنا وهذا زمانه وقد سألنا رحمن اليمامة عن ثلاث فلم يعرف فسلوه عنهنّ فان أخبركم عن خصلتين فاتبعوه فسألوه عن قصة أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فلم يدر كيف يجيب فوعدهم أن يجيبهم غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحى عنه أربعين يوما وقيل خمسة عشر يوما فشق ذلك عليه مشقة عظيمة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه فلما نزل جبريل عليه السلام قال له النبى صلى الله عليه وسلم أبطأت حتى ساء ظنى واشتقت اليك قال انى اليك أشوق ولكنى عبد مأمور اذا بعثت نزلت واذا حبست احتبست فنزلت هذه الآية وأنزل قوله تعالى ولا تقولنّ لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله وسورة الضحى (فان قيل) قوله تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا كلام الله وقوله وما نتنزل الا بأمر ربك كلام غير الله فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل (أجيب) بأنه اذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح كقوله تعالى اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وهذا كلام الله تعالى ثم عطف عليه قوله وان الله ربى وربكم فاعبدوه * ثم علل جبريل قوله ذلك بقوله (له ما بين أيدينا) أى امامنا من أمور الآخرة (وما خلفنا) أى من أمور الدنيا (وما بين ذلك) أى ما يكون من هذا الوقت الى قيام الساعة أى له علم ذلك جميعه وقيل ما بين ذلك ما بين النفختين وبينهما أربعون سنة وقيل ما بين أيدينا ما بقى من الدنيا وما خلفنا ما مضى منها وما بين ذلك مدة حياتنا وقيل ما بين أيدينا بعد أن نموت

وماخلفنا قبل أن نخلق ومابين ذلك مدة الحياة وقيل مابين أيدينا الارض اذا أردنا النزول اليها وماخلفنا السماء ومايتنزل منها ومابين ذلك الهواء يريد أن ذلك كله لله فلا نقدر على شئ الا بأمره (وما كان ربك) المحسن اليك (نسيا) بمعنى ناسيا أى تاركا لك بتأخير الوحى عنك لقوله تعالى ماودعك ربك وماقلى أى وما كان امتناع النزول الا لامتناع الامر به وما كان ذلك عن ترك الله تعالى لك وتوديعه اياك ثم استدل على ذلك بقوله (رب السموات والارض ومابينهما) فلا يجوز عليه النسيان اذ لا بد أن يمسكهما حالا بعد حال والا لبطل الامر فيهما وفيمن يتصرف والآية دالة على ان الله تعالى رب لكل شئ حصل بينهما ففعل العبد مخلوق له تعالى لان فعل العبد حاصل بين السماء والارض * (تنبيه) * يجوز فى رب أن يكون بدلا من ربك وأن يكون خبر مبتدا مضمر أى هو رب وقوله تعالى (فاعبده واصطبر لعبادته) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم مرتب على ما تقدم أى لما عرفت أن ربك لا ينساك فاعبده بالمراقبة الدائمة على ما ينبغى من مثلك واصطبر عليها ولا تتشوش بابطاء الوحى وهزء الكفار بك (فان قيل) لم لم يقل واصطبر على عبادته لانها صلته فكان حقه تعديه بعلى (أجيب) بأنه ضمن معنى الثبات لان العبادة ذات تكاليف قل من يثبت لها فكأنه قيل اثبت لها مصطبرا كقولك للمحارب اصطبر لقرنك ثم علل ذلك بقوله (هل تعلم له سميا) قال ابن عباس هل تعلم له مثلا أى نظيرا فيما يقتضى العبادة والذى يقتضيها كونه منعما بأصول النعم وفروعها وهى خلق الاجسام والحياة والعقل وغيرها فانه لا يقدر على ذلك أحد سواه سبحانه وتعالى واذا كان قد أنعم عليك بغاية الانعام وجب أن تعظمه بغاية التعظيم وهى العبادة وقال الكلبى هل تعلم أحدا تسمى الله غيره فانهم وان كانوا يطلقون لفظ الاله على الوثن فما أطلقوا لفظ الله تعالى على شئ * ولما أمر تعالى بالعبادة والمصابرة عليها فكأن سائلا سأل وقال هذه العبادة لا منفعة فيها فى الدنيا وأما فى الآخرة فقد أنكرها بعضهم فلا بد من ذكر الدلالة على القول بالحشر حتى يظهر أن الاشتغال بالعبادة يفيد فلهذا حكى الله سبحانه وتعالى قول منكرى الحشر فقال تعالى (ويقول الانسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا) قال الكلبى نزلت فى أبى بن خلف حين أخذ عظاما بالية ففتها بيديه ويقول زعم لكم محمد أنا نبعث بعد ما نموت وقيل نزلت فى أبى جهل وقيل المراد جنس الكفار القائلين بعدم البعث ثم ان الله تعالى أقام الدليل على صحة البعث بقوله (أولا يذكر الانسان) أى الجترئ بهذا الانكار على ربه (أنا خلقناه من قبل) أى من قبل جدله (ولم يك شيأ) أصلا وأنا بمقتضى ذلك قادرون على اعادته فلا ينكر ذلك قال بعض العلماء لو اجتمع كل الخلائق على ايراد حجة فى البعث على هذا الاختصار ما قدروا عليه اذ لا شك أن الاعادة ثانيا أهون من الايجاد أولا ونظيره قوله تعالى قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وقوله تعالى وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بسكون الذال وضم الكاف مخففة والباقون بفتح الذال مشددة وكذا الكاف (فان قيل) كيف أمر الله الانسان بالتذكر مع أن التذكر هو العلم بما علمه من قبل ثم تخللهما سهو (أجيب) بأن المراد أولا يتفكر فيعلم خصوصا

اذا قرئ أولا يذكر مشددا أما اذا قرئ مخففا فالمراد أولا يعلم ذلك من حال نفسه لان كل أحد يعلم أنه لم يكن حيا في الدنيا * ثم صار حيا ثم انه تعالى لما قرر المطلوب بالدليل أردفه بالتهديد من وجوه أولها قوله تعالى (فوربك) أي المحسن اليك بالانتقام منهم (لنحشرنهم) بعد البعث (والشياطين) الذين يضلونهم بأن نحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة وفائدة القسم أمران أحدهما ان العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين والثاني في اقسام الله باسمه مضافا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تفخيم لشأنه ورفع منه كما رفع من شأن السماء والارض في قوله تعالى فورب السماء والارض انه لحق والواو في والشياطين يجوز أن تكون للعطف وبمعنى مع وهو أولى ثانيها قوله تعالى (ثم لنحضرنهم) بعد طول الوقوف (حول جهنم) من خارجها ليشاهد السعداء الاحوال التي نجاهم الله تعالى منها وخلصهم فيزدادوا لذلك غبطة الى غبطتهم وسرورا الى سرورهم ويشمتوا بأعداء الله وأعدائهم فتزداد مساءتهم وحسرتهم وما يغبطهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم وقوله تعالى (جثيا) حال مقدرة من مفعول لنحضرنهم وهو جمع جاث جمع على فعول نحو قاعد وقعود وجالس وجلوس وأصله جثوو بواوين أو جثوى من جثا يجثو ويجثى لغتان (فان قيل) هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى وترى كل أمة جاثية ولان العادة جارية بأن الناس في مواقف مطالبات الملوك يتجاثون على ركبهم لما في ذلك من القلق أو لما يدهمهم من شدة الامر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم واذا كان هذا حاصلا للكل فكيف يدل على مزيد ذل الكفار (أجيب) بأنهم يكونون من وقت الحشر الى وقت الحضور على هذه الحالة وذلك يوجب مزيد ذلهم وقرأ حفص وحمزة والكسائي جثيا وعتيا وصليا بكسر أولها والباقون بضمه ثالثها قوله تعالى (ثم لننزعن) أي لنأخذن أخذا بشدة وعنف (من كل شيعة) أي فرقة مرتبطة بمذهب واحد (أيهم أشد على الرحمن) الذي عمرهم بالاحسان (عتيا) أي تكبرا مجاوزا للحد والمعنى ان الله تعالى يحضرهم أولا حول جهنم ثم يميز البعض من البعض فمن كان أشدهم تمردا في كفره خص بعذاب عظيم لان عذاب الضال المضل يجب أن يكون فوق عذاب من يضل تبعا لغيره وليس عذاب من يتمرد ويتجبر كعذاب المقلد ففائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص باصل العذاب ولذلك قال تعالى في جميعهم (ثم لنحن أعلم) من كل عالم (بالذين هم) بظواهرهم وبواطنهم (أولى بها) أي بجهنم (صليا) أي دخولا واحتراقا فنبدأ بهم ولا يقال أولى الامع اشتراكهم وأصله صلوى من صلى بكسر اللام وفتحها * (تنبيه) في اعراب أيهم أشد أقوال كثيرة أظهرها عند جمهور المعربين وهو مذهب سيبويه ان أيهم موصولة بمعنى الذي وان حركتها حركة بناء بنيت عند سيبويه لخروجها عن النظائر وأشد خبر مبتدا مضمر والجملة صلة لأيهم وأيهم وصلتها في محل نصب مفعول بها ولأي أحوال أربعة ذكرتها في شرح القطر * ولما كانوا بهذا الاعلام المؤكد بالاقسام من ذي الجلال والاكرام جديرين باصغاء الافهام الى ما توجه اليها من الكلام التفت الى مقام الخطاب افهاما للعموم فقال تعالى (وان) أي وما (منكم) أيها الناس أحد (الا واردها)

كان) ذلك الورود (على ربك) الموجد لك المحسن اليك (حتما مقضيا) أى حتمه وقضى به
لا يتركه والورود موافاة المكان فاختلفوا فى معنى الورود هنا فقال ابن عباس والاكثرون
الورود ههنا هو الدخول والكناية راجعة الى النار وقالوا يدخلها البر والفاجر ثم ينجى الله
المتقين فيخرجهم منها ويدل على أن الورود هو الدخول قوله تعالى يقدم قومه يوم القيامة
فأوردهم النار وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار ان نافع بن الازرق مارى ابن عباس
فى الورود فقال ابن عباس هو الدخول وقال نافع ليس الورود الدخول فتلا ابن عباس انكم
وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون أدخلها هؤلاء أم لا ثم قال يا نافع أما
والله أنا وأنت سنردها وأنا أرجو أن يخرجنى الله منها وما أرى الله يخرجك منها بتكذيبك
ويدل عليه أيضا قوله تعالى (ثم ننجى الذين اتقوا) أى الكفر منها ولا يجوز أن يقول ثم ننجى الذين
اتقوا (ونذر الظالمين) بالكفر (فيها جثيا) على الركب الا والكل واردون والاخبار المروية
دالة على هذا القول روى أن عبد الله بن رواحة قال أخبر الله تعالى عن الورود ولم يخبر بالصدر
فقال صلى الله عليه وسلم يا ابن رواحة اقرأ ما بعدها ثم ننجى الذين اتقوا فدل على ان ابن رواحة
فهم من الورود الدخول ولم ينكر عليه النبى صلى الله عليه وسلم ذلك وعن جابر أنه سأل عن هذه
الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الورود الدخول ولا يبقى بر ولا فاجر الا
دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما حتى ان للنار ضجيجا من بردها ولان حرارة النار ليست
بطبعها فالاجزاء الملاصقة لأبدان الكفار يجعلها الله تعالى محرقة مؤذية والاجزاء الملاصقة
لاجزاء المؤمنين يجعلها بردا وسلاما كما فى حق ابراهيم عليه السلام وكما ان الملائكة الموكلين بها
لا يجدون ألمها وكما فى الكوز الواحد من الماء كان يشربه القبطى فيكون دما ويشربه الاسرائيلى
فيكون ماء عذبا وعن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال اذا دخل
أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض أليس وعدنا ربنا أن نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهى
خامدة وخامدة بخاء معجمة أى ساكنة وروى بالجيم أى باردة ولا بد من ذلك فى الملائكة
الموكلين بالعذاب حتى يكونوا فى النار مع المعاقبين (فان قيل) فاذا لم يكن على المؤمنين عذاب فى
دخولهم فما الفائدة فى ذلك الدخول (أجيب) بوجوه أحدها ان ذلك مما يزيدهم سرورا اذا علموا
الخلاص منها ثانيها ان فيه مزيد غم على أهل النار حيث يرون المؤمنين الذين هم أعداؤهم
يتخلصون منها وهم يبقون فيها ثالثها أن فيه مزيد غم على أهل النار حيث تظهر فضيحتهم عند
المؤمنين رابعها انهم اذا شاهدوا ذلك العذاب صار سببا لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة وقيل
المراد بالذين يردونها من تقدم ذكرهم من الكفار فكنى عنهم أولا كناية الغيبة ثم خاطب
خطاب المشافهة وعلى هذا القول فلا يدخل النار مؤمن واستدل له بقوله تعالى ان الذين
سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها والمبعد عنها لا يوصف بأنه
واردها ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها وبقوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون وروى
عن مجاهد من حم من المؤمنين فقد وردها وفى الخبر الحمى كير من جهنم وهى حظ المؤمن

من النار وفي رواية الحمى من فيح جهنم فابردوها بالماء وقوله من فيح جهنم أي وهجها وحرّها وقال ابن مسعود وإن منكم إلا واردها يعني القيامة والكناية راجعة إليها قال البغوي والأول أصح وعليه أهل السنة وروى أنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير وفي رواية من إيمان وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة رجل يخرج من النار حبواً فيقول الله له اذهب فادخل الجنة قال فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول وجدتها ملأى فيقول الله له اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشر أمثالها فيقول له أتسخر بي وأنت الملك فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه فكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة * قوله حتى بدت نواجذه أي أنيابه وأضراسه وقيل هي أعلى الأسنان وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذب ناس من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا حمماً ثم تدركهم الرحمة قال فيخرجون فيطرحون على باب الجنة قال فيرش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما ينبت الغثاء في حمالة السيل الحمم الفحم والغثاء كل ما جاء به السيل وقرأ الكسائي ننجي بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون الثانية وتشديد الجيم * ولما أقام تعالى الحجة على مشركي قريش المنكرين للبعث قال تعالى عطفاً على قوله ويقول الإنسان (وإذا تتلى عليهم) أي الناس من المؤمنين والكفار من أي تال كان (آياتنا) أي القرآن حال كونها (بينات) أي واضحات وقيل مرتلات الألفاظ ملخصات المعاني وقيل ظاهرات الإعجاز (قال الذين كفروا) بآيات ربهم البينة جهلاً منهم ونظراً إلى ظاهر الحياة الدنيا الذي هو مبلغهم من العلم (للذين آمنوا) أي لأجلهم أو مواجهة لهم إعراضاً عن الاستدلال بالآيات بالإقبال على هذه الشبهة الواهية وهي المفاخرة بالمكاثرة في الدنيا من قولهم (أي الفريقين) نحن بما لنا من الاتساع أم أنتم بما لكم من خشونة العيش ورثاثة الحال ولو كنتم أنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أحسن من حالنا لأن الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين في الذل وأعداءه المعرضين عن خدمته في العز والراحة وإنما كان الأمر بالعكس فإن الكفار كانوا في النعمة والراحة والاستعلاء والمؤمنين كانوا في ذلك الوقت في الخوف والقلة هذا حاصل شبهتهم والقائل ذلك هو النضر بن الحرث وذووه من قريش للذين آمنوا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكان فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة وكان المشركون يرجلون شعورهم ويلبسون خير ثيابهم فقالوا للمؤمنين أي الفريقين (خير مقاماً) أي موضع قيام أو إقامة على قراءة ابن كثير بضم الميم والباقون بفتحها في كلتا القراءتين يحتمل أن يكون اسم مصدر أو اسم مكان إما من قام ثلاثياً أو من أقام * (تنبيه) * قالوا زيد خير من عمرو وشر من بكر ولم يقولوا أخير منه ولا أشر منه لأن هاتين اللفظتين كثر استعمالهما فحذفت همزتاهما ولم يثبتا إلا في فعل التعجب فقالوا

أخير بزيد وأشر بعمرو وما أخير زيدا وما أشر عمرا والعلة فى اثباتهما فى فعلى التعجب ان استعمال هذين اللفظين اسما أكثر من استعمالهما فعلا فحذفت الهمزة فى موضع الكثرة وبقيت على أصلها فى موضع القلة (وأحسن نديا) أى مجمعا ومتحدثا والندى المجلس يقال ندى وناد والجمع الاندية ومنه وتأتون فى ناديكم المنكر وقال تعالى فليدع ناديه ويقال ندوت القوم أندوهم اذا جمعتهم فى مجلس ومنه دار الندوة وكانت تجمع القوم فجعلوا ذلك الامتحان بالانعام والاحسان دليلا على رضا الرحمن مع التكذيب والكفران وغفلوا عن أن فى ذلك مع التكذيب بالبعث تكذيبا بما يشاهدون منا من القدرة على العقاب باحلال النقم وسلب النعم ولو شئنا لاهلكناهم وسلبنا جميع ما يفتخرون به (وكم أهلكنا قبلهم) ثم بين ابهام كم بقوله (من قرن) شاهدوا ديارهم ورأوا آثارهم (هم) أى أهل تلك القرون (أحسن) من هؤلاء (أثاثا) أى أمتعة (ورئيا) أى ومنظرا فلو دل حصول نعم الدنيا للانسان على كونه حبيب الله لوجب أن لا يصل الى هؤلاء غم فى الدنيا وقرأ قالون وابن ذكوان بابدال الهمزة ياء وادغامها فى الياء وقفا ووصلا واذا وقف حمزة أبدل الهمزة ياء وله فيها الادغام والاظهار *(تنبيه)* كم مفعول أهلكنا مقدم واجب التقديم لان له صدر الكلام لانها اما استفهامية أو خبرية وهى محمولة على الاستفهامية أى كثيرا من القرون أهلكنا ومن قرن تمييز لكم مبين لها وانما سمى أهل كل عصر قرنا لانهم يتقدمون من بعدهم وقول البيضاوى وهم أحسن صفة لكم تبع فيه الزمخشرى وغيره ورد بأن كم الاستفهامية والخبرية لا توصف ولا يوصف بها فهم أحسن فى محل جر صفة لقرن وجمعه نظرا للمعنى لان القرن مشتمل على أفراد كثيرة * ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) لهؤلاء المبعدين ردا عليهم وقطعا لمعاذيرهم وهتكا لشبههم هذا الذى افتخرتم به لا يدل على حسن الحال فى الآخرة بل على عكس ذلك فقد جرت عادته تعالى أنه (من كان فى الضلالة) مثلكم كونا راسخا بسط له فى الدنيا وطيب عيشه فى ظاهر الحال فيها ونعم بأنواع الملاذ وقوله (فليمدد له الرحمن مدا) أمر بمعنى الخبر معناه فندعه فى طغيانه ونمهله فى كفره بالبسط فى الآثار والسعة فى الديار والطول فى الاعمار وانفاقها فيما يستلذ به من الاوزار ولا يزال يمد له استدراجا (حتى اذا رأوا) أى كل من كفر بأعينهم (ما يوعدون) من قبل الله (اما العذاب) فى الدنيا بأيدى المؤمنين وغيرهم او فى البرزخ (واما الساعة) أى القيامة التى هم بها مكذبون وعن الاستعداد لها معرضون ولا شىء يشبه أهوالها وخزيها ونكالها (فسيعلمون) اذا رأوا ذلك (من هو شر مكانا) أى من جهة المكان الذى قوبل به المقام فى قولهم خير مقاما (وأضعف جندا) أى أقل ناصرا أهم أم المؤمنون أى أضعف من جهة الجند أى الذى أشير به الى الندى فى قولهم وأحسن نديا لانهم فى النار والمؤمنون فى الجنة فهذا رد عليهم فى قولهم أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا (ويزيد الله الذين اهتدوا) الى الايمان (هدى) بما ينزل عليهم من الآيات عوض ما زوى عنهم من الدنيا الكرامتهم عنده بما بسط للضلال لهوانهم عليه * وأشار الى أن مثل ما خذل أولئك بالنوال وفق هؤلاء لمحاسن الاعمال باقلال الاموال

فقال عز من قائل (والباقيات الصالحات) أى الطاعات والمعارف التى شرحت لها الصدور وأنارت بها القلوب وأوصلت الى علام الغيوب (خير عند ربك) مما متع به الكفرة والخيرية هنا فى مقابلة قولهم أى الفريقين خير مقاما وقيل الباقيات الصالحات هى الصلوات وقيل التسبيح روى أبو الدرداء قال جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وأخذ عودا يابسا وأزال الورق عنه ثم قال ان قول لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن الباقيات الصالحات وهى من كنوز الجنة فكان أبو الدرداء يقول لأعملن ذلك ولأكثرن عمله حتى اذا رآنى الجهال حسبوا أنى مجنون قال الرازى والقول الاول أولى لانه تعالى انما وصفها بالباقيات الصالحات من حيث يدوم ثوابها فلا تختص ببعض العبادات فهى باسرها باقية صالحة نظرا الى أثرها الذى هو الهداية ثم بين تعالى خيريتها بقوله تعالى (ثوابا) أى من جهة الثواب (وخير مردا) أى من جهة العاقبة يوم الحسرة (فان قيل) لا يجوز أن يقال هذا خيرا الا والمراد انه خير من غيره والذى عليه الكفار لا خير فيه أصلا (أجيب) بأن المراد خير مما ظننه الكفار بقولهم خير مقاما وأحسن نديا وقيل هو كقولهم الصيف أحر من الشتاء يعنى أنه فى حره أبلغ منه فى برده فالكفرة يردون الى فناء وخسارة والمؤمنون الى ربح وبقاء * ولما ذكر تعالى الدلائل أولا على صحة البعث ثم أورد شبهة المنكرين وأجاب عنها أورد عليهم الآن ما ذكروه على سبيل الاستهزاء طعنا فى القول بالحشر فقال تعالى (أفرأيت الذى) أى الذى يعرض عن هذا اليوم ويزيد على ذلك بأن (كفر بآياتنا) الدالات على عظمتنا بالدلالات البينات (وقال) جرأة منه وجهلا (لأوتين) أى والله لأوتين فى الساعة على تقدير قيامها (مالا وولدا) أى عظيمين فلم يكفه فى جهله تعجيز القادر حتى ضم اليه أقدار العاجز وقرأ حمزة والكسائى وولدا وكذا ولدا فى جميع ما فى هذه السورة بضم الواو وسكون اللام والباقون بفتح الواو واللام فى الجميع يقال ولد وولد كما يقال عرب وعرب وعدم وعدم أما القراءة بفتحتين فواضحة وهو اسم مفرد قائم مقام الجمع وأما قراءة الضم والاسكان فقيل هى كالتى قبلها فى المعنى وقيل بل هى جمع لولد نحو أسد وأسد وأنشدوا على ذلك

ولقد رأيت معاشرا * قد أثروا مالا وولدا

وأنشدوا شاهدا على أن الولد والولد مترادفان قول الآخر

فليت فلانا كان فى بطن أمه * وليت فلانا كان ولد حماره

* ولما كان ما ادعاه لا علم به الا بأحد أمرين لا علم له بواحد منهما أنكر قوله ذلك بقوله تعالى (أطلع الغيب) الذى هو غائب عن كل مخلوق فهو فى بعد عن الخلق كالعالى الذى لا يمكن أحدا منهم الاطلاع اليه وتفرد به الواحد القهار (أم اتخذ) أى بغاية جهده (عند الرحمن عهدا) عاهده عليه بأن يؤتيه ما ذكر بطاعة فعلها على وجهها الموقف سبحانه فيه عنده قوله وقيل فى العهد كلمة الشهادة وعن قتادة هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول وعن الكلبى هل عهد الله اليه أن يؤتيه ذلك وعن الحسن رحمه الله تعالى نزلت فى الوليد بن المغيرة والمشهور

أتيا في العاص بن وائل قال خباب بن الارت كان لي عليه دين فاقتضيته فقال لا والله حتى تكفر بمحمد فقلت لا والله لا أكفر بمحمد حيا ولا ميتا ولا حين تبعث قال فاني اذا مت بعثت قلت نعم قال اذا بعثت جئتني وسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك وقيل صاغ له خباب حليا فاقتضاه الاجر فقال انكم تزعمون أنكم تبعثون وان في الجنة ذهبا وفضة وحريرا فأنا أقضيك ثم فاني أوتى مالا وولدا فأعطيك حينئذ ثم انه سبحانه وتعالى بين من حاله ضد ما ادعاه فقال تعالى (كلا) وهي كلمة ردع وتنبيه على الخطا أي هو مخطئ فيما يقول ويتمناه (سنكتب) أي نحفظ عليه (ما يقول) فنجازيه به في الآخرة وقيل نأمر الملائكة حتى يكتبوا عليه ما يقول (ونمد له من العذاب مدا) أي نزيده بذلك عذابا فوق عذاب كفره وقيل نطيل مدة عذابه (ونرثه) بموته (ما يقول) أي ما عنده من المال والولد (ويأتينا) يوم القيامة (فردا) لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا فضلا أن يؤتى ثم زائدا قال تعالى ولقد جئتمونا فرادى وقيل فردا رافضا لهذا القول منفردا عنه * ولما تكلم سبحانه وتعالى في مسئلة الحشر والنشر تكلم الآن في الرد على عباد الاصنام فقال (واتخذوا) أي كفار قريش (من دون الله) أي الاوثان (آلهة) يعبدونها (ليكونوا لهم عزا) أي منفعة بحيث يكونون لهم شفعاء وأنصارا ينقذونهم من الهلاك * ثم أجاب تعالى بقوله تعالى (كلا) ردع وانكار لتعززهم بها (سيكفرون بعبادتهم) أي تجحد الآلهة عبادتهم ويقولون ما عبدتمونا كقوله تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وفي آية أخرى ما كانوا ايانا يعبدون وقيل أراد بذلك الملائكة لانهم كانوا يكفرون بعبادتهم ويتبرؤن منهم ويخصمونهم وهو المراد من قوله تعالى أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون وقيل ان الله تعالى يحيي الاصنام يوم القيامة حتى يوبخوا عبادهم ويتبرؤا منهم فيكون ذلك أعظم لحسرتهم ويجوز أن يراد الملائكة والاصنام (ويكونون عليهم ضدا) أي أعوانا وأعداء (فان قيل) لم وحده وهو خبر عن جمع (أجيب) بأنه اما مصدر في الاصل والمصادر موحدة مذكرة واما لانه مفرد في معنى الجمع قال الزمخشري والضد العون وحد توحيد قوله عليه الصلاة والسلام وهم يد على من سواهم لاتفاق كلمتهم وأنهم كشئ واحد لفرط تضامنهم وتوافقهم انتهى والحديث رواه أبو داود وغيره والشاهد فيه قوله يد حيث لم يقل أيد * ولما ذكر تعالى مال هؤلاء الكفار مع آلهتهم في الآخرة ذكر بعده مالهم مع الشياطين في الدنيا وأنهم يتولونهم وينقادون اليهم فقال تعالى مخاطبا لنبيه صلى الله عليه وسلم (ألم تر) أي تنظر (أنا أرسلنا) أي سلطنا (الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) الازو الهز والاستفزاز أخوات ومعناها التهييج وشدة الازعاج أي تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات (فلا تعجل عليهم) أي تطلب عقوبتهم بأن يهلكوا ويبيدوا حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم (انما نعد لهم عدا) أي ليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم الا أيام محصورة وأنفاس معدودة ونظيره قوله تعالى ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ وعن ابن عباس كان اذا قرأها بكى وقال آخر العدد خروج نفسك آخر العدد دخول قبرك آخر العدد فراق أهلك وعن

ابن

ابن السماك أنه كان عند المأمون فقرأها فقال إذا كانت الانفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد وقيل نعد أنفاسهم وأعمالهم فنجازيهم على قليلها وكثيرها وقيل نعد الاوقات الى وقت الاجل المعين لكل أحد الذى لا يتطرق اليه الزيادة والنقصان * ثم بين تعالى ما سيظهر فى ذلك اليوم من الفصل بين المتقين والمجرمين فى كيفية الحشر فقال (يوم) أى واذكر يوم (نحشر المتقين) بايمانهم (الى الرحمن) أى الى محل كرامته وقوله تعالى (وفدا) حال أى وافدين عليه كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين لكرامتهم وانعامهم والوفد الجماعة الوافدون يقال وفد يفد وفدا ووفودا ووفادة أى قدم على سبيل التكرمة فهو فى الاصل مصدر ثم أطلق على الاشخاص كالصف وقال أبو البقاء وفد جمع وافد مثل ركب وراكب وصحب وصاحب وهذا الذى قاله ليس بمذهب سيبويه لان فاعلا لا يجمع على فعل عند سيبويه وأجازه الاخفش وجرى عليه الجلال المحلى فقال وفد جمع وافد بمعنى راكب انتهى وقال ابن عباس وفدا ركبانا وقال أبو هريرة على الابل وقال على رضى الله تعالى عنه والله ما يحشرون على أرجلهم ولكن فوق نوق رحالها الذهب ونجائب سروجها يواقيت ان هموا بها سارت وان هموا بها طارت (ونسوق المجرمين) بكفرهم (الى جهنم) وقوله تعالى (وردا) حال أى مشاة باهانة واستخفاف كانهم نعم عطاش تساق الى الماء وقيل عطاش قد تقطعت أعناقهم من شدة العطش لان من يرد الماء لا يرد الا بعطش وحقيقة الورد المسير الى الماء وقوله تعالى (لا يملكون الشفاعة) الضمير فيه للعباد المدلول عليهم بذكر المتقين والمجرمين وقيل للمتقين وقيل للمجرمين وقوله تعالى (الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) استثناء متصل على القولين الاولين منقطع على الثالث والمعنى أن الشافعين لا يشفعون الا لمن اتخذ عند الرحمن عهدا كقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى ويدخل فى ذلك أهل الكبائر من المسلمين اذ كل من اتخذ عند الرحمن عهدا وجب دخوله فيه وصاحب الكبيرة اتخذ عند الرحمن عهدا وهو التوحيد فوجب دخوله تحته ويؤيده ما روى عن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه ذات يوم أيعجز أحدكم أن يتخذ عند كل صباح ومساء عند الله عهدا قالوا وكيف ذلك قال يقول كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انى أعهد اليك بانى أشهد ان لا اله الا أنت وحدك لا شريك لك وان محمدا عبدك ورسولك فلا تكلنى الى نفسى فانك ان تكلنى الى نفسى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير وانى لا أثق الا برحمتك فاجعل لى عندك عهدا توفينيه يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد فاذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع ووضع تحت العرش فاذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة فظهر أن المراد من العهد كلمة الشهادة وظهر وجه الدلالة على ثبوت الشفاعة لاهل الكبائر * ولما رد سبحانه وتعالى على عبدة الاوثان عاد الى الرد على من أثبت له ولدا بقوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) أى قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكة بنات الله (لقد جئتم شيأ ادا) قال ابن عباس أى منكرا وقال قتادة أى عظيما وقال

ابن خالويه الادّ والادّ العجب وقيل العظيم المنكر والادة الشدة وأدنى الامر وآدنى أثقلنى وعظم على وقرأ (تكاد السموات) نافع والكسائى بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وقرأ (يتفطرن منه) أبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة بعد الياء بنون ساكنة وكسر الطاء مخففا والباقون بعد الياء بتاء وفتح الطاء مشددة يقال انفطر الشئ وتفطر أى تشقق وقراءة التشديد أبلغ لان التفعل مطاوع فعل والانفعال مطاوع فعل ولان أصل التفعل التكلف (وتنشق الارض) أى تخسف بهم (وتخر الجبال هدا) أى تسقط وتنطبق عليهم (أن) أى من أجل ان (دعو للرحمن ولدا) قال ابن عباس وكعب فزعت السموات والارض والجبال وجميع الخلائق الا الثقلين وكادت أن تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا اتخذ الله ولدا (فان قيل) كيف يؤثر القول فى انفطار السموات وانشقاق الارض وخرور الجبال (أجيب) بوجوه الاول ان الله تعالى يقول كدت أفعل هذا بالسموات والارض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا منى على من تفوّه بها لولا حلمى وانى لا أعجل بالعقوبة الثانى أن يكون استعظاما للكلمة وتهويلا وتصويرا لاثرها فى الدين وهدمها لقواعده وأركانه الثالث ان السموات والارض والجبال تكاد أن تفعل كذلك لو كانت تعقل هذا القول ثم نفى الله تعالى عن نفسه الولد بقوله تعالى (وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا) أى ما يليق به اتخاذ الولد لان ذلك محال أما الولادة المعروفة فلا مقالة فى امتناعها وأما التبنى فان الولد لابد وأن يكون شبيها بالوالد ولا شبيه لله تعالى لان اتخاذ الولد انما يكون لاغراض اما من سرور أو استعانة أو ذكر جميل وكل ذلك لا يصح فى حق الله تعالى (ان) أى ما (كل من فى السموات والارض) أى ان كل معبود من الملائكة فى السموات والارض من الناس منهم العزير وعيسى (الا آتى الرحمن) أى ملتجئ الى ربوبيته (عبدا) منقادا مطيعا ذليلا خاضعا كما يفعل العبيد ومن المفسرين كالجلال المحلى من حمله على يوم القيامة خاصة والاول أولى لانه لا تخصيص فى الآية (لقد أحصاهم) أى حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوزه وعلمه وقبضته وقدرته وكلهم تحت تدبيره وقهره (وعدهم عدا) أى عدّ أشخاصهم وأيامهم وأنفاسهم وأفعالهم فان كل شئ عنده بمقدار لا يخفى عليه شئ من أمورهم (وكلهم آتيه) أى كل واحد منهم يأتيه (يوم القيامة فردا) أى وحيدا ليس معه من الدنيا شئ من مال أو نصير يمنعه ولما رد سبحانه وتعالى على أصناف الكفرة وبالغ فى شرح أحوالهم فى الدنيا والآخرة ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين فقال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) أى سيحدث لهم فى القلوب مودة من غير تعرض منهم لاسبابها من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف أو غير ذلك روى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم قال اذا أحب الله عبدا يقول لجبريل أحببت فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء قد أحب الله فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له المحبة فى الارض واذا أبغض الله العبد قال مالك لا أحسبه الا قال فى البغض مثل ذلك والسين فى سيجعل اما لان السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين

الكفر فوعدهم الله تعالى ذلك اذا قوى الاسلام والمعنى سيحدث لهم فى القلوب مودة واما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم الله الى خلقه بما يظهر من حسناتهم وروى عن كعب قال مكتوب فى التوراة لامحبة لاحد فى الارض حتى يكون ابتداؤها من السماء من الله عزوجل ينزلها على أهل السماء ثم على أهل الارض ومصداق ذلك فى القرآن قوله سيجعل لهم الرحمن ودّا وقال أبو مسلم معناه يهب لهم ما يحبون والود والمحبة سواء * ولما ذكر سبحانه وتعالى فى هذه السورة التوحيد والنبوة والحشر والرد على فرق المبطلين بين تعالى أنه يسر ذلك بلسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله (فانما يسرناه) أى القرآن (بلسانك) أى العربى أى لولا أنه تعالى نقل قصصهم الى اللغة العربية لما تيسر ذلك لك (لتبشر به المتقين) أى المؤمنين (وتنذر) أى تخوف (به قوما لدا) جمع ألد أى جدل بالباطل وهم كفار مكة ثم انه تعالى ختم السورة بموعظة عظيمة بليغة فقال تعالى (وكم) أى كثيرا (أهلكنا قبلهم من قرن) أى أمة من الامم الماضية بتكذيب الرسل لانهم اذا تأملوا وعلموا أنه لابد من زوال الدنيا وانه لابد فيها من الموت وخافوا سوء العاقبة فى الآخرة كانوا الى الحذر من المعاصى أقرب * ثم أكد ذلك بقوله تعالى (هل تحس) أى ترى وقيل تجد (منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) أى صوتا خفيا لا قال الحسن بادوا جميعا فلم يبق منهم عين ولا أثر أى فكما أهلكنا أولئك نهلك هؤلاء * (تنبيه) * الركز الصوت الخفى دون نطق بحروف ولا فم ومنه ركز الرمح أى غيبه فى الارض وأخفاه ومنه الركاز وهو المال المدفون لخفائه واستتاره والحديث الذى ذكره البيضاوى تبعا للزمخشرى وهو من قرأ سورة مريم أعطى عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى ومريم وعيسى وسائر الانبياء المذكورين فيها وبعدد من دعا الله فى الدنيا ومن لم يدع الله تعالى حديث موضوع

(سورة طه عليه الصلاة والسلام مكية)

وهى مائة وخمس وثلاثون آية وعدد كلماتها ألف وثلثمائة واحدى وأربعون كلمة وعدد حروفها خمسة آلاف ومائتان واثنان وأربعون حرفا وعن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أعطيت السورة التى ذكرت فيها البقرة من الذكر الاول وأعطيت طه ويس والطواسين من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التى ذكرت فيها البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة

(بسم الله) الملك الحق المبين (الرحمن) الذى عم نعمه على خلقه أجمعين (الرحيم) الذى خص بجنته عباده المؤمنين وقرأ (طه) شعبة وحمزة والكسائى بامالة الطاء والهاء ووافقهم ورش وأبو عمرو على امالة الهاء محضة ولم يمل ورش محضة الا هذه الهاء وقد تقدم الكلام فى الحروف المقطعة فى أول سورة البقرة وفى هذه ههنا قولان الصحيح أنها من تلك وقيل انها كلمة مفيدة اما على القول الاول فقد تقدم الكلام فيه فى أول سورة البقرة والذى زادوه هنا أمور أحدها قال الثعالبى الطاء شجرة طوبى والهاء الهاوية فكأنه أقسم بالجنة والنار ثانيها يحكى

عن جعفر الصادق الطاء طهارة أهل البيت والهاء هداية بهم ثالثها قال سعيد بن جبير هذا افتتاح اسمه الطيب الطاهر الهادي رابعها مطمع الشفاعة للامة وهادى الخلق الى الملة خامسها الطاء من الطهارة والهاء من الهداية فكأنه قيل يا طاهرا من الذنوب يا هاديا الى علام الغيوب سادسها الطاء طول القراءة والهاء هيبتهم في قلوب الكفار قال تعالى سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب سابعها الطاء بتسعة في الحساب والهاء بخمسة تكون أربعة عشر ومعناها يا أيها البدر وأما على القول الثاني فقيل معنى طه يا رجل وهو يروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبي ثم قال سعيد بن جبير بالنبطية وقال قتادة بالسريانية وقال عكرمة بالحبشية وقال الكلبي بلغة عك وهو بتشديد الكاف ابن عدنان أخو معد وحكى الكلبي انك لو قلت في عك يا رجل لم تجب حتى تقول طه وقال السدي معناه يا فلان وقيل انه صلى الله عليه وسلم كان يقوم في تهجده على احدى رجليه فأمر أن يطأ الارض بقدميه معا وقال الكلبي لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي بمكة اجتهد في العبادة حتى كان يراوح بين قدميه في الصلاة لطول قيامه وكان يصلي الليل كله فأنزل الله عليه هذه الآية وأمره أن يخفف على نفسه فقال تعالى (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) أي لتتعب بما فعلت بعد نزوله من طول قيامك بصلاة الليل أي خفف عن نفسك فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم صلى الليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام ابق على نفسك فان لها عليك حقا ما أنزلناه لتهلك نفسك بالصلاة وتذيقها المشقة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة وروى أنه كان اذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام وقيل لما رأى المشركون اجتهاده في العبادة قالوا انك لتشقى حيث تركت دين آبائك أي لتتعنى وتتعب وما أنزل عليك القرآن يا محمد الا لشقائك فنزلت وأصل الشقاء في اللغة العناء وقيل المعنى انك لا تلام على كفر قومك كقوله تعالى لست عليهم بمسيطر وقوله تعالى وما أنت عليهم بوكيل أي انك لا تؤاخذ بذنبهم وقيل ان هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت مقهورا تحت ذل الاعداء فكأنه تعالى قال لا تظن أنك تبقى أبدا على هذه الحالة بل يعلو أمرك ويظهر قدرك فانا ما أنزلنا عليك القرآن لتبقى شقيا فيما بينهم بل لتصير معظما مكرما وقرأ حمزة والكسائي بالامالة وأبو عمرو بين بين وورش بين اللفظين والفتح عنده ضعيف جدا وكذلك جميع رؤس آي هذه السورة من ذوات الياء وقوله تعالى (الا تذكرة) استثناء منقطع أي لكن أنزلناه تذكرة قال الزمخشري فان قلت هل يجوز أن يكون تذكرة بدلا من محل لتشقى قلت لا لاختلاف الجنسين ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذي الا فيه بمعنى لكن (لمن يخشى) أي لمن في قلبه خشية ورقة يتأثر بالانذار أو لمن علم الله تعالى منه أن يخشى بالتخويف منه فانه المنتفع به وقوله تعالى (تنزيلا) بدل من اللفظ بفعله الناصب له (ممن خلق الارض) أي من الله الذي خلق الارض (والسموات العلى) أي العالية الرفيعة التي لا يقدر على خلقها في عظمها غير الله تعالى والعلى جمع عليا كقولهم كبرى وكبر وصغرى وصغر وقدم

الارض على السموات لانها أقرب الى الحس وأظهر عندهم من السموات ثم أشار الى وجه احداث الكائنات وتدبير أمرها بان قصد العرش وأجرى منه الاحكام والتقادير وأنزل منه الاسباب على ترتيب ومقادير حسبما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته فقال تعالى (الرحمن على العرش) وهو سرير الملك (استوى) أى استواء يليق به فانه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان واذا خلق الله الخلق لا يحتاج الى مكان فهو بالصفة التى كان لم يزل عليها وتقدم الكلام على ذلك فى سورة الاعراف مستوفى فراجعه * ثم استدل سبحانه وتعالى على كمال قدرته بقوله تعالى (له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى) فهو مالك لما فى السموات من ملك ونجم وغيرهما ومالك لما فى الارض من المعادن والفلوات ومالك لما بينهما من الهواء ومالك لما تحت الثرى وهو التراب الندى والمراد الارضون السبع لانها تحته وقال ابن عباس ان الارضين على ظهر النون والنون على بحر ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها وهى الصخرة التى ذكر الله تعالى فى قصة لقمان فتكن فى صخرة والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى وما تحت الثرى لا يعلمه الا الله عز وجل وذلك الثور فاتح فاه فاذا جعل الله تعالى البحار بحرا واحدا سالت فى جوف ذلك الثور فاذا وقعت فى جوفه يبست وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة وورش بين اللفظين وكذا جميع رؤس آى السورة من ذوات الراء * ولما كانت القدرة تابعة للارادة وهى لا تنفك عن العلم عقب ذلك باحاطة علمه تعالى بجليات الامور وخفياتها على حد سواء فقال تعالى (وان تجهر بالقول) أى تعلن بالقول فى ذكر أو دعاء فالله تعالى غنى عن الجهر به (فانه يعلم السر وأخفى) قال الحسن فى السر ما أسر الرجل الى غيره وأخفى من ذلك ما أسر فى نفسه وعن ابن عباس السر ما تسر فى نفسك وأخفى من السر ما يلقيه الله تعالى فى قلبك من بعد ولا تعلم انك ستحدث به نفسك لانك تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غدا والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسر غدا وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس السر ما أسر ابن آدم فى نفسه وأخفى ما خفى عليه مما هو فاعله قبل أن يعلمه وقال مجاهد السر العمل الذى يسره من الناس وأخفى الوسوسة وقيل السر هو العزيمة وأخفى ما يخطر على القلب ولم يعزم عليه وقال زيد بن أسلم يعلم أسرار العباد وأخفى سره من عباده فلا يعلمه أحد * ولما ذكر صفاته وحد نفسه فقال تعالى (الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى) التسعة والتسعون الواردة بها الحديث والحسنى تأنيث الاحسن وفضل أسماء الله تعالى على سائر الاسماء فى الحسن لدلالتها على معان هى أشرف المعانى وأفضلها روى ان لله تعالى أربعة آلاف اسم ألف لا يعلمها الا هو وألف لا يعلمها الا الله والملائكة وألف لا يعلمها الا الله والملائكة والانبياء وأما الالف الرابعة فالمؤمنون يعلمونها فثلثمائة فى التوراة وثلثمائة فى الانجيل وثلثمائة فى الزبور ومائة فى القرآن تسعة وتسعون منها ظاهرة وواحد مكنون من أحصاها دخل الجنة وذكر فى لا اله الا الله فضائل كثيرة أذكر بعضها وأسأل الله تعالى أن يجعلنا ومحبينا من أهلها روى أنه صلى الله عليه وسلم قال أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء أستغفر الله ثم تلا رسول

الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وروى أنه
صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى خلق ملكا من الملائكة قبل أن يخلق السموات والارض
وهو يقول أشهد أن لا اله الا الله مادا بها صوته لا يقطعها ولا يتنفس فيها ولا يتمها فاذا أتمها أمر
اسرافيل بالنفخ فى الصور وقامت القيامة تعظيما لله وعن أنس قال صلى الله عليه وسلم مازلت
أشفع الى ربى ويشفعنى واشفع اليه ويشفعنى حتى قلت يارب شفعنى فيمن قال لا اله الا الله فقال
يامحمد ليست لك ولا لاحد وعزتى وجلالى لا أدع أحدا فى النار قال لا اله الا الله وقال سفيان
الثورى سألت جعفر بن محمد عن حم عسق فقال الحاء حلمه والميم ملكه والعين عظمته والسين
سناؤه والقاف قدرته يقول الله عزوجل بحلمى وملكى وعظمتى وسنائى وقدرتى لا أعذب بالنار
من قال لا اله الا الله محمد رسول الله وروى عن موسى عليه السلام أنه قال يارب علمنى شيأ
أذكرك به قال قل لا اله الا الله قال انما أردت شيأ تخصنى به قال ياموسى لو أن السموات السبع
ومن فوقهن فى كفة ولا اله الا الله فى كفة لمالت بهن لا اله الا الله وقال بعض المفسرين فى قوله
تعالى ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة انها لا اله الا الله اليه يصعد الكلم
الطيب لا اله الا الله وتواصوا بالحق لا اله الا الله قل انما أعظكم بواحدة لا اله الا الله وقفوهم
انهم مسؤلون عن قول لا اله الا الله بل جاء بالحق وصدق المرسلين هو لا اله الا الله يثبت الله الذين
آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة هو لا اله الا الله ويضل الله الظالمين عن قول
لا اله الا الله وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال فى السوق لا اله الا الله
وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت بيده الخير وهو على كل شئ قدير كتب الله له ألف
ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتا فى الجنة قال الرازى وفى النكت ينبغى لاهل
لا اله الا الله أن يخلصوا فى أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا اله الا الله التصديق والتعظيم
والحلاوة والحرمة فمن ليس له التصديق فهو منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له
الحلاوة فهو مراء ومن ليس له الحرمة فهو فاجر وكذاب * وحكى أن بشرا الحافى رأى كاغدا
فيه بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطيبه بالمسك فرأى فى النوم كأنه نودى يابشر طيبت اسمنا
فنحن نطيب اسمك فى الدنيا والآخرة * وذكر أن صيادا كان يصيد السمك وكانت ابنته تطرحها
فى الماء وتقول انما وقعت فى الشبكة لغفلتها الهنا تلك الصبية كانت ترحم غفلتها وكانت تلقيها
مرة أخرى فى البحر ونحن قد اصطادتنا وسوسة الشيطان وأخرجنا من بحر رحمتك فارحمنا
بفضلك وخلصنا منه والقنا فى بحار رحمتك مرة أخرى وعن محمد بن كعب القرظى قال قال
موسى الهى أى خلقك أكرم عليك قال الذى لا يزال لسانه رطبا من ذكرى قال فأى خلقك
أعظم قال الذى يلتمس الى علمه علم غيره قال فأى خلقك أعدل قال الذى يقضى على نفسه كما
يقضى على الناس قال وأى خلقك اعظم جرما قال الذى يتهمنى وهو الذى يسألنى ثم لا يرضى بما
قسمت له الهنا انا لا نتهمك فانا نعلم ان كل ما أحسنت به فهو فضل وكل ما لا تفعله فهو عدل فلا
تؤاخذنا بسوء أفعالنا وأعمالنا وعن الحسن اذا كان يوم القيامة نادى مناد سيعلم الجمع من

أولى بالكرم أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون فيتخطون رقاب الناس ثم يقال أين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ثم ينادي مناد أين الحامدون الله كثيرا على كل حال ثم يكون الحساب على من بقي الهنا نحن حمدنا لك وأثنينا عليك بعقد ارطاقتنا ومنتهى قدرتنا فاعف عنا بفضلك ورحمتك يا ارحم الراحمين * ولما عظم الله تعالى حال القرآن وحال رسوله صلى الله عليه وسلم بما كلفه أتبع ذلك بما يقوي قلب رسوله صلى الله عليه وسلم من ذكر أحوال الانبياء تقوية لقلبه في الابلاغ كقوله تعالى وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وبدأ بموسى عليه السلام لان فتنته كانت أعظم الفتن ليتسلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ويصبر على تحمل المكاره فقال تعالى (وهل أتاك حديث موسى) وهذا يحتمل لان يكون هذا أول ما أخبره من أمر موسى فقال وهل أتاك أي لم يأتك الى الآن فتنبه له وهذا قول الكلبي ويحتمل أن يكون قد أتاه ذلك في الزمان المتقدم فكأنه قال أليس قد أتاك وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس وهذا وان كان على لفظ الاستفهام الذي لا يجوز على الله تعالى لكن المقصود منه تقرير الخبر في نفسه وهذه الصورة أبلغ في ذلك كقولك لصاحبك هل بلغك عني كذا فيتطلع السامع الى معرفة ما يومئ اليه ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل موسى لا من قبل الله تعالى وقيل ان هل بمعنى قد وجرى على ذلك الجلال المحلي تبعا للبغوي وقوله تعالى (اذ رأى) يجوز أن يكون منصوبا بالحديث وهو الظاهر ويجوز أن ينصب باذكر مقدرا أي واذكر اذ رأى (نارا) وذلك أن موسى عليه السلام استأذن شعيبا عليه السلام في الرجوع من مدين الى مصر لزيارة والدته وأخيه فأذن له فخرج بأهله وماله وكانت أيام شتاء وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشأم وامرأته حامل في شهرها لا تدري ليلا تضع أو نهارا فسار في البرية غير عارف بطرقها فألجأه المسير الى جانب الطور الغربي الايمن في ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد قيل كانت ليلة جمعة وأخذت امرأته في الطلق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وجعل يقدح زنده فلا يوري فأبصر نارا من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور (فقال لاهله امكثوا) أي أقيموا في مكانكم والخطاب لامرأته وولدها والخادم ويجوز أن يكون للمرأة وحدها خرج على ظاهر لفظ الاهل فان الاهل يقع على الجمع وأيضا قد يخاطب الواحد بلفظ الجمع تفخيما وقرأ حمزة بضم الهاء في الوصل والباقون بالكسر (اني آنست) أي أبصرت (نارا) والايناس الابصار البين الذي لا شبهة فيه ومنه انسان العين لانه يتبين به الشيء والانس لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم وقيل ابصار ما يؤنس به ولما وجد منه الايناس وكان متيقنا حققه لهم بكلمة اني ليوطن أنفسهم * ولما كان الاتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بنى الامر فيهما على الرجاء والطمع فقال (لعلي آتيكم منها بقبس) أي شعلة في رأس فتيلة أو عود أو نحو ذلك وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء في اني واسكن الآتية والباقون بالسكون الا ابن عامر ففتح لعلي مع من ذكروهم على مراتبهم في المد (أو أجد على النار هدى) أي هاديا يدلني على الطريق ومعنى الاستعلاء في على النار أن أهل

النار يستعلون المكان القريب منها كما قال سيبويه فى مررت بزيد انه لصوق بمكان يقرب من زيد أو لان المصطلين بها اذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها وقال بعضهم النار أربعة أقسام نار تأكل ولا تشرب وهى نار الدنيا ونار تشرب ولا تأكل وهى التى فى الشجر الاخضر كما قال تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا ونار تأكل وتشرب وهى نار المعدة ونار لا تأكل ولا تشرب وهى نار موسى عليه السلام وقيل أيضا النار أربعة أحدها نار لها نور بلا حرقة وهى نار موسى عليه السلام ثانيها لها حرقة بلا نور وهى نار جهنم أعاذنا الله تعالى منها ثالثها لها الحرقة والنور وهى نار الدنيا رابعها لا حرقة ولا نور وهى نار الاشجار * (تنبيه) ان وصلت هدى بقلما فليس فيها الا التنوين للجميع وان وقف عليها فهم على أصولهم فى الفتح والامالة وبين اللفظين (فلما أتاها) أى النار قال ابن عباس رأى شجرة خضراء من أسفلها الى أعلاها أطافت بها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون فوقف متعجبا من شدة ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة يغير ضوء النار قال ابن مسعود كانت الشجرة سمرة خضراء وقال مقاتل وقتادة والكلبى كانت من العوسج وقال وهب كانت من العليق وقيل من العناب قال أكثر المفسرين ان الذى رآه موسى لم يكن نارا بل كان من نور الرب تعالى وهو قول ابن عباس وعكرمة وغيرهما ذكر بلفظ النار لان موسى عليه السلام حسبه نارا فلما دنا منها سمع تسبيح الملائكة ورأى نورا عظيما قال وهب ظن موسى أنها نار أوقدت فأخذ من دقاق الحطب وهو الحشيش اليابس ليقتبس من لهبها فمالت اليه كأنها تريده فتأخر عنها وهابها ثم لم تزل تطمعه و يطمع فيها ثم لم يكن بأسرع من خمودها كأنها لم تكن ثم رمى موسى ببصره الى فروعها فاذا خضرتها ساطعة فى السماء واذا نور بين السماء والارض له شعاع تكل عنه الابصار فلما رأى موسى عليه السلام ذلك وضع يديه على عينيه وألقيت عليه السكينة (نودى ياموسى انى أنا ربك) قال وهب نودى من الشجرة فقيل ياموسى فأجاب سريعا ولم يدر من دعاه فقال انى أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت فقال أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب اليك منك فعلم أن ذلك لا ينبغى الا لله تعالى فأيقن به وقيل انه سمع بكل أجزائه حتى ان كل جارحة منه كانت أذنا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الهمزة من انى على تقدير الباء أى بانى لان النداء يوصل بها تقول ناديته بكذا وأنشد الفارسى قول الشاعر

ناديت باسم ربيعة بن مكدم * ان المنوه باسمه الموثوق

وجوز ابن عطية أن تكون بمعنى لاجل وليس بظاهر والباقون بالكسر اما على اضمار القول كما هو رأى البصريين أى فقيل واما لان النداء فى معنى القول عند الكوفيين وقوله تعالى أنا يجوز أن يكون مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر ان و يجوز أن يكون توكيدا للضمير المنصوب و يجوز أن يكون فصلا وروى ابن مسعود مرفوعا فى قوله تعالى (فاخلع نعليك) انهما كانتا من جلد حمار ميت ويروى غير مدبوغ فأمر بخلعهما صيانة للوادى المقدس وقال عكرمة ومجاهد انما أمر بذلك ليباشر بقدميه تراب الارض المقدسة فيناله بركتها ويدل لذلك انه قال

تعالى

تعالى عقبه (انك بالوادى المقدس) أى المطهر أو المبارك فخلعهما وألقاهما من وراء الوادى
هذا ما قاله أهل التفسير وذكر أهل الاشارة فى ذلك وجوها أحدها أن النعل فى النوم يعبر
بالزوجة وقوله فاخلع نعليك اشارة الى أنه لا يلتفت بخاطره الى الزوجة والولد وأن لا يبقى
مشغول القلب بأمرهما ثانيها المراد بخلع النعلين ترك الالتفات الى الدنيا والآخرة كأنه
أمره أن يصير مستغرق القلب بالكلية فى معرفة الله تعالى فلا يلتفت الى المخلوقات ثالثها ان
الانسان حال الاستدلال على وجود الصانع لا يمكنه أن يتوصل اليه الا بمقدمتين مثل أن يقول
العالم المحسوس محدث وكل ما كان كذلك فله مؤثر ومدبر وصانع فهاتان المقدمتان شبيهتان
بالنعلين لان بهما يتوصل العقل الى المقصود وينتقل من النظر فى الخلق الى معرفة الخالق
ثم بعد الوصول الى معرفة الخالق وجب أن لا يبقى ملتفتا الى تلك المقدمتين فكأنه قيل لا تكن
مشتغل الخاطر بتلك المقدمتين فانك وصلت الى الوادى المقدس الذى هو بحر معرفة الله تعالى
وقوله تعالى (طوى) بدل أو عطف بيان وقرأه هنا وفى النازعات نافع وابن كثير وأبو عمرو بغير
تنوين فهو ممنوع من الصرف باعتبار البقعة مع العلمية وقيل لانه معدول عن طاو فهو مثل عمر
للعدل عن عامر وقيل انه اسم أعجمى ففيه العلمية والعجمة والباقون بالتنوين فهو مصروف باعتبار
المكان ففيه العلمية فقط وعند هؤلاء ليس بأعجمى وقوله تعالى (وأنا اخترتك) أى اصطفيتك
للرسالة من قومك قرأ حمزة بتشديد النون من أنا وقرأ اخترناك بنون بعدها ألف بلفظ الجمع
والباقون بتاء مضمومة وقوله تعالى (فاستمع لما يوحى) أى اليك منى فيه نهاية الهيبة والجلالة كأنه
تعالى قال لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفا اليه وفى قوله تعالى
وأنا اخترتك نهاية اللطف والرحمة فيحصل له من الاول نهاية الرجاء ومن الثانى نهاية الخوف
(تنبيه) يجوز فى لام لما أن تتعلق فاستمع وهو أولى وأن تكون مزيدة فى المفعول على حد
قوله تعالى ردف لكم وجوز الزمخشرى أن يكون ذلك من باب التنازع ونازعه أبو حيان بأنه
لو كان كذلك لاعاد الضمير مع الثانى فكان يقول فاستمع له لما يوحى وأجيب عنه بأن مراده
التعلق المعنوى من حيث الصلاحية وأما التقدير الصناعة فلم يعنه وقوله تعالى (انى أنا الله
لا اله الا أنا فاعبدنى) بدل مما يوحى دال على أنه مقصور على تقرير التوحيد الذى هو منتهى
العلم والامر بالعبادة التى هى كمال العمل وفى هذه الآية دلالة على ان علم أصول الدين مقدم
على علم الفروع وأيضا فالفاء فى قوله تعالى فاعبدنى تدل على أن عبادته انما لزمت لالهيته
لان التوحيد من علم الاصول والعبادة من علم الفروع وخص الصلاة بالذكر وأفردها فى قوله
تعالى (وأقم الصلاة لذكرى) للعلة التى أناط بها اقامتها وهو تذكر المعبود وشغل القلب
واللسان بذكره وقيل لذكرى لانى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها وقيل لاوقات ذكرى وهى
مواقيت الصلاة أو لذكر صلاتى لما روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال من نام عن صلاة
أو نسيها فليقضها اذا ذكرها ان الله يقول وأقم الصلاة لذكرى وقيل لان أذكرك بالثناء والمدح
واجعل لك لسان صدق عليا وقيل لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى * ولما خاطبه

تعالى موسى عليه السلام بقوله تعالى فاعبدني وأقم الصلاة لذكري أتبعه بقوله تعالى (ان الساعة آتية) أي كائنة (أكاد أخفيها) قال أكثر المفسرين معناه أكاد أخفيها من نفسي فكيف يعلمها غيري من الخلق وكيف أظهرها لكم ذكر تعالى على عادة العرب اذا بالغوا في كتمان الشيء يقول الرجل كتمت سري من نفسي أي أخفيته غاية الاخفاء والله تعالى لا يخفى عليه شيء والمعنى في اخفائها التهويل والتخويف لانهم اذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت وكذلك المعنى في اخفاء وقت الموت لان الله تعالى وعد قبول التوبة فاذا عرف وقت موته وانقضاء أجله اشتغل بالمعاصي الى أن يقرب ذلك الوقت فيتوب ويصلح العمل فيتخلص من عقاب المعاصي بتعريف وقت موته فتعريف وقت الموت كالاغراء بفعل المعصية فاذا لم يعلم وقت موته لا يزال على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصي أو يتوب منها في كل وقت خوف معاجلة الاجل وقال أبو مسلم أكاد بمعنى أريد وهو كقوله تعالى كذلك كدنا ليوسف ومن أمثالهم المتداولة لا أفعل ذلك ولا أكاد أي لا أريد أن أفعله وقال الحسن ان أكاد من الله واجب فمعنى قوله تعالى أكاد أخفيها أي أنا أخفيها عن الخلق كقوله تعالى عسى أن يكون قريبا أي هو قريب وقيل أكاد صلة في الكلام والمعنى أن الساعة آتية أخفيها قال زيد الخيل

سريع الى الهيجاء شاك سلاحه * فما ان يكاد قرنه يتنفس

أي فما ان يتنفس قرنه وقوله تعالى (لتجزى كل نفس بما تسعى) أي تعمل من خير أو شر متعلق بآتية واختلف في المخاطب بقوله تعالى (فلا يصدنك) أي يصرفنك (عنها من لا يؤمن بها) فقيل وهو الاقرب كما قاله الرازي انه موسى عليه السلام لان الكلام أجمع خطاب له وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم واختلف أيضا في عود هذين الضميرين على وجهين أحدهما قال أبو مسلم لا يصدنك عنها أي عن الصلاة التي أمرتك بها من لا يؤمن بها أي بالساعة فالضمير الاول عائد الى الصلاة والثاني الى الساعة ومثل هذا جائز في اللغة فالعرب تلف الخبرين ثم ترمي بجوابهما جملة ليرد السامع الى كل خبر حقه ثانيهما قال ابن عباس فلا يصدنك عن الساعة أي عن الايمان بها من لا يؤمن بها فالضميران عائدان الى يوم القيامة وهذا أولى لان الضمير يعود الى أقرب المذكورات وههنا الاقرب هو الساعة وما قاله أبو مسلم انما يصار اليه عند الضرورة ولا ضرورة ههنا *(تنبيه)* المقصود من ذلك نهي موسى عليه السلام عن التكذيب بالبعث ولكن ظاهر اللفظ يقتضي نهي من لم يؤمن عن صد موسى وفيه وجهان أحدهما أن صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على حمله على المسبب الثاني أن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين فذكر المسبب ليدل على السبب كقولهم لا أرينك ههنا المراد نهي المخاطب عن حضوره لا أن يراه هو فالرؤية مسببة عن الحضور كما أن صد الكافر مسبب عن الرخاوة والضعف في الدين فقيل لا تكن رخوا بل كن شديدا صلبا حتى لا يلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه (واتبع هواه) أي ميل نفسه الى اللذات المحبوبة المخدجة لقصر نظره عن غيرها وخالف أمر الله (فتردى) أي فتهلك ان انصددت عنها وما في قوله

تعالى (وما تلك بيمينك) مبتدأ استفهامية وتلك خبره وبيمينك حال من معنى الاشارة وقوله تعالى (ياموسى) تكرير لانه ذكره قبل فى قوله تعالى نودى ياموسى وبعد فى مواضع كالقها ياموسى لزيادة الاستئناس والتنبيه (فان قيل) السؤال انما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة فى ذلك (أجيب) بأن فى ذلك فوائد الاولى توقيفه على انها عصا حتى اذا قلبها حية علم انها معجزة عظيمة وهذا على عادة العرب يقول الرجل لغيره هل تعرف هذا وهو لا يشك أنه يعرفه ويريد أن يضم اقراره بلسانه الى معرفته بقلبه الثانية ان يقرر عنده انها خشبة حتى اذا قلبها ثعبانا لا يخافها الثالثة انه تعالى لما أراه تلك الانوار المتصاعدة من الشجرة الى السماء وأسمعه كلام نفسه ثم أورد عليه التكاليف الشاق وذكر له المعاد وختم ذلك بالتهديد العظيم فتحير موسى عليه السلام ودهش فقيل له وما تلك بيمينك ياموسى وتكلم معه بكلام البشر ازالة لتلك الدهشة والحيرة (فان قيل) هذا خطاب من الله تعالى لموسى بلا واسطة ولم يحصل ذلك لمحمد صلى الله عليهما وسلم (أجيب) بالمنع فقد خاطبه فى قوله تعالى فأوحى الى عبده ما أوحى الا أن الذى ذكر مع موسى عليه السلام أفشاه الى الخلق والذى ذكر مع محمد صلى الله عليه وسلم كان سرا لم يؤهل له أحد من الخلق وأيضا ان كان موسى تكلم معه فأمة محمد يخاطبون الله تعالى فى كل يوم مرارا على ما قاله صلى الله عليه وسلم المصلى يناجى ربه والرب يتكلم مع آحاد أمة محمد يوم القيامة بالتسليم والتكريم لقوله تعالى سلام قولا من رب رحيم * (تنبيه) * قوله تعالى وما تلك اشارة الى العصا وقوله تعالى بيمينك اشارة الى اليد وفى هذا نكت ذكرها الرازى رحمه الله تعالى الاولى أنه تعالى لما أشار اليهما جعل كل واحدة منهما معجزة قاهرة وبرهانا ساطعا ونقله من حد الجمادية الى مقام الكرامة فاذا صار الجماد بالنظر الواحد حيوانا وصار الجسم الكثيف نورانيا لطيفا ثم انه تعالى ينظر كل يوم ثلثمائة وستين مرة الى قلب العبد فأى عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان الى السعادة بالطاعة ونور المعرفة ثانيها ان بالنظر الاول الواحد صار الجماد ثعبانا فبلع سحر السحرة فأى عجب لو صار القلب ثعبانا فبلع سحر النفس الامارة بالسوء ثالثها ان العصا كانت فى يمين موسى عليه السلام فبسبب بركته انقلبت ثعبانا وبرهانا وقلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن فاذا حصلت ليد موسى عليه السلام هذه المنزلة فأى عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب اصبعى الرحمن من ظلمة المعصية الى نور العبودية * ولما سأل تعالى موسى عليه السلام عن ذلك أجاب بأربعة أشياء ثلاثة على التفصيل وواحد على الاجمال أولها (قال هى عصاى) وقد تم الجواب بذلك الا أنه عليه السلام ذكر الوجوه الاخر لانه كان يحب المكالمة مع ربه فجعل ذلك كالوسيلة الى تحصيل هذا الغرض ثانيها قوله (أتوكأ) أى أعتمد (عليها) اذا مشيت واذا عييت واذا وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة ثالثها قوله (وأهش) أى أخبط ورق الشجر (بها) ليسقط (على غنمى) لتأكله فبدأ عليه السلام أولا بمصالح نفسه فى قوله أتوكأ عليها ثم بمصالح رعيته فى قوله أهش بها على غنمى وكذلك فى القيامة يقول نفسى نفسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل فى

الدنيا الا باصلاح أمر الأمة وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون فلا جرم يوم القيامة يبدأ أيضا بأمته فيقول أمتى أمتى رابعها قوله (ولى فيها مآرب) جمع مأربة بتثلث الراء حوائج ومنافع (أخرى) كحمل الزاد والسقى وطرد الهوام وانما أجمل فى المآرب رجاء أن يسأله ربه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله تعالى مرة أخرى ويطول أمر المكالمة بسبب ذلك وقيل انقطع لسانه بالهيبة فأجمل وقيل اسم العصا نبعة وقيل فى المآرب كانت ذات شعبتين ومحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا طلب كسره لواه بالشعبتين واذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها اداوته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها واذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل والزندين بفتح الزاى تثنية زند وزندة والزند العود الاعلى الذى تقدح به النار والزندة السفلى فيها ثقب فاذا اجتمعا قيل زندان ولم تقل زندتان واذا قصر رشاؤه وصله بها وكان يقاتل بها السباع عن غنمه وقيل كان فيها من المعجزات أنه كان يستقى بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا ويكونان شمعتين بالليل واذا ظهر عدو حاربت عنه واذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه ويركزها فينبع الماء فاذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام وروى عن ابن عباس أنها كانت تماشيه وتحدثه ولماذكر موسى هذه الجوابات لربه (قال) له (ألقها) أى انبذها (ياموسى فألقاها فاذاهى حية) أى ثعبان عظيم (تسعى) أى تمشى على بطنها سريعا وهنا نكتة خفية احداها أنه عليه السلام لما قال ولى فيها مآرب أخرى أراد الله تعالى أن يعرفه ان فيها مآرب لا يفطن لها ولا يعرفها وانها أعظم من سائرها وأربى ثانيها كان فى رجله شئ وهو النعل وفى يده شئ وهو العصا فالرجل آلة الهرب واليد آلة الطلب فقال أولا فاخلع نعليك اشارة الى ترك الهرب ثم قال ألقها وهو اشارة الى ترك الطلب كأنه تعالى قال انك مادمت فى مقام الهرب والطلب كنت مشتغلا بنفسك طالبا لحظك فلا تكن خالصا لمعرفتى فكن تاركا للهرب والطلب تكن خالصا لى ثالثها أن موسى عليه السلام مع علو درجته وكمال صفته لما وصل الى الحضرة ولم يكن معه الا النعلان والعصا أمره بالقائها حتى أمكنه الوصول الى الحضرة فأنت فى ألف وقر من المعاصى فكيف يمكنك الوصول الى جنابه (فان قيل) كيف قال هنا حية وفى موضع آخر جان وهى الحية الخفيفة الصغيرة وقال فى موضع آخر ثعبان وهو أكبر ما يكون من الحيات (أجيب) بأن الحية اسم جنس يقع على الذكر والانثى والصغير والكبير وأما الثعبان والجان فبينهما تناف لان الثعبان العظيم من الحيات كما مر والجان الدقيق وفى ذلك وجهان أحدهما انها كانت وقت انقلابها حية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جلدها حتى صارت ثعبانا فأريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها الثانى أنها كانت فى شخص الثعبان وسرعة حركة الجان لقوله تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان قال وهب لما ألقى العصا على وجه الارض نظر اليها فاذا هى حية تسعى صفراء من أعظم ما يكون من الحيات تمشى بسرعة لها عرف كعرف الفرس وكان بين لحييها أربعون ذراعا صارت شعبتاها شدقين لها والمحجن عنقا وعرفا تهتز وعيناها تتقدان

كالناو غير بالحضرة العظيمة مثل الخلفة من الابل فتلتقمها وتقصف الشجرة العظيمة بأنيابها ويسمع لانيابها صرير يقعا عظيما فلما عاين ذلك موسى ولى مدبرا وهرب ثم نودي ياموسى ارجع حيث كنت فرجع وهو شديد الخوف (قال) تعالى له (خذها) أي بيمينك (ولا تخف) وكان على موسى مدرعة من صوف قد خلها بعيدان فلما قال تعالى له خذها لف طرف المدرعة على يده فأمره الله أن يكشف يده وذكر بعضهم أنه لما لف كم المدرعة على يده قال له الملك أرأيت ان أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيأ قال لا ولكنني ضعيف ومن ضعف خلقت وكشف عن يده ثم وضعها في فم الحية فاذا هي عصا كما كانت ويده في شعبتيها في الموضع الذي كان يضعها اذا توكأ عليها كما قال تعالى (سنعيدها سيرتها الاولى) وقد أظهر الله تعالى في هذه العصا معجزات لموسى عليه السلام منها انقلاب العصا حية ومنها وضع يده في فمها من غير ضرر ومنها انقلابها خشبة مع الامارات التي تقدمت * (تنبيه) * في نصب سيرتها أوجه أحدها أن تكون منصوبة على الظرف أي في سيرتها أي طريقتها ثانيها على البدل من ها سنعيدها بدل اشتمال لان السيرة الصفة أي سنعيدها صفتها وشكلها ثالثها على اسقاط الخافض أي الى سيرتها وقيل غير ذلك (فان قيل) لما نودي ياموسى وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم أنه مبعوث من عند الله تعالى الى الخلق فلماذا خاف (أجيب) عن ذلك بأوجه أحدها أن ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لانه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط وهذا معلوم بدلائل العقول ثانيها انما خافها لانه عليه السلام عرف مالقي آدم عليه السلام منها ثالثها أن مجرد قوله ولا تخف لا يدل على حصول الخوف كقوله تعالى ولا تطع الكافرين لا يدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا يدل عليه ولكن ذلك الخوف انما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم فانه ما أظهر الرغبة في الجنة ولا النفرة عن النار وقوله تعالى (واضمم يدك) أي اليمنى (الى جناحك) أي جنبك الايسر تحت العضد في الابط (تخرج بيضاء) أي نيرة مشرقة تضيء كشعاع الشمس تعشي البصر لابد فيه من حذف والتقدير واضمم يدك تنضم وأخرجها تخرج فحذف من الاول والثاني وأبقى مقابليهما ليدلا على ذلك ايجازا واختصارا وانما احتيج الى هذا لانه لا يترتب على مجرد الضم الخروج وبيضاء حال من فاعل تخرج وقوله تعالى (من غير سوء) متعلق بتخرج وروى عن ابن عباس الى جناحك الى صدرك والاول أولى كما قال الرازي لانه يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحي العسكر لطرفيه وجناحا الانسان جانباه والاصل المستعار منه جناحا الطائر سميا بذلك لانه يجنحهما أي يميلهما عند الطيران وجناحا الانسان عضداه فعضداه يشبهان جناحي الطير ولانه قال تخرج بيضاء ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله تخرج معنى والسوء الرداءة والقبح في كل شئ فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة والبرص أبغض شئ الى العرب ولهم عنه نفرة عظيمة واسماعهم لاسمه مجاجة فكان جديرا بأن يكنى عنه ولا ترى أحسن ولا أظرف ولا أخف للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه يروى أن موسى عليه السلام كان شديد الادمة فكان اذا أدخل يده اليمنى

فى جيبه فأدخلها فى ابطه الايسر وأخرجها فكانت تبرق مثل البرق وقيل مثل الشمس من غير مرض ثم اذا ردها عادت الى لونها الاول من غير نور وقوله تعالى (آية أخرى) أى معجزة ثانية حال من ضمير تخرج كبيضاء وقوله تعالى (لنريك) متعلق بما دل عليه آية أى دللنا بها لنريك وقوله تعالى (من آياتنا الكبرى) أى العظمى على رسالتك متعلق بمحذوف على أنه حال من الكبرى والكبرى مفعول ثان لنريك والتقدير لنريك الكبرى حال كونها من آياتنا اى بعض آياتنا واختلف أى الآيتين أعظم فى الاعجاز فقال الحسن اليد لانه تعالى قال لنريك من آياتنا الكبرى والذى عليه الاكثر أن العصا أعظم اذ ليس فى اليد الا تغير اللون وأما العصا ففيها تغير اللون وخلق الزيادة فى الجسم وخلق الحياة والقدرة والاعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر ثم اعادتها عصا بعد ذلك فقد وقع التغير فى كل هذه الامور فكانت العصا أعظم وأما قوله تعالى لنريك من آياتنا الكبرى فقد ثبت انه عائد الى الكلام وانه غير مختص باليد (فان قيل) لم لم يقل تعالى من آياتنا الكبر (أجيب) بأن ذلك ذكر لرؤس الآى وقيل فيه اضمار معناه لنريك من آياتنا الآية الكبرى وهذا التقدير يقوى قول القائل بأن اليد أعظم آية * ولما أظهر سبحانه وتعالى لموسى هذه الآيات عقبها بأمره بالذهاب الى فرعون بقوله تعالى (اذهب) أى رسولا (الى فرعون) وبين تعالى العلة فى ذلك بقوله تعالى (انه طغى) أى جاوز الحد فى كفره الى أن ادعى الالهية ولهذا خصه الله تعالى بالذكر مع أنه عليه السلام مبعوث الى الكل قال وهب قال الله تعالى لموسى عليه السلام اسمع كلامى واحفظ وصيتى وانطلق برسالتى فانك بعينى وسمعى وان معك يدى ونصرى وانى ألبسك جبة من سلطانى تستكمل بها القوة فى أمرك أبعثك الى خلق ضعيف من خلقى بطر نعمتى وأمن مكرى وغرته الدنيا حتى جحد حقى وأنكر ربوبيتى أقسم بعزتى لولا الحجة التى وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار ولكن هان على وسقط من عينى فبلغه رسالتى وادعه الى عبادتى وحذره نقمتى وقل له قولا لينا لا يغتر بلباس الدنيا فان ناصيته بيدى لا يطرف ولا يتنفس الا بعلمى فى كلام طويل قال فسكت موسى عليه السلام سبعة أيام لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال أجب ربك فيما أمرك فعند ذلك (قال رب اشرح لى صدرى) أى وسعه لتحمل الرسالة قال ابن عباس يريد حتى لا أخاف غيرك والسبب فى هذا السؤال ما حكى الله تعالى عنه فى موضع آخر بقوله قال رب انى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى وذلك أن موسى عليه السلام كان يخاف فرعون اللعين خوفا شديدا لشدة شوكته وكثرة جنوده وكان يضيق صدرا بما كلف من مقاومة فرعون وحده فسأل الله تعالى أن يوسع قلبه حتى يعلم ان أحدا لا يقدر على مضرته الا باذن الله تعالى واذا علم ذلك لم يخف فرعون وشدة شوكته وكثرة جنوده وقيل اشرح لى صدرى بالفهم عنك ما أنزلت على من الوحى (ويسر) أى سهل (لى أمرى) أى ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة الى فرعون وذلك لان كل ما يصدر من العبد من الافعال والاقوال والحركات والسكنات فالله تعالى هو الميسر له (فان قيل) قوله لى فى اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ما جدواه والامر مستتب بدونه (أجيب) بأنه

قد أبهم الكلام أولا فقال اشرح لى و يسر لى فعلم ان ثم مشرحا وميسرا ثم بين ورفع الابهام بذكرهما فكان آكد لطلب الشرح لصدره والتيسير لامره من أن يقول اشرح صدرى ويسر امرى على الايضاح الساذج لانه تكرير للمعنى الواحد من طريق الاجمال والتفصيل (واحلل عقدة من لسانى) قال ابن عباس كان فى لسانه عليه السلام رتة وذلك أن موسى عليه السلام كان فى حجر فرعون ذات يوم فى صغره فلطم فرعون لطمة وأخذ بلحيته فقال فرعون لآسية امرأته ان هذا عدوى وأراد أن يقتله فقالت له آسية انه صبى لا يعقل ولا يميز وفى رواية ان أم موسى لما فطمته ردته الى فرعون فنشأ موسى فى حجر فرعون وامرأته يربيانه واتخذاه ولدا فبينما هو ذات يوم يلعب بين يدى فرعون وبيده قضيب يلعب به اذ رفع القضيب فضرب به رأس فرعون فغضب فرعون وتطير بضربه وهم بقتله فقالت آسية أيها الملك انه صغير لا يعقل جربه ان شئت فجاءت بطشتين فى أحدهما جمر وفى الآخر جوهر فاراد أن يأخذ الجوهر فأخذ جبريل بيد موسى عليه السلام فوضعها على النار فأخذ جمرة فوضعها فى فيه فاحترق لسانه وصارت عليه عقدة وقيل قربا اليه تمرة وجمرة فأخذ الجمرة فجعلها فى فيه فاحترق لسانه وروى أن يده احترقت وان فرعون اجتهد فى علاجها فلم تبرأ ولما دعاه قال الى أى رب تدعونى قال الى الذى أبرأ يدى وقد عجزت عنها وعن بعضهم انها لم تبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون فى قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المؤاكلة وقيل كان ذلك التعقد خلقة فسأل الله تعالى ازالته واختلفوا فى أنه لم طلب حل تلك العقدة فقيل لئلا يقع خلل فى أداء الوحى وقيل لئلا يستخف بكلامه فينفروا عنه ولا يلتفتوا اليه وقيل لاظهار المعجزة كما أن حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزا فى حقه فكذا اطلاق لسان موسى معجز فى حقه واختلفوا فى زوال العقدة بكمالها فقيل بقى بعضها لقوله وأخى هرون هو أفصح منى لسانا وقول فرعون ولا يكاد يبين وكان فى لسان الحسين ابن على رضى الله تعالى عنهما رتة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثها من عمه موسى وقال الحسن زالت بالكلية لقوله تعالى قد أوتيت سؤلك يا موسى وضعف هذا الرازى بأنه عليه السلام لم يقل واحلل العقد من لسانى بل قال واحلل عقدة من لسانى فاذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله قال والحق أنه انحل أكثر العقد وبقى متهاش وقال الزمخشرى وفى تنكير العقدة ولم يقل واحلل عقدة لسانى انه طلب حل بعضها ارادة أن يفهم عنه فهما جيدا أى ولذا قال (يفقهوا) أى يفهموا (قولى) عند تبليغ الرسالة ولم يطلب الفصاحة الكاملة ومن لسانى صفة للعقدة كأنه قيل عقدة من عقد لسانى * (تنبيه) * استدل على أن فى النطق فضيلة عظيمة بوجوه أولها قوله تعالى خلق الانسان علمه البيان فماهية الانسان هى الحيوان الناطق ثانيها اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان قال زهير

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وقالوا ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مرسلة أى لو ذهب النطق اللسانى لم يبق من الانسان الا القدر الحاصل فى البهائم وقالوا المرء بأصغريه قلبه ولسانه وقالوا المرء مخبوء تحت لسانه

ثالثها ان فى مناظرة آدم عليه السلام مع الملائكة ماظهرت الفضيلة الا بالنطق حيث قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض * ولما رأى موسى عليه السلام أن التعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة قربة عظيمة فى الدعاء الى الله تعالى طلب المعاونة على ذلك بقوله (واجعل لى وزيرا) أى معينا على الرسالة ولذلك قال عيسى بن مريم عليه السلام من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله وقال محمد صلى الله عليه وسلم ان لى فى السماء وزيرين وفى الارض وزيرين فالذان فى السماء جبريل وميكائيل واللذان فى الارض أبو بكر وعمر وقال صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله تعالى بالملك خيرا قيض له وزيرا صالحا ان نسى ذكره وان نوى خيرا أعانه وان أراد شرا كفه وقال أنوشروان لايستغنى أجود السيوف عن الصقل ولا أكرم الدواب عن السوط ولا أعلم الملوك عن الوزير * ولما كان التعاون على الدين منقبة عظيمة أراد أن لاتحصل هذه الدرجة الا لاهله فقال (من أهلى) أى أقاربى وقوله (هرون) قال الجلال المحلى مفعول ثان وقوله (أخى) عطف بيان وذكر غيره أعاريب غير ذلك لاحاجة لنا بذكرها * (تنبيه) * الوزير مشتق من الوزر لانه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه أو من الوزر لان الملك يعتصم برأيه ويلجئ اليه أموره أو من الموازرة وهى المعاونة قال الرازى وكان هرون مخصوصا بأمور منها الفصاحة لقول موسى هو أفصح منى لسانا ومنها الرفق لقول هرون يا ابن أم لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى ومنها أنه كان أكبر سنا منه وقال ابن عادل كان أكبر سنا من موسى بأربع سنين وكان أفصح لسانا منه وأجمل وأوسم ابيض اللون وكان موسى آدم اللون أقنى جعدا * ولما طلب موسى عليه السلام من الله تعالى أن يجعل هرون وزيرا له طلب منه أن يشد أزره بقوله (أشدد به أزرى) أى أقوى به ظهرى (وأشركه فى أمرى) أى فى النبوة والرسالة وقرأ ابن عامر بسكون الياء من أخى وهمزة مفتوحة من أشدد وهو على مرتبته فى المد وهمزة مضمومة من أشركه وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من أخى وهمزة وصل من اشدد وأشركه بهمزة مفتوحة والباقون بسكون الياء من أخى وهمزة وصل من اشدد وفتح الهمزة من أشركه ثم انه تعالى حكى عنه ما لاجله دعا بهذا الدعاء فقال (كى نسبحك) تسبيحا (كثيرا) قال الكلبى نصلى لك كثيرا ونحمدك ونثنى عليك والتسبيح تنزيه الله تعالى فى ذاته وصفاته عما لايليق به (ونذكرك) ذكرا (كثيرا) أى نصفك بصفات الكمال والجلال والكبرياء وجوز أبو البقاء أن يكون كثيرا نعتا لزمان محذوف أى زمانا كثيرا (انك كنت بنا بصيرا) أى عالما بأنا لانريد بهذه الطاعات الا وجهك ورضاك أو بصيرا بأن الاستعانة بهذه الاشياء لاجل حاجتى فى النبوة اليها أو بصيرا بوجوه مصالحنا فأعطنا ماهو الاصلح لنا * ولما سأل موسى عليه السلام ربه تلك الامور المتقدمة وكان من المعلوم أن قيامه بما كلف به لايتم الا باجابته اليها لاجرم (قال) الله تعالى (قد أوتيت سؤلك ياموسى) أى أعطيت جميع ماسألتنا عليك لما فيه من وجوه المصالح (ولقد مننا عليك مرة أخرى) أى أنعمنا عليك فى وقت آخر وفى ذلك تنبيه على أمور أحدها كأنه تعالى قال انى

واعيت مصلحتك قبل سؤالك فكيف لاأعطيك مرادك بعد السؤال ثانيها انى كنت ربيتك فلومنعتك الآن كان ذلك رداً بعد القبول واساءة بعد الاحسان فكيف يليق بكرمى ثالثها انا أعطيناك فى الازمنة السالفة كل ما احتجت اليه ورقيناك الدرجة العالية وهى منصب النبوة فكيف يليق بمثل هذه التربية المنع عن المطلوب (فان قيل) لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع أن هذه اللفظة مؤذية والمقام مقام تلطف (أجيب) بأنه انما ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام أن هذه النعم التى وصل اليها ما كان مستحقاً لشئ منها بل انما خصه الله تعالى بها لمحض فضله واحسانه (فان قيل) لم قال مرة أخرى مع أنه تعالى ذكر مننا كثيرة (أجيب) بأنه لم يعن بمرة أخرى واحدة من المنن لان ذلك قد يقال فى القليل والكثير ثم بين تلك المنة وهى ثمانية أولها قوله تعالى (اذ أوحينا الى أمك) وحيا لا على وجه النبوة اذ المرأة لاتصلح للقضاء ولا للامامة ولا تلى عند اكثر العلماء تزويج نفسها فكيف تصلح للنبوة ويدل على ذلك قوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا يوحى اليهم والوحى جاء لا بمعنى النبوة فى القرآن كثيرا قال تعالى وأوحى ربك الى النحل واذ أوحيت الى الحواريين ثم اختلفوا فى المراد بهذا الوحى على وجوه أحدها أنه رؤيا رأتها أم موسى وكان تأويلها وضع موسى فى التابوت وقذفه فى البحر وأن الله تعالى يرده عليها ثانيها انه عزيمة جازمة وقعت فى قلبها دفعة واحدة ثالثها المراد خطور البال وغلبته على القلب (فان قيل) هذه الوجوه الثلاثة يعترض عليها بأن الالقاء فى البحر قريب من الاهلاك وهو مساو للخوف الحاصل من القتل المعتاد من فرعون فكيف يجوز الاقدام على أحدهما لاجل الصيانة عن الثانى (أجيب) بأنها لعلها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها فكان الالقاء فى البحر الى السلامة أغلب على ظنها من وقوع الولد فى يد فرعون رابعها لعله أوحى الى بعض الانبياء فى ذلك الزمان كشعيب عليه السلام أو غيره ثم ان ذلك النبى عرفها اما مشافهة أو مراسلة واعترض على هذا بأن الامر لو كان كذلك لما لحقها الخوف (وأجيب) بأن ذلك الخوف كان من لوازم البشرية كما أن موسى عليه السلام كان يخاف فرعون مع أن الله تعالى كان أمره بالذهاب اليه مرارا خامسها لعل بعض الانبياء المتقدمين كابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام أخبروا بذلك الخبر وانتهى ذلك الخبر الى امه سادسها لعل الله تعالى بعث اليها ملكا لا على وجه النبوة كما بعث الى مريم فى قوله فتمثل لها بشرا سويا وأما قوله تعالى (ما يوحى) فمعناه مالا يعلم الا بالوحى أو ما ينبغى أن يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام ويبدل منه (ان اقذفيه) أى ألقيه (فى التابوت) أى ألهمناها أن اجعليه فى التابوت (فاقذفيه) أى موسى بالتابوت (فى اليم) أى نهر النيل (فليلقه اليم بالساحل) أى شاطئه والامر بمعنى الخبر والضمائر كلها لموسى فالمقذوف فى البحر والملقى الى الساحل هو موسى فى جوف التابوت حتى لاتفرق الضمائر فيتنافر النظم الذى هو أم اعجاز القرآن والقانون الذى وقع عليه التحدى ومراعاته أهم ما يجب على المفسر * (تنبيه) * اليم البحر والمراد به هنا نيل مصر فى قول الجميع واليم اسم يقع على النهر والبحر العظيم قال الكسائى والساحل فاعل بمعنى مفعول سمى بذلك

لانّ الماء يسحله أى يصيره اذا علاه وقوله تعالى (يأخذه عدوّلى وعدوّله) أى فرعون جواب فليلقه وتكرير عدوّ للمبالغة أولانّ الاوّل باعتبار الواقع والثانى باعتبار المتوقع أى سيصير عدوّاله بعد ذلك فانه لم يكن فى ذلك الوقت بحيث يعادى روى أنها اتخذت تابوتا قال مقاتل انّ الذى صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون وجعلت فى التابوت قطنا محلوجا فوضعته فيه وجصصته وقيّرته ثم ألقته فى اليم وكان يشرع منه الى بستان فرعون نهر كبير فبينما هو جالس على رأس بركة مع آسية بنت مزاحم اذا بتابوت يجرى به الماء فأمر فرعون الغلمان والجوارى باخراجه فأخرجوه وفتحوا رأسه فاذا صبى أصبح الناس وجها فأحبه عدوّ الله حبا شديدا لا يتمالك أن يصبر عنه كما قال تعالى (وألقيت عليك محبة منى) وهذه هى المنة الثانية قال الزمخشرى منى لا يخلو اما أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى على أنى أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب واما أن يتعلق بمحذوف وهو صفة لمحبة أى محبة خالصة أو واقعة منى قد ركزتها أنا فى القلوب وزرعتها فيها فلذلك أحبك فرعون وآسية حتى قالت قرّة عين لى ولك لا تقتلوه روى أنه كان على وجهه مسحة جمال وفى عينيه ملاحة لا يكاد يصبر عنه من رآه وهو كقوله تعالى سيجعل لهم الرحمن ودّا المنة الثالثة قوله تعالى (ولتصنع على عينى) أى تربى على رعايتى وحفظى لك فأنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشئ بعينه اذا اعتنى به ويقول للصانع اصنع هذا على عينى أنظر اليك اثلا تخالف به عن مرادى وبغيتى * (تنبيه) * ولتصنع معطوف على علة مضمرة مثل ليتلطف بك ولتصنع أو على الجملة السابقة باضمار فعل معلل مثل فعلت ذلك وقرأ بفتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون المنة الرابعة قوله تعالى (اذ تمشى أختك) والعامل فى اذ ألقيت أو تصنع ويجوز أن يكون بدلا من اذ أوحينا واستشكل بأن الوقتين مختلفان متباعدان (وأجيب) بأنه يصح مع اتساع الوقت كما يصح أن يقول لك الرجل لقيت فلانا سنة كذا فتقول وأنا لقيته اذ ذاك وربما لقيه هو فى أوّلها وأنت فى آخرها (فتقول هل أدلكم على من يكفله) روى أنّ أخته واسمها مريم جاءت متعرفة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها وذلك أنه كان لا يقبل ثدى امرأة فقالت لهم ذلك فقالوا نعم فجاءت بالام فقبل ثديها فذلك قوله تعالى (فرجعناك الى أمك كى تقرّ عينها) بلقائك ورؤيتك (ولا تحزن) أى هى بفراقك أو أنت بفراقها وفقد اشفاقها وروى أنّ آسية استوهبته من فرعون وتبنته وهى التى أشفقت عليه وطلبت له المراضع المنة الخامسة قوله تعالى (وقتلت نفسا) قال ابن عباس هو الرجل القبطى الذى قتله خطأ بأن وكزه حين استغاثه الاسرائيلى اليه قال الكسائى كان عمره اذ ذاك اثنى عشرة سنة (فنجيناك من الغم) أى من غم قتله خوفا من اقتصاص فرعون كما قال تعالى فى آية فأصبح فى المدينة خائفا يترقب بالمهاجرة الى مدين المنة السادسة قوله تعالى (وفتناك فتونا) قال ابن عباس اختبرناك اختبارا وقيل ابتليناك ابتلاء قال ابن عباس الفتون وقوعه فى محنة بعد محنة وخلصه الله تعالى منها أوّلها انّ أمه حملته فى السنة التى كان فرعون يذبح فيها الاطفال ثم القاؤه فى البحر فى التابوت ثم منعه الرضاع

الا

الامن ثدى أمه ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم بقتله ثم تناوله الجمرة بدل الجوهرة ثم قتله القبطى وخروجه الى مدين خائفا (فان قيل) انه تعالى عدد أنواع منته على موسى فى هذا المقام فكيف يليق بهذا الموضع وفتناك فتونا (أجيب) بجوابين الاول فتناك أى خلصناك تخليصا من قولهم فتنت الذهب اذا أردت تخليصه من الفضة أونحوها الثانى ان الفتنة تشديد المحنة يقال فتن فلان عن دينه اذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه قال تعالى فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله وقال تعالى ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * ولما كان التشديد فى المحنة يوجب كثرة الثواب عده الله تعالى من جملة النعم وتقدم تفسير ابن عباس وهو قريب من ذلك (فان قيل) هل يصح اطلاق الفتان على الله تعالى اشتقاقا من قوله تعالى وفتناك فتونا (أجيب) بأنه لا يصح لانه صفة ذم فى العرف وأسماء الله تعالى توقيفية لاسيما فيما يوهم مالا ينبغى المنة السابعة قوله تعالى (فلبثت سنين فى أهل مدين) والتقدير وفتناك فخرجت خائفا الى أهل مدين فلبثت سنين فيهم عند شعيب عليه السلام وتزوجت بابنته وهى اما عشر أو ثمان لقوله على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وقال وهب لبث موسى عند شعيب عليه السلام ثمانا وعشرين سنة منها عشر سنين مهر امرأته فانه قضى أوفى الاجلين والآية دالة على انه لبث عشر سنين وليس فيها ماينفى الزيادة على العشر كما قاله الرازى وان قال ابن عادل يرده قوله تعالى فلما قضى موسى الاجل أى الاجل المشروط عليه فى تزويجه وسار بأهله ومدين بلدة شعيب على ثمان مراحل من مصر (ثم جئت على قدر) أى على القدر الذى قدرت أنك تجىء فيه لان أكلمك وأستنبئك غير مستقدم وقته المعين ولا مستأخر وقال عبد الرحمن بن كيسان على رأس أربعين سنة وهو القدر الذى يوحى فيه للانبياء وهذا قول أكثر المفسرين أى على الموعد الذى وعد الله وقدر أنه يوحى اليه بالرسالة وهو أربعون سنة وكرر تعالى قوله (ياموسى) عقب ماهو غاية الحكاية للتنبيه على ذلك المنة الثامنة قوله تعالى (واصطنعتك) أى اخترتك (لنفسى) لاصرفك فى أوامرى لئلا تشتغل الابما أمرتك به وهو اقامة حجتى وتبليغ رسالتى وأن تكون فى حركاتك وسكناتك لى لا لنفسك ولا لغيرك ثم بين تعالى ماله اصطنعه وهو الابلاغ والاداء بقوله تعالى (اذهب أنت وأخوك بآياتى) أى بمعجزاتى وقال ابن عباس الآيات التسع التى بعث بها موسى وقيل انها العصا واليد لانهما اللذان جرى ذكرهما فى هذا الموضع ولم يذكر انه عليه السلام أوتى قبل مجيئه الى فرعون ولا بعد مجيئه حتى لقى فرعون فالتمس منه آية غيرهاتين الآيتين قال تعالى حكاية عن فرعون ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين وقال تعالى فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه (فان قيل) كيف أطلق لفظ الجمع على الاثنين (أجيب) بأن العصا كانت آيات انقلابها حيوانا ثم انها فى أول الامر كانت صغيرة لقوله تعالى تهتز كأنها جان ثم كانت تعظم وهذه آية أخرى ثم

كانت تصير ثعبانا وهذه آية أخرى ثم انه عليه السلام كان يدخل يده في فمها فتصير عصا كانت تضربه فهذه آية أخرى ثم كانت تنقلب خشبة فهذه آية أخرى وكذلك اليد فان بياضها آية وشعاعها آية أخرى ثم زوالها بعد ذلك آية أخرى فدل ذلك على انها كانت آيات كثيرة وقيل الآيات العصا واليد وحل عقدة لسانه وقيل معناه أمدكما بآياتي وأظهر على أيديكما من الآيات ما تنزاح به العلل من فرعون وقومه (ولا تنيا) أي لا تفترا ولا تقصرا (في ذكري) أي بتسبيح وغيره فان من ذكر جلال الله استخف غيره فلا يخاف أحدا وتقوى روحه بذلك الذكر فلا تضعف في مقصوده ومن ذكر الله لابد وأن يكون ذاكرا احسانه وذاكر احسانه لا يفتر في أداء أوامره وقيل لا تنيا في ذكري عند فرعون بأن تذكرا لفرعون وقومه أن الله لا يرضى منهم الكفر وتذكرا لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب وقيل المراد بالذكر تبليغ الرسالة (اذهبا الى فرعون انه طغى) أي بادعاء الربوبية * (تنبيه) * ذكر الله تعالى المذهوب اليه هنا وهو فرعون وحذفه في قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي اختصارا في الكلام وقال القفال فيه وجهان أحدهما أن قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي يحتمل أن يكون كل واحد منهما مأمورا بالذهاب على الانفراد فقيل مرة أخرى اذهبا ليعرفا أن المراد منه أن يشتغلا بذلك جميعا لا أن ينفرد به أحدهما دون الآخر والثاني أن قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي أمر بالذهاب الى كل الناس من بني اسرائيل وقوم فرعون ثم ان قوله تعالى اذهبا الى فرعون أمر بالذهاب الى فرعون وحده واستبعد هذا بل الذهابان متوجهان لشيء واحد وقد حذف من كل من الذهابين ما أثبته في الآخر وقيل انه حذف المذهوب اليه من الاول وأثبته في الثاني وحذف المذهوب به وهو بآياتي من الثاني وأثبته في الاول (فقولا له قولا لينا) أي مثل هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى فانه دعوة في صورة عرض ومشورة (فان قيل) لم أمر الله تعالى باللين مع الكافر الجاحد (أجيب) بأن عادة الجبار اذا أغلظ عليه في الوعظ يزداد عتوا وتكبرا فأمرا باللين حذرا من أن تحمله الحاقة على أن يسطو عليهما واحتراما لما له من حق التربية وقيل كنياه وكان له ثلاث كنى أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة وقيل عداه شبابا لا هرم بعده وملكا لا يزول الا بالموت وأن تبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح الى حين موته واذا مات دخل الجنة فأعجبه ذلك وكان لا يقطع أمرا دون هامان وكان غائبا فلما قدم أخبره بالذي دعاه اليه موسى وقال أردت أن أقبل منه فقال له هامان كنت أرى ان لك عقلا ورأيا أنت رب تريد أن تكون مربوبا وأنت تعبد تريد أن تعبد فغلبه على رأيه وقوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) متعلق باذهبا أو قولا أي باشرا الامر على رجائكما وطمعكما مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه فهو يجتهد بطوقه ويسعى بأقصى وسعه قال الزمخشري ولا يستقيم أن يراد ذلك في حق الله تعالى اذ هو عالم بعواقب الامور وعن سيبويه كل ما ورد في القرآن من لعل وعسى فهو من الله واجب بمعنى أنه يستحيل بقاء معناه في حق الله تعالى وقال الفراء ان لعل بمعنى كي فتفيد العلية كما تقول اعمل لعلك تأخذ أجرتك * (فائدة) * قرأ رجل عند يحيى بن معاذ فقولا له قولا

لينا فبكى يحيى وقال الهي هذا برك بمن يقول أنا الاله فكيف برك بمن يقول أنت الاله (فان قيل) ما الفائدة في ارسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد مع علمه تعالى بأنه لا يؤمن (أجيب) بأن ذلك لالزام الحجة وقطع المعذرة واظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من الآيات والتذكر للمتحقق والخشية للمتوهم ولذلك قدم الاول أي ان لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر فلا أقل من أن يتوهمه فيخشى ويروى عن كعب انه قال والذي يحلف به كعب انه لمكتوب في التوراة فقولا له قولا لينا وسأقسي قلبه فلا يؤمن ولقد تذكر فرعون وخشي حين لم تنفعه الذكرى والخشية وذلك حين ألجمه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ثم ان موسى وهرون (قالا ربنا اننا نخاف أن يفرط) أي يعجل (علينا) بالعقوبة (أو أن يطغى) أي يتجاوز الحد في الاساءة علينا (فان قيل) لما تكرر الامر من الله تعالى بالذهاب فعدم الذهاب والتعلل بالخوف هل يدل على معصية (أجيب) بأن الامر ليس على الفور فسقط السؤال وهذا من أقوى الدلائل على أن الامر لا يقتضي الفور (فان قيل) قوله تعالى قالا ربنا يدل على أن المتكلم موسى وهرون ولم يكن هرون هناك حاضرا (أجيب) بأن الكلام كان مع موسى الا أنه كان متبوع هرون فجعل الخطاب معه خطابا مع هرون وكلام هرون على سبيل التقدير في تلك الحالة وان كان موسى وحده الا أنه تعالى أضافه اليهما كما في قوله تعالى واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها وقوله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل روى أن القائل عبد الله بن أبي وحده (فان قيل) ان موسى عليه السلام قال رب اشرح لي صدري فأجابه الله تعالى بقوله قد أوتيت سؤلك يا موسى وهذا يدل على أنه تعالى قد شرح صدره ويسر له ذلك الامر فكيف قال بعده اننا نخاف فان حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر (أجيب) بأن شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الاوامر والنواهي وحفظ تلك الشرائع على وجه لا يتطرق اليها السهو والتحريف وذلك شيء آخر غير الخوف (قال) الله تعالى لهما (لا تخافا انني معكما) حافظكما وناصركما (أسمع وأرى) أي ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل فأفعل ما يوجبه حفظي ونصري وقال ابن عباس اسمع دعاءكما فأجيبه وأرى ما يراد بكما فامنع فلست بغافل عنكما فلا تهتما وقال القفال قوله تعالى أسمع وأرى يحتمل أن يكون مقابلا لقوله تعالى يفرط علينا أو أن يطغى يفرط علينا بأن لا يسمع منا أو أن يطغى بأن يقتلنا قال تعالى انني معكما أسمع كلامكما فأسخره للاستماع منكما وأرى أفعاله فلا أتركه حتى يفعل بكما ما تكرهانه ثم انه سبحانه وتعالى أعاد ذلك التكليف فقال (فأتياه) لانه سبحانه وتعالى قال في المرة الاولى اذهبا الى فرعون وفي الثانية قال اذهب أنت وأخوك وفي الثالثة قال اذهب الى فرعون وفي الرابعة قال ههنا فأتياه (فان قيل) انه تعالى أمرهما في الثانية بأن يقولا له قولا لينا وههنا أمرهما بقوله تعالى (فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بني اسرائيل) أي الى الشأم (ولا تعذبهم) أي خل عنهم من استعمالك اياهم في اشغالك الشاقة كالحفر والبناء وحمل الثقيل وقطع الصخور وكان فرعون يستعملهم في ذلك مع قتل الاولاد وفي هذا تغليظ من وجوه

الأول قوله انا رسولا ربك وهذا يقتضى انقياده لهما والتزامه لطاعتهما وذلك يعظم على الملك المتبوع الثاني قولهما فأرسل معنا بني اسرائيل فيه ادخال النقص على ملكه لانه كان محتاجا اليهم فيما يريده من الاعمال أيضا الثالث قولهما ولا تعذبهم الرابع قولهما (قد جئناك بآية من ربك) فما الفائدة في التليين أولا والتغليظ ثانيا (أجيب) بأن الانسان اذا ظهر لجاجه فلا بدّ له من التغليظ حيث لم ينفع التليين (فان قيل) أليس الاولى أن يقول انا رسولا ربك قد جئناك بآية فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم لان ذكر المعجزة مقرونا بالدعاء للرسالة أولى من تأخيره عنه (أجيب) بأن هذا أولى لانهما ذكرا مجموع الدعاوى ثم استدلا على ذلك المجموع بالمعجز وقولهما قد جئناك بآية من ربك قال الزمخشري هذه الجملة جارية من الجملة الاولى وهي انا رسولا ربك مجرى البيان والتفسير لان دعوى الرسالة لا تثبت الا ببينتها التي هي مجيء الآية (فان قيل) ان الله تعالى قد أعطاهما آيتين هما العصا واليد ثم قال تعالى اذهب أنت وأخوك بآياتي وذلك يدل على ثلاث آيات وقالا هنا قد جئناك بآية من ربك وذلك يدل على أنها كانت واحدة فكيف الجمع (أجاب) القفال بأن معنى الآية الاشارة الى جنس الآيات كأنهما قالا قد جئناك ببينات من عند الله ثم يجوز أن يكون ذلك حجة واحدة أو حججا كثيرة وتقدم الجواب عن التثنية والجمع وأن في العصا واليد آيات وقوله تعالى (والسلام على من اتبع الهدى) يحتمل أن يكون من كلام الله تعالى كأنه تعالى قال فقولا انا رسولا ربك وقولا له والسلام على من اتبع الهدى ويحتمل أن يكون كلام الله قد تم عند قوله قد جئناك بآية من ربك وقوله تعالى بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى وعد من قبلهما لمن آمن وصدق بالسلامة له من عقوبات الله في الدنيا والآخرة أو أن سلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين وقال بعضهم ان على بمعنى اللام أي والسلام لمن اتبع الهدى كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وقال تعالى في موضع آخر ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها (انا قد أوحي الينا أن العذاب على من كذب) ما جئنا به (وتولى) أعرض عنه قال البيضاوي ولعل تغيير النظم والتصريح بالوعيد والتوكيد فيه لان التهديد في أول الامر أهم وأنجع وبالواقع أليق * ولما أتياه وقالا انا رسولا ربك وبلغاه ما أمرا به (قال) لهما (فمن ربكما يا موسى) انما نادى موسى وحده بعد مخاطبته لهما معا اما لان موسى هو الاصل في الرسالة وهرون تبع ورده ووزير واما لان فرعون كان لخبثه يعلم الرتة التي كانت في لسان موسى عليه الصلاة والسلام ويعلم فصاحة أخيه بدليل قوله هو أفصح مني لسانا فاراد أن يفحمه ويدل عليه قول فرعون ولا يكاد يبين واما لانه حذف المعطوف للعلم به أي يا موسى وهرون قاله أبو البقاء ثم ان فرعون لم يشتغل مع موسى بالبطش والايذاء لما دعاه الى الله تعالى مع أنه كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير العسكر بل خرج معه في المناظرة لانه لو أذاه لنسب الى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك وشرع في المناظرة وذلك يدل على ان السفاهة من غير حجة لم يرضها فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعي الاسلام والعلم * (تنبيه) * قال ههنا فمن ربكما يا موسى وقال في سورة الشعراء

وما

وما رب العالمين وهو سؤال عن الماهية فهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة قال ابن عادل والاقرب أن يقال سؤال من كان مقدما على سؤال ما لانه كان يقول انى أنا الله والرب فقال فمن ربكما فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف أنه لا يمكنه أن يقاومه فى هذا المقام لظهوره وجلائه عدل الى طلب الماهية لان العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر (فان قيل) لم قال فمن ربكما ولم يقل فمن الهكما (أجيب) بأنه أثبت نفسه ربا فى قوله ألم نربك فينا وليدا فذكر ذلك على سبيل التعجب كأنه قال أنا ربك فلم تدع ربا آخر وهذا يشبه كلام نمروذ حين قال له ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال له نمروذ أنا أحيى وأميت فلم تكن الاماتة التى ذكرها ابراهيم هى الاماتة مع الاحياء التى عارضه نمروذ بها الا فى اللفظ فكذا ههنا لما ادعى موسى ربوبية الله تعالى ذكر فرعون هذا الكلام أى أنا الرب الذى ربيتك ومعلوم ان الربوبية التى ادعاها موسى عليه السلام غير الربوبية فى المعنى وأنه لا مشاركة بينهما * ثم كأنه قيل فما أجاب به موسى فقيل (قال) مستدلا على اثبات الصانع بأحوال المخلوقات (ربنا الذى أعطى كل شئ) أى من الانواع (خلقه) أى صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به كما أعطى العين الهيئة التى تطابق الابصار والاذن الشكل الذى يوافق الاسماع وكذلك الانف واليد والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناء عنه أو أعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة حيث جعل الحصان والحجرة زوجين والبعير والناقة كذلك والرجل والمرأة كذلك فلم يزاوج منهما شيأ غير جنسه وما هو على خلاف خلقه (ثم هدى) أى ثم عرف الله تعالى الحيوان الكائن من المخلوق كيف يرتفق بما أعطى وكيف يتوصل اليه قال الزمخشرى ولله در هذا الجواب ما أحضره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الانصاف وكان طالبا للحق * ولما خاف فرعون أن يزيد موسى فى اظهار تلك الحجة فيظهر للناس صدقه (قال) لموسى (فما بال) أى حال (القرون) أى الامم (الاولى) كقوم نوح وهود ولوط وصالح فى عبادتهم الاوثان فانها كانت تعبد الاوثان وتنكر البعث فمن شقى منهم ومن سعد أراد أن يصرفه عن ذلك الكلام ويشغله بهذه الحكايات فلم يلتفت اليه فلذلك (قال علمها عند ربى) استأثر به لا يعلمه الا هو وما أنا الا عبد مثلكم لا أعلم منه الا ما أخبرنى به علام الغيوب وعلم أحوال هذه القرون مثبت عند ربى (فى كتاب) هو اللوح المحفوظ ويجوز أن يكون ذلك تمثيلا لتمكنه فى علمه تعالى بما استحفظه العالم وقيده بالكتابة ويؤيده قوله (لا يضل ربى ولا ينسى) والضلال أن تخطئ الشئ فى مكانه فلم يهتد اليه والنسيان أن يذهب عنه بحيث لا يخطر بباله وهما محالان على علام الغيوب بخلاف العبد الذليل والبشر الضئيل أى لا يضل تعالى ولا ينسى كما تضل أنت وتنسى يا مدعى الربوبية بالجهل والوقاحة ثم عاد الى تتميم كلامه الاول وابراز الدلائل الظاهرة على الوحدانية فقال (الذى جعل لكم) فى جملة الخلق (الارض مهادا) أى فراشا *(تنبيه)* هذا الموصول فى محل رفع صفة لربى وخبره محذوف تقديره هو أو منصوب على المدح وقرأ عاصم وحمزة هنا وفى سورة الزخرف مهدا بفتح الميم وسكون الهاء أى

مهدها مهدا أو تمهد وتنهافهى لهم كالمهاد وهو مايمهد للصبى وقرأ الباقون بكسر الميم وفتح الهاء وألف بعدها وهو اسم مايمهد كالفراش أو جمع مهد (وسلك) أى سهل (لكم فيها سبلا) أى طرقا بين الجبال والاودية والبرارى تسلكونها من أرض الى أرض لتبلغوا منافعها (وأنزل من السماء ماء) أى مطرا وعدل بقوله (فأخرجنا به) عن لفظ الغيبة الى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى تنبيها على ظهور مافيه من الدلالة على كمال قدرته والحكمة وايذانا بأنه مطاع تنقاد الاشياء المختلفة لمشيئته وعلى هذا نظائره كقوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها أم من خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق (أزواجا) أى أصنافا سميت بذلك لانها مزدوجة مقترنة بعضها مع بعض وقوله تعالى (من نبات) بيان وصفة لازواجا وكذلك (شتى) وهو جمع شتيت من شت الامر تفرق نحو مرضى جمع مريض وجرحى جمع جريح فألفه للتأنيث أى أزواجا متفرقة ويجوز أن يكون صفة للنبات فانه من حيث انه مصدر فى الاصل يستوى فيه الواحد والجمع أى انها مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم فلذلك قال تعالى (كلوا وارعوا أنعامكم) والانعام جمع نعم وهى الابل والبقر والغنم يقال رعت الانعام ورعيتها والامر للاباحة وتذكير النعمة والجملة حال من ضمير أخرجنا أى مبيحين لكم الاكل ورعى الانعام أى وبقية الحيوانات (ان فى ذلك) أى فيما ذكرت من هذه النعم (لآيات) أى لعبرا (لأولى النهى) أى أصحاب العقول جمع نهية كغرفة وغرف سمى به العقل لانه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح * ولما ذكر سبحانه وتعالى منافع الارض والسماء بين أنها غير مطلوبة لذاتها بل هى مطلوبة لكونها وسائل الى منافع الآخرة فقال (منها) أى الارض (خلقناكم) * فان قيل انما خلقنا من النطفة على ما بين فى سائر الآيات (أجيب) بأوجه أحدها انه لما خلق أصلنا آدم عليه السلام من تراب كما قال تعالى كمثل آدم خلقه من تراب حسن اطلاق ذلك علينا ثانيها أن تولد الانسان انما هو من النطفة ودم الطمث وهما متولدان من الاغذية والغذاء اما حيوانى أو نباتى والحيوانى ينتهى الى النباتى والنبات انما يحدث من امتزاج الماء والتراب فصح انه تعالى خلقنا منها وذلك لا ينافى كوننا مخلوقين من النطفة ثالثها ماروى ابن مسعود ان ملك الارحام يأتى الى الرحم حين يكتب أجل المولود ورزقه والارض التى يدفن فيها فانه يأخذ من تراب تلك البقعة وينثره على النطفة ثم يدخلها فى الرحم وأخرج ابن المنذر عن عطاء الخراسانى قال ان الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذى يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة (وفيها نعيدكم) أى مقبورين بعد الموت (ومنها نخرجكم) أى عند البعث (تارة) أى مرة (أخرى) أى بتألف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب ونردهم كما كانوا أحياء ونخرجهم الى المحشر يوم يخرجون من الاجداث سراعا ولما كان المقام لتعظيم القدرة عطف عليه قوله تعالى (ولقد أريناه) أى أبصرناه (آياتنا كلها) أى التسع المختصة بموسى عليه السلام وهى العصا واليد وفلق البحر والحجر

قوله وهى العصا الخ فيه أن الحجر ونتق الجبل كانا بعد غرق فرعون وعبارة الجمل وتقدم أن ثمانية منها فى الأعراف الاولى والثانية قوله فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده الخ والثالثة قوله ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات وخمسة فى قوله فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وواحدة فى سورة يونس قوله ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم اهـ

والجراد

والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل (فكذب) بها وزعم أنها سحر (وأبى) أن يسلم (فان قيل) قوله تعالى كلها يفيد العموم والله تعالى ما أراه جميع الآيات فان من جملة الآيات ما أظهرها على أيدى الانبياء قبل موسى عليه السلام وبعده (أجيب) بأن لفظ الكل وان كان للعموم قد يستعمل فى الخصوص مع القرينة كما يقال دخلت السوق فاشتريت كل شئ أو يقال ان موسى عليه السلام أراه آياته وعدّد عليه آيات غيره من الانبياء فكذب فرعون بالكل أو يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضى تكذيب الكل فحكى سبحانه وتعالى ذلك على الوجه الذى يلزم ثم كأنه قيل كيف صنع فى تكذيبه وابائه فقيل (قال) حين علم حقيقة ما جاء به موسى وظهوره وخاف أن يتبعه الناس ويتركوه ووهن فى نفسه وهنا عظيما (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا) أى الارض التى نحن مالكوها ويكون لك الملك فيها فصارت فرائصه ترعد خوفا مما جاء به موسى لعلمه وايقانه أنه على الحق وأن المحق لو أراد قود الجبال لانقادت له وان مثله لا يخذل ولا يذل ناصره وأنه غالبه على ملكه لا محالة ثم خيل لاتباعه أن ذلك سحر بقوله (بسحرك ياموسى) فكان ذلك مع ما ألفوه من عادتهم فى الضلال صارفا لهم عن اتباع ما رأوه من البيان ثم أظهر لهم أنه يعارضه بمثل ما أتى به بقوله (فلنأتينك بسحر مثله) أى مثل سحرك يعارضه (فاجعل بيننا وبينك موعدا) أى من الزمان والمكان (لا نخلفه) أى لا نجعله خلفنا (نحن ولا أنت) أى لا نجاوزه ولما كان كل من الزمان والمكان لا ينفك عن الآخر قال (مكانا) وآثر ذلك المكان لاجل وصفه بقوله (سوى) أى عدلا وقال ابن عباس نصفا تستوى مسافة الفريقين اليه فانظر الى هذا الكلام الذى زوقه وغشه وصنعه بما وقف به قومه عن السعادة واستمر يقودهم بعناده حتى أوردهم البحر فأغرقهم ثم فى غمرات النار أحرقهم وقيل معنى سوى أى سوى هذا المكان وقرأ شعبة وابن عامر وحمزة والكسائى بضم السين والباقون بكسرها وأمال شعبة وحمزة والكسائى فى الوقف محضة والباقون بالفتح وقيل المراد بالموعد الوعد لان الاخلاف لا يلائم الزمان والمكان أى بل الوعد هو الذى يصح وصفه بالخلف وعدمه والى هذا نحا جماعة مختارين له ورد عليهم بقوله (قال موعدكم يوم الزينة) فانه لا يطابقه *(تنبيه)* يحتمل ان قوله قال موعدكم يوم الزينة أن يكون من قول فرعون فبين الوقت وأن يكون من قول موسى عليه السلام وهذا أظهر كما قال الرازى لوجوه الاول أنه جواب لقول فرعون فاجعل بيننا وبينك موعدا الثانى وهو ان تعيين يوم الزينة يقتضى اطلاع الكل على ما سيقع فتعيينه انما يليق بالمحق الذى يعرف ان اليد له لا المبطل الذى يعرف انه ليس معه الا التلبيس ثالثها ان قوله موعدكم خطاب للجمع فلو جعلناه من فرعون لموسى وهرون لزم اما أن نحمله على التعظيم أو ان أقل الجمع اثنان فالاول لا يليق بحال فرعون معهما والثانى غير جائز فاذا جعلناه من موسى عليه السلام استقام الكلام واختلف فى يوم الزينة فقال مجاهد وقتادة النيروز وقال ابن عباس وسعيد بن جبير هو يوم عاشوراء وقيل كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون فى كل سنة وقيل يوم كانوا يتخذون فيه سوقا ويتزينون

ذلك اليوم وبنى قوله (وأن يحشر) للمفعول لان القصد الجمع لا كونه من معين (الناس) أى يجتمعوا (ضحى) أى وقت الضحوة فيكون أظهر لما يعمل وأجلى فلا يأتى الليل الا وقد قضى الامر وعرف المحق من المبطل ويكثر التحدث بذلك فى كل بدو وحضر ويشيع فى جميع أهل الوبر والمدر (فتولى) أى أعرض (فرعون) عن موسى الى تهيئة ما يريد من الكيد بعد توليه عن الانقياد لامر الله تعالى (فجمع كيده) أى مكره وحيلته وخداعه الذى دبره على موسى عليه السلام بجمع من يحصل بهم الكيد وهم السحرة حشرهم من كل فج وكان أهل مصر أسحر أهل الارض وأكثرهم ساحرا وكانوا فى ذلك الزمان أشد اعتناء بالسحر وأمهر ما كانوا وأكثر (ثم أتى) للميعاد الذى وقع القرار عليه بمن حشره من السحرة والجنود ومن تبعهم من الناس مع توفر الدواعى على الاتيان للعيد والنظر الى تلك المغالبة التى لم يكن مثلها * ولما تشوق السامع الى ما كان من موسى عليه السلام عند ذلك استأنف تعالى الخبر عنه بقوله تعالى (قال لهم) أى لاهل الكيد والعناد وهم السحرة وغيرهم (موسى) حين رأى اجتماعهم ناصحا لهم (ويلكم) يا أيها الناس الذين خلقكم الله تعالى لعبادته (لا تفتروا) أى لا تتعمدوا (على الله كذبا) باشراك أحد معه (فيسحتكم) قال مقاتل يهلككم وقال قتادة يستأصلكم (بعذاب) من عنده وقرأ حفص وحمزة والكسائى بضم الياء وكسر الحاء من الاسحات وهو لغة نجد وتميم والباقون بفتحهما والسحت لغة الحجاز (وقد خاب من افترى) كما خاب فرعون فانه افترى واحتال ليبقى الملك له فلم ينفعه (فتنازعوا) أى تجاذب السحرة (أمرهم بينهم) لما سمعوا هذا الكلام علما منهم أنه لا يقدر أن يواجه فرعون بمثله فى جمع جنوده واتباعه ثم يسلم منه الا من الله تعالى معه (وأسروا النجوى) قال الكلبى قالوا سرا ان غلبنا موسى اتبعناه وقال محمد بن اسحق لما قال لهم موسى لا تفتروا على الله كذبا قال بعضهم لبعض ما هذا بقول ساحر وبالغوا فى اخفاء ذلك فان النجوى الاسرار لئلا يظهر فرعون وأتباعه على ذلك فكأنه قيل ما قالوا حين انتهى تنازعهم فقيل (قالوا) أى السحرة (ان هذان لساحران) أى موسى وهرون وقرأ ابن كثير وحفص بسكون النون من ان وشددها الباقون وقرأ أبو عمرو بالياء بعد الذال والباقون بالالف على لغة من يجعل ألف المثنى لازما فى كل حال قال أبو حيان وهى لغة لطوائف من العرب بنى الحرث بن كعب وبعض كنانة وخثعم وزبيد وبنى العنبر وبنى الهجيم ومراد وعذرة وقال شاعرهم * تزود منى بين أذناه ضربة * يريد أذنيه

وقال آخر ان أباها وأبا أباها * قد بلغا فى المجد غايتاها

وقيل تقدير الآية انه هذان فحذف الهاء وذهب جماعة الى أن ان حرف ان ههنا بمعنى نعم أى نعم هذان روى أن أعرابيا سأل ابن الزبير شيأ فحرمه فقال لعن الله ناقة حملتنى اليك فقال ابن الزبير ان وصاحبها أى نعم وشدد ابن كثير النون فكانت نجواهم فى تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفا من غلبتهما وتثبيطا للناس عن اتباع موسى وهرون (يريدان) أى بما يقولان من دعوى الرسالة وغيرها (أن يخرجاكم) أيها الناس (من أرضكم) هذه التى ألفتموها وهى وطنكم خلفا

عن

عن سلف (بسحرهما) الذى أظهراه لكم وغيره * ولما كان كل حزب بما لديهم فرحين قالوا (ويذهبا بطريقتكم المثلى) مؤنث الامثل وهو الافضل أى بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب باظهار مذهبه واعلاء دينه لقوله تعالى انى أخاف أن يبدل دينكم وقيل أراد أهل طريقتكم وهم بنوا اسرائيل فانهم كانوا أرباب علم فيما بينهم لقول موسى أرسل معنا بنى اسرائيل وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم من حيث انهم قدوة لغيرهم (فأجمعوا كيدكم) أى من السحر وغيره فلا تدعوا منه شيأ الا جئتم به وقرأ أبو عمرو بهمزة الوصل بين الفاء والجيم وفتح الميم والباقون بهمزة مقطوعة وكسر الميم (ثم ائتوا) أى للقاء موسى وهرون (صفا) أى مصطفين لانه أهيب فى صدور الرائين * (تنبيه) * اختلفوا فى عدد السحرة فقال الكلبى كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان من القبط وسبعون من بنى اسرائيل وقال عكرمة كانوا تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقال وهب خمسة عشر ألفا وقال السدى بضعة وثلاثون ألفا وقال القاسم بن سلام كانوا سبعين ألفا وقيل اثنى عشر ألفا مع كل منهم على كل قول حبل وعصا وأقبلوا عليه اقبالة واحدة وظاهر القرآن لا يدل على شئ من هذه الاقوال * ولما كان التقدير فمن أتى كذلك فقد استعلى عطف عليه قوله (وقد أفلح اليوم) فى هذا الجمع الذى ما اجتمع مثله قط (من استعلى) أى فاز بالمطلوب من غلب فلما أتى السحرة موسى (قالوا) له متأدبين لان لين القول مع الخصم ان لم ينفع لم يضر بل نفعهم قال بعضهم ولذلك رزقهم الله تعالى الايمان ببركته (ياموسى اما أن تلقى) أى ما معك مما تناظرنا به أولا (واما أن نكون) نحن (أول من ألقى) ما معه (قال) لهم موسى عليه السلام مقابلا لأدبهم بأحسن منه ولانه فهم أن مرادهم الابتداء وليكون هو الآخر فتكون له العاقبة بتسليط معجزته على سحرهم فلا يكون بعدها شك لا ألقى أنا أولا (بل ألقوا) أنتم أولا فانتهزوا الفرصة لان ذلك كان مرادهم بما أفهموه من تغيير السياق والتصريح بالاول فألقوا ما معهم من الحبال والعصى (فاذا حبالهم وعصيهم) أى التى ألقوها قد فاجأت أنه (يخيل اليه) تخييلا مبتدأ (من سحرهم) أى الذى قد فاقوا به أهل الارض (أنها) لشدة اضطرابها (تسعى) (فان قيل) كيف يجوز أن يقول موسى عليه السلام بل ألقوا فيأمرهم بما هو سحر (أجيب) بأن ذلك الامر كان مشروطا والتقدير ألقوا ما أنتم ملقون ان كنتم محقين كما فى قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله أى ان كنتم صادقين وفى القصة انهم لما ألقوا الحبال والعصى أخذوا أعين الناس فرأى موسى والقوم كأن الارض امتلأت حيات وكانت قد أخذت ميلا من كل جانب ورأوا أنها تسعى وقيل لطخوها بالزئبق فلما وقعت عليها الشمس اضطربت فخيل اليهم انها تتحرك وقرأ ابن ذكوان تخيل بالتاء الفوقية على التأنيث والباقون بالياء على اسناده الى ضمير الحبال (فأوجس) أى أحس (فى نفسه خيفة موسى) عليه الصلاة والسلام (فان قيل) كيف استشعر الخوف وقد عرض عليه المعجزات الباهرات كالعصا واليد ثم ان الله تعالى قال له بعد ذلك اننى معكما أسمع وأرى

فكيف وقع الخوف في قلبه (أجيب) بأوجه أحدها أنه خاف من جهة ان سحرهم من جنس معجزته أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا به الثاني أنه خوف طبع البشرية مثل ما خاف من عصاه أول ما رآها كذلك الثالث لعله كان مأمورا أن لا يفعل شيأ الا بالوحي فلما تأخر نزول الوحي عليه في ذلك الوقت خاف أن لا ينزل عليه الوحي في ذلك الجمع فيبقى الخجل ثم انه أزال ذلك الخوف بقوله تعالى (قلنا لا تخف) من شيء من أمرهم ولا غيره ثم علل ذلك بقوله تعالى وأكده أنواعا من التأكيد لاقتضاء الحال انكار أن يغلب أحد ما أظهروا من سحرهم لعظمه (انك أنت) خاصة (الأعلى) أي الغالب غلبة ظاهرة لا شبهة فيها (وألق ما في يمينك) أبهمه ولم يقل عصاك تحقيرا لها أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الذي في يدك أو تعظيما لها أي لا تحتفل بكثرة هذه الاجرام وعظمها فان في يمينك ما هو أعظم منها أي العصا وهي التي قلنا لك أول ما شرفناك بالمناجاة وما تلك بيمينك يا موسى ثم أريناك منها ما أريناك (تلقف) أي تبتلع بقوة واجتهاد مع سرعة لا تكاد تدرك (ما صنعوا) أي فعلوه بعد تدرب كثير وممارسة طويلة فلما ألقاها صارت أعظم حية من حياتهم ثم أخذت تزداد عظما حتى ملأت الوادي ثم صعدت حتى علقت ذنبها بطرف الثنية ثم هبطت وأكلت كل ما عملوه في الميلين والناس ينظرون اليها لا يحسبون الا أنه سحر ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحة فاها ثمانين ذراعا فصاح بموسى فأخذها فاذا هي عصا كما كانت ونظرت السحرة فاذا هي لم تدع من حبالهم وعصيهم شيأ الا أكلته وعرفوا أنه ليس بسحر وأصل تلقف تتلقف حذفت احدى التاءين وتاء المضارعة تحتمل التأنيث على اسناد الفعل الى العصا والخطاب على اسناد الفعل الى السبب وقرأ ابن ذكوان برفع الفاء على الحال أو الاستئناف والباقون بسكونها وحفص بسكون اللام وتخفيف القاف على أنه من لقفته بمعنى تلقفته (انما) أي الذي (صنعوا) أي زوروا وافتعلوا وهالك أمره (كيد ساحر) أي كيد سحري لا حقيقة له ولا ثبات وقرأ حمزة والكسائي بكسر السين وسكون الحاء بمعنى ذي سحر أو بتسمية الساحر سحرا على المبالغة أو باضافة الكيد الى السحر للبيان كقولهم علم فقه والباقون بفتح السين وكسر الحاء وألف بينهما (فان قيل) لم وحد الساحر ولم يجمع (أجيب) بأن القصد من هذا الكلام معنى الجنسية لا معنى العدد فلو جمع خيل ان المقصود هو العدد ألا ترى الى قوله تعالى (ولا يفلح الساحر) أي هذا الجنس (حيث أتى) أي كيفما سار وقال ابن عباس لا يسعد حيث كان وقيل معناه حيث احتال فانه انما يفعل ما لا حقيقة له (فان قيل) لم نكر أولا ثم عرف ثانيا (أجيب) بأنه قال هذا الذي أتوا به قسم واحد من أقسام السحر لا فائدة فيه ولا شك ان الكلام على هذا الوجه أبلغ ثم انه امتثل ما أمره به ربه من القاء العصا فكان ما وعده به سبحانه من تلقفها ما صنعوا من غير أن يظهر عليها زيادة في ثخن ولا في غيره مع أن حبالهم وعصيهم كانت شيأ كثيرا فعلم كل من رأى ذلك حقيته وبطلان ما فعل السحرة فبادر السحرة منهم الى الخضوع لأمر الله تعالى ساجدين مبادرة من كأنه ألقاه ملق على وجهه ولذلك قال تعالى بعد ان ذكر مكرهم واجتهادهم في معارضة موسى عليه السلام وحذف ذكر الالقاء وما سببه من التلقف

لانّ مقصود السورة القدرة على تليين القلوب القاسية (فألقى السحرة) أى فألقاهم ما رأوا من أمر الله تعالى بغاية السرعة وبأيسر أمر (سجدا) على وجوههم لله تعالى توبة مما صنعوا وإغاظة لفرعون بسجودهم وتعظيما لما رأوا وذلك لانهم كانوا فى الطبقة العليا من علم السحر فلما رأوا فعل موسى عليه السلام خارجا عن صناعتهم عرفوا انه ليس من السحر البتة ويقال قال رئيسهم كنا نغلب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا فلو كان هذا سحرا فأين الذى ألقيناه فاستدلوا بتغير أحوال الاجسام على الصانع القادر وبظهورها على يد موسى عليه السلام على كونه رسولا صادقا من عند الله لاجرم تابوا وآمنوا وأتوا بما هو النهاية فى الخضوع وهو السجود قال الاصبهانى سبحان الله ما أعظم شأنهم ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين فكان قائلا قال هذا فعلهم فماذا قالوا فقيل (قالوا آمنا برب هرون وموسى) ولم يقولوا آمنا برب العالمين لانّ فرعون ادّعى الربوبية فى قوله انا ربكم الاعلى والالهية فى قوله ما علمت لكم من اله غيرى فلو أنهم قالوا ذلك لكان فرعون يقول انهم آمنوا بى لا بغيرى فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة والدليل على ذلك أنهم لم يقتصروا على موسى بل قدموا هرون لانّ فرعون ربى موسى فى صغره فلو اقتصروا على موسى أو قدموا ذكره فربما توهم ان المراد فرعون وذكر هرون على الاستتباع وقيل قدموه لكبر سنه أولروى الآية فسبحان الله ما أعظم أمرهم كانوا أول النهار سحرة يقرون لفرعون بالربوبية وآخره شهداء بررة روى أنهم لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها وعن عكرمة لما خروا سجدا أراهم الله تعالى فى سجودهم منازلهم التى يصيرون اليها فى الجنة فكأنه قيل ما قال لهم فرعون حينئذ فقيل (قال) لهم (آمنتم) أى بالله (له) أى مصدقين أو متبعين لموسى (قبل أن آذن لكم) فى ذلك قال ذلك ايهاما بأنه سيأذن فيه ليقف الناس عن المبادرة الى الاتباع بين خوف العقوبة ورجاء الاذن ثم استأنف قوله معللا مخيلا لاتباعه صدا لهم عن الاقتداء بالسحرة (انه) أى موسى (لكبيركم) أى معلمكم (الذى علمكم السحر) أى فلم تتبعوه لظهور الحق بل لارادتكم شيأ من المكر وافقتموه عليه قبل حضوركم فى هذا الموطن وهذا على عادته فى تخييل أتباعه بما يوقفهم عن اتباع الحق * ولما خيلهم شرع يزيدهم حيرة بتهديد السحرة فقال مقسما (فلأقطعن) أى بسبب ما فعلتم (أيديكم) على سبيل التوزيع (وأرجلكم) أى من كل رجل يدا ورجلا وقوله (من خلاف) حال يعنى مختلفة أى الايدى اليمنى والارجل اليسرى (ولأصلبنكم) وعبر عن الاستعلاء بالظرف اشارة الى تمكينهم فى المصلوب عليه تمكين المظروف فى ظرفه فقال (فى جذوع النخل) تشنيعا لقتلكم وردعا لامثالكم (ولتعلمن أينا) يريد نفسه لعنه الله وموسى عليه السلام بدليل قوله آمنتم له واللام مع الايمان فى كتاب الله لغير الله كقوله يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين وفيه تصلف باقتداره وقهره وما ألفه وضرى به من تعذيب الناس بأنواع العذاب وتوضيع لموسى عليه السلام واستضعاف له مع الهزء به لانّ موسى لم يكن قط من التعذيب فى شئ وقيل يريد رب

موسى الذى امنوا به (أشد عذابا وأبقى) أى أدوم على مخالفته (فان قيل) ان فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية وقصدها له وآل الامر أن استغاث بموسى من شرها وعجزه عن دفعها كيف يعقل أن يهدد السحرة ويبالغ فى وعيدهم الى هذا الحد ويستهزئ بموسى فى قوله أينا أشد عذابا وأبقى (أجيب) بأنه كان فى أشد الخوف فى قلبه الا أنه يظهر الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه وترويجا لامره قال الرازى ومن استقرى أحوال العالم علم ان الفاجر قد يفعل أمثال هذه الاشياء وعما يدل على معاندته قوله انه لكبيركم الذى علمكم السحر لانه كان يعلم ان موسى ما خالطهم البتة وما لقيهم وكان يعلم من سحرته استاذ كل واحد من هو وكيف حصل ذلك العلم ثم انه كان يقول مع ذلك هذه الاشياء ثم كانه قيل فما قالوا له فقيل (قالوا) له (لن نؤثرك) أى نختارك (على ما جاءنا) على لسان موسى (من البينات) التى عايناها وعلمنا أنه لا يقدر أحد على مضادتها * ولما بدؤا بما يدل على الخالق من الفعل ترقوا الى ذكره بعد معرفته بفعله اشارة الى علو قدره فقالوا (والذى) أى ولا نؤثرك بالاتباع على الذى (فطرنا) أى ابتدأ خلقنا اشارة الى شمول ربوبية الله تعالى لهم وله ولجميع الناس وتنبيها على عجز فرعون عند من استخفه وفى جميع أقوالهم هذه من تعظيم الله تعالى عبارة واشارة وتحقير فرعون أمر عظيم * (تنبيه) * قد علم مما تقرر ان والذى معطوف على ما واعا أخروا ذكر البارى تعالى لانه من باب الترقى من الادنى الى الاعلى وقيل الواو قسم والموصول مقسم به وجواب القسم محذوف أى وحق الذى فطرنا لا نؤثرك على الحق * ولما تسبب عن ذلك انهم لا يبالون به وعلموا أن ما يفعله بهم هو باذن الله تعالى قالوا له (فاقض) أى فاصنع فى حكمك الذى تقضيه (ما أنت قاض) أى فاقض الذى أنت قاضيه ثم عللوا ذلك بقولهم (انما تقضى) أى تصنع بنا ما تريد ان قدرك الله عليه (هذه الحيوة الدنيا) النصب على الاتساع أى انما حكمك فيها على الجسد خاصة فهى ساعة تعقبها راحة ونحن لا نخاف الا ممن يحكم على الروح وان فنى الجسد فذلك هو العذاب الشديد الدائم ثم عللوا تعظيم الله تعالى واستهانتهم بفرعون بقولهم (انا آمنا بربنا) أى المحسن الينا طول أعمارنا مع اساءتنا بالكفر وغيره (ليغفر لنا) من غير نفع يلحقه بالفعل أو ضرر يدركه بالترك (خطايانا) التى قابلنا بها احسانه ثم خصوا بعد العموم فقالوا (وما أكرهتنا عليه) وبينوا ذلك بقولهم (من السحر) لنعارض المعجزة فانه كان الاكمل لنا عصيانك فيه لان الله تعالى أحق بأن يتقى (فان قيل) كيف قالوا ذلك وقد جاؤا مختارين يحلفون بعزة فرعون ان لهم الغلبة (أجيب) بأنه قد روى ان رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين اثنان من القبط والباقون من بنى اسرائيل أكرههم فرعون على تعلم السحر وروى أنهم رأوا موسى عليه السلام نائما وعصاه تحرسه فقالوا لفرعون ان الساحر اذا نام بطل سحره فهذا لا نقدر على معارضته فأبى عليهم وأكرههم على المعارضة وقيل ان الملوك فى ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ويكلفونه تعلم السحر فاذا شاخ بعثوا اليه احداثا ليعلمهم ليكون فى كل وقت من يحسنه * ولما كان التقدير فربنا أهل التقوى وأهل المغفرة عطفوا عليه مستحضرين لكماله (والله) أى الجامع لصفات الكمال (خير) جزاء منك فيما وعدتنا

به (وأبقى) ثوابا وعقابا قال أبو حيان والظاهر ان الله تعالى سلمهم من فرعون و يؤيده قوله تعالى ومن اتبعكما الغالبون وقال الرازى ليس فى القرآن ان فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما أوعدهم ولم يثبت فى الاخبار وقال البقاعى سيأتى فى آخر الحديد ما هو صريح فى نجاتهم ثم عللوا هذا الحكم بقولهم (انه) أى الامر والشأن (من يأت ربه) أى الذى رباه وأحسن اليه بأن أوجده وجعل له جميع ما يصلحه (مجرما) بأن يموت على كفره (فان له جهنم) دار الاهانة (لايموت فيها) فيستريح من عذابها بخلاف عذابك فان آخره الموت وان طال (ولا يحيى) فيها حياة مهنأة و بها يندفع ما قيل ان الجسم الحى لابد أن يبقى اما حيا أو ميتا فخلوه عن الوصفين محال وقال بعضهم ان لنا حالة ثالثة وهى كحالة المذبوح قبل أن يهدأ فلا هو حى لانه قد ذبح ذبحا لاتبقى الحياة معه ولا هو ميت لان الروح لم تفارقه بعد فهى حالة ثالثة (ومن يأته) أى ربه الذى قد أوجده ورباه (مؤمنا) أى مصدقا به (قد) ضم الى تصديق الايمان أنه (عمل) أى فى الدنيا (الصالحات) أى التى أمر بها فكان صادق الايمان مستلزما الصالح الاعمال (فأولئك) أى العالو الرتبة (لهم الدرجات العلى) جمع عليا مؤنث أعلى التى لانسبة لدرجاتك التى أوعدتناها اليها ثم بينوها بقولهم (جنات عدن) أى أعدت للاقامة وهيئت فيها أسبابها (تجرى من تحتها الانهار) أى من تحت غرفها وأسرتها وأرضها فلا يراد موضع منها الا يجرى فيه نهر الا جرى وقولهم (خالدين فيها) حال والعامل فيها معنى الاشارة أو الاستقرار (وذلك جزاء) كل (من تزكى) أى تطهر من أدناس الكفر * (تنبيه) * هذه الآيات الثلاث وهى من قوله انه من يأت ربه مجرما الى هنا يحتمل أن تكون من كلام السحرة كما تقرر وأن تكون ابتداء كلام من الله تعالى وقوله تعالى (ولقد أوحينا الى موسى ان أسر بعبادى) عطف على قوله ولقد أريناه آياتنا وفيه دليل على أن موسى عليه السلام كثر مستجيبوه فأراد الله تعالى تمييزهم من طبقة فرعون وخلاصهم فأوحى اليه أن يسرى بهم ليلا والسرى اسم لسير الليل والاسراء مثله والحكمة فى السرى بهم لئلا يشاهدهم العدو فيمنعهم عن مرادهم أو ليكون ذلك عائقا لفرعون عن طلبه وتبعه أو ليكون اذا تقارب العسكران لايرى عسكر موسى عليه الصلاة والسلام عسكر فرعون لعنه الله فلا يهابونهم وقرأ نافع وابن كثير بكسر النون وهمزة وصل بعدها من سرى والباقون بسكون النون وهمزة قطع بعدها من أسرى لغتان أى أسر ببنى اسرائيل من أرض مصر التى لبثت قلب فرعون لهم حتى أذن لهم فى مسيرهم بعد ان كان قد أبى أن يطلقهم او يكف عنهم العذاب فاقصد بهم ناحية بحر القلزم (فاضرب) أى اجعل (لهم) بالضرب بعصاك (طريقا فى البحر) والمراد بالطريق الجنس فانه كان لكل سبط طريق وقوله (يبسا) صفة لطريقا وصف به لما يؤول اليه لانه لم يكن يبسا الا بعد ان مرت عليه الصبا فجففته كما روى وقيل فى الاصل مصدر وصف به مبالغة وقيل جمع يابس كخادم وخدم وصف به الواحد مبالغة فلما امتثل ما أمر به وأيبس الله تعالى له الارض وأراد المرور بها قال الله تعالى له (لاتخاف دركا) أى ان يدركك فرعون (ولا تخشى) غرقا وقرأ حمزة بجزم الفاء ولا ألف بينها وبين

الخاء على أن يكون نهيا مستأنفا والباقون برفع الفاء وألف بينها وبين الخاء على أنه مستأنف فلا محل له من الاعراب أو أنه فى محل نصب على الحال من فاعل اضرب أى اضرب غير خائف (فأتبعهم فرعون بجنوده) أى وهو معهم على كثرتهم وعلوهم وقوتهم وعزتهم فكانوا كالتابع الذى لا معنى له بدون متبوعه والمتبوع بنو اسرائيل وذلك ان موسى خرج بهم أول الليل فأخبر فرعون بذلك فقص أثرهم والمعنى فأتبعهم فرعون نفسه ومعه جنوده فحذف المفعول الثانى وقيل ان الباء زائدة (فغشيهم) أى فرعون وقومه (من اليم) أى البحر (ماغشيهم) أى أمر لا تحتمل العقول وصفه فأهلكهم وقطع دابرهم ولم يبق منهم أحدا وما شاك أحدا من عبادنا المستضعفين شوكة (وأضل فرعون قومه) أى بدعائهم الى عبادته (وماهدى) أى ما أرشدهم وهذا تكذيب لفرعون وتهكم به فى قوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد * (تنبيه) * لا بأس بذكر شئ من هذه القصة فنقول * قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لما أمر الله تعالى موسى أن يقطع بقومه البحر وكان بنو اسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحلى والدواب لعيد يخرجون اليه خرج بهم ليلا وكان يوسف عليه الصلاة والسلام عهد اليهم عند موته أن يخرجوا بعظامه معهم من مصر فلم يعرفوا مكانها حتى دلتهم عجوز على موضع العظم فأخذوه وقال موسى عليه السلام للعجوز احتكمى أى اتطرى لك شيأ اطلبه فقالت أكون معك فى الجنة فلما خرجوا تبعهم فرعون وعلى مقدمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجنبين والقلب فلما انتهى موسى الى البحر قال هنا أمرت فأوحى الله تعالى اليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فقال لهم موسى ادخلوا فيه فقالوا كيف وهى رطبة فدعا ربه فهبت عليها الصبا فجفت فقالوا نخاف الغرق فى بعضنا فجعل بينهم كوى يرى بعضهم بعضا ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر وأقبل فرعون الى تلك الطرق فقال له قومه ان موسى قد سحر البحر كما ترى وكان على فرس حصان فأقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى فى ثلاثة وثلاثين من الملائكة فسار جبريل بين يدى فرعون فأبصر الحصان الفرس فاقتحم بفرعون على اثرها فصاحت الملائكة فى الناس الحقوا حتى اذا لحق آخرهم وكاد أولهم أن يخرج التقى البحر عليهم فغرقوا فرجع بنو اسرائيل حتى ينظروا اليهم وقالوا ياموسى ادع الله يخرجهم لنا حتى ننظر اليهم فلفظهم البحر الى الساحل وأصابوا من سلاحهم وذكر ابن عباس أن جبريل قال يا محمد لو رأيتنى وأنا أدس فى فى فرعون الماء والطين مخافة أن يتوب فهذا معنى قوله تعالى فغشيهم من اليم ماغشيهم * ولما أنعم الله تعالى على قوم موسى عليه السلام بأنواع النعم ذكر أولادهم تلك النعم فناداهم بقوله تعالى (يابنى اسرائيل) والمنادى من وجد من اليهود فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وخوطبوا بما أنعم به على أجدادهم زمن موسى عليه السلام ولا شك أن ازالة الضرر يجب تقديمها على ايصال المنفعة وايصال المنفعة الدينية أعظم من ايصال المنفعة الدنيوية فلهذا بدأ تعالى بازالة الضرر بقوله (قد أنجيناكم من عدوكم) فان فرعون كان ينزل بهم من أنواع الظلم كثيرا من القتل والاذلال والخراج والاعمال الشاقة ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية بقوله تعالى (وواعدناكم جانب الطور الايمن) أى الذى على أيمانكم فى

توجهكم

توجهكم هذا الذى وجوهكم فيه الى بيت أبيكم ابراهيم عليه السلام وهو جانبه الذى يلى البحر وناحية مكة واليمن ووجه المنفعة فيه أنه أنزل فى ذلك القرب عليهم كتابا فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية بقوله (وأنزلنا عليكم) بعد انزال هذا الكتاب فى هذه المواعدة لانعاش أرواحكم (المن) أى الترنجبين (والسلوى) أى الطير السمانى بتخفيف الميم والقصر وقوله تعالى (كلوا من طيبات ما رزقناكم) أمر اباحة ان فسر الطيب باللذيذ لان المن والسلوى من لذائذ الاطعمة وان فسر بالحلال لان الله تعالى أنزله اليهم ولم تمسه يد الآدميين فهو أمر ايجاب وقرأ حمزة والكسائى قد أنجيتكم وواعدتكم ما رزقتكم بتاء مضمومة بعد التحتية من أنجينا وبعد الدال من وعدنا وبعد القاف من رزقنا ولا ألف فى الثلاثة والباقون بالنون وألف بعدها فى الثلاثة وأسقط أبو عمرو الالف قبل العين من وعدنا وأثبتها الباقون * ثم زجرهم عن العصيان بقوله تعالى (ولا تطغوا فيه) أى فيما رزقناكم بالاخلال بشكره والتعدى بما حده الله لكم فيه من السرف والبطر والمنع عن المستحقين وقرأ الكسائى (فيحل) بضم الحاء أى ينزل والباقون بكسرها أى يجب (عليكم غضبى) أى عقوبتى (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) أى هلك وقيل شقى وقيل وقع فى الهاوية وقرأ الكسائى بضم اللام الاولى وكسرها الباقون * ولما كان الانسان محل الزلل وان اجتهد وجاء واستعطفه بقوله سبحانه (وانى لغفار) أى ستار باسبال ذيل العفو (لمن تاب) أى رجع عن ذنوبه من الشرك وما يقاربه (وآمن) بكل ما يجب الايمان به (وعمل صالحا) تصديقا لايمانه (ثم اهتدى) باستمراره على ذلك الى موته * (فائدة) * اعلم أنه تعالى وصف نفسه بكونه غافرا وغفورا وغفارا وبأن له غفرانا ومغفرة وعبر عنه بلفظ الماضى والمستقبل والامر أما وصف كونه غافرا فقوله تعالى غافر الذنب وأما كونه غفورا فقوله تعالى وربك الغفور وأما كونه غفارا فقوله تعالى وانى لغفار لمن تاب وآمن وأما الغفران فقوله تعالى غفرانك ربنا وأما المغفرة فقوله تعالى وان ربك لذو مغفرة للناس وأما صيغة الماضى فقوله تعالى فى حق داود عليه السلام فغفرنا له وأما صيغة المستقبل فقوله تعالى ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله تعالى ان الله يغفر الذنوب جميعا وقوله تعالى فى حق نبينا صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وأما لفظ الاستغفار فقوله تعالى استغفروا ربكم ويستغفرون لمن فى الارض ويستغفرون للذين آمنوا (وههنا نكتة لطيفة) وهى ان العبد له أسماء ثلاثة الظالم والظلوم والظلام اذا كثر منه الظلم ولله تعالى فى مقابلة كل واحد من هذه الاسماء اسم فكأنه تعالى قال ان كنت ظالما فأنا غافر وان كنت ظلوما فأنا غفور وان كنت ظلاما فأنا غفار فيجب على كل من ارتكب معصية كبيرة أو صغيرة أن يتوب منها لهذه الآية ودلت على أن العمل الصالح غير داخل فى الايمان لانه تعالى عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف يغاير المعطوف عليه * ولما أمر تعالى موسى عليه السلام بحضور الميقات مع قوم مخصوصين قال المفسرون هم السبعون الذين اختارهم الله تعالى من جملة بنى اسرائيل ليذهبوا معه الى الطور ليأخذوا التوراة فسار بهم موسى ثم عجل موسى عليه السلام من بينهم شوقا الى ربه

وخلف السبعين وأمرهم أن يتبعوه الى الجبل فقال تعالى له (وما أعجلك عن قومك) أى لجىء
ميعاد أخذ التوراة (ياموسى قال) مجيبا لربه تعالى (هم أولاء) أى بالقرب منى يأتون (على أثرى)
أى ماشين على آثار مشيى قبل أن ينطمس وما تقدمتهم الا بخطا يسيرة لا يعتد بها عادة وليس بينى
وبينهم الا مسافة قريبة يتقدم بها الرفقة بعضهم على بعض (وعجلت اليك رب لترضى) أى لتزداد
عنى رضا فان المسارعة الى امتثال أمرك والوفاء بعهدك يوجب مرضاتك *(تنبيه)* فى
الآية سؤالات الاول قوله تعالى وما أعجلك استفهام وهو على الله تعالى محال وأجيب عنه بانه
كان فى صورة الاستفهام ولا مانع منه الثانى أن موسى عليه السلام لا يخلو اما أن يكون ممنوعا
من ذلك التقدم أو لم يكن فان كان الاول كان التقدم معصية وان لم يكن فلا انكار وأجيب
عنه بأنه عليه السلام لعله ما وجد نصا فى ذلك فاجتهد فأخطأ فى اجتهاده فاستوجب العتاب
الثالث قوله وعجلت والعجلة مذمومة أجيب عنه بأنها ممدوحة فى الدين قال تعالى وسارعوا الى
مغفرة من ربكم الرابع قوله لترضى يدل على أنه انما فعل ذلك ليحصل الرضا واذا لم يكن راضيا عنه
وجب أن يكون ساخطا عليه وذلك لا يليق بحال الانبياء عليهم السلام أجيب عنه بأن المراد
تحصيل دوام الرضا أو زيادته كما مر الخامس قوله اليك يقتضى كون الله تعالى فى جهة لان الى
لانتهاء الغاية وأجيب عنه بأنا اتفقنا على أن الله تعالى لم يكن فى الجبل فالمراد مكان وعدك
السادس قوله تعالى ما أعجلك عن قومك سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به أن
يقول طلب زيادة رضاك أو التشوق الى كلامك وأما قوله هم أولاء على أثرى فغير منطبق عليه
كما ترى أجيب عنه بأن سؤال الله تعالى يتضمن شيئين أحدهما انكار نفس العجلة والثانى
السؤال عن سبب التقدم فأجاب عن السؤال عن العجلة لانها أهم فقال وعجلت اليك رب
لترضى (قال) تعالى (فانا) أى تسبب عن عجلتك عنهم أنا (قد فتنا) أى ابتلينا (قومك من بعدك)
أى بعد فراقك لهم بعبادة العجل وهم الذين خلفهم مع هرون وكانوا ستمائة ألف وما نجا من
عبادة العجل منهم الا اثنا عشر ألفا (وأضلهم السامرى) باتخاذ العجل والدعاء الى عبادته
فأطاعه بعضهم وامتنع بعضهم والسامرى منسوب الى قبيلة من بنى اسرائيل يقال لهم
السامرة وقيل كان علجا من أهل كرمان وقع الى مصر وقيل كان من قوم يعبدون البقر
جيران لبنى اسرائيل ولم يكن منهم واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا (فرجع موسى) لما أخبره ربه
بذلك (الى قومه) بعد ما استوفى الاربعين ذا القعدة وعشر ليال من ذى الحجة وأخذ التوراة
(غضبان) عليهم (أسفا) أى حزينا بما فعلوا (قال) أى لقومه لما رجع اليهم مستعطفا لهم (ياقوم)
وأنكر عليهم بقوله (ألم يعدكم ربكم) أى الذى أحسن اليكم (وعدا حسنا) أى بأنه ينزل
عليكم كتابا حافظا ويكفر عنكم خطاياكم وينصركم على أعدائكم الى غير ذلك من اكرامه * ولما
جرت العادة بأن طول الزمان ناقض للعزائم مغير للعهود كما قال أبو العلاء أحمد بن سليمان المعرى

لا أنسينك ان طال الزمان بنا * وكم حبيب تمادى عهده فنسى

قال لهم (أفطال عليكم العهد) أى زمن لطف الله تعالى بكم فتغيرتم عما فارقتكم عليه كما تغير أهل

الرذائل والاضلال فى العزائم لضعف العقول وقلة التدبر (أم أردتم) أى بالنقض مع قرب العهد وذكر الميثاق (أن يحل) أى يجب (عليكم) بسبب عبادة العجل (غضب من ربكم) المحسن اليكم أى وكلا الامرين لم يكن أما الاول فواضح وأما الثانى فلا يظن بأحد ارادته والحاصل انه يقول فعلتم مالا يفعله عاقل (فأخلفتم) أى فتسبب عن فعلكم ذلك ان أخلفتم (موعدى) أى وعدكم اياى بالثبات على الايمان بالله والقيام على ما أمركم به ولما تشوف السامع الى جوابهم استأنف ذكره فقال (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) أى بأن ملكنا أمرنا اذ لو خلينا وأمرنا ولم يسوّل لنا السامرى لما أخلفناه واختلف فى هذا المجيب على وجهين الاول هم الذين لم يعبدوا العجل فكأنهم قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا أى بأمر كنا نملكه وقد يضيف الرجل فعل قرينه الى نفسه كقوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر واذ قتلتم نفسا وان كان الفاعل لذلك آباءهم لاهم فكأنهم قالوا الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه ولم نقدر أيضا على مفارقتهم لانا خفنا أن يصير ذلك سببا لوقوع النفرة وزيادة الفتنة الثانى ان هذا قول عبدة العجل والمراد أن غيرنا أوقع الشبهة فى قلوبنا وفاعل السبب فاعل المسبب فخلف الوعد هو الذى أوقع الشبهة فانه كان كالمالك لنا (فان قيل) كيف كان رجوع قريب من ستمائة ألف انسان من العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعة واحدة الى عبادة عجل يعرف فسادها بالضرورة (أجيب) بأن هذا غير ممتنع فى حق البله من الناس وقرأ عاصم ونافع بفتح الميم وحمزة والكسائى بضمها والباقون بكسرها وثلاثتها فى الاصل لغات فى مصدر ملكت الشئ ثم ان القوم فسروا الضرر الحامل لهم على ذلك الفعل فقالوا (ولكنا حملنا) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بضم الحاء وكسر الميم مشددة وأبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى بفتح الحاء والميم مخففة (أوزارا) أى أثقالا (من زينة القوم) أى حلى قوم فرعون استعارها منهم بنو اسرائيل بسبب عرس وقيل استعاروها لعيد كان لهم ثم لم يردوها عند الخروج مخافة أن يعلموا به وقيل هى ما ألقاه البحر على الساحل بعد اغراقهم فأخذوه قال البيضاوى ولعلهم سموها أوزارا لانها آثام فان الغنائم لم تكن تحل بعد ولانهم كانوا مستأمنين وليس للمستأمن أن يأخذ من مال الحربى (فقذفناها) أى فى النار (فكذلك ألقى السامرى) أى ما كان معه اما من المال أو من أثر الرسول روى أن موسى عليه السلام لما واعده ربه أن يكلمه استخلف على قومه أخاه هرون وأجلهم ثلاثين يوما وذهب فصامها ليلها ونهارها ثم كره أن يكلم ربه وريح فمه متغير فمضغ شيأ من نبات الارض فقال له ربه أوما علمت ان ريح الصائم أطيب من ريح المسك ارجع فصم عشرا وقيل انهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين بأيامها وقالوا قد كملت العدة فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع اليهم ساءهم ذلك وكان هرون قد خطبهم وقال انكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوار فاحفروا حفرة والقوها فيها ثم أوقدوا عليها نارا فلا يكون لنا ولا لهم وكان السامرى قد رأى أثرا فقبض منه قبضة فمر بهرون فقال له يا سامرى ألا تلقى ما فى يدك فقال هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر ولا ألقيها على شئ الا أن تدعو الله

اذا ألقيتها أن يكون ما أريد فألقاها ودعا له هرون فقال أريد أن يكون عجلا فاجتمع ما في الحفرة وصار عجلا فهذا معنى قوله تعالى (فأخرج لهم عجلا جسدا) من ذلك الحلي المذاب له جوف ليس فيه روح (له خوار) أي صوت يسمع قال ابن عباس لا والله ما كان له صوت قط وانما كان الريح يدخل في دبره فيخرج من فيه فكان ذلك الصوت من ذلك وقيل انه صاغه ووضع التراب بعد صوغه في فمه (فقالوا) أي السامري ومن افتتن به أول ما رأوه مشيرين الى العجل (هذا الهكم واله موسى فنسي) أي فنسيه موسى وذهب يطلبه عند الطور أو فنسي السامري أي ترك ما كان عليه من الايمان (أفلا يرون) أي قالوا ذلك فتسبب عن قولهم علمهم عن رؤية (أن) أي انه (لا يرجع اليهم قولا) والاله لا يكون ابكم (ولا يملك لهم ضرا) فيخافوه كما كانوا يخافون فرعون فيقولون ذلك خوفا من ضرره (ولا نفعا) فيقولون ذلك رجاء له (ولقد قال لهم هرون من قبل) أي قبل رجوع موسى مستعطفا لهم (ياقوم انما فتنتم) أي وقع اختباركم فاختبرتم في صحة ايمانكم وصدقكم فيه وثباتكم عليه (به) أي بهذا العجل في اخراجه لكم على هذه الهيئة الخارقة للعادة وأكد لاجل انكارهم فقال (وان ربكم) أي الذي أخرجكم من العدم ورباكم بالاحسان (الرحمن) وحده الذي فضله عام ونعمه شاملة فليس على بر ولا فاجر نعمة الا وهي منه تعالى قبل أن يوجد العجل وهو كذلك بعده ومن رحمته قبول التوبة فخافوا نزع نعمه بمعصيته وارجوا اسباغها بطاعته (فاتبعوني) بغاية جهدكم في الرجوع اليه (وأطيعوا أمري) أي في الثبات على الدين (قالوا لن نبرح عليه) أي العجل (عاكفين) أي مقيمين (حتى يرجع الينا موسى) فدافعهم فهموا به وكان معظمهم قد ضل فلم يكن معه من يقوى بهم فخاف أن يجاهد بهم الكفار فلا يفيد ذلك شيأ مع ان موسى لم يأمره بجهاد من ضل وانما قال له وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فرأى من الاصلاح اعتزالهم الى أن يأتي * (تنبيه) * انما قال هرون ذلك شفقة على نفسه وعلى الخلق أما شفقته على نفسه فلأنه كان مأمورا من عند الله بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر وكان مأمورا من عند أخيه بقوله اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فلو لم يشتغل بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر لكان مخالفا لامر الله تعالى ولامر موسى وذلك لا يجوز أوحى الله تعالى الى يوشع بن نون اني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم ومائتي ألف من شرارهم فقال يارب هؤلاء الاشرار فما بال الاخيار قال انهم لم يغضبوا لغضبي وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح وهمه غير الله فليس من الله في شئ ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم وعن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد وعن عبد الله بن أبي أوفى قال خرجت أريد النبي صلى الله عليه وسلم فاذا أبو بكر وعمر عنده فجاء صغير يبكي فقال لعمر ضم الصبي اليك فانه ضال فأخذه عمر واذا أم الصبي تولول كاشفة عن رأسها جزعا على ابنها فقال النبي صلى الله عليه وسلم أدرك المرأة فناداها فجاءت وأخذت ولدها وجعلت تبكي والصبي في حجرها فالتفتت فرأت النبي صلى الله عليه وسلم فاستحيت فقال

النبي

النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك أترون هذه رحيمة بولدها قالوا يا رسول الله كفى بهذه رحمة فقال والذي نفسي بيده ان الله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها ولقد سلك هرون في موعظته أحسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل أولا بقوله انما فتنتم به ثم دعاهم الى معرفة الله ثانيا بقوله وان ربكم الرحمن ثم دعاهم ثالثا الى النبوة بقوله فاتبعوني ثم دعاهم رابعا بقوله وأطيعوا أمري وهذا هو الترتيب الجيد لانه لا بد قبل كل شيء من اماطة الاذى عن الطريق وهو ازالة الشبهات ثم معرفة الله تعالى فانها هي الاصل ثم النبوة ثم الشريعة فثبت أن هذا الترتيب أحسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل أولا * ولما ذكر تعالى ما قال هرون تشوفت النفس الى علم ما قال موسى فقيل (قال يا هرون) أنت نبي الله وأخي ووزيري وخليفتي فأنت أولى الناس بأن ألومه وأحقهم بأن أعاتبه (ما منعك اذ) أي حين (رأيتهم ضلوا) عن طريق الهدى واتبعوا سبيل الردى (أن لا تتبعني) في سيرتي من الاخذ على يد الظالم طوعا أو كرها * (تنبيه) * لا مزيدة للتأكيد لان النافي اذا زيد في كلام كان نافيا الضده مضمونه فيفيد اثباتا للمضمون ونفيا لضده فيكون ذلك في غاية التأكيد وأثبت الياء بعد النون ابن كثير وقفا ووصلا وأثبتها نافع وأبو عمرو وصلا لا وقفا وحذفها الباقون وصلا ووقفا (أفعصيت) أي فتكبرت عن اتباعي فتسبب عن ذلك أنك عصيت (أمري) وأخذ بلحيته ورأسه يجره اليه غضبا لله تعالى فكأنه قيل ما قال له فقيل (قال) مجيبا له مستعطفا بذكر أول وطن ضمهما بعد نفخ الروح مع ماله من الرقة والشفقة (يا ابن أم) فذكرهما خاصة وان كان شقيقه لانها يسوءها ما يسوءه وهي أرق من الاب وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح الميم وكسرها ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي (لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) أي بشعرهما * ثم علل ذلك بقوله (اني خشيت أن تقول) اذا شددت عليهم حتى يصل الامر الى القتال (فرقت بين بني اسرائيل) بفعلك هذا الذي لم يجد شيأ لقلة من كان معك وضعفك عن ردهم (ولم ترقب قولي) اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ولم تقل واردده ولو أدى الامر الى السيف * ولما فرغ من نصيحة أقرب الناس اليه وأحقهم بنصيحته وحفظه على الهدى اذ كان رأس الهداة تشوف السامع الى ما كان من غيره فاستأنف تعالى ذكره بقوله (قال) أي موسى عليه السلام لرأس أهل الضلال معرضا عن أخيه بعد قبول عذره باعلام ما نسب اليه سببا لسؤاله عن الحامل له عليه (فما خطبك) أي أمرك هذا العجب العظيم الذي حملك على ما صنعت وأخبرني ربي أنك أضللتهم به (يا سامري قال) السامري مجيبا له (بصرت) من البصر والبصيرة (بما لم يبصروا به) أي رأيت ما لم يره بنو اسرائيل وعرفت ما لم يعرفوا وقال ابن عباس علمت ما لم يعلموا ومنه قولهم رجل بصير أي عالم قاله أبو عبيدة واراد أنه رأى جبريل عليه السلام فأخذ من موضع حافر دابته قبضة من تراب كما قال (فقبضت) أي فكان ذلك سببا لان قبضت (قبضة) أي مرة من القبض أطلقها على المقبوض تسمية للمفعول بالمصدر (من أثر) فرس ذلك (الرسول) أي المعهود (فنبذتها) أي في الحلي الملقى في النار أو في العجل (وكذلك) أي وكما سولت لي نفسي أخذ أثره (سولت) أي حسنت وزينت (لي نفسي) نبذها في

الحلى فنبذتها وكان منها ما كان ولم يدعنى الى ذلك داع ولا حملنى عليه حامل غير التسويل

* (تنبيه) كون المراد بالرسول جبريل عليه السلام هو ما عليه عامة المفسرين وأراد بأثره التراب الذى أخذه من موضع حافر دابته لما رآه يوم فلق البحر وعن على رضى الله تعالى عنه ان جبريل عليه السلام لما نزل ليذهب بموسى الى الطور أبصره السامرى من بين الناس واختلفوا فى أنه كيف اختص السامرى برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين الناس فقال ابن عباس فى رواية الكلبى انما عرفه لانه رباه فى صغره وحفظه من القتل حين أمر فرعون بذبح أولاد بنى اسرائيل فكانت المرأة اذا ولدت طرحت ولدها حيث لا يشعر به آل فرعون فتأخذ الملائكة الولدان ويربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس فكان السامرى ممن أخذه جبريل عليه السلام وجعل كف نفسه فى فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل يختلف اليه حتى عرفه فلما رآه عرفه قال ابن جريج فعلى هذا قوله بصرت بما لم يبصروا به يعنى رأيت مالم يروه ومن فسر الابصار بالعلم فهو صحيح ويكون المعنى علمت أن تراب فرس جبريل عليه السلام له خاصية الاحياء قال أبو مسلم ليس فى القرآن تصريح بهذا الذى ذكره المفسرون فههنا وجه آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام وبأثره سنته ورسمه الذى أمر به فقد يقول الرجل ان فلانا يقفو أثر فلان ويقتص أثره اذا كان يمتثل رسمه والتقدير أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامرى باللوم والمسئلة عن الامر الذى دعاه الى اضلال القوم فى العجل قال بصرت بما لم يبصروا به أى عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول أى شيأ من دينك فقذفته أى طرحته فعند ذلك أعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب فى الدنيا والآخرة وانما أورد لفظ الاخبار عن غائب كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له ما يقول الامير فى كذا أو بماذا يأمر الامير وأما دعاؤه ان موسى رسول مع جحده وكفره فعلى مذهب من حكى الله فيه قوله يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون وان لم يؤمنوا بالانزال قال الرازى وهذا القول الذى ذكره أبو مسلم ليس فيه الا أنه مخالف للمفسرين ولكنه أقرب الى التحقيق لوجوه أحدها أن جبريل عليه السلام ليس معهودا باسم الرسول ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف اشارة اليه فاطلاق لفظ الرسول لارادة جبريل كأنه تكليف بعلم الغيب وثانيها أنه لا بد فيه من الاضمار وهو قبضة من أثر حافر دابة الرسول والاضمار خلاف الاصل وثالثها أنه لا بد من التعسف فى بيان أن السامرى كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل ومعرفته وكيف عرف أن تراب حافر فرسه له هذا الاثر والذى ذكروه من أن جبريل هو الذى رباه فبعيد لان السامرى ان عرف أنه جبريل حال كمال عقله عرف قطعا ان موسى نبى صادق فكيف يحاول الاضلال وان كان ما عرفه حال البلوغ فأى نفعه كون جبريل مربيا له حال الطفولية فى حصول تلك المعرفة * ثم ان موسى عليه السلام لما سمع من السامرى ما ذكر (قال) له (فاذهب) أى فتسبب عن فعلك ان أقول لك اذهب من بيننا وحيث ذهبت (فان لك فى الحياة) أى ما دمت حيا (أن تقول) لكل من

برأيه (لامساس) أى لاتمسنى ولا أمسك فلا تقدر أن تنفك عن ذلك فكان يهيم فى البرية مع الوحوش والسباع واذا مس أحدا أومسه أحد حما جميعا عاقبه الله تعالى بذلك وكان اذا لقى أحدا يقول لامساس أى لاتقربنى ولا تمسنى وقال ابن عباس لامساس لك ولولدك حتى ان بقاياهم اليوم يقولون ذلك واذا مس أحد من غيرهم أحدا منهم حما جميعا فى ذلك الوقت (وان لك) بعد الممات (موعدا) للثواب ان تبت والعقاب ان أبيت (لن تخلفه) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر اللام أى لن تغيب عنه والباقون بفتحها أى بل تبعث اليه فلا انفكاك لك عنه كما أنك فى الحياة لا تقدر أن تنفك عن النفرة من الناس فاختر لنفسك ما يحلو * ولما ذكر ما للاله الحق من القدرة التامة فى الدارين أتبعه عجز العجل فقال (وانظر الى الهك) أى بزعمك (الذى ظلت) أى دمت فى مدة يسيرة جدا ايما أشار اليه تخفيف التضعيف فان أصله ظللت بلامين أولاهما مكسورة حذفت تخفيفا (عليه عاكفا) أى مقيما تعبده (لنحرقنه) أى بالنار وبالمبرد قال البقاعى كما سلف عن نص التوراة وكان معنى ذلك أنه أحماه حتى لان فهان على المبارد انتهى (ثم لننسفنه) أى لنذرينه اذا صار سحالة (فى اليم) أى فى البحر الذى أغرق الله تعالى فيه آل فرعون ثم يجمع الله تعالى سحالته التى هى من حليهم فيحميها فى نار جهنم ويكويهم بها ويجعلها من أشد العذاب عليهم وأكد الفعل اظهارا لعظمة الله تعالى الذى أمره بذلك وتحقيقا للصدق فى الوعد فقال (نسفا) قال الجلال المحلى وفعل موسى عليه السلام بعد ذبحه ما ذكره انتهى وعلى هذا لا يصح أن يبرد بالمبرد قال الرازى ويمكن أن يقال صار لحما ودما وذبح ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها * ولما أراهم بطلان ما هم عليه بالعيان أخبرهم بالحق على وجه الحصر فقال (انما الهكم الله) أى الجامع لصفات الكمال ثم كشف المراد من ذلك وحققه بقوله (الذى لا اله الا هو) أى لا يصلح لهذا المنصب أحد غيره لانه (وسع كل شئ) وقوله (علما) تمييز محول عن الفاعل أى أحاط علمه بكل شئ فكل شئ اليه مفتقر وهو غنى عن كل شئ وأما العجل الذى عبدوه فلا يصلح للالهية بوجه ولا فى عبادته شئ من حق * ولما شرح الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون أولا ثم مع السامرى ثانيا على هذا الاسلوب الاعظم والسبيل الاقوم كان كأنه قيل هل يعاد شئ من القصص على هذا الاسلوب البديع والمنال الرفيع فقيل نعم (كذلك) أى مثل هذا القص العالى فى هذا النظم العزيز الغالى كقصة موسى ومن ذكر معه (نقص عليك من أنباء) أى أخبار (ما قد سبق) من الامم زيادة فى علمك واجلالا لمقدارك وتسلية لقلبك واذهابا لحزنك بما اتفق للرسل من قبلك وتكثيرا لبيناتك وزيادة فى معجزاتك وليعتبر السامع ويزداد المستبصر فى دينه بصيرة وتتأكد الحجة على من عاند وكابر (وقد آتيناك) أى أعطيناك تشريفا لك وتعظيما لقدرك (من لدنا) أى من عندنا (ذكرا) أى كتابا هو القرآن وفى تسمية القرآن بالذكر وجوه أحدها أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج اليه الناس من أمر دينهم ودنياهم وثانيها أنه يذكر فيه أنواع آلاء الله ونعمائه وفيه التذكير والموعظة وثالثها فيه الذكر والشرف لك ولقومك كما قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك وسمى الله تعالى كل كتاب

أنزله ذكرا فقال فاسئلوا أهل الذكر والتنكير فيه للتعظيم فانه مشتمل على أسرار كتب الله تعالى المنزلة (من أعرض عنه) فلم يؤمن به (فانه يحمل يوم القيامة وزرا) أي حملا ثقيلا من الاثم (خالدين فيه) أي في عذاب الوزر (وساء) أي وبئس (لهم) أي ذلك الحمل (يوم القيامة) وقوله (حملا) تمييز مفسر للضمير في ساء والمخصوص بالذم محذوف تقديره وزرهم واللام للبيان ومن أقبل عليه كان مذكرا له بكل ما يريد من العلوم النافعة ويدل من يوم القيامة (يوم ينفخ في الصور) أي القرن النفخة الثانية وقرأ أبو عمرو بنونين الاولى مفتوحة وضم الفاء على اسناد الفعل الى الآمر به تعظيما له أو الى النافخ والباقون بياء مضمومة وفتح الفاء (ونحشر المجرمين) أي الكافرين (يومئذ زرقا) أي عيونهم مع سواد وجوههم لان زرقة العيون أبغض شئ من ألوان العيون الى العرب لان الروم أعداؤهم وهم زرق العيون ولذلك قالوا في صفة العدو أسود الكبد أصهب السبال أزرق العين وقيل المراد العمى لان حدقة من يذهب نور بصره تزرق وقيل عطاشا حال كونهم (يتخافتون) أي يخفضون أصواتهم (بينهم) لما يملأ صدورهم من الرعب والهول والخفت خفض الصوت واخفاؤه (ان) أي يقول بعضهم لبعض ما (لبثتم) أي مكثتم (الا عشرا) أي من الليالي بأيامها في الدنيا وقيل في القبور وقيل بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة قالوا ذلك اما استقصارا لمدة الراحة في جنب ما بدا لهم من المخاوف لان أيام السرور قصار واما لانها ذهبت عنهم وانقضت والذاهب وان طالت مدته قصيرة بالانتهاء ومنه توقيع عبد الله ابن المعتز أطال الله تعالى بقاءك كفى بالانتهاء قصرا واما لاستطالتهم الآخرة فانه يستقصر اليها عمر الدنيا ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس الى لبثهم في الآخرة كما قال تعالى كم لبثتم في الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسئل العادين واما غلطا ودهشة قال الله تعالى (نحن أعلم) أي من كل أحد (بما يقولون) في ذلك اليوم أي ليس كما قالوا (اذ يقول أمثلهم) أي أعدلهم (طريقة) أي رأيا أو عملا في الدنيا فيما يحسبون (ان) أي ما (لبثتم الا يوما) أي مبدأ الآحاد لا مبدأ العقود كما قال تعالى في آية أخرى يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون فلا يزالون في افك وصرف عن الحق في الدارين لان الانسان يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه * ولما وصف سبحانه وتعالى أمر يوم القيامة حكى سؤال من لا يؤمن بالحشر فقال تعالى (ويسئلونك) يا أشرف الخلق (عن الجبال) كيف تكون يوم القيامة قال الضحاك نزلت في مشركي مكة قالوا يا محمد كيف تكون الجبال يوم القيامة وكان سؤالهم على سبيل الاستهزاء ولما كان مقصودهم من هذا السؤال الطعن في الحشر والنشر فلا جرم أمره الله تعالى بالجواب مقرونا بحرف التعقيب بقوله (فقل) لهم (ينسفها ربي نسفا) لان تأخير البيان في مثل هذه المسئلة الاصولية غير جائز وأما المسائل الفروعية فجائز فلذلك ذكر هنالك في نحو قوله تعالى يسئلونك ماذا ينفقون قل العفو وقوله تعالى ويسئلونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير بغير حرف التعقيب والنسف التذرية وقيل القلع الذي يقلعها من أصلها ويجعلها هباء منثورا قال الخليل ينسفها يذهبها ويطيرها وفي ضمير (فيذرها) قولان

أحدهما أنه ضمير الارض أضمرت للدلالة عليها كقوله تعالى ما ترك على ظهرها من دابة والثاني ضمير الجبال وذلك على حذف مضاف أي فيذرمر اكزها ومقارها ويذر يجوز أن يكون بمعنى يخليها فيكون (قاعا) حالا وأن يكون بمعنى يترك التصييرية فيتعدى لاثنين فقاعا ثانيهما والقاع هو المكان المستوى وقيل الارض التى لا بناء فيها ولا نبات وفى قوله تعالى (صفصفا) قولان أحدهما الارض الملساء والثاني المستوية والقاع والصفصف قريبان من الترادف وجمع القاع أقوع وأقواع وقيعان (لا ترى فيها) أي الارض أو مواضع الجبال (عوجا) أي انخفاضا (ولا أمتا) أي ارتفاعا بوجه من الوجوه وعبر هنا فى العوج بالكسر وهو للمعانى ولم يعبر بالفتح الذى توصف به الاعيان فان الارض أو مواضع الجبال أعيان لا معان نفيا للاعوجاج على أبلغ وجه بمعنى انك لو جمعت أهل الخبرة بتسوية الارض لاتفقوا على الحكم باستوائها ثم لو جمعت أهل الهندسة فحكموا بمقاييسهم العلمية فيها لحكموا بمثل ذلك (يومئذ) أي يوم اذ نسفت الجبال (يتبعون) أي الناس بعد القيام من القبور بغاية جهدهم (الداعى) أي الى المحشر وهو اسرافيل يضع الصور على فيه ويقف على صخرة بيت المقدس ويقول أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلموا الى عرض الرحمن (لا عوج له) أي الداعى فى شئ من قصدهم اليه لانه ليس فى الارض ما يحوجهم الى التعويج ولا يمنع الصوت من النفوذ على السواء وقيل لا عوج لدعائه وهو من المقلوب أي لا عوج له عن دعاء الداعى لا يزيغون عنه يمينا ولا شمالا ولا يقدرون عليه بل يتبعونه سراعا (وخشعت الاصوات) أي سكنت وذلت وتطامنت لخشوع أهلها (للرحمن) الذى عمت نعمه فيرجى كرمه وتخشى نقمه (فلا) أي فتسبب عن خشوعها أنك لا (تسمع الاهمسا) أخفى ما يكون من الاصوات وقيل أخفى شئ من أصوات الاقدام فى نقلها الى المحشر كصوت أخفاف الابل فى مشيها (يومئذ) أي اذ كان ما تقدم (لا تنفع الشفاعة) أحدا (الا من أذن له الرحمن) أن يشفع له (ورضى له قولا) ولو الايمان المجرد قال ابن عباس يعنى قال لا اله الا الله فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن * ولما نفى أن تنفع شفاعة بغير اذنه علل ذلك كما سلف فى آية الكرسى بقوله (يعلم ما بين أيديهم) أي الخلائق من أمور الآخرة (وما خلفهم) من أمور الدنيا وقيل ما بين أيديهم ما قدموا وما خلفهم ما خلفوا من الاعمال (ولا يحيطون به علما) أي لا يحيط علمهم بمعلوماته وقيل الضمير الى ما أي يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وهم لا يعلمونه وقيل راجع الى الله تعالى أي ولا يحيطون بالله علما * ولما ذكر خشوع الاصوات أتبعه خضوع ذويها فقال (وعنت الوجوه) أي ذلت وخضعت فى ذلك اليوم ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره وخص الوجوه بالذكر مع أن المراد الاشخاص لشرف الوجوه ولانها أول ما يظهر فيها الذل (للحى) الذى هو مطلع على الدقائق والجلائل (القيوم) الذى لا يغفل عن التدبير ومجازاة كل نفس بما كسبت روى ابن أبي أمامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اطلبوا اسم الله الاعظم فى هذه السور الثلاث البقرة وآل عمران وطه قال الرازى فوجدنا المشترك فى السور الثلاث الله لا اله الا هو الحى القيوم (وقد خاب) أي خسر خسارة

ظاهرة (من حمل ظلما) قال ابن عباس خسر من أشرك بالله والظلم الشرك * ولما شرح الله تعالى
أحوال القيامة ختم الكلام فيها بشرح أحوال المؤمنين فقال (ومن يعمل من الصالحات)
أى التى أمره الله تعالى بها بحسب طاقته لانه لن يقدر الله أحد حق قدره ولن يشاد الدين أحد
الا غلبه (وهو مؤمن) ليكون بناؤها على الاساس كما فى قوله تعالى ومن يأته مؤمنا قد عمل
الصالحات (فلا يخاف ظلما) أى بزيادة فى سيا ته (ولا هضما) أى بنقص من حسناته قاله ابن
عباس وقيل لا يؤاخذ بذنب لم يعمله ولا تبطل حسنة عملها وعبر تعالى بالفاء اشارة الى قبول
الاعمال وجعلها سببا لذلك الحال وأما غير المؤمن فلو عمل أمثال الجبال لم يكن لها وزن وقوله
تعالى (وكذلك) معطوف على قوله تعالى وكذلك نقص أى ومثل انزال ما ذكر (أنزلناه)
أى القرآن (قرآنا) جامعا لجميع المعانى المقصودة ثم وصفه تعالى بامرين أحدهما قوله
تعالى (عربيا) أى بلسان العرب ليفهموه ويقفوا على اعجازه وحسن نظمه وخروجه عن كلام
البشر الثانى قوله تعالى (وصرفنا فيه من الوعيد) أى كررناه وفصلناه ويدخل تحت الوعيد
بيان الفرائض والمحارم لان الوعد بهما يتعلق بشكر يره وتصريفه يقتضى بيان الاحكام
فلذلك قال تعالى (لعلهم يتقون) أى يجتنبون الشرك والمحارم وترك الواجبات فتصير
التقوى لهم ملكة (أو يحدث لهم ذكرا) أى عظة واعتبارا حين يسمعونها فيثبطهم عنها ولهذه
النكتة أسند التقوى اليهم والاحداث الى القرآن (فتعالى الله) فى ذاته وصفاته عن مماثلة
المخلوقين لا يماثل كلامه كلامهم كما لا يماثل ذاته وصفاته ذاتهم وصفاتهم (الملك) الذى
لا يعجزه شئ فلا ملك فى الحقيقة غيره (الحق) أى الثابت الملك فلا زوال لكونه ملكا فى زمن ما
ولعظمة ملكه وحقية ذاته وصفاته صرف خلقه على ما هم عليه من الامور المتباينة * ولما
شرح الله تعالى كيفية نفع القرآن للمكلفين وبين أنه سبحانه وتعالى متعال عن كل ما لا ينبغى
موصوف بالاحسان والرحمة ومن كان كذلك صان رسوله عن السهو والنسيان فى امر الوحى
فلذلك قال تعالى (ولا تعجل بالقرآن) أى بقراءته (من قبل أن يقضى اليك وحيه) من الملك
النازل به اليك من حضرتنا كما انا لم نعجل بانزاله عليك جملة بل رتلناه لك ترتيلا ونزلناه اليك
تنزيلا مفصلا تفصيلا وموصلا توصيلا فاستمع لمطلقيا لجميع ما ألقاه اليه ولا تساوقه بالقراءة
فاذا فرغ فاقرأه فانا نجمعه فى قلبك ولا نكلفك المساوقة بتلاوته (وقل رب) أيها المحسن الى
بافاضة العلوم على (زدنى علما) أى سل الله زيادة العلم بدل الاستعجال فان ما أوحى اليك تناله
لا محالة روى الترمذى عن أبى هريرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انفعنى
بما علمتنى وعلمنى ما ينفعنى وزدنى علما والحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من حال أهل النار وكان
ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية قال اللهم زدنى علما ويقينا * ولما قال تعالى كذلك نقص عليك من
أنباء ما قد سبق ذكر هذه القصة انجازا للوعد فقال تعالى (ولقد عهدنا) بما لنا من العظمة (الى
آدم) أبى البشر أى وصيناه أن لا يأكل من الشجرة وانما عطفها على قوله تعالى وصرفنا فيه من
الوعيد للدلالة على أن أساس بنى آدم على النسيان وعرقهم راسخ بالنسيان (من قبل) أى فى

زمن

زمن من الازمان الماضية قبل هؤلاء الذين تقدم في هذه السورة ذكر نسيانهم واعراضهم (فنسى) عهدنا وأكل منها (ولم نجد له عزما) أى تصميم رأى وثبات على الامر اذلو كان ذا عزيمة وتصلب لم يزله الشيطان ولم يستطع تغريره قال البيضاوى ولعل ذلك كان فى بدء أمره قبل أن يجرب الامور ويذوق أريها وشريها انتهى والارى العسل والشرى الحنظل قال البغوى قال أبو أمامة الباهلى لو وزن حلم آدم بحلم ولده لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزما وقال البيضاوى وعن النبى صلى الله عليه وسلم لو وزنت أحلام بنى آدم بحلم آدم لرجح حلمه وقد قال تعالى ولم نجد له عزما قال ابن الاثير والحلم بالكسرة الاناة والتثبت فى الامور (فان قيل) ما المراد بالنسيان (أجيب) بأنه يجوز أن يراد بالنسيان الذى هو نقيض الذكر وانه لم يعن بالوصية العناية الصادقة ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس حتى تولد من ذلك النسيان ولم يكن النسيان فى ذلك الوقت مرفوعا عن الانسان بل كان يؤاخذ به وانما رفع عنا وكان الحسن يقول ما عصى أحد قط الا بنسيان وان يراد الترك وانه ترك ما أوصى به من الاحتراز عن الشجر وأكل ثمرتها وقيل نسى عقوبة الله تعالى وظن أنه نهى تنزيه * (تنبيه) * هذا هو المرة الخامسة من قصة آدم فى القرآن أولها فى البقرة ثم فى الاعراف ثم فى الحجر ثم فى الكهف ثم ههنا وقوله تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس) تقدم الكلام على ذلك مفصلا فى سورة البقرة وقوله تعالى (أبى) جملة مستأنفة لانها جواب سؤال مقدر أى ما منعه من السجود فاجيب بأنه أبى ومفعول الاباء يجوز أن يكون مرادا وقد صرح به فى الآية الاخرى فى قوله تعالى أبى أن يكون من الساجدين وحسن حذفه هنا كون العامل رأس فاصلة ويجوز أن لا يراد أصلا وان المعنى أنه من أهل الاباء والعصيان من غير نظر الى متعلق الاباء ما هو (فقلنا) بسبب امتناعه بعد أن حلمنا عليه ولم نعاجله بالعقوبة (يا آدم ان هذا) الشيطان الذى تكبر عليك (عدو لك ولزوجك) حواء بالمد لانها منك وسبب تلك العداوة من وجوه الاول ان ابليس كان حسودا فلما رأى آثار نعم الله فى حق آدم حسده فصار عدوا له الثانى ان آدم عليه السلام كان شابا عالما لقوله تعالى وعلم آدم الاسماء كلها وابليس كان شيخا جاهلا لانه أثبت فضيلته بفضيلة أصله وذلك جهل والشيخ الجاهل أبدا يكون عدوا للشاب العالم الثالث ان ابليس مخلوق من النار وآدم مخلوق من الماء والتراب فبين أصليهما عداوة فبقيت تلك العداوة (فان قيل) لم قال تعالى (فلا يخرجنكما من الجنة) مع أن المخرج لهما منها هو الله تعالى (أجيب) بأنه لما كان هو الذى فعل بوسوسته ما ترتب عليه الخروج صح ذلك (فان قيل) لم قال تعالى (فتشقى) أى فتتعب وتنصب فى الدنيا ولم يقل فتشقيا (أجيب) بوجهين أحدهما أن فى ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم كما أن فى ضمن سعادته سعادتهم فاختص الكلام باسناده اليه دونها مع المحافظة على كونه رأس فاصلة وعن سفيان بن عيينة قال لم يقل فتشقيا لانها داخلة معه فوقع المعنى عليهما جميعا وعلى أولادهما جميعا كقوله تعالى يا أيها النبى اذا طلقتم النساء ويا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم فدخلوا فى المعنى معه وانما كلم النبى وحده الثانى أريد

بالشقاء التعب فى طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة لان الرجل هو الساعى على زوجته روى أنه اهبط الى آدم ثور احمر فكان يحرث عليه و يمسح العرق عن جبينه ويحتاج بعد الحرث الى الحصد والطحن والخبز وغير ذلك مما يحتاج اليه وعن الحسن قال عنى به شقاء الدنيا فلا تلقى ابن آدم الا شقيا ناصبا أى ولو أراد شقاوة الآخرة ما دخل الجنة بعد ذلك ولما كان الشبع والرى والكسوة والكن هى الامور التى يدور عليها كفاف الناس ذكر تعالى حصول هذه الاشياء فى الجنة من غير حاجة الى الكسب والطلب وذكرها بلفظ النفى لاضدادها بقوله تعالى (ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ) أى تعطش (فيها ولا تضحى) أى لا يصل لك حر شمس الضحى لانتفاء الشمس فى الجنة بل أهلها فى ظل ممدود وهذه الاشياء كأنها تفسير للشقاء المذكور فى قوله تعالى فتشقى (فوسوس) أى فتعقب تحذيرنا هذا من غير بعد فى زمان أن وسوس (اليه الشيطان) المحترق المطرود وهو ابليس اى أنهى اليه الوسوسة وأما وسوس له فمعناه لاجله فلذلك عدى تارة باللام فى قوله تعالى فوسوس لهما وتارة بالى ثم بين تعالى تلك الوسوسة ماهى بقوله تعالى (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) أى على الشجرة التى ان أكلت منها بقيت مخلدا (وملك لا يبلى) أى لا يبيد ولا يفنى قال الرازى واقعة آدم عجيبة وذلك لان الله تعالى رغبه فى دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله تعالى فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ورغبه ابليس أيضا فى دوام الراحة بقوله تعالى هل أدلك على شجرة الخلد وفى انتظام المعيشة بقوله وملك لا يبلى فكان الشئ الذى رغب الله تعالى فيه آدم هو الذى رغبه ابليس فيه الا أن الله تعالى وقف ذلك الامر على الاحتراس عن تلك الشجرة وابليس وقفه على الاقدام عليها ثم ان آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن الله مولاه وناصره ومربيه وعلمه بأن ابليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته كيف قبل فى الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول ابليس مع علمه بعداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه الناصر له والمربى ومن تأمل هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الامر ان هذه القصة كالتنبيه على انه لا دافع لقضاء الله ولا مانع له منه وان الدليل وان كان فى غاية الظهور ونهاية القوة فانه لا يحصل النفع به الا اذا قضى الله ذلك وقدره انتهى ويدل على ذلك ما ثبت فى الحديث الصحيح روى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى قال موسى أنت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك فى جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك الى الارض فقال آدم أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الالواح فيها بيان كل شئ وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن يخلقنى قال موسى بأربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أفتلومنى على ان عملت عملا كتب الله على ان أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى وروى مسلم عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الله مقادير الخلائق قبل أن

يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء وقال كل شئ بقدر حتى العجز والكيس ثم كان ابليس قال لآدم بلسان الحال أو المقال مشيرا الى الشجرة التى نهى عنها ما بينك و بين الملك الدائم الا أن تأكل منها (فأكلا) أى فتسبب عن قوله وتعقب ان أكل (منها) هو وزوجته متبعين لقوله ناسيين ما عهد اليهما لامر قدره الله فى الازل (فبدت لهما سوآتهما) قال ابن عباس عريا من النور الذى كان الله ألبسهما حتى بدت فروجهما وانما جمع سوآتهما كما قال صغت قلوبكما أى فظهر لكل منهما قبله وقبل الآخر ودبره وسمى كل منهما سوأة لان انكشافه يسوء صاحبه (وطفقا يخصفان) أى أخذا يلزقان (عليهما من ورق الجنة) ليسترا به قال ابن عادل وهو ورق التين (وعصى آدم) بالاكل من الشجرة وان كان انما فعل المنهى نسيانا لان عظم مقامه وعلو رتبته يقتضيان له مزيد الاعتناء ودوام المراقبة (ربه) المحسن اليه بما لم ينله أحد من بنيه من تصويره له بيده واسجاد ملائكته له ومعاداة من عاداه (فغوى) أى فعل ما لم يكن له فعله وقيل أخطأ طريق الحق وقيل حيث طلب الخلد بأكل ما نهى عنه فخاب ولم ينل مراده وصار من العز الى الذل ومن الراحة الى التعب قال ابن قتيبة يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال آدم عاص لانه انما يقال عاص لمن اعتاد فعل المعصية كالرجل يخيط ثوبه فيقال خاط ثوبه ولا يقال هو خياط حتى يعاوده و يعتاده * (تنبيه) * تمسك بعضهم بقوله تعالى وعصى آدم ربه فغوى فى صدور الكبيرة عنه من وجهين الاول ان العاصى اسم للذم فلا يطلق الا على صاحب الكبيرة لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدا فيها ولا معنى لصاحب الكبيرة الا من فعل فعلا يعاقب عليه الثانى أن الغواية والضلالة اسمان مترادفان والغى ضد الرشاد ومثل هذا لا يتناول الا الفاسق المنهمك فى فسقه وأجيب بأن المعصية مخالفة الامر والامر قد يكون بالواجب وقد يكون بالمندوب فانك تقول أمرته فعصانى وأمرته بشرب الدواء فعصانى واذا كان كذلك لم يمتنع اطلاق اسم العصيان على آدم بكونه للمندوب وان كان وصف تارك المندوب بأنه عاص مجاز وأجاب أبو مسلم الاصبهانى بأنه عصى فى مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف وكذا القول فى غوى قال الرازى والاولى عندى فى هذا الباب أن يقال هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد تقدم شرح ذلك فى البقرة وقيل بل أكل من الشجرة متأولا وهو لا يعلم أن الشجرة التى نهى الله عنها شجرة مخصوصة لا على الجنس ولهذا قيل انما كانت التوبة من ترك التحفظ لا من المخالفة فهو كما قيل حسنات الابرار سيآت المقربين أى يرونها بالاضافة الى علو أحوالهم كالسيآت (ثم اجتباه ربه) أى اختاره واصطفاه (فتاب عليه) أى قبل توبته وأعاد عليه بالعفو والمغفرة (وهدى) أى هداه لرشده حتى رجع الى الندم والاستغفار * ولما كانت دار الملوك لا تحتمل مثل ذلك وان كان قد هيأه بالاجتباء لها قال على طريق الاستئناف (قال) الرب سبحانه وتعالى الذى انتهكت حرمة داره (اهبطا) أى آدم وحواء بما اشتملتما عليه من ذريتكما (منها) أى الجنة (جميعا) وقيل الخطاب لآدم ومعه ذريته ولابليس فقوله تعالى (بعضكم لبعض عدو) يكون على التفسير الاول بعض الذرية لبعض عدو

من ظلم بعضهم لبعض وعلى الثانى آدم وذريته وابليس وذريته وقوله تعالى (فاما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما المزيدة (يأتينكم منى هدى) أى كتاب ورسول (فمن اتبع هداى) الذى أسعفته به من أوامر الكتاب والرسول (فلا يضل) أى بعد ذلك عن طريق السداد فى الدنيا (ولا يشقى) فى الآخرة قال ابن عباس من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله تعالى من الضلالة ووقاه الله تعالى يوم القيامة سوء الحساب وذلك ان الله تعالى يقول فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ٭ ولما وعد تعالى من اتبع الهدى اتبعه بوعيد من أعرض فقال تعالى (ومن أعرض عن ذكرى) أى عن القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه (فان له معيشة ضنكا) والضنك أصله الضيق والشدة وهو مصدر فكأنه قال له معيشة ذات ضنك واختلف فى ذلك فقال أبو هريرة وأبو سعيد الخدرى وابن مسعود المراد بالمعيشة الضنك عذاب القبر وروى أبو هريرة أن عذاب القبر للكافر قال قال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ليسلط عليه فى قبره تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين تسعة وتسعون حية لكل حية تسعة رؤس يخدشونه ويلسعونه وينفخون فى جسمه الى يوم يبعثون وقال الحسن وقتادة والكلبى هو الضيق فى الآخرة فى جهنم فان طعامهم الضريع والزقوم وشرابهم الحميم والغسلين فلا يموتون فيها ولا يحيون وقال ابن عباس المعيشة الضنك هى أن يضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدى لشئ منها وعن عطاء المعيشة الضنك هى معيشة الكافر لانه غير موقن بالثواب والعقاب وروى عن على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر فى الشدة وان لا يتوصل الى قوته الا بمعصية الله وذلك ان مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله تعالى وعلى قسمته فهو ينفق ما رزقه الله تعالى بسماح وسهولة فيعيش عيشا رغيدا كما قال تعالى فلنحيينه حياة طيبة والمعرض عن الدين مستول عليه الحرص الذى لا يزال يطمح به الى الازدياد من الدنيا مسلط عليه الشح الذى يقبض يده عن الانفاق فعيشه ضنك وحاله مظلمة قال صلى الله عليه وسلم لو كان لابن آدم واد من ذهب لابتغى اليه ثانيا ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب متفق عليه قال بعض الصوفية لا يعرض أحد عن ذكر ربه الا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه وقال تعالى استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا الآية وقال تعالى وان لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا ٭ ثم ذكر حال المعرض فى الآخرة بقوله تعالى (ونحشره يوم القيامة أعمى) قال ابن عباس اذا خرج من القبر خرج بصيرا فاذا سيق الى المحشر عمى ولعله يجمع بذلك بين هذا وبين قوله تعالى أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا وقال عكرمة عمى عليه كل شئ الا جهنم وفى لفظ قال لا يبصر الا النار وعن مجاهد المراد بالعمى عدم الحجة ويؤيد الاول قوله تعالى (قال رب لم حشرتنى أعمى) فى هذا اليوم (وقد كنت بصيرا) أى فى الدنيا أو فى أول هذا اليوم فكأنه قيل بم أجيب فقيل (قال) له ربه (كذلك) أى مثل ذلك فعلت ثم فسره فقال (أتتك آياتنا) واضحة نيرة (فنسيتها) فعميت

عنها وتركتها غير منظور اليها (وكذلك) أى ومثل تركك اياها (اليوم تنسى) أى تترك فى العمى والعذاب (وكذلك) أى ومثل هذا الجزاء الشديد (نجزى من أسرف) فى متابعة هواه فتكبر عن متابعة أوامرنا (ولم يؤمن) بل كذب (بآيات ربه) وخالفها (ولعذاب الآخرة أشد) مما نعذبهم به فى الدنيا والقبر لعظمه (وأبقى) فانه غير منقطع * ولما بين الله تعالى أن من أعرض عن ذكره كيف يحشر يوم القيامة اتبعه بما يعتبر به المكلف من الافعال الواقعة فى الدنيا عن كذب الرسل فقال (أفلم يهد) أى يبين بيانا يقود الى المقصود (لهم) أى هؤلاء الذين أرسلت اليهم أعظم رسلى وفاعل يهد مضمون قوله (كم أهلكنا) وقال أبو البقاء الفاعل مادل عليه أهلكنا أى اهلاكنا والجملة مفسرة له وقال الزمخشرى فاعل لم يهد الجملة بعده يريد ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه ونظيره قوله تعالى وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين أى تركنا عليه هذا الكلام ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول انتهى وكم خبرية مفعول أهلكنا (قبلهم من القرون) أى بتكذيبهم رسلنا حال كونهم (يمشون) أى هؤلاء العرب من أهل مكة وغيرهم (فى مساكنهم) أى فى سفرهم الى الشأم ويشاهدون آثار هلاكهم (ان فى ذلك) أى الاهلاك العظيم الشأن المتوالى فى كل أمة (لآيات) عظيمات بينات (لاولى النهى) أى لذوى العقول الناهية عن التغافل والتعامى * ولما هددهم باهلاك الماضين ذكر سبب التأخير عنهم بقوله تعالى (ولولا كلمة) أى عظيمة قاضية نافذة (سبقت) أى فى أزل الآزال (من ربك) الذى عودك بالاحسان بتأخير العذاب عنهم الى الآخرة فانه يعامل بالحلم والاناة (لكان) أى العذاب (لزاما) أى لازما أعظم لزوم لهم فى الدنيا مثل ما نزل بعاد وثمود ولكن نمدلهم لترد من شئنا منهم ونخرج من أصلاب بعضهم من يؤمن وانما فعلنا ذلك اكراما لك ورحمة لامتك فيكثر اتباعك فيعملوا الخيرات فيكون ذلك زيادة فى شرفك والى ذلك الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا وفى رفع قوله تعالى (وأجل مسمى) وجهان أظهرهما عطفه على كلمة أى ولولا أجل مسمى لكان العذاب لازما لهم وهذا ما صدر به البيضاوى والثانى أنه معطوف على الضمير المستتر فى كان وقام الفصل بخبرها مقام التأكيد واقتصر الجلال المحلى على هذا وجوزه الزمخشرى والبيضاوى وفى هذا الاجل المسمى قولان أحدهما ولولا أجل مسمى فى الدنيا لذلك العذاب وهو يوم بدر والثانى ولولا أجل مسمى فى الآخرة لذلك العذاب وهذا كما قال الرازى أقرب قال أهل السنة لله تعالى بحكم المالكية أن يخص من شاء بفضله ومن شاء بعذابه من غير علة اذ لو كان فعله لعلة لكانت تلك العلة اما قديمة فيلزم قدم الفعل واما حادثة فيلزم افتقارها الى علة أخرى ويلزم التسلسل ثم انه تعالى لما أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه لا يهلك أحدا قبل استيفاء أجله أمره بالصبر فقال (فاصبر على ما يقولون) لك من الاستهزاء وغيره وهذا كان فى أول الامر ثم نسخ بآية القتال (وسبح) أى صل وقوله تعالى (بحمد ربك) حال أى وأنت حامد لربك على انه وفقك لذلك وأعانك عليه (قبل طلوع الشمس) صلاة الصبح (وقبل

غروبها) صلاة العصر (ومن آناء الليل) أي ساعاته (فسبح) أي صل المغرب والعشاء وقوله تعالى (وأطراف النهار) معطوف على محل من آناء المنصوب أي صل الظهر لان وقتها يدخل بزوال الشمس فهو طرف النصف الاول وطرف النصف الثاني قال ابن عباس دخلت الصلوات الخمس في ذلك وقيل المراد الصلوات الخمس والنوافل لان الزمان اما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها فالليل والنهار داخلان في هاتين العبارتين وأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيهما فبقي قوله ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار للنوافل وقال أبو مسلم لا يبعد حمل التسبيح على التنزيه والاجلال والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الاوقات (فان قيل) النهار له طرفان فكيف قال وأطراف النهار ولم يقل طرفي النهار (أجيب) بوجهين أظهرهما انه اغا جمع لانه يلزم في كل نهار ويعود والثاني ان أقل الجمع اثنان وقرأ قوله تعالى (لعلك ترضى) أبو بكر والكسائي بضم التاء أي ترضى بما تنال من الثواب كقوله تعالى وكان عند ربه مرضيا وقرأ الباقون بفتحها أي ترضى بما تنال من الشفاعة قال تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا والمعنى على القراءتين لا يختلف لان الله تعالى اذا أرضاه فقد رضيه واذا رضيه فقد أرضاه ولما كانت النفس ميالة الى الدنيا مرهونة بالحاضر من فاني العطايا وكان تخليها عن ذلك هو الموصل الى حريتها المؤذن بعلو همتها قال تعالى مؤكدا ابدا نابصه وبه ذلك (ولا تمدن) مؤكداله بالنون الثقيلة (عينيك) أي لا تطول نظرهما بعد النظرة الاولى المعفو عنها (الى ما متعنا به) في هذه الحياة الفانية (أزواجا) أي أصنافا (منهم) أي الكفرة استحسانا له وتمنيا أن يكون لك مثله والامتاع الالذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويسمع من الاصوات المطربة ويشم من الروائح الطيبة وغير ذلك من الملابس والمناكح وقوله تعالى (زهرة الحياة الدنيا) أي زينتها وبهجتها منصوب بمحذوف دل عليه متعنا أو به على تضمنه معنى أعطينا فأزواجا مفعول أول وزهرة هو الثاني وذكر ابن عادل غير هذين الوجهين سبعة أوجه لا حاجة لنا بذكرها ثم علل تعالى تمتعهم بقوله تعالى (لنفتنهم فيه) أي لنفعل بهم فعل المختبر فيكون سبب عذابهم في الدنيا بالعيش الضنك المملمضي وفي الآخرة بالعذاب الاليم فصورته تغر من لم يتأمل معناه حق التأمل فما أنت فيه خير مما هم فيه (ورزق ربك) في الجنة (خير) مما أوتوه في الدنيا (وأبقى) أي أدوم أو ما رزقته من نعمة الاسلام والنبوة أولان أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة من بعض الوجوه والحلال خير وأبقى قال الزمخشري لان الله تعالى لا ينسب الى نفسه الا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث والحرام لا يسمى رزقا انتهى وهذا جار على مذهبه المخالف لاهل السنة من أن الحرام لا يسمى رزقا وقال أبو مسلم الذي نهى عنه بقوله ولا تمدن عينيك ليس هو النظر بل هو الاسف أي لا تأسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا وقال أبو رافع نزلت هذه الآية في ضيف نزل بالنبي صلى الله عليه وسلم فبعثني الى يهودي يبيع أو يسلف الى مدة فقال والله لا أفعل الا برهن فأخبرته بقوله فقال صلى الله عليه وسلم اني لامين في السماء واني لامين في الارض احمل اليه درعي الحديد

فنزل قوله ولا تمدن عينيك وقال صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى اموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم وقال أبو الدرداء الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعن الحسن لولا حمق الناس لخربت الدنيا وعن عيسى ابن مريم عليه السلام لا تتخذوا الدنيا دارا فتتخذكم لها عبيدا * ولما أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بتزكية النفس أمره بأن يأمر أهله بالصلاة بقوله عز وجل (وأمر أهلك بالصلاة) أى أمر أهل بيتك والتابعين لك من أمتك بالصلاة كما كان أبوك اسمعيل عليهما السلام يدعوهم الى كل خير اذ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا الفت أرباب الثروة وكان صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يذهب الى فاطمة وعلى رضى الله عنهما كل صباح ويقول الصلاة (واصطبر) أى داوم (عليها لا نسألك) أى نكلفك (رزقا) لنفسك ولا لغيرك (نحن نرزقك) وغيرك كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ففرغ بالك لامور الآخرة وفى معناه قول الناس من كان فى عمل الله كان الله فى عمله وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية وعن عروة بن الزبير انه كان اذا رأى ما عند السلطان قرأ ولا تمدن عينيك الآية ثم ينادى الصلاة الصلاة رحمكم الله وعن بكر بن عبد الله المزنى كان اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا فصلوا بهذا أمر الله رسوله ثم يتلو هذه الآية (والعاقبة) أى الجنة المحمودة (للتقوى) أى لاهل التقوى قال ابن عباس الذين صدقوك واتبعوك واتقونى ويؤيده قوله تعالى فى موضع آخر والعاقبة للمتقين ولا معونة على الرزق وغيره بشىء يوازى الصلاة فقد كان صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر أى بالباء الموحدة أى اذا أحزنه فزع الى الصلاة قال ثابت وكان الانبياء عليهم الصلاة والسلام اذا نزل بهم أمر فزعوا الى الصلاة وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى تفرغ لعبادتى املأ صدرك غنى وأسد فقرك وان لم تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله هم دنياه ومن تشعبت به هموم أحوال الدنيا لم يبال الله فى أى أوديتها هلك وعن زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ومن كانت الآخرة همه جمع الله له أمره وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة * ثم انه تعالى بعد هذه الوصية حكى عنهم شبها بقوله تعالى (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه) فكانه من لوازم قوله تعالى فاصبر على ما يقولون وهو قولهم لولا أى هلا يأتينا بآية وقال فى موضع آخر لوما تأتينا بآية كما أرسل الاولون * ثم أجاب الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله (أولم تأتهم بينة) أى بيان (ما فى الصحف الاولى) من التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية المشتمل عليه القرآن من أنباء الامم الماضية واهلاكهم

بتكذيب الرسل فما يؤمنهم أن يكون حالهم في سؤال الآيات كحال أولئك وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بالفوقية على التأنيث والباقون بالتحتية على التذكير (ولو أنا أهلكناهم) معاملة لهم في عصيانهم (بعذاب من قبله) أي هذا القرآن المذكور في الآية الماضية وما قاربها وفي قوله تعالى ولا تعجل بالقرآن وفي منتهى السورة في ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى أو من قبل محمد صلى الله عليه وسلم (لقالوا) أي يوم القيامة (ربنا) يا من هو متصف بالاحسان الينا (لولا) أي هلا ولم لا (أرسلت الينا رسولا) يأمرنا بطاعتك (فنتبع) أي فيتسبب عنه أن نتبع (آياتك) التي تصيبنا بها (من قبل أن نذل) بالعذاب هذا الذل (ونخزى) بالمعاصي التي عملناها على جهل فلأجل ذلك أرسلناك اليهم وأقمنا بك الحجة عليهم * ولما علم بهذا أن ايمانهم كالممتنع وجدالهم لا ينقطع بل ان جاءهم الهدى طعنوا فيه وان عذبوا قبله تظلموا كان كأنه قيل فما الذي أفعل معهم فقيل (قل) لهم (كل) أي كل منى ومنكم (متربص) أي منتظر ما يؤول اليه أمري وأمركم (فتربصوا) فأنتم كالبهائم ليس لكم تأمل (فستعلمون) أي عما قريب بوعد لا خلف فيه وهو يوم القيامة (من أصحاب الصراط) أي الطريق (السوي) أي المستقيم (ومن اهتدى) أي من الضلال فحصل على جميع ما ينفعه واجتنب جميع ما يضره أنحن أم أنتم قال ابن عادل عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم بألفي عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا طوبى لأمة ينزل عليها هذا وطوبى لألسن تتكلم بهذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وعن الحسن ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يقرأ أهل الجنة من القرآن الا يس وطه انتهى ولم يذكر لذلك سندا وأما ما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ طه أعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار فحديث موضوع

(سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مكية)

قال الرازي باجماع وهي مائة واحدى أو ثنتا عشرة آية وألف
ومائة وستون كلمة وأربعة آلاف وثمان وتسعون حرفا

(بسم الله) الحكم العدل الذي عمت قدرته وعم أمره (الرحمن) الذي ساوى بين خلقه في رحمة ايجاده (الرحيم) الذي نجى من شاء من عباده في معاده قال أبو جعفر بن الزبير في برهانه لما تقدم قوله تعالى ولا تمدن عينيك الى قوله فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى قال تعالى (اقترب) أي قرب (للناس حسابهم) أي في يوم القيامة أي فلا تمدن عينيك الى ذلك فانى جعلته فتنة وأشار بصيغة الافتعال الى مزيد القرب لانه لا أمة بعد هذه ينتظر أمرها وأخر الفاعل تهويلا لتذهب النفس في تعيينه كل مذهب (فان قيل) كيف وصف ذلك اليوم بالاقتراب وقد عدت دون هذا القول أكثر من تسعمائة عام (أجيب) بأنه مقترب عند الله والدليل عليه قوله تعالى ويستعجلونك بالعذاب وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ولان كل آت وان طالت أوقات استقباله وترقبه قريب وانما البعيد هو الذي وجد وانقرض

قال الشاعر

فلازال ماتهواه أقرب من غد * ولازال ماتخشاه أبعد من أمس

ولان ما بقي من الدنيا أقصر وأقل مما سلف منها بدليل انبعاث خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه الموعود ببعثه في آخر الزمان وقال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بإصبعيه وقال صلى الله عليه وسلم ختمت النبوة بي كل ذلك لاجل ان الباقي من مدة التكليف أقل من الماضي وعن ابن عباس ان المراد بالناس المشركون وهو من اطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين وهو قوله تعالى (وهم) أي والحال أنهم (في غفلة) أي عن الحساب (معرضون) عن التأهب لهذا اليوم لا يتفكرون في عاقبتهم ولا يتفطنون لما يرجع اليه خاتمة أمرهم مع اقتضاء عقولهم أنه لابد من جزاء المحسن والمسيء وأيضا ان هذه الآية نزلت في كفار مكة ولما أخبر تعالى عن غفلتهم واعراضهم دل على ذلك بقوله (ما يأتيهم) وأغرق في النفي بقوله (من ذكر) أي وحي ينبههم عن سنة الغفلة والجهالة وقوله تعالى (من ربهم) صفة ذكر أو صلة ليأتيهم (محدث) انزاله أي ما يحدث الله تعالى من تنزيل شيء من القرآن يذكرهم ويعظهم به وبهذا سقط احتجاج المعتزلة بأن القرآن حادث لهذه الآية وقيل معناه ان الله تعالى يحدث الامر بعد الامر فينزل الآية بعد الآية والسورة بعد السورة في وقت الحاجة لبيان الاحكام وغيرها من الامور والوقائع وقيل الذكر المحدث ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وبينه من السنن والمواعظ سوى ما في القرآن وأضافه اليه لان الله تعالى قال وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى (الا استمعوه) أي قصدوا اسماعه وهو أجد الجد وأحق الحق (وهم) أي والحال انهم (يلعبون) أي يفعلون فعل اللاعبين بالاستهزاء والسخرية لتناهي غفلتهم وفرط اعراضهم عن النظر في الامور والتفكر في العواقب (لاهية) أي غافلة معرضة (قلوبهم) عن ذكر الله *(تنبيه)* قوله تعالى وهم يلعبون لاهية قلوبهم حالان مترادفتان أو متداخلتان * ولما ذكر تعالى ما يظهرونه في حالة الاستماع من اللهو واللعب ذكر ما يخفونه بقوله تعالى عطفا على استمعوه (وأسروا) أي الناس المحدث عنهم (النجوى) أي بالغوا في اسرار كلامهم وقوله تعالى (الذين ظلموا) بدل من واو وأسروا للايماء بأنهم ظالمون فيما أسروا به أو مبتدأ والجملة المتقدمة خبره والمعنى وهؤلاء أسروا النجوى فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بأنه ظلم وقيل جاء على لغة من قال أكلوني البراغيث وقيل منصوب المحل على الذم ثم بين تعالى ما تناجوا به بقوله تعالى (هل) أي فقالوا في تناجيهم هذا متعجبين من ادعائه النبوة مع مماثلته لهم في البشرية هل (هذا) الذي أتاكم بهذا الذكر (الا بشر مثلكم) أي في خلقه وأخلاقه من الاكل والشرب والحياة والممات فكيف يختص عنكم بالرسالة ما هذا الذي جاءكم به مما لا تقدرون على مثله الا سحر لا حقيقة له فحينئذ تسبب عن هذا الانكار قولهم (أفتأتون السحر وأنتم) أي والحال انكم (تبصرون) بأعينكم انه بشر مثلكم فكأنهم استدلوا بكونه بشرا على كذبه في ادعاء النبوة والرسالة

لاعتقادهم ان الرسول لا يكون الا ملكا واستلزموا منه ان ما جاء به من الخوارق كالقرآن سحر فانكروا حضوره (فان قيل) لم أسروا هذا الحديث وبالغوا فى اخفائه (أجيب) بأن ذلك كان يشبه التشاور فيما بينهم والتحاور فى طلب الطريق الى هدم أمره وعادة المتشاورين فى خطب أن لا يشركوا أعداءهم فى مشورتهم و يجتهدوا فى طى سرهم عنهم ما أمكن واستطيع ومنه قول الناس استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان قال البقاعى فيالله العجب من قوم رأوا ما أعجزهم لم يجوزوا أن يكون ذلك عن الرحمن الداعى الى الفوز بالجنان وجزموا أنه من الشيطان الداعى الى الهوان باصطلاء النيران والعجب أيضا أنهم أنكروا الاختصاص بالرسالة مع مشاهدتهم بما يخص الله تعالى به بعض الناس عن بعض من الذكاء والفطنة وحسن الخلائق والاخلاق والقوة والصحة وطول العمر وسعة الرزق ونحو ذلك انتهى ولا عجب فانها عقول أضلها باريها ثم كأنه قيل فماذا يقال لهؤلاء فقال (قل) لهم (ربى) المحسن الى (يعلم القول) سواء كان سرا أم جهرا كائنا (فى السماء والارض) على حد سواء لانه لا مسافة بينه وبين شئ من ذلك (وهو السميع العليم) فلا يخفى عليه ما يسرون ولا ما يضمرون (فان قيل) هلا قيل يعلم السر لقوله تعالى وأسروا النجوى (أجيب) بأن القول عام يشمل السر والجهر فكان فى العلم به العلم بالسر وزيادة فكان آكد فى بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول يعلم السر كما أن قوله يعلم السر آكد من أن يقول يعلم سرهم (فان قيل) لم ترك هذا الآكد فى سورة الفرقان فى قوله تعالى قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض ولم يقل يعلم القول كما هنا (أجيب) بأنه ليس بواجب أن يأتى بالآكد فى كل موضع ولكن يجىء بالوكيد تارة وبالآكد أخرى كما يجىء بالحسن فى موضع وبالاحسن فى غيره ليفتن الكلام افتنانا ويجمع الغاية ومادونها على أن أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه من قبل أنه قدم ههنا انهم أسروا النجوى فكأنه أراد أن يقول ان ربى يعلم ما أسروه فوضع القول موضع ذلك للمبالغة وثم قصد وصف ذاته بأنه أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض فهو كقوله تعالى علام الغيوب عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة وقرأ حفص وحمزة والكسائى قال بصيغة الماضى بالاخبار عن الرسول والباقون قل بصيغة الامر * ثم انه تعالى بين أن المشركين اقتسموا القول فى النبى صلى الله عليه وسلم وفيما يقوله بقوله تعالى (بل قالوا) أى قال بعضهم هذا الذى قال لكم (أضغاث أحلام) أى اخلاط أحلام رآها فى النوم وقال بعضهم (بل افتراه) أى اختلقه من عند نفسه ونسبه الى الله تعالى وقال بعضهم (بل هو) أى النبى صلى الله عليه وسلم (شاعر) فما جاءكم به شعر والشاعر يخيل ما لا حقيقة له لغيره أو أنهم كلهم أضربوا عن قولهم هو سحر الى أنه تخاليط أحلام ثم الى أنه كلام مفترى من عنده ثم الى أنه قول شاعر وهكذا المبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد قال الزمخشرى ويجوز أن يكون تنزيلا من الله تعالى لاقوالهم فى درج الفساد وأن قولهم الثانى أفسد من الاول والثالث أفسد من الثانى وكذا الرابع أفسد من الثالث * ثم انهم لما قدحوا فى أعظم المعجزات طلبوا آية غيره فقالوا (فليأتنا) دليلا على

رسالته (بآية كما) أى مثل ما (أرسل الأولون) بالآيات كتسبيح الجبال وتسخير الريح وتفجير الماء واحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وصحة التشبيه من حيث ان الارسال يتضمن الاتيان بالآية قال الله تعالى مجيبا لهم (ما آمنت قبلهم) أى قبل مشركى مكة (من قرية) أى من أهل قرية أتتهم الآيات (أهلكناها) باقتراح الآيات لما جاءتهم (أفهم يؤمنون) أى لو جئتهم بها وهم أعتى منهم وفيه دليل على أن عدم الاتيان بالمقترح للابقاء عليهم اذ لو أتى به لم يؤمنوا واستوجبوا عذاب الاستئصال كمن قبلهم * ولما بين تعالى بطلان ما اقترحوا به فى رسوله صلى الله عليه وسلم بكونه بشرا قال تعالى عاطفا على آمنت مجيبا عن قولهم هل هذا الا بشر مثلكم (وما أرسلنا قبلك) أى فى جميع الزمان الذى تقدم زمانك فى جميع طوائف البشر (الا رجالا) أى لم نرسل الملائكة الى الاولين انما ارسلنا رجالا (نوحى اليهم) مثلك ثم انه تعالى أمر المشركين أن يسألوا أهل الكتاب بقوله تعالى (فاسئلوا أهل الذكر) وانما أحالهم على هؤلاء لانهم كانوا لا ينكرون أن الرسل كانوا بشرا وان أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المراد بالذكر القرآن أى فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن وقرأ ابن كثير والكسائى بفتح السين ولا همزة بعدها وكذا يفعل حمزة فى الوقف والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها * ثم نبه تعالى على انهم غير محتاجين فيه الى السؤال بما قد كان بلغهم على الاجمال من أحوال موسى وعيسى وابراهيم واسمعيل وغيرهم عليهم السلام بقوله تعالى معبرا بأداة الشك محركا لهم على المعالى (ان كنتم) أى بجبلاتكم (لا تعلمون) أى لا أهلية لكم فى اقتناص علم بل كنتم أهل تقليد محض وتبع صرف * ولما بين تعالى أنه صلى الله عليه وسلم على سنة من مضى من الرسل فى كونه رجلا بين أنه على سنتهم فى جميع الاوصاف التى حكم بها على البشر فى العيش والموت فنبه على الاول بقوله تعالى (وما جعلناهم) أى الذين اخترنا بعثتهم الى الناس ليأمروهم بأوامرنا (جسدا) أى ذوى جسد ولحم ودم متصفين بأنهم (لا يأكلون الطعام) بل جعلناهم أجسادا يأكلون ويشربون وليس ذلك بمانع من ارسالهم * (فائدة) * قال ابن فارس فى المجمل وفى كتاب الخليل ان الجسد لا يقال لغير الانسان وتوحيد الجسد لارادة الجنس كأنه قيل ذوى ضرب من الاجساد أو على حذف المضاف أى ذوى جسد كما مر أو تأويل الضمير لكل واحد وهو جسم ذو لون قال البيضاوى ولذلك أى ولكون الجسد جسما ذا اللون لا يطلق على الماء والهواء وهو فى الماء مبنى على أنه لا لون له وانما يتلون بلون ظرفه أو مقابله لانه جسم شفاف لكن قال الامام الرازى بل له لون ويرى ومع ذلك لا يحجب عن رؤية ما وراءه * ثم نبه على الثانى بقوله تعالى (وما كانوا خالدين) أى بأجسادهم بل ماتوا كما مات الناس قبلهم وبعدهم وانما امتازوا عن الناس بما يأتيهم عن الله تعالى ورسولكم صلى الله عليه وسلم ليس بخالد فتربصوا كما أشار اليه ختم طه فانه متربص بكم وأنتم عاصون الملك الذى اقترب حسابه لخلقه وهو مطيع له (ثم صدقناهم الوعد) أى الذى وعدناهم باهلاكهم وهذا مثل قوله تعالى واختار موسى قومه فى حذف الجار والاصل

في الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم القتال وصدقني سن بكره والاصل في هذا المثل أن أعرابيا عرض بعيرا للبيع فقال له المشتري ما سنه قال بكر فاتفق أنه ندفقال صاحبه هدع هدع وهذه اللفظة مما يسكن بها صغار الابل لا البكار فقال المشتري صدقني سن بكره وأعرض فصار مثلا *(تنبيه)* أشار تعالى بأداة التراخي الى أنهم طال بلاؤهم بهم وصبرهم عليهم ثم أحل بهم سطوته وأراهم عظمته (فأنجيناهم) أى الرسل (ومن نشاء) وهم المؤمنون أومن في ابقائه حكمة كمن سيؤمن هو أو واحد من ذريته ولذلك حميت به العرب من عذاب الاستئصال (وأهلكنا المسرفين) أى المشركين لان المشرك مسرف على نفسه (لقد أنزلنا اليكم) يامعشر قريش (كتابا) أى القرآن (فيه ذكركم) أى شرفكم ووصيتكم كما قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك أوفيه مكارم الاخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء وحسن الذكر كحسن الجوار والوفاء بالعهد وصدق الحديث وأداء الامانة والسخاء وما أشبه ذلك وقيل فيه ذكر ما تحتاجون اليه من أمر دينكم أولانه نزل بلغتكم وقيل فيه تذكرة لكم لتحذروا فيكون الذكر بمعنى الوعد والوعيد (أفلا تعقلون) فتؤمنوا به وفي ذلك حث على التدبر لان الخوف من لوازم العقل (وكم قصمنا) أى أهلكنا (من قرية) أى أهلها بغضب شديد لان القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الاجزاء بخلاف الفصم وقوله تعالى (كانت ظالمة) أى كافرة صفة لاهلها وصفت بها لما أقيمت مقامها ثم بين الغنى عنها بقوله تعالى (وأنشأنا بعدها) أى بعد اهلاك أهلها (قوما آخرين) مكانهم * ثم بين حالها عند احلال البأس بها بقوله تعالى (فلما أحسوا) أى أدرك أهلها بحواسهم (بأسنا) أى عذابنا (اذا هم منها) أى القرية (يركضون) هاربين منها مسرعين راكضين دوابهم لما أدركتهم مقدمة العذاب والركض ضرب الدابة بالرجل ومنه اركض برجلك أومشبهين بهم من فرط اسراعهم بعد تجبرهم على الرسل وقولهم لهم لنخرجنكم من أرضنا أولتعودن في ملتنا فناداهم لسان الحال تقريعا وتشنيعا لحالهم (لا تركضوا) أو الملائكة أومن ثم من المؤمنين (وارجعوا) الى قريتكم (الى ما أترفتم) أى تنعمتم (فيه) من التنعم والتلذذ والاتراف ابطار النعمة والترفه * ولما كان أعظم ما يؤسف عليه بعد العيش الناعم المسكن قال (ومساكنكم) أى التي كنتم تفتخرون بها على الضعفاء بما أوسعتم من فنائها وعليتم من بنائها وحسنتم من مشاهدها (لعلكم تسئلون) وفي هذا تهكم بهم وتوبيخ أى ارجعوا الى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غدا عما يجرى عليكم وينزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة أوارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم وترتبوا في مراتبكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره وينفذ فيه أمركم ونهيكم فيقولوا لكم بم تأمرون وماذا ترسمون أوشيأ من دنياكم على العادة أو تسئلون في الايمان كما كنتم تسئلون قبل ذلك فتأبوا بما عندكم من الانفة والحمية والعظمة أوفي المهمات كما يكون الرؤساء في مقاعدهم العلية ومراتبهم السنية فيجيبون سائلهم بما شاؤا * ولما كان كأنه قيل بم أجابوا هذا القائل قيل (قالوا) حين لا ينفع لقولهم عند نزول البأس

(ياويلنا)

(يا ويلنا) اشارة الى أنه حل بهم لانه ينادى يا القريب ترفقا به كما يقول الشخص لمن يضربه ياسيدى كأنه يستغيث به ليكف عنه وذلك غباوة منهم وعمى عن الذى أحله بهم لانهم كالبهائم لا ينظرون الا السبب الاقرب ثم عللوا حلوله بهم تأكيدا لترفقهم بقولهم (انا كنا) جبلة وطبعا (ظالمين) حيث كذبنا الرسل وعصينا أمر ربنا فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف لفوات محله . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذه القرية حضور بفتح الحاء و بالضاد المعجمة وهى وسحول قريتان من اليمن تنسب اليهما الثياب وفى الحديث كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثوبين سحوليين وروى حضوريين بعث الله لهم نبيا فقتلوه فسلط الله تعالى عليهم بختنصر كما سلطه الله على أهل بيت المقدس فاستأصلهم وروى انه لما أخذتهم السيوف نادى مناد من السماء يا لثارات الانبياء وهى بفتح اللام وبمثلثة وهمزة ساكنة أى يا لأهل ثاراتهم أى الطالبة بدمهم فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فندموا وقالوا ذلك (فما) أى فتسبب عن احلالنا بهم ذلك البأس أنه ما (زالت تلك) الدعوى البعيدة عن الخير والسلامة وهى قولهم يا ويلنا (دعواهم) يرددونها الدعوى لهم غيرها الان الويل ملازم لهم غير منفك عنهم وترفقهم له غير نافعهم (حتى جعلناهم حصيدا) كالزرع المحصود بالمناجل بأن قتلوا بالسيف *(تنبيه)* حصيد على وزن فعيل بمعنى مفعول ولذلك لم يجمع لانه يستوى فيه الجمع وغيره (خامدين) أى ميتين كخمود النار اذا طفئت وصارت رمادا (فان قيل) كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل (أجيب) بأن حكم الاثنين الاخيرين حكم الواحد لان معنى قولك جعلته حلوا حامضا جعلته جامعا للطعمين وكذلك معنى ذلك جعلناهم جامعين لمماثلة الحصد والخمود أو خامدين صفة لحصيدا أو حال من ضميره ثم نبههم سبحانه وتعالى على النظر فى خلق السموات والارض وما بينهما ليعتبروا فقال تعالى (وما خلقنا السماء) على علوها واحكامها (والارض) على عظمها واتساعها (وما بينهما) مما دبرناه لتمام المنافع من أصناف البدائع وغرائب الصنائع (لاعبين) أى عابثين كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم للهو واللعب وانما خلقناها مشحونة بضروب البدائع تبصرة للنظار وتذكيرا لذوى الاعتبار وتسبيبا لما ينتظم به أمر العباد فى المعاش والمعاد * ولما نفى عنه اللعب أتبعه دليله فقال عز وجل (لو أردنا) أى بما لنا من العظمة (أن نتخذ لهوا) أى ما يتلهى به ويلعب وقيل هو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد الرد على النصارى (لاتخذناه من لدنا) أى من عندنا مما يليق أن ينسب لحضرتنا من الحور العين والملائكة بما لنا تمام القدرة وكمال العظمة (ان كنا فاعلين) ذلك لكنا لم نفعله لانه لا يليق بجنابنا فلم نرده وقوله تعالى (بل نقذف) أى نرمى (بالحق) أى الايمان (على الباطل) أى الكفر اضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه لذاته عن اللعب بل شأننا أن نرمى بالحق الذى من جملة الجد على الباطل الذى من عداد اللهو (فيدمغه) أى يذهبه واستعار لمحض الباطل بالحق القذف والدمغ تصويرا لابطاله به واهداره ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة ووجه استعارة القذف والدمغ لما ذكر أن أصل استعمالهما فى

الاجسام ثم استعير القذف لدحض الباطل بالحق والدمغ لاذهاب الباطل فالمستعار منه حسي والمستعار له عقلي (فاذا هو) في الحال (زاهق) أي ذاهب والزهوق ذهاب الروح وذكره لترشيح المجاز من اطلاق القذف على دحض الباطل ثم عطف على ما أفادته اذا قوله تعالى (ولكم) أي واذا لكم أيها المبطلون (الويل) أي العذاب الشديد (مما تصفون) الله تعالى به مما تهوى أنفسكم كالزوجة والولد * (تنبيه) * ما اما مصدرية أو موصولة أو موصوفة * ولما حكى الله تعالى كلام الطاعنين في النبوات وأجاب عنها بأن أغراضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم الانقياد بين بقوله تعالى (وله من في السموات) أي الاجرام العالية وهي ما تحت العرش وجمع السماء هنا لاقتضاء تفخيم الملك ذلك ولما كانت عقولهم لا تدرك تعدد الارض وحدها فقال (والارض) أي له ذلك خلقا وملكا أنه منزه عن طاعتهم لانه هو المالك لجميع المحدثات والمخلوقات وعبر بمن تغليبا للعقلاء وقوله تعالى (ومن عنده) أي وهم الملائكة باجماع الامة ولان الله تعالى وصفهم بأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهذا لا يليق بالبشر مبتدأ خبره (لا يستكبرون عن عبادته) بنوع كبر طلبا ولا ايجادا وخصهم بالذكر لكرامتهم عليه تنزيلا لهم منزلة المقربين عند الملك * (تنبيه) * هذه العندية للشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة فكأنه تعالى قال الملائكة مع كمال شرفهم وعلو مراتبهم ونهاية جلالتهم لا يستكبرون عن عبادته فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد عن طاعته (و) مع ذلك أيضا (لا يستحسرون) أي لا يعيون والمجيء بالاستحسار الذي هو أبلغ من الحسور تنبيها على أن عبادتهم من ثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسر منها ولا يستحسرون ولا يطلبون أن ينقطعوا عنها فأنتج ذلك قوله تعالى (يسبحون) أي ينزهون المستحق للتنزيه بأنواع التنزيه من الاقوال والافعال (الليل والنهار) أي جميع آنائهما دائما (لا يفترون) أي عن ذلك وقتا من الاوقات فهو منهم كالنفس منا لا يشغلنا عنه شاغل * ولما كانوا عند هذا البيان جديرين بأن يبادروا الى التوحيد فلم يفعلوا كانوا حقيقين بعد الاعراض عنهم بالتوبيخ والتهكم والتعنيف فقال تعالى (أم اتخذوا) أي بل اتخذوا فأم بمعنى بل للانتقال والهمزة لانكار اتخاذهم (آلهة من الارض) ومعنى نسبتها الى الارض الايذان بأنها الاصنام التي تعبد في الارض لان الآلهة على ضربين أرضية وسماوية ومن ذلك حديث الامة التي قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أين ربك فأشارت الى السماء فقال انها مؤمنة لانه فهم منها أن مرادها نفي الآلهة الارضية التي هي الاصنام لا اثبات أن السماء مكان الله تعالى ويجوز أن يراد آلهة من جنس الارض لانها اما أن تنحت من بعض الحجارة أو تعمل من بعض جواهر الارض (هم ينشرون) أي يحيون الموتى لا يقدرون على ذلك وهم وان لم يصرحوا بذلك لزم من ادعائهم لها آلهة أنهم يقدرون على ذلك فان من لوازمها الاقتدار على جميع الممكنات فالمراد به تجهيلهم والتهكم بهم والمبالغة في ذلك زيد الضمير الموهم لاختصاص الانشار بهم ثم انه سبحانه وتعالى أقام البرهان القطعي على نفي اله غيره ببرهان التمانع وهو أشد برهان لاهل الكلام فقال (لو كان فيهما) أي السموات والارض أي في تدبيرهما (آلهة الا الله)

اي

أى غير الله تعالى (لفسدتا) أى لخرجتا عن نظامهما المشاهد لوجود التمانع بينهم على وفق العادة عند تعدد الحاكم وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الاشدق كان والله أعز على من دم ناظرى ولكن لا يجتمع فحلان فى شول وهذا ظاهر وأما طريقة التمانع فقال المتكلمون القول بوجود الهين مفض الى المحال لانا لو فرضنا وجود الهين فلابد أن يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه ولو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه والآخر أراد تسكينه فاما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أولا يقع واحد منهما وهو محال لان المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا الاعند وجود مراد ذلك وبالعكس أو يقع مراد أحدهما دون الآخر وذلك أيضا محال لان الذى وقع مراده يكون قادرا والذى لم يقع مراده يكون عاجز والعجز نقص وهو على الاله محال فثبت أن الفساد لازم على كل التقديرات واذا وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت أن جميع ما فى العالم العلوى والسفلى من المخلوقات دليل على أن وحدانية الله تعالى والدلائل السمعية على الوحدانية كثيرة فى القرآن ولما أفاد هذا الدليل أنه لا يجوز أن يكون المدبر للسموات والارض الا واحدا وأن ذلك الواحد لا يكون الا الله تعالى قال (فسبحان الله) أى فتسبب عن ذلك تنزه المتصف بصفات الكمال (رب) أى خالق (العرش) أى الكرسى المحيط بجميع الاجسام الذى هو محل التدابير ومنشأ التقادير (عما يصفون) أى الكفار الله به من الشريك له وغيره ثم بين تعالى ذلك بقوله عز وجل (لا يسئل) أى من سائل ما (عما يفعل) لعظمته وقوة سلطانه واذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من فى مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تهيبا واجلالا مع جواز الخطا والزلل وأنواع الفساد عليهم كان ملك الملوك ورب الارباب خالقهم ورازقهم أولى بأن لا يسئل عن أفعاله مع ما علم واستقر فى العقول من أن ما يفعله كله مفعول بدواعى الحكمة ولا يجوز عليه تعالى الخطأ (وهم يسألون) لانهم مملوكون مستعبدون خطاؤن فما أخلقهم بأن يقال لهم لم فعلتم فى كل شئ فعلوه ولما قام الدليل ووضح السبيل واضمحل كل قال وقيل وانمحقت الاباطيل كرر تعالى (أم اتخذوا من دونه آلهة) كرره استفظاعا لشأنهم واستعظاما لكفرهم واظهارا لجهلهم ● ولما كان جوابهم اتخذنا ولا نرجع أمر الله تعالى نبيه بجوابهم فقال (قل هاتوا برهانكم) على ما ادعيتموه من عقل أو نقل كما أتيت أنا ببرهان النقل المؤيد بالعقل ● ولما كان تعالى لا يؤاخذ بمخالفة العقل ما لم ينضم اليه دليل النقل اتبعه قوله مشيرا الى ما بعث الله تعالى به الرسل من الكتب (هذا ذكر) أى موعظة وشرف (من معى) ممن آمن بى وهو القرآن الذى عجزتم عن معارضته (وذكر) أى وهذا ذكر (من قبلى) من الامم الماضية وهو التوراة والانجيل وغيرهما من الكتب السماوية فانظروا هل تجدون فيها الا الامر بالتوحيد والنهى عن الاشراك ● ولما كانوا لا يجدون شبهة لهم فضلا عن حجة ذمهم الله تعالى على جهلهم بمواضع الحق

قوله أى الكرسى تبع فيه الجلال المحلى وكتب عليه الجمل قوله الكرسى لا حاجة لهذا بل الاولى ابقاء العرش على ظاهره لان التحقيق انه جسم مغاير للكرسى اه

فقال تعالى (بل أكثرهم) أى هؤلاء المدعوين (لا يعلمون الحق) فلا يميزون بينه وبين الباطل بل أكثرهم جهلة والجهل أصل الشر والفساد (فهم) أى فتسبب عن جهلهم ما افتتحنا به السورة من أنهم (معرضون) عن التوحيد واتباع الرسل * ولما كان الارسال بالفعل غير مستغرق للزمان المتقدم كما أن الرسالة لا يقوم بها كل واحد فكذلك الارسال لا يصلح له كل زمن أثبت الجار فى قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك) وأعرق فى النفى فقال (من رسول) فى شيع الاولين (الا يوحى اليه) من عندنا (أنه لا اله الا أنا فاعبدون) وهذا مقرر لما سبقه من آى التوحيد وقال تعالى الا أنا ولم يقل نحن لئلا يجعلوا ذلك وسيلة الى ما ادعوه من تعدد الآلهة ولذلك قال فاعبدون بالافراد وقرأ حفص وحمزة والكسائى بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء وفتح الحاء * ولما بين سبحانه وتعالى بالدلائل الباهرة كونه منزها عن الشريك والضد والند أردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد بقوله (وقالوا اتخذ) أى تكلف كما يتكلف من لا يكون له ولد (الرحمن) أى الذى كل موجود من فيض نعمه (ولدا) نزل فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله وقيل نزل ذلك فى اليهود حيث قالوا انه تعالى صاهر الجن فكانت منهم الملائكة كما حكى الله تعالى عنهم قولهم وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ثم انه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله تعالى (سبحانه) أى تنزه عن أن يكون له ولد فان ذلك يقتضى المجانسة بينه وبين الولد ولا تصح مجانسة النعمة للمنعم الحقيقى (بل) أى الذين جعلوهم له ولدا وهم الملائكة (عباد) من عباده أنعم عليهم بالايجاد كما أنعم على غيرهم لا أولاد فان العبودية تنافى الولدية (مكرمون) بالعصمة من الزلل ولذلك فسر الاكرام بقوله تعالى (لا يسبقونه) أى لا يسبقون اذنه (بالقول) أى لا يقولون شيأ حتى يقوله كما هو شأن العبيد المؤدبين (وهم بأمره) اذا أمرهم (يعملون) لا بغيره لانهم فى غاية المراقبة له تعالى فجمعوا فى الطاعة بين القول والفعل وذلك غاية الطاعة ثم علل اخباره بذلك بعلمه بما هذا المخبر به مندرج فيه بقوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى ما عملوا وما هم عاملون لا تخفى عليه تعالى خافية مما قدموا وأخروا ثم صرح تعالى بلازم الجملة الاولى فقال (ولا يشفعون) أى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة (الا لمن ارتضى) فلا تطمعوا فى شفاعتهم لكم بغير رضاه تعالى قال ابن عباس والضحاك الا لمن ارتضى أى لمن قال لا اله الا الله فسقط بذلك قول المعتزلة ان الشفاعة فى الآخرة لا تكون لاهل الكبائر ثم صرح بلازم الجملة الثانية فقال (وهم من خشيته) أى لا من غيرها (مشفقون) أى خائفون وأصل الخشية خوف مع تعظيم ولذلك خص بها العلماء والاشفاق خوف مع اعتناء فان عدى بمن فمعنى الخوف فيه أظهر وان عدى بعلى فبالعكس * ولما نفى تعالى الشريك مطلقا ثم مقيدا بالولدية أتبعه التهديد على ادعائه بتعذيب المتبوع الموجب لتعذيب التابع بقوله تعالى (ومن يقل منهم) أى من الخلائق حتى العباد المكرمين الذين وصف كرامتهم وقرب منزلتهم عنده وأثنى عليهم (انى اله من دونه) أى الله أى غيره والذى قال ذلك كما قال الجلال المحلى هو ابليس دعا الى عبادة نفسه وأمر بطاعتها (فذلك) أى اللعين

الذى لا يصلح للتقريب أصلا (نجزيه جهنم) لظلمه (كذلك) أى مثل هذا الجزاء الفظيع جدا (نجزى الظالمين) أى المشركين ثم انه سبحانه وتعالى شرع الآن فى الدلائل الدالة على وجود الصانع فذكر منها ستة أنواع النوع الاول قوله تعالى (أولم ير) أى يعلم (الذين كفروا) علما هو كالمشاهدة (أن السموات والارض كانتا) ولم يقل كن لان المراد جماعة السموات وجماعة الارض (رتقا) قال ابن عباس والضحاك كانتا شيأ واحدا ملتزقتين زبدة واحدة (ففتقناهما) أى فصلنا بينهما بالهواء والرتق فى اللغة السد والفتق الشق قال كعب خلق الله السموات والارض بعضها على بعض ثم خلق ريحا توسطتهما ففتحهما بها وقال مجاهد والسدى كانت السموات رتقا طبقة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الارض كانت رتقا طبقة ففتقها فجعلها سبع أرضين وقال عكرمة وعطية كانت السموات رتقا لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات فيكون المراد بالسموات سماء الدنيا وجمعها باعتبار الآفاق أو السموات بأسرها على أن لها مدخلا فى الامطار وانما قال تعالى رتقا على التوحيد وهو نعت للسموات والارض لانه مصدر والكفرة وان لم يعلموا ذلك فهم متمكنون من العلم بالنظر أو باستفسار من العلماء أو مطالعة الكتب وقرأ ابن كثير ألم بغير واو بين الهمزة ولم والباقون بالواو بين الهمزة واللام النوع الثانى من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا) أى خلقنا بما اقتضته عظمتنا (من الماء) الماء هو الدافق وغيره (كل شئ حى) مجازا فى النبات وحقيقة فى الحيوان (فان قيل) قد خلق الله تعالى بعض ما هو حى من غير الماء كآدم وعيسى والملائكة (أجيب) بأن هذا خرج مخرج الاغلب والاكثر أى ان أكثر ما خلق الله خلق من الماء وبقاؤه بالماء وقيل المراد بالماء ما نزل من السماء أو نبع من الارض (أفلا يؤمنون) مع ظهور هذه الآيات الواضحات بتوحيدى النوع الثالث من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا فى الارض رواسى) أى جبالا ثوابت كراهة (أن تميد) أى تتحرك (بهم) قيل ان الارض بسطت على الماء فكانت تتحرك كما تتحرك السفينة فى الماء فأرساها الله وأثبتها بالجبال النوع الرابع من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا فيها) أى فى الرواسى (فجاجا) أى مسالك واسعة سهلة ثم أبدل منها (سبلا) أى مذللة للسلوك ولولا ذلك لتعسر أو تعذر الوصول الى بعض البلاد (لعلهم يهتدون) الى منافعهم من ديارهم وغيرها والى ما فيهما من دلائل الوحدانية النوع الخامس من الدلائل قوله تعالى (وجعلنا السماء) وأفردها مع ارادة الجنس لان أكثر الناس لا يشاهدون منها الا السماء الدنيا ولان الحفظ للشئ الواحد أتقن (سقفا) أى للارض كالسقف للبيت (محفوظا) أى عن السقوط بالقدرة وعن الفساد والانحلال الى الوقت المعلوم بالمشيئة وعن الشياطين بالشهب (وهم) أى أكثر الناس (عن آياتها) أى من الكواكب الكبار والصغار والرياح والامطار وغير ذلك من الدلائل التى تفوت الانحصار الدالة على قدرتنا على كل ما نريد من البعث وغيره وعلى عظمتنا بالتفرد بالالهية وغير ذلك من أوصاف الكمال من الجلال والجمال (معرضون) لا يتفكرون فيما فيها من السير والتدبير وغير ذلك فيعلمون أن خالقها

لاشريك له النوع السادس من الدلائل قوله تعالى (وهو) أى لاغيره (الذى خلق الليل والنهار) ثم أتبعهما أعظم آيتهما بقوله تعالى (والشمس) التى هى أعظم آية النهار (والقمر) الذى هو أعظم آية الليل (كل) أى من الشمس والقمر وتابعه وهو النجوم (فى فلك) أى مستدير كالطاحونة فى السماء (يسبحون) أى يسيرون بسرعة كالسابح فى الماء وللتشبيه به أتى بضمير جمع من يعقل والمراد بالفلك الجنس كقولك كساهم الامير حلة وقلدهم سيفا أى كل واحد منهم أو كساهم وقلدهم هذين الجنسين فاكتفى بما يدل على الجنس اختصارا ولان الغرض الدلالة على الجنس * ونزل لما قال الكفار ان محمدا سيموت (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) أى البقاء فى الدنيا (أفان) أى أيتمنون موتك فان (مت فهم الخالدون) فيها لا والله ليسوا بخالدين فالجملة الاخيرة هى محل الاستفهام الانكارى وفى معنى ذلك قول فروة بن مسيك الصحابى

وقل للشامتين بنا أفيقوا * سيلقى الشامتون كما لقينا

وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى بكسر الميم والباقون بضمها ثم بين تعالى أن أحدا لا يبقى فى هذه الدنيا بقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) أى ذائقة مرارة الموت أى مرارة مفارقة روحها جسدها فلا يفرح أحد ولا يحزن لموت أحد بل يشتغل بما يهمه واليه الاشارة بقوله (ونبلوكم) أى نعاملكم معاملة المبتلى المختبر ليظهر فى عالم الشهادة الشاكر والصابر والمؤمن والكافر كما هو عندنا فى عالم الغيب بأن نخالطكم (بالشر) وهو المضار الدنيوية من الفقر والالم وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين (والخير) وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكن من المرادات وقوله تعالى (فتنة) مفعول له أى لننظر أتصبرون وتشكرون أم لا كما يفتتن الذهب اذا أريد تصفيته بالنار عما يخالطه من الغش فبين تعالى أن العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين لكى يشكر على المنح ويصبر على المحن فيعظم ثوابه اذا قام بما يلزم (والينا) بعد الموت لا الى غيرنا (ترجعون) فنجازيكم بما فعلتم ثم عطف تعالى على قوله وأسروا النجوى قوله تعالى (واذا رآك) أى وأنت أشرف الخلق (الذين كفروا ان) أى ما (يتخذونك) أى حال الرؤية (الا هزوا) أى مهزوا به يقولون انكارا واستصغارا (أهذا الذى يذكر آلهتكم) أى بسوء والذكر يكون بالخير والشر فاذا دلت القرينة على أحدهما أطلق عليه وذكر العدو لا يكون الا بسوء (وهم) أى والحال أنهم (بذكر الرحمن) أى اذا ذكر لهم الرحمن (هم كافرون) وذلك أنهم كانوا يقولون لا نعرف الرحمن الا مسيلمة وهم الثانية للتأكيد * ونزل فى استعجالهم العذاب (خلق الانسان من عجل) كأنه خلق منه لفرط استعجاله وقلة ثباته والعرب تقول للذى يكثر منه الشئ خلقت منه كقولك خلق زيد من الكرم فجعل ما طبع عليه بمنزلة المطبوع هو منه مبالغة فى لزومه له ولذلك قيل انه على القلب أى خلق العجل من الانسان ومن عجلته مبادرته الى الكفر واستعجال الوعد وقال سعيد بن جبير والسدى لما دخل الروح فى رأس آدم وعينيه نظر الى ثمار الجنة فلما دخل الروح فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح الى رجليه عجلا الى ثمار الجنة فوقع فقيل خلق الانسان

من

من عجل والمراد بالانسان آدم وأورث أولاده العجلة وقال قوم معناه خلق الانسان يعني آدم عليه السلام من تعجيل في خلق الله تعالى اياه لان خلقه كان بعد خلق كل شيء في آخر النهار يوم الجمعة فأسرع في خلقه قبل مغيب الشمس قال مجاهد فلما أحيا الروح رأسه قال يارب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس وقيل بسرعة وتعجيل على غير ترتيب خلق سائر الآدميين من النطفة ثم العلقة ثم المضغة وغيرها وقال قوم من عجل أي من طين قال الشاعر

والنبع في الصخرة الصماء منبته * والنخل ينبت بين الماء والعجل

ثم قال تعالى مهددا للمكذبين (سأريكم آياتي) أي مواعيدي بالعذاب (فلا تستعجلون) أي تطلبون أن أوجد العجلة بالعذاب أو غيره فاني منزه عن العجلة التي هي من جملة نقائصكم لانها ارادة الشيء قبل أوانه (فان قيل) لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله خلق الانسان من عجل وقوله تعالى وكان الانسان عجولا أليس هذا من تكليف مالا يطاق (أجيب) بأن هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها لانه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة وقد أراهم بعض آياته وهو القتل ببدر (ويقولون) في استهزائهم (متى هذا الوعد) أي باتيان الآيات من الساعة ومقدماتها وغيرها (ان كنتم) فيما توعدون به (صادقين) أي عريقين في هذا الوصف يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء ثم بين تعالى أنهم يقولون ذلك لجهلهم بقوله تعالى (لو يعلم الذين كفروا) وذكر المفعول به بقوله تعالى (حين) أي وقت (لا يكفون) أي لا يدفعون (عن وجوههم) التي هي أشرف أعضائهم (النار) استسلاما وعجزا (ولا عن ظهورهم) التي هي أشد أجسامهم السياط (ولا هم ينصرون) أي لا يمنعون من العذاب في القيامة وجواب لو محذوف والمعنى لو علموا لما أقاموا على كفرهم ولما استعجلوا العذاب ولا قالوا متى هذا الوعد ان كنتم صادقين (بل تأتيهم) أي القيامة (بغتة) أي فجأة (فتبهتهم) أي تحيرهم يقال فلان مبهوت أي متحير (فلا يستطيعون ردها) أي لا يطلبون طوع ذلك لهم في ذلك الوقت ليأسهم منه (ولا هم ينظرون) أي يمهلون لتوبة أو معذرة * ولما كان التقدير حاق بهم هذا باستهزائهم بك أتبعه مايدل على أن الرسل في ذلك شرع واحد تسلية له صلى الله عليه وسلم فقال عاطفا على واذا رآك (ولقد استهزئ برسل من قبلك) أي كثيرين فلك بهم أسوة وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة في الوصل بكسر الدال والباقون بالضم واذا وقف حمزة أبدل الهمزة ياء ساكنة (فحاق) أي نزل (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) وهو العذاب فكذا يحيق بمن استهزأ بك * ولما أعلم الله تعالى أن الكفار في الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم بسائر ماوصفهم به أتبعه بأنهم في الدنيا أيضا لولا أن الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما تجوا في السلامة فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (قل) يا أشرف المرسلين للمستهزئين (من يكلؤكم) أي يحفظكم (بالليل والنهار من الرحمن) أي من عذابه ان نزل بكم أي لا أحد يفعل ذلك (بل هم عن ذكر ربهم) أي القرآن (معرضون) لا يتفكرون فيه ولا يخطرونه ببالهم فضلا أن يخافوا بأسه (أم) فيها معنى الهمزة للانكار

أى أ(لهم آلهة) موصوفة بأنها (تمنعهم) مما يسوءهم (من دوننا) ليس لهم ذلك ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال تعالى (لا يستطيعون) أى الآلهة (نصر أنفسهم) فكيف ينصرون عابديهم (ولاهم) أى الكفار (منا) أى من عذابنا (يصحبون) أى يجارون يقال صحبك الله أى حفظك وأجارك (بل متعنا هؤلاء) أى الكفار على حقارتهم (وآباءهم) من قبلهم بالنعم استدراجا (حتى طال عليهم العمر) أى امتدت بهم أيام الدنيا بالروح والطمأنينة فحسبوا أن لا يزالوا على ذلك لا يغلبون ولا ينزع عنهم ثوب أمنتهم واستمتاعهم فاغتروا بذلك وذلك طمع فارغ وأمل كاذب وغلظ ورش اللام بخلاف عنه (أفلا يرون) أى يعلمون علما هو فى وضوحه مثل الرؤية بالبصر (أنا نأتى الارض) أى أرض الكفرة (ننقصها من أطرافها) بتسليط المسلمين عليها واظهارهم على أهلها بقتل بعض ورد بعض عن دينه الى الاسلام فهم فى نقص وأولياؤنا فى زيادة (أفهم الغالبون) أى مع مشاهدتهم لذلك أم أولياؤنا * ولما كرر سبحانه وتعالى فى القرآن الادلة وبالغ فى التنبيه عليها على ما تقدم أتبعه بقوله تعالى (قل) يا أشرف الخلق لهؤلاء المشركين (انما أنذركم) أى أخوفكم (بالوحى) أى بالقرآن الذى هو كلام ربكم فلا تظنوا انه من قبل نفسى (ولا يسمع الصم الدعاء) أى من يدعوهم (اذا ما ينذرون) أى يخوفون فهم لترك العمل بما سمعوه كالصم (فان قيل) الصم لا يسمعون دعاء المبشر كما لا يسمعون دعاء المنذر فكيف قيل اذا ما ينذرون (أجيب) بأنه وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم أسماعهم اذا أنذروا أى هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة وعلى التصام عن آيات الانذار وقرأ ابن عامر ولا تسمع بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم ونصب ميم الصم على الخطاب النبوى والباقون بالياء التحتية وفتح الميم ورفع ميم الصم وفى الدعاء واذا همزتان مختلفتان من كلمتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية بين الهمزة والياء والباقون بتحقيق الهمزتين وهذا فى حال الوصل فان وقف على الهمزة الاولى فالجميع يبتدؤن الثانية بالتحقيق ويقف حمزة وهشام بابدال الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر (ولئن مستهم) أى أصابتهم (نفحة) أى دفعة خفيفة وفى ذلك مبالغات ذكر المس وما فى النفحة من معنى القلة فان أصل النفح هبوب رائحة الشئ والتاء الدالة على المرة (من عذاب ربك) المحسن اليك بنصرك عليهم من الذى ينذرون به (ليقولن) وقد أذهلهم أمرها (ياويلنا) الذى لا نرى بحضرتنا الآن غيره (انا كنا ظالمين) دعوا على أنفسهم بالويل بعدما أقروا بالظلم ثم ذكر تعالى بعض ما يفعل فى حساب الساعة من العدل فقال عاطفا على قوله تعالى بل تأتيهم بغتة (ونضع الموازين القسط) أى ذوات العدل (ليوم القيامة) أى فيه وانما جمع الموازين لكثرة من توزن أعمالهم ويجوز أن يرجع الى الموزونات وقيل وضع الموازين تمثيلا لارصاد الحساب السوى والجزاء على حسب الاعمال بالعدل والصحيح الذى عليه أئمة السلف ان الله تعالى يضع ميزانا حقيقة توزن به أعمال العباد وعن الحسن هو الميزان له كفتان ولسان ويروى ان داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فأراه كل كفة ما بين المشرق والمغرب فغشى عليه

ثم أفاق فقال الهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات قال يا داود اني اذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة (فان قيل) كيف توزن الاعمال مع أنها أعراض (أجيب) بأن فيه طريقين أحدهما أن توزن صحائف الاعمال فتوضع صحائف الحسنات في كفة وصحائف السيآت في كفة والثاني أن توضع في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفي كفة السيآت جواهر سود مظلمة (فان قيل) هذه الآية يناقضها قوله تعالى في الكفار فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا (أجيب) بأن المراد منه انا لا نكرمهم ولا نعظمهم (فلا تظلم نفس شيأ) أي من نقص حسنة أو زيادة سيئة (وان كان) أي العمل (مثقال) أي وزن (حبة من خردل) أو أصغر منه وانما مثل به لانه غاية عندنا في القلة وقرأ نافع برفع اللام على أن كان تامة والباقون بالنصب وكذا في لقمان (أتينا بها) أي بوزنها ولما كان حساب الخلائق كلهم في كل ما صدر منهم أمرا باهرا للعقل حقره عند عظمته فقال (وكفى بنا) أي بما لنا من العظمة (حاسبين) أي محصين في كل شيء فلا يكون في الحساب أحد مثلنا ففيه توعد من جهة أن معناه أن لا يروج عليه شيء من خداع ولا يقبل غلطا ولا يضل ولا ينسى الى غير ذلك من كل ما يلزم منه نوع لبس وشوب منقص ووعد من جهة أنه مطلع على حسن قصد وان دق وخفي ＊ ولما تكلم سبحانه وتعالى في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع في قصص الانبياء عليهم السلام تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض وذكر منها عشرا ＊ القصة الاولى قصة موسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد آتينا موسى وهرون) أي أخاه الذي سأل ربه أن يشد أزره به (الفرقان) أي التوراة الفارقة بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام (وضياء) بها لا ظلام معه أي ليستضاء بها في ظلمات الحيرة والجهل وقرأ قنبل بعد الضاد بهمزة مفتوحة ممدودة والباقون بياء بعدها ألف (وذكرا) أي عظة (للمتقين) أو ذكر ما يحتاجون اليه من الشرائع وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر ويراد بالضياء على هذين التوراة ثم بين المتقين بوصفهم بقوله تعالى (الذين يخشون) أي يخافون خوفا عظيما (ربهم) أي المحسن اليهم بعد الايجاد بالتربية وأنواع الاحسان (بالغيب) عن الناس أي في الخلاء عنهم أو بالغيب قبل أن يكشف لهم الحجاب في الجنة (وهم من الساعة) التي توضع فيها الموازين وقد أعرض عنها الجاهلون مع كونها أعظم حامل على كل خير ومباعد عن كل ضير (مشفقون) أي خائفون لانهم لقيامها متحققون ولنصب الموازين فيها عالمون ＊ ولما ذكر تعالى فرقان موسى عليه السلام وكان العرب يشاهدون تمسك اليهود به حثهم على كتابهم الذي هو أشرف منه بقوله تعالى (وهذا) أي القرآن وأشار اليه بأداة القرب ايماء الى سهولة تناوله عليهم (ذكر) أي موعظة (مبارك) أي كثير خيره (أنزلناه) على أشرف الرسل محمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (أفأنتم له منكرون) أي جاحدون استفهام توبيخ ＊ القصة الثانية قصة ابراهيم عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد آتينا) بما لنا من العظمة (ابراهيم رشده) أي صلاحه وهداه (من قبل) أي من قبل موسى وهرون ومحمد صلى الله وسلم عليهم وقيل

من قبل استنبائه أو بلوغه حيث قال انى وجهت وجهى (وكنا به) ظاهرا وباطنا (عالمين) بأنه أهل لما آتيناه لانه جبلة خير جامع لمحاسن الاوصاف ومكارم الاخلاق والخصال يدوم على الرشد ويترقى فيه الى أعلى درجاته لما طبعناه عليه وفى ذلك اشارة الى أنه فعله تعالى باختيار وحكمة وانه عالم بالجزئيات وتعليق (اذ قال) أى ابراهيم (لابيه وقومه) بعالمين اشارة الى أن قوله لما كان باذننا ورضانا نصرناه وهو وحده على قومه كلهم ولولم يكن برضينا لمنعناه منه بنصر قومه عليه وتمكين النار منه ثم ذكر مقول القول فى قوله منكرا عليهم محقرا الاصنامهم (ما هذه التماثيل) أى الصور التى صنعتموها مماثلين بها ما فيه روح الله جاعلين لها ما لا يكون الا لمن لا مثل له وهى الاصنام (التى أنتم لها) أى لاجلها وحدها مع كثرة ما يشابهها وما هو أفضل منها (عاكفون) أى مقيمون على عبادتها (فان قيل) هلا قال عليها عاكفون كقوله تعالى يعكفون على أصنام لهم (أجيب) بأن اللام للاختصاص لا للتعدية ولو قصد التعدية لعداه بصلته التى هى على ثم انه تعالى ذكر جوابهم لما لزم الاستفهام عن السؤال بأنهم (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) فاقتدينا بهم لا حجة لنا غير ذلك فانظر ما أقبح التقليد وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حتى استدرجهم الى أن قلدوا آباءهم فى عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم وهم معتقدون أنهم على شئ ويجادون فى نصرة مذهبهم ويجادلون أهل الحق عن باطلهم وكفى أهل التقليد مسبة أن عبدة الاصنام منهم والتقليد ان جاز فانما يجوز لمن علم فى الجملة أنه على حق ولذا (قال) ابراهيم عليه السلام (لقد كنتم) وأكده بقوله (أنتم) لاجل صحة العطف لان الضمير المرفوع المتصل حكمه حكم جزء الفعل والعطف على ضمير هو فى حكم بعض الفعل ممتنع ونحوه اسكن أنت وزوجك الجنة (وآباؤكم) أى من قبلكم (فى ضلال مبين) فبين ان المقلدين والمقلدين جميعا منخرطون فى سلك ضلال لا يخفى على من به أدنى مسكة لاستناد الفريقين الى غير دليل بل الى هوى متبع وشيطان مطاع لاستبعادهم أن يكون ما هم عليه ضلالا بقوا متعجبين من تضليله اياهم فلذا (قالوا) ظنا منهم أنه لم يقل لهم ذلك على ظاهره (أجئتنا) فى هذا الكلام (بالحق) الذى يطابقه الواقع (أم أنت من اللاعبين) أى تقوله على وجه المزاح والملاعبة لا على وجه الجد (قال) عليه السلام بانيا على ما تقديره ليس كلامى لعبا بل هو جد وهذه التماثيل ليست أربابا (بل ربكم) أى الذى يستحق منكم اختصاصه بالعبادة (رب السموات والارض) أى مدبرهن القائم بمصالحهن (الذى فطرهن) أى خلقهن على غير مثال سبق وأنتم وتماثيلكم بما فيهما من مصنوعاته أنتم تشهدون بذلك اذا رجعتم الى عقولكم مجردة عن الهوى وقيل الضمير فى فطرهن للتماثيل قال الزمخشرى وكونه للتماثيل أدخل فى تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم (وأنا على ذلكم) أى الامر البين من انه ربكم وحده فلا تجوز عبادة غيره (من الشاهدين) أى الذين يقدرون على اقامة الدليل على ما يشهدون به لم يشهدوا الا على ما هو عندهم مثل الشمس لا كما فعلتم أنتم حين اضطركم السؤال الى الضلال * ولما أقام البرهان على اثبات الاله الحق أتبعه البرهان على ابطال الباطل بقوله (وتالله) وهو قسم والاصل فى القسم

الباء الموحدة والواو بدل منها والتاء بدل من الواو وفيها مع كونها بدلا زيادة على التأكيد التعجب (لأكيدن أصنامكم) اى لاجتهدن فى كسرها والتأكيد وما فى التاء من التعجب من تسهيل الكيد على يده وتأتيه لان ذلك كان امرا مقنوطا منه لصعوبته وتعذره ولعمرى ان مثله صعب متعذر فى كل زمان خصوصا فى زمن نمروذ مع عتوه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على نصرة دينه ولكن * اذا الله سنى عقد شئ تيسرا * ولما كان عزمه على ايقاع الكيد فى جميع الزمان الذى يقع فيه توليهم فى اى جزء تيسر له منه اسقط الجار فقال (بعد أن تولوا مدبرين) اى بعد أن تدبروا منطلقين الى عيدكم قال مجاهد وقتادة انما قال ابراهيم هذا سرا من قومه ولم يسمع ذلك الا رجل واحد فأفشاه عليه وقال انا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وقال السدى كان لهم فى كل سنة مجمع عيد فكانوا اذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الاصنام فسجدوا لها ثم عادوا الى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال أبو ابراهيم له يا ابراهيم لو خرجت معنا الى عيدنا أعجبك ديننا فخرج معهم ابراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال انى سقيم أشتكى برجلى فلما مضوا نادى فى آخرهم وقد بقى ضعفاء الناس تالله لأكيدن أصنامكم فسمعوها منه ثم رجع ابراهيم الى بيت الآلهة وهى فى بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم الى جنبه أصغر منه والاصنام بعضها الى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه الى باب البهو واذا هم قد جعلوا طعاما فوضعوه بين يدى الآلهة وقالوا اذا رجعنا وقد بركت الاصنام الآلهة عليه أكلنا منه فلما نظر ابراهيم اليهم والى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء ألا تأكلون فلما لم يجيبوه قال لهم ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين وجعل يكسرهن بفأس فى يده حتى لم يبق الا الصنم الاكبر علق الفأس فى عنقه ثم خرج فذلك قوله عز وجل (فجعلهم جذاذا) أى فتاتا وقرأ الكسائى بكسر الجيم والباقون بضمها (الا كبيرا لهم) فانه لم يكسره ووضع الفأس فى عنقه وقيل ربطه بيده وكانت اثنين وسبعين صنما بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد ورصاص وخشب وحجر وكان الصنم الكبير من الذهب مكللا بالجواهر فى عينيه ياقوتتان تتقدان (لعلهم) أى هؤلاء الضلال (اليه) أى ابراهيم (يرجعون) عند الزامه بالسؤال فتقوم عليهم الحجة فلما عادوا الى أصنامهم فوجدوها على تلك الحال (قالوا من فعل هذا) الفعل الفاحش (بآلهتنا انه لمن الظالمين) حيث وضع الاهانة فى غير موضعها فان الآلهة حقها الاكرام لا الاهانة والانتقام (قالوا) أى الذين سمعوا قول ابراهيم وتالله لأكيدن أصنامكم (سمعنا فتى) أى شابا من الشباب (يذكرهم) أى يعيبهم ويسبهم (يقال له ابراهيم) أى هو الذى نظن أنه صنع هذا فلما بلغ ذلك نمروذ الجبار وأشراف قومه (قالوا فأتوا به) الى بيت الاصنام (على أعين الناس) أى جهرة والناس ينظرون اليه نظر الاخفاء معه حتى كأنه ماش على أبصارهم متمكن منها تمكن الراكب على المركوب (لعلهم يشهدون) عليه بأنه الذى فعل بالآلهة هذا الفعل كرهوا أن يأخذوه بغير بينة وقيل معناه لعلهم يحضرون عذابه وما يصنع به فلما أتوا به (قالوا) منكرين

عليه (أأنت فعلت هذا) الفعل الفاحش (بآلهتنا يا ابراهيم) *(تنبيه)* هنا همزتان مفتوحتان من كلمة فالقراء الجميع على تحقيق الاولى وأما الثانية فسهلها نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه وأدخل بينهما الفاقالون وأبو عمرو والباقون بتحقيقهما وعدم الادخال بينهما ثم (قال) ابراهيم متهكما بهم وملزما بالحجة (بل فعله كبيرهم) غيرة أن يعبد معه من هو دونه وتقييده بقوله (هذا) اشارة الى الذى تركه من غير كسر * ولما أخبرهم ولم يكن احد رآه حتى يشهد على فعله وكانوا قد اداوهم بعبادتهم ووضع الطعام لهم محل من يعقل تسبب عنه أمرهم بسؤالهم فقال (فاسئلوهم) أى عن الفاعل ليخبروكم به وقوله (ان كانوا ينطقون) أى على زعمكم انهم آلهة يضرون وينفعون فيه تقديم جواب الشرط أى فان قدروا على النطق أمكنت عنهم القدرة والافلا فأراهم عجزهم عن النطق وفى ضمنه أنا فعلت ذلك روى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات ثنتين منهن فى ذات الله قوله انى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هذه أختى وقال فى حديث الشفاعة ويذكر كذباته أى انه لم يتكلم بكلمات صورتها صورة الكذب وان كان حقا فى الباطن الا هذه الكلمات وقيل فى قوله انى سقيم أى سأسقم وقيل سقيم القلب أى مغتم بضلالتكم وقوله لسارة هذه أختى أى فى الدين وقوله بل فعله كبيرهم هذا روى عن الكسائى أنه كان يقف عند قوله بل فعله ويقول معناه بل فعله من فعله وقوله كبيرهم هذا مبتدأ وخبر قال البغوى وهذه التأويلات لنفى الكذب والاولى هو الاول للحديث فيه ويجوز أن يكون الله تعالى قد أذن له فى ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم كما أذن ليوسف عليه السلام حتى نادى مناديه فقال أيتها العير انكم لسارقون ولم يكونوا سرقوا وقال الرازى الحديث محمول على المعاريض فان فيها مندوحة عن الكذب أى تسمية المعاريض كذبا لما اشبهت صورتها صورته وقرأ ابن كثير والكسائى بفتح السين وترك الهمزة وكذا يفعل حمزة فى الوقف والباقون بسكون السين وبعدها همزة مفتوحة وقيل الوقف على بل فعله ثم يبتدئ بقوله كبيرهم هذا * ولما اضطرهم الدليل أن يحققوا أنهم على محض الباطل (فرجعوا الى أنفسهم) بالتفكر (فقالوا) أى بعضهم لبعض (انكم أنتم الظالمون) لكونكم وضعتم العبادة فى غير موضعها الا ابراهيم فانه أصاب باهانتها (ثم نكسوا على رؤسهم) أى انقلبوا غير مستحيين عما يلزمهم من الاقرار بالسفه الى المجادلة له بعدما استقاموا بالمراجعة من قولهم نكس المريض اذا عاد الى حاله الاول شبه عودهم الى الباطل بصورة جعل أسفل الشئ مستعليا على أعلاه ثم انهم قالوا فى مجادلتهم عن شركائهم والله (لقد علمت) يا ابراهيم (ما هؤلاء) لا تحصيهم ولا تجرحهم (ينطقون) أى فكيف تأمرنا بسؤالهم * ولما تسبب عن قولهم هذا اقرارهم بأنهم لا فائدة فيهم اتجه لابراهيم عليه السلام الحجة عليهم (قال) منكرا عليهم موبخا لهم (أفتعبدون من دون الله) أى بدله (ما لا ينفعكم شيأ) من رزق وغيره لترجوه (ولا يضركم) شيأ اذا لم تعبدوه لتخافوه (أف) أى تبا وقبحا (لكم ولما تعبدون من دون الله)

أي غيره وقرأ نافع وحفص بتنوين الفاء مكسورة وابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين والباقون بكسر الفاء من غير تنوين * ولما تسبب عن فعلهم هذا وضوح انه لا يقربه عاقل أنكر عليهم ووبخهم بقوله (أفلا تعقلون) قبح صنيعكم وأنتم شيوخ قد مرّت بكم الدهور وحنكتكم التجارب * ولما دحضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل (قالوا) عادلين الى العناد واستعمال القوّة الحسية (حرقوه) بالنار لتكونوا قد فعلتم فيه فعلا أعظم مما فعل بآلهتكم (وانصروا آلهتكم) التي جعلها جذاذا (ان كنتم فاعلين) نصرتها قال ابن عمر ان الذي قال هذا رجل من الاكراد قيل اسمه هيثون فخسف الله تعالى به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وقيل قاله نمروذ بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام وروى ان نمروذ وقومه حين هموا باحراقه حبسوه في بيت ثم بنوا عليه بيتا كالحظيرة بقرية يقال لها كوثى ثم جمعوا له أصلاب الحطب من اصناف الخشب مدة شهر حتى كان الرجل يمرض فيقول لئن عوفيت لاجمعن حطبا لابراهيم وكانت المرأة تغزل وتشترى بغزلها الحطب احتسابا في دينها وكان الرجل يوصى بشراء الحطب والقائه فيه فلما جمعوا ما أرادوا وأشعلوا في كل ناحية من الحطب نارا فاشتعلت النار واشتدت حتى كان الطير يمرّ بها فيحترق من شدة وهجها وحرّها وأوقدوا عليه سبعة أيام فلما أرادوا أن يلقوا ابراهيم لم يعلموا كيف يلقوه فجاءهم ابليس عليه اللعنة فعلمهم عمل المنجنيق فعملوا ثم عمدوا الى ابراهيم فقيدوه ورفعوه على رأس البنيان ووضعوه في المنجنيق مقيدا مغلولا فصاحت السماء والارض ومن فيهما من الملائكة وجميع الخلق الا الثقلين صيحة واحدة ربنا خليلك يلقى في النار وليس في أرضك من يعبدك غيره فأذن لنا في نصرته فقال عز وجل انه خليلي وليس لي خليل غيره وأنا الهه ليس له اله غيري فان استغاث بأحد منكم أودعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك وان لم يدع أحدا غيري فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بيني وبينه فلما أرادوا القاءه في النار أتاه خازن المياه فقال ان أردت أخمدت النار وأتاه خازن الرياح فقال ان شئت طيرت النار في الهواء فقال ابراهيم عليه السلام لا حاجة لي اليكم حسبي الله ونعم الوكيل وروى عن كعب الاحبار ان ابراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه في النار لا اله الا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم رموا به في المنجنيق الى النار فاستقبله جبريل فقال يا ابراهيم ألك حاجة قال اما اليك فلا فقال جبريل فاسأل ربك فقال ابراهيم عليه السلام حسبي من سؤالي علمه بحالي وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل قالها ابراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وقالها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم قال كعب الاحبار جعل كل شئ يطفئ النار عنه الا الوزغ فانه كان ينفخ في النار وعن أم شريك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الاوزاغ وقال كان ينفخ على ابراهيم * ولما أراد الله تعالى الذي له القوّة جميعا سلامته منها قال تعالى (قلنا يا نار كوني) بارادتنا التي لا يتخلف عنها مراد (بردا) قال ابن عباس لولم يقل (وسلاما) لمات ابراهيم من بردها وفي الآثار انه لم يبق يومئذ نار في الارض

الا طفئت فلم ينتفع فى ذلك اليوم بنار فى العالم ولو لم يقل تعالى (على ابراهيم) لبقيت ذات برد أبدا
والمعنى كونى ذات برد وسلام على ابراهيم فبولغ فى ذلك حتى كان ذاتها بردوسلام والمراد
ابردى فيسلم منك ابراهيم أو ابردى بردا غير ضار قال السدى فأخذت الملائكة بضبعى ابراهيم
فأقعدوه على الارض فاذا بعين ماء عذب وورد أحمر ونرجس قال كعب ما أحرقت النار من
ابراهيم الا وثاقه قالوا وكان ابراهيم فى ذلك الموضع سبعة أيام قال المنهال بن عمرو قال
ابراهيم ما كنت أياما قط أنعم منى فى الايام التى كنت فى النار وقال ابن يسار وبعث الله تعالى
ملك الظل فى صورة ابراهيم فقعد فيها الى جنب ابراهيم يؤنسه قال وبعث الله تعالى جبريل عليه
السلام بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه
يحدثه وقال جبريل يا ابراهيم ان ربك يقول أما علمت أن النار لا تضر أحبابى ثم نظر نمروذ
وأشرف على النار من صرح له فرآه جالسا فى روضة والملك قاعد الى جنبه وما حوله نار تحرق
الحطب فناداه يا ابراهيم بالهك الذى بلغت قدرته ان حال بينك وبين ما أرى هل تستطيع أن
تخرج منها قال نعم قال هل تخشى ان قمت فيها أن تضرك قال لا قال قم فاخرج منها فقام ابراهيم
يمشى فيها حتى خرج منها فلما خرج اليه قال له من الرجل الذى رأيته معك فى مثل صورتك قاعدا
الى جنبك قال ذاك ملك الظل أرسله الى ربى ليؤنسنى فيها فقال نمروذ انى مقرب الى الهك
قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك حين أبيت الا عبادته وتوحيده انى ذابح له أربعة
آلاف بقرة قال اذا لا يقبل الله منك ما كنت على دينك حتى تفارقه الى دينى فقال لا أستطيع
ترك ملكى ولكن أذبحها له فذبحها له نمروذ ثم كف عن ابراهيم ومنعه الله تعالى منه وكان
ابراهيم اذ ذاك ابن ست عشرة سنة واختاروا المعاقبة بالنار لانها أهول ما يعاقب به وافظعه
ولذلك جاء فى الحديث لا يعذب بالنار الا خالقها وقيل ان الله تعالى نزع عنها طبعها الذى طبعها
عليه من الحر والاحراق وابقاها على الاضاءة والاشراق والاشتعال كما كانت والله على كل شئ
قدير فدفع عن ابراهيم حرها كما يدفع ذلك عن خزنة جهنم (وأرادوا به كيدا) أى مكرا فى اضراره
بالنار وبعد خروجه منها (فجعلناهم) أى بما لنا من الجلال (الاخسرين) أى أخسر من كل
خاسر عاد سعيهم برهانا قاطعا على انهم على الباطل وابراهيم على الحق وموجبا لزيادة درجته
واستحقاقهم أشد العذاب وقد أرسل الله تعالى على نمروذ وعلى قومه البعوض فأكلت لحومهم
وشربت دماءهم ودخلت فى دماغه بعوضة فأهلكته * (فائدة) * وقع مثل هذه القصة لبعض
اتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو أبو مسلم الخولانى طلبه الاسود العنسى لما ادعى النبوة
فقال له اتشهد أنى رسول الله قال ما أسمع قال اتشهد أن محمدا رسول الله قال نعم فأمر بنار فألقى
فيها ثم وجده قائما يصلى فيها وقد صارت عليه بردا وسلاما وقدم المدينة بعد موت النبى صلى الله
عليه وسلم فأجلسه عمر بينه وبين أبى بكر رضى الله عنهم وقال عمر الحمد لله الذى لم يمتنى حتى
أرانى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بابراهيم خليل الله (ونجيناه ولوطا)
من نمروذ وقومه من أرض العراق (الى الارض التى باركنا فيها للعالمين) وهى الشام بارك

الله فيها بالخصب وكثرة الاشجار والثمار والانهار ومنها بعث أكثر الانبياء قال أبي بن كعب بارك
الله فيها وسماها مباركة لان ما من ماء عذب الا وينبع أصله من تحت الصخرة التي بيت المقدس أي
يهبط من السماء الى الصخرة ثم يتفرق في الارض قاله أبو العالية وعن قتادة ان عمر رضي الله
تعالى عنه قال لكعب الاحبار ألا تتحول الى المدينة فيها مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره
فقال كعب اني وجدت في كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين ان الشأم كنز الله في أرضه وبها كنزه
من عباده وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس الى مهاجر ابراهيم قال محمد بن اسحق استجاب لابراهيم
رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله عز وجل به من جعل النار عليه بردا وسلاما على خوف من
نمروذ وملئهم وآمن به لوط وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران بن تارح وهاران هو أخو ابراهيم
وكان لهما أخ ثالث يقال له ناحور بن تارح وآمنت به أيضا سارة وهي بنت عمه وهي سارة بنت
هاران الاكبر عم ابراهيم فخرج من كوثى وهي بضم الكاف ومثلثة قال ابن الاثير هي كوثى
العراق وهي سرة السواد وبها ولد ابراهيم الخليل عليه السلام وخرج مهاجرا الى ربه ومعه لوط
وسارة كما قال تعالى فآمن له لوط وقال اني مهاجر الى ربي فخرج يلتمس الفرار بدينه والامان
على عبادة ربه حتى نزل حران فمكث بها ما شاء الله ثم خرج منها مهاجرا حتى قدم مصر ثم خرج
من مصر الى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين وهي برية الشأم ونزل لوط بالمؤتفكة وهي
على مسيرة يوم وليلة من السبع فبعثه الله تعالى نبيا الى أهلها وما قرب منها فذلك قوله تعالى
ونجيناه ولوطا الى الارض التي باركنا فيها للعالمين أي كما أنجيناك أنت يا أشرف الخلق ويا أفضل
أولاده وصديقك أبا بكر رضي الله تعالى عنه الى طيبة التي شرفناها بك وبثثنا من أنوارها في
أرجاء الارض وأقطارها ما لم نبث مثله قط وباركنا فيها للعالمين بالخلفاء الراشدين وغيرهم من العلماء
والصالحين الذين انبثت خيراتهم العملية والعلمية والمالية في جميع الاقطار * ولما ولد لابراهيم
عليه السلام في حال شيخوخته وعجز امرأته مع كونها عقيما وكان ذلك دالا على الاقتدار على
البعث الذي السياق كله له قال تعالى (ووهبنا له) دالا على ذلك بنون العظمة (اسحق) أي من
شبه العدم وترك شرح حاله لتقدمه أي فكان ذلك دليلا على اقتدارنا على ما نريد لاسيما من اعادة
الخلق في يوم الحساب ثم انه قد يظن أنه لتولده بين شيخ فان وعجوز عقيم كان على حالة من الضعف
لا يولد لمثله معها نفي ذلك بقوله تعالى (ويعقوب نافلة) اي ولد الاسحق زيادة على ما دعا به
ابراهيم عليهما السلام ثم نمى سبحانه وتعالى أولاد يعقوب وهو اسرائيل وذرياتهم الى أن ساموا
النجوم عدة وباروا الجبال شدة (وكلا) من هؤلاء الاربعة وهم ابراهيم ولوط واسحق ويعقوب
وعظم رتبتهم بقوله تعالى (جعلنا صالحين) أي مهيئين لطاعتهم لله تعالى لكل ما يرونه أو يرادون
له أو يراد منهم * ثم لما ذكر انه تعالى أعطاهم رتبة الصلاح في أنفسهم ذكر انه تعالى أعطاهم
رتبة الاصلاح لغيرهم فقال تعالى معظما لامامتهم (وجعلناهم أئمة) أي اعلاما ومقاصد
يقتدى بهم في الدين لما آتيناهم من العلم والنبوة وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل

الهمزة الثانية المكسورة بين الهمزة والياء ويجوز ابدالها عندهم ياء خالصة ولا يدخلون بينهما شيأ وقرأ هشام بتحقيق الهمزتين وادخال ألف بينهما بخلاف عنه في الادخال وعدمه والباقون بتحقيق الهمزتين من غير ادخال بلا خلاف (يهدون) أي يدعون الينا من وفقناه للهداية (بأمرنا) أي باذننا (وأوحينا اليهم) أيضا (فعل) أي أن يفعلوا (الخيرات) ليحثوهم عليها فيتم كما لهم بانضمام العلم الى العمل قال البقاعي ولعله تعالى عبر بالفعل دلالة على انهم امتثلوا كل ما أوحى اليهم وقال الزمخشري أصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات ثم فعل الخيرات وكذلك اقام الصلاة وايتاء الزكاة انتهى وقوله تعالى (واقام الصلاة وايتاء الزكاة) من عطف الخاص على العام تعظيما لشأنهما لان الصلاة تقرب العبد الى الحق تعالى والزكاة احسان الى الخلق قال الزجاج الاضافة في الصلاة عوض من تاء التأنيث يعني فيكون من الغالب لا من القليل (وكانوا لنا) دائما جبلة وطبيعة (عابدين) أي موحدين مخلصين في العبادة ولذلك قدم الصلة * القصة الثالثة قصة لوط عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (ولوطا) أي وآتينا لوطا أو واذكر لوطا ثم استأنف قوله تعالى (آتيناه حكما) أي نبوة وعملا محكما بالعلم وقيل فصلا بين الخصوم (وعلما) مزينا بالعمل بما ينبغي علمه للانبياء (ونجيناه من القرية) أي قرية سدوم (التي كانت) قبل انجائنا له منها (تعمل) أي أهلها الاعمال (الخبائث) من اللواط والرمي بالبندق واللعب بالطيور والتضارط في أنديتهم وغير ذلك وانما وصف القرية بصفة أهلها وأسندها اليها على حذف المضاف واقامته مقامه ويدل عليه (انهم كانوا) أي بما جبلوا عليه (قوم سوء) أي ذوي قدرة على الشر بانهماكهم في الاعمال السيئة (فاسقين) أي خارجين من كل خير (وأدخلناه) دونهم (في رحمتنا) أي في الاحوال السنية والاقوال العلية والافعال الزكية التي هي سبب للرحمة العظمى ومسببة عنها ثم علل ذلك بقوله تعالى (انه من الصالحين) أي الذين سبقت لهم منا الحسنى أي لما جبلناه عليه من الخير * القصة الرابعة قصة نوح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (ونوحا) أي واذكر نوحا (اذ) أي حين (نادى) أي دعا الله تعالى على قومه بالهلاك بقوله رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ونحوه من الدعاء (من قبل) أي من قبل لوط ومن تقدمه (فاستجبنا) أي أردنا الاجابة وأوجدناها بعظمتنا (له) في ذلك النداء ثم تسبب عن ذلك قوله تعالى (فنجيناه وأهله) أي الذين دام ثباتهم على الايمان وهم من كان معه في السفينة (من الكرب العظيم) أي من أذى قومه ومن الغرق والكرب الغم الشديد قاله السدي وقال أبو حيان الكرب أقصى الغم والاخذ بالنفس وهو هنا الغرق عبر عنه بأول أحوال مأخذ الغريق (ونصرناه) أي منعناه (من القوم) أي المتصفين بالقوة (الذين كذبوا بآياتنا) من أن يصلوا اليه بسوء وقيل من بمعنى على (انهم كانوا قوم سوء) أي لا عمل لهم الا بسوء (فأغرقناهم أجمعين) لاجتماع الامرين تكذيب الحق والانهماك في الشر لم يجتمعا في قوم الا وأهلكهم الله تعالى * القصة الخامسة قصة داود وسليمان عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (وداود وسليمان) ابنه أي اذكرهما واذكر

شأنهما

شأنهما (اذ) أى حين (يحكمان فى الحرث) الذى أنبت الزرع وهو من اطلاق اسم السبب على المسبب كالسماء على المطر والنبت قال ابن عباس وأكثر المفسرين كان ذلك كرما قد تدلت عناقيده وقال قتادة كان زرعا قال ابن الخازن وهو أشبه للعرف (اذ نفشت) أى انتشرت ليلا بغير راع (فيه غنم القوم) فرعته قال قتادة النفش فى الليل والعمل فى النهار (وكنا لحكمهم) أى الحكمين والمتحاكمين اليهما (شاهدين) أى كان ذلك بعلمنا ومرأى منا لا يخفى علينا علمه وقال الفراء جمع الاثنين فقال لحكمهم ويريد داود وسليمان لان الاثنين جمع وهو مثل قوله تعالى فان كان له اخوة فلأمه السدس وهو يريد أخوين قال ابن عباس وقتادة وذلك ان رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع ان هذا انفلتت غنمه ليلا فوقعت فى حرثى فأفسدته فلم تبق منه شيأ فأعطاه داود رقاب الغنم بالحرث فخرجا فمرا على سليمان عليه السلام فقال كيف قضى بينكما فأخبراه فقال سليمان وهو ابن احدى عشرة سنة لو وليت أمرهما لقضيت بغير هذا وروى أنه قال غير هذا أرفق بالفريقين فأخبر بذلك داود فدعاه فقال كيف تقضى ويروى انه قال بحق النبوة والابوة الا ما أخبرتنى بالذى هو أرفق بالفريقين قال ادفع الغنم الى صاحب الحرث فينتفع بدرها ونسلها وصوفها ويبذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه فاذا صار الحرث كهيئته دفع الى أهله وأخذ صاحب الغنم غنمه فقال داود القضاء ما قضيت كما قال تعالى (ففهمناها) أى الحكومة (سليمان) أى علمناه القضية وألهمناها له *(تنبيه)* يجوز أن تكون حكومتهما بوحى الا ان حكومة داود نسخت بحكومة سليمان ويجوز أن تكون باجتهاد الا أن اجتهاد سليمان أشبه بالصواب (فان قيل) ما وجه كل واحدة من الحكومتين (أجيب) بأن وجه حكومة داود ان الضرر وقع بالغنم فسلمت بجنايتها الى المجنى عليه كما قال أبو حنيفة فى العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه وعند الشافعى يبيعه فى ذلك أو يفديه ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان فى الحرث ووجه حكومة سليمان انه جعل الانتفاع بالغنم بازاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث حتى يزول الضرر والنقصان مثاله ما قال أصحاب الشافعى فيمن غصب عبدا وأبق من يده انه يضمن بالقيمة فينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من منافع العبد فاذا ظهر ترادا (فان قيل) لو وقعت هذه الواقعة فى شريعتنا ما حكمها (أجيب) بأن أبا حنيفة وأصحابه لا يرون فيها ضمانا بالليل أو بالنهار الا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد لقوله صلى الله عليه وسلم جرح العجماء جبار أى هدر رواه الشيخان وغيرهما والشافعى وأصحابه يوجبون الضمان بالليل اذ المعتاد ضبط الدواب ليلا ولذلك قضى النبى صلى الله عليه وسلم لما دخلت ناقة البراء حائطا وأفسدته فقال على أهل الاموال حفظها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظها بالليل ولما كان ذلك ربما أوهم شيأ فى أمر داود نفاه بقوله تعالى (وكلا) أى منهما (آتينا حكما) أى نبوة وعلما

مؤسساعلى حكمة العلم (وعلما) مؤيدابصالح العمل وعن الحسن لولاهذه الآية لرأيت القضاة قدهلكوا ولكنه تعالى أثنى على سليمان عليه السلام لصوابه وعلى داود باجتهاده انتهى وهذا على الرأى الثانى وعليه أكثر المفسرين وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران واذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر وهل كل مجتهد مصيب أو المصيب واحد لابعينه رأيان أظهرهما الثانى وان كان مخالفا لمفهوم الآية اذ لو كان كل مجتهد مصيبا لم يكن للتقسيم فى الحديث معنى وقوله صلى الله عليه وسلم واذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر لم يرد به انه يؤجر على الخطابل يؤجر على اجتهاده فى طلب الحق لان اجتهاده عبادة والاثم فى الخطا عنه موضوع *(فائدة)* من أحكام داود وسليمان عليهما السلام ماروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن احداهما فقالت لصاحبتها انما ذهب بابنك وقالت الاخرى انما ذهب بابنك فتحاكما الى داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان فأخبرتاه فقال ائتونى بالسكين أشقه بينكما فقالت الصغرى لاتفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى أخرجاه فى الصحيحين ثم انه تعالى ذكر لداود وسليمان بعض معجزات فمن بعض معجزات الاول ماذكره بقوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال) مع صلابتها وعظمها (يسبحن) معه أى يقدسن الله تعالى ولوشئنا لجعلنا الحرث والغنم تكلمه بصواب الحكم وقال ابن عباس كان يفهم تسبيح الحجر والشجر وقوله تعالى (والطير) عطف على الجبال أو مفعول معه وقال وهب كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذا الطير وقال قتادة يسبحن أى يصلين معه اذا صلى وقيل كان داود اذا فتر يسمعه الله تعالى تسبيح الجبال والطير لينشط فى التسبيح ويشتاق اليه وقيل يسبحن بلسان الحال وقيل يسبح من رآها تسير معه بتسيير الله تعالى فلما حملت على التسبيح وصفت به (وكنا فاعلين) أى من شأننا الفعل لامثال هذه الافاعيل ولكل شئ نريده فلا تستكثروا علينا أمرا وان كان عندكم عجبا وقد اتفق نحو هذا لغير واحد من هذه الامة كان مطرف ابن عبد الله بن الشخير اذا دخل بيته سبحت معه آنيته وأما النبى صلى الله عليه وسلم فكان الطعام يسبح بحضرته والحصى وغيره (وعلمناه صنعة لبوس) أى صنعة الدروع التى تلبس فى الحرب قال قتادة أول من صنع هذه الدروع وسردها واتخذها حلقا داود وكانت من قبل صفائح وقد ألان الله تعالى لداود الحديد فكان يعمل منه بغير نار كأنه طين قال البغوى وهو أى اللبوس فى اللغة اسم لكل مايلبس ويستعمل فى الاسلحة كلها وهو بمعنى الملبوس كالحلوب والركوب وقوله تعالى (لكم) متعلق بعلم أو صفة للبوس وقوله تعالى (لتحصنكم من بأسكم) بدل منه بدل اشتمال باعادة الجار ومرجع الضمير يختلف باختلاف القراآت فقرأ شعبة بالنون فالضمير لله تعالى وقرأ ابن عامر وحفص بالتاء على التأنيث فالضمير للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع وقرأ الباقون بالياء التحتية فالضمير لداود أو للبوس وقوله تعالى (فهل أنتم شاكرون) أى لنا على ذلك أمر أخرجه فى صورة الاستفهام للمبالغة أو التقريع ومن بعض معجزات

الثانى ماذكره بقوله (ولسليمان) أى وسخرنا لسليمان (الريح) قال البغوى وهو هواء يتحرك وهو جسم لطيف يمتنع بلطفه من القبض عليه ويظهر للحس بحركته والريح تذكر وتؤنث (عاصفة) أى شديدة الهبوب (فان قيل) قد قال تعالى فى موضع آخر تجرى بأمره رخاء والرخاء اللين (أجيب) بأنها كانت تحت أمره ان أراد أن تشتد اشتدت وان أراد أن تلين لانت وقيل كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم فاذا مرت بكرسيه أبعدت به فى مدة يسيرة على ما قال تعالى غدوها شهر ورواحها شهر وقوله تعالى (تجرى بأمره) أى بمشيئته حال ثانية أو بدل من الاول أو حال من ضميرها (الى الارض التى باركنا فيها) أى الشأم وذلك أنها كانت تجرى بسليمان وأصحابه الى حيث شاء سليمان ثم يعود الى منزله بالشأم قال وهب بن منبه كان سليمان عليه السلام اذا خرج الى مجلسه عكفت عليه الطير وقام اليه الجن والانس حتى يجلس على سريره وكان امرأ غزاء قلما يقعد عن الغزو ولا يسمع فى ناحية من الارض بملك الا أتاه حتى يذله فكان اذا أراد الغزو أمر بعسكره فضرب له بخشب ثم نصب له على الخشب ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب فاذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته حتى اذا استقلت به أمر الرخاء فمرت به شهرا فى روحته وشهرا فى غدوته الى حيث أراد وكانت تمر بعسكره الريح الرخاء بالمزرعة فما تحركها ولا تثير ترابا ولا تؤذى طائرا وقال مقاتل نسجت الشياطين لسليمان بساطا فرسخا فى فرسخ ذهبا فى ابريسم وكان يوضع له منبر من الذهب فى وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسى من ذهب وفضة تقعد الانبياء عليهم السلام على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح الى الرواح ومن الرواح الى الغروب وقال سعيد بن جبير كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسى تجلس الانس مما يليه ثم تليهم الجن ثم تظلهم الطير ثم تحملهم الريح وقال الحسن لما شغلت الخيل نبى الله سليمان حتى فاتته صلاة العصر غضب لله فعقر الخيل فأبدله الله مكانها خيرا منها وأسرع وهى الريح تجرى بأمره كيف يشاء فكان يغدو من ايلياء فيقيل باصطخر ثم يروح منها فيكون رواحها ببابل وقال ابن زيد كان له مركب من خشب وكان فيه ألف ركن فى كل ركن ألف بيت تركب معه فيه الجن والانس تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك الركن فاذا ارتفعت أتت الريح الرخاء فسارت به وبهم يقيل عند قوم بينه وبينهم شهر ولا يدرى القوم الا وقد أظلهم معه الجيوش (وكنا) أى أزلا وأبدا باحاطة العظمة (بكل شئ) أى من هذا وغيره من أمره وغيره (عالمين) ومن علمنا ان ذلك لا يزيدهم الا تواضعا وكما سخرنا الريح له سخرناها للنبى صلى الله عليه وسلم ليالى الاحزاب قال حذيفة رضى الله عنه حتى كانت تقذفهم بالحجارة ما تجاوز عسكرهم فهزمهم الله تعالى بها وردوا بغيظهم لم ينالوا خيرا وأعطى صلى الله عليه وسلم أعم مما أعطى جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام فقد أعطى صلى الله عليه وسلم التصرف فى العالم العلوى الذى جعل الله تعالى منه الفيض على العالم السفلى بالاحتراق لطباقه

بالاسراء تارة وبامساك المطر لما دعا بسبع كسبع يوسف عليه السلام وبارساله أخرى كما فى أحاديث كثيرة وأتى مع ذلك بمفاتيح خزائن الارض كلها فردها صلى الله عليه وسلم (ومن) أى وسخرنا لسليمان من (الشياطين) الذين هم أكثر شئ تمردا وعتوا (من يغوصون له) أى يدخلون فى البحر فيخرجون منه الجواهر وغيرها من المنافع وذلك بأن أكثفنا أجسامهم مع لطافتها لتقبل الغوص فى الماء معجزة فى معجزة وقد خنق نبينا صلى الله عليه وسلم العفريت الذى جاء بشهاب من نار وأسر جماعة من أصحابه رضى الله تعالى عنهم عفاريت أتوا الى تمر الصدقة وأمكنهم الله تعالى منهم (ويعملون عملا دون ذلك) أى سوى الغوص كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة كقوله تعالى يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل الآية (وكنا لهم حافظين) أى حتى لايخرجوا عن أمره وقال الزجاج معناه حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا وكان من عادة الشياطين اذا عملوا عملا بالنهار وفرغوا منه قبل الليل أفسدوه وخربوه وفى القصة ان سليمان كان اذا بعث شيطانا مع انسان ليعمل له عملا قال له اذا فرغ من عمله قبل الليل فاشغله بعمل آخر لئلا يفسد ما عمل ويخربه * القصة السادسة قصة أيوب عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (وأيوب) أى واذكر أيوب ويبدل منه (اذ نادى ربه) قال وهب بن منبه كان أيوب عليه السلام رجلا من الروم وهو أيوب بن أموص بن رزاح بن روم بن عيص بن اسحق بن ابراهيم وكانت أمه من ولد لوط بن هاران وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا وكانت له الثنية من أرض البلقاء من أعمال حوران من أرض الشأم كلها سهلها وجبلها وكان له فيها من أصناف المال كله من الابل والبقر والغنم والخيل والحمر مالا يكون لرجل أفضل منه فى العدة والكثرة وكان له خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وعبد وولد ومال ويحمل آلة كل فدان أتان لكل أتان من الولد اثنان أوثلاث أو أربع أو خمس وفوق ذلك وكان الله تعالى قد أعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء وكان برا تقيا رحيما بالمساكين يطعمهم ويكفل الايتام والارامل ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل وكان شاكرا لانعم الله مؤديا لحق الله تعالى قد امتنع من عدو الله ابليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من الدنيا وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه رجل من اليمن يقال له اليفن ورجلان من بلده يقال لاحدهما بلدد والآخر صافر وكانوا كهولا وكان ابليس لايحجب عن شئ من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد حتى رفع الله تعالى عيسى عليه السلام فحجب من أربع فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حجب عن السموات كلها الامن استرق السمع فسمع ابليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب عليه السلام وذلك حين ذكره الله تعالى وأثنى عليه فأدركه البغى والحسد فصعد سريعا حتى وقف من السماء موقفا كان يقفه فقال الهى نظرت فى أمر عبدك أيوب فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك ولخرج من طاعتك قال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض عدو الله ابليس حتى وقع على الارض ثم جمع عفاريت

الجن ومردة الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من القوة فانى قد سلطت على مال أيوب وهى المصيبة الفادحة والفتنة التى لاتصبر عليها الرجال فقال عفريت من الشياطين أعطيت من القوة ماإذا شئت تحولت اعصارا من نار واحرقت كل شئ آتى عليه قال له ابليس فأت الابل ورعاتها فأتى الابل وقد وضعت رؤسها ورعت فى مراعيها فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الارض اعصار من نار لايدنو منها أحد الا احترق فأحرق الابل ورعاتها حتى أتى على آخرها ثم جاء عدو الله ابليس فى صورة قبيحة على قعود الى أيوب فوجده قائما يصلى فقال يا أيوب أقبلت نار حتى غشيت ابلك فأحرقتها ومن فيها غيرى فقال أيوب الحمد لله الذى أعطانيها وهو أخذها وانها مال الله أعارنيها وهو أولى بها اذا شاء تركها واذا شاء نزعها وقديما كنت وطنت نفسى ومالى على الفناء قال ابليس فان الله ربك أرسل عليها نارا من السماء فاحترقت فتركت الناس مبهوتين يتعجبون منها منهم من يقول ما كان أيوب يعبد شيأ وما كان أيوب الا فى غرور ومنهم من يقول لو كان اله أيوب يقدر على أن يصنع شيأ لمنع وليه ومنهم من يقول بل هو الذى فعل ليشمت به عدوه ويفجع صديقه فقال أيوب الحمد لله حين أعطانى وحين نزع منى عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا أعود فى التراب وعريانا أحشر الى الله عز وجل ليس ينبغى لك أن تفرح حين أعطاك الله وتجزع حين قبض الله على عاريته الله أولى بك وبما أعطاك ولو علم الله تعالى فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك الارواح وصرت شهيدا ولكنه علم منك شرا فأخرجك فرجع ابليس الى أصحابه خاسئا ذليلا فقال لهم ماذا عندكم من القوة فانى لم أكلم قلبه قال عفريت عندى من القوة ماإذا شئت صحت صيحة لايسمعها ذو روح الا خرجت روحه قال ابليس فأت الغنم ورعاتها فانطلق حتى توسطها ثم صاح صيحة فتجثمت أمواتا من عند آخرها وماتت رعاتها ثم جاء ابليس متمثلا بقهرمان الرعاة الى أيوب وهو يصلى فقال له مثل القول الاول فرد عليه أيوب بمثل الرد الاول ثم رجع ابليس الى أصحابه فقال ماذا عندكم من القوة فانى لم أكلم قلب أيوب فقال عفريت عندى من القوة ماإذا شئت تحولت ريحا عاصفا تنسف كل شئ تأتى عليه قال فأت الفدادين والحرث فانطلق حين شرع الفدادون فى الحرث والزرع فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف فنسفت كل شئ من ذلك حتى كأنه لم يكن ثم جاء ابليس متمثلا بقهرمان الحرث الى أيوب وهو قائم يصلى فقال له مثل قوله الاول فرد عليه أيوب مثل رده الاول وجعل ابليس يهلك أمواله مالا مالا حتى مر على آخره كلما انتهى اليه هلاك مال من أمواله حمد الله تعالى وأحسن الثناء عليه ورضى عنه بالقضاء ووطن نفسه بالصبر على البلاء حتى لم يبق له مال فلما رأى ابليس انه قد أفنى ماله ولم ينجح منه بشئ صعد سريعا حتى وقف فى الموقف الذى يقف فيه وقال الهى ان أيوب يرى انك ما متعته بولده فأنت تعطيه المال فهل أنت مسلطى على ولده فانها المصيبة التى لاتقوم لها قلوب الرجال قال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ولده فانقض عدو الله ابليس حتى جاء بنى أيوب وهم فى قصرهم فلم يزل يزلزله بهم حتى تداعى من قواعده وجعل بجدره يضرب بعضها بعضا ويرميهم بالخشب والحجارة حتى مثل بهم كل مثلة

ورفع القصر فقلبه فصاروا منكبين وانطلق الى أيوب متمثلا بالمعلم الذى كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الوجه يسيل دمه ودماغه فأخبره وقال لو رأيت بنيك كيف عذبوا وقلبوا فكانوا منكبين على رؤسهم تسيل دماؤهم ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت امعاؤهم لقطع قلبك فلم يزل يقول هذا ونحوه حتى رق قلب أيوب وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال ليت أمى لم تلدنى فاغتنم ابليس ذلك فصعد سريعا بالذى كان من جزع أيوب مسرورا به ثم لم يلبث أيوب ان فاء وأبصر واستغفر فصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته الى الله عز وجل وهو أعلم فوقف ابليس خاسئا ذليلا وقال الهى انما هوّن على أيوب المال والولد انه يرى انك ما متعته بنفسه فانك تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطى على جسده فقال الله عز وجل انطلق فقد سلطتك على جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه ولا على عقله وكان الله عز وجل أعلم به لم يسلطه عليه الا رحمة لايوب ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعالمين فى كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به فى الصبر ورجاء الثواب فانقض عدو الله سريعا فوجد أيوب فى مصلاه ساجدا فعجل قبل أن يرفع رأسه فأتاه من قبل وجهه فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها سائر جسده فخرج من قرنه الى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم ووقعت فيه حكة فحك بأظفاره حتى سقطت كلها ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة فلم يزل يحكها حتى نغل لحمه وتقطع وتغير وأنتن وأخرجه أهل القرية وجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته وهى رحمة بنت افرائيم بن يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام فكانت تختلف اليه بما يصلحه وتلزمه ولما رأى الثلاثة من أصحابه وهم اليفن وبلدد وصافر ما ابتلاه الله تعالى به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه فلما طال به البلاء انطلقوا اليه فبكتوه ولاموه وقالوا له تب الى الله تعالى من الذنب الذى عوقبت عليه قال وحضر معهم فتى حديث السن قد آمن به وصدقه فقال لهم انكم تكلمتم أيها الكهول وانتم أحق بالكلام منى لاسنانكم ولكنكم تركتم من القول أحسن من الذى قلتم ومن الرأى أصوب من الذى رأيتم ومن الامر أجمل من الذى أتيتم وقد كان لايوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذى وصفتم فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ومن الرجل الذى عبتم واتهمتم ألم تعلموا انه أيوب نبى الله وخيرته وصفوته من أهل الارض الى يومكم هذا ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله على انه قد سخط شيأ من أمره منذ ما آتاه الله ما آتاه الى يومكم هذا ولا انه نزع شيأ منه من الكرامة التى أكرمه بها ولا ان أيوب قال على الله غير الحق فى طول ما صحبتموه الى يومكم هذا فان كان البلاء هو الذى ازرى به عندكم ووضعه فى انفسكم فقد علمتم أن الله تعالى يبتلى المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين وليس بلاؤه لاولئك على سخطه عليهم ولا لهوانه لهم ولكنها كرامة وخيرة لهم ولو كان أيوب ليس من الله بهذه المنزلة الا انه أخ آخيتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحكيم أن يعذل أخاه عند

البلاء

البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ولكنه يرحمه ويبكي معه ويستغفر له ويحزن لحزنه ويدله على أرشد أمره وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا فالله الله أيها الكهول فقد كان في عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم ألم تعلموا ان لله عبادا أسكتتهم خشيته من غير عي ولا بكم وانهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الالباء العالمون بالله ولكنهم اذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم اعظاما لله واجلالا له فاذا استفاقوا من ذلك استبقوا الى الله بالاعمال الزاكية يعدون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين وانهم لأبرار برآء ومع المقصرين المفرطين وانهم لاكياس أقوياء فقال أيوب ان الله سبحانه وتعالى يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير فمتى نبتت في القلب يظهرها الله تعالى على اللسان وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولا طول التجربة واذا جعل الله العبد حكيما في الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون عليه من الله تعالى نور الكرامة ثم أعرض عنهم أيوب عليه السلام يعني الثلاثة وقال أتيتموني غضابا رهبتم قبل أن تسترهبوا وبكيتم قبل أن تضربوا فكيف بي لو قلت تصدقوا علي بأموالكم لعل الله أن يخلصني أو قربوا قربانا لعل الله أن يتقبله ويرضى عني وانكم قد أعجبتكم أنفسكم وظننتم انكم عوفيتم باحسانكم ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوبا قد سترها الله تعالى بالعافية التي ألبسكم وقد كنتم فيما خلا توقرونني وأنا مسموع كلامي معروف حقي منتصف من خصمي فأصبحت اليوم وليس لي رأي ولا كلام وأنتم كنتم أشد علي من مصيبتي ثم أعرض عنهم أيوب وأقبل على ربه مستعينا به مستغفرا متضرعا اليه فقال يارب لاي شئ خلقتني ليتني اذ كرهتني لم تخلقني ياليتني عرفت الذنب الذي أذنبت والعمل الذي عملت فصرفت وجهك الكريم عني لو كنت أمتني فألحقتني بآبائي فالموت كان أجمل بي ألم أكن للغريب دارا وللمسلمين قرارا ولليتيم وليا وللارملة قيما الهي أنا عبد ذليل ان أحسنت الي فالمن لك وان أسأت فبيدك عقوبتي جعلتني للبلاء غرضا وللفتنة نصبا وقد وقع بي بلاء لو سلطته على جبل ضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفي فان قضاءك هو الذي أذلني وان سلطانك هو الذي أسقمني وأنحل جسمي ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملء فمي فأدلي بعذري وأتكلم ببراءتي وأخاصم عن نفسي لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي ولكنه ألقاني وتعالى عني فهو يراني ولا أراه ويسمعني ولا أسمعه فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظله غمام حتى ظن أصحابه أنه عذاب ثم نودي يا أيوب ان الله تعالى يقول ها أنا قد دنوت منك ولم أزل منك قريبا قم فأدل بعذرك وتكلم بحجتك وخاصم عن نفسك واشدد أزرك وقم مقام جبار يخاصم جبارا ان استطعت فانه لا ينبغي أن يخاصمني الا جبار مثلي لقد منتك نفسك يا أيوب أمرا ما يبلغ مثله قوتك أين أنت مني يوم خلقت الارض فوضعتها على أساسها هل كنت معي تمد بأطرافها هل أنت علمت بأي مقدار قدرتها أم على أي شئ وضعت أكنافها أبطاعتك حمل الماء الارض أم بحكمتك كانت

الارض للماء غطاء أين كنت منى يوم رفعت السماء سقفا فى الهواء لا تعلق بسبب من فوقها ولا يقلها دعم من تحتها هل تبلغ من حكمتك أن تجرى نورها أو تسير نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها أين أنت منى يوم انبعت الانهار وسكرت البحار أبسلطانك حبست أمواج البحار على حدودها أم قدرتك فتحت الارحام حتى بلغت مدتها أين أنت منى يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال هل تدرى على أى شئ أرسيتها أم بأى مثقال وزنتها أم هل لك من ذراع تطيق حملها أم هل تدرى أين الماء الذى أنزلت من السماء أم هل تدرى من أى شئ أنشئ السحاب أم هل تدرى أين خزانة الثلج أم أين جبال البرد أم اين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل وأين خزانة الريح وبأى لغة تتكلم الاشجار من جعل العقول فى أجواف الرجال ومن شق الاسماع والابصار ومن دانت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته وقسم الارزاق بحكمته فى كلام كثير يدل على كمال قدرته ذكرها لايوب فقال أيوب عليه الصلاة والسلام كل شأنى وكل لسانى وكل عقلى ورأيى وضعفت قوتى عن هذا الامر الذى تعرض لى يا الهى قد علمت ان كل الذى ذكرت صنع يدك وتدبير حكمتك وأعظم من ذلك وأعجب لو شئت عملت لا يعجز عنك شئ ولا تخفى عليك خافية أذانى البلاء يا الهى فتكلمت فكان البلاء هو الذى أنطقنى فليت الارض انشقت بى فذهبت فيها ولم أتكلم بشئ يسخط ربى وليتنى مت بغمى فى أشد بلائى قبل ذلك انما تكلمت حين تكلمت لتعذرنى وسكت حين سكت لترحمنى كلمة زلت منى فلم أعد قد وضعت يدى على فمى وعضضت على لسانى وألصقت بالتراب خدى أعوذ بك اليوم منك واستجير بك من جهد البلاء فأجرنى واستغيث بك من عقابك فأغثنى واستعين بك على أمرى فأعنى وأتوكل عليك فاكفنى واعتصم بك فاعصمنى واستغفرك فاغفر لى فان أعود لشئ تكرهه منى قال الله تعالى يا أيوب نفذ فيك علمى وسبقت رحمتى غضبى فقد غفرت لك فقال أيوب (انى) قد (مسنى الضر) بتسليطك الشيطان على فى بدنى وأهلى ومالى وقد طمع الآن فى دينى وذلك انه زين لامرأة أيوب ان تأمره أن يذبح لصنم فانه يبرأ ثم يتوب ففطن لذلك وحلف ليضربنها ان برأ مائة جلدة وقال وهب لبث أيوب فى البلاء ثلاث سنين وروى عن أنس يرفعه أن أيوب لبث ببلائه ثمان عشرة سنة وقال كعب سبع سنين وقال الحسن مكث أيوب مطروحا على كناسة لبنى اسرائيل سبع سنين وشهرا يختلفون فى الدواء ولا يقربه أحد غير امرأته رحمة صبرت معه تحمد الله معه اذا حمد وأيوب مع ذلك لا يفتر عن ذكر الله تعالى والصبر على بلائه فلما غلب أيوب ابليس ولم يستطع منه شيأ اعترض امرأته فى هيئة ليست كهيئة بنى آدم فى العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء وكمال فقال لها انت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى قالت نعم قال هل تعرفيني قالت لا فقال لها انا اله الارض وأنا الذى صنعت بصاحبك لانه أطاع اله السماء وتركنى فاغضبنى ولو سجد لى سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان من مال وولد وأراها اياهم ببطن الوادى الذى لقيها فيه قال وهب وقد سمعت أنه انما قال لها لو أن صاحبك أكل طعاما ولم يسم عليه لعوفى مما به من البلاء وفى بعض الكتب أن ابليس قال لها اسجدى لى سجدة حتى أرد عليك المال

والاولاد وأعانى زوجك فرجعت الى أيوب فأخبرته بما قال لها وما أراها قال لقد أتاك عدوّ الله ليفتنك عن دينك ثم أقسم ان الله عافاه ليضربنها مائة جلدة وعند ذلك قال مسنى الضرّ من طمع ابليس فى سجود حرمتى ودعائه اياها واياى الى الكفر (وأنت) أى والحال أنت (أرحم الراحمين) فافعل بى ما يفعل الرحمن بالمضرور وهذا تعريض بسؤال الرحمة حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح فكان ذلك ألطف فى السؤال فهو أجدر بالنوال ويحكى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت يا أمير المؤمنين مشت جرذان بيتى على العصا فقال لها ألطفت فى السؤال لاجرم لاردّنها تثب وثب الفهود وملأ بيتها حبا ثم ان الله تعالى رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عليها وأراد أن يبرّ يمين أيوب فأمره أن يأخذ ضغثا يشتمل على مائة عود صغار فيضربها به ضربة واحدة كما قال تعالى فى آية أخرى وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وروى أن ابليس اتخذ تابوتا وجعل فيه أدوية وجلس على طريق امرأة أيوب يداوى الناس فمرّت به امرأة أيوب فقالت ان لى مريضا أفتداويه قال نعم ولا أريد شيأ الا أن يقول اذا شفيته أنت شفيتنى فذكرت ذلك لايوب فقال هو ابليس قد خدعك وحلف ان شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة وقال وهب وغيره كانت امرأة أيوب تعمل للناس وتجيئه بقوته فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلا يستعملها أحد فالتمست له يوما من الايام ما تطعمه فما وجدت شيأ فجزت قرنا من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها أين قرنك فأخبرته فحينئذ قال مسنى الضرّ وقال قوم انما قال ذلك حين قصد الدود الى قلبه ولسانه فخشى أن يمتنع عن الذكر والفكر وقال حبيب بن أبى ثابت لم يدع الله تعالى بالكشف حتى ظهرت له ثلاثة أشياء أحدها قدم عليه صديقان حين بلغهما خبره فجاآ اليه ولم يبق الا عيناه ورأيا أمرا عظيما فقالا لو كان عند الله لك منزلة ما أصابك هذا والثانى ان امرأته طلبت طعاما فلم تجد ما تطعمه فباعت ذؤابتها وحملت اليه طعاما والثالث قول ابليس انى أداويه على أن يقول أنت شفيتنى وقيل ان ابليس وسوس اليه ان امرأته زنت فقطعت ذؤابتها فحينئذ عيل صبره وحلف ليضربنها مائة جلدة وقيل معناه مسنى الضرّ من شماتة الاعداء وقيل قال ذلك حين وقعت دودة من فخذه فردّها الى موضعها وقال كلى جعلنى الله تعالى طعامك فعضته عضة زاد ألمها على جميع ما قاسى من عض الديدان (فان قيل) ان الله تعالى سماه صابرا وقد أظهر الشكوى والجزع بقوله انى مسنى الضرّ ومسنى الشيطان بنصب (أجيب) بأن هذا ليس بشكاية انما هو دعاء بدليل قوله تعالى (فاستجبنا له) والجزع انما هو الشكوى الى الخلق وأما الشكوى الى الله تعالى فلا يكون جزعا ولا ترك صبر كما قال يعقوب عليه السلام انما أشكو بثى وحزنى الى الله وقال سفيان بن عيينة من أظهر الشكوى الى الناس وهو راض بقضاء الله تعالى لا يكون ذلك جزعا كما روى أن جبريل عليه السلام دخل على النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال كيف تجدك قال أجدنى مغموما أجدنى مكروبا وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله تعالى عنها حين قالت وارأساه بل أنا وارأساه وروى ان امرأة أيوب قالت له يوما لو دعوت

الله فقال لها كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال استحى من الله ان أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى ثم تسبب عن الاجابة قوله تعالى (فكشفنا) أى بما لنا من العظمة (ما به من ضر) بأن أمرناه أن يركض برجله فتنبع له عين من ماء كما قال تعالى اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فركض برجله فانفجرت له عين ماء فدخل فيها فاغتسل فأذهب الله تعالى كل ما كان به من البلاء بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فأمره أن يضرب برجله الارض مرة أخرى ففعل فنبع عين ماء بارد فأمره فشرب منها فذهب كل داء كان بباطنه فصار كأصح ما يكون من الرجال وأجملهم فأقبلت امرأته تلتمسه فى مضجعه فلم تجده فقامت كالوالهة ثم جاءت اليه وهى لا تعرفه فقالت يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذى كان ههنا قال نعم ومالى لا أعرفه فتبسم وقال أنا هو فعرفته بضحكه فاعتنقته قال ابن عباس فوالذى نفس عبد الله بيده ما فارقته من عناقه حتى رد لهما كل ما كان لهما كما قال تعالى (وآتيناه أهله) أى أولاده الذكور والاناث بأن أحياهم وكل من الصنفين ثلاث أو سبع (ومثلهم معهم) أى من زوجته رحمة وزيد فى شبابها هذا ما دل عليه أكثر المفسرين وقيل آتاه الله تعالى المثل من نسل ماله وولده الذى رده اليه أى فولد له من ولده نوافل وقال وهب كان له سبع بنات وثلاثة بنين وروى الضحاك عن ابن عباس رد الى امرأته شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكرا وقال قوم آتى الله تعالى أيوب فى الدنيا مثل أهله الذين هلكوا فأما الذين هلكوا فانهم لم يردوا عليه فى الدنيا وقال عكرمة قيل لايوب ان أهلك لك فى الآخرة وان شئت عجلناهم لك فى الدنيا وان شئت كانوا لك فى الآخرة وآتيناك مثلهم فى الدنيا فقال يكونون لى فى الآخرة وأوتى مثلهم فى الدنيا فعلى هذا يكون معنى الآية وآتيناه أهله فى الآخرة ومثلهم معهم فى الدنيا وروى عن أنس يرفعه كان لايوب أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين فأفرغت احداهما على أندر القمح الذهب وأفرغت الاخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض وروى ان الله تعالى بعث اليه ملكا فقال ان ربك يقرئك السلام بصبرك فاخرج الى أندرك فخرج اليه فأرسل عليه جرادا من ذهب قيل انه لما اغتسل وخرج الدود منه جعل الله تعالى له أجنحة فطارت فجعلها الله تعالى جرادا من ذهب وأمطرت عليه فطارت واحدة فاتبعها وردها الى أندره فقال له الملك اما يكفيك ما فى أندرك فقال هذا بركة من بركات ربى ولا أشبع من بركته وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثى فى ثوبه فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى قال بلى يا رب ولكن لا غنى لى عن بركتك وقوله تعالى (رحمة) مفعول له أى نعمة عظيمة ونحمها بقوله تعالى (من عندنا) بحيث لا يشك من ينظر ذلك انا ما فعلناه الا رحمة منا له وان غيرنا لا يقدر على ذلك (وذكرى) أى عظة عظيمة (للعابدين) اى كلهم ليتأسوا به فيصبروا اذا ابتلوا ولا يظنوا أن ذلك انما نزل بهم لهوانهم ويشكروا فيثابوا كما أثيب وقيل لرحمتنا العابدين فانا نذكرهم بالاحسان ولا ننساهم * القصة السابعة قصة اسمعيل وادريس وذى الكفل المذكورة فى قوله تعالى (واسمعيل) أى واذكر اسمعيل بن

ابراهيم

ابراهيم عليهما السلام الذى سخرناله من الماء بواسطة الروح الامين ماعاش به صغيرا بعد
ما كان هالكا لامحالة ثم جعلناه طعام طعم وشفاء سقم دائما وصناه وهو كبيرمن الذبح حين رأى
أبوه فى المنام أنه يذبحه ورؤيا الانبياء وحى وفديناه بذبح عظيم (و) اذكر (ادريس) أى ابن شيث
ابن آدم عليهم السلام الذى أحييناه بعد موته ورفعناه مكانا عليا وهو أول نبى بعث من بنى آدم
عليه السلام وتقدمت قصته فى سورة مريم (و) اذكر (ذا الكفل) سمى بذلك قال عطاء لان
نبيا من أنبياء بنى اسرائيل أوحى الله تعالى اليه انى أريد أن أقبض روحك فاعرض ملكك
على بنى اسرائيل فمن تكفل لك أن يصلى بالليل لا يفتر ويصوم بالنهار لا يفطر ويقضى بين الناس
ولا يغضب فادفع ملكك اليه ففعل ذلك فقام شاب فقال انا أتكفل لك بهذا فتكفل ووفى به
فشكر الله له ونبأه فسمى ذا الكفل وقال مجاهد لما كبر اليسع قال لو أنى استخلفت رجلا من
الناس يعمل عليهم فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل قال فجمع الناس فقال من يقبل منى ثلاثا
أستخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب فقام رجل فقال أنا فاستخلفه فأتاه ابليس فى
صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام بالليل والنهار الا تلك النومة فدق الباب
فقال من هذا فقال شيخ كبير مظلوم فقام ففتح الباب فقال ان بينى و بين قومى خصومة وانهم
ظلمونى وفعلوا وفعلوا وجعل يطول حتى ذهبت القائلة فقال اذا رحت فأتنى فانى آخذ حقك
فانطلق وراح فكان فى مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه فلم يجده فلما كان الغد جعل
يقضى بين الناس و ينظره فلم يره فلما رجع الى القائلة وأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال من
أنت فقال الشيخ المظلوم ففتح له وقال ألم أقل لك اذا قعدت فأتنى فقال انهم أخبث قوم اذا
عرفوا انك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك واذا قمت جحدونى قال فانطلق فاذا جلست فأتنى وفاتته
القائلة فلما جلس جعل ينظر فلا يراه وشق عليه النعاس فلما كان اليوم الثالث قال لبعض
اهله لا تدعوا هذا الرجل يقرب من هذا الباب حتى أنام فانه قد شق على النعاس فلما كانت تلك
الساعة جاء فلم يأذن له الرجل فلما اعياه نظر فرأى كوة فى البيت فتسور منها فاذا هو فى البيت
يدق عليه الباب من داخل فاستيقظ فقال يافلان ألم آمرك قال أما من قبلى فلم تؤت فانظر من
أين أتيت فقام الى الباب فاذا هو مغلق كما أغلقه واذا بالرجل معه فى البيت فقال أتنام والخصوم
ببابك فقال أعدو الله قال نعم أعييتنى ففعلت ماترى لاغضبك فعصمك الله تعالى فسمى ذا الكفل
لانه تكفل بأمر فوفى به وقيل ان ابليس جاءه وقال ان لى غريما يظلمنى فأحب أن تقوم معى
وتستوفى حقى منه فانطلق معه حتى اذا كان فى السوق خلاه وذهب وروى أنه اعتذر اليه
وقال صاحبى هرب وقيل ان ذا الكفل رجل كفل أن يصلى كل ليلة مائة ركعة الى أن يقبضه
الله تعالى فوفى به واختلفوا فى أنه هل كان نبيا فقال الحسن كان نبيا وعن ابن عباس أنه الياس
وقيل هو زكريا وقيل هو يوشع بن نون وقال أبو موسى لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا ولما
قرن الله تعالى بين هؤلاء الثلاثة استأنف مدحهم بقوله تعالى (كل) أى كل واحد منهم (من
الصابرين) على ما ابتليناه به فآتيناهم ثواب الصابرين (وأدخلناهم فى رحمتنا) أى فعلنا بهم

من الاحسان ما يفعله الراحم بمن يرحمه على وجه عمهم من جميع جهاتهم فكان ظرفا لهم ثم علل ذلك بقوله تعالى (انهم من الصالحين) أى لكل ما يرضاه تعالى منهم يعنى أنهم جبلوا جبلة خير فعملوا على مقتضى ذلك فكانوا من الكاملين فى الصلاح وهم الانبياء لان صلاحهم معصوم عن كدر الفساد * القصة الثامنة قصة يونس عليه الصلاة والسلام المذكورة فى قوله تعالى (وذا النون) أى واذكر صاحب الحوت وهو يونس بن متى ويبدل منه (اذ ذهب مغاضبا) واختلفوا فى معنى ذلك فقال الضحاك مغاضبا لقومه وهو رواية العوفى وغيره عن ابن عباس قال كان قوم يونس يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف فأوحى الله تعالى الى شعيب النبى عليه السلام أن سر الى حزقيل الملك وقل له يوجه نبيا قويا الى هؤلاء فانى ألقى فى قلوبهم الرعب حتى يرسلوا معه بنى اسرائيل فقال له الملك فمن ترى وكان فى مملكته خمسة أنبياء فقال يونس فانه قوى أمين فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج فقال يونس هل أمرك الله باخراجى قال لا قال فهل سمانى لك قال لا قال فههنا أنبياء غيرى أقوياء فألحوا عليه فخرج من بينهم مغاضبا للنبى والملك ولقومه فأتى بحر الروم فركبه وقال عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وجماعة ذهب عن قومه مغاضبا لربه اذ كشف عن قومه العذاب بعد ما وعدهم به وكره أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما وعدهم واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذى رفع به العذاب عنهم وكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده وأن يسمى كذابا لا كراهية الحكم لله تعالى وفى بعض الاخبار انه كان من عادة قومه أن يقتلوا من جرب عليه الكذب فخشى أن يقتلوه لما لم يأتهم العذاب للميعاد فغضب والمغاضبة ههنا من المفاعلة التى تكون من واحد كالمناقرة والمعاقبة فمعنى قوله مغاضبا أى غضبانا وقال الحسن انما غاضب ربه من أجل انه أمره بالمسير الى قوم لينذرهم بأسه ويدعوهم اليه فسأل ربه أن ينظره ليتأهب فقيل له ان الامر أسرع من ذلك حتى سأله أن ينظره الى أن يأخذ نعلا يلبسها فلم ينظره وكان فى خلقه ضيق فذهب مغاضبا وعن ابن عباس قال أتى جبريل يونس فقال انطلق الى أهل نينوى فأنذرهم قال التمس دابة قال الامر أعجل من ذلك فغضب فانطلق الى السفينة وقال وهب ان يونس كان عبدا صالحا وكان فى خلقه ضيق فلما حمل عليه أثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل فقذفها بين يديه وخرج هاربا فلذلك أخرجه الله تعالى من أولى العزم فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل وقال ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم (فظن أن لن نقدر عليه) أى لن نقضى عليه بالعقوبة قاله مجاهد وقتادة والضحاك وقال عطاء وكثير من العلماء معناه فظن أن لن نضيق عليه الحبس من قوله تعالى الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر وعن ابن عباس أنه دخل على معاوية فقال لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسى خلاصا الا بك قال وما هى يا معاوية فقرأ هذه الآية فقال أو يظن نبى الله أن لن يقدر عليه قال هذا من القدر الذى معناه الضيق لا من القدرة وقال ابن زيد هو استفهام معناه أفظن أنه يعجز به فلا يقدر عليه (فنادى) أى فاقتضت

حكمتنا ان عاتبناه حتى يتسلم فألقى نفسه فى البحر فالتقمه الحوت فمكث فيه أربعين من بين يوم وليلة وقال عطاء سبعة أيام وقيل ان الحوت ذهب به مسيرة ستة آلاف سنة وقيل بلغ به تخوم الارض السابعة ومنعناه أن يكون له طعاما فنادى (فى الظلمات) ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت وقيل فى الظلمة الشديدة المتكاثفة فى بطن الحوت كقوله تعالى ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات وقوله يخرجهم من النور الى الظلمات وقيل ابتلع حوته حوت أكبر منه فجعل فى ظلمتى بطن الحوتين وظلمة البحر (أن لا اله الا أنت) ولما نزهه عن الشريك عم فقال تعالى (سبحانك) أى تنزهت عن كل نقص فلا يقدر على الانجاء مما أنا فيه الا أنت ثم أفصح بطلب الخلاص بقوله ناسبا الى نفسه من النقص مانزه الله عن مثله (انى كنت من الظالمين) أى فى خروجى من بين قومى قبل الاذن فاعف عنى كما هى سيرة القادرين روى عن أبى هريرة مرفوعا أوحى الله تعالى الى الحوت ان خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فأخذه ثم هوى به الى مسكنه فى البحر فلما انتهى به الى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال فى نفسه ماهذا فاوحى الله تعالى اليه ان هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح هو فى بطن الحوت فسمع الملائكة تسبيحه فقالوا يا ربنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة وفى رواية صوتا معروفا من مكان مجهول فقال ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فقالوا العبد الصالح الذى كان يصعد اليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا فيه عند ذلك فأمر الحوت فقذفه فى الساحل كما قال تعالى فنبذناه بالعراء وهو سقيم فذلك قوله تعالى (فاستجبنا له) أى أجبناه (ونجيناه من الغم) أى من تلك الظلمات بتلك الكلمات (وكذلك) أى وكما نجيناه (ننجى المؤمنين) من كربهم اذا استغاثوا بنا داعين قال الرازى فى اللوامع وشرط كل من يلتجئ الى الله أن يبدأ بالتوحيد ثم بعده بالتسبيح والثناء ثم بالاعتراف والاستغفار والاعتذار وهذا شرط كل داع اه وعن النبى صلى الله عليه وسلم مامن مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له وعن الحسن مانجاه والله الا اقراره على نفسه بالظلم وقرأ ابن عامر وأبو بكر بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم على أن أصله ننجى فحذفت النون الثانية كما حذفت التاء الثانية فى تظاهرون وهى وان كانت فاء فحذفها أوقع من حذف حرف المضارعة الذى لمعنى وقيل هو ماض مجهول أسند الى ضمير المصدر وهو النجاء وقرأ الباقون بنونين الثانية مخفاة عند الجيم *(تنبيه)* اختلفوا فى متى كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس كانت بعد أن أخرجه الله تعالى من بطن الحوت بدليل قوله تعالى فى سورة والصافات فنبذناه بالعراء ثم ذكر بعده وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون وقال آخرون انها كانت من قبل بدليل قوله تعالى وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون *القصة التاسعة قصة زكريا عليه الصلاة والسلام المذكورة فى قوله تعالى (وزكريا) أى واذكر زكريا ويبدل منه (اذ نادى ربه) نداء الحبيب القريب فقال (رب) باسقاط أداة البعد (لا تذرنى فردا) أى وحيدا من غير

ولدذكريرث ما آتيتنى من الحكمة (وأنت) أى والحال أنك (خير الوارثين) أى الباقى بعد فناء خلقك وكثيرا ماتمنع ارث بعض عبيدك عبيدا آخرين فأنت الحقيق بأن تفعل فى ارثى من العلم والحكمة ما أحببت فهبنى ولدا تمن على به (فاستجبناله) بعظمتنا وان كان فى حد من السن لا حراك به معه وزوجه فى حال من العقم لا يرجى معه حبلها فكيف وقد جاوزت سن اليأس ولذلك عبر بما يدل على العظمة فقال تعالى (ووهبناله يحيى) ولدا وارثا نبيا حكيما عظيما (وأصلحناله) خاصة من بين أهل ذلك الزمان (زوجه) أى جعلناها صالحة لكل خير خالصة له فأصلحناها للولادة بعد عقمها وأصلحناها لزكريا بعد ان كانت مريعة الغضب سيئة الخلق فأصلحناها له ورزقناها حسن الخلق (انهم) أى الانبياء الذين سماهم فى هذه السورة وقيل زكريا وزوجه ويحيى (كانوا) أى جبلة وطبعا (يسارعون فى الخيرات) أى الطاعات بالغون فى الاسراع بها مبالغة من يسابق آخر ودل على عظيم أفعالهم بقوله تعالى (ويدعوننا) مستحضرين لجلالنا وعظمتنا وكمالنا (رغبا) أى طمعا فى رحمتنا (ورهبا) أى خوفا من عذابنا (وكانوا) أى جبلة وطبعا (لنا) خاصة (خاشعين) أى خائفين خوفا عظيما يحملهم على الخضوع والانكسار قال مجاهد الخشوع هو الخوف اللازم للقلب وقيل متواضعين وسئل الاعمش عن هذه الآية فقال أما انى سألت ابراهيم فقال ألا تدرى قلت أفدنى قال بينه وبين الله اذا أرخى ستره عليه وأغلق بابه فلير الله منه خيرا لعلك ترى أنه يا كل خشنا ويلبس خشنا ويطأطئ رأسه * القصة العاشرة قصة مريم وابنها عليهما السلام المذكورة فى قوله تعالى (والتى) أى واذكر مريم التى (أحصنت فرجها) أى حفظته من الحلال والحرام حفظا يحق له أن يذكر ويتحدث به كما قال تعالى حكاية عنها ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا لان ذلك غاية فى العفة والصيانة والتخلى عن الملاذ الى الانقطاع الى الله تعالى بالعبادة مع ما جمعت مع ذلك من الامانة والاجتهاد فى متانة الديانة والصحيح أنها ليست بنبية (فنفخنا فيها من روحنا) أى أمرنا جبريل حتى نفخ فى جيب درعها فأحدثنا بذلك النفخ المسيح فى بطنها وأضاف الروح اليه تعالى تشريفا لعيسى عليه السلام كبيت الله وناقة الله * ثم بين تعالى ما خص مريم وعيسى من الآيات فقال تعالى (وجعلناها وابنها) أى قصتهما أو حالهما ولذلك وحد قوله (آية للعالمين) من الجن والانس والملائكة وان من تأمل حالهما تحقق كمال قدرة الله تعالى (فان قيل) هلا قال تعالى آيتين كما قال تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين (أجيب) بما تقدم وبأن الآية كانت فيهما واحدة وهى أنها أتت به من غير فحل وههنا آخر القصص * ولما دل ما مضى من قصص هؤلاء الانبياء عليهم السلام أنهم كلهم متفقون على التوحيد الذى هو أصل الدين قال تعالى (ان هذه) أى ملة الاسلام (أمتكم) أى دينكم أيها المخاطبون أى يجب أن تكونوا عليها حال كونها (أمة) قال البغوى وأصل الامة الجماعة التى هى على مقصد واحد اه فجعل الشريعة أمة لاجتماع أهلها على مقصد واحد اه ثم أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله تعالى (واحدة) فأبطل ماسوى الاسلام من الاديان (وأنا ربكم) أى المحسن اليكم لا غيرى فى كل زمان فانى

لا أتغير على طول الدهر ولا يشغلني شأن عن شأن (فاعبدون) دون غيري فانه لا كفء لي * ثم ان بعضهم خالف الامر بالاجتماع كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله تعالى (وتقطعوا) أى بعض المخاطبين (أمرهم بينهم) أى تفرقوا أمر دينهم متخالفين فيه وهم طوائف اليهود والنصارى قال الكلبى فرقوا دينهم بينهم يلعن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض * (تنبيه) * الاصل وتقطعتم الا أن الكلام صرف الى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه الى آخرين ويقبح عليهم فعلهم عندهم ويقول لهم ألا ترون الى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله تعالى والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا كما يتوزع الجماعة الشئ ويقتسمونه بينهم فيصير لهذا نصيب ولذا نصيب تمثيلا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقا وأحزابا شتى ثم توعدهم بقوله تعالى (كل) أى من هذه الفرق وان بالغ فى التمرد (الينا) يوم القيامة (راجعون) فنحكم بينهم فيتسبب عن ذلك أنا نجازيهم اقامة للعدل فنعطى كلا من المحق التابع لاصفيائنا والمبطل المائل الى الشياطين أعدائنا ما يستحقه وذلك هو معنى قوله تعالى فاما من يعمل الحسن والمسئ تحقيقا للعدل وتشويقا الى الفضل (فمن يعمل) أى منهم الآن (من الصالحات وهو) أى والحال أنه (مؤمن) أى يأتى بعمله على الاساس الصحيح (فلا كفران) أى لا جحود (لسعيه) بل يشكر ويثاب عليه * (تنبيه) * قوله تعالى فلا كفران نفى الجنس ليكون أبلغ من أن يقول فلا نكفر سعيه (وانا له) أى لسعيه (كاتبون) أى مثبتون فى صحيفة عمله وما أثبتناه فهو غير ضائع فلا يفقد منه شيأ قل أو جل ومن المعلوم أن قسيمه وهو من يعمل من السيآت وهو كافر فلا نقيم له وزنا ومن يعمل منها وهو مؤمن فهو تحت مشيئتنا قال البقاعى ولعله حذف هذين القسمين ترغيبا فى الايمان * ولما كان هذا غير صريح فى أن هذا الرجوع بعد الموت بينه بقوله تعالى (وحرام) أى ممنوع (على قرية) أى أهلها (أهلكناها) أى بالموت (أنهم لا يرجعون) أى الينا بأن يذهبوا تحت التراب باطلا من غير احياء بل الينا عودتهم رجعون فحبسناهم فى البرزخ منعمين أو معذبين نعيما أو عذابا دون النعيم والعذاب الاكبر * (تنبيه) * ما قدرناه فى الآية هو ما جرى عليه البقاعى والذى قدره الزمخشرى أن معنى أهلكناها عزمنا على اهلاكها أو قدرنا اهلاكها ومعنى الرجوع الرجوع من الكفر الى الاسلام والانابة فتكون لا مزيدة والذى قدره الجلال المحلى أن لا زائدة أى يمتنع رجوعهم الى الدنيا فيكون الاهلاك بالموت وهذا قريب مما قاله ابن عباس فانه قال وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك فجعل لا زائدة قال البغوى وقال آخرون الحرام بمعنى الواجب فعلى هذا يكون لا ثابتا ومعناه واجب على أهل قرية أهلكناهم أى حكمنا بهلاكهم أن لا تتقبل أعمالهم لانهم لا يرجعون أى لا يتوبون والدليل على هذا المعنى انه تعالى قال فى الآية التى قبلها ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه أى يتقبل عمله ثم ذكر هذه الآية عقبه وبين ان الكافر لا يتقبل عمله انتهى والذى قدره البيضاوى قريب مما قدره الزمخشرى وكل هذه التقادير صحيحة لكن الاول أظهر وقرأ شعبة وحمزة والكسائى بكسر الحاء وسكون الراء والباقون بفتح الحاء والراء وألف بعد الراء

قال البغوي وهما لغتان مثل حل وحلال وقوله تعالى (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج) متعلق كما قال الزمخشري بحرام وحتى غاية له لان امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة وهي حتى التي يحكى بعدها الكلام أي فهي الابتدائية لا الجارة ولا العاطفة والمحكي هو الجملة الشرطية وقرأ ابن عامر بتشديد التاء بعد الفاء والباقون بالتخفيف ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان اسم لقبيلتين من جنس الانس ويقدر قبله مضاف أي سدهما وذلك قرب الساعة يقال الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج وقرأهما عاصم بهمزة ساكنة والباقون بالالف * ثم عبر عن كثرتهم التي لا يعلمها الا هو سبحانه وتعالى بقوله تعالى (وهم) أي والحال أنهم (من كل حدب) أي نشز عال من الارض (ينسلون) أي يسرعون من النسلان وهو تقارب الخطا مع السرعة كمشي الذئب وفي العبارة ايماء الى أن الارض كرة وقيل الضمير راجع الى الناس المسوقين الى المحشر روى عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر الساعة فقال صلى الله عليه وسلم ما تذاكرون قلنا نتذاكر الساعة قال انها لن تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدجال والدخان والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم عليه السلام ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم (واقترب الوعد الحق) أي يوم القيامة قال حذيفة لو أن رجلا اقتنى فلوا بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة (فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) قال الكلبي شخصت أبصار الكفار فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم * (تنبيه) * فاذا هي اذا للمفاجأة وهي تقع في المجازاة سادة مسد الفاء كقوله تعالى اذا هم يقنطون فاذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل اذا هي شاخصة أو فهي شاخصة كان سديدا قال سيبويه والضمير للقصة يعني فاذا القصة شاخصة يعني القصة أن أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك وقال الزمخشري هي ضمير مبهم توضحه الابصار وتفسره كما فسر الذين ظلموا وأسروا النجوى وقولهم (ياويلنا) أي هلاكنا متعلق بمحذوف تقديره يقولون ياويلنا ويقولون في موضع الحال من الذين كفروا وياللتنبيه (قد كنا) أي في الدنيا (في غفلة من هذا) أي اليوم حيث كذبنا وقلنا انه غير كائن ثم أضربوا عن الغفلة فقالوا (بل كنا ظالمين) أنفسنا بعدم اعتقاده وواضعين الشيء في غير موضعه حيث أعرضنا عن تأمل دلائله والنظر في عاقبته وكذبنا الرسل وعبدنا الاوثان وقوله تعالى (انكم) خطاب لاهل مكة وأكده لانكارهم مضمون الخبر (وما تعبدون من دون الله) أي غيره من الاوثان (حصب جهنم) أي وقودها وهو ما يرمى به اليها وتهيج به من حصبه يحصبه اذا رماه بالحصب والحصب في لغة أهل اليمن الحطب وقال عكرمة هو الحطب بالحبشية قال الضحاك يعني يرمون بهم في النار كما يرمى بالحصب وقوله تعالى (أنتم لها واردون) أي داخلون استئناف أو بدل من حصب جهنم واللام معوضة من على للاختصاص والدلالة على أن ورودهم لاجلها (لو كان هؤلاء) أي الاوثان

(آلهة)

(آلهة) أى كما زعمتم (ما وردوها) أى ما دخل الاوثان وعابدوها النار وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية ياء خالصة فى الوصل بعد تحقيق الاولى والباقون بتحقيقهما (وكل) أى من العابدين والمعبودين (فيها) أى فى جهنم (خالدون) لا انفكاك لهم عنها بل يحمى بكل منهم فيها على الآخر (فان قيل) لم قرنوا بآلهتهم (أجيب) بأنهم لا يزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر الى وجه العدو باب من العذاب لانهم قدروا أنهم يستشفعون بهم فى الآخرة وينتفعون بشفاعتهم فاذا صادفوا الامر على عكس ما قدروا لم يكن شئ أبغض اليهم منهم (فان قيل) اذا عنيت بما تعبدون الاوثان فما معنى قوله تعالى (لهم فيها زفير) أى تنفس عظيم على غاية من الشدة والمد تكاد تخرج معه النفس (أجيب) بأنهم اذا كانوا هم وأوثانهم فى قرن واحد جاز أن يقال لهم زفير وان لم يكن الزافرون الا هم دون الاوثان للتغليب ولعدم الالباس (وهم فيها لا يسمعون) شيأ لشدة غليانها وقال ابن مسعود فى هذه الآية اذا بقى فى النار من يخلد فيها جعلوا فى توابيت من نار ثم جعلت تلك التوابيت فى توابيت أخرى عليها مسامير من نار فلا يسمعون شيأ ولا يرى أحد منهم ان أحدا يعذب فى النار غيره وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش فى الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فجلس اليهم فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ثم تلا عليهم انكم وما تعبدون من دون الله الآية فأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى فرآهم يتهامسون فقال فيم خوضكم فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله أما والله لو وجدته لخصمته فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن الزبعرى أأنت قلت ذلك قال نعم قال قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة فقال صلى الله عليه وسلم بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك فأنزل الله تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) أى الحكم بالموعدة البالغة فى الحسن فى الازل ومنهم من ذكر سواء أضل بأحد منهم الكفار فاطروه أم لا (أولئك) أى العالو الرتبة (عنها) أى جهنم (مبعدون) برحمة الله تعالى لانهم أحسنوا فى العبادة واتقوا وهل جزاء الاحسان الا الاحسان وفى رواية عن ابن عباس ان ابن الزبعرى لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم ذلك سكت ولم يجب فضحك القوم فنزل قوله تعالى ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ونزل فى عيسى والملائكة ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية وقد أسلم ابن الزبعرى بعد ذلك رضى الله تعالى عنه ومدح النبى صلى الله عليه وسلم وادعى جماعة أن المراد من الآية الاصنام لان الله تعالى قال وما تعبدون من دون الله ولو أراد الملائكة والناس لقال ومن تعبدون روى ان عليا رضى الله تعالى عنه قرأ هذه الآية ثم قال أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وابن الجراح ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه وهو يقول (لا يسمعون حسيسها) أى حركتها البالغة وصوتها الشديد فكيف

يعادونه لان الحس مطلق الصوت أو الصوت الخفى كما قاله البغوى فاذا زادت حروفه زاد معناه فقد كرذلك بدلا من مبعدون أو حال من ضميره للمبالغة فى ابعادهم عنها (وهم) أى الذين سبقت لهم منا الحسنى (فى ما اشتهت أنفسهم) فى الجنة كما قال تعالى وفيها ماتشتهى الانفس وتلذ الاعين والشهوة طلب النفس اللذة (خالدون) أى دائما أبدا فى غاية التنعم وتقديم الظرف للاختصاص والاهتمام به * (فائدة) * فى هنا مقطوعة من ما ولما كان معنى ذلك أن سرورهم ليس له زوال أكده بقوله تعالى (لا يحزنهم الفزع الاكبر) قال الحسن هو حين يؤمر بالعبد الى النار وقال ابن عباس هو النفخة الاخيرة لقوله تعالى ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض وقال ابن جريج هو حين يذبح الموت وينادى يا أهل النار خلود بلا موت وقال سعيد بن جبير هو أن تنطبق جهنم وذلك بعد أن يخرج الله تعالى منها من يريد أن يخرجه (وتتلقاهم) أى تستقبلهم (الملائكة) قال البغوى على أبواب الجنة يهنونهم وقال الجلال المحلى عند خروجهم من القبور ولا مانع أنها تستقبلهم فى الحالين ويقولون لهم (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) أى هذا وقت ثوابكم الذى وعدكم ربكم به فى الدنيا فابشروا فيه بجميع مايسركم * ولما كانت هذه الافعال على غاية من الاهوال تتشوف بها النفس الى معرفة اليوم الذى تكون فيه قال تعالى (يوم) أى تكون هذه الاشياء يوم (نطوى السماء) طيافتكون كأنها لم تكن ثم صور طيها بما يعرفونه فقال مشبها للمصدر الذى دل عليه الفعل (كطى السجل) واختلف فى السجل فقال بعضهم هو الكاتب الذى له العلو والقدرة على مكتوبه (للكتاب) أى القرطاس الذى يكتبه ويرسله الى أحد وقال السدى هو ملك يكتب أعمال العباد وقيل كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم والكتاب على هذه الاقوال اسم للصحيفة المكتوب فيها وقال ابن عباس ومجاهد والاكثرون السجل الصحيفة والمعنى كطى الصحيفة على مكتوبها والطى هو الدرج وهو ضد النشر وانما وقع هذا الاختلاف لان السجل يطلق على الكتاب وعلى الكاتب قاله فى القاموس وقرأ حفص وحمزة والكسائى بضم الكاف والتاء على الجمع والباقون بكسر الكاف وفتح التاء وبين الكاف والتاء ألف على الافراد فقراءة الافراد لمقابلة لفظ السماء والجمع للدلالة على أن المراد الجنس لجميع السموات تطوى روى عن ابن عباس أنه قال يطوى الله تعالى السموات السبع بما فيها من الخليقة والارضين السبع بما فيها من الخليقة يطوى ذلك كله بيمينه أى بقدرته حتى يكون ذلك بمنزلة خردلة وروى عن ابن عباس أنه قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس انكم محشورون الى الله حفاة عراة غرلا أى غير مختونين (كما بدأنا أول خلق نعيده) أى كما بدأناهم فى بطون أمهاتهم عراة غرلا غير مختونين نعيدهم يوم القيامة نظيره قوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة (وعدا) وأكد ذلك بقوله تعالى (علينا) وزاده بقوله تعالى (انا كنا) أى أزلا وأبدا على حالة لا تحول (فاعلين) أى شأننا أن نفعل ما نريد لا كلفة علينا فى شئ من ذلك ثم انه تعالى حقق ذلك بقوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر) قال سعيد بن جبير ومجاهد الزبور جميع

كتب الله تعالى المنزلة والذكر أم الكتاب الذى عنده ومعناه من بعدما كتب ذكره فى اللوح المحفوظ وقال ابن عباس والضحاك الزبور والتوراة والذكر الكتب المنزلة من بعد التوراة وقال الشعبى الزبور كتاب داود والذكر التوراة وقيل الزبور كتاب داود عليه السلام والذكر القرآن وبعد بمعنى قبل كقوله تعالى وكان وراءهم ملك أى أمامهم وقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها أى قبله وقرأ حمزة بضم الزاى والباقون بفتحها (أن الارض) أى أرض الجنة (يرثها عبادى) وحقق ذلك ما أفادته اضافتهم اليه بقوله تعالى (الصالحون) أى المتحققون بأخلاق أهل الذكر المقبلون على ربهم الموحدون له المشفقون من الساعة الراهبون من سطوته الراغبون فى رحمته الخاشعون له فهذا عام فى كل صالح وقال مجاهد يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم دليله قوله تعالى وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وقال ابن عباس أراد ان أراضى الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله تعالى باظهار الدين واعزاز المسلمين وقيل أراد بالارض الارض المقدسة وقيل أراد جنس الارض الشامل لبقاع أرض الدنيا كلها ولأرض المحشر والجنة وغير ذلك مما يعلمه الله تعالى وجرى على هذا البقاعى فى تفسيره وقرأ حمزة بسكون الياء والباقون بفتحها (ان فى هذا) أى القرآن كما قاله البغوى (لبلاغا) أى وصولا الى البغية فان من اتبع القرآن وعمل به وصل الى ما يرجوه من الثواب وقيل بلاغا أى كفاية يقال فى هذا الشئ بلاغ وبلغة أى كفاية والقرآن زاد الجنة كبلاغ المسافر وقال الرازى هذا اشارة الى المذكور فى هذه السورة من الاخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة (لقوم عابدين) أى عاملين به وقال ابن عباس عالمين قال الرازى والاولى أنهم الجامعون بين أمرين لان العلم كالشجرة والعمل كالثمر والشجر بدون الثمر غير مفيد والثمر بدون الشجر غير كائن وقال كعب الاحبار هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم أهل الصلوات الخمس وشهر رمضان * ولما كان هذا مشيرا الى ارشادهم فكان التقدير فما أرسلناك الا لاسعادهم عطف عليه قوله تعالى (وما أرسلناك) أى على حالة من الاحوال (الا) على حال كونك (رحمة للعالمين) كلهم أهل السموات وأهل الارض من الجن والانس وغيرهم طائعهم بالثواب وعاصيهم بتأخير العقاب الذى كانت أصل الامم به فضعن غيهلهم وتترفق بهم لاظهار الشرف واعلاء لقدرك ثم نرد كثيرا منهم الى دينك ونجعلهم من أكابر أنصارك وأعاظم أعوانك بعد طول ارتكابهم الضلال وارتباكهم فى أشراك المحال ومن أعظم ما يظهر فيه هذا الشرف فى عموم الرحمة وقت الشفاعة العظمى يوم يجمع الله تعالى الاولين والآخرين وتقوم الملائكة صفوفا والثقلان وسطهم ويموج بعضهم فى بعض من شدة ماهم فيه يطلبون من يشفع لهم فيقصدون أكابر الانبياء نبيا نبيا عليهم الصلاة والسلام فيحيل بعضهم على بعض وكل منهم يقول لست لها حتى يأتوه صلى الله عليه وسلم فيقول أنا لها ويقوم معه لواء الحمد فيشفعه الله تعالى وهو المقام المحمود الذى يغبطه به الاولون والآخرون فهو صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق أجمعين * ولما أورد تعالى على الكفار الحجج فى أن لا اله سواه وبين أنه أرسل

رسوله رحمة للعالمين أتبع ذلك بأمره صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد) أى ما يوحى الى فى أمر الاله الا وحدانيته وما الهكم الا اله واحد لم يوح الى فيما تدعون من الشركة غير ذلك فالاول من قصر الصفة على الموصوف والثانى من قصر الموصوف على الصفة والمخاطب بهما من يعتقد الشركة فهو قصر قلب وقال الزمخشرى انما لقصر الحكم على شئ أو لقصر الشئ على حكم كقولك انما زيد قائم وانما يقوم زيد وقد اجتمع المثالان فى هذه الآية لان انما يوحى الى مع فاعله بمنزلة انما يقوم زيد وانما الهكم اله واحد بمنزلة انما زيد قائم وفائدة اجتماعهما الدلالة على ان الوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على استئثار الله تعالى بالوحدانية انتهى * ولما كان الوحى الوارد على هذه السنن موجبا أن يخلصوا التوحيد لله تعالى قال صلى الله عليه وسلم (فهل أنتم مسلمون) أى منقادون لما يوحى الى من وحدانية الاله والاستفهام بمعنى الامر أى أسلموا (فان تولوا) أى لم يقبلوا ما دعوتهم اليه (فقل) أى لهم (آذنتكم) أى أعلمتكم بالحرب كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحس منهم بغدرة فنبذ اليهم العهد وأشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعا بذلك وقوله (على سواء) حال من الفاعل والمفعول أى مستوين فى الاعلام به لم أطوه عن أحد منكم ولا أستبد به دونكم لتتأهبوا (وان) أى وما (أدرى أقريب) جدا بحيث يكون قربه على ما تتعارفونه (أم بعيد ما توعدون) من غلب المسلمين عليكم أو عذاب الله أو القيامة المشتملة عليه وان ذلك كائن لا محالة ولا بد أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار وان كنت لا أدرى متى يكون ذلك لان الله تعالى لم يعلمنى علمه ولم يطلعنى عليه وانما يعلمه الله تعالى (انه) تعالى (يعلم الجهر من القول) أى مما يجهرون به من العظائم وغير ذلك ونبه تعالى على ذلك فان من أحوال الجهر أن ترتفع الاصوات جدا بحيث تختلط ولا يميز بينها ولا يعرف كثير من حاضريها ما قاله أكثر القائلين فأعلم سبحانه وتعالى أنه لا يشغله صوت عن آخر ولا يفوته شئ من ذلك ولو كثر (ويعلم ما تكتمون) مما تضمرونه فى صدوركم من الاحقاد للمسلمين ونظير ذلك قوله تعالى فى أول السورة قل ربى يعلم القول فى السماء والارض ومن لازم ذلك المجازاة عليه بما يحق لكم من تعجيل وتأجيل فستعلمون كيف تخيب ظنونكم ويتحقق ما أقول فتنطقون حينئذ بأنى صادق ولست بساحر ولا شاعر ولا كاهن فهو من أبلغ التهديد فانه لا أبلغ من التهديد بالعلم * ولما كان الامهال قد يكون نعمة وقد يكون نقمة قال (وان) أى وما (أدرى) أن يكون تأخير عذابكم نعمة لكم كما تظنون أم لا (لعله) أى تأخير العذاب (فتنة) أى اختبار (لكم) ليظهر ما يعلمه منكم من السر لغيره لان حالكم حال من يتوقع منه ذلك (ومتاع) لكم تتمتعون به (الى حين) أى بلوغ مدة آجالكم التى ضربها لكم فى الازل ثم يأخذكم بغتة وأنتم لا تشعرون * ولما كان لله أن يفعل ما يشاء من عدل وفضل وكان من العدل جواز تعذيب الله تعالى الطائع وتنعيم المؤمن العاصى وكان صلى الله عليه وسلم قد بلغ الغاية فى البيان لهم وهم قد بلغوا النهاية فى أذيته وتكذيبه أمر الله تعالى أن يفوض الامر اليه تسلية له بقوله تعالى (قل رب) أيها المحسن الى (احكم) أى أنجز الحكم بينى وبين قومى (بالحق)

أى بالامر الذى يحق لكل منا من نصر وخذلان وقرأ حفص بفتح القاف وألف بعدها وفتح اللام بصيغة الماضى على حكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم والباقون بضم القاف وسكون اللام بصيغة الامر (فان قيل) كيف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احكم بالحق والله تعالى لايحكم الا بالحق (أجيب) بأن الحق ههنا بمعنى العذاب فكأنه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر ونظيره قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وقال أهل المعانى معناه رب احكم بحكمك الحق فحذف الحكم وأقيم الحق مقامه والله تعالى يحكم بالحق طلب أم لم يطلب ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب فى حكمه الحق (وربنا) أى المحسن الينا أجمعين (الرحمن) أى العام الرحمة لنا ولكم بادوا رها علينا ولولا عموم رحمته لاهلكنا أجمعين وان كنا نحن أطعناه لانا لانقدره حق قدره ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة (المستعان) اى المطلوب منه العون (على ماتصفون) من كذبكم على الله تعالى فى قولكم اتخذ الله ولدا وعلى فى قولكم ساحر وعلى القرآن فى قولكم شعر قال الرازى روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول ذلك فى حروبه ولم يذكر له سندا وأما مارواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ اقترب حاسبه الله حسابا يسيرا وصافحه وسلم عليه كل نبى ذكر اسمه فى القرآن فحديث موضوع والله تعالى أعلم بالصواب

(سورة الحج مكية)

الا ومن الناس من يعبد الله على حرف الآيتين والا هذان خصمان الست آيات فمدنيات وهى ثمان وقيل خمس أو ست أو سبع وسبعون آية

(بسم الله) أى الذى اقتضت عظمته خضوع كل شئ (الرحمن) الذى عم برحمته كل موجود (الرحيم) الذى خص بفضله من شاء من عباده * ولما ختمت السورة التى قبل هذه بالترهيب من الفزع الاكبر وطى السماء واتيان ما يوعدون وكان أعظم ذلك يوم الدين افتتحت هذه السورة بالامر بالتقوى المنجية من هول ذلك اليوم بقوله تعالى (يا أيها الناس) أى الذين تقدم أول تلك أنه اقترب لهم حسابهم ان أريد ان ذلك عام والا فهم وغيرهم (اتقوا) أى احذروا عقاب (ربكم) أى المحسن اليكم بأنواع الاحسان بأن تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية الطاعات * ولما أمرهم بالتقوى علل ذلك مرهبا لهم بقوله تعالى (ان زلزلة الساعة) أى حركتها الشديدة للاشياء على الاسناد المجازى فتكون الزلزلة مصدرا مضافا الى فاعله ويصح أن يكون الى المفعول فيه على طريق الاتساع فى الظرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى بل مكر الليل والنهار وهى الزلزلة المذكورة فى قوله تعالى اذا زلزلت الارض زلزالها واختلف فى وقتها فعن الحسن أنها تكون يوم القيامة وعن علقمة والشعبى عند طلوع الشمس من مغربها الذى هو أقرب للساعة (شئ عظيم) أى أمر كبير وخطر جليل وحادث هائل لاتحتمل العقول وصفه وهذا الزلزلة نفسها فكيف بجميع مايحدث فى ذلك اليوم الذى لابد لكم من الحشر فيه

الى الله تعالى ليجازيكم على ما كان منكم لا ينسى منه نقير ولا قطمير (يوم ترونها) أى الزلزلة أو الساعة أو كل مرضعة أصغرها قبل الذكر تهويلا للامر وترويعا للنفس (تذهل) بسبب ذلك (كل مرضعة) أى بالفعل أى تنسى وتغفل حائرة مدهوشة والعامل فى يوم تذهل (فان قيل) لم قال تعالى مرضعة ولم يقل مرضع (أجيب) بأن المرضعة هى التى فى حال الارضاع ملقمة ثديها للطفل والمرضع التى شأنها أن ترضع وان لم تباشر الارضاع فى حال وضعها فقال مرضعة ليدل على أن ذلك الهول اذا فوجئت به هذه وقد ألقمت ثديها تنزعه من فيه لما يلحقها من الدهشة (عما أرضعت) عن ارضاعها أو عن الذى أرضعته وهو الطفل فما اما مصدرية أو موصولة (وتضع كل ذات حمل حملها) أى تسقطه قبل التمام رعبا وفزعا * (تنبيه) * هذا ظاهر على القول الثانى وهو قول علقمة والشعبى على أن ذلك يكون عند طلوع الشمس من مغربها وأما على القول الاول وهو قول الحسن على أن ذلك يوم القيامة كيف يكون ذلك فقيل هو تصوير لهولها قاله البيضاوى وقال البقاعى فى المرضعة هى من ماتت مع ابنها رضيعا وفى ذات الحمل من ماتت حاملا فان كل أحد يقوم على ما مات عليه وهذا أولى فانى فى حال كتابتى فى هذا المحل حضر عندى سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى نفعنا الله تعالى ببركته فذكرت له هذين القولين فانشرح صدره لترجيح هذا الثانى وذلك يوم تاسوعاء من شهر الله المحرم سنة ست وخمسين وتسعمائة وعن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وتضع الحامل ما فى بطنها بغير تمام ويؤيد أن هذه الزلزلة تكون بعد البعث ما روى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك وسعديك زاد فى رواية والخير فى يديك فينادى بصوت ان الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا الى النار قال يارب وما بعث النار قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحوامل حملها ويشيب الوليد وساق بقية الآية وهو (وترى الناس سكارى) أى لما هم فيه من الدهشة والحيرة ثم بين الله تعالى أن ذلك ليس بسكر حقيقة بقوله تعالى (وما هم بسكارى) أى من الشراب ولما نفى أن يكونوا سكارى من الشراب أثبت ما أوجب لهم تلك الحالة بقوله (ولكن عذاب الله) ذى العزة والجبروت (شديد) فهو الذى أوجب أن يظن بهم السكر لان هوله أذهب عقولهم وطير تمييزهم ثم الحديث عند آخر الآية فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم زاد فى رواية قالوا يا رسول الله أينا ذلك الواحد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ثم أنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى الثور الابيض أو كالشعرة البيضاء فى الثور الاسود وفى رواية كالرقمة فى ذراع الحمار وانى أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا ثم قال ثلث أهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر أهل الجنة فكبرنا وفى رواية انى لارجو أن تكونوا ثلثى أهل الجنة وروى عمران بن حصين رضى الله عنه أن هاتين الآيتين نزلتا فى غزوة بنى المصطلق ليلا فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحثوا المطى حتى كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فلم نر أكثر باكيا من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا

السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام وقت النزول ولم يطبخوا قدرا وكانوا ما بين حزين وباك ومفكر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أى يوم ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث بعث النار وذلك نحو حديث أبى سعيد وزاد فيه ثم قال يدخل من أمتى سبعون ألفا الجنة بغير حساب قال عمر سبعون ألفا قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفا وقرأ حمزة والكسائى بفتح السين وسكون الكاف فيهما والباقون بضم السين وفتح الكاف وبعد الكاف ألف وأمال الألف بعد الراء أبو عمرو وحمزة والكسائى محضة وورش بين بين والباقون بالفتح

*ونزل فى النضر بن الحرث وكان كثير الجدل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الاولين وكان ينكر البعث واحياء من صار ترابا (ومن الناس) أى المذبذبين (من) لا يسعى فى اعلاء نفسه وتهذيبها فيكذب فيوبق بسوء عمله لانه (يجادل فى الله) أى فى قدرته على ذلك اليوم وفى غير ذلك بعد أن جاءه العلم بها اجتراء على سلطانه العظيم (بغير علم) بل بالباطل الذى هو جهل صرف فيترك اتباع الهداة (ويتبع) بغاية جهده فى جداله (كل شيطان) محترق بالسوء مبعد باللعن (مريد) أى متجرد للفساد ولا شغل له غيره قال البيضاوى وأصله العرى أى عن الساتر (كتب) أى قدر وقضى على سبيل الحتم الذى لا بد منه تعبيرا باللازم عن الملزوم (عليه) أى على ذلك الشيطان (أنه) أى الشأن (من تولاه) أى فعل معه فعل الولى مع وليه باتباعه والاقبال على ما يزينه (فانه يضله) بما يبغض اليه من الطاعات فيخطئ سبيل الخير (ويهديه) أى بما يزين له من الشهوات الحاملة على الزلات (الى عذاب السعير) أى النار

• ثم ألزم الحجة منكرى البعث بقوله تعالى (يا أيها الناس) أى كافة ويجوز أن يراد به المنكر فقط (ان كنتم فى ريب) أى شك وتهمة وحاجة الى البيان (من البعث) وهو قيام الاجسام بأرواحها كما كانت قبل مماتها فتفكروا فى خلقتكم الاولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولا قادر على خلقكم ثانيا ثم انه سبحانه وتعالى ذكر مراتب الخلقة الاولى أمورا سبعة المرتبة الاولى قوله تعالى (فانا خلقناكم) بقدرتنا التى لا يتعاظمها شئ (من تراب) لم يسبق له اتصاف بالحياة وفى الخلق من تراب وجهان أحدهما أنا خلقنا أصلكم وهو آدم عليه الصلاة والسلام من تراب كما قال تعالى كمثل آدم خلقه من تراب الثانى من الاغذية والاغذية اما حيوانية واما نباتية وغذاء الحيوان ينتهى الى النبات قطعا للتسلسل والنبات انما يتولد من الارض والماء فصح قوله تعالى انا خلقناكم من تراب المرتبة الثانية قوله تعالى (ثم من نطفة) وحالها أبعد شئ عن حال التراب فانها بيضاء سائلة لزجة صافية كما قال تعالى من ماء دافق وأصلها الماء القليل قاله البغوى وأصل النطف الصب قاله البيضاوى المرتبة الثالثة قوله تعالى (ثم من علقة) أى قطعة دم حمراء جامدة ليس فيها أهلية للسيلان ولا شك أن بين الماء وبين الدم الجامد مباينة شديدة المرتبة الرابعة قوله تعالى (ثم من مضغة) أى قطعة لحم صغيرة وهى فى الاصل قدر ما يمضغ (مخلقة) أى مسواة لا نقص فيها ولا عيب يقال خلق السواك والعود سواه وملسه من قولهم صخرة خلقاء اذا كانت ملساء (وغير مخلقة) أى وغير مسواة فكان الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها

ماهو كامل الخلقة وأملس من العيوب ومنها ماهو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم هذا قول قتادة والضحاك وقال مجاهد المخلقة الولد الذى يخرج حيا وغير المخلقة السقط وقال قوم المخلقة المصورة وغير المخلقة غير المصورة وهو الذى يبقى لحما من غير تخطيط وتشكيل واحتجوا بما روى علقمة عن عبد الله بن مسعود موقوفا عليه قال ان النطفة اذا استقرت فى الرحم أخذها ملك بكفه وقال أى رب مخلقة أو غير مخلقة فان قال غير مخلقة قذفها فى الرحم دما ولم تكن نسمة وان قال مخلقة قال الملك أى رب ذكر أم أنثى وشقى أم سعيد ما الاجل ما العمل ما الرزق بأى أرض تموت فيقال له اذهب الى أم الكتاب فانك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها فى أم الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى يأتى على آخر صفتها والذى أخرجاه فى الصحيحين عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فو الذى لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها فكأنه تعالى يقول انما نقلناكم من حال الى حال ومن خلقة الى خلقة (لنبين لكم) بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا وان من قدر على خلق البشر من التراب والماء أولا ثم من نطفة ثانيا ولا تناسب بين التراب والماء وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاما قدر على اعادة ما أبدأه بل هو أدخل فى القدرة من تلك وأهون فى القياس وورود الفعل غير معدى الى المبين اعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه مالا يحيط به الوصف ولا يكتنهه الذكر (ونقر فى الارحام) أى من ذلك الذى خلقناه (مانشاء) اتمامه (الى أجل مسمى) هو وقت الوضع وأدناه بعد ستة أشهر وأقصاه آخر أربع سنين بحسب قوة الارحام وضعفها وقوة المخلقات وضعفها وكثرة تغذيه من الدماء وقلته الى غير ذلك من أحوال وشؤن لا يعلمها الا باريها جلت قدرته وتعالت عظمته ومالم نشأ اقراره مجته الارحام وأسقطته دون التمام أو تحرقه فيضمحل المرتبة الخامسة قوله تعالى (ثم نخرجكم طفلا) وهو معطوف على نبين ومعناه خلقناكم مدرجين هذا التدريج لغرضين أحدهما أن نبين قدرتنا والثانى أن نقر فى الارحام من نقر حتى تولدوا فى حال الطفولية من صغر الجثة وضعف البدن والسمع والبصر وجميع الحواس لئلا تهلكوا أمهاتكم بكبر أجرامكم وعظم أجسامكم المرتبة السادسة قوله تعالى (ثم) أى نمد أجلكم (لتبلغوا) بهذا الانتقال فى أسنان الاجسام من الرضاع الى المراهقة الى البلوغ الى الكهولة (أشدكم) أى الكمال والقوة وهو ما بين الثلاثين الى الاربعين جمع شدة كالانعم جمع نعمة كأنه شدة فى الامور المرتبة السابعة قوله تعالى (ومنكم من يتوفى) أى عند بلوغ الاشد أو قبله (ومنكم من يرد) بالشيخوخة وبناه للمجهول اشارة الى سهولته عليه لاستبعاده لولا تكراره المشاهدة عند الناظر لتلك القوة والنشاط

وحسن التواصل بين أعضائه والارتباط (الى أرذل) أى أخس (العمر) وهو سن الهرم فتنقص جميع قواه (لكيلا يعلم من بعد علم) كان أوتيه (شيأ) أى ليعود كهيئته الاولى فى أوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم فينسى ماعله وينكر من عرفه حتى يسأل عنه من ساعته يقول لك من هذا فتقول فلان فما يلبث لحظة الا سألك عنه (فان قيل) هذه الحالة لا تحصل للمؤمنين لقوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات (أجيب) بأن معنى قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين هو دلالة على الذم فالمراد به ما يجرى مجرى العقوبة ولذلك قال تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لكن قال عكرمة من قرأ القرآن لم يصر الى هذه الحالة وقد علم بعود الانسان فى ذهاب العلم وصغر الجسم الى نحو ما كان عليه فى ابتداء الخلق قطعا أن الذى أعاده الى ذلك قادر على اعادته بعد الممات * ولما تم هذا الدليل على الساعة بحكم المقدمات وأصح النتائج وكان أول الايجاد فيه غير مشاهد ذكر الله تعالى دليلا آخر على البعث مشاهدا بقوله (وترى الارض هامدة) أى يابسة ساكنة سكون الميت (فاذا أنزلنا) أى بما لنا من القدرة (عليها الماء اهتزت) أى تحركت وتأهلت لاخراج النبات (وربت) أى ارتفعت وذلك أول ما يظهر منها للعين وزادت ونمت بما يخرج منها من النبات الناشئ عن التراب والماء وقوله تعالى (وأنبتت) مجاز لان الله تعالى هو المنبت وأضيف الى الارض توسعا أى أنبتت بتقديرنا لانها المنبتة (من كل زوج) أى صنف (بهيج) أى حسن نضير من أشتات النبات فى اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ومقاديرها قال الجلال المحلى من زائدة ولم أرمن ذكر ذلك من المفسرين *(تنبيه)* فى الآية اشارة الى أن النبات كما يتوجه من نقص الى كمال فكذلك الانسان المؤمن يترقى من نقص الى كمال ففى المعاد يصل الى كماله الذى أعد له من البقاء والغنى والعلم والصفاء والخلود فى دار السلام مبرأ عن عوارض هذا العالم * ولما قرر سبحانه هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة وذكر أمورا خمسة أحدها قوله تعالى (ذلك) أى المذكور من بدء الخلق الى آخر احياء الارض (بأن) أى بسبب أن تعلموا أن (الله) أى الجامع لاوصاف الكمال (هو) أى وحده (الحق) أى الثابت الدائم وماسواه فان ثانيها قوله تعالى (وأنه يحيى الموتى) أى قادر على ذلك والا لما أحيا النطفة والارض الميتة ثالثها قوله تعالى (وأنه على كل شئ) من الخلق وغيره (قدير) انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون رابعها قوله تعالى (وأن الساعة) التى تقدم ذكرها وتقدم التحذير منها وهى حشر الخلائق كلهم (آتية لاريب) أى لاشك (فيها) أى بوجه من الوجوه مما دل عليها بما لاسبيل الى انكاره بقول من لاامر دالقوله وهو حكيم لا يخلف ميعاده ولا يسوغ بوجه أن يترك عباده بغير حساب خامسها قوله تعالى (وأن الله يبعث) بالاحياء (من فى القبور) بمقتضى وعده الذى لا يقبل الخلف وقد وعد الساعة والبعث فلا بد أن يفى بما وعد به ونزل فى أبى جهل بن هشام كما قاله ابن عباس (ومن الناس من يجادل) أى بغاية

جهده (فى الله) أى فى قدرته وما يجمعه هذا الاسم الشريف من صفاته بعد هذا البيان الذى لا مثل له ولا خفاء فيه (بغير علم) أتاه عن الله تعالى على لسان أحد من أصفيائه أعم من أن يكون كتابا أو غيره (ولا هدى) أرشده اليه أعم من كونه بضرورة أو استدلال (ولا كتاب منير) له نور منه صح لديه انه من الله تعالى ومن المعلوم أنه بانتفاء هذه الثلاثة لا يكون جداله الا بالباطل وقيل قوله تعالى ومن الناس كرر كما كررت سائر الاقاصيص وقيل الاول فى المقلدين وهذا فى المقلدين وقوله تعالى (ثانى عطفه) حال أى لاوى عنقه تكبرا عن الايمان كما قال تعالى واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا والعطف فى الاصل الجانب من يمين أو شمال وقوله تعالى (ليضل عن سبيل الله) علة للجدال وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بضمها (فان قيل) على قراءة الضم ما كان غرضه فى جداله الضلال لغيره عن سبيل الله فكيف علل به وما كان على قراءة الفتح مهتديا حتى اذا جادل خرج بالجدال عن الهدى الى الضلال (أجيب) عن الاول بأن جداله لما أدى الى الضلال جعل كأنه غرضه وعن الثانى بأن الهدى لما كان معرضا له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال الباطل جعل كالخارج من الهدى الى الضلال * ولما ذكر فعله وغرته ذكر ما أعد له عليه فى الدنيا بقوله تعالى (له فى الدنيا خزى) أى اهانة وذل وان طال زمن استدراجه بتنعيمه حق على الله أن لا يرفع شيأ من الدنيا الا وضعه وما أعد له عليه فى الآخرة بقوله تعالى (ونذيقه يوم القيامة) الذى يجمع فيه الخلائق بالاحياء بعد الموت (عذاب الحريق) أى الاحراق بالنار وعن الحسن قال بلغنى أن أحدهم يحرق فى اليوم سبعين ألف مرة و يقال له حقيقة أو مجازا (ذلك) أى العذاب العظيم (بما قدمت يداك) اى بعملك ولكن جرت عادة العرب أن تضيف الاعمال الى اليد لانها آلة أكثر العمل واضافة ما يؤدى اليهما أنكى (وأن) أى وبسبب ان (الله ليس بظلام) أى بذى ظلم ما (للعبيد) وانما هو مجازاهم على أعمالهم أو ان المبالغة لكثرة العبيد * ونزل فى قوم من الاعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم اذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت بها فرسه مهرا وولدت امرأته غلاما وكثر ماله قال هذا دين حسن وقد أصبت به خيرا واطمأن به وان كان الامر بخلافه قال ما أصبت الا شرا فينقلب عن دينه (ومن الناس من يعبد الله) أى يعمل على سبيل الاستمرار والتجدد بما أمر الله به من طاعته (على حرف) فهو منزل كمنزلة من يكون على حرف شفير أو جبل أو غيره لا استقرار له وكالذى على طرف من العسكر فان رأى غنيمة استقر وان توهم خوفا طار وفر وذلك معنى قوله تعالى (فان أصابه خير) أى من الدنيا (اطمأن به) أى بسببه وثبت على ما هو عليه (وان أصابته فتنة) أى محنة وسقم فى نفسه وماله (انقلب على وجهه) أى رجع الى الكفر وعن أبى سعيد الخدرى أن رجلا من اليهود أسلم فأصابته مصائب فتشاءم بالاسلام فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أقلنى فقال ان الاسلام لا يقال فنزلت * ولما كان انقلابه هذا مفسدة لدنياه ولآخرته قال تعالى (خسر الدنيا) بفوات ما أمله منها ويكون ذلك سبب التقتير عليه قال تعالى ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا

من

من فوقهم ومن تحت أرجلهم وروى ان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه (والآخرة) بالكفر ثم عظم مصيبته بقوله تعالى (ذلك) أى الامر العظيم (هو) أى لاغيره (الخسران المبين) أى البين اذ لا خسران مثله ثم بين هذا الخسران الذى وقع الى ما كان فيه قبل الايمان الطرفى بقوله تعالى (يدعو) أى يعبد حقيقة أو مجازا (من دون الله) أى غيره من الصنم (مالا يضره) ان لم يعبده (ومالا ينفعه) ان عبده (ذلك) أى الدعاء (هو الضلال البعيد) عن الحق والرشاد استعير الضلال البعيد من ضلال من أبعد فى التيه ضالا فطالت وبعدت مسافة ضلاله * ولما كان الاحسان جالبا للانسان لان القلوب جبلت على حب من أحسن اليها بين ان ما قيل فى جلب النفع انما هو على سبيل الفرض فقال تعالى (يدعو لمن) أى من (ضره) بكونه معبودا لانه يوجب القتل والخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة (أقرب من نفعه) الذى يتوقع منه بعبادته وهو الشفاعة والتوسل بها الى الله تعالى * (تنبيه) * علم مما تقرر أن اللام فى لمن مزيدة كما قال الجلال المحلى (فان قيل) الضرر والنفع منفيان عن الاصنام مثبتان لها فى الآيتين وهذا تناقض (أجيب) بان المعنى اذا حصل ذهب هذا الوهم وذلك أن الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جمادا لايملك ضرا ولا نفعا وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه ينتفع به حين يستشفع به ثم يوم القيامة يقوم هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالاصنام ودخوله النار بعبادتها ولا يرى أثر الشفاعة التى ادعاها لها وقيل الآية الاولى فى الاصنام والثانية فى الرؤساء وهم الذين كانوا يفزعون اليهم بدليل قوله تعالى (لبئس المولى) أى الناصر هو (ولبئس العشير) أى الصاحب هو قال الرازى وهذا الوصف بالرؤساء أليق لان ذلك لا يكاد يستعمل فى الاوثان فبين تعالى أنهم يعدلون عن عبادة الله الى عبادة الاصنام والى طاعة الرؤساء * ولما بين سبحانه وتعالى حال الكفار عقبه بحال المؤمنين بقوله تعالى (ان الله) أى الجامع لجميع صفات الكمال المنزه عن جميع شوائب النقص (يدخل الذين آمنوا) بالله ورسله (وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) من الفروض والنوافل الخالصة الشاهدة بثباتهم فى الايمان (جنات تجرى من تحتها) أى فى أى مكان من أرضها (الانهار) * ولما بين سبحانه وتعالى حال الفريقين قال تعالى (ان الله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (يفعل ما يريد) من اكرام من يطيعه واهانة من يعصيه لا دافع له ولا مانع وقوله تعالى (من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة) فيه اختصار والمعنى ان الله ناصر رسوله فى الدنيا والآخرة فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه فالضمير راجع الى النبى صلى الله عليه وسلم (فان قيل) لم يجر له ذكر فى هذه الآية (أجيب) بأن فيها ما يدل عليه وهو ذكر الايمان فى قوله تعالى ان الله يدخل الذين آمنوا والايمان لا يتم الا بالله ورسوله وقيل الضمير راجع الى من فى أول الآية لانه المذكور ومن حق الكناية أن ترجع الى المذكور اذا أمكن ذلك وعلى هذا المراد بالنصر الرزق قال أبو عبيدة وقف علينا سائل من بنى بكر فقال من ينصرنى نصره الله أى من يعطنى أعطاه الله فكأنه قال من كان يظن أن لن يرزقه الله فى الدنيا والآخرة (فليمدد بسبب) أى

بحبل (الى السماء) أى سقف بيته يشده بينه وبين عنقه (ثم ليقطع) أى ليختنق به بأن يقطع نفسه من الارض كما فى الصحاح وقيل فليمدد حبلا الى سماء الدنيا ثم ليصعد عليه فيجتهد فى دفع نصر النبى صلى الله عليه وسلم على الاول أو يحصل رزقه على الثانى وقرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام والباقون بسكونها (فلينظر) ببصره وبصيرته (هل يذهبن) وان اجتهد (كيده) فى عدم نصرة النبى صلى الله عليه وسلم أو فى تحصيل رزقه (ما يغيظ) من ذلك والمعنى فليختنق غيظا فلابد من نصرته صلى الله عليه وسلم واعلاء كلمته أو ان ذلك لا يغلب القسمة فان الارزاق بيد الله لا تنال الا بمشيئة الله سبحانه وتعالى وهذا كما يقال لمن أدبر عنه أمر فجزع اضرب برأسك الجدار ان لم ترض هذا مت غيظا ونحو ذلك والحاصل انه ان لم يصبر طوعا صبر كرها واختلف فى سبب نزول هذه الآية على القول الاول فذكروا فيها وجوها أحدها كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم على الكفار يستبطؤن ما وعد الله رسوله من النصر فنزلت ثانيها قال مقاتل نزلت فى نفر من أسد وغطفان قالوا نخاف أن الله لا ينصر محمدا فينقطع الذى بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا ثالثها ان حساده وأعداءه كثيرة وكانوا يتوقعون أن لا ينصره وأن لا يعينه على أعدائه فغيظ شاهد وأن الله نصره غاظهم ذلك (وكذلك) أى ومثل ما أنزلنا هذه الآيات لبيان حكمها واظهار أسرارها (أنزلناه) أى القرآن الباقى وقوله تعالى (آيات بينات) أى معجزا نظمها كما كان معجزا حكمها حال وقوله تعالى (وأن الله) أى الموصوف بالاكرام كما هو موصوف بالانتقام (يهدى) أى بآياته (من يريد) أى هدايته أى بثبته على الهدى معطوف على محل أنزلناه * ولما قال تعالى وأن الله يهدى من يريد أتبعه ببيان من يهديه ومن لا يهديه وبدأ بالقسم الاول بقوله (ان الذين آمنوا) بالله ورسوله وعبر بالفعل ليشمل الاقرار باللسان الذى هو أدنى وجوه الايمان ثم شرع فى القسم الثانى بقوله تعالى (والذين هادوا) أى انتحلوا دين اليهودية (والصابئين) وهم فرقة من النصارى سميت بذلك قيل لنسبتها الى صابئ عم نوح عليه السلام وقيل لخروجهم عن دين الى دين آخر واطلاق الصابئة على هذا هو المشهور وتارة يوافقونهم فى أصول دينهم فتحل مناكحتهم وتارة يخالفونهم فلا تحل مناكحتهم وتطلق أيضا على قوم أقدم من النصارى يعبدون الكواكب السبعة ويضيفون الآثار اليها وينفون الصانع المختار فهؤلاء لا تحل مناكحتهم وقد أفتى الاصطخرى والمحاملى بقتلهم لما استفتى القاهر الفقهاء فيهم فبذلوا له أموالا كثيرة فتركهم والبلاء قديم وقرأ نافع بالياء التحتية بعد الباء والباقون بهمزة مكسورة بعد الباء الموحدة (والنصارى) أى الذين انتحلوا دين النصرانية (والمجوس) قال قتادة هم عبدة الشمس والقمر والنيران قال (والذين أشركوا) هم عبدة الاوثان قال مقاتل الاديان كلها ستة واحد للرحمن وهو الاسلام وخمسة للشيطان وقيل خمسة أربعة للشيطان وواحد للرحمن بجعل الصابئين مع النصارى لانهم فرع منهم كما مر على المشهور وقد تقدم الكلام على هذه الآية فى سورة البقرة (ان الله) الذى هو أحكم الحاكمين (يفصل بينهم يوم القيامة) بادخال المؤمنين الجنة وغيرهم النار وأدخلت ان

على

على كل واحد من جزأى الجملة لزيادة التأكيد ونحوه قول جرير

ان الخليفة ان الله سربله * سربال ملك به ترجى الخواتيم

ثم علل ذلك بقوله تعالى (ان الله) أى الجامع لجميع صفات الكمال (على كل شئ) من الاشياء كلها (شهيد) أى عالم به علم مشاهدة (ألم تر) أى تعلم (أن الله يسجد له) أى يخضع منقادا لامره سبحانه مسخرا لما يريد منه تسخير من هو فى غاية الاجتهاد فى العبادة والاخلاص فيها (من فى السموات ومن فى الارض) ان خصصت بذلك العاقل أفهم خضوع غيره من باب أولى وان ادخلت غير العاقل فبالتغليب ثم أتبعه بأشرف ماذكر مما لا يعقل لان كلا منها عبد من دون الله أو عبد شئ منه فقال تعالى (والشمس والقمر والنجوم) من الاجرام العلوية فعبد الشمس حمير والقمر كنانة والدبران تميم والشعرى لخم والثريا طئ وعطارد أسد قاله أبو حيان روى عن عمرو بن دينار قال سمعت رجلا يطوف بالبيت ويبكى فاذا هو طاوس فقال أعجبت من بكائى قلت نعم قال ورب الكعبة ان هذا القمر ليبكى من خشية الله ولا ذنب له * ثم أتبع ذلك أعلى الذوات السفلية فقال (والجبال) أى التى قد نحتت منها الاصنام (والشجر) أى التى عبد بعضها (والدواب) أى التى عبد منها البقر كل هذه الاشياء تنقاد لامر الله ولا تأبى عن تدبيره (وكثير من الناس) وهم المؤمنون بزيادة الخضوع سجد سجودا هو منه عبادة مشروعة تحق له الثواب (وكثير) أى من الناس (حق عليه العذاب) وهم الكافرون لانهم أبوا السجود المتوقف على الايمان (ومن يهن الله) أى يشقه (فماله من مكرم) أى مسعد لانه لا قدرة لغيره أصلا (ان الله) أى الملك الاعظم (يفعل ما يشاء) من الاكرام والاهانة لا مانع له من ذلك نقل عن على رضى الله تعالى عنه أنه قيل له ان رجلا يتكلم فى المشيئة فقال له على يا عبد الله خلقك الله لما يشاء أو لما شئت قال بل لما يشاء قال فيمرضك اذا شاء أو اذا شئت قال بل اذا شاء قال فيشفيك اذا شاء أو اذا شئت قال بل اذا شاء قال فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء قال بل حيث يشاء قال والله لو قلت غير ذلك لضربت الذى فيه عيناك بالسيف * ولما بين تعالى أن الناس قسمان منهم من يسجد لله ومنهم من حق عليه العذاب ذكر كيفية اختصامهم بقوله تعالى (هذان خصمان) أى المؤمنون خصم والكفار الخمسة خصم وهو يطلق على الواحد والجماعة وقرأ ابن كثير بتشديد النون والباقون بالتخفيف (اختصموا) أى أوقعوا الخصومة بغاية الجهد (فى ربهم) أى دينه وروى عن قيس بن عباد قال سمعت أبا ذر يقسم قسما ان هذه الآية هذان خصمان اختصموا فى ربهم نزلت فى الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلى وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة أخرجاه فى الصحيحين وعن ابن عباس قال لما بارز على وحمزة وعبيدة عتبة وشيبة والوليد قالوا لهم تكلموا نعرفكم قال أنا على وهذا حمزة وهذا عبيدة فقالوا أكفاء كرام فقال على أدعوكم الى الله والى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال عتبة هلم للمبارزة فبارز على شيبة فلم يلبث أن قتله وبارز حمزة عتبة فقتله وبارز عبيدة الوليد فصعق عليه فأتى على فقتله فنزلت وعن قتادة نزلت الآية فى المسلمين وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب

نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم قال المسلمون كتابنا يقضي على الكتب كلها ونبينا صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء فنحن أولى بالله منكم وعن ابن عباس أنها نزلت كذلك لكن قال أهل الكتاب نحن أولى بالله وأقدم بين يديكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المسلمون نحن أحق بالله منكم آمنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وانكم تعرفون نبينا وكتابنا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا فهذه خصومتهم في ربهم وقيل المؤمنون والكافرون من أي ملة كانوا فالمؤمنون خصم والكفار خصم وقيل الخصمان الجنة والنار لما روى عن أبي هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة فالي لا يدخلني الا ضعفاء الناس وسقطهم فقال الله عز وجل للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار انما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها وعن عكرمة فقالت النار خلقني الله لعقوبته وقالت الجنة خلقني الله لرحمته وهذا القول بعيد عن السياق لان الله تعالى ذكر جزاء الخصمين بقوله تعالى (فالذين كفروا) وهو الفصل بينهم المعنى بقوله تعالى ان الله يفصل بينهم يوم القيامة (قطعت) أي قدرت (لهم) على مقادير جثثهم (ثياب من نار) أي نيران تحيط بهم احاطة الثياب سابغة عليهم كما كانوا يلبسون الثياب في الدنيا تفاخرا وتكبرا وعن ابراهيم التيمي أنه قال سبحان من قطع من النار ثيابا وعن سعيد بن جبير قال قطعت من نحاس وليس من الآنية شيء اذا حمي أشد حرارة منه وقال في قوله (يصب) أي اذا دخلوها (من فوق رؤسهم الحميم) قال ابن النحاس يذاب على رؤسهم ولكن المشهور أنه الماء الحار وعن ابن عباس لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها والجملة حال من الضمير في لهم أو خبر ثان وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وقرأ حمزة والكسائي بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم هذا في الوصل فان وقف على رؤسهم فالجميع بكسر الهاء وسكون الميم وحمزة على أصله في الوقف على رؤسهم بتسهيل الهمزة (يصهر) أي يذاب (به) من شدة حرارته (ما في بطونهم) من شحم وغيره (والجلود) فيكون أثره في الباطن والظاهر سواء وقال ابن عباس يسقون ماء اذا دخل بطونهم أذابها والجلود مع البطون (ولهم مقامع) جمع مقمعة بكسر ثم فتح وهو عمود حديد وقيل سوط يضرب به الوجه والرأس ليرد المضروب عن مراده ردا عنيفا ثم نفى المجاز بقوله تعالى (من حديد) أي يقمعون بها روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو أن مقمعا من حديد وضع في الارض فاجتمع الثقلان ما أقلوه من الارض ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان (كلما أرادوا أن يخرجوا منها) أي من تلك الثياب أو من النار (من غم) أي كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذي يأخذ بأنفسهم (أعيدوا فيها) أي ردوا اليها بالمقامع وعن الحسن أنهم يضربون بلهب النار فترفعهم حتى اذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا وعن الفضيل بن عياض قال والله ما طمعوا في الخروج لان الارجل مقيدة والايدي

موثقة

موثقة ولكن يرفعهم لهبها وترد هم مقامعها وعن الحسن قال كان عمر يقول أكثروا ذكر النار فان حرها شديد وقعرها بعيد وان مقامعها من حديد (و) قيل لهم (ذوقوا عذاب الحريق) أى البالغ نهاية الاحراق * ولما ذكر تعالى مال أحد الخصمين وهم الكافرون أتبعه مال الآخر وهم المؤمنون وغير الاسلوب فيه حيث لم يقل والذين آمنوا عطفا على الذين كفروا وأسند الادخال فيه الى الله تعالى وأكده بان احمادا لحال المؤمنين وتعظيما لشأنهم فقال (ان الله) أى الذى له الامر كله (يدخل الذين آمنوا) بالله ورسله (وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) من الفروض والنوافل الخالصة الشاهدة بثباتهم فى الايمان (جنات تجرى) أى دائما (من تحتها الانهار) أى المياه الواسعة أينما أردت من أرضها جرى لك نهر فى مقابلة ما يجرى من فوق رؤس أهل النار عن معاوية عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان فى الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الانهار بعد أخرجه الترمذى وقال حديث صحيح (يحلون فيها) من حليت المرأة اذا لبست الحلى فى مقابلة ما يزال من بواطن الكفرة وظواهرهم وقوله تعالى (من أساور) صفة مفعول محذوف أى حليا من أساور ومن زائدة أو تبعيضية وأساور جمع أسورة وهى جمع سوار * ولما كان المقصود الحث على التقوى المعلية الى الانعام بالفضل شوق اليه بأعلى ما يعرف من الحلية فقال (من ذهب) وقوله تعالى (ولؤلؤ) معطوف على أساور لا على ذهب لانه لم يعهد السوار منه الا أن يراد المرصعة وعن أبى موسى الاشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم الارداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن وعن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عليهم التيجان أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب أخرجه الترمذى وقال حديث غريب وقرأ نافع وعاصم بنصب الهمزة الثانية مع التنوين عطفا على محل أساور أو اضمار الناصب مثل ويؤتون والباقون بالخفض مع التنوين وابدل الهمزة الاولى الساكنة حرف مد السوسى وأبو بكر هذا حالة الوصل وأما الوقف فحمزة يبدل الاولى واوا وكذا الثانية تبدل واوا وله أيضا فيها الروم وقوله تعالى (ولباسهم فيها حرير) وهو الابريسم المحرم لبسه على الرجال المكلفين فى الدنيا فى مقابلة ثياب الكفار كما كان لباس الكفار فى الدنيا حريرا ولباس المؤمنين دون ذلك وقد ورد فى الصحيحين عن عبد الله ابن الزبير عن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لاتلبسوا الحرير فان من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة قال ابن كثير قال عبد الله بن الزبير ومن لم يلبس الحرير فى الآخرة لم يدخل الجنة قال الله تعالى ولباسهم فيها حرير انتهى وفى الصحيحين أيضا عن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال انما يلبس هذه من لاخلاق له فى الآخرة قال البقاعى فيوشك المتشبه بالكفار فى لباسهم أن يلحقه الله بهم فلا يموت مسلما اه والاولى أن يحمل ذلك على أنه لا يلبسه مع السابقين فان من مات على الاسلام لا بد من دخوله الجنة أو على من استحله من الرجال المكلفين (وهدوا) أى فى الدنيا (الى الطيب من القول) قال ابن عباس

هو شهادة أن لا إله إلا الله وقيل هو لا إله إلا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله وقال السدي هو القرآن وقال عطاء هو قول أهل الجنة الحمد لله الذي صدقنا وعده (وهدوا إلى صراط الحميد) أي طريق الله المحمود ودينه فكان فعلهم حسنا كما كان قولهم حسنا فدخلوا الجنة التي هي أشرف دار عند خير جار وحلوا فيها أشرف الحلي كما تحلوا في الدنيا بأشرف الطرائق عكس الكفار فإنهم آثروا الفاني لحضوره وأعرضوا عن الباقي مع شرفه لغيابه فدخلوا نارا كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ثم ذكر تعالى بعد ما فصل بين الفريقين حرمة البيت وعظم جرم من صد عنه فقال تعالى (إن الذين كفروا) أي أوقعوا هذا الفعل الخبيث وصح عطف (ويصدون) وإن كان مضارعا على الماضي لأن المضارع قد لا يلاحظ منه زمان معين من حال أو استقبال بل يكون المقصود منه الدلالة على مجرد الاستمرار كما يقال فلان يحسن إلى الفقراء لا يراد حال ولا استقبال وإنما يراد استمرار وجود الاحسان منه فالصد ودمنهم مستمر دائم للناس (عن سبيل الله) أي عن طاعته باقتسامهم طرق مكة يقول بعضهم لمن يمر به خرج فينا ساحر وآخر يقول شاعر وآخر يقول كاهن فلا تسمعوا منه فإنه يريد أن يردكم عن دينكم حتى قال من أسلم لم يزالوا بي حتى جعلت في أذني الكرسف مخافة أن أسمع شيأ من كلامهم وكانوا يؤذون من أسلم إلى غير ذلك من أعمالهم (و) يصدون عن (المسجد الحرام) أن تقام شعائره من الطواف بالبيت والصلاة والحج والاعتمار عن هو أهل ذلك من أوليائنا ثم وصفه بما يبين شديد ظلمهم في الصد عنه بقوله تعالى (الذي جعلناه) بما لنا من العظمة (للناس) أي كلهم ثم بين جعله لهم بقوله تعالى (سواء العاكف) أي المقيم (فيه والباد) أي الطارئ من البادية وهو الجائي إليه من غربة وقال بعضهم يدخل في العاكف الغريب إذا جاءه للتعبد وإن لم يكن من أهله قال الزمخشري وقد استشهد بهذا أصحاب أبي حنيفة قائلين إن المراد بالمسجد الحرام مكة على امتناع جواز بيع دور مكة وإجارتها انتهى وأيضا هو مذهب ابن عمر وعمر ابن عبد العزيز وإسحق الحنظلي المعروف بابن راهويه قال البيضاوي وهو مع ضعفه معارض بقوله تعالى الذين أخرجوا من ديارهم الآية وشرى عمر دارا للسجن فيها من غير نكير انتهى ووجه الرازي الضعف بقوله لأن العاكف قد يراد به الملازم للمسجد المعتكف فيه على الدوام أو في الأكثر فلا يلزم ما ذكر ويحتمل أن يراد بالعاكف المجاور للمسجد المتمكن في كل وقت من الأوقات من التعبد فيه فلا وجه لصرف الكلام عن ظاهره مع هذه الاحتمالات انتهى واستدل أيضا للجواز بقوله صلى الله عليه وسلم لما قال له أسامة بن زيد يا رسول الله أتنزل غدا بدارك بمكة فقال وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور وكان عقيل ورث أبا طالب دون علي وجعفر لأنهما كانا مسلمين ولا يورث إلا ما كان الميت مالكا له قال الروياني ويكره بيعها وإجارتها للخروج من الخلاف ونازعه النووي في مجموعه وقال إنه خلاف الأولى لأنه لم يرد فيه نهي مقصود والأول كما قال الزركشي هو المنصوص بل اعترض على النووي فإنه صرح بكراهة بيع المصحف والشطرنج ولم يرد في ذلك نهي مقصود (تنبيه) محل الخلاف بين العلماء

في بيع نفس الارض أما البناء فهو مملوك يجوز بيعه بلا خلاف أي اذا لم يكن من أجزاء أرضها قيل ان اسحق الحنظلي ناظر الشافعي رضي الله تعالى عنه بمكة في بيع دور مكة فاستدل الشافعي بما مر واستدل هو على المنع بقوله حدثني بعض التابعين بأنها لا تباع فقال له الشافعي لو قام غيرك مقامك لأمرت بفرك أذنيه أقول لك قال الله ورسوله تقول حدثني بعض التابعين وقال الرازي فقال اسحق فلما علمت أن الحجة لزمتني تركت قولي وقرأ حفص سواء بالنصب على أنه ثاني مفعولي جعلناه أي جعلناه مستويا العاكف فيه والباد والباقون بالرفع على ان الجملة مفعول ثان لجعلناه ويكون للناس حالا من الهاء ويصح أن يكون حالا من المستكن في للناس بجعله مفعولا ثانيا لجعلنا وقرأ ورش وأبو عمرو والبادي باثبات الياء بعد الدال وصلا لا وقفا وأثبتها ابن كثير وقفا ووصلا وحذفها الباقون وقفا ووصلا (ومن يرد فيه) أي المسجد الحرام (بالحاد بظلم) أي يميل الى الظلم والالحاد العدول عن القصد وأصله الحاد الحافر وقيل الالحاد فيه هو الشرك وعبادة غير الله وقيل هو كل شيء منهي عنه من قول أو فعل حتى شتم الخادم وقيل هو دخول الحرم بغير احرام أو ارتكاب شيء من محظورات الاحرام من قتل صيد أو قطع شجر وقال ابن عباس هو أن تقتل فيه من لا يقتلك أو تظلم فيه من لا يظلمك وقال مجاهد هو تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات وقال سعيد بن جبير احتكار الطعام بمكة بدليل ما روى يعلى بن أمية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان احتكار الطعام في الحرم الحاد وعن عطاء قول الرجل في المبايعة لا والله بلى والله وعن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم فاذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل فقيل له فقال كنا نحدث أن من الالحاد فيه أن يقول الرجل لا والله وبلى والله * (تنبيه) * قوله بالحاد بظلم حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد ظالما (نذقه من عذاب أليم) أي مؤلم أي بعضه وخبر ان محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم فكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك فينبغي لمن كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده * ولما ذكر تعالى الفريقين وجزاء كل وختمه بذكر البيت أتبعه التذكير به فقال تعالى (واذ) أي واذكر اذ (بوأنا لابراهيم مكان البيت) أي جعلنا له مكان البيت مبوأ أي مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة فان البيت رفع الى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله ابراهيم عليه السلام مكانه بريح أرسلها يقال لها الخجوج كشفت ما حوله فبناه على اسه القديم وقيل بعث الله تعالى له سحابة بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا ابراهيم ابن على دوري فبنى عليه وعن عطاء بن أبي رباح قال لما أهبط الله آدم عليه السلام كان رجلاه في الارض ورأسه في السماء يسمع تسبيح أهل السماء ودعاءهم وأنس اليهم فهابت الملائكة منه حتى شكت الى الله تعالى في دعائها وقيل في صلاتها فأخفضه الله تعالى الى الارض فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش وقيل أول من بنى البيت ابراهيم لما روى وورد

في الصحيحين عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أولا قال المسجد الحرام قلت ثم أي قال بيت المقدس قلت كم بينهما قال أربعون سنة ثم فسر التبوئة بقوله تعالى (أن لا تشرك بي شيأ) فإن تبدأ بأساس العبادة تورأسها وعطف على النهي قوله تعالى (وطهر بيتي) أي عن كل ما لا يليق به من الاوثان والاقذار وطواف عريان به كما كانت العرب تفعل (للطائفين) أي الذين يطوفون بالبيت (فإن قيل) كيف يكون النهي عن الشرك والامر بتطهير البيت تفسيرا للتبوئة (أجيب) بأن التبوئة لما كانت مقصودة من أجل العبادة فكأنه قيل تعبدنا ابراهيم قلنا له لا تشرك بي شيأ وطهر بيتي للطائفين وقال ابن عباس للطائفين بالبيت من غير أهله (والقائمين) أي المقيمين (والركع السجود) أي المصلين من الكل وقال غيره القائمين هم المصلون لأن المصلي لا بد أن يكون في صلاته جامعا بين القيام والركوع والسجود قال البيضاوي ولعله عبر عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك كيف وقد اجتمعت (وأذن في الناس) أي أعلمهم وناد فيهم (بالحج) وهو قصد البيت على سبيل التكرار للعبادة المخصوصة بالمشاعر المنصوصة وفي المأمور بذلك قولان أحدهما وعليه أكثر المفسرين أنه ابراهيم عليه السلام قالوا لما فرغ من بناء البيت قال الله تعالى له أذن في الناس بالحج قال يا رب وما يبلغ صوتي قال عليك الاذان وعلي البلاغ فصعد ابراهيم الصفا وفي رواية أخرى أبا قبيس وفي أخرى على المقام قال ابراهيم كيف أقول قال جبريل قل لبيك اللهم لبيك فهو أول من لبى وفي رواية أخرى صعد على الصفا فقال يا أيها الناس ان الله كتب عليكم حج هذا البيت العتيق فسمعه ما بين السماء والارض فما بقي شيء سمع صوته الا أقبل يلبي يقول لبيك اللهم لبيك وفي رواية أخرى ان الله يدعوكم الى حج بيته الحرام ليثيبكم به الجنة ويجيركم من النار فأجابه يومئذ من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء وكل من وصل اليه صوته من حجر أو شجر أو أكمة أو تراب قال مجاهد فما حج انسان ولا يحج أحد حتى تقوم الساعة الا وقد أسمعه ذلك النداء فمن أجاب مرة حج مرة ومن أجاب مرتين أو أكثر فيحج مرتين أو أكثر بذلك المقدار وفي رواية فنادى على جبل أبي قبيس يا أيها الناس ان ربكم بنى بيتا وأوجب الحج عليكم اليه فأجيبوا ربكم والتفت بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا فأجابه كل من كتب له أن يحج من أصلاب الرجال وأرحام الامهات لبيك اللهم لبيك وعن ابن عباس قال لما أمر الله ابراهيم بالاذان تواضعت له الجبال وخفضت وارتفعت له القرى القول الثاني ان المأمور بذلك هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول الحسن واختاره أكثر المعتزلة واحتجوا عليه بأن ما جاء في القرآن وأمكن حمله على أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو المخاطب به فهو أولى لان قوله تعالى واذ بوأنا تقديره واذكر يا محمد اذ بوأنا فهو في حكم المذكور فاذا قال تعالى وأذن فاليه يرجع الخطاب أمره أن يفعل ذلك في حجة الوداع روى عن أبي هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا وجواب الامر (يأتوك) أي يأتوا بيتك الذي بنيته لذلك مجيبين لصوتك بإذنا سامعين طائعين محبين خاشعين من أقطار الارض كما

يجيبون

يجيبون صوت الداعي من قبلنا اذا دعاهم بعد الموت بمثل ذلك (رجالا) أي مشاة على أرجلهم جمع راجل كقائم وقيام (و) ركبانا (على كل ضامر) أي بعير مهزول وهو يطلق على الذكر والانثى *(تنبيه)* على كل ضامر حال معطوف على حال كأنه قال رجالا وركبانا وقوله تعالى (يأتين) صفة لكل ضامر لانه في معنى الجمع (من كل فج) أي طريق واسع بين جبلين (عميق) أي بعيد روى سعيد بن جبير باسناده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الحاج الراكب له بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وللماشي سبعمائة من حسنات الحرم قيل يا رسول الله وما حسنات الحرم قال كل حسنة بمائة ألف حسنة وفي هذا دلالة على أن المشي أفضل من الركوب وفي ذلك خلاف بين الائمة محله كتب الفقه * ولما كان الانسان ميالا الى الفوائد متشوفا الى جميل العوائد علل الاتيان بما يرغبه مبيحا من فضله ما يقصده من امر المعاش بقوله تعالى (ليشهدوا) أي ليحضروا حضورا تاما (منافع لهم) واختلف في تلك المنافع فبعضهم حملها على منافع الدنيا وهي أن يتجروا في أيام الحج وبعضهم حملها على منافع الآخرة وهي العفو والمغفرة وبعضهم حملها على الامرين جميعا وهو كما قال الرازي أولى فيأتون لتلك المنافع يتنقلون من مشعر من مشاعر الحج الى مشعر ومن مشهد الى مشهد مجموعين بالدعوة خاشعين بالهيبة خائفين من السطوة راجين للمغفرة ثم يتفرقون الى منازلهم ومواطنهم ويتوجهون الى مساكنهم كالسائرين الى مواقف الحشر يوم البعث والنشر المتفرقين الى داري النعيم والجحيم فيا أيها المصدقون بأن خليلنا ابراهيم عليه السلام نادى بالحج فأجابه بقدرتنا كرامة له من أراد الله تعالى حجه على بعد أقطارهم وتنائي ديارهم ممن كان موجودا في ذلك الزمان وممن كان في ظهور الآباء والامهات الاقربين والابعدين صدقوا ان الداعي من قبلنا بالنفخ في الصور يجيبه كل من كان على ظهرها ممن حفظنا له جسده أو سلطنا عليه الارض فمزقناه حتى صار ترابا وما بين ذلك لان الكل علينا يسير قال الزمخشري وعن أبي حنيفة رحمه الله انه كان يفاضل بين العبادات كلها قبل أن يحج فلما حج فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص * ولما كانت المنافع لا تطيب ولا تثمر الا بالتقوى وكان الحامل على التقوى ذكر الله تعالى قال تعالى (ويذكروا اسم الله) أي الجامع لجميع الكمالات بالتكبير وغيره عند الذبح وغيره وقيل كنى بالذكر عن الذبح لان ذبح المسلمين لا ينفك عنه تنبيها على ان المقصود مما يتقرب به الى الله تعالى أن يذكر اسمه * واختلف في الايام المعلومات في قوله تعالى (في أيام معلومات) فالذي عليه أكثر المفسرين وهو اختيار الشافعي وأبي حنيفة أنه عشر ذي الحجة واحتجوا بأنها معلومة عند الناس بحرصهم على علمها من أجل أن وقت الحج في آخرها ثم للمنافع أوقات من العشر معروفة كيوم عرفة والمشعر الحرام ولتلك الذبائح وقت منها وهو يوم النحر وعن ابن عباس أنها أيام التشريق وقيل يوم عرفة الى آخر أيام التشريق وقيل يوم النحر الى آخر أيام التشريق واستدل لهذا بقوله تعالى (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) وهي الابل والبقر والغنم من الهدايا والضحايا أي يذكروا اسم الله تعالى عند نحرها ونحر الضحايا والهدايا يكون في هذه الايام وتقدم الكلام على الايام المعدودات في سورة البقرة عند قوله تعالى واذكروا الله

في أيام معدودات وقوله تعالى (فكلوا منها) أي من لحومها أمر اباحة وذلك أن الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيأ فأمر الله تعالى بمخالفتهم واتفق العلماء على أن الهدى اذا كان تطوعا يجوز للمهدى أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع لما روى عن جابر بن عبد الله في قصة حجة الوداع فأتى علي ببدن من اليمن وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فنحر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين بدنة ونحر علي ما غبر أي ما بقي وأشركه في بدنه ثم أمر من كل بدنة ببضعة أي بقطعة فجعلت في قدر فطبخت فأكل من لحمها وشرب من مرقها أخرجه مسلم واختلفوا في الهدى الواجب بالشرع مثل دم التمتع والقران والدم الواجب بافساد الحج وفوته وجزاء الصيد هل يجوز للمهدى أن يأكل شيأ منه قال الشافعي رضي الله عنه لا يأكل منه شيأ وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر وقال ابن عمر رضي الله عنهما لا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك وبه قال أحمد واسحق وقال مالك يأكل من هدى التمتع ومن كل هدى وجب عليه الا من فدية الاذى وجزاء الصيد والنذر وعن أصحاب أبي حنيفة أنه يأكل من دم التمتع والقران ولا يأكل من واجب سواهما وقوله تعالى (وأطعموا البائس) أي الذي أصابه بؤس أي شدة (الفقير) أي المحتاج أمر ايجاب وقد قيل به في الاول (ثم ليقضوا تفثهم) أي يزيلوا أوساخهم وشعثهم كقص الشارب والاظفار ونتف الابط والاستحداد عند الاحلال (وليوفوا نذورهم) من الهدايا والضحايا (وليطوفوا) طواف الافاضة الذي به تمام التحلل (بالبيت العتيق) أي القديم لانه أول بيت وضع للناس وقال ابن عباس سمي عتيقا لان الله تعالى أعتقه من تسلط الجبابرة فكم من جبار سار اليه ليهدمه فمنعه الله تعالى منه (فان قيل) قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع (أجيب) بأنه ما قصد التسلط على البيت وانما تحصن به ابن الزبير فاحتال لاخراجه ثم بناه ولما قصد التسلط عليه ابرهة فعل به ما فعل وقيل لان الله تعالى أعتقه من الغرق فانه رفع في أيام الطوفان وقال مجاهد لانه لم يملك قط وقيل بيت كريم أي العتيق بمعنى الكريم من قولهم عتاق الخيل والطير والطواف ينقسم الى ثلاثة هذا ويدخل وقته بعد الوقوف وهذا لا يجبر تركه بدم لانه ركن الثاني طواف الوداع ووقته عند ارادة السفر من مكة وهو واجب يجبر تركه بدم الثالث طواف القدوم وهو مستحب للحاج والحلال اذا قدم مكة روت عائشة رضي الله تعالى عنها ان أول شئ بدأ به حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم أنه توضأ ثم طاف ثم لم تكن عمرة ثم حج أبو بكر وعمر مثله وقرأ ابن ذكوان وليوفوا وليطوفوا بكسر اللام فيهما والباقون باسكانها وفتح أبو بكر الواو من وليوفوا وشدد الفاء وقوله تعالى (ذلك) خبر مبتدا مقدر أي الامر أو الشأن ذلك المذكور وكما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم اذا أراد الخوض في معنى آخر قال هذا فقد كان كذا (ومن يعظم) أي بغاية جهده (حرمات الله) ذي الجلال والاكرام كلها وهي ما لا يحل انتهاكه من مناسك الحج وغيرها وقيل الحرمات هنا مناسك الحج وتعظيمها اقامتها واتمامها وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس الكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرم حتى يحل (فهو) أي

أشرك بالله تعالى فقد أهلك نفسه هلاكا ليس بعده هلاك بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعا في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة وان كان مفرقا فقد شبه الايمان في علوه بالسماء والذي ترك الايمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والاهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة اهـ قوله يطوح به الباء مزيدة للتأكيد قال الجوهري طوحه أي توهه وذهب به ههنا وههنا وقرأ نافع بفتح الخاء وتشديد الطاء والباقون باسكان الخاء وتخفيف الطاء ثم عظم ما تقدم من التوحيد وما هو مسبب عنه بالاشارة بأداة البعد فقال تعالى (ذلك) أي الامر العظيم الكبير من راعاه فاز ومن حاد عنه خاب ثم عطف عليه ما هو أعم من هذا القدر فقال تعالى (ومن يعظم شعائر الله) جمع شعيرة وهي البدن التي تهدى للحرم لانها من معالم الحج بأن يختارها عظام الاجرام حسانا سمانا غالية الاثمان ويترك المكاس في شرائها فقد كانوا يغالون في ثلاث ويكرهون المكاس فيهن الهدي والاضحية والرقبة وروى ابن عمر عن أبيه رضي الله عنهما أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشتري بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فيها جمل لابي جهل في أنفه برة من ذهب وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطي فيتصدق بلحومها وجلالها ويعتقد أن طاعة الله في التقرب بها واهدائها الى بيته المعظم أمر عظيم لابد أن يقام به ويسارع فيه (فانها) أي تعظيمها ناشئ (من تقوى القلوب) من للابتداء فان جعلت تبعيضية فلابد من حذف تقديره فان تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات ولا يستقيم المعنى الا بتقديره الانه لابد من راجع من الجزاء الى من ليرتبط به وانما ذكرت القلوب لانها مراكز التقوى التي اذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الاعضاء وسميت تلك البدن شعائر لاشعارها بما يعرف به أنها هدى كطعن حديدة بسنامها قال البقاعي ولعله مأخوذ من الشعر لانها اذا جرحت قطع شئ من شعرها أو أزيل عن محل الجرح فيكون من الازالة (لكم فيها) أي البدن (منافع) كركوبها والحمل عليها بما لا يضرها وعن ابراهيم من احتاج الى ظهرها ركب ومن احتاج الى لبنها شرب وقال أصحاب الرأي لا يركبها الا اذا اضطر اليها (الى أجل مسمى) وهو وقت نحرها (ثم محلها) أي مكان حل نحرها (الى البيت العتيق) أي عنده والمراد الحرم جميعه وقيل المراد بالشعائر المناسك ومشاهد الحج وبالمنافع الاجر والثواب في قضاء المناسك الى انقضاء آجالها وعلها محل الناس من احرامهم الى البيت يطوفون به طواف الزيارة (ولكل أمة) أي جماعة مؤمنة سلفت قبلكم (جعلنا منسكا) أي متعبدا وقربانا يتقربون به الى الله تعالى وقرأ حمزة والكسائي منسكا هنا وفي آخر السورة بكسر السين في الموضعين فيكون بمعنى الموضع والباقون بفتحها مصدر بمعنى النسك (ليذكروا اسم الله) أي الملك الاعلى وحده على ذبائحهم وقرابينهم لانه الرازق لهم وحده فيقولون عند النحر الله

أكبر لا اله الا الله والله أكبر اللهم منك واليك ثم علل الذكر بالنعمة تنبيها على التفكر فيها فقال تعالى (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) فوجب شكره لذلك عليهم وفيه تنبيه على أن القربان يجب أن يكون من الانعام (فالهكم) أى الذى شرع هذه المناسك كلها (اله واحد) وان اختلفت فروع شرائعه ونسخ بعضها بعضا واذا كان واحدا وجب اختصاصه بالعبادة فلذا قال تعالى (فله) وحده (اسلموا) أى انقادوا بجميع ظواهركم وبواطنكم فى كل ما أمر به أونهى عنه (وبشر المخبتين) أى المطيعين المتواضعين من الخبت وهو المطمئن من الارض وقيل هم الذين لا يظلمون واذا ظلموا لم ينتصروا * ثم بين علاماتهم بقوله تعالى (الذين اذا ذكر الله) أى الذى له الجلال والجمال (وجلت) أى خافت خوفا مزعجا (قلوبهم) فيظهر عليها الخشوع والتواضع لله تعالى (والصابرين) الذين صار الصبر عادتهم (على ما أصابهم) من الكلف والمصائب ولما كان ذلك قد يشغل عن الصلاة قال تعالى (والمقيمى الصلاة) فى أوقاتها والمحافظة عليها وان حصل لهم من المشاق بأفعال الحج وغيره ما عسى أن يحصل ولذلك عبر بالوصف دون الفعل اشارة الى أنه لا يقيمها على الوجه المشروع مع تلك المشاق والشواغل الا الراسخ فى حبها فهم لما تمكن حبها فى قلوبهم والخوف من الغفلة عنها كأنهم دائما فى صلاة (ومما رزقناهم ينفقون) فى وجوه الخير من الهدايا التى يغالون فى أثمانها وغير ذلك احسانا الى خلق الله تعالى * ولما تقدم تعالى الحث على التقرب بالانعام كلها وكانت الابل أعظمها خلقا وأجلها فى أنفسهم أمر اخصها بالذكر فقال تعالى (والبدن) أى الابل المعروفة جمع بدنة كخشب وخشبة واتصابه بفعل يفسره (جعلناها لكم من شعائر الله) أى من اعلام دينه التى شرعها الله تعالى وقيل لانها تشعر وهى أن تطعن بحديدة فى سنامها ليعلم بذلك أنها هدى (لكم فيها خير) أى نفع فى الدنيا وثواب فى العقبى كما قال ابن عباس دنيا وأخرى وروى الترمذى وحسنه عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما عمل ابن آدم يوم النحر عملا أحب الى الله من هراقة الدم وانه ليؤتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها وان الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع الى الارض فطيبوا بها نفسا وروى الدارقطنى فى السنن عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنفقت الورق فى شئ أفضل من نحيرة فى يوم عيد وعن بعض السلف أنه لم يملك الا تسعة دنانير فاشترى بها بدنة فقيل له فى ذلك فقال سمعت ربى يقول لكم فيها خير (فاذكروا اسم الله عليها) أى على ذبحها بالتكبير حال كونها (صواف) أى قائمة على ثلاث معقولة اليد اليسرى لان البدنة تعقل احدى يديها فتقوم على ثلاث (فاذا وجبت جنوبها) أى سقطت سقوطا بردت به بزوال أرواحها فلا حركة لها أصلا من وجب الحائط وجبة سقط ووجبت الشمس وجبة غربت قال ابن كثير وقد جاء فى حديث مرفوع ولا تعجلوا النفوس أن تزهق وقوله تعالى (فكلوا منها) أى اذا كانت تطوعا أمر اباحة دفعها لما قد يظن أنه يحرم الاكل منها للامر بتقريبها لله تعالى (وأطعموا القانع) أى المتعرض للسؤال بخشوع وانكسار (والمعتر) أى السائل وقيل بالعكس وهو قول الشافعى رحمه الله تعالى

قال فى كتاب اختلاف الحديث القانع هو السائل والمعتر هو الزائر وقيل القانع هو الجالس فى بيته المتعفف الذى يقنع بما يعطى ولا يسأل ولا يتعرض والمعتر المتعرض وقيل القانع هو المسكين والمعتر الذى ليس بمسكين ولا تكون له ذبيحة فيجىء الى القوم فيتعرض لهم لاجل لحمهم (كذلك) أى مثل هذا التسخير العظيم الذى وصفناه من نحرها قياما (سخرناها) بعظمتنا التى لولاها ما كان ذلك (لكم) وذللناها ليلا ونهارا مع عظمها وقوتها تأخذونها منقادة فتعقلونها وتحبسونها ولو شئنا لجعلناها وحشية لم تطق ولم تكن بأعجز من بعض الوحش التى هى أصغر منها جرما وأقل قوة (لعلكم تشكرون) انعامنا عليكم لتعرفوا أن مذللها لكم الا الله تعالى فيكون حالكم حال من يرجو شكره فتوقعوا الشكر بأن لا تحرموا منها الا ما حرم عليكم ولا تحلوا منها الا ما أحل وتهدوا منها ما حث على اهدائه وتتصرفوا بحسب ما أمركم * ولما حث تعالى على التقرب بها مذكورا اسمه عليها قال تعالى (لن ينال الله) الذى له صفات الكمال (لحومها) المأكولة (ولا دماؤها) المهراقة أى لا يرفعان اليه (ولكن يناله التقوى منكم) أى يرفع اليه منكم العمل الصالح الخالص له مع الايمان كما قال تعالى والعمل الصالح يرفعه أى يقبله وقيل كان أهل الجاهلية اذا نحروا البدن نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت * ثم كرر سبحانه وتعالى التنبيه على عظيم تسخيرها منبها على ما أوجب عليهم به بقوله تعالى (كذلك) أى التسخير العظيم (سخرها لكم) بعظمته وغناه عنكم (لتكبروا الله على ما هداكم) أى أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه كأن تقولوا الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر وعدى تعديته * ثم وعد من امتثل الامر بقوله تعالى (وبشر المحسنين) أى المخلصين فيما يفعلونه ويذرونه كما قال تعالى من قبل وبشر المخبتين والمحسن هو الذى يفعل الحسن من الاعمال ويتمسك به فيصير محبتا الى نفسه بتوفير الثواب عليه وقال ابن عباس الموحدين وقوله تعالى (ان الله) أى الذى لا كفء له (يدفع عن الذين آمنوا) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وسكون الدال وفتح الفاء والباقون بضم الياء وفتح الدال وبعدها ألف وكسر الفاء أى يبالغ فى الدفع مبالغة من يغالب فيه ولم يذكر الله تعالى ما يدفعه عنهم حتى يكون أعظم وأفخم وأعم وان كان فى الحقيقة أنه يدفع بأس المشركين فلذلك قال تعالى بعده (ان الله) أى الذى له صفات الكمال (لا يحب) أى لا يكرم كما يفعل المحب (كل خوان) فى أمانته (كفور) لنعمته وهم المشركون قال ابن عباس خانوا الله فجعلوا معه شريكا وكفروا نعمه فنبه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذه صفته وقال مقاتل يدفع عن الذين آمنوا بمكة حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبى صلى الله عليه وسلم فى قتلهم سرا فنهاهم عن ذلك ثم أذن الله تعالى لهم فى قتالهم بقوله تعالى (أذن للذين يقاتلون) أى المشركين والمأذون لهم فيه وهو فى القتال محذوف لدلالة يقاتلون عليه (بأنهم) أى بسبب أنهم (ظلموا) فكانوا يأتونه صلى الله عليه وسلم بين مضروب ومشجوج يتظلمون اليه فيقول لهم اصبروا فانى لم أومر بالقتال حتى هاجر فأنزلت وهى أول

آية نزلت في القتال بعدما نهي عنه في نيف وسبعين آية وقيل نزلت في قوم بأعيانهم مهاجرين من مكة الى المدينة فاعترضهم مشركو مكة فأذن الله لهم في قتال الكفار الذين منعوهم من الهجرة بأنهم ظلموا واعتدوا عليهم بالايذاء وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم بضم الهمزة والباقون بفتحها ❊ ولما كان التقدير فان الله أراد اظهار دينه بهم عطف عليه قوله تعالى (وان الله) أى الذى هو الملك الاعلى (على نصرهم لقدير) وفى ذلك وعد من الله بنصر المؤمنين ثم وصفهم بقوله تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم) الى الشعب والحبشة والمدينة (بغير حق) أوجب ذلك ما أخرجوا (الا أن يقولوا) أى بقولهم (ربنا الله) وهذا القول حق والاخراج به اخراج بغير حق ونظير ذلك قوله تعالى هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله ❊ (تنبيه) ❊ الذين أخرجوا مجرور نعت للذين يقاتلون أو بدل منه أو منصوب على المدح أو مرفوع خبر مبتدا محذوف (ولولا دفع الله) أى المحيط بكل شئ علما (الناس بعضهم ببعض) أى بتسليط المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة فى أزمانهم وعلى متعبداتهم كما قال تعالى (لهدمت) أى خربت (صوامع) وهى معابد صغار للرهبان مرتفعة (وبيع) كنائس للنصارى (وصلوات) أى كنائس لليهود وسميت بها لانها يصلى فيها وقيل هى كلمة معربة أصلها بالعبرانية صلوتا (ومساجد) للمسلمين (يذكر فيها) أى هذه المواضع المذكورة (اسم الله) العلى العظيم (كثيرا) وتنقطع العبادات بخرابها وقيل الضمير يرجع للمساجد فقط تشريفا لها بأن ذكر الله يحصل فيها كثيرا (فان قيل) لم قدم الصوامع والبيع فى الذكر على المساجد (أجيب) بأنها أقدم فى الوجود وقيل أخرها فى الذكر كما فى قوله تعالى ومنهم سابق بالخيرات ولان الذكر آخر العمل فلما كان نبينا صلى الله عليه وسلم خير الرسل وأمتنا خير الامم لاجرم كانوا آخرهم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم نحن الآخرون والسابقون وقيل أخرها لتكون بعيدة عن الهدم قريبة من الذكر وقرأ نافع دفاع بكسر الدال وفتح الفاء وألف بعدها والباقون بفتح الدال وسكون الفاء وقرأ نافع وابن كثير لهدمت بتخفيف الدال والباقون بتشديدها وأظهر التاء عند الصاد نافع وابن كثير وعاصم وأدغمها الباقون (ولينصرن الله) أى الملك الاعظم (من ينصره) أى ينصر دينه وأولياءه كائنا من كان منهم أو من غيرهم وقد أنجز الله تعالى وعده بأن سلط المهاجرين والانصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضهم وديارهم (ان الله) أى الذى لا كفء له (لقوى) أى على ما يريد (عزيز) أى منيع فى سلطانه وقدرته وقوله تعالى (الذين ان مكناهم) أى بما لنا من القدرة (فى الارض) باعلائهم على ضدهم (أقاموا الصلاة) أى التى هى عماد الدين الدالة على المراقبة والاعراض عن تحصيل الفانى (وآتوا الزكاة) أى المؤذنة بالزهد فى الحاصل منه المؤذن بعمل النفس للرحيل (وأمروا بالمعروف) أى الذى أمر الله تعالى ورسوله به (ونهوا عن المنكر) أى الذى نهى الله ورسوله عنه وصف للذين هاجروا وهو اخبار من الله تعالى بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين والانصار رضى الله تعالى عنهم وعن عثمان رضى الله تعالى عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد ان الله تعالى أثنى

عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا * (تنبيه) * في ذلك دليل على صحة خلافة الائمة الاربعة الخلفاء الراشدين اذ لم يستجمع ذلك غيرهم من المهاجرين واذا ثبت ذلك وجب أن يكونوا على الحق ولا يجوز حمل الآية على أمير المؤمنين علي وحده لان الآية دالة على الجمع وعن الحسن هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الذين منصوب ببدل من قوله تعالى من ينصره (ولله) أي الملك الاعلى (عاقبة الامور) أي آخر أمور الخلق ومصيرها اليه في الآخرة فلا يكون لاحد فيها أمر حتى انه لا ينطق أحد الا باذنه * ولما بين سبحانه وتعالى فيما تقدم اخراج الكفار للمؤمنين من ديارهم بغير حق وأذن في مقاتلتهم وضمن لرسوله صلى الله عليه وسلم النصرة وبين ان لله عاقبة الامور أردفه بما يجري مجرى التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في الصبر على ما هم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره فقال تعالى (وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم) أي قبل قومك (قوم نوح) وتأنيث قوم باعتبار المعنى وتحقير المكذبين في قدرته وان كانوا من أشد الناس (وعاد) أي ذووا الابدان الشداد قوم هود (وثمود) أولوا الابنية الطوال في السهول والجبال قوم صالح (وقوم ابراهيم) المتجبرون المتكبرون (وقوم لوط) الانجاس بما لم يسبقهم اليه أحد من الناس (وأصحاب مدين) أرباب الاموال المجموعة من خزائن الضلال فأنت يا أشرف الخلق لست بأوحدي في التكذيب فان هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومك * ولما كان موسى عليه السلام قد أتى من الآيات المرئية ثم المسموعة بما لم يأت بمثله أحد ممن تقدمه فكان تكذيبه في غاية البعد غير سبحانه وتعالى الاسلوب تنبيها على ذلك وعلى ان الذين أطبقوا على تكذيبه القبط وأما قومه فما كذبه منهم الا أناس يسير فقال تعالى (وكذب موسى) وفي ذلك أيضا تعظيم للتأسية وتفخيم للتسلية (فأمليت للكافرين) أي أمهلتهم بتأخير العقاب عنهم الى الوقت الذي ضربته لهم وعبر بطول الاملاء بأداة التراخي لزيادة التأسية فقال تعالى (ثم أخذتهم) أخذ عزيز مقتدر * ثم نبه سبحانه وتعالى بالاستفهام في قوله تعالى (فكيف كان نكير) أي انكاري لافعالهم على أنه كان في أخذهم عبر وعجائب وأهوال وغرائب حيث أبدلهم بالنعمة محنة وبالحياة هلاكا وبالعمارة خرابا والاستفهام للتقرير أي وهو واقع موقعه فليحذر هؤلاء الذين أتيتهم بأعظم ما أتى به رسول قومه مثل ذلك فان لم يؤمنوا بك فعلت بهم كما فعلت بهؤلاء وان كانوا أمكن الناس فلا يحزنك أمرهم * (تنبيه) * أثبت ورش الياء بعد الراء من نكير في الوصل وحذفها الباقون وقفا ووصلا (وكأين) أي وكم (من قرية) وقيل معنى كأين رب وقوله تعالى (أهلكتها) قرأه أبو عمرو وبعد الكاف بتاء فوقية مضمومة والباقون بعد الكاف بنون وبعدها ألف والمراد أهلها بدليل قوله تعالى (وهي) أي والحال أنها (ظالمة) أي أهلها بكفرهم ويحتمل أن يكون المراد اهلاك نفس القرية فيدخل تحته هلاكها هلاك من فيها لان العذاب النازل اذا بلغ أن يهلك القرية فتصير منهدمة يحصل هلاك من فيها وان كان الاول أقرب (فهي) أي فتسبب عن اهلاكها أنها (خاوية) أي منهدمة ساقطة أي جدرانها (على عروشها) أي سقوفها اذ كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة

أو كرم فهو عرش والخاوي الساقط من خوى النجم اذا سقط أو الخالي من خوى المنزل اذا خلا من أهله وخوى بطن الحامل * (تنبيه) * قوله على عروشها لا يخلو من أن يتعلق بخاوية فيكون المعنى انها ساقطة على عروشها أى سقوفها أى تقصفت الاخشاب أولا من كثرة الامطار وغير ذلك من الاشرار فسقطت ثم سقط عليها الجدران فسقطت فوق السقوف أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها واما أن يكون خبرا بعد خبر كأنه قيل هى خاوية وهى على عروشها أى قائمة مظلة على عروشها على معنى أن السقوف سقطت الى الارض فصارت فى قرار الحيطان مائلة فهى مشرفة على السقوف الساقطة وقوله فهى خاوية جملة معطوفة على أهلكتها لا على وهى ظالمة فانها حال كما قدرته والاهلاك ليس حال خرابها فلا محل لها ان نصبت كأين بمقدر يفسره أهلكناها لانها معطوفة على جملة أهلكتها كما مرّ وهى مفسرة لا محل لها وان رفعت كأين بالابتداء فحلها رفع خبرا ثانيا لكأين والخبر الاول أهلكتها (و) كم من (بئر معطلة) أى متروكة بموت أهلها (وقصر مشيد) أى رفيع خال بموت أهله * (تنبيه) * علم مما قدرته ان بئر معطوف على قرية وهو يقوى على ان عروشها بمعنى مع أوجه وروى ان هذه بئر نزل عليها صالح عليه السلام مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله تعالى من العذاب وهى بحضرموت وانما سميت بذلك لان صالحا حين حضرها مات وثم بلدة عند البئر اسمها حاضوراء بناها قوم صالح وأمروا عليهم جهلس بن جلاس وأقاموا بها زمانا ثم كفروا وعبدوا صنما فارسل الله تعالى اليهم حنظلة بن صفوان عليه السلام نبيا فقتلوه فأهلكهم الله تعالى وعطل بئرهم وخرب قصورهم وقوله تعالى (أفلم يسيروا) أى كفار مكة (فى الارض) يحتمل انهم لم يسافروا فحثوا على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله تعالى بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا وان يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا (فتكون) أى فتتسبب عن سيرهم أن تكون (لهم قلوب) واعية (يعقلون بها) ما رأوه بأبصارهم مما نزل بالمكذبين قبلهم (أو) أى أو يكون لهم ان كانوا عمى الابصار كما دل عليه جعل هذا قسيما (آذان يسمعون بها) أخبارهم بالاهلاك وخراب الديار فيعتبروا (فانها) أى القصة (لا تعمى الابصار) ويجوز أن يكون الضمير مبهما يفسره الابصار وفى تعمى راجع اليه والمعنى ان أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى فيها وانما العمى لقلوبهم كما قال تعالى (ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) ولا يعتد بعمى الابصار فانه ليس بعمى بالاضافة الى عمى القلوب (فان قيل) أى فائدة فى ذكر الصدور (أجيب) بأن الذى قد تعورف واعتقد أن العمى على الحقيقة للبصر وهو ان تصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله فى القلب استعارة وتمثيل فلما أريد اثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى الى القلوب حقيقة ونفيه عن الابصار احتاج هذا التصوير الى زيادة تبيين وفضل تعريف ليتقرر ان مكان العمى هو القلوب لا الابصار كما تقول ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذى بين فكيك فقولك الذى بين فكيك تقرير لما ادعيته للسانه وتثبيت لان محل المضاء هو لا غيره فكأنك قلت ما نفيت المضاء عن

السيف وأثبته للسائل فلتة ولا سهوا مني ولكن تعمدت به ايابعينه تعمدا قيل لما نزل قوله
تعالى ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى قال ابن أم مكتوم يا رسول الله أنا في الدنيا
أعمى أفأكون في الآخرة أعمى فنزلت (ويستعجلونك بالعذاب) الذي توعدتهم به تكذيبا
واستهزاء (و) الحال انه (لن يخلف الله) أي الذي لا كفء له (وعده) لامتناع الخلف فيه وفي خبره
سبحانه وتعالى فيصيبهم ما وعدهم به ولو من بعد حين لكنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة وقد
أنجزه يوم بدر (وان يوما عند ربك) أي المحسن اليك بتأخير العذاب عنهم اكراما لك من أيام
الآخرة بالعذاب (كألف سنة مما تعدون) في الدنيا وطول أيامه حقيقة أو من حيث ان أيام
الشدائد مستطالة وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب
(وكأين من قرية أمليت لها) أي أمهلتها كما أمهلتكم (وهي ظالمة) كظلمكم بالاستعجال وغيره
(ثم أخذتها) أي بالعذاب والمراد أهلها (والي المصير) أي المرجع فينقطع كل حكم دون حكمي
ففيه وعيد وتهديد (فان قيل) لم قال فكأين من قرية أهلكتها بالفاء وقال هنا بالواو (أجيب)
بأن الاولى وقعت بدلا عن قوله تعالى فكيف كان نكير وأما هذه فحكمها حكم ما تقدم
من الجملتين المعطوفتين بالواو أعني قوله تعالى ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف
سنة مما تعدون * ولما كان الاستعجال لا يطلب من الرسول وانما يطلب من المرسل أمره الله تعالى
بأن يديم لهم التخويف والانذار بقوله تعالى (قل) أي لهم ولا يصدنك عن دعائهم ما أخبرناك
به من عملهم (يا أيها الناس) أي جميعا من قومك وغيرهم (انما أنا لكم نذير مبين) أي بين
الانذار والاقتصار على الانذار مع عموم الخطاب وذكر الفريقين لان صدر الكلام وسياقه
للمشركين وانما ذكر المؤمنين وثوابهم بقوله (فالذين آمنوا) أي أقروا بالايمان (وعملوا) أي
تصديقا لدعواهم تلك (الصالحات لهم مغفرة) أي لما فرط منهم (ورزق) أي في الدنيا بالغنائم
وغيرها وفي الآخرة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (كريم) أي لا خسة فيه
ولا دناءة بانقطاع ولا غيره زيادة في غيظهم * ولما كان في سياق الانذار قال معبرا بالماضي زيادة
في التخويف (والذين سعوا) أي أوقعوا السعي ولو مرة واحدة (في آياتنا) أي القرآن بابطالها
(معجزين) من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم أي ينسبونهم الى العجز ويثبطونهم عن الايمان
أو مقدرين عجزنا عنهم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد الجيم بعد العين على انها حال مقدرة
والباقون بألف بعد العين وتخفيف الجيم أي مسابقين مشاقين للساعين فيها بالتثبيط (أولئك)
البعداء البغضاء (أصحاب الجحيم) أي النار استحقاقا بما سعوا فيسكنهم فيها ليعلموا انهم هم
العاجزون ولما لاح من ذلك ان الشيطان ألقى شبها يفاخرون فيها بجدالهم في دين الله الذي
أمر رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم باظهاره وتقريره واشهاره عطف عليه تسلية له صلى
الله عليه وسلم قوله تعالى (وما أرسلنا) أي بعظمتنا (من قبلك) ثم أكد الاستغراق بقوله تعالى
(من رسول) وهو نبي أمر بالتبليغ (ولا نبي) وهو من لم يؤمر بالتبليغ وهذا هو المشهور فمعنى
أرسلنا أوحينا فالنبي أعم من الرسول ويدل عليه ما رواه الامام أحمد من أنه صلى الله عليه وسلم

سئل عن الانبياء فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا قيل فكم الرسل فقال ثلثمائة وثلاثة
عشر جما غفيرا وقيل كما هو ظاهر الآية الرسول من جمع الى المعجزة كتابا منزلا عليه والنبي غير
الرسول من لا كتاب له وقيل يمكن حمل الآية عليه أيضا والرسول من يأتيه الكتاب والنبي يقال
له ولمن يوحى اليه في المنام (الا اذا تمنى) أى تلا على الناس ما أمره الله تعالى به أو حدثهم به
واشتهى في نفسه أن يقبلوه حرصا منه على ايمانهم شفقة عليهم (ألقى الشيطان) من التشبيه
والتخييلات (في أمنيته) أى فيما تلاه أو حدث به واشتهى أن يقبل ما يلقفه منه أولياؤه
فيجادلون به أهل الطاعة ليضلوهم وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وكذلك جعلنا
لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا كما يفعل
هؤلاء فيما يفترقون به في وجه الشريعة أصولا وفروعا من قولهم في القرآن شعر وسحر وكهانة
وقولهم لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا وقولهم ان ما قتله الله تعالى بالموت حتف أنفه أولى بالاكل
مما ذبح وقولهم نحن أهل الله وسكان حرمه ولا نخرج من الحرم فنقف في الحج بالمشعر الحرام
وتقف الناس بعرفة ونحن نطوف في ثيابنا وكذا من ولدناه وأما غيرنا فلا يطوف الا عاريا ذكرا
كان أو أنثى الا أن يعطيه أحدنا ما يلبسه ونحو ذلك مما يريدون أن يطفؤا به نور الله تعالى
وكذا تأويلات الباطنية والاتحادية وانظارهم الى الحد وفيها يضل الله تعالى بها من يشاء ثم
يمحوها عمن أراد من عباده وما أراد من أمره (فينسخ) أى فيذهب عن القائه أنه ينسخ (الله)
أى المحيط بكل شيء علما وقدرة (ما يلقي الشيطان) فيبطله بايضاح أمره (ثم يحكم الله آياته) أى ثم
يجعلها جلية فيما يريد منها وأدل دليل على ان هذا هو المراد من الافتتاح بالمتأخرة في الآيات
الختام بقوله عطفا على ما تقديره فالله على ما يشاء قدير (والله عليم) بأحوال خلقه (حكيم)
فيما يفعله بهم وقيل انه صلى الله عليه وسلم حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت وقال ابن عباس
ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما من المفسرين لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم اعراض
قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم لما جاءهم به تمنى في نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب
بينه وبين قومه وذلك لحرصه على ايمانهم فجلس ذات يوم في ناد من أندية قريش كثير أهله
وأحب يومئذ أن يأتيه من الله تعالى شيء لم ينفروا عنه وتمنى ذلك فأنزل الله تعالى سورة والنجم اذا
هوى فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة
الاخرى وسوس اليه الشيطان حتى سبق لسانه سهوا الى أن قال تلك الغرانيق العلى وان
شفاعتهن لترتجى ففرح به المشركون ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءة السورة
كلها وسجد في آخرها وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق
في المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد سوى الوليد بن المغيرة وأبو أحيحة سعيد بن العاص فانهما
أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها على جبهتهما وسجدا عليها لانهما كانا شيخين كبيرين فلم
يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن
الذكر وقالوا قد عرفنا أن الله تعالى يحيي ويميت ويرزق ولكن هذه آلهتنا تشفع لنا عنده فاذا

جعل الهم محمدا نصيبا فضن معه فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل فقال
يا محمد ماذا صنعت لقد تلوت على الناس مالم آتك به عن الله عز وجل فحزن رسول الله صلى
الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله تعالى خوفا شديدا فأنزل الله تعالى هذه الآية تعزية له
وكان به رحيما وسمع بذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبلغهم
سجود قريش وقيل قد أسلمت أهل مكة فرجع أكثرهم الى عشائرهم وقالوا هم أحب الينا
حتى اذا دنوا من مكة بلغهم أن الذي كانوا يتحدثون به من اسلام أهل مكة كان باطلا فلم يدخل
أحد منهم الا بجوار مستخفيا فلما نزلت هذه الآية قالت قريش ندم محمد على ما ذكر من منزلة
آلهتنا عند الله تعالى فغير ذلك قال الرازي هذه رواية عامة المفسرين الظاهرية أما أهل
التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا على البطلان بالقرآن والسنة والمعقول
أما القرآن فبوجوه أحدها قوله تعالى ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم
لقطعنا منه الوتين ثانيها قوله تعالى قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان أتبع الا ما يوحى
الي ثالثها قوله تعالى وما ينطق عن الهوى وأما السنة فمنها ماروى عن محمد بن خزيمة أنه
سئل عن هذه القصة فقال هذا من وضع الزنادقة وصنف فيه كتابا وقال البيهقي هذه القصة
غير ثابتة من جهة النقل فقد روى البخاري في صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم
وسجد فيها وسجد المسلمون والكفار والانس والجن وليس فيه حديث الغرانيق وأما المعقول
فمن وجوه أحدها أن من جوز على النبي صلى الله عليه وسلم تعظيم الاوثان فقد كفر لان من
المعلوم بالضرورة ان النبي كان معظم سعيه في نفي الاوثان ثانيها قوله تعالى فينسخ الله ما يلقي
الشيطان ثم يحكم الله آياته وازالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول صلى الله عليه وسلم أقوى من
نسخ هذه الآيات التي تبقى الشبهة معها فاذا أراد الله تعالى احكام الآيات لئلا يلتبس
ما ليس بقرآن قرآنا فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى ثالثها وهو أقوى الوجوه لو جوزنا
ذلك ارتفع الايمان عن شرعه ولجوزنا في كل واحد من الاحكام والشرائع أن يكون كذلك
فيبطل قوله تعالى بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من
الناس فانه لا فرق في العقل بين النقصان من الوحي وبين الزيادة فيه وزاد الرازي أدلة أخرى
على ذلك ثم قال وقد عرفنا أن هذه القصة موضوعة أكثر ما في الباب ان جمعا من المفسرين
ذكروها وخبر الواحد لا يعارض الدلائل العقلية والنقلية المتواترة انتهى وهذا هو الذي
يطمئن اليه القلب وان أطنب ابن حجر العسقلاني في صحتها ثم قال وحينئذ فيتعين تأويل ما وقع
فيها مما يستنكر وهو قوله ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق الخ انتهى وعلى القول بها فقد
سلك العلماء في ذلك مسالك أحسنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرتل القرآن فارتصده
الشيطان في سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمات محاكيا نغمته بحيث سمعه من دنا اليه
فظنها من قوله وأشاعها وقال البيضاوي بعد أن ذكر بعض هذه القصة وهو مردود عند
المحققين وان صح فابتلاء يتميز به الثابت على الايمان عن المتزلزل فيه انتهى قال ابن الاثير
والغرانيق هنا الاصنام وهي في الاصل الذكور من طير الماء واحدها غرنوق وغرنيق سمي به

لبياضه قال وكانوا يزعمون أن الاصنام تقربهم من الله وتشفع لهم فشبهت بالطيور التي تعلو الى السماء وترتفع وقيل تمنى أى قرأ كقول حسان فى حق عثمان بن عفان

تمنى كتاب الله أول ليلة * تمنى داود الزبور على رسل

أى على تأن وتمهل * ولما ذكر سبحانه وتعالى ما حكم به من تمكين الشيطان من هذا الالقاء ذكر العلة فى ذلك بقوله تعالى (ليجعل ما يلقى الشيطان) أى فى المتلو أو المحدث به من تلك الشبهة فى قلوب أوليائه على التفسير الاول وعلى الثانى وغيره يؤول بما يناسبه (فتنة) أى اختبارا وامتحانا (للذين فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق (والقاسية) أى الجافية (قلوبهم) عن قبول الحق وهم المشركون (وان الظالمين) أى الواضعين لاقوالهم وأفعالهم فى غيره واضعها كفعل من هو فى الظلام (لفى شقاق) أى خلاف لكونهم فى شق غير شق حزب الله بمعاجزتهم فى الآيات بتلك الشبهة التى تلقوها من الشيطان وجادلوا بها أولياء الرحمن (بعيد) عن الصواب لتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون وعلى ثبوت ذكر القصة وجرى عليه الجلال المحلى قال انهم فى خلاف طويل مع النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حيث جرى على لسانه ذكر آلهتهم بما يرضيهم ثم أبطل ذلك (وليعلم الذين أوتوا العلم) باتقان حججه واحكام براهينه وضعف شبه المعاجزين (أنه) أى الشئ الذى تلوته أو تحدثت به (الحق) أى الثابت الذى لا يمكن زواله (من ربك) أى المحسن اليك بتعليمك اياه (فيؤمنوا به) لما ظهر لهم من صحته بما ظهر من ضعف تلك الشبهة (فتخبت) أى تطمئن وتخضع (له قلوبهم) وتسكن به نفوسهم (وان الله) بجلاله وعظمته (لهادى الذين آمنوا) فى جميع ما يلقيه أولياء الشيطان (الى صراط مستقيم) أى قويم وهو الاسلام يصلون به الى معرفة بطلانه حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة فيوصلهم ذلك الى سعادة الدارين (ولا يزال الذين كفروا) أى وجد منهم الكفر وطبعوا عليه (فى مرية) أى شك (منه) قال ابن جريج أى من القرآن وقيل مما ألقى الشيطان على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون ما باله ذكرها بخير ثم ارتد عنها وقيل من الدين وهو الصراط المستقيم (حتى تأتيهم الساعة) أى القيامة وقيل أشراطها وقيل الموت (بغتة) أى فجأة (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) قال عكرمة والضحاك لا ليل بعده وهو يوم القيامة والاكثرون على أنه يوم بدر وسمى عقيما لانه لم يكن فى ذلك اليوم للكفار خير كالريح العقيم التى لا تأتى بخير وقيل لانه لا مثل له فى عظم أمره لقتال الملائكة فيه ويقوى التفسير الاول قوله تعالى (الملك يومئذ) أى يوم القيامة (لله) أى المحيط بجميع صفات الكمال وحده * ولما كان كأنه قيل ما معنى اختصاصه به وكل الايام له قيل (يحكم بينهم) أى المؤمنين والكافرين بالامر الفصل الذى لا حكم فيه ظاهرا ولا باطنا لغيره كما ترونه الآن بل يمشى فيه الامر على أتم شئ من العدل (فالذين آمنوا وعملوا) أى وصدقوا دعواهم الايمان بأن عملوا (الصالحات) وهى ما أمرهم الله به (فى جنات النعيم) فضلا منه ورحمة لهم بما رحمهم الله تعالى من توفيقهم للاعمال الصالحات (والذين كفروا) أى ستروا ما أعطيناهم من المعرفة بالادلة على وحدانيتنا (وكذبوا

بآياتنا) أى ساعين بما أعطيناهم من الفهم فى تعجيزها بالمجادلة بما أوحى إليهم أولياؤهم من الشياطين من الشبه (فأولئك) أى البعداء عن أسباب الكرم (لهم عذاب مهين) أى شديد بسبب ما سعوا فى إهانة آياتنا مريدين إعزاز أنفسهم بغا البيننا والتكبر عن آياتنا (فإن قيل) لم أدخل الفاء فى خبر الثانى دون الأول (أجيب) بأن فى ذلك تنبيها على أن إثابة المؤمنين بالجنان تفضل من الله تعالى وأن عقاب الكافرين مسبب عن أعمالهم ولذلك قال لهم عذاب ولم يقل هم فى عذاب * ولما كان المؤمنون فى حصر مع الكفار رغبهم الله فى الهجرة بقوله تعالى (والذين هاجروا فى سبيل الله) أى فارقوا أوطانهم وعشائرهم فى طاعة الله وطلب مرضاته من مكة إلى المدينة (ثم قتلوا) فى الجهاد بعد الهجرة وقرأ ابن عامر بتشديد التاء والباقون بالتخفيف وألحق به مطلق الموت فضلا منه بقوله تعالى (أو ماتوا) أى من غير قتل (ليرزقنهم الله) أى الجامع لصفات الكمال (رزقا حسنا) هو رزق الجنة من حين تفارق أرواحهم أشباحهم لأنهم أحياء عند ربهم (وإن الله) أى الملك الأعلى القادر على الإحياء كما قدر على الإماتة (لهو خير الرازقين) فإنه يرزق بغير حساب يرزق الخلق عامة البار منهم والفاجر (فإن قيل) الرازق فى الحقيقة هو الله تعالى لا رازق للخلق غيره فكيف قال لهو خير الرازقين (أجيب) بأن غير الله يسمى رازقا على المجاز كقولهم رزق السلطان الجيش أى أعطاهم أرزاقهم وإن كان الرازق فى الحقيقة هو الله تعالى * ولما كان الرزق لا يتم إلا بحسن الدار وكان ذلك من أفضل الرزق قال تعالى دالا على ختام التى قبل (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) هو الجنة يكرمون فيه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولا ينالهم فيها مكروه وقيل هو خيمة فى الجنة من درة بيضاء لها سبعون ألف مصراع وقرأ نافع بفتح الميم أى دخولا أو مكان دخول والباقون بالضم أى إدخالا أو مكان إدخال (وإن الله) أى الذى عمت رحمته وتمت عظمته (لعليم) أى بمقاصدهم وما عملوا مما يرضيه وغيره (حليم) عما قصروا فيه من طاعته وما فرطوا فى جنبه تعالى فلا يعاجل أحدا بالعقوبة روى أن طوائف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبى الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين (ذلك) أى الأمر المقرر من صفات الله تعالى الذى قصصناه عليك (ومن عاقب) أى جازى من المؤمنين (بمثل ما عوقب به) ظلما من المشركين أى قاتلهم كما قاتلوه فى الشهر الحرام (ثم بغى عليه) أى ظلم بإخراجه من منزله قال مقاتل نزلت فى قوم من المشركين أتوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من محرم فقال بعضهم لبعض إن أصحاب محمد يكرهون القتال فى الشهر الحرام فاحملوا عليهم فناشدهم المسلمون وكرهوا قتالهم وسألوهم أن يكفوا عن القتال لأجل الشهر الحرام فأبى المشركون فقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون لهم فنصرهم الله تعالى عليهم فذلك قوله تعالى (لينصرنه الله) أى الذى لا كفء له (إن الله) أى الذى أحاط بكل شىء قدرة وعلما (لعفو) عن المؤمنين (غفور) لهم (فإن قيل) لم سمى ابتداء فعلهم عقوبة مع أن العقاب من العقب وهو متنف فى الابتداء

(أجيب)

(أجيب) بأنه أطلق عليه ذلك للتعلق الذي بينه وبين الثاني كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها يخادعون الله وهو خادعهم وكما في قوله كما تدين تدان (فإن قيل) كيف طابق ذكر العفو الغفور في هذا الموضع مع أن ذلك الفعل جائز للمؤمنين لأنهم مظلومون (أجيب) بأن المنتصر لما اتبع هواه في الانتقام وأعرض عما ندب الله تعالى له بقوله تعالى ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور وبقوله تعالى فمن عفا وأصلح فأجره على الله وبقوله تعالى وأن تعفوا أقرب للتقوى فكان في إعراضه عما ندب إليه نوع إساءة أدب فكأنه تعالى قال عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها فإني أنا الذي أذنت له فيها وفي ذكر العفو تنبيه على أنه تعالى قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده (ذلك) أي النصر (بأن الله) أي المتصف بجميع صفات الكمال (يولج) أي يدخل لأجل مصالح العباد المسيء والمحسن (الليل في النهار) فيمحو ظلامه بضيائه ولو شاء الله تعالى مؤاخذة الناس لجعله سرمدا فتعطلت مصالح النهار (ويولج النهار في الليل) فيمحو ضياءه بظلامه ولولا ذلك لتعطلت مصالح الليل أو بأن يدخل كلا منهما في الآخر فيزيد به وذلك من أثر قدرته التي بها النصر (وأن الله) بجلاله وعظمته (سميع) لكل ما يقال (بصير) لكل ما يفعل دائم الاتصاف بذلك فهو غير محتاج إلى سكون الليل ليسمع ولا لضياء النهار ليبصر لأنه سبحانه وتعالى منزه عن الأغراض * ولما وصف تعالى نفسه بما ليس لغيره علله بقوله تعالى (ذلك) أي الاتصاف بتمام القدرة وشمول العلم (بأن الله) أي القادر على كل ما أراد (هو) وحده (الحق) أي الثابت الواجب الوجود (وأن ما يدعون) أي يعبد المشركون (من دونه) وهو الأصنام (هو الباطل) الزائل وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة بالتاء على الخطاب للمشركين والباقون بالياء على الغيبة وأن هذه مقطوعة من ما في الرسم (وأن الله) لكونه هو الحق الذي لا كفء له (هو) وحده (العلي) أي العالي على كل شيء بقدرته (الكبير) وكل ما سواه سافل حقير تحت قهره وأمره * ثم إنه سبحانه وتعالى استدل على كمال قدرته بأمور ستة الأول قوله تعالى (ألم تر) أي أيها المخاطب (أن الله) أي المحيط قدرة وعلما (أنزل من السماء ماء) أي مطرا بأن يرسل رياحا فتثير سحابا فيمطر على الأرض الماء (فتصبح الأرض) أي بعد أن كانت مسودة يابسة ميتة جامدة (مخضرة) حية يانعة مهتزة نامية بما فيه رزق العباد وعمارة البلاد (فإن قيل) لم قال تعالى فتصبح ولم يقل فأصبحت أجيب بأن ذلك لنكتة وهي إفادة بقاء المطر زمانا بعد زمان كما تقول أنعم علي فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكرا له ولو قلت فرحت وغدوت شاكرا له لم يقع ذلك الموقع (فإن قيل) لم رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام (أجيب) بأنه لو نصب لأعطى عكس ما هو الغرض لأن معناه أثبت الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار ووجه ذلك بأن النصب بتقدير أن وهو علم للاستقبال فيجعل الفعل مترقبا والرفع جزم بإثباته مثاله أن تقول لصاحبك ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر فإن نصبته فأنت ناف لشكره شاك في تفريطه فيه وإن رفعته فأنت مثبت لشكره وهذا وأمثاله مما يجب أن يتنبه له من اتسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله (إن الله) أي الذي له تمام النعم وكمال العلم (لطيف) بعباده في

اخراج النبات بالماء (خبير) أى بمصالح الخلق ومنافعهم فانه مطلع على السرائر وان دقت فلا يستبعد عليه احياء من أراد بعد موته وقال ابن عباس لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط الامر الثانى قوله تعالى (له ما فى السموات) أى التى أنزل منها الماء (وما فى الارض) أى التى استقر فيها ملكا وخلقا (وان الله) أى الذى له الاحاطة التامة (لهو) أى وحده (الغنى) فى ذاته عن كل شئ (الحميد) أى المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله الامر الثالث قوله تعالى (ألم تر) أى أيها المخاطب (أن الله) ذا الجلال والاكرام (سخر لكم) فضلا منه (ما فى الارض) كله من مسالكها وفجاجها وما فيها من حيوان وجماد وزرع وثمار فلولا تسخيره تعالى الابل والبقر مع قوتهما حتى ذللهما للضعيف من الناس لما انتفع بهما أحد منهم الامر الرابع قوله تعالى (والفلك) أى وسخر لكم الفلك أى السفن ثم بين تسخيرها بقوله (تجرى فى البحر) العجاج المتلاطم بالامواج بريح طيبة للركوب والحمل (بأمره) أى باذنه الامر الخامس قوله تعالى (ويمسك السماء) أى كراهة (أن تقع على الارض) التى تحتها مع علوها وعظمها وكونها بغير عمد فتهلكوا (الا باذنه) أى بمشيئته فيقع ذلك يوم القيامة حين يريد طى هذا العالم وايجاد عالم البقاء (ان الله) أى الذى له الخلق والامر (بالناس) أى على ظلمهم (لرؤف) أى بما يحفظ من سرائرهم (رحيم) أى حيث هيأ لهم أسباب الاستدلال وفتح لهم أبواب المنافع ودفع عنهم أبواب المضار (وهو) أى وحده (الذى أحياكم) أى عن الجمادية بعد أن أوجدكم من العدم (ثم يميتكم) أى عند انقضاء آجالكم ليكون الموت واعظا لاولى البصائر منكم (ثم يحييكم) أى يوم البعث للثواب والعقاب واظهار العدل فى الجزاء (ان الانسان) أى المشرك (لكفور) أى لبليغ الكفر حيث لم يشكر على هذه النعم المحيطة به فيوحد الله تعالى وقال ابن عباس هو الاسود بن عبد الاسد وأبو جهل والعاص بن وائل وأبى بن خلف قال الرازى والاولى تعميمه فى كل المنكرين (لكل أمة) أى فى كل زمان (جعلنا منسكا) قال ابن عباس شريعة يتعبدون بها (هم ناسكوه) أى عاملون بها وروى عنه أنه قال عيدا وقال مجاهد وقتادة موضع قربان يذبحون فيه وقيل موضع عبادة وقرأ حمزة والكسائى منسكا بكسر السين والباقون بفتحها (فلا ينازعنك فى الامر) أى أمر الذبائح نزلت فى بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لاصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مالكم تأكلون مما تقتلون ولا تأكلون مما قتله الله تعالى يعنون الميتة وقال الزجاج هو نهى له صلى الله عليه وسلم عن منازعتهم كما تقول لا يضاربنك فلان أى فلا تضاربه وهذا جائز فى الفعل الذى لا يكون الا بين اثنين معناه لا تنازعهم أنت (وادع) أى أوقع الدعوة لجميع الخلق (الى ربك) المحسن اليك اى الى دينه ثم علل ذلك بقوله (انك) مؤكدا له بحسب ما عندهم من الانكار (لعلى هدى) أى دين واضح (مستقيم) هو دين الاسلام (وان جادلوك) أى فى أمر الدين بعد ان ظهر الحق ولزمت الحجة (فقل الله) أى الملك المحيط بالعز والعلم (أعلم بما تعملون) من المجادلة الباطلة وغيرها فيجازيكم عليه وهذا وعيد فيه رفق وكان ذلك قبل الامر بالقتال ولما أمر الله تعالى بالاعراض عنهم وكان

ذلك

ذلك شديدا على النفس لتشوفها الى النصرة رجاء في ذلك بقوله تعالى مستأنفا تحذيرا لهم (الله) أى الذى لا كفء له (يحكم بينكم) أى بينك مع اتباعك وبينهم (يوم القيامة) الذى هو يوم التغابن (فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين ومن نصر ذلك اليوم لم يبال بما حل به فهو كقوله وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون قال البغوى والاختلاف ذهاب كل واحد من الخصمين الى خلاف ماذهب اليه الآخر (ألم تعلم أن الله) بجلال عزه وعظيم سلطانه (يعلم ما فى السماء والارض) فلا يخفى عليه شئ (ان ذلك) أى ماذكر (فى كتاب) كتب فيه كل شئ حكم بوقوعه قبل وقوعه وكتب جزاؤه وهو اللوح المحفوظ (ان ذلك) أى علم ماذكر (على الله) وحده (يسير) أى سهل لان علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات على السواء (ويعبدون) أى المشركون على سبيل التجدد والاستمرار (من دون الله) أى من أدنى رتبة من رتبه الذى قامت جميع الدلائل على احتوائه على جميع صفات الكمال وتنزيهه عن شوائب النقص (مالم ينزل به سلطانا) أى حجة واحدة من الحجج وهو الاصنام (وما ليس لهم به علم) حصل لهم من ضرورة العقل واستدلاله بالحجة (وما للظالمين) أى الذين وضعوا التعبد فى غير موضعه لارتكابهم لهذا الامر العظيم الخطر وأكد النفى واستغرق المنفى باثبات الجار فقال تعالى (من نصير) أى ينصرهم من الله لا مما أشركوه به ولا من غيره فيدفع عنهم عذابه أو يقرر مذهبهم (واذا تتلى) أى على سبيل التحذير والمبالغة من أى تال كان (عليهم آياتنا) أى من القرآن حال كونها (بينات) لاخفاء فيها عند من له بصيرة فى شئ مما دعت اليه من الاصول والفروع (تعرف فى وجوه الذين كفروا) أى تلبسوا بالكفر (المنكر) أى الانكار الذى هو منكر فى نفسه فيظهر أثره فى وجوههم من الكراهة والعبوس لما حصل لهم من الغيظ * ثم بين مالاح فى وجوههم بقوله تعالى (يكادون يسطون) أى يوقعون السطوة بالبطش والعنف (بالذين يتلون عليهم آياتنا) أى الدالة على أسمائنا الحسنى وصفاتنا العليا القاضية بوحدانيتنا مع كونها بينات فى غاية الوضوح فى أنها كلامنا لما فيها من الحكم والبلاغة التى عجزوا عنها ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقابلهم بالوعيد بقوله تعالى (قل أفأنبئكم) أى أفأخبركم خبرا عظيما (بشر من ذلكم) بأكره اليكم من القرآن المتلو عليكم وقوله تعالى (النار) كأنه جواب سائل قال ماهو فقيل النار أى هو النار ويجوز أن تكون مبتدأ خبره (وعدها الله الذين كفروا) جزاء لهم فبئس الموعد هى (وبئس المصير) أى النار ولما بين تعالى أنه لاحجة لعابد غيره أتبعه بأن الحجة قائمة على أن ذلك الغير فى غاية الحقارة فقال تعالى مناديا أهل العقل منبها تنبيها عاما (يا أيها الناس ضرب مثل) حاصله أن من عبدتموه من الاصنام أحقر منكم (فاستمعوا) أى انصتوا (له) وتدبروه ثم فسره بقوله تعالى (ان الذين تدعون) أى تعبدون وتدعونهم فى حوائجكم وتجعلونهم آلهة (من دون الله) أى الملك الاعلى من هذه الاصنام التى أنتم بها مفترون (لن يخلقوا ذبابا) أى لاقدرة لهم على ذلك فى زمن من الازمان على حال من الاحوال مع صغره فكيف بما هو أكبر منه (ولو اجتمعوا) أى الذين زعمتوهم شركاء (له) أى الخلق فهم

فى هذا أمثالكم * (تنبيه) * محل ولو اجتمعوا له النصب على الحال كأنه قال تعالى يستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطا عليهم اجتماعهم لخلقه وتعاونهم عليه وهذا من أبلغ ما أنزل الله تعالى فى تجهيل قريش واستركاك عقولهم والشهادة على أن الشيطان قد خدعهم بخداعه حيث وصفوا بالالهية التى تقتضى الاقتدار على المقدورات كلها والاحاطة بالمعلومات عن آخرها صورا وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله وأصغره وأحقره ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم أن هذا الخلق الاقل الاذل لو اختطف منهم شيأ فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا كما قال تعالى (وان يسلبهم الذباب) أى الذى تقدم أنهم لا قدرة لهم على خلقه وهو غاية فى الحقارة (شيأ) أى من الاشياء جل أو قل (لا يستنقذوه منه) لعجزهم فكيف يجعلونهم شركاء الله هذا أمر مستغرب عبر عنه بضرب مثل * (تنبيه) * الذباب مفرد وجمعه القليل أذبة والكثير ذبان مثل غراب وأغربة وغربان وعن ابن عباس أنهم كانوا يطلون الاصنام بالزعفران ورؤسها بالعسل ويغلقون عليها الابواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله وعن ابن زيد كانوا يحلون الاصنام باليواقيت واللآلى وأنواع الجواهر ويطيبونها بألوان الطيب فربما يسقط شئ منها فيأخذه طائر أو ذباب فلا تقدر الآلهة على استرداده منه (ضعف الطالب) قال الضحاك هو العابد (والمطلوب) المعبود وقال ابن عباس الطالب الذباب يطلب ما يسلب من الطيب الذى على الصنم والمطلوب هو الصنم وقيل على العكس الطالب الصنم والمطلوب الذباب أى لو طلب الصنم أن يخلق الذباب لعجز عنه * ولما أنتج هذا جهلهم بالله عز وجل عبر عنه بقوله تعالى (ما قدروا الله) أى الذى له الكمال كله (حق قدره) أى ما عظموه حق تعظيمه وما عرفوه حق معرفته ولا وصفوه حق صفته حيث أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه (ان الله) أى الجامع لصفات الكمال (لقوى) على خلق الممكنات بأسرها (عزيز) أى لا يغلبه شئ وآلهتهم التى يعبدونها عاجزة عن أقلها مقهورة من أذلها قال الكلبى فى هذه الآية وفى نظيرها فى سورة الانعام انها نزلت فى جماعة من اليهود مالك بن الصيف وكعب بن الاشرف وكعب بن أسد وغيرهم حيث قالوا ان الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والارض وأجناس خلقها استلقى واستراح ووضع احدى رجليه على الاخرى فنزلت هذه الآية تكذيبا لهم ونزل قوله تعالى وما مسنا من لغوب قال الرازى واعلم ان منشأ هذه الشبهة هو القول بالتشبيه فيجب تنزيه ذات الله تعالى عن مشابهة سائر الذوات خلاف ما يقوله المشبهة وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات خلاف ما يقوله الكرامية وتنزيه أفعاله عن مشابهة سائر الافعال أعنى عن الغرض والدواعى واستحقاق المدح والذم خلاف ما يقوله المعتزلة قال أبو القاسم الانصارى رحمه الله تعالى فهو سبحانه وتعالى خير النعت عزيز الوصف فالاوهام لا تصوره والافكار لا تقدره والعقول لا تمثله والازمنة لا تدركه والجهات لا تحويه ولا تحده صمدى الذات سرمدى الصفات * ولما ذكر سبحانه وتعالى ما يتعلق بالالهيات ذكر ما يتعلق بالنبوات بقوله تعالى (الله) أى الملك الاعلى (يصطفى) أى يختار ويختص

(من الملائكة رسلا) كجبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل عليهم الصلاة والسلام (ومن الناس) كابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم نزلت حين قالت المشركون أأنزل عليه الذكر من بيننا فأخبر تعالى ان الاختيار اليه يختار من يشاء من خلقه (ان الله) أى الذى له الجلال والجمال (سميع) لمقالتهم (بصير) بمن يتخذه رسولا (يعلم ما بين أيديهم) أى الرسل (وما خلفهم) أى علمه محيط بما هم مطلعون عليه وبما غاب عنهم فلا يفعلون شيأ الا باذنه (والى الله) أى وحده تعالى (ترجع) بغاية السهولة (الامور) يوم يتجلى لفصل القضاء فيكون أمره ظاهرا لا خفاء فيه ولا يصدر شئ من الاشياء الا على وجه العدل الظاهر لكل احد ولا يكون لاحد التفات الى غيره وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح التاء وكسر الجيم والباقون بضم التاء وفتح الجيم ولما أثبت سبحانه وتعالى أن الملك والامر له وحده خاطب المقبلين على دينه وهم الخلص من الناس بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى تلبسوا بالايمان (اركعوا) تصديقا لايمانكم (واسجدوا) أى صلوا الصلاة التى شرعتها لكم فانها رأس العبادة لتكون دليلا على صدقكم فى الاقرار بالايمان *(تنبيه)* انما خص هذين الركنين فى التعبير عن الصلاة لانهما لمخالفتهما الهيآت المعتادة هما الدالان على الخضوع فحسن التعبير بهما وذكر عن ابن عباس ان الناس كانوا فى أول الاسلام يركعون ولا يسجدون وقيل كان الناس أول ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود حتى نزلت هذه الآية ولما خص أفضل العبادة عمم بقوله تعالى (واعبدوا) أى بأنواع العبادة (ربكم) أى المحسن اليكم بكل نعمة دينية ودنيوية * ولما ذكر عموم العبادة اتبعها ما قد يكون أعم منها مما صورته صورتها أو قد يكون بلا نية فقال (وافعلوا الخير) أى كله من القرب كصلة الارحام وعيادة المريض ونحو ذلك من معالى الاخلاق بنية وبغير نية حتى يكون لكم ذلك عادة فيخف عليكم عمله تعالى قال أبو حيان بدأ تعالى بخاص وهو الصلاة ثم بعام وهو واعبدوا ربكم ثم بأعم وهو وافعلوا الخير (لعلكم تفلحون) أى افعلوا هذا كله وأنتم راجون الفلاح وهو الفوز بالبقاء فى الجنة طامعون فيه غير مستيقنين ولا تتكلوا على أعمالكم وقال الامام أبو القاسم الانصارى لعل كلمة ترج تشعر بان الانسان قلما يخلو فى أداء فريضة من تقصير وليس هو على يقين من أن الذى أتى به مقبول عند الله والعواقب مستورة وكل ميسر لما خلق له *(تنبيه)* اختلف فى سجود التلاوة عند قراءة هذه الآية فذهب قوم الى أنه يسجد عندها وهو قول عمر وعلى وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وبه قال ابن المبارك والشافعى وأحمد واسحق لظاهر ما فيها من الامر بالسجود وقول البيضاوى ولقوله صلى الله عليه وسلم فضلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجدهما فلا يقرأهما حديث ضعيف رواه الترمذى وضعفه وذهب قوم الى أنه لا يسجد وهو قول سفيان الثورى وقول أبى حنيفة وأصحابه لانهم يقولون قرن السجود بالركوع فى ذلك فدل ذلك على انها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة * ولما كان الجهاد أساس العبادة وهو مع كونه حقيقة فى جهاد الكفار صالح لان يعم كل أمر بمعروف ونهى عن منكر بالمال والنفس بالقول والفعل بالسيف وغيره وكل جهاد

في تهذيب النفس واخلاص العمل ختم به فقال تعالى (وجاهدوا في الله) أي لله ومن أجله أعداء دينه الظاهرة كاهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس وقول البيضاوي وعنه عليه الصلاة والسلام انه رجع من غزوة تبوك فقال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر حديث رواه البيهقي وضعف اسناده وقال غيره لا أصل له قيل أراد بالاصغر جهاد الكفار وبالاكبر جهاد النفس (حق جهاده) أي باستفراغ الطاقة في كل ما أمر به من جهاد العدو والنفس على الوجه الذي أمر به من الحج والغزو وغيرهما (فان قيل) ما وجه هذه الاضافة وكان القياس حق الجهاد في الله أو حق جهادكم في الله كما قال تعالى وجاهدوا في الله (أجيب) بأن الاضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث انه مفعول لاجله صحت اضافته اليه وعن مجاهد عن الكلبي ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم * ولما أمر الله تعالى بهذه الاوامر أتبعها ببعض ما يجب به شكره وهو كالتعليل لما قبله فقال تعالى (هو اجتباكم) أي اختاركم لدينه ولنصرته وجعل الرسالة فيكم والرسول منكم وجعله أشرف الرسل ودينه أشرف الاديان وكتابه أعظم الكتب وجعلكم لكونكم أتباعه خير الامم (وما جعل عليكم في الدين) أي الذي اختاره لكم (من حرج) أي من ضيق وشدة وهو أن المؤمن لا يبتلى بشيء من الذنوب الا جعل الله تعالى له منه مخرجا بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم والقصاص وبعضها بأنواع الكفارات من الامراض والمصائب وغير ذلك فليس في دين الاسلام ما لا يجد العبد سبيلا الى الخلاص من الذنوب ومن العقاب لمن وفقه الله تعالى وسهله عند الضرورات كالقصر والتيمم وأكل الميتة والفطر للمريض والمسافر وغير ذلك قال صلى الله عليه وسلم اذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم رواه البخاري وعن ابن عباس أنه قال الحرج ما كان على بني اسرائيل من الآصار التي كانت عليهم وضعها الله تعالى عن هذه الامة وقوله تعالى (ملة أبيكم) نصب بنزع الخافض وهو الكاف أو على المصدر بفعل دل عليه مضمون ما قبله بحذف المضاف أي وسع دينكم توسعة ملة أبيكم أو على الاغراء أي اتبعوا ملة أبيكم أو على الاختصاص أي أعني بالدين ملة أبيكم كقولك الحمد لله الحميد وقوله تعالى (ابراهيم) عطف بيان (فان قيل) لم كان ابراهيم أبا للامة كلها (أجيب) بأنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أبا لامته لان أمة الرسول في حكم أولاده واختلف في عود ضمير (هو) على قولين أحدهما أنه يعود على ابراهيم عليه الصلاة والسلام وان لكل نبي دعوة مستجابة ودعوة ابراهيم عليه السلام ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك فاستجاب الله تعالى له فجعلها محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته والثاني أنه يعود على الله تعالى في قوله تعالى هو اجتباكم وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال ان الله تعالى (سماكم المسلمين من قبل) أي في كل الكتب المنزلة التي نزلت قبل انزال هذا القرآن (وفي هذا) أي وسماكم في هذا القرآن الذي أنزل عليكم من بعد انزال تلك الكتب وهذا القول كما قال الرازي أقرب لانه تعالى قال (ليكون الرسول شهيدا عليكم) أي يوم القيامة أنه بلغكم (وتكونوا شهداء على الناس) أي ان رسلهم

قوله فليس في دين الاسلام كذا في النسخ وهي عبارة غير مستقيمة أو فيها سقط والصواب في محاذاتها أن يقال فليس في دين الاسلام ما لا يجد العبد سبيلا الى الخلاص منه من الذنوب والآصار بل الخروج من الذنوب بما سبق من التوبة وما معها لمن وفقه الله ومن الآصار بالتسهيل عند الضرورات كالقصر الخ اه

بأنفسهم فبين أنه تعالى سماهم بذلك لهذا الغرض وهذا لا يليق الا بالله تعالى وانما كانوا شهداء على الناس لسائر الانبياء لانهم لم يفرقوا بين أحد منهم وعلموا ان أخبارهم من كتابهم على لسان نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم فلذلك صحت شهادتهم وقبلها الحكم العدل وعن كعب أعطيت هذه الامة ثلاثا لم يعطهن الا الانبياء جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم في الدين من حرج وقال تعالى ادعوني أستجب لكم وعن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال لم يذكر الله بالايمان والاسلام غير هذه الامة ذكرها بهما وكررهما جميعا ولم يسمع بأمة ذكرت بالاسلام والايمان غيرها وعن مكحول ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تسمى الله عز وجل باسمين سمى بهما أمتي هو السلام وسمى أمتي المسلمين وهو المؤمن وسمى أمتي المؤمنين * (تنبيه) * في الآية دليل على أن شهادة غير المسلم ليست مقبولة * ولما ندبهم تعالى ليكونوا خير الامم تسبب عن ذلك قوله تعالى (فأقيموا الصلاة) التي هي أركان قلوبكم وصلة ما بينكم وبين ربكم أي داوموا عليها (وآتوا الزكاة) التي هي طهرة أبدانكم وصلة بينكم وبين اخوانكم (واعتصموا بالله) أي المحيط بجميع صفات الكمال في جميع ما أمركم به من المناسك التي تقدمت وغيرها ثم علل تعالى أهليته بقوله تعالى (هو) أي وحده (مولاكم) أي المتولي لجميع أموركم فهو ينصركم على كل من يعاديكم بحيث أن تتمكنوا من اظهار هذا الدين من مناسك الحج وغيرها * ثم علل الامر بالاعتصام وتوحده بالولاية بقوله تعالى (فنعم المولى) أي هو (ونعم النصير) أي الناصر لكم لانه تعالى اذا تولى أحدا كفاه كل ما أهمه واذا نصر أحدا أعلاه عن كل من خاصمه ولا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته الحديث انه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت وهذا نتيجة التقوى وما قبله من أفعال الطاعة دليلها فقد انطبق آخر السورة على أولها ورد مقطعها على مطلعها وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحج أعطي من الاجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي حديث موضوع

(سورة المؤمنين مكية)

وهي مائة وثمان أو تسع عشرة آية وألف وثمانمائة وأربعون كلمة وأربعة آلاف وثمانمائة حرف

(بسم الله) الذي له الامر كله (الرحمن) الذي عم انعامه (الرحيم) الذي خص من أراد بالايمان عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل فأنزل عليه يوما فمكث ساعة حتى سري عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا اللهم أرضنا وارض عنا ثم قال لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشرة آيات قال ابن عباس قد سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا في الجنة وقيل الفلاح البقاء والنجاة روى هذا الحديث الترمذي وغيره وأنكره النسائي

وغيره ﴿تنبيه﴾ قال الزمخشري قد تقتضية لما هي تثبت المتوقع ولما تنفيه ولا شك ان المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهي الاخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه (فان قيل) ما المؤمن (أجيب) بأنه في اللغة هو المصدق وأما في الشريعة فقد اختلف فيه على قولين أحدهما أن كل من نطق بالشهادتين مواطئا قلبه لسانه فهو مؤمن والآخر أنه صفة مدح لا يستحقها الا البر التقي دون الفاسق * ثم انه تعالى حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمعا لصفات سبعة الصفة الاولى كونهم مؤمنين الصفة الثانية المذكورة في قوله تعالى (الذين هم) أي بضمائرهم وظواهرهم (في صلاتهم خاشعون) قال ابن عباس مخبتون أذلاء وقيل خائفون وقيل متواضعون وعن قتادة الخشوع الزام موضع السجود روى الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي رافعا بصره الى السماء فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره الى نحو مسجده أي موضع سجوده وكان الرجل اذا قام الى الصلاة هاب الرحمن أن يشد بصره الى شئ أو يحدث نفسه بشئ من شأن الدنيا وقيل هو جمع الهمة لها والاعراض عما سواها ومن الخشوع أن يستعمل الادب فيتوقى كف الثوب والعبث بجسده وثيابه والتشبيك والالتفات والتمطي والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقعة والاختصار وتقليب الحصى وروى الترمذي لكن بسند ضعيف أنه صلى الله عليه وسلم أبصر رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه ونظر الحسن الى رجل يعبث بالحصى وهو يقول اللهم زوجني الحور العين فقال بئس الخاطب أنت تخطب وأنت تعبث وعنه أنه قال كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي الى العقوبة أسرع وعن معاذ ابن جبل من عرف من على يمينه وشماله وهو في الصلاة فلا صلاة له وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال انما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها وقال صلى الله عليه وسلم كم من قائم حظه من قيامه التعب والنصب وقال من لم تنهه الصلاة عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا فينبغي للشخص أن يحتاط في صلاته ليوقعها على التمام فان بعض العلماء اختار عدم الامامة فقيل له في ذلك فقال أخاف ان تركت الفاتحة أن يعاتبني الشافعي وان قرأتها أن يعاتبني أبو حنيفة فاخترت عدم الامامة طلبا للخلاص من هذا الخلاف (فان قيل) لم أضيفت الصلاة اليهم (أجيب) بأن الصلاة وصلة بين الله وبين عباده والمصلي هو المنتفع بها وحده وهي عدته وذخيرته فهي صلاته وأما الله تعالى فهو غني متعال عن الحاجة اليها والانتفاع بها الصفة الثالثة المذكورة في قوله تعالى (والذين هم) أي بضمائرهم التي تتبعها ظواهرهم (عن اللغو) قال ابن عباس عن الشرك (معرضون) أي تاركون وقال الحسن عن المعاصي وقال الزجاج هو كل باطل ولهو ومالا يحمد من القول والفعل وقيل هو كل مالا يعني الشخص من قول أو فعل وهو ما يستحق أن يسقط ويلغى فدحهم الله تعالى بأنهم معرضون عن هذا اللغو والاعراض عنه هو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه كما قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما أي اذا سمعوا الكلام القبيح أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه الصفة الرابعة المذكورة في قوله تعالى

(والذين هم للزكاة فاعلون) أى مؤدون *(تنبيه)* الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى فالعين هو القدر الذى يخرجه المزكى من النصاب الى المستحق والمعنى فعل المزكى الذى هو التزكية وهو المراد هنا لانه مامن مصدر الا و يعبر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه فاعل تقول للضارب فاعل الضرب وللقاتل فاعل القتل وللمزكى فاعل التزكية ويجوز أن يراد بالزكاة العين ويقدر مضاف محذوف وهو الاداء وقيل الزكاة هنا هى العمل الصالح لان هذه السورة مكية وانما فرضت الزكاة بالمدينة سنة اثنتين من الهجرة قال البقاعى والظاهر أن التى فرضت بالمدينة هى ذات النصب وان أصل الزكاة كان واجبا بمكة كما قال تعالى فى سورة الانعام وآتوا حقه يوم حصاده انتهى الصفة الخامسة المذكورة فى قوله تعالى (والذين هم لفروجهم) فى الجماع ومقدماته (حافظون) أى دائما لا يتبعونها شهوتها والفرج اسم لسوأة الرجل والمرأة وحفظه التعفف عن الحرام ثم استثنى من ذلك قوله تعالى (الا على أزواجهم) اللاتى استحقوا أبضاعهن بعقد النكاح ولعلو الذكر عبر بعلى ونظيره كان زياد على البصرة أى واليا عليها ومنه قولهم فلانة تحت فلان ومن ثم سميت المرأة فراشا وقيل على بمعنى من وجرى على ذلك البغوى (أوما ملكت ايمانهم) رقابه من الاماء (فان قيل) هلا قال تعالى أومن ملكت (أجيب) بأنه انما عبر بما لقرب الاماء مما لا يعقل لنقصهن عن الحرائر الناقصات عن الذكور ولانه اجتمع فيها وصفان أحدهما الانوثة وهى مظنة نقصان العقل والاخرى كونها بحيث تباع وتشترى كسائر السلع قال البغوى والآية فى الرجال خاصة لان المرأة لا يجوز لها أن تستمتع بفرج مملوكها (فانهم غير ملومين) على ذلك اذا كان على وجه أذن فيه الشرع دون الاتيان فى غير المأتى وفى حال الحيض أو النفاس أو نحو ذلك كوطء الامة قبل الاستبراء فانه حرام ومن فعله فانه ملوم (فمن ابتغى) أى طلب متعديا (وراء ذلك) العظيم المنفعة الذى وقع استثناؤه بزنا ولواط أو استمناء بيد أو بهيمة أو غيرها (فأولئك) المبعدون من الفلاح (هم العادون) أى المبالغون فى تعدى الحدود عن سعيد بن جبير قال عذب الله تعالى أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم أى فى أيديهم وقيل يحشرون وأيديهم حبالى الصفة السادسة المذكورة فى قوله تعالى (والذين هم لاماناتهم) أى فى الفروج وغيرها سواء كانت بينهم وبين الله كالصلاة والصيام أو بينهم وبين الخلق كالودائع والبضائع أو فى المعانى الباطنة كالاخلاص والصدق (وعهدهم راعون) أى حافظون بالقيام والرعاية والاصلاح والعهد ما عقده الشخص على نفسه فيما يقربه الى ربه ويقع أيضا على ما أمر الله تعالى به كقوله تعالى الذين قالوا ان الله عهد الينا *(تنبيه)* سمى الشئ المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهدا ومنه قوله تعالى ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها وقال تعالى وتخونوا اماناتكم وانما تؤدى العيون لا المعانى ويخان المؤتمن عليه لا الامانة فى نفسها وقرأ ابن كثير لامانتهم بغير ألف بين النون والتاء على الافراد لامن الالباس أو لانها فى الاصل مصدر والباقون بالالف على الجمع الصفة السابعة المذكورة فى قوله تعالى (والذين هم على صلواتهم) التى وصفوا بالخشوع فيها (يحافظون) أى يواظبون

عليها ولا يتركون شيأ من مفروضاتها ولا مسنوناتها يجتهدون في كمالاتها جهدهم ويؤدونها في أوقاتها (فان قيل) كيف كرر الصلاة أولا وآخرا (أجيب) بأنهما ذكران مختلفان فليس بمكرر وصفوا أولا بالخشوع في صلاتهم وآخرا بالمحافظة عليها وذلك أن لا يسهوا عنها ويؤدوها في أوقاتها ويقيموا أركانها ويوطنوا أنفسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي أن تتم به أوصافها وأيضا فقد وحدت أولا ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت وجمعت آخرا على غير قراءة حمزة والكسائي فان غيرهما قرأ بالجمع وأما هما فقرآ بالافراد لتفاد المحافظة على أعدادها وهي الصلوات الخمس والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة وصلاة الجنازة والعيدين والكسوفين والاستسقاء والوتر والضحى وصلاة التسبيح وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل ✽ ولما ذكر تعالى مجموع هذه الصفات العظيمة فخم جزاءهم فقال تعالى (أولئك) أي البالغون من الاحسان أعلى مكان (هم الوارثون) أي المستحقون لهذا الوصف فيرثون منازل أهل الجنة في الجنة روى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد الا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فان مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله وقال مجاهد لكل واحد منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فأما المؤمن فيبنى منزله الذي له في الجنة ويهدم منزله الذي له في النار وأما الكافر فيهدم منزله الذي في الجنة ويبنى منزله الذي له في النار وقال بعض المفسرين معنى الوراثة هو أن يؤل أمرهم الى الجنة وينالوها كما يؤل أمر الميراث الى الوارث (الذين يرثون الفردوس) وهو أعلى الجنة عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض والفردوس أعلاها درجة منها تفجر أنهار الجنة الاربعة ومن فوقها يكون عرش الرحمن فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس اللهم بجاه محمد صلى الله عليه وسلم أن تجعلنا ووالدينا وأحبابنا من أهله (هم فيها خالدون) أي لا يخرجون منها ولا يموتون وأنث الفردوس بقوله تعالى فيها على تأنيث الجنة وهو البستان الواسع الجامع لاصناف الثمر روى أن الله تعالى بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الاذفر وفي رواية ولبنة من مسك مذرى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان وروى أن الله تعالى خلق ثلاثة أشياء بيده خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس الفردوس بيده ثم قال وعزتي لا يدخلها مدمن خمر ولا ديوث والمراد أن الله تعالى لم يكل ذلك الى غيره من ملك من الملائكة والجنة مخلوقة الآن قال تعالى أعدت للمتقين ✽ ولما أمر سبحانه وتعالى بالعبادات في هذه الآيات والاشتغال بعبادة الله لا يصح الا بعد معرفة الله تعالى عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعا الاول الاستدلال بتقلب الانسان في أدوار الخلقة وأدوار الفطرة وهي تسع مراتب الاولى قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان) أي آدم (من سلالة) هي من سللت الشئ من الشئ أي استخرجته منه وهو خلاصته وقال ابن عباس السلالة صفوة الماء وقوله تعالى (من طين) متعلق بسلالة وقيل المراد

بالانسان هذا النوع والسلالة قال مجاهد من بنى آدم وقال عكرمة هو الماء يسيل من الظهر والعرب تسمى النطفة سلالة والولد سليلا وسلالة لانهما مسلولان منه المرتبة الثانية قوله تعالى (ثم جعلناه) أى نسله بحذف المضاف (نطفة) أى منيا من الصلب والترائب بأن خلقناه منها (فى قرار مكين) أى مستقر حصين هو الرحم * (تنبيه) * مكين فى الاصل صفة للمستقر فى الرحم وصف به المحل للمبالغة كما عبر عنه بالقرار المرتبة الثالثة قوله تعالى (ثم) أى بعد تراخ فى الزمان وعلو فى المرتبة والعظمة (خلقنا) أى بما لنا من العظمة (النطفة) اى البيضاء جدا (علقة) حمراء دما غليظا شديدا الحمرة جامدا غليظا المرتبة الرابعة قوله تعالى (فخلقنا) أى بما لنا من القوة والقدرة العظيمة (العلقة مضغة) أى قطعة لحم قدر ما يمضغ لاشكل فيها ولا تخطيط المرتبة الخامسة قوله تعالى (فخلقنا المضغة) أى بتقليبها بما لنا الهامن الحرارة والامور اللطيفة الغامضة (عظاما) من رأس ورجلين وما بينهما المرتبة السادسة قوله تعالى (فكسونا) بما لنا من قوة الاختراع تلك (العظام لحما) بما ولدنا منها ترجيعا لحالها قبل كونها عظاما فسترنا تلك العظام وقويناها وشددناها بالروابط والاعصاب وقرأ ابن عامر وأبو بكر عظما والعظم بفتح العين واسكان الظاء من غير ألف على التوحيد اكتفاء باسم الجنس عن الجمع والباقون بكسر العين وفتح الظاء وألف بعدها على الجمع قال الجلال المحلى وخلقنا فى المواضع الثلاثة بمعنى صيرنا المرتبة السابعة قوله تعالى (ثم أنشأناه) أى هذا المحدث عنه بعظمتنا (خلقا آخر) أى خلقا مباينا للخلق الاول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيوانا وكان جمادا وناطقا وكان أبكم وسميعا وكان أصم وبصيرا وكان أكمه وأودع ظاهره وباطنه بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطره وغرائب حكمه لاتدرك بوصف الواصف ولاتبلغ بشرح الشارح وثم لما بين الخلقين من التفاوت قال الزمخشرى وقد احتج به أبو حنيفة رحمه الله فيمن غصب بيضة فأفرخت عنده فقال يضمن البيضة ولا يرد الفرخ لانه خلق آخر سوى البيضة اه ولما كان هذا التفصيل لتطوير الانسان سببا لتعظيم الخالق قال تعالى (فتبارك الله) أى تنزه عن كل شائبة نقص وحاز جميع صفات الكمال وأشار الى جمال الانسان بقوله تعالى (أحسن الخالقين) أى المقدرين ومميز أحسن محذوف أى خلقا روى عن عمر رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ قوله خلقا آخر قال فتبارك الله أحسن الخالقين وروى أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنطق بذلك قبل املائه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب هكذا انزلت فقال عبد الله ان كان محمد نبيا يوحى اليه فانا نبى يوحى الى فلحق بمكة كافرا ثم أسلم يوم الفتح وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا أنزلت يا عمر وكان عمر يقول وافقنى ربى فى أربع الصلاة خلف المقام وضرب الحجاب على النسوة وقولى لهن أو ليبدلن الله خيرا منكن فنزل قوله تعالى عسى ربه ان طلقكن الآية والرابع قلت فتبارك الله أحسن الخالقين فقال هكذا انزل

قال العارفون هذه الواقعة كانت سبب السعادة لعمر والشقاوة لعبد الله بن سعد بن أبي سرح فانه قيل انه مات كافرا قال الله تعالى يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا المرتبة الثامنة قوله تعالى (ثم انكم بعد ذلك) أي الامر العظيم من الوصف بالحياة والمد في العمر في آجال متفاوتة ما بين طفل ورضيع ومحتلم شديد وشاب نشيط وكهل عظيم وشيخ هرم الى ما بين ذلك من شؤون لا يحيط بها الا اللطيف الخبير (لميتون) أي لصائرون الى الموت لا محالة ولذلك ذكر النعت الذي للثبوت وهو ميت دون اسم الفاعل وهو مائت فانه للحدوث لا للثبوت المرتبة التاسعة قوله تعالى (ثم انكم يوم القيامة) أي الذي تجمع فيه جميع الخلائق (تبعثون) للحساب والجزاء * النوع الثاني من الدلائل الاستدلال بخلق السموات وهو قوله تعالى (ولقد خلقنا فوقكم) في جميع جهة الفوق في ارتفاع لا تدركونه حق الادراك (سبع طرائق) أي سموات جمع طريقة لانها طرق الملائكة ومتعلقاتهم وقيل الافلاك لانها طرائق الكواكب فيها مسيرها وقيل لانها طرق بعضها فوق بعض كطارقة النعل وكل شيء فوقه مثله فهو طريقة (وما كنا) أي بما لنا من العظمة (عن الخلق) أي الذي خلقناه تحتها (غافلين) أي ان تسقط عليهم فتهلكهم بل نمسكها كآية ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه ولا مهملين أمرها بل نحفظها عن الزوال والاختلاف وتدبير أمرها حتى تبلغ منتهى أمرها وما قدرلها من الكمال حسب ما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة * النوع الثالث من الدلائل الاستدلال بنزول الامطار وكيفية تأثيرها في النبات وهو قوله تعالى (وأنزلنا من السماء) أي من جرمها وهو ظاهر اللفظ وعليه أكثر المفسرين أو من السحاب وسماه سماء لعلوه (ماء بقدر) أي بقدر ما يكفيهم لمعاشهم في الزرع والغرس والشرب وأنواع المنفعة ويسلمون معه من المضرة اذ لو كان فوق ذلك لاغرقت البحار الاقطار ولو كان دون ذلك لادى الى جفاف النبات والاشجار (فاسكناه) أي جعلناه ثابتا مستقرا (في الارض) كقوله تعالى فسلكه ينابيع في الارض وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى أنزل من الجنة خمسة أنهار سيحون نهر الهند وجيحون نهر بلخ ودجلة والفرات نهرا العراق والنيل نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل فاستودعها الجبال وأجراها في الارض وجعل فيها منافع للناس من أصناف معايشهم فاذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله تعالى جبريل فرفع من الارض القرآن والعلم كله والحجر الاسود من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الانهار الخمسة فيرفع كل ذلك الى السماء وذلك قوله تعالى (وانا على ذهاب به لقادرون) قدرة هي في نهاية العظمة فانا كما قدرنا على ايجاده واختراعه نقدر على رفعه وازالته وزواله فاذا رفعت هذه الاشياء كلها من الارض فقد أهلها خير الدين والدنيا قال البغوي وروى هذا الحديث الامام الحسن بن سفيان عن عثمان ابن سعيد عن سابق الاسكندري عن سلمة بن علي عن مقاتل بن حيان * (تنبيه) في تنكير ذهاب ايماء الى تكثير طرقه وفيه ايذان باقتدار المذهب وأنه لا يتعايا عليه شيء اذا أراده وهو أبلغ

فى الابعاد من قوله تعالى قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين فعلى العباد أن يستعظموا النعمة فى الماء ويقيدوها بالشكر الدائم ويخافوا انفادها اذا لم تشكر ثم انه تعالى سبحانه لما نبه على عظم نعمته بخلق الماء ذكر بعده هذه النعمة الحاصلة من الماء بقوله تعالى (فأنشأنا) أى فأخرجنا وأحيينا (لكم) خاصة لا لنا (به) أى بذلك الماء الذى جعلنا منه كل شئ حى (جنات) أى بساتين (من نخيل وأعناب) صرح بهذين الصنفين اشرفهما ولانهما أكثر ما عند العرب من الثمار وسمى الاول باسم شجرته لكثرة ما فيها من المنافع المقصودة بخلاف الثانى فانه المقصود من شجرته وأشار الى غيرهما بقوله تعالى (لكم) أى خاصة (فيها) أى الجنات (فواكه كثيرة) تتفكهون بها (ومنها) أى ومن الجنات من ثمارها وزروعها (تأكلون) رطبا ويابسا وتمرا وزبيبا وقوله تعالى (وشجرة) عطف على جنات أى وأنشأنا لكم شجرة أى زيتونة (تخرج من طور سيناء) وهو الجبل الذى كلم الله تعالى عليه موسى بن عمران عليه السلام بين مصر وايلة وقيل بفلسطين وفى رواية أخرى طور سينين ولا يخلوا اما أن يضاف فيه الطور الى بقعة اسمها سيناء أو سينين واما أن يكون اسما للجبل مركبا من مضاف ومضاف اليه كامرئ القيس وبعلبك فمن أضاف فمن كسر سين سيناء وهو نافع وابن كثير وأبو عمرو فقد منع الصرف للتعريف والعجمة والتأنيث لانها بقعة وفعلاء لا تكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء ومن قرأ بفتح السين وهم الباقون لم يصرفه لان الالف للتأنيث كصحراء قال مجاهد معناه البركة أى من جبل مبارك وقال قتادة معناه الحسن أى الجبل الحسن وقال الضحاك هو بالقبطية ومعناه الحسن وقال عكرمة بالحبشية وقال مقاتل كل جبل فيه أشجار مثمرة فهو سيناء وسينين بلغة القبط وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (تنبت) بضم التاء الفوقية وكسر الباء الموحدة من الرباعى والباقون بفتح الفوقية وضم الموحدة من الثلاثى فقوله تعالى (بالدهن) تكون الباء على الاول زائدة وعلى الثانى معدية قال المفسرون وانما أضافها الله تعالى الى هذا الجبل لان منه تشعبت فى البلاد وانتشرت ولان معظمها هناك قال بعض المفسرين وانما عرف الدهن لانه أجل الادهان وأكملها وهو فى الاصل مائع لزج خفيف يتقطع ولا يختلط بالماء الذى هو أصله فيسرج ويدهن به وقوله تعالى (وصبغ للآكلين) عطف على الدهن أى ادام يصبغ اللقمة بغمسها فيه وهو الزيت قيل انها أول شجرة نبتت بعد الطوفان ووصفها الله تعالى بالبركة فى قوله تعالى يوقد من شجرة مباركة * النوع الرابع من الدلائل الاستدلال بأحوال الحيوانات وهو قوله تعالى (وان لكم فى الانعام) وهى الابل والبقر والغنم (لعبرة) عظيمة تعتبرون بها وتستدلون بها على البعث وغيره (نسقيكم مما فى بطونها) أى اللبن نجعله لكم شرابا نافعا للبدن موافقا للشهوة تلتذون به من بين الفرث والدم (ولكم فيها) أى جماعة الانعام وقدم الجار تعظيما لمنافعها حتى كان غيرها عدم (منافع كثيرة) باستسلامها لما يراد منها مما لا يتيسر من أصغر منها وبأولادها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وغير ذلك من آثارها (ومنها تأكلون) أى وكما تنتفعون بها وهى حية تنتفعون بها بعد الذبح أيضا بسهولة من غير امتناع ما من شئ من

ذلك ولو شاء لمنعها وسلطها عليكم ولو شاء لجعل لحمها لا ينضج أو جعله قذرا لا يؤكل ولكنه بقدرته وعلمه هيأها لما ذكروذللها (وعليها) أى الانعام الصالحة للحمل وهى الابل والبقر وقيل المراد الابل خاصة لانها هى المحمول عليها فى العادة وقرنها بالفلك التى هى السفن فى قوله تعالى (وعلى الفلك تحملون) لانها سفائن البر فكما يحمل على الفلك فى البحر فيحمل على هذه فى البر قال ذو الرمة فى المعنى * سفينة بر تحت خدى زمامها * قال الزمخشري يريد صيدحه أى ناقته لان اسمها كان صيدح قال

رأيت الناس ينتجعون غيثا * فقلت لصيدح انتجعى بلالا

يريد بلال بن أبى بردة الاشعرى والى الكوفة * ولما بين سبحانه وتعالى دلائل التوحيد أردفها بذكر القصص كما هو العادة فى سائر السور مبتدئا بقصة نوح عليه السلام فقال تعالى (ولقد أرسلنا) أى بما لنا من العظمة (نوحا) وهو الاب الثانى بعد آدم عليهما الصلاة والسلام وكان اسمه يشكر وسمى نوحا لوجوه أحدها الكثرة ما ناح على نفسه حين دعا على قومه بالهلاك فأهلكهم الله تعالى بالطوفان فندم على ذلك ثانيها المراجعة ربه فى شأن ابنه ثالثها أنه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فعوتب على ذلك (الى قومه) وهم جميع أهل الارض لتواصل ما بينهم لكونهم على لغة واحدة محصورين لا أنه أرسل الى الخلق كافة لان ذلك من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء (فقال) أى فتسبب عن ذلك ان قال (يا قوم) ترفقا بهم (اعبدوا الله) وحده لانه الهكم وحده لاستحقاقه لجميع خلال الكمال واستأنف على سبيل التعليل قوله (ما لكم من اله) أى معبود بحق (غيره) فلا تعبدوا سواه (أفلا تتقون) أى أفلا تخافون عقوبته ان عبدتم غيره وقرأ الكسائى بكسر الراء والهاء والباقون بضمهما (فقال) أى فتسبب عن ذلك ان كذبوه بأن قال (الملأ) أى الاشراف الذى تملأ رؤيتهم الصدور وعظمة (الذين كفروا من قومه) لعوامهم (ما هذا) أى نوح عليه السلام (الا بشر مثلكم) أى فلا يعلم ما لا تعلمون فأنكروا أن يكون بعض البشر نبيا ولم ينكروا أن يكون بعض الطين انسانا وبعض الماء علقة وبعض العلقة مضغة الى آخره فكأنه قيل ما حمله على ذلك فقالوا (يريد أن يتفضل) يتكلف الفضل بادعاء مثل هذا (عليكم) لتكونوا أتباعا له ولا خصوصية له دونكم (ولو شاء الله) أى الملك الاعلى الارسال اليكم وعدم عبادة غيره (لانزل) كذلك (ملائكة) رسلا بابلاغ الوحى الينا قال الزمخشري وما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للالوهية بحجر (ما سمعنا بهذا) أى الذى دعا اليه نوح من التوحيد (فى آبائنا الاولين) أى الامم الماضية (ان) أى ما (هو الا رجل به جنة) أى جنون ولاجله يقول ما يدعيه (فتربصوا به) أى فتسبب عن الحكم بجنونه انا نأمركم بالكف عنه لانه لا حرج على جنونه (حتى) أى الى (حين) لعله يفيق أو يموت فكأنه قيل فما قال فقيل (قال) عندما أيس من فلاحهم (رب انصرنى) أى أعنى عليهم (بما كذبون) أى بسبب تكذيبهم لى فان تكذيب الرسول استخفاف بالمرسل (فأوحينا) أى فتسبب عن دعائه أن أوحينا (اليه أن اصنع الفلك) أى السفينة (بأعيننا) أى انه لا يغيب عنا شئ من أمرك

ولامن أمرهم وأن تعرف قدرتنا على كل شئ فتنق بحفظنا ولاتخف شيأ من أمرهم روى أنه لما أوحى اليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر قال الجوهرى جؤجؤ الطائر والسفينة صدرهما والجمع الجآجئ ‌ ولما كان لايعلم الصنعة قال تعالى (ووحينا) أى وأمرنا وتعليمنا كيف تصنع فان جبريل علمه عمل السفينة ووصف كيفية اتخاذها له وقد تقدم الكلام عليها مستوفى فى سورة هود (فاذا جاء أمرنا) أى بالهلاك عقب فراغك منها أو بالركوب (وفار التنور) قال ابن عباس وجه الارض وفى القاموس التنور الكانون يخبز فيه ووجه الارض وعن قتادة أنه أشرف موضع فى الارض أى أعلاه وعن على طلع الفجر وعن الحسن أنه الموضع المنخفض من السفينة الذى يسيل الماء اليه وقيل هو مثل كقولهم حمى الوطيس والاقرب كما قال الرازى وعليه أكثر المفسرين هو التنور المعروف بتنور الخباز فيكون له فيه آية روى أنه قيل لنوح اذا رأيت الماء يفور فى التنور فاركب أنت ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم وكان من حجارة فصار الى نوح واختلف فى مكانه فعن الشعبى فى مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان نوح عمل السفينة وسط المسجد وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردة وقيل بالهند وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى من الهمزتين المفتوحتين من كلمتين وحقق الاولى وسهل الثانية ورش وقنبل (فاسلك) أى أدخل (فيها) أى السفينة (من كل زوجين) من الحيوان (اثنين) ذكرا وأنثى وقرأ حفص بتنوين اللام من كل أى من كل نوع زوجين فزوجين مفعول واثنين تأكيد والباقون بغير تنوين فاثنين مفعول ومن متعلق باسلك وفى القصة ان الله تعالى حشر لنوح السباع والطير وغيرهما فجعل يضرب بيده فى كل جنس فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الانثى فيحملهما فى السفينة وروى أنه لم يحمل الامايلد ويبيض (وأهلك) أى وأهل بيتك من زوجك وأولادك (الامن سبق عليه) لاله (القول منهم) بالهلاك وهو زوجته وولده كنعان بخلاف سام وحام ويافث فحملهم وزوجاتهم الثلاثة وفى سورة هود ومن آمن وما آمن معه الاقليل قيل كانوا ستة رجال ونساءهم وقيل جميع من كان فى السفينة ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء (ولا تخاطبنى) أى بالسؤال فى النجاة (فى الذين ظلموا) أى كفروا ثم علل ذلك بقوله تعالى (انهم مغرقون) أى قد حتم القضاء عليهم لظلمهم بالاشراك والمعاصى ومن هذا شأنه لايشفع له فانه تعالى بعد ان أملى لهم الدهر المتطاول فلم يزيدوا الاضلالا ولزمتهم الحجة البالغة لم يبق الا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين ونحن نكرمك عن سؤال لايقبل ولقد بالغ سبحانه وتعالى حيث اتبع النهى عنه الامر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم بقوله تعالى (فاذا استويت) أى اعتدلت (أنت ومن معك) أى من البشر وغيرهم (على الفلك) ففرغت من امتثال الامر بالحمل (فقل الحمد لله) أى الذى لا كفء له لانه مختص بصفات الحمد (الذى نجانا) بحملنا فيه (من القوم) أى الاعداء الاغبياء (الظالمين) أى الكافرين لقوله تعالى فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ‌ (تنبيه) ‌ انما قال تعالى قل ولم يقل قولوا لان نوحا عليه السلام كان لهم نبيا واماما

فكان قوله قولا لهم مع ما فيه من الاشعار بفضل النبوة واظهار كبرياء الربوبية وان رتبة تلك المخاطبة لا يترقى اليها الا ملك أو نبي ولما أشار له بهذا القول الى السلامة بالحمل أتبعه بالاشارة الى الوعد باسكان الارض بقوله تعالى (وقل رب أنزلني) في الفلك ثم في الارض وفي كل منزل تنزلني به وتورثني اياه (منزلا مباركا) أي يبارك له فيه ويعطيه الزيادة في خير الدارين وقرأ أبو بكر بفتح الميم وكسر الزاي أي مكان النزول والباقون بضم الميم وفتح الزاي مصدرا واسم مكان ثم ان الله تعالى أمره أن يشفع الدعاء بالثناء عليه المطابق لمسئلته وهو قوله تعالى (وأنت خير المنزلين) ماذكر لانك تكفي نزيلك كل ملم وتعطيه كل أمر * ولما كانت هذه القصة من أغرب القصص حث على تدبرها بقوله تعالى (ان في ذلك) أي الامر العظيم من أمر نوح والسفينة واهلاك الكفار (لآيات) أي دلالات على قدرة الله تعالى وصدق الانبياء في ان المؤمنين هم المفلحون وانهم الوارثون للارض بعد الظالمين وان عظمت شوكتهم واشتدت صولتهم (وان كنا) بما لنا من العظمة والوصف الثابت الدال على تمام القدرة (لمبتلين) أي فاعلين فعل الخبير المختبر لعبادنا بارسال الرسل ليظهر في عالم الشهادة الصالح منهم من غيره ثم نبتلي الصالحين منهم بما يزيد حسناتهم وينقص سيآتهم ويعلي درجاتهم ثم نجعل لهم العاقبة كما قال تعالى والعاقبة للمتقين * (تنبيه) * ان هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشان واللام هي الفارقة * القصة الثانية قصة هود وقيل صالح عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (ثم أنشأنا) أي أحدثنا وأحيينا (من بعدهم) أي من بعد اهلاكهم (قرنا) أي قوما (آخرين) هم عاد قوم هود وقيل ثمود قوم صالح (فأرسلنا) أي فتعقب انشاءنا لهم وتسبب عنه انا أرسلنا (فيهم رسولا منهم) هو هود وقيل صالح قال البغوي والاول هو الاظهر وهو المروي عن ابن عباس ويشهد له حكاية الله قول هود واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ومجيء قصة هود على اثر قصة نوح في سورة الاعراف وسورة هود والشعراء ثم بين تعالى ما أرسل به بقوله تعالى (أن اعبدوا الله) أي وحدوه لانه لا مكافئ له ثم دل على الاستغراق بقوله تعالى (ما لكم من اله غيره أفلا تتقون) أي هذه الحالة التي أنتم عليها مخافة عقابه فتؤمنون وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي بضم النون في الوصل والباقون بكسرها والقراءة في غير مذكرت قريبا (وقال الملأ) أي الاشراف التي تملأ رؤيتهم الصدور (من قومه الذين كفروا) أي غطوا ما يعرفون من أدلة التوحيد والانتقام من المشركين (وكذبوا بلقاء الآخرة) أي بالمصير اليها (وأترفناهم) أي والحال انا بما لنا من العظمة نعمناهم (في الحياة الدنيا) بالاموال والاولاد وكثرة السرور مخاطبون أتباعهم (ما هذا) أشاروا اليه تحقيرا له عند المخاطبين (الا بشر مثلكم) في الخلق والحال ثم وصفوه بما توهموا المساواة لهم في كل وصف فقالوا (يأكل مما تأكلون منه) أي من طعام الدنيا (ويشرب مما تشربون) أي من شرابها فكيف يكون رسولا دونكم وقولهم (ولئن) اللام لام قسم أي والله لئن (أطعتم بشرا مثلكم) أي فيما يأمركم به (انكم اذا) أي ان أطعتموه (لخاسرون) أي مغبونون لكونكم فضلتم مثلكم عليكم بما يدعيه ثم بينوا

انكارهم بقولهم (أيعدكم أنكم اذا متم) ففارقت أرواحكم أجسادكم (وكنتم) أى وكانت أجسادكم (ترابا) باستيلاء التراب على مادون عظامكم (وعظاما) مجرّدة عن اللحوم والاعصاب (أنكم مخرجون) أى من تلك الحالة التى صرتم اليها فراجعون الى ما كنتم عليه من الحياة على ما كان لكم من الاجسام * (تنبيه) * قوله تعالى مخرجون خبر انكم الاولى وانكم الثانية تأكيد لها لما طال الفصل ثم استأنفوا التصريح بما دل عليه الكلام من استبعاد ذلك فقالوا (هيهات هيهات) اسم فعل ماض بمعنى مصدر أى بعد بعد جدا وقال ابن عباس هى كلمة بعد أى بعيد ثم كأنه قيل لاى شئ هذا الاستبعاد فقيل (لما توعدون) من الاخراج من القبور (فان قيل) ما توعدون هو المستبعد ومن حقه أن يرفع بهيهات كما ارتفع به فى قوله

* فهيهات هيهات العقيق وأهله * فما هذه اللام (أجيب) بان الزجاج قال فى تفسيره البعد لما توعدون فنزل منزلة المصدر ويصح أن تكون اللام لبيان المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد كما جاءت اللام فى هيت لك لبيان المهيت به أو ان اللام زائدة للبيان * (فائدة) * وقف البزى والكسائى على هيهات الاولى والثانية بالهاء والباقون بالتاء على المرسوم وقولهم (ان هى) ضمير لا يعلم ما يعنى به الا بما يتلوه من بيانه وأصله ان الحياة (الا حياتنا الدنيا) ثم وضع هى موضع الحياة لان الخبر يدل عليها ويبينها ومنه هى النفس تتحمل ما حملت والمعنى لا حياة الا هذه الحياة لان ان النافية دخلت على هى التى بمعنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت لا التى نفت ما بعدها نفى الجنس (نموت ونحيى) أى يموت منا من هو موجود وينشأ آخرون بعدهم وقيل يموت قوم ويحيا قوم وقيل يموت الآباء ويحيا الابناء وقيل فى الآية تقديم وتأخير أى نحيا ونموت لانهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت كما قالوا (وما نحن بمبعوثين) بعد الموت فكأنه قيل فما هذا الكلام الذى يقوله فقيل كذب ثم حصروا أمره فى الكذب فقالوا (ان) أى ما (هو الا رجل افترى) أى تعمد (على الله) أى الملك الاعلى (كذبا) فلا يلتفت اليه (وما نحن له بمؤمنين) أى بمصدقين فيما يخبرنا به من البعث والرسالة فكأنه قيل فما قال فقيل (قال رب) أى أيها المحسن الى بالرسالة وبارسالى اليهم وبغيره من أنواع النعم (انصرنى) أى أوقع لى النصر (بما كذبون) فأجابه ربه بان (قال عما قليل) من الزمان وما زائدة وأكدت القلة بزيادتها (ليصبحن) أى ليصيرن (نادمين) أى على كفرهم وتكذيبهم اذا عاينوا العذاب (فأخذتهم الصيحة) أى صيحة العذاب والهلاك كائنة (بالحق) أى الامر الثابت من العذاب الذى لا يمكن مدافعته لهم ولا لغيرهم غير الله تعالى فماتوا وقيل صيحة جبريل عليه السلام ويكون القوم ثمود على الخلاف السابق (فجعلناهم) بسبب الصيحة (غثاء) أى مطروحين ميتين كما يطرح الغثاء شبهوا فى دمارهم بالغثاء وهو حميل السيل مما بلى واسود من الورق والعيدان ومنه قوله فجعله غثاء أحوى أى أسود يابسا * ولما كان هلاكهم على هذا الوجه سببا لهوانهم عبر عنه بقوله تعالى (فبعدا) أى هلاكا وطردا عن الرحمة (للقوم الظالمين) الذين وضعوا قوتهم التى كان يجب عليهم بذلها فى نصر الرسل فى خذلانهم * (تنبيه) * يحتمل هذا الدعاء عليهم والاخبار عنهم ووضع

الظاهر موضع ضميرهم للتعليل وبعدا وسحقا ونفرا وتحويفا ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه نصبت بأفعال لا يستعمل اظهارها * القصة الثالثة المذكورة في قوله تعالى (ثم أنشأنا) أي بعظمتنا التي لا يضرها تقديم ولا تأخير (من بعدهم) أي من بعد من قدمنا ذكره من نوح والقرن الذي بعده (قرونا) أي أقواما (آخرين) فهو سبحانه وتعالى تارة يقص علينا في القرآن مفصلا كما تقدم وتارة يقص مجملا كما هنا وقيل المراد قصة لوط وشعيب وأيوب ويوسف عليهم السلام وعن ابن عباس بني اسرائيل ثم انه تعالى أخبر بأنه لم يعجل على أحد منهم قبل الاجل الذي أجل لهم بقوله تعالى (ما تسبق من امة أجلها) أي الذي قدر لها بأن تموت قبله (وما يستأخرون) عنه * (تنبيه) * ذكر الضمير بعد تأنيثه رعاية للمعنى ومن زائدة (ثم أرسلنا رسلنا تترا) أي متتابعين بين كل اثنين زمان طويل وقرأ أبو عمرو رسلنا بسكون السين والباقون برفعها وقرأ تترا ابن كثير وأبو عمرو في الوصل بتنوين الراء على أنه مصدر بمعنى التواتر وقع حالا والباقون بغير تنوين ولما كان كأنه قيل فكان ماذا قيل (كلما جاء امة رسولها) أي بما أمرناه من التوحيد (كذبوه) أي كما فعل هؤلاء بك لما أمرتهم بذلك * (تنبيه) * أضاف الرسول مع الارسال الى الرسل ومع المجيء الى المرسل اليهم لان الارسال الذي هو مبدأ الامر منه والمجيء الذي هو منتهاه اليهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية بين الهمزة والواو والباقون بتحقيقهما وهم على مراتبهم في المد (فأتبعنا) القرون بسبب تكذيبهم (بعضهم بعضا) في الاهلاك فلم يبق عند الناس منهم الا أخبارهم كما قال تعالى (وجعلناهم أحاديث) أي أخبارا يسمعونها ويتعجب منها ليكونوا عظة للمستبصرين فيعلموا أنه لا يفلح الكافرون ولا يخيب المؤمنون وما أحسن قول القائل

ولا شيء يدوم فكن حديثا * جميل الذكر فالدنيا حديث

والاحاديث تكون جمعا للحديث ومنه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكون جمعا للاحدوثة التي هي مثل الاعجوبة والالعوبة وهي ما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا وهو المراد هنا ولما تسبب عن تكذيبهم هلاكهم المقتضي لبعدهم قال تعالى (فبعدا لقوم) أي أقوياء على ما يطلب منهم (لا يؤمنون) أي لا يوجد منهم ايمان وان جرت عليهم الفصول الاربعة لانه لا مزاج لهم معتدل * القصة الرابعة قصة موسى وهرون عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (ثم أرسلنا) أي بما لنا من العظمة (موسى وأخاه هرون بآياتنا) قال ابن عباس الآيات التسع وهي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والبحر والسنين ونقص الثمرات (وسلطان مبين) أي حجة بينة وهي العصا وأفردها بالذكر لانها قد تعلق بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها وكونها حارسا وشمعة وشجرة خضراء مثمرة ودلوا ورشاء فجعلت كأنها ليست بعضا لما استبدت به من الفضائل فلذلك عطفت عليها كقوله تعالى من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ويجوز أن يراد بالآيات نفس تلك المعجزات وبالسلطان المبين كيفية

دلالتها على الصدق وذلك لانهاوان شاركت آيات سائر الانبياء في كونها آيات فقد فارقتها
في قوة دلالتها على قول موسى عليه السلام وان يراد بالسلطان المبين المعجزات وبالآيات الحجج
وان يراد بها المعجزات فانها آيات النبوة وحجة بينة على ما يدعيه النبي قال الرازي واعلم ان
الآية تدل على أن معجزات موسى كانت معجزات هرون أيضا وان النبوة كما كانت مشتركة
بينهما فكذلك المعجزات (الى فرعون وملائه) أى وقومه ولكن لما كان الاطراف
لا يخالفون الاشراف عدهم عدما ومن الواضح ان التقدير أن اعبدوا الله مالكم من اله غيره
وأشار بقوله تعالى (فاستكبروا) الى انهم أوجدوا الكبر عن الاتباع فيما دعوهم اليه عقب
الابلاغ من غير تأمل ولا تثبت وطلبوا أن لا يكونوا تحت أمر من دعاهم وأشار بالكون الى
فساد جبلتهم بقوله تعالى (وكانوا قوما) أى أقوياء (عالين) أى متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم
ولما تسبب عن استكبارهم وعلوهم انكارهم للاتباع قال تعالى (فقالوا أنؤمن) أى بالله تعالى
مصدقين (لبشرين مثلنا) أى في البشرية والأكل والمشرب وغيرهما مما يعترى البشر كما قال
من تقدمهم (وقومهما) أى والحال ان قومهما أى بنى اسرائيل (لنا عابدون) خضوعا
وتذللا أى في غاية الذل والانقياد كالعبيد فنحن أعلى منهما بهذا أولانه كان يدعى الالهية فادعى
للناس العبادة وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة (فكذبوهما) أى فرعون وملاؤه موسى
وهرون (فكانوا) أى فرعون وملاؤه بسبب تكذيبهم (من المهلكين) أى بالغرق ببحر القلزم
ولم تغن عنهم قوتهم في أنفسهم ولا قوتهم على خصوص بنى اسرائيل واستعبادهم ولاضر بنى
اسرائيل ضعفهم عن دفاعهم ولا ذلهم لهم وصغارهم في أيديهم ولما كان ضلال بنى اسرائيل
بعد انقاذهم من عبودية فرعون وقومه أعجب قال تعالى تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولقد
آتينا) أى بعظمتنا (موسى الكتاب) أى التوراة (لعلهم) أى قوم موسى وهرون عليهما
السلام (يهتدون) من الضلالة الى المعارف والاحكام ولا يصح عود الضمير الى فرعون وملئه
لان التوراة انما اوتيها بنو اسرائيل بعد اغراق فرعون وملئه بدليل قوله تعالى ولقد آتينا
موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى * القصة الخامسة قصة عيسى عليه السلام
المذكورة في قوله تعالى (وجعلنا) أى بعظمتنا وقدرتنا (ابن مريم) نسبه اليها تحقيقا لكونه
لا أب له وكونه بشرا محمولا في البطن مولودا لا يصلح لرتبة الالهية وزاد في تحقيق ذلك بقوله
(وامه) وقال تعالى (آية) ولم يقل آيتين لان الآية فيهما واحدة ولادته من غير فحل ويحتمل
ان الآية الاولى حذفت لدلالة الثانية عليها والتقدير وجعلنا ابن مريم آية وامه آية لان الله
تعالى جعل مريم آية لانها حملته من غير ذكر وقال الحسن قد تكلمت في صغرها كما تكلم عيسى
وهو قولها هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ولم تلتقم ثديا قط * (تنبيه) * قال
بعض المفسرين ولعل في ذلك اشارة الى انه تكلمت به آية للقدرة على ايجاد الانسان بكل
اعتبار من غير ذكر ولا انثى وهو آدم عليه السلام ومن ذكر بلا انثى وهي حواء عليها السلام ومن
انثى بلا ذكر وهو عيسى عليه السلام ومن الزوجين وهو بقية الناس (وآويناهما) أى

بمطمئنا (الى ربوة) أى مكان عال من الارض * (تنبيه) * قد اختلف فى هذه الربوة فقال عطاء
عن ابن عباس هى بيت المقدس وهو قول قتادة وكعب قال كعب هى أقرب الارض الى السماء
بثمانية عشر ميلا وقال عبد الله بن سلام هى دمشق وقال أبو هريرة هى الرملة وقال السدى
هى أرض فلسطين وقال ابن زيد هى مصر وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء والباقون بضم الراء
(ذات قرار) أى منبسطة مستوية واسعة يستقر عليها ساكنوها (ومعين) أى ماء جار ظاهر
تراه العيون * (تنبيه) * قد اختلف فى زيادة ميم معين واصالتها فوجه من جعلها مفعولا أنه
مدرك بالعين لظهوره من عانه اذا أدركه بعينه نحو ركبه اذا ضربه بركبته ووجه من جعله فعيلا
أنه نفاع لظهوره وجريه من الماعون وهو المنفعة قيل سبب الايواء أنها أمرت بابنها الى الربوة
وبقيت بها اثنتى عشرة سنة ثم رجعت الى أهلها بعد ما مات ملكهم وههنا آخر القصص وقد
اختلف فى المخاطب بقوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) على وجوه أحدها أنه محمد صلى
الله عليه وسلم وحده على مذهب العرب فى مخاطبة الواحد بلفظ الجماعة ثانيها أنه عيسى عليه
السلام لانه روى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل امه ثالثها أنه كل رسول خوطب
بذلك ووصى به لانه تعالى فى الازل متكلم آمر ناه ولا يشترط فى الامر وجود المأمور بل الخطاب
ازلا على تقدير وجود المخاطبين فقول البيضاوى لا على انهم خوطبوا بذلك دفعة لانهم ارسلوا
فى أزمنة مختلفة بل على معنى ان كلا منهم خوطب به فى زمانه تبع فيه الكشاف فان المعتزلة
أنكروا قدم الكلام فحملوا الآية على خلاف ظاهرها وأنت خبير بأن عدم اشتراط ما ذكر
انما هو فى التعلق المعنوى لا التنجيزى الذى الكلام فيه فانه مشروط فيه ذلك وانما خاطب جميع
الرسل بذلك ليعتقد السامع ان أمرا خوطب به جميع الرسل ووصوا به حقيق أن يؤخذ به
ويعمل عليه وهذا كما قال الرازى أقرب لانه روى عن ام عبد الله أخت شداد بن أوس
أنها بعثت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح من لبن فى شدة الحر عند فطره وهو صائم فرده
صلى الله عليه وسلم الرسول اليها وقال من أين لك هذا فقالت من شاة لى ثم رده صلى الله عليه وسلم
وقال من أين هذه الشاة فقالت اشتريتها من مالى فأخذه ثم انها جاءته فقالت يا رسول الله
لم رددته فقال صلى الله عليه وسلم بذلك أمرت الرسل أن لا تأكل الا طيبا ولا تعمل الا صالحا
والمراد بالطيب الحلال وقيل طيبات الرزق الحلال الصافى القوام فالحلال هو الذى لا يعصى
الله تعالى فيه والصافى هو الذى لا ينسى الله فيه والقوام هو الذى يمسك النفس ويحفظ العقل
وقيل المراد بالطيب المستلذ أى ما تستلذه النفس من المأكل والمشرب والفواكه ويشهد له
مجيئه على عقب قوله تعالى وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين واعلم أنه سبحانه وتعالى كما قال
للمرسلين يا أيها الرسل كلوا من الطيبات قال للمؤمنين يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات
ما رزقناكم ودل سبحانه وتعالى على ان الحلال عون على الطاعة بقوله تعالى (واعملوا صالحا)
فرضا ونفلا سرا وجهرا غير خائفين من أحد غير الله تعالى ثم حثهم على دوام المراقبة بقوله تعالى
(انى بما) أى بكل شئ (تعملون عليم) أى بالغ العلم فاجازيكم عليه وقرأ (وان هذه) بكسر

الهمزة الكوفيون على الاستئناف والباقون بفتحها على تقدير واعلموا أن هذه أى ملة الاسلام وخفف النون ساكنة ابن عامر وشددها مفتوحة الباقون (أمتكم) أى دينكم أيها المخاطبون أى يجب أن تكونوا عليها حال كونها (أمة واحدة) لاشتات فيها أصلا فادامت موحدة فهى مرضية (وأنا ربكم) أى المحسن اليكم بالخلق والرزق وحدى فمن وحدنى نجا ومن أشرك بى غيرى هلك (فاتقون) أى فاحذرون (فتقطعوا) أى الامم وانما أضمرهم لوضوح ارادتهم لان الآية التى قبلها قد صرحت بأن الانبياء ومن نجا منهم أمة واحدة لاخلاف بينهم فعلم قطعا أن الضمير للامم ومن نشأ بعدهم ولذلك كان النظر الى الامر الذى كان واحدا أهم فقدم وقوله (أمرهم) أى دينهم بعد ان كان مجتمعا متصلا (بينهم) وقوله تعالى (زبرا) حال من فاعل تقطعوا أى أحزابا متخالفين فصار وافرقا كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الاديان المختلفة جمع زبور بمعنى الفرقة وقيل معنى زبرا كتبا أى تمسك كل قوم بكتاب فآمنوا به وكفروا بما سواه من الكتب (كل حزب) أى فرقة من المتحزبين (بما لديهم) أى عندهم من ضلال وهدى وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها (فرحون) أى مسرورون فضلا عن أنهم راضون وقوله تعالى (فذرهم) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى اترك كفار مكة (فى غمرتهم) أى ضلالتهم شبهها بالماء الذى يغمر القامة لانهم مغمورون فيها (حتى حين) أى الى أن يقتلوا أو يموتوا وهى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ونهى عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره ولما كان الموجب لغرورهم ظنهم ان حالهم فى بسط الارزاق من الاموال والاولاد حالة رضا عنهم أنكر ذلك عليهم تنبيها لمن سبقت له السعادة وكتبت له الحسنى وزيادة فقال تعالى (أيحسبون) أى لضعف عقولهم وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها (أنما نمدهم) أى نعطيهم ونجعله مددا لهم (به من مال) نيسره لهم (وبنين) نمتعهم بهم ثم أخبر عن أن بقوله تعالى (نسارع) أى نعجل (لهم) أى به (فى الخيرات) لا نفعل ذلك (بل لا يشعرون) أنهم فى غاية البعد عن الخيرات سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وقال تعالى فى موضع آخر فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون وروى عن زيد بن ميسرة أنه قال أوحى الله تعالى الى نبى من الانبياء أيفرح عبدى أن أبسط له الدنيا وهو أبعد له منى ويحزن أن أقبض عنه الدنيا وهو أقرب له منى وعن الحسن انه لما أتى عمر رضى الله عنه بسوارى كسرى فأخذهما ووضعهما فى يد سراقة ابن مالك فبلغا منكبيه فقال عمر اللهم انى قد علمت ان نبيك عليه الصلاة والسلام كان يحب أن يصيب مالا لينفقه فى سبيلك فزويت ذلك عنه ثم ان أبا بكر كان يحب ذلك اللهم لا يكون ذلك مكرا منك ثم تلا أيحسبون الآية ٭ ولما ذكر أهل الافتراق ذكر أهل الوفاق ووصفهم بأربع صفات الاولى قوله تعالى (ان الذين هم) أى ببواطنهم (من خشية ربهم) أى الخوف العظيم من المحسن اليهم المنعم عليهم (مشفقون) أى دائمون على الحذر الصفة الثانية قوله تعالى (والذين

هم بآيات ربهم) أى القرآن (يؤمنون) أى يصدقون الصفة الثالثة قوله تعالى (والذين هم بربهم) أى الذى لا محسن اليهم غيره (لا يشركون) أى شيأ من شرك فى وقت من الاوقات كالم يشركه فى الاحسان اليهم أحد * ولما أثبت لهم الايمان الخالص نفى عنهم العجب بقوله تعالى (والذين يؤتون) أى يعطون (ما آتوا) أى ما اعطوا من الصدقة والاعمال الصالحة وهذه الصفة الرابعة (وقلوبهم وجلة) أى شديدة الخوف أن لا يقبل منهم ولا ينجيهم من عذاب الله ثم علل ذلك بقوله تعالى (أنهم الى ربهم) أى الذى طال احسانه اليهم (راجعون) بالبعث فيجازيهم على النقير والقطمير ويجزيهم بكل قليل وكثير وهو الناقد البصير ولا تنفع هنالك الندامة وليس هنالك الا الحكم العدل والحكم القاطع من جهة مالك الملك قال الحسن البصرى المؤمن جمع ايمانا وخشية والمنافق جمع اساءة وامنا * ثم أثبت لهم ما أفهم ان ضده لاضدادهم بقوله تعالى (أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) أى يبادرون الى الاعمال الصالحة قبل الموت * ولما ذكر تعالى كيفية أعمال المؤمنين المخلصين ذكر أنه تعالى لا يكلف أحدا فوق طاقته بقوله تعالى (ولا نكلف نفسا الا وسعها) أى طاقتها فمن لم يستطع أن يصلى الفرض قائما فليصل قاعدا ومن لم يستطع أن يصلى قاعدا فليصل مضطجعا ومن لم يستطع أن يصوم رمضان فليفطر لان مبنى المخلوق على العجز (ولدينا) أى وعندنا (كتاب ينطق بالحق) بما عملته كل نفس وهو اللوح المحفوظ تسطر فيه الاعمال وقيل كتب الحفظة ونظيره قوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق وقوله تعالى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فشبه تعالى الكتاب بمن يصدر عنه البيان فان الكتاب لا ينطق لكنه يعرف بما فيه كما يعرف بنطق الناطق اذا كان محقا (فان قيل) ما فائدة ذلك الكتاب مع ان الله تعالى يعلم ذلك اذ لا تخفى عليه خافية (اجيب) بأن الله تعالى يفعل ما يشاء وقد يكون فى ذلك حكمة لا يطلع عليها الا هو تعالى (وهم) أى الخلق كلهم (لا يظلمون) أى لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد فى سيآتهم * ثم ذكر حال الكفار فقال تعالى (بل قلوبهم) أى الكفرة من الخلق (فى غمرة) أى جهالة قد أغرقتها (من هذا) أى القرآن أو الذى وصف به حال هؤلاء أو من كتاب الحفظة (ولهم أعمال من دون ذلك) المذكور للمؤمنين (هم) أى الكفار (لها) أى لتلك الاعمال الخبيثة (عاملون) أى لا بدّ أن يعملوها فيعذبون عليها لما سبق لهم من الشقاوة (حتى اذا أخذنا مترفيهم) أى رؤساءهم وأغنياءهم (بالعذاب) قال ابن عباس هو السيف يوم بدر وقيل هو الجوع دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف فابتلاهم الله تعالى بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة والقذر والاولاد (اذا هم يجأرون) أى يصيحون ويستغيثون ويجزعون وأصل الجأر رفع الصوت بالتضرع قاله البغوى فكأنه قيل فهل يقبل اعتذارهم أو يرحم انكسارهم فقيل لا بل يقال لهم بلسان الحال أو المقال (لا تجأروا اليوم) فان الجأر غير نافع لكم * ثم علل ذلك بقوله تعالى (انكم منا لا تنصرون) أى بوجه من الوجوه ومن عدم نصره لم يجد له ناصرا فلا فائدة لجأره الا اظهار الجزع ثم علل عدم

نصره

قصر ماهم بقوله تعالى (قد كانت آياتي) أي من القرآن (تتلى عليكم) أي من أوليائي وهم الهداة النصحاء (فكنتم) كونا هو كالجبلة (على أعقابكم) عند تلاوتها (تنكصون) أي تعرضون مدبرين عن سماعها والعمل بها والنكوص الرجوع القهقرى (مستكبرين) عن الايمان واختلف في عود الضمير في (به) فقال ابن عباس بالبيت الحرام وشهرة استكبارهم وافتخارهم أنهم قوامه أغنت عن سبق ذكره وذلك أنهم يقولون نحن أهل حرم الله وجيران بيته فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحدا فيأمنون فيه وسائر الناس في الخوف وقيل بالقرآن فلم يؤمنوا به وقوله تعالى (سامرا) نصب على الحال أي جماعة يتحدثون بالليل حول البيت وقوله تعالى (تهجرون) قرأه نافع بضم التاء وكسر الجيم من الاهجار وهو الافحاش أي تفحشون وتقولون الخنا ذكر أنهم كانوا يسبون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والباقون بفتح التاء وضم الجيم أي تعرضون عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الايمان وعن القرآن وترفضونها وتسمون القرآن سحرا وشعرا ثم انه تعالى لما وصف حالهم رد عليهم بأن بين أن اقدامهم على هذه الامور لابد أن يكون لاحد أمور أربعة أحدها أن لا يتأملوا في دليل نبوته وهو المراد من قوله تعالى (أفلم يدبروا القول) أي القرآن الدال على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وأصل يدبروا يتدبروا أدغمت التاء في الدال ثانيها أن يعتقدوا ان ماجاء به الرسول أمر على خلاف العادة وهو المراد من قوله تعالى (أم جاءهم) في هذا القول (مالم يأت آباءهم الاولين) الذين بعد اسمعيل وقبله ثالثها أن لا يكونوا عالمين بأمانته وحسن حاله قبل ادعائه النبوة وهو المراد من قوله تعالى (أم لم يعرفوا رسولهم) أي الذي أتاهم بهذا القول الذي لا قول مثله وهم يعرفون نسبه وصدقه وأمانته وماجاءهم به من معالي الاخلاق حتى انهم لا يجدون فيه اذا تحققت الحقائق نقيصة يذكرونها ولا وصمة يستحلونها كما دلت عليه الاحاديث الصحاح منها حديث أبي سفيان ابن حرب الذي في أول البخاري في سؤال هرقل ملك الروم له عن شأنه صلى الله عليه وسلم وقد اتفقت كلمتهم عليه بتسميته الامين (فهم) أي فتسبب عن جهلهم به أنهم (له) أي نفسه أو القول الذي أتى به (منكرون) فيكونوا ممن جهل الحق بجهل حال الآتي به وفي هذا غاية التوبيخ لهم بجهلهم وبغباوتهم بأنهم يعرفون أنه أصدق الخلق وأعلاهم في كل معنى جميل ثم كذبوه رابعها أن يعتقدوا فيه الجنون فيقولوا انما حمله على ادعائه الرسالة جنونه وهو المراد من قوله تعالى (أم يقولون) أي بعد تدبرما أتى به وعدم عثورهم فيه على وجه من وجوه الطعن (به) أي رسولهم (جنة) أي جنون فلا يوثق به * ولما كانت هذه الاقسام منفية عنه فانهم أعرف الناس بهذا النبي الكريم وانه أكملهم خلقا وأشرفهم خلقا وأطهرهم شيما وأعظمهم هما وأرجحهم عقلا وأمتنهم رأيا وأرضاهم قولا وأصوبهم فعلا اضرب عنها وقال تعالى (بل) أي لم ينكصوا عند سماع الآيات ويسمروا ويهجروا لاعتقاد شئ مما مضى وانما فعلوا ذلك لان هذا الرسول الكريم (جاءهم بالحق) أي القرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الاسلام وقال الجلال المحلي الاستفهام فيه للتقرير بالحق من صدق النبي ومجيء الرسول للامم

الماضية ومعرفة رسولهم بالصدق والامانة وان لا جنون به وبل للانتقال (وأكثرهم) أى والحال ان أكثرهم (للحق كارهون) متابعة للاهواء الردية والشهوات البهيمية عنادا وانما قيد تعالى الحكم بالا كثر لان بعضهم يتركه جهلا وتقليدا وخوفا من أن يقال صبأ وبعضهم يتبعه توفيقا من الله تعالى وتأييدا ثم بين تعالى ان اتباع الهوى يؤدى الى الفساد العظيم بقوله تعالى (ولو اتبع الحق) أى القرآن (أهواءهم) بأن جاء بما يهوونه من الشرك والولد لله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (لفسدت السموات) على علوها واحكامها (والارض) على كثافتها وانتظامها (ومن فيهن) على كثرتهم وانتشارهم وقوتهم أى خرجت عن نظامها المشاهد بسبب ادعائهم تعدد الآلهة لوجود التمانع فى الشئ عادة عند تعدد الحاكم كما سبق تقريره فى قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (بل أتيناهم) بعظمتنا (بذكرهم) أى بالقرآن الذى فيه ذكرهم وشرفهم وقيل بالذكر الذى تمنوه بقولهم لو أن عندنا ذكرا من الاولين (فهم عن ذكرهم) أى الذى هو شرفهم (معرضون) لا يلتفتون اليه ثم بين تعالى ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يطمع فيهم حتى يكون ذلك سببا لنفرتهم بقوله تعالى (أم تسألهم) أى على ما جئتهم به (خرجا) أى أجرا وقرأ حمزة والكسائى بفتح الراء وبعدها ألف والباقون بسكون الراء * ولما كان الانكار بمعناه النفى حسن موقع فاء السببية فى قوله تعالى (فخراج ربك) أى رزقه فى الدنيا وثوابه فى العقبى (خير) لسعته ودوامه ففيه مندوحة لك عن عطائهم وقرأ ابن عامر بسكون الراء والباقون بفتحها وألف بعدها قال أبو عمرو بن العلاء الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك أداؤه قال الزمخشرى والوجه ان الخرج أخص من الخراج كقولك خراج القرية وخرج الكردة أى الرقبة زيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذلك حسنت قراءة من قرأ خرجا فخراج ربك يعنى أم تسألهم على هدايتك لهم قليلا من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير وقوله تعالى (وهو خير الرازقين) تقرير لخيرية خراجه * ولما زيف سبحانه وتعالى طريق القوم اتبعه بصحة ما جاء به الرسول عليه السلام بقوله تعالى (وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم) تشهد عقولهم السليمة على استقامته لا عوج فيه يوجب اتهامهم له كما تشهد له به العقول الصحيحة فمن سلكه أوصله الى الغرض فحاز كل شرف * (تنبيه) * قد ألزمهم الله تعالى الحجة فى هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم فان الذى أرسل اليهم رجل معروف أمره وحاله مخبور سره وعلنه خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم وأنه لم يعرض له حتى يدعى مثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ولم يجعل له سلما الى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ولم يدعهم الى دين الاسلام الذى هو الصراط المستقيم الا مع ابراز المكنون من أدوائهم وهو اخلالهم بالتدبر والتأمل من غير برهان (وان الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى بالبعث والثواب والعقاب (عن الصراط) أى الذى لا صراط غيره لانه لا موصل الى القصد غيره (لناكبون) أى عادلون منصرفون فى سائر أحوالهم سائرون على غير منهج أصلا بل خبط عشواء (ولو رحمناهم) أى عاملناهم معاملة المرحوم فى ازالة ضرره وهو معنى قوله تعالى (وكشفنا ما بهم من ضر) أى جوع أصابهم بمكة سبع سنين (للجوا)

أى

أى عادوا وتمادوا (فى طغيانهم) الذى كانوا عليه قبل هذا (يعمهون) أى يترددون (ولقد أخذناهم بالعذاب) وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على قريش أن يجعل عليهم سنين كسنى يوسف فأصابهم القحط فجاء أبو سفيان الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين فقال بلى فقال قد قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع فقد أكلوا الفرث والعظام والعلهز وشكا اليه الضرع فادع الله تعالى يكشف عنا هذا القحط فدعا فكشف عنهم فأنزل الله تعالى هذه الآية * (تنبيه) * العلهز وبر يخلط بدماء النعم فيؤكل فى الجدب والعلهز أيضا القراد الضخم وشكا بعض الاعراب الى النبي صلى الله عليه وسلم السنة فقال

ولاشئ مما يأكل الناس عندنا * سوى الحنظل العامى والعلهز الفسل
وليس لنا الا اليك فرارنا * وأين فرار الناس الا الى الرسل

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم واستسقى لرفع هذه المحن فقال الله تعالى عنهم (فما استكانوا) أى خضعوا خضوعا هو كالجبلة لهم وأصله طلب السكون (لربهم) أى المحسن اليهم عقب المحنة (وما يتضرعون) أى يجددون الدعاء بالخضوع والذل والخشوع فى كل وقت بحيث يكون لهم عادة بل هم على ما جبلوا عليه من الاستكبار والعتو (حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا) أى صاحب (عذاب شديد) قال ابن عباس يعنى القتل يوم بدر وهو قول مجاهد وقيل هو الموت وقيل هو قيام الساعة (اذا هم فيه) أى ذلك الباب مطروحون لا يقدرون منه على نوع خلاص (مبلسون) متحيرون آيسون من كل خير ثم انه سبحانه التفت الى خطابهم وبين عظيم نعمته من وجوه أحدها ما ذكره بقوله تعالى (وهو الذى أنشأ) أى خلق (لكم) يا من يكذب بالآخرة (السمع) بمعنى الاسماع (والابصار) على غير مثال سبق لتحسنوا بها ما نصب من الآيات (والافئدة) أى التى هى مراكز العقول فتتفكروا فى الآيات وتستدلوا بها على الوحدانية فكنتم بها أعلى من بقية الحيوان جمع فؤاد وهو القلب وانما خص هذه الثلاثة بالذكر لانه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها فمن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها كما قال عز وجل فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ اذ كانوا يجحدون بآيات الله * ولما صور لهم هذه النعم وهى بحيث لا يشك عاقل فى أنه لو تصور أن يعطى آدمى شيأ منها لم يقدر على مكافأته حسن تبكيتهم فى كفر النعم فقال تعالى (قليلا ما تشكرون) لمن أولاكم هذه النعم التى لا يقدر غيره على شئ منها مع ادعائكم انكم اشكر الناس لمن أسدى اليكم أقل ما يكون من النعم التى يقدر على مثلها كل أحد فكنتم بذلك مثل الحيوانات العجم صما بكما عميا قال أبو مسلم ليس المراد ان لهم شكرا وان قل لكنه كما يقال للكفور الجاحد النعمة ما أقل شكر فلان ثانيها ما ذكره فى قوله تعالى (وهو) أى وحده (الذى ذرأكم) أى خلقكم وبثكم (فى الارض) للتناسل (واليه) وحده (تحشرون) يوم النشور ثالثها ما ذكره بقوله تعالى (وهو) أى وحده (الذى) من شأنه أنه (يحيى

ويميت) فلا مانع له من البعث ولا غيره مما يريده وإن بعهما ماذكره بقوله تعالى (وله اختلاف الليل والنهار) أى التصرف فيهما بالسواد والبياض والزيادة والنقصان (أفلا تعقلون) أى بالنظر والتأمل ان الكل منا وان قدرتنا تام الممكنات كلها وان البعث من جملتها فتعتبرون * ولما كان معنى الاستفهام الانكارى النفى حسن بعده قوله تعالى (بل قالوا) أى هؤلاء العرب (مثل ما قال الاولون) من قوم نوح ومن بعدهم فقالوا ذلك تقليدا للاولين ثم حكى الشبهة عنهم من وجهين أحدهما ماذكره بقوله تعالى (قالوا) أى منكرين للبعث متعجبين من أمره (أئذا متنا وكنا) أى بالبلا بعد الموت (ترابا وعظاما) نخرة ثم أكدوا الانكار بقولهم (أئنا لمبعوثون) أى لمحشورون بعد ذلك قالوا ذلك استبعادا ولم يتأملوا انهم قبل ذلك أيضا كانوا ترابا فخلقوا ثانيهما ماذكره بقوله تعالى انهم قالوا (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا) أى البعث بعد الموت (من قبل) كأنهم قالوا ان هذا الوعد كما وقع منه صلى الله عليه وسلم فقد وقع قديما من سائر الانبياء ولم يوجد مع طول العهد وظنوا ان الاعادة تكون فى دار الدنيا ثم قالوا (ان) أى ما (هذا الا أساطير) الاولين) أى أكاذيب (الاولين) كالاضاحيك والاعاجيب جمع اسطورة بالضم وقيل جمع أسطار جمع سطر قال رؤبة * انى واسطار سطرن سطرا * وهو ما كتبه الاولون مما لا حقيقة له * ولما أنكروا البعث هذا الانكار المؤكد ونفوه هذا النفى المحتم أمره الله تعالى أن يقررهم بثلاثة أشياء هم بها مقرون ولها عارفون يلزمهم من تسليمها الاقرار بالبعث قطعا أحدها قوله تعالى (قل) أى مجيبا لانكارهم البعث ملزما لهم (لمن الارض) أى على سعتها وكثرة عجائبها (ومن فيها) على كثرتهم واختلافهم (ان كنتم) أى مما هو كالجبلة لكم (تعلمون) أى أهلا للعلم وفيه تنبيه على أنهم أنكروا شيأ لا ينكره عاقل * ولما كانوا مقرين بذلك أخبر تعالى عن جوابهم قبل جوابهم ليكون من دلائل النبوة واعلام الرسالة بقوله تعالى استئنافا (سيقولون) أى قطعا ذلك كله (لله) أى المختص بصفات الكمال ثم انه تعالى أمره بقوله (قل) أى لهم اذا قالوا لك ذلك منكرا عليهم (أفلا تذكرون) أى فى ذلك المركوز فى طباعكم المقطوع به عندكم ما غفلتم عنه من تمام قدرته وباهر عظمته فتصدقوا ما أخبر به من البعث الذى هو دون ذلك وتعلموا أنه لا يصلح شئ منها وهو ملكه أن يكون شريكا له تعالى ولا ولدا وتعلموا ان القادر على الخلق ابتداء قادر على الاحياء بعد الموت وأنه لا يصح فى الحكمة أصلا أن يترك البعث لان أقلكم لا يرضى بترك حساب عبيده والعدل بينهم وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التاء الثانية فى الذال ثانيها قوله تعالى (قل) أى لهم (من رب) أى خالق ومدبر (السموات السبع) كما تشاهدون من حركاتها وسير أفلاكها (ورب العرش) أى الكرسى (العظيم) كما قال تعالى وسع كرسيه السموات والارض (سيقولون لله) أى الذى له كل شئ هو رب ذلك لا جواب لهم غير ذلك ولما تأكد الامر وزاد الوضوح حسن التهديد على التمادى فقال تعالى (قل) أى منكرا عليهم (أفلا تتقون) أى تحذرون عبادة غيره ثالثها قوله (قل) أمره الله تعالى بعد ما قررهم بالعالمين العلوى والسفلى

أن

أن يقررهم بما هو أعم وأعظم وهو قوله تعالى (من بيده) أى من تحت قدرته ومشيئته (ملكوت كل شئ) من انس وجن وغيرهما والملكوت الملك البليغ قال ابن الاثير كانت العرب اذا كان السيد فيهم أجار أحد الا يخفر جواره وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلا يعاب عليه ولو أجار ما أفاد ولهذا قال تعالى (وهو يجير) أى يمنع ويغيث من شاء فيكون فى حرز لا يقدر أحد على الدنو من ساحته (ولا يجار عليه) أى ولا يمكن أحدا أبدا أن يجير جوارا يكون مستعليا عليه بأن يكون على غير مراده بل يأخذ من أراد وان نصره جميع الخلائق ويعلى من أراد وان تحاملت عليه كل المصائب فتبين كالشمس أنه لا شريك يمانعه ولا ولد يضارعه وانه السيد العظيم الذى لا أعظم منه الذى له الخلق والامر ولا معقب لحكمه وماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ثم ألهبهم الى المبادرة الى الاعتراف به وهيجهم بقوله تعالى (ان كنتم تعلمون) أى فى عداد من يعلم ولذلك استأنف قوله تعالى (سيقولون لله) أى الذى بيده ذلك خاصا به *(تنبيه)* سيقولون لله الاول لا خلاف فيها وأما الثانية والثالثة فقرأ أبو عمرو سيقولون الله بزيادة همزة الوصل مع التفخيم فيهما ورفع الهاء والباقون بغير همز الوصل مع الترقيق وكسر الهاء والتقدير ذلك كله لله * ولما كان جوابهم بذلك يقتضى انكار توقفهم فى الاقرار بالبعث استأنف قوله تعالى (قل) أى لهم منكرا عليهم (فأنى تسحرون) أى فكيف بعد اقراركم بهذا كله تخدعون وتصرفون عن الحق وكيف يخيل لكم أنه باطل * ولما كان الانكار بمعنى النفى حسن قوله تعالى (بل) أى ليس الامر كما يقولون بل (أتيناهم بالحق) أى بالصدق من التوحيد والوعد بالنشور (وانهم لكاذبون) فى كل ما ادعوه من الولد والشريك وغيرهما مما بين القرآن فساده ومن أعظم كذبهم قولهم اتخذ الرحمن ولدا قال تعالى ردا عليهم (ما اتخذ الله) أى الذى لا كفء له (من ولد) أى لا من الملائكة ولا من غيرهم لما قام من الادلة على غناه وانه لا مجانس له * ولما كان الولد أخص من مطلق الشريك قال تعالى (وما كان معه) أى بوجه من الوجوه (من اله) يشابهه فى الالوهية (اذا) لو كان معه اله آخر (لذهب كل اله بما خلق) بالتصرف فيه وحده ليتميز ماله مما لغيره (فان قيل) اذا لا تدخل الا على كلام هو جزاء وجواب فكيف وقع قوله تعالى لذهب جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل (أجيب) بأن الشرط محذوف تقديره ولو كان معه آلهة وانما حذف لدلالة قوله تعالى وما كان معه من اله عليه وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين (ولعلا بعضهم) أى بعض الآلهة (على بعض) اذا تخالفت أوامرهم فلم يرض أحد منهم أن يضاف ما خلقه الى غيره ولا أن يمضى فيه أمر على غير مراده كما هو مقتضى العادة فلا يكون المغلوب الها لعجزه ولا يكون مجيرا غير مجار عليه بيده وحده ملكوت كل شئ * ولما طابق الدليل الالزامى نفى الشريك نزه نفسه الشريفة بما هو نتيجة ذلك من قوله تعالى (سبحان الله) أى المتصف بجميع صفات الكمال المنزه عن شائبة كل نقص (عما يصفون) من كل ما لا يليق بجنابه المقدس من الانداد والاولاد لما سبق من الدليل على فساده ثم أقام دليلا آخر على كماله بوصفه بقوله تعالى (عالم

الغيب والشهادة) أى ما غاب وما شوهد وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى برفع الميم على أنه خبر مبتدا محذوف تقديره هو والباقون بالخفض على أنه صفة لله ثم رتب على هذا الدليل قوله تعالى (فتعالى) أى تعاظم (عما يشركون) معه من الآلهة ثم ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل رب) أى أيها المحسن الى (اما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما الزائدة أى ان كان لابد أن (تريني) لان ما والنون للتأكيد (ما يوعدون) من العذاب فى الدنيا والآخرة (رب فلا تجعلنى) باحسانك الى (فى القوم الظالمين) أى قرينا لهم فى العذاب (فان قيل) كيف يجوز أن يجعل الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم المعصوم مع الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم (أجيب) بأنه يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله اظهارا للعبودية وتواضعا لربه واخباتا له واستغفاره صلى الله عليه وسلم اذا قام من مجلسه سبعين مرة أو مائة مرة لذلك وما أحسن قول الحسن فى قول أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وليتكم ولست بخيركم كان يعلم انه خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه وانما كرر به مرتين مرة قبل الشرط ومرة قبل الجزاء مبالغة فى التضرع (وانا) أى بما لنا من العظمة (على أن نريك) أى قبل موتك (ما نعدهم) من العذاب (لقادرون) لكنا نؤخره علما بأن بعضهم أو بعض أعقابهم يؤمنون وهو صادق بالقتل يوم بدر أو فتح مكة ثم كأنه قال فماذا أفعل فيما تعلم من أمرهم فقال تعالى (ادفع بالتى هى أحسن) أى من الاقوال والافعال بالصفح والمداراة (السيئة) اذاهم اياك وهذا قبل الامر بالقتال فهى منسوخة وقيل محكمة لان المداراة محثوث عليها ما لم تؤد الى نقصان دين أو مروأة (نحن أعلم بما يصفون) فى حقك وحقنا فلو شئنا منعناهم منه أو عاجلناهم بالعذاب وليس أحد بأغير منا فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل * ولما أدب سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يدفع بالتى هى أحسن علمه ما به يقوى على ذلك بقوله تعالى (وقل رب) أى أيها المحسن الى (أعوذ بك) اى التجئ اليك (من همزات الشياطين) أى أن يصلوا الى بوساوسهم وأصل الهمز النخس ومنه مهماز الرائض شبه حثهم الناس على المعاصى بهمز الرائض الدواب على المشى وانما جمع همزات لتنوع الوسواس أو لتعدد المضاف اليه (وأعوذ بك رب) أى أيها المربى لى (أن يحضرون) فى حال من الاحوال خصوصا حال الصلاة وقراءة القرآن وحلول الاجل لانها أحرى الاحوال وهم انما يحضرون بالسوء ولو لم تصل الى وساوسهم فان بعدهم بركة وعن جبير بن مطعم قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة قال عمرو لا أدرى أى صلاة هى فقال الله أكبر كبيرا ثلاثا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه قال نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة أخرجه أبو داود ولان الشعر يخرج من القلب فيلفظ به اللسان وينفثه كما ينفث الريق والمتكبر ينتفخ ويتعاظم ويجمع نفسه ويحتاج الى أن ينفخ والموتة الجنون والمجنون يصير فى الدنيا كالميتة ثم ان الله تعالى أخبر أن هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة الى الدنيا

عنـد معاينة الموت بقوله تعالى (حتى) وهى هنا كما قال الجلال المحلى ابتدائية أو متعلقة بيصفون أو بكاذبون كما قال الزمخشرى وقدم المفعول ليذهب الوهم فى فاعله كل مذهب فقال (اذا جاء أحدهم الموت) فكشف له الغطاء وظهر له الحق ولاحت له بوارق العذاب ولم يبق فى شئ من ذلك ارتياب (قال) متحسرا على مافرط فيه من الايمان والطاعة مخاطبا لملائكة العذاب على عادة جهله ووقوفه مع المحسوس من دأب البهائم (رب ارجعون) أى ردونى الى الدنيا دار العمل ويجوز أن يكون الجمع له تعالى وللملائكة أو للتعظيم على عادة مخاطبات الاكابر سيما الملوك كقوله * ألا فارحمونى يا اله محمد * وقوله * فان شئت حرمت النساء سواكم * أو القصد تكرير الفعل للتأكيد لانه فى معنى ارجعنى كما قيل فى قفا واطرقا فانهما بمعنى قف قف واطرق اطرق * ولما كان فى تلك الحالة مع وصوله الى الغرغرة ليس على القطع من اليأس قال (لعلى أعمل) أى لان كون على رجاء من أن اعمل (صالحا فيما تركت) أى ضيعت من الايمان بالله وتوابعه فيدخل فى الاعمال الاعمال البدنية والمالية وعنه صلى الله عليه وسلم اذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك الى الدنيا فيقول الى دار الهموم والاحزان بل قدوما على الله وأما الكافر فيقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت قال قتادة ماتمنى أن يرجع الى أهله ولا عشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضى الشهوات ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله فرحم الله امرأ عمل فيما تمناه الكافر اذا رأى العذاب وقال ابن كثير كان العلاء بن زياد يقول لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت واستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى * ولما كان القضاء قد قطع بأنه لا يرجع ولو رجع لم يعمل بطاعة الله عز وجل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون قال الله تعالى له ردعا ورداً لكلامه (كلا) أى لا يكون شئ من ذلك وكأنه قيل فما حكم ما قال فقيل (انها كلمة) والمراد بالكلمة فى اللغة الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض رب ارجعون الى آخره (هو قائلها) وقد عرف منه الخداع والكذب فهى كما عهد منه لا حقيقة لها فلا يجاب اليها ولا تسمع منه وهو لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه وتسلط الندم (ومن ورائهم) أى امامهم والضمير للجماعة (برزخ) أى حاجز حائل بينهم وبين الرجعة واختلف فى معناه فقال مجاهد حجاب بينهم وبين الرجوع الى الدنيا وقال قتادة بقية الدنيا وقال الضحاك البرزخ ما بين الموت الى البعث وقيل هو الموت وقيل هو القبر هم فيه (الى يوم يبعثون) وهو يوم القيامة وفى هذا اقناط كلى من الرجوع الى الدنيا لما علم أنه لا رجعة يوم البعث الى الدنيا وانما الرجوع فيه الى حياة تكون فى الآخرة (فاذا نفخ فى الصور) أى القرن روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنها النفخة الاولى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وعن ابن مسعود أنها النفخة الثانية قال يؤخذ بيد العبد والامة يوم القيامة فينصب على رؤس الاولين والآخرين ثم ينادى مناد هذا فلان بن فلان فمن كان له قبله حق فليأت الى حقه فيفرح المرء أن يكون له

قوله فى فاعله فيه تطرأه

حتى على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه فيأخذه منهم ثم قرأ ابن مسعود فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وفي رواية عطاء عن ابن عباس أنها النفخة الثانية فلا أنساب بينهم أي لا يتفاخرون بالانساب يومئذ كما كانوا يتفاخرون بها في الدنيا ولا يتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون في الدنيا من أنت ومن أي قبيل أنت ولم يرد أن الانسان ينقطع نسبه (فان قيل) قد قال تعالى هنا ولا يتساءلون وقال تعالى في موضع آخر وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (أجيب) بأن ابن عباس قال ان للقيامة أحوالا ومواطن ففي موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم عظم الامر عن التساؤل فلا يتساءلون وفي موطن يفيقون افاقة فيتساءلون وقيل التساؤل بعد دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار (فمن ثقلت موازينه) أي بالاعمال المقبولة قال البقاعي ولعل الجمع لان لكل عمل ميزانا يعرف أنه لا يصلح له غيره وذلك أدل دليل على القدرة (فأولئك) أي خاصة قال أيضا ولعله جمع للبشارة بكثرة الناجي بعد أن أفرد للدلالة على كثرة الاعمال أو على عموم الوزن لكل فرد (هم المفلحون) أي الفائزون بالنجاة والدرجات العلى (ومن خفت موازينه) لاعراضه عن تلك الاعمال المؤسسة على الايمان (فأولئك) خاصة (الذين خسروا أنفسهم) لاهلاكهم اياها باتباعها شهواتها في دار الاعمال وشغلها بأهوائها عن مراتب الكمال وقوله تعالى (في جهنم خالدون) بدل من الصلة أو خبر ثان لاولئك وهي دار لا ينفك أسيرها ولا ينطفئ سعيرها ثم استأنف قوله تعالى (تلفح) أي تغشى بشدة حرها وسمومها ووهجها (وجوههم النار) فتحرقها فما ظنك بغيرها واللفح كالنفح الا أنه أشد تأثيرا (وهم فيها كالحون) أي عابسون قد شمرت شفاههم العليا والسفلى عن أسنانهم وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته وقوله تعالى (ألم تكن آياتي) أي من القرآن على اضمار القول أي يقال لهم ألم تكن آياتي (تتلى عليكم) أي تتابع لكم قراءتها في الدنيا شيأ فشيأ (فكنتم بها تكذبون) ثم استأنف جوابه بقوله تعالى (قالوا ربنا) أي المسبغ علينا نعمه (غلبت علينا شقوتنا) أي ملكتنا بحيث صارت أحوالها مؤدية الى سوء العاقبة (وكنا) أي بما جبلتنا عليه (قوما ضالين) في ذلك عن الحق أقوياء في موجبات الشقوة فكان سببا للضلال عن طريق السعادة (ربنا) يامن عودنا بالاحسان (أخرجنا منها) أي من النار تفضلا منك على عادة فضلك وردنا الى دار الدنيا لنعمل ما يرضيك (فان عدنا) الى مثل ذلك الضلال (فانا ظالمون) لانفسنا ثم استأنف جوابهم بان (قال) لهم بلسان مالك بعد قدر الدنيا مرتين كما يقال للكلب (اخسؤا) أي انزجروا زجر الكلاب وانطردوا عن مخاطبتي ساكتين سكوت هوان (فيها) أي النار (ولا تكلمون) أصلا فانكم لستم بأهل لمخاطبتي لانكم لن تزالوا متصفين بالظلم فيأس القوم بعد ذلك ولا يتكلموا بكلمة الا الزفير والشهيق والعواء كعواء الكلاب وقال القرطبي اذا قيل لهم ذلك انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض فانطبقت عليهم وعن ابن عباس ان لهم ست

دعوات اذا دخلوا النار قالوا ألف سنة ربنا أبصرنا وسمعنا فيجابون حق القول منى فينادون ألفا ربنا أمتنا اثنتين فيجابون ذلكم بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم فينادون ألفا يا مالك ليقض علينا ربك فيجابون انكم ماكثون فينادون ألفا ربنا أخرجنا منها فيجابون أولم تكونوا أقسمتم فينادون ألفا أخرجنا نعمل صالحا فيجابون أولم نعمركم فينادون ألفا رب ارجعون فيجابون اخسؤا فيها ولا تكلمون ثم لا يكون لهم الا الزفير والشهيق والعواء ثم علل ذلك بقوله تعالى (انه كان) أى كونا ثابتا (فريق) أى ناس قد استضعفتموهم (من عبادى) وهم المؤمنون (يقولون) مع الاستمرار (ربنا) أى أيها المحسن الينا بالخلق والرزق (آمنا) أى أوقعنا الايمان بجميع ما جاءت به الرسل (فاغفر لنا) أى استر لنا زللنا (وارحمنا) أى افعل بنا فعل الراحم (وأنت خير الراحمين) لانك تخلص برحمتك من كل شقاء وهوان (فاتخذتموهم) أى فتسبب عن ايمانهم ان اتخذتموهم (سخريا) أى تسخرون منهم وتستهزؤن بهم وقرأ نافع وحمزة والكسائى بضم السين والباقون بالكسر وهو مصدر سخر كالسخر الا أن فى ياء النسب زيادة قوة فى الفعل كما قيل الخصوصية فى الخصوص وعن الكسائى والفراء ان المكسور من الهزء والمضموم من السخرية والعبودية أى تسخرونهم وتتعبدونهم قال الزمخشرى والاول مذهب الخليل وسيبويه انتهى وأظهر الذال عند التاء ابن كثير وحفص والباقون بالادغام (حتى أنسوكم ذكرى) أى بأن تذكرونى فتخافونى وأضاف ذلك اليهم لانهم كانوا السبب فيه لفرط اشتغالهم بالاستهزاء بهم (وكنتم منهم تضحكون) استهزاء بهم نزلت فى كفار قريش كانوا يستهزؤن بالفقراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل بلال وعمار وصهيب وخباب * ولما تشوقت النفس بعد العلم بما فعل بأعدائهم الى جزائهم قال الله تعالى (انى جزيتهم اليوم) أى بالنعيم المقيم (بما صبروا) أى على عبادتى ولم يشغلهم عنها تألمهم بأذاكم كما يشغلكم عنها التذاذكم باهانتهم ففازوا دونكم وهو معنى قوله تعالى (انهم هم الفائزون) أى بمطلوبهم الناجون من عذاب النار وقرأ حمزة والكسائى بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بفتحها على أنه مفعول ثان لجزيتهم ثم ان الله تعالى (قال) لهم على لسان الملك المأمور بسؤالهم تبكيتا وتوبيخا لانهم كانوا يظنون أن بعد الموت يدوم الفناء ولا اعادة فلما حصلوا فى النار وأيقنوا أنها دائمة وانهم فيها مخلدون سألهم (كم لبثتم فى الارض) على تلك الحال فى الدنيا التى كنتم تعدونها فوزا (عدد سنين) أنتم فيها ظافرون ولاعدائكم قاهرون وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى قل كم بضم القاف وسكون اللام على الامر للملك أو لبعض رؤساء أهل النار والباقون بفتح القاف واللام وألف بينهما خبرا وتقدم توجيهه وأظهر الثاء المثلثة عند التاء المثناة فوق نافع وابن كثير وعاصم وأدغمها الباقون (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) يشكون فى ذلك (فان قيل) كيف يصح فى جوابهم أن يقولوا ذلك ولا يقع من أهل النار الكذب (أجيب) بأنهم نسوا ذلك لكثرة ماهم فيه من الاهوال وقد اعترفوا بهذا النسيان حيث قالوا (فاسأل العادين) أى الملائكة المحصين أعمال الخلق وأعمارهم قال ابن عباس أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين وقيل قالوا ذلك

تصغير اللبثهم وتحقيراله بالاضافة الى ماوقعوا فيه من دوام العذاب قال بعضهم

ألا ان أيام الشقاء طويلة * كما أن أيام السرور قصار

وقرأ ابن كثير والكسائى بفتح السين وترك الهمز بعدها وكذا يفعل حمزة فى الوقف والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ثم (قال) الله تعالى لهم على لسان الملك (ان) أى ما (لبثتم) أى فى الدنيا (الا قليلا) لان الواحد وان طال مكثه فى الدنيا فانه يكون قليلا فى جنب ما يلبث فى الآخرة (لو أنكم كنتم تعلمون) أى فى عداد من يعلم فى ذلك الوقت لما آثرتم الفانى على الباقى ولا قبلتم على ما ينفعكم ولتركتم أفعالكم التى لا يرضاها عاقل ولكنكم كنتم فى عداد البهائم وقرأ حمزة والكسائى قل أمرا والباقون قال خبرا وابثتم تقدم مثله وتوجيه قال وقل ثم وبخهم الله تعالى على تغافلهم بقوله تعالى (أفحسبتم انما خلقناكم) على ما لنا من العظمة وقوله تعالى (عبثا) حال أى عابثين كقوله لاعبين أو مفعول له أى ما خلقناكم للعبث ولم يدعنا الى خلقكم الا حكمة اقتضت ذلك وهى أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصى (و) حسبتم (أنكم الينا لاترجعون) فى الآخرة للجزاء وروى البغوى بسنده عن أنس أن رجلا مصابا مر به على ابن مسعود فرقاه فى أذنه أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لاترجعون حتى ختم السورة فبرئ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال وقرأ حمزة والكسائى بفتح التاء الفوقية وكسر الجيم والباقون بضم الفوقية وفتح الجيم ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه عما يقوله ويصفه به المشركون بقوله تعالى (فتعالى الله) أى الذى له الجلال والجمال علوا كبيرا عن العبث وغيره مما لا يليق به (الملك) أى المحيط بأهل مملكته علما وقدرة وسياسة وحفظا ورعاية (الحق) أى الذى لا يتطرق الباطل اليه فى شئ فى ذاته ولا فى صفاته فلا زوال له ولا لملكه (لا اله الا هو) فلا يوجد له نظير أصلا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله فهو متعال عن سمات النقص والعبث ثم زاد فى التعيين والتأكيد والتفرد بوصفه بصفة لا يدعيها غيره بقوله تعالى (رب العرش) أى السرير المحيط بجميع الكائنات الذى تنزل منه محكمات الاقضية والاحكام ولذا وصفه بالكرم فقال (الكريم) أو لنسبته الى أكرم الاكرمين * ولما بين سبحانه وتعالى أنه الملك الحق لا اله الا هو أتبعه بأن من ادعى الها آخر فقد ادعى باطلا بقوله تعالى (ومن يدع مع الله) أى الملك الذى لا كفء له (الها آخر) يعبده (لا برهان له به) أى بسبب دعائه بذلك اذا اجتهد فى اقامة برهان على ذلك لم يجد ثم ذكر أن من قال ذلك فجزاؤه العقاب العظيم بقوله تعالى (فانما حسابه) أى جزاؤه الذى لا يمكن زيادته ولا نقصه (عند ربه) أى الذى رباه ولم يربه أحد سواه الذى هو أعلم بسريرته وعلانيته فلا يخفى عليه شئ من أمره * ولما افتتح السورة بقوله قد أفلح المؤمنون ختمها بقوله (انه لا يفلح الكافرون) أى لا يسعدون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة * ولما شرح الله تعالى أحوال الكفار فى جهلهم فى الدنيا وعذابهم فى الآخرة أمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام بالانقطاع اليه والالتجاء الى غفرانه ورحمته بقوله تعالى (وقل رب) أى أيها المحسن الى (اغفر وارحم) أى أكرمنى بهذين

الوصفين

الوصفين (وأنت خير الراحمين) فمن رحمته أفلح بما وفقه له من امتثال ما أشرت اليه أول السورة فكان من المؤمنين وكان من الوارثين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون فقد انطبق على الاول هذا الآخر بفوز كل مؤمن وخيبة كل كافر فنسأل الله تعالى أن يكون لنا ولوالدينا ولاحبابنا ارحم راحم وخير غافر انه المتولى للسرائر والمرجو لاصلاح الضمائر وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المؤمنون بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقربه عينه عند نزول ملك الموت حديث موضوع وقوله أيضا تبعا للزمخشرى روى أن أول سورة قد أفلح وآخرها من كنوز العرش من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ بأربع آيات من آخرها فقد نجا وأفلح قال شيخ شيخنا ابن حجر حافظ عصره لم أجده

(سورة النور مدنية)

(وهى ثنتان أو أربع وستون آية)

(بسم الله) الذى تمت كلمته فبهرت قدرته (الرحمن) الذى ظهرت الحقائق كلها بشمول رحمته (الرحيم) الذى شرف من اختاره بخدمته قوله تعالى (سورة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذه سورة أى عظيمة أو سورة أنزلناها مبتدأ موصوف والخبر محذوف أى فيما أوحينا اليك سورة أنزلناها وقال الاخفش لا يبعد الابتداء بالنكرة فسورة مبتدأ وأنزلناها خبره ثم رغب فى امتثال ما فيها مبينا أن تنوينها للتعظيم بقوله تعالى (أنزلناها) أى بما لنا من العظمة وتمام العلم والقدرة (وفرضناها) أى قدرنا ما فيها من الحدود وقيل أوجبناها عليكم وعلى من بعدكم الى قيام الساعة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد الراء لكثرة الفروض والباقون بالتخفيف (وأنزلنا فيها آيات) من الحدود والاحكام والمواعظ والامثال وغيرها (بينات) أى واضحات الدلالة (لعلكم تذكرون) أى تتعظون وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد ثم انه تعالى ذكر فى السورة أحكاما كثيرة * الحكم الاول قوله تعالى (الزانية والزانى) أى غير المحصنين لرجمهما بالسنة وأل فيما ذكر موصولة وهو مبتدأ ولشبهه بالشرط دخلت الفاء فى خبره وهو (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) أى ضربة يقال جلده اذا ضرب جلده ويزاد على ذلك بالسنة تغريب عام والرقيق على النصف مما ذكر ولا رجم عليه لانه لا يتنصف واعلم أن الزنا من الكبائر ويدل عليه أمور أحدها ان الله تعالى قرنه بالشرك وقتل النفس فى قوله تعالى ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ثانيها قوله تعالى ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا ثالثها ان الله تعالى أوجب المائة فيه بكمالها بخلاف حد القذف وشرب الخمر وشرع فيه الرجم وروى حذيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يا معشر الناس اتقوا الزنا فان فيه ست خصال ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة أما اللاتى فى الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر وأما اللاتى فى الآخرة فسخط الله سبحانه وتعالى وسوء الحساب وعذاب النار وعن عبد الله قال قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم عند الله قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك

قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك قلت ثم أى قال أن تزنى بحليلة جارك فأنزل الله تعالى تصديقه الذلك والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون والزنا ايلاج حشفة أو قدرها من مقطوعها من الذكر المتصل الاصلى من الآدمى الواضح ولو أشل وغير منتشر وكان ملفوفا فى خرقة بقبل محرم فى نفس الامر لعينه خال عن الشبهة المسقطة للحد مشتهى طبعا بأن كان فرج آدمى حى ولا يشترط ازالة البكارة حتى لو كانت غوراء وأدخل الحشفة فيها ولم تزل بكارتها ترتب عليه حد الزنا بخلاف التحليل لا بد فيه من ازالة البكارة لقوله صلى الله عليه وسلم حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك واختلف فى اللواط هل يطلق عليه اسم الزنا أولا فقال بعضهم يطلق عليه لقوله صلى الله عليه وسلم اذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان والذى عليه أكثر أصحابنا أنه غير داخل تحت اسم الزنا لانه لو حلف لا يزنى فلاط لم يحنث والحديث محمول على الاثم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم اذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان وللشافعى فى حده قولان أصحهما أن الفاعل ان كان محصنا فانه يرجم والا فيجلد مائة ويغرب عاما وأما المفعول فلا يتصور فيه احصان فيجلد ويغرب والقول الثانى يقتل الفاعل والمفعول به سواء كان محصنا أم لا لما روى عن ابن عباس انه قال من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به وأما اتيان البهائم فحرام باجماع الائمة واختلف فى عقوبته على أقوال أحدها حد الزنا فيرجم الفاعل المحصن ويجلد غيره ويغرب والثانى أنه يقتل محصنا كان أو غير محصن لما روى عن ابن عباس أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه والثالث وهو الاصح أنه يعزر لان الحد شرع للزجر عما تميل النفس اليه وضعفوا حديث ابن عباس لضعف اسناده وهو وان ثبت فهو معارض بما روى انه صلى الله عليه وسلم نهى عن ذبح الحيوان الا لمأكله وأما السحاق من النساء واتيان المرأة الميتة والاستمناء باليد فلا يشرع فيه شئ من ذلك الا التعزير والمقيم للحد هو الامام أو نائبه وللسيد ان يقيم الحد على رقيقه ولا تجوز الشفاعة فى اسقاط الحد ولا تركه ولا تخفيفه كما قال تعالى (ولا تأخذكم) أى على أى حال من الاحوال (بهما رأفة) أى رحمة ورقة فتعطلوا الحدود ولا تقيموها وقرأ ابن كثير بفتح الهمزة والباقون بسكونها والسوسى على أصله من البدل وقيل معنى الرأفة أن يخففوا الضرب (فى دين الله) أى الذى شرعه لكم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها روى أن عمر رضى الله عنه جلد جارية له زنت فقال للجلاد اضرب ظهرها ورجليها فقال له ابنه ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله فقال يا بنى ان الله تعالى لم يأمرنا بقتلها وقد ضربت فأوجعت ثم انه سبحانه وتعالى زاد فى الحض على ذلك بقوله تعالى (ان كنتم تؤمنون بالله) أى الذى هو أرحم الراحمين فانه ما شرع ذلك الا رحمة للناس عموما وللزانين خصوصا فلا تزيدوا فى الحد ولا تنقصوا منه شيأ وفى الحديث يؤتى بوال نقص من الحدود سوطا فيقول رحمة لعبادك فيقال له أنت أرحم منى فيؤمر به الى النار ويؤتى بمن زاد سوطا فيقول لينتهوا عن معاصيك فيؤمر به الى النار وعن أبى هريرة اقامة حد بأرض خير من مطر

أربعين ليلة ثم أتبع ذلك بما رهبه بقوله تعالى (واليوم الآخر) الذي يحاسب فيه على النقير والقطمير والخفي والجلي (وليشهد) أي وليحضر (عذابهما) أي حدهما اذا أقيم عليهما (طائفة من المؤمنين) والطائفة الفرقة التي يمكن أن تكون حلقة وأقلها ثلاثة أو أربعة وهي صفة غالبة كأنها الجماعة الحافة حول الشيء وعن ابن عباس في تفسيرها أربعة الى أربعين رجلا من المصدقين بالله تعالى وعن الحسن عشرة وعن قتادة ثلاثة فصاعدا وعن عكرمة رجلان فصاعدا وعن مجاهد أقلها رجل فصاعدا وقيل رجلان وفضل قول ابن عباس لان الاربعة هي الجماعة التي يثبت بها الزنا ولا يجب على الامام حضور رجم ولا على الشهود لانه صلى الله عليه وسلم أمر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما وانما خص المؤمنين بالحضور لان ذلك أفضح والفاسق بين صلحاء قومه أخجل ويشهد له قول ابن عباس الى أربعين رجلا من المصدقين بالله * (تنبيه) * الضرب يكون بسوط لا حديد يجرح ولا خلق لا يؤلم ويفرق بين السياط على أعضائه ولا يجمعها في موضع واحد واتفقوا على أنه يتقي المهالك كالوجه والبطن والفرج ويضرب على الرأس لقول أبي بكر رضي الله عنه اضرب على الرأس فان الشيطان فيه ولا يشدد يده وينزع الثياب التي تمنع ألم الضرب كالفرو ولو فرق سياط الحد تفريقا لا يحصل به التنكيل مثل أن يضرب كل يوم سوطا أو سوطين فان فرق وضرب والالم موجود كفى وان وجب الحد على حامل لا يقام عليها حتى تضع وترضعه حتى ينفطم ويندب أن يحفر للمرأة الى صدرها ان ثبت زناها بالبينة لا باقرارها ولا يندب للرجل مطلقا وان وجب الحد على المريض نظر ان كان يرجى زواله كصداع انتظر أو لا يرجى كالزمانة فلا يؤخر ولا يضرب بالسياط بل بعثكال عليه مائة شمراخ فيقوم ذلك مقام جلده وأما في حال الحر والبرد الشديدين فان كان الحد رجما لم يؤخر لان النفس مستوفاة وان كان جلدا أخر الى اعتدال الهواء ويقبل رجوع الزاني عن اقراره ولو في أثناء الحد واذا مات في الحد يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين * الحكم الثاني قوله تعالى (الزاني لا ينكح) أي لا يتزوج (الا زانية أو مشركة) أي المعلوم اتصافه بالزنا مقصور نكاحه على زانية ومشركة (والزانية لا ينكحها) أي لا يتزوجها (الا زان أو مشرك) أي والمعلوم اتصافها بالزنا مقصور نكاحها على زان أو مشرك اذ الغالب أن المائل الى الزنا لا يرغب في نكاح الصوالح والمسافحة لا يرغب فيها الصلحاء فان المشاكلة علة الالفة والانضمام والمخالفة سبب النفرة والافتراق وقال بعضهم الجنسية علة الضم والمشاكلة سبب المواصلة والمخالفة توجب المباعدة وتحرم المؤالفة وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وعن علي رضي الله تعالى عنه أنه خطب أهل الكوفة بعد ثلاثة أيام من مقدمه عليهم فقال يا أهل الكوفة قد علمنا شراركم من خياركم فقالوا كيف ومالك الا ثلاثة أيام فقال كان معنا شرار وخيار فانضم خيارنا الى خياركم وشرارنا الى شراركم وعن الشعبي انه قال ان لله ملكا موكلا بجمع الاشكال بعضها الى بعض وقال القائل

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى

فان قيل لم قدمت الزانية على الزانى أولا ثم قدم عليها ثانيا (أجيب) بأن تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ماجنيا والمرأة هى المادة التى منها نشأت الجناية لانها لو لم تطمع الرجل ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن فلما كانت أصلا وأولا فى ذلك بدئ بذكرها وأما الثانية فسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لانه الراغب فيه والخاطب ومنه يبدو الطلب (وحرم ذلك) أى نكاح الزانى والزانية تحريما لامشوبة فيه (على المؤمنين) واختلف العلماء فى معنى الآية وحكمها فقال قوم منهم مجاهد وعطاء وقتادة والزهرى والشعبى ورواية عن ابن عباس قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لامال لهم ولاعشائر وبالمدينة نساء بغايا حتى يومئذ أخصب أهل المدينة فرغب ناس من فقراء المسلمين فى نكاحهن لينفقن عليهم فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك فنزلت هذه الآية وحرم ذلك على المؤمنين أن يتزوجوا تلك البغايا لانهن كن مشركات وقال عكرمة نزلت فى نساء كن بمكة وبالمدينة لهن رايات يعرفن بهن منهن أم مهزول جارية السائب ابن أبى السائب المخزومى وكان الرجل ينكح الزانية فى الجاهلية يتخذها مأكلة فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الصفة فاستأذن رجل منهم النبى صلى الله عليه وسلم فى نكاح أم مهزول فاشترطت أن تنفق عليه فنزلت هذه الآية وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رجل يقال له مرثد بن أبى مرثد الغنوى وكان يحمل الاسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة وكانت بمكة بغى يقال لها عناق وكانت صديقة له فى الجاهلية فلما أتى مكة دعته عناق الى نفسها فقال مرثد ان الله حرم الزنا فقالت فانكحنى فقال حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله أنكح عناقا فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرد على شيأ فنزل الزانى لاينكح الازانية أومشركة والزانية لاينكحها الازان أومشرك فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأها على وقال لاتنكحها أخرجه الترمذى والنسائى وأبو داود بألفاظ متقاربة المعنى فعلى قول هؤلاء كان التحريم خاصا فى حق أولئك دون سائر الناس وقال قوم منهم سعيد بن جبير والضحاك ورواية عن ابن عباس المراد من النكاح هو الجماع ومعنى الآية الزانى لايزنى الابزانية أومشركة والزانية لاتزنى الابزان أومشرك وقال يزيد بن هرون ان جامعها وهو مستحل فهو مشرك وان جامعها وهو محرم فهو زان وعن عائشة رضى الله عنها ان الرجل اذا زنى بامرأة ليس له أن يتزوجها لهذه الآية واذا باشرها كان زانيا وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية ويقول اذا تزوج الزانى الزانية فهما زانيان أبدا وقال الحسن الزانى المجلود لاينكح الازانية مجلودة والزانية المجلودة لاينكحها الازان مجلود وقال سعيد ابن المسيب وجماعة منهم الشافعى رحمه الله تعالى ان حكم الآية منسوخ وكان نكاح الزانية حراما بهذه الآية فنسخها الله تعالى بقوله تعالى وأنكحوا الايامى منكم وهو جمع أيم وهى من لا زوج لها فدخلت الزانية فى ايامى المسلمين واحتج من جوز نكاح الزانية بماروى عن جابر أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ان امرأتى لاتمنع يد لامس قال طلقها قال فانى

أحبها وهي جميلة قال استمتع بها وفي رواية غيره أمسكها اذا وقد أجازه ابن عباس وشبهه بمن سرق ثمرة ثم اشتراه وعنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن ذلك فقال أوله سفاح وآخره نكاح وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه ضرب رجلا وامرأة زنيا وحرص أن يجمع بينهما فأبى الغلام * ولما نفر سبحانه وتعالى عن نكاح من اتصف بالزنا من رجل أو امرأة نهى عن الرمي به فقال تعالى (والذين يرمون) أي بالزنا (المحصنات) جمع محصنة وهي هنا المسلمة الحرة المكلفة العفيفة وهذا هو الحكم الثالث والذي يدل على أن المراد الرمي بالزنا أمور أحدها تقدم ذكر الزنا ثانيها أنه تعالى ذكر المحصنات وهن العفائف فدل ذلك على أن المراد بالرمي رميها بضد ذلك ثالثها انعقاد الاجماع على انه لا يجب الجلد بالرمي بغير الزنا فوجب أن يكون المراد هو الرمي بالزنا رابعها قوله تعالى (ثم لم يأتوا) أي الى الحكام (بأربعة شهداء) أي ذكور ومعلوم ان هذا العدد من الشهود غير شرط الا في الزنا وشرط القاذف الذي يحد بسبب القذف التكليف والاختيار والتزام الاحكام والعلم بالتحريم وعدم اذن المقذوف وأن يكون غير أصل وألفاظ القذف تنقسم الى صريح وكناية وتعريض فمن الصريح قوله لرجل أو امرأة زنيت أو زنيت أو يا زاني أو يا زانية ولو كسر التاء في خطاب الرجل وفتحها في خطاب المرأة أو زنيت في الجبل ومن الكناية زنأت وزنأت في الجبل بالهمز فان نوى بذلك القذف كان قذفا والا فلا ومن التعريض يا ابن الحلال وأما أنا فلست بزان فهذا ليس بقذف وان نواه (فان قيل) اذا كان ذلك القذف يشمل الذكر والانثى فلم كانت الآية الكريمة في الاناث فقط (أجيب) بأن الكلام في حقهن أشنع وتنبيها على عظيم حق أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله تعالى عنها وحد القاذف الحر ثمانون كما قال تعالى (فاجلدوهم) أي أيها المؤمنون من الائمة ونوابهم (ثمانين جلدة) لكل واحد منهم لكل محصنة وحد القاذف الرقيق ولو مبعضا أو مكاتبا أربعون جلدة على النصف من الحر لآية النساء فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب فهذه الآية مخصوصة بتلك اذ لا فرق بين الذكر والانثى ولا بين حد الزنا وحد القذف ويدل على ان المراد بالآية الاحرار قوله تعالى (ولا تقبلوا لهم) أي بعد قذفهم (شهادة) أي شهادة كانت (أبدا) للحكم بافترائهم لان العبد لا تقبل شهادته وان لم يقذف * ولما كان التقدير انهم قد افتروا عطف عليه تحذيرا من الاقدام عليه من غير تثبت (وأولئك) أي الذين تقدم ذمهم بالقذف فنزلت رتبتهم جدا (هم الفاسقون) أي المحكوم بفسقهم الثابت لهم هذا الوصف وان كان القاذف منهم محقا في نفس الامر وفي ذلك دليل على أن القذف من الكبائر لان اسم الفسق لا يقع الا على صاحب كبيرة واختلف العلماء في قبول شهادة القاذف بعد التوبة وحكم هذا الاستثناء المذكور في قوله (الا الذين تابوا) أي رجعوا عما وقعوا فيه من القذف وغيره وندموا عليه وعزموا على أن لا يعودوا (من بعد ذلك) أي الامر الذي أوجب ابعادهم فذهب قوم الى ان القاذف ترد شهادته بنفس القذف فاذا تاب وصلح حاله كما قال تعالى (وأصلحوا) أي بعد التوبة بمضي مدة يظن بها حسن الحال وهي سنة يعتبر بها حال التائب بالفصول الاربعة التي تكشف

الطبائع (فان الله) أى الذى له صفات الكمال (غفور) أى ستور لهم ما أقدموا عليه لرجوعهم عنه (رحيم) أى يفعل بهم من الاكرام فعل الراحم بالمرحوم فى قبول الشهادة وقبلت شهادته سواء قبل الحد وبعده وزال عنه اسم الفسق وقالوا هذا الاستثناء يرجع الى رد الشهادة والى الفسق وروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس وجمع من الصحابة وبه قال مالك والشافعى وذهب قوم الى أن شهادة المحدود فى القذف لا تقبل أبدا وان تاب وقالوا الاستثناء يرجع الى قوله وأولئك هم الفاسقون وروى ذلك عن النخعى وشريح وبه قال أصحاب الرأى قالوا بنفس القذف لا ترد شهادته ما لم يحد قال الشافعى هو قبل أن يحد شر منه حين يحد لان الحدود كفارات فكيف يرد بها فى أحسن حاليه وذهب الشعبى الى أن حد القذف يسقط بالتوبة (فان قيل) اذا قلتم بالاول فما معنى قوله تعالى أبدا (أجيب) بأن معنى أبدا ما دام مصرا على القذف لان أبد كل انسان مدته على ما يليق بحاله كما يقال لا تقبل شهادة الكافر أبدا يراد بذلك ما دام على كفره فاذا أسلم قبلت شهادته * (تنبيهان) * الاقرار بالزنا هل يثبت بشهادة رجلين أو أربع كالزنا فيه قولان أصحهما أنه يثبت برجلين بخلاف فعل الزنا لان الفعل يغمض الاطلاع عليه واذا شهد على فعل الزنا يجب أن يذكر الزانى ومن زنى بها لانه قد يراه على جارية لابيه فيظنه زنا يوجب الحد وأن يقول فى شهادته رأيت ذكره يدخل فى فرجها وان لم يقل دخول الميل فى المكحلة لكن قوله ذلك أولى فلو شهدوا مطلقا أنه زنى لم يقبلوا لانهم ربما يرون المفاخذة زنا ويشترط أيضا أن يفسر فى اقراره كالشهود ويصح رجوعه عن الاقرار ولو فى أثناء الحد كما مر ولا فرق فى قبول الشهادة بين أن يجىء الشهود متفرقين أو مجتمعين كما قاله الشافعى وقال أبو حنيفة اذا شهدوا متفرقين لا يثبت وعليهم حد القذف ولو شهد على الزنا أقل من أربعة أو أربعة وفيهم الزوج لم يثبت الزنا وعليهم الحد لان شهادة الزوج لا تقبل فى حق زوجته قال ابن الرفعة فى الكفاية لامرين أحدهما أن الزنا تعرض لمحل حق الزوج فان الزانى يستمتع بالمنافع المستحقة له فشهادته فى حقها تتضمن اثبات جناية الغير على ما هو مستحق له فلم تسمع كما اذا شهد أنه جنى على عبده والثانى أن من شهد بزنا زوجته فنفس شهادته دال على اظهار العداوة لان زناها يوغر صدره بتلطيخ فراشه وادخال الغير عليه وعلى ولده وهو أبلغ من مؤلم الضرب وفاحش السب ولو قذف رجل وجاء بأربعة فساق شهدوا على المقذوف بالزنا لم يحد والان شرائط الشهادة بالزنا قد وجدت عند القاضى الا أنه لم تقبل شهادتهم لاجل التهمة فكما اعتبرنا التهمة فى نفى الحد عن المشهود عليه فكذلك اوجبنا اعتبارها فى نفى الحد عنهم * ولما كان لفظ المحصنات عاما للزوجات وكان لهن حكم غير ما تقدم وهو الحكم الرابع أفردهن بقوله (والذين يرمون) أى بالزنا (أزواجهم) أى من المؤمنات والكافرات الحرائر والاماء (ولم يكن لهم شهداء) يشهدون على صحة ما قالوه (الا أنفسهم) أى غير أنفسهم وهذا ربما يفهم أنه اذا كان الزوج أحد الاربعة كفى وهذا المفهوم معطل لكونه حكاية حال واقعة لا شهود فيها وقوله تعالى فى الآية قبلها ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فانه يقتضى كون الشهداء غير الرامى بالزنا ولعله استثناه

من الشهداء لان لعانه يكون بلفظ الشهادة ومذهب الشافعي أنه لا يقبل في ذلك كما قدمناه (فشهادة أحدهم) أى فالواجب شهادة أحدهم على من رماها أو فعليهم شهادة أحدهم (أربع شهادات) من خمس في مقابلة أربعة شهداء (بالله) أى مقرونة بهذا الاسم الكريم الاعظم الموجب لاستحضار جميع صفات الجلال والجمال (انه لمن الصادقين) أى فيما قذفها به وقرأ حفص وحمزة والكسائى برفع العين على أنه خبر شهادة والباقون بنصبها على المصدر (والخامسة ان لعنت الله) أى الملك الاعظم (عليه) أى القاذف نفسه (ان كان من الكاذبين) فيما رماها به وقرأ نافع بتخفيف ان ساكنة ورفع لعنة والباقون بتشديد النون منصوبة ونصب لعنة ورسمت لعنة بتاء مجرورة ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائى ووقف الباقون بالتاء واذا وقف الكسائى أمال الهاء هذا لعان الرجل وحكمه سقوط حد القذف عليه وحصول الفرقة بنفسه فرقة فسخ عندنا لقوله صلى الله عليه وسلم المتلاعنان لا يجتمعان أبدا و بتفريق الحاكم فرقة طلاق عند أبي حنيفة ونفي الولد ان تعرض له فيه وثبوت حد الزنا على المرأة بقوله تعالى (ويدرأ) أى يدفع (عنها) أى المقذوفة (العذاب) أى المعهود وهو الحد الذى أوجبه عليها كما تقدم (أن تشهد أربع شهادات) من خمس (بالله) الذى له جميع الاسماء الحسنى والصفات العلا كما تقدم في الزوج (انه لمن الكاذبين) فيما قاله عليها (والخامسة) من الشهادات (ان غضب الله) الذى له الامر كله (عليها ان كان من الصادقين) أى فيما رماها به روى البخارى في تفسيره وغيره عن ابن عباس ان هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال له النبي صلى الله عليه وسلم البينة أو حد في ظهرك فقال يارسول الله اذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول البينة أو حد في ظهرك فقال هلال بن أمية والذى بعثك بالحق انى لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهرى من الحد فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه والذين يرمون أزواجهم حتى بلغ ان كان من الصادقين فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل اليهما فجاآ فقام هلال بن أمية فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول والله يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة أوقفوها وقالوا انها موجبة قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت لا أفضح قومى سائر اليوم فمضت وقال النبي صلى الله عليه وسلم أبصروها فان جاءت به أكحل العينين سابغ الاليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء فجاءت به كذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لولا ما مضى من كتاب الله لكان لى ولها شأن وقد روى البخارى أيضا عن سهل بن سعد أن سبب نزولها قصة مثل هذه لعويمر رضى الله عنه وقد تقدم أنه لا يمتنع أن يكون للآية الواحدة عدة أسباب معا أو متفرقة *(تنبيه)* خصت المرأة بالغضب لانه أبلغ من اللعن الذى هو الطرد لانه قد يكون بسبب غير الغضب وسبب التغليظ عليها الحث على اعترافها بالحق لما يصدق الزوج من القرينة من أنه لا يتجشم فضيحة أهله المستلزم لفضيحته الا وهو صادق ولانها مادة الفساد وخالطة الانساب ويشترط في اللعان أمر القاضى وتلقينه

كلماته في الجانبين فيقول قل أشهد بالله الخ لان اللعان يمين واليمين لا يعتد بها قبل استحلاف القاضي وان غلب فيه معنى الشهادة فهي لا تؤدى عنده الا باذنه وان يتأخر لعانها عن لعانه لان لعانها لاسقاط الحد الذي وجب عليها بلعان الزوج كما علم مما مرّ ويلاعن أخرس باشارة مفهمة أو كتابة ويكرر كلمة الشهادة أربعا أو يكتبها مرة ويشير اليها أربعا ويصح اللعان بالعجمية وان عرف العربية ويشترط الولاء بين الكلمات الخمس فيؤثر الفصل الطويل ولا يشترط الولاء بين لعاني الزوجين ولو أبدل لفظ شهادة بحلف ونحوه أو لفظ غضب بلعن أو عكسه أو ذكره قبل تمام الشهادة لم يصح ذلك ويصح أن يتلاعنا قائمين وان يغلظ اللعان بزمان وهو بعد عصر الجمعة فيؤخر اليه ان لم يكن طلب اكيد والا فبعد عصر أي يوم كان وبمكان عند أشرف بلد اللعان فبمكة بين الحجر الاسود والمقام وهو المسمى بالحطيم والمدينة على المنبر وبيت المقدس عند الصخرة وغيرها على منبر الجامع وتلاعن حائض بباب المسجد وذمي في بيعة للنصارى وكنيسة لليهود وبيت نار لمجوس لانهم يعظمونها لا بيت أصنام وثني لانه لا حرمة له وقرأ حفص والخامسة الاخيرة بالنصب والباقون بالرفع وقرأ نافع بتخفيف النون ساكنة وكسر الضاد ورفع الهاء من الاسم الجليل والباقون بتشديد النون منصوبة ونصب الضاد وخفض الهاء * ولما حرم سبحانه وتعالى بهذه الجمل الاعراض والانساب فصان بذلك الدين والاموال علم أن التقدير فلولا أنه سبحانه خير الغافرين وخير الراحمين لما فعل بكم ذلك ولافضح المذنبين وأظهر سرائر المستخفين فقصد النظام فعطف على هذا الذي علم تقديره قوله تعالى (ولولا فضل الله) أي بماله من الكرم والاتصاف بصفات الكمال (عليكم ورحمته) أي بكم بالستر في ذلك (وان الله) أي الذي أحاط بكل شئ قدرة وعلما (تواب) بقبوله التوبة في ذلك وغيره ذلك (حكيم) يحكم الامور فيمنعها من الفساد بما يعلم من عواقب الامور لفضح كل عاص ولم يوجب أربعة شهداء ستراً لكم * الحكم الخامس قصة الافك المذكورة في قوله تعالى (ان الذين جاؤا بالافك) أي أسوأ الكذب سمي افكا لكونه مصروفا عن الحق من قولهم أفك الشئ اذا صرفه عن جهته وذلك أن عائشة رضي الله تعالى عنها وعن أبويها كانت تستحق الثناء لما كانت عليه من الحصانة والشرف والعفة والكرم فمن رماها بسوء فقد قلب الامر عن أحسن وجوهه الى أقبح افضائه (فان قيل) لم ترك تسميتها (أجيب) بأنه تركه تنزيها لها عن هذا المقال وابعادا لصون جانبها العلي عن هذا المراد وقوله تعالى (عصبة) خبر ان أي جماعة أقلهم عشرة وأكثرهم أربعون وكذا العصابة وقوله تعالى (منكم) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعائشة وصفوان ممن يعد عندكم في عداد المسلمين يريد عبد الله بن أبي وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم وقوله تعالى (لا تحسبوه شرا لكم) مستأنف أي لا تنشأ عنه فتنة ولا يصدقه أحد (بل هو خير لكم) لاكتسابكم به الثواب العظيم لانه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة وظهور كرامتكم على الله تعالى بانزال ثماني عشرة آية في براءتكم وتعظيم شأنكم وتهويل الوعيد لمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيرا كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن

رسول

رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له وتبرئة لام المؤمنين رضوان الله تعالى عليها وتطهير لاهل البيت وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه وعدة ألطاف للسامعين والتالين الى يوم القيامة وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأملها ولما كان لا شفاء لغيظ الانسان أعظم من انتصار الملك الديان له علل ذلك بقوله تعالى (لكل امرئ منهم) أى الآفكين (ما اكتسب) أى بخوضه فيه (من الاثم) الموجب لشقائه (والذى تولى كبره) أى معظمه (منهم) أى من الخائضين وهو ابن أبى فانه بدأ به وأذاعه عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو هو وحسان ومسطح فانهما تابعاه بالتصريح به والذى بمعنى الذين على هذا (له عذاب عظيم) فى الآخرة أو فى الدنيا بأن جلدوا وصار ابن أبى مطرودا مشهورا بالنفاق وحسان أعمى أشل اليدين ومسطح مكفوف البصر * (تنبيه) * قصة الافك معروفة فى الصحيح والسنن وغيرهما شهيرة جدا ولكن نذكر منها طرفا تبركا بذكر النبى صلى الله عليه وسلم وبذكر السيدة عائشة وأبويها رضى الله تعالى عنهم فنقول عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه قالت عائشة فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما أنزل الحجاب فكنت أحمل فى هودج وأنزل فيه فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين فآذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت الى رحلى فلمست صدرى واذا عقد لى من جزع أظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه قالت وأقبل الرهط الذين يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه وهم يحسبون أنى فيه وكان النساء اذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم انما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدى بعد ما سار الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب فيممت منزلى الذى كنت فيه وظننت انهم سيفقدوننى فيرجعون الى فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت وكان صفوان بن معطل السلمى ثم الذكوانى رضى الله تعالى عنه قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلى فرأى سواد انسان نائم فعرفنى حين رآنى وكان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فقمت اليها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول فهلك من هلك وكان الذى تولى كبر الافك منهم عبد الله بن أبى ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهرا والناس يفيضون فى قول أصحاب الافك ولا أشعر بشئ من ذلك وهو يريبنى فى وجعى انى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى انما يدخل فيسلم ثم يقول كيف تيكم ثم ينصرف فذلك الذى يريبنى فيه ولا أشعر بالشر حتى نقهت فخرجت أنا وأم مسطح

قبل المناصع وكان متبرزنا وكنا لا نخرج الا ليلا الى ليل وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الاولى فى البرية وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا فأقبلت أنا وأم مسطح حين فرغنا من شأننا نمشى فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرا فقالت ياهنتاه أولم تسمعى ما قال قالت وما قال فأخبرتنى بقول أهل الافك فازددت مرضا على مرضى فلما رجعت الى بيتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال كيف تيكم فقلت له أتأذن لى ان آتى أبوى قالت وأنا أريد ان أستيقن الخبر من قبلهما قالت فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيت أبوى فقلت لامى يا أماه ماذا يتحدث الناس قالت يابنية هونى عليك فوالله ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر الا أكثرن عليها قالت فقلت سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله قالت فأما أسامة فأشار على النبى صلى الله عليه وسلم بما يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم لهم فى نفسه من الود فقال أسامة هم أهلك يارسول الله ولا نعلم والله الا خيرا وأما على فقال يارسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال أى بريرة هل رأيت من شئ يريبك قالت والذى بعثك بالحق ان رأيت عليها أمرا قط أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبى ابن سلول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يامعشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى والله ما علمت على أهلى الا خيرا وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا ولم يدخل على أهلى الا معى قالت فقام سعد أخو بنى عبد الاشهل فقال أنا يارسول الله أعذرك فان كان من الاوس ضربت عنقه وان كان من أخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج قالت وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن حملته الحمية فقال لسعد كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن تقتله فقام أسيد بن حضير ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين قالت فثار الحيان الاوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت قالت فبكيت يومى ذلك كله لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم قالت وأصبح أبواى عندى وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لى دمع حتى انى لاظن أن البكاء فالق كبدى فبينما أبواى جالسان عندى وأنا أبكى فاستأذنت على امرأة من الانصار فأذنت لها فجلست تبكى معى قالت فبينما نحن على ذلك اذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل قبلها وقد لبث شهرا لا يوحى اليه فى شأنى بشئ قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين

جلس ثم قال أما بعد يا عائشة انه بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه فان العبد اذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى لا أحس منه بقطرة فقلت لابي أجب رسول الله فيما قال فقال اني والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لامي أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال فقالت أمي والله ما أدري ما أقول لرسول الله فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرا والله لقد علمت ما سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم اني بريئة لا تصدقوني ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم اني منه بريئة لتصدقوني فوالله لا أجد لي ولا لكم مثلا الا ما قال العبد الصالح أبو يوسف ولم اذكر اسمه حين قال فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ثم تحولت واضطجعت على فراشي والله يعلم حينئذ أني بريئة والله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن الله ينزل في شأني وحيا يتلى لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله تعالى في بأمر ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل الله تعالى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه عند الوحي من البرحاء حتى انه ليتحدر منه العرق مثل الجمان في اليوم الشاتي من ثقل الذي أنزل عليه فسجي بثوب فوالله ما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت ان نفس أبوي ستخرجان فرقا من أن يأتي الله بتحقيق ما قال الناس فلما سري عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال أبشري يا عائشة قد برأك الله فكنت أشد ما كنت غضبا فقال لي أبواي قومي اليه فقلت والله لا أقوم اليه ولا أحمده ولا أحمدكما ولا أحمد الا الله الذي أنزل براءتي لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه وأنزل الله تعالى ان الذين جاؤا العشر آيات كلها فقال أبو بكر والله لا أنفق على مسطح بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله ولا يأتل أولوا الفضل منكم الى قوله غفور رحيم فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه بلى والله اني لاحب أن يغفر الله لي فرجع النفقة الى مسطح التي كان ينفقها عليه وقال والله لا أنزعها منه أبدا قالت عائشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمري فقال لزينب ما علمت أو رأيت فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت الا خيرا قالت عائشة وهي التي تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع قالت عائشة والله ان الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت كنف أنثى قط قالت ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله تعالى قالت ولما نزل عذري قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك وتلا القرآن وضرب عبد الله بن أبي ومسطحا وحسان وحمنة الحد قال عروة وكانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان وتقول انه الذي قال

فان أبي ووالده وعرضي ＊ لعرض محمد منكم وقاء

وقال الحافظ ابن عمر بن عبد البر في الاستيعاب وأنكر قوم أن يكون حسان خاض في الافك

وجلد فيه وروى عن عائشة أنها برأته من ذلك انتهى وقال غيره والله لا أظن به ذلك أصلا وان جاءت تسميته فى الصحيح فقد يخطئ الثقة لاسباب لا تحصى كما يعرف ذلك من مارس نقل الاخبار وكيف يظن به ذلك ولا شغل له الا مدح النبى صلى الله عليه وسلم والمدافعة عنه والذم لاعدائه وقد شهد النبى صلى الله عليه وسلم أن جبريل معه وهو القائل يمدح عائشة ويكذب من نقل عنه ذلك

حصان رزان ما تزن بريبة * وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس دينا ومنصبا * نبى الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلة حى من لؤى بن غالب * كرام المساعى مجدها غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها * وطهرها من كل شين وباطل
وان كان ما بلغت عنى قلته * فلا رفعت سوطى الى أناملى
وكيف وودى ما حييت ونصرتى * لآل رسول الله زين المحافل
له رتبة عال على الناس فضلها * تقاصر عنها سورة المتطاول

وفى هذا القدر كفاية لاولى الالباب فان فى هذه القصة عبرة لمن اعتبر فان أهل الافك استمروا فى هذا أكثر من شهر والله تعالى عالم بما يقولون وان قولهم يكاد يقطع الاكباد فى أحب خلقه اليه وهو قادر على تكذيبهم عند أول ما خاضوا فيه ولكنه سبحانه أراد للناس رفع الدرجات ولآخرين الهلكات ولا بأس ببيان غريب هذه الالفاظ التى وقعت فى هذه القصة من كلام عائشة وغيرها قولها اذن أى أعلم بالرحيل وقولها فقدت عقدا لى من جزع أظفار وهو نوع من الخرز وهو الحجر اليمانى المعروف وقولها لم يهبلن أى لم يكثر لحمهن من السمن فيثقلن وقولها انما يأكلن العلقة من الطعام وهو بضم العين أى البلغة من الطعام وهى قدر ما يمسك الرمق وقولها ليس بها منهم داع ولا مجيب أى ليس بها أحد لا من يدعو ولا من يرد جوابا وقولها فيممت أى قصدت وقولها قد عرس من وراء الجيش فأدلج التعريس نزول المسافر بالليل للراحة والادلاج بالتشديد سير آخر الليل وبالتخفيف سير الليل كله وقولها باسترجاعه هو قول القائل انا لله وانا اليه راجعون وقولها خمرت أى غطيت وجهى بجلبابى أى ازارى وقولها موغرين فى نحر الظهيرة الوغرة شدة الحر وكذلك نحر الظهيرة أى أولها وقولها والناس يفيضون أى يخوضون ويتحدثون وقولها وهو يريبنى يقال رابنى الشىء يريبنى أى تشككت فيه وقولها ولا أرى من النبى اللطف أى الرفق بها واللطف فى الافعال الرفق وفى الاقوال لين الكلام وقولها حين نقهت أى أفقت من المرض والمناصع المواضع الخالية تقضى فيها الحاجة من غائط وبول وأصله المكان الواسع الخالى والمرط كساء من صوف أو خز وقولها فقالت تعس مسطح أى خسر وقولها يا هنتاه أى يا بلهاء كأنها نسبتها الى البله وقلة المعرفة وقولها لا يرقأ أى لا ينقطع وقول بريرة ان رأيت عليها أمرا أغمصه عليها بالصاد المهملة أى أعيبه والداجن الشاة التى تألف البيت وتقيم به وقوله صلى الله عليه وسلم من يعذرنى أى ان أنا كافأته

على

على سوء صنيعه ان عاتبت أو عاقبت فلا تلوموني على ذلك وقولها ولكن حملته الحمية أى حمله الغضب والانفة والتعصب على الجهل للقرابة وقولها فثار الحيان أى ثاروا ونهضوا للقتال والمخاصمة وقولها فلم يزل يخفضهم أى يهون عليهم ويسكت وقوله صلى الله عليه وسلم ان كنت ألممت قيل هو من اللمم وهو صغار الذنوب قيل معناه مقارفة الذنب من غير فعل وقولها قلص دمعي أى انقطع جريانه قوله ما رام أى ما برح من مكانه والبرحاء الشدة والجمانة الدرة وجمعه جمان وقولها فسرى عنه أى كشف عنه وقول زينب أحمى سمعي وبصري أى أمنعهما عن أن أخبر بما لم أسمع ولم أبصر وقولها وهي التي كانت تساميني من السمو وهو العلو والغلبة فعصمها الله تعالى أى منعها الله من الوقوع في الشر بالورع وقول الرجل ما كشفت كنف أنثى أى ستر أنثى وقول حسان في عائشة حصان بفتح الحاء امرأة حصان أى متعففة رزان أى ثابتة ما تزن أى ترمى ولا تتهم بريبة أى أمر يريب الناس وتصبح غرثى أى خائفة الموت والغرث الجوع من لحوم الغوافل جمع غافلة والمعنى انها لا تغتاب أحدا ممن هو غافل وقرأ لا تحسبوه وتحسبونه ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها * ولما أخبر سبحانه وتعالى بعقاب أهل الافك وكان في المؤمنين من سمعه وسكت وفيهم من سمعه فتحدث به متعجبا من قائله أو متثبتا في أمره وفيهم من أكذبه أتبعه سبحانه وتعالى بعتابهم في أسلوب خطابهم مثنيا على من كذبه فقال سبحانه وتعالى مستأنفا محرضا (لولا) أى هلا ولم لا (اذ) أى حين (سمعتموه) أيها المدعون للايمان (ظن المؤمنون) أى منكم (والمؤمنات) وكان الاصل ظننتم أى أيها العصبة ولكنه التفت الى الغيبة تنبيها على التوبيخ وصرح بالنساء ونبه على الوصف المقتضى لحسن الظن تخويفا للذى ظن السوء من سوء الخاتمة (بأنفسهم) حقيقة (خيرا) وهم دون من كذب عليها فقطعوا ببراءتها لان الانسان لا يظن في الناس الا ما هو متصف به أو باخوانهم لان المؤمنين كالجسد الواحد وذلك نحو ما روى ان أبا أيوب الانصارى قال لام أيوب ألا ترين ما يقال فقالت لو كنت بدل صفوان كنت تظن بحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوأ قال لا قالت ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعائشة خير مني وصفوان خير منك (وقالوا هذا افك مبين) أى كذب بين (فان قيل) هلا قيل لولا اذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرا وقلتم ولم عدل عن الخطاب الى الغيبة وعن الضمير الى الظاهر (أجيب) بأن ذلك مبالغة في التوبيخ على طريقة الالتفات وليصرح بلفظ الايمان دالا على أن الاشتراك فيه يقتضى أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن وفيه تنبيه على أن حق المؤمن اذا سمع قالة في أخيه أن يبنى الامر فيها على الظن لا على الشك وأن يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير هذا افك مبين هكذا اللفظ المصرح ببراءة ساحته لا يقول كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال وهذا من الادب الحسن الذى قل القائم به والحافظ له وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه باخوانه ثم علل سبحانه وتعالى كذب الآفكين أن قال موبخا لمن اختلقه وأذاعه ملقنا لمن يديه الى ظن الخير (لولا) أى هلا ولم لا (جاؤا عليه

بأربعة شهداء) كما تقدم أن القذف لا يباح الا بها (فاذ) أى حين (لم يأتوا بالشهداء) أى الموصوفين (فأولئك) اى البعداء من الصواب (عند الله هم الكاذبون) قد جعل الله التفضل بين الرمى الصادق والرمى الكاذب بثبوت شهادة الشهود الاربعة وانتفائها والذين رموا عائشة لم تكن لهم بينة على قولهم فقامت عليهم الحجة وكانوا عند الله أى فى حكمه وشريعته كاذبين وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الافك فلم يجدوا فى دفعه وانكاره واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف فى الشرع من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة فى التنكيل به اذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين فكيف بأم المؤمنين الصديقة بنت الصديق حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حبيبة حبيب رب العالمين * ولما بين الله سبحانه وتعالى الدليل على كذب الخائضين فى هذا الكلام وأنهم استحقوا الملام قال عاطفا على لولا الماضية التى للتحضيض (ولولا) التى هى لامتناع الشئ لوجود غيره (فضل الله) أى المحيط بصفات الكمال (عليكم ورحمته) أى معاملته لكم بمزيد الانعام والاكرام اللازم للرحمة (فى الدنيا) بقبول التوبة والمعاملة بالحلم (والآخرة) بالعفو عمن يريد أن يعفو عنه منكم (لمسكم) أى عاجلكم (فى ما أفضتم) أى أيها العصبة أى خضتم (فيه) من حديث الافك (عذاب عظيم) أى يحتقر معه اللوم والجلد * (فائدة) * فى مقطوعة فى الرسم من ما كما ترى ثم بين تعالى وقت حلول العذاب وزمان تحصيله بقوله تعالى (اذ) اى مسكم حين (تلقونه) أى تجتهدون فى تلقى أى قبول هذا الكلام الفاحش والقائه (بألسنتكم) أى يرويه بعضكم عن بعض وذلك أن الرجل منهم كان يلقى الرجل فيقول بلغنى كذا وكذا يتلقونه تلقيا يلقيه بعضهم الى بعض وحذفت من الفعل احدى التاءين (وتقولون بأفواهكم) أى كلاما مختصا بالافواه فهو كلام لا حقيقة له فلا يمكن ارتسامه فى القلب بنوع دليل وأكد هذا المعنى بقوله تعالى (ما ليس لكم به علم) أى بوجه من الوجوه وتنكيره للتحقير (فان قيل) القول لا يكون الا بالفم فما معنى قوله تعالى بأفواهكم (أجيب) بأن معناه أن الشئ المعلوم يكون علمه فى القلب فيترجم عنه اللسان وهذا الافك ليس الا قولا يجرى على ألسنتكم ويدور فى أفواهكم من غير ترجمة عن علم به فى القلب كقوله تعالى يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم (وتحسبونه) بدليل سكوتكم عن انكاره (هينا) أى لا اثم فيه (وهو) أى والحال أنه (عند الله) أى الذى لا يبلغ أحد مقدار عظمته (عظيم) فى الوزر واستجرار العذاب فهذه ثلاثة آثام مرتبة علق بها مس العذاب العظيم تلقى الافك بألسنتهم والتحدث به من غير تحقق واستصغارهم لذلك وهو عند الله تعالى عظيم (ولولا) أى وهلا ولم لا (اذ) أى حين (سمعتموه قلتم) من غير توقف ولا تلعثم (ما يكون) أى ما ينبغى وما يصح (لنا أن نتكلم بهذا) أى القول المخصوص ويجوز أن تكون الاشارة الى نوعه فان قذف آحاد الناس محرم فكيف بمن اختارها العليم الحكيم لصحبة أكمل الخلق (فان قيل) كيف جاز الفصل بين لولا وقلتم (أجيب) بأن الظروف تنزل من الشئ منزلة نفسه لوقوعه فيها وأنها لا انفكاك لها عنه فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع فى غيرها (فان قيل) أى فائدة فى تقديم الظرف حتى أوقع فاصلا

(أجيب)

(أجيب) بأن الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يذبوا أول ما سمعوا بالافك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم (فان قيل) ما معنى يكون والكلام بدونه ملتئم لو قيل ما لنا أن نتكلم بهذا (أجيب) بأن معناه ينبغي ويصح أي ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا وما يصح لنا كما تقدم تقريره ونحوه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق وقوله تعالى (سبحانك) تعجب من أن يخطر ذلك بالبال في حال من الاحوال (فان قيل) ما معنى التعجب في كلمة التسبيح (أجيب) بأن الاصل في ذلك أن يسبح الله تعالى عند رؤية التعجب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه وقيل تنزيه فهو منزه عن أن يرضى بظلم هؤلاء القذفة وعن أن لا يعاقبهم وعن أن تكون حرمة نبيه صلى الله عليه وسلم فاجرة قال البيضاوي فان فجورها ينفر عنه ويخل بمقصود الزواج بخلاف كفرها فانه لا ينفر أي ولهذا كانت امرأة نوح ولوط كافرتين وهذا يقتضي حل نكاح الكتابية مع أنها لا تحل له صلى الله عليه وسلم لانها تكره صحبته ولانه أشرف من أن يضع ماءه في رحم كافرة بنكاح ولقوله تعالى وأزواجه أمهاتهم ولا يجوز أن تكون الكافرة أم المؤمنين ولخبر سألت ربي أن لا أزوج الا من كانت معي في الجنة فأعطاني رواه الحاكم وصحح اسناده اما التسري بالكافرة فلا يحرم لانه صلى الله عليه وسلم تسرى بريحانة وكانت يهودية من بني قريظة ولا يشكل تعليلهم السابق من أنه أشرف أن يضع ماءه في رحم كافرة لان القصد بالنكاح اصالة التوالد فاحتيط له وبأنه يلزم منه أن تكون الزوجة المشركة أم المؤمنين بخلاف الملك فيهما (هذا بهتان) أي كذب يبهت من يواجه به ويحيره لشدة ما يفعل في القوى الباطنة لانه في غاية الغفلة عنه لكونه أبعد الناس منه ثم هوله بقوله (عظيم) لعظمة المبهوت عليه فان حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاتها ولما كان هذا كله وعظا لهم واستصلاحا ترجمه بقوله (يعظكم الله) أي يرقق قلوبكم الذي له الكمال كله فهو يمهل بحلمه ولا يهمل بحكمته (أن) أي كراهة أن (تعودوا لمثله أبدا) أي ما دمتم أحياء مكلفين ثم عظم هذا الوعظ بقوله تعالى (ان كنتم مؤمنين) أي متصفين بالايمان راسخين فيه فانكم لا تعودون فان الايمان يمنع عنه وهذا تهييج وتقريع لا أنه يخرج عن الايمان كما تقول المعتزلة (فان قيل) هل يجوز أن يسمى الله واعظا لقوله تعالى يعظكم الله (أجيب) بأنه لا يجوز كما قاله الرازي قال كما لا يجوز أن يسمى الله معلما لقوله تعالى الرحمن علم القرآن لان أسماء الله تعالى توقيفية (ويبين الله) أي بما له من صفات الكمال والاكرام (لكم الآيات) أي الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب كي تتعظوا وتتأدبوا (والله) أي المحيط بجميع الكمال (عليم) أي بما يأمر به وينهى عنه (حكيم) لا يضع شيأ الا في أحكم مواضعه وان دق عليكم فهم ذلك فلا تتوقفوا في أمر من أوامره ولما كان من أعظم الوعظ بيان ما يستحق على الذنب من العقاب بينه بقوله تعالى (ان الذين يحبون) أي يريدون وعبر بالحب اشارة الى أنه لا يرتكب هذا مع شناعته الا محب له ولا يحبه الا بعيد عن الاستقامة (أن تشيع) أي تنتشر بالقول أو الفعل (الفاحشة) الفعلة الكبيرة القبح (في الذين آمنوا) أي بنسبتها اليهم وهم العصبة وقيل المنافقون (لهم عذاب أليم في الدنيا)

أى بالحد للقذف (والآخرة) أى بالنار لحق الله تعالى ان لم يتب (والله) أى المستجمع لصفات الجلال والجمال (يعلم) أى له العلم التام فهو يعلم مقادير الاشياء ما ظهر منها وما بطن وبالحكمة فى اظهاره أو ستره أو غير ذلك من جميع الامور (وأنتم لا تعلمون) أى ليس لكم علم من أنفسكم فاعملوا بما علمكم فلا تجاوزوه ولا تضلوا وقيل معناه يعلم ما فى قلب من يحب أن تشيع الفاحشة فيجازيه عليها وأنتم لا تعلمون ذلك وقيل والله يعلم انتفاء الفاحشة عنهم وأنتم أيها العصبة لا تعلمون وجودها فيهم وقوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) أى بكم تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب للدلالة على عظم الجريمة ولذا عطف عليه (وأن الله) أى الذى له القدرة التامة فسبقت رحمته غضبه (رؤف رحيم) على حصول فضله ورحمته وجواب لولا محذوف كأنه قال لعذبكم واستأصلكم لكنه رؤف رحيم قال ابن عباس الخطاب لحسان ومسطح وحمنة قال الرازى ويجوز أن يكون الخطاب عاما وقيل الجواب فى قوله تعالى ما زكى منكم من أحد وقرأ رؤف نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بمد الهمزة والباقون بقصرها (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات) أى طرق (الشيطان) بتزيينه أى لا تسلكوا مسالكه فى اشاعة الفاحشة ولا فى غيرها (ومن يتبع خطوات الشيطان فانه) أى المتبع (يأمر بالفحشاء) أى بالقبائح من الافعال (والمنكر) أى ما أنكره الشرع وهو كل ما يكرهه الله تعالى وقرأ قنبل وابن عامر وحفص والكسائى بضم الطاء والباقون بالسكون (ولولا فضل الله) أى الذى لا اله غيره (عليكم ورحمته) أى بكم بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وتشريع الحدود المكفرة لها (ما زكى) أى ما طهر من ذنبها (منكم من أحد أبدا) آخر الدهر والآية عند بعض المفسرين على العموم قالوا أخبر الله أنه لولا فضل الله ورحمته ما صلح منكم من أحد وقال ابن عباس الخطاب للذين خاضوا فى الافك ومعناه ما طهر من هذا الذنب ولا صلح أمره بعد الذى فعل بالتوبة منه (ولكن الله) أى العليم بأحوال خلقه (يزكى) أى يطهر (من يشاء) من الذنوب بقبول التوبة منها (والله سميع) أى لاقوالهم (عليم) أى بما فى قلوبهم (ولا يأتل) أى يحلف افتعال من الالية وهو القسم (أولوا الفضل) أى أصحاب الغنى (منكم والسعة أن) أى أن لا (يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا) عنهم فى ذلك (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) أى على عفوكم وصفحكم واحسانكم الى من أساء اليكم قال المفسرون نزلت هذه الآية فى أبى بكر رضى الله عنه حيث حلف أن لا ينفق على مسطح وهو ابن خالة أبى بكر رضى الله تعالى عنه وكان يتيما فى حجره وكان ينفق عليه فلما فرط منه ما فرط قال لهم أبو بكر قوموا لستم منى ولست منكم وكفى بذلك داعيا فى المنع فان الانسان اذا أحسن الى قريبه وكافأه بالاساءة كان أشد عليه مما اذا صدرت الاساءة من أجنبى قال الشاعر

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة * على المرء من وقع الحسام المهند

فقال له مسطح نشدتك الله والاسلام والقرابة لا تحوجنا الى أحد فما كان لنا أول الامر من

ذنب فقال ألم تتكلم فقال قد كان بعض ذلك تعجبا من قول حسان فلم يقبل عذره وقال انطلقوا أيها القوم فان الله لم يجعل لكم عذرا ولا فرجا فخرجوا لا يدرون أين يذهبون وأين يتوجهون من الارض وناس من الصحابة أقسموا أن لا يتصدقوا على من تكلم بشيء من الافك فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أبي بكر وقرأ عليه الآية فلما وصل الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم (والله غفور رحيم) أي مع كمال قدرته فتخلقوا باخلاقه قال بلى يارب انى أحب أن تغفر لى فذهب أبو بكر الى بيته وأرسل الى مسطح وأصحابه وقال قبلت ما أنزل الله تعالى على الرأس والعين وانما فعلت بكم ما فعلت اذ سخط الله عليكم أما اذ عفا عنكم فرحبا بكم وجعل له مثلى ما كان له وقال والله لا أنزعها أبدا وذلك من أعظم أنواع المجاهدات ولا شك أن هذا أعظم من مقاتلة الكفار لان هذا مجاهدة مع النفس وذلك مجاهدة مع الكفار ومجاهدة النفس أشد من مجاهدة الكفار ولهذا روى أنه صلى الله عليه وسلم قال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر (ان الذين يرمون المحصنات) أى العفائف (الغافلات) أى عن الفواحش وهن السليمات الصدور والنقيات القلوب بأن لا يقع فى قلوبهن فعلها اللاتى ليس فيهن دهاء ولا مكر لانهن لم يجربن الامور ولم يرزن الاحوال فلا يفطن لما تفطن له المجربات العرافات قال فى ذلك القائل متغزلا

ولقد لهوت بطفلة ميالة * بلهاء تطلعنى على أسرارها

وكذلك البله من الرجال فى قوله صلى الله عليه وسلم أكثر أهل الجنة البله وقيل البله هم الراضون بنعيم الجنة والفطناء لم يرضوا الا بالنظر الى وجهه الكريم (المؤمنات) بالله ورسوله (لعنوا فى الدنيا والآخرة) أى عذبوا فى الدنيا بالحد وفى الآخرة بالنار (ولهم عذاب عظيم) لعظم ذنوبهم قال مقاتل هذا خاص فى عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق وروى أنه قيل لسعيد بن جبير من قذف مؤمنة يلعنه الله فى الدنيا والآخرة فقال ذلك لعائشة رضى الله تعالى عنها خاصة قال الزمخشرى ولو قلبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر أن الله عز وجل قد غلظ فى شئ تغليظه فى افك عائشة رضوان الله عليها ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك واستفظاع ما أقدم عليه ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب متقنة كل واحد منها كاف فى بابه ولو لم تنزل الا هذه الثلاث آيات لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين فى الدارين جميعا وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم كما قال تعالى (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) أى من قول وفعل وهو يوم القيامة بما أفكوا وبهتوا فانه تعالى يوفيهم جزاءهم الحق كما قال تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) أى جزاءهم الواجب الذين هم أهله (ويعلمون) عند ذلك (أن الله هو الحق المبين) حيث حقق لهم جزاء الذى كانوا يشكون فيه فأوجز فى ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر وجاء بما لم يقع فى وعيد المشركين وعبدة الاوثان الا ما هو دونه فى الفظاعة وما ذاك الا لامر عظيم وعن ابن عباس

أنه كان بالبصرة يوم عرفة وكان يسئل عن تفسير القرآن حتى سئل عن هذه الآيات فقال من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته الا من خاض فى أمر عائشة وهذا منه مبالغة وتعظيم لأمر الافك ولقد برّأ الله تعالى أربعة بأربعة برّأ يوسف عليه السلام بلسان الشاهد فقال تعالى وشهد شاهد من أهلها الآية وبرّأ موسى عليه الصلاة والسلام من قول اليهود فيه بالحجر الذى ذهب بثوبه وبرّأ مريم بانطاق ولدها عليه الصلاة والسلام حين نادى من تحتها انى عبد الله الآية وبرّأ عائشة رضى الله تعالى عنها بهذه الآيات العظام فى كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات فانظر كيف بينها وبين تبرئة أولئك وما ذاك الا لاظهار علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنبيه على انافة محل سيد ولد آدم وخيرة الاولين والآخرين وحجة الله على العالمين ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه وتقدم قدمه واحرازه لقصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من آيات الافك وليتأمل كيف غضب الله تعالى له فى حرمته وكيف بالغ فى نفى التهمة عن حجابه وقال قوم ليس لمن قذف عائشة وبقية أزواج النبى صلى الله عليه وسلم توبة لان الله تعالى لم يذكر فى قذفهن توبة وما ذكر من أول السورة فذاك فى قذف غيرهن (فان قيل) ان كانت عائشة هى المرادة فكيف قيل المحصنات (أجيب) بأنها لما كانت أم المؤمنين جمعت ارادة لها ولبناتها من نساء الامة الموصوفات بالاحصان والغفلة والايمان ولذا قيل ان هذا حكم كل قاذف مالم يتب (فان قيل) ما معنى قوله تعالى هو الحق المبين (أجيب) بأن معناه ذو الحق المبين أى العادل الظاهر العدل الذى لا ظلم فى حكمه والحق الذى لا يوصف بباطل ومن هذه صفته كان له أن يجازى المحسن على احسانه والمسىء على اساءته فحق مثله أن يتقى ويجتنب محارمه وقرأ يشهد حمزة والكسائى بالياء التحتية والباقون بالفوقية ويوم ناصبه الاستقرار الذى تعلق به لهم وقرأ أبو عمرو يوفيهم الله بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم هذا كله فى الوصل وأما الوقف فالجميع بكسر الهاء وسكون الميم (الخبيثات) أى من النساء والكلمات (للخبيثين) من الناس (والخبيثون) أى من الناس (للخبيثات) أى مما ذكر (والطيبات) أى مما ذكر (للطيبين) أى من الناس (والطيبون) أى منهم (للطيبات) أى مما ذكر فاللائق بالخبيث مثله وبالطيب مثله (أولئك) أى الطيبون والطيبات من النساء ومنهم صفوان وعائشة (مبرؤن مما يقولون) أى الخبيثون والخبيثات من النساء وقيل عائشة وصفوان ذكرهما بلفظ الجمع كقوله تعالى فان كان له اخوة أى اخوان (لهم) أى الطيبين والطيبات من النساء على الاول ولصفوان وعائشة على الثانى (مغفرة) أى عفو عن الذنوب (ورزق كريم) هو الجنة ويروى أن عائشة رضى الله تعالى عنها كانت تفتخر بأشياء أعطيتها لم تعطها امرأة غيرها منها أن جبريل عليه السلام أتى بصورتها فى خرقة من حرير وقال للنبى صلى الله عليه وسلم هذه زوجتك ويروى أنه أتى بصورتها فى راحته ومنها أنه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا غيرها ومنها أنه قبض صلى الله عليه وسلم ورأسه الشريف فى حجرها ومنها أنه دفن فى بيتها ومنها أنه كان ينزل

عليه الوحي وهو معها في لحاف ومنها أن براءتها نزلت من السماء ومنها أنها ابنة خليفة
رسول الله صلى الله عليه وسلم وصديقه وخلقت طيبة ووعدت بمغفرة ورزق كريم وكان
مسروق رحمه الله تعالى اذا روى عن عائشة رضي الله تعالى عنها قال حدثتني الصديقة
بنت الصديق حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من السماء * الحكم السادس
ما ذكره بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) أي التي تسكنونها
فان المؤجر والمعير لا يدخلان الا باذن وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء الموحدة
والباقون بكسرها وفي قوله تعالى (حتى تستأنسوا) وجهان أحدهما أنه من الاستئناس الظاهر
الذي هو خلاف الاستيحاش لان الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا فهو كالمستوحش
من خفاء الحال عليه فاذا أذن له فقد استأنس والمعنى حتى يؤذن لكم كقوله تعالى لا تدخلوا
بيوت النبي الا أن يؤذن لكم وهذا من باب الكناية والارداف لان هذا النوع من الاستئناس
يردف الاذن فوضع موضع الاذن والثاني أن يكون من الاستئناس بمعنى الاستعلام
والاستكشاف استفعال من أنس الشيء اذا أبصره ظاهرا مكشوفا والمعنى تستعلموا
وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم أم لا ومنه قولهم استأنس هل ترى أحدا واستأنست
فلم أر أحدا أي تعرفت واستعلمت وقال الخليل بن أحمد الاستئناس الاستبصار من قولهم
آنست نارا أي أبصرت وقيل هو أن يتكلم بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة ويتنحنح يؤذن
أهل البيت وعن أبي أيوب الانصاري قال يا رسول الله ما الاستئناس قال أن يتكلم الرجل
(وتسلموا على أهلها) كان يقول الواحد السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات فان أذن له دخل
والا رجع قال قتادة المرة الاولى للتسميع والثانية ليتهيأ والثالثة ان شاء أذن وان شاء رد
وهذا من محاسن الآداب فان أول مرة ربما منعهم بعض الاشتغال من الاذن وفي الثانية
ربما كان هناك مانع يقتضي المنع فان لم يجب في الثالثة يستدل بعدم الاذن على مانع ولهذا
كان الاولى في الاستئذان ثلاثا أن لا تكون متصلة بل يكون بين كل واحدة والاخرى
وقت ما ولا بد من اذن صريح اذا كان الداخل أجنبيا أو قريبا غير محرم سواء كان الباب
مغلقا أم لا وان كان محرما فان كان ساكنا مع صاحبه فيه لم يلزمه الاستئذان ولكن عليه
أن يشعره بدخوله بتنحنح أو شدة وطء أو نحو ذلك ليستتر العريان فان لم يكن ساكنا فان كان
الباب مغلقا لم يدخل الا باذن وان كان مفتوحا فوجهان والاوجه الاستئذان وعن أبي موسى
الاشعري أنه أتى باب عمر فقال السلام عليكم أأدخل قالها ثلاثا ثم رجع وقال سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الاستئذان ثلاثا واستأذن رجل على رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال أألج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لامرأة يقال لها روضة قومي الى هذا
فعلميه فانه لا يحسن أن يستأذن قولي له يقول السلام عليكم أأدخل فسمعها الرجل فقال أأدخل
وكان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم اذا دخل بيتا غير بيته حييتم صباحا وحييتم مساء ثم
يدخل فربما أصاب صاحب البيت مع امرأته في لحاف واحد فصد الله عز وجل عن ذلك وعلم

ماهو الاحسن الاجمل وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة قد تركوا العمل به وباب الاستئذان من ذلك قال الزمخشرى بينا أنت فى بيتك اذ رعف عليك الباب بواحد من غير استئذان ولا تحية من تحايا اسلام ولا جاهلية وهو ممن يسمع ما أنزل الله فيه وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أين الاذن الواعية (ذلكم خير لكم) أى من تحية الجاهلية ومن أن تدخلوا من غير استئذان روى ان رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم أأستأذن على أمى قال نعم قال انه ليس لها خادم غيرى أأستأذن عليها كلما دخلت قال أتحب أن تراها عريانة قال الرجل لا قال فاستأذن وقوله تعالى (لعلكم تذكرون) متعلق بمحذوف أى أنزل عليكم وقيل بين لكم هذا ارادة أن تذكروا وتتعظوا وتعملوا بما أمرتم به فى باب الاستئذان وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد (فان لم تجدوا فيها) أى البيوت (أحدا) يأذن لكم فى دخولها (فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) أى حتى يأتى من يأذن لكم فان المانع من الدخول فيها ليس الاطلاع على العورات فقط وانما شرع لئلا يوقف على الاحوال التى تطويها الناس فى العادة عن غيرهم ويتحفظون من اطلاع أحد عليها ولانه تصرف فى ملك غيرك فلا بد أن يكون برضاه والا أشبه الغصب والتغلب (وان قيل لكم ارجعوا) أى بعد الاستئذان (فارجعوا) أى اذا كان فى البيت أحد وقال لكم ارجعوا فارجعوا (هو) أى الرجوع (أزكى) أى أطهر وأصلح (لكم) من الوقوف على الابواب منتظرين لان هذا مما يجلب الكراهة ويقدح فى قلوب الناس خصوصا اذا كانوا ذوى مروأة مرتاضين للآداب الحسنة واذا نهى عن ذلك لادائه الى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدى اليها من قرع الباب بعنف والتصييح بصاحب الدار وغير ذلك مما يدخل فى عادات من لم يتهذب من أكثر الناس وعن أبى عبيد رحمه الله تعالى ما قرعت بابا على عالم قط وكفى بقصة بنى أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون وعن قتادة رحمه الله تعالى اذا لم يؤذن له لا يقعد وراء الباب فان للناس حاجات وان حضر ولم يستأذن وقعد على الباب منتظرا جاز وكان ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يأتى باب الانصارى لطلب الحديث فيقعد على الباب حتى يخرج ولا يستأذن فيخرج الرجل فيقول يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أخبرتنى فيقول هكذا أمرنا أن نطلب العلم فاذا وقف فلا ينظر من شق الباب اذا كان الباب مردودا لما روى عن أبى هريرة انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اطلع فى بيت قوم فقد حل لهم أن يفقؤا عينه وفى رواية للنسائى قال لو أن امرأ اطلع عليك بغير اذن فخذفته ففقأت عينه ما كان عليك جناح ولو عرض أمر فى دار من حريق أو هدم أو هجوم سارق أو ظهور منكر يجب انكاره جاز الدخول بغير اذن (والله) أى الذى لا يخفى عليه شئ (بما تعملون) من الدخول باذن وبغير اذن (عليم) فيجازيكم عليه * ولما نزلت آية الاستئذان قالوا يا رسول الله كيف بالبيوت التى بين مكة والمدينة والشأم على ظهر الطريق ليس فيها انسان فانزل الله تعالى (ليس عليكم جناح) أى اثم (أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة) أى

بغير استئذان منكم وذلك كبيوت الخانات والربط المسبلة (فيها متاع) أي منفعة (لكم) والمنفعة فيها بالنزول وأنواع المتاع والاتقاء من الحر والبرد ونحو ذلك وقال ابن زيد هي بيوت التجار وحوانيتهم التي بالاسواق يدخلها للبيع والشراء وهو المنفعة وقال ابراهيم النخعي ليس على حوانيت الاسواق اذن وكان ابن سيرين رحمه الله تعالى اذا جاء الى حانوت السوق يقول السلام عليكم أدخل ثم يلج وقال عطاء هي البيوت الخربة والمتاع هو قضاء الحاجة فيها من البول والغائط وذلك استثناء من الحكم السابق لشموله البيوت المسكونة وغيرها (والله يعلم ما تبدون) أي تظهرون (وما تكتمون) أي تخفون في دخول غير بيوتكم من قصد صلاح أو غيره وفي ذلك وعيد من الله تعالى لمن دخل لفساد أو تطلع على عورات وسيأتي انهم اذا دخلوا بيوتهم سلموا على أنفسهم والحكم السابع حكم النظر المذكور في قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) أي عما لا يحل لهم نظره (ويحفظوا فروجهم) أي عما لا يحل لهم فعله بها *(تنبيه)* من للتبعيض والمراد غض البصر عما لا يحل كما مر والاقتصار به على ما يحل وجوز الاخفش أن تكون مزيدة وأباه سيبويه (فان قيل) لم دخلت من في غض البصر دون حفظ الفرج (أجيب) بأن في ذلك دلالة على أن المراد أن أمر النظر أوسع بدليل جواز النظر للمحارم فيما عدا ما بين السرة والركبة وأما نظر الفروج فالامر فيه ضيق وكفاك فرقا أن أبيح النظر الا ما استثنى منه وحظر الجماع الا ما استثنى منه ويجوز أن يراد مع حفظها عن الافضاء الى ما لا يحل حفظها عن الابداء وعن ابن زيد كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا الا هذا فانه أراد به الاستتار (فان قيل) لم قدم غض البصر على حفظ الفرج (أجيب) بأن البلوى فيه أشد وروى عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله تعالى عنه قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة فقال اصرف بصرك وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي يا علي لا تتبع النظرة النظرة فان لك الاولى وليست لك الثانية أخرجه أبو داود والترمذي وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الرجل الى عورة الرجل ولا المرأة الى عورة المرأة ولا يفضي الرجل الى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المرأة الى المرأة في ثوب واحد (ذلك) أي غض البصر وحفظ الفرج (أزكى) أي خير (لهم) لما فيه من البعد عن الريبة سئل الشيخ الشبلي رحمه الله تعالى عن قوله تعالى يغضوا من أبصارهم فقال أبصار الرؤس عن المحرمات وأبصار القلوب عن المحرمات *ثم أخبر سبحانه وتعالى بأنه خبير بأحوالهم وأفعالهم بقوله تعالى (ان الله) أي الملك الذي لا يخفى عليه شيء (خبير بما يصنعون) بسائر حواسهم وجوارحهم فعليهم اذا عرفوا ذلك أن يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) عما لا يحل لهن نظره (ويحفظن فروجهن) عما لا يحل لهن فعله بها روى عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أنها قالت كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ميمونة بنت الحرث اذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال صلى الله عليه وسلم احتجبا

منه فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه وقوله تعالى (ولا يبدين) أي يظهرن (زينتهن) أي لغير محرم والزينة خفية وظاهرة فالخفية مثل الخلخال والخضاب في الرجل والسوار في المعصم والقرط في الاذن والقلائد في العنق فلا يجوز للمرأة اظهارها ولا يجوز للاجنبي النظر اليها والمراد من الزينة مواضعها من البدن وذكر الزينة للمبالغة في الامر بالصون والستر لان هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر اليها (الا ما ظهر منها) أي من الزينة الظاهرة واختلف أهل العلم في هذه الزينة التي استثناها الله تعالى فقال سعيد بن جبير وجماعة هي الوجه والكفان وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه هي الثياب وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هي الكحل والخاتم والخضاب في الكف فما كان من الزينة الظاهرة يجوز للاجنبي النظر اليها ان لم يخف فتنة في أحد وجهين وعليه الاكثر وانما رخص في هذا القدر للمرأة أن تبديه من بدنها لانه ليس بعورة في الصلاة وسائر بدنها عورة فيها ولان سترها فيه حرج فان المرأة لا تجد بدا من مزاولة الاشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصا في الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر الى المشي في الطرقات وخاصة الفقيرات والوجه الثاني يحرم لانه محل الفتنة ورجح حسما للباب (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) أي يسترن الرؤس والاعناق والصدور بالمقانع فان جيوبهن كانت واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة فأمرن بأن يسدلنها من قدامهن حتى تغطيها ويجوز أن يراد بالجيوب الصدور تسمية لها باسم ما يليها او يلابسها ومنه قولهم ناصح الجيب بالنون والصاد أي سليم الصدر وقولك ضربت بخمارها على جيبها كقولك ضربت بيدي على الحائط اذا وضعتها عليه قالت عائشة رضي الله تعالى عنها يرحم الله تعالى نساء المهاجرات لما أنزل الله وليضربن بخمرهن على جيوبهن شققن مروطهن فاختمرن بها والمرط كساء من صوف او خز أو كتان وقيل هو الازار وقيل هو الدرع وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وعاصم بضم الجيم والباقون بكسرها وكرر قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن) لبيان من يحل له الابداء ومن لا يحل له أي الزينة الخفية التي لم يبح لهن كشفها في الصلاة ولا للاجانب وهي ما عدا الوجه والكفين (الا لبعولتهن) أي فانهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا الى جميع بدنهن حتى الفرج ولو الدبر ولكنه يكره وقال ابن عباس لا يضعن الجلباب والخمار الا لازواجهن (أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بني اخوانهن أو بني أخواتهن) فيجوز لهؤلاء أن ينظروا الى الزينة الخفية ولا ينظروا الى ما بين السرة والركبة وانما سومح في الزينة الخفية لاولئك المذكورين في الآية للحاجة المضطرة الى مداخلتهم ومخالطتهم ولقلة الفتنة من جهتهم ولما في الطباع من النفرة من مماسة القرائب وتحتاج المرأة الى صحبتهم في الاسفار للنزول والركوب وغير ذلك (أو نسائهن) أي المؤمنات فان الكافرات لا يتحرجن عن وصفهن للرجال فلا يجوز للمسلمة أن تتجرد من ثيابها عند النساء الكافرات لانهن أجنبيات عن الدين

فكنّ كالرجال الاجانب لكن يجوز أن ترى الكافرة منها ما يبدو عند المهنة وقد كتب عمر بن الخطاب الى أبى عبيدة بن الجراح أن يمنع نساء أهل الكتاب أن يدخلن الحمامات مع المسلمات وقيل النساء كلهنّ وللعلماء فى ذلك خلاف *(تنبيه)* العورة على أربعة أقسام عورة الرجل مع الرجل وعورة المرأة مع المرأة وعورة المرأة مع الرجل وعورة الرجل مع المرأة أمّا الرجل مع الرجل فيجوز له أن ينظر الى جميع بدنه ماعدا ما بين السرة والركبة وكذلك المرأة مع المرأة وأمّا المرأة مع الرجل أو الرجل مع المرأة فلا ينظر أحدهما من الآخر شيأ وقيل يجوز للاجنبى أن ينظر الى وجهها وكفيها اذا أمن الفتنة ولم تكن شهوة وقيل يجوز لها أن تنظر منه ماعدا ما بين السرة والركبة ويجوز لمن أراد أن يخطب حرة أن ينظر وجهها وكفيها وهى تنظر منه اذا أرادت أن تتزوج به ماعدا ما بين السرة والركبة وان أراد أن يتزوج بأمة جاز أن ينظر منها ماعدا ما بين السرة والركبة ويحرم أن ينظر بشهوة ويحرم النظر بشهوة لكل منظور اليه الالمن أراد أن يتزوج بها والا حليلته ويباح النظر من الاجنبى لمعاملة وشهادة حتى يجوز النظر الى الفرج للشهادة على الزنا والولادة والى الثدى للشهادة على الرضاع وتعليم ومداواة بقدر الحاجة وكل ما حرم نظره متصلا حرم نظره منفصلا كشعر عانة من رجل أو قلامة ظفر من أجنبية ويحرم اضطجاع رجلين أو امرأتين فى ثوب واحد اذا كانا عاريين وان كان كل منهما فى جانب من الفراش للخبر المتقدم ويجب التفريق بين ابن عشر سنين واخوته وأخواته فى المضجع اذا كانا عاريين وتسن مصافحة الرجلين والمرأتين لخبر ما من مسلمين يلتقيان ويتصافحان الاغفر لهما قبل أن يتفرقا وتكره مصافحة من به عاهة كجذام أو برص والمعانقة والتقبيل فى الرأس للنهى عن ذلك الا القادم من سفر أو تباعد عهد ويسن تقبيل الطفل ولو لغير أبويه شفقة ولا بأس بتقبيل وجه الميت الصالح ويسن تقبيل يد الحى لصلاح أو علم أو زهد أو نحو ذلك ويكره لغنى أو وجاهة أو نحو ذلك وقوله تعالى (أو ما ملكت أيمانهن) يعم الاماء والعبيد فيحل نظر العبد العفيف غير المبعض والمشترك والمكاتب الى سيدته العفيفة لما روى أبو داود أنه صلى الله عليه وسلم أتى فاطمة رضى الله تعالى عنها بعبد وهبه لها وعليها ثوب اذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها واذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها فلما رآها النبى صلى الله عليه وسلم وما تلقى قال صلى الله عليه وسلم انه ليس عليك بأس انما هو أبوك وغلامك وعن عائشة أنها قالت لعبد هاذ كوان انك اذا وضعتنى فى القبر وخرجت فأنت حر وأما الفاسق والمبعض والمشترك والمكاتب فكالاجنبى بل قيل ان المراد بالآية الاماء وعبد المرأة كالاجنبى وبه قال ابن المسيب آخرا وقال لا تغرنكم آية النور فان المراد بها الاماء (أو التابعين) أى الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم (غير أولى الاربة) أى أصحاب الحاجة الى النساء (من الرجال) أى ليس لهم همة الى ذلك ولا حاجة لهم فى النساء لانهم بله لا يعرفون شيأ من أمرهنّ وقيل هم شيوخ صلحاء اذا كانوا معهنّ غضوا أبصارهم وقيل هم الممسوحون سواء كان حرا أم لا وهو ذاهب الذكر والانثيين أما ذاهب الذكر

قوله الالمن أراد أن يتزوج بها عمومه يشمل الامة وقد قال فيها ويحرم أن ينظر بشهوة فليحرر اه

فقط أو الاثنين فقط فكالفحل وعن أبي حنيفة لايحل امساك الخصيان واستخدامهم وبيعهم وشراؤهم قال الزمخشري فان قلت روي أنه أهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم خصي فقبله قلت لايقبل فيما تم به البلوى الاحديث مكشوف وان صح فلعله قبله ليعتقه أو لسبب من الاسباب انتهى وعندنا يجوز جميع ذلك اذ لامانع منه وقيل المراد بأولي الاربة هو المخنث وقرأ ابن عامر وشعبة بنصب الراء على الاستثناء والحال والباقون بكسرها على الوصفية وقوله تعالى (أو الطفل) بمعنى الاطفال وضع الواحد موضع الجمع لانه يفيد الجنس ويبينه مابعده وهو قوله تعالى (الذين لم يظهروا) أي لم يطلعوا (على عورات النساء) للجماع فيجوز لهن أن يبدين لهم ماعدا مابين السرة والركبة قال امام الحرمين رحمه الله تعالى اذا لم يبلغ الطفل حدا يحكي مايراه فكالعدم أو بلغه من غير شهوة فكالمحرم أو بشهوة فكالبالغ (ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن) وذلك ان المرأة كانت تضرب برجلها الارض ليتقعقع خلخالها فيعلم أنها ذات خلخال وقيل كانت تضرب باحدى رجليها على الاخرى ليعلم أنها ذات خلخالين فنهين عن ذلك لان ذلك يورث ميلا في الرجال واذا وقع النهي عن اظهار صوت الحلي فمواضع الحلي أبلغ في النهي وأوامر الله ونواهيه في كل باب لايكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها وان ضبط نفسه واجتهد ولايخلو من تقصير يقع منه فلذلك قال تعالى (وتوبوا الى الله) أي الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت (جميعا أيه المؤمنون) أي عما وقع لكم من النظر الممنوع منه ومن غيره * وشروط التوبة أن يقلع الشخص عن الذنب ويندم على مامضى منه ويعزم على أن لايعود اليه ويرد الحقوق لاهلها وقرأ ابن عامر في الوصل أيه المؤمنون بضم الهاء لانها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الالف فلما سقطت الالف لالتقاء الساكنين اتبعت حركتها حركة ماقبلها والباقون بفتحها وأما الوقف فوقف أبو عمرو والكسائي بالالف بعد الهاء ووقف الباقون على الهاء ساكنة (لعلكم تفلحون) أي تنجون من ذلك بقبول التوبة منه وفي الآية تغليب الذكور على الاناث وعن ابن عباس توبوا عما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة (فان قيل) على هذا قد صحت التوبة بالاسلام لانه يجب ماقبله فما معنى هذه التوبة (أجيب) بأن بعض العلماء قال ان من أذنب ذنبا ثم تاب منه لزمه كلما ذكره أن يجدد التوبة لانه يلزمه أن يستمر على ندمه وعزمه على عدم العود الى أن يلقى الله تعالى والذي عليه الاكثر أنه لايلزمه تجديدها وعن أبي بردة أنه سمع الاغر يحدث ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ياأيها الناس توبوا الى ربكم فاني أتوب الى ربي كل يوم مائة مرة وعن ابن عمر قال انا كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس يقول رب اغفر لي وتب علي انك أنت التواب الغفور مائة مرة وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يسقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة * ولما نهى عما يفضي الى السفاح المخل بالنسب المقتضي للالفة وحسن التربية ومزيد الشفقة المؤدية

الى بقاء النوع بعد الزجر عنه مبالغة فيه عقبه بالحكم الثامن وهو الامر بالنكاح المذكور في قوله تعالى (وأنكحوا الايامى منكم) جمع أيم والايامى واليتامى أصلهما أيايم ويتايم فقلبا والأيم هي من ليس لها زوج بكرا كانت أوثيبا ومن ليس له امرأة فيشمل ذلك الذكر والانثى قال الشاعر

فان تنكحي انكح وان تتأيمي * وان كنت أفتى منكم أتأيم

أى أقرب الى الشباب منك وأتأيم بالرفع على قلة جواب ان تتأيمي وما بينهما جملة معترضة والمعنى أوافقك في حالتي التزوج والتأيم وان كنت أقرب الى الشباب منك وعنه صلى الله عليه وسلم اللهم انا نعوذ بك من العيمة والغيمة والايمة والقزم والقرم العيمة شهوة اللبن والغيمة العطش والايمة شهوة النكاح مع الخلو من الزوجية والقزم البخل والقرم شهوة اللحم وهذا في الاحرار والحرائر وأما غيرهم فهو قوله تعالى (والصالحين) أى المؤمنين (من عبادكم) وهو من جموع عبد (وامائكم) والخطاب للاولياء والسادة وهذا الامر أمر ندب فيستحب لمن تاقت نفسه للنكاح ووجد أهبته أن يتزوج ومن لم يجد أهبته استحب له أن يكسر شهوته بالصوم لما ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء أى قاطع لشهوته لان الوجاء بكسر الواو نوع من الخصاء وهو أن ترض عروق الانثيين وتترك الخصيتان كما هما فشبه الصوم في قطعه شهوة النكاح بالوجاء الذى يقطع الفحل والباءة بالمد مؤن النكاح وهي المهر وكسوة فصل التمكين ونفقة يومه فان لم تنكسر شهوته بالصوم فلا يكسرها بالكافور ونحوه بل يتزوج ويكره لغير التائق ان فقد الاهبة أو وجدها وكان به علة كهرم فان وجدها ولا علة به وهو غير تائق فالتخلي للعبادة أفضل من النكاح ان كان متعبدا فان لم يتعبد فالنكاح أفضل من تركه لقوله صلى الله عليه وسلم من أحب فطرتي فليستن بسنتي وهي النكاح وعنه صلى الله عليه وسلم من كان له مال يتزوج به فلم يتزوج فليس منا وعنه صلى الله عليه وسلم اذا تزوج أحدكم عج شيطانه يا ويلاه عصم ابن آدم مني ثلثي دينه والاحاديث في ذلك كثيرة وربما كان واجب الترك اذا أدى الى معصية أو مفسدة وعنه صلى الله عليه وسلم اذا أتى على امتي مائة وثمانون سنة فقد حلت لهم العزوبة والعزلة والترهب على رؤس الجبال وفي رواية يأتي على الناس زمان لا تنال المعيشة فيه الا بالمعصية فاذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة ويندب النكاح للمرأة التائقة وفي معناها المحتاجة الى النفقة والخائفة من اقتحام الفجرة ويستحب أن تكون المنكوحة بكرا الا لعذر لقوله صلى الله عليه وسلم هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك ولودا لقوله صلى الله عليه وسلم تزوجوا الولود الودود فاني مكاثر بكم الامم يوم القيامة وفي رواية يا عياض لا تتزوج عجوزا ولا عاقرا فاني مكاثر دينة لما روى عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة وقيل المراد بالصالحين الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه وقوله تعالى (ان يكونوا) أى الاحرار (فقراء يغنهم الله) أى بالتزويج (من فضله) رد لما عساه

أن يمنع من النكاح والمعنى لا يمنعهن فقر الخاطب والمخطوبة من المناكحة فان فى فضل الله غنية عن المال فانه غاد ورائح أو وعد من الله تعالى بالغنى لقوله صلى الله عليه وسلم اطلبوا الغنى فى هذه الآية لكن ينبغى أن تكون شريطة الله تعالى غير منسية فى هذا الوعد ونظائره وهى مشيئته ولا يشاء الحكيم الا ما اقتضته الحكمة ونحوه ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وقد جاءت الشريطة منصوصة فى قوله تعالى وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم ومن لم ينس هذه الشريطة لم ينتصب معترضا بعزب كان غنيا فأفقره النكاح وبفاسق تاب واتقى الله وكان له شئ ففنى وأصبح مسكينا وورد التمسوا الرزق بالنكاح وشكى الى النبى صلى الله عليه وسلم رجل الحاجة فقال عليك بالباءة أى النكاح وعن عمر رضى الله عنه عجبت لمن يبتغى الغنى بغير النكاح والله تعالى يقول ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وحكى عنه أنه قال عجبت لمن لم يطلب الغنى بالباءة وقال طلحة بن مطرف تزوجوا فانه أوسع لكم فى رزقكم وأوسع فى أخلاقكم ويزيد الله فى ثروتكم قال الزمخشرى ولقد كان عندنا رجل رازح الحال ثم رأيته بعد سنين وقد انتعشت حاله وحسنت فسألته فقال كنت فى أول أمرى على ما علمت وذلك قبل أن أرزق ولدا فلما رزقت بكر ولدى تراخيت عن الفقر فلما ولد لى الثانى ازددت خيرا فلما تتاموا ثلاثة صب الله على الخير صبا فأصبحت الى ما ترى انتهى (والله) أى الذى له الملك كله (واسع) أى ذو سعة لخلقه لا تنفد نعمه اذ لا تنتهى قدرته (عليم) بهم يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر * ولما ذكر تعالى تزويج الحرائر والاماء ذكر حال من يعجز عن ذلك بقوله (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا) أى وليجتهد فى طلب العفة عن الزنا والحرام الذين لا يجدون ما ينكحون به من مهر ونفقة يوم التمكين وكسوة فصله وقيل لا يجدون ما ينكحون (حتى يغنيهم الله) أى يوسع عليهم (من فضله) فينكحون * ولما ذكر تعالى نكاح الصالحين من العبيد والاماء حث على كتابتهم بالحكم التاسع وهو الامر بالكتابة المذكور فى قوله تعالى (والذين يبتغون الكتاب) أى يطلبون الكتابة (مما ملكت أيمانكم) أى من العبيد والاماء (فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا) أى أمانة وقدرة على الكسب لاداء مال الكتابة * وسبب نزول هذه الآية ما روى ان غلاما لحويطب بن عبد العزى يقال له الصبيح سأل مولاه أن يكاتبه فأبى فأنزل الله هذه الآية فكاتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين فأداها وقتل يوم حنين فى الحرب وأركانها أربعة رقيق وصيغة وعوض وسيد وشرط فى السيد كونه مختارا أهل تبرع وولاء وكتابة المريض مرض الموت محسوبة من الثلث فان خلف مثلى قيمته صحت الكتابة فى كله أو مثل قيمته صحت فى ثلثيه أو لم يخلف غيره صحت فى ثلثه وشرط فى الرقيق اختيار وعدم صبا وجنون وأن لا يتعلق به حق آدمى لازم وشرط فى الصيغة لفظ يشعر بالكتابة كأن يقول السيد لمملوكه كاتبتك على ألفين فى شهرين كل شهر ألف فاذا أديتهما فأنت حر فيقول العبد قبلت ذلك فلا يصح عقدها الا مؤجلا منجما بنجمين فأكثر كما جرى عليه الصحابة فمن بعدهم فلا بد من بيان قدر العوض وصفته وعدد النجوم وقسط كل نجم فلا يجوز عند الشافعى

رضى

رضي الله تعالى عنه بنجم واحد ولا بحال لان العبد لا يملك شيئا فعقدها بحال يمنع من حصول
الغرض لانه لا يقدر على أداء البدل عاجلا وعند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه تجوز حالا
ومؤجلا ومنجما وغير منجم لان الله تعالى لم يذكر التنجيم وقياسا على سائر العقود وهي سنة
لا واجبة وان طلبها الرقيق لئلا يبطل أثر الملك وتتحكم المماليك على الملاك بطلب رقيق
أمين قوي على الكسب وبهما فسر الشافعي الخير في الآية واعتبرت الامانة لئلا يضيع ما يحصله
فلا يعتق والطلب والقدرة على الكسب ليوثق بتحصيل النجوم روى أنه صلى الله عليه وسلم قال
ثلاث حق على الله عونهم المكاتب الذي يريد الأداء والناكح يريد العفاف والمجاهد في سبيل
الله فان فقدت هذه الشروط أو بعضها فهي مباحة اذ لا يقوى رجاء العتق بها ولا تكره بحال
لانها عند فقد ما ذكر قد تفضي الى العتق ثم ان كان الرقيق فاسقا بسرقة أو نحوها وعلم سيده
أنه لو كاتبه مع العجز عن الكسب اكتسب بطريق الفسق لم يبعد تحريمها حينئذ لتضمنها
التمكين من الفساد وتصح على عوض قليل وكثير ويجب أن يحط عنه قبل عتقه شيئا متمولا
من النجوم أو يدفعه اليه من جنسها أو من غيرها كما قال تعالى (وآتوهم) أمر للسادة (من
مال الله الذي آتاكم) ما يستعينون به في أداء ما التزموه لكم أيها السادة وفي معنى الايتاء
حط شيء متمول مما التزموه بل الحط أولى من الدفع لان القصد بالحط الاعانة على العتق وهي
محققة فيه موهومة في الدفع اذ قد يصرف المدفوع في جهة أخرى وكون ذلك في النجم الاخير
أولى منه فيما قبله لانه أقرب الى العتق يروى ان عمر رضي الله تعالى عنه كاتب عبدا له يكنى
أبا أمية وهو أول عبد كوتب في الاسلام فأتاه بأول نجم فدفعه اليه عمر وقال استعن به على
كتابتك فقال لو أخرته الى آخر نجم فقال أخاف أن لا أدرك ذلك وكونه ربعا من النجوم أولى
فان لم تسمح به نفسه فكونه سبعا أولى روى حط الربع النسائي وغيره وحط السبع مالك عن ابن
عمر رضي الله تعالى عنه وعند أبي حنيفة أمر للمسلمين على جهة الوجوب باعانتهم للمكاتبين
واعطائهم سهمهم الذي جعل الله لهم من بيت المال كقوله وفي الرقاب ولما بين تعالى ما يصح
من تزويج العبيد والاماء أتبع ذلك بالحكم العاشر وهو الاكراه على الزنا المذكور في قوله
تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم) أي اماءكم (على البغاء) أي الزنا كان لعبد الله بن أبي رأس
المنافقين ست جوار معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء
وضرب عليهن ضرائب فشكت ثنتان منهن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وكذلك
كانوا يفعلون في الجاهلية يؤاجرون اماءهم فلما جاء الاسلام قالت مسيكة لمعاذة ان هذا
الامر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين فان يك خيرا فقد استكثرنا منه وان يك شرا فقد آن
لنا أن ندعه فأنزل الله هذه الآية وروى أنه جاءت احدى الجاريتين يوما ببرد وجاءت الاخرى
بدينار فقال لهما ارجعا فازنيا فقالتا والله لا نفعل قد جاء الاسلام وحرم الزنا فأتيا رسول الله
صلى الله عليه وسلم وشكتا اليه فنزلت ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والامة وفي الحديث عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي (ان أردن

تحصنا) أى تعففا عنه وهذه الارادة محل الاكراه فلا مفهوم للشرط لان الاكراه لا يتصور الاعند ارادة التحصن فأما اذا لم ترد المرأة التحصن فانها تبغى بالطبع طوعا وكلمة ان وايثارها على اذا ايذان بأن الباغيات كن يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن وأن ما وجد من معاذة ومسيكة من حيز الشاذ النادر ولان الكلام ورد على سبب وهو الذى ذكر فى سبب نزول الآية فخرج النهى على صورة صفة السبب وان لم تكن شرطا فيه وقال الحسين بن الفضل فى الآية تقديم وتأخير تقديرها وأنكحوا الايامى منكم ان أردن تحصنا ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء (لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) أى تطلبوا من أموال الدنيا بكسبهن وأولادهن (ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور) أى لهن (رحيم) بهن وكان الحسن اذا قرأ هذه الآية قال لهن والله لهن أى لا للمكره الا اذا تاب (فان قيل) ان المكرهة غير آثمة فلا حاجة الى المغفرة (أجيب) بأن الزنا لا يباح بالاكراه فهى آثمة لكن لا حد عليها للاكراه * ولما ذكر تعالى فى هذه السورة هذه الاحكام وصف القرآن بصفات ثلاث أحدها قوله تعالى (ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات) أى الآيات التى بينت فى هذه السورة وأوضحت فيها الاحكام والحدود وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى بكسر الياء التحتية والباقون بفتحها لانها واضحات تصدقها الكتب المتقدمة والعقول السليمة من بين بمعنى تبين أو لانها بينت الاحكام والحدود ثانيها قوله تعالى (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) أى من جنس أمثالهم أى وقصة عجيبة مثل قصصهم وهى قصة عائشة رضى الله تعالى عنها فانها كقصة يوسف ومريم عليهما السلام ثالثها قوله تعالى (وموعظة للمتقين) أى ما وعظ به فى قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله وقوله تعالى لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون الخ وفى قوله تعالى لولا اذ سمعتموه قلتم الخ وفى قوله تعالى يعظكم الله أن تعودوا الخ وتخصيصها بالمتقين لانهم المنتفعون بها * واختلف فى معنى قوله تعالى (الله نور السموات والارض) فقال ابن عباس الله هادى أهل السموات والارض فهم بنوره الى الحق يهتدون وبهدايته من حيرة الضلال ينجون وقال الضحاك منور السموات والارض فقال نور السماء بالملائكة ونور الارض بالانبياء وقال مجاهد مدبر الامور فى السموات والارض وقال أبى بن كعب والحسن وأبو العالية مزين السموات والارض زين السماء بالشمس والقمر والنجوم وزين الارض بالانبياء والعلماء والمؤمنين ويقال بالنبات والاشجار وقيل معناه الانوار كلها منه كما يقال فلان رحمة أى منه الرحمة وقد يذكر مثل هذا اللفظ على طريق المدح كما قال القائل

اذا سار عبد الله من مرو ليلة * فقد سار منها نورها وجمالها

وسبب هذا الاختلاف ان النور فى الاصل كيفية تدركها الباصرة أولا وبواسطتها سائر المبصرات كالكيفية الفائضة من النيران على الاجرام الكثيفة المحاذية لها وهو بهذا المعنى لا يصح اطلاقه على الله تعالى الا على ضرب من التجوز كالامثلة المتقدمة أو على تقدير مضاف كقولك زيد كرم وجود ثم تقول ينعش الناس بكرمه وجوده والمعنى ذو نور السموات

والارض ونور السموات والارض الحق شبه بالنور فى ظهوره وبيانه كقوله تعالى الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور أى من الباطل الى الحق وأضاف النور الى السموات والارض لاحد معنيين اما للدلالة على سعة اشراقه وفشو اضاءته حتى تضىء له السموات والارض واما أن يراد أهل السموات والارض وانهم يستضيئون به واختلف أيضا فى معنى قوله تعالى (مثل نوره) فقال ابن عباس مثل نوره الذى أعطى المؤمن أى مثل نور الله فى قلب المؤمن وهو النور الذى يهتدى به كما قال تعالى فهو على نور من ربه وقال الحسن وزيد بن أسلم أراد بالنور القرآن وقال سعيد بن جبير والضحاك هو محمد صلى الله عليه وسلم وقيل أراد بالنور الطاعة سمى طاعة الله نورا وأضاف هذه الانوار الى نفسه تفضلا أى صفة نوره العجيبة الشأن فى الاضاءة (كمشكاة) أى كصفة مشكاة وهى الكوة فى الجدار غير النافذة (فيها مصباح) أى سراج ضخم ثاقب (المصباح فى زجاجة) أى قنديل من زجاج شامى أزهر وانما ذكر الزجاجة لان النور وضوء النار فيها أبين من كل شىء وضوءه يزيد فى الزجاج ثم وصف الزجاجة بقوله تعالى (الزجاجة كأنها) أى النور فيها (كوكب درى) أى مضىء شبهها فى الضوء باحدى الدرارى من الكواكب الخمسة العظام وهى المشاهير المشترى والزهرة والمريخ وزحل وعطارد (فان قيل) لم شبه بالكواكب ولم يشبه بالشمس والقمر (أجيب) بأنهما يلحقهما الخسوف والكسوف والكواكب لا يلحقها ذلك وقرأ أبو عمرو والكسائى بكسر الدال من الدرء بمعنى الدفع لدفعه الظلام والباقون بضمها منسوب الى الدر أى اللؤلؤ فى صفائه وحسنه وان كان الكوكب أكثر ضوأ من الدر لكن يفضل الكواكب بصفائه كما يفضل الدر سائر الحب وهمزمع المد أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى

والباقون بغير همز وكل من أهل الهمز على مرتبته فى المد (توقد من شجرة مباركة زيتونة) أى ابتداء توقده من شجرة الزيتون المتكاثر نفعه بأن رويت فتيلة المصباح بزيت الشجرة وهى شجرة كثيرة البركة وفيها منافع كثيرة لان الزيت يسرج به ويدهن به وهو ادام وهو أصفى الادهان وأضوأها وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح التاء والواو وتشديد القاف على وزن تفعل على الماضى أى المصباح وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى بضم التاء الفوقية وتخفيف القاف أى المصباح (لا شرقية ولا غربية) أى ليست بشرقية وحدها لا تصيبها الشمس اذا غربت ولا غربية وحدها فلا تصيبها الشمس اذا طلعت بل هى مصاحبة للشمس طول النهار تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الامرين فيكون زيتها أضوأ وهذا كما يقال فلان ليس بأسود ولا أبيض أى ليس أسود خالصا ولا أبيض خالصا بل اجتمع فيه كل واحد منهما وهذا الرمان ليس بحلو ولا حامض أى اجتمع فيه الحلاوة والحموضة هذا قول ابن عباس والاكثرين وقال السدى وجماعة معناه أنها ليست فى مقنأة لا تصيبها الشمس ولا فى مضحاة لا يصيبها الظل فهى لا تضرها شمس ولا ظل والمقنأة بقاف فنون فهمزة وهى بفتح النون وضمها المكان الذى لا تطلع عليه الشمس وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى

وفي الحديث لا خير في شجرة مقناة ولا في نبات في مقناة ولا خير فيهما في مضحى قال ابن حجر العسقلاني لم أجده وقيل معناه انها معتدلة ليست في شرق يصيبها الحر ولا في غرب يضرها البرد وقيل معناه هي شامية لان الشأم وسط الارض لا شرقي ولا غربي وقيل ليست هذه الشجرة من أشجار الدنيا لانها لو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية وانما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره (يكاد زيتها) أي من صفائه (يضيء ولو لم تمسسه نار) أي يكاد يتلألأ ويضيء بنفسه من غير نار (نور على نور) أي نور المصباح على نور الزجاجة * (تنبيه) * اختلف أهل العلم في معنى هذا التمثيل فقال بعضهم وقع التمثيل لنور محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس لكعب الاحبار أخبرني عن قوله تعالى مثل نوره كمشكاة قال كعب هذا مثل ضربه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة توقد من شجرة مباركة هي شجرة النبوة يكاد نور محمد صلى الله عليه وسلم وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي كما يكاد ذلك الزيت يضيء ولو لم تمسسه نار وروى سالم عن عمر في هذه الآية قال المشكاة جوف النبي صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح النور الذي جعله الله تعالى فيه لا شرقية ولا غربية لا يهودي ولا نصراني توقد من شجرة مباركة ابراهيم نور على نور نور قلب ابراهيم ونور قلب محمد صلى الله عليهما وسلم وقال محمد بن كعب القرظي المشكاة ابراهيم والزجاجة اسمعيل عليهما السلام والمصباح محمد صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى مصباحا كما سماه سراجا فقال تعالى وسراجا منيرا توقد من شجرة مباركة وهي ابراهيم عليه السلام سماه مباركا لان أكثر الانبياء من صلبه لا شرقية ولا غربية يعني ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما لان اليهود تصلي قبل المغرب والنصارى قبل المشرق يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار تكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن يوحى اليه نور على نور نبي من نسل نبي نور محمد على نور ابراهيم عليهما السلام وقال بعضهم وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن روى أبو العالية عن أبي بن كعب قال هذا مثل المؤمن فالمشكاة نفسه والزجاجة صدره والمصباح ما جعل الله من الايمان والقرآن في قلبه توقد من شجرة مباركة وهي الاخلاص لله وحده فمثله كمثل شجرة التف بها الشجر فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس لا اذا طلعت ولا اذا غربت فكذلك المؤمن قد احترس من أن يصيبه شيء من الفتن فهو بين أربع خلال ان أعطى شكر وان ابتلى صبر وان حكم عدل وان قال صدق يكاد زيتها يضيء أي يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له لموافقته اياه نور على نور قال أبي أي فهو يتقلب في خمسة أنوار قوله نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره الى النور يوم القيامة قال ابن عباس هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار فاذا مسته النار ازداد ضوأ على ضوء كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فاذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ونورا على نور وقال الكلبي قوله تعالى نور على نور يعني ايمان المؤمن وعمله وقال السدي نور الايمان ونور القرآن وقال الحسن وابن زيد هذا مثل للقرآن فالمصباح هو القرآن فكما يستضاء بالمصباح يهتدى

بالقرآن والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة الوحي يكاد زيتها يضيء يعني تكاد حجة القرآن تتضح وان لم يقرأ نور على نور يعني القرآن نور من الله لخلقه مع ما أقام لهم من الدلائل والاعلام قبل نزول القرآن فازدادوا بذلك نورا على نور (يهدي الله لنوره) قال ابن عباس دين الاسلام وقيل القرآن (من يشاء) فان الاسباب بدون مشيئته لاغية وقيل يوفق الله لاصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله والانصاف من نفسه ولم يذهب عن الجادة الموصلة اليه يمينا وشمالا ومن لم يتدبر فهو كالاعمى سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس (ويضرب) أي يبين (الله الامثال للناس) تقريبا للافهام وتسهيلا للادراك (والله بكل شيء عليم) معقولا كان أو محسوسا ظاهرا كان أو خفيا وفيه وعيد لمن تدبرها ولم يكترث بها وقوله تعالى (في بيوت) يتعلق بما قبله أي كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد كأنه قيل مثل نوره كما ترى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت أو بما بعده وهو يسبح أي يسبح رجال في بيوت وفي قوله فيها تكرير لقوله في بيوت كقوله زيد في الدار جالس فيها أو بمحذوف كقوله تعالى في تسع آيات أي سبحوا في بيوت والبيوت هي المساجد قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال المساجد بيوت الله في الارض وهي تضيء لاهل السماء كما تضيء النجوم لاهل الارض وقيل المراد بالبيوت المساجد الثلاثة وقيل المراد أربعة مساجد لم يبنها الا نبي الكعبة بناها ابراهيم واسمعيل عليهما السلام فجعلاها قبلة وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام ومسجد المدينة ومسجد قباء بناهما النبي صلى الله عليه وسلم وأتى فيها بجمع الكثرة دون جمع القلة للتعظيم (أذن الله أن ترفع) قال مجاهد تبنى نظيره قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وقال الحسن تعظم أي فلا يذكر فيها الفحش من القول وتطهر من الانجاس والاقذار وقوله تعالى (ويذكر فيها اسمه) عام فيما يتضمن ذكره حتى المذاكرة في أفعاله والمباحثة في أحكامه وقال ابن عباس يتلى فيها كتابه (يسبح) أي يصلي (له فيها بالغدو والآصال) أي بالغداة والعشي قال أهل التفسير أراد به الصلوات المفروضة فالتي تؤدى بالغداة صلاة الفجر والتي تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لان اسم الاصيل يقع على هذا الوقت وقيل أراد به الصبح والعصر قال صلى الله عليه وسلم من صلى البردين دخل الجنة أراد صلاة الصبح وصلاة العصر وقال ابن عباس التسبيح بالغدو صلاة الضحى وروى من مشى الى صلاة مكتوبة وهو متطهر فأجره كأجر الحاج المحرم ومن مشى الى تسبيح الضحى لا ينصبه الا اياه فأجره كأجر المعتمر وصلاة على اثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين وقرأ ابن عامر وشعبة بفتح الباء الموحدة والباقون بكسرها (رجال لا تلهيهم تجارة) أي معاملة رابحة وقيل المراد بالتجارة الشراء لقوله تعالى (ولا بيع عن ذكر الله) اطلاقا لاسم الجنس على النوع كما تقول رزق فلان تجارة صالحة اذا اتجه له بيع صالح أو شراء وعلى الاول ذكر مبالغة للتعظيم والتعميم بعد التخصيص وقيل التجارة لاهل الجلب تقول تجر فلان في كذا أي جلب *(تنبيه)* قوله تعالى رجال فاعل يسبح بكسر الباء وعلى فتحها نائب الفاعل

له ورجال فاعل فعل مقدر جواب سؤال مقدر كأنه قيل من يسبحه وحذف من قوله تعالى
(وإقام الصلاة) الهاء تخفيفا أى وإقامة الصلاة وأراد أداءها فى وقتها لان من أخر الصلاة عن
وقتها لا يكون من مقيمى الصلاة وإنما ذكر إقام الصلاة مع ان المراد من ذكر الله الصلوات الخمس
لانه تعالى أراد بإقامة الصلاة حفظ المواقيت روى سالم عن ابن عمر أنه كان فى السوق فأقيمت
الصلاة فقام الناس وغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد قال ابن عمر فيهم نزلت هذه الآية (وإيتاء
الزكاة) قال ابن عباس اذا حضر وقت أداء الزكاة لم يحبسوها أى فيخرجون ما يجب اخراجه
من المال للمستحقين وقيل هى الاعمال الصالحة ومع ماهم عليه (يخافون يوما) هو يوم القيامة
(تتقلب) أى تضطرب (فيه القلوب) بين النجاة والهلاك (والابصار) بين ناحيتى اليمين والشمال
وقيل تتقلب القلوب عما كانت عليه فى الدنيا من الشك الى اليقين وتنفتح الابصار من الاغطية
وقوله تعالى (ليجزيهم الله) متعلق بيسبح أو بلا تلهيهم أو يخافون (أحسن ما عملوا) فى الطاعات
فرضها ونفلها أى ثوابه الموعود لهم من الجنة وأحسن بمعنى حسن (ويزيدهم من فضله) مالم
يستحقوه بأعمالهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت وقوله تعالى (والله يرزق من يشاء بغير حساب)
تقرير للزيادة وتنبيه على كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسعة الاحسان وكمال جوده فكأنه سبحانه
وتعالى لما وصفهم بالجد والاجتهاد فى الطاعة ومع ذلك يكونون فى نهاية الخوف فالله سبحانه
وتعالى يعطيهم الثواب العظيم على طاعتهم ويزيدهم الفضل الذى لا حد له فى مقابلة خوفهم
وقوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب) أى حالهم على ضد ذلك فان أعمالهم التى
يحسبونها صالحة نافعة عند الله تعالى يجدونها لاغية مخيبة فى العاقبة كسراب وهو ما يرى فى
الفلاة وقت الضحى الاكبر شبيها بالماء الجارى وهو ليس بماء ولكن الذى ينظر اليه من بعيد
يظنه ماء جاريا وقيل هو الشعاع الذى يرى نصف النهار فى شدة الحر فى البرارى الذى يخيل للناظر
انه الماء السارب أى الجارى فاذا اقترب منه انغش فلم ير شيأ وأما الآل فانما يكون أول النهار
كأنه ماء بين السماء والارض وقال البغوى والآل ما ارتفع عن الارض وهو شعاع يجرى
بين السماء والارض بالغدوات شبه بالمرآة ترفع فيها الشخوص يرى فيها الصغير كبيرا والقصير
طويلا والرقراق يكون بالعشاء وهو ما ترقرق من السراب أى جاء وذهب وقوله تعالى (بقيعة)
جمع قاع وهى أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام قاله فى القاموس وقيل
القيعة بمعنى القاع وهو الارض المستوية المنبسطة وفيها يكون السراب وقال الفراء جمع قاع
كجار وجيرة وقال الفارسى جمعه قيعة وقيعان (يحسبه) أى يظنه (الظمآن) أى العطشان
الشديد العطش من ضعف العقل (ماء) فيقصده ولا يزال سائرا (حتى اذا جاءه) أى ما قدر أنه ماء
وقيل جاء الى موضع السراب (لم يجده شيأ) مما حسبه ووجه التشبيه أن الذى جاء به الكافر ان
كان من أفعال البر فهو لا يستحق عليه ثوابا مع أنه يعتقد أن له ثوابا عليه وان كان من أفعال الاثم
فهو يستحق عليه العقاب مع أنه يعتقد أن له ثوابا فكيف كان فهو يعتقد أن له ثوابا عند الله تعالى
فاذا وافى عرصة القيامة ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه

فيشبه

فيشبه حاله حال الظمآن الذي اشتدت حاجته الى الماء فاذا شاهد السراب في البر تعلق به قلبه فاذا جاءه لم يجده شيأ فكذلك حال الكافر يحسب أن عمله نافعه فاذا احتاج الى عمله لم يجده شيأ ولا ينفعه وقال مجاهد السراب عمل الكافر واتيانه اياه موته ومفارقة الدنيا (فان قيل) قوله تعالى حتى اذا جاءه يدل على كونه شيأ وقوله تعالى لم يجده شيأ مناقض له (أجيب) بأن معناه لم يجده شيأ نافعا كما يقال فلان ما عمل شيأ وان كان قد اجتهد أو أنه اذا جاء موضع السراب لم يجد السراب يرى من بعد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء فاذا قرب منه رق وانتشر وصار كالهواء (ووجد الله عنده) أي ووجد عقاب الله الذي توعده به الكفار أو وجد زبانية الله أو وجده محاسبا اياه أو قدم على الله (فوفاه حسابه) أي جزاء عمله قيل نزلت في عتبة بن ربيعة فانه قد تعبد ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية ثم كفر بالاسلام قال ابن الخازن والاصح أن الآية عامة في حق جميع الكفار (والله سريع الحساب) لانه تعالى عالم بجميع المعلومات فلا يشغله محاسبة واحد عن واحد وفي هذا رد على المشبهة قبحهم الله تعالى لانه تعالى لو كان متكلما بآلة كما يقولون لما صح ذلك وقوله تعالى (أو كظلمات) عطف على كسراب على حذف مضاف واحد تقديره أو كذي ظلمات ودل على هذا المضاف قوله تعالى اذا أخرج يده لم يكد يراها فالكناية تعود الى المضاف المحذوف وهو قول أبي علي وقال غيره على حذف مضافين تقديره أو كأعمال ذي ظلمات فقدر ذي ليصح عود الضمير اليه في قوله تعالى اذا أخرج يده وقدر أعمال ليصح تشبيه أعمال الكفار بأعمال صاحب الظلمة اذ لا معنى لتشبيه العمل بصاحب الظلمة وأو للتخيير فان أعمالهم لكونها لاغية لا منفعة لها كالسراب ولكونها خالية عن نور الحق كالظلمات المتراكمة من لجج البحر والامواج والسحاب أو للتنويع فان أعمالهم ان كانت حسنة فكالسراب وان كانت قبيحة فكالظلمات أو للتقسيم باعتبار وقتين فانها كالظلمات في الدنيا وكالسراب في الآخرة وقوله تعالى (في بحر لجي) صفة لظلمات فيتعلق بمحذوف واللجي منسوب الى اللج وهو معظم البحر وقيل منسوب الى اللجة بالتاء وهي أيضا معظمه فاللجي هو العميق الكثير الماء وقوله تعالى (يغشاه) أي يغطي هذا البحر ويعلوه (موج) كائن (من فوقه موج) أي أمواج مترادفة متراكمة (من فوقه) أي الموج الثاني المركوم وقوله تعالى (سحاب) أي غيم غطى النجوم وحجب أنوارها صفة أخرى لبحر وقوله تعالى (ظلمات) أي من البحر والموجين والسحاب خبر مبتدا مضمر تقديره هذه ظلمات أو تلك ظلمات ويجوز أن يكون ظلمات مبتدأ والجملة من قوله تعالى (بعضها فوق بعض) خبره قاله الحوفي (فان قيل) لا مسوغ للابتداء بهذه النكرة (أجيب) بأنها موصوفة تقديرا أي ظلمات كثيرة متكاثفة وقرأ البزي سحاب بلا تنوين وجر ظلمات وقنبل بتنوين سحاب وبجر ظلمات والبزي جعل الموج المتراكم بمنزلة السحاب وأما قنبل فانه جعل ظلمات بدلا من ظلمات الاولى والباقون بتنوين سحاب وظلمات بالرفع فيهما (اذا أخرج) أي الكافر في هذا البحر بدلالة المعنى وان لم يجر له ذكر (يده) وهي أقرب ما يرى اليه في هذه الظلمات (لم يكد) أي الكائن فيه (يراها) أي لم يقرب من

رؤيتها فضلا عن أن يراها كقول ذي الرمة

اذا غير النأى (أى البعد وفى نسخة الهجر) المحبين لم يكد *

رسيس الهوى (أى ثابته بمعنى الهوى الثابت) من حب مية يبرح

أى يزول والمعنى لم يقرب من البراح فضلا عن أن يبرح * (تنبيه) * فى كيفية هذا التشبيه وجوه أحدها قال الحسن ان الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمة ظلمة البحر وظلمة الامواج وظلمة السحاب كذا الكافر له ظلمات ثلاثة ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل ثانيها قال ابن عباس شبه قلبه وسمعه وبصره بهذه الظلمات الثلاث ثالثها أن الكافر لايدرى ولايدرى أنه لايدرى ويعتقد أنه يدرى فهذه المراتب الثلاثة شبه تلك الظلمات الثلاث رابعها قلب مظلم فى صدر مظلم فى جسد مظلم خامسها ان هذه الظلمات متراكمة فكذا الكافر لشدة اصراره على كفره قد تراكت عليه الضلالات حتى لو ذكر عنده أظهر الدلائل لم يفهمه (ومن لم يجعل الله) أى الملك الاعظم (له نورا فماله من نور) قال ابن عباس من لم يجعل الله له دينا واعيانا فلا دين له وقيل من لم يهده الله فلا هادى له لانه تعالى قادر على مايريد * ولما وصف تعالى أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد بقوله تعالى (ألم تر) أى تعلم علما يشبه المشاهدة فى اليقين والوثاقة بالوحى والاستدلال (أن الله) أى الحائز لصفات الكمال (يسبح له) أى ينزهه عن كل شائبة نقص (من فى السموات والارض) لان التسبيح لايرى بالبصر بل يعلم بالقلب وهذا استفهام والمراد به التقرير والبيان وهذا التسبيح اما أن يكون المراد منه دلالته بخلق هذه الاشياء على كونه تعالى منزها عن النقائص موصوفا بنعوت الجلال أو يكون المراد منه فى حق البعض الدلالة على التنزيه وفى حق الباقين النطق باللسان قال الرازى والاول أقرب لان القسم الثانى متعذر لان فى الارض من لايكون مكلفا لايسبح بهذا المعنى والمكلفون منهم من لايسبح أيضا بهذا المعنى كالكفار وأما القسم الثالث وهو أن يقال ان من فى السموات وهم الملائكة يسبحون باللسان وأما الذين فى الارض فمنهم من يسبح باللسان ومنهم من يسبح على لسان الدلالة فهذا يقتضى استعمال اللفظ الواحد فى الحقيقة والمجاز معا وهو غير جائز أى عند أكثر العلماء فلم يبق الا القسم الاول وهو أن هذه الاشياء مشتركة فى أن أجسامها وصفاتها دالة على تنزيه الله تعالى وقدرته والهيته وتوحيده وعدله فسمى ذلك تنزيها توسعا (فان قيل) فالتسبيح بهذا المعنى حاصل لجميع المخلوقات فما وجه تخصيصه ههنا بالعقلاء (أجيب) بأن خلقة العقلاء أشد دلالة على وجود الصانع سبحانه وتعالى لان العجائب والغرائب فى خلقهم أكثر وهى العقل والنطق والفهم * ولما كان أمر الطير دلالته أعجب ولانها قد تكون بين السماء والارض فتكون خارجة عن حكم من فيهما خصها بالذكر من جملة الحيوان بقوله تعالى (والطير صافات) أى باسطات أجنحتها فى جو السماء لاشبهة فى أنه لايمسكها الا الله تعالى وامساكه لها فى الجو مع أنها أجرام ثقيلة واقداره لها فيه على القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرته تعالى واختلف فى عود الضمائر فى قوله تعالى (كل) أى من المخلوقات (قد علم

صلاته

صلاته وتسبيحه) على قولين أحدهما أنها كلها عائدة على كل أى كل قد علم هو صلاة نفسه وتسبيحها قال ابن عادل وهذا أولى لتوافق الضمائر ثانيهما أن الضمير في علم عائد الى الله تعالى وفي صلاته وتسبيحه عائد على كل ويدل عليه قوله تعالى (والله) أى المحيط علما وقدرة (عليم بما يفعلون) وقيل ان ضرب أجنحة الطير صلاته وتسبيحه وهذا يؤيد أن المراد من التسبيح دلالة هذه الامور على التنزيه لا النطق باللسان روى أن أبا ثابت قال كنت جالسا عند أبي جعفر الباقر فقال لى أتدرى ما تقول هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد طلوعها قال لا قال فانهن يقدسن الله ربهن ويسألنه قوت يومهن قال بعض العلماء انا نشاهد من الطيور وسائر الحيوانات أعمالا لطيفة يعجز عنها كثير من العقلاء فاذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يلهمها معرفته ودعاءه وتسبيحه وبيان أنه تعالى ألهمها الاعمال اللطيفة بوجوه أحدها ان الدب يرمى بالحجارة ويأخذ العصا ويرمى الانسان حتى يتوهم أنه مات فيتركه وربما عاد يشمه ويتجسس نفسه ويصعد الشجرة أخف صعود ويهشم الجوز بين كفيه تفريقا بالواحدة وصدمة بالاخرى ثم ينفخ فاه فيذر قشره ويتغذى به ويحكى عن الفأر فى سرقته أمور عجيبة ثانيها أمر النحل وما ألهمها من الرياسة والبيوت المسدسة التى لا يتمكن من بنائها أفاضل المهندسين ثالثها انتقال الكركى من طرف من اطراف العالم الى الطرف الآخر طالبا لما يوافقه من الاهوية ويقال من خواص الخيل ان كل واحد يعرف صوت الفرس الذى قاتله وقتا ما والتماسيح تفتح أفواهها الطائر يقع عليها يقال لها القطقاط وينظف ما بين أسنانها وعلى رأس ذلك الطائر كالشوكة فاذا هم التمساح بالتقام ذلك الطائر تأذى من تلك الشوكة فيفتح فاه فيخرج ذلك الطائر والسلحفاة تتناول بعد أكل الحية سعترا جبليا ثم تعود وقد عوفيت من ذلك وحكى عن بعض الثقات المجربين للصيد أنه شاهد الحبارى تقاتل الافعى وتنهزم عنها الى بقلة تتناول منها ثم تعود ولا تزال كذلك وكان ذلك الشخص قاعدا فى كن وكانت البقلة قريبة من مسكنه فلما اشتغل الحبارى بالافعى قلع البقلة فعاد الحبارى الى منبتها فلم يجدها فأخذ يدور حول منبتها دورانا متتابعا حتى خر ميتا فعلم الشخص أنه يعالج بأكلها من اللسعة وتلك البقلة هى الجرجير البرى وابن عرس يستظهر فى مقاتلة الحية بأكل السذاب فان النكهة السذابية تنفر منها الافعى والكلاب اذا مرضت بطونها أكلت سنبل القمح واذا جرحت داوت الجراحة بالسعتر الجبلى والقنافذ تحس بالشمال والجنوب قبل الهبوب فتغير المدخل الى جحرها وكان رجل بالقسطنطينية قد أثرى بسبب أنه ينذر بالرياح قبل هبوبها وينفع الناس بانذاره وكان السبب فيه قنفذا فى داره يفعل الصنيع المذكور فيستدل به والخطاف صناع فى اتخاذ العش من الطين وقطع الخشب فان أعوزه الطين ابتل وتمرغ فى التراب ليحمل جناحاه قدرا من الطين واذا افرخ بالغ فى تعهد الفراخ وتأخذ زرقها بمنقارها وترميها من العش والغرانيق تصعد فى الجو عند الطيران فان حجب بعضها عن بعض سحاب أو ضباب أحدثت عن أجنحتها حفيفا مسموعا يتبع به بعضها بعضا واذا باتت على جبل فانها تضع رأسها تحت أجنحتها الا القائد فانه ينام مكشوف الرأس فيسرع انتباهه

واذا سمع جرساصاح وحال النمل فى الذهاب الى مواضعها على خط مستقيم يحفظ بعضها بعضا أمر عجيب واذا كشف عن بيوتها الساتر الذى كان يسترها وكان تحته بيض لها فان كل نملة تأخذ بيضة فى فيها وتذهب فى أسرع وقت والاستقصاء فى هذا الباب مذكور فى كتاب طبائع الحيوان والمقصود من ذلك أن الفضلاء من العقلاء يعجزون عن أمثال تلك الحيل واذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يقال انها تسبح الله تعالى وتثنى عليه وان كانت غير عارفة بسائر الامور التى تعرفها الناس ويؤيد هذا قوله تعالى ولكن لا تفقهون تسبيحهم وقوله صلى الله عليه وسلم ان نوحا عليه السلام أوصى بنيه عند موته بلا اله الا الله فان السموات السبع والارضين السبع لو كن فى حلقة مبهمة قصمتهن وسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شئ وبها رزق كل شئ وقال الغزالى فى الاحياء روى أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال تولت عنى الدنيا وقلت ذات يدى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون قال فقلت وماهى يارسول الله قال قل سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله مائة مرة ما بين طلوع الفجر الى أن تصلى الصبح تأتيك الدنيا راغمة صاغرة ويخلق الله عز وجل من كل كلمة ملكا يسبح الله الى يوم القيامة لك ثوابه * ثم نبه سبحانه وتعالى بقوله (ولله ملك السموات والارض) على أن الكل منه لان كل ماسواه ممكن ومحدث والممكن والمحدث لا يوجد الا عند الانتهاء الى القديم الواجب الوجود ويدخل فى هذا جميع الاجرام والاعراض وأفعال العباد وأحوالهم وخواطرهم وفى قوله تعالى (والى الله) أى الذى له الاحاطة بكل شئ (المصير) دليل على المعاد وأنه لابد من مصير الكل اليه بعد الفناء والرؤية فى قوله تعالى (ألم تر) نظرية (أن الله) أى ذا الجلال والجمال (يزجى سحابا) أى يسوقه برفق بعد أن أنشأه من العدم تارة من السفل وتارة من العلو ضعيفا رقيقا متفرقا قال أبو حيان وهو اسم جنس واحده سحابة والمعنى يسوق سحابة الى سحابة وهو معنى قوله تعالى (ثم يؤلف بينه) أى بين أجزائه بعد أن كان قطعا فى جهات مختلفة فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة (ثم يجعله ركاما) فى غاية العظمة متراكبا بعضه على بعض بعد أن كان فى غاية الرقة (فترى) أى فى تلك الحالة المستمرة (الودق) أى المطر (يخرج من خلاله) أى من فتوقه التى حدثت بالتراكم وارهاص بعضه فى بعض (فان قيل) بين انما تدخل على مثنى فما فوقه فلم دخلت هنا على مفرد (أجيب) بأن المراد بالسحاب الجنس فعاد الضمير على حكمه أو على حذف مضاف أى بين أجزائه كما مر وبين قطعه فان كل قطعة سحابة وقرأ السوسى فترى فى الوصل بالامالة بخلاف عنه والباقون بالفتح وأما فى الوقف فأبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بالامالة بين بين والباقون بالفتح (وينزل من السماء) أى من الغمام وكل ما علا فهو سماء (من جبال فيها) أى فى السماء وهى السحاب الذى صار بعد تراكمه كالجبال وقوله تعالى (من برد) بيان للجبال والمفعول محذوف أى ينزل مبتدئا من السماء من جبال فيها من برد بردا فمن الاولى لابتداء الغاية باتفاق والثانية للتبعيض والثالثة للبيان ويجوز أن تكون الثانية لابتداء الغاية أيضا

ومجرورها بدل من الاولى باعادة العامل والتقدير وينزل من جبال أى من جبال فيها فهو بدل اشتمال والاخيرة للتبعيض واقع موقع المفعول (فان قيل) مامعنى من جبال فيها من برد (أجيب) بأن فيه معنيين أحدهما أن يخلق الله فى السماء جبال برد كما خلق فى الارض جبال حجر وليس فى العقل قاطع يمنعه الثانى أن يراد الكثرة بذكر الجبال كما يقال فلان يملك جبالا من ذهب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون واخفائها عند الزاى وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى ثم بين تعالى أن ذلك باختياره وارادته بقوله تعالى (فيصيب به) أى بكل من البرد والمطر على وجه النقمة أو الرحمة (من يشاء) أى من الناس وغيرهم (ويصرفه عن من يشاء) صرفه عنه (فائدة) عن مقطوعة من من فى الرسم ثم نبه تعالى على ماهو غاية فى العجب فى ذلك مما فى الماء من النور الذى ربما نزل منه صاعقة فأحرقت مالا تحرق النار بقوله تعالى (يكاد) أى يقرب (سنا) أى ضوء (برقه) وهو اضطراب النور فى خلاله (يذهب) أى هو ملتبسا (بالابصار) أى الناظرة له أى يخطفها الشدة لمعانه وتلألئه فتكون قوة البرق دليلا على تكاثف السحاب وبشيرا بقوة المطر ونذيرا بنزول الصواعق واعلم أن البرق الذى صفته كذلك لابد وأن يكون نارا عظيمة خالصة والنار ضد الماء والبرد فظهوره يقتضى ظهور الضد من الضد وذلك لايمكن الا بقدرة قادر حكيم * ثم ذكر تعالى ماهو أدل على الاختيار بقوله تعالى مترجما لما يشمل مامضى وزيادة (يقلب الله) أى الذى له الامر كله بتحويل الظلام ضياء والضياء ظلاما والنقص تارة والزيادة أخرى مع المطر تارة والصحو أخرى (الليل والنهار) فينشأ عن ذلك التقلب من الحر والبرد والنمو والتنويع واليبس مايبهر العقول ولهذا قال منبها على النتيجة (ان فى ذلك) الامر العظيم الذى ذكر من جميع ماتقدم (لعبرة) أى دلالة على وجود الصانع القديم وكمال قدرته واحاطة علمه ونفاذ مشيئته وتنزيهه عن الحاجة ومايفضى اليها (لاولى الابصار) أى لاصحاب البصائر على قدرة الله تعالى وتوحيده * ولما استدل تعالى أولا بأحوال السماء والارض وثانيا بالآثار العلوية استدل ثالثا بأحوال الحيوانات بقوله تعالى (والله) أى الذى له العلم الكامل والقدرة الشاملة (خلق كل دابة) أى حيوان (من ماء) وقرأ حمزة والكسائى بألف بعد الخاء وكسر اللام ورفع القاف وكسر لام كل والباقون بفتح اللام والخاء ولا ألف بينهما ونصب لام كل (فان قيل) كثير من الحيوانات لم يخلق من الماء كالملائكة خلقوا من النور وهم أعظم الحيوانات عددا وكذا الجن وهم مخلوقون من النار وخلق آدم من التراب كما قال تعالى خلقه من تراب وخلق عيسى من الريح كما قال تعالى فنفخنا فيه من روحنا ونرى كثيرا من الحيوانات يتولد لامن نطفة (أجيب) بوجوه أحسنها ماقال القفال ان من ماء صلة كل دابة وليس هو من صلة خلق والمعنى أن كل دابة متولدة من الماء فهى مخلوقة لله تعالى ثانيها ان أصل جميع المخلوقات من الماء على ماروى ان أول ماخلق الله تعالى جوهرة فنظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم قسم ذلك الماء فخلق منه النار والهواء والنور والتراب والمقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة فكان أصل الخلقة الماء

فلهذا ذكره الله تعالى ثالثها المراد من الدابة التى تدب على وجه الارض ومسكنها هنالك فتخرج الملائكة والجن رابعها لما كان الغالب من هذه الحيوانات كونها مخلوقة من الماء اما لانها متولدة من النطفة واما لانها لا تعيش الا بالماء أطلق عليها لفظ كل تنزيلا للغالب منزلة الكل (فان قيل) لم نكر الماء فى قوله تعالى من ماء وعرفه فى قوله تعالى من الماء كل شئ حى (أجيب) بأنه جاء ههنا منكرا لان المعنى خلق كل دابة من نوع من الماء مختصا بتلك الدابة وعرفه فى قوله تعالى من الماء كل شئ حى لان المقصود هنالك كونهم مخلوقين من هذا الجنس وههنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم الى أنواع كثيرة (فمنهم) أى الدواب (من يمشى على بطنه) كالحية والحيتان والديدان واستعير المشى للزحف على البطن كما قالوا فى الامر المستمر قد مشى هذا الامر ويقال فلان ما مشى له أمر أو سمى بذلك للمشاكلة بذكر الزاحف مع الماشى (ومنهم من يمشى على رجلين) أى فقط كالآدمى والطير (ومنهم من يمشى على أربع) أى من الايدى والارجل كالنعم والوحش (فان قيل) لم حصر القسمة فى هذه الثلاثة أنواع من المشى وقد نجد من يمشى على أكثر من أربع كالعناكب والعقارب والحيوان الذى له أربع وأربعون رجلا الذى يسمى دخال الاذن (أجيب) بان هذا القسم الذى لم يذكر كالنادر فكان ملحقا بالعدم وقال النقاش انما اكتفى بذكر ما يمشى على أربع عن ذكر ما يمشى على أكثر من أربع لان جميع الحيوان انما اعتماده على أربع وهى قوائم مشيه وكثرة الارجل لبعض الحيوان زيادة فى الخلقة لا يحتاج ذلك الحيوان فى مشيه الى جميعها وبأن قوله تعالى (يخلق الله ما يشاء) كالتنبيه على سائر الاقسام (فان قيل) لم جاءت الاجناس الثلاثة على هذا الترتيب (أجيب) بأنه قدم ما هو أعرق فى القدرة وهو الماشى بغير آلة مشى من أرجل أو قوائم ثم الماشى على رجلين ثم الماشى على أربع *(تنبيه)* انما أطلق من على غير العاقل لاختلاطه بالعاقل فى المفصل بمن وهو كل دابة وكان التعبير بمن أولى ليوافق اللفظ * ولما كانت هذه الادلة ناظرة الى البعث أتم نظر وكانوا منكرين له أكد ذلك بقوله تعالى (ان الله) أى الذى له الكمال المطلق (على كل شئ) من ذلك وغيره (قدير) لانه القادر على الكل والعالم بالكل فهو المطلع على أحوال هذه الحيوانات فأى عقل يقف عليها وأى خاطر يصل الى ذرة من أسرارها بل هو الذى يخلق ما يشاء كيف يشاء ولا يمنعه منه مانع * ولما اتضح بهذا ما لله تعالى من صفات الكمال والتنزه عن كل شائبة نقص وقامت أدلة الوحدانية على ساق واتسقت براهين الالوهية أى اتساق قال تعالى مترجما لتلك الادلة (لقد أنزلنا) أى فى هذه السورة وما تقدمها بما لنا من العظمة (آيات) أى بما لنا من الحكم والاحكام والادلة والامثال (مبينات) للحقائق بأنواع الدلائل التى لا خفاء فيها (والله) أى الملك الاعظم (يهدى من يشاء) من عباده (الى صراط) طريق (مستقيم) هو دين الاسلام الموصل الى دار الحق والفوز بالجنة * ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد أتبعه بذم قوم اعترفوا بالدين بألسنتهم ولكنهم لم يصدقوا بقلوبهم فقال تعالى (ويقولون) أى الذين ذمهم الله تعالى (آمنا بالله) أى

الذى

الذى أوضح لنا جلاله وعظمته وكماله (وبالرسول) أى الذى علمنا كمال رسالته وعمومها بما قام عليها من الادلة (وأطعنا) أى وأوجدنا الطاعة لله ولرسوله ثم عظم المخالفة بين الفعل والقول بأداة البعد فقال تعالى (ثم يتولى) أى يرتد بانكار القلب ويعرض عن طاعة الله ورسوله ضلالا منهم عن الحق (فريق منهم) أى ناس يقصدون الفرقة من هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة (من بعد ذلك) أى القول السديد المؤكد مع الله الذى هو أكبر من كل شئ ومع رسوله الذى هو أشرف الخلائق (وما أولئك) أى البعداء البغضاء الذين صاروا بتوليهم فى محل البعد (بالمؤمنين) أى المعهودين الموافقة قلوبهم ألسنتهم (فان قيل) انه تعالى حكى عن كلهم انهم يقولون آمنا ثم حكى عن فريق منهم التولى فكيف يصح أن يقول فى جميعهم وما أولئك بالمؤمنين مع أن المتولى فريق (أجيب) بان قوله تعالى وما أولئك بالمؤمنين راجع الى الذين تولوا لا الى الجملة الاولى ولو رجع الى الجملة الاولى لصح ويكون معنى قوله تعالى ثم يتولى فريق منهم أى يرجع عن هذا الفريق الى الباقى فيظهر بعضهم لبعض الرجوع كما أظهروه بينهم * ولما فضحهم بما أخفوه من توليهم قبح عليهم ما أظهروه فقال تعالى معبرا بأداة التحقيق (واذا دعوا) أى الفريق الذين ادعوا الايمان من أى داع كان (الى الله) أى الى مانصب الملك الاعظم من أحكامه (ورسوله) وأفرد الضمير فى قوله تعالى (ليحكم) وقد تقدمه اسمان وهما الله ورسوله فهو كقوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه لان حكم رسوله هو حكمه قال الزمخشرى كقولك أعجبنى زيد وكرمه تريد كرم زيد ومنه قوله

ومنهل من الفلا فى أوسطه * غلسته قبل القطا وفرطه

أى قبل فرط القطا (بينهم) أى بما أراه الله (اذا فريق منهم) أى ناس مجبولون على الاذى (معرضون) أى فاجؤا الاعراض اذا كان الحق عليهم لعلمهم بأنك لا تحكم لهم وهو شرح للتولى ومبالغة فيه (وان يكن لهم) أى على سبيل الفرض (الحق) أى بلا شبهة (يأتوا اليه) أى الرسول (مذعنين) أى منقادين لعلمهم بأنه يحكم لهم لانهم يعلمون أنه دائر مع الحق لهم وعليهم فليس انقيادهم لطاعة الله ورسوله * (تنبيه) * قوله تعالى اليه يجوز تعليقه بيأتوا لان أتى وجاء قد يتعديان بالى ويجوز أن يتعلق بمذعنين لانه بمعنى مسرعين فى الطاعة وصححه الزمخشرى قال لتقدم صلته ودلالته على الاختصاص ومذعنين حال ثم قسم تعالى الامر فى عدولهم عن حكومته صلى الله عليه وسلم اذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب بقوله تعالى (أفى قلوبهم مرض) أى نوع فساد من أصل الفطرة يحملهم على الضلال أو مرتابين فى نبوته بقوله تعالى (أم ارتابوا) أى بأن رأوا منك تهمة فزالت ثقتهم ويقينهم بك أو خائفين الحيف فى قضائه بقوله تعالى (أم يخافون أن يحيف) أى يجور (الله) أى الغنى عن كل شئ لان له كل شئ (عليهم ورسوله) أى الذى لا ينطق عن الهوى * ثم أضرب عن القسمين الاخيرين لتحقيق القسم الاول بقوله تعالى (بل أولئك) أى البعداء البغضاء (هم الظالمون) أى الكاملون فى الظلم ووجه التقسيم أن امتناعهم اما لخلل فيهم أو فى الحاكم والثانى اما أن يكون محققا

عندهم أو متوقعا وكل منهما باطل لان منصب نبوّته وفرط أمانته تمنعه فتعين الاول فظلمهم بهم خلل عقيدتهم وميل نفوسهم الى الحيف وضمير الفصل لنفي ذلك عن غيرهم (فان قيل) اذا خافوا أن يحيف الله عليهم ورسوله فقد ارتابوا في الدين واذا ارتابوا ففي قلوبهم مرض والكل واحد فأي فائدة في التعديد (أجيب) بأن قوله تعالى في قلوبهم مرض أشار به الى النفاق وقوله تعالى أم ارتابوا اشارة الى أنهم بلغوا في حب الدنيا الى حيث يتركون الدين بسببه (فان قيل) هذه الثلاثة متغايرة ولكنها متلازمة فكيف ادخل عليها كلمة أم (أجيب) بأنه تعالى نبههم على كل واحد من هذه الاوصاف فكان في قلوبهم مرض وهو النفاق وكان فيها شك وارتياب وكانوا يخافون الحيف من الرسول وكل واحد من ذلك كفر ونفاق واختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل نزلت في بشر المنافق وكان قد خاصم يهوديا في أرض فقال اليهودي نتحاكم الى محمد صلى الله عليه وسلم وقال المنافق نتحاكم الى كعب بن الاشرف فان محمدا يحيف علينا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقد مضت قصتها في سورة النساء وقال الضحاك نزلت في المغيرة ابن وائل كان بينه وبين علي رضي الله تعالى عنه أرض تقاسماها فوقع الى علي ما لا يصيبه الماء الا بمشقة فقال المغيرة بعني أرضك فباعه اياها وتقابضا فقيل للمغيرة أخذت سبخة لا ينالها الماء فقال لعلي اقبض أرضك فانما اشتريتها ان رضيتها ولم أرضها فقال علي بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك ودعاه الى أن يخاصمه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة أما محمد فلا نأتيه ولا أحاكم اليه فانه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف علي فنزلت الآية وقال الحسن نزلت في المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ويسرون الكفر * ولما نفى تعالى عنهم الايمان الكامل بما وصفهم به كان كأنه سئل عن حال المؤمنين فقال تعالى (انما كان) أي دائما (قول المؤمنين) أي العريقين في ذلك الوصف (اذا دعوا) أي من أي داع كان (الى الله) أي الى ما أنزل الملك الذي لا كفء له من أحكامه (ورسوله) الذي لا ينطق عن الهوى (ليحكم) أي الرسول (بينهم) بما أراه الله تعالى أي حكومة من الحكومات لهم أو عليهم (أن يقولوا سمعنا) أي الدعاء (وأطعنا) أي بالاجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وهذا ليس على طريق الخبر ولكنه تعليم أدب الشرع بمعنى ان المؤمنين ينبغي أن يكونوا هكذا (وأولئك) أي العالو الرتبة (هم المفلحون) الذين وصفهم الله تعالى في أول المؤمنين وهذا يدل على عادته تعالى في اتباع ذكر المحق المبطل والتنبيه على ما ينبغي بعد انكاره لما لا ينبغي * ولما رتب تعالى الفلاح على هذا النوع الخاص أتبعه عموم الطاعة بقوله تعالى (ومن يطع الله) أي الذي له الامر كله (ورسوله) أي فيما ساءه وسره (ويخش الله) أي فيما صدر عنه من الذنوب في الماضي ليحمله ذلك على كل خير (ويتقه) أي الله فيما بقي من عمره بأن يجعل بينه وبين ما يسخطه وقاية من المباحات فيتركها ورعا (فأولئك) أي العالو الرتبة (هم الفائزون) بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم وعن ابن عباس في تفسير هذه الآية ومن يطع الله في فرائضه ورسوله في سننه ويخش الله على ما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل وعن بعض

الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت عليه هذه الآية وقرأ أبو عمرو وشعبة وخلاد ويتقه بسكون الهاء بخلاف عن خلاد وقالون باختلاس كسرة الهاء وحفص بسكون القاف وقصر كسرة الهاء والباقون وخلاد في أحد وجهيه بإشباع كسرة الهاء * ولما ذكر تعالى ما رتب على الطاعة الظاهرة التي هي دليل الانقياد الباطن ذكر حال المنافقين بقوله تعالى (وأقسموا بالله) أي الذي له الكمال المطلق وقوله تعالى (جهد أيمانهم) مستعار من جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وذلك إذا بالغ في اليمين وبلغ غاية شدتها ووكادتها وعن ابن عباس من قال بالله فقد بالغ في اليمين وبلغ غاية شدتها (لئن أمرتهم) أي أمر من الأمور (ليخرجن) عما هم متلبسون به من خلافه كائنا ما كان وذلك أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا ولئن أقمت أقمنا وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا فقال الله تعالى (قل) أي لهم (لا تقسموا) أي لا تحلفوا فإن العلم بما أنتم عليه لا يحتاج إلى الأقسام وههنا قد تم الكلام ولو كان قسمهم صادقا لما نهوا عنه لأن من حلف على القيام بالبر لا ينهى عنه فثبت أن قسمهم كان لنفاقهم وكان باطنهم يخالف ظاهرهم ومن نوى الغدر لا الوفاء فقسمه قبيح قال المتنبي

وفي اليمين على ما أنت واعده * ما دل أنك في الميعاد متهم

وفي رفع قوله تعالى (طاعة معروفة) ثلاثة أوجه أحدها أنه خبر مبتدإ مضمر تقديره أمرنا طاعة أو المطلوب طاعة ثانيها أنه مبتدأ والخبر محذوف أي أمثل أو أولى أو خير أي طاعة معروفة للنبي صلى الله عليه وسلم خير من قسمكم الذي لا تصدقون فيه ثالثها طاعة مبتدأ أي هذه الحقيقة ومعروفة هو الخبر أي معروفة منكم ومن غيركم وإرادة الحقيقة هو الذي سوغ الابتداء بها مع تنكير لفظها لأن العموم الذي تصلح له قد تخصص بإرادة الحقيقة كما قالوه في أعرف المعارف والمعنى أن الطاعة وإن اجتهد العبد في إخفائها لا بد أن تظهر مخايلها على شمائله وكذا المعصية لأنه ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها رواه الطبراني عن عثمان وعن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال لو أن رجلا دخل بيتا في جوف بيت فأدى هناك عملا أوشك الناس أن يتحدثوا به وما من عامل عمل عملا إلا كساه الله رداء عمله إن كان خيرا فخير وإن كان شرا فشر وعن سعيد لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائنا من كان (إن الله) أي الذي له الإحاطة بكل شيء (خبير بما تعملون) أي لا يخفى عليه شيء من سرائركم فإنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم * ولما نبه تعالى على خداعهم وأشار إلى عدم الاغترار بأيمانهم أمر بترغيبهم وترهيبهم مشيرا إلى الإعراض عن عقوبتهم بقوله تعالى (قل) أي لهم (أطيعوا الله) أي الذي له الكمال المطلق (وأطيعوا الرسول) أي الذي له الرسالة المطلقة ظاهرا وباطنا وقوله تعالى (فإن تولوا) أي عن طاعته بحذف إحدى التاءين خطاب لهم أي فإن تتولوا فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم (فإنما عليه) أي محمد صلى الله عليه وسلم (ما حمل) أي ما حمله الله تعالى من أداء الرسالة وإذا أدى فقد خرج من عهدة التكليف (وعليكم) أي وأما

أنتم فعليكم (ما حملتم) أي ما كلفتم من التلقي بالقبول والاذعان فان لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم أنفسكم لسخط الله وعذابه وان أطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة الى الهدى فالنفع والضر عائد اليكم (وان تطيعوه) بالاقبال على كل ما يأمركم به (تهتدوا) أي الى كل خير (وما على الرسول) أي من جهة غيره (الا البلاغ) أي فما الرسول الا ناصح وهاد وما عليه الا أن يبلغ ماله نفع في قبولكم ولا عليه ضرر في توليكم والبلاغ بمعنى التبليغ كالاداء بمعنى التأدية ومعنى (المبين) كونه مقرونا بالآيات والمعجزات روي أنه صلى الله عليه وسلم قال على المنبر من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب وقال أبو امامة الباهلي عليكم بالسواد الاعظم فقال رجل ما السواد الاعظم فنادى أبو امامة هذه الآية في سورة النور فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وقوله تعالى (وعد الله) أي الذي له الاحاطة بكل شئ (الذين آمنوا منكم وعملوا) أي تصديقا لايمانهم (الصالحات) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللائمة أوله ولمن معه ومن للبيان ثم أكد غاية التأكيد بلام القسم لما عند أكثر الناس من الريب في ذلك بقوله تعالى (ليستخلفنهم في الارض) أي أرض العرب والعجم بأن يمد زمانهم وينفذ أحكامهم فيجعلهم متصرفين في الارض تصرف الملوك في ممالكهم (كما استخلف الذين من قبلهم) أي من الامم من بني اسرائيل وغيرهم من كل من حصلت له مكنة وظفر على الاعداء بعد الضعف الشديد كما كتب في الزبور ان الارض يرثها عبادي الصالحون وكما قال موسى عليه السلام ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقرأ أبو بكر بضم التاء الفوقية وكسر اللام والباقون بفتح التاء واللام (وليمكنن لهم) أي في الباطن والظاهر (دينهم الذي ارتضى لهم) وهو دين الاسلام وتمكينه تثبيته وتوكيده واضافه اليهم اشارة الى رسوخ أقدامهم فيه وانه الذي لا ينسخ * ولما بشرهم بالتمكين أشار لهم الى مقداره بقوله تعالى (وليبدلنهم من بعد خوفهم) أي الذي كانوا عليه (أمنا) وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فقال صلى الله عليه وسلم لا تصبرون الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملا العظيم محتبيا ليس فيه حديدة وأنجز الله تعالى وعده وأظهرهم على جزيرة العرب وافتتحوا بعض بلاد المشرق والمغرب ومزقوا ملك الاكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا واستعبدوا أبناء القياصرة وتمكنوا شرقا وغربا مكنة لم تحصل قبلهم لامة من الامم كما قال صلى الله عليه وسلم ان الله زوى لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها ولما قتلوا عثمان رضي الله عنه وخرجوا على علي ثم ابنه الحسن نزع الله ذلك الامر كما أشار اليه بمن وتنكير أمنا وجاء الخوف واستمر يتطاول ويزداد قليلا قليلا الى ان صار في زماننا هذا الى أمر عظيم وذلك تصديق لقوله عليه أفضل الصلاة والسلام الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يملك الله من يشاء فتصير الملك تصير بزيزى قطع سبيل

وسفك دماء وأخذ أموال بغير حقها والثلاثون خلافة أبي بكر سنتان وخلافة عمر عشرة وخلافة عثمان اثنا عشر وخلافة علي ستة والبزيزى بكسر الباء وتشديد الزاى الاولى والقصر السلب والتغلب وقوله قطع سبيل نصب اما عطف بيان لقوله بزيزى أو بدل منه وقرأ ابن كثير وأبو بكر بسكون الباء الموحدة وتخفيف الدال والباقون بفتح الموحدة وتشديد الدال ثم اتبع ذلك بنتيجته بقوله تعالى تعليلا للتمكين وما معه (يعبدوننى) أى وحدى وقوله تعالى (لا يشركون بى شيأ) حال من الواو أى يعبدوننى غير مشركين (فان قيل) فما محل يعبدوننى (أجيب) بأنه مستأنف لا محل له كأن قائلا قال مالهم مستخلفين و يؤمنون فقال يعبدوننى ويجوز أن يكون حالا عن وعدهم أى وعدهم الله ذلك فى حال عبادتهم وإخلاصهم فمحله النصب ولما كان التقدير فمن ثبت على دين الاسلام وانقاد لاحكامه واستقام نال هذه البشرى عطف عليه قوله تعالى (ومن كفر) أى ارتد وكفر هذه النعمة (بعد ذلك) أى بعد الوعد أو الخلافة (فأولئك) أى البعداء من الخير (هم الفاسقون) أى الخارجون عن الدين خروجا كاملا لا يقبل معه معذرة ولا يقال لصاحبه عثرة بل تقام عليهم الاحكام بالقتل وغيره ولا يراعى منهم ملام ولا تؤخذ بهم رأفة عند انتقام كما تقدم أول السورة فيمن لزمه الجلد وقيل المراد بالكفر كفران النعمة لا الكفر بالله وقوله تعالى فأولئك هم الفاسقون أى العاصون لله وقوله تعالى (وأقيموا الصلاة) أى فانها قوام ما بينكم وبين ربكم معطوف على أطيعوا الله وأطيعوا الرسول قال الزمخشرى وليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وان طال لان حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه (وآتوا الزكاة) فانها نظام ما بينكم وبين اخوانكم (وأطيعوا الرسول) أى فى كل حال يأمركم به وكررت طاعة الرسول تأكيدا لوجوبها (لعلكم ترحمون) أى لتكونوا على رجاء من الرحمة ممن لا راحم فى الحقيقة غيره والفاعل فى قوله تعالى (لا تحسبن) ضمير المخاطب أى لا تحسبن أيها المخاطب (الذين كفروا) أى وان ازدادت كثرتهم على العد وتجاوزت عظمتهم الحد (معجزين) أى لاهل ودنا وقيل لنا (فى الارض) أى فانهم مأخوذون لا محالة وقرأ ابن عامر وحمزة بالياء على الغيبة قال النحاس ما علمت أحدا من أهل العربية بصريا ولا كوفيا الا وهو يلحن قراءة حمزة فمنهم من يقول هى لحن لانه لم يأت الا بمفعول واحد ليحسبن وأجيب عن ذلك من وجهين أحدهما أن المفعول الاول محذوف تقديره ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين الا ان حذف أحد المفعولين ضعيف عند البصريين ومنه قول عنترة

ولقد نزلت فلا تظنى غيره * منى بمنزلة المحب المكرم

أى فلا تظنى غيره واقعا والثانى ان المفعولين هما قوله معجزين فى الارض قاله الكوفيون وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب وفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة وكسرها الباقون وقوله تعالى (ومأواهم النار) أى مسكنهم معطوف على لا يحسبن الذين كفروا معجزين كأنه قيل الذين كفروا لا يفوتون أهل ودنا أو لا يفوتوننا ومأواهم النار والمراد بهم المقسمون عليه بالله جهد

أيمانهم * ولما كانت سكنى الشئ لا تكون الا بعد المصير اليه قال تعالى (ولبئس المصير) أى المرجع مصيرها فكيف اذا كان على وجه السكنى واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين امنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) الآية فقال ابن عباس وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاما من الانصار يقال له مدلج بن عمرو الى عمر رضى الله تعالى عنه وقت الظهيرة ليدعوه فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك فنزلت وقال مقاتل نزلت فى أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير فدخل عليها فى وقت فكرهته فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فنزلت واللام فى ليستأذنكم للامر وملك اليمين يشمل العبيد والاماء قال بعض المفسرين هذا الخطاب وان كان ظاهره للرجال فالمراد به الرجال والنساء لان التذكير يغلب على التأنيث قال الرازى والاولى عندى ان الحكم ثابت فى النساء بقياس جلى لان النساء فى باب العورة أشد حالا من الرجال فهو كتحريم الضرب بالقياس على حرمة التأفيف وقال ابن عباس هى فى الرجال والنساء أى البالغين أومن قاربوا البلوغ يستأذنون على كل حال فى الليل والنهار للدخول عليكم كراهة الاطلاع على عوراتكم والتطرق بذلك الى مساءتكم واختلف العلماء فى هذا الامر فقيل للندب وقيل للوجوب واستظهر (والذين) أى وليستأذنكم الذين ظهروا على عورات النساء ولكنهم (لم يبلغوا الحلم) وقيده بقوله تعالى (منكم) ليخرج الكفار والارقاء وعبر عن البلوغ بالاحتلام لانه أقوى دلائله (ثلاث مرات) فى اليوم والليلة وقيل ثلاث استئذانات فى كل مرة فان لم يحصل الاذن رجع المستأذن كما تقدم المرة الاولى من الاوقات الثلاث (من قبل صلاة الفجر) لانه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم (و) المرة الثانية (حين تضعون ثيابكم) أى التى للخروج بين الناس (من الظهيرة) أى شدة الحر وهو انتصاف النهار (و) المرة الثالثة (من بعد صلاة العشاء) لانه وقت الانفصال من ثياب اليقظة والاتصال بثياب النوم وخص هذه الاوقات لانها ساعات الخلوة ووضع الثياب والالتحاف باللحاف وأثبت من فى الموضعين دلالة على قرب الزمن من الوقت المذكور لضبطه وأسقطها فى الاوسط دلالة على استغراقه لانه غير منضبط ثم علل ذلك بقوله تعالى (ثلاث عورات) أى اختلالات فى التستر والتحفظ (لكم) لانها من ساعات وضع الثياب والخلوة قال البيضاوى وأصل العورة الخلل ومنها أعور المكان ورجل أعور اذا بدا فيه خلل انتهى وسميت هذه الاوقات عورات لان الانسان يضع فيها ثيابه فربما تبدو عورته وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى فى الوصل ثلاث بالنصب بتقدير أوقات منصوبا بدلا من محل ما قبله قام المضاف اليه مقامه والباقون بالرفع على انها خبر مبتدا مقدر بعده مضاف وقام المضاف اليه مقامه أى هى أوقات ويجوز أن يكون مبتدا وخبره ما بعده * ثم بين سبحانه وتعالى حكم ما عدا ذلك بقوله تعالى مستأنفا (ليس عليكم) أى فى ترك الامر (ولا عليهم) أى المماليك والصبيان فى ترك الاستئذان (جناح) أى اثم وأصله الميل فى الدخول عليكم فى جميع الساعات (بعدهن) أى بعد هذه الاوقات الثلاثة اذا

هجموا

هجموا عليكم ثم علل الاباحة فى غيرها مخرجا لغيرهم بقوله تعالى (طوافون عليكم) أى لعمل ماتحتاجون فى الخدمة كما أنتم طوافون عليهم لعمل مايصلحهم ويصلحكم فى الاستخدام (بعضكم) طواف (على بعض) لعمل مايعجزعنه الآخر أو يشق عليه فلو عم الامر بالاستئذان لأدى الى الحرج (فان قيل) بم رفع بعضكم على بعض (أجيب) بأنه رفع بالابتداء وخبره على بعض أى طواف على بعض وحذف لان طوافون يدل عليه ويجوز أن يرتفع بطوف مضمرا لتلك الدلالة (كذلك) أى كما بين ماذكر (يبين الله) أى بما له من احاطة العلم والقدرة (لكم) أيتها الامة (الآيات) فى الاحكام وغيرها بعلمه وحكمته (والله) أى الذى له الاحاطة العامة بكل شئ (عليم) بكل شئ (حكيم) فيما يريده فلا يقدر أحد على نقضه وختم الآية بهذا الوصف يدل على انها محكمة لم تنسخ واختلف فى ذلك فقال الزمخشرى عن ابن عباس انه قال آية لايؤمن بها أكثر الناس آية الاذن وانى لآمر جاريتى أى زوجتى أن تستأذن علىّ وسأله عطاء استأذن على اختى قال نعم وان كانت فى حجرك تمونها وتلا هذه الآية وعنه ثلاث آيات جحدهن الناس الاذن كله وقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم فقال الناس أعظمكم بيتا وقوله واذا حضر القسمة وعن ابن مسعود عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وامهاتكم واخواتكم وعن الشعبى ليست منسوخة فقيل له ان الناس لايعملون بها فقال الله المستعان وعن سعيد بن جبير ان الناس يقولون هى منسوخة والله ماهى منسوخة ولكن الناس تهاونوا بها وقال قوم هى منسوخة روى البغوى عن ابن عباس أنه قال لم يكن للقوم ستر ولا حجاب فكان الخدم والولائد يدخلون فربما يرون منهم مالايحبون فأمروا بالاستئذان وقد بسط الله الرزق واتخذ الناس الستور فلهذه الرواية اختلفت عن ابن عباس * ولما بين تعالى حكم الصبيان والارقاء الذين هم أطوع للامر وأقبل لكل خير أتبعه حكم البالغين من الاحرار بقوله تعالى (واذا بلغ الاطفال منكم الحلم) أى اذا بلغ أطفالكم الاحرار بلوغ السن الذى يكون فيه انزال المنى سواء رأى منيا أم لا واختلف فى ذلك السن فقال عامة العلماء هو خمس عشرة سنة أى قريبة تحديدية لافرق فى ذلك بين الذكر وغيره وقال أبو حنيفة هو ثمانى عشرة سنة فى الغلام وسبع عشرة سنة فى الجارية وعن على رضى الله عنه أنه تعتبر القامة وتقدر بخمسة أشبار وبه أخذ الفرزدق فى قوله

ما زال مذ عقدت يداه ازاره * وسما فأدرك خمسة الاشبار

واعتبر غيره الانبات أى للعانة وعن عثمان رضى الله تعالى عنه أنه سأل عن غلام له فقال هل اخضر ازاره أى نبت شعر عانته فأسند الاخضرار الى الازار على المجاز ولانه مما اشتمل عليه الازار ونبات العانة الخشن عندنا علامة على بلوغ ولد الكافر فقط أما اذا رأى المنى فى وقت امكانه وهو استكمال تسع سنين قريبة فانا نحكم ببلوغه سواء كان ذكرا أم أنثى مسلما أم كافرا وأما الخنثى فلابد أن يمنى من فرجيه أو يحيض بالفرج ويمنى من الذكر (فليستأذنوا) أى على غيرهم فى جميع الاوقات (كما استأذن الذين من قبلهم) أى من الاحرار الكبار الذين

جعلوا قسيما للمماليك فلا يدخل في ذلك الارقاء فلا يستدل بذلك على أن العبد البالغ يستأذن على سيدته وقيل المراد الذين كانوا مع ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام (كذلك) أي كما بين لكم ماذكر (يبين الله) أي الذي له الاحاطة والقدرة (لكم) أيتها الامة (آياته) أي دلالاته (والله) أي الذي يعلم السر وأخفى (عليم) أي بأحوال خلقه (حكيم) أي فيما دبر لهم قال سعيد بن المسيب يستاذن الرجل على امه فانما أنزلت هذه الآية في ذلك وسئل حذيفة أيستأذن الرجل على والدته فقال نعم ان لم تفعل رأيت منها ما تكره وعن أنس قال لما كانت صبيحة يوم احتلمت دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته اني قد احتلمت فقال لا تدخل على النساء فما أتى علي يوم كان أشد منه * ولما ذكر تعالى اقبال الشباب في تعيين حكم الحجاب أتبعه الحكم عند ادبار الشباب في اتقاء الظاهر من الشباب بقوله تعالى (والقواعد من النساء) أي اللاتي قعدن عن الولد والحيض من الكبر فلا يلدن ولا يحضن واحدتهن قاعد بلا هاء وقيل قعدن عن الازواج وهو معنى قوله (اللاتي لا يرجون نكاحا) أي لا يردن الرجال لكبرهن قال ابن منبه سميت المرأة قاعدا اذا كبرت لانها تكثر القعود وقال ربيعة هن العجز اللواتي اذا رآهن الرجل استقذرهن فأما من كان فيها بقية من جمال وهي محل الشهوة فلا تدخل في هذه الآية (فليس عليهن جناح) أي حرج في (أن يضعن ثيابهن) أي الظاهرة فوق الثياب الساترة بحضرة الرجال كالجلباب والرداء والقناع فوق الخمار أما الخمار فلا يجوز وضعه لما فيه من كشف العورة (غير متبرجات بزينة) أي من غير أن يردن بوضع الجلباب والرداء اظهار زينتهن ثم ان الزينة الخفية في قوله تعالى ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو غير قاصدات بالوضع التبرج والتبرج هو أن تظهر المرأة محاسن ما ينبغي لها أن تستره * ولما ذكر الله تعالى الجائز عقبه بالمستحب بعثا منه على اختيار أفضل الاعمال وأحسنها بقوله تعالى (وأن يستعففن) أي فلا يلقين الرداء أو الجلباب (خير لهن) من الالقاء كقوله تعالى وأن تعفوا أقرب للتقوى وان تصدقوا لانه أبعد عن التهمة (والله) أي الذي جلت عظمته (سميع) لقولكم (عليم) بما في قلوبكم واختلف في سبب نزول قوله تعالى (ليس على الاعمى حرج) أي في مؤاكلة غيره (ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج) كذلك فقال ابن عباس لما أنزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعمي والعرج وقالوا الطعام أفضل الاموال وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل والاعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب والاعرج لا يتمكن من الجلوس ولا يستطيع المزاحمة على الطعام والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفي من الطعام حقه فأنزل الله تعالى هذه الآية وعلى هذا تكون على بمعنى في أي ليس في الاعمى أي ليس عليكم في مؤاكلة الاعمى والاعرج والمريض حرج وقال سعيد بن جبير والضحاك وغيرهما كان العرجان والعميان والمرضى يتنزهون عن مؤاكلة الاصحاء لان الناس يستقذرونهم ويكرهون مؤاكلتهم وعن عكرمة كانت الانصار في أنفسها قزازة فكانت لا تأكل من هذه البيوت اذا استغنوا وكان

هؤلاء

هؤلاء يقولون الاعمى ربما أكل أكثر وربما سبقت يده الى ما سبقت عين آكله اليه وهو لا يشعر والاعرج ربما أخذ في مجلسه مكان اثنين فيضيق على جليسه والمريض يخلو من رائحة تؤذي أو جرح يبض أو نحو ذلك فنزلت وقال مجاهد نزلت الآية ترخيصا لهم في الاكل من بيوت من سمى الله في هذه الآية وذلك ان هؤلاء كانوا يدخلون محل الرجل لطلب الطعام فاذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم الى بيت أبيه وبيت امه وبعض من سمى الله تعالى في هذه الآية فكان أهل الزمانة يتحرجون من هذا الطعام ويقولون ذهب بنا الى بيت غيره فنزلت الآية وقال سعيد بن المسيب كان المسلمون اذا غزوا اغلقوا منازلهم ويدفعون اليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لا ندخلها وهم غيب فأنزل الله تعالى هذه الآية رخصة لهم وقال الحسن نزلت رخصة لهؤلاء في التخلف عن الجهاد وقال تم الكلام عند قوله تعالى ولا على المريض حرج وقوله تعالى ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) كلام مستأنف منقطع عما قبله (فان قيل) أي فائدة في اباحة أكل الانسان طعامه في بيته (أجيب) بأن المراد من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيه بيوت الاولاد لان بيت ولده كبيته قال صلى الله عليه وسلم أنت ومالك لابيك وقال صلى الله عليه وسلم ان أطيب ما يأكل المرء من كسبه وان ولده من كسبه وقيل لما نزل قوله تعالى ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل قالوا لا يحل لاحد منا أن يأكل عند أحد فأنزل الله تعالى ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أي لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم (أو بيوت آبائكم) أي وان بعدت أنسابهم قال البقاعي ولعله جمع لذلك فانهم أربابكم وحرمتها حرمتكم (أو بيوت امهاتكم) كذلك وقدم الاب لانه أجل وهو حاكم بيته دلالة والمال له (أو بيوت اخوانكم) أي من الابوين أو الاب أو الام بالنسب أو الرضاع فانهم من أولى من رضي بذلك بعد الوالدين لانهم منكم وهم أولياء بيوتهم (أو بيوت اخواتكم) فانهن بعدهم من اولى البيت فان كن مزوجات فلا بد من اذن الزوج (أو بيوت أعمامكم) فانهم شقائق آبائكم سواء كانوا أشقاء أو لاب أم لام ولو أفرد العم لتوهم انه الشقيق فقط فانه أحق بالاسم (أو بيوت عماتكم) فانهن بعد الاعمام لضعفهن ولانهن ربما كان أولياء بيوتهن الازواج (أو بيوت أخوالكم) لانهم شقائق أمهاتكم (أو بيوت خالاتكم) أخرهن لما ذكر في العمات (أو ما ملكتم مفاتحه) قال ابن عباس عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته ولا يحمل ولا يدخر وملك المفاتح كونها في يده وحفظه وقال الضحاك يعني من بيوت عبيدكم ومماليككم لان السيد يملك منزل عبده والمفاتح الخزائن لقوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويجوز أن تكون الذي يفتح به وقال عكرمة اذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن فلا بأس أن يطعم الشئ اليسير وقال السدي الرجل يولي طعام غيره ويقوم عليه فلا بأس أن يأكل منه وقيل أو ما ملكتم مفاتحه ما خزنتموه عندكم وقال مجاهد وقتادة من بيوت أنفسكم مما ادخرتم وملكتم (أو صديقكم) أي أو بيوت اصدقائكم والصديق هو الذي

صدق فى أمة ويكون واحدا وجمعا وكذا الخليط والقطين والعدو وقال ابن عباس نزلت
فى الحرث بن عمرو خرج غازيا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف مالك بن زيد على أهله
فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال تحرجت أ كل طعامك بغير اذنك فانزل الله هذه
الآية يحكى عن الحسن أنه دخل داره واذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالا من تحت سريره
فيها الخبيص وأطايب الاطعمة وهم مكبون عليها يأ كلون فتهللت أسارير وجهه سرورا
وضحك وقال هكذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين وكان الرجل منهم يدخل
دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ماشاء فاذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها
سرورا بذلك وعن جعفر بن محمد من عظم حرمة الصديق أن جعله الله تعالى فى الانس والثقة
والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس والاب والابن والاخ وعن ابن عباس الصديق أكبر
من الوالدين ان الجهنميين استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والامهات بل قالوا فما لنا من شافعين
ولا صديق حميم والمعنى يجوز الاكل من بيوت من ذكر وان لم يحضروا اذا علم رضا صاحب
البيت باذن أو قرينة ظاهرة الحال فان ذلك يقوم مقام الاذن الصريح ولذلك خصص هؤلاء
فانهم يعتادون التبسط بينهم وربما سمج الاستئذان وثقل كمن قدم اليه طعام فاستأذن
صاحبه فى الاكل منه (فان قيل) اذا كان ذلك لابد فيه من العلم بالرضا فحينئذ لافرق بينهم وبين
غيرهم (أجيب) بأن هؤلاء يكفيهم أدنى قرينة بل ينبغى أن يشترط فيهم أن لا يعلم عدم الرضا
بخلاف غيرهم لابد فيه من صريح الاذن أو قرينة قوية هذا ما ظهر لى ولم أر من تعرض
لذلك وكان الحسن وقتادة يريان دخول الرجل بيت صديقه والاكل من طعامه بغير اذنه لهذه
الآية واحتج أبو حنيفة بهذه الآية على أن من سرق من ذى رحم محرم أنه لا يقطع لان الله تعالى
أباح لهم الاكل من بيوتهم ودخولها بغير اذنهم (فان قيل) فيلزم أن لا يقطع اذا سرق من
مال صديقه (أجيب) بأن من سرق من ماله لا يكون صديقا له وقيل ان هذا كان أول الاسلام
ثم نسخ فلا دليل لهم فيه وقرأ بيوتكم وبيوت آبائكم وبيوت وأخواتكم ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء الموحدة
والباقون بالكسر وقرأ حمزة والكسائى أمهاتكم فى الوصل بكسر الهمزة والباقون بالضم
وكسر الميم حمزة وفتحها الباقون * ولما ذكر تعالى معدن الاكل ذكر حاله بقوله تعالى (ليس
عليكم جناح) أى اثم (أن تأ كلوا جميعا) أى مجتمعين (أو أشتاتا) أى متفرقين واختلف فى سبب
نزول هذه الآية فقال الاكثرون نزلت فى بنى ليث بن عمرو من كنانة وكانوا يتحرجون أن يأ كل
الرجل وحده فربما قعد منتظرا نهاره الى الليل فان لم يجد من يؤا كله أ كل ضرورة وقال عطاء
عن ابن عباس كان الغنى يدخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته فيدعوه الى طعامه
فيقول والله انى لأجنح أى أتحرج أن آ كل معك وأنا غنى وأنت فقير فنزلت هذه الآية وقال
عكرمة وأبو صالح نزلت فى قوم من الانصار كانوا لا يأ كلون اذا نزل بهم ضيف الا مع ضيفهم
فرخص لهم فى أن يأ كلوا كيف شاؤا مجتمعين أو أشتاتا متفرقين وقال الكلبى كانوا اذا اجتمعوا
ليأ كلوا طعاما عزلوا للاعمى طعاما وحده وكذلك الزمن والمريض فبين الله تعالى لهم أن ذلك غير

واجب وقيل تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس فى الاكل وزيادة بعضهم على بعض *(تنبيه)* جميعا حال من فاعل تأكلوا وأشتاتا عطف عليه وهو جمع شت وشتيت وشتان تثنية شت روى أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم انا نأكل ولا نشبع قال لعلكم تأكلون متفرقين اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه وروى صلى الله عليه وسلم قال كلوا جميعا ولا تفرقوا واذكروا اسم الله فان البركة مع الجماعة * ولما تعالى مواطن الاكل وكيفيته ذكر الحال التى عليها الداخل الى تلك المواطن أو غيرها بقوله تعالى (فاذا دخلتم) أى بسبب ذلك أو غيره (بيوتا) أى من هذه البيوت (فسلموا على أنفسكم) أى على أهلها الذين هم منكم دينا وقرابة بجعل أنفس المؤمنين كالنفس الواحدة كقوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم وقال ابن عباس اذا لم يكن فى البيت أحد فليقل السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وقال قتادة اذا دخلت بيتك فسلم على أهلك فهم أحق بالسلام عمن سلمت عليهم واذا دخلت بيتا لا أحد فيه فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين حدثنا أن الملائكة ترد عليه (تحية من عند الله) أى ثابتة بأمره مشروعة من لدنه (مباركة) أى لانه يرجى بها زيادة الخير والثواب (طيبة) أى تطيب بها نفس المستمع والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله ووصفها بالبركة والطيب لانها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله تعالى زيادة الخير وطيب الرزق وعن أنس قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين وقيل تسع سنين فما قال لى لشئ فعلته لم فعلته ولا قال لى لشئ تركته لم تركته وكنت واقفا على رأسه أصب الماء على يديه فرفع رأسه فقال ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها قلت بلى بأبى أنت وأمى يا رسول الله قال متى لقيت من أمتى أحدا فسلم عليه يطل عمرك واذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الابرار الاوابين *(تنبيه)* تحية منصوب على المصدر من معنى فسلموا فهو من باب قعدت جلوسا فكأنه قال فحيوا تحية وقال القفال وان كان فى البيت أهل الذمة فليقل السلام على من اتبع الهدى وكرر قوله تعالى (كذلك يبين الله) أى الذى أحاط علمه بكل شئ (لكم الآيات) ثالثا لمزيد التأكيد وتفخيم الاحكام المختتمة به وفصل الاولين بما هو المقتضى لذلك وهذا بما هو المقصود منه فقال تعالى (لعلكم تعقلون) أى عن الله أمره ونهيه وأدبه * ولما كان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل موطن تجب الاقامة فيه ويهجر ما عداه من الاوطان قال تعالى (انما المؤمنون) أى الكاملون فى الايمان (الذين آمنوا بالله) أى الملك الاعلى (ورسوله) أى ظاهرا وباطنا (واذا كانوا معه) أى الرسول صلى الله عليه وسلم (على أمر جامع) أى يجمعهم من حرب حضرت أو صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور فى أمر نزل ووصف الامر بالجمع للمبالغة أو من الاسناد المجازى لانه لما كان سببا فى جمعهم نسب الفعل اليه مجازا (لم يذهبوا) أى يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له لعذر لهم (حتى يستأذنوه) قال الكلبى كان النبى صلى الله عليه وسلم يعرض فى خطبته بالمنافقين ويعيبهم فينظر المنافقون يمينا وشمالا فاذا لم يرهم أحد انسلوا وخرجوا

ولم يروا وان أبصرهم أحد لبثوا وصلوا نخوفا فنزلت هذه الآية فكان المؤمن بعد نزولها لا يخرج لحاجة حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المنافقون يخرجون بغير اذن قال مجاهد اذن الامام يوم الجمعة أن يشير بيده قال أهل العلم كذلك كل أمر اجتمع عليه المؤمن مع الامام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه الا باذن وهذا اذا لم يكن سبب يمنعه من المقام فلو حدث سبب يمنعه عن المقام كأن يكونوا في المسجد فتحيض منهم امرأة أو يجنب الرجل أو يعرض له مرض فلا يحتاج الى الاستئذان ❊ ولما كان اعتبار الاذن كالمصدق لصحة كمال الايمان والمميز للمخلص فيه أعاده مؤكدا على أسلوب أبلغ بقوله تعالى (ان الذين يستأذنونك) تعظيما لك ورعاية للادب (أولئك) أي العالو الرتبة (الذين يؤمنون بالله) أي الذي له الامر له (ورسوله) فانه يفيد أن المستأذن مؤمن لا محالة وان الذاهب بغير اذن ليس كذلك ❊ ولما نص على الاستئذان تسبب عن ذلك اعلامه صلى الله عليه وسلم بما يفعل اذ ذاك بقوله تعالى (فاذا استأذنوك لبعض شأنهم) وهو ما تشتد الحاجة اليه (فأذن لمن شئت منهم) بالانصراف أي ان شئت فأذن وان شئت فلا تأذن في ذلك تفويض الامر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستدل به على أن بعض الاحكام مفوض الى رأيه قال الضحاك ومقاتل المراد عمر بن الخطاب وذلك أنه استأذن في غزوة تبوك في الرجوع الى أهله فأذن له وقال انطلق فوالله ما أنت بمنافق يريد أن يسمع المنافقون ذلك الكلام فلما سمعوا ذلك قالوا ما بال محمد اذا استأذنه أصحابه أذن لهم واذا استأذناه أبى فوالله ما نراه يعدل قال ابن عباس ان عمر استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة فأذن له ثم قال يا أبا حفص لا تنسنا من صالح دعائك ولما كان في الاستئذان ولو لعذر قصور لان فيه تقديما لامر الدنيا على أمر الدين أمره الله تعالى بأن يستغفر لهم بقوله تعالى (واستغفر لهم الله) أي الذي له الامر كله بعد الاذن ليكون ذلك شاملا لمن صحت دعواه وغيره ثم علل ذلك ترغيبا في الاستغفار وتطييبا لقلوب أهل الاوزار بقوله تعالى (ان الله) أي الذي لا يخفى عليه شئ (غفور) أي لفرطات العباد (رحيم) أي بالتستر عليهم ولما أظهرت هذه السورة بعمومها وهذه الآيات بخصوصها من شرف الرسول ما أبهر العقول صرح بتفخيم شأنه وتعظيم مقامه بقوله تعالى (لا تجعلوا) أي يا أيها الذين آمنوا (دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) قال سعيد بن جبير وجماعة معناه لا تنادوه باسمه فتقولوا يا محمد ولا بكنيته فتقولوا يا أبا القاسم بل نادوه وخاطبوه بالتوقير فقولوا يا رسول الله يا نبي الله وعلى هذا يكون المصدر مضافا للمفعول وقال المبرد والقفال لا تجعلوا دعاءه اياكم كدعاء بعضكم لبعض فتتباطؤن عنه كما يتباطأ بعضكم عن بعض اذا دعاه لامر بل يجب عليكم المبادرة لامره ويؤيده قوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره وعلى هذا يكون المصدر مضافا للفاعل وقال ابن عباس احذروا دعاء الرسول عليكم اذا أسخطتموه فان دعاءه موجب ليس كدعاء غيره وروى عنه أيضا لا ترفعوا أصواتكم في دعائه وهو المراد من قوله ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله وقول المبرد كما قال ابن عادل أقرب الى نظم الآية ولما كان بعضهم يظهر الموافقة ويبطن المخالفة

حذر من ذلك بقوله تعالى (قد يعلم الله) أى الذى لا تخفى عليه خافية (الذين يتسللون منكم) أى يتسللون قليلا قليلا ليجعلوا ذهابهم فى غاية الخفاء ونظير تسلل تدرج وتدخل وقوله تعالى (لواذا) حال أى ملاوذين واللواذ والملاوذة التستر يقال لاذ فلان بكذا اذا استتر به وقال ابن عباس أى يلوذ بعضهم ببعض وذلك أن المنافقين كان يثقل عليهم المقام فى المسجد يوم الجمعة لاسيما فى خطبة النبى صلى الله عليه وسلم وكانوا يلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد فى استتار وقد للتحقيق وتسبب عن علمه تعالى قوله تعالى (فليحذر) أى يوقع الحذر (الذين يخالفون عن أمره) أى يعرضون عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصرفون عنه بغير اذنه وقال أبو بكر الرازى الضمير فى أمره لله لانه يليه وقال الجلال المحلى أى الله ورسوله وكل صحيح فان مخالفة أمر أحدهما مخالفة امر الآخر (أن) أى لئلا (تصيبهم فتنة) قال مجاهد بلاء فى الدنيا وعن ابن عباس فتنة قتل وعن عطاء زلازل وأهوال وعن جعفر بن محمد يسلط الله عليهم سلطانا جائرا (أو يصيبهم عذاب أليم) أى وجيع فى الآخرة * (تنبيه) * الآية تدل على ان الامر للوجوب لان تارك الامور مخالف للامر ومخالف الامر يستحق العذاب ولا معنى للوجوب الا ذلك ولما أقام تعالى الادلة على أنه نور السموات والارض وختم بالتحذير لكل مخالف أنتج ذلك أن له كل شئ فقال تعالى (ألا ان لله ما فى السموات والارض) خلقا وملكا وعبيدا (فان قيل) ما فائدة ذكر عبيدا بعد ملكا (أجيب) عنه انما ذكر لئلا يتوهم أن ما لما لا يعقل فقط ولما كانت أحوالهم من جملة ما هو له وانما يخلقه قال تعالى (قد يعلم ما أنتم) أى أيها المكلفون (عليه) أى من الموافقة والمخالفة والاخلاص والنفاق وانما أكد علمه بقد لتأكيد الوعيد وذلك أن قد اذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما فوافقت ربما فى خروجها الى معنى التكثير فى نحو قول بعضهم

فان تمس مهجور الفناء فربما * أقام به بعد الوفود وفود

ونحوه قول زهير

أخى ثقة لا تهلك الخمر ماله * ولكنه قد يهلك المال نائله

والمعنى ان جميع ما فى السموات والارض مختص به تعالى فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين وان كانوا يجتهدون فى سترها عن العيون واخفائها وقوله تعالى (ويوم) أى ويعلم يوم (يرجعون اليه) فيه التفات عن الخطاب أى متى تكون أو ويوم يرجع المنافقون اليه للجزاء (فينبئهم) أى فتسبب عن ذلك أنه يخبرهم (بما عملوا) أى من الخير والشر فيجازيهم عليه (والله) أى الذى لا تخفى عليه خافية (بكل شئ) أى من أعمالهم وغيرها (عليم) عن عائشة رضى الله تعالى عنها وعن أبويها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور أخرجه أبو عبد الله فى البيع فى صحيحه وأما قول البيضاوى تبعا للكشاف من قرأ سورة النور أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقى فهو حديث موضوع

(سورة الفرقان مكية)

الا قوله تعالى والذين لا يدعون مع الله الها آخر الى رحيما فمدنى وآيها سبع وسبعون آية وثمانمائة واثنان وسبعون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وسبعمائة وثمانون حرفا

(بسم الله) الذى له الحجة البالغة (الرحمن) الذى عم الخلق بنعمه (الرحيم) الذى وسعت رحمته كل شئ (تبارك) قال الزجاج تفاعل من البركة وهى كثرة الخير وزيادته ومنه تبارك الله وفيه معنيان تزايد خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شئ وتعالى عنه فى صفاته وأفعاله وعن ابن عباس كان معناه جاء بكل بركة وخير وقال الضحاك تبارك تعاظم ولا يستعمل الا لله تعالى ولا يتصرف فيه ثم وصف ذاته الشريفة بما يدل على ذلك بقوله تعالى (الذى نزل الفرقان) أى القرآن والفرقان مصدر فرق بين الشيئين اذا فصل بينهما وسمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل ولانه لم ينزل جملة واحدة ولكن مفروقا مفصولا بين بعضه وبعض فى الانزال ألا ترى قوله تعالى وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث (على عبده) أى محمد صلى الله عليه وسلم وأضافه الى نفسه اضافة تشريف وفى عود ضمير (ليكون) ثلاثة أوجه أحدها أنه يعود على الذى نزل أى ليكون الذى نزل الفرقان نذيرا الثانى أنه يعود على الفرقان أى ليكون الفرقان نذيرا وأضاف الانذار اليه كما أضاف الهداية اليه فى قوله تعالى ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم قال ابن عادل وهو بعيد لان المنذر والنذير فى صفات الفاعل المخوف ووصف القرآن به مجاز وحمل الكلام على الحقيقة أولى الثالث أنه يعود على عبده أى ليكون عبده محمد صلى الله عليه وسلم (للعالمين نذيرا) أى وبشيرا وهذا أحسن الوجوه معنى وصناعة لقربه مما يعود عليه والضمير يعود على أقرب مذكور وللعالمين متعلق بنذيرا وانما قدم لاجل الفواصل ونذيرا بمعنى منذر أى مخوف ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الانذار كالنكير بمعنى الانكار ومنه قوله تعالى فكيف كان عذابى ونذر * (تنبيه) * المراد بالعالمين قال البقاعى أى المكلفين كلهم من الجن والانس والملائكة اه ولكن فى ارساله للملائكة خلاف بين العلماء فقد نقل الجلال المحلى فى شرحه على جمع الجوامع الاجماع على أنه لم يرسل اليهم وغيره صرح بأنه أرسل اليهم ومن حفظ حجة على من لم يحفظ (فان قيل) قوله تعالى تبارك يدل على كثرة الخير والبركة فالمذكور عقبه لابد وأن يكون مبينا لكثرة الخير والمنافع والانذار يوجب الغم والخوف فكيف يليق ذكره بهذا الموضع (أجيب) بأن الانذار يجرى مجرى تأديب الوالد أنه (١) كما كلما كانت المبالغة فى تأديب الوالد أكثر كان رجوع الخلق الى الله تعالى أكثر وكانت السعادة الاخروية أتم وأكثر وهذا كالتنبيه على أنه لا التفات الى المنافع العاجلة لانه تعالى لما وصف نفسه أن يعطى الخيرات الكثيرة لم يذكر الا منافع الدين ولم يذكر منافع الدنيا البتة وقوله تعالى (الذى له ملك السموات والارض) اشارة الى احتياج هذه المخلوقات اليه سبحانه وتعالى حال حدوثها وانه تعالى هو المتصرف فيها كيف يشاء فلا انكار أن يرسل رسولا الى كل من فيها * (تنبيه) * يجوز فى

(١) قوله كما انه الخ كذا فى النسخ ولا يخفى ما فيه والذى يستفاد من أطرافه أن يقال فالولد كلما بالغ والده فى تأديبه كان رجوعه اليه أكثر وأتم لسعادته وكذلك الخلق كلما بالغ خالقهم فى انذارهم كان رجوعهم اليه اكثر وأتم لسعادتهم الاخروية اه

الذى

الذى الرفع نعتاللذى الاول أو بيانا أو بدلا أو خبر المبتدا محذوف والنصب على المدح وما بعده يدل على أنه من تمام الصلة فليس أجنبيا فلا يضر الفصل به بين الموصول الاول والثانى اذا جعلنا الثانى تابعا له (ولم يتخذ ولدا) أى هو الفرد أبدا ولا يصح أن يكون غيره تعالى معبودا ووارثا للملك عنه وهذا ردّ على النصارى (ولم يكن له شريك فى الملك) أى هو المنفرد بالالوهية واذا عرف العبد ذلك انقطع رجاؤه عن كل من سواه تعالى ولم يشتغل قلبه الا برحمته واحسانه وفيه ردّ على الوثنية القائلين بعبادة النجوم والاوثان * ولما نفى تعالى الشريك فكان قائلا يقول ههنا أقوام يعترفون بنفى الشريك والشركاء والانداد ومع ذلك يقولون بخلق أفعال أنفسهم فردّ الله تعالى عليهم بقوله (وخلق كل شئ) أى من شأنه أن يخلق ومنه أفعال العباد والخلق هنا بمعنى الاحداث أى احدث كل شئ احداثا مراعى فيه التقدير والتسوية (فقدره تقديرا) أى هيأه لما يصلح له مثاله أنه خلق الانسان على هذا الشكل المقدر الذى تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به فى بابى الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة وسمى احداث الله خلقا لانه لا يحدث شيأ لحكمة الاعلى وجه التقدير من غير تفاوت فاذا قيل خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك أحدث وأوجد من غير نظر الى وجه الاشتقاق فكأنه قيل وأوجد كل شئ فقدره تقديرا فى ايجاده ولم يوجده متفاوتا ولو حمل خلق كل شئ على معناه الاصلى من التقدير لصار الكلام وقدر كل شئ فقدره فلم يصر له كبير فائدة وقيل فجعل له غاية ومنتهى ومعناه فقدره للبقاء الى أمد معلوم واختلف فى عود الضمير فى قوله تعالى (واتخذوا من دونه) أى الله تعالى أى غيره (آلهة) على ثلاثة أوجه أحدها أنه يعود على الكفار الذين تضمنهم لفظ العالمين ثانيها أنه يعود على من ادعى لله شريكا وولدا لدلالة قوله تعالى ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ثالثها انه يعود على المنذرين لدلالة نذيرا عليهم * ولما وصف نفسه سبحانه وتعالى بصفات الجلال والعزة والعلو أردفه بتزييف مذهب من يعبد غيره من وجوه منها أنها ليست خالقة للاشياء بقوله تعالى (لا يخلقون شيأ) والاله يجب أن يكون قادرا على الخلق والايجاد ومنها أنها مخلوقة بقوله تعالى (وهم يخلقون) والمخلوق محتاج والاله يجب أن يكون غنيا وغلب العقلاء على غيرهم لان الكفار كانوا يعبدون العقلاء كعزير والمسيح والملائكة وغيرهم كالكواكب والاصنام التى ينحتونها ويصورونها ومنها أنها لا تملك لانفسها ضرا ولا نفعا بقوله تعالى (ولا يملكون) أى لا يستطيعون (لانفسهم ضرا) أى دفعه (ولا نفعا) أى جلبه ومن كان كذلك فليس باله ومنها انها لا تقدر على موت ولا حياة ولا نشور بقوله تعالى (ولا يملكون موتا ولا حياة) أى اماتة لاحد واحياء لاحد (ولا نشورا) أى بعثا للاموات فيجب أن يكون المعبود قادرا على ايصال الثواب الى المطيعين والعقاب الى العصاة فمن لا يكون كذلك يجب أن لا يصلح للالهية *(تنبيه)* احتج أهل السنة بقوله تعالى لا يخلقون شيأ على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى لانه تعالى عاب هؤلاء الكفار من حيث عبدوا ما لا يخلق شيأ وذلك يدل على أن من خلق يستحق أن يعبد

فلو كان العبد خالقا لكان معبودا الها * ولما تكلم تعالى أولا على التوحيد وثانيا في الرد على عبدة غيره تكلم ثالثا في مسئلة النبوة وحكى شبه الكفار في انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم * الشبهة الاولى قوله تعالى (وقال الذين كفروا) أي مظهروا الوصف الذي حملهم على هذا القول وهو ستر ما ظهر لهم ولغيرهم كالشمس والاجتهاد في اخفائه (ان) أي ما (هذا) أي القرآن (الا افك) أي كذب مصروف عن وجهه (افتراه) اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم (وأعانه عليه) أي القرآن (قوم آخرون) أي من غير قومه وهم اليهود فانهم يلقون اليه أخبار الامم وهو يعبر عنها بعبارته وقيل عداس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وأبو فكيهة الرومي كانوا أعجمة من أهل الكتاب فزعم المشركون أن محمدا يأخذ منهم فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى (فقد جاؤا) أي قائلو هذه المقالة (ظلما) وهو جعل الكلام المعجز افكا مختلقا متلقفا من اليهود وجعلوا العربي يتلقن من العجمي الرومي كلاما عربيا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب (وزورا) أي بهتوه بنسبة ما هو بريء منه اليه وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال والباقون بالادغام * (تنبيه) * جاء وأتى يستعملان في معنى فعل فيعديان تعديته وظلما مفعول به وقيل انه على اسقاط الخافض أي جاؤا بظلم * الشبهة الثانية قوله تعالى (وقالوا أساطير الاولين) أي ما سطره الاولون من أكاذيبهم جمع أسطورة بالضم كأحدوثة أو اسطار (اكتتبها) أي تطلب كتابتها له من ذلك القوم وأخذها والمعنى ان هذا القرآن ليس من الله تعالى انما هو مما سطره الاولون الاول كأحاديث رستم واسفنديار استنسخها محمد من أهل الكتاب (فهي) أي فتسبب عن تكلفه ذلك أنها (تملى عليه) أي تقرأ عليه ليحفظها (بكرة) قبل أن تنتشر الناس (وأصيلا) أي عشيا حين يأوون الى مساكنهم أو دائما ليتكلف حفظها بالانتساخ لانه أمي لا يقدر أن يكرر من الكتاب أو ليكتب وهذا كما ترى لا يقوله من له مسكة في عقل أو مروأة كيف وهو يدعوهم الى المعارضة ولو بسورة من مثله وفيهم الكتاب والشعراء والبلغاء والخطباء وهم أكثر منه مالا وأعظم أعوانا ولا يقدرون على شيء منه (فان قيل) كيف قيل اكتتبها فهي تملى عليه وانما يقال أمليت عليه فهو يكتبها (أجيب) بوجهين أحدهما أراد اكتتابها وطلبه فهي تملى عليه الثاني انها كتبت له وهو أمي فهي تملى أي تلقى عليه من كتاب ليحفظها لان صورة الالقاء على الحافظ كصورة الالقاء على الكاتب وقرأ فهي قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بكسرها ثم أمره الله تعالى بجوابهم بقوله تعالى (قل) أي دالا على بطلان ما قالوه ومهددا لهم (أنزله الذي يعلم السر) أي الغيب (في السموات والارض) لانه أعجزكم عن آخركم بفصاحته وتضمنه أخبارا عن مغيبات مستقبلة وأشياء مكنونة لا يعلمها الا عالم الاسرار فكيف تجعلونه أساطير الاولين مع علمكم أن ما تقولونه باطل وزور وكذلك باطن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته مما يبهتونه وهو مجازيكم على ما علم منكم وعلم منه (فان قيل) كيف يطابق هذا قوله تعالى (انه كان) أي أزلا وأبدا (غفورا رحيما) أجيب بأن لما كان ما تقدمه في معنى الوعيد عقبه بما يدل على القدرة

عليه

عليه لانه لا يوصف بالرحمة والمغفرة الا القادر على العقوبة أوهو تنبيه على انهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبا ولكن صرف ذلك عنهم لانه غفور رحيم يمهل ولا يعاجل * الشبهة الثالثة قوله تعالى (وقالوا مالهذا الرسول) أى ما لهذا الذى يزعم الرسالة وفيه استهانة وتهكم وتصغير لشأنه وتسميته بالرسول سخرية منهم كأنهم قالوا مالهذا الزاعم أنه رسول ونحوه قول فرعون ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون أى ان أصح انه رسول الله فاباله حاله مثل حالنا (يأكل الطعام) أى كما نأكله (ويمشى) أى ويتردد (فى الاسواق) لطلب المعاش كما نمشى فلا يجوز أن يمتاز عنا بالنبوة يعنون انه يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الاكل والشرب والتعيش وكذلك كانوا يقولون له لست انت بملك لانك تأكل الطعام والملك لا يأكل ولان الملك لا يتسوق وأنت تتسوق وما قالوه فاسد لان أكله الطعام لكونه آدميا ومشيه فى الاسواق لتواضعه وكان ذلك صفته فى التوراة ولم يكن صخابا فى الاسواق وليس شئ من ذلك ينافى النبوة ولانه لم يدع أنه ملك من الملوك ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا الى اقتراح أن يكون انسانا معه ملك حتى يسانده فى الانذار والتخويف فقالوا (لولا) أى هلا (أنزل اليه ملك) أى يصدقه ويشهد له (فيكون معه نذيرا) أى داعيا ثم نزلوا أيضا الى أنه لم يكن مرفودا بملك فليكن مرفودا بكنز فقالوا (أو يلقى اليه كنز) أى ينزل عليه كنز من السماء ينفقه فلا يحتاج الى المشى فى الاسواق لطلب المعاش ثم نزلوا فاقتنعوا بان يكون رجلا له بستان فقالوا (أو تكون له جنة) أى بستان (يأكل منها) أى ان لم يلق اليه كنز فلا أقل أن يكون له بستان كالمياسير فيتعيش بريعه وقرأ حمزة والكسائى بالنون أن نأكل نحن منها فيكون له مزية علينا بها والباقون بالياء وقوله تعالى (وقال الظالمون) وضع فيه الظاهر موضع المضمر اذ الاصل وقالوا تسجيلا عليهم بالظلم فيما قالوا (ان) أى ما (تتبعون الا رجلا مسحورا) أى مخدوعا مغلوبا على عقله وقيل مصروفا عن الحق ولما أنهى تعالى ما ذكر من أقوالهم الناشئة عن ضلالهم التفت سبحانه وتعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم مسليا له بقوله تعالى (انظر) أى يا أفضل الخلق (كيف ضربوا لك الامثال) أى بالمسحور والمحتاج الى ما ينفقه والى ملك يقوم معه بالامر (فضلوا) أى بذلك عن جميع طرق الهدى (فلا يستطيعون) أى فى الحال ولا فى المآل بسبب الضلال (سبيلا) أى سلوك سبيل من السبل الموصلة الى ما يستحق أن يقصد بل هم فى مجاهل موحشة وفيافى مهلكة * ولما أثبت انهم لا علم لهم ولا قدرة ولا عين ولا بركة أثبت لنفسه سبحانه وتعالى ما يستحق من الكمال الذى يفيض به على من يشاء من عباده ما يشاء بقوله تعالى (تبارك) أى ثبت ثباتا تامامقترنا باليمن والبركة لاثبات الا هو (الذى ان شاء) فانه لا مكره له (جعل لك) أى فى الدنيا (خيرا من ذلك) أى من الذى قالوه على طريق التهكم من الكنز والبستان وقوله تعالى (جنات) بدل من خيرا ويجوز أن يكون منه وبا باضمار أعنى ثم وصفها بقوله تعالى (تجرى من تحتها الانهار) أى تكون أرضها عيونا نابعة أى فى أى موضع أريد منه اجراء نهر جرى فهى

لاتزال رياتغنى صاحبها عن كل حاجة ولا تحوجه فى استمرارها الى سقى (ويجعل لك قصورا) أيضا وهى جمع قصر وهو المسكن الرفيع قال المفسرون القصور هى البيوت المشيدة والعرب تسمى كل بيت مشيد قصرا ويحتمل أن يكون لكل جنة قصر فيكون مسكنا ومنتزها ويجوز أن تكون القصور مجموعة والجنات مجموعة وقال مجاهد ان شاء جعل جنات فى الآخرة وقصورا فى الدنيا ولم يشأ الله سبحانه وتعالى ما أشار اليه فى هذه الآية الشريفة فى هذه الدنيا الفانية وأخره الى الآخرة الباقية وقد عرض عليه سبحانه وتعالى ما شاء فى ذلك فى الدنيا فأباه روى أنه عليه الصلاة والسلام قال عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما أو قال ثلاثا أو نحو هذا فاذا جعت تضرعت اليك واذا شبعت حمدتك وشكرتك وعن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو شئت لسارت معى جبال مكة ذهبا جاءنى ملك فقال ان ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك ان شئت نبيا عبدا وان شئت نبيا ملكا فنظرت الى جبريل عليه السلام فأشار الى أن ضع نفسك فقلت نبيا عبدا قالت وكان النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لا يأكل متكئا ويقول آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد وعن ابن عباس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وجبريل عليه السلام معه فقال جبريل عليه السلام هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه فى زيارتك فلم يلبث الا قليلا حتى جاء الملك وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الله يخيرك أن يعطيك مفاتيح كل شئ لم يعطه أحدا قبلك ولا يعطيه أحدا بعدك من غير أن ينقصك مما أدّ لك شيأ فقال صلى الله عليه وسلم بل يجمعها الى فى الآخرة فنزل تبارك الذى ان شاء الآية وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة برفع اللام من يجعل وفيه وجهان أحدهما أنه مستأنف والثانى أنه معطوف على جواب الشرط لان الشرط اذا وقع ماضيا جاز فى جوابه الجزم والرفع كقوله

وان أتاه خليل يوم مسئلة * يقول لا غائب مالى ولا حرم

والباقون بالجزم ويجوز فى يجعل لك اذا أدغمت أن تكون اللام فى تقدير الجزم والرفع * ثم أضرب سبحانه وتعالى عن كلامهم فى حق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (بل) أى لا يظنوا أنهم كذبوا بما جئت به لانهم لا يعتقدون فيك كذبا بل (كذبوا بالساعة) أى القيامة فقصرت أنظارهم على الحطام الدنيوى وظنوا أن الكرامة انما هى بالمال فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فلا يتكلفون النظر والفكر ولهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل (وأعتدنا) أى والحال انا اعتدنا أى هيأنا بما لنا من العظمة (لمن كذب) من هؤلاء وغيرهم (بالساعة سعيرا) أى نارا شديدة الاتقاد بما أعظموا الحريق فى قلوب من كذبوهم من الانبياء وأتباعهم وعن الحسن أن السعير اسم من أسماء جهنم * (تنبيه) * احتج أهل السنة على أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى أعدت للمتقين وعلى أن النار وهى دار العقاب مخلوقة بهذه الآية (اذا رأتهم من مكان بعيد) وهو أقصى ما تمكن رؤيتها منه وقال الكلبى والسدى من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة سنة

روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من كذب على متعمدا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا قالوا وهل لها من عينين قال نعم ألم تسمع قوله تعالى اذا رأتهم من مكان بعيد وقال البيضاوى تبعا للزمخشرى اذا كانت بمرأى منهم كقوله عليه الصلاة والسلام لا ترأى ناراهما أى لا تتقاربان بحيث تكون احداهما بمرأى من الاخرى على المجاز انتهى وهذا تأويل للمعتزلة بناء منهم على أن الرؤية مشروطة بالحياة بخلاف الاشاعرة فانهم يجوزون رؤيتها حقيقة كتغيظها وزفيرها فى قوله تعالى (سمعوا لها تغيظا) أى غليانا كالغضبان اذا غلى صدره من الغضب (وزفيرا) أى صوتا شديدا اذ لا امتناع من أنها تكون رائية مغتاظة زافرة وأشار البيضاوى الى ذلك بعد ما ذكر بقوله هذا وان الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية أمكن أن يخلق الله فيها حياة فترى وتتغيظ وتزفر وقال الجلال المحلى وسماع التغيظ رؤيته وعلمه انتهى قال عبد الله بن عمر تزفر جهنم يوم القيامة زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل الا خر لوجهه وقيل اذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبا على الكفار للانتقام منهم فنسب اليها على حذف مضاف (واذا ألقوا) أى طرحوا طرح اهانة (منها) أى النار (مكانا) ثم وصفه تعالى بقوله تعالى (ضيقا) زيادة فى فظاعتها قال ابن عباس يضيق عليهم كما يضيق الزج فى الرمح (مقرنين) أى مصفدين زيادة قد قرنت أيديهم الى أعناقهم من الاغلال وقد قيل الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذلك وصف الله تعالى الجنة بان عرضها السموات والارض وجاء فى الاحاديث ان لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ولقد جمع الله تعالى على أهل النار أنواع الضيق والارهاق حيث ألقاهم فى مكان ضيق يتراصون فيه تراصا كما مر عن ابن عباس أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج فى الرمح وهو منقول أيضا عن ابن عمر وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال والذى نفسى بيده انهم يستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون فى السلاسل قرنت أيديهم الى أعناقهم ويقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة فى أرجلهم * (تنبيه) * مكانا منصوب على الظرف ومنها فى محل نصب على الحال من مكانا لانه فى الاصل صفة له ومقرنين حال من مفعول ألقوا وقرأ ابن كثير ضيقا بسكون الياء والباقون بكسر الياء مشددة (دعوا هنالك) أى فى ذلك المكان البغيض البعيد عن الرفق (ثبورا) قال ابن عباس ويلا وقال الضحاك هلاكا فيقولون واثبوراه هذا حينك وزمانك لانه لا منادم لهم غيره وليس يحضر أحدا منهم سواه قال البغوى وفى الحديث ان أول من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول يا ثبوراه وهم ينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار فيقال لهم (لا تدعوا اليوم) أى أيها الكفار (ثبورا واحدا) لانكم لا تموتون اذا حلت بكم أسباب العذاب والهلاك (وادعوا ثبورا كثيرا) أى هلاككم أكثر من أن تدعو مرة واحدة وادعوا أدعية كثيرة وقال الكلبى نزل هذا كله فى أبى جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبه * ولما وصف تعالى

العقاب المعد للمكذبين بالساعة اتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة بقوله تعالى (قل) أي لهؤلاء البعداء البغضاء (أذلك) أي المذكور من الوعيد وصفة النار (خير أم جنة الخلد) أي الاقامة الدائمة (التي وعد المتقون) أي وعدها الله تعالى لهم فالراجع الى الموصوف وهو ها وعدها محذوف (فان قيل) كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد وهل يجوز أن يقول القائل السكر أحلى أم الصبر (أجيب) بأنه يحسن في معرض التقريع كما اذا أعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فضربه ويقول له هذا خير أم ذلك قال أبو مسلم جنة الخلد هي التي لا ينقطع نعيمها والخلد والخلود سواء كالشكر والشكور قال تعالى لا نريد منكم جزاء ولا شكورا (فان قيل) الجنة اسم لدار الخلد فأي فائدة في قوله تعالى جنة الخلد (أجيب) بأن الاضافة قد تكون للتبيين وقد تكون لبيان صفة الكمال كقوله تعالى هو الله الخالق البارئ وهذا من هذا البيان أو للتمييز عن جنات الدنيا ثم حقق تعالى أمرها تأكيدا للبشارة بقوله (كانت لهم جزاء) أي ثوابا على أعمالهم بفضل الله تعالى وكرمه (ومصيرا) أي مرجعا (فان قيل) ان الجنة ستصير للمتقين جزاء ومصيرا لكنها بعد ما صارت كذلك فلم قال تعالى كانت (أجيب) من وجهين الاول ان ما وعده الله تعالى فهو في تحققه كالواقع الثاني انه كان مكتوبا في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم الله تعالى بأزمنة متطاولة ان الجنة جزاؤهم ومصيرهم (فان قيل) لم جمع تعالى بين الجزاء والمصير (اجيب) بأن ذلك كقوله تعالى نعم الثواب وحسنت مرتفقا فمدح الثواب ومكانه كما قال تعالى بئس الشراب وساءت مرتفقا فذم العقاب ومكانه لان النعيم لا يتم للمتنعم الا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة والاتنغص وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع وضيقه وظلمته فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء *(تنبيه)* المتقي يشمل من اتقى الكفر وان لم يتق المعاصي وان كان غيره أكمل * ثم ذكر تعالى تنعمهم فيها بعد ان ذكر نعيمهم بقوله تعالى (لهم فيها) أي الجنة (ما يشاؤن) من كل ما تشتهيه أنفسهم كما قال تعالى ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم وفيها ما تشتهي الانفس (فان قيل) أهل الدرجات النازلة اذا شاهدوا الدرجات العالية لا بد وأن يريدوها فاذا سألوها ربهم فان أعطاها لهم لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت في الدرجة وان لم يعطها لهم قدح ذلك في قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن (أجيب) بأن الله تعالى يزيل هذا الخاطر عن قلوب أهل الجنة و يشتغلون بما هم فيه من اللذات عن الالتفات الى حال غيرهم وقوله تعالى (خالدين) منصوب على الحال اما من فاعل يشاؤن واما من فاعل لهم لوقوعه خبرا والعائد على ما محذوف أي لهم فيها الذي يشاؤنه حال كونهم خالدين وقوله تعالى (كان على ربك) أي وعدهم ما ذكر (وعدا) يدل على أن الجنة جعلت لهم بحكم الوعد والتفضل لا بحكم الاستحقاق وقوله تعالى (مسؤلا) أي مطلوبا اختلف في السائل فالاكثر على ان المؤمنين سألوا ربهم في الدنيا حين قالوا ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك روي أنه صلى الله عليه وسلم قال ما منكم من يدعو بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا أعطاه بها احدى ثلاث اما أن يعجل له دعوته واما أن يدخرها له في الآخرة واما أن يصرف عنه من

السوء

السوء مثلها قالوا اذا نكثر قال الله تعالى أكثر وروى أنه يدعى بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه الله تعالى بين يديه فيقول عبدي فيقول نعم يارب فيقول انى أمرتك أن تدعونى ووعدتك أن أستجيب لك فهل كنت تدعونى اما انك لم تدعنى بدعوة الا استجبت لك أليس دعوتنى يوم كذا وكذا لغم نزل بك ان أفرج عنك ففرجت عنك فيقول نعم يارب فيقول انى عجلتها لك فى الدنيا ودعوتنى يوم كذا وكذا لغم نزل بك ان أفرج عنك فلم ترفرجا قال نعم يارب فيقول انى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا ودعوتنى فى حاجة أقضيها لك فى يوم كذا وكذا فقضيتها فيقول نعم يارب فيقول انى عجلتها لك فى الدنيا ودعوتنى يوم كذا وكذا فى حاجة أقضيها لك فلم ترقضاءها فيقول نعم يارب فيقول انى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدع الله دعوة دعابها عبده المؤمن الا بين له اما أن يكون عجل له فى الدنيا واما أن يكون ادخرله فى الآخرة فيقول المؤمن فى هذا المقام ياليته لم يكن عجل له شئ من دعائه وروى لا تعجلوا فى الدعاء فانه لا يهلك مع الدعاء أحد وروى ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة وروى يستجاب لاحدكم مالم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لى وروى لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع باثم أوقطيعة رحم مالم يستعجل قيل يارسول الله ما الاستعجال قال يقول قد دعوت فلم يستجب لى فيستحسر أى يمل عند ذلك ويدع الدعاء فليدع الانسان وهو موقن بالاجابة وقال محمد بن كعب القرظى الطلب من الملائكة للمؤمنين سألوا ربهم للمؤمنين بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم وقيل ان المكلفين سألوها بلسان الحال لانهم لما تحملوا المشقة الشديدة فى طاعة الله كان ذلك قائما مقام السؤال قال المتنبى

وفى النفس حاجات وفيك فطانة * سكوتى كلام عندها وخطاب

* ولما ذكر تعالى حالهم فى نفسهم أتبعه ذكر حالهم مع معبوداتهم من دونه بقوله تعالى (ويوم) أى واذكر لهم يوم (نحشرهم) أى المشركين وقرأ ابن كثير وحفص بالياء والباقون بالنون واختلف فى المراد بقوله تعالى (ومايعبدون من دون الله) أى غيره فقال الاكثرون من الملائكة والجن والمسيح وعزير وغيرهم وقال عكرمة والضحاك والكلبى من الاصنام فقيل لهم كيف يخاطب الله تعالى الجماد بقوله تعالى (فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء) أى أوقعتموهم فى الضلال بأمركم اياهم بعبادتكم (أم هم ضلوا السبيل) أى طريق الحق بأنفسهم فأجابوا بوجهين أحدهما انه تعالى يخلق الحياة فيها ويخاطبها ثانيهما أن يكون ذلك بالكلام النفسانى لا بالقول اللسانى بل بلسان الحال كما ذكره بعضهم فى تسبيح الجماد وكلام الايدى والارجل ويجوز أن يكون السؤال عاما لهم جميعا (فان قيل) كيف صح استعمال ما فى العقلاء (أجيب) على الاول بأنه أريد به الوصف كانه قيل ومعبوديهم الاترى انك تقول اذا أردت السؤال عن صفة زيد ما زيد تعنى أطويل أم قصير فقيه أم طبيب وقال تعالى والسماء وما بناها ولا أنتم عابدون ما أعبد وأما على القول الثانى فواضح وأما على القول الثالث فغلب غير العاقل

لغلبة عباده أو تقصيرا (فان قيل) ما فائدة هذا السؤال مع ان الله تعالى كان عالما في الازل بحال المسؤل عنه (أجيب) بأن هذا سؤال تقريع للمشركين كما قال لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله وقرأ ابن عامر فنقول بالنون والباقون بالياء وقرأ أأنتم نافع وابن كثير بتسهيل الثانية وادخال ألف بينها وبين همزة الاستفهام وورش وابن كثير بتسهيل الثانية ولا ألف بينهما وبين الاولى ولورش وجه آخر وهو ابدال الثانية ألفا وهشام بتسهيل الثانية وتحقيقها مع الادخال والباقون بتحقيقهما وقرأ هؤلاء أم هم نافع وابن كثير وأبو عمرو في الوصل بابدال الهمزة من أم ياء خالصة والباقون بتحقيقها (قالوا سبحانك) أي تنزيها لك عما لا يليق بك أو تعجبا مما قيل لهم لانهم اما ملائكة أو أنبياء معصومون فما أبعدهم عن الضلال الذي هو مختص بابليس وجنوده أو جمادات وهي لا تقدر على شئ أو اشعارا بأنهم الموسومون بتسبيحه وتوحيده فكيف يليق بهم اضلال عبيده (ما كان ينبغي) أي يستقيم (لنا أن نتخذ) أي نتكلف أن نأخذ باختيارنا بغير ارادة منك (من دونك) أي غيرك (من أولياء) للعصمة أو لعدم القدرة فكيف يستقيم لنا أن نأمر بعبادتنا (فان قيل) ما فائدة أنتم وهم وهلا قيل أأضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل (أجيب) بأن السؤال ليس عن الفعل ووجوده لانه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب واغا هو عن متوليه فلا بد من ذكره وايلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤل عنه * (تنبيه) * من أولياء مفعول أول ومن زائدة لتأكيد النفي وما قبله المفعول الثاني ولما تضمن كلامهم انا لم نضلهم ولم نحملهم على الضلال حسن الاستدراك بقولهم (ولكن متعتهم وآباءهم) وهو أن ذكروا سببه أي أنعمت عليهم وعلى آبائهم من قبلهم بأنواع النعم والصحة وطول العمر في الدنيا فجعلوا ذلك ذريعة الى ضلالهم عكس القضية (حتى نسوا الذكر) أي تركوا الايمان بالقرآن وقيل تركوا ذكرك وغفلوا عنه (وكانوا) أي في علمك بما قضيت عليهم في الازل (قوما بورا) أي هلكى وهو مصدر وصف به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع أو جمع بائر كعائذ وعوذ وقوله (فقد كذبوكم) فيه التفات الى العبدة بالاحتجاج والالزام على حذف القول والمعنى فقد كذب المعبودون العابدين (بما) أي بسبب ما (تقولون) أي أيها العابدون من أنهم يستحقون العبادة وأنهم يشفعون لكم وأنهم أضلوكم ولما تسبب عن تخليهم عن عبدتهم أنه لا نفع في أيديهم ولا ضر قال تعالى (فما يستطيعون) أي المعبودون (صرفا) أي لشئ من الاشياء عن أحد من الناس لا أنتم ولا غيركم من عذاب ولا غيره بوجه حيلة ولا شفاعة ولا معاداة (ولا نصرا) أي منعا لكم من الله تعالى ان أراد بكم سوأ وهذا نحو قوله تعالى لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا وقرأ حفص بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة (ومن يظلم) أي بالشرك (منكم) أي أيها المكلفون (نذقه) أي بما لنا من العظمة (عذابا كبيرا) أي شديدا في الدنيا بالقتل أو الاسر أو ضرب الجزية وفي الآخرة بنار جهنم * روى الضحاك عن ابن عباس أنه قال لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم مال هذا الرسول الى آخرها أنزل الله تعالى (وما أرسلنا قبلك) أي يا أشرف الخلق أحدا (من

المرسلين

المرسلين الا) وحالهم (انهم ليأكلون الطعام) كما تأكل ويأكل غيرك من الآدميين (ويمشون في الاسواق) كما تفعل فهذه عادة مستمرة من الله تعالى في كل رسله وهم يعلمون ذلك بالسماع من أخبارهم وهذا تأكيد من الله تعالى لانهم لا يكذبونه صلى الله عليه وسلم وقيل معنى الآية وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا قد قيل لهم مثل هذا انهم يأكلون الطعام ويمشون في الاسواق كما قال تعالى في موضع آخر ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك (وجعلنا) أي بالعطاء والمنع بما لنا من العظمة (بعضكم) أي أيها الناس (لبعض فتنة) أي بلية والمعنى أنه تعالى ابتلى المرسلين بالمرسل اليهم وبمناصبتهم والعداوة لهم وأقاويلهم الخارجة عن حد الانصاف وجعل الغني فتنة للفقير والصحيح فتنة للمريض والشريف فتنة للوضيع يقول الثاني من كل مالي لا أكون كالاول وقال ابن عباس جعلت بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم وترون من خلافهم فتتبعوا الهدى أم لا وقال مقاتل نزلت هذه الآية في أبي جهل والوليد بن عقبة والعاصي بن وائل والنضر بن الحرث وذلك أنهم رأوا اباذر وابن مسعود وعمارا وبلالا وصهيبا وعامر بن فهيرة ومن دونهم قد أسلموا قبلهم فقالوا أنسلم ونكون مثل هؤلاء وقيل جعلناك فتنة لهم لانك لو كنت غنيا صاحب كنوز وجنات لكان ميلهم اليك وطاعتهم لك للدنيا فتكون ممزوجة بالدنيا وانما بعثناك فقيرا لتكون طاعة من يطيعك خالصة لوجه الله من غير طمع دنيوي وقوله تعالى (أتصبرون) أي على ما تسمعون مما ابتليتم به استفهام بمعنى الامر أي اصبروا (وكان ربك) أي المحسن اليك احسانا لم يحسنه الى أحد سواك لاسيما بجعلك نبيا عبدا (بصيرا) أي بكل شئ فهو عالم بالانسان قبل الامتحان لم يفده ذلك علما لم يكن عنده ولكن يعلم ذلك شهادة كما يعلم علم الغيب ولتقوم عليهم بذلك الحجة فلا يضيقن صدرك ولا تستخفنك أقاويلهم فان صبرك عليها سعادتك وفوزك في الدارين روى أنه صلى الله عليه وسلم قال اذا نظر أحدكم من فضل عليه في المال والجسم فلينظر الى من هو دونه في المال والجسم. وروى انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم حذر أن تزدروا نعمة الله عليكم * الشبهة الرابعة لمنكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) أي لا يخافون البعث قال الفراء الرجاء بمعنى الخوف لغة تهامة ومنه قوله تعالى مالكم لا ترجون لله وقارا أي لا تخافون لله عظمة (لولا) أي هلا ولم لا (أنزل) أي على أي وجه كان من أي منزل كان (علينا الملائكة) كما نزلت عليه فيما يزعم وكانوا رسلا الينا أو فتخبرنا بصدقه (أو نرى ربنا) بما لعلينا من الاحسان وبما لنا نحن من العظمة بالقوة بالاموال وغيرها فيأمرنا بما يريد من غير حاجة الى واسطة قال الله ردا عليهم (لقد استكبروا) أي تعظموا (في) شأن (أنفسهم) أي أظهروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه كما قال تعالى ان في صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه (وعتوا) أي تجاوزوا الحد في الظلم (عتوا كبيرا) أي بالغا أقصى مراتبه حيث عاينوا المعجزات الظاهرة فأعرضوا عنها واقترحوا لانفسهم الخبيثة ما سدت دونه مطامع النفوس القدسية واللام جواب قسم محذوف وفي فحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ تعجب ألا ترى

أنّ المعنى ما أشدّ استكبارهم وما أكبر عتوّهم * ثم بين تعالى لهم حالهم عند بعض ما طلبوا بقوله تعالى (يوم يرون الملائكة) أى يوم القيامة وقال ابن عباس عند الموت (لا بشرى) أى من البشر أصلا (يومئذ) وقوله تعالى (للمجرمين) أى الكافرين اما ظاهر فى موضع ضمير واما لانه عام فقد تناولهم بعمومه بخلاف المؤمنين فلهم البشرى بالجنة * (تنبيه) * فى نصب يوم أوجه أحدها أنه منصوب باضمار فعل يدل عليه قوله تعالى لا بشرى أى يمنعون البشرى يوم يرون الثانى باذكر فيكون مفعولا به الثالث يعذبون مقدرا ولا يجوز أن يعمل فيه نفس البشرى لوجهين أحدهما أنها مصدر والمصدر لا يعمل فيما قبله والثانى أنها منفية بلا وما بعد لا لا يعمل فيما قبلها وقوله (ويقولون) أى فى ذلك الوقت (حجرا محجورا) عطف على المدلول ويقول الكفرة لهم حينئذ هذه الكلمة استعاذة وطلبا من الله تعالى أن يمنع لقاء الملائكة عنهم مع أنهم كانوا يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه وهم اذا رأوهم عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم لانهم لا يلقونهم الا بما يكرهون وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو والشدة النازلة أو نحو ذلك حجرا محجورا يضعونها موضع الاستعاذة فهم يقولون ذلك اذا عاينوا الملائكة قال سيبويه يقول الرجل للرجل تفعل كذا وكذا فيقول حجرا وهى من حجره اذا منعه لان المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه عنه فلا يلحقه وكان المعنى أسأل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا وقال ابن عباس تقول الملائكة حراما محرما أن يدخل الجنة الا من قال لا اله الا الله وقيل اذا خرج الكفار من قبورهم تقول الملائكة لهم حرام محرم عليكم أن تكون لكم البشرى * ولما كان المريد لابطال شئ لشدة كراهته له لا يقنع فى ابطاله بغيره بل يأتيه بنفسه فيبطله عبر تعالى بقوله (وقدمنا) أى وعمدنا بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة فى ذلك اليوم الذى يرون فيه الملائكة سواء كان فى الدنيا أم فى الآخرة (الى ما عملوا من عمل) أى من مكارم الاخلاق من الجود وصلة الرحم واغاثة الملهوف ونحو ذلك (فجعلناه) لكونه لم يؤسس على الايمان وانما هو للهوى والشيطان (هباء) وهو ما يرى فى شعاع الشمس الداخل من كوة مما يشبه الغبار (منثورا) أى مفرقا أى مثله فى عدم النفع اذ لا ثواب فيه لعدم شرطه ويجازون عليه فى الدنيا فتكون النار مستقرهم ومقيلهم ولهذا بين حال اضدادهم وهم المؤمنون بقوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ) أى يوم اذ يرون الملائكة (خير مستقرا) من الكفار (وأحسن مقيلا) منهم والمستقر المكان الذى يكونون فيه فى أكثر أوقاتهم مستقرين يتجالسون ويتحادثون والمقيل المكان الذى يأوون اليه للاسترواح الى أزواجهم والتمتع بمغازلتهن وملامستهن كما ان المترفين فى الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب روى أنه يفرغ من الحساب فى نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار قال ابن مسعود لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار وقال ابن عباس فى هذه الآية الحساب فى ذلك اليوم فى أوله وقال يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون قدر ما بين العصر الى غروب الشمس * (تنبيه) * فى أفعل ههنا قولان أحدهما أنها على

بابه اصن التفضيل والمعنى ان المؤمنين خير فى الآخرة مستقرا من مستقر الكفار وأحسن مقيلا من مقيلهم ولو فرض أن يكون لهم ذلك أو على أنهم خير فى الآخرة منهم فى الدنيا والثانى أن يكون لمجرد الوصف من غير مفاضلة ومن ذلك المعنى قوله تعالى ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال على الارائك متكئون ذكروا فى تفسير الشغل افتضاض الابكار واغاسمى مكان دعتهم واستراحتهم الحور مقيلا مع أنه لانوم فى الجنة على طريق التشبيه * ثم عطف تعالى على قوله يوم يرون قوله تعالى (ويوم تشقق السماء) أى كل سماء (بالغمام) أى كاتشقق الارض بالنبات فيخرج من خلال شقوقها وهو غيم أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن الالبنى اسرائيل فى تيههم * (تنبيه) * فى هذه الباء ثلاثة أوجه أحدها انها سببية أى بسبب الغمام يعنى بسبب طلوعه منها ونحوه السماء منفطر به كانه الذى تنشقق به السماء الثانى أنها للحال أى ملتبسة بالغمام الثالث أنها بمعنى عن أى عن الغمام كقوله تعالى يوم تشقق الارض عنهم سراعا والباء وعن يتعاقبان تقول رميت عن القوس وبالقوس وقرأ أبو عمرو والكوفيون بتخفيف الشين والباقون بتشديدها ثم أشار تعالى الى جهل من طلب نزول الملائكة دفعة واحدة بقوله تعالى (ونزل الملائكة) أى بالتدريج بأمر حتم لايمكنهم التخلف عنه بأمر من الامور وغيره من الذين طلبوا أن يروهم فى حال واحد (تنزيلا) فى أيديهم صحائف الاعمال قال ابن عباس تنشقق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من فى الارض من الجن والانس ثم تنشقق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر من أهل سماء الدنيا وأهل الارض جنا وانسا ثم كذلك حتى تنشقق السماء السابعة وأهل كل سماء يدورون على السماء التى قبلها ثم تنزل الكروبيون ثم حملة العرش (فان قيل) ثبت أن نسبة الارض الى سماء الدنيا كحلقة فى فلاة فكيف تسع الارض هؤلاء (أجاب) بعض المفسرين بأن الملائكة تكون فى الغمام والغمام يكون مقر الملائكة ويجوز أن الله تعالى يوسع الارض حتى تسع الجميع وقرأ ابن كثير بنونين الاولى مضمومة والثانية ساكنة وتخفيف الزاى ورفع اللام ونصب الملائكة والباقون بنون واحدة والزاى مشددة ونصب اللام ورفع الملائكة ثم بين تعالى أن ذلك اليوم لايقضى فيه غيره بقوله تعالى (الملك يومئذ) أى اذ تنشقق السماء بالغمام ثم وصف الملك بقوله تعالى (الحق) أى الثابت ثباتا لايمكن زواله ثم أخبر عنه بقوله تعالى (للرحمن) أى العام الرحمة فى الدارين ومن عموم رحمته وحقية ملكه أن يسر قلوب أهل وده بتعذيب أهل عداوته الذين عادوهم فيه لتضييعهم الحق باتباع الباطل ولولا اتصافه بالرحمة لم يدخل أحد الجنة (فان قيل) مثل هذا الملك لم يكن قط الا للرحمن فما الفائدة فى قوله تعالى يومئذ (أجيب) بأن فى ذلك اليوم لامالك له سواه لافى الصورة ولافى المعنى فتخضع له الملوك وتعنو له الوجوه وتذل له الجبابرة بخلاف سائر الايام (وكان) أى ذلك اليوم الذى تظهر فيه الملائكة الذى طلب الكفار رؤيتهم له (يوما على الكافرين عسيرا) أى شديد العسر والاستعار * (تنبيه) * هذا الخطاب يدل على أنه لايكون على المؤمنين عسيرا جاء فى الحديث أنه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون عليه

قوله وغيره الضمير عائد على من طلب باعتبار معناه اهـ

أخف من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا وقوله تعالى (ويوم يعض الظالم) أي المشرك المفرط تأسفه لما يرى فيه من الاهوال معمول لمحذوف أو معطوف على يوم تشقق وأل في الظالم تحتمل العهد والجنس لكن قال ابن عباس أراد بالظالم عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس كان لا يقدم من سفر الا صنع طعاما ودعا اليه جهرا جيرانه وأشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم ويعجبه حديثه فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاما ودعا الناس ودعا النبي صلى الله عليه وسلم فلما قرب الطعام قال النبي صلى الله عليه وسلم ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا اله الا الله واني رسول الله فقال عقبة أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فأكل صلى الله عليه وسلم من طعامه وكان عقبة صديقا لابي بن خلف فلما أتى أبي بن خلف قال له يا عقبة صبأت فقال لا والله ما صبأت ولكن دخل علي رجل فأبى أن يأكل طعامي الا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له فطعم والشهادة ليست في نفسي فقال ما أنا بالذي أرضى منك أبدا الا أن تاتيه وتبصق في وجهه وتطأ قفاه وتلطم وجهه وعينه فوجده ساجدا في دار الندوة ففعل ذلك عقبة فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا ألقاك خارجا من مكة الا علوت رأسك بالسيف فقتل عقبة يوم بدر صبرا أمر عليا رضي الله عنه فقتله وقيل قتله عاصم بن ثابت بن افلح الانصاري وأما أبي بن خلف فقتله النبي صلى الله عليه وسلم بيده يوم أحد طعنه في المبارزة فرجع الى مكة ومات قال الضحاك لما بصق عقبة في وجه النبي صلى الله عليه وسلم عاد بصاقه في وجهه فاحترق خداه فكان أثر ذلك فيه حتى مات وقال الشعبي كان عقبة خليل أمية فأسلم عقبة فقال أمية وجهي من وجهك حرام ان بايعت محمدا فكفر وارتد فأنزل الله تعالى ويوم يعض الظالم أي عقبة (على يديه) قال الضحاك يأكل يديه الى المرفق ثم تنبت ولا يزال هكذا كلما أكلها نبتت وقال المحققون هذه اللفظة للتحسر والغم يقال عض أنامله وعض على يديه وهو لا يشعر حال كونه مع هذا الفعل (يقول) أي يجدد في كل لحظة قوله (ياليتني اتخذت) أي أرغمت نفسي وكلفتها أن آخذ في الدنيا (مع الرسول) أي محمد صلى الله عليه وسلم (سبيلا) أي طريقا الى الهدى * ولما تأسف على مجانبة الرسول ندم على مصادقة غيره بقوله (ياويلتى) أي ياهلاكي الذي ليس لي منادم غيره لانه ليس يحضرني سواه (ليتني لم أتخذ فلانا) أي أبيا (خليلا) أي صديقا أوافقه في أعماله لما علمت من سوء عاقبتها فكنى عن اسمه وان أريد به الجنس فكل من اتخذ من المضلين خليلا كان لخليله اسم علم عليه لا محالة فجعله كناية عنه وقرأ أبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون وأظهر الذال عند التاء ابن كثير وحفص وأدغمها الباقون ثم استأنف قوله الذي يتوقع كل سامع أن يقوله (لقد) أي والله لقد (أضلني عن الذكر) أي عمى على طريق القرآن الذي لا ذكر في الحقيقة غيره وصرفني عنه والجملة في موضع العلة لما قبلها (بعد اذ جاءني) ولم يكن لي منه مانع يردني عن الايمان به وقرأ نافع وابن ذكوان وعاصم باظهار الذال والباقون بالادغام وقوله تعالى (وكان الشيطان) اشارة الى خليله سماه شيطانا لانه أضله كما يضل الشيطان أو الى كل من كان سببا للضلال من عتاة الجن والانس (للانسان خذولا) أي

شديد

شديد الخذلان يورده ثم يسلمه الى أكره ما يكون لا ينصره ولو أراد ما استطاع بل هو في شر من ذلك لان عليه اثمه في نفسه ومثل اثم من أضله * (تنبيه) * حكم هذه الآية عام في كل خليلين ومتحابين اجتمعا على معصية الله تعالى قال صلى الله عليه وسلم مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك اما أن يحذيك واما ان تبتاع منه واما أن تجد ريحا طيبة ونافخ الكير اما أن يحرق ثيابك واما أن تجد ريحا خبيثة وقال صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وقال صلى الله عليه وسلم لا تصاحب الا مؤمنا ولا يأكل طعامك الا تقي * ولما ذكر تعالى أقوال الكفار ذكر قول رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وقال الرسول يارب) أي أيها المحسن الى بأنواع الاحسان وعبر باداة البعد هضما لنفسه ومبالغة في التضرع (ان قومى) أي قريشا الذين لهم قوة ومنعة (اتخذوا هذا القرآن) أي المقتضى للاجماع عليه والمبادرة اليه (مهجورا) أي متروكا بعيدا لم يؤمنوا به ولم يقبلوه وأعرضوا عن استماعه * (تنبيه) * أشار بصيغة الافتعال الى أنهم عالجوا أنفسهم في تركه علاجا كثيرا لما يرون من حسن نظمه و يذوقون من لذيذ معانيه ورائق أساليبه ولطيف عجائبه وبديع غرائبه وأكثر المفسرين على أن هذا القول وقع من النبي صلى الله عليه وسلم وقال أبو مسلم بل المراد أنه يقوله في الآخرة كقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد الآية والاول أولى لان قوله تعالى (وكذلك) أي كما جعلنا لك عدوا من مشركي قومك (جعلنا لكل نبي) من الانبياء قبلك رفعة لدرجاتهم (عدوا من المجرمين) أي من المشركين تسلية له صلى الله عليه وسلم كأنه تعالى يقول له فاصبر كما صبروا ولا يكون ذلك الا اذا وقع القول منه (وكفى بربك) أي المحسن اليك (هاديا) أي يهدى بك من قضى بسعادته (ونصيرا) أي ينصرك على من حكم بشقاوته * (تنبيه) * احتج أهل السنة بهذه الآية على أنه تعالى خلق الخير والشر لان قوله تعالى لكل نبي عدوا يدل على أن تلك العداوة من جعل الله تعالى وتلك العداوة كفر (فان قيل) قوله تعالى يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا كقول نوح عليه السلام رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى الا فرارا فكما أن المقصود من هذا انزال العذاب فكذلك ما هنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله تعالى بالرحمة في قوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (أجيب) بأن نوحا عليه السلام لما ذكر ذلك دعا عليهم وأما النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر هذا لم يدع عليهم بل انتظر فلما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا كان ذلك كالامر له بالصبر على ذلك وترك الدعاء عليهم فافترقا * الشبهة الخامسة لمنكرى النبوة ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى (وقال الذين كفروا) أي الذين غطوا اعداوة وحسدا ما تشهد عقولهم بصحته من أن القرآن كلام الله تعالى لاعجازه لهم مفرقا فضلا عن كونه مجتمعا (لولا) أي هلا (نزل عليه القرآن) أي أنزل كخبر بمعنى أخبر لئلا يناقض قولهم (جملة) وأكدوا بقولهم (واحدة) أي من أوله الى آخره كما أنزلت التوراة على موسى والانجيل على عيسى والزبور على داود لتحقق أنه من عند الله تعالى و يزول عنا ما نتوهمه من أنه الذي يرتبه قليلا قليلا وهذا

الاعتراض فى غاية السقوط لان الاعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو متفرقا مع أن للتفريق فوائد منها ما أشار اليه بقوله تعالى (كذلك) أى أنزلناه شيأ فشيأ على هذا الوجه العظيم الذى أنكروه (لنثبت) أى نقوى (به فؤادك) أى قلبك فتعيه وتحفظه لان المتلقن انما يقوى قلبه على حفظ العلم شيأ فشيأ وجزأ عقب جزء ولو ألقى عليه جملة واحدة لتعيا بحفظه والرسول صلى الله عليه وسلم فارقت حاله حال داود وموسى وعيسى عليهم السلام حيث كان أميا لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ فأنزله الله عليه منجما فى عشرين سنة وقيل فى ثلاث وعشرين سنة وأيضا فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين ولان بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ولا يتأتى ذلك الا فيما أنزل مفرقا (فان قيل) ذا فى كذلك يجب أن يكون اشارة الى شئ تقدمه والذى تقدم هو انزاله جملة فكيف فسر كذلك بأنزلناه مفرقا (أجيب) بأن الاشارة الى الانزال مفرقا الا الى جملة والدليل على فساد هذا الاعتراض أيضا أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه وتحدوا بسورة واحدة من أقصر السور فأبرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لاذوا بالمناصبة وفزعوا الى المجادلة ثم قالوا هلا نزل جملة واحدة كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملته وقوله تعالى (ورتلناه ترتيلا) معطوف على الفعل الذى تعلق به كذلك كأنه قال تعالى كذلك فرقناه ورتلناه ترتيلا ومعنى ترتيله قال ابن عباس بيناه بيانا والترتيل التبيين فى تؤدة وتثبت وقال السدى فصلناه تفصيلا وقال مجاهد بعضه فى اثر بعض وقال الحسن تفريقا آية بعد آية ووقعة عقب وقعة ويجوز أن يكون المعنى وأمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا أى اقرأه بترتل وتثبت ومنه حديث عائشة رضى الله تعالى عنها فى صفة قراءته لا كسردكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها وقيل هو أن نزله مع كونه متفرقا على تمكث وتمهل فى مدة متباعدة وهى عشرون سنة ولم نفرقه فى مدة متقاربة * ولما كان التقدير قد بطل ما أتوا به من هذا الاعتراض عطف عليه (ولا يأتونك) أى يا أشرف الخلق أى المشركون (بمثل) أى باعتراض فى ابطال أمرك يخيلون به لعقول الضعفاء يجتهدون فى تنميقه وتحسينه وتدقيقه حتى يصير عندهم فى غاية الحسن والرشاقة لفظا ومعنى (الا جئناك) فى جوابه (بالحق) أى الذى لا محيد عنه فيزهق ما أتوا به لبطلانه فسمى ما يوردون من الشبه مثلا وسمى ما يدفع به الشبه حقا (وأحسن) أى من مثلهم (تفسيرا) أى بيانا وتفصيلا * ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا وكذا أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون هلا كانت هذه صفتك وحالك نحو أن يقرن بك ملك ينذر معك أو يلقى اليك كنز أو تكون لك جنة أو ينزل عليك القرآن جملة واحدة الا أعطيناك نحن من الاحوال ما يحق لك فى حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه وما هو أحسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته * ثم بين تعالى حال هؤلاء المعاندين فى الآخرة بقوله تعالى (الذين) أى هم الذين (يحشرون) أى يجمعون قهرا ماشين مقلوبين (على وجوههم)

مسحوبين

مسحوبين (الى جهنم) أى كما أنهم لم ينظروا فى الدنيا بعين الانصاف فان الآخرة مرآة الدنيا مهما عمل هنا رآه هنالك كما أن الدنيا مزرعة الآخرة مهما عمل فيها جنى ثمره هنالك روى البخارى ان رجلا قال يانبى الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة قال الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة وروى البيهقى يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف صنف على الدواب وصنف على الوجوه وصنف على الاقدام * ولما وصف الله تعالى المتعنتين فى أمر القرآن بهذا الوصف استأنف الاخبار عنهم بقوله تعالى (أولئك) أى البعداء البغضاء (شر) أى شر الخلق (مكانا) هو جهنم (وأضل سبيلا) أى أخطأ طريقا من غيرهم وهو كفرهم * ولما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوّا من المجرمين وذكر ذلك فى معرض التسلية له صلى الله عليه وسلم ذكر قصص جماعة من الانبياء وعرفه تكذيب أممهم زيادة فى تسليته * القصة الاولى قصة موسى عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد آتينا) أى بما لنا من العظمة (موسى الكتاب) أى التوراة (وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا) أى معينا (فان قيل) كونه وزيرا كالمنافى لكونه شريكا له فى النبوّة والرسالة (أجيب) بأنه لامنافاة بين النبوّة والرسالة والوزارة فقد كان يبعث فى الزمن الواحد أنبياء متعددون ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضا * (تنبيه) * هرون بدل أو بيان أو منصوب على القطع ووزيرا مفعول ثان وقيل حال والمفعول الثانى معه ويدل على رسالة هرون عليه السلام قوله تعالى (فقلنا اذهبا الى القوم) أى الذين فيهم قوّة وقدرة على ما يعانونه وهم القبط فرعون وقومه (الذين كذبوا بآياتنا) فذهبا اليهم بالرسالة فكذبوهما (فدمرناهم تدميرا) أى أهلكناهم اهلاكا أى فأنت يا محمد لست أوّل من كذب من الرسل فلك اسوة بمن قبلك (فان قيل) الفاء للتعقيب والاهلاك لم يحصل عقب بعثة موسى وهرون اليهم بل بعده بعدة مديدة (أجيب) بأن فاء التعقيب محمولة هنا على الحكم باهلاكهم لاعلى الوقوع أو على أنه على ارادة اختصار القصة فاقتصر على حاشيتيها أى أوّلها وآخرها لانهما المقصودان من القصة بطولها أعنى الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم * (تنبيه) * قوله تعالى كذبوا بآياتنا ان حملنا تكذيب الآيات على الآيات الالهية فهو ظاهر وان حملناه على تكذيب آيات النبوّة فاللفظ وان كان للماضى فالمراد به المستقبل * القصة الثانية قصة نوح عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (وقوم) أى ودمرنا قوم (نوح لما كذبوا الرسل) كأنهم كذبوا نوحا ومن قبله من الرسل صريحا أو كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيبا للجميع بالقوّة لان المعجزات هى البرهان على صدقهم وهى متساوية الاقدام فى كونها خوارق لا يقدر على معارضتها فالتكذيب بشئ منها تكذيب للجميع أو لم يروا بعثة الرسل أصلا كالبراهمة وهم قوم يمنعون بعثة الرسل نسبوا الى رجل يقال له برهام قد مهد لهم ذلك وقرره فى عقولهم ولانهم عللوا تكذيبهم بأنه من البشر فلزمهم تكذيب كل رسول من البشر * ثم بين تعالى تدميرهم بقوله تعالى (أغرقناهم) قال الكلبى أمطرنا عليهم السماء أربعين يوما وأخرج ماء الارض أيضا فى تلك الاربعين فصارت الارض بحرا واحدا (وجعلناهم) أى

قوم نوح فى ذلك (للناس آية) أى لمن بعدهم عبرة ليعتبر كل من سلك طريقهم (وأعتدنا) أى هيأنا فى الآخرة (للظالمين) أى للكافرين وكان الاصل لهم ولكنه تعالى أظهر تعميما وتعليقا للحكم بالوصف (عذابا أليما) أى مؤلما سوى ما يحل بهم فى الدنيا * القصة الثالثة قصة هود عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (وعادا) أى ودمرنا عادا قوم هود بالريح * القصة الرابعة قصة صالح عليه السلام المذكورة فى قوله (وثمودا) أى ودمرنا ثمودا قوم صالح بالصيحة * القصة الخامسة المذكورة فى قوله تعالى (وأصحاب الرس) اى البئر التى هى غير مطوية أى مبنية قال ابن جرير والرس فى كلام العرب كل محفور مثل البئر والقبر أى ودمرناهم بالخسف واختلف فى نبيهم فقيل شعيب وقيل غيره كانوا قعودا حولها فانهارت بهم وبمنازلهم فهلكوا جميعا وقال الكلبى الرس بئر بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فأهلكهم الله تعالى وفلج بفتح الفاء واللام والجيم قرية عظيمة بناحية اليمن من مساكن عاد وبسكون اللام واد قريب من البصرة وقيل الرس الاخدود وقيل بئر بانطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل أصحاب حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهى أعظم ما يكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذى يقال له فتخ قيل هو بتاء فوقية فخاء معجمة أو مهملة وبياء تحتية وجيم وهى تنقض على صبيانهم فتخطفهم ان أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم انهم قتلوا حنظلة فأهلكوا (وقرونا) أى ودمرنا قرونا (بين ذلك) أى الامر العظيم المذكور وهو بين كل أمتين من هذه الامم وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير اليها بذلك ويحسب الحاسب أعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب أو المعدود ثم قال الله تعالى (كثيرا) وناهيك بما يقول فيه سبحانه وتعالى انه كثير وأسند البغوى فى تفسير أمة وسطا فى البقرة عن أبى سعيد الخدرى قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بعد صلاة العصر فما ترك شيأ الى يوم القيامة الا ذكره فى مقامه ذلك حتى اذا كانت الشمس على رؤس النخل وأطراف الحيطان قال انه لم يبق من الدنيا فيما مضى الا كما بقى من يومكم هذا الا وان هذه الامة توفى سبعين أمة هى آخرها وأكرمها على الله عز وجل ثم انه تعالى قال تسلية لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وتأسية وبيانا لشريعته بالعفو عن أمته (وكلا) أى من هذه الامم (ضربنا) أى بما لنا من العظمة (له الامثال) حتى وضح له السبيل وقام من غير شبهة الدليل (وكلا تبرنا تتبيرا) أى أهلكنا اهلاكا وقال الاخفش كسرنا تكسيرا وقال الزجاج كل شئ كسرته وفتته فقد تبرته (ولقد أتوا) أى هؤلاء المكذبون من قومك (على القرية التى أمطرت) أى وقع امطارها ممن لا يقدر على الامطار سواء بالحجارة ولذا قال تعالى (مطر السوء) مصدر ساء وهى قرى قوم لوط قال البغوى كانت خمس قرى فأهلك الله تعالى أربعا منها لعملهم الفاحشة ونجى منها واحدة منهم وهى صغر وكان أهلها لا يعملون العمل الخبيث (فان قيل) لم عبر تعالى بالقرية وهى قرى (أجيب) بأنه تعالى قال ذلك تحقيرا لشأنها فى جنب قدرته تعالى واهانة لمن يريد عذابه ولانهماكهم على الفاحشة جميعهم حتى كانوا كأنهم شئ واحد

وقوله تعالى (أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون) أى لا يخافون (نشورا) أى بعثا بعد الموت لانه استقر فى أنفسهم اعتقادهم التكذيب بالآخرة واستمروا عليه قرنا بعد قرن حتى تمكن منهم ذلك تمكينا لا ينفع معه الاعتبار الا من شاء الله (واذا رأوك) أى مع مايعلمون من صدق حديثك وكرم أفعالك ولو لم تأتهم بمعجزة فكيف وقد أتيتهم بما بهر العقول (ان) أى ما (يتخذونك الا هزوا) أى مهزوا بك وعبر تعالى بالمصدر اشارة الى مبالغتهم فى الاستهزاء مع شدة بعده صلى الله عليه وسلم عن ذلك يقولون (أهذا الذى بعث الله رسولا) أى فى دعواه محتقرين له أن تأتيه الرسالة وقولهم (ان) مخففة من الثقيلة أى انه (كاد ليضلنا) أى يصرفنا (عن آلهتنا) أى عن عبادتها بفرط اجتهاده فى الدعاء الى التوحيد وكثرة ما يورد مما سبق الى الذهن انها حجج ومعجزات (لولا أن صبرنا) أى بما لنا من الاجتماع والتعاضد (عليها) أى على التمسك بعبادتها قال الله تعالى (وسوف يعلمون) أى فى حال لا ينفعهم فيه العمل ولا العلم وان طالت مدة الامهال فى التمكين (حين يرون العذاب) عيانا فى الآخرة (من أضل سبيلا) أى أخطأ طريقا أهم أم المؤمنون * ولما كان صلى الله عليه وسلم حريصا على رجوعهم ولزوم ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم سلاه تعالى بقوله تعالى متعجبا من حالهم (أرأيت) أى أخبرنى (من اتخذ الهه هواه) أى أطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة ولا ينظر دليلا (فان قيل) لم أخر هواه والاصل قولك اتخذ الهوى الها (أجيب) بأنه ما هو الا تقديم المفعول الثانى على الاول للعناية كما تقول علمت منطلقا زيدا لفضل عنايتك بالمنطلق ولما كان لا يقدر على صرف الهوى الا الله تعالى تسبب عن شدة حرصه على هداهم قوله تعالى (أفأنت تكون عليه وكيلا) أى حافظا تحفظه من اتباع هواه لا قدرة لك على ذلك (أم تحسب أن أكثرهم) أى هؤلاء المدعوين (يسمعون) أى سماع من ينزجر ولو كان غير عاقل كالبهائم (أو يعقلون) أى كالبهائم ما يرون وان لم يكن لهم سمع حتى تطمع فى رجوعهم باختيارهم من غير قسر (فان قيل) انه تعالى لما نفى عنهم السمع والعقل فكيف ذمهم على الاعراض عن الدين وكيف بعث اليهم الرسول فان من شرط التكليف العقل (أجيب) بأنه ليس المراد أنهم لا يعقلون شيأ بل المراد أنهم لم ينتفعوا بذلك العقل فهو كقول الرجل لغيره اذا لم يفهم انما أنت أعمى وأصم (فان قيل) لم خص الاكثر بذلك دون الكل (أجيب) بأنه كان منهم من آمن ومنهم من عقل الحق فكابر استكبارا وخوفا على الرياسة ولما كان هذا الاستفهام مفيدا للنفى استأنف ما أفهمه بقوله تعالى (ان) أى ما (هم الا كالانعام) أى فى عدم انتفاعهم بقرع الآيات آذانهم وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات (بل هم أضل) أى منها (سبيلا) لانها تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن اليها ممن يسىء اليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون احسانه اليهم من اساءة الشيطان الذى هو عدوهم ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والعذب الروى

* ولما بين تعالى جهل المعرضين عن دلائل التوحيد وبين فساد طريقتهم ذكر أنواعا من الدلائل على وجود الصانع أولها الاستدلال بالنظر الى حال الظل مخاطبا رأس المخلصين الناظرين هذا النظر حثا لأهل ودّه على مثل ذلك بقوله تعالى (ألم تر) أى تنظر (الى ربك) أى الى صنعه وقدرته (كيف مدّ الظل) وهو ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس بجعله ممدودا لانه ظل لا شمس معه كما قال تعالى فى ظل الجنة وظل ممدود اذ لم يكن معه شمس وان كان بينهما فرق وهو الليل لان ظل الارض الممدود على قريب من نصف وجهها مدة تحجب نور الشمس عما قابل قرصها من الارض حتى امتد بساطه وضرب فسطاطه كما احجب ظل ضلالهم أنوار عقولهم وغفلة طباعهم نفوذ اسماعهم (ولو شاء لجعله) أى الظل (ساكنا) أى دائما ثابتا لا يزول ولا تذهبه الشمس لاصقا بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجر غير منبسط فلم ينتفع به أحد سمى انبساط الظل وامتداده تحركا منه وعدم ذلك سكونا لكنه تعالى لم يشأ بل جعله متحركا كما يسوق الشمس له وقال أبو عبيدة الظل ما نسخته الشمس وهو بالغداة والفىء ما نسخ الشمس وهو بعد الزوال سمى فيأ لانه فاء من جانب المشرق الى جانب المغرب (ثم جعلنا الشمس عليه) أى الظل (دليلا) أى ان الناس يستدلون بالشمس وأحوالها فى مسيرها على أحوال الظل من كونه ثابتا فى مكان أو زائلا ومتسعا أو متقلصا فلولم تكن الشمس لما عرف الظل ولولا النور لما عرفت الظلمة والاشياء تعرف باضدادها (ثم قبضناه) أى الظل (الينا) أى الى الجهة التى أردنا لا يقدر أحد غيرنا أن يحوّله الى جهة غيرها والقبض جمع المنبسط من الشئ ومعناه ان الظل يعم جميع الارض قبل طلوع الشمس فاذا طلعت قبض الله الظل (قبضا يسيرا) أى على مهل وفى هذا القبض اليسير شيأ بعد شئ من المنافع مالا يعد ولا يحصى ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا وقيل المراد من قبضها يسيرا قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض أسبابها وهى الاجرام التى تلقى الظلال وقوله تعالى يسيرا كقوله تعالى حشر علينا يسير (فان قيل) ثم فى هذين الموضعين كيف موقعها (أجيب) بأن موقعها بيان تفاضل الامور الثلاثة كان الثانى أعظم من الاول والثالث أعظم منهما تشبيها لتباعد ما بينهما فى الفضل بتباعد ما بين الحوادث فى الوقت * ولما تضمنت هذه الآية الليل والنهار وهو النوع الثانى قال تعالى مصرحا بهما (وهو) أى ربك المحسن اليك وحده (الذى جعل) دليلا على الحق واظهارا للنعمة على الخلق (لكم الليل) أى الذى تكامل به مدّ الظل (لباسا) أى ساترا للاشياء شبه ظلامه باللباس فى ستره (والنوم سباتا) أى راحة للابدان بقطع المشاغل هو عبارة عن كونه موتا أصغر طاويا لما كان من الاحساس قاطعا لما كان من الشعور والتقلب فيه دلائل لاهل البصائر قال البغوى وغيره وأصل السبت القطع وفى جعله تعالى كذلك من الفوائد الدينية والدنيوية مالا يعد ولا يحصى وكذا فى قوله تعالى (وجعل) أى وحده (النهار نشورا) أى منشورا فيه لابتغاء الرزق وغيره وفى ذلك اشارة الى أن النوم واليقظة أنموذجان للموت والنشور يحكى

ان

ان لقمان قال لابنه يابني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر * ثم ذكر النوع الثالث بقوله تعالى (وهو) أى وحده (الذى أرسل الرياح) وقرأه ابن كثير بالافراد لارادة الجنس وقرأه الباقون بالجمع لكونها تارة صبا وتارة دبورا وتارة شمالا وتارة جنوبا وغير ذلك ويسن الدعاء عند هبوب الريح ويكره سبها لخبر الريح من روح الله تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب فاذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها رواه أبو داود وغيره باسناد حسن وقوله تعالى (نشرا) قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم النون والشين أى ناشرات للسحاب وقرأه ابن عامر بضم النون وسكون الشين على التخفيف وقرأه عاصم بالباء الموحدة مضمومة وسكون الشين جمع بشور بمعنى مبشر وقرأه حمزة والكسائى بفتح النون وسكون الشين على أنه مصدر وصف به (بين يدى رحمته) أى قدام المطر * ولما كان الماء مسببا عما تحمله الريح من السحاب أتبعه به بقوله تعالى (وأنزلنا) أى بما لنا من العظمة (من السماء) أى من السحاب أو الجرم المعهود (ماء) ثم أبدل منه بيانا للنعمة به فقال تعالى (طهورا) أى طاهرا فى نفسه مطهرا لغيره كما قال تعالى فى آية أخرى ليطهركم به فهو اسم لما يتطهر به كالوضوء لما يتوضأ به وكالسحور اسم لما يتسحر به والفطور اسم لما يفطر به قال صلى الله عليه وسلم فى البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته أراد به المطهر فالماء المطهر لانه يطهر الانسان من الحدث والخبث وذهب بعض الائمة الى أن الطهور هو الطاهر حتى جوز ازالة النجاسة بالمائعات الطاهرة مثل الخل ورد بأنه لو جاز ازالة النجاسة بها لجاز ازالة الحدث بها وذهب بعض منهم الى أن الطهور ما يتكرر به التطهير كالصبور اسم لمن يتكرر منه الصبر والشكور اسم لمن يتكرر منه الشكر حتى جوز الوضوء بالماء الذى يتوضأ به مرة بعد مرة ورد بأن فعولا يأتى اسما للآلة كسحور لما يتسحر به كما مر فيجوز أن يكون طهور كذلك ولو سلم اقتضاؤه التكرر فالمراد جمعا بين الادلة فان الصحابة رضى الله عنهم لم يجمعوا الماء فى أسفارهم القليلة الماء بل عدلوا عنه الى التيمم ثبوت ذلك لجنس الماء أو فى المحل الذى كان يمر عليه فانه يطهر كل جزء منه (لنحيى به) أى بالماء (بلدة ميتا) أى بالنبات وذكر ميتا باعتبار المكان (ونسقيه) أى بالماء وهو من أسقاه مزيد سقاه وهما لغتان قال ابن القطاع سقيتك شرابا وأسقيتك والله تعالى أسقى عباده وأرضه (مما خلقنا أنعاما) أى ابلا وبقرا وغنما (وأناسى كثيرا) جمع انسان وأصله أناسين فأبدلت النون ياء وأدغمت فيها الياء أو جمع أنسى وقدم تعالى النبات لان به حياة الانعام والانعام على الانسان لان بها كمال حياته (فان قيل) لم خص الانعام من بين ما خلق من الحيوان (أجيب) بأن الطير والوحش تبعد فى طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الانعام ولانها قنية الاناسى وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الانعام عليهم بسقى أنعامهم كالانعام بسقيهم (فان قيل) لم نكر الانعام والاناسى ووصفها بالكثرة (أجيب) بأن جل الناس منيخون بالقرب من الاودية والانهار ومنابع الماء فبهم غنية عن سقى السماء وأعقابهم وهم كثير منهم لا يعيشون الا بما ينزل الله من رحمته وسقيا سمائه وكذلك قوله تعالى لنحيى به بلدة ميتا يريد به بعض بلاد هؤلاء المتبعدين عن مظان

الماء واختلف في عود الهاء في قوله تعالى (ولقد صرفناه بينهم) على ثلاثة أوجه أولها قال الجمهور انها ترجع الى المطر أى صرفنا نزول الماء من وابل وطل وغير ذلك مرة ببلد ومرة ببلدة أخرى قال ابن عباس ما عام بأمطر من عام آخر ولكن الله تعالى يصرفه في الارض وقرأ هذه الآية وهذا كما روى مرفوعا ما من ساعة من ليل أو نهار الا والسماء تمطر فيها فيصرفه الله تعالى حيث يشاء وروى عن ابن مسعود يرفعه قال ليس من سنة بأمطر من أخرى ولكن الله تعالى قسم هذه الارزاق فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم واذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك الى غيرهم فاذا عصوا جميعا صرف الله ذلك الى الفيافي والبحار وروى أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام لانه لا يختلف ولكن تختلف فيه البلاد ثانيها قال أبو مسلم الضمير راجع الى المطر والسحاب والاظلال وسائر ما ذكره الله من الادلة ثالثها صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب والصحف التي أنزلت على الرسل عليهم الصلاة والسلام وهو ذكر انشاء السحاب وانزال المطر (ليذكروا) أى ليتفكروا ويعلموا كمال القدرة وحق النعمة ويقوموا بشكره *(تنبيه)* أصل يذكروا يتذكروا أدغمت التاء في الذال وقرأ حمزة والكسائي بسكون الذال ورفع الكاف مخففة والباقون بفتح الذال والكاف مشددتين (فأبى) أى لم يرد (أكثر الناس) أى بعبادتهم (الا كفورا) أى جحودا للنعمة وقلة الاكتراث بها وكفرانهم هو أنهم اذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا وهو بفتح النون وهمزة آخره وقت النجم الفلاني على عادة العرب في اضافة المطر الى الانواء فيكره أن يقول ذلك لايهامه ان النوء فاعل المطر حقيقة فان اعتقد أنه الفاعل له حقيقة كفر روى زيد بن خالد الجهني قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في اثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة قالوا الله ورسوله اعلم قال قال أصبح من عبادي من هو مؤمن بي وكافر بي فأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب وأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأفاد تعليق الحكم بالباء أنه لو قال مطرنا في نوء كذا لم يكره ونقل الشافعي عن بعض الصحابة أنه كان يقول عند المطر مطرنا بنوء الفتح ثم يقرأ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها (ولو شئنا لبعثنا) أى بما لنا من العظمة ونفوذ الكلمة (في كل قرية نذيرا) أى رسولا ينذرهم من البشر أو الملائكة أو غيرهم كما قسمنا المطر عليها ولكنا قصرنا الامر عليك وعظمناك به وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل (فلا تطع الكافرين) فيما قصدوا من التنفير عن الدعاء به عما يبدونه من المقترحات أو يظهرون لك من المداهنة أو من القلق من صادع الانذار ويخيلون لك انك لو أقللت منه رجوا أن يوافقوك وقابل ذلك بالتشدد والتصبر (وجاهدهم) أى بالدعاء (به) أى القرآن الذي تقدم التحدث عنه في قوله تعالى ولقد صرفناه أو بترك طاعتهم المدلول عليه بقوله تعالى فلا تطع أو بالسيف والاقرب الاول لان السورة مكية والامر بالقتال ورد بعد الهجرة بزمان (جهادا كبيرا) أى جامعا لكل المجاهدات الظاهرة والباطنة لان في ذلك اقبال كثير

من الناس اليك واجتماعهم عليك فيقوى أمرك ويعظم خطبك وتضعف شوكتهم وتنكسر سورتهم فان مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الاعداء بالسيف * ثم ذكر النوع الرابع بقوله تعالى (وهو الذى مرج البحرين) أى الماءين الواسعين الكبيرين بأن خلاهما متجاورين متلاصقين وهو بقدرته تعالى يفصل بينهما ويمنعهما التمازج (هذا عذب) أى حلو سائغ (فرات) أى شديد العذوبة بالغ الغاية فيها حتى يضرب الى الحلاوة لافرق بين ما كان منه على وجه الارض وما كان فى بطنها (وهذا ملح) أى شديد الملوحة (أجاج) أى مر محرق بملوحته ومرارته لايصلح لسقى ولاشرب * (تنبيه) * أشار تعالى بأداة القرب فى الموضعين تنبيها على وجود الوصفين مع شدة المقاربة لايلتبس أحدهما بالآخر حتى انه اذا حفر على شاطئ البحر الملح بالقرب جدا منه خرج الماء عذبا (وجعل) أى الله تعالى (بينهما برزخا) أى حاجزا من قدرته مانعا من اختلاطهما ثم انه تعالى أتم تقرير النعمة فى منعهما من الاختلاط بالكلمة التى جرت عادتهم بقولها عند التعوذ تشبيها لكل منهما بالمتعوذ بقوله تعالى (وحجرا محجورا) فكان كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له ذلك كما قال تعالى لايبغيان أى لايبغى أحدهما على صاحبه بالملوحة أو العذوبة فانتفاء البغى كالتعوذ وههنا جعل كل واحد منهما فى صورة الباغى على صاحبه فهو يتعوذ منه وهو من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة (فان قيل) لاوجود للبحر العذب فكيف ذكره الله تعالى هنا (أجيب) بأن المراد منه الاودية العظام كالنيل وجيحون ومن البحر الاجاج البحار الكبار * ثم ذكر النوع الخامس بقوله تعالى (وهو) أى وحده (الذى خلق من الماء) أى المنى من الرجل والمرأة (بشرا) أى انسانا (فجعله) أى بعد ذلك بالتطوير فى أطوار الخلقة والتدوير فى أدوار التربية (نسبا) أى ذكرا ينسب اليه (وصهرا) أى أنثى يصاهر بها فيقسم هذا الماء بعد التطوير الى ذكر وأنثى كما جعل ذلك الماء قسمين عذبا وملحا ونحو هذا قوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى وقيل النسب مالا يحل نكاحه والصهر مايحل نكاحه فالنسب ماوجب الحرمة والصهر مالا يوجبها قال البغوى وقيل وهو الصحيح النسب من القرابة والصهر الخلطة التى تشبه القرابة وهو النسب المحرم للنكاح وقد ذكر الله تعالى أنه حرم بالنسب سبعا فى قوله تعالى فى النساء حرمت عليكم أمهاتكم (وكان ربك) أى المحسن اليك بارسالك وانزال هذا الذكر اليك (قديرا) حيث خلق من مادة واحدة بشرا ذا أعضاء مختلفة وطبائع متباعدة وجعله قسمين ذكرا وأنثى وربما يخلق من نطفة واحدة نوعين ذكرا وأنثى فهو يوفق من يشاء فيجعله عذب المذاق سهل الاخلاق ويخذل من يشاء فيجعله مر الاخلاق كثير الشقاق غريقا فى النفاق * ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد عاد الى تهجين سيرتهم فقال تعالى (ويعبدون) أى هؤلاء الكفرة (من دون الله) أى مما يعلمون أنه فى الرتبة دون الله المستجمع لصفات الكمال والعظمة بحيث انه لاضر ولانفع الا وهو بيده (مالا ينفعهم) بوجه من الوجوه ان عبدوه فى ازالة كربة (ولا يضرهم) فى ازالة نعمة من نعم الله تعالى عليهم ان تركوه (وكان الكافر) أى مع علمه بضعفه وعجزه (على ربه) أى المحسن اليه

لاغيره (ظهيرا) أى معينا للشيطان من الانس والجن على أولياء الله تعالى روى أنها نزلت فى أبى جهل ويجوز أن يراد بالظهير الجماعة كقوله تعالى والملائكة بعد ذلك ظهير كما جاء الصديق والخليط وعلى هذا يكون المراد بالكافر الجنس فان بعضهم مظاهر لبعض على اطفاء نور دين الله قال تعالى واخوانهم يمدونهم فى الغى وهذا أولى لان خصوص السبب لا يقدح فى عموم اللفظ ولانه أوفق لظاهر قوله تعالى ويعبدون من دون الله وقيل معناه وكان الذى يفعل هذا الفعل وهو عبادة مالا ينفع ولا يضر على ربه هينا مهينا من قولهم ظهرت به اذا خلفته خلف ظهرك لا تلتفت اليه وهو نحو قوله تعالى أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم ٭ ولما كان التقدير تسلية له صلى الله عليه وسلم فالزم ما أمرناك به ولا يزدهم منك بردهم عما هم فيه فانا ما أرسلناك عليهم وكيلا عطف عليه قوله تعالى (وما أرسلناك) بأشرف الخلق بما لنا من العظمة (الا مبشرا) بالثواب على الايمان والطاعة (ونذيرا) أى مخوفا بالعقاب على الكفر والمعصية ٭ ثم كأنه قيل فماذا أقول لهم اذا طعنوا فى الرسالة فقال تعالى (قل) أى لهم بأكرم الخلق حقيقة وأعدلهم طريقة محتجا عليهم بازالة ما يكون موضعا للتهمة (ما أسألكم عليه) أى على تبليغ ما أرسلت به (من أجر) فتتهمونى أنى أدعوكم لاجله اذ لا غرض لى الا نفعكم ثم أكد هذا المعنى بقوله تعالى مستثنيا لان الاستثناء معيار العموم (الا من) أى الا أجر من (شاء أن يتخذ) أى يكلف نفسه ويخالف هواه ويجعل له (الى ربه سبيلا) فانه اذا اهتدى بهدايته ربه كان لى مثل أجره لا نفع لى من جهتكم الا هذا فان سميتم هذا أجرا فهو مطلوبى ولا مرية فى أنه لا ينقص أحدا شيأ من دنياه فأفاد فائدتين الاولى أنه لا طمع له أصلا فى شئ ينقصهم والثانية اظهار الشفقة البالغة حيث لم يقصد بنفعتهم الموصلة لهم الى ربهم ثوابا لنفسه وقيل الاستثناء منقطع أى لكن من يشاء أن يتخذ الى ربه سبيلا فليفعل وجرى على هذا الجلال المحلى وقال ابن عادل فى الاول نظر لانه لم يسند السؤال المنفى فى الظاهر الى الله تعالى انما أسنده الى المخاطبين فكيف يصح هذا التقدير انتهى وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل ورش وقنبل الثانية ولهما أيضا ابدالها ألفا والباقون بتحقيق الهمزتين ٭ ولما بين تعالى أن الكفار يتظاهرون على ايذائه وأمره أن لا يطلب منهم أجرا أمره أن يتوكل عليه فى دفع جميع المضار وجلب جميع المنافع بقوله تعالى (وتوكل) أى أظهر العجز والضعف واستسلم واعتمد فى أمرك كله ولا سيما فى مواجهتهم بالانذار وفى ردهم من عنادهم (على الحى الذى لا يموت) فلا ضياع لمن توكل عليه فانه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الاحياء الذين يموتون فانهم اذا ماتوا ضاع من توكل عليهم وعن بعض السلف انه قرأها فقال لا يصح لذى عقل أن يثق بعدها بمخلوق (وسبح) متلبسا (بحمده) أى نزهه عن كل نقص مثبتا له كل كمال وقيل صل له شكرا على نعمه وقيل قل سبحان الله والحمد لله وحده وعلى هذا اقتصر الجلال المحلى (وكفى به بذنوب عباده) أى ما ظهر منها وما بطن وكل ما سواه عبد (خبيرا) أى عالما مطلقا فلا يخفى عليه منافية شئ منها وان دق فلا عليك ان آمنوا أو كفروا وهذه الكلمة يراد بها المبالغة

يقال كفى بالعلم كالاوكفى بالادب مالا وهو معنى حسبك أى لا تحتاج معه الى غيره لانه تعالى خبير بأحوالهم قادر على مكافأتهم وهذا وعيد شديد * ولما أمر الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه وصف تعالى نفسه بأمور منها أنه حى لا يموت ومنها أنه عالم بجميع المعلومات ومنها أنه قادر على كل الممكنات وهو قوله تعالى (الذى خلق السموات والارض) على عظمهما (وما بينهما) من الفضاء والعناصر والعباد وأعمالهم من الذنوب وغيرها ألا يعلم من خلق وقوله تعالى (فى ستة أيام) أى من أيام الدنيا تعجيب للغبى الجاهل وتدريب للفطن العالم فى الحلم والاناة والصبر على عباد الله تعالى فى دعوتهم (فان قيل) الايام عبارة عن حركة الشمس فى السموات فقبل السموات لا أيام فكيف قال تعالى فى ستة أيام (أجيب) بأنه تعالى خلقها فى مدة مقدارها هذه الايام (فان قيل) يلزم على هذا قدم الزمان وهو ممنوع (أجيب) بأن الله تعالى خلق هذه المدة أولا ثم خلق السموات والارض فيها بمقدار ستة أيام فلا يلزم من ذلك قدم الزمان وقيل فى ستة أيام من أيام الآخرة كل يوم مقداره ألف سنة وهو بعيد لان التعريف لابد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول (فان قيل) لم قدر الخلق والايجاد بهذا المقدار (أجيب) بأنه يجب على المكلف أن يقطع الطمع عن مثل هذا فانه بحر لا ساحل له من ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بثمانية والشهور باثنى عشر والسموات بالسبع وعدد الصلوات ومقادير النصب فى الزكوات والحدود والكفارات فالاقرار بأن كل ما قاله الله حق هو الدين والواجب ترك البحث عن هذه الاشياء وقد نص الله تعالى على ذلك فى قوله عز وجل وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ثم قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وهذا جواب أيضا عن أنه لم يخلقها فى لحظة وهو قادر على ذلك وعن سعيد بن جبير انما خلقها فى ستة أيام وهو قادر أن يخلقها فى لحظة واحدة تعليما لخلقه الرفق والتثبت وقيل اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عيدا للمسلمين وعن مجاهد أول الايام يوم الاحد وآخرها يوم الجمعة * ولما كان تدبير هذا الملك أمرا باهرا أشار اليه بأداة التراخى بقوله تعالى (ثم استوى على العرش) أى شرع فى التدبير لهذا الملك الذى اخترعه وأوجده ولا يجوز أن يفسر بالاستقرار لانه يقتضى التغير الذى هو دليل الحدوث ويقتضى التركيب وكل ذلك على الله محال (فان قيل) يلزم من ذلك أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وقد قال تعالى وكان عرشه على الماء (أجيب) بأن كلمة ثم ما دخلت على خلق العرش بل على رفعه على السموات وهو فى اللغة سرير الملك وفى رفع قوله تعالى (الرحمن) أوجه أحدها أنه خبر الذى خلق أو خبر مبتدا مضمر أى هو الرحمن ولهذا أجاز الزجاج وغيره الوقف على العرش ثم يبتدئ الرحمن أى هو الرحمن الذى لا ينبغى السجود والتعظيم الا له أو يكون بدلا من الضمير فى استوى وعلى هذا اقتصر الجلال المحلى واختلف فى معنى الفاء فى قوله تعالى (فاسئل به) على

قولين أحدهما أنها على بابها وهي متعلقة بالسؤال والمراد بقوله (خبيرا) أي عالما يخبرك بحقيقته هو الله تعالى ويكون من التجريد كقوله رأيت به أسدا والمعنى فاسأل الله الخبير بالاشياء قال الزمخشري أو فاسأل بسؤاله خبيرا كقولك رأيت به أسدا أي برؤيته انتهى قال الكلبي فقوله به يعود الى ماذكر من خلق السموات والارض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله تعالى لانه لا دليل في العقل على كيفية خلق السموات والارض والاستواء على العرش ولا يعلمها أحد الا الله تعالى والثاني أن تكون الباء بمعنى عن اما مطلقا واما مع السؤال خاصة كهذه الآية وكقول علقمة بن عبيدة

فان تسألوني بالنساء فانني * خبير بأدواء النساء طبيب

والضمير في به لله وخبيرا من صفات الملك وهو جبريل عليه السلام فعن ابن عباس أن ذلك الخبير هو جبريل وانما قدم لرؤس الآي وحسن النظم وقال ابن جرير الباء في به صلة والمعنى فاسأله خبيرا وخبيرا نصب على الحال وقيل به يجري مجرى القسم كقوله تعالى واتقوا الله الذي تساءلون به وقيل فاسأل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب حتى تعرف من ينكره ومن ثم كانوا يقولون مانعرف الرحمن الا الذي باليمامة يعنون مسيلمة الكذاب وكان يقال له رحمن اليمامة وقيل فاسأل بسبب سؤالك اياه خبيرا عن هذه الامور وكل أمر تريده فيخبرك بحقيقة أمره ابتداء وحالا ومآلا فلا يضيق صدرك بسبب هؤلاء المدعوين فانه ما أرسلك الا وهو عالم بهم فيعلي كعبك عليهم ويحسن لك العاقبة وقرأ ابن كثير والكسائي بالنقل وكذا يقرأ حمزة في الوقف والباقون بسكون السين وفتح الهمزة * ولما ذكر تعالى احسانه اليهم وانعامه عليهم ذكر ما أبدوه من كفرهم في موضع شكرهم بقوله (واذا قيل لهم) أي من أي قائل قال لهؤلاء الذين يتقلبون في نعمه (اسجدوا) أي اخضعوا بالصلاة وغيرها (للرحمن) أي الذي لا نعمة لكم الا منه (قالوا وما الرحمن) متجاهلين في معرفته فضلا عن كفر نعمته معبرين بأداة ما لا يعقل وقال ابن عربي انما عبروا بذلك اشارة الى جهلهم بالصفة دون الموصوف ثم عجبوا من أمره بذلك منكرين عليه بقولهم (أنسجد لما تأمرنا) فعبروا عنه بعد التجاهل في أمره والانكار على الداعي اليه أيضا بأداة ما لا يعقل (وزادهم) أي هذا الامر الواضح المقتضي للاقبال والسكون شكرا للنعمة وطمعا في الزيادة (نفورا) أي عن الايمان والسجود *(تنبيه)* هذه السجدة من عزائم سجود التلاوة يسن للقارئ والمستمع والسامع أن يسجد عند قراءتها أو سماعها وقرأ واذا قيل لهم هشام والكسائي بالاشمام وضم القاف مع سكون الياء والباقون بكسر القاف وقرأ لما يأمرنا حمزة والكسائي بالياء التحتية والباقون بالتاء الفوقية وأبدل ورش والسوسي الهمزة وقفا ووصلا وحمزة وقفا لا وصلا * ولما حكى تعالى عن الكفار مزيد النفرة عن السجود ذكر مالو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعبادة للرحمن قال عز من قائل (تبارك) أي ثبت ثباتا لا نظير له (الذي جعل في السماء) التي تقدم أنها اخترعها واختلف في معنى قوله (بروجا) فقال الزجاج ومجاهد وقتادة هي النجوم الكبار سميت بروجا

لظهورها وقال عطية العوفي هي القصور فيها الحرس كما قال تعالى ولو كنتم في بروج مشيدة وقال عطاء عن ابن عباس هي الاثناعشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيارة وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت فالحمل والعقرب بيتا المريخ والثور والميزان بيتا الزهرة والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد والسرطان بيت القمر والاسد بيت الشمس والقوس والحوت بيتا المشترى والجدي والدلو بيتا زحل وهذه البروج مقسومة على الطبائع الاربعة فيكون نصيب كل واحد منها ثلاثة بروج تسمى المثلثات فالحمل والاسد والقوس مثلثة نارية والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية (وجعل فيها) أي السماء وقيل البروج (سراجا) أي شمسا وقرأ حمزة والكسائي بضم السين والراء على الجمع للتنبيه على عظمته في ذلك من حيث انه أعظم من ألوف من السرج فهو قائم مقام الوصف كما في الذي بعده كما سيأتي وقيل المراد بالجمع الشمس والكواكب الكبار والباقون بكسر السين وفتح الراء وألف بعدها على التوحيد (وقمرا منيرا) أي مضيأ بالليل * ولما ذكر تعالى هاتين الآيتين ذكرهما آيتاه بقوله تعالى (وهو الذي جعل الليل) أي الذي آيته القمر (والنهار) أي الذي آيته الشمس (خلفة) أي ذوي حالة معروفة في الاختلاف فيأتي هذا خلف ذاك بضد ماله من الاوصاف وقال ابن عباس والحسن يعني خلفا وعوضا يقوم أحدهما مقام صاحبه فمن فاته عمله في أحدهما قضاه في الآخر قال شقيق جاء رجل الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال فاتتني الصلاة الليلة قال أدرك مافاتك من ليلتك في نهارك فان الله عز وجل جعل الليل والنهار خلفة (لمن أراد أن يذكر) أي يتذكر آلاء الله ويتفكر في صنعه فيعلم أنه لابد له من صانع حكيم واجب الذات رحيم على العباد وقرأ حمزة بسكون الذال وضم الكاف مخففة من ذكر بمعنى تذكر والباقون بفتح الكاف والذال مشددتين (أو أراد شكورا) أي شكر نعمة ربه عليه من الاتيان بكل منهما بعد الآخر لاجتناء ثمراته ولو جعل أحدهما دائما لفاتت مصالح الآخر ولحصلت السآمة والملل منه والتواني في الامور المقدرة بالاوقات وفتر العزم الذي اغما يثيره لتداركها دخول وقت آخر وغير ذلك من الامور التي أحكمها العلي الكبير وعن الحسن من فاته عمله من التذكر والشكر بالنهار كان له في الليل مستعتب ومن فاته بالليل كان له في النهار مستعتب * ولما ذكر الله تعالى عباده الذين خذلهم بتسليط الشيطان عليهم فصار واحزبا ولم يضفهم الى اسم من اسمائه ابذانا باهانتهم لهوانهم عنده أشار الى عباده الذين أخلصهم لنفسه بقوله تعالى (وعباد الرحمن) فأضافهم اليه رفعة لهم وان كان الخلق كلهم عباده وأضافهم الى وصف الرحمة الابلغ الذي أنكره أولئك تبشيرا لهم * ثم وصفهم بضد ماوصف به المتكبرين عن السجود اشارة الى أنهم تخلقوا من هذه الصفة التي أضيفوا اليها بصفات كثيرة الصفة الاولى قوله تعالى (الذين يمشون) وقال تعالى (على الارض) تذكيرا بما يصيرون اليه وحثا على السعي في

معالى الاخلاق (هونا) أى هينين أو مشيا هينا مصدر وصف به مبالغة والهون الرفق واللين ومنه الحديث أحبب حبيبك هونا ما وقوله المؤمنون هينون والمثل اذا عز أخوك فهن والمعنى اذا عاسر فياسر والمعنى أنهم يمشون بسكينة وتواضع ووقار لا يضربون لوقارهم بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا ولذلك كره بعض العلماء الركوب فى الاسواق لقوله تعالى ويمشون فى الاسواق * (تنبيه) * عباد مرفوع بالابتداء وفى خبره وجهان أحدهما الجملة الاخيرة فى آخر السورة أولئك يجزون وبه بدأ الزمخشرى والذين يمشون وما بعده صفات للمبتدا والثانى أن الخبر الذين يمشون الصفة الثانية (واذا خاطبهم الجاهلون) أى بما يكرهون (قالوا سلاما) أى تسلما منكم لا نجاهلكم ومتاركة لا خير بيننا ولا شر أى فتسلم منكم تسلما فأقيم السلام مقام التسلم وقيل قالوا سدادا من القول أى يسلمون فيه من الاثم والايذاء وليس المراد التحية لان المؤمنين لم يؤمروا بالسلام على المشركين وعن أبى العالية نسختها آية القتال ولا حاجة الى ادعاء النسخ بآية القتال ولا غيرها لان الاغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن فى الادب والمروأة والشريعة أسلم للعرض والورع وأطلق الخطاب اعلاما بأن أكثر خصال الجاهل وهو الذى يخالف العلم والحكمة الجهل وهو السفه وقلة الادب من قوله

الا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

* ولما ذكر تعالى ما بينهم وبين الخلق ذكر ما بينهم وبينه وهى الصفة الثالثة بقوله تعالى (والذين يبيتون) من البيتوتة قال الزجاج كل من أدركه الليل قيل بات وان لم ينم كما يقال بات فلان قلقا والمعنى يبيتون (لربهم) أى المحسن اليهم (سجدا) على وجوههم فى الصلاة وقدمه لانه أنهى الخضوع وأخر عنه قوله تعالى (وقياما) أى على أقدامهم وان كان تطويل القيام أفضل للروى وتخصيص البيتوتة لان العبادة بالليل أشق وأبعد من الرياء قال الزمخشرى والظاهر أنه وصف لهم باحياء الليل أو أكثره وقيل من قرأ شيأ من القرآن فى صلاة وان قل فقد بات ساجدا وقائما وقال ابن عباس من صلى بعد العشاء ركعتين فقد بات ساجدا وقائما وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى عشاء الآخرة فى جماعة كان كقيام نصف ليلة ومن صلى الصبح فى جماعة كان كقيام ليلة * ولما ذكر تعالى تهذيبهم للخلق والخالق وصفهم الله تعالى أنهم مع ذلك خائفون وجلون وهى الصفة الرابعة بقوله تعالى (والذين يقولون ربنا) أى المحسن الينا (اصرف عنا عذاب جهنم) قال ابن عباس يقولون فى سجودهم وقيامهم هذا القول ثم علل سؤالهم بقوله تعالى (ان عذابها كان) أى كونا جبلت عليه (غراما) أى هلاكا وخسرانا ملحا لازما لا ينفك عنه كما قال

ان يعاقب يكن غراما وان يعـ * ـط جزيلا فانه لا يبالى

ومنه الغريم لملازمته والحاحه فهم يبتهلون الى الله تعالى فى صرف العذاب عنهم لعدم اعتدادهم بأعمالهم ووثوقهم على استمرار أحوالهم * ولما ثبت لهم هذا الوصف أنتج قوله تعالى (انها ساءت)

أى تناهت هى فى كل ما يحصل منه سوء وهى فى معنى بئست فى جميع المذام (مستقرا) أى موضع استقرار (ومقاما) أى موضع اقامة *(تنبيه)* ساءت فى حكم بئست كما مر ففيها ضمير مبهم يفسره مستقرا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هى وهذا الضمير هو الذى ربط الجملة باسم ان وجعلها خبرا لها ويجوز أن تكون ساءت بمعنى أحزنت ففيها ضمير اسم ان ومستقرا حال أو تمييز والتعليلان يصح أن يكونا متداخلين أو مترادفين وأن يكونا من كلام الله تعالى وحكاية لقولهم * ولما ذكر تعالى أفعالهم وأقوالهم أتبع ذلك بذكر انفاقهم وهو الصفة الخامسة بقوله تعالى (والذين اذا أنفقوا) أى للخلق أو الخالق فى واجب أو مستحب أو مباح (لم يسرفوا) أى لم يجاوزوا الحد فى النفقة بالتبذير فيضيعوا الاموال فى غير حقها (ولم يقتروا) أى لم يضيقوا فيضيعوا الحقوق (وكان) أى انفاقهم (بين ذلك) أى الاسراف والاقتار (قواما) أى وسطا *(تنبيه)* اسم كان ضمير يعود على الانفاق المفهوم من قوله تعالى انفقوا وخبرها قواما وبين ذلك معمول له وقيل غير ذلك وذكر المفسرون فى الاسراف والتقتير وجوها أحدها قال الرازى وهو الاقوى وصفهم بالقصد الذى هو بين الغلو والتقتير وبمثله أمر صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط اذ يقال ما عال من اقتصد وسأل رجل بعض العلماء ما البناء الذى لا سرف فيه قال ما سترك من الشمس وأكنك من المطر قال فما الطعام الذى لا سرف فيه قال ما سد الجوعة قال فما اللباس الذى لا سرف فيه قال ما ستر عورتك وأدفأك من البرد * ثانيها وهو قول ابن عباس الاسراف النفقة فى معصية الله تعالى والاقتار منع حق الله تعالى وقال مجاهد لو أنفق أحد مثل جبل أبى قبيس ذهبا فى طاعة الله تعالى لم يكن سرفا ولو أنفق صاعا فى معصية الله تعالى كان سرفا وقال الحسن لم ينفقوا فى معاصى الله ولم يمسكوا عما ينبغى وأنشدوا

ذهاب المال فى حمد وخير * ذهاب لا يقال له ذهاب

وسمع رجل رجلا يقول لا خير فى الاسراف فقال لا اسراف فى الخير وعن عمر بن عبد العزيز انه شكر عبد الملك بن مروان حين زوجه ابنته وأحسن اليه فقال وصلت الرحم وفعلت وصنعت وجاء بكلام كثير حسن فقال ابن لعبد الملك انما هو كلام أعده لهذا المقام فسكت عبد الملك فلما كان بعد أيام دخل عليه والابن حاضر فسأله عن نفقته وأحواله فقال النفقة بين الشيئين فعرف عبد الملك أنه أراد ما فى هذه الآية فقال لابنه يا بنى هذا أيضا مما أعده * وثالثها السرف مجاوزة الحد فى التنعم والتوسع فى الدنيا وان كان من حلال لانه يؤدى الى الخيلاء وكسر قلوب الفقراء فكانت الصحابة لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم ويقيهم من الحر والبرد وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه كفى سرفا أن لا يشتهى الرجل شيأ الا اشتراه فأكله وقرأ نافع وابن عامر يقتروا بضم التحتية وكسر الفوقية من اقتر وابن كثير وأبو عمرو بفتح التحتية وكسر الفوقية والكوفيون بفتح التحتية وضم الفوقية * ولما

ذكر تعالى ما تحلوا به من أصول الطاعات أتبعه بذكر ما تخلوا عنه من أمهات المعاصي التي هي الفحشاء والمنكر وهو الصفة السادسة بقوله تعالى (والذين لا يدعون) أي رحمة لأنفسهم واستعمالا للعدل (مع الله) أي الذي اختص بصفات الكمال (إلها آخر) أي دعاء جليا بالعبادة ولا خفيا بالرياء ولما نفى عنهم ما يوجب قتل أنفسهم بخسارتهم اياها أتبعه نفي قتل غيرهم بقوله سبحانه (ولا يقتلون النفس) رحمة للخلق وطاعة للخالق ولما كان من الانفس ما لا حرمة له بين المراد بقوله تعالى (التي حرم الله) أي منع من قتلها (الا بالحق) أي بأن تعمل ما يبيح قتلها ولما ذكر القتل الجلي أتبعه الخفي بتضييع نسب الولد بقوله تعالى (ولا يزنون) أي رحمة للمزني بها ولأقاربها ان تنتهك حرماتهم مع رحمته لنفسه على أن الزنا أيضا جار الى القتل والفتن وفيه التسبب الى ايجاد نفس بالباطل كما أن القتل سبب الى اعدامها بذلك وقد روى في الصحيح عن عبد الله بن مسعود أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم وفي رواية أكبر عند الله قال أن تدعو لله ندا وهو خلقك قال ثم أي قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قال ثم أي قال أن تزاني حليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك والذين لا يدعون مع الله الها آخر الآية (وقد استشكل) تصديق هذه الآية للخبر من حيث ان الذي فيه قتل خاص وزنا خاص والتقييد بكونه أكبر والذي فيها مطلق القتل والزنا من غير تعرض لعظم (وأجيب) بدفع الاشكال بأنها نطقت بتعظيم ذلك من سبعة أوجه الاول الاعتراض بين المبتدا الذي هو وعباد الرحمن وما عطف عليه والخبر الذي هو أولئك يجزون الغرفة على احدى الروايتين بذكر هذه الثلاثة خاصة وذلك دال على مزيد الاهتمام الدال على الاعظام الثاني الاشارة بأداة البعد في قوله تعالى (ومن يفعل ذلك) أي هذا الفعل العظيم القبيح مع قرب المذكورات فدل على أن البعد من رتبتها فهو اشارة الى جميع ما تقدم لانه بمعنى ما ذكر فلذلك وحده وأدغم لام يفعل في الذال أبو الحرث والباقون بالاظهار الثالث التعبير باللقي مع المصدر المزيد الدال على زيادة المعنى في قوله (يلق أثاما) دون يأثم ويلق اثما أي جزاء اثمه الرابع التقييد بالمضاعفة في قوله تعالى مستأنفا (يضاعف) بأسهل أمر (له العذاب) جزاء ما أتبع نفسه هواها الخامس التهويل بقوله تعالى (يوم القيامة) الذي هو أهول من غيره بما لا يقاس السادس الاخبار بالخلود الذي أقل درجاته أن يكون مكثا طويلا بقوله تعالى (ويخلد فيه) وقرأ يضاعف ويخلد ابن عامر وشعبة برفع الفاء والدال والباقون بجزمهما وأسقط الالف من يضاعف مع تشديد العين ابن كثير وابن عامر فالجزم على أنهما بدلان من يلق بدل اشتمال والرفع على الاستئناف السابع التصريح بقوله تعالى (مهانا) فلما أعظم الامر من هذه الاوجه علم أن كلا من هذه الذنوب كبير واذا كان الاعم كبيرا كان الاخص المذكور أعظم من مطلق الاعم لانه زاد عليه بما صار به خاصا فثبت بهذا أنها كبائر وان قتل الولد والزنا بحليلة الجار أكبر ما ذكر فوجد تصديق الآية للخبر وقرأ حفص مع ابن كثير بصلة الهاء بالياء من فيه قبل مهانا (فان قيل) ذكر أن من صفات عباد الرحمن صفات حسنة فكيف يليق بعد ذلك أن يطهرهم عن الامور العظيمة مثل الشرك والقتل

والزنا

والزنا فلو كان الترتيب بالعكس كان أولى (أجيب) بأن الموصوف بتلك الصفات السابقة قد يكون متمسكا بالشرك تدينا ويقتل الموؤدة تدينا وبالزنا تدينا فبين تعالى أن المراد لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن حتى يجتنب تلك الكبائر وأجاب الحسن بأن المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار كأنه قال تعالى وعباد الرحمن الذين لا يدعون مع الله إلها آخر وأنتم تدعون ولا يقتلون وأنتم تقتلون الموؤدة ولا يزنون وأنتم تزنون * ولما أتم تعالى تهديد الفجار على هذه الاوزار أتبعه ترغيب الابرار الى العزيز الغفار بقوله تعالى (الا من تاب) أى رجع عن كل شئ كان فيه من هذه النقائص (وآمن) أى أوجد الاساس الذى لا يثبت عمل بدونه وهو الايمان وأكد رجوعه بقوله تعالى (وعمل عملا صالحا) أى مؤسسا على أساس الايمان (فان قيل) العمل الصالح يدخل فيه التوبة والايمان فذكرهما قبل العمل الصالح يستغنى عنه (أجيب) بأنهما أفردا بالذكر لعلو شأنهما * (تنبيه) * اختلف فى هذا الاستثناء على وجهين أحدهما أنه استثناء متصل وهو ما دل عليه كلام الجمهور لانه من الجنس والثانى أنه منقطع ورجحه أبو حيان معللا بأن المستثنى منه محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب فيصير التقدير الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فلا يضاعف له العذاب ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف بخلافه فى المنقطع فان التقدير لكن من تاب الى آخره فلا يلقى عذابا البتة ووجه كلام الجمهور بأن ما ذكر ليس بلازم اذ المقصود الاخبار بان من فعل كذا فانه يحل به ما ذكر الا أن يتوب وأما اصابة أصل العذاب وعدمه فلا تعرض فى الآية له ثم زاد تعالى فى الترغيب بالاتيان بالفاء ربطا للجزاء بالشرط دليلا على أنه سببه فقال تعالى (فأولئك) أى العالو المنزلة (يبدل الله) أى الذى له العظمة والكبرياء (سيآتهم حسنات) قال ابن عباس ومجاهد هذا التبديل فى الدنيا فيبدل الله تعالى قبائح أعمالهم فى الشرك بمحاسن الاعمال فى الاسلام فيبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا احصانا وعفة فكأنه تعالى يبشرهم بتوفيقهم لهذه الاعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثواب وقال الزجاج ان السيئة بعينها لا تصير حسنة فالتأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب مع التوبة حسنة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيآت وقال سعيد بن المسيب ومكحول ان الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية وهذا هو ظاهر الآية ويدل له ما روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انى لأعلم آخر رجل يخرج من النار رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال له اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فيعرض عليه صغارها فيقال له عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم فلا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له ان لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يارب قد عملت أشياء لا أراها ههنا قال أبو هريرة فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه (وكان الله) أى الذى له الجلال والاكرام على الاطلاق أزلا وأبدا (غفورا) أى ستورا الذنوب لكل من تاب بهذا الشرط (رحيما) به بأن يعامله بالاكرام كما

يعامل المرحوم فيعطيه مكان كل سيئة حسنة روى البخاري عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في أهل الشرك ولما نزل صدرها قال أهل مكة قد عدلنا بالله وقتلنا النفس التي حرم الله وأتينا الفواحش فأنزل الله الامن تاب الى رحيما روى البخاري في التفسيرات ناسا من أهل الشرك كانوا اقتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا ان الذي تقول وتدعو اليه لحسن لو تخبرنا ان لما عملنا كفارة فنزلت هذه الآية ونزل قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله (ومن تاب) أي عن ذنوبه غير ماذكر (وعمل) تصديقا لادعائه التوبة (صالحا) ولو كان كل من نيته وعمله ضعيفا ورغب سبحانه في ذلك بقوله تعالى معلما أنه يصل الى الله (فانه يتوب) أي يرجع واصلا (الى الله) أي الذي له صفات الكمال فهو يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت (متابا) أي رجوعا مرضيا عند الله بأن يرغبه تعالى في الاعمال الصالحة فلا يزال كل يوم في زيادة بنيته وعمله فيخف عليه ما كان ثقيلا ويتيسر عليه ما كان عسيرا ويسهل عليه ما كان صعبا كما مر في ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ولا يزال كذلك حتى يحبه فيكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها بأن يوفقه للخير فلا يسمع الا ما يرضيه وهكذا * ولما وصف سبحانه وتعالى عباده بأنهم تحلوا بأصول الفضائل وتخلوا عن أمهات الرذائل ورغب في التوبة لأن الانسان لعجزه لا ينفك عن النقص مدحهم بصفة أخرى وهي الصفة المذكورة في قوله تعالى (والذين لا يشهدون) أي لا يحضرون (الزور) أي القول المنحرف عن الصدق كذبا كان أو مقاربا له فضلا عن أن يتفوهوا به للخير فلا يسمعوا أو يقروا عليه في مواعظ عيسى بن مريم عليه السلام اياكم ومجالسة الخطائين ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه وعن قتادة مجالس الباطل وعن ابن الحنفية اللهو والغناء وعن مجاهد أعياد المشركين ثم عطف عليه ما هو أعم منه بقوله تعالى (واذا مروا باللغو) أي الذي ينبغي أن يطرح من الكلام القبيح وغيره (مروا كراما) أي آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ان تعلق بهم أمر أو نهي اشارة أو عبارة على حسب ما يرون نافعا فان لم يتعلق بهم ذلك كانوا معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه لقوله تعالى واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ومن ذلك الاغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به وعن الحسن لم تسفههم المعاصي وقيل اذا سمعوا من الكفار الاذى أعرضوا عنه * ثم ذكر الصفة الثامنة بقوله تعالى (والذين اذا ذكروا) أي ذكرهم غيرهم كائنا من كان لانهم يعرفون الحق بنفسه لا بقائله (بآيات ربهم) أي الذي وفقهم لبذكر احسانه اليهم في حسن تربيته لهم بالاعتبار بالآيات المرئية والمسموعة (لم يخروا) أي لم يسقطوا (عليها صما) أي غير واعين لها (وعميانا) أي غير متبصرين بما فيها لكن لا يسمع ولا يبصر كأبي جهل والاخنس بن شريق بل خروا سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون راعية فالمراد من النفي نفي الحال وهي صما وعميانا دون

الفعل

الفعل وهو الحزور فالمراد نفي القيد دون المقيد كما تقول لا يلقاني زيد مسلما هو نفي للسلام لا للقاء * الصفة التاسعة المذكورة في قوله تعالى (والذين يقولون) أي علما منهم بعد اتصافهم بجميع ما مضى أنهم أهل للامامة (ربنا هب لنا من أزواجنا) اللاتي قرنتهن بنا كما فعلت بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم فمدحت أزواجه في كلامك القديم وجعلت مدحهن يتلى على تعاقب الازمان والسنين (وذرياتنا قرة أعين) لنا بأن نراهم مطيعين لك ولا شئ أسر للمؤمن من أن يرى حبيبه يطيع الله تعالى وعن محمد بن كعب ليس شئ أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده يطيعون الله وعن ابن عباس هو الولد اذا رآه يكتب الفقه وخصوا الازواج والذرية بذلك لان الاقربين أولى بالمعروف *(تنبيه)* من في قوله تعالى من أزواجنا يحتمل أن تكون بيانية كأنه قيل هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله من أزواجنا وذرياتنا ومعناه ان اجعلهم لهم قرة أعين وهو من قولهم رأيت منك أسدا أي أنت أسد وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة واصلاح وأتى بجمع القلة في أعين لان المتقين الذين يفعلون الطاعة ويسرون بها قليلون في جنب العاصين وقيل سألوا أن يلحق الله بهم أزواجهم وذريتهم في الجنة ليتم لهم سرورهم ووحد القرة لانها مصدر وأصلها من البرد لان العرب تتأذى من الحر وتتروح الى البرد وتذكر قرة العين عند السرور وسخنة العين عند الحزن ويقال دمع العين عند السرور بارد وعند الحزن حار وقال الازهري معنى قرة العين أن يصادف قلبه من يرضاه فتقر عينه عن النظر الى غيره وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بألف بعد الياء على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد (واجعلنا للمتقين اماما) أي أئمة يقتدون بنا في أمر الدين باضافة العلم والتوفيق للعمل فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس كقوله تعالى ثم يخرجكم طفلا أو أرادوا واجعل كل واحد منا أو أرادوا جمع آم كصائم وصيام أو أرادوا اجعلنا اماما واحدا لاتحادنا واتفاق كلمتنا وعن بعضهم في الآية ما يدل على ان الرياسة في الدين يحسن أن تطلب ويرغب فيها وقال الحسن نقتدي بالمتقين ويقتدي المتقون بنا وقيل هذا من المقلوب أي واجعل المتقين لنا اماما واجعلنا مؤتمين مقتدين بهم وهو قول مجاهد وقيل نزلت هذه الآية في العشرة المبشرين بالجنة * ولما بين تعالى صفات المتقين المخلصين بين بعده احسانه اليهم بقوله تعالى (أولئك) أي العالو الرتبة العظيمة العظيمو المنزلة (يجزون) أي فضلا من الله تعالى على ما وفقهم له من هذه الاعمال الزاكية والاحوال الصافية (الغرفة) أي الغرفات وهي العلالي في الجنة فوحد اقتصارا على الواحد الدال على الجنس والدليل على ذلك قوله تعالى وهم في الغرفات آمنون وقيل هي من أسماء الجنة * ولما كانت القرب في غاية التعب لمنافاتها الشهوات النفس وهواها وطبع البدن رغب فيها بأن جعلها سببا لهذا الجزاء بقوله تعالى (بما صبروا) أي أوقعوا الصبر على أمر ربهم ومرارة غربتهم بين الجاهلين في أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم وغير ذلك من معالي خلالهم * ولما كان المنزل لا يطيب الا بالكرامة والسلامة قال تعالى (ويلقون فيها) أي الغرفة (تحية) أي دعاء

الحياة من بعضهم لبعض ومن الملائكة الذين لا يرد دعاؤهم ولا يعتري في اخبارهم لانهم عن الله تعالى ينطقون وذلك على وجه الاعظام والاكرام مكان ما أهانهم عباد الشيطان وقيل ملكا وقيل بقاء دائما (وسلاما) أي من الله والملائكة وغيرهم وسلامة من كل آفة مكان ما أصابوهم بالمصائب اللهم وفقنا لطاعتك واجعلنا من أهل رحمتك وارزقنا عما رزقتهم في دار رضوانك يا أرحم الراحمين وقرأ حمزة والكسائي وشعبة بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف من لقي كما قال تعالى فسوف يلقون غيا والباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف أي يجعلهم الله تعالى لاقين بأيسر أمر كما قال تعالى ولقاهم نضرة وسرورا (خالدين فيها) أي الغرفة لا يموتون ولا يخرجون مكان ما أزعجوهم من ديارهم حتى هاجروا ودل على علو أمرها وعظيم قدرها بابراز مدحها في مظهر التعجب بقوله تعالى (حسنت) أي ما أحسنها (مستقرا) أي موضع استقرار (ومقاما) أي موضع اقامة وهذا مقابل ساءت ومثله في الاعراب * ولما شرح سبحانه وتعالى صفات المتقين وأثنى عليهم من أجلها وشرح ثوابهم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل) أي لكفار مكة (ما يعبأ) أي ما يصنع (بكم) أيها الكافرون من عبأت الجيش أو لا يعتد بكم (ربي) أي المحسن الي والبكم برحمانيته المخصص لي بالاحسان برحيميته وانما خص بالاضافة لاعترافه دونهم (لولا دعاؤكم) أي عبادتكم وما متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر كانه قيل وأي عبء يعبأ بكم لولا عبادتكم وطاعتكم اياه كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون (فقد كذبتم) بما أخبرتكم به حيث خالفتموه وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وقال قوم ما يعبأ ما يبالي بمغفرتكم ربي لولا دعاؤكم معه آلهة وما يفعل بعذابكم لولا شرككم كما قال تعالى ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم لولا دعاؤكم أي نداؤكم في الشدائد كما قال تعالى فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين وقوله تعالى فاخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ويجوز أن تكون ما نافية وجرى على ذلك الجلال المحلي (فسوف) أي تتسبب عن تكذيبكم أن يجازيكم على ذلك ولكنه مع قدرته واختياره وقوته لا يعاجلكم بل (يكون) جزاء هذا التكذيب عند انقضاء ما ضرب لكم من الآجال (لزاما) أي لازما يحيق بكم لا محالة فاعتدوا وتهيؤا لذلك اليوم فكل آت قريب وكل بعيد عندكم قريب عنده وعن مجاهد هو القتل يوم بدر وانه لوزم بين القتلى لزاما قتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون وعن ابن مسعود خمس قد مضين الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن من قرأ سورة الفرقان لقي الله وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها وادخل الجنة بغير حساب حديث موضوع

والله أعلم

(تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث أوله سورة الشعراء)

(فهرسة الجزء الثاني من تفسير الخطيب الشربيني)

سورة يونس عليه السلام ٢	سورة هود عليه السلام ٤٢	سورة يوسف عليه السلام ٨٧	سورة الرعد ١٤٣
سورة ابراهيم عليه السلام ١٦٧	سورة الحجر ١٩٢	سورة النحل ٢١٤	سورة الاسراء ٢٧٣
سورة الكهف ٣٤٧	سورة مريم عليها السلام ٤١٢	سورة طه عليه الصلاة والسلام ٤٤٧	سورة الانبياء عليهم الصلاة والسلام ٤٩٤
سورة الحج ٥٣٠	سورة المؤمنين ٥٦٩	سورة النور ٥٩٥	سورة الفرقان ٦٤٦

(تمت)

وهي مائتان وست وعشرون آية وألف ومائتان وسبع وتسعون كلمة وخمسة آلاف وخمسمائة واثنان وأربعون حرفا روى البغوي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أعطيت طه والطواسين من ألواح موسى عليه السلام (بسم الله) الذي دل علو كلامه على عظمة شأنه وعز مرامه (الرحمن) الذي لا يعجل على من عصاه (الرحيم) الذي يحيي قلوب أهل وده بالتوفيق لما يرضاه (طسم) قال ابن عباس عجزت العلماء عن علم تفسيرها وفي رواية عنه أنه قسم وهو من أسماء الله تعالى وقال قتادة اسم من أسماء القرآن وقال مجاهد اسم السورة وقال محمد بن كعب القرظي أقسم بطوله وسناه وملكه ولهذا الاختلاف قال الجلال المحلي الله أعلم بمراده بذلك وقد قدمنا الكلام على أوائل السور في أول سورة البقرة وقرأ حمزة والكسائي وشعبة بإمالة الطاء والباقون بالفتح وأظهر حمزة النون من سين عن الميم وأدغمها الباقون وهي في مصحف عبد الله بن مسعود ط س م مقطوعة من بعضها (تلك) أي هذه الآيات العالية المرام الحائزة أعلى مراتب التمام المؤلفة من هذه الحروف التي تتناطقون بها وكلمات ألسنتكم (آيات الكتاب) أي القرآن الجامع لكل فرقان (المبين) أي الظاهر إعجازه المظهر الحق من الباطل * ولما كان عنده صلى الله عليه وسلم من مزيد الشفقة وعظيم الرحمة على قومه قال تعالى تسلية له (لعلك باخع) أي هالك (نفسك) غما وأسفا من أجل

(ألا يكونوا) أى قومك (مؤمنين) اى راسخين فى الايمان أى لاتبالغ فى الحزن والاسف فان هذا الكتاب فى غاية البيان فى نفسه والابانة للغير وقد تقدم فى غير موضع انه ليس عليك الا البلاغ ولو شئنا لهديناهم طوعا أو كرها والبخع أن يبلغ بالذبح النخاع بالخاء وبالباء وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذابح ولعل للاشفاق اى اشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على مافاتك من ايمان قومك فصبره وعزاه وعرفه أن حزنه وغمه لا ينفع كما أن وجود الكتاب ووضوحه لا ينفع ثم انه تعالى أعلمه بأن كل ما هم فيه انما هو بارادته بقوله تعالى (ان نشأ ننزل عليهم) وعبر بالمضارع فيهما اعلاما بدوام القدرة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون الثانية واخفائها عند الزاى وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى ثم قال تعالى محققا للمراد (من السماء) أى التى جعلنا فيها بروجا للمنافع وأشار الى تمام القدرة بتوحيدها بقوله تعالى (آية) أى قاهرة كما فعلنا ببعض من قبلهم بنتق الجبل ونحوه *(تنبيه)* هنا همزتان مختلفتان أبدل نافع وابن كثير وأبو عمرو الهمزة الثانية المفتوحة بعد المكسورة ياء خالصة وحققها الباقون ثم أشار تعالى الى تحقق هذه الآية بالتعبير بالماضى فى قوله تعالى عطفا على ننزل لانه فى معنى أنزلنا (فظلت) أى عقب الانزال من غير مهلة (أعناقهم) أى التى هى موضع الصلابة وعنها تنشأ حركات الكبر والاعراض (لها خاضعين) أى منقادين *(تنبيه)* خاضعين خبر عن أعناقهم واستشكل جمعه جمع سلامة لانه مختص بالعقلاء وأجيب عنه بأوجه أحدها ان المراد بالاعناق رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالاعناق كما يقال لهم الرؤس والنواصى والصدور وقال القائل * فى محفل من رؤس الناس مشهود * ثانيها انه على حذف مضاف أى فظل أصحاب الاعناق ثم حذف وبقى الخبر على ما كان عليه قبل حذف المخبر عنه مراعاة للمحذوف ثالثها أنه لما أضيف الى العقلاء اكتسب منهم هذا الحكم كما يكتسب التأنيث بالاضافة لمؤنث فى قوله * كما شرقت صدر القناة من الدم * رابعها قال الزمخشرى أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فاقحمت الاعناق لبيان موضع الخضوع وترك الكلام على أصله كقولهم ذهبت أهل اليمامة كان الاهل غير مذكور ونوزع فى التنظير لان أهل ليس مقحما البتة لانه المقصود بالحكم خامسها أنها عوملت معاملة العقلاء كقوله تعالى ساجدين وطائعين فى يوسف والسجدة وقيل انما قال تعالى خاضعين لموافقة رؤس الآى لتكون على نسق واحد (وما يأتيهم) أى الكفار (من ذكر) أى موعظة أو طائفة من القرآن يذكرونه به فيكون سبب ذكرهم وشرفهم (من الرحمن) أى الذى أنكروه مع احاطة نعمه بهم (محدث) أى بالنسبة الى تنزيله وعلمهم به وأشار تعالى الى دوام كبرهم بقوله تعالى (الا كانوا عنه معرضين) أى اعراضا هو صفة لهم لازمة ولما كان حال المعرض عن الشئ حال المكذب به قال تعالى (فقد) أى فتسبب عن هذا الفعل منهم أنه قد (كذبوا) أى بالذكر بعد اعراضهم وأمعنوا فى تكذيبه بحيث أدى بهم الى الاستهزاء به المخبر به عنهم ضمنا فى قوله تعالى (فسيأتيهم) أى اذا مسهم عذاب الله تعالى يوم بدر ويوم القيامة (أنباء) أى عظيم أخبار

قوله من رؤس الناس فى الكشاف من نواصى الناس اهـ

وعواقب (ما) أى العذاب الذى (كانوا به يستهزؤن) أى يهزؤن من أنه كان حقاً أو باطلا وكان حقيقا بأن يصدق ويعظم أمره أو يكذب فيستخف أمره ثم قال تعالى معجبا منهم (أولم يروا الى الارض) أى على سعتها واختلاف نواحيها ونبه على كثرة ما صنع من جميع الاصناف بقوله تعالى (كم أنبتنا) أى بما لنا من العظمة (فيها) بعد أن كانت يابسة ميتة لانبات فيها (من كل زوج) أى صنف متشاكل بعضه لبعض فلم يبق صنف يليق بهم فى العاجلة الا أكثرنا من الانبات منه (كريم) أى كثير المنافع محمود العواقب وهو صفة لكل ما يحمد ويرضى وهو ضد اللئيم وههنا يحتمل معنيين أحدهما النبات على نوعين نافع وضار فذكر كثرة ما أنبت فى الارض من جميع أصناف النبات النافع وخلى ذكر الضار والثانى أن يعم جميع النبات نافعه وضاره ويصفهما جميعا بالكرم وينبه على أنه تعالى ما أنبت شيأ الا فيه فائدة لان الحكيم لا يفعل فعلا الا لحكمة بالغة وان غفل عنها الغافلون ولم يتصل الى معرفتها العاقلون ولما كان ذلك باهرا للعقل منبها له فى كل حال على عظيم اقتدار صانعه وبديع اختياره وصل به قوله تعالى (ان فى ذلك) أى الامر العظيم (لآية) أى دلالة على كمال قدرته تعالى (فان قيل) حين ذكر الازواج دل عليها بكلمتى الكثرة والاحاطة وكان لا يحصيها الا عالم الغيب فكيف قال ان فى ذلك لآية وهلا قال لآيات (أجيب) بوجهين أحدهما أن يكون ذلك مشارا به الى مصدر أنبتنا فكأنه قال ان فى ذلك الانبات لآية ثانيهما أن يراد ان فى كل واحد من تلك الازواج لآية (و) الحال انه (ما كان أكثرهم) أى البشر (مؤمنين) فى علم الله تعالى وقضائه فلذلك لا ينفعهم مثل هذه الآيات العظام وقال سيبويه كان زائدة (وان) أى والحال ان (ربك) أى الذى أحسن اليك بالارسال وسخر لك قلوب الاصفياء وزوى عنك الادّ والاشقياء (لهو العزيز) أى ذو العزة ينتقم من الكافرين (الرحيم) يرحم المؤمنين * ولما كان مع ماذكر فى ذكر القصص تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم فيما يقاسيه من الاذى والتكذيب وكان موسى عليه السلام قد اختص بالكتاب الذى ما بعد القرآن مثله والآيات التى ما أتى بمثلها أحد قبله بدأ بذكره فقال تعالى (واذ) اى واذكر اذ (نادى ربك) أى المحسن اليك بكل ما يمكن الاحسان به فى هذه الدار ثم ذكر المنادى بقوله تعالى (موسى) أى حين رأى الشجرة والنار واختلف أهل السنة فى النداء الذى سمعه موسى عليه السلام أهو الكلام القديم أو صوت من الاصوات قال أبو الحسن الاشعرى رضى الله تعالى عنه هو الكلام القديم فكما أن ذاته تعالى لا تشبه سائر الذوات مع أن الدليل دال على انها معلومة ومرئية فى الآخرة من غير كيف ولا جهة فكذا كلامه منزه عن مشابهة الحرف والصوت مع أنه مسموع وقال الماتريدى هو من جنس الحروف والاصوات وأما المعتزلة فقد اتفقوا على أن ذلك النداء كان بحروف وأصوات علم به موسى من قبل الله تعالى فصار معجزا علم به موسى أن الله تعالى مخاطبا له فلم يحتج مع ذلك لواسطة ثم ذكر تعالى ما له النداء بقوله تعالى (ان) أى بأن (ائت القوم) أى الذين فيهم قوة وأى قوة (الظالمين) رسولا ووصفهم بالظلم لكفرهم

واستبعادهم

واستعبادهم بني اسرائيل وذبح أولادهم وقوله تعالى (قوم فرعون) أى معه بدل أو عطف بيان للقوم الظالمين وقوله تعالى (ألا يتقون) استئناف أتبعه ارساله اليهم للانذار تعجيبا من افراطهم فى الظلم واجترائهم عليه ولما كان من المعلوم أن من أتى الناس بما يخالف أهواءهم لم يقبل (قال رب) أى أيها الرفيق بى (انى أخاف أن يكذبون) أى فلا يترتب على اتيانى اليهم أثر فاجعل لى قبولا ومهابة تحرسنى بهما ممن يريدنى بسوء وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون (ويضيق صدرى) من تكذيبهم لى (ولا ينطلق لسانى) بأداء الرسالة للعقدة التى فيه بواسطة تلك الجمرة التى لذعته فى الطفولية (فأرسل) أى فتسبب عن ذلك الذى اعتذرت به عن المبادرة الى الذهاب عند الامر طلب الارسال (الى هرون) أخى ليكون لى عضدا على ما أمضى له من الرسالة فيحتمل أن تكون تلك العقدة باقية عند الرسالة وأن تكون قد زالت عند الدعوة ولكن لا يكون مع حل العقدة من لسانه من الفصحاء المصاقع الذين أوتوا سلاطة الالسنة وبسطة المقال وهرون كان بتلك الصفة فاراد أن يقرن به ويدل عليه قوله تعالى وأخى هرون هو أفصح منى لسانا ومعنى فارسل الى هرون أرسل اليه جبريل واجعله نبيا وأزرنى به واشدد به عضدى وهذا الكلام مختصر وقد بسطه فى غير هذا الموضع وقد أحسن فى الاختصار حيث قال فأرسل الى هرون فجاء بما يتضمن معنى الاستنباء ومثله فى تقصير الطويلة والحسن قوله تعالى فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا حيث اقتصر على ذكر طرفى القصة أولها وآخرها وهما الانذار والتدمير ودل بذكرهما على ما هو الغرض من القصة الطويلة كلها وهو أنهم قوم كذبوا بآيات الله فأراد الله الزام الحجة عليهم فبعث اليهم رسولين فكذبوهما فأهلكهم (فان قيل) كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأمره ربه بأمر فلا يتقبله بسمع وطاعة من غير توقف وتشبث بعلل وقد علم أن الله تعالى عليم بحاله (أجيب) بأنه قد امتثل وتقبل ولكنه التمس من ربه أن يعضده بأخيه حتى يتعاونا على تنفيذ أمره وتبليغ رسالته فمهد قبل التماسه عذره فيما التمسه ثم التمس بعد ذلك وتمهيد العذر فى التماس المعين على تنفيذ الامر ليس بتوقف فى امتثال الامر ولا بتعلل فيه وكفى بطلب العون دليلا على التقبل لا على التعلل ثم زاد فى الاعتذار فى طلب العون خوفا من أن يقتل قبل تبليغ الرسالة بقوله (ولهم على ذنب) أى تبعة ذنب فحذف المضاف أو سمى باسمه كما يسمى جزاء السيئة سيئة وهو قتله القبطى وسماه ذنبا على زعمهم وهذا اختصار قصته المبسوطة فى مواضع (فأخاف) بسبب ذلك (أن يقتلون) أى يقتلونى به (قال) الله تعالى (كلا) أى ارتدع عن هذا الكلام فانه لا يكون شئ مما خفت لا قتل ولا غيره وكأنه لما كان التكذيب مع ما قام عليه من الصدق من البراهين المقوية لصاحبها الشارحة لصدره العلية لامره عدما وقد أجبناك الى الاعانة بأخيك (فاذهبا) أى أنت وأخوك متعاضدين الى ما أمرتك به مؤيدين (بآياتنا) الدالة على صدقكما * (تنبيه) * فاذهبا عطف على ما دل عليه حرف الردع من الفعل كأنه قيل ارتدع عما تظن فاذهب أنت وأخوك بآياتنا (انا) أى بما لنا من العظمة

(معكم مستمعون) أى سامعون لانه تعالى لا يوصف بالمستمع على الحقيقة لان الاستماع جار مجرى الاصغاء والاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية ومنه قوله تعالى قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا ويقال استمع الى حديثه وسمع حديثه أصغى اليه وأدركه بحاسة السمع ومنه قوله عليه الصلاة والسلام من استمع الى حديث قوم وهم له كارهون صب فى أذنيه البرم وهو الكحل المذاب ويروى البيرم وهو بزيادة الياء (فان قيل) لم قال معكم بلفظ الجمع وهما اثنان (أجيب) بأنه تعالى أجراهما مجرى الجمع تعظيما لهما أو معكما ومع بنى اسرائيل بسمع ما يجيبكم فرعون (فأتيا) أى فتسبب عن ذهاب ماذكرت بالحراسة والحفظ انى أقول لكما ائتيا (فرعون) نفسه وان عظمت مملكته وجلت جنوده (فقولا) أى ساعة وصولكما ولمن عنده (انا رسول رب العالمين) أى المحسن الى جميع الخلق المدبر لهم مصالحهم (فان قيل) هلا ثنى الرسول كما ثنى فى قوله تعالى انا رسولا ربك (أجيب) بأن الرسول يكون بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته وأما ههنا فهو اما لانه مصدر بمعنى الرسالة والمصدر يوحد ومن مجىء رسول بمعنى الرسالة قوله

لقد كذب الواشون مافهت عندهم * بسر ولا أرسلتهم برسول

أى برسالة والواشون الساعون بالكذب عند ظالم ومافهت بمعنى ماتكلمت واما لانهما ذوا شريعة واحدة فنزلا منزلة رسول واما لانه من وضع الواحد موضع التثنية لتلازمهما فصارا كالشيئين المتلازمين كالعينين واليدين وقال أبو عبيدة يجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع تقول العرب هذا رسولى ووكيلى وهذان رسولى ووكيلى وهؤلاء رسولى ووكيلى كما قال تعالى وهم لكم عدو ثم ذكر له ما قصد من الرسالة اليه فقال معبرا باداة التفسير لان الرسول فيه بمعنى الرسالة التى تتضمن القول (أن) أى بأن (أرسل) أى خل وأطلق وأعاد الضمير على معنى رسول فقال (معنا بنى اسرائيل) أى قومنا الذين استعبدتهم ظلما ولا سبيل لك عليهم نذهب بهم الى الارض المقدسة التى وعدنا الله تعالى بها على ألسنة الانبياء من آبائنا عليهم الصلاة والسلام وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة وكانوا فى ذلك الوقت ستمائة وثلاثين ألفا وروى أن موسى رجع مصر وعليه جبة صوف وفى يده عصاه ومكتل معلق فى رأس العصا وفيه زاده فدخل داره نفسه وأخبرهرون بأن الله تعالى أرسلنى الى فرعون وأرسل اليك حتى ندعو فرعون الى الله تعالى فخرجت أمهما وصاحت وقالت ان فرعون يطلبك ليقتلك فلو ذهبتما اليه قتلكما فلم يمتنع بقولها وذهبا الى باب فرعون ليلا ودقا الباب ففزع البوابون وقالوا من بالباب وروى أن البواب اطلع عليهما وقال من بالباب ومن أنتما فقال موسى انا رسول رب العالمين فذهب البواب الى فرعون وقال ان مجنونا بالباب يزعم أنه رسول رب العالمين فقال فرعون ائذن له لعلنا نضحك منه وقيل لم يؤذن لهما الى سنة فدخلا عليه وأديا رسالة الله عز وجل فعرف فرعون موسى لانه نشأ فى بيته فلما عرفه (قال) له منكرا عليه (ألم نربك) حذف فأتيا فرعون فقالا له ذلك لانه معلوم لا يشتبه وهذا النوع من الاختصار كثير فى القرآن

(فينا) أى فى منازلنا (وليدا) أى صغيرا قريبا من الولادة بعد فطامه (ولبثت فينا) أى فى عزنا باعتبار انقطاعك الينا وتعززك بنا (من عمرك سنين) ثلاثين سنة فمالناعليك من الحق ينبغى أن يمنعك من مواجهتنا بمثل هذا وكانه عبر بما يفهم النكد كناية عن مدة مقامه عنده بأنها كانت نكدة لانه وقع فيما كان يخافه وفاته ما كان يحتاط به من ذبح الاطفال وكان موسى يلبس من ملابس فرعون ويركب من مراكبه وكان يسمى ابنه وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة عند التاء والباقون بالادغام ولما ذكره مايحمله على الحياء منه ذكره ذنبا يخاف من عاقبته فقال مهولاله بالكناية (وفعلت فعلتك) أى من قتل القبطى ثم أكد نسبته الى ذلك مشيرا الى أنه عامله بالحلم تخجيلاله فقال (التى فعلت وأنت) أى والحال انك (من الكافرين) قال الحسن والسدى من الكافرين بالهك ومعناه على ديننا هذا الذى تعيبه وقال أكثر المفسرين أى الجاحدين لنعمتى عليك بالتربية وعدم الاستعباد يقول ربيناك فكافأتنا ان قتلت منا نفسا وكفرت بنعمتنا وهذا رواية العوفى عن ابن عباس وقال ان فرعون لم يكن يعلم ما الكفر بالربوبية (قال) له موسى مجيبا على طريقة النشر المشوش واثقا بوعد الله تعالى بالسلامة (فعلتها اذا) أى اذ قتلته (وأنا من الضالين) أى من الجاهلين بأن ذلك يؤدى الى قتله أو المخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل قال ابن جرير والعرب تضع الضلال موضع الجهل والجهل موضع الضلال وقيل لا أعرف ذنبا فانا وانى من كل جهة حتى يوجهنى ربى الى ماشاء (ففررت) أى فتسبب عن فعلها انى فررت (منكم) أى منك لسطوتك ومن قومك لاغرائهم اياك على (لما خفتكم) على نفسى أن تقتلونى بذلك القتيل الذى قتلته خطأ وأنا ابن اثنتى عشرة سنة مع كونه كافرا مهدر الدم (فوهب لى ربى) الذى أحسن الى بتربيتى عندكم تحت كنف أمى آمنة على مما أحدثتم من الظلم (حكما) أى علما وفهما وقيل نبوة (وجعلنى من المرسلين) أى فاجهد الآن جهدك فانى لا أخافك لقتل ولا غيره ولما اجتمع فى كلام فرعون من وتعيير بدأ بجوابه عن التعيير لانه الاخير فكان أقرب ولانه أهم وهو معنى ماتقدم من أنه على طريقة النشر المشوش بأن بدأ بالاخير قبل الاول ولهذا كر على امتنانه عليه بالتربية فأبطله من أصله موبخاله مبكتا منكرا عليه غير انه حذف حرف الانكار اجمالا فى القول واحسانا فى الخطاب وأبى أن تسمى نعمته الا نقمة بقوله (وتلك) أى التربية الشنيعة العظيمة فى الشناعة التى ذكرتنيها (نعمة تمنها على أن عبدت) أى تعبيدك وتذليلك قومى (بنى اسرائيل) أى جعلتهم عبيدا ظلما وعدوانا وهم أبناء الانبياء وسلفهم يوسف عليه السلام عليكم من المنة باحياء نفوسكم أولا وعتق رقابكم ثانيا مالا تقدرون له على جزاء أصلا ثم ما كفاك ذلك حتى فعلت مالم يفعله مستعبد فامرت بقتل أبنائهم فكان ذلك سبب وقوعى اليك لاسلم من ظلمك ولو لم تفعل ذلك لكفلنى أهلى ولم يلقونى فى اليم فكيف تمن على بذلك وقيل معناه انك تدعى أن بنى اسرائيل عبيدك ولا منة للمولى على العبد فى تربيته وقال الحسن انك استعبدت بنى اسرائيل فأخذت أموالهم وأنفقت منها على فلا نعمة لك بالتربية وقيل ان الذى

تولى تربيتى هم الذين استعبدتهم فلا منة لك على لان التربية كانت من قبل أمى ومن قومى ليس لك الا مجرد الاسم وهذا مابعد انما (فان قيل) لم جمع الضمير فى منكم وخفتكم مع افراده فى تمنها وعبدت (أجيب) بأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله كما مرت الاشارة اليه بدليل قوله تعالى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وأما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد * ولما قال له بوابه ان ههنا من يزعم انه رسول رب العالمين وأدخله عليه (قال) له (فرعون) عند دخوله حائدا عن جوابه منكر الخالقه على سبيل التجاهل كما أنكر هؤلاء الرحمن متجاهلين وهم أعرف الناس بغالب أفعاله كما كان فرعون يعرف لقول موسى عليه الصلاة والسلام لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر (وما رب العالمين) أى الذى زعمتما أنكما رسوله وانما أتى بما دون من لانها يسئل بها عن طلب الماهية كقولك ما العنقاء ولما كان جواب هذا السؤال لا يمكن تعريفه الا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لاستحالة التركيب فى ذاته عدل موسى عليه السلام الى جواب ممكن فأجاب بصفاته تعالى كما قال تعالى اخبارا عنه (قال رب) أى خالق ومبدع ومدبر (السموات) كلها (والارض) وان تباعدت أجرامها بعضها من بعض (وما بينهما) أى بين السموات والارض فأعاد ضمير التثنية على جمعين اعتبارا بالجنسين وخصه بهذه الصفات لانها أظهر خواصه وآثاره وفيه ابطال لدعواه انه اله ومعنى قوله (ان كنتم موقنين) أى ان كان يرجى منكم الايقان الذى يؤدى اليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب والا لم ينفع أو ان كنتم موقنين بشئ قط فهذا أولى ما توقنون به لظهوره وانارة دليله ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق (قال) فرعون (لمن حوله) من أشراف قومه قال ابن عباس وكانوا خمسمائة رجل عليهم الاسورة وكانت للملوك خاصة (الا تستمعون) جوابه الذى لم يطابق السؤال سألته عن حقيقته وهو يجيبنى بالفاعلية ولما كان يمكن أن يعتقد أن السموات والارضين واجبة لذاتها فهى غنية عن الخالق (قال) لهم موسى زيادة فى البيان (ربكم ورب آبائكم الاولين) فعدل عن التعريف بخالقية السموات والارض الى التعريف بكونه تعالى خالقهم ولا آبائهم اذ لا يمكن أن يعتقد فى نفسه وفى آبائه وأجداده كونهم واجبين لذواتهم لان المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم وعدموا بعد الوجود وما كان كذلك استحال أن يكون واجبا لذاته واستحال وجوده الا بالمؤثر فكان التعريف بهذا الاثر أظهر ولكن فرعون لم يكتف بذلك ولهذا (قال ان رسولكم) على طريق التهكم اشارة الى أن الرسول ينبغى أن يكون أعقل الناس ثم زاد الامر بقوله (الذى أرسل اليكم) أى وأنتم أعقل الناس (لمجنون) لا يفهم السؤال فضلا عن أن يجيب عنه فكيف يصلح للرسالة من الملوك فلما قال ذلك عدل موسى عليه السلام الى طريق ثالث أوضح من الثانى بأن (قال رب المشرق والمغرب) أى الشروق والغروب ووقتهما وموضعهما (وما بينهما) من المخلوقات لان التدبير المستمر على هذا الوجه العجيب لا يتم الا بتدبير مدبر قادر وهذا بعينه طريقة ابراهيم عليه الصلاة والسلام مع نمروذ فانه

قوله على جمعين لا يخفى ان الارض مفرد لا جمع وفى الكشاف فان قلت كيف قيل وما بينهما على التثنية والمرجوع اليه مجموع قلت أريد وما بين الجنسين فعل بالمضمر ما فعل بالظاهر من قال فى الهيجا جالين اه فتأمل اه مصححه

استدل أولا بالاحياء والاماتة وهو الذى ذكره موسى عليه الصلاة والسلام بقوله ربكم ورب آبائكم الاولين فأجابه نمروذ انا أحيي وأميت فقال ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر وهو الذى ذكره موسى عليه السلام بقوله رب المشرق والمغرب وأما قوله (ان كنتم تعقلون) فكأنه عليه السلام قال ان كنت من العقلاء عرفت أنه لا جواب عن سؤالك الا ماذكرت لك لانك طلبت منى تعريف حقيقته ولا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا باجزاء حقيقته فلم يبق الا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته وقد عرفت حقيقته بآثار حقيقته فمن كان عاقلا يقطع بأنه لا جواب عن سؤالك الا ماذكرته لك فلما انقطع فرعون عن الجواب ولزمته الحجة تكبر عن الحق وعدل الى التخويف بأن (قال لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين) أى واحدا ممن هم فى سجنى على ماتعلم من حالى فى اقتدارى ومن سجونى وفظاعتها ومن حال من فيها من شدة الحصر والغلظ فى الحجر قال الكلبى كان سجنه أشد من القتل لانه كان يأخذ الرجل فيطرحه فى هوة ذاهبة فى الارض بعيدة العمق وحده لا يسمع ولا يبصر فيها شيأ وقرأ ابن كثير وحفص وعاصم باظهار الذال عند التاء والباقون بالادغام ثم ذكر موسى عليه السلام كلاما مجملا ليعلق فرعون قلبه به فيعدل عن وعيده بأن (قال) مدافعا بالتى هى أحسن ارخاء للعنان لازادة البيان معنى لا يبقى معه عذر ولانسان لان من العادة الجارية السكون الى الانصاف والرجوع الى الحق والاعتراف (أولو) أى أتسجننى ولو (جئتك بشئ مبين) أى هل يحسن أن تذكر هذا مع اقتدارى على أن آتيك بشئ بدليلين يدلان على وجود الله تعالى وعلى أنى رسوله فعند ذلك (قال) طمعا فى أن يجد موضعا للتكذيب أو التلبيس (فأت به) أى تسبب عن قولك هذا أنى أقول ائت بذلك الشئ (ان كنت من الصادقين) أى فيما ادعيت من الرسالة *(تنبيه)* الواو فى أولو جئتك واو الحال وليتها الهمزة بعد حذف الفعل كما علم من التقرير (فان قيل) كيف قطع الكلام بما لا تعلق له بالاول وهو قوله أولو جئتك بشئ مبين أى بآية بينة والمعجز لا يدل على ذلك كدلالة سائر ماتقدم (أجيب) بأنه يدل بما أراد أن يظهره من انقلاب العصا حية على الله تعالى وعلى توحيده وعلى أنه صادق فى ادعاء الرسالة فالذى ختم به كلامه ماتقدم (فألقى) أى فتسبب عن ذلك وتعقبه أن ألقى موسى (عصاه) التى تقدم فى غير سورة ان الله تعالى أراه اياها ولم يصرح باسمها اكتفاء بضميره لانه غير ملتبس (فاذا هى ثعبان) أى حية فى غاية الكبر (مبين) أى ظاهر ثعبانيته روى انها لما انقلبت حية ارتفعت الى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة الى فرعون تقول ياموسى مرنى بما شئت ويقول فرعون أسألك بالذى أرسلك الا ما أخذتها فأخذها فعادت عصا (فان قيل) كيف قال هنا ثعبان مبين وفى آية أخرى فاذا هى حية تسعى وفى آية ثالثة كأنها جان والجان مائل الى الصغر والثعبان الى الكبر (أجيب) بأن الحية اسم الجنس ثم لكبرها صارت ثعبانا وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها ويحتمل أنه شبهها بالشيطان لقوله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم ويحتمل أنها كانت صغيرة

كالجان ثم عظمت فصارت ثعبانا ثم ان موسى عليه السلام لما أراه آية العصا قال فرعون هل
غيرها قال نعم (ونزع يده) أي التي كانت احترقت لما أخذ الجمرة وهو في حجر فرعون
وبذل فرعون جهده في علاجها بجميع من قدر عليه من الاطباء فعجزوا عن ابرائها نزعها من
جيبه بعد ان أراه اياها على ما يعهده منها ثم أدخلها في جيبه (فاذا هي) بعد النزع (بيضاء
للناظرين) يضيء الوادي من شدة بياضها من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس يغشي البصر
ويسد الافق فعند هذا أراد فرعون تعمية هذه الحجة على قومه فذكر أمورا أولها ان (قال
للملا حوله) لما وضح له الامر يعرضه على عقولهم خوفا من ايمانهم (ان هذا لساحر عليم) أي
شديد المعرفة بالسحر حوله حال من الملا ومفعول القول قوله ان هذا الساحر عليم ولما أوقعهم
بما جبلهم به أجاهم لانفسهم فقال ملقيا لجلباب الالهية لما قهره من سلطان المعجزة (يريد
أن يخرجكم من أرضكم) أي هذه التي هي قوامكم (بسحره) أي بسبب ما أتى به فانه يوجب
استتباع الناس فيتمكن مما يريد ثم قال لقومه الذين كان يزعم أنهم عبيده وأنه الههم ما دل
على أنه صارت قواه تحط عن منكبيه كبرياء الربوبية وارتعدت فرائصه لما استولى عليه من
الدهش والحيرة حتى جعل نفسه مأمورا بعد أن كان يدعي كونه آمرا بل الها قادرا (فماذا
تأمرون) أي في مدافعته عما يريد بنا (قالوا) أي الملأ الذين كانوا حوله (أرجئه وأخاه)
أي أخر أمرهما ومناظرتهما الى اجتماع السحرة ولم يأمر بقتلهما ولا بما يقاربه فسبحان من
يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده فيهابه كل شئ ولا يهاب هو غير خالقه وقرأ قالون
بغير همز واختلاس كسرة الهاء وورش والكسائي بغير همز واشباع حركة كسرة
الهاء وابن كثير وهشام بالهمزة الساكنة وصلة الهاء مضمومة وأبو عمرو بالهمزة وضم الها
مقصورة وابن ذكوان بالهمزة وكسر الهاء مقصورة وعاصم وحمزة بغير همز واسكان الهاء
(وابعث في المدائن حاشرين) أي رجالا يحشرون السحرة وأصل الحشر الجمع بكره وقيل ان
فرعون أراد قتل موسى فقالوا له لا تفعل فانك ان تقتله دخلت الناس شبهة في أمره ولكن
أخره واجمع له سحرة ليقاوموه ولا يثبت له عليك حجة وعارضوا قوله ان هذا الساحر عليم بقولهم
(يأتوك بكل سحار) أي بليغ في السحر جاؤا بكلمة الاحاطة وصيغة المبالغة ليطامنوا من نفسه
ويسكنوا من بعض قلقه (عليم) أي متناه في العلم به بعد ما تناهى في السحرية وعبر بالبناء
للمفعول في قوله (فجمع السحرة) اشارة الى عظمة ملكه أي بأيسر أمر لما له عندهم من
العظمة (لميقات يوم معلوم) أي في زمانه ومكانه وهو ضحى يوم الزينة كما مر في طه وعن ابن
عباس وافق يوم السبت من أول يوم من سنتهم وهو يوم النيروز (وقيل) أي يقول من يقبل
لكونه عن فرعون (للناس) أي عامة وقوله (هل أنتم مجتمعون) فيه استبطاء لهم في الاجتماع
والمراد منه استعجالهم واستحثاثهم كما يقول الرجل لغلامه هل أنت منطلق اذا أراد أن يحرك
منه ويحثه على الانطلاق كأنما يخيل له ان الناس قد انطلقوا وهو واقف ومنه قول تأبط شرا
اسم شاعر

هل أنت باعث دينار لحاجتنا * أو عبد رب أخا عون بن مخراق

أى هل أنت حث على ارسال دينار أو عبد رب اسمى رجلين والثانى منصوب على محل الاول وأخا عون منادى أو عطف بيان له وعليه اقتصر الكشاف (لعلنا نتبع السحرة) أى فى دينهم (ان كانوا هم الغالبين) أى لموسى فى دينه ولا نتبع موسى فى دينه وليس غرضهم اتباع السحرة وانما الغرض الكلى أن لا يتبعوا موسى فساقوا الكلام مساق الكناية لانهم اذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى وقيل أرادوا بالسحرة موسى وهرون وقالوا ذلك على طريق الاستهزاء وعبر بالفاء فى قوله (فلما جاء السحرة) أى الذين كانوا فى جميع بلاد مصر ايذانا بسرعة حشرهم لفخامة ملكه ووفور عظمته (قالوا لفرعون) مشترطين الاجر فى حال الحاجة الى الفعل ليكون ذلك أجدر بحسن الوعد ومجاز التسد (أئن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين) موسى وأتوا بأداة الشك مع جزمهم بالغلبة تخويفا له بأنه ان لم يحسن فى وعدهم لم ينصحوا له (قال) مجيبا الى ما سألوا (نعم) لكم ذلك وقرأ الكسائى بكسر العين والباقون بالفتح وزادهم بما لا أحسن منه عند أهل الدنيا مؤكدا بقوله (وانكم اذا) أى اذا غلبتم (لمن المقربين) أى عندى وزادا اذا زيادة فى التأكيد ولما قال لهم فرعون ذلك قالوا لموسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين (قال لهم موسى) أى مريدا الابطال سحرهم لانه لا يتمكن منه الا بالقائهم (ألقوا ما أنتم ملقون) فان قيل كيف أمرهم بفعل السحر أجيب بأنه لم يرد بذلك أمرهم بالسحر والتمويه بل الاذن بتقديم ما هم فاعلوه لا محالة توسلا به الى اظهار الحق (فألقوا) أى فتسبب عن قول موسى عليه السلام وتعقبه أن ألقوا (حبالهم وعصيهم) أى التى اعدوها للسحر (وقالوا) مقسمين (بعزة فرعون) وهى من أيمان الجاهلية وهكذا كل حلف بغير الله ولا يصح فى الاسلام الا الحلف بالله تعالى أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته كقولك والله والرحمن ورب العرش وعزة الله وقدرة الله وجلال الله وعظمة الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالطواغيت ولا تحلفوا الا بالله ولا تحلفوا بالله الا وأنتم صادقون ولقد استحدث الناس فى هذا الباب فى اسلامهم جاهلية نسيت لها الجاهلية الاولى وذلك أن الواحد منهم لو أقسم بأسماء الله كلها وصفاته على شئ لم يقبل منه ولم يعتد بها حتى يقسم برأس سلطانه فاذا أقسم به فتلك عندهم جهد اليمين التى ليس وراءها حلف لحالف ثم انهم أكدوا يمينهم بأنواع من التوكيد بقولهم (انا لنحن) أى خاصة لا نستثنى (الغالبون) وذلك لفرط اعتقادهم فى أنفسهم ولاتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر (فألقى) أى فتسبب عن صنع السحرة وتعقبه أن ألقى (موسى عصاه) التى جعلت آية له وتسبب عن القائه قوله تعالى (فاذا هى تلقف) أى تبتلع فى الحال بسرعة وهمة (ما يأفكون) أى ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم ويزورونه فيخيلون فى حبالهم وعصيهم انها حيات تسعى بالتمويه على الناظرين أو افكهم سمى تلك الاشياء افكا مبالغة وقرأ حفص بسكون اللام وتخفيف القاف وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد القاف وشدد البزى التاء فى الوصل

قوله أى هل أنت عبارة الكشاف يريد ابعثه الينا سريعا ولا تبطئ به اه

وخففها الباقون (فألقى السحرة) أى عقب فعلهما من غير تلبث (ساجدين) أى فسجدوا
بسرعة عظيمة حتى كأنهم ألقيا ألقاهم من قوة اسراعهم علما منهم بأن هذا من عند الله فأمسوا
أتقياء بررة بعد ما جاؤا فى صبح ذلك اليوم سحرة كفرة روى أنهم قالوا ان يك ما جاء به موسى
سحرا فلن يغلب وان يك من عند الله فلن يخفى علينا فلما قذف عصاه فتلقفت ما أتوا به علموا
أنه من عند الله فآمنوا وعن عكرمة أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء وانما عبر عن الخرور
بالالقاء لانه ذكر مع الالقاآت فسلك به طريقة المشاكلة وفيه أيضا مع مراعاة المشاكلة انهم
حين رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم الى الارض ساجدين كأنهم أخذوا
فطرحوا طرحا (فان قيل) فاعل الالقاء ما هو لو صرح به (أجيب) بأنه الله تعالى بما خولهم
من التوفيق أو ايمانهم أو ما عاينوا من المعجزة الباهرة قال الزمخشرى ولك أن لا تقدر فاعلا
لان القوا بمعنى خروا وسقطوا * ولما كان كأنه قيل هذا فعلهم فما كان قولهم قيل (قالوا آمنا
برب العالمين) أى الذى دعا اليه موسى عليه السلام أول ما تكلم وقولهم (رب موسى
وهرون) عطف بيان لرب العالمين لان فرعون كان يدعى الربوبية وأرادوا أن يعدلوه ومعنى
اضافته اليهما فى ذلك المقام انه الذى دعا اليه موسى وهرون عليهما السلام * ولما آمن السحرة
بأجمعهم لم يأمن فرعون أن يقول قومه ان هؤلاء السحرة على كثرتهم وبصيرتهم لم يؤمنوا الا عن
معرفة بصحة أمر موسى عليه السلام فيسلكون طريقهم فلبس على القوم وبالغ فى التنفير
عن موسى من وجوه أحدها أن (قال آمنتم له) أى لموسى (قبل أن آذن) أى أنا (لكم)
فسارعتكم الى الايمان به دالة على ميلكم اليه * (تنبيه) * ههنا همزتان مفتوحتان قرأ الجميع
بابدال الثانية ألفا وحقق الثانية حمزة والكسائى وشعبة وسهلها الباقون غير حفص فانه أسقط
الاولى والثانية عنده هى المبدوء بها ثانيها قوله (انه لكبيركم الذى علمكم السحر) وهذا تصريح
بما رمز به أولا وتعريض منه بأنهم فعلوا ذلك عن مواطأة بينهم وبين موسى وقصروا فى السحر
ليظهروا أمر موسى والا ففى قوة السحر أن تفعلوا مثل ما يفعل ثالثها قوله (فلسوف تعلمون)
وهو وعيد وتهديد شديد رابعها قوله (لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) أى يد كل
واحد اليمنى ورجله اليسرى (ولاصلبنكم أجمعين) وهذا الوعيد من أعظم الاهلاكات ثم انهم
أجابوا عن هذه الكلمات من وجهين الاول قولهم (قالوا لا ضير) أى لا ضرر علينا وخبر
لا محذوف تقديره فى ذلك (انا) أى بفعلك ذلك فينا ان قدرك الله تعالى عليه (الى ربنا)
الذى أحسن الينا بالهداية بعد موتنا بأى وجه كان (منقلبون) أى راجعون فى الآخرة
الثانى قولهم (انا نطمع) أى نرجو (أن يغفر) أى يستر سترا بليغا (لنا ربنا خطايانا)
أى التى قدمناها على كثرتها ثم عللوا طمعهم مع كثرة الخطايا بقولهم (أن كنا) أى كونا هو لنا
كالجبلة (أول المؤمنين) أى من أهل هذا المشهد أو من رعية فرعون أو من أهل زمانهم
ولما ظهر من أمر فرعون ما شاهده وخيف أن يقع منه ببنى اسرائيل وهم الذين آمنوا وكانوا
فى قوم موسى عليه السلام ما يؤدى الى الاستئصال أمره الله تعالى أن يسرى بهم كما قال

تعالى (وأوحينا) أى بما لنا من العظمة حين أردنا فصل الامر وانجاز الموعود (الى موسى أن أسر) ليلا (بعبادى) وذلك بعد سنين أقام بين أظهرهم يدعوهم الى الحق ويظهر لهم الآيات فلم يزيدوا الاعتوا وفسادا وقرأ نافع وابن كثير بكسر النون ووصل الهمزة بعدها من سرى وقرأ الباقون بسكون النون وقطع الهمزة بعدها ثم علل أمره له بالسير فى الليل بقوله تعالى (انكم متبعون) أى لا تظن أنهم لكثرة ما رأوا من الآيات يكفون عن اتباعكم فأسرع بالخروج لتبعدوا عنهم الى الموضع الذى قدرت فى الازل أن يظهر بحرى والمراد توافقهم عند البحر ولم يكتم اتباعهم عن موسى لعدم تأثره به والمعنى انى بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدموا ويتبعوكم حتى يدخلوا مدخلكم ويسلكوا مسلككم من طريق البحر فأطبقه عليهم روى أنه مات فى تلك الليلة فى كل بيت من بيوتهم ولد فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه وروى ان الله تعالى أوحى الى موسى أن اجمع بنى اسرائيل كل أربعة أبيات فى بيت ثم اذبحوا الجداء واضربوا بدمائها أبوابكم فانى سآمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتا على بابه دم وآمرهم بقتل أبكار القبط واختبزوا خبزا فطيرا فانه أسرع لكم ثم اسر بعبادى حتى تنتهى الى البحر فيأتيك أمرى وروى أن قوم موسى قالوا لقوم فرعون ان لنا فى هذه الليلة عيدا ثم استعاروا منهم حليهم بهذا السبب ثم خرجوا بتلك الاموال فى الليل الى جانب البحر فلما سمع فرعون ذلك جمع قومه وتبعهم كما قال تعالى (فأرسل فرعون) أى لما أصبح وعلم بهم (فى المدائن حاشرين) أى رجالا يجمعون الجنود بقوة وسطوة وان كرهوا ويقولون تقوية لقلوبهم وتحريكا لهممهم (ان هؤلاء) اشارة بأداة القرب تحقيرا لهم الى انهم فى القبضة وان بعدوا لما بهم من العجز وبآل فرعون من القوة فليسوا بحيث يخاف قوتهم (لشرذمة) أى طائفة وقطعة من الناس (قليلون) أى بالنسبة الى ما لنا من الجنود التى لا تحصى فذكرهم أولا بالاسم الدال على القلة بالشرذمة وهى الطائفة القليلة ومنها قولهم ثوب شرذم للذى بلى وتقطع قطعا ثم جعلهم قليلا بالوصف ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلا واختار جمع السلامة الذى هو للقلة مع انهم كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا وسماهم بشرذمة قليلين وذلك بالنسبة لما أرسله خلفهم فان الذى أرسله فرعون فى اثرهم ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور ومع كل ملك ألف وخرج فرعون فى جمع عظيم وكان مقدمته سبعمائة ألف كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة وعن ابن عباس خرج فرعون فى ألف ألف حصان سوى الاناث فلذلك استقل قوم موسى قال الزمخشرى ويجوز أن يريد بالقلة الذلة والقماءة ولا يريد قلة العدد والمعنى انهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا يتوقع عليهم غلبتهم وعلوهم ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا كما قال تعالى عنهم (وانهم لنا لغائظون) أى بما فجعونا به من أنفسهم وبما استعاروه من الزينة من الاوانى الذهب والفضة وفاخر الكسوة فلا رحمة فى قلوبهم بجمعهم (وانا لجميع حذرون) أى من عادتنا الحذر والتيقظ واستعمال الحزم فى الامور فاذا خرج علينا خارج سارعنا الى حسم فساده وهذه معاذير اعتذر بها الى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه

وقرأ ابن ذكوان والكوفيون بألف بعد الحاء والباقون بغير ألف قال أبو عبيدة والزجاج هما بمعنى واحد يقال رجل حذر وحذور وحاذر بمعنى وقيل بل بينهما فرق فالحذر المتيقظ والحاذر الخائف وقيل الاول للتجدد لانه اسم فاعل والثاني للثبات لانه صفة مشبهة وقيل الحاذر المتسلح الذي له شوكة السلاح وهو أيضا من الحذر لان ذلك انما يفعل حذرا يحكى انه كان يتصرف في خراج مصر وأنه يجزئه أربعة أجزاء أحدها لوزرائه وكتابه وجنده والثاني لحفر الانهار وعمل الجسور والثالث له ولولده والرابع يفرق في المدن فان لحقهم ظلم او ظمأ أو اشتجار أو فساد غلة أو موت عوامل قواهم به ويروى انه قصده قوم فقالوا نحتاج الى أن نحفر خليجا لنعمر ضياعنا فأذن في ذلك واستعمل عليهم عاملا فاستكثر ما حمل من خراج تلك الناحية الى بيت المال فسأل عن مبلغ ما أنفقوه في خليجهم فاذا هو مائة ألف دينار فأمر بحملها اليهم فامتنعوا من قبولها فقال اطرحوها عليهم فان الملك اذا استغنى بمال الرعية يعني رعيته افتقر وان الرعية اذا استغنت بمال ملكهم استغنى واستغنوا ولما كان التقدير فأطاعوا أمره ونشروا على كل صعب وذلوا عطف عليه قوله تعالى عما آل اليه أمرهم (فأخرجناهم) أي فرعون وجنوده بما لنا من القدرة من مصر ليلحقوا بموسى وقومه اخراجا حثيثا مما لا يسمع أحد بالخروج منه (من جنات) أي بساتين كانت على جانبي النيل يحق لها أن تذكر (وعيون) أي أنهار جارية في الدور من النيل وقيل عيون تخرج من الارض لا يحتاج معها الى نيل ولا مطر (وكنوز) أي أموال ظاهرة من الذهب والفضة وسميت كنوزا لانه لم يعط حق الله منها ومالم يعط حق الله تعالى منه فهو كنز وان كان ظاهرا قيل كان لفرعون ثمانمائة ألف غلام كل غلام على فرس عتيق في عنق كل فرس طوق من ذهب (ومقام) من المنازل (كريم) أي مجلس حسن للامراء والوزراء يحفه اتباعهم وعن الضحاك المنابر وقيل السرر في الحجال وذكر بعضهم انه كان اذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلثمائة كرسي من ذهب يجلس عليها الاشراف عليهم الاقبية من الديباج مخوصة بالذهب (كذلك) أي اخراجنا كما وصفنا (وأورثناها) أي تلك النعم السنية بمجرد خروجهم بالقوة وبعد اغراق فرعون وجنوده بالفعل (بني اسرائيل) أي جعلناهم بحيث يرثونها الا انا لم نبق لهم مانعا يمنعهم منها بعد ان كانوا مستعبدين بين أيدي أربابها واستشكل ارثهم لها بالفعل لقوله تعالى في الدخان قوما آخرين وسيأتي الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى في ذلك المحل بل قيل ان بني اسرائيل لم يرجعوا الى مصر بعد ذلك ولما وصف تعالى الاخراج وصف أثره بقوله تعالى مرتبا عليه بالفعل وعلى الايراث بالقوة (فأتبعوهم) أي جعلوا أنفسهم تابعة لهم (مشرقين) أي داخلين في وقت شروق الشمس بطلوعها صبيحة الليلة التي سار فيها بنو اسرائيل ولولا تقدير العزيز العليم بخرق ذلك للعادة لم يكن ذلك على حكم العادة في أقل من عشرة أيام فانه تعجز الملوك عن مثله واستمروا الى ان لحقوهم عند بحر القلزم (فلما تراءى الجمعان) أي رأى كل منهما الآخر (قال أصحاب موسى) ضعفا وعجزا استصحابا لما كانوا فيه عندهم من الذل ولانهم

اقل

أقل منهم بكثير بحيث يقال ان طليعة آل فرعون كانت على عدد بني اسرائيل وذلك محقق لتقليل فرعون لهم وكانه عبر عنهم بأصحاب دون بني اسرائيل لانه كان قد آمن كثير من غيرهم (انا لمدركون) أي يدركنا فرعون وقومه وقد صرنا بين سدين العدو وراءنا والبحر أمامنا ولا طاقة لنا بذلك (قال) أي موسى عليه السلام وثوقا بوعد الله تعالى لا (كلا) أي لا يدركونكم أصلا ثم علل ذلك تسكيناً لهم بقوله (ان معي ربي) أي بنصره فكأنهم قالوا وما عساه يفعل وقد وصلونا قال (سيهدين) أي يدلني على طريق النجاة روي ان مؤمن آل فرعون كان بين يدي موسى عليه السلام فقال أين تذهب فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون قال أمرت بالبحر ولعلي أومر بما أصنع (فأوحينا) أي فتسبب عن كلامه الدال على المراقبة أنا أوحينا ونوه باسم الكليم جزاء له على ثقته به سبحانه وتعالى فقال تعالى (الى موسى) وفسر الوحي الذي فيه معنى القول بقوله تعالى (أن اضرب بعصاك البحر) أي الذي أمامكم وهو بحر القلزم الذي يتوصل أهل مصر منه الى الطور والى مكة المشرفة وما والاها وقيل النيل فضربه (فانفلق) بسبب ضربه لما ضربه امتثالا لامر ربه وصار اثني عشر فرقا على عدد اسباطهم (فكان كل فرق) أي جزء وقسم عظيم منه (كالطود) أي الجبل في اشرافه وطوله وصلابته بعدم السيلان (العظيم) المتطاول في السماء الثابت في قعره لا يتزلزل لان الماء كان منبسطا في أرض البحر فلما انفلق وانكشفت فيه الطريق انضم بعضه الى بعض فاستطال وارتفع في السماء بين تلك الاجزاء مسالك سلكوها لم يبتل منها سرج الراكب قال الزجاج لما انتهى موسى الى البحر هاجت الريح والبحر يرمي بموج كالجبال فقال يوشع يا كليم الله يا بن امرأة عمران قد غشينا فرعون والبحر أمامنا فقال موسى ههنا فخاض يوشع الماء وجاز البحر ما يواري حافر دابته الماء وقال الذي يكتم ايمانه يا كليم الله أين أمرت قال ههنا فكبح فرسه بلجامه حتى طار الزبد من شدقيه ثم أقحمه البحر فارتسب في الماء وصنع القوم مثل ذلك فلم يقدروا فجعل موسى لا يدري كيف يصنع فأوحى الله اليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فصار فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط طريق فان الرجل على فرسه لم يبتل سرجه ولا لبده روي ان موسى قال عند ذلك يا من كان قبل كل شئ والمكون لكل شئ والكائن بعد كل شئ وهذا معجز عظيم من وجوه أحدها أن تفرق ذلك الماء معجز وثانيها ان اجتماع ذلك الماء فوق كل فرق منه حتى صار كالجبل معجز أيضا وثالثها انه ثبت في الخبر انه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ما حيرهم فاحتبسوا القدر الذي تكامل معه عدد بني اسرائيل وهذا معجز ثالث ورابعها ان جعل الله في تلك الجدران المائية كوى ينظر بعضهم الى بعض وهذا معجز رابع وخامسها ان أبقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب آل فرعون فطمعوا أن يتخلصوا من البحر كما تخلص موسى عليه السلام وهذا معجز خامس *(فائدة)* لكل من جميع القراء في الراء من فرق الترقيق والتفخيم ولما كان التقدير وأدخلنا كل شعب منهم في طريق من تلك الطرق عطف عليه (وأزلفنا) أي قربنا بعظمتنا (ثم) أي هنالك (الآخرين) أي فرعون

وقومه حتى سلكوا مسالكهم وقال أبو عبيدة وأزلفنا أخلفنا ومنه ليلة المزدلفة أى ليلة الجمع عن عطاء بن السائب ان جبريل عليه السلام كان بين بنى اسرائيل وقوم فرعون وكان يسوق بنى اسرائيل ويقول ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل القبط ويقول رويدكم ليلحق آخركم أولكم (وأنجينا موسى ومن معه) وهم من تبعوه من قومه وغيرهم (أجمعين) أى لم نقدر على أحد منهم الهلاك بل أخرجناهم من البحر على هيئته المذكورة (ثم أغرقنا الآخرين) أى فرعون وقومه أجمعين بانطباق البحر عليهم لما تم دخولهم البحر وخروج بنى اسرائيل منه ويقال هذا البحر بحر القلزم وقيل هو بحر من وراء مصر يقال له اساف (ان فى ذلك) أى الامر العظيم العالى الرتبة من قصة موسى وفرعون وما فيها من العظات (لآية) أى علامة عظيمة دالة على قدرة الله تعالى لان أحدا من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته وكون وقوعه مصلحة فى الدين والدنيا أو على صدق موسى لكونه معجزة له وعلى التحذير عن مخالفة أمر الله تعالى ورسوله عليه السلام وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم لانه قد يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه فنبهه الله تعالى بهذا الذكر على ان له اسوة بموسى وغيره (وما كان أكثرهم) أى أهل مصر الذين شاهدوها والذين وعظوا بسماعها (مؤمنين) أى متصفين بالايمان الثابت اما القبط فما آمن منهم الا السحرة ومؤمن آل فرعون وامرأة فرعون والمرأة التى دلتهم على عظام يوسف عليه السلام وأما بنو اسرائيل فكان كثير منهم متزلزلا يتعنت كل قليل ويقول ويفعل ما هو كفر حتى تداركهم الله تعالى على يدى موسى عليه السلام ومن بعده وأول ما كان من ذلك سؤالهم اثر مجاوزة البحر أن يجعل لهم الها كالاصنام التى مروا عليها وأما غيرهم ممن تأخر عنهم فحالهم معروف وأمرهم مشاهد مكشوف فقد سألوه بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وطلبوا رؤية الله جهرة (وان ربك) أى المحسن اليك باعلاء أمرك واستنقاذ الناس من ظلام الجهل على يدك (لهو العزيز) أى القادر على الانتقام من كل فاجر (الرحيم) بعباده لانه تعالى أفاض عليهم نعمه وكان قادرا على أن يهلكهم فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله ولما أتم سبحانه وتعالى ما أراد من قصة موسى عليه السلام ليعرف محمدا صلى الله عليه وسلم ان تلك المحن التى أصابته كانت حاصلة لموسى أتبعه دلالة على رحمته وزيادة فى تسلية نبيه قصة ابراهيم عليه السلام وهى القصة الثانية بقوله تعالى (واتل) أى اقرأ قراءة متتابعة بأشرف الخلق (عليهم) أى كفار مكة وقوله تعالى (نبأ) أى خبر (ابراهيم) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فى الوصل بتسهيل الهمزة الثانية وحققها الباقون وفى الابتداء بالثانية الجميع يحققون ويبدل منه (اذ) اى حين (قال لابيه وقومه) منبها لهم على ضلالهم لا مستعلما لانه كان عالما بحقيقة حالهم ولكنه سألهم بقوله (ما) اى اى شئ (تعبدون) اى تواظبون على عبادته ليريهم ان ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة فى شئ كما تقول للتاجر ما مالك وانت تعلم ان ماله الرقيق ثم تقول الرقيق جمال وليس بمال (قالوا) فى جوابه (نعبد اصناما) فان قيل قوله عليه السلام ما تعبدون سؤال عن المعبود فحسب

فكان

وقومه حتى سلكوا مسالكهم وقال أبو عبيدة وأزلفنا أخلفنا ومنه ليلة المزدلفة أى ليلة الجمع عن عطاء بن السائب ان جبريل عليه السلام كان بين بنى اسرائيل وقوم فرعون وكان يسوق بنى اسرائيل ويقول ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل القبط ويقول رويدكم ليلحق آخركم أولكم (وأنجينا موسى ومن معه) وهم من تبعوه من قومه وغيرهم (أجمعين) أى لم نقدر على أحد منهم الهلاك بل أخرجناهم من البحر على هيئته المذكورة (ثم أغرقنا الآخرين) أى فرعون وقومه أجمعين بانطباق البحر عليهم لما تم دخولهم البحر وخروج بنى اسرائيل منه ويقال هذا البحر بحر القلزم وقيل هو بحر من وراء مصر يقال له اساف (ان فى ذلك) أى الامر العظيم العالى الرتبة من قصة موسى وفرعون وما فيها من العظات (لآية) أى علامة عظيمة دالة على قدرة الله تعالى لان أحدا من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته وكون وقوعه مصلحة فى الدين والدنيا أو على صدق موسى لكونه معجزة له وعلى التحذير عن مخالفة أمر الله تعالى ورسوله عليه السلام وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم لانه قد يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه فنبه الله تعالى بهذا الذكر على ان له اسوة بموسى وغيره (وما كان أكثرهم) أى أهل مصر الذين شاهدوها والذين وعظوا بسماعها (مؤمنين) أى متصفين بالايمان الثابت اما القبط فما آمن منهم الا السحرة ومؤمن آل فرعون وامرأة فرعون والمرأة التى دلتهم على عظام يوسف عليه السلام وأما بنو اسرائيل فكان كثير منهم متزلزلا يتعنت كل قليل ويقول ويفعل ما هو كفر حتى تداركهم الله تعالى على يدى موسى عليه السلام ومن بعده وأول ما كان من ذلك سؤالهم اثر مجاوزة البحر أن يجعل لهم الها كالاصنام التى مروا عليها وأما غيرهم ممن تأخر عنهم فحالهم معروف وأمرهم مشاهد مكشوف فقد سألوه بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وطلبوا رؤية الله جهرة (وان ربك) أى المحسن اليك باعلاء أمرك واستنقاذ الناس من ظلام الجهل على يدك (لهو العزيز) أى القادر على الانتقام من كل فاجر (الرحيم) بعباده لانه تعالى أفاض عليهم نعمه وكان قادرا على أن يهلكهم فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله ولما أتم سبحانه وتعالى ما أراد من قصة موسى عليه السلام ليعرف محمدا صلى الله عليه وسلم ان تلك المحن التى أصابته كانت حاصلة لموسى أتبعه دلالة على رحمته وزيادة فى تسلية نبيه قصة ابراهيم عليه السلام وهى القصة الثانية بقوله تعالى (واتل) أى اقرأ قراءة متتابعة بأشرف الخلق (عليهم) أى كفار مكة وقوله تعالى (نبأ) أى خبر (ابراهيم) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فى الوصل بتسهيل الهمزة الثانية وحققها الباقون وفى الابتداء بالثانية الجميع يحققون ويبدل منه (اذ) اى حين (قال لابيه وقومه) منبها لهم على ضلالهم لا مستعلما لانه كان عالما بحقيقة حالهم ولكنه سألهم بقوله (ما) اى اى شئ (تعبدون) اى تواظبون على عبادته ليريهم ان ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة فى شئ كما تقول للتاجر ما مالك وانت تعلم ان ماله الرقيق ثم تقول الرقيق جمال وليس بمال (قالوا) فى جوابه (نعبد اصناما) فان قيل قوله عليه السلام ما تعبدون سؤال عن المعبود فحسب

فكان

نفسه فاذا تذكروا قالوا ما نصحنا ابراهيم الا بما نصح به نفسه فيكون ذلك ادعى الى القبول وأبعث الى الاستماع منه ولو قال فانهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ولانه دخل في باب من التعريض وقد يبلغ التعريض للمنصوح مالا يبلغه التصريح لانه يتأمل فيه فربما قاده التأمل الى التقبل ومنه ما يحكى عن الشافعي رضي الله عنه ان رجلا واجهه بشئ فقال لو كنت بحيث أنت لاحتجت الى أدب وسمع رجل ناسا يتحدثون في الحجر فقال ماهو بيتي ولا بيتكم وقوله (الا رب العالمين) اى مدبر هذه الا كوان كلها يصح أن يكون استثناء منقطعا بمعنى انهم عدو لي لا أعبدهم لكن رب العالمين فاني أعبده وأن يكون متصلا على أن الضمير لكل معبود عبدوه وكان من آبائهم من عبد الله تعالى فكأنه قال الا رب العالمين فانه ليس بعدوي بل هو وليي ومعبودي * ثم شرع يصفه بما هم به عالمون من انه على الضد الاقصى من كل ما عليه أصنامهم بقوله (الذى خلقني) أى أوجدني على هيئة التقدير والتصوير (فهو) أى فتسبب عن تفرده بخلقي انه هو لا غيره (يهدين) أى الى الرشاد ولا يعلم باطن المخلوق ويقدر على التصرف فيه غير خالقه ولا يكون خالقه الا سميعا بصيرا ضارا نافعا له الكمال كله وذكر الخلق بالماضي لانه لا يتجدد في الدنيا والهداية بالمضارعة لتجددها وتكررها لانه تعالى لما أتم خلقه ونفخ فيه الروح عقب ذلك هدايته المتصلة التي لا تنقطع الى كل ما يصلحه ويعينه والا فمن هداه الى أن يغتذى بالدم في البطن امتصاصا ومن هداه الى معرفة الثدى عند الولادة والى معرفة مكانه ومن هداه لكيفية الارتضاع الى غير ذلك دينا ودنيا (والذى) أى (هو) لا غيره (يطعمني ويسقين) أى يرزقني ويغذيني بالطعام والشراب ولو أراد أعدم ما آكل وما أشرب أو أصابني بآفة لا أستطيع معها أكلا ولا شربا ونبه بذكر الطعام والشراب على ما عداهما *(تنبيه)* يجوز في والذى يطعمني ويسقين أن يكون مبتدأ وخبره محذوف لدلالة ما قبله عليه وكذا الذى بعده ويجوز أن تكون أوصافا للذى خلقني ودخول الواو جائز كقوله

الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة في المزدحم

وتكرير الموصول على الوجهين للدلالة على ان كل واحدة من الصلات مستقلة باقتضاء الحكم (واذا مرضت) أى باستيلاء بعض الاخلاط على بعض لما بينهما من التنافر الطبيعي (فهو) أى وحده (يشفين) أى بسبب تعديل المزاج بتعديل الاخلاط وقسرها عن الاجتماع لا بطبيب ولا غيره (فان قيل) لم أضاف المرض الى نفسه مع أن المرض والشفاء من الله تعالى (أجيب) بأنه قال ذلك استعمالا لحسن الادب كما قال الخضر عليه السلام فأردت أن أعيبها وقال فأراد ربك أن يبلغا أشدهما وأجاب الرازى بأن أكثر أسباب المرض يحدث بتفريط الانسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك ومن ثم قال الحكماء لو قيل لاكثر الموتى ما سبب آجالكم لقالوا التخم وبأن الشفاء محبوب وهو من أصول النعم والمرض مكروه وليس من النعم وكان مقصود ابراهيم عليه السلام تعديد النعم ولما لم يكن المرض من النعم لا جرم لم يضفه الى الله تعالى

ولا ينتقض ذلك باسناد الاماتة اليه كما سيأتى فان الموت ليس بضرر لان شرط كونه ضررا وقوع الاحساس به وحال الموت لا يحصل الاحساس به انما الضرر فى مقدماته وذلك هو عين المرض ولان الارواح اذا كملت فى العلوم والاخلاق كان بقاؤها فى هذه الاجساد عين الضرر وخلاصها عنها عين السعادة بخلاف المرض (والذى يميتنى) بقبض روحى فى الدنيا ليخلصنى من آفاتها (ثم يحيين) للمجازاة فى الآخرة كما شفانى من المرض ولهذا التراخى بين الموت والاحياء أتى بثم هنا لان الاماتة فى الدنيا والاحياء فى الآخرة ولما ذكر البعث ذكر ما يترتب عليه بقوله (والذى أطمع) هضما لنفسه واطراحا لاعماله (أن يغفر) أى يمحو أو يستر (لى خطيئتى) أى تقصيرى عن أن أقدره حق قدره (يوم الدين) أى الجزاء روى ان عائشة قالت قلت يارسول الله ان ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه قال لا ينفعه انه لم يقل يوما رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين وهذا كله احتجاج من ابراهيم على قومه انه لا يصلح للالهية الا من يفعل هذه الافعال (فان قيل) لم قال والذى أطمع والطمع عبارة عن الظن والرجاء وهو عليه السلام كان قاطعا بذلك (أجيب) بأن فى ذلك اشارة الى أن الله تعالى لا يجب عليه لاحد شئ فانه يحسن منه تعالى كل شئ ولا اعتراض لاحد عليه فى فعله (فان قيل) لم أسند لنفسه الخطيئة مع أن الانبياء معصومون (أجيب) بأن مجاهدا قال هى قوله انى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هى أختى ورد بأن هذه معاريض كلام وتخيلات للكفرة وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار والاولى فى الجواب أن استغفار الانبياء تواضع منهم لربهم وهضم لانفسهم ويدل عليه قوله أطمع ولم يجزم القول بالمغفرة وفيه تعليم لاممهم وليكون لطفا لهم باجتناب المعاصى والحذر منها وطلب المغفرة عما يفرط منهم (فان قيل) لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين وانما المغفرة فى الدنيا (أجيب) بأن أثرها يتبين يومئذ وهو الآن خفى لا يعلم ولما حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام ثناءه عليه ذكر بعد ذلك دعاءه ومسألته بقوله (رب) أى أيها المحسن الى (هب لى حكما) أى علما متقنا بالعلم وقال ابن عباس معرفة حدود الله وأحكامه وقال الكلبى النبوة لان النبى ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله ثم بين أن الاعتماد انما هو على محض الكرم فان من نوقش الحساب عذب بقوله (وألحقنى بالصالحين) أى الذين جعلتهم أئمة للمتقين فى الدنيا والآخرة وهم الانبياء والمرسلون وقد أجابه الله تعالى حيث قال وانه فى الآخرة لمن الصالحين وفى ذلك تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات (فان قيل) لم لم يقتصر ابراهيم عليه السلام على الثناء ولا سيما روى عنه انه قال حسبى من سؤالى علمه بحالى (أجيب) بأنه عليه السلام انما ذكر ذلك حين اشتغاله بدعوة الخلق الى الحق لانه قال فانهم عدو لى الا رب العالمين ثم ذكر الثناء ثم ذكر الدعاء لما أن الشارع لا بد له من تعليم الشرع فاما حين خلا بنفسه ولم يكن غرضه تعليم الشرع اقتصر على قوله حسبى من سؤالى علمه بحالى *(تنبيه)* الالحاق بالصالحين أن يوفقه لعمل ينتظم به فى جملتهم أو يجمع بينه وبينهم فى المنزلة والدرجة فى الجنة ثم انه عليه السلام طلب زيادة فى الآخرة بقوله (واجعل لى لسان

صدق) أى ذكرا جميلا وقبولا عاما وثناء حسنا بما أظهرت من خصال الخير (فى الآخرين)
أى من الناس الذين يوجدون بعدى الى يوم الدين لأكون للمتقين اماما فيكون لى مثل
أجورهم فان من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة قال ابن عباس
أعطاه الله تعالى بقوله وتركنا عليه فى الآخرين أن أهل الايمان يتولونه و يثنون عليه وقد
جعله الله شجرة مباركة فرع منها الانبياء الذين أحيا الله تعالى بهم ذكره الذى من
أعظمه ما كان على لسان أعظمهم النبى الامى صلى الله عليه وسلم من قوله اللهم صل على محمد
وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم الى آخره ولما طلب عليه السلام سعادة الدنيا وكان
لانفع لها الا باتصالها بسعادة الآخرة التى هى الجنة طلبها بقوله (واجعلنى) أى مع
ذلك كله بفضلك ورحمتك (من ورثة جنة النعيم) لان فيها النظر الى وجه الله الكريم
وهو السعادة الكبرى وشبهها بالارث الذى يحصل بغيرا كتساب اشارة الى أنها الاتنال الا بمنه
وكرمه لا بشئ من ذلك ولما دعا لنفسه ثنى بأحق الخلق ببره بقوله (واغفر لابى) بالهداية
والتوفيق الى الايمان لان المغفرة مشروطة بالايمان وطلب المشروط متضمن لطلب الشرط
فقوله واغفر لابى كأنه دعاء له بالايمان وقيل ان أباه وعده بالاسلام لقوله تعالى وما كان
استغفار ابراهيم لابيه الاعن موعدة وعدها اياه فدعا له قبل أن يتبين له انه عدو لله كما سبق فى
سورة التوبة وقيل ان أباه قال له انه على دينه باطنا وعلى دين نمروذ ظاهرا وتقية وخوفا
فدعا له لاعتقاده ان الامر كذلك فلما تبين له خلاف ذلك تبرأ منه ولذلك قال فى دعائه
(انه كان من الضالين) فلولا اعتقاده فيه انه فى الحال ليس بضال لما قال ذلك وقيل ان
الاستغفار للكفار لم يكن ممنوعا اذ ذاك (ولا تخزنى) أى تفضحنى (يوم يبعثون) أى
العباد (فان قيل) كان قوله واجعلنى من ورثة جنة النعيم كافيا عن هذا وأيضا
قال تعالى ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين فما كان نصيب الكفار فقط كيف يخافه
المعصوم (أجيب) بأن حسنات الابرار سيئات المقربين فكذا درجات الابرار خزى
المقربين وخزى كل واحد بما يليق به ولما نبه عليه السلام على ان المقصود هو الآخرة صرح
بالتنزيه فى الدنيا بقوله (يوم لا ينفع) أى أحدا (مال) أى يفتدى به أو يبذله لشافع
أوناصر وقاهر (ولا بنون) ينتصر بهم أو يعتضد فكيف بغيرهم وفى استثناء قوله (الامن)
أوجه أحدها انه منقطع وجرى عليه الجلال المحلى أى لكن من (أتى الله بقلب سليم) فانه
ينفعه ذلك الثانى انه مفعول به لقوله تعالى لا ينفع اى لا ينفع المال والبنون الا هذا الشخص
فانه ينفعه ماله المصروف فى وجوه البر وبنوه الصلحاء لانه علمهم وأحسن اليهم الثالث
انه بدل من المفعول المحذوف ومستثنى منه اذ التقدير لا ينفع مال ولا بنون أحدا من
الناس الامن كانت هذه صفته واختلف فى القلب السليم على أوجه قال الرازى أصحها
أن المراد منه سلامة النفس عن الجهل والاخلاق الرذيلة الثانى انه الخالص من الشرك
والنفاق وهو قلب المؤمن وجرى على هذا الجلال المحلى وأكثر المفسرين فان الذنوب قل أن يسلم

منها أحد وهذا معنى قول سعيد بن المسيب السليم هو الصحيح وهو قلب المؤمن فان قلب الكافر والمنافق مريض قال تعالى فى قلوبهم مرض الثالث انه الذى سلم وسلم وأسلم وسالم واستسلم الرابع انه هو اللديغ أى القلق المنزعج من خشية الله لكن قال الزمخشرى ان القولين الاخيرين من بدع التفاسير وقوله تعالى (وأزلفت الجنة) حال من واو يبعثون ومعنى أزلفت قربت أى قربت الجنة (للمتقين) فتكون قريبة من موقف السعداء ينظرون اليها ويفرحون بأنهم المحشورون اليها زيادة الى شرفهم (وبرزت الجحيم) أى كشفت وظهرت النار الشديدة (للغاوين) أى الكافرين فيرونها مكشوفة ويحشرون على انهم المسوقون اليها زيادة فى هوانهم *(تنبيه)* فى اختلاف الفعلين ترجيح لجانب الوعد على الوعيد حيث قال فى حق المتقين وأزلفت أى قربت وفى حق الغاوين وبرزت أى أظهرت ولا يلزم من الظهور القرب (وقيل لهم) تبكيتا وتنديما وتوبيخا وأبهم القائل ليصلح لكل أحد تحقيرا لهم ولان المراد نفس القول لا كونه من معين (أينما) أى أين الذى (كنتم تعبدون) فى الدنيا ثم حقر معبوداتهم بقوله تعالى (من دون) أى من أدنى رتبة من رتب (الله) أى الملك الذى لا كفء له وكنتم تزعمون انهم يشفعون لكم ويقونكم شر هذا اليوم (هل ينصرونكم) بدفع العذاب عنكم (أو ينتصرون) بدفعه عن أنفسهم (فكبكبوا) أى فتسبب عن عجزهم أن ألقوا (فيها) أى فى مهواة الجحيم (هم) أى الاصنام وماشابهها من الشياطين ونحوهم (والغاوون) أى الذين ضلوا بهم والكبكبة تكرار الكب لتكرير معناه كان من ألقى فى النار ينكب مرة بعد أخرى حتى يستقر فى قعرها وقال الزجاج طرح بعضهم فوق بعض وقال القتيبي ألقوا على رؤسهم (وجنود ابليس) وهم اتباعه ومن أطاعه من الانس والجن وقيل ذريته (أجمعون) ولما لم تمكنوا من قول فى جواب استفهامهم قبل التقائهم (قالوا) أى العبدة (وهم فيها) أى الجحيم (يختصمون) أى مع المعبودات وقولهم (تالله) أى الذى له جميع الكمال (ان كنا لفى ضلال مبين) أى ظاهر جدا لمن كان له قلب سليم معمول القول ومابينهما وهو وهم فيها يختصمون جملة حالية معترضة بين القول ومعموله وقيل ان الاصنام تنطق وتخاصم العبدة ويؤيده الخطاب فى قولهم (اذ) أى حين (نسويكم برب العالمين) فى استحقاق العبادة *(تنبيه)* اذ منصوب اما بمبين أو بمحذوف أى ضللنا فى وقت تسويتنا لكم بالله فى العبادة (وما أضلنا) أى ذلك الضلال المبين عن الطريق البين (الا المجرمون) أى الاولون الذين اقتدينا بهم من رؤسائنا وكبرائنا كما فى آية أخرى ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا وعن ابن جريج ابليس وابن آدم الاول وهو قابيل وهو أول من سن القتل وأنواع المعاصى (فما) أى فتسبب عن ذلك أنه ما (لنا) اليوم وزادوا فى تعميم النفى بزيادة الجار فقالوا (من شافعين) يكونون سببا لادخالنا الجنة كالمؤمنين تشفع لهم الملائكة والنبيون (ولا صديق حميم) أى قريب يشفع لنا يقول ذلك الكفار حين تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون والصديق هو الصادق فى وداده الذى يهمه

ما أهمك مع موافقة الدين وعن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الرجل ليقول فى الجنة ما فعل صديقى فلان وصديقه فى الجحيم فيقول الله تعالى اخرجوا له صديقه الى الجنة فيقول من بقى فى النار فمالنا من شافعين ولا صديق حميم قال الحسن استكثروا من الاصدقاء المؤمنين فان لهم شفاعة يوم القيامة (فان قيل) لم جمع الشافع ووحد الصديق (أجيب) بأن الشفعاء كثيرون فى العادة رحمة له وحسبة وان لم يسبق له بأكثرهم معرفة وأما الصديق وهو الصادق فى ودادك الذى يهمه ما أهمك قال الزمخشرى فاعز من بيض الانوق انتهى قال الجوهرى الانوق على فعول طير وهو الرخمة وفى المثل أعز من بيض الانوق لانها محرزة فلا يكاد يظفر بها لان أوكارها فى رؤس الجبال والاماكن الصعبة البعيدة وعن بعض الحكماء انه سئل عن الصديق فقال اسم لا معنى له أى لا يوجد ولما وقعوا فى هذا الهلاك واتقى عنهم الخلاص تسبب عنه تمنيهم المحال فقالوا (فلو أن لنا كرة) أى رجعة الى الدنيا (فنكون من المؤمنين) أى الذين صار الايمان لهم وصفا لازما فأزلفت لهم الجنة * (تنبيه) * انظر ما أحسن ما رتب ابراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع وعلى تقليدهم آباءهم الاقدمين فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة ثم صور المسئلة فى نفسه دونهم حتى تخلص منها الى ذكر الله عز وجل فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وانشائه الى حين وفاته مع ما يرجى فى الآخرة من رحمته ثم أتبع ذلك ان دعا بدعوات المخلصين وابتهل اليه ابتهال الاوابين ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله تعالى وعقابه وما يدفع اليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرة الى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا (ان فى ذلك) أى المذكور من قصة ابراهيم وقومه (لآية) أى عظة على بطلان الباطل وحقوق الحق (وما) أى والحال انه ما (كان أكثرهم) أى الذين شهدوا منهم هذا الامر العظيم الذى سمعوه عنه (مؤمنين) أى بحيث صار الايمان صفة لهم ثابتة وفى ذلك أعظم تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم (وان ربك) أى المحسن اليك بارسالك وهداية الامة بك (لهو العزيز) أى القادر على ايقاع النقمة بكل من خالفه حين يخالفه (الرحيم) أى الفاعل فعل الراحم فى امهاله العصاة مع ادرار النعم ودفع النقم وارسال الرسل ونصب الشرائع لكى يؤمنوا أو أحد من ذريتهم * ولما أتم سبحانه وتعالى قصة الاب الاعظم الاقرب ابراهيم عليه السلام أتبعها بقصة الاب الثانى وهو نوح عليه السلام وهى القصة الثالثة مقدما لها على غيرها لما له من التقدم فى الزمان اعلاما بأن البلاء قديم ولانها أدل على صفتى الرحمة والنقمة اللتين هما أثر الغرة بطول الامهال لهم على طول مدتهم ثم تعميم النقمة مع كونهم جميع أهل الارض فقال (كذبت قوم نوح) وهم أهل الارض كلها من الآدميين قبل اختلاف الامم بتفرق اللغات (المرسلين) أى بتكذيبهم نوحا عليه السلام لانه أقام الدليل على نبوته بالمعجزة ومن كذب بالمعجزة فقد كذب بجميع المعجزات لتساوى

اقدامها فى الدلائل على صدق الرسول وقد سئل الحسن البصرى عن ذلك فقال من كذب واحدا من الرسل فقد كذب الكل لان الآخر جاء بما جاء به الاول * (تنبيه) * القوم يؤنث باعتبار معناه ولذا يصغر على قويمة ويذكر باعتبار لفظه وتذكيره أشهر واختير التأنيث ههنا للتنبيه على أن فعالهم أخس الافعال والى أنهم مع عتوهم وكثرتهم كانوا عليه سبحانه وتعالى أهون شئ وأضعفه بحيث جعلهم هباء منثورا وكذا من بعدهم ولاجل التسلية عبر بالتكذيب فى كل قصة (اذ) أى حين (قال لهم أخوهم) أى فى النسب لافى الدين (نوح) وذكر الاخوة زيادة فى تسلية النبى صلى الله عليه وسلم وأشار تعالى الى حسن أدب نوح عليه السلام مع قومه واستجلابهم برفقه ولينه بقوله لهم (ألا تتقون) الله بأن تجعلوا بينكم وبينه وبين الخنطة وقاية بطاعته بالترحيد وترك الالتفات الى غيره ثم عال أهليته للامر عليهم بقوله (انى لكم) أى مع كونى أخا كم يسرنى ما يسركم ويسوءنى ما يسوءكم (رسول) أى من عند خالقكم فلا مندوحة لى عما أمرت به (أمين) أى مشهور بالامانة بينكم لاغش عندى كما تعلمون ذلك منى على طول خبرتكم لى ثم تسبب عن ذلك الرفق الجزم بالامر فقال (فاتقوا الله) أى أوجدوا الخوف والحذر والتحرز الذى اختص بالجلال والجمال لتحوزوا أصل السعادة فتكونوا من أهل الجنة (وأطيعون) فيما آمركم به من توحيد الله وطاعته ثم نفى عن نفسه التهمة بعد أن أثبت أمانته بقوله (وما أسألكم عليه) أى على هذا الحال الذى أتيتكم به وأشار الى الاغراق فى النفى بقوله (من أجر) لتظنوا أنى جعلت الدعاء سببا لذلك ثم أكد النفى بقوله (ان) أى ما (أجرى) أى ثوابى فى دعائى لكم (الا على رب العالمين) أى الذى دبر جميع الخلائق ورباهم وقرأ نافع وابو عمرو وابن عامر وحفص بفتح الياء فى أجرى فى المواضع الخمسة فى هذه السورة والباقون بالسكون ولما انتفت التهمة تسبب عن انتفائها اعادة ما قدمه اعلاما بالاهتمام به زيادة فى الشفقة عليهم فقال (فاتقوا الله) أى الذى حاز جميع صفات العظمة (وأطيعون) ولما أقام الدليل على نصحه وأمانته (قالوا) أى قومه منكرين عليه ومنكرين لاتباعه استنادا الى الكبر الذى نشأ عنه بطر الحق وغمص الناس أى احتقارهم (أنؤمن لك) أى لاجل قولك هذا وما أوتيته من أوصافك (و) الحال انه قد (اتبعك الارذلون) أى فيكون ايماننا بك سببا لاستوائنا معهم والرذالة الخسة والذلة وانما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا وقيل كانوا من أهل الصناعات الخسيسة كالحياكة والحجامة والصناعة لاتزرى بالديانة وهكذا كانت قريش تقول فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومازالت اتباع الانبياء كذلك حتى كادت من سماتهم وأماراتهم ألا ترى الى هرقل حين سأل أبا سفيان عن أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قال ضعفاء الناس وأراذلهم قال مازالت اتباع الانبياء كذلك وعن ابن عباس هم الغاغة وعن عكرمة الحاكة والاساكفة وعن مقاتل السفلة * ولما كانت هذه الشبهة فى غاية الركاكة لان نوحا بعث الى جميع قومه فلا يختلف الحال بسبب الفقر والغنى وشرف المكاسب وخستها أجابهم

بقوله (قال وما) أى أى شئ (علمى بما كانوا يعملون) قبل أن [illegible]ونى أى مالى وللبحث عن سرائرهم وانما قال هذا لانهم قد طعنوا مع استرذالهم فى ايمانهم وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة وانما آمنوا هوى وبديهة كما حكى الله عنهم فى قوله الذين هم أراذلنا بادى الرأى ثم أكد انه لا يبحث عن بواطنهم بقوله (ان) أى ما (حسابهم) أى فى الماضى والآتى (الا على ربى) أى المحسن الى فهو محاسبهم ومجازيهم وأما أنا فلست بمحاسب ولا مجاز (لو تشعرون) أى لو كان لكم نوع شعور لعلمتم ذلك فلم تقولوا ما قلتم مما هو دائر على أمور الدنيا فقط ولا نظر له الى يوم الحساب فان الغنى غنى الدين والنسب نسب التقوى * ولما أوهم قولهم هذا استدعاء طرد هؤلاء الذين آمنوا معه وتوقيف ايمانهم عليه حيث جعلوا اتباعهم المانع عنه اجابهم بقوله عليه السلام (وما) أى ولست (أنا بطارد المؤمنين) أى الذين صار الايمان لهم وصفا راسخا فلم يرتدوا عنه للطمع فى ايمانكم ولا لغيره من اتباع شهواتكم ثم علل ذلك بقوله (ان أنا الا نذير) أى محذر لا وكيل فاتش على البواطن ولا متعنت على الاتباع (مبين) أوضح ما أرسلت به فلا أدع فيه لبسا وقرأ قالون بمد أنا فى الوصل بخلاف عنه والباقون بالقصر ولما أجابهم بهذا الجواب وقد أيسوا مما راموه لم يكن منهم الا التهديد بأن (قالوا لئن لم تنته) ثم سموه باسمه جفاء وقلة أدب بقولهم (يا نوح) عما تقول (لتكونن من المرجومين) قال مقاتل والكلبى من المقتولين بالحجارة وقال الضحاك من المشتومين فعند ذلك حصل اليأس لنوح عليه السلام من فلاحهم فلذلك (قال) شاكيا الى الله ما هو أعلم به منه توطئة للدعاء عليهم معرضا عن تهديدهم له صبرا واحتسابا لانه من لازم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر (رب) أى أيها المحسن الى (ان قومى كذبون) أى فيما جئت به فليس الغرض من هذا اخبار الله بالتكذيب لعلمه بأنه عالم الغيب والشهادة ولكنه أراد لا أدعوك عليهم لما آذونى وانما أدعوك لاجلك ولاجل دينك ولانهم كذبوك فى وحيك ورسالتك (فافتح) أى احكم (بينى وبينهم فتحا) أى حكما يكون لى فيه فرج وبه من المضيق مخرج فاهلك المبطلين (ونجنى ومن معى) أى فى الدين (من المؤمنين) مما تعذب به الكافرين ثم لما كان فى اهلاكهم وانجائه من بديع الصنع ما يجل عن الوصف أظهره فى مظهر العظمة بقوله تعالى (فأنجيناه ومن معه) أى الذين اتبعوه فى الدين على ضعفهم وقلتهم (فى الفلك) أى السفينة وجمعه فلك قال الله تعالى وترى الفلك فيه مواخر فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد وقال تعالى (المشحون) أى الموقور المملوء من الناس والطير والحيوان لان سلامة المملوء جدا أغرب ولما كان اغراقهم كلهم من الغرائب عظمه باداة البعد فقال تعالى (ثم أغرقنا بعد) أى بعد انجاء نوح ومن معه (الباقين) أى من بقى على الارض ولم يركب معه فى السفينة على قوتهم وكثرتهم (ان فى ذلك) أى الامر العظيم من الدعاء والامهال ثم الانجاء والاهلاك (لآية) أى عظة لمن شاهد ذلك أو سمع به (وما) أى والحال انه ما (كان أكثرهم) أى العالمين بذلك (مؤمنين) وقد كان ينبغى لهم اذ فاتهم الايمان بمحض الدليل أن يبادروا بالايمان حين رأوا أوائل العذاب (وان ربك) المحسن

اليك بارسالك وتكثيراً تباعك وتعظيم اشياعك (لهو العزيز) أى القادر بعزته على كل من قسرهم على الطاعة واهلاكهم فى أول أوقات المعصية (الرحيم) أى الذى يخص من شاء من عباده بخالص وداده * ولما فرغ من ذكر قصة نوح عليه السلام شرع فى قصة هود عليه السلام وهى القصة الرابعة فقال تعالى (كذبت عاد) أى تلك القبيلة التى مكن الله تعالى لها فى الارض بعد قوم نوح (المرسلين) بالاعراض عن معجزة هود عليه السلام ثم سلى محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (اذ) أى حين (قال لهم أخوهم) أى فى النسب لافى الدين (هود) بصيغة العرض تأدبا معهم وتلطفا بهم (ألا تتقون) أى يكون منكم تقوى لربكم الذى خلقكم فتعبدونه ولا تشركون به مالا يضركم ولا ينفعكم ثم علل ذلك بقوله (انى لكم رسول) أى فهو الذى حملنى على أن أقول لكم ذلك (أمين) أى لا أكتم عنكم شيأ مما أمرت به ولا أخالف شيأ منه (فاتقوا) أى فتسبب عن ذلك أن أقول لكم اتقوا (الله) أى الذى هو أعظم من كل شئ (وأطيعون) أى فى كل ما آمركم به من طاعة الله وترك معاصيه ومخالفته ثم نفى عن نفسه التهمة فى دعائه لهم بقوله (وما) أى والحال انى ما (أسألكم عليه) أى دعائى لكم (من أجر) فتتهمونى به وانما أنا رسول داع (ان) أى ما (أجرى) أى ثوابى (الا على رب العالمين) فهو الذى يثيب العبد على عمله ولما فرغ من دعائهم الى الايمان أتبعه انكار بعض ما هم عليه لان حالهم حال الناسى لذلك الطوفان الذى أهلك الحيوان وأهدم البنيان بقوله لهم (أتبنون بكل ريع) جمع ريعة وهو فى اللغة المكان المرتفع ومنه قولهم كم ريع ارضك وهو ارتفاعها وقال ابن عباس الريع كل شرف وقال مجاهد هو الفج بين الجبلين وقال الضحاك هو كل طريق (آية) أى علامة على شدتكم لانه لو كان لهداية أو نحوها لكفى بعض ذلك ولكنكم (تعبثون) بمن يمر فى الطريق الى هود عليه السلام وتسخرون منه والجملة حال من ضمير تبنون وقيل كانوا يبنون الاماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم فنهوا عن ذلك ونسبوا الى العبث وقال سعيد بن جبير هى بروج الحمام لانهم كانوا يلعبون بالحمام ثم ذكرهم بزوال الدنيا بقوله (وتتخذون مصانع) قال مجاهد قصورا مشيدة وقال الكلبى هى الحصون وقال قتادة هى مآخذ الماء يعنى الحياض واحدها مصنعة ولما كان هذا الفعل حال الراجى للخلود قال لهم (لعلكم) أى كأنكم (تخلدون) فيها فلا تموتون ثم بين لهم أفعالهم الخبيثة بقوله (واذا بطشتم) أى أردتم البطش بأحد بضرب أو قتل (بطشتم جبارين) أى من غير رأفة قال البغوى والجبار الذى يضرب ويقتل على الغضب * (تنبيه) * انما قدرنا الارادة لئلا يتحد الشرط والجزاء وجبارين حال ولما خوفهم هود عليه السلام بهذا الانكار وهو أن اتخاذ الابنية العالية يدل على حب الدنيا واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو وهى ممتنعة الحصول للعبد وخوفهم بهذا الانكار عقاب الجبار تسبب عن ذلك قوله (فاتقوا الله) أى الذى له صفات الجلال والاكرام (وأطيعون) زيادة فى دعائهم الى الآخرة وزجرا لهم عن حب الدنيا والاشتغال بالشرف والتجبر ثم وصل هذا

الوعظ بما يؤكد القبول بأن نبههم على نعم الله تعالى عليهم بقوله (واتقوا الذي أمدكم) أي جعل لكم مددا وهو اتباع الشيء ما يقوى به على الانتظام (بما تعلمون) أي ليس فيه نوع خفاء حتى تغفلوا عن تقييده بالشكر ثم فصل ذلك المجمل بقوله (أمدكم بأنعام) تعينكم على الأعمال وتأكلون منها وتبيعون (وبنين) يعينونكم على ما تريدون عند العجز (وجنات) أي بساتين ملتفة الأشجار بحيث تستتر داخلها (وعيون) أي أنهار تشربون منها وتسقون أنعامكم وبساتينكم ثم خوفهم بقوله (إني أخاف عليكم) قال ابن عباس ان عصيتموني أي فانكم قومي يسوءني ما يسوءكم (عذاب يوم عظيم) في الدنيا والآخرة فانه كما قدر على الانعام فهو قادر على الانتقام وتعظيم اليوم أبلغ من تعظيم العذاب * ولما بالغ عليه السلام في وعظهم وتنبيههم على نعم الله تعالى حيث أجملها ثم فصلها مستشهدا بعلمهم وذلك انه أيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حين قال أمدكم بما تعلمون ثم عددها عليهم وعرفهم المنعم بتعديد ما يعلمون من نعمته وانه كما قدر أن يتفضل عليكم بهذه النعمة قادر على الانتقام منكم ولم يتدبروا الله تعالى هداهم (قالوا) له راضين بما هم عليه (سواء علينا أوعظت) أي خوفت وحذرت (أم لم تكن من الواعظين) فانا لا نرعوي عما نحن فيه (فان قيل) لو قيل أوعظت أم لم تعظ كان أخصر والمعنى واحد (أجيب) بأن ذلك لتواخي القوافي أولان المعنى ليس واحدا بل بينهما فرق لان المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلا من أهله ومباشريه فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ وقرأ قوله تعالى (ان) أي ما (هذا) أي الذي جئتنا به (الا خلق الاولين) نافع وابن عامر وعاصم وحمزة بضم الخاء واللام أي ما هذا الذي نحن فيه الا عادة الاولين في حياة ناس وموت آخرين وعافية قوم وبلاء آخرين وقرأ الباقون بضم الخاء وسكون اللام أي ما هذا الا كذب الاولين (وما نحن بمعذبين) أي على ما نحن عليه لانا أهل قوة وشجاعة ونجدة وبلاغة وبراعة * ولما تضمن هذا التكذيب تسبب عنه قوله تعالى (فكذبوه) ثم تسبب عن تكذيبهم قوله تعالى (فأهلكناهم) في الدنيا بريح صرصر وسيأتي بيانه ان شاء الله تعالى في سورة الحاقة (ان في ذلك) أي الاهلاك في كل قرن للمكذبين والانجاء للمصدقين (لآية) أي عظيمة لمن بعدهم على أنه تعالى فاعل ذلك وحده وانه مع أوليائه ومن كان معه لا يذل وانه على أعدائه ومن كان عليه لا يعز (وما كان أكثرهم) أي أكثر من كان بعدهم (مؤمنين) أي فلا تحزن أنت يا أشرف الرسل على من أعرض عن الايمان (وان ربك) أي المحسن اليك بارسالك وغيره من النعم (لهو العزيز) في انتقامه عن عصاه (الرحيم) في انعامه واكرامه واحسانه مع عصيانه وكفرانه وارسال المرسلين وتأييدهم بالآيات المعجزة * ثم اتبع قصة هود عليه السلام قصة صالح عليه السلام وهي القصة الخامسة بقوله تعالى (كذبت ثمود) وهم أهل الحجر (المرسلين) وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار المثناة عند المثلثة والباقون بالادغام وأشار تعالى الى زيادة التسلية بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تأمل ولا توقف بقوله تعالى (اذ) أي حين (قال لهم أخوهم)

أى فى النسب لا فى الدين (صالح) بصيغة العرض تأدبا معهم وتلطفا بهم كقول من تقدم قبله (ألا تتقون) الله ثم علل ذلك بقوله (انى لكم رسول) من رب العالمين فلذلك عرضت عليكم هذا لانى مأمور بذلك (أمين) فى جميع ما أرسلت به اليكم من خالقكم الذى لا أحد أرحم منه بكم ثم تسبب عن قوله انى لكم رسول قوله (فاتقوا الله) أى الذى له الغنى المطلق (وأطيعون) فيما آتيت به من عند الله ثم نفى عنه ما قد يتوهم من لا عقل له بقوله (وما أسألكم عليه) أى ما جئتكم به واغرق فى النفى بقوله (من أجر) ثم زاد فى تأكيد هذا النفى بقوله (ان) أى ما (أجرى) على أحد (الا على رب العالمين) فهو المتفضل المنعم على خلقه ثم شرع بشكر عليهم أكل خيره وعبادة غيره بقوله (أتتركون) أى من ايدى النوائب التى لا يقدر عليها الا الله تعالى (فى ماههنا) أى فى بلادكم هذه من النعم حالة كونكم (آمنين) لا تخافون وأنتم تبارزون الملك القهار بالعظائم * (فائدة) * تكتب فى ماههنا فى مقطوعة عن ما ثم فسر ما أجمله بقوله (فى جنات) أى بساتين تستر الداخل فيها وتخفيه لكثرة أشجارها (وعيون) تسقيها مع مالها من البهجة وغير ذلك من المنافع (وزروع) أى من سائر الانواع (ونخل طلعها) أى ما يطلع منها من الثمر (هضيم) قال ابن عباس هو اللطيف ومنه قولهم كشح هضيم وقيل هو الجواد الكريم من قولهم يد هضوم اذا كانت تجود بما لديها وقال أهل المعانى هو المنضم بعضه الى بعض فى وعائه قبل أن يظهر والطلع عنقود الثمر قبل خروجه من الكم وقال الزمخشرى الطلع هو الذى يطلع من النخلة كنصل السيف فى جوفه شماريخ القنو والقنو هو اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه (فان قيل) لم قال ونخل بعد قوله فى جنات والجنة تتناول النخل أول شئ كما يتناول النعم الابل كذلك من بين الازواج حتى انهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون الا النخل كما يذكرون النعم ولا يريدون الا الابل قال زهير * تسقى جنة سحقا * وسحقا جمع سحوق ولا يوصف به الا النخل (أجيب) بوجهين أحدهما أنه خص النخل بافراده بعد دخوله فى جملة سائر الشجر تنبيها على انفراده عنها بفضله عليها الثانى أن يريد بالجنات غيرها من الشجر لان اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل * ولما ذكر ما أنعم الله تعالى به عليهم أتبعه أفعالهم الخبيثة بقوله (وتنحتون) أى والحال انكم تنحتون اظهارا للقدرة (من الجبال) وقرأ (بيوتا) ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء والباقون بكسرها وقرأ (فرهين) ابن عامر والكوفيون بألف بعد الفاء أى حاذقين وقرأ الباقون بغير ألف أى بطرين لا لحاجتكم الى شئ من ذلك (فاتقوا) أى فتسبب عن ذلك أنى أقول لكم اتقوا (الله) الذى له جميع العظمة بأن تجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية باتباع أوامره واجتناب زواجره (وأطيعون) أى فى كل ما أمرتكم به عنه فانى لا آمركم الا بما يصلحكم (ولا تطيعوا أمر المسرفين) أى المجاوزين للحدود وقال ابن عباس المشركين وقال مقاتل هم التسعة الذين عقروا الناقة * (تنبيه) * استعير الطاعة التى هى انقياد للآمر لامتثال الامر أو جعل الامر مطاعا على المجاز الحكمى والمراد الآمر ومنه قولهم لك على امرة مطاعة وقوله تعالى وأطيعوا أمرى

ثم وصف المسرفين بما بين سرفهم بقوله (الذين يفسدون في الأرض) بالمعاصي (ولا يصلحون)
أي ولا يطيعون الله في أمرهم به (فإن قيل) فما فائدة ولا يصلحون بعد قوله يفسدون
(أجيب) بأن في ذلك دلالة على خلوص فسادهم فليس فيه شيء من الصلاح كما يكون حال
بعض المفسدين مخلوطا ببعض الصلاح * ولما عجزوا عن الطعن في شيء مما دعاهم إليه عدلوا إلى
التخييل على عقول الضعفاء بأن (قالوا إنما أنت من المسحرين) قال مجاهد وقتادة من
المسحورين المخدوعين أي ممن سحر مرة بعد مرة أي حتى غلب على عقله وقال الكلبي عن أبي
صالح عن ابن عباس أي من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب واستعلك وعلى هذا يكون
قولهم (ما أنت إلا بشر مثلنا) تأكيدا له قيل المسحر هو المخلوق بلغة بجيلة أي فما وجه
خصوصيتك عنا بالرسالة (فأت بآية) أي علامة تدل على صدقك (إن كنت من الصادقين)
أي الراسخين في الصدق فقال لهم صالح ما تريدون قالوا نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة
فتلد سقبا فأخذ صالح يتفكر فقال له جبريل صل ركعتين وسل ربك الناقة ففعل فخرجت
الناقة وبركت بين أيديهم ونتجت سقبا مثلها في العظم وعن أبي موسى رأيت مصدرها فإذا هو
ستون ذراعا فلما رآها (قال) لهم صالح (هذه ناقة) أخرجها ربي من الصخرة كما اقترحتم
(لها شرب) أي نصيب من الماء في يوم معلوم (ولكم شرب يوم) أي نصيب من الماء في يوم
(معلوم) لا زحام بينكم وبينها وعن قتادة إذا كان يوم شربها شربت ماءهم ولا تشرب في يومهم
ماء (ولا تمسوها بسوء) كضرب وعقر ثم خوفهم بما تسبب عن عصيانهم بقوله (فيأخذكم)
أي يهلككم (عذاب يوم عظيم) بسبب ما حل فيه من العذاب فهو أبلغ من وصف العذاب
بالعظيم وأشار إلى سرعة عصيانهم بفاء التعقيب في قوله (فعقروها) أي فقتلوها بضرب ساقها
بالسيف وأسند العقر إلى كلهم لأن عاقرها إنما عقر برضاهم فكأنهم فعلوا ذلك (فأصبحوا)
أي فتسبب عن عقرهم لها أنهم أصبحوا حين رأوا مخايل العذاب (نادمين) على عقرها من
حيث إنه يفضي إلى العقاب والهلاك لا من حيث إنه معصية الله ورسوله وليس على وجه
التوبة أو كان ذلك عند رؤية البأس فلم ينفعهم (فأخذهم العذاب) أي العذاب الموعود
على عقرها (إن في ذلك) أي ما تقدم في هذه القصة من الغرائب (لآية) أي دلالة عظيمة
على صحة ما أمروا به عن الله (وما) أي والحال أنه مع ذلك ما (كان أكثرهم مؤمنين) بل
استمروا على ما هم عليه (وإن ربك) أي المحسن إليك بأحسن الأخلاق (لهو العزيز) أي
فلا يخرج شيء عن قبضته وإرادته (الرحيم) أي في كونه لم يهلك أحدا حتى يرسل إليهم رسولا
يبين لهم ما يرضيه الله تعالى وما يسخطه * ثم اتبع قصة صالح عليه السلام قصة لوط عليه السلام
وهي القصة السادسة فقال (كذبت) أي كذب من تقدم كأنهم تواصوا به (قوم لوط
المرسلين) لأن من كذب رسولا كما مضى فقد كذب الكل ثم بين إسراعهم في الضلال بقوله
تعالى (إذ) أي حين (قال لهم أخوهم) أي في البلد لا في الدين ولا في النسب لأنه ابن أخي
إبراهيم عليهما السلام وهما من بلاد الشرق من أرض بابل وكأنه عبر بالأخوة لاختياره

لجاورتهم ومناسبتهم بمصاهرتهم واقامته بينهم فى مدينتهم مدة مديدة وسنين عديدة واتيانه بالاولاد من نسائهم مع موافقته لهم فى انه قروى ثم بينه بقوله تعالى (لوط) بصيغة العرض كغيره ممن تقدم (الاتتقون) الله فتجعلون بينكم وبين سخطه وقاية ثم علل ذلك بقوله (انى لكم) أى خاصة (رسول) فلا تسعنى المخالفة (أمين) لا غش عندى ولا خيانة ثم تسبب عن ذلك قوله (فاتقوا الله) أى الملك العظيم فانه قادر على ما يريد فلا تعصوه (وأطيعون) أى لان طاعتى سبب نجاتكم لانى لا آمركم الا بما يرضيه ولا أنهاكم الا عما يغضبه ثم نفى عن نفسه ما يتوهم كما تقدم لغيره بقوله (وما أسألكم عليه) أى الدعاء الى الله تعالى (من أجر) أى فتتهمونى بسببه (ان أجرى الا على رب العالمين) أى المحسن الى بايجادكم ثم بتربيتكم ثم وبخهم ووعظهم بقوله (أتأتون الذكران) وقوله (من العالمين) يحتمل عوده الى الآتى أى أنتم من جملة العالمين مخصوصون بهذه الصفة وهى اتيان الذكور لم يفعل هذا الفعل غيركم من الناكحين من الخلق ويحتمل عوده الى المأتى أى أنتم اخترتم الذكران من العالمين كالاناث منهم وعلى هذا يحتمل أن يراد الذكران من الآدميين ومن غيرهم توغلا فى الشر وتجاهرا بالتهتك قال البقاعى وان يراد الآدميون وجرى عليه البغوى وأكثر المفسرين أى تريدون الذكران من أولاد آدم مع كثرة الاناث وغلبتهن (وتذرون) أى تتركون لهذا الغرض (ما خلق لكم) أى للنكاح (ربكم) أى المحسن اليكم وقوله (من أزواجكم) يصلح أن يكون تبيينا أى وهن الاناث وأن يكون للتبعيض ويكون المخلوق لذلك هو القبل وكانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم ثم كأنهم قالوا نحن لم نترك نساءنا أصلا ورأسا وان كانوا قد فهموا ان مراده تركهن حال الفعل فى الذكور فقال مضربا عن مقالهم لما أرادوا به حيدة عن الحق وتماديا فى الفجور (بل أنتم قوم عادون) أى متجاوزن عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل والحيوانات أى مفرطون فى المعاصى وهذا من جملة ذلك أو أحقاء بأن توصفوا بالعدوان بارتكابكم هذه الجريمة ولما اتضح الحق عندهم وعرفوا ان لا وجه لهم فى ذلك وانقطعت حجتهم (قالوا) مقسمين (لئن لم تنته) وسموه باسمه جفاء وغلظة بقولهم (يا لوط) أى عن مثل انكارك هذا علينا (لتكونن من المخرجين) أى ممن أخرجناه من بلدنا على وجه فظيع من تعنيف واحتباس املاك كما هو حال الظلمة اذا أجلوا بعض من يغضبون عليه وكما كان يفعل بعض أهل مكة بمن يريد المهاجرة وفى هذا اشارة الى أنه غريب عندهم وان عادتهم المستمرة نفى من اعترض عليهم (قال) مجيبا لهم (انى) مؤكدا لمضمون ما يأتى به (لعملكم من القالين) أى المبغضين غاية البغض لا أقف عن الانكار عليه بالابعاد * (تنبيه) * قوله من القالين ابلغ من أن يقول انى لعملكم قال كما تقول فلان من العلماء فيكون أبلغ من قولك فلان عالم لانك تشهد له بكونه معدودا فى زمرتهم ومعروفة مساهمته لهم فى العلم والقلى البغض الشديد كان البغض يقلى الفؤاد والكبد والقالى المبغض كما قال القائل

وو الله ما فارقتكم قاليا لكم * ولكن ما يقضى على يكون

ثم انه عليه السلام دعا الى الله تعالى بقوله (رب نجنى وأهلى) وقوله (مما يعملون) يحتمل أن يريد من عقوبة عملهم قال الزمخشرى وهو الظاهر ويحتمل أن يريد بالتنجية العصمة ثم ان الله تعالى قبل دعاءه كما قال تعالى (فنجيناه وأهله) مما عذبناهم به باخراجنا لهم من بلدهم حين استحقاقهم له ولم نؤخره عنهم الى حين خروجهم الا لاجله وأكد بقوله تعالى (أجمعين) اشارة الى أنه نجى أهل بيته ومن تبعه على دينه ثم استثنى تعالى من أهل بيته قوله تعالى (الا عجوزا) وهى امرأته كائنة (فى) حكم (الغابرين) أى الماكثين الذين تلحقهم الغبرة بما يكون من الداهية فانها لم ننجها القضاء بذلك فى الازل لكونها لم تتابعه فى الدين ولم تخرج معه وكانت مائلة الى القوم راضية بفعلهم وقيل انها خرجت فأصابها حجر فى الطريق فأهلكها (فان قيل) كان أهله مؤمنين ولولا ذلك لما طلب لهم النجاة فكيف استثنيت الكافرة منهم (أجيب) بأن الاستثناء انما وقع من أهل بيته كما مرت الاشارة اليه وفى هذا الاسم لها معهم مشركة بحق الزواج وان لم تشاركهم فى الايمان (فان قيل) فى الغابرين صفة لها كأنه قيل الا عجوزا فى الغابرين غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم (أجيب) بان معناه الا عجوزا مقدرا غبورها أو فى حكمهم كما مرت الاشارة اليه (ثم دمرنا) أى أهلكنا (الآخرين) أى المؤخرين عن اتباع لوط وفى التعبير بلفظ الآخرين اشارة الى تأخرهم من كل وجه ثم لما كان المراد بقوله تعالى دمرنا حكمنا بتدميرهم عطف عليه قوله (وأمطرنا عليهم مطرا) قال وهب ابن منبه الكبريت والنار وقال قتادة أمطر الله تعالى على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكتهم (فساء مطر المنذرين) اللام فيه للجنس حتى يصح وقوع المضاف الى المنذرين فاعل ساء وذلك لان فاعل فعل الذم أو المدح يجب ان يكون معرفا بلام الجنس أو مضافا الى المعرف بلام الجنس ليحصل الابهام المقصود ثم التفصيل ولا يأتى ذلك فى لام العهد والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم (ان فى ذلك) أى انجاء لوط ومن معه واهلاك هؤلاء الكفار الفجار (لآية) أى دلالة عظيمة على ما يصدق الرسل فى جميع ترغيبهم وترهيبهم ولما كان من أتى بعد هذه الامم كقريش ومن بعدهم قد علموا أخبارهم وضموا الى تلك الاخبار نظر الديار والتوسم فى الآثار قال تعجيبا من حالهم فى ضلالهم (وما) أى والحال انه ما (كان أكثرهم مؤمنين) بما وقع لهؤلاء (وان ربك) وحده (لهو العزيز) أى فى بطشه لاعدائه (الرحيم) فى لطفه بأوليائه ثم اتبع قصة لوط عليه السلام بقصة شعيب عليه السلام وهى القصة السابعة قال تعالى (كذب أصحاب الايكة) أى الغيضة ذات الارض الجيدة التى تبتلع الماء فتنبت الشجر الكثير الملتف (المرسلين) لتكذيبهم شعيبا عليه السلام فيما أتى به من المعجزة المساوية فى خرق العادة وعجز المتحدين بها عن مقاومتها لبقية المعجزات الآتى بها الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر ليكة بلام مفتوحة من غير ألف وصل وياء ساكنة ولا همزة قبلها وفتح تاء التأنيث والباقون باسكان اللام وقبلها وصل وبعد اللام همزة مفتوحة بعدها ياء ساكنة وخفض تاء التأنيث قال أبو عبيدة وجدنا فى بعض التفاسير الفرق

بين ايكة والايكة فقيل ايكة هو اسم للقرية التى كانوا فيها والايكة البلاد كلها فصارا لفرق بينهما شبيها بما بين مكة وبكة ثم بين تعالى وقت تكذيبهم بقوله تعالى (اذ) أى حين (قال لهم شعيب) برفق ولطف (الا تتقون) الله الذى تفضل عليكم بنعمه ولم يقل أخوهم شعيب لانه لم يكن من أهل الايكة فى النسب لانهم كانوا أهل بدو وكان عليه السلام قرويا لان الله تعالى لم يرسل نبيا الامن أهل القرى تشريفا لهم لان البركة والحكمة فى الاجتماع ولذلك نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن التعرب بعد الهجرة وقال من يرد الله به خيرا ينقله من البادية الى الحاضرة ولما ذكر مدين قال أخاهم شعيبا لانه كان منهم وكان الله تعالى بعثه الى قومه أهل مدين وأصحاب الايكة ثم أكد ما قاله بقوله (انى) وأشار الى تبشيرهم ان أطاعوه بقوله (لكم رسول) أى من عند الله فهو أمرنى أن أقول لكم ذلك (أمين) أى لا خيانة عندى ولا غش فلذلك أبلغ جميع ما أرسلت به ولذلك تسبب عنه قوله (فاتقوا الله) أى المحسن اليكم بهذه الغيضة وغيرها (وأطيعون) لما ثبت من نصحى لكم ثم ذكر ماذكر من تقدمه من الانبياء من نفى ما يتوهم ان لهم رغبة فى أجرة على دعائهم فقال (وما أسألكم عليه) أى دعائى لكم الى الايمان بالله تعالى (من أجر) ثم زاد فى البراءة من الطمع فى أحد من الخلق بقوله (ان) أى ما (أجرى الا على رب العالمين) أى المحسن الى الخلائق كلهم فأنا لا أرجو أحدا سواه ثم نصحهم بقوله (أوفوا الكيل) أى أتموه اتماما لاشبهة فيه اذا كلتم كما توفونه اذا اكتلتم (ولا تكونوا من المخسرين) أى الناقصين لحقوق الناس فى الكيل والوزن كما قال تعالى ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون أى الكيل واذا كالوهم أى كالوا لهم اووزنوهم أى وزنوا لهم يخسرون ينقصون الكيل أو الوزن (وزنوا) أى لانفسكم ولغيركم (بالقسطاس) أى الميزان الاقوم وأكد معناه بقوله (المستقيم) وقيل هو بالرومية العدل وقرأ حمزة والكسائى وحفص بكسر القاف والباقون بالضم *(تنبيه)* الكيل على ثلاثة أضرب واف وطفيف وزائد فأمر بالواجب الذى هو الايفاء بقوله تعالى أوفوا الكيل ونهى عن المحرم الذى هو التطفيف بقوله تعالى ولا تكونوا من المخسرين ولم يذكر الزائد لانه ان فعله فقد أحسن وان لم يفعله فلا اثم عليه والوزن فى ذلك كالكيل ولهذا عمم فى النهى عن النقص بقوله (ولا تبخسوا) أى تنقصوا (الناس أشياءهم) أى فى كيل أووزن أوغير ذلك ثم اتبع ذلك بما هو أعم بقوله (ولا تعثوا) أى لا تتصرفوا (فى الارض) من غير تأمل حال كونكم (مفسدين) أى فى المال أوغير ذلك كقطع الطريق والقتل ثم خوفهم بعد ان وعظهم ونهاهم عن الفساد من سطوة الجبار ما حل بمن هو أعظم منهم بقوله (واتقوا الذى خلقكم) أى من نطفة فاعدامكم أهون شئ عليه وأشار الى ضعفهم وقوة من كان قبلهم بقوله (والجبلة) أى الجماعة والامم (الاولين) الذين كانوا على خلقة وطبيعة عظيمة كأنها الجبال قوة وصلابة لاسيما قوم هود الذين بلغت بهم الشدة حتى قالوا من أشد منا قوة وقد أخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ثم انهم أجابوه بالقدح فى الرسالة أولا وباستصغار الوعيد ثانيا بأن

(قالوا انما أنت من المسحرين) أى الذين كرر سحرهم مرة بعد أخرى حتى اختلفوا فصار كلامهم على غير نظام أو من المعللين بالطعام والشراب كما مضى فى صالح عليه السلام أى فأنت بعيد عن الصلاحية للرسالة ثم أشاروا الى عدم صلاحية البشر لها مطلقا ولو كانوا أعقل الناس بقولهم (وما أنت الا بشر مثلنا) أى فلا وجه لتخصيصك عنا بذلك وأتوا بالواو للدلالة على أنه جامع بين وصفين مناقضين منافيين للرسالة مبالغة فى تكذيبه ولهذا قالوا (وان نظنك لمن الكاذبين) أى فى دعواك *(تنبيه)* مذهب البصريين ان ان هذه هى المخففة من الثقيلة أى وانا نظنك والذى يقتضيه السياق ترجيح مذهب الكوفيين هنا فى أن ان نافية فانهم أرادوا باثبات الواو فى وما أنت المبالغة فى نفى الرسالة بتعداد ما ينافيه فيكون مرادهم أنه ليس الظن يتوجه الى غير الكذب وهو أبلغ من اثبات الظن به ثم ان شعيبا عليه السلام كان توعدهم بالعذاب ان لم يؤمنوا فقالوا (فأسقط علينا كسفا) أى قطعا (من السماء) أى السحاب أو الحقيقة (ان كنت من الصادقين) أى العريقين فى الصدق المشهورين فيما بين أهله لنصدقك فيما لزم من أمرك لنا باتخاذ الوقاية من العذاب *(تنبيه)* انظر الى حسن نظر شعيب عليه السلام كيف هددهم بما لله عليهم من القدرة فى خلقهم وخلق من كانوا أشد منهم قوة واهلاكهم بأنواع العذاب لما عصوه بتكذيب رسلهم وقرأ حفص بفتح السين والباقون بالسكون وهنا همزتان مكسورتان فقالون والبزى يسهل الهمزة الاولى مع المد والقصر وأسقطها أبو عمرو مع المد والباقون بتحقيق الاولى (قال) لهم شعيب فى جوابهم (ربى أعلم بما تعملون) فيجازيكم به فان شاء عجل لكم العذاب وان شاء أخره الى أجل معلوم وأما أنا فليس على الا البلاغ وأنا مأمور به فلم أخوفكم من نفسى ولا ادعيت قدرة على عذابكم فطلبكم ذلك منى مضموم الى ظلمكم بالتكذيب (فكذبوه) أى استمروا على تكذيبه (فأخذهم) أى فتسبب عن تكذيبهم ان أخذهم (عذاب يوم الظلة) وهى سحابة على نحو ما طلبوا من قطع السماء روى ان الله تعالى حبس عنهم الريح سبعا وسلط عليهم الرمض وهو شدة الحر مع سكون الريح فأخذ بانفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا شراب فاضطروا الى أن خرجوا الى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا وروى أن شعيبا بعث الى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الايكة فأهلكت مدين بصيحة جبريل وأصحاب الايكة بعذاب يوم الظلة (انه كان عذاب يوم عظيم) وقدمنا أن تعظيم اليوم أبلغ من تعظيم العذاب (ان فى ذلك) أى الامر العظيم من الانجاء المطرد لكل رسول ومن أطاعه والاخذ المطرد لمن عصاه فى كل عصر بكل قطر بحيث لا يشذ من الفريقين انسان قاص ولا دان (لآية) أى دلالة واضحة عظيمة على صدق الرسل وأن يكونوا جديرين بتصديق العباد لهم فى جميع ما قالوه من البشائر والنذائر بأن الله تعالى يهلك من عصاه وينجى من والاه لانه الفاعل المختار لما يريد (وما كان أكثرهم) أى أكثر قومك كما كان من قبلهم (مؤمنين) مع أنك قد أتيت قومك بما لا يكون معه شك لو لم يكن لهم بك معرفة قبل ذلك فكيف وهم عارفون بأنك كنت قبل الرسالة

أصدقهم لهجة وأعظمهم أمانة وأغزرهم عقلا وأعلاهم همة وأبعدهم عن كل ذي دنس (وإن ربك) أي المحسن اليك بكل مايعلي شانك ويوضح برهانك (لهو العزيز) فلا يعجزه أحد (الرحيم) بالامهال لكي يؤمنوا أو أحد من ذريتهم وهذا آخر القصص السبع المذكورة على سبيل الاختصار تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديدا للمكذبين له (فان قيل) كيف كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر (أجيب) بأن كل قصة منها كتنزيل برأسه وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها فكانت كل واحدة منها تدلي بحق على أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها وأن تختتم بما ختمت به ولان في التكرير تقريرا للمعاني في الانفس وتثبيتا لها في الصدور ألا ترى أنه لا طريق الى تحفظ العلوم الا بترديد ما يراد حفظه منها وكلما ازداد ترديده كان أمكن في القلب وأرسخ في الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان ولان هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الانصات للحق وقلوب غلف عن تدبره فكوثرت بالوعظ والتذكير وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذنا أو يشق ذهنا أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدا وفي ذلك دلالة على أن البعثة مقصورة على الدعاء الى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو الى ثوابه ويبعده عن عقابه وأن الانبياء متفقون على ذلك وان اختلفوا في بعض التفاريع مبرؤن عن المطامع الدينية والاغراض الدنيوية ولما ذكر الله تعالى قصص الانبياء عليهم السلام أتبعه بما يدل على نبوته صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وانه) أي الذكر الذي أتاهم بهذه الاخبار وهم عنه معرضون وله تاركون (لتنزيل رب العالمين) أي الذي رباهم بشمول علمه وعظيم قدرته بما يعجز عن أقل شئ منه غيره (نزل به) أي نجوما على سبيل التدريج من الافق الاعلى الذي هو محل البركات وعبر عن جبريل عليه السلام بقوله (الروح) دلالة على أنه مادة خير وأن الارواح تحيا بما ينزله من الهدى وقال تعالى (الامين) اشارة الى كونه عليه السلام معصوما من كل دنس فلا يمكن منه خيانة (على قلبك) يا أشرف الرسل ففي هذا تقرير لحقية تلك القصص وتنبيه على اعجاز القرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن الاخبار عنها ممن لم يتعلمها لا يكون الا وحيا من الله تعالى وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص بتخفيف الزاي والروح الامين برفعهما والباقون بتشديد الزاي والروح الامين بنصبهما (فان قيل) لم قال على قلبك وهو انما نزل عليه (أجيب) بأنه ذكر ليؤكد أن ذلك المنزل محفوظ والرسول متمكن من قلبه لا يجوز عليه التغير ولان القلب هو المخاطب في الحقيقة لانه موضع التمييز والاختيار وأما سائر الاعضاء فمسخرة له ويدل على ذلك الكتاب والسنة والمعقول فمن الكتاب قوله تعالى نزل به الروح الامين على قلبك واستحقاق الجزاء ليس الا على ما في القلب قال الله تعالى لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم ألا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ومن المعقول أن القلب اذا غشي عليه وقطع سائر الاعضاء لم يحصل به الشعور واذا أفاق القلب شعر بجميع ما ينزل بالاعضاء من الآفات واذا فرح

القلب أو حزن تغير حال الاعضاء عند ذلك ولان المعاني الروحانية انما تنزل أولا على الروح ثم تنتقل منه الى القلب لما بينهما من التعلق ثم تصعد منه الى الدماغ فينتقش منه لوح المخيلة ولما كان السياق في هذه السورة للتحذير قال تعالى معللا للجملة التي قبله (لتكون من المنذرين) أي المخوفين المحذرين لمن أعرض عن الايمان وفعل ما نهى عنه من المعاصي وقوله تعالى (بلسان عربي) يجوز أن يتعلق بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة هود وصالح وشعيب واسمعيل ومحمد صلى الله عليه وسلم ويجوز أن يتعلق بنزل فيكون المعنى نزله باللسان العربي لينذر به لانه لو نزله باللسان الاعجمي لتجافوا عنه أصلا ولقالوا ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الانذار به قال ابن عباس بلسان قرشي ليفهموا ما فيه ولما كان في العربي ما قد يشكل على بعض العرب قال تعالى (مبين) أي بين في نفسه كاشف لما يراد منه غير تارك لبسا عند من تدبره على ما يتعارفه العرب في مخاطباتها من سائر لغاتها بحقائقها ومجازاتها على اتساع اراداتها وتباعد مراميها في محاوراتها وحسن مقاصدها في كناياتها واستعاراتها ومن يحيط بذلك حق الاحاطة غير العليم الحكيم الخبير البصير ولما كان الاستكثار من الادلة مما يسكن النفوس وتطمئن به القلوب قال تعالى (وانه) أي هذا القرآن أصوله وكثيرا من قصصه وأمهات فروعه (لفي زبر) أي كتب (الاولين) كالتوراة والانجيل وقيل وانه اي محمدا ونعته لفي كتب الاولين (أولم يكن لهم) أي لكفار مكة ذلك (آية) أي على صحة القرآن أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن عامر بالتاء الفوقية ورفع آية على أنها الاسم والخبر لهم والباقون بالياء التحتية ونصب آية على أنها خبر وقوله تعالى (أن يعلمه) اي هذا الذي يأتي به نبينا من عندنا هو اسمها (علماء بني اسرائيل) أي يعرفونه بنعته المذكور في كتبهم والمعنى أولم يكن لهؤلاء المنكرين علم بني اسرائيل علامة ودلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لان العلماء الذين كانوا من بني اسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم كعبد الله بن سلام وابن يامين وثعلبة وأسد وأسيد قال الله تعالى واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين قال ابن عباس بعث أهل مكة الى اليهود بالمدينة فسألوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا ان هذا لزمانه وانا نجد في التوراة نعته وصفته فكان ذلك آية على صدقه * (فائدة) * خط في المصحف علمؤا بواو قيل الالف على لغة من يميل الالف الى الواو وعلى هذه اللغة كتبت الصلوة والزكوة والربوا قال الله تعالى (ولو نزلناه) أي القرآن على ما هو عليه من الحكمة والاعجاز (على بعض الاعجمين) أي على رجل ليس بعربي اللسان أو بلغة العجم (فقرأه عليهم) أي كفار مكة (ما كانوا به مؤمنين) لفرط عنادهم واستكبارهم أو لعدم فهمهم واستنكافهم من اتباع العجم وقالوا ما نفقه قولك وجعلوه عذرا لجحودهم ونظيره ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته * (تنبيه) * الاعجمين جمع أعجمي بياء النسب على التخفيف بحذفها من الجمع ولكونه جمع أعجمي جمع جمع سلامة لانه حينئذ ليس من باب أفعل فعلاء بخلاف ما لو كان جمع أعجم فان مؤنثه عجماء بوزن أفعل فعلاء وهو عند البصريين لا يجمع هذا الجمع الا لضرورة كقوله

* حلائل أسودين واحمرين * وقال ابن عطية جمع أعجم يقال الاعجمون جمع أعجم وهو الذى لا يفصح وان كان عربى النسب يقال له أعجم وذلك يقال للحيوانات ومنه قوله صلى الله عليه وسلم جرح العجماء جبار وأسند الطبرى عن عبد الله بن مطيع أنه كان واقفا بعرفة وتحته جمل فقال جملى هذا أعجم ولو أنه أنزل عليهم ما كانوا يؤمنون ولما كان ذلك محل تعجب وكانه ربما ظن له أن الامر على خلاف حقيقته قرر مضمونه وحققه بقوله تعالى (كذلك) أى مثل ادخالنا التكذيب به بقراءة الاعجم (سلكناه) قال ابن عباس والحسن ومجاهد أدخلنا الشرك والتكذيب (فى قلوب المجرمين) أى كفار مكة بقراءة النبى صلى الله عليه وسلم وهذا يدل على أن الكل بقضاء الله تعالى وقدره وقيل الضمير فى سلكناه عائد الى القرآن قال ابن عادل وهو الظاهر أى سلكناه فى قلوب المجرمين كما سلكناه فى قلوب المؤمنين ومع ذلك لم ينجع فيهم وفى جملة (لا يؤمنون به) وجهان أحدهما الاستئناف على جهة البيان والايضاح لما قبله والثانى أنها حال من الضمير فى سلكناه أى سلكناه غير مؤمن به أى من أجل ما جبلوا عليه من الاجرام وجعل على قلوبهم من الطبع والختام (حتى يروا العذاب الاليم) أى الملجئ للايمان فحينئذ يؤمنون حيث لا ينفعهم الايمان ويطلبون الامان حيث لا أمان ولما كان اتيان الشرّ فجأة أشدّ قال تعالى (فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) باتيانه (فيقولوا) أى تأسفا واستسلاما وتلهفا فى تلك الحالة لعلمهم بأنه لا طاقة به بوجه (هل نحن منظرون) أى منسوح لنا فى آجالنا فنسمع ونطيع (فان قيل) ما معنى التعقيب فى فيأتيهم بغتة فيقولوا (أجيب) بأنه ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته وسؤال النظرة فى الوجود وانما المعنى ترتبها فى الشدة كأنه قيل لا يؤمنون بالقرآن حتى يكون رؤيتهم للعذاب عما هو أشد منها وهو لحوقه بهم مفاجأة عما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة مثال ذلك أن تقول لمن تعظه ان أسأت مقتك الصالحون فمقتك الله فانه لا يقصد بهذا الترتيب ان مقت الله يوجد عقب مقت الصالحين وانما قصدك الى ترتيب شدة الامر على المسىء فانه يحصل له بسبب الاساءة مقت الصالحين عما هو أشد من مقتهم وهو مقت الله وترى ثم تقع فى هذا الاسلوب فيحمل موقعها * ولما أوعدهم النبى صلى الله عليه وسلم بالعذاب قالوا الى متى توعدنا بالعذاب ومتى هذا العذاب قال الله تعالى (أفبعذابنا) أى وقد تبين لهم كيف أخذه للامم الماضية والقرون الخالية والاقوام العاتية (يستعجلون) أى بقولهم أمطر علينا حجارة أسقط علينا كسفا من السماء ونحو ذلك (أفرأيت) أى هب أن الامر كما يعتقدون من طول عيشهم فى النعيم فأخبرنى (ان متعناهم) أى فى الدنيا برغد العيش وصافى الحياة (سنين ثم جاءهم) أى بعد تلك السنين المتطاولة والدهور المتواصلة (ما كانوا يوعدون) من العذاب (ما) أى أى شئ (أغنى عنهم) أى فيما أخذهم من العذاب (ما كانوا يمتعون) برفع العذاب أو تخفيفه أى لم يغن عنهم طول التمتع شيأ ويكون كأنهم لم يكونوا فى نعيم قط وعن ميمون بن مهران انه لقى الحسن فى الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له عظنى فلم يزد على تلاوة هذه الآية فقال له ميمون لقد وعظت فأبلغت (وما أهلكنا من قرية) أى من القرى السالفة بعذاب الاستئصال (الا لها منذرون) اى رسولهم

ومن تبعه من أمته ومن سمعوا من الرسل بأخبارهم مع أممهم من قبلهم ثم علل الانذار بقوله تعالى (ذكرى) أى تنبيها اعظاما على ما فيه النجاة أو جعل المنذرين نفس الذكرى كما قال تعالى قد أنزلنا اليكم ذكرا رسولا وذلك اشارة الى امعانهم فى التذكير حتى صاروا اياه (وما كنا ظالمين) أى فى اهلاك شئ منها لانهم كفروا وانعمنا وعبدوا وأغيرنا بعد الاعذار اليهم ومتابعة الحجج ومواصلة الوعيد * (تنبيه) * الواو فى قوله وما كانوا والحال من نون أهلكنا (فان قيل) كيف عزلت الواو عن الجملة بعد الا ولم تعزل عنها فى قوله تعالى وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم (أجيب) بأن الاصل عزل الواو لان الجملة صفة لقرية واذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف كما فى قوله تعالى سبعة وثامنهم كلبهم ولما كان الكفرة يقولون ان محمدا كاهن وما يتنزل عليه من جنس ما تتنزل به الشياطين أكذبهم الله سبحانه وتعالى بقوله (وما تنزلت به الشياطين) أى لكونه سحرا أو كهانة أو شعرا أو أضغاث أحلام كما يقولون (وما ينبغى) أى وما يصح (لهم) أن يتنزلوا به (وما يستطيعون) أى التنزل به وان اشتدت معالجتهم على تقدير أن يكون لهم قابلية لذلك ثم علل هذا بقوله تعالى (انهم عن السمع) أى لكلام الملائكة (لمعزولون) أى محجوبون بالشهب ولما كان القرآن داعيا الى الله تعالى ناهيا عن عبادة غيره تسبب عن ذلك قوله تعالى (فلا تدع مع الله) أى الحائز لكمال الصفات (الها آخر فتكون) أى فيتسبب عن ذلك أن تكون (من المعذبين) من القادر على ما يريد بأيسر أمر وأسهله وهذا خطاب لنبيه صلى الله عليه وسلم والمراد غيره لانه معصوم من ذلك قال ابن عباس يحذر به غيره يقول أنت أكرم الخلق لدى وأعزهم على ولئن اتخذت الها غيرى لأعذبنك فيكون الوعيد أزجر له ويكون هو أقبل وروى محمد بن اسحق بسنده عن على رضى الله عنه أنه قال لما نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم (وأنذر عشيرتك الاقربين) دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا على ان الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الاقربين وضقت بذلك ذرعا وعرفت أنى متى أناديهم بهذا الامر أرى منهم ما أكره فصمت عليها حتى جاءنى جبريل فقال يا محمد إلا تفعل ما تؤمر يعذبك ربك فاصنع لى صاعا من طعام واجعل عليه رجل شاة واملأ لنا عسا من لبن ثم اجمع بنى عبد المطلب حتى أبلغهم ما أمرت به ففعلت ما أمرنى به ثم دعوتهم اليه وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون رجلا فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا دعانى بالطعام الذى صنعته فجئت به فلما وضعته تناول صلى الله عليه وسلم جذبة من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها فى نواحى الصحفة ثم قال كلوا بسم الله فأكل القوم حتى مالهم بشئ من حاجة وايم الله ان كان الرجل الواحد منهم ليأكل مثل ما قدمت لجميعهم ثم قال اسق القوم فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا جميعا وايم الله ان كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بادره أبو لهب فقال سحركم محمد صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا على ان هذا الرجل قد سبقنى الى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل أن أكلمهم فأعدلنا الطعام مثل ما صنعت ثم اجمعهم ففعلت ثم جمعتهم

ثم دعاني بالطعام فقدمته ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يابني عبد المطلب اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله ان أدعوكم اليه فأيكم يوازرني على أمري ويكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم فأحجم القوم عنها جميعا فقلت وأنا أحدثهم سنا أنا يارسول الله أكون وزيرك عليه قال فأخذ برقبتي ثم قال ان هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا وأطيعوا فقام القوم يضحكون ويقولون لابي طالب قد أمرك أن تسمع لعلي وتطيع وعن ابن عباس لما نزلت وأنذر عشيرتك الاقربين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فجعل ينادي يابني فهر يابني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل اذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ماهو فجاء أبو لهب وقريش فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي قالوا نعم ماجربنا عليك الا الصدق قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد قال أبو لهب تبا لك ما جمعتنا الا لهذا ثم قام فنزلت تبت أي خسرت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب وفي رواية فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف ياصباحاه فقالوا من هذا فاجتمعوا اليه فقال أرأيتم ان أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي الى آخر مامر وعن أبي هريرة قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله هذه الآية فقال يامعشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيأ يابني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيأ ياعباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيأ ياصفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيأ ويافاطمة بنت محمد سلي ماشئت من مالي لا أغني عنك من الله شيأ وروى أبو يعلى عن الزبير بن العوام أن قريشا جاءته فحذرهم وأنذرهم فسألوه آيات سليمان في الريح وداود في الجبال وعيسى في احياء الموتى ونحو ذلك وأن يسير الجبال ويفجر الانهار ويجعل الصخرة ذهبا فأوحى الله تعالى اليه وهم عنده فلما سرى عنه أخبرهم أن أعطى ماسألوه ولكنه ان أراهم فكفروا عوجلوا فاختار صلى الله عليه وسلم الصبر عليهم ليدخلهم الله باب الرحمة فلما كانت النذارة انما هي للمشركين أمر بضدها الاضدادهم بقوله تعالى (واخفض جناحك) أي لن غاية اللين وذلك لان الطائر اذا أراد أن يرتفع رفع جناحيه واذا أراد أن ينحط كسرهما وخفضهما فجعل ذلك مثلا في التواضع ومنه قول بعضهم

وأنت الشهير بخفض الجناح * فلا تك في رفعه أجدلا

ينهاه عن التكبر بعد التواضع (لمن اتبعك من المؤمنين) أي سواء كانوا من الاقربين أم من الابعدين (فان قيل) المتبعون للرسول هم المؤمنون والمؤمنون هم المتبعون للرسول فما معنى قوله تعالى لمن اتبعك من المؤمنين (أجيب) بوجهين أحدهما أن تسميتهم قبل الدخول في الايمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك الثاني ان يريد بالمؤمنين المصدقين بألسنتهم وهم صنفان صنف صدق واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به وصنف ماوجد منه الا التصديق فقط اما أن يكونوا منافقين أو فاسقين والمنافق لا يخفض لهما الجناح فمن على هذا للتبعيض وان أريد عموم الاتباع فهي للتبيين واختلف في الواو في قوله تعالى (فان عصوك)

على أوجه أحدها أنها ضمير الكفار أى فان عصاك الكفار فى أمرك لهم بالتوحيد الثانى أنها ضمير العشيرة وهذا أقرب كما جرى عليه السلف والجلال المحلى الثالث أنها ضمير المؤمنين أى فان عصاك المؤمنون فى فروع الاسلام وبعض الاحكام بعد تصديقك والايمان برسالتك وهذا كما قال ابن عادل فى غاية البعد (فقل) أى تاركا لما كنت تعاملهم من اللين (انى برىء) أى منفصل غاية الانفصال (مما تعملون) أى من العصيان الذى أنذرمنه القرآن (وتوكل) أى فوض فى عصمتك ونجاتك وجميع أمورك (على العزيز) أى القادر على الدفع عنك والانتقام منهم (الرحيم) أى الذى نصرك عليهم برحمته وقرأ نافع وابن عامر فتوكل بالفاء على الابدال من جواب الشرط والباقون بالواو ثم أتبع الامر بالتوكل الوصف المقتضى لجميع أوصاف الكمال بقوله تعالى (الذى يراك) أى بصرا وعلما (حين تقوم) من نومك الى التهجد وقال مجاهد أى يراك أينما كنت وقال أكثر المفسرين كما قاله البغوى حين تقوم الى الصلاة أى من نوم أو غيره (و) يرى (تقلبك) فى الصلاة قائما وراكعا وساجدا (فى الساجدين) قال عكرمة عن ابن عباس أى فى المصلين وقال مقاتل مع المصلين فى الجماعة يقول يراك حين تقوم وحدك للصلاة ويراك اذا صليت مع المصلين جماعة وقال مجاهد يرى تقلب بصرك فى المصلين فانه كان يبصر من خلفه كما يبصر أمامه وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هل ترون قبلتى ههنا فوالله ما يخفى على خشوعكم ولا ركوعكم انى لأراكم من وراء ظهرى وقال عطاء عن ابن عباس أراد وتقلبك فى أصلاب الانبياء من نبى الى نبى حتى أخرجك فى هذه الامة وقيل ترددك فى تصفح الاحوال المتهجدين من أصحابك لتطلع عليهم من حيث لا يشعرون وتستبطن سرائرهم وكيف يعبدون الله وكيف يعملون لآخرتهم كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة بيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات فوجدها كبيوت الزنابير (انه هو) أى وحده (السميع) أى لجميع أقوالكم (العليم) أى بجميع ما تسرونه وتعلنونه من أعمالكم وشمول العلم يستلزم تمام القدرة فصار كأنه قال انه السميع البصير العليم القدير تثبيتا للتوكل عليه * ولما بين سبحانه وتعالى أن القرآن لا يصح أن يكون مما تنزلت به الشياطين أكد ذلك بأن بين أن محمدا صلى الله عليه وسلم لا يصح أن ينزلوا عليه من وجهين ذكرهما بقوله تعالى (هل أنبئكم) أى أخبركم خبرا جليلا نافعا فى الدين عظيم الجدوى فى الفرقان بين أولياء الرحمن واخوان الشيطان (على من تنزل) وتتردد (الشياطين) حين تسترق السمع * ولما كان كأنه قيل نعم أشار الى أحد الوجهين بقوله تعالى (تنزل) على سبيل التدريج والتردد (على كل أفاك) أى كذاب (أثيم) أى فاجر مثل مسيلمة الكذاب وغيره من الكهنة وأشار الى ثانى الوجهين بقوله تعالى (يلقون السمع) أى الآفكون يلقون السمع الى الشياطين فيتلقون وحيهم اليهم أو يلقون المسموع من الشياطين الى الناس فيضمون اليها على حسب تخيلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها كما جاء فى الحديث الكلمة يخطفها الجنى فيقرها فى أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة ولا كذلك محمد صلى

الله

الله عليه وسلم فانه أخبر عن مغيبات كثيرة لا تحصى وقد طابق كلها ويجوز أن يعود الضمير على الشياطين ومعنى القائهم السمع انصاتهم الى الملا الاعلى قبل أن يرجموا فيخطفون منهم بعض المغيبات ويوحونه الى أوليائهم أو يلقون الشئ المسموع الى الكهنة (وأكثرهم) اى الفريقين (كاذبون) أمّا الشياطين فانهم يسمعونهم مالم يسمعوا وأمّا الافاكون فانهم يفترون على الشياطين مالم يوحوا اليهم (فان قيل) كيف قال وأكثرهم كاذبون بعدما حكم عليهم أنّ كل واحد منهم أفاك (أجيب) بأنّ الافاكين هم الذين يكثرون الكذب لانهم الذين لا ينطقون الا بالكذب فأراد أنّ هؤلاء الافاكين قلّ من يصدق منهم فيما يحكى عن الجنّي وأكثرهم مفتر عليه * ولما قال الكفار لم لا يجوز أن يقال الشياطين تنزل بالقرآن على محمد كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر على الشعراء ثم انه تعالى فرق بين محمد عليه الصلاة والسلام وبين الكهنة ذكر ما يدلّ على الفرق بينه وبين الشعراء بقوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون) أى الضالون المائلون عن السنن الاقوم الى كل فساد يجرّ الى الهلاك وأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا كذلك بل هم الساجدون الباكون الزاهدون رضى الله تعالى عنهم وقرأ نافع بسكون التاء الفوقية وفتح الباء الموحدة والباقون بتشديد الفوقية وكسر الموحدة * ولما قرّر حال اتباعهم علم منه انهم هم أغوى منهم لتمسكهم فى شهوة اللقلقة باللسان حتى حسن لهم الزور والبهتان دلّ على ذلك بقوله تعالى (ألم تر) أى تعلم (أنهم) أى الشعراء ومثل حالهم بقوله تعالى (فى كل واد) من أودية القول من المدح والهجو والتشبب والرثاء والمجون وغير ذلك (يهيمون) أى يسيرون سير البهائم حائرين وعن طريق الحق حائدين كيفما جرّهم القول انجرّوا من القدح فى الانساب والتشبب بالحرم والهجو ومدح من لا يستحق المدح ونحو ذلك ولذلك قال تعالى (وانهم يقولون مالا يفعلون) أى لانهم لا يقصدونه وانما ألجأهم اليه الفنّ الذى سلكوه فأكثر أقوالهم لا حقائق لها وقيل انهم يمدحون الجود والكرم ويحثون عليه ولا يفعلونه ويذمّون البخل ويصرّون عليه ويهجون الناس بأدنى شئ صدر منهم * (تنبيه) * قال المفسرون أراد شعراء الكفار كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر مقاتل أسماءهم فقال منهم عبد الله بن الزبعرى السهمى وهبيرة بن أبى وهب المخزومى ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحى وأمية بن أبى الصلت الثقفى تكلموا بالكذب والباطل وقالوا نحن نقول كما قال محمد وقالوا الشعر واجتمع اليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين هجوا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويروون عنهم قولهم فذلك قوله تعالى يتبعهم الغاوون وهم الرواة الذين يروون هجاء المسلمين وقال قتادة هم الشياطين ثم انه تعالى لما وصف شعراء الكفار بهذه الاوصاف استثنى شعراء المسلمين الذين كانوا يجتنبون شعر الجاهلية ويهجون الكفار وينافحون عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه منهم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك فقال تعالى (الا الذين آمنوا) أى بالله ورسوله (وعملوا) أى تصديقا لايمانهم (الصالحات) أى التى شرعها الله تعالى ورسوله (وذكروا الله) مستحضرين ماله من الكمال (كثيرا) أى

لم يشغلهم الشعر عن الذكر وروى أن كعب بن مالك قال للنبى صلى الله عليه وسلم ان الله قد أنزل فى الشعر ما أنزل فقال النبى صلى الله عليه وسلم ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذى نفسى بيده لكأنما ترمونهم به نضح النبل وعن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل مكة فى عمرة القضاء وابن رواحة يمشى بين يديه وهو يقول

خلوا بنى الكفار عن سبيله * اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله * ويذهب الخليل عن خليله

فقال له عمر يا ابن رواحة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى حرم الله تقول شعرا فقال النبى صلى الله عليه وسلم خل عنه يا عمر فهى أسرع فيهم من نضح النبل وعن البراء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوم قريظة لحسان اهج المشركين فان جبريل معك وعن عائشة رضى الله عنها قالت ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اهجوا قريشا فانه أشد عليهم من رشق النبل فأرسل الى ابن رواحة فقال اهجهم فلم يرض فأرسل الى كعب بن مالك ثم أرسل الى حسان بن ثابت فقال حسان قد آن لكم أن ترسلوا الى هذا الاسد ثم أدلع لسانه فجعل يحركه فقال والذى بعثك بالحق لأفرينهم بلسانى فرى الاديم فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تعجل فان أبا بكر أعلم قريش بأنسابها وان لى فيهم نسبا حتى يخلص لك نسبى فأتاه حسان ثم رجع فقال يا رسول الله قد اخلص لى نسبك والذى بعثك بالحق لأسلنك منهم كما يسل الشعر من العجين قالت عائشة فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان ان روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله قالت وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هجاهم حسان فشفى وأشفى قال حسان

هجوت محمدا فأجبت عنه * وعند الله فى ذاك الجزاء

هجوت محمدا برا حنيفا * رسول الله شيمته الوفاء

فان أبى ووالدتى وعرضى * لعرض محمد منكم وقاء

فمن يهجو رسول الله منكم * ويمدحه وينصره سواء

وجبريل رسول الله فينا * وروح القدس ليس له كفاء

وورد فى مدح الشعر عن أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان من الشعر حكمة وعن ابن عباس قال جاء أعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم يوما فقال هل معك من شعر أمية ابن أبى الصلت شئ قال نعم قال هيه فأنشده بيتا فقال هيه حتى أنشده مائة بيت وعن جابر بن سمرة قال جالست رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون شيأ من أمر الجاهلية فربما تبسم معهم وعن عائشة الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح فخذ الحسن ودع القبيح وعن الشعبى كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان على أشعر الثلاثة وعن ابن عباس انه كان ينشد الشعر فى المسجد ويستنشده فروى انه دعا عمر بن أبى ربيعة المخزومى واستنشده القصيدة التى أولها

أمن آل نعمى أنت غاد مبكر * غداة غد أم رائح فمهجر

فأنشد ابن ربيعة القصيدة الى آخرها وهى قريبة من سبعين بيتا ثم ان ابن عباس أعاد القصيدة جميعا وكان حفظها بمرة واحدة ثم بين سبحانه وتعالى ما حل المؤمنين على الشعر وهو انتصارهم من المشركين بقوله تعالى (وانتصروا) أى بهجوهم الكفار (من بعد ما ظلموا) بهجو الكفار لهم لانهم بدؤا بالهجاء ثم أوعد شعراء المشركين وغيرهم من الكفار بقوله تعالى (وسيعلم الذين ظلموا) بالشرك وهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم (أى منقلب) أى مرجع (ينقلبون) أى يرجعون بعد الموت قال ابن عباس الى جهنم والسعير وفى هذا تهديد شديد لما فى سيعلم من الوعيد البليغ وفى الذين ظلموا من الاطلاق والتعميم وفى أى منقلب ينقلبون من الابهام والتهويل وقد تلا أبو بكر لعمر رضى الله عنهما حين عهد اليه هذه الآية اللهم اجعلنا ممن جعل هذه الآية بين عينيه فلم يغفل عنها وروى الثعلبى فى تفسيره عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال أعطيت السورة التى تذكر فيها البقرة من الذكر الاول وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التى تذكر فيها البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله أعطانى السبع مكان التوراة وأعطانى الطواسين مكان الزبور وفضلنى بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبى قبلى وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الشعراء كان له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وشعيب وصالح وابراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم حديث موضوع

(سورة النمل مكية)

وهى ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون آية وألف ومائة وتسع وأربعون كلمة وأربعة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعون حرفا

(بسم الله) أى الذى كمل علمه فبهرت حكمته (الرحمن) الذى عم بالهداية بأوضح البيان (الرحيم) أى الذى من بجنات النعيم على من اتبع الصراط المستقيم (طس) قال ابن عباس هو اسم من أسماء الله عز وجل وقد سبق الكلام فى حروف الهجاء عليه وقرأ حمزة والكسائى وشعبة بامالة الطاء والباقون بالفتح (تلك) أى هذه الآيات العالية المقام البعيدة المرام البديعة النظام (آيات القرآن) أى الكامل فى قرآنيته الجامع للاصول الناشر للفروع الذى لا خلل فيه ولا فصم ولا صدع ولا وصم (وكتاب مبين) أى مظهر الحق من الباطل (فان قيل) كيف صح أن يشار لاثنين أحدهما مؤنث والآخر مذكر باسم الاشارة المؤنث ولو قلت تلك هند وزيد لم يجز (أجيب) من ثلاثة أوجه أحدها أن المراد بالكتاب هو الآيات لان الكتاب عبارة عن الآيات المجموعة فلما كانا شيأ واحدا صحت الاشارة اليهما باشارة الواحد المؤنث الثانى أنه على حذف مضاف أى وآيات كتاب مبين الثالث أنه لما ولى المؤنث ما تصح

قوله فان قيل كيف صح الخ ظاهر ان الاشارة الى الآيات المؤنث المضاف للقرآن المعطوف عليه وكتاب فلا يرد ما قاله اه مصححه

الاشارة به اليه اكتفى به وحسن ولو ولى المذكر لم يحسن ألا ترى أنك تقول جاءتنى هند وزيد ولو أخرت هند لم يجز تأنيث الفعل وقرأ ابن كثير بالنقل وصلا وابتداء وحمزة فى الوقف لا غير والباقون بغير نقل وقوله تعالى (هدى وبشرى) يجوز أن يكونا منصوبين على المصدر بفعل مقدر من لفظهما أى يهدى هدى ويبشر بشرى وأن يكونا فى موضع الحال من آيات والعامل فيهما ما فى تلك من معنى الاشارة وأن يكونا خبرا بعد خبر وان يكونا خبرى مبتدا مضمر أى هو هدى من الضلالة وبشرى (للمؤمنين) أى المصدقين به بالجنة كقوله تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما ولهذا خص به المؤمنين وقيل المراد بالهدى الدلالة وانما خصه بالمؤمنين لانه ذكر مع الهدى البشرى والبشرى انما تكون للمؤمنين أو لانهم تمسكوا به كقوله تعالى انما أنت منذر من يخشاها أو لانه يزيد فى هداهم كقوله تعالى ويزيد الله الذين اهتدوا هدى * ولما كان وصف الايمان خفيا وصفهم بما يصدقه من الامور الظاهرة بقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة) أى بجميع حدودها الظاهرة والباطنة من المواقيت والطهارات والشروط والاركان والخشوع والمراقبة والاحسان اصلاحا لما بينهم وبين الخالق (ويؤتون الزكاة) أى احسانا فيما بينهم وبين الخلائق (وهم بالآخرة هم يوقنون) أى يوجدون الايقان حق الايجاد بالاستدلال ويجددونه فى كل حين بما يوجد منهم من الاقدام على الطاعة والاحجام عن المعصية وأعيدهم لما فصل بينه وبين الخبر * ولما أفهم التخصيص ان ثم من يكذب بها ذكره بقوله تعالى (ان الذين لا يؤمنون) أى لا يوجدون الايمان ولا يجددونه (بالآخرة زينا) أى بعظمتنا التى لا يمكن دفاعها (لهم أعمالهم) أى القبيحة بتركيب الشهوة حتى أعرضوا عن الخوف من عاقبتها مع ظهور قباحتها والاسناد اليه حقيقى عند أهل السنة لانه الموجد الحقيقى والى الشيطان مجازى وعند المعتزلة بالعكس قال الزمخشرى فى تفسيره ان اسناده الى الشيطان حقيقة واسناده الى الله عز وجل مجاز (فهم) أى فتسبب عن ذلك أنهم (يعمهون) أى يتحيرون ويترددون فى أودية الضلال ويتمادون فى ذلك فهم كل لحظة فى خبط جديد بعمل غير سديد (أولئك) أى البعداء البغضاء (الذين لهم) أى خاصة (سوء العذاب) أى أشده فى الدنيا بالخوف والقتل (وهم فى الآخرة هم الاخسرون) أى أشد الناس خسارة لانهم خسروا بالاخسارة مثله لمصيرهم الى النار المؤبدة عليهم * ولما وصف تعالى القرآن بما اقتضى بيان أهل الفوز والخسران ذكر حال المنزل عليه وهو النبى صلى الله عليه وسلم مخاطبا له بقوله تعالى (وانك) أى وأنت يا أشرف الخلق وأعلمهم وأعظمهم وأحكمهم (لتلقى القرآن) أى لتؤتاه وتلقنه أى يلقى عليك بشدة (من لدن) أى من عند (حكيم) أى بالغ الحكمة فلا شئ من أفعاله الا وهو فى غاية الاتقان (عليم) أى عظيم العلم واسعه تامه شامله والجمع بينهما مع أن العلم داخل فى الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على اتقان الفعل والاشعار بأن علوم القرآن منها ما هو كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والاخبار عن المغيبات ثم شرع فى بيان تلك العلوم بقوله تعالى (اذ قال موسى) أى اذكر قصته حين قال (لاهله) أى زوجته

بنت شعيب عليه السلام عند مسيره من مدين الى مصر وهي القصة الاولى من قصص هذه السورة قال الزمخشري روى أنه لم يكن مع موسى عليه السلام غيرامرأته وقد كنى الله تعالى عنها بالاهل فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله امكثوا وكانا يسيران ليلا وقد اشتبه الطريق عليهما والوقت وقت برد وفي مثل هذا الحال يقوى الناس بمشاهدة نار من بعد لما يرجى فيها من زوال الحيرة وأمن الطريق ومن الانتفاع بالنار للاصطلاء فلذلك بشرها فقال (انى انست) أى أبصرت ابصارا حصل لى به الانس وأزال عنى الوحشة (نارا سآتيكم منها بخبر) أى عن حال الطريق وكان قد أضلها وعبر بلفظ الجمع كما في قوله امكثوا (فان قيل) كيف جاء بسين التسويف (أجيب) بأن ذلك عدة لاهله انه يأتيهم به وان أبطأ الاتيان أو كانت المسافة بعيدة (فان قيل) قال هنا سآتيكم منها بخبر وفي السورة الآتية لعلى آتيكم منها بخبر وهما كالمتدافعين لان أحدهما ترج والآخر تيقن (أجيب) بأن الراجي قد يقول اذا قوى رجاؤه سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الحقيقة (أو آتيكم بشهاب قبس) أى شعلة نار في رأس فتيلة أو عود قال البغوى وليس في الطرف الآخر نار وقال بعضهم الشهاب شئ ذو نور مثل العمود والعرب تسمى كل شئ أبيض ذى نور شهابا والقبس القطعة من النار وقرأ الكوفيون بشهاب بالتنوين على أن القبس بدل منه أو وصف له لانه بمعنى المقبوس والباقون باضافة الشهاب اليه لانه يكون قبسا وغير قبس فهو من اضافة النوع الى جنسه نحو ثوب خز اذ الشهاب شعلة من النار والقبس قطعة منها يكون في عود أو غيره كما مر (فان قيل) لم جاء بأو دون الواو (أجيب) بأنه بنى الرجاء على أنه ان لم يظفر بحاجتيه جميعا لم يعدم واحدة منهما اما هداية الطريق واما اقتباس النار ثقة بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده وما أدراه حين قال ذلك انه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعا وهما العزان عز الدنيا وعز الآخرة ثم انه عليه السلام علل اتيانه بذلك افهاما لانها ليلة باردة بقوله (لعلكم تصطلون) أى لتكونوا في حال من يرجى أن يستدفئ بذلك من البرد والطاء بدل من تاء الافتعال من صلى بالنار بكسر اللام وفتحها (فلما جاءها) أى تلك التى ظنها نارا (نودى) من قبل الله تعالى (أن بورك) أن هى المفسرة لان النداء فيه معنى القول والمعنى قيل له بورك أو المصدرية أى بان بورك وقوله تعالى (من في النار) أى موسى (ومن حولها) أى الملائكة هو نائب الفاعل لبورك والاصل بارك الله من في النار ومن حولها وهذا تحية من الله عز وجل لموسى بالبركة ومذهب أكثر المفسرين أن المراد بالنار النور وذكر بلفظ النار لان موسى حسبه نارا أو من في النار هم الملائكة وذلك أن النور الذى رآه موسى عليه السلام كان فيه الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتقديس ومن حولها هو موسى لانه كان بالقرب منها ولم يكن فيها وقال سعيد بن جبير كانت النار بعينها والنار احدى حجب الله تعالى كما جاء في الحديث حجابه النار لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه الحديث * (تنبيه) * بارك يتعدى بنفسه وبحرف الجر يقال باركك الله وبارك عليك وبارك فيك وبارك لك وقال الشاعر

فبوركت مولودا وبوركت ناشئا * وبوركت عند الشيب اذ أنت أشيب
قال الزمخشرى والظاهر أنه عام فى كل من فى تلك الارض وفى ذلك الوادى وحواليهما من أرض الشأم ولقد جعل الله تعالى أرض الشأم الموسومة بالبركات لكثرة مبعث الانبياء وكفاتهم أحياء وأمواتا ومهبط الوحى عليهم وخصوصا تلك البقعة التى كلم الله فيها موسى عليه السلام وقوله تعالى (وسبحان الله رب العالمين) من تمام مانودى به لئلا يتوهم من سماع كلامه تشبيها وللتعجب من عظمة الله فى ذلك الامر فانه أتاه النداء كما ورد من جميع الجهات فسمعه بجميع الحواس أو تعجب من موسى لما دعاه من عظمته ولما تشوفت النفس الى تحقق الامر تصريحا قال تعالى تمهيدا لما أراد سبحانه اظهاره على يد موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات (ياموسى انه) أى الشأن العظيم الجليل الذى لايبلغ وصفه وجملة (أنا الله) أى البالغ فى العظمة ماتقصر عنه الاوهام مفسرة له أو المتكلم وأنا خبر والله بيان له ثم وصف تعالى نفسه بوصفين يدلان على مايفعله مع موسى عليه السلام أحدهما (العزيز) أى الذى يصل الى سائر مايريد ولا يرده عن مراده راد والثانى (الحكيم) أى الذى يفعل كل مايفعله بحكمة وتدبير (فان قيل) هذا النداء يجوز أن يكون من عند غير الله تعالى فكيف علم موسى أنه من الله تعالى (أجيب) بأنه سمع الكلام المنزه عن شائبة كلام المخلوقين لان النداء أتاه من جميع الجهات وسمعه بجميع الحواس كما مر فعلم بالضرورة أنه صفة الله سبحانه وتعالى ثم أرى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام آية تدل على قدرته ليعلم علم شهود وهى قوله تعالى (وألق عصاك) فألقاها كما مر فصارت فى الحال كما آذنت به الفاء سببية عظيمة جدا ومع كونها فى غاية العظم فى نهاية الخفة والسرعة فى اضطرابها عند محاولتها ماتريد (فلما رآها تهتز) أى تضطرب فى تحركها مع كونها فى غاية الكبر (كأنها جان) أى حية صغيرة فى خفتها وسرعتها ولا ينافى ذلك كبر جثتها (ولى) أى موسى عليه السلام ثم ان التولية مشتركة بين معان فلذا بين المراد منها بقوله تعالى (مدبرا) أى التفت هاربا منها مسرعا جدا لقوله تعالى (ولم يعقب) أى لم يرجع على عقبه ولم يلتفت الى ماوراءه بعد توليه * (تنبيه) * قال الزمخشرى وألق عصاك معطوف على بورك لان المعنى نودى أن بورك من فى النار وأن ألق عصاك كلاهما تفسير لنودى والمعنى قيل له بورك من فى النار وقيل له ألق عصاك انتهى وانما احتاج الى تقدير وقيل له ألق لتكون جملة خبرية مناسبة للجملة الخبرية التى عطفت عليها لانه يرى فى العطف تناسب الجمل المتعاطفة والصحيح كما قاله أبو حيان انه لايشترط ذلك * ولما تشوفت النفس الى ماقيل له عند هذه الحالة أجيب بأنه قيل له (ياموسى لاتخف) أى منها ولا من غيرها ثقة بى ثم علل هذا النهى بقوله تعالى مبشرا بالامن والرسالة (انى لايخاف لدى) أى عندى (المرسلون) أى من حية وغيرها لانهم معصومون من الظلم ولا يخاف من الملك العدل الا ظالم وقوله تعالى (الامن ظلم) فيه وجهان أحدهما أنه استثناء منقطع لان المرسلين معصومون من المعاصى وهذا هو الصحيح والمعنى لكن من ظلم من سائر الناس فانه يخاف الا من تاب كما قال تعالى (ثم بدل) أى بتوبته

(حسنا بعد سوء) وهو الظلم الذي كان عمله أي جعل الحسن بدل السوء كالسحرة الذين آمنوا بعد ذلك بموسى عليه السلام (فاني) أرحمه بسبب اني (غفور) أي من شاني أن أمحو الذنوب محوا يزيل بجميع آثارها (رحيم) أي أعامله معاملة الراحم البليغ الرحمة والثاني أنه استثناء متصل وللمفسرين فيه عبارات قال الحسن ان موسى ظلم بقتل القبطي ثم تاب فقال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي وقال غيره ان ذلك محمول على ما يصدر من الانبياء من ترك الافضل وقال بعض النحويين الا ههنا بمعنى ولا أي لا يخاف لدي المرسلون ولا المذنبون التائبون كقوله تعالى لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا أي ولا الذين ظلموا ثم أراه الله تعالى بعد هذه الآية آية أخرى ذكرها بقوله تعالى (وأدخل يدك في جيبك) أي فتحة ثوبك وهو ما قطع منه ليحيط بعنقك وكان عليه مدرعة صوف لا كم لها وقيل الجيب القميص لانه يجاب أي يقطع (تخرج بيضاء) أي بياضا عظيما نيرا جدا له شعاع كشعاع الشمس وكانت الآية الاولى مما في يده بقلب جوهرها الى جوهر شئ آخر حيواني وهذه في يده نفسها بقلب عرضها التي كانت عليه الى عرض آخر نوراني ثم نفى عنها أن يكون ذلك بسبب آفة بقوله تعالى (من غير سوء) أي برص ولا غيره من الآفات وقوله تعالى (في تسع آيات) كلام مستأنف وحرف الجر فيه متعلق بمحذوف والمعنى اذهب في تسع آيات (الى فرعون وقومه) كقول القائل

فقلت الى الطعام فقال منهم * فريق يحسد الانس الطعاما

ويجوز أن يكون بمعنى وألق عصاك وأدخل يدك في تسع آيات وعدادهن ولقائل أن يقول كانت الآيات احدى عشرة آية ثنتان منها العصا واليد والتسع الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس والجدب في بواديهم والنقصان في مزارعهم وقيل في بمعنى من أي من تسع آيات فتكون العصا واليد من التسع ثم علل ارساله اليهم بالخوارق بقوله تعالى (انهم كانوا قوما فاسقين) أي خارجين عن طاعتنا (فلما جاءتهم آياتنا) أي على يد موسى عليه السلام (مبصرة) أي بينة واضحة هادية الى الطريق الاقوم (قالوا هذا سحر) أي خيال لا حقيقة له (مبين) أي واضح في أنه خيال (وجحدوا بها) أي أنكروا كونها آيات موجبات لصدقه مع علمهم ببطالهم لان الجحود الانكار مع العلم (واستيقنتها أنفسهم) أي علموا أنها من عند الله تعالى وتخالج علمها صميم قلوبهم فكانت ألسنتهم مخالفة لما في قلوبهم ولذلك أسند الاستيقان الى النفس ثم علل جحدهم ووصفهم لها بخلاف وصفها بقوله تعالى (ظلما وعلوا) أي شركا وتكبرا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى (فانظر) يا أشرف الخلق (كيف كان عاقبة المفسدين) وهو الاغراق في الدنيا بأيسر سعي وأيسر أمر فلم يبق منهم عين تطرف ولم يرجع منهم مخبر على كثرتهم وعظمتهم وقوتهم والاحراق في الآخرة بالنار المؤبدة * القصة الثانية قصة داود وسليمان عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد آتينا) أي بما لنا من العظمة (داود وسليمان) ابنه وهما من أتباع موسى عليهم السلام وبعده بأزمان متطاولة (علما) أي جزأ من العلم عظيما من منطق الطير والدواب وتسبيح الجبال وغير ذلك لم نؤته لأحد من قبلهما * ولما كان التقدير

فعملا بمقتضاه عطف عليه قوله (وقالا) شكرا عليه ودلالة على شرف العلم وتنبيها لأهله على التواضع (الحمد) أى الاحاطة بجميع أوصاف الكمال (لله) أى الذى لا كفء له (الذى فضلنا) أى بما آتانا من النبوة والكتاب وتسخير الشياطين والجن والانس وغير ذلك (على كثير من عباده المؤمنين) أى ممن لم يؤت علما أو مثل علمهما وفى ذلك تحريض للعالم أن يحمد الله تعالى على ما آتاه من فضله ويعتقد أنه وان فضل على كثير فقد فضل عليه كثير فلا يتكبر ولا يفتخر ويشكر الله تعالى وينفع به المسلمين كما نفعه الله تعالى به ثم انه تعالى أشار الى فضل سليمان بأنه جمع الى ما آتاه ما كان منح به أباه بقوله تعالى (وورث سليمان داود) أباه عليهما السلام دون سائر أولاده وكان لداود تسعة عشر ابنا فاعطى سليمان ما أعطى داود من الملك وزيد له تسخير الريح وتسخير الشياطين قال مقاتل كان سليمان أعظم ملكا من داود وأقضى منه وكان داود أشد تعبدا من سليمان وكان سليمان شاكرا لنعم الله تعالى عليه (وقال) محدثا بنعمة ربه ومنبها على ما شرفه الله تعالى به ليكون أجدر فى قبول الناس ما يدعوهم اليه من الخير (يا أيها الناس علمنا) أى أنا وأبى بأيسر أمر وأسهله (منطق الطير) أى فهم ما يريده كل طائر اذا صوت فسمى صوت الطير منطقا لحصول الفهم منه كما يفهم من كلام الناس روى عن كعب الاحبار أنه قال صاح ورشان عند سليمان عليه السلام فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول لدوا للموت وابنوا للخراب وصاحت فاختة فقال أتدرون ما تقول قالوا لا قال فانها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول من لا يرحم لا يرحم وصاح صرد فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول استغفروا الله يا مذنبين وصاح طيطوى فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول كل حى ميت وكل جديد بال وصاح خطاف فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول قدموا خيرا تجدوه وهدرت حمامة فقال أتدرون ما تقول قالوا لا قال فانها تقول سبحان ربى الاعلى مل ء سمائه وأرضه وصاح قمرى فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول سبحان ربى الاعلى قال والغراب يدعو على العشار والحدأة تقول كل شئ هالك الا الله والقطاة تقول من سكت سلم والببغا تقول ويل لمن الدنيا همه والضفدع يقول سبحان ربى القدوس ويقول أيضا سبحان ربى المذكور بكل لسان والباز يقول سبحان ربى وبحمده وعن مكحول قال صاح دراج عند سليمان فقال أتدرون ما يقول هذا قالوا لا قال فانه يقول الرحمن على العرش استوى وروى عن فرقد السبخى قال مر سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لاصحابه أتدرون ما يقول هذا البلبل قالوا الله ونبيه أعلم قال يقول أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وهو بالفتح والمد التراب وقال أبو عبيد هو الدروس وفى حديث صفوان اذا دخلت بيتى فأكلت رغيفا وشربت عليه فعلى الدنيا العفاء وروى أن جماعة من اليهود قالوا لابن عباس انا سائلوك عن سبعة أشياء فان أخبرتنا آمنا وصدقنا قال اسألوا تفقها ولا تسألوا تعنتا قالوا أخبرنا ما يقول القنبر فى صفيره والديك فى صعيقه

والضفدع

والضفدع فى نعيقه والحمار فى نهيقه والفرس فى صهيله ومايقول الزرزور والدراج قال نعم أما القنبر فيقول اللهم العن مبغضى محمد وآل محمد وأما الديك فيقول اذكروا الله ياغافلين وأما الضفدع فيقول سبحان المعبود فى لجج البحار وأما الحمار فيقول اللهم العن العشار وأما الفرس فيقول اذا التقى الصفان سبوح قدوس رب الملائكة والروح وأما الزرزور فيقول اللهم انى أسألك قوت يوم بيوم يارزاق وأما الدراج فيقول الرحمن على العرش استوى قال فأسلم اليهود وحسن اسلامهم وروى عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن الحسين بن على قال اذا صاح النسر قال ابن آدم عش ماشئت آخره الموت واذا صاح العقاب قال فى البعد من الناس انس واذا صاح القنبر قال الهى العن مبغضى آل محمد واذا صاح الخطاف قرأ الحمد لله رب العالمين ويمد ولا الضالين كما يمد القارئ وقول سليمان عليه السلام (وأوتينا من كل شئ) أى تؤتاه الانبياء والملوك قال ابن عباس من أمر الدنيا والآخرة وقال مقاتل يعنى النبوة والملك وتسخير الجن والانس والرياح (ان هذا) أى الذى أوتيناه (لهو الفضل المبين) أى البين فى نفسه لكل من ينظره الموضح لعلو قدر صاحبه روى أن سليمان أعطى ملك مشارق الارض ومغاربها فملك أربعين سنة وستة أشهر جميع أهل الدنيا من الجن والانس والدواب والطير والسباع وأعطى مع ذلك منطق الطير وفى زمانه صنعت الصنائع العجيبة فقوله ان هذا لهو الفضل المبين تقرير لقوله الحمد لله الذى فضلنا والمقصود منه الشكر والحمد كما قال صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر (فان قيل) كيف قال علمنا وأوتينا وهو كلام المتكبر (أجيب) بوجهين الاول أنه يريد نفسه وأباه كما مر الثانى أن هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع وكان ملكا مطاعا ولما كان هذا مجرد خبر أتبعه مايصدقه بقوله تعالى (وحشر) أى جمع جمعا حتما بقهر وسطوة واكراه بأيسر أمر (لسليمان جنوده) ثم بين ذلك بقوله تعالى (من الجن) وبدأ بهم لعسر جمعهم ثم ثنى بقوله تعالى (والانس) لشرفهم ثم اتبع من يعقل بما لايعقل بقوله (والطير) فقدم القسم الاول لشرفه وذلك كان فى مسيرله فى بعض الغزوات (فهم) أى فتسبب عن مسيره بذلك انهم (يوزعون) أى يكفون بحبس أولهم على آخرهم بأدنى أمر وأسهله ليتلاحقوا فيكون ذلك أجدر بالهيبة وأعون على النصرة وأقرب الى السلامة قال قتادة كان على كل صنف من جنوده وزعة ترد أولها على آخرها لئلا يتقدموا فى المسير قال والوازع الحابس وهو النقيب وقال مقاتل يوزعون أى يساقون وقال السدى يوقفون وقيل يجمعون وأصل الوزع الكف والمنع قال محمد بن كعب القرظى كان معسكر سليمان عليه السلام مائة فرسخ خمسة وعشرون للانس وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للوحش وخمسة وعشرون للطير وقيل نسجت له الجن بساطا من ذهب وحرير فرسخا فى فرسخ وكان يوضع كرسيه وسطه فيقعد وحوله ستمائة ألف كرسى من ذهب وفضة فتقعد الانبياء على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة والناس حولهم والجن والشياطين حول الناس والوحش حولهم وتظلهم الطير بأجنحتها حتى لاتقع عليه الشمس وكان له ألف بيت من قوارير

على الخشب فيها الثمانمائة منكوحة يعني حرة وسبعمائة سرية فيأمر الريح العاصف فترفعه ثم يأمر الرخاء فتسير به مسيرة شهر وأوحى اليه وهو يسير بين السماء والارض انى قد زدت فى فى ملكك أن لا يتكلم أحد من الخلائق بشئ الا جاءت به الريح فأخبرتك به فيحكى أنه مر بحراث فقال لقد أوتى آل داود ملكا عظيما فألقته الريح فى أذنه فنزل ومشى الى الحراث وقال انى مشيت اليك لئلا تتمنى مالا تقدر عليه ثم قال لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتى آل داود واستمر سائرا بمن معه (حتى اذا أتوا) أى أشرفوا (على وادى النمل) روى عن كعب الاحبار انه قال كان سليمان اذا ركب حمل أهله وخدمه وحشمه وقد اتخذ مطابخ ومخابز فيها تنانير الحديد وقدور عظام تسع كل قدر عشرة من الابل يطبخ الطباخون ويخبز الخبازون واتخذ ميادين للدواب فتجرى بين يديه وهو بين السماء والارض والريح تهوى بهم فسار من اصطخر يريد اليمن فمر بمدينة النبى صلى الله عليه وسلم فقال سليمان هذه دار هجرة نبى يخرج فى آخر الزمان طوبى لمن آمن به وطوبى لمن اتبعه ولما وصل الى مكة رأى حول البيت أصناما تعبد من دون الله فلما جاوز سليمان البيت بكى البيت فأوحى الله تعالى الى البيت ما يبكيك فقال يارب أبكانى ان هذا نبى من أنبيائك وقوم من أوليائك مروا على فلم يهبطوا ولم يصلوا عندى والاصنام تعبد حولى من دونك فأوحى الله تعالى اليه لاتبك فانى سوف أملؤك وجوها سجدا وأنزل فيك قرآنا جديدا وأبعث منك نبيا آخر الزمان أحب أنبيائى الى واجعل فيك عمارا من خلقى يعبدوننى وأفرض على عبادى فريضة يزفون اليك زفيف النسور الى وكرها ويحنون اليك حنين الناقة الى ولدها وحنين الحمامة الى بيضها وأطهرك من الاوثان وعبدة الشياطين ثم مر سليمان حتى مر بوادى السدير من الطائف فأتى على وادى النمل هكذا قال كعب انه واد بالطائف قال البقاعى وهو الذى تميل اليه النفس فانه معروف عندهم الى الآن بهذا الاسم وقال قتادة ومقاتل هو واد بالشأم وجرى عليه البيضاوى وقيل واد كانت تسكنه الجن وأولئك النمل مراكبهم وقال نوف الحميرى كان نمل ذلك الوادى مثل الذباب وقيل كان كالبخاتى وقال البغوى والمشهور أنه النمل الصغير (فائدة) وقف الكسائى على وادى بالياء والباقون بغير ياء (فان قيل) لم عدى أتوا بعلى (أجيب) بأنه يتوجه على معنيين أحدهما ان اتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء والثانى أن يراد قطع الوادى وبلوغ آخره من قولهم أتى على الشئ اذا أنفده وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند مقطع الوادى لانهم ما دامت الريح تحملهم فى الهوى لا يخاف حطمهم * ولما كانوا فى أمر مهول منظره وقربوا من ذلك الوادى (قالت نملة) قال الشعبى كانت تلك النملة ذات جناحين وقيل كانت نملة عرجاء فنادت (يا أيها النمل ادخلوا) أى قبل وصول ما أرى من الجيش (مساكنكم) ثم عللت أمرها فقالت (لا يحطمنكم) أى يكسرنكم ويهشمنكم أى لا تبرزوا فيحطمكم فهو نهى لهم عن البروز فى صورة نهيه وهو أبلغ من التصريح بنهيهم لان من نهى أميرا عن شئ كان لغيره أشد نهيا (سليمان وجنوده) أى لانهم لكثرتهم اذا صاروا فى هذا

الوادى

الوادى استعلوا عليه فضيق وفلم يدعوا فيه موضع شبر خاليا (وهم) أى سليمان وجنوده (لايشعرون) أى بحطمهم لكم لاشتغالهم عما هم فيه من أحوال السير وقولها هذا يدل على علمها بأنهم لو شعروا بهم ما اذوهم لانهم اتباع نبى فيهم رحماء وانما خاطبتهم خطاب من يعقل لانها لما جعلت قائلة والنمل مقولا له كما يكون فى أولى العقل أجرت خطابهم والنمل اسم جنس معروف واحده نملة ويقال نملة ونمل بضم النون وسكون الميم ونملة ونمل بضمهما وعن قتادة انه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال سلونى عما شئتم وكان أبو حنيفة رحمه الله تعالى حاضرا وهو غلام حديث فقال سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكرا أم أنثى فسألوه فأفحم فقال أبو حنيفة كانت أنثى فقيل له من أين عرفت فقال من كتاب الله وهو قوله قالت نملة ولو كانت ذكرا لقال قال نملة قال الزمخشرى وذلك أن النملة مثل الحمامة والشاة فى وقوعها على الذكر والانثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهى انتهى ورد هذا أبو حيان فقال ولحاق التاء فى قالت لايدل على أن النملة مؤنثة بل يصح أن يقال فى الذكر قالت نملة لان النمل وان كان بالتاء هو مما لايتميز فيه المذكر من المؤنث وما كان كذلك كاليمامة والقملة مما بينه فى الجمع وبين واحده تاء التأنيث من الحيوان فانه يخبر عنه اخبار المؤنث ولا يدل كونه يخبر عنه اخبار المؤنث على كونه ذكرا وأنثى لان التاء دخلت فيه للفرق لا للدلالة على التأنيث له الحقيقى بل دالة على الواحد من هذا الجنس قال وكان قتادة بصيرا بالعربية وكونه أفحم يدل على معرفته باللسان اذا علم أن النملة يخبر عنها اخبار المؤنث وان كانت تطلق على الانثى والذكر اذ لا يتميز فيه أحد هذين ولحاق العلامة لايدل فلا يعلم التذكير والتأنيث الا بوحى من الله اه وقال الطيبى العجب من أبى حنيفة ان ثبت ذلك عنه لان النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر والانثى وأطال الكلام فى ذلك (فان قيل) كيف يتصور الحطم من سليمان وجنوده وكانت الريح تحمل سليمان وجنوده على بساط بين السماء والارض (أجيب) بأن من جنوده ركبانا ومنهم مشاة على الارض تطوى لهم أو أن ذلك كان قبل تسخير الريح لسليمان ويروى أن سليمان لما بلغ وادى النمل حبس جنده حتى دخل النمل بيوتهم فقد روى انه سمع كلامها من ثلاثة أميال وقيل كان اسمها طاخية (فائدة) قال أهل المعانى فى كلام هذه النملة أنواع من البلاغة نادت ونبهت وسمت وأمرت ونصت وحذرت وخصت وعمت وأشارت وأعذرت ووجهه نادت يا نبهت ها سمت النمل أمرت ادخلوا نصت مساكنكم حذرت لايحطمنكم خصت سليمان عمت وجنوده أشارت وهم أعذرت لايشعرون * ولما كان هذا أمرا معجبا لما فيه من جزالة الالفاظ وجلالة المعانى تسبب عنه قوله (فتبسم ضاحكا من قولها) أى لما أوتيته من الفصاحة والبيان وسرورا بما وصفته به من العدل فى أنه وجنوده لايؤذى أحدا وهم يعلمون وبما آتاه الله من سمعه كلام النملة واحاطته بمعناه * (تنبيه) * ضاحكا حال مؤكدة لانها مفهومة من تبسم وقيل هى حال مقدرة فان التبسم ابتداء الضحك وقيل التبسم قد يكون للغضب ومنه تبسم تبسم الغضبان فضاحكا مبينا له قال عنترة

لما رآني قد قصدت أريده * أبدى نواجذه لغير تبسم

وقال الزجاج أكثر ضحك الانبياء التبسم وقوله ضاحكا أى متبسما وعن عائشة رضى الله عنها قالت مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعا قط ضاحكا حتى أرى منه لهواته انما كان يتبسم وعن عبد الله بن الحرث بن جبير قال مارأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كان أوله التبسم وآخره الضحك ثم حمد الله تعالى على هذه النعمة وسأل ربه توفيق شكره لما تذكر ما أولاه ربه سبحانه وتعالى بحسن تربيته من فهم كلامها الى ما أنعم عليه من غير ذلك (وقال رب) أى أيها المحسن الى (أوزعنى) أى ألهمنى (أن أشكر نعمتك) وقيل معناه لغة اجعلنى أزع شكر نعمتك أى أكفه وأمنعه حتى لا ينفلت منى فلا أزال شاكرا وأزع بفتح الزاى أصله أوزع فحذفت واوه كما فى أدع * ولما أفهم ذلك تعلق النعمة به حققه بقوله (التى أنعمت على) وأفهم قوله (وعلى والدى) ان أمه كانت أيضا تعرف منطق الطير وانما أدرج ذكر والديه لان النعمة على الولد نعمة على الوالدين خصوصا النعمة الراجعة الى الدين فانه اذا كان تقيا نفعهما بدعائه وشفاعته ودعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له وقالوا رضى الله عنك وعن والديك *(تنبيه)* الشكر لغة فعل ينبئ عن تعظيم المنعم من حيث انه منعم على الشاكر أو غيره سواء كان ذكرا باللسان أم اعتقادا أو محبة بالجنان أم عملا وخدمة بالاركان كما قال القائل

أفادتكم النعماء منى ثلاثة * يدى ولسانى والضمير المحجبا

وعرفا صرف العبد جميع ما أنعم الله تعالى به عليه من السمع وغيره الى ما خلق لاجله وهذا من حفته العناية الربانية نسأل الله الكريم الفتاح أن يحفنا ومن يلوذ بنا بعنايته روى عن داود عليه السلام أنه قال يارب كيف أشكرك والشكر نعمة أخرى منك أحتاج عليها الى شكر آخر فأوحى الله تعالى اليه ياداود اذا علمت أن ما بك من نعمة فمنى فقد شكرتنى والشكر ثلاثة أشياء الاول معرفة النعمة بمعنى احضارها فى الخاطر بحيث يتميز عندك أنها نعمة فرب جاهل تحسن اليه وتنعم عليه وهو لايدرى فلا جرم أنه لايصح منه الشكر الثانى قبول النعمة بتلقيها من المنعم باظهار الفقر والفاقة فان ذلك شاهد بقبولها حقيقة الثالث الثناء بها بأن تصف المنعم بالجود والكرم ونحوه مما يدل على حسن تلقيك لها واعترافك بنزول مقامك فى الرتبة عن مقامه فان اليد العليا خير من اليد السفلى * ولما علم من كلامه أن الشاكر هو المستغرق فى الثناء على المنعم بما يجب عليه من العمل بحسب ما يقدر عليه وكان ذلك العمل مما يجوز أن يكون زينا لذلك العبد كونه حسنا وهو ليس كذلك قال عليه السلام مشيرا الى هذا المعنى (وأن أعمل صالحا) أى فى نفس الامر وقيده بقوله (ترضاه) لان العمل الصالح قد لا يرضاه المنعم لنقص فى العامل كما قيل

اذا كان المحب قليل حظ * فحسناته ذنوب

وقوله (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) يدل على أن دخول الجنة برحمته وفضله

لا باستحقاق العبد والمعنى أدخلني في جملتهم وأثبت اسمي في أسمائهم واحشرني في زمرتهم قال ابن عباس يريد مع ابراهيم واسحق ويعقوب ومن بعدهم من النبيين (فان قيل) درجات الانبياء أفضل من درجات الصالحين والاولياء فما السبب في أن الانبياء يطلبون جعلهم من الصالحين وقد تمنى يوسف عليه السلام بقوله فاطر السموات والارض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين وقال ابراهيم هب لي حكما وألحقني بالصالحين (أجيب) بأن الصالح الكامل هو الذي لا يعصي الله تعالى ولا يفعل معصية ولا يهم بمعصية وهذه درجة عالية ثم ان سليمان عليه السلام لما وصل الى المنزل الذي قصده تفقد أحوال جنوده كما تقتضيه العناية بأمور الملك (وتفقد الطير) أي طلبها وبحث عنها والتفقد طلب ما فقد ومعنى الآية طلب ما فقد من الطير (فقال مالي لا أرى الهدهد) أي أهو حاضر (أم كان من الغائبين) أم منقطعة كأنه لما لم يره ظن أنه حاضر ولم يره لساتر أو غيره فقال مالي لا أراه ثم احتاط فلاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائب كأنه يسأل عن صحة ما لاح له وهذا يدل على أنه تفقد جماعة من الجند وتحقق غيبتهم وشك في غيبته وكان سبب غيبة الهدهد على ما ذكره العلماء أن سليمان لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج الى أرض الحرم فتجهز للمسير واستصحب من الجن والانس والشياطين والطيور والوحوش ما بلغ عسكره مائة فرسخ فحملتهم الريح فلما وافى الحرم أقام به ما شاء الله أن يقيم وكان ينحر في كل يوم مدة مقامه بمكة خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة وقال لمن حضره من أشراف قومه ان هذا المكان يخرج منه نبي عربي صفته كذا وكذا يعطى النصر على جميع ما يأواه وتبلغ هيبته مسيرة شهر القريب والبعيد عنده في الحق سواء لا تأخذه في الله لومة لائم قالوا فبأي دين يدين يا نبي الله قال بدين الحنيفية فطوبى لمن أدركه وآمن به قالوا كم بيننا وبين خروجه يا نبي الله قال مقدار ألف عام فليبلغ الشاهد منكم الغائب فانه سيد الانبياء وخاتم الرسل فأقام بمكة حتى قضى نسكه ثم خرج منها صباحا وسار نحو اليمن فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا حسناء تزهو خضرتها فأحب النزول ليصلي ويتغدى فلما نزل قال الهدهد ان سليمان قد اشتغل بالنزول فارتفع نحو السماء فانظر الى طول الدنيا وعرضها فنظر يمينا وشمالا فرأى بستانا لبلقيس فمال الى الخضرة فوقع فيه فاذا هو بهدهد فهبط عليه وكان اسم هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن عنفير فقال عنفير هدهد اليمن ليعفور سليمان من أين أقبلت والى أين تريد قال أقبلت من الشأم مع صاحبي سليمان بن داود فقال ومن سليمان قال ملك الانس والجن والشياطين والطير والوحوش والرياح فمن أين أنت قال أنا من هذه البلاد قال ومن ملكها قال امرأة يقال لها بلقيس وان لصاحبكم ملكا عظيما ولكن ليس ملك بلقيس دونه فانها ملكت اليمن كله وتحت يدها اثنا عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل فهل أنت منطلق معي حتى تنظر الى ملكها قال أخاف أن يتفقدني سليمان في وقت الصلاة اذا احتاج الى الماء قال الهدهد اليماني ان صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة فانطلق معه ونظر الى

بلقيس وملكها وغاب الى وقت العصر وكان نزول سليمان على غير ماء قال ابن عباس وكان الهدهد دليل سليمان على الماء وكان يعرف الماء ويرى الماء تحت الارض كما يرى فى الزجاجة ويعرف بعده وقربه فينقر الارض ثم تجيء الشياطين فيسلخونه كما يسلخ الاهاب ويستخرجون الماء قال سعيد بن جبير لما ذكر ابن عباس هذا قال له نافع بن الازرق انظر ما تقول ان الصبي منا يضع الفخ ويحثو عليه التراب فيجيء الهدهد ولا يبصر الفخ حتى يقع فى عنقه فقال له ابن عباس ويحك ان القدر اذا جاء حال بين البصر وفى رواية اذا نزل القضاء والقدر ذهب اللب وعمي البصر قال القائل

هي المقادير فدعني والقدر * ان كنت أخطأت فما أخطا القدر
اذا أراد الله أمرا بامرئ * وكان ذا عقل وسمع وبصر
يعمد بالجهل فيعمي قلبه * وسمعه وعقله ثم البصر
حتى اذا أنفذ فيه حكمه * رد عليه عقله ليعتبر
لا تقل لما جرى كيف جرى * كل شيء بقضاء وقدر

فلما دخل على سليمان وقت الصلاة سأل الانس والجن والشياطين عن الماء فلم يعلموه فتفقد الهدهد فلم يجده فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فقال اصلح الله الملك ما أدرى أين هو وما أرسلته مكانا فغضب سليمان عند ذلك وقال (لأعذبنه) أى بسبب غيبته فيما لم آذن فيه (عذابا شديدا) أى مع بقاء روحه ردعا لامثاله (أو لأذبحنه) أى بقطع حلقومه أى تأديبا لغيره (أو ليأتيني بسلطان مبين) أى بحجة واضحة واختلفوا فى تعذيبه الذى أوعده به على أقوال قال البغوى أظهرها ان عذابه أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه فى الشمس ممعطا لا يمتنع من النمل والذباب ولا من هوام الارض انتهى وقيل تعذيبه أن يؤذيه بما لا يحتمله ليعتبر به أبناء جنسه وقيل كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه وقيل أن يطلى بالقطران ويشمس وقيل أن يلقى للنمل تأكله وقيل ايداعه القفص وقيل التفريق بينه وبين الفه وقيل لالزمنه صحبة الاضداد قال الزمخشرى وعن بعضهم أضيق السجون معاشرة الاضداد وقيل لالزمنه خدمة أقرانه ثم دعا العقاب سيد الطير فقال له على بالهدهد الساعة فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى التزق بالهواء فنظر الدنيا كالقصعة بين يدى أحدكم فالتفت يمينا وشمالا فاذا بالهدهد مقبلا من نحو اليمن فانقض العقاب نحوه يريده فلما رأى الهدهد ذلك علم أن العقاب يقصده بسوء فناشده فقال بحق الله الذى قواك وأقدرك على الامارحمتنى ولم تتعرض لى بسوء فولى عنه العقاب وقال له ويلك ثكلتك أمك ان نبى الله قد حلف أن يعذبك أو ليذبحنك قال فما استثنى قال بلى قال أو ليأتينى بسلطان مبين ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلما انتهى الى العسكر تلقاه النسر والطير فقالوا له ويلك أين غبت فى يومك هذا فلقد توعدك نبى الله وأخبروه بما قال فقال الهدهد وما استثنى نبى الله عليه السلام قالوا بلى قال أو ليأتينى بسلطان مبين قال فنجوت اذا ثم طار العقاب والهدهد حتى أتيا سليمان وكان قاعدا على كرسيه فقال

العقاب قد أتيتك به يا نبي الله (فمكث) أي الهدهد وقوله تعالى (غير بعيد) صفة للمصدر أي مكثا غير بعيد فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الارض تواضعا لسليمان فلما دنا منه أخذ برأسه فمده اليه وقال له أين كنت لأعذبنك عذابا شديدا فقال له الهدهد يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى فلما سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه ثم ساله فقال ما الذي أبطأك عني (فقال أحطت) أي علما (بما لم تحط به) أي أنت مع اتساع علمك وامتداد ملكك ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والاحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له في علمه وتنبيها له على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علما بما لم يحط به لتتحاقر اليه نفسه ويتصاغر اليه علمه ويكون لطفا في ترك الاعجاب الذي هو فتنة العلماء والاحاطة بالشيء علما أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم قالوا وفيه دليل على بطلان قول الروافضة ان الامام لا يخفى عليه شيء ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه وقيل الضمير في مكث لسليمان وقيل غير بعيد صفة للزمان أي زمانا غير بعيد وقرأ عاصم بفتح الكاف والباقون بضمها وهما لغتان الا أن الفتح اشهر (وجئتك) أي الآن (من سبا بنبا) أي خبر عظيم (يقين) أي محقق وقرأ أبو عمرو والبزي سبأ بفتح الهمزة من غير تنوين جعلاه اسما للقبيلة أو البقعة فمنعاه من الصرف للعلمية والتأنيث والباقون بالجر والتنوين جعلوه اسما للحي أو المكان قال البغوي وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن سبا فقال رجل كان له عشرة من البنين تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة فقال سليمان وماذاك قال (اني وجدت امرأة تملكهم) وهي بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب بن قحطان وكان أبوها ملكا عظيم الشأن قد ولد له أربعون ملكا هو آخرهم وكان يملك أرض اليمن كلها وكان يقول لملوك الاطراف ليس أحد منكم كفؤا لي وأبى أن يتزوج منهم فزوجوه بامرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكن فولدت بلقيس ولم يكن له ولد غيرها قال البغوي وجاء في الحديث ان أحد أبوي بلقيس كان جنيا فلما مات أبو بلقيس طمعت في الملك فطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها آخرون وملكوا عليهم رجلا وافترقوا فرقتين كل فرقة استولت على طرف من أرض اليمن ثم ان الرجل الذي ملكوه أساء السير في أهل مملكته حتى كان يمد يده الى حرم رعيته ويفجر بهن فأراد قومه خلعه فلم يقدروا عليه فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة فأرسلت اليه تعرض نفسها عليه فأجابها وقال ما منعني ان أبتدئك بالخطبة الا اليأس منك فقالت لا أرغب عنك أنت كفؤ كريم فاجمع رجال قومي واخطبني منهم فجمعهم وخطبها اليهم فقالوا لا نراها تفعل ذلك فقال لهم انها قد ابتدأتني وأنا أحب أن تسمعوا قولها فجاؤها فذكروا لها قالت نعم أحببت الولد فزوجوها منه فلما زفت اليه خرجت في أناس كثير من حشمها فلما جاءته أسقته الخمر حتى سكر ثم جزت رأسه وانصرفت من الليل الى منزلها فلما أصبح الناس رأوا الملك قتيلا ورأسه منصوب على باب دارها فعلموا أن تلك المناكحة كانت حيلة مكر وخديعة منها فاجتمعوا اليها وقالوا أنت

بهذا الملك أحق من غيرك فملكوها وعن الحسن عن أبي بكرة قال لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملكوا عليهم امرأة قال لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة وقوله (وأوتيت) يجوز أن يكون معطوفا على تملكهم وجاز عطف الماضي على المضارع لان المضارع بمعناه أي ملكتهم ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال من مرفوع تملكهم وقد معها مضمرة عند من يرى ذلك وقوله (من كل شيء) عام مخصوص بالعقل لانها لم تؤت ما أوتيه سليمان فالمراد من كل شيء يحتاج اليه الملوك من الآلة والعدة (ولها عرش) أي سرير (عظيم) أي ضخم لم أجد لاحد مثله طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا وارتفاعه ثلاثون ذراعا مضروب من الذهب والفضة مكلل بالدر والياقوت الاحمر والزبرجد الاخضر والزمرد وقوائمه من الياقوت الاحمر والزبرجد الاخضر والزمرد عليه سبعة أبواب على كل باب بيت مغلق (فان قيل) كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان وأيضا كيف سوى بين عرش بلقيس وعرش الرحمن في الوصف بالعظم (أجيب) عن الاول بأنه يجوز أن يستصغر حالها الى حال سليمان واستعظم لها ذلك العرش ويجوز أن لا يكون لسليمان مثله وان عظمت مملكته في كل شيء كما يكون لبعض أمراء الاطراف شيء يكون في العظم ابلغ مما لغيره من أبناء جنسه من الملوك ووصف عرش الرحمن بالعظم تعظيم له بالنسبة الى سائر ما خلق من السموات والارض (فان قيل) كيف خفي على سليمان تلك المملكة العظيمة مع أن الانس والجن كانوا في طاعته فانه عليه السلام كان ملك الدنيا كلها مع انه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد الامسيرة ثلاثة أيام (أجيب) بأن الله تعالى أخفى عنه ذلك لمصلحة رآها كما أخفى مكان يوسف على يعقوب ولما كان الهدهد في خدمة أقرب أهل ذلك الزمان الى الله تعالى فحصل له من النورانية ماهاله قال مستأنفا (وجدتها وقومها) أي كلهم على ضلال كبير وذلك أنهم (يسجدون للشمس) مبتدئين ذلك (من دون الله) أي من أدنى رتبة للملك الاعظم الذي لامثل له (وزين لهم الشيطان أعمالهم) أي هذه القبيحة حتى صاروا يظنونها حسنة ثم تسبب عن ذلك أنه أعماهم عن طريق الحق فلهذا قال (فصدهم عن السبيل) أي الذي لاسبيل الى الله غيره وهو الذي بعث به أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام ثم تسبب عن ذلك ضلالهم فلهذا قال (فهم) أي بحيث (لا يهتدون) أي لا يوجد لهم هدى بل هم في ضلال صرف وعمى محض (ألا يسجدوا لله) أي ان يسجدوا له فزيدت لا وأدغم فيها نون ان كما في قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب والجملة في موضع مفعول يهتدون باسقاط الى هذا اذا قرئ بالتشديد وهي قراءة غير الكسائي وأما الكسائي فقرأ بتخفيف الا فالا فيها تنبيه واستفتاح ومابعدها حرف نداء ومناداه محذوف كما حذفه من قال

الا يا اسلمي يا دارمي على البلا * ولا زال منهلا بجرعائك القطر

ويقف الكسائي على ألا وعلى يا وعلى اسجدوا واذا ابتدأ اسجدوا ابتدأ بالضم ثم وصف الله تعالى بما يوجب اختصاصه باستحقاق السجود من الاتصاف بكمال القدرة والعلم حثا على

السجود له وردًا على من يسجد لغيره سبحانه وتعالى بقوله (ألذي يخرج الخبء) وهو مصدر بمعنى المخبوء من المطر والنبات وغيرهما وخصه بقوله (في السموات والارض) لان ذلك منتهى مشاهدتنا فننظر ما يكون فيهما بعد ان لم يكن من سحاب ومطر ونبات وتوابع ذلك من الرعد والبرق وما يشرق من الكواكب ويغرب الى غير ذلك من الرياح والحر والبرد ومالا يحصيه الا الله تعالى (ويعلم ما يخفون) في قلوبهم (وما يعلنون) بألسنتهم وقرأ الكسائي وحفص بالتاء الفوقية فيهما والباقون بالتحتية فالخطاب ظاهر على قراءة الكسائي لان ما قبله أمرهم بالسجود وخاطبهم به والغيبة على قراءة الباقين غير ظاهرة لتقدم الضمائر الغائبة في قوله أعمالهم وصدهم وفهم وأما قراءة حفص فتأويلها انه خرج الى خطاب الحاضرين بعد أن أتم قصة أهل سبا ويجوز أن تكون التفاتا على أنه نزل الغائب منزلة الحاضر فخاطبه ملتفتا اليه وقوله (الله لا اله الا هو رب العرش العظيم) أي الذي هو أول الاجرام وأعظمها والمحيط بجملتها يحتمل أن يكون من كلام الهدهد استدراكا لما وصف عرش بلقيس بالعظم وأن يكون من كلام الله تعالى ردا عليه في وصفه عرشها بالعظم فبين العظمتين بون عظيم (فان قيل) من أين للهدهد التهدي الى معرفة الله ووجوب السجود له وانكار سجودهم للشمس واضافته الى الشيطان وتزيينه (أجيب) بأنه لا يبعد أن يلهمه الله تعالى ذلك كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها خصوصا في زمن نبي سخرت له الطيور وعلم منطقها وجعل ذلك معجزة له وهذه آية سجدة واختلف في محلها هل هو هذه الآية أو عند قوله قبلها وما يعلنون الجمهور على الاول ولما فرغ الهدهد من كلامه (قال) له سليمان (سننظر) أي نختبر ما قلته (أصدقت) فيه فنعذرك (أم كنت من الكاذبين) أي معروفا بالانخراط في سلكهم فانه لا يجترئ على الكذب عندي الا من كان عريقا في الكذب فهو أبلغ من أم كذبت وأيضا لمحافظة الفواصل ثم شرع فيما يختبره به فكتب له كتابا على الفور في غاية الوجازة قصدا للاسراع في ازالة المنكر على تقدير صدق الهدهد بحسب الاستطاعة ودل على اسراعه في كتابته بقوله جوابا له (اذهب بكتابي هذا) فكأنه كان مهيأ عنده فدفعه اليه وأمره بالاسراع فطار كأنه البرق ولهذا أشار بالفاء في قوله (فألقه اليهم) أي الذين ذكرت أنهم يعبدون الشمس وذلك للاهتمام بأمر الدين وقرأ أبو عمرو وشعبة وخلاد بخلاف عنه فألقه بسكون الهاء واختلاس الكسرة قالون وهشام بخلاف عنه والباقون باشباع الكسرة (ثم) قال له اذا ألقيته اليهم (تول) أي تنح (عنهم) الى مكان تسمع فيه كلامهم ولا يصلون معه اليك (فانظر ماذا يرجعون) أي يردون من الجواب وقال ابن زيد في الآية تقديم وتأخير مجازها اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم أي انصرف الى فأخذ الهدهد الكتاب وأتى الى بلقيس وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام قال قتادة فوافاها في قصرها وقد غلقت الابواب وكانت اذا رقدت غلقت الابواب وأخذت

المفاتيح فوضعتها تحت رأسها فأتاها الهدهد وهى نائمة مستلقية على قفاها فألقى الكتاب على نحرها وقيل نقرها فانتبهت فزعة وقال مقاتل حمل الهدهد الكتاب بمنقاره حتى وقف على رأس المرأة وحولها القادة والجنود فرفرف ساعة والناس ينظرون اليه حتى رفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب فى حجرها وقال وهب بن منبه وابن زيد كانت لها كوة مستقبلة الشمس تقع الشمس فيها حين تطلع فاذا نظرت اليها سجدت لها فجاء الهدهد الى الكوة فسدها بجناحه فارتفعت الشمس ولم تعلم بها فلما استبطأت الشمس قامت تنظر اليها فرمى بالصحيفة اليها فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأن ملك سليمان كان فى خاتمه وعرفت أن الذى أرسل الكتاب أعظم ملكا منها وقرأت الكتاب وتأخر الهدهد فجاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها وهم اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد ألف مقاتل وعن ابن عباس قال كان مع بلقيس مائة ألف قيل مع كل قيل مائة ألف والقيل الملك دون الملك الاعظم وقال قتادة ومقاتل كان أهل مشورتها ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا كل رجل منهم على عشرة آلاف فلما جاؤا أخذوا مجالسهم (قالت) لهم بلقيس (يا أيها الملأ) وهم أشراف الناس وكبراؤهم (انى ألقى الى) أى بالقاء ملق على وجه غريب (كتاب) أى صحيفة مكتوب فيها كلام وخبر جامع قال الزمخشرى وكانت كتب الانبياء جملا لا يطنبون ولا يكثرون ولما حوى هذا الكتاب من الشرف أمرا باهرا لم يعهد مثله وصفته بقولها (كريم) وقال عطاء والضحاك سمته كريما لانه كان مختوما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال كرامة الكتاب ختمه وكان عليه السلام يكتب الى العجم فقيل له انهم لا يقبلون الا كتابا عليه خاتم فاصطنع له خاتما وعن ابن المقفع من كتب الى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخف به وقال مقاتل كريم أى حسن وعن ابن عباس أى شريف لشرف صاحبه وقيل سمته كريما لانه كان مصدرا ببسم الله الرحمن الرحيم ثم بينت عن الكتاب فقالت (انه من سليمان) ثم بينت المكتوب فيه فقالت (وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على) قال ابن عباس لا تتكبروا على وقيل لا تتعظموا ولا تترفعوا على أى لا تمتنعوا عن الاجابة فان ترك الاجابة من العلو والتكبر (وأتونى مسلمين) أى منقادين خاضعين فهو من الاستسلام أو مؤمنين فهو من الاسلام (فان قيل) لم قدم سليمان اسمه على البسملة (أجيب) بانه لم يقع منه ذلك بل ابتدأ الكتاب بالبسملة وانما كتب اسمه عنوانا بعد ختمه لان بلقيس انما عرفت كونه من سليمان بقراءة عنوانه كما هو المعهود ولذلك قالت انه بسم الله الرحمن الرحيم أى ان الكتاب فالتقديم واقع فى حكاية الحال واعلم أن قوله بسم الله الرحمن الرحيم مشتمل على اثبات الصانع واثبات كونه عالما قادرا حيا مريدا حكيما رحيما قال الطيبى وقال القاضى هذا كلام فى غاية الوجازة مع اثبات كمال الصانع واثبات كمال الدلالة على المقصود لاشتماله على البسملة الدالة على ذات الاله وصفاته صريحا أو التزاما والنهى عن الترفع الذى هو أم الرذائل والامر بالاسلام الذى هو جامع لامهات الفضائل ولما سكتوا عن الجواب (قالت) لهم (يا أيها الملأ) ثم بينت ما داخلها من الرعب من صاحب هذا الكتاب بقولها

(أفتونى)

(أفتونى) أى تكرموا على بالاناية عما أفعله (فى أمرى) هذا الذى أجيب به هذا الكتاب جعلت الشورى فتوى توسعا لأن الفتوى الجواب فى الحادثة وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فى الوصل بابدال الهمزة واوا والباقون بتحقيقها وفى الابتداء الجميع بالتحقيق ثم علت أمرها لهم بقولها (ما كنت قاطعة أمرا) أى فاعلته وفاصلته غير مترددة فيه (حتى تشهدون) أفادت بذلك أن شأنها دائما مشاورتهم فى كل جليل وحقير فكيف بهذا الامر الخطير وفى ذلك استعطافهم بتعظيمهم واجلالهم وتكريمهم ودلالة على غزارة عقلها وحسن أدبها ثم انهم أجابوها عن ذلك بأن (قالوا) مائلين الى الحرب (نحن أولو قوة) أى بالمال والرجال (وأولو) أى أصحاب (بأس) عزم فى الحرب (شديد والامر) اى فى كل من المصادمة والمسالمة راجع وموكول (اليك فانظرى) أى بسبب أنه لانزاع معك (ماذا تأمرين) فانا نطيعك ونتبع أمرك * ولما علمت ان من سخر له الطير على هذا الوجه لايعجزه شئ يريده (قالت) جوابا لما أحست فى جوابهم من ميلهم الى الحرب والحرب سجال لايدرى عاقبتها (ان الملوك) أى مطلقا فكيف بهذا النافذ الامر العظيم القدر (اذا دخلوا) عنوة بالقهر (قرية أفسدوها) أى بالنهب والتخريب (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) أى أهانوا أشرافها وكبراءها كى يستقيم لهم الامر ثم أكدت هذا المعنى بقولها (وكذلك) أى ومثل هذا الفعل العظيم الشأن (يفعلون) أى هو خلق لهم مستمر فى جميعهم فكيف عن تطيعه الوحوش والطيور وغيرهما * (تنبيه) * هذه الجملة من كلامها وهو كما قال ابن عادل الظاهر ولهذا اجيبت عليه فتكون منصوبة بالقول ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى تصديقا لها فهى استئنافية لامحل لها من الاعراب وهى معترضة بين قولها ولما بينت ما فى المصادمة من الخطر أتبعته بما عزمت عليه من المسالمة بقولها (وانى مرسلة اليهم) أى الى سليمان وقومه (بهدية) وهى العطية على طريق الملاطفة وذلك أن بلقيس كانت امرأة كيسة قد سيست وساست فقالت للملا من قومها انى مرسلة الى سليمان وقومه بهدية أصانعه بها عن ملكى فاختبره بها أملك هو أم نبى فان يكن ملكا قبل الهدية وانصرف وان يكن نبيا لم يقبل الهدية ولم يرضه منا الا أن نتبعه على دينه فذلك قولها (فناظرة بم) أى أى شئ (يرجع المرسلون) فأهدت اليه وصفا ووصائف قال ابن عباس ألبستهم لباسا واحدا كى لايعرف ذكر من أنثى وقال مجاهد ألبست الجوارى لباس الغلمان وألبست الغلمان لباس الجوارى واختلف فى عددهم فقال ابن عباس مائة وصيف ومائة وصيفة وقال مجاهد ومقاتل مائة غلام ومائتا جارية وقال قتادة أرسلت اليه بلبنات من ذهب فى حرير وديباج وقال ثابت البنانى أهدت اليه صفائح الذهب فى أوعية الديباج وقيل كانت أربع لبنات من ذهب وقال وهب وغيره عمدت بلقيس الى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية فألبست الجوارى لباس الغلمان الاقبية والمناطق وألبست الغلمان لباس الجوارى وجعلت فى سواعدهم أساور من ذهب وفى أعناقهم أطواقا من ذهب وفى آذانهم أقراطا وشنوفا مرصعات بأنواع الجواهر وغواشيها من الديباج الملونة وبعثت اليه خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة

من فضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع وأرسلت المسك والعنبر وعمدت الى حقة فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وجزعة مثقوبة معوجة الثقب ودعت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت اليه رجالا من قومها أصحاب رأى وعقل وكتبت معهم كتابا بنسخة الهدية وقالت ان كنت نبيا فميز بين الوصف والوصائف واخبر بما فى الحقة قبل ان تفتحها واثقب الدرة ثقبا مستويا وادخل خيطا فى الخرزة المثقوبة من غير علاج انس ولا جن وأمرت بلقيس الغلمان اذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء وأمرت الجوارى أن يكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ثم قالت للرجل انظر الى الرجل اذا دخلت عليه فان نظر اليك نظر غضب فاعلم انه ملك فلا يهولنك منظره فأنا أعز منه وان رأيت الرجل بشاشا لطيفا فاعلم انه نبى مرسل فتفهم قوله ورد الجواب فانطلق الرسول بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعا الى سليمان فأخبره الخبر كله فأمر سليمان عليه السلام الجن أن يضربوا لبنات الذهب ولبنات الفضة ففعلوا ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذى هو فيه الى تسعة فراسخ ميدانا واحدا بلبنات الذهب والفضة وأن يجعلوا حول الميادين حائطا شرفها من الذهب والفضة ففعلوا ثم قال أى الدواب أحسن مما رأيتم فى البر والبحر قالوا يا نبى الله انا رأينا دواب فى بحر كذا وكذا منقطة مختلفة ألوانها لها أجنحة واعراف ونواص قال علىّ بها الساعة فأتوا بها فقال شدوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضة وألقوا لها علوفتها فيها ثم قال للجن علىّ بأولادكم فاجتمع خلق كثير فأقامهم عن يمين الميدان ويساره ثم قعد سليمان فى مجلسه على سريره ووضع له أربعة آلاف كرسى على يمينه ومثلها على يساره وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفا فراسخ وأمر الانس فاصطفوا صفوفا فراسخ وأمر الوحوش والسباع والهوام والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه ويساره فلما دنا القوم من الميدان ونظروا الى ملك سليمان ورأوا الدواب التى لم تر أعينهم مثلها تروث على لبن الذهب والفضة تقاصرت أنفسهم ورموا ما معهم من الهدايا وفى بعض الروايات أن سليمان لما أمر بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعا على قدر موضع اللبنات التى معهم فلما رأى الرسل موضع اللبنات خاليا وكل الارض مفروشة خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم فى ذلك الموضع الخالى فلما رأوا الشياطين نظروا الى منظر عجيب ففزعوا فقالت لهم الشياطين جوزوا فلا بأس عليكم فكانوا يمرون على كردوس من الجن والانس والطير والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدى سليمان فنظر اليهم سليمان نظرا حسنا بوجه طلق وقال ما وراءكم فأخبره رئيس القوم بما جاؤا له وأعطاه كتاب الملكة فنظر فيه وقال أين الحقة فأتى بها فحركها وجاء جبريل عليه السلام فأخبره بما فى الحقة فقال ان فيها درة ثمينة غير مثقوبة وجزعة مثقوبة معوجة الثقب فقال الرسول صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط فى الخرزة فقال سليمان عليه السلام من لى بثقبها فسأل سليمان الانس ثم الجن فلم يكن عندهم علم بذلك ثم سأل الشياطين فقالوا أرسل الى الارضة فجاءت الارضة فأخذت شعرة فى فيها فدخلت فيها حتى خرجت من الجانب

الآخر فقال لها سليمان سلى حاجتك قالت تصير رزقى فى الشجر فقال لك ذلك وروى انها جاءت دودة تكون فى الصفصاف فقالت أنا أدخل الخيط فى الثقب على أن يكون رزقى فى الصفصاف فجعل لها ذلك فأخذت الخيط بفيها ودخلت الثقب وخرجت من الجانب الآخر ثم قال من لهذه الخرزة يسلكها بالخيط فقالت دودة بيضاء أنا لها يا رسول الله فأخذت الدودة الخيط فى فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان سلى حاجتك قالت تجعل رزقى فى الفواكه قال لك ذلك ثم ميز بين الجوارى والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فجعلت الجارية تأخذ الماء من الآنية باحدى يديها ثم تجعله على اليد الاخرى ثم تضرب به الوجه والغلام يأخذ من الآنية بيديه ويضرب بهما وجهه وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعدها والغلام على ظاهر الساعد وكانت الجارية تصب الماء صبا وكان الغلام يحدر الماء على ساعده حدرا فميز بينهم بذلك ثم رد سليمان الهدية كما قال تعالى (فلما جاء) أى الرسول الذى بعثته والمراد به الجنس قال أبو حيان وهو يقع على الجمع والمفرد والمذكر والمؤنث (سليمان) ورفع اليه ذلك (قال) أى سليمان عليه السلام للرسول ولمن فى خدمته استصغارا لما معه (أتمدوننى) أى أنت ومن معك ومن أرسلك (بمال) وانما قصدى لكم لاجل الدين تحقيرا لامر الدنيا واعلاما بأنه لا التفات له نحوها بوجه ولا يرضيه شئ دون طاعة الله تعالى وقرأ نافع وأبو عمرو باثبات الياء وصلا لا وقفا وابن كثير باثبات الياء وصلا ووقفا وحمزة بادغام النون الاولى فى الثانية واثبات الياء وصلا ووقفا ثم تسبب عن ذلك قوله استصغارا لما معهم (فما آتانى الله) أى الملك الاعظم من الحكمة والنبوة والملك وهو الذى يغنى مطيعه عن كل شئ سواه فهما سأله أعطاه وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بفتح الياء فى الوصل ولقالون وأبى عمرو وحفص أيضا اثباتها وقفا والباقون بحذف الياء وقفا ووصلا وأمالها حمزة والكسائى محضة وورش بالفتح وبين اللفظين (خير) أى أفضل (مما آتاكم) أى من الملك الذى لا دين ولا نبوة فيه (بل أنتم) أى بجهلكم بالدين (بهديتكم) أى باهداء بعضكم الى بعض (تفرحون) وأما أنا فلا أفرح بها وليست الدنيا من حاجتى لان الله تعالى قد مكننى فيها وأعطانى منها ما لم يعط أحدا ومع ذلك أكرمنى بالدين والنبوة ثم قال للمنذر ابن عمرو أمير الوفد (ارجع) أى بهديتهم وجمع فى قوله (اليهم) اكراما لنفسه وصيانة لاسمها عن التصريح بضميرها وتعظيما لكل من يهتم بأمرها ويطيعها (فلنأتينهم بجنود لا قبل) أى لا طاقة (لهم بها) أى بمقابلتها (ولنخرجنهم منها) أى من أرضهم وبلادهم وهى سبا (أذلة وهم صاغرون) أى ذليلون لا يملكون شيأ من المنعة (فان قيل) فلنأتينهم ولنخرجنهم قسم فلا بد أن يقع (أجيب) بأنه معلق على شرط محذوف افهم المعنى أى ان لم يأتونى مسلمين قال وهب وغيره من أهل الكتب لما رجعت رسل بلقيس اليها من عند سليمان قالت لهم قد عرفت والله ما هذا بملك ومالنا به من طاقة فبعثت الى سليمان انى قادمة عليك بملوك قومى حتى أنظر ما أمرك وما تدعو اليه من دينك ثم أمرت بعرشها فجعلته داخل سبعة

أبواب داخل قصرها وقصرها داخل سبعة قصور وأغلقت الابواب وجعلت عليها حراسا يحفظونه ثم قالت لمن خلفت على سلطانها احتفظ بما وكلتك وبسرير ملكي لا يخلص اليه أحد حتى آتيك ثم أمرت مناديا ينادي في أهل مملكتها تؤذنهم بالرحيل وتجهزت للمسير فارتحلت في اثني عشر ألف قيل من ملوك اليمن تحت يد كل قيل ألوف كثيرة قال ابن عباس كان سليمان رجلا مهيبا لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه فخرج يوما فجلس على سرير ملكه فرأى رهجا قريبا منه فقال ما هذا قالوا بلقيس وقد نزلت منا على مسيرة فرسخ فأقبل سليمان حينئذ على جنوده بأن (قال) لهم (يا أيها الملأ) أي الاشراف (أيكم) وفي الهمزتين ما تقدم (يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين) أي مؤمنين وقال ابن عباس واختلفوا في السبب الذي لاجله أمر سليمان باحضار عرشها فقال أكثرهم لان سليمان علم أنها ان أسلمت يحرم عليه مالها فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه باسلامها وقيل ليريها قدرة الله تعالى ببعض ما خصه به من العجائب الدالة على عظيم القدرة وصدقه في دعوى النبوة في معجزة يأتي بها في عرشها وقال قتادة لانه أعجبته صفته لما وصفه الهدهد بالعظم فأحب أن يراه وقال ابن زيد يريد أن يأمر بتنكيره وتغييره فيختبر بذلك عقلها (قال عفريت من الجن) وهو المارد القوي قال وهب اسمه كودي وقيل ذكوان وقال ابن عباس العفريت الداهي وقال الضحاك هو الخبيث وقال الربيع الغليظ وقال الفراء القوي الشديد قيل ان الشياطين أقوى من الجن وان المردة أقوى من الشياطين وان العفريت أقوى منهما قال بعض المفسرين العفريت من الرجال الخبيث المنكر وقيل هو صخر الجني وكان بمنزلة جبل يضع قدمه عند منتهى طرفه وقوله تعالى (أنا آتيك به) قرأه في الموضعين نافع باثبات الالف من أنا وصلا ووقفا والباقون وصلا لا وقفا ثم بين سرعة اسراعه بقوله (قبل ان تقوم من مقامك) أي الذي تجلس فيه للقضاء قال ابن عباس كان له غداة كل يوم مجلس يقضي فيه الى نصف النهار ثم أوثق الامر وأكده بقوله (واني عليه) أي على الاتيان به سالما (لقوي) أي على حمله لا يحصل عجزي عنه (أمين) أي على ما فيه من الجواهر وغيرها قال سليمان عليه السلام أريد أسرع من ذلك (قال الذي عنده علم من الكتاب) المنزل وهو علم الوحي والشرائع وقيل كتاب سليمان وقيل اللوح المحفوظ والذي عنده علم من الكتاب جبريل قال البقاعي ولعله التوراة والزبور والانجيل وفي ذلك اشارة الى أن من خدم كتاب الله حق الخدمة كان الله تعالى معه كما ورد في شرعنا كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها أي أنه يفعل له ما يشاء (واختلفوا) في تعيينه فقال أكثر المفسرين هو آصف بن برخيا كاتب سليمان وقيل اسمه اسطوم وكان صديقا عالما يعلم اسم الله الاعظم الذي اذا دعي به أجاب واذا سئل به أعطى وقيل ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام وعن ابن لهيعة بلغني أنه الخضر عليه السلام (أنا آتيك به) ثم بين فضله على العفريت بقوله (قبل أن يرتد) أي يرجع (اليك طرفك) أي بصرك اذا طرفت أجفانك فأرسلته الى منتهاه ثم رددته فالطرف تحريك

قوله وقال ابن عباس واختلفوا الخ كذا في الاصول ولعله محرف عن عباس أو وقال محرف عن قاله اه مصححه

قوله والباقون وصلا لا وقفا كذا في الاصول ولعله وقفا لا وصلا وليحرر اه مصححه

أجفانك اذا نظرت فوضع فى موضع النظر ولما كان الناظر موصوفا بارسال الطرف فى نحو قوله

وكنت اذا أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما اتعبتك المناظر

وصف برد الطرف ووصف الطرف بالارتداد روى ان آصف قال لسليمان مد عينيك حتى ينتهى طرفك فمد سليمان عينيه فنظر نحو اليمن ودعا آصف فبعث الله تعالى الملائكة فحملوا السرير من تحت الارض يخدون خدا حتى انخرقت الارض بالسرير بين يدى سليمان وقال الكلبي خر آصف ساجدا ودعا باسم الله الاعظم فغار عرشها تحت الارض حتى نبع تحت كرسى سليمان بقدرة الله تعالى وقيل كانت المسافة شهرين وقال سعيد بن جبير يعنى من قبل أن يرجع اليك أقصى من ترى وهو أن يصل اليك من كان منك على مد بصرك وقال قتادة قبل أن يأتيك الشخص من مد البصر وقال مجاهد يعنى ادامة النظر حتى يرد البصر خاسئا قال الزمخشري ويجوز أن يكون هذا مثلا لاستقصار مدة المجىء به كما تقول لصاحبك افعل ذلك فى لحظة وفى ردة طرف والتفت ترنى وما أشبه ذلك تريد السرعة انتهى * واختلفوا فى الدعاء الذى دعا به آصف فقال مجاهد ومقاتل ياذا الجلال والاكرام وقال الكلبي ياحى ياقيوم وروى ذلك عن عائشة رضى الله عنها وروى عن الزهرى قال دعاء الذى عنده علم من الكتاب يا الهنا واله كل شىء الها واحدا لا اله الا أنت ائتنى بعرشها وعن الحسن يا الله يارحمن وقال محمد بن المنكدر انما هو سليمان قال له عالم من بنى اسرائيل آتاه الله تعالى علما وفهما أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك قال سليمان هات قال أنت النبى ابن النبى وليس أحد أوجه عند الله منك فان دعوت الله كان عندك فقال صدقت ففعل ذلك فجىء بالعرش فى الوقت قال الرازى وهذا القول أقرب واستدل لذلك بوجوه منها ان سليمان كان أعرف بالكتاب من غيره لانه هو النبى فكان صرف اللفظ اليه أولى ومنها أن احضار العرش فى تلك الساعة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك قصور حال سليمان فى أعين الخلق ومنها انه قال هذا من فضل ربى فظاهره يقتضى أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان (فلما رآه) أى رأى سليمان العرش (مستقرا عنده) أى حاصلا بين يديه (قال) شاكرا لربه لما آتاه الله تعالى من هذه الخوارق (هذا) أى الاتيان المحقق (من فضل ربى) أى المحسن الىّ لابعمل استحق به شيأ فانه أحسن الىّ باخراجى من العدم وتطرانى بتوفيقى للعمل فكل عمل نعمة يستوجب على بها الشكر ولذلك قال (ليبلونى) أى ليختبرنى (أأشكر) فاعترف بكونه فضلا (أم أكفر) بظنى انى أوتيته باستحقاق *(تنبيه)* ههنا همزتان مفتوحتان فنافع يسهل الهمزة الثانية وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه وأدخل بينهما ألفا قالون وأبو عمرو وهشام ولم يدخل ورش وابن كثير ولورش أيضا ابدالها ألفا والباقون بالتحقيق وعدم الادخال ثم زاد فى حث نفسه على الشكر بقوله (ومن شكر) أى أوقع الشكر لربه (فانما يشكر لنفسه) فان نفعه لها وهو ان يستوجب تمام النعمة ودوامها لان الشكر قيد للنعمة الموجودة وجلب للنعمة المفقودة (ومن كفر) أى بالنعمة (فان ربى) أى المحسن الىّ

بتوفيق لما أنا فيه من الشكر (غنى) عن شكره لا يضره تركه شيأ (كريم) أى بادرار الانعام عليه فلا يقطعه عنه بسبب عدم شكره ولما حصل العرش عنده (قال) عليه السلام (نكروا) أى غيروا (لها عرشها) أى سريرها الى حالة تنكره اذا رأته قال قتادة ومقاتل هو أن يزاد فيه وينقص وروى انه جعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه وجعل مكان الجوهر الاحمر أخضر ومكان الاخضر أحمر اختبارا لعقلها كما اختبرتنا بالوصفاء والوصائف والدرة وغير ذلك واليه أشار بقوله (ننظر أتهتدى) أى الى معرفته فيكون ذلك سببا لهدايتها فى الدين (أم تكون من الذين) شأنهم أنهم (لا يهتدون) بل هم فى غاية الغباوة ولا يتجدد لهم اهتداء وقال وهب ومحمد بن كعب انما حمل سليمان على ذلك أن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان فتفشى له اسرار الجن لان أمها كانت جنية واذا ولدت له ولدا لا ينفكون عن تسخير سليمان وذريته من بعده فأساؤا الثناء عليها ليزهدوه فيها فقالوا ان فى عقلها شيأ وان رجليها كحافر الحمار وانها شعراء الساقين فأراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر الى قدميها ببناء الصرح ثم أشار الى سرعة مجيئها اشارة الى خضوعها بالتعبير بالفاء فى قوله (فلما جاءت) وكانت قد وضعت عرشها فى بيت خلف سبعة أبواب ووكلت به حراسا أشداء (قيل) لها وقد رأت عرشها بعد تنكيره (أهكذا عرشك) أى مثل هذا عرشك (قالت كأنه هو) قال مقاتل عرفته ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها وقال عكرمة كانت حكيمة لم تقل نعم خوفا من أن تكذب ولم تقل لا خوفا من التكذيب فقالت كأنه هو فعرف سليمان كمال عقلها حيث لم تقر ولم تنكر وقيل اشتبه عليها أمر العرش لانها خلفته فى بيت خلف سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها فقيل لها فانه عرشك فما أغنى عنك اغلاق الابواب وقوله تعالى (وأوتينا العلم من قبلها) فيه وجهان أحدهما انه من كلام بلقيس فالضمير فى قبلها راجع للمعجزة والحالة الدال عليها السياق والمعنى وأوتينا العلم بنبوة سليمان من قبل ظهور هذه المعجزة أو من قبل هذه الحالة وذلك لما رأت قبل ذلك من أمر الهدهد ورد الهدية والرسل من قبلها من قبل الآية فى العرش (وكنا مسلمين) أى منقادين طائعين لامر سليمان والثانى انه من كلام سليمان واتباعه فالضمير فى قبلها عائد على بلقيس فكان سليمان وقومه قالوا انها قد أصابت فى جوابها وهى عاقلة وقد رزقت الاسلام ثم عطفوا على ذلك قولهم وأوتينا العلم يعنى بالله تعالى وبقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرأة فى مثل علمها وغرضهم من ذلك شكر الله تعالى فى ان خصهم بمزيد التقديم فى الاسلام قاله مجاهد وقيل معناه وأوتينا العلم باسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنا مسلمين طائعين لله تعالى واختلف فى فاعل قوله عز وجل (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) على ثلاثة أوجه أحدها ضمير البارى تعالى والثانى ضمير سليمان عليه السلام أى منعها ما كانت تعبد من دون الله وهو الشمس وعلى هذا فما كانت تعبد منصوب على اسقاط الخافض أى وصدها الله تعالى أو سليمان عما كانت تعبد من دون الله قاله الزمخشرى مجوزا له قال أبو حيان وفيه نظر من حيث ان حذف الجار ضرورة كقوله

تمرون الديار فلم تعوجوا * وقد تقدم آيات كثيرة من هذا النوع والثالث أن الفاعل هو ما كانت

أى صدّها ما كانت تعبد عن الاسلام أى صدّها عبادة الشمس عن التوحيد وقوله تعالى (انها كانت من قوم كافرين) استئناف أخبر الله تعالى انها كانت من قوم يعبدون الشمس فنشأت بينهم ولم تعرف العبادة ولم تعرف الا عبادة الشمس ولما تم ذلك فكأنه قيل هل كان بعد ذلك اختبار فقيل نعم (قيل لها) أى قائل من جنود سليمان عليه السلام فلم يمكنها المخالفة (ادخلى الصرح) وهو سطح من زجاج أبيض شفاف تحته ماء جار فيه سمك اصطنعه سليمان ولما قالت له الشياطين ان رجليها كحافر الحمار وهى شعراء الساقين فأراد أن ينظر الى ساقيها من غير أن يسألها كشفهما وقيل الصرح صحن الدار أجرى تحته الماء وألقى فيه كل شئ من دواب البحر السمك والضفادع وغيرهما ثم وضع سريره فى صدره وجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والانس وقيل اتخذ صحنا من قوارير وجعل تحتها تماثيل من الحيتان والضفادع فكان الواحد اذا رآه ظنه ماء (فلما رأته حسبته لجة) وهى معظم الماء (وكشفت عن ساقيها) لتخوضه فنظر اليها سليمان فرآها أحسن الناس ساقا وقدما الا انها كانت شعراء الساقين فلما رأى سليمان ذلك صرف نظره عنها وناداها بأن (قال) لها (انه) أى هذا الذى ظننته ماء (صرح ممرد) أى مملس ومنه الامرد لملاسة وجهه من الشعر (من) أى كائن من (قوارير) أى زجاج وليس بماء ثم ان سليمان دعاها الى الاسلام وكانت قد رأت حال العرش والصرح فأجابت بأن (قالت رب) أى أيها المحسن الى (انى ظلمت نفسى) أى بما كنت فيه من العمى بعبادة غيرك عن عبادتك (وأسلمت مع سليمان لله) أى مقرّة له بالالوهية والربوبية على سبيل الوحدانية ثم رجعت اشارة للعجز عن معرفة الذات حق المعرفة الى الافعال التى هى بحر المعرفة فقالت (رب العالمين) فعممت بعد أن خصت اشارة الى الترقى من حضيض دركات العمى الى أوج درجات الهدى وقيل انها لما بلغت الصرح وظنته لجة قالت فى نفسها ان سليمان يريد أن يغرقنى وكان القتل أهون من هذا فقولها ظلمت نفسى أى بذلك الظن واختلفوا فى أمرها بعد اسلامها هل تزوجها سليمان عليه السلام فالذى عليه أكثر المفسرين فيما رأيت انه تزوجها وكره ما رأى من شعر ساقيها فسأل الانس ما يذهب هذا فقالوا الموسى فقالت المرأة لا تمسنى حديدة قط فسأل الجن فقالوا الا ندرى فسأل الشياطين فقالوا انا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء فاتخذوا النورة والحمام فكانت النورة والحمامات من يومئذ فلما تزوجها سليمان أحبها حبا شديدا وأقرها على ملكها وأمر الجن فابتنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعا وحسنا قال الطيبى سلحين وبينونة بالبمن وغمدان قال فى النهاية هو بضم الغين وسكون الميم البناء العظيم وكان يزورها فى الشهر مرة ويقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له وقيل انها لما أسلمت قال لها سليمان اختارى رجلا من قومك أن أزوجك له قالت ومثلى يا نبى الله ينكح الرجال وقد كان لى فى قومى من الملك والسلطان ما كان قال نعم انه لا يكون فى الاسلام الا ذلك ولا ينبغى لك ان تحرمى ما أحل الله فقالت ان كان ولا بد فزوجنى ذا تبع ملك همدان فزوجه بها ثم ردها الى اليمن وسلطن زوجها ذا تبع على اليمن وأمر زوبعة أمير جن

الجن أن يطيعه فبقى له المصانع ولم يزل أميرا حتى مات سليمان عليه السلام فلما ان حال الحول وتبينت الجن موت سليمان أقبل رجل منهم فسلك تهامة حتى اذا كان فى جوف اليمن صرخ بأعلى صوته يامعشر الجن ان الملك سليمان قدمات فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا وانقضى ملك ذى تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان وقيل ان الملك وصل الى سليمان وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة فسبحان من يدوم ملكه وبقاؤه * ولما أتم سبحانه وتعالى قصة سليمان وداود عليهما السلام ذكر قصة صالح عليه السلام وهى القصة الثالثة بقوله تعالى (ولقد أرسلنا) أى بمالنا من العظمة (الى ثمود أخاهم) أى من القبيلة (صالحا) ثم ذكر المقصود من الرسالة بمالا أعدل منه ولا أحسن بقوله (ان اعبدوا الله) أى الملك الاعظم وحده ولا تشركوا به شيأ ثم تعجب منهم بما أشارت اليه الفاء واذا المفاجأة من المبادرة الى الافتراق بما يدعو الى الاجتماع بقوله (فاذاهم) أى ثمود (فريقان) وبين بقوله تعالى (يختصمون) انهم فرقة افتراق بكفر وايمان لا فرقة اجتماع فى هدى وعرفان ففريق صدق صالحا واتبعه وفريق استمر على شركه وكذبه وكل فريق يقول أنا على الحق وخصمى على الباطل ثم استعطف صالح عليه السلام على المكذبين بأن (قال) لهم (ياقوم لم تستعجلون) أى تطلبون العجلة بالاتيان (بالسيئة) أى التى مساءتها ثابتة وهى العقوبة التى أنذرت بها من كفر (قبل) الحالة (الحسنة) من الخيرات التى أبشركم بها فى الدنيا والآخرة ان آمنتم والاستعجال طلب الاتيان بالامر قبل الوقت المضروب واستعجالهم لذلك بالاصرار على سببه وقولهم استهزاء ائتنا بما تعدنا وكانوا يقولون ان العقوبة التى يعدها صالح ان وقعت على زعمه تبنا حينئذ واستغفرنا فحينئذ يقبل الله تعالى توبتنا ويدفع العذاب عنا فخاطبهم صالح عليه السلام على حسب عقولهم واعتقادهم فقال (لولا) أى هلا ولم لا (تستغفرون الله) أى تطلبون غفرانه قبل نزول العذاب فان استعجال الخير أولى من استعجال الشر (لعلكم ترحمون) تنبيها لهم على الخطا فيما قالوه فان العذاب اذا نزل بهم لا تقبل توبتهم *(تنبيه)* وصف العذاب بأنه سيئة مجازا امالان العقاب من لوازمه أولانه يشبهه فى كونه مكروها وأما وصف الرحمة بأنها حسنة فقيل حقيقة وقيل مجاز ثم ان صالحا عليه السلام لما قرر لهم هذا الكلام الحق أجابوه بكلام فاسد بأن (قالوا) فظاظة وغلظة (اطيرنا) أى تشاءمنا (بك وبمن معك) أى وبمن آمن بك وذلك أن الله تعالى قد أمسك عنهم المطر فى ذلك الوقت وقحطوا فقالوا حل بنا هذا الضرر والشدة من شؤمك وشؤم أصحابك قال الزمخشرى كان الرجل يخرج مسافرا فيمر بطائر فيزجره فان مر سانحا تيمن وان مر بارحا تشاءم قال الجوهرى السنيح والسانح ما ولاك ميامنه من ظبى أو طائر وغيرهما والبرح الظبى بروحا اذا ولاك مياسره يمر من ميامنك الى مياسرك والعرب تتطير بالبارح وتتفاءل بالسانح فلما نسبوا الخير والشر الى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله تعالى وقسمته *(تنبيه)* أصل اطيرنا تطيرنا أدغمت التاء فى الطاء واجتلبت

همزة وصل ثم أجابهم صالح عليه السلام بأن (قال) لهم (طائركم) أى مايصيبكم من خير
وشر (عند الله) أى الملك الاعظم المحيط بكل شئ علما وقدرة وهو قضاؤه وقدره وليس شئ منه
بيد غيره وسمى طائرا لسرعة نزوله بالانسان فانه لاشئ أسرع من قضاء محتوم وقال ابن عباس
الشؤم أتاكم من عند الله تعالى بكفركم وقيل طائركم عملكم عند الله سمى طائرا لسرعة صعوده
الى السماء ومنه قوله تعالى وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه (بل أنتم قوم تفتنون) قال ابن
عباس تختبرون بالخير والشر كقوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة وقال محمد بن كعب
تعذبون وقيل يفتنكم الشيطان بوسوسته اليكم بالتطير ولما أخبر الله تعالى عن عامة هذا الفريق
بالشر نبه على بعض شرهم بقوله تعالى (وكان فى المدينة) أى مدينة ثمود وهى الحجر (تسعة
رهط) أى رجال وانما جاز تمييز التسعة بالرهط لانه فى معنى الجماعة فكأنه قيل تسعة أنفس
أو رجال كما قدرته والفرق بين الرهط والنفر أن الرهط من الثلاثة الى العشرة أو من السبعة الى
العشرة والنفر من الثلاثة الى التسعة وأسماؤهم عن وهب الهذيل بن عبد رب غنم بن غنم
رياب بن مهرج مصدع بن مهرج عمير بن كردبة عاصم بن مخرمة سبيط بن صدقة سمعان
ابن صفى قدار بن سالف وهم الذين سعوا فى عقر الناقة وكانوا عتاة قوم صالح وكانوا من أبناء
أشرافهم ورأسهم قدار بن سالف وهو الذى تولى عقر الناقة وقوله (يفسدون فى الارض)
اشارة الى عموم فسادهم ودوامه وقوله (ولا يصلحون) يحتمل أن يكون مؤكدا للاول ويحتمل أن
لا يكون وهو الاولى لان بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح فنفى عنهم ذلك فليس شأنهم
الا الفساد المحض الذى لا يخالطه شئ من الصلاح ولما اقتضى السياق السؤال عن بعض حالهم
أجاب بقوله (قالوا تقاسموا) أى قال بعضهم لبعض احلفوا (بالله) أى الملك العظيم (لنبيتنه)
أى صالحا (وأهله) أى من آمن به لنهلكن الجميع ليلا فان البيات مباغتة العدو ليلا * (تنبيه) *
محل تقاسموا جزم على الامر ويجوز أن يكون فعلا ماضيا وحينئذ يجوز أن يكون مفسرا لقالوا
كأنه قيل ما قالوا فقيل تقاسموا ويجوز أن يكون حالا على اضمار قد أى قالوا ذلك متقاسمين
واليه ذهب الزمخشرى (ثم لنقولن) أى بعد اهلاك صالح ومن معه (لوليه) أى المطالب بدمه
ان بقى منهم أحد (ما شهدنا) أى ما حضرنا (مهلك) أى اهلاك (أهله) أى أهل ذلك الولى فضلا
عن أن نكون باشرنا أو أهل صالح عليه السلام فضلا عن أن نكون شهدنا مهلكه أو باشرنا
قتله ولا موضع اهلاكه وقرأ حمزة والكسائى بعد اللام من لنبيتنه بتاء فوقية مضمومة وبعد
الياء التحتية بتاء فوقية مضمومة وبعد اللام من ليقولن بتاء فوقية مفتوحة وضم اللام بعد
الواو والباقون بعد اللام من لنقولن بنون مفتوحة ونصب اللام من لنقولن وقرأ عاصم مهلك
بفتح الميم والباقون بضمها وكسر اللام حفص وفتحها الباقون ولما صمموا على هذا الامر
وطنوا أنفسهم على المبالغة فى الحلف بقولهم (وانا لصادقون) أى فى قولنا ما شهدنا مهلك أهله
ذلك (فان قيل) كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه
(أجيب) على التفسير الثانى بأنهم اعتقدوا انهم اذا بيتوا صالحا وبيتوا أهله فجمعوا بين

البياتين ثم قالوا ماشهدنا مهلك أهله فذكروا أحدهما كانوا صادقين لانهم فعلوا البياتين جميعا لا أحدهما وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم الا أنهم قصدوا قتل نبي الله ولم يرضوا لانفسهم أن يكونوا كاذبين حتى سوّوا للصدق في خبرهم حيلة يتفصون فيها عن الكذب ولما كان منهم عمل من لم يظن أن الله عالم به قال تعالى محذرا أمثالهم عن أمثال ذلك (ومكروا مكرا) وهو ما أخفوه من تدبيرهم الفتك بصالح وأهله (ومكرنا مكرا) أي جازيناهم على مكرهم بتعجيل العقوبة (وهم لا يشعرون) أي لا يتجدد لهم شعور بما قدرناه عليهم شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة وقيل ان الله تعالى أخبر صالحا بمكرهم فتحرز عنهم فذلك مكر الله تعالى في حقهم (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم) في ذلك (انا دمرناهم) أي أهلكناهم (وقومهم أجمعين) روى أنه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا الى ثلاثة فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاثة فخرجوا الى الشعب وقالوا اذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا الى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة من أهضب جبالهم فبادروا الى الشعب فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل الله تعالى بهم وبقومهم وعذب الله تعالى كلا منهم في مكانه بصيحة جبريل عليه السلام ورمتهم الملائكة بحجارة يرونها ولا يرونهم وقال ابن عباس أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة الى دار صالح يحرسونه فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم فرمتهم الملائكة بالحجارة من حيث يرون الحجارة ولا يرون الملائكة فقتلتهم وقال مقاتل نزلوا في سفح الجبل ينتظر بعضهم بعضا ليأتوا دار صالح فجثم عليهم الجبل فأهلكهم وأهلك الله تعالى قومهم بالصيحة (فتلك بيوتهم) أي ثمود كلهم (خاوية) أي خالية من خوى البطن اذا خلا أو ساقطة منهدمة من خوى النجم اذا سقط *(تنبيه)* خاوية منصوب على الحال والعامل فيها معنى اسم الاشارة وقرأ الكوفيون أنا دمرناهم بفتح الهمزة اما على حذف حرف الجر أي لانا دمرناهم واما أن يكون خبر مبتدا محذوف أي هي أنا دمرناهم أي العاقبة تدميرنا اياهم وقيل غير ذلك والباقون بكسر الهمزة على الاستئناف وهو تفسير للعاقبة وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بيوتهم بضم الباء الموحدة وكسرها الباقون ولما ذكر تعالى هلاكهم اتبعه بقوله تعالى (بما ظلموا) أي بسبب ظلمهم وهو عبادتهم من لا يستحق العبادة وتركهم من يستحقها ثم زاد في التهويل بقوله تعالى (ان في ذلك) أي هذا الامر الباهر للعقول الذي فعل بثمود (لآية) أي عبرة عظيمة ولكنها (لقوم يعلمون) قدرتنا فيتعظون أما من لا علم عنده فقد نادى على نفسه في عداد البهائم ولما ذكر تعالى الذين أهلكهم اتبعه بذكر الذين نجاهم فقال (وأنجينا) أي بعظمتنا وقدرتنا (الذين آمنوا) وهم الفريق الذين كانوا مع صالح كلهم (وكانوا يتقون) أي متصفين بالتقوى أيضا فكأنهم مجبولون عليه فيجعلون بينهم وبين ما يسخط الله وقاية من الاعمال الصالحة * ولما ذكر تعالى قصة صالح عليه السلام اتبعها قصة لوط عليه السلام وهي القصة الرابعة بقوله تعالى (ولوطا)

وهو

وهو اما منصوب عطفا على صالحا أى وأرسلنا لوطا واما عطفا على الذين آمنوا أى وأنجينا لوطا واما باذكر مضمرة ويبدل منه على هذا (اذ) أى حين (قال لقومه) أى الذين كان سكن فيهم لما فارق عمه ابراهيم الخليل عليه السلام وصاهرهم وكانوا يأتون الاحداث منكرا موبخا (أتأتون الفاحشة) أى الفعلة المتناهية فى الفحش (وأنتم تبصرون) من بصر القلب أى تعلمون فحشها واقتراف القبائح من العالم بقبحها أقبح أو يبصرها بعضكم من بعض لانهم كانوا فى ناديهم يرتكبونها معلنين لا يستتر بعضهم من بعض خلاعة ومجانة وانهماكا فى المعصية قال الزمخشرى وكان أبا نواس بنى على مذهبهم قوله

وبح باسم ما تأتى وذرنى من الكنى * فلا خير فى اللذات من دونها ستر

أو تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم (فان قيل) اذا فسر تبصرون بالعلم وبعده بل أنتم قوم تجهلون فكيف يكونون علماء جهلاء (أجيب) بأنهم يفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمهم بذلك أو يجهلون العاقبة أو أن المراد بالجهل السفاهة والمجانة التى كانوا عليها ثم عين ما أبهمه بقوله (أئنكم لتأتون) وقال (الرجال) اشارة الى أن فعلهم هذا مما يعمى الوصف ولا يبلغ كنه قبحها ولا يصدق ذو عقل أن أحدا يفعلها ثم علل ذلك بقوله (شهوة) انزالا لهم الى رتبة البهائم التى ليس فيها قصد ولد ولا اعفاف وقال (من دون النساء) اشارة الى أنهم أساؤا من الطرفين فى الفعل والترك وقوله (بل أنتم قوم تجهلون) تقدم فى جواب تبصرون تفسيره (فان قيل) تجهلون صفة لقوم والموصوف لفظه لفظ الغائب فهلا طابقت الصفة الموصوف (أجيب) بأنه قد اجتمعت الغيبة والمخاطبة فغلبت المخاطبة لانها أقوى وأرسخ أصلا من الغيبة وقرأ أئنكم نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية المكسورة كالياء وحققها الباقون وأدخل بينهما قالون وأبو عمرو ألفا وهشام بخلاف عنه ولما بين تعالى جهلهم بين انهم أجابوا بما لا يصلح أن يكون جوابا بقوله تعالى (فما كان جواب قومه) أى لهذا الكلام الحسن لما لم يكن لهم حجة ولا شبهة فى دفعه (الا أن قالوا) عدولا الى المغالبة وتماديا فى الخبث (أخرجوا آل لوط) أى أهله وقالوا (من قريتكم) منا عليه باسكانه عندهم وعللوا ذلك بقولهم (انهم أناس يتطهرون) أى يتنزهون عن القاذورات كلها فينكرون هذا العمل القذر ويغيظنا انكارهم وعن ابن عباس هو استهزاء أى قالوه تهكما بهم ولما وصلوا فى الخبث الى هذا الحد تسبب سبحانه وتعالى عن قولهم وفعلهم قوله تعالى (فأنجيناه وأهله) أى كلهم من أن يصلوا اليهم بأذى ويلحقهم من عذابنا (الا امرأته قدرناها) أى قضينا عليها وجعلناها بتقديرنا (من الغابرين) أى الباقين فى العذاب وقرأ شعبة بتخفيف الدال والباقون بالتشديد (وأمطرنا عليهم مطرا) هو حجارة السجيل اى أهلكتهم ولذلك تسبب عنه قوله (فساء) أى فبئس (مطر المنذرين) بالعذاب مطرهم * ولما أتم سبحانه وتعالى هذه القصص الدالة على كمال قدرته وعظيم شأنه وما خص به رسله من الآيات والانتصار من البعداء أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحمده على هلاك الامم الخالية بقوله (قل) يا أفضل الخلق (الحمد)

أي الوصف بالاحاطة بصفات الكمال (لله) على اهلاك هؤلاء البعداء البغضاء وأن يسلم على من اصطفاه بالعصمة من الفواحش والنجاة من الهلاك بقوله تعالى (وسلام على عباده الذين اصطفى) أي اصطفاهم واختلف فيهم فقال مقاتل هم الانبياء والمرسلون بدليل قوله تعالى وسلام على المرسلين وقال ابن عباس في رواية أبي مالك هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هم كل المؤمنين من السابقين واللاحقين *(تنبيه)* سلام مبتدأ وسوغ الابتداء به كونه دعاء ولما بين أنه تعالى أهلكهم ولم تغن عنهم آلهتهم من الله شيأ قال تعالى (آلله) أي الذي له الجلال والاكرام (خير) أي لعباده الذين اصطفاهم وانجاهم (أم ما يشركون) أي الكفار من الآلهة خير لعبادها فانهم لا يغنون عنهم شيأ *(تنبيه)* لكل من القراء السبعة في هاتين الهمزتين وجهان الاول تحقيق همزة الاستفهام وابدال همزة الوصل الفا مع المد والثاني تحقيق همزة الاستفهام أيضا وتسهيل همزة الوصل مع القصر وقرأ أبو عمرو وعاصم يشركون بالياء التحتية بالغيبة حملا على ما قبله من قوله تعالى وأمطرنا عليهم مطرا وما بعده من قوله تعالى بل أكثرهم والباقون بالتاء الفوقية على الخطاب وهو التفات للكفار بعد خطاب نبيه صلى الله عليه وسلم وهذا تبكيت للمشركين بحالهم لانهم آثروا عبادة الاصنام على عبادة الله تعالى ولا يؤثر عاقل شيأ على شيء الا لزيادة خير ومنفعة فقيل لهم هذا الكلام تنبيها لهم على نهاية ضلالهم وجهلهم وتهكما بهم وتسفيها لرأيهم اذ من المعلوم أنه لا خير فيما أشركوه رأسا حتى يوازنون بينه وبين من هو مبدأ كل خير وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأها قال بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم * ثم عدد سبحانه وتعالى أنواعا من الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله الاول منها قوله تعالى (أم من خلق السموات والارض) أي التي هي أصول الكائنات ومبادي المنافع (فان قيل) ما الفرق بين أم وأم في أم ما يشركون وأم من خلق السموات (أجيب) بأن تلك متصلة لان المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة لما قال الله خير أم الآلهة قال بل أم من خلق السموات والارض خير تقريرا لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء (وأنزل لكم) أي لاجلكم خاصة وأنتم تكفرون به وتنسبون ما تفرد به من ذلك لغيره (من السماء ماء) هو للارض كالماء الدافق للارحام (فأنبتنا به حدائق) جمع حديقة وهي البستان وقيل القطعة من الارض ذات الماء قال الراغب سميت بذلك تشبيها بحدقة العين في الهيئة وحصول الماء فيها وقال غيره سميت بذلك لاحداق الجدران بها قاله ابن عادل وليس بشيء لانه يطلق عليها ذلك مع عدم الجدران (ذات بهجة) أي بهاء وحسن ورونق وسرور على تقارب أصولها مع اختلاف أنواعها وتباين طعومها وأشكالها ومقاديرها وألوانها ولما أثبت الانبات لنفسه نفاه عن غيره بقوله تعالى (ما كان) أي ما صح وما تصور بوجه من الوجوه (لكم) وأنتم أحياء فضلا عن شركائكم الذين هم أموات بل موات (أن تنبتوا شجرها) أي شجر تلك الحدائق (أإله مع الله) أعانه على ذلك أي ليس معه اله (بل هم) أي في ادعائهم معه سبحانه شريكا

(قوم يعدلون) أي عن الحق الذي لا مرية فيه الى غيره وقيل يعدلون عن هذا الحق الظاهر ونظير هذه الآية أول سورة الانعام * الثاني منها قوله تعالى (أم من جعل الارض قرارا) وهو بدل من أم من خلق السموات وحكمه حكمه ومعنى قرارا لا تميد بأهلها وكان القياس يقتضي أن تكون عادتة أو مضطربة كما يضطرب ما هو معلق في الهواء ولكن الله تعالى أبدى بعضها من الماء بحيث يتأتى استقرار الانسان والدواب عليها (وجعل خلالها) أي وسطها (أنهارا) أي جارية على حالة واحدة فلو اضطربت الارض أدنى اضطراب لتغيرت مجاري المياه ثم ذكر تعالى سبب القرار بقوله تعالى (وجعل لها رواسي) أي جبالا لا أثبت بها الارض على ميزان دبره سبحانه وتعالى في مواضع من ارجائها بحيث اعتدلت جميع جوانبها فامتنعت من الاضطراب ولما كان بعض مياه الارض عذبا وبعضها ملحا مع القرب جدا بين الله تعالى ان أحدهما لم يختلط بالآخر بقوله تعالى (وجعل بين البحرين) أي العذب والملح (حاجزا) من قدرته يمنع أحدهما أن يختلط بالآخر (أإله مع الله) أي المحيط علما وقدرة معين له على ذلك (بل أكثرهم) أي الذين ينتفعون بهذه المنافع (لا يعلمون) توحيد ربهم بل هم كالبهائم لاعراضهم عن هذا الدليل الواضح *(تنبيه)* في قراءة أإله مثل أئنكم * الثالث منها قوله تعالى (أم من يجيب المضطر) أي المكروب وهو الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر الى اللجإ والتضرع الى الله تعالى (اذا دعاه) وقت اضطراره وعن ابن عباس هو المجهود وعن السدي هو الذي لا حول له ولا قوة (فان قيل) هذا يعم كل مضطر وكم مضطر يدعو فلا يجاب (أجيب) بأن اللام فيه للجنس لا للاستغراق ولا يلزم منه اجابة كل مضطر وقوله تعالى (ويكشف السوء) كالتفسير للاستجابة وانه لا يقدر أحد على كشف ما وقع له من فقر الى غنى ومرض الى صحة الا القادر الذي لا يعجزه شيء والقاهر الذي لا ينازع والاضافة في قوله تعالى (ويجعلكم خلفاء الارض) بمعنى في أي يخلف بعضكم بعضا لا يزال يتجدد ذلك باهلاك قرن وانشاء آخر الى قيام الساعة (أإله مع الله) أي الملك الذي لا كفؤ له ثم استأنف التبكيت تفظيعا له ومواجهابه بقوله تعالى (قليلا ما يذكرون) أي يتعظون وقرأ أبو عمرو وهشام بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالخطاب وفيه ادغام التاء في الذال وما زائدة لتقليل القليل * الرابع منها قوله تعالى (أم من يهديكم) أي يرشدكم الى مقاصدكم (في ظلمات البر) أي بالنجوم والجبال والرياح (والبحر) بالنجوم والرياح (ومن يرسل الرياح) أي التي هي دلائل السير (نشرا) أي تنشر السحاب وتجمعها (بين يدي رحمته) أي التي هي المطر تسمية للمسبب باسم السبب والرياح التي يهتدى بها في المقاصد أربع التي من تجاه الكعبة الصبا ومن ورائها الدبور ومن جهة يمينها الجنوب ومن شمالها الشمال ولكل منها طبع فالصبا حارة يابسة والدبور باردة رطبة والجنوب حارة رطبة والشمال باردة يابسة وهي ريح الجنة التي تهب على أهلها جعلنا الله ووالدينا ومشايخنا وأصحابنا ومن انتفع بشيء من هذا التفسير ودعا لنا بالمغفرة منهم وقرأ حمزة والكسائي وابن كثير الريح

بالافراد والباقون بالجمع وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو نشرا بضم النون والشين وابن عامر بضم النون وسكون الشين وحمزة والكسائى بفتح النون وسكون الشين وعاصم بالباء الموحدة مضمومة وسكون الشين ولما انكشف بما مضى من الآيات ما كانوا فى ظلامه من واهى الشبهات واتضحت الادلة ولم يبق لاحد فى شئ من ذلك علة كرر سبحانه وتعالى الانكار فى قوله تعالى (أإله مع الله) أى الذى كل علمه (تعالى الله) أى الفاعل القادر المختار (عما يشركون) به غيره وأين رتبة العجز من رتبة القدرة * الخامس منها قوله تعالى (أمن يبدأ الخلق) أى كلهم فى الارحام من نطفة ما علمتم منهم ومالم تعلموا (ثم يعيده) أى بعد الموت لان الاعادة أهون (فان قيل) كيف قيل لهم ثم يعيده (أجيب) بأنهم كانوا مقرين بالابتداء ودلالته على الاعادة ظاهرة قوية لان الاعادة أهون عليه من الابتداء فلما كان الكلام مقرونا بالدلالة الظاهرة صاروا كأنهم لا عذر لهم فى انكار الاعادة لقيام البراهين عليها ولما كان الامطار والانبات من أدل ما يكون على الاعادة قال مشيرا اليهما على وجه عم جميع ما مضى (ومن يرزقكم من السماء) أى بالمطر والحر والبرد وغيرها مماله سبب فى التكوين أو التلوين (والارض) أى بالنبات والمعادن والحيوان وغيرها مما لا يعلمه الا الله تعالى وعبر عنها بالرزق لان به تمام النعمة (أإله مع الله) أى الذى له صفات الجلال والاكرام ولما كانت هذه كلها براهين ساطعة ودلائل قاطعة أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم اعراضا عنهم بقوله تعالى (قل) أى لهؤلاء المدعين للعقول (هاتوا برهانكم) أى حجتكم على نفى شئ من ذلك عن الله تعالى أو على اثبات شئ منه لغيره (ان كنتم صادقين) أى فى أنكم على حق فى أن مع الله تعالى غيره وأضاف تعالى البرهان اليهم تهكما بهم وتنبيها على أنهم أبعدوا فى الضلال وأغرقوا فى المحال ثم انهم سألوه عن وقت قيام الساعة فنزل (قل) أى لهم (لا يعلم من فى السموات والارض) من الملائكة والناس (الغيب) أى ما غاب عنهم وقوله تعالى (الا الله) استثناء منقطع أى لكن الله يعلمه ولما كان الله تعالى منزها عن أن يحويه مكان جعل الاستثناء هنا منقطعا (فان قيل) من حق المنقطع النصب (أجيب) بأنه رفع بدلا على لغة بنى تميم يقولون ما فى الدار أحد الا حمار يريدون ما فيها الا حمار كان أحدا لم يذكر ومنه قولهم ما أتانى زيد الا عمرو وما أعانه اخوانكم الا اخوانه (فان قيل) ما الداعى الى المذهب التميمى على الحجازى (أجيب) بأنه دعت اليه حاجة سرية حيث أخرج المستثنى مخرج قوله الا اليعافير بعد قوله ليس بها أنيس * الا اليعافير والا العيس ليؤول المعنى الى قولك ان كان الله ممن فى السموات والارض فهم يعلمون الغيب بمعنى أن علمهم الغيب فى استحالته كاستحالة أن يكون الله منهم كما أن معنى ما فى البيت ان كانت اليعافير أنيسا ففيها أنيس ابتاعا عن خلوها عن الانيس ويصح أن يكون متصلا والظرفية فى حقه تعالى مجاز بالنسبة الى علمه وان كان فيه جمع بين الحقيقة والمجاز كما قال به امامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه وان منعه بعضهم ومن ذلك قول المتكلمين الله تعالى فى كل مكان على معنى أن علمه فى الاماكن كلها

فكان ذاته فيها وعلى هذا فيرتفع على البدل والصفة والرفع أفصح من النصب لانه منفي وعن عائشة رضي الله تعالى عنها من زعم أنه يعلم مافي غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله وعن بعضهم أخفى غيبه عن الخلق ولم يطلع عليه أحدا لئلا يأمن أحد من عبيده مكره وقوله تعالى (وما يشعرون) صفة لاهل السموات والارض نفى أن يكون لهم علم بالغيب وان اجتمعوا وتعاونوا (أيان) أى أى وقت (يبعثون) أى ينشرون وقوله تعالى (بل) بمعنى هل (أدرك) أى بلغ وتناهى (علمهم في الآخرة) أى بها حتى سألوا عن وقت مجيئها ليس الامر كذلك (بل هم في شك) أى ريب (منها) كمن تحير في الامر لا يجد عليه دليلا (بل هم منها عمون) لا يدركون دلائلها لاختلال بصيرتهم وهذا وان اختص بالمشركين ممن في السموات والارض نسب الى جميعهم كما يسند فعل البعض الى الكل (فان قيل) هذه الاضرابات الثلاثة مامعناها (أجيب) بأنها تنزيل أحوالهم وصفهم أولا بأنهم لا يشعرون بوقت البعث ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه والازالة مستطاعة ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه لا يخطر بباله حقا ولا باطلا ولا يفكر في عاقبة وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه فلذلك عداه بمن دون عن لان الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون ووصفهم باستحكام علمهم في أمر الآخرة تهكما وقرأ أبو عمرو وابن كثير بقطع الهمزة مفتوحة وسكون اللام قبلها وسكون الدال بعدها والباقون بكسر اللام واسقاط الهمزة بعدها وتشديد الدال وبعدها ألف بمعنى تتابع حتى استحكم أو تتابع حتى انقطع من تدارك بنو فلان اذا تتابعوا في الهلاك وقوله تعالى (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا) أى نحن وآباؤنا الذين طال العهد بهم (لمخرجون) كالنبات والعامل في اذا محذوف يدل عليه لمخرجون تقديره نبعث ونخرج لان بين يدي عمل اسم المفعول فيه عقبات وهي همزة الاستفهام وانا ولام الابتداء وواحدة منها كافية فكيف اذا اجتمعت والمراد الاخراج من الارض أو من حال الفناء الى حال الحياة وتكرير حرف الاستفهام بادخاله على اذا وانا جميعا انكار على انكار وجحود عقب جحود ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه والضمير في انا لهم ولآبائهم لان كونهم ترابا قد تناولهم وآباءهم *(تنبيه)* آباؤنا عطف على اسم كان وقام الفصل بالخبر مقام الفصل بالتوكيد وقرأ نافع بالخبر في اذا وبالاستفهام في أئنا وابن عامر والكسائي بالاستفهام في الاول والخبر في الثاني وزادا فيه نونا ثانية وباقي القراء بالاستفهام في الاول والثاني وهم على مذاهبهم من التسهيل والتحقيق والمد والقصر فذهب قالون وأبي عمرو التسهيل في الهمزة الثانية وادخال ألف بينها وبين همزة الاستفهام ومذهب ورش وابن كثير التسهيل وعدم الادخال ومذهب هشام الادخال وعدمه مع التحقيق ومذهب الباقين التحقيق وعدم الادخال ثم أقام الكفار الدليل في زعمهم على ذلك فقالوا تعليلا لاستبعادهم (لقد وعدنا هذا) أى الاخراج

من القبور كما كنا أول مرة (نحن وآباؤنا من قبل) أى قبل محمد فقد مرت الدهور وعلى هذا الوعد ولم يقع منه شئ فذلك دليل على أنه لا حقيقة له فكأنه قيل فما فائدة المراد به فقالوا (ان) أى ما (هذا الا أساطير الاولين) أى أحاديثهم وأكاذيبهم التى كتبوها ولا حقيقة لها *(تنبيه)* أساطير الاولين جمع أسطورة بالضم أى ما سطر من الكذب (فان قيل) لم قدم فى هذه الآية هذا على نحن وآباؤنا وفى آية أخرى قدم نحن وآباؤنا على هذا (أجيب) بأن التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المقصود بالذكر وان الكلام انما سيق لاجله ففى احدى الآيتين دل على أن ايجاد البعث هو الذى تعمد بالكلام وفى الاخرى على أن ايجاد المبعوث بذلك الصدد ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرشدهم عما فى صورة التهديد بقوله تعالى (قل سيروا فى الارض) أى أيها العمى الجاهلون (فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) بانكارهم وهى هلاكهم بالعذاب فانكم ان نظرتم وتأملتم أخبارهم حق التأمل أسرع بكم ذلك الى التصديق فنجوتم والا هلكتم كما هلكوا وأراد بالمجرمين الكافرين (فان قيل) فلم لم يقل عاقبة الكافرين (أجيب) بأن هذا يحصل به التخويف لكل العصاة ثم ان الله تعالى صبر نبيه صلى الله عليه وسلم على ما يناله من جهلاتهم وعماهم عن السبيل الذى هدى اليه الدليل بقوله تعالى (ولا تحزن عليهم) أى فى عدم ايمانهم فانما عليك البلاغ (ولا تكن فى ضيق مما يمكرون) أى لا تهتم بمكرهم عليك فأنا ناصرك عليهم وجاعل تدميرهم فى تدبيرهم كطغاة قوم صالح *(تنبيه)* الضيق الحرج يقال ضاق الشئ ضيقا وضيقا بالفتح والكسر ولهذا قرأ ابن كثير بكسر الضاد والباقون بالفتح ولما أشار تعالى الى أنهم لم يتقوا فى المبالغة فى التكذيب بالساعة وجها أشار تعالى الى أنهم فى التكذيب بالوعيد بالساعة وغيرها من عذاب الله أشد مبالغة بقوله تعالى (ويقولون) بالمضارع المؤذن بالتجدد كل حين والاستمرار (متى هذا الوعد) أى العذاب والبعث والمجازاة الموعود بها وسموه وعدا اظهارا لجميع تهكمهم به (ان كنتم) أى أنت ومن تبعك (صادقين) فيه ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بقوله تعالى (قل) لهم (عسى أن يكون ردف لكم) أى تبعكم وردفكم ولحقكم فاللام مزيدة على هذا للتأكيد كالباء فى قوله ولا تلقوا بأيديكم ويصح أن يكون تضمن ردف معنى فعل فتعدى باللام نحو دنا وقرب وأردف وبهذا فسره ابن عباس وقد عدى بمن فى قول القائل

فلما ردفنا من عمير وصحبه * تولوا سراعا والمنية تعنق

يعنى دنونا من عمير (بعض الذى تستعجلون) أى فحصل لهم القتل ببدر وباقى العذاب يأتى بعد الموت *(تنبيه)* عسى ولعل وسوف فى مواعيد الملوك كالجزم بها وانما يطلقون اظهارا لوقارهم واشعارا بأن الرمز منهم كالتصريح من غيرهم وعليه جرى وعد الله ووعيده ولما كان التقدير فان ربك لا يعجل على هذا العاصى بالانتقام مع تمام قدرته عطف عليه (وان ربك) أى المحسن اليك بالحلم على أمتك (لذو فضل) أى تفضل وانعام (على الناس) أى كافة (ولكن أكثرهم لا يشكرون) أى لا يعرفون حق النعمة له ولا يشكرونه بل

يستعجلون

يستعجلون بجهلهم العذاب قال ابن عادل وهذه الآية تبطل قول من قال لا نعمة لله على كافر (وان ربك) أى والحال انه (ليعلم ما تكن) أى تضمر وتسر وتخفى (صدورهم) أى الناس كلهم فضلا عن قومك (وما يعلنون) أى يظهرون من عداوتك وغيرها فيجازيهم على ذلك (وما من غائبة فى السماء والارض) أى فى أى موضع كان منهما وأفردهما دلالة على ارادة الجنس الشامل لكل فرد * (تنبيه) * فى هذه التاء قولان أحدهما أنها للمبالغة كراوية وعلامة فى قولهم ويل للشاعر من راوية السوء كأنه تعالى قال وما من شئ شديد الغيبوبة والخفاء الا وقد علمه الله تعالى * والثانى أنها كالتاء الداخلة على المصادر نحو العاقبة والعافية قال الزمخشرى ونظيرها الذبيحة والنطيحة والرمية فى أنها أسماء غير صفات (الا فى كتاب) هو اللوح المحفوظ كتب فيه ذلك قبل ايجاده لانه لا يكون شئ الا بعلمه وتقديره (مبين) أى ظاهر لمن ينظر فيه من الملائكة * ولما تم تعالى الكلام فى اثبات المبدا والمعاد ذكر بعده ما يتعلق بالنبوة بقوله تعالى (ان هذا القرآن) أى الآتى به هذا النبى الامى الذى لم يعرف قبله علما ولا خالط عالما (يقص على بنى اسرائيل) أى الموجودين فى زمان نبينا صلى الله عليه وسلم (أكثر الذى هم فيه يختلفون) أى من أمر الدين وان بالغوا فى كتمه كقصة الزانى المحصن فى اخفائهم ان حده الرجم وقصة عزير والمسيح واخراج النبى صلى الله عليه وسلم ذلك مما فى توراتهم فصح بحقيقته على لسان من لم يعلم قط نبوته صلى الله عليه وسلم لان ذلك لا يكون الا من عند الله ثم وصف تعالى فضل هذا القرآن بقوله تعالى (وانه لهدى) أى من الضلالة لما فيه من الدلائل على التوحيد والحشر والنشر والنبوة وشرح صفات الله تعالى (ورحمة) أى نعمة واكرام (للمؤمنين) أى الذين طبعهم على الايمان فهو صفة لهم راسخة كما أنه للكافرين وقر فى آذانهم وعمى فى قلوبهم * ولما ذكر تعالى دليل فضله أتبعه دليل عدله بقوله تعالى (ان ربك) أى المحسن اليك بما لم يصل اليه أحد (يقضى بينهم) أى بين جميع المختلفين (بحكمه) أى الذى هو أعدل حكم وأتقنه وأنفذه (فان قيل) القضاء والحكم شئ واحد فقوله تعالى يقضى بينهم بحكمه أى بما يحكم به كقوله يقضى بقضائه ويحكم بحكمه (أجيب) بأن معنى قوله تعالى بحكمه أى بما يحكم به وهو عدله لانه لا يقضى الا بالعدل فسمى المحكوم به حكما أو أراد بحكمته (وهو) أى والحال أنه هو (العزيز) أى فلا يرد له أمر (العليم) فلا يخفى عليه سر ولا جهر فلما ثبت له تعالى العلم والحكمة والعظمة والقدرة تسبب عن ذلك قوله تعالى (فتوكل على الله) أى ثق به لتدع الامور كلها اليه وتستريح من تحمل المشاق وثوقا بنصره ثم علل ذلك بقوله تعالى (انك على الحق المبين) أى البين فى نفسه الموضح لغيره فصاحب الحق حقيق بالوثوق بحفظ الله تعالى ونصره وقوله تعالى (انك لا تسمع الموتى) تعليل آخر للامر بالتوكل من حيث انه يقطع طمعه من معاضدتهم وانما شبهوا بالموتى لعدم انتفاعهم باستماع ما يتلى عليهم كما شبهوا بالصم فى قوله تعالى (ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين) أى معرضين (فان قيل) ما معنى قوله تعالى ولوا مدبرين (أجيب) بأنه تأكيد لحال

الاصم لانه اذا تباعد عن محل الداعي بأن تولى عنه مدبرا كان أبعد عن ادراك صوته وقرأ ابن كثير ولا يسمع بالياء التحتية المفتوحة وفتح الميم الصم برفع الميم والباقون بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم الصم بالنصب وسهل نافع وابن كثير وأبو عمرو والهمزة الثانية من الدعاء اذا كالياء مع تحقيق الاولى والباقون بتحقيقهما وهم على مراتبهم في المد ثم قطع طمعه في ايمانهم بقوله تعالى (وما أنت بهادى العمى) أي في أبصارهم وبصائرهم مزيلا لهم وناقلا ومبعدا (عن ضلالتهم) أي عن الطريق بحيث تحفظهم عن أن يزلوا عنها أصلا فان هذا لا يقدر عليه الا الحي القيوم وقرأ حمزة تهدى بتاء فوقية وسكون الهاء والعمى بنصب الياء والباقون بالباء الموحدة مكسورة وفتح الهاء بعدها ألف والعمى بكسر الياء ولما كان هذا ربما أوقف عن دعائهم رجاء في انقيادهم وارعوائهم بقوله تعالى (ان) أي ما (تسمع) أي سماع انتفاع على وجه الكمال في كل حال (الا من يؤمن) أي من علمنا أنه يصدق (بآياتنا) بأن جعلنا فيه قابلية السمع ثم تسبب عنه قوله دليلا على ايمانه (فهم مسلمون) أي مخلصون في غاية الطواعية لك كما في قوله تعالى بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن أي جعله سالما خالصا ثم ذكر تعالى ما يوعدون مما تقدم استعجالهم له استهزاء بقوله تعالى (واذا وقع القول عليهم) أي مضمون القول وهو ما وعدوا به من قيام الساعة والعذاب ووقوعه حصوله وأطلق المصدر على المفعول أي المقول (أخرجنا) اى بما لنا من العظمة (لهم) حين مشارفة العذاب والساعة وظهور اشراطها حين لا تنفع التوبة (دابة من الارض) وهي الجساسة جاء في الحديث ان طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب وروى ان لها أربع قوائم وزغبا وهو شعر أصفر على ريش الفرخ وريشا وجناحين وعن ابن جريج في وصفها فقال رأسها رأس الثور وعينها عين الخنزير وأذنها أذن فيل وقرنها قرن ايل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هر وذنبها ذنب كبش وخفها خف بعير وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعا بذراع آدم عليه السلام وروى أنها لا تخرج الا رأسها ورأسها يبلغ عنان السماء أي يبلغ السحاب وعن أبي هريرة فيها من كل لون وما بين قرنيها فرسخ للراكب وعن الحسن لا يتم خروجها الا بعد ثلاثة أيام وعن علي رضى الله تعالى عنه أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج الا ثلثها وروى انه صلى الله عليه وسلم سئل من أين تخرج الدابة فقال من أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله فبينما هم الا خرجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم يقفون نظارا وقيل تخرج من الصفا ولما كان التعبير بالدابة يفهم أنها كالحيوانات العجم لا كلام لها قال (تكلمهم) أي بالعربية كما قاله مقاتل بكلام يفهمونه بلسان طلق ذلق فتقول (ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) أي ان الناس كانوا لا يوقنون بخروجي لان خروجها من الآيات وتقول ألا لعنة الله على الظالمين وعن السدى تكلمهم ببطلان الاديان كلها سوى دين الاسلام وعن ابن عمر تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل

المشرق

المشرق ثم الشأم ثم اليمن فتفعل مثل ذلك وروى أنها تخرج من أجياد روى بينما عيسى
عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون اذ تضطرب الارض تحتهم تحرك القنديل وينشق
الصفا مما يلي المسعى فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى وخاتم سليمان فتضرب
المؤمن في مسجده أو فيما بين عينيه بعصا موسى فتنكت نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة في
وجهه حتى يضيء لها وجهه أو تترك وجهه كأنه كوكب دري وتكتب بين عينيه مؤمن
وتنكت الكافر بالخاتم في أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه وتكتب بين عينيه كافر
وروى فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتخطم أنف الكافر بالخاتم ثم تقول لهم يا فلان أنت من
أهل الجنة ويا فلان أنت من أهل النار وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
بادروا بالاعمال ستا طلوع الشمس من مغربها والدجال والدخان والدابة وخاصة أحدكم
وأمر العامة وقال صلى الله عليه وسلم ان أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج
الدابة على الناس ضحى وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها وقال صلى الله
عليه وسلم للدابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجا بأقصى اليمن فيفشو ذكرها في البادية
ولا يدخل ذكرها القرية يعني مكة ثم تكمن زمانا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى قريبا من مكة
فيفشو ذكرها بالبادية ويدخل ذكرها القرية يعني مكة ثم بينا الناس يوما في أعظم المساجد على
الله حرمة وأكرمها على الله عز وجل يعني المسجد الحرام لم يرعهم الا وهي في ناحية المسجد تدنو
وتدنو قال الراوي ما بين الركن الاسود الى باب بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد
في وسط من ذلك فارفض الناس عنها وثبتت لها عصابة عرفوا أنهم لم يعجزوا الله فخرجت عليهم
تنفض رأسها من التراب فمرت بهم فجلت عن وجوههم حتى تركتها كأنها الكواكب الدرية ثم ولت
في الارض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب حتى ان الرجل ليقوم فيتعوذ منها بالصلاة فتأتيه
من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلي فيقبل عليها بوجهه فتسمه في وجهه فيتجاور الناس في
ديارهم ويصطحبون في أسفارهم ويشتركون في الاموال ويعرف الكافر من المؤمن فيقال
للمؤمن يا مؤمن وللكافر يا كافر وعن علي رضي الله تعالى عنه انه قال ليست بدابة لها ذنب
ولكن لها لحية يشير الى أنها رجل والاكثرون على أنها دابة وعن ابن عباس انه قرع الصفا
بعصاه وهو محرم وقال ان الدابة لتسمع قرع عصاي هذه وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه
وسلم قال بئس الشعب شعب أجياد مرتين أو ثلاثا قيل ولم ذاك يا رسول الله قال تخرج منه
الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين وقال وهب وجهها وجه الرجل
وسائر خلقها خلق الطير فتخبر من يراها أن أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون وقرأ
الكوفيون بفتح الهمزة من أن على تقدير الباء أي بأن الناس الخ والباقون بكسرها على
الاستئناف (ويوم نحشر) أي الناس على وجه الاكراه قال أبو حيان الحشر الجمع على عنف
(من كل أمة) أي قرن (فوجا) أي جماعة (ممن يكذب بآياتنا) أي وهم رؤساؤهم
المتبوعون (فهم يوزعون) أي يجمعون برد آخرهم الى أولهم وأطرافهم على أوساطهم

ليتلاحقوا ولا يشذ منهم أحد ولا يزالون كذلك (حتى إذا جاؤا) الى مكان الحساب (قال) أى الله تعالى لهم (أكذبتم) أى أنبيائى (بآياتى) التى جاؤا بها (و) الحال أنكم (لم تحيطوا بها) أى من جهة تكذيبكم (علماً) أى من غير فكر ولا نظر يؤدى الى الاحاطة بها فى معانيها وما أظهرت لاجله حتى تعلموا ما تستحقه وما يليق بها بدليل الامر به فيه وأم فى قوله تعالى (أم ماذا) منقطعة وتقدم حكمها وماذا يجوز أن يكون برمته استفهاما منصوبا بتعملون الواقع خبرا عن كنتم وأن تكون ما استفهامية مبتدأ وذا موصول خبره والصلة (كنتم تعملون) وعائده محذوف أى أى شئ الذى كنتم تعملونه (ووقع القول) أى وجب العذاب الموعود (عليهم بما ظلموا) أى بسبب ما وقع منهم من الظلم من صريح التكذيب وما نشأ عنه من الضلال فى الاقوال والافعال (فهم لا ينطقون) قال قتادة كيف ينطقون ولا حجة لهم نظيره قوله تعالى هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون وقيل لا ينطقون لان أفواههم مختومة ثم انه تعالى لما خوفهم بأحوال القيامة ذكر كلاما يصلح أن يكون دليلا على التوحيد والحشر وعلى النبوة مبالغة فى الارشاد الى الايمان والمنع من الكفر فقال (ألم يروا) بما يدلهم على قدرتنا على بعثهم بعد الموت وعلى كل ما أخبرناهم به (أنا جعلنا) أى بعظمتنا الدالة على نفوذ مرادنا وفعلنا بالاختيار (الليل) أى مظلما (ليسكنوا فيه) عن الانتشار (والنهار مبصرا) أى يبصر فيه ليتصرفوا فيه ويبتغوا من فضل الله فحذف من الاول ما ثبت نظيره فى الثانى ومن الثانى ما ثبت نظيره فى الاول اذ التقدير جعلنا الليل مظلما ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ليتصرفوا فيه كما مر فحذف مظلما الدلالة مبصرا وليتصرفوا الدلالة لتسكنوا فيه وقوله تعالى مبصرا كقوله تعالى آية النهار مبصرة وتقدم الكلام على ذلك فى الاسراء قال الزمخشرى فان قلت ما للتقابل لم يراع فى قوله تعالى ليسكنوا ومبصرا حيث كان أحدهما علة والآخر حالا قلت هو مراعى من حيث المعنى وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف لان معنى مبصرا ليبصروا فيه طرق التقلب فى المكاسب وأجاب غيره بأن السكون فى الليل هو المقصود ولانه وسيلة الى جلب المنافع الدينية والدنيوية (ان فى ذلك) أى هذا المذكور (لآيات) أى دلالات بينة على التوحيد والبعث والنبوة وغير ذلك وخص المؤمنين بقوله تعالى (لقوم يؤمنون) لانهم المنتفعون به وان كانت الادلة للكل كقوله تعالى هدى للمتقين ولما ذكر تعالى هذا الحشر الخاص والدليل على مطلق الحشر ذكر الحشر العام بقوله تعالى (ويوم ينفخ) أى بأيسر أمر (فى الصور) أى القرن ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام (ففزع) أى فصعق كما قال تعالى فى آية أخرى فصعق (من فى السموات ومن فى الارض) أى كلهم خافوا والمعنى أنه يلقى عليهم الفزع الى أن يموتوا وقيل ينفخ اسرافيل فى الصور ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة القيام لرب العالمين (فان قيل) لم قال الله تعالى ففزع ولم يقل فيفزع (أجيب) بأن فى ذلك نكتة وهى الاشعار بتحقيق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والارض لان الفعل الماضى يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به والمراد فزعهم عند

النفخة

النفخة الاولى حين يصعقون (الا من شاء الله) أى المحيط علما وقدرة وعزة وعظمة أن لا يفزع روى أنه صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عنهم فقال هم الشهداء يتقلدون أسيافهم حول العرش وعن ابن عباس هم الشهداء لانهم أحياء عند ربهم لا يصل الفزع اليهم وعن مقاتل هم جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت عليهم السلام ويروى أن الله تعالى يقول لملك الموت خذ نفس اسرافيل ثم يقول الله تعالى من بقى ياملك الموت فيقول سبحانك ربى تباركت وتعاليت بقى جبريل وميكائيل وملك الموت فيقول الله تعالى خذ نفس ميكائيل ثم يقول الله تعالى من بقى ياملك الموت فيقول سبحانك ربى تباركت وتعاليت بقى جبريل وملك الموت فيقول مت ياملك الموت فيموت فيقول ياجبريل من بقى فيقول تباركت وتعاليت ياذا الجلال والاكرام وجهك الباقى الدائم وجبريل الميت الفانى قال ياجبريل لا بد من موتك فيقع ساجدا يخفق بجناحيه فيروى أن فضل خلقه على خلق ميكائيل كالطود العظيم ويروى أنه يبقى مع هؤلاء الاربعة حملة العرش ثم روح اسرافيل ثم روح ملك الموت وعن الضحاك هم رضوان والحور ومالك والزبانية عليهم السلام وقيل عقارب النار وحياتها (وكل) أى من فزع ومن لم يفزع (أتوه) أى بعد ذلك للحساب بنفخة أخرى يقيمهم بها وفى ذلك دليل على تمام قدرته تعالى فى كونه أقامهم بما به أماتهم (داخرين) أى صاغرين وقرأ حفص وحمزة بقصر الهمزة وفتح التاء على انه فعل ماض وفعوله الهاء فالتعبير به لتحقق وقوعه والباقون بمد الهمزة وضم التاء على انه اسم فاعل مضاف للهاء وهذا حمل على معنى كل وهى مضافة تقديرا أى وكلهم * ولما ذكر تعالى دخورهم اتبعه بدخور ماهو أعظم منهم بقوله تعالى (وترى الجبال) أى تبصرها وقت النفخة والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم لكونه أنفذ الناس بصرا وأنورهم بصيرة أو لكل أحد (تحسبها) أى تظنها (جامدة) أى قائمة ثابتة فى مكانها لا تتحرك لان الاجرام الكبار اذا تحركت فى سمت واحد لا تكاد تتبين حركتها (وهى تمر) أى تسير حتى تقع على الارض فتسوى بها مبثوثة ثم تصير كالعهن ثم تصير هباء منثورا وأشار تعالى الى أن سيرها خفى وان كان حثيثا بقوله تعالى (مر السحاب) أى مرا سريعا لا يدرك على ماهو عليه لانه اذا أطبق الجو لا يدرك سيره مع انه لا شك فيه والا لم تنكشف الشمس بلا لبس وكذلك كبير الجرم أو كثير العدد يقصر عن الاحاطة به لبعد ما بين أطرافه ولكثرته البصر والناظر الحاذق يظنه واقفا وقرأ تحسبها بكسر السين نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائى وفتحها الباقون وقوله تعالى (صنع الله) مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله أضيف الى فاعله بعد حذف عامله اى صنع الله ذلك صنعا ثم زاد فى التعظيم بقوله دالا على تمام الاحكام فى ذلك الصنع (الذى اتقن) أى أحكم (كل شئ) صنعه ولما ثبت هذا على هذا الوجه المتقن والنظام الامكن أنتج قطعا قوله تعالى (انه) أى الذى أتقن هذه الامور (خبير بما يفعلون) أى عالم بظواهر الاحوال وبواطنها ليجازيهم عليها كما قال تعالى (من جاء بالحسنة) أى الكاملة وهى الايمان وعن ابن عباس الحسنة كلمة الشهادة (فله خير) أى

أفضل (منها) مضاعفاً أقل ما يكون عشرة أضعاف الى ما لا يعلمه الا الله تعالى وقيل له خير حاصل من جهتها وهو الجنة وفسر الجلال المحلي الحسنة بلا اله الا الله وقال في قوله خير منها أي بسببها فليس للتفضيل اذ لا فعل خير منها وهذا يناسب القول الثاني (وهم) أي الجاؤن بها (من فزع يومئذ) أي يومئذ اذ وقعت هذه الاحوال العظيمة (آمنون) أي حتى لا يحزنهم الفزع الاكبر وقرأ يفعلون ابن كثير وأبو عمرو وهشام بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالفوقية على الخطاب وقرأ وهم من فزع يومئذ آمنون الكوفيون بتنوين العين والباقون بغير تنوين وهو أعم فانه يقتضي الامن من جميع فزع ذلك اليوم وأما قراءة التنوين فتحتمل معنيين من فزع واحد وهو خوف العذاب وأما ما يلحق الانسان من الرعب ومشاهدته فلا ينفك منه أحد ومن فزع شديد مفرط الشدة لا يكتنهه الوصف وهو خوف النار وقرأ نافع والكوفيون بفتح الميم من يومئذ والباقون بكسرها (فان قيل) أليس قال تعالى في أول الآية ففزع من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله فكيف نفى الفزع ههنا (أجيب) بأن الفزع الاول لا يخلو منه أحد عند الاحساس بشدة تقع أو هول يفجأ الا ما استثنى وان كان المحسن آمناً من لحاق الضرر وأما الثاني فهو الخوف من العذاب (ومن جاء بالسيئة) أي التي لا سيئة مثلها وهي الشرك لقوله تعالى (فكبت) أي بأيسر أمر (وجوههم في النار) بأن وليتها مع انه ورد في الصحيح ان مواضع السجود التي أشرفها الوجه لا سبيل للنار عليها والوجه أشرف ما في الانسان فاذا هان كان ما سواه أولى بالهوان والمكبوب عليه منكوس ويقال له تبكيتا (هل) أي ما (تجزون الا) جزاء (ما كنتم تعملون) أي من الشرك والمعاصي *(تنبيه)* جعل مقابلة الحسنة بالثواب والسيآت بالعقاب من جملة احكامه للاشياء واتقانه لها واجرائه لها على قضايا الحكمة انه عليم بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه فيكافئهم على حسب ذلك فانظر الى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه وأخذ بعضه بحجزة بعض كأنما أفرغ افراغاً واحداً ولامر ما أعجز القوى وأخرس الشقاشق والادعياء ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه (انما أمرت) أي بأمر من لا يرد له أمر (أن أعبد) أي بجميع ما آمركم به (رب) أي موجد ومدبر (هذه البلدة) أي مكة التي تخرج الدابة منها فيفزع كل من رآها ثم تؤمن أهل السعادة أخصه بذلك لا أعبد شيأ مما تعبدونه (الذي حرمها) أي جعلها الله تعالى حرماً آمناً لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها ولما خص مكة بهذه الاضافة تشريفاً لها وتعظيماً لشأنها قال احترازاً عما قد يتوهم (وله كل شئ) أي من غيرها مما أشركتموه به وغيره خلقاً وملكاً ولما كانوا ربما قالوا نحن نعبده بعبادة من نرجو ديقربنا اليه زلفى عين له الدين الذي تكون به العبادة بقوله (وأمرت) أي مع الامر بالعبادة له وحده (أن أكون) أي كوناً هو في غاية الرسوخ (من المسلمين) أي المنقادين لجميع ما يأمر به كتابه أتم انقياد ثابتاً على ذلك غاية الثبات (وان) أي وأمرت أن (أتلو القرآن) عليكم تلاوة الدعوة الى

الايمان أو أن أواظب على تلاوته لتنكشف لى حقائقه فى تلاوته شيأ فشيأ (فمن اهتدى) أى باتباع هذا القرآن الداعى الى الجنان (فانما يهتدى لنفسه) أى لاجلها لان ثواب هدايته له (ومن ضل) أى عن الايمان الذى هو الطريق المستقيم (فقل) أى له كما تقول لغيره (انما أنا من المنذرين) أى المخوفين له عواقب صنعه فلا على من وبال ضلاله شئ اذ ما على الرسول الا البلاغ وقد بلغت (وقل) أى انذار الهم وترغيبا وترجئة وترهيبا (الحمد) أى الاحاطة بأوصاف الكمال (لله) أى الذى له العظمة كلها على نعمة النبوة وعلى ما علمنى ووفقنى للعمل به (سيريكم آياته) القاهرة فى الدنيا كوقعة بدر وخروج دابة الارض وفى الآخرة بالعذاب الاليم (فتعرفونها) أى فتعرفون أنها آيات الله ولكن حين لا تنفعكم المعرفة (وما ربك) أى المحسن اليك بجميع ما أفادك فيه من هذه الامور العظيمة والاحوال الجسيمة (بغافل عما تعملون) أى فلا تحسبوا أن تأخير عذابكم لغفلته عن أعمالكم وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب لان المعنى عما تعمل أنت وأتباعك من الطاعة وهم من المعصية والباقون بالياء على الغيبة وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أن من قرأ طس كان له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق سليمان وكذب به وهود وشعيب وصالح وابراهيم ويخرج من قبره وهو ينادى لا اله الا الله حديث موضوع

(سورة القصص مكية)

الا قوله تعالى ان الذى فرض الآية نزلت بالجحفة والا الذين آتيناهم الكتاب الى لا نبتغى الجاهلين وهى سبع أو ثمان وثمانون آية وألف وأربعمائة واحدى وأربعون كلمة وخمسة آلاف وثمانمائة حرف وتسمى سورة موسى عليه السلام لاشتمالها على قصته فقط من حين ولد الى أن أهلك الله تعالى فرعون وخسف بقارون كما سميت سورة نوح وسورة يوسف لاشتمالهما على قصتهما ولا يقال سميت بذلك لذكر القصص فيها فى قوله تعالى فلما جاءه وقص عليه القصص لان سورة يوسف فيها ذكر القصص مرتين الاولى نقص عليك أحسن القصص والثانية قوله تعالى لقد كان فى قصصهم فكانت سورة يوسف أولى بهذا الاسم وأيضا فكانت سورة هود أولى بهذا الاسم لانه ذكر فيها قصص سبعة أنبياء وهذه ليس فيها الا قصة واحدة فكان ينبغى العكس وأن تسمى سورة هود القصص وهذه سورة موسى (بسم الله) الذى اختص بالكبرياء والعظمة (الرحمن) الذى عم بنعمه أهل الايمان والكفران (الرحيم) الذى خص بنعمه بعد البعث أهل الايمان (طسم) تقدم الكلام على أوائل السور أول البقرة (تلك) أى هذه الآيات العالية الشأن (آيات الكتاب) أى المنزل على قلبك الجامع لجميع المصالح الدنيوية والاخروية والاضافة بمعنى من (المبين) أى المظهر الحق من الباطل (نتلو) أى نقص قصا متتابعا متواليا بعضه فى اثر بعض (عليك) بواسطة جبريل عليه السلام (من نبا) أى خبر (موسى وفرعون بالحق) أى بالصدق الذى يطابقه الواقع *(تنبيه)* يجوز أن يكون مفعول

تلو محمد وقادات عليه صنته وهي من نبأ موسى تقديره تلو عليك شيأ من نبأ موسى ويجوز أن تكون من مزيدة على رأى الاخفش أى تلو عليك نبأ موسى وبالحق يجوز أن يكون حالا من فاعل تلو ومن مفعوله أى تلو عليك بعض خبرهما ملتبسين أو ملتبسا بالحق ثم نبه على أن هذا البيان كما سبق انما ينفع أولى الاذعان بقوله تعالى (لقوم يؤمنون) فغيرهم لا ينتفع بذلك ولما كان كأنه قيل ما المقصود من هذا قال (ان فرعون) ملك مصر الذى ادعى الالهية (علا) أى بادعاء الالهية وتجبره على عباد الله وقهره لهم (فى الارض) أى أرض مصر واطلاقها يدل على تعظيمها وانها كجميع الارض لاشتمالها على ما قل أن يشتمل عليه غيرها (وجعل) أى بما جعلناه من نفوذ الكلمة (أهلها) أى أهل الارض المرادة (شيعا) أى فرقا تتبع كل فرقة شيأ يتبعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم أن يكون عنه أو أصنافا فى استخدامه يسخر صنفا فى بناء وصنفا فى حفر وصنفا فى حرث ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء وهم بنو اسرائيل والقبط وقوله تعالى (يستضعف طائفة منهم) يجوز فيه ثلاثة أوجه أن يكون حالا من فاعل جعل أى جعلهم كذلك حالة كونه مستضعفا طائفة منهم وأن يكون صفة لشيعا وأن يكون استئنافا بيانا لحال الاهل الذين جعلهم فرقا وأصنافا وهم بنو اسرائيل الذين كانت حياة جميع أهل مصر على يدى واحد منهم وهو يوسف عليه السلام وفعل معهم من الخير ما لم يفعله والد مع ولده ومع ذلك كافوه فى أولاده وأولاد اخوته بأن استعبدوهم ثم ما كفاهم ذلك حتى ساموهم على يدى العبيد سوء العذاب قال البقاعى وهذا حال الغرباء بينهم قديما وحديثا ثم بين الاستضعاف بقوله تعالى (يذبح أبناءهم) أى عند الولادة وكل بذلك أناسا ينظرون كلما ولدت امرأة ذكرا ذبحوه وسبب ذلك ان كاهنا قال له سيولد مولود فى بنى اسرائيل يذهب ملكك على يديه فولد تلك الليلة اثنا عشر غلاما فقتلهم وبقى هذا العذاب فى بنى اسرائيل سنين كثيرة وكان ذلك من غاية حمق فرعون فانه ان صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن وان كذب فلا وجه القتل (ويستحيى نساءهم) أى يريد حياة الاناث فلا يذبحهن وقال السدى ان فرعون رأى فى منامه نارا أقبلت من بيت المقدس الى مصر فاحرقت القبط دون بنى اسرائيل فسأل عن رؤياه فقيل له يخرج من هذا البلد من بنى اسرائيل رجل يكون هلاك مصر على يديه فأمر بقتل الذكور وقيل ان الانبياء عليهم السلام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام بشروا بمجيئه فسمع فرعون ذلك فأمر بذبح بنى اسرائيل (انه) أى فرعون (كان من المفسدين) فلذلك اجترأ على قتل خلق كثير من أولاد الانبياء لتخيل فاسد قال وهب ذبح فرعون فى طلب موسى سبعين ألفا من بنى اسرائيل وقوله تعالى (ونريد أن نمن) عطف على قوله ان فرعون علا فى الارض لانها نظيرة تلك فى وقوعها تفسيرا لنبأ موسى وفرعون وقصصا له ونريد حكاية حال ماضية أى نعطى بقدرتنا وعلمنا ما يكون جديرا أن نمن به (على الذين استضعفوا) أى حصل استضعافهم وأهانهم بهذا الفعل الشنيع ولم يراقب فيهم مولاهم (فى الارض) أى أرض مصر

فذلوا

فذلوا وأهينوا ونريهم فى أنفسهم وأعدائهم فوق ما يحبون وفوق ما يأملون (ونجعلهم أئمة) أى مقدمين فى الدين والدنيا علماء يدعون الى الجنة عكس ما يأتى من عاقبة آل فرعون وقال مجاهد دعاة الى الخير وقال قتادة ولاة وملوكا لقوله تعالى وجعلكم ملوكا وقيل يقتدى بهم فى الخير (ونجعلهم) أى بعظمتنا وقدرتنا (الوارثين) أى لملك مصر لا ينازعهم فيه أحد من القبط يخافونهم فى مساكنهم (ونمكن) أى نوقع التمكين (لهم فى الارض) أى كلها لاسيما أرض مصر والشأم باهلاك أعدائهم وتأييد ملكهم وتأييدهم بكلمة الله ثم بالانبياء من بعده صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بحيث يسلطهم بسببهم على من سواهم بما يؤيدهم به من الملائكة ويظهر لهم من الخوارق (ونرى) أى بما لنا من العظمة (فرعون) أى الذى كان هذا الاستضعاف منه (وهامان) وزيره (وجنودهما) أى الذين كانا يتوصلان بهم الى ما يريدانه من الفساد فيقوى كل منهم بالآخر فى الارض فعلوا وطغوا وقوله تعالى (منهم) أى المستضعفين متعلق بنرى أو بنريد لا بيحذرون لان ما بعد الموصول لا يعمل فيما قبله (ما كانوا يحذرون) أى من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم وقرأ حمزة والكسائى ويرى بالياء مفتوحة وفتح الراء مع الامالة وسكون الياء بعد الراء ورفع فرعون وهامان وجنودهما مضارع رأى مسندا الى فرعون وما عطف عليه فلذلك رفعوا وقرأ الباقون بالنون مضمومة وكسر الراء وفتح الياء بعدها ونصب الاسماء الثلاثة مضارع أرى فلذلك نصب فرعون وما عطف عليه مفعولا أول وما كانوا هو الثانى ثم ذكر تعالى أول نعمة منّ بها على الذين استضعفوا بقوله تعالى (وأوحينا) أى وحى الهام أو منام (الى أم موسى) لا وحى نبوة قال قتادة قذفنا فى قلبها واسمها يوحانذ وهى بنت لاوى بن يعقوب وهذا هو الذى أمضيناه فى قضائنا أن يسمى بهذا الاسم وأن يكون هلاك فرعون وزوال ملكه على يده بعد ان ولدته وخافت أن يذبحه الذابحون (أن أرضعيه) ما كنت آمنة عليه ولم يشعر بولادته غير أخته قيل أرضعته ثمانية أشهر وقيل أربعة أشهر وقيل ثلاثة أشهر كانت ترضعه فى حجرها وهو لا يبكى ولا يتحرك وقد روى أنها أرضعته ثلاثة أشهر فى تابوت من بردى مطلى من داخله بالقار (فاذا خفت عليه) أى منهم أن يصيح فيسمع فيذبح (فألقيه) أى بعد أن تضعيه فى شئ يقيه من الماء (فى اليم) وهو البحر ولكن أراد هنا النيل (ولا تخافى) أى لا يتجدد لك خوف أصلا من أن يغرق أو يموت من ترك الرضاع (ولا تحزنى) أى ولا يوجد لك حزن لوقوع فراقه (فان قيل) ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر (أجيب) بأن الخوف الاول هو الخوف عليه من القتل لانه كان اذا صاح خافت عليه أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه وأما الثانى فالخوف من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع فى بعض العيون المبعوثة من قبل فرعون فى تطلب الولدان وغير ذلك من المخاوف (فان قيل) ما الفرق بين الخوف والحزن (أجيب) بأن الخوف غم يلحق الانسان لمتوقع والحزن غم يلحقه لواقع وهو فراقه والاخطار به فنهيت عنهما جميعا وأومنت بالوحى لها ووعدت ما يسليها ويطمن قلبها ويملؤها غبطة وسرورا وهو رده اليها كما قال تعالى

(انا رادوه اليك) فازال مقتضى الخوف والحزن ثم زادها بشرى وأى بشرى بقوله تعالى (وجاعلوه من المرسلين) أى الذين هم خلاصة المخلوقين * وروى عطاء والضحاك عن ابن عباس قال ان بنى اسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصى ولم يأمروا بمعروف ولم ينهوا عن منكر فسلط الله عليهم القبط فاضعفوهم الى أن أنجاهم الله تعالى على يد نبيه وكليمه قال ابن عباس ان أم موسى لما تقاربت ولادتها وكانت قابلة من القوابل التى وكلهن فرعون بحبالى بنى اسرائيل مصافية لأم موسى فلما ضربها الطلق أرسلت اليها فقالت قد نزل بى ما نزل فلينفعنى حبك اياى اليوم قال فعالجت قبالها فلما أن وقع موسى عليه السلام بالارض هالها نور بين عينى موسى فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى قلبها ثم قالت لها يا هذه ما جئت اليك حين دعوتنى الا ومن ورائى قتل مولودك ولكن وجدت لابنك هذا حبا شديدا ما وجدت حب شئ مثل حبه فاحفظى ابنك فانى أراه هو عدونا فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاؤا الى بابها ليدخلوا على أم موسى فقالت أخته يا أماه هذا الحرس بالباب فلفت موسى فى خرقة ووضعته فى التنور وهو مسجور وطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع قال فدخلوا فاذا التنور مسجور وأم موسى لم يتغير لها لون فقالوا ما أدخل عليك القابلة فقالت هى مصافية لى دخلت على زائرة فخرجوا من عندها فرجع اليها عقلها فقالت لاخت موسى فأين الصبى قالت لا أدرى فسمعت بكاء الصبى من التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله تعالى النار عليه بردا وسلاما فاحتملته قال ثم ان أم موسى لما رأت الحاح فرعون فى طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله تعالى فى نفسها أن تتخذ له تابوتا صغيرا فقال لها النجار ما تصنعين بهذا التابوت قالت ابن لى أخبؤه فى هذا التابوت وكرهت الكذب قال ولم قالت أخشى عليه كيد فرعون فلما اشترت التابوت وحملته وانطلقت انطلق النجار الى الذباحين ليخبرهم بأمر موسى عليه السلام فلما هم بالكلام أمسك الله تعالى لسانه فلم يطق الكلام وجعل يشير بيديه فلم يدروا ما يقول فلما أعياهم أمره قال كبيرهم اضربوه فضربوه وأخرجوه فلما أتى النجار الى موضعه رد الله تعالى لسانه فتكلم فانطلق أيضا يريد الامناء فأتاهم ليخبرهم فأخذ الله تعالى لسانه وبصره فلم يطق الكلام ولم يبصر شيأ فضربوه وأخرجوه فوقع فى واد يهوى فيه فجعل لله عليه ان رد لسانه وبصره أن لا يدل عليه وان يكون معه يحفظه حيثما كان فعرف الله تعالى منه الصدق فرد عليه لسانه وبصره فخر لله ساجدا فقال يا رب دلنى على هذا العبد الصالح فدل عليه فخرج من الوادى وآمن به وصدقه وعلم أن ذلك من الله عز وجل * وقال وهب بن منبه لما حملت أم موسى بموسى كتمت أمرها عن جميع الناس فلم يطلع على حبلها أحد من خلق الله وذلك شئ ستره الله لما أراد أن يمن به على بنى اسرائيل فلما كانت السنة التى يذبح فيها بعث فرعون القوابل وتقدم اليهن وفتشن تفتيشا لم يفتش قبل ذلك وحملت أم موسى فلم تكبر بطنها ولم يتغير لونها ولم يظهر لبنها وكانت القوابل لا يتعرضن لها فلما كانت الليلة التى ولدته فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة ولم يطلع عليها أحد الا أخته مريم فلما خافت عليه عملت له تابوتا مطبقا ثم ألقته فى البحر ليلا (فالتقطه) بالتابوت

صبيحة النيل (آل) أى أعوان (فرعون) فوضعوه بين يديه قال ابن عباس وغيره كان لفرعون يومئذ بنت ولم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس عليه وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها الى فرعون وكان بها برص شديد وكان فرعون قد جمع لها أطباء مصر والسحرة فنظروا فى أمرها فقالوا له أيها الملك لا تبرأ الا من قبل البحر يوجد فيه شبه الانسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك وذلك فى يوم كذا وساعة كذا حين تشرق الشمس فلما كان يوم الاثنين غدا فرعون الى مجلس له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم وأقبلت ابنة فرعون فى جواريها حتى جلست على شاطئ النيل مع جواريها تلاعبهن وتنضح الماء على وجوههن اذ أقبل النيل بالتابوت تضرب به الامواج فقال فرعون ان هذا الشئ فى البحر قد تعلق بالشجر فائتونى به فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فدنت آسية فرأت فى جوف التابوت نورا لم يره غيرها فعالجته ففتحت الباب فاذا هى بصبى صغير فى مهده واذا نور بين عينيه وقد جعل الله تعالى رزقه فى ابهامه يمصه لبنا فألقى الله تعالى لموسى المحبة فى قلب آسية وأحبه فرعون وعطف عليه وأقبلت بنت فرعون فلما أخرجوا الصبى من التابوت عمدت بنت فرعون الى ما يسيل من ريقه فلطخت به برصها فبرأت فقبلته وضمته الى صدرها فقالت الغواة من قوم فرعون أيها الملك انا نظن ان ذلك المولود الذى تحذر منه من بنى اسرائيل هو هذا رمى به فى البحر فرقا منك فاقتله فهم فرعون بقتله فقالت آسية قرة عين لى ولك واستوهبت موسى من فرعون وكانت لا تلد فوهبه لها وقال فرعون أما أنا فلا حاجة لى فيه وفى حديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قال يومئذ هو قرة عين لى كما هو لك لهداه الله كما هداها قال الزمخشرى وهذا على سبيل الفرض والتقدير أى لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها ولاسلم كما أسلمت هذا ان صح الحديث تأويله والله أعلم بصحته انتهى ثم قال لآسية ما تسميه قالت سميته موسى لانا وجدناه فى الماء والشجر فمو هو الماء وسى هو الشجر فذلك قوله تعالى فالتقطه آل فرعون (ليكون لهم عدوّا) أى يطول خوفهم منه بمخالفته لهم فى دينهم وحملهم على الحق وقتل رجالهم (وحزنا) أى بزوال ملكهم لانه يظهر فيهم الآيات التى يهلك الله تعالى بها من يشاء منهم ويستعبد نساءهم ثم يظفر بهم حتى يهلكهم الله تعالى بالغرق على يده اهلاك نفس واحدة فيعم الحزن والنواح أهل ذلك الاقليم كله *(تنبيه)* فى هذه اللام الوجهان المشهوران أحدهما أنها العلة المجازية دون الحقيقية لانهم لم يكن داعيهم الى الالتقاط أن يكون لهم عدوّا وحزنا ولكن المحبة والتبنى غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعل لاجله وهو الاكرام الذى هو نتيجة المجىء والتأدب الذى هو ثمرة الضرب ليتأدب وتحريره ان هذه اللام حكمها حكم الاسد حيث استعيرت لما يشبه التعليل كما استعير الاسد لمن يشبه الاسد والثانى أنها للعاقبة والصيرورة لانهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوّا وحزنا ولكن صار عاقبة أمره الى ذلك وقرأ حمزة والكسائى بضم الحاء وسكون الزاى والباقون بفتحهما وهما لغتان بمعنى

واحد كالعدم والعدم * ثم بين تعالى ان هذا الفعل لا يفعله الا أحمق مقهور أو مغفل مخذول لا يكاد يصيب بقوله تعالى (ان فرعون وهامان) وزيره (وجنودهما) أى كلهم على طبع واحد (كانوا خاطئين) أى فى كل شئ فلا بدع منهم أن قتلوا ألوفا لأجله ثم أخذوه يربونه ليكبر و يفعل بهم ما كانوا يحذرون أو مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوّهم على أيديهم وقال وهب لما وضع التابوت بين يدى فرعون فتحه فوجد فيه موسى فلما نظر اليه قال كيف أخطأ هذا الغلام الذبح وكان فرعون قد استنكح امرأة من بنى اسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم وكانت من خيار النساء ومن بنات الانبياء عليهم السلام وكانت أما للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم وهى المذكورة فى قوله تعالى (وقالت امرأت فرعون) أى له وهى قاعدة لجنبه هذا الوليد أكبر من ابن سنة وانما أمرت أن تذبح الولدان لهذه السنة فدعه (قرّت عين لى) أى به (ولك) أى يا فرعون لانهما لما رأياه أخرج من التابوت أحباه وروى أنها قالت انه أتانا من أرض أخرى ليس من بنى اسرائيل ولما أثبتت له انه ممن تقرّ به العيون قالت (لا تقتلوه) أى لا أنت بنفسك ولا أحد ممن تأمره بذلك ثم عللت ذلك واستأنفت بقولها (عسى أن ينفعنا) ولو كان له أبوان معروفان فان فيه مخايل اليمن ودلائل النفع وذلك لما رأت من النور بين عينيه وارتضاعه من ابهامه لبنا وبرء البرصاء بريقه (أو نتخذه ولدا) أى اذا كان لم يعرف له أبوان فيكون نفعه أكثر فانه أهل لان تتشرف به الملوك * (تنبيه) * التاء فى قرّت عين مجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء وهى خبر مبتدأ مضمر أى هو قرة عين والعامة من القراء والمفسرين وأهل العلم على ذلك ونقل ابن الانبارى بسنده الى ابن عباس انه وقف على لا أى هو قرة عين لى فقط ولك لا أى ليس هو لك قرة عين ثم يبتدئ بقوله تقتلوه وقال ابن عادل وهذا لا ينبغى أن يصح عنه وكيف يبقى تقتلوه من غير نون رفع ولا مقتض لحذفها فلذلك قال الفراء هو لحن وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) جملة حالية من كلام الله تعالى أى لا شعور لهم أصلا لان من لا يكون له علم الا باكتساب فكيف اذا كان مطبوعا على قلبه واذا كانوا كذلك فلا شعور لهم بما يؤل اليه أمرهم معه من الامور الهائلة المؤدية الى هلاك المفسدين وقيل ان ذلك من كلام امرأة فرعون كأنها لما رأت ملأه أشاروا بقتله قالت له افعل أنت ما أقول لك وقومك لا يشعرون أنا التقطناه * قال الكلبى ولما أخبر الله تعالى عن حال من التقطه أخبر عن حال من فارقه بقوله تعالى (وأصبح) أى عقب الليلة التى حصل فيها فراقه (فؤاد أم موسى) أى قلبها الذى زاد احتراقه شوقا وخوفا وحزنا وهذا يدل على انها ألقته ليلا واختلف فى معنى قوله (فارغا) فقال أكثر المفسرين خاليا من كل هم الا من هم موسى عليه السلام وقال الحسن أى ناسيا للوحى الذى أوحاه الله تعالى اليها حين أمرها ان تلقيه فى البحر ولا تخاف ولا تحزن والعهد الذى عهد أن يرده اليها و يجعله من المرسلين فجاءها الشيطان وقال كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه وتوليت أنت قتله فألقيته فى البحر وأغرقتيه وقال الزمخشرى أى صفرا من العقل والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها لما

دهمها من فرط الجزع والدهش ونحوه قوله تعالى وأفئدتهم هواء أي جوف لا عقول فيها وذلك ان القلوب مراكز العقول الا ترى الى قوله تعالى فتكون لهم قلوب يعقلون بها وقوله تعالى (ان) هي المخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي انها (كادت) أي قاربت (لتبدي) أي يقع منها الاظهار لكل ما كان من أمره مصرحة (به) أي بأمر موسى عليه السلام من أنه ولدها وقال عكرمة عن ابن عباس كادت تقول وا ابناه وقال مقاتل لما رأت التابوت يرفعه موج ويضعه آخر خشيت عليه الغرق فكادت تصيح من شفقتها وقال الكلبي كادت تظهر انه ابنها حين سمعت الناس يقولون لموسى بعد ما شب موسى ابن فرعون فشق عليها فكادت تقول هو ابني وقيل ان الهاء عائدة الى الوحي أي كادت لتبدي بالوحي الذي أوحى الله تعالى اليها أن يرده عليها وجواب (لولا أن ربطنا) محذوف أي لابدت به كقوله تعالى وهم بها لولا أن رأى برهان ربه والمعنى لولا ان ربطنا (على قلبها) بالعصمة والصبر والتثبت وقوله تعالى (لتكون من المؤمنين) متعلق بربطنا أي من المصدقين بوعد الله تعالى وهو قوله تعالى انا رادوه اليك ثم أخبر تعالى عن فعلها في تعرف خبره بعد ان أخبر عن كتمها بقوله تعالى (وقالت) أي أمه (لاخته) أي بعد ان أصبحت على تلك الحالة قد خفي عليها أمره (قصيه) أي اتبعي أثره وتشممي خبره برا وبحرا ففعلت (فبصرت) أي أبصرت (به عن جنب) أي مكان بعيد اختلاسا (وهم لا يشعرون) جملة حالية ومتعلق الشعور محذوف أي أنها أخته وأنها ترقبه بل هم في غاية الغفلة التي هي في غاية البعد عن رتبة الالهية أو أنها تقصه أو أنه سيكون لهم عدوا وحزنا ثم ذكر تعالى أخذ الاسباب في رده بقوله تعالى (وحرمنا) أي منعنا بعظمتنا (عليه المراضع) جمع مرضعة وهي من تكترى للارضاع من الاجانب أي حكمنا بمنعه من الارتضاع منهن فاستعير التحريم للمنع لانه منع فيه رحمة قال الرازي في اللوامع تحريم منع لا تحريم شرع (من قبل) أي من قبل أن تأمر أمه أخته بما أمرتها به أو قبل قصها أثره أو قبل ولادته في حكمنا وقضائنا وهو أنه تعالى غير طبعه عن لبن سائر النساء فلذلك لم يرتضع أو أحدث في لبنهن طعما ينفر عنه طبعه أو وضع في لبن أمه لذة تعوّد بها فكان يكره لبن غيرها فلما رأت أخت موسى التي أرسلتها أمه في طلبه أنه لا يقبل ثدي امرأة وفي القصة ان موسى مكث ثمان ليال لا يقبل ثديا ويصيح فقالوا لها هل عندك مرضعة تدلينا عليها لعله يقبل ثديها قال ابن عباس ان امرأة فرعون كان همها من الدنيا أن تجد له مرضعة فكلما أتوه بمرضعة لم يأخذ ثديها فدنت أخته منه بعد نظرها له (فقالت) لما رأتهم في غاية الاهتمام برضاعه (هل) لكم حاجة في أني (أدلكم على أهل بيت) ولم تقل على امرأة لتوسع دائرة النظر (يكفلونه لكم) أي يأخذونه ويتولونه ويقومون بجميع مصالحه من الرضاع وغيره لاجلكم ثم أبعدت التهمة عن نفسها فقالت هي امرأة قتل ولدها فأحب شيء اليها أن تجد صغيرا ترضعه ثم زادتهم رغبة بقولها (وهم له ناصحون) أي ثابت نصحهم له لا يغشونه نوعا من الغش قال البغوي والنصح ضد الغش وهو تصفية العمل من شوائب الفساد قال السدي لما قالت ذلك أخذوها وقالوا قد عرفت هذا

الغلام فدلينا على أهله فقالت ما أعرفه وقالت انما أردت وهم للملك ناصحون فتخلصت منهم بذلك قال ابن عادل وهذا يسمى عند أهل البيان الكلام الموجه ومثله لما سئل بعضهم وكان بين أقوام بعضهم يحب عليا دون غيره وبعضهم يحب أبا بكر وبعضهم عمر وبعضهم عثمان رضي الله تعالى عنهم فقيل له أيهم أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من كانت ابنته تحته وقيل لما تفرسوا أنها عرفته قالت انما قلت هذا رغبة في سرور الملك واتصالنا به وقيل انها لما قالت ذلك قالوا لها من فقالت أمي قالوا ولأمك ابن قالت نعم هرون وكان ولد في سنة لا يقتل فيها قالوا صدقت فائتينا بها فانطلقت الى أمها فأخبرتها بحال ابنها وجاءت بها اليهم فلما وجد الصبي ريح أمه قبل ثديها وجعل يمصه حتى امتلأ جنباه ريا فقالوا أقيمي عندنا فقالت لا أقدر على فراق بيتي ان رضيتم أن أكفله في بيتي والا فلا حاجة لي به وأظهرت الزهد فيه نفيا للتهمة فرضوا بذلك فرجعت به الى بيتها فذلك قوله تعالى (فرددناه الى أمه) ثم علله بقوله تعالى (كي تقر عينها) أي تبرد وتستقر وأصل قرة العين من القر وهو البرد أي بردت ونامت بخلاف سخنت عينه يقال أقر الله تعالى عينك من الفرح وأسخنها من الحزن فلهذا قالوا دمعة الفرح باردة ودمعة الحزن حارة هذا قول الاصمعي قال أبو تمام

فأما عيون العاشقين فأسخنت * وأما عيون الشامتين فقرت

وقال أبو العباس ليس كما قال الاصمعي بل كل دمع حار فمعنى أقر الله تعالى عينك صادفت سرورا فنامت وذهب سهرها وصادفت ما يرضيك أي بلغك الله أقصى أملك حتى تقر عينك من النظر الى غيره استغناء ورضا بما في يديك (ولا) أي وكي لا (تحزن) أي بفراقه (ولتعلم) أي علما هو عين اليقين كما كانت عالمة به علم اليقين وعلم شهادة كما كانت عالمة به علم غيب (أن وعد الله) أي الامر الذي وعدها به الذي له الكمال كله في حفظه وارساله (حق) أي هو في غاية الثبات في مطابقة الواقع (ولكن أكثرهم) أي أكثر آل فرعون وغيرهم (لا يعلمون) ان وعد الله حق فيرتابون فيه أو لا يعلمون ان الله وعدها رده اليها قال الضحاك لما قبل ثديها قال هامان انك لامه قالت لا قال فما له قبل ثديك من بين النسوة قالت أيها الملك اني امرأة طيبة الريح حلوة اللبن فما شم ريحي صبي الا أقبل على ثديي قالوا صدقت فلم يبق أحد من آل فرعون الا أهدى اليها وأتحفها بالذهب والجوهر وأجرى عليها أجرها قال السدي وكانوا يدفعون اليها كل يوم دينارا (فان قيل) كيف حل لها أن تأخذ الاجر على ارضاع ولدها منه (أجيب) بأنها ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ولكنه مال حربي كانت تأخذه على الاستباحة فمكث عندها الى أن فطمته واستقر عند فرعون يأكل من مأكوله ويشرب من مشربه ويلبس من ملبوسه الى أن كمل كما قال تعالى حكاية عنه في سورة الشعراء ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين (ولما بلغ أشده) وهو ثلاثون سنة أو وثلاث كما قال مجاهد وغيره (واستوى) أي بلغ أربعين سنة كما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس وقيل اعتدل في السن

قوله فان قيل كيف حل لها الخ في حاشية الجمل والظاهر أن هذا السؤال لا يرد من أصله لانه لم يكن اذ ذاك شرع حتى تلتزم حكمه وعلى فرض أن يكون فليس بلازم أن يكون كشرعنا لجواز أن يكون له تفاريع أخر اه مصححه

وتم

وتم استحكامه بانتهاء شبابه وهو من العمر ما بين احدى وعشرين سنة الى اثنتين وأربعين (آتيناه) أى ابتداء من غير اكتساب أصلا خرقا للعادة اسوة اخوانه من الانبياء (حكما) أى عملا محكما بالعلم (وعلما) أى فقها فى الدين تهيئة لنبوته وارصادا لرسالته وقيل المراد بالعلم علم التوراة والحكم السنة قال الزمخشرى وحكمة الانبياء سنتهم قال الله تعالى واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة وقيل معناه آتيناه سيرة الحكماء العلماء وسمتهم قبل البعث فكان لا يفعل فعلا يستجهل فيه قال البقاعى واختار الله تعالى هذا السن للارسال ليكون من جملة الخوارق لان به يكون ابتداء الانتكاس الذى قال الله تعالى فيه ومن نعمره أى الى اكمال سن الشباب ننكسه فى الخلق أى نوقفه فلا يزداد بعد ذلك فى قواه الظاهرة ولا الباطنة شئ أولا يوجد فيه غريزة لم تكن موجودة أصلا عشر سنين ثم يأخذ فى النقصان هذه عادة الله فى جميع بنى آدم الا الانبياء عليهم الصلاة والسلام فانهم فى حد الوقوف يؤتون من بحار العلوم ما يقصر عنه الوصف بغير اكتساب بل غريزة يغرزها الله تعالى فيهم حينئذ ويؤتون من قوة الابدان أيضا بمقدار ذلك فى انتكاس غيرهم يكون نموهم وكذا من ألحقه الله تعالى بهم من صالحى أتباعهم كما قال تعالى (وكذلك) أى مثل هذا الجزاء العظيم (نجزى المحسنين) أى كلهم على احسانهم ولما أخبر تعالى بتهيئته للنبوة أخبر بما هو سبب لهجرته وكانها سنة بعد ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى (ودخل) أى موسى عليه السلام (المدينة) قال السدى هى مدينة منف من أرض مصر وقال مقاتل كانت قرية تدعى حابين على رأس فرسخين من مصر وقيل مدينة عين شمس وقيل غير ذلك (على حين غفلة من أهلها) وهو وقت القائلة واشتغال الناس بالقيلولة وقال محمد بن كعب القرظى دخلها فيما بين المغرب والعشاء وقيل يوم عيد لهم وهم مشتغلون فيه بلهوهم وقيل لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه فلا يدخل قرية الا على تغفل واختلف فى السبب الذى من أجله دخل المدينة فى هذا الوقت قال السدى وذلك أن موسى كان يسمى ابن فرعون فكان يركب مراكب فرعون ويلبس مثل ملابسه فركب فرعون يوما وليس عنده موسى فلما جاء موسى قيل له ان فرعون قد ركب فركب فى اثره فأدركه المقيل بأرض منف فدخلها نصف النهار وليس فى طرقها أحد وقال ابن اسحق كان لموسى شيعة من بنى اسرائيل يسمعون منه ويقتدون برأيه فلما عرف ما هو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه فخالفهم فى دينهم فأخافوه فكان لا يدخل قرية الا خائفا مستخفيا وقال ابن زيد لما علا موسى فرعون بالعصا فى صغره فأراد فرعون قتله فقالت امرأته هو صغير فترك قتله وأمر باخراجه من مدينته فلم يدخل عليهم الا بعد أن كبر وبلغ أشده (فوجد فيها) أى المدينة (رجلين يقتتلان) أى يفعلان مقدمات القتل مع الملازمة من الضرب والخنق وهما اسرائيلى وقبطى ولهذا قال تعالى مجيبا لمن كان يسأل عنهما وهو ينظر اليهما (هذا من شيعته) أى من بنى اسرائيل (وهذا من عدوه) أى من القبط قال مقاتل كانا كافرين الا أن أحدهما من القبط والآخر من بنى اسرائيل لقول موسى عليه السلام انك لغوى مبين والمشهور أن الاسرائيلى كان مسلما

قوله حابين كذا فى جميع الاصول التى بأيدينا وفى حاشية الجمل وقيل هى قرية يقال لها أم خنان على فرسخين من مصر اهـ

قيل انه السامري والقبطي طباخ فرعون فكان القبطي يسخر الاسرائيلي ليحمل الحطب الى المطبخ وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس لما بلغ موسى أشده لم يكن أحد من آل فرعون يخلص الى أحد من بني اسرائيل بظلم حتى امتنعوا كل الامتناع وكان بنو اسرائيل عزوا لمكان موسى لكونه ربيب الملك مع أن مرضعته منهم لا يظنون أن سبب ذلك الا الارضاع (فاستغاثه) أي طلب منه (الذي من شيعته) أن يغيثه (على الذي من عدوه) فغضب موسى عليه السلام واشتد غضبه وقال للفرعوني خل سبيله فقال انما أخذته ليحمل الحطب الى مطبخ أبيك فنازعه فقال الفرعوني لقد هممت أن أحمله عليك وكان موسى عليه السلام قد أوتي بسطة في الخلق وشدة في القوة والبطش (فوكزه موسى) أي دفعه بجمع كفه والفرق بين الوكز واللكز ان الاول بجمع الكف والثاني باطراف الاصابع وقيل بالعكس وقيل اللكز في الصدر والوكز في الظهر (فقضى) أي فأوقع القضاء الذي هو القضاء على الحقيقة وهو الموت الذي لا يحوه منه مخلوق (عليه) فقتله وفرغ منه وكل شئ فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه وخفي هذا على الناس لما هم فيه من الغفلة فلم يشعر به أحد فندم موسى عليه السلام عليه ولم يكن قصده القتل فدفنه في الرمل (قال هذا) أي قتله (من عمل الشيطان) أي لاني لم أومر به على الخصوص ولم يكن من قصدي وان كان المقتول كافرا حربيا ثم أخبر عن حال الشيطان ليحذر منه بقوله (انه عدو) فينبغي الحذر منه (مضل) لا يقود الى خير أصلا (مبين) أي عداوته واضلاله في غاية البيان ما في شئ منهما خفاء ولما لم يكن في قتله الا الندم لعدم اذن خاص (قال رب) أي أيها المحسن الي (اني ظلمت نفسي) أي بالاقدام على ما لم تأمرني به بالخصوص وان كان مباحا (فاغفر) أي امح هذه الهفوة عينها وأثرها (لي) أي لاجلي لا تؤاخذني (فغفر) أي أوقع المحو لذلك كما سأل اكراما (له انه هو) أي وحده (الغفور) أي البالغ في صفة الستر لكل من يريد (الرحيم) أي العظيم الرحمة بالاحسان بالتوفيق الى الافعال المرضية لمقام الالهية ولاجل أن هذه صفته رده الى فرعون وقومه حين أرسله اليهم فلم يقدروا على مؤاخذته بذلك بقصاص ولا غيره بعد أن نجاه منهم قبل ارساله على غير قياس ثم شكر ربه على هذه النعمة التي أنعم بها عليه بأن (قال رب) أي أيها المحسن الي (بما أنعمت علي) أي بسبب انعامك علي بالمغفرة (فلن أكون) أي ان عصمتني (ظهيرا) أي عونا وعشيرا وخليطا (للمجرمين) قال ابن عباس للكافرين وهو اما صحبة فرعون وانتظامه في جملته وتكثير سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد وكان يسمى ابن فرعون واما مظاهرة من تؤل مظاهرته الى الجرم والاثم كما في مظاهرة الاسرائيلي المؤدية الى القتل الذي لم يؤمر به وهذا نحو قوله تعالى ولا تركنوا الى الذين ظلموا وعن عطاء أن رجلا قال له ان أخي يضرب بقلمه ولا يعدو رزقه قال فمن الرأس يعني من يكتب له قال خالد بن عبد الله القسري قال فأين قول موسى وتلا هذه الآية وفي الحديث ينادي مناد يوم القيامة أين الظلمة وأشباه

الظلمة حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلما فيجمعون فى تابوت من حديد فيرمى بهم فى جهنم
وقول ابن عباس يدل على أن الاسرائيلى الذى أعانه موسى عليه السلام كان كافرا وهو قول
مقاتل وقال قتادة انى لا أعين بعدها على خطيئة وقيل بما أنعمت على من القوة فلن أستعملها
الا فى مظاهرة أوليائك وأهل طاعتك والايمان بك قال ابن عباس لم يستثن أى لم يقل فلن
أكون ان شاء الله تعالى فابتلى به فى اليوم الثانى كما قال تعالى (فأصبح فى المدينة) أى التى
قتل القتيل فيها (خائفا) أى بسبب قتله له (يترقب) أى ينتظر ما يناله من جهة القتيل قال
البغوى والترقب انتظار المكروه وقال الكلبى ينتظر متى يؤخذ به (فاذا) أى ففجأه
(الذى استنصره) أى طلب نصرته من شيعته (بالامس) أى اليوم الذى يلى يوم الاستصراخ
(يستصرخه) أى يطلب أن يزيل ما يصرخ بسببه من الضر من قبطى آخر كان يظلمه فكأنه قيل
فما قال له موسى بعدما أوقعه فيما يكره فقيل (قال له) أى لهذا المستصرخ (موسى انك
لغوى) أى صاحب ضلال بالغ (مبين) أى واضح الضلال غير خفيه لكون ما وقع بالامس
لم يكفك عن الخصومة لمن لا تطيقه وان كنت مظلوما ثم دنا منهما لينصره (فلما أن أراد) أى
شاء فان مزيدة (أن يبطش) أى موسى عليه السلام (بالذى هو عدو لهما) أى لموسى
والاسرائيلى لانه لم يكن على دينهما ولان القبط كانوا أعداء بنى اسرائيل بأن يأخذه بعنف
وسطوة لخلاص الاسرائيلى منه (قال) أى الاسرائيلى الغوى لاجل ما رأى من غضبه
وتكليمه له ظانا أنه يريد البطش به (ياموسى) ناصا عليه باسمه (أتريد أن تقتلنى) أى اليوم
وأنا من شيعتك (كما قتلت نفسا بالامس) أى من شيعة أعدائنا والذى يدل على أن الاسرائيلى
هو الذى قال له هذا الكلام السياق وعليه الاكثرون لانه لم يعلم بقتل القبطى غير الاسرائيلى
وقيل انما قال موسى للفرعونى انك لغوى مبين بظلمك ويناسبه قوله (ان) أى ما (تريد الا أن
تكون جبارا) أى قاهرا عاليا فلا يليق ذلك الا بقول الكافر أو أن الاسرائيلى لما ظن قتله قال
ذلك وقد قيل فى الاسرائيلى انه كان كافرا قال أبو حيان وشأن الجبار أن يقتل بغير حق
(فى الارض) أى التى تكون بها فلا يكون فوقك أحد (وما تريد) أى تتخذ ذلك ارادة
(أن تكون) أى كونا هو لك كالجبلة (من المصلحين) أى العريقين فى الصلاح فان الصلح بين
الناس لا يصل الى القتل على هذه الصورة فلما سمع القبطى هذا ترك الاسرائيلى وكان القبط
لما قتل ذلك القبطى ظنوا فى بنى اسرائيل فأغروا فرعون بهم وقالوا ان بنى اسرائيل قتلوا منا
رجلا فخذ لنا بحقنا فقال ابغوا الى قاتله ومن يشهد عليه فان الملك وان كان صفوة مع قومه
لا يستقيم له أن يقضى بغير بينة ولا تثبت فلما قال هذا الغوى هذه المقالة علم القبطى أن موسى
عليه السلام هو الذى قتل الفرعونى فانطلق الى فرعون فأخبره بذلك فأمر فرعون بقتل موسى
قال ابن عباس فلما أرسل فرعون الذباحين لقتل موسى أخذوا الطريق الاعظم (وجاء رجل)
أى ممن يحب موسى عليه السلام واختلف فى اسمه فقيل حزقيل مؤمن آل فرعون وقيل شمعون
وقيل شمعان وكان ابن عم فرعون (من أقصى المدينة) أى أبعدها مكانا (يسعى) أى يسرع

فى مشيه فأخذ طريقا قريبا حتى سبق الى موسى فأخبره وأنذره حتى أخذ طريقا آخر فكأنه قيل فما قال الرجل له فقيل (قال) مناديا لموسى تلطفا وازالة للبس (ياموسى ان الملأ) أى اشراف القبط الذين فى أيديهم الحل والعقد لان لهم القدرة على الامر والنهى (يأتمرون بك) أى يتشاورون فى شأنك (ليقتلوك) حتى وصل حالهم فى تشاورهم الى أن كلا منهم يأمر الآخر ويأتمر بأمره لانهم سمعوا انك قتلت صاحبهم (فاخرج) أى من هذه المدينة ثم علل ذلك بقوله على سبيل التأكيد ليزيل ما يطرقه من احتمال عدم القتل لكونه عزيزا عند الملك (انى لك من الناصحين) أى الغريقين فى نصحك (فخرج) أى موسى عليه السلام مبادرا (منها) أى المدينة لما علم صدق قوله مما تحققه من القرائن حال كونه (خائفا) على نفسه من آل فرعون (يترقب) أى يكثر الالتفات بادارة رقبته فى الجهات ينظر هل يتبعه أحد ثم دعا الله تعالى بأن (قال رب) أى أيها المحسن الى بالنجاة وغير ذلك من وجوه البر (نجنى) أى خلصنى (من القوم الظالمين) أى الذين يضعون الامور فى غير مواضعها فيقتلون من لا يستحق القتل مع قوتهم فاستجاب الله تعالى دعاءه فوفقه لسلوك الطريق الاعظم نحو مدين فكان ذلك سبب نجاته وذلك ان الذين انتدبوا اليه قطعوا بأنه لا يسلك الطريق الاكبر جريا على عادة الخائفين الهاربين وفى القصة أن فرعون لما بعث فى طلبه قال اركبوا ثنيات الطريق فانبثوا فيما ظنوه عينا وشمالا ففاتهم (ولما توجه) أى أقبل بوجهه قاصدا (تلقاء) أى الطريق الذى يلاقى سالكه أرض (مدين) قال ابن عباس خرج وما قصد مدين ولكنه سلم نفسه الى الله تعالى ومشى من غير معرفة فهداه الله تعالى الى مدين وقيل وقع فى نفسه أن بينهم وبينه قرابة لانهم من ولد مدين بن ابراهيم وكان من بنى اسرائيل سمعت البلدة باسمه فخرج ولم يكن له علم بالطريق بل اعتمد على فضل الله تعالى وقيل جاءه جبريل عليه السلام وعلمه الطريق قال ابن اسحق خرج من مصر الى مدين خائفا بلا زاد ولا ظهر وبينهما مسيرة ثمانية أيام ولم يكن له طعام الا ورق الشجر (قال عسى) أى جدير وحقيق (ربى) أى المحسن الى (أن يهدينى سواء) أى أعدل ووسط (السبيل) أى الطريق الذى يطلعنى الله تعالى عليها من غير اعوجاج وقال ذلك قبل أن يعرف الطريق اليها قيل فلما دعا جاءه ملك بيده عنزة فانطلق به الى مدين قال المفسرون خرج موسى من مصر ولم يكن له طعام الا ورق الشجر والبقل حتى ترى خضرته فى بطنه وما وصل الى مدين حتى وقع خف قدميه قال ابن عباس وهو أول ابتلاء من الله تعالى لموسى عليه السلام (ولما ورد) أى وصل (ماء مدين) وهو بئر كان يسقى منها الرعاة مواشيهم (وجد عليه) أى الماء (أمة) أى جماعة كثيرة (من الناس) مختلفين (يسقون) أى مواشيهم (ووجد من دونهم) أى فى مكان سواهم أسفل من مكانهم (امرأتين) عبر بذلك لما جعل لهما سبحانه من المروءة ومكارم الاخلاق كما يعلمه من أمعن النظر فيما يذكر عنهما (تذودان) أى تحبسان وتمنعان أغنامهما اذا فزعت من العطش الى الماء حتى يفرغ الناس ويخلو لهما البئر وقال الحسن تكفان الغنم لئلا تختلط بغنم الناس وقال قتادة تكفان الناس عن أغنامهما وقيل لئلا يختلطن بالرجال وقيل كانتا تذودان

عن وجوههما نظر الناظرين لتسترهما وقيل غير ذلك فكأنه قيل فما قال موسى لهما قيل (قال) لهما رحمة لهما (ما خطبكما) أى ما شأنكما لا تسقيان مواشيكما مع الناس (قالتا لا نسقى) أى مواشينا وحذف للعلم به (حتى يصدر) أى ينصرف ويرجع (الرعاء) أى عن الماء خوف الزحام فنسقى وقرأ أبو عمرو وابن عامر بفتح الياء وضم الدال والباقون بضم الياء وكسر الدال مضارع أصدر يعدى بالهمزة * (تنبيه) * المفعول محذوف أى يصدرون مواشيهم والرعاء جمع راع مثل تاجر وتجار أى نحن امرأتان لا يليق أن نزاحم الرجال فاذا أصدروا سقينا مواشينا ما أفضلت مواشيهم فى الحوض (وأبونا شيخ كبير) أى لا يستطيع لكبره أن يسقى فاضطررنا الى ما ترى (تنبيه) اختلف فى أبيهما فقال مجاهد والضحاك والسدى والحسن أبوهما هو شعيب النبى عليه السلام وانه عاش عمرا طويلا بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته وقال وهب وسعيد بن جبير هو يثرون ابن أخى شعيب وكان شعيب قد مات قبل ذلك بعد ما كف بصره فدفن بين المقام وزمزم وقيل رجل ممن آمن بشعيب قالوا فلما سمع موسى قولهما رحمهما فاقتلع صخرة من رأس بئر أخرى كانت بقربهما لا يطيق رفعها الا جماعة من الناس وقال ابن اسحق ان موسى زاحم القوم ونحاهم عن رأس البئر فسقى غنم المرأتين ويروى أن القوم لما رجعوا بأغنامهم غطوا رأس البئر بحجر لا يرفعه الا عشرة نفر وقيل أربعون وقيل مائة فجاء موسى ورفع الحجر وحده وسقى غنم المرأتين ويقال انه سألهم دلوا من ماء فأعطوه دلوهم وقالوا استق بها وكانت لا ينزعها الا أربعون فاستقى بها وصبها فى الحوض ودعا فيه بالبركة فروى منه جميع الغنم (فان قيل) كيف ساغ لنبى الله تعالى شعيب أن يرضى لابنتيه الرعى بالماشية (أجيب) بأن الناس اختلفوا فيه هل هو شعيب أو غيره واذا قلنا انه هو كما عليه الاكثر فليس ذلك بمحظور فلا يأباه الدين والناس مختلفون فى ذلك بحسب المروأة وعادتهم فيها متباينة وأحوال العرب والبدو تباين أحوال العجم والحضر لا سيما اذا دعت الى ذلك ضرورة (فسقى) أى موسى عليه السلام (لهما) والمفعول محذوف أى غنمهما لعلمه ضرورتهما انتهازا للفرصة الاجر وكرم الخلق فى مساعدة الضعيف مع ما به من النصب والجوع وسقوط خف القدم ولكنه رحمهما وأغاثهما وكفاهما أمر السقى فى مثل تلك الزحمة بقوة قلبه وقوة ساعده وما آتاه الله تعالى من الفضل فى متانة الفطرة ورصانة الجبلة (ثم تولى) أى انصرف جاعلا ظهره يلى ما كان يليه وجهه (الى الظل) أى ظل سمرة فجلس فى ظلها ليقيل ويستريح مقبلا على الخالق بعد ما قضى من نصيحة الخلائق وهو جائع قال الضحاك لبث سبعة أيام لم يذق طعاما الا بقل الارض (فقال رب انى) وأكد الافتقار بالالصاق باللام دون الى بقوله (لما أنزلت الى من خير) قليل أو كثير غث أو سمين (فقير) أى محتاج سائل * (تنبيه) * لما أنزلت متعلق بفقير قال الزمخشرى عدى فقير باللام لانه ضمن معنى سائل وطالب ويحتمل انى فقير من الدنيا لاجل ما أنزلت الى من خير الدين وهو النجاة من الظالمين وليس فى الشكوى الى الغنى المطلق نقص قال ابن عباس سأل الله تعالى فلقة خبز يقيم بها صلبه وقال الباقر لقد قالها وانه لمحتاج الى شق تمرة وقال

سعيد بن جبير عن ابن عباس لقد قال موسى ذلك وهو أكرم خلقه عليه وانه كان قد بلغ به من
الضر أن اخضر بطنه من أكل البقل وضعف حتى اصق بطنه الشريف بظهره وانما قال ذلك في
نفسه مع ربه وهو اللائق به وقيل رفع به صوته لاستماع المرأتين وطلب الطعام وهذا لا يليق
بموسى عليه السلام فانظر الى هذا النبي عليه السلام وهو خلاصة ذلك الزمان ليكون لك في ذلك
سوة وتجعله اماما وقدوة وتقول مالقي الانبياء واصا الحوت من الضيق والاهوال في سجن الحياة
الدنيا صونا لهم منها واكراما من ربهم عنها رفعة لدرجاتهم واستهانة لها وان ظنه الجاهل المغرور
على غير ذلك وفي القصة ترغيب في الخير وحث على المعاونة على البر وبعث على بذل المعروف
مع الجهد فلما رجعتا الى أبيهما سريعا قبل الناس وأغنامهما حفل بطان قال لهما ما أعجلكما
قالتا وجدنا رجلا صالحا رحيما فسقى لنا أغنامنا فقال لاحداهما اذهبي فادعيه لي (فجاءته
احداهما) ممتثلة أمر أبيها وقوله (تمشي) حال وقوله (على استحياء) حال أخرى أي مستحيية
اما من جاءته واما من تمشي قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ليست بسلفع من النساء
خراجة ولاجة ولكن جاءته مستترة وضعت كم درعها على وجهها استحياء ثم استأنف الاخبار
بما تشوف اليه السامع بقوله تعالى (قالت) وأكدت اعلاما بما لابيها من الرغبة الى لقائه
(ان أبي) وصورت حاله بالمضارع بقولها (يدعوك ليجزيك) أي يعطيك مكافأة لك لان المكافأة
من شيم الكرام (أجر ما سقيت لنا) أي مواشينا قال ابن اسحق اسم الكبرى صفورا
والصغرى لبنى وقيل ليا وقال غيره صفرا وصفيرا وقال الضحاك صافورا وقال الاكثرون التي
جاءت لموسى الكبرى وقال الكلبي هي الصغرى قال الرازي وليس في القرآن دلالة على شئ
من هذه التفاصيل (فان قيل) في الآية اشكالات احداها كيف ساغ لموسى عليه السلام أن
يعمل بقول امرأة وأن يمشي معها وهي أجنبية فان ذلك يورث التهمة العظيمة وقال صلى الله
عليه وسلم اتقوا مواضع التهم وثانيها أنه سقى أغنامهما تقربا الى الله تعالى فكيف يليق به أخذ
الأجرة عليه وذلك غير جائز في الشريعة وثالثها أنه عرف فقرهما وفقر أبيهما وانه عليه السلام
كان في نهاية القوة بحيث يمكنه الكسب بأقل سعي فكيف يليق بمروأة مثله طلب الاجرة على
ذلك القدر من الشيخ الفاني الفقير والمرأة الفقيرة ورابعها كيف يليق بالنبي شعيب عليه السلام
أن يبعث ابنته الشابة الى رجل شاب قبل العلم بكون الرجل عفيفا أو فاسقا (أجيب) عن الاول
بأن الخبر يعمل فيه بقول المرأة فان الخبر يعمل فيه بقول الواحد حرا كان أو عبدا ذكرا كان
أو أنثى وهي ما كانت مخبرة الا عن أبيها وأما المشي مع المرأة بعد الاحتياط والتورع فلا بأس به
وعن الثاني بأن المرأة لما قالت ذلك لموسى عليه السلام ما ذهب اليهم طلبا للاجرة بل للتبرك بذلك
الشيخ الكبير لما روي أنه لما دخل على شعيب عليه السلام اذا هو بالعشاء مهيأ فقال اجلس
يا شاب فتعش فقال موسى أعوذ بالله فقال شعيب ولم ذلك ألست بجائع قال بلى ولكن أخاف أن
يكون هذا عوضا لما سقيت لهما وأنا من أهل بيت لا نطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضا من
الدنيا وفي رواية لا نبيع ديننا بدنيانا ولا نأخذ بالمعروف ثمنا فقال له شعيب لا والله يا شاب ولكنها

عادتي وعادت آبائي نقرى الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى عليه السلام فأكل وأيضا فليس بمنكر أن الجوع قد بلغ الى حيث ما كان يطيق يحمله ففعل ذلك اضطرارا وهو الجواب عن الثالث فان الضرورات تبيح المحظورات وعن الرابع بأن شعيبا عليه السلام كان يعلم طهارة ابنته وبراءتها اما بوحي أو بغيره فكان آمنا عليها قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقام يمشي والجارية امامه فهبت الريح فوصفت ردفها فكره موسى عليه السلام أن يرى ذلك منها فقال لها امشي خلفي أو قال موسى انى من عنصر ابراهيم فكوني خلفي حتى لا يرفع الريح ثيابك فأرى ما لا يحل وفي رواية كوني خلفي ودليني على الطريق برمي الحصا لان صوت المرأة عورة (فان قيل) لم خشي موسى عليه السلام أن يكون ذلك أجرة له على عمله ولم يكره مع الخضر عليه السلام ذلك حين قال لو شئت لتخذت عليه أجرا أجيب بأن أخذ الاجرة على الصدقة لا يجوز وأما الاستئجار ابتداء فغير مكروه (فلما جاءه) أي موسى شعيبا (وقص) أي موسى عليه السلام (عليه) أي شعيب عليه السلام (القصص) أي حدثه حديثه مع فرعون وآله في كفرهم وطغيانهم واذلالهم لعباد الله تعالى *(تنبيه)* القصص مصدر كالعلل سمي به المقصوص قال الضحاك قال له من أنت يا عبد الله قال أنا موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث ابن لاوى بن يعقوب عليه السلام وذكر له جميع أمره من لدن ولادته وأمر القوابل والمراضع والقذف في اليم وقتل القبطي وانهم يطلبونه ليقتلوه ثم ان شعيبا عليه السلام امنه بأن (قال) له (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) أي فان فرعون لا سلطان له بأرضنا (فان قيل) ان المفسرين قالوا ان فرعون يوم ركب خلف موسى ركب في ألف ألف وستمائة ألف والملك الذي هذا شأنه كيف يعقل أن لا يكون في ملكه قرية على بعد ثمانية أيام (أجيب) بان هذا ليس بمحال وان كان نادرا ولما امنه واطمأن (قالت احداهما) أي المرأتين وهي التي دعته الى أبيها مشيرة بالنداء بأداة البعد الى استصغارها لنفسها وجلالة أبيها (يا أبت استأجره) أي اتخذه أجيرا يرعى أغنامنا (ان خير من استأجرت القوى الامين) أي خير من استعملت من قوى على العمل اشئ من الاشياء وأداء الامانة قال أبو حيان وقولها قول حكيم جامع لا يزاد عليه لانه اذا اجتمعت هاتان الخصلتان أعني الكفاية والامانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك وقد استغنت بارسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول استأجره لقوته وأمانته وانما جعل خير من استأجرت اسما والقوى الامين خبرا مع أن العكس أولى لان العناية هي سبب التقديم وقد صدقت حتى جعل لها ما هو أحق بأن يكون خبرا اسما وورود الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف وعن ابن عباس أن شعيبا اختطفته الغيرة فقال وما علمك بقوته وأمانته فذكرت اقلال الحجر ونزع الدلو وانه صوب أي خفض رأسه حين بلغته رسالة أبيها اليه وأمرها بالمشي خلفه وعن ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف في قوله عسى أن ينفعنا وأبو بكر في عمر ولما أعلمته ابنته بذلك (قال) لموسى عليه السلام عند ذلك (اني أريد) يا موسى والتأكيد لان الغريب قلما يرغب فيه أول ما يقدم

لاسيما من الرؤساء اتم الرغبة (أن أنكحك احدى ابنتى هاتين) أى الحاضرتين اللتين سقيت لهما اليأتلهما فينظر من يقع اختياره عليه منهما ليعقد له عليها قال أكثر المفسرين انه زوجه الصغرى منهما وهى التى ذهبت لطلب موسى واسمها صفورا على خلاف تقدم فى اسمها وقوله هاتين فيه دليل على أنه كان له غيرهما وقوله (على أن تأجرنى ثمانى حجج) اما من أجرته اذا كنت له أجيرا كقولك أبوته اذا كنت له أبا وثمانى حجج ظرفه أى ترعى غنمى ثمانى حجج واما من أجرته كذا اذا أثبته اياه قاله الفراء أى تجعل ثوابى من تزويجها أى تجعل أجرى على ذلك ثوابى ثمانى حجج تقول العرب أجرك الله يأجرك أى أثابك ومنه تعزية رسول الله صلى الله عليه وسلم أجركم الله ورحمكم وثمانى حجج مفعول به ومعناه رعية ثمانى حجج (فان قيل) كيف صح أن ينكحه احدى ابنتيه من غير تمييز (أجيب) بأن ذلك لم يكن عقدا ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم عليه ولو كان عقدا لقال أنكحتك ولم يقل انى أريد أن أنكحك وقد مرت الاشارة الى ذلك والحجج السنون واحدها حجة (فان أتممت عشرا) أى عشر سنين وقوله (فمن عندك) يجوز أن يكون فى محل رفع خبر المبتدا المحذوف تقديره فهى من عندك أو نصب أى فقد زدتها من عندك أو تفضلت بها من عندك وليس ذلك بواجب عليك (تنبيه) هذا اللفظ يدل على أن العقد وقع على أقل الاجلين والزيادة كالتبرع فالعقد وقع على معين ودلت الآية على أن العمل قد يكون مهرا كالمال وعلى أن عقد النكاح لا يفسد بالشروط التى لا يوجبها العقد ان كان وقع شرط هذه الزيادة فى العقد ولما ذكر له ذلك أراد أن يعلمه أن الامر بعد الشرط بينهما على المسامحة فقال (وما أريد أن أشق عليك) أى أدخل عليك مشقة بمناقشة ومراعاة أوقات ولا فى اتمام عشر ولا غير ذلك ثم أكد معنى المساهلة بقوله (ستجدنى) وفتح الياء نافع عند الوصل والباقون بسكونها ثم استثنى على قاعدة أنبياء الله وأوليائه فى المراقبة على سبيل التبرك بقوله (ان شاء الله) أى الذى له جميع الامر (من الصالحين) قال عمر أى فى حسن الصحبة والوفاء بما قلت أى وكل ما تريد من كل خير وقيل أراد الصلاح على العموم (فان قيل) كيف ينعقد العقد بهذا الشرط ولو قلت أنت طالق ان شاء الله لم تطلق (أجيب) بأن هذا انما يختلف بالشرائع أو ان ذلك ذكر للتبرك (قال) أى موسى عليه السلام (ذلك) أى الذى ذكرته وعاهدتنى فيه وشارطتنى عليه (بينى وبينك) أى قائم بيننا جميعا لا يخرج كلانا عنه لا أنا عما شرطت على ولا أنت عما شرطت على نفسك *(تنبيه)* ذلك مبتدأ والظرف خبره وأضيفت بين لمفرد لتكررها وعطفت بالواو ولو قلت المال لزيد فعمرو لم يجز والاصل ذلك بيننا كما مر ففرق بالعطف ثم فسر ذلك بقوله (أيما) أى أى (الاجلين) ما زائدة (قضيت) أى فرغت أطولهما الذى هو العشر او اقصرهما الذى هو الثمان (فلا عدوان) أى اعتداء بسبب ذلك لك ولا لاحد (على) فى طلب أكثر منه لانه كما لا تجب الزيادة على العشر لا تجب الزيادة على الثمان (فان قيل) تصور العدوان انما هو فى أحد الاجلين الذى هو أقصر وهو المطالبة بتتمة العشر فما معنى تعلق العدوان بهما جميعا (أجيب) بأن معناه كما انى ان طولبت بالزيادة على العشر

كان عدوانا لا شك فيه فكذلك ان طولبت بالزيادة على الثمان أراد بذلك تقرير أمر الخيار وانه ثابت مستقر وان الاجلين على السواء اما هذا واما هذا من غير تفاوت بينهما في القضاء وأما التتمة فموكلة الى رأيي ان شئت أتيت بها والا لم أجبر عليها وكأنه أشار بنفي صيغة المبالغة الى أنه لا يؤاخذ لسعة صدره وطهارة أخلاقه بمطلق العدوان (والله) أي الملك الاعظم (على ما نقول) أي كله في هذا الوقت وغيره (وكيل) قال ابن عباس ومقاتل شهيد فيما بيني وبينك وقيل حفيظ وعن سعيد بن جبير قال سألني يهودي من أهل الحيرة أي الاجلين قضى موسى فقلت لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت فسألت ابن عباس فقال قضى أكثرهما وروى عن أبي ذر مرفوعا اذا سئلت أي الاجلين قضى موسى فقل خيرهما واذا سئلت فأي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما وهي التي جاءت فقالت يا أبت استأجره فتزوج صغراهما وقضى أوفاهما وقال وهب أنكحه الكبرى وروى عن شداد بن أوس مرفوعا بكى شعيب عليه السلام حتى عمي فرد الله تعالى عليه بصره ثم بكى حتى عمي فرد الله تعالى عليه بصره ثم بكى حتى عمي فرد الله تعالى عليه بصره وقال له ما هذا البكاء أشوقا الى الجنة أم خوفا من النار قال لا يارب ولكن شوقا الى لقائك فأوحى الله تعالى اليه ان يكن ذلك فهنيألك يا شعيب لذلك أخدمتك موسى كليمي ولما تم العقد بينهما امر شعيب ابنته أن تعطي موسى عصا يدفع بها السباع عن غنمه واختلفوا في تلك العصا فقال عكرمة خرج بها آدم من الجنة فأخذها جبريل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلا فدفعها اليه وقال آخرون كانت من آس الجنة حملها آدم من الجنة فتوارثها الانبياء وكان لا يأخذها غير نبي الا أكلته فصارت من آدم الى نوح ثم الى ابراهيم حتى وصلت الى شعيب وكانت عصى الانبياء عليهم الصلاة والسلام عنده فأعطاها موسى وقال السدي كانت تلك العصا استودعها اياه ملك في صورة رجل فأمر ابنته أن تأتيه بعصا فدخلت فأخذت العصا فأتت بها فلما رآها شعيب قال لها ردي هذه العصا وأتيه بغيرها فدخلت فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها فلا يقع في يدها الا هي حتى فعلت ذلك ثلاث مرات فأعطاها موسى فأخذها موسى معه ثم ان الشيخ ندم وقال كانت وديعة فذهب في اثره فطلب أن يرد العصا فأبى موسى أن يعطيه وقال هي عصاي فرضيا أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما فلقيهما ملك في صورة رجل فحكم أن تطرح العصا فمن حملها فهي له فطرح موسى العصا فعالجها الشيخ فلم يطقها فأخذها موسى بيده فرفعها فتركها له الشيخ وروى ان شعيبا عليه السلام كان عنده عصى الانبياء فقال لموسى بالليل ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ولم تزل الانبياء تتوارثها حتى وقعت الى شعيب فمسها وكان مكفوفا فضن أي بخل بها فقال غيرها فما وقع في يده الا هي سبع مرات فعلم ان له شأنا وعن الحسن ما كانت الا عصا من الشجر اعترضها اعتراضا وعن الكلبي الشجرة التي منها نودي موسى شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولما أصبح قال له شعيب اذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فان الكلأ وان كان بها كثيرا الا أن فيها تنينا أخشاه عليك فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها فمشى على اثرها فاذا عشب وريف

لم يرمثله فنام فاذا بالتنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت الى جنب موسى دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولا ارتاح لذلك ولما رجع الى شعيب مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأنا (فلما قضى موسى الاجل) أى أتمه وفرغ منه وزوجه ابنته قال مجاهد مكث بعد ذلك عند صهره عشرا أخرى فأقام عنده عشرين سنة ثم ان شعيبا عليه السلام أراد أن يجازى موسى على رعيته اكراما له وصلة لابنته فقال له انى وهبت لك من الجداء التى تضعها أغنامى هذه السنة كل أبلق وبلقاء فأوحى الله تعالى الى موسى فى المنام أن اضرب بعصاك الماء الذى فى مستقى الاغنام قال فضرب موسى بعصاه الماء ثم سقى الاغنام منه فما أخطأت واحدة منها الا وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء فعلم شعيب ان ذلك رزق ساقه الله عز وجل الى موسى وامرأته فوفى له بشرطه وسلم الاغنام اليه ثم ان موسى استأذنه فى العود الى مصر فأذن له فخرج (وسار بأهله) أى امرأته راجعا الى أقاربه بمصر (آنس) أى أبصر من بعيد (من جانب الطور) اسم جبل (نارا) آنسته رؤيتها وكان فى البرية فى ليلة مظلمة شديدة البرد وأخذ امرأته الطلق حينئذ (قال لاهله امكثوا) أى ههنا وقرأ حمزة فى الوصل بضم الهاء قبل همزة الوصل وعبر موسى عليه السلام بضمير المذكور فلعل كان معه بنون فغلبهم على امرأته وقد ذكرت غير ذلك فى السورة التى قبل هذه ثم علل ذلك بقوله مؤكدا لاستبعاد أن يكون فى ذلك المكان القفر وفى ذلك الوقت الشديد البرد نارا (انى آنست نارا) فتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون كأنه قيل فماذا تعمل بها فقال معبرا بالترجى لانه أليق بالتواضع (لعلى آتيكم منها) أى من عندها (بخبر) أى عن الطريق لانه كان قد أخطأها (أو جذوة) أى قطعة وشعلة (من النار) وقال قتادة ومقاتل هو العود الذى احترق بعضه *(تنبيه)* من النار صفة لجذوة ولا يجوز تعلقها بآتيكم كما تعلق به منها لان هذه النار هى النار المذكورة والعرب اذا قدمت نكرة وأرادت اعادتها اعادتها مضمرة أو معرفة بأل العهدية وقد جمع الامرين هنا وقرأ عاصم بفتح الجيم وحمزة بضمها والباقون بالكسر وكلها لغات وجمعها جذى ثم استأنف قوله (لعلكم تصطلون) أى لتكونوا على رجاء من أن تقربوا من النار فتعطفوا عليها للتدفؤ وهذا دليل على أن الوقت كان شتاء (فلما أتاها) أى النار وهى (نودى) للمفعول لان آخر الكلام يدل دلالة واضحة على أن المنادى هو الله تعالى ولما كان نداؤه تعالى لا يشبه نداء غيره بل يكون من جميع الجوانب ومع ذلك قد يكون لبعض المواضع مزيد شرف بوصف من الاوصاف اما بأن يكون أول السماع منه أو غير ذلك أو يكون باعتبار موسى عليه السلام قال (من شاطئ الوادى) فمن لابتداء الغاية وقوله تعالى (الايمن) صفة للشاطئ أو للوادى والايمن من اليمن وهو البركة أو من اليمين المعادل لليسار من العضوين ومعناه على هذا بالنسبة الى موسى أى الذى يلى يمينك دون يسارك والشاطئ ضفة الوادى والنهر أى حافته وطرفه وكذا الشط والسيف والساحل كلها بمعنى وجمع الشاطئ أشطاء قاله الراغب وشاطأ فلانا ماشيته سايرها على الشاطئ

وقوله

وقوله تعالى (في البقعة المباركة) متعلق بنودي أو بمحذوف على أنه حال من الشاطئ ومعنى المباركة جعلها الله تعالى مباركة لان الله تعالى كلم موسى عليه السلام هنالك وبعثه نبيا وقال عطاء يريد المقدسة وقوله تعالى (من الشجرة) بدل من شاطئ الوادي باعادة الجار بدل اشتمال لان الشجرة كانت نابتة على الشاطئ قال البقاعي ولعل الشجرة كانت كبيرة فلما وصل اليها دخل النور من طرفها الى وسطها فدخلها ووراءه بحيث توسطها فسمع وهو فيها الكلام من الله تعالى حقيقة وهو المتكلم سبحانه وتعالى لا الشجرة قال القشيري وحصل الاجماع على انه عليه السلام سمع تلك الليلة كلام الله تعالى ولو كان ذلك نداء الشجرة لكان المتكلم الشجرة وقال التفتازاني في شرح المقاصد ان اختيار حجة الاسلام انه سمع كلامه الازلي بلا صوت ولا حرف كما ترى ذاته في الآخرة بلا كم ولا كيف واختلف في الشجرة ما هي فقال ابن مسعود كانت سمرة خضراء وقال قتادة ومقاتل والكلبي كانت عوسجة وقال وهب من العليق وعن ابن عباس انها العناب ثم ذكر المنادى به بقوله تعالى (أن ياموسى) فان هي مفسرة لا مخففة (اني أنا الله) أي المستجمع للاسماء الحسنى والصفات العليا وفتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون ثم وصف نفسه سبحانه تعالى بقوله (رب العالمين) أي خالق الخلائق أجمعين ومربيهم قال البيضاوي هذا وان خالف ما في طه والنمل في اللفظ فهو طبقه في المقصود انتهى وقال ابن عادل واعلم انه تعالى قال في سورة النمل نودي أن بورك من في النار ومن حولها وقال ههنا اني أنا الله رب العالمين وقال في سورة طه اني أنا ربك ولا منافاة بين هذه الاشياء فهو تعالى ذكر الكل الا أنه تعالى حكى في كل سورة ما اشتمل عليه ذلك النداء ثم ان الله تعالى أمره أن يلقي عصاه ليريه آية بقوله تعالى (وأن ألق عصاك) أي لاريك فيها آية فألقاها فصارت في الحال حية عظيمة وهي مع عظمها في غاية الخفة (فلما رآها) أي العصا (تهتز) أي تتحرك كأنها في سرعتها وخفتها (جان) أي حية صغيرة (ولى مدبرا) خوفا منها ولم يلتفت الى جهتها وهو معنى قوله تعالى (ولم يعقب) أي موسى عليه السلام وذلك كناية عن شدة التصميم على الهرب والاسراع فيه خوفا من الادراك في الطلب فقيل له (ياموسى أقبل) أي التفت وتقدم اليها (ولا تخف) ثم أكد له الامر لما الآدمي مجبول عليه من النفرة وان اعتقد صحة الخبر بقوله تعالى (انك من الآمنين) أي العريقين في الامن كعادة اخوانك من المرسلين فانه لا يخاف لدي المرسلون ثم زاد طمأنينته بقوله تعالى (اسلك) أي ادخل على الاستقامة مع الخفة والرشاقة (يدك في جيبك) أي القطع الذي في ثوبك وهو الذي يخرج منه الرأس أو هو الكم كما يدخل السلك وهو الخيط الذي ينظم فيه الدر (تخرج بيضاء) بياضا عظيما يكون له شأن خارق للعادات (من غير سوء) أي عيب من أثر الحريق الذي عجز فرعون عن مداواته أو غيره فخرجت ولها شعاع كشعاع الشمس يعشي البصر * (تنبيه) * قد ذكر هذا المعنى بثلاث عبارات احداها هذه وثانيتها واضمم يدك الى جناحك وثالثتها وادخل يدك في جيبك (واضمم اليك جناحك) أي يديك المبسوطتين تتقي بهما الحية

فرعون وقومه فعند ذلك طلب من يعينه بأن (قال رب) أى أيها المحسن الى (انى قتلت منهم نفسا) هو القبطى السابق وأنت تعلم أنى ما خرجت الا هاربا منهم لاجلها (فأخاف) ان بدأتهم بمثل ذلك (أن يقتلون) به لوحدتى وغربتى وثقل لسانى فى اقامة الحجج فأخاف أن يفوت المقصود بقتلى ولا يحمى من ذلك الا أنت وان لسانى فيه عقدة (وأخى هرون هو أفصح منى لسانا) أى من جهة اللسان للعقدة التى كانت حصلت له من وضع الجمرة فى فيه وهو طفل فى كفالة فرعون وقيل كانت من أصل الخلقة والفصاحة لغة الخلوص ومنه فصح اللبن خلص من رغوته وفصح الرجل جادت لغته وأفصح تكلم بالعربية (فأرسله) أى بسبب ذلك (معى ردأ) أى معينا من ردأت فلانا بكذا أى جعلته له قوة وعاضدا وردأت الحائط اذا دعمته بخشب أو كبش يدفعه أن يسقط وقرأ نافع بنقل حركة الهمزة الى الدال وحذف الهمزة والباقون بسكون الدال وتنوين الهمزة بعدها * ولما كان له عليه من العطف والشفقة ما يقصر الوصف عنه نبه على ذلك باجابة السؤال بقوله (يصدقنى) أى بأن يخلص بفصاحته ما قلته ويبينه ويقيم الادلة عليه حتى يصير كالشمس وضوحا فيكون مع تصديقه لى بنفسه سببا فى تصديق غيره لى وقرأ عاصم وحمزة بضم القاف على الاستئناف أو الصفة لردأ والباقون بالسكون جوابا للامر قال الرازى ليس الغرض بتصديق هرون أن يقول له صدقت أو يقول للناس صدق موسى وانما هو ان يخلص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل ويجيب عن الشبهات ويجادل به الكفار فهذا هو التصديق المفيد وفائدة الفصاحة انما تظهر فى ذلك لا فى مجرد قوله صدقت قال السدى نبيان وآيتان أقوى من نبى واحد وآية واحدة وهذا ظاهر من جهة العادة وأما من جهة الدلالة فلا فرق بين معجز ومعجزين ثم علل سؤاله هذا بقوله (انى أخاف أن يكذبون) أى فرعون وقومه ولسانى لا يطاوعنى عند المحاجة (قال) الله تعالى له مجيبا لسؤاله (سنشد عضدك) أى أمرك (بأخيك) أى سنقويك ونعينك به (ونجعل لكما سلطانا) أى ظهورا عظيما وغلبة لهم بالحجج والهيبة لاجل ما ذكرت من الخوف (فلا) أى فتسبب عن ذلك أنهم لا (يصلون اليكما) بنوع من أنواع الغلبة (بآياتنا) أى نجعل ذلك بسبب ما يظهر على أيديكما من الآيات العظيمة بنسبتها الينا ولذلك كانت النتيجة (أنتما ومن اتبعكما) من قومكما وغيرهم (الغالبون) أى لا غيركم وهذا يدل على أن فرعون لم يصل الى السحرة بشئ مما هددهم به لانهم من أكبر الاتباع الباذلين أنفسهم فى الله تعالى وليس فى القرآن ما يدل على أنه فعل بهم ما أوعدهم به قال البقاعى وكأنه حذف أمرهم هنا لانه فى بيان أمر فرعون وجنوده بدليل ما كرر من ذكرهم وقد كشفت العاقبة عن أن السحرة ليسوا من جنوده بل من حزب الله تعالى وجنده ومع ذلك فقد أشار اليهم بهذه الآية والتى بعدها اهـ * ولما كان التقدير فأتاهم كما أمره الله تعالى وعاضده أخوه كما أخبر الله تعالى ودعاهم الى الله تعالى وأظهر ما أمر به من الآيات بنى عليه مبينا بالفاء سرعة امتثاله (فلما جاءهم) أى فرعون وقومه ولما كانت رسالة هرون عليه السلام انما هى تأييد لموسى عليه السلام أشار

الى ذلك بالتصريح باسم الجانى بقوله تعالى (موسى بآياتنا) أى التى أمرناه بها الدالة على جميع الآيات للتساوى فى خرق العادة حال كونها (بينات) أى فى غاية الوضوح (قالوا) أى فرعون وقومه (ماهذا) أى الذى أظهرته من الآيات (الا سحر مفترى) أى مختلق لا أنه معجزة من عند الله ثم ضموا اليه ما يدل على جهلهم وهو قولهم (وما سمعنا) أى ما حدثنا (بهذا) أى الذى تدعونا اليه وتقوله من الرسالة عن الله تعالى (فى آبائنا) وأشاروا الى البدعة التى أضلت كثيرا من الخلق وهى تحكيم عوائد التقليد لاسيما عند تقادمها على القواطع فى قولهم (الاولين) وقد كذبوا وافتروا وقد سمعوا بذلك على أيام يوسف عليه السلام * وما بالعهد من قدم * فقد قال لهم الذى آمن يا قوم انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب الى قوله ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات (و) لما كذبوه وهم الكاذبون (قال) لهم (موسى ربى) أى المحسن الى (أعلم) أى عالم (بمن جاء بالهدى) أى الذى أذن الله تعالى فيه وهو حق فى نفسه (من عنده) فيعلم أنى محق وأنتم مبطلون وقرأ ابن كثير بغير واو وقبل القاف لانه قاله جوابا لمقالهم والباقون بالواو ولان المراد حكاية القولين ليوازن الناظر بينهما ليميز صحيحهما من فاسدهما (ومن تكون له) أى لكونه منصورا مؤيدا (عاقبة الدار) أى الراحة والسكن والاستقرار (فان قيل) العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسميا عاقبة الدار لان الدنيا اما أن تكون خاتمتها بخير أو بشر فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر (أجيب) بأن الله تعالى قد وضع الدنيا مجازا الى الآخرة وأراد بعباده أن لا يعملوا فيها الا الخير وما خلقهم الا لأجله ليبلغوا خاتمة الخير وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها لانها من نتائج تحويف الفجار وقرأ حمزة والكسائى بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث * ثم علل ذلك بما أجرى الله تعالى به عادته فقال معلما بأن المخذول هو الكاذب اشارة الى أنه الغالب لكون الله تعالى معه مؤكدا لما استقر فى الانفس من أن القوى لا يغلبه الضعيف (انه لا يفلح) أى لا يظفر ولا يفوز (الظالمون) أى الكافرون الذين يمشون كما يمشى من هو فى الظلام بغير دليل (وقال فرعون) جوابا لهذا الترغيب والترهيب (يا أيها الملأ) أى الاشراف معظما لهم استجلابا لقلوبهم (ما علمت لكم من اله غيرى) فتضمن كلامه نفى الهية غيره واثبات الهية نفسه فكأنه قال ما لكم من اله الا أنا كما قال الله تعالى قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض أى بما ليس فيهن وذلك ان العلم تابع للموجود لا يتعلق به الا على ما هو عليه فاذا كان الشئ معدوما لم يتعلق به موجودا فمن ثم كان انتفاء العلم بوجوده انتفاء لوجوده فعبر عن انتفاء وجوده بانتفاء العلم بوجوده ويجوز أن يكون على ظاهره وأن الهاغيره معلوم عنده ولكنه مظنون بدليل قوله وانى لاظنه من الكاذبين واذا ظنه كاذبا فى اثباته الها غيره ولم يعلمه كاذبا فقد ظن ان فى الوجود الها غيره ولو لم يكن المخذول ظانا ظنا كاليقين بل عالما بصحة قول موسى لقول موسى عليه السلام له لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر

قوله ولو لم يكن المخذول الخ لم يذكر جواب لو على ما فى النسخ التى بأيدينا وقد ذكره الكشاف بقوله لما تكاثف ذلك البنيان العظيم فراجعه اهـ مصححه

*ثم تسبب عن جهله قوله لوزيره معلما له صنعة الآجر لانه أول من عمله قال عمر رضي الله تعالى
عنه حين سافر الى الشأم ورأى القصور المشيدة بالآجر ما علمت ان أحدا بنى بالآجر غير فرعون
(فأوقد لي) وأضاف الايقاد اليه اعلاما بأنه لا بد منه (يا هامان) وهو وزيره (على الطين) أى
المتخذ لبنا ليصير آجرا ثم تسبب عن الايقاد قوله (فاجعل لي) أى منه (صرحا) أى قصرا عاليا
وقيل منارة وقال الزجاج هو كل بناء متسع مرتفع (لعلي أطلع) أى أتكلف الطلوع (الى
اله موسى) اى الذى يدعوا اليه فانه ليس فى الارض أحد بهذا الوصف الذى ذكره فأنا أطلبه
فى السماء موهما لهم انه مما يمكن الوصول اليه وهو قاطع بخلاف ذلك ولكنه يقصد المدافعة
من وقت الى وقت قال أهل السير لما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع العمال والفعلة
حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الاتباع والاجراء ومن يطبخ الآجر والجص وينجر الخشب
ويضرب المسامير فرفعوه وشيدوه حتى ارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان أحد من الخلق أراد الله
تعالى أن يفتنهم فيه فلما فرغوا منه ارتقى فرعون فوقه فأمر بنشابة فضرب بها نحو السماء فردت
اليه وهي ملطخة دما فقال قد قتلت اله موسى وكان فرعون يصعد على البراذين فبعث الله تعالى
جبريل عليه السلام فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع فوقع منها قطعة على عسكر
فرعون فقتلت منهم ألف ألف رجل ووقعت قطعة فى البحر وقطعة فى المغرب ولم يبق أحد ممن
عمل فيه بشئ الا هلك ثم زادهم شكا بقوله مؤكدا لاجل رفع ما استقر فى الانفس من صدق موسى
عليه السلام (وانى لاظنه) أى موسى عليه السلام (من الكاذبين) أى دأبه ذلك وفرعون هو
الذى قد لبس وكذب ووصف أصدق أهل ذلك الزمان بصفة نفسه الغريقة فى العدوان
(واستكبر) اى أوجد الكبر بغاية الرغبة فيه (هو) بقوله هذا الذى صدهم به عن السبيل
(وجنوده) باعراضهم لشدة رغبتهم فى الكبر على الحق والاتباع للباطل (فى الارض) أى أرض
مصر قال البقاعي ولعله عرفها اشارة الى أنه لو قدر على ذلك فى غيرها فعل (بغير الحق) أى بغير
استحقاق قال البقاعي والتعبير بالتعريف يدل على أن التعظيم بنوع من الحق ليس بكبر وان
كانت صورته كذلك وأما تكبره سبحانه فهو بالحق كله قال صلى الله عليه وسلم فيما حكاه عن ربه
الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني واحدا منهما القيته فى النار (وظنوا) اى فرعون
وجنوده ظنا بنوا عليه اعتقادهم فى أصل الدين الذى لا يكون الا بقاطع (أنهم الينا) أى الى
حكمنا خاصة الذى يظهر عند انقطاع الاسباب (لا يرجعون) بالنشور وقرأ نافع وحمزة والكسائي
بفتح الياء وكسر الجيم والباقون بضم الياء وفتح الجيم *ولما تسبب عن ذلك اهلاكهم قال تعالى
(فأخذناه وجنوده) كلهم أخذ قهر ونقمة وذلك علينا هين وأشار تعالى الى احتقارهم
بقوله تعالى (فنبذناهم) أى طرحناهم (فى اليم) أى البحر المالح فغرقوا فكانوا على
كثرتهم وقوتهم كحصيات صغار قذفها الرامي الشديد الذراع من يده فى البحر ونحو ذلك قوله
تعالى وألقينا فيها رواسي شامخات وقوله تعالى وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة
*ولما تسبب عن هذه الآيات من العلوم ما لا تحيط به الفهوم قال تعالى (فانظر) أى أيها

المعتبر بالآيات الناظر فيها نظر اعتبار (كيف كان عاقبة) أى آخر أمر (الظالمين) حيث صاروا الى الهلاك فحذر قومك عن مثلها وفى هذا اشارة الى أن كل ظالم تكون عاقبته هكذا ان صابره المظلوم المحق ورابطه حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين * ولما كان من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة قال الله تعالى (وجعلناهم) أى فى الدنيا (أئمة) أى قدوة للضلال بالحمل على الاضلال وقيل بالتسمية كقوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا أو بمنع الالطاف الصارفة عنه (يدعون) أى يوجدون الدعاء لمن اغتر بحالهم فضل بضلالهم (الى النار) أى الى موجباتها من الكفر والمعاصى وأما أئمة الحق فانما يدعون الى موجبات الجنة من فعل الطاعات والنهى عن المنكرات جعلنا الله تعالى وأحبابنا معهم بمحمد وآله * ولما كان الغالب من حال الائمة النصرة وقد أخبر عن خذلانهم فى الدنيا قال تعالى (ويوم القيامة) اى الذى هو يوم التغابن (لا ينصرون) أى لا يكون لهم نوع نصرة تدفع العذاب عنهم (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) أى طردا عن الرحمة ودعاء عليهم بذلك من كل من سمع خبرهم بلسانه ان خالفهم أو بفعله الذى يكون عليهم مثل وزره ان وافقهم وانما قال الله تعالى الدنيا ولم يقل الحياة قال البقاعى لان السياق لتحقير أمرهم ودناءة شأنهم (ويوم القيامة هم) أى خاصة ومن شاكلهم (من المقبوحين) أى المبعدين أيضا المخزيين مع قبح الوجوه والاشكال والشناعة فى الاقوال والافعال والاحوال من القبح الذى هو ضد الحسن من قولهم قبح الله العدو وأبعده عن كل خير وقال أبو عبيدة من المهلكين قال البقاعى فياليت شعرى أى صراحة بعد هذا فى أن فرعون عدو الله فى الآخرة كما كان عدو الله فى الدنيا فلعنة الله على من يقول انه مات مؤمنا وانه لا صراحة فى القرآن بأنه من أهل النار وعلى من يشك فى كفره بعد ما ارتكبه من جلى أمره انتهى وقد قدمت الكلام فى سورة يونس على قول فرعون وأنا من المسلمين * ثم انه تعالى أخبر عن أساس امامة بنى اسرائيل مقسما عليه مع الافتتاح بحرف التوقع بقوله (ولقد آتينا) أى بما لنا من الجلال والكمال (موسى الكتاب) أى التوراة الجامعة للهدى والخير فى الدارين قال أبو حيان وهو أول كتاب نزلت فيه الفرائض والاحكام (من بعد ما أهلكنا القرون الاولى) أى من قوم نوح الى قوم فرعون وقوله تعالى (بصائر للناس) حال من الكتاب جمع بصيرة وهى نور القلب أى أنوار القلوب فيبصر بها الحقائق ويميز بين الحق والباطل كما أن البصر نور العين الذى تبصر به (وهدى) أى للعامل بها الى كل خير (ورحمة) أى نعمة هنيئة شريفة لانها قائدة اليهما ولما ذكر حالها ذكر حالهم بعد انزالها بقوله تعالى (لعلهم يتذكرون) أى ليكون حالهم حال من يرجى تذكره * ثم ان الله تعالى خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وما كنت) أى يا أفضل الخلق (بجانب الغربى) قال قتادة بجانب الجبل الغربى وقال الكلبى بجانب الوادى الغربى أى الوادى من الطور الذى رأى موسى عليه السلام فيه النار وهو مما يلى البحر

من جهة الغرب على يمين المتوجه الى ناحية مكة المشرفة من ناحية مصر فناداه فيه العزيز الجبار وهو ذو طوى (إذ) أي حين (قضينا) أي أوحينا (الى موسى الامر) أي أمر الرسالة الى فرعون وقومه وما يريد أن يفعل من ذلك في أوله وأثنائه وآخره مجملا فكان كل ما أخبرنا به مطابقا تفصيله لاجماله (وما كنت) أي بوجه من الوجوه (من الشاهدين) لتفاصيل ذلك الامر الذي أجملناه لموسى عليه السلام حتى تخبر به كله على هذا الوجه الذي اتيناك به في هذه الاساليب المعجزة ولاشك أن معرفتك لذلك من قبيل الاخبار عن المغيبات التي لاتعرف الا بالوحي ولذلك استدرك عنه بقوله تعالى (ولكنا) أي بما لنا من العظمة (أنشأنا) بعدما أهلكنا أهل ذلك الزمان الذين علموا هذه الامور بالمشاهدة وهم السبعون المختارون للميقات أو بالاخبار كلهم (قرونا) أي أمما كثيرة بعد موسى عليه السلام (فتطاول) أي بمروره وعلوه (عليهم العمر) أي ولكنا أوحينا اليك أنا أنشأنا قرونا مختلفة بعد موسى عليه السلام فتطاولت عليهم المدد فنسوا العهود واندرست العلوم وانقطع الوحي فحذف المستدرك وهو أوحينا وأقام سببه وهو الانشاء مقامه على عادة الله تعالى في اختصاراته فهذا الاستدراك شبيه بالاستدراكين بعده (فان قيل) ما الفائدة في اعادة قوله تعالى وما كنت من الشاهدين بعد قوله وما كنت بجانب الغربي لانه ثبت بذلك أنه لم يكن شاهدا لان الشاهد لابد أن يكون حاضرا (أجيب) بأن ابن عباس قال التقدير لم تحضر ذلك الموضع ولو حضرت ما شاهدت تلك الوقائع فانه يجوز أن يكون هناك ولايشهد ولايرى وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائي بضم الهاء والميم وحمزة في الوقف بضم الهاء وسكون الميم والباقون في الوصل بكسر الهاء وضم الميم * ولما نفى العلم عن ذلك بطريق الشهود نفى سبب العلم بذلك بقوله تعالى (وما كنت ثاويا) أي مقيما اقامة طويلة مع الملازمة بدين (في أهل مدين) أي قوم شعيب عليه السلام كقيام موسى وشعيب فيهم (تتلو) أي تقرأ (عليهم) تعلما منهم (آياتنا) العظيمة التي منها قصتهما لتكون ممن يتهم بأمور الوحي ويتعرف دقيق أخباره فيكون خبرهم وخبر موسى عليه السلام معك (ولكنا كنا مرسلين) اياك رسولا وأنزلنا عليك كتابا فيه هذه الاخبار تتلوها عليهم ولولا ذلك ما علمتها ولم تخبرهم بها (وما كنت بجانب الطور) أي بناحية الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام (اذ) أي حين (نادينا) أي أوقعنا النداء لموسى عليه السلام فأعطيناه التوراة وأخبرناه بما لا عين الاطلاع عليه الامن قبلنا أو من قبله ومن المشهور أنك لم تطلع على شئ من ذلك من قبله لانك ما خالطت أحدا ممن حمل تلك الاخبار عن موسى عليه السلام ولا أحدا حملها عمن حملها عنه ولكن كان ذلك اليك منا وهو معنى قوله تعالى (ولكن) أي أنزلنا ما أردنا وأرسلناك به (رحمة من ربك) لك خصوصا وللخلق عموما وقيل اذ نادينا موسى خذ الكتاب بقوة وقال وهب قال موسى يارب أرني محمدا قال انك لن تصل الى ذلك وان شئت ناديت أمته وأسمعتك صوتهم قال بلى يارب فقال الله تعالى يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم وقال أبو زرعة نادى يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل ان تسألوني

وروى عن ابن عباس ورفعه بعضهم قال الله تعالى يا أمة محمد فاجابوه من أصلاب الآباء وأرحام الامهات لبيك اللهم لبيك ان الحمد لله والنعمة لك والملك لا شريك لك قال الله تعالى يا أمة محمد ان رحمتي سبقت غضبي وعفوي عقابي قد أعطيتكم قبل أن تسألوني وقد أجبتكم من قبل أن تدعوني وقد غفرت لكم من قبل أن تستغفروني من جاء يوم القيامة بشهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا عبدي ورسولي دخل الجنة وان كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر * (تنبيه) * قال البيضاوي لعل المراد به أي بقوله تعالى وما كنت بجانب الطور اذ نادينا وقت ما أعطينا التوراة وبالاول أي قوله تعالى وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا حيث استنبأناه لانهما المذكوران في القصة وقوله تعالى (لتنذر) أي لتحذر تحذيرا كثيرا (قوما) أي أهل قوة ونجدة ليس بهم عائق عن أعمال الخير العظيمة الا الاعراض عنك وهم العرب ومن في ذلك الزمان من الخلق يتعلق بالفعل المحذوف (ما أتاهم) وعم النفي بزيادة الجار في قوله تعالى (من نذير) وزيادة الجار في قوله تعالى (من قبلك) يدل على الزمن القريب وهو زمن الفترة بينه وبين عيسى عليهما الصلاة والسلام وهو خمسمائة وخمسون سنة ونحو هذا قوله تعالى لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم وقيل ليس المراد زمن الفترة بل ما بينه وبين اسمعيل عليهما السلام على أن دعوة موسى وعيسى كانت مختصة ببني اسرائيل وما حولهم (لعلهم يتذكرون) أي يتعظون (ولولا أن تصيبهم) أي في وقت من الاوقات (مصيبة) أي عظيمة (بما قدمت أيديهم) أي من المعاصي التي قضينا بأنها مما لا يعفى عنها (فيقولوا ربنا) أي أيها المحسن الينا (لولا) أي هلا ولم لا (أرسلت الينا) أي على وجه التشريف لنا لنكون على علم بأنا من يعتني الملك الاعلى به (رسولا) وأجاب التحضيض الذي شبهوه بالامر ليكون كل منهما باعثا على الفعل بقوله تعالى (فنتبع) أي فيتسبب عن ارسال رسولك ان نتبع (آياتك ونكون) أي كوناهو في غاية الرسوخ (من المؤمنين) أي المصدقين لك في كل ما أتى به عنك رسولك * (تنبيه) * لولا الاولى امتناعية وجوابها محذوف تقديره كما قال الزجاج ما أرسلنا اليهم رسولا يعني ان الحامل على ارسال الرسل ازاحة عللهم بهذا القول فهو كقوله تعالى لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل والثانية تحضيضية وتتبع جوابها كما مر فلذلك أضمر أن (فان قيل) كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هي السبب في الارسال لا القول لدخول حرف الامتناع عليها دونه (أجيب) بأن القول هو المقصود بأن يكون سببا للارسال ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها سبب للارسال بواسطة القول فأدخلت عليها لولا وجيء بالقول معطوفا عليها بالفاء المعطية معنى السببية ويؤل معناه الى قولك ولولا قولهم هذا اذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا ولكن اخترت هذه الطريقة لنكتة وهي أنهم لولم يعاقبوا مثلا على كفرهم وقد عاينوا ما الجئوا به الى العلم اليقيني ببطلان دينهم لم يقولوا لولا أرسلت الينا رسولا بل انما يقولون اذا نالهم العقاب وانما السبب في قولهم هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الايمان بخالقهم عز وجل

وفى هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم مالا يخفى وهو كقوله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه * ولما كان التقدير ولكنا أرسلناك بالحق لقطع حجتهم هذه بنى عليه (فلما جاءهم) أى أهل مكة (الحق) أى الذى هو أعم من الكتاب والسنة وما يقاس عليهما وهو فى نفسه جدير بأن يقبل لكونه فى الذروة العليا من الثبات فكيف وهو (من عندنا) على ما لنا من العظمة وهو على لسانك وأنت أعظم الخلق (قالوا) أى أهل الدعوة من العرب وغيرهم تعنتا وكفرا به (لولا) أى هلا ولم لا (أوتى) أى هذا الآتى بما يزعم أنه الحق من الآيات (مثل ما أوتى موسى) من الآيات كاليد البيضاء والعصا وغيرهما من كون الكتاب أنزل عليه جملة واحدة قال الله تعالى (أولم يكفروا) أى العرب ومن بلغته الدعوة من بنى اسرائيل ومن كان مثلهم فى البشرية والعقل فى زمن موسى (بما أوتى موسى) عليه السلام (من قبل) أى من قبل مجىء الحق على لسان محمد صلى الله عليه وسلم * ولما كان كأنه قد قيل ما كان كفرهم به قيل (قالوا) أى فرعون وقومه ومن كفر من بنى اسرائيل (ساحران) أى موسى وأخوه عليهما السلام (تظاهرا) أى أعان كل منهما صاحبه على سحره حتى صار سحرهما معجزا فغلبا جميع السحرة وتظاهر الساحرين من تظاهر السحرين على قراءة الكوفيين بكسر السين وسكون الحاء وقرأ الباقون بفتح السين وكسر الحاء وألف بينهما *(تنبيه)* يجوز أن يكون الضمير لمحمد وموسى عليهما الصلاة والسلام قال البقاعى وهو أقرب وذلك لانه روى أن قريشا جاءت الى اليهود فسألوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فأخبروهم أن نعته فى كتابهم فقالوا هذه المقالة فيكون الكلام استئنافا لجواب من كأنه قال ما كان كفرهم بهما فقيل قالوا أى العرب الرجلان ساحران أو الكتابان ساحران ظاهر أحدهما الآخر مع علم كل ذى لب أن هذا القول زيف لانه لو كان شرط اعجاز السحر التظاهر لكان سحر فرعون أعجز اعجاز لانه تظاهر عليه جميع سحرة بلاد مصر وعجزوا عن معارضة ما أظهر موسى عليه السلام من آياته كالعصا وأما محمد صلى الله عليه وسلم فقد دعا أهل الارض من الجن والانس الى معارضة كتابه وأخبرهم أنهم عاجزون ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فعجزوا عن آخرهم * ولما تضمن قولهم ذلك الكفر صرح به (وقالوا) أى كفار قريش (انا بكل) أى من الساحرين أو السحرين اللذين تظاهرا بهما وهما ما أتيا به من عند الله (كافرون) جراءة على الله تعالى وتكبرا على الحق ثم قال الله تعالى (قل) أى لهم الزاما ان كنتم صادقين فى انى ساحر وكتابى سحر وكذلك موسى عليه السلام (فأتوا بكتاب من عند الله) أى الملك العلى الاعلى (هو) أى الذى تأتون به (أهدى منهما) أى من الكتابين وقوله (أتبعه) أى وأتركهما جواب الامر وهو فأتوا (ان كنتم) أى أيها الكفار (صادقين) أى فى انا ساحران فأتوا بما ألزمتكم به قال البيضاوى وهذا من الشروط التى يراد بها الالزام والتبكيت ولعل مجىء حرف الشك للتهكم بهم (فان لم يستجيبوا لك) أى دعاءك الى الكتاب الاهدى فحذف المفعول

للعلم به ولان فعل الاستجابة يتعدى بنفسه الى الدعاء وباللام الى الداعى فاذا عدى اليه حذف الدعاء غالبا كقول القائل

وداع (أى ورب داع) دعا يا من يجيب الى الندا * فلم يستجبه عند ذاك مجيب

الشاهد فى يستجبه حيث عداه الى الداعى وحذف الدعاء والتقدير فلم يستجب دعاءه (فاعلم) أنت (أنما يتبعون) أى بغاية جهدهم فيما هم عليه من الكفر والتكذيب (أهواءهم) أى دائما وأكثر الهوى مخالف للهدى فهم ضالون غير مهتدين بل هم أضل الناس وذلك معنى قوله تعالى (ومن أضل ممن اتبع) أى بغاية جهده (هواه) أى لا أحد أضل منه فهو استفهام بمعنى النفى وقوله تعالى (بغير هدى من الله) فى موضع الحال للتوكيد والتقييد فان هوى النفس قد يوافق الهدى (ان الله لا يهدى القوم الظالمين) أى وان كانوا أقوى الناس لاتباعهم أهواءهم (ولقد وصلنا) قال ابن عباس بينا وقال الفراء أنزلنا آيات القرآن يتبع بعضها بعضا (لهم) أى خاصة فكان تخصيصهم بذلك منة عظيمة يجب عليهم شكرها (القول) أى القرآن قال مقاتل بينا لكفار مكة بما فى القرآن من أخبار الامم الخالية كيف عذبوا بتكذيبهم وقال ابن زيد وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة فى الدنيا (لعلهم يتذكرون) أى ليكون حالهم حال من يرجى لهم أن يرجعوا الى عقولهم فيجدوا فيما طبع فيها ما يذكرهم بالحق ثم كأنه قيل هل تذكر منهم أحد قيل نعم أهل الكتاب الذين هم أهله حقا تذكروا وذلك معنى قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله) أى قبل القرآن أو قبل محمد صلى الله عليه وسلم (هم به) أى بما تقدم (يؤمنون) أيضا نزل فى جماعة أسلموا من اليهود عبد الله بن سلام وأصحابه وقال مقاتل هم أهل الانجيل الذين قدموا من الحبشة وآمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم وقال سعيد بن جبير هم أربعون رجلا قدموا مع جعفر من الحبشة على النبى صلى الله عليه وسلم فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة قالوا يا نبى الله ان لنا أموالا فان أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا بها المسلمين فأذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين فنزل فيهم ذلك الى قوله تعالى ومما رزقناهم ينفقون وعن ابن عباس نزلت فى ثمانين من أهل الكتاب أربعون من نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشأم ثم وصفهم الله تعالى بقوله تعالى (واذا يتلى) أى تجدد تلاوة القرآن (عليهم قالوا) أى مبادرين لذلك (آمنا به) ثم عللوا ذلك بقولهم (انه الحق) أى الكامل الذى ليس وراءه الا الباطل مع كونه (من ربنا) أى المحسن الينا ثم عللوا مبادرتهم بقولهم (انا كنا من قبله) أى القرآن (مسلمين) أى منقادين غاية الانقياد مخلصين لله بالتوحيد ومؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم انه نبى حق (أولئك) أى العالو الرتبة (يؤتون أجرهم مرتين) أى لايمانهم به غيبا وشهادة أى بالكتاب الاول ثم بالكتاب الثانى (بما صبروا) أى بسبب صبرهم على دينهم وقال مجاهد نزلت فى قوم من أهل الكتاب أسلموا فأوذوا وعن أبى بردة عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم

وسلم قال ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها ورجل كان من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وعبد أحسن عبادة الله تعالى ونصح لسيده * ولما كان الصبر لا يتم الا بالاتصاف بالمحاسن والانخلاع من المساوى قال تعالى عاطفا على يؤمنون مشيرا الى تجديد هذه الافعال كل حين (ويدرؤن) أى يدفعون (بالحسنة) من الاقوال والافعال (السيئة) أى فيمحونها بها وقال ابن عباس يدفعون بشهادة أن لا اله الا الله الشرك وقال مقاتل يدفعون بما سمعوا من الاذى والشتم من المشركين أى بالصفح والعفو (ومما رزقناهم) أى بعظمتنا لا بحول منهم ولا قوة قليلا كان أو كثيرا (ينفقون) أى يتصدقون معتقدين فى الخلف على الذى رزقه * ولما ذكر الله أن السماح بما تضن النفوس به من فضول الاموال من امارات الايمان أتبعه أن خزن ما تبذله الانفس من فضول الاقوال من علامات العرفان بقوله تعالى (واذا سمعوا اللغو) أى ما لا ينفع فى دين ولا دنيا من شتم وتكذيب وتعيير ونحوه (أعرضوا عنه) تكرما عن الخنا وقيل اللغو القبيح من القول وذلك أن المشركين كانوا يسبون مؤمنى أهل الكتاب ويقولون لهم تبا لكم تركتم دينكم فيعرضون عنهم ولا يردون عليهم (وقالوا) وعظا وتسميعا للقائل (لنا) خاصة (أعمالنا) لا نثاب على شئ منها ولا تعاقبون (ولكم) أى خاصة (أعمالكم) لا نطالب بشئ منها فنحن لا نشتغل بالرد عليكم (سلام عليكم) متاركة لهم وتوديعا ودعاء لهم بالسلامة عما هم فيه لا سلام تحية واكرام ونظيره ذلك واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ثم أكد ذلك تعالى بقوله تعالى حاكيا عنهم (لا نبتغى) أى لا نكلف أنفسنا أن نطلب (الجاهلين) أى لا نريد شيأ من أموالهم وأقوالهم أو غير ذلك من خلالهم وقيل لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه قيل نسخ ذلك بالامر بالقتال وهو بعيد لان ترك المسافهة مندوب اليه وان كان القتال واجبا * ونزل فى حرصه صلى الله عليه وسلم على ايمان عمه أبى طالب (انك لا تهدى من أحببت) أى نفسه أو هدايته بخلق الايمان فى قلبه روى سعيد بن المسيب عن ابيه أنه قال لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فقال أى عم قل لا اله الا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل صلى الله عليه وسلم يعرضها ويصدانه بتلك الكلمة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا اله الا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لاستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك فأنزل الله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين وأنزل الله تعالى فى أبى طالب فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم انك لا تهدى من أحببت الآية وفى مسلم عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره بالتوحيد فقال له لولا أن تعيرنى قريش تقول انما حمله على ذلك الجزع لاقررت بها عينك فأنزل الله تعالى الآية وروى أن أبا طالب قال عند موته يا معشر بنى هاشم أطيعوا محمدا وصدقوه تفلحوا وترشدوا فقال النبى صلى الله عليه وسلم يا عم

تأمرهم بالنصيحة لانفسهم وتدعها لنفسك قال فما تريد يا ابن أخي قال أريد منك كلمة واحدة فانك في آخر يوم من أيام الدنيا تقول لا اله الا الله أشهد لك بها عند الله قال يا ابن أخي قد علمت انك صادق ولكني أكره أن يقال جزع عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة وسبة بعدي لقلتها ولاقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصيحتك ولكني سوف أموت على ملة الاشياخ عبد المطلب وعبد مناف (فان قيل) قال الله تعالى في هذه الآية انك لا تهدي من أحببت (ولكن الله يهدي من يشاء) وقال تعالى في آية أخرى وانك لتهدي الى صراط مستقيم (أجيب) بأنه لا تنافي بينهما فان الذي أثبته وأضافه اليه الدعوة والذي نفى عنه هداية التوفيق وشرح الصدور وهو نور يقذف في القلب فيحيا به القلب كما قال تعالى أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس (وهو أعلم) أي عالم (بالمهتدين) أي الذين قد هيأهم لتطلب الهدى عند خلقه لهم سواء كانوا من أهل الكتاب أم من العرب أقارب كانوا أم أباعد ثم حكى الله تعالى عن كفار قريش شبهة تتعلق بأحوال الدنيا بقوله تعالى (وقالوا ان نتبع الهدى) أي الاسلام فنوحد الله تعالى من غير اشراك (معك) وأنت على ما أنت عليه من مخالفة الناس (نتخطف) أي من أي خاطف أرادنا لانا صير قليلا في كثير من غير نصير (من أرضنا) كما تتخطف العصافير لمخالفة كافة العرب لنا وليس لنا نسبة الى كثرتهم ولا قوتهم فيسرعوا الينا فيتخطفونا أي يقصدون خطفنا واحدا واحدا فانه لا طاقة لنا على ادامة الاجتماع وأن لا يشذ بعضنا عن بعض قال المبرد والخطف الانتزاع بسرعة نزلت في الحرث بن نوفل بن عبد مناف قال للنبي صلى الله عليه وسلم انا لنعلم أن الذي تقوله حق ولكنا ان اتبعناك على دينك وخالفنا العرب بذلك وانما نحن أكلة رأس خفنا أن تخرجنا العرب من أرضنا مكة ثم رد الله تعالى عليهم هذه الشبهة وألقمهم الحجر بقوله تعالى (أولم نمكن) أي غاية التمكين (لهم) أي في أوطانهم ومحل سكناهم بمالنا من القدرة (حرما آمنا) أي ذا أمن يأمن فيه كل خائف حتى الطير من كواسرها والوحش من جوارحها حتى ان سيل الحل لا يدخل الحرم بل اذا وصل اليه عدل عنه وروى أن مكة كانت في الجاهلية لا يعرض بها ظلم ولا بغي ولا يبغي فيها أحد الا أخرجته وكان الرجل يلقى قاتل أبيه وابنه فيها فلا يهيجه ولا يتعرض له بسوء وروى الازرقي في تاريخ مكة عن حويطب بن عبد العزى قال كان في الكعبة حلق يدخل الخائف يده فيها فلا يريبه أحد فجاء خائف ليدخل يده فاجتذبه رجل فشلت يده فلقد رأيته في الاسلام وانه لاشل وعن ابن عباس قال أخذ رجل ذودا ابن عم له فأصابه في الحرم فقال ذودي فقال اللص كذبت قال فاحلف فحلف عند المقام فقام رب الذود بين الركن والمقام باسطا يديه يدعو فما برح مقامه يدعو حتى ذهب عقل اللص وجعل يصيح بمكة مالي ولفلان رب الذود فبلغ ذلك عبد المطلب فجمع الذود ودفعه الى المظلوم فخرج به وبقي الآخر حتى وقع من جبل فتردى فأكلته السباع وعن ابن جريج ان غير قريش من العرب

كانوا

كانوا يطوفون بالبيت عراة الا ان أعارتهم قريش ثيابا فجاءت امرأة لها جمال فطافت عريانة فرآها رجل فأعجبته فدخل فطاف الى جنبها فادنى عضده من عضدها فالتزقت عضده بعضدها فخرجا من المسجد هاربين فزعين على وجوههما لما أصابهما من العقوبة فلقيهما شيخ من قريش فأفتاهما أن يعودا الى المكان الذي أصابا فيه الذنب فيدعوان و يخلصان أن لا يعودا فعادا ودعوا وأخلصا النية فافترقت أعضادهما فذهب كل واحد منهما فى ناحية وعن عبد العزيز بن رواد ان قوما انتهوا الى ذى طوى فاذا ظبى قد دنا منهم فأخذ رجل منهم بقائمة من قوائمه فقال له أصحابه ويحك أرسله فجعل يضحك وأبى أن يرسله فبعر الظبى وبال ثم أرسله فناموا فى القائلة ثم انتبهوا فاذا بحية منطوقة على بطن الرجل الذى أخذ الظبى فلم تنزل الحية عنه حتى كان منه من الحدث مثل ما كان من الظبى وعن مجاهد قال دخل قوم مكة تجارا من الشام فى الجاهلية فنزلوا ذا طوى فاختبزوا ملة لهم ولم يكن معهم ادام فرمى رجل منهم ظبية من ظباء الحرم وهى حولهم ترعى فقاموا اليها فسلخوها وطبخوها ليأتدموا بها فبينما قدرهم على النار يغلى بهم اذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة فأحرقت القوم جميعا ولم تحرق ثيابهم ولا أمتعتهم وعن أيوب بن موسى ان امرأة فى الجاهلية كان معها ابن عم لها صغير فقالت له يا بنى انى أغيب عنك وانى أخاف أن يظلمك أحد فان جاءك ظالم بعدى فان لله بمكة بيتا سيمنعك فجاءه رجل فذهب به فاسترقه فلما رأى الغلام البيت عرفه بالصفة فنزل يشتد حتى تعلق بالبيت فجاءه سيده فمد يده اليه ليأخذه فيبست يده فمد الاخرى فيبست فاستفتى فأفتى أن ينحر عن كل واحدة من يديه بدنة ففعل فأطلقت يداه وترك الغلام وخلى سبيله وعن أبى ربيع ابن سالم الكلاعى أن رجلا من كنانة بن هذيل ظلم ابن عم له فخوفه بالدعاء فى الحرم فقال هذه ناقتى فلانة اركبها فاذهب اليه فاجتهد فى الدعاء فى الحرم فجاء فى الحرم فى الشهر الحرام فقال اللهم انى أدعوك جاهدا مضطرا على ابن عمى فلان ترميه بداء لا دواء له ثم انصرف فوجد ابن عمه قد رمى فى بطنه فصار مثل الزق فما زال ينتفخ حتى انشق وعن عمر رضى الله عنه انه سأل رجلا من بنى سليم عن ذهاب بصره فقال يا أمير المؤمنين كنا بنى ضبعاء عشرة وكان لنا ابن عم فكنا نظلمه فكان يذكرنا الله والرحم فلما رأى أن لا ننكف عنه انتهى الى الحرم فى الاشهر الحرم فجعل يرفع يديه ويقول

لاهمّ أدعوك دعاء جاهدا ✱ اقتل بنى ضبعاء الا واحدا
ثم اضرب الرجل ودعه قاعدا ✱ أعمى اذا قيد يعى القائدا

قال فمات اخوتى التسعة فى تسعة أشهر فى كل شهر واحد و بقيت أنا فعميت ورمانى الله عز وجل فى رجلى فليس يلائمنى قائد فقال عمر رضى الله تعالى عنه جعل الله هذا فى الجاهلية اذ لا دين حرمة حرمها وشرفها ليرجع الناس عن انتهاك ما حرم مخافة تعجيل العقوبة فلما جاء الدين صار التوعد للساعة ويستجيب الله تعالى لمن يشاء فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين وانما أكثرت من هذه الحكايات ليكون الداخل للحرم على حذر فان الله تعالى حماه ومكن أهله فى الحرم الذى

امنه بحرمة البيت وامن قطانه بحرمته وكانت العرب فى الجاهلية حولهم يتغاورون ويتناجدون وهم آمنون فى حرمهم لا يخافون وبحرمة البيت هم قارّون بواد غير ذى زرع والثمرات والارزاق تجبى اليهم كما قال تعالى (يجبى) أى يجمع ويحمل (اليه) أى خاصة دون غيره من جزيرة العرب (ثمرات كل شئ) من النبات الذى بأرض العرب من ثمر البلاد الحارة كالبسر والرطب والنبق والباردة كالعنب والتفاح والرمان والخوخ فاذا خولهم الله تعالى ما خولهم من الامن والرزق بحرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أصنام فكيف يستقيم أن يعرّضهم للخوف والتخطف ويسلبهم الامن اذا ضموا الى حرمة البيت حرمة الاسلام واسناد الامن الى أهل الحرم حقيقة والى الحرم مجاز *(تنبيه)* معنى الكلية هنا الكثرة كقوله تعالى وأوتيت من كل شئ ولكن فى تعبيره بالمضارع وما بعده اشارة الى الاستمرار وانه يأتى اليه بعد ذلك من كل ما فى الارض من المال ما لم يخطر لاحد منهم فى بال وقرأ نافع بالتاء الفوقية والباقون بالياء التحتية وأمال حمزة والكسائى محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح ثم انه تعالى بين ان الرزق من عنده بقوله تعالى (رزقا من لدنا) أى فلا صنع لاحد فيه بل هو محض تفضل *(تنبيه)* انتصاب رزقا على المصدر من معنى يجبى أو الحال من ثمرات لتخصيصها بالاضافة كما تنتصب عن النكرة المخصصة وان جعلته اسما للمرزوق انتصب على الحال من ثمرات (ولكن أكثرهم) أى أهل مكة وغيرهم ممن لا هداية له (لا يعلمون) أى ليس لهم قابلية للعلم حتى يعلموا انا نحن الفاعلون لذلك بل هم جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا وقيل انه متعلق بقوله تعالى من لدنا أى قليل منهم يتدبرون فيعلمون ان ذلك رزق من عند الله اذ لو علموا لما خافوا غيره ثم بين تعالى ان الامر بالعكس فانهم أحقاء بأن يخافوا من بأس الله تعالى على ما هم عليه بقوله تعالى (وكم أهلكنا من قرية) أى من أهل قرية وأشار الى سبب الاهلاك بقوله تعالى (بطرت معيشتها) أى وقع منها البطر فى زمن عيشها الرخى الواسع فكان حالهم كحالكم فى الامن وادرار الرزق فلما بطروا معيشتهم أهلكناهم ومعنى بطرهم لها قال عطاء انهم أكلوا رزق الله وعبدوا غيره وقيل البطر سوء احتمال الغنى وهو ان لا يحفظ حق الله تعالى فيه *(تنبيه)* انتصاب معيشتها اما بحذف الجار واتصال الفعل كما فى قوله تعالى واختار موسى قومه أو بتقدير حذف ظرف الزمان وأصله بطرت أيام معيشتها واما بتضمين بطرت معنى كفرت أو خسرت أو على التمييز أو على التشبيه بالمفعول به وهو قريب من سفه نفسه (فتلك مساكنهم) خاوية (لم تسكن من بعدهم) بعد ان طال ما تعالوا فيها وعقودها وزخرفوها وزهوا فيها الابكار وفرحوا بالاعمال الكبار (الا) سكونا (قليلا) قال ابن عباس لم يسكنها الا المسافرون ومارّ والطريق يوما أو ساعة من ليل أو نهار ثم تصير يبابا موحشة كالقفار بعد ان كانت متنعمة الفناء ببيض الصفاح وسمر القنا قال الزمخشرى ويحتمل ان شؤم معاصى المهلكين بقى أثره فى ديارهم فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها الا قليلا (وكنا) أى ازلا

وابدا (نحن) لاغيرنا (الوارثين) منهم اذلم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم وسائر متصرفاتهم قال القائل

تخلف الآثار عن أصحابها * حينا ويدركها الفناء فتتبع

(وما كان ربك) أي المحسن اليك بالاحسان بارسالك الى الناس (مهلك القرى) أي هذا الجنس كله بجرم وان عظم (حتى يبعث في أمها) أي اعظمها وأشرفها (رسولا) لان غيرها تبع لها ولم يشترط كونه من أمها فقد كان عيسى عليه السلام من الناصرة وبعث الى بيت المقدس (يتلوا عليهم) أي أهل القرى كلهم (آياتنا) الدالة على ما ينبغي لنا من الحكمة وعما لها من الاعجاز على نفوذ الكلمة وباهر العظمة الزاما للحجة وقطعا للمعذرة لئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا ولذلك لما أردنا عموم الخلق بالرسالة جعلنا الرسول وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء من أم القرى كلها وهي مكة البلد الحرام (وما كنا مهلكي القرى) أي كلها بعد الارسال (الا وأهلها ظالمون) أي غريقون في الظلم بالعصيان بترك ثمرات الايمان وتكذيب الرسل (وما أوتيتم من شئ) أي من أسباب الدنيا (فمتاع) أي فهو متاع (الحياة الدنيا) تتمتعون بها أيام حياتكم وليس يعود نفعه الى غيرها فهو آيل الى فساد وان طال زمن التمتع به (وزينتها) أي فهو زينة الحياة الدنيا التي هي كلها فضلا عن زينتها الى فناء فليست هي ولا شئ منها بأزلى ولا أبدى (وما عند الله) أي الملك الاعلى وهو ما لا عين رأت ولا اذن سمعت (خير) على تقدير مشاركة ما في الدنيا له فالخيرية في ظنكم لان الذي عنده اطيب واكثر واشهى وازهى (و) هو مع ذلك كله (ابقى) لانه وان شارك متاع الدنيا في انه لم يكن ازليا فهو ابدى وهذا جواب عن شبههم فانهم قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى ان ذلك خطأ عظيم لان ما عند الله خير وابقى من وجهين الاول ان المنافع هنالك اعظم والثاني انها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر وأما انها ابقى فلانها دائمة غير منقطعة ومن قابل المتناهي بغير المتناهي كان عدما فظهر بهذا ان منافع الدنيا لا نسبة لها الى منافع الآخرة فلا جرم نبه على ذلك بقوله تعالى (أفلا يعقلون) ان الباقي خير من الفاني فيستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير فمن لم يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا فانه يكون خارجا عن حد العقل قال ابن عادل ورحم الله الشافعي حيث قال من أوصى بثلث ماله لاعقل الناس صرف ذلك الثلث الى المشتغلين بطاعة الله تعالى لان أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم الا المشتغلون بالطاعة فكانه رحمه الله تعالى انما أخذه من هذه الآية انتهى وقرأ أبو عمرو بالياء وهو أبلغ في الموعظة لاشتماله على الالتفات للاعراض به عن خطابهم والباقون بالتاء على الخطاب جريا على ما تقدم (أفمن وعدناه) على عظمتنا في الغنى والقدرة والصدق (وعدا حسنا) لاشئ أحسن منه في موافقته للامنية وبقائه وهو الجنة فان حسن الوعد بحسن الموعود ولذلك سمى الله تعالى الجنة بالحسنى (فهو لاقيه) أي مدركه لامتناع الخلف في وعده ولذلك عطفه بالفاء المعطية معنى السببية (كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) أي الذي هو

مشوب بالآلام مكدر بالمتاعب مستعقب للحسرة على الانقطاع وعن ابن عباس أن الله تعالى خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف المؤمن والمنافق والكافر فالمؤمن يتزود والمنافق يتزين والكافر يتمتع (ثم هو) مع ذلك كله (يوم القيامة) الذي هو يوم التغابن من خسر فيه لم يربح أصلا (من المحضرين) أي المقهورين على الحضور الى مكان يود لو افتدى منه بملء الارض ذهبا لم يقبل منه قال قتادة يحضره المؤمن والكافر وقال مجاهد نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل وقال محمد بن كعب نزلت في حمزة وعلي وفي أبي جهل وقال السدي نزلت في عمار والوليد بن المغيرة * (تنبيه) * ثم للتراخي حال الاحضار عن حال التمتع في الزمان أو الرتبة وقرأ ثم هو قالون والكسائي بسكون الهاء والباقون بالضم (ويوم) أي واذكر يوم (يناديهم) أي ينادي الله هؤلاء الذين يضلون الناس ويصدون عن سبيل الله (فيقول) أي الله تعالى (أين شركائي) من الاوثان وغيرهم ثم بين أنهم لا يستحقون هذا الاسم بقوله تعالى (الذين كنتم) أي كونا غير يقين فيه (تزعمون) أنها تشفع ليدفعوا عنكم وعن أنفسهم فيخلصكم من هذا الذي نزل بكم * (تنبيه) * تزعمون مفعولاه محذوفان أي تزعمونهم شركائي (قال الذين حق) أي ثبت ووجب (عليهم القول) أي بدخول النار وهم رؤس الضلالة وهو قوله تعالى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وغيره من آيات الوعيد وقولهم (ربنا هؤلاء) اشارة للاتباع (الذين أغوينا) أي أوقعنا الاغواء وهو الاضلال بهم صفته والعائد حذف وقولهم (أغويناهم) أي فغووا باختيارهم (كما غوينا) أي نحن فهؤلاء مبتدأ والذين أغوينا صفته والراجع الى الموصول محذوف وأغويناهم الخبر والكاف صفة مصدر محذوف تقديره أغويناهم فغووا غيا مثل ما غوينا يعنون انا لم نغو الا باختيارنا لا أن فوقنا مغوين أغوونا بقسرهم والجاؤا ودعونا الى الغي وسولوه لنا فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم لأن اغواءنا لهم لم يكن الا وسوسة وتسويلا لا قسرا والجاء فلا فرق اذا بين غينا وغيهم وان كان تسويلنا لهم داعيا الى الكفر فقد كان في مقابلته دعاء الله تعالى لهم الى الايمان بما وضع فيهم من أدلة العقل وبما بعث اليهم من الرسل وأنزل اليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر وناهيك بذلك صارفا عن الكفر وداعيا الى الايمان وهذا معنى ما حكاه الله تعالى عن الشيطان ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم * (تنبيه) * اعترض أبو علي على الزمخشري في هذا الاعراب بأن الخبر ليس فيه زيادة فائدة على ما في صفته فان قلت قد وصل الخبر بقوله كما غوينا وفيه زيادة قلت الزيادة بالظرف لا تصيره أصلا في الجملة لان الظروف فضلات ثم انه أعرب هو هؤلاء مبتدا والذين أغوينا خبره وأغويناهم مستأنف وأجاب أبو البقاء وغيره بأن الظروف قد تلزم كقولك زيد عمرو قائم في داره ثم أشاروا بقولهم (تبرأنا اليك) أي من أمورهم الى أنه لا لوم علينا في الحقيقة بسببهم فهو تقرير للجملة الاولى ولهذا خلت عن العاطف وعلى تقدير اغوائنا لهم (ما كانوا ايانا) اى خاصة (يعبدون) بل كانوا يعبدون الاوثان بما زينت لهم أهواؤهم وان كان لنا فيه نوع دعاء اليه وحث

عليه فأقل ما يريد أن يوزع العذاب على من كان سببا في ذلك وقيل ما مصدرية متصلة بتبرأنا أي تبرأنا من عبادتهم إيانا * ولما لم يلتفت إلى هذا الكلام منهم بل عده عدما لأنه لا طائل تحته أشار إلى الاعراض عنه لأنه لا يستحق جوابا كما قيل رب قول جوابه السكوت بقوله تعالى (وقيل) أي ثانيا للاتباع تهكما بهم واظهارا لعجزهم الملزوم لتحيرهم وعظم تأسفهم وذكر ذلك بصيغة المجهول للاستهانة بهم وأنهم من الذل والصغار بحيث يجيبون كل آمر كائنا من كان (ادعوا) أي كلكم (شركاءكم) أي الذين ادعيتم جهلا شركتهم ليدفعوا عنكم العذاب (فدعوهم) تعللا بما لا يغني وتمسكا بما يتحقق أنه لا يجدي لفرط الغباوة واستيلاء الحيرة والدهشة (فلم يستجيبوا لهم) أي لم يجيبوهم لعجزهم عن الاجابة والنصرة قال ابن عادل والأقرب أن هذا على سبيل التقريع لأنهم يعلمون أنه لا فائدة في دعائهم (ورأوا) أي هم (العذاب) عالمين بأنه موافقهم لا منزع له عنهم فكان الحال حينئذ مقتضيا لأن يقال من كل من يراهم (لو أنهم كانوا يهتدون) أي تحصل منهم هداية ساعة من الدهر تأسفا على أمرهم وتمنيا لخلاصهم ولو أن ذلك كان في طاقتهم وجواب لو محذوف أي لنجوا من العذاب ولما رأوه أصلا قال الضحاك ومقاتل يعني المتبوع والتابع يرون العذاب ولو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما أبصروه في الآخرة (ويوم يناديهم) أي الله تعالى وهم بحيث يسمعهم الداعي وينفذهم البصر قد برزوا لله جميعا من كان منهم عاصيا ومن كان منهم مطيعا في صعيد واحد قد أخذ بأنفاسهم الزحام وتراكب الأقدام على الأقدام وألجمهم العرق وعمهم الغرق (فيقول ماذا) أي أوضحوا وعينوا جوابكم الذي (أجبتم المرسلين) إليكم * (تنبيه) * ويوم معطوف على الأول فإنه تعالى يسأل عن إشراكهم به ثم تكذيبهم الأنبياء ولما لم يكن لهم قدم صدق ولا سابق حق بما أتتهم الرسل به من الحجج لم يكن لهم جواب إلا السكوت وهو المراد بقوله تعالى (فعميت) أي خفيت وأظلمت (عليهم الأنباء) أي الأخبار المنجية (يومئذ) التي هي من العظمة بحيث يحق لها في ذلك اليوم أن تذكر * (تنبيه) * الأصل فعموا عن الأنباء لكنه عكس مبالغة ودلالة على أن ما يحضر الذهن إنما يفيض ويرد عليه من خارج وإذا أخطأه لم يكن له حيلة إلى استحضاره وإذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام في ذلك اليوم يفوضون إلى علم الله تعالى فما ظنك بالضلال فلهذا قال تعالى (فهم لا يتساءلون) أي لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب لفرط الدهشة أو للعلم بأنه مثله هذا حال من أصر على كفره (فأما من تاب) عنه وقوله تعالى (وآمن) تصريح بما علم التزاما فإن الكفر والإيمان ضدان لا يمكن ترك أحدهما إلا بأخذ الآخر وقوله تعالى (وعمل صالحا) لأجل أن يكون مصدقا لدعواه باللسان (فعسى) إذا فعل ذلك (أن يكون من المفلحين) عند الله وعسى تحقيق على عادة الكرام أو ترج من التائب بمعنى فليتوقع أن يفلح * ولما كان كأنه قيل ما لأهل القسم الأول لا يتوخون النجاة من ضيق ذلك البلاء إلى رحب هذا الرجاء وكان الجواب ربك منعهم من ذلك وماله لم يقطع لهذا القسم بالفلاح كما قطع لأهل القسم الأول بالشقاء كان الجواب (وربك يخلق ما يشاء ويختار) لا موجب عليه ولا مانع له (ما كان لهم الخيرة) أي أن يفعلوا

يفعل لهم كل ما يختارونه * (تنبيه) * الخيرة بمعنى التخير كالطيرة بمعنى التطير وظاهره نفي الاختيار عنهم رأسا قال البيضاوي والامر كذلك عند التحقيق فان اختيار العبد مخلوق منوط بدواع لا اختيار لهم فيها وقال الرازي في اللوامع وفيه دليل على أن العبد في اختياره غير مختار فلهذا أهل الرضا حطوا الرحال بين يدي ربهم وسلموا الامور اليه بصفاء التفويض يعني فان أمرهم أونهاهم بادروا وان أصابهم سهام المصائب العظام صابروا وان أعزهم أعزوا انفسهم وأكرموا وان أذلهم رضوا وسلموا فلا يرضيهم الا ما يرضيه ولا يريدون الا ما يريده فيمضيه قال القائل

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي * متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيذة * حبا لذكرك فليلمني اللوم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغرا * ما من يهون عليك ممن يكرم

وقيل ما موصولة مفعول ليختار والراجع محذوف والمعنى ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة أي الخير والصلاح (سبحان الله) تنزيها له ان يزاحمه أحد أو ينازع اختياره (وتعالى) أي علا علوا لا تبلغ العقول توجيه كنهه مداه (عما يشركون) أي عن اشراكهم أو مشاركة ما يشاركونه به * ولما كانت القدرة لا تتم الا بالعلم قال تعالى (وربك) أي المحسن اليك المتولي أمر تربيتك (يعلم ما تكن) أي تخفي وتستر (صدورهم) من كونهم يؤمنون على تقدير أن تأتيهم آيات مثل آيات موسى عليه السلام أو لا يؤمنون ومن كون ما أظهر من أظهر الايمان بلسانه خالصا أو مشوبا ومن كونهم يخفون عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم (وما يعلنون) أي يظهرون من ذلك كل ذلك لديه سواء فلا يكون لهم مراد الا بخلقه (فان قيل) هلا اكتفي بقوله تعالى ما تكن صدورهم عن قوله وما يعلنون (أجيب) بأن علم الخفي لا يستلزم علم الجلي اما لبعد أو لغط او اختلاط أصوات يمنع تمييز بعضه عن بعض أو غير ذلك * ولما كان علمه تعالى بذلك انما هو لكونه الها واحدا فردا صمدا وكان غيره لا يعلم من علمه الا ما علمه قال تعالى (وهو الله) أي المستأثر بالالهية الذي لا سمي له الذي لا يحيط الواصفون بكنه عظمته ثم شرح معنى الاسم الاعظم بقوله تعالى (لا اله الا هو) وهذا تنبيه على كونه قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات منزها عن النقائص والآفات ثم علل ذلك بقوله تعالى (له) أي وحده (الحمد) أي الاحاطة بأوصاف الكمال (في الاولى والآخرة) لانه المولي للنعم كلها عاجلها وآجلها يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمدوه في الدنيا (فان قيل) الحمد في الدنيا ظاهر فما الحمد في الآخرة (أجيب) بأنهم يحمدونه بقولهم الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن الحمد لله الذي صدقنا وعده وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين والتحميد هناك على وجه اللذة لا الكلفة وفي الحديث يلهمون التسبيح والتقديس (وله الحكم) أي القضاء النافذ في كل شئ وقال ابن عباس حكم لاهل الطاعة بالمغفرة ولاهل المعصية بالشقاء (واليه) لا الى غيره (ترجعون) أي بأيسر أمر يوم النفخ في الصور لبعثرة ما في القبور بالبعث والنشور مع أنكم الآن راجعون في جميع أحكامكم اليه ومقصورون عليه ان شاء امضاها وان أراد ردها ولولاها في الآية غاية التقوية لقلوب

المطيعين

المطيعين ونهاية الزجر والردع للمتمردين ثم بين سبحانه وتعالى بعض ما يجب أن يحمد عليه مما لا يقدر عليه سواه بقوله تعالى (قل) أي يا أفضل الخلق لاهل مكة (أرأيتم) أي أخبروني (ان جعل الله) أي الملك الاعلى (عليكم الليل) أي الذي به اعتدال حر النهار (سرمدا) أي دائما (الى يوم القيامة) لانها رمعه (من اله غير الله) أي العظيم الشأن الذي لا كفء له (يأتيكم بضياء) أي بنهار تطلبون فيه المعيشة (أفلا تسمعون) أي ما يقال لكم سماع اصغاء وتدبر (قل أرأيتم ان جعل الله) أي الذي له الامر كله (عليكم النهار) أي الذي توازن حرارته برطوبة الليل فيتم بها صلاح النبات وغير ذلك من جميع المقدرات (سرمدا) أي دائما (الى يوم القيامة) لا ليل فيه (من اله غير الله) أي الجليل الذي ليس له مثل (يأتيكم بليل) أي ينشأ منه ظلام (تسكنون فيه) استراحة عن متاعب الاشغال (فان قيل) هلا قيل بنهار تتصرفون فيه كما قيل بليل تسكنون فيه (أجيب) بأنه تعالى ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لان المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعايش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثم قرن بالضياء أفلا تسمعون لان السمع يدرك ما لا يدرك البصر من ذلك منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل (أفلا تبصرون) لان غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون قال البقاعي فالآية من الاحتباك ذكر الضياء أولا دليلا على حذف الظلام ثانيا والليل والسكون ثانيا دليلا على حذف النهار والانتشار أولا ولما كان التقدير ومن رحمته جعل لكم السمع والابصار لتتدبروا آياته وتبصروا في مصنوعاته عطف عليه (ومن رحمته) أي التي وسعت كل شئ لا من غيرها من خوف أو رجاء أو تعلق غرض من الاغراض (جعل لكم الليل والنهار) آيتين عظيمتين دبر فيهما وبهما جميع مصالحكم فجعل آية الليل (لتسكنوا فيه) فلا تسعوا فيه لمعاشكم (و) جعل آية النهار مبصرة (لتبتغوا من فضله) بأن تسعوا في معاشكم بجهدكم قال البقاعي فالآية من الاحتباك ذكر أولا السكون دليلا على حذف السعي في المعاش ثانيا وذكر الابتغاء من فضله ثانيا دليلا على حذف عدم السعي في المعاش أولا (ولعلكم تشكرون) أي وليكون حالكم حال من يرجى منه الشكر لما يتجدد لكم من تقلبهما من النعم المتوالية التي لا يحصرها الا خالقها وأما الآخرة فلما كانت غير مبنية على الاسباب وكانت الجنة لا تعب فيها بوجه كان لا حاجة فيها الليل (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون) تقريع بعد تقريع للاشعار بأنه لا شئ أجلب لغضب الله تعالى من الاشراك به كما أنه لا شئ أدخل في مرضاته من توحيده اللهم فكما أدخلتنا في أهل توحيدك فأدخلنا في الناجين من وعيدك ومتعنا بالنظر الى وجهك الكريم يا أرحم الراحمين ويحتمل أن يكون الاول لتقرير فساد رأيهم والثاني لبيان أنه لم يكن عن سند وانما كان محض تشه وهوى أو أنه ذكر الثاني كما قال الجلال المحلي ليبني عليه (ونزعنا) أي أخرجنا وأفردنا بقوة وسطوة (من كل أمة شهيدا) أي وهو رسولهم يشهد عليهم بما قالوه (فقلنا) أي فتسبب عن ذلك ان قلنا للامم (هاتوا برهانكم) أي دليلكم القطعي الذي زعمتم في الدنيا اليه وعولتم في شرككم عليه كما هو شأن ذوي العقول انهم لا يبنون شيأ على غير أساس (فعلموا) أي بسبب هذا

السؤال لما اضطروا ولم يجدوا لهم سندا (ان الحق) في الالهية (لله) أي الملك الذي له الامر كله لا يشاركه فيه أحد (وضل عنهم) أي غاب غيبة الضائع (ما كانوا يفترون) أي يقولونه قول الكاذب المتعمد للكذب لكونه لا دليل عليه ولا شبهة للغلط فيه (ان قارون) ويسمى في التوراة تورح (كان من قوم موسى) قال أكثر المفسرين كان ابن عمه لان قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وموسى عليه السلام ابن عمران بن قاهث بن لاوى وقال ابن اسحق كان قارون عم موسى فكان أخا عمران وهما ابنا يصهر ولم يكن في بني اسرائيل اقرأ للتوراة من قارون ولكنه نافق كما نافق السامرى وكان يسمى النور لحسن صورته وعن ابن عباس كان ابن خالته (فبغى عليهم) أي تجاوز الحد في احتقارهم بما خولناه فيه قيل كان عاملا لفرعون على بني اسرائيل وكان يبغي عليهم ويظلمهم وقال قتادة بغى عليهم بكثرة المال ولم يرع لهم حق الايمان بل استخف بالفقراء وقال الضحاك بغى عليهم بالشرك وقال شهر بن حوشب زاد في طول ثيابه شبرا روى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ثوبه خيلاء وقال القفال طلب الفضل عليهم وان يكونوا تحت يده وقال ابن عباس تكبر عليهم وتجبر وقال الكلبي حسد هرون عليه السلام على الحبورة روى أهل الاخبار ان قارون كان أعلم بني اسرائيل بعد موسى وهرون وأجملهم وأغناهم وكان حسن الصوت فبغى وطغى وكان أول طغيانه وعصيانه ان الله تعالى أوحى الى موسى أن يأمر قومه أن يعلقوا في أرديتهم خيوطا أربعة في كل طرف خيطا أخضر كلون السماء يذكرون اذا نظروا اليها السماء ويعلمون أني منزل منها كلامي فقال موسى عليه السلام يارب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضرا فان بني اسرائيل تحتقر هذه الخيوط فقال الله تعالى ياموسى ان الصغير من أمرى ليس بصغير فان لم يطيعوني في الامر الصغير لم يطيعوني في الامر الكبير فدعاهم موسى عليه السلام وقال ان الله تعالى يأمركم أن تعلقوا في أرديتكم خيوطا خضرا كلون السماء لكي تذكروا ربكم اذا رأيتموها ففعل بنو اسرائيل ما أمرهم به واستكبر قارون ولم يفعل وقال انما يفعل هذا الارباب بعبيدهم لكي يتميزوا عن غيرهم وكان هذا بدء عصيانه وبغيه ولما قطع الله تعالى لبني اسرائيل البحر وأغرق فرعون جعل الحبورة لهرون عليه الصلاة والسلام فحصلت له النبوة والحبورة وكان له القربان والذبح وكان لموسى عليه السلام الرسالة فوجد قارون لذلك في نفسه وقال ياموسى لك الرسالة ولهرون الحبورة ولست في شيء لا أصبر أنا على هذا فقال موسى عليه السلام والله ما صنعت ذلك لهرون بل الله تعالى جعلها له فقال قارون والله لا أصدقك حتى تريني بيانه فجمع موسى عليه السلام رؤساء بني اسرائيل وأمرهم أن يجيء كل رجل منهم بعصا فجاؤا بها فحزمها وألقاها موسى عليه السلام في قبة له كان يعبد الله تعالى فيها وكان ذلك بأمر الله تعالى ودعا موسى عليه السلام أن يريهم بيان ذلك فباتوا يحرسون عصيهم فأصبحت عصا هرون عليه السلام وقد اهتزلها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى عليه السلام لقارون ألا ترى ما صنع لهرون عليه السلام فقال والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر فاعتزل قارون

ومعه ناس كثير وولى هرون عليه السلام الحبورة وهى رياسة الذبح والقربان وكانت بنو اسرائيل يأتون بهداياهم الى هرون عليه السلام فيضعها فى المذبح وتنزل نار من السماء فتأكلها واعتزل قارون باتباعه وكان كثير المال والتبع من بنى اسرائيل فكان لا يأتى موسى عليه السلام ولا يجالسه وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان قارون كان من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى * ولما ذكر الله تعالى بغيه ذكر سببه الحقيقى بقوله تعالى (وآتيناه من الكنوز) أى الاموال المدفونة المذخورة فضلا عن الظاهرة التى هى بصدد الانفاق منها لما عساه يعرض من المهمات (ما) أى الذى أوتى شئ كثير لا يدخل تحت حصر حتى (ان مفاتحه) أى مفاتح الاغلاق التى هو مدفون فيها وراء أبوابها (لتنوء) أى تميل بجهد ومشقة بثقلها (بالعصبة) أى الجماعة الكثيرة التى تعصب أى يقوى بعضهم بعضا (أولى) أى أصحاب (القوة) أى تميلهم من اثقالها اياهم * (تنبيه) * فى المبالغة بالتعبير بالكنوز والمفاتح والنوء والعصبة الموصوفة ما يدل على انه أوتى من ذلك ما لم يؤته أحد ممن هو فى عداده وكل ذلك مما تستبعده العقول فلذلك وقع التأكيد واختلفوا فى عدد العصبة فقال مجاهد ما بين العشرة الى خمسة عشر وقال الضحاك عن ابن عباس ما بين الثلاثة الى العشرة وقال قتادة ما بين العشرة الى الاربعين وقيل أربعون رجلا وقيل سبعون وروى عن ابن عباس قال كان يحمل مفاتحه أربعون رجلا أقوى ما يكون من الرجال وقال جرير عن منصور عن خيثمة قال وجدت فى الانجيل ان مفاتح خزائن قارون وقر ستين بغلا ما يزيد فيها مفتاح على اصبع لكل مفتاح كنز ويقال كان قارون أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد فلما أثقلت عليه جعلت من خشب فثقلت فجعلها من جلود البقر على طول الاصابع وكانت تحمل معه اذا ركب على أربعين بغلا وفى الباء فى بالعصبة وجهان أنها للتعدية كالهمزة ولا قلب فى الكلام والمعنى لتنىء المفاتح العصبة الاقوياء كما تقول أجأته وجئت به وأذهبته وذهبت به والثانى قال أبو عبيدة ان فى الكلام قلبا والاصل لتنوء العصبة بالمفاتح أى لتنهض بها كقولهم عرضت الناقة على الحوض ولما ذكر الله تعالى بغيه ذكر وقته بقوله تعالى (اذ قال له قومه) أى من بنى اسرائيل (لا تفرح) أى بكثرة المال فرح بطر فان الفرح بالعرض الزائل يدل على الركون اليه وذلك يدل على نسيان الآخرة وعلى غاية الجهل وقلة التأمل بالعواقب قال ابن عباس كان فرحه ذلك شركا لانه ما كان يخاف معه عقوبة الله عز وجل (ان الله) أى الذى له صفات الكمال (لا يحب) أى لا يعامل معاملة المحب (الفرحين) أى البطرين الاشرين الراسخين فى الفرح بما يفنى الذين لا يشكرون الله تعالى بما أعطاهم فان فرحهم يدل على سقوط الهمم كما قال تعالى ولا تفرحوا بما آتاكم وقال القائل فى ذلك

ولست بمفراح اذا الدهر سرنى * وقال آخر

أشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

فلا يفرح بالدنيا الا من رضى بها واطمأن فأما من قلبه الى الآخرة ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب لم تحدثه نفسه بالفرح (وابتغ) أى اطلب طلبا تجتهد نفسك فيه (فيما آتاك الله) أى

الملك الذى الامر كله بيده من الغنى والثروة (الدار الآخرة) بأن تقوم بشكر الله فيما أنعم الله عليك وتنفقه فى رضا الله تعالى فيجازيك بالجنة (ولا تنس) أى ولا تترك (نصيبك من الدنيا) قال مجاهد لا تترك أن تعمل فى الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب لان حقيقة نصيب الانسان من الدنيا أن يعمل للآخرة وقال السدى بالصدقة وصلة الرحم وقال على رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه لا تنس صحتك وقوتك وشبابك وغناك ان تطلب بها الآخرة روى أنه صلى الله عليه وسلم قال فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت فو الذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة والنار وعن ميمون الازدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل وهو يعظه اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك وقال الحسن أمر أن يقدم الفضل ويمسك ما يغنيه وقال منصور بن زادان قوتك وقوت أهلك (وأحسن) أى أوقع الاحسان بدفع المال الى المحاويج والانفاق فى جميع الطاعات ويدخل فى ذلك الاعانة بالجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن الذكر (كما أحسن الله) الجامع لصفات الكمال (اليك) بأن تعطى عطاء من لا يخاف الفقر كما أوسع الله عليك (ولا تبغ) أى ولا ترد ارادة ما (الفساد فى الارض) بتقتير ولا تبذير ولا تكبر على عباد الله تعالى ولا تحقير ثم اتبع ذلك علته مؤكدا لان أكثر المفسدين يبسط لهم فى الدنيا وأكثر الناس يستبعد أن يبسط فيه الغير محبوب فقيل (ان الله) أى العالم بكل شئ القدير على كل شئ (لا يحب المفسدين) أى لا يعاملهم معاملة من يحبه وقيل ان القائل له هذا موسى عليه السلام وقيل مؤمنو قومه وكيف كان فقد جمع فى هذا الوعظ ما فيه مزيد لكنه أبى أن يقبل بل زاد عليه كفر النعمة بأن (قال) أى قارون فى الجواب (انما أوتيته) أى هذا المال (على علم) حاصل (عندى) فانه كان أعلم بنى اسرائيل بالتوراة اى فرآنى له أهلا ففضلنى بهذا المال عليكم كما فضلنى بغيره وقيل هو علم الكيمياء وقال سعيد بن المسيب كان موسى يعلم الكيمياء فعلم يوشع بن نون ثلث ذلك العلم وعلم كالب بن يوفنا ثلثه وعلم قارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما الى علمه فكان ذلك سبب أمواله وقيل على علم عندى بالتصرف فى التجارات والزراعات وأنواع المكاسب ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله تعالى (أو لم يعلم ان الله) أى بماله من صفات الجلال والعظمة والكمال (قد أهلك) وقوله تعالى (من قبله من القرون) فيه تنبيه على أنه لم يتعظ مع مشاهدته للمهلكين الموصوفين مع قرب الزمان وبعده وقوله تعالى (من هو أشد منه قوة) أى فى البدن والمعانى من العلم وغيره والانصار والخدم (وأكثر جمعا) فى المال والرجال آخرهم فرعون الذى شاهده فى ملكه وحقق أمره يوم هلكه فيه تعجيب وتوبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله مع علمه بذلك لانه قرأ فى التوراة وكان أعلمهم بها وسمعه من حفاظ التواريخ واختلف فى معنى قوله عز وجل (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) فقال قتادة يدخلون النار بغير سؤال ولا حساب وقال مجاهد لا تسأل الملائكة عنهم لانهم يعرفونهم بسيماهم وقال الحسن لا يسئلون سؤال

استعلام وانما يسئلون سؤال توبيخ وتقريع وقيل المراد ان الله تعالى اذا عاقب المجرمين فلا حاجة به الى سؤالهم عن كيفية ذنوبهم وكيتها لانه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة الى السؤال (فان قيل) كيف الجمع بين هذا وبين قوله تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون (أجيب) بحمل ذلك على وقتين وقال أبو مسلم السؤال قد يكون للمحاسبة وقد يكون للتوبيخ والتقريع وقد يكون للاستعتاب قال ابن عادل وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله تعالى ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون (فخرج) أى فتسبب عن تجبره واغتراره بماله ان خرج (على قومه) أى الذين نصحوه فى الاقتصاد فى شأنه والاكثار فى الجود على اخوانه وقوله تعالى (فى زينته) فيه دليل على أنه خرج بأظهر زينته وأكملها وليس فى القرآن الا هذا القدر والناس ذكروا وجوها مختلفة فقال ابراهيم النخعى انه خرج هو وقومه فى ثياب حمر وصفر وقال ابن زيد فى تسعين ألفا عليهم المعصفرات وقال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب عليه الارجوان ومعه أربعة آلاف فارس عليهم وعلى دوابهم الارجوان ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال * ولما كان كأنه قيل ماذا قال قومه له قيل (قال الذين يريدون الحياة الدنيا) منهم لسفول هممهم وقصور نظرهم على الفانى لكونهم أهل جهل وان كان قولهم من باب الغبطة لا من باب الحسد الذى هو تمنى زوال نعمة المحسود (ياليت لنا) أى تمنى تمنيا عظيما أن نؤتى من أى مؤت كان وعلى أى وصف كان (مثل ما أوتى قارون) أى من هذه الزينة وما تسبب عنه من العلم حتى لا نزال أصحاب أموال ثم عظموها بقولهم مؤكدين لعلمهم ان ثم من يريد ان ينكر عليهم (انه لذو حظ) أى نصيب وبخت من الدنيا (عظيم) بما أوتيه من العلم الذى كان سببا له الى جمع هذا المال وهؤلاء الراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وان يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا ودل على جهلهم وفضل العلم الربانى وحقارة ما أوتى قارون من المال والعلم الظاهر الذى أدى الى اتباعه قوله تعالى (وقال الذين أوتوا العلم) وهم أهل الدين قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعنى الاحبار من بنى اسرائيل وقال مقاتل أوتوا العلم بما وعد الله فى الآخرة فقالوا للذين تمنوا (ويلكم) وويل أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل فى الزجر والردع والبعث على ترك ما يضر وهو منصوب بمحذوف أى ألزمكم الله ويلكم (ثواب الله) أى الجليل العظيم (خير) أى من هذا الحطام الذى أوتيه قارون فى الدنيا بل من الدنيا وما فيها ومن فاته الخير حل به الويل ثم بينوا مستحقه تعظيما له وترغيبا للسامع فى حاله بقولهم (لمن آمن وعمل) تصديقا لايمانه (صالحا) ثم بين تعالى عظمة هذه النصيحة وعلو قدرها بقوله تعالى (ولا يلقاها) أى هذه النصيحة التى قالها أهل العلم وهى الزهد فى الدنيا والرغبة فيما عند الله أو الجنة المثاب بها (الا الصابرون) أى على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات وعلى الرضا بقضاء الله فى كل ما قسم من المنافع والمضار الذين صار الصبر لهم خلقا * ولما تسبب عن بطره هذا الذى أوصله الى الكفر بربه أخذه بالعذاب أشار الى ذلك بقوله سبحانه وتعالى (فخسفنا) أى بما لنا من العظمة (به وبداره الارض) روى أنه كان

يؤذى موسى عليه الصلاة والسلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التى بينهما وهو يؤذيه كل وقت ولا يزيد الا عتوا وتجبرا ومعاداة لموسى حتى بنى دارا وجعل بابها من الذهب وضرب على جدرانها صفائح الذهب وكان الملأ من بنى اسرائيل يغدون اليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويضاحكونه قال ابن عباس نزلت الزكاة على موسى عليه السلام فأتاه قارون فصالحه عن كل ألف دينار بدينار وعن كل ألف درهم بدرهم وعن كل ألف شاة بشاة فلم تسمح بذلك نفسه فجمع بنى اسرائيل وقال لهم ان موسى قد أمركم بكل شئ فأطعتموه وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا أنت كبيرنا فأمرنا بما شئت قال آمركم ان تجيؤا بفلانة البغى فنجعل لها جعلا حتى تقذف موسى بنفسها فاذا فعلت ذلك خرج عليه بنو اسرائيل ورفضوه فدعاها فجعل لها قارون ألف درهم وقيل ألف دينار وقيل طستا من ذهب وقيل قال لها انى أمونك وأخلطك بنسائى على ان تقذفى موسى بنفسك غدا اذا حضر بنو اسرائيل فلما كان من الغد وكان يوم عيد لهم قام موسى عليه السلام خطيبا فقال من سرق قطعناه ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصنا رجمناه فقال له قارون ولو كنت أنت قال ولو كنت أنا قال ان بنى اسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة قال ادعوها فان قالت فهو كما قالت فلما أن جاءت قال لها موسى يا فلانة أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء فعظم عليها وسألها بالذى فلق البحر لبنى اسرائيل وأنزل التوراة الا صدقت فتداركها الله تعالى بالتوفيق وقالت فى نفسها أحدث اليوم توبة أفضل من ان أوذى رسول الله فقالت لا كذبوا ولكن جعل لى قارون جعلا على ان أرميك بنفسى فخر موسى ساجدا يبكى ويقول اللهم ان كنت رسولك فاغضب لى فأوحى الله تعالى اليه انى أمرت الارض ان تطيعك فرها بما شئت فقال موسى عليه السلام يا بنى اسرائيل ان الله بعثنى الى قارون كما بعثنى الى فرعون فمن كان معه فليلبث مكانه ومن كان معى فليعتزل فاعتزلوا ولم يبق مع قارون الا رجلان ثم قال موسى يا أرض خذيهم فأخذت الارض بأقدامهم وفى رواية كان على فراشه وسريره فأخذته حتى غيبت سريره ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاوساط ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم الى الاعناق وقارون وصاحباه فى كل ذلك يتضرعون الى موسى ويناشده قارون بالله والرحم حتى روى انه ناشده سبعين مرة وموسى فى كل ذلك لا يلتفت اليه لشدة غضبه ثم قال يا أرض خذيهم فانطبقت عليهم الارض فأوحى الله تعالى اليه ما أغلظ قلبك استغاث بك سبعين مرة فلم ترحمه وعزتى وجلالى لو دعانى مرة واحدة لاجبته وفى بعض الآثار لا أجعل الارض بعدك طوعا لاحد قال قتادة خسف به فهو يتجلجل فى الارض كل يوم قامة رجل لا يبلغ قعرها الى يوم القيامة قال وأصبح بنو اسرائيل يتناجون فيما بينهم ان موسى انما دعا على قارون ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وباموا له فاياكم يا أمة هذا النبى ان تردوا ما أتاكم به من الرحمة فتهلكوا وان كنتم أقرب الناس اليه فان قارون كان من أقارب موسى عليه السلام فان الانبياء عليهم السلام كما انهم لا يوجدون الهدى فى قلوب العدا فكذلك لا يغنون عنهم من الردى ولا يشفعون الالمن ارتضى (فما) أى فتسبب عنه انه ما (كان له) أى لقارون وأكد النفى لما استقر فى الاذهان ان الاكابر منصورون بزيادة الجار فى قوله تعالى (من فئة) أى أعوان وأصل الفئة

الجماعة من الطير كأنها سميت بذلك لكثرة رجوعها وسرعتها الى المكان الذى ذهبت منه
(ينصرونه من دون الله) أى غيره بأن يمنعوا عنه الهلاك (وما كان من المنتصرين) أى
الممتنعين منه من قولهم نصره من عدوه فانتصر اذا منعه منه فامتنع ولما خسف به واستبصر
الجهال الذين هم كالبهائم لا يرون الا المحسوسات ذكر حالهم بقوله (وأصبح) أى وصاروا لكنه
ذكر لمقابلة المساء (الذين تمنوا) أى أرادوا ارادة عظيمة بغاية الشهوة ان يكونوا (مكانه) أى
تكون حاله ومنزلته فى الدنيا لهم (بالامس) أى الزمان الماضى القريب وان لم يكن يلى يومهم
الذى هم فيه فالامس قد يذكر ولا يراد به اليوم الذى قبل يومك ولكن الوقت المستقرب على
طريق الاستعارة (يقولون ويكأن الله يبسط) أى يوسع (الرزق لمن يشاء من عباده) بحسب
مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه (ويقدر) أى يضيق على من يشاء لا لهوان من يضيق عليه
بل لحكمته وقضائه ابتلاء منه وفتنة ووى اسم فعل بمعنى أعجب أى أنا والكاف بمعنى اللام
وهذه الكلمة والتى بعدها متصلة باجماع المصاحف واختلف القراء فى الوقف فالكسائى وقف
على الياء قبل الكاف ووقف أبو عمرو على الكاف ووقف الباقون على النون وعلى الهاء وحمزة
يسهل الهمزة فى الوقف على اصله وأما الوصل فلا خلاف فيه بينهم * ولما لاح لهم من واقعته ان
الرزق انما هو بيد الله اتبعوه ما دل على انهم اعتقدوا أيضا ان الله قادر على ما يريد من غير الرزق
كما هو قادر على الرزق من قولهم (لولا ان من الله) أى تفضل الملك الاعظم (علينا) بجوده ولم
يعطنا ما تمنيناه من الكنوز على مثل حاله (لخسف بنا) مثل ما خسف به (ويكأنه لا يفلح
الكافرون) لنعمة الله تعالى كقارون والمكذبين لرسله وبما وعدهم من ثواب الآخرة وقوله
تعالى (تلك الدار الآخرة) اشارة تعظيم وتفخيم لشأنها أى تلك الدار التى سمعت بذكرها وبلغك
وصفها وتلك مبتدأ والدار صفته والخبر (نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض) بالبغى
(ولا فسادا) بعمل المعاصى فلم يعلق تعالى الوعد بترك العلو والفساد ولكن بترك ارادتهما وميل
القلوب اليهما كما قال تعالى ولا تركنوا الى الذين ظلموا فعلق الوعيد بالركون وعن على رضى الله
تعالى عنه ان الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها وعن
الفضيل أنه قرأها ثم قال ذهبت الامانى ههنا وعن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه انه كان
يرددها حتى قبض قال الزمخشرى ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون والفساد لقارون متعلقا
بقوله تعالى ان فرعون علا فى الارض وبقوله تعالى ولا تبغ الفساد فى الارض فيقول من لم يكن
مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قوله تعالى (والعاقبة) أى المحمودة (للمتقين)
أى عقاب الله تعالى بعمل طاعته كما تدبره على والفضيل وعمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنهم
ولما بين تعالى ان الدار الآخرة ليست لمن يريد علوا فى الارض ولا فسادا بل هى للمتقين بين بعد
ذلك ما يحصل فقال تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها) من عشرة أضعاف الى سبعين الى
سبعمائة ضعف الى ما لا يحيط به الا الله تعالى (ومن جاء بالسيئة) وهى ما نهى الله تعالى عنه
ومنه اخافة المؤمنين (فلا يجزى) أى من أى جاز واظهره ما فى هذا الفعل من الضمير العائد على

من بقوله تعالى (الذين عملوا السيآت) تصويرا لحالهم وتقبيحا لها وتنفيرا من عملها (الا) جزاء (ما كانوا يعملون) أى مثله وهذا من فضل الله العظيم وكرمه الواسع أن لا يجزى السيئة الا بمثلها ويجزى الحسنة بأكثر منها كما مرّ (فان قيل) قال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها كرر ذكر الاحسان واكتفى فى ذكر الاساءة بمرة واحدة فما السبب فى ذلك (أجيب) بأن هذا المقام مقام ترغيب فى الدار الآخرة فكانت المبالغة فى النهى عن المعصية مبالغة فى الدعوة الى الآخرة وأما الآية الاخرى فهى شرح حالهم فكانت المبالغة فى ذكر محاسنهم أولى (فان قيل) كيف انه تعالى لا يجزى السيئة الا بمثلها مع ان المتكلم بكلمة الكفر اذا مات فى الحال عذب أبد الآباد (أجيب) بأنه كان على عزم أنه لو عاش أبدا لقال ذلك فعومل بمقتضى عزمه (ان الذى فرض) أى أنزل (عليك القرآن) قاله أكثر المفسرين وقال عطاء أوجب عليك العمل بالقرآن وقال أبو على فرض عليك أحكامه وفرائضه (لرادك الى معاد) أى معاد ليس لغيرك من البشر وهو المقام المحمود الذى وعدك ان يبعثك فيه وتنكير المعاد لذلك وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس يعنى الى الموت وقال الزهرى وعكرمة الى يوم القيامة وقيل الى الجنة وروى العوفى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعنى الى مكة وهو قول مجاهد وقال القتيبى معاد الرجل بلده ينصرف ثم يعود الى بلده وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج من الغار مهاجرا الى المدينة سار فى غير الطريق مخافة الطلب فلما أمن ورجع الى الطريق ونزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق الى مكة اشتاق اليها فأتاه جبريل عليه السلام فقال اشتقت الى بلدك ومولدك قال نعم قال فان الله تعالى يقول ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قال الرازى وهذا أقرب لان ظاهر المعاد أنه كان فيه وفارقه وحصل له العود اليه وذلك لا يليق الا بمكة وان كان سائر الوجوه محتملا لكن ذلك أقرب قال أهل التحقيق وهذا آخر مما يدل على نبوته لانه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزا * ونزل جوابا لقول كفار مكة انك لفى ضلال مبين (قل) أى للمشركين (ربى أعلم من جاء بالهدى) وما يستحقه من الثواب فى المعاد يعنى نفسه (ومن هو فى ضلال مبين) يعنيهم وما يستحقونه من العذاب فى معادهم فهو الجائى بالهدى وهم فى الضلال * (تنبيه) * من جاء منصوب بمضمر أى يعلم أو بأعلم ان جعلناها بمعنى عالم واعملناها اعماله (وما كنت ترجو) أى فى سالف الدهر بحال من الاحوال (أن يلقى) أى ينزل على وجه لم تقدر على رده (اليك الكتاب) أى يوحى اليك القرآن قال البيضاوى أى سيردك الى معاد كما ألقى اليك الكتاب وما كنت ترجوه وهو ظاهر على أن المراد بالمعاد مكة وقوله تعالى (الا رحمة) استثناء منقطع أى لكن ألقى اليك الكتاب رحمة (من ربك) أى فأعطاك القرآن وقيل متصل قال الزمخشرى هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل وما ألقى اليك الكتاب الا رحمة فيكون استثناء من الاحوال أو من المفعول له (فلا تكونن ظهيرا) أى معينا (للكافرين) على دينهم الذى دعوك اليه قال مقاتل وذلك حين دعى الى دين آبائه فذكره الله تعالى نعمه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه (ولا يصدنك عن آيات الله) أى قراءتها والعمل بها (بعد اذ نزلت

اليك) أى لاترجع اليهم فى ذلك (وادع) أى أوجد الدعاء (الى ربك) أى الى عبادته وتوحيده (ولا تكونن من المشركين) أى باعانتهم ولم يؤثر الجازم فى الفعل لبنائه بخلافه فى يصدنك فانه حذف منه نون الرفع اذ أصله يصدوننك حذفت نون الرفع للجازم ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين (ولا تدع) أى تعبد (مع الله) أى الجامع لجميع صفات الكمال (الها آخر) (فان قيل) هذا وماقبله لا يقع منه صلى الله عليه وسلم فما فائدة ذلك النهى (أجيب) بانه ذكر للتهييج وقطع اطماع المشركين عن مساعدته لهم أو ان الخطاب وان كان معه لكن المراد غيره كما فى قوله تعالى لئن اشركت ليحبطن عملك ثم علل ذلك بقوله تعالى (لا اله الا هو) أى لا نافع ولا ضار ولا معطى ولا مانع الا هو كقوله تعالى رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا فلا يجوز اتخاذ اله سواه ثم علل وحدانيته بقوله تعالى (كل شئ هالك الا وجهه) أى ذاته فان الوجه يعبر به عن الذات وقال ابو العالية الا ما أريد به وجهه وقيل الا ملكه واختلفوا فى قوله تعالى هالك فمن الناس من فسر الهلاك باخراجه عن كونه منتفعا به بالاماتة أو بتفريق الاجزاء وان كانت أجزاؤه باقية فانه يقال هلك الثوب وهلك المتاع ولا يريدون به فناء اجزائه بل خروجه عن كونه منتفعا به ومنهم من قال معنى كونه هالكا كونه قابلا للهلاك فى ذاته فان كل ماعداه تعالى ممكن الوجود قابل للعدم فكان قابلا للهلاك فأطلق عليه اسم الهالك نظرا الى هذا الوجه وعلى هذا يحمل قول النسفى فى بحر الكلام سبعة لا تفنى العرش والكرسى واللوح والقلم والجنة والنار بأهلهما من ملائكة العذاب والحور العين والارواح (له الحكم) أى القضاء النافذ فى الخلق (واليه) وحده (ترجعون) أى فى جميع أحوالكم فى الدنيا وبالنشور من القبور للجزاء فى الآخرة فيجزيكم بأعمالكم وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من قوله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طسم القصص كان له من الاجر بعدد من صدق بموسى وكذب ولم يبق ملك فى السموات والارض الا شهد له يوم القيامة انه كان صادقا حديث موضوع

(سورة العنكبوت مكية)

الا عشر آيات من أولها الى قوله تعالى وليعلمن المنافقين قال الحسن فانها مدنية وهى سبع وستون آية وألف وتسعمائة واحدى وثمانون كلمة وأربعة آلاف وخمسمائة وخمسة وتسعون حرفا (بسم الله) الذى أحاط بجميع القوة فأعز جنده (الرحمن) الذى شمل جميع العباد بنعمه (الرحيم) بجميع خلقه وقوله تعالى (الم) سبق القول فيه فى أول البقرة ووقوع الاستفهام بعده دليل على استقلاله بنفسه فيكون اسما للسورة أو للقرآن او لله أو أنه سر استأثر بعلمه الله تعالى او استقلاله بما يضمر معه بتقديره مبتدأ أو خبرا وغيره مما مر أول سورة البقرة وقيل فى الم اشار بالالف الدال على القائم الاعلى المحيط ولام الوصلة وميم التمام بطريق الرمز الى انه تعالى أرسل جبريل الى محمد عليهما الصلاة والسلام ولما قال تعالى فى آخر السورة المتقدمة وادع الى ربك وكان فى الدعاء اليه الحراب والضراب والطعان لان النبى صلى الله عليه وسلم

وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد فشق على البعض ذلك فقال تعالى (أحسب الناس) أي كافة (أن يتركوا) أي أظنوا انهم يتركون بغير اختبار وابتلاء في وقت ما بوجه من الوجوه * (تنبيه) * ان يتركوا اسد مسد مفعولي حسب عند الجمهور (أن) أي بأن (يقولوا) أي بقولهم (آمنا وهم) أي والحال انهم (لا يفتنون) أي يختبرون بما تتميز به حقيقة ايمانهم بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات وأنواع المصائب في الانفس والاموال ليتبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب ولينالوا بالصبر عليها عوالي الدرجات فان مجرد الايمان وان كان عن خلوص لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب واختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال الشعبي نزلت في اناس كانوا بمكة قد أقروا بالاسلام ثم هاجروا فتبعهم الكفار فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال انها نزلت في عمار بن ياسر وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام كانوا يعذبون بمكة وقال ابن جريج نزلت في عمار بن ياسر كان يعذب في الله عز وجل وقال مقاتل نزلت في مهجع ابن عبد الله مولى عمر كان أول قتيل قتل من المسلمين يوم بدر فقال صلى الله عليه وسلم سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى الى باب الجنة من هذه الامة فجزع عليه أبواه وامرأته فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية وقيل وهم لا يفتنون بالاوامر والنواهي وذلك ان الله تعالى أمرهم في الابتداء بمجرد الايمان ثم فرض عليهم الصلاة والزكاة وسائر الشرائع فشق على بعض فأنزل الله تعالى هذه الآية ثم عزاهم فقال (ولقد فتنا الذين من قبلهم) أي من الانبياء والمؤمنين فمنهم من نشر بالمنشار ومنهم من قتل وابتلي بنو اسرائيل بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب فذلك سنة قديمة جارية في الامم كلها فلا ينبغي أن يتوقع خلافه (فليعلمن الله) أي الذي له الكمال كله (الذين صدقوا) في ايمانهم علم مشاهدة للخلق والا فالله تعالى لا يخفى عليه خافية (وليعلمن الكاذبين) فيه أي فيظهر الله الصادقين من الكاذبين في الايمان (فائدة) لبعض المحبين

للهوى آية (أي علامة) بها يعرف الصا * دق في عشقه من الكذاب
سهر الليل دائما ونحول الـ * ـجسم والموت في رضا الاحباب

(أم حسب) أي ظن (الذين يعملون السيئات) أي الشرك والمعاصي فان العمل يعم أفعال القلوب والجوارح (أن يسبقونا) أي يفوتونا فلا ننتقم منهم وهذا ساد مسد مفعولي حسب وأم منقطعة والاضراب فيها لان هذا الحساب أبطل من الاول لان صاحب ذلك يقدر ان لا يمتحن لايمانه وصاحب هذا يظن ان لا يجازى بمساويه ولهذا عقبه بقوله تعالى (ساء ما يحكمون) أي بئس الذي يحكمونه أو حكما يحكمونه حكمهم هذا فحذف المخصوص بالذم ولما بين بقوله أحسب الناس أن يتركوا ان العبد لا يترك في الدنيا سدى وبين في قوله تعالى أم حسب الذين يعملون السيئات ان من ترك ما كلف به يعذب عذابا بين ان من يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيع عمله بقوله تعالى (من كان يرجو لقاء الله) أي الملك الاعلى قال ابن عباس ومقاتل من كان يخشى البعث والحساب والرجاء بمعنى الخوف وقول سعيد بن جبير من كان يطمع

في

في ثواب الله (فان أجل الله) أي الوقت المضروب لقائه (لآت) أي لجاء لا محالة فانه لا يجوز عليه اخلاف الوعد (فان قيل) كيف وقع فان أجل الله لآت جوابا للشرط (أجيب) بأنه اذا كان وقت اللقاء آتيا كان اللقاء آتيا لا محالة كما تقول من كان يرجو لقاء الملك فان يوم الجمعة قريب اذا علم أنه يقعد للناس يوم الجمعة وقال مقاتل يعني يوم القيامة لكائن ومعنى الآية ان من يخشى الله تعالى ويأمله فليستعد له وليعمل لذلك اليوم كما قال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا (وهو السميع) أي لما قالوه (العليم) يعلم من صدق فيما قال ومن كذب فيثيب ويعاقب على حسب علمه قال الرازي وههنا لطيفة وهي أن للعبد أمورا هي أصناف حسناته عمل قلبه وهو التصديق وهو لا يرى ولا يسمع وانما يعلم وعمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه وجوارحه وهو يرى فاذا أتى بهذه الاشياء يجعل الله تعالى لمسموعه ما لا أذن سمعت ولمرئيه ما لا عين رأت ولعمل قلبه ما لا خطر على قلب بشر كما وصف في الخبر في وصف الجنة اهـ (تنبيه) لم يذكر الله تعالى من الصفات غير هذين الصفتين كالعزيز والحكيم وذلك لانه سبق القول في قوله أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وسبق الفعل بقوله تعالى وهم لا يفتنون وبقوله تعالى فليعلمن الله الذين صدقوا وبقوله تعالى أم حسب الذين يعملون السيئات ولا شك أن القول يدرك بالسمع والعمل منه ما يدرك بالبصر ومنه ما لا يدرك به كما علم عما مر والعلم يشملهما ولما بين تعالى أن التكليف حسن واقع وان عليه وعدا وايعادا ليس لهما دافع بين ان طلب الله تعالى ذلك من المكلف ليس لنفع يعود اليه بقوله تعالى (ومن جاهد) أي بذل جهده في جهاد حرب أو نفس حتى كأنه يسابق آخر في الاعمال الصالحة (فانما يجاهد لنفسه) لان منفعة جهاده له لا لله تعالى فانه غني مطلق كما قال تعالى (ان الله) أي المتصرف في عباده بما شاء (لغني عن العالمين) أي الانس والجن والملائكة وعن عبادتهم ومثل هذا كثير في القرآن كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه وقوله تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم فينبغي للعبد أن يكثر من العمل الصالح ويخلصه لان من عمل فعلا يطلب به ملكا ويعلم ان الملك يراه يحسن العمل ويتقنه واذا علم ان عمله لنفسه لا لاحد يكثر منه نسأل الله الكريم الفتاح أن يوفقنا للعمل الصالح وأن يفعل ذلك بأهلينا وذريتنا ومحبينا بمحمد وآله ولما بين تعالى حال المسيء مجملا بقوله تعالى أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا اشارة الى التعذيب مجملا وذكر حال المحسن بقوله تعالى ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه وكان التقدير فالذين جاهدوا والذين عملوا السيئات لنجزينهم أجمعين ولكنه طواه لان السياق لاهل الرجاء عطف عليه قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) أي في الشدة والرخاء على حسب طاقتهم وفي ذلك اشارة الى ان رحمته تعالى أتم من غضبه وفضله أتم من عدله وأشار بقوله تعالى (لنكفرن عنهم سيئاتهم) الى ان الانسان وان اجتهد لا بد من ان يزل عن الطاعة لانه مجبول على النقص فالصلاة الى الصلاة كفارة لما بينهما ما لم تؤت الكبائر والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان ونحو ذلك مما وردت به الاخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم المختار فالصغائر تكفر بعمل الصالحات وأما الكبائر فتكفر بالتوبة ولما بشرهم

بالعفو عن العقاب أتم البشرى بالامتنان بالثواب فقال عاطفاً على ما تقديره ولنثبتن لهم حسناتهم (ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) أى أحسن جزاء ما عملوه وهو الصالحات وأحسن نصب بنزع الخافض وهو الباء * ولما كان من جملة العمل الصالح الاحسان الى الوالدين ذكر ذلك بقوله تعالى (ووصينا الانسان بوالديه) أى وان عليا (حسنا) أى برا بهما وعطفا عليهما أى وصيناه بايتاء والديه حسنا أو بايلاء والديه حسنا لانهما سبب وجود الولد وسبب بقائه بالتربية المعتادة والله تعالى سبب له فى الحقيقة بالارادة وسبب بقائه بالاعادة للسعادة فهو أولى بأن يحسن العبد حاله معه فيطيعهما مالم يأمرا بمعصية الله كما قال تعالى (وان جاهداك لتشرك بى) وقوله تعالى (ماليس لك به علم) أى لا علم لك بالهيته موافق للواقع فلا مفهوم له أو أنه اذا كان لا يجوز أن يتبع فيما لا يعلم صحته فبالاولى أن لا يتبع فيما يعلم بطلانه (فلا تطعهما) فى ذلك كما جاء فى الحديث لا طاعة لمخلوق فى معصية الله تعالى ولا بد من اضمار القول ان لم يضمر قبل ثم علل ذلك بقوله تعالى (الى مرجعكم) أى من آمن منكم ومن كفر ومن بر والديه ومن عق ثم تسبب عنه قوله تعالى (فأنبئكم بما كنتم تعملون) أى أخبركم بصالح أعمالكم وسيئها فأجازيكم عليها نزلت هذه الآية فى سعد ابن أبى وقاص الزهرى وأمه حمنة بنت أبى سفيان بن أمية بن عبد شمس روى أنها لما سمعت باسلامه قالت له يا سعد بلغنى انك قد صبأت فوالله لا يظلنى سقف بيت من الضح وهو بكسر الضاد المعجمة وبحاء مهملة الشمس والريح وان الطعام والشراب على حرام حتى تكفر بمحمد وكان أحب أولادها اليها فأبى سعد ولبثت ثلاثة أيام لا تنتقل من الضح ولا تأكل ولا تشرب فلم يطعها سعد بل قال والله لو كانت مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما كفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم ثم جاء سعد الى النبى صلى الله عليه وسلم وشكا اليه فنزلت هذه الآية وهى التى فى لقمان والتى فى الاحقاف فأمره صلى الله عليه وسلم ان يداريها ويترضاها بالاحسان وروى أنها نزلت فى عياش بن أبى ربيعة المخزومى وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما مترافقين حتى نزلا المدينة فخرج أبو جهل بن هشام والحرث بن هشام أخواه لامه أسماء بنت مخرمة امرأة من بنى تميم بن حنظلة فنزلا بعياش وقالا له ان من دين محمد صلة الارحام وبر الوالدين وقد تركت أمك لا تأكل ولا تشرب ولا تأوى بيتا حتى تراك وهى أشد حبا لك منا فاستشار عمر فقال هما يخدعانك ولك على أن أقسم مالى بينى وبينك فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر فقال عمر أما اذ عصيتنى فخذ ناقتى فليس فى الدنيا بعير يلحقها فان رابك منهما ريب فارجع فلما انتهوا الى البيداء قال أبو جهل ان ناقتى قد كلت فاحملنى معك قال نعم فنزل ليوطئ لنفسه وله فأخذاه وشداه وأوثقاه وجلده كل واحد منهما مائة جلدة وذهبا به الى أمه فقالت لا تزال فى عذاب حتى ترجع عن دين محمد فنزلت رضى تعالى الله عنه وأرضاه ونفعنا به فى الدنيا والآخرة * ولما كان التقدير فالذين أشركوا وعملوا السيئات لندخلنهم فى المفسدين ولكنه طواه لدلالة السياق عليه عطف عليه زيادة فى الحث على الاحسان الى الوالدين قوله تعالى (والذين امنوا وعملوا) تحقيقا لايمانهم (الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) أى الانبياء والاولياء بأن نحشرهم معهم أو ندخلهم وهم

الجنة والصلاح منتهى درجات المؤمنين ومنتهى أنبياء الله والمرسلين * ولما بين سبحانه وتعالى المؤمن بقوله تعالى فليعلمن الله الذين صدقوا و بين الكافر بقوله تعالى وليعلمن الكاذبين بين أنه بقى قسم ثالث مذبذب بقوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله) بأن عذبهم الكفرة على الايمان (جعل فتنة الناس) أى له بما يصيبه من أذيتهم فى منعه عن الايمان الى الكفر (كعذاب الله) أى فى الصرف عن الكفر الى الايمان (ولئن) لام قسم (جاء نصر) أى للمؤمنين (من ربك) أى بفتح وغنيمة (ليقولن) حذف منه نون الرفع لتوالى النونات والواو ضمير الجمع لالتقاء الساكنين (انا كنا معكم) فى الايمان فاشركونا فى الغنيمة وأما عند الشدة فيجبنون كما قال الشاعر

وما أكثر الاصحاب حين تعدهم * ولكنهم فى النائبات قليل

قال الله تعالى (أوليس الله بأعلم) أى بعالم (بما فى صدور) أى قلوب (العالمين) من الايمان والنفاق (وليعلمن الله الذين آمنوا) أى بقلوبهم (وليعلمن المنافقين) فيجازى الفريقين واللام فى الفعلين لام قسم * ولما بين الفرق الثلاثة وأحوالهم ذكر أن الكافر يدعو من يقول آمنت الى الكفر بقوله تعالى (وقال الذين كفروا) أى ظاهرا وباطنا (للذين آمنوا) أى ظاهرا وباطنا لم تتحملون الاذى والذل (اتبعوا سبيلنا) أى الذى نسلكه فى ديننا تدفعوا عن أنفسكم ذلك فقالوا نخاف من عذاب الله تعالى على خطيئة اتباعكم فقالوا لهم اتبعونا (ولنحمل خطاياكم) ان كان ذلك خطيئة أوان كان بعث ومؤاخذة قال الجلال المحلى والامر بمعنى الخبر وهو أولى من قول البيضاوى وانما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين على أمرهم بالاتباع مبالغة فى تعليق الحمل بالاتباع والوعد بتخفيف الاوزار عنهم ان كان تشجيعا للمؤمنين على الاتباع وبهذا الاعتبار رد عليهم وكذبهم بقوله (وماهم) أى الكفار (بحاملين من خطاياهم) أى المؤمنين (من شئ انهم لكاذبون) فى ذلك قال الزمخشرى وترى فى المتسمين بالاسلام من يستن بأولئك فيقول لصاحبه اذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم افعل هذا واثمه فى عنقى وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفة العامة وجهلتهم ومنه ما يحكى أن أبا جعفر المنصور رفع اليه بعض أهل الحشو حوائجه فلما قضاها قال يا أمير المؤمنين بقيت الحاجة العظمى قال وماهى قال شفاعتك يوم القيامة فقال له عمرو بن عبيد رحمه الله اياك وهؤلاء فانهم قطاع الطريق فى المأمن (فان قيل) كيف سماهم الله تعالى كاذبين وانما ضمنوا شيأ علم الله تعالى انهم لا يقدرون على الوفاء به وضامن مالا يعلم اقتداره على الوفاء به لايسمى كاذبا لاحين ضمن ولاحين عجز لانه فى الحالين لايدخل تحت حد الكاذب وهو المخبر عن الشئ لا على ماهو عليه (أجيب) بأن الله تعالى شبه حالهم حيث علم ان ماضمنوه لا طريق لهم الى أن يفوا به فكان ضمانهم عنده لا على ماعليه المضمون بالكاذبين الذين خبرهم لا على ماعليه المخبر عنهم ويجوز أن يراد انهم كاذبون لانهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه كالكاذبين الذين يعدون الشئ وفى قلوبهم نية الخلف * (تنبيه) * من الاولى للتبيين والثانية مزيدة والتقدير وماهم بحاملين

شيأمن خطاياهم (فان قيل) قال الله تعالى وماهم بحاملين من خطاياهم من شئ ثم قال الله تعالى (وليحملن) أى الكفرة (أثقالهم) أى أثقال ما اقترفته أنفسهم (وأثقالا مع أثقالهم) أى أثقالا بقولهم للمؤمنين اتبعوا سبيلنا وباضلالهم مقلديهم فكيف الجمع بينهما (أجيب) بأن قول القائل حمل فلان عن فلان يريد أن حمل فلان خف فان لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيئا فقوله تعالى وماهم بحاملين من خطاياهم يعنى لا يرفعون عنهم خطيئة بل يحملون أوزار أنفسهم وأوزارا بسبب اضلالهم كقوله صلى الله عليه وسلم من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينتقص من وزره شئ وقال تعالى فى آية أخرى ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم من غير أن ينقص من أوزار من تبعهم شئ (وليسئلن يوم القيامة) أى سؤال توبيخ وتقريع (عما كانوا يفترون) أى يختلقون من الاكاذيب والاباطيل واللام فى الفعلين لام قسم وحذف فاعلهما الواو ونون الرفع ولما كان السياق للبلاء والامتحان والصبر على الهوان ذكر من الرسل الكرام عليهم السلام من طال صبره على البلاء ولم يفتر عزمه عن نصيحة العباد بقوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا) أى أول رسل الله الى المخالفين من العباد وهو ومعنى (الى قومه) وعمره أربعون سنة فان الكفر كان قد عم أهل الارض وكان عليه السلام أطول الانبياء ابتلاء بهم ولذلك قال الله تعالى مسببا عن ذلك ومتعقبا (فلبث فيهم) أى بعد الرسالة (ألف سنة الاخمسين عاما) يدعوهم الى توحيد الله تعالى فكذبوه (فأخذهم الطوفان) أى الماء الكثير فغرقوا (وهم ظالمون) قال ابن عباس مشركون وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ولتابعيه رضى الله تعالى عنهم وتثبيت لهم وتهديد لقريش قال ابن عباس كان عمر نوح عليه السلام ألفا وخمسين سنة بعث على رأس أربعين سنة ولبث فى قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا وروى عن ابن عباس أنه بعث وهو ابن أربعمائة وثمانين سنة وعاش بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة فان كان هذا محفوظا عن ابن عباس فيضاف الى لبثه فى قومه وهو تسعمائة وخمسون سنة فيكون قد عاش ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة وأما قبره عليه السلام فروى ابن جرير والازرقى حديثا مرسلا ان قبره بالمسجد الحرام وقيل ببلدة البقاع يعرف اليوم بكرك نوح وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك وعن وهب أنه عاش ألفا وأربعمائة سنة والآية تدل على خلاف قول الاطباء العمر الانسانى لا يزيد على مائة وعشرين سنة ويسمونه العمر الطبيعى قال الرازى ونحن نقول ليس طبيعيا بل هو عطاء الهى وأما العمر الطبيعى فلا يدوم عنده ولا يجد فضلا عن مائة أو أكثر (فان قيل) هلا قال تسعمائة سنة وخمسين ولم جاء التمييز أولا بالسنة وثانيا بالعام (أجيب) عن الاول بأن ما أورده الله تعالى أحكم لانه لو قيل كما ذكر لجاز أن يتوهم اطلاق هذا العدد على أكثره وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك وكأنه قال تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد الا أن ذلك أخصر وأعذب لفظا وأملأ بالفائدة وفيه نكتة أخرى وهى ان القصة مسوقة لذكر ما بلى به نوح عليه السلام من أمته وما كابده من طول المصابرة تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم

وتثبيتا

وتثبيتاله فكان ذكر رأس العدد الذى لا رأس أكبر منه أوقع وأوصل الى الغرض من استطالة السامع مدة صبره وعن الثانى بأن تكرير اللفظ الواحد فى الكلام الواحد حقيق بالاجتناب فى البلاغة الا اذا وقع ذلك لاجل غرض تنتجه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك والطوفان لغة ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أو ظلام أو نحو ذلك قال العجاج وعم طوفان الظلام الاثأبا * (فأنجيناه) أى نوحا عليه السلام (وأصحاب السفينة) أى الذين كانوا فيها من الغرق وكانوا ثمانية وسبعين نفسا نصفهم ذكور ونصفهم اناث منهم أولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم وعن محمد بن اسحق كانوا عشرة خمسة رجال وخمسة نسوة وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم كانوا ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم (وجعلناها) أى السفينة أو الحادثة والقصة (آية) أى عبرة وعلامة على قدرة الله تعالى وعلمه وانجائه الطائع واهلاكه للعاصى (للعالمين) أى لمن بعدهم من الناس ان عصوا رسولهم فانه لم يقع فى الدهر حادثة أعظم منها ولا أغرب ولا أشهر فى تطبيق الماء جميع الارض بطولها والعرض واغراق جميع ما عليها من حيوان انسان وغيره ولما ذكر تعالى قصة نوح وكان بلاء ابراهيم عليه السلام عظيما فى قذفه فى النار واخراجه من بلاده اتبعه به بقوله تعالى (وابراهيم) وهو منصوب اما باذكر أو يكون (اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه) أى خافوا عقابه بدل اشتمال لان الاحيان تشتمل على ما فيها واما معطوفا على نوحا واذ ظرف لارسلنا أى أرسلناه حين بلغ من السن والعلم مبلغا صلح فيه لان يعظ قومه وينصحهم ويعرض عليهم الحق ويأمرهم بالعبادة والتقوى (ذلكم) أى الامر العظيم الذى هو اخلاصكم فى عبادتكم له وتقواكم (خير لكم) أى من كل شئ (ان كنتم تعلمون) أى فى عداد من يتجدد له علم فينظر فى الامور بنظر العلم دون نظر الجهل ولما أمرهم بما تقدم ونفى العلم عمن جهل خيريته دل عليه بقوله (انما تعبدون من دون الله) أى غيره (أوثانا) أى أصناما لا تستحق العبادة لانها حجارة منحوتة لا شرف لها (وتخلقون) أى تصورون بأيديكم (افكا) أى شيأ مصروفا عن وجهه فانه مصنوع وأنتم تسمونه باسم الصانع ومربوب وأنتم تسمونه ربا أو تقولون كذبا فى تسميتها آلهة وادعاء شفاعتها عند الله ثم ان الله تعالى نفى عنها النفع بقوله تعالى (ان الذين تعبدون) ضلالا وعدولا عن الحق الواضح (من دون) أى غير (الله) الذى له الملك كله (لا يملكون لكم رزقا) أى شيأ من الرزق الذى لا قوام لكم بدونه وأنتم تعبدونهم فكيف بغيركم فتسبب عن ذلك قوله تعالى (فابتغوا) أى اطلبوا (عند الله) أى الذى له صفات الكمال (الرزق) أى كله فانه لا شئ منه الا وهو بيده (فان قيل) لم نكر الرزق فى قوله تعالى لا يملكون لكم رزقا وعرفه فى قوله تعالى فابتغوا عند الله الرزق (أجيب) بأنه نكره فى معرض النفى أى لا رزق عندهم أصلا وعرفه عند الاثبات عند الله تعالى اى كل رزق عنده فاطلبوه منه وأيضا الرزق من الله معروف لقوله تعالى وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها والرزق من الاوثان غير

معلوم فنكره لعدم حصول العلم به (واعبدوه) أى عبادة يقبلها وهى ما كانت خالصة من الشرك (واشكروا) أى أوقعوا الشكر (له) خاصة على ما أفاض عليكم من النعم ثم علل ذلك بقوله تعالى (اليه) وحده (ترجعون) اى معنى فى الدنيا والآخرة فانه لا حكم فى الحقيقة لاحد سواه وحسا بالنشر والحشر بأيسر أمر فيثيب الطائع ويعذب العاصى ولما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال (وان تكذبوا) اى وان تكذبونى (فقد) أى فيكفيكم فى الوعظ والتهديد معرفتكم بأنه قد (كذب أمم) أى فى الازمان الكائنة (من قبلكم) أى من قبلى من الرسل فجرى الامر فيهم على سنن واحد لم يختلف قط فى نجاة المطيع للرسول وهلاك العاصى له ولم يضر ذلك الرسول شيأ وانما ضروا به الا أنفسهم (وما على الرسول) أن يقهركم على التصديق بل ما عليه (الا البلاغ المبين) الموضح مع ظهوره فى نفسه بلا مرية بحيث لا يبقى فيه شك باظهار المعجزة واقامة الادلة على الوحدانية * (تنبيه) * فى المخاطب بهذه الآية والآيات بعدها الى قوله تعالى فما كان جواب قومه وجهان * الاول أنه قوم ابراهيم عليه السلام لان القصة له فكان ابراهيم عليه السلام قال لقومه ان تكذبونى فقد كذب أمم من قبلكم وانما أتيت بما على من التبليغ فان الرسول ليس عليه الا التبليغ والبيان (فان قيل) ان ابراهيم عليه السلام لم يسبقه الا قوم نوح وهم أمة واحدة (أجيب) بأن قبل قوم نوح أيضا كان أقوام كقوم ادريس وقوم شيث وآدم وأيضا فان نوحا عليه السلام عاش أكثر من ألف سنة وكان القرن يموت ويجىء أولاده والآباء يوصون الابناء بالامتناع من الاتباع فكفى بقوم نوح أمما ولقد عاش ادريس ألف سنة فى قومه الى أن رفع الى السماء وآمن به ألف انسان منهم على عدد سنيه وأعقابهم على التكذيب * الثانى ان الآية مع قوم محمد صلى الله عليه وسلم لان هذه القصص أكثرها المقصود منه تذكير قومه بحال من مضى حتى يمتنعوا من التكذيب ويرتدعوا خوفا من التعذيب فقال فى أثناء حكاياتهم ياقوم ان تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام هلكوا فان كذبتم فانى أخاف عليكم ان يقع بكم ما وقع بغيركم وعلى هذا اقتصر الجلال المحلى والبقاعى وهذه الآية تدل كما قال ابن عادل على أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة لان الرسول اذا بلغ شيأ ولم يبينه فلم يأت بالبلاغ المبين (أولم يروا) أى ينظروا (كيف يبدئ الله) أى الذى له كل كمال (الخلق) أى يخلقهم الله تعالى ابتداء نطفة ثم مضغة ثم علقة (ثم) هو لا غيره (يعيده) أى الخلق كما كان (ان ذلك) أى المذكور من الخلق الاول والثانى (على الله) أى الجامع لكل كمال المنزه عن كل شائبة نقص (يسير) فكيف ينكرون الثانى (فان قيل) متى رأى الانسان بدء الخلق حتى يقال أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق (أجيب) بان المراد بالرؤية العلم الواضح الذى هو كالرؤية فالعاقل يعلم أن البدء من الله تعالى لان الخلق الاول لا يكون من مخلوق والا لما كان الخلق الاول خلقا أول فهو من الله تعالى (فان قيل) علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق ولم يقل أولم يروا أن الله خلق أو بدأ الخلق والكيفية غير معلومة (أجيب) بأن هذا القدر من الكيفية معلوم وهو أنه خلقه ولم يك شيأ مذكورا

وأنه خلقه من نطفة هي من غذاء هو من ماء وتراب وهذا القدر كاف في حصول العلم بامكان الاعادة (فان قيل) لم أبرز اسمه تعالى في ان ذلك على الله يسير ولم يقل ان ذلك عليه كما قال ثم يعيده من غير ابراز (أجيب) بأنه مع اقامة البرهان على أنه يسير أكده باظهار اسمه فانه يوجب المعرفة أيضا بكون ذلك يسيرا فان الانسان اذا سمع لفظ الله وفهم معناه انه الحي القادر بقدرة كاملة لا يعجزه شيء محيط بذرات كل نافذ الارادة يقطع بجواز الاعادة وقرأ حمزة والكسائي وخلف ترو ابالتاء على الخطاب على تقدير القول والباقون بالياء على الغيبة * ولما ساق تعالى هذا الدليل الذي حاج به الخليل قومه قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أي لهؤلاء الذين تعبدوا عبادة تقلدوا بمذاهب آبائهم (سيروا) ان لم تقتدوا بأبيكم ابراهيم عليه الصلاة والسلام وتتأملوا ما أقام من الدليل القاطع والبرهان الساطع (في الارض) ان لم يكفكم النظر في أحوال بلادكم (فانظروا) أي نظر اعتبار (كيف بدأ) ربكم الذي خلقكم ورزقكم (الخلق) من الحيوان والنبات والزروع والاشجار وغير ذلك مما تضمنته الجبال والسهول (ثم الله) أي الحائز لجميع صفات الكمال (ينشئ النشأة الآخرة) بعد النشأة الاولى وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين وألف بعد الشين ممدودة قبل الهمزة والباقون بسكون الشين والهمزة بعد الشين ثم علل ذلك بقوله تعالى (ان الله على كل شيء قدير) لان نسبة الاشياء كلها اليه واحدة (فان قيل) ابرز اسم الله في الآية الاولى عند البدء فقال كيف يبدئ الله وأضمره عند الاعادة وههنا أضمره عند البدء وأبرزه عند الاعادة فقال ثم الله ينشئ (أجيب) بأنه في الآية الاولى لم يسبق ذكر الله تعالى بفعل حتى يسند اليه البدء فقال كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده اكتفاء بالاولى وفي الثانية كان ذكر البدء مسندا الى الله تعالى فاكتفى به ولم يبرزه وأما اظهاره عند الانشاء ثانيا فقال ثم الله ينشئ مع انه كان يكفي أن يقول ثم ينشئ النشأة الآخرة فلحكمة بالغة وهي انه مع اقامة البرهان على امكان الاعادة أظهر اسمه حتى ينبههم به صفات كماله ونعوت جلاله فيقطع بجواز الاعادة فقال ثم الله مظهرا ليقع في ذهن الانسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ ارادته فيعترف بوقوع بدئه وجواز اعادته (فان قيل) قال في الاولى أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق بلفظ المستقبل وههنا قال فانظروا كيف بدأ الخلق بلفظ الماضي فما الحكمة (أجيب) بأن الدليل الاول هو الدليل النفسي الموجب للعلم وهو موجب للعلم ببدء الخلق وأما الدليل الثاني فمعناه ان كان ليس لكم علم بأن الله يبدئ الخلق فانظروا الى الاشياء المخلوقة فيحصل لكم العلم بأن الله بدأ خلقا ويحصل من هذا القدر العلم بأنه ينشئ كما بدأ ذلك (فان قيل) قال في هذه الآية ان الله على كل شيء قدير وقال في الاولى ان ذلك على الله يسير فما فائدته (أجيب) بأن فيه فائدتين الاولى ان الدليل الاول هو الدليل النفسي وهو وان كان موجبا للعلم التام ولكن عند انضمام الدليل الآفاقي اليه يحصل العلم التام لانه بالنظر الى نفسه علم حاجته الى غيره ووجوده منه فتم علمه بأن كل شيء من الله تعالى فقال عند تمام الدليل ان الله على كل شيء قدير وقال عند الدليل الواحد ان ذلك وهو الاعادة على

الله يسير الثانية ان العلم الاول أتم وان كان الثانى أعم وكون الاعم يسيرا على الفاعل أتم من كونه مقدورا له بدليل قولك لمن يحمل مائة رطل انه قادر عليه فاذا سئلت عن حمله عشرة ارطال تقول ذلك سهل يسير عليه فتقول كان التقدير ان لم يحصل لكم العلم التام بأن هذه الامور عند الله سهلة يسيرة فسيروا فى الارض لتعلموا أنه مقدور ونفس كونه مقدورا كاف فى امكان الاعادة ولما تم الدليل على الاعادة أنتج لا محالة أنه (يعذب) أى بعدله (من يشاء) تعذيبه أى منكم ومن غيركم فى الدنيا والآخرة (ويرحم) أى بفضله ورحمته (من يشاء) رحمته فلا عجب ولا (فان قيل) لم قدم التعذيب فى الذكر على الرحمة مع أن رحمته سابقة كما قال صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى سبقت رحمتى غضبى (أجيب) بأن السابق ذكر الكفار فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقه بحكم الايعاد وعقبه بالرحمة فذكر الرحمة وقع تبعا لئلا يكون العذاب مذكورا وحده وهذا تحقيق قوله رحمتى سبقت غضبى (واليه) وحده (تقلبون) أى تردون بعد موتكم بأيسر سعى (وما أنتم بمعجزين) ربكم عن ادراككم (فى الارض) كيف اتقلبتم فى ظاهرها وباطنها واختلف فى معنى قوله تعالى (ولا فى السماء) لان الخطاب مع الآدميين وهم ليسوا فى السماء فقال الفراء معناه ولا من فى السماء بمعجزان عصى كقول حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه

فمن يهجو رسول الله منكم * ويمدحه وينصره سواء

أراد ومن يمدحه وينصره فأضمر من يريد أنه لا يعجز أهل الارض من فى الأرض ولا أهل السماء من فى السماء فالمعنى ان من فى السماء عطف بتقدير ان يعصى وقال الفراء وهذا من غوامض العربية وقال قطرب وما أنتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء لو كنتم فيها كقول القائل ما يفوتنى فلان هنا ولا فى البصرة أى ولا فى البصرة لو كان بها وكقوله تعالى ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض أى على تقدير أن تكونوا فيها وقال ابن عادل وأبعد من ذلك من قدر موصولين محذوفين أى وما أنتم بمعجزين من فى الارض من الجن والانس ولا من فى السماء من الملائكة فكيف تعجزون خالقهما وعلى قول الجمهور يكون المفعول محذوفا أى وما أنتم بمعجزين أى فائتين ما يريد الله تعالى وقال البقاعى ويمكن أن يكون له نظر الى قصة نمروذ وبنائه الصرح الذى أراد به التوصل الى السماء لاسيما والآيات مكتنفة بقصة ابراهيم عليه السلام من قبلها ومن بعدها * ولما أخبرهم بأنهم مقدور عليهم وكان ربما توهم أن غيرهم ينصرهم صرح بنفيه فى قوله تعالى (وما لكم) أى أجمعين وأشار الى سفول رتبة كل من سواه بقوله تعالى (من دون الله) أى غيره وأكد النفى باثبات الجار بقوله (من ولى) أى قريب يحميكم لاجل القرابة (ولا نصير) ينصركم من عذابه * ولما بين الاصلين التوحيد والاعادة وقررهما بالبرهان هدد كل من خالفه على سبيل التفصيل بقوله تعالى (والذين كفروا) أى ستروا ما أظهرت لهم أنوار العقول (بآيات الله) أى بسبب دلائل الملك الاعظم المرئية والمسموعة التى لا أوضح منها (ولقائه) بالبعث بعد الموت الذى أخبر به وأقام الدليل عليه

(أولئك) أى البعداء البغضاء (يئسوا) أى متحققين يأسهم من الآن بل من الازل لانهم لم يرجوا لقاء الله يوما ولا قال قائل منهم رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين (من رحمتى) أى من أن أفعل بهم من الاكرام بدخول الجنة وغيرها فعل الراحم (وأولئك لهم عذاب أليم) أى مؤلم بالغ ألمه (فان قيل) هلا اكتفى بقوله تعالى أولئك مرة واحدة (أجيب) بأن ذلك كرر تفخيما للامر فاليأس وصف لهم لان المؤمن دائما يكون راجيا خائفا وأما الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولا خوف وعن قتادة ان الله تعالى ذم قوما هانوا عليه فقال أولئك يئسوا من رحمتى وقال ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون فينبغى للمؤمن أن لا ييأس من روح الله ولا من رحمته وأن لا يأمن عذابه وعقابه فصفة المؤمن أن يكون راجيا لله خائفا ثم ان الله تعالى أخبر عن فظاظة قوم ابراهيم وتكبرهم بقوله تعالى (فما كان جواب قومه) لما أمرهم بالتوحيد وتقوى الله تعالى (الا أن قالوا) أى قال بعضهم لبعض او قاله واحد منهم وكان الباقون راضين (اقتلوه أو حرقوه) بالنار (فان قيل) كيف سمى قولهم اقتلوه أو حرقوه جوابا مع انه ليس بجواب (أجيب) عنه من وجهين أحدهما أنه خرج مخرج كلام المتكبر كما يقول الملك لرسول خصمه جوابكم السيف مع أن السيف ليس بجواب وانما معناه لا أقابل بالجواب وانما أقابل بالسيف وثانيهما أن الله تعالى أراد بيان ضلالتهم وأنهم ذكروا ما ليس بجواب فى معرض الجواب فبين أنهم لم يكن لهم جواب أصلا وذلك أن من لا يجيب غيره وسكت لا يعلم أنه يقدر على الجواب ام لا لجواز أن يكون سكوته عن الجواب لعدم الالتفات وأما اذا أجاب بجواب فاسد علم انه قصد الجواب وما قدر عليه ثم انهم استقر رأيهم على الاحراق فجمعوا الحطب الى أن ملؤا ما بين الجبال وأضرموا فيه النار حتى احرقت ما دنا منها بعظيم الاشتعال وقذفوه فيها بالمنجنيق (فأنجاه الله) بماله من كمال العظمة (من النار) أى من احراقها وأذاها ونفعته بأن أحرقت وثاقه (ان فى ذلك) أى ما ذكر من أمره وما اشتملت عليه قصته من الحكم (لآيات) أى براهين قاطعة فى الدلالة على جميع أمر الله من تصرفه فى الاعيان والمعانى لكون النار لم تحرقه وأحرقت وثاقه وكل ما مر عليها من طائر واخمادها مع عظمتها فى زمان يسير وانشاء روض مكانها وروى انه لم ينتفع فى ذلك اليوم الذى ألقى فيه ابراهيم عليه السلام بالنار وذلك لذهاب حرها (لقوم يؤمنون) أى يصدقون بتوحيد الله وقدرته لانهم المنتفعون بالفحص عنها والتأمل فيها (وقال) أى ابراهيم عليه السلام غير هائب لتهديدهم بقتل أو غيره (انما اتخذتم) أى اخذتم باصطناع وتكلف وأشار الى عظمة الله وعلو شأنه (من دون الله) الذى كل شئ تحت قهره (أوثانا) أى أصناما تعبدونها وما مصدرية (مودة بينكم) أى توادتم على محبتها (فى الحياة الدنيا) بالاجتماع عندها والتواصل فى أمرها بالتناصر والتعاضد كما يتفق ناس على مذهب فيكون ذلك سبب تصادقهم وهذا دال على أن جمع الفسوق لاهل الدنيا هو العادة المستمرة وان الحب فى الله والاجتماع له عزيز جدا لما فيه من قطع علائق الدنيا وشهواتها التى زينت للناس على ما فيها من الالباس

وعظيم البأس وقرأ نافع وابن عامر وشعبة مودة بالنصب والتنوين وبينكم بنصب النون فنصب مودة على أنه مفعول له أي لأجل مودة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي برفع مودة من غير تنوين وكسر النون على أن مودة خبر مبتدأ محذوف أي هي مودة والباقون بنصب مودة من غير تنوين وكسر النون وهذا أيضا كاعراب المنونة * ولما أشار الى هذا النفع الذي هو في الحقيقة ضر أتبع ذلك مايعقبه من الضر البالغ معبرا باداة البعد بقوله (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) فينكر كل منكم محاسن أخيه ويتبرأ منه تلعن الاتباع القادة وتلعن القادة الاتباع كما قال تعالى (ويلعن بعضكم بعضا) وتنكرون كلكم عبادة الاوثان تارة اذا تحققتم انها ضر لا نفع لها وتقرون بها أخرى طالبين نصرتها راجين منفعتها وتنكر الاوثان عبادتكم وتجحد منفعتكم (ومأواكم) أي جميعا أنتم والاوثان (النار وما لكم من ناصرين) يخلصونكم منها * ثم بين تعالى أول من آمن بابراهيم بقوله تعالى (فآمن له) أي لأجل دعائه له مع ما رأى من الآيات (لوط) وكان ابن أخيه هاران وهو أول من صدقه من الرجال (وقال) أي ابراهيم عليه السلام لما وجد بالانكار من الهجرة أصعوبتها (اني مهاجر) أي خارج من أرضي وعشيرتي على وجه الهجر فمنتقل ومنحاز (الى ربي) أي الى أرض ليس فيها أنيس ولا عشير ولا من ترجى نصرته ولا من تنفع مودته فهاجر من كوثى من سواد الكوفة الى حران ثم منها الى الارض المقدسة فكانت هجرتان ومن ثم قالوا لكل نبي هجرة ولابراهيم عليه السلام هجرتان وهو أول من هاجر في الله وكان معه في هجرته لوط وامرأته سارة قال مقاتل وكان اذ ذاك ابن خمس وسبعين سنة (فان قيل) لم لم يقل اني مهاجر الى حيث أمرني ربي مع أن المهاجرة توهم الجهة (أجيب) بأن هذا القول ليس في الاخلاص كقوله الى ربي لان الملك اذا صدر منه أمر برواح الاخيار ثم ان واحدا منهم سار الى ذلك الموضع لغرض نفسه فقد هاجر الى حيث أمره الملك ولكن ليس لاخلاصه الوجهه فلذا قال مهاجر الى ربي يعني بوجهي الى الجهة المأمور بالهجرة اليها ليس طلبا للجهة وانما هو طلب لله ثم علل ذلك بما يسليه عن فراق أرضه وأهل وده من ذوي رحمه وأنسابه بقوله (انه هو) أي وحده (العزيز) أي فهو جدير باعزاز من انقطع اليه (الحكيم) فهو اذا أعز أحدا منعته حكمته من التعرض له بالاذلال بفعل أو مقال * ولما كان التقدير فأعززناه بما ظن باعطف عليه قوله (ووهبنا له) أي بعظيم قدرتنا شكرا على هجرته (اسحق) من زوجته سارة رضي الله تعالى عنها التي جمعت الى العقم في شبابها اليأس في كبرها (ويعقوب) من ولده اسحق عليهما السلام (فان قيل) لم لم يذكر اسمعيل عليه السلام وذكر اسحق وعقبه (أجيب) بأن هذه السورة لما كان السياق فيها للامتحان وكان ابراهيم عليه السلام قد ابتلي في اسمعيل بفراقه مع أمه ووضعهما في مضيعة من الارض لا أنيس فيها لم يذكره تصريحا في سياق الامتنان وأفرد اسحق لانه لم يبتل فيه بشئ من ذلك ولان الامتنان به لكون أمه عجوزا عقيما أكبر وأعظم لانها أعجب وذكر اسمعيل تلويحا في قوله تعالى (وجعلنا) أي بعزتنا وحكمتنا (في ذريته) من ولد اسحق واسمعيل

عليهما السلام (النبوة) فلم يكن بعده نبي أجنبي عنه بل جميع الانبياء من ذرية اسحق الا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فانه من ذرية اسمعيل قاله بعض العلماء (فان قيل) ان الله تعالى جعل في ذريته النبوة اجابة لدعائه والوالد يسوي بين أولاده فكيف صارت النبوة في ولد اسحق عليه السلام أكثر (أجيب) بأن الله تعالى قسم الزمان من وقت ابراهيم الى يوم القيامة قسمين والناس أجمعين فالقسم الاول من الزمان بعث الله تعالى فيه أنبياء فيهم فضائل جمة وجاؤا تترى واحدا بعد واحد ومجتمعين في عصر واحد كلهم من ذرية اسحق عليه السلام ثم في القسم الثاني من الزمان أخرج من ذرية ولده اسمعيل عليه السلام واحدا اجتمع فيه ما كان فيهم وأرسله الى كافة الخلق وهو محمد صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم النبيين وقد دام الخلق على دين أولاد اسحق أكثر من أربعة آلاف سنة ولا يبعد أن تبقى الخلق على دين ذرية اسمعيل ذلك المقدار (والكتاب) فلم ينزل كتاب الا على أولاده (فان قيل) لم أفرد الكتاب مع انها أربعة التوراة والانجيل والزبور والفرقان (أجيب) بأنه أفرده ليدل مع تناوله جنسية الكتب الاربعة انه لا شئ يستحق أن يكتب الا ما أنزل فيها أو كان راجعا اليها ولو جمع لم يفد هذا المعنى (وآتيناه أجره) على هجرته (في الدنيا) بما خصصناه به مما لا يقدر عليه غيرنا من سعة الرزق ورغد العيش وكثرة الولد والعزم في الشيخوخة وكثرة النسل والثناء الحسن والمحبة من جميع الخلق وغير ذلك قال الرازي وفي الآية لطيفة وهي ان الله تعالى بدل جميع أحوال ابراهيم عليه السلام في الدنيا باضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار كان وحيدا فريدا فبدل الله تعالى وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته ولما كان أولا بعث الى قومه وأقاربه الاقربين ضالين مضلين من جملتهم آزر بدل الله تعالى أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذريته الذين جعلت فيهم النبوة والكتاب وكان أولا لا جاه له ولا مال وهما غاية المذلة الدنيوية آتاه الله تعالى من المال والجاه حتى كان له من المواشي ما علم الله تعالى عدده حتى قيل انه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس بأطواق الذهب وأما الجاه فصار بحيث تقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الانبياء الى يوم القيامة فصار معروفا بشيخ المرسلين بعد أن كان خاملا حتى قال قائلهم سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وهذا الكلام لا يقال الا للمجهول عند الناس (وانه في الآخرة) أي التي هي الدار ومحل الاستقرار (لمن الصالحين) أي الذين خصصناهم بالسعادة وجعلنا لهم الحسنى وزيادة قال ابن عباس مثل آدم ونوح وفي اعراب قوله تعالى (ولوطا) ما تقدم في اعراب نصب ابراهيم (اذ) أي حين (قال لقومه) أهل سدوم الذين سكن فيهم وصاهرهم وانقطع اليهم فصاروا قومه حين فارق عمه الخليل ابراهيم عليهما السلام منكرا ما رأى من حالهم وقبيح فعالهم مؤكدا له (أئنكم لتأتون الفاحشة) وهي ادبار الرجال المجاوزة للحد في القبح فكأنه لذلك لا فاحشة غيرها ثم علل كونها فاحشة استئنافا بقوله (ما سبقكم بها) وهي حالة مبينة لعظيم جراءتهم على المنكر أي غير مسبوقين به وأغرق في النفي بقوله (من أحد) وزاد بقوله (من العالمين) أي كلهم من الانس والجن أي فضلا عن خصوص الناس ثم كرر الانكار

تأكيد التجاوز وقبحها الذى ينكرونه بقوله (أئنكم لتأتون الرجال) اتيان الشهوة وعطف عليها ما ضموه اليها من المناكر بقوله (وتقطعون السبيل) أى طريق المارة بالقتل وأخذ المال بفعلكم الفاحشة بمن عبر بكم فترك الناس الممر بكم أو تقطعون سبيل النساء بالاعراض عن الحرث واتيان ما ليس بحرث (وتأتون فى ناديكم المنكر) أى تفعلون فى مجتمعكم فعل الفاحشة بعضكم ببعض وهو مما تنكره الشرائع والمروآت والعقول وأنتم لا تتحاشون عن شئ منه فى المجمع الذى يتحاشى فيه الانسان من فعل خلاف الاولى من غير أن يستحيى بعضكم من بعض قال ابن عباس المنكر هو الحذف بالحصا والرمى بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الازرار والسباب والتضارط فى مجالسهم والفحش والمزاح وعن عائشة رضى الله تعالى عنها كانوا يتحابقون وقيل السخرية بمن عبر بهم وقيل المجاهرة فى ناديهم بذلك العمل وكل معصية فاظهارها أقبح من سترها ولذلك جاء من خرق جلباب الحياء فلا غيبة له ولا يقال للمجلس ناديا الا مادام فيه أهله فاذا قاموا عنه لم يسم ناديا وعن مكحول فى أخلاق قوم لوط مضغ العلك وتطريف الاصابع بالحناء وحل الازرار والصفير والحذف واللوطية ودل على عنادهم بقوله تعالى مسببا عن هذه الفضائح بالنهى عن تلك القبائح (فما كان جواب قومه) أى الذين فيهم قوة ونجدة بحيث يخشى شرهم ويتقى أذاهم لما أنكر عليهم ما أنكر (الا أن قالوا) عنادا وجهلا واستهزاء (ائتنا بعذاب الله) وعبروا بالاسم الاعظم زيادة فى الجراءة (ان كنت من الصادقين) أى فى استقباح ذلك وان العذاب نازل بفاعليه (فان قيل) قال قوم ابراهيم عليه السلام اقتلوه أو حرقوه وقال قوم لوط ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين وما هددوه مع ان ابراهيم كان أعظم من لوط فان لوطا كان من قومه (أجيب) بان ابراهيم كان يقدح فى دينهم ويشتم آلهتهم ويعدد صفات نقصهم بقوله لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يغنى والسب فى الدين صعب فجعلوا جزاءه القتل والتحريق ولوط كان ينكر عليهم فعلهم وينسبهم الى ارتكاب المحرم وهم ما كانوا يقولون ان هذا واجب من الدين فلم يصعب عليهم مثل ما صعب على قوم ابراهيم كلام ابراهيم فقالوا انك تقول ان هذا حرام والله يعذب عليه فان كنت صادقا فائتنا بالعذاب (فان قيل) ان الله تعالى قال فى موضع آخر فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم وقال هنا فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا بعذاب الله فكيف الجمع (أجيب) بأن لوطا كان ثابتا على الارشاد مكررا على النهى والوعيد فقالوا أولا ائتنا ثم لما كثر ذلك منه ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوا ولما يئس منهم طلب النصرة من الله بأن (قال) أى لوط عليه السلام معرضا عنهم مقبلا بكليته على المحسن اليه (رب) أى أيها المحسن الىّ (انصرنى على القوم) أى الذين فيهم من القوة ما لا طاقة لى بهم معه (المفسدين) أى العاصين باتيان الرجال ووصفهم بذلك مبالغة فى استنزال العذاب واشعارا بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب ولما دعا لوط على قومه بقوله رب الى آخره استجاب الله تعالى دعاءه وأمر ملائكته باهلاكهم

وأرسلهم مبشرين ومنذرين كما قال تعالى (ولما جاءت) وأسقط ان لانه لم يتصل القول بأول المجيء
بل كان قبله السلام والضيافة وعظم الرسل بقوله تعالى (رسلنا) أى من الملائكة تعظيما لهم
فى أنفسهم (ابراهيم بالبشرى) أى باسحق ولداله ويعقوب ولدالاسحق عليهما السلام (قالوا)
أى الرسل عليهم السلام لابراهيم عليه السلام بعد أن بشروه وتوجهوا نحو سدوم (انا مهلكوا
أهل هذه القرية) أى قرية سدوم والاضافة لفظية لان المعنى على الاستقبال ثم عللوا ذلك
بقولهم (ان أهلها كانوا ظالمين) أى غريقين فى هذا الوصف فلا حيلة فى رجوعهم عنه
(فان قيل) قال تعالى فى قوم نوح فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ففى ذلك اشارة الى أنهم كانوا
على ظلمهم حين أخذهم ولم يقل فأخذهم وكانوا ظالمين وهنا قال ان أهلها كانوا ظالمين ولم يقل
وهم ظالمون (أجيب) بأنه لا فرق فى الموضعين فى كونهما مهلكين وهم مصرون على الظلم
لكن هناك الاخبار من الله تعالى عن الماضى حيث قال فأخذهم وهم عند الوقوع
فى العذاب ظالمون وههنا الاخبار من الملائكة عن المستقبل حيث قالوا انا مهلكو فذكروا
ما أمروا به فان الكلام عن الملك بغير اذنه سوء أدب وهم كانوا ظالمين فى وقت الامر وكونهم
يبقون كذلك لا علم لهم به * ولما قالت الملائكة لابراهيم عليه السلام ذلك (قال) لهم مؤكدا
تنبيها على حالة ابن أخيه (ان فيها لوطا) ولم يقل عليه السلام ان منهم لوطا لانه نزيل عندهم
فلذا جاء بالتصريح بالسؤال عنه (قالوا) أى الرسل عليهم السلام له (نحن أعلم) منك
(بمن فيها) أى من لوط وغيره (لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين) أى الباقين
فى العذاب وهم الفجرة لتم وجههما معهم الغبرة وقرأ حمزة والكسائى بسكون النون الثانية
وتخفيف الجيم بعدها والباقون بفتح النون وتشديد الجيم بعدها (ولما أن جاءت رسلنا لوطا)
أى المعظمون بنا (سيء) أى حصلت له المساءة والغم (بهم) أى بسببهم مخافة أن يقصدهم
قومه بسوء لما رأى من حسن اشكالهم وهو يظن انهم من الناس لانهم جاؤا من عند ابراهيم
عليه السلام اليه على صورة البشر روى انهم كانوا يجلسون مجالسهم وعند كل رجل منهم قصعة
فيها حصا فاذا مربهم عابر سبيل حذفوه فأيهم أصابه كان أولى به قيل انه كان يأخذ معه
وينكحه ويغرمه ثلاثة دراهم ولهم قاض بذلك ولهذا يقال أجور من قاضى سدوم (وضاق)
أى بإعمال الحيلة فى الدفع عنهم (بهم ذرعا) أى ذرعه أى طاقته والاصل فى ذلك أن من
طالت ذراعه نال ما لا يناله قصيرها يضرب مثلا فى العجز والقدرة * ولما رأوه على هذه الحالة
خفضوا عليه (قالوا) له (لا تخف) انا رسل ربك لاهلاكهم (ولا تحزن) أى على
تمكنهم منا وعلى أحد ممن يهلك فانه ليس فى أحد منهم خير يؤسف عليه بسببه فانهم وصلوا
فى الخبث الى حد لا مطمع فى الرجوع عنه مع ملازمته لدعائهم من غير ملل ولا ضجر ثم عللوا
ذلك بقولهم مبالغين فى التأكيد (انا منجوك) أى مبالغون فى انجائك وقولهم (وأهلك)
منصوب على محل الكاف (الا امرأتك كانت من الغابرين) فان قيل القوم عذبوا بسبب
ما صدر منهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها ذلك فكيف كانت من الغابرين معهم

أجيب بأن الدال على الشر كفاعله كما ان الدال على الخير كفاعله وهي كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم فبالدلالة صارت كأحدهم (فان قيل) ما مناسبة قولهم انا منجوك لقولهم لا تخف ولا تحزن فان خوفه ما كان على نفسه (أجيب) بأن لوطا لما ضاق عليهم وحزن لاجلهم قالوا له لا تخف اى علينا ولا تحزن لاجلنا فانا ملائكة ثم قالوا له يا لوط خفت علينا وحزنت لاجلنا ففي مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك وننجيك وفي مقابلة حزنك نزيل حزنك ولا نتركك تفجع في أهلك فقالوا انا منجوك وأهلك وقرأ ابن كثير وشعبة وحمزة والكسائي بسكون النون وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون وتشديد الجيم ثم انهم بعد بشارة لوط بالتنجية قالوا له (انا منزلون) اى لا محالة (على اهل هذه القرية رجزا) اى عذابا (من السماء) فهو عظيم وقعه شديد صدعه واختلف في ذلك الرجز فقيل حجارة وقيل نار وقيل خسف وعلى هذا يكون المراد ان الامر بالخسف والقضاء به من السماء وقرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد الزاى والباقون بسكون النون وتخفيف الزاى *(تنبيه)* كلام الملائكة مع لوط جرى على نمط كلامهم مع ابراهيم عليه السلام فقدموا البشارة على انزال العذاب ثم قالوا انا منجوك ثم قالوا انا منزلون ولم يعللوا التنجية فلم يقولوا انا منجوك لانك نبي أو عابد وعللوا الاهلاك فقالوا (بما كانوا يفسقون) أي يخرجون في كل وقت من دائرة العقل والحياء كقولهم هناك ان أهلها كانوا ظالمين * ولما كان التقدير ففعلت رسلنا ما وعدوه به من انجائه واهلاك جميع قراهم فتركناها كأن لم يسكنها أحد عطف عليه قوله تعالى (ولقد تركنا) أي بما لنا من العظمة (منها) أي من تلك القرى (آية) أي علامة على قدرتنا على كل ما نريد (بينة) أي ظاهرة قال ابن عباس منازلهم الخربة وقال قتادة هي الحجارة التي أهلكوا بها أبقاها الله تعالى حتى أدركها أوائل هذه الامة وقال مجاهد هو ظهور الماء الاسود على وجه الارض (فائدة) اتفق القراء على ادغام الدال في التاء *(تنبيه)* في هذه الآية اشارة الى غفلة المخاطبين بهذه القصة من العرب وغيرهم وأنه ليس بينهم وبين الهدى الا تفكرهم في أمرهم مع الانخلاع من الهوى واغا يكون ذلك (لقوم يعقلون) أي يتدبرون فعدم من لم يستبصر بذلك غير عاقل *(تنبيه)* ههنا أسئلة الاول كيف جعل الآية في نوح وابراهيم عليهما السلام بالنجاة فقال فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية وقال فأنجاه الله من النار ان في ذلك لآيات وجعل ههنا الهلاك آية الثاني ما الحكمة في قوله تعالى في السفينة جعلناها آية ولم يقل بينة وقال ههنا آية بينة الثالث ما الحكمة في قوله تعالى هناك للعالمين وقال ههنا لقوم يعقلون (أجيب) عن الاول بأن الآية في ابراهيم كانت في النجاة لان في ذلك الوقت لم يكن اهلاك وأما في نوح فلان الانجاء من الطوفان الذي علا الجبال بأسرها أمر عجيب الهي وما به النجاة وهو السفينة كان باقيا والغرق لم يبق له بعده أثر محسوس في البلاد فجعل الباقي آية وأما ههنا فنجاة لوط لم تكن بأمر يبقى أثره للحس والهلاك أثره محسوس في البلاد فجعل الآية الامر الباقي ههنا البلاد وهناك السفينة (وههنا لطيفة) وهي ان الله تعالى آية قدرته موجودة

فى الانجاء والاهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الانجاء لانها أثر الرحمة وأخر آيات الهلاك لانها أثر الغضب ورحمته سابقة وعن الثانى بأن الانجاء بالسفينة لا يفتقر الى أمر آخر وأما الآية ههنا الخسف وجعل ديارهم المعمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد وانما ذلك بارادة قادر يخصصه بمكان دون مكان وبزمان دون زمان فهى بينة لا يمكن الجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول فى السفينة أمرها يكون كذلك فيقال له فلو دام الماء حتى ينفد زادهم كيف كانت تحصل لهم النجاة ولو سلط الله تعالى عليهم الريح العاصفة كيف تكون أحوالهم وعن الثالث بأن السفينة موجودة معلومة فى جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال السفينة يتذكرون بها حالة نوح واذا ركبوها يطلبون من الله النجاة منه ولا يثق أحد بمجرد السفينة بل يكون دائم الفكر بحيث القلب متضرعا الى الله تعالى طالبا للنجاة وأما أثر الهلاك فى بلاد لوط ففى موضع مخصوص لا يطلع عليه الا من مر بها ويصل اليها ويكون له عقل يعلم أن ذلك من الله تعالى وارادته بسبب اختصاصه بمكان دون مكان ووجوده فى زمان دون زمان ولما كان شعيب عليه السلام أيضا قد ابتلى بتكذيب قومه اتبع قصته بقصة لوط بقوله تعالى (والى مدين) أى ولقد أرسلنا أو بعثنا الى مدين (أخاهم) أى من النسب والبلد (شعيبا) ومدين قيل اسم رجل فى الاصل وجهل وله ذرية فاشتهر فى القبيلة كتميم وقيس وغيرهما وقيل اسم ماء نسب القوم اليه فاشتهر فى القوم قال الرازى والاول كأنه أصح لان الله تعالى أضاف الماء الى مدين بقوله تعالى ولما ورد ماء مدين ولو كان اسما للماء لكانت الاضافة غير صحيحة أو غير حقيقية والاصل فى الاضافة التغاير والحقيقة (فان قيل) قال تعالى فى نوح ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقدم نوحا فى الذكر وعرف القوم بالاضافة اليه وكذلك فى ابراهيم ولوط وههنا ذكر القوم أولا وأضاف اليهم أخاهم شعيبا فما الحكمة فى ذلك (أجيب) بأن الاصل فى الجميع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لان الرسل لا تبعث الى غير معينين وانما تبعث الرسل الى قوم محتاجين الى الرسل فيرسل الله تعالى اليهم من يختاره غير ان قوم نوح وابراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاصة ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها فعرفوا بنبيهم عليه السلام فقيل قوم نوح وقوم لوط فأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله وقال تعالى والى عاد أخاهم هودا والى مدين أخاهم شعيبا (فقال) أى فتسبب عن ارساله وبعثه ان قال (يا قوم اعبدوا الله) أى الملك الاعلى وحده ولا تشركوا به شيأ فان العبادة التى فيها شرك ظاهر أو خفى عدم لان الله تعالى أغنى الشركاء فهو لا يقبل الا ما كان له خالصا (فان قيل) لم يذكر عن لوط عليه السلام انه أمر قومه بالعبادة والتوحيد وذكر عن شعيب ذلك (أجيب) بأن لوطا كان من قوم ابراهيم وفى زمانه وكان ابراهيم سبقه بذلك واجتهد فيه حتى اشتهر الامر بالتوحيد عند الخلق من ابراهيم فلم يحتج لوط الى ذكره وانما ذكر ما اختص به من المنع من الفاحشة وغيرها وان كان هو أيضا يأمر بالتوحيد اذ ما من رسول الا ويكون أكثر كلامه فى التوحيد وأما شعيب فكان بعد انقراض ذلك الزمن

وذلك اليوم فكان هو أصلا فى التوحيد فبدأ به * ولما كان السياق لاقامة الادلة على البعث الذى هو من مقاصد السورة قال (وارجوا اليوم الآخر) أى وافعلوا ما ترجون به العاقبة فأقيم المسبب مقام السبب أو أمروا بالرجاء والمراد اشتراط ما يسوغه من الايمان كما يؤمر الكافر بالشرعيات على ارادة الشرط وقيل هو من الرجاء بمعنى الخوف (ولا تعثوا فى الارض) حال كونكم (مفسدين) أى متعمدين الفساد * ولما تسبب عن هذا النصح وتعقبه تكذيبهم تسبب عنه وتعقبه اهلاكهم تحقيقا لان أهل السيآت لا يسبقوننا قال تعالى (فكذبوه) فى ذلك (فان قيل) ما حكاه الله تعالى عن شعيب أمر ونهى والامر لا يكذب ولا يصدق فان من قال لغيره اعبد الله لا يقال له كذبت (أجيب) بأن شعيبا كان يقول الله واحد فاعبدوه والحشر كائن فارجوه والفساد محرم فلا تقربوه وهذه فيها اخبارات فكذبوه فيما أخبر به (فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة الشديدة وعن الضحاك صيحة جبريل لان القلوب رجفت بها (فأصبحوا فى دارهم) أى فى بلادهم أو دورهم فاكتفى بالواحد ولم يجمع لأمن اللبس (جاثمين) أى باركين على الركب ميتين (فان قيل) قال تعالى فى الاعراف وههنا فأخذتهم الرجفة وقال فى هود فأخذتهم الصيحة والحكاية واحدة (أجيب) بأنه لا تعارض بينهما فان الصيحة كانت سببا للرجفة لان جبريل لما صاح تزلزلت الارض من صيحته فرجفت قلوبهم والاضافة الى السبب لا تنافى الاضافة الى سبب السبب (فان قيل) ما الحكمة فى انه تعالى اذا قال فأخذتهم الصيحة قال فى ديارهم وحيث قال فأخذتهم الرجفة قال فى دارهم (أجيب) بان المراد من الدار هو الديار والاضافة الى الجمع يجوز أن تكون بلفظ الجمع وأن تكون بلفظ الواحد اذا أمن اللبس كما مر وانما اختلف اللفظ للطيفة وهى ان الرجفة هائلة فى نفسها فلم تحتج الى تهويلها وأما الصيحة فغيرها ئلة فى نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى أخذت الزلزلة فى الارض ذكر الديار بلفظ الجمع حتى تعلم هيبتها والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة عند كل أحد فلم تحتج الى معظم لامرها * ولما كان معنى ختام قصة مدين فأهلكناهم عطف على ذلك المعنى قوله تعالى (وعادا) أى وأهلكنا أيضا عادا (وثمودا) مع ما كانوا فيه من العتو والتكبر والعلو لان من المقاصد العظيمة الدلالة على اتباع بعض هذه الامم بعضا فى الخير والشر على نسق والجرى بهم فى اهلاك المكذبين وانجاء المصدقين طبقا عن طبق وقرأ حمزة وحفص فى الوصل وثمود بغير تنوين على تأويل القبيلة وفى الوقف بسكون الدال والباقون بالتنوين وفى الوقف بالالف (وقد تبين لكم) أى ما حل بهم من مساكنهم أى ما وصف من هلاكهم وما كانوا فيه من شدة الاجسام وسفه الاحلام وعلو الاهتمام وتقرب الاذهان وعظم الشأن عند مروركم بتلك المساكن ونظركم اليها فى ضربكم فى التجارة الى الشأم فصرفوا فى الاقبال على الاستمتاع بالعرض الفانى من هذه الدنيا فأملوا بعيدا وبنوا مشيدا ولم يغن عنهم شئ من ذلك شيأ من أمر الله (وزين لهم الشيطان) البعيد من الرحمة المحترق باللعنة بقوة احتياله ومحبوب ضلاله ومحاله (أعمالهم) أى الفاسدة من الكفر والمعاصى فأقبلوا بكليتهم عليها (فصدهم) أى

فتسبب

فتسبب عن ذلك صدهم (عن السبيل) أى منعهم عن سلوك الطريق الذى لا طريق الا هو لكونه يوصل الى النجاة وغيره يوصل الى الهلاك * ولما كان ذلك ربما ظن لفرط غباوتهم قال (وكانوا مستبصرين) أى معدودين بين الناس من البصراء العقلاء * ولما كان فرعون ومن ذكر معه من العتو بمكان لا يخفى لما أوتوا من القوة بالاموال والرجال قال (وقارون) أى وأهلكنا قارون وقومه لان وقوعه فى أسباب الهلاك أعجب لكونه من بنى اسرائيل ولانه ابتلى بالمال والعلم فكان ذلك سبب اعجابه فتكبر على موسى وهرون عليهما السلام فكان ذلك سبب هلاكه (وفرعون وهامان) وزيره الذى أوقد له على الطين فباع سعادته لكونه ذنبا لغيره (ولقد جاءهم) من قبل (موسى بالبينات) أى بالحجج الظاهرات التى لم تدع لبسا (فاستكبروا) أى طلبوا أن يكونوا أكبر من كل كبير بأن كانت أفعالهم افعال من يطلب ذلك (فى الارض) بعد مجىء موسى عليه السلام اليهم أكثر مما كانوا قبله (وما كانوا سابقين) أى فائتين بل أدركهم أمر الله من سبق طالبه اذا فاته (فكلا) أى فتسبب عن تكذيبهم أن كلا (أخذنا) أى بما لنا من العظمة (بذنبه) أى أخذ عقوبة ليعلم أنه لا أحد يعجزنا (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) أى ريحا عاصفا فيها حصباء كقوم لوط وعاد (ومنهم من أخذته الصيحة) أى التى تظهر شدتها الريح الحاملة لها الموافقة لقصدها فترجف لعظمتها الارض كمدين وثمود (ومنهم من خسفنا به الارض) أى غيبناه فيها كقارون وجماعته (ومنهم من أغرقنا) بالغمر فى الماء كقوم نوح وفرعون وقومه وعذاب قوم صالح المعد فى الاغراق والمعد فى الخسف فتارة يهلك بريح تقذف بالحجارة من السماء كقوم لوط او من الارض كعاد (وما كان الله) أى الذى لا شىء من الجلال والكمال الا له (ليظلمهم) أى فيعذبهم بغير ذنب (ولكن كانوا أنفسهم) لا غيرها (يظلمون) بارتكاب المعاصى ولم يقبلوا النصح مع هجرهم ولا خافوا العقوبة على ضعفهم * ولما بين تعالى انه أهلك من أشرك عاجلا وعذب من كذب آجلا ولم ينفعه معبوده مثل تعالى اتخاذه ذلك معبودا باتخاذ العنكبوت بيتا فقال (مثل الذين اتخذوا) أى تكلفوا أن اتخذوا (من دون الله) أى الذى لا كفء له فرضوا بالدون الذى لا ينفع ولا يضر عوضا عمن لا تكتنفه الاوهام والظنون (أولياء) ينصرونهم بزعمهم من معبودات وغيرها فى الضعف والوهن (كمثل العنكبوت) أى الدابة المعروفة ذات الارجل الكثيرة الطوال (اتخذت بيتا) أى تكلفت أخذه فى صنعتها له ليقيها الردى ويحميها البلاء كما تكلف هؤلاء اصطناع أربابهم ليقوهم ويحفظوهم بزعمهم فكان ذلك البيت مع تكلفها فى أمره وتعبها الشديد فى شأنه فى غاية الوهن (وان) أى والحال ان (أوهن البيوت) أى أضعفها (لبيت العنكبوت) لا يدفع عنها حرا ولا بردا كذلك الاصنام لا تنفع عابديها (لو كانوا يعلمون) أى لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم وان أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن وأيضا انه اذا صح تشبيه ما اعتمدوه فى دينهم ببيت العنكبوت فقد تبين أن دينهم أوهن الاديان لو كانوا يعلمون أى لو كان لهم نوع ما من العلم لانتفعوا به وعلموا ان هذا مثلهم فأبعدوا عن اعتقاد ما هذا مثلهم والقائل

قوله وعذاب قوم صالح الخ كذا فى جميع الاصول التى بايدينا وهو غير مستقيم اهـ

أن يقول مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس الى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت تخذ بيتا بالاضافة الى رجل يبني بيتا بحجر وجص أو ينحته من صخر وكان أوهن البيوت اذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت كذلك الاديان اذا استقريتها دينا دينا عبادة الاوثان (فان قيل) لم مثل تعالى باتخاذ العنكبوت ولم يمثل بنسجها (أجيب) بأن نسجها فيه فائدة لولاه لما حصلت وهو اصطياد الذباب به من غير أن يفوتها ما هو أعظم منه واتخاذهم الاوثان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا ولكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التي هي خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت *(تنبيه)* نون العنكبوت أصلية والواو والتاء مزيدتان بدليل جمعه على عناكب وتصغيره عنيكب ويذكر ويؤنث فمن التأنيث قوله تعالى اتخذت ومن التذكير قول القائل

على هطالهم منهم بيوت * كأن العنكبوت هو ابتناها

وهذا مطرد في أسماء الاجناس تذكر وتؤنث وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص البيوت بضم الباء والباقون بكسرها * ولما كان ضرب المثل بالشئ لا يصح الا من العالم بذلك الشئ قال الله تعالى (ان الله) أي الذي له صفات الكمال (يعلم ما) أي الذي (يدعون) أي يعبدون (من دونه) أي غيره (من شئ) اى سواء كان صنما أم انسيا أم جنيا (وهو العزيز) في ملكه (الحكيم) في صنعه وقرأ أبو عمرو وعاصم يدعون بالياء التحتية والباقون بالفوقية * ولما ذكر مثلهم وما تتوقف صحته عليه كان كأنه قيل على وجه التعظيم هذا المثل مثلهم فعطف عليه قوله تعالى اشارة الى أمثال القرآن كلها تعظيما لها وتنبيها على جليل قدرها وعلو شأنها (وتلك الامثال) أي العالية عن أن تنال بنوع احتيال ثم استأنف قوله تعالى (نضربها) أي بما لنا من العظمة بيانا (للناس) أي تصويرا للمعاني المعقولات بصور المحسوسات لعلها تقرب من عقولهم فينتفعوا بها وهكذا حال التشبيهات كلها هي طرق الى افهام المعاني المحتجبة في الاستار تبرزها وتكشف عنها وتصورها روى أن الكفار قالوا كيف يضرب خالق الارض والسموات الامثال بالهوام والحشرات كالذباب والبعوض والعنكبوت فقال الله تعالى مجهلا لهم (وما يعقلها) أي حق تعقلها فينتفع بها (الا العالمون) أي الذين هيؤا للعلم وجعل طبعا لهم بما بث في قلوبهم من أنواره وأشرق في صدورهم من أسراره فهم يضعون الاشياء مواضعها روى الحرث بن أبي اسامة عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال العالم الذي عقل عن الله وعمل بطاعته واجتنب سخطه قال البغوي والمثل كلام سائر يتضمن تشبيه الآخر بالاول يريد أمثال القرآن التي يشبه بها أحوال كفار هذه الامة بأحوال كفار الامم المتقدمة * ولما قدم تعالى أنه لا معجز له سبحانه ولا ناصر لمن خذله استدل على ذلك بقوله تعالى (خلق الله) أي الذي لا يداني في عظمته (السموات والارض بالحق) أي الامر الذي يطابقه الواقع أو بسبب اثبات الحق وابطال الباطل أو بسبب انه محق غير قاصد به باطلا فان المقصود بالذات من خلقهما افاضة الجود والدلالة على ذاته وصفاته كما أشار

اليه بقوله تعالى (ان فى ذلك لآية) أى دلالة ظاهرة على قدرته تعالى (للمؤمنين) واختص المؤمنون بذلك لانهم المنتفعون به * ثم خاطب تعالى رأس أهل الايمان بقوله تعالى (اتل ما أوحى اليك من الكتاب) أى القرآن الجامع لكل خير لتعلم أن نوحا ولوطا وغيرهما كانوا على ما أنت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا فى اقامة الدلالة ولم ينقذوا قومهم من الضلالة وهذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم * ولما أرشد تعالى الى مفتاح العلم دل على قانون العمل بقوله تعالى (وأقم الصلاة) أى التى هى أحق العبادات ثم علل ذلك بقوله تعالى (ان الصلاة تنهى) أى توجد النهى وتجدده للمواظب على اقامتها بجميع حدودها (عن الفحشاء) أى عن الخصال التى بلغ قبحها (والمنكر) وهو ما لا يعرف فى الشرع (فان قيل) كم من مصل يرتكب الفحشاء (أجيب) بأن المراد الصلاة التى هى الصلاة عند الله تعالى المستحق بها الثواب بأن يدخل فيها مقدما للتوبة النصوح متقيا لقوله تعالى انما يتقبل الله من المتقين ويصليها خاشعا بالقلب والجوارح فقد روى عن حاتم كأن رجلى على الصراط والجنة عن يمينى والنار عن شمالى وملك الموت من فوقى وأصلى بين الخوف والرجاء ثم يحوطها بعد أن يصليها ولا يحبطها فهى الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر وقال ابن مسعود وابن عباس ان الصلاة تنهى وتزجر عن معاصى الله عز وجل فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله تعالى الا بعدا وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه وقيل من كان مراعيا للصلاة جره ذلك الى أن ينتهى عن السيئات يوما ما فقد روى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانا يصلى بالنهار ويسرق بالليل فقال ان صلاته لتردعه وروى ان فتى من الانصار كان يصلى معه الصلوات ولا يدع شيأ من الفواحش الا ركبه فوصف له فقال ان صلاته ستنهاه فلم يلبث ان تاب وقال ابن عوف معنى الآية ان الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ما دام فيها وعلى كل حال فان المراعى للصلاة لا بد أن يكون أبعد من الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها وأيضا فكم من مصلين تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر واللفظ لا يقتضى أن لا يخرج واحد من المصلين عن قضيتها كما تقول ان زيدا ينهى عن المنكر فليس غرضك أنه ينهى عن جميع المناكر وانما تريد ان هذه الخصلة موجودة فيه وحاصلة منه من غير اقتضاء للعموم وقيل المراد بالصلاة القرآن كما قال تعالى ولا تجهر بصلاتك أى بقراءتك وأراد به من يقرأ القرآن فى الصلاة فالقرآن ينهاه عن الفحشاء والمنكر روى انه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان رجلا يقرأ القرآن الليل كله ويصبح سارقا قال ستنهاه قراءته ولما كان الناهى فى الحقيقة انما هو ذكر الله أتبع ذلك بقوله تعالى (ولذكر الله أكبر) أى لان ذكر المستحق لكل صفات كمال أكبر من كل شئ فذكر الله تعالى أفضل الطاعات قال صلى الله عليه وسلم ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير من اعطاء الذهب والفضة وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا وماذاك يارسول الله قال ذكر الله وسئل صلى الله عليه وسلم أى العبادة أفضل عند الله درجة يوم القيامة قال الذاكرون الله كثيرا قالوا

يارسول الله ومن الغازين في سبيل الله فقال لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكر الله كثيرا أفضل منه درجة وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على جبل في طريق مكة يقال له جمدان فقال سيروا هذا جمدان سبق المفردون قالوا وما المفردون يارسول الله قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات أو والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات وسماها بذكر الله كما قال تعالى فاسعوا الى ذكر الله وانما قال ولذكر الله أكبر ليستقل بالتعليل كأنه قال والصلاة أكبر لانها ذكر الله وعن ابن عباس ولذكر الله تعالى اياكم برحمته أكبر من ذكركم اياه بطاعته وقال عطاء ولذكر الله أكبر من أن تبقى معه معصية (والله) أي المحيط علما وقدرة (يعلم) أي في كل وقت (ما تصنعون) من الخير والشر فيجازيكم على ذلك * ولما بين تعالى طريقة ارشاد المشركين بين طريقة ارشاد أهل الكتاب بقوله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب) أي اليهود والنصارى ظنا منكم أن الجدال ينفع أو يزيد في اليقين أو يرد واحدا عن ضلال مبين (الا بالتي) أي بالمجادلة التي (هي أحسن) كمعارضة الخشونة باللين والغضب بالكظم والدعاء الى الله تعالى بآياته والتنبيه على حججه كما قال تعالى ادفع بالتي هي أحسن (الا الذين ظلموا منهم) بأن حاربوا وأبوا أن يقروا بالجزية فجادلوهم بالسيف الى أن يسلموا أو يعطوا الجزية وقيل الا الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل الا الذين أثبتوا الولد والشريك وقالوا يد الله مغلولة وعن قتادة الآية منسوخة بقوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا مجادلة أشد من السيف * ولما بين تعالى من موجب الخلاف أمر بالاستعطاف بقوله تعالى (وقولوا) أي لمن قبل الاقرار بالجزية اذا أخبر وكم بشيء مما في كتبهم (آمنا بالذي أنزل الينا) أي من هذا الكتاب المعجز (وأنزل اليكم) من كتبكم أي لانه في أصله حق وان كان قد نسخ منه ما نسخ وان حدثوكم بشيء منه وليس عندكم ما يصدقه ولا ما يكذبه فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم لما روى أبو داود انه صلى الله عليه وسلم قال لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فان قالوا باطلا لم تصدقوهم وان قالوا حقا لم تكذبوهم أي فان هذا ادعى الى الانصاف وأنفى للخلاف * ولما لم يكن هذا جامعا للفريقين أتبعه بما يجمعه بقوله تعالى (والهنا والهكم واحد) أي لا اله لنا غيره وان ادعى بعضكم عزيرا والمسيح (ونحن له) خاصة (مسلمون) أي خاضعون منقادون أتم انقياد فيما يأمرنا به بعد الاصول من الفروع سواء كانت موافقة لفروعكم كالتوجه بالصلاة الى بيت المقدس أو ناسخة كالتوجه الى الكعبة ولا نتخذ الاحبار والرهبان أربابا من دون الله لنأخذ ما يشرعونه لنا مخالفا الكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم (وكذلك) أي ومثل ذلك الانزال الذي أنزلناه الى أنبيائهم من التوراة وغيرها (أنزلنا اليك الكتاب) أي القرآن مصدقا لسائر الكتب الالهية وهو تحقيق لقوله تعالى (فالذين آتيناهم الكتاب) أي التوراة كعبد الله بن سلام وغيره (يؤمنون به) أي بالقرآن (ومن هؤلاء) أي أهل مكة أو ممن في عهده صلى الله عليه وسلم من أهل الكتابين (من يؤمن به) وهم مؤمنو أهل

مكة وأهل الكتابين (وما يجحد) أى ينكر قال قتادة والجحود انما يكون بعد المعرفة (بآياتنا) أى التى جاوزت أقصى غايات العظمة حتى انها استحقت الاضافة الينا (الا الكافرون) أى اليهود ظهر لهم أن القرآن حق والجائى به محق وجحدوا ذلك وهذا تنفير لهم عما هم عليه يعنى انكم آمنتم بكل شئ وامتزتم عن المشركين بكل فضيلة الا هذه المسئلة الواحدة وبانكارها تلحقون بهم وتعطلون مزاياكم فان الجاحد بآية بصير كافرا (وما) أى وأنزلنا اليك الكتاب والحال انك ما (كنت تتلو) أى تقرأ أصلا (من قبله) أى هذا الكتاب الذى أنزلناه اليك وأكد استغراق الكتب بقوله تعالى (من كتاب) أصلا (ولا تخطه) أى تجدد وتلازم خطه وصور الخط وأكده بقوله (بيمينك) (فان قيل) ما فائدة قوله بيمينك (أجيب) بأنه ذكر اليمين التى هى أقوى الجارحتين وهى التى يزاول بها الخط زيادة تصوير لما نفى عنه من كونه كاتبا الا ترى انك اذا قلت فى الاثبات رأيت الامير يخط هذا الكتاب بيمينه كان أشد لاثباتك انه تولى كتبه فكذلك النفى وفى ذلك اشارة الى انه لا تحدث الريبة فى أمره لعاقل الا بالمواظبة القوية التى ينشأ عنها ملكة فكيف اذا لم يحصل أصل الفعل ولذلك قال تعالى (اذا) أى لو كنت ممن يخط ويقرأ (لارتاب) أى شك (المبطلون) أى اليهود فيك وقالوا الذى فى التوراة انه أمى لا يقرأ ولا يكتب أو لارتاب مشركو مكة وقالوا لعله تعلمه أو التقطه من كتب الاولين وكتبه بيده (فان قيل) لم سماهم مبطلين ولو لم يكن أميا وقالوا ليس بالذى نجده فى كتبنا لكانوا صادقين محقين ولكان أهل مكة أيضا على حق فى قولهم لعله تعلمه أو كتبه بيده فانه رجل كاتب قارئ (أجيب) بأنه سماهم مبطلين لانهم كفروا به وهو أمى بعيد من الريب فكأنه قال هؤلاء المبطلون فى كفرهم به لو لم يكن أميا لارتابوا أشد الريب فحين ليس بقارئ ولا كاتب فلا وجه لارتيابهم وأيضا سائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام لم يكونوا أميين ووجب الايمان بهم وما جاؤا به لكونهم مصدقين من جهة الحكيم بالمعجزات فهب انه قارئ كاتب فما لهم لم يؤمنوا به من الوجه الذى آمنوا منه بموسى وعيسى على ان المنزل اليهم معجز وهذا المنزل معجز فاذا هم مبطلون حيث لم يؤمنوا وهو أمى ومبطلون حيث لم يؤمنوا وهو غير أمى * ولما كان التقدير ولكنه لاريب لهم أصلا ولا شبهة لقولهم انه باطل قال تعالى (بل هو) أى القرآن الذى جئت به وارتابوا فيه فكانوا مبطلين لذلك على كل تقدير (آيات) أى دلالات (بينات) أى واضحات جدا فى الدلالة على صدقك (فى صدور الذين أوتوا العلم) أى المؤمنين يحفظونه فلا يقدر أحد على تحريف شئ منه لبيان الحق لديهم وفى ذلك اشارة الى ان خفاءه عن غيرهم وقال ابن عباس وقتادة بل هو يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ذو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب لانهم يجدونه نعته ووصفه فى كتبهم (وما يجحد) وكان الاصل به ولكنه أشار الى عظمته بقوله تعالى (بآياتنا) أى ينكرها بعد المعرفة على مالها من العظمة باضافتها الينا والبيان الذى لا يجهله أحد (الا الظالمون) أى المتوغلون فى الظلم المكابرون (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى

ههنا الا الظالمون ومن قبل قال الا الكافرون (أجيب) بأن مامن حرف ولا حركة في القرآن الا وفيه فائدة ثم ان العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل الى أكثرها وما أوتى البشر من العلم الا قليلا ولكن الحكمة هنا أنهم قبل بيان المعجزة قيل لهم ان لكم المزايا فلا تبطلوها بانكار محمد صلى الله عليه وسلم فتكونوا كافرين فلفظ الكافر هناك أبلغ فنعهم عن ذلك استنكافهم عن الكفر ثم بعد بيان المعجزة قال لهم ان جحدتم هذه الآية لزمكم انكار رسالة الرسل فتلتحقون في أول الامر بالمشركين حكما وتلتحقون عند جحد هذه الآيات بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين أى مشركين كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم فهذا اللفظ ههنا أبلغ ولما كان التقدير جحدوها عاها هم من الرسوخ في الظلم ولم يعدوها آيات فضلا عن كونها بينات عطف عليه قوله تعالى (وقالوا) موهمين مكر الطهار اللصفة بأدنى مايدل على الصدق (لولا) أى هلا (أنزل عليه) أى محمد صلى الله عليه وسلم على أى وجه كان من وجوه الانزال (آية) تكون بحيث تدل قطعا على صدق الآتي بها (من ربه) أى الذى يدعى احسانه اليه كما أنزل على الانبياء قبله كناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى عليهم السلام ليستدل بها على صدق مقاله وصحة مايدعيه من حاله وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص آيات بالجمع لان بعده قل انما الآيات بالجمع اجماعا والباقون آية بالافراد لان غالب ماجاء في القرآن كذلك * ولما كان هذا انكارا للشمس بعد شروقها ومكابرة فيما تحدى به من المعجزات بعد حقوقها أشار اليه بقوله تعالى (قل) أى لهم ارخاء للعنان حتى كأنك ما أتيتهم بشئ (انما الآيات عند الله) أى الذى له الامر كله ينزل أيها شاء فلا يقدر على انزال شئ منها غيره فانما الاله هو لاسواه ولو شاء أن ينزل مايقترحونه لفعل (وانما أنا نذير مبين) أى فليس من شأنى الا الانذار وابانته بما أعطيته من الآيات وليس لى أن أقترح عليه الآيات فأقول أنزل على آية كذا دون آية كذا على ان المقصود من الآيات الدلالة على الصدق وهى كلها في حكم آية واحدة في ذلك ولم يذكر البشارة لانه ليس من أسلوبها وقوله تعالى (أولم يكفهم) جواب لقولهم لولا أنزل عليه آيات من ربه أى ان كانوا طالبين للحق غير متعنتين آية مغنية عن كل آية (انا أنزلنا) أى بما لنا من العظمة (عليك الكتاب) أى القرآن الجامع لسعادة الدارين بحيث صار خلقا لك (يتلى عليهم) أى تجدد متابعة قراءته عليهم شيأ بعد شئ في كل مكان وفي كل زمان من كل مقال مصدقا لما في الكتب القديمة من نعتك وغيره من الآيات الدالة على صدقك فأعظم به آية باقية لاتزول ولا تضمحل اذ كل آية سواه منقضية ماضية وتكون في مكان دون مكان فالقرآن أتم من كل معجزة لوجوه الاول ان تلك المعجزات وجدت ومادامت فان قلب العصا ثعبانا واحياء الميت لم يبق لنا منه أثر فلو أنكره واحد لم يمكن اثباته معه بدون الكتاب وأما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فيقال ائت بآية من مثله الثانى أن قلب العصا ثعبانا كان في آن واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان وأما القرآن فقد وصل الى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد * (وههنا لطيفة) * وهى ان آيات نبينا صلى الله عليه وسلم كانت أشياء لاتختص بمكان دون مكان لان من

جملتها

جملتها انشقاق القمر وهو يعم الارض لان الخسوف اذا وقع عم وذلك لان نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر وغاض بحر ساوة فى قطر وسقط ايوان كسرى فى قطر وانهدمت الكنيسة بالروم فى قطر آخر اعلاما بأنه يكون أمرا عاما الثالث ان غير هذه المعجزة يقول الكافر المعاند هذا سحر وعمل يد والقرآن لا يمكن هذا القول فيه وقال أبو العباس المرسى خشع بعض الصحابة من سماع بعض اليهود يقرأ التوراة فعوتبوا اذ تخشعوا من غير القرآن وهم انما تخشعوا من التوراة وهى كلام الله تعالى فاظنك بمن أعرض عن كتاب الله وتخشع بالملاهى والغناء * ولما كان هذا القرآن أعظم من كل آية يقترحونها قال تعالى (ان فى ذلك) أى انزال الكتاب على هذا الوجه البعيد المنال البديع المثال (لرحمة) أى نعمة عظيمة فى كل لحظة وتطهيرا لخبث النفوس فى كل لمحة (وذكرى) أى عظيمة مستمرا تذكرها * ولما عم بالقول خص من حيث النفع فقال (لقوم يؤمنون) لانهم المنتفعون بذلك * ولما كان من المعلوم أنهم يقولون نحن لا نصدق أن هذا الكتاب من عند الله فضلا عن أن نكتفى به قال تعالى (قل) أى جوابا لما قد يقولونه من نحو هذا (كفى بالله) أى الحائز لجميع العظمة وسائر الكمالات (بينى وبينكم شهيدا) أنى قد بلغتكم ما أرسلت به اليكم ونصحتكم وأنذرتكم وأنهم قابلونى بالجحد والتكذيب وقد صدقنى بالمعجزات وروى أن كعب بن الاشرف وغيره قالوا يا محمد من يشهد لك أنك رسول الله فنزلت ثم وصف الشهيد وعلل كفايته بقوله (يعلم ما فى السموات) أى كلها (والارض) أى كذلك لا يخفى عليه شئ من ذلك فهو عليم بما تنسبونه اليه من التقول عليه وبما أنسبه أنا اليه من هذا القرآن الذى يشهد لى به عجزكم عنه فهو شاهدى والله فى الحقيقة هو الشاهد لى فيه بالثناء على والشهادة لى بالصدق لانه قد ثبت بالعجز عنه أنه كلامه * ولما بين تعالى الطريقين فى ارشاد الفريقين المشركين وأهل الكتاب عاد الى الكامل الشامل لهما والانكار العام فقال (والذين آمنوا بالباطل) أى وهو ما يعبد من دون الله (وكفروا بالله) أى الذى يجب الايمان به والشكر له لان له الكمال كله وكل ما سواه هالك ليس له من ذاته الا العدم (أولئك) أى البعداء البغضاء (هم الخاسرون) أى العريقون فى الخسارة فانهم خسروا أنفسهم أبد الآبدين (فان قيل) قوله أولئك هم الخاسرون يقتضى الحصر فمن آمن بالباطل وكفر بالله فمن يأتى بأحدهما دون الآخر لا يكون كذلك (أجيب) بأنه يستحيل أن يكون الآتى بأحدهما لا يكون آتيا بالآخر لان المؤمن بما سوى الله تعالى مشرك لانه جعل غير الله مثله وغير الله عاجز ممكن باطل فيكون الله تعالى كذلك ومن كفر بالله تعالى وأنكره فيكون قائلا بأن العالم واجب الوجود له فيكون قائلا بأن غير الله اله فيكون اثباتا لغير الله وايمانا به (فان قيل) اذا كان الايمان بما سواه كفرا به فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذى فى قول القائل قم ولا تقعد واقرب منى ولا تبعد (أجيب) بأن فيه فائدة غيرها وهو أنه ذكر الثانى لبيان قبح الاول كقول القائل أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول بالباطل قبيح * ولما أنذرهم صلى الله عليه وسلم

وأوعد بالعذاب ان لم يؤمنوا أخبر الله تعالى عنهم بقوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب) نزلت في النضر بن الحرث حين قال فأمطر علينا حجارة من السماء ان كنت من الصادقين ويجعلون تأخيره عنهم شبهة لهم فيما يزعمون من التكذيب (ولولا أجل مسمى) قد ضرب لوقت عذابهم فلا تقدم فيه ولا تأخر (لجاءهم العذاب) وقت استعجالهم لان القدرة تامة والعلم محيط (وليأتينهم بغتة) أى فجأة فى الدنيا كوقعة بدر أو الآخرة عند نزول الموت بهم (وهم لا يشعرون) بل هم فى غاية الغفلة عنه والاشتغال بما ينسيه ثم زاد فى التعجب من جهلهم بقوله تعالى مبدلا (يستعجلونك بالعذاب) أى يطلبون منك ايقاعه بهم ناجزا ولو كان فى غير وقته الاليق به ولو علموا ماهم صائرون اليه لتمنوا أنهم لم يخلقوا فضلا عن أن يستعجلوا ولأعملوا جميع جهدهم فى الخلاص منه (وان جهنم) التى هى من عذاب الآخرة (لمحيطة بالكافرين) أى ستحيط بهم يوم يأتيهم العذاب أوهى كالمحيطة بهم الآن لاحاطة الكفر والمعاصى التى توجبها بهم وأتى بالظاهر موضع المضمر تنبيها على ما استحقوا به عذابها وتعميما لكل من اتصف به ثم ذكر تعالى كيفية احاطة جهنم بقوله عز وجل (يوم يغشاهم العذاب) أى يلحقهم ويلصق بهم (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) فعلم بذلك احاطته من جميع الجوانب (فان قيل) لم خص الجانبين ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام (أجيب) بأن المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الاربعة فان من يدخلها تكون الشعلة قدامه وخلفه ويمينه ويساره وأما النار من فوق فلا تنزل وانما تصعد من أسفل فى العادة وتحت الاقدام لا تبقى الشعلة بل تنطفئ الشعلة التى تحت القدم ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفئ بالدوس موضع القدم (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى من فوقهم ومن تحت أرجلهم ولم يقل من فوق رؤسهم ولا قال من فوقهم ومن تحتهم بل ذكر المضاف اليه عند ذكر تحت ولم يذكره عند ذكر فوق (أجيب) بأن نزول النار من فوق سواء كان من سمت الرأس أم من موضع آخر عجب لان طبع النار الصعود الى فوق فلهذا لم يخصه بالرأس وأما بقاء النار تحت القدم فهو عجب والا فمن جوانب القدم فى الدنيا تكون الشعلة فذكر العجيب وهو ما تحت الارجل حيث لم ينطفئ بالدوس وأما فوق فعلى الاطلاق وقوله تعالى (ونقول) قرأ نافع والكوفيون بالياء أى الموكل بالعذاب من ملائكته بأمره والباقون بالنون أى نأمر بالعذاب * ولما بين عذاب أجسامهم بين عذاب أرواحهم وهو أن يقال لهم على سبيل التنكيل والاهانة (ذوقوا ما كنتم تعملون) جعل ذلك عين ما كانوا يعملون مبالغة بطريق اسم المسبب على السبب فان عملهم كان سببا لعذابهم وهذا كثير فى الاستعمال * ولما ذكر تعالى حال المشركين على حدة وحال أهل الكتاب على حدة وجمعهما فى الانذار وجعلهما من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا فى ايذاء المؤمنين ومنعهم من العبادة قال تعالى (يا عبادى الذين آمنوا) فشرفهم بالاضافة اليه (ان أرضى واسعة) أى فى الذات والرزق وكل ما تريدون من الرفق ان لم تمكنوا بسبب هؤلاء المعاندين الذين يفتنونكم فى دينكم قال مقاتل والكلبى نزلت فى ضعفاء مسلمى مكة يقول الله تعالى

ان كنتم فى ضيق بمكة من اظهار الايمان فاخرجوا منها فان أرض المدينة واسعة آمنة وقال مجاهد ان أرضى واسعة فهاجروا وجاهدوا فيها وقال سعيد بن جبير اذا عمل فى أرض بالمعاصى فاخرجوا منها فان أرضى واسعة وكذا يجب على كل من كان فى بلد يعمل فيها بالمعاصى ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر الى حيث تتهيأ له العبادة ولكن صارت البلدان فى زماننا كلها متساوية فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وقرأ بفتح الياء ابن عامر والباقون بتسكينها وقيل نزلت فى قوم تخلفوا عن الهجرة بمكة وقالوا نخشى ان هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة فانزل الله تعالى هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج وقال مطرف بن عبد الله أرضى واسعة يعنى رزقى لكم واسع فاخرجوا روى الثعلبى عن الحسن البصرى مرسلا من فر بدينه من أرض الى أرض ولو كان شبرا استوجب الجنة وكان رفيق ابراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما * (تنبيه) * قوله تعالى يا عبادى لا يدخل فيه الكافر لوجوه الاول قوله تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان والكافر تحت سلطنة الشيطان فلا يدخل فى قوله تعالى يا عبادى الثانى قوله تعالى يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الثالث أن العباد مأخوذ من العبادة والكافر لا يعبد الله فلا يدخل فى قوله تعالى يا عبادى وانما يختص بالمؤمنين الذين يعبدونه الرابع الاضافة بين الله تعالى والعبد بقول العبد الهى و يقول الله عبدى (فان قيل) اذا كان عباده لا يتناول الا المؤمنين فما الفائدة فى قوله الذين آمنوا مع أن الوصف انما يذكر لتمييز الموصوف كما يقال يا أيها المكلفون المؤمنون يا أيها الرجال العقلاء تمييزا بين الكافر والجاهل (أجيب) بأن الوصف يذكر لا للتمييز بل لمجرد بيان ان فيه الوصف كما يقال الانبياء المكرمون والملائكة المطهرون مع ان كل نبى مكرم وكل ملك مطهر وانما يقال لبيان ان فيهم الاكرام والطهارة ومثله قولنا الله العظيم فههنا ذكر لبيان أنهم مؤمنون * ولما كانت الاقامة بمكة قبل الفتح مؤدية الى الفتنة قال تعالى (فاياى) أى خاصة بالهجرة الى أرض تأمنون فيها (فاعبدون) أى وحدون وان كان بالهجرة وكانت هجرة الاهل والاوطان شديدة (فان قيل) قوله تعالى يا عبادى يفهم منه كونهم عابدين فما الفائدة فى الامر بالعبادة (أجيب) بأن فيه فائدتين احداهما المداومة أى يا من عبدتمونى فى الماضى اعبدونى فى المستقبل الثانية الاخلاص أى يا من تعبدنى اخلص العمل لى ولا تعبد غيرى (فان قيل) ما معنى الفاء فى فاعبدون (أجيب) بأن الفاء جواب شرط محذوف لان المعنى ان أرضى واسعة فان لم تخلصوا العبادة لى فى أرضى فأخلصوها فى غيرها * ولما أمر الله تعالى عباده بالحرص على العبادة وصدق الاهتمام بها حتى يتطلبوا لها أوفق البلاد وان بعدت وشق عليهم ترك الاوطان ومفارقة الاخوان خوفهم بالموت لتهون عليهم الهجرة بقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) أى كل نفس مفارقة ما ألفته حتى بدنها الملابسته وانسها وانستها فان أطاعت ربها أنجت نفسها ولم تنقصها الطاعة من الاجل شيأ والا أوبقت نفسها ولم تزدها المعصية فى الاجل شيأ فاذا قدر الانسان انه ميت سهلت عليه الهجرة فانه ان لم يفارق بعض مألوفه بها فارق كل مألوفه بالموت وقد ورد أكثروا

من ذكر هادم اللذات أى الموت فانه ما ذكر فى قليل أى من العمل الا كثره ولا ذكر فى كثير أى من أمل الدنيا الا قلله * ولما هوّن أمر الهجرة حذر من رضى فى دينه بنقص شئ من الاشياء حثا على الاستعداد بغاية الجهد فى التزوّد للمعاد بقوله تعالى (ثم الينا ترجعون) على أيسر وجه فنجازى كلا منكم بما عمل وقرأ أبو بكر بالياء التحتية والباقون بالتاء الفوقية (والذين آمنوا وعملوا) أى تصديقا لايمانهم (الصالحات لنبوّئنهم) أى لننزلنهم (من الجنة غرفا) أى بيوتا عالية قال البقاعى تحتها قاعات واسعة وقرأ حمزة والكسائى بعد النون ثاء مثلثة ساكنة وبعدها واو مكسورة وبعد الواو ياء مفتوحة أى لنثوينهم أى لنقيمنهم من الثواء وهو الاقامة يقال ثوى الرجل اذا أقام فيكون انتصاب غرفا لاجرائه مجرى لننزلنهم أو بنزع الخافض اتساعا أى فى غرف أو تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم كقوله لاقعدن لهم صراطك والباقون بعد النون باء موحدة وبعدها واو مشددة وبعد الواو همزة مفتوحة وعلى هذه القراءة فانتصابها على أنها مفعول ثان لان بوأ يتعدى لاثنين قال الله تعالى تبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال ويتعدى باللام قال تعالى واذ بوّأنا لابراهيم * ولما كانت العلالى لا تروق الا بالرياض قال تعالى (تجرى من تحتها الانهار) ومن المعلوم انه لا يكون فى موضع أنهار الا أن يكون فيه بساتين كبار وزروع ورياض وأزهار فيشرفون عليها من تلك العلالى * ولما كانت بحالة لا نكر فيها بوجب هجرة فى لحظة ما كنى عنه بقوله تعالى (خالدين فيها) أى لا يبغون عنها حولا ثم عظم أمرها وشرف قدرها بقوله تعالى (نعم أجر العاملين) أى هذا الاجر وهذا فى مقابلة قوله تعالى للكفار ذوقوا ما كنتم تعملون ثم وصفهم بما رغب فى الهجرة بقوله تعالى (الذين صبروا) أى أوجدوا هذه الحقيقة حتى استقرت عندهم فكانت سجية لهم فأوقعوها على كل شاق من التكاليف من هجرة وغيرها فان الانسان قل أن ينفك عن أمر شاق ينبغى الصبر عليه ثم رغب فى الاستراحة بالتفويض اليه بقوله تعالى (وعلى ربهم) أى المحسن اليهم وحده لا على أهل ولا وطن (يتوكلون) أى يوجدون التوكل ايجادا مستمرا التجديد كل مهم يعرض لهم * ولما أشار بالتوكل الى أنه الكافى فى أمر الرزق فى الوطن والغربة لا مال ولا أهل قال عاطفا على ما تقديره فكأين من متوكل عليه كفاه ولم يحوجه الى أحد سواه فليبادر من أنقذه من الكفر وهداه الى الهجرة طلبا لرضاه (وكأين من دابة) أى كثير من الدواب العاقلة وغيرها (لا تحمل) أى لا تطيق أن تحمل (رزقها) أى لا تدخر شيأ لساعة أخرى لانها قد لا تدرك نفع ذلك وقد تدركه وتتوكل وعن الحسن لا تدخر انما تصبح فيرزقها الله تعالى وعن ابن عيينة ليس شئ يخبأ الا الانسان والنملة والفارة وعن بعضهم قال رأيت البلبل يدخر فى حضنيه ويقال للعقعق مخابئ الا أنه ينساها أو لا تجده أو لا تطيق حمله لضعفها ثم كأنه قيل فمن يرزقها فقيل (الله) أى المحيط علما وقدرة المتصف بكل كمال (يرزقها) على ضعفها وهى لا تدخر (واياكم) مع قوتكم وادخاركم واجتهادكم لا فرق بين ترزيقه لها على

ضعفها

ضعفها وعدم ادخارها وترزيته لكم على قوتكم وادخاركم فانه هو المسبب وحده فان الفريقين تارة يجدون وتارة لا يجدون فصار الادخار وعدمه غير معتد به ولا منظورا اليه وقرأ ابن كثير بعد الكاف بالف وبعد الالف همزة مكسورة والباقون بعد الكاف همزة مفتوحة وبعدها ياء مشددة ووقف أبو عمرو على الياء ووقف الباقون على النون وحمزة في الوقف يسهل الهمزة على أصله * (تنبيه) * كأين كلمة مركبة من كاف التشبيه وأي التي تستعمل استعمال من وما ركبتا وجعل المركب بمعنى كم ثم لم تكتب الا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب لان كأي تستعمل غير مركبة كما يقول القائل رأيت رجلا كأي رجل يكون وحينئذ لا يكون كأي مركبا فاذا كان كأي ههنا مركبا كتب بالنون للتمييز (وهو السميع) لاقوالكم نخشى الفقر والضيعة (العليم) بما في ضمائركم واختلف في سبب نزول هذه الآية فعن ابن عمر أنه قال دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حائطا من حوائط الانصار فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتقط الرطب بيده ويأكل فقال كل يا ابن عمر قلت لا أشتهيه يا رسول الله قال لكني أشتهيه وهذه صبح رابعة لم أطعم طعاما ولم أجده فقلت يا رسول الله ان الله المستعان فقال يا ابن عمر لو سألت ربي لاعطاني مثل ملك كسرى وقيصر أضعافا مضاعفة ولكني أجوع يوما وأشبع يوما فكيف بك يا ابن عمر اذا عمرت وبقيت في حثالة من الناس يخبؤن رزق سنة ويضعف اليقين فنزلت وكأين من دابة وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة وآذاهم المشركون هاجروا الى المدينة فقالوا كيف نخرج الى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال فمن يطعمنا ويسقينا فنزلت وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يدخر شيأ وقال صلى الله عليه وسلم لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا وقال صلى الله عليه وسلم أيها الناس ليس شئ يقربكم الى الجنة ويباعدكم من النار الا وقد أمرتكم به وليس شئ يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة الا وقد نهيتكم عنه وان الروح الأمين نفث في روعي أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله فانه لا يدرك ما عند الله الا بطاعته (ولئن) اللام لام قسم (سألتهم) أي كفار مكة وغيرهم (من خلق السموات والارض) وسواهما على هذا النظام العظيم (وسخر الشمس والقمر) لاصلاح الاقوات ومعرفة الاوقات وغير ذلك من المنافع (ليقولن الله) أي الذي له جميع صفات الكمال لما تقرر في نظرهم من ذلك وتلقوه من آبائهم موافقة للحق في نفس الامر (فأنى) أي فكيف ومن أي وجه (يؤفكون) أي يصرفون عن توحيده بعد اقرارهم بذلك (فان قيل) ذكر في السموات والارض الخلق وفي الشمس والقمر التسخير (أجيب) بأن مجرد خلق السموات والارض آية ظاهرة بخلاف خلق الشمس والقمر فانهما لو كانا في موضع واحد لا يتحركان ما حصل الليل والنهار

ولا الصيف ولا الشتاء فذا الحكمة الظاهرة فى تحريكهما وتسخيرهما * ولما كان قد يشكل
على ذلك التفاوت فى الرزق عند من لم يتأمل حق التأمل فيقول ما بال الخلق متفاوتين فى الرزق
قال تعالى (الله) أى بما له من الاحاطة بصفات الكمال (يبسط الرزق) بقدرته التامة امتحانا
(لمن يشاء من عباده) على حسب ما يعلم من بواطنهم (ويقدر) أى يضيق (له) بعد البسط
أو لمن يشاء ابتلاء فظهر من ذلك قدرته وحكمته وأنت ترى الملوك وغيرهم من الاقوياء يفاوتون
فى الرزق بين عمالهم بحسب ما يعلمون من علمهم الناقص بأحوالهم فاظنك بملك الملوك العالم
علما لا تدنو من ساحته ظنون ولا شكوك كما قال تعالى (ان الله) أى الذى له صفات الكمال
(بكل شئ) أى من المرزوقين ومن الارزاق وكيف يمنع أو يساق وغير ذلك (عليم)
يعلم مقادير الحاجات والارزاق فهو على ذلك كله قدير يعلم ما يصلح العباد من ذلك وما يفسدهم
ويعطيهم بحسب ذلك ان شاء وكم رام بعض الاقوياء اغناء فقير وافقار غنى فكشف الحال عن
فساد ما راموا من الانتقال * ولما قال الله تعالى الله يبسط الرزق ذكر اعترافهم بذلك بقوله تعالى
(ولئن) اللام لام قسم (سألتهم من نزل من السماء ماء) بعد ان كان مضبوطا فى جهة العلو
(فأحيى به الارض) الغبراء وأشار باثبات الجار الى قرب الانبات من زمان الممات فقال
(من بعد موتها) فصارت خضراء تهتز بعد أن لم يكن لها شئ من ذلك (ليقولن الله) معترفين
بأنه الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها ثم انهم يشركون به بعض مخلوقاته الذى
لا يقدر على شئ من ذلك فلما ثبت أنه الخالق بدأ واعادة كما يشاهد فى كل زمان قال منبها على
عظمة صفاته اللازم من اثباتها صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم (قل) يا أفضل الخلق
متعجبا منهم فى جودهم كيف يقرون بما يلزمهم التوحيد ثم لا يوحدون (الحمد لله) الذى
لا سمى له وليس لغيره احاطة من الاشياء فلزمتهم الحجة بما أقروا به من احاطته وهم لا يثبتون
ذلك باعراضهم (بل أكثرهم لا يعقلون) فيناقضون حيث يقرون بأنه المبدئ لكل ما عداه ثم انهم
يشركون به غيره مما هم معترفون بأنه خلقه فهم لا يعرفون معنى الحمد حيث لم يعملوا به ومنهم
من آمن بعد ذلك فكان فى الذروة من كمال العقل فى التوحيد الذى يلزمه سائر الفروع
ومنهم من كان دون ذلك فكان نفى العقل عنه مقيدا بالكمال * ولما تبين بهذه الآيات ان الدنيا
مبنية على الفناء والزوال والتقلع والارتحال وصح ان السرور بها فى غير موضعه فلذلك قال
مشيرا بعد سلب العقل عنهم الى أنهم فيها كالبهائم يتهارجون (وما هذه الحياة الدنيا) حقرها
بالاشارة ولفظ الدناءة مع الاشارة الى هذا الاعتراف فهذا الاسم كاف فى الالزام بالاعتراف
بالاخرى (الا لهو) وهو الاستمتاع بلذات الدنيا (ولعب) وهو العبث وسميت بهما
لانها فانية وقيل اللهو الاعراض عن الحق واللعب الاقبال على الباطل (فان قيل) قد قال
تعالى فى الانعام وما الحياة الدنيا ولم يقل وما هذه الحياة وقال ههنا وما هذه الحياة فما فائدته
(أجيب) بأن المذكور من قبل ههنا أمر الدنيا فأحيا به الارض من بعد موتها فقال

هذه والمذكور قبلها هنالك الآخرة حيث قال ياحسرتنا على مافرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم فلم تكن الدنيا فى ذلك الوقت فى خاطرهم فقال تعالى وما الحياة الدنيا (فان قيل) ما الحكمة فى تقديمه هنالك اللعب على اللهو وههنا أخر اللعب عن اللهو (أجيب) بأنه لما كان المذكور من قبل هنالك الآخرة واظهارهم للحسرة ففى ذلك الوعد يبعد الاستغراق فى الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخذ الابعد وههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهى خداعة تدعو النفوس الى الاقبال عليها والاستغراق فيها اللهم الالمانع يمنع من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها أو عاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلا وكان الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو ولما كانوا يشكرون الحياة بعد الموت أخبر على سبيل التأكيد أنه لا حياة غيرها بقوله تعالى (وان الدار الآخرة لهى) أى خاصة (الحيوان) أى الحياة التامة الباقية (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى هنالك وللدار الآخرة خير وقال ههنا وان الدار الآخرة لهى الحيوان (أجيب) بأنه لما كان الحاصل هنالك حال اظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج الى وازع قوى فقال الآخرة خير ولما كان الحال هنا حال الاشتغال بالدنيا احتاج الى وازع قوى فقال لا حياة الا حياة الآخرة والحيوان مصدر حيى وقياسه حييان فقلبت الياء الثانية واوا وبه سمى ما فيه حياة حيوانا وهو أبلغ من الحياة لما فى بناء فعلان من الحركة والاضطراب اللازم للحياة ولذلك اختير عليها ههنا ولما كانوا قد غلطوا فى الدارين كليهما فنزلوا كل واحدة منهما غير منزلتها فعدوا الدنيا وجودا دائما على هذه الحالة وعدوا الآخرة عدما لا وجود لها بوجه قال تعالى (لو كانوا يعلمون) أى لم يؤثروا عليها الدنيا التى أصلها عدم الحياة والحياة فيها عارضة سريعة الزوال فان قيل ما الحكمة فى قوله تعالى فى الانعام أفلا يعقلون وقال ههنا لو كانوا يعلمون (أجيب) بأن المثبت هنالك كون الآخرة خيرا ولانه ظاهر لا يتوقف الا على العقل والمثبت هنا أن لا حياة الا حياة الآخرة وهذا دقيق لا يعرف الا بعلم نافع (فاذا) أى فتسبب عن عدم عقلهم المستلزم لعدم علمهم انهم اذا (ركبوا) البحر (فى الفلك) أى السفن (دعوا الله) أى الملك الاعلى (مخلصين) بالتوحيد (له الدين) معرضين عن الشركاء بالقلب واللسان حيث لا يذكرون الا الله ولا يدعون سواه لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد الا هو (فلما نجاهم) أى الله سبحانه وتعالى موصلا لهم (الى البر اذا هم) أى حين الوصول الى البر (يشركون) به كما كانوا فهذا اخبار عنهم بأنهم عند الشدائد مقرون أن القادر على كشفها هو الله عز وجل وحده فاذا زالت عادوا الى كفرهم قال عكرمة كان أهل الجاهلية اذا ركبوا فى البحر حملوا معهم الاصنام فاذا اشتد عليهم الريح القوها فى البحر وقالوا يارب يارب وقال الرازى فى اللوامع وهذا دليل على أن معرفة الرب فى فطرة كل انسان وانهم ان غفلوا فى السراء فلا شك أنهم يلوذون اليه فى حال الضراء انتهى فعلم أن الاشتغال بالدنيا هو الصاد عن كل خير وان الانقطاع عنها معين للفطرة الاولى المستقيمة ولهذا تجد الفقراء أقرب الى كل خير وفى اللام فى قوله تعالى (ليكفروا بما آتيناهم) وجهان أظهرهما أن اللام فيه لام كى اى يشركون ليكونوا كافرين

بشركهم نعمة النجاة فيكون ذلك فعل من لا عقل له أصلا وهم يتحاشون عن مثل ذلك والثاني كونها للامر (وليتمتعوا) باجتماعهم على عبادة الاصنام وتوادهم عليها وقرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر وعاصم بالكسر وهي محتملة للوجهين المتقدمين والباقون بالسكون وهي ظاهرة في الامر فان كانت اللام الاولى للامر فقد عطف أمرا على مثله فان قيل كونها للامر مشكل اذ كيف يأمر الله تعالى بالكفر وهو متوعد عليه (أجيب) بأن ذلك على سبيل التهديد كقوله تعالى اعملوا ما شئتم وان كانت للعلة فقد عطف كلاما على كلام فيكون المعنى لا فائدة لهم في الاشراك الا الكفر والتمتع بما يتمتعون به في العاجلة من غير نصيب في الآخرة (فسوف يعلمون) يومئذ ما يحل بهم من العقاب ولما كان الانسان يكون في البحر على أخوف ما يكون وفي بيته يكون على آمن ما يكون لا سيما اذا كان بيته في بلد حصين فلما ذكر الله المشركين عند الخوف الشديد ورأوا أنفسهم في تلك الحالة راجعة الى الله ذكرهم حالهم عند الامن العظيم بقوله تعالى (أولم يروا) أي أهل مكة بعيون بصائرهم (أنا جعلنا) بعظمتنا لهم (حرما) وقال (آمنا) لانه لا خوف على من دخله فلما أمن كل من دخله كأنه هو نفسه الآمن وهو حرم مكة فانها مدينتهم وبلدهم وفيها سكناهم ومولدهم وهي حصينة بحصن الله وآمنة موجبة للتوحيد والاخلاص لانكم في أخوف ما أنتم دعوتم الله وفي آمن ما حصلتم عليه كفرتم بالله وهذا متناقض لان دعاءكم في ذلك الوقت على سبيل الاخلاص فما كان الا لقطعكم بأن النعمة من الله لا غير وهذه النعمة العظيمة التي حصلتم وقد اعترفتم بأنها لا تكون الا من الله فكيف تكفرون بها والاصنام التي قلتم في حال الخوف انها لا أمن لها كيف آمنتم بها في حال الامن (و) الحال انه (يتخطف الناس من حولهم) أي من حول من فيه من كل جهة قتلا وسبيا مع قلة من بمكة وكثرة من حولهم فالذي خرق العادة في فعل ذلك حتى صار الى هذا السن قادر على أن يعكس الحال فيجعل من بالحرم متخطفا ومن حوله آمنا أو يجعل الكل في الخوف على منهاج واحد (أفبالباطل) من الشياطين والاديان وغيرهما (يؤمنون) والحال أنه لا يشك عاقل في بطلانه (وبنعمة الله) التي أحدثها لهم من الانجاء وارسال محمد صلى الله عليه وسلم (يكفرون) حيث جعلوا موضع شكرهم له على النجاة وغيرها شركهم بعبادة غيره (ومن أظلم) أي أشد وضعا للاشياء في غير مواضعها (ممن افترى) أي تعمد (على الله كذبا) أي أي كذب كان من الشرك وغيره كما كانوا يقولون اذا فعلوا فاحشة وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها (أو كذب بالحق) أي النبي صلى الله عليه وسلم أو القرآن المعجز المبين على لسان هذا الرسول الامين الذي ما أخبر خبرا الا طابقه الواقع (لما) أي حين (جاءه) من غير امهال الى أن ينظر ويتأمل بل سارع الى التكذيب أول ما سمعه وقوله تعالى (أليس في جهنم مثوى للكافرين) استفهام تقرير لمثواهم كقوله

ألستم خير من ركب المطايا * وأندى العالمين بطون راح

قال بعضهم ولو كان استفهاما ما أعطاه الخليفة مائة من الابل وحقيقته أن الهمزة همزة

الانكار دخلت على النفي فرجع الى معنى التقرير والمعنى اما لهذا الكافر المكذب مثوى في جهنم حتى اجترأ مثل هذه الجراءة (والذين جاهدوا) أي أوقعوا الجهاد بغاية جهدهم على مادل عليه بالمفاعلة (فينا) أي بسبب حقنا ومراقبتنا خاصة بلزوم الطاعات من جهاد الكفار وغيرهم من كل ما ينبغي الجهاد فيه بالقول والفعل في الشدة والرخاء ومخالفة الهوى عند هجوم الفتن وشدائد المحن مستحضرين لعظمتنا (لنهدينهم) مما نجعل لهم من النور الذي لا يضل من صحبه هداية تليق بعظمتنا (سبلنا) أي طريق السير الينا وهي الطريق المستقيمة والطريق المستقيمة هي التي توصل الى رضا الله عز وجل قال سفيان بن عيينة اذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغور فان الله تعالى قال والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقال الحسن الجهاد مخالفة الهوى وقال الفضيل بن عياض والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به وقال سهل بن عبد الله والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا وقال أبو سليمان الداراني والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم الى ما لم يعلموا وعن بعضهم من عمل بما يعلم وفق لما لم يعلم وقيل ان الذي نرى من جهلنا بما لم نعلم انما هو من تقصيرنا فيما نعلم وقيل المجاهدة هي الصبر على الطاعة وقرأ أبو عمرو بسكون الباء الموحدة والباقون بضمها (وان الله) أي بعظمته وجلاله وكبريائه (لمع المحسنين) أي المؤمنين بالنصرة والمعونة في دنياهم والمغفرة والثواب في عقباهم * وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة العنكبوت كان له من الاجر عشر حسنات بعدد المؤمنين والمنافقين فهو حديث موضوع ورواه ابن عادل عن أبي امامة عن أبي بن كعب

(سورة الروم مكية)

وهي ستون آية وثمانمائة وتسع عشرة كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة وثلاثون حرفا (بسم الله) الذي ملك الامر كله (الرحمن) الذي رحم الخلق كلهم بنصب الدلائل (الرحيم) الذي لطف بأوليائه وقوله تعالى (الم) تقدم الكلام على ذلك في أول سورة البقرة وقال البقاعي لما ختم سبحانه وتعالى التي قبلها بأنه مع المحسنين قال ألم مشيرا بألف القيام والعلو ولام الوصلة وميم التمام الى أن الله الملك الاعلى القيوم أرسل جبريل عليه الصلاة والسلام الذي هو وصلة بينه وبين أنبيائه عليهم السلام الى أشرف خلقه محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث لاتمام مكارم الاخلاق يوحى اليه وحيا معلما بالشاهد والغائب فيأتي الامر على ما أخبر به دليلا على صحة رسالته وكمال علم مرسله وشمول قدرته ووجوب وحدانيته (غلبت الروم) وهم أهل كتاب غلبتهم فارس وليسوا أهل كتاب بل يعبدون الاوثان (في أدنى الارض) أي أقرب أرض الروم الى فارس بالجزيرة التقى فيها الجيشان والبادي بالغزو الفرس (وهم) اي الروم (من بعد غلبهم) أضيف المصدر الى المفعول أي غلبة فارس اياهم (سيغلبون) فارس (في بضع سنين) وهو ما بين الثلاث الى التسع أو العشر فالتقى الجيشان في السنة السابعة

من الانقضاء الاول وغلبت الروم فارس وسبب نزول هذه الآية على ماذكره المفسرون انه كان بين فارس والروم قتال وكان المشركون يودون أن تغلب فارس لان أهل فارس كانوا مجوسا أميين والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس لكونهم أهل كتاب فبعث كسرى جيشا الى الروم واستعمل عليه رجلا يقال له شهريارو بعث قيصر جيشا واستعمل عليه رجلا يدعى بجنس فالتقى مع شهريار باذرعات وبصرى وهى أدنى الشأم الى أرض العرب فغلبت فارس الروم وبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم بمكة فشق ذلك عليهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكره أن تظهر الاميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم وفرح كفار مكة وقالوا للمسلمين انكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وقد ظهر اخواننا من أهل فارس على اخوانكم من أهل الروم ولنظهرن عليكم فنزلت هذه الآية فخرج أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه الى الكفار فقال فرحتم بظهور اخوانكم فلا تفرحوا فوالله لتظهرن الروم على فارس أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم فقال له أبي بن خلف الجمحى كذبت يا أبا فضيل فقال أبو بكر أنت أكذب يا عدو الله فقال اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه والمناحبة المراهنة فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما فان ظهرت الروم على فارس غرمت وان ظهرت فارس غرمت وجعلا الاجل ثلاث سنين فجاء أبو بكر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فقال ماهكذا ذكرت انما البضع ما بين الثلاث الى التسع فزايده فى الخطر ومادّه فى الاجل فخرج أبو بكر فلقى أبيا فقال لعلك ندمت قال لا فتعال أزايدك فى الخطر وأماتك فى الاجل فاجعلها مائة قلوص الى تسع سنين وقيل الى سبع سنين قال قد فعلت فلما خشى أبي بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه فلزمه وقال انى أخاف أن تخرج من مكة فأقم لى كفيلا فكفله له ابنه عبد الله بن أبى بكر فلما أراد أبي بن خلف أن يخرج الى أحد أتاه عبد الله بن أبى بكر فلزمه وقال والله لا أدعك حتى تعطينى كفيلا فأعطاه كفيلا ثم خرج الى أحد ثم رجع أبي بن خلف فمات بمكة من جراحته التى جرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بارزه وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك عند رأس سبع سنين من مناحبتهم وقيل كان يوم بدر فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبي وجاء به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تصدق به وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوّة وان القرآن من عند الله لانه انبأ عن علم الغيب الذى لا يعلمه الا الله تعالى (فان قيل) كيف صحت المناحبة وانما هى قمار (أجيب) بأن قتادة رحمه الله تعالى قال كان ذلك قبل تحريم القمار قال الزمخشرى ومذهب أبى حنيفة ومحمد أن العقود الفاسدة من عقود الربا وغيرها جائزة فى دار الحرب بين المسلمين والكفار وقد احتجا على صحة ذلك بما عقده أبو بكر رضى الله عنه بينه وبين أبي بن خلف ولما كان تغلب ملك على ملك من الامور الهائلة وكان الاخبار به قبل كونه أهول ذكر له ذلك بقوله تعالى (لله) أى وحده (الامر من قبل) أى قبل جولة فارس على الروم ثم دولة الروم على فارس (ومن بعد) أى بعد دولة الروم عليهم ودولتهم على الروم ولما أخبر تعالى بهذه المعجزة أخبر بمعجزة

أخرى بقوله تعالى (ويومئذ) أى تغلب الروم على فارس (يفرح المؤمنون) أى العريقون في هذا الوصف من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم (بنصر الله) أى الذى لا راد لأمره الروم على فارس وقد فرحوا بذلك وعلوا به يوم وقوعه يوم بدر بنزول جبريل عليه السلام بذلك فيه مع فرحهم بنصرهم على المشركين فيه قال السدى فرح النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بظهورهم على المشركين يوم بدر وظهور أهل الكتاب على أهل الشرك وعن أبى سعيد الخدرى وافق ذلك يوم بدر وفى هذا اليوم نصر المؤمنون (ينصر من يشاء) من ضعيف وقوى لأنه لا مانع له ولا يسئل عما يفعل فالغلبة لا تدل على الحق بل الله قد يزيد ثواب المؤمن فيبتليه ويسلط عليه الأعادى وقد يختار تعجيل العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر قبل يوم المعاد (وهو العزيز) فلا يعز من عادى ولا يذل من والى وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بالضم ولما كان السياق لبشارة المؤمنين قال (الرحيم) فيخصهم بالأعمال الزكية والأخلاق المرضية (وعد الله) أى الذى له جميع صفات الكمال مصدر مؤكد ناصبه مضمر أى وعدهم الله ذلك وعدا بظهور الروم على فارس (لا يخلف الله) أى الذى له الأمر كله (وعده) به وهذا مقرر لمعنى هذا المصدر ويجوز أن يكون قوله تعالى لا يخلف الله وعده حالا من المصدر فيكون كالمصدر الموصوف فهو مبين للنوع كأنه قيل وعد الله وعدا غير مخلف (ولكن أكثر الناس) لجهلهم وعدم تفكرهم (لا يعلمون) ذلك وقوله تعالى (يعلمون) بدل من قوله تعالى لا يعلمون وفى هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذى هو الجهل وبين وجود العلم الذى لا يجاوز الدنيا (ظاهرا من الحياة الدنيا) يفيد أن للدنيا ظاهرا وباطنا فظاهرها ما يعرفه الجهال من أمر معايشهم كيف يكسبون ويتجرون ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون وكيف يبنون ويعرشون قال الحسن إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه وهو لا يخطئ وهو لا يحسن يصلى وأمثال هذا الهم كثير وهو وإن كان عند أهل الدنيا عظيما فهو عند الله حقير فلذلك حقره لأنهم ما زادوا فيه على أن ساووا البهائم فى إدراكها ما ينفعها فتستجلبه بنيروب من الحيل وما يضرها فتدفعه بأنواع من الخداع وأما علم باطنها وهو أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منها بالطاعة فهو ممدوح وفى تنكير الظاهر إشارة إلى أنهم لا يعلمون إلا ظاهرا واحدا من جملة ظواهرها (وهم) أى هؤلاء الموصوفون خاصة (عن الآخرة) أى التى هى المقصودة بالذات وما خلقت الدنيا إلا للتوصل بها إليها ليظهر الحكم بالقسط وجميع صفات العز والكبر والجلال والإكرام (هم غافلون) أى فى غاية الاستغراق والإضراب عنها بحيث لا تخطر فى خواطرهم * (تنبيه) * هم الثانية يجوز أن تكون مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر هم الأولى وأن تكون تكريرا للأولى وغافلون خبر الأولى وأية كانت فذكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها ومحلها وأنها منهم تنبع وإليهم ترجع (أولم يتفكروا) أى يجتهدوا فى إعمال الفكر وقوله تعالى (فى أنفسهم) يحتمل أن يكون ظرفا كأنه قيل أولم يحدثوا التفكر فى أنفسهم

أى فى قلوبهم الفارغة من التفكر والتفكر لايكون الا فى القلوب ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقولك اعتقده فى قلبك وأضمره فى نفسك وأن يكون صلة أى أولم يتفكروا فى أحوالها خصوصا فيعلموا ان من كان منهم قادرا كاملا لا يخلف وعده وهو انسان ناقص فكيف بالاله الحق ويعلموا أن الذى ساوى بينهم فى الايجاد من العدم وطورهم فى أطوار الصور وفاوت بينهم فى القوى والقدر وبين أحوالهم فى الطول والقصر وسلط بعضهم على بعض بأنواع الضرر ومات أكثرهم مظلوما قبل القصاص والظافر لابد فى حكمته البالغة من جمعه العدل بينهم فى جزاء من وفى أو غدر أو شكر أو كفر ففى ذلك دلالة على وحدانية الله تعالى وعلى الحشر ثم ذكر تعالى نتيجة ذلك وعلله بقوله فى أسلوب التأكيد لاجل انكارهم وعلى التقدير الاول يكون المتفكر فيه (ما خلق الله) أى بعز جلاله وعلو فى كماله (السموات والارض) على ماهما عليه من النظام المحكم والقانون المتقن قال البقاعى وافرد الارض لعدم دليل حسى أو عقلى يدلهم على تعددها بخلاف السماء اه وقد يرد هذا بقوله تعالى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن (وما بينهما) من المعانى التى بها كمال منافعهما (الا) خلقا متلبسا (بالحق) أى الامر الثابت الذى يطابقه الواقع فاذا ذكر البعث الذى هو مبدأ الآخرة التى هذا اسلوبها وجد الواقع فى تصوير النطف ونفخ الروح وتمييزا لصالح منهما للتصوير من الفاسد يطابق ذلك واذا تدبر النبات بعد أن كان هشيما قد نزل عليه الماء فرزها واهتز وربا وجده مطابقا لامر البعث واذا ذكر القدرة فرأى اختلاف الليل والنهار وسير الكواكب الصغار والكبار وامطار الامطار واجراء الانهار ونحو ذلك من الاسرار رآه مطابقا لكل ما يخطر بالبال ولما كان عندهم ان هذا الوجود حياة وموت لا الى نفاد قال تعالى (وأجل) لابد أن ينتهى اليه (مسمى) أى فى العلم من الازل لذلك يفنى عند انتهائه وبعده البعث ولما كانوا ينكرون أنهم على كفر أكده قوله تعالى (وان كثيرا من الناس) مع ذلك على وضوحه (بلقاء ربهم) أى الذى ملأهم احسانا برجوعهم فى الآخرة الى العرض عليه للثواب والعقاب (لكافرون) أى لا يؤمنون بالبعث بعد الموت (فان قيل) ما الفائدة فى قوله تعالى ههنا وان كثيرا من الناس وقال من قبل ولكن أكثر الناس (أجيب) بأن فائدته انه من قبل لم يذكر دليلا على الاصلين وههنا قد ذكر الدلائل الراجحة والبراهين اللائحة ولاشك فى أن الايمان بعد الدليل أكثر من الايمان قبل الدليل فبعد الدليل لابدان يؤمن من ذلك جمع فلا يبقى الاكثر كما هو فقال بعد اقامة الدليل وان كثيرا وقال قبله ولكن أكثر الناس لانه بعد الدليل لا يمكن الذهول عنه وهو السموات والارض لان من البعيد أن يذهل الانسان عن السماء التى فوقه والارض التى تحته فلهذا ذكر ما يقع الذهول عنه وهو أمثالهم وحكاية أشكالهم فقال (أولم يسيروا فى الارض) أى سير اعتبار وقوله تعالى (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الامم وهى اهلاكهم بتكذيبهم رسلهم تقرير لسيرهم فى أقطار الارض ونظرهم الى آثار المدمرين كعاد وثمود (كانوا أشد منهم) أى العرب (قوة) أى فى أبدانهم وعقولهم (وأثاروا الارض) أى

حرثوها وقلبوها للزرع والغرس والمعادن والمياه وغير ذلك (وعمروها) أى أولئك السالفون (أكثر مما عمروها) أى هؤلاء الذين أرسلت اليهم بل ليس لهم من اثارة الارض وعمارتها كبير أمر فان بلاد العرب انما هى فى جبال سود وفيافى غبر فما هو الا تهكم بهم وبيان لضعف حالهم فى دنياهم التى لا فخر لهم بغيرها (وجاءتهم رسلهم بالبينات) أى بالحجج الظاهرات مثل ما أتاكم به رسولنا من وعودنا الصادقة وأمورنا الخارقة كأمر الاسراء وما أظهر فيه من الغرائب كالاخبار بأن العير تقدم فى يوم كذا يقدمها جمل صفته كذا وغرائره كذا فظهر كذلك وما آمنتم به كم لم يؤمن من كان أشد منكم قوة (فما) أى تسبب أنه ما (كان الله) أى على ماله من أوصاف الكمال مريدا (ليظلمهم) بأن يفعل معهم فعل من تعدونه أنتم ظالما بأن يهلكهم فى الدنيا ثم يقتص منهم فى القيامة قبل اقامة الحجة عليهم بارسال الرسل بالبينات (ولكن كانوا) بغاية جهدهم (أنفسهم) أى خاصة (يظلمون) أى يجددون الظلم لها باتباع الشر موقع جلب النفع (ثم كان عاقبة) أى آخر أمر (الذين أساؤا) وقوله تعالى (السوأى) تأنيث الاسوأ وهو الاقبح كما أن الحسنى تأنيث الاحسن والمعنى أنهم عوقبوا فى الدنيا بالدمار ثم كان عاقبتهم السوأى الا أنه وضع المظهر موضع المضمر أى العقوبة التى هى أسوأ العقوبات فى الآخرة وهى جهنم التى أعدت للكافرين وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو عاقبة بالرفع على أنها اسم كان والسوأى خبرها والباقون بالنصب على أنها خبر كان وقيل السوأى اسم لجهنم كما أن الحسنى اسم للجنة واساءتهم (ان) أى بأن (كذبوا بآيات الله) اى القرآن وقيل تفسير السوأى ما بعده وهو قوله تعالى أن كذبوا أى ثم كان عاقبة المسيئين التكذيب حملتهم تلك السيئات على ان كذبوا بآيات الله (وكانوا بها) مع كونها أبعد شئ عن الهزء (يستهزؤن) أى يستمرون على ذلك بتجديده فى كل حين * ولما كان حاصل ما مضى أنه تعالى قادر على الاعادة كما قدر على الابتدا صرح بذلك فى قوله تعالى (الله) أى المحيط علما وقدرة (يبدأ الخلق) أى بدأه منه ما رأيتم وهو يجدد فى كل وقت ما يريد من ذلك كما تشاهدون (ثم يعيده) أى خلقهم بعد موتهم أحياء ولم يقل يعيدهم رده الى الخلق (ثم اليه يرجعون) للجزاء فيجزيهم بأعمالهم وقرأ أبو عمرو وشعبة بالياء على الغيبة على النسق الماضى والباقون بالتاء على الخطاب أى اليه ترجعون معنى فى أموركم كلها فى الدنيا وان كنتم لقصور النظر تنسبونها للاسباب وحسا بعد قيام الساعة وهى أبلغ من القراءة الاولى لانها أنص على المقصود * ولما ذكر الرجوع اتبعه ببعض أحواله بقوله تعالى (ويوم تقوم الساعة) سميت بذلك اشارة الى عظيم القدرة عليها مع كثرة الخلائق على ما هم فيه من العظماء والكبراء والرؤساء (يبلس المجرمون) أى يسكت المشركون لانقطاع حجتهم فالابلاس أن يبقى بائسا ساكتا متحيرا يقال ناظرته فابلس ومنه الناقة المبلاس أى التى لا ترغو وقال مجاهد مفتضحون وقال قتادة المعنى ييأس المشركون من كل خير * ولما كان الساكت ربما أغناه عن الكلام غيره نفى ذلك بقوله تعالى محققا له بجعله ماضيا (ولم يكن) ومعناه لا يكون (لهم من شركائهم) أى ممن أشركوهم بالله وهم الاصنام (شفعاء) ينقذونهم

عماهم فيه ليتبين لهم غلطهم وجهلهم المفرط فى قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله * ولما ذكر
تعالى حال الشفعاء معهم ذكر حالهم مع الشفعاء بقوله تعالى (وكانوا بشركائهم) أى خاصة
(كافرين) أى متبرئين منهم بأنهم ليسوا بآلهة وقيل كانوا فى الدنيا كافرين بسببهم وكتب شفعاء
فى المصحف بواو قبل الالف كما كتب علماء بنى اسرائيل وكذلك كتب السواى بألف قبل الياء
اثباتا للهمزة على صورة الحرف الذى منه حركتها (ويوم تقوم الساعة) أى ويا له من يوم
وزاد فى تهويله بقوله تعالى (يومئذ يتفرقون) أى المؤمنون الذين يفرحون بنصر الله والكافرون
فرقة لا اجتماع بعدها هؤلاء فى عليين وهؤلاء فى أسفل سافلين كما قال عز من قائل (فأما الذين
آمنوا) أى اقروا بالايمان بأنفسهم (وعملوا) تصديقا لاقرارهم (الصالحات فهم) أى خاصة
(فى روضة) وهى أرض عظيمة جدا منبسطة واسعة ذات ماء غدق ونبات معجب بهيج هذا
أصلها فى اللغة قال الطبرى ولا تجد أحسن منظرا ولا أطيب نشرا من الرياض اه والتنكير
لابهام أمرها وتفخيمه والروضة عند العرب كل أرض ذات نبات وماء ومن أمثالهم أحسن
من بيضة فى روضة يريدون بيضة النعامة (يحبرون) قال أبو بكر بن عياش التيجان على
رؤسهم وقال أبو عبيدة يسرون أى على سبيل التجدد كل وقت سرورا تشرق له الوجوه وتبسم
الافواه وتزهر العيون فيظهر حسنها وبهجتها فتظهر النعمة بظهور آثارها على أسهل
الوجوه وأيسرها وقال ابن عباس يكرمون وقال قتادة ينعمون وقال الاوزاعى عن يحيى بن
كثير يحبرون هو السماع فى الجنة وقال الاوزاعى اذا أخذ فى السماع لم يبق فى الجنة شجرة
الا وردت وقال ليس أحد من خلق الله أحسن صوتا من اسرافيل فاذا أخذ فى السماع قطع
على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه ذكر الجنة ومافيها
من النعيم وفى آخر القوم اعرابى قال يارسول الله هل فى الجنة من سماع قال نعم يا اعرابى
ان فى الجنة نهرا حافتاه الابكار من كل بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها
قط فذلك أفضل نعيم الجنة قال الدارمى فسألت أبا الدرداء بم يتغنين قال بالتسبيح وروى ان
فى الجنة لاشجارا عليها اجراس من فضة فاذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحا من تحت
العرش فتقع فى تلك الاجراس باصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربا (وأما الذين كفروا)
أى غطوا ما كشفته أنوار العقول (وكذبوا) عنادا (بآياتنا) التى لا أصدق منها ولا أضوأ من
أنوارها بما لها من عظمتنا وهو القرآن (ولقاء الآخرة) أى بالبعث وغيره (فأولئك) أى البغضاء
البعداء (فى العذاب) الكامل لا غيره (محضرون) أى مدخلون لا يغيبون عنه (فسبحان الله)
أى سبحوا الله تعالى بمعنى صلوا (حين تمسون) أى حين تدخلون فى المساء وفيه صلاتان المغرب
والعشاء (وحين تصبحون) أى تدخلون فى الصباح وفيه صلاة الصبح وقوله تعالى (وله الحمد
فى السموات والارض) اعتراض ومعناه يحمده أهلهما وقوله تعالى (وعشيا) عطف على حين
وفيه صلاة العصر (وحين تظهرون) أى تدخلون فى الظهيرة وفيه صلاة الظهر قال نافع بن
الازرق لابن عباس هل تجد الصلوات الخمس فى مواقيتها فى القرآن فقرأ هاتين الآيتين وقال

جمعت الآيتان الصلوات الخمس ومواقيتها وانما خص هذه الاوقات مع ان أفضل الاعمال أدومها لان الانسان لا يقدر أن يصرف جميع أوقاته الى التسبيح لانه محتاج الى مايعيشه من مأكول ومشروب وغيرذلك فخفف الله عنه العبادة فى غالب الاوقات وأمره بها فى أول النهار ووسطه وآخره وفى أول الليل ووسطه فاذا صلى العبد ركعتى الفجر فكأنما سبح قدر ساعتين وكذلك باقى الركعات وهى سبع عشرة مع ركعتى الفجر فاذا صلى الانسان الصلوات الخمس فى أوقاتها فكأنما سبح الله سبع عشرة ساعة من الليل والنهار بقى عليه سبع ساعات من جميع الليل والنهار وهى مقدار النوم والنائم مرفوع عنه القلم فيكون قد صرف جميع أوقاته بالتسبيح فى العبادة أو بمعنى نزهوه من السوء بالثناء عليه بالخير فى هذه الاوقات لما يتجدد فيها من نعم الله تعالى الظاهرة عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به الا أحد قال مثل ماقال وزاد عليه وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وعن جويرية بنت الحرث زوج النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنها أنه خرج ذات غداة من عندها وكان اسمها برة فحوله رسول الله صلى الله عليه وسلم فسماها جويرية فكره أن يقال خرج من عند برة فخرج وهى فى مسجدها أى مصلاها فرجع بعد ما تعالى النهار فقال مازلت فى مجلسك هذا منذ خرجت بعد قالت نعم فقال لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بكلماتك لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته وعن سعد بن أبى وقاص قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أيعجز أحدكم أن يكتسب فى كل يوم ألف حسنة فسأله سائل من جلسائه كيف يكتسب كل يوم ألف حسنة قال يسبح مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة أو يحط عنه ألف خطيئة وفى غير رواية مسلم ويحط بغير ألف • ولما كان الانسان عند الاصباح يخرج من سنة النوم الى سنة الوجود وهى اليقظة وعند العشاء يخرج من اليقظة الى النوم أتبعه الاحياء والاماتة حقيقة بقوله تعالى (يخرج الحى) كالانسان والطائر (من الميت) كالنطفة والبيضة (ويخرج الميت) كالبيضة والنطفة (من الحى) على عكس ذلك أو يعقب الحياة الموت وبالعكس وقيل يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن (ويحيى الارض) أى بالمطر واخراج النبات (بعد موتها) أى يبسها (وكذلك) أى ومثل هذا الاخراج (تخرجون) بأيسر أمر من الارض بعد تفرق أجسامكم فيها أحياء للبعث والحساب وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى الميت بكسر الياء المشددة والباقون بالسكون وقرأ حمزة والكسائى وابن ذكوان بخلاف عنه بفتح التاء قبل الخاء وضم الراء على البناء للفاعل والباقون بضم التاء وفتح الراء على البناء للمفعول (ومن اياته) أى ومن جملة علامات توحيده وكمال قدرته (أن خلقكم) أى أصلكم وهو آدم عليه السلام (من تراب)

لم يكن له أصلا اتصاف ما بحياة أو أنه خلقكم من نطفة والنطفة من الغذاء والغذاء انما يتولد من الماء والتراب (ثم) أى بعد اخراجكم منه (اذا أنتم بشر تنتشرون) فى الارض كقوله تعالى وبث منهما رجالا كثيرا ونساء * (تنبيه) * الترتيب والمهلة ههنا ظاهران فانهم يصيرون بشرا بعد أطوار كثيرة وتنتشرون حال واذا هى الفجائية الا ان الفجائية اكثر ما تقع بعد الفاء لانها تقتضى التعقيب ووجه وقوعها مع ثم بالنسبة الى ما يليق بالحالة الخاصة أى بعد تلك الاطوار التى قصها علينا فى موضع آخر من كونها نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما مجردا ثم عظاما مكسوا لحما فاجأ البشرية والانتشار (ومن آياته) أى على ذلك (ان خلق لكم) أى لاجلكم ليبقى نوعكم بالتوالد وفى تقديم الجار وهو قوله تعالى (من أنفسكم) أى جنسكم بعد ايجادها من ذات أبيكم آدم عليه السلام (أزواجا) اناثا هن شفع لكم دلالة ظاهرة على حرمة التزوج من غير الجنس كالجن قال البقاعى والتعبير بالنفس أظهر فى كونها من بدن الرجل أى لخلق حواء من ضلع آدم (لتسكنوا) مائلين (اليها) بالشهوة والالفة من قولهم سكن اليه اذا مال وانقطع واطمأن اليه ولم يجعلها من غير جنسكم لئلا تنفروا منها قال ابن عادل والصحيح أن المراد من جنسكم كما قال تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم ويدل عليه قوله تعالى لتسكنوا اليها يعنى أن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما الى الآخر أى لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه اليه * ولما كان المقصود بالسكن لا ينتظم الا بدوام الالفة قال تعالى (وجعل) أى صير بسبب الخلق على هذه الصفة (بينكم مودة) أى معنى من المعانى يوجب أن لا يحب أحد من الزوجين أن يصل الى صاحبه شئ يكرهه (ورحمة) أى معنى يحمل كلا على أن يجتهد للآخر فى جلب الخير ودفع الضر وقيل المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد تمسكا بقوله تعالى ذكر رحمة ربك عبده زكريا وقوله تعالى ورحمة منا (ان فى ذلك) أى الذى تقدم من خلق الازواج على الحال المذكور وما يتبعه من المنافع (لآيات) أى دلالات واضحات على قدرة فاعله وحكمته (لقوم يتفكرون) أى يستعملون أفكارهم على القوانين المحررة و يجتهدون فى ذلك فيعلمون ما فى ذلك من الحكم ولما بين تعالى دلائل الانفس ذكر دلائل الآفاق بقوله تعالى (ومن آياته) أى الدالة على ذلك (خلق السموات) على علوها واحكامها (والارض) على اتساعها واتقانها وقدم السماء على الارض لان السماء كالذكر لها ولما أشار الى دلائل الانفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الانفس بقوله تعالى (واختلاف ألسنتكم) أى لغاتكم من العربية والعجمية وغيرهما ونغماتكم وهيآتها فلا تكاد تسمع منطقين متفقين فى همس ولا جهارة ولا شدة ولا رخاوة ولا لكنة ولا فصاحة ولا غير ذلك من صفات النطق وأشكاله وأنتم من نفس واحدة (و) اختلاف (ألوانكم) من أبيض وأسود وأشقر وأسمر وغير ذلك من اختلاف الالوان وأنتم بنو رجل واحد وهو آدم عليه السلام والحكمة فى ذلك أن الانسان يحتاج الى التمييز بين الاشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو اليه وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الاقبال عليه وذلك قد يكون بالبصر لخلق اختلاف الصور وقد يكون

بالسمع لخلق اختلاف الاصوات وأما اللمس والشم والذوق فلا يفيد فائدة في معرفة العدو والصديق فلا يقع التميز بين كل واحد بشكله وحليته وصورته ولو اتفقت الصور والاصوات وتشاكلت وكانت ضربا واحدا لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت مصالح كثيرة وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحلية فيعروك الخطأ في التمييز بينهما فسبحان من خلق الخلق على ما أراد وكيف أراد وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد وتفرعوا من أصل فذوهم على الكثرة التي لا يعلمها الا الله تعالى مختلفون متفاوتون * ولما كان هذا مع كونه في غاية الوضوح لا يختص بجنس من الخلق دون غيره قال (ان في ذلك) أي الامر العظيم العالي الرتبة في بيانه وظهور برهانه (لآيات) أي دلالات واضحات جدا على وحدانيته تعالى (للعالمين) أي ذوي العقول والعلم ولا يختص به صنف منهم دون صنف من جن ولا انس ولا غيرهم فهذا هو حكمة قوله تعالى هنا العالمين وفيما تقدم بقوله تعالى لقوم يتفكرون وقرأ حفص وحده بكسر اللام * ولما ذكر تعالى بعض العرضيات اللازمة وهو الاختلاف ذكر الاعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة في النهار طلبا للرزق كما قال تعالى (ومن آياته) الدالة على القدرة والعلم (منامكم) أي نومكم ومكانه وزمانه الذي يغلبكم بحيث لا تستطيعون له دفعا (بالليل والنهار) قيلولة (وابتغاؤكم من فضله) أي منامكم في الزمانين لاستراحة القوى النفسانية وقوة القوى الطبيعية وطلب معاشكم فيهما فان كثيرا ما يكسب الانسان بالليل أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار خلف وضم بين الزمانين والفعلين بعاطفين وهما الواوان اشعارا بان كلا من الزمانين وان اختص بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة ويؤيده آيات أخر كقوله تعالى وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وقوله تعالى وجعلنا آية النهار مبصرة ويكون التقدير هكذا ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله وأخر الابتغاء وقرنه في اللفظ بالفضل اشارة الى ان العبد ينبغي ان لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه بل من فضل ربه ولهذا قرن الابتغاء بالفضل في كثير من المواضع منها قوله تعالى فاذا قضيت الصلوة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله وقوله تعالى وابتغوا من فضله * (تنبيه) * قدم الله تعالى المنام بالليل على الابتغاء بالنهار في الذكر لان الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون الا لحاجة فلا يتعب الا محتاج في الحال أو خائف من المآل (ان في ذلك) أي الامر العظيم العلي الرتبة من ايجاد النوم بعد النشاط والنشاط بعد النوم الذي هو الموت الاصغر وايجاد كل من الملوين بعد اعدامهما والجد في الابتغاء بعد المفارقة في التحصيل (لآيات) عديدة على القدرة والعلم لاسيما البعث (لقوم يسمعون) أي من الدعاة والنصاح سماع تفهم واستبصار فان الحكمة فيه ظاهرة * (تنبيه) * قال هنا آيات لقوم يسمعون وقال تعالى من قبل لقوم يتفكرون وقال تعالى للعالمين لان المنام بالليل والابتغاء يظن الجاهل أو الغافل انهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله تعالى فلم يقل آيات للعالمين ولان الامرين الاولين وهما اختلاف الالسنة والالوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الامور المفارقة فالنظر اليهما لا يدوم

لزوالهما فى بعض الاوقات ولا كذلك اختلاف الالسنة والالوان فانهما يدومان بدوام الانسان لجعلهما آيات عليه وأما قوله تعالى لقوم يتفكرون فان من الاشياء مايعلم من غير تفكر ومنها مايكفى فيه مجرد الفكرة ومنها مايحتاج الى موقف يوقف عليه ومرشد يرشد اليه فيفهمه اذا سمعه من ذلك المرشد ومنها مايحتاج بعض الناس فى تفهمه الى أمثال حسية كالاشكال الهندسية لان خلق الازواج لا يقع لاحد انه بالطبع الا اذا كان جامد الفكرة فاذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية وأما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد وقد يحتاج الى مرشد معين لفكره فقال لقوم يسمعون و يجعلون بالهم من كلام المرشد * ولما ذكر تعالى العرضيات اللازمة للانفس والمفارقة ذكر العرضيات التى للآفاق بقوله تعالى (ومن آياته) الدالة على عظيم قدرته (يريكم البرق) أى اراءتكم له على هيئات وكيفيات طال ماشاهدتموها تارة تأتى بما ينفر وتارة بما يسر كما قال تعالى (خوفا) أى للاخافة من الصواعق المحرقة (وطمعا) أى وللاطماع فى المياه العذبة (وينزل من السماء ماء) أى الذى لا يمكن لاحد غيره دعواه وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى (فيحيى به) أى بذلك الماء خاصة لان أكثر الارض لا يسقى بغيره (الارض) أى بالنبات الذى هو لها كالروح لجسد الانسان (بعد موتها) أى يبسها (ان فى ذلك) أى الامر العظيم العالى القدر (لآيات) لاسيما على القدرة على البعث (لقوم يعقلون) أى يتدبرون فيستعملون عقولهم فى استنباط أسبابها وكيفية تكونها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع *(تنبيه)* كما قدم السماء على الارض قدم ماهو من السماء وهو البرق والمطر على ماهو من الارض وهو الانبات والاحياء وكما أن فى انزال المطر وانبات الشجر منافع كذلك فى تقديم الرعد والبرق على المطر منفعة وهى أن البرق اذا لاح فالذى لا يكون تحت كن يخاف الابتلال فيستعد له والذى له صهريج أو مصنع يحتاج الى الماء أو زرع يسوى مجارى الماء وأيضا أهل البوادى لا يعلمون البلاد المعشبة ان لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب واعلم ان دلائل البرق وفوائده وان لم تظهر للمقيمين فى البلاد فهى ظاهرة للبادين فلهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة وآية (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى هنا آيات لقوم يعقلون وفيما تقدم لقوم يتفكرون (أجيب) بأنه لما كان حدوث الولد من الوالد أمرا عاديا مطردا قليل الاختلاف كان يتطرق الى الاوهام العامية أن ذلك بالطبيعة لان المطرد أقوى الى الطبيعة من المختلف والبرق والمطر ليس أمرا مطردا غير مختلف بل يختلف اذ يقع ببلدة دون بلدة وفى وقت دون وقت وتارة يكون قويا وتارة يكون ضعيفا فهو أظهر فى العقل دلالة على الفاعل المختار فقال هو آية لمن كان له عقل وان لم يتفكر تفكرا تاما * ثم ذكر تعالى من لوازم السماء والارض قيامهما بقوله تعالى (ومن آياته) أى على تمام القدرة وكمال الحكمة (أن تقوم السماء والارض بأمره) قال ابن مسعود قامتا على غير عمد بأمره أى بارادته فان الارض لثقلها يتعجب الانسان من وقوفها وعدم نزولها وكون السماء فى علوها يتعجب من علوها وثباتها من غير عمد وهذا من اللوازم فان

الارض لاتخرج عن مكانها الذى هى فيه وانما أفرد السماء والارض لان السماء الاولى
والارض الاولى لاتقبل النزاع لانهما مشاهدة مع صلاحية اللفظ بالكل لانه جنس *(تنبيه)*
ذكر تعالى من كل باب أمرين أما من الانفس فقوله تعالى خلقكم وخلق لكم واستدل بخلق الزوجين
ومن الآفاق السماء والارض فقال تعالى خلق السموات والارض ومن لوازم الانسان
اختلاف اللسان واختلاف الالوان ومن عوارض الآفاق البرق والامطار ومن لوازمهما
قيام السماء والارض لان الواحد يكفى للاقرار بالحق والثانى يفيد الاستقرار ومن هذا اعتبر
شهادة شاهدين فان قول أحدهما يفيد الظن وقول الآخر يفيد تأكيده ولهذا قال ابراهيم
عليه السلام بلى ولكن ليطمئن قلبى (فان قيل) ما الفائدة فى قوله تعالى هنا ومن آياته أن تقوم
وقال تعالى قبله ومن آياته يريكم البرق ولم يقل أن يريكم ليصير كالمصدر بأن (أجيب) بأن القيام
لما كان غير معتبر أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل ولم يذكر معه الحروف المصدرية
(فان قيل) ما الحكمة فى أنه تعالى ذكر ست دلائل وذكر فى أربع منها ان فى ذلك لآيات ولم يذكر فى
الاول وهو قوله تعالى ومن آياته أن خلقكم من تراب ولا فى الآخر وهو قوله ومن آياته أن تقوم
السماء والارض (أجيب) عن ذلك أما عن الاول فلان قوله بعده ومن آياته أن خلق لكم أيضا
دليل الانفس فخلق الانفس وخلق الازواج من باب واحد على ما تقدم من أنه تعالى ذكر من كل
باب أمرين للتقرير والتوكيد فلما قال فى الثانية ان فى ذلك لآيات كان عائدا اليهما وأما فى قيام
السماء والارض فلانه ذكر فى الآيات السماوية أنها آيات للعالمين ولقوم يعقلون وذلك لظهورها
فلما كان فى أول الامر ظاهرا ففى آخر الامر بعد سرد الادلة يكون أظهر فلم يميز أحدا فى ذلك
عن الآخر * ثم انه تعالى لما ذكر الدليل على القدرة والتوحيد ذكر مدلوله وهو قدرته على الاعادة
بقوله تعالى (ثم اذا دعاكم) وأشار الى هوان ذلك القول عنده بقوله عز وجل (دعوة) أى
واحدة (من الارض) بأن ينفخ اسرافيل فى الصور للبعث من القبور فيها فيقول أيها الموتى
اخرجوا (اذا أنتم تخرجون) أى منها أحياء بعد اضمحلالكم بالموت والبلى فلا تبقى نسمة
من الاولين والآخرين الا قامت تنظر كما قال تعالى ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون
(فان قيل) بم يتعلق من الارض بالفعل أم بالمصدر (أجيب) بهيهات اذا جاء نهر الله وهو الفعل
بطل نهر معقل وهو المصدر وثم اما للتراخى زمانه أو لعظم ما فيه (فان قيل) ما الفرق بين
اذا واذا (أجيب) بأن الاولى للشرط والثانية للمفاجأة وهى تنوب مناب الفاء فى جواب
الشرط ولذلك نابت مناب الفاء فى جواب الاولى *(تنبيه)* قال ههنا اذا أنتم تخرجون
وقال تعالى فى خلق الانسان أولا ثم اذا أنتم بشر تنتشرون لان هناك يكون خلق وتقدير
وتدريج حتى يصير التراب قابلا للحياة فينفخ فيه روحه فاذا هو بشر وأما فى الاعادة فلا يكون
تدريج وتراخ بل يكون بدأ خروج فلم يقل ههنا ثم * ولما ذكر تعالى الآيات التى تدل على القدرة
على الحشر الذى هو الاصل الآخر والوحدانية التى هى الاصل الاول أشار اليهما بقوله
تعالى (وله من فى السموات والارض) ملكا وخلقا (كل له قانتون) قال ابن عباس كل له

مطيعون فى الحياة والفناء والموت والبعث وان عصوا فى العبادة وقال الكلبى هذا خاص بمن كان منهم مطيعا ونفس السموات والارضين له وملكه فكل له منقادون فلا شريك له أصلا ثم ذكر المدلول الآخر بقوله تعالى (وهو الذى يبدؤ الخلق) أى على سبيل التجديد كما تشاهدون * وأشار الى تعظيم الاعادة باداة التراخى فقال (ثم يعيده) أى بعد الموت للبعث وفى قوله تعالى (وهو أهون عليه) قولان أحدهما أنها للتفضيل على بابها وعلى هذا يقال كيف يتصور التفضيل والاعادة والبداءة بالنسبة الى الله تعالى على حد سواء وفى ذلك أجوبة أحدها أن ذلك بالنسبة الى اعتقاد البشر باعتبار المشاهدة من أن اعادة الشئ أهون من اختراعه لاحتياج الابتداء الى اعمال فكر غالبا وان كان هذا منتفيا عن البارى سبحانه وتعالى فخوطبوا بحسب ما ألفوه ثانيها أن الضمير فى عليه ليس عائدا على الله تعالى انما يعود على الخلق أى والعود أهون على الخلق أى أسرع لان البداءة فيها تدريج من طور الى طور الى أن صارت انسانا والاعادة لا تحتاج الى هذه التدريجات فكأنه قيل وهو أقصر عليه وأيسر وأقل انتقالا والمعنى يقومون بصيحة واحدة فيكون أهون عليهم يعنى أن يقوموا نطفا ثم علقا ثم مضغا الى أن يصيروا رجالا ونساء وهى رواية الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ثالثها أن الضمير فى عليه يعود على المخلوق بمعنى والاعادة أهون على المخلوق أى اعادته شيأ بعدما أنشأه هذا فى عرف المخلوقين فكيف ينكرون ذلك فى جانب الله تعالى والثانى أن أهون ليس للتفضيل بل هى صيغة بمعنى هين كقولهم الله أكبر أى كبير وهى رواية العوفى عن ابن عباس وقد يجئ أفعل بمعنى الفاعل كقول الفرزدق

ان الذى سمك السماء بنى لنا * بيتا دعائمه أعز وأطول

أى عزيزة طويلة وعود الضمير على البارى تعالى أولى ليوافق الضمير فى قوله تعالى (وله المثل) أى الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامة والحكمة الشاملة قال ابن عباس هو أنه ليس كمثله شئ وقال قتادة هو أنه لا اله الا هو قال البيضاوى ومن فسره بلا اله الا الله أراد به الوصف بالوحدانية (الاعلى) أى الذى ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه * ولما كان الخلق لقصورهم مقيدين بعالمهم به نوع مشاهدة قال (فى السموات والارض) اى اللتين خلقهما ولم يستعصيا عليه فكيف يستعصى عليه شئ فيهما (وهو) أى وحده (العزيز) أى الذى اذا أراد شيأ كان له فى غاية الانقياد كائنا ما كان (الحكيم) أى الذى اذا أراد شيأ أتقنه فلم يقدر غيره الى التوصل الى نقض شئ منه ولا تتم حكمة هذا الكون على هذه الصورة الا بالبعث بل هى الحكمة العظمى ليصل كل ذى حق الى حقه بأقصى التحرير * ولما أبان من هذا أنه تعالى المتفرد بالملك بشمول العلم وتمام القدرة وكمال الحكمة اتصل بحسن أمثاله واحكام مقاله وفعاله قوله تعالى (ضرب) أى جعل (لكم) بحكمته أيها المشركون فى أمر الاصنام وبيان الابطال من شركها وفساده قوله بأجلى ما يكون من التقرير (مثلا) مبتدأ (من أنفسكم) التى هى أقرب الاشياء اليكم ثم بين المثل بقوله تعالى (هل لكم) أى يامن عبدوا مع

الله غيره (مما) أى من بعض ما (ملكت أيمانكم) أى من العبيد والاماء الذين هم بشر مثلكم وعمم فى النفى الذى هو المراد بالاستفهام بزيادة الجار بقوله تعالى (من شركاء) اى فى حالة من الحالات يسوغ لكم بذلك أن تجعلوا لله شركاء (فى مارزقناكم) من الاموال وغيرها مع ضعف ملككم فيه * (فائدة) * فى مقطوعة عن ما (فأنتم) أى يامعاشر الاحرار والعبيد (فيه) أى الشئ الذى وقعت فيه الشركة (سواء) فيكون أنتم وهم شركاء يتصرفون فيه كتصرفكم مع أنهم بشر مثلكم (فان قيل) أى فرق بين من الاولى والثانية والثالثة فى قوله تعالى من أنفسكم (أجيب) بأن الاولى للابتداء كأنه قال أخذ مثلا وانتزعه من أقرب شئ منكم وهى من أنفسكم ولم يبعد والثانية للتبعيض والثالثة مزيدة لتأكيد الاستفهام الجارى مجرى النفى ثم بين المساواة بقوله تعالى (تخافونهم) أى معاشر السادة فى التصرف فى ذلك الشئ المشترك (كخيفتكم أنفسكم) أى كما تخافون بعض من تشاركونه ممن يساويكم فى الحرية والعظمة أن تتصرفوا فى الامر المشترك بشئ لا يرضيه وبدون اذنه وظهر أن حالكم فى عبيدكم مثل له فيما أشركتموهم به موضح لبطلانه فاذا لم ترضوا هذا لانفسكم وهو أن تستوى عبيدكم معكم فى الملك فكيف ترضونه لخالقكم فى هذه الشركاء التى زعمتموها فسقوا ونهايه وهى من أضعف خلقه أفلا تستحيون (كذلك) أى مثل هذا التفصيل العالى (نفصل الآيات) أى نبينها فان التمثيل مما يكشف المعانى ويوضحها (لقوم يعقلون) أى يتدبرون هذه الدلائل بعقولهم والامر لا يخفى بعد ذلك الاعلى من لاعقل له (بل اتبع الذين ظلموا) أى أشركوا فانهم وضعوا الشئ فى غير موضعه فعل الماشى فى الظلام (أهواءهم) وهى ما تميل اليه نفوسهم (بغير علم) أى جاهلين لا يكفهم شئ فان العالم اذا اتبع هواه ربما ردعه علمه * ثم بين تعالى ان ذلك بارادته بقوله تعالى (فمن يهدى من أضل الله) أى الذى له الامر كله أى لا يقدر أحد على هدايته (ومالهم من ناصرين) أى مانعين يمنعونهم من عذاب الله لامن الاصنام ولامن غيرها * ولما تحررت الادلة وانتصبت الاعلام أقبل تعالى على خلاصة خلقه ايذانا بأنه لا يفهم ذلك حق فهمه غيره بقوله سبحانه (فأقم وجهك) أى قصدك كله (للدين) أى أخلص دينك لله قاله سعيد ابن جبير وقال غيره سدد عملك والوجه ما يتوجه اليه وقيل أقبل بكلك على الدين عبر بالوجه عن الذات كقوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه أى ذاته بصفاته وقوله تعالى (حنيفا) حال من فاعل أقم أو مفعوله أو من الدين ومعنى حنيفا أى مائلا اليه مستقيما عليه ومل عن كل شئ لا يكون فى قلبك شئ آخر وهذا قريب من معنى قوله تعالى ولا تكونن من المشركين وقوله تعالى (فطرت الله) أى خلقته منصوب على الاغراء أو المصدر بما دل عليه ما بعدها وهى بتاء مجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء ثم أكد ذلك بقوله تعالى (التى فطر الناس) قال ابن عباس خلق الناس (عليها) وهو دينه وهو التوحيد قال صلى الله عليه وسلم ما من مولود الا وهو يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه فقوله على الفطرة على العهد الذى أخذه عليهم بقوله تعالى ألست بربكم قالوا بلى وكل مولود فى العالم

على ذلك الاقرار وهي الحنيفية التي وقعت الخلقة عليها وان عبد غيره قال الله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقال مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ولكن لاعبرة بالايمان الفطري في أحكام الدنيا وانما يعتبر الايمان الشرعي المأمور به وهذا قول ابن عباس وجماعة من المفسرين وقيل الآية مخصوصة بالمؤمنين وهم الذين فطرهم الله تعالى على الاسلام روى عن عبد الله بن المبارك قال معنى الحديث أن كل مولود يولد على فطرته أى على خلقته التي جبل عليها في علم الله تعالى من السعادة والشقاوة فكل منهم صائر في العاقبة الى مافطر عليه وعامل في الدنيا بالعمل المشاكل لها فمن علامات الشقاء أن يولد بين يهوديين أو نصرانيين فيحملانه لشقائه على اعتقاد دينهما وقيل معنى الحديث أن كل مولود يولد في مبدا الفطرة على الخلقة أى الجبلة السليمة والطبع المتهيئ لقبول الدين فلو ترك عليها لاستمر على لزومها لان هذا الدين موجود حسنه في العقول وانما يعدل عنه من يعدل الى غيره لآفة من النشو والتقليد فمن يسلم من تلك الآفات لم يعتقد غيره ذكر هذه المعاني أبو سليمان الخطابي في كتابه * ولما كانت سلامة الفطرة أمرا مستمرا قال تعالى (لاتبديل لخلق الله) أى الملك الاعلى الذي لا كفء له فلا يقدر أحد أن يغيره فمن حمل الفطرة على الدين قال معناه لاتبديل لدين الله فهو خبر بمعنى النهي أى لاتبدلوا دين الله قاله مجاهد وابراهيم والمعنى الزموا فطرة الله أى دين الله واتبعوه ولاتبدلوا التوحيد بالشرك ومن حملها على الخلقة قال معناه لاتبديل لخلق الله أى ماجبل عليه الانسان من السعادة والشقاوة فلا يصير السعيد شقيا ولا الشقي سعيدا وقال عكرمة معناه تحريم اخصاء البهائم أى في غير المأكول وفي المأكول الكبير أما المأكول الصغير فانه يجوز ويلحق بالخصي المحرم كل تغيير محرم كالوشم (ذلك) أى الشأن العظيم (الدين القيم) أى المستقيم الذي لاعوج فيه توحيد الله تعالى (ولكن أكثر الناس لايعلمون) أن ذلك هو الدين المستقيم لعدم تدبرهم وقوله تعالى (منيبين) أى راجعين (اليه) تعالى فيما أمر به ونهى عنه حال من فاعل أقم قال الزمخشري فان قلت لم وحد الخطاب أولا ثم جمع قلت خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا وخطاب الرسول خطاب لامته مع مافيه من التعظيم للامام ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص (واتقوه) أى خافوه فانكم وان عبدتموه فلا تأمنوا أن تزيغوا عن سبيله (وأقيموا الصلوة) أى داوموا عليها وعلى أدائها في أوقاتها (ولاتكونوا من المشركين) أى لاتكونوا ممن يدخل في عدادهم بموادة أو معاشرة أو عمل تشابهونهم فيه فانه من تشبه بقوم فهو منهم وهو عام في كل مشرك سواء كان بعبادة صنم أو نارا وغير ذلك وقوله تعالى (من الذين) بدل من المشركين باعادة الجار (فرقوا دينهم) أى الذي هو الفطرة الاولى فعبد كل قوم منهم شيأ ودانوا دينا غير دين من سواهم وهو معنى (وكانوا شيعا) أى فرقا متخالفين كل واحدة منهم تشايع من دان بدينها على من خالفهم حتى كفر بعضهم بعضا واستباحوا الدماء والاموال فنعلم قطعا أنهم كلهم ليسوا على الحق وقرأ حمزة والكسائي بألف بعد الفاء وتخفيف الراء والباقون بغير ألف وتشديد

الراء فعلى القراءة الاولى فارقوا أى تركوا دينهم الذى أمروا به * ولما كان هذا أمراً يتعجب من وقوعه زاده عجباً بقوله تعالى استئنافاً (كل حزب) أى منهم (بما لديهم) أى عندهم (فرحون) أى مسرورون ظناً منهم أنهم صادفوا الحق وفازوا به دون غيرهم * ولما بين تعالى التوحيد بالدليل وبالمثل بين أن لهم حالة يعترفون بها وان كانوا ينكرونها فى وقت وهى حالة الشدة بقوله تعالى (واذا مس الناس ضر) أى قحط وشدة (دعوا ربهم) أى الذى لم يشركه فى الاحسان اليهم أحد (منيبين) أى راجعين من جميع ضلالاتهم (اليه) أى دون غيره علماً منهم بأنه لا فرج لهم عند شئ غيره قال الرازى فى اللوامع فى أواخر العنكبوت وهذا دليل على أن معرفة الرب فى فطرة كل انسان وأنهم ان غفلوا فى السراء فلا شك أنهم يلوذون اليه فى حال الضراء (ثم اذا أذاقهم منه رحمة) أى خلاصاً من ذلك الضر (اذا فريق منهم بربهم) أى المحسن اليهم دائماً المجدد لهم هذا الاحسان من هذا الضر (يشركون) أى فاجأ فريق منهم الاشراك بربهم الذى عافاهم فاذا الفجائية وقعت جواب الشرط لانها كالفاء فى أنها للتعقيب ولا تقع أول كلام وقد تجامعها الفاء زائدة (فان قيل) ما الحكمة فى قوله هنا اذا فريق منهم وقال فى العنكبوت فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون ولم يقل فريق (أجيب) بأن المذكور هنالك غير معين وهو ما يكون من هول البحر والمتخلص منه بالنسبة الى الخلق قليل والذى لا يشرك منهم بعد الخلاص فرقة منهم فهم فى غاية القلة فلم يجعل المشركين فريقاً لقلة من خرج من الشرك وأما المذكور ههنا الضر مطلقاً فيتناول ضر البحر والامراض والاهوال والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس قد يكونون قد وقعوا فى ضر ما فتخلصوا منه والذى لا يبقى بعد الخلاص مشركاً من جميع الانواع اذا جمع فهم خلق عظيم وهو جميع المسلمين فانهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين وأما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر بأجمعهم فلما كان الناجى من الضر المؤمن جمعاً كثيراً سمى الباقى فريقاً وقوله تعالى (ليكفروا بما آتيناهم) يجوز أن تكون اللام فيه لام كى وان تكون لام الامر ومعناه التهديد كقوله تعالى اعملوا ما شئتم ثم خاطب هؤلاء الذين فعلوا هذا خطاب تهديد بقوله تعالى (فتمتعوا فسوف تعلمون) عاقبة تمتعكم فى الآخرة وفى هذا التفات من الغيبة (أم أنزلنا عليهم سلطاناً) أى دليلاً واضحاً قاهراً أو ذا سلطان أى ملك معه برهان فقوله تعالى (فهو يتكلم) على الاول كلاماً مجازياً وعلى الثانى كلاماً حقيقياً وعلى كلا الحالين هو جواب للاستفهام الذى تضمنته أم المنقطعة (بما) أى بصحة ما (كانوا به يشركون) أى فيأمرهم بالاشراك بحيث لا يجدوا بداً من متابعته لتزول عنهم الملامة وهذا الاستفهام بمعنى الانكار أى ما أنزلنا بما يقولون سلطاناً قال ابن عباس حجة وعذراً وقال قتادة كتاباً يتكلم بما كانوا به يشركون أى ينطق بشركهم * ولما بين تعالى حال المشرك الظاهر شركه بين تعالى حال المشرك الذى دونه وهو من تكون عبادته للدنيا بقوله تعالى (واذا) معبراً بأداة التحقيق اشارة الى أن الرحمة أكثر من النقمة وأسند الفعل اليه فى مقام العظمة اشارة الى سعة جوده فقال (أذقنا الناس رحمة)

أي نعمة من خصب وكثرة مطر وغنى ونحوه لاسبب لها الا رحمتنا (فرحوا بها) أى فرح بطر مطمئنين من زوالها ناسين شكر من أنعم بها ولا ينبغي أن يكون العبد كذلك (فان قيل) الفرح بالرحمة مأمور به قال تعالى بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا وههنا ذمهم على الفرح بالرحمة (أجيب) بأنه هنالك فرحوا برحمة الله من حيث انها مضافة الى الله وههنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم اذا كان من الله تعالى (وان تصبهم سيئة) أى شدة من جدب وقلة مطر وفقر ونحوه (بما قدمت أيديهم) من السيآت (اذا هم يقنطون) أى ييأسون من رحمة الله وهذا خلاف وصف المؤمنين فانهم يشكرونه عند النعمة ويرجونه عند الشدة وقرأ أبو عمرو والكسائي بكسر النون بعد القاف والباقون بالفتح (أولم يروا) أى يعلموا (أن الله يبسط الرزق) أى يوسعه (لمن يشاء) امتحانا (ويقدر) أى يضيق لمن يشاء ابتلاء وهذا شأنه دائما مع الشخص الواحد فى أوقات متعاقبة متباعدة ومتقاربة ومع الاشخاص ولو فى الوقت الواحد فلو اعتبروا حال قبضه سبحانه لم يبطروا ولو اعتبروا حال بسطه لم يقنطوا بل كان حالهم الصبر فى البلاء والشكر فى الرخاء والاقلاع عن السيئة التى نزل بسببها القضاء * ولما لم تغن عن أحد منهم فى استجلاب الرزق قوته وغزارة عقله ودقة مكره وكثرة حيله ولا ضره ضعفه وقلة عقله وعجز حيلته وكان ذلك أمرا عظيما ومنزعا مع شدة ظهوره وجلالته خفيا دقيقا قال بعضهم

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه * وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

أشار سبحانه الى عظمته بقوله مؤكدا لأن عملهم فى شدة اهتمامهم بالسعى فى الدنيا عمل من يظن أن تحصيله انما هو على قدر الاجتهاد فى الاسباب (ان فى ذلك) أى الامر العظيم من الاقتار فى وقت والاغناء فى آخر والتوسيع على شخص والتقتير على آخر والامن من زوال الحاضر من النعم مع تكرر المشاهدة للزوال فى النفس والغير واليأس من حصولها عند المحنة مع كثرة وجدان الفرج وغير ذلك من أسرار آلائه (لآيات) أى دلالات واضحات على الوحدانية لله تعالى وتمام العلم وكمال القدرة وانه لا فاعل فى الحقيقة الا هو ولكن (لقوم) اى ذوى همم وكفاية القيام بما يحق لهم أن يقوموا به (يؤمنون) أى يوجدون هذا الوصف ويدعون تجديده كل وقت لما يتواصل عندهم من قيام الادلة بادامة التأمل والامعان والتذكر والاعتماد فى الرزق على من قال ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر أى من طالب علم فيعان عليه فلا يفرحون بالنعم اذا حصلت خوفا من زوالها اذا أراد القادر ذلك ولا يغتمون بها اذا زالت رجاء فى اقبالها فضلا من الرازق لان أفضل العبادة انتظار الفرج بل همهم ما عليهم من وظائف العبادة واجبها ومندوبها وهم معرضون عما سوى ذلك قد وكلوا أمر الرزق الى من تولى أمره وفرغ من قسمه وقام بضمانه وهو القدير العليم * ولما أفهم ذلك عدم الاكتراث بالدنيا لان الاكتراث بها لا يزيدها والتهاون بها لا ينقصها قال تعالى مخاطبا لأعظم المتأهلين لتنفيذ أوامره (فآت) يا خير الخلق (ذا القربى) أى القرابة (حقه) أى من البر والصلة

لانه أحق الناس بالبر صلة الرحم جودا وكرما (والمسكين) سواء كان ذا قرابة أم لا (وابن السبيل) وهو المسافر كذلك من الصدقة وأمة النبي صلى الله عليه وسلم تبع له في ذلك * (تنبيه) * عدم ذكر بقية الاصناف يدل على أن ذلك في صدقة التطوع ودخل الفقير من باب أولى لانه أسوأ حالا من المسكين (فان قيل) كيف تعلق قوله تعالى فآت ذا القربى حقه بما قبله حتى جيء بالفاء (أجيب) بأنه لما ذكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك وقد احتج أبو حنيفة بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم اذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب وعند الشافعي رضي الله عنه لا نفقة بالقرابة الا على الولد والوالدين قاس سائر القرابة على ابن العم لانه لا ولادة بينهم * ولما أمر بالايثار رغب فيه بقوله تعالى (ذلك) أي الايثار العالي الرتبة (خير للذين يريدون وجه الله) أي ذاته أو جهته وجانبه أي يقصدون بمعروفهم اياه خالصا لوجهه كقوله تعالى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى أي يقصدون جهة التقرب الى الله تعالى لا جهة أخرى والمعنيان متقاربان ولكن الطريقة مختلفة (وأولئك) أي العالو الرتبة لغناهم عن كل فان (هم المفلحون) أي الفائزون الذين لا يشوب فلاحهم شيء وأما غيرهم فخائب أما من لم ينفق فواضح وأما من أنفق على وجه الرياء فقد خسر ماله وأبقى عليه وباله كما قال تعالى (وما آتيتم من ربا) اى مال على وجه الربا المحرم بزيادة في المعاملة أو المكروه بعطية يتوقع بها مزيد مكافأة وكان هذا محرما على النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى ولا تمنن تستكثر أى لا تعط وتطلب أكثر مما أعطيته تشريفا له وكره لعامة الناس فسمي باسم المطلوب من الزيادة في المعاملة فالربا ربوان فالحرام كل قرض يؤخذ فيه أكثر منه أو يجر منفعة والذى ليس بحرام أن يستدعي بهديته أو بهبته أكثر منها وقرأ ابن كثير بقصر الهمزة بمعنى ما جئتم به من اعطاء ربا والباقون بمدها (ليربو) أي يزيد ويكثر ذلك (في أموال الناس) أي يحصل فيه زيادة تكون أموال الناس ظرفا لها فهو كناية عن أن الزيادة التي يأخذها المرابي من أموالهم لا يملكها أصلا وقرأ نافع بتاء الخطاب بعد اللام مضمومة وسكون الواو والباقون بالياء التحتية مفتوحة وفتح الواو (فلا يربو) أي يزكو وينمو فلا ثواب فيه (عند الله) أي الملك الاعلى الذى له الغنى المطلق وصفات الكمال وكل ما لا يربو عند الله فهو ممحوق لا وجود له فآله الى فناء وان كثر يمحق الله الربوا ويربي الصدقات * ولما ذكر ما زيادته نقص أتبعه ما نقصه زيادة بقوله (وما آتيتم) أي أعطيتم (من زكاة) أي صدقة وعبر عنها بذلك ليفيد الطهارة والزيادة أي تطهرون بها أموالكم من الشبه وأبدانكم من مواد الخبث وأخلاقكم من الغل والدنس * ولما كان الاخلاص عزيزا أشار الى عظمته بتكريره بقوله عز وجل (تريدون) أي بها (وجه الله) أي عظمة الملك الاعلى فيعرفون من حقه ما يتلاشى عندهم كل ما سواه فيخلصون له (فأولئك هم المضعفون) أي ذووا الاضعاف الذين ضاعفوا أموالهم في الدنيا بسبب ذلك بالحفظ والبركة وفي الآخرة بكثرة الثواب عند الله من عشر أمثال الى ما لا حصر له ونظيرا المضعف المقوى والموسر لذى القوة واليسار * ولما وضح بهذا أنه لا زيادة الا فيما يزيده الله ولا تخير الا فيما يختاره

الله بين تعالى ذلك بطريق لا أوضح منه بقوله تعالى (الله) أى بعظيم جلاله لا غيره (الذى خلقكم) أى أوجدكم على ما أنتم عليه من التقدير لا تملكون شيأ (ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم) أى ممن أشركتم بالله (من يفعل من ذلكم) مشيرا الى علو رتبته باداة البعد وخطاب الكل * ولما كان الاستفهام الانكارى التوبيخى فى معنى النفى قال مؤكدا له مستغرقا الكل ما يمكن منه ولو قل جدا (من شئ) أى يستحق هذا الوصف الذى تطلقونه عليه * ولما لزمهم قطعا أن يقولوا لا وعزتك ما لهم ولا لاحد منهم فعل شئ من ذلك قال تعالى معرضا عنهم منزها لنفسه الشريفة (سبحانه) أى تنزه تنزها لا يحيط به الوصف من أن يكون محتاجا الى شريك (وتعالى) أى علوا لا تصل اليه العقول (عما يشركون) فى أن يفعلوا شيأ من ذلك * (تنبيه) * يجوز فى خبر الجلالة الكريمة وجهان أظهرهما أنه الموصول بعدها والثانى أنه الجملة من قوله تعالى هل من شركائكم والموصول صفة والراجع من ذلكم لانه بمعنى من افعاله ومن الاولى والثانية يفيدان شيوع الحكم فى جنس الشركاء والافعال والثالثة مزيدة لتعميم النفى فكل منهما مستقلة بتأكيد لتعجيز الشركاء وقرأ حمزة والكسائى بتاء الخطاب والباقون بالياء التحتية * ولما بين لهم تعالى من حقارة شركائهم ما كان حقهم به أن يرجعوا فلم يفعلوا أتبعه ما أصابهم به على غير ما كان فى اسلافهم عقوبة لهم على قبيح ما ارتكبوا استعظاما للتوبة بقوله تعالى (ظهر الفساد) أى النقص فى جميع ما ينفع الخلق (فى البر) بالقحط والخوف وقلة المطر ونحو ذلك (والبحر) بالغرق وقلة الفوائد من الصيد ونحوه من كل ما كان يحصل منه وقلة المطر كما تؤثر فى البر تؤثر فى البحر فتخلوا أجواف الاصداف من اللؤلؤ وذلك لان الصدف اذا جاء المطر يرتفع على وجه الماء وينفتح فما وقع فيه من المطر صار لؤلؤا وقالوا اذا انقطع القطر عميت دواب البحر وقيل المراد بالبر البوادى والمفاوز وبالبحر المدائن والقرى التى على المياه الجارية قال عكرمة العرب تسمى المطر بحرا تقول أجدب البر وانقطعت مادة البحر * ثم بين سببه بقوله تعالى (بما كسبت أيدى الناس) أى بسبب شؤم ذنوبهم ومعاصيهم كقوله تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم قال ابن عباس الفساد فى البر قتل أحد ابنى آدم أخاه وفى البحر غصب الملك الجبار السفينة قال الضحاك كانت الارض خضرة مونقة لا يأتى ابن آدم شجرة الا وجد عليها ثمرة وكان ماء البحر عذبا وكان لا يقصد الاسد البقر والغنم فلما قتل قابيل هابيل اقشعرت الارض وشاكت الاشجار وصار ماء البحر ملحا زعاقا وقصد الحيوانات بعضها بعضا وقال قتادة هذا قبل مبعث نبينا صلى الله عليه وسلم امتلأت الارض ظلما فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم رجع راجعون من الناس وقيل أراد بالناس كفار مكة * ولما ذكر تعالى علية البدائية ثنى بعلية الجزائية بقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذى عملوا) كرما وحلما ويعفو عن كثير اما أصلا ورأسا واما عن المعاجلة به ويؤخره الى وقت ما فى الدنيا أو الآخرة وقرأ قنبل بالنون بعد اللام والباقون بالياء التحتية ثم ثلث بالعلة الغائية بقوله تعالى (لعلهم يرجعون) أى عما هم عليه * ولما بين تعالى حالهم بظهور الفساد فى أحوالهم بسبب

فساد

فساد أقوالهم بين لهم ضلال أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم بقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهؤلاء الذين لا همّ لهم سوى الدنيا (سيروا فى الارض) فان سيركم الماضى لكونه لم تصحبه عبرة عدم (فانظروا) نظر اعتبار (كيف كان عاقبة الذين من قبل) أى من قبل أيامكم لتروا منازلهم ومساكنهم خالية فتعلموا أن الله تعالى أذاقهم وبال أمرهم وأوقعهم فى حفائر مكرهم (كان أكثرهم مشركين) أى فلذلك أهلكاهم ولم تغن عنهم كثرتهم وأنجينا المؤمنين وما ضرتهم قلتهم * ولما نهى الله تعالى الكفار عما هم عليه أمر المؤمنين بما هم عليه وخاطب النبى صلى الله عليه وسلم ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلف به فانه أمر به أشرف الانبياء بقوله تعالى (فأقم وجهك للدين القيم) أى المستقيم وهو دين الاسلام (من قبل ان يأتى يوم) أى عظيم (لامرد له) أى لا يقدر أن يرده أحد وقوله تعالى (من الله) يجوز ان يتعلق بيأتى أو بمحذوف يدل عليه المصدر أى لا يرده من الله أحد والمراد به يوم القيامة لا يقدر أحد على رده من الله وغيره عاجز عن رده فلا بد من وقوعه (يومئذ) أى اذ يأتى (يصدعون) أى يتفرقون فريق فى الجنة وفريق فى السعير ثم أشار الى التفرق بقوله تعالى (من كفر) أى منهم (فعليه كفره) أى وبال كفره (ومن عمل صالحا) أى بالايمان وما يترتب عليه (فلانفسهم يمهدون) أى يوطئون منازلهم فى القبور وفى الجنة بل وفى الدنيا فان الله تعالى يعزهم بعز طاعته *(تنبيه)* أظهر قوله تعالى صالحا ولم يضمر لئلا يتوهم عود الضمير على من كفر وبشارة بأن أهل الجنة كثير وان كانوا قليلا لان الله تعالى هو مولاهم فهو من كثيرهم وأفرد الشرط وجمع الجزاء فى قوله تعالى فلانفسهم يمهدون اشارة الى أن الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته وفيه ترغيب فى العمل من غير نظر الى مساعد وبأنه ينفع نفسه وغيره لان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وأقل ما ينفع والديه وشيخه فى ذلك العمل وقوله تعالى (ليجزى) أى الله سبحانه وتعالى الذى أنزل هذه السورة لبيان انه ينصر أولياءه لاحسانه لانه مع المحسنين ولذلك اقتصر هنا على ذكرهم بقوله تعالى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى تصديقا لايمانهم (من فضله) علة ليمهدون أو ليصدعون والاقتصار على جزاء الموصوفين للاشعار بأنه المقصود بالذات والاكتفاء عن فحوى قوله تعالى (انه لا يحب الكافرين) فان فيه اثبات البغض لهم فيعذبهم والمحبة للمؤمنين فيثيبهم وتأكيد اختصاص الصلاح المفهوم من ترك ضميرهم الى التصريح بهم تعليل لهم وقوله تعالى من فضله دال على أن الاثابة بمحض الفضل * ولما ذكر تعالى ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر انه بسبب العمل الصالح لان الكريم لا يذكر لاحسانه عوضا ويذكر لاضداده سببا لئلا يتوهم به الظلم قال تعالى (ومن آياته) أى دلالاته الواضحة (أن يرسل الرياح مبشرات) أى بالمطر كما قال تعالى نشرا بين يدى رحمته أى قبل المطر وقيل مبشرات بصلاح الاهوية والاحوال فان الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى الريح بالافراد على ارادة الجنس والباقون بالجمع وهى الجنوب والشمال والصبا لانها رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم

اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا وقوله تعالى (وليذيقكم) أى بها (من رحمته) أى من نعمته من المياه العذبة والاشجار الرطبة وصحة الابدان وما يتبع ذلك من أمور لا يحصيها الا خالقها معطوف على مبشرات على المعنى كأنه قيل ليبشركم وليذيقكم أو على علة محذوفة دل عليها مبشرات أو على يرسل باضمار فعل معلل دل عليه أى وليذيقكم أرسلها (ولتجرى الفلك) أى السفن فى جميع البحار وما جرى مجراها عند هبوبها واغا زاد (بأمره) لان الريح قد تهب ولا تكون موافقة فلا بد من ارساء السفن والاحتيال لحبسها وربما عصفت وأغرقتها (ولتبتغوا) أى تطلبوا (من فضله) من رزقه بالتجارة فى البحر (ولعلكم) أى ولتكونوا اذا فعل بكم ذلك على رجاء من أنكم (تشكرون) على ما أنعم عليكم من نعمه ودفع عنكم من نقمه * (تنبيه) * قال تعالى فى ظهر الفساد ليذيقهم بعض الذى عملوا وقال ههنا وليذيقكم من رحمته فخاطبهم ههنا تشريفا ولان رحمته قريب من المحسنين وحينئذ فالمحسن قريب فيخاطب والمسىء بعيد فلم يخاطب وقال هناك بعض الذى عملوا فأضاف ما أصابهم الى أنفسهم وأضاف ما أصاب المؤمن الى رحمته فقال تعالى من رحمته لان الكريم لا يذكر لرحمته واحسانه عوضا فلا يقول أعطيتك لانك فعلت كذا بل يقول هذا لك منى وأما ما فعلت من الحسنة فجزاؤه بعد عندى وأيضا فلو قال أرسلت لسبب فعلكم لا يكون بشارة عظيمة وأما اذا قال من رحمته كان غاية البشارة وأيضا فلو قال بما فعلتم لكان ذلك موهما لنقصان ثوابهم فى الآخرة وأما فى حق الكفار فاذا قال بما فعلتم أنبأ عن نقصان عقابهم وهو كذلك وقال هناك لعلهم يرجعون وقال هنا ولعلكم تشكرون فالوا واشارة الى توفيقهم للشكر فى النعم وعطف على النعم قوله تعالى (ولقد أرسلنا) أى بما لنا من القوة وقال تعالى (من قبلك رسلا) تنبيها على أنه خاتم النبيين بتخصيص ارسال غيره بما قبل زمانه وقال (الى قومهم) اعلاما بأن أمر الله اذا جاء لا ينفع فيه قريب ولا بعيد (فجاؤهم بالبينات) فانقسم قومهم الى مسلمين ومجرمين (فانتقمنا) أى فكانت معاداة المسلمين للمجرمين فينا سببا لانا انتقمنا بما لنا من العظمة (من الذين أجرموا) أى أهلكنا الذين كذبوهم لاجرامهم وهو قطع ما أمرناهم بوصله * ولما كان محط الفائدة الزامه سبحانه لنفسه بما تفضل به قدمه تعجيلا للسرور وتطييبا للنفوس فقال تعالى (وكان) أى على سبيل الثبات والدوام (حقا علينا) أى مما أوجبناه بوعدنا الذى لا خلف فيه (نصر المؤمنين) أى العريقين فى ذلك الوصف فى الدنيا والآخرة ولم يزل هذا دأبنا فى كل ملة على مدى الدهر فليعتمد هؤلاء لمثل هذا وليأخذوا المثل ذلك أهبة لينظروا من المغلوب وهل ينفعهم شئ روى الترمذى وحسنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه الا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا قوله تعالى وكان حقا علينا نصر المؤمنين قال البقاعى فالآية من الاحتباك أى وهو ان يؤتى بكلامين يحذف من كل منهما شئ يكون نظمهما بحيث يدل ما أثبت فى كل على ما حذف من الآخر فحذف أولا الاهلاك الذى هو أثر الخذلان لدلالة النصر عليه وثانيا الانعام لدلالة الانتقام عليه * ثم نبه تعالى على كمال قدرته فهو

الناصر للمؤمنين بقوله تعالى (الله) أى وحده (الذى يرسل) مرة بعد أخرى (الرياح) مضطربة هائجة بعد ان كانت ساكنة (فتثير سحابا) أى تزعجه وتنشره (فيبسطه) بعد اجتماعه (فى السماء) أى جهة العلو (كيف يشاء) فى أى ناحية شاء قليلا تارة كثيرا ساعة وكثيرا أخرى كثير أيام على حسب ارادته واختياره لا مدخل فيه لطبيعة ولا غيرها (ويجعله) اذا أراد (كسفا) أى قطعا غير متصل بعضها ببعض اتصالا يمنع نزول الماء وقرأ ابن عامر بسكون السين بخلاف عن هشام والباقون بفتحها (فترى) بسبب ارسال الله له أو بسبب جعله ذا مسام وفروج يامن هو من أهل الرؤية أو يا أشرف خلقنا الذى لا يعرف هذا حق معرفته سواه (الودق) أى المطر (يخرج من خلاله) أى السحاب الذى هو اسم جنس فى حالتى الاتصال والانفصال (فاذا أصاب) أى الله (به) أى بالودق (من) أى أرض من (يشاء) ونبه على ان ذلك فضل منه لا يجب عليه لاحد شئ أصلا بقوله تعالى (من عباده) أى الذين لم تزل عبدته واجبة عليهم جديرون بملازمة شكره والخضوع لامره (اذا هم يستبشرون) أى يظهر عليهم البشر وهو السرور الذى تشرق له البشرة حال الاصابة ظهورا بالغا عظيما بما يرجونه مما يحدث عنه من الاثر النافع من الخصب والرطوبة واللين ثم بين تعالى عجزهم بقوله تعالى (وان) اى والحال أنهم (كانوا) فى الزمن الماضى (من قبل ان ينزل عليهم) أى المطر وقرأ أبو عمرو وابن كثير بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى وقوله تعالى (من قبله) من باب التكرير والتأكيد كقوله تعالى فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها ومعنى التوكيد فيه الدلالة على ان عهدهم بالمطر قد تطاول بعد ما استحكم بأسهم وقوله تعالى (لمبلسين) اشارة الى انه تمادى ابلاسهم فكان الاستبشار على قدر اهتمامهم بذلك وقيل الاولى ترجع الى المطر والثانية الى انشاء السحاب فلا تأكيد (فانظر الى أثر رحمت الله) والرحمة هى الغيث وأثرها هو النبات وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى بألف بعد الثاء المثلثة والباقون بغير ألف ورسمت رحمت هذه مجرورة فوقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء (كيف يحيى) أى الله (الارض) باخراج النبات (بعد موتها) أى يبسها (ان ذلك) أى القادر العظيم الشان الذى قدر على احياء الارض (لمحيى الموتى) كلها من الحيوانات والنباتات أى مازال قادرا على ذلك كما قال تعالى (وهو على كل شئ) من ذلك وغيره (قدير) لان نسبة القدرة منه سبحانه وتعالى الى كل ممكن على حد سواء * ولما بين أنهم عند توقف الخير يكونون آيسين وعند ظهوره يكونون مستبشرين بين ان تلك الحالة أيضا لا يدومون عليها بقوله تعالى (ولئن أرسلنا) أى بعد وجود هذا الاثر الحسن (ريحا) عقيما (فرأوه) أى الاثر لان الرحمة هى الغيث وأثرها هو النبات أو الزرع لدلالة السياق عليه (مصفرا) قد بدل وأخذ فى التلف من شدة يبس الريح اما بالحر أو البرد وقيل رأوا السحاب لانه اذا كان مصفرا لم يمطر ويجوز أن يكون الضمير للريح من التعبير بالسبب عن المسبب * (تنبيه) * اللام موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط وقوله تعالى (لظلوا) أى اصاروا (من بعده) أى اصفراره

(يكفرون) أى يأسهم من روح الله جواب سدّ مسدّ الجزاء ولذلك فسر بالاستقبال *(تنبيه)* سمى النافعة رياحا والضارة ريحا لوجوه أحدها أنّ النافعة كثيرة الانواع كثيرة الافراد فجمعها لان فى كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ولا تهب الريح الضارة فى أعوام بل الضارة لا تهب فى الدهور ثانيها أنّ النافعة لا تكون الا رياحا وأما الضارة فنفخة واحدة تقتل كريح السموم ثالثها جاء فى الحديث أنّ ريحا هبت فقال عليه الصلاة والسلام اللهمّ اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا اشارة الى قوله تعالى فأرسلنا عليهم الريح العقيم وقوله تعالى ريحا صرصرا الى قوله تنزع الناس * ولما علم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وجوه الادلة ووعد وأوعد ولم يزدهم دعاؤه الا فرارا وكفرا واصرارا قال تعالى (فانك لا تسمع الموتى) أى ليس فى قدرتك اسماع الذين لا حياة لهم فلا نظر ولا سمع أو موتى القلوب اسماعا ينفعهم لانه مما اختص به الله تعالى وهؤلاء مثل الاموات لانّ الله تعالى قد ختم على مشاعرهم (ولا تسمع الصم) أى الذين لا سماع لهم (الدعاء) اذا دعوتهم * ولما كان الاصم قد يحس بدعائك اذا كان مقبلا بحاسة بصره قال تعالى (اذا ولوا) وذكر الفعل ولم يقل ولت اشارة الى قوة التولى لئلا يظنّ انه أطلق على المجانبة مثلا ولهذا قال تعالى (مدبرين) وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية فى الوصل والباقون بالتحقيق واذا وقف حمزة وهشام على الدعاء أبدلا الهمزة ألفا مع المدّ والتوسط والقصر (وما أنت بهادى العمى) أى بموجد لهم هداية (عن ضلالتهم) اذا ضلوا عن الطريق وقرأ حمزة بتاء الخطاب مفتوحة وسكون الهاء والعمى بنصب الياء والباقون بالباء الموحدة مكسورة وفتح الهاء والعمى بالخفض *(تنبيه)* قد جعل الله تعالى الكافر بهذه الصفات وهو انه شبهه أولا بالميت وارشاد الميت محال والمحال أبعد من الممكن ثم بالاصم وارشاد الاصم صعب فانه لا يسمع الكلام وأغاية يفهم بالاشارة والافهام بالاشارة صعب ثم بالاعمى وارشاد الاعمى أيضا صعب فانك اذا قلت له مثلا الطريق عن يمينك فانه يدور الى يمينه لكنه لا يبقى عليه بل يحيد عن قريب فارشاد الاصم أصعب ولهذا تكون المعاشرة مع الاعمى أسهل من المعاشرة مع الاصم الذى لا يسمع لانّ غايته الافهام وليس كل ما يفهم بالكلام يفهم بالاشارة فانّ المعدوم والغائب لا اشارة اليه فبدأ أولا بالميت لانه أعلى ثم بالادون منه وهو الاصم وقيده بقوله تعالى اذا ولوا مدبرين ليكون أدخل فى الامتناع لانّ الاصم وان كان يفهم فانما يفهم بالاشارة فاذا ولى لا يكون نظره الى المشير فامتنع افهامه بالاشارة أيضا ثم بأدنى منه وهو الاعمى لما مرّ ثم قال تعالى (ان) أى ما (تسمع) أى سماع افهام وقبول (الا من يؤمن بآياتنا) أى القرآن فأثبت للمؤمن استماع الآيات فلزم أن يكون المؤمن حيا سميعا بصيرا لانّ المؤمن ينظر فى البراهين ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الافعال الحسنة ويفعل ما يجب عليه (فهم مسلمون) أى مطيعون كما قال تعالى عنهم وقالوا سمعنا وأطعنا * ولما أعاد تعالى دليل الآفاق بقوله تعالى الله الذى يرسل الرياح أعاد دليلا من دلائل الانفس وهو خلق الآدمى وذكر

أحواله بقوله تعالى (الله) أى الجامع لصفات الكمال (الذى خلقكم من ضعف) أى ماء ذى ضعف لقوله تعالى ألم نخلقكم من ماء مهين (ثم جعل من بعد ضعف) آخر وهو ضعف الطفولية (قوة) أى قوة الشباب (ثم جعل من بعد قوة ضعفا) أى ضعف الكبر (وشيبة) أى شيب الهرم وهى بياض فى الشعر يحصل أوله فى الغالب فى السنة الثالثة والاربعين وهو أول سن الاكتهال والاخذ فى النقص بالفعل بعد الخمسين الى أن يزيد النقص فى الثالثة والستين وهو أول سن الشيخوخة ويقوى الضعف الى ماشاء الله تعالى وقرأ عاصم وحمزة بخلاف عن حفص بفتح الضاد فى الثلاثة وهو لغة تميم والباقون بالضم وهو لغة قريش * ولما كانت هذه هى العادة الغالبة وكان الناس متفاوتين فيها وكان من الناس من يطعن فى السن وهو قوى وأنتج ذلك كله أنه لابد أن يكون التصرف بالاختيار مع شمول العلم وتمام القدرة قال تعالى (يخلق مايشاء) أى من هذا وغيره (وهو العليم) بتدبير خلقه (القدير) على مايشاء (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى هنا وهو العليم القدير وقوله تعالى من قبل وهو العزيز الحكيم والعزة اشارة الى كمال القدرة والحكمة اشارة الى كمال العلم فقدم القدرة هناك على العلم (أجيب) بأن المذكور هناك الاعادة بقوله تعالى وهو أهون عليه وله المثل الاعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم لان الاعادة بقوله تعالى كن فيكون فالقدرة هناك أظهر وههنا المذكور الابداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر ثم ان قوله تعالى وهو العليم القدير فيه تبشير وانذار لانه اذا كان عالما بأحوال الخلق يكون عالما بأحوال المخلوق فان عملوا خيرا علمه وان عملوا شرا علمه ثم اذا كان قادرا وعلم الخير أثاب واذا علم الشر عاقب ولما كان العلم بالاحوال قبل الاثابة والعقاب اللذين هما بالقدرة والعلم قدم العلم وأما الآية الاخرى فالعلم بتلك الاحوال قبل العقاب فقال وهو العزيز الحكيم * ولما ثبتت قدرته تعالى على البعث وغيره عطف على قوله أول السورة ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون (ويوم تقوم الساعة) أى القيامة سميت بذلك لانها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لانها تقع بغتة أو اعلاما بتيسيرها على الله تعالى وصارت علما عليها بالغلبة كالكوكب للزهرة (يقسم) أى يحلف (المجرمون) أى الكافرون وقوله تعالى (مالبثوا) جواب قوله تعالى يقسم وهو على المعنى اذ لو حكى قولهم بعينه لقيل مالبثنا أى فى الدنيا (غير ساعة) استقلوا أجل الدنيا لما عاينوا فى الآخرة وقال مقاتل والكلبى مالبثوا فى قبورهم غير ساعة كما قال تعالى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها وكما قال تعالى كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار وقيل فيما بين فناء الدنيا والبعث وفى حديث رواه الشيخان مابين النفختين أربعون وهو يحتمل للساعات والايام والاعوام (كذلك) أى مثل ذلك الصرف عن حقائق الامور الى شكوكها (كانوا) فى الدنيا كونا هو كالجبلة لهم (يؤفكون) أى يصرفون عن الحق فى الدنيا وقال مقاتل والكلبى كذبوا فى قولهم غير ساعة كما كذبوا فى الدنيا أن لابعث والمعنى ان الله تعالى أراد أن يفضحهم فحلفوا على شئ تبين لاهل الجمع انهم كاذبون فيه * ثم ذكر انكار المؤمنين عليهم بقوله تعالى (وقال الذين أوتوا العلم والايمان)

وهم الملائكة والانبياء والمؤمنون (لقد لبثتم فى كتاب الله) أى فيما كتب الله لكم فى سابق علمه وقضائه أوفى اللوح المحفوظ أوفيما وعد به فى كتابه من الحشر والبعث فيكون فى كتاب الله متعلق بلبثتم وقال مقاتل وقتادة فيه تقديم وتأخير معناه وقال الذين أوتوا العلم بكتاب الله والايمان لقد لبثتم (الى يوم البعث) وفى ترد بمعنى الباء فردوا ما قال هؤلاء الكفار وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على انكار البعث بقولهم (فهذا يوم البعث) الذى أنكرتموه وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة عند التاء المثناة والباقون بالادغام *(تنبيه)* سبب اختلاف الفريقين أن الموعود بوعد اذا ضرب له أجل ان علم أن مصيره الى النار وهو الكافر يستقل مدة اللبث ويختار تأخير الحشر والابقاء فى القبر وان علم ان مصيره الى الجنة وهو المؤمن فيستكثر المدة ولا يريد تأخيرها فيختلف الفريقان وفى هذه الفاء قولان أظهرهما أنها عاطفة هذه الجملة على لبثتم وقال الزمخشرى هى جواب شرط مقدر أى ان كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث أى فقد تبين بطلان ما قلتم * ولما كان التقدير قد أى فقد تبين أنه كما كنا به عالمين فلو كان لكم نوع من العلم لصدقتمونا فى اخبارنا به فنفعكم ذلك الآن عطف عليه قوله تعالى (ولكنكم كنتم) أى كونا هو كالجبلة لكم فى انكاركم له (لا تعلمون) أى ليس لكم علم أصلا لتفريطكم فى طلب العلم من أبوابه والتوصل اليه بأسبابه فلذلك كذبتم به فاستوجبتم جزاء ذلك التكذيب اليوم * ولما كانت الآيات دالة على أن هذه الدار دار عمل وان الآخرة دار جزاء وان البرزخ حائل بينهما فلا يكون فى واحدة منهما ما للاخرى تسبب عن ذلك قوله تعالى (فيومئذ) أى اذ يقع ذلك و يقول الذين أوتوا العلم تلك المقالة (لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم) فى انكارهم له (ولاهم يستعتبون) أى لا يطلب منهم الرجوع الى ما يرضى الله تعالى كما دعوا اليه فى الدنيا من قولهم استعتبنى فلان فأعتبته اى استرضانى فأرضيته وقرأ الكوفيون لا ينفع بالياء التحتية لان المعذرة بمعنى العذر ولان تأنيثها غير حقيقى وقد فصل بينهما والباقون بالتاء الفوقية * ثم أشار تعالى الى ازالة الاعذار والاتيان بما فوق الكفاية من الانذار وانه لم يبق من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم تقصير بقوله تعالى (ولقد ضربنا) أى جعلنا (للناس فى هذا القرآن) أى فى هذه السورة وغيرها (من كل مثل) أى معنى غريب هو أوضح وأثبت من اعلام الجبال فى عبارة هى أرشق من سائر الامثال فان طلبوا شيأ آخر غير ذلك فهو عناد محض لان من كذب دليلا لا حقا لا يصعب عليه تكذيب الدلائل بل لا يجوز للمستدل أن يشرع فى دليل آخر بعد ذكره دليلا جيدا مستقيما ظاهرا لا اشكال عليه وعانده الخصم وهذا من العالم فكيف بالنبى صلى الله عليه وسلم (فان قيل) الانبياء عليهم الصلاة والسلام ذكروا أنواعا من الدلائل (أجيب) بأنهم سردوها سردا ثم قرروا فردا فردا كمن يقول الدليل عليه من وجوه الاول كذا والثانى كذا والثالث كذا وفى مثل هذا عدم الالتفات الى عناد المعاند لانه يريد تضييع الوقت كى لا يتمكن المستدل من الاتيان بجميع ما وعد من الدليل فتحط درجته والى هذا أشار بقوله تعالى (ولئن) اللام لام قسم (جئتهم) بأفضل

الخلق (بآية) مثل العصا واليد لموسى عليه السلام (ليقولن الذين كفروا) منهم (ان) أي ما (أنتم الا مبطلون) أي أصحاب أباطيل (فان قيل) لم وحد في قوله تعالى جئتهم وجمع في قوله تعالى ان أنتم (أجيب) بأن ذلك لنكتة وهي انه تعالى أخبر في موضع آخر فقال ولئن جئتهم بكل آية أي جاءت بها الرسل فقال الكفار ما أنتم أيها المدعون الرسالة كلكم الا كذا وقال الجلال المحلي ان أنتم أي محمد وأصحابه وأما الذين آمنوا فيقولون نحن بهذه الآية مؤمنون (كذلك) أي مثل هذا الطبع العظيم (يطبع الله) أي الذي له العظمة والكمال (على قلوب الذين لا يعلمون) توحيد الله (فان قيل) من لا يعلم شيئاً أي فائدة في الاخبار عن الطبع على قلبه (أجيب) بأن معناه أن من لا يعلم الآن فقد طبع على قلبه من قبل ثم انه تعالى سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (فاصبر) أي على انذارهم مع هذا الجفاء والرد بالباطل والاذى فان الكل فعلنا لم يخرج منه شيء عن ارادتنا (ان وعد الله) أي الذي له الكمال كله بنصرك واظهار دينك على الدين كله وفي كل ما وعد به (حق) أي ثابت جداً بمطابقته الواقع كما يكشف عنه الزمان وتأتي به مطايا الحدثان * ولما كان التقدير فلا تعجل عطف عليه قوله تعالى (ولا يستخفنك) أي يحملنك على الخفة ويطلب أن تخف باستعجال النصر خوفاً من عواقب تأخيره وتنسيرك عن التبليغ (الذين لا يوقنون) أي أذى الذين لا يصدقون بوعدنا من البعث والحشر وغير ذلك تصديقاً ثابتاً في القلب بل هم اما شاكون وأدنى شيء يزلزلهم كمن يعبد الله على حرف أو مكذبون فهم بالغون في العداوة والتكذيب حتى انهم لا يصدقون في وعد الله بنصر الروم على فارس كأنهم على ثقة وبصيرة من أمرهم في أن ذلك لا يكون فاذا صدق الله وعده في ذلك باظهاره عن قرب علموا كذبهم عياناً وعلموا ان كان لهم علم أن الوعد بالساعة لاقامة العدل على الظالم والعود بالفضل على المحسن كذلك يأتي وهم صاغرون ويحشرون وهم داخرون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون فقد انعطف آخر السورة على أولها واتصل به اتصال القريب بالقريب وها أنا أسأل الله تعالى القريب المجيب أن يغفر ذنوب من كتب هذا وهو محمد الشربيني الخطيب ويفعل ذلك بوالديه وأولاده ومشايخه وكل محب له وحبيب وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الروم كان له من الاجر عشر حسنات بعدد كل ملك يسبح الله بين السماء والارض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته حديث موضوع رواه الثعلبي في تفسيره والله تعالى أعلم بالصواب

(سورة لقمان مكية)

أو الا ولو أن ما في الارض من شجرة اقلام الآيتين وهي أربع أو ثلاث وثلاثون آية وخمسمائة وثمان وأربعون كلمة وألفان ومائة وعشرة أحرف (بسم الله) أي الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً (الرحمن) الذي شملت نعمته سائر بريته (الرحيم) بأوليائه فخصهم بمعرفته قوله تعالى (الم) تقدم الكلام عليه في أول سورة البقرة وقيل انه أشار بذلك الى أن الله الملك الاعلى أرسل جبريل عليه السلام الى محمد صلى الله عليه وسلم بوحي ناطق من الحكم والاحكام بما لم ينطق به من قبله امام

ولا يلحقه فى ذلك نبى مدى الايام فهو المبدأ وهو الختام والى ذلك أومأ بتعبيره باداة البعد فى قوله تعالى (تلك) أى الايات التى هى من العلو والعظمة بمكان (آيات الكتاب) أى الجامع لجميع أنواع الخير (الحكيم) بوضع الاشياء فى حواق مراتبها فلا يستطاع نقص شئ من ابرامه ولا معارضة شئ من كلامه الدال ذلك على تمام علم منزله وشمول عظمته وقدرته والاضافة بمعنى من وقوله تعالى (هدى ورحمة) بالرفع وهى قراءة حمزة خبر مبتدا مضمر هى أو هو وقرأ الباقون بالنصب على الحال من آيات والعامل ما فى اسم الاشارة من معنى الفعل وقال تعالى (للمحسنين) اشارة الى أن رحمة الله قريب من المحسنين فانه تعالى قال فى البقرة ذلك الكتاب ولم يقل الحكيم وههنا قال الحكيم لانه لما زاد ذكر وصف فى الكتاب زاد ذكرا من أحواله فقال هدى ورحمة وقال هناك هدى للمتقين فقوله تعالى هدى فى مقابلة قوله تعالى الكتاب وقوله تعالى ورحمة فى مقابلة قوله تعالى الحكيم ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذى الحكمة كقوله تعالى فى عيشة راضية أى ذات رضا وقوله تعالى هناك للمتقين وقول تعالى هنا للمحسنين لانه لما ذكر أنه هدى ولم يذكر شيأ آخر قال للمتقين أى يهدى به من يتقى الشرك والعناد وههنا زاد قوله تعالى ورحمة فقال للمحسنين كما قال تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة فناسب زيادة قوله تعالى ورحمة ولان المحسن يتقى وزيادة ثم وصف المحسنين بقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة) أى يجعلونها كأنها قائمة بسبب اتقان جميع ما أمر به فيها وندب اليه ودخل فيها الحج لانه لا يعظم البيت فى كل يوم خمس مرات الا معظم له بالحج فعلا أو قوة (ويؤتون الزكاة) أى كلها فدخل فيها الصوم لانه لا يؤدى زكاة الفطر الا من صامه فعلا أو قوة * ولما كان الايمان أساس هذه الاركان وكان الايمان بالبعث جامعا لجميع أنواعه وحاملا على سائر وجوه الاحسان قال تعالى (وهم بالآخرة) أى التى تقدم أن المجرمين عنها غافلون (هم يوقنون) أى يؤمنون بها ايمان موقن فهو لا يفعل شيأ ينافى الايمان ولا يغفل عنه طرفة عين فهو فى الذروة العليا من ذلك فهو يعبد الله تعالى كأنه يراه فآية البقرة بداية وهذه نهاية * ولما كانت هذه الخلال أمهات الافعال الموجبة للكمال وكانت مساوية من وجه لآية البقرة ختمها بختامها بعد أن زمها بزمامها فقال (أولئك) أى العالو الرتبة الحائزون من منازل القرب أعظم رتبة (على هدى) أى متمكنون منه تمكن المستعلى على الشئ وقال (من ربهم) تذكيرا لهم بأنه لولا احسانه لما وصلوا الى شئ ليلزموا تمريغ الجباه على الاعتاب خوفا من الاعجاب (وأولئك هم المفلحون) أى الظافرون بكل مراد * ولما بين سبحانه وتعالى حال من تحلى بهذا الحال فترقى الى حلية أهل الكمال بين حال اضدادهم بقوله تعالى (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) أى ما يلهى عما يعنى كالاحاديث التى لا أصل لها والاساطير التى لا اعتبار فيها والمضاحك وفضول الكلام (فان قيل) ما معنى اضافة اللهو الى الحديث (أجيب) بأن معناها التبيين وهى الاضافة بمعنى من وان يضاف الشئ الى ما هو منه كقوله جبة خز وباب ساج والمعنى من يشترى اللهو من الحديث لان اللهو يكون من الحديث ومن غيره فبين بالحديث

والمراد بالحديث الحديث المنكر كما جاء في الحديث الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش ويجوز أن تكون الاضافة بمعنى من التبعيضية كأنه قيل ومن الناس من يشترى بعض الحديث الذى هو اللهو قال الكلبي ومقاتل نزلت في النضر بن الحرث بن كلدة كان يتجر فيأتي الحيرة ويشترى أخبار العجم ويحدث بها قريشا ويقول ان محمدا يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الاكاسرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال مجاهد يعني شراء المغنيات والمغنين ووجه الكلام على هذا التأويل من يشترى ذات أو ذا لهو الحديث وقيل كان النضر يشترى المغنيات ولا يظفر بأحد يريد الاسلام الا انطلق به الى قينة فيقول أطعميه واسقيه وغنيه ويقول هذا خير لك مما يدعوك اليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه وعن أبي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن وأثمانهن حرام وفي مثل هذا نزلت الآية وما من رجل يرفع صوته بالغناء الا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذى يسكت وعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ثمن الكلب وكسب المزمار وقال مكحول من اشترى جارية ضرابة ليمسكها لغنائها وضربها مقيما عليه حتى يموت لم أصل عليه ان الله تعالى يقول ومن الناس من يشترى لهو الحديث الآية وعن الحسن وغيره قالوا لهو الحديث هو الغناء والآية نزلت فيه ومعنى يشترى لهو الحديث يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن وقال أبو الصهباء سألت ابن مسعود عن هذه الآية فقال هو الغناء والله الذى لا اله الا هو يرددها ثلاث مرات وقال ابراهيم النخعي الغناء ينبت النفاق في القلب قال وكان أصحابنا يأخذون بأفواه السكك يخرقون الدفوف وقال ابن جريج لهو الحديث هو الطبل وقال الضحاك هو الشرك وقال قتادة هو كل لهو ولعب وقيل الغناء منفدة للمال مسخطة للرب مفسدة للقلب (ليضل عن سبيل الله) أى الطريق الواضح الموصل للملك الاعلى المستجمع لصفات الكمال ضد ما كان عليه المحسنون من الهدى وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء قبل الضاد من الضلالة بمعنى ليثبت على ضلاله والباقون بضمها ونكر قوله تعالى (بغير علم) ليفيد السلب العام لكل نوع من أنواع العلم أى لانه لا علم بشئ من حال السبيل ولا حال غيرها علما يستحق اطلاق العلم عليه (فان قيل) مامعنى قوله تعالى بغير علم (أجيب) بأنه تعالى لما جعله مشتريا لهو الحديث بالقرآن قال يشترى بغير علم بالتجارة وبغير بصيرة بها حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق ونحوه قوله تعالى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين أى وما كانوا مهتدين بالتجارة وبصراء بها (ويتخذها) أى السبيل التى لا أشرف منها مع ما ثبت له من الجهل المطلق (هزوا) أى مهزوا بها وقرأ حمزة والكسائي وحفص بنصب الذال عطفا على يضل والباقون بالرفع على يشترى وسكن حمزة زاى هزوا وضمها الباقون * ولما افتتح هذا الشقاء الدائم بينه بقوله تعالى

(أولئك) أى هؤلاء البعداء البغضاء (لهم عذاب مهين) لاهانتهم الحق باستثنار الباطل عليه * ولما كان الانسان قد يكون غافلا فاذا انبه انتبه نبه سبحانه وتعالى على ان هذا الانسان المنهمك فى أسباب الخسران لا يزداد على ممر الزمان الا مفاجأة لكل ما يرد عليه من البيان بقوله تعالى (واذا تتلى عليه آياتنا) أى تجدد عليه تلاوتها أى تلاوة القرآن من كل تال كان (ولى) أى بعد السماع مطلق التولية سواء كان على الجانبة أو مدبرا (مستكبرا) أى طالبا للكبر موجدا له بالاعراض عن الطاعة (كأن) أى كأنه لم (يسمعها) فهو لم يزل على حالة الكبر (كأن فى أذنيه وقرا) أى صمما يستوى معه تكليم غيره له وسكوته * (تنبيه) * جملتا التشبيه حالان من ضمير ولى أو الثانية بيان للاولى وقرأ نافع بسكون الذال والباقون بضمها * ولما تسبب عن ذلك استحقاقه لما يزيل كبره وعظمته قال تعالى (فبشره) أى أعلمه (بعذاب أليم) أى مؤلم وذكر البشارة تهكم به وهو النضر بن الحرث كما مرت الاشارة اليه * ولما بين تعالى حال المعرض عن سماع الآيات بين حال من يقبل على تلك الآيات بقوله تعالى (ان الذين امنوا) أى أوجدوا الايمان (وعملوا) أى تصديقا له (الصالحات لهم جنات) أى بساتين (النعيم) أى نعيم جنات فعكس للمبالغة كما أن لهؤلاء العذاب المهين ووحد العذاب وجمع الرحمة اشارة الى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب * ولما كان ذلك قد لا يكون دائما وكان السرور بشئ قد ينقطع قال تعالى (خالدين فيها) أى دائما وقوله تعالى (وعد الله) أى الذى لا شئ أجل منه مصدر مؤكد لنفسه لان قوله تعالى جنات فى معنى وعدهم الله تعالى ذلك وقوله تعالى (حقا) مصدر مؤكد لغيره أى لمضمون تلك الجملة الاولى وعاملهما مختلف فتقدير الاولى وعد الله ذلك وعدا وتقدير الثانية أحق ذلك حقاقا كد نعيم الجنات ولم يؤكد العذاب المهين (وهو العزيز) أى فلا يغلبه شئ (الحكيم) أى الذى لا يضع شيأ الا فى محله * ولما ختم بصفتى العزة وهى غاية القدرة والحكمة وهى ثمرة العلم دل عليهما باتقان أفعاله بقوله تعالى (خلق السموات) على علوها وكبرها وضخامتها (بغير عمد) وقوله تعالى (ترونها) فيه وجهان أحدهما انه راجع الى السموات اذ ليست بعمد أصلا وأنتم ترونها كذلك بغير عمد الثانى انه راجع الى العمد ومعناه بغير عمد مرئية وعلى كلا الوجهين هى ثابتة لا ترون وليس ذلك الا بقدرة قادر مختار * (تنبيه) * أكثر المفسرين ان السموات مبسوطة كصحف مستوية لقوله تعالى يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب وقال بعضهم انها مستديرة وهو قول جميع المهندسين والغزالى رحمه الله تعالى حيث قال ونحن نوافقهم فى ذلك فان لهم على دليلا من المحسوسات ومخالفة الحس لا تجوز وان كان فى الباب خبر يؤول بما يحتمله فضلا عن أن ليس فى القرآن والخبر ما يدل على ذلك صريحا بل فيه ما يدل على الاستدارة كقوله تعالى كل فى فلك يسبحون والفلك اسم لشئ مستدير بل الواجب أن السموات سواء كانت مستديرة أو صفيحة مستقيمة هى مخلوقة لله تعالى باختيار لا بايجاب وطبع * ولما ذكر تعالى العمد المقلة ذكر الاوتاد المقرة بقوله تعالى (وألقى فى الارض) أى التى أنتم عليها جبالا (رواسى) والعجب أنها من فوقها

وجميع

وجميع الرواسي التي تعرفونها تكون من تحت تثبيتها عن (أن تميد) أي تضطرب (بكم) كما هو شأن ما على ظهر الماء (وبث) أي فرق (فيها من كل دابة) وقوله تعالى (وأنزلنا) أي بما لنا من القوة (من السماء ماء) فيه التفات عن الغيبة * ولما تسبب عن ذلك تدبير الاقوات وكان من آثار الحكمة التابعة للعلم دل عليه بقوله تعالى (فأنبتنا) أي بما لنا من العلو في الحكمة (فيها) أي الارض بخلط الماء بترابها (من كل زوج) أي صنف من النبات متشابه (كريم) بما له من البهجة والنضرة الجالبة للسرور وفي هذا دليل على عزته التي هي كمال القدرة وحكمته التي هي كمال العلم ومهد به قاعدة التوحيد وقررها بقوله تعالى (هذا) أي الذي تشاهدونه كله (خلق الله) أي الذي له جميع الكمال فلا كفء له فان ادعيتم ذلك (فأروني ماذا خلق الذين من دونه) أي غيره بكتم بأن هذه الاشياء العظيمة مما خلقه تعالى وأنشأه فأروني ما خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة * (تنبيه) * ما استفهام انكار مبتدأ وذا بمعنى الذي بصلته خبره وأروني معلق عن العمل وما بعده سد مسد المفعولين ثم أضرب عن تبكيتهم بقوله تعالى (بل) منبها على أن الجواب ليس لهم خلق هكذا كان الاصل ولكنه قال تعالى (الظالمون) أي العريقون في الظلم تعميما وتنبيها على الوصف الذي أوجب لهم كونهم (في ضلال) عظيم جدا محيط بهم (مبين) أي في غاية الوضوح وهو كونهم يضعون الاشياء في غير مواضعها لانهم في مثل الظلام لا نور لهم لانحجاب شمس الانوار عنهم بحجب الهوى فلا حكمة لهم ثم انه تعالى لما نفاها عنهم أثبتها لبعض أوليائه بقوله تعالى (ولقد آتينا) بما لنا من العظمة والحكمة (لقمان) وهو عبد من عبيدنا المطيعين لنا (الحكمة) وهو العلم المؤيد بالعمل أو العمل المحكم بالعلم قال ابن قتيبة لا يقال لشخص حكيم حتى يجتمع له الحكمة في القول والفعل قال ولا يسمى المتكلم بالحكمة حكيما حتى يكون عاملا بها وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي العقل والفهم والفطنة واختلف في نسبه وفي سبب حكمته فقيل هو لقمان بن باعورا ابن أخت أيوب عليه السلام أو ابن خالته وقيل كان من أولاد آزر وعاش ألف سنة وأدرك داود عليه السلام وأخذ عنه العلم وكان يفتي قبل مبعث داود عليه السلام فلما بعث قطع الفتوى فقيل له فقال الا أكتفي اذا كفيت وقيل كان قاضيا في بني اسرائيل وأكثر الاقاويل انه كان حكيما ولم يكن نبيا أخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه انه سئل أكان لقمان نبيا قال لا لم يوح اليه وكان رجلا حكيما وعن ابن عباس لقمان لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان راعيا أسود ورزقه الله تعالى العتق ورضي قوله ووصيته فقص أمره في القرآن لتمسكوا بوصيته وقال ابن المسيب كان أسود من سودان مصر خياطا وقال مجاهد كان عبدا أسود غليظ الشفتين مشقق القدمين وقيل كان نجارا وقيل كان راعيا وقيل كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة حطب وقال عكرمة والشعبي كان نبيا وقيل خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة وعنه انه قال لرجل ينظر اليه ان كنت تراني أسود فقلبي أبيض وعن عكرمة قال كان لقمان أهون مملوك على سيده وأول ما روي من حكمته أنه بينما هو

مع مولاه اذ دخل المخرج وأطال فيه الجلوس فنادى لقمان ان طول الجلوس على الحاجة يسيح منه الكبد ويكون منه الباسور ويصعد الحر الى الرأس فخرج وكتب حكمته على الحش قال وسكر مولاه فخاطر قوما على أن يشرب ماء بحيرة فلما أفاق عرف ماوقع منه فدعا لقمان فقال لمثل هذا كنت أخبؤك قال اجمعهم فلما اجتمعوا قال على أى شئ خاطرتموه قالوا على أن يشرب ماء هذه البحيرة قال فان لها موادا فاحبسوا موادها عنه قال وكيف نستطيع أن نحبس موادها قال فكيف يستطيع أن يشربها ولها مواد وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الاصول عن أبى مسلم الخولانى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لقمان كان عبدا كثير التفكر حسن الظن كثير الصمت أحب الله فأحبه الله فمن عليه بالحكمة نودى بالخلافة قبل داود فقيل له يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة فى الارض تحكم بين الناس قال لقمان ان أجبرنى ربى قبلت فانى أعلم أنه ان فعل ذلك أعانى وعلمنى وعصمنى وان خيرنى اخترت العافية ولم أسأل البلاء فقالت الملائكة يا لقمان لم قال لان الحاكم بأشد المنازل وأكدرها يغشاه الظلم من كل مكان فيخذل أو يعان فان أصاب فبالحرى أن ينجو وان أخطأ أخطأ طريق الجنة ومن يكن فى الدنيا ذليلا فهو خير من أن يكن شريفا ضائعا ومن تخير الدنيا على الآخرة تفتنه الدنيا ولا يصيب الآخرة فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأعطى الحكمة فانتبه وهو يتكلم بها ثم نودى داود بعده بالخلافة فقبلها ولم يشترط ما اشترط لقمان فوقع فى الذى حكاه الله عنه فصفح الله تعالى عنه وتجاوز وكان لقمان يوازره أى يساعده بعلمه وحكمته فقال داود طوبى لك يا لقمان أوتيت الحكمة فصرفت عنك البلية وأوتى داود الخلافة فابتلى بالذنب والفتنة وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال خير الله تعالى لقمان بين الحكمة والنبوة فاختار الحكمة فأتاه جبريل وهو نائم فذر عليه الحكمة فأصبح ينطق بها فقيل له كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك فقال انه لو أرسل الى بالنبوة عزمة لرجوت فيها الفوز منه ولكنت أرجو أن أقوم بها ولكنه خيرنى فخفت أن أضعف عن النبوة فكانت الحكمة أحب الى وروى انه دخل على داود وهو يصنع الدروع وقد لين الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله فادركته الحكمة فسكت فلما أتمها لبسها وقال نعم لبوس الحرب أنت فقال الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود لحق ما سميت حكيما وروى ان مولاه أمره بذبح شاة وبأن يخرج منها أطيب مضغتين فأخرج اللسان والقلب ثم أمره بمثل ذلك وأن يخرج أخبث مضغتين فأخرج اللسان والقلب فسأله عن ذلك فقال هما أطيب ما فيها اذا طابا وأخبث ما فيها اذا خبثا وروى انه لقيه رجل وهو يتكلم بالحكمة فقال ألست فلان الراعى فبم بلغت ما بلغت قال بصدق الحديث وأداء الامانة وترك ما لا يعنينى وعن ابن المسيب انه قال لاسود لا تحزن فانه كان من خير الناس ثلاثة من السودان بلال ومهجع مولى عمر ولقمان كان أسود نوبيا ذا مشافر وروى سادات السودان أربعة لقمان الحبشى والنجاشى وبلال ومهجع وعن

أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في العزلة وواحد في الصمت وقال لقمان لا مال كصحة ولا نعيم كطيب نفس وقال ضرب الوالد لولده كالسماد للزرع * ولما كانت الحكمة هي الاقبال على الله قال الله تعالى (أن اشكر لله) أي وقلنا له أن اشكر لله على ما أعطاك من الحكمة (ومن يشكر) أي يجدد الشكر ويتعاهده بنفسه كائنا من كان (فانما يشكر لنفسه) أي لان ثواب شكره له (ومن كفر) أي النعمة (فان الله غني) عن الشكر وغيره (حميد) أي له جميع المحامد وان كفره جميع الخلق (و) اذكر (اذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني) تصغير اشفاق وقرأ حفص بفتح الياء وسكنها ابن كثير وكسرها الباقون (لا تشرك بالله) أي الملك الاعظم (ان الشرك) أي بالله (لظلم عظيم) فرجع اليه وأسلم ثم قال له أيضا يا بني اتخذ تقوى الله تعالى تجارة يأتيك الفرج من غير بضاعة يا بني احضر الجنائز ولا تحضر العرس فان الجنائز تذكر الآخرة والعرس يشهيك الدنيا يا بني لا تأكل شبعا من شبع فانك أن تلقيه للكلب خير من أن تأكله يا بني لا تكن أعجز من هذا الديك الذي يصوت بالاسحار وأنت نائم على فراشك يا بني لا تؤخر التوبة فان الموت يأتي بغتة يا بني لا ترغب في ود الجاهل فترى انك ترضى عمله يا بني اتق الله ولا تري الناس انك تخشى ليكرموك بذلك وقلبك فاجر يا بني ما ندمت على الصمت قط فان الكلام اذا كان من فضة كان السكوت من ذهب يا بني اعتزل الشر كما يعتزلك فان الشر للشر خلق يا بني اياك وشدة الغضب فان شدة الغضب ممحقة لفؤاد الحكيم يا بني عليك بمجالس العلماء واستمع كلام الحكماء فان الله تعالى يحيي القلب الميت بنور الحكمة كما يحيي الارض بوابل المطر فان من كذب ذهب ماء وجهه ومن ساء خلقه كثر غمه ونقل الصخور من مواضعها أيسر من افهام من لا يفهم يا بني لا ترسل رسولا جاهلا فان لم تجد حكيما فكن رسول نفسك يا بني لا تنكح أمة غيرك فتورث بنيك حزنا طويلا يا بني يأتي على الناس زمان لا تقر فيه عين حليم يا بني اختر المجالس على عينك فاذا رأيت المجلس يذكر فيه الله عز وجل فاجلس معهم فانك ان تك عالما ينفعك علمك وان تك غبيا يعلموك وان يطلع الله عز وجل عليهم برحمة تصبك معهم يا بني لا تجلس في المجلس الذي لا يذكر فيه الله تعالى فانك ان تكن عالما لا ينفعك علمك وان تكن غبيا يزيدوك غباوة وان يطلع الله تعالى عليهم بعد ذلك بسخط يصبك معهم يا بني لا يأكل طعامك الا الاتقياء وشاور في أمرك العلماء يا بني ان الدنيا أمر عميق وقد غرق فيها ناس كثير فاجعل سفينتك فيها تقوى الله وحشوها الايمان بالله وشراعها التوكل على الله لعلك أن تنجو ولا أراك ناجيا يا بني اني حملت الجندل والحديد فلم أحمل شيأ أثقل من جار السوء وذقت المرارة كلها فلم أذق أشد من الفقر يا بني كن ممن لا يبتغي محمدة الناس ولا يكسب مذمتهم فنفسه عنهم في غنى والناس منه في راحة يا بني ان الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان الله ليحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الارض الميتة بوابل السماء يا بني لا تتعلم ما لا تعلم حتى تعمل بما تعلم يا بني اذا أردت ان تؤاخي رجلا فأغضبه قبل ذلك فان أنصفك عند غضبه والا فاحذره يا بني انك

منذ نزلت الى الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة فدار أنت اليها تسير أقرب من دار أنت عنها تباعد يا بنى عود لسانك أن يقول اللهم اغفر لى فان لله ساعات لا ترد يا بنى اياك والدين فانه ذل النهار وهم الليل يا بنى ارج الله رجاء لا يجرئك على معصيته وخف الله خوفا لا يؤيسك من رحمته اهـ وانما أكثرت من ذلك لعل الله ينفعنى ومن طالعه بذلك وسيأتى فى كلام الله تعالى زيادة على ذلك واقتصرت على هذا القدر والا فمواعظه لابنه لو أراد شخص الاكثار منها لجعل منها مجلدات فقد أخرج ابن أبى الدنيا عن حفص بن عمر الكندى قال وضع لقمان عليه السلام جرابا من خردل الى جنبه وجعل يعظ ابنه موعظة ويخرج خردلة فنفد الخردل فقال يا بنى وعظتك موعظة لو وعظتها جبلا لتفطر فتفطر ابنه فسبحان من يعز ويذل ويغنى ويفقر ويشفى ويمرض ويرفع من يشاء وان كان عبدا فلا بدع أن يخص محمدا صلى الله عليه وسلم ذا النسب العالى والمنصب المنيف بالرسالة من بين قريش وان لم يكن من أهل الدنيا المتعظمين بها * ولما ذكر سبحانه ما أوصى به ولده من شكر المنعم الاول الذى لم يشركه فى ايجاده أحد وذكر ما عليه الشرك من الفظاعة والشناعة أتبعه وصيته سبحانه للولد بالوالد لكونه المنعم الثانى بالسببية فى وجوده بقوله تعالى (ووصينا الانسان بوالديه) أى أمرناه ان يبرهما ويطيعهما ويقوم بهما ثم بين تعالى السبب فى ذلك بقوله تعالى (حملته أمه وهنا) أى حال كونها ذات وهن بحمله وبالغ فى جعلها نفس الفعل دلالة على شدة ذلك الضعف (على وهن) أى ضعف الحمل وضعف الطلق وضعف الولادة ثم أشار الى ما لها عليه من المنة بعد ذلك بالشفقة وحسن الكفالة وهو لا يملك لنفسه شيأ بقوله تعالى (وفصاله) أى فطامه من الرضاعة بعد وضعه (فى عامين) تقاسى فيهما فى منامه وقيامه ما لا يعلمه حق علمه الا الله تعالى (فان قيل) وصى الله تعالى بالوالدين وذكر السبب فى حق الام مع ان الاب وجد منه أكثر من الام لانه حمله فى صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو أبلغ (أجيب) بان المشقة الحاصلة للام أعظم فان الاب حمله خفيفا لكونه من جملة جسده والام حملته ثقيلا آدميا مودعا فيها وبعد وضعه وتربيته ليلا ونهارا وبينهما ما لا يخفى من المشقة ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم لمن قال له من ابر أمك ثم أمك ثم أمك ثم قال بعد ذلك ثم أباك وقوله تعالى (ان اشكر لى) لانى المنعم فى الحقيقة (ولوالديك) أى لكونى جعلتهما سببا لوجودك والاحسان بتربيتك تفسير لوصينا أو علة له ثم علل الامر بالشكر محذرا بقوله تعالى (الى) لا الى غيرى (المصير) فأحاسبك على شركك ومعاصيك وعن القيام بحقوقهما قال سفيان بن عيينة فى هذه الآية من صلى الصلوات الخمس فقد شكر لله ومن دعا لوالديه فى أدبار الصلوات الخمس فقد شكر للوالدين * ولما ذكر تعالى وصيته بهما وأكد حقهما أتبعه الدليل على ما ذكر لقمان من قباحة الشرك بقوله تعالى (وان جاهداك) أى مع ما أمرتك به من طاعتهما (على ان تشرك بى) وقوله تعالى (ما ليس لك به علم) موافق للواقع لانه لا يمكن ان يدل علم من أنواع العلوم على شئ من الشرك بل العلوم كلها دالة على الوحدانية * ولما قرر ذلك على هذا المنوال البديع قال مسبباعنه (فلا تطعهما) أى فى ذلك

ولو اجتمعا على المجاهدة لك عليه بل خالفهما وان أدى الامر الى السيف فجاهدهما به لان أمرهما بذلك مناف للحكمة حامل على محض الجور والسفه ففيه تنبيه لقريش على محض الغلط في التقليد لآبائهم في ذلك وربما أفهم ذلك الاعراض عنهما بالكلية فلهذا قال تعالى (وصاحبهما في الدنيا) أي في أمورها التي لا تتعلق بالدين مادمت حيا بها (معروفا) ببرهما ان كانا على دين يقران عليه ومعاملتهما بالحلم والاحتمال وما تقتضيه مكارم الاخلاق ومعالي الشيم * ولما كان ذلك قد يجر الى نوع وهن في الدين ببعض محاباة نفى ذلك بقوله تعالى (واتبع) أي بالغ في أن تتبع (سبيل) أي دين وطريق (من أناب) أي أقبل خاضعا (الي) لم يلتفت الى عبادة غيري وهم المخلصون فان ذلك لا يخرجك عن برهما ولا عن توحيد الله تعالى ولا عن الاخلاص له * (تنبيه) * في هذا حث على معرفة الرجال بالحق وأمر بجعل المشايخ وغيرهم على محك الكتاب والسنة فمن كان عمله موافقا لهما اتبع ومن كان عمله مخالفا لهما اجتنب واذا كان مرجع أمورهم كلها اليه في الدنيا في الآخرة كذلك كما قال تعالى (ثم الي) أي في الآخرة (مرجعكم فأنبئكم) أي أفعل فعل من يبالغ في التعقيب والاختبار عقب ذلك وتبينه لان ذلك أنسب شئ للحكمة وترتب كل شئ بحسب ما يليق به (بما كنتم تعملون) أي تجددون عمله من صغير وكبير وجليل وحقير فأجازي من أريد وأغفر لمن أريد فأعد لذلك عدته ولا تعمل عمل من ليس له مرجع يحاسب فيه ويجازى على مثاقيل الذر من أعماله والآيتان معترضتان في تضاعيف وصية لقمان تأكيدا لما فيها من النهي عن الشرك كأنه قال تعالى ووصينا بمثل ما وصى به وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك فانهما مع أنهما تلوا البارى في استحقاق التعظيم والطاعة لا يجوز أن يتبعا في الاشراك فما ظنكم بغيرهما ونزولهما في سعد بن أبي وقاص وأمه مكثت لاسلامه ثلاثا لم تطعم فيها شيأ ولذلك قيل من أناب الي هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه فان سعدا أسلم بدعوة أبي بكر له ثم ان ابن لقمان قال لابيه يا أبت ان عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله تعالى فقال (يا بني) مجيبا له مستعطفا مصغرا له بالنسبة الى حمل شئ من غضب الله تعالى (انها) أي الخطيئة (ان تك) وأسقط النون لغرض الايجاز في الايصاء (مثقال) أي وزن ثم حقرها بقوله (حبة) وزاد في ذلك بقوله (من خردل) أي ان تكن في الصغر كحبة الخردل وقرأ نافع مثقال بالرفع على أن الهاء ضمير الخطيئة كما مر أو القصة وكان تامة وتأنيثها الاضافة المثقال الى الحبة كقول الاعشى

وتشرق بالقول الذي قد ذكرته * كما شرقت صدر القناة من الدم

والشرق الغصة يقال شرق بريقه أي غص والشاهد في شرقت حيث أنثه لاضافة الصدر الى القناة وصدرها ما فوق نصفها ثم أثبت النون في قوله مبينا عن صغرها (فتكن) اشارة الى ثباتها في مكانها وازداد شوق النفس الى محط الفائدة ويذهب الوهم كل مذهب معبرا عن أعظم الخفاء وأتم الاحوال (في صخرة) أي صخرة كانت ولو أنها أشد الصخور وأخفاها * ولما أخفى وضيق أظهر ووسع ورفع وخفض ليكون أعظم لضياعها لحقارتها بقوله (أو في السموات)

أى فى أى مكان منها على سعة ارجائها وتباعد انحائها وأعاداً ونصا على ارادة كل منهما على حدته بقوله (أوفى الارض) أى كذلك وهذا كما ترى لا ينفى أن تكون الصخرة فيهما أو فى غيرهما أو فى أحدهما وأخرج ابن أبى حاتم عن على بن رباح أنه لما وعظ لقمان ابنه وقال انها ان تك الآية أخذ حبة من خردل فأتى بها الى اليرموك فألقاها فى عرضه ثم مكث ماشاء الله تعالى ثم ذكرها وبسط يده فأقبل بها ذباب حتى وضعها فى راحته وقال بعض المفسرين المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهى لافى الارض ولا فى السماء وقال الزمخشرى فيه اضمار تقديره ان تكن فى صخرة أو فى موضع آخر فى السموات أو فى الارض وقيل هذا من تقديم الخاص وتأخير العام وهو جائز فى مثل هذا التقسيم وقيل خفاء الشئ يكون بطرق منها أن يكون فى غاية الصغر ومنها أن يكون بعيدا ومنها أن يكون فى ظلمة ومنها أن يكون وراء حجاب فاذا امتنعت هذه لامور فلا يخفى فى العادة فأثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط بقوله ان تك مثقال حبة من خردل اشارة الى الصغر وقوله فتكن فى صخرة اشارة الى الحجاب وقوله أو فى السموات اشارة الى البعد فانها أبعد الابعاد وقوله أو فى الارض اشارة الى الظلمات فان جوف الارض أظلم الاماكن وقوله (يأت بها الله) أبلغ من قول القائل يعلمها الله لان من يظهر له شئ ولا يقدر على اظهاره لغيره يكون حاله فى العلم دون حال من يظهر له الشئ ويظهره لغيره فقوله يأت بها الله أى يظهرها للاشهاد يوم القيامة فيحاسب بها عاملها (ان الله) أى الملك العظيم (لطيف) أى نافذ القدرة يتوصل علمه الى كل خفى عالم بكنهه وعن قتادة لطيف باستخراجها (خبير) أى عالم ببواطن الامور فيعلم مستقرها روى فى بعض الكتب ان هذه آخر كلمة تكلم بها لقمان فانشقت مرارته من هيبتها فمات قال الحسن معنى الآية هو الاحاطة بالاشياء صغيرها وكبيرها * ولما نبه على احاطة علمه سبحانه واقامته للحساب أمره بما يدخره لذلك توسلا اليه وتخشعا لديه وهو رأس ما يصلح به العمل ويصحح التوحيد ويصدقه بقوله (يابنى) مكررا للمناداة تنبيها على فرط النصيحة لفرط الشفقة (أقم الصلاة) أى بجميع حدودها وشروطها ولا تغفل عنها تسببا فى نجاة نفسك وتصفية سرك فان اقامتها وهو الاتيان بها على النحو المرضى مانعة من الخلل فى العمل ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر لانها الاقبال على من وحدته فاعتقدت انه الفاعل وحده واعرضت عن كل ماسواه لانه فى التحقيق عدم ولهذا الاقبال والاعراض كانت ثابتة للتوحيد وبهذا يعلم ان الصلاة كانت فى سائر الملل غير ان هيأتها اختلفت وترك ذكر الزكاة تنبيها على أنه من حكمته والحكمة تخليه وتخلى ولده من الدنيا حتى ما يكفيهم لقوتهم * ولما أمره بتكميله فى نفسه توفية لحق الحق عطف على ذلك تكميله لغيره بقوله (وأمر بالمعروف) أى كل من تقدر على أمره تهذيبا لغيرك وشفقة على نفسك لتخلص أبناء جنسك (وانه) أى كل من قدرت على نهيه (عن المنكر) حبالاخيك ماتحب لنفسك تحقيقا للنصيحة وتكميلا لعبادتك ومن هذا الطراز قول أبى الاسود رحمه الله تعالى

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فان انتهت عنه فأنت حكيم

لانه أمره اولا بالمعروف وهو الصلاة الناهية عن الفحشاء والمنكر فاذا أمر نفسه ونهاها ناسب أن يأمر غيره وينهاه وهذا وان كان من قول لقمان الا انه لما كان في سياق المدح له كالمخاطبين به (فان قيل) كيف قدم في وصيته لابنه الامر بالمعروف على النهي عن المنكر وحين أمر ابنه قدم النهي عن المنكر على الامر بالمعروف فقال لا تشرك بالله ثم قال أقم الصلاة (أجيب) بأنه كان يعلم ان ابنه معترف بوجود الاله فما أمره بهذا المعروف بل نهاه عن المنكر الذي ترتب على هذا المعروف وأما ابنه فأمره أمرا مطلقا والمعروف يقدم على المنكر * ولما كان القابض على دينه في غالب الازمان كالقابض على الجمر قال له (واصبر) صبرا عظيما بحيث تكون مستعليا (على ما) أي الذي (أصابك) أي في عبادتك وغيرها من الامر بالمعروف وغيره سواء أكان بواسطة العباد أم لا كالمرض وقد بدأ هذه الوصية بالصلاة وختمها بالصبر لانهما ملاك الاستعانة قال تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة وأخرج أحمد عن هشام ابن عروة عن أبيه قال مكتوب في الحكمة يعني حكمة لقمان عليه السلام لتكن كلمتك طيبة وليكن وجهك بسيطا تكن أحب الى الناس ممن يعطيهم العطايا وقال مكتوب في الحكمة أو في التوراة الرفق رأس الحكمة وقال مكتوب في التوراة كما ترحمون ترحمون وقال مكتوب في الحكمة كما تزرعون تحصدون وقال مكتوب في الحكمة أحبب خليلك وخليل أبيك وقيل للقمان أي الناس شر قال الذي لا يبالي ان رآه الناس مسيأ ومن حكمته انه قال أقصر عن اللجاجة ولا أنطق فيما لا يعنيني ولا أكون مضحاكا من غير عجب ولا مشاء لغير أرب ومنها من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله بذلك عزا والذل في طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية ومنها انه كان يقول ثلاثة لا يعرفون الا في ثلاثة مواطن الحليم عند الغضب والشجاع عند الحرب وأخوك عند حاجتك اليه * ولما كان ما أحكمه لولده عظيم الجدوى وجعل ختامه الصبر الذي هو ملاك الاعمال نبه بذلك بقوله على سبيل الاستئناف أو التعليل (ان ذلك) أي الامر العظيم الذي أوصيتك به لا سيما الصبر على المصائب (من عزم الامور) أي معزوماتها تسمية لاسم المفعول أو الفاعل بالمصدر أي الامور المقطوع بها المفروضة أو القاطعة الجازمة بجزم فاعلها ثم حذره عن الكبر معبرا عنه بلازمه لان نفي الاعم نفي للاخص بقوله (ولا تصعر خدك) أي لا تمله متعمدا امالته بامالة العنق متكلفا لها صرفا عن الحالة القاصدة قال أبو عبيدة وأصل الصعر داء يصيب البعير يلوي منه عنقه وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم بغير ألف بعد الصاد وتشديد العين والباقون بألف بعد الصاد وتخفيف العين والرسم يحتملهما فانه رسم بغير ألف وهما لغتان لغة الحجاز التخفيف وتميم التثقيل * ولما كان ذلك قد يكون لغرض من الاغراض التي لا تدوم أشار الى المقصود بقوله (للناس) بلام العلة أي لا تفعل ذلك لاجل الامالة عنهم وذلك لا يكون الا تهاونا بهم من الكبر بل أقبل عليهم بوجهك كله مستبشرا منبسطا من غير كبر ولا عتو وعن ابن عباس لا تتكبر فتحقر الناس وتعرض عنهم بوجهك اذا كلموك وقيل هو الرجل يكون بينك وبينه الشحنة فيلقاك فتعرض

قوله فان قيل الخ لا يخفى ما فيه فتأمل

عنه وقيل هو الذى اذا سلم عليه لوى عنقه تكبرا وقيل معناه لا تحتقر الفقير ليكن الفقير والغنى عندك سواء ثم اتبع ذلك ما يلزمه بقوله (ولا تمش) وأشار بقوله (فى الارض) الى أن أصله تراب وهو لا يقدر أن يعدوه وسيصير اليه وأوقع المصدر موقع الحال والعلة فى قوله (مرحا) أى اختيالا وتبخترا أى لا تكن منك هذه الحقيقة لان ذلك مشى أشر بطر متكبر فهو جدير بأن يظلم صاحبه ويفحش ويبغى بل امش هونا فان ذلك يفضى بك الى التواضع فتصل الى كل خير فترفق بك الارض اذا صرت فى بطنها (ان الله) أى الذى له الكبرياء والعظمة (لا يحب) أى يعذب (كل مختال) أى مراء للناس فى مشيه متبختر يرى له فضلا على الناس (فخور) على الناس بنفسه يظن ان اسباغ النعم الدنيوية من محبة الله تعالى له وذلك من جهله فان الله يسبغ نعمه على الكافر الجاحد فينبغى للعارف أن لا يتكبر على عباده فان الكبر هو الذى تردى به سبحانه فمن نازعه فيه قصمه * ولما كان النهى عن ذلك أمرا بضده قال (واقصد) أى اقتصد واسلك الطريق الوسطى (فى مشيك) بين ذلك قواما أى ليكن مشيك قصدا لا تخيلا ولا اسراعا أى بين مشيين لا تدب دبيب المتماوتين ولا تثب وثب الشطار قال صلى الله عليه وسلم سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن وأما قول عائشة فى عمر رضى الله تعالى عنهما كان اذا مشى أسرع فانما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت وقال عطاء امش بالوقار والسكينة لقوله تعالى يمشون على الارض هونا وعن ابن مسعود كانوا ينهون عن وثب اليهود ودبيب النصارى والقصد فى الافعال كالقسط فى الاوزان قاله الرازى فى اللوامع وهو المشى الهون الذى ليس فيه تصنع للخلق لا بتواضع ولا بتكبر (واغضض) أى انقص (من صوتك) لئلا يكون صوتك منكرا وتكون برفع الصوت فوق الحاجة كالاذان فهو مأمور به وكانت الجاهلية يتمدحون برفع الصوت قال القائل

جهير الكلام جهير العطاس * جهير الروى جهير النغم

وقال مقاتل اخفض من صوتك (فان قيل) لم ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشى (أجيب) بأن رفع الصوت يؤذى السامع ويقرع الصماخ بقوة وربما يخرق الغشاء الذى داخل الاذن وأما سرعة المشى فلا تؤذى وان آذت فلا تؤذى غير من فى طريقه والصوت يبلغ من على اليمين واليسار ولان المشى يؤذى آلة المشى والصوت يؤذى آلة السمع وآلة السمع على باب القلب فان الكلام ينتقل من السمع الى القلب ولا كذلك المشى وأيضا فلان قبح القول أقبح من قبح الفعل وحسنه أحسن لان اللسان ترجمان القلب * ولما كان رفع الصوت فوق الحاجة منكرا كما أن خفضه دونها تماوت وتكبر وكان قد أشار الى النهى عن هذين فأفهم ان الطرفين مذمومان علل النهى عن الاول بقوله (ان أنكر) أى أفظع وأبشع وأوحش (الاصوات) كلها المشتركة فى المكاره برفعها فوق الحاجة وأخلى الكلام من لفظ التشبيه وأخرجه مخرج الاستعارة تصوير الصوت الرافع صوته فوق الحاجة بصورة النهاق وجعل المصوت كذلك حمارا مبالغة فى التهجين وتنبيها على أنه من الكراهة بمكان

فقال

فقال (لصوت الحمير) أي هذا الجنس لما له من العلو المفرط من غير حاجة فان كل حيوان قد يفهم من صوته انه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير أو لغير ذلك والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح ولو قتل لا يصيح وفي بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق بصوت أوله زفير وآخره شهيق وهما فعل أهل النار وأفرد الصوت ليكون نصا على ارادة الجنس لئلا يظن ان الاجتماع شرط في ذلك ولذكر الحمار مع ذلك من بلاغة الشتم والذم ماليس لغيره ولذلك يستهجن التصريح باسمه بل يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به فيقولون الطويل الاذنين كما يكنى عن الاشياء المستقذرة وقد عد في مساوي الآداب ان يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من ذوي المروأة ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا وان بلغت منه الرحلة وافتخار كبه صلى الله عليه وسلم لمخالفته عادتهم واظهاره التواضع من نفسه وأما الرفع مع الحاجة فغير مذموم فانه ليس بمستنكر ولا مستبشع (فان قيل) كيف يفهم كونه أنكر الاصوات مع ان حز المنشار بالمبرد ودق النحاس بالحديد أشد صوتا (أجيب) من وجهين الاول ان المراد أنكر أصوات الحيوانات صوت الحمير فلا يرد السؤال والثاني ان الصوت الشديد لحاجة ومصلحة لا يستبشع ولا ينكر صوته كما مرت الاشارة اليه بخلاف صوت الحمير قال موسى بن أعين سمعت سفيان الثوري يقول في قوله تعالى ان أنكر الاصوات لصوت الحمير قال صياح كل شئ تسبيح لله تعالى الا الحمار وقال جعفر الصادق في ذلك هي العطسة القبيحة المنكرة وقال وهب تكلم لقمان باثني عشر ألف كلمة من الحكمة أدخلها الناس في كلامهم قال خالد الربعي كان لقمان عبدا ومن حكمته أنه دفع اليه مولاه شاة فقال له اذبحها وائتني بأطيب مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب ثم دفع اليه شاة أخرى فقال اذبحها وائتني بأخبث مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب فسأله مولاه فقال ليس شئ أطيب منهما اذا طابا ولا أخبث منهما اذا خبثا وقد مرت الاشارة الى ذلك ومن حكمته أنه قال لابنه يابني لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته الاجعلت في الضمير منك ان ذلك خير لك ثم قال لابنه يابني ان الله قد بعث نبيا هلم حتى نأتيه فنصدقه فخرج على حمار وابنه على حمار وتزودا ثم سارا أياما وليالي حتى لقيتهما مفازة فأخذا أهبتهما لها فدخلا فسارا ما شاء الله تعالى حتى ظهرا وقد تعالى النهار واشتد الحر ونفد الماء والزاد واستبطأ حماريهما فنزلا وجعلا يشتدان على سوقهما فبينما هما كذلك اذ نظر لقمان امامه فاذا هو بسواد ودخان فقال في نفسه السواد الشجر والدخان العمران والناس فبينما هما يشتدان اذ وطئ ابن لقمان على عظم ناتئ على الطريق فخر مغشيا عليه فوثب اليه لقمان وضمه الى صدره واستخرج العظم بأسنانه ثم نظر اليه لقمان فذرفت عيناه فقال يا أبت انت تبكي وأنت تقول هذا خير لي وقد نفد الطعام والماء وبقيت أنا وأنت في هذا المكان فان ذهبت وتركتني على حالي ذهبت بهم وغم ما بقيت وان أقمت معي متنا جميعا فقال يابني أما بكائي فرقة الوالدين وأما ما قلت كيف يكون هذا خيرا فلعل ما صرف عنك أعظم مما ابتليت به ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك ثم نظر لقمان أمامه فلم ير ذلك الدخان والسواد واذا بشخص أقبل على فرس أبلق عليه ثياب بياض وعمامة بيضاء يمسح الهواء مسحا فلم

يزل يرمقه بعينه حتى كان منه قريبا فتوارى عنه ثم صاح به أنت لقمان قال نعم قال أنت
الحكيم قال كذلك يقال قال ما قال لك ابنك قال يا عبد الله من أنت أسمع كلامك ولا أرى
وجهك قال أنا جبريل أمرني ربي بخسف هذه القرية ومن فيها فأخبرت انكما تريدانها
فدعوت ربي ان يحبسكما عني بما شاء فحبسكما بما ابتلي به ابنك ولولا ذلك لخسفت بكما مع من
خسفت ثم مسح جبريل عليه السلام بيده على قدم ابنه فاستوى قائما ومسح بيده على الذي
كان فيه الطعام فامتلأ طعاما وعلى الذي كان فيه الماء فامتلأ ماء ثم حملهما وحماريهما
فرحل بهما كما يرحل الطير فاذا هما في الدار التي خرجا بعد أيام وليال منها وعن عبد الله بن دينار
ان لقمان قدم من سفر فلقي غلامه في الطريق فقال ما فعل أبي فقال مات قال الحمد لله ملكت
أمري قال ما فعلت أمي قال ماتت قال ذهب همي قال ما فعلت امرأتي قال ماتت قال جدد
فراشي قال ما فعلت أختي قال ماتت قال سترت عورتي قال ما فعل أخي قال مات قال انقطع
ظهري وعن أبي قلابة قال قيل للقمان أي الناس أصبر قال صبر لا معه أذى قيل فأي الناس أعلم
قال من ازداد من علم الناس الى علمه قيل فأي الناس خير قال الغني قيل الغني من المال قال لا
ولكن الغني من التمس عنده خير وجد والا أغنى نفسه عن الناس وعن سفيان قيل للقمان
أي الناس شر قال الذي لا يبالي ان يراه الناس مسيئا وعن عبد الله بن زيد قال قال لقمان
الا ان يد الله على أفواه الحكماء لا يتكلم أحدهم الا ما هيأ الله تعالى له ولما استدل سبحانه
بقوله تعالى خلق السموات بغير عمد على الوحدانية وبين بحكمة لقمان ان معرفة
ذلك غير مختصة بالنبوة استدل ثانيا على الوحدانية بالنعم بقوله تعالى (ألم تروا) أي تعلموا علما
هو في ظهوره كالمشاهدة (ان الله) أي الحائز لكل كمال (سخر لكم) أي لاجلكم
(ما في السموات) من الانارة والاظلام والشمس والقمر والنجوم والسحاب والمطر والبرد وغير
ذلك من الانعامات مما لا يحصى كما قال والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره (و) سخر لكم
(ما في الارض) من البحار والثمار والآبار والانهار والدواب والمعادن وغير ذلك مما لا يحصى
(وأسبغ) أي أوسع وأتم (عليكم) وقوله تعالى (نعمه) قرأه نافع وأبو عمرو وحفص بفتح العين
وبعد الميم هاء مضمومة والباقون بسكون العين وبعد الميم تاء مفتوحة منونة ومعناها الجمع
أيضا كقوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها واختلف في قوله عز وجل (ظاهرة وباطنة) على
اقوال فقال عكرمة عن ابن عباس النعمة الظاهرة القرآن والاسلام والباطنة ما ستر عليك من
الذنوب ولم يعجل عليك بالنقمة وقال الضحاك الظاهرة حسن الصورة وتسوية الاعضاء والباطنة
المعرفة وقال مقاتل الظاهرة تسوية الخلق والرزق والاسلام والباطنة ما ستر من الذنوب * وقال
الربيع الظاهرة الجوارح والباطنة القلب وقال عطاء الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة
الشفاعة وقال مجاهد الظاهرة ظهور الاسلام والنصر على الاعداء والباطنة الامداد
بالملائكة وقال سهل بن عبد الله الظاهرة اتباع الرسول والباطنة محبته وقيل الظاهرة تمام
الرزق والباطنة تمام الخلق وقيل الظاهرة الامداد بالملائكة والباطنة القاء الرعب في قلوب

الكفار وقيل الظاهرة الاقرار باللسان والباطنة الاعتقاد بالقلب وقيل الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة والباطنة القلب والعقل والفهم وما أشبه ذلك ويروى في دعاء موسى عليه السلام الهي دلني على اخفاء نعمتك على عبادك فقال أخفى نعمتي عليهم النفس ويروى ان أيسر ما يعذب به أهل النار الاخذ بالانفاس ونزل في النضر بن الحرث وأبي ابن خلف واشباههم كانوا يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم في الله تعالى وفي صفاته (ومن الناس) أي أهل مكة (من يجادل) أي يحاج فلا لهو أعظم من جداله ولا كبر مثل كبره ولا ضلال مثل ضلاله وأظهر زيادة التشنيع على هذا المجادل بقوله تعالى (في الله) اي المحيط علما وقدرة ثم بين تعالى مجادلته أنها (بغير علم) أي مستفاد من دليل بل بألفاظ فى ركاكة معانيها العدم استنادها الى حس ولا عقل ملحقة بأصوات الحيوانات العجم فكان بذلك حمارا تابعا للهوى (ولا هدى) أي من رسول عهد منه سداد الاقوال والافعال بما أبدى من المعجزات والآيات البينات فوجب أخذ أقواله مسلمة وان لم يظهر معناها (ولا كتاب) أي من الله تعالى ثم وصفه بما هو لازم له بقوله تعالى (منير) أي بين غاية البيان بل انما يجادل بالتقليد كما قال تعالى (واذا قيل) أي من أي قائل كان (لهم) أي المجادلين هذا الجدال (اتبعوا ما أنزل الله) أي الذي خلقكم وخلق آباءكم الاولين (قالوا) بجمود الانفعل (بل نتبع) وان أتيتنا بكل دليل (ما وجدنا عليه آباءنا) لانهم أثبت منا عقولا وأقوم قيلا وأهدى سبيلا فهذه المجادلة في غاية القبح فان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى كلام الله وهم يأخذون بكلام آبائهم وبين كلام الله تعالى وبين كلام العلماء بون عظيم فكيف ما بين كلام الله تعالى وكلام الجهال (أولو) أي أيتبعونهم ولو (كان الشيطان) أي البعيد من الرحمة المحترق باللعنة (يدعوهم) الى الضلال فيوبقهم فيما يسخط الرحمن فيؤديهم ذلك (الى عذاب السعير) وجواب لو محذوف مثل لاتبعوه والاستفهام للانكار والتعجب والمعنى ان الله تعالى يدعوهم الى الثواب والشيطان يدعوهم الى العذاب وهم مع هذا يتبعون الشيطان * ولما بين تعالى حال المشرك والمجادل في الله بين تعالى حال المسلم المستسلم لامر الله تعالى بقوله تعالى (ومن يسلم) أي في الحال والاستقبال (وجهه) أي قصده وتوجهه وذاته كلها (الى الله) أي الذي له صفات الكمال بأن فوض أمره اليه فلم يبق لنفسه أمر أصلا فهو لا يتحرك الا بأمر من أوامره سبحانه (وهو) أي والحال انه (محسن) أي مخلص بباطنه كما أخلص بظاهره فهو دائما في حال الشهود (فقد استمسك) أي أوجد الامساك بغاية ما يقدر عليه من القوة في تأدية الامور (بالعروة الوثقى) أي اعتصم بالعهد الاوثق الذي لا يخاف انقطاعه لان أوثق العرى جانب الله تعالى فان كل ما عداه هالك منقطع وهو باق لا انقطاع له وهذا من باب التمثيل مثل حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق جبل فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه (فان قيل) كيف قال ههنا ومن يسلم وجهه الى الله فعداه بالى وقال في البقرة بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فعداه باللام (أجيب) بأن أسلم تعدى تارة

باللام وتارة بالى كما يتعدى أرسل تارة باللام وتارة بالى قال تعالى وأرسلناك للناس رسولا وقال تعالى كما أرسلنا الى فرعون رسولا (والى الله) أى الملك الاعلى (عاقبة الامور) أى مصير جميع الاشياء اليه كما أن منه باديتها وانما خص العاقبة لانهم مقرون بالبادية * ولما بين تعالى حال المسلم رجع الى بيان حال الكافر فقال تعالى (ومن كفر) أى ستر ما أداه اليه عقله من أن الله تعالى لاشريك له وأن لاقدرة أصلا لاحد سواه ولم يسلم وجهه اليه (فلا يحزنك) أى يهمك ويوجعك (كفره) كائنا من كان فانه لم يفتك شئ فيه ولا معجز لنا ليحزنك ولا تبعة عليك بسببه فى الدنيا وفى الآخرة وأفرد الضمير فى كفره اعتبارا بلفظ من لارادة التنصيص على كل فرد وفى التعبير هنا بالماضى وفى الاول بالمضارع بشارة بدخول كثير فى هذا الدين وانهم لا يرتدون بعد اسلامهم وترغيب فى الاسلام لكل من كان خارجا عنه فالآية من الاحتباك ذكر الحزن ثانيا دليلا على حذف ضده أولا وذكر الاستمساك أولا دليلا على حذف ضده ثانيا (الينا) أى فى الدارين (مرجعهم فننبئهم) أى بسبب احاطتنا بأمرهم وعقب رجوعهم (بما عملوا) أى ونجازيهم عليه ان أردنا (ان الله) أى الذى لا كفء له (عليم) أى محيط العلم بماله من الاحاطة بأوصاف الكمال (بذات الصدور) أى لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم فينبئهم بما أسرت صدورهم (نمتعهم) أى نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا (قليلا) أى الى انقضاء آجالهم فان كل آت قريب وان ما يزول بالنسبة الى ما يدوم قليل (ثم نضطرهم) أى نلجئهم ونردهم فى الآخرة (الى عذاب غليظ) أى شديد ثقيل لا ينقطع عنهم أصلا ولا يجدون لهم منه محيصا من جهة من جهاته فكأنه فى شدته وثقله جرم عظيم غليظ جدا اذا ترك على شئ لا يقدر على الخلاص منه ثم انه تعالى لما سلى قلب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى فلا يحزنك كفره أى لا تحزن على تكذيبهم فان صدقك وكذبهم يتبين عن قريب وهو رجوعهم الينا على أنه لا يتأخر الى ذلك اليوم بل يتبين قبل يوم القيامة كما قال تعالى (ولئن) اللام لام قسم (سألتهم من خلق السموات) اى باسرها ومن فيها (والارض) كذلك وقوله تعالى (ليقولن الله) أى المسمى بهذا الاسم حذف منه نون الرفع لتوالى الامثال وواو الضمير لالتقاء الساكنين فقد أقروا بأن كل ما أشركوا به بعض خلقه ومصنوع من مصنوعاته * ولما تبين بذلك صدقه صلى الله عليه وسلم وكذبهم قال الله تعالى مستأنفا (قل الحمد) أى الاحاطة بجميع أوصاف الكمال (لله) أى الذى له الاحاطة الشاملة من غير تقييد بخلق الخافقين ولا غيره على ظهور الحجة عليهم بالتوحيد (بل أكثرهم لا يعلمون) أى ليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك * ولما أثبت لنفسه سبحانه الاحاطة بأوصاف الكمال استدل على ذلك بقوله تعالى (لله) أى الملك الاعظم (ما فى السموات) كلها (والارض) كذلك ملكا وخلقا فلا يستحق العبادة فيهما غيره * ولما ثبت ذلك أنتج قطعا قوله تعالى (ان الله) أى الذى لا كفء له (هو) أى وحده (الغنى) مطلقا لان جميع الاشياء له ومحتاجة اليه وليس محتاجا الى شئ أصلا (الحميد) أى المستحق لجميع المحامد لانه المنعم على الاطلاق المحمود بكل

لسان من ألسنة الاحوال والاقوال لانه هو الذى أنطقها ومن قيد الخرس أطلقها * ولما قال تعالى لله مافى السموات والارض أوهم تناهى ملكه لانحصار مافى السموات والارض فيهما وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين تعالى انه لاحد ولاضبط لمعلوماته ومقدوراته الموجبة لحمده بقوله تعالى (ولو أن مافى الارض) أى كلها ودل على الاستغراق وتقضى كل فرد فرد من أفراد الجنس بقوله تعالى (من شجرة) حيث وحدها (أقلام) أى والشجرة عدها من بعدها على سبيل المبالغة سبع شجرات وأن مافى الارض من البحر مداد لتلك الاقلام (والبحر) أى والحال أن البحر (عده) أى يكون مداداله وزيادة فيه (من بعده) أى من ورائه (سبعة أبحر) تكتب بتلك الاقلام وذلك المداد الذى الارض كلها له دواة (مانفدت كلمات الله) وفنيت الاقلام والمداد قال المفسرون نزل بمكة قوله تعالى ويسئلونك عن الروح الآية فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه أحبار اليهود فقالوا يا محمد بلغنا أنك تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا أفعنيتنا أم قومك فقال صلى الله عليه وسلم كلا قد عنيت فقالوا ألست تتلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة وفيها علم كل شئ فقال صلى الله عليه وسلم هى فى علم الله تعالى قليل وقد أتاكم ماان علمتم به انتفعتم قالوا يا محمد كيف تزعم هذا وأنت تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا فكيف يجتمع هذا علم قليل وخير كثير فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال قتادة ان المشركين قالوا ان القرآن وما يأتى به محمد يوشك أن ينفد فينقطع فنزلت (فان قيل) كان مقتضى الكلام أن يقال ولو أن الشجر أقلام والبحر مداد (أجيب) بأنه أغنى عن ذكر المداد قوله تعالى يمده لانه من مد الدواة وأمدها جعل البحر الاعظم بمنزلة الدواة وجعل الابحر السبعة ملوأة مدادا فهى تصب فيه مدادها أبدا صبا لا ينقطع والمعنى ولو أن أشجار الارض أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الاقلام وبذلك المداد كلمات الله مانفدت كلماته ونفدت الاقلام والمداد كقوله تعالى قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى لان المحصور لايفى بما ليس بمحصور فيا لها من عظمة لاتتناهى ومن كبرياء لاتجارى ولا يضاهى (فان قيل) لم قيل من شجرة على التوحيد دون اسم الجنس (أجيب) بأنه أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة الا وقد بريت أقلاما (فان قيل) الكلمات جمع قلة والموضع موضع التكثير لا التقليل فهلا قيل كلم الله (أجيب) بأن معناه أن كلماته لاتفى بها البحار فكيف بكلمه وقرأ أبو عمرو والبحر بنصب الراء وذلك من وجهين أحدهما العطف على اسم ان أى ولو أن البحر وعده الخبر والثانى النصب بفعل مضمر يفسره يمده والواو حينئذ للحال والجملة حالية ولم يحتج الى ضمير رابط بين الحال وصاحبها للاستغناء عنه بالواو والتقدير ولو أن الذى فى الارض حال كون البحر ممدودا بكذا وقرأ الباقون برفع الراء وذلك من وجهين أيضا أحدهما العطف على ان وما فى حيزها والثانى انه مبتدأ ويمده الخبر والجملة حالية والرابط الواو *(تنبيه)* قوله تعالى سبعة ليس لانحصارها فى سبعة وانما الاشارة الى المدد والكثرة ولو بألف بحر وانما خصصت السبعة

بالذكر من بين الاعداد لانها عدد كثير يحصر المعدودات في العادة ويدل على ذلك وجهان الاول ان المعلوم عند كل أحد لحاجته اليه هو الزمان والمكان فالزمان منحصر في سبعة أيام والمكان منحصر في سبعة أقاليم ولان الكواكب السيارة سبعة والمنجمون ينسبون اليها أمورا فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة في العادة فاستعملت في كل كثير ومنه قوله صلى الله عليه وسلم المؤمن يأكل في معى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء الثاني ان في السبعة معنى يخصها ولذلك كانت السموات سبعا والارضون سبعا وأبواب جهنم سبعا وأبواب الجنة ثمانية لانها الحسنى وزيادة فالزيادة هي الثامن لان العرب عند الثامن يزيدون واوا تقول القراء لها واو الثمانية وليس ذلك الا للاستئناف لان العدد تم بالسبعة ثم بين نتيجة ذلك بقوله تعالى (ان الله) أي المحيط بكل شئ قدرة وعلما (عزيز) أي كامل القدرة لانهاية لمقدوراته (حكيم) أي كامل العلم لانهاية لمعلوماته *(تنبيه)* قد علم مما تقرر أن الآية من الاحتباك ذكر الاقلام دليلا على حذف مدادها وذكر السبعة في مبالغة الابحر دليلا على حذفها في الاشجار* ولما ختم تعالى بهاتين الصفتين بعد اثبات القدرة على الابداع من غرائبها ذكر بعض آثارها في البعث بقوله تعالى (ما خلقكم) أي كلكم في عزته وحكمته الا كخلق نفس واحدة وأعاد النافي نصا على كل واحد من الخلق والبعث على حدته بقوله تعالى (ولا بعثكم) أي كلكم (الا كنفس) أي كبعث نفس وبين الافراد تحقيقا للمراد تأكيدا للسهولة بقوله تعالى (واحدة) فان كلماته مع كونها غير نافدة نافذة وقدرته مع كونها باقية بالغة فنسبة القليل والكثير الى قدرته على حد سواء لانه لايشغله شان عن شان ثم دل على ذلك بقوله تعالى مؤكدا (ان الله) أي الملك الاعلى (سميع) أي بالغ السمع يسمع كل مسموع (بصير) أي بليغ البصر يبصر كل مبصر لايشغله شئ عن شئ* ولما قرر تعالى هذه الآية الخارقة دل عليها بأمر محسوس يشاهد كل يوم مرتين بقوله تعالى (ألم تر) وهو يحتمل وجهين أحدهما أن يكون الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه الاكثر وكأنه تعالى ترك الخطاب مع غيره لان من هو غيره من الكفار لا فائدة في الخطاب معهم ومن هو غيره من المؤمنين فهم تبع له والوجه الثاني المراد منه الوعظ والواعظ يخاطب ولا يعين أحدا فيقول لجمع عظيم يامسكين الى الله مصيرك فمن نصيرك ولماذا تقصيرك (ان الله) أي بجلاله وعز كماله (يولج) أي يدخل ادخالا لامرية فيه (الليل في النهار) فيغيب فيه بحيث لا يرى شئ منه فاذا النهار قد عم الارض كلها أسرع من اللمح (ويولج النهار) أي يدخله كذلك (في الليل) فيخفى حتى لا يبقى له أثر فاذا الليل قد طبق الآفاق مشارقها ومغاربها في مثل الطرف فميز سبحانه كلا منهما من الآخر بعد اضمحلاله فكذلك الخلق والبعث في قدرته بعزته وحكمته لبلوغ سمعه ونفوذ بصره (وسخر الشمس) آية للنهار يدخل الليل فيه (والقمر) أي آية لليل كذلك ثم استأنف ماسخر افيه بقوله تعالى (كل) أي منهما (يجري) أي في فلكه سائرا متمادياو بالغا ومنتهيا (الى أجل مسمى) لايتعداه في منازل معروفة في جميع الفلك

لايزيد

لايزيد ولا ينقص هذا في الشهر مرة وتلك في السنة مرة لا يقدر واحد منهما أن يتعدى طوره ولا أن ينقص دوره ولا أن يغير سيره *(تنبيه)* قال تعالى يولج بصيغة المستقبل وقال في الشمس والقمر وسخر بصيغة الماضي لان ايلاج الليل في النهار أمر يتجدد كل يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى حتى عاد كالعرجون القديم وقال ههنا الى أجل وفي الزمر لأجل لان المعنيين لائقان بالحرفين فلا عليك في أيهما وقع قال الاكثرون هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل عام * ولما كان الليل والنهار محل الافعال بين أن ما يقع في هذين الزمانين اللذين هما بتصرف الله لا يخفى عليه بقوله تعالى (وأن الله) أي بماله من صفات الكمال (بما تعملون) أي في كل وقت على سبيل التجدد (خبير) أي لا يخفى عليه شيء منه لانه الخالق له كله دقه وجله * ولما ثبت بهذه الاوصاف الحسنى والافعال العليا أنه لا موجد بالحقيقة الا الله تعالى قال تعالى (ذلك) أي المذكور (بأن) أي بسبب أن (الله) أي الذي لا عظيم سواه (هو) وحده (الحق) أي بسبب أنه الثابت في ذاته الواجب من جميع جهاته المستحق للعبادة (وأن ما يدعون) أي هؤلاء المختوم على مداركهم وأشار الى سفول رتبتهم بقوله تعالى (من دونه) أي غيره (الباطل) أي العدم في حد ذاته لا يستحق أن تضاف اليه الالهية بوجه من الوجوه وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص يدعون بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب وان مقطوعة من ما في الرسم (وأن الله) أي الملك الاعظم وحده (هو العلي) على خلقه بالقهر فله الصفات العليا والاسماء الحسنى (الكبير) أي العظيم في ذاته وصفاته * ولما قال تعالى ألم تر أن الله يولج الليل في النهار وسخر الشمس والقمر ذكر آية سماوية وأشار الى السبب والمسبب ذكر بعده آية أرضية تدل على باهر قدرته وكمال نعمته وشمول انعامه وأشار الى السبب والمسبب بقوله تعالى (ألم تر) رفي المخاطب بذلك ما تقدم (أن الفلك) أي السفن كبارا وصغارا (تجري) أي بكم حاملة ما تعجزون عن نقل مثله في البر (في البحر) أي على وجه الماء (بنعمة الله) أي بانعام الملك الاعلى المحيط علما وقدرة المحسن اليكم بتعليم صنعتها حتى تهيأت لذلك على يد أبيكم نوح العبد الشكور عليه السلام وقيل نعمة الله ههنا هي الريح التي تحرك بامر الله (ليريكم من آياته) أي عجائب قدرته ودلائله التي تدلكم على أنه الحق الذي أثبت بوجوب وجوده ما ترون من الاحمال الثقال على وجه الماء الذي ترسب فيه الابرة فما دونها (ان في ذلك) أي الامر الهائل البديع الرفيع (لآيات) أي دلالات واضحات على ماله من صفات الكمال (لكل صبار) على المشاق فيبعث نفسه في التفكر في عدم غرقه وفي مسيره الى البلاد الشاسعة والاقطار البعيدة وفي كون سيره ذهابا وايابا تارة بريحين وتارة بريح واحدة وفي انجاء أبيه نوح عليه السلام ومن أراد الله تعالى من خلقه بها واغراق غيرهم من جميع أهل الارض وفي غير ذلك من شؤنه وأموره (شكور) أي مبالغ في كل من الصبر والشكر لانهما الايمان كما ورد الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وعلم من صيغة المبالغة في كل منهما أنه لا يعرف في الرخاء من

عظمة الله ما كان يعرفه في الشدة الا من طبعهم الله تعالى على ذلك ووفقهم له وأعانهم عليه
ولهذا قال تعالى وقليل من عبادى الشكور وها أنا أسأل الله الحنان المنان من فضله أن
يجعلني منهم ويفعل ذلك بأهلي وأحبابي فانه كريم جواد * ولما ذكر تعالى ان في ذلك لآيات ذكر
أن الكل معترفون غير أن البصير يدركه أولا ومن في بصيرته ضعف لا يدركه أولا كما قال تعالى
(واذا غشيهم) أى علاهم وهم في الفلك حتى صار كالمغطى لهم (موج) أى هذا الجنس
وأفرده لشدة اضطرابه واتيانه شيأ في اثر شئ متتابعا يركب بعضه بعضا كأنه شئ واحد وأصله
من الحركة والازدحام واختلف في قوله تعالى (كالظلل) فقال مقاتل كالجبال وقال
الكلبي كالسحاب والظلل جمع ظلة شبه بها الموج في كثرتها وارتفاعها (فان قيل) كيف جعل
الموج وهو واحد كالظلل وهو جمع (أجيب) بأن الموج يأتي منه شئ بعد شئ فلما صار والى
هذه الحالة (دعوا الله) أى مستحضرين لما يقدر عليه الانسان من كماله بجلاله وجماله عالمين
بجميع مضمون الآية السابقة من حقيته وعلوه وكبريائه وبطلان ما يدعونه من دونه
(مخلصين له الدين) أى الدعاء بأن يجيهم لا يدعون شيأ سواه بأنفسهم ولا قلوبهم لما اضطرهم
الى ذلك (فلما نجاهم) أى خلصهم من تلك الاهوال (الى البر) نزلوا عن تلك المرتبة التى
أخلصوا فيها الدين وانقسموا قسمين (فمنهم) اى تسبب عن نعمة الانجاء انه كان منهم (مقتصد)
اى عدل موف في البر بما قد عاهد الله عليه في البحر من التوحيد له بمعنى أنه ثبت على ذلك وهم
قليل كما دل عليه التصريح بالتبعيض قيل نزلت في عكرمة بن أبي جهل هرب في عام الفتح الى
البحر فجاءتهم ريح عاصف فقال عكرمة لئن نجانى الله من هذه لأرجعن الى محمد صلى الله عليه
وسلم ولاضعن يدى في يده فسكنت الريح فرجع عكرمة الى مكة فأسلم وحسن اسلامه وقال
مجاهد مقتصد في القول مضمر للكفر وقال الكلبي مقتصد في القول أى من الكفار لان بعضهم
كان أشد قولا وأعلى في الافتراء من بعض ومنهم جاحد للنعمة ملق لجلباب الحياء في التصريح
بذلك وهو الاكثر كما دل عليه ترك التصريح فيه بالتبعيض (فان قيل) ما الحكمة في قوله
تعالى في العنكبوت فلما نجاهم الى البر اذاهم يشركون وقال هنا فلما نجاهم الى البر فمنهم
مقتصد (أجيب) بأنه لما ذكرههنا أمرا عظيما وهو الموج الذى كالجبال بقى أثر ذلك في قلوبهم
فخرج منهم مقتصد وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الامر فذكرا شراكهم
حيث لم يبق عندهم أثر وقوله تعالى (وما يجحد بآياتنا الا كل ختار) أى غدار فانه نقض للعهد
الفطرى أى لما كان في البحر والختر أشد الغدر (كفور) أى للنعم في مقابلة قوله تعالى ان في ذلك
لآيات أى يعترف بها الصبار الشكور ويجحدها الختار الكفور فالصبار في موازنة الختار لفظا
ومعنى والكفور في موازنة الشكور كذلك أما لفظا فيهما فظاهر وأما كون الختار في موازنة
الصبار معنى فلان الختار هو الغدار الكثير الغدر أو شديد الغدر مثال مبالغة من الختر وهو
أشد الغدر والغدر لا يكون الا من قلة الصبر لان الصبور لا يعهد منه الاضرار فانه يصبر ويفوض
الامر الى الله تعالى وأما الغدار فيعاهد ولا يصبر على العهد فينقضه وأما ان الكفور في

مقابلة

مقابلة الشكور معنى فظاهر * ولما ذكر تعالى الدلائل من أول السورة الى هنا وعظ بالتقوى بقوله تعالى (يا أيها الناس) أى عامة وقيل أهل مكة (اتقوا ربكم) أى الذى لا محسن اليكم غيره (واخشوا) أى خافوا (يوما) لا يشبه الأيام ولا يعد هول البحر ولا غيره عند أدنى هول من أهواله شيأ بوجه (لا يجزى) أى لا يقضى ولا يغنى (والد عن ولده) والراجع الى الموصوف محذوف أى لا يجزى فيه وفى التعبير بالمضارع اشارة الى أن الوالد لا تزال تدعوه الوالدية الى الشفقة على الولد ويتجدد عنده العطف والرقة والمفعول اما محذوف لانه أشد فى النفى واما مدلول عليه بما فى الشق الذى بعده وقوله تعالى (ولا مولود) عطف على والد أو مبتدأ خبره (هو جاز عن والده) أى فيه (شيأ) من الجزاء وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر فى الآخرة (ان وعد الله) أى الذى له معاقد العز والجلال (حق) أى ان هذا اليوم الذى هذا شأنه هو كائن لان الله تعالى وعد به ووعده حق وقيل ان وعد الله حق بأن لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيأ لانه وعد بأن لا تزر وازرة وزر أخرى ووعد الله حق (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) بزخرفها ورونقها فانها زائلة لوقوع اليوم المذكور بالوعد الحق (ولا يغرنكم بالله) أى الذى لا أعظم منه ولا مكافئ مع ولايته معكم (الغرور) أى الكثير الغرور والمبالغ فيه وهو الشيطان الذى لا أحقر منه لما جمع من البعد والطرد والاحتراق مع عداوته بما يزين لكم من أمرها ويلهيكم به من تعظيم قدرها وينسيكم كيدها وغدرها وتعبها وأذاها فيوجب ذلك لكم الاعراض عن ذلك اليوم فلا تعدونه معادا فلا تتخذون له زادا لما اقترن بغروره من حلم الله تعالى وامهاله قال سعيد بن جبير الغرة بالله أن يعمل المعصية ويتمنى المغفرة * وروى أن الحرث بن عمرو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال متى قيام الساعة وانى قد ألقيت حبا فى الارض فتى السماء تمطر وحمل امرأتى أذكر أم أنثى وما أعمل غدا وأين أموت فنزل قوله تعالى (ان الله) أى بما له من العظمة وجميع أوصاف الكمال (عنده) أى خاصة (علم الساعة) أى وقت قيامها لا علم لغيره بذلك أصلا (وينزل الغيث) أى فى أوانه المقدر له والمحل المعين له فى علمه وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح النون وتشديد الزاى والباقون بسكون النون وتخفيف الزاى (ويعلم ما فى الارحام) أى من ذكر أو أنثى احى أو ميت تام أو ناقص (وما تدرى نفس) أى من الانفس البشرية وغيرها (ماذا تكسب غدا) أى من خير أو شر وربما تعزم على شئ وتفعل خلافه (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) أى كما لا تدرى فى أى وقت تموت ويعلمه الله تعالى وروى ابن أبى حاتم عن مجاهد قال جاء رجل من أهل البادية فقال يا رسول الله ان امرأتى حبلى فاخبرنى ما تلد وبلادنا مجدبة فأخبرنى متى ينزل الغيث وقد علمت متى ولدت فأخبرنى متى أموت فأنزل الله تعالى هذه الآية وعن عكرمة أن رجلا يقال له الوارث من بنى مازن جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد متى قيام الساعة وقد أجدبت بلادنا فتى تخصب وقد تركت امرأتى حبلى فتى تلد وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا وقد علمت بأى أرض ولدت

فبأى أرض اموت فنزلت هذه الآية وعن قتادة قال خمس من الغيب استأثر الله بهن فلم يطلع عليهن ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ان الله عنده علم الساعة فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم الساعة فى أى سنة ولا فى أى شهر أليلا أم نهارا وينزل الغيث فلا يعلم أحد متى ينزل أليلا أم نهارا ويعلم مافى الارحام فلا يعلم أحد مافى الارحام أذكر أم أنثى احمر أم أسود ولا تدرى نفس ماذا تكسب غدا أخيرا أم شرا وماتدرى نفس بأى أرض تموت ليس أحد من الناس يدرى أين مضجعه من الارض أفى بحر أم فى بر أم سهل أم جبل وعن أحمد وابن أبى شيبة موقوفا على شهر بن حوشب ان ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر الى رجل من جلسائه يديم النظر اليه فقال الرجل من هذا فقال ملك الموت فقال فكأنه يريدنى فمر الريح أن تحملنى وتلقينى بالهند فأمر سليمان الريح فحملته الى بلاد الهند فوق سحابة فلما استقر فيها قبض روحه ملك الموت عليه السلام ثم جاء الى سليمان عليه السلام فسأله عن نظره الى الرجل فقال ملك الموت كان دوام نظرى اليه تعجبا منه اذ أمرت ان أقبض روحه بالهند وهو عندك وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مفاتيح الغيب خمس لايعلمهن الا الله لايعلم مافى غد الا الله ولا متى تقوم الساعة الا الله ولا مافى الارحام الا الله ولا متى ينزل الغيث الا الله وماتدرى نفس بأى أرض تموت الا الله وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ان رجلا قال يارسول الله متى الساعة قال ما المسؤل عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثكم باشراطها اذا ولدت الامة ربتها فذلك من اشراطها واذا كانت الحفاة الرعاة رؤس الناس فذلك من أشراطها واذا تطاول رعاء الغنم فى البنيان فذلك من أشراطها وخمس من الغيب لايعلمهن الا الله ثم تلا ان الله عنده علم الساعة الى آخر الآية وعن أبى أمامة أن اعرابيا وقف على النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر على ناقة له عشراء فقال يا محمد مافى بطن ناقتى هذه فقال له رجل من الانصار دع عنك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهلم الى حتى أخبرك وقعت أنت عليها وفى بطنها ولد منك فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ان الله يحب كل حيى كريم ويبغض كل فاحش لئيم متفحش ثم أقبل على الاعرابى فقال خمس لايعلمهن الا الله ان الله عنده علم الساعة الآية وعن سلمة بن الاكوع قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبة حمراء اذ جاءه رجل على فرس فقال له من أنت قال أنا رسول الله قال متى الساعة قال غيب ومايعلم الغيب الا الله قال مافى بطن فرسى قال غيب وما يعلم الغيب الا الله قال فتى نمطر قال غيب ومايعلم الغيب الا الله وعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال أوتيت مفاتيح كل شئ الا الخمس ان الله عنده علم الساعة الآية وعن ابن مسعود قال أوتى نبيكم صلى الله عليه وسلم مفاتيح كل شئ غير خمس ان الله عنده علم الساعة الآية وعن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه لم يعم على نبيكم الا الخمس من سرائر الغيب هذه الآية فى آخر لقمان ان الله عنده علم الساعة الى آخر السورة وعن ربعى قال حدثنى رجل من بنى عامر أنه قال يارسول الله هل بقى من العلم شئ لاتعلمه فقال لقد علمنى الله خيرا وان من العلم مالايعلمه الا الله الخمس ان الله عنده علم الساعة الآية وعن بنت معوذ قالت دخل على رسول الله صلى الله

عليه وسلم صبيحة عرسى وعندى جاريتان تغنيان وتقولان وفينا نبى يعلم ما فى غد فقال أما هذا فلا تقولاه ما يعلم ما فى غد الا الله وعن ابن عزة الهذلى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له اليها حاجة فلم ينته حتى يقدمها ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما تدرى نفس بأى أرض تموت وعن أبى مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس فى مجلس فيه أصحابه جاءه جبريل فى غير صورته يحسبه رجلا من المسلمين فسلم فرد عليه السلام ثم وضع يده على ركبتى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له يا رسول الله ما الاسلام قال أن تسلم وجهك لله وتشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة قال فاذا فعلت ذلك فقد أسلمت قال نعم ثم قال ما الايمان قال أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والموت والحياة بعد الموت والجنة والنار والحساب والميزان والقدر خيره وشره قال فاذا فعلت ذلك فقد آمنت قال نعم ثم قال ما الاحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان كنت لا تراه فانه يراك قال فاذا فعلت ذلك فقد أحسنت قال نعم ثم قال فتى الساعة يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله خمس من الغيب لا يعلمها الا الله ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت (ان الله) أى المختص بأوصاف الكمال (عليم) أى شامل علمه للامور كلها كلياتها وجزئياتها فأثبت العلم المطلق لنفسه سبحانه بعد أن نفاه عن الغير فى هذه الخمس (خبير) أى يعلم خبايا الامور وخفايا الصدور كما يعلم ظواهرها وجلاياها كل عنده على حد سواء فهو الحكيم فى ذاته وصفاته ولذلك أخفى هذه المفاتيح عن عباده لانه لو أطلعهم عليها لفات كثير من الحكم باختلال هذا النظام على ما فيه من الاحكام فقد انطبق آخر السورة باثبات العلم والخبر مع تقرير أمر الساعة التى هى مفتاح الدار الآخرة على أولها الخبر بحكمة صفته التى من علمها حق علمها وتخلق بما دعت اليه وحضت عليه لا سيما الايقان بالآخرة كان حكيما فسبحان من هذا كلامه وتعالى كبرياؤه وعز مرامه وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقا يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشرا بعدد من عمل المعروف ونهى عن المنكر حديث موضوع

﴿سورة السجدة مكية﴾

وهى ثلاثون آية وستمائة وثمانون كلمة وألف وخمسمائة وثمانية عشر حرفا

(بسم الله) ذى الجلال والاكرام (الرحمن) بعموم البشارة والنذارة (الرحيم) الذى أسكن فى قلوب أحبابه الشوق اليه والخضوع بين يديه وتقدم فى البقرة وغيرها الكلام على (الم) ومما لم يسبق انها اشارة الى ان الله تعالى أرسل جبريل عليه السلام الى محمد الفاتح الخاتم صلى الله عليه وسلم بكتاب معجز دال باعجازه على صحة رسالته ووحدانية من أرسله وسرد سبحانه هذه الاحرف

فى أوائل أربع من هذه السور فزادت على الطواسين بواحدة اشارة الى ان هذه المعانى فى غاية الثبات لا انقطاع لها * ولما كان المقصود فى التى قبلها اثبات الحكمة لمنزل هذا الكتاب الذى فيه تبيان كل شئ أخبر سبحانه وتعالى عن هذا بأنه من عنده بقوله تعالى (تنزيل الكتاب) أى الجامع لكل هدى على ما ترون من التدريج من السماء (لاريب) أى لاشك (فيه) لان نافى الشك هو الاعجاز معه لا ينفك عنه فكل ما تقولونه مما يخالف ذلك تعنت أو جهل من غير ريب حال كونه (من رب العالمين) أى الخالق لهم المدبر لمصالحهم فلا يجوز فى عقل ولا يخطر فى بال ولا يقع فى وهم ولا يتصور فى خيال انه يصل شئ من كتابه تعالى الى هذا النبى الكريم بغير أمره ولا يتخيل ان شيأ منه ليس بقول الله تعالى ثم لا يتخيل أنه من كلامه ولكنه أخذه من بعض أهل الكتاب لان هذا لا يفعل مع بعض الملوك فكيف بملك الملوك فكيف بمن هو عالم بالسر والجهر محيط علمه بالخفى والجلى *(تنبيه)* فى تنزيل الكتاب اعرابات مختلفة وأظهرها ما جرى عليه الجلال المحلى من أن تنزيل الكتاب مبتدأ ولاريب فيه خبر أول ومن رب العالمين خبر ثان وقوله تعالى (أم يقولون) أى مع ذلك الذى لا يمترى فيه عاقل (افتراه) أى تعمد كذبه أم فيه هى المنقطعة والاضراب للانتقال لا للابطال وقيل الميم صلة أى أتقولون افتراه وقوله تعالى (بل هو الحق) أى الثابت ثباتا لا يضاهيه ثبات شئ من الكتب قبله اضراب ثان ولو قيل بأنه اضراب ابطالى لنفس افتراه وحده لكان صوابا وعلى هذا يقال كل ما فى القرآن اضراب فهو اضراب انتقالى الا هذا فانه يجوز أن يكون ابطالا لانه ابطال لقولهم أى ليس هو كما قالوا مفترى بل هو الحق وفى كلام الزمخشرى ما يرشد الى هذا فانه قال والضمير فى فيه راجع الى مضمون الجملة كأنه قيل لاريب فى ذلك أى فى كونه من رب العالمين قال ابن عادل ويشهد لوجاهته أم يقولون افتراه لان قولهم هذا مفترى انكار لان يكون من رب العالمين وكذلك قوله بل هو الحق من ربك وما فيه من تقريره أنه من عند الله وهذا أسلوب صحيح محكم انتهى وقوله تعالى (من ربك) أى المحسن اليك بانزاله واحكامه حال من الحق والعامل فيه محذوف على القاعدة وهو العامل أيضا فى (لتنذر) ويجوز أن يكون العامل فى لتنذر غيره أى أنزله لتنذر (قوما) أى ذوى قوة وجلد ومنعة (ما أتاهم من نذير) أى رسول فى هذه الازمان القريبة لقول ابن عباس ان المراد الفترة ويؤيده اثبات الجار فى قوله تعالى (من قبلك) ولما ذكر تعالى علة الانزال أتبعه علة الانذار بقوله تعالى (لعلهم يهتدون) أى ليكون حالهم فى مجارى العادات حال من ترجى هدايته الى كمال الشريعة وأما التوحيد فلا عذر لاحد فيه مع اقامة الله تعالى من حجة العقل ومع ما أتقنه الرسل عليهم الصلاة والسلام آدم فمن بعده من أوضح النقل بآثار دعواتهم وبقايا دلالاتهم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن أبيه أبى وأبوك فى النار وغير ذلك من الادلة الدالة على ان من مات قبل دعوته على الشرك فهو فى النار لكن ذكر بعض العلماء أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى أحيا له أبويه وأسلما على يديه ولا بدع فى ذلك فان الله تعالى أكرمه بأشياء لا تحصر * ولما ذكر

تعالى الرسالة وبين ما على الرسول من الدعاء الى التوحيد واقامة الدليل قال (الله) أى الحاوى لجميع صفات الكمال وحده (الذى خلق السموات) كلها (والارض) باسرها (وما بينهما) من المنافع العينية والمعنوية (فى ستة أيام) كما يأتى تفصيله فى فصلت ان شاء الله تعالى (ثم استوى على العرش) وهو فى اللغة سرير الملك استواء يليق به تعالى لم تعهدوا مثله وهو أنه تعالى أخذ فى تدبيره وتدبير ما حواه بنفسه لا شريك له ولا نائب فيه ولا وزير كما تعهدون من ملوك الدنيا اذا امتنعت ممالكهم وتباعدت أطرافها وتناءت أقطارها (مالكم من دونه) لان كل ما سواه دونه وتحت قهره ودل على عموم النفى بقوله تعالى (من ولى) أى يلى أموركم ويقوم بمصالحكم وينصركم اذا حل بكم شئ مما تنذرون به (ولا شفيع) يشفع عنده فى تدبيركم أو فى أحد منكم بغير اذن (أفلا تتذكرون) هذا فتؤمنون * ولما نفى أن يكون له وزير أو شريك فى الخلق ذكر كيف يفعل فى هذا الملك العظيم الذى أبدعه فقال مستأنفا مفسرا للمراد بالاستواء (يدبر الامر) أى كل أمر هذا العالم بأن يفعل فى ذلك فعل الناظر فى أدباره لاتقان خواتمه ولوازمه كما نظر فى اقباله لاحكام فواتحه وعوازمه لا يكل شيأ منه الى أحد من خلقه قال الرازى فى اللوامع وهذا دليل على ان استواءه على العرش بمعنى اظهاره القدرة والعرش مظهر التدبير لا مقر لمدبر * ولما كان المقصود للقرب انما هو تدبير ما يمكن مشاهدتهم له من العالم قال تعالى مفردا (من السماء) أى فينزل ذلك الامر الذى أتقنه كما يتقن من ينظر فى ادبار ما يعمله (الى الارض) أى غير متعرض الى ما فوق ذلك على أن السماء تشمل كل عال فيدخل جميع العالم العلوى والارض تشمل كل ما سفل فيشمل ذلك العالم السفلى *(تنبيه)* ههنا همزتان مكسورتان فقالون وابن كثير يسهل الاولى كالياء مع المد والقصر وورش وقنبل يسهل الثانية ولهما ابدالها من غير مد وأسقط أبو عمرو الاولى مع المد والقصر والباقون بتحقيقهما * ولما كان الصعود أشق من النزول على ما جرت به العوائد كان بذلك مستبعدا أشار الى ذلك بقوله تعالى (ثم يعرج) أى يصعد (اليه) أى بصعود الملك الى الله تعالى أى الى الموضع الذى شرفه أو أمره بالسكون فيه كقوله تعالى انى ذاهب الى ربى ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ونحو ذلك أو الى الموضع الذى ابتدأ منه نزول التدبير الى السماء كأنه صاعد فى معارج وهى الدرج على ما تتعارفون بينكم فى أسرع من لمح البصر (فى يوم) أى من أيام الدنيا (كان مقداره) لو كان الصاعد واحدا منكم على ما تعهدون (ألف سنة مما تعدون) من سنيكم التى تعهدون قال البقاعى والذى دل على هذا التقدير شئ من العرف وشئ من اللفظ أما اللفظ فالتعبير بكان مع انتظام الكلام بدونها لو أريد غير ذلك وأما العرف فهو ان الانسان المتمكن يبنى البيت العظيم العالى فى سنة مثلا فاذا فرغه صعد اليه خادمه الى أعلاه فى أقل من درجتين من درج الرمل فلا تكون نسبة ذلك من زمن بنائه الاجزأ ولا يعد هذا وهو خلق محتاج مماطلك عن خلق الخلق فى ستة ايام ولو شاء لخلقهم فى لحة وهو غنى عن كل شئ قادر على كل شئ انتهى فنزول الامر وعروج العمل فى مسافة ألف سنة مما تعدون وهو ما بين السماء والارض فان

مسافته خمسمائة سنة فينزل في مسيرة خمسمائة سنة ويعرج في خمسمائة سنة فهو مقدار ألف سنة كأنه تعالى يقول لو سار أحد من بني آدم لم يقطعه الا في ألف سنة والملائكة يقطعونه في يوم واحد هذا في وصف عروج الملك من الارض الى السماء وأما قوله تعالى تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فأراد مدة المسافة من الارض الى سدرة المنتهى التي هي مقام جبريل عليه السلام فسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا قاله مجاهد والضحاك وورد انه صلى الله عليه وسلم قال بين السماء والارض خمسمائة عام ثم قال أتدرون ما الذي فوقها قلنا الله ورسوله اعلم قال سماء أخرى أتدرون كم بينها وبينها قلنا الله ورسوله اعلم قال خمسمائة عام حتى عد سبع سموات ثم قال هل تدرون ما فوق ذلك قلنا الله ورسوله اعلم قال العرش ثم قال أتدرون ما بينه وبين السماء السابعة قلنا الله ورسوله أعلم قال مسيرة خمسمائة عام ثم قال ما هذه تحتكم قلنا الله ورسوله اعلم قال أرض أتدرون ما تحتها قلنا الله ورسوله اعلم قال أرض أخرى أتدرون كم بينهما قلنا الله ورسوله اعلم قال مسيرة سبعمائة عام حتى عد سبع أرضين ثم قال ايم الله لو دليتم بحبل لهبط على علم الله وقدرته وروى مثل السموات والارض في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة وان فضل الكرسي على السموات والارض كفضل الفلاة على تلك الحلقة وقوله تعالى وسع كرسيه السموات والارض يدل على ان الكرسي محيط بالكل وقيل مقدار ألف سنة وخمسين ألف سنة كلها في القيامة ومعناه حينئذ يدبر الامر من السماء الى الارض مدة أيام الدنيا ثم يعرج أي يرجع الامر والتدبير اليه بعد فناء الدنيا في يوم كان مقداره ذلك وذلك اليوم يتفاوت فهو على الكافر كخمسين ألف سنة وعلى المؤمن دون ذلك بل جاء في الحديث انه يكون على المؤمن كمثل صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا وقيل ان ذلك اشارة الى امتداد نفاذ الامر وذلك لان من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة فقوله في يوم كان مقداره ألف سنة يعني يدبر الامر في زمان يوم منه ألف سنة فكم يكون شهر منه وكم يكون سنة منه وكم يكون دهر منه وعلى هذا فلا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين ألف سنة لان ذلك اذا كان اشارة الى دوام نفاذ الامر فسواء يعبر بألف سنة أو بخمسين ألف سنة لا يتفاوت الا أن المبالغة بالخمسين أكثر وسيأتي بيان فائدتها في موضعها ان شاء الله تعالى * ولما تقرر هذا من عالم الاشباح والخلق ثم عالم الارواح والامر بين انه تعالى عالم بما كان وما يكون بقوله تعالى (ذلك) أي الاله الواحد القهار (عالم الغيب والشهادة) أي ما غاب عن الخلق ومنه الذي تقدمت مفاتيحه وما حضر وظهر فيدبر أمرهما (العزيز) أي الغالب على أمره (الرحيم) على العباد في تدبيره وفيه ايماء بأنه تعالى يراعي المصالح تفضلا واحسانا * ولما ذكر تعالى الدليل على الوحدانية من الآفاق بقوله تعالى خلق السموات والارض وما بينهما ذكر الدليل عليها من الانفس بقوله تعالى (الذي أحسن كل شئ خلقه) قال ابن عباس أتقنه وأحكمه فجميع المخلوقات حسنة وان تفاوتت الى حسن وأحسن كما قال تعالى لقد خلقنا الانسان

في أحسن تقويم وقال مقاتل علم كيف يخلق كل شيء من قول القائل فلان يحسن كذا اذا كان يتقنه وقيل خلق كل حيوان على صورة لم يخلق البعض على صورة البعض وقيل معناه أحسن الى كل خلقه وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام فعلا ماضيا والجملة صفة للمضاف أو المضاف اليه والباقون بسكونها على انه بدل من كل شيء بدل اشتمال والضمير عائد على كل شيء * ولما كان الحيوان أشرف الاجناس وكان الانسان أشرفه خصه بالذكر ليقوم دليل الوحدانية بالانفس كما قام بالآفاق فقال دالا على البعث (وبدأ خلق الانسان) أي آدم عليه السلام (من طين) قال الرازي ويمكن أن يقال الطين ماء وتراب مجتمعان فالآدمي أصله مني والمني أصله غذاء والاغذية اما حيوانية أو نباتية والحيوانية ترجع الى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذي هو الطين (ثم جعل نسله) أي ذريته (من سلالة) أي نطفة سميت سلالة لانها تسل من الانسان أي تنفصل منه وتخرج من صلبه ونحوه قولهم للولد سليل هذا على التفسير الاول لان آدم كان من الطين ونسله من سلالة (من ماء مهين) أي ضعيف وعلى التفسير الثاني هو أن أصله من طين ثم يوجد من ذلك الاصل سلالة هي ماء مهين وهو نطفة الرجل وأشار الى عظمة ما بعد ذلك من خلقه وتطويره بقوله تعالى (ثم سواه) قومه بتصوير أعضائه وابداع المعاني على ما ينبغي (ونفخ فيه) أي آدم (من روحه) أي جعله حيا حساسا بعد ان كان جمادا واضافة الروح الى الله تعالى اضافة تشريف كبيت الله وناقة الله فيالله من شرف ما أعلاه ففيه اشعار بأنه خلق عجيب وان له شأنا له مناسبة ما الى الحضرة الربوبية قال البيضاوي ولاجله أي ولاجل كون ان له شأنا الى آخره روي من عرف نفسه فقد عرف ربه هذا الحديث لا أصل له وبتقدير أن له أصلا ليس معناه ما ذكر بل معناه من عرف نفسه وتأمل في حقيقتها عرف ان له صانعا موجدا له واليه أشار بقوله تعالى وفي أنفسكم أفلا تبصرون ثم ذكر ما يترتب على نفخ الروح في الجسد مخاطبا للذرية بقوله تعالى (وجعل لكم) بعد ان كنتم نطفا أمواتا (السمع) أي لتدركوا به ما يقال لكم (والابصار) أي لتدركوا بها الاشياء على ما هي عليه (والافئدة) أي القلوب المودعة غرائز العقول (فان قيل) ما الحكمة في تقديم السمع على البصر والبصر على الافئدة (أجيب) بأن الانسان يسمع أولا كلاما فينظر الى قائله ليعرفه ثم يتفكر بقلبه في ذلك الكلام ليفهم معناه (فان قيل) ما الحكمة في ذكر المصدر في السمع وفي البصر والفؤاد الاسم ولهذا جمع الابصار والافئدة ولم يجمع السمع لان المصدر لا يجمع (أجيب) بأن السمع قوة واحدة ولها محل واحد وهو الاذن ولا اختيار لها فيه وان الصوت من أي جانب كان واصل اليه ولا قدرة للاذن على تخصيص السمع بادراك البعض دون البعض وأما البصر فمحله العين ولها فيه اختيار فانها تحرك الى جانب المرئي دون غيره وكذلك الفؤاد محل الادراك وله نوع اختيار يلتفت الى ما يريد دون غيره فالسمع أصل دون محله لعدم الاختيار له والعين كالاصل وقوة الابصار آلتها والفؤاد كذلك وقوة الفهم آلته فذكر في السمع المصدر الذي هو القوة وفي الابصار والافئدة الاسم الذي هو محل القوة ولان السمع

قوة واحدة لها محل واحد ولهذا لا يسمع الانسان فى زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويرى فى زمان واحد صورتين فأكثر ويتبينهما (فان قيل) لم قدم السمع ههنا وقدم القلب فى قوله تعالى فى البقرة ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم (أجيب) بأنه تعالى عند الاعطاء ذكر الادنى ثم ارتقى الى الاعلى فكأنه قال أعطاكم السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب وعند السلب قال ليس لهم قلب يدركون به ولا ما هو دونه وهو السمع الذى يسمعون به عمن له قلب يفهم الحقائق ويستخرجها * ولما لم يبادروا الى الايمان عند التذكير بهذه النعم الجسام قال تعالى (قليلا ما تشكرون) أى تشكرون شكرا قليلا فما مزيدة مؤكدة للقلة وقوله تعالى (وقالوا) معطوف على ما سبق منهم فانهم قالوا محمد ليس برسول والاله ليس بواحد والبعث ليس بممكن فدل على صحة الرسالة بنفى الريب عن الكتاب ثم على الوحدانية بشمول القدرة واحاطة العلم بابداع الخلق على وجه هو نعمة لهم وختم بالتعجب من كفرهم وكان استبعادهم للبعث الذى هو الثابت الاصل من أعظم كفرهم وهو قولهم (أئذا) أى انبعث اذا (ضللنا) أى غبنا (فى الارض) أى صرنا ترابا مخلوطا بتراب الارض لا نتميز منه وأصله من ضل الماء فى اللبن اذا ذهب فيه وقولهم (أئنا لفى خلق جديد) أى يجدد خلقنا استفهام انكارى زيادة فى الاستبعاد (فان قيل) انه تعالى ذكر الرسالة من قبل وذكر دليلها وهو التنزيل الذى لا ريب فيه وذكر الوحدانية وذكر دليلها وهو خلق السموات والارض وخلق الانسان من طين * ولما ذكر انكارهم الحشر لم يذكر الدليل (أجيب) بأنه ذكر دليله أيضا وهو ان خلقه الانسان ابتداء دليل على قدرته على الاعادة ولهذا استدل تعالى على انكار الحشر بالخلق الاول ثم يعيده وهو أهون عليه وقوله تعالى الذى أنشأها أول مرة وأيضا خلق السموات والارض كما قال أو ليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وقرأ نافع والكسائى أئذا ضللنا فى الارض انا الاول بالاستفهام والثانى بالخبر وقرأ ابن عامر الاول بالخبر والثانى بالاستفهام والباقون بالاستفهام فيهما ومذهب قالون وأبى عمرو فى الاستفهام تسهيل الثانية وادخال الالف بينها وبين همزة الاستفهام وورش وابن كثير بتسهيل الثانية من غير ادخال وهشام يسهل الثانية ويحققها مع الادخال والباقون بتحقيقهما من غير ادخال وقوله تعالى (بل هم بلقاء ربهم كافرون) أى جاحدون اضراب عن الاول أى ليس انكارهم لمجرد الخلق ثانيا بل يكفرون بجميع أحوال الآخرة حتى لو صدقوا بالخلق الثانى لما اعترفوا بالعذاب والثواب أو يكون المعنى لم ينكروا البعث لنفسه بل لكفرهم بلقاء الله فانهم كرهوه فأنكروا المفضى اليه ثم بين لهم ما يكون من الموت الى العذاب بقوله تعالى (قل) اى يا أفضل الخلق لهم (يتوفاكم) أى يقبض أرواحكم (ملك الموت الذى وكل بكم) أى بقبض أرواحكم وهو عزرائيل عليه السلام والتوفى استيفاء العدد معناه أن يقبض أرواحهم حتى لا يبقى أحد من العدد الذى كتب عليه الموت روى أن ملك الموت جعلت له الدنيا مثل راحة لليد يأخذ منها صاحبها ما أحب من غير مشقة فهو يقبض أنفس الخلق من مشارق الارض ومغاربها وله أعوان من

ملائكة

ملائكة الرحمة وأعوان من ملائكة العذاب وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما خطوة ملك الموت ما بين المشرق والمغرب وقال مجاهد جعلت الارض مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وفى بعض الاخبار ان ملك الموت على معراج بين السماء والارض فتنزع أعوانه روح الانسان فاذا بلغ ثغرة نحره قبضه ملك الموت وعن معاذ بن جبل ان لملك الموت حربة تبلغ ما بين المشرق والمغرب وهو يتصفح وجوه الناس فما من أهل بيت الا وملك الموت يتصفحهم فى كل يوم مرتين فاذا رأى انسانا قد انقضى أجله ضرب رأسه بتلك الحربة وقال الآن يزار بك عسكر الموت فيصير ملقى لا روح فى شئ منه وهو على حاله كاملا لا نقص فى شئ منه يدعى الخلل بسببه فاذا كان هذا فعل عبد من عبيده تعالى صرّفه فى ذلك فقام به كما ترونه مع أن ممازجة الروح للبدن أشد من ممازجة تراب البدن لبقية التراب لانه ربما يستدل بعض الحذق على بعض ذلك بنوع دليل من شم ونحوه فكيف يستبعد شئ من الاشياء على رب العالمين ومدبر الخلائق أجمعين نسأل الله تعالى أن يقبضنا على التوحيد وان يستعملنا فى طاعته ما أحيانا ويفعل ذلك بأهلنا وأحبائنا * ولما قام هذا البرهان القطعى على قدرته التامة علم أن التقدير ثم يعيدكم خلقا جديدا كما كنتم أول مرة فحذفه كما هو عادة القرآن فى حذف كل ما دل عليه السياق ولم يدع داع الى ذكره وعطف عليه قوله تعالى (ثم الى ربكم) أى الذى ابتدأ خلقكم وتربيتكم وأحسن اليكم غاية الاحسان (ترجعون) أى تصيرون اليه أحياء فيجزيكم بأعمالكم * ولما تقرر دليل البعث بما لا خفاء فيه ولا لبس شرع فى بعض أحواله بقوله تعالى (ولو ترى) أى تبصر (اذ المجرمون) أى الكافرون (ناكسو رؤسهم) أى مطأطؤها خوفا وخجلا وحزنا وذلا (عند ربهم) المحسن اليهم المتوحد بتدبيرهم قائلين بغاية الذل والرقة (ربنا) أى المحسن الينا (أبصرنا) أى ما كنا نكذب به (وسمعنا) منك تصديق الرسل فيما كذبناهم فيه (فارجعنا) بما لك من هذه الصفة المقتضية للاحسان الى الدنيا دار العمل (نعمل صالحا) فيها (انا موقنون) أى ثابت لنا الآن الايقان بجميع ما أخبرنا به عنك فلا ينفعهم ذلك ولا يرجعون وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا فظيعا والمخاطب يحتمل أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم شفاء لصدره فانهم كانوا يؤذونه بالتكذيب ويحتمل أن يكون عاما واذ على بابها من المضى لان لو تصرف المضارع للمضى وانما جىء هنا ماضيا لتحقق وقوعه نحو أتى أمر الله وجعله أبو البقاء مما وقع فيه اذ موقع اذا ولا حاجة اليه وقوله تعالى (ولو شئنا) أى بما لنا من العظمة (لآتينا كل نفس) أى مكلفة لان الكلام فيها (هداها) فتهتدى بالايمان والطاعة باختيار منها جواب عن قولهم ربنا أبصرنا وسمعنا وذلك ان الله تعالى قال انى لو أردت منكم الايمان لهديتكم فى الدنيا ولما لم أهدكم تبين انى ما أردت ولا شئت ايمانكم فلا أردكم وهذا صريح فى الدلالة على صحة مذهب أهل السنة حيث قالوا ان الله تعالى ما أراد الايمان من الكافر وما شاء منه الا الكفر (ولكن) لم أشأ ذلك لانه (حق القول منى) وأنا من لا يخلف الميعاد

لان الاخلاف اما لعجز أو نسيان أو حاجة ولا شئ من ذلك يليق بجنابي ولا يحل بساحتي وأكد لأجل انكارهم فقال مقسما (لأملأن جهنم) أى التى هى محل اهانتى (من الجنة) أى الجن طائفة ابليس وكأنه تعالى انثهم تحقيرا لهم عند من يستعظم أمرهم وبدأ بهم لاستعظامهم لهم ولانهم الذين أضلوهم (والناس أجمعين) حيث قلت لابليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين فلذلك شئت كفر الكافر وعصيان العاصى بعد ان جعلت لهم اختيارا وغيبت العاقبة عنهم فصار الكسب ينسب اليهم ظاهرا والخلق فى الحقيقة والمشيئة لى * ولما تسبب عن هذا القول الصادق أنه لا محيص لهم عن عذابهم قال لهم الخزنة اذا دخلوا جهنم (فذوقوا) العذاب (بما) أى بسبب ما (نسيتم لقاء يومكم) وحققه وبين ذلك بقوله تعالى (هذا) أى بترككم الايمان به (انا نسيناكم) أى عاملناكم بما لنا من العظمة ولكم من الحقارة معاملة الناسى لكم فتركناكم فى العذاب (وذوقوا عذاب الخلد) أى المختص بأنه لا آخر له (بما) أى بسبب ما (كنتم تعملون) أى من الكفر والتكذيب وانكار البعث * ولما ذكر تعالى علامة أهل الكفران ذكر علامة أهل الايمان بقوله تعالى (انما يؤمن بآياتنا) أى الدالة على عظمتنا (الذين اذا ذكروا بها) أى من أى مذكر كان فى أى وقت كان (خروا سجدا) أى بادروا الى السجود مبادرة من كأنه سقط من غير قصد خضوعا لله من شدة تواضعهم وخشيتهم واخباتهم خضوعا ثابتا دائما (وسبحوا) أى أوقعوا التسبيح به عن كل شائبة نقص متلبسين (بحمد ربهم) أى قالوا سبحان الله وبحمده وقيل صلوا بأمر ربهم * ولما تضمن هذا تواضعهم صرح به فى قوله تعالى (وهم لا يستكبرون) أى عن الايمان والطاعة كما يفعل من يصر مستكبرا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ السورة التى فيها السجدة فيسجد ونسجد حتى ما يجد أحدنا مكانا لموضع جبهته فى غير وقت الصلاة وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل ابليس يبكى يقول ياويلتى أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار وهذه من عزائم سجود القرآن فتسن للقارئ والمستمع والسامع * ولما كان المتواضع ربما نسب الى الكسل نفى ذلك عنهم مبينا لما تضمنته الآية السالفة من خوفهم بقوله تعالى (تتجافى) أى ترتفع وتنبو (جنوبهم عن المضاجع) عبر به عن ترك النوم قال ابن رواحة

نبى تجافى جنبه عن فراشه * اذا استثقلت بالمشركين المضاجع

والمضاجع جمع المضجع وهو الموضع الذى يضجع عليه يعنى الفراش وهم المتهجدون الذين يقيمون الصلاة قال أنس نزلت فينا معاشر الانصار كنا نصلى المغرب فلا نرجع الى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى صلى الله عليه وسلم وعن أنس أيضا قال نزلت فى أناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يصلون صلاة المغرب الى صلاة العشاء قال عطاء هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة والفجر فى جماعة وعنه صلى الله عليه وسلم من صلى العشاء فى جماعة كان

كقيام نصف ليلة ومن صلى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة وعن أنس كانجتنب الفرش قبل صلاة العشاء وعنه أيضا قال مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم راقدا قط قبل العشاء ولا متحدثا بعدها فان هذه الآية نزلت في ذلك وعن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال هم الذين لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة ان تغلبه عينه فوقه قبل أن ينام الصغير ويكسل الكبير وعن مالك بن دينار قال سألت أنسا عن هذه الآية فقال كان قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين الاولين يصلون المغرب ويصلون بعدها الى العشاء الآخرة فنزلت هذه الآية فيهم وعن ابن أبي حازم قال هي ما بين المغرب والعشاء صلاة الاوابين وعن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع قال قيام العبد من الليل وعن معاذ بن جبل أيضا قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فأصبحت يوما قريبا منه وهو يسير فقلت يارسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال لقد سألت عن عظيم وانه ليسير على من يسره الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيأ وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال ألا أدلك على أبواب الخير الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة وصلاة الرجل من جوف الليل ثم قرأ تتجافى جنوبهم عن المضاجع حتى بلغ يعملون ثم قال ألا أخبرك برأس الامر وعموده وذروة سنامه الجهاد ثم قال الا أخبرك بملاك ذلك كله فقلت بلى يانبي الله فأخذ بلسانه فقال كف عنك هذا فقلت يارسول الله وانا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال ثكلتك أمك يامعاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم الا حصائد ألسنتهم وعن كعب قال اذا حشر الناس نادى مناد هذا يوم الفصل أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع أين الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ثم يخرج عنق من نار فيقول أمرت بثلاث بمن جعل مع الله الها آخر وبكل جبار عنيد وبكل معتد لانا أعرف بالرجل من الوالد بولده والمولود بوالده ويؤمر بفقراء المسلمين الى الجنة فيحبسون فيقولون تحبسوننا ما كان لنا أموال وما كنا أمراء وعن أبي امامة الباهلي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم وقربة الى ربكم وتكفير للسيئات ومنهاة عن الآثام ومطردة للداء وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عجب ربنا من رجلين رجل ثار عن وطائه ولحافه بين حبه وأهله الى صلاته رغبة فيما عندي وشفقا مما عندي ورجل غزا في سبيل الله فانهزم مع أصحابه فعلم ماعليه من الانهزام وماعليه في الرجوع فرجع حتى هريق دمه وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه فقلت لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفر لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا وعن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام وأخرج البيهقي في شعب الايمان عن ربيعة الجرشي قال يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد

فيكونون ماشاء الله أن يكونوا ثم ينادى منادسيعلم أهل الجمع لمن يكون العز اليوم والكرم
ليقم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا فيقومون وفيهم قلة
ثم يلبث ماشاء الله أن يلبث ثم يعود فينادى المنادى سيعلم أهل الجمع لمن العز اليوم والكرم ليقم
الذين لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون وهم أكثر من الاولين ثم يلبث ماشاء الله
أن يلبث ثم يعود وينادى سيعلم أهل الجمع لمن العز اليوم والكرم ليقم الحامدون على كل حال
فيقومون وهم أكثر من الاولين وأخرج ابن جرير عن ابن عباس تتجافى جنوبهم عن المضاجع
يقول تتجافى لذكر الله امّا فى الصلاة وامّا فى قيام أوقعود أوعلى جنوبهم لايزالون يذكرون الله
* ولما كان هجران المضجع قد يكون لغير العبادة بين أنه انما هو لها بقوله تعالى مبينا لحالهم (يدعون)
أى داعين (ربهم) الذى عودهم باحسانه ثم علله بقوله تعالى (خوفا) أى من سخطه وعقابه فان
أسباب الخوف من نقائصهم كثيرة سواء أعرفوا سببا يوجب خوفا أولا لانهم لا يأمنون مكر
الله لانه يفعل مايشاء (وطمعا) فى رضاه الموجب لثوابه وقال ابن عباس خوفا من النار وطمعا
فى الجنة وعبر به دون الرجاء اشارة الى أنهم لشدة معرفتهم بنقائصهم لايعدون أعمالهم شيأ بل
يطلبون فضله بغير سبب وان كانوا مجتهدين فى طاعته * ولما كانت العبادة تقطع غالبا عن
التوسع فى الدنيا عادت نفس العابد الى التملق بما فى يده خوفا من نقص العبادة عند الحاجة
وصفهم الله تعالى بقوله تعالى (ومما رزقناهم) أى بعظمتنا لا بحول منهم ولاقوة (ينفقون)
من غير اسراف ولاتقتير فى جميع وجوه القرب التى شرعناها لهم فلا يبخلون بما عندهم اعتمادا
على الخلاق الرزاق الذى ضمن الخلق فهم بما ضمن لهم أوثق منهم بما عندهم * ولماذكر تعالى
جزاء المستكبرين ذكر جزاء المتواضعين بقوله عزمن قائل (فلا تعلم نفس) أى من جميع النفوس
مقربة ولاغيرها (ما أخفى) أى خبئ (لهم) أى لهؤلاء المذكورين من ذخائر الغيوب
وخزائنها كما كانوا يخفون أعمالهم فى الصلاة فى جوف الليل وبالصدقة وبغير ذلك وقرأ حمزة
بسكون الياء والباقون بالفتح * ولما كانت العين لا تقر فتهجع الا عند الامن والسرور قال
تعالى (من قرة أعين) أى من شئ نفيس تقر به أعينهم لاجل ما أقلقوها عن قرارها بالنوم ثم
صرح بما أفهمته فاء السبب بقوله تعالى (جزاء) أى أخفاها لهم لجزائهم (بما) أى بسبب
ما (كانوا يعملون) أى من الطاعات فى دار الدنيا روى البخارى فى التفسير عن أبى هريرة
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت
ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر قال أبو هريرة اقرؤا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم
الآية وعن ابن مسعود قال انه لمكتوب فى التوراة لقد أعد الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم
عن المضاجع مالم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ولا يعلم ملك مقرب ولا نبى مرسل
وانه لفى القرآن فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وعن ابن عمر قال ان الرجل من أهل
الجنة ليجئ فيشرف عليه النساء فيقلن يافلان بن فلان ما أنت بمن خرجت من عندها بأولى بك
منا فيقول ومن أنتن فيقلن نحن من اللاتى قال الله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين

جزاء

جزاء بما كانوا يعملون وعن عامر بن عبد الواحد قال بلغني أن الرجل من أهل الجنة يمكث في مكان سبعين سنة ثم يلتفت فاذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه فتقول له قد آن لك ان يكون لنا منك نصيب فيقول من أنت فتقول أنا مزيد فيمكث معها سبعين سنة ويلتفت فاذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه فتقول قد آن لك ان يكون لنا منك نصيب فيقول من أنت فتقول أنا التي قال الله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وعن سعيد بن جبير قال يدخلون عليهم على مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات معهم التحف من الله من جنات عدن ماليس في جناتهم وذلك قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وعن كعب قال أصف لكم منزل رجل من أهل الجنة كان يطلب حلالا ويأكل حلالا حتى لقي الله تعالى على ذلك فانه يعطى يوم القيامة قصرا من لؤلؤة واحدة ليس فيها صدع ولا وصل فيها سبعون ألف غرفة وأسفل الغرف سبعون ألف بيت كل بيت سقفه صفائح الذهب والفضة ليس بموصول ولولا ان الله تعالى سخر له النظر لذهب بصره من نوره غلظ الحائط خمسة عشر ميلا وطوله في السماء سبعون ميلا في كل بيت سبعون ألف باب يدخل عليه في كل بيت من كل باب سبعون ألف خادم لا يراهم من في هذا البيت ولا يراهم من في هذا البيت فاذا خرج من قصره سار في ملكه مثل عمر الدنيا يسير في ملكه عن يمينه وعن يساره ومن ورائه وأزواجه معه وليس معه ذكر غيره ومن بين يديه ملائكة قد سخروا له وبين أزواجه ستر وبين يديه ستر ووصاف ووصائف قد أفهموا ما يشتهي وما تشتهي أزواجه ولا يموت هو ولا أزواجه ولا خدامه أبدا نعيمهم يزداد كل يوم من غير أن يبلى الاول وقرة عين لا تنقطع أبدا لا يدخل عليه فيه روعة أبدا وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والذي نفسي بيده لو أن أحد أهل الجنة رجل أضاف آدم فمن دونه فوضع لهم طعاما وشرابا حتى خرجوا من عنده لا ينقصه ذلك شيأ مما أعطاه الله وعن سهل بن سعد قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصف الجنة حتى انتهى ثم قال فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قال تتجافى جنوبهم عن المضاجع الآيتين قال القرطبي انهم أخفوا عملا وأخفى لهم ثوابا فقدموا على الله فقرت تلك الاعين وعن أبي اليمان قال الجنة مائة درجة أولها درجة فضة وأرضها فضة ومساكنها فضة وآنيتها فضة وترابها المسك والثانية ذهب وأرضها ذهب ومساكنها ذهب وآنيتها ذهب وترابها المسك والثالثة لؤلؤ وأرضها اللؤلؤ ومساكنها اللؤلؤ وآنيتها اللؤلؤ وترابها المسك وسبع وتسعون بعد ذلك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وتلا هذه الآية فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين الآية وعن المغيرة بن شعبة يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم ان موسى عليه السلام سأل ربه فقال أي رب أي أهل الجنة ادنى منزلة فقال رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة فيقال له ادخل فيقول كيف أدخل وقد نزلوا منازلهم وأخذوا أخذاتهم فيقال له أترضى أن يكون لك مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا فيقول نعم أي رب قد رضيت فيقال له فان لك هذا وعشرة أمثاله معه فيقول قد رضيت أي رب فيقال له فان لك هذا وما اشتهت نفسك ولذت عينك فقال موسى

أى رب فأى أهل الجنة أرفع منزلة قال اياها أردت وسأحدثك عنهم انى غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال ومصداق ذلك فى كتاب الله فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين * ونزل فى على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه والوليد ابن عقبة بن أبى معيط أخى عثمان لامه حين تنازعا فقال الوليد بن عقبة لعلى اسكت فانك صبى وأنا أشيخ وأنا والله أبسط منك لسانا وأحد منك سنانا وأشجع جنانا وأملأ منك حشوا فى الكتيبة فقال له على اسكت فانك فاسق (أفمن كان مؤمنا) أى راسخا فى التصديق بجميع ما أخبرت به الرسل (كمن كان فاسقا) أى راسخا فى الفسق خارجا عن دائرة الاذعان وقال تعالى (لا يستوون) ولم يقل تعالى لا يستويان لانه لم يرد مؤمنا واحدا ولا فاسقا واحدا بل أراد جميع المؤمنين وجميع الفاسقين فلا يستوى جمع من هؤلاء بجمع من أولئك ولا فرد بفرد قال قتادة لا يستوون لا فى الدنيا ولا عند الموت ولا فى الآخرة * ولما نفى استواءهم أتبعه حال كل على سبيل التفصيل وبدأ بحال المؤمن بقوله تعالى (أما الذين آمنوا وعملوا) أى تصديقا لايمانهم (الصالحات) أى الطاعات (فلهم جنات المأوى) أى التى يأوى اليها المؤمنون فانها المأوى الحقيقى والدنيا منزل مرتحل عنها لامحالة وهى نوع من الجنات قال الله تعالى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى سميت بذلك لما روى عن ابن عباس قال تأوى اليها أرواح الشهداء وقيل هى عن يمين العرش (نزلا) أى عدادا لهم أول قدومهم قال البقاعى كما يهيأ للضيف على ما لاح أى عند قدومه (بما) أى بسبب ما (كانوا يعملون) من الطاعات فان أعمالهم من رحمة ربهم واذا كانت هذه الجنات نزلا فما ظنك بما بعد ذلك هو لعمرى ما أشار اليه قوله صلى الله عليه وسلم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهم كل لحظة فى زيادة لان قدرة الله تعالى لا نهاية لها فاياك أن تخادع أو يغرنك ملحد * ثم ثنى بحال الكافر بقوله تعالى (وأما الذين فسقوا) أى خرجوا عن دائرة الايمان الذى هو معدن التواضع وأهل للمسامحة والملازمة (فمأواهم النار) أى التى لا صلاحية فيها للايواء بوجه من الوجوه ملجؤهم ومنزلهم أى فالنار لهم مكان جنة المأوى للمؤمنين (كلما أرادوا) أى وهم مجتمعون فكيف اذا أراد بعضهم (أن يخرجوا منها) بأن يخيل اليهم ما يظنون به القدرة على الخروج منها كما كانوا يخرجون نفوسهم من محيط الادلة ومن دائرة الطاعات الى ميدان المعاصى والزلات فيعالجون الخروج فاذا ظنوا أنه تيسر لهم وهم بعد فى غمراتها (أعيدوا فيها) فهو عبارة عن خلودهم فيها (وقيل لهم) أى من أى قائل وكل بهم (ذوقوا عذاب النار) اهانة لهم وزيادة فى تغيظهم وقوله تعالى (الذى كنتم به تكذبون) صفة لعذاب وجوز أبو البقاء أن يكون صفة للنار قال وذكر على معنى الجحيم والحريق * ولما كان المؤمنون الآن يتمنون اصابتهم بشئ من الهوان قال تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الادنى) أى عذاب الدنيا قال الحسن هو مصائب الدنيا واسقامها وقال عكرمة الجوع بمكة سبع سنين أكلوا فيها الجيف والعظام والكلاب وقال ابن مسعود هو القتل بالسيف يوم بدر (دون العذاب الاكبر) وهو عذاب

الآخرة فان عذاب الدنيا لا نسبة له الى عذاب الآخرة (فان قيل) ما الحكمة فى مقابلة الادنى بالاكبر والادنى انما هو فى مقابلة الاقصى والاكبر انما هو فى مقابلة الاصغر (أجيب) بانه حصل فى عذاب الدنيا أمران أحدهما أنه قريب والآخر أنه قليل صغير وحصل فى عذاب الآخرة أيضا أمران أحدهما أنه بعيد والآخر أنه عظيم كبير لكن العرف فى عذاب الدنيا هو أنه الذى يصلح للتخويف فان العذاب الآجل وان كان قليلا فلا يحترز عنه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد اذا كان آجلا وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل وأما فى عذاب الآخرة فالذى يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعيد لما ذكر فقال فى عذاب الدنيا العذاب الادنى ليحترز العاقل ولو قال تعالى ولنذيقنهم من العذاب الاصغر ما كان ليحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلا وقال فى عذاب الآخرة الاكبر لذلك المعنى ولو قال من العذاب الابعد الاقصى لما حصل التخويف به مثل ما يحصل بوصفه من الكبر (لعلهم يرجعون) الى الايمان أى من بقى منهم بعد بدر (فان قيل) ما الحكمة فى هذا الترجى وهو على الله تعالى محال (أجيب) بوجهين أحدهما معناه لنذيقنهم اذاقة الراجى كقوله تعالى انا نسيناكم يعنى تركناكم كما يترك الناسى حيث لا يلتفت اليه أصلا كذلك ههنا والثانى نذيقنهم العذاب اذاقة يقول القائل لعلهم يرجعون بسببه (ومن) أى لا أحد (أظلم ممن ذكر بآيات ربه) أى القرآن (ثم أعرض عنها) فلم يتفكر فيها وثم لاستبعاد الاعراض عنها مع فرط وضوحها وارشادها الى أسباب السعادة بعد التذكر بها عقلا كما فى بيت الحماسة

وما يكشف الغماء الا ابن حرة * يرى غمرات الموت ثم يزورها

أى لا يكشف الامر العظيم الا رجل كريم موصوف بما ذكر والغماء بتشديد الميم والمد أى فى مدة اقتحام الحرب والشاهد فى قوله ثم يزورها اذ المعنى انه استبعد أن يزور غمرات الموت بعد ان رآها واستيقنها واطلع على شدتها (انا من المجرمين) أى الكافرين (منتقمون) وعبر بصيغة العظمة تنبيها على أن الذى يحصل لهم من العذاب لا يدخل تحت الوصف على مجرد العدد فى الظالمين فكيف اذا كانوا أظلم الظالمين والجملة الاسمية تدل على دوام ذلك عليهم فى الدنيا اما باطنا بالاستدراج بالنعم واما ظاهرا باحلال النقم وفى الآخرة بدوام العذاب على مر الآباد ولما قرر الاصول الثلاثة وعاد الى الاصل الذى بدأ به وهو الرسالة المذكورة فى قوله تعالى لتنذر قوما ما أتاهم من نذير بين أنه ليس بدعا من الرسل بقوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى الجامع للاحكام وهو التوراة فكانت للرسل مثلك وذكر موسى عليه السلام لقربه من النبى صلى الله عليه وسلم وهو أول من أنزل عليه كتاب من أنبياء بنى اسرائيل بعد فترة كثيرة من الانبياء بينه وبين يوسف عليهما السلام ولم يختر عيسى عليه السلام للذكر والاستدلال لان اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته واما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فذكر المجمع عليه (فلا تكن فى مرية) واختلف فى الهاء فى قوله تعالى (من لقائه) على

أقوال أحدها أنها عائدة على موسى عليه السلام والمصدر مضاف لمفعوله أى من لقائك موسى ليلة الاسراء وامتحن المبرد الزجاج فى هذه المسئلة فأجاب بما ذكر قال ابن عباس وغيره المعنى فلا تكن فى شك من لقاء موسى فانك تراه وتلقاه روى ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال رأيت ليلة أسرى بى موسى رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوأة ورأيت عيسى رجلا مربوعا الى الحمرة والبياض سبط الرأس ورأيت مالكا خازن النار والدجال فى آيات أراهن الله اياه وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتيت على موسى ليلة أسرى بى عند الكثيب الاحمر وهو يصلى فى قبره (فان قيل) قد صح فى حديث المعراج أنه رآه فى السماء السادسة ومراجعته فى أمر الصلاة فكيف الجمع بين هذين الحديثين (أجيب) بأنه يحتمل أن تكون رؤيته فى قبره عند الكثيب الاحمر قبل صعوده الى السماء وذلك فى طريقه الى بيت المقدس فلما صعد الى السماء السادسة وجده هنالك قد سبقه لما يريده الله تعالى وهو على كل شئ قدير (فان قيل) كيف تصح منه الصلاة فى قبره وهو ميت وقد سقط عنه التكليف وهو فى الدار الآخرة وهى ليست دار عمل وكذلك رأى النبى صلى الله عليه وسلم جماعة من الانبياء وهم يحجون (أجيب) عن ذلك بأجوبة الاول أن الانبياء أفضل من الشهداء والشهداء أحياء عند ربهم فلا يبعد أن يحجوا ويصلوا كما صح فى الحديث وأن يتقربوا الى الله تعالى بما استطاعوا لانهم وان كانوا قد توفوا لكنهم بمنزلة الاحياء فى هذه الدار التى هى دار العمل الى أن تفنى ويفضوا الى دار الجزاء التى هى الجنة الجواب الثانى أنه صلى الله عليه وسلم رأى حالهم التى كانوا عليها فى حياتهم ومثلوا له كيف كانوا وكيف كان حجهم وصلاتهم الجواب الثالث أن التكليف وان ارتفع عنهم فى الآخرة لكن الذكر والشكر والدعاء لا يرتفع قال الله تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم وقال صلى الله عليه وسلم يلهمون التسبيح كما تلهمون النفس فالعبد يعبد ربه تعالى فى الجنة أكثر مما كان يعبده فى دار الدنيا وكيف لا يكون ذلك وقد صار مثل حال الملائكة الذين قال الله تعالى فى حقهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون غاية ما فى الباب أن العبادة ليست عليهم بتكليف بل هى بمقتضى الطبع ثانيها أن الضمير يعود الى الكتاب وحينئذ يجوز أن تكون الاضافة للفاعل أى من لقاء الكتاب لموسى أو المفعول أى من لقاء موسى الكتاب لان اللقاء تصح نسبته الى كل منهما لان من لقيك فقد لقيته قال السدى المعنى فلا تكن فى مرية من لقائه أى تلقى موسى كتاب الله تعالى بالرضا والقبول ثالثها أنه يعود على الكتاب على حذف مضاف أى من لقاء مثل كتاب موسى رابعها أنه عائد على ملك الموت عليه السلام لتقدم ذكره خامسها عوده على الرجوع المفهوم من قوله الى ربكم ترجعون أى لا تكن فى مرية من لقاء الرجوع سادسها أنه يعود على ما يفهم من سياق الكلام مما ابتلى به موسى من الابتلاء والامتحان قاله الحسن أى لا بد أن تلقى ما لقى موسى من قومه واختار موسى عليه السلام لحكمة وهى أن أحدا من الانبياء لم يؤذه من قومه الا الذين لم يؤمنوا وأما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قوم موسى عليه السلام فان من لم يؤمن به آذاه كفرعون ومن آمن به من بنى

اسرائيل اذ ٠ أيضا بالمخالفة فطلبوا أشياء مثل رؤية الله جهرة وكقولهم اذهب أنت وربك فقاتلا وأظهر هذه الاقوال أن الضمير اما لموسى واما للكتاب واختلف في الضمير أيضا في قوله تعالى (وجعلناه) على قولين أحدهما يرجع الى موسى أي وجعلنا موسى (هدى) أي هاديا (لبني اسرائيل) كما جعلناك هاديا لقومك والثاني أنه يرجع الى الكتاب أي وجعلنا كتاب موسى هاديا كما جعلنا كتابك كذلك (وجعلنا منهم) أي من أنبيائهم وأحبارهم (أئمة يهدون) أي يرفعون البيان ويعملون على حسبه (بأمرنا) أي بما نزلنا فيه من الاوامر كذلك جعلنا من أمتك صحابة يهدون كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة قبل الميم ولهم أيضا ابدالها ياء وحققها الباقون ومد هشام بين الهمزتين بخلاف عنه وقوله تعالى (لما صبروا) قرأ حمزة والكسائي بكسر اللام وتخفيف الميم أي بسبب صبرهم على دينهم وعلى البلاء من عدوهم ولاجله وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد الميم أي حين صبرهم على ذلك وان كان الصبر أيضا انما هو بتوفيق الله تعالى (وكانوا بآياتنا) الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا لما لها من العظمة (يوقنون) أي لا يرتابون في شئ منها ولا يعدلون فعل الشاك فيها بالاعراض * ولما أفهم قوله تعالى منهم انه كان منهم من يضل عن أمر الله قال الله تعالى (ان ربك) أي المحسن اليك بارسالك ليعظم ثوابك (هو) أي وحده (يفصل بينهم) أي بين الهادين والمهديين والضالين والمضلين (يوم القيامة) بالقضاء الحق (فيما كانوا فيه يختلفون) أي من أمر الدين لا يخفى عليه شئ منه وأما غير ما اختلفوا فيه فالحكم فيه لهم أو عليهم وما اختلفوا فيه لا على وجه القصد فيقع في محل العفو * ولما أعاد ذكر الرسالة أعاد ذكر التوحيد بقوله تعالى (أولم يهد) أي يبين كما رواه البخاري عن ابن عباس (لهم كم أهلكنا) أي كثرة من أهلكنا (من قبلهم من القرون) الماضين من المعرضين عن الآيات ونجينا من آمن بها وقوله تعالى (يمشون) حال من ضميرلهم (في مساكنهم) أي في أسفارهم الى الشأم وغيرها كمساكن عاد وثمود وقوم لوط فيعتبروا (ان في ذلك) أي الامر العظيم (لآيات) أي دلالات على قدرتنا (أفلا يسمعون) سماع تدبر واتعاظ فيتعظوا بها (أولم) أي أيقولون في انكار البعث أئذا ضللنا في الارض ولم (يروا أنا) بما لنا من العظمة (نسوق الماء) أي من السماء أو الارض (الى الارض الجرز) أي التي جرز نباتها أي قطع باليبس والتهشم أو بأيدي الناس فصارت ملساء لا نبات فيها وفي البخاري عن ابن عباس انها التي لا تمطر الامطار الا يغني عنها شيأ ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جرز ويدل عليه قوله تعالى (فنخرج به) من أعماق الارض بذلك الماء (زرعا) أي نبتا لا ساق له باختلاط الماء بالتراب وقيل الجرز اسم موضع باليمن (تأكل منه أنعامهم) أي من حبه وورقه وتبنه وحشيشه (وأنفسهم) أي من الحبوب والاقوات وقدم الانعام لوقوع الامتنان بها لان بها اقواتهم في معايشهم وأبدانهم ولان الزرع غذاء للدواب لابد منه وأما غذاء الانسان فقد يصلح للحيوان فكان الحيوان يأكل الزرع ثم الانسان يأكل من الحيوان (فان قيل)

فى سورة عبس قدم ما للانسان أولا فا لحكمة (أجيب) بأن لسياق فيها الطعام الانسان الذى هو نهاية الزرع حيث قال فلينظر الانسان الى طعامه ثم قال فأنبتنا فيها حبا وذكر من طعامه من العنب وغيره مالا يصلح للانعام فقدمه وهذا السياق لمطلق اخراج الزرع وأول صلاحه انما هو لاكل الانعام ولا يصلح للانسان * ولما كانت هذه الآية مبصرة قال (أفلا يبصرون) هذا فيعلموا أنا نقدر على اعادتهم بخلاف الآية الماضية فانها كانت مسموعة فقال أفلا يسمعون * ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى (ويقولون) أى مع هذا البيان الذى ليس معه خفاء (متى هذا الفتح) أى يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ويوم نصرهم عليهم وقيل هو يوم بدر وعن مجاهد والحسن يوم فتح مكة (ان كنتم صادقين) أى عريقين فى الصدق بالاخبار بأنه لابد من وقوعه حتى نؤمن اذا رأيناه قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهؤلاء الجهلة (يوم الفتح) أى الذى تستهزؤن به وهو يوم القيامة (لا ينفع الذين كفروا) أى غطوا آيات ربهم التى لا خفاء بها سواء فى ذلك أنتم وغيركم ممن اتصف بهذا الوصف (ايمانهم) لانه ليس ايمانا بالغيب (ولا هم ينظرون) أى يمهلون فى ايقاع العذاب بهم لحظة ما من منتظر ما (فان قيل) قد سألوا عن وقت الفتح فكيف ينطبق هذا الكلام جوابا عن سؤالهم (أجيب) بأنه كان غرضهم فى السؤال عن وقت الفتح استعجالا منهم على وجه التكذيب والاستهزاء فأجيبوا على حسب ما علم من غرضهم فى سؤالهم فقيل لهم لا تستعجلوا بعد ولا تستهزؤا فكأنى بكم وقد حصلتم فى ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الايمان واستنظرتم فى ادراك العذاب فلم تنظروا (فان قيل) من فسره بيوم الفتح أو بيوم بدر كيف يستقيم على تفسيره ان لا ينفعهم الايمان وقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة وناسا يوم بدر (أجيب) بأن المراد أن المقتولين منهم لا ينفعهم ايمانهم فى حال القتل كما لم ينفع فرعون ايمانه حال ادراك الغرق وقوله تعالى (فأعرض عنهم) أى لا تبال بتكذيبهم (وانتظر) أى انزال العذاب بهم (انهم منتظرون) أى بك حادث موت أو قتل فيستريحون منك كان ذلك قبل الامر بقتالهم وقيل انتظر عذابهم يقينا انهم منتظرونه بلفظهم استهزاء كما قالوا فأتنا بما تعدنا وعن أبى هريرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الفجر يوم الجمعة الم تنزيل أى فى الركعة الاولى وهل أتى على الانسان أى فى الركعة الثانية وعن جابر قال كان النبى صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ تبارك والم تنزيل ويقول هما يفضلان على كل سورة فى القرآن بسبعين حسنة ومن قرأهما كتب له سبعون حسنة ورفع له سبعون درجة وعن أبى بن كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الم تنزيل أعطى من الاجر كمن أحيا ليلة القدر وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عنه صلى الله عليه وسلم من قرأ الم تنزيل فى بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام قال شيخنا ابن حجر لم أجده والله تعالى أعلم بالصواب

﴿ سورة الاحزاب مدنية ﴾

وهي ثلاث وسبعون آية وألف ومائتان وثمانون كلمة وخمسة آلاف وتسعمائة وتسعون حرفا وعن أبي ذر قال قال أبي بن كعب كم تعدون سورة الاحزاب قال ثلاثا وسبعين آية قال والذي يحلف به أبي بن كعب ان كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ولقد قرأنا منها آية الرجم الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم أراد أبي أن ذلك من جملة مانسخ من القرآن وأما ما حكى ان تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة فأكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض (بسم الله) الذي مهما أراد كان (الرحمن) الذي شملت رحمته كل موجود بالكرم والجود (الرحيم) لمن توكل عليه بالعطف عليه * ونزل في أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وأبي الاعور عمرو بن سفيان السلمي لما قدموا المدينة ونزلوا على عبد الله بن أبي رأس المنافقين بعد قتال أحد وقد أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم الامان على أن يكلموه فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وطعمة بن ابيرق فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل ان لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك فشق على النبي صلى الله عليه وسلم قولهم فقال عمر يارسول الله ائذن لي في قتلهم فقال اني قد أعطيتهم الامان فقال عمر اخرجوا في لعنة الله وغضبه وأمر النبي صلى الله عليه وسلم عمر أن يخرجهم من المدينة (يا أيها النبي اتق الله) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال ان أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي صلى الله عليه وسلم الى أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم وخوفه المنافقون من اليهود بالمدينة ان لم يرجع قتلوه فأنزل الله تعالى يا أيها النبي اتق الله أي دم على التقوى كما يقول الرجل لغيره وهو قائم قم قائما أي اثبت قائما فسقط بذلك ما يقال الامر بالشئ لا يكون الا عند اشتغال المأمور بغير المأمور به اذ لا يصح أن يقال للجالس اجلس وللساكت اسكت والنبي صلى الله عليه وسلم كان متقيا لان الامر بالمداومة يصح في ذلك فيقال للجالس اجلس هنا حتى آتيك ويقال للساكت قد أحسنت فاسكت تسلم أي دم على ما أنت عليه وأيضا من جهة العقل ان الملك يتقي منه عادة على ثلاثة أوجه بعضهم يخاف من عقابه وبعضهم يخاف من قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجابه فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بالتقوى بالاول ولا بالثاني وأما الثالث فالمخلص لا يأمنه مادام في الدنيا فكيف والامور البدنية شاغلة فالآدمي في الدنيا تارة مع الله والاخرى مقبل على مالابد منه وان كان معه الله ولهذا أشار بقوله عليه الصلاة والسلام انما أنا بشر مثلكم يوحى الي يعني برفع الحجاب عني وقت الوحي ثم أعود اليكم كأني منكم فأمر بتقوى توجب ادامة الحضور وقال الضحاك معناه اتق الله ولا تنقض الذي بينك وبينهم وقيل الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد الامة * (تنبيه) * جعل الله تعالى نداء نبيه صلى الله عليه وسلم بالنبي والرسول في قوله تعالى يا أيها النبي اتق الله يا أيها النبي لم تحرم يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك وترك نداءه باسمه كما قال تعالى يا آدم ياموسى ياعيسى ياداود كرامة وتشريفا وتنويها بفضله (فان قيل) ان لم يوقع اسمه في النداء فقد أوقعه في الاخبار في قوله تعالى محمد رسول الله

وما خص الرسول (أجيب) بأن ذلك لتعليم الناس أنه رسول الله وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به فلا تفاوت بين النداء والاخبار ألا ترى الى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الاخبار كيف ذكره بنحو ما ذكر في النداء لقد جاءكم رسول من أنفسكم وقال الرسول يارب لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة والله ورسوله أحق أن يرضوه النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي ان الله وملائكته يصلون على النبي وقرأ نافع النبيء بالهمز والباقون بغير همز * ولما وجه اليه صلى الله عليه وسلم الامر بخشية الولي الودود أتبعه النهي عن الالتفات نحو العدو الحسود بقوله تعالى (ولا تطع الكافرين والمنافقين) في شيء من الاشياء لم يتقدم اليك من الخالق فيه أمر وان لاح لأمر خوف أو برق رجاء فجانبهم واحترس منهم فانهم أعداء الله تعالى وأعداء المؤمنين لا يريدون الا المضارة والمناداة قال أبو حيان سبب نزولها أنه روى انه صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كان يحب اسلام اليهود فتابعه ناس على النفاق وكان يلين لهم جانبه وكانوا يظهرون النصائح من طريق المخادعة فنزلت تحذيرا له منهم وتنبيها على عداوتهم انتهى وبهذا سقط ما قيل لم خص الكافر والمنافق بالذكر ولان ذكر غيرهما لا حاجة اليه لانه لا يكون عنده الاطماع ولان كل من طلب من النبي صلى الله عليه وسلم طاعته فهو كافر أو منافق لان من يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأمر ايجاب معتقدا أنه ان لم يفعله يعاقبه بحق يكون كافرا وقرأ أبو عمرو والدوري عن الكسائي الكافرين بالامالة محضة وورش بين بين والباقون بالفتح * ثم علل تعالى الامر والنهي بما يزيل الهموم ويوجب الاقبال عليهما واللزوم بقوله تعالى (ان الله) أي بعظيم كماله (كان) ازلا وأبدا (عليما) أي شامل العلم (حكيما) أي بالغ الحكمة فهو تعالى لم يأمرك بأمر الا وقد علم ما يترتب عليه وأحكم اصلاح الحال فيه * ولما كان ذلك مفهما لمخالفة كل ما يدعو اليه كافر وكان الكافر ربما دعا الى شيء من مكارم الاخلاق قيده بقوله تعالى (واتبع) أي بغاية جهدك (ما يوحى) أي يلقى القاء خفيا كما يفعل المحب مع حبيبه (اليك من ربك) أي المحسن اليك باصلاح جميع أمرك وأتى موضع الضمير بالظاهر ليدل على الاحسان في التربية لتقوى على امتثال ما أمرت به الآية السالفة * ولما أمر باتباع الوحي رغبه فيه بالتعليل بأوضح من التعليل الاول في أن مكرهم خفي بقوله تعالى مذكرا بالاسم الاعظم بجميع ما يدل عليه من الاسماء الحسنى زيادة في التقوى على الامتثال مؤكدا للترغيب (ان الله) أي بعظمته وكماله (كان) ازلا وأبدا (بما يعملون) أي الفريقان من المكايد وان دق (خبيرا) أي فلا تهتم بشأنهم فانه سبحانه كافيكه وان تعاظم وقرأ أبو عمرو بما يعملون خبيرا وبما يعملون بصيرا بالياء على الغيبة على ان الواو ضمير الكفرة والمنافقين والباقون بالتاء على الخطاب فيهما * ولما كان الآدمي موضع الحاجة قال تعالى (وتوكل) أي دع الاعتماد على التدبير في أمورك واعتمد فيها (على الله) أي المحيط علما وقدرة فانه يكفيك في جميع أمورك (وكفى بالله) أي الذي له الامر كله على الاطلاق (وكيلا) اي موكولا اليه الامور كلها فلا تلتفت في شيء من أمرك الى غيره لانه ليس لك قلبان تصرف كل

واحد

واحد منهما الى واحد كما قال تعالى (ما جعل الله) أى الذى له الحكمة البالغة والعظمة الباهرة (لرجل) أى لاحد من بنى آدم ولا غيره وعبر بالرجل لانه أقوى جسما وفهما فيفهم غيره من باب أولى وأشار الى التأكيد بقوله تعالى (من قلبين) وأكد الحقيقة وقررها وجلاها وصورها بقوله تعالى (فى جوفه) أى ما جمع الله تعالى قلبين فى جوف لان القلب معدن الروح الحيوانى المتعلق للنفس الانسانى أولا ومنبع القوى بأسرها ومدبر البدن باذن الله تعالى وذلك يمنع التعدد (وما جعل أزواجكم اللائى) أباح لكم التمتع بهن (تظاهرون منهن) كما يقول الانسان للواحدة منهن أنت على كظهر أمى (أمهاتكم) بما حرم عليكم من الاستمتاع بهن حتى تجعلوا ذلك على التأبيد وترتبوا على ذلك أحكام الامهات كلها (وما جعل أدعياءكم) جمع دعى وهو من يدعى لغير أبيه (أبناءكم) حقيقة ليجعل لهم ارثكم ويحرم عليكم حلائلهم وغير ذلك من أحكام الابناء والمعنى ان الله سبحانه وتعالى كما لم ير فى حكمته أن يجعل للانسان قلبين لانه لا يخلو أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب فأحدهما فضلة غير محتاج اليها واما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك فذلك يؤدى الى اتصاف الجملة بكونه مريدا كارها عالما ظانا موقنا شاكا فى حالة واحدة لم ير أيضا ان تكون المرأة الواحدة أما لرجل زوجا له لان الام مخدومة مخفوض لها الجناح والمرأة مستخدمة متصرف فيها بالاستفراش وغيره كالمملوكة وهما حالتان متنافيتان ولم ير أيضا أن يكون الرجل الواحد دعيا لرجل وابنا له لان البنوة اصالة فى النسب وعراقة فيه والدعوة الصاق عارض بالتسمية لا غير ولا يجتمع فى الشئ الواحد أن يكون أصيلا غير أصيل وهذا مثل ضربه الله تعالى فى زيد بن حارثة وهو رجل من كلب سبى صغيرا وكانت العرب فى جاهليتها يتغاورون ويتسابون فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة فلما تزوجها النبى صلى الله عليه وسلم وهبته له وطلبه أبوه وعمه فخير فاختار النبى صلى الله عليه وسلم فقال له أبوه وعمه يا زيد أتختار العبودية على الربوبية قال ما أنا بمفارق هذا الرجل فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حرصه عليه أعتقه وتبناه قبل الوحى وآخى بينه وبين حمزة بن عبد المطلب فلما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة قال المنافقون تزوج امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك فانزل الله تعالى هذه الآية فيه وكذا قوله تعالى ما كان محمد أبا أحد من رجالكم وروى ان رجلا كان يسمى أبا معمر حميد بن معمر الفهرى وكان رجلا لبيبا حافظا لما يسمع فقالت قريش ما حفظ أبو معمر هذه الاشياء الا وله قلبان وكان يقول لى قلبان أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد فلما هزم الله تعالى المشركين يوم بدر انهزم أبو معمر فيهم فلقيه أبو سفيان وهو معلق احدى نعليه بيده والاخرى فى رجله فقال له ما فعل الناس فقال له بين مقتول وهارب فقال له فما بال احدى نعليك فى رجلك والاخرى فى يدك فقال ما ظننت الا أنهما فى رجلى فأكذب الله تعالى قوله وقولهم وضرب به مثلا فى الظهار والتبنى وعن ابن عباس كان المنافقون يقولون لمحمد قلبان فأكذبهم

الله تعالى وقيل سها فى صلاته فقالت اليهود له قلبان قلب مع أصحابه وقلب معكم وعن الحسن نزلت فى أن الواحد يقول لى نفسان نفس تأمرنى ونفس تنهانى (فان قيل) ما وجه تعدية الظهار واخواته بمن (أجيب) بأن الظهار كان طلاقا فى الجاهلية فكانوا يتجنبون المرأة المظاهر منها كما يتجنبون المطلقة فكان قولهم تظاهر منها تباعد منها جهة الظهار فلما تضمن معنى التباعد منها عدى بمن (فان قيل) ما معنى قولهم أنت على كظهر أمى (أجيب) بانهم ارادوا ان يقولوا أنت على حرام كبطن أمى فكنوا عن البطن بالظهر لئلا يذكروا البطن الذى ذكره يقارب ذكر الفرج لانه عمود البطن ومنه حديث عمر يجىء به أحدهم على عمود بطنه أراد على ظهره ووجه آخر وهو ان اتيان المرأة وظهرها الى السماء كان محرما عندهم محظورا وكان أهل المدينة يقولون اذا أتيت المرأة ووجهها الى الارض جاء الولد أحول فلقصد المطلق منهم الى التغليظ فى تحريم امرأته عليه شبهها بالظهر ثم لم يقنع بذلك حتى جعله كظهر أمه وهو منكر وزور وفيه كفارة كما سيأتى ان شاء الله تعالى فى سورة المجادلة وقرأ ابن عامر والكوفيون اللائى بالهمزة المكسورة والياء بعدها فى الوصل وسهل الياء كالهمزة ورش والبزى وأبو عمرو مع المد والقصر وعن أبى عمرو والبزى أيضا ابدال الهاء ياء ساكنة مع المد لا غير وقالون وقنبل بالهمز ولا ياء بعدها وقرأ تظهرون عاصم بضم التاء وتخفيف الظاء وألف بعدها وكسر الهاء مخففة وقرأ حمزة والكسائى بفتح التاء والظاء مخففتين وألف بعد الظاء وفتح الهاء مخففة وابن عامر كذلك الا أنه يشدد الظاء والباقون بفتح التاء والظاء والهاء مع تشديد الظاء والهاء ولا ألف بعد الظاء وقوله تعالى (ذلكم) اشارة الى كل ماذكر او الى الاخير (قولكم بأفواهكم) أى مجرد قول لسان من غير حقيقة كالهذيان (والله) أى المحيط علما وقدرة وله جميع صفات الكمال (يقول الحق) أى ماله حقيقة الثابت الذى يوافق ظاهره باطنه فلا قدرة لاحد على نقضه فان أخبر عن شئ فهو كما قال (وهو) أى وحده (يهدى السبيل) أى يرشد الى سبيل الحق * ولما كان كأنه قيل فما نقول اهدنا الى سبيل الحق قال تعالى (ادعوهم) أى الادعياء (لآبائهم) أى الذين ولدوهم ان علموا ولذا قال زيد بن حارثة قال صلى الله عليه وسلم من دعى الى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام وأخرجه الشيخان عن سعد بن أبى وقاص ثم علل تعالى ذلك بقوله تعالى (هو) أى هذا الدعاء (أقسط) أى أقرب الى العدل من التبنى وان كان انما هو لمزيد الشفقة على المتبنى والاحسان اليه (عند الله) أى الجامع لصفات الكمال وعن ابن عمر ان زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه الا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ادعوهم لآبائهم الآية وقيل كان الرجل فى الجاهلية اذا أعجبه جلد الرجل وظرفه ضمه الى نفسه وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه وكان ينسب اليه فيقال فلان ابن فلان أما اذا جهلوا فهو ماذكر بقوله تعالى (فان لم تعلموا آباءهم) لجهل أصلى أو طارئ (فاخوانكم) أى فهم اخوانكم (فى الدين) ان كانوا دخلوا فى دينكم أى قولوا لهم اخواننا (ومواليكم) ان كانوا محررين أى قولوا مولى فلان وعن مقاتل ان لم تعلموا لهم أبا فانسبوهم

اخوانكم

اخوانكم فى الدين أى أن تقول عبد الله وعبد الرحمن وعبيد الله وأشباههم من الاسماء وأن يدعى الى اسم مولاه وقيل موالىكم أولياؤكم فى الدين * ولما كان عادتهم الخوف مما سبق من أحوالهم على النهى لشدة ورعهم أخبرهم انه تعالى أسقط عنهم ذلك لكونه خطأ وساقه على وجه يعم ما بعد النهى أيضا بقوله تعالى (وليس عليكم جناح) أى اثم وميل واعوجاج وعبر بالظرف ليفيد ان الخطأ لا اثم فيه بوجه ولو عبر بالباء لظن ان فيه اثما ولكن يعفى عنه فقال تعالى (فيما أخطأتم به) أى من الدعاء بالبنوة والمظاهرة أو فى شئ قبل النهى أو بعده ودل قوله تعالى (ولكن ما) أى الاثم فيما (تعمدت قلوبكم) على زوال الحرج أيضا فيما وقع بعد النهى على سبيل النسيان أو سبق اللسان ودل تأنيث الفعل على انه لا يتعمد بعد البيان الشافى الا قلب فيه رخاوة الانوثة ودل جمع الكثرة على عموم الاثم ان لم ينته المتعمد *(تنبيه)* يجوز فى ماهذه وجهان أحدهما ان تكون مجرورة المحل عطفا على ما المجرورة قبلها بفى والتقدير ولكن الجناح فيما تعمدت كما مرت الاشارة اليه والثانى أنها مرفوعة المحل بالابتداء والخبر محذوف تقديره تؤاخذون به أو عليكم فيه الجناح ونحوه ولما كان هذا الكرم خاصا بما تقدم عم سبحانه وتعالى بقوله (وكان الله) أزلا وأبدا (غفورا) أى من صفته الستر البليغ على المذنب التائب (رحيما) به ولما نهى تعالى عن التبنى وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد تبنى زيد بن حارثة مولاه لما اختاره على أبيه وعمه كما مر علل تعالى النهى فيه بالخصوص بقوله تعالى دالا على ان الامر أعظم من ذلك (النبى) اى الذى ينبئه الله تعالى بدقائق الاحوال فى بدائع الاقوال ويرفعه دائما فى مراقى الكمال ولا يريد ان يشغله بولد ولا مال (أولى بالمؤمنين) أى الراسخين فى الايمان فغيرهم أولى فى كل شئ من أمور الدين والدنيا لما حازه من الحضرة الربانية (من أنفسهم) فضلا عن آبائهم فى نفوذ حكمه فيهم ووجوب طاعته عليهم روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال مامن مؤمن الا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة اقرؤا ان شئتم النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم فأى مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا فان ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه وعن جابر انه صلى الله عليه وسلم كان يقول أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فأيما رجل مات وترك دينا فالى ومن ترك مالا فهو لورثته وعن أبى هريرة قال كان المؤمن اذا توفى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل هل عليه دين فان قالوا نعم قال هل ترك وفاء لدينه فان قالوا نعم صلى عليه وان قالوا لا قال صلوا على صاحبكم وانما لم يصل عليه صلى الله عليه وسلم أولا فيما اذا لم يترك وفاء لان شفاعته صلى الله عليه وسلم لا ترد وقد ورد ان نفس المؤمن محبوسة عن مقامها الكريم مالم يوف دينه وهو محمول على من قصر فى وفائه فى حال حياته امامن لم يقصر لفقره مثلا فلا كما أوضحت ذلك فى شرح المنهاج فى باب الرهن وانما كان صلى الله عليه وسلم أولى بهم من أنفسهم لانه لا يدعوهم الا الى العقل والحكمة ولا يأمرهم الا بما ينجيهم وأنفسهم انما تدعوهم الى الهوى والفتنة فتأمرهم بما يرديهم فهو يتصرف فيهم تصرف الآباء بل أعظم بهذا السبب الربانى فأى حاجة الى السبب الجسمانى

(وأزواجه أمهاتهم) أى المؤمنين أى مثلهن فى تحريم نكاحهن ووجوب احترامهن وطاعتهن اكراما له صلى الله عليه وسلم لا فى حكم الخلوة والنظر والظهار والمسافرة والنفقة والميراث وهو صلى الله عليه وسلم أب للرجال والنساء وأما قوله تعالى ما كان محمد أبا أحد من رجالكم فمعناه ليس أحد من رجالكم ولد صلبه وسيأتى ذلك ويحرم سؤالهن الا من وراء حجاب وسيأتى ما يتعلق بذلك ان شاء الله تعالى فى محله وروى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بغلام وهو يقرأ فى المصحف النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم فقال يا غلام حكها فقال هذا مصحف أبى فذهب اليه فسأله فقال انه كان يلهينى القرآن ويلهيك الصفق بالاسواق ومعنى ذلك ان هذا كان يقرأ أولا ونسخ لما روى عن عكرمة انه قال كان فى الحرف الاول النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبوهم وعن الحسن قال فى القراءة الاولى النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وقوله تعالى (وأولوا الارحام) أى القرابات بأنواع النسب من البنوة وغيرها (بعضهم أولى) بحق القرابة (ببعض) أى فى التوارث ثم نسخ لما كان فى صدر الاسلام فانهم كانوا فيه يتوارثون بالحلف والنصرة فيقول ذمتى ذمتك ترثنى وأرثك ثم نسخ بالاسلام والهجرة ثم نسخ بآية المواريث وبالاية التى فى آخر الانفال وأعادها تأكيدا فان آية المواريث مقدمة ترتيبا ونزولا على آية الانفال وآية الانفال على هذه كذلك وقوله تعالى (فى كتاب الله) يحتمل ان ذلك فى اللوح المحفوظ أو فيما أنزل وهو هذه الآيات المذكورة أو فيما فرض الله ولما بين انهم أولى بسبب القرابة بين المفضل عليه بقوله تعالى (من) أى هم أولى بسبب القرابة من (المؤمنين) الانصار من غير قرابة مرجحة (والمهاجرين) أى ومن المهاجرين من المؤمنين من غير قرابة كذلك وقوله تعالى (الا أن تفعلوا) استثناء منقطع كما جرى عليه الجلال المحلى أى لكن أن تفعلوا (الى أوليائكم معروفا) بوصية فجائز ويجوز أن يكون استثناء من أعم العام كما قاله الزمخشرى فى معنى النفع والاحسان كما تقول القريب أولى من الاجنبى الا فى الوصية تريد انه أحق منه فى كل نفع من ميراث وهبة وهدية وصدقة وغير ذلك الا فى الوصية والمراد بفعل المعروف التوصية لانه لا وصية لوارث وعدى تفعلوا بالى لانه فى معنى تسدوا والمراد بالاولياء المؤمنون والمهاجرون للولاية فى الدين (كان ذلك) أى ما ذكر من آيتى ادعوهم والنبى أولى وقيل أول ما نسخ من الآيات الارث بالايمان والهجرة ثابتا (فى الكتاب) أى اللوح المحفوظ والقرآن (مسطورا) قال الاصبهانى وقيل فى التوراة قال البقاعى لان فى التوراة اذا نزل رجل بقوم من أهل دينه فعليهم أن يكرموه ويواسوه وميراثه لذوى قرابته فالآية من الاحتباك أثبت وصف الايمان أولا دليلا على حذفه ثانيا ووصف الهجرة ثانيا دليلا على حذف النصرة أولا (واذ) أى واذكر حين (أخذنا) بعظمتنا (من النبيين ميثاقهم) أى عهودهم فى تبليغ الرسالة والدعاء الى الدين القيم فى المنشط والمكره وفى تصديق بعضهم لبعض وفى اتباعك فيما أخبرنا به فى قولنا لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه وقولهم أقررنا * ولما ذكر ما أخذ على جميع الانبياء من

العهد فى ابلاغ ما يوحى اليهم والعمل بمقتضاه ذكر ما أخذ عليهم من العهد فى التبليغ بقوله تعالى
(ومنك) أى فى قولنا فى هذه السورة اتق الله واتبع ما يوحى اليك وفى المائدة يا أيها الرسول
بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس فلا تهتم بمراعاة
عدو ولا خليل حقير ولا جليل * ولما أتم المراد بها الاوعم وما وخصه صلى الله عليه وسلم من
ذلك العموم مبتدئا به لقوله صلى الله عليه وسلم كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث
بيانا لتشريفه ولانه المقصود بالذات اتبعه بقية أولى العزم الذين هم أصحاب الكتب ومشاهير
أرباب الشرائع ورتبهم على ترتيبهم فى الزمان لانه لم يقصد المفاضلة بينهم بالتأسية بالمتقدمين
والمتأخرين قال (ومن نوح) أول الرسل الى المخالفين (وابراهيم) أبى الانبياء (وموسى) أول
أصحاب الكتب من بنى اسرائيل (وعيسى بن مريم) ختام أنبياء بنى اسرائيل ونسبه الى أمه
مناداة على من ضل فيه بدعوى الالوهية وبالتوبيخ والتسجيل بالفضيحة *(تنبيه)* ذكر هذه
الخمسة من عطف الخاص على العام كما علم مما تقرر وقوله تعالى (وأخذنا) أى بعظمتنا فى ذلك
(منهم ميثاقا غليظا) أى شديدا بالوفاء بما حملوه وهو الميثاق الاول واعاكرر لزيادة وصفه بالغلظ
وهو استعارة من وصف الاجرام والمراد عظم الميثاق وجلالة شأنه فى بابه وقيل الميثاق
الغليظ اليمين بالله على الوفاء بما حملوه ثم أخذ الميثاق (ليسأل) أى الله تعالى يوم القيامة
(الصادقين) أى الانبياء الذين صدقوا عهدهم (عن صدقهم) أى عما قالوه لقومهم تبكيتا
للكافرين بهم وقيل ليسأل المصدقين للانبياء عن تصديقهم لان من قال للصادق صدقت كان
صادقا فى قوله وقيل ليسأل الانبياء ما الذى اجابتهم به أممهم وقيل ليسأل الصادقين بأفواههم
عن صدقهم بقلوبهم وقوله تعالى (وأعد للكافرين عذابا أليما) أى مؤلما معطوف على أخذنا
من النبيين لان المعنى ان الله تعالى أكد على الانبياء الدعوة الى دينه لاجل اثابة المؤمنين وأعد
للكافرين عذابا أليما ويجوز أن يعطف على ما دل عليه ليسأل الصادقين كأنه قال أثاب المؤمنين
وأعد للكافرين وقيل انه قد حذف من الثانى ما أثبت مقابله فى الاول ومن الاول ما أثبت
مقابله فى الثانى والتقدير ليسأل الصادقين عن صدقهم فأثابهم ويسأل الكافرين عما كذبوا به
رسلهم وأعد لهم عذابا أليما ثم حقق الله تعالى ما سبق لهم من الامر بتقوى الله تعالى بحيث
لا يبقى معه الخوف من أحد بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا) ورغبهم فى الشكر بذكر
الاحسان والتصريح بالاسم الاعظم بقوله تعالى (نعمة الله) أى الملك الاعلى الذى لا كفء له
(عليكم) أى لتشكروه عليها بالنفوذ لامره وعبر بالنعمة لانها المقصودة بالذات والمراد انعامه
يوم الاحزاب وهو يوم الخندق ثم ذكر وقت تلك النعمة زيادة فى تصويرها اليذكراهم ما كان فيه
منها بقوله تعالى (اذ) أى حين (جاءتكم جنود) أى الاحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة
والنضير وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بالاظهار والباقون بالادغام (فأرسلنا) أى
تسبب عن ذلك انا لما رأينا عجزكم عن مقابلتهم وبنا ومتهم أرسلنا (عليهم ريحا) وهى ريح الصبا
قال عكرمة قالت الجنوب للشمال ليلة الاحزاب انطلق بنصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقالت الشمال ان الحرة لا تسرى بالليل فكانت الريح التى أرسلت لهم الصبا لما روى ابن عباس رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور ولان الصبا ريح فيها روح ما هبت على محزون الا زال حزنه (وجنودا) أى وأرسلنا جنودا من الملائكة (لم تروها) وكانوا ألفا ولم تقاتل يومئذ فبعث الله عليهم تلك الليلة ريحا باردة فقلعت الاوتاد وقطعت أطناب الفساطيط وأطفأت النيران وأكفأت القدور وجالت الخيل بعضها على بعض وكثر تكبير الملائكة فى جوانب عسكرهم حتى كان سيد كل حى يقول يا بنى فلان هلم الى واذا اجتمعوا عنده قالوا النجاء النجاء فانهزموا من غير قتال لما بعث الله تعالى عليهم من الرعب (وكان الله) أى الذى له جميع صفات الجلال والجمال (بما يعملون) أى الاحزاب من التحزب والتجمع والمكر وغير ذلك (بصيرا) أى بالغ الابصار والعلم *(تنبيه)* قال البخارى قال موسى بن عقبة كانت غزوة الخندق وهى الاحزاب فى شوال سنة أربع روى محمد بن اسحق عن مشايخه قال دخل حديث بعضهم فى بعض ان نفرا من اليهود منهم سلام ابن أبى الحقيق وحيى بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وهودة بن قيس وأبو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل وهم الذين حزبوا الاحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا انا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت لهم قريش يا معشر يهود انكم أهل الكتاب الاول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد فديننا خير أم دينه قالوا دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فهم الذين قال الله تعالى فيهم ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت الى قوله تعالى وكفى بجهنم سعيرا فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما قالوا ونشطوا لما دعوهم اليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجمعوا على ذلك ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤا غطفان فدعوهم الى ذلك وأخبروهم انهم سيكونون معهم عليه وان قريشا قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جمعوا له من الامر ضرب الخندق على المدينة وكان الذى اشار به على النبى صلى الله عليه وسلم سلمان الفارسى رضى الله عنه وكان أول مشهد شهده سلمان رضى الله عنه مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ حر فقال يا رسول الله انا كنا بفارس اذا حوصرنا خندقنا علينا فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى أكملوه وأحكموه قال أنس رضى الله عنه خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخندق فاذا المهاجرون فى غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم فلما رأى ما بهم من النصب والجزع قال

اللهم ان العيش عيش الآخرة * فاغفر للانصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له

نحن الذين بايعوا محمدا * على الجهاد ما بقينا أبدا

قال البراء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبر بطنه وهو يقول

والله لولا الله ما اهتدينا * ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا * وثبت الاقدام ان لاقينا
ان الاولى قد بغوا علينا * اذا أرادوا فتنة أبينا

ورفع بها صوته أبينا أبينا فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق أقبلت قريش في عشرة آلاف من الاحابيش وبنى كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان حتى نزلت بمجمع الاسيال من رومة بين الجرف والغابة وأقبلت غطفان في ألف ومن تابعهم من أهل نجد وقائدهم عيينة بن حصن وعامر بن الطفيل من هوازن وانضافت لهم اليهود من قريظة والنضير حتى نزلوا الى جانب أحد وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم الى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذرارى والنساء فرفعوا الى الآطام ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم الا الترامى بالنبل والحجارة وكان بنو غطفان من أعلى الوادى من قبل المشرق وقريش من أسفل الوادى من قبل المغرب كما قال تعالى (اذ جاؤكم) وهو بدل من اذ جاءتكم (من فوقكم) أى من أعلى الوادى (ومن أسفل منكم) أى من أسفل الوادى (واذ) أى واذكر حين (زاغت الابصار) أى مالت عن سداد القصد فعل الواله الجزع بما حصل لهم من الغفلة الحاصلة من الرعب وقوله تعالى (وبلغت القلوب الحناجر) جمع حنجرة وهى منتهى الحلقوم كناية عن شدة الرعب والخفقان قال البقاعى ويجوز وهو الاقرب ان يكون ذلك حقيقة بجذب الطحال والرئة لها عند ذلك بانتفاخهما الى أعلى الصدر ولهذا يقال للجبان انتفخ سحره أى رئته فلما اشتد البلاء على الناس بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عيينة بن حصن والى الحرث بن عمرو وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على ان يرجعا بمن معهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة واستشارهما فيه فقالا يا رسول الله أشئ أنزل الله تعالى به لابد لنا من عمل به أم أمر تحبه فتصنعه أم شئ تصنعه لنا قال لا والله بل لكم والله ما أصنع ذلك الا لانى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحد وكالبوكم من كل جانب فأردت ان أكسر عنكم شوكتهم فقال له سعد بن معاذ يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الاوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة الا قرى أو بيعا أفحين أكرمنا الله تعالى بالاسلام وأعزنا الله تعالى بك نعطيهم أموالنا ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم فقال صلى الله عليه وسلم أنت وذلك فتناول سعد رضى الله تعالى عنه الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة ثم قال ليجهدوا علينا فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدوهم محاصرهم ولم يكن بينهم قتال الا فوارس من قريش عمرو بن عبد ود أخو بنى عامر بن لؤى وعكرمة بن أبى جهل وهبيرة بن أبى وهب المخزوميان ونوفل بن عبد الله وضرار بن

قوله ان الاولى قد بغوا هكذا فى جميع النسخ وليس بموزون وتحريره ان الذين قد بغوا علينا كما فى شرح المواهب اه

الخطاب ومرداس أخو محارب بن فهر قد تلبسوا للقتال وخرجوا على خيلهم ومروا على بني
كنانة فقالوا تهيؤا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان ثم أقبلوا نحو الخندق حتى
وقفوا عليه فلما رأوه قالوا والله ان هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ثم تيمموا مكانا من
الخندق ضيقا فضربوا خيولهم فاقتحمت فيه فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع وخرج
علي رضي الله تعالى عنه في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموا منها خيلهم
وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم وكان عمرو بن عبد ود قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد
أحدا فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليرى مكانه فلما وقف هو وخيله قال له علي يا عمرو انك كنت
تعاهد الله تعالى لا يدعوك رجل من قريش الى خصلتين الا أخذت منه احداهما قال له أجل قال
له علي فاني أدعوك الى الله تعالى والى رسوله صلى الله عليه وسلم والى الاسلام قال لا حاجة لي
بذلك قال فاني ادعوك الى البراز قال ولم يا ابن اخي فوالله ما أحب أن أقتلك قال علي ولكني
والله أحب أن أقتلك فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره أو ضرب وجهه ثم أقبل
على علي فتنازلا وتجاولا فقتله علي وخرجت خيله مهزومة حتى اقتحمت من الخندق هاربة
وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان أصابه سهم فمات بمكة ونوفل بن عبد الله المخزومي
وكان اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة فقال يا معشر العرب قتلة أحسن
من هذه فنزل اليه علي رضي الله تعالى عنه فقتله فغلب المسلمون على جسده فسألوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعهم جسده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لا حاجة لنا في جسده وثمنه فشأنكم به فخلى بينهم وبينه * ولما نشأ عن هذا تقلب القلوب
وتجدد ذهاب الافكار كل مذهب عبر بالمضارع الدال على دوام التجدد بقوله تعالى (وتظنون
بالله) الذي له صفات الكمال (الظنونا) أي أنواع الظن فظن المخلصون الثبت القلوب ان
الله تعالى منجز وعده في اعلاء دينه أو ممتحنهم فخافوا الزلل وروى أن المسلمين قالوا بلغت
القلوب الحناجر فهل من شيء نقوله فقال صلى الله عليه وسلم قولوا اللهم استر عوراتنا وآمن
روعاتنا وأما الضعاف القلوب والمنافقون فقالوا ما حكى الله عنهم فيما سيأتي وقرأ نافع وابن عامر
الظنونا هنا والرسولا والسبيلا في آخر السورة باثبات الالف في الثلاثة وقفا ووصلا وأبو عمرو
وحمزة بحذف الالف وقفا ووصلا قال الزمخشري وهو القياس والباقون بالالف في الوقف دون
الوصل زادوها في الفاصلة كما زادوها في القافية قال * أقلي اللوم عاذل والعتابا * ورسم الثلاثة
بالالف * ولما كانت الشدة في الحقيقة انما هي للثابت لانه ما عنده الا الهلاك أو النصرة قال
تعالى (هنالك) أي في ذلك الوقت العظيم البعيد الرتبة (ابتلي المؤمنون) اختبروا فظهر المخلص
من المنافق والثابت من المتزلزل (وزلزلوا) أي حركوا وأزعجوا بما يرون من الاهوال
بتظافر الاعداء مع الكثرة وتطاير الاراجيف (زلزالا شديدا) فثبتوا بتثبيت الله تعالى لهم
على عدوهم وعن صفية قالت مر بنا رجل من اليهود فجعل يطوف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة
وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بيننا وبينهم من يدفع عنا ورسول الله

صلى

صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا الينا عنهم اذا أتانا آت
قالت فقلت يا حسان ان هذا اليهودى يطوف بنا كما ترى بالحصن وانى والله ما آمنه أن يدل على
عوراتنا من وراءنا من يهود وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانزل اليه
فاقتله فقال يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا قالت فلما قال
ذلك ولم أر عنده شيأ احتجزت ثم أخذت عمودا ثم نزلت من الحصن اليه فضربته بالعمود حتى
قتلته فلما فرغت منه رجعت الى الحصن فقلت يا حسان انزل اليه فاسلبه فانه لم يمنعنى من سلبه
الا أنه رجل قال مالى بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة لتظاهر عدوهم واتيانهم من فوقهم ومن أسفل
منهم ثم ان نعيم بن مسعود بن عامر بن غطفان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله
انى قد أسلمت وان قومى لم يعلموا باسلامى فمرنى بما شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما
أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ان استطعت فانما الحرب خدعة فخرج نعيم بن مسعود حتى
أتى قريظة وكان لهم نديما فى الجاهلية فقال لهم يا بنى قريظة قد عرفتم ودى اياكم وخاصة ما بينى
وبينكم قالوا صدقت لست عندنا بمتهم فقال لهم ان قريشا وغطفان جاؤا لحرب محمد وقد
ظاهرتموهم عليه وان قريشا وغطفان ليسوا كهيئتكم البلد بلدكم وبه أموالكم وأولادكم
ونساؤكم لا تقدرون على أن تحولوا منه الى غيره وان قريشا وغطفان أموالهم وأبناؤهم
ونساؤهم بغيره ان رأوا نهزة وغنيمة أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم
وبين الرجل والرجل ببلدكم لا طاقة لكم به ان خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا
منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على ان يقاتلوا معكم محمدا صلى الله عليه وسلم
حتى تناجزوه قالوا لقد أشرت برأى ونصح ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لابى سفيان بن حرب
ومن معه من رجال قريش قد عرفتم ودى اياكم وفراقى محمدا وقد بلغنى أمر رأيت أن حقا
على ان أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا على قالوا نفعل قال تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على
ما صنعوا بينهم وبين محمد وقد أرسلوا اليه أن قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك عنا أن نأخذ
من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم
ثم نكون معك على من بقى منهم فأرسل اليهم أن نعم فان بعثت اليكم اليهود يلتمسون رهنا من
رجالكم فلا تدفعوا اليهم رجلا واحدا ثم خرج حتى أتى غطفان فقال يا معشر غطفان أنتم أهلى
وعشيرتى وأحب الناس الى ولا أراكم تتهمونى قالوا صدقت قال فاكتموا على قالوا نفعل
ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم مثل ما حذرهم فلما كانت ليلة السبت فى شوال سنة
خمس وكان مما صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أرسل أبو سفيان ورؤس غطفان الى بنى
قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان فقالوا انا لسنا بدار مقام قد هلك الخف
والحافر فأعدوا للقتال حتى نناجز محمدا صلى الله عليه وسلم ونفرغ مما بيننا وبينه فارسلوا اليهم
ان اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيأ وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا فأصابه مالم يخف

عليكم ولسنا مع ذلك بالذى نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا صلى الله عليه وسلم فانا نخشى ان ضرستكم الحرب واشتدت عليكم أن تسيروا الى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلادنا ولا طاقة لنا بذلك من محمد صلى الله عليه وسلم فلما رجعت اليهم الرسل بالذى قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان تعالى والله ان الذى حدثكم به نعيم ابن مسعود لحق فارسلوا الى بنى قريظة انا والله لا ندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل اليهم بهذا ان الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ما يريد القوم الا أن يقاتلوا فان وجدوا فرصة انتهزوها وان يكن غير ذلك استمروا الى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلادكم فأرسلوا الى قريش وغطفان انا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا فأبوا عليهم وخذل الله تعالى بينهم وبعث الله تعالى عليهم الريح فى ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم فلما انتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اختلف من أمرهم قال من يقوم فيذهب الى هؤلاء القوم فيأتينا بخبرهم أدخله الله تعالى الجنة قال حذيفة فما قام منا رجل ثم صلى رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل ثم التفت الينا فقال مثله فأسكت القوم وما قام منا رجل ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل ثم التفت الينا فقال ألا من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم على أن يكون رفيقى فى الجنة فما قام رجل من شدة الخوف وشدة البرد فلما لم يقم أحد دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا حذيفة فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى فقلت لبيك يارسول الله وقمت حتى أتيته وان جنبىّ ليضطربان فمسح رأسى ووجهى ثم قال ائت هؤلاء القوم حتى تأتينى بخبرهم ولا تحدثنّ شيأ حتى ترجع الىّ ثم قال اللهمّ احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته فأخذت سهمى وشددت علىّ اسلابى ثم انطلقت أمشى نحوهم كانى أمشى فى حمام فذهبت فدخلت فى القوم وقد أرسل الله عليهم ريحا وجنود الله تعالى تفعل فيهم ما تفعل وأبو سفيان قاعد يصطلى فأخذت سهما فوضعته فى كبد قوسى فأردت أن أرميه ولو رميته لاصبته فذكرت قول النبىّ صلى الله عليه وسلم لا تحدثنّ شيأ حتى ترجع فرددت سهمى فى كنانتى فلما رأى أبو سفيان ما تفعل الريح وجنود الله تعالى بهم لا تقرّ لهم قدرا ولا نارا ولا بناء قام فقال يا معشر قريش ليأخذ كل منكم بيد جليسه فلينظر من هو فأخذت بيد جليسى فقلت من أنت قال سبحان الله أما تعرفنى أنا فلان فاذا رجل من هوازن فقال أبو سفيان يا معشر قريش انكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف واخلفنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره وبلغنا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فانى مرتحل ثم قام الى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله الا وهو قائم وسمعت غطفان بما فعلت قريش فاستمروا راجعين الى بلادهم قال فرجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كانى أمشى فى حمام فأتيته وهو قائم يصلى فلما أخبرته الخبر ضحك حتى بدت أنيابه فى سواد الليل قال فلما أخبرته وفرغت قررت وذهب عنى الدفا فأدنانى النبىّ صلى

الله

الله عليه وسلم فأنامني عند رجليه وألقى على طرف ثوبه وألصق صدرى ببطن قدميه فلم أزل نائماحتى أصبحت فقال قم يانومان * ثم ان الله تعالى بين حال غير الثابتين بقوله تعالى (واذ يقول المنافقون) معتب بن قشير وقيل عبد الله ابن أبي وأصحابه (والذين في قلوبهم مرض) أى ضعف اعتقاد (ماوعدنا الله ورسوله الاغرورا) أى باطلا استدرجنا به الى الانسلاخ عما كنا عليه من دين آبائنا والى الثبات على ماصرنا اليه بعد ذلك الانسلاخ بما وعدنا به من ظهور هذا الدين على الدين كله والتمكين فى البلاد حتى حفر الخندق فانه قال انه أبصر بما برق له من ضوء صخرة سلمان مدينة صنعاء من اليمن وقصور كسرى من الحيرة من أرض فارس وقصور الشام من أرض الروم وان تابعيه ليظهرون على ذلك كله وقد صدق الله وعده فى جميع ذلك حتى فى لبس سراقة بن مالك بن جعشم سوار كسرى بن هرمز كما هو مذكور فى دلائل النبوة للبيهقى وكذبوا فى شكهم ففاز المصدقون وخاب الذين هم فى ريبهم يترددون (واذ قالت طائفة منهم) أى من المنافقين وهم أوس بن قيظى وأصحابه (يا أهل يثرب) أى المدينة وقال أبو عبيدة يثرب اسم أرض ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فى ناحية منها وفى بعض الاخبار أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى أن تسمى المدينة يثرب وقال هى طابة كأنه كره تلك اللفظة فعدلوا عن هذا الاسم الذى وسمها به النبى صلى الله عليه وسلم الى الاسم الذى كانت تدعى به قديما مع نهيه عنه واحتمال تجه باشتقاقه من الثرب الذى هو اللوم والتعنيف وقال أهل اللغة يثرب اسم المدينة وقيل اسم البقعة التى فيها المدينة وامتناع صرفها اما للعلمية والوزن أو العلمية والتأنيث وأما يترب بالمثناة وفتح الراء فموضع آخر باليمن قال الشاعر

وعدت وكان الخلف منك سجية * مواعيد عرقوب أخاه بيترب

وقال آخر

وقد وعدتك موعدا لو وفت به * مواعيد عرقوب أخاه بيترب

وقرأ (لامقام) حفص بضم الميم أى لا اقامة (لكم) فى مكان القتال ومصارعة الابطال والباقون بفتحها أى لامكان لكم تنزلون وتقيمون فيه (فارجعوا) الى منازلكم عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وقيل عن القتال الى منازلكم * ولما بين تعالى هؤلاء الذين هتكوا الستر وبنوا ماهم فيه من سفول الامر أتبعهم آخرين تستروا ببعض الستر متمسكين باذيال النفاق خوفا من أهوال الشقاق بقوله تعالى (ويستأذن) أى يجدد كل وقت طلب الاذن لاجل الرجوع الى البيوت والكون مع النساء (فريق منهم) أى طائفة شأنهم الفرقة (النبى) فى الرجوع وقدرأوا ماحواه من علو المقدار بماله من حسن الخلق والخلق وماله من جلالة الشمائل وكرم الخصائل وهم بنو حارثة وبنو سلمة (يقولون) أى فى كل قليل مؤكدين لعلمهم بكذبهم وتكذيب المؤمنين قولهم (ان بيوتنا) أو الجمع الكثرة اشارة الى كثرة أصحابهم من المنافقين (عورة) أى غير حصينة بها خلل كبير يمكن كل من أراد من الاحزاب أن يدخلها يدخلها منه وقيل قصيرة الجدران فاذا ذهبنا اليها حفظناها منهم وكفينا من يأتى الينا من مفسديهم حماية للدين

وذباءن الاهلين وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء والباقون بالكسر ثم أكذبهم الله تعالى بقوله تعالى (وما) أى والحال أنها ما (هى بعورة) فى ذلك الوقت الذى قالوا هذا فيه ولا يريدون بذهابهم حمايتها (ان) أى ما (يريدون) باستئذانهم (الافرارا) من القتال * ولما كانت عنايتهم مشتدة بملازمة دورهم فأظهروا اشتداد العناية بحمايتها زورا بين تعالى ذلك بقوله تعالى (ولو دخلت) أى بيوتهم أو المدينة وأنث الفعل نصا على المراد واشارة الى أن ما ينسب اليهم جدير بالضعف وأتى بأداة الاستعلاء بقوله تعالى (عليهم) اشارة الى أنه دخول غلبة (من أقطارها) أى جوانبها كلها بحيث لا يكون لهم مكان للهرب وحذف الفاعل للاعلام بأن دخول هؤلاء الاحزاب ودخول غيرهم من العساكر سيان فى اقتضاء الحكم المرتب عليه (ثم سئلوا) من أى سائل كان (الفتنة) أى الشرك ومقاتلة المسلمين وقرأ (لأتوها) نافع وابن كثير بقصر الهمزة لجاؤها أو فعلوها والباقون بالمد أى لاعطوها اجابة لسؤال من سألهم (وما تلبثوا بها) اى ما احتبسوا عن الفتنة (الايسيرا) أى لاسرعوا الى الاجابة للشرك طيبة بها نفوسهم فعلم بذلك أنهم لا يقصدون الا الفرار ولا حفظ البيوت من المضار وهذا قول أكثر المفسرين وقال الحسن المراد بالفتنة الخروج من البيوت سمى بذلك لان الانسان لا يخرجه من بيته الا الموت أو ما هو يقاربه فكأنه فتنة وعلى هذا يكون الضمير فى بها راجعا للبيوت أو المدينة أى ما لبثوا بالبيوت أو بالمدينة بعد اعطاء الكفر الايسيرا حتى هلكوا (ولقد كانوا) أى هؤلاء الذين أسرعوا الاجابة الى الفرار (عاهدوا الله) الذى لا أجل منه (من قبل) أى من قبل غزوة الخندق (لا يولون الادبار) أى لا ينهزمون وقال يزيد بن رومان هم بنو حارثة هموا يوم أحد ان يفشلوا مع بنى سلمة فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله تعالى ان لا يعودوا لمثلها وقال قتادة هم أناس كانوا قد غابوا عن وقعة بدر فرأوا ما أعطى الله تعالى أهل بدر من الكرامة والفضيلة قالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن فساق الله تعالى اليهم ذلك وقال مقاتل والكلبى هم سبعون رجلا بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وقالوا اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيأ وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأولادكم قالوا واذا فعلنا ذلك فمالنا يا رسول الله قال لكم النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة قالوا قد فعلنا فذلك عهدهم قال البغوى وهذا القول ليس بمرضى لان الذين بايعوا ليلة العقبة كانوا سبعين نفرا ليس فيهم شاك ولا من يقول مثل هذا القول وانما الآية فى قوم عاهدوا الله تعالى ان يقاتلوا ولا يفروا فنقضوا العهد انتهى ولما كان الانسان قد يتهاون بالعهد لاعراض المعاهد عنه قال تعالى (وكان عهد الله) المحيط بصفات الكمال (مسؤلا) أى عن الوفاء به ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل) أى لهم وأكد لظنهم نفع الفرار (لن ينفعكم الفرار) فى تأخير آجالكم فى وقت من الاوقات الذى ما كان استئذانكم الا بسببه (ان فررتم من الموت أو القتل) أى الذى كتب لكم لان الاجل ان كان قد حضر لم يتأخر بالفرار والا لم يقصره الثبات كما كان على رضى الله

تعالى عنه يقول دهم الامر وتوقد الجمر واشتد من الحرب الحر أى يوم من الموت أو يوم لا يقدر أو يوم قدر وذلك ان أجل الله الذى جعله محيطا بالانسان لا يقدر ان يتعداه أصلا (واذا) أى ان فررتم (لا تمتعون) فى الدنيا بعد فراركم (الا قليلا) أى مدة آجالكم وهى قليل فالعاقل لا يرغب فى شئ قليل يفوت عليه شيأ كثيرا * ولما كان ربما يقولون بل ينفعنا الانابة الفرار أينا من هرب فسلم ومن ثبت فاصطلم أمره الله تعالى بالجواب عن هذا بقوله تعالى (قل) أى لهم منكرا عليهم (من ذا الذى يعصمكم) أى يجيركم ويمنعكم (من الله) المحيط بكل شئ قدرة وعلما فى حال الفرار وقبله وبعده (ان أراد بكم سوأ) أى هلاكا أو هزيمة فيرد ذلك عنكم (أو) يصيبكم بسوء ان (أراد) أى الله (بكم رحمة) أى خيرا سماه بها لانه أثرها والمعنى هل احترزتم فى جميع أعماركم عن سوء أراده فنفعكم الاحتراز أو اجتهد غيره فى منعكم رحمة منه فتم له أمره أو أوقع الله بكم شيأ من ذلك فقدر أحد مع بذل الجهد على كشفه بدون اذنه ويمكن ان تكون الآية من الاحتباك ذكر السوء أولا دليلا على حذف ضده ثانيا وذكر الرحمة ثانيا دليلا على حذف ضدها أولا وهذا بيان لقوله تعالى ان ينفعكم الفرار وقوله تعالى (ولا يجدون لهم) أى فى وقت من الاوقات (من دون الله) أى غيره (وليا) أى يواليهم فينفعهم بنوع نفع (ولا نصيرا) أى ينصرهم من أمره فيرد ما أراده بهم من السوء عنهم تقرير لقوله تعالى من ذا الذى يعصمكم من الله الآية * ولما أخبرهم تعالى بما علم مما أوقعوه من أسرارهم وأمره صلى الله عليه وسلم بوعظهم حذرهم بدوام علمه بمن يخون منهم بقوله تعالى (قد يعلم الله) الذى له احاطة الجلال والجمال (المعوقين منكم) أى المثبطين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المنافقون (والقائلين لاخوانهم) أى ساكنى المدينة (هلم) أى ائتوا واقبلوا (الينا) موهمين ان ناحيتهم مما يقام فيها القتال ويواظب فيها على صالح الاعمال قال قتادة هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يثبطون أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون لاخوانهم ما محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الا أكلة رأس ولو كانوا لحما لالتقمهم أبو سفيان وأصحابه دعوا الرجل فانه هالك وقال مقاتل نزلت فى المنافقين وذلك أن اليهود أرسلت الى المنافقين وقالوا ما الذى يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبى سفيان ومن معه فانهم ان قدروا عليكم فى هذه المرة لم يستبقوا منكم أحدا فانا نشفق عليكم أنتم اخواننا وجيراننا فهلم الينا فأقبل عبد الله بن أبى وأصحابه على المؤمنين يعوقونهم ويخوفونهم بابى سفيان ومن معه وقالوا ما ترجون من محمد ما عنده خير ما هو الا أن يقتلنا ههنا انطلقوا بنا الى اخواننا يعنى اليهود فلم يزداد المؤمنون بقول المنافقين الا ايمانا واحتسابا * (تنبيه) * هلم اسم صوت سمى به فعل متعد مثل احضر وقرب وأهل الحجاز يسوون فيه بين الواحد والجماعة وبلغتهم جاء القرآن العزيز وأما بنو تميم فتقول هلم يا رجل وهلما يا رجلان وهلموا يا رجال (ولا) أى والحال انهم لا (يأتون البأس) أى الحرب أو مكانها (الا قليلا) أى للرياء والسمعة بقدر ما يراهم المخلصون فاذا اشتغلوا بالمعارك وكفى كل منهم ما اليه تسللوا عنه لواذا وعاذوا بمن لا ينفعهم من الخلق عياذا (أشحة) أى يفعلون ما تقدم والحال ان كلا منهم شحيح (عليكم) أى بحصول

نفع منهم أو من غيرهم نفس أو مال * (تنبيه) * أشحة جمع شحيح وهو جمع لا يقاس اذ قياس فعيل الوصف الذى عينه ولامه من واد واحد أن يجمع على أفعلاء نحو خليل وأخلاء وضنين وأضناء وقد سمع أشحاء وهو القياس والشح البخل وصفهم الله تعالى بالبخل ثم بالجبن بقوله تعالى (فاذا جاء الخوف) أى بمجيء أسبابه من الحرب ومقدماتها (رأيتهم) أى أيها المخاطب وقوله تعالى (ينظرون) فى محل حال من مفعول رأيتهم لان الرؤية بصرية وبين بعدهم حسا ومعنى بحرف الغاية بقوله تعالى (اليك) أى حال كونهم (تدور) فهى اما حال ثانية واما حال من ينظرون عينا وشمالا بادارة الطرف (أعينهم) أى زائغة عيانا شبهها فى سرعة تقلبها الغير قصد صحيح بقوله تعالى (كالذى) أى كدوران عين الذى (يغشى عليه) مبتدأ غشيانه (من الموت) أى من معالجة سكراته خوفا ولواذا بك وذلك لان قرب الموت وغشية أسبابه تذهب عقله وتشخص بصره فلا يطرف (فاذا ذهب الخوف) وحيزت الغنائم (سلقوكم) أى تناولوكم تناولا صعبا بأنواع الاذى ناسين ماوقع منهم عن قرب من الجبن والخور وأصل السلق البسط بقهر اليد أو اللسان ومنه سلق امرأته أى بسطها وجامعها قال القائل

فقد هى لنا المضجع * فان شئت سلقناك * وان شئت على أربع

والسليقة الطبيعة المباينة والسليق المطمئن من الارض (بألسنة حداد) ذربة قاطعة فصيحة بعد ان كانت عند الخوف فى غاية اللجلجة لاتقدر على الحركة من قلة الريق ويبس الشفاه وهذا اطلب العرض الفانى من الغنيمة وغيرها يقال للخطيب الذرب اللسان الفصيح مسلق وقال ابن عباس سلقوكم أى عضهوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة وقال قتادة بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة ويقولون اعطونا فانا شهدنا معكم القتال ولستم بأحق بالغنيمة منا ثم بين المراد بقوله تعالى (أشحة) أى شحاء مستعليا (على الخير) أى المال الذى عندهم وفى اعتقادهم انه لا خير غيره لا يريدون أن يصل شئ منه اليكم ولا يفوتهم شئ منه فهم عند الغنيمة أشح قوم وعند البأس أجبن قوم * ولما وصفهم تعالى بهذه الصفات الدنيئة أخبر تعالى ان أساسها الذى نشأت عنه عدم الوثوق بالله تعالى لعدم الايمان فقال (أولئك) أى البعداء البغضاء (لم يؤمنوا) أى لم يوجد منهم ايمان بقلوبهم وان أقرت به ألسنتهم (فأحبط الله) أى بجلاله وتفرده فى كبريائه وكماله (أعمالهم) التى كانوا يأتونها مع المسلمين أى فأظهر بطلانها واذا لم تثبت لهم الاعمال فتبطل وقال قتادة أبطل الله تعالى جهادهم (وكان ذلك) أى الاحباط (على الله) عاله من صفات العظمة (يسيرا) أى هينا لتعلق الارادة به وعدم مايمنعه وقوله تعالى (يحسبون الاحزاب لم يذهبوا) يجوز أن يكون مستأنفا أى هم من الخوف بحيث انهم لا يصدقون ان الاحزاب قد ذهبوا عنهم ويجوز أن يكون حالا من أحد الضمائر المتقدمة اذا صح المعنى بذلك ولو بعد العامل قاله أبو البقاء والمعنى أن هؤلاء المنافقين يحسبون الاحزاب يعنى قريشا وغطفان واليهود لم يتفرقوا عن قتالهم من غاية الجبن عند ذهابهم كأنهم غائبون حيث لا يقاتلون كقوله تعالى ولو كانوا فيكم ماقاتلوا الا قليلا وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين

والباقون بالكسر (وان يأت الاحزاب) بعدما ذهبوا كرة أخرى (يودوا) أى يتمنوا (لو أنهم بادون فى الاعراب) أى كائنون فى البادية بين الاعراب الذين هم عندهم فى محل نقص وممن تكره مخالطته ثم ذكر حال فاعل بادون بقوله تعالى (يسألون) كل وقت (عن أنبائكم) أى أخباركم العظيمة مع الكفار وما آل اليه أمركم جريا على ماهم عليه من النفاق ليبقوا لهم عندكم وجها كأنهم مهتمون بكم يظهرون بذلك تحرقا على غيبتهم عن هذه الحرب (ولو) أى والحال انهم لو (كانوا) هؤلاء المنافقون (فيكم) هذه الكرة ولم يرجعوا الى المدينة وكان قتال (ماقاتلوا) معكم (الاقليلا) نفاقا كما فعلوا قبل ذهاب الاحزاب من حضورهم معكم تارة واستئذانهم فى الرجوع الى منازلهم أخرى * ولما أخبر تعالى عنهم بهذه الاحوال التى هى غاية فى الدناءة أقبل عليهم اقبالا يدل لهم على تناهى الغضب بقوله تعالى مؤكدا لمحققا لاجل انكارهم (لقد كان لكم) أيها الناس كافة الذين المنافقون فى غمارهم (فى رسول الله) الذى جلاله من جلاله وكماله من كماله (اسوة) أى قدوة (حسنة) أى صالحة وهو المؤتسى به أى المقتدى به كما تقول فى البيضة عشرون منا حديدا أى هى فى نفسها هذا المبلغ من الحديد أو أن فيه خصلة حسنة من حقها أن يؤتسى بها كالثبات فى الحرب ومقاسات الشدائد اذ كسرت رباعيته وجرح وجهه وقتل عمه وأوذى بضروب الاذى فواساكم مع ذلك بنفسه فافعلوا أنتم كذلك واستنوا بسنته *(تنبيه)* الاسوة اسم وضع موضع المصدر وهو الائتساء فالاسوة من الائتساء كالقدوة من الاقتداء وائتسى فلان بفلان أى اقتدى به وقرأ عاصم بضم الهمزة والباقون بكسرها وهما لغتان كالعدوة والعدوة والقدوة والقدوة وقوله تعالى (لمن كان) أى كونا كأنه جبلة له (يرجو الله) أى فى جبلته أنه يجدد الرجاء مشمرا للذى لاعظيم فى الحقيقة سواه فيؤمل اسعاده ويخشى ابعاده تخصيص بعد التعميم للمؤمنين أى ان الاسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كان يرجو الله قال ابن عباس يرجو ثواب الله وقال مقاتل يخشى الله (واليوم الآخر) أى يخشى يوم البعث الذى فيه جزاء الاعمال (وذكر الله) أى الذى له صفات الكمال وقيده بقوله تعالى (كثيرا) تحقيقا لماذكر فى معنى الرجاء الذى به الفلاح أو ان المراد به الدائم فى حال السراء والضراء * ولما بين تعالى حال المنافقين ذكر حال المؤمنين عند لقاء الاحزاب بقوله تعالى (ولما رأى المؤمنون) أى الكاملون فى الايمان (الاحزاب) أى الذين أدهشت رؤيتهم القلوب (قالوا) أى مع ماحصل لهم من الزلزال وتعاظم الاهوال (هذا) أى الذى نراه من الهول (ماوعدنا الله) أى الذى له الامر كله من تصديق دعوانا الايمان بالبلاء والامتحان (ورسوله) المبلغ بنحو قوله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم أحسب الناس أن يتركوا الى أمثال ذلك ثم قالوا فى مقابلة قول المنافقين ماوعدنا الله ورسوله الاغرورا (وصدق الله) أى الذى له صفات الكمال (ورسوله) أى الذى كماله من كماله أى ظهر صدقهما فى عالم الشهادة فى كل ماوعدا به من السراء والضراء كما رأيناه وهما صادقان فيما غاب عنا مما

وعدابه من نصره وغيره واظهار الاسمين للتعظيم والتيمن بذكرهما قال بعض المفسرين ولو أعيدا مضمرين لجمع بين البارى تعالى واسم رسوله صلى الله عليه وسلم فكان يقال وصدقا وقد ردّ صلى الله عليه وسلم على من جمعهما بقوله من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى وأنكر عليه بقوله بئس خطيب القوم أنت قل ومن يعص الله ورسوله قصدا الى تعظيم الله تعالى وقيل انما ردّ عليه لانه وقف على يعصهما واستشكل بعضهم الاول بقوله حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما فقد جمع بينهما فى ضمير واحد (وأجيب) بأنه صلى الله عليه وسلم أعرف بقدر الله تعالى منا فليس لنا أن نقول كما يقول وقد يقال اذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك فالله جلّ وعلا أولى وحينئذ فالقائل بأنه انما ردّ عليه لانه وقف على يعصهما أولى * ولما كان هذا قولا لا يمكن أن يكون لسانيا فقط كقول المنافقين أكده اظن المنافقين ذلك بقوله تعالى شاهدا لهم (وما زادهم) أى ما رأوه من أمرهم أو الرعب (الا ايمانا) بالله ورسوله (وتسليما) بجميع جوارحهم فى جميع القضاء والقدر * ثم وصف الله تعالى بعض المؤمنين بقوله تعالى (من المؤمنين) أى المذكورين سابقا وغيرهم (رجال) أى فى غاية العظمة عند ناثم وصفهم بقوله تعالى (صدقوا ما عاهدوا الله) المحيط علما وقدرة (عليه) أى أقاموا بما عاهدوا الله عليه ووفوا به (فنهم من قضى نحبه) أى نذره بأن قاتل حتى استشهد كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر والنحب النذر استعير للموت لانه كنذر لازم فى رقبة كل حيوان وقيل النحب الموت أيضا قال قتادة قضى نحبه أى أجله وقيل قضى نحبه أى بذل جهده فى الوفاء بالعهد من قول العرب نحب فلان فى سيره يومه وليلته أى اجتهد * وقيل قضى نحبه قتل يوم بدر أو يوم أحد روى أن أنسا قال غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن أشهدنى الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال اللهم انى أعتذر اليك مما صنع هؤلاء يعنى أصحابه وأبرأ اليك مما صنع هؤلاء يعنى المشركين ثم تقدم واستقبله سعد بن معاذ فقال يا أبا عمرو الى أين فقال واها لريح الجنة أجدها دون أحد فقاتل حتى قتل قال أنس ابن مالك فوجدنا فى جسده بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم فوجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد الا أخته ببنانه قال أنس كانرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه (ومنهم) أى الصادقين (من ينتظر) أى الشهادة كعثمان وطلحة (وما بدلوا) أى العهد ولا غيروه (تبديلا) أى شيأ من التبديل روى أن ممن لم يقتل فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وفعل ما لم يفعله غيره لزم النبى صلى الله عليه وسلم فلم يفارقه وذب عنه ووقاه بيده حتى شلت اصبعه قال اسمعيل بن قيس رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد وعن معاوية سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول طلحة ممن قضى نحبه وعن طلحة لما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من أحد صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قرأ رجال

صدقوا ما عاهدوا الله عليه الآية كلها فقام اليه رجل فقال يا رسول الله من هؤلاء فقال أيها السائل هذا منهم وعنه أيضا ان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا الاعرابي جاهل سله عمن قضى نحبه من هو وكانوا لا يجترؤن على مسئلته يهابونه ويوقرونه فسأله الاعرابي فأعرض عنه ثم سأله فأعرض عنه ثم سأله فأعرض عنه ثم اني طلعت من باب المسجد فقال أين السائل عمن قضى نحبه قال الاعرابي أنا فقال هذا ممن قضى نحبه وهذا يقوي القول بأن المراد بالنحب بذل الجهد في الوفاء بالعهد وعن خباب بن الارت قال هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله نبتغي وجه الله فوجب أجرنا على الله فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئا منهم مصعب ابن عمير قتل يوم أحد فلم يوجد له شئ يكفن فيه الا نمرة فكنا اذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه منها واذا وضعناها على رجليه خرج رأسه منها فقال صلى الله عليه وسلم ضعوها مما يلي رأسه واجعلوا على رجليه من الاذخر قال ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها أينعت أي أدركت ونضجت له ثمرتها ويهديها أي يجنيها وهذا كناية عما فتح الله تعالى لهم من الدنيا وعن زيد بن ثابت قال لما نسخنا المصحف من المصاحف فقدت آية من سورة الاحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها لم أجدها مع أحد الا مع خزيمة بن ثابت الانصاري الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فألحقتها في سورتها في المصحف (ليجزي الله) أي الذي يريد اظهار جميع صفاته يوم البعث للخاص والعام ظهورا تاما (الصادقين) أي في الوفاء بالعهد وادعائهم آمنوا به (بصدقهم) أي فيعلي أمرهم وينعمهم في الآخرة فالصدق سبب وان كان فضلا منه لانه الموفق له *(تنبيه)* في لام ليجزي وجهان أحدهما انها لام العلة والثاني انها لام الصيرورة وفيما تتعلق به أوجه اما بصدقوا واما بزادهم واما بما بدلوا وعلى هذا جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم لان كلا الفريقين مسوق الى عاقبته من الثواب والعقاب فكأنهما استويا في طلبهما والسعي لتحصيلهما (ويعذب المنافقين) أي الذين أخفوا الكفر وأظهروا الاسلام في الدارين بكذبهم في دعواهم الايمان المقتضي لبيع النفس والمال (ان شاء) بأن يميتهم على نفاقهم (أو يتوب عليهم) ان شاء بأن يهديهم الى التوبة فيتوبوا فالكل بارادته *(تنبيه)* جواب ان شاء مقدر وكذا مفعول شاء أي ان شاء تعذيبهم عذبهم وقرأ قالون والبزي وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل ورش وقنبل الثانية وابدلاها أيضا حرف مد وحققها الباقون وفي الابتداء بالثانية الجميع بالتحقيق* ولما كانت توبة المنافقين مستبعدة لما يرون من صلابتهم في الخداع وخبث سرائرهم قال معللا لذلك كله على وجه التأكيد (ان الله) أي بما له من الجلال والجمال (كان) أزلا وأبدا (غفورا) لمن تاب (رحيما) بهم * ثم بين تعالى بعض ما جزاهم الله تعالى بصدقهم بقوله تعالى (ورد الله) أي بما له من صفات الكمال (الذين كفروا) وهم من تحزب من العرب وغيرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بلادهم عن المدينة ومضايقة المؤمنين حال كونهم

(بغيظهم) أي متغيظين لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا بل تفرقوا عن غيظ أي حال كونهم (لم ينالوا خيرا) لا من الدين ولا من الدنيا بل ذلا وندامة فهو حال ثانية أو حال من الحال الاولى فهي متداخلة (وكفى الله) أي الذي له العزة والكبرياء (المؤمنين القتال) بما ألقى في قلوبهم من الداعية للانصراف بالريح والجنود من الملائكة وغيرهم منهم نعيم بن مسعود لما تقدم من الحيلة التي فعلها قال سعيد بن المسيب لما كان يوم الاحزاب حصر النبي صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة حتى خلص الى كل امرئ منهم الكرب وحتى قال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم اني أنشدك عهدك ووعدك اللهم انك ان تشأ لا تعبد فبيناهم على ذلك اذ جاء نعيم ابن مسعود الاشجعي وكان يأمنه الفريقان جميعا فخذل بين الناس فانطلق الاحزاب منهزمين من غير قتال فذلك قوله تعالى وكفى الله المؤمنين القتال (وكان الله) أي الذي له صفات الكمال أزلا وأبدا (قويا) على احداث ما يريده (عزيزا) غالبا على كل شئ * ولما أتم الله تعالى حال الاحزاب اتبعه حال من عاونوهم بقوله تعالى (وأنزل الذين ظاهروهم) أي عاونوا الاحزاب (من أهل الكتاب) وهم بنو قريظة ومن دخل معهم في حصنهم من بني النضير (من صياصيهم) أي حصونهم متعلق بأنزل ومن لابتداء الغاية والصياصي جمع صيصية وهي الحصون والقلاع والمعاقل ويقال لكل ما يمتنع به ويتحصن فيه صيصية ومنه قيل لقرن الثور والظبي واشوكة الديك صيصية عن سعيد بن جبير قال كان يوم الخندق بالمدينة فجاء أبو سفيان بن حرب ومن تبعه من قريش ومن تبعه من كنانة وعيينة بن حصن ومن تبعه من غطفان وطليحة ومن تبعه من بني أسد وبنو الاعور ومن تبعهم من بني سليم وقريظة كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنقضوا ذلك وظاهروا المشركين فأنزل الله تعالى فيهم وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وكانت غزوة بني قريظة في آخر ذي القعدة سنة خمس من الهجرة وعن موسى بن عقبة أنها في سنة أربع قال العلماء بالسير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصبح في الليلة التي انصرف الاحزاب راجعين الى بلادهم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عن الخندق الى المدينة ووضعوا السلاح فلما كان الظهر أتى جبريل عليه السلام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم على فرسه الحيزوم والغبار على وجه الفرس والسرج فقال ما هذا يا جبريل قال من متابعة قريش فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح الغبار عن وجه الفرس وعن سرجه فقال يا رسول الله ان الملائكة لم تضع السلاح ان الله تعالى يأمرك بالسير الى بني قريظة وأنا عامد اليهم فان الله دقهم دق البيض على الصفا وانهم لك طعمة فأذن في الناس أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلي العصر الا في بني قريظة وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب برايته اليهم وابتدرها الناس فسار علي حتى اذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطريق فقال يا رسول الله لا عليك ان لا تدنو من هؤلاء الاخباث قال أظنك سمعت في منهم أذى قال نعم يا رسول الله قال لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيأ فلما دنا رسول الله صلى الله

عليه وسلم من حصنهم قال يا اخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمة قالوا يا أبا القاسم ما كنت جهولا ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه قبل أن يصل الى بني قريظة قال هل مر بكم أحد قالوا مر بنا دحية بن خليفة على بغلة شهباء عليها قطيفة من ديباج قال صلى الله عليه وسلم ذاك جبريل بعث الى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف في قلوبهم الرعب ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قريظة نزل على بئر من آبارها فتلاحق به الناس فأتاه رجال من بعد صلاة العشاء الآخرة ولم يصلوا العصر لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصلين أحد العصر الا في بني قريظة فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة فما عابهم الله تعالى بذلك ولا عنفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان حيي بن أخطب دخل على بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده فلما أيقنوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد يا معشر يهود انه قد نزل بكم من الامر ما نزل واني عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم قالوا وما هي قال نبايع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وانه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنوا على دياركم وأبنائكم وأموالكم ونسائكم قالوا لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره قال فاذا أبيتم هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج الى محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف ولم نترك وراءنا ثقلا يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وأصحابه فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا أحدا ولا شيأ نخشى عليه وان نظهر فلعمري لنتخذن النساء والابناء قالوا نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم قال فان أبيتم هذه فان الليلة ليلة السبت فعسى أن يكون محمد وأصحابه قد امنوا فانزلوا لعلنا ان نصيب منهم غرة قالوا نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من كان قبلنا فتركهم قال علماء السير وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزلون على حكمي فأبوا وكانوا قد طلبوا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الاوس يستشيرونه في أمرهم فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فلما رأوه قام اليه الرجال والنساء والصبيان يبكون في وجهه فرق لهم فقالوا يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد قال نعم وأشار بيده الى حلقه يعني انه يقتلكم قال أبو لبابة فوالله ما زالت قدماي حتى قد عرفت اني خنت الله ورسوله ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ارتبط في المسجد الى عمود من عمده وقال لا أبرح من مكاني حتى يتوب الله تعالى علي مما صنعت وعاهد الله تعالى لا يطأ بني قريظة أبدا ولا يراني الله تعالى في بلد خنت فيه الله ورسوله فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره وأبطأ عليه قال أما لو جاءني لاستغفرت له فأما اذ فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزلون على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فقال سعد حكمت فيهم ان تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم فكبر النبي صلى الله عليه وسلم وقال لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة ثم استنزلهم

وخندق فى سوق المدينة خندقا وقدمهم فضرب أعناقهم وهم من ثمانمائة الى تسعمائة وقيل كانوا ستمائة مقاتل وسبعمائة أسير (وقذف) أى الله تعالى (فى قلوبهم الرعب) حتى سلموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم للسبى كما قال الله تعالى (فريقا تقتلون) وهم الرجال يقال كانوا ستمائة (وتأسرون فريقا) وهم النساء والذرارى يقال كانوا سبعمائة وخمسين ويقال تسعمائة (فان قيل) مافائدة تقديم المفعول فى الاول حيث قال تعالى فريقا تقتلون وتأخيره فى الثانى حيث قال وتأسرون فريقا (أجيب) بأن الرازى قال مامن شئ من القرآن الا وله فائدة منها مايظهر ومنها مالايظهر والذى يظهر من هذا والله أعلم أن القاتل يبدأ بالاهم فالاهم والاقرب فالاقرب والرجال كانوا مشهورين وكان القتل واردا عليهم وكان الاسراء هم النساء والذرارى ولم يكونوا مشهورين والسبى والاسر أظهر من القتل لانه يبقى فيظهر لكل أحد انه أسير فقدم من المحلين ما اشتهر على الفعل القائم به ومن الفعلين ماهو أشهر قدمه على المحل الخفى انتهى وقرأ ابن عامر والكسائى الرعب بضم العين والباقون بسكونها * ولما ذكر الناطق بقسميه ذكر الصامت بقوله تعالى (وأورثكم أرضهم) من الحدائق والمزارع (وديارهم) أى حصونهم لانه يحامى عليها مالايحامى على غيرها (وأموالهم) من النقد والماشية والسلاح والاثاث وغيرها فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم للفارس ثلاثة أسهم للفرس سهمان ولفارسه سهم كما للراجل ممن ليس له فرس سهم وأخرج منها الخمس وكانت الخيل ستة وثلاثين فرسا وكان هذا أول فىء وضع فيه السهمان وجرى على سننه فى المغازى واصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من سباياهم ريحانة بنت عمرو بن قريظة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يارسول الله تتركنى فى ملكك فهو أخف على وعليك فتركها وكانت حين سباها كرهت الاسلام وأبت الا اليهودية فعزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجد فى نفسه من أمرها فبينماهو مع أصحابه اذ سمع وقع نعلين خلفه فقال ان هذا الثعلبة ابن شعبة يبشرنى باسلام ريحانة فجاءه فقال يارسول الله قد أسلمت ريحانة فسره ذلك روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الانصار فقالت الانصار فى ذلك فقال انكم فى منازلكم وقال عمر أما تخمس كما خمست يوم بدر قال لا انما جعلت هذه طعمة لى دون الناس قال رضينا بما صنع الله ورسوله وأنزل الله تعالى توبة أبى لبابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى بيت أم سلمة فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقالت مم تضحك يارسول الله أضحك الله تعالى سنك فقال تيب على أبى لبابة فقالت الا أبشره بذلك يارسول الله قال بلى ان شئت فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقالت ياأبا لبابة أبشر فقد تاب الله تعالى عليك فثار الناس اليه ليطلقوه فقال لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقنى بيده فلما مر عليه خارجا الى الصبح أطلقه ومات سعد بن معاذ بعد انقضاء غزوة بنى قريظة قالت عائشة فحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر فوالذى نفس محمد بيده انى لاعرف بكاء عمر من بكاء أبى بكر وانى لفى حجرتى قالت وكانوا كما قال

الله

الله تعالى رجاء بينهم واختلف في تفسير قوله تعالى (وأرضا) أي وأورثكم أرضا (لم تطؤها) فعن مقاتل انها خيبر وعليه أكثر المفسرين وعن الحسن فارس والروم وعن قتادة كنا نحدث انها مكة وعن عكرمة كل أرض تفتح الى القيامة ومن بدع التفسير أنه أراد نساءهم انتهى * ولما كان ذلك أمرا باهرا سهله بقوله تعالى (وكان الله) أي أزلا وأبدا بماله من صفات الكمال (على كل شئ) هذا وغيره (قديرا) أي شامل القدرة روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لا اله الا الله وحده أعز جنده ونصر عبده وغلب الاحزاب وحده فلا شئ بعده ولما أرشد الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم الى جانب ما يتعلق بجانب التعظيم لله تعالى بقوله تعالى يا أيها النبي اتق الله ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات فانهن أولى الناس بالشفقة ولهذا قدمهن في النفقة فقال (يا أيها النبي قل لازواجك) أي نسائك (ان كنتن) أي كونا راسخا (تردن) أي اختيارا على (الحياة) ووصفها بما يزهد فيها ذوي الهمم ويذكر من له عقل بالآخرة بقوله تعالى (الدنيا) أي ما فيها من السعة والرفاهية والنعمة (وزينتها) أي المنافية لما أمرني به ربي من الاعراض عنه واحتقاره من أمرها لانها أبغض خلقه اليه لانها قاطعة عنه (فتعالين) أصله ان الآمر يكون أعلى من المأمور فيدعوه ان يرفع نفسه اليه ثم كثر حتى صار معناه أقبل وهو هنا كناية عن الاخبار والارادة بعلاقة ان المخبر يدنو الى من يخبره (أمتعكن) أي بما أحسن به اليكن من متعة الطلاق وهي واجبة لزوجة لم يجب لها نصف مهر فقط بأن وجب لها جميع المهر اوكانت مفوضة لم توطأ ولم يفرض لها شئ صحيح أما في الاولى فلان المهر في مقابلة منفعة بضعها وقد استوفاها الزوج فيجب للايحاش المتعة وأما في الثانية فلان المفوضة لم يحصل لها شئ فيجب لها متعة للايحاش بخلاف من وجب لها النصف فلا متعة لها لانه لم يستوف منفعة بضعها فيكفي نصف مهرها للايحاش هذا اذا كان الفراق لا بسببها وسن أن لا تنقص عن ثلاثين درهما أو ما قيمته ذلك وأن لا تبلغ نصف المهر فان تراضيا على شئ فذاك والا قدرها قاض باجتهاده بقدر حالهما من يساره واعساره ونسبها وصفاتها قال تعالى ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره (وأسرحكن) أي من حبالة عصمتي (سراحا جميلا) أي طلاقا من غير مضارة ولا نوع حطة ولا مقاهرة (وان كنتن) أي بما لكن من الجبلة (تردن الله) أي الآمر بالاعراض عن الدنيا (ورسوله) أي المؤتمر بما أمره به من الانسلاخ عنها المبلغ للعباد جميع ما أرسله به من أمر الدنيا والدين لا يدع منه شيأ لماله عليكن وعلى سائر الناس من الحق بما يبلغهم عن الله تعالى (والدار الآخرة) اي التي هي الحيوان بما لها من البقاء والعلو والارتقاء (فان الله) بماله من جميع صفات الكمال (أعد) أي في الدنيا والآخرة (للمحسنات منكن) أي اللاتي يفعلن ذلك (أجرا عظيما) تستحقر دونه الدنيا وزينتها ومن للبيان لانهن كلهن محسنات قال المفسرون سبب نزول هذه الآية ان نساء النبي صلى الله عليه وسلم سألنه من عرض الدنيا شيأ وطلبن منه زيادة في النفقة وآذينه بغيرة بعضهن على بعض فهجرهن

رسول الله صلى الله عليه وسلم وآلى أن لا يقربهن شهرا ولم يخرج الى أصحابه فقالوا ما شأنه وكانوا يقولون طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه فقال عمر لاعلمن لكم شأنه قال فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله أطلقتهن قال لا فقلت يارسول الله انى دخلت المسجد والمسلمون يقولون طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه أفأنزل فأخبرهم انك لم تطلقهن قال نعم ان شئت فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتى لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ونزل قوله تعالى واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم فكنت أنا الذى استنبط ذلك الامر وأنزل الله تعالى آية التخيير وكان تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع نسوة خمس من قريش عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبى سفيان وأم سلمة بنت أبى أمية وسودة بنت زمعة وأربع من غير القرشيات زينب بنت جحش الاسدية وميمونة بنت الحرث الهلالية وصفية بنت حيى بن أخطب الخيبرية وجويرية بنت الحرث المصطلقية فلما نزلت آية التخيير عرض عليهن رضى الله تعالى عنهن ذلك وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة رأس المحسنات اذ ذاك وكانت أحب أهله فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة فرؤى الفرح فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعنها على ذلك قال قتادة فلما اخترن الله ورسوله شكرهن الله على ذلك وقصره عليهن فقال تعالى لا تحل لك النساء من بعد وعن جابر بن عبد الله قال دخل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لاحد منهم فأذن لابى بكر فدخل ثم أقبل عمر ثم استأذن فأذن له فوجد النبى صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا قال فقال لاقولن شيأ أضحك النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتنى النفقة فقمت اليها فوجأت عنقها فضحك النبى صلى الله عليه وسلم وقال هن حولى كما ترى يسألننى النفقة فقام أبو بكر الى عائشة يجأ عنقها وقام عمر الى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول لا تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ أبدا ليس عنده ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين يوما ثم نزلت هذه الآية يا أيها النبى قل لازواجك حتى بلغ للمحسنات منكن أجرا عظيما قال فبدأ بعائشة فقال يا عائشة انى أعرض عليك أمرا لا أحب أن تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك قالت وما هو يارسول الله فتلا عليها الآية فقالت أفيك يارسول الله استشير أبوى بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت قال لا تسألنى امرأة منهن الا أخبرتها ان الله لم يبعثنى معنتا ولكن بعثنى معلما ميسرا قوله واجما أى مهتما والواجم الذى أسكته الهم وعلته الكآبة وقيل الوجوم الحزن وقوله فوجأت عنقها أى دققته وقوله لم يبعثنى معنتا العنت المشقة والصعوبة وروى الزهرى ان النبى صلى الله عليه وسلم أقسم أن لا يدخل على أزواجه شهرا قال الزهرى فأخبرنى عروة عن عائشة قالت فلما مضت تسع وعشرون أعدهن دخل على فقلت يارسول الله انه مضى تسع وعشرون أعدهن فقال ان الشهر تسع وعشرون *(تنبيه)* اختلف العلماء فى هذا الخيار هل كان ذلك تفويضا للطلاق

اليهن حتى يقع بنفس الاختيار أولا ذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم الى انه لم يكن تفويض الطلاق وانما خيرهن على انهن اذا اخترن الدنيا فارقهن لقوله تعالى فتعالين أمتعكن وأسرحكن ويدل عليه انه لم يكن جوابهن على الفور فانه قال لعائشة لاتعجلي حتى تستشيري أبويك وفى تفويض الطلاق يكون الجواب على الفور وذهب آخرون الى انه كان تفويض طلاق ولو اخترن أنفسهن كان طلاقا واختلف العلماء فى حكم التخيير فقال عمر وابن مسعود وابن عباس اذا خير الرجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شئ ولو اختارت نفسها وقع طلقة واحدة وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبى ليلى وسفيان والشافعى وأصحاب الرأى الا ان عند أصحاب الرأى انه يقع طلقة بائنة اذا اختارت نفسها وعند الآخرين رجعية وقال زيد بن ثابت اذا اختارت الزوج تقع طلقة واحدة وان اختارت نفسها فثلاث وهو قول الحسن ورواية عن مالك وروى عن على أنها اذا اختارت زوجها تقع طلقة واحدة رجعية وان اختارت نفسها فطلقة بائنة وأكثر العلماء على انها اذا اختارت زوجها لا يقع شئ وعن مسروق قال ما أبالى خيرت امرأتى واحدة أو مائة أو ألفا بعد أن تختارنى قال الرازى وهنا مسائل منها هل كان هذا التخيير واجبا على النبى صلى الله عليه وسلم أم لا والجواب ان التخيير كان قولا واجبا من غير شك لانه ابلاغ للرسالة لان الله تعالى لما قال له قل لهن صار من الرسالة وأما التخيير معنى فيبنى على ان الامر للوجوب أم لا والظاهر أنه للوجوب ومنها ان واحدة منهن لو اختارت نفسها وقلنا انها لا تبين الا بابانة النبى صلى الله عليه وسلم فهل كان يجب على النبى صلى الله عليه وسلم الطلاق أم لا الظاهر نظرا الى منصب النبى صلى الله عليه وسلم انه كان يجب لان الخلف فى الوعد من النبى صلى الله عليه وسلم غير جائز بخلاف أحدنا فانه لا يلزمه شرعا الوفاء بما يعد ومنها ان المختارة بعد البينونة هل كانت تحرم على غيره أم لا الظاهر انها لا تحرم والا لم يكن التخيير ممكنا لها من التمتع بزينة الدنيا ومنها أن من اختارت الله ورسوله هل كان يحرم على النبى صلى الله عليه وسلم طلاقها أم لا الظاهر الحرمة نظرا الى منصب الرسول صلى الله عليه وسلم على معنى ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يباشره أصلا لا بمعنى انه لو أتى به لعوقب أو عوتب انتهى ولما خيرهن واخترن الله ورسوله هددهن الله للتوقى عما يسوء النبى صلى الله عليه وسلم وأوعدهن بتضعيف العذاب بقوله تعالى (يانساء النبى) أى المختارات له لما بينه وبين الله تعالى مما ظهر شرفه (من يأت منكن بفاحشة) أى سيئة من قول أو فعل كالنشوز وسوء الخلق واختيار الحياة الدنيا وزينتها على الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك وقال ابن عباس المراد هنا بالفاحشة النشوز وسوء الخلق وقيل هو كقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك وقرأ ابن كثير وشعبة (مبينة) بفتح الياء التحتية أى ظاهر فحشها والباقون بكسرها أى واضحة ظاهرة فى نفسها (يضاعف لها العذاب) أى بسبب ذلك (ضعفين) أى ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه وانما ضوعف عذابهن لان ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهن وأقبح لان زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة ولذلك كان ذم العقلاء للعاصى العالم

أشد منه للعاصي الجاهل لان المعصية من العالم أقبح ولذلك جعل حد الحر ضعف في حد العبد وعوتب الانبياء بما لم يعاتب به غيرهم وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي بالياء التحتية وألف بعد الضاد وتخفيف العين مفتوحة العذاب بالرفع وابن كثير وابن عامر بالنون ولا ألف بعد الضاد وتشديد العين مكسورة العذاب بالنصب وأبو عمرو بالياء وتشديد العين مفتوحة العذاب بالرفع وقوله تعالى (وكان ذلك على الله يسيرا) فيه ايذان بأن كونهن نساء النبي صلى الله عليه وسلم ليس يغني عنهن شيأ وكيف يغني عنهن وهو سبب مضاعفة العذاب فكان داعيا الى تشديد الامر عليهن غير صارف عنه * ولما بين تعالى زيادة عقابهن أتبعه زيادة ثوابهن بقوله تعالى (ومن يقنت) أي يطع (منكن لله) الذي هو أهل لان لا يلتفت الى غيره (ورسوله) الذي لا ينطق عن الهوى فلا تخالفه فيما أمر به ولا تختار عيشا غير عيشه (وتعمل) أي مع ذلك بجوارحها (صالحا) أي في جميع ما أمر به سبحانه أو نهى عنه فلا تقتصر على عمل القلب (نؤتها أجرها مرتين) أي مثلي ثواب غيرهن من النساء قال مقاتل مكان كل حسنة عشرين حسنة فمرة على الطاعة ومرة لطلبهن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق وطيب المعاشرة والقناعة *(تنبيه)* قوله تعالى نؤتها أجرها مرتين في مقابلة قوله تعالى يضاعف لها العذاب ضعفين وفيه لطيفة وهي أنه عند ايتاء الاجر ذكر المؤتي وهو الله تعالى وعند العذاب لم يصرح بالمعذب بل قال يضاعف وهذا اشارة الى كمال الرحمة والكرم وقرأ حمزة والكسائي بالياء التحتية في يعمل ويؤتها حملا على لفظ من وهو الاصل والباقون بالتاء الفوقية في يعمل على معنى من والنون في نؤتها على ان فيه ضمير اسم الله تعالى (واعتدنا) أي هيأنا بما لنا من العظمة (لها) أي بسبب قناعتها مع النبي صلى الله عليه وسلم المريد للتخلي من الدنيا التي يبغضها الله تعالى مع ما في ذلك من توفير الحظ في الآخرة (رزقا كريما) أي في الدنيا والآخرة زيادة على أجرها أما في الدنيا فلان ما يرزقهن منه يوفقهن لصرفه على وجه يكون فيه أعظم الثواب ولا يخشى من أجله نوع عقاب وأما في الآخرة فلا يوصف ولا يحد ولا نكد فيه أصلا ولا كد وهذا ما جرى عليه البقاعي وهو أولى مما جرى عليه كثير من المفسرين من الاقتصار على رزق الجنة وعلله الرازي بقوله ووصف رزقا بكونه كريما مع ان الكريم لا يكون وصفا الا للرازق وذلك اشارة الى ان الرزق في الدنيا مقدر على ايدي الناس فان التاجر يسترزق من السوقة والعاملون والصناع من المستعملين والملوك من الرعية والرعية منهم فالرزق في الدنيا لا يأتي بنفسه انما هو مسخر للغير يكتسبه ويرسله الى الاعيان وأما في الآخرة فلا يكون له مرسل وممسك في الظاهر فهو الذي يأتي بنفسه فلأجل هذا لا يوصف في الدنيا بالكريم الا الرازق وفي الآخرة يوصف بالكريم نفس الرزق انتهى * ولما ذكر تعالى ان عذابهن ضعف عذاب غيرهن وأجرهن مثلا أجر غيرهن صرن كالحرائر بالنسبة الى الاماء قال تعالى (يانساء النبي لستن كأحد) قال البغوي ولم يقل كواحدة لان الاحد عام يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث والمعنى لستن كجماعة واحدة (من) جماعات (النساء) اذا تقصيت جماعة النساء

واحدة

واحدة واحدة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والسابقة ومنه قوله تعالى والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم يريد بين جماعة واحدة منهم تسوية بين جميعهم فى أنهم على الحق المبين وقوله تعالى لانفرق بين أحد من رسله وقوله تعالى فما منكم من أحد عنه حاجزين والحمل على الافراد بأن يقال ليست كل واحدة منكن كواحدة من آحاد النساء صحيح بل أولى ليلزم تفضيل الجماعة بخلاف الحمل على الجمع وعن ابن عباس معنى لستن كأحد من النساء يريد ليس قدركن عندى مثل قدر غيركن من النساء الصالحات أنتن أكرم على وثوابكن أعظم لدى * ولما كان المعنى بل أنتن أعلى النساء ذكر شرط ذلك بقوله تعالى (ان اتقيتن) الله تعالى أى جعلتن بينكن وبين غضب الله تعالى وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم وقاية ثم سبب عن هذا النهى قوله تعالى (فلا تخضعن) أى اذا تكلمتن بحضرة أجنبى (بالقول) أى بأن يكون لينا عذبا رخيما والخضوع التطامن والتواضع واللين ثم سبب عن الخضوع قوله تعالى (فيطمع) أى فى الخيانة (الذى فى قلبه مرض) أى فساد وريبة من فسق ونفاق أو نحو ذلك وعن زيد بن على قال المرض مرضان مرض زنا ومرض نفاق وعن ابن عباس أن نافع بن الازرق قال له أخبرنى عن قوله تعالى فيطمع الذى فى قلبه مرض قال الفجور والزنا قال وهل تعرف العرب ذلك قال نعم أما سمعت الاعشى وهو يقول

حافظ للفرج راض بالتقى * ليس ممن قلبه فيه مرض

والتعبير بالطمع للدلالة على ان أمنيته لا سبب لها فى الحقيقة لان اللين فى كلام النساء خلق لهن لا تكلف فيه وأريد من نساء النبى صلى الله عليه وسلم التكلف للاتيان بضده بل المرأة مندوبة الى الغلظة فى المقالة اذا خاطبت الاجانب لقطع الاطماع * ولما نهاهن عن الاسترسال مع سجية النساء فى رخاوة الصوت أمرهن بضده بقوله تعالى (وقلن قولا معروفا) أى يعرف انه بعيد عن محل الطمع من ذكر الله وما تحتجن اليه من الكلام مما يوجب الدين والاسلام بتصريح وبيان من غير خضوع * ولما أمرهن بالقول وقدمه لعمومه اتبعه الفعل بقوله تعالى (وقرن) أى اسكن وامكثن دائما (فى بيوتكن) فمن كسر القاف وهم غير نافع وعاصم جعل الماضى قرر بفتح العين ومن فتحه وهو نافع وعاصم فهو عنده قرر بكسرها وهما لغتان قال البغوى وقيل وهو الاصح انه أمر من الوقار كقوله من الوعد عدن ومن الوصل صلن أى كن أهل وقار وسكون من قوله وقر فلان يقر وقورا اذا سكن واطمأن انتهى ومن فتح القاف فخم الراء ومن كسرها رقق الراء وعن محمد بن سيرين قال نبئت انه قيل لسودة زوج النبى صلى الله عليه وسلم مالك لا تحجين ولا تعتمرين كما تفعل اخواتك فقالت قد حججت واعتمرت وأمرنى الله أن أقر فى بيتى فوالله لا أخرج من بيتى حتى أموت قال فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى خرجت بجنازتها * واختلف فى معنى التبرج فى قوله تعالى (ولا تبرجن) فقال مجاهد وقتادة هو التكسر والتغنج وقال ابن جريج هو التبختر وقيل هو ابراز الزينة وابراز المحاسن للرجال وقرأ البزى بتشديد التاء فى الوصل والباقون بالتخفيف واختلف أيضا

فى معنى قوله تعالى (تبرج الجاهلية الاولى) فقال الشعبى هى ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وقال أبو العالية هى زمن داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام كانت المرأة تتخذ قميصا من الدر غير مخيط الجانبين فيرى خلقها منه وقال الكلبى كان ذلك فى زمن نمروذ الجبار كانت المرأة تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشى وسط الطريق ليس عليها شئ غيره وتعرض نفسها على الرجال وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال الجاهلية الاولى فيما بين نوح وادريس عليهما السلام وكانت ألف سنة وان بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل وكان رجال الجبل صباحا وفى النساء دمامة وكان نساء السهل صباحا وفى الرجال دمامة وان ابليس أتى رجلا من أهل السهل واجر نفسه منهم فكان يخدمهم واتخذ شيأ مثل الذى يزمر به الرعاء فجاء بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حوله فأتوه وهم يستمعون اليه واتخذوا عيدا يجتمعون اليه فى السنة فيتبرج النساء للرجال ويتزين الرجال لهن وان رجلا من أهل الجبل هجم عليهم فى عيدهم ذلك فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا اليهم فنزلوا معهم وظهرت الفاحشة بينهم فذلك قوله تعالى ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى وقال قتادة ما قبل الاسلام وقيل الجاهلية الاولى ما ذكرنا والجاهلية الاخرى قوم يفعلون مثل فعلهم فى آخر الزمان وقيل الجاهلية الاولى ما كانوا عليه قبل الاسلام والجاهلية الاخرى جاهلية الفسوق فى الاسلام ويعضده قوله صلى الله عليه وسلم لابى ذر كما فى الصحيحين ان فيك جاهلية كفرا واسلام وقول البيضاوى عن أبى الدرداء قال ابن حجر لم أجده عن أبى الدرداء وقيل قد تذكر الاولى وان لم تكن لها أخرى كقوله تعالى وانه أهلك عادا الاولى ولم تكن لها أخرى * ولما أمرهن بلزوم البيوت للتخلية عن الشوائب أرشدهن الى التحلية بالرغائب بقوله تعالى (وأقمن الصلاة) أى فرضا ونفلا صلة لما بينكن وبين الخالق ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (وآتين الزكاة) احسانا الى الخلائق وفى هذا بشارة الفتوح وتوسيع الدنيا عليهن فان العيش وقت نزولها كان ضيقا عن القوت فضلا عن الزكاة * ولما أمرهن بخصوص ما تقدم لانهما أصل الطاعات البدنية والمالية ومن اعتنى بهما حق الاعتناء جرتاه الى ما وراءهما عم وجمع فى قوله تعالى (وأطعن الله) أى الذى له صفات الكمال (ورسوله) أى الذى لا ينطق عن الهوى فيما أمرا به ونهيا عنه (انما يريد الله) أى الذى هو ذو الجلال والاكرام بما أمركن به ونهاكن عنه من الاعراض عن الزينة وما يتبعها والاقبال عليه (ليذهب) أى لاجل أن يذهب (عنكم الرجس) أى الاثم الذى نهى الله تعالى عنه النساء قاله مقاتل وقال ابن عباس يعنى عمل الشيطان وما ليس فيه رضا الرحمن وقال قتادة يعنى السوء وقال مجاهد الرجس الشك وقوله تعالى (أهل البيت) فى ناصبه أوجه أحدها النداء أى يا أهل البيت أو المدح أى أمدح أهل البيت أو الاختصاص أى أخص أهل البيت كما قال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الانبياء لا نورث والاختصاص فى المخاطب أقل منه فى المتكلم وسمع منك الله نرجو الفضل والاكثر انما هو فى المتكلم كقولها

نحن

نحن بنات طارق * نمشي على النمارق

وقولهم نحن بني ضبة أصحاب الجمل * الموت أحلى عندنا من العسل

وقولهم نحن العرب أقرى الناس للضيف واختلف في أهل البيت والاولى فيهم ما قال البقاعي انهم كل من يكون من الزام النبي صلى الله عليه وسلم من الرجال والنساء والازواج والاماء والاقارب وكلما كان الانسان منهم أقرب وبالنبي صلى الله عليه وسلم أخص وألزم كان بالارادة أحق وأجدر ويؤيده قول البيضاوي وتخصيص الشيعة أهل البيت بفاطمة وعلي وابنيهما رضي الله تعالى عنهم لما روي انه عليه الصلاة والسلام خرج ذات غدوة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجلس فجاءت فاطمة فأدخلها فيه ثم جاء علي فأدخله فيه ثم جاء الحسن والحسين فأدخلهما فيه ثم قال انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت والاحتجاج بذلك على عصمتهم وكون اجماعهم حجة ضعيف وعن ابن عباس انهم نساء النبي صلى الله عليه وسلم لانهن في بيته وتلا قوله تعالى واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت في بيتي أنزل انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت قالت فارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى فاطمة وعلي والحسن والحسين فقال هؤلاء أهل بيتي فقلت يا رسول الله اما أنا من أهل البيت فقال بلى ان شاء الله وقال زيد بن أرقم أهل بيته من حرم الصدقة بعده آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس قال الرازي والاولى أن يقال هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين وعلي منهم لانه كان من أهل بيته لمعاشرته بنت النبي صلى الله عليه وسلم وملازمته له ولما استعار للمعصية الرجس استعار للطاعة الطهر ترغيبا لاصحاب الطباع السليمة والعقول المستقيمة في الطاعة وتنفيرا لهم عن المعصية بقوله تعالى (ويطهركم) أي يفعل في طهركم الصيانة عن جميع القاذورات الحسية والمعنوية فعل المبالغ فيه وزاد ذلك عظما بالمصدر بقوله تعالى (تطهيرا) وعن ابن عباس قال شهدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا الصلاة رحمكم الله كل يوم خمس مرات ثم بين تعالى ما أنعم الله به عليهن من أن بيوتهن مهابط الوحي بقوله تعالى (واذكرن) أي في أنفسكن ذكرا دائما واذكرنه لغيركن على جهة الوعظ والتعليم (ما يتلى) أي يتابع ويوالي ذكره (في بيوتكن) أي بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم الذي خيركن وقوله تعالى (من آيات الله) أي القرآن بيان للموصول فيتعلق بأعني ويجوز أن يكون حالا اما من الموصول واما من عائده المقدر فيتعلق بمحذوف أيضا واختلف في قوله تعالى (والحكمة) فقال قتادة يعني السنة وقال مقاتل أحكام القرآن ومواعظه (ان الله) أي الذي له جميع العظمة (كان) أي ولم يزل (لطيفا) أي يوصل الى المقاصد بلطائف الاضداد (خبيرا) أي بجميع خلقه يعلم ما يسرون وما يعلنون لا تخفى عليه خافية فيعلم من يصلح لبيت النبي صلى الله عليه وسلم ومن لا وما يصلح الناس دينا ودنيا وما لا يصلحهم والطارق الموصلة

لكل ما قضاه وقدره وان كانت على غير ما يألفه الناس من انقطع الى الله كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها ولقد صدق الله تعالى وعده في لطفه وحقق بره في خبره بان فتح على نبيه صلى الله عليه وسلم خيبر فأفاض بها من رزقه الواسع ولما توفي نبيه صلى الله عليه وسلم ليحميه من زهرة الحياة الدنيا فتح الفتوحات الكبار من بلاد فارس والروم ومصر وما بقي من أين فم الفتح جميع الاقطار الشرق والغرب والجنوب والشمال ومكن أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم من كنوز تلك البلاد وذخائر أولئك الملوك حتى صار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يكيلون المال كيلا وزاد الامر حتى دون عمر رضي الله تعالى عنه الدواوين وفرض للناس عامة أرزاقهم حتى للرضعاء وكان أولا لا يفرض للمولود حتى يفطم فكانوا يستعجلون بالفطام فنادى مناديه لا تعجلوا أولادكم بالفطام فانا نفرض لكل مولود في الاسلام وفاوت بين الناس في العطاء بحسب القرب من النبي صلى الله عليه وسلم والبعد منه وبحسب السابقة في الاسلام والهجرة ونزل الناس منازلهم بحيث أرضى جميع الناس حتى قدم عليه خالد بن عرفطة فسأله عما وراءه فقال تركتهم يسألون الله تعالى أن يزيد في عمرك من أعمارهم قال عمر انما هو حقهم وأنا أسعى بأدائه اليهم واني لا عم بنصيحتي كل من طوقني الله أمره فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من مات غاشا لرعيته لم يرح ريح الجنة فكان فرضه لازواج النبي صلى الله عليه وسلم اثني عشر ألفا لكل واحدة وهي نحو ألف دينار في كل سنة وأعطى عائشة خمسة وعشرين ألفا لحب رسول الله صلى الله عليه وسلم اياها فأبت أن تأخذ الا ما تأخذه صواحباتها وروى عن برزة بنت رافع قالت لما خرج العطاء أرسل عمر الى زينب بنت جحش بالذي لها فلما أدخل اليها قالت غفر الله لعمر غيري من اخواتي أقوى على قسم هذا مني قالوا هذا كله لك قالت سبحان الله ثم قالت صبوه واطرحوا عليه ثوبا ثم قالت لي ادخلي يديك واقبضي منه قبضة فاذهبي بها الى بني فلان وبني فلان من ذوي رحمها وأيتامها ففعلته حتى بقيت منه بقية تحت الثوب قالت برزة بنت رافع غفر الله لك يا أم المؤمنين والله لقد كان لنا في هذا المال حق قالت فلكم ما تحت الثوب قالت فوجدنا تحته خمسمائة وثمانين درهما ثم رفعت يديها الى السماء وقالت اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعد عامي هذا فماتت قال البقاعي ذكر ذلك البلاذري في كتاب فتوح البلاد انتهى وعن مقاتل قال قالت أم سلمة بنت أبي أمية ونسيبة بنت كعب الانصارية للنبي صلى الله عليه وسلم ما بال ربنا يذكر الرجال ولا يذكر النساء في شيء من كتابه نخشى أن لا يكون فينا خير فأنزل الله تعالى (ان المسلمين والمسلمات) أي الداخلين في الاسلام المنقادين لحكم الله في القول والعمل * ولما كان الاسلام مع كونه أكمل الاوصاف وأعلاها يمكن أن يكون بالظاهر فقط أتبعه المحقق له وهو اسلام الباطن بالتصديق التام بغاية الاذعان فقال عاطفا له ولما بعده من الاوصاف التي يمكن اجتماعها بالواو وللدلالة على تمكن الجامعين لهذه الاوصاف في كل وصف منها (والمؤمنين والمؤمنات) أي المصدقين بما يجب أن يصدق به * ولما كان

المؤمن

المؤمن المسلم قدلايكون فى أعماله مخلصا قال (والقانتين والقانتات) أى المخلصين فى ايمانهم واسلامهم المداومين على الطاعة * ولما كان القنوت قديطلق على الاخلاص المقتضى للمداومة وقديطلق على مطلق الطاعة قال (والصادقين والصادقات) أى فى ذلك كله من قول وعمل * ولما كان الصدق وهو اخلاص القول والعمل عن شوب يلحقه أوشئ يدنسه قد لايكون دائما قال مشيرا الى أن مالايكون دائما لايكون صدقا فى الواقع (والصابرين والصابرات) أى على الطاعات وعن المعاصى * ولما كان الصبر قديكون محبة دل على صرفه الى الله بقوله تعالى (والخاشعين والخاشعات) أى المتواضعين لله تعالى بقلوبهم وجوارحهم * ولما كان الخشوع والخضوع والاخبات والسكون لايصح مع توفير المال فانه سكون اليه قال معلما انه اذذاك لايكون على حقيقته (والمتصدقين والمتصدقات) بما وجب فى أموالهم وبما استحب سرا وعلانية تصديقا لخشوعهم * ولما كان بذل المال قدلايكون مع الايثار اتبعه مايعين عليه بقوله تعالى (والصائمين والصائمات) أى فرضا ونفلا للايثار بالقوت وغيرذلك * ولما كان الصوم يكسر شهوة الفرج وقديثيرها قال تعالى (والحافظين فروجهم والحافظات) أى عما لايحل لهم وحذف مفعول الحافظات لتقدم مادل عليه والتقدير والحافظاتها وكذلك والذاكرات وحسن الحذف رؤس الفواصل * ولما كان حفظ الفرج وسائر الاعمال لايكاد يوجد الابالذكر وهوالذى يكون عنده المراقبة الموصلة الى المحاضرة المحققة للمشاهدة المحببة للفناء قال تعالى (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) أى بقلوبهم وألسنتهم فى كل حالة ومن علامات الاكثار من الذكر اللهج به عند الاستيقاظ من النوم وقال مجاهد لايكون العبد من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله تعالى قائما وقاعدا ومضطجعا روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال سبق المفردون قالوا وما المفردون قال الذاكرون الله تعالى كثيرا والذاكرات قال عطاء بن أبى رباح من فوض أمره الى الله عزوجل فهو داخل فى قوله تعالى ان المسلمين والمسلمات ومن أقر بأن الله تعالى ربه وبأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسوله ولم يخالف قلبه لسانه فهو داخل فى قوله تعالى والمؤمنين والمؤمنات ومن أطاع الله تعالى فى الفرض والرسول صلى الله عليه وسلم فى السنة فهو داخل فى قوله تعالى والقانتين والقانتات ومن صان قوله عن الكذب فهو داخل فى قوله تعالى والصادقين والصادقات ومن صبر على الطاعات وعن المعصية وعلى الرزية فهو داخل فى قوله تعالى والصابرين والصابرات ومن صلى ولم يعرف من عن يمينه وعن يساره فهو داخل فى قوله تعالى والخاشعين والخاشعات ومن تصدق فى كل أسبوع بدرهم فهو داخل فى قوله تعالى والمتصدقين والمتصدقات ومن صام فى كل شهر أيام البيض الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر فهو داخل فى قوله تعالى والصائمين والصائمات ومن حفظ فرجه عن الحرام فهو داخل فى قوله تعالى والحافظين فروجهم والحافظات ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل فى قوله تعالى والذاكرين الله كثيرا والذاكرات (أعدالله) أى الذى لايقدر أحد أن يقدره حق قدره مع انه لايعاظمه

شئ (لهم مغفرة) أى لما اقترفوه من الصغائر لانها مكفرات بفعل الطاعات والآية عامة وفضل الله تعالى واسع * ولما ذكر تعالى الفضل بالتجاوز أتبعه الفضل بالكرم والرحمة بقوله تعالى (وأجرا عظيما) أى على طاعتهم والآية وعد لهن ولامثالهن بالاثابة على الطاعة والتدرع بهذه الخصال وروى أن سبب نزول هذه الآية أن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم قلن يارسول الله ذكر الله الرجال فى القرآن ولم يذكر النساء بخير فما فينا خير نذكر به انا نخاف ان لا تقبل منا طاعة فأنزل الله تعالى هذه الآية روى أن أسماء بنت عميس رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبى طالب فدخلت على نساء النبى صلى الله عليه وسلم فقالت هل نزل فينا شئ من القرآن قلن لا فأتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله ان النساء لفى خيبة وخسار قال ومم ذاك قالت لانهن لا يذكرن بخير كما تذكر الرجال فأنزل الله عز وجل هذه الآية وقيل لما نزل فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم ما نزل قال نساء المسلمين فما نزل فينا شئ فنزلت * (تنبيه) * عطف الاناث على الذكور لاختلاف جنسهما والعطف فيه ضرورى لاختلافهما اذا تاوعطف الزوجين وهو مجموع المؤمنين والمؤمنات على الزوجين وهو مجموع المسلمين والمسلمات لتغاير وصفيهما وليس العطف فيه بضرورى بخلافه فى الاول لان اختلاف الجنس أشد من اختلاف الصفة وفائدة العطف عند تغاير الاوصاف الدلالة على أن اعداد المعد من المغفرة والاجر العظيم أى تهيئته للمذكورين للجمع بين هذه الصفات فصار المعنى ان الجامعين والجامعات لهذه الطاعات العشر أعد الله تعالى لهم مغفرة وأجرا عظيما وقوله تعالى (وما كان) أى وما صح (لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا) أى اذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الله تعالى لتعظيم أمره والاشعار بأنه قضاء الله تعالى نزلت فى زينب بنت جحش الاسدية وأخيها عبد الله بن جحش وأمها أمية بنت عبد المطلب عمة النبى صلى الله عليه وسلم لما خطب النبى صلى الله عليه وسلم زينب على مولاه زيد بن حارثة وكان اشترى زيدا فى الجاهلية بعكاظ فأعتقه وتبناه فلما خطب النبى صلى الله عليه وسلم زينب رضيت وظنت أنه يخطبها لنفسه فلما علمت أنه يخطبها لزيد بن حارثة أبت وقالت أنا ابنة عمتك يارسول الله فلا أرضاه لنفسى وكانت بيضاء جميلة فيها حدة وكذلك كره أخوها ذلك رواه الدارقطنى بسند ضعيف وقيل فى أم كلثوم بنت عقبة وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم فزوجها من زيد (أن تكون لهم الخيرة من أمرهم) أى أن يختاروا من أمرهم شيأ بل يجب عليهم أن يجعلوا اختيارهم تبعا لاختيار الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم * (تنبيه) * الخيرة مصدر من تخير كالطيرة من تطير على غير قياس وجمع الضمير فى قوله تعالى لهم وفى قوله تعالى من أمرهم لعموم مؤمن ومؤمنة من حيث انها فى سياق النفى ويجوز أن يكون الضمير فى من أمرهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وجمع للتعظيم كما جرى عليه البيضاوى وقرأ أن يكون الكوفيون وهشام بالياء التحتية والباقون بالفوقية ولانه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ومن عصاه فقد عصى الله تعالى كما قال تعالى (ومن يعص الله) أى الذى لا أمر لاحد معه (ورسوله) أى الذى معصيته معصية الله تعالى لكونه بينه وبين الخلق فى بيان ما أرسل به اليهم

وقوله

وقوله تعالى (فقد ضل) قرأه قالون وابن كثير وعاصم بالاظهار والباقون بالادغام وزاد ذلك بقوله تعالى (ضلالا مبينا) أى فقد أخطأ خطأ ظاهر الاخفاء فيه فالواجب على كل أحد أن يكون معه صلى الله عليه وسلم فى كل ما يختاره وان كان فيه أعظم المشقات عليه تخلقا بقول الشاعر

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى * متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتنى فأهنت نفسى عامدا * ما من يهون عليك ممن يكرم

فلما نزلت هذه الآية رضيت زينب بذلك وجعلت أمرها بيد النبى صلى الله عليه وسلم وكذلك أخوها فأنكحها صلى الله عليه وسلم زيدا فدخل بها وساق اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة دنانير وستين درهما وخمارا ودرعا وازارا وملحفة وخمسين مدا من الطعام وثلاثين صاعا من تمر ومكثت عنده حينا ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى زيدا ذات يوم لحاجة فأبصر زينب قائمة فى درع وخمار وكانت بيضاء جميلة ذات خلق من أتم نساء قريش فوقعت فى نفسه وأعجبه حسنها فقال سبحان الله مقلب القلوب وانصرف فلما جاء زيد ذكرت ذلك له ففطن زيد فألقى فى نفس زيد كراهتها فى الوقت فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى أريد أن أفارق صاحبتى قال مالك أرابك منها شئ قال لا والله يا رسول الله ما رأيت منها الا خيرا ولكنها تتعاظم على لشرفها وتؤذينى بلسانها فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أمسك عليك زوجك يعنى زينب بنت جحش واتق الله فى أمرها فأنزل الله تعالى (واذ تقول للذى أنعم الله) أى الملك الذى له كل الكمال (عليه) وتولى نبيه عليه الصلاة والسلام اياه وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بالاظهار والباقون بالادغام * ثم بين تعالى منزلته من النبى صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وأنعمت عليه) أى بالعتق والتبنى حيث استشارك فى فراق زوجته التى أخبرك الله تعالى أنه يفارقها وتصير زوجتك (أمسك عليك زوجك) أى زينب رضى الله عنها (واتق الله) الذى له جميع العظمة فى جميع أمرك (وتخفى) أى والحال انك تخفى أى تقول قولا مخفيا (ما فى نفسك) أى ما أخبرك الله من أنها ستصير احدى زوجاتك عند طلاق زيد (ما الله مبديه) أى مظهره بحمل زيد على تطليقها وان أمرته بامساكها وتزويجك بها وأمرك بالدخول عليها وهذا دليل على انه ما أخفى غير ما أعلمه الله تعالى من انها ستصير زوجته عند طلاق زيد لان الله تعالى ما أبدى غير ذلك ولو أخفى غيره لابداه سبحانه لانه لا يبدل قوله وقول ابن عباس كان فى قلبه حبها بعيد وكذا قول قتادة ود لو أنه لو طلقها زيد وكذا قول غيرهما كان فى قلبه لو فارقها زيد تزوجها * ولما ذكر تعالى اخفاءه ذلك ذكر علته بقوله تعالى عاطفا على تخفى (وتخشى الناس) أى من ان تخبر بما أخبر الله تعالى به فيه ويوالك مرجفات الظنون لاسيما اليهود والمنافقون وقال ابن عباس والحسن تستحيهم وقيل تخاف لائمة الناس أن يقولوا أمر رجلا بطلاق امرأته ثم نكحها (والله) أى والحال ان الذى لا شئ أعظم منه (أحق ان تخشاه) أى وحده ولا تجمع خشية الناس مع خشيته فى أن تؤخر شيأ أخبرك به حتى يأتيك فيه أمر قال عمر وابن

مسعود وعائشة ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هي أشد عليه من هذه وروى
عن مسروق قال قالت عائشة لو كتم النبي صلى الله عليه وسلم شيأ مما أوحي اليه لكتم هذه الآية
وتخفي في نفسك ما الله مبديه ويؤيد ما مر ما روى سفيان بن عيينة عن علي عن زيد بن جدعان
قال سألني علي بن الحسين زين العابدين ما يقول الحسن في قوله تعالى وتخفي في نفسك ما الله
مبديه وتخشى الناس والله أحق ان تخشاه قال قلت يقول لما جاء زيد الى النبي صلى الله عليه
وسلم قال يا رسول الله اني أريد أن أطلقها فقال له امسك عليك زوجك فقال علي بن الحسين
ليس كذلك لان الله تعالى قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه وان زيدا سيطلقها فلما جاء زيد
وقال اني أريد أن أطلقها قال له أمسك عليك زوجك فعاتبه الله تعالى وقال لم قلت أمسك
عليك زوجك وقد أعلمتك انها ستكون من أزواجك وهذا هو اللائق والاليق بحال الانبياء
عليهم السلام وهو مطابق للتلاوة لان الله تعالى أعلم انه يبدي ويظهر ما أخفاه ولم يظهر غير
تزويجها منه فقال تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا) أي حاجة من زواجها والدخول بها
وذلك بانقضاء عدتها منه لان به يعرف انه لا حاجة له فيها وانه قد تقاصرت عنها همته
والا راجعها (زوجناكها) أي ولم نحوجك الى ولي من الخلق يعقد لك عليها تشريفا لك ولها
بما لنا من العظمة التي خرقنا بها عوائد الخلق حتى اذعن لذلك كل من علم به وسرت به جميع
النفوس ولم يقدر منافق ولا غيره على الخوض في ذلك ببنت شفة مما يوهنه ويؤثر فيه فلو كان
الذي أضمره رسول الله صلى الله عليه وسلم محبتها أو ارادة طلاقها لكان يظهر ذلك لانه لا يجوز
أن يخبر أنه يظهره ثم يكتمه فلا يظهره فدل على أنه انما عوتب على اخفاء ما أعلمه الله تعالى
من أنها ستكون زوجة له وانما أخفاه استحياء أن يقول لزيد ان التي تحتك وفي نكاحك
ستكون امرأتي قال البغوي وهذا هو الاولى والاليق وان كان الآخر وهو انه أخفى
محبتها أو نكاحها لو طلقها لا يقدح في حال الانبياء عليهم السلام لان العبد غير ملوم على ما يقع
في قلبه من مثل هذه الاشياء ما لم يقصد فيه المأثم لان الود وميل النفس من طبع البشر وقوله
امسك عليك زوجك واتق الله أمر بالمعروف وهو خشية الاثم فيه وقوله والله أحق ان تخشاه
لم يرد به انه لم يكن يخشى الله فيما سبق فانه عليه الصلاة والسلام قال أنا أخشاكم لله واتقاكم له
ولكن المعنى الله أحق ان تخشاه وحده ولا تخشى أحدا معه فأنت تخشاه وتخشى الناس أيضا
ولكنه لما ذكر الخشية من الناس ذكر ان الله أحق بالخشية في عموم الاحوال وفي جميع الاشياء
انتهى وذكر قضاء الوطر ليعلم ان زوجة المتبنى تحل بعد الدخول بها اذا طلقت وانقضت عدتها
روى مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم لزيد اذهب فاذكرها علي قال فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال فلما رأيتها
عظمت في صدري حتى ما استطيع ان أنظر اليها لان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فوليتها
ظهري ونكصت على عقبي فقلت يا زينب ارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك قالت ما أنا
بصانعة شيأ حتى أؤامر ربي فقامت الى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال علي بن الحسين الخ غير مستقيم اهـ

فدخل عليها بغير اذن قال ولقد رأيتنا ان رسول الله صلى الله وسلم أطعمنا الخبز واللحم حتى امتد النهار فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعته فجعل يتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن يارسول الله كيف وجدت أهلك قال فما أدرى أنا أخبرته ان القوم خرجوا أو أخبرنى قال فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بينى وبينه ونزل الحجاب وعن أنس رضى الله عنه قال ما أولم النبى صلى الله عليه وسلم على شئ من نسائه ما أولم على زينب أولم بشاة وفى رواية أكثر وأفضل ما أولم على زينب قال ثابت فما أولم قال أطعمهم خبزا ولحما حتى تركوه قال أنس رضى الله عنه كانت زينب تفخر على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم تقول زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات وقال الشعبى كانت زينب تقول للنبى صلى الله عليه وسلم انى لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن جدى وجدك واحد وأنكحنيك الله فى السماء وان السفير جبريل عليه السلام وأخرج ابن سعد والحاكم عن محمد بن يحيى بن حبان قال جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت زيد بن حارثة يطلبه وكان زيد يقال له زيد ابن محمد فربما فقده رسول الله صلى الله عليه وسلم الساعة فيقول أين زيد فجاء منزله يطلبه فلم يجده وتقوم اليه زينب بنت جحش زوجته فضلا فأعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقالت ليس هو ههنا يارسول الله فادخل فأبى أن يدخل فأعجبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فولى وهو يهمهم بشئ لا يكاد يفهم منه الا ربما أعلن بسبحان الله العظيم سبحان مصرف القلوب فجاء زيد الى منزله فأخبرته امرأته ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى منزله فقال زيد ألا قلت له ان يدخل قالت قد عرضت ذلك عليه فأبى قال فسمعت شيأ منه قالت سمعته حين ولى تكلم بكلام لا أفهمه وسمعته يقول سبحان الله العظيم سبحان مصرف القلوب فجاء زيد حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله بلغنى انك جئت منزلى فهلا دخلت يارسول الله لعل زينب أعجبتك فأفارقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم امسك عليك زوجك فما استطاع زيد اليها سبيلا بعد ذلك اليوم فيأتى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبره فيقول امسك عليك زوجك ففارقها زيد واعتزلها وانقضت عدتها فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس يتحدث مع عائشة اذ أخذته غشية فسرى عنه وهو يتبسم ويقول من يذهب الى زينب يبشرها ان الله زوجنيها من السماء وقرأ واذ تقول للذى الآية قالت عائشة فأخذنى ماقرب ومابعد لما يبلغنا من جمالها وأخرى هى أعظم الامور وأشرفها زوجها الله من السماء وقلت هى تفخر علينا بهذا ٭ ولما ذكر تعالى التزويج على ماله من العظمة ذكر علته بقوله تعالى (لكى لا يكون على المؤمنين حرج) أى ضيق واثم (فى أزواج أدعيائهم) أى الذين تبنوهم وأجروهم فى تحريم أزواجهم مجرى أزواج البنين على الحقيقة (اذا قضوا منهن وطرا) أى حاجة بالدخول بهن ثم الطلاق وانقضاء العدة ٭(فائدة)٭ لا مقطوعة فى الرسم من لكى ٭(تنبيه)٭ الادعياء جمع دعى وهو المتبنى أى زوجناك زينب وهى امرأة زيد الذى تبنيته

ليعلم ان زوجة المتبنى حلال للمتبنى وان كان قد دخل بها المتبنى بخلاف امرأة ابن الصلب لا تحل للاب (وكان أمر الله) من الحكم بتزويجها وان كرهت وتركت اظهارها أخبرك الله تعالى به كراهية لسوء المقالة واستحياء من ذلك وكذا كل أمر يريده سبحانه (مفعولا) أى قضاء الله تعالى ماضيا وحكمه نافذا فى كل ما أراده لا معقب لحكمه (ما كان على النبي) أى الذى منزلته من الله تعالى الاطلاع على ما لا يطلع عليه غيره من الخلق (من حرج فيما فرض) أى قدر (الله) بما له من صفات الكمال وأوجبه (له) لانه لم يكن على المؤمنين مطلقا حرج فى ذلك فكيف برأس المؤمنين وقوله تعالى (سنة الله) منصوب بنزع الخافض أى كسنة الله (فى الذين خلوا من قبل) من الانبياء عليهم السلام أنه لا حرج عليهم فيما أباح لهم قال الكلبى ومقاتل أراد داود عليه السلام حين جمع بينه وبين المرأة التى هويها فكذلك جمع بين محمد وبين زينب وقيل أراد بالسنة النكاح فانه من سنة الانبياء عليهم السلام فكان من كان من الانبياء عليهم السلام هذا سنتهم فقد كان لسليمان بن داود عليهما السلام ألف امرأة وكان لداود مائة امرأة (وكان أمر الله) أى قضاء الملك الاعظم فى ذلك وغيره (قدرا) وأكده بقوله تعالى (مقدورا) أى لا خلف فيه ولا بد من وقوعه فى حينه الذى حكم بكونه فيه وقوله تعالى (الذين) نعت للذين قبله (يبلغون) أى الى أممهم (رسالات الله) أى الملك الاعظم سواء كانت فى نكاح أم غيره (ويخشونه) أى فيخبرون بكل ما أخبرهم به (ولا يخشون أحدا) قل أوجل (الا الله) فلا يخشون قالة الناس فيما أحل الله لهم (وكفى بالله) أى المحيط بجميع صفات الكمال (حسيبا) أى حافظا لاعمال خلقه ومحاسبهم * ولما أفاد هذا كله ان الدعى ليس ابنا وكانوا قد قالوا لما تزوج زينب كما رواه الترمذى عن عائشة تزوج حليلة ابنه قال تعالى (ما كان) أى بوجه من الوجوه (محمد) أى على كثرة نسائه وأولاده (أبا أحد من رجالكم) لا مجازا بالتبنى ولا حقيقة بالولادة فثبت بذلك انه يحرم عليه زوجة الابن ولم يقل تعالى من بنيكم لانه لم يكن له فى ذلك الوقت سنة خمس وما دانها ابن ذكر لعلمه تعالى انه سيولد له ابنه ابراهيم عليه السلام مع ما كان له قبله من البنين الطاهر والطيب والقاسم وانه لم يبلغ أحد منهم الحلم عليهم السلام قال البيضاوى ولو بلغوا لكانوا رجاله لا رجالهم انتهى وهذا انما يأتى على ان المراد التبنى وقال البغوى والصحيح انه أراد بأحد من رجالكم الذين لم يلدهم انتهى ومع هذا الاول أوجه كما جرى عليه البقاعى * ثم لما نفى تعالى أبوته عنهم قال (ولكن) كان فى علم الله غيبا وشهادة (رسول الله) أى الملك الاعظم الذى كل من سواه عبده (وخاتم النبيين) أى آخرهم الذى ختمهم لان رسالته عامة ومعها اعجاز القرآن فلا حاجة مع ذلك الى استنباء ولا ارسال وذلك مفض لئلا يبلغ له ولد اذلو بلغ له ولد لاق بمنصبه ان يكون نبيا اكراما له لانه أعلى النبيين رتبة وأعظمهم شرفا وليس لاحد من الانبياء كرامة الا وله مثلها وأعظم منها ولو صار أحد من ولده رجلا لكان نبيا بعد ظهور نبوته وقد قضى الله تعالى ان لا يكون بعده نبى اكراما له روى أحمد وابن ماجه عن أنس وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم

قال

قال فى ابنه ابراهيم عليه السلام لو عاش لكان صديقا نبيا وللبخارى نحوه عن البراء بن عازب وللبخارى من حديث بن أبى أوفى لو قضى أن يكون بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبى لعاش ابنه ولكن لانبى بعده وقال ابن عباس رضى الله عنهما يريد لولم اختم به النبيين لجعلت له ابنا يكون من بعده نبيا وروى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنه لما حكم أنه لانبى بعده لم يعطه ولدا ذكرا يصير رجلا وقيل من لانبى بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم اذ هو كالولد لولد ليس له غيره والحاصل أنه لا يأتى بعده نبى مطلقا بشرع جديد ولا يتجدد بعده مطلقا استنباء وهذه الآية مثبتة لكونه خاتما على أبلغ وجه وأعظمه وذلك أنها فى سياق الانكار بأن يكون بينه وبين أحد من رجالهم بنوة حقيقية أو مجازية ولو كانت بعده لاحد لم يكن ذلك الالولده ولان فائدة اثبات النبى تتميم شئ لم يأت به من قبله وقد حصل به صلى الله عليه وسلم التمام فلم يبق بعد ذلك مرام بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وأما تجديد ما وهى مما أحدث بعض الفسقة فالعلماء كافون فيه لوجود ما خص به صلى الله عليه وسلم من هذا القرآن المعجز الذى من سمعه فكأنما سمعه من الله عزوجل لوقوع التحقق والقطع بأنه لا يقدر غيره أن يقول شيأ منه فهما حصل ذهول عن ذلك قرره من يريد الله تعالى من العلماء فيعود الاستبصار كما روى فى بعض الآثار علماء امتى كأنبياء بنى اسرائل وأما اتيان عيسى عليه السلام بعد تجديد الهدى لجميع ما وهى من أركان المكارم فلاجل فتنة الدجال ثم طامة يأجوج ومأجوج ونحو ذلك مما لايستقل باعبائه غير نبى وما أحسن قول حسان بن ثابت فى مرثية لابراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم

مضى ابنك محمود العواقب لم يشب * بعيب ولم يذمم بقول ولافعل

رأى انه ان عاش ساواك فى العلا * فآثر أن تبقى وحيدا بلا مثل

وقال الغزالى فى آخر كتابه الاقتصاد ان الامة فهمت من هذا اللفظ ومن قرائن أحواله صلى الله عليه وسلم انه أفهم عدم نبى بعده أبدا وعدم رسول بعده أبدا وانه ليس فيه تأويل ولاتخصيص وقال ان من أوله بتخصيص النبيين بأولى العزم من الرسل ونحو هذا فكلامه من أنواع الهذيان لايمنع الحكم بتكفيره لانه مكذب لهذا النص الذى أجمعت الامة على أنه غير مؤول ولامخصوص انتهى وقد بان بهذا ان اتيان عيسى عليه السلام غير قادح فى هذا النص فانه من أمته صلى الله عليه وسلم المقررين لشريعته وهو قد كان نبيا قبله لم يتجدد له شئ لم يكن فلم يكن ذلك قادحا فى الختم وهو مثبت لشرف نبينا صلى الله عليه وسلم اذ لولاه لما وجد وذلك انه لم يكن لنبى من الانبياء شرف الاوله صلى الله عليه وسلم مثله أو أعلى منه وقد كانت الانبياء تأتى مقررة لشريعة موسى عليه السلام مجددة لها فكان المقرر لشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم المتبع لملته من كان ناسخا لشريعة موسى صلى الله عليه وسلم وقرأ عاصم بفتح التاء والباقون بكسرها فالفتح اسم للآلة التى يختم بها كالطابع والقالب لما يطبع به ويقلب فيه يقلب فيه والكسر على انه اسم فاعل وقال بعضهم هو بمعنى المفتوح بمعنى آخرهم لانه ختم النبيين فهو خاتمهم (وكان الله) أى الذى له كل صفة كمال ازلا وأبدا (بكل شئ) من

ذلك وغيره (عليما) فيعلم من يليق بالختم ومن يليق بالبدء قال الاستاذ ولى الدين الملوى
فى كتابه حسن النفوس فى سؤال القبر واختصاصه صلى الله عليه وسلم بالاحمدية والمحمدية علما
وصفة برهان على ختمه اذ الحمد مقرون بانقضاء الامور ومشروع عنده وآخر دعواهم
ان الحمد لله رب العالمين وروى أبو هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
مثلى ومثل الانبياء كمثل قصر أحسكم بنيانه ترك منه موضع لبنة فطاف به النظار يتعجبون
من حسن بنائه الا موضع تلك اللبنة لا يعيبون بسواها فكنت انا موضع تلك اللبنة ختم بى
البنيان وختم بى الرسل وقال عليه الصلاة والسلام ان لى اسماء أنا محمد وأنا أحمد
وأنا الماحى يمحو الله تعالى بى الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الله تعالى الناس على
قدمى وأنا العاقب والعاقب الذى ليس بعده نبى * ولما كان ما أثبته لنفسه سبحانه وتعالى
من احاطة العلم مستلزما للاحاطة بأوصاف الكمال قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى ادعوا
ذلك بألسنتهم (اذكروا الله) الذى هو أعظم من كل شئ تصديقا لدعوا كم ذلك (ذكرا كثيرا)
قال ابن عباس لم يفرض الله تعالى على عباده فريضة الا جعل لها حدا معلوما ثم عذر أهلها
فى حال العذر غير الذكر فانه لم يجعل له حدا ينتهى اليه ولم يعذر أحدا فى تركه الا مغلوبا على عقله
وأمرهم به فى الاحوال فقال تعالى فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم وقال تعالى اذكروا
الله ذكرا كثيرا أى بالليل والنهار والبر والبحر والصحة والسقم فى السر والعلانية وقال مجاهد
الذكر الكثير أن لا ينساه أبدا فيعم ذلك سائر الاوقات وسائر ما هو أهله من التقديس والتهليل
والتمجيد (وسبحوه بكرة وأصيلا) أى أول النهار وآخره خصوصا وتخصيصهما بالذكر للدلالة
على فضلهما على سائر الاوقات لكونهما مشهودين كافراد التسبيح من جملة الاذكار لانه العمدة
فيها وقال البغوى وسبحوه أى صلوا له بكرة أى صلاة الصبح وأصيلا يعنى صلاة العصر وقال الكلبى
وأصيلا يعنى صلاة الظهر والعصر والعشاءين وقال مجاهد معناه قولوا سبحان الله والحمد لله
ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله فعبر بالتسبيح عن اخوانه وقيل المراد من قوله
تعالى ذكرا كثيرا هذه الكلمات يقولها الطاهر والجنب والمحدث * وعن أنس لما نزل قوله تعالى
ان الله وملائكته يصلون على النبى وقال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله ما أنزل الله تعالى
عليك خيرا الا أشركنا فيه أنزل الله تعالى (هو الذى يصلى عليكم) أى يرحمكم (وملائكته) أى
يستغفرون لكم فالصلاة من الله تعالى رحمة ومن الملائكة استغفار للمؤمنين فذكر صلاته
تحريضا للمؤمنين على الذكر والتسبيح قال السدى قالت بنو اسرائيل لموسى عليه السلام
أيصلى ربنا فكبر هذا الكلام على موسى فأوحى الله تعالى اليه قل لهم انى أصلى وان صلاتى
رحمتى وقد وسعت رحمتى كل شئ وقيل الصلاة من الله هى اشاعة الذكر الجميل له فى عباده وقيل
الثناء عليه واستغفار الملائكة ودعاؤهم للمؤمنين ترحم عليهم وهو سبب للرحمة من حيث انهم
مجابو الدعوة فقد اشتركت الصلاتان واللفظ المشترك يجوز استعماله فى معنييه معا وكذلك
الجمع بين الحقيقة والمجاز فى لفظ جائز قال الرازى وينسب هذا القول للشافعى رحمه الله تعالى

وهو غير بعيد وذلك لان الرحمة والاستغفار مشترك في العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمنية * ولما كان فعل الملائكة منسوبا اليه قال تعالى (ليخرجكم) أي ليديم اخراجه اياكم بذلك (من الظلمات) أي الكفر والمعصية (الى النور) الى الايمان والطاعة أو ليخرجكم من الجهل الموجب للضلال الى العلم المثمر للهدى (وكان) أي أزلا وأبدا (بالمؤمنين) أي الذين صار الايمان وصفا لهم (رحيما) أي بليغ الرحمة بتوفيقهم حيث اعتنى بصلاح أمرهم واستعمل في ذلك ملائكته المقربين فحملهم ذلك على الاخلاص في الطاعات فرفع لهم الدرجات في روضات الجنات (تحيتهم) أي المؤمنين (يوم يلقونه) أي يرون الله تعالى (سلام) أي يسلم الله تعالى عليهم ويسلمهم من جميع الآفات وروى عن البراء بن عازب قال تحيتهم يوم يلقونه سلام يعني يلقون ملك الموت فلا يقبض روح مؤمن الا يسلم عليه وعن ابن مسعود قال اذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال ربك يقرئك السلام وقيل تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم حين يخرجون من قبورهم (وأعد) أي والحال انه أعد (لهم) أي بعد السلامة الدائمة (أجرا كريما) هو الجنة وتقدم ذكر الكريم في الرزق (فان قيل) الاعداد انما يكون ممن لا يقدر عند الحاجة الى الشئ عليه واما الله تعالى فغير محتاج ولا عاجز فحيث يلقاه يؤتيه ما يرضى به وزيادة فما معنى الاعداد من قبل (أجيب) بان الاعداد للاكرام لا للحاجة قال البيضاوي ولعل اختلاف النظم لمحافظة الفواصل والمبالغة فيما هو أهم (يا أيها النبي) أي الذي نخبره بما لا يطلع عليه غيره (انا أرسلناك) أي بعظمتنا الى سائر خلقنا (شاهدا) أي عليهم بتصديقهم وتكذيبهم ونجاتهم وضلالتهم او شاهدا للرسل بالتبليغ وهو حال مقدرة أو مقارنة لقرب الزمان (ومبشرا) أي لمن آمن بالجنة (ونذيرا) أي لمن كذب بالنار (وداعيا الى الله) أي الى توحيده وطاعته وقوله تعالى (باذنه) حال أي متلبسا بتسهيله ولا يريد حقيقة الاذن لانه مستفاد من أرسلناك (وسراجا) أي مثله في الاهتداء به يجلي البصائر في ظلمات الجهل بالعلم للمبصر لمواقع الزلل كما يجلي النور الحسي نور الابصار (منيرا) أي نيرا على من اتبعه فيصير في أعظم ضياء ومن تخلف عنه كان في أشد ظلام وعبر به دون الشمس مع أن الشمس أشد اضاءة من السراج لان نور الشمس لا يؤخذ منه شئ والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة اذا انطفأ الاول يبقى الذي أخذ منه وكذلك ان غاب النبي صلى الله عليه وسلم كان كل صحابي سراجا يؤخذ منه نور الهداية كما قال صلى الله عليه وسلم أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم قال ابن عادل وفي هذا الخبر لطيفة وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجعل أصحابه كالسرج وجعلهم كالنجوم لان النجم لا يؤخذ منه نور بل له في نفسه نور اذا غرب لا يبقى نور يستفاد منه فكذلك الصحابي اذا مات فالتابعي يستنير بنور النبي صلى الله عليه وسلم فلا يؤخذ الا قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله فأنوار المجتهدين كلهم من النبي صلى الله عليه وسلم ولو جعلهم كالسرج والنبي صلى الله عليه وسلم كان سراجا كان للمجتهدات يستنير عن أراد منهم ويأخذ النور عن اختار وليس كذلك فان مع نص النبي صلى الله عليه وسلم لا يعمل بقول الصحابي بل يؤخذ

النور ومن النبي صلى الله عليه وسلم ولا يؤخذ من الصحابي فلم يجعله سراجا *(تنبيه)* جوز الفراء أن يكون الاصل وتاليا سراجا ويعني بالسراج القرآن وعلى هذا فيكون من عطف الصفات وهي الذات واحدة لان التالي هو المرسل وقوله تعالى (وبشر المؤمنين) عطف على محذوف مثل فراقب أحوال أمتك ولم يقل انذر المعرضين اشارة للكرم وقوله تعالى (بأن لهم من الله فضلا كبيرا) كقوله تعالى أعد لهم أجرا عظيما والعظيم والكبير متقاربان * ولما أمره سبحانه وتعالى بما يسر نهاه عما يضر بقوله تعالى (ولا تطع الكافرين والمنافقين) أي لا تترك ابلاغ شيء مما أنزلت اليك من الانذار وغيره كراهة لشيء من مقالهم وافعالهم في أمر زينب وغيرها فانك نذير لهم وزاد على ما في أول السورة محط الفائدة في قوله مصرحا بما اقتضاه ما قبله (ودع) أي اترك على حالة حسنة لك وأمر جميل بك (أذاهم) فلا تحسب له حسابا أصلا واصبر عليه فان الله تعالى دافع عنك لانك داع باذنه (وتوكل على الله) أي الملك الاعلى (وكفى بالله) أي الذي له الاحاطة الكاملة (وكيلا) أي حافظا قال البغوي وهذا منسوخ بآية القتال ولما بدأ الله تعالى بتأديب النبي صلى الله عليه وسلم بذكر ما يتعلق بجانب الله تعالى بقوله تعالى يا أيها النبي اتق الله وثنى بما يتعلق بجانب من هو تحت يده من أزواجه الشريفات بقوله تعالى بعده يا أيها النبي قل لازواجك وثلث بما يتعلق بذكر العامة بقوله تعالى يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا وكان تعالى كلما ذكر لنبيه مكرمة وعلمه أدبا ذكر للمؤمنين ما يناسبه فلذلك بدأ في ارشاد المؤمنين بجانب الله تعالى فقال يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ثم ثنى بما يتعلق بجانب من تحت أيديهم بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات) أي عقدتم على الموصوفات بهذا الوصف الشريف المقتضي لغاية الرغبة فيهن وأتم الوصلة بينكم وبينهن ثم كما ثلث في تأديب النبي صلى الله عليه وسلم بجانب الامة ثلث في حق المؤمنين بما يتعلق بهم فقال بعد هذا يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما (فان قيل) اذا كان هذا ارشادا بما يتعلق بجانب من هو من خواص المرأة فلم خص المطلقات اللاتي طلقن قبل المسيس بقوله تعالى (ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) أي تجامعوهن أطلق المس على الجماع لانه طريق له كما سمي الخمر اثما لانه سببه (أجيب) بأن هذا ارشاد الى أعلى درجات المكرمات ليعلم منها ما دونها وبيانه ان المرأة اذا طلقت قبل المسيس لم يحصل بينهما تأكيد العهد ولهذا قال تعالى في حق الممسوسة وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا فاذا أمر الله تعالى بالتمتع والاحسان مع من لا مودة بينه وبينها فما ظنك بما حصلت المودة بالنسبة اليها بالافضاء أو حصل تأكدها بحصول الولد بينهما وهذا كقوله تعالى فلا تقل لهما أف ولو قال لا تضربهما ولا تشتمهما ظن انه حرام لمعنى يختص بالضرب أو الشتم لهما فأما اذا قال لا تقل لهما أف علم منه معان كثيرة فكذلك ههنا أمر بالاحسان مع من لا مودة معها فعلم منه الاحسان الى الممسوسة ومن لم تطلق بعد ومن ولدت عنده منه وقرأ حمزة والكسائي بضم التاء وألف بعد الميم والباقون بفتح

التاء ولا ألف بعد الميم * ولما كانت العدة حقا للرجال وان كانت لا تسقط باسقاطهم لما فيها من حق الله تعالى قال تعالى (فما لكم عليهن من عدة) أى أياما يتربصن فيها بأنفسهن (تعتدونها) أى تحصونها وتستوفونها بالاقراء وغيرها فتعتدونها صفة لعدة وتعتدونها اما من العدد واما من الاعتداد أى تحسبونها أو تستوفون عددها من قولك عد الدراهم فاعتدها أى استوفى عددها نحو كلته فاكتال ووزنته فاتزن (فان قيل) ما الفائدة فى الاتيان بثم وحكم من طلقت على الفور بعد العقد كذلك (أجيب) بأن ذلك ازاحة لما عسى يتوهم ان تراخى الطلاق ريثما تمكن الاصابة كما يؤثر فى النسب يؤثر فى العدة وظاهره يقتضى عدم وجوب العدة بمجرد الخلوة وتخصيص المؤمنات والحكم عام للتنبيه على ان شأن المؤمن ان لا ينكح الا مؤمنة تخيرا لنطفة المؤمن وفى هذه الآية دليل على ان تعليق الطلاق قبل النكاح لا يصح لان الله تعالى رتب الطلاق بكلمة ثم وهى للتراخى حتى لو قال لاجنبية اذا نكحتك فانت طالق أو كل امرأة أتزوجها فهى طالق فنكح لا يقع الطلاق وهو قول على وابن مسعود وجابر ومعاذ وعائشة رضى الله تعالى عنهم وبه قال أهل العلم منهم الشافعى وأحمد رضى الله تعالى عنهما وروى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال يقع الطلاق وهو قول ابراهيم النخعى وأصحاب الرأى وقال ربيعة ومالك والاوزاعى ان عين امرأة يقع وان عمم فلا يقع وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال كذبوا على ابن مسعود رضى الله عنه ان كان قالها فزلة من عالم فى الرجل يقول ان تزوجت فلانة فهى طالق يقول الله تعالى اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ولم يقل اذا طلقتموهن ثم نكحتموهن وروى عطاء عن جابر لا طلاق قبل النكاح وقوله تعالى (فمتعوهن) أى أعطوهن ما يستمتعن به محله كما قال ابن عباس رضى الله عنه اذا لم يكن سمى لها صداقا فان سمى فلها نصف الصداق ولا متعة لها وقال قتادة هذه الآية منسوخة بقوله تعالى فنصف ما فرضتم أى فلا متعة لها مع وجوب نصف الفرض واختلف فى المتعة هل هى واجبة أو مندوبة وهى عندنا واجبة بشروط وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى فتعالين أمتعكن وعند بعض الائمة انها مندوبة وقال بعضهم هى مندوبة عند استحقاقها نصف المهر وواجبة عند عدمه وذهب بعضهم الى انها تستحق المتعة بكل حال لظاهر الآية (وسرحوهن سراحا جميلا) أى خلوا سبيلهن بالمعروف من غير ضرار وليس لكم عليهن عدة (وقيل) السراح الجميل أن لا يطالب بما دفعه اليها بأن يخلى لها جميع المهر وقوله تعالى (يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن) أى مهورهن لان المهر أجر على البضع بيان لايثار الافضل له لا لتوقف الحل عليه وليفيد احلال المملوكة بكونها مسبية بقوله تعالى (وما ملكت يمينك مما أفاء الله) أى الذى له الامر كله (عليك) مثل صفية بنت حيى النضيرية وريحانة القرظية وجويرية بنت الحرث الخزاعية مما كان فى ايدى الكفار وتقييد الاقارب بكونهن مهاجرات معه فى قوله تعالى (وبنات عمك) أى الشقيق وغيره (وبنات عماتك) أى نساء قريش ولما بدأ بالعمومة لشرفها أتبعها قوله تعالى (وبنات خالك) جاريا

في الافراد والجمع على ذلك النحو (وبنات خالاتك) من نساء بني زهرة وقال البقاعي ويمكن في ذلك احتمال عجيب وهو وبنات عمك وبنات أعمامك وبنات عماتك وبنات عمتك وبنات خالك وبنات أخوالك وبنات خالاتك وبنات خالتك انتهى وقوله تعالى (اللاتي هاجرن معك) يحتمل تقييد الحل بذلك في حقه خاصة ويعضده ماروى الترمذي والحاكم عن أم هانئ بنت أبي طالب انها قالت في خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت اليه فعذرني ثم أنزل الله تعالى انا أحللنا لك أزواجك الآية فلم أكن لاحل له لاني لم أهاجر كنت من الطلقاء أي الاسراء الذين أطلقوا من الاسر وخلي سبيلهم قال ابن عادل ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل انتهى ثم ان الله تعالى ذكر ما خص به نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وامرأة) أي حرة (مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي ان أراد النبي) أي الذي أعلينا قدره بما خصصناه به (أن يستنكحها) أي يوجد نكاحه لها بجعلها من منكوحاته فتصيرله بمجرد ذلك بلا مهر ولا ولي ولا شهود وخرج بالمؤمنة الكتابية فلا تحل له لانها تكره صحبته ولانه أشرف من أن يضع ماءه في رحم كافرة ولقوله تعالى وأزواجه أمهاتهم ولا يجوز أن تكون المشركة أم المؤمنين ولخبر سألت ربي أن لا أزوج الامن كان معي في الجنة فأعطاني رواه الحاكم وصحح اسناده وأما التسري بالكتابية فلا يحرم عليه قال الماوردي لانه صلى الله عليه وسلم تسرى بريحانة وكانت يهودية من بني قريظة واستشكل بهذا تعليلهم السابق بأنه أشرف من أن يضع ماءه في رحم كافرة وأجيب بأن القصد بالنكاح أصالة التوالد فاحتيط له وبأنه يلزم فيه أن تكون الزوجة المشركة أم المؤمنين بخلاف الملك فيهما وخرج بالحرة الرقيقة وان كانت مؤمنة لان نكاحها معتبر بخوف العنت وهو معصوم وبفقدان مهر حرة ونكاحه غني عن المهر ابتداء وانتهاء وبرق الولد ومنصبه صلى الله عليه وسلم منزه عنه *(تنبيه)* في نصب امرأة وجهان أحدهما أنه عطف على مفعول أحللنا أي وأحللنا لك امرأة موصوفة بهذين الشرطين قال أبو البقاء وقد رد هذا قوم وقالوا أحللنا ماض وان وهبت وهو صفة المرأة مستقبل فأحللنا في موضع جوابه وجواب الشرط لا يكون ماضيا في المعنى قال وهذا ليس بصحيح لان معنى الاحلال ههنا الاعلام بالحل اذا وقع الفعل على ذلك كما تقول أبحت لك أن تكلم فلانا ان سلم عليك والثاني أنه نصب بمقدر تقديره ويحل لك امرأة وفي قول الله تعالى ان وهبت ان أراد اعتراض الشرط على الشرط والثاني هو قيد في الاول ولذلك نعربه حالا لان الحال قيد ولهذا اشترط الفقهاء أن يتقدم الثاني على الاول في الوجود فلو قال لزوجته ان أكلت ان ركبت فأنت طالق فلابد أن يتقدم الركوب على الاكل وهذا لتحقيق الحالية والتقييد كما ذكر اذلو لم يتقدم لخلا جزء من الاكل غير مقيد بركوب فلهذا اشترط تقدم الثاني ولكن يشترط أن لا يكون ثم قرينة تمنع من تقدم الثاني على الاول كقوله لامرأة ان تزوجتك ان طلقتك فعبدي حر لا يتصور هنا تقدم الطلاق على التزوج قال بعض المفسرين وقد عرض لي اشكال على ما قاله الفقهاء بهذه الآية وذلك أن الشرط الثاني ههنا لا يمكن تقدمه في الوجود بالنسبة الى الحكم بالنبي صلى الله عليه وسلم لانه لا يمكن عقلا وذلك أن المفسرين

فسروا قوله تعالى ان أراد بعد قبل الهبة لان بالقبول منه صلى الله عليه وسلم يتم نكاحه وهذا
لا يتصور تقدمه على الهبة اذ القبول متأخر فان العصمة كانت فى تأخر ارادته عن هبتها ولما جاء
أبو حيان الى هنا جعل الشرط الثانى مقدما على الاول على القاعدة العامة ولم يستشكل شيأ مما
ذكر قال ذلك البعض وقد عرضت هذا الاشكال على جماعة من أعيان زماننا فاعترفوا به ولم يظهر
عنه جواب الا ماقدمته من أنه ثم قرينة مانعة من ذلك كما مثلته آنفا ولما كان ربما فهم أن غير
النبى صلى الله عليه وسلم يشاركه فى هذا المعنى قال الله منبها للخصوصية (خالصة لك) وزاد
المعنى بيانا بقوله تعالى (من دون المؤمنين) أى من الانبياء وغيرهم *(تنبيهات)* الاول
فى اعراب خالصة وفيه أوجه أحدها أنه منصوب على الحال من فاعل وهبت أى حالة كونها
خالصة لك دون غيرك ثانيها أنه نعت مصدر مقدر أى هبة خالصة فنصبه بوهبت ثالثها أنه حال
من امرأة لانها وصفت فتخصصت وهو بمعنى الاول واليه ذهب الزجاج وقيل غير ذلك والمعنى
انا أحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك بغير صداق *(التنبيه الثانى)* فى انعقاد النكاح
بلفظ الهبة فى حق الامة وفيه خلاف فقال سعيد بن المسيب والزهرى ومجاهد وعطاء لا ينعقد
الا بلفظ الانكاح أو التزويج وبه قال مالك وربيعة والشافعى ومعنى الآية ان اباحة الوطء
بالهبة وحصول التزويج بلفظها من خواصه صلى الله عليه وسلم وقال النخعى وأبو حنيفة
وأهل الكوفة ينعقد بلفظ الهبة والتمليك وان معنى الآية ان تلك المرأة صارت خالصة لك
زوجة من أمهات المؤمنين لا تحل لغيرك أبدا بالتزويج (وأجيب) بأن هذا التخصيص بالواهبة
لا فائدة فيه فان أزواجه صلى الله عليه وسلم كلهن خالصات له وما مر فللتخصيص فائدة *(التنبيه
الثالث)* فى التى وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم هل كانت عنده امرأة منهن فقال
عبد الله بن عباس ومجاهد لم يكن عند النبى صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها منه ولم
يكن عنده امرأة الا بعقد نكاح أو ملك يمين وقوله تعالى وهبت نفسها على طريق الشرط
والجزاء وقال غيرهما بل كانت موهوبة وهو ظاهر الآية واختلفوا فيها فقال الشعبى هى
زينب بنت خزيمة الهلالية يقال لها أم المساكين وقال قتادة هى ميمونة بنت الحرث وقال
على بن الحسين والضحاك ومقاتل هى أم شريك بنت جابر من بنى أسد وقال عروة بن الزبير هى
خولة بنت حكيم من بنى سليم *(التنبيه الرابع)* فى ذكر شئ من خصائصه صلى الله عليه وسلم
وقد ذكرت منها أشياء كثيرة ينشرح الصدور بها فى شرح التنبيه فلا أطيل بذكرها هنا ولكن
أذكر منها طرفا يسيرا تبركا بذكر صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام فان ذكرها مستحب
قال النووى فى روضته ولا يبعد القول بوجوبها لئلا يرى الجاهل بعض الخصائص فى الخبر
الصحيح فيعمل به أخذا بأصل التأسى فوجب بيانها لتعرف وهى أربعة أنواع * أحدها
الواجبات وهى أشياء كثيرة * منها الضحى والوتر والاضحية وفى الحديث مايدل على أن الواجب
أقل الضحى وقياسه أن الوتر كذلك * ومنها السواك لكل صلاة والمشاورة لذوى الاحلام فى
الامر وتخيير نسائه بين مفارقته طلبا للدنيا واختياره طلبا للآخرة ولا يشترط الجواب له منهن

فورا فلو اختارته واحدة لم يحرم عليه طلاقها أو كرهته توقفت الفرقة على الطلاق وليس
قولها اخترت نفسي بطلاق كما مرت الاشارة اليه وله تزوجها بعد الفراق * النوع الثاني المحرمات
وهي أشياء كثيرة منها الزكاة والصدقة وتعلم الخط والشعر ومد العين الى متاع الدنيا وخائنة
الاعين وهي الايماء بما يظهر خلافه دون الخديعة في الحرب وامساك من كرهت نكاحه * ومنها
نكاح الكتابية لا التسري بها كما مر ولا يحرم عليه أكل الثوم ونحوه ولا الاكل متكئا * النوع
الثالث التخفيفات والمباحات وهي كثيرة جدا منها تزويج من شاء من النساء لمن شاء ولو لنفسه
بغير اذن من المرأة ووليها متوليا الطرفين وزوجه الله تعالى وأبيح له الوصال وصفي المغنم ويحكم
ويشهد لولده ولو لنفسه وأبيح له نكاح تسع وقد تزوج صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ومات
عن تسع قال الائمة وكثرة الزوجات في حقه صلى الله عليه وسلم للتوسعة في تبليغ الاحكام
عنه الواقعة سرا مما لا يطلع عليه الرجال ونقل محاسنه الباطنة فانه صلى الله عليه وسلم
تكمل له الظاهر والباطن وحرم عليه الزيادة عليهن ثم نسخ وسيأتي ذلك ان شاء الله تعالى
وينعقد نكاحه محرما وبلفظ الهبة ايجابا لا قبولا بل يجب لفظ النكاح أو التزويج لظاهر قوله
تعالى ان أراد النبي أن يستنكحها ولا مهر للواهبة له وان دخل بها وتجب اجابته على
امرأة رغب فيها ويجب على زوجها طلاقها لينكحها * النوع الرابع الفضائل وهي كثيرة
لا تدخل تحت الحصر منها تحريم منكوحاته على غيره سواء كن موطوآت أم لا مطلقات
باختيارهن أم لا وتحريم سراريه وهن اماؤه الموطوآت بخلاف غير الموطوآت وتقدم ان
نساءه أمهات المؤمنين لا المؤمنات بخلافه صلى الله عليه وسلم فانه أبو الرجال والنساء وتقدم
الكلام على قوله تعالى ما كان محمد أبا أحد من رجالكم وان ثوابهن وعقابهن مضاعف
ومنها انه يحرم سؤالهن الا من وراء حجاب وأفضلهن خديجة ثم عائشة وأفضل نساء العالمين
مريم بنت عمران اذ قيل بنبوتها ثم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خديجة ثم عائشة
ثم آسية امرأة فرعون وأما خبر الطبراني خير نساء العالمين مريم بنت عمران ثم خديجة
بنت خويلد ثم فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ثم آسية امرأة فرعون فأجيب عنه بان
خديجة انما فضلت فاطمة باعتبار الامومة لا باعتبار السيادة وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم
خاتم النبيين * ومنها أنه أول النبيين خلقا وأفضل الخلق على الاطلاق وخص بتقديم نبوته فكان
نبيا وآدم منجدل في طينته وبتقديم أخذ الميثاق عليه وبأنه أول من قال بلى وقت ألست بربكم
وبخلق آدم وجميع المخلوقات من أجله وبكتابة اسمه الشريف على العرش والسموات والجنات
وسائر ما في الملكوت وبشق صدره الشريف وبجعل خاتم النبوة بظهره بازاء قلبه وبحراسة
السماء من استراق السمع والرمي بالشهب وباحياء أبويه حتى آمنا به وبأنه أول من تنشق عنه
الارض يوم القيامة وأول من يقرع باب الجنة وأول شافع وأول مشفع وأكرم بالشفاعات
الخمس يوم القيامة أولها العظمى في الفصل بين أهل الموقف حين يفزعون اليه بعد الانبياء
* الثانية في ادخال خلق الجنة بغير حساب جعلنا الله وأحبابنا منهم * الثالثة في ناس استحقوا

دخول النار فلا يدخلونها * الرابعة فى ناس دخلوا النار فيخرجون منها * الخامسة فى رفع درجات ناس فى الجنة وكلها ثبتت بالأخبار وخص منها بالعظمى ودخول خلق من أمته الجنة بغير حساب وهى الثانية قال النووى فى روضته ويجوز أن يكون خص بالثالثة والخامسة أيضا ونصر بالرعب مسيرة شهر وجعلت له الارض مسجدا وترابها طهورا وأحلت له الغنائم وأرسل الى الكافة ورسالة غيره خاصة وأما عموم رسالة نوح عليه السلام بعد الطوفان فلانحصار الباقين فيمن كان معه فى السفينة وهو أكثر الانبياء أتباعا وأمته خير الامم وأفضلها أصحابه وأفضلهم الخلفاء الاربعة على ترتيبهم فى الخلافة ثم باقى العشرة وهى معصومة لا تجتمع على ضلالة وصفوفهم كصفوف الملائكة ولها فضائل كثيرة على سائر الامم * منها أنهم أول من يدخل الجنة بعد الانبياء عليهم السلام * ومنها وضع الاصر وليلة القدر والجمعة ورمضان على أحد قولين ونظر الله تعالى اليهم ومغفرته لهم أول ليلة منه وطيب خلوف فم صائمه عنده تعالى واستغفار الملائكة عليهم السلام فى ليله ونهاره وأمر الله تعالى الجنة أن تتزين لهم وردّ صدقاتهم الى فقرائهم والغرة والتحجيل من أثر الوضوء وسلسلة الاسناد والحفظ عن ظهر قلب وأخذ العلم عن الاحداث والمشايخ وكتابه صلى الله عليه وسلم معجز محفوظ من التغيير والتبديل وأقيم بعده حجة على الناس ومعجزات سائر الانبياء انقرضت وشريعته مؤبدة ناسخة لغيرها من الشرائع وتطوعه قاعدا كقائم ويحرم رفع الصوت فوق صوته قال القرطبى وكره بعضهم رفعه عند قبره صلى الله عليه وسلم ولا تبطل صلاة من خاطبه بالسلام وتجب اجابته فى الصلاة ولو بالفعل ولا تبطل ويحرم نداؤه من وراء الحجرات ويحرم نداؤه باسمه كيا محمد صلى الله عليه وسلم لا بكنيته كيا أبا القاسم ويحرم التكنى بكنيته مطلقا وقيل مختص بزمنه وقيل على من اسمه محمد وكان يتبرك ويستشفى ببوله ودمه وفضلاته النازلة من الدبر لا ترى بخلافها من القبل والذى صوّبه بعض المتأخرين طهارتها وهو الصواب وأولاد بناته ينسبون اليه وأعطى جوامع الكلم وكان يؤخذ عن الدنيا عند تلقى الوحى ولا يسقط عنه التكليف ورؤيته فى النوم حق ولا يعمل بها فيما يتعلق بالاحكام لعدم ضبط النائم والكذب عمدا عليه كبيرة ولا يجوز الجنون على الانبياء ولا الاحتلام ولا تأكل الارض لحومهم وفى هذا القدر كفاية ومن أراد الزيادة على ذلك فعليه بكتب الخصائص فان العلماء قد صنفوا فى ذلك تصانيف وأنا أسأل الله تعالى من فضله وكرمه أن يشفعه فينا ويدخلنا معه الجنة ويفعل ذلك بأهلينا ومشايخنا واخواننا ومحبينا ولا يحرمنا زيارته ولا رؤيته قبل الممات * ولما كان التخصيص لا يصح ولا يتصوّر الا من محيط العلم بأن هذا الامر ما كان لغير المخصوص تام القدرة لمنع غيره من ذلك قال تعالى (قد) أى أخبرناك بأن هذا أمر يخصك غيرهم لانا قد (علمنا فرضنا) أى قدرنا بعظمتنا (عليهم) أى على المؤمنين (فى أزواجهم) أى من شرائط العقد وأنهم لا تحل لهم امرأة بلفظ الهبة منها ولا بدون مهر ولا بدون ولى وشهود وهذا عام بجميع المؤمنين المتقدمين والمتأخرين (و) فى (ماملكت أيمانهم) من الاماء بشراء وغيره بأن تكون الامة ممن تحل لمالكها كالكتابية بخلاف المجوسية والوثنية وان تستبرأ قبل الوطء وقبل

المراد ان أحدا غيرك لا يملك رقبة بهبتها نفسها منه فيكون أحق من سيدها * ولما فرغ من تعليل الدونية علل التخصيص لفا ونشرا مشوشا بقوله تعالى (لكي لا يكون عليك حرج) أي ضيق في شيء من أمر النساء حيث أحللنا لك أنواع المنكوحات وزدناك الواهبة فلكيلا متعلق بخالصة وما بينهما اعتراض ومن دون متعلق بخالصة كما تقول خاص من كذا (وكان الله) أي المتصف بصفات الكمال أزلا وأبدا (غفورا رحيما) أي بليغ الستر لي عباده * ولما ذكر تعالى ما فرض في الازواج والاماء الشامل للعدل في عشرتهن وكان صلى الله عليه وسلم أعدل الناس فيهما وأشدهم لله خشية وكان يعدل بينهن ويعتذر مع ذلك عن ميل القلب الذي هو خارج عن طوق البشر بقوله اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك خفف عنه سبحانه وتعالى بقوله (ترجي) أي تؤخر وتترك مصاحبتها (من تشاء منهن وتؤوي) أي تضم (اليك من تشاء) وتصاحبها وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي بياء ساكنة بعد الجيم من الارجاء أي تؤخرها مع أفعال تكون بها راجية لعطفك والباقون بهمزة مضمومة وهو مطلق التأخير (ومن ابتغيت) أي طلبت (ممن عزلت) أي من القسمة (فلا جناح عليك) أي في وطئها وضمها اليك * (تنبيه) * اختلف المفسرون في معنى هذه الآية فأشهر الاقوال أنها في القسم بينهن وذلك أن التسوية بينهن في القسم كانت واجبة عليه فلما نزلت هذه الآية سقط عنه وصار الاختيار اليه فيهن وقال ابن زيد نزلت هذه الآية حين غار بعض أمهات المؤمنين على النبي صلى الله عليه وسلم وطلب بعضهن زيادة في النفقة فهجرهن النبي صلى الله عليه وسلم شهرا حتى نزلت آية التخيير فأمره الله عز وجل أن يخيرهن بين الدنيا والآخرة وان يخلي سبيل من اختارت الدنيا ويمسك من اختارت الله ورسوله على أنهن أمهات المؤمنين وأن لا ينكحن أبدا وعلى أن يؤوي اليه من يشاء ويرجي من يشاء فيرضين قسم لهن أو لم يقسم قسم لبعضهن دون بعض أو فضل بعضهن في النفقة والقسمة فيكون الامر في ذلك اليه يفعل كيف يشاء وكان ذلك من خصائصه فرضين بذلك واخترنه على هذا الشرط وذلك لان النبي صلى الله عليه وسلم بالنسبة الى أمته نسبة السيد المطاع والرجل وان لم يكن نبيا فالزوجة في ملك نكاحه والنكاح عليها رق فكيف زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بالنسبة اليه فاذاهن كالمملوكات له ولا يجب القسم بين المملوكات واختلفوا هل اخرج أحدا منهن عن القسم فقال بعضهم لم يخرج أحدا منهن عن القسم بل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما جعل الله له من ذلك يسوي بينهن في القسم الا سودة فانها رضيت بترك حقها من القسم وجعلت يومها لعائشة وقيل أخرج بعضهن روى جرير عن منصور عن أبي رزين قال لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقهن فقلن يا رسول الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ودعنا على حالنا فنزلت هذه الآية فأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهن وآوى اليه بعضهن فكان ممن آوى عائشة وحفصة وزينب وأم سلمة وكان يقسم بينهن سواء وأرجأ منهن خمسا أم حبيبة وميمونة وسودة وصفية وجويرية فكان لا يقسم لهن ما شاء وقال مجاهد ترجي من تشاء منهن أي تعزل من تشاء منهن بغير طلاق وترد

اليك من تشاء بعد العزل بلا تجديد عقد وقال ابن عباس تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقال الحسن تترك نكاح من شئت من نساء أمتك قال وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا خطب امرأة لم يكن لغيره خطبتها حتى يتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل تقبل من تشاء من المؤمنات اللاتي يهبن أنفسهن لك فتؤويها اليك وتترك من تشاء فلا تقبلها وروى هشام عن أبيه قال كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي صلى الله عليه وسلم فقالت عائشة أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل فلما نزلت ترجي من تشاء منهن قلت يا رسول الله ما أرى ربك الا يسارع في هواك (ذلك) أي التفويض الى مشيئتك (أدنى) أي أقرب (أن) أي الى أن (تقر أعينهن) أي بما حصل لهن من عشرتك الكريمة وهو كناية عن السرور والطمأنينة ببلوغ المراد لان من كان كذلك كانت عينه قارة ومن كان مهموما كانت عينه كثيرة التقلب هذا اذا كان من القرار بمعنى السكون ويجوز أن يكون من القر الذي هو ضد الحر لان المسرور تكون عينه باردة والمهموم تكون عينه حارة فلذلك يقال للصديق أقر الله تعالى عينك وللعدو أسخن الله عينك (ولا يحزن) أي بالفراق وغيره مما يحزن من ذلك (ويرضين) لعلمهن ان ذلك من الله تعالى (بما آتيتهن) أي من الاجور ونحوها من نفقة وقسم وايثار وغيرها ثم أكد ذلك بقوله تعالى (كلهن) أي ليس منهن واحدة الا هي كذلك لان حكم كلهن فيه سواء ان سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك وان رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله تعالى فتطمئن نفوسهن وزاد ذلك تأكيدا لما لذلك من الغرابة بقوله تعالى (والله) أي بماله من الاحاطة بصفات الكمال (يعلم ما في قلوبكم) أي الخلائق كلهم فلا بدع أن يعلم ما في قلوب هؤلاء (وكان الله) أي أزلا وأبدا (عليما) أي بكل شيء من يطيعه ومن يعصيه (حليما) لا يعاجل من عصاه بل يديم احسانه اليه في الدنيا فيجب أن يتقى لعلمه وحلمه فعلمه موجب للخوف منه وحلمه مقتض للاستحياء منه وأخذ الحليم شديد فينبغي لعبده المحب له ان يحلم عمن يعلم تقصيره في حقه فانه سبحانه يأجره على ذلك بأن يحلم عنه فيما علمه منه ويرفع قدره ويعلي ذكره وروى البخاري في التفسير عن معاذة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية ترجي من تشاء الآية قلت لها ما كنت تقولين قالت كنت أقول له ان كان ذاك الي فاني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدا * ولما أمره الله تعالى بالتخيير وخيرهن واخترن الله ورسوله زاد الله تعالى سرورهن بقوله تعالى (لا تحل لك النساء من بعد) أي بعد من معك من هؤلاء التسع اللاتي اخترنك شكرا من الله لهن لكونهن لما نزلت آية التخيير اخترن الله ورسوله فحرم عليه النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن وعن الاستبدال بهن بقوله تعالى (ولا أن تبدل بهن) أي هؤلاء التسع وأعرق في النفي بقوله تعالى (من) أي شيأ من (أزواج) أي بأن تطلقهن أي هؤلاء المعينات أو بعضهن وتاخذ بدلها من غيرهن (ولو أعجبك حسنهن) أي النساء المغايرات لمن معك قال ابن عباس يعني أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب فلما استشهد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن

يحطم افنهى عن ذلك وقرأ أبو عمرو لا تحل لك بالتاء الفوقية والباقون بالياء التحتية وشدد البزى التاء من ان تبدل *(تنبيه)* فى الآية دليل على اباحة النظر الى من يريد نكاحها لكن من غير العورة فى الصلاة فينظر الرجل من الحرة الوجه والكفين ومن الامة ماعدا ما بين السرة والركبة واحتج لذلك بقوله صلى الله عليه وسلم للمغيرة وقد خطب امرأة انظر اليها فانه أحرى ان يؤدم بينكما اى تدوم المودة والالفة رواه الحاكم وصححه وقوله تعالى (الا ماملكت يمينك) استثناء من النساء لانه يتناول الازواج والاماء أى فتحل لك وقد ملك بعدهن مارية وولدت له ابراهيم ومات واختلفوا هل أبيح له النساء من بعد قالت عائشة مامات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له النساء أى فنسخ ذلك وأبيح له أن ينكح أكثر منهن بآية انا أحللنا لك أزواجك (فان قيل) هذه الآية متقدمة وشرط الناسخ أن يكون متأخرا (اجيب) بأنها مؤخرة فى النزول متقدمة فى التلاوة وهذا أصح الاقوال وقال أنس مات على التحريم وقال عكرمة والضحاك معنى الآية لا تحل لك النساء بعد التى أحللنا لك بالصفة التى تقدم ذكرها وقيل لابى ابن كعب لو مات نساء النبى صلى الله عليه وسلم أكان يحل له أن يتزوج فقال وما يمنعه من ذلك قيل قوله تعالى لا تحل لك النساء من بعد قال انما أحل الله تعالى له ضربا من النساء فقال يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك ثم قال لا تحل لك النساء من بعد قال أبو صالح أمر أن لا يتزوج أعرابية ولا غريبة ويتزوج من نساء قومه من بنات العم والعمة والخال والخالة ان شاء ثلثمائة وقال مجاهد معناه لا تحل لك اليهوديات ولا النصرانيات بعد المسلمات ولا أن تبدل بهن يقول ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهن من اليهود والنصارى وقال ابن زيد فى قوله تعالى ولا ان تبدل بهن من أزواج كانت العرب فى الجاهلية يتبادلون بأزواجهم يقول الرجل للرجل بادلنى بامرأتك وأبادلك بامرأتى تنزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى فأنزل الله تعالى ولا ان تبدل بهن من أزواج يعنى تبادل بأزواجك غيرك بأن تعطيه زوجتك وتأخذ زوجته الا ماملكت يمينك فلا بأس أن تبادل بجاريتك من شئت فأما الحرائر فلا روى عطاء بن يسار عن أبى هريرة قال دخل عيينة بن حصن على النبى صلى الله عليه وسلم بغير اذن ومعه عائشة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم يا عيينة أين الاستئذان قال يا رسول الله ما استأذنت على رجل من مضر مذ أدركت ثم قال من هذه الحميرة الى جنبك فقال هذه عائشة أم المؤمنين فقال عيينة أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قد حرم ذلك فلما خرج قالت عائشة من هذا يا رسول الله قال هذا أحمق مطاع وانه على ماترين لسيد قومه * ولما أمر تعالى فى هذه الآيات بأشياء ونهى عن أشياء وحد حدودا حذر من التهاون بشئ منها ولو بنوع تأويل بقوله تعالى (وكان الله) أى الذى لا شئ أعظم منه وهو المحيط بجميع صفات الكمال (على كل شئ رقيبا) أى حافظا عالما بكل شئ قادرا عليه فتحفظوا أمركم ولا تتخطوا ما حد لكم وهذا من أشد الاشياء وعيدا * ولما ذكر حالة النبى صلى الله عليه وسلم مع أمته فى قوله تعالى يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ذكر حالهم معه من الاحترام له صلى الله عليه وسلم بقوله

تعالى

تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى ادعوا الايمان صدقوا ادعوا كم فيه بأن (لا تدخلوا بيوت النبى) أى الذى تأتيه الانباء من علام الغيوب مما فيه رفعته فى حال من الاحوال أصلا (الا) فى حال (أن يؤذن لكم) أى ممن له الاذن فى بيوته صلى الله عليه وسلم منه أو ممن يأذن له فى الدخول بالدعاء (الى طعام) أى أكله حال كونكم (غير ناظرين) أى منتظرين (اناه) أى نضجه وهو مصدر أنى يأنى وقرأ هشام وحمزة والكسائى بالامالة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح * ولما كان هذا الدخول بالاذن مطلقا وكان يراد تقييده قال تعالى (ولكن اذا دعيتم) أى ممن له الدعوة (فادخلوا) أى لاجل ما دعاكم له ثم تسبب عنه قوله تعالى (فاذا طعمتم) أى أكلتم طعاما أو شربتم شرابا (فانتشروا) أى اذهبوا حيث شئتم فى الحال ولا تمكثوا بعد الاكل او الشرب لامستريحين لقرار الطعام (ولا مستأنسين لحديث) أى طالبين الانس لاجله * (فائدة) * قال الحسن حسبك بالثقلاء أن الله لم يتجوز فى أمورهم وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت حسبك بالثقلاء ان الله تعالى لم يحتملهم ثم علل ذلك بقوله تعالى مصوبا الخطاب الى جميعهم معظما له بأداة البعد (ان ذلكم) أى الامر الشديد وهو المكث بعد الفراغ (كان يؤذى النبى) أى الذى هيأناه لسماع ما ننبئه به مما يكون سبب شرفكم وعلوكم فى الدارين فاحذروا أن تشغلوه عن شئ منه ثم تسبب عن ذلك المانع له من مواجهتهم له بما يزيد اذاه بقوله تعالى (فيستحيى منكم) أى بأن يأمركم بالانصراف (والله) أى الذى له جميع الامر (لا يستحيى من الحق) أى لا يفعل فعل المستحيى فيؤديه ذلك الى ترك الامر به * (تنبيه) * قال أكثر المفسرين نزلت هذه الآية فى شأن وليمة زينب حين بنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لما روى ابن شهاب قال أخبرنى أنس بن مالك انه كان ابن عشر سنين فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال فكانت أمهاتى توطننى على خدمة النبى صلى الله عليه وسلم فخدمته عشر سنين وتوفى وأنا ابن عشرين سنة فكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل وكان أول ما أنزل فى بناء رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش أصبح النبى صلى الله عليه وسلم بها عروسا فدعا القوم وأصابوا من الطعام ثم خرجوا وبقى رهط منهم عند النبى صلى الله عليه وسلم فأطالوا المكث فقام النبى صلى الله عليه وسلم فخرج وخرجت معه لكى يخرجوا فمشى النبى صلى الله عليه وسلم ومشيت حتى جاء عتبة حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها ثم ظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه حتى اذا دخل على زينب فاذا هم جلوس لم يخرجوا فرجع النبى صلى الله عليه وسلم ورجعت معه حتى اذا بلغ حجرة عائشة فظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه فاذا هم قد خرجوا فضرب النبى صلى الله عليه وسلم بينى وبينه الستر ونزلت آية الحجاب وقال أبو عثمان واسمه الجعد عن أنس قال فدخل يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت وأرخى الستر وانى لفى الحجرة وهو يقول يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى قوله تعالى والله لا يستحيى من الحق وروى عن ابن عباس انها نزلت فى ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدخلون عليه قبل الطعام الى

أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأذى بهم فنزلت الآية يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الآية وروى أبو يعلى الموصلي عن أنس قال بعثتني أم سليم برطب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعته بين يديه فأصاب منه ثم أخذ بيدي فخرجنا وكان حديث عهد بعرس زينب بنت جحش قال فمر بنساء من نسائه وعندهن رجال يتحدثون فهنينه وهنأه الناس فقالوا الحمد لله قر بعينك يا رسول الله فمضى حتى أتى عائشة فإذا عندها رجال قال فكره ذلك وكان إذا كره الشيء عرف في وجهه قال فأتيت أم سليم فأخبرتها فقال أبو طلحة لئن كان كما قال ابنك ليحدثن أمر قال فلما كان من العشي خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد المنبر ثم تلا هذه الآية يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا الآية وروى البخاري وغيره عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم عروسا بزينب فقالت لي أم سليم لو أهديت للنبي صلى الله عليه وسلم هدية فقلت لها افعلي فعمدت إلى تمر وأقط وسمن فاتخذت حيسة في برمة وأرسلت بها معي إليه فقال لي ضعها ثم أمرني فقال ادع لي رجالا سماهم وادع لي من لقيت ففعلت الذي أمرني فرجعت فإذا البيت غاص بأهله وفي رواية الترمذي أن الراوي قال قلت لأنس كم كانوا قال زهاء ثلثمائة فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وضع يده على تلك الحيسة وتكلم بما شاء الله تعالى ثم يدعو عشرة عشرة يأكلون منه ويقول لهم اذكروا اسم الله تعالى وليأكل كل رجل مما يليه حتى تصدعوا كلهم عنها قال الترمذي فقال لي يا أنس ارفع فرفعت فما أدري حين وضعت كانت أكثر أو حين رفعت فخرج معي من خرج وبقي قوم يتحدثون فنزلت * ولما كان البيت يطلق على المرأة الملازمة له عادة أعاد الضمير عليه مرادا به النساء استخداما فقال تعالى (وإذا سألتموهن) أي الأزواج (متاعا) أي شيئا من آلات البيت (فاسألوهن) أي ذلك المتاع كائنين وكائنات (من وراء حجاب) أي ستر يستركم عنهن ويسترهن عنكم وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين ولا همزة بعدها والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها (ذلكم) أي الأمر العالي الرتبة (أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أي من وساوس الشيطان والريب لأن العين روزنة القلب فإذا لم تر العين لم يشته القلب فأما إذا رأت العين فقد يشتهي القلب وقد لا يشتهي فالقلب عند عدم الرؤية أطهر وعدم الفتنة حينئذ أظهر وروى ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع وهو صعيد أفيح فكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول للنبي صلى الله عليه وسلم احجب نساءك فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالي عشاء وكانت امرأة طويلة فناداها عمر ألا قد عرفناك يا سودة حرصا على أن ينزل الحجاب فأنزل الله عز وجل الحجاب وعن أنس قال قال عمر وافقت ربي في ثلاثة قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله تعالى آية الحجاب قال وبلغني ما آذين

رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه قال فدخلت عليهن فجعلت استقريهن واحدة واحدة فقلت والله لتنتهن أوليبدله الله تعالى أزواجا خيرا منكن حتى أتيت على زينب فقالت يا عمر اما كان في رسول الله صلى الله عليه وسلم مايعظ نساءه حتى تعظهن أنت قال فخرجت فأنزل الله تعالى عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن الآية * ولما بين تعالى للمؤمنين الادب أكده بتأبيد تحملهم على ملاطفة نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وما كان) أي وماصح وما استقام (لكم) في حال من الاحوال (ان تؤذوا رسول الله) فله اليكم من الاحسان مايستوجب به منكم غاية الاكرام والاجلال فضلا عن الكف عن الاذى فلا تؤذوه بالدخول الى شئ من بيوته بغير اذنه أو المكث بعد فراغ الحاجة ولا بغير ذلك * ولما كان قد قصر صلى الله عليه وسلم عليهن أحل له غيرهن وقصرهن الله عليه بقوله تعالى (ولا أن تنكحوا) أي فيما يستقبل من الزمان (أزواجه من بعده) أي فراقه بموت أو طلاق سواء أدخل بها أم لا (أبدا) زيادة لشرفه واظهارا لمزيته ولانهن أمهات المؤمنين ولانهن أزواجه في الجنة ولان المرأة في الجنة مع آخر أزواجها كما قاله ابن القشيري روي ان هذه الآية نزلت في رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال لئن قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم لانكحن عائشة قال مقاتل بن سليمان هو طلحة بن عبيد الله فأخبر الله تعالى ان ذلك محرم وقال (ان ذلكم) أي الايذاء بالنكاح وغيره (كان عند الله) أي القادر على كل شئ (عظيما) أي ذنبا عظيما (فان قيل) روى معمر عن الزهري أن العالية بنت ظبيان التي طلقها النبي صلى الله عليه وسلم تزوجت رجلا وولدت له (أجيب) بأن ذلك كان قبل تحريم أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على الناس وقيل لاتحرم غير الموطوءة لما روي ان أشعث بن قيس تزوج المستعيذة في أيام عمر فهم برجمهما فأخبر بأنه صلى الله عليه وسلم فارقها قبل أن يمسها فترك من غير نكير فأما اماؤه صلى الله عليه وسلم فيحرم منهن الموطوآت على غيره اكراما له بخلاف غير الموطوآت وقيل لاتحرم الموطوآت أيضا ونزل فيمن أضمر نكاح عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان تبدوا) أي بألسنتكم وغيرها (شيئا) أي من ذلك أو غيره (أو تخفوه) في صدوركم (فان الله) أي الذي له جميع صفات الكمال (كان) أي أزلا وأبدا به هكذا كان الاصل ولكنه أتى بما يعمه وغيره فقال (بكل شئ) أي من ذلك وغيره (عليما) فهو يعلم ما أسررتم وما أعلنتم وان بالغتم في كتمه فيجازي عليه من ثواب وعقاب وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل ومبالغة في الوعيد * ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والابناء والاقارب ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب فنزل قوله تعالى (لاجناح) أي لا اثم (عليهن في آبائهن) دخولا وخلوة من غير حجاب سواء كان الاب من النسب أو من الرضاع (ولا أبنائهن) أي من البطن أو الرضاعة (ولا اخوانهن) لان عارهن عارهم فلا فرق أن يكونوا من النسب أو الرضاع (ولا أبناء اخوانهن) فانهن بمنزلة آبائهم (ولا أبناء أخواتهن) فانهن بمنزلة أمهاتهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية ياء خالصة في الوصل وحققها

الباقون وفى الابتداء بالثانية الجميع بالتحقيق (ولانسائهن) أى المسلمات القربى منهن والبعدى بمنزلة واحدة وأما الكافرات فهن بمنزلة الاجانب من الرجال لكن رجح النووى انه يجوز أن تنظر منها ما يبدو عند المهنة (ولا ماملكت أيمانهن) من العبيد لانهم لما لهن عليهم من السلطان يبعد منهم الريبة هيبة لهن مع مشقة الاحتجاب عنهم * (تنبيه) * قدم تعالى الآباء لان اطلاعهم على بناتهم أكثر وكيف وهم قد رأوا جميع بدن البنات فى حال صغرهن ثم الابناء ثم الاخوة وذلك ظاهر وانما الكلام فى بنى الاخوة حيث قدمهم الله تعالى على بنى الاخوات لان بنى الاخوات آباؤهم ليسوا بمحارم خالات أبنائهم وبنى الاخوة آباؤهم محارم فنى بنى الاخوات مفسدة ماوهى ان الابن ربما يحكى خالته عند أبيه وهو ليس بمحرم ولا كذلك فى بنى الاخوة (فان قيل) لم يذكر الله تعالى من المحارم الاعمام والاخوال فلم يقل ولا أعمامهن ولا أخوالهن (أجيب) عن ذلك بوجهين أحدهما ان ذلك معلوم من بنى الاخوة وبنى الاخوات لان من علم ان بنى الاخ للعمات محارم علم ان بنات الاخ للاعمام محارم وكذلك الخال فى أمر الخالة وثانيهما أن الاعمام ربما يذكرون بنات الاخ عند أبنائهم وهم غير محارم وكذلك الخال فى ابن الخال وذكر ذلك البين بعد هذا كله لان المفسدة فى التكشف لهم ظاهرة وقوله تعالى (واتقين) عطف على محذوف أى امتثلن ما أمرتن به واتقين (الله) أى الذى لا شئ أعظم منه فلا تقربن شيأ مما يكرهه وانما أمرهن لان الريبة من جهة النساء أكثر لانه لا يكاد الرجل يتعرض الا لمن ظن بها الاجابة لما يرى من مخايلها ومخايل أشكالها * ولما كان الخوف لا يعظم الا ممن كان حاضرا مطلعا قال (ان الله) أى العظيم الشأن (كان) أى أزلا وأبدا (على كل شئ) من أفعالكن وغيرها (شهيدا) أى لا يغيب عنه شئ وان دق فهو مطلع عليكن حال الخلوة فلا تخفى عليه خافية * ولما أمر تعالى بالاستئذان وعدم النظر الى نسائه احتراما له كمل بيان حرمته بقوله تعالى (ان الله وملائكته يصلون على النبى) أى محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس أراد أن الله تعالى يرحم النبى والملائكة يدعون له وعن ابن عباس أيضا يصلون يبركون والصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار وقال أبو العالية صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء * (تنبيه) * بيان كمال حرمته فى ذلك ان حالاته منحصرة فى حالتين حالة خلوة فذكر ما يدل على احترامه فى تلك الحالة بقوله تعالى لا تدخلوا بيوت النبى وحالة تكون فى ملا والملا اما الملا الاعلى واما الملا الادنى اما احترامه فى الملا الاعلى فان الله وملائكته يصلون عليه وأما احترامه فى الملا الادنى فقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) أى ادعوا له بالرحمة (وسلموا تسليما) أى حيوه بتحية الاسلام وأظهروا شرفه بكل ما تصل قدرتكم اليه من حسن متابعته وكثرة الثناء الحسن عليه والانقياد لامره فى كل ما يأمر به ومنه الصلاة والسلام عليه بألسنتكم روى عبد الرحمن بن أبى ليلى لقينى كعب بن عجرة فقال الا أهدى لك هدية سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت بلى فاهدها لى قال قلنا يارسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل

محمد

محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد وروى أبو حميد الساعدي انهم
قالوا يارسول الله كيف نصلي عليك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا اللهم صل على محمد
وأزواجه وذريته كما صليت على ابراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على ابراهيم
وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد وروى ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان
أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم على صلاة وروى أبو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا وروى عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم انه جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه فقلنا انا لنرى البشرى
في وجهك فقال جاءني جبريل فقال يا محمد ان ربك يقرئك السلام ويقول أما يرضيك أن لا يصلي
عليك أحد من أمتك الا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد من أمتك الا سلمت عليه عشرا
وروى عامر بن ربيعة انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول من صلى علي صلاة صلت عليه
الملائكة ما صلى علي فليقلل العبد من ذلك أو ليكثر وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال
من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له
عشر درجات وروى عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله ملائكة
سياحين في الارض يبلغوني عن أمتي السلام * (تنبيه) * دلت الآية على وجوب الصلاة على
النبي صلى الله عليه وسلم لان الامر للوجوب قالوا وقد أجمع العلماء أنها لا تجب في غير الصلاة
فتعين وجوبها فيها والمناسب لها من الصلاة التشهد آخرها فتجب في التشهد آخر الصلاة أي بعده
وهو مذهب الشافعي واحدى الروايتين عن أحمد فالقائل بوجوبها في العمر مرة في غيرها محجوج
باجماع من قبله ولحديث كيف نصلي عليك اذا نحن صلينا عليك في صلاتنا فقال قولوا اللهم
صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم الى آخره وقيل تجب كلما ذكر واختاره
الطحاوي من الحنفية والحليمي من الشافعية لقول جابر ان النبي صلى الله عليه وسلم رقى المنبر
فلما رقى الدرجة الاولى قال آمين ثم رقى الثانية فقال آمين ثم رقى الثالثة فقال آمين فقالوا
يارسول الله سمعناك تقول آمين ثلاث مرات فقال لما رقيت الدرجة الاولى جاءني جبريل فقال
شقي عبد أدرك رمضان فانسلخ منه ولم يغفر له فقلت آمين ثم قال شقي عبد أدرك والديه أو
أحدهما فلم يدخلاه الجنة فقلت آمين ثم قال شقي عبد ذكرت عنده ولم يصل عليك فقلت آمين وفي
رواية رقى المنبر فقال آمين آمين آمين قيل يارسول الله ما كنت تصنع هذا فقال قال لي جبريل رغم
أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما لم يدخلاه الجنة فقلت آمين ثم قال رغم أنف عبد دخل عليه
رمضان لم يغفر له فقلت آمين ثم قال رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت آمين وكذلك
قوله وسلموا أمر فيجب السلام ولم يجب في غير الصلاة فيجب فيها وهو قولنا في التشهد سلام عليك
أيها النبي الخ وذكر في السلام المصدر للتأكيد ولم يذكره في الصلاة لانها كانت مؤكدة بقوله
تعالى ان الله وملائكته يصلون على النبي وأقل الصلاة عليه اللهم صل على محمد وأكملها اللهم
صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد

كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد وآل ابراهيم اسمعيل واسحق وأولادهما
* (فائدة) * كل الانبياء من بعد ابراهيم عليه السلام من ولده اسحق لا نبينا محمدا صلى الله عليه
وسلم فانه من نسل اسمعيل ولم يكن من نسله نبي غيره وخص ابراهيم عليه السلام بالذكر لان الرحمة
والبركة لم تجتمعا لنبي غيره فقال الله تعالى رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت (فان قيل) اذا صلى
الله وملائكته عليه فأي حاجة به الى صلاتنا (أجيب) بأن الصلاة عليه ليست لحاجة اليها والا فلا
حاجة الى صلاة الملائكة مع صلاة الله تعالى عليه وانما هو اظهاره وتعظيمه منا شفقة علينا ليثيبنا
عليه ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرا وفي رواية
أخرى وملائكته سبعين وتجوز الصلاة على غيره تبعا له وتكره استقلالا لانه في العرف صار شعارا
لذكر الرسل ولذلك كره أن يقال لمحمد عز وجل وان كان عزيزا جليلا * ولما أمر الله تعالى
باحترام نبيه محمد صلى الله عليه وسلم نهى عن ايذاء نفسه وايذاء رسوله بقوله تعالى (ان الذين
يؤذون الله) أي الذي لا أعظم منه ولا نعمة عندهم الا من فضله (ورسوله) أي الذي استحق
عليهم بما يخبرهم به عن الله تعالى ما لا يقدرون على القيام بشكره (لعنهم الله) أي أبعدهم
وأبغضهم (في الدنيا) بالحمل على ما يوجب السخط (والآخرة) بادخال دار الاهانة كما قال تعالى
(وأعد لهم عذابا مهينا) أي ذا اهانة وهو النار ومعنى يؤذون الله يقولون فيه ما صورته أذى
وان كان تعالى لا يلحقه ضرر ذلك حيث وصفوه بما لا يليق بجلاله من اتخاذ الانداد ونسبة
الولد والزوجة اليه قال ابن عباس هم اليهود والنصارى والمشركون فأما اليهود فقالوا عزير
ابن الله وقالوا يد الله مغلولة وقالوا ان الله فقير ونحن أغنياء وأما النصارى فقالوا المسيح ابن الله
وثالث ثلاثة وأما المشركون فقالوا الملائكة بنات الله والاصنام شركاؤه وعن أبي هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم
يكن له ذلك فأما تكذيبه اياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من اعادته
وأما شتمه اياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد
وعن أبي هريرة أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم يسب
الدهر وأنا الدهر بيدي الامر أقلب الليل والنهار معنى الحديث انه كان من عادة العرب
في الجاهلية أن يسبوا الدهر ويذموه عند النوازل لاعتقادهم ان الذي يصيبهم من أفعال الدهر
فقال تعالى انا الدهر أي انا الذي أحل بهم النوازل وانا فاعل لذلك الذي تنسبونه للدهر
في زعمكم وقيل معنى يؤذون الله يلحدون في أسمائه وصفاته وقيل هم أصحاب التصاوير وعن
أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب
يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة وليخلقوا حبة أو شعيرة ويحتمل أن يكون ذلك على حذف مضاف أي
أولياء الله كقوله تعالى واسأل القرية قال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى من عادى لي وليا
فقد آذنته بالحرب وقال من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة ومعنى الاذى هو مخالفة أمر الله
وارتكاب معاصيه ذكره على ما يتعارفه الناس بينهم والله عز وجل منزه عن أن يلحقه أذى من

أحد وقال بعضهم في الجلالة تعظيما والمراد يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى إنما يبايعون الله وأما ايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس انه شج في وجهه وكسرت رباعيته وقيل ساحر شاعر مجنون * ولما كان من أعظم اذاه أذى من تابعه وكان الاتباع لكونهم غير معصومين يتصور أن يؤذوا على الحق قال تعالى مقيدا الكلام (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات) أي الراسخين في صفة الايمان (بغير ما اكتسبوا) أي بغير شئ واقعوه متعمدين له حتى أباح أذاهم (فقد احتملوا) أي كلفوا أنفسهم ان حملوا (بهتانا) أي كذبا وفجورا زائدا على الحد موجبا للعزاء في الدنيا والآخرة (وإثما مبينا) أي ذنبا ظاهرا جدا موجبا للعقاب في الآخرة * (تنبيه) * اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل نزلت في علي بن أبي طالب كانوا يؤذونه ويسمعونه وقيل نزلت في شأن عائشة وقال الضحاك والكلبي نزلت في الزناة الذين كانوا يمشون في طريق المدينة يتبعون النساء اذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن فيغمزون المرأة فان سكتت اتبعوها وان زجرتهم انتهوا عنها ولم يكونوا يطلبون الا الاماء ولكن كانوا لا يعرفون الحرة من الامة لان زي الكل كان واحدا يخرجن في درع وخمار الحرة والامة فشكوا ذلك الى أزواجهن فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات الآية ثم نهى الحرائر ان يتشبهن بالاماء بقوله تعالى (يا أيها النبي) ذكره بالوصف الذي هو منبع المعرفة والحكمة (قل لازواجك) بدأ بهن لما لهن به من الوصلة بالنكاح (وبناتك) ثنى بهن لما لهن من الوصلة ولهن في أنفسهن من الشرف وأخرهن عن الازواج لان أزواجه يكفونه أمرهن (ونساء المؤمنين يدنين) أي يقربن (عليهن) أي على وجوههن وجميع أبدانهن فلا يدعن شيأ منها مكشوفا (من جلابيبهن) ولا يتشبهن بالاماء في لباسهن اذا خرجن لحاجتهن بكشف الشعور ونحوها ظنا ان ذلك اخفى لهن وأستر والجلباب القميص وثوب واسع دون الملحفة تلبسه المرأة والملحفة ما ستر اللباس والخمار وهو كل ما غطى الرأس وقال البغوي الجلباب الملاءة التي تشتمل بها المراة فوق الدرع والخمار وقال حمزة الكرماني قال الخليل كل ما يستر به من دثار وشعار وكساء فهو جلباب والكل تصح ارادته هنا فان كان المراد القميص فادناؤه اسباغه حتى يغطي بدنها ورجليها وان كان ما يغطي الرأس فادناؤه ستر وجهها وعنقها وان كان المراد ما يغطي الثياب فادناؤه تطويله وتوسيعه بحيث يستر جميع بدنها وثيابها وان كان المراد ما دون الملحفة فالمراد ستر الوجه واليدين وقال ابن عباس وعبيدة أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤسهن ووجوههن بالجلابيب الا عينا واحدة ليعلم أنهن حرائر * ولما أمر تعالى بذلك علله بقوله تعالى (ذلك) اي الستر (أدنى) أي أقرب من تركه في (أن يعرفن) انهن حرائر بما يميزهن عن الاماء (فلا) أي فتسبب عن معرفتهن أن لا (يؤذين) ممن يتعرض للاماء فلا يشتغل قلبك عن تلقي ما يرد عليك من الانباء الالهية قال ابن عادل ويمكن أن يقال المراد يعرفن انهن لا يزنين لان من تستر وجهها مع أنه ليس بعورة أي في الصلاة لا يطمع فيها انها

تكشف عورتها فيفرض انهن مستورات لا يمكن طلب الزنا منهن انتهى * ولما رفاهن تعالى لهذا الامر خفف عاقبة ما كن فيه من التشبيه بالاماء فأخبرهن تعالى بوسع كرمه وجوده بقوله تعالى (وكان الله) أى الذى له الكمال المطلق أزلا وأبدا (غفورا) أى لما سلف منهن من ترك الستر فهو محاه للذنوب عينا وأثرا (رحيما) بهن اذ سترهن وبمن يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه قال البغوى قال أنس مرت بعمر جارية متنعة فعلاها بالدرة وقال يالكاع أتتشبهين بالحرائر ألقى القناع ويظهر أن عمرانما فعل ذلك خوفا من أن تلتبس الاماء بالحرائر فلا يعرف الحرائر فيعود الامر كما كان * ولما كان المأذون عام مضى وغيره أهل النفاق ومن داناهم حذرهم بقوله تعالى مؤكدا دفعا لظنهم دوام الحلم عليهم (لئن لم ينته) عن الاذى (المنافقون) أى الذين يبطنون الكفر ويظهرون الاسلام (والذين فى قلوبهم مرض) أى غل قريب من النفاق حامل على المعاصى (والمرجفون فى المدينة) المؤمنين أى بالكذب وذلك ان ناسا منهم كانوا اذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذيعون فى الناس أنهم قد قتلوا أو هزموا ويقولون قد أتاكم العدو ونحو ذلك وأصل الرجفة التحريك من الرجفة وهى الزلزلة سمى به الاخبار الكاذبة لكونه متزلزلة غير ثابتة (لنغرينك بهم) أى لنسلطنك عليهم بالقتل والجلاء أو بما يضطرهم الى طلب الجلاء وقوله تعالى (ثم لا يجاورونك) أى يساكنونك (فيها) أى المدينة عطف على لنغرينك وثم للدلالة على ان الجلاء ومفارقة رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم ما يصيبهم (الا قليلا) أى زمانا أو جوارا قليلا ثم يخرجون منها وقيل نسلطك عليهم حتى تقتلهم وتخلى منهم المدينة وقوله تعالى (ملعونين) أى مبعودين عن الرحمة حال من فاعل يجاورونك قاله ابن عطية والزمخشرى وأبو البقاء (أينما ثقفوا) أى وجدوا (أخذوا وقتلوا) ثم أكده بالمصدر بقضائه فيهم وارها بالهم بقوله تعالى (تقتيلا) أى الحكم فيهم هذا على وجه الامر به وقوله تعالى (سنة الله) أى المحيط بجميع العظمة مصدر مؤكد أى سن الله ذلك (فى الذين خلوا من قبل) أى فى الامم الماضية وهو أن يقتل الذين نافقوا الانبياء وسعوا فى وهنهم بالارجاف ونحوه أينما ثقفوا (ولن تجد لسنة الله) أى طريقة الملك الاعظم (تبديلا) أى ليست هذه السنة مثل الحكم الذى يتبدل وينسخ فان النسخ يكون فى الاقوال أما الافعال اذا وقعت والاخبار فلا تنسخ * ولما بين تعالى حالهم فى الدنيا انهم ملعونون ويهانون ويقتلون أراد أن يبين حالهم فى الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكر ما يكون لهم فيها بقوله (يسألك) يا أشرف الخلق (الناس) أى المشركون استهزاء منهم وتعنتا وامتحانا (عن الساعة) أى متى تكون فى أى وقت (قل) أى لهم فى جوابهم (انما علمها عند الله) الذى أحاط علمه بجميع الاشياء (وما يدريك) أى أى شئ يعلمك أمر الساعة ومتى يكون قيامها أنت لا تعرفه (لعل الساعة) أى التى لا ساعة فى الحقيقة غيرها لما لها من العجائب (تكون) أى توجد وتحدث على وجه مهول عجيب (قريبا) أى فى زمن قريب قال البقاعى ويجوز أن يكون التذكير لاجل الوقت لان السؤال عنها انما هو عن تعيين وقتها قال البخارى

في الصحيح اذا وصفت صفة المؤنث قلت قريبة واذا جعلته ظرفا أو بدلا ولم ترد الصفة نزعت الهاء من المؤنث وكذلك لفظها في الاثنين والجمع للذكر والانثى * ثم استأنف الاخبار بحال السائلين عنها بقوله تعالى (ان الله) أي الملك الاعلى (لعن) أي أبعد ابعادا عظيما من رحمته (الكافرين) أي الساترين لما من أنه أن يظهر مما دلت عليه العقول السليمة من أمرها (وأعد) أي أوجد وهيأ (لهم) من الآن (سعيرا) أي نارا شديدة الاضطرام والتوقد لتكذيبهم بها وبغيرها مما أوضح لهم أدلته (خالدين) أي مقدرا خلودهم (فيها) أي السعير وأعاد عليها الضمير مؤنثا لانها مؤنثة أولانه في معنى جهنم وقوله تعالى (أبدا) بيان لارادة الحقيقة لئلا يتوهم بالخلود المكث الطويل (لا يجدون وليا) أي يتولى أمرا مما يصيبهم بشفاعة أو غيرها (ولا نصيرا) ينصرهم وقوله تعالى (يوم) معمول لخالدين أي مقدرا خلودهم فيها على تلك الحال يوم (تقلب) أي تقلبا كثيرا (وجوههم في النار) أي ظهرا لبطن كاللحم يشوى بالنار حالة كونهم (يقولون) وهم في محل الجزاء وقد فات المحل القابل للعمل متمنين بقولهم (ياليتنا أطعنا) أي في الدنيا (الله) أي الذي لا أمر لاحد معه لما لا يدركون تلافيه لانهم لا يجدون ما يقدر أنه يبرد غلتهم من ولي ولا نصير ولا غيرهما سوى هذا التمني * ولما كان المقام للمبالغة في الاذعان والخضوع أعادوا العامل بقولهم (وأطعنا الرسول) أي الذي بلغنا عنه حتى لا نبتلي بهذا العذاب *(تنبيه)* تقدم الكلام على القراءة في الرسولا والسبيلا أول السورة عند الظنونا (وقالوا) أي الاتباع منهم لما لم ينفعهم شئ متبرئين بالدعاء على من أضلهم بما لا يبرئ عليلا ولا يشفي غليلا (ربنا) أي أيها المحسن الينا وأسقطوا أداة النداء على عادة أهل الخصوص بالحضور زيادة في التوثيق باظهار أنه لا واسطة لهم الا ذلهم وانكسارهم (انا أطعنا سادتنا وكبراءنا) يعنون قادتهم الذين لقنوهم الكفر وقرأ ابن عامر بألف بعد الدال وكسر التاء على جمع الجمع للدلالة على الكثرة والباقون بغير ألف بعد الدال وفتح التاء على أنه جمع تكسير غير مجموع بألف وتاء (فأضلونا) أي فتسبب عن ذلك أنهم أضلونا بما كان لهم من نفوذ الكلمة (السبيلا) أي طريق الهدى فأحالوا ذلك على غيرهم كما هي عادة المخطئ من الاحالة على غيره مما لا ينفعه ثم كأنه قيل فما تريدون لهم فقالوا مبالغين في الرقة للاستعطاف باعادة الرب (ربنا) أي المحسن الينا (آتهم ضعفين من العذاب) أي مثلي عذابنا لانهم ضلوا وأضلوا (والعنهم لعنا كثيرا) أي اطردهم عن محال الرحمة طردا متناهيا وقرأ عاصم بالباء الموحدة أي لعناهو أشد اللعن وأعظمه والباقون بالثاء المثلثة أي كثير العدد * ولما بين تعالى أن من يؤذي الله ورسوله يلعن و يعذب أرشد المؤمنين الى الامتناع من الايذاء بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أي صدقوا بما يتلى عليهم (لا تكونوا) بايذائكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر زينب وغيره كونا هو كالطبع لكم (كالذين آذوا موسى) من قومه بني اسرائيل اذوه بأنواع الاذى كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم حين قسم قسما فتكلم فيه بعضهم فقال لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر واختلفوا فيما أوذي به موسى

فروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شئ استحياء منه فاذاه من اذاه من بنى اسرائيل فقالوا ما تستر هذا الستر الا من عيب بجلده اما برص واما أدرة واما آفة وان الله تعالى أراد أن يبرئه مما قالوا كما قال تعالى (فبرأه) أى فتسبب عن أذاهم ان برأه (الله) الذى له صفات الجلال والكمال (مما قالوا) فخلا يوما وحده ليغتسل فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل الى ثيابه ليأخذها فنر الحجر بثوبه فجمع موسى عليه السلام وأخذ عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى الى ملأ من بنى اسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه واستتر به وطفق بالحجر يضربه بعصاه فوالله ان بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا والادرة عظم الخصية لنفخة فيها وقوله فجمع أى أسرع وقوله ندبا هو بفتح النون والدال وأصله أثر الجرح اذا لم يرتفع عن الجلد فشبه به الضرب بالحجر وقال قوم ايذاؤهم اياه لما مات هرون فى التيه ادعوا على موسى انه قتله فأمر الله الملائكة عليهم السلام حتى مروا به على بنى اسرائيل فعرفوا انه لم يقتله فبرأه الله مما قالوا وقال أبو العالية هو أن قارون استأجر مومسة أى زانية لتقذف موسى بنفسها على رأس الملا فعصمها الله تعالى وبرأ موسى من ذلك وكان ذلك سبب الخسف بقارون ومن معه وقال عبد الله بن مسعود لما كان يوم حنين آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا فى القسمة فأعطى الاقرع بن حابس مائة من الابل وأعطى فلانا كذا الناس من العرب وآثرهم فى القسمة فقال رجل هذه قسمة والله ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله فقلت والله لاخبرن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأتيته فأخبرته بما قال فتغير وجهه حتى كان كالصرف ثم قال فمن يعدل اذا لم يعدل الله ورسوله ثم قال يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر والصرف بكسر الصاد صبغ أحمر يصبغ به الاديم * ولما كان قصدهم بهذا الاذى اسقاط وجاهته قال تعالى (وكان) أى موسى عليه السلام كونا راسخا (عند الله) أى الذى لا يذل من والاه (وجيها) أى معظما رفيع القدر ذا وجاهة يقال وجه الرجل يوجه فهو وجيه اذا كان ذا جاه وقدر قال ابن عباس كان عظيما عند الله تعالى لا يسأله شيأ الا أعطاه وقال الحسن كان مجاب الدعوة وقيل كان محببا مقبولا * ولما نهاهم عن الاذى أمرهم بالنفع ليصيروا ذوى وجاهة عنده مكررا للنداء استعطافا واظهارا للاهتمام بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى ادعوا ذلك (اتقوا الله) أى صدقوا دعواكم بمخافة من له جميع العظمة فاجعلوا لكم وقاية من سخطه بأن تبذلوا له جميع ما أودعكم من الامانة (وقولوا) فى حق النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر زينب وغيرها وفى حق بناته ونسائه وفى حق المؤمنين ونسائهم وغير ذلك (قولا سديدا) قال ابن عباس صوابا وقال قتادة عدلا وقال الحسن صدقا وقال عكرمة هو قول لا اله الا الله * وقيل مستقيما (يصلح لكم أعمالكم) قال ابن عباس يتقبل حسناتكم وقال مقاتل يزكى أعمالكم (ويغفر لكم ذنوبكم) أى يمحها عينا وأثرا فلا يعاقب عليها ولا يعاتب (ومن يطع الله) أى الذى لا أعظم منه (ورسوله)

أى الذى عظمته من عظمته فى الاوامر والنواهى (فقد فاز) وأكد ذلك بقوله تعالى (فوزا عظيما) أى ظفر بجميع مراداته يعيش فى الدنيا حميدا وفى الآخرة سعيدا * ولما أرشد الله تعالى المؤمنين الى مكارم الاخلاق وأدب النبى صلى الله عليه وسلم بأحسن الآداب بين ان التكليف الذى وجهه الله تعالى الى الانسان أمر عظيم بقوله تعالى (انا عرضنا الامانة) واختلف فى هذه الامانة المعروضة فقال ابن عباس أراد بالامانة الطاعة من الفرائض التى فرضها الله تعالى على عباده عرضها (على السموات والارض والجبال) على أنهم ان أدوها أثابهم وان ضيعوها عذبهم وقال ابن مسعود الامانة أداء الصلوات وايتاء الزكوات وصوم رمضان وحج البيت وصدق الحديث وقضاء الدين والعدل فى المكيال والميزان وأشد من هذا كله الودائع وقال مجاهد الامانة الفرائض وحدود الدين وقال ابو العالية ما امروا به ونهوا عنه وقال زيد بن أسلم هو الصوم والغسل من الجنابة وما يخفى من الشرائع وقال عبد الله بن عمرو بن العاص أول ما خلق الله تعالى من الانسان فرجه وقال هذه أمانتى استودعتكها فالفرج أمانة والعين امانة واليد أمانة والرجل أمانة ولا ايمان لمن لا أمانة له وقال بعضهم هى أمانات الناس والوفاء بالعهود فحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمنا ولا معاهدا فى شئ قليل ولا كثير وهى رواية الضحاك عن ابن عباس وجماعة من التابعين وأكثر السلف ان الله تعالى عرض هذه الامانة على السموات والارض والجبال فقال لهن أتحملن هذه الامانة بما فيها قلن وما فيها فقال ان أحسنتن جوزيتن وان عصيتن عوقبتن (فأبين) على عظم اجرامها وقوة أركانها وسعة أرجائها (أن يحملنها) أى قلن لا يارب نحن مسخرات لامرك لا نريد ثوابا ولا عقابا (وأشفقن منها) أى وقلن ذلك خوفا وخشية وتعظيما لله تعالى أن لا يقوموا بها لا معصية ومخالفة وكان العرض عليهن تخييرا لا الزاما ولو ألزمن لم يمتنعن من حملها فالجمادات كلها خاضعة لله عز وجل مطيعة ساجدة له كما قال تعالى للسموات والارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين وقال فى الحجارة وان منها لما يهبط من خشية الله وقال تعالى ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال الآية وقال بعض أهل العلم ركب الله فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الامانة حتى عقلن الخطاب وأجبن بما أجبن وقال بعضهم المراد بالعرض على السموات والارض هو العرض على أهل السموات والارض عرضها على من فيهما من الملائكة كقوله تعالى واسأل القرية أى أهلها وقيل المراد المقابلة أى قابلنا الامانة مع السموات والارض والجبال فرجحت الامانة قال البغوى والاول أصح وهو قول أكثر العلماء * (تنبيه) * قوله تعالى فأبين أتى بضمير هذه كضمير الاناث لان جمع تكسير غير العاقل يجوز فيه ذلك وانما ذكر ذلك لئلا يتوهم أنه قد غلب المؤنث وهو السموات على المذكر وهو الجبال (فان قيل) ما الفرق بين ابائهن واباء ابليس فى قوله تعالى أبى أن يكون مع الساجدين (أجيب) بأن الاباء هناك كان استكبارا لان السجود كان فرضا وههنا استصغارا لان الامانة كانت عرضا وانما امتنعن خوفا كما قال تعالى وأشفقن منها أى خفن من

الامانة أن لايؤديها فيلحقهن العقاب (وحملها الانسان) أى آدم قال الله تعالى لآدم انى عرضت الامانة على السموات والارض والجبال فلم تطقها فهل أنت آخذها بما فيها قال يارب ومافيها قال ان أحسنت جوزيت وان أسأت عوقبت فتحملها آدم عليه السلام وقال بين اذنى وعاتقى فقال الله تعالى اما اذا تحملت فسأعينك اجعل لبصرك حجابا فاذا خشيت ان تنظر لما لايحل فأرخ عليه حجابه وأجعل للسانك لحيين وغلاقا فاذا خشيت فأغلق وأجعل لفرجك سترا فاذا خشيت فلا تكشفه على ماحرمت عليك قال مجاهد فما كان بين ان تحملها وبين ان أخرج من الجنة الامقدار مابين الظهر والعصر وحكى النقاش باسناده عن ابن مسعود انه قال مثلت الامانة بصخرة ملقاة ودعيت السموات والارض والجبال اليها فلم يقربوا منها وقالوا لانطيق حملها وجاء آدم عليه السلام من غيران يدعى وحرك الصخرة وقال لو أمرت بحملها لحملتها فقلن احمل فحملها الى ركبتيه ثم وضعها وقال والله لو أردت ان أزداد لازددت فقلن له احمل فحملها الى حقويه وقال والله لو أردت أن أزداد لازددت فقلن له احمل فحملها حتى وضعها على عاتقه فأراد أن يضعها فقال له الله تعالى مكانك فانها فى عنقك وعنق ذريتك الى يوم القيامة (انه كان ظلوما جهولا) قال ابن عباس ظلوما لنفسه جهولا بأمر الله تعالى وماحمل من الامانة وقال الكلبى ظلوما حين عصى ربه جهولا لايدرى ما العقاب فى ترك الامانة وقال مقاتل ظلوما لنفسه جهولا بعاقبة ماتحمل وذكر الزجاج وغيره من أهل المعانى فى قوله تعالى وحملها الانسان قولا آخر فقالوا ان الله تعالى ائتمن آدم وأولاده على شئ وائتمن السموات والارض والجبال على شئ فالامانة فى حق بنى آدم ماذكرنا من الطاعة والقيام بالفرائض والامانة فى حق السموات والارض والجبال هى الخضوع والطاعة لما خلقن له وقوله تعالى فأبين أن يحملنها أى أبين الامانة يقال فلان حمل الامانة أى اثم فيها بالخيانة قال تعالى وليحملن أثقالهم انه كان ظلوما جهولا حكى عن الحسن على هذا التأويل أنه قال وحملها الانسان يعنى الكافر والمنافق حملا الامانة أى خانا فيها والاول قول السلف وهو الاولى وقيل المراد بالامانة العقل والتكليف وبعرضها عليهن اعتبارها بالاضافة الى استعدادهن وبابائهن الاباء الطبيعى الذى هو عدم اللياقة والاستعداد وتحمل الانسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوما جهولا لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية وعلى هذا يحسن أن يكون علة للحمل عليه فان من فوائد العقل أن يكون مهيمنا على القوتين حافظا لهما عن التعدى ومجاوزة الحد ومعظم مقصود التكليف تعديلهما وكسر سورتهما وعن أبى هريرة قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم جاء أعرابى فقال متى الساعة فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث فقال بعض القوم سمع ماقال فكره ماقال وقال بعضهم بل لم يسمع حتى اذا قضى حديثه قال أين السائل عن الساعة قال ها أنا يارسول الله قال اذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أد الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك وعن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ان من أعظم الامانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضى الى امرأته وتفضى اليه ثم ينشر سرها وقوله تعالى (ليعذب الله) أى الملك الاعظم متعلق بعرضنا المترتب عليه حمل الانسان (المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) أى المضيعين الامانة *(تنبيه)* لم يعد اسمه تعالى فلم يقل ويعذب الله المشركين وأعاده فى قوله تعالى (ويتوب الله) أى بماله من العظمة (على المؤمنين والمؤمنات) أى المؤدين للامانة ولو قال تعالى ويتوب على المؤمنين والمؤمنات كان المعنى حاصلا ولكنه أراد تفضيل المؤمن على المنافق بجعله كالكلام المستأنف * ولما ذكر تعالى فى الانسان وصفين الظلوم والجهول ذكر تعالى من أوصافه وصفين بقوله تعالى (وكان الله) أى على ماله من الكبرياء والعظمة (غفورا) للمؤمنين حيث عفا عن فرطاتهم (رحيما) بهم حيث أثابهم بالعفو على طاعتهم مكرما لهم بأنواع الكرم * وما رواه البيضاوى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الاحزاب وعلمها أهله وماملكت يمينه أعطى الامان من عذاب القبر حديث موضوع رواه الثعلبي

(سورة سبأ مكية)

الا ويرى الذين أوتوا العلم الآية وهى أربعة أو خمس وخمسون آية وثمانمائة وثلاث وثمانون كلمة وأربعة آلاف وخمسمائة واثنا عشر حرفا (بسم الله) أى الذى من شمول قدرته اقامة الحساب (الرحمن) أى الذى من عموم رحمته ترتيب الثواب والعقاب (الرحيم) أى الذى عز على أهل كرامته بطاعته حتى لا عقاب يلحقهم ولا عتاب * ولما ختم السورة التى قبل هذه بصفتى المغفرة والرحمة بدأ هذه بقوله (الحمد لله) أى ذى الجلال والجمال على هذه النعمة (فائدة) السور المفتتحة بالحمد خمس سورتان فى النصف الاول وهما الانعام والكهف وسورتان فى النصف الاخير وهما هذه السورة وسورة الملائكة والخامسة هى فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الاول ومع النصف الثانى الاخير والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على احصائها منحصرة فى قسمين نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فان الله تعالى خلقنا أولا برحمته وخلق لنا مانقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالاعادة فانه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ماندوم به فلنا حالتان الابداء والاعادة وفى كل حالة له تعالى نعمتان نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فقال فى النصف الاول الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور اشارة الى الشكر على نعمة الايجاد ويدل عليه قوله تعالى هو الذى خلقكم من طين فأشار الى الايجاد الاول وقال فى السورة الثانية الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما فأشار الى الشكر على نعمة الابقاء فان الشرائع بها البقاء ولولا شرع تنقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ووقعت المنازعات وأدت الى التقاتل والتفانى وقال ههنا الحمد لله (الذى له مافى السموات ومافى الارض) ملكا وخلقا اشارة الى نعمة الايجاد الثانى بدليل قوله تعالى (وله) أى وحده (الحمد) أى الاحاطة بالكمال (فى الآخرة) أى ظاهر الكل من يجمعه الحشر وله كل ما فيها الا يدعى

أحد ذلك فى شئ منه ظاهرا ولا باطنا وقال فى سورة الملائكة الحمد لله فاطر السموات والارض اشارة الى نعمة الابقاء بدليل قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا اى يوم القيامة برسلهم الله تعالى مسلمين على المسلمين كما قال تعالى وتتلقاهم الملائكة وقال تعالى عنهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر نعمتين أشار بقوله تعالى الحمد لله رب العالمين الى النعمة العاجلة وأشار بقوله تعالى مالك يوم الدين الى النعمة الآجلة فرتب الافتتاح والاختتام عليهما (فان قيل) قد ذكرتم أن الحمد ههنا اشارة الى النعم التى فى الآخرة فلم ذكر الله تعالى السموات والارض (أجيب) بأن نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله تعالى النعم المرئية وهى ما فى السموات وما فى الارض ثم قال وله الحمد فى الآخرة ليقابل نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها وقيل الحمد فى الآخرة هو حمد أهل الجنة كما قال تعالى وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن والحمد لله الذى صدقنا وعده وتقدم الكلام على الحمد لغة واصطلاحا والشكر كذلك فى أول الفاتحة فتح الله علينا بكل خير وفعل ذلك بأحبابنا * ولما تقرر أن الحكمة لا تتم الا بايجاد الآخرة قال تعالى (وهو الحكيم) أى الذى بلغت حكمته النهاية التى لا مزيد عليها والحكمة هى العلم بالامور على وجه الصواب متصلا بالعمل على وفقه (الخبير) أى البليغ الخبر وهو العلم بظواهر الامور وبواطنها حالا ومآلا ثم بين كمال خبره بقوله تعالى (يعلم ما يلج) أى يدخل (فى الارض) أى هذا الجنس من المياه والاموال والاموات وغيرها (وما يخرج منها) من المياه والمعادن والنبات وغيرها (وما ينزل من السماء) أى من هذا الجنس من قرآن وملائكة وماء وحرارة وبرودة وغير ذلك (وما يعرج فيها) من الكلام الطيب قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والملائكة والاعمال الصالحة قال تعالى والعمل الصالح يرفعه *(تنبيه)* قدم ما يلج فى الارض على ما ينزل من السماء لان الحبة تبذر أولا ثم تسقى ثانيا وقال تعالى ما يعرج فيها ولم يقل ما يعرج اليها اشارة الى قبول الاعمال الصالحة لان كلمة الى للغاية فلو قال وما يعرج اليها لفهم الوقوف عند السموات فقال وما يعرج فيها ليفهم نفوذه فيها وصعوده وتمكنه فيها ولهذا قال فى الكلم الطيب اليه يصعد الكلم الطيب لان الله تعالى هو المنتهى ولا مرتبة فوق الوصول اليه (وهو) أى والحال أنه وحده مع كثرة نعمه المقيمة للابدان (الرحيم) أى المنعم بانزال الكتب وارسال الرسل لاقامة الاديان وغير ذلك (الغفور) أى المحاء للذنوب للمفرطين فى شكر نعمته مع كثرتها أو فى الآخرة مع ماله من سوابق هذه النعم الفائتة للحصر *(تنبيه)* قدم تعالى صفة الرحمة على صفة الغفور ليعلم أن رحمته سبقت غضبه * ثم بين تعالى أن هذه النعمة التى يستحق الله تعالى بها الحمد وهى نعمة الآخرة أنكرها قوم فقال (وقال الذين كفروا) اى ستروا ما دلتهم عليه عقولهم من براهينها الظاهرة (لا تأتينا الساعة) أى أنكروا مجيئها أو استبطأوها استهزاء بالوعد به وقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهم (بلى) رد لكلامهم وايثار لما نفوه (وربى) أى المحسن الى بما عمني به معكم وبما خصني من تنبيئي وارسالى اليكم الى غير ذلك من أمور

لا يحصيها الا هو (لتأتينكم) أى الساعة لتظهر فيها ظهورا تاما الحكمة بالعدل والفصل وغير ذلك من عجائب الحكم والفضل وقوله تعالى (عالم الغيب) قرأه نافع وابن عامر برفع الميم على هو عالم الغيب أو مبتدأ وخبره ما بعده وابن كثير وأبو عمرو وعاصم بجره نعتا للربى وقرأ حمزة والكسائى بعد العين بلام ألف مشددة وخفض الميم (لا يعزب) أى لا يغيب (عنه مثقال) أى وزن (ذرة) أى من ذات ولا معنى والذرة النملة الحمراء الصغيرة جدا صارت مثلا فى أقل القليل فهى كناية عنه * وقرأ الكسائى بكسر الزاى والباقون بضمها وقوله تعالى (فى السموات ولا فى الارض) فيه لطيفة وهى أن الانسان له جسم وروح فالاجسام أجزاؤها فى الارض والارواح فى السماء فقوله تعالى فى السموات اشارة الى علمه بالارواح وما فيها من الملائكة وغيرهم وقوله تعالى ولا فى الارض اشارة الى علمه بالاجسام وما فى الارض من غيرها فاذا علم الارواح والاجسام قدر على جمعهما فلا استبعاد فى الاعادة وقوله تعالى (ولا أصغر) أى ولا يكون شئ أصغر (من ذلك) أى المثقال (ولا أكبر) أى منه (الا فى كتاب مبين) أى بين هو اللوح المحفوظ جملة مؤكدة لنفى العزوب (فان قيل) فأى حاجة الى ذكر الاكبر فان من علم الاصغر من الذرة لا بد وأن يعلم الاكبر (أجيب) بأنه تعالى أراد بيان اثبات الامور فى الكتاب فلو اقتصر على الاصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغار لكونها محل النسيان وأما الاكبر فلا ينسى فلا حاجة الى اثباته فقال الاثبات فى الكتاب ليس كذلك فان الاكبر أيضا مكتوب * ثم بين علة ذلك كله بقوله (ليجزى الذين آمنوا وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) أى وانه ما خلق الاكوان الا لأجل الانسان فلا يدعه بغير جزاء ثم بين جزاءهم بقوله تعالى (أولئك) أى العالو الرتبة (لهم مغفرة) أى لزلاتهم وهفواتهم لان الانسان المبنى على النقصان لا يقدر أن يقدر العظيم السلطان حق قدره (ورزق كريم) أى جليل عزيز دائم لذيذ نافع شهى لا كدر فيه وهو رزق الجنة *(تنبيه)* ذكر تعالى فى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أمرين الايمان والعمل الصالح وذكر لهم أمرين المغفرة والرزق الكريم فالمغفرة جزاء الايمان فكل مؤمن مغفور له لقوله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله صلى الله عليه وسلم يخرج من النار من قال لا اله الا الله ومن فى قلبه وزن ذرة من ايمان والرزق الكريم على العمل الصالح وهذا مناسب فان من عمل لسيد كريم عملا فعند فراغه لا بد وأن ينعم عليه وقوله تعالى كريم بمعنى ذى كرم أو مكرم أو لانه يأتى من غير طلب بخلاف رزق الدنيا فانه ان لم يطلب ويتسبب فيه لا يأتى غالبا (فان قيل) ما الحكمة فى تمييزه الرزق بأنه كريم ولم يصف المغفرة (أجيب) بأن المغفرة واحدة وهى للمؤمنين وأما الرزق فمنه شجرة الزقوم والحميم ومنه الفواكه والشراب الطهور فميز الرزق لحصول الانقسام فيه ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها * ولما بين تعالى حال المؤمنين يوم القيامة بين حال الكافرين فى ذلك اليوم بقوله سبحانه (والذين سعوا) أى فعلوا فعل الساعى (فى آياتنا) أى القرآن بالابطال وتزهيد الناس فيها وقوله تعالى (معجزين) قرأه ابن كثير وأبو عمرو

بفتح ألف بعد العين وتشديد الجيم أي مبطئين عن الايمان من اراده والباقون بألف بعد العين وتخفيف الجيم وكذا في آخر السورة أي مسابقين كي يفوتونا (أولئك) المحقرون عن أن يبلغوا مراداً بعجزهم (لهم عذاب) وأي عذاب (من رجز) أي سيئ العذاب (أليم) أي مؤلم وقرأ ابن كثير وحفص أليم بالرفع على أنه صفة لعذاب والباقون بالجر على انه صفة لرجز قال الرازي قال هنالك لهم رزق كريم ولم يقل بمن التبعيضية فلم يقل لهم نصيب من رزق ولا رزق من جنس كريم وقال ههنا لهم عذاب من رجز أليم بلفظة صالحة للتبعيض وذلك اشارة الى سعة الرحمة وقلة الغضب وقوله (ويرى الذين أوتوا العلم) أي الذي قذفه الله تعالى في قلوبهم سواء كانوا ممن أسلم من العرب أو أهل الكتاب وقيل مؤمنو أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل الصحابة ومن تابعهم فيه وجهان أحدهما انه عطف على ليجزي أي وليعلم الذين أوتوا العلم والثاني انه مستأنف أخبر عنهم بذلك (الذي أنزل اليك من ربك) أي المحسن اليك بانزاله (هو الحق) أي انه من عند الله تعالى * (تنبيه) * الذي أنزل هو المفعول الأول وهو ضمير فصل والحق مفعول ثان لأن الرؤية علمية وقوله تعالى (ويهدي الى صراط) أي طريق (العزيز الحميد) في فاعله وجهان أظهرهما انه ضمير الذي أنزل وهو القرآن والثاني ضمير اسم الله تعالى وهاتان الصفتان يفيدان الرهبة والرغبة العزيز يفيد التخويف والانتقام من المكذب والحميد يفيد الترغيب في الرحمة للمصدق (وقال الذين كفروا) أي قال بعضهم على وجه التعجب لبعض (هل ندلكم على رجل) يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم (ينبئكم) أي يخبركم اخباراً لا أعظم منه بما حواه من العجب الخارج عما نفعله أنكم (اذا مزقتم) أي قطعتم وفرقتم بعد موتكم وقوله تعالى (كل ممزق) يحتمل أن يكون اسم مفعول أي كل تمزيق فلم يبق شيء من أجسادكم مع شيء بل صار الكل بحيث لا يميز بين ترابه وتراب الارض ويحتمل أن يكون ظرف مكان بمعنى اذا مزقتم وذهبت بكم الرياح والسيول كل مذهب (انكم لفي خلق جديد) أي تنشؤن خلقاً جديداً بعد ان تكونوا رفاتاً وتراباً والهمزة في قوله (أفترى) أي تعمد (على الله) أي الذي لا أعلم منه (كذباً) أي بالاخبار بخلاف الواقع وهو عاقل صحيح القصد همزة استفهام فالقراء الجميع يحققونها واستغنى بها عن همزة الوصل فانها تحذف لاجلها فلذلك تثبت هذه الهمزة ابتداء ووصلاً قال البغوي هذه ألف استفهام دخلت على ألف الوصل فلذلك نصبت (أم به جنة) أي جنون يحكي به ذلك واستدل الجاحظ بهذه الآية على ان الكلام ثلاثة أقسام صدق وكذب ولا صدق ولا كذب ووجه الدلالة منه على القسم الثالث ان قولهم أم به جنة لا جائز أن يكون كذباً لانه قسيم الكذب وقسيم الشيء غيره ولا جائز أن يكون صدقاً لانهم لم يعتقدوه فثبت قسم ثالث (وأجيب) عنه بأن المعنى أم لم يفتر ولكن عبر عن هذا بقولهم أم به جنة لان المجنون لا افتراء له * (تنبيه) * قوله أفترى يحتمل أن يكون من تمام قول الكافرين أولاً أي من كلام القائلين هل ندلكم ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب للقائل هل ندلكم كان القائل لما قال له هل ندلكم على رجل قال له هل افترى على الله كذباً ان كان يعتقد خلافه أم به جنة أي جنون

ان كان لا يعتقد خلافه * ولما كان الجواب ليس به شئ من ذلك عطف عليه قوله تعالى (بل الذين لا يؤمنون) أى لا يوجدون الايمان لانهم طبعوا على الكفر (بالآخرة) أى المشتملة على البعث والعذاب (فى العذاب) أى فى الآخرة (والضلال البعيد) أى عن الصواب فى الدنيا فرد الله تعالى عليهم ترديدهم وأثبت لهم سبحانه ما هو أفظع من القسمين فقوله تعالى بل الذين كفروا فى العذاب فى مقابلة قولهم أفترى على الله كذبا وقوله تعالى والضلال البعيد فى مقابلة قولهم أم به جنة وكلاهما مناسب اما العذاب فلان نسبة الكذب الى الصادق مؤذ الى أنه شهادة عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوا الكذب الى البرئ * وأما الضلال فلان نسبة المجنون الى العاقل دونه فى الايذاء فانه لا يشهد عليه بأنه يعذب وانما ينسبه الى عدم الهداية فبين تعالى انهم هم الضالون * ثم وصف ضلالهم بالبعد ووصف الضلال به للاسناد المجازى لان من يسمى المهدى ضالا يكون أضل والنبى صلى الله عليه وسلم هادى كل مهتد * ولما ذكر تعالى الدليل على كونه عالم الغيب وكونه مجازيا على السيآت والحسنات ذكر دليلا آخر فيه التهديد والتوحيد بقوله تعالى (أفلم يروا) أى ينظروا (الى ما بين أيديهم) أى امامهم (وما خلفهم) وذلك اشارة الى جميع الجوانب من كلا الخافقين وقوله تعالى (من السماء والارض) دليل التوحيد فانهما يدلان على الوحدانية ويدلان على الحشر والاعادة لانهما يدلان على كمال القدرة لقوله تعالى أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم وأما دليل التهديد فقوله تعالى (ان نشأ) أى بما لنا من العظمة (نخسف بهم الارض) أى كما فعلنا بقارون وذويه لانه ليس نفوذ بعض أفعالنا فيه بأولى من غيره (أو نسقط عليهم كسفا) أى قطعا (من السماء) فنهلكهم بها وقرأ حفص بفتح السين والباقون بسكونها * (تنبيه) * فى قوله تعالى أفلم يروا الرأيان المشهوران قدره الزمخشرى أفعموا فلم يروا وغيره يدعى أن الهمزة مقدمة على حرف العطف وقوله من السماء بيان للموصول فيتعلق بمحذوف ويجوز أن يكون حالا فيتعلق به أيضا قيل وثم حال محذوفة تقديره أفلم يروا الى كذا مقهورا تحت قدرتنا أو محيطا بهم فيعلموا انهم حيث كانوا فان أرضى وسمائى محيطة بهم لا يخرجون من أقطارها وأنا القادر عليهم وقرأ حمزة والكسائى ان يشأ يخسف بهم الارض أو يسقط بالياء فى الثلاثة كقوله تعالى افترى على الله كذبا والباقون بالنون وأدغم الكسائى الفاء فى الباء وأظهرها الباقون (ان فى ذلك) أى فيما ترون من السماء والارض (لآية) أى علامة بينة تدل على قدرتنا على البعث (لكل عبد) أى متحقق انه مربوب ضعيف مسخر لما يراد منه (منيب) أى فيه قابلية الرجوع الى ربه بقلبه * ولما ذكر تعالى من ينيب من عباده وكان من جملتهم داود عليه السلام كما قال وربه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ذكره بقوله تعالى (ولقد آتينا) أى أعطينا اعطاء عظيما دالا على نهاية المكنة بما لنا من العظمة (داود منا فضلا) أى النبوة والكتاب أو الملك أو جميع ما أوتى من حسن الصوت وتليين الحديد وغير ذلك مما خص به وهذا الاخير أولى * (تنبيه) * قوله تعالى منا فيه اشارة الى بيان

فضل داود عليه السلام لان قوله تعالى ولقد آتينا داود منا فضلا مستقل بالمفهوم وتام كما يقول القائل آتى الملك زيدا خلعة فاذا قال القائل آتاه منه خلعة يفيد انه كان من خاص ما يكون له فكذلك ايتاء الله تعالى الفضل عام لكن النبوة من عنده خاص بالبعض ونظيره قوله تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان فان رحمة الله تعالى واسعة تصل الى كل أحد لكن رحمته فى الآخرة على المؤمنين رحمة من عنده لخواصه وقوله تعالى (يا جبال) محكى بقول مضمر ثم ان شئت قدرته مصدرا ويكون بدلا من فضل على جهة تفسيره به كأنه قيل آتيناه فضلا قولنا يا جبال وان شئت قدرته فعلا وحينئذ ذلك وجهان ان شئت جعلته بدلا من آتينا معناه آتيناه قلنا يا جبال وان شئت جعلته مستأنفا (أوبى) أى رجعى (معه) بالتسبيح اذا سبح أمر من التأويب وهو الترجيع وقيل التسبيح بلغة الحبشة وقال القتيبى أصله من التأويب فى السير وهو أن يسير النهار كله وينزل ليلا فكأنه يقول أوبى النهار كله بالتسبيح معه وقال وهب نوحى معه وقيل سيرى معه وقوله تعالى (والطير) منصوب باجماع القراء السبعة واختلف فى وجه نصبه على أوجه أحدها أنه عطف على محل جبال لانه منصوب تقديرا لان كل منادى فى موضع نصب الثانى أنه عطف على فضلا قاله الكسائى ولابد من حذف مضاف تقديره آتيناه فضلا وتسبيح الطير الثالث انه منصوب باضمار فعل أى وسخرنا له الطير قاله أبو عمرو* (تنبيه) * لم يكن الموافق له فى التأويب منحصرا فى الطير والجبال ولكن ذكر الجبال لان الصخور للجمود والطير للنفور وكلاهما تستبعد منه الموافقة فاذا وافقته هذه الاشياء فغيرها أولى ثم من الناس من لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التى هى أشد قسوة قال المفسرون كان داود عليه الصلاة والسلام اذا نادى بالنياحة اجابته الجبال بصداها وعكفت الطير عليه من فوقه فصدى الجبال الذى يسمعه الناس اليوم من ذلك وقيل كان داود اذا تخلل الجبال فسبح الله جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبح وقيل كان داود اذا لحقه فتور اسمعه الله تسبيح الجبال تنشيطا له وقال وهب بن منبه كان يقول للجبال سبحى وللطير أجيبى ثم يأخذ فى تلاوة الزبور بين تلك بصوته الحسن فلا يرى الناس منظرا أحسن من ذلك ولا يسمعون شيأ أطيب منه وذلك كما كان الحصى يسبح فى كف نبينا صلى الله عليه وسلم وكف أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وكما كان الطعام يسبح فى حضرته الشريفة وهو يؤكل وكما كان الحجر يسلم عليه وأسكفة الباب وحوائط البيت تؤمن على دعائه وحنين الجذع مشهور وكما كان الضب يشهد له والجمل يشكو اليه ويسجد بين يديه ونحو ذلك وكما جاء الطائر الذى يسمى الحمرة تشكو الذى أخذ بيضها فأمره النبى صلى الله عليه وسلم برده رحمة لها * ولما ذكر تعالى طاعة أكثف الارض وألطف الحيوان الذى أنشأه الله تعالى منها ذكر سبحانه وتعالى ما أنشأه من ذلك الاكثف وهو أصلب الاشياء بقوله تعالى (وألنا له الحديد) أى الذى ولدناه من الجبال جعلناه فى يده كالشمع والعجين يعمل منه ما يشاء من غير نار ولا ضرب مطرقة وذلك فى قدرة الله تعالى يسير وكان سبب ذلك ما روى فى الاخبار أن داود عليه السلام لما ملك بنى اسرائيل كان من عادته أن يخرج

للناس

للناس متنكرا فاذا رأى رجلا لا يعرفه تقدم اليه يسأله عن داود ويقول له ما تقول فى داود واليكم هذا أى رجل هو فيثنون عليه ويقولون خيرا فقيض الله تعالى له ملكا فى صورة آدمى فلما رآه داود تقدم اليه على عادته يسأله فقال الملك نعم الرجل هو لولا خصلة فيه فراع داود ذلك وقال ما هى يا عبد الله فقال انه يأكل ويطعم عياله من بيت المال قال فتنبه لذلك وسأل الله تعالى أن يسبب له سببا يستغنى به عن بيت المال يتقوت منه ويطعم عياله فألان الله له الحديد وعلمه صنعة الدروع وانه أول من اتخذها يقال انه كان يبيع كل درع بأربعة آلاف درهم فيأكل ويطعم منها عياله ويتصدق منها على الفقراء والمساكين ويقال انه كان يعمل كل يوم درعا يبيعه بستة آلاف درهم فينفق منها ألفين على نفسه وعياله ويتصدق بأربعة آلاف درهم على فقراء بنى اسرائيل وانما اختار الله تعالى له ذلك لانه وقاية للروح التى هى من أمره وحفظ الآدمى المكرم عند الله تعالى من القتل فالزراد خير من القواس والسياف وغيرهما لان القوس والسيف وغيرهما من السلاح ربما يستعمل فى قتل النفس المحرمة بخلاف الدرع قال صلى الله عليه وسلم كان داود عليه السلام لا يأكل الا من عمل يده ثم ذكر سبحانه وتعالى علة الالانة بصيغة الامر اشارة الى أن عمله كان لله تعالى بقوله عز من قائل (أن اعمل سابغات) أى دروعا طوالا واسعات يجرها لابسها على الارض وذكر الصفة يعلم منها الموصوف واختلف فى معنى قوله سبحانه وتعالى (وقدر فى السرد) أى نسج الدروع يقال لصانعه الزراد والسراد فقيل قدر المسامير فى حلق الدروع أى لا تجعل المسامير غلاظا فتكسر الحلق ولا دقاقا فتقلقل فيها ويقال السرد المسمار فى الحلقة يقال درع مسرودة أى مسمورة الحلق وقدر فى السرد اجعله على القصد وقدر الحاجة وقيل اجعل كل حلقة مساوية لاختها مع كونها ضيقة لئلا ينفذ منها سهم ولتكن فى ثخنها بحيث لا يقطعها سيف ولا تثقل على الدارع فتمنعه خفة التصرف وسرعة الانتقال فى الكر والفر والطعن والضرب فى البرد والحر والظاهر كما قال البقاعى انه لم يكن فى حلقها مسامير لعدم الحاجة بالالانة الحديد اليها والا لم يكن بينه وبين غيره فرق ولا كان للالانة كبير فائدة وقد أخبر بعض من رأى ما نسب اليه بغير مسامير وقال الرازى يحتمل أن يقال السرد هو عمل الزرد وقوله تعالى وقدر فى السرد أى انك غير مأمور به أمر ايجاب انما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة وباقى الايام والليالى للعبادة فقدر فى ذلك العمل ولا تشتغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل به القوت فحسب ويدل عليه قوله تعالى (واعملوا صالحا) أى لستم مخلوقين الا للعمل الصالح فاعملوا ذلك واكثروا منه وأما الكسب فقدروا فيه ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله تعالى (انى بما تعملون بصير) أى مبصر فأجازيكم به يريد بهذا داود وآله *(تنبيه)* كما ألان الله تعالى لداود عليه السلام الحديد ألان لنبينا صلى الله عليه وسلم فى الخندق تلك الكدية وذلك بعد ان لم تمكن المعاول تعمل فيها وبلغت غاية الجهد منهم فضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربة واحدة وفى رواية رش عليها ماء فعادت كثيبا أهيل لا ترد فأساو تلك الصخرة التى أخبره سلمان عنها أنها كسرت فؤسهم ومعاولهم وعجزوا عنها فضربها صلى الله

عليه وسلم ثلاث ضربات كسر في كل ضربة ثلثامنها وبرقت مع كل ضربة برقة كبر معها تكبيرة وأضاءت للصحابة رضي الله تعالى عنهم ما بين لابتي المدينة بحيث كانت في النهار كانها مصباح في جوف بيت مظلم فسألوه عن ذلك فأخبرهم صلى الله عليه وسلم ان احدى الضربات أضاءت له صنعاء من أرض اليمن حتى رأى أبوابها من مكانه ذلك وأخبره جبريل عليه السلام أنها ستفتح على أمته وأضاءت له الاخرى قصور الحيرة البيض كأنها أنياب الكلاب وأخبرانها مفتوحة لهم وأضاءت له الاخرى قصور الشأم الحمر كأنها انياب الكلاب وأخبر بفتحها عليهم فصدقه الله تعالى في جميع ما قال وأعظم من ذلك تصلب الخشب له عليه السلام حتى صار سيفا اقوى المتن جيد الحديدة وذلك أن سيف عبد الله بن جحش انقطع يوم أحد فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرجونا فصار في يده سيفا قائمه منه فقاتل به فكان يسمى العرجون ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده حتى قتل وهو عنده وعن الواقدي أنه انكسر سيف سلمة بن أسلم يوم بدر فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قضيبا كان في يده من عراجين رطاب وقال اضرب به فاذا هو سيف جيد فلم يزل عنده حتى قتل والحام داود للحديد ليس بأعجب من الحام النبي صلى الله عليه وسلم ليد معوذ بن عفراء لما قطعها أبو جهل يوم بدر فأتى بها يحملها في يده الاخرى فبصق عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وألصقها فلصقت وصحت مثل أختها كما نقله البيهقي وغيره ومعجزاته صلى الله عليه وسلم لا تنحصر وانما أذكر بعضها تبركا بذكره صلى الله عليه وسلم وأسأل الله تعالى ان يحشرنا في زمرته ويفعل ذلك بأهلينا ومحبينا * ولما أتم الله تعالى المراد من آيات داود عليه السلام أتبعها بعض آيات ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام لمشاركته في الانابة بقوله تعالى (ولسليمان) أي عوضا عن الخيل التي عقرها الله تعالى (الريح) قرأ شعبة الريح بالرفع على الابتداء والخبر في الجار قبله أو محذوف والباقون بالنصب باضمار فعل أي وسخرنا (غدوها) أي سيرها من الغدوة بمعنى الصباح الى الزوال (شهر) أي تحمله وتذهب به وبجميع عسكره من الصباح الى نصف النهار مسيرة شهر (ورواحها) أي من الزوال الى الغروب (شهر) أي مسيرته فكانت تسير به في يوم واحد مسيرته شهرين قال الحسن كان يغدو من دمشق فيقيل باصطخر وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع وهذا كما سخر الله تعالى الريح لنبينا صلى الله عليه وسلم في غزوة الاحزاب فكانت تهدم خيامهم وتضرب وجوههم بالتراب والحجارة وهي لا تجاوز عسكرهم الى أن هزمهم الله تعالى بها وكما حملت شخصين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم في غزوة تبوك فألقتهما بجبل طيء وتحمل من اراد الله تعالى من اولياء أمته كما هو في غاية الشهرة ونهاية الكثرة واما امر الاسراء والمعراج فهو من الجلالة والعظم بحيث لا يعلمه الا الله تعالى مع ان الله تعالى صرفه في آيات السماء بحبس المطر تارة وارساله أخرى * ولما ذكر تعالى الريح أتبعها ما هو من أسباب تكوينه بقوله تعالى (وأسلنا) أي أذبنا بما لنا من العظمة (له عين القطر) أي النحاس حتى صار كأنه عين ماء فأجريت ثلاثة أيام بلياليهن تجري الماء وعمل الناس الى اليوم مما أعطى سليمان (ومن الجن) أي الذي سترناهم عن العيون من

الشياطين

الشياطين وغيرهم عطف على الريح أى وسخرنا له من الجن (من يعمل بين يديه) أى قد أمكنه الله تعالى منهم غاية الامكان فى غيبته وحضوره (باذن) أى بأمر (ربه) أى بتمكين المحسن اليه (ومن يزغ) اى يعدل (منهم عن أمرنا) أى عن أمره الذى هو من أمرنا (نذقه من عذاب السعير) أى النار أى فى الآخرة وقيل فى الدنيا بأن يضربه ملك بسوط منها ضربة يحرقه وهذا كما أمكن نبينا صلى الله عليه وسلم من ذلك العفريت فخنقه وهم بربطه حتى تلعب به صبيان المدينة ثم تركه تأدبا مع أخيه سليمان عليه السلام فيما سأل الله تعالى فيه وأما الاعمال التى يدور عليها اقامة الدين فأغناه الله تعالى فيها عن الجن بالملائكة الكرام عليهم السلام وسلط جمعا من صحابته على جماعة من مردة الجان منهم أبو هريرة رضى الله تعالى عنه لما وكله النبى صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان ومنهم أبى بن كعب قبض على شخص منهم كان يسرق من تمره وقال لقد علمت الجن ما فيهم من هو أشد منى ومنهم معاذ بن جبل لما جعله النبى صلى الله عليه وسلم على صدقة المسلمين فأتاه شيطان يسرق وتصوّر له بصور ومنها صورة فيل فضبطه والتفت يداه عليه وقال له يا عدو الله فشكا له الفقر وأخبره أنه من جن نصيبين وانهم كانت لهم المدينة فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم أخرجهم منها وسأله أن يخلى عنه على أن لا يعود ومنهم بريدة ومنهم ابو أيوب الانصارى رضى الله تعالى عنه ومنهم زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه ومنهم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه صارع الشيطان فصرعه عمر ومنهم عمار بن ياسر قاتل الشيطان فصرعه عمار وأدمى أنف الشيطان بحجر ذكر ذلك البيهقى فى الدلائل وأما عين القطر فهى مما تضمنه قول النبى صلى الله عليه وسلم أعطيت مفاتيح خزائن الارض والملك فى الدنيا والخلد فيها ثم الجنة فاخترت أن أكون نبيا عبدا أجوع يوما وأشبع يوما الحديث فشمل ذلك اللؤلؤ الرطب الى عين الذهب المصفى الى ما دون ذلك وروى الترمذى وقال حسن عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا قلت لا يا رب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما فاذا جعت تضرعت اليك وشكرتك واذا شبعت شكرتك وحمدتك وللطبرانى باسناد حسن عن ابن عباس ان اسرافيل أتى النبى صلى الله عليه وسلم بمفاتيح خزائن الارض وقال ان الله أمرنى ان أعرض عليك ان تسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فان شئت نبيا ملكا وان شئت نبيا عبدا فأومأ اليه جبريل عليه السلام أن تواضع فقال نبيا عبدا ورواه ابن حبان فى صحيحه مختصرا من حديث أبى هريرة وله فى الصحيح عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق على قطيفة من سندس وفى البخارى فى غزوة أحد عن عقبة بن عامر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال أعطيت مفاتيح خزائن الارض أو مفاتيح الارض هذا ما يتعلق بالارض وقد زيد صلى الله عليه وسلم على ذلك بأن أيده ربه سبحانه بالتصرف فى خزائن السماء تارة بشق القمر وتارة برجم النجوم وتارة باختراق السموات وتارة بحبس المطر وتارة بارساله الى غير ذلك مما قد أكرمه الله تعالى به مما لا يحيط به الا الله عز وجل صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأزواجه وذريته وأصحابه وحشرنا ومحبينا معهم فى دار

كرامته * ولما أخبر تعالى أنه سخر لسليمان الجن ذكر حالهم في أعمالهم بقوله تعالى (يعملون له) أي في أي وقت شاء (ما يشاء) أي عمله (من محاريب) أي أبنية مرتفعة غير مساجد يصعد اليها بدرج سميت بذلك لانه يذب عنها ويحارب عليها ومساجد والمحراب مقدم كل مسجد ومجلس وبيت وكان مما عملوه له بيت المقدس ابتدأه داود عليه السلام ورفعه قامة رجل فأوحى الله تعالى اليه انى لم أقض ذلك على يديك ولكن ابن لك اسمه سليمان عليه السلام اقضى تمامه على يديه فلما توفاه الله تعالى استخلف سليمان عليه السلام فأحب اتمام بناء بيت المقدس فجمع الجن والشياطين وقسم عليهم الاعمال فخص كل طائفة منهم بعمل يستصلحه له فأرسل الجن والشياطين في تحصيل الرخام والمها الابيض من معادنه وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفائح وجعلها اثنى عشر ربضا وأنزل على كل ربض سبطا من الاسباط وكانوا اثنى عشر سبطا فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد فوجه الشياطين فرقا يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنها والدر الصافي من البحر وفرقا يقتلعون الجواهر من الحجارة من أماكنها وفرقا يأتونه بالمسك والعنبر وسائر الطيب من أماكنها فأتى من ذلك بشئ لا يحصيه الا الله تعالى ثم أحضر الصناع وأمرهم بنحت تلك الحجارة المرتفعة وتصييرها ألواحا واصلاح تلك الجواهر وثقب اليواقيت واللآلئ فبنى المسجد بالرخام الابيض والاصفر والاخضر وعمده باساطين المها الصافى وسقفه بألواح الجواهر الثمينة وفصص سقفه وحيطانه باللآلئ والياقوت وسائر الجواهر وبسط أرضه بألواح الفيروزج فلم يكن يومئذ في الارض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد وكان يضئ في الظلمة كالقمر ليلة البدر فلما فرغ منه جمع أحبار بنى اسرائيل فأعلمهم أنه بناه لله تعالى وان كل شئ فيه خالص لله تعالى واتخذ ذلك اليوم الذى فرغ منه عيدا تعالى روى عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثا فأعطاه اثنتين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة سأله حكما يصادف حكمه فأعطاه اياه وسأله ملكا لا ينبغى لاحد من بعده فأعطاه اياه وسأله أن لا يأتى هذا البيت أحد يصلى فيه ركعتين الا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك قالوا فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتى غزاه بختنصر فخرب المدينة وهدمها ونقض المسجد وأخذ ما كان في سقوفه وحيطانه من الذهب والفضة والدر والياقوت وسائر الجواهر الى دار ملكه من أرض العراق وبنى الشياطين باليمن لسليمان حصونا كثيرة عجيبة من الصخر (وتماثيل) جمع تمثال وهو كل شئ مثلته بشئ أى كانوا يعملون له تماثيل أى صورا من نحاس وزجاج ورخام ونحو ذلك (فان قيل) كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير *(أجيب)* بأن هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع لانه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكذب وعن أبى العالية لم يكن اتخاذ التصاوير اذ ذاك محرما ويجوز أن تكون غير صور الحيوان كصور الاشجار ونحوها لان التمثال كل ما صور على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان أو بصور محذوفة الرؤس روى أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين في أعلاه

فاذا أراد أن يصعد بسط الاسدان له ذراعيهما واذا قعد أظله النسران بأجنحتهما وقيل كانوا يتخذون صور الانبياء والملائكة والصالحين في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة قيل ان هذا كان أول الامر فلما تقادم الزمن قال لهم ابليس ان آباءكم كانوا يعبدون هذه الصور فعبدوا الاصنام ولم تكن التصاوير ممنوعة في شريعتهم كما أن عيسى عليه السلام كان يتخذ صورا من الطين فينفخ فيها فتكون طيرا (وجفان) أي قصاع وصحاف يؤكل فيها واحدتها جفنة (كالجوابي) جمع جابية وهي الحوض الكبير يجبى اليه الماء أي يجتمع يقال كان يجلس على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها وقرأ ورش وأبو عمرو باثبات الياء بعد الباء الموحدة في الوصل دون الوقف وابن كثير باثباتها وقفا ووصلا والباقون بالحذف وقفا ووصلا * ولما ذكر القصاع على وجه يتعجب منه ذكر ما يطبخ فيه طعام تلك الجفان بقوله تعالى (وقدور راسيات) أي ثابتات ثباتا عظيما لانها لكبرها كالجبال لها قوائم لا يحركن عن أماكنها لعظمهن ولا يبدلن ولا يعطلن وكان يصعد عليها بالسلالم وكانت باليمن * ولما ذكر المساكن وما يتبعها أتبعها الامر بالعمل بقوله تعالى (اعملوا) أي وقلنا لهم اعملوا أي تمتعوا واعملوا ودل على مزيد قربهم بحذف أداة النداء وعلى شرفهم بالتعبير بالآل بقوله تعالى (آل داود) وقوله تعالى (شكرا) يجوز فيه أوجه أحدها أنه مفعول به أي اعملوا الطاعة سميت الصلاة ونحوها شكرا لسدها مسده ثانيها أنه مصدر من معنى اعملوا كأنه قال اشكروا شكرا بعملكم أو اعملوا عمل شكر ثالثها أنه مفعول من أجله أي لاجل الشكر واقتصر على هذا البقاعي رابعها أنه مصدر واقع موقع الحال أي شاكرين خامسها أنه منصوب بفعل مقدر من لفظه تقديره واشكروا شكرا سادسها انه صفة لمصدر اعملوا تقديره اعملوا عملا شكرا أي ذا شكر * (تنبيه) * كما قال تعالى عقب قوله سبحانه أن اعمل سابغات اعملوا صالحا قال عقب ما تعمله الجن له اعملوا آل داود شكرا اشارة الى أنه لا ينبغي أن يجعل الانسان نفسه مستغرقة في هذه الاشياء وانما الاكثار من العمل الصالح الذي يكون شكرا وقوله تعالى (وقليل) خبر مقدم وقوله تعالى (من عبادي) صفة له وقوله تعالى (الشكور) مبتدأ والمعنى ان العامل بطاعتي المتوفر الدواعي بظاهره وباطنه من قلبه ولسانه ويديه على الشكر بان يصرف جميع ما أنعم الله تعالى به عليه فيما يرضيه قليل ومع ذلك لا يوفي حقه لان توفيقه للشكر نعمة تستدعي شكرا آخر لا الى نهاية ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر وعبر بصيغة فعول اشارة الى أن من يقع منه مطلق الشكر كثير وأقل ذلك حال الاضطرار وقيل المراد من آل داود عليه السلام هو داود نفسه وقيل داود وسليمان وأهل بيتهما عليهما السلام قال جعفر بن سليمان سمعت ثابتا يقول كان داود عليه السلام نبي الله صلى الله عليه وسلم قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تك تأتي ساعة من ساعات الليل والنهار الا وانسان من آل داود عليه السلام قائم يصلي وقال صلى الله عليه وسلم في صلاة النافلة أفضل الصلاة صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وقال في صوم التطوع أفضل الصيام صيام داود كان يصوم يوما ويفطر يوما وروي عن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلا يقول اللهم

اجعلني من القليل فقال عمر ماهذا الدعاء فقال اني سمعت الله يقول وقليل من عبادى الشكور فانا أدعوه أن يجعلني من ذلك القليل فقال عمر كل الناس أعلم من عمر * ولما كان الموت مكتوبا على كل أحد قال تعالى (فلما قضينا) وحقق صفة القدرة بأداة الاستعلاء بقوله تعالى (عليه) أى سليمان عليه السلام (الموت) قال أهل العلم كان سليمان يتحنث فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر فيدخل فيه ومعه طعامه وشرابه فلما دنا أجله لم يصبح الارأى فى محرابه شجرة نابتة قد أنطقها الله تعالى فسألها ما اسمك فتقول كذا وكذا فيقول لاى شئ خلقت فتقول لكذا وكذا فيؤمر بها فتقلع فان كانت تنبت لغرس غرسها وان كانت تنبت لدواء كتب ذلك حتى نبتت الخروبة فقال لها ما أنت قالت الخروبة قال لاى شئ نبت قالت لخراب مسجدك قال عليه السلام ما كان الله ليخربه وأنا حى أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها فى حائطه ثم قال اللهم عم على الجن موتى حتى تعلم الانس أن الجن لا يعلمون الغيب لانهم كانوا يسترقون السمع ويموهون على الناس أنهم يعلمون الغيب وقال لملك الموت اذا أمرت بى فأعلمنى فقال أمرت بك وقد بقيت من عمرك ساعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلى متكئا على عصاه فقبض الله روحه وهو متكئ عليها وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى وكان للمحراب كوى بين يديه وخلفه فكانت الجن تعمل الاعمال الشاقة التى كانوا يعملونها فى حياته وينظرون الى سليمان عليه السلام فيرونه قائما متكئا على عصاه فيحسبونه حيا فلا ينكرون خروجه الى الناس لطول صلاته فمكثوا ايدأبون له بعد موته حولا كاملا حتى أكلت الارضة عصا سليمان فخر ميتا فعلموا بموته حينئذ كما قال تعالى (ما دلهم على موته الا دابة الارض) أى الارضة لانا جعلنا له من سعة العلم ووفور الهيبة ونفوذ الامر ما تمكن به من اخفاء ذلك عنهم (تأكل منسأته) قال البخارى يعنى عصاه فالمنسأة العصا اسم آلة من نسأه أخره كالمكسحة والمكنسة من نسأت الغنم أى زجرتها وسقتها ومنه نسأ الله فى أجله أى أخره وقرأ نافع وابو عمرو بعد السين بألف وابن ذكوان بعد السين بهمزة ساكنة والباقون بهمزة مفتوحة بعد السين فاذا وقف حمزة سهل الهمزة وقيل لم يكن شيطان ينظر اليه فى صلاته الا احترق فمر به شيطان فلم يسمع صوته ثم رجع فلم يسمع فنظر فاذا سليمان قد خر ميتا ففتحوا عنه فاذا العصا قد أكلتها الارضة (فلما خر) أى سقط على الارض بعد أن قصمت الارضة عصاه (تبينت الجن) أى علمت علما بينا لا يقدرون معه على تدليس وتلبيس وانفضح أمرهم وظهر ظهورا تاما (أن) أى أنهم (لو كانوا) أى الجن (يعلمون الغيب) أى علمه (مالبثوا) أى أقاموا حولا (فى العذاب المهين) من ذلك العمل الذى كانوا مسخرين فيه ويجوز أن تكون أن تعليلية ويكون التقدير تبين حال الجن فيما يظن بهم من أنهم يعلمون الغيب لانهم الخ وسبب علمهم مدة كونه ميتا قبل ذلك أنهم وضعوا الارضة على موضع من العصا فأكلت منها يوما وليلة مقدارا وحسبوا على ذلك النحو فوجدوا المدة سنة قال ابن عباس فشكر الجن الارضة فهم يأتونها بالماء والطين فى جوف

الخشب

الخشب *(تنبيه)* قد تقدم أن كل شئ أثبت لمن قبل نبينا صلى الله عليه وسلم من الانبياء عليهم السلام من الخوارق ثبت له مثله أو أعظم منه اما له نفسه أو لاحد من أمته وهذا الذى ذكر لسليمان عليه السلام من حفظه بعد موته سنة لا يعلم قد ثبت مثله لشخص من هذه الامة من غير شئ يعتمد عليه قال القشيرى فى رسالته فى باب أحوالهم عند الخروج من الدنيا وقال أبو عمران الاصطخرى رأيت أبا تراب فى البادية قائما ميتا لا يمسكه شئ انتهى *(فائدة)* روى ان سليمان عليه السلام كان عمره ثلاثا وخمسين سنة ومدة ملكه أربعون سنة وملك يوم ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وابتدأ فى بناء بيت المقدس لاربع سنين مضين من ملكه وروى ان داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس فى موضع فسطاط موسى عليه السلام فمات قبل أن يتم فوصى به الى سليمان عليه السلام فأمر الشياطين باتمامه * ولما بقى من عمله سنة سأل الله تعالى أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه وليبطل دعواهم علم الغيب وروى ان افريدون جاء ليصعد كرسيه فلما دنا منه ضرب الاسدان ساقه فكسراها فلم يجسر أحد بعد يدنو منه * ولما بين تعالى حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان عليهما السلام بين حال الكافرين لانعمه بحكاية أهل سبا فقال تعالى (لقد كان لسبا) أى القبيلة المشهورة روى أبو سبرة النخعى عن أبى قرة بن مسيك القطيعى قال قال رجل يارسول الله اخبرنى عن سبا أكان رجلا أو امرأة أو أرضا قال كان رجلا من العرب وله عشرة من الولد تيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة فأما الذين تيامنوا فكندة والاشعريون والازد ومذحج وانمار وحمير فقال رجل وما أنمار قال الذين منهم خثعم وبجيلة وأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وعاملة وغسان وسبا يجمع هذه القبائل كلها والجمهور على أن جميع العرب ينقسمون الى قسمين قحطانية وعدنانية فالقحطانية شعبان سبأ وحضرموت والعدنانية شعبان ربيعة ومضر وأما قضاعة فمختلف فيها فبعضهم نسبها الى قحطان وبعضهم الى عدنان قيل ان قحطان أول من قيل له أنعم صباحا وأبيت اللعن قال بعضهم وجميع العرب منسوب الى اسمعيل بن ابراهيم وليس بصحيح فان اسمعيل عليه السلام نشأ بين جرهم بمكة وكانوا عربا والصحيح ان العرب العاربة كانوا قبل اسمعيل عليه السلام منهم عاد وثمود وطسم وجديس وأهم وجرهم والعماليق يقال ان أهما كان ملكا ويقال انه أول من سقف البيوت بالخشب المنشور وكانت الفرس تسميه آدم الاصغر وبنوه قبيلة يقال لها وبار هلكوا بالرمل أساله الله عليهم فأهلكهم وطم مناهلهم وفى ذلك يقول بعض الشعراء

وكر دهر على وبار * فهلكت عنوة وبار

واسم سبا عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان وسمى سبا قيل لانه أول من سبأ فى العرب قاله السهيلى ويقال انه أول من تتوج وذكر بعضهم انه كان مسلما وله شعر يبشر فيه بوجود النبى صلى الله عليه وسلم وقال فى سليمان عليه السلام

سيملك بعد نا ملك عظيم * نبى لا يرخص فى الحرام

ويملك بعده منهم ملوك * يدينوه القياد بكل دام

وعلك بعدهم منا ملوك * يصير الملك فينا باقسام
وعلك بعد قحطان نبي * تقي مخبت خير الانام
يسمى أحمدا ياليت انى * أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأحبوه بنصرى * بكل مدجج وبكل رامى
متى يظهر فكونوا ناصريه * ومن يلقاه يبلغه سلامى

وقرأ البزى وأبو عمرو بعد الموحدة بهمزة مفتوحة من غير تنوين لانه صار اسم قبيلة وقنبل بهمزة ساكنة والباقون بهمزة مكسورة منونة واذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفا ولهما أيضا الروم مع التسهيل وقرأ (فى مساكنهم) أى التى هى فى غاية الكثرة حمزة وحفص بسكون السين وفتح الكاف ولا ألف بينهما اشارة الى انها لشدة اتصال المنافع والمرافق كالمسكن الواحد وقرأ الكسائى كذلك الا أنه يكسر الكاف والباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الكاف اشارة الى أنها فى غاية الملاءمة لهم واللين وكانت بأرض مأرب من بلاد اليمن قال حمزة الكرمانى قال ابن عباس على ثلاثة فراسخ من صنعاء (آية) أى علامة ظاهرة على قدرتنا ثم فسر الآية بقوله تعالى (جنتان عن يمين وشمال) أى عن يمين الوادى وشماله قد أحاطت الجنتان بذلك الوادى وقيل عن يمين من أتاهما وشماله (فان قيل) كيف عظم الله تعالى جنتى أهل سبا وجعلهما آية ورب قرية من قرى العراق يحتف بها من الجنات ماشئت (أجيب) بأنه لم يرد بستانين اثنين فحسب وانما أراد جماعتين من البساتين جماعة عن يمين بلدتهم وأخرى عن شمالها وكل واحدة من الجماعتين فى تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة كما تكون بلاد الريف العامرة وبساتينها أو أراد بستانى كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله كما قال تعالى جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب فكانت أخصب البلاد وأطيبها وأكثرها ثمارا حتى كانت المرأة تضع على رأسها مكتلا فتطوف به بين الاشجار فيمتلئ المكتل من جميع أنواع الفواكه من غير أن تمس شيأ بيدها مما يتساقط فيه من الثمر وقوله تعالى (كلوا من رزق ربكم) أى المحسن اليكم الذى أخرج لكم منهما ما تشتهون (واشكروا له) أى خصوه بالشكر بالعمل فى كل ما يرضيه لديم لكم النعمة حكاية لما قال لهم نبيهم أو لسان الحال أو دلالة بأنهم كانوا أحقاء بأن يقال لهم ذلك ثم استأنف تعظيم ذلك بقوله (بلدة طيبة) أى حسنة التربة ليس بها سباخ حسنة الهواء سليمة من الهوام ليس فيها بعوضة ولا ذبابة ولا برغوث ولا عقرب ولا حية يمر الغريب بها وفى ثيابه القمل فيموت من طيب هوائها وأشار الى انه لا يقدر أحد أن يقدره حق قدره بقوله تعالى (ورب غفور) أى لذنب من شكره وتقصيره فلا يعاقب عليه ولا يعاتب قال البقاعى وأخبرنى بعض أهل اليمن أنها اليوم مفازة قرب صنعاء قال وفى بعضها عنب يعمل منه زبيب كبار جدا فى مقدار دربى بلاد الشأم وهو فى غاية الصفاء كأنه قطع المصطكى وليس له نوى أصلا انتهى * ولما تسبب عن هذا الانعام

بطرهم الموجب لاعراضهم عن الشكر دل على ذلك بقوله تعالى (فأعرضوا) أى عن الشكر فكفروا قال وهب أرسل الله تعالى الى سبا ثلاثة عشر نبيا فدعوهم الى الله تعالى وذكروهم نعم الله تعالى عليهم وأنذروهم عقابه فكذبوهم وقالوا مانعرف لله تعالى علينا من نعمة فقولوا لربكم فليحبس هذه النعمة عنا ان استطاع * ولما تسبب عن اعراضهم مقتهم بينه بقوله تعالى (فأرسلنا عليهم سيل العرم) جمع عرمة وهو مايمسك الماء من بناء وغيره الى وقت حاجته أى سيل واديهم فأغرق جنتيهم وأموالهم * قال ابن عباس رضى الله عنهما ووهب وغيرهما كان ذلك السد بنته بلقيس وذلك انهم كانوا يقتتلون على ماء واديهم فأمرت بواديهم فسد بالعرم وهو المسناة بلغة حمير فسدت مابين الجبلين وجعلت له أبوابا ثلاثة بعضها فوق بعض وبنت منه دونها بركة ضخمة وجعلت فيها اثنى عشر مخرجا على عدة أنهارهم يفتحونها اذا احتاجوا الى الماء واذا استغنوا سدوها فاذا جاء المطر اجتمع اليه ماء أودية اليمن فاحتبس السيل من وراء السد فأمرت بالباب الاعلى ففتح فجرى ماؤه فى البركة فكانوا يسقون من الباب الاعلى ثم من الثانى ثم من الثالث الاسفل فلا ينفد الماء حتى يثوب الماء من السنة المقبلة فكانت تقسمه بينهم على ذلك فبقوا على ذلك بعدها مدة فلما طغوا وكفروا سلط الله تعالى عليهم جرذا يسمى الخلد فنقب السد من أسفله فأغرق الماء جنتيهم وأموالهم وخرب أرضهم قال وهب وكانوا فيما يزعمون ويجدون فى علمهم وكهانتهم أنه يخرب سدهم فأرة فلم يتركوا فرجة بين حجرين الا ربطوا عندها هرة فلما جاء زمانه وما أراد الله تعالى بهم من التغريق أقبلت فيما يذكرون فأرة حمراء كبيرة الى هرة من تلك الهرر فساورتها حتى استأخرت عنها الهرة فدخلت فى الفرجة التى كانت عندها فتغلغلت فى السد فنقبت وحفرت حتى أوهنته للسيل وهم لايدرون ذلك فلما جاء السيل وجد خللا فدخل فيه حتى اقتلع السد وفاض على أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم الرمل فغرقوا ومزقوا كل ممزق حتى صاروا مثلا عند العرب يقولون صار بنو فلان ايدى سبا وتفرقوا ايادى سبا أى تفرقوا وتبددوا قيل والأوس والخزرج منهم قال البقاعى وكان ذلك فى الفترة التى كانت بين عيسى ونبينا صلى الله عليهما وسلم * (تنبيه) * فى العرم اقوال غير ماذكر أحدها أنه من باب اضافة الموصوف لصفته فى الاصل اذ الاصل السيل العرم والعرم الشديد وأصله من العرامة وهى الشراسة والصعوبة الثانى أنه من باب حذف الموصوف واقامة صفته مقامه تقديره فأرسلنا عليهم سيل المطر العرم أى الشديد الكثير الثالث ان العرم اسم للوادى الذى كان فيه الماء نفسه قال ابن الاعرابى العرم السيل الذى لايطاق وقيل كان ماء أحمر أرسله الله تعالى عليهم من حيث شاء الرابع أنه اسم للجرذ وهو الفأر وقيل هو الخلد وانما أضيف اليه لانه تسبب عنه كما مر (وبدلناهم بجنتيهم) أى جعلنا لهم بدلهما (جنتين) هما فى غاية مايكون من مضادة جنتيهم ولذلك فسرهما بقوله تعالى اعلاما بأن اطلاق الجنتين عليهما مشاكلة لفظية للتهكم بهم (ذواتى أكل خمط) أى ثمر بشع والخمط الاراك وثمره يقال له البرير هذا قول أكثر المفسرين وقال المبرد والزجاج كل نبت قد أخذ طعما من المرارة حتى لايمكن أكله فهو

خمط وقال ابن الاعرابي الخمط ثمر شجر يقال له فسوة الضبع على صورة الخشخاش لا ينتفع به وعن أبي عبيدة كل شجر ذي شوك وقرأ أبو عمرو أكل بغير تنوين والباقون بالتنوين وسكن الكاف نافع وابن كثير وضمها الباقون قال البغوي فمن جعل الخمط اسما للمأكول فالتنوين في أكل أحسن ومن جعله أصلا وجعل الاكل ثمره فالاضافة فيه ظاهرة والتنوين سائغ تقول العرب في بستان فلان أعناب كرم واعناب كرم فتصف الاعناب بالكرم لانها منه وقوله تعالى (وأثل) أي وذواتي أثل (وشيء من سدر قليل) معطوفان على أكل لا على خمط فان الاثل هو الطرفاء ولا ثمر له وقيل هو شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عودا وقيل هو نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمر الا في بعض الاوقات يكون عليه شيء كالعفص أخضر في طعمه وطبعه والسدر شجر معروف وهو شجر النبق وينتفع بورقه لغسل اليد ويغرس في البساتين ولم يكن هذا من ذلك بل كان سدرا بريا لا ينتفع به ولا يصلح ورقه لشيء ولهذا قال بعضهم السدر سدران سدر له ثمر غضة لا تؤكل ولا ينتفع بورقه في الاغتسال وهو الضال وسدر له ثمرة تؤكل وهي النبق ويغسل بورقه والمراد في الآية الاول وقال قتادة كان شجرهم خير الشجر فغيره الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم *(تنبيه)* قد نبهت في شرح المنهاج على ان الباء في الابدال والتبديل والتبدل والاستبدال هل تدخل على المتروك أو على المأخوذ عند قول المنهاج ولو أبدل ضادا بظاء (ذلك) أي الجزاء العظيم بالتبديل (جزيناهم) بما لنا من العظمة (بما كفروا) أي غطوا الدليل الواضح وهو ما جاء به الرسل اذ روي أنه بعث اليهم ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم وقيل بكفرانهم النعمة (وهل يجازى) أي مثل هذا الجزاء الذي هو على وجه العقاب (الا الكفور) أي الا البالغ في الكفر وقال مجاهد يجازى أي يعاقب ويقال في العقوبة يجازى وفي المثوبة يجزى قال الفراء المؤمن يجزى ولا يجازى أي يجزى الثواب بعمله ولا يكافأ بسيآته وقال بعضهم المجازاة تقال في النقمة والجزاء في النعمة لكن قوله تعالى ذلك جزيناهم يدل على أن يجزي في النقمة أيضا قال ابن عادل ولعل من قال ذلك أخذه من أن المجازاة مفاعلة وهي في أكثر الامر تكون ما بين اثنين يوجد من كل واحد جزاء في حق الآخر وفي النعمة لا تكون مجازاة لان الله تعالى مبتدئ بالنعم (وقيل) المؤمن تكفر سيآته بحسناته والكافر يحبط عمله فيجازى بجميع ما يفعله من السوء وليس لقائل أن يقول لم قيل وهل يجازى الا الكفور على اختصاص الكفر بالجزاء والجزاء عام للمؤمن والكافر لانه لم يرد الجزاء العام انما أراد الخاص وهو العقاب بل لا يجوز أن يراد العموم وليس بموضعه الا ترى أنك لو قلت جزيناهم بما كفروا وهل يجازى الا الكافر والمؤمن لم يصح ولم يسد كلاما فتبين انما يتخيل من السؤال مضمحل وان الصحيح الذي لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالنون مضمومة وكسر الزاي الكفور بالنصب والباقون بالياء المضمومة ونصب الزاي الكفور بالرفع * ولما تم الخبر عن الجنان التي بها القوام نعمة ونقمة اتبعه مواضع السكان بقوله تعالى (وجعلنا) أي بما لنا من العظمة (بينهم) أي بين سبأ وهم باليمن

(وبين القرى التى باركنا فيها) أى بالتوسعة على أهلها بالماء والشجر وغيرهما وهى قرى الشأم التى يسيرون اليها للتجارة (قرى ظاهرة) أى متواصلة من اليمن الى الشأم (وقدرنا فيها السير) أى بحيث يقيلون فى واحدة ويبيتون فى أخرى الى انتهاء سفرهم ولا يحتاجون فيه الى حمل زاد وماء من سبا الى الشأم وقيل كانت قراهم أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبا الى الشأم فلا يعملون شيأ مما جرت به عوائد السفار فكان سيرهم فى الغدو والرواح على قدر نصف يوم فاذا ساروا نصف يوم وصلوا الى قرية ذات مياه وأشجار وقال قتادة كانت المرأة تخرج ومعها مغزلها وعلى رأسها مكتلها فتمتهن بغزلها فلا تأتى بيتها حتى يمتلئ مكتلها من الثمار فكان ما بين اليمن والشأم كذلك فهى حقيقة بأن يقال لاهلها والنازلين بها على سبيل الامتنان بلسان القال أو الحال (سيروا) ودل على تقاربها جدا قوله تعالى (فيها) ودل على كثرتها وطول مسافتها وصلاحيتها للسير أى وقت أريد مقدما ما هو أدل على الامن وأعدل للسير فى البلاد الحارة بقوله تعالى (ليالى) وأشار الى كثرة الظلال والرطوبة والاعتدال الذى يمكن معه السير فى جميع النهار بقوله تعالى (وأياما) أى فى أى وقت شئتم والى عظيم أمانها فى كل وقت بالنسبة الى كل مسلم بقوله (آمنين) أى لا تخافون فى ليل أو نهار وان طالت مدة سفركم فيها أو سيروا فيها الليالى أعماركم وأيامها لا تلقون فيها الا الامن فلا تخافون عدوا ولا جوعا ولا عطشا وقيل تسيرون فيها ان شئتم ليالى وان شئتم اياما لعدم الخوف بخلاف المواضع المخوفة فان بعضها يسلك ليلا لعدم علم العدو بسيرهم وبعضها يسلك نهارا لئلا يقصدهم العدو اذا كان العدو غير مجاهر بالقصد والعداوة * ولما انقضى الخبر عن هذه الاوصاف التى تستدعى غاية الشكر لما فيها من الالطاف دل على بطرهم للنعمة بها بأنهم جعلوها سببا للضجر والملال بقوله تعالى (فقالوا) أى على وجه الدعاء (ربنا بعد بين أسفارنا) أى الى الشأم أى اجعلها مفاوز ليتطاولوا فيها على الفقراء بركوب الرواحل وتزود الازواد والماء فبطروا النعمة وملوا العافية كبنى اسرائيل لما طلبوا الثوم والبصل فأجابهم الله تعالى بتخريب القرى المتوسطة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بتشديد العين ولا ألف قبلها فعل طلب والباقون بألف قبل العين وتخفيف العين وقرئ بلفظ الخبر على انه شكوى منهم لبعد سفرهم افراطا فى الترفه وعدم الاعتداد بما أنعم الله عليهم فيه (وظلموا) حيث عدوا النعمة نقمة والاحسان اساءة (أنفسهم) بالكفر (فجعلناهم) أى بما لنا من العظمة (أحاديث) أى عبرة لمن بعدهم يتحدث الناس بهم تعجبا وضرب مثل فيقولون ذهبوا أيدى سبا وتفرقوا ايادى سبا قال كثير

ايادى سبا يا عز ما كنت بعدكم * فلم يحل للعينين بعدك منظر

(ومزقناهم كل ممزق) أى فرقناهم فى كل جهة من البلاد كل التفريق قال الشعبى لما غرقت قراهم تفرقوا فى البلاد أما غسان فلحقوا بالشأم ومر الازد الى عمان وخزاعة الى تهامة ومر خزيمة الى العراق والاوس والخزرج الى يثرب وكان الذى قدم منهم المدينة عمرو بن عامر وهو جد الاوس والخزرج (ان فى ذلك) أى المذكور (لآيات) أى عبرا ودلالات بينة

جدا على قدرة الله تعالى على التصرف فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض بالايجاد والاعدام للذوات والصفات والخسف والمسخ فانه لا فرق بين خارق وخارق وعلى ان بطرهم لتلك النعمة حتى ملوها ودعوا بازالتها دليل على ان الانسان مادام حيا فهو فى نعمة يجب عليه شكرها كائنة ما كانت وان كان يراها بلية لانه لما طبع عليه من القلق كثيرا مايرى النعم نقما واللذة ألما ولذلك ختم الآية بالصبر بصيغة المبالغة بقوله تعالى (لكل صبار) على طاعة الله وعن معصيته (شكور) لنعمه قال مقاتل يعنى المؤمن من هذه الامة صبور على البلاء شكور على النعماء قال مطرف هو المؤمن اذا أعطى شكر واذا ابتلى صبر وقرأ قوله تعالى (ولقد صدق عليهم ابليس) أى الذى هو من البلس وهو مالا خير عنده أو الابلاس وهو اليأس من كل خير ليكون ذلك أبلغ فى التبكيت والتوبيخ (ظنه) قرأه الكوفيون بتشديد الدال بعد الصاد أى ظن فيهم ظنا حيث قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين الا عبادك ولا تجد أكثرهم شاكرين فصدق ظنه وحققه بفعله ذلك بهم واتباعهم اياه والباقون بالتخفيف أى صدق عليهم فى ظنه بهم أى على أهل سبا كما قاله أكثر المفسرين حين رأى انهماكهم فى الشهوات أو الناس كلهم كما قاله مجاهد أى حين رأى أباهم آدم ضعيف العزم أو ماركب فيهم من الشهوة والغضب أو سمع من الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها فقال لاضلنهم ولاغوينهم أو الكفار ومنهم سبا كما قاله الجلال المحلى (فاتبعوه) أى بغاية الجهد بميل الطبع وقوله (الا فريقا من المؤمنين) استثناء متصل على قول مجاهد ومنقطع على قول غيره وقال السدى عن ابن عباس رضى الله عنه يعنى المؤمنين كلهم لان المؤمنين لم يتبعوه فى أصل الدين وتقليلهم بالاضافة الى الكفار أو الا فريقا من فرق المؤمنين لم يتبعوه فى العصيان وهم المخلصون قال ابن قتيبة ان ابليس لعنه الله تعالى لما سأل النظرة فانظره الله تعالى وقال لاغوينهم ولاضلنهم لم يكن مستيقنا وقت هذه المقالة أن ما قاله فيهم يتم وانما قاله ظنا فلما اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم * ولما كان ذلك ربما أوهم ان لابليس امرا بنفسه نفاه بقوله تعالى (وما) أى والحال أنه ما (كان) أصلا (له عليهم) أى الذين اتبعوه ولا غيرهم وأغرق فيما هو الحق من النفى بقوله تعالى (من سلطان) أى تسلط قاهر بشئ من الاشياء بوجه من الوجوه لانه مثلهم فى كونه عبدا عاجزا مقهورا ذليلا خائفا مدحورا قال القشيرى هو مسلط ولو أمكنه أن يضل غيره أمكنه أن يمسك على الهداية نفسه والمعنى ان الامر لله وحده (الا) أى لكن نحن سلطناه عليهم بسلطاننا وملكناه قيادهم بقهرنا وعبر عن التمييز الذى هو سبب العلم بالعلم فقال (لنعلم) أى علما للناس من العظمة (من يؤمن) أى يوجد الايمان لله (بالآخرة) أى ليتعلق علمنا بذلك فى عالم الشهادة فى حال تميزه تعلقا تقوم به الحجة فى مجارى عادات البشر كما كان متعلقا به فى عالم الغيب (ممن هو منها) أى الآخرة (فى شك) فهو لا يجددها ايمانا أصلا لان الشك ظرف له محيط به وانما استعار الا موضع لكن اشارة الى أنه مكنه تمكينا تاما صار به كأن له سلطان حقيق * (تنبيه) * قال الرازى ان علم الله تعالى من الازل الى الابد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو فى كونه عالما لا يتغير ولكن يتغير تعلق

علمه فان العلم صفة كاشفة يظهر فيها كل ما فى نفس الامر فعلم الله تعالى فى الازل أن العالم سيوجد فاذا وجد علمه موجودا بذلك العلم واذا عدم علمه معدوما كذلك المرآة المصقولة الصافية يظهر فيها صورة زيد ان قابلها ثم اذا قابلها عمرو تظهر فيها صورته والمرآة لم تتغير فى ذاتها ولا تبدلت فى صفاتها وانما التغير فى الخارجيات وكذا هنا قوله الا لنعلم أى ليقع فى العلم صدور الكفر من الكافر والايمان من المؤمن وكان علم الله تعالى أنه سيكفر زيد ويؤمن عمرو وقال البغوى المعنى الا لنميز المؤمن من الكافر وأراد علم الوقوع والظهور وقد كان معلوما عنده بالغيب وقوله تعالى (وربك) أى المحسن اليك باخزاء الشيطان بنبوتك واجتنابه عن أمتك (على كل شئ) من المكلفين وغيرهم (حفيظ) أى حافظ أتم حفظ تحقيق ذلك ان الله تعالى قادر على منع ابليس عنهم عالم بما سيقع فالحفظ يدخل فى مفهومه العلم والقدرة اذ الجاهل بالشئ لا يمكنه حفظه ولا العاجز * ولما بين تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكرهم عن مضى عاد الى خطابهم فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (قل) أى يا أعلم الخلق باقامة الادلة لهؤلاء الذين أشركوا من لا يشك فى حقارته من له أدنى مسكة (ادعوا الذين زعمتم) أى أنهم آلهة كما تدعون الله تعالى لاسيما فى وقت الشدائد وحذف مفعولى زعم وهما ضميرهم وآلهة تنبيها على استهجان ذلك واستبشاعه وليس المذكور فى الآية مفعول زعم ولا قائما مقام المفعول لفساد المعنى وبين حقارتهم بقوله تعالى (من دون الله) أى الذى حاز جميع العظمة والمعنى ادعوهم فيما يهمكم من جلب نفع أو دفع ضر لعلهم يستجيبون لكم ان صحت دعواكم ثم أجاب عنهم اشعارا بتعين الجواب وأنه لا يقبل المكابرة فقال (لا يملكون مثقال ذرة) من خير أو شر (فى السموات ولا فى الارض) أى فى أمر ما وذكرهما للعموم العرفى أو لان آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالاصنام أو لان الاسباب القريبة للخير والشر سماوية وأرضية والجملة استئناف لبيان حالهم * ولما كان هذا ظاهرا فى نفى الملك الخاص عن ثبوت المشاركة نفى المشاركة أيضا بقوله تعالى مؤكدا تكذيبا لهم فيما يدعونه (وما لهم) أى الآلهة (فيهما) أى فى السموات والارض ولا فى غيرهما ولا فى فيما فيهما واغرق فى النفى بقوله تعالى (من شرك) أى شركة لا خلقا ولا ملكا (وما له) أى الله (منهم) وأكد النفى باثبات الجار فقال (من ظهير) أى معين على شئ مما يريده من تدبير أمرهما وغيرهما فكيف يصح مع هذا العجز أن يدعوا كما يدعى ويرجوا كما يرجى ويعبدوا كما يعبد * ولما كان قد بقى من اقسام النفع الشفاعة وكان المقصود منها أثرها لا عينها انفاه بقوله تعالى (ولا تنفع الشفاعة عنده) أى فلا تنفعهم شفاعة كما يزعمون اذ لا تنفع الشفاعة عند الله (الا لمن أذن له) أى وقع منه اذن له على لسان من شاء من جنوده بواسطة واحدة أو أكثر فى أن يشفع فى غيره وفى أن يشفع فيه غيره وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بضم الهمزة والباقون بفتحها وقوله تعالى (حتى اذا فزع عن قلوبهم) غاية لمفهوم الكلام من أن ثم انتظارا للاذن وتوقعا وتمهلا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء هل يؤذن لهم أو لا يؤذن وأنه لا يطلق الاذن الا بعد ملى من الزمان

وطول من التربص ومثل هذه الحال دل عليها قوله عز من قائل رب السموات والارض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا يوم يقوم الروح والملائكة صفا الآية كلمون الامن أذن له الرحمن وقال صوابا كأنه قيل يتوقعون ويتربصون مليا فزعين ذاهلين حتى اذا فزع عن قلوبهم أى كشف النزع عن قلوبهم أى كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة فى اطلاق الاذن (قالوا) أى قال بعضهم لبعض (ماذا قال ربكم) أى فى الشفاعة ذاكرين صفة الاحسان ليرجع اليهم رجاؤهم فتسكن بذلك قلوبهم (قالوا) قال القول (الحق) أى الثابت الذى لا يمكن ان يبدل بل يطابق الواقع فلا يكون شئ يخالفه وهو الاذن فى الشفاعة لمن ارتضى منهم وهم المؤمنون (وهو العلى الكبير) أى ذو العلو فلا رتبة الا دون رتبته والكبرياء فليس لملك ولا نبى أن يتكلم ذلك اليوم الا باذنه روى البخارى فى التفسير عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا قضى الله الامر فى السماء صفقت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ووصفه سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة و يلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل ان يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التى من السماء وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله أن يوحى بالامر وتكلم بالوحى أخذت السماء رجفة أو قال رعدة شديدة خوفا من الله تعالى فاذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد ثم يمر جبريل عليه السلام على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل فيقول جبريل عليه السلام قال الحق وهو العلى الكبير فيقولون كلهم مثل ما يقول جبريل عليه السلام فينتهى جبريل عليه السلام بالوحى حيث أمره الله تعالى وقال مقاتل والكلبى والسدى كانت الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام خمسمائة وخمسين سنة وقيل ستمائة سنة لم تسمع الملائكة فيها وحيا فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم كلم جبريل عليه السلام بالرسالة الى محمد صلى الله عليه وسلم فلما سمعت الملائكة ظنوا أنها الساعة لان محمدا صلى الله عليه وسلم عند أهل السموات من أشراط الساعة فصعقوا مما سمعوا خوفا من قيام الساعة فلما انحدر جبريل عليه السلام جعل يمر بكل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رؤسهم و يقول بعضهم لبعض ماذا قال ربكم قالوا الحق يعنى الوحى وهو العلى الكبير وقال الحسن وابن زيد حتى اذا كشف الفزع عن قلوب المشركين عند نزول الموت اقامة للحجة عليهم قالت لهم الملائكة عليهم السلام ماذا قال ربكم فى الدعاء قالوا الحق فأقروا به حيث لم ينفعهم الاقرار * ولما سلب تعالى عن شركائهم

ان

أن يملكوا شيأ من الاكوان وأثبت جميع الملك له وحده وأمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ان يقررهم بما يلزم منه ذلك بقوله تعالى (قل من يرزقكم من السموات) أى بالمطر (والارض) أى بالنبات وأفرد الارض لانهم لا يعلمون غيرها ثم أمره تعالى أن يتولى الاجابة بقوله تعالى (قل الله) أى ان لم يقولوا رازقنا الله تعالى فقل أنت ان رازقكم الله وذلك للاشعار بأنهم يقرون به بقلوبهم الا أنهم ربما أبوا ان يتكلموا به لان الذى تمكن من صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته ولانهم ان تفوهوا بان الله تعالى رازقهم لزمهم أن يقال لهم فما لكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق ألا ترى الى قوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض أم من يملك السمع والابصار حتى قال فسيقولون الله ثم قال تعالى فماذا بعد الحق الا الضلال فكانهم كانوا يقرون بألسنتهم مرة ومرة يتلعثمون عنادا وفرارا وحذرا من الزام الحجة ونحوه قوله عز وجل قل من رب السموات والارض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا وأمر بان يقول لهم بعد الالزام والالجام الذى ان لم يزد على اقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه (وانا أو اياكم) أى أحد الفريقين من الذين يوحدون الرازق من السموات والارض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذى لا يوصف بالقدرة (لعلى هدى) أى فى متابعة ما ينبغى ان يعمل مستعلين عليه (أوفى ضلال) عن الحق (مبين) أى بين فى نفسه داع لكل أحد الى معرفة أنه ضلال وهذا ليس على طريق الشك لانه صلى الله عليه وسلم لم يشك أنه على هدى ويقين وان الكفار على ضلال مبين وانما هذا الكلام جار على ما تخاطب به العرب من استعمال الانصاف فى محاوراتهم على سبيل الفرض والتقدير ويسميه أهل البيان الاستدراج وهو أن يذكر لمخاطبه أمرا يسلمه وان كان بخلاف ما يذكر حتى يصغى الى ما يلقيه اليه اذ لو بدأه بما يكره لم يصغ ونظيره قولهم أخزى الله الكاذب منى ومنك ومثله قول حسان رضى الله تعالى عنه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا سفيان

أتهجوه ولست له بكفء * فشركما لخيركما الفداء

فان أبى ووالدتى وعرضى * لعرض محمد منكم وقاء

مع العلم بكل أحد انه صلى الله عليه وسلم خير خلق الله كلهم *(تنبيه)* ذكر تعالى فى الهدى كلمة على وفى الضلال كلمة فى لان المهتدى كانه مرتفع مطلع فذكره بكلمة التعالى فكانه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء والضال منغمس فى الظلمة غريق فيها فأتى بكلمة فى فكانه منغمس فى ظلام مرتبك فيه لا يدرى أين يتوجه قال البغوى وقال بعضهم أو بمعنى الواو والالف فيه صلة كانه يقول وانا واياكم لعلى هدى وفى ضلال مبين يعنى نحن على الهدى وأنتم فى الضلال (قل) أى لهم (لا تسئلون) أى من سائل ما (عما أجرمنا) أى لا تؤاخذون به (ولا نسئل) أى فى وقت من الاوقات من سائل ما (عما تعملون) أى من الكفر والتكذيب وهذا ادخل فى الانصاف وأبلغ فى التواضع حيث أسندوا الاجرام الى أنفسهم والعمل الى المخاطبين (وقيل) المراد

بالاجرام الصغائر والزلات التي لا يخلو منها مؤمن وبالعمل الكفر والمعاصي العظام (قل) أي لهم (يجمع بيننا ربنا) أي يوم القيامة (ثم يفتح) أي يحكم (بيننا بالحق) أي الامر الثابت الذي لا يقدر أحد منا ولا منكم على التخلف عنه وهو العدل والفضل من غير ظلم ولا ميل فيدخل المحقين الجنة والمبطلين النار (وهو الفتاح) أي الحاكم الفاصل في القضايا المغلقة البليغ الفتح لما انغلق فلا يقدر أحد على فتحه (العليم) أي البليغ العلم بكل دقيق وجليل فلا تخفى عليه خافية (قل) أي لهم (أروني) أي أعلموني (الذين ألحقتم به) أي بالله (شركاء) أي في العبادة هل يخلقون وهل يرزقون وقوله تعالى (كلا) أي لا يخلقون ولا يرزقون ردع لهم عن مذهبهم بعد ما كسره بابطال المقايسة كما قال ابراهيم عليه السلام اف لكم ولما تعبدون من دون الله بعد ما حجهم وقد نبه على تفاحش غلطهم بقوله تعالى (بل هو الله العزيز) أي الغالب على أمره الذي لا مثل له وكل شئ يحتاج اليه (الحكيم) أي المحكم لكل ما يفعله فلا يستطيع أحد نقض شئ منه فكيف يكون له شريك وأنتم ترون ماترون له من هاتين الصفتين المنافيتين لذلك *(تنبيه)* في هذا الضمير وهو هو قولان أحدهما انه عائد الى الله تعالى أي ذلك الذي ألحقتم به شركاء هو الله والعزيز الحكيم صفتان والثاني انه ضمير الامر والشأن والله مبتدأ والعزيز الحكيم خبران والجملة خبر هو (فان قيل) مامعنى قوله أروني وكان يراهم ويعرفهم (أجيب) بأنه أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في الحاق الشركاء بالله تعالى وأن يقاس على أعينهم بينه وبين أصنامهم ليطلعهم على احالة القياس اليه والاشراك به * ولما بين تعالى مسئلة التوحيد شرع في الرسالة بقوله سبحانه وتعالى (وما أرسلناك) أي بعظمتنا (الا كافة للناس) أي ارسالا عاما شاملا لكل ما شمله ايجادنا فكافة حال من الناس قدم للاهتمام وقول البيضاوي ولا يجوز جعلها حالا من الناس أي لان تقديم حال المجرور عليه كتقديم المجرور على الجار رده أبو حيان بقوله هذا ماذهب اليه الجمهور وذهب أبو علي وابن كيسان وابن برهان وابن ملكون الى جوازه وهو الصحيح انتهى وهذا هو الذي ينبغي اعتماده ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم كان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة ومن أمثلة أبي علي زيد خيرما يكون خير منك والتقدير زيد خير منك خيرما يكون وأنشد

اذا المرء أعيته المطالب ناشئا * فمطلبها كهلا عليه شديد

أي فطلبها عليه كهلا وأنشد أيضا

تسليت طرا عنكم بعد بينكم * بذكراكم حتى كأنكم عندي

أي عنكم طرا (وقيل) انه حال من كاف أرسلناك والمعنى الا جامعا للناس في الابلاغ والكافة بمعنى الجامع والهاء فيه للمبالغة كهي في علامة وراوية قاله الزجاج وقيل ان كافة صفة لمصدر محذوف تقديره الا ارسالة كافة قال الزمخشري الا ارسالة عامة لهم محيطة بهم لانها اذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم قال أبو حيان أما كافة بمعنى عامة فالمنقول عن النحويين أنها لا تكون الا حالا ولم يتصرف فيها بغير ذلك فجعلها صفة لمصدر

محذوف

محذوف خروج عما نقلوا ولا يحفظ أيضا استعمالها صفة لموصوف محذوف قال البقاعي وأما الجن فالهم مشهور أي أنه أرسل اليهم وأما الملائكة فالدلائل على الارسال اليهم في غاية الظهور انتهى وهذا هو اللائق بعموم رسالته وان خالف في ذلك الجلال المحلي في شرحه على جمع الجوامع وفي عموم رسالته صلى الله عليه وسلم فضيلة على جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام فلئن كان داود عليه السلام فضل بطاعة الجبال له والطير والانة الحديد وسليمان عليه السلام بما ذكر له فقد فضل محمد صلى الله عليه وسلم نبينا بارساله الى الناس كافة والحصا سبح في كفه والجبال أمرت بالسير معه ذهبا وفضة والحمرة شكت اليه أخذ فراخها أو بيضها والضب شهد له بالرسالة والجمل شكا اليه وسجد له والاشجار أطاعته والاحجار سلمت عليه وائتمرت بأمره وغير ذلك مما لا يدخل تحت الحصر وانما ذكرت ذلك تبركا بذكره صلى الله عليه وسلم وأنا أسأل الله تعالى ان يشفع في وفي والدي وجميع أحبابي وبقية المسلمين أجمعين * ولما كانت البشارة هي الخبر الاول الصدق السار وكان في ذكرها رد لقولهم في الكذب والجنون قال تعالى (بشيرا) أي مبشرا للمؤمنين بالجنة (ونذيرا) أي منذرا للكافرين بالعذاب (ولكن أكثر الناس) أي كفار مكة (لا يعلمون) فيحملهم جهلهم على مخالفتك * ولما سلب عنهم العلم اتبعه دليله كقوله تعالى معبرا بصيغة المضارع الدال على ملازمة التكرير للاعلام بأنه على سبيل الاستهزاء لا الاسترشاد (ويقولون) من فرط جهلهم بعاقبة ما يوعدونه (متى هذا الوعد) أي البشارة والنذارة في يوم الجمع وغيره فسموه وعدا زيادة في الاستهزاء * ولما كان قول الجماعة أجدر بالقبول وأبعد عن الرد من قول الواحد اشار الى زيادة جهلهم بقوله تعالى (ان كنتم) أي أيها النبي وأتباعه (صادقين) أي متمكنين في الصدق (قل لكم) أي أيها الجاحدون الاجلاف الذين لا يجوزون الممكنات ولا يتدبرون ما أوضحها من الدلالات (ميعاد يوم) أي لا يحتمل القول وصف عظمه لما يأتي فيه لكم من العقاب سواء كان يوم الموت كما قاله الضحاك أو البعث كما قاله أكثر المفسرين (لا تستأخرون) أي لا يوجب تأخركم (عنه ساعة) لان الآتي به عظيم القدرة محيط العلم ولذلك قال (ولا تستقدمون) أي لا يوجد تقدمكم لحظة فلا دونها ولا تتمكنون من طلب ذلك (فان قيل) كيف انطبق هذا جوابا عن سؤالهم (أجيب) بانهم ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له الا تعنتا لا استرشادا فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقا لمجيء السؤال على سبيل الانكار والتعنت وأنهم مرصدون بيوم يفاجئهم فلا يستطيعون تأخرا عنه ولا تقدما عليه (وقال الذين كفروا) مؤكدين قطعا للاطماع عن دعائهم (لن نؤمن) أي نصدق أبدا وصرحوا بالمنزل عليه صلى الله عليه وسلم بالاشارة فقالوا (بهذا القرآن) أي وان جمع جميع الحكم والمقاصد المتضمنة لبقية الكتب (ولا بالذي بين يديه) أي قبله من الكتب التوراة والانجيل وغيرهما بل نحن قانعون بما وجدنا عليه آباءنا وذلك لما روى أن كفار مكة سألوا بعض أهل الكتاب فأخبروهم ان صفة هذا النبي عندهم في كتبهم فأغضبهم ذلك وقرنوا الى القرآن جميع ما تقدمه من كتب الله في الكفر بها فكفروا بها

جميعا وقيل الذى بين يديه يوم القيامة والمعنى أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله وأن يكون ما دل عليه من الاعادة للجزاء حقيقة * ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم فى الآخرة فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أو للمخاطب (ولو) أى والحال انك لو (ترى) أى يوجد منك رؤية لحالهم (اذ الظالمون) أى الذين يضعون الاشياء فى غير محالها فيصدقون آباءهم لاحسان يسير مكدر من غير دليل ولا يصدقون ربهم الذى لا نعمة عندهم ولا عند آبائهم الامنه (موقوفون) أى بعد البعث بايدى جنوده أو غيرها بأيسر أمر منه (عند ربهم) أى فى موضع المحاسبة (يرجع بعضهم) أى على وجه الخصام عداوة كان سببها موادة فى الدنيا بطاعة بعضهم لبعض فى معاصى الله تعالى (الى بعض القول) أى بالملامة والمباكتة والمخاصمة * (تنبيه) * مفعول ترى وجواب لو محذوفان للفهم أى لو ترى حال الظالمين وقت وقوفهم راجعا بعضهم الى بعض القول لرأيت حالا فظيعة وأمرا منكرا ويرجع حال من ضمير موقوفون والقول مفعول يرجع لانه يتعدى قال تعالى فان رجعك الله وقوله تعالى (يقول الذين استضعفوا) أى وقع استضعافهم عن هو فوقهم فى الدنيا وهم الاتباع فى تلك الحال على سبيل اللوم (للذين استكبروا) أى أوجدوا الكبر وطلبوه بما وجدوا من أسبابه التى أدت الى استضعافهم للاولين وهم الرؤس المتبوعون (لولا أنتم) أى لولا اضلالكم وصدكم ايانا عن الايمان (لكنا مؤمنين) أى باتباع الرسول تفسير لقوله تعالى يرجع فلا محل له قال ابن عادل وأنتم بعد لولا مبتدأ على أصح المذاهب وهذا هو الافصح أعنى وقوع ضمائر الرفع بعد لولا أى وغيره فصيح خلافا للمبرد حيث جعل خلاف هذا لحنا وأنه لم يرد الا فى قول زياد وكم موطن لولاى والاقيس جعل الياء ضمير نصب أو جر قام مقام ضمير الرفع وسيبويه جعله ضمير جر * ولما لم يتضمن كلامهم سوى قضية واحدة ذكر الجواب عنها بقوله تعالى (قال الذين استكبروا) على طريق الاستئناف (للذين استضعفوا) ردا عليهم وانكارا لقولهم انهم هم الذين صدوهم (أنحن) خاصة (صددناكم) أى منعناكم (عن الهدى بعد اذ جاءكم) أى على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام لم نفعل ذلك لان المانع ينبغى أن يكون أرجح من المقتضى حتى يعمل عمله والذى جاء به الرسل هو الهدى والذى صدر من المستكبرين لم يكن شيأ يوجب الامتناع من قبول ما جاؤا به فلم يصح تعلقكم بالمانع وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الذال عند الجيم والباقون بالادغام وأمال الالف بعد الجيم حمزة وابن ذكوان وفتحها الباقون وكذا الاظهار والادغام فى اذ تأمروننا واذا وقف حمزة على جاءكم سهل الهمزة مع المد والقصر وله أيضا ابدالها الفا مع المد والقصر (بل كنتم) أى جبلة وخلقا (مجرمين) أى كافرين لاختياركم لا لقولنا وتسويلنا (فان قيل) اذ واذا من الظروف الملازمة للظرفية فلم وقعت اذ مضافا اليها (أجيب) بأنه قد اتسع فى الزمان ما لم يتسع فى غيره فأضيف اليها الزمان كما أضيف الى الجمل فى قولك جئتك بعد اذ جاء زيد وحينئذ ويومئذ * ولما أنكر المستكبرون بقولهم أنحن صددناكم أن يكونوا هم السبب فى كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم بل كنتم مجرمين أن

ذلك

ذلك بكسبهم واختيارهم كرّ عليهم المستضعفون كما قال تعالى (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا) ردًّا لانكارهم صدّهم (بل) أى الصادّ لنا (مكر الليل والنهار) أى الواقع فيهما من مكركم فأبطلوا اضرابهم باضرابهم كأنهم قالوا ما كان الاجرام من جهتنا بل من جهة مكركم بنا ليلا ونهارا (اذ تأمروننا أن نكفر بالله) أى الملك الاعظم بالاستمرار على ما كنا عليه قبل اتيان الرسل (ونجعل له أندادا) أى شركاء نعبدهم من دونه (فان قيل) لم قيل قال الذين استكبروا بغير عاطف وقيل وقال الذين استضعفوا (أجيب) بان الذين استضعفوا مرّ أوّلا كلامهم فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريق الاستئناف ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الاول * (تنبيه) * يجوز رفع مكر من ثلاثة أوجه أحدها الفاعلية تقديره بل صدّنا مكركم فى هذين الوقتين كما مرّ الثانى أن يكون مبتدأ خبره محذوف أى مكر الليل صدّنا الثالث العكس أى سبب كفرنا مكركم واضافة المكر الى الليل والنهار اما على الاسناد المجازى كقولهم ليل ماكر والعرب تضيف الفعل الى الليل والنهار على توسع الكلام كقول الشاعر * ونمت وما ليل المطى بنائم * فيكون مصدرا مضافا لمرفوعه واما على الاتساع فى الظرف فجعل كالمفعول به فيكون مصدرا مضافا لمفعوله قال ابن عادل وهذا أحسن من قول من قال ان الاضافة بمعنى فى أى مكر فى الليل لان ذلك لم يثبت فى محل النزاع وقيل مكر الليل والنهار طول السلامة وطول الامل فيهما كقوله تعالى فطال عليهم الامد فقست قلوبهم *(تنبيه)* قوله تعالى أولا يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا بلفظ المستقبل وقوله تعالى فى الآيتين الاخيرتين وقال الذين استكبروا وقال الذين استضعفوا بلفظ الماضى مع أن السؤال والمراجعة فى القول لم يقع أشار به الى أن ذلك لا بدّ من وقوعه فان الامر الواجب الوقوع كأنه وقع كقوله تعالى انك ميت وانهم ميتون وأما الاستقبال فعلى الاصل (وأسروا) اى الفريقان (الندامة) من المستكبرين والمستضعفين وهم الظالمون فى قوله تعالى اذ الظالمون موقوفون يندم المستكبرون على ضلالهم واضلالهم والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين (لما) أى حين (رأوا العذاب) أى حين رؤية العذاب أخفاها كل عن رفيقه مخافة التعيير وقيل معنى الاسرار الاظهار وهو من الاضداد أى أظهروا الندامة قال ابن عادل ويحتمل أن يقال انهم لما تراجعوا فى القول رجعوا الى الله تعالى بقولهم أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا وأجيبوا بأن لا مردّ لكم فأسرّوا ذلك القول وقوله تعالى (وجعلنا الاغلال) أى الجوامع التى تغل اليد الى العنق (فى أعناق الذين كفروا) يعم الاتباع والمتبوعين جميعا وكان الاصل فى أعناقهم ولكن جاء بالظاهر تنويها بذمهم وللدلالة على ما استحقوا به الاغلال وهذا اشارة الى كيفية عذابهم (هل يجزون) أى بهذه الاغلال (الا ما) أى الاجزاء ما (كانوا يعملون) أى على سبيل التجديد والاستمرار * ولما كان فى هذا التسلية أخروية للنبى صلى الله عليه وسلم اتبعه التسلية الدنيوية بقوله تعالى (وما أرسلنا) أى بعظمتنا (فى قرية) وأكد النفى بقوله تعالى (من نذير الا قال مترفوها) رؤساؤها

الذين لا شغل لهم الا التنعم بالفانى حتى أكسبهم البغى والطغيان ولذلك قالوا لرسلهم (انا بما أرسلتم به) أى أيها المنذرون (كافرون) أى واذا قال المنعمون ذلك تبعهم المستضعفون (وقالوا) أى المترفون أيضا متبذخين (نحن أكثر أموالا وأولادا) أى فى هذه الدنيا ولو لم يرض منا ما نحن عليه ما رزقنا ذلك فاعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم فعلى قياسهم ذلك قالوا (وما نحن بمعذبين) أى ان الله تعالى قد أحسن الينا فى الدنيا بالمال والولد فلا يعذبنا فى الآخرة ثم ان الله سبحانه وتعالى بين خطأهم بقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهم (ان ربى) أى المحسن الى بالانعام بالسعادة الباقية (يبسط الرزق) أى يوسعه فى كل وقت أراده بالاموال والاولاد وغيرها (لمن يشاء) امتحانا (ويقدر) أى يضيقه على من يشاء ابتلاء بدليل مقابلته بيبسط وهذا هو الطباق البديعى فالرزق فى الدنيا لا تدل سعته على رضا الله تعالى ولا ضيقه على سخطه فربما اوسع على العاصى وضيق على المطيع وربما عكس وربما وسع عليهما وضيق عليهما وكم من موسر شقى وكم من معسر تقى (ولكن أكثر الناس) أى كفار مكة (لا يعلمون) أى ليس لهم علم فيتدبروا به ما ذكرنا من الامر فيعلمون أنه ليس كل موسع عليه فى دنياه سعيدا فى عقباه ولا كل مضيق عليه فى دنياه شقيا * ثم بين تعالى فساد استدلالهم بقوله سبحانه وتعالى (وما أموالكم) أى أيها الخلق الذى أنتم من جملتهم وان كثرت وكرر النافى تصريحا بابطال كل على حياله فقال (ولا أولادكم) كذلك (بالتى) أى بالاموال والاولاد التى (تقربكم عندنا) أى على ما لنا من العظمة (زلفى) أى درجة علية وقربة مكينة *(تنبيه)* قوله تعالى بالتى تقربكم صفة للاموال والاولاد كما تقرر لان جمع التكسير غير العاقل يعامل معاملة المؤنثة الواحدة وقال الفراء والزجاج انه حذف من الاول لدلالة الثانى عليه قالا والتقدير وما أموالكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ولا أولادكم بالتى تقربكم ولا حاجة الى هذا ونقل عن الفراء ما تقدم من أن التى صفة للاموال والاولاد معا وهو الصحيح وجعل الزمخشرى التى صفة لموصوف محذوف قال ويجوز أن تكون التى هى التقوى وهى المقربة عند الله تعالى زلفى وحدها أى ليست أموالكم ولا أولادكم بتلك الموصوفة عند الله بالتقريب قال أبو حيان ولا حاجة الى هذا الموصوف انتهى وزلفى مصدر من معنى الاول اذ التقدير تقربكم قربى وقال الاخفش زلفى اسم مصدر كأنه قال بالتى تقربكم عندنا تقريبا وأمالها حمزة والكسائى محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقوله تعالى (الا من آمن وعمل صالحا) أى تصديقا لايمانه على ذلك الاساس استثناء من مفعول تقربكم أى الاموال والاولاد لا تقرب أحدا الا المؤمن الصالح الذى ينفق ماله فى سبيل الله ويعلم ولده الخير ويربيه على الصلاح أو من أموالكم وأولادكم على حذف المضاف أى الأموال وأولاد من آمن وعمل صالحا (فأولئك) أى العالو الرتبة (لهم جزاء الضعف) أى أن يأخذوا جزاءهم مضاعفا فى نفسه من عشرة أمثاله الى ما لا نهاية له (بما عملوا) فان أعمالهم ثابتة محفوظة

بأساس الايمان ثم زاد وقال تعالى (وهم في الغرفات) أى العلالى المبنية فوق البيوت في الجنات زيادة على ذلك (آمنون) أى ثابت أمانهم دائما لاخوف عليهم من شئ من الاشياء أصلا وأما غيرهم وهم المرادون بما بعده فأموالهم وأولادهم وبال عليهم وقرأ حمزة بسكون الراء ولا ألف بعد الفاء على التوحيد على ارادة الجنس ولعدم اللبس لانه معلوم أن لكل أحد غرفة تخصه وقد أجمع على التوحيد في قوله تعالى يجزون الغرفة ولان لفظ الواحد أخف فوضع موضع الجمع مع أمن اللبس والباقون بضم الراء وألف بعد الفاء على الجمع جمع سلامة وقد أجمع على الجمع في قوله تعالى لنبوأنهم من الجنة غرفا * ثم بين حال المسيء وهو من بعده ماله وولده من الله تعالى بقوله سبحانه وتعالى (والذين يسعون) أى يجددون السعى من غير توبة بأموالهم وأولادهم (في) ابطال (آياتنا) أى حججنا على مالها من عظمة الانتساب الينا (معجزين) أى طالبين تعجيزها أى تعجيز الآتين بها عن انفاذ مرادهم بها بما يلقون من الشبه فيضلون غيرهم بما أوسعنا عليهم وأعززناهم به من الاموال والاولاد (أولئك) أى هؤلاء البعداء البغضاء (في العذاب) أى المزيل للعذوبة (محضرون) أى يحضرهم فيه الموكلون بهم من جندنا على أهون وجه وأسهله (قل) أى يا أشرف الخلق لجميع الخلق ومنهم هؤلاء (ان ربى) أى المحسن الى بهذا البيان وغيره (يبسط الرزق) أى يوسعه (لمن يشاء) متى شاء (من عباده) امتحانا (ويقدر) أى يضيقه (له) بعد البسط ابتلاء قال البيضاوى فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين وما سبق في شخصين فلا تكرار * ولما بين بهذا البسط أن فعله بالاختيار بعد أن بين بالاول كذبهم في أنه سبب السلامة من النار دل على أنه الفاعل لا غيره بقوله تعالى (وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه) أى فهو يعوضه لا معوض سواه اما عاجلا بالمال أو بالقناعة التى هى كنز لا ينفد واما آجلا بالثواب الذى كل خلف دونه وعن سعيد بن جبير ما كان في غير اسراف ولا تقتير فهو يخلفه وعن الكلبى ما تصدقتم من صدقة وأنفقتم في خير من نفقة فهو يخلفه على المنفق اما أن يعجل له في الدنيا واما أن يدخر له في الآخرة وعن مجاهد من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد فان الرزق مقسوم ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه فينفق جميع ما في يده ثم يبقى طول عمره في فقر ولا يتأول وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه فان هذا في الآخرة ومعنى الآية وما كان من خلف فهو منه فدل ذلك على انه مختص بالاخلاف لانه ضمن الاخلاف لكل ما ينفق على أى وجه كان وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى أنفق ينفق عليك ولمسلم يا ابن آدم انفق أنفق عليك وعن أبى هريرة أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا وعنه أيضا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما نقصت أحد صدقة من مال وما زاد الله رجلا بعفو الا عزا وما تواضع أحد لله الا رفعه الله عز وجل وعن عبد الحميد بن الحسن الهلالى قال أنبأنا محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل معروف صدقة

وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وقى الرجل به عرضه كتب له بها صدقة قلت ما معنى وقى به عرضه قال ما أعطى الشاعر وذا اللسان المتقى وما أنفق المؤمن من نفقة فعلى الله خلفها ضامنا الا ما كان من نفقة في بنيان أو معصية الله عز وجل قوله قلت ما معنى مقول عبد الحميد لمحمد بن المنكدر (وهو خير الرازقين) فان قيل قوله تعالى خير الرازقين ينبئ عن كثرة الرازقين ولا رازق الا الله تعالى (أجيب) بأن الله تعالى هو خير الرازقين الذين يغذونهم هذا الغذاء ممن يقيهم الله تعالى فيتسببون الرزق اليهم لان كل من يرزق غيره من سلطان يرزق جنده أو سيد يرزق عبده أو رجل يرزق عياله فهو واسطة لا يقدر الا على ما قدره الله وأما هو سبحانه فهو يوجد المعدوم ويرزق من يطيعه ومن يعصيه ولا يضيق رزقه بأحد ولا يشغله فيه أحد عن أحد وعن بعضهم الحمد لله الذى أوجدنى وجعلنى ممن يشتهى فيجد فكم من مشته لا يجد وواجد لا يشتهى وقرأ أبو عمرو وقالون والكسائى فهو يخلفه بسكون الهاء والباقون بالضم * ولما بين تعالى ان حال النبى صلى الله عليه وسلم كحال من تقدمه من الانبياء وحال قومه كحال من تقدم من الكفار وبين بطلان استدلالهم بكثرة أموالهم وأولادهم بين ما يكون عاقبة حالهم بقوله تعالى (ويوم نحشرهم) اى نجمعهم جمعا بكره بعد البعث وعم التابع والمتبوع بقوله تعالى (جميعا) فلم نغادر منهم أحدا وقرأ حفص يحشرهم ثم يقول بالياء والباقون بالنون * ولما كانت مواقف الحشر طويلة وزلازله مهولة قال تعالى (ثم نقول للملائكة) أى توبيخا للكافرين واقناطا مما يرجون منهم من الشفاعة (أهؤلاء) أى الضالون وأشار الى أنه لا ينفع من العبادة الا ما كان خالصا بقوله تعالى (اياكم) أى خاصة (كانوا يعبدون) فهذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار وارد على المثل السائر

* اياك أعنى واسمعى يا جاره * ونحوه قوله عز وجل أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير والغرض أن يقول ويقولوا ويسأل ويجيبوا فيكون تقريعهم أشد وتعييرهم أبلغ وخجلهم أعظم ولذلك (قالوا) أى الملائكة متبرئين منهم مفتتحين بالتنزيه تخضعا بين يدى البراءة خوفا (سبحانك) أى تنزهك تنزيها يليق بجلالك عن أن يستحق أحد غيرك أن يعبد (أنت ولينا) أى معبودنا الذى لا وصلة بيننا وبين أحد الا بأمره (من دونهم) أى ليس بيننا وبينهم ولاية بل عداوة وكذا كل من تقرب الى شخص بمعصية الله تعالى فانه يقسى الله تعالى قلبه عليه ويبغضه فيه فيجانبه ويعاديه * ثم أضربوا عن ذلك ونفوا انهم عبدوهم على الحقيقة بقولهم (بل كانوا يعبدون الجن) أى ابليس وذريته الذين زينوا لهم عبادتنا من غير رضا منا بذلك وكانوا يدخلون فى أجواف الاصنام ويخاطبونهم ويستجيرون بهم فى الاماكن المخوفة ومن هذا تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد القطيفة وقيل صورت الشياطين لهم صور قوم من الجن وقالوا هذه صور الجن فاعبدوها ثم استأنفوا قولهم (أكثرهم) أى الانس (بهم) أى الجن (مؤمنون) أى واهضون فى الاشراك لا يقصدون بعبادتهم غيرهم وقيل الضمير الاول

للمشركين والاكثر بمعنى الكل وقيل منهم من يقصد بعبادته بتزيين الجن غيرهم وهم مع ذلك يصدقون ما يرد عليهم من اخبارات الجن على السنة الكهان وغيرهم مع ما يرون فيها من الكذب فى كثير من الاوقات * ولما بطلت تمسكاتهم وانقطعت تعلقاتهم تسبب عن ذلك تقريعهم الناشئ عن تنديمهم بقوله تعالى بلسان العظمة (فاليوم) أى يوم مخاطبتهم بهذا التبكيت وهو يوم الحشر (لا يملك) أى شيأ من الملك (بعضكم لبعض) أى من المقربين والمبعدين (نفعا ولا ضرا) بل تنقطع الاسباب التى كانت فى دار التكليف من دار الجزاء التى المقصود فيها تمام اظهار العظمة لله وحده على أتم الوجوه (فان قيل) قوله تعالى نفعا مفيد للحسرة فما فائدة ذكر الضر مع انهم لو كانوا يملكون الضر لما نفع الكافرين ذلك (أجيب) بأن العبادة لما كانت تقع لدفع ضرر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين انه ليس فيهم ذلك الوجه الذى تحسن لاجله عبادتهم وقوله تعالى (ونقول) أى فى ذلك الحال من غير امهال (للذين ظلموا) أى بوضع العبادة فى غير موضعها عند ادخالهم النار (ذوقوا عذاب النار التى كنتم) أى جبلة وطبعا (بها تكذبون) عطف على لا يملك فبين المقصود من تمهيده (فان قيل) قوله ههنا التى كنتم بها صفة للنار وفى السجدة وصف العذاب فجعل المكذب هنا النار وجعل المكذب فى السجدة العذاب وهم كانوا يكذبون بالكل فما فائدته (أجيب) بأنهم كانوا متلبسين بالعذاب مترددين فيه بدليل قوله تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون فوصف لهم ما لابسوه وهنا لم يلابسوه بعد لانه عقب حشرهم وسؤالهم فهو أول ما رأوا النار فقيل لهم هذه النار التى كنتم بها تكذبون (واذا تتلى عليهم) أى فى وقت من الاوقات من أى تال كان (آياتنا) أى من القرآن حال كونها (بينات) أى واضحات بلسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (قالوا ما هذا) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم (الا رجل) أى مع كونه واحدا هو مثل واحد من رجالكم وتزيدون أنتم عليه بالكثرة (يريد أن يصدكم) بهذا الذى يتلوه (عما كان يعبد آباؤكم) من الاصنام أى لا قصد له الا ذلك لتكونوا له اتباعا فعارضوا البرهان بالتقليد (وقالوا ما هذا) أى القرآن وقيل القول بالوحدانية (الا افك) أى كذب مصروف عن وجهه (مفترى) باضافته الى الله تعالى كقوله تعالى فى حقهم أافكا آلهة دون الله تريدون وكقولهم للرسول أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا (وقال الذين كفروا) أى ستروا ما دلت عليه العقول من جهة القرآن (للحق) أى الهدى الذى لا أثبت منه باعتبار كمال الحقيقة فيه (لما جاءهم) من غير نظر ولا تأمل (ان) أى ما (هذا) أى الثابت الذى لا شئ أثبت منه (الا سحر) اى خيال لا حقيقة له (مبين) أى ظاهر قال ابن عادل وهذا انكار للتوحيد وكان مختصا بالمشركين وأما انكار القرآن والمعجزة فكان متفقا عليه بين المشركين وأهل الكتاب فقال تعالى وقال الذين كفروا على العموم انتهى ولم يحملهم على ذلك الا الحظوظ النفسانية والعلائق الشهوانية قال الطفيل بن عمرو الدوسى ذو النور لقد أكثروا على فى أمره صلى الله عليه وسلم حتى حشوت فى أذنى ماء الكرفس خوفا من أن يخلص الى

شئ من كلامهم فينتنى ثم أراد الله تعالى بى الخير فقلت واثكل أمى انى والله للبيب عاقل شاعر ولى معرفة بغث الكلام من سمينه فمالى لا أسمع منه فان كان حقا تبعته وان كان باطلا كنت منه على بصيرة أو كما قال قال فقصدت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت اعرض على ما جئت به فلما عرضه على قلت بأبى وأمى ما سمعت قولا قط هو أحسن منه ولا أمرا أعدل منه فما توقفت فى أن أسلمت ثم سأل النبى صلى الله عليه وسلم فى أن يدعو له الله تعالى أن يعطيه آية يعينه بها على قومه فلما أشرف على حاضر قومه كان له نور فى جبهته فخشى أن يظنوا انها مثلة فدعا الله تعالى بتحويله فتحول فى طرف سوطه فأعانه الله تعالى على قومه فأسلموا * (تنبيه) * فى تكرير الفعل وهو قال والتصريح بذكر الكفرة وما فى لامى الذين والحق من الاشارة الى القائلين والمقول فيه وما فى لما من المفاجأة الى البت بهذا القول انكار عظيم للقول وتعجيب بليغ منه * ولما بارزوا بهذا القول من غير أثارة من علم ولا خبر من سمع بين ذلك بقوله تعالى (وما) أى قالوا ذلك والحال أنا ما (آتيناهم) أى هؤلاء العرب (من كتب) أصلا لانهم لم ينزل عليهم قط قبل القرآن كتاب وأتى بصيغة الجمع مع تأكيد النفى قبل كتابك الجامع (يدرسونها) أى يجددون دراستها كل حين فيها دليل على صحة الاشراك (وما أرسلنا) أى ارسالا لاشبهة فيه لمناسبته لما لنا من العظمة (اليهم) أى خاصة بمعنى أن ذلك الرسول مأمور بهم بأعيانهم فهم مقصودون بالذات لا أنهم داخلون فى عموم أو مقصودون من باب الامر بالمعروف فى جميع الزمان الذى (قبلك) أى قبل رسالتك الجامعة لكل رسالة (من نذير) أى ليكون عندهم قول منه يدعوهم الى الاشراك أو ينذرهم على تركه وهذا فى غاية التجهيل لهم والتسفيه لرأيهم ثم هددهم بقوله تعالى (وكذب الذين من قبلهم) أى من قوم نوح ومن بعدهم بادروا الى ما بادر اليه هؤلاء من التكذيب لان التكذيب كان فى طباعهم لما عندهم من الجلافة والكبر (وما بلغوا) أى هؤلاء (معشار ما آتيناهم) أى عشرا صغيرا مما آتينا أولئك من القوة فى الابدان والاموال والمكنة فى كل شئ من العقول وطول الاعمار والخلو من الشواغل (فكذبوا) أى بسبب ما طبعوا عليه من العناد (رسلى) اليهم (فكيف كان نكير) أى انكارى على المكذبين لرسلى بالعقوبة والاهلاك أى هو واقع موقعه فليحذر هؤلاء من مثله ولا تكرير فى كذب لان الاول للتكثير أى فعلوا التكذيب كثيرا فكان سببا لتكذيب الرسل والثانى للتكذيب أو الاول مطلق والثانى مقيد ولذلك عطف عليه (قل انما أعظكم) أى أرشدكم وأنصح لكم (بواحدة) أى بخصلة واحدة هى (أن تقوموا) أى توجهوا نفوسكم الى تعرف الحق وعبر بالقيام اشارة الى الاجتهاد (لله) أى الذى لا أعظم منه على وجه الاخلاص واستحضار ماله من العظمة بماله لديكم من الاحسان لا لارادة المغالبة حال كونكم (مثنى) أى اثنين اثنين قال البقاعى وقدمه اشارة الى أن أغلب الناس ناقص العقل (وفرادى) أى واحدا واحدا من وثق بنفسه فى رصانة عقله واصابة رأيه قام وحده ليكون أصفى لسره وأعون على خلوص فكره ومن خاف عليها ضم اليه آخر ليذكره اذا نسى ويقومه اذا زاغ ولم يذكر غيرهما من الاقسام لان الازدحام

يشوش الخواطر ويخلط القول * ولما كان ماطلب منهم هذا الأجل عظيما جديرا بأن يهتم له هذا الاهتمام أشار اليه بأداة التراخي بقوله تعالى (ثم تتفكروا) أي في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وماجاء به لتعلموا حقيته (مابصاحبكم) أي رسولكم الذي أرسل اليكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم (من جنة) أي جنون يحمله على ذلك (ان) أي ما (هو) أي المحدث عنه بعينه (الانذير) أي خالص انذاره (لكم بين يدي) أي قبل حلول (عذاب شديد) أي في الآخرة ان عصيتموه روى البخاري عن ابن عباس انه قال صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم فقال ياصباحاه فاجتمعت اليه قريش فقالوا مالك فقال أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم اما كنتم تصدقوني قالوا بلى قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبولهب تبالك ألهذا جمعتنا فأنزل الله تعالى تبت يدا أبي لهب وتب * ولما انتفى عنه بهذا ماتخيلوا به بقي امكان أن يكون لغرض أمر دنيوي فنفاه بقوله تعالى (قل) أي لهم يا أشرف الخلق (ما) أي مهما (سألتكم من أجر) أي على دعائي لكم من الانذار والتبليغ (فهو لكم) أي لا أريد منه شيأ وهو كناية عن اني لا أسألكم على دعائي لكم الى الله تعالى أجرا أصلا بوجه من الوجوه فاذا ثبت أن الدعاء ليس لغرض دنيوي وان الداعي أرجح الناس عقلا ثبت أن الذي حمله على تعريض نفسه لتلك الأخطار العظيمة انما هو أمر الله تعالى الذي له الأمر كله (ان) أي ما (أجري) أي ثوابي (الا على الله) أي الذي لا أعظم منه فلا ينبغي لذي همة أن يطلب شيأ الا من عنده (وهو) أي والحال انه (على كل شيء شهيد) أي حفيظ مهيمن بليغ العلم بأحوالي فيعلم صدقي وخلوص نيتي وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص أجري في الوصل بفتح الياء والباقون بالسكون (قل) أي لمن أنكر التوحيد والرسالة والحشر (ان ربي) أي المحسن الي بأنواع الاحسان (يقذف بالحق) أي يلقيه الى أنبيائه أو يرمي به الباطل الى أقطار الآفاق فيكون وعدا باظهار الاسلام وافشائه (علام الغيوب) أي ماغاب عن خلقه في السموات والارض *(تنبيه)* في رفع علام أوجه أظهرها انه خبر ثان لان أو خبر مبتدا مضمر أو بدل من الضمير في يقذف وقال الزمخشري رفع محمول على محل ان واسمها أو على المستكن في يقذف يعني بقوله محمول على محل ان واسمها النعت الا أن ذلك ليس مذهب البصريين لانهم لم يعتبروا المحل الا في العطف بالحرف بشروط عند بعضهم ويريد بالحمل على الضمير في يقذف أنه بدل منه لا أنه نعت له لان ذلك انفرد به الكسائي وقرأ حمزة وشعبة بكسر الغين والباقون بالضم (قل) لهؤلاء (جاء الحق) أي الاسلام وقيل القرآن وقيل كل ماظهر على لسان النبي صلى الله عليه وسلم وقيل المعجزات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المراد من جاء الحق أي ظهر الحق لان كل ماجاء فقد ظهر وأكد تكذيبا لهم في ظنهم انهم يغلبون بقوله تعالى (وما) أي والحال أنه ما (يبدئ الباطل) أي الذي أنتم عليه من الكفر (ومايعيد) أي ذهب فلم تبق منه بقية مأخوذ من هلاك الحي فانه اذا هلك لم يبق له أبداء ولا اعادة فجعلوا قولهم لا يبدئ ولا يعيد مثلا في الهلاك ومنه قول عبيد

أقفر من أهله عبيد * أصبح لا يبدي ولا يعيد

والمعنى جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى جاء الحق وزهق الباطل وعن ابن مسعود دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد وقيل الباطل ابليس أي ما ينشئ خلقا ولا يعيده والمنشئ والباعث هو الله تعالى وعن الحسن لا يبدئ لاهله خيرا ولا يعيده أي لا ينفعهم في الدنيا والآخرة وقال الزجاج أي شيء ينشئه ابليس ويعيده فجعله للاستفهام وقيل للشيطان الباطل لانه صاحب الباطل ولانه هالك كما قيل له الشيطان من شاط اذا هلك وحينئذ يكون غير منصرف وان جعلته من شطن كان منصرفا * ولما لم يبق بعد هذا الا أن يقولوا عنادا أنت ضال ليس بك جنون ولا كذب ولكنك قد عرض لك ما أضلك عن المحجة قال تعالى (قل) أي لهؤلاء المعاندين على سبيل الاستعطاف بما في قولك من الانصاف وتعليم الأدب (ان ضللت) أي عن الطريق على سبيل الفرض (فانما أضل على نفسي) أي اثم اضلالي عليها (وان اهتديت فبما) أي فاهتدائي انما هو بما (يوحي الي ربي) أي المحسن الي من القرآن والحكمة لا بغيره فلا يكون فيه ضلال لانه لا حظ للنفس فيه أصلا (فان قيل) أين التقابل بين قوله تعالى فانما أضل على نفسي وقوله تعالى فبما يوحي الي ربي وانما كان يقال فانما أضل على نفسي وان اهتديت فانما اهتدى لها كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وقوله تعالى فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها أو يقال فانما أضل نفسي (أجيب) بانهما متقابلان من جهة المعنى لان النفس كل ما عليها فهو بسببها لانها الامارة بالسوء وما لها مما ينفعها فبهداية ربه وتوفيقه وهذا حكم عام لكل مكلف وانما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسنده الى نفسه لان الرسول اذا دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به وفتح الياء من ربي عند الوصل نافع وأبو عمرو والباقون بالسكون وهم على مراتبهم في المد ثم علل الضلال والهداية بقوله تعالى (انه) أي ربي (سميع) أي لكل ما يقال (قريب) أي يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله وان أخفاه * ولما أبطل تعالى شبههم وختم من صفاته بما يقتضي البطش بمن خالفه عطف على ولو ترى اذ الظالمون (ولو ترى) أي تبصر بأشرف الخلق (اذ فزعوا) أي عند الموت أو البعث أو يوم بدر وجواب لو محذوف نحو لرأيت أمرا عظيما (فلا) أي فتسبب عن ذلك الفزع أنه لا (فوت) أي لهم منا لانهم في قبضتنا ثم حقر أمرهم بالبناء للمفعول بقوله تعالى (وأخذوا) أي عند الفزع من كل من نأمره بأخذهم سواء أكان قبل الموت أم بعده (من مكان قريب) أي القبور أو من الموقف الى النار أو من صحراء بدر الى القليب وقال الكلبي من تحت أقدامهم * وقيل أخذوا من ظهر الارض الى بطنها وحيثما كانوا فهم من الله تعالى قريب لا يفوتونه والعطف على فزعوا أو لا فوت (وقالوا) أي عند الاخذ ومعاينة الثواب والعقاب (آمنا به) أي القرآن الذي قالوا انه افك

مفترى أو محمد صلى الله عليه وسلم الذى قالوا انه ساحر (وأنى) أى وكيف ومن أين (لهم التناوش) أى تناول الايمان تناولا سهلا (من مكان بعيد) أى عن محله اذهم فى الآخرة ومحله فى الدنيا ولا يمكن الا برجوعهم الى الدنيا التى هى دار العمل وهذا تمثيل لحالهم فى طلبهم أن ينفعهم ايمانهم فى ذلك الوقت كما ينفع المؤمنين ايمانهم فى الدنيا بحال من أراد أن يتناول شيأ من علوه كما يتناوله الآخر من قدر ذراع تناولا سهلا لا تعب فيه (فان قيل) كيف قال تعالى من مكان بعيد وقد قال تعالى فى كثير من المواضع ان الآخرة من الدنيا قريب وسمى الله تعالى الساعة قريبة فقال اقتربت الساعة اقترب للناس حسابهم لعل الساعة قريب (أجيب) بأن الماضى كالامس الدابر وهو من أبعد ما يكون اذ لا وصول اليه والمستقبل وان كان بينه وبين الحاضر سنون فانه آت فيوم القيامة الدنيا بعيدة منه لمضيها ويوم القيامة فى الدنيا قريب لاتيانه وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائى بعد الالف بهمزة مضمومة والباقون بعد الالف بواو مضمومة فمعناه على هذا كيف لهم تناول ما بعد عنهم وهو الايمان والتوبة وقد كان قريبا فى الدنيا فضيعوه وأما من همز فقيل معناه هذا أيضا * وقيل التناؤش بالهمز من التنوش الذى هو حركة فى ابطاء يقال جاء منتشا أى مبطئا متأخرا والمعنى من أين لهم الحركة فيما لا حيلة لهم فيه قال ابن عباس يسألون الرد فيقال وأنى لهم الرد الى الدنيا من مكان بعيد أى من الآخرة الى الدنيا وأمال الى محضة حمزة والكسائى وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح و بين اللفظين والباقون بالفتح (وقد) أى كيف لهم ذلك والحال أنهم قد (كفروا به) أى بالذى طلب منهم أن يؤمنوا به محمد صلى الله عليه وسلم أو القرآن أو البعث (من قبل) أى فى دار العمل (و) الحال انهم حال كفرهم (يقذفون) أى يرمون (بالغيب) ويتكلمون بما يظهر لهم فى الرسول صلى الله عليه وسلم من المطاعن وهو قولهم ساحر وشاعر وكاهن وفى القرآن سحر شعر كهانة وقال قتادة يعنى يرجمون بالظن يقولون لا بعث ولا جنة ولا نار (من مكان بعيد) أى ما غاب علمه عنهم غيبة بعيدة وهذا تمثيل لحالهم فى ذلك بحال من يرمى شيأ ولا يراه من مكان بعيد لا مجال للظن فى لحوقه (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) أى من نفع الايمان يومئذ والنجاة من النار والفوز بالجنة أو من الرد الى الدنيا كما حكى عنهم ارجعنا نعمل صالحا * وقرأ ابن عامر والكسائى بضم الحاء وهو المسمى بالاشمام والباقون بكسرها (كما فعل) أى بأيسر وجه (بأشياعهم) أى أشباههم من كفرة الامم ومن كان مذهبه مذهبهم (من قبل) أى قبل زمانهم فان حالهم كان كحالهم ولم يختل أمر نافى أمة من الامم بل كان كلما كذبت أمة رسولها أخذناها فاذا أذقناهم بأسنا أذعنوا وخضعوا فلم يقبل منهم ذلك ولا نفعهم شيأ لا بالكف عن اهلاكهم ولا لادراكهم شيأ من الخير بعد اهلاكهم ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ثم علل عدم الوصول الى قصدهم بقوله تعالى مؤكدا لانكارهم أن يكون عندهم شئ من شك فى شئ من أمرهم (انهم كانوا) أى فى دار القبول (فى شك) أى فى جميع ما نخبرهم به رسلنا عنا من الجزاء والبعث وغير ذلك (مريب) أى موقع فى الريبة فهو بليغ

فى بابه كما يقال عجب عجيب أوهو واقع فى الريب كما يقال شعر شاعر أى ذو شعر فهو اسم فاعل من أراب أى أتى بالريب أودخل فيه وأربته أى أوقعته فى الريب ونسبة الارابة الى الشك مجاز قال الزمخشرى الا أنّ بينهما فرقا وهو أنّ المريب من المتعدى منقول ممن يصح أن يكون مريبا من الاعيان الى المعنى ومن اللازم منقول من صاحب الشك الى الشك كما تقول شعر شاعر انتهى وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة سبأ لم يبق نبى ولا رسول الا كان له يوم القيامة رفيقا ومصافحا حديث موضوع

(سورة فاطر مكية)

وهى ست وأربعون آية وسبعمائة وسبعون كلمة وثلاثة آلاف ومائة وثلاثون حرفا وهى ختام السور المفتتحة باسم الحمد التى فصلت فيها النعم الاربع التى هى أمهات النعم المجموعة فى الفاتحة وهى الايجاد الاول ثم الابقاء الاول ثم الايجاد الثانى المشار اليه بسورة سبا ثم الابقاء الثانى الذى هو أتمها وأحكمها وهو الختام المشار اليه بهذه السورة المفتتحة بالابتداء الدال عليه بانهاء القدرة واحكمها المفصل أمره فيها فى فريقى السعادة والشقاوة تفصيلا شافيا على انه استوفى فى هذه السورة النعم الاربع كما يأتى بيانه فى محله (بسم الله) الذى أحاطت دائرة قدرته بالممكنات (الرحمن) الذى عم الخلق بعموم الرحمة (الرحيم) الذى شرّف أهل الكرامة بدوام المراقبة * ولما أثبت سبحانه فى التى قبلها الحشر الذى هو الايجاد الثانى وكان الحمد يكون بالمنع والاعدام كما يكون بالاعطاء والانعام قال تعالى ماهو نتيجة ذلك (الحمد) أى الاحاطة بأوصاف الكمال اعداما وايجادا (لله) أى وحده * ولما كان الايجاد من العدم أدل دليل على ذلك قال تعالى دالا على استحقاقه للمحامد (فاطر السموات والارض) أى خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق قاله ابن عباس أو شاقهما لنزول الارواح من السماء وخروج الاجساد من الارض وعن مجاهد عن ابن عباس ما كنت أدرى مافاطر السموات والارض حتى اختصم الىّ أعرابيان فى بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أى ابتدأتها *(تنبيه)* ان جعلت اضافة فاطر محضة كان نعتا وان جعلتها غير محضة كان بدلا وهو قليل من حيث انه مشتق * ولما كانت الملائكة عليهم السلام مثل الخافقين فى أن كلا منهم مبدع من العدم على غير مثال سبق من غير مادة وكان لا طريق لعامة الناس الى معرفتهم الا الخبر أخبر عنهم بعدما أخبر عما طريقه المشاهدة بقوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) أى وسايط بين الله وبين أنبيائه والصالحين من عباده يبلغون رسالته بالوحى والالهام والرؤيا الصادقة أو بينه وبين خلقه يوصلون اليهم آثار صنعه (أولى) أى أصحاب (أجنحة) يهيؤهم لما يراد منهم ثم وصفها بقوله تعالى (مثنى) أى جناحين لكل واحد من صنف منهم (وثلاث) أى ثلاثة ثلاثة لصنف آخر منهم (ورباع) أى أربعة أربعة لصنف آخر منهم فهم متفاوتون بتفاوت مالهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون ويسرعون بها نحوما وكلهم الله تعالى عليه فيتصرفون فيه على ماأمرهم به وانما لم تصرف هذه الصفات لتكرر العدل فيها وذلك انها عدلت عن ألفاظ

الاعداد من صيغ الى صيغ أخر كما عدل عمر عن عامر وحذام عن حاذمة (يزيد فى الخلق مايشاء)
أى يزيد فى خلق الاجنحة وفى غيره ماتقتضيه مشيئته وحكمته والاصل الجناحان لانهما بمنزلة
اليدين ثم الثالث والرابع زيادة على الاصل وذلك اقوى للطيران وأعون عليه (فان قيل) قياس
الشفع من الاجنحة أن يكون فى كل شق نصفه فماصورة الثلاثة (أجيب) بأن الثالث لعله
يكون فى وسط الظهر بين الجناحين يمدهما بقوة أو لعله لغير الطيران قال الزمخشرى فقد مر بى
فى بعض الكتب ان صنفا من الملائكة لهم ستة أجنحة فجناحان يلفون بهما أجسادهم
وجناحان يطيرون بهما فى الامر من أمور الله تعالى وجناحان مرخيان على وجوههم حياء
من الله تعالى انتهى وروى ابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت جبريل عند
سدرة المنتهى وله ستمائة جناح ينثر من رأسه الدر والياقوت وروى انه عليه السلام سأل جبريل
أن يتراءى فى صورته فقال انك لن تطيق ذلك فقال انى أحب أن تفعل فخرج رسول الله صلى
الله عليه وسلم فى ليلة مقمرة فأتاه جبريل فى صورته فغشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم
ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده واحدى يديه على صدره والاخرى بين كتفيه فقال سبحان
الله ما كنت أرى أن شيأ من الخلق هكذا فقال جبريل فكيف لو رأيت اسرافيل عليه السلام له
اثنا عشر ألف جناح جناح منها بالمشرق وجناح بالمغرب وان العرش على كاهله وانه ليتضاءل
الاحايين لعظمة الله تعالى حتى يعود مثل الوصع وهو العصفور الصغير وروى عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى يزيد فى الخلق مايشاء وهو الوجه الحسن والصوت الحسن
والشعر الحسن وقيل هو الخط الحسن وعن قتادة الملاحة فى العينين والآية كما قال الزمخشرى
مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق من طول قامة واعتدال صورة وتمام فى الاعضاء وقوة
فى البطش ومتانة فى العقل وجزالة فى الرأى وجراءة فى القلب وسماحة فى النفس وذلاقة
فى اللسان ولباقة فى التكلم وحسن تأن فى مزاولة الامور وما أشبه ذلك مما لايحيط به
الوصف ثم علل تعالى ذلك كله بقوله مؤكدا لاجل انكارهم البعث (ان الله) أى الجامع
لجميع أوصاف الكمال (على كل شئ قدير) وتخصيص بعض الاشياء دون بعض انما هو
من جهة الارادة قال أبو جعفر بن الزبير لما أوضحت سورة سبأ انه سبحانه مالك السموات
والارض ومستحق الحمد فى الدنيا والآخرة أوضحت هذه السورة ان ذلك خلقه كما هو ملكه
وأنه الاهل للحمد والمستحق اذ الكل خلقه وملكه وتجردت سورة سبأ لتعريف العباد بعظيم
ملكه سبحانه وتجردت هذه للتعريف بالاختراع والخلق • ولما وصف سبحانه نفسه المقدسة
بالقدرة الكاملة دل على ذلك بما يشاهده كل أحد فى نفسه من السعة والضيق مع العجز عن دفع
شئ من ذلك أو اقتناصه وقال مستأنفا أو معللا مستنتجا (ما) أى مهما فهى شرطية (يفتح
الله) أى الذى لايكافئه شئ (للناس) لان كل مافى الوجود لاجلهم (من رحمة) أى من
الارزاق الحسية والمعنوية من اللطائف والمعارف التى لاتدخل تحت حصر قلت أو كثرت
فيرسلها (فلا ممسك لها) أى الرحمة بعد فتحه كما يعلمه كل أحد فى نفسه من أنه اذا حصل له خير

لا يعدمه من يود أنه لم يحصل ولو قدر على ازالته لازاله ولا يقدر على تأثير ما فيه (وما يمسك فلا مرسل له) يطلقه واختلاف الضميرين لان الموصول الاول مفسر بالرحمة والثاني مطلق يتناولهما والغضب وفي ذلك اشعار بأن رحمته سبقت غضبه * ولما كان ربما ادعى أحد نحو را حال امساك الرحمة أو النعمة انه هو الممسك قال تعالى (من بعده) أي امساكه وارساله (وهو) أي هو فاعل ذلك والحال انه هو وحده (العزيز) أي القادر على الامساك والارسال الغالب على كل شيء ولا غالب له (الحكيم) أي الذي يفعل في كل من الامساك والارسال وغيرهما ما يقتضيه علمه به ويتقن ما اراده على قوانين الحكمة فلا يستطاع نقض شيء منه * ولما بين بما يشاهده كل أحد في نفسه انه المنعم وحده أمر بذكر نعمته بالاعتراف أنها منه فان الذكر يعود الى الشكر وهو قيد الموجود وصيد المعدوم المفقود فقال (يا أيها الناس) أي الجميع لان جميعهم مغمورون في نعمة الله تعالى وعن ابن عباس يريد يا أهل مكة (اذكروا) بالقلب واللسان (نعمت الله) أي الذي لا منعم في الحقيقة سواه (عليكم) أي في دفع ما دفع عنكم من المحن وصنع ما صنع لكم من المنن لتشكروه ولا تكفروه * (تنبيه) * نعمت هنا مجرورة في الرسم وقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالهاء والباقون بالتاء واذا وقف الكسائي أمال الهاء * ولما أمر بذكر نعمته أكد التعريف بأنها منه وحده على وجه بين عزته وحكمته بقوله تعالى منبها المن غفل وموبخا لمن جحد ورادا على أهل القدر الذين يدعون أنهم يخلقون أفعالهم ومنبها على نعمة الايجاد الاول (هل من خالق) أي للنعم وغيرها (غير الله) أي فليس لغيره في ذلك مدخل يستحق أن يشرك به * وقرأ حمزة والكسائي بكسر الراء نعتا لخالق على اللفظ ومن خالق مبتدأ ومن زائدة فيه والباقون بالرفع وفيه ثلاثة أوجه أحدها انه خبر المبتدأ والثاني أنه صفة لخالق على الموضع والخبر اما محذوف واما يرزقكم والثالث انه مرفوع باسم الفاعل على جهة الفاعلية لان اسم الفاعل قد اعتمد على أداة الاستفهام * ولما كان جواب الاستفهام قطعا لا بل هو الخالق وحده قال منبها على نعمة الابقاء الاول بقوله تعالى (يرزقكم) أي وحده فنعمة الله تعالى مع كثرتها منحصرة في قسمين نعمة الايجاد ونعمة الابقاء * ولما كانت كثرة الرزق كما هو مشاهد مع وحدة المنبع أدل على العظمة قال (من السماء) أي بالمطر وغيره (والارض) أي بالنبات وغيره * ولما بين تعالى انه الرازق وحده قال (لا اله الا هو فانى تؤفكون) أي من أين تصرفون عن توحيده مع اقراركم بأنه الخالق الرازق وتشركون المنحوت بمن له الملكوت * ولما بين تعالى الاصل الاول وهو التوحيد ذكر الاصل الثاني وهو الرسالة بقوله تعالى (وان يكذبوك) أي يا أشرف الخلق في مجيئك بالتوحيد والبعث والحساب والعقاب وغير ذلك (فقد كذبت رسل من قبلك) في ذلك (فان قيل) فما وجه صحة جزاء الشرط ومن حق الجزاء أن يعقب الشرط وهذا سابق له (أجيب) بأن معناه وان يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك فوضع فقد كذبت رسل من قبلك موضع فتأس استغناء بالسبب عن المسبب أعني

بالتكذيب

بالتكذيب عن التأسي (فان قيل) ما معنى التنكير في رسل (أجيب) بأن معناه فقد كذبت رسل أي رسل ذوو عدد كثير وأولو آيات ونذر وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم وما أشبه ذلك وهذا أسلى له وأحث على المصابرة قال القشيري وفي هذا اشارة للحكماء وأرباب القلوب مع العوام والاجانب من هذه الطريقة فانهم لا يقبلون منهم الا القليل وأهل الحقائق أبدا منهم في مقاساة الاذية والعوام أقرب الى هذه الطريقة من القراء المتعنتين ثم بين من حيث الاجمال ان المكذب في العذاب وان المكذب له الثواب بقوله تعالى (والى الله) أي وحده لان له الامور كلها (ترجع الامور) أي في الآخرة فيجازيكم واياهم على الصبر والتكذيب ثم بين تعالى الاصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى (يا أيها الناس) * ولما كانوا ينكرون البعث أكده قوله تعالى (ان وعد الله) أي الذي له صفات الكمال بكل ما وعد به من البعث وغيره (حق) أي ثابت لا خلف فيه وقد وعد أنه يردكم اليه في يوم تنقطع فيه الاسباب ويعرض عن الاحساب والانساب (فلا تغرنكم) أي بأنواع الخداع من اللهو والزينة (الحياة الدنيا) فانه لا يليق بذي همة علية اتباع الدني والرضا بالدون الزائل عن العالي الدائم (ولا يغرنكم بالله) أي الذي لا يخلف الميعاد وهو الكبير المتعال (الغرور) أي الذي لا يصدق في شيء وهو الشيطان العدو ولذلك استأنف قوله تعالى مظهرا في موضع الاضمار (ان الشيطان) أي المحترق بالغضب البعيد عن الخير (لكم) أي خاصة (عدو) فهو في غاية الفراغ لاذاكم يتدويب مكايده كلها اليكم وبما سبق له مع أبيكم آدم عليه السلام بما وصل أذاه اليكم وأيضا من عادى أباك فقد عاداك فاجتهدوا في الهرب منه ولا تولوه كما قال تعالى (فاتخذوه) أي بغاية جهدكم (عدوا) أي في عقائدكم وأفعالكم ولا يوجدن منكم الا ما يدل على معاداته ومناصبته في سركم وجهركم قال القشيري ولا تقوى على عداوته الا بدوام الاستعانة بالرب فانه لا يغفل عن عداوتك فلا تغفل أنت عن مولاك لحظة ثم علل عداوته بقوله (انما يدعو حزبه) أي الذين يوسوس لهم فيعرضهم لاتباعه والاعراض عن الله تعالى (ليكونوا) باتباعه كونا راسخا (من أصحاب السعير) وهذا غرضه لا غرض له سواه ولكنه يجتهد في تعمية ذلك عنهم بأن يزين في نفوسهم جانب الرجاء وينسيهم جانب الخوف ويريهم أن التوبة في أيديهم ويسوف لهم بها بالفسحة في الامل والابعاد في الاجل للافساد في العمل والرحمن انما يدعو عباده ليكونوا من اهل النعيم كما قال تعالى والله يدعو الى دار السلام * ثم بين تعالى ما حال حزب الشيطان بقوله تعالى (الذين كفروا لهم عذاب شديد) اى في الدنيا بفوات ما يأملونه مع تفرقة قلوبهم وانسداد بصائرهم وسفالة هممهم حتى انهم رضوا أن يكون الههم حجرا وفي الآخرة بالسعير التي دعاهم الى صحبتها ثم بين حزبه تعالى بقوله سبحانه (والذين آمنوا وعملوا) أي تصديقا لايمانهم (الصالحات) من صلاة وزكاة وصوم وغير ذلك من المأمورات (لهم مغفرة) أي ستر لذنوبهم في الدنيا ولولا ذلك لافتضحوا وفي الآخرة بحيث لا عتاب ولا عقاب ولولا ذلك لهلكوا (وأجر كبير) هو الجنة والنظر الى وجهه

الكريم فالمغفرة في مقابلة الايمان فلا يؤبد مؤمن في النار والاجر الكبير في مقابلة العمل الصالح ونزل كما قال ابن عباس في أبي جهل ومشركي العرب (أفمن زين له سوء عمله) أي قبحه الذي من شأنه أن يسوء صاحبه حالاً أو مآلاً بان غلب وهمه وهواه على عقله (فرآه) أي السيء بسبب التزيين (حسنا) أي عملا صالحا (فان) أي السبب في رؤية الاشياء على غير ماهي عليه ات (الله) أي الذي له الامر كله (يضل من يشاء) فلا يرى شيأ على ماهو به فيقدم على الهلاك المبين وهو يراه عين النجاة (ويهدى من يشاء) فلا يشكل عليه أمر ولا يفعل الا حسنا *(تنبيه)* من موصول مبتدأ ومابعده صلته والخبر محذوف واختلف في تقديره فقدره الكسائي تذهب نفسك عليهم حسرات لدلالة قوله تعالى تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم حيث حزن على اصرارهم بعد اتيانه بكل آية ظاهرة وحجة قاهرة (فلا تذهب نفسك عليهم) أي المزين لهم (حسرات) أي لاجل حسراتك المترادفة لاجل اعراضهم جمع حسرة وهي شدة الحزن على مافات من الامر وقدره الزجاج وأضله الله كمن هداه وقدره غيرهما كمن لم يزين له وهو أحسن لموافقته لفظا ومعنى ونظيره أفمن كان على بينة من ربه أي كمن هو أعمى أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى وقال سعيد بن جبير نزلت هذه الآية في أصحاب الاهواء والبدع قال قتادة منهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم فأما أهل الكتاب فليسوا منهم لانهم لا يستحلون الكبائر (ان الله) أي المحيط بجميع صفات الكمال (عليم) أي بالغ العلم (بما يصنعون) فيجازيهم عليه ثم عاد تعالى الى البيان بقوله سبحانه (والله) أي الذي له صفات الكمال لاشئ غيره من طبيعة ولا غيرها (الذي أرسل الرياح) أي أوجدها من العدم فهبوبها دليل على الفاعل المختار لان الهواء قد يسكن وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك الى اليمين وقد يتحرك الى الشمال وفي حركاته المختلفة قد ينشئ السحاب وقد لا ينشئ فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر مؤثر مقدر وقوله تعالى (فتثير سحابا) عطف على أرسل لان أرسل بمعنى المستقبل فلذلك عطف عليه وأتى بأرسل لتحقق وقوعه وبتثير لتصور الحال واستحضار الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة كقوله تعالى أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ولما أسند فعل الارسال اليه تعالى ومايفعله يكون بقوله تعالى كن فلا يبقى في العدم لا زمانا ولا جزأ من الزمان فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة تكوينه فكأنه كان ولانه فرغ عن كل شئ فهو قدر الارسال في الاوقات المعلومة الى المواضع المعينة *ولما أسند فعل الاثارة الى الريح وهي تؤلف في زمان فقال تثير أي على هيئتها وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالتوحيد والباقون بالجمع وقوله تعالى (فسقناه) فيه التفات عن الغيبة (الى بلد ميت) أي لا نبات بها وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي بتشديد الياء والباقون بالتخفيف (فأحيينا به) أي بالمطر النازل منه وذكر السحاب كذكر المطر حيث أقيم مقامه أو بالسحاب فانه سبب السبب أو الصائر مطرا (الارض) بالنبات والكلا (بعد موتها) أي يبسها *(تنبيه)* العدول في سقنا وأحيينا من الغيبة في قوله تعالى والله الذي أرسل الرياح الى ماهو أدخل

فى الاختصاص وهو التكلم فيهما لما فيهما من مزيد الصنع والكاف فى قوله تعالى (كذلك) فى محل رفع أى مثل احياء الموات (النشور) للاموات وجه الشبه من وجوه أولها ان الارض الميتة قبلت الحياة كذلك الاعضاء تقبل الحياة ثانيها كما أن الريح يجمع السحاب المقطع كذلك تجمع الاعضاء المتفرقة ثالثها كما أنا نسوق الريح والسحاب الى البلد الميت كذلك نسوق الروح الى الجسد الميت (فان قيل) ما الحكمة فى اختيار هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له فى كل شئ آية تدل على أنه واحد (اجيب) بأنه تعالى لما ذكر كونه فاطر السموات والارض وذكر من الامور السماوية الارواح وارسالها بقوله تعالى جاعل الملائكة رسلا ذكر من الامور الارضية الرياح وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك فى خلقه فقال هل مررت بواد أهلك محلا ثم مررت به يهتز فقال نعم فقال فكذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته فى خلقه وقيل يحيي الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش كمني الرجال تنبت منه أجساد الخلق * ولما كان الكافرون يتعززون بالاصنام كما قال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا والذين آمنوا بألسنتهم غير مواطئة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين كما قال تعالى الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا بين تعالى ان لا عزة الا لله بقوله سبحانه (من كان) أى فى وقت من الاوقات (يريد العزة) أى الشرف والمنعة (فلله العزة جميعا) أى فى الدنيا والآخرة والمعنى فليطلبها عند الله فوضع قوله تعالى فلله العزة جميعا موضعه استغناء به عنه لدلالته عليه لان الشئ لا يطلب الا من عند صاحبه ومالكه ونظيره قولهم من أراد النصيحة فهى عند الابرار يريد فليطلبها عندهم الا انك أقمت ما يدل عليه مقامه وقال قتادة من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله تعالى ومعناه الدعاء الى طاعة من له العزة أى فليطلب العزة من عند الله بطاعته كما يقال من كان يريد المال فالمال لفلان أى فليطلبه من عنده * ثم عرف أن ما تطلب به العزة هو الايمان والعمل الصالح بقوله تعالى (اليه) أى لا الى غيره (يصعد الكلم الطيب) قال المفسرون هو قول لا اله الا الله وقيل هو قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وعن ابن مسعود قال اذا حدثتكم حديثا أنبأتكم بمصداقه من كتاب الله عز وجل مامن عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وتبارك الله الا أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن فلا يمر على جمع من الملائكة الا استغفروا لقائلهن حتى يحيي بها وجه رب العالمين ومصداقه من كتاب الله عز وجل قوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب وقيل الكلم الطيب ذكر الله وعن قتادة اليه يصعد الكلم الطيب أى يقبل الله الكلم الطيب وقيل الكلم الطيب يتناول الذكر والدعاء وقراءة القرآن وعن الحاكم موقوفا وعن الثعلبي مرفوعا أنه صلى الله عليه وسلم قال هو سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر اذا قالها العبد عرج بها الملك الى السماء فحيا بها وجه الرحمن فاذا لم يكن عمل صالح لم تقبل (والعمل الصالح يرفعه) أى يقبله فصعود الكلم الطيب والعمل الصالح مجاز عن قبوله

تعالى اياهما أو صعود الكتبة بصحفهما والمستكن في يرفعه لله تعالى وتخصيص العمل بهذا الشرف لما فيه من الكلفة وقال سفيان بن عيينة العمل الصالح هو الخالص يعني الاخلاص سبب قبول الخيرات من الاقوال والافعال لقوله تعالى فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا فجعل نقيض الصالح الشرك والرياء * (تنبيه) * صعود الكلم الطيب والعمل الصالح مجاز عن قبوله تعالى اياهما أو صعود الكتبة بصحفهما والمستكن في يرفعه لله تعالى وتخصيص العمل بهذا الشرف لما فيه من الكلفة أو للكلم فان العمل لا يقبل الا بالتوحيد أو للعمل فانه يحقق الايمان ويقويه قال الرازي في اللوامع العلم لا يتم الا بالعمل كما قيل العلم يهتف بالعمل فان أجاب والا ارتحل انتهى وقد قيل

لا ترض من رجل حلاوة قوله * حتى يصدق ما يقول فعاله
فاذا وزنت مقاله بفعاله * فتوازنا فاخاء ذاك جماله

وقال الحسن الكلم الطيب ذكر الله تعالى والعمل الصالح أداء فرائضه فمن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله وليس الايمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الاعمال فمن قال حسنا وعمل غير صالح رد الله تعالى عليه قوله ومن قال حسنا وعمل صالحا رفعه الله * ولما بين ما يحصل العزة من علو الهمة بين ما يكسب المذلة ويوجب النقمة من ردىء الهمة بقوله تعالى (والذين يمكرون) أي يعملون على وجه المكر اى الستر المكرات (السيآت) أي مكرات قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار الندوة وتداورهم الرأى في احدى ثلاث حبسه وقتله واجلاؤه كما قال تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك الآية وقال الكلبي معناه يعملون السيآت وقال مقاتل يعني الشرك وقال مجاهد هم أصحاب الرياء (لهم عذاب شديد) أي لا يؤبه دونه بما يمكرون (ومكر أولئك) أي البعداء من الفلاح (هو) أي وحده دون مكر من يريد بمكره الخير فان الله ينفذه ويعلي أمره (يبور) أي يفسد ولا ينفذ اذ الامور مقدرة فلا تتغير بسبب مكرهم كما دل عليه بقوله تعالى (والله خلقكم من تراب) أي بتكوين أبيكم آدم منه فزجه مزجا لا يمكن لغيره تمييزه ثم أحاله عن ذلك الجوهر أصلا ورأسا واليه الاشارة بقوله تعالى (ثم) أي بعد ذلك في الزمان والرتبة خلقكم (من نطفة) أي جعلها أصلا ثانيا من ذلك الاصل الترابي أشد امتزاجا منه (ثم) بعد أن أنهى التدبير زمانا ورتبة الى النطفة التي لا مناسبة بينها وبين التراب دلالة على كمال القدرة والفعل بالاختيار (جعلكم أزواجا) أي بين ذكور واناث دلالة هي أظهر مما قبلها على الاختيار وعن قتادة زوج بعضكم بعضا * (تنبيه) * يصح أن يقال كما قال ابن عادل خلقكم خطاب مع الناس وهم أولاد آدم عليه السلام وكلهم من تراب ومن نطفة لان كلهم من نطفة والنطفة من غذاء والغذاء ينتهي بالآخرة الى الماء والتراب فهم من تراب صار نطفة * ولما بين تعالى بقوله سبحانه خلقكم من تراب كمال قدرته بين بقوله سبحانه (وما تحمل من انثى ولا تضع) أي حملا (الا) اى مصحوبا (بعلمه) أي في وقته ونوعه وشكله

وغير ذلك من شأنه مختصا بذلك كله حتى عن أمته التي هي أقرب اليه فلا يكون الا بقدرته فما شاء أتمه وما شاء أخرجه كمال علمه ثم بين نفوذ ارادته بقوله تعالى (وما يعمر من معمر) أى وما يمد في عمره من مصغره الى كبر وانما سماه معمرا بما هو صائر اليه فمعناه وما يعمر من أحد وفي عود ضمير قوله تعالى (ولا ينقص من عمره) قولان أحدهما أنه يعود على معمر آخر لان المراد بقوله تعالى من معمر الجنس فهو يعود عليه لفظا لا معنى لانه بعد أن فرض كونه معمرا استحال أن ينقص من عمره نفسه كما يقال لفلان عندى درهم ونصفه أى نصف درهم آخر والثاني أنه يعود على المعمر نفسه لفظا ومعنى والمعنى انه اذا ذهب من عمره حول أحصى وكتب ثم حول آخر كذلك فهذا هو النقص واليه ذهب ابن عباس وابن جبير وأبو مالك ومنه قول الشاعر

حياتك أنفاس تعد فكلما * مضى نفس منك انتقصت به جزأ

وقال الزمخشري هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بأفهام السامعين واتكالا على تسديدهم معناه بعقولهم وأنه لا يلتبس عليهم احالة الطول والقصر في عمر واحد وعليه كلام الناس المستفيض يقولون لا يثيب الله عبدا ولا يعاقبه الا بحق قال وفيه تأويل آخر وهو أنه لا يطول عمر انسان ولا يقصر الا في كتاب وصورته أن يكتب في اللوح ان حج فلان أو غزا فعمره أربعون سنة وان حج وغزا فعمره ستون سنة فاذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عمر واذا أفرد أحدهما فلم يتجاوز به الاربعين فقد نقص عن عمره الذى هو الغاية وهو الستون واليه أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ان الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الاعمار وعن كعب انه قال حين طعن عمر رضي الله تعالى عنه لو أن عمر دعا الله لأخر في أجله فقيل لكعب أليس قد قال الله تعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فقال هذا اذا حضر الاجل فأما قبل ذلك فيجوز أن يزاد وينقص وقرأ هذه الآية وقد استفاض على الالسنة أطال الله تعالى بقاءك وفسح في مدتك وما أشبهه وعن سعيد بن جبير يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان ذهب ثلاثة أيام حتى يأتي على آخره وعن قتادة المعمر من بلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة والكتاب في قوله تعالى (الا في كتاب) أى مكتوب فيه عمر فلان كذا وكذا وعمر فلان كذا ان عمل كذا وعمره كذا ان لم يعمل كذا هو اللوح المحفوظ قاله ابن عباس قال الزمخشري ويجوز أن يراد بكتاب الله علم الله تعالى أو صحيفة الانسان * ولما كان ذلك أمرا لا يحيط به العد ولا يحصره الحد فكان في عداد ما ينكره الجهلة قال تعالى مؤكدا لسهولته (ان ذلك) أى الامر العظيم من كتب الآجال كلها وتقديرها (على الله) أى الذى له جميع العزة (يسير) أى هين وقوله تعالى (وما يستوي البحران هذا عذب) أى طيب حلو لذيذ ملائم طبعه (فرات) أى بالغ العذوبة (سائغ شرابه) أى شربه مرئ سهل انحداره لما له من اللذة والملاءمة للطبع (وهذا ملح أجاج) أى جمع الى الملوحة المرارة فلا يسوغ شرابه بل لو شرب لآلم الحلق وأجج في البطن ما هو كالنار

ضرب مثلا للمؤمن والكافر وقوله تعالى (ومن كل) أى الملح والعذب (تأكلون) أى من السمك المنوع الى أنواع تفوت الحصر (لحما طريا) أى شهى المطعم (وتستخرجون) أى من الملح دون العذب (حلية تلبسونها) أى نساؤكم من الجواهر الدر والمرجان وغيرهما ذكر استطرادا فى صفة البحرين ومافيهما من النعم وتمام التمثيل والمعنى كما أنهما وان اشتركا فى بعض الفوائد لا يتساويان من حيث انهما لا يتساويان فيما هو مقصود بالذات من الماء فانه خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته فلا يتساوى المؤمن والكافر وان اتفق اشتراكهما فى بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة لاختلافهما فيما هو الخاصة العظمى وهى بقاء أحدهما على الفطرة الاصلية دون الآخر وقيل تخرج الحلية منهما كما هو ظاهر قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان قال البغوى لانه قد يكون فى البحر الاجاج عيون عذبة تمتزج بالملح فيكون اللؤلؤ من ذلك انتهى * (فائدة) عاب المبرد وغيره قول الشافعى رضى الله تعالى عنه كل ماء من بحر عذب أو مالح فالتطهر به جائز وقالوا انه لحن وانما يقال ملح كما قال تعالى وهذا ملح أجاج وهم مخطئون فى ذلك كما قيل

وكم من عائب قولا صحيحا * وآفته من الفهم السقيم

ولكن تأخذ الآذان منه * على قدر القريحة والفهوم

قال النووى وأجاب أصحابنا بأجوبة أصحها أن فيه أربع لغات ملح ومالح ومليح وملاح بضم الميم وتخفيف اللام قال عمر بن أبى ربيعة

ولو تفلت فى البحر والبحر مالح * لاصبح ماء البحر من ريقها عذبا

وقال آخر

وللرزق أسباب تروح وتغتدى * وانى منها غير غاد ورائح

قنعت بثوب العدم من حلة الغنى * ومن بارد عذب زلال بمالح

وقال محمد بن حازم

تلونت الوانا على كثيرة * وخالط عذبا من اخائك مالح

وقال خالد بن يزيد بن معاوية فى رملة بنت الزبير

ولو وردت ماء وكانت قبيله * مليحا شربنا ماءه باردا عذبا

وقال الخطابى يقال ماء ملاح كما يقال أجاج وزعاق وزلال قال وانما نزل الشافعى من اللغة العالية الى التى هى أدنى للايضاح وحسما للاشكال والالتباس لئلا يتوهم متوهم أنه أراد بالملح المذاب فيظن ان الطهارة به جائزة وثانى الاجوبة أن الشافعى امام فى اللغة فقوله فيها حجة وثالثها أن هذه اللفظة ليست من كلام الشافعى ولم يذكرها بل من كلام المزنى وهذا ليس بشئ وكيف ينسب الخطا الى المزنى وعنه مندوحة وقولهم لم يذكرها الشافعى غير صحيح وقد أنكره البيهقى وقال بل سمى الشافعى البحر مالحا فى كتابين أمالى الحج والمناسك الكبير * (فائدة) * أخرى وهى أن ابن عمر قال فى البحر التيمم أحب الينا منه وقال بحركم هذا نار وتحت النار

بحر حتى عد سبعة أبحر وسبعة أنوار ولكن روى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من لم يطهره البحر فلا طهره الله ويؤول كلام ابن عمر بأنه سيصير يوم القيامة نارا أو بأنه مهلكة يهلك كما تهلك النار ولما كان الاكل والاستخراج من المنافع العامة عم الخطاب ، ولما كان استقرار شئ فى البحر دون غرق أمرا غريبا لكنه صار لشدة الفه لا يتوهم بانه من أكبر الآيات دلالة على القادر المختار الا أهل البصائر خص بالخطاب فقال (وترى الفلك) اى السفن سمى فلكا لدورانه وسفينة لقشره الماء وقدم الظرف فى قوله تعالى (فيه) لانه أشد دلالة على ذلك (مواخر) أى جوارى مستدبرة الريح شاقة للماء بجريها هذه مقبلة وهذه مدبرة وجهها الى ظهر هذه بريح واحدة يقال مخرت السفينة الماء ويقال للسحاب بنات مخر لانها تمخر الهواء والسفن الذى اشتقت منه السفينة قريب من المخر لانها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره ثم علق بالمخر معللا قوله تعالى (لتبتغوا) أى تطلبوا طلبا شديدا (من فضله) أى الله بالتوصل بذلك الى البلاد الشاسعة للمتاجر وغيرها ولو جعلها ساكنة لم يترتب عليها ذلك ولم يجر به ذكر فى الآية ولكن فيما قبلها ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه (ولعلكم تشكرون) اى ولكيكون حالكم بهذه الدالة على عظيم قدرة الله تعالى ولطفه حال من يرجى شكره *(تنبيه)* حرف الرجاء مستعار لمعنى الارادة ألا ترى كيف سلك به مسلك لام التعليل كأنما قيل لتبتغوا ولتشكروا * ولما ذكر تعالى اختلاف الذوات الدالة على بديع صنعه أتبعه اختلاف الازمنة الدالة على بديع قدرته بقوله تعالى (يولج) أى يدخل الله (الليل فى النهار) فيصير الظلام ضياء * ولما كان هذا الفعل فى غاية الاعجاب وكان لكثرة تكراره قد صار مألوفا فغفل عما فيه من الدلالة على تمام القدرة نبه عليه باعادة الفعل بقوله تعالى (ويولج النهار فى الليل) فيصير ما كان ضياء ظلاما وتارة يكون التوالج بقصر هذا وطول هذا فدل كل ذلك على أنه تعالى فاعل بالاختيار * ولما ذكر الليل والنهار ذكر ما ينشأ عنهما بقوله تعالى (وسخر الشمس والقمر) ثم استأنف قوله تعالى (كل) أى منهما (يجرى) أى فى فلكه (لاجل) أى لاجل أجل (مسمى) مضروب له لا يقدر أن يتعداه فاذا جاء ذلك الاجل غرب هكذا كل يوم الى أن يأتى الاجل الاعظم فيختل هذا النظام باذن الملك العلام وتقوم الناس ليوم الزحام وتكون الامور العظام * ولما ذكر سبحانه أنه الفاعل المختار القادر على ما يريد بما يشاهده كل أحد فى نفسه وفى غيره وختم بما تكرر مشاهدته فى كل يوم من تبين أنتج ذلك قطعا قوله تعالى معظما باداة البعد وميم الجمع (ذلكم) أى العالى المقدار الذى فعل هذه الافعال كلها (الله) الذى له صفة كل كمال ثم نبههم على أنه لا مدبر لهم سواه بخبر آخر بقوله تعالى (ربكم) أى الموجد لكم من العدم المربى بجميع النعم لا رب لكم سواه ثم استأنف قوله تعالى (له) أى وحده (الملك) أى كله وهو مالك كل شئ (والذين تدعون) أى تعبدون (من دونه) أى غيره وهم الاصنام وغيرها وكل شئ دونه (ما يملكون) فى حال من الاحوال وأعرق فى النفى بقوله تعالى (من قطمير) وهو كما روى عن ابن عباس لفافة النواة وهى القشرة الرقيقة الملتفة

عليها كناية عن أدنى الاشياء فكيف بما فوقه فليس لهم شئ من الملك والآية من الاحتباك ذكر الملك أولا دليلا على حذفه ثانيا والملك ثانيا دليلا على حذفه اولا وقيل القطمير هو القمع وقيل ما بين القمع والنواة ففى النواة على الاول أربعة أشياء يضرب بها المثل فى القلة الفتيل وهو ما فى شق النواة والقطمير وهو اللفافة والنقير وهو ما فى ظهر النواة والرقروق وهو ما بين القمع والنواة ثم بين ذلك بقوله تعالى (ان تدعوهم) أى المعبودات من دونه دعاء عبادة أو استعانة (لا يسمعوا دعاءكم) أى لانهم جماد (ولو سمعوا) أى على سبيل الفرض والتقدير (ما استجابوا لكم) أى لعدم قدرتهم على الانتفاع * ولما بين عدم النفع فيهم فى الدنيا بين عدم النفع منهم فى الآخرة ووجود الضرر منهم فى الآخرة بقوله سبحانه (ويوم القيامة) أى حين ينطقهم الله تعالى (يكفرون بشرككم) أى باشراككم فينكرونه ويتبرؤن منه بقولهم ما كنتم ايانا تعبدون كما حكى الله تعالى ذلك عنهم فى آية أخرى (ولا ينبئك) أى يخبرك أيها السامع بالامر مخبر هو (مثل خبير) أى عالم به أى أن الخبير بالامر وحده هو الذى يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به لانه لا يمكن الطعن فى شئ مما أخبر به بخلاف غيره والمعنى ان هذا الذى أخبرتكم به من حال الاوثان هو الحق لانى خبير بما أخبرت به * ولما اختص تعالى بالملك ونفى عن شركائهم النفع أنتج ذلك قوله تعالى (يا أيها الناس) أى كافة (أنتم) أى خاصة (الفقراء) وقوله سبحانه (الى الله) اعلام بأنه لا افتقار الا اليه ولا اتكال الا عليه وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقرا اليه وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار الى غيره (فان قيل) لم عرف الفقراء (أجيب) بأنه قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم اليه هم جنس الفقراء وان كانت الخلائق كلهم مفتقرين اليه من الناس وغيرهم لان الفقر يتبع الضعف وكلما كان الفقير أضعف كان أحقر وقد شهد الله تعالى على الانسان بالضعف فى قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا وقال تعالى الله الذى خلقكم من ضعف ولو نكر لكان المعنى أنتم بعض الفقراء قال القشيرى والفقر على ضربين فقر خلقة وفقر صفة فالاول عام فكل حادث مفتقر الى خالقه فى أول حال وجوده ليبديه وينشئه وفى ثانيه ليديمه ويبقيه وأما فقر الصفة فهو التجرد وفقر العوام التجرد عن المال وفقر الخواص التجرد عن الاعلال لحقيقة الفقر المحمود تجرد السر عن المعلولات * ولما ذكر العبد بوصفه الحقيقى أتبعه ذكر الخالق باسمه الاعظم فقال (والله هو الغنى) أى المستغنى على الاطلاق فلا يحتاج الى أحد ولا الى عبادة احد من خلقه وانما أمرهم بالعبادة لاشفاقه تعالى عليهم فى هذا رد على المشركين حيث قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ان الله لعله محتاج الى عبادتنا حتى أمرنا بها أمرا بالغا وهددنا على تركها مبالغا (فان قيل) قد قابل الفقر بالغنى فما فائدة قوله تعالى (الحميد) أى المحمود فى صنعه بخلقه (أجيب) بأنه لما أثبت فقرهم اليه وغناه عنهم وليس كل غنى نافعا بغناه الا اذا كان الغنى منعما جوادا واذا جاد وانعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد ذكر الحميد ليدل به على أنه الغنى النافع بغناه خلقه الجواد المنعم عليهم المستحق بانعامه أن يحمدوه وقوله تعالى

(ان يشأ يذهبكم) أى جميعا بيان لغنائه وفيه بلاغة كاملة لان قوله تعالى ان يشأ يذهبكم أى ليس اذهابكم موقوفا الا على مشيئته بخلاف الشئ المحتاج اليه فان المحتاج الى الشئ لا يقال فيه ان شاء فلان هدم داره وانما يقال لولا حاجة السكنى الى الدار لبعتها ثم انه تعالى زاد على بيان الاستغناء بقوله تعالى (ويأت بخلق جديد) أى ان كان يتوهم متوهم أن بهذا الملك كماله وعظمته فلو أذهبهم لزال ملكه وعظمته فهو قادر أن يخلق خلقا جديدا أحسن من هذا وأجمل وعن ابن عباس يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيأ (وما ذلك) أى الامر العظيم من الاذهاب والاتيان (على الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال خاصة (بعزيز) أى بممتنع ولا شاق وهو محمود عند الاعدام كما هو محمود عند الايجاد (فان قيل) استعمل تعالى العزيز تارة فى القائم بنفسه فقال تعالى فى حق نفسه وكان الله قويا عزيزا وقال فى هذه السورة عزيز غفور واستعمله تارة فى القائم بغيره فقال تعالى وما ذلك على الله بعزيز وقال تعالى عزيز عليه ما عنتم فهل هما بمعنى واحد أو بمعنيين (أجيب) بأن العزيز فى اللغة هو الغالب والفعل اذا كان لا يطيقه شخص يقال هو مغلوب بالنسبة الى ذلك الفعل فقوله تعالى وما ذلك على الله بعزيز أى ذلك الفعل لا يغلبه بل هو هين على الله تعالى وقوله سبحانه عزيز عليه ما عنتم أى يحزنه ويؤذيه كالشغل الغالب وقوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فيه حذف الموصوف للعلم به أى ولا تحمل نفس آثمة اثم نفس أخرى (فان قيل) كيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم (أجيب) بأن تلك الآية فى الضالين المضلين فانهم يحملون أثقال اضلالهم وكل ذلك أوزارهم وليس فيها شئ من أوزار غيرهم (وان تدع) أى نفس (مثقلة) أى بالوزر (الى حملها) أى من الوزر أحدا ليحمل بعضه (لا يحمل) أى من حامل ما (منه شئ) أى لا طواعية ولا كرها بل لكل امرئ شأن يغنيه (ولو كان) ذلك الداعى أو المدعو للحمل (ذا قربى) لمن دعاه (فان قيل) ما الفرق بين معنى قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى ومعنى قوله تعالى وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شئ (أجيب) بأن الاول فى الدلالة على عدل الله تعالى فى حكمه وأنه لا يؤاخذ نفسا بغير ذنبها والثانى فى أن لا غياث يومئذ بمن استغاث حتى ان نفسا قد أثقلتها الاوزار لو دعت الى أن تخفف بعض وزرها لم تجب ولم تغث وان كان الداعى أو المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ قال ابن عباس يلقى الاب أو الام ابنه فيقول يا بنى احمل عنى بعض ذنوبى فيقول لا أستطيع حسبى ما على *(تنبيه)* أضمر الداعى أو المدعو بدلالة ان تدع عليه * ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسمعهم ذلك فلم ينفعهم نزل (انما تنذر) أى انذارا يفيد الرجوع عن الغى (الذين يخشون ربهم) أى المحسن اليهم فيوقعون هذا الفعل فى الحال ويواظبون عليه فى الاستقبال ولما كان أولى الناس عقلا وأعلاهم همة من كان غيبه مثل حضوره قال تعالى (بالغيب) وهو حال من الفاعل أى يخشونه غائبين عنه أو من المفعول أى غائبا عنهم * ولما كانت الصلاة جامعة للخضوع الظاهر والباطن فكانت أشرف العبادات وكانت اقامتها بمعنى حفظ جميع

حدودها فى كل حال أدل الطاعات على الاخلاص قال تعالى معبرا بالماضى لان مواقيت الصلاة مضبوطة (وأقاموا) أى دليلا على خشيتهم (الصلاة) فى أوقاتها الخمسة وما يتبع ذلك من السنن (ومن تزكى) أى تطهر أى بفعل الطاعات وترك المعاصى (فانما يتزكى لنفسه) اذ نفعه لها (والى الله) أى الذى لا اله غيره (المصير) أى المرجع كما كان منه المبدأ فيجازى كلا على فعله * ثم لما بين تعالى الهدى والضلالة وهدى الله تعالى المؤمن ولم يهد الكافر ضرب لهما مثلا بقوله تعالى (وما يستوى الاعمى) أى عن الهدى (والبصير) بالهدى أى المؤمن والكافر وقيل الجاهل والعالم وقيل هما مثلا للصنم ولله تعالى (ولا الظلمات) أى الكفر (ولا النور) أى الايمان أو ولا الباطل ولا الحق (ولا الظل) أى الجنة (ولا الحرور) أى النار أو ولا الثواب ولا العقاب * (تنبيه) * قال ابن عباس الحرور الريح الحارة بالليل والسموم بالنهار وقيل الحرور تكون بالنهار مع الشمس وقيل السموم تكون بالنهار والحرور بالليل والنهار وقوله تعالى (وما يستوى الاحياء ولا الاموات) تمثيل آخر للمؤمن والكافر أبلغ من الاول ولذلك كرر الفعل وقيل للعلماء والجهال * (تنبيه) * زيادة لا فى الثلاثة لتأكيد نفى الاستواء وجاء ترتيب هذه المنفيات على أحسن الوجوه فانه تعالى لما ضرب الاعمى والبصير مثلين للمؤمن والكافر عقب بما كل منهما فيه والكافر فى ظلمة والمؤمن فى نور لان البصير وان كان حديد البصر لا بد له من ضوء يبصر فيه وقدم الاعمى لان البصير فاصلة فحسن تأخيره ولما تقدم الاعمى فى الذكر ناسب تقديم ما فيه فلذلك قدمت الظلمة على النور ولان النور فاصلة ثم ذكر ما لكل منهما فللمؤمن الظل وللكافر الحرور وأخر الحرور لاجل الفاصلة كما مر وقولنا لاجل الفاصلة أولى من قول بعضهم لاجل السجع لان القرآن ينبو عن ذلك وقد منع الجمهور أن يقال فى القرآن سجع وانما كرر الفعل فى قوله تعالى وما يستوى الاحياء مبالغة فى ذلك لان المنافاة بين الحياة والموت أتم من المنافاة المتقدمة وقدم الاحياء لشرف الحياة ولم يعد لا تأكيدا فى قوله تعالى الاعمى والبصير وكررها فى غيره لان منافاة ما بعده أتم فان الشخص الواحد قد يكون بصيرا ثم يصير أعمى فلا منافاة الا من حيث الوصف بخلاف الظل والحرور والظلمات والنور فانها منافية أبدا لا يجتمع اثنان منها فى محل فالمنافاة بين الظل والحرور وبين الظلمة والنور دائمة (فان قيل) الحياة والموت بمنزلة العمى والبصر فان الجسم قد يكون متصفا بالحياة ثم يتصف بالموت (أجيب) بان المنافاة بينهما أتم من المنافاة بين الاعمى والبصير لان الاعمى والبصير يشتركان فى ادراكات كثيرة ولا كذلك الحى والميت فالمنافاة بينهما أتم من المنافاة بين الاعمى والبصير لانه قابل الجنس بالجنس وقد يوجد فى أفراد العميان من يساوى بعض افراد البصراء كاعمى ذكى له بصيرة يساوى بصيرا بليدا فالتفاوت بين الجنسين مقطوع به لا بين الافراد وجمع الظلمات لانها عبارة عن الكفر والضلال وطرقهما كثيرة متشعبة ووحد النور لانه عبارة عن التوحيد وهو واحد فالتفاوت بين كل فرد من أفراد الظلمة وبين هذا الفرد الواحد والمعنى الظلمات كلها لا يوجد فيها ما يساوى هذا الواحد ثم نبه سبحانه بقوله تعالى

(ان

(ان الله) أى القادر على المفاوتة بين هذه الاشياء وعلى كل شئ بما له من الاحاطة من صفات الكمال (يسمع من يشاء) على ان الخشية والقوة انما هما بيده تعالى وان الانذار انما هو لمن قضى بانتفاعه فيتعظ ويجيب (وما أنت) أى بنفسك من غير اقدار الله تعالى لك (بمسمع) أى بوجه من الوجوه (من فى القبور) أى الحسية أو المعنوية اسماعا ينفعهم بل الله يسمعهم ان شاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات (ان) أى ما (أنت الانذير) أى تنبه القلوب الميتة بقوارع الانذار ولست بوكيل تقهرهم على الايمان * ثم بين تعالى أنه ليس نذيرا من تلقاء نفسه انما هو باذن الله تعالى وارساله بقوله تعالى (انا) أى بما لنا من العظمة (أرسلناك) أى الى هذه الامة (بالحق) أى الامر الكامل فى الثبات الذى يطابقه الواقع فان من نظر الى كثرة ما أوتيه من الدلائل علم مطابقة الواقع لما يأمر به * (تنبيه) * يجوز فى قوله تعالى بالحق أوجه أحدها أنه حال من الفاعل أى أرسلناك محقين أو من المفعول أى محقا أو نعت لمصدر محذوف أى ارسالا ملتبسا بالحق ويجوز أن يكون صلة لقوله تعالى (بشيرا) أى لمن أطاع (ونذيرا) أى لمن عصى (وان) أى وما (من أمة الاخلا) أى سلف (فيها نذير) أى نبى ينذرها * (تنبيه) * الامة الجماعة الكثيرة قال تعالى وجد عليه أمة من الناس يسقون ويقال لكل أهل عصر أمة والمراد ههنا أهل العصر (فان قيل) كم من أمة فى الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم لم يخل فيها نذير (أجيب) بان آثار النذارة اذا كانت باقية لم تخل من نذير الى أن تندرس وحين اندرست آثار نذارة عيسى عليه السلام بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم (فان قيل) كيف اكتفى بذكر النذير عن البشير فى آخر الآية بعد ذكرهما (أجيب) بأنه لما كانت النذارة مشفوعة من البشارة لا محالة دل ذكرها على ذكرها لاسيما وقد اشتملت الآية على ذكرهما أولا لان الانذار هو المقصود والاهم من البعثة (وان يكذبوك) أى أهل مكة (فقد كذب الذين من قبلهم) أى ما أتتهم به رسلهم عن الله تعالى (جاءتهم) أى الامم الخالية (رسلهم بالبينات) أى الآيات الواضحات والدلالة على صحة الرسالة من المعجزات وغيرها (وبالزبر) اى الامور المكتوبة كصحف ابراهيم عليه السلام (وبالكتاب) أى جنس الكتاب كالتوراة والانجيل (المنير) أى الواضح فى نفسه الموضح لطريق الخير والشر كما أنك أتيت قومك بمثل ذلك وان كانت طريقتك أوضح وأظهر وكتابك أنور وأبهر وأظهر وأشهر وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم حيث علم ان غيره كان مثله فى تكذيبه وكان محتملا لاذى القوم * (تنبيه) * لما كانت هذه الاشياء فى جنسهم أسند المجئ بها اليهم اسنادا مطلقا وان كان بعضها فى جميعهم وهى البينات وبعضها فى بعضهم وهى الزبر والكتاب * ولما سلاه الله تعالى هدد من خالفه وعصاه بما فعل فى تلك الامم الماضية بقوله تعالى (ثم أخذت) أى بأنواع الاخذ (الذين كفروا) أى ستروا تلك الآيات المنيرة بعد طول صبر الرسل عليهم الصلاة والسلام عليهم ودعائهم لهم (فكيف كان نكير) أى انكارى عليهم بالعقوبة والاهلاك أى هو واقع موقعه * (تنبيه) * أثبت ورش الياء بعد الراء فى الوصل دون الوقف والباقون بغيرياء وقفا ووصلا * ولما ذكر تعالى الدلائل

ولم ينتفعوا قطع الكلام معهم والتفت الى غيرهم بقوله تعالى (ألم تر) أى تعلم أى أيها المخاطب (ان الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (أنزل من السماء ماء) كان السيد اذا نصح بعض عبيده ولم ينزجر يقول لغيره اسمع ولا تكن مثل هذا ويكرر ما ذكره للاول ويكون فيه اشعار بأن الاول فيه نقيصة لا يصلح للخطاب فيتنبه له ويدفع عن نفسه تلك النقيصة وأيضا فلا يخرج الى كلام أجنبى عن الاول بل يأتى بما يقاربه لئلا يسمع الاول كلام الآخر فيترك التفكر فيما كان وقوله تعالى (فأخرجنا) أى بما لنا من القدرة والعظمة (به) أى بالماء (ثمرات) أى متعددة الانواع فيه التفات من الغيبة الى التكلم وانما كان ذلك لان المنة بالاخراج أبلغ من انزال الماء وقوله تعالى (مختلفا) نعت لثمرات وقوله تعالى (ألوانها) فاعل به ولولا ذلك لانث مختلفا ولكنه لما أسند الى جمع تكسير غير عاقل جاز تذكيره ولو أنث فقيل مختلفة كما تقول اختلفت ألوانها جاز أى مختلفة الاجناس من الرمان والتفاح والعنب وغيرها مما لا يحصر أو الهيآت من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها فالذى قدر على المفاوتة بينها وهى من ماء واحد لا يستبعد عليه ان يجعل الدلائل بالكتاب وغيره نورا لشخص وعمى لآخر * ولما ذكر تعالى تنوع ما من الماء وقدمه لانه الاصل فى التكوين أتبعه التكوين من التراب الذى هو أيضا شئ واحد بقوله تعالى ذاكرا ماهو أصلب الارض وأبعدها عن قابلية التكوين (ومن الجبال جدد) قال الجلال المحلى رحمه الله تعالى جمع جدة طريق فى الجبل وغيره وقال الزمخشرى الجدد الخطوط والطرائق وقال ابو الفضل الجدة ما يخالف من الطرائق لون ما يليها ومنه جدة الحمار للخطة السوداء على ظهره وقد يكون للظبى جدتان مسكيتان تفصلان بين لونى ظهره وبطنه (بيض وحمر) وصفر وقوله تعالى (مختلف) صفة لجدد وقوله تعالى (ألوانها) فاعل به كما مر فى نظيره ويحتمل معنيين أحدهما أن البياض والحمرة يتفاوتان بالشدة والضعف فرب أبيض أشد من أبيض وأحمر أشد من أحمر فنفس البياض مختلف وكذا الحمرة فلذلك جمع ألوانها فيكون من باب المشكك والثانى ان الجدد كلها على لونين بياض وحمرة والبياض والحمرة وان كانا لونين الا أنهما جمعا باعتبار محلهما وقوله تعالى (وغرابيب سود) فيه ثلاثة أوجه أحدها أنه معطوف على حمر عطف ذى لون على ذى لون ثانيها أنه معطوف على بيض ثالثها واقتصر عليه الجلال المحلى أنه معطوف على جدد أى صخور شديدة السواد قال الجلال المحلى يقال كثيرا أسود غربيب وقليلا غربيب أسود وقال البغوى أى سود غرابيب على التقديم والتأخير يقال أسود غربيب أى شديد السواد تشبيها بلون الغراب أى طرائق سود وعن عكرمة هى الجبال الطوال السود وقال الزمخشرى الغربيب تأكيد للاسود ومن حق التوكيد أن يتبع المؤكد كقولك أصفر فاقع ووجهه أن يضمر المؤكد قبله فيكون الذى بعده مفسرا لما أضمر كقوله النابغة الجعدى

والمؤمن العائذات الطير تمسحها * ركبان مكة بين الغيل والسند

هما موضعان والمؤمن اسم الله وهو مجرور بالقسم والعائذات منصوب بالمؤمن والمراد بها الحمام لما عاذت بمكة والتجأت اليها حرم التعرض لها والطير منصوب بالبدل أو بعطف البيان

ووجه الاستدلال بذلك أن الطير دال على المحذوف وهو مفعول لؤمن والعائذات الطير قال أبو حيان وهذا لا يصح الا على مذهب من يجوز حذف المؤكد ومن النحويين من منعه وهو اختيار ابن مالك ورد عليه بأن هذا ليس هو التأكيد المختلف فى حذف مؤكده لان هذا من باب الصفة والموصوف ومعنى تسمية الزمخشرى له توكيدا من حيث انه لا يفيد معنى زائدا وانما يفيد المبالغة والتوكيد فى ذلك اللون والنحويون قد سموا الوصف اذا لم يفد غير الاول توكيدا فقالوا وقد يجىء لمجرد التوكيد نحو قوله تعالى نفخة واحدة والهين اثنين والتوكيد المختلف فى حذف مؤكده انما هو فى باب التوكيد الصناعى ومذهب سيبويه جوازه وقال ابن عادل والاولى فيه أن يسمى توكيدا لفظيا اذ الاصل سود غرابيب سود * ولما ذكر تعالى ما الاغلب فيه الماء مما استحال الى أمر آخر بعيد من الماء واتبعه التراب الصرف ختم بما الاغلب فيه التراب مما استحال الى ما هو فى غاية البعد من التراب فقال (ومن الناس والدواب) ولما كانت الدابة فى الاصل اسما لما دب على الارض ثم غلب اطلاقه على ما يركب قال (والانعام) ليعم الكل صريحا (مختلف ألوانه) أى ألوان ذلك البعض الذى أفهمته من (كذلك) أى مثل الثمار والاراضى منه ما هو ذو لون ومنه ما هو ذو لونين أو أكثر * ولما قال تعالى ألم تر يعنى ألم تعلم ان الله أنزل من السماء ماء وعدد آيات الله واعلام قدرته وآثار صنعه وما خلق من الفطر المختلفة الاجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته من أنه فاعل بالاختيار فهو يفعل ما يشاء قال تعالى (انما يخشى الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (من عباده العلماء) قال ابن عباس رضى الله عنه يريد انما يخافنى من خلقى من علم جبروتى وعزتى وسلطانى فالخشية بقدر معرفة المخشى والعالم يعلم الله فيخافه ويرجوه وهذا دليل على ان العالم أعلى درجة من العابد لقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم بين تعالى ان الكرامة بقدر التقوى والتقوى بقدر العمل لا بقدر العلم فمن ازداد منه علما ازداد منه خشية وخوفا ومن كان علمه به أقل كانت خشيته أقل قال رسول الله عليه الصلاة والسلام انى لاعلمكم بالله وأشدكم له خشية وقال صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وقال مسروق كفى بالمرء علما أن يخشى وكفى بالمرء جهلا ان يعجب بعمله وقال رجل للشعبى افتنى أيها العالم فقال له العالم من خشى الله تعالى قال السهروردى فى الباب الثالث من معارفه فينتفى العلم عمن لا يخشى الله تعالى كما اذا قال انما يدخل الدار بغدادى فينتفى دخول غير البغدادى الدار وقيل نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وقد ظهرت عليه الخشية حتى أثرت فيه (فان قيل) هل يختلف المعنى اذا قدم المفعول فى هذا الكلام أو اخر (أجيب) بأنه يختلف فانك اذا قدمت اسم الله وأخرت العلماء كان المعنى ان الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم فاذا عملت على العكس انقلب المعنى الى أنهم لا يخشون الا الله كقوله تعالى ولا يخشون أحدا الا الله وهما معنيان مختلفان *(تنبيه)* رسم العلماء بالواو وقوله تعالى (ان الله) أى المحيط بالجلال والاكرام (عزيز) أى

غالب على جميع أمره (غفور) أى لذنوب من أراد من عباده تعليل لوجوب الخشية لدلالته على انه معاقب للمصر على طغيانه غفور للتائب عن عصيانه والمعاقب والمثيب حقه أن يخشى * ولما بين سبحانه العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه بقوله تعالى (ان الذين يتلون كتاب الله) أى يداومون على تلاوته وهى شأنهم وديدنهم وعن مطرف هى آية القراء وعن الكلبى يأخذون بما فيه وقيل يعلمون ما فيه و يعملون به وعن السدى هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن عطاء هم المؤمنون (وأقاموا الصلاة) أى أداموها (وأنفقوا مما رزقناهم) من زكاة وغيرها (سرا وعلانية) قيل السر فى المسنون والعلانية فى المفروض *(تنبيه)* أشار تعالى بقوله سبحانه وتعالى يتلون كتاب الله الى الذكر وبقوله تعالى وأقاموا الصلاة الى العمل البدنى وبقوله تعالى وأنفقوا مما رزقناهم الى العمل المالى وفى هاتين الآيتين الشريفتين حكمة بالغة وهى أن قوله تعالى انما يخشى الله اشارة الى عمل القلب وقوله تعالى الذين يتلون اشارة الى عمل اللسان وقوله وأقاموا الصلاة اشارة الى عمل الجوارح ثم ان هذه الاشياء الثلاثة متعلقة بجانب تعظيم الله تعالى وقوله تعالى وأنفقوا مما رزقناهم بمعنى الشفقة على خلقه وقوله تعالى سرا وعلانية حث على الانفاق كيفما تهيأ فان تهيأ سرا فذاك والا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء فان ترك الخير مخافة ذلك هو عين الرياء * ولما أحل تعالى هؤلاء بالمحل الاعلى بين حالهم بقوله تعالى (يرجون) أى فى الدنيا والآخرة (تجارة) أى بما عملوا (لن تبور) أى تكسد وتهلك بل هى باقية لانها رفعت الى من لا تضيع اليه الودائع وهى رائجة رابحة لكونه تعالى تام القدرة شامل العلم له الغنى المطلق (ليوفيهم أجورهم) أى جزاء أعمالهم بالثواب (ويزيدهم من فضله) قال ابن عباس رضى الله عنه يعنى سوى الثواب مالم ترعين ولم تسمع أذن ويحتمل أن يزيدهم النظر اليه تعالى كما جاء فى تفسير الزيادة وهذا هو النعمة العظمى (انه غفور شكور) قال ابن عباس رضى الله عنه يغفر الذنب العظيم من ذنوبهم ويشكر اليسير من أعمالهم وقيل غفور عند اعطاء الاجر شكور عند اعطاء الزيادة *(تنبيه)* فى خبر ان من قوله ان الذين يتلون كتاب الله وجهان أحدهما أنه الجملة من قوله تعالى يرجون تجارة أى ان التالين يرجون وان تبور صفة تجارة وليوفيهم متعلق بيرجون أو بتبور أو بمحذوف أى فعلوا ذلك ليوفيهم وعلى الوجهين الاولين يجوز أن تكون لام العاقبة والثانى ان الخبر انه غفور شكور وجوزه الزمخشرى على حذف العائد أى غفور لهم وعلى هذا فيرجون حال من أنفقوا أى أنفقوا ذلك راجين * ولما بين تعالى الاصل الاول وهو وجود الله تعالى الواحد بالدلائل فى قوله تعالى الله الذى يرسل الرياح وقوله تعالى والله خلقكم وقوله تعالى ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء ذكر الاصل الثانى وهو الرسالة بقوله تعالى (والذى أوحينا) أى بما لنا من العظمة (اليك من الكتاب) أى الجامع خيرى الدارين *(تنبيه)* من الكتاب يجوز أن تكون من للبيان كما يقال أرسل الى فلان من الثياب جملة وأن تكون للجنس وأن تكون لابتداء الغاية كما يقال جاءنى كتاب من الامير وعلى كل فالكتاب يمكن أن يراد به اللوح

المحفوظ يعنى الذى أوحينا من اللوح المحفوظ (هو الحق) أى الكامل فى الثبات ومطابقة الواقع ويمكن ان يراد به القرآن وهو ما اقتصر عليه الجلال المحلى يعنى الارشاد والتبيين الذين أوحينا اليك من القرآن ويمكن أن تكون من للتبعيض وهو فصل أو مبتدأ وقوله تعالى (مصدقا لما بين يديه) أى لما تقدمه من الكتب حال مؤكدة لان الحق لا ينفك عن هذا التصديق وهذا تقرير لكونه وحيا لان النبى صلى الله عليه وسلم لما لم يكن قارئا كاتبا وأتى ببيان ما فى كتاب الله لا يكون ذلك الا بوحى من الله تعالى (فان قيل) لم يجعل ما تقدم مصدقا للقرآن (أجيب) بان القرآن كونه معجزة يكفى فى تصديقه بأنه وحى وأما ما تقدم فلا بد فيه من معجزة تصدقه *(تنبيه)* قوله تعالى هو الحق آكد من قول القائل الذى أوحينا اليك حق من وجهين أحدهما أن التعريف للخبر يدل على أن الامر فى غاية الظهور لان الخبر فى الاكثر يكون نكرة الثانى أن الاخبار فى الغالب تكون اعلاما بثبوت أمر لا يعرفه السامع كقولنا زيد قام فان السامع ينبغى أن يكون عارفا بزيد ولا يعلم قيامه فيخبر به فاذا كان الخبر معلوما فتكون الاخبار للنسبة فتعرف باللام كقولنا ان زيدا العالم فى هذه المدينة اذا كان علمه مشهورا (ان الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (بعباده لخبير) أى عالم أدق العلم وأتقنه ببواطن أحوالهم (بصير) أى بظواهر أمورهم وبواطنها أى فهو يسكن الخشية والعلم فى القلوب على قدر ما أوتوا من الكتاب فى علمه فأنت أحقهم بالكمال لانك أخشاهم وأتقاهم فلذلك آتيناك هذا الكتاب المعجز الذى هو عيار على سائر الكتب وتقديم الخبير للدلالة على أن العمدة فى ذلك الامور الروحانية وقوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب) فى معناه وجهان أحدهما انا أوحينا اليك القرآن ثم أورثناه من بعدك أى حكمنا بتوريثه أو قال تعالى أورثنا وهو يريد نورثه فعبر عنه بالماضى لتحققه وقال مجاهد أورثنا أعطينا لان الميراث اعطاء واقتصر على هذا الجلال المحلى وقيل أورثنا أخرنا ومنه الميراث لانه تأخر عن الميت ومعناه أخرنا القران من الامم السالفة وأعطيناكموه وأهلناكم له *(تنبيه)* أكثر المفسرين على أن المراد بالكتاب القرآن وقيل ان المراد جنس الكتاب (الذين اصطفينا) أى اخترنا (من عبادنا) قال ابن عباس رضى الله عنه يريد بالعباد أمة محمد صلى الله عليه وسلم أى من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم الى يوم القيامة ونقل ابن الجوزى عن ابن عباس رضى الله عنه أن الله تعالى أورث أمة محمد صلى الله عليه وسلم كل كتاب أنزله أى لان الله تعالى اصطفاهم على سائر الامم وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس وخصهم بكرامة الانتماء الى أفضل رسله تعالى وحمل الكتاب الذى هو أفضل كتب الله تعالى ثم قسمهم بقوله تعالى (فمنهم ظالم لنفسه) أى فى التقصير بالعمل به (ومنهم مقتصد) أى يعمل به فى أغلب الاوقات (ومنهم سابق بالخيرات) وهو من يضم الى العمل به التعليم والارشاد الى العمل روى أسامة بن زيد فى هذه الآية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم من هذه الامة وروى أبو عثمان النهدى قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ على المنبر ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا الآية

فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له وروى أبو الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ثم أورثنا الكتاب الآية قال اما السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام حتى يدخله الهم ثم يدخل الجنة ثم قرأ قوله تعالى الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن الآية وقال عقبة بن صهبان سألت عائشة رضى الله عنها عن قول الله عز وجل ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا الآية فقالت يا بنى كلهم فى الجنة أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق بهم وأما الظالم فمثلى ومثلكم فجعلت نفسها معنا وقال مجاهد والحسن فمنهم ظالم لنفسه هم أصحاب المشأمة ومنهم مقتصد هم أصحاب الميمنة ومنهم سابق بالخيرات السابقون المقربون من الناس كلهم وعن ابن عباس رضى الله عنه قال السابق المؤمن المخلص والمقتصد المرائى والظالم الكافر نعمة الله تعالى غير الجاحد لها لانه تعالى حكم للثلاثة بدخول الجنة وقيل الظالم هو الراجح السيآت والمقتصد هو الذى تساوت سيآته وحسناته والسابق هو الذى رجحت حسناته وقيل الظالم هو الذى ظاهره خير من باطنه والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه والسابق من باطنه خير من ظاهره وقيل الظالم هو الموحد بلسانه الذى تخالفه جوارحه والمقتصد هو الموحد الذى يمنع جوارحه من المخالفة بالتكليف والسابق هو الموحد الذى ينسيه التوحيد غير التوحيد وقيل الظالم صاحب الكبيرة والمقتصد صاحب الصغيرة والسابق المعصوم وقيل الظالم التالى للقرآن غير العالم به والعامل به والمقتصد التالى العالم غير العامل والسابق التالى العالم العامل وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم وقال جعفر الصادق بدأ بالظالم اخبارا بأنه لا يتقرب اليه الا بكرمه وان الظلم لا يؤثر فى الاصطفاء ثم ثنى بالمقتصدين لانهم بين الخوف والرجاء ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره وكلهم فى الجنة وقال أبو بكر الوراق رتبهم هذا الترتيب على مقامات الناس لان أحوال العبد ثلاثة معصية وغفلة ثم توبة ثم قربة فاذا عصى دخل فى حيز الظالمين فاذا تاب دخل فى جملة المقتصدين فاذا صحت التوبة وكثرت العبادة والمجاهدة دخل فى عداد السابقين وقيل غير ذلك والله أعلم * ولما كان هذا ليس فى قوة العبد فى مجارى العادات ولا يوجد بالكسب والاجتهاد أشار الى عظمته بقوله تعالى (باذن الله) أى بتمكين من له القدرة التامة والعظمة العامة والفعل بالاختيار وجميع صفات الجمال والجلال والكمال وتسهيله وتيسيره لئلا يأمن أحد مكره تعالى قال الرازى فى اللوامع ثم من السابقين من يبلغ محل القرب فيستغرق فى وحدانيته تعالى (ذلك) أى ايراثهم الكتاب أو السبق أو الاصطفاء (هو الفضل الكبير) ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوالهم بين جزاءهم ومآلهم بقوله تعالى مستأنفا جوابا لمن سأل عن ذلك (جنات عدن) أى اقامة بلا رحيل لانه لا سبب للترحيل عنها وقوله تعالى (يدخلونها) أى الثلاثة أصناف خبر جنات عدن ومن دخلها لم يخرج منها لانه لا شئ يخرجه ولا هو يريد

الخروج منها وقرأ أبو عمرو بضم الياء وفتح الحاء والباقون بفتح الياء وضم الحاء * ولما كان الداخل الى مكان أول ما ينظر الى ما فيه من النفائس قال تعالى (يحلون فيها) أى يلبسون على سبيل التزين والتحلى (من أساور) أى بعض أساور (من ذهب) فمن الاولى للتبعيض والثانية للتبيين وقوله تعالى (ولؤلؤ) عطف على ذهب أى من ذهب مرصع باللؤلؤ أو من ذهب فى صفاء اللؤلؤ وقرأ عاصم ونافع بالنصب عطفا على محل من أساور والباقون بالجر * (تنبيه) * أساور جمع أسورة وهى جمع سوار وذكر الاساور من بين سائر الحلى فى مواضع كثيرة كقوله تعالى وحلوا أساور من فضة يدل على كون المتحلى غير مبتذل فى الاشغال لان كثرة الاعمال باليد فاذا حليت بالاساور علم الفراغ من الاعمال ولما كانت هذه الزينة لاتليق الا على اللباس الفاخر قال تعالى (ولباسهم فيها حرير وقالوا) أى ويقولون عند دخولهم وعبر عنه بالماضى تحقيقا له (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما حزن النار وقال قتادة حزن الموت وقال مقاتل لانهم كانوا لايدرون ما يصنع بهم وقال عكرمة حزن السيآت والذنوب وخوف رد الطاعات وقال القاسم حزن زوال النعم وخوف العاقبة وقيل حزن أهوال القيامة وقال الكلبى ما كان يحزنهم فى الدنيا من أمر يوم القيامة وقال سعيد بن جبير الحزن فى الدنيا وقيل هم المعيشة وقال الزجاج اذهب الله تعالى عن أهل الجنة كل الاحزان ما كان منها لمعاش أو معاد اى وهذا أولى الكل قال عليه الصلاة والسلام ليس على أهل لا اله الا الله وحشة فى قبورهم ولا فى منشرهم وكأنى بأهل لا اله الا الله ينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ثم قالوا (ان ربنا) أى المحسن الينا مع اساءتنا (لغفور) أى محاء للذنوب عينا وأثرا للصنفين الاولين ولغيرهما من المذنبين (شكور) للصنف الثالث ولغيره من المطيعين * (تنبيه) * ذكر الله تعالى عن هذه الثلاثة ثلاثة أمور كلها تفيد الكرامة الاول قولهم الحمد لله فان الحامد يثاب الثانى قولهم ربنا فان الله تعالى اذا نودى بهذا اللفظ استجاب للمنادى مالم يكن يطلب مالا يجوز الثالث قولهم غفور شكور والغفور اشارة الى ما غفر لهم فى الآخرة بحمدهم فى الدنيا والشكور اشارة الى ما يعطيهم الله ويزيدهم بسبب حمدهم فى الآخرة وقولهم (الذى أحلنا دار المقامة) أى الاقامة اشارة الى ان الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل منها الى منزلة القبور ومن القبور الى منزلة العرصة التى فيها الجمع ومنها التفريق الى دار البقاء اما الى الجنة واما الى النار أجارنا الله تعالى ومحبينا منها وقولهم (من فضله) أى بلا عمل منا فان حسناتنا انما كانت منا منه تعالى اذ لا واجب عليه متعلق بأحلنا ومن اما للعلة واما لابتداء الغاية وقولهم (لايمسنا فيها) أى فى وقت من الاوقات (نصب ولا يمسنا فيها لغوب) حال من مفعول أحلنا الاول أو الثانى لان الجملة مشتملة على ضمير كل منهما وان كان الحال من الاول أظهر والنصب التعب والمشقة واللغوب الفتور الناشئ عنه وعلى هذا فيقال اذا انتفى السبب انتفى المسبب فاذا قيل لم آكل فيعلم انتفاء الشبع فلا حاجة الى قوله ثانيا فلم أشبع بخلاف العكس الاترى انه يجوز لم أشبع ولم آكل والآية

الكريمة على ماتقرر من نفى السبب ثم نفى المسبب فما فائدته أجيب بأن النصب هو تعب البدن واللغوب هو تعب النفس وقيل اللغوب الوجع وحينئذ فالسؤال زائل وأجاب الرازى بجواب قال ابن عادل ليس بذاك فتركته * ولما بين تعالى ماهم فيه من النعمة فى دار السرور التى قال فيها القائل

علياء لاتنزل الاحزان ساحتها * لومسها حجر مسته سراء

بين مالاعدائهم من النقمة زيادة فى سرورهم بما قاسوا فى الدنيا من تكبرهم عليهم وفخارهم بقوله تعالى (والذين كفروا) أى ستروا مادلت عليه عقولهم من شموس الآيات وأنوار الدلالات (لهم نار جهنم) أى بما جهموا أولياء الله الدعاة اليه (لا يقضى) أى يحكم (عليهم) أى بموت ثان (فيموتوا) أى فيتسبب عن القضاء موتهم فيستريحوا كقوله تعالى ونادوا يامالك ليقض علينا ربك أى بالموت فنستريح بل العذاب دائم * (تنبيه) * نصب فيموتوا باضمار ان * ولما كانت الشدائد فى الدنيا تنفرج وان طال أمدها قال تعالى (ولا يخفف عنهم) وأعرق فى النفى بقوله تعالى (من عذابها) أى جهنم * (تنبيه) * فى الآية الاولى أن العذاب فى الدنيا ان دام قتل وان لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجا فاسدا لا يحس به المعذب فقال عذاب نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا اماأن يفنى واماأن يألفه البدن بل هو فى كل زمان شديد والمعذب فيه دائم الثانية وصف العذاب بأنه لا يفتر ولا ينقطع ولا بأقوى الاسباب وهو الموت حتى يتمنوه ولا يجابون كما قال تعالى ونادوا يامالك ليقض علينا ربك أى بالموت الثالثة ذكر فى المعذبين الاشقياء أنه لا ينقضى عذابهم ولم يقل تعالى نزيدهم عذابا وفى المثابين قال تعالى يزيدهم من فضله وقوله تعالى (كذلك) اما مرفوع المحل أى الامر كذلك واما منصوبه أى مثل ذلك الجزاء العظيم (نجزى كل كفور) أى كافر بالله تعالى وبرسوله وقرأ أبو عمرو بياء مضمومة وفتح الزاى ورفع كل والباقون بنون مفتوحة وكسر الزاى ونصب كل (وهم) أى فعل ذلك بهم والحال انهم (يصطرخون فيها) أى يوجدون الصراخ فيها بغاية مايقدرون عليه من الجهد فى الصياح من البكاء والتوجع يقولون (ربنا) أى أيها المحسن الينا (أخرجنا) أى من النار (نعمل صالحا) ثم فسروه وبينوه بقولهم (غير الذى كنا نعمل) فى الدنيا (فان قيل) هلا اكتفى بقولهم نعمل صالحا كما اكتفى به فى قولهم فارجعنا نعمل صالحا وما فائدة زيادة غير الذى كنا نعمل على أنه يوهم انهم يعملون صالحا آخر غير الصالح الذى عملوه (أجيب) بأن فائدته زيادة التحسر على ماعملوه من غير الصالح مع الاعتراف به وأما الوهم فزائل بظهور حالهم فى الكفر وظهور المعاصى ولانهم كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة كما قال تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا فقالوا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نحسبه صالحا فنعمله فيقال لهم توبيخا وتقريعا (أولم نعمركم) أى نطل أعماركم مع اعطائنا لكم العقول ولم نعاجلكم بالاخذ (ما) أى زمانا (يتذكر فيه من تذكر) قال عطاء وقتادة

والكلبي ثماني عشرة سنة وقال الحسن أربعون سنة وقال ابن عباس ستون سنة وروى ذلك عن علي وروى البزار أنه صلى الله عليه وسلم قال العمر الذي أعذر الله تعالى فيه الى ابن آدم ستون سنة وروى البخاري انه صلى الله عليه وسلم قال من عمره الله ستين سنة فقد أعذر اليه في العمر وروى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه انه صلى الله عليه وسلم قال أعمار أمتي ما بين الستين الى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك وقوله تعالى (وجاءكم النذير) عطف على أولم نعمركم لانه في معنى قد عمرناكم كقوله ألم نربك ثم قال ولبثت وقال تعالى ألم نشرح لك صدرك ثم قال تعالى ووضعنا عنك وزرك اذ هما في معنى ربيناك وشرحنا واختلف في النذير فقال الاكثرون هو محمد صلى الله عليه وسلم وقيل القرآن وقال عكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع هو الشيب والمعنى أولم نعمركم حتى شبتم ويقال الشيب نذير الموت وفي الاثر ما من شعرة تبيض الا قالت لاختها استعدي فقد قرب الموت * ولما تسبب عن ذلك ان عذابهم لا ينفك قال تعالى (فذوقوا) أي ما أعددناه لكم من العذاب دائما أبدا (فما للظالمين) أي الذين وضعوا أعمالهم وأقوالهم في غير موضعها (من نصير) أي في وقت الحاجة حتى يرفع العذاب عنهم قال البقاعي وهذا عام في كل ظالم * ولما كان تعالى عالما بكل ما نفى وما أثبت قال تعالى (ان الله) أي الذي أحاط بكل شئ قدرة وعلما (عالم غيب السموات والارض) لا تخفى عليه خافية فلا يخفى عليه تعالى أحوالهم وقوله تعالى (انه عليم بذات الصدور) تعليل له لانه اذا علم مضمرات الصدور قبل أن يعلمها أربابها حتى تكون غيبا محضا كان أعلم بغيره ويعلم انكم لو مدت أعماركم لم ترجعوا عن الكفر أبدا ولو رددتم لعدتم لما نهيتم عنه وانه لا مطمع في صلاحكم * ولما كان من انشأ شيأ كان أعلم به قال تعالى (هو) أي وحده لا شركاؤكم ولا غيرهم (الذي جعلكم) أيها الناس (خلائف في الارض) أي يخلف بعضكم بعضا وقيل جعلكم أمة واحدة خلفت من قبلها ورأت فيمن قبلها ما ينبغي أن يعتبر به وقال القشيري أهل كل عصر خليفة عمن تقدمهم فمن قوم هم لسلفهم جمال ومن قوم هم أراذل وأسافل *(تنبيه)* خلائف جمع خليفة وهو الذي يقوم بعد الانسان بما كان قائما به والخلفاء جمع خليفة قاله الاصبهاني (فمن كفر فعليه كفره) أي وبال كفره (ولا) أي والحال انه لا (يزيد الكافرين) أي المغطين للحق (كفرهم) أي الذي هم متلبسون به ظانون أنه يسعدهم وهم راضون فيه غير منتقلين عنه (عند ربهم) أي المحسن اليهم (الا مقتا) أي غضبا لان الكافر السابق كان ممقوتا (ولا يزيد الكافرين) أي العريقين في صفة التغطية للحق (كفرهم الا خسارا) أي للآخرة لان العمر كرأس مال من اشترى به رضا الله تعالى ربح ومن اشترى به سخط الله تعالى خسر ولما بين أنه سبحانه هو الذي استخلفهم أكد بيان ذلك عندهم بأمره صلى الله عليه وسلم بما يضطرهم الى الاعتراف بقوله تعالى (قل) أي لهم (أرأيتم) أي أخبروني (شركاءكم) أضافهم اليهم لانهم وان كانوا جعلوهم شركاءه لم ينالوا شيأ من شركته لانهم ما نقصوه شيأ من ملكه وانما شاركوا العابدين في أموالهم بالسوائب

وغيرها وفى أعمالهم فهم شركاؤهم بالحقيقة لا شركاؤه ثم بين المراد من عدهم لهم شركاء بقوله تعالى (الذين تدعون) أى تعبدون (من دون الله) أى غيره وهم الاصنام الذين زعمتم انهم شركاء الله تعالى (أرونى) أى اخبرونى (ماذا) أى الذى أو أى شئ (خلقوا من الارض) أى لتصح لكم دعوى الشركة فيهم والا فادعاؤكم ذلك فيهم كذب محض وانكم تدعون أنكم أبعد الناس منه فى الامور الهينة فكيف بمثل هذا (أم لهم شرك) أى شركة مع الله تعالى وان قلت (فى السموات) أى أرونى ماذا خلقوا لكم من السموات فالآية من الاحتباك حذف أولا الاستفهام عن الشركة فى الارض لدلالة مثله فى السماء ثانيا عليه وحذف الامر بالاراءة ثانيا لدلالة مثله أولا عليه (أم آتيناهم كتابا) ينطق على انا اتخذنا شركاء (فهم) الاحسن فى هذا الضمير أن يعود على الشركاء لتناسق الضمائر وقيل يعود على المشركين قاله مقاتل فيكون التفاتا من خطاب الى غيبة (على بينة) أى حجة (منه) بأن لهم معى شركة ولما كان التقدير لا شئ لهم من ذلك قال تعالى منبها على ذميم أحوالهم وسفه آرائهم وخسة هممهم ونقصان عقولهم (بل ان) أى ما (يعد الظالمون) أى الواضعون الاشياء فى غير موضعها (بعضهم بعضا) أى الاتباع للمتبوعين بأن شركاءهم تقربهم الى الله تعالى زلفى وأنها تشفع وتضر وتنفع (الا غرورا) أى باطلا ولما بين تعالى حقارة الاصنام بين عظمته سبحانه بقوله تعالى (ان الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (يمسك السموات) أى على كبرها وعلوها (والارض) أى على سعتها وبعدها عن التماسك على ماتشاهدون وقوله تعالى (أن تزولا) أى برجة عظيمة وزلزلة كبيرة يجوز أن يكون مفعولا من أجله أى كراهة أن تزولا وقيل لئلا تزولا ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا على اسقاط الخافض أى يمنعهما من أن تزولا ويجوز أن يكون بدل اشتمال أى يمنع زوالهما لا ان ثباتهما على ماهما عليه على غير القياس لولا شامخ قدرته وباهر عزته وعظمته فان ادعيتم عنادا أن شركاءكم لا يقدرون على الخلق لعلة من العلل فادعوهم لازالة ماخلق الله تعالى * ولما كان فى هذا دليل على أنهما حادثتان زائلتان أتبعه ماهو أبين منه بقوله تعالى معبرا بأداة الامكان (ولئن) لام قسم (زالتا) أى بزلزلة وخراب أو غير ذلك (ان) أى ما (أمسكهما من أحد من بعده) جواب القسم الموطأ له بلام القسم وجواب الشرط محذوف يدل عليه جواب القسم ولذلك كان فعل الشرط ماضيا وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى والجملة سدت مسد الجوابين فيه تجوز فالمراد بسدها مسدهما أنها تدل عليهما لا أنها قائمة مقامهما اذ يلزم أن تكون معمولة وغير معمولة لانها باعتبار جواب القسم لا محل لها من الاعراب وباعتبار جواب الشرط لها محل ومن فى من أحد مزيدة لتأكيد الاستغراق وفى من بعده لابتداء الغاية والمعنى أحد سواه أو من بعد الزوال (انه كان) أى أزلا وأبدا (حليما) اذ أمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدا هدا كما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا الا انه لا يستعجل الامن يخاف الفوت فينتهز الفرصة (غفورا) أى محاء الذنوب من رجع اليه وأقبل

بالاعتراف

بالاعتراف عليه فلا يعاقبه ولا يعاتبه * ولما بلغ كفار مكة ان أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم (وأقسموا) أى كفار مكة (بالله) اى الذى لا يقسم بغيره (جهد أيمانهم) أى غاية اجتهادهم فيها (لئن جاءهم نذير) أى رسول (ليكونن أهدى من احدى الامم) أى اليهود والنصارى وغيرهم أى أية واحدة منها لما رأوا من تكذيب بعضها بعضا اذ قالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ (فلما جاءهم نذير) أى على ما شرطوا وزيادة وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذى كانوا يشهدون أنه خيرهم نفسا وأشرفهم نسبا وأكرمهم خلقا (ما زادهم) اى مجيئه شيأ مما هم عليه من الاحوال (الا نفورا) أى تباعدا عن الهدى لانه كان سببا فى زيادتهم فى الكفر كالابل التى كانت نفرت من ربها فضلت عن الطريق فدعاها فازدادت بسبب دعائه نفرة فصارت بحيث يتعذر أو يتعسر ردها فتبين أنه لا عهد لهم مع ادعائهم انهم أوفى الناس ولا صدق عندهم مع جزمهم بأنهم أصدق الخلق ثم علل نفورهم بقوله تعالى (استكبارا) أى طلبا لايجاد الكبر لانفسهم (فى الارض) أى التى من شأنها السفول والتواضع والخمول فلم يكن نفورهم لامر محمود ولا مباح ويجوز أن يكون استكبارا بدلا من نفورا وأن يكون حالا أى حال كونهم مستكبرين قاله الاخفش وقوله تعالى (ومكر السئ) فيه وجهان أظهرهما أنه عطف على استكبارا والثانى أنه عطف على نفورا وهذا من اضافة الموصوف الى صفته فى الاصل اذ الاصل والمكر السئ والبصريون يؤولونه على حذف موصوف أى العمل السئ اى الذى من شأنه أن يسوء صاحبه وغيره وهو ارادتهم لاهانة أمر النبى صلى الله عليه وسلم واطفاء نور الله عز وجل وقال الكلبى هو اجتماعهم على الشرك وقتل النبى صلى الله عليه وسلم وقرأ حمزة فى الوصل بهمزة ساكنة أى بنية الوقف اشارة الى تدقيقهم المكر واتقانه واخفائه جهدهم والباقون بهمزة مكسورة واذا وقف حمزة أبدل الهمزة ياء وأدغم الياء الاولى فى الياء الثانية ووقف الباقون بهمزة ساكنة (ولا) أى والحال أنه لا (يحيق) أى يحيط احاطة لازمة خسارة (المكر السئ) أى الذى هو عريق فى السوء (الا بأهله) أى وان أذى غير أهله لكنه لا يحيط بذلك الغير (فان قيل) كثيرا ما نرى الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك (أجيب) بأجوبة أحدها أن المكر فى الآية هو المكر الذى مكروه مع النبى صلى الله عليه وسلم من العزم على القتل والاخراج ولم يحق الا بهم حيث قتلوا يوم بدر وغيره ثانيها أنه عام وهو الاصح ويدل له قول الزهرى بلغنا ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا فان الله تعالى يقول وقرأ هذه الآية ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا يقول الله تعالى انما بغيكم على أنفسكم ولا تنكثوا ولا تعينوا ناكثا قال الله تعالى فمن نكث فانما ينكث على نفسه ثالثها أن الاعمال بعواقبها ومن مكر بغيره ونفذ فيه المكر عاجلا فى الظاهر فهو فى الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك كمثل راحة الكافر ومشقة المسلم فى الدنيا ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى (فهل ينظرون) أى ينتظرون (الا سنت الاولين) أى سنة الله تعالى فيهم من تعذيبهم

بتكذيبهم رسلهم والمعنى فهل ينتظرون الا أن ينزل بهم العذاب كما نزل بمن مضى من الكفار ولما كان هذا النظر يحتاج الى صفاء فى اللب وذكاء فى النفس عدل عن ضميرهم الى خطاب أعلى الخلق بقوله تعالى (فلن تجد) أى فى وقت من الاوقات (لسنت الله) أى طريقة الملك الاعظم التى شرعها وحكم بها وهى اهلاك العاصين وانجاء الطائعين (تبديلا) أى من أحد يأتى بسنة غيرها تكون بدلا لها لانه تعالى لا مكافئ له (ولن تجد لسنت الله) أى الذى لا أمر لاحد معه (تحويلا) أى من حالة الى أخف منها لانه لا مرد لقضائه * (فائدة) * ترسم سنت لسنت لسنت الثلاثة بالتاء المجرورة كما رأيت ووقف أبو عمرو وابن كثير والكسائى بالهاء والباقون بالتاء واذا وقف الكسائى أمال الهاء على أصله ولما ذكر الله تعالى الاولين وسنتهم فى اهلاكهم نبههم بتذكير حال الاولين بقوله تعالى (أولم يسيروا) أى فيما مضى من الزمان (فى الارض) أى التى ضربوا فى المتاجر بالسير اليها فى الشأم واليمن والعراق (فينظروا) أى فيتسبب عن ذلك السير أنه يتجدد لهم نظر واعتبار يوما من الايام فان العاقل من اذا رأى شيأ تفكر فيه حتى يعرف ما ينطق به لسان حاله ان خفى عليه ما يجرى من مقاله وأشار بسوقه فى أسلوب الاستفهام الى أنه لعظمه خرج عن أمثاله فاستحق السؤال عن حاله (كيف كان عاقبة) أى آخر أمر (الذين من قبلهم) أى على أى حالة كان آخر أمرهم ليعلموا أنهم ما أخذوا الا بتكذيب الرسل عليهم السلام فيخافوا أن يفعلوا مثل افعالهم فيكون حالهم كحالهم فانهم كانوا يمرون على ديارهم ويرون آثارهم وأملهم كان فوق أملهم وعملهم كان دون عملهم وكانوا أطول منهم أعمارا وأشد اقتدارا ومع هذا لم يكذبوا مثل محمد صلى الله عليه وسلم وأنتم يا أهل مكة كفرتم بمحمد ومن قبله عليهم السلام (وكانوا) أى أهلكناهم لتكذيبهم رسلنا والحال أنهم كانوا (أشد منهم) أى من هؤلاء (قوة وما كان الله) أى الذى له جميع العظمة وأكد الاستغراق فى النفى بقوله تعالى (ليعجزه) أى مريدا الان يعجزه ولما انتفت ارادة العجز فيه انتفى العجز بطريق الاولى وأبلغ فى التأكيد بقوله تعالى (من شئ) أى قل أوجل وعمم بما يصل اليه ادراكنا بقوله تعالى (فى السموات) أى جهة العلو وأكد بقوله عز وجل (ولا فى الارض) أى جهة السفل (انه كان) أى أزلا وأبدا (عليما) أى بالاشياء كلها حقيرها وجليلها (قديرا) أى كامل القدرة أى فلا يريد شيأ الا كان ولما كانوا يستعجلون بالوعد استهزاء كقولهم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم على ان التقدير ولو عاملكم الله تعالى معاملة المؤاخذ لعجل اهلاككم عطف عليه قوله تعالى اظهارا للحكم مع العلم (ولو يؤاخذ الله) أى عامل من صفات العلو (الناس) أى المكلفين (بما كسبوا) أى من المعاصى (ما ترك على ظهرها) أى الارض (من دابة) أى نسمة تدب عليها كما كان فى زمن نوح عليه السلام أهلك الله تعالى ما على ظهر الارض الا من كان فى السفينة مع نوح (فان قيل) اذا كان الله تعالى يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدواب (أجيب) بأن المطر انعام من الله فى حق العباد واذا لم يستحقوا الانعام قطعت الامطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الارض فيموت

جميع الحيوانات وبأن خلقة الحيوانات نعمة والمعاصي تزيل النعم وتحل النقم والدواب أقرب النعم لأن المفرد أولا ثم المركب والمركب اما أن يكون معدنا واما أن يكون ناميا والنامي اما أن يكون حيوانا أو نباتا والحيوان اما انسان أو غير انسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات في عالم العناصر للانسان (فان قيل) كيف يقال لما علته الخلق من الارض وجه الارض وظهر الارض مع أن الظهر مقابله الوجه فهو كالمتضاد (أجيب) بأن الارض كالدابة الحاملة للاثقال والحمل يكون على الظهر وأما وجه الارض فلان الظاهر من باب والبطن والباطن من باب فوجه الارض ظهر لانه هو الظاهر وغيره منها باطن وبطن (ولكن) لم يعاملهم معاملة المؤاخذ المناقش بل يحلم عنهم فهو (يؤخرهم) أي في الحياة الدنيا ثم في البرزخ (الى أجل مسمى) أي سماه في الازل لانقضاء أعمارهم ثم يبعثهم من قبورهم وهو تعالى لا يبدل القول لديه لماله من صفات الكمال (فاذا جاء أجلهم) أي الفناء الاعدامي قبض كل واحد منهم عند أجله أو الايجاد الابقائي بعث كلا منهم فجازاه بعمله (فان الله) أي الذي له الصفات العليا (كان) ولم يزل (بعباده) الذين أوجدهم ولا شريك له في ايجاد واحد منهم بجميع ذواتهم وأحوالهم (بصيرا) أي بالغ البصر والعلم بمن يستحق العذاب ومن يستحق الثواب قال ابن عباس يريد أهل طاعته وأهل معصيته وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الملائكة دعته يوم القيامة ثمانية أبواب الجنة ان ادخل من أي الابواب شئت حديث موضوع

سورة يس مكية

وهي ثلاث وثمانون آية وسبعمائة وتسعة وعشرون كلمة وثلاثة آلاف حرف وتسمى أيضا القلب والدافعة والقاضية والمعممة تعم صاحبها بخير الدارين وتدفع عنه كل سوء وتقضي له كل حاجة والبيضاوي ذكر هذه التسمية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال شيخنا القاضي زكريا لم أره ولكن المثبت مقدم على النافي (بسم الله) أي الذي جل ملكه عن أن يحاط بمقداره (الرحمن) الذي جعل انذاره يوم الجمع رحمة عامة (الرحيم) الذي أنار قلوب أوليائه بالاجتهاد ليوم لقائه وقوله تعالى (يس) كالم في المعنى والاعراب وقال ابن عباس يس قسم وروي عن شعبة أن معناها يا انسان بلغة طيء على أن أصلها يا أنيسين فاقتصر على شطره لكثرة النداء به كما قيل م الله في أيمن الله وقال أكثر المفسرين يعني محمدا صلى الله عليه وسلم قاله الحسن وسعيد بن جبير وجماعة وقال أبو العالية يا رجل وقال أبو بكر الوراق يا سيد البشر قال ابن عادل في ذكر هذه الحروف أوائل السور أمور تدل على انها غير خالية من الحكمة لكن علم الانسان لا يصل اليها والذي يدل على أن فيها حكمة هو أن الله عز وجل ذكر من الحروف نصفها وهي أربعة عشر حرفا نصف ثمانية وعشرين حرفا هي جميع الحروف التي في لسان العرب على قولنا الهمزة ألف متحركة ثم ان الله تعالى قسم الحروف ثلاثة أقسام تسعة أحرف من الالف الى الذال والتسعة الاخيرة من الفاء الى الياء وعشرة في الوسط من الراء الى الغين وذكر من القسم الاول حرفين

الالف والحاء وترك سبعة وترك من القسم الاخير حرفين هما الالف واللام وذكر سبعة ولم يترك من القسم الاول من حروف الحلق والصدر الا واحدا لم يذكره وهو الخاء ولم يذكر من القسم الاخير من حروف الشفة الا واحدا لم يتركه وهو الميم والعشر الاوسط ذكر منه حرفا وترك حرفا فترك الزاى وذكر الراء وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء وذكر العين وترك الغين وليس لها أمر يقع اتفاقا بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة لكنها غير معلومة وهب ان واحدا يدعى فيه شيأ فماذا يقول فى كون بعض السور مفتتحة بحرف كسورة ن وق وص وبعضها بحرفين كسورة حم ويس وطس وطه وبعضها بثلاثة أحرف كالم وطسم والر وبعضها باربعة أحرف كسورة المر والمص وبعضها بخمسة احرف كسورة حم عسق وكهيعص وهب أن قائلا يقول ان هذه اشارة بأن الكلام اما حرف واما فعل واما اسم والحرف كثيرا ما جاء على حرف كواو العطف وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف التشبيه وباء الالصاق وغيرها وجاء على حرفين كمن للتبعيض وأو للتخيير وأم للاستفهام المتوسط وان للشرط وغيرها والفعل والاسم والحرف جاءت ثلاثة أحرف كالى وعلى فى الحرف والى وعلى فى الاسم وألا يألو بالواو وعلا يعلو فى الفعل والاسم والفعل جاآ على أربعة أحرف والاسم خاصة جاء على ثلاثة أحرف وأربعة وخمسة كعجل وسجد وبردحل فجاء فى القرآن اشارة الى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه فماذا يقول هذا القائل فى تخصيص بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم ما السر الا الله تعالى ومن أعلمه الله تعالى به واذا علم هذا فالعبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جارحية وكل واحد منها قسمان قسم عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم أما القلبية مع انها أبعد عن الشك والجهل فنها ما لم يعلم دليله عقلا وانما وجب الايمان به والاعتقاد سمعا كالصراط الذى هو أدق من الشعر وأحد من السيف ويمر عليه المؤمن كالبرق الخاطف والميزان الذى توزن به الاعمال التى لا ثقل لها فى نظر الناظر وكيفية الجنة والنار فان هذه الاشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلى وانما المعلوم بالعقل امكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع ومنها ما علم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله تعالى وصدق الرسل وكذلك فى العبادات الجارحية ما علم معناه وما لم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات والحكمة فى ذلك ان العبد اذا أتى بما أمر به من غير أن يعلم ما فيه من الفائدة فلا يكون الاتيان الا لمحض العبادة بخلاف ما لم تعلم الفائدة فربما يأتى للفائدة وان لم يؤمر كما لو قال السيد لعبده انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما فى النقل فنقلها ولو قال انقلها فان تحتها كنزا هو لك فانه ينقلها وان لم يؤمر واذا علم هذا فكذلك فى العبادات اللسانية الذكرية يجب أن يكون ما لم يفهم معناه اذا تكلم به العبد علم انه لا يعقل غير الانقياد لامر المعبود الالهى فاذا قال حم طس يس علم انه لا يذكر ذلك لمعنى يفهمه بل يتلفظ به امتثالا لما أمر به انتهى كلام ابن عادل بحروفه وهو كلام دقيق وقرأ يس بامالة الياء شعبة وحمزة والكسائى والباقون بالفتح وأظهر النون من يس عند واو (والقرآن) قالون وابن كثير وأبو عمرو وحفص وحمزة

وأدغم الباقون وهي واو القسم أو العطف ان جعل يس مقسما به ثم وصف القرآن بقوله تعالى (الحكيم) أى المحكم بعظيم النظم وبديع المعانى وقوله تعالى (انك لمن المرسلين) أى الذين حكمت عقولهم على دواعى نفوسهم فصاروا وعاؤهم من القوة النورانية وعما تخلقوا به من أوامره ونواهيه كالملائكة الذين تقدم ذكرهم فى السورة الماضية انهم رسله جواب القسم وهو ردّ على الكفار حيث قالوا لست مرسلا (فان قيل) المطلب يثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة بالاقسام (أجيب) بأوجه أولها أن العرب كانوا يتقون الايمان الفاجرة وكانوا يقولون ان الايمان الفاجرة توجب خراب العالم وصحح النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع ثم انهم كانوا يقولون ان النبى صلى الله عليه وسلم يصيبه من آلهتهم وهى الكواكب عذاب والنبى صلى الله عليه وسلم يحلف بأمر الله وانزال كلامه عليه بأشياء مختلفة وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأنا وأمنع مكانا فكان ذلك يوجب اعتقاد أنه ليس بكاذب ثانيها أن المناظرين اذا وقع بينهما كلام وغلب أحدهما الآخر بتمشية دليله وأسكته يقول المغلوب انك قررت هذا بقوة جدالك وأنت خبير فى نفسك بضعف مقالك وتعلم أن الامر ليس كما تقول وان أقمت عليه الدليل صورة وعجزت أنا عن القدح فيه وهذا كثير الوقوع بين المتناظرين فعند هذا لا يجوز أن يأتى هو بدليل آخر لان الساكت المنقطع يقول فى الدليل الآخر ما قاله فى الاول فلا يجد أمرا الا اليمين فكذلك النبى صلى الله عليه وسلم أقام البراهين وقالت الكفرة ما هذا الا رجل يريد أن يصدّكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين فالتمسك بالايمان لعدم فائدة الدليل ثالثها ان هذا ليس بمجرد الحلف بل دليل خرج فى صورة اليمين لان القرآن معجزة ودليل كونه مرسلا هو المعجزة والقرآن كذلك (فان قيل) لم لم يذكر فى صورة الدليل وما الحكمة فى ذكر الدليل فى صورة اليمين (أجيب) بأن الدليل اذا ذكر فى صورة اليمين واليمين لا يقع ولا سيما من العظيم الا على أمر عظيم والامر العظيم تتوفر الدواعى على الاصغاء اليه فلصورة اليمين يقبل عليه السامع لكونه دليلا شافيا يسر به الفؤاد فيقع فى السمع وفى القلب وقوله تعالى (على صراط) أى طريق واسع واضح (مستقيم) أى هو التوحيد والاستقامة فى الامر يجوز أن يكون متعلقا بالمرسلين تقول أرسلت عليه كذا قال تعالى وأرسل عليهم طيرا أبابيل وأن يكون متعلقا بمحذوف على أنه حال من الضمير المستكن فى لمن المرسلين لوقوعه خبرا وأن يكون حالا من المرسلين وأن يكون خبرا ثانيا لانك وقرأ قنبل سراط بالسين عوضا عن الصاد وخلف بالاشمام وهو بين الصاد والزاى والباقون بالصاد الخالصة * ولما كان كأنه قيل ما هذا الذى أرسل به كان كأنه قيل جوابا هو القرآن الذى وقع الاقسام به وهو (تنزيل) أو حال كونه تنزيل (العزيز) أى المتصف بجميع صفات الجلال (الرحيم) أى الحاوى لجميع صفات الاكرام الذى ينعم على من يشاء من عباده بعد الانعام بايجادهم فهو الواحد المنفرد فى ملكه وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى تنزيل بالنصب

على الحال كامرّ أو باضمار أعنى والباقون بالرفع على انه خبر مبتدا مضمر كامرّ * ولماذكر تعالى المرسل وهو الله تعالى والمرسل وهو النبى صلى الله عليه وسلم والمرسل به وهو القرآن ذكر المرسل لهم بقوله تعالى (لتنذر قوما) أى ذوى باس وقوة وذكاء وفطنة (ما أنذر) أى لم تنذر أصلا (آباؤهم) أى لم ينذروا فى زمن الفترة (فهم) أى بسبب زمان الفترة (غافلون) أى عن الايمان والرشد وقوله تعالى (لقد حق القول على أكثرهم) فيه وجوه أشهرها أنّ المراد بالقول هو قوله تعالى لقد حق القول منى لاملأنّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ثانيها أنّ معناه لقد سبق فى علمه تعالى أنّ هذا يؤمن وهذا لا يؤمن فحق القول أى وجب وثبت بحيث لا يبدل بغيره كما قال تعالى ما يبدل القول لدىّ ثالثها المراد لقد حق القول الذى قاله الله تعالى على لسان الرسل من التوحيد وغيره (فهم) أى بسبب ذلك (لا يؤمنون) أى بما يلقى اليهم من الانذار بل يزيدهم عمى استكبارا فى الارض ومكر السيئ * ونزل فى أبى جهل وصاحبه (انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا) أى بأن تضم اليها الايدى لانّ الغل يجمع اليد الى العنق وذلك انّ أبا جهل كان قد حلف لئن رأى محمدا صلى الله عليه وسلم يصلى ليرضخنّ رأسه فأتاه وهو يصلى ومعه حجر ليدمغه به فلما رفعه أثبتت يده الى عنقه ولزق الحجر بيده الى عنقه فلما رجع الى أصحابه واخبرهم بما رأى سقط الحجر فقال رجل من بنى مخزوم أنا أقتله بهذا الحجر فأتاه وهو يصلى ليرميه بالحجر فأعمى الله تعالى بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه فرجع الى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقالوا له ما صنعت فقال ما رأيته ولقد سمعت كلاما وحال بينى وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه لو دنوت منه لاكلنى فأنزل الله تعالى هذه الآية ووجه المناسبة لما تقدم انه لما قال تعالى لقد حق القول على أكثرهم وتقدم أنّ المراد به البرهان وقال بعد ذلك بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ومنع من ارسال الحجر وهو مضطر الى الايمان ولم يؤمن علم أنه لا يؤمن أصلا وقال أهل المعانى هذا على طريق المثل ولم يكن هناك غل اراد منعناهم عن الايمان بموانع فجعل الاغلال مثلا لذلك فهو تقرير لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا تغنى عنهم الآيات والنذر بتمثيلهم بالذين غلت أيديهم وقال الفراء معناه حبسناهم عن الانفاق فى سبيل الله كقوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك معناه ولا تمسكها عن النفقة ومناسبة هذا لما تقدم أنّ قوله تعالى فهم لا يؤمنون يدخل فيه انهم لا يصلون لقوله تعالى وما كان الله ليضيع ايمانكم أى صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة فكأنه قال لا يصلون ولا يزكون واختلف فى عود الضمير فى قوله تعالى (فهى الى الاذقان) على وجهين أشهرهما انه عائد على الاغلال لانها هى المحدث عنها ومعنى هذا الترتيب بالفاء أنّ الغل لغلظه وعرضه يصل الى الذقن لانه يلبس العنق جميعه قال الزمخشرىّ والمعنى انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ثقالا بحيث تبلغ الى الاذقان فلم تمكن المغلول معها من أن يطأطئ رأسه ثانيهما أنّ الضمير يعود الى الايدى واليه ذهب الطبرىّ وعليه جرى الجلال المحلى لانّ الغل لا يكون الا فى العنق واليدين ودلّ على الايدى وان لم تذكر

الملازمة المفهومة من هذه الآية أعنى الغل وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بكسرها والاذقان جمع ذقن وهو مجمع اللحيين (فهم مقمحون) أى رافعون رؤسهم غاضون أبصارهم فى أنهم لا يلتفتون لفتة الى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطؤن رؤسهم له والاقماح رفع الرأس الى فوق كالاقناع وهو من قمح البعير رأسه اذا رفعها بعد الشرب اما لبرودة الماء واما لكراهة طعمه * ولما كان الرافع رأسه غير ممنوع من النظر أمامه قال تعالى (وجعلنا) أى بعظمتنا (من بين أيديهم) أى الوجه الذى يمكنهم علمه (سدا) فلا يسلكون طريق الاهتداء * ولما كان الانسان اذا انسدت عليه جهة مال الى أخرى قال تعالى (ومن خلفهم) أى الوجه الذى هو خفى عنهم (سدا) فلا يرجعون الى الهداية فصارت كل جهة يلتفتون اليها منسدة فصاروا لذلك لا يمكنهم النظر الى الحق ولا الخلوص اليه فلذلك قال تعالى (فأغشيناهم) أى جعلنا على أبصارهم بما لنا من العظمة غشاوة (فهم) أى بسبب ذلك (لا يبصرون) أى لا يتجدد لهم هذا الوصف من ابصار الحق وما ينفعهم ببصر ظاهر ولا بصيرة باطنة وأيضا الانسان مبدؤه من الله تعالى ومصيره اليه فعمى الكافرين بان لا يبصروا ما بين أيديهم من المصير الى الله تعالى وما خلفهم من الدخول فى الوجود بخلق الله تعالى لكن أحاط بهم سد فغطى أبصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم ووراءهم فى أنهم محبوسون فى مطمورة الجهالة ممنوعون عن النظر فى الآيات والدلائل وأيضا فان السالك اذا لم يكن له بد من سلوك طريق فان انسد الطريق الذى قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع فاذا انسد الطريق من خلفه ومن قدامه والموضع الذى هو فيه لا يكون موضع اقامة هلك (فان قيل) ذكر السد من بين الايدى ومن الخلف ولم يذكر من اليمين والشمال فما الحكمة فى ذلك (أجيب) بأنهم اذا قصدوا السلوك الى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين الى شئ وموليين عن شئ فصار ما اليه توجههم ما بين أيديهم فيجعل الله تعالى السد هناك فيمنعه من السلوك فكيفما توجه الكافر يجعل الله تعالى بين يديه سدا وقرأ حمزة والكسائى وحفص سدا بفتح السين فى الموضعين وهو لغة فيه والباقون بالضم * ولما منعوا بذلك حس البصر أخبر عن حس السمع بقوله تعالى (وسواء عليهم) أى مستو ومعتدل غاية الاعتدال (أأنذرتهم) أى بما أخبرناك به من الزواجر المانعة للكفر (أم لم تنذرهم لا يؤمنون) لانهم ممن علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون وقد سبق أيضا فى البقرة تفسيره والكلام على الهمزتين ثم بين الله تعالى الاقل الناجى لانه المقصود بالذات بقوله تعالى (انما تنذر) أى انذارا ينفع المنذر فيتأثر عنه النجاة (من اتبع الذكر) أى القرآن بالتأمل فيه والعمل به (وخشى الرحمن) أى خاف عقابه (بالغيب) أى قبل موته ومعاينة أهواله أو فى سريرته ولا يغتر برحمته فانه تعالى كما هو رحمن رحيم منتقم جبار (فبشره) أى بسبب خشيته بالغيب (بمغفرة) أى لذنوبه وان عظمت وتكررت * ولما حصل العلم بمحو الذنوب عينها وأثرها قال تعالى (وأجر كريم) أى هو الجنة فانها دار لا كدر فيها بوجه والمقصود منها هو النظر لوجهه الكريم اللهم متعنا وحبينا بالنظر الى وجهك الكريم

ولما ذكر تعالى خشية الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكده وهو احياء الموتى بقوله تعالى (انا نحن) أى بما لنا من العظمة التى لا تضاهى (نحيى الموتى) أى كلهم حسا بالبعث ومعنى بالانقاذ اذا أردنا من ظلمة الجهل (ونكتب) أى جملة عند نفخ الروح وشيأ فشيأ بعده فلا يتعدى التفصيل شيأ فى ذلك الاجمال (ما قدموا) أى وأخروا من جميع أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم من صالح وغيره فاكتفى بأحدهما الدلالة الآخر عليه كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر أى والبرد وقيل المعنى ما أسلفوا من الاعمال صالحة كانت أو فاسدة كقوله تعالى بما قدمت أيديهم أى بما قدموا فى الوجوه وأوجدوه وقيل نكتب نياتهم فانها قبل الاعمال وقوله تعالى (وآثارهم) فيه وجوه أحدها وهو مبنى على التفسير الاخير وهو كتب النيات المراد بالآثار الاعمال ثانيها ما سنوا من سنة حسنة وسيئة فالحسنة كالكتب المصنفة والقناطر المبنية والسيئة كالظلامات المستمرة التى وضعها الظلمة والكتب المضلة قال صلى الله عليه وسلم من سن فى الاسلام سنة حسنة فعمل بها من بعده كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيأ ومن سن فى الاسلام سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيأ ثالثها خطاهم الى المساجد لما روى أبو سعيد الخدرى قال شكت بنو سلمة بعد منازلهم عن المسجد فأنزل الله تعالى ونكتب ما قدموا وآثارهم فقال صلى الله عليه وسلم ان الله يكتب خطواتكم ومشيكم ويثيبكم عليها وقال صلى الله عليه وسلم أعظم الناس أجرا فى الصلاة أبعدهم ممشا والذى ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الامام أعظم أجرا من الذى يصلى ثم ينام (فان قيل) الكتابة قبل الاحياء فكيف أخر فى الذكر حيث قال تعالى نحيى الموتى ونكتب ولم يقل نكتب ما قدموا ونحييهم (أجيب) بأن الكتابة معظمة لامر الاحياء لان الاحياء ان لم يكن للحساب لا يعظم والكتابة فى نفسها ان لم يكن هناك احياء ولا اعادة لا يبقى لها أثر أصلا والاحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لامره فلهذا قدم الاحياء لانه تعالى قال انا نحن وذلك يفيد العظمة والجبروت والاحياء العظيم يختص بالله تعالى والكتابة دونه تقرير التعريف الامر العظيم وذلك مما يعظم ذلك الامر العظيم ولما كان ذلك الامر ربما أوهم الاقتصار على ما ذكر من أحوال الآدميين دفع ذلك بقوله تعالى (وكل شئ) من أمور الدنيا والآخرة (أحصيناه) أى قبل ايجاده بعلمنا القديم احصاء وحفظا وكتبناه (فى امام) وهو اللوح المحفوظ (مبين) أى لا يخفى فيه شئ من جميع الاحوال والاقوال فهو تعميم بعد تخصيص لانه تعالى يكتب ما قدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه بل كل شئ محصى فى امام مبين وهذا يفيد أن شيأ من الاقوال والافعال لا يعزب عن علم الله تعالى ولا يفوته كقوله تعالى وكل شئ فعلوه فى الزبر وكل صغير وكبير مستطر يعنى ليس ما فى الزبر منحصرا فيما فعلوه بل كل شئ مكتوب لا يبدل فان القلم جف بما هو كائن فلما قال تعالى نكتب ما قدموا بين ان قبل ذلك كتابة أخرى فان الله تعالى كتب عليهم انهم سيفعلون كذا وكذا ثم اذا فعلوا كتب عليهم أنهم فعلوه وقيل ان ذلك مؤكد لمعنى قوله تعالى ونكتب لان من يكتب شيأ فى أوراق

ويرميها قد لا يجدها او كأنه لم يكتب فقال تعالى نكتب ونحفظ ذلك فى امام مبين وهو كقوله تعالى علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى وقوله سبحانه وتعالى (واضرب) بمعنى واجعل (لهم) وقوله تعالى (مثلا) مفعول أول وقوله تعالى (أصحاب) مفعول ثان والاصل واضرب لهم مثلا مثل أصحاب (القرية) فترك المثل وأقيم الاصحاب مقامه فى الاعراب كقوله تعالى واسأل القرية قال الزمخشرى وقيل لاحاجة الى الاضمار بل المعنى اجعل أصحاب القرية لهم مثلا أو مثل أصحاب القرية بهم قال المفسرون المراد بالقرية انطاكية وقوله تعالى (اذجاءها) الخ بدل اشتمال من أصحاب القرية أى اذجاء أهلها (المرسلون) أى رسل عيسى عليه السلام واضافه الى نفسه فى قوله تعالى (اذأرسلنا اليهم اثنين) لانه فعل رسوله عليه السلام واذ أرسلنا الخ بدل من اذ الاولى وفى هذا الطيفة وهى أن فى القصة أن الرسل كانوا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام أرسلهم الى انطاكية فقال تعالى ارسال عيسى عليه السلام هو ارسالنا ورسول رسول الله باذن الله رسول الله فلا تفهم يا محمد أن أولئك كانوا رسل الرسول وانما هم رسل الله تعالى فتكذيبهم كتكذيبك فتتم التسلية بقوله تعالى اذ أرسلنا ويؤيد هذا مسئلة فقهية وهى ان كل وكيل للوكيل باذن الموكل عند الاطلاق وكيل الموكل لا وكيل الوكيل حتى لا ينعزل بعزل الوكيل اياه وينعزل اذا عزله الموكل الاول *(تنبيه)* فى بعث الاثنين حكمة بالغة وهى أنهما كانا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام باذن الله تعالى فكان عليهما انهاء الامر اليه والاتيان بما أمر الله تعالى والله سبحانه عالم بكل شئ لا يحتاج الى شاهد يشهد عنده وأما عيسى عليه السلام فبشر فأمر الله تعالى بارسال اثنين ليكون قولهما على قومهما عند عيسى عليه السلام حجة تامة وقرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم فى الوصل وحمزة والكسائى بضمهما والباقون بكسر الهاء وضم الميم وأما الوقف فحمزة بضم الهاء والباقون بكسرها والجميع فى الوقف بسكون الميم (فكذبوهما) أى مع مالهما من الآيات لان من المعلوم انا ما أرسلنا رسولا الا كان معه من الآيات ما مثله آمن عليه البشر سواء كان عنا من غير واسطة أو كان بواسطة رسولنا كما كان للطفيل بن عمرو الدوسى ذى النورين لما ذهب الى قومه وسأل النبى صلى الله عليه وسلم أن تكون له آية فكانت نورا فى جبهته ثم سأل أن تكون فى غير وجهه فكانت فى سوطه * ولما كان المتظافر على الشئ أقوى لشأنه وأعون على ما يراد منه تسبب عن ذلك قوله تعالى (فعززنا) أى قوينا (بثالث) يقال عزز المطر الارض أى قواها ولبدها ويقال لتلك الارض العزاز وكذا كل أرض صلبة وتعزز لحم الناقة أى صلب وقوى والمفعول محذوف أى فقويناهما بثالث أو فغلبناهما بثالث لان المقصود من البعثة نصرة الحق لا نصرتهما والكل كانوا مقوين للدين بالبرهان قال وهب اسم المرسلين يحيى ويونس واسم الثالث شمعون وقال كعب الرسولان صادق ومصدوق والثالث سلوم وقرأ شعبة بتخفيف الزاى الاولى والباقون بتشديدها والزاى الثانية ساكنة بلا خلاف (فقالوا انا اليكم مرسلون) وذلك أنهم كانوا عبدة أصنام فأرسل اليهم عيسى عليه السلام اثنين فلما قربا من المدينة

رأيا حبيبا النجار يرعى غنما فسلما عليه فقال من أنتما فقالا رسولا عيسى عليه السلام يدعوكم
من عبادة الأوثان الى عبادة الرحمن فقال أمعكما آية قالا نعم نشفي المريض ونبرئ الأكمه
والأبرص باذن الله تعالى فقال ان لي ابنا مريضا منذ سنين قالا فانطلق بنا ننظر حاله فأتى بهما
الى منزله فمسحاه فقام في الوقت باذن الله تعالى صحيحا ففشا الخبر في المدينة وآمن حبيب النجار
وشفى الله تعالى على أيديهما كثيرا من المرضى وكان لهم ملك اسمه انطيخس وكان من ملوك الروم
فانتهى الخبر اليه فدعاهما فقال لهما من أنتما فقالا رسولا عيسى عليه السلام قال وفيم جئتما
قالا ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر الى عبادة من يسمع ويبصر قال أولنا اله دون آلهتنا
قالا نعم من أوجدك وآلهتك فقال قوما حتى أنظر في أمركما وأمر بحبسهما وجلد كل واحد منهما
مائة جلدة فلما كذبا وضربا بعث عيسى عليه السلام رأس الحواريين شمعون الصفا على أثرهما
لينصرهما فدخل البلد متنكرا وجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به وأوصلوا خبره الى الملك
فدعاه فرضي عشرته وأنس به وأكرمه ثم قال له ذات يوم أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين
في السجن وضربتهما حين دعوا الى غير دينك فهل كلمتهما وسمعت قولهما فقال الملك حال
الغضب بيني وبين ذلك قال فان رأى الملك دعاهما حتى نطلع على ما عندهما فدعاهما الملك فقال
لهما شمعون من أرسلكما الى ههنا قالا الله تعالى الذي خلق كل شيء وليس له شريك فقال
لهما شمعون فصفاه وأوجزا قالا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال لهما شمعون وما آيتكما قالا ما تتمنى
الملك فدعا بغلام مطموس العينين موضع عينيه كالجبهة فما زالا يدعوان ربهما حتى انشق موضع
البصر فأخذا بندقتين من الطين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما فتعجب الملك
فقال شمعون للملك أرأيت ان سألت الهك يصنع مثل هذا حتى يكون لك الشرف ولآلهتك
فقال الملك ليس لي عنك سر ان الهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع وكان
شمعون اذا دخل الملك على الصنم يدخل بدخوله ويصلي كثيرا ويتضرع حتى ظنوا أنه على ملتهم
ثم قال الملك لهما ان قدر الهكما الذي تعبدانه على احياء ميت آمنا به وبكما قالا الهنا قادر على كل
شيء فقال الملك ان ههنا ميتا مات منذ سبعة أيام ابن لدهقان وأنا أخرته فلم أدفنه حتى يرجع أبوه
وكان غائبا فجاؤوا بالميت وقد تغير وأروح فجعلا يدعوان ربهما علانية وجعل شمعون يدعو ربه
سرا فقام الميت وقال اني دخلت سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله تعالى
ثم قال فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسنا يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك ومن الثلاثة قال
شمعون وهذان وأشار الى صاحبيه فتعجب الملك لما علم فلما علم شمعون أن قوله أثر في الملك أخبره
بالحال ودعاه فآمن الملك وآمن قوم وكفر آخرون فمن لم يؤمن صاح عليهم جبريل فهلكوا وقيل
ان ابنة الملك كانت قد توفيت ودفنت فقال شمعون للملك اطلب من هذين الرجلين أن يحييا ابنتك
فطلب الملك منهما ذلك فقاما وصليا ودعوا الله تعالى وشمعون معهما في السر فأحيا الله تعالى
المرأة ثم انشق القبر عنها فخرجت وقالت أسلموا فانهما صادقان قالت ولا أظنكم تسلمون ثم طلبت
من الرسولين أن يرداها الى مكانها فذرا ترابا على رأسها فعادت الى قبرها كما كانت وقال ابن

سحق عن كعب و وهب بل كفروا جتمع هو وقومه على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيبا وهو على باب المدينة الاقصى فجاء يسعى اليهم يذكرهم ويدعوهم الى طاعة المرسلين (قالوا) أى أهل القرية للرسل (ما أنتم) أى وان زاد عددكم (الا بشر مثلنا) لا مزية لكم علينا فما وجه الخصوصية لكم فى كونكم رسلا دوننا فجعلوا كونهم بشرا مثلهم دليلا على عدم الارسال وهذا عام فى المشركين قالوا فى حق محمد صلى الله عليه وسلم أأنزل عليه الذكر من بيننا وقد استوينا فى البشرية فلا يمكن الرجحان فرد الله عليهم بقوله سبحانه الله أعلم حيث يجعل رسالاته و بقوله تعالى الله يجتبى اليه من يشاء الى غير ذلك * (تنبيه) * رفع بشر لانتقاض النفى المقتضى اعمال ما بالا ثم قالوا (وما أنزل الرحمن) أى العام الرحمة فعموم رحمته مع استوائنا فى عبوديته يقتضى أن يسوى بيننا فى الرحمة فلا يخصكم بشئ دوننا وأغرقوا فى النفى بقولهم (من شئ) أى وحى و رسالة (ان) أى ما (أنتم الا تكذبون) أى فى دعوى رسالة حالا وما لا (قالوا) أى الرسل (ربنا) أى الذى أحسن الينا (يعلم) أى وامهذا يظهر على أيدينا الآيات (انا اليكم لمرسلون) استشهدوا بعلم الله تعالى وهو يجرى مجرى القسم وزاد واللام المؤكدة لانه جواب عن انكارهم (وما علينا) أى وجوبا من قبل من ارسلنا (الا البلاغ المبين) أى المؤيد بالادلة القطعية من الحجج القولية والفعلية بالمعجزات وهى ابراء الاكمه والابرص واحياء الميت وغيرها فما كان جوابهم بعد هذا الا أن (قالوا انا تطيرنا) أى تشاءمنا (بكم) وذلك أن المطر حبس عنهم فقالوا أصابنا هذا بشؤمكم ولاستغرابهم ما ادعوه واستقباحهم له ونفرتهم عنه قالوا (لئن لم تنتهوا) أى عن مقالتكم هذه (لنرجمنكم) أى لنقتلنكم قال قتادة بالحجارة وقيل لنشتمنكم وقيل لنقتلنكم شر قتلة (وليمسنكم منا) أى لا من غيرنا (عذاب أليم) كأنهم قالوا الا نكتفى برجمكم بحجر وحجرين بل نديم ذلك عليكم الى الموت وهو العذاب الأليم أو يكون المراد وليمسنكم بسبب الرجم منا عذاب أليم أى مؤلم وان قلنا الرجم الشتم فكأنهم قالوا ولا يكفينا الشتم بل شتم يؤدى الى الضرب والايلام الحسى واذا فسرنا أليم بمعنى مؤلم فعيل بمعنى مفعل قليل ويحتمل أن يقال هو من باب قوله تعالى عيشة راضية أى ذات رضا أى عذاب ذو ألم فيكون فعيلا بمعنى فاعل وهو كثير ثم أجابهم المرسلون بأن (قالوا طائركم) أى شؤمكم الذى أحل بكم البلاء (معكم) وهو أعمالكم القبيحة التى منها تكذيبكم وكفركم فأصابكم الشؤم من قبلكم وقال ابن عباس والضحاك حظكم من الخير والشر والهمزة فى قوله تعالى (أئن ذكرتم) أى وعظتم وخوفتم همزة استفهام وجواب الشرط محذوف أى تطيرتم وكفرتم فهو محل الاستفهام والمراد به التوبيخ وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الثانية وأدخل قالون وأبو عمرو بينهما ألفا و ورش وابن كثير بغير ادخال والباقون بتحقيقهما مع عدم الادخال * ولما كان ذلك لا يصح أن يكون سببا للتطير بوجه أضربوا عنه بقولهم (بل) أى ليس الامر كما زعمتم فى أن التذكير سبب التطير بل (أنتم قوم) اى غركم ما آتاكم الله من القوة على القيام فيما تريدون (مسرفون) أى عادتكم الخروج عن الحدود والطغيان

فعوقبتم لذلك * ولما كان السياق لان الامر بيد الله تعالى فلا هادى لمن يضلل ولا مضل لمن هدى فهو يهدى البعيد فى البقعة والنسب اذا أراد ويضل القريب فيهما اذا أراد وكان بعد الدار ملزوما فى الغالب لبعد النسب قدم مكان المجىء على فاعله بيانا لان الدعاء نفع الاقصى ولم ينفع الادنى فقال تعالى (وجاء من أقصى) أى أبعد بخلاف ما مر فى القصص ولأجل هذا الغرض عدل عن التعبير بالقرية وقال (المدينة) لانه أدل على الكبر المستلزم لبعد الاطراف وجمع الاخلاط ولما بين الفاعل بقوله تعالى (رجل) بين اهتمامه بالنهى عن المنكر ومسابقته الى ازالته كما هو الواجب بقوله تعالى (يسعى) أى يسرع فى مشيه فوق المشى ودون العدو وحرصا على نصيحة قومه *(تنبيه)* فى تنكير الرجل مع أنه كان معلوما معروفا عند الله تعالى فيه فائدتان الاولى أن يكون تعظيما لشأنه أى رجل كامل فى الرجولية الثانية أن يكون مفيدا ليظهر من جانب المرسلين أمر رجل من الرجال لا معرفة لهم به فلا يقال انهم تواطؤا والرجل هو حبيب النجار كان ينحت الاصنام وقال السدى كان قصارا وقال وهب كان يعمل الحرير وكان سقيما قد أسرع فيه الجذام وكان منزله عند أقصى باب فى المدينة وكان مؤمنا وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل وجوده حين صار من العلماء بكتاب الله تعالى ورأى فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثته وقوله يسعى تبصير للمسلمين وهداية لهم ليبذلوا جهدهم فى النصح ولما تشوفت النفس الى الداعى الى اتيانه بينه بقوله تعالى (قال) واستعطفهم بقوله تعالى (ياقوم) وأمرهم بمجاهدة النفوس بقوله (اتبعوا المرسلين) أى فى عبادة الله تعالى وحده فجمع بين اظهار دينه واظهار النصيحة فقوله اتبعوا نصيحة وقوله المرسلين اظهار ايمانه وقدم اظهار النصيحة على اظهار الايمان لانه كان ساعيا فى النصيحة وأما الايمان فكان قد آمن من قبل وقوله يسعى يدل على ارادته النصح (فان قيل) ما الفرق بين مؤمن آل فرعون حيث قال اتبعونى أهدكم وهذا قال اتبعوا المرسلين (أجيب) بأن هذا الرجل جاءهم وفى أول مجيئه نصحهم ولم يعلموا سيرته فقال اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل وأما مؤمن آل فرعون فكان فيهم ونصحهم مرارا فقال اتبعونى فى الايمان بموسى وهرون عليهما السلام واعلموا أنه لولم يكن خيرا لما اخترته لنفسى وأنتم تعلمون أنى اخترته ولم يكن الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يعلمون اتباعه لهم * ولما قال لهم اتبعوا المرسلين كأنهم منعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال (اتبعوا من لا يسألكم أجرا) أى أجرة لان الخلق فى الدنيا سالكون طريق الاستقامة والطريق اذا كان فيه دليل وجب اتباعه وعدم الاستماع من الدليل لا يحسن الا عند أحد أمرين اما لطلب الدليل الاجرة واما لعدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفة الطريق لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة (وهم مهتدون) عالمون بالطريق المستقيم الموصلة الى الحق فهب أنهم ليسوا بمرسلين أليسوا بمهتدين فاتبعوهم وقوله تعالى (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) أصله ومالكم لا تعبدون ولكنه صرف الكلام عنه ليكون الكلام أسرع قبولا حيث أراد لهم ما أراد لنفسه والمراد تقريعهم على تركهم عبادة خالقهم الى عبادة غيره ولذلك قال (واليه

ترجعون)

ترجعون) دون واليه أرجع مبالغة فى التهديد وفى العدول عن مخاصمة القوم الى حال نفسه مبالغة فى الحكمة وهى أنه لو قال مالكم لا تعبدون الذى فطركم لم يكن فى البيان مثل قوله مالى لانه لما قال مالى فأحد لا يخفى عليه حال نفسه علم كل واحد أنه لا يطلب العلة وبيانها من أحد لانه أعلم بحال نفسه وقوله الذى فطرنى أشار به الى وجود المقتضى فان قوله مالى اشارة الى عدم المانع وعند عدم المانع لا يوجد الفعل مالم يوجد المقتضى فقوله الذى فطرنى دليل المقتضى فان الخالق ابتداء مالك والمالك يجب على المملوك اكرامه وتعظيمه ومنعم بالايمان والمنعم يجب على المنعم عليه شكر نعمته وقدم بيان عدم المانع على بيان وجود المقتضى مع أن المستحسن تقديم المقتضى لان المقتضى لظهوره كان مستغنيا عن البيان فلا أقل من تقديم ما هو أولى بالبيان للحاجة اليه واختار من الآيات فطرة نفسه لان خالق عمرو يجب على زيد عبادته لان من خلق عمرا لا يكون الا كامل القدرة واجب الوجود فهو مستحق للعبادة بالنسبة الى كل مكلف لكن العبادة على زيد بخلق زيد أظهر ايجابا *(تنبيه)* أضاف الفطرة الى نفسه والرجوع اليهم لان الفطرة أثر النعمة فكانت عليه أظهر وفى الرجوع معنى الزجر فكان بهم أليق روى أنه لما قال اتبعوا المرسلين أخذوه ورفعوه الى الملك فقال له أفأنت تتبعهم فقال ومالى لا أعبد الذى فطرنى أى أى شئ يمنعنى أن أعبد خالقى واليه ترجعون تردون عند البعث فيجزيكم بأعمالكم ومعنى فطرنى خلقنى اختراعا ابتداء وقيل خلقنى على الفطرة كما قال تعالى فطرة الله التى فطر الناس عليها ثم عاد الى السياق الاول فقال (أأتخذ) وهو استفهام بمعنى الانكار أى لا أتخذ وبين علو رتبته تعالى بقوله (من دونه) أى سواه مع دنو المنزلة وبين عجز ما عبدوه بتعدده فقال (آلهة) وفى ذلك لطيفة وهى أنه لما بين أنه يعبد الذى فطره بين أن من دونه لا تجوز عبادته لان الكل محتاج مفتقر حادث وقوله أأتخذ اشارة الى أن غيره ليس باله لان المتخذ لا يكون الها وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بتسهيل الثانية بخلاف عن هشام وادخل فيهما الفا قالون وأبو عمرو وهشام وورش وابن كثير بغير ادخال ألف والباقون بتحقيقهما مع عدم الادخال واذا وقف حمزة فله تسهيل الثانية والتحقيق لانه متوسط بزائد وله أيضا ابدالها ألفا ثم بين عجز تلك الالهة بقوله (ان يردن الرحمن) أى العام النعمة على كل المخلوقين العابد والمعبود (بضر) أى سوء ومكروه (لا تغن عنى شفاعتهم شيأ) أى لو فرض أنهم شفعوا ولكن شفاعتهم لا توجد (ولا ينقذون) أى بالنصر والمظاهرة من ذلك المكروه أو من العذاب لو عذبنى الله تعالى ان فعلت ذلك (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى هنا ان يردن الرحمن بصيغة المضارع وقال فى الزمر ان أرادنى الله بصيغة الماضى وذكر المريد هنا باسم الرحمن وذكر المريد هناك باسم الله (أجيب) بأن الماضى والمستقبل مع الشرط يصير الماضى مستقبلا لان المذكور هنا من قبل بصيغة الاستقبال فى قوله أأتخذ وقوله مالى لا أعبد والمذكور هناك من قبل بصيغة الماضى فى قوله أفرأيتم *(تنبيه)* ان يردن شرط جوابه لا تغن عنى الخ والجملة الشرطية فى محل النصب صفة

لا الهة *(فائدة)* أثبت ورش الياء بعد النون فى الوصل دون الوقف والباقون بغير ياء وقفا ووصلا (انى اذا) أى ان عبدت غير الله تعالى (لفى ضلال مبين) أى خطأ ظاهر وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء وسكنها الباقون وهم على مذاهبهم فى المد * ولما أقام الادلة ولم يبق لاحد تخلف عنه علة صرح بما لوح اليه من ايمانه بقوله (انى آمنت) أى أوقعت التصديق الذى لا تصديق فى الحقيقة غيره وفتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون واختلف فى المخاطب بقوله (بربكم) على أوجه أحدها أنه خاطب المرسلين قال المفسرون أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين وقال انى آمنت بربكم (فاسمعون) أى اسمعوا قولى واشهدوا لى وثانيها هم الكفار لما نصحهم وما نفعهم قال آمنت بربكم فاسمعون وثالثها بربكم أيها السامعون فاسمعون على العموم كقول الواعظ يا مسكين ما أكثر أملك يريد كل سامع يسمعه فلما قال ذلك وثب القوم عليه وثبة رجل واحد فقتلوه وقال ابن مسعود وطئوه بأرجلهم وقال السدى كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول اللهم اهد قومى حتى قطعوه وقتلوه وقال الحسن خرقوا خرقا فى حلقه فعلقوه فى سور المدينة وقبره بانطاكية مشهور رضى الله تعالى عنه *(تنبيه)* فى قوله فاسمعون فوائد منها أنه كلام متفكر حيث قال اسمعوا فان المتكلم اذا كان يعلم ان لكلامه جماعة سامعين يتفكر ومنها أن ينبه القوم ويقول انى أخبرتكم بما فعلت حتى لا تقولوا لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرته لآمنا معك (فان قيل) انه قال من قبل ومالى لا أعبد الذى فطرنى وقال ههنا آمنت بربكم ولم يقل آمنت بربى (أجيب) بانا ان قلنا الخطاب مع الرسل فالامر ظاهر لانه لما قال آمنت بربكم ظهر عند الرسل أنه قبل قولهم وآمن بالرب الذى دعوه اليه وقال بربكم وان قلنا الخطاب مع الكفار ففيه بيان التوحيد لانه لما قال أعبد الذى فطرنى ثم قال آمنت بربكم فهم أنه يقول ربى وربكم واحد وهو الذى فطرنى وهو بعينه ربكم بخلاف ما لو قال آمنت بربى فيقول الكافر وأنا أيضا آمنت بربى *(فائدة)* أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن مثل صاحب يس هذا فى هذه الامة عروة بن مسعود الثقفى حيث نادى قومه بالاسلام ونادى على علية بالاذان فرموه بالسهام فقتلوه * ثم انه سبحانه وتعالى بين حال هذا الذى قال آمنت بربكم بعد ذلك بقوله تعالى ايجازا فى البيان لاهل الايمان (قيل) أى قيل له بعد قتلهم اياه فبناه للمفعول لان المقصود المقول لا قائله والمقول له معلوم (ادخل الجنة) لانه شهيد والشهداء يسرحون فى الجنة حيث شاؤا من حين الموت وقيل لما هموا بقتله رفعه الله تعالى الى الجنة وقرأ هشام والكسائى بضم القاف وهو المسمى بالاشمام والباقون بالكسر * ولما أفضى به الى الجنة (قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى) أى بغفران ربى لى المحسن الىّ فى الآخرة بعد احسانه فى الدنيا بالايمان فى مدة يسيرة بعد طول عمرى فى الكفر (وجعلنى من المكرمين) أى الذين أعطاهم الدرجات العلا فنصح لقومه حيا وميتا بتمنى علمهم بالكرامة له ليعملوا مثل عمله فينالوا ما ناله *(تنبيه)* فى القصة حث على المبادرة الى مفارقة الاشرار واتباع الاخيار والحلم عن أهل الجهل وكظم الغيظ والتلطف فى خلاص الظالم من ظلمه وأنه لا يدخل أحد الجنة الا برحمة

لله وان كان محسنا وهذا كما وقع للانصار رضي الله تعالى عنهم في المبادرة الى الايمان مع بعد الدار والنسب وفي قول من استشهد منهم في بئر معونة كما رواه البخاري في المغازي عن أنس بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا وفي غزوة أحد كما في السيرة وغيرها لما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم ياليت اخواننا يعلمون ما صنع الله تعالى بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله تبارك وتعالى فأنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا الآية في سورة آل عمران وفي التمثيل بهذه القصة اشارة الى ان في قريش من حتم موته على الكفر ولم ينقص ما قضى له من الاجل فالله سبحانه يؤيد هذا الدين بغيرهم لتظهر قدرته وحكمته (وما أنزلنا) بعظمتنا من العظمة (على قومه) أي حبيب (من بعده) أي من بعد اهلاكه أو رفعه (من جند من السماء) لاهلاكهم كما أرسلنا يوم بدر والخندق بل كفينا أمرهم بصيحة ملك وفيه استحقار باهلاكهم وايماء بتعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم والا لكان تحريك ريشة من جناح ملك كافيا في استئصالهم (فان قيل) ما فائدة قوله تعالى من بعده وهو تعالى لم ينزل عليهم من قبله (أجيب) بأن استحقاق العذاب كان بعده حيث أصروا واستكبروا فبين حال الاهلاك بقوله تعالى (وما كنا منزلين) أي ما كان ذلك من سنتنا وما صح في حكمتنا أن يكون عذاب الاستئصال بجند كثير (ان) أي ما (كانت) أي الواقعة التي عذبوا بها (الا صيحة) صاحها بهم جبريل عليه السلام فماتوا عن آخرهم وأكد أمرها وحقق وحدتها بقوله تعالى (واحدة) أي لحقارة أمرهم عندنا ثم زاد في تحقيرهم ببيان الاسراع في الاهلاك بقوله تعالى (فاذا هم خامدون) أي ثابت لهم الخمود ما كأنهم كانت بهم حركة يوما من الدهر شبهوا بالنار رمزا الى أن الحي كالنار الساطعة والميت كرمادها كما قال لبيد

وما المرء الا كالشهاب وضوئه * يصير رمادا بعد اذ هو ساطع

وقال المعري

وكالنار الحياة فمن رماد * أواخرها وأولها دخان

قال المفسرون أخذ جبريل عليه السلام بعضادتي باب المدينة ثم صاح بهم صيحة واحدة فماتوا (يا حسرة على العباد) أي هؤلاء ونحوهم ممن كذبوا الرسل فأهلكوا وهي شدة التألم ونداؤها مجاز أي هذا أوانك فاحضري ثم بين تعالى سبب الحسرة والندامة بقوله تعالى (ما يأتيهم من رسول) أي رسول كان في أي وقت كان (الا كانوا به) أي بذلك الرسول (يستهزؤن) والمستهزئ بالناصحين المخلصين أحق أن يتحسر ويتحسر عليه وقيل يقول الله تعالى يوم القيامة يا حسرة على العباد حين لم يؤمنوا بالرسل * ولما بين تعالى حال الاولين قال للحاضرين (ألم يروا) أي أهل مكة القائلين للنبي صلى الله عليه وسلم لست مرسلا والاستفهام للتقرير أي اعلموا وقوله تعالى (كم) خبرية بمعنى كثيرا وهو مفعول لاهلكنا تقديره كثيرا من القرون أهلكنا وهي معمولة لما بعدها معلقة ليروا عن العمل ذهابا بالخبرية مذهب الاستفهامية والمعنى أما

(أهلكنا قبلهم) كثيرا (من القرون) أى الامم قال البغوى والقرن أهل كل عصر سموا بذلك لاقترانهم فى الوجود (انهم) أى المهلكين (اليهم) أى الى أهل مكة (لا يرجعون) أى لا يعودون الى الدنيا أفلا يعتبرون * وقيل لا يرجعون أى الباقون لا يرجعون الى المهلكين بسبب ولا ولادة أى أهلكناهم وقطعنا نسلهم ولا شك أن الاهلاك الذى يكون مع قطع النسل اتم وأعم قال ابن عادل والاول أشهر نقلا والثانى أظهر عقلا وقوله تعالى (وان) نافية أو مخففة وقوله تعالى (كل) أى كل الخلائق مبتدأ وقرأ (لما) ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد الميم بمعنى الا والباقون بالتخفيف واللام فارقة وما مزيدة وقوله تعالى (جميع) أى مجموعون خبر أول (لدينا) أى عندنا فى الموقف بعد بعثهم وقوله تعالى (محضرون) أى للحساب خبر ثان وما أحسن قول القائل

ولو انا اذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كل حى
ولكنا اذا متنا بعثنا * ونسئل بعدها عن كل شئ

ولما قال تعالى وان كل لما جميع كان ذلك اشارة الى الحشر فذكر ما يدل على امكانه قطعا لانكارهم واستبعادهم فقال تعالى (وآية) أى علامة عظيمة (لهم) أى على قدرتنا على البعث وايجادنا له (الارض) أى هذا الجنس الذى هم منه ثم وصفها بما حقق وجه الشبه بقوله تعالى (الميتة) التى لا روح لها لانه لا نبات بها أعم من أن يكون بها نبات وفنى أو لم يكن بها شئ أصلا * ثم استأنف بيان كونها آية بقوله تعالى (أحييناها) أى باختراع النبات فيها أو باعادته بسبب المطر كما كان بعد اضمحلاله (فان قيل) الارض آية مطلقا فلم خصها بهم حيث قال تعالى وآية لهم (أجيب) بأن الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشئ بأبلغ الوجوه وأما من عرف الشئ بطريق الرؤية فلا يذكر له دليل فالنبى صلى الله عليه وسلم وعباد الله المخلصين عرفوا الله تعالى قبل الارض والسماء فليست الارض معرفة لهم * (تنبيه) * آية خبر مقدم ولهم صفتها أو متعلقة بآية لانها علامة والارض مبتدأ وأعرب أبو البقاء آية مبتدأ ولهم الخبر والارض الميتة مبتدأ وصفة وأحييناها خبره فالجملة مفسرة لآية وبهذا بدأ ثم قال وقيل فذكر الوجه الاول * ولما كان اخراج الاقوات نعمة أخرى قال (وأخرجنا منها حبا) أى جنس الحب كالحنطة والشعير والارز * ثم بين عموم نفعه بقوله (فمنه) أى بسبب هذا الاخراج (يأكلون) أى من ذلك الحب فهو حب حقيقة تعلمون ذلك علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين لا تقدرون تدعون أن ذلك خيال سحرى بوجه من الوجوه وفى هذه الآية وأمثالها حث عظيم على تدبر القرآن واستخراج ما فيه من المعانى الدالة على جلال الله تعالى وكماله وقد أنشد هنا الاستاذ القشيرى فى تفسيره وعيب على من أهمل ذلك

يا من تصدر فى دست الامامة فى * مسائل الفقه املاء وتدريسا
غفلت عن حجج التوحيد تحكمها * شيدت فرعا وما مهدت تأسيسا

* ولما ذكر الزرع وهو ما لا ساق له أتبعه بذكر ماله ساق بقوله (وجعلنا) أى بما لنا من العظمة

(فيها)

(فيها) أي الارض (جنات) أي بساتين (من نخيل وأعناب) ذكر هذين النوعين لكثرة نفعهما وقدم النخل لانه نفع كله خشبه وسعفه وليفه وخوصه وعراجينه وثمره طلعا وبسرا ورطبا وتمرا وفيه زينة دائما لكونه لا يسقط ورقه * ولما كانت الجنان لا تصلح الا بالماء قال تعالى (وفجرنا) أي فتحنا تفتيحا عظيما (فيها) أي الارض (من العيون) شيأ فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه أو العيون ومن مزيدة عند الاخفش قال البقاعي والتعريف هنا يدل على أن الارض مركبة على الماء فكل موضع منها صالح لان يتفجر منه الماء ولكن الله تعالى منعه من بعض المواضع بخلاف الاحجار ليس فيها شئ غالب على الارض ففي ذلك تذكير بالنعمة في حبس الماء عن بعض الارض ليكون موضعا للسكن ولو شاء لفجر الارض كلها عيونا كما فعل بقوم نوح فأغرق أهل الارض كلهم وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وحفص برفع العين والباقون بالكسر * ولما كان حياة كل شئ انما هي بالماء أشار الى ذلك بقوله تعالى (ليأكلوا من ثمره) أي ثمر ماذكر وهو الجنات وقيل الضمير يعود على الاعناب لانها أقرب مذكور وكان من حق الضمير أن يثنى لتقديم شيئين وهما الاعناب والنخيل الا أنه اكتفى بذكر أحدهما وقيل الضمير لله على طريق الالتفات من التكلم الى الغيبة وقرأ حمزة والكسائي برفع الثاء والميم وهي لغة فيه أو جمع ثمار والباقون بفتحهما وقوله تعالى (وما عملته أيديهم) عطف على الثمر والمراد ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما موصولة أي ومن الذي عملته أيديهم ويؤيد هذا قراءة حمزة والكسائي وشعبة بحذف الهاء من عملته وما نافية على قراءة الباقين باثباتها أي وجدوها معمولة ولم تعملها أيديهم ولا صنع لهم فيها وقيل أراد العيون والانهار التي لم تعملها يد مخلوق مثل دجلة والفرات والنيل ثم لما عدد النعم أشار الى الشكر بقوله تعالى (أفلا يشكرون) أي أشكروا فهو أمر بصيغة الاستفهام أي ادأبوا دائما في ايقاع الشكر والدوام على تجديده في كل حين بسبب هذه النعم * ولما أمرهم الله تعالى بالشكر وشكر الله تعالى بالعبادة وهم تركوها وعبدوا غيره واشركوا قال تعالى (سبحان الذي خلق الازواج) أي الاصناف والانواع (كلها) أي وغيره لم يخلق شيأ ثم بين ذلك بقوله تعالى (مما تنبت الارض) دخل فيه كل نجم وشجر ومعدن وغيره من كل ما يتولد منها (ومن أنفسهم) من الذكور والاناث وقوله تعالى (ومما لا يعلمون) يدخل فيه ما في أقطار السموات وتخوم الارضين من المخلوقات العجيبة الغريبة * ولما استدل تعالى بأحوال الارض وهو المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي بقوله تعالى (وآية لهم الليل) أي على اعادة الشئ بعد فنائه (نسلخ) أي نفصل (منه النهار) فان دلالة الزمان والمكان متناسبة لان المكان لا يستغني عنه الجواهر والزمان لا يستغني عنه الاعراض لان كل عرض فهو في زمان *(تنبيه)* نسلخ استعارة تبعية مصرحة شبه انكشاف ظلمة الليل بكشط الجلد من الشاة والجامع ما يعقل من ترتب أحدهما على الآخر (فاذا هم) أي بعد ازالة ما للنهار الذي سلخناه من الليل (مظلمون) أي داخلون في الظلام بظهور الليل الذي كان الضياء ساتراله كما يستر الجلد الشاة قال الماوردي

وذلك ان ضوء النهار يتداخل فى الهواء فيضئ فاذا خرج منه أظلم نقله ابن الجوزى عنه وقد أرشد السياق حتما الى أن التقدير والنهار نسلخ منه الليل الذى كان ساتره وغالبا عليه فاذاهم مبصرون * ولما ذكر الوقتين ذكر آيتيهما مبتدئا بآية النهار بقوله تعالى (والشمس) اى التى سلخ النهار من الليل بغيبوبتها (تجرى لمستقرلها) أى لحد معين ينتهى اليه دورها لا تتجاوزه فشبه بمستقر المسافر اذا قطع سيره وقيل مستقرها انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وقيام الساعة وقيل انها تسير حتى تنتهى الى أبعد مغاربها ثم ترجع فذلك مستقرها لا تتجاوزه وقيل مستقرها نهاية ارتفاعها فى السماء فى الصيف ونهاية هبوطها فى الشتاء وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال مستقرها تحت العرش وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لأبى ذر حين غربت الشمس تدرى أين تذهب قلت الله ورسوله أعلم قال فانها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك ان تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى والشمس تجرى لمستقرلها * ولما كان هذا الجرى على نظام لا يختل على مر السنين وتعاقب الاحقاب عظمه بقوله تعالى (ذلك) أى الامر الباهر للعقول وزاد فى عظمه بصيغة التفعيل بقوله تعالى (تقدير العزيز) أى الذى لا يقدر أحد فى شئ من أمره على نوع مغالبة وهو غالب على كل شئ (العليم) أى المحيط علما بكل شئ الذى يدبر الامر فيطرد على نظام عجيب ونهج بديع لا يعتريه وهن ولا يلحقه يوما نوع خلل ويحتمل أن تكون الاشارة الى المستقر أى ذلك المستقر تقدير العزيز العليم * ولما ذكر آية النهار أتبعها آية الليل بقوله تعالى (والقمر قدرناه) أى من حيث سيره (منازل) ثمانية وعشرين منزلا فى ثمانية وعشرين ليلة من كل شهر ويستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين يوما وليلة ان كان الشهر تسعة وعشرين يوما وقد ذكرنا أسامى المنازل فى سورة يونس عليه السلام فاذا صار القمر فى آخر منازله دق فذلك قوله تعالى (حتى عاد) أى بعد أن كان بدرا عظيما (كالعرجون) من النخل وهو عود العذق ما بين شماريخه الى منتهاه وهو منبته من النخلة رقيقا منحنيا ثم وصفه بقوله تعالى (القديم) فانه اذا عتق يبس وتقوس واصفر فيشبه القمر فى رقته وصفرته فى رأى العين فى آخر المنازل قال القشيرى ان القمر يبعد عن الشمس ولا يزال يتباعد حتى يعود بدرا ثم يدنو فكلما ازداد من الشمس دنوا ازداد فى نفسه نقصانا الى أن يتلاشى وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والقمر برفع الراء والباقون بالنصب والرفع على الابتداء والنصب باضمار فعل على الاشتغال والوجهان مستويان لتقدم جملة ذات وجهين وهى قوله تعالى والشمس تجرى فان راعيت صدرها رفعت لتعطف جملة اسمية على مثلها وان راعيت عجزها نصبت لتعطف فعلية على مثلها * ولما قرر أن لكل منهما منازل لا يعدوها فلا يغلب ما هو آيته آية الآخر بل اذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان ذاك واذا جاء ذاك ذهب هذا قال تعالى (لا الشمس) التى هى آية النهار (ينبغى) أى يسهل (لها) أى ما دام هذا الكون موجودا على هذا الترتيب (أن تدرك القمر) أى تجتمع معه فى الليل فما النهار سابق الليل (ولا

الليل سابق النهار) أى فلا يأتى أحدهما قبل انقضاء الآخر فالآية من الاحتباك لانه نفى أولا ادراك الشمس لقوتها القمر ففيه دليل على ما حذف من الثانى من نفى ادراك الشمس للقمر أى فيغلبها وان كان يوجد فى النهار لكن من غير سلطنة فيه بخلاف الشمس فانها لا تكون فى الليل أصلا ونفى ثانيا سبق الليل النهار وفيه دليل على حذف سبق النهار الليل أولا كما قدرته (وكل) أى من الشمس والقمر (فى فلك) محيط به وهو الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة لأن أهل اللغة على ان فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها وفلكة الخيمة هى الخشبة المسطحة المستديرة التى توضع على رأس العمود لئلا يمزق العمود الخيمة وهى صفحة مستديرة (فان قيل) فعلى هذا تكون السماء مستديرة وقد اتفق أكثر المفسرين على أن السماء مبسوطة لها أطراف على جبال وهى كالسقف المستوى ويدل عليه قوله تعالى والسقف المرفوع (أجاب) الرازى بأنه ليس فى النصوص ما يدل دلالة قاطعة على كون السماء مبسوطة غير مستديرة بل دل الدليل الحسى على كونها مستديرة فوجب المصير اليه والسقف المقبب لا يخرج عن كونه سقفا وكذلك على جبال ومن الادلة الحسية أن السماء لو كانت مستوية لكان ارتفاع أول النهار ووسطه وآخره مستويا وليس كذلك وذكر غير ذلك من الادلة وفى هذا كفاية * ولما ذكر لهما فعل العقلاء من كونهما على نظام محرر لا يختل وسير مقدر لا يعوج ولا ينحل جمعهما جمعهم بقوله تعالى (يسبحون) وقال المنجمون قوله تعالى يسبحون يدل على انها أحياء لان ذلك لا يطلق الا على العاقل قال الرازى ان أرادوا القدر الذى يكون منه التسبيح فنقول به لأن كل شئ يسبح بحمده وان أرادوا شيأ آخر فلم يثبت ذلك والاستعمال لا يدل كما فى قوله تعالى فى حق الاصنام ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون * ولما ذكر سبحانه وتعالى ما حدّ له حدودا فى السباحة فى وجه الفلك ذكر ما هيأ به من الفلك للسباحة على وجه الماء بقوله تعالى (وآية لهم) أى على قدرتنا التامة (أنا) أى على ما لنا من العظمة (حملنا ذريتهم) أى آباءهم الاصول قال البغوى واسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الاولاد والالف واللام فى قوله تعالى (فى الفلك) للتعريف أى فلك نوح عليه الصلاة والسلام وهو مذكور فى قوله تعالى واصنع الفلك باعيننا وهو معلوم عند العرب ثم وصف الفلك بقوله تعالى (المشحون) اى الموقر المملوء حيوانا وناسا وهو يتقلب فى تلك المياه التى لم ير أحد قط مثلها ولا يرى أيضا ومع ذلك فسلمها الله تعالى وأيضا الآدمى يرسب فى الماء ويغرق فحمله فى الفلك وقع بقدرته تعالى لكن من الطبيعيين من يقول الخفيف لا يرسب لانه يطلب جهة فوق فقال الفلك المشحون أثقل من الثقال التى ترسب ومع هذا حمل الله الانسان فيه مع ثقله وقال أكثر المفسرين ان الذرية لا تطلق الا على الولد وعلى هذا فالمراد اما أن يكون الفلك المعين الذى كان لنوح عليه الصلاة والسلام واما ان يكون المراد الجنس كقوله تعالى وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون وقوله تعالى وترى الفلك فيه مواخر وقوله تعالى فاذا ركبوا فى الفلك الى غير ذلك من استعمال لام التعريف فى الفلك لبيان الجنس فان كان المراد سفينة نوح عليه السلام

ففيه وجوه الاول ان المراد حملنا أولادهم الى يوم القيامة فى ذلك الفلك ولولا ذلك ما بقى للاب نسل ولا عقب وعلى هذا فقوله تعالى حملنا ذريتهم اشارة الى كمال النعمة أى لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية الى أعقابكم الى يوم القيامة وهذا قول الزمخشرى قال ابن عادل ويحتمل أن يقال انه تعالى انما خص الذرية بالذكر لان الموجودين كانوا كفارا لا فائدة فى وجودهم فقال تعالى حملنا ذريتهم أى لم يكن الحمل حملا لهم وانما كان حملا لما فى أصلابهم من المؤمنين كمن حمل صندوقا لا قيمة له وفيه جواهر قيل انه لم يحمل الصندوق وانما حمل ما فيه ثانيها ان المراد بالذرية الجنس أى حملنا أجناسهم لان ذلك الحيوان من جنسه ونوعه والذرية تطلق على الجنس ولذلك تطلق على النساء لنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل الذرارى أى النساء لان المرأة وان كانت صنفا غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه يقال ذراريّنا أى أمثالنا ثالثها أن الضمير فى قوله تعالى وآية لهم الليل للعباد وكذا وآية لهم انا حملنا ذريتهم واذا علم هذا فكأنه تعالى قال وآية للعباد أنا حملنا ذرية العباد ولا يلزم أن يكون المراد بالضمير فى الموضعين أشخاصا معينين كقوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم ويذيق بعضكم بأس بعض ولذلك اذا تقاتل قوم ومات الكل فى القتال فقال هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم فهم فى الموضعين يكون عائدا الى القوم ولا يكون المراد أشخاصا معينين بل المراد ان بعضهم قتل بعضهم فكذلك قوله تعالى وآية لهم أى آية لكل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم أو ذرية بعض منهم وان قلنا المراد جنس الفلك قال ابن عادل وهو الاظهر لان سفينة نوح عليه السلام لم تكن بحضرتهم ولم يعلموا من حمل فيها فأما جنس الفلك فانه ظاهر لكل أحد وقوله تعالى فى سفينة نوح عليه السلام وجعلناها آية للعالمين أى بوجود جنسها ومثلها ويؤيده قوله تعالى ألم تر ان الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى وآية لهم الارض الميتة وآية لهم الليل ولم يقل وآية لهم الفلك (أجيب) بأن حملهم فى الفلك هو العجب أما نفس الفلك فليس بعجيب لانه كبيت مبنى من خشب وأما نفس الارض فعجيب ونفس الليل فعجيب لاقدرة لاحد عليهما الا الله (فان قيل) قال تعالى وحملناكم فى البر والبحر ولم يقل ذريتكم مع أن المقصود فى الموضعين بيان النعمة لادفع النقمة (أجيب) بأنه تعالى لما قال فى البر والبحر عم الخلق جميعا لان مامن أحد الا وحمل فى البر والبحر وأما الحمل فى البحر فلم يعم فقال ان كنا حملناكم بانفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره من الاولاد والاقارب والاخوان والاصدقاء وقرأ نافع وابن عامر بألف بعد الياء التحتية وكسر الفوقانية على الجمع والباقون بغير ألف وفتح الفوقانية على الافراد واختلف فى تفسير قوله تعالى (وخلقنا لهم من مثله) أى من مثل الفلك (ما يركبون) فقال ابن عباس يعنى الابل فالابل فى البر كالسفن فى البحر وقيل أراد به السفن التى عملت بعد سفينة نوح عليه السلام على هيأتها وقال قتادة والضحاك وغيرهما أراد به السفن الصغار التى تجرى فى الانهار كالفلك الكبار فى البحار (وان نشأ) أى لا جل مالنا من القوة الشاملة والقدرة التامة (نغرقهم) أى مع أن هذا الماء الذى يركبونه ليس

كالماء الذى حملنا فيه آباءهم (فلا صريخ لهم) أى مغيث لهم لينجيهم مما ريدبهم من الغرق أو فلا اغاثة كقولهم أتاهم الصريخ (ولاهم) اى بانفسهم من غير صريخ (ينقذون) أى يكون لهم انقاذ أى خلاص لانفسهم أو غيرها (الارحمة) أى فنحن ننقذهم ان شئنا رحمة (منا) أى لهم لا وجوبا علينا ولا لمنفعة تعود منهم الينا (ومتاعا) أى وتمتيعنا اياهم بلذاتهم (الى حين) أى الى انقضاء آجالهم (واذا قيل لهم) أى من أى قائل كان (اتقوا ما بين أيديكم) أى من عذاب الدنيا كغيركم (وما خلفكم) من عذاب الآخرة (لعلكم ترحمون) تعاملون معاملة المرحوم بالاكرام وقال ابن عباس رضى الله عنهما ما بين ايديكم يعنى الآخرة فاعملوا لها وما خلفكم يعنى الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها وقال قتادة ومقاتل ما بين أيديكم وقائع الله فيمن كان قبلكم من الامم وما خلفكم عذاب الآخرة (تنبيهان) أحدهما الارحمة منصوب على المفعول له وهذا مستثنى مفرغ وقيل مستثنى منقطع وقيل على المصدر بفعل مقدر وقيل على اسقاط الخافض أى الا برحمة والفاء فى قوله تعالى فلا صريخ لهم رابطة لهذه الجملة بما قبلها فالضمير فى لهم عائد على المغرقين ثانيهما جواب اذا محذوف تقديره أعرضوا يدل عليه قوله تعالى بعده الا كانوا عنها معرضين وعلى هذا فلفظ كانوا زائد (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) أى المحسن اليهم (الا كانوا) أى مع كونها من عند من غمرهم احسانه وعمهم فضله وامتنانه (عنها معرضين) أى دائما اعراضهم (واذا قيل لهم) أى من أى قائل كان (انفقوا) أى على من لا شئ له شكرا لله على ما أعطاكم قال صلى الله عليه وسلم هل ترزقون وتنصرون الا بضعفائكم انما يرحم الله تعالى من عباده الرحماء وبين تعالى أنهم يبخلون بما لا صنع لهم فيه بقوله تعالى (مما رزقكم الله) أى مما أعطاكم الله الذى له جميع صفات الكمال (قال الذين كفروا) أى ستروا وغطوا ما دلهم عليه أنوار عقولهم من الخيرات (للذين آمنوا) أى استهزاء بهم (أنطعم من لو يشاء الله) أى الذى له جميع العظمة كما زعمتم فى كل وقت يريده (أطعمه) وذلك أن المؤمنين قالوا الكفار مكة أنفقوا على المساكين مما زعمتم من أموالكم أنه لله سبحانه وتعالى وهو ما جعلوه لله من حروثهم وأموالهم قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه لكنا نظره لا يشاء ذلك فانه لم يطعمهم مما نرى من فقرهم فنحن أيضا لا نشاء ذلك موافقة ارادة الله تعالى فيه فتركوا التأدب مع الامر وأظهروا التأدب مع بعض ارادة الله المنهى عن الجرى معها والاستسلام لها وهذا مما تمسك به البخلاء يقولون لا نعطى من حرمه الله تعالى وهذا الذى يزعمونه باطل لان الله تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم ابتلاء فمنع الدنيا عن الفقير لا بخلا وأمر الغنى بالانفاق لا حاجة الى ماله ولكن ليبلوا الغنى بالفقير فيما فرض له فى مال الغنى فلا اعتراض لاحد فى مشيئة الله وحكمه فى خلقه وما كفاهم حتى قالوا لمن أرشدهم الى الخير (ان) أى ما (أنتم الا فى ضلال) أى محيط بكم (مبين) أى فى غاية الظهور وما دروا ان الضلال انما هو لهم (فان قيل) قولهم من لو يشاء الله أطعمه كلام حق فلماذا ذكر فى معرض الذم (أجيب) بأن مرادهم كان الانكار لقدرة الله تعالى أو لعدم جواز الامر بالانفاق

مع قدرة الله تعالى وكلاهما فاسد فبين ذلك تعالى بقوله سبحانه مما رزقكم الله فانه يدل على قدرته ويصحح أمره بالاعطاء لان من كان له مع الغير مال وله فى خزانته مال مخير ان أراد اعطى مما فى خزانته وان أراد أمر من عنده المال بالاعطاء ولا يجوز أن يقول من فى يده ماله فى خزانتك أكثر مما فى يدى أعطه منه (فان قيل) ما الحكمة فى تغيير اللفظ فى جوابهم حيث لم يقولوا أننفق على من لو يشاء الله رزقه لانهم أمروا بالانفاق فكان جوابهم ان يقولوا أننفق فلم قالوا أنطعم (أجيب) بأن هذا بيان غاية مخالفتهم لانهم انما أمروا بالانفاق والانفاق يدخل فيه الاطعام وغيره فلم يأتوا بالانفاق ولا بأقل منه وهو الاطعام وهذا كقول القائل لغيره اعط زيدا دينارا فيقول لا أعطيه درهما مع أن المطابق هو أن يقول لا أعطيه دينارا ولكن المبالغة فى هذا الوجه اتم فكذلك هنا * (تنبيه) * انما وصفوا المؤمنين بأنهم فى ضلال مبين لظنهم أن كلام المؤمنين متناقض ومن تناقض كلامه يكون فى غاية الضلال قال الرازى ووجه ذلك أنهم قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه وهذا اشارة الى ان الله تعالى ان شاء أن يطعمهم فهو يطعمهم فكان الامر باطعامهم أمرا بتحصيل الحاصل وان لم يشأ اطعامهم لا يقدر أحد على اطعامهم لامتناع وقوع ما لم يشا الله فلا قدرة لنا على الاطعام فكيف تأمروننا به ووجه آخر وهو أنهم قالوا ان أراد الله تجويعهم فلو اطعمناهم يكون ذلك سعيا فى ابطال فعل الله تعالى وانه لا يجوز وأنتم تقولون اطعموهم فهو ضلال واعلم انه لم يكن فى الضلال الا هم حيث نظروا الى المراد ولم ينظروا الى الطلب والامر وذلك لان العبد اذا أمره السيد بأمر لا ينبغى الاطلاع على المقصود الذى لاجله أمر به مثاله اذا أراد الملك الركوب للهجوم على عدوه بحيث لا يطلع عليه أحد وقال للعبد أحضر المركوب فلو تطلع واستكشف المقصود الذى لاجله الركوب لتسبب الى ان يريد أن يطلع عدوه على الحذر منه وكشف سره فالادب فى الطاعة هو امتثال الامر لا تتبع المراد فالله سبحانه اذا قال أنفقوا مما رزقكم الله لا يجوز أن يقال لم لم يطعمهم الله مما فى خزائنه وقد تقدم ماله بهذا تعلق (ويقولون) أى عادة مستمرة مضمومة الى ما تقدم (متى هذا) وزادوا فى الاستهزاء بتسميته وعدا فقالوا (الوعد) أى البعث الذى تهددوننا به تارة تلويحا وتارة تصريحا عجلوه لنا (ان كنتم صادقين) فيه قال الله تعالى (ما ينظرون) أى ينتظرون (الا صيحة) وبين حقارة شأنهم وتمام قدرته بقوله عز وجل (واحدة) وهى نفخة اسرافيل عليه السلام الاولى المميتة (تأخذهم) وقوله تعالى (وهم يخصمون) قرأه حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد من خصم يخصم والمعنى يخصم بعضهم بعضا فالمفعول محذوف وأبو عمرو وقالون باخفاء فتحة الخاء وتشديد الصاد ونافع وابن كثير وهشام كذلك الا أنهم باختلاس فتحة الخاء والباقون بكسر الخاء وتشديد الصاد والاصل فى القراآت الثلاث يختصمون فأدغمت التاء فى الصاد فنافع وابن كثير وهشام نقلوا فتحتها الى الساكن قبلها نقلا كاملا وأبو عمرو وقالون اختلسا حركتها تنبيها على أن الخاء أصلها السكون والباقون حذفوا حركتها فالتقى ساكنان لذلك فكسروا أولهما فهذه أربع قراآت * ولما كانت هذه

هي النفخة المميتة تسبب عنها قوله تعالى (فلا يستطيعون توصية) أي يوجدون الوصية في شيء من الاشياء (ولا الى أهلهم) أي فضلا عن غيرهم (يرجعون) أي فيروا حالهم بل يموت كل واحد في مكانه حيث تفجؤه الصيحة ودعا أفهم التعبير بالى أنهم يريدون الرجوع فيخطون خطوة أو نحوها وفي الحديث لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يبيعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد رفع الرجل أكلته الى فيه فلا يطعمها * ولما دل ذلك على الموت قطعا عقبه بالبعث بقوله تعالى (ونفخ في الصور) أي القرن النفخة الثانية للبعث وبين النفختين أربعون سنة * ولما كان هذا النفخ سببا لقيامهم عنده من غير تخلف عبر تعالى بما يدل على التعقب والتسبب والفجأة بقوله تعالى (فاذاهم) أي حين النفخ (من الاجداث) أي القبور واحدها جدث المهيأة هي ومن فيها لسماع ذلك النفخ (فان قيل) كيف يكون ذلك الوقت أجداث وقد زلزلت الصيحة الجبال (أجيب) بأن الله تعالى يجمع أجزاء كل ميت في الذي قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدثه (الى ربهم) أي الى الموقف الذي أعده لهم من أحسن اليهم بالتربية (ينسلون) أي يسرعون المشي مع تقارب الخطا بقوة ونشاط فيالها من قدرة شاملة وحكمة كاملة حيث كان صوت واحد يحيي تارة ويميت أخرى (فان قيل) المسيء اذا توجه الى من أحسن اليه يقدم رجلا ويؤخر أخرى والنسلان سرعة المشي فكيف يوجد منهم (أجيب) بأنهم ينسلون من غير اختيارهم (فان قيل) قال في آية أخرى فاذاهم قيام ينظرون وقال ههنا فاذاهم من الاجداث الى ربهم ينسلون والقيام غير النسلان وقوله تعالى في الموضعين اذا هم يقتضي أن يكونا معا (أجيب) بأن القيام لا ينافي المشي السريع لان الماشي قائم ولا ينافي النظر وبان ذلك لسرعة الامور كان الكل في زمان واحد كقول القائل * مفر مكر مقبل مدبر معا * واعلم ان النفختين يورثان تزلزلا وانتقالا للاجرام فعند اجتماع الاجرام يفرقها وهو المراد بالنفخة الاولى وعند تفرق الاجرام يجمعها وهو المراد النفخة الثانية * ولما تشوقت النفوس الى ما يقولون اذا عاينوا ما كانوا ينكرون استأنف قوله تعالى (قالوا) اى الذين هم من أهل الويل (يا) للتنبيه (ويلنا) أي هلا كنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه (من بعثنا من مرقدنا) قال أبي بن كعب وابن عباس وقتادة انما يقولون هذا لان الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فاذا بعثوا بعد النفخة الاخيرة وعاينوا القيامة دعوا بالويل وقال أهل المعاني ان الكفار اذا عاينوا جهنم وأنواع عذابها دعوا بالويل وصار عذاب القبر في جنبها كالنوم فعدوا مكانهم الذي كانوا فيه مع ما كانوا فيه من عذاب البرزخ مرقدا هينا بالنسبة الى ما انكشف لهم من العذاب الاكبر فقالوا من بعثنا من مرقدنا (فان قيل) ما وجه تعلق من بعثنا من مرقدنا بقولهم يا ويلنا (أجيب) بأنهم لما بعثوا تذكروا ما كانوا يسمعون من الرسل عليهم الصلاة والسلام فقالوا يا ويلنا أبعثنا الله البعث الموعود به أم كنا نياما فنبهنا كما اذا كان الانسان موعودا بأن يأتيه عدو لا يطيقه ثم يرى رجلا هائلا يقبل عليه فيرتجف في نفسه ويقول أهذا ذاك أم لا ويدل على هذا قولهم من مرقدنا حيث جعلوا القبور

موضع الرقاد اشارة الى أنهم شكوا فى أنهم كانوا نياما فتنبهوا أو كانوا موتى فبعثوا وكان الغالب على ظنهم هو البعث فجمعوا بين الامرين وقالوا من مرقدنا اشارة الى متوهمهم احتمال الانتباه وقولهم (هذا) اشارة الى البعث (ما) أى الذى (وعد) أى به (الرحمن) أى العام الرحمة الذى رحمته مقتضية ولا بد للبعث لينصف المظلوم من ظالمه ويجازى كلا بعمله من غير حيف وقد رحمنا بارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام الينا بذلك وطالما أنذرونا حلوله وحذرونا صعوبته وطوله (وصدق) أى فى امره (المرسلون) أى الذين أتونا بوعد الله تعالى ووعيده * (تنبيه) * فى اعراب هذا وجهان أظهرهما انه مبتدأ ومابعده خبره ويكون الوقف تاما على قوله تعالى من مرقدنا وهذه الجملة حينئذ فيها وجهان أحدهما أنها مستأنفة اما من قول الله تعالى أو من قول الملائكة أو من قول المؤمنين الثانى أنها من كلام الكفار فتكون فى محل نصب بالقول الثانى من الوجهين الاولين هذا صفة لمرقدنا وماوعد منقطع عما قبله ثم فى ما وجهان أحدهما أنها فى محل رفع بالابتداء والخبر مقدر أى الذى وعده الرحمن وصدق المرسلون فيه حق عليكم واليه ذهب الزجاج والزمخشرى والثانى انه خبر مبتدا مضمر أى فى هذا الذى وعد الرحمن (ان) اى ما (كانت) أى النفخة التى وقع الاحياء بها (الاصيحة واحدة) أى كما كانت صيحة الاماتة واحدة (فاذاهم) أى فجأة من غير توقف أصلا (جميع) أى على حالة الاجتماع لم يتأخر منهم أحد (لدينا) أى عندنا (محضرون) ثم بين تعالى ما يكون فى ذلك اليوم بقوله تعالى (فاليوم لاتظلم نفس) أى أى نفس كانت مكروهة أو محبوبة (شيأ) أى لا يقع لها ظلم ما من أحد ما فى شئ ما (ولا تجزون) أى على عمل من الاعمال شيأ من الجزاء من أحد (الا ما كنتم تعملون) ديدنا لكم بما ركز فى جبلاتكم ثم بين تعالى حال المحسن بقوله تعالى (ان أصحاب الجنة) أى الذين لاحظ للنار فيهم (اليوم) أى يوم البعث وهذا يدل على انه يعجل دخولهم ودخول بعضهم اليها ووقوف الباقين للشفاعات ونحوها من الكرامات عند دخول أهل النار النار وعبر بما يدل على أنهم بكلياتهم مقبلون عليه ومطرقون له مع توجههم اليه بقوله (فى شغل) أى عظيم جدا لاتبلغ وصفه العقول كما كانوا فى الدنيا فى أشغل الشغل بالمجاهدات فى الطاعات وقرأ ابن عامر والكوفيون بضم الغين والباقون بالاسكان ثم بين ذلك الشغل بقوله (فاكهون) أى متلذذون فى النعمة واختلف فى هذا الشغل فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى افتضاض الابكار وقال وكيع بن الجراح رضى الله عنهما فى السماع وقال الكلبى فى شغل عن أهل النار وماهم فيه لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم وقال ابن كيسان فى زيارة بعضهم بعضا وقيل فى ضيافة الله تعالى فاكهون وقيل فى شغل عن هول اليوم يأخذون ما آتاهم الله تعالى من الثواب فما عندهم خبر من عذاب ولا حساب وقوله تعالى فاكهون متمم لبيان سلامتهم فانه لو قال فى شغل جاز أن يقال هم فى شغل أعظم من التفكر فى اليوم وأهواله فان من تصيبه فتنة عظيمة ثم يعرض عليه أمر من أموره أو يخبر بخسران وقع فى ماله يقول أنا مشغول عن هذا بأهم منه فقال فاكهون أى شغلوا عنه باللذة والسرور لا بالويل والثبور وقال ابن عباس رضى الله عنهما فاكهون

فرحون

فرحون * ولما كانت النفس لا يتم سرورها الا بالقرين الملائم قال تعالى (هم) أى
بظواهرهم وبواطنهم (وأزواجهم) أى أشكالهم الذين لهم فى غاية الملاءمة كما كانوا يتركونهم
فى المضاجع على ألذ ما يكون ويصفون أقدامهم فى خدمتنا وهم يبكون من خشيتنا وفى هذا
اشارة الى عدم الوحشة (فى ظلال) أى يجدون فيها بردا لاكبادو غاية المراد فلا تصيبهم الشمس
كما كانوا يشوون أكبادهم فى دار العمل بحر الصيام والصبر فى مرضاتنا على الآلام ويعرون
أيديهم وقلوبهم من الاموال ببذل الصدقات فى سبيلنا على ممر الليالى وكر الايام *(تنبيه)*
ظلال جمع ظل كشعاب أو ظلة كقباب ويؤيده قراءة حمزة والكسائى بضم الظاء ولا ألف بين
اللامين وهم مبتدأ وخبره فى ظلال كما قاله أبو البقاء * ولما كان التمتع لا يكمل الا مع العلو
الممكن من زيادة العلم الموجب لارتياح النفس وبهجة العين بانفساح البصر عند مد
النظر قال تعالى (على الارائك) أى السرر المزينة العالية التى هى داخل الحجال قال ثعلب
لا تكون أريكة حتى تكون عليها حجلة وقال ابن جرير الارائك الحجال فيها السرر وروى
أبو عبيدة فى الفضائل عن الحسن قال كنا لا ندرى ما الارائك حتى لقينا رجل من أهل اليمن
فأخبرنا أن الاريكة عندهم الحجلة فيها السرير وهذا جزاء لما كانوا يلزمون المساجد ويغضون
أبصارهم ويضعون نفوسهم لاجلنا (متكئون) كما كانوا يدأبون فى الاعمال قائمين بين
أيدينا فى أغلب الاحوال والاتكاء الميل على شق مع الاعتماد على ما يريح الاعتماد عليه او
الجلوس مع التمكن على هيئة المتربع وفى هذا اشارة الى الفراغ وقوله تعالى (لهم) أى خاصة
بهم (فيها فاكهة) اى لا تنقطع أبدا ولا مانع لهم من تناولها ولا يتوقف ذلك على غير الارادة
اشارة الى أن لا جوع هناك لان التفكه لا يكون لدفع الجوع (ولهم ما يدعون) أى يتمنون
(تنبيه) فى ما هذه ثلاثة أوجه موصولة اسمية نكرة موصوفة والعائد على هذين محذوف
مصدرية ويدعون مضارع ادعى افتعل من دعا يدعو وأشرب معنى التمنى وقال الزجاج
هو من الدعاء أى ما يدعونه أهل الجنة يأتيهم من دعوت غلامى فيكون الافتعال بمعنى الفعل
كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحل وقيل افتعل بمعنى تفاعل أى ما يتداعونه
كقولهم ارتموا وتراموا بمعنى واحد ثم فسر الذى يدعونه أى يطلبونه بغاية الاشتياق اليه
واستأنف الاخبار عنه بقوله تعالى (سلام) أى عظيم جدا عليكم يا أهل الجنة والسلام
يجمع جميع النعم ثم بين هذا السلام بما أظهر من عظمه بقوله (قولا من رب) أى دائم الاحسان
(رحيم) أى عظيم الاكرام بما ترضاه الالهية كما كانوا فى الدنيا يفعلون كل ما فيه الرضا
فيرحمهم فى حال السلام وسماع الكلام بلذة الرؤية مع التقوية على الدهش والضعف لعظيم
الامر وبالتأهيل لهذا المقام الاكرم مع قصورهم عنه روى جابر بن عبد الله قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم بينا أهل الجنة فى نعيمهم اذ سطع لهم نور فرفعوا رؤسهم فاذا الرب
عز وجل قد أشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة فينظر اليهم وينظرون
اليه فلا يلتفتون الى شئ من النعيم ما داموا ينظرون اليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته

عليهم في ديارهم وقيل تسلم عليهم الملائكة من ربهم لقوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم أي يقولون سلام عليكم يا أهل الجنة من ربكم الرحيم وقيل يعطيهم السلامة الابدية * ولما ذكر ما للمؤمنين من النعيم ذكر ما للكافرين من الجحيم بقوله تعالى (وامتازوا) أي ويقال للمجرمين امتازوا أي انفردوا (اليوم أيها المجرمون) عن المؤمنين عند اختلاطهم بهم قال الضحاك لكل كافر في النار بيت يدخل ذلك البيت فيردم بابه بالنار فيكون فيه أبد الآبدين لا يرى ولا يرى وقيل ان قوله تعالى وامتازوا أمر تكوين فحين يقول امتازوا اليوم فيميزون بسيماهم ويظهر على جباههم وفي وجوههم سواد كما قال تعالى يعرف المجرمون بسيماهم * ولما أمروا بالامتياز وشخصت منهم الابصار وكلحت الوجوه وتنكست الرؤس قال تعالى موبخا لهم (ألم أعهد اليكم) أي أوصيكم ايصاء عظيما بما نصبت من الادلة ومنحت من العقول وبعثت من الرسل عليهم الصلاة والسلام وأنزلت من الكتب في بيان الطريق الموصل الى النجاة * ولما كان المقصود بهذا الخطاب تقريعهم وتبكيتهم وكانت هذه السورة قلبا وكان القلب أشرف الاعضاء وكان الانسان أشرف الموجودات خصه بالخطاب بقوله تعالى (يا بني آدم) أي على لسان رسلي عليهم الصلاة والسلام واختلف في معنى هذا العهد على وجوه أقواها ألم أوص اليكم كما مر وقيل آمركم وقيل غير ذلك واختلفوا في هذا العهد أيضا على أوجه أظهرها أنه مع كل قوم على لسان رسلهم كما مر وقيل هو العهد الذي كان مع آدم في قوله تعالى ولقد عهدنا الى آدم وقيل هو الذي كان مع ذريته عليه السلام حين أخرجهم وقال ألست بربكم قالوا بلى (أن لا تعبدوا الشيطان) أي البعيد المحترق بطاعتكم فيما يوسوس به اليكم والطاعة قد تطلق على العبادة ثم علل النهي عن عبادته بقوله تعالى (انه لكم) والتأكيد لان أفعالهم أفعال من يعتقد صداقته (عدو مبين) أي ظاهر العداوة جدا من جهة عداوته لابيكم التي أخرجتكم من الجنة التي لا منزل أشرف منها ومن جهة امركم بما ينغص الدنيا من التخالف والخصام ومن جهة تزيينه للفاني الذي لا يرغب فيه عاقل لو لم يكن فيه عيب غير فنائه فكيف اذا كان أكثره أكدارا وأدناسا فكيف اذا كان شاغلا عن الباقي فكيف اذا كان عائقا عن المولى فكيف اذا كان مغضبا له حاجبا عنه (فان قيل) اذا كان الشيطان عدوا للانسان فما بال الانسان يقبل على ما يرضيه من الزنا والشرب ونحو ذلك ويكره ما يسخطه من المجاهدة والعبادة ونحو ذلك (أجيب) بأنه يستعين عليه باعوان من عند الانسان وترك استعانة الانسان بالله تعالى فيستعين بشهوته التي خلقها الله تعالى فيه لصالح بقائه وبقاء نوعه ويجعلها سببا لفساد حاله ويدعوه بها الى مسالك المهالك وكذا يستعين بغضبه الذي خلقه الله تعالى فيه لدفع المفاسد عنه ويجعله سببا لوباله وفساد أحواله وميل الانسان الى المعاصي كميل المريض الى المضار وذلك حيث ينحرف المزاج عن الاعتدال فترى المحموم يريد الماء البارد وهو يزيد في مرضه ومن معدته فاسدة لا تهضم القليل من الغذاء يميل الى الاكل الكثير ولا يشبع بشيء وهو يزيد فساد معدته وصحيح المزاج لا يشتهي الا ما ينفعه * ولما منع من عبادة الشيطان

امر بعبادة الرحمن بقوله عاطفا على أن لا (وأن اعبدوني) أي وحدوني وأطيعوني (هذا) أي الامر بعبادتي (صراط) أي طريق (مستقيم) أي بليغ الاستقامة وعبادة الشيطان طريق ضيق معوج غاية الضيق والعوج وقرأ قنبل بالسين وخلف بالاشمام أي بين الصاد والزاي والباقون بالصاد ثم ذكر ما نبه لعداوة الشيطان بقوله تعالى (ولقد أضل منكم) أي عن الطريق الواضح السوي بما سلطه به من الوسوسة (جبلا) أي أمما كبارا عظاما كانوا كالجبال في قوة العزائم وصعوبة الانقياد ومع ذلك كان يلعب بهم كما تلعب الصبيان بالكرة فسبحان من أقدره على ذلك والافهو أضعف كيدا وأحقر أمرا وقرأ نافع وعاصم بكسر الجيم والباء الموحدة وتشديد اللام مع التنوين وقرأ أبو عمرو وابن عامر بضم الجيم وسكون الموحدة والباقون بضم الجيم والموحدة وكلها لغات ومعناها الخلق والجماعة أي خلقا (كثيرا) ثم زاد في التوبيخ والانكار بقوله تعالى (أفلم تكونوا تعقلون) أي عداوته واضلاله وما حل بهم من العذاب فتؤمنوا ويقال لهم في الآخرة (هذه جهنم) أي التي تستقبلكم بالعبوسة والتجهم كما كنتم تفعلون بعبادي الصالحين (التي كنتم توعدون) أي ان لم ترجعوا عن غيكم (اصلوها) أي قاسوا حرها وتوقدها وهول أمر ذلك اليوم فان ذكره على حد ما مضى بقوله تعالى (اليوم) ليكونوا في شغل شاغل كما كان أصحاب الجنة وشتان ما بين الشغلين (بما) أي بسبب ما (كنتم تكفرون) أي تسترون ما هو ظاهر جدا بعقولكم من آياتي في دار الدنيا * (تنبيه) * في هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحزنهم من ثلاثة أوجه أحدها قوله تعالى اصلوها أمر تنكيل واهانة كقوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم ثانيها قوله تعالى اليوم يعني العذاب حاضر ولذاتهم قد مضت وبقي اليوم العذاب ثالثها قوله تعالى بما كنتم تكفرون فان الكفر والكفران ينبئ عن نعمة كانت فكفر بها وحياء الكفور من المنعم أشد الآلام كما قيل

أليس بكاف لذي همة * حياء المسيء من المحسن

* ولما كان كأنه قيل هل يحكم في ذلك اليوم بعلمه أو يجري الامر على قاعدة الدنيا في العمل بالبينة نبه على أظهر من قواعد الدنيا بقوله تعالى مهولا (اليوم) على النسق الماضي في مظهر العظمة لانه الميق بالتهويل (نختم) أي بما لنا من عظيم القدرة (على أفواههم) أي الكفار لاجترائهم على الكذب كقوله سبحانه والله ربنا ما كنا مشركين (وتكلمنا أيديهم) أي بما عملوا اقرارا هو اعظم شهادة (وتشهد أرجلهم) أي عليهم بكلام بين هو مع كونه شهادة اقرار (بما كانوا) أي في الدنيا بجبلاتهم (يكسبون) فكل عضو ينطق بما صدر عنه فالآية من الاحتباك أثبت الكلام للايدي أولا لانها كانت مباشرة دليلا على حذفه من حيز الارجل ثانيا وأثبت الشهادة للارجل ثانيا لانها كانت حاضرة دليلا على حذفها من حيز الايدي أولا وتقريبه ان قول المباشر اقرار وقول الحاضر شهادة وفي كيفية هذا الختم وجهان أقواهما أن الله تعالى يسكت ألسنتهم وينطق جوارحهم فتشهد عليهم وان ذلك في قدرة الله تعالى يسير أما الاسكات فلا خفاء فيه وأما الانطاق فان اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة فجاز تحريك غيره

عنها والله سبحانه قادر على كل الممكنات والوجه الآخر أنهم لا يتكلمون بشيء لانقطاع أعذارهم وانهتاك أستارهم فيقفون ناكسي الرؤس لا يجدون عذرا فيعتذرون ولا مجال توبة فيستغفرون وتكلم الايدي هو ظهور الامر بحيث لا يسع منه الانكار كقول القائل الحيطان تبكي على صاحب الدار اشارة الى ظهور الحزن والصحيح الاول لما روى أبو هريرة ان ناسا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا يا رسول الله قال فهل تضارون في رؤية الشمس عند الظهيرة ليست في سحاب قالوا لا يا رسول الله قال والذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم كما لا تضارون في رؤيتهما قال فيلقى العبد فيقول ألم أكرمك ألم أسودك ألم أزوجك ألم أسخر لك الخيل والابل وأتركك تترايد وتتراءع قال بلى يا رب قال فظننت أنك ملاقي فيقول لا يا رب فيقول اليوم أنساك كما نسيتني الى أن قال ثم يلقى الثالث فيقول ما أنت فيقول أنا عبدك آمنت بك وبنبيك وبكتابك وصمت وصليت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع ثم قال فيقال له أفلا نبعث عليك شاهدنا قال فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليه فيختم على فيه فيقال لفخذه انطق قال فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل قال وذلك المنافق وذلك ليعذر من نفسه وذلك الذي سخط الله عليه ولما روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال هل تدرون مم أضحك قال قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه قال يقول العبد يا رب ألم تجرني من الظلم فيقول بلى فيقول فاني لا أجيز على نفسي الا شاهدا مني فيقول تعالى كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا فيختم على فيه ويقول لاركانه انطقي فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل وقال صلى الله عليه وسلم أول ما يسئل من أحدكم فخذه وكفه * (تنبيه) * ههنا سؤالات الاول ما الحكمة في اسناده الختم الى نفسه وقال نختم وأسند الكلام والشهادة الى الايدي والارجل الثاني ما الحكمة في جعل الكلام للايدي والشهادة للارجل الثالث أن يوم القيامة من تقبل شهادته من المقربين والصديقين كلهم أعداء للمجرمين وشهادة العدو على العدو غير مقبولة وان كان عدلا وغير الصديقين من الكفار والفساق لا تقبل شهادتهم والايدي والارجل صدرت الذنوب عنها فهي فسقة فينبغي أن لا تقبل شهادتهم أجيب عن الاول بأنه لو قال نختم على أفواههم وتنطق أيديهم لاحتمل أن يكون ذلك جبرا وقهرا والاقرار بالاجبار غير مقبول فقال وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم أي بالاختيار بعد ما يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم وأجيب عن الثاني بأن الافعال تسند الى الايدي قال تعالى وما عملته أيديهم أي ما عملوه وقال تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة أي ولا تلقوا أنفسكم فاذن الايدي كالعاملة والشاهد على العامل ينبغي أن يكون غيره فجعل الارجل والجلود من الشهود لبعد اضافة الافعال اليهن وأجيب عن الثالث بأن الايدي والارجل ليسوا من أهل التكليف ولا ينسب اليها عدالة ولا فسق انما المنسوب من ذلك الى

العبد

العبد المكلف لا الى أعضائه ولا يقال ورد ان العين تزنى وان الفرج يزنى وان اليد كذلك لان
معناه ان المكلف يزنى بها لا انها هى تزنى وأيضا فانا نقول فى رد شهادتها قبول شهادتها لانها ان
كذبت فى مثل ذلك اليوم مع ظهور الامور لابد أن يكون مذنبا فى الدنيا وان صدقت فى ذلك
اليوم فقد صدر منها الذنب فى الدنيا وهذا كمن قال لفاسق ان كذبت فى نهار هذا اليوم فعبدى
حر فقال الفاسق كذبت فى نهار هذا اليوم عتق العبد لانه ان صدق فى قوله كذبت فى نهار
هذا اليوم فقد وجد الشرط ووقع الجزاء وان كذب فى قوله كذبت فقد كذب فى نهار ذلك اليوم
فقد وجد الشرط أيضا بخلاف ما لو قال فى اليوم الثانى كذبت فى نهار ذلك اليوم الذى علقت
عتق عبدك على كذبى فيه ثم بين سبحانه وتعالى انه قادر على اذهاب الابصار كما هو قادر على
اذهاب البصائر بقوله تعالى (ولو نشاء) وعبر بالمضارع ليتوقع فى كل حين فيكون أبلغ
فى التهديد (لطمسنا على أعينهم) أى الظاهرة بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق وهو معنى
الطمس كقوله تعالى ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم يقول انا أعمينا قلوبهم ولو شئنا
أعمينا أبصارهم الظاهرة وقوله تعالى (فاستبقوا الصراط) أى ابتدروا الطريق ذاهبين
كعادتهم عطف على لطمسنا (فأنى) أى فكيف (يبصرون) الطريق حينئذ وقد أعمينا
أعينهم أى لو نشاء لاضللناهم عن الهدى وتركناهم عميا يترددون فلا يبصرون الطريق وهذا
قول الحسن والسدى وقال ابن عباس ومقاتل معناه لو نشاء لطمسنا أعين ضلالتهم
فاعميناهم عن غيهم وحولنا أبصارهم من الضلالة الى الهدى فأبصروا وارشدهم فأنى يبصرون
ولم أفعل ذلك بهم * ولما كان هذا كما مع القدرة على الحركة قال تعالى (ولو نشاء) أى مسخهم
(لمسخناهم) أى حولناهم عن تلك الحالة فجعلناهم حجارة أو جعلناهم قردة وخنازير * ولما
كان المقصود من المفاجأة بهذه المصائب بيان انه سبحانه لا كلفة عليه فى شئ من ذلك قال تعالى
(على مكانتهم) أى المكان الذى كان قبل المسخ كل شخص منهم شاغلا له بجلوس أو قيام أو غيره
فى ذلك الموضع خاصة قبل أن يتحرك منه وقرأ شعبة بألف بعد النون على الجمع والباقون بغير
ألف على الافراد (فما استطاعوا) أى بأنفسهم بنوع معالجة (مضيا) أى الى جهة من
الجهات ثم عطف على جملة الشرط قوله تعالى (ولا يرجعون) أى يتجدد لهم بوجه من
الوجوه رجوع الى حالتهم التى كانت قبل المسخ دلالة على أن هذه الامور حق لا كما يقولون من
أنها خيال وسحر وقيل لا يقدرون على ذهاب ولا رجوع (ومن نعمره) أى نطل عمره اطالة كثيرة
(ننكسه) قرأه عاصم وحمزة بضم النون الاولى وفتح النون الثانية وتشديد الكاف مكسورة
من نكسه مبالغة والباقون بفتح النون الاولى وسكون الثانية وتخفيف الكاف مضمومة
من نكسه وهى محتملة للمبالغة وعدمها ومعنى ننكسه (فى الخلق) أى خلقه نرده الى أرذل
العمر يشبه الصبى فى الخلق وقيل ننكسه فى الخلق أى ضعف جوارحه بعد قوتها ونقصانها بعد
زيادتها لان الله تعالى أجرى العادة فى النوع الآدمى أن من استوفى سن الصبا والشباب
اثنتين وأربعين سنة حصت غرائزه فلا تزيد فيه غريزة ووقفت قواه كلها فلم يزد فيها شئ هذا

فى البدن وأما فى المعارف فتارة وتارة وهذا أيضا فى غير الانبياء عليهم السلام أما هم فلا ينقص شئ من قواهم بل تزداد كما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يمشى غير مكترث وأن الصحابة رضى الله عنهم يجهدون أنفسهم فيكون جهدهم أن لا يدركوا مشيه الهوينا وانه صلى الله عليه وسلم صارع ركانة الذى كان يضرب بقوته المثل وكان وانقا من نفسه أنه يصرع من صارعه فلم يملكه النبى صلى الله عليه وسلم نفسه وعاد الى ذلك ثلاث مرات كل ذلك لا يتمسك فى يده حتى خرج يقول ان هذا العجب يا محمد تصرعنى وحتى انه دار على نسائه وهن تسع كل واحدة منهن تسع مرات فى طلق واحد الى غير ذلك مما يحكى من قواه التى فاق بها الناس ولم يحك عن نبى من الانبياء عليهم السلام ممن عاش منهم ألفا وممن عاش دون ذلك انه نقص شئ من قواه بل قد ورد فى الصحيح من حديث أبى هريرة ان ملك الموت عليه السلام أرسل الى موسى عليه السلام ليقبض روحه فلما جاءه صكه ففقأ أعينه فقال لربه أرسلتنى لعبد لا يريد الموت قال ارجع اليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة قال أى رب ثم ماذا قال الموت قال فالآن وكان موسى وقت قبضه ابن مائة وعشرين سنة (أفلا يعقلون) اى أن القادر على ذلك عندهم قادر على البعث فيؤمنون وقرأ نافع وابن ذكوان بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة * ولما منح الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم غرائز من الفضائل مما عجز عنها الاولون والآخرون وأتى بقرآن أعجز الانس والجن وعلوم وبركات فاقت القوى ليس بشعر خلافا لما رموه به بغيا وكذبا وعدوانا قال تعالى (وما علمناه) أى نحن (الشعر) فيما علمناه وهو أن يتكلف النقيد بوزن معلوم وروى مقصود وقافية يلتزمها ويدير المعانى عليها ويجتلب الالفاظ تكلفا اليها كما كان زهير وغيره فى قصائدهم وما أنا من المتكلفين لان ذلك وان كنتم أنتم تعدونه فخرا لا يليق بجنابنا لانه لا يفرح به الا من يريد ترويج كلامه وتحليته بصوغه على وزن معروف مقصود وقافية ملتزمة على أن فيه نقيصة أخرى وهى أعظم ما يوجب النفرة عنه وهى أنه لا بد أن يوهى التزامه بعض المعانى ولما لم تعلمه هذه الدناءة طبعناه على جميع فنون البلاغة ومكناه من سائر وجوه الفصاحة ثم أسكنا قلبه ينابيع الحكمة ودربناه على القاء المعانى الجليلة بما ألهمناه اياه ثم ألقاه اليه جبريل عليه السلام مما أمرناه به من جوامع الكلم والحكم فلا تكلف عنده أصلا ما خير صلى الله عليه وسلم بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما أو قطيعة رحم ولما كان الشعر مع ما ينبنى عليه من التكلف الذى هو بعيد جدا عن سجايا الانبياء عليهم الصلاة والسلام فكيف شرفهم بما يكسب مدحا وهجوا فيكون أكثره كذبا الى غير ذلك قال تعالى (وما ينبغى له) أى وما يصح له الشعر ولا يسهل له على ما اختبرتم من طبعه نحوا من أربعين سنة لان منصبه أجل وهمته أعلى من أن يكون مداحا أو عيابا أو أن يقصد بما قد يجر نقيصة فى المعنى وجبلته منافية لذلك غاية المنافاة بحيث لو أراد نظم شعر لم يتأت له كما جعلناه أميا لا يكتب ولا يحسب لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض وما كان يتزن له بيت شعر حتى اذا تمثل ببيت شعر جرى على لسانه منكسرا روى الحسن أن النبى

صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بهذا البيت * كفى بالشيب والاسلام للمرء ناهيا * فقال أبو بكر رضى الله عنه انما قال الشاعر * كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا * فقال عمر رضى الله عنه أشهد أنك رسول الله يقول الله عز وجل وما علمناه الشعر وما ينبغى له وعن ابن شريح قال قلت لعائشة رضى الله عنها أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشئ من الشعر قالت كان يتمثل من شعر عبد الله بن رواحة قالت وربما قال * ويأتيك بالاخبار من لم تزود * وفى رواية قالت كان الشعر أبغض الحديث اليه قالت ولم يتمثل بشئ من الشعر الا بيت أخى بنى قيس طرفة العبدى

ستبدى لك الايام ما كنت جاهلا * ويأتيك بالاخبار من لم تزود

فجعل يقول ويأتيك من لم تزود بالاخبار فقال أبو بكر ليس هكذا يا رسول الله فقال انى لست بشاعر ولا ينبغى لى وقيل معناه ما كان متأتيا له وأما قوله صلى الله عليه وسلم كما رواه مسلم والبخارى أنا النبى لا كذب * أنا ابن عبد المطلب وقوله كما رواه الشيخان أيضا

هل أنت الا اصبع دميت * وفى سبيل الله ما لقيت

فاتفاقى من غير تكلف وقصد منه الى ذلك وقد يقع مثله كثيرا فى تضاعيف المنثورات على أن الخليل ما عد المشطور من الرجز شعرا هذا وقد روى انه حرك الباءين فى قوله أنا النبى لا كذب وكسر التاء الاولى بلا اشباع وسكن الثانية من قوله هل أنت الا اصبع الخ وقيل الضمير للقرآن أى وما يصح أن يكون القرآن شعرا (فان قيل) لم خص الشعر بنفى التعليم مع أن الكفار كانوا ينسبون الى النبى صلى الله عليه وسلم أشياء من جملتها السحر والكهانة ولم يقل وما علمناه السحر وما علمناه الكهانة (أجيب) بأن الكهانة انما كانوا ينسبون النبى صلى الله عليه وسلم اليها عندما كان يخبر عن الغيوب وتكون كما يقول وأما السحر فكانوا ينسبونه اليه عند ما كان يفعل ما لا يقدر عليه الغير كشق القمر وتكليم الجذع والجرو وغير ذلك وأما الشعر فكانوا ينسبونه اليه عندما كان يتلو القرآن عليهم لكنه صلى الله عليه وسلم ما كان يتحدى الا بالقرآن كما قال تعالى ان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله الى غير ذلك ولم يقل ان كنتم فى شك من رسالتى فأخبروا بالغيوب أو اشبعوا الخلق الكثير بالشئ اليسير فلما كان تحديه صلى الله عليه وسلم بالكلام وكانوا ينسبونه الى الشعر عند الكلام خص الشعر بنفى التعليم * ولما نفى أن يكون ما أتى به من جنس الشعر قال تعالى (ان) أى ما (هو) أى هذا الذى آتاكم به (الا ذكر) أى شرف وموعظة (وقرآن) أى جامع للحكم كلها دنيا واخرى يتلى فى المحاريب ويكرر فى المتعبدات وينال بتلاوته والعمل به فوز الدارين والنظر الى وجه الله العظيم (مبين) أى ظاهر انه ليس من كلام البشر لما فيه من الاعجاز قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ان هو الا ذكر للعالمين كلهم ذكيهم وغبيهم بخلاف الشعر فانه مع نزوله عن بلاغته جدا انما ذكر للاذكياء جدا وقوله تعالى (لينذر) ضميره للنبى صلى الله عليه وسلم ويدل له قراءة نافع وابن عامر بالتاء الفوقية على الخطاب وقيل للقرآن ويدل له قراءة الباقين بالياء التحتية على الغيبة واختلف فى قوله تعالى (من كان حيا) على قولين أحدهما

أنّ المراد به المؤمن لانه حي القلب والكافر كالميت في أنه لا يتدبر ولا يتفكر قال تعالى أومن كان ميتا فأحييناه والثاني المراد به العاقل فهما فيعقل ما يخاطب به فان الغافل كالميت (ويحق) أي يجب ويثبت (القول) أي العذاب (على الكافرين) أي الفريقين في الكفر فانهم أموات في الحقيقة وان رأيتهم أحياء ويمكن أن تكون هذه الآية من الاحتباك حذف الايمان أولا لمادل عليه من ضده ثانيا وحذف الموت ثانيا لمادل عليه من ضده أولا وأفرد الضمير في الاول على اللفظ اشارة الى قلة السعداء وجمع في الثاني على المعنى اعلاما بكثرة الاشقياء (أولم يروا) أي يعلموا علما هو كالرؤية والاستفهام للتقرير والواو الداخلة عليها للعطف (انا خلقنا لهم) أي في جملة الناس (مما عملت أيدينا) أي مما تولينا احداثه ولم يقدر على احداثه غيرنا وذكر الايدي واسناد العمل اليها استعارة تفيد المبالغة في الاختصاص والتفرد في الاحداث كما يقول القائل عملت هذا بيدي اذا تفرد به ولم يشاركه فيه أحد (أنعاما) على علم منا بقواها ومقاديرها ومنافعها وطبائعها وغير ذلك من أمورها وانما خص الانعام بالذكر وان كانت الاشياء كلها من خلقه وايجاده لان الانعام أكثر أموال العرب والنفع بها أعم (فهم لها مالكون) أي خلقناها لاجلهم فملكناهم اياها يتصرفون فيها تصرف الملاك أوفهم لها ضابطون قاهرون ومنه قول بعضهم

أصبحت لا أملك السلاح ولا * أملك رأس البعير ان نفرا
والذئب أخشاه ان مررت به * وحدي وأخشى الرياح والمطرا

والشاهد في قوله ولا أملك رأس البعير أي لا أضبطه والمعنى لم نخلق الانعام وحشية نافرة من بني آدم لا يقدرون على ضبطها بل خلقناها مذللة كما قال تعالى (وذللناها لهم) أي يسرنا قيادها ولو شئنا جعلناها وحشية كما جعلنا أصغر منها وأضعف فمن قدر على تذليل الاشياء الصعبة جدا لغيره قادر على تطويع الاشياء لنفسه ثم سبب عن ذلك قوله تعالى (فمنها ركوبهم) أي ما يركبون وهي الابل لانها أعظم مركوباتهم لعموم منافعها في ذلك وكثرتها (ومنها يأكلون) أي ما يأكلونه * ولما أشار الى عظمة نفع الركوب والاكل بتقديم الجار وكانت منافعها الغير ذلك كثيرة قال تعالى (ولهم فيها منافع) أي من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها ونسلها وغير ذلك (ومشارب) أي من البانها جمع مشرب بالفتح وخص الشرب من عموم المنافع بعموم نفعه وجمعه لاختلاف طعوم ألبان الانواع الثلاثة ولما كانت هذه الاشياء من العظمة بمكان لوفقدها الانسان لتكدرت معيشته تسبب عنها استئناف الانكار عليهم في تخلفهم عن طاعته بقوله تعالى (أفلا يشكرون) أي المنعم عليهم بها فيؤمنون ولما ذكرهم تعالى نعمه وحذرهم نقمه عجب منهم في سفول نظرهم وقبح أثرهم بقوله تعالى موبخا لهم (واتخذوا من دون) أي غير (الله) الذي له جميع صفات الكمال والعظمة (آلهة) أي أصناما يعبدونها بعد ما رأوا منه تعالى تلك القدرة الباهرة والنعم المتظاهرة وعلموا انه المنفرد بها (لعلهم ينصرون) أي رجاء أن ينصروهم فيما أحزنهم من الامور والامر بالعكس

كما قال تعالى (لا يستطيعون) أى الآلهة المتخذة (نصرهم) أى العابدين (وهم) أى العابدون (لهم) أى للآلهة (جند محضرون) أى الكفار جند للأصنام فيغضبون لها ويحضرونها فى الدنيا وهى لا تسوق لهم خيرا ولا تستطيع لهم نصرا وقيل هذا فى الآخرة يؤتى بكل معبود من دون الله تعالى ومعه أتباعه الذين عبدوه كأنهم جنده يحضرون فى النار وهذا كقوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وقوله تعالى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم * ولما بين تعالى ما تبين من قدرته الظاهرة الباهرة ووهن أمرهم فى الدنيا والآخرة ذكر ما يسلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (فلا يحزنك قولهم) أى فى تكذيبك كقولهم لست مرسلا (انا نعلم ما) أى كل ما (يسرون) أى فى ضمائرهم من التكذيب وغيره (وما يعلنون) أى يظهرونه بألسنتهم من الاذى وغيره من عبادة الاصنام فنجازيهم عليه * ولما ذكر تعالى دليلا على عظم قدرته ووجوب عبادته بقوله تعالى أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ذكر دليلا من الانفس أبين من الاول بقوله تعالى (أولم ير) أى يعلم (الانسان) علما هو فى ظهوره كالمحسوس بالبصر (انا خلقناه) أى بما لنا من العظمة (من نطفة) أى شئ حقير يسير من ماء لا انتفاع به بعد ابداعنا اياه من تراب وأنه من لحم وعظام (فاذا هو) أى فتسبب عن خلقناه من ذلك المفاجأة لحالة هى أبعد شئ من حالة النطفة وهى انه (خصيم) أى بليغ الخصومة (مبين) أى فى غاية البيان عما يريده حتى انه ليجادل من اعطاه العقل والقدرة فى قدرته وأنشد الاستاذ القشيرى فى ذلك

أعلمه الرماية كل يوم * فلما استد ساعده رمانى
وكم علمته علم القوافى * فلما قال قافية هجانى

وفى هذا تسلية ثانية بتهوين ما يقولونه بالنسبة الى انكارهم الحشر وفيه تقبيح بليغ لانكاره حيث تعجب منه وجعله افراطا فى الخصومة بينا ومنافاته لجحود القدرة على ما هو اهون مما عمله فى بدء خلقه ومقابلة النعمة التى لا مزيد عليها وهى خلقه من أخس شئ وأمهنه شريفا مكرما بالعقوق والتكذيب (وضرب) أى هذا الانسان (لنا) أى على ما يعلم من عظمتنا (مثلا) أى أمرا عجيبا وهو نفى القدرة على احياء الموتى روى ان أبى بن خلف الجمحى وهو الذى قتله النبى صلى الله عليه وسلم بأحد مبارزة اتى النبى صلى الله عليه وسلم بعظم بال يفتته بيده فقال أترى الله يحيى هذا بعد ما رم فقال صلى الله عليه وسلم نعم ويبعثك ويدخلك النار فنزلت وقيل هو العاصى بن وائل قاله الجلال المحلى وأكثر المفسرين على الاول (ونسى) أى هذا الذى تصدى على مهانة أصله لمخاصمة الجبار (خلقه) أى بدء أمره من المنى وهو أغرب من مثله والنسيان هنا يحتمل أن يكون بمعنى الذهول وأن يكون بمعنى الترك ثم استأنف الاخبار عن هذا المثل بأن (قال) أى على طريق الانكار (من يحيى العظام وهى رميم) أى صارت ترابا بمر مع الرياح ورميم قال البيضاوى بمعنى فاعل من رم الشئ صار اسما بالغلبة ولذلك لم يؤنث أو اسم مفعول من رممته وفيه دليل على أن العظم ذو حياة فيؤثر فيه الموت كسائر الاعضاء اه

قال البغوي ولم يقل رميمة لانه معدول عن فاعلة فكل ما كان معدولا عن وجهه ووزنه كان مصروفا عن اعرابه كقوله تعالى وما كانت أمك بغيا أسقط الهاء لانها مصروفة عن باغية *(تنبيه)* هذه الآية وما بعدها اشارة الى بيان الحشر لان المنكرين للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلا ولا شبهة بل اكتفى بمجرد الاستبعاد وهم الاكثرون أئذا ضللنا في الارض أئنا لفي خلق جديد أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون من يحيي العظام وهي رميم قالوا ذلك على طريق الاستبعاد فأبطل الله تعالى استبعادهم بقوله تعالى ونسي خلقه أي نسي انا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الاجزاء ثم جعلنا لهم من النواصي الى الاقدام أعضاء مختلفة الصورة وما اكتفينا بذلك حتى أودعناهم ماليس من قبيل هذه الاجرام وهو النطق والعقل اللذان بهما استحقوا الاكرام فان كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة مذرة لم تكن محلا للحياة أصلا ويستبعدون اعادة النطق والعقل الى محل كانا فيه واختاروا العظم بالذكر لانه أبعد عن الحياة لعدم الاحساس فيه ووصفوه بما يقوي جانب الاستبعاد من البلاء والتفتت والله تعالى دفع استبعادهم من جهة ما في العبد من القدرة والعلم فقال وضرب لنا مثلا أي جعل قدرتنا كقدرتهم ونسي خلقه العجيب وبدأه الغريب ومنهم من ذكر شبهة وان كان في آخرها يعود الى مجرد الاستبعاد وهي على وجهين الاول انه بعد العدم لم يبق شيأ فكيف الحكم على العدم بالوجود فأجاب تعالى عن هذه الشبهة بأن قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أي لهؤلاء البعداء البغضاء (يحييها) أي بعد أن أنشأها أول مرة (الذي أنشأها) أي من العدم ثم أحياها (أول مرة) فكما خلق الانسان ولم يكن شيأ مذكورا كذلك يعيده وان لم يبق شيأ مذكورا الوجه الثاني ان من تفرقت أجزاؤه في مشارق العالم ومغاربه وصار بعضها في أبدان السباع وبعضها في حواصل الطيور وبعضها في جدران الربوع كيف تجتمع وأبعد من هذا لو أكل انسان انسانا وصار أجزاء المأكول في أجزاء الآكل فان أعيدت أجزاء الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه واما أن تعاد الى بدن المأكول فلا يبقى للآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية وفي المأكول كذلك فاذا أكل انسان انسانا صار الاصلي من أجزاء المأكول فضليا من أجزاء الآكل والاجزاء الاصلية للآكل هي ما كان قبل الاكل فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله (وهو بكل خلق) أي مخلوق (عليم) أي يجمع الاصل من الفضل فيجمع الاجزاء الاصلية للآكل ويجمع الاجزاء الاصلية للمأكول وينفخ فيه روحه وكذلك يجمع أجزاءه المتفرقة في البقاع المتبددة بحكمته وقدرته ثم انه تعالى عاد الى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم وابطال انكارهم بقوله تعالى (الذي جعل لكم) أي في جملة الناس (من الشجر الاخضر) أي الذي تشاهدون فيه الماء (نارا) قال ابن عباس هما شجرتان يقال لاحداهما المرخ والاخرى العفار الاول بفتح الميم وسكون الراء والخاء المعجمة شجر سريع الوري أي القدح والثاني بفتح المهملة وفاء وراء بعد ألف الزند فمن أراد منهما النار قطع منهما غصنين مثل

السواكين وهما أخضران يقطران الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فيخرج منهما النار باذن الله تعالى وتقول العرب فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار وقال الحكماء فى كل شجر نار الا العناب (فاذا أنتم) أى فتسبب عن ذلك مفاجاتكم لانه (منه) أى من الشجر الموصوف بالخضرة (توقدون) أى توجدون الايقاد وتجددلكم ذلك مرة بعد أخرى وهذا أدل على القدرة على البعث فانه جمع فيه بين الماء والنار والخشب فلا الماء يطفئ النار ولا النار تحرق الخشب ثم ذكر ماهو أعظم من خلق الانسان فقال تعالى (أوليس الذى خلق) أى أوجد من العدم (السموات والارض) أى على كبرهما وعظم مافيهما من المنافع والمصانع والعجائب والبدائع وأثبت الجار تحقيقا للامر وتأكيدا للتقرير فقال تعالى (بقادر على أن يخلق مثلهم) أى مثل هؤلاء الاناسى فى الصغر أى يعيدهم باعيانهم وقيل الضمير يعود على السموات والارض لتضمنهم من يعقل والاول أظهر لانهم المخاطبون وقوله تعالى (بلى) جواب ليس وان دخل عليها الاستفهام لمصيرها ايجابا أى هو قادر على ذلك أجاب نفسه تعالى (وهو) مع ذلك أى مع كونه عالما بالخلق (الخلاق) أى الكثير الخلق (العليم) أى البالغ فى العلم الذى هو منشأ القدرة فلا يخفى عليه كلى ولا جزئى فى ماض ولا حال ولا مستقبل شاهدا أو غائب * ولما تقرر ذلك انتج قوله تعالى مؤكدا لاجل انكارهم القدرة على البعث (انما أمره) أى شأنه ووصفه (اذا أراد شيأ) أى خلق شئ من جوهر أو عرض أى شئ كان (أن يقول له كن) أى أن يريده (فيكون) أى يحدث وهو تمثيل لتأثير قدرته فى مراده بأمر المطاع للمطيع فى حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار الى مزاولة عمل واستعمال آلة قطعا لمادة الشبهة وهو قياس قدرة الله تعالى على قدرة الخلق وقرأ ابن عامر والكسائى بنصب النون عطفا على يقول والباقون بالرفع أى فهو يكون * ولما كان ذلك تسبب عنه المبادرة الى تنزيهه تعالى عما ضربوه له من الامثال فلذلك قال (فسبحان) أى تنزه عن كل شائبة نقص تنزها لا يبلغ افهامكم كنهه وعدل عن الضمير الى وصف يدل على غاية العظمة فقال (الذى بيده) أى قدرته وتصرفه خاصة لابيد غيره (ملكوت كل شئ) أى ملكه التام وملكه ظاهرا وباطنا * ولما كان التقدير فمنه تبدؤون عطف عليه قوله تعالى (واليه) أى لا الى غيره (ترجعون) أى معنى فى جميع أموركم وحسا بالبعث لينصف بينكم فيدخل بعضا النار وبعضا الجنة وعن ابن عباس كنت لا أعلم ماروى فى فضل يس كيف خصت به فاذا به لهذه الآية وما رواه البيضاوى عنه صلى الله عليه وسلم أن لكل شئ قلبا وقلب القرآن يس وايما مسلم قرئ عنده اذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفا يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون قبض روحه وغسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه وايما مسلم قرأ يس وهو فى سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان بشربة من الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبض روحه وهو ريان ويمكث فى قبره وهو ريان ولا يحتاج الى حوض من حياض الانبياء حتى يدخل الجنة وهو

ريان حديث موضوع وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يس في ليلة أصبح مغفوراله وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف عنهم يومئذ وكان له بعدد من فيها حسنات وعن يحيى بن أبي كثير قال بلغنا ان من قرأ يس حين يصبح لم يزل في فرح حتى يمسى ومن قرأها حين يمسى لم يزل في فرح حتى يصبح

(سورة الصافات مكية)

وهي مائة واثنان وثمانون آية وثمانمائة وستون كلمة وثلاثة آلاف وثمانمائة وستة وعشرون حرفا

(بسم الله) الذي له الكمال المطلق (الرحمن) الذي من رحمته العدل في الدارين (الرحيم) الذي لايدنو من جنابه نقص واختلف في تفسير قوله تعالى (والصافات صفا) أي وهو ترتيب الجمع على خط فقال ابن عباس والحسن وقتادة هم الملائكة في السماء يصفون كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة وعن جابر بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تصفون كصفوف الملائكة عند ربهم قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم قال يتمون الصفوف المتقدمة ويتراصون في الصف وقيل هي الملائكة تصف أجنحتها في الهواء واقفة حتى يأمرها الله تعالى بما يريد وقيل هي الطير تصف أجنحتها في الهواء لقوله تعالى والطير صافات واختلف أيضا في قوله تعالى (فالزاجرات زجرا) فأكثر المفسرين على أنها الملائكة تزجر السحاب وتسوقه وقال قتادة هي زواجر القرآن تنهى وتزجر عن القبيح واختلف أيضا في قوله تعالى (فالتاليات ذكرا) فالاكثر أيضا أنهم الملائكة عليهم السلام يتلون ذكر الله تعالى وقيل هم جماعة قراء القرآن (فان قيل) قال أبو مسلم الاصفهاني لايجوز حمل هذه الالفاظ على الملائكة لانها مشعرة بالتأنيث والملائكة عليهم السلام مبرؤن من هذه الصفة (أجيب) بوجهين الاول أن الصافات جمع الجمع فانه يقال جماعة صافة ثم تجمع على صافات والثاني أنهم مبرؤن من التأنيث المعنوي وأما التأنيث اللفظي فلا وكيف وهم يسمون بالملائكة مع أن علامة التأنيث حاصلة *(تنبيه)* اختلف الناس ههنا في المقسم به على قولين أحدهما أن المقسم به خالق هذه الاشياء لنهيه صلى الله عليه وسلم عن الحلف بغير الله تعالى ولان الحلف في مثل هذا الموضع تعظيم للمحلوف به ومثل هذا التعظيم لايليق الا بالله تعالى ففي ذلك اضمار تقديره ورب الصافات ورب الزاجرات ورب التاليات ومما يؤيد هذا أنه تعالى صرح به في قوله تعالى والسماء ومابناها والارض وماطحاها ونفس وماسواها والثاني وعليه الاكثر ان المقسم به هذه الاشياء لظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل وأما النهي عن الحلف بغير الله تعالى فهو نهي للمخلوق عن ذلك وأما قوله تعالى ومابناها فانه على لفظ القسم بالسماء ثم عطف عليه القسم بالباني للسماء ولو كان المراد بالقسم بالسماء القسم بباني السماء لزم التكرار في موضع واحد وهو لايجوز وأيضا لايبعد أن تكون الحكمة في قسم الله تعالى بهذه الاشياء التنبيه على شرف ذواتها وقال البيضاوي أقسم بالملائكة الصافين في مقام العبودية على مراتب باعتبارها تفيض عليهم أنوار

الهيبة منتظرين لامر الله الزاجرين للاجرام العلوية والسفلية بالتدبير المأمور فيها أو الناس عن المعاصي بالهام الخير أو الشياطين عن التعرض لهم التالين لآيات الله وجلايا قدسه على أنبيائه وأوليائه أو بطوائف الاجرام المترتبة كالصفوف المرصوصة والارواح المدبرة لها والجواهر القدسية المستغرقة في بحار القدس يسبحون الليل والنهار لا يفترون أو بنفوس العلماء الصادقين في العبارات الزاجرين عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح التالين آيات الله وشرائعه أو بنفوس الغزاة الصادقين في الجهاد الزاجرين للخيل والعدو والتالين ذكر الله لا يشغلهم عنه مباراة العدو وقال الزمخشري الفاء في فالزاجرات والتاليات اما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود كقوله يالهف زيابة للحرث الصابح فالغانم فالآيب أي الذي صبح فغنم فآب واما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك خذ الافضل فالاكمل واعمل الاحسن فالاجمل واما على ترتب موصوفاتها كقوله رحم الله المحلقين فالمقصرين والبيضاوي ذكر هذا حديثا قال شيخنا القاضي زكريا لم أره بهذا اللفظ اه لكنه لفضل المتقدم على المتأخر وهذا للعكس وقرأ أبو عمرو وحمزة بالادغام فيما ذكروا الباقون بالاظهار وجواب القسم (ان الهكم) أي الذي اتخذتم من دونه آلهة (لواحد) اذ لو لم يكن واحدا لاختل هذا الاصطفاف والزجر والتلاوة وما يترتب عليها فكان غير حكيم (فان قيل) ذكر الحلف في هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجهين الاول أن المقصود من هذا القسم اما اثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو الكافر فالاول باطل لان المؤمن مقر به من غير حلف والثاني باطل أيضا لان الكافر لا يقر به سواء حصل الحلف أو لم يحصل فهذا الحلف عديم الفائدة على كل تقدير الثاني أنه يقال أقسم في أول هذه السورة على أن الاله واحد وأقسم في أول سورة الذاريات على أن القيامة حق فقال والذاريات ذروا الى قوله انما توعدون لصادق وان الدين لواقع واثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف لا يليق بالعقلاء (أجيب) عن ذلك بأوجه أولها أنه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة في غالب السور بالدلائل اليقينية فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها بذكر القسم تأكيدا لما تقدم لاسيما والقرآن أنزل بلغة العرب واثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب ثانيها أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الاصنام في قولهم بأنها آلهة فكانه قيل ان هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة الى حيث يكفي في ابطاله مثل هذه الحجة ثالثها أنه تعالى لما أقسم بهذه الاشياء على صحة قوله تعالى ان الهكم لواحد عقبه بما هو الدليل اليقيني في كون الاله واحدا وهو قوله تعالى (رب) أي موجد ومالك ومدبر (السموات) أي الاجرام العالية (والارض) أي الاجرام السافلة (وما بينهما) أي من الفضاء المشحون بما يعجز عن عده القوى وذلك لانه تعالى بين في قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ان انتظام أحوال السموات والارض يدل على أن الاله واحد فههنا لما قال ان الهكم لواحد أردفه

بقوله رب السموات والارض وما بينهما كأنه قيل بينا أن النظر في انتظام هذا العالم يدل على أن الاله واحد فتأملوا ليحصل لكم العلم بالتوحيد *(تنبيه)* علم من قوله تعالى وما بينهما أنه تعالى خالق لاعمال العباد لان أعمالهم موجودة فيما بين السماء والارض وهذه الآية دلت على أن كل ما حصل بين السماء والارض فالله ربه ومالكه وهذا يدل على أن فعل العبد حصل بخلق الله تعالى (فان قيل) الاعراض لا يصح وصفها بأنها حصلت بين السماء والارض لان هذا الوصف انما يكون حاصلا في حيز وجهة والاعراض ليست كذلك (أجيب) بأنها لما كانت حاصلة في الاجسام الحاصلة بين السماء والارض فهي أيضا حاصلة بين السموات والارض (ورب المشارق) أي والمغارب وجمعها باعتبار جميع السنة فان الله تعالى خلق للشمس ثلثمائة وستين كوة في المشرق وثلثمائة وستين كوة في المغرب على عدد أيام السنة تطلع الشمس كل يوم من كوة منها وتغرب في كوة منها لا ترجع الى الكوة التي تطلع منها الى ذلك اليوم من العام المقبل وقيل كل موضع أشرقت عليه الشمس فهو مشرق وكل موضع غربت عليه فهو مغرب كأنه أراد جميع ما أشرقت عليه الشمس وقيل المراد بالمشارق مشارق الكواكب ومغاربها لان لكل كوكب مشرقا ومغربا (فان قيل) ان الله تعالى قال في موضع رب المشرق والمغرب وقال في موضع آخر رب المشرقين ورب المغربين فما الجمع بين هذه المواضع (أجيب) بأن المراد بقوله رب المشرق والمغرب الجهة فالمشرق جهة والمغرب جهة وبقوله تعالى رب المشرقين ورب المغربين مشرقا الشتاء والصيف ومغربا الشتاء والصيف وأما موضع الجمع فقد مر (فان قيل) لم اكتفى بذكر المشارق (أجيب) بوجهين الاول انه اكتفى به كقوله تعالى تقيكم الحر والثاني ان الشروق أقوى حالا من الغروب وأكثر نفعا منه فذكر المشرق تنبيها على كثرة احسان الله تعالى على عباده ولهذه الدقيقة استدل ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام بقوله ان الله يأتي بالشمس من المشرق (انا زينا) أي بعظمتنا التي لا تدانى (السماء) ولما كانوا لا يرون الا ما يليهم من السموات وكانت زينة النجوم ظاهرة فيها قال تعالى (الدنيا) اى التي هي أدنى السموات اليكم (بزينة الكواكب) أي بضوئها كما قاله ابن عباس أو بها وقرأ عاصم وحمزة بزينة بالتنوين والباقون بغير تنوين والاضافة للبيان كقراءة تنوين بزينة المبينة بالكواكب ونصب الباء الموحدة من الكواكب شعبة وكسرها الباقون (فان قيل) قد ثبت في علم الهيئة أن هذه الكواكب الثوابت مركوزة في الكرة الثامنة وان السيارات مركوزة في الكرات الستة المحيطة بسماء الدنيا فكيف يصح قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (أجيب) بأن الناس الساكنين على سطح كرة الارض ان نظروا الى السماء الدنيا فانهم يشاهدونها مزينة بهذه الكواكب فصح قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وقوله تعالى (وحفظا) منصوب بفعل مقدر أي حفظناها بالشهب أو معطوف على زينة باعتبار المعنى كأنه قال انا خلقنا الكواكب زينة للسماء الدنيا وحفظا (من كل شيطان) أي بعيد

عن الخير محترق (مارد) أى عات خارج عن الطاعة * ولما تشوف السامع الى معرفة هذا الحفظ وغرته وبيان كيفيته استأنف قوله تعالى (لا يسمعون) أى الشياطين المفهومون من كل شيطان (الى الملإ الأعلى) اى الملائكة أو أشرافهم فى السماء وعدى السماع بالى لتضمنه معنى الاصغاء مبالغة لنفيه وتهويلا لما يمنعهم عنه ويدل عليه قراءة حمزة والكسائى وحفص بفتح السين وتشديدها وتشديد الميم من التسمع وهو طلب السماع وقرأ الباقون بسكون السين وتخفيف الميم (ويقذفون) أى الشياطين يرمون بالشهب (من كل جانب) أى من آفاق السماء وقوله تعالى (دحورا) مصدر دحره أى طرده وأبعده وهو مفعول له وقيل هو جمع داحر نحو قاعد وقعود فيكون حالا بنفسه من غير تأويل وقيل غير ذلك (ولهم) أى فى الآخرة (عذاب) غير هذا (واصب) أى دائم وقال مقاتل أى دائم فى الدنيا الى النفخة الاولى وقوله تعالى (الا من خطف) فيه وجهان أحدهما أنه مرفوع المحل بدلا من ضمير لا يسمعون وهو أحسن لانه غير موجب والثانى أنه منصوب على أصل الاستثناء والمعنى أن الشياطين لا يسمعون الملائكة الا من خطف وقوله تعالى (الخطفة) مصدر معرف بأل الجنسية أو المعرفة ومعنى اختطف اختلاس الكلمة من كلام الملائكة مسارقة (فأتبعه) أى لحقه (شهاب) أى كوكب (ثاقب) أى مضىء قوى لا يخطئه يقتله أو يحرقه أو يثقبه أو يخبله * (تنبيه) * ههنا سؤالات أولها أن هذه الشهب التى يرمى بها هل هى من الكواكب التى زين الله السماء بها أم لا والاول باطل لانها تبطل وتضمحل فلو كانت تلك الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير فى اعداد كواكب السماء ولم يوجد ذلك فان اعداد كواكب السماء باقية لم تتغير البتة وأيضا فجعلها رجوما للشياطين مما يوجب وقوع النقصان فى زينة السماء الدنيا فكان الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض وان كانت هذه الشهب جنسا آخر غير الكواكب المركوزة فى الفلك فهو أيضا مشكل لانه تعالى قال فى سورة الملك ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فالضمير فى قوله وجعلناها عائد على المصابيح فوجب أن تكون تلك المصابيح هى المرجوم بها بأعيانها ثانيها كيف يجوز أن تذهب الشياطين حيث يعلمون أن الشهب تحرقهم ولا يصلون الى مقصودهم البتة وهل يمكن أن يصدر هذا الفعل من عاقل فكيف من الشياطين الذين لهم مزية فى معرفة الحيل الدقيقة ثالثها دلت التواريخ المتواترة على أن حدوث الشهب كان حاصلا قبل مجىء النبى صلى الله عليه وسلم ولذلك ترى الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجىء النبى صلى الله عليه وسلم بزمان طويل ذكروا ذلك وتكلموا فى سبب حدوثه واذا ثبت أن ذلك كان موجودا قبل مجىء النبى صلى الله عليه وسلم امتنع حمله على مجىء النبى صلى الله عليه وسلم رابعها الشيطان مخلوق من النار كما حكى عن قول ابليس لعنه الله تعالى خلقتنى من نار وقال تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم ولهذا السبب يقدر على الصعود الى السموات واذا كان كذلك فكيف يعقل احراق النار بالنار (أجيب) عن الاول بأن هذه الشهب غير تلك

الكواكب الثابتة وأما قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فنقول كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصباح لاهل الارض الا أن تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد ومنها مالا يكون كذلك وهي هذه الشهب التي يحدثها الله تعالى و يجعلها رجوما للشياطين الى حيث يعلمون ويهايزول الاشكال وعن الثاني بأن هذه الواقعة انما تتفق في الندرة فلعلها لا تشتهر بسبب ندرتها بين الشياطين وأجاب أبو علي الجبائي بأن حصول هذه الحالة ليس له موضع معين والالم يذهبوا اليه وانما يمنعون من المصير الى موضع الملائكة ومواضعها مختلفة فربما صاروا الى موضع تصيبهم الشهب وربما صاروا الى غيره ولا صادفوا الملائكة ولا تصيبهم الشهب فلما هلكوا في بعض الاوقات وسلموا في بعض الاوقات جاز أن يصيروا الى مواضع يغلب على ظنونهم أنهم لا تصيبهم الشهب فيها كما يجوز فيمن سلك البحر أن يسلكه في موضع يغلب على ظنه حصول النجاة وفي جواب أبي علي نظر اذ ليس في السماء موضع قدم الا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد وعن الثالث بأن الاقرب ان هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي صلى الله عليه وسلم لكن بقلة ولما جاء النبي صلى الله عليه وسلم وقعت بكثرة فصارت بسبب الكثرة معجزة وعن الرابع بأن الشياطين ليسوا من نار خالصة وعلى التنزل بأنهم من النيران الخالصة الا أنها نيران ضعيفة ونيران الشهب أقوى حالا منهم فلا جرم صار الاقوى مبطلا للاضعف الا ترى أن السراج الضعيف اذا وضع في النار القوية فانه ينطفئ فكذلك ههنا * ولما كان المقصود الاعظم من القرآن اثبات الاصول الاربعة وهي الالهيات والمعاد والنبوات واثبات القضاء والقدر افتتح الله سبحانه هذه السورة باثبات مايدل على الصانع وعلى علمه وقدرته وحكمته ووحدانيته وهو خالق السموات والارض ومابينهما ورب المشارق والمغارب ثم فرع عليها اثبات الحشر والنشر والقيامة وهو أن من قدر على ماهو أشق وأصعب وجب أن يقدر على ماهو دونه وهو قوله تعالى (فاستفتهم) أي سل كفار مكة أن يفتوك بأن يبينوا لك ماتسألهم عنه من انكارهم البعث وأصله من الفتوة وهي الكرم (أهم أشد) أي أقوى وأشق وأصعب (خلقا) أي من جهة احكام الصنعة وقوتها وعظمها (أم من خلقنا) أي من الملائكة والسموات والارض ومابينهما والمشارق والكواكب والشهب الثواقب * (تنبيه) * في الاتيان بمن تغليب للعقلاء وهو استفهام بمعنى التقرير أي هذه الاشياء أشد خلقا كقوله تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس وقوله تعالى أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها وقيل معنى أم من خلقنا أي من الامم الماضية لان لفظ من يذكر لمن يعقل والمعنى ان هؤلاء الامم ليسوا بأحكم خلقا من غيرهم من الامم الخالية وقد أهلكناهم بذنوبهم فمن الذي يؤمن هؤلاء من العذاب (انا خلقناهم) أي أصلهم آدم بعظمتنا (من طين) أي تراب رخو مهين (لازب) أي شديد اختلاط بعضه ببعض فالتصق وتخمر بحيث يعلق باليد وقال مجاهد والضحاك منتن فهو مخلوق من غير أب ولا أم وقرأ حمزة والكسائي (بل عجبت) بضم التاء والباقون بفتحها أما بالضم فباسناد التعجب الى الله تعالى وليس هو كالتعجب

من الآدميين كما قال تعالى فيسخرون منهم سخر الله منهم وقال تعالى نسوا الله فنسيهم فالعجب من الآدميين انكاره وتعظيمه والعجب من الله تعالى قد يكون بمعنى الانكار والذم وقد يكون بمعنى الاستحسان والرضا كما في الحديث عجب ربكم من شاب ليست له صبوة وفي حديث آخر عجب ربكم من ألكم وقنوطكم وسرعة اجابته اياكم قوله الكم الال أشد القنوط وقيل هو رفع الصوت بالبكا وسئل الجنيد عن هذه الآية فقال ان الله تعالى لا يعجب من شئ ولكن وافق رسوله صلى الله عليه وسلم فلما عجب رسوله قال تعالى وان تعجب فعجب قولهم أى هو كما تقوله وأما بالفتح فعلى أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أى عجبت من تكذيبهم اياك (ويسخرون) أى وهم يسخرون من تعجبك قال قتادة عجب نبي الله صلى الله عليه وسلم من هذا القرآن حين أنزل ومن ضلال بنى آدم وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يظن أن كل من سمع القرآن يؤمن به فلما سمع المشركون القرآن سخروا منه ولم يؤمنوا به عجب من ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال تعالى بل عجبت ويسخرون (واذا ذكروا) أى وعظوا بالقرآن (لا يذكرون) أى لا يتعظون (واذا رأوا آية) قال ابن عباس وقتادة يعنى انشقاق القمر (يستسخرون) أى يستهزؤن بها وقيل يستدعى بعضهم من بعض السخرية (وقالوا ان) أى ما (هذا الا سحر مبين) أى ظاهر في نفسه ومظهر لسخريته ثم خصوا البعث بالانكار اعلاما بأنه أعظم مقصود بالنسبة الى السحر فقالوا مظهرين له في مظهر الانكار (أئذا متنا) وعطفوا عليه ما هو موجب عندهم لشدة الانكار فقالوا (وكنا) أى كونا في غاية التمكن (ترابا) وقدموه لانه أدل على مرادهم لانه أبعد عن الحياة (وعظاما) كأنهم جعلوا كل واحد من الموت أو الكون الى الترابية المحضة والعظامية المحضة والمختلطة بهما مانعا من البعث وهذا بعد اعترافهم بأن ابتداء خلقهم كان من التراب ثم كرروا الاستفهام الانكارى على قراءة من قرأ به كما سيأتي بيانه زيادة في الانكار (فقالوا أئنا لمبعوثون) وقولهم (أو آباؤنا الاولون) عطف على محل ان واسمها أو على الضمير في مبعوثون فانه مفصول عنه بهمزة الاستفهام لزيادة الاستبعاد لبعد زمانهم وهذا بيان للسبب الذى حملهم على الاستهزاء بجميع المعجزات وهو اعتقادهم أن من مات وتفرقت أجزاؤه في العالم فما فيه من الارض اختلط بالارض وما فيه من المائية والهوائية اختلط ببخارات العالم فهذا الانسان كيف يعقل عوده بعينه حيا ثم انه تعالى لما حكى عنهم هذه الشبهة قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهؤلاء البعداء البغضاء (نعم) أى تبعثون على كل تقدير قدرتموه (وأنتم داخرون) أى مكرهون عليه صاغرون ذليلون وانما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب لانه ذكر في الآية المتقدمة البرهان القطعى على انه أمر ممكن واذا ثبت الجواز القطعى فلا سبيل الى القطع بالوقوع الا باخبار المخبر الصادق فلما قامت المعجزة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم كان واجب الصدق فكان مجرد قوله نعم دليلا قاطعا على الوقوع وقرأ متنا بضم الميم ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وكسرها الباقون وأما أئذا وأئنا فقرأ نافع والكسائى بالاستفهام في الاول والخبر في الثانى وابن

عامر بالخبر فى الاول والاستفهام فى الثانى والباقون بالاستفهام فيهما وسهل الهمزة الثانية فى الاستفهام نافع وابن كثير وأبو عمرو وحقق الباقون وأدخل فى الاستفهام الفابين الهمزتين قالون وأبو عمرو وهشام والباقون بغير ادخال وقرأ قالون وابن عامر أو آباؤنا بسكون الواو على انها أو العاطفة المقتضية للشك والباقون بفتحها على أنها همزة الاستفهام دخلت على واو العطف وقرأ الكسائى نعم بكسر العين وهو لغة فيه وقوله تعالى (فانما هى زجرة واحدة) جواب شرط مقدر أى اذا كان كذلك فانما البعثة زجرة أى صيحة واحدة هى النفخة الثانية من زجر الراعى غنمه اذا صاح عليها وأمرها فى الاعادة كأمرها بكن فى الابتداء ولذلك رتب عليها (فاذا هم ينظرون) أى أحياء فى الحال من غير مهلة ينظر بعضهم بعضا وقيل ينظرون ما يحدث لهم أو ينظرون الى البعث الذى كذبوا به ولا فرق بين من صار كله ترابا ومن لم يتغير أصلا ومن هو بين ذلك قال البقاعى ولعله خص النظر بالذكر لانه لا يكون الامع كمال الحياة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اذا قبض الروح تبعه البصر وأما السمع فقد يكون لغير الحى لانه صلى الله عليه وسلم قال فى الكفار من قتلى بدر ما أنتم بأسمع لما أقول منهم قال وشاهدت أنا فى بلاد العرب المجاورة لنابلس شجرة لها شوك يقال لها الغبيرا متى قيل عندها هات لى المنجل لاقطع هذه الشجرة أخذ ورقها فى الحال فى الذبول فانه سبحانه أعلم ما سبب ذلك اهـ *(تنبيه)* لاأثر للصيحة فى الموت ولا فى الحياة بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال تعالى الذى خلق الموت والحياة روى أن الله تعالى يأمر الملك اسرافيل فينادى أيتها العظام النخرة والجلود البالية والاجزاء المتفرقة اجتمعوا باذن الله تعالى (وقالوا) أى كل من جمعه البعث من الكفرة بعد القيام من القبور معلنين بما انكشف لهم من أنه لا ملازم لهم غير الويل (ياويلنا) أى هلاكنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه وقال الزجاج الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة وتقول لهم الملائكة (هذا يوم الدين) أى الحساب والجزاء (هذا يوم الفصل) أى بين الخلائق (الذى كنتم به تكذبون) وقيل هو أيضا من كلام بعضهم لبعض وقوله تعالى (احشروا) أى اجمعوا بكره وصغار (الذين ظلموا) أى ظلموا أنفسهم بالشرك أمر من الله تعالى للملائكة عليهم السلام وقيل أمر من بعضهم لبعض أى احشروا الظلمة من مقامهم الى الموقف * وقيل منه الى جهنم (وأزواجهم) أى وأشباههم عابد الصنم مع عبدة الصنم وعابد الكواكب مع عبدتها كقوله تعالى وكنتم أزواجا ثلاثة أى أشكالا وأشباها وقال الحسن وأزواجهم المشركات وقال الضحاك ومقاتل قرناؤهم من الشياطين وعلى هذا اقتصر الجلال المحلى أى يقرن كل كافر مع شيطانه فى سلسلة (وما كانوا يعبدون من دون الله) أى غيره فى الدنيا من الاوثان والطواغيت زيادة فى تحسيرهم وتخجيلهم ومثل الاوثان الذين رضوا بعبادتهم لهم ولم ينكروا عليهم ذلك ويأمروهم بعبادة الله تعالى الذى تفرد بنعوت العظمة وصفات الكمال وقال مقاتل يعنى ابليس وجنوده واحتج بقوله تعالى أن لا تعبدوا الشيطان (فاهدوهم الى صراط الجحيم) قال ابن عباس دلوهم الى طريق النار وقال ابن كيسان قدموهم قال البغوى والعرب

تسمى السائق هاديا قال الواحدى هذا وهم لانه يقال هدى اذا تقدم ومنه الهادية والهوادى وهاديات الوحش ولا يقال هدى بمعنى قدم (وقفوهم) أى احبسوهم قال البغوى قال المفسرون لما سيقوا الى النار حبسوا عند الصراط فقيل لهم قفوهم (انهم مسئولون) قال ابن عباس عن جميع أقوالهم وأفعالهم وروى عنه عن لا اله الا الله وقيل تسألهم خزنة جهنم عليهم السلام ألم يأتكم نذير أى رسل منكم جاؤكم بالبينات قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين وروى عن أبي برزة الاسلمى قال لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع عن عمره فيم أفناه وعلمه ماذا عمل به وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه وفى رواية وعن شبابه فيم أبلاه وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من داع دعا الى شئ الا كان موقوفا يوم القيامة لازما به وان دعا رجل رجلا ثم قرأ وقفوهم انهم مسئولون ويقال لهم توبيخا (مالكم) أى أى شئ حاصل لكم شغلكم وألهاكم حال كونكم (لا تناصرون) قال ابن عباس لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم فى الدنيا وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر نحن جميع منتصر فقيل لهم يوم القيامة مالكم لا تناصرون وقيل يقال للكفار ما الشركاء لكم لا يمنعونكم من العذاب ويقال عنهم (بل هم اليوم مستسلمون) قال ابن عباس خاضعون وقال الحسن منقادون يقال استسلم للشئ اذا انقاد له وخضع والمعنى هم اليوم اذلاء منقادون لا حيلة لهم فى دفع تلك المضار * ولما أخبر سبحانه وتعالى عنهم بانهم سئلوا فلم يجيبوا ربما كان يظن أنهم أخرسوا فنبه على أنهم يتكلمون بما يزيد تكذيبهم فقال عاطفا على قوله تعالى وقالوا ياويلنا (وأقبل بعضهم) أى الذين ظلموا (على بعض) أى بعد ايقافهم لتوبيخهم وعبر عن خصامهم تهكما بهم بقوله تعالى (يتساءلون) أى يتلاومون ويتخاصمون (قالوا) أى الاتباع منهم للمتبوعين (انكم كنتم تأتوننا عن اليمين) قال الضحاك أى من قبل الدين فتضلوننا عنه وقال مجاهد عن الصراط الحق واليمين عبارة عن الدين الحق كما أخبر الله تعالى عن ابليس لعنه الله تعالى ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم فمن أتاه الشيطان من قبل اليمين أتاه من قبل الدين فلبس عليه الحق واليمين ههنا استعارة عن الخيرات والسعادات لان الجانب الايمن أفضل من الجانب الايسر قال ابن عادل لا تباشر الاعمال الشريفة الا باليمين ويتفاءلون بالجانب الايسر وكان صلى الله عليه وسلم يحب التيامن فى شأنه كله وكاتب الحسنات من الملائكة على اليمين ووعد الله تعالى المؤمن أن يعطيه الكتاب باليمين وقيل ان الرؤساء كانوا يحلفون للمستضعفين أن ما يدعونهم اليه هو الحق فوثقوا بايمانهم وقيل عن اليمين عن القوة والقدرة كقوله تعالى لاخذنا منه باليمين (قالوا) أى المتبوعون لهم (بل لم تكونوا مؤمنين) أى وانما يصدق الاضلال منا أن لو كنتم مؤمنين فرجعتم عن الايمان الينا وانما الكفر من قبلكم (وما كان لنا عليكم من سلطان) أى قوة وقدرة حتى نقهركم ونجبركم على متابعتنا (بل كنتم قوما طاغين) أى ضالين مثلنا (فحق) أى وجب (علينا) جميعا (قول

ربنا) أى كلمة العذاب وهو قوله تعالى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين (انا) أى جميعا (لذائقون) أى العذاب بذلك القول ونشأ عنه قولهم (فأغويناكم) أى فاضللناكم عن الهدى ودعوناكم الى ما كنا عليه (انا كنا غاوين) أى ضالين فأحببتم أن تكونوا امثالنا وفيه ايماء بأن غوايتهم فى الحقيقة ليست من قبلهم اذ لو كان كل غواية باغواء غاو فمن أغوى الاول قال الله تعالى (فانهم) أى المتبوعين والاتباع (يومئذ) أى يوم القيامة (فى العذاب مشتركون) أى كما كانوا مشتركين فى الغواية (انا) أى بما لنا من العظمة والقدرة (كذلك) أى كما نفعل بهؤلاء (نفعل بالمجرمين) غير هؤلاء أى نعذبهم التابع منهم والمتبوع ثم وصفهم الله تعالى بقوله (انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون) أى يتكبرون عن كلمة التوحيد أو عمن يدعوهم اليها (ويقولون أئنا) فى الهمزتين مامر (لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم ثم ان الله تعالى كذبهم فى ذلك الكلام بقوله تعالى (بل جاء بالحق) أى الدين الحق (وصدق المرسلين) أى صدقهم فى مجيئهم بالتوحيد فأتى بما أتى به المرسلون من قبله ثم التفت من الغيبة الى الحضور فقال تعالى (انكم لذائقوا العذاب الاليم) ثم كأنه قيل كيف يليق بالرحيم الكريم المتعالى الغنى عن الضر والنفع أن يعذب عباده فأجاب بقوله تعالى (وما تجزون الا ما كنتم تعملون) أى جزاء عملكم وقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) أى المؤمنين استثناء منقطع وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام بعد الخاء أى ان الله تعالى أخلصهم واصطفاهم بفضله والباقون بالكسر أى انهم أخلصوا الطاعة لله تعالى وقوله (أولئك لهم) أى فى الجنة (رزق معلوم) أى بكرة وعشيا بيان لحالهم وان لم يكن ثم بكرة ولا عشية فيكون المراد منه معلوم الوقت وهو مقدار غدوة أو عشية وقيل معلوم الصفة أى مخصوص بصفات من طيب طعم ولذة وحسن منظر وقيل معناه انهم يتيقنون دوامه لا كرزق الدنيا الذى لا يعلم متى يحصل ومتى ينقطع وقيل معلوم القدر الذى يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله تعالى وقوله (فواكه) يجوز أن يكون بدلا من رزق وأن يكون خبر مبتدا مضمر أى ذلك الرزق فواكه وفى الفواكه جمع فاكهة قولان أحدهما أنها عبارة عما يؤكل للتلذذ لا للحاجة وأرزاق أهل الجنة كلها فواكه لانهم مستغنون عن حفظ الصحة بالاقوات فان أجسامهم محكمة مخلوقة للابد فكل ما يأكلونه فعلى سبيل التلذذ والثانى أن المقصود بذكر الفاكهة التنبيه بالادنى على الاعلى أى لما كانت الفاكهة حاضرة أبدا كان المأكول للغذاء أولى بالحضور (وهم مكرمون) أى فى نيله يصل اليهم من غير تعب وسؤال لا كما عليه رزق الدنيا * ولما ذكر مأكلهم ذكر مسكنهم بقوله تعالى (فى جنات النعيم) أى فى جنات ليس فيها الا النعيم وهو متعلق بمكرمون أو خبر ثان لأولئك أو حال من المستكن فى مكرمون وقوله تعالى (على سرر متقابلين) أى لا يرى بعضهم قفا بعض حال ويجوز أن يتعلق على سرر بمتقابلين * ولما ذكر سبحانه وتعالى المأكل والمسكن ذكر بعد ذلك صفة

المشرب بقوله تعالى (يطاف عليهم) أى على كل منهم (بكأس) أى باناء فيه خمر فهو اسم للاناء بشرابه فلا يكون كأسا حتى يكون فيه شراب والافهو اناء وقيل المراد بالكأس الخمر كقول الشاعر

وكأس شربت على لذة * وأخرى تداويت منها بها

أى رب كأس شربت لطلب اللذة وكأس شربت للتداوى من خمارها والكأس مؤنثة كما قاله الجوهرى وقوله تعالى (من معين) أى من شراب معين أو من نهر معين مأخوذ من عين الماء أى يخرج من العيون كما يخرج الماء وسمى عينا لظهوره يقال عان الماء اذا ظهر جاريا وقوله تعالى (بيضاء) أى أشد بياضا من اللبن قاله الحسن صفة لكأس وقال أبو حيان صفة لكأس أو للخمر واعترض بأن الخمر لم يذكر وأجيب عنه بأن الكأس انما سميت كأسا اذا كان فيها الخمر وقوله تعالى (لذة) صفة أيضا وصفه بالمصدر مبالغة كأنها نفس اللذة وعينها كما يقال فلان جود وكرم اذا كان المراد المبالغة وقال الزجاج أو على حذف المضاف أى ذات لذة وقوله تعالى (للشاربين) أى بخلاف خمر الدنيا فانها كريهة عند الشرب صفة للذة وقال الليث اللذة واللذيذة يجريان مجرى واحد فى النعت يقال شراب لذ ولذيذ وقوله تعالى (لافيها غول) صفة أيضا واختلف فى الغول فقال الشعبى اى لاتغتال عقولهم فتذهب بها وقال الكلبى معناه الاثم أى لا اثم فيها وقال قتادة وجع البطن وقال الحسن صداع وقال أهل المعانى الغول فساد يلحق فى خفاء يقال اغتاله اغتيالا اذا أفسد عليه أمره فى خفية وخمر الدنيا يحصل منها أنواع الفساد منها السكر وذهاب العقل ووجع البطن والصداع والقىء والبول ولا يوجد شئ من ذلك فى خمر الجنة (ولاهم عنها ينزفون) أى يسكرون وقرأ حمزة والكسائى بكسر الزاى من أنزف الشارب اذا نزف عقله من السكر والباقون بفتحها من نزف الشارب نزيفا اذا ذهب عقله أفرده بالذكر وعطفه على مايعمه لانه من عظم فساده كأنه جنس برأسه * ولما ذكر تعالى صفة مشروبهم ذكر عقبه صفة منكوحهم بقوله تعالى (وعندهم قاصرات الطرف) أى حابسات الاعين غاضات الجفون قصرن ابصارهن على أزواجهن لا ينظرن الى غيرهم لحسنهم عندهن وقوله تعالى (عين) جمع عيناء وهى الواسعة العين والذكر أعين قال الزجاج كبار الاعين حسانها يقال رجل أعين وامرأة عيناء ورجال ونساء عين (كأنهن) أى فى اللون (بيض) للنعام (مكنون) أى مستور بريشه لايصل اليه غبار ولونه وهو البياض فى صفرة يقال هذا أحسن ألوان النساء تكون المرأة بيضاء مشربة بصفرة قال ذو الرمة فى ذلك

بيضاء فى ترح صفراء فى غنج * كأنها فضة قدمسها ذهب

قال المبرد والعرب تشبه المرأة الناعمة فى بياضها وحسن لونها ببيضة النعامة وقال بعضهم انما شبهت المرأة بها فى أجزائها فان البيضة من أى جهة أتيتها كانت فى رأى العين مشبهة للاخرى وهو فى غاية المدح وقد لحظ هذا بعض الشعراء فقال

تناسبت الاعضاء فيها فلا ترى * بهن اختلافا بل أتين على قدر

ويجمع البيض على بيوض قال الشاعر

بتيهاء قفر والمطى كأنها * قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

(فأقبل بعضهم) أى بعض أهل الجنة (على بعض يتساءلون) معطوف على يطاف عليهم أى يشربون فيتحادثون على الشراب قال القائل

وما بقيت من اللذات الا * محادثة الكرام على المدام

وأتى بقوله تعالى فأقبل ماضيا لتحقق وقوعه كقوله تعالى ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب النار وقوله تعالى يتساءلون حال من فاعل أقبل وتساؤلهم عن المعارف والفضائل وما جرى لهم وعليهم فى الدنيا * ولما ذكر تعالى أن أهل الجنة يتساءلون عند اجتماعهم على الشراب ويتحدثون كان من جملة كلماتهم أنهم يتذكرون ما كان حصل لهم فى الدنيا مما يوجب الوقوع فى عذاب الله تعالى ثم انهم تخلصوا منه وهو ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله (قال قائل منهم) أى من أهل الجنة فى الجنة فى مكالمتهم (انى كان لى قرين) أى فى الدنيا ينكر البعث (يقول أئنك لمن المصدقين) أى كان يوبخنى على التصديق بالبعث ويقول تعجبا (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون) أى مجزيون ومحاسبون من الدين بمعنى الجزاء وهذا استفهام انكار * (تنبيه) * اختلف فى ذلك القرين فقال مجاهد كان شيطانا وقيل كان من الانس وقال مقاتل كانا أخوين وقيل كانا شريكين حصل لهما ثمانية آلاف دينار فتقاسماها واشترى أحدهما دارا بألف دينار فأراها صاحبه وقال كيف ترى حسنها فقال ما أحسنها ثم خرج فتصدق بألف دينار وقال اللهم ان صاحبى قد ابتاع هذه الدار بألف دينار وانى أسألك دارا من دور الجنة ثم ان صاحبه تزوج امرأة حسناء بألف دينار فتصدق صاحبه بألف دينار لاجل أن يزوجه الله تعالى من الحور العين ثم ان صاحبه اشترى بساتين بألفى دينار فتصدق هذا بألفى دينار ثم ان الله تعالى أعطاه ما طلبه فى الجنة وقيل كان أحدهما كافرا اسمه يطراوس والآخر مؤمن اسمه يهودا وهما اللذان قص الله تعالى خبرهما فى سورة الكهف فى قوله تعالى واضرب لهم مثلا رجلين (قال) أى ذلك القائل لاخوته (هل أنتم مطلعون) أى معى الى النار لننظر حاله فيقولون لا (فاطلع) ذلك القائل من بعض كوى الجنة قال ابن عباس رضى الله عنهما ان فى الجنة كوى ينظر أهلها منها الى النار (فرآه) أى رأى قرينه (فى سواء الجحيم) أى وسط النار وانما يسمى وسط الشئ سواء لاستواء الجوانب منه (قال) له توبيخا مقسما بقوله (تالله ان كدت) اى قاربت وان مخففة من الثقيلة (لتردين) أى لتهلكنى باغوائك اياى بانكار البعث والقيامة (ولولا نعمة ربى) أى انعامه على بالايمان والهداية والعصمة (لكنت من المحضرين) معك فى النار * (تنبيه) * أثبت الياء بعد النون فى لتردين ورش والباقون بالتخفيف * ولما تم الكلام مع قرينه الذى هو فى النار عاد الى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة وقال (أفما نحن بميتين) وهذا عطف على محذوف أى أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين أى من شأنه الموت وقال بعضهم ان أهل الجنة لا يعلمون فى أول دخولهم الجنة أنهم لا يموتون

فاذا جيء بالموت على صورة كبش أملح وذبح يقول أهل الجنة للملائكة أفما نحن بميتين فتقول الملائكة لا فعند ذلك يعلمون أنهم لا يموتون وعلى هذا فالكلام حصل قبل ذبح الموت وقيل ان الذي تكاملت سعادته اذا عظم تعجبه بها يقول ذلك على جهة التحديث بالنعمة التي أنعم الله تعالى بها عليه وقيل يقوله المؤمن لقرينه توبيخاله بما كان ينكره وقوله (الا موتتنا الاولى) منصوب على المصدر والعامل فيه الوصف قبله ويكون استثناء مفرغا وقيل هو استثناء منقطع أي لكن الموتة الاولى كانت لنا في الدنيا وهي متناولة لما في القبر بعد الاحياء للسؤال وهذا قريب في المعنى من قوله تعالى لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى (وما نحن بمعذبين) هو استفهام تلذذ وتحدث بنعمة الله تعالى من تأبيد الحياة وعدم التعذيب (ان هذا) أي الذي ذكر لاهل الجنة (لهو الفوز العظيم) هو قول أهل الجنة عند فراغهم من هذه المحادثات وقوله تعالى (لمثل هذا فليعمل العاملون) قيل انه من بقية كلامهم وقيل انه ابتداء كلام من الله تعالى أي لنيل مثل هذا يجب ان يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية المشوبة بالآلام السريعة الانصرام * ولما ذكر تعالى ثواب أهل الجنة ووصفها وذكر ما كل أهل الجنة ومشاربهم وقال لمثل هذا فليعمل العاملون أتبعه بقوله تعالى (أذلك) أي المذكور لاهل الجنة (خير نزلا) وهو ما يعد للنازل من ضيف أو غيره (أم شجرة الزقوم) أي المعدة لاهل النار نزلا وانتصاب نزلا على التمييز أو الحال وفي ذكره دلالة على ان ما ذكر من النعيم لاهل الجنة بمنزلة ما يقدم للنازل ولهم ما وراء ذلك مما تقصر عنه الافهام وكذا الزقوم لاهل النار وهي اسم شجرة صغيرة الورق زفرة مرة تكون بتهامة ثم سميت به الشجرة الموصوفة واذا عرف هذا فالحاصل من الرزق المعلوم لاهل الجنة اللذة والسرور وحاصل شجرة الزقوم الالم والغم ومعلوم انه لا نسبة لاحدهما الى الآخر في الخيرية الا انه جاء هذا الكلام على سبيل السخرية بهم أو لاجل ان المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم الى الرزق الكريم والكافرون اختاروا ما أوصلهم الى العذاب الاليم قيل لهم ذلك توبيخا لهم على اختيارهم (انا) أي بما لنا من العظمة والقدرة البالغة (جعلناها فتنة) أي محنة وعذابا (للظالمين) أي الكافرين قال الكلبي في الآخرة وابتلاء في الدنيا لما سمعوا بأنها في النار قالوا كيف ذلك والنار تحرق الشجر ولم يعلموا أن من قدر على خلق يعيش في النار ويتلذذ بها فهو أقدر على خلقه الشجر في النار وحفظه من الاحراق * ولما نزلت هذه الآية قال ابن الزبعرى أكثر الله في بيوتكم الزقوم فان أهل اليمن يسمون التمر والزبد الزقوم ثم أدخلهم أبو جهل بيته وقال لجاريته زقمينا فأتته بزبد وتمر وقال تزقموا فهذا ما يوعدكم به محمد وهذا عناد منه وكذب فانه من العرب العرباء وهم انما يطلقونه على شجرة مسمومة يخرج لها لبن متى مس جسم أحد تورم فمات والتزقم البلع الشديد للاشياء الكريهة وأما الزبد بالرطب فيسمى الوقة قاله ابن الكلبي وأنشد

وانى لمن سالمتهم لالوقة * وانى لمن عاديتهم سم أسود

ثم ان الله تعالى وصف هذه الشجرة بصفتين الاولى قوله تعالى (انها شجرة تخرج في أصل

(الجحيم) قال الحسن أصلها فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع الى دركاتها الصفة الثانية قوله تعالى (طلعها) أى ثمرها قال الزمخشرى الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها اما استعارة لفظية أو معنوية قال ابن قتيبة سمى طلعا لطلوعه كل سنة فكذلك قيل طلع النخل لاول ما يخرج من ثمره ثم وصف ذلك الطلع بقوله تعالى (كأنه رؤس الشياطين) وفيه وجهان أحدهما أنه حقيقة وأن رؤس الشياطين شجرة معينة بناحية اليمن وتسمى الاستن قال النابغة

تحيد عن استن سود أسافله * مثل الاماء الغوادى تحمل الحزما

وهو شجر منكر الصورة مر تسميه العرب بذلك تشبيها برؤس الشياطين فى القبح ثم صار أصلا يشبه به وقيل الشياطين صنف من الحيات لهن اعراف قال الراجز

عنجرد تحلف حين أحلف * كمثل شيطان الحماط أعرف

وقيل شجرة يقال لها الصوم ومنه قول ساعدة بن جوية

موكل بشروف الصوم يرقبها * من المعارف محفوظ الخشاورم

فعلى هذا خوطب العرب بما تعرفه وهذه الشجرة موجودة فالكلام حقيقة والثانى انه من باب التخيل والتمثيل وذلك أن كل ما يستنكر ويستقبح فى الطباع والصورة يشبه بما يتخيله الوهم وان لم يكن يراه والشياطين وان كانوا موجودين غير مرئيين للعرب الا انه خاطبهم بما ألفوه من الاستعارات التخيلية وذلك كقول امرئ القيس

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى * ومسنونة زرق كأنياب أغوال

ولم يرانيابها بل ليست موجودة البتة قال الرازى وهذا هو الصحيح وذلك ان الناس لما اعتقدوا فى الملائكة عليهم السلام كمال الفضل فى الصورة والسيرة فكما حسن تشبيه يوسف عليه السلام بالملك عند ارادة الكمال والفضيلة فى قول النسوة ان هذا الا ملك كريم فكذلك حسن التشبيه برؤس الشياطين فى القبح وتشويه الخلقة ويؤكد هذا ان العقلاء اذا رأوا شيأ شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة قالوا انه شيطان واذا رأوا شيأ حسنا قالوا انه ملك من الملائكة وقال ابن عباس رضى الله عنهما هم الشياطين بأعيانهم (فانهم) أى الكفار (لآكلون منها) أى من الشجرة أو من طلعها (فمالئون منها البطون) والملء حشو الوعاء بما لا يحتمل الزيادة عليه (فان قيل) كيف يأكلونها مع نهاية خشونتها ونتنها ومرارة طعمها (أجيب) بأن المضطر ربما استروح من الضرر بما يقاربه فى الضرر فاذا جوعهم الله تعالى الجوع الشديد فزعوا الى ازالة ذلك الجوع بتناول هذا الشئ أو يقال ان الزبانية يكرهونهم على الأكل من تلك الشجرة لعذابهم

ولما ذكر الله تعالى طعامهم بتلك الشناعة والكراهية وصف شرابهم بما هو أشنع منه بقوله تعالى (ثم ان لهم عليها) أى بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش (لشوبا من حميم) أى ماء حار يشربونه فيختلط بالمأكول منها فيصير شوبا وعطف بثم لاحد معنيين اما لانه يؤخر ما يظنونه يرويهم من عطشهم زيادة فى عذابهم فلذلك أتى بثم المقتضية للتراخى واما لان العادة تقتضى

تراخي الشرب عن الاكل فعمل على ذلك المنوال وأما ملء البطن فيعقب الاكل فلذلك عطف على ماقبله بالفاء قال الزجاج الشراب اسم عام فى كل ما خلط بغيره والشوب الخلط والمزج ومنه شاب اللبن يشوبه أى خلطه ومزجه (ثم ان مرجعهم) أى مصيرهم (لالى الجحيم) قال مقاتل أى بعد أكل الزقوم وشرب الحميم وهذا يدل على أنهم عند شرب الحميم لم يكونوا فى الجحيم وذلك بأن يكون الحميم فى موضع خارج عن الجحيم فهم يردون الحميم لاجل الشرب كما ترد الابل الماء ويدل عليه قوله تعالى يطوفون بينها وبين حميم آن وقوله تعالى (انهم ألفوا) أى وجدوا (آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون) تعليل لاستحقاقهم تلك الشدائد قال الفراء الاهراع الاسراع يقال هرع وأهرع اذا استحث والمعنى انهم يتبعون آباءهم فى سرعة كأنهم يزعجون الى اتباع آبائهم وفيه اشعار بأنهم بادروا الى ذلك من غير توقف على نظر وبحث ثم انه تعالى ذكر لرسوله صلى الله عليه وسلم مايسليه فى كفرهم وتكذيبهم بقوله سبحانه (ولقد ضل قبلهم) أى قبل قومك (أكثر الاولين) أى من الامم الماضية (ولقد أرسلنا فيهم منذرين) أى أنبياء انذروهم من العواقب فبين تعالى ان ارسال الرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف فوجب أن يكون له صلى الله عليه وسلم اسوة بهم حتى يصبر كما صبروا ويستمر على الدعاء الى الله تعالى وان تمردوا فليس عليه الا البلاغ وقرأ قالون وابن كثير وعاصم باظهار الدال والباقون بالادغام ثم قال تعالى (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أى الكافرين كان عاقبتهم العذاب وهذا خطاب وان كان ظاهره مع النبي صلى الله عليه وسلم الا أن المقصود منه خطاب الكفار لانهم سمعوا بالاخبار ماجرى على قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من أنواع العذاب فان لم يعلموا ذلك فلا أقل من ظن وخوف يحتمل أن يكون زاجرا لهم عن كفرهم وقوله تعالى (الاعباد الله المخلصين) استثناء من المنذرين استثناء منقطع لانه وعيدوهم لايدخلون فى هذا الوعيد وقيل استثناء من قوله تعالى ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين والمراد بالمخلصين الموحدون نجوا من العذاب وتقدمت القراءة فى المخلصين ثم شرع تعالى فى تفصيل القصص بعد اجمالها بقوله تعالى (ولقد نادانا نوح) أى نادى ربه أن ينجيه مع من نجى من الغرق بقوله رب انى مغلوب فانتصر فاجاب الله تعالى دعاءه وقوله تعالى (فلنعم المجيبون) جواب قسم مقدر أى فوالله ومثله لعمرى لنعم السيدان وجدتما * والمخصوص بالمدح محذوف أى نحن أجبنا دعاءه وأهلكنا قومه (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) أى من الغرق وأذى قومه وهذه الاجابة كانت من النعم العظيمة وذلك من وجوه أولها أنه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال ولقد نادانا نوح فالقادر العظيم لايليق به الا الاحسان العظيم وثانيها أنه تعالى أعاد صيغة الجمع فقال تعالى فلنعم المجيبون وفى ذلك أيضا مايدل على تعظيم تلك النعمة لاسيما وقد وصف الله تعالى تلك الاجابة بأنها نعمت الاجابة وثالثها أن الفاء فى قوله تعالى فلنعم المجيبون تدل على أن حصول تلك الاجابة مرتب على ذلك النداء وهذا يدل على أن النداء بالاخلاص سبب لحصول الاجابة وقوله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) يفيد الحصر وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته قد فنوا

فالناس كلهم من نسله عليه السلام قال ابن عباس رضى الله عنه ذريته بنوه الثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب وفارس وحام أبو السودان ويافث أبو الترك والخزرج ويأجوج ومأجوج وماهنالك قال ابن عباس رضى الله عنهما لما خرج نوح من السفينة مات كل من كان معه من الرجال والنساء الاولده ونساءهم (وتركنا عليه فى الآخرين) أى أبقينا له ثناء حسنا وذكرا جميلا فيمن بعده من الانبياء والامم الى يوم القيامة وقيل ان نصلى عليه الى يوم القيامة وقوله تعالى (سلام على نوح) مبتدأ وخبر وفيه أوجه أحدها أنه مفسر لتركنا والثانى انه مفسر لمفعوله أى تركنا عليه ثناء وهو هذا الكلام وقيل ثم قول مقدر أى فقلنا سلام وقيل ضمن تركنا معنى قلنا وقيل سلط تركنا على مابعده (فى العالمين) متعلق بالجار والمجرور ومعناه الدعاء بثبوت هذه التحية فى الملائكة والثقلين جميعا وقوله تعالى (انا كذلك نجزى المحسنين) تعليل لما فعل بنوح عليه السلام من التكرمة بأنه مجازاة له أى انما خصصناه بهذه التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا عامرة من ذريته ومن ترقية ذكره الحسن فى ألسنة العالمين لاجل كونه محسنا وقوله تعالى (انه من عبادنا المؤمنين) تعليل لاحسانه بالايمان اظهارا لجلالة قدره واصالة أمره (ثم أغرقنا الآخرين) كفار قومه * القصة الثانية قصة ابراهيم عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (وان من شيعته) أى ممن شايعه فى الايمان وأصول الشريعة (لابراهيم) ولا يبعد اتفاق شرعهما فى الفروع أو غالبا وقال الكلبى الضمير يعود على محمد صلى الله عليه وسلم أى وان من شيعة محمد صلى الله عليه وسلم لابراهيم عليه الصلاة والسلام والشيعة قد تطلق على المتقدم كقول القائل

ومالى الا آل أحمد شيعة * ومالى الا مذهب الحق مذهب

فجعل آل أحمد وهم متقدمون عليه وهو تابع لهم شيعة له قاله الفراء والمعروف ان الشيعة تكون فى المتأخر قالوا كان بين نوح وابراهيم نبيان هود وصالح وروى الزمخشرى أنه كان بين نوح وابراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة وفى العامل فى قوله تعالى (اذ جاء ربه) وجهان أحدهما اذكر مقدرا وهو المعروف والثانى قال الزمخشرى مافى معنى الشيعة من معنى المشايعة يعنى وان ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه ورد هذا أبو حيان قال لان فيه الفصل بين العامل والمعمول بأجنبى وهو لابراهيم لانه أجنبى من شيعته ومن اذ واختلف فى قوله عز وجل (بقلب سليم) فقال مقاتل والكلبى المعنى انه سليم من الشرك لانه أنكر على قومه الشرك وقال الاصوليون معناه أنه عاش ومات على طهارة القلب من كل معصية وقوله تعالى (اذ قال لابيه وقومه) بدل من اذ الاولى أو ظرف لسليم أو لجاء وقوله تعالى لهم (ماذا) أى ما الذى (تعبدون) استفهام توبيخ وتهجين لتلك الطريقة وتقبيحها وفى قوله (أئفكا آلهة دون الله تريدون) أوجه من الاعراب أحدها أنه مفعول من أجله أى أتريدون آلهة دون الله افكا فآلهة مفعول به ودون ظرف لتريدون وقدمت معمولات الفعل اهتماما بها وحسنه كون العامل رأس فاصلة وقدم المفعول من أجله على المفعول به

اهتماما

اهتمامابه لانه مكافح لهم بأنهم على افك وباطل وبهذا الوجه بدأ الزمخشري الثاني أن يكون مفعولا به بتريدون ويكون آلهة بدلا منه جعلها نفس الافك مبالغة فأبدلها منه وفسره بها واقتصر على هذا ابن عطية الثالث أنه حال من فاعل تريدون أي أتريدون آلهة آفكين أوذوي افك واليه نحا الزمخشري واعترضه أبو حيان بأن جعل المصدر حالا لا يطرد الامع نحو أما علما فعالم والافك أسوأ الكذب (فما ظنكم) أي أتظنون (برب العالمين) أنه يجوز جعل هذه الجمادات مشاركة له في العبودية أوتظنون برب العالمين أنه من جنس هذه الاجسام حتى جعلتموها مساوية له في العبودية فنبههم بذلك على أنه ليس كمثله شئ أوفما ظنكم برب العالمين اذا لقيتموه وقد عبدتم غيره أنه يترككم بلا عذاب لا وكانوا نجامين فخرجوا الى عيد لهم وتركوا طعامهم عند أصنامهم زعموا التبرك عليه فاذا رجعوا أكلوه وقالوا للسيد ابراهيم عليه الصلاة والسلام اخرج (فنظر نظرة في النجوم) ايهاما لهم أنه يعتمد عليها فيتبعوه (فقال اني سقيم) أي عليل وذلك انه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة وأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خاليا في بيت الاصنام فيقدر على كسرها (فان قيل) النظر في علم النجوم غير جائز فكيف قدم ابراهيم عليه السلام عليه وأيضا لم يكن سقيما فكيف أخبرهم بخلاف حاله (أجيب) عن ذلك بأنا لا نسلم أن النظر في علم النجوم والاستدلال بها حرام لان من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بطبع وخاصة لاجلها يظهر منه أثر مخصوص فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل وأما الكذب فغير لازم لان قوله اني سقيم على سبيل التعريض بمعنى أن الانسان لا ينفك في أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة امافي بدنه وامافي قلبه وكل ذلك سقم وعلى تقدير تسليم ذلك أجيب بأوجه أحدها أن نظره في النجوم أوفي أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه الحمى في بعض ساعات الليل والنهار فنظر ليعرف هل هي تلك الساعة فقال اني سقيم فجعله عذرا في تخلفه عن العيد الذي لهم فكان صادقا فيما قال لان السقم كان يأتيه في ذلك الوقت ثانيها أنهم كانوا أصحاب النجوم أي يعلمونها ويقضون بها على أمورهم فلذلك نظر ابراهيم في النجوم أي في علم النجوم كما تقول نظر فلان في الفقه أي في علم الفقه فأراد ابراهيم أن يوهمهم أنه نظر في علمهم وعرف منه مايعرفونه حتى اذا قال لهم اني سقيم سكنوا الى قوله وأما قوله اني سقيم فمعناه سأسقم كقوله تعالى انك ميت أي ستموت ثالثها أن نظره في النجوم هو قوله تعالى فلما جن عليه الليل رأى كوكبا الخ الآيات فكان نظره ليتعرف هذه الكواكب هل هي قديمة أوحادثة وقوله اني سقيم أي سقيم القلب غير عارف بربي وكان ذلك قبل بلوغه رابعها قال ابن زيد كان له نجم مخصوص وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض ابراهيم فلهذا الاستقراء لما رآه في تلك الحالة المخصوصة قال اني سقيم أي هذا السقم واقع لامحالة خامسها أن قوله اني سقيم أي مريض القلب بسبب اطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك كقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم فلعلك باخع نفسك سادسها قال الرازي قال بعضهم ذلك القول من

ابراهيم عليه السلام كذبة وأوردوا فيه حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما كذب ابراهيم الا ثلاث كذبات قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغي أن ينقل اذ فيه نسبة الكذب الى ابراهيم عليه السلام فقال ذلك الرجل فكيف نحكم بكذب الراوي العدل فقلت له لما وقع التعارض بين نسبة الكذب الى الراوي وبين نسبة الكذب الى الخليل كان من المعلوم بالضرورة أن نسبة الكذب الى الراوي أولى ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد بقوله فنظر نظرة في النجوم أي نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم فان الاشياء التي تحدث قطعة قطعة يقال انها منجمة أي مفرقة ومنه نجوم المكاتب والمعنى أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها حتى يستخرج منها حيلة يقدر بها على اقامة عذر لنفسه في التخلف عنهم فلم يجد عذرا أحسن من قوله اني سقيم والمراد أنه لابد من أن يصير سقيما كما تقول لمن رأيته يتجهز للسفر انك مسافر * ولما قال اني سقيم تولوا عنه كما قال تعالى (فتولوا عنه) أي الى عيدهم (مدبرين) أي هاربين مخافة العدوى وتركوه وعذروه في عدم الخروج الى عيدهم (فراغ) أي مال في خفية وأصله من روغان الثعلب وهو تردده وعدم ثبوته بمكان ولا يقال راغ حتى يكون صاحبه مخفيا لذهابه ومجيئه (الى آلهتهم) وعندها الطعام (فقال) استهزاء بها (ألا تأكلون) أي الطعام الذي كان بين أيديهم فلم ينطقوا فقال استهزاء بها أيضا (ما لكم لا تنطقون) فلم تجب (فراغ عليهم) أي مال عليهم مستخفيا وقوله تعالى (ضربا) مصدر واقع موقع الحال أي فراغ عليهم ضاربا أو مصدر لفعل وذلك الفعل حال تقديره فراغ يضرب ضربا وقوله تعالى (باليمين) متعلق بضربا ان لم نجعله مؤكدا والا فبعامله واليمين يجوز أن يراد بها احدى اليدين وهو الظاهر وأن يراد بها القوة واقتصر عليه الجلال المحلي فالباء على هذا للحال أي متلبسا بالقوة وأن يراد بها الحلف وفاء بقوله وتالله لأكيدن أصنامكم والباء على هذا للسبب وعدى راغ الثاني بعلى لما كان مع الضرب المستولي من فوقهم الى أسفلهم بخلاف الاول فانه مع توبيخ لهم وأتى بضمير العقلاء في قوله تعالى عليهم ضربا على ظن عبدتها أنها كالعقلاء ثم انه عليه السلام كسرها فبلغ قومه ممن رآه ذلك (فأقبلوا اليه) أي الى ابراهيم بعدما رجعوا فرأوا أصنامهم مكسرة (يزفون) أي يسرعون المشي وقرأ حمزة بضم الياء على البناء للمفعول من أزفه أي يحملون على الزفيف والباقون بفتحها من زف يزف فقالوا نحن نعبدها وأنت تكسرها (قال) لهم توبيخا (أتعبدون ما تنحتون) أي من الحجارة وغيرها أصناما (والله خلقكم وما تعملون) أي نحتكم ومنحوتكم فاعبدوه وحده * (تنبيه) * دلت هذه الآية على مذهب الاشعرية وهو أن فعل العبد مخلوق لله عز وجل وهو الحق وذلك لأن النحويين اتفقوا على أن لفظ ما مع ما بعده في تقدير المصدر فقوله تعالى وما تعملون معناه وعملكم وعلى هذا فيصير معنى الآية والله خلقكم وخلق عملكم * ولما أورد عليهم الحجة القوية ولم يقدروا على الجواب عدلوا الى طريقة الايذاء لئلا يظهر للعامة عجزهم بأن (قالوا ابنوا له بنيانا) * قال ابن عباس رضي الله عنهما بنوا حائطا من الحجر طوله في السماء ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا وملؤه نارا

فطرحوه

فطرحوه فيها وذلك هو قوله تعالى (فألقوه فى الجحيم) وهى النار العظيمة قال الزجاج كل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم (فأرادوا به كيدا) أى شرا بالقائه فى النار لتهلكه (فجعلناهم الاسفلين) أى المقهورين الاذلين بابطال كيدهم وجعلناذلك برهانا نيرا على علوشأنه حيث جعلنا النار عليه بردا وسلاما وخرج منها سالما (وقال انى ذاهب الى ربى) أى الى حيث أمرنى ربى ونظيره قوله تعالى وقال انى مهاجر الى ربى أى مهاجر اليه من دار الكفر (سيهدين) أى الى مافيه صلاح دينى أو الى مقصدى وهو الشأم وانما بت القول لسبق وعده ولفرط توكله أو للبناء على عادته تعالى معه ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل فلذلك ذكر بصيغة التوقع * ولما وصل الى الارض المقدسة قال (رب هب لى من الصالحين) أى هب لى ولدا صالحا يعيننى على الدعوة والطاعة ويؤنسنى فى الغربة لان لفظ هب غلب فى الولد وان كان قد جاء فى الاخ فى قوله تعالى ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا قال الله تعالى (فبشرناه بغلام حليم) أى ذى حلم كثير فى كبره غلام فى صغره ففيه بشارة بانه ابن وانه يعيش وينتهى الى سن يوصف بالحلم وأى حلم أعظم من أنه عرض عليه أبوه الذبح وهو مراهق فقال ستجدنى ان شاء الله من الصابرين وقيل ما وصف الله تعالى نبيا بالحلم لعزة وجوده غير ابراهيم وابنه اسمعيل عليهما الصلاة والسلام وحالتهما المذكورة تشهد عليه (فلما بلغ معه السعى) أى أن يسعى معه قال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة بلغ معه السعى أى المشى معه الى الجبل وقال مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما ما شب حتى بلغ سعيه بسعى ابراهيم والمعنى بلغ أن يتصرف معه وان يعينه فى عمله وقال الكلبى يعنى العمل لله تعالى وكان له يومئذ ثلاث عشرة سنة وقيل سبع سنين * (تنبيه) * معه متعلق بمحذوف على سبيل البيان كان قائلا قال مع من بلغ السعى فقيل مع أبيه ولا يجوز تعلقه ببلغ لانه يقتضى بلوغهما معا حد السعى ولا يجوز تعلقه بالسعى لان صلة المصدر لا تتقدم عليه وقوله تعالى (قال يابنى انى أرى) أى رأيت (فى المنام انى أذبحك) يحتمل انه رأى ذلك وانه رأى ماهو تعبيره وقيل انه رأى فى ليلة التروية فى منامه كان قائلا يقول له ان الله تعالى يأمرك بذبح ابنك فلما أصبح تروى فى ذلك من الصباح الى الرواح أمن الله أم من الشيطان فمن ثم سمى يوم التروية فلما أمسى رأى أيضا مثل ذلك فعرف أنه من الله تعالى فسمى يوم عرفة ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى يوم النحر وهذا قول أكثر المفسرين وهو يدل على أنه رأى فى المنام ما يوجب أن يذبح ابنه فى اليقظة وعلى هذا فتقديراللفظ أرى فى المنام ما يوجب أنى أذبحك * (تنبيه) * اختلف فى الذبيح فقيل هو اسحق عليه السلام وبه قال عمر وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم وغيرهم وقيل اسمعيل وبه قال ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب رضى الله عنهم وغيرهم وهو الاظهر كما قاله البيضاوى لانه الذى وهب له اثر الهجرة ولأن البشارة باسحق بعد معطوفة على البشارة بهذا الغلام ولقوله صلى الله عليه وسلم انا ابن الذبيحين وقال له أعرابى ياابن الذبيحين فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم فسئل عن ذلك فقال ان عبد المطلب لما حفر بئر

زمزم نذران سهل الله أمرها ليذبحن أحد ولده فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له افد ابنك بمائة من الابل ولذلك سنت الابل مائة والذبيح الثانى اسمعيل ونقل الاصمعى انه قال سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال يا أصمعى أين عقلك ومتى كان اسحق بمكة وانما كان اسمعيل بمكة وهو الذى بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة وقد وصف الله تعالى اسمعيل عليه السلام بالصبر دون اسحق عليه السلام فى قوله تعالى واسمعيل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين وهو صبره على الذبح ووصفه أيضا بصدق الوعد فقال انه كان صادق الوعد لانه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فقال ستجدنى ان شاء الله من الصابرين وقال تعالى فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب فكيف تقع البشارة باسحق وأنه سيولد له يعقوب ثم يؤمر بذبح اسحق وهو صغير قبل أن يولد له هذا يناقض البشارة المتقدمة وقال الامام أحمد بن حنبل الصحيح أن الذبيح اسمعيل عليه السلام وعليه جمهور العلماء من الخلف والسلف قال ابن عباس وزعمت اليهود أنه اسحق عليه السلام وكذبت اليهود وما روى أنه صلى الله عليه وسلم سئل أى النسب أشرف فقال يوسف صديق الله بن يعقوب اسرائيل الله بن اسحق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله فالصحيح انه قال يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم والزوائد من الراوى وما روى أن يعقوب كتب الى يوسف مثل ذلك لم يثبت وقال محمد بن اسحق كان ابراهيم عليه السلام اذا زار هاجر واسمعيل حمل على البراق فيغدو من الشأم فيقيل بمكة و يروح من مكة فيبيت عند أهله بالشأم حتى بلغ اسمعيل معه السعى أمر فى المنام أن يذبحه قال مقاتل رأى ذلك ابراهيم عليه السلام ثلاث ليال متتابعات فلما تيقن ذلك قال لابنه (فانظر ماذا ترى) من الرأى فشاوره ليأنس بالذبح و ينقاد للامر به قال ابن اسحق وغيره لما أمر ابراهيم بذلك قال لابنه يا بنى خذ الحبل والمدية وانطلق الى هذا الشعب نحتطب فلما خلا ابراهيم بابنه فى الشعب شعب ثبير أخبره بما أمر (قال يا أبت افعل ما تؤمر) أى ما أمرت به (ستجدنى ان شاء الله من الصابرين) أى على ذلك وقرأ يا بنى حفص بفتح الياء والباقون بالكسر وقرأ انى أرى نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون وقرأ ماذا ترى حمزة والكسائى بضم التاء وكسر الراء والباقون بفتحهما والحكمة فى مشاورته فى هذا الامر ليظهر له صبره فى طاعة الله تعالى فيكون فيه قرة عين لابراهيم حيث يراه قد بلغ فى الحكمة الى هذا الحد العظيم والصبر على أشد المكاره الى هذه الدرجة العالية ويحصل للابن الثواب العظيم فى الآخرة والثناء الحسن فى الدنيا وقرأ يا أبت ابن عامر فى الوصل بفتح التاء وكسرها الباقون والتاء عوض عن ياء الاضافة ووقف عليها بالهاء ابن كثير وابن عامر ووقف الباقون بالتاء والرسم بالتاء وفتح ياء ستجدنى فى الوصل نافع وسكنها الباقون (فلما أسلما) أى انقادا وخضعا لامر الله وقال قتادة أسلم ابراهيم ابنه وأسلم الابن نفسه (وتله للجبين) أى صرعه على شقه فوقع جبينه على الارض وهو أحد جانبى الجبهة والجبهة بين الجبينين وشذ جمعه على أجبن وقياسه فى القلة أجبنة كأرغفة وفى الكثرة جبن وجبنان كرغف ورغف ورغفان وقيل انه لما أراد ذبحه قال يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب فينتقص

اجرى واكفف عنى ثيابى حتى لا ينتضح عليها من دمى شئ وتراه أمى فتحزن حزنا طويلا واشحذ شفرتك وأسرع مر السكين على حلقى ليكون أهون على فان الموت شديد واذا أتيت أمى فاقرأ عليها السلام منى وان رأيت أن ترد قميصى على أمى فافعل فانه عسى أن يكون أسلى لها عنى فقال له ابراهيم نعم العون أنت يابنى على أمر الله تعالى ففعل ابراهيم ما أمر به ابنه ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهو يبكى والابن يبكى ثم انه وضع السكين على حلقه فلم تحك شيأ ثم انه شحذها مرتين أو ثلاثا بالحجر كل ذلك لا يستطيع ان يقطع شيأ قال السدى ضرب الله تعالى صفيحة من نحاس على حلقه قال فقال الابن عند ذلك يا أبت كبنى على وجهى لجبينى فانك اذا نظرت فى وجهى رحمتنى وأدركتك رحمة تحول بينك وبين أمر الله وأنا لا أنظر الشفرة فأجزع ففعل ذلك ابراهيم ووضع السكين على قفاه فانقلبت السكين (وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا) أى بالعزم والاتيان بالمقدمات ما أمكنك * (تنبيه) * فى جواب لما ثلاثة أوجه أظهرها أنه محذوف أى نادته الملائكة عليهم السلام أو ظهر صبرهما أو أجزلنا لهما أجرهما وقدره بعضهم بعد الرؤيا كان ما كان مما ينطق به الحال والوصف مما لا يدرك كنهه ونقل ابن عطية أن التقدير فلما أسلما سلما وتله للجبين ويعزى هذا لسيبويه وشيخه الخليل الثانى انه وتله للجبين والواو زائدة وهو قول الكوفيين والاخفش الثالث انه وناديناه والواو زائدة أيضا واقتصر على هذا الجلال المحلى وروى أبو هريرة عن كعب الاحبار أن ابراهيم عليه السلام لما رأى ذبح ولده قال الشيطان لئن لم أفتن آل ابراهيم عند هذا لم أفتن أحدا منهم أبدا فتمثل الشيطان فى صورة رجل وأتى أم الغلام وقال هل تدرين أين يذهب ابراهيم بابنك قالت ذهب به يحتطبان من هذا الشعب قال والله ما ذهب به الا ليذبحه قالت كلا هو ارحم به وأشد حبا له من ذلك قال انه يزعم أن الله أمره بذلك قالت فان كان ربه أمره بذلك فقد أحسن ان يطيع ربه فخرج من عندها الشيطان ثم أدرك الابن وهو يمشى على اثر أبيه فقال له يا غلام هل تدرى أين يذهب بك أبوك قال نحتطب لاهلنا من هذا الشعب قال والله ما يريد الا أن يذبحك قال ولم قال زعم أن ربه أمره قال فليفعل ما أمره به ربه فسمع وطاعة فلما امتنع منه الغلام أقبل على ابراهيم فقال له أين تريد أيها الشيخ قال أريد هذا الشعب لحاجة لى فيه قال والله انى لارى الشيطان قد جاءك فى منامك فأمرك بذبح ولدك هذا فعرفه ابراهيم فقال اليك عنى يا عدو الله فوالله لامضين لامر ربى فرجع ابليس بغيظه لم يصب من ابراهيم وآله شيأ كما أراد الله عز وجل وروى أبو الطفيل عن ابن عباس رضى الله عنه أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام لما أمر بذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا المشعر فسابقه فسبقه ابراهيم ثم ذهب الى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم ادركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى ابراهيم لامر الله تعالى فنودى من الجبل أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا (فان قيل) لم قال تعالى قد صدقت الرؤيا وكان قد رأى الذبح ولم يذبح (أجيب) بأنه جعله مصدقا لانه قد أتى بما أمكنه

والمطلوب استسلامهما لامر الله تعالى وقد فعلا وقيل كان قد رأى فى النوم معالجة الذبح ولم ير اراقة الدم وقد فعل فى اليقظة ما رآه فى النوم ولذلك قال قد صدقت الرؤيا قال المحققون السبب فى هذا التكليف كمال طاعة ابراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذه التكاليف الشاقة الشديدة وظهر منه كمال الطاعة والانقياد لاجرم قال الله تعالى قد صدقت الرؤيا وقوله تعالى (انا كذلك نجزى المحسنين) ابتداء اخبار من الله تعالى والمعنى انا كما عفونا عن ذبح ولدك كذلك نجزى من أحسن فى طاعتنا قال مقاتل جزاه الله تعالى باحسانه فى طاعته العفو عن ذبح ابنه (انّ هذا) أى الذبح المأمور به (لهو البلاء المبين) أى الاختبار الظاهر الذى يتميز فيه المخلصون من غيرهم والمحنة البينة الصعوبة التى لا محنة أصعب منها وقال مقاتل البلاء ههنا النعمة وهو ان فدى ابنه بالكبش كما قال تعالى (وفديناه) أى المأمور بذبحه وهو اسمعيل وهو الاظهر وقيل اسحق (بذبح عظيم) أى عظيم الجثة سمين او عظيم القدر لانّ الله تعالى فدى به نبيا ابن نبى وأى نبى من نسله سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام وهو كبش أتى به جبريل عليه السلام من الجنة وهو الذى قرّبه هابيل فقال لابراهيم هذا فدا ولدك فاذبحه دونه فكبر ابراهيم وكبر ولده وكبر جبريل وكبر الكبش وأخذ ابراهيم الكبش واتى به المنحر من منى فذبحه قال البغوى قال أكثر المفسرين كان ذلك الذبح كبشا رعى فى الجنة أربعين خريفا وقيل كان وعلا أهبط عليه من ثبير وروى أنه هرب منه عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فصارت سنة * (تنبيه) * الذبح مصدر ويطلق على ما يذبح وهو المراد فى هذه الآية (وتركنا عليه فى الآخرين) ثناء حسنا وقوله تعالى (سلام) أى منا (على ابراهيم) سبق بيانه فى قصة نوح عليهما السلام (كذلك) أى كما جزيناك (نجزى المحسنين) لانفسهم وقوله تعالى (انه من عبادنا المؤمنين) تعليل لاحسانه بالايمان اظهارا لجلالة قدره واصالة أمره وقوله تعالى (وبشرناه باسحق) فيه دليل على أنّ الذبيح غيره وقد مرّت الاشارة الى ذلك وقوله تعالى (نبيا) حال مقدرة أى يوجد مقدرا نبوّته وقوله تعالى (من الصالحين) يجوز أن يكون صفة لنبيا وأن يكون حالا من الضمير فى نبيا فتكون حالا متداخلة ويجوز ان تكون حالا ثانية ومن فسر الذبيح باسحق عليه السلام جعل المقصود من البشارة نبوّته وفى ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه وايماء بأنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل (وباركنا عليه) أى على ابراهيم عليه السلام بتكثير ذريته (وعلى اسحق) بأن اخرجنا من صلبه انبياء بنى اسرائيل وغيرهم كأيوب وشعيب عليهم السلام لجميع الانبياء بعده من صلبه الا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فانه من ذرية اسمعيل عليه السلام وفيه اشارة الى أنه مفرد علم فهو صلى الله عليه وسلم أفضل الانبياء عليهم الصلاة والسلام (ومن ذريتهما محسن) أى مؤمن طائع (وظالم) أى كافر وفاسق (لنفسه مبين) أى ظاهر ظلمه وفى ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له فى الهدى والضلال وانّ الظلم فى أعقابهما لا يعود عليهما بنقيصة وعيب ولا غير ذلك والله أعلم * القصة الثالثة قصة موسى وهرون عليهما السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد مننا على موسى وهرون)

أى أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية (ونجيناهما وقومهما) أى بنى اسرائيل (من الكرب) أى الغم (العظيم) أى الذى كانوا فيه من استعباد فرعون اياهم وقيل من الغرق والضمير فى قوله تعالى (ونصرناهم) يعود على موسى وهرون وقومهما وقيل على الاثنين بلفظ الجمع تعظيما كقوله تعالى يا أيها النبى اذا طلقتم النساء وقول الشاعر

فان شئت حرمت النساء سواكم (فكانوا هم الغالبين) أى على فرعون وقومه فى كل الاحوال أما فى أول الامر فبظهور الحجة وأما فى آخر الامر فبالدولة والرفعة *(تنبيه)* يجوز فى هم أن يكون تأكيدا وأن يكون بدلا وان يكون فصلا وهو الاظهر (وآتيناهما الكتاب المستبين) أى المستنير البليغ البيان المشتمل على جميع العلوم المحتاج اليها فى مصالح الدين والدنيا وهو التوراة كما قال تعالى انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور (وهديناهما الصراط المستقيم) أى دللناهما على الطريق الموصل الى الحق والصواب عقلا وسمعا (وتركنا) أى أبقينا (عليهما) ثناء حسنا (فى الآخرين سلام) أى منا (على موسى وهرون انا كذلك) أى كما جزيناهما (نجزى المحسنين) وقوله تعالى (انهما من عبادنا المؤمنين) تعليل لاحسانهما بالايمان واظهار لجلالة قدره واصالة أمره القصة الرابعة قصة الياس عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (وان الياس لمن المرسلين) روى عن ابن مسعود انه قال الياس هو ادريس وهو قول عكرمة وقال أكثر المفسرين انه نبى من أنبياء بنى اسرائيل قال ابن عباس وهو ابن عم اليسع عليهما السلام وقال محمد بن اسحق هو الياس بن بشير بن فنحاص بن العيزار بن هرون بن عمران عليهما السلام *(تنبيه)* أذكر فيه شيأ من قصته عليه السلام قال علماء السير والاخبار لما قبض الله تعالى حزقيل النبى عليه السلام عظمت الاحداث فى بنى اسرائيل وظهر فيهم الفساد والشرك ونصبوا الاصنام وعبدوها من دون الله عز وجل فبعث الله تعالى اليهم الياس نبيا وكانت الانبياء من بنى اسرائيل يبعثون بعد موسى عليه السلام بتجديد ما نسوا من أحكام التوراة وبنو اسرائيل كانوا متفرقين فى أرض الشأم وكان سبب ذلك أن يوشع بن نون عليه السلام لما فتح الشأم قسمها على بنى اسرائيل وأحل سبطا منها ببعلبك ونواحيها وهم السبط الذين كان منهم الياس فبعثه الله تعالى اليهم نبيا وعليهم يومئذ ملك اسمه لاجب وكان أضل قومه وجبرهم على عبادة الاصنام وكان لهم صنم طوله عشرون ذراعا وله أربعة وجوه وكان يسمى بعل وكانوا قد فتنوا به وعظموه وجعلوا له أربعمائة سادن أى خادم وكان الشيطان يدخل فى جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها عنه ويبلغونها الناس وهم أهل بعلبك وكان الياس يدعوهم الى عبادة الله وهم لا يسمعون له ولا يؤمنون به الا ما كان من أمر الملك فانه آمن به وصدقه فكان الياس يقوم بأمره ويسدده ويرشده وكان للملك امرأة تسمى بازميل جبارة وكان يستخلفها على ملكه اذا غاب عنهم فى غزاة أو غيرها وكانت تبرز للناس فتقضى بينهم وكانت قتالة للانبياء ويقال انها هى التى قتلت يحيى بن زكريا عليهما السلام وكان له كاتب رجل مؤمن حليم يكتم ايمانه وكان قد خلص من يدها ثلثمائة نبى كانت تريد قتلهم اذا بعث كل واحد

منهم سوى الذين قتلتهم وكانت فى نفسها غير محصنة وكانت قد تزوجت سبعة من ملوك بنى اسرائيل وقتلتهم كلهم بالاغتيال وكانت معمرة يقال انها ولدت سبعين ولدا وكان لاجب هذا جار رجل صالح يقال له مزدكى وكان له جنينة يعيش منها وكانت الجنينة الى جانب قصر الملك وامرأته وكانا يشرفان عليها يتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويقيلان فيها وكان الملك يحسن جوار صاحبها مزدكى ويحسن اليه وامرأته ازميل تحسده لاجل تلك الجنينة وتحتال ان تغصبها منه لما تسمع الناس يكثرون ذكرها ويتعجبون من حسنها وتحتال أن تقتله والملك ينهاها عن ذلك فلا تجد عليه سبيلا ثم انه اتفق خروج الملك الى مكان بعيد وطالت غيبته فاغتنمت امرأته ازميل ذلك فجمعت جمعا من الناس وأمرتهم انهم يشهدون على مزدكى انه سب زوجها الاجب فاجابوها اليه وكان فى حكمهم فى ذلك الزمان القتل على من سب الملك اذا قامت عليه البينة فأحضرت مزدكى وقالت له بلغنى أنك شتمت الملك فأنكر فأحضرت الشهود فشهدوا عليه بالزور فأمرت بقتله وأخذت جنينته فلما قدم الملك من سفره أخبرته الخبر فقال لها ما أصبت ولا أبدا نفلح بعده فقد جاورنا منذ زمان فأحسنا جواره وكففنا عنه الاذى لوجوب حقه علينا فختمت أمره بأسوا الجوار فقالت انما غضبت لك وحكمت بحكمك فقال لها أوما كان يسعه حلمك فتحفظين جواره قالت قد كان ما كان فبعث الله الياس الى لاجب الملك وأمره الله أن يخبرهم أن الله تعالى قد غضب عليهم لوليه حين قتلوه ظلما وآلى على نفسه أنهما ان لم يتوبا عن صنيعهما ويردا الجنينة على ورثة مزدكى أن يهلكهما يعنى لاجب وامرأته فى جوف الجنينة ثم يدعهما جثتين ملقيين فيها حتى تتفرق عظامهما من لحومهما ولا يتمتعان بها الا قليلا فجاء الياس فأخبر الملك بما أوحى الله فى أمره وأمر امرأته والجنينة فلما سمع الملك ذلك اشتد غضبه عليه وقال يا الياس والله ما أرى ما تدعونا اليه الا باطلا وهم بتعذيبه وقتله فلما أحس الياس بالشر رفضه وخرج عنه هاربا ورجع الملك الى عبادة بعل وارتقى الياس الى أصعب جبل وأشمخه فدخل مغارة فيه ويقال انه بقى سبع سنين شريدا خائفا يأوى الشعوب والكهوف يأكل من نبات الارض وثمار الشجر وهم فى طلبه قد وضعوا العيون عليه والله تعالى يستره منهم فلما طال الامر على الياس وطال عصيان قومه وضاق بذلك ذرعا أوحى الله تعالى اليه بعد سبع سنين يا الياس ما هذا الخوف الذى أنت فيه ألست أمينى على وحيى وحجتى فى أرضى وصفوتى من خلقى فسلنى أعطك فانى ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم قال تميتنى فتلحقنى بآبائى فانى قد مللت بنى اسرائيل وملونى فأوحى الله تعالى اليه يا الياس ما هذا اليوم الذى أعرى منك الارض واهلها وانما قوامها وصلاحها بك وأشباهك وان كنتم قليلا ولكن سلنى فأعطك قال الياس ان لم تمتنى فاعطنى ثأرى من بنى اسرائيل قال الله تعالى وأى شئ تريد ان اعطيك قال تمكننى من خزائن السماء سبع سنين فلا تنشئ سحابة عليهم الا بدعوتى ولا تمطر عليهم سبع سنين قطرة الا بشفاعتى فانهم لا يذكرهم الا ذلك قال الله تعالى يا الياس انا أرحم بخلقى من ذلك وان كانوا

ظالمين

ظالمين قال فست سنين قال أنا أرحم بخلقي من ذلك قال فخمس سنين قال أنا أرحم بخلقي من ذلك ولكن أعطيك ثأرك ثلاث سنين أجعل خزائن المطر بيدك قال فبأي شيء أعيش قال أسخر لك جنسا من الطير ينقل اليك طعامك وشرابك من الريف ومن الارض التي لم تقحط قال الياس قد رضيت فأمسك الله تعالى عنهم المطر حتى هلكت الماشية والهوام والشجر وجهد الناس جهدا عظيما والياس على حالته مستخف من قومه يوضع له الرزق حيثما كان وقد عرف ذلك قومه قال ابن عباس أصاب بني اسرائيل ثلاث سنين القحط فمر الياس بعجوز فقال لها هل عندكم طعام قالت نعم شيء من دقيق وزيت قليل فدعا بهما ودعا فيه بالبركة حتى ملأ خوابيها دقيقا وخوابيها زيتا فلما رأوا ذلك عندها قالوا لها من أين لك هذا قالت مر بي رجل من حاله كذا وكذا ثم وصفته بصفته فعرفوه وقالوا ذلك الياس فطلبوه فوجدوه فهرب منهم ثم انه اوى الى بيت امرأة من بني اسرائيل لها ابن يقال له اليسع بن اخطوب به مرض فآوته وأخفت أمره فدعا له فعوفي من الضر الذي كان به واتبع الياس وآمن به وصدقه ولزمه وكان يذهب حيثما ذهب وكان الياس قد كبر سنه واليسع غلام شاب ثم ان الله تعالى أوحى الى الياس انك قد أهلكت كثيرا من الخلق ممن لم يعص من البهائم والطير والهوام بحبس المطر فقال الياس يارب دعني أنا الذي اكون أدعو لهم وآتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء لعلهم ان يرجعوا عما هم عليه من عبادة غيرك فقيل له نعم فجاء الياس الى بني اسرائيل فقال انكم قد هلكتم جوعا وجهدا وقد هلكت البهائم والهوام والشجر بخطاياكم وانكم على باطل فان كنتم تحبون أن تعلموا ذلك فاخرجوا بأصنامكم فان استجابت لكم فذلك كما تقولون وان هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل فنزعتم ودعوتم الله سبحانه وتعالى ففرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء قالوا أنصفت فخرجوا بأوثانهم فدعوها فلم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء ثم قالوا الالياس انا قد هلكنا فادع الله لنا فدعا لهم الياس ومعه اليسع بالفرج فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون فأقبلت نحوهم وطبقت الآفاق ثم أرسل الله تعالى عليهم المطر فأغاثهم وحييت بلادهم فلما كشف الله تعالى عنهم المطر لم ينزعوا عن كفرهم وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه فلما رأى ذلك الياس دعا ربه أن يريحه منهم فقيل له انظر يوم كذا وكذا فاخرج فيه الى موضع كذا فما جاءك من شيء فاركبه ولا تهبه فخرج الياس ومعه اليسع حتى اذا كانا بالموضع الذي أمر به أقبل فرس من نار وقيل لونه كلون النار حتى وقف بين يديه فوثب عليه الياس وانطلق به الفرس وناداه اليسع يا الياس ما تأمرني فقذف اليه بكسائه من الجو الاعلى فكان ذلك علامة استخلافه اياه على بني اسرائيل وكان ذلك آخر عهده به ورفع الله تعالى الياس من بين أظهرهم وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وكساه الريش فكان انسيا ملكيا أرضيا سماويا وسلط الله تعالى على لاجب الملك وقومه عدوا لهم فقصدهم من حيث لم يشعروا به حتى أرهقهم فقتل لاجب وامرأته ازميل في بستان مزدكي فلم تزل جيفتاهما ملقاتين في تلك الجنينة حتى بليت لحومهما ورمت عظامهما ونبأ الله تعالى اليسع وبعثه رسولا الى

بنى اسرائيل فأوحى الله تعالى اليه وأيده فآمنت به بنو اسرائيل وكانوا يعظمونه وحكم الله تعالى فيهم قائم الى ان فارقهم اليسع روى السرى بن يحيى عن عبد العزيز بن أبى رواد قال الياس والخضر يصومان رمضان ببيت المقدس و يوافيان موسم الحج فى كل عام وقيل ان الياس موكل بالفيافى والخضر موكل بالبحار فذلك قوله تعالى وان الياس لمن المرسلين (اذ) أى اذكر يا أفضل الخلق اذ (قال لقومه الا تتقون) أى ألا تخافون الله ولما خوفهم على سبيل الاجمال ذكر ما هو السبب لذلك التخويف بقوله تعالى (أتدعون بعلا) اسم لصنم لهم من ذهب وبه سميت البلد أيضا مضافا الى بك أى أتعبدونه أو تطلبون الخير منه وقيل البعل الرب بلغة اليمن سمع ابن عباس رجلا منهم ينشد ضالة فقال آخر انا بعلها فقال الله أكبر وتلا الآية ويقال من بعل هذه الدار أى من ربها وسمى الزوج بعلا لهذا المعنى قال الله تعالى وبعولتهن أحق بردهن وقالت امرأة ابراهيم وهذا بعلى شيخا والمعنى أتدعون بعض البعول (وتذرون) أى وتتركون (أحسن الخالقين) فلا تعبدونه وقرأ ابن ذكوان بهمزة الوصل من الياس فى الوصل فان ابتدأ بها ابتدأ بفتحها والباقون بهمزة مكسورة وصلا وابتداء وقوله تعالى (الله ربكم ورب آبائكم الاولين) قرأه حفص وحمزة والكسائى بنصب الهاء من الاسم الكريم ونصب الباء الموحدة من ربكم ورب وذلك اما على المدح أو البدل أو البيان ان قلنا ان اضافة افعل اضافة محضة والباقون بالرفع فى الثلاثة وذلك اما على خبر مبتدأ مضمر أى هو الله أو على أن الجلالة مبتدأ وما بعده الخبر (فكذبوه فانهم لمحضرون) أى فى العذاب وانما أطلقه اكتفاء بالقرينة أو لان الاحضار المطلق مخصوص بالشر عرفا وقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) أى المؤمنين مستثنى من فاعل فكذبوه وفيه دلالة على أن فى قومه من لم يكذبه فلذلك استثنوا ولا يجوز أن يكونوا مستثنين من ضمير لمحضرون لفساد المعنى لانه يلزم ان يكونوا مندرجين فيمن كذب لكنهم لم يحضروا لكونهم عباد الله المخلصين وهو بين الفساد لا يقال هو مستثنى منه استثناء منقطعا لانه يصير المعنى لكن عباد الله المخلصين من غير هؤلاء لم يحضروا ولا حاجة الى هذا اذ به يفسد نظم الكلام وتقدم الكلام على قراءة المخلصين فى أول السورة (وتركنا عليه فى الآخرين) ثناء حسنا (سلام) اى منا وقوله تعالى (على ال ياسين) قرأه نافع وابن عامر بفتح الهمزة ممدودة وكسر اللام وقطعها عن الياء كما رسمت أى أهله والمراد به الياس والباقون بكسر الهمزة وسكون اللام وهى مقطوعة عن الياء قيل هو الياس المتقدم وقيل هو ومن آمن معه فجمعوا معه تغليبا كقولهم للمهلب وقومه المهلبون وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم أو القرآن أو غيره من كتب الله تعالى قال البيضاوى والكل لا يناسب نظم سائر القصص ولا قوله تعالى (انا كذلك نجزى المحسنين) أى كما جزيناه (انه من عبادنا المؤمنين) اذ الظاهر ان الضمير لالياس القصة الخامسة قصة لوط عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (وان لوطا لمن المرسلين اذ) أى واذكر اذ (نجيناه وأهله أجمعين الا عجوزا فى الغابرين) اى الباقين فى العذاب (ثم دمرنا) أى أهلكنا (الآخرين) أى كفار قومه

(وانكم) يا أهل مكة (لتمرون عليهم مصبحين) أى على منازلهم فى متاجركم الى الشأم فان سدوم فى طريقه وقوله تعالى (وبالليل) عطف على الحال قبلها أى ملتبسين بالليل والمعنى ان أولئك القوم كانوا يسافرون الى الشأم والمسافر فى أكثر الامر انما يمشى فى أول الليل وفى أول النهار فلهذا السبب عبر الله تعالى عن هذين الوقتين ثم قال تعالى (أفلا تعقلون) أى أليس فيكم عقل يا أهل مكة فتنظروا ما حل بهم فتعتبروا * القصة السادسة وهى آخر القصص قصة يونس عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (وان يونس لمن المرسلين) وقوله تعالى (اذ أبق) ظرف للمرسلين أى هو من المرسلين حتى فى هذه الحالة وأبق أى هرب وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير اذن ربه حسن اطلاقه عليه (الى الفلك المشحون) أى السفينة المملوأة قال ابن عباس رضى الله عنهما ووهب كان يونس وعد قومه العذاب فتأخر عنهم فخرج كالمشوز منهم فقصد البحر فركب السفينة فقال الملاحون ههنا عبد آبق من سيده فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس فقال يونس أنا الآبق فزج نفسه فى البحر وروى فى القصة أنه لما وصل الى البحر كانت معه امرأته وابنان له فجاء مركب وأراد أن يركب معهم فقدم امرأته ليركب بعدها فحال الموج بينه وبين المركب ومر المركب ثم جاءت موجة أخرى فأخذت ابنه الاكبر وجاء ذئب فأخذ ابنه الاصغر فبقى فريدا فجاءت مركب أخرى فركبها وقعد ناحية من القوم فلما جرت السفينة فى البحر ركدت فقال الملاحون ان فيكم عاصيا والا لم يحصل وقوف السفينة كما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر فاقترعوا فمن خرجت القرعة على سهمه نغرقه فان تغريق واحد خير من غرق الكل فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فذلك قوله تعالى (فساهم) أى قارع أهل السفينة (فكان من المدحضين) أى المغلوبين بالقرعة فألقوه فى البحر (فالتقمه) ابتلعه (الحوت وهو مليم) أى آت بما يلام عليه من ذهابه الى البحر وركوبه السفينة بلا اذن من ربه وقيل مليم نفسه (فلولا أنه كان من المسبحين) أى الذاكرين قبل ذلك وكان عليه السلام كثير الذكر وقال ابن عباس رضى الله عنهما من المصلين وقال وهب من العابدين وقال الحسن ما كان له صلاة فى بطن الحوت ولكنه قدم عملا صالحا قال الضحاك شكر الله تعالى له طاعته القديمة اذكر الله فى الرخاء يذكرك فى الشدة فان يونس كان عبدا صالحا ذاكرا لله تعالى فلما وقع فى الشدة فى بطن الحوت شكر الله تعالى له ذلك وقال سعيد بن جبير يعنى قوله لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين (للبث فى بطنه الى يوم يبعثون) أى صار بطن الحوت له قبرا الى يوم القيامة وهو حى أو ميت وفى ذلك حث على اكثار الذكر وتعظيم لشأنه ومن أقبل عليه فى السراء أخذ بيده فى الضراء (فنبذناه) أى ألقيناه من بطن الحوت فأضاف النبذ الى نفسه سبحانه مع أن النبذ انما حصل بفعل الحوت فهو يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى (بالعراء) أى بوجه الارض وقال السدى بالساحل والعراء الارض الخالية من الشجر والنبات روى ان الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح الله تعالى حتى انتهى الى الارض فلفظه *(تنبيه)* اختلفوا فى مدة

لبثه فى بطن الحوت فقال الحسن لم يلبث الا قليلا ثم أخرج من بطن الحوت وقال بعضهم التقمه بكرة ولفظه عشية وقال مقاتل بن حيان ثلاثة أيام وقال عطاء سبعة أيام وقال الضحاك عشرين يوما وقيل شهرا وقيل أربعين يوما قال الرازى ولا أدرى بأى دليل عينوا هذه المقادير وروى أبو بردة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال سبح يونس فى بطن الحوت فسمع الملائكة تسبيحه فقالوا ربنا انا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة فقال تعالى ذاك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر قالوا العبد الصالح الذى كان يصعد اليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له فأمر الحوت فقذفه بالساحل * وروى أن يونس عليه السلام لما ابتلعه الحوت ابتلع الحوت حوت آخر أكبر منه فلما استقر فى جوف الحوت حسب انه قدمات فحرك جوارحه فتحركت فاذا هو حى فخر لله تعالى ساجدا وقال يارب اتخذت لك مسجدا لم يعبدك أحد فى مثله (وهو سقيم) أى عليل كالفرخ الممعوط (وأنبتنا عليه) أى له وقيل عنده (شجرة من يقطين) قال المبرد والزجاج اليقطين كل ما لم يكن له ساق من عود كالقثاء والقرع والبطيخ والحنظل وهو قول الحسن ومقاتل قال البغوى المراد هنا القرع على قول جميع المفسرين وروى الفراء انه قيل عند ابن عباس هو ورق القرع فقال ومن جعل القرع من بين الشجر يقطينا كل ورقة انشقت وشربت فهو يقطين (فان قيل) الشجر ماله ساق واليقطين مما لا ساق له كما قال تعالى والنجم والشجر يسجدان (أجيب) بأن الله تعالى جعل لها ساقا على خلاف العادة فى القرع معجزة له عليه السلام ولو كان منبسطا على الارض لم يمكن أن يستظل به قال مقاتل بن حيان كان يونس عليه السلام يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف اليه فيشرب من لبنها بكرة وعشيا حتى اشتد لحمه ونبت شعره * وروى أن يونس عليه السلام كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف وكان قد أوحى الله تعالى الى بنى اسرائيل اذا أسركم عدوكم أو أصابتكم مصيبة فادعونى أستجب لكم فلما نسوا ذلك وأسروا أوحى الله تعالى بعد حين الى نبى من أنبيائهم أن اذهب الى ملك هؤلاء الاقوام وقل له يبعث الى بنى اسرائيل نبيا فاختار من بنى اسرائيل يونس عليه السلام لقوته وامانته فقال يونس آلله أمرك بهذا قال لا ولكن أمرت أن أبعث قويا أمينا وأنت كذلك فقال يونس فى بنى اسرائيل من هو أقوى منى فلم لم تبعثه فألح الملك عليه فغضب يونس منه وخرج حتى أتى بحر الروم فوجد سفينة مشحونة فحملوه فيها فلما أشرف على لجة البحر أشرفوا على الغرق فقال الملاحون ان فيكم عاصيا والا لم يحصل فى السفينة ما نراه فقال التجار قد جربنا مثل هذا فاذا رأيناه نقترع فمن خرجت عليه نغرقه فى البحر فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل فخرج من بينهم يونس فقال يا هؤلاء أنا العاصى وتلفف فى كسائه ورمى بنفسه فالتقمه الحوت وأوحى الله تعالى الى الحوت لا تكسر منه عظما ولا تقطع منه وصلا ثم ان الحوت خرج الى نيل مصر ثم الى بحر فارس ثم الى البطائح ثم الى دجلة وصعد به ورماه فى أرض نصيبين بالعراء وهو كالفرخ المنتوف لا شعر ولا لحم فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين فكان يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد ثم ان الارضة أكلتها

فحزن يونس لذلك حزنا شديدا فقال يا رب كنت أستظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وأمص من ثمرها وقد سقطت فقال يا يونس تحزن على شجرة أنبتت في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم فانطلق اليهم فانطلق اليهم وذلك قوله تعالى (وأرسلناه) أي بعد ذلك كقبله الى قومه بنينوى من أرض الموصل (الى مائة ألف أو يزيدون) قال ابن عباس ان أو بمعنى الواو وقال مقاتل والكلبي بمعنى بل وقال الزجاج على الاصل بالنسبة للمخاطبين * واختلفوا في مبلغ الزيادة فقال ابن عباس ومقاتل كانوا عشرين ألفا ورواه أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الحسن بضعا وثلاثين ألفا وقال سعيد بن جبير تسعين ألفا (فآمنوا) أي الذين أرسل اليهم عند معاينة العذاب الموعودين به (فمتعناهم) أي أبقيناهم بما لهم (الى حين) أي الى انقضاء آجالهم * (تنبيه) * قال البيضاوي ولعله انما لم يختم قصته وقصة لوط عليهما السلام بما ختم به سائر القصص تفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع الكثيرة وأولي العزم من الرسل واكتفاء بالسلام الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة وقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (فاستفتهم) اى استخبر كفار مكة توبيخا لهم (ألربك البنات ولهم البنون) قال الزمخشري معطوف على مثله في أول السورة قال أبو حيان واذا كانوا قد عدوا الفصل بجملة نحو كل لحما واضرب زيدا وخبزا من أقبح التراكيب فكيف بجمل كثيرة وقصص متباينة فاجيب عنه بأن الفصل وان كثر بين الجمل المتعاطفة مغتفر وأما المثال الذي ذكره فمن قبيل المفردات الاترى كيف عطف خبزا على لحما وأيضا الفاصل ليس بأجنبي كما أشار اليه البيضاوي بقوله أمر رسوله أولا باستفتاء قريش عن وجه انكارهم البعث وساق الكلام في تقريره جارا لما يلائمه من القصص موصولا بعضها ببعض ثم أمره صلى الله عليه وسلم باستفتائهم عن وجه القسمة حيث جعلوا لله البنات ولانفسهم البنين في قولهم الملائكة بنات الله وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالات أخر من التجسيم وتجويز البنات على الله تعالى فان الولادة مخصوصة بالاجسام المتكونة الفاسدة وتفضيل أنفسهم الخسيسة عليه سبحانه حيث جعلوا أوضع الجنسين له وأرفعهما لهم واستهانتهم بالملائكة حيث أنثوهم ولذلك كرر الله تعالى انكاره ذلك وابطاله في كتابه العزيز مرارا وجعله مما تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا والانكار ههنا مقصور على الأخيرين لاختصاص هذه الطائفة بهما ونقل الواحدي عن المفسرين انهم قالوا ان قريشا وأجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح قالوا الملائكة بنات الله وهذا الكلام يشتمل على أمرين أحدهما اثبات البنات لله تعالى وذلك باطل لان العرب كانوا يستنكفون من البنات والشئ الذي يستنكف منه المخلوق كيف يمكن اثباته للخالق والثاني اثبات أن الملائكة اناث وهذا أيضا باطل لان طريق العلم اما الحس واما الخبر واما النظر أما الحس فمفقود لانهم لم يشاهدوا كيف خلق الله تعالى الملائكة وهو المراد من قوله تعالى (أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون) وانما خص علم المشاهدة لان أمثال ذلك لا يعلم الا به فان الانوثة ليست من لوازم ذاتهم لتمكن معرفته بالعقل الصرف مع ما فيه من الاستهزاء والاشعار بأنهم

لفرط جهلهم يثبتونه كأنهم قد شاهدوا خلقهم وأما الخبر فمفقود أيضا لان الخبر انما يفيد العلم اذا علم كونه صدقا قطعا وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون أفاكون لم يدل على صدقهم دليل وهذا هو المراد من قوله تعالى (ألا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون) أى فيما زعموا وقوله تعالى (أصطفى البنات على البنين) استفهام انكار واستبعاد والاصطفاء أخذ صفوة الشئ (فائدة) همزة أصطفى همزة قطع مفتوحة مقطوعة وصلا وابتداء (ما لكم كيف تحكمون) هذا الحكم الفاسد (أفلا تذكرون) أى انه تعالى منزه عن ذلك وقرأ حمزة والكسائى وحفص بتخفيف الذال والباقون بالتشديد وأما النظر فمفقود من وجهين الاول أن دليل العقل يقتضى فساد هذا المذهب لانه تعالى أكمل الموجودات والاكمل له اصطفاء الابناء على البنات يعنى ان اسناد الافضل الى الافضل أقرب الى العقل من اسناد الاخس الى الافضل فان كان حكم العقل معتبرا فى هذا الباب كان قولهم باطلا الثانى أن نترك الاستدلال على فساد مذهبهم بل نطالبهم باثبات الدليل الدال على صحة مذهبهم واذا لم يجدوا دليلا ظهر بطلان مذهبهم وهذا هو المراد بقوله تعالى (أم لكم سلطان مبين) أى حجة واضحة ان لله ولدا (فأتوا بكتابكم) أى التوراة فأرونى ذلك فيه (ان كنتم صادقين) أى فى قولكم هذا (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) قال مجاهد وقتادة أراد بالجنة الملائكة عليهم السلام سموا جنا لاجتنانهم عن الابصار وقال ابن عباس حى من الملائكة يقال لهم الجن منهم ابليس لعنه الله وقيل هم خزان الجنة قال الرازى وهذا القول عندى مشكل لانه تعالى أبطل قولهم الملائكة بنات الله ثم عطف عليه قوله تعالى وجعلوا الخ والعطف يقتضى المغايرة فوجب أن يكون المراد من الآية غير ما تقدم وقال مجاهد قال كفار قريش الملائكة بنات الله فقال لهم أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه منكرا عليهم فمن أمهاتهم قالوا سروات الجن وهذا أيضا بعيد لان المصاهرة لا تسمى نسبا قال الرازى وقد روينا فى تفسير قوله تعالى وجعلوا لله شركاء الجن ان قوما من الزنادقة يقولون ان الله تعالى وابليس اخوان فالله تعالى هو الحر الكريم وابليس هو الاخ الشرير فالمراد من ذلك هو هذا المذهب وهو مذهب المجوس قال وهذا القول عندى هو أقرب الاقاويل فى الرد عليهم بهذه الآية (ولقد علمت الجنة انهم) أى اهل هذا القول (لمحضرون) أى الى النار ومعذبون وقيل المراد ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون العذاب فعلى الاول الضمير عائد الى القائل وعلى الثانى عائد الى نفس الجنة * ثم انه تعالى نزه نفسه عما قالوه من الكذب فقال تعالى (سبحان الله عما يصفون) بأن لله تعالى ولدا ونسبا وقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) أى المؤمنين استثناء منقطع ٣ أى لكن عباد الله المخلصين ينزهون الله تعالى عما يصف هؤلاء الثالث أنه ضمير محضرون أى لكن عباد الله تعالى ناجون وعلى هذا فتكون جملة التسبيح معترضة وظاهر كلام أبى البقاء أنه يجوز أن يكون استثناء متصلا لانه قال مستثنى من جعلوا أو محضرون ويجوز أن يكون منفصلا فظاهر هذه العبارة أن الوجهين الاولين هو فيهما متصل لا منفصل وليس ببعيد كأنه قيل وجعل الناس ثم استثنى منهم هؤلاء وكل من لم يجعل بين الله وبين الجنة نسبا

٣ قوله استثناء منقطع الخ هكذا فى النسخ وهى عبارة غير محررة وأصلها كما فى الجمل وفى السمين قوله الا عباد الله المخلصين فى هذا الاستثناء وجوه أحدها انه منقطع والمستثنى منه اما فاعل جعلوا أى جعلوا بينه وبين الجنة نسبا الا عباد الله الثانى انه فاعل يصفون أى لكن عباد الله يصفونه بما يليق به تعالى الثالث انه ضمير محضرون أى لكن عباد الله ناجون وعلى هذا فتكون جملة التسبيح معترضة وظاهر كلام أبى البقاء انه يجوز أن يكون استثناء متصلا لانه قال مستثنى من واو جعلوا أو محضرون ويجوز أن يكون منفصلا فظاهر هذه العبارة أن الوجهين الاولين هو فيهما متصل لا منفصل وليس ببعيد كأنه قيل وجعل الناس ثم استثنى منهم هؤلاء وكل من لم يجعل بين الله وبين الجنة نسبا فهو عند الله مخلص من الشرك اهـ

نسبا فهو عند الله مخلص من الشرك وقوله تعالى (فانكم) أى يا اهل مكة (وما تعبدون) أى من الاصنام عود الى خطابهم لانه لما ذكر الدلائل الدالة على فساد مذاهب الكفار اتبعه بما ينبه به على أن هؤلاء الكفار لا يقدرون على اضلال أحد الا اذا كان قد سبق حكم الله تعالى فى حقه بالعذاب والوقوع فى النار كما قال تعالى (ما أنتم عليه) أى على معبودكم وعليه متعلق بقوله (بفاتنين) أى بمضلين أحدا من الناس (الا من هو صال الجحيم) أى الا من سبق له فى علم الله تعالى الشقاوة *(تنبيه)* احتج أهل السنة بهذه الآية على انه لا تأثير لايحاء الشيطان ووسوسته وانما المؤثر هو الله حيث قضاه وقدره ثم ان جبريل عليه السلام أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة ليسوا بمعبودين كما زعمت الكفار بقوله (ومامنا) أى معشر الملائكة ملك (الا له مقام معلوم) فى السموات يعبد الله تعالى فيه لا يتجاوزه قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ما فى السموات موضع شبر الا وعليه ملك يصلى ويسبح وروى أبو ذر رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أطت السماء وحق لها أن تئط والذى نفسى بيده ما فيها موضع أربع أصابع الا وملك واضع جبهته لله ساجدا قيل الاطيط أصوات الاقتاب وقيل أصوات الابل وحسها ومعنى الحديث ما فى السماء من الملائكة قد أثقلها حتى أطت وهذا مثل وايذان بكثرة الملائكة عليهم السلام وان لم يكن ثم أطيط وقال السدى الا له مقام معلوم فى القرب والمشاهدة (وانا لنحن الصافون) أى أقدامنا فى الصلاة وقال الكلبى صفوف الملائكة فى السماء كصفوف الناس فى الارض (وانا لنحن المسبحون) أى المنزهون الله تعالى عما لا يليق به وقيل هذا حكاية كلام النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمعنى ومامنا الا له مقام معلوم فى الجنة أو بين يدى الله تعالى فى القيامة وانا لنحن الصافون فى الصلاة والمنزهون له تعالى عن السوء ثم انه تعالى أعاد الكلام الى الاخبار عن المشركين فقال (وان كانوا) أى كفار مكة وان مخففة من الثقيلة (ليقولون لو أن عندنا ذكرا) أى كتابا (من الاولين) أى من كتب الامم الماضين (لكنا عباد الله المخلصين) أى لأخلصنا العبادة له وما كذبنا ثم جاءهم الذكر الذى هو سيد الاذكار والمهيمن عليها وهو القرآن العظيم (فكفروا به فسوف يعلمون) عاقبة هذا الكفر وهذا تهديد عظيم * ولما هددهم بذلك أردفه بما يقوى قلب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا) أى بالنصر (لعبادنا المرسلين) وهى قوله تعالى لأغلبن أنا ورسلى أوهى قوله تعالى (انهم لهم المنصورون وان جندنا) أى المؤمنين (لهم الغالبون) أى الكفار والنصرة والغلبة قد تكون بالحجة وقد تكون بالدولة والاستيلاء وقد تكون بالدوام والثبات فالمؤمن وان صار مغلوبا فى بعض الاوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب فى الآخرة فالحكم فى ذلك للاغلب فى الدنيا فلا ينافى ذلك قتل بعض الانبياء عليهم السلام وهزم كثير من المؤمنين وانما سمى ذلك كلمة وهى كلمات لانتظامها فى معنى واحد (فتول عنهم) أى أعرض عن كفار مكة واختلف فى قوله تعالى (حتى حين) فقال ابن عباس يعنى الموت وقال مجاهد يوم بدر وقال السدى حتى يأمرك الله تعالى بالقتال وقيل الى أن يأتيهم عذاب الله وقيل الى فتح مكة وقال

مقاتل بن حيان نسخها آية القتال (وأبصرهم) أى اذا نزل بهم العذاب من القتل والاسر في الدنيا والعذاب في الآخرة (فسوف يبصرون) أى ما قضيناه لك من التأييد والنصرة والثواب في الآخرة وسوف للوعيد لا للتبعيد * ولما قيل لهم ذلك قالوا استهزاء متى نزول العذاب فقال تعالى تهديدا لهم (أفبعذابنا يستعجلون) أى ان ذلك الاستعجال جهل لان لكل شئ من أفعال الله تعالى وقتا معينا لا يتقدم ولا يتأخر (فاذا نزل) أى العذاب (بساحتهم) قال مقاتل بحضرتهم وقيل بفنائهم قال الفراء العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم فشبه العذاب بجيش هجم فأناخ بفنائهم بغتة (فساء) أى فبئس صباحا (صباح المنذرين) أى الكافرين الذين أنذروا بالعذاب وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج الى خيبر أتاها ليلا وكان اذا جاء قوما بليل لم يغر حتى يصبح فلما أصبح خرجت يهود بمساحيها ومكاتلها فلما رأوه قالوا محمد والله محمد والخميس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أكبر خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين قالها ثلاث مرات وقوله تعالى (وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون) فيه وجهان أحدهما ان في هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا وفي هذه الكلمة أحوال يوم القيامة وعلى هذا فالتكرار زائل والثاني انهما مكررة للمبالغة في التهديد والتهويل (فان قيل) ما الحكمة في قوله أولا وأبصرهم وههنا قال وأبصر بغير ضمير (أجيب) بأنه حذف مفعول أبصر الثاني اما اختصارا لدلالة الاول عليه واما اقتصارا تفننا في البلاغة ثم انه تعالى ختم السورة بتنزيه نفسه عن كل ما لا يليق بصفات الالهية فقال تعالى (سبحان ربك رب العزة) أى الغلبة والقوة وفي قوله تعالى رب اشارة الى كمال الحكمة والرحمة وفي قوله تعالى العزة اشارة الى كمال القدرة وانه القادر على جميع الحوادث لان الالف واللام في قوله تعالى العزة تفيد الاستغراق واذا كان الكل ملكا له سبحانه لم يبق لغيره شئ فثبت ان قوله سبحانه وتعالى سبحان ربك رب العزة (عما يصفون) أى ان له ولدا كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات وقوله تعالى (وسلام على المرسلين) أى المبلغين من الله تعالى التوحيد والشرائع تعميم للرسل بعد تخصيص بعضهم (والحمد لله رب العالمين) أى على هلاك الاعداء ونصرة الانبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام وعلى ما أفاض عليهم ومن اتبعهم من النعمة وحسن العاقبة ولذلك أخره عن التسليم والغرض من ذلك تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يغفلوا عنه لما روى البغوى عن على رضى الله عنه أنه قال من أحب أن يكتال بالمكيال الاوفى من الاجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه من مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين الخ وأما ما رواه البيضاوى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن من قرأ والصافات أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد كل جنى وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة انه كان مؤمنا بالمرسلين فموضوع

(سورة ص مكية)

وهى ست أو ثمان وثمانون آية وسبعمائة واثنتان وثمانون كلمة وثلاثة آلاف وتسعة وتسعون حرفا (بسم الله) المنزه عن كل شائبة نقص (الرحمن) الذى عم جوده سائر مخلوقاته (الرحيم) بمن خلقه واختلف فى تفسير قوله تعالى (ص) فقيل قسم وقيل هو اسم للسورة كما ذكرنا فى سائر حروف التهجى فى أوائل السور وقال محمد بن كعب القرظى مفتاح اسمه الصمد وصادق الوعد وقال الضحاك معناه صدق الله وروى عن ابن عباس صدق محمد صلى الله عليه وسلم وقيل معناه أن القرآن مركب من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها ولستم قادرين على معارضته (والقرآن) أى الجامع مع البيان لكل خير (ذى الذكر) أى الموعظة والتذكير وقال ابن عباس ذى البيان وقال الضحاك ذى الشرف ودليله قوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك (فان قيل) هذا قسم فأين المقسم عليه (أجيب) بأنه محذوف تقديره ما الامر كما قال كفار مكة من تعدد الآلهة وقوله تعالى (بل الذين كفروا) أى من أهل مكة اضراب انتقال من قصة الى أخرى (فى عزة) أى حمية وتكبر عن الايمان (وشقاق) أى خلاف وعداوة للنبى صلى الله عليه وسلم والتنكير فى عزة وشقاق للدلالة على شدتهما * وقيل جواب القسم قد تقدم وهو قوله تعالى ص أقسم الله تعالى بالقرآن أن محمدا الصادق وقال الفراء ص معناها وجب وحق فهو جواب قوله والقرآن كما تقول نزل والله وقال الاخفش قوله تعالى ان كل الا كذب الرسل وقال السدى ان ذلك لحق تخاصم أهل النار قال البغوى وهذا ضعيف لانه تخلل بين القسم وبين هذا الجواب أقاصيص وأخبار كثيرة وقال مجاهد فى عزة متعازين (كم) أى كثيرا (أهلكنا من قبلهم) وأكد كثرتهم بقوله تعالى (من قرن) أى من أمة من الامم الماضية كانوا فى شقاق مثل شقاقهم *(تنبيه)* كم مفعول أهلكنا ومن قرن تمييز ومن قبلهم لابتداء الغاية (فنادوا) أى استغاثوا عند نزول العذاب وحلول النقمة وقيل نادوا بالايمان والتوبة (ولات) أى وليس الحين (حين مناص) أى منجى وفرار قال ابن عباس كان كفار مكة اذا قاتلوا فاضطروا فى الحرب قال بعضهم لبعض مناص أى اهربوا وخذوا حذركم فلما نزل بهم العذاب ببدر قالوا مناص فأنزل الله تعالى ذلك والمناص مصدر ناص ينوص اذا تقدم ولات بمعنى ليس بلغة أهل اليمن وقال النحويون هى لا زيدت فيها التاء كقولهم رب وربت وثم وثمت وأصلها هاء وصلت بلا فقالوا لاة كما قالوا ثمة ولا تعمل الا فى الازمان خاصة نحو لات حين ولات اوان كقول الشاعر

طلبوا صلحنا ولات أوان * فأجبنا أن ليس حين بقاء

والاكثر حينئذ حذف مرفوعها فتقديره ولات الحين حين مناص وقد يحذف المنصوب ويبقى المرفوع كقول القائل

من صد عن نيرانها * فأنا ابن قيس لابراح

أى لابراح لى ولما حكى تعالى عن الكفار كونهم فى عزة وشقاق اتبعه بشرح كلماتهم الفاسدة بقوله تعالى (وعجبوا) اى الكفار الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله سبحانه بل الذين كفروا فى عزة وشقاق (ان) أى لاجل أن (جاءهم منذر) هو النبى صلى الله عليه وسلم وفى قوله تعالى (منهم) وجهان أحدهما انهم قالوا ان محمدا مساو لنا فى الخلقة الظاهرة والاخلاق الباطنة والنسب

والشكل والصورة فكيف يعقل أن يختص من بيننا بهذا المنصب العالى والثانى أن الغرض من هذه الكلمة التنبيه على كمال جهلهم لانهم جاءهم رجل يدعوهم الى التوحيد والترغيب فى الآخرة ثم ان هذا الرجل من أقاربهم يعلمون أنه كان بعيدا عن الكذب والتهمة وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه ثم انهم لحماقتهم يتعجبون من قوله (وقال الكافرون) وضع الظاهر فيه موضع المضمر اشارة الى أنهم يسترون الحق مع معرفتهم اياه فهم جاحدون لا جاهلون ومعاندون لا غافلون وايذانا بشدة غضبه عليهم وذمالهم على قولهم (هذا) أى النذير (ساحر) اى فيما يظهره معجزة (كذاب) أى فيما يقول على الله تبارك وتعالى (أجعل) أى صير بسبب مازعم أنه يوحى اليه (الآلهة) أى التى نعبدها (الها واحدا) كيف يسع الخلق كلهم اله واحد (ان هذا) أى القول بالوحدانية (لشئ عجاب) أى بليغ فى العجب فانه خلاف ما أطبق عليه آباؤنا ومانشاهده من أن الواحد لا يفى علمه وقدرته بالاشياء الكثيرة وقال البغوى العجب والعجاب واحد كقولهم رجل كريم وكرام وكبير وكبار وطويل وطوال وعريض وعراض وسبب قولهم ذلك انه روى انه لما أسلم عمر رضى الله عنه شق ذلك على قريش وفرح به المؤمنون فقال الوليد بن المغيرة لملا من قريش وهم الصناديد والاشراف وكانوا خمسة وعشرين رجلا أكبرهم سنا الوليد بن المغيرة اذهبوا الى أبى طالب فأتوا اليه وقالوا له أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت مافعل هؤلاء السفهاء وانا جئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك فأرسل أبو طالب اليه فحضر فقال له يا ابن أخى هؤلاء قومك يسألونك السواء فلا تمل كل الميل على قومك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا تسألونى فقالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا قال أرأيتم ان أعطيتكم ماسألتم أتعطونى أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم فقال أبو جهل لله أبوك نعطيكها وعشر امثالها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا لا اله الا الله فنفروا من ذلك وقاموا فقالوا ذلك (وانطلق الملأ منهم) أى أشراف قريش من مجلس اجتماعهم عند أبى طالب وسماعهم فيه من النبى صلى الله عليه وسلم قولوا لا اله الا الله (أن امشوا) أى يقول بعضهم لبعض امشوا أى اذهبوا (واصبروا) أى اثبتوا (على آلهتكم) أى على عبادتها قال الزمخشرى ويجوز انهم قالوا امشوا أى اكثروا واجتمعوا من مشت المرأة اذا كثرت ولادتها ومنه الماشية للتفاؤل اه *(فائدة)* الجميع يكسرون النون فى الوصل من أن امشوا والهمزة فى الابتداء من امشوا * ولما أسلم عمر وحصل للمسلمين قوة بمكانه قال المشركون (ان هذا) أى الذى نراه من زيادة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (لشئ يراد) أى بنا فلا مرد له أو ان الصبر على عبادة الآلهة لشئ يراد وهو أهل للارادة فهو أهل أن لا ننفك عنه وقيل هذا المذكور من التوحيد لشئ يراد منا وقيل ان دينكم لشئ يطلب ليؤخذ منكم (ماسمعنا بهذا) أى الذى يقوله محمد من التوحيد (فى الملة الآخرة) قال ابن عباس يعنون فى النصرانية لانها آخر الملل وهم لا يوحدون بل يقولون ثالث ثلاثة وقال مجاهد يعنون ملة قريش دينهم الذى هم عليه (ان) أى ما (هذا) أى الذى يقوله (الا اختلاق)

افتعال وكذب (أأنزل عليه) أى محمد صلى الله عليه وسلم (الذكر) أى القرآن (من بيننا)
وليس بأكبرنا ولا أشرفنا وهذا استفهام على سبيل الانكار لاختصاصه عليه الصلاة والسلام
بالوحى وهو مثلهم وفى ذلك دليل على أن مبدأ تكذيبهم لم يكن الا الحسد وقصور النظر على الحطام
الدنيوى وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية كالواو وأدخل بينهما ألفا قالون
وأبو عمرو بخلاف عن ورش وابن كثير بغير ادخال وعن هشام فيها ثلاثة أوجه تحقيق الهمزتين
وادخال ألف بينهما وتحقيقهما من غير ادخال ألف بينهما قال الله تبارك وتعالى (بل هم فى شك)
أى تردد محيط بهم مبتدأ لهم (من ذكرى) أى وحيى وما أنزلت لميلهم الى التقليد واعراضهم
عن الدليل الذى لو نظروا فيه لزال هذا الشك عنهم (بل) أى ليسوا فى شك منه فى نفس الامر
وان كان قولهم قول من هو فى شك (لما يذوقوا عذاب) أى الذى اعددته للمكذبين ولو ذاقوه
لما قالوا هذا القول ولصدقوا النبى صلى الله عليه وسلم فيما جاء به ولا ينفعهم التصديق حينئذ
(أم) أى بل (عندهم خزائن) أى مفاتيح (رحمة) أى نعمة (ربك) وهى النبوة يعطونها
من شاؤا ونظيره قوله تعالى أهم يقسمون رحمة ربك أى نبوة ربك (العزيز) أى الغالب الذى
لا يغلبه أحد (الوهاب) الذى له أن يهب كل ما يشاء من النبوة أو غيرها لمن يشاء من خلقه
* ولما كانت خزائن الله تعالى غير متناهية كما قال تعالى وان من شئ الا عندنا خزائنه ومن
جملته السموات والارض وما بينهما وهم عاجزون عن هذا القسم قال الله تعالى (أم لهم ملك
السموات والارض وما بينهما) أى ليس لهم ذلك فلأن يكونوا عاجزين عن كل خزائن الله تعالى
أولى وقوله تعالى (فليرتقوا فى الاسباب) جواب شرط محذوف أى ان كان لهم ذلك فليصعدوا
فى المعارج التى يتوصل بها الى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم فينزلوا الوحى
الى من يريدونه وهذا غاية التهكم بهم والتعجيز والتوبيخ قال مجاهد أراد بالاسباب أبواب
السماء وطرقها من سماء الى سماء وكل ما يوصلك الى شئ من باب أو طريق فهو سبب واستدل حكماء
الاسلام بقوله تعالى فليرتقوا فى الاسباب على أن الاجرام الفلكية وما أودع الله تعالى فيها من
القوى والخواص أسباب لحوادث العالم السفلى لان الله تعالى سمى الفلكيات أسبابا وهذا يدل
على ذلك وقوله تعالى (جند ما هنالك مهزوم من الاحزاب) خبر مبتدأ مضمر أى هم قريش
جند من الكفار المتحزبين على الرسل عليهم السلام مهزوم مكسور عما قريب فمن أين لهم تدبير
الالهية والتصرف فى الامور الربانية فلا تكترث بما تقوله قريش قال قتادة أخبر الله تعالى نبيه
محمدا صلى الله عليه وسلم وهو بمكة انه سيهزم جند المشركين فقال تعالى سيهزم الجمع ويولون الدبر
فجاء تأويلها يوم بدر وهنالك اشارة الى بدر ومصارعهم وقيل يوم الخندق قال الرازى والاصح
عندى حمله على يوم فتح مكة لان المعنى أنهم جند سيصيرون منهزمين فى الموضع الذى ذكروا فيه
هذه الكلمات وذلك الموضع هو مكة فوجب أن يكون المراد أنهم سيصيرون منهزمين فى مكة
وما ذلك الا فى يوم الفتح *(تنبيه)* فى ما وجهان أحدهما انها مزيدة والثانى انها للجنس
على سبيل التعظيم للمهزومين او للتحقير فان ما الصفة تستعمل لهذين المعنيين وقد تقدم الكلام

عليها في أوائل البقرة وهنالك صفة لجند وكذلك مهزوم ومن الاحزاب ثم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم معزياله عليه السلام (كذبت) أى مثل تكذيبهم (قبلهم قوم نوح) أنث قوم باعتبار المعنى واستمروا على عزتهم وشقاقهم الى ان رأوا الماء قدأخذهم ولم يسمعوا بالاذعان ولا بالتضرع الى نوح عليه السلام (وعاد) سماهم بالاسم المنبه على ما كان لهم من المكنة بالملك واستمروا في شقاقهم الى ان خرجت عليهم الريح العقيم ورأوها تحمل الابل فيما بين السماء والارض وهم لايذعنون لما دعاهم اليه هود عليه السلام (وفرعون ذو الاوتاد) كانت له أوتاد يعذب الناس عليها وكان اذا غضب على أحد مده مستلقيا بين أربعة أوتاد يشد كل يد وكل رجل منه الى سارية وتركه كذلك في الهواء بين السماء والارض حتى يموت وقال مجاهد كان يمد الرجل مستلقيا بين أربعة أوتاد على الارض يشد رجليه ويديه ورأسه على الارض بالاوتاد وقال السدى كان يشد الرجل بالاوتاد ويرسل عليه العقارب والحيات وقال ابن عباس ذو البناء المحكم وقيل ذو الملك الشديد الثابت وقال العتبى تقول العرب هم في عز ثابت الاوتاد يريدون انه دائم شديد قال الاسود بن يعفور

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة * في ظل ملك ثابت الاوتاد

وقال الضحاك ذو القوة والبطش وقال عطية ذو الجموع والجنود الكثيرة لانهم كانوا يقوون أمره ويشدون ملكه كما يقوى الوتد الشئ والاوتاد جمع وتد وفيه لغات وتد بفتح الواو وكسر التاء وهي الفصحى وتد بفتحتين وود بادغام التاء في الدال (وثمود) واستمروا فيما هم فيه الى ان رأوا علامات العذاب من صفرة الوجوه ثم حمرتها ثم سوادها ولم يكن في ذلك زاجر يردهم عن عزتهم وشقاقهم (وقوم لوط) أى الذين لهم قوة القيام بما حاولوه واستمروا في عزتهم وفي شقاقهم حتى ضربوا بالعشاء وطمس الاعين ولم يقدروا على الوصول الى ما أرادوا من الدخول الى بيت لوط عليه السلام ولم يردهم ذلك عن عزتهم وشقاقهم (وأصحاب الايكة) أى الغيضة وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام (أولئك الاحزاب) أى المتحزبون على الرسل عليهم السلام الذين خص الجند المهزوم منهم وقيل المعنى أولئك الاحزاب مبالغة في وصفهم بالقوة كما يقال فلان هو الرجل أى أولئك الاحزاب مع كمال قوتهم لما كان عاقبتهم هي الهلاك والبوار فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين اذا نزل عليهم العذاب وفي الآية زجر وتخويف للسامعين (ان) أى ما (كل) أى من الاحزاب (الا كذب الرسل) أى لانهم اذا كذبوا واحدا منهم فقد كذبوا جميعهم لان دعوتهم واحدة وهي دعوة التوحيد (فحق عقاب) أى فوجب عليهم ونزل بهم عذابي * ثم بين تعالى ان هؤلاء المكذبين وان تأخر هلاكهم فكأنه واقع بهم فقال تعالى (وما ينظر) وحقرهم بقوله تعالى (هؤلاء) أى وما ينتظر كفار مكة (الا صيحة واحدة) وهي نفخة الصور الاولى كقوله تعالى ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية الآية والمعنى انهم وان لم يذوقوا عذابي في الدنيا فهو معد لهم يوم القيامة فجعلهم منتظرين لها على معنى قربها منهم كالرجل الذي ينتظر الشئ فهو ماد الطرف اليه يقطع كل ساعة بحضوره

وقيل

وقيل المراد بالصيحة عذاب يفجؤهم ويجيئهم دفعة واحدة كما يقال صاح الزمان بهم اذا هلكوا قال الشاعر صاح الزمان بآل برمك صيحة * خروا لشدتها على الاذقان
ونظيره قوله تعالى فهل ينتظرون الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم الآية وقرأ حمزة والكسائي (مالها) أي الصيحة (من فواق) بضم الفاء والباقون بفتحها وهما لغتان بمعنى واحد وهو الزمان الذي بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع والمعنى مالها من توقف قدر فواق ناقة وفي الحديث العيادة قدر فواق ناقة وهذا في المعنى كقوله تعالى فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون وقال ابن عباس مالها من رجوع من أفاق المريض اذا رجع الى صحته وافاقة الناقة ساعة يرجع اللبن الى ضرعها يقال أفاقت الناقة تفيق افاقة رجعت واجتمعت الفيقة في ضرعها والفيقة اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين وهو أن يحلب الناقة ثم يترك ساعة حتى يجتمع اللبن فمابين الحلبتين فواق أي العذاب لايمهلهم بذلك القدر (وقالوا) أي كفار مكة استهزاء لما نزل قوله تعالى في الحاقة فأما من أوتي كتابه بيمينه وأما من أوتي كتابه بشماله (ربنا) أي ياأيها المحسن الينا (عجل لنا قطنا) أي كتاب أعمالنا في الدنيا (قبل يوم الحساب) وقال سعيد بن جبير يعنون حظنا ونصيبنا من الجنة التي تقول وقال مجاهد والسدي يعنون عقوبتنا ونصيبنا من العذاب قال عطاء قاله النضر ابن الحرث وهو قوله ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء وقال مجاهد قطنا حسابنا يقال لكتاب الحساب قط وقال أبو عبيدة والكسائي القط الكتاب بالجوائز ويجمع على قطوط وقططة كقرد وقرود وقردة وفي القلة على أقطة واقطاط كقدح وأقدحة واقداح الاأن أفعلة في فعل شاذ * ولما أن القوم تعجبوا من أمور ثلاثة أولها من أمر النبوات واثباتها كما قال تعالى وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب وثانيها تعجبهم من الالهيات فقالوا اجعل الآلهة الها واحدا وثالثها تعجبهم من المعاد والحشر والنشر فقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب قالوا ذلك استهزاء أمر الله تعالى نبيه عليه السلام بالصبر فقال سبحانه (اصبر) وأشار بحرف الاستعلاء الى عظيم الصبر فقال (على مايقولون) أي على مايقول الكافرون من ذلك ثم انه تعالى لما أمر نبيه بالصبر ذكر قصص الانبياء عليهم السلام تسلية له فكأنه تعالى قال فاصبر على مايقولون واعتبر بحال سائر الانبياء ليعلم أن كل واحد منهم كان مشغولا بهم خاص وحزن خاص فيعلم حينئذ أن الدنيا لاتنفك عن الهموم والاحزان وان استحقاق الدرجات العالية عند الله تعالى لايحصل الابتحمل المشاق والمتاعب في الدنيا وبدأ من ذلك بقصة داود عليه السلام فقال تعالى (واذكر عبدنا) أي الذي أخلصناه لنا وأخلص نفسه للنظر الى عظمتنا والقيام في خدمتنا وأبدل منه أو بينه بقوله تعالى (داود ذا الايد) قال ابن عباس أي القوة في العبادة روي عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الصيام الى الله تعالى صيام داود وأحب الصلاة الى الله تعالى صلاة داود كان يصوم يوما ويفطر يوما وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وقيل ذا القوة في الملك ووصفه

تعالى بكونه عبداله وعبرعن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم وذلك يدل على غاية التشريف ألا ترى أنه تعالى لما أراد أن يشرف محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج قال تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا وأيضا وصف الانبياء عليهم السلام بالعبودية مشعر بأنهم قد حصلوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد فى الطاعة (انه أواب) أى رجاع الى مرضاة الله تعالى والاواب فعال من آب يؤب اذا رجع قال الله تعالى ان الينا ايابهم وهذا بناء مغالبة كما يقال قتال وضراب وهو أبلغ من قاتل وضارب وقال ابن عباس مطيع وقال سعيد بن جبير مسبح بلغة الحبشة ويؤيد هذا قوله تعالى (انا) أى على مالنا من العظمة التى لا يعجزها شئ (سخرنا الجبال) أى التى هى أقسى من قلوب قومك وانها أعظم الاراضى صلابة وقوة وعلوا ورفعة بأن جعلناها منقادة ذلولا كالجمل الانف ثم قيد ذلك بقوله تعالى (معه) أى مصاحبة له (يسبحن) أى بتسبيحه وفى كيفية تسبيحها وجوه أحدها أن الله تعالى يخلق فى جسم الجبل حياة وعقلا وقدرة ونطقا وحينئذ يصير الجبل مسبحا لله تعالى ثانيها قال القفال ان داود عليه السلام أوتى من شدة الصوت وحسنه ما كان له فى الجبال دوى حسن وما يصغى الطير اليه لحسنه فيكون دوى الجبال وتصويت الطير معه واصغاؤها اليه تسبيحا وروى محمد بن اسحق ان الله تعالى لم يعط أحدا من خلقه مثل صوت داود عليه السلام حتى انه كان اذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى يؤخذ بأعناقها ثالثها ان الله تعالى سخر الجبال حتى انها كانت تسير الى حيث يريده داود عليه السلام فجعل ذلك السير تسبيحا لانه يدل على كمال قدرته تعالى واتقان حكمته (بالعشى والاشراق) قال الكلبى غدوة وعشيا والاشراق هو أن تشرق الشمس ويتناهى ضوءها قال الزجاج يقال شرقت الشمس اذا طلعت وأشرقت اذا أضاءت وقيل هما بمعنى واحد والاول أكثر استعمالا تقول العرب شرقت الشمس ولما تشرق وفسره ابن عباس بصلاة الضحى قال ابن عباس كنت أمر بهذه الآية ولم أدر ماهى حتى حدثتنى أم هانئ بنت أبى طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى الضحى وقال يا أم هانئ هذه صلاة الاشراق وروى طاوس عن ابن عباس قال هل تجدون ذكر صلاة الضحى فى القرآن قالوا لا فقرأ انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق وقوله تعالى (والطير محشورة) أى مجموعة اليه تسبح معه عطف مفعول على مفعول وهما الجبال والطير أو حال على حال وهما يسبحن ومحشورة كقولك ضربت زيدا مكتوفا وعمرا مطلقا وأتى بالحال اسما لانه لم يقصد ان الفعل وقع شيأ فشيأ لان حشرها دفعة واحدة أدل على القدرة والحاشر هو الله تعالى (فان قيل) كيف يصدر تسبيح الله تعالى من الطير مع أنه لا عقل لها (أجيب) بأنه لا يبعد أن يخلق الله تعالى لها عقولا حتى تعرف الله تعالى فتسبحه حينئذ ويكون ذلك معجزة لداود عليه السلام (كل) أى من الجبال والطير (له) أى لداود أى لاجل تسبيحه (أواب) أى رجاع الى طاعته بالتسبيح وقيل كل مسبح فوضع أواب موضع مسبح وقيل الضمير فى له للبارى تبارك وتعالى والمراد كل من داود والجبال والطير مسبح ورجاع لله تعالى (وشددنا) أى قوينا بما لنا من العظمة (ملكه)

بالحرس والجنود قال ابن عباس كان أشد ملوك الارض سلطانا كان يحرس محرابه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل وعن ابن عباس ان رجلا من بني اسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم عند داود فقال ان هذا قد غصبني بقرا فسأله داود فجحد فقال للآخر البينة فلم تكن له بينة فقال لهما داود قوما حتى أنظر في أمركما فأوحى الله تعالى الى داود في منامه أن يقتل الذي استعدى عليه فقال هذه رؤيا لست أعجل حتى أتثبت فأوحى الله تعالى اليه مرة ثانية فلم يفعل فأوحى الله تعالى اليه مرة ثالثة أن يقتله أو تأتيه العقوبة فأرسل داود اليه فقال له ان الله تعالى أوحى الى أن أقتلك فقال تقتلني بغير بينة فقال نعم والله لانفذن أمر الله تعالى فيك فلما عرف الرجل أنه قاتله قال لاتعجل حتى أخبرك اني والله ما أخذت بهذا الذنب ولكني كنت اغتلت ابن هذا فقتلته فبذلك أخذت فأمر به داود فقتل فاشتدت هيبة داود عند ذلك في قلوب بني اسرائيل واشتد به ملكه فذلك قوله تعالى وشددنا ملكه (وآتيناه) أي أعطيناه (الحكمة) أي النبوة والاصابة في الامور واختلف في تفسير قوله تعالى (وفصل الخطاب) فقال ابن عباس بيان الكلام أي معرفة الفرق بين ما يلتبس في كلام المخاطبين له من غير كبير رؤية في ذلك وقال ابن مسعود والحسن علم الحكمة والبصر بالقضاء وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو ان البينة على المدعي واليمين على من أنكر لان كلام الخصوم ينقطع وينفصل به وقال أبي بن كعب فصل الخطاب الشهود والايمان وقال مجاهد وعطاء وروي عن الشعبي ان فصل الخطاب هو قول الانسان بعد حمد الله والثناء عليه اما بعد اذا أراد الشروع في كلام آخر وأول من قاله داود عليه السلام وقيل غيره كما ذكرته في شرح المنهاج عند قول المنهاج اما بعد وقيل هو الخطاب الفصل الذي ليس باختصار مخل ولا اشباع ممل كما جاء وصف كلام النبي صلى الله عليه وسلم فصل لانزر ولاهذر وقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (وهل) استفهام معناه التعجب والتشويق الى استماع ما بعده (أتاك) يا أفضل الخلق (نبأ) أي خبر (الخصم) وهو في الاصل مصدر ولذلك يصلح للمفرد والمذكر والمراد به هنا الجمع بدليل قوله تعالى (اذ) أي حين (تسوروا) أي تصعدوا وعلوا (المحراب) أي البيت الذي كان يدخل فيه داود ويشتغل فيه بالعبادة والطاعة قال الزمخشري (فان قلت) بم انتصب اذ* قلت لايخلو اما ان ينتصب بأتاك أو بنبأ أو بمحذوف فلا يسوغ انتصابه بأتاك لان اتيان النبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقع الا في عهده لا في عهد داود ولا بالنبأ لان النبأ واقع في عهد داود فلا يصح اتيانه رسول الله صلى الله عليه وسلم وان أردت بالنبا القصة في نفسها لم تكن ناصبا فبقي أن يكون منصوبا بمحذوف تقديره وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم اذ تسوروا انتهى فاختار أن يكون معمولا لمحذوف ويجوز أن ينتصب بالخصم لما فيه من معنى الفعل وقوله تعالى (اذ) أي حين (دخلوا على داود) بدل من اذ الاولى أو ظرف لتسوروا وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الذال عند التاء في الاول وعند الدال في الثاني ووافقهم ابن ذكوان في الاول والباقون بالادغام فيهما (ففزع منهم) أي لانهم نزلوا عليه من فوق في يوم الاحتجاب والحرس على الباب لايتركون من

يدخل عليه فانه عليه السلام كان جزأ زمانه يوما للعبادة ويوما للقضاء ويوما للوعظ ويوما للاشتغال بحاجته فتسور عليه ملكان على صورة الانسان في يوم الخلوة (قالوا لا تخف) وقولهم (خصمان) خبر مبتدأ مضمر أي نحن خصمان أي فريقان ليطابق ما قبله من ضمير الجمع وقيل اثنان والضمير بمعناهما وقد مر أن الخصم يطلق على الواحد والاكثر وقولهم (بغى بعضنا على بعض) جملة يجوز أن تكون مفسرة لحالهم وأن تكون خبرا ثانيا (فان قيل) كيف قالوا بغى بعضنا على بعض وهم ملائكة على المشهور (أجيب) بأن ذلك على سبيل الفرض أى أرأيت خصمين بغى أحدهما على الآخر وهذا من معاريض الكلام لا من تحقيق البغى من أحدهما (فاحكم بيننا بالحق) أى الامر الثابت الذى يطابق الواقع (ولا تشطط) أى ولا تجر فى الحكومة (واهدنا) أى ارشدنا (الى سواء الصراط) أى وسط الطريق الصواب فقال لهما تكلما فقال أحدهما (ان هذا أخى) أى على دينى وطريقتى أو فى النصح لا من جهة النسب (له تسع وتسعون نعجة) أى امرأة (ولى نعجة واحدة) امرأة واحدة والنعجة هى الانثى من الضأن ولكن كثر فى كلامهم الكناية بها عن المرأة قال ابن عون

أنا أبوهن ثلاث هنه * رابعة فى البيت صغراهنه * ونعجتى خمسا توفيهنه

قال الحسين بن الفضل هذا تعريض للتنبيه والتفهيم لانه لم يكن ثم نعاج ولا بغى فهو كقولهم ضرب زيد عمرا واشترى بكر دارا ولا ضرب هنالك ولا شراء وقرأ حفص بفتح الياء والباقون بالسكون (فقال أكفلنيها) قال ابن عباس أعطنيها وقال مجاهد انزل لى عنها وحقيقته ضمها الى واجعلنى كافلها وهو الذى يعولها وينفق عليها والمعنى طلقها لاتزوجها (وعزنى) أى غلبنى (فى الخطاب) أى الجدال لانه أفصح منى فى الكلام وقيل قهرنى لقوة ملكه قال الضحاك يقول ان تكلم كان أفصح منى وان حارب كان أبطش منى وحقيقة المعنى أن الغلبة كانت له لضعفى فى يده وان كان الحق معى وهذا كله تمثيل لامر داود مع أوريا زوج المرأة التى تزوجها داود وسيأتى الكلام على قصته ان شاء الله تعالى عن قريب (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه) وهذا جواب قسم محذوف أريد به المبالغة فى انكار فعل خليطه وتهجين طمعه والسؤال مصدر مضاف الى مفعوله وتعديته الى مفعول آخر بالى لتضمنه معنى الاضافة والانضمام أى ليضمها مضافة الى نعاجه (فان قيل) كيف قال لقد ظلمك ولم يكن سمع قول صاحبه (أجيب) بأن معناه ان كان الامر كما تقول فقد ظلمك أو انه قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما يقول ولم يذكر الله تعالى ذلك لدلالة الكلام عليه وقيل التقدير ان الخصم الذى هذا شأنه قد ظلمك وقرأ قالون وابن كثير وهشام وعاصم باظهار الدال عند الظاء والباقون بالادغام وقوله (وان كثيرا من الخلطاء) أى مخلطنا منكم ومن غيركم والخلطاء جمع خليط وهم الشركاء الذين خلطوا أموالهم وقال الليث خليط الرجل مخالطه (ليبغى) أى ليعتدى (بعضهم) غالبا (على بعض) فيريدون غير الحق (فان قيل) لم خص الخلطاء ببغى بعضهم على بعض مع أن غير الخلطاء يفعلون ذلك (أجيب) بأن المخالطة توجب كثرة المنازعة

والمخاصمة

والمخاصمة لانهما اذا اختلطا اطلع كل منهما على أحوال صاحبه فكل ما يملكه من الاشياء النفيسة اذا اطلع عليه عظمت رغبته فيه فيفضي ذلك الى زيادة المنازعة والمخاصمة فلذلك خص داود عليه السلام الخلطاء بالبغي والعدوان ثم استثنى فقال (الا الذين آمنوا وعملوا) أى تحقيقا لايمانهم (الصالحات) أى الطاعات فانهم لا يقع منهم شئ لان مخالطة هؤلاء تكون لاجل الدين وهذا استثناء متصل من قوله بعضهم (وقليل ماهم) أى هم قليل فقليل خبر مقدم وما مزيدة للتعظيم وهو مبتدأ وقال الزمخشري ما للابهام وفيه تعجب من قلتهم قال فان أردت ان تحقق فائدتها وموقعها فأخرجها من قول امرئ القيس * وحديث ما على قصره * وانظر هل بقى لها معنى (وظن داود) أى لذهابهم قبل فصل الامر وقد همه من ذلك أمر من عظمه لا عهد له بمثله (أنما فتناه) أى امتحناه قال المفسرون ان الظن هنا بمعنى العلم لان داود لما قضى الامر بينهما نظر أحدهما الى صاحبه فضحك ثم صعدا الى السماء حيال وجهه فعلم ان الله تعالى ابتلاه بذلك فثبت أن داود علم ذلك وقال ابن عباس ان داود لما دخل عليه الملكان فقضى على نفسه تحولا فى صورتهما وعرجا وهما يقولان قضى الرجل على نفسه (فاستغفر ربه) أى طلب الغفران من مولاه الذى أحسن اليه (وخر) أى سقط من قيامه تو بذلربه عن ذلك (راكعا) أى ساجدا على تسمية السجود ركوعا لانه مبدؤه أو خر للسجود راكعا أو مصليا كانه أحرم بركعتى الاستغفار (وأناب) أى رجع الى الله تعالى قال الرازى وللناس فى هذه القصة ثلاثة أحوال أحدها أن هذه القصة دلت على صدور الكبيرة منه وثانيها على الصغيرة وثالثها لا تدل على كبيرة ولا صغيرة فأما القول الاول فقالوا ان داود عليه السلام أحب امرأة أوريا فاحتال فى قتل زوجها ثم تزوج بها ثم أرسل الله تعالى ملكين فى صورة المتخاصمين فى واقعة تشبه واقعته وعرضا تلك الواقعة عليه فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبا ثم تنبه لذلك واشتغل بالتوبة قالوا وسبب ذلك أن داود عليه السلام تمنى يوما من الايام منزلة آبائه ابراهيم واسحق ويعقوب وسأل ربه أن يمتحنه كما امتحنهم ويعطيه من الفضل ما أعطاهم فأوحى الله تعالى اليه انك تبتلى فى يوم كذا فاحترس فلما كان ذلك اليوم جاءه الشيطان فتمثل له فى صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن فأعجبه حسنها فمد يده ليأخذها ويريها بنى اسرائيل لينظروا الى قدرة الله تعالى فطارت غير بعيدة فتبعها فطارت من كوة فنظر داود أين تقع فأبصر داود امرأة فى بستان تغتسل فعجب داود من حسنها وحانت منها التفاتة فأبصرت ظله فنقضت شعرها فغطى بدنها فزاده اعجابا فسأل عنها فقيل له امرأة أوريا وزوجها فى غزاة فأحب داود أن يقتله ويتزوج بها فأرسل داود الى ابن أخته ان قدم أوريا قبل التابوت وكان من قدم على التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله تعالى على يديه أو يقتل فقدمه ففتح على يديه فكتب الى داود فأمر أن يقدمه بعد ذلك ففعل ثلاث مرات فقتل فى الثالثة فلما انقضت عدتها تزوج بها فهى أم سليمان عليهما السلام قال الرازى والذى أدين الله تعالى به واذهب اليه ان ذلك باطل لوجوه الاول ان هذه الحكاية لا تناسب داود لانها لو نسبت الى أفسق الناس وأشدهم

فجور والانتفى منها والذى نقل هذه القصة لو نسب الى مثل هذا العمل البالغ فى تنزيه نفسه وربما لعن من نسبه اليها فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصية الى داود عليه السلام ثانيها ان حاصل القصة يرجع الى أمرين الى السعى فى قتل رجل مسلم بغير حق والى الطمع فى زوجته أما الاول فأمر منكر قال صلى الله عليه وسلم من سعى فى دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله وأما الثانى فمنكر أيضا قال صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه فان أوريا لم يسلم من داود عليه السلام لافى روحه ولافى منكوحه ثالثها ان الله تعالى وصف داود عليه السلام بصفات تنافى كونه عليه السلام موصوفا بهذا الفعل المنكر الصفة الاولى انه تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بداود عليه السلام فى المصابرة على المكاره فلو قلنا ان داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى فى اراقة دم عبد مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمدا أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم بأن يقتدى بداود فى الصبر على طاعة الله تعالى الصفة الثانية انه وصفه بكونه عبد اله وقد بينا ان المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملا فى وصف العبودية فى القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات فلو قلنا ان داود اشتغل بتلك الاعمال الباطلة فحينئذ ما كان داود كاملا الافى طاعة الهوى والشهوة الصفة الثالثة وهى قوله تعالى ذا الايد أى ذا القوة ولاشك أن المراد منه القوة فى الدين لان القوة الكاملة فى أداء الواجبات والاجتناب عن المحظورات وأى قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة فى زوجة المسلم الصفة الرابعة كونه أوابا كثير الرجوع الى الله فكيف يليق هذا الوصف بمن قلبه مشغول بالفسق والفجور الصفة الخامسة قوله تعالى انا سخرنا الجبال معه يسبحن افترى انه سخرت له الجبال ليتخذه سبيل القتل والفجور الصفة السادسة قوله تعالى والطير محشورة قيل انه كان محرما عليه صيد شئ من الطير فكيف يعقل أن يكون الطير آمنا منه ولايجوز امن الرجل المسلم على روحه ومنكوحه الصفة السابعة قوله تعالى وشددنا ملكه ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شد ملكه بأسباب الدنيا بل المراد انا ملكناه بقوى الدين وأسباب سعادة الآخرة والمراد تشديد ملكه فى الدين والدنيا ومن لم يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك الصفة الثامنة قوله تعالى وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب والحكمة اسم جامع لكل ماينبغى علما وعملا فكيف يجوز أن يقال انا آتيناه الحكمة وفصل الخطاب مع اصراره على مايستنكف من مزاحمة أخص أصحابه فى الروح والمنكوح فهذه الصفات التى وصف بها قبل شرح القصة وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فأولاها قوله تعالى وان له عندنا لزلفى وحسن مآب وقوله تعالى ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض فكيف ان الله تعالى يجعله خليفة ويقع منه ذلك وقد روى عن سعيد بن المسيب أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال من حدثكم بحديث داود على مايرويه القصاص فاجلدوه مائة جلدة وستين وهو حد الفرية أى الكذب على الانبياء ومما يقوى هذا انهم قالوا ان المغيرة بن شعبة زنا وشهد ثلاثة من الصحابة بذلك وأما الرابع فلم يقل انى رأيت ذلك بعينى فان عمر رضى الله عنه كذب أولئك الثلاثة وجلد كل واحد

منهم

منهم ثمانين جلدة لأجل أنهم قذفوا فاذا كان هذا الحال في واحد من آحاد الصحابة كذلك فكيف الحال مع داود عليه السلام مع أنه من أكابر الانبياء عليهم السلام فثبت بما ذكرنا أن القصة التي ذكرها هؤلاء باطلة لا يجوز ذكرها قال الرازي حضرت في مجلس وفيه بعض الاكابر فكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة بسبب اقتضى ذلك فقلت له لا شك أن داود عليه السلام كان من أكابر الانبياء والرسل وقال الله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ في الطعن فيه وأيضا بتقدير أنه ما كان نبيا فلا شك أنه كان مسلما وقال صلى الله عليه وسلم لا تذكروا موتاكم الا بخير وذكرت له أشياء أخر قال فسكت ولم يذكر شيأ (فان قيل) قد ذكر هذه القصة كثير من المحدثين والمفسرين (أجيب) بأنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع الى الدلائل القطعية واجبا والمحققون يردون هذا القول ويحكمون عليه بالكذب وأما القول الثاني فقالوا تحمل هذه القصة على حصول الصغيرة لا على حصول الكبيرة وذلك من وجوه الاول ان هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثم خطبها داود عليه السلام فآثره أهلها فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه الثاني قالوا انه وقع بصره عليها فمال قلبه اليها وليس له في هذا ذنب البتة أما وقوع بصره عليها بغير قصد فليس بذنب وأما حصول الميل عقب النظر فليس أيضا ذنبا لان الميل ليس في وسعه فليس مكلفا به بل لما اتفق أنه قتل زوجها تزوج بها الثالث انه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضا أن يطلق زوجته حتى يتزوجها وكانت عادة مألوفة معهودة في هذا المعنى فاتفق ان عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل وهي أم سليمان فقيل له ذلك وان كان جائزا في ظاهر الشريعة الا انه لا يليق بك فان حسنات الابرار سيآت المقربين فهذه وجوه ثلاثة لو حملت هذه القصة على واحد منها لم يلزم في حق داود عليه السلام الا ترك الافضل والاولى واما القول الثالث فقال تحمل هذه القصة على وجه لا يلزم منه ايجاب كبيرة ولا صغيرة لداود عليه السلام بل يوجب أعظم أنواع المدح والثناء له وهو أنه قد روى ان جماعة من الاعداء طمعوا في ان يقتلوا نبي الله داود عليه السلام وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويشتغل فيه بطاعة ربه فانتهزوا الفرصة في ذلك اليوم وتسوروا المحراب فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواما تمنعهم منه فخافوا ووضعوا كذبا وقالوا خصمان بغى بعضنا على بعض الى آخر القصة فعلم غرضهم وقصد أن ينتقم منهم وظن أن ذلك ابتلاء من الله تعالى له فاستغفر به عما هم به وأناب (فان قيل) ههنا أربعة ألفاظ يمكن أن يحتج بها في الحاق الذنب بداود عليه السلام أحدها قوله تعالى وظن داود أنما فتناه وثانيها قوله تعالى فاستغفر ربه وثالثها قوله تعالى وأناب ورابعها قوله تعالى فغفرنا له ذلك (أجيب) بأن هذه الالفاظ لا يدل شيء منها على ما ذكر لاحتمال أن تكون الزلة انما حصلت من باب ترك الافضل والاولى كما مر وحمل هذه الالفاظ

على هذا الوجه لا يلزم منه اسناد شئ من الذنوب اليه بل ذلك يوجب اسناد أعظم الطاعات اليه وقيل ان ذنبه المبادرة الى تصديق المدعى وتظليم الآخر قبل مسئلته وهنالك أشياء كثيرة ذكرها البغوى وغيره وفيما ذكرناه كفاية (فغفرنا له ذلك) أى ما استغفر منه (وان له عندنا لزلفى) أى زيادة خير فى الدارين بعد المغفرة (وحسن مآب) أى مرجع فى الجنة

* ولما تم الكلام فى شرح القصة أردفها ببيان أن الله تعالى فوض الى داود خلافة الارض بقوله تعالى (يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض) أى تدبر أمر العباد بأمرنا وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول الاول كما مر لان من البعيد جدا أن يوصف الرسول بكونه ساعيا فى سفك دماء المسلمين رغبة فى انتزاع أزواجهم من أيديهم ثم يذكر عقبه أن الله تعالى فوض خلافة الارض اليه ثم فى تفسير كونه خليفة وجهان أحدهما جعلناك تخلف من تقدمك من الانبياء فى الدعاء الى الله تعالى وفى سياسة الناس لان خليفة الرجل من يخلفه وذلك انما يعقل فى حق من تصح عليه الغيبة وذلك على الله تعالى محال ثانيهما انا جعلناك ملكا فى الناس نافذ الحكم فيهم فبهذا التأويل يسمى خليفة ومنه يقال خليفة الله تعالى فى أرضه وحاصله ان خليفة الرجل يكون نافذ الحكم فى رعيته وحقيقة الخلافة ممتنعة فى حق الله تعالى فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة للزوم نفاذ الحكم فى تلك الحقيقة (فاحكم بين الناس) أى الذين يتحاكمون اليك من أى قوم كانوا (بالحق) أى بالعدل لان الاحكام اذا كانت مطابقة للشريعة الحقة الالهية انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات واذا كانت الاحكام على وفق الاهوية وتحصيل مقاصد الانفس أفضى ذلك الى تخريب العالم ووقوع الهرج فيه والمرج فى الخلق وذلك يفضى الى هلاك ذلك الحاكم ولهذا قال تعالى (ولا تتبع الهوى) أى لا تمل مع ما تشتهى اذا خالف أمر الله تعالى ثم سبب عنه قوله تعالى (فيضلك) أى ذلك الاتباع أو الهوى (عن سبيل الله) لان متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب (ان الذين يضلون عن سبيل الله) أى عن الايمان بالله تعالى (لهم عذاب شديد بما نسوا) أى بسبب نسيانهم (يوم الحساب) أى المرتب عليه تركهم الايمان ولو أيقنوا بيوم الحساب لآمنوا فى الدنيا وقال الزجاج بتركهم العمل لذلك اليوم وقال عكرمة والسدى فى الآية تقديم وتأخير تقديره لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا أى تركوا القضاء بالعدل (وما خلقنا السماء) التى ترونها (والارض وما بينهما) أى مما تحسون به من الرياح وغيرها خلقا (باطلا) أى عبثا قال الله تعالى أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون

(تنبيه) احتج اهل السنة بأن هذه الآية تدل على أنه تعالى خالق كل ما بين السماء والارض وأعمال العباد مما بين السماء والارض فوجب أن يكون تعالى خالقا لها ودلت على صحة القول بالحشر والنشر لانه تعالى لما خلق الخلق فى هذا العالم فاما أن يكون خلقهم للاضرار والانتفاع أو لا لشئ والاول باطل لان ذلك لا يليق بالرحيم الكريم والثالث أيضا باطل لان هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين فلم يبق الا أن يقال خلقهم للانتفاع وذلك الانتفاع

اما أن يكون فى حياة الدنيا أو فى حياة الآخرة والاول باطل لان منافع الدنيا قليلة ومضارها كثيرة وتحمل الضرر الكثير لوجدان المنفعة القليلة لا يليق بالحكمة ولما بطل هذا القول ثبت القول بوجود حياة بعد هذه الحياة الدنيا وذلك هو القول بالحشر والنشر والقيامة *(تنبيه)* يجوز فى باطلا أن يكون نعتا لمصدر محذوف أو حالا من ضميره أى خلقا باطلا وأن يكون حالا من فاعل خلقنا أى مبطلين أو ذوى باطل وان يكون مفعولا من أجله أى للباطل وهو العبث (ذلك) أى خلق ماذكر لا لشئ (ظن الذين كفروا) أى أهل مكة هم الذين ظنوا أنهما خلقا لغير شئ وأنه لابعث ولا حساب (فويل) أى هلاك عظيم بسبب هذا الظن أو واد فى جهنم (للذين كفروا) أى مطلقا بهذا الظن وغيره من أى شرك كان (من النار) لان من أنكر الحشر والنشر كان شاكا فى حكمة الله تعالى فى خلق السموات والارض *ونزل لما قال كفار مكة للمؤمنين انا نعطى فى الآخرة مثل ماتعطون (أم نجعل) أى على عظمتنا (الذين آمنوا) أى امتثالا لاوامرنا (وعملوا الصالحات) تحقيقا لايمانهم (كالمفسدين) أى المطبوعين على الفساد والراسخين فيه (فى الارض) أى بالكفر وغيره لم نجعلهم مثلهم وأم منقطعة والاستفهام فيها لانكار التسوية بين الحزبين التى هى من لوازم خلقهما باطلا ليدل على نفيه وكذا التى فى قوله تعالى (أم نجعل المتقين كالفجار) كرر الانكار الاول باعتبار وصفين آخرين يمنعان التسوية أولا بين المؤمنين والكافرين ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم وقوله تعالى (كتاب) خبر مبتدا مضمر أى هذا كتاب ثم وصفه بقوله تعالى (أنزلناه) أى بمالنا من العظمة (اليك) يا أشرف الخلق (مبارك) أى كثير خيره ونفعه وقوله تعالى (ليدبروا) أصله ليتدبروا وأدغمت التاء فى الدال (آياته) أى ليتفكروا فى أسراره العجيبة ومعانيه اللطيفة فيأتمروا بأوامره ومناهيه فيؤمنوا (وليتذكر) أى وليتعظ به (أولوا الالباب) اى أصحاب العقول* القصة الثانية قصة سليمان عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ووهبنا) أى بمالنا من العظمة (لداود سليمان) ابنه فجاء عديم النظير فى ذلك الزمان دينا ودنيا وعلما وحكمة وعظمة ورحمة والمخصوص بالمدح فى قوله تعالى (نعم العبد) محذوف أى سليمان وقيل داود (انه أواب) أى رجاع الى التسبيح والذكر فى جميع الاوقات (اذ) أى اذكر اذ (عرض عليه) أى سليمان وقوله تعالى (بالعشى) وهو مابعد الزوال الى الغروب وقوله تعالى (الصافنات) أى الخيل العربية الخالصة جمع صافنة وفيه خلاف بين أهل اللغة فقال الزجاج هو الذى يقف على احدى يديه ويقف على طرف سنبكه وقد يفعل ذلك باحدى رجليه قال وهى علامة الفراهة فيه وأنشد

ألف الصفون فلا يزال كأنه * مما يقوم على الثلاث كسير

وقيل هو الذى يجمع يديه ويسويهما وقيل هو القائم مطلقا أى سواء كان من الخيل أم من غيرها قاله القتيبى واستدل بقوله صلى الله عليه وسلم من سره أن تقوم الناس له صفوفا فليتبوأ مقعده من النار أى يديمون له القيام وجاء فى الحديث كنا صفوفا أى صافين أقدامنا

وقيل هو قيام الخيل مطلقا أي سواء وقف على طرف سنبكه أم لا قال الفراء على هذا
رأيت أشعار العرب واختلف أيضا في قوله تعالى (الجياد) فهي اما من الجودة ويقال جاد
الفرس يجود جودة وجودة بالفتح والضم فهو جواد للذكر والانثى وهو الذي يجود في جريه
بأعظم ما يقدر عليه والجمع جياد وأجواد وأجاويد وقيل جمع لجود بالفتح كثياب وثوب
واما من الجيد وهو العنق والمعنى طويلة الاجياد وهو دال على فراهتها قال الكلبي
غزا سليمان أهل دمشق ونصيبين فأصاب منهم ألف فرس وقال مقاتل ورث سليمان من أبيه
داود ألف فرس وقال عوف عن الحسن بلغني انها كانت خيلا خرجت من البحر لها
أجنحة وعن عكرمة أنها كانت عشرين ألف فرس لها أجنحة فصلى سليمان الصلاة الاولى
التي هي الظهر وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه منها تسعمائة فرس فتنبه لصلاة العصر
فاذا الشمس قد غربت وفاتته الصلاة ولم يعلم بذلك هيبة له فاغتم لذلك (فقال اني أحببت)
أي أردت (حب الخير) أي الخيل (عن ذكر ربي) أي صلاة العصر (حتى توارت) أي
الشمس (بالحجاب) أي استترت بما يحجبها عن الابصار (ردوها علي) أي الخيل المعروضة
وقيل الضمير يرجع للشمس قال الرازي وهذا بعيد لوجوه الاول ان الصافنات مذكورة
بالصريح والشمس غير مذكورة وعود الضمير الى المذكور أولى من عوده الى المقدر
وثانيها أنه لو اشتغل بالخيل حتى غربت الشمس وفاتته صلاة العصر كان ذلك ذنبا عظيما ومن
كان هذا حاله فطريقه التضرع والبكاء والمبالغة في اظهار التوبة فأما أن يقول على سبيل
العظمة لرب العالمين مثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات الادب عقب ذلك الجرم
العظيم الذي لا يصدر عن أبعد الناس عن الخير فكيف يجوز اسناده للرسول عليه السلام
المطهر المكرم ثالثها أن الشمس لو رجعت بعد الغروب لصار ذلك مشاهدا لكل أهل الدنيا
ولو كان كذلك لتوفرت الدواعي على نقله وحيث لم ينقل علمنا فساده انتهى قال أكثر المفسرين
فلما ردوا الخيل اليه أقبل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف أخذا من قوله تعالى (فطفق
مسحا) أي فأخذ يمسح السيف مسحا (بالسوق والاعناق) أي سوقها وأعناقها يقطعها
من قولهم مسح علاوته اذا ضرب عنقه قالوا فعل ذلك تقربا الى الله تعالى وطلبا لمرضاته حيث
اشتغل عن طاعته وكان ذلك مباحا له وان كان حراما علينا كما أبيح لنا ذبح بهيمة الانعام وبقي
منها مائة فرس فما بقي في أيدي الناس اليوم من الخيل من نسل تلك المائة قال الحسن
فلما عقر الخيل أبدله الله تعالى خيرا منها وأسرع وهي الريح تجري بأمره كيف شاء قال
الرازي وهذا عندي بعيد لوجوه الاول أنه لو كان مسح السوق والاعناق قطعها لكان معنى
فامسحوا برؤسكم أي اقطعوها وهذا لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم
منه ضرب العنق أما اذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم منه البتة من المسح العقر والذبح الثاني ان
القائلين بهذا القول أجمعوا على أن لسليمان عليه السلام أنواعا من الافعال المذمومة فأولها
ترك الصلاة وثانيها انه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا حتى نسي الصلاة وقال صلى الله عليه

وسلم حب الدنيا رأس كل خطيئة وثالثها انه بعد الاتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والانابة البتة ورابعها أنه خاطب رب العالمين بقوله ردوها على وهذه كلمة لا يقولها الرجل الحصيف الا مع الخادم الخسيس وخامسها انه اتبع هذه المعاصي بعقر الخيل في سوقها وأعناقها وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذبح الحيوان الا لأكله وهذه أنواع من الكبائر ينسبونها الى سليمان عليه السلام مع أن لفظ القرآن لم يدل على شئ منها وخلاصتها ان هذه القصص انما ذكرها الله تعالى عقب قوله وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب وان الكفار لما بالغوا في السفاهة الى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ثم ذكر عقبه قصة سليمان عليه السلام فقال تعالى ووهبنا لداود سليمان الآية والتقدير أنه تعالى قال لمحمد صلى الله عليه وسلم يا محمد اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا سليمان وهذا الكلام انما يليق اذا قلنا ان سليمان عليه السلام أتى في هذه القصة بالاعمال الفاضلة والاخلاق الحميدة وصبر على طاعة الله تعالى وأعرض عن الشهوات واللذات فلو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام في هذا الموضع انه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب لم يكن ذكر هذه القصة لائقا قال والصواب ان تقول ان رباط الخيل كان مندوبا اليه في دينهم كما هو في دين محمد صلى الله عليه وسلم ثم ان سليمان عليه السلام احتاج الى الغزو فجلس وأمر باحضار الخيل وأمر باجرائها وذكر انى لا أجريها لاجل الدنيا ونصيب النفس وانما أجريها لامر الله تعالى وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله عن ذكر ربى ثم انه عليه السلام أمر باجرائها وسيرها حتى توارت بالحجاب أى غابت عن بصره ثم انه أمر الرائضين ان ردوها فردوا تلك الخيل اليه فلما عادت اليه طفق يمسح سوقها وأعناقها والغرض من ذلك أمور الاول تشريفها وابانة اعزتها لكونها من أعظم الاعوان في دفع العدو الثانى أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضع الى حيث يباشر أكثر الامور بنفسه الثالث أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمسها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض فهذا التفسير هو الذى ينطبق عليه لفظ القرآن ولا يلزم منه نسبة شئ من المنكرات الى سليمان عليه السلام والعجب منهم كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردها وليس لهم في اثباتها شبهة فضلا عن حجة قال فان قيل فالجمهور فسروا الآية بتلك الوجوه فالجواب أن نقول لفظ الآية لا يدل على شئ من تلك الوجوه التى يذكرونها لما ذكرنا وأيضا فان الدلائل الكثيرة قامت على عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يدل على صحة هذه الحكايات دليل قطعي ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية فكيف الحكايات من أقوام لا يلتفت الى أقوالهم والذى ذهبنا اليه قول الزهرى وابن كيسان اه وقد يجاب من جهة الجمهور ان ما نسبه اليهم ممنوع وبيان ذلك أن قوله اذ لم يذكر لفظ السيف لم يفهم منه البتة من المسح العقر والذبح يقال القرينة كافية في ذلك وقوله انهم جمعوا أنواعا مذمومة أولها ترك

الصلاة انما يكون ذلك مذموما اذا تركهما متعمدا ولم يكن ذلك بل نسيها وقد نام صلى الله عليه وسلم في الوادي حتى طلعت الشمس وقضى الصبح والنسيان والنوم لا مؤاخذة فيهما وقوله ثانيها انه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا انما اشتغل بذلك لامر الجهاد وهو مطلوب في حقه وقوله ثالثها انه لم يشتغل بالتوبة يقال انه لم يأت بذنب وقوله رابعها انه خاطب رب العالمين بقوله ردوها على ممنوع والمخاطب انما هو جماعته وقوله خامسها الى ان قال وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن عقر الحيوان قد مر عنهم أن ذلك كان مباحا له فليس فيما قالوه نسبة سليمان عليه الصلاة والسلام الى معصية فلو قال الاولى ان يقال كذا كان أولى وقرأ قنبل بهمزة ساكنة بعد السين وقيل عنه أيضا بضم الهمزة وواو بعدها واختلف في سبب الفتنة التي وقعت لسليمان عليه السلام في قوله تعالى (ولقد فتنا سليمان وألقينا) أي بما لنا من العظمة (على كرسيه جسدا ثم أناب) فقال محمد بن اسحق عن وهب بن منبه قال سمع سليمان بمدينة في جزيرة من جزائر البحر وكان الله تعالى قد أعطى سليمان في ملكه سلطانا لا يمتنع عليه شيء في بر ولا بحر انما يركب اليه الريح فخرج الى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده من الجن والانس فأخذها وقتل ملكها وسبا ما فيها وأصاب فيما أصاب بنتا لذلك الملك يقال لها جرادة لم ير مثلها حسنا وجمالا فاصطفاها لنفسه ودعاها الى الاسلام فأسلمت على جفاء منها وقلة فقه وأحبها حبا لم يحبه شيأ من نسائه وكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنها ولا يرقأ دمعها فشق ذلك على سليمان عليه السلام فقال لها ويحك ما هذا الحزن قالت له اني أذكره وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصاب فيحزنني ذلك فقال لها سليمان عليه السلام قد أبدلك الله ملكا هو أعظم من ملكه وسلطانا هو أعظم من سلطانه وهداك الى الاسلام وهو خير من ذلك كله قالت ان ذلك كذلك ولكن اذا ذكرته أصابني ما ترى من الحزن فلو أنك أمرت الشياطين فصوروا صورته في داري أراها بكرة وعشيا لرجوت أن يذهب ذلك حزني فأمر سليمان عليه السلام الشياطين فقالوا لها صورة أبيها فعمدت اليه حين صنعوه وألبسته ثيابا مثل ثيابه التي كان يلبسها ثم كانت اذا خرج سليمان عليه السلام تذهب اليه مع ولائدها فتسجد له ويسجدن معها له تعالى كما كانت تصنع في ملكه وسليمان عليه السلام لا يعلم بشيء من ذلك أربعين صباحا فبلغ ذلك آصف بن برخيا وكان صديقا لسليمان عليه السلام وكان لا يرد عن أبواب سليمان عليه السلام أي ساعة أراد دخول شيء من بيوت سليمان عليه السلام حاضرا كان سليمان عليه السلام أو غائبا فقال يا نبي الله كبر سني ورق عظمي ونفد عمري وقد حان مني الذهاب وقد أحببت ان أقوم مقاما قبل الموت أذكر فيه من مضى من الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأثني عليهم بعلمي فيهم وأعلم الناس ببعض ما كانوا يجهلون من كثير أمرهم فقال افعل فجمع سليمان عليه السلام الناس فقام فيهم خطيبا فذكر من مضى من أنبياء الله تبارك وتعالى وأثنى على كل نبي بما فضله الله به حتى انتهى الى سليمان عليه السلام فقال ما كان أحكمك في صغرك ثم انصرف فوجد سليمان عليه السلام في نفسه من ذلك حتى امتلأ غضبا فلما دخل داره

دعاء فقال يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله تعالى فأثنيت عليهم خيرا فى كل زمانهم وكل
حال أمرهم فلما ذكرتنى جعلت تثنى على خيرا فى صغرى وسكت عما سوى ذلك من أمرى
فما الذى أحدثت فى آخر عمرى فقال آصف ان غير الله تعالى يعبد فى دارك فقال سليمان عليه
السلام انا لله وانا اليه راجعون لقد عرفت انك ما قلت الذى قلت الا عن شئ بلغك ثم رجع
سليمان عليه السلام الى داره فكسر الصورة وعاقب تلك المرأة وولائدها وخرج وحده الى فلاة
ففرش الرماد وجلس عليه تائبا الى الله تعالى وكانت له أم ولد يقال لها الامينة اذا دخل للطهارة
أو لاصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه فيه فوضعه عندها يوما فأتاها الشيطان صاحب
البحر واسمه صخر على صورة سليمان عليه السلام وقال لها يا أمينة خاتمى فناولته الخاتم وتختم به
وجلس على كرسى سليمان عليه السلام فعكف عليه الطير والجن والانس وتغيرت صفة سليمان
عليه السلام فأتى الامينة يطلب الخاتم فأنكرته فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على
البيوت يتكفف واذا قال أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه وأخذ ينقل السمك للسماكين
فيعطونه كل يوم سمكتين فاذا أمسى باع احداهما بأرغفة وشوى الاخرى فأكلها فمكث كذلك
أربعين صباحا مدة ما كان عبد الوثن فى داره فأنكر آصف وعظماء بنى اسرائيل حكم الشيطان
وسأل آصف نساء سليمان عليه السلام فقلن ما يدع امرأة فى دمها ولا يغتسل من جنابة فقال
آصف انا لله وانا اليه راجعون ان هذا هو البلاء المبين ثم خرج على بنى اسرائيل فقال ما فى
الخاصة أعظم مما فى العامة فلما مضى أربعون صباحا طار الشيطان وقذف الخاتم فى البحر
فابتلعته سمكة فأخذها بعض الصيادين وقد عمل له سليمان عليه السلام بسمكتين صدر يومه ذلك
حتى اذا كان العشى أعطاه سمكتيه فأعطى السمكة التى أخذت الخاتم وخرج سليمان عليه
السلام بسمكتيه فباع السمكة التى ليس فى بطنها الخاتم بالارغفة ثم عمد الى السمكة الاخرى فبقرها
ليشويها فاستقبله الخاتم فى جوفها فأخذه فجعله فى يده ووقع ساجدا وعكفت عليه الطير والجن
والانس ورجع الى ملكه وأخذ ذلك الشيطان وحبسه فى صخرة وألقاها فى البحر هذا ملخص
حديث وهب وقال الحسن ما كان الله ليسلط الشيطان على نسائه وقال السدى كان سبب فتنة
سليمان عليه السلام أنه كانت له مائة امرأة وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة وهى آثر نسائه
وآمنهن عنده وكان يأتمنها على خاتمه اذا أتى حاجته فقالت له يوما ان أخى بينه وبين فلان خصومة
فأحب أن تقضى له فقال نعم ولم يفعل فابتلى بقوله نعم وذكر نحو ما تقدم وفى بعض الروايات ان
سليمان عليه السلام لما افتتن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه فأعاده سليمان عليه السلام الى يده
فسقط فأيقن سليمان عليه السلام بالفتنة فأتاه آصف فقال لسليمان عليه السلام انك مفتون
بذنبك والخاتم لا يتماسك فى يدك ففر الى الله تعالى تائبا فانى أقوم مقامك وأسير بسيرك الى أن يتوب
الله تعالى عليك ففر سليمان عليه السلام الى الله تعالى وأعطى آصف الخاتم فوضعه فى يده فثبت
فأقام آصف فى ملك سليمان عليه السلام يسير بسيره أربعة عشر يوما الى أن رد الله تعالى على سليمان
عليه السلام ملكه وتاب عليه ورجع الى ملكه وجلس على سريره وأعاد الخاتم فى يده فهو الجسد

الذى ألقى على كرسيه وروى عن سعيد بن المسيب قال احتجب سليمان عليه السلام عن الناس ثلاثة أيام فأوحى الله تعالى اليه احتجبت عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر فى أمور عبادى فابتلاه الله عز وجل وذكر نحو ما تقدم من حديث الخاتم وأخذ الشيطان اياه قال الرازى واستبعد أهل التحقيق هذا الكلام من وجوه الاول ان الشيطان لو قدر على ان يتشبه فى الصورة والخلقة بالانبياء فحينئذ لا يبقى اعتماد على شئ من ذلك فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس على صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم فى الصورة لاجل الاغواء والاضلال وذلك يبطل الدين بالكلية الثانى أن الشيطان لو قدر أن يعامل نبى الله تعالى سليمان عليه السلام بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد وحينئذ يجب أن يقتلهم ويمزق تصانيفهم ويخرب ديارهم ولما بطل ذلك فى حق آحاد العلماء فلان يبطل فى حق اكابر الانبياء أولى الثالث كيف يليق بحكمة الله تعالى واحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان عليه السلام ولا شك أنه قبيح أى على غير رأى الحسن كما مر الرابع لو قلنا ان سليمان عليه السلام أذن لتلك المرأة فى عبادتها تلك الصورة فهذا كفر منه وان لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة فكيف يؤاخذ الله تعالى سليمان عليه السلام بفعل لم يصدر منه أى وقد يقال انما أوخذ بذلك لكونه كان سببا فى عملها قال فأما أهل التحقيق فقد ذكروا وجوها الاول أن فتنة سليمان عليه السلام أنه ولد له ابن فقالت الشياطين ان عاش صار مسلطا علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله فعلم سليمان عليه السلام ذلك فكان يربيه فى السحاب فبينما هو يشتغل بمهماته اذ ألقى ذلك الولد ميتا على كرسيه فتنبه على خطيئته فى أنه لم يثق ولم يتوكل على الله تعالى فاستغفر ربه وتاب الثانى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال قال سليمان لاطوفن الليلة على سبعين امرأة كل امرأة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ولم يقل ان شاء الله تعالى فطاف عليهن فلم تحمل منهن الا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذى نفسى بيده لو قال ان شاء الله تعالى لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعين فذلك قوله تعالى ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا الثالث انه أصابه مرض فصار يجلس على كرسيه وهو مريض فذلك قوله تعالى وألقينا على كرسيه جسدا وذلك لشدة المرض والعرب تقول فى الضعيف انه لحم على وضم وجسم بلا روح ثم أناب أى رجع الى حال الصحة أى وهذا أظهر ما قيل كما قاله البيضاوى الرابع لا يبعد أيضا أن يقال انه ابتلاه الله تعالى بتسليط وقوع خوف أو وقوع بلاء توقعه من بعض الجهات حتى صار بقوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسى ثم ان الله تعالى أزال عنه ذلك الخوف وأعاده الى ما كان عليه من القوة وطيب القلب فاللفظ محتمل لهذه الوجوه ولا حاجة الى حمله على تلك الوجوه الركيكة (فان قيل) لولا تقدم الذنب لما (قال رب اغفر لى) (أجيب) بأن الانسان لا ينفك عن ترك الافضل وحينئذ يحتاج الى طلب المغفرة لان حسنات الابرار سيآت المقربين ولانه أبدا فى مقام هضم النفس واظهار الندم والخضوع كما قال صلى الله عليه وسلم انى لاستغفر الله تعالى فى اليوم والليلة سبعين

مرة

مرة مع أنه صلى الله عليه وسلم غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فلا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى واختلف فى قول سليمان عليه السلام (وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى) أى سواى نحو فمن يهديه من بعد الله أى سوى الله فقال عطاء بن أبى رباح يريد هب لى ملكا لا تسلبنيه فى باقى عمرى (انك أنت الوهاب) وقال مقاتل ان الشيطان لما استولى على ملكه طلب أن يعطيه الله ملكا لا يقدر الشيطان على أن يقوم فيه مقامه البتة وقال من أنكر أن الشيطان لم يستول على ذلك ان ذلك محتمل لوجوه الاول أن الملك هو القدرة فكان المراد أقدرنى على أشياء لا يقدر عليها غيرى البتة ليصير اقتدارى عليها معجزة تدل على صحة نبوتى ورسالتى ويدل على صحة هذا القول قوله تعالى (فسخرنا) أى بما لنا من العظمة (له الريح تجرى بأمره رخاء) أى حالة كونها لينة غاية اللين منقادة يدرك بها ما لا تدرك الخيل غدوها شهر ورواحها شهر (حيث أصاب) أى أراد فكون الريح جارية بأمره قدرة عجيبة وملك عجيب دال على صحة نبوته لا يقدر أحد على معارضته وقد جعل الله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ذلك وهو أن العدو يرعب منه الى مسيرة شهر من جوانبه الاربعة فهى أربعة أشهر الثانى انه عليه السلام لما مرض ثم عاد الى الصحة عرف ان خيرات الدنيا صائرة الى التغيرات فسأل ربه ملكا لا يمكن أن ينتقل منى الى غيرى الثالث ان الاحتراز عن طيبات الدنيا مع القدرة عليها أشق من الاحتراز عنها حال عدم القدرة فكأنه قال يا الهى أعطنى مملكة فائقة على ممالك البشر بالكلية حتى احترز عنها مع القدرة عليها ليصير ثوابى أكمل وأفضل الرابع سأل ذلك ليكون علامة على قبول توبته حيث أجاب الله تعالى دعاءه ورد عليه ملكه وزاده فيه وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان عفريتا من الجن أتانى الليلة ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا اليه فذكرت دعوة أخى سليمان وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى فرددته خاسئا فعلم من هذه الاوجه أنه ليس فى كلام سليمان عليه السلام ما يشبه الحسد وهو طلب ما لا ينبغى لاحد غيره وأجاب الزمخشرى بأجوبة غير ذلك منها أن سليمان عليه السلام كان ناشئا فى بيت الملك والنبوة ووارثا لهما فأراد أن يطلب من ربه معجزة فطلب على حسب الفه ملكا زائدا على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الاعجاز ليكون ذلك دليلا على نبوته قاهرا للمبعوث اليهم ثم قال وعن الحجاج أنه قيل له انك حسود فقال احسد منى من قال وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى قال وهذا من جراءته على الله تعالى وشيطنته ومن شيطنته ما حكى عنه طاعتنا أوجب من طاعة الله لانه شرط فى طاعته فقال فاتقوا الله ما استطعتم وأطلق فى طاعتنا فقال وأولى الامر منكم (فان قيل) قوله تعالى رخاء ينافيه قوله تعالى فى آية أخرى ولسليمان الريح عاصفة (أجيب) عن ذلك بوجهين الاول أن المراد أن تلك الريح كانت فى قوة الرياح العاصفة الا أنها لما أمرت بأمره كانت لذيذة طيبة وكانت رخاء الثانى أن تلك الريح كانت لينة مرة وعاصفة أخرى فلا منافاة بين الآيتين * (تنبيه) * قوله تعالى حيث ظرف لتجرى أو لسخرنا * (فائدة) *

روى أنّ رجلين خرجا يقصدان رؤبة يسألانه عن معنى أصاب فقال لهما أين تصيبان فعرفا وقالا هذا بغيتنا وقوله تعالى (والشياطين) عطف على الريح وقوله تعالى (كل بناء) بدل من الشياطين كانوا يبنون له ما شاء من الابنية روى ان سليمان عليه السلام أمر الجان فبنت له اصطخر وكان فيها قرار مملكة الترك قديما وبنت له الجان أيضا تدمر وبيت المقدس وباب جيرون وباب البريد اللذين بدمشق على أحد الاقوال وبنوا له ثلاثة قصور باليمن غمدان وسلحين وبينون ومدينة صنعاء وقوله تعالى (وغوص) عطف على بناء أى يغوصون له فى البحر يستخرجون اللؤلؤ وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر وقوله تعالى (وآخرين مقرنين) أى مشدودين (فى الاصفاد) أى القيود بجمع أيديهم الى أعناقهم عطف على كل فهو داخل فى حكم البدل فكأنه فصل الشياطين الى عملة استعملهم فى الاعمال الشاقة كالبناء والغوص ومردة قرن بعضهم مع بعض فى السلاسل ليكفوا عن الشر (فان قيل) أجسامهم اما أن تكون كثيفة أو لطيفة فان كانت كثيفة وجب ان يراها صحيح الحاسة وان كانت لطيفة فلا تقوى على العمل ولا يمكن تقرينها (أجيب) بأن أجسامهم شفافة صلبة فلا ترى وتقوى على العمل ويمكن تقرينها (اجيب) بان اجسامهم شفافة صلبة فلا ترى وتقوى على العمل ويمكن تقرينها أو ان المراد تمثيل كفهم عن الشرور بالاقران فى الصفد وهو القيد ويسمى به العطاء لانه يربط المنعم عليه وفرقوا بين فعل الصفد بمعنى القيد وفعله بمعنى العطاء فقالوا اصفده قيده وأصفده أعطاه عكس وعد وأوعد فى الخير والشر وفى ذلك نكتة وهى ان القيد ضيق فناسبه تقليل حروف فعله والعطاء واسع فناسبه تكثير حروف فعله والوعد خير وهو خفيف فناسبه تقليل حروفه والايعاد شر وهو ثقيل فناسبه تكثير حروفه (هذا) أى وقلنا هذا الامر الكبير (عطاؤنا) أى على ما لنا من العظمة (فامنن أو أمسك) قال ابن عباس رضى الله عنهما أعط من شئت وامنع من شئت قال المفسرون أى لا حرج عليك فيما أعطيت وفيما امسكت وقال الحسن ما أنعم الله تعالى على أحد نعمة الا عليه تبعة الا سليمان عليه السلام فانه ان أعطى أجر وان لم يعط لم يكن عليه تبعة وقال مقاتل هذا فى أمر الشياطين يعنى خل من شئت منهم وأمسك من شئت فى وثاقك لا تبعة عليك فيما تتعاطاه وقوله تعالى (بغير حساب) فيه ثلاثة أوجه أحدها أنه متعلق بعطاؤنا أى أعطيناك بغير حساب ولا تقدير وهو دال على كثرة الاعطاء ثانيها أنه حال من عطاؤنا أى فى حال كونه غير محاسب عليه لانه جم كثير يعسر على الحاسب ضبطه ثالثها أنه متعلق بامنن أو أمسك ويجوز أن يكون حالا من فاعلهما أى غير محاسب عليه * ولما ذكر تعالى ما أنعم عليه به فى الدنيا أتبعه بما أنعم عليه به فى الآخرة بقوله سبحانه وتعالى (وان له عندنا) أى فى الآخرة مع ماله من الملك العظيم فى الدنيا (لزلفى) أى قربى عظيمة (وحسن مآب) وهو الجنة القصة الثالثة قصة أيوب عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (واذكر عبدنا) أى الذى هو أهل للاضافة الى جنابنا ويبدل منه (أيوب) وهو ابن الروم بن عيص بن اسحق وامرأته ليا بنت يعقوب عليهما السلام وقوله

تعالى

قوله وهو ابن الروم الخ كذا فى النسخ وفى حاشية الجمل عن البيضاوى أيوب بن عيصو بن اسحق ثم نقل عن التحبير أيوب هو ابن اموص ابن رعيل بن عيص ابن اسحق وقال فى سورة الانعام أيوب بن أموص ابن رازح بن عيص ابن اسحق بن ابراهيم اهـ

تعالى (اذ نادى ربه) بدل من عبدنا بدل اشتمال وأيوب عطف بيان له وقوله (انى) أى بأنى (مسنى الشيطان) أى المحترق باللعنة البعيد من الرحمة (بنصب) أى عشقة وضرّ (وعذاب) أى ألم يجىء به على حكاية كلامه الذى نادى بسببه ولو لم يحكه لقيل انه مسه لانه غائب وقال قتادة رضى الله عنه النصب فى الجسد والعذاب فى المال واختلف العلماء فى هذه الآلام والاسقام الحاصلة فى جسده على قولين أحدهما أنها حصلت بفعل الشيطان والثانى أنها حصلت بفعل الله تعالى والعذاب المضاف فى هذه الآية الى الشيطان هو عذاب الوسوسة والقاء الخواطر الفاسدة أمّا تقرير القول الاوّل فهو ما روى أنّ ابليس لعنه الله سأل ربه فقال هل فى عبيدك من لو سلطتنى عليه يمتنع منى فقال الله تعالى نعم عبدى أيوب فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى ابليس عيانا ولا يلتفت اليه فقال رب انه قد امتنع علىّ فسلطنى على ماله فكان الشيطان يجيئه ويقول له يا أيوب هلك من مالك كذا وكذا فيقول أيوب له الله أعطى والله أخذ ثم يحمد الله سبحانه وتعالى فقال يارب ان أيوب لا يبالى بماله فسلطنى على جسده فأذن فيه فنفخ فى جلد أيوب فحدث أسقام عليه وآلام شديدة فمكث فى ذلك البلاء سنين حتى استقذره أهل بلاده فخرج الى الصحراء وما كان يقرب منه أحد فجاء الشيطان الى امرأته وقال ان زوجك ان استغاث بى خلصته من هذا البلاء فذكرت المرأة ذلك لزوجها فحلف بالله لئن عافاه الله تعالى ليجلدنها مائة جلدة وعند هذه الواقعة قال انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب فأجاب الله تعالى دعاءه وأوحى اليه ان اركض برجلك الى آخر الآية وأمّا تقرير القول الثانى فانّ الشيطان لا قدرة له البتة على ايقاع الناس فى الامراض والاسقام ويدل عليه وجوه الاوّل أنا لو جوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان فلعل الواحد منا انما وجد الحياة بفعل الشيطان ولعل ما عندنا من الخيرات والسعادات قد حصل بفعله وحينئذ لا سبيل الى معرفة من يعطى الحياة والموت والصحة والسقم أهو الله تعالى أم الشيطان ثانيها أنّ الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى فى قتل الانبياء والاولياء ولم لا يخرب دورهم ولم لا يقتل أولادهم ثالثها أنّ الله تعالى حكى عن الشيطان أنه قال وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فصرح بأنه لا قدرة له على البشر الا بالقاء الوساوس والخواطر الفاسدة فدل ذلك على فساد القول بأنّ الشيطان هو الذى ألقاه فى تلك الامراض (فان قيل) لم لا يجوز أن يقال ان الفاعل لهذه الاحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان (أجيب) بأنه اذا كان لا بد من الاعتراف بأنّ خالق تلك الآلام والاسقام هو الله تعالى فأى فائدة فى جعل الشيطان واسطة فى ذلك بل الحق أنّ المراد بقوله انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب انه بسبب القاء الوساوس الفاسدة كان يلقيه فى أنواع العذاب والقائلون بهذا القول اختلفوا فى أن تلك الوساوس كيف كانت وذكروا أوجها أولها أنّ علته كانت شديدة الالم ثم طالت تلك العلة واستقذره الناس ونفروا عن مجاورته ولم يبق له مال البتة وامرأته كانت تخدم الناس وتحصل له قدر القوت ثم بلغت نفرة الناس عنه الى أن منعوا امرأته من الدخول

عليهم ومن خدمتهم والشيطان كان يذكره النعمة التى كانت عليه والآفات التى حصلت له وكان يحتال فى دفع تلك الوساوس * فلما قويت تلك الوساوس فى قلبه خاف وتضرع الى الله تعالى وقال مسنى الشيطان بنصب وعذاب لانه كلما كثرت تلك الخواطر كان تألم قلبه منها أشد ثانيها أنه لما طالت مدة المرض جاءه الشيطان ليقنطه مرة ويزلزله ليجزع مرة فخاف من خاطر القنوط فى قلبه فتضرع الى الله تعالى وقال انى مسنى الشيطان ثالثها قيل ان امرأته كانت تخدم الناس وتأخذ منهم قدر القوت وتجىء به الى أيوب عليه السلام فاتفق لها أنهم لما استخدموها طلبت بعض النساء منها قطع احدى ذؤابتيها على ان تعطيها قدر القوت ففعلت ثم فى اليوم الثانى فعلت مثل ذلك فلم يبق لها ذؤابة وكان أيوب عليه السلام اذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر الرديئة فى قلبه فعند ذلك قال مسنى الشيطان بنصب وعذاب رابعها روى انه عليه السلام قال فى بعض الايام يارب لقد علمت أنى ما اجتمع على أمران الا آثرت طاعتك ولما أعطيتنى المال كنت للارامل قيما ولابن السبيل معينا ولليتامى أبا فنودى يا أيوب ممن كان ذلك التوفيق فأخذ أيوب عليه السلام التراب فوضعه على رأسه وقال منك يارب ثم خاف من الخواطر الاولى فقال مسنى الشيطان بنصب وعذاب وذكروا أقوالا أخر فى سبب بلائه منها ان رجلا استغاثه على ظالم فلم يغثه وقيل كانت مواشيه ترعى فى ناحية ملك كافر فداهنه ولم يعظه وقيل أعجب بكثرة ماله واعلم أن داود وسليمان عليهما السلام كانا ممن أفاض الله عليهما أصناف الآلاء والنعماء وأيوب عليه السلام كان ممن خصه الله بأنواع البلاء والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار كأن الله تعالى قال يا محمد اصبر على سفاهة قومك فانه ما كان فى الدنيا أكثر من الانبياء نعمة ومالا وجاها من داود وسليمان عليهما السلام وما كان فيهم أكثر بلاء ومحنة من أيوب عليه السلام فتأمل أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لاحد وأن العاقل لابد له من الصبر على المكاره * ولما اشتكى أيوب عليه السلام الشيطان وسأل ربه أن يزيل عنه تلك البلية أجاب الله تعالى له بأن قال له (اركض) أى اضرب (برجلك) أى الارض فضرب فنبعت عين ماء فقيل له (هذا مغتسل بارد) أى ماء تغتسل منه فيبرأ ظاهرك (وشراب) أى وتشرب منه فيبرأ باطنك وظاهر اللفظ يدل على أنه نبعت له عين واحدة من الماء فاغتسل منه وشرب منه وأكثر المفسرين قالوا نبعت له عينان فاغتسل من احداهما وشرب من الاخرى فذهب الداء من ظاهره ومن باطنه باذن الله تعالى وقيل ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ثم باليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها وقيل ضرب الارض فنبعت له عين ماء فذهب كل داء كان بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فركض برجله الارض مرة أخرى فنبعت عين ماء عذب فشرب منه فذهب كل داء كان فى باطنه (ووهبنا) اى بما لنا من العظمة (له أهله) أى بأن جمعناهم عليه بعد تفرقهم أو أحييناهم بعد موتهم وقيل وهبنا له مثل أهله والاول هو ظاهر الآية فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة (ومثلهم معهم) حتى

كان له ضعف ما كان وقوله تعالى (رحمة) أى نعمة (منا) مفعول لاجله أى وهبناهم له لاجل رحمتنا اياه (وذكرى) أى وتذكيرا بحاله (لاولى الالباب) أى أصحاب العقول ليعلموا ان من صبر ظفر وأن رحمة الله تعالى واسعة وهو عند القلوب المنكسرة فما بينه وبين الاجابة الا حسن الانابة فمن دام اقباله عليه أغناه عن غيره كما قيل

لكل شئ اذا فارقته عوض * وما عن الله ان فارقت من عوض

وهذا تسليه لنبيه صلى الله عليه وسلم كما مر وقوله تعالى (وخذ بيدك ضغثا) معطوف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من الحشيش والقضبان فيها مائة عود كشمراخ النخلة وقيل الحزمة الكبيرة من القضبان وقوله سبحانه وتعالى (فاضرب به ولا تحنث) يدل على تقدم يمين منه عليه الصلاة والسلام واختلفوا فى سبب حلفه عليها وبعد ما قيل انها رغبته فى طاعة الشيطان وبعد أيضا ما روى أنها قطعت ذوّابتيها الان المضطر يباح له ذلك بل الاقرب ما روى أن زوجته ليا بنت يعقوب وقيل رحمة بنت افرائيم بن يوسف عليه السلام ذهبت لحاجة فأبطأت عليه فحلف فى مرضه ليضربنها مائة اذا برئ * ولما كانت حسنة الخدمة جعل الله تعالى يمينه بأهون شئ عليه وعليها وهذه الرخصة باقية فى الحدود لما روى أنه صلى الله عليه وسلم أتى برجل ضعيف قد زنا بأمة فقال صلى الله عليه وسلم خذوا مائة شمراخ واضربوه بها ضربة واحدة (انا وجدناه صابرا) أى فيما أصابه فى النفس والاهل والمال (فان قيل) كيف وجده صابرا وقد شكا اليه (أجيب) بأوجه أحدها أن شكواه الى الله تعالى كتمنى العافية فلا يسمى جزعا ولهذا قال يعقوب عليه السلام انما أشكو بثى وحزنى الى الله وكذلك شكوى العليل وذلك ان أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمنى العافية وطلبها فاذا صح أن يسمى صابرا مع تمنى العافية أفلا يعد صابرا مع اللجا الى الله تعالى والدعاء بكشف ما به مع التعالج ومشاورة الاطباء ثانيها أن الآلام حين كانت على الجسد لم يذكر شيأ فلما تعاظمت الوساوس على القلب تضرع الى الله تعالى ثالثها ان الشيطان عدو والشكاية من العدو الى الحبيب لا تقدح فى الصبر وروى أنه قال فى مناجاته الهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ولم يتبع قلبى بصرى ولم آكل الا ومعى يتيم ولم أبت شبعانا ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان فكشف الله تعالى عنه ثم استأنف قوله تعالى (نعم العبد) أى أيوب عليه السلام ثم علل بقوله تعالى مؤكدا لئلا يظن ان بلاءه قادح فى ذلك (انه أواب) أى رجاع الى الله تعالى روى أنه لما نزل قوله تعالى نعم العبد فى حق سليمان عليه السلام تارة وفى حق أيوب عليه السلام أخرى عظم فى قلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا ان قوله تعالى نعم العبد تشريف عظيم فان احتجنا الى تحمل بلاء مثل أيوب عليه السلام لم نقدر عليه فكيف السبيل الى تحصيله فأنزل الله تعالى قوله سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير والمراد أنك أيها الانسان ان لم تكن نعم العبد فأنا نعم المولى وان كان منك غير الفضل فأنا منى الفضل وان كان منك التقصير فمنى الرحمة والتيسير القصة الرابعة قصة ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام المذكورة

في قوله تعالى (واذكر عبادنا ابراهيم واسحق) بن ابراهيم (ويعقوب) بن اسحق (أولى الايدى) أى أصحاب القوى في العبادة وقال ابن عباس رضي الله عنهما أولى القوة في طاعة الله تعالى (والابصار) أى المعرفة بالله أى البصائر في الدين أو أولى الاعمال الجليلة والعقائد الشرعية فعبر بالايدى عن الاعمال لان أكثرها بمباشرتها وبالابصار عن المعارف لانها أقوى عباداتها وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله تعالى ولا من المستبصرين في دين الله وفيه توبيخ أيضا على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منهما فهم في حكم الزمنى الذين لا يقدرون على أعمال جوارحهم والناقصى العقول الذين لا استبصار لهم وقال قتادة ومجاهد اعطوا قوة في العبادة وبصرا في الدين وقرأ ابن كثير بفتح العين وسكون الباء الموحدة ولا ألف بعدها على التوحيد على أنه ابراهيم وحده لمزيد شرفه وابراهيم عطف بيان واسحق ويعقوب عطف على عبدنا والباقون بكسر العين وفتح الموحدة وألف بعدها على الجمع (انا أخلصناهم بخالصة) أى اصطفيناهم وجعلناهم لنا خالصين بخصلة خالصة لاشوب فيها وهي (ذكرى الدار) الآخرة أى ذكرها والعمل لها لان مطمح نظرهم الفوز بلقائه وذلك في الآخرة واطلاق الدار للاشعار بأنها الدار الحقيقية والدنيا معبر وقرأ نافع وهشام خالصة بغير تنوين بالاضافة للبيان أو ان خالصة مصدر بمعنى الخلوص فأضيف الى فاعله والباقون بالتنوين فمن أضاف فمعناه أخلصناهم بذكرى الدار الآخرة وأن يعملوا لها والذكرى بمعنى الذكر قال مالك بن دينار نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصناهم بحب الآخرة وذكرها وقال قتادة كانوا يدعون الى الآخرة والى الله عز وجل وقال السدى أخلصوا الخوف للآخرة وقال ابن زيد أخلصناهم بأفضل ما في الآخرة ومن قرأ بالتنوين فمعناه بخلة خالصة هي ذكرى الدار فيكون ذكرى الدار بدلا من الخالصة أو جعلناهم مخلصين بما أخبرنا من ذكر الآخرة والمراد بذكرى الدار الذكر الجميل الرفيع لهم في الآخرة وقيل انه أبقى لهم الذكر الجميل في الدنيا وقيل هو دعاؤه واجعل لي لسان صدق في الآخرين (وانهم عندنا لمن المصطفين) أى اصطفاء لا يقدح فيه قادح فساروا في غاية الرسوخ في هذا الوصف (الاخيار) أى المختارين من أبناء جنسهم والاخيار جمع خير بالتشديد أو خير بالتخفيف كأموات في جمع ميت أو ميت واحتج العلماء بهذه الآية على اثبات عصمة الانبياء عليهم السلام لانه تعالى حكم عليهم بكونهم أخيارا على الاطلاق وهذا يعم حصول الخيرية في جميع الافعال والصفات بدليل صحة الاستثناء منه القصة الخامسة قصة اسمعيل واليسع وذى الكفل عليهم السلام المذكورة في قوله تعالى (واذكر) يا أشرف الخلق (اسمعيل) أى أباك وما صبر عليه من البلاء بالغربة والانفراد والوحدة والاشراف على الموت في الله غير مرة وما صار اليه بعد ذلك البلاء من الفرج والرياسة والذكر في هذه البلدة (واليسع) وهو ابن اخطوب استخلفه الياس على بني اسرائيل ثم استنبئ واللام كما في قوله * رأيت الوليد بن اليزيد مباركا * وقرأ حمزة والكسائي بتشديد اللام وسكون الياء بعدها والباقون بسكون اللام وفتح الياء بعدها (وذا الكفل)

وهو ابن عم اليسع أو بشر بن أيوب واختلف فى نبوته وكفلته فقيل فر اليه مائة نبى من بنى اسرائيل من القتل فآواهم وكفلهم وقيل كفل بعمل رجل صالح كان يصلى كل يوم مائة صلاة (وكل) أى وكلهم (من الاخيار) فهم قوم مخيرون من الانبياء تحملوا الشدائد فى دين الله تعالى وصبروا فاذكرهم بأفضل الخلق بفضلهم وصبرهم لتسلك طريقهم * ولما أجرى تعالى ذكر الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأتمه قال مؤكدا الشأنهم وشرف ماذكر من أعمالهم (هذا) أى ماتلوناه عليك من ذكرهم وذكر غيرهم (ذكر) أى شرف فى الدنيا وموعظة من ذكر القرآن ذى الذكر ثم عطف على قوله تعالى ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد مالاضدادهم فقال تعالى رداعلى من ينكر ذلك من كفار العرب وغيرهم (وان للمتقين لحسن مآب) أى مرجع * ولما شوق سبحانه الى هذا الجزاء أبدل منه أو بينه بقوله تعالى (جنات عدن) أى اقامة فى سرور وطيب عيش ثم انه تعالى وصف أهل الجنة بأشياء أولها قوله تعالى (مفتحة لهم الابواب) أى ان الملائكة يفتحون لهم أبواب الجنة ويحيونهم بالسلام كما قال تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها الآية وقيل المعنى انهم كلما أرادوا انفتاح الابواب انفتحت لهم وكلما أرادوا انغلاقها انغلقت لهم * وقيل المراد من هذا الفتح وصف تلك المساكن بالسعة وقرة العيون فيها ثانيها قوله تعالى (متكئين فيها) وقد ذكر فى آيات أخر كيفية ذلك الاتكاء فقال تعالى فى آية على الارائك متكئون وقال فى آية أخرى متكئين على رفرف خضر ثالثها قوله تعالى (يدعون فيها) أى الجنات (بفاكهة كثيرة وشراب) أى كثير فيدعون فيها بألوان الفاكهة وألوان الشراب * ولما بين المسكن والمأكول والمشروب ذكر أمر المنكوح تتميما للنعمة بقوله سبحانه تعالى (وعندهم قاصرات الطرف) أى حابسات الطرف أى العين على أزواجهن (أتراب) أى اسنانهن واحدة وهى بنات ثلاث وثلاثين سنة واحدها ترب وعن مجاهد متواخيات لايتباغضن ولايتغايرن وقيل أتراب للازواج قال القفال والسبب فى اعتبار هذه الصفة لماتشابهن فى الصفة والسن والجبلة كان الميل اليهن على السوية وذلك يقتضى عدم الغيرة وقرأ قوله تعالى (هذا ماتوعدون) ابن كثير وأبو عمرو بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالفوقية على الخطاب وجه الغيبة تقدم ذكر المتقين ووجه الخطاب الالتفات اليهم والاقبال عليهم أى قل للمتقين هذا ماتوعدون (ليوم الحساب) أى فى يوم الحساب أولأجله فان الحساب علة الوصول الى الجزاء (ان هذا) أى المشار اليه اشارة الحاضر الذى لايغيب (لرزقنا ماله من نفاد) أى انقطاع وهذا اخبار عن دوام هذا الثواب * (تنبيه) * من نفاد فاعل ومن مزيدة والجملة فى محل نصب على الحال من رزقنا أى غير نافد ويجوز أن يكون خبرا ثانيا لان أى دائم * ولما وصف تعالى ثواب المؤمنين وصف بعده عقاب الظالمين ليكون الوعيد مذكورا عقب الوعد والترغيب عقب الترهيب بقوله تعالى (هذا وان للطاغين لشر مآب) أى مرجع هذا فى مقابلة قوله تعالى وان للمتقين لحسن مآب والمراد بالطاغين الكفار وقال الجبائى على مذهبه الفاسد هم أصحاب الكبائر سواء كانوا كفارا أم لا واحتج الاول بأن هذا ذم

مطلق فلا يحمل الاعلى الكامل فى الطغيان وهو الكافر واحتج هو بقوله تعالى ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى فدل على أن الوصف بالطغيان قد يحصل لصاحب الكبيرة لان من تجاوز حد تكاليف الله تعالى وتعداها فقد طغى ورد هذا بأن المراد بالانسان هنا هو الكافر أيضا * (تنبيه) * هذا يحتمل أن يكون مبتدأ والخبر مقدر أى كما ذكر كما قدره الزمخشرى وقدره أبو على بقوله هذا للمؤمنين وقال الجلال المحلى هذا المذكورة للمؤمنين ويحتمل أن يكون خبر مبتدا مضمر أى الامر هذا وقوله تعالى (جهنم) أى الشديدة الاضطرام الملاقية لمن يدخلها بغاية العبوسة والتجهم فيه اعراب جنات المتقدم وقوله تعالى (يصلونها) أى يدخلونها فيباشرون شدائدها حال من جهنم (فبئس المهاد) أى المهد والفراش مستعار من فرش النائم وهذا معنى قوله تعالى لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش شبه الله تعالى ما تحتهم من النار بالمهاد الذى يفرش للنائم والمخصوص بالذم محذوف أى هى وفى قوله تعالى (هذا) أى العذاب المفهوم مما بعده أوجه من الاعراب أحدها أنه خبر مبتدا مضمر أى الامر هذا ثم استأنف أمرا فقال (فليذوقوه) ثانيها انه مبتدأ وخبره (حميم وغساق) واسم الاشارة يكتفى بواحده فى المثنى كقوله تعالى عوان بين ذلك أو يكون المعنى هذا جامع بين الوصفين ويكون قوله تعالى فليذوقوه جملة اعتراضية ثالثها أنه مبتدأ والخبر محذوف اى هذا كما ذكر وهذا للطاغين وقيل غير ذلك وقيل هذا على التقديم والتأخير والتقدير هذا حميم وغساق فليذوقوه وقيل التقدير جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه ثم يبتدئ فيقول حميم وغساق أى منه حميم وغساق والحميم الحار الذى انتهى حره والغساق ما يسيل من صديد أهل النار وقال كعب هو عين فى جهنم يسيل اليها كل ذوب حية وعقرب وقال أبو عمرو هو القيح الذى يسيل من أهل النار فيجتمع فيسقونه وقال قتادة هو ما يغسق أى يسيل من القيح والصديد من جلود أهل النار ولحومهم وفروج الزناة وقيل هو المنتن بلغة الترك حكى الزجاج لو قطرت منه قطرة بالمغرب لانتنت أهل المشرق وقرأ حمزة والكسائى وحفص بتشديد السين والباقون بالتخفيف وقرأ أبو عمرو (وأخر) بضم الهمزة على جمع أخرى مثل الكبرى والكبر أى أصناف أخر من العذاب (من شكله) أى مثل المذكور من الحميم والغساق والباقون بفتح الهمزة ممدودة على التوحيد على أنه لما ذكر واختار أبو عبيدة الجمع لانه تعالى نعته بالجمع فقال سبحانه وتعالى (أزواج) أى أصناف أى عذابهم من أنواع مختلفة ويقال لهم عند دخولهم النار بأتباعهم (هذا فوج) أى جمع كثيف (مقتحم) أى داخل ومفعوله محذوف أى مقتحم النار (معكم) بشدة فيقول المتبوعون (لا مرحبا بهم) أى لا سعة عليهم أو لا سمعوا مرحبا وقولهم (انهم صالوا النار) أى داخلون النار بأعمالهم مثلنا تعليل لاستحقاقهم الدعاء عليهم ونظير هذه الآية قوله تعالى كلما دخلت أمة لعنت أختها وقال الكلبى انهم يضربون بالمقامع حتى يوقعوا أنفسهم فى النار خوفا من تلك المقامع (قالوا) أى الاتباع (بل أنتم لا مرحبا بكم) أى ان الدعاء الذى دعوتم به علينا أيها الرؤساء أنتم أحق به منا وعللوا ذلك بقولهم (أنتم قدمتموه) أى الكفر (لنا) أى بدأتم به قبلنا وشرعتموه وسننتموه لنا

وقيل

وقيل أنتم قدمتم هذا العذاب لنا بدعائكم ايانا الى الكفر (فبئس القرار) أى النار لنا ولكم (قالوا) أى الاتباع أيضا (ربنا من قدم لنا هذا) أى شرعه وسنه لنا (فزده عذابا ضعفا) أى مثل عذابه على كفره (فى النار) قال ابن مسعود يعنى حيات وأفاعى (وقالوا) أى الطاغون وهم فى النار (مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار) يعنون فقراء المؤمنين كعمار وخباب وصهيب و بلال وسلمان الذين كانوا يسترذلونهم و يسخرون بهم وقولهم (اتخذناهم سخريا) صفة أخرى لرجالا أى كنا نسخر بهم فى الدنيا وقرأ نافع وحمزة والكسائى بضم السين والباقون بكسرها (أم زاغت) أى مالت (عنهم الابصار) أى فلم نرهم حين دخلوها وقال ابن كيسان أى ام كانوا خيرا منا ونحن لانعلم فكانت أبصارنا تزيغ عنهم فى الدنيا فلا نعدهم شيأ (ان ذلك) أى الذى حكيناه عنهم (لحق) أى واجب وقوعه فلا بد أن يتكلموا به ثم بين ذلك الذى حكاه عنهم بقوله تعالى (تخاصم أهل النار) أى فى النار وانما سماه تخاصما لان قول القادة للاتباع لامرحبا بهم وقول الاتباع للقادة بل أنتم لامرحبا بكم من باب الخصومة *(تنبيه)* يصح فى تخاصم أوجه من الاعراب أحدها أنه بدل من لحق الثانى أنه عطف بيان الثالث أنه خبر ثان لان الرابع أنه خبر مبتدا مضمر أى هو تخاصم * ولما شرح سبحانه نعيم أهل الثواب وعقاب أهل العذاب عاد الى تقرير التوحيد والنبوة والبعث المذكورات أول السورة بقوله تعالى (قل) يا أفضل الخلق للمشركين (انما أنا منذر) أى مخوف بالنار لمن عصى (و) لابد من الاقرار بأنه (ما من اله الا الله) أى الجامع لجميع الاسماء الحسنى (الواحد القهار) فكونه واحدا يدل على عدم الشريك وكونه قهارا مشعر بالتخويف والترهيب * ولما ذكر ذلك أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب بقوله تعالى شأنه (رب السموات) أى مبدعها وحافظها على علوها وسعتها واحكامها بما لها من الزينة والمنافع (والارض) أى على سعتها وضخامتها وكثافتها ومافيها من العجائب (ومابينهما) أى الخافقين من الفضاء والهواء وغيرهما من العناصر والنبات والحيوانات العقلاء وغيرها ربى كل شئ من ذلك ايجادا وابقاء على مايريد وان كره ذلك المربوب فدل ذلك على قهره وتفرده (العزيز) أى الغالب على أمره (الغفار) فكونه ربا يشعر بالتربية والكرم والاحسان والجود وكونه غفارا يشعر بأن العبد لو أقدم على المعاصى والذنوب ثم تاب اليه فانه يغفرها برحمته وهذا الموصوف بهذه الصفات هو الذى تجب عبادته لانه هو الذى يخشى عقابه ويرجى ثوابه وقوله تعالى (قل) أى لهم (هو نبأ عظيم) يعود على القرآن ومافيه من القصص والاخبار وقيل تخاصم أهل النار وقيل على ماتقدم من اخباره صلى الله عليه وسلم بأنه نذير مبين وبأن الله تعالى الهواحد متصف بتلك الصفات الحسنى وقوله تعالى (أنتم عنه معرضون) صفة لنبأ أى لتمادى غفلتكم فان العاقل لايعرض عن مثله كيف وقد قامت عليه الحجج الواضحة اما على التوحيد فما مر واما على النبوة فقوله تعالى (ما كان لى من علم بالملا الاعلى) أى الملائكة فقوله بالملا متعلق بقوله

من علم وضمن معنى الاحاطة فلذلك تعدى بالباء (اذ يختصمون) أى فى شأن آدم عليه السلام حين قال الله عز وجل انى جاعل فى الارض خليفة الآية (فان قيل) الملائكة لا يجوز ان يقال انهم اختصموا بسبب قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فالمخاصمة مع الله تعالى كفر (أجيب) بأنه لا شك انه جرى هنالك سؤال وجواب وذلك يشبه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة المجاز فلهذا السبب حسن اطلاق لفظ المخاصمة عليه * ولما أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ان يذكر هذا الكلام على سبيل الزجر أمره ان يقول (ان) أى ما (يوحى الى الا انما) أى أنى (أنا نذير مبين) أى بين الانذار فأبين لكم ما تأتونه وما تجتنبونه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال رأيت ربى فى أحسن صورة قال ابن عباس رضى الله عنه أحسبه قال فى المنام فقال يا محمد هل تدرى فيم يختصم الملأ الاعلى قلت أنت أعلم أى رب مرتين قال فوضع يده بين كتفى فوجدت بردها بين ثديى أو قال فى نحرى فعلمت ما فى السموات وما فى الارض وفى رواية ثم تلا هذه الآية وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين ثم قال يا محمد هل تدرى فيم يختصم الملأ الاعلى قلت نعم فى الدرجات والكفارات قال وما هن قلت المشى على الاقدام الى الجماعات والجلوس فى المساجد بعد الصلوات واسباغ الوضوء فى المكاره قال من يفعل ذلك يعيش بخير ويموت بخير وخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه وقال يا محمد اذا صليت فقل اللهم انى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وان تغفر لى وترحمنى واذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنى اليك غير مفتون قال ومن الدرجات افشاء السلام واطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام وفى رواية فقلت لبيك وسعديك فى المرتين وفيها فعلمت ما بين المشرق والمغرب أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وللعلماء فى هذا الحديث وأمثاله من أحاديث الصفات مذهبان أحدهما مذهب السلف وهو اقراره كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل والايمان به من غير تأويل له والسكوت عنه مع الاعتقاد بأن ليس كمثله شئ وهو السميع البصير والمذهب الثانى مذهب الخلف وهو تأويل الحديث فقوله صلى الله عليه وسلم رأيت ربى فى أحسن صورة يحتمل وجهين أحدهما وانا فى أحسن صورة كأنه زاده جمالا وكمالا وحسنا عند رؤيته لربه وانما التغيير وقع بعده لشدة الوحى وثقله الثانى ان الصورة بمعنى الصفة ويرجع ذلك الى الله تعالى والمعنى انه رآه فى أحسن صفاته من الانعام عليه والاقبال اليه والله تعالى تلقاه بالاكرام والاعظام فاخبر صلى الله عليه وسلم عن عظمته وكبريائه وبهائه وبعده عن شبهه بالخلق وتنزيهه عن صفات النقص وانه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وقوله صلى الله عليه وسلم فوضع يده بين كتفى الخ فالمراد باليد النعمة والمنة والرحمة وذلك شائع فى لغة العرب فيكون معناه على هذا الاخبار باكرام الله تعالى اياه وانعامه عليه بأن شرح صدره ونور قلبه وعرفه مالم يعرفه حتى وجد برد النعمة والرحمة والمعرفة فى قلبه وذلك لما نور قلبه وشرح صدره فعلم ما فى السموات وما فى الارض باعلام الله تعالى اياه فانما أمره اذا أراد شيأ أن يقول

له

له كن فيكون اذ لا يجوز على الله تبارك وتعالى ولا على صفات ذاته سبحانه مماسة أو مباشرة أو نقص وهذا أليق بتنزيهه وحمل الحديث عليه واذا حملنا الحديث على المنام وان ذلك كان في المنام فقد زال الاشكال لان رؤية الباري سبحانه في المنام على الصفات الحسنة دليل على البشارة والخير والرحمة للرائي وسبب اختصام الملا الاعلى وهم الملائكة في الكفارات وهي الخصال المذكورة في الحديث في ايها أفضل وسميت هذه الخصال كفارات لانها تكفر الذنوب عن فاعلها فهي من باب تسمية الشيء باسم لازمه وسمى ذلك مخاصمة لما مر في السؤال والجواب المتقدمين وقوله تعالى (اذ) يجوز أن يكون بدلا من اذ الاولى كما قاله الزمخشري وأن يكون منصوبا باذكر كما قاله أبو البقاء أي واذكر اذ (قال ربك للملائكة انى خالق) أي جاعل (بشرا من طين) هو آدم عليه السلام (فان قيل) كيف صح أن يقول لهم انى خالق بشرا وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل (أجيب) بأنه قد يكون قال لهم انى خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم (فاذا سويته) أي أتممت خلقه (ونفخت) أي أجريت (فيه من روحي) فصار حيا حساسا متنفسا واضافة الروح اليه تعالى اضافة تشريف لآدم عليه السلام والروح جسم لطيف يحيا به الانسان بنفوذه فيه يسري في بدن الانسان سريان الضوء في الفضاء وكسريان النار في الفحم والماء في العود الاخضر (فقعوا) أي خروا (له ساجدين فسجد الملائكة) وقوله تعالى (كلهم أجمعون) فيه تأكيدان وقال الزمخشري كل للاحاطة وأجمعون للاجتماع فأفادا معا انهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك الا انهم سجدوا جميعا في وقت واحد غير متفرقين في أوقات انتهى (فان قيل) كيف ساغ السجود لغير الله (أجيب) بأن الممنوع هو السجود لغير الله تعالى على وجه العبادة فأما على وجه التكرمة والتبجيل فلا يأباه العقل الا أن يكون فيه مفسدة فينهى الله تعالى عنه والاولى في الجواب انه سجود تحية بالانحناء كما قاله الجلال المحلي (الا ابليس استكبر) أي تكبر وتعظم عن السجود (فان قيل) كيف استثنى من الملائكة عليهم السلام ابليس وهو من الجن (أجيب) بانه قد أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه في قوله تعالى فسجد الملائكة ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء متصلا وقال الجلال المحلي هو أبو الجن وكان من الملائكة وعلى هذا فلا سؤال (وكان) أي وصار (من الكافرين) باستكباره عن أمر الله تعالى أو كان من الكافرين في الازمنة الماضية في علم الله تعالى * (تنبيه) * المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر لان ابليس انما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر والكفار انما نازعوا محمدا صلى الله عليه وسلم بسبب الحسد والكبر فذكر الله تعالى هذه القصة ههنا ليصير سماعها زاجرا عن هاتين الخصلتين المذمومتين (قال) الله تعالى (يا ابليس) سماه بهذا الاسم لكونه من الابلاس وهو انقطاع الرجاء اشارة الى تحتم العقوبة له (ما منعك أن تسجد) وبين ما يوجب طاعته ولو أمر بتعظيم ما لا يعقل بقوله تعالى معبرا بأداة ما لا يعقل عمن كان عند السجود له عاقلا كامل العقل (لما خلقت بيدي) أي توليت خلقه من غير توسط سبب كأب وأم والتثنية في اليد لما في خلقه من مزيد القدرة وقوله

تعالى (أستكبرت) استفهام توبيخ أى تعظمت بنفسك الآن عن السجود له (أم كنت من العالين) أى من القوم الذين يتكبرون فتكبرت عن السجود له لكونك منهم فاجاب ابليس بقوله (قال أنا خير منه) أى لو كنت مساويا له فى الشرف لكان يقبح أن أسجد له فكيف وأنا خير منه ثم بين كونه خيرا منه بقوله (خلقتنى من نار وخلقته من طين) والنار أشرف من الطين بدليل أن الاجرام الفلكية أفضل من الاجرام العنصرية والنار أقرب العناصر من الفلك والارض أبعد عنه فوجب كون النار أفضل من الارض وأيضا فالنار خليفة الشمس والقمر فى اضاءة العالم عند غيبتهما والشمس والقمر أشرف من الارض فخليفتهما فى الاضاءة أفضل من الارض وأيضا فالكيفية الفاعلة الاصلية إمّا الحرارة وإمّا البرودة والحرارة أفضل من البرودة لان الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت وأيضا فالنار لطيفة والارض كثيفة واللطافة أفضل من الكثافة وأيضا فالنار مشرقة والارض مظلمة والنور خير من الظلمة وأيضا فالنار خفيفة تشبه الروح والارض كثيفة تشبه الجسد والروح أفضل من الجسد فالنار أفضل من الارض والدليل على أن الارض أفضل من النار انها أمينة مصلحة فاذا أودعتها حبة ردّتها اليك شجرة مثمرة والنار خائنة مفسدة لكل ما سلمته اليها وأيضا فالنار بمنزلة الخادم لما فى الارض ان احتيج اليها استدعيت استدعاء الخادم وان استغنى عنها طردت وأيضا فالارض مستولية على النار لانها تطفئ النار وأيضا فان استدلال ابليس بكون أصله خيرا من أصله استدلال فاسد لان أصل الرماد النار وأصل البساتين المزهرة والاشجار المثمرة هو الطين ومعلوم بالضرورة أن الاشجار المثمرة خير من الرماد وأيضا هب أن اعتبار هذه الجهة توجب الفضيلة الا أن هذا يمكن أن يعارض بجهة أخرى توجب الرجحان مثل انسان نسيب عار عن كل الفضائل فان نسبه يوجب رجحانه الا أن الذى لا يكون نسيبا قد يكون كثير العلم والزهد فيكون أفضل من النسيب بدرجات لا حد لها فكذبت مقدمة ابليس (فان قيل) هب ان ابليس أخطأ فى القياس لكن كيف لزمه الكفر فى تلك المخالفة وتقرير السؤال من وجوه الاول أن قوله تعالى اسجدوا أمر وهو يحتمل الوجوب والندب فكيف يلزم العصيان فضلا عن الكفر الثانى هب انه للوجوب وقلتم ان ابليس ليس من الملائكة فامر الملائكة بالسجود لآدم لا يدخل فيه ابليس الثالث هب انه تناوله الا أن تخصيص العام بالقياس جائز فجاز أن يخصص نفسه من عموم ذلك الامر بالقياس الرابع هب انه لم يسجد مع علمه بأنه كان مأمورا به الا أن هذا القدر يوجب العصيان ولا يوجب الكفر (أجيب) بأن صيغة الامر وان لم يدل على الوجوب يجوز أن ينضم اليها من القرائن ما يدل عليه وههنا حصلت تلك القرائن وهى قوله تعالى أستكبرت أم كنت من العالين فعلم بذلك ان الامر للوجوب وانه مخاطب بالسجود فلما أتى بقياسه الفاسد دل ذلك على أنه انما ذكر القياس ليتوصل به الى القدح فى أمر الله تعالى وتكليفه وذلك يوجب الكفر * ولما ذكر ابليس لعنه الله تعالى هذا القياس الفاسد (قال) الله تعالى له (فاخرج) أى بسبب تكبرك ونسبتك الحكيم الذى لا اعتراض عليه الى الجور (منها) أى من الجنة وقيل من

الحلقة التي أنت فيها لانه كان يفتخر بخلقته فغير الله تعالى خلقته فاسود بعدما كان أبيض وقبح بعدما كان حسنا وأظلم بعدما كان نورانيا وقيل من السموات (فانك رجيم) أي مطرود لان من طرد رمي بالحجارة فلما كان الرجم من لوازم الطرد جعل الرجم كناية عن الطرد (فان قيل) الطرد هو اللعن فيكون قوله تعالى (وان عليك لعنتي) مكررا (اجيب) بحمل الطرد على ما تقدم وتحمل اللعنة على الطرد من رحمة الله تعالى وأيضا قوله تعالى وان عليك لعنتي (الى يوم الدين) أي الجزاء أفاد أمرا وهو طرده الى يوم القيامة فلا يكون تكرارا وقيل المراد بالرجم كون الشياطين مرجومين بالشهب (فان قيل) كلمة الى لانتهاء الغاية فكان لعنة الله ابليس غايتها يوم الدين ثم تنقطع (أجيب) بأنها كيف تنقطع وقد قال تعالى فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين فأفاد ان عليه اللعنة في الدنيا فاذا كان يوم القيامة اقترن عليه مع اللعنة من العذاب ما تنسى عنده اللعنة فكأنها انقطعت * (تنبيه) * قال تعالى هنا لعنتي وفي آية أخرى اللعنة وهما وان كانا في اللفظ عاما وخاصا الا أنهما من حيث المعنى عامان بطريق اللازم لان من كانت عليه لعنة الله تعالى كانت عليه لعنة كل أحد لامحالة وقال تعالى أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * ولما صار ابليس ملعونا مطرودا (قال رب فأنظرني الى يوم يبعثون) أي الناس طلب الانظار الى يوم البعث لأجل أن يتخلص من الموت لانه اذا أنظر ليوم البعث لم يمت قبل يوم البعث وعند مجيء البعث لا يموت فحينئذ يتخلص من الموت فلذلك (قال) تعالى (فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) أي وقت النفخة الاولى فيموت فيها فلم يجبه الى دعائه كما قال تعالى وما دعاء الكافرين الا في ضلال ومعنى المعلوم أنه معلوم عند الله تعالى معين لا يتقدم ولا يتأخر فلما أنظره الله تعالى الى ذلك الوقت (قال فبعزتك) أقسم بعزة الله تعالى وهي قهره وسلطانه (لاغوينهم أجمعين) ثم استثنى من ذلك ما ذكره الله بقوله (الا عبادك منهم المخلصين) أي الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم من اضلاله أو أخلصوا قلوبهم على اختلاف القراءتين فان نافعا والكوفيين قرؤا بفتح اللام بعد الخاء والباقون بالكسر * (تنبيه) * قيل ان غرض ابليس من هذا الاستثناء انه لا يقع في كلامه الكذب لانه لو لم يذكر هذا الاستثناء وادعى أنه يغوي الكل لظهر كذبه حين يعجز عن اغواء عباد الله تعالى المخلصين وعند هذا يقال ان الكذب شيء يستنكف منه ابليس فليس يليق بالمسلم وهذا يدل على أن ابليس لا يغوي عباد الله تعالى المخلصين وقد قال تعالى في صفة يوسف عليه السلام انه من عبادنا المخلصين فتحصل من مجموع الآيتين ان ابليس ما أغوى يوسف عليه السلام وما نسب اليه من القبائح كذب وافتراء * ولما قال ابليس ذلك (قال) تعالى (فالحق) أي فبسبب اغوائك وغوايتهم أقول الحق (والحق أقول) أي لا أقول الا الحق فان كل شيء قلته ثبت فلم يقدر أحد على نقضه ولا نقصه وقرأ عاصم وحمزة برفع الاول ونصب الثاني والباقون بنصبهما فنصب الثاني بالفعل بعده ونصب الاول بالفعل المذكور أو على الاغراء أي الزموا الحق أو على المصدر أي أحق الحق أو على نزع حرف القسم ورفعه على انه مبتدأ محذوف

الخبر أى فالحق منى أو فالحق قسمى وجواب القسم (لأملأن جهنم منك) أى بنفسك وذريتك (وممن تبعك منهم) أى من الناس وقوله تعالى (أجمعين) فيه وجهان أظهرهما انه توكيد للضمير فى منك ولمن عطف عليه فى قوله تعالى وممن تبعك والمعنى لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين لا أترك منهم أحدا وجوز الزمخشرى أن يكون تأكيدا للضمير فى منهم خاصة فتقدير لأملأن جهنم من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس لا تفاوت فى ذلك بين ناس وناس ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أى لقومك (ما أسألكم عليه) أى على تبليغ الرسالة أو القرآن (من أجر) أى جعل (وما أنا من المتكلفين) أى المتصنعين بما لست من أهله على ما عرفتم من حالى فانتحل النبوة وأتقول القرآن وكل من قال شيأ من تلقاء نفسه فهو متكلف له وعن مسروق قال دخلنا على عبد الله بن مسعود فقال يا أيها الناس من علم شيأ فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فان من العلم أن يقول من لا يعلم الله أعلم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين وقيل المعنى ان هذا الذى أدعوكم اليه ليس يحتاج فى معرفة صحته الى التكلفات الكثيرة بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته (ان) أى ما (هو) أى القرآن (الا ذكر) أى عظة وشرف (للعالمين) أى للخلق أجمعين (ولتعلمن) جواب قسم مقدر ومعناه لتعرفن يا كفار مكة (نبأه) أى خبر صدقه وهو ما فيه من الوعد والوعيد أو صدقه باتيان ذلك (بعد حين) قال ابن عباس وقتادة بعد الموت وقال عكرمة يوم القيامة وقال الحسن ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله تعالى لداود عشر حسنات وعصمه أن يصر على ذنب صغير أو كبير حديث موضوع

(سورة الزمر مكية)

الا قوله تعالى قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم الآية فمدنية وهى خمس وسبعون آية وألف ومائة واثنتان وتسعون كلمة وأربعة آلاف وسبعمائة وثمانية أحرف

(بسم الله) الذى له صفات الكمال (الرحمن) الذى أنعم على عباده بأنواع النعم (الرحيم) بأنواع المغفرة على المؤمنين من عباده (تنزيل الكتاب) أى القرآن مبتدأ وقوله تعالى (من الله) أى المتصف بجميع صفات الكمال خبره أى تنزيل الكتاب كائن من الله تعالى وقيل تنزيل الكتاب خبر مبتدا مضمر تقديره هذا تنزيل الكتاب من الله (العزيز) أى الغالب فى ملكه (الحكيم) أى فى صنعه ففى ذلك دلالة على أنه تعالى عالم بجميع المعلومات غنى عن جميع الحاجات (فان قيل) ان الله تعالى وصف القرآن بكونه تنزيلا ومنزلا وهذا الوصف لا يليق الا بالمحدث المخلوق (أجيب) بأن ذلك محمول على الصيغ والحروف (انا) أى بما لنا من العظمة (انزلنا عليك) يا أشرف الخلق خاصة بواسطة جبريل الملك (الكتاب) أى القرآن الجامع لكل خير وقوله تعالى

بالحق

(بالحق) يجوز أن يتعلق بالانزال أى بسبب الحق وأن يتعلق بمحذوف على انه حال من الفاعل أو المفعول وهو الكتاب أى ملتبسين بالحق أو ملتبسا بالحق والصدق والصواب والمعنى ان كل ما فيه من اثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكاليف فهو حق يجب العمل به وفى قوله تعالى انا أنزلنا اليك الكتاب تكرير تعظيم بسبب ابرازه فى جملة أخرى مضافا انزاله الى المعظم نفسه (فان قيل) لفظ تنزيل يشعر بأنه تعالى أنزله نجما نجما على وفق المصالح على سبيل التدريج ولفظ الانزال يشعر بأنه تعالى أنزله دفعة واحدة (أجيب) بأن طريق الجمع ان يقال انا حكمنا حكما كليا بأنا نوصل اليك هذا الكتاب وهذا هو الانزال ثم أوصلناه اليك نجما نجما على وفق المصالح * ولما بين تعالى ان هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق أردفه ببيان بعض ما فيه من الحق والصدق وهو أن يشتغل الانسان بعبادة الله تعالى على سبيل الاخلاص فقال سبحانه وتعالى (فاعبد الله) أى الحائز لجميع صفات الكمال حال كونك (مخلصا له الدين) أى ممحضا له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر (ألا لله) أى الملك الاعلى وحده (الدين الخالص) أى لا يستحقه غيره فانه المنفرد بصفات الألوهية والاطلاع على الاسرار والضمائر قال قتادة الدين الخالص شهادة أن لا اله الا الله وقال مجاهد الآية متناولة لكل ما كلف الله به من الاوامر والنواهى لان قوله تعالى فاعبد الله عام وروى ان امرأة الفرزدق لما قربت وفاتها أوصت أن يصلى الحسن البصرى عليها فلما دفنت قال الحسن البصرى يا أبا فراس ما الذى أعددت لهذا الامر قال شهادة أن لا اله الا الله فقال الحسن هذا العمود فأين الطنب قال ابن عادل فبين بهذا اللفظ الوجيز أن عمود الخيمة لا ينتفع به الامع الطنب حتى يمكن الانتفاع بالخيمة أى الانتفاع الكامل والا فهى ينتفع بها ولكن رأس العبادات الاخلاص فى التوحيد واتباع الاوامر واجتناب النواهى (والذين اتخذوا من دونه) أى من دون الله (أولياء) وهم كفار مكة اتخذوا الاصنام وقالوا (ما نعبدهم) أى الشئ من الاشياء (الا ليقربونا الى الله) أى الذى له معاقد العز ومجامع العظمة (زلفى) وذلك انهم كانوا اذا قيل لهم من ربكم ومن خلقكم ومن خلق السموات والارض قالوا الله فيقال فما عبادتكم لهم قالوا ليقربونا الى الله زلفى أى قربى وهو اسم أقيم مقام المصدر كأنهم قالوا الا ليقربونا الى الله تعالى تقريبا حسنا مهلا وتشفع لنا عند الله تعالى (ان الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (يحكم بينهم) أى وبين المسلمين (فيما هم فيه يختلفون) أى من أمر الدين فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار (ان الله) أى الملك القادر (لا يهدى) أى لا يرشد (من هو كاذب) أى فى قوله ان الآلهة تشفع لهم مع علمهم بانها جمادات خسيسة وفى نسبة الولد الى الله تعالى (كفار) أى بعبادته غير الله تعالى (لو أراد الله) أى الذى له الاحاطة بصفات الكمال (أن يتخذ ولدا) أى كما قالوا اتخذ الرحمن ولدا (لاصطفى) أى اختار (مما يخلق ما يشاء) أى اتخذ ولدا غير من قالوا الملائكة بنات الله وعزير ابن الله والمسيح ابن الله كما قال تعالى لو أردنا أن نتخذ لهوا أى كما زعموا لاتخذناه من لدنا اذ لا موجود سواه الا وهو مخلوقه ومن البين أن المخلوق

لايماثل الخالق فيقوم مقام الولد له * ثم نزه نفسه سبحانه فقال تعالى شأنه (سبحانه) أى تنزيها له عن ذلك وعما لا يليق بطهارته ثم أقام الدليل على هذا التنزيه المقتضى لتفرده فقال تعالى (هو) أى الفاعل لهذا الفعال القائل لهذه الاقوال (الله) أى الجامع لجميع صفات الكمال ثم ذكر من الاوصاف ماهو كالعلة لذلك فقال (الواحد) أى فى ملكه الذى لاشريك له ولا ولد ولا والد له (القهار) أى الغالب الكامل القدرة فكل شئ تحت قدره * ولما ثبتت هذه الصفات التى نفت أن يكون له شريك أو ولد وأثبتت له الكمال المطلق استدل على ذلك بقوله تعالى (خلق السموات والارض) أى أبدعهما من العدم وقوله تعالى (بالحق) متعلق بخلق لان الدلائل التى ذكرها الله تعالى فى اثبات الالهية اما أن تكون فلكية أو أرضية اما الفلكية فأقسام أحدها خلق السموات والارض وثانيها اختلاف الليل والنهار كما قال تعالى (يكور) أى يدخل (الليل على النهار ويكور النهار على الليل) قال الحسن ينقص من الليل فيزيد فى النهار وينقص من النهار فيزيد فى الليل فما نقص من الليل دخل فى النهار وما نقص من النهار دخل فى الليل قال البغوى ومنتهى النقص تسع ساعات ومنتهى الزيادة خمس عشرة ساعة وقال قتادة يغشى هذا هذا كما قال تعالى يغشى الليل النهار وقال الرازى ان النور والظلمة عسكران عظيمان وفى كل يوم يغلب هذا ذاك وذاك هذا وذلك يدل على ان كل واحد مغلوب مقهور ولابد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تدبيره وقهره وهو الله تعالى انتهى وورد فى الحديث نعوذ بالله من الحور بعد الكور أى من النقصان بعد الزيادة وقيل من الادبار بعد الاقبال (وسخر) أى ذلل وأكره وقهر وكلف لما يريد من غير نفع للمسخر (الشمس والقمر) فان الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وأكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما (كل) أى منهما (يجرى لاجل مسمى) أى الى يوم القيامة لايزالان يجريان الى هذا اليوم فاذا كان يوم القيامة ذهبا والمراد من هذا التسخيرات هذه الافلاك تدور كدوران المنجنون أى الدولاب الذى يسقى عليه على حد واحد (ألا هو العزيز) أى الغالب على أمره المنتقم من أعدائه (الغفار) أى الذى له صفة الستر على الذنوب متكررة يمحو ذنوب من يشاء عينا وأثرا بمغفرته ثم انه تعالى لما ذكر الدلائل الفلكية أتبعها بذكر الدلائل السفلية فقال تعالى (خلقكم) أيها الناس المدعون الهية غيره (من نفس واحدة) وهى آدم عليه السلام (ثم جعل منها) أى من تلك النفس (زوجها) حواء وانما بدأ منها بذكر الانسان لانه أقرب وأكبر دلالة وأعجب وفيه ثلاث دلالات خلق آدم أولا من غير أب وأم ثم خلق حواء من قصيراه ثم تشعب الخلق الفائت للحصر منهما فهما آيتان الا ان احداهما جعلها الله تعالى عادة مستمرة والاخرى لم تجر بها العادة ولم يخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل * (تنبيه) * فى ثم هذه أوجه أحدها انها على بابها من الترتيب بمهلة وذلك يروى ان الله تعالى أخرج ذريه آدم من ظهره كالذر ثم خلق حواء بعد ذلك بزمان ثانيها انها على بابها أيضا لكن لمدرك آخر وهو أن يعطف بها ما بعدها على مافهم من الصفة فى قوله تعالى واحدة اذ التقدير من نفس وحدت أى انفردت

ثم جعل منها زوجها ثالثها أنها للترتيب فى الاخبار لا فى الزمان الوجودى كأنه قيل كان من أمرها قبل ذلك ان جعل منها زوجها رابعها انها للترتيب فى الاحوال والرتب وقال الرازى ان ثم كما تجىء لبيان كون احدى الواقعتين متأخرة عن الثانية فكذلك تجىء لبيان تأخر احدى الكلامين عن الآخر كقول القائل بلغنى ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب وأعطيتك اليوم شيأ ثم الذى أعطيتك أمس أكثر وقوله تعالى (وأنزل لكم من الانعام) عطف على خلقكم والانزال يحتمل الحقيقة روى أن الله تعالى خلقها فى الجنة ثم أنزلها ويحتمل المجاز وله وجهان أحدهما انها لم تعش الا بالنبات والنبات انما يعيش بالماء والماء ينزل من السحاب أطلق الانزال عليها وهو فى الحقيقة يطلق على سبب السبب كقول القائل

اذا نزل السماء بأرض قوم * رعيناه وان كانوا غضابا

والثانى أن قضاياه وأحكامه منزلة من السماء من حيث كتبها فى اللوح المحفوظ وهو أيضا سبب فى ايجادها وقال البغوى معنى الانزال ههنا الاحداث والانشاء كقوله تعالى أنزلنا عليكم لباسا وقيل انه انزال الماء الذى هو سبب نبات القطن والكتان وغيرهما الذى يجعلون منه اللباس وقيل معنى قوله أنزل لكم من الانعام جعلها نزلا لكم ورزقا ومعنى قوله (ثمانية أزواج) أى ثمانية أصناف وهى الابل والبقر والضأن والمعز من كل زوجان ذكر وأنثى كما بين فى سورة الانعام وقوله تعالى (يخلقكم فى بطون أمهاتكم) بيان لكيفية خلق ما ذكر من الاناسى والانعام اظهارا لما فيها من عجائب القدرة غير أنه تعالى غلب أولى العقل أو خصهم بالخطاب لانهم المقصودون وقرأ حمزة والكسائى فى الوصل بكسر الهمزة والباقون بالضم وفى الابتداء الجميع بالضم وكسر حمزة الميم وفتحها الباقون ومعنى قوله تعالى (خلقا من بعد خلق) ماذكره الله تعالى بقوله ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين الآيات وأما قوله تعالى (فى ظلمات ثلاث) فقال ابن عباس ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة وقيل الصلب والرحم والبطن (ذلكم) أى العالى المراتب بشهادتكم أيها الخلق كلكم بعضكم بلسان قاله وبعضكم بناطق حاله الذى جميع ماذكر من أول السورة الى هنا من أفعاله *ولما أشار الى عظمته بأداة البعد أخبر عن اسم الاشارة بقوله تعالى (الله) أى الذى خلق هذه الاشياء (ربكم) أى الملك والمربى لكم بالخلق والرزق فهو المستحق لعبادتكم وقوله تعالى (له الملك) يفيد الحصر أى له الملك لا لغيره *ولما ثبت انه لا ملك الا له وجب القول بأنه (لا اله الا هو) أى لا يشاركه فى الخلق غيره * ولما بين بهذه الدلائل كمال قدرته ورحمته زيف طريقة المشركين بقوله تعالى (فأنى) أى فكيف ومن أى وجه (تصرفون) عن طريق الحق بعد هذا البيان (ان تكفروا فان الله) أى الذى له الكمال كله (غنى عنكم) لانه تعالى ما كلف المكلفين ليجر الى نفسه منفعة أو ليدفع عن نفسه مضرة لانه تعالى غنى على الاطلاق فيمتنع فى حقه جر المنفعة ودفع المضرة لانه تعالى واجب الوجود لذاته وواجب الوجود لذاته فى جميع أفعاله يكون غنيا على الاطلاق وأيضا فالقادر على خلق السموات

والارض والشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسي والعناصر الاربعة يمتنع أن ينتفع بصلاة زيد وصيام عمرو وان يستضر بعدم صلاة هذا وعدم صيام ذاك (ولا يرضى لعباده) أي لاحد منهم (الكفر) أي بالاقبال على ما سواه وانتم لا ترضون ذلك لعبيدكم مع أن ملككم لهم في غاية الضعف ومعنى عدم الرضا به لا يفعل فعل الراضي بأن يأذن فيه ويقر عليه ويثيب فاعله ويمدحه بل يفعل فعل الساخط بأن ينهى عنه ويذم عليه ويعاقب مرتكبه وان كان بارادته اذ لا يخرج شيء عنها وهذا قول قتادة والسلف أجروه على عمومه وقال ابن عباس ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفر وهم الذين قال الله تعالى فيهم ان عبادي ليس لك عليهم سلطان فيكون عاما في اللفظ خاصا في المعنى كقوله تعالى عينا يشرب بها عباد الله يريد بعض العباد (وان تشكروا) الله تعالى أي فتؤمنوا بربكم وتطيعوه (يرضه لكم) أي فيثيبكم عليه لانه سبب فلاحكم وقرأ السوسي في الوصل بسكون الهاء وللدوري وهشام وجهان السكون والضم وصلة الهاء بواو للدوري وابن كثير وابن ذكوان والكسائي والباقون بالسكون وهو لغة فيه (ولا تزر) أي نفس (وازرة وزر) نفس (أخرى) أي لا تحمله بل وزر كل نفس عليها لا يتعداها يحفظ عليها مدة كونها في دار العمل واحتج بهذا من أنكر وجوب الدية على العاقلة وديات السنة خصصت ذلك وأما الاثم الذي يكتب على الانسان بترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فليس وزر غيره وانما هو وزر نفسه فوزر الفاعل على الفعل ووزر الساكت على الترك لما لزمه من الامر والنهي وقوله تعالى (ثم الى ربكم مرجعكم) يدل على اثبات البعث والقيامة (فينبئكم بما كنتم تعملون) فيه تهديد للعاصي وبشارة للمطيع وقوله تعالى (انه عليم) أي بالغ العلم (بذات الصدور) أي بما في القلوب كالعلة لما سبق أي انه تعالى ينبئكم بأعمالكم لانه عالم بجميع المعلومات فيعلم ما في قلوبكم من الدواعي والصوارف قال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم ولا أموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم * ولما بين تعالى فساد القول بالشرك وبين تعالى انه الذي يجب أن يعبد بين أن طريقة الكفار متناقضة بقوله تعالى (واذا مس الانسان) أي هذا النوع الآنس بنفسه (ضر دعا ربه) لانهم اذا مسهم الضر طلبوا رفعه من الله تعالى واذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا الى عبادة الاصنام فكان الواجب عليهم أن يعترفوا بالله تعالى في جميع الاحوال لانه القادر على ايصال الخير ودفع الشر فظهر تناقض طريقهم والمراد بالانسان الكافر وقيل المؤمن والكافر وقيل المراد أقوام معينون كعتبة بن ربيعة وغيره والمراد بالضر جميع المكاره في جسمه أو ماله أو أهله أو ولده لعموم اللفظ وقوله تعالى (منيبا) حال من فاعل دعا وقوله تعالى (اليه) متعلق بمنيبا أي راجعا اليه في ازالة ذلك الضر لان الانابة الرجوع (ثم اذا خوله) أي أعطاه (نعمة) مبتدأة (منه) أي من غير مقابل ولا يستعمل في الجزاء بل في ابتداء العطية قال زهير * هنالك ان يستخولوا المال يخولوا * ويروى ان يستخبلوا المال يخبلوا

(وقال أبو النجم)

أعطى فلم يبخل ولم يبخل * كوم الذرى من خول المخول

وحقيقة خوّل من احدى معنيين اما من قولهم هو خائل مال اذا كان متعهداله حسن القيام عليه واما من خال يخول اذا اختال وافتخر ومنه قول العرب * انّ الغنى طويل الذيل مياس * (نسي) أي ترك (ما) أي الامر الذى (كان يدعو) أي يتضرع (اليه من قبل) أي قبل النعمة *(تنبيه)* يجوز فى ماهذه أوجه أحدها أن تكون موصولة بمعنى الذى مرادا بها الضرّ الذى كان يدعو الى كشفه اى ترك دعاءه كأنه لم يتضرع الى ربه ثانيها أنها بمعنى الذى مرادا بها البارئ تعالى أى نسى الله الذى كان يتضرع اليه وهذا عند من يجيز وقوع ما على أولى العلم وقال الرازى ما بمعنى من كقوله تعالى وما خلق الذكر والانثى وقوله ولا أنتم عابدون ما أعبد وقوله فانكحوا ما طاب لكم ثالثها ان تكون مصدرية أى نسى كونه داعيا (وجعل) أى ذلك الانسان زيادة على الكفران بالنسيان للاحسان (لله) أى الذى لا مكافئ له بشهادة الفطرة والسمع والعقل (أندادا) أى شركاء (ليضل عن سبيله) أى دين الاسلام وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء بعد اللام أى ليفعل الضلال بنفسه والباقون بضمها أى لم يقنع بضلاله فى نفسه حتى يحمل غيره عليه فمفعوله محذوف واللام يجوز ان تكون للعلة وان تكون لام العاقبة كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا * واختلف فى سبب نزول قوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهذا الذى قد حكم بكفره (تمتع) أى فى هذه الدنيا (بكفرك قليلا) أى بقية أجلك فقال مقاتل نزل فى أبى حذيفة بن المغيرة المخزومى وقيل فى عتبة بن ربيعة وقيل عام فى كل كافر وهذا أمر تهديد وفيه اقناط للكافر من التمتع فى الآخرة ولذلك علله بقوله تعالى (انك من أصحاب النار) أى الذين لم يخلقوا الا لها على سبيل الاستئناف للمبالغة قال تعالى ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس الآية * ولما شرح الله تعالى صفات المشركين وتمسكهم بغير الله تعالى أردفه بشرح المخلصين فقال تعالى (أمن هو قانت) أى قائم بوظائف الطاعات (آناء الليل) أى جميع ساعاته ومن اطلاق القنوت على القيام قوله صلى الله عليه وسلم أفضل الصلاة صلاة القنوت وهو القيام فيها ومنه القنوت لانه يدعو قائما وعن ابن عمر انه قال لا أعلم القنوت الا قراءة القرآن وطول القيام وتلا أمن هو قانت وعن ابن عباس القنوت الطاعة لقوله تعالى كل له قانتون أى مطيعون وقرأ نافع وابن كثير وحمزة بتخفيف الميم والباقون بتشديدها وفى القراءة الاولى وجهان أحدهما ان الهمزة همزة الاستفهام دخلت على من بمعنى الذى والاستفهام للتقرير ومقابله محذوف تقديره أمن هو قانت كمن جعل لله أندادا أو أمن هو قانت كغيره وأما القراءة الثانية فأم داخلة على من الموصولة أيضا فأدغمت الميم فى الميم وفى أم حينئذ قولان أحدهما انها متصلة ومعادلها محذوف تقديره الكافر خير أم الذى هو قانت والثانى انها منقطعة فتقدر ببل والهمزة أى بل أمن هو قانت كغيره أو كالكافر المقول له تمتع بكفرك وقوله تعالى (ساجدا) أى وراكعا (وقائما) أى وقاعدا فى صلاته حالان من ضمير قانت *(تنبيه)* فى هذه

قوله لانه يدعو قائما هكذا فى النسخ وعبارة الكشاف ومنه القنوت فى الوتر لانه دعاء المصلى قائما اهـ

الآية دلالة على أن قيام الليل أفضل من قيام النهار واختلف فى سبب نزولها فقال ابن عباس
نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقال الضحاك فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وقال
أبو عمرو فى عثمان رضى الله تعالى عنه وقال الكلبى فى ابن مسعود وعمار وسلمان رضى الله تعالى
عنهم وقوله تعالى (يحذر الآخرة) أى عذاب الآخرة يجوز أن يكون حالا من الضمير
فى ساجدا وقائما أو من الضمير فى قانت وأن يكون مستأنفا جوابا لسؤال مقدر كأنه قيل
ماشأنه يقنت آناء الليل ويتعب نفسه ويكدها قيل يحذر الآخرة (ويرجو رحمة) أى جنة
(ربه) الذى لم يزل يتقلب فى انعامه وفى الكلام حذف والتقدير كمن لا يفعل شيأ من ذلك وانما
حسن هذا الحذف لدلالة ذكر الكافر قبل هذه الآية وذكر بعدها (قل هل يستوى) أى فى
الرتبة (الذين يعلمون) أى وهم الذين صفتهم انهم يقنتون آناء الليل ساجدين وقائمين (والذين
لا يعلمون) أى وهم الذين صفتهم عند البلاء والخوف يوحدون وعند الراحة والفراغ يشركون
وانما وصف الله تعالى الكفار بأنهم لا يعلمون لان الله تعالى وان أعطاهم آلة العلم الا أنهم
أعرضوا عن تحصيل العلم فلهذا جعلهم الله تعالى كأنهم ليسوا من أولى الالباب من حيث
انهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم وفى هذا تنبيه على فضيلة العلم قيل لبعض العلماء
انكم تقولون العلم أفضل من المال ثم نرى العلماء عند أبواب الملوك ولا نرى الملوك عند أبواب
العلماء فأجاب بأن هذا أيضا يدل على فضيلة العلم لان العلماء علموا ما فى المال من المنافع فطلبوه
والجهال لم يعرفوا ما فى العلم من المنافع فلا جرم تركوه وقال فى الكشاف وأراد بالذين يعلمون
العاملين من علماء الديانة كأنه جعل من لا يعمل غير عالم قال وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون
العلوم ثم لا يقنتون ويفتنون ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله تعالى جهلة حيث جعل الله
تعالى القانتين هم العلماء قال ويجوز أن يراد على سبيل التشبيه أى كما لا يستوى العالمون
والجاهلون كذلك لا يستوى القانتون والعاصون اه وعن الحسن انه سئل عن رجل يتمادى
فى المعاصى ويرجو فقال هذا تمن وانما الرجاء قوله تعالى وتلا هذه الآية (انما يتذكر) أى يتعظ
(أولوا الالباب) أى أصحاب العقول الصافية والقلوب النيرة وهم الموصوفون فى آخر سورة
آل عمران بقوله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم الى آخرها* ولما نفى تعالى
المساواة بين من يعلم وبين من لا يعلم أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يخاطب المؤمنين فقال
سبحانه (قل) أى لهم (ياعبادى الذين آمنوا) أى أوجدوا هذه الحقيقة (اتقوا ربكم)
أى بطاعته واجتناب معاصيه ثم بين تعالى لهم ما فى هذا الاتقاء من الفوائد بقوله تعالى (للذين
أحسنوا فى هذه الدنيا) أى بالطاعة (حسنة) أى فى الآخرة وهى الجنة والتنكير فى حسنة
للتعظيم أى حسنة لا يصل العقل الى كنه كمالها فقوله تعالى فى هذه الدنيا متعلق بأحسنوا
وقيل متعلق بحسنة وعلى هذا قال السدى معناه فى هذه الدنيا حسنة يعنى الصحة والعافية
قال الرازى الاولى أن يحمل على الثلاثة المذكورة فى قوله صلى الله عليه وسلم ثلاثة ليس لها نهاية
الامن والصحة والكفاية اه ورد بأنه يتعين حمله على حسنة الآخرة لان ذلك حاصل للكفار

اكثر

اكثرمن حصوله للمؤمنين كما قال صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر واختلف في معنى قوله تعالى (وأرض الله) أى الذى له الملك كله والعظمة الشاملة (واسعة) فقال ابن عباس يعنى ارتحلوا من مكة وفيه حث على الهجرة من البلد الذى تظهر فيه المعاصى ونظيره قوله تعالى قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها وقيل نزلت فى مهاجرى الحبشة وقال سعيد بن جبير من أمر بالمعاصى فليهرب وقال أبو مسلم لا يمتنع أن يكون المراد من الارض أرض الجنة كما قال تعالى جنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين (انما يوفى) أى التوفية العظيمة (الصابرون أجرهم) أى على الطاعات وما يبتلون به * وقيل نزلت فى جعفر بن أبى طالب وأصحابه حيث لم يتركوا دينهم لما اشتد بهم البلاء وصبروا وهاجروا ومعنى (بغير حساب) أى بغير نهاية بكيل أو وزن لان كل شئ داخل تحت الحساب فهو متناه فمالانهاية له كان خارجا عن الحساب وعن ابن عباس لا يهتدى اليه حساب الحساب ولا يعرف وقال على كرم الله وجهه ورضى الله تعالى عنه كل مطيع يكال له كيلا أو يوزن له وزنا الا الصابرين فانه يحثى لهم حثيا وروى الشعبى لكن بسند ضعيف عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الموازين تنصب يوم القيامة لاهل الصلاة والصدقة والحج فيوفون أجورهم ولا ينصب لاهل البلاء بل يصب عليهم الاجر صبا حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا ان أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل * ولما كان للعبادة ركنان عمل القلب وعمل الجوارح وعمل القلب أشرف من عمل الجوارح فقدمه سبحانه بقوله تعالى (قل) أى يا أشرف المرسلين (انى أمرت) قرأ نافع بفتح الياء والباقون بسكونها (ان أعبد الله مخلصا له الدين) أى مخلصا له التوحيد لا أشرك به شيأ ثم ذكر عقبه الادون وهو عمل الجوارح وهو الاسلام المذكور فى قوله (وأمرت لأن) أى لأجل أن أو بأن (أكون أول المسلمين) أى من هذه الامة وبهذا زال التكرار وقال الزمخشرى فان قلت كيف عطف أمرت على أمرت وهما واحد قلت ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما وذلك أن الامر بالاخلاص وتكليفه شئ والامر به ليحرز القائم به قصب السبق فى الدين شئ آخر واذا اختلف وجها الشئ وصفتاه ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين * ولما دعا المشركون النبى صلى الله عليه وسلم الى دين آبائه أمره الله تعالى بقوله سبحانه (قل انى أخاف ان عصيت ربى) أى المحسن الى المربى لى بكل جميل وعبدت غيره (عذاب يوم عظيم) والمقصود من هذا الامر المبالغة فى زجر الغير عن المعاصى وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو انى بفتح الياء والباقون بسكونها (قل الله) أى المحيط بصفات الكمال وحده (أعبد مخلصا له) وحده (دينى) من الشرك قال الرازى فان قيل ما معنى التكرير فى قوله تعالى قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وقوله تعالى قل الله أعبد مخلصا له دينى قلنا ليس هذا بتكرير لان الاول اخبار بأنه مأمور من جهة الله تعالى بالاتيان بالعبادة والثانى اخبار بأنه أمر أن لا يعبد أحدا غير الله تعالى وذلك ان قوله أمرت أن أعبد الله لا يفيد الحصر وقوله تعالى قل الله أعبد يفيد الحصر أى الله أعبد ولا أعبد أحدا سواه

ويدل عليه انه لما قال قل الله أعبد قال بعده (فاعبدوا) أى أنتم أيها الداعون فى وقت الضراء المعرضون فى وقت الرخاء (ماشئتم من دونه) أى غيره وفى هذا تهديد وزجر لهم وايذان بأنهم لا يعبدون الله تعالى ثم بين تعالى كمال الزجر بقوله سبحانه (قل ان الخاسرين) أى الكاملين فى الخسران (الذين خسروا أنفسهم) أى أوقعوها فى هلاك لا يعقل هلاك أعظم منه (و) خسروا (أهليهم يوم القيامة) أيضا لانهم ان كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم وان كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا ذهابا لا رجوع بعده البتة وقوله تعالى (ألا ذلك) أى الامر العظيم البعيد الرتبة فى الخسارة (هو الخسران المبين) أى البين يدل على غاية المبالغة من وجوه أحدها انه وصفهم بالخسران ثم أعاد ذلك بقوله تعالى ألا ذلك هو الخسران المبين وهذا التكرير لاجل التأكيد وثانيها ذكر حرف ألا وهو للتنبيه وذكر التنبيه يدل على التعظيم كأنه قال بلغ فى العظم الى حيث لا تصل عقولكم اليه فتنبهوا له وثالثها قوله تعالى هو الخسران ولفظة هو تفيد الحصر كأنه قيل كل خسران يصير فى مقابلته كل خسران ورابعها وصفه تعالى بكونه خسرانا مبينا يدل على التهويل * ولما شرح الله تعالى خسرانهم وصف ذلك الخسران بقوله تعالى (لهم من فوقهم ظلل) أى طباق (من النار ومن تحتهم ظلل) أى فرش ومهاد نظيره قوله تعالى لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش (فان قيل) الظلة ما علا الانسان فكيف سمى ما تحته ظلة (أجيب) بأوجه أحدها انه من باب اطلاق اسم أحد الضدين على الآخر كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها ثانيها أن الذى تحته يكون ظلة لغيره لان النار دركات كما أن الجنة درجات ثالثها أن الظلة التحتانية لما كانت مشابهة للظلة الفوقانية فى الحرارة والاحراق والايذاء أطلق اسم احداهما على الاخرى لاجل المماثلة والمشابهة وقيل المراد احاطة النار بهم من جميع الجهات (ذلك) أى العذاب المعد للكفار (يخوف الله به عباده) أى المؤمنين ليجتنبوا ما يوقعهم فيه وقيل يخوف به الكفار والضلال ويدل للاول قوله تعالى (ياعباد فاتقون) أى ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى وهذه عظة من الله تعالى ونصيحة بالغة ووجه الدلالة ان اضافة العبد الى الله تعالى فى القرآن مختص بأهل الايمان (والذين اجتنبوا الطاغوت) أى البالغ غاية الطغيان والطاغوت فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت الا أن فيه قلبا بتقديم اللام على العين اذ أصله طغيوت قدمت الياء على الغين ثم قلبت ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها أطلقت على الشيطان أو الشياطين لكونها مصدرا وفيها مبالغات وهى التسمية بالمصدر كأن عين الشيطان طغيان وان البناء بناء مبالغة فان الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك المبسوط والقلب وهو للاختصاص قال فى الكشاف اذ لا تطلق على غير الشيطان والمراد بها هنا الجمع انتهى لكن ابن الخازن فسر الطاغوت بالاوثان وتبعه الجلال المحلى (فان قيل) يتعين هذا التفسير لانهم انما عبدوا الصنم لا الشيطان (أجيب) بأن الداعى الى عبادة الصنم هو الشيطان فلما كان هو الداعى كانت عبادة الصنم عبادة له (فان قيل) ما وجه تسمية الصنم بالطاغوت على التفسير

الثانى مع أنه لا يطلق الا على الشيطان كما مر (أجيب) بأنه أطلق عليه على سبيل المجاز لان الطغيان لما حصل بسبب عبادته والتقرب اليه وصفه بذلك اطلاقا لاسم السبب على المسبب بحسب الظاهر وقوله تعالى (أن يعبدوها) بدل اشتمال من الطاغوت لان الطاغوت مؤنث كأنه قيل اجتنبوا عبادة الطاغوت (فان قيل) على التفسير الاول انما عبدوا الصنم لا الشيطان (أجيب) بأنه الداعى الى عبادة الصنم (فائدة) نقل فى التواريخ أن الاصل فى عبادة الاصنام أن القوم مشبهة واعتقدوا فى الاله انه نور عظيم وأن الملائكة أنوار مختلفة فى الصغر والكبر فوضعوا تماثيل صورا على وفق تلك الخيالات فكانوا يعبدون تلك التماثيل على اعتقادهم أنهم يعبدون الله والملائكة (وأنابوا) أى رجعوا (الى الله) أى الى عبادة الله بكليتهم وتركوا ما كانوا عليه من عبادة غيره ثم انه تعالى وعد هؤلاء بأشياء أحدها قوله تعالى (لهم البشرى) أى فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فالثناء عليهم بصالح أعمالهم وعند نزول الموت وعند الوضع فى القبر وأما فى الآخرة فعند الخروج من القبور وعند الوقوف للحساب وعند جواز الصراط وعند دخول الجنة ففى كل موقف من هذه المواقف تحصل لهم البشارة بنوع من الخير والراحة والروح والريحان *(تنبيه)* يحتمل أن يكون المبشر لهم هم الملائكة عليهم السلام لانهم يبشرونهم عند الموت لقوله تعالى الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم وعند دخول الجنة لقوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ويحتمل أن يكون هو الله تعالى لقوله تعالى تحيتهم يوم يلقونه سلام ولا مانع ان يكون من الله تعالى ومن الملائكة عليهم السلام فان فضل الله سبحانه واسع وقوله تعالى (فبشر عباد) قرأه السوسى بياء بعد الدال مفتوحة فى الوصل ساكنة فى الوقف والباقون بغير ياء (الذين يستمعون) أى بجميع قلوبهم (القول فيتبعون) أى بكل عزائمهم بعد انتقاده (أحسنه) أى ما دلتهم عليه عقولهم من غير عدول الى أدنى *(تنبيه)* فى هذا وضع الظاهر موضع مضمر الذين اجتنبوا للدلالة على مبدا احسانهم وانهم نقاد فى الدين يميزون بين الحسن والاحسن والفاضل والافضل فاذا اعترضهم أمران واجب وندب اختاروا الواجب أو مباح وندب اختاروا الندب حرصا على ما هو أقرب عند الله وأكثر ثوابا ويدخل تحت ذلك أبواب التكاليف وهى قسمان عبادات ومعاملات فأما العبادات فكقولنا الصلاة التى يذكر فى تحريمها الله أكبر مع اقتران النية ويقرأ فيها بالفاتحة ويؤتى فيها بالطمأنينة فى مواضعها الخمسة ويتشهد فيها ويخرج منها بالسلام لاشك انها أحسن من الصلاة التى لا يراعى فيها شئ من هذه الاحوال قال الرازى فوجب على العاقل أن يختار هذه الصلاة دون غيرها اه وكذا القول فى جميع أبواب العبادات قال فى الكشاف ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها على السبر وأبينها دليلا أو امارة ولا تكن فى مذهبك كما قال القائل * ولا تكن مثل عير قيد فانقادا * يريد المقلد اه وأما المعاملات فكانظار المعسر وابرائه فالابراء أولى وان كان الاول واجبا والثانى مندوبا وكذا القول فى جميع المعاملات

وقيل يسمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن وقيل يسمعون أوامر الله تعالى فيتبعون أحسنها كالقصاص والعفو قال تعالى وأن تعفوا أقرب للتقوى وعن ابن عباس هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساو فيحدث بأحسن ما يسمعه ويكف عما سواه وروى عن ابن عباس آمن أبو بكر بالنبي صلى الله عليه وسلم فجاءه عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد فسألوه فأخبرهم بايمانه فآمنوا فنزل فيهم فبشر عبادى الآية (أولئك) أى العالو الهمة والرتبة (الذين هداهم الله) بماله من صفات الكمال لدينه (وأولئك هم أولو الالباب) أى أصحاب العقول السليمة عن منازعة الوهم والعادة وقال أبو زيد نزل والذين اجتنبوا الطاغوت الآيتين فى ثلاثة نفر كانوا فى الجاهلية يقولون لا اله الا الله زيد بن عمرو وأبو ذر الغفارى وسلمان الفارسى والاحسن لا اله الا الله وفى هذه الآية لطيفة وهى ان حصول الهداية فى العقل والروح حادث فلا بد من فاعل وقابل فأما الفاعل فهو الله تعالى وهو المراد من قوله تعالى أولئك الذين هداهم الله وأما القابل فاليه الاشارة بقوله تعالى وأولئك هم أولو الالباب فان الانسان مالم يكن عاقلا كامل الفهم امتنع حصول هذه المعارف الحقيقية فى قلبه واختلف فى معنى قوله تعالى (أفمن حق) وأسقط تاء التأنيث الدالة على اللين تأكيد النهى عن الاسف عليهم (عليه كلمة العذاب) فقال ابن عباس معنى الآية من سبق فى علم الله أنه فى النار وقيل كلمة العذاب قوله تعالى لاملأن جهنم الآية وقيل قوله تعالى هؤلاء للنار ولا أبالى وقوله تعالى (أفأنت تنقذ) أى تخرج (من فى النار) جواب الشرط وأقيم فيه الظاهر مقام الضمير اذ كان الاصل أفأنت تنقذه وانما وقع موقعه شهادة عليه بذلك والهمزة للانكار والمعنى لا تقدر على هدايته فتنقذه من النار وقال ابن عباس يريد أبا لهب وولده ويجوز أن تكون من موصولة فى محل رفع بالابتداء وخبره محذوف واختلف فى تقديره فقدره أبو البقاء كمن نجا وقدره الزمخشرى فأنت تخلصه أى حذف لدلالة أفأنت تنقذ عليه وقدره غيرهما تتأسف عليه وقدره آخر يتخلص منه أى من العذاب وقوله تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم) استدراك بين شيئين نقيضين أو ضدين وهما المؤمنون والكافرون أى جعلوا بينهم و بين المحسن اليهم وقاية فى كل حركة وسكون فلم يجعلوا شيأ من ذلك الا بنظر يدلهم على رضاه وقوله تعالى (لهم غرف) أى علالى من الجنة يسكنونها (من فوقها غرف) شديدة العلو مقابل لما ذكر فى وصف الكفار لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل والمعنى لهم منازل فى الجنة رفيعة ومن فوقها منازل أرفع منها (فان قيل) ما فائدة قوله تعالى (مبنية) *أجيب بأن المنزل اذا بنى على منزل آخر كان الفوقانى أضعف بناء من التحتانى فقوله تعالى مبنية فائدته أنه وان كان فوق غيره لكنه فى القوة والشدة مساو للمنزل الاسفل * ولما كانت المنازل لا تطيب الا بالماء وكان الجارى أحسن وأشرف قال تعالى (تجرى من تحتها) أى من تلك الغرف الفوقانية والتحتانية (الانهار) أى المختلفة كما قال تعالى فيها أنهار من ماء

غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى وقوله تعالى (وعد الله) مصدر مؤكد لمضمون الجملة فهو منصوب بفعله المقدر لأن قوله تعالى لهم غرف في معنى وعدهم الله ذلك (لا يخلف الله الميعاد) لأن الخلف نقص وهو على الله سبحانه محال وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وقوله الغابر أي الباقي في الأفق في ناحية المشرق والمغرب * ولما وصف الله تعالى الآخرة بوصف يوجب الرغبة العظيمة فيها وصف الدنيا بصفات توجب اشتداد النفرة عنها بقوله تعالى (ألم تر) أي تعلم (أن الله) أي الذي له كمال القدرة (أنزل من السماء) أي التي لا يستمسك الماء فيها إلا بقدرة باهرة تقهر الماء على ذلك والمراد بالسماء الجرم أو السحاب (ماء) وهو المطر قال الشعبي كل ماء في الأرض فمن السماء نزل ثم إنه تعالى ينزله إلى بعض المواضع ثم يقسمه (فسلكه) أي أدخل ذلك الماء خلال التراب حال كونه (ينابيع في الأرض) أي عيونا ومجاري ومسالك كالعروق في الأجسام (ثم يخرج) الله تعالى (به) أي بالماء (زرعا مختلفا ألوانه) من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك ومختلفا أصنافه من بر وشعير وسمسم وغيرها (ثم يهيج) أي ييبس (فتراه) بعد الخضرة مثلا (مصفرا) من يبسه لأنه إذا تم جفافه حان له أن ينفصل عن منابته (ثم يجعله حطاما) أي فتاتا (إن في ذلك) أي التدبير على هذا الوجه (لذكرى) أي تذكيرا وتنبيها (لأولي الألباب) أي أصحاب العقول الصافية جدا فيتذكرون هذه الأحوال في النبات فيعلمون بدلالته على وحدانية الله تعالى شأنه وقدرته وأحوال الحيوان والإنسان وأنه وإن طال عمره فلا بد من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون منحطم الأعضاء والأجزاء ثم تكون عاقبته الموت فإذا كانت مشاهدة هذه الأحوال في النبات مذكرة حصول مثل هذه الأحوال في نفسه في حياته فحينئذ تعظم نفرته عن الدنيا ولذاتها * ولما بين تعالى الدلائل على وجوب الإقبال على طاعة الله تعالى ووجوب الإعراض عن الدنيا ولذاتها ذكر أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل إلا إذا شرح الصدور ونور القلوب فقال سبحانه (أفمن شرح الله) أي الذي له القدرة الكاملة (صدره للإسلام) أي وسعه لقبول الحق فاهتدى (فهو) أي بسبب ذلك (على نور من ربه) أي المحسن إليه كمن أقسى الله تعالى قلبه دل على هذا (فويل) كلمة عذاب (للقاسية قلوبهم من ذكر الله) قال مالك بن دينار ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب وما غضب الله تعالى على قوم إلا نزع منهم الرحمة وأما نور الله تعالى فهو لطفه روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقيل يا رسول الله فما علامة انشراح الصدر للإسلام قال الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزول الموت (فإن قيل) إن ذكر الله تعالى سبب لحصول النور والهداية وزيادة الاطمئنان

قال تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب فكيف جعله فى هذه الآية سببا لحصول القسوة فى القلب (أجيب) بأن النفس اذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل الى الطباع البهيمية والاخلاق الذميمة فان سماعها ذكر الله تعالى يزيدها قسوة وكدرة مثاله أن الفاعل الواحد تختلف أمثاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسوّد وجه القصار ويبيض ثوبه وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح وقد نرى انسانا واحدا يذكر كلاما واحدا فى مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره وما ذاك الا بحسب اختلاف جواهر النفوس ولما نزل قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين الآية وعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه حاضر وانسان آخر فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قوله تعالى ثم أنشأناه خلقا آخر قال كل واحد منهما تبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب فكذا نزلت فازداد عمر رضى الله عنه ايمانا على ايمانه وارتد ذلك الانسان واذا عرف ذلك لم يبعد أن يكون ذكر الله تعالى يوجب النور والهداية والاطمئنان فى النفوس الطاهرة الروحانية ويوجب القنوط والبعد عن الحق فى النفوس الخبيثة وقيل من بمعنى عن أى قست قلوبهم عن قبول ذكر الله وجرى على ذلك الجلال المحلى (أولئك) أى هؤلاء البعداء (فى ضلال مبين) أى بين قيل نزلت هذه الآية فى أبى بكر رضى الله عنه وفى أبى ابن خلف وقيل فى على وحمزة وأبى لهب وولده وقيل فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى أبى جهل (الله) الفعال لما يريد الذى له مجامع العظمة والاحاطة بصفات الكمال (نزل) أى بالتدريج للتدريب وللجواب عن كل شبهة (أحسن الحديث) أى القرآن روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا حدثنا فنزلت وكونه أحسن الحديث لوجهين أحدهما من جهة اللفظ والآخر من جهة المعنى أما الاول فلان القرآن أفصح الكلام وأبلغه وأجزله وليس هو من جنس الشعر ولا من جنس الخطب ولا من جنس الرسائل بل هو نوع يخالف الكل فى أسلوبه مع أن كل طبع سليم يستلذه ويستطيبه وأما من جهة المعنى فهو منزه عن التناقض والاختلاف قال جل ثناؤه ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ومشتمل على أخبار الماضين وقصص الاولين وعلى أخبار الغيوب الكثيرة فى الماضى والمستقبل وعلى الوعد والوعيد والجنة والنار وفى ايقاع لفظ الجلالة مبتدأ وبناء نزل عليه تفخيم لاحسن الحديث واستشهاد على حسنه وتأكيده لاستناده الى الله تعالى وانه من عنده وأن مثله لا يجوز أن يصدر الا عنه وتنبيه على أنه وحى معجز مباين لسائر الاحاديث وقوله تعالى (كتابا) أى جامعا لكل خير بدل من أحسن الحديث وقيل حال منه بناء على أن أحسن الحديث معرفة لاضافته الى معرفة وأفعل التفضيل اذا أضيف الى معرفة فيه خلاف فقيل اضافته محضة وقيل غير محضة والصحيح الاول وقوله تعالى (متشابها) نعت لكتابا وهو المسوغ لمجىء الجامد حالا أو انه فى قوة مكتوب وتشابهه بتشابه أبعاضه فى الاعجاز والبلاغة والموعظة الحسنة لا تفاوت فيه أصلا فى لفظ ولا معنى مع كونه نزل مفرقا

فى نيف وعشرين سنة وأما كلام الناس فلابد فيه من التفاوت وان طال الزمان فى التهذيب سواء اتحد زمانه أم لا وقوله تعالى (مثانى) جمع مثنى بمعنى مردد ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه أو جمع مثنى مفعل من التثنية بمعنى التكرير والاعادة وقيل لانه يثنى فى التلاوة فلا يمل كما جاء فى وصفه لا يخلق على كثرة الترداد (فان قيل) كيف وصف كتابا وهو مفرد بالجمع (أجيب) بأن الكتاب جملة ذات تفاصيل وتفاصيل الشئ هى جملته لا غير ألا ترى انك تقول القرآن اسباع وأخماس وسور وآيات فكذلك تقول أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات ونظيره قولك الانسان عظام وعروق وأعصاب الا انك تركت الموصوف الى الصفة وأصله كتابا متشابها فصولا مثانى ويجوز أن يكون مثانى منتصبا على التمييز من متشابها كما تقول رأيت رجلا حسنا شمائل (فان قيل) ما فائدة التثنية والتكرير (أجيب) بأن النفوس أنفر شئ عن حديث الوعظ والنصيحة فما لم يكرر عليها عودا على بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله ومن ثم كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظهم به وينصح ثلاث مرات وسبعا ليركزه فى قلوبهم ويغرسه فى صدورهم (تقشعر) أى تضطرب وتشمئز (منه) عند ذكر وعيده (جلود) أى ظواهر أجسام (الذين يخشون) أى يخافون (ربهم) والمعنى تأخذهم قشعريرة وهو تغير يحدث فى جلد الانسان عند ذكر آيات العذاب (ثم تلين) أى تطمئن (جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) أى عند ذكر وعده والمعنى اذا ذكرت آيات الرحمة لانت وسكنت قلوبهم كما قال تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تعالى تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها وفى رواية حرمه الله على النار قال قتادة هذا نعت أولياء الله تعالى نعتهم الله تعالى بأن تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم بذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم وانما ذلك فى أهل البدع وهو من الشيطان وعن عبد الله بن عروة بن الزبير قال قلت لجدتى أسماء بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنهما كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون اذا قرئ عليهم القرآن قالت كانوا كما نعتهم الله تعالى تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم قال قلت لها ان ناسا اليوم اذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيا عليه قالت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وروى ان ابن عمر رضى الله تعالى عنهما مر برجل من أهل العراق ساقط فقال ما بال هذا فقالوا انه اذا قرئ عليه القرآن أو سمع ذكر الله تعالى سقط فقال انا لنخشى الله تعالى وما نسقط وقال ابن عمر ان الشيطان يدخل فى جوف أحدهم ما كان هذا صنيع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون اذا قرئ عليهم القرآن فقال بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطا رجليه ثم يقرأ عليه القرآن من أوله الى آخره فان رمى بنفسه فهو صادق (فان قيل) لم ذكرت الجلود وحدها أولا فى جانب الخوف ثم قرنت بها القلوب ثانيا فى الرجاء (أجيب) بأن الخشية التى محلها القلوب اذا ذكرت فقد ذكرت القلوب

فكأنه قيل تقشعر جلودهم من آيات الوعيد وتخشى قلوبهم في أول وهلة واذا ذكر الله تعالى ومبنى أمره على الرأفة والرحمة استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم و بالقشعريرة لينا في جلودهم (فان قيل) ماوجه تعديته تلين بالى (أجيب) بأنه ضمن معنى فعل متعد بالى كانه قيل سكنت أواطمأنت الى ذكر الله تعالى (فان قيل) كيف قال الله تعالى الى ذكر الله ولم يقل الى رحمة الله (أجيب) بأن من أحب الله تعالى لاجل رحمته فهو ما أحب الله تعالى وانما أحب شيأ غيره وأما من أحب الله تعالى لا لشئ سواه فهو المحب الحق وهي الدرجة العالية كما قال تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب (ذلك) أي القرآن الذي هو أحسن الحديث (هدى الله) الذي له صفات الكمال (يهدى به من يشاء) أي وهو الذي شرح الله تعالى صدره أولا لقبول الهداية (ومن يضلل الله) أي يجعل قلبه قاسيا مظلما (فماله من هاد) أي يهديه وقرأ ابن كثير في الوقف باثبات الياء بعد الدال والباقون بغير الياء واتفقوا في الوصل على عدم الياء * ولما حكم تعالى على القاسية قلوبهم بحكم في الدنيا وهو الضلال التام حكم عليهم في الآخرة بحكم آخر وهو العذاب الشديد فقال (أفمن يتقي بوجهه سوء) أي شدة (العذاب) أي يجعله وقاية يتقي بها نفسه لانه تكون يداه مغلولتين الى عنقه (يوم القيامة) فلا يقدر ان يتقي الا بوجهه وقال مجاهد يجرّ على وجهه في النار وقال عطاء يرمى به في النار منكوسا فأول شئ يلقى في النار وجهه وقيل يلقى في النار مغلولة يداه الى عنقه وفي عنقه صخرة عظيمة من كبريت مثل الجبل العظيم فتشتعل النار في تلك الصخرة وهي في عنقه فحرّها ووهجها على وجهه لا يطيق دفعها عنه للاغلال التي في يديه وعنقه وقيل المراد بالوجه الجملة وقيل نزلت في أبي جهل ومعنى الآية أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن أمن من العذاب بدخول الجنة فحذف الخبر كما حذف في نظائره (وقيل) أي تقول الخزنة (للظالمين) أي الكافرين وكان الاصل لهم فوضع الظاهر موضعه تسجيلا عليهم بالظلم (ذوقوا ما) أي وبال الذي (كنتم تكسبون) أي تعملون في الدنيا من المعاصي * ولما بين تعالى كيفية عقاب القاسية قلوبهم في الآخرة وبين كيفية وقوعهم في العذاب قال تعالى (كذب الذين) وأشار الى قرب زمان المعذبين من زمانهم بادخال الجار فقال تعالى (من قبلهم) أي من قبل كفار مكة أي مثل سبا وقوم تبع كذبوا رسلهم في اتيان العذاب (فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) أي من جهة لا يخطر ببالهم ان الشر يأتيهم منها (فأذاقهم الله) أي الذي له القدرة الكاملة (الخزى) أي الذل والهوان من المسخ والقتل وغيرهما (في الحياة الدنيا) أي العاجلة الدنيئة (ولعذاب الآخرة) أي المعدلهم (أكبر) أي من ذلك الذي وقع بهم في الدنيا (لو كانوا) أي المكذبون (يعلمون) أي عذابها ما كذبوا ولكن لا علم لهم أصلا ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا * ولما ذكر تعالى هذه الفوائد الكثيرة في هذه المطالب بين أن هذه البينات بلغت حد الكمال والتمام فقال تعالى (ولقد ضربنا) أي جعلنا (للناس) أي عامة لان رسالته صلى الله عليه وسلم عامة (في هذا القرآن) أي الجامع لكل علم وكل خير

(من كل مثل) أى يحتاج اليه الناظر فى أمر دينه (لعلهم يتذكرون) أى يتعظون به وقرأ نافع وقالون وابن كثير وعاصم باظهار الدال عند الضاد والباقون بالادغام وقوله تعالى (قرآنا عربيا) فيه ثلاثة أوجه أحدها أن يكون منصوبا على المدح لانه لما كان نكرة امتنع اتباعه للقرآن ثانيها أن ينتصب بيتذكرون أى يتذكرون قرآنا ثالثها أن ينتصب على الحال من القرآن على أنها حال مؤكدة وتسمى حالا موطئة لان الحال فى الحقيقة عربيا وقرآنا توطئة له نحو جاء زيد رجلا صالحا (غير ذى عوج) أى مستقيما بريئا من التناقض والاختلاف نعت لقرآنا أو حال أخرى (فان قيل) هلا قيل مستقيما أو غير معوج (أجيب) بأن فى ذلك فائدتين احداهما نفى أن يكون فيه عوج قط كما قال تعالى ولم يجعل له عوجا ثانيتهما أن لفظ العوج مختص بالمعانى دون الاعيان وقيل المراد بالعوج الشك واللبس قال القائل

وقد أتاك يقين غير ذى عوج * من الاله وقول غير مكذوب

(لعلهم يتقون) أى الكفر * (تنبيه) * وصف تعالى القرآن بثلاث صفات أولها كونه قرآنا والمراد كونه متلوا فى المحاريب الى قرب قيام الساعة ثانيها كونه عربيا أى انه أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته كما قال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ثالثها كونه غير ذى عوج قال مجاهد غير ذى لبس وقال ابن عباس رضى الله عنهما غير مختلف وقال السدى غير مخلوق ويروى ذلك عن مالك بن أنس وحكى شقيق وابن عيينة عن سبعين من التابعين أن القرآن ليس بخالق ولا مخلوق * ولما شرح الله تعالى وعيد الكفار مثل لما يدل على فساد مذهبهم وقبح طريقتهم بقوله تعالى (ضرب الله) أى الذى له الملك كله (مثلا) أى للمشركين والموحدين وقوله تعالى (رجلا) بدل من مثلا وقوله تعالى (فيه شركاء) يجوز أن تكون الجملة من مبتدا وخبر فى محل نصب صفة لرجلا ويجوز أن يكون الوصف الجار وحده وشركاء فاعل به قال ابن عادل وهو أولى لقربه من المفرد وقوله تعالى (متشاكسون) صفة لشركاء والتشاكس التخالف وأصله سوء الخلق وعسره وهو سبب التخالف أى متنازعون مختلفون سيئة أخلاقهم يقال رجل شكس وشرس اذا كان سيئ الخلق مخالفا للناس لا يرضى بالانصاف (ورجلا سالما) أى خالصا من نزاع (لرجل) أى خالصا له لا شريك له فيه ولا منازع وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بألف بعد السين وكسر اللام بعدها والباقون بغير ألف وفتح اللام وهو الذى لا ينازع فيه من قولهم هولك سلم أى مسلم لا منازع لك فيه وقوله تعالى (هل يستويان) استفهام انكار أى لا يستويان وقوله تعالى (مثلا) تمييز والمعنى اضرب لقومك مثلا وقل لهم ما تقولون فى رجل مملوك لشركاء بينهم اختلاف وتنازع وكل واحد يدعى أنه عبده فهم يتجاذبونه حوائجهم وهو متحير فى أمره وكلما أرضى أحدهم غضب الباقون واذا احتاج اليهم فكل واحد يرده الى الآخر فبقى متحيرا لا يعرف أيهم أولى أن يطلب رضاه وأيهم يعينه فى حاجاته فهو بهذا السبب فى عذاب أليم وآخر له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الاخلاص وذلك المخدوم يعينه على مهماته فأى هذين العبدين

أحسن حالا لاشك ان هذا أقرب الى الصلاح من حال الاول فان الاول مثل المشرك والثانى مثل الموحد وهذا المثال فى غاية الحسن فى تقبيح المشرك وتحسين الموحد (فان قيل) هذا المثال لا ينطبق على عبادة الاصنام لانها جمادات فليس بينها منازعة ولا تشاكس (أجيب) بأن عبدة الاصنام مختلفون منهم من يقول هذه الاصنام تماثيل الكواكب السبعة فهم فى الحقيقة انما يعبدون الكواكب السبعة وهم يثبتون بينها منازعة ومشاكسة ألا ترى أنهم يقولون زحل هو النحس الاعظم والمشترى هو السعد الاعظم ومنهم من يقول هذه الاصنام تماثيل الارواح الفلكية والقائلون بهذا القول زعموا أن كل نوع من أنواع حوادث هذا العالم يتعلق بروح من الارواح السماوية وحينئذ يحصل بين تلك الارواح منازعة ومشاكسة فيكون المثال مطابقا ومنهم من يقول هذه الاصنام تماثيل لاشخاص من العلماء والزهاد مضوا فهم يعبدون هذه التماثيل ليصير أولئك الاشخاص من العلماء والزهاد شفعاء لهم عند الله تعالى والقائلون بهذا القول تزعم كل طائفة منهم ان المحق هو ذلك الرجل الذى هم على دينه وان من سواه مبطل وعلى هذا التقدير أيضا ينطبق المثال * ولما بطل القول باثبات الشركاء والانداد وثبت انه لا اله الا هو الواحد الاحد الحق قال الله تعالى (الحمد) أى الاحاطة بأوصاف الكمال (لله) أى كل الحمد لله الذى لا مكافئ له فلا يشاركه فيه على الحقيقة سواه لانه المنعم بالذات والمالك على الاطلاق (بل أكثرهم) أى أهل مكة (لا يعلمون) أى ما يصيرون اليه من العذاب فيشركون به غيره من فرط جهلهم وقول البغوى والمراد بالاكثر الكل ليس بظاهر * ولما كان كفار مكة يتربصون موت رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره الله تعالى بأن الموت يجمعهم جميعا بقوله تعالى (انك ميت) أى ستموت وخصه الله تعالى بالخطاب لان الخطاب اذا كان للرأس كان اصدع لاتباعه فكل موضع كان للاتباع وخص فيه صلى الله عليه وسلم بالخطاب دونهم فهم المخاطبون فى الحقيقة على وجه أبلغ (وانهم ميتون) أى سيموتون فلا معنى للتربص وشماتة الفانى بالفانى * (فائدة) * قال الفراء الميت بالتشديد من لم يمت وسيموت والميت بالتخفيف من فارقته الروح ولذلك لم يخفف هنا وقوله تعالى (ثم انكم) فيه تغليب المخاطب على الغائب (يوم القيامة عند ربكم) أى المربى لكم بالخلق والرزق (تختصمون) فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت وكذبوا واجتهدت فى الارشاد والتبليغ فلجوا فى التكذيب والعناد ويعتذرون بالاباطيل يقول الاتباع أطعنا سادتنا وكبراءنا وتقول السادات أغوتنا آباؤنا الاقدمون والشياطين ويجوز أن يكون المراد به الاختصام العام وجرى عليه الجلال المحلى وهو أولى وان رجح الاول الكشاف لما روى عن عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما قال لما نزلت هذه الآية قال يارسول الله أتكون علينا الخصومة بعد الذى كان بيننا فى الدنيا قال نعم فقال ان الامر اذا الشديد وقال ابن عمر عشنا برهة من الدهر وكنا نرى ان هذه الآية نزلت فينا وفى أهل الكتابين قلنا كيف نختصم ودينا واحد وكتابنا واحد حتى رأينا بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفنا أنها فينا نزلت وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فى هذه الآية قال كنا نقول ربنا

واحد

واحد ودِيننا واحد وكتابنا واحد فما هذه الخصومة فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا هو هذا وعن ابراهيم النخعي قال لما نزلت قالت الصحابة كيف نختصم ونحن اخوان فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا هذه خصومتنا وعن أبي العالية نزلت في أهل القبلة وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كانت لاخيه عنده مظلمة من عرض أو مال فليستحله اليوم قبل أن يؤخذ منه يوم لا دينار ولا درهم فان كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وان لم يكن له أخذ من سيئاته فجعلت عليه وعن أبي هريرة أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال ان المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وقد كان شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيقضي هذا من حسناته وهذا من حسناته فان فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار ثم انه تعالى بين نوعا آخر من قبائح أفعالهم بقوله تعالى (فمن) أي لا أحد (أظلم) أي منهم هكذا كان الاصل ولكن قال تعالى (ممن كذب) تعميما (على الله) أي الذي الكبرياء رداؤه والعظمة ازاره بنسبة الولد والشريك اليه (وكذب) أي أوقع التكذيب لكل من أخبره (بالصدق) أي بالامر الذي هو الصدق بعينه وهو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم (اذ جاءه) أي فاجأه بالتكذيب لما سمع من غير وقفة ولا اعمال روية بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الذال عند الجيم والباقون بالادغام ثم أردف ذلك بالوعيد فقال (أليس في جهنم) أي النار التي تلقى داخلها بالتجهم والعبوسة كما كان يلقى الحق وأهله (مثوى) أي مأوى (للكافرين) أي لهؤلاء الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق واللام في للكافرين اشارة اليهم والاستفهام بمعنى التقرير * ولما ذكر من افترى وكذب ذكر مقابله وهو الذي جاء بالصدق وصدق به بقوله تعالى (والذي جاء بالصدق) قال قتادة ومقاتل هو النبي صلى الله عليه وسلم (وصدق به) هم المؤمنون فالذي بمعنى الذين ولذلك روعي معناه فجمع في قوله تعالى (أولئك) أي العالو الرتبة (هم المتقون) أي الشرك كما روعي معنى من في قوله تعالى للكافرين فان الكافرين ظاهر واقع موقع الضمير اذ الاصل مثوى لهم وكما في قوله تعالى مثلهم كمثل الذي استوقد نارا ثم قال تعالى ذهب الله بنورهم قال الزمخشري ويجوز أن يريد الفوج أو الفريق الذي جاء بالصدق وصدق به وهم الرسول الذي جاء بالصدق وصحابته رضي الله تعالى عنهم الذين صدقوا به اهـ قال أبو حيان وفيه توزيع للصلة والفوج هو الموصول فهو كقولك جاء الفريق الذي شرف وشرف والاظهر عدم التوزيع بل المعطوف على الصلة صلة لمن له الصلة الاولى وقيل بل الاصل والذين جاء بالصدق فحذفت النون تخفيفا كقوله تعالى كالذي خاضوا قال ابن عادل وهذا وهم اذ لو قصد ذلك لجاء بعده ضمير الجمع فكان يقال والذي جاؤا كقوله تعالى كالذي خاضوا ويدل عليه ان نون التثنية اذا حذفت عاد الضمير مثنى كقوله

أبني كليب ان عمي اللذا * قتلا الملوك وفككا الاغلالا

وقال ابن عباس رضي الله عنهما والذي جاء بالصدق يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بلا اله الا الله وصدق به الرسول أيضا بلغه الى الخلق وقال السدي والذي جاء بالصدق جبريل عليه السلام جاء بالقرآن وصدق به محمد صلى الله عليه وسلم تلقاه بالقبول وقال أبو العالية والكلبي والذي جاء بالصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق به أبو بكر رضي الله عنه وقال عطاء والذي جاء بالصدق الانبياء وصدق به الاتباع وقال الحسن هم المؤمنون صدقوا به في الدنيا وجاؤا به في الآخرة وقوله تعالى (لهم مايشاؤن) أي من أنواع الكرامات (عند ربهم) أي في الجنة يدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه (ذلك) أي هذا الجزاء (جزاء المحسنين) لانفسهم بايمانهم وقوله تعالى (ليكفر الله عنهم) يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه ومعنى تكفيرها أن يسترها عليهم بالمغفرة *(تنبيه)* في تعلق هذه اللام وجهان أحدهما أنها متعلقة بمحذوف أي يسر لهم ذلك ليكفر ثانيهما أنها متعلقة بنفس المحسنين كانه قيل الذين أحسنوا ليكفر أي لاجل التكفير وقوله تعالى (أسوأ الذي) أي العمل الذي (عملوا) فيه مبالغة فانه اذا كفر كان غيره أولى بذلك أو للايذان بأن الشيء الذي يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة هو عندهم الاسوأ لاستعظامهم المعصية أو أنه بمعنى السيء كما جرى عليه الجلال المحلي كقولهم الناقص والاشج أعدلا بني مروان أي عادلاهم اذ ليس المراد به التفضيل والناقص هو محمد الخليفة سمي به لانه نقص أعطية القوم والاشج هو عمر بن عبد العزيز سمي به لشجة أصابت رأسه (ويجزيهم أجرهم) أي يعطيهم ثوابهم (بأحسن الذي) أي العمل الذي (كانوا يعملون) أي فيعد لهم محاسن أعمالهم بأحسنها في زيادة الاجر لحسن اخلاصهم فيها وهذا أولى من قول الجلال المحلي انه بمعنى الحسن وقوله تعالى (أليس الله) أي الجامع لصفات الكمال كلها المنعوت بنعوت العظمة والجلال (بكاف عبده) أي الخالص له استفهام انكار للنفي مبالغة في الاثبات وقرأ حمزة والكسائي بكسر العين وفتح الباء الموحدة وألف بعدها على الجمع وقرأ الباقون بفتح العين وسكون الباء على الافراد فقراءة الافراد محمولة على النبي صلى الله عليه وسلم وقراءة الجمع على جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام فان قومهم قصدوهم بالسوء كما قال الله تعالى وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وكفاهم الله تعالى شر من عاداهم ويحتمل أن يراد بقراءة الافراد الجنس فتساوي قراءة الجمع وقيل المراد أن الله تعالى كفى نوحا عليه السلام الغرق وابراهيم عليه السلام الحرق ويونس عليه السلام بطن الحوت فهو سبحانه وتعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك (ويخوفونك) أي عباد الاصنام (بالذين من دونه) وذلك ان قريشا خوفوا النبي صلى الله عليه وسلم معاداة الاوثان وقالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون فأنزل الله تعالى هذه الآية وروي أنه صلى الله عليه وسلم بعث خالدا الى العزى ليكسرها فقال له سادنها أي خادمها لاتدركها أحذركها يا خالد ان لها شدة لايقوم لها شيء فعمد خالد اليها

فهشم أنها فنزلت هذه الآية * ولما شرح الله الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ختم الكلام بخاتمة هي الفصل فقال تعالى شأنه (ومن يضلل الله) أي الذي له الامر كله (فماله من هاد) أي يهديه الى الرشاد (ومن يهد الله فماله من مضل) أي فهذه الدلائل والبينات لا تنفع الا اذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق اذ لا راد لفعله كما قال تعالى (أليس الله) أي الذي بيده كل شئ (بعزيز) أي غالب على أمره (ذي انتقام) أي من أعدائه بلى هو كذلك وفي هذا تهديد للكفار * ولما بين تعالى وعيد المشركين ووعد الموحدين عاد الى اقامة الدليل على تزييف طريق عبدة الاوثان وهذا الترتيب مبني على أصلين الاول ان هؤلاء المشركين مقرون بوجود الاله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد من قوله تعالى (ولئن سألتهم) أي من شئت منهم فرادى أو مجموعين واللام لام القسم (من خلق السموات) أي على مالها من الاتساع والعظمة والارتفاع (والارض) أي على مالها من العجائب وفيها من الاتساع (ليقولن الله) أي وحده لوضوح البرهان على تفرده بالخالقية قال بعض العلماء العلم بوجود الاله القادر الحكيم الرحيم علم متفق عليه بين جمهور الخلائق لا نزاع بينهم فيه وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم فان من تأمل في عجائب بدن الانسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة علم انه لا بد من الاعتراف بالاله القادر الحكيم الرحيم والاصل الثاني ان هذه الاصنام لا قدرة لها على الخير والشر وهو المراد من قوله تعالى (قل أرأيتم) أي بعد ما تحققتم ان خالق العالم هو الله تعالى (ما تدعون) أي تعبدون (من دون الله) أي الذي هو ذو الجلال والاكرام (ان أرادني الله) أي الذي لا راد لامره (بضر) أي بشدة وبلاء (هل هن كاشفات ضره) أي لا تقدر على ذلك (أو أرادني برحمة) أي بعافية وبركة (هل هن ممسكات رحمته) أي لا تقدر على ذلك فثبت انه لا بد من الاقرار بوجود الاله القادر الحكيم الرحيم قال مقاتل فسألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فسكتوا وقرأ أبو عمرو بتنوين التاء من كاشفات وممسكات ونصب الراء من ضره ورفع الهاء ونصب التاء من رحمته والباقون بغير تنوين فيهما وكسر الراء والهاء من ضره والتاء والهاء من رحمته واذا كانت هذه الاصنام لا قدرة لها على الخير والشر كانت عبادة الله تعالى كافية والاعتماد عليه كافيا وهو المراد من قوله تعالى (قل حسبي الله) أي ثقتي به واعتمادي (عليه يتوكل المتوكلون) أي يثق الواثقون (فان قيل) لم قال تعالى كاشفات وممسكات على التأنيث بعد قوله تعالى ويخوفونك بالذين من دونه (أجيب) بأنه انثها تحقيرا لما يدعون من دونه ولانهم كانوا يسمونها بأسماء الاناث وهي اللات والعزى ومناة قال الله تعالى أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى وقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل يا قوم) أي الذين أرجوهم عند الملمات وفيهم كفاية في القيام بما يحاولون (اعملوا على مكانتكم) أي على حالتكم فيه تهديد أي انكم تعتقدون في أنفسكم انكم في نهاية القوة والشدة فاجتهدوا في أنواع مكركم وكيدكم وقرأ شعبة بألف بعد النون جمعا والباقون بغير ألف افرادا (اني عامل)

أى فى تقريرديني (فسوف تعلمون) أى بوعد لا خلف فيه (من يأتيه) مناومنكم بسبب أعماله (عذاب يخزيه) فان خزى أعدائه دليل عليه وقد أخذهم الله تعالى يوم بدر (ويحل) أى ينزل (عليه عذاب مقيم) أى دائم وهو عذاب النار *(تنبيه)* المكانة بمعنى المكان فاستعيرت من العين للمعنى كما استعير لفظ هنا وحيث للزمان وهما للمكان (فان قيل) حق الكلام انى عامل على مكانتى فلم حذف (أجيب) بأنه حذف للاختصار ولما فيه من زيادة الوعيد والايذان بأن حاله لا تقف وتزداد كل يوم قوة وشدة لان الله تعالى ناصره ومعينه ومظهره على الدين كله ألا ترى الى قوله تعالى فسوف تعلمون توعدهم بكونه منصورا عليهم غالبا عليهم فى الدنيا والآخرة * ولما بين تعالى فى هذه الآيات فساد مذاهبهم أى المشركين تارة بالدلائل وتارة بضرب الامثال وتارة بذكر الوعد والوعيد وكان صلى الله عليه وسلم يعظم عليه اصرارهم على الكفر كما قال تعالى فلعلك باخع نفسك على آثارهم وقال تعالى فلا تذهب نفسك عليهم حسرات أردفه بكلام يزيل ذلك الحزن العظيم عن قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى (انا أنزلنا) أى بما لنا من العظمة والقدرة التامة (عليك) يا أشرف الخلق (الكتاب) أى الكامل الشرف (للناس) أى لاجلهم فانه مناط مصالحهم فى معاشهم ومعادهم فهو للناس عامة لان رسالتك عامة وجعلنا انزاله مقرونا (بالحق) أى بالصدق وهو المعجز الذى يدل على أنه من عند الله (فمن اهتدى) أى طاوع الهادى (فلنفسه) أى فنفعه يعود الى نفسه (ومن ضل) أى وقع فى الضلال بمخالفته (فانما يضل عليها) أى فضرر ضلاله يعود اليه * ولما دل السياق على أن التقدير فما أنت عليهم بجبار لتقهرهم على الهدى عطف عليه قوله تعالى (وما أنت عليهم بوكيل) أى لست مأمورا بأن تحملهم على الايمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض اليهم وذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولان الهداية والضلال من العبد لا يحصلان الا من الله تعالى لان الهداية تشبه الحياة واليقظة والضلال يشبه الموت والنوم فكما أن الحياة واليقظة لا يحصلان الا بخلق الله تعالى كذلك الضلال لا يحصل الا من الله تعالى ومن عرف هذه الدقيقة فقد عرف سر الله تعالى فى القدر ومن عرف سر الله تعالى فى القدر هانت عليه المصائب * ولما بين سبحانه أن الهداية والضلال بتقديره قال تعالى (الله) أى الذى له مجامع الكمال وليس لشائبة النقص اليه سبيل (يتوفى الانفس) أى الارواح (حين موتها) أى موت أجسادها وتوفيها اماتتها وهى أن تسلب ماهى به حية حساسة دراكة من صحة أجزائها وسلامتها لانها عند سلب الصحة كأن ذاتها قد سلبت وقوله تعالى (والتى لم تمت فى منامها) عطف على الانفس أى يتوفى الانفس حين موتها ويتوفى أيضا الانفس التى لم تمت فى منامها ففى منامها ظرف ليتوفى أى يتوفاها حين تنام تشبيها للنائمين بالموتى ومنه قوله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل حتى لا تميزوا ولا تتصرفوا كما أن الموتى كذلك فالتى تتوفى عند النوم هى الانفس التى يكون بها العقل والتميز ولكل انسان نفسان احداهما نفس الحياة وهى التى تفارقه عند الموت وبزوال بزوالها النفس

والاخرى هي النفس التي تفارقه اذا نام وهو بعد النوم يتنفس (فيمسك التي قضى عليها الموت) فلا يردها الى جسدها وقرأ حمزة والكسائي بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء بعد الضاد ورفع التاء من الموت والباقون بفتح القاف والضاد وسكون الياء بعد الضاد ونصب الموت (ويرسل الاخرى) أي يردها الى جسدها وهي التي لم يقض عليها الموت (الى أجل مسمى) أي الى الوقت الذي ضرب لموتها وقيل يتوفى الانفس أي يستوفيها ويقبضها وهي الانفس التي تكون معها الحياة والحركة ويتوفى الانفس التي لم تمت في منامها وهي انفس التميز قالوا والتي تتوفى في النوم هي نفس التميز لانفس الحياة ولان نفس الحياة اذا زالت زال معها النفس والنائم يتنفس ورووا عن ابن عباس رضي الله عنه في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس التي بها العقل والتميز والروح التي بها النفس والتحريك فاذا نام العبد قبض الله تعالى نفسه ولم يقبض روحه قال الزمخشري والصحيح ماذكرا ولا لان الله تعالى علق التوفي والموت والمنام جميعا بالانفس وماعنوا بنفس الحياة والحركة ونفس العقل والتميز غير متصف بالموت والنوم وانما الجملة هي التي تموت وهي التي تنام انتهى ويروى عن علي رضي الله تعالى عنه قال يخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعه في الجسد فبذلك يرى الرؤيا فاذا انتبه من النوم عاد الروح الى جسده بأسرع من لحظة ويقال ان أرواح الاحياء والاموات تلتقي في المنام فتتعارف ماشاء الله فاذا أرادت العود الى أجسادها أمسك الله تعالى أرواح الاموات عنده وأرسل أرواح الاحياء حتى ترجع الى أجسادها الى أجل مدة حياتها وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أوى أحدكم الى فراشه فلينفض فراشه بداخل ازاره فانه لايدري ماخلفه عليه ثم يقول اللهم باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه فان أمسكت نفسي فارحمها وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين (ان في ذلك) أي التوفي والامساك والارسال (لآيات) أي دلالات على كمال قدرته وحكمته ورحمته وقال مقاتل لعلامات (لقوم يتفكرون) أي فيعلمون ان القادر على ذلك قادر على البعث (فان قيل) قوله تعالى الله يتوفى الانفس يدل على ان المتوفي هو الله تعالى ويؤيده قوله تعالى الذي خلق الموت والحياة وقوله تعالى عن ابراهيم عليه السلام ربي الذي يحيي ويميت وقال تعالى في آية أخرى اذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا فكيف الجمع (أجيب) بأن المتوفي في الحقيقة هو الله تعالى الا انه تعالى فوض كل نوع الى ملك من الملائكة ففوض قبض الارواح الى ملك الموت وهو الرئيس وتحته اتباع وخدم فأضيف التوفي في آية الى الله تعالى وهي الاضافة الحقيقية وفي آية الى ملك الموت لانه الرئيس في هذا العمل وفي آية الى اتباعه ثم ان الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالا فقالوا نحن لانعبد هذه الاصنام لاعتقاد انها تضر وتنفع وانما نعبدها لاجل انها تماثيل لاشخاص كانوا عند الله تعالى من المقربين فنحن نعبدها لتشفع لنا أولئك المقربون عند الله تعالى فأجاب الله سبحانه عنه بقوله تعالى (أم اتخذوا) أي كلفوا أنفسهم بعد وضوح الدلائل عندهم (من دون الله) أي

الذى لامكافئ له ولامدانى (شفعاء) أى تشفع لهم عند الله تعالى *(تنبيه)* أم منقطعة فتقدر ببل والهمزة (قل) يا أشرف الخلق لهؤلاء البعداء (أولو) أى أيشفعون ولو (كانوا لايملكون شيأ) أى من الشفاعة وغيرها (ولايعقلون) أى أنكم تعبدونهم ولاغير ذلك وجواب لو محذوف تقديره ولو كانوا بهذه الصفة تتخذونهم (قل) أى لهم (لله) أى الذى له كمال القدرة والعظمة (الشفاعة جميعا) أى هو مختص بها فلا يشفع أحد الا باذنه ثم قرر ذلك فقال (له ملك السموات والارض) أى فانه مالك الملك كله لايملك أحد أن يتكلم دون اذنه ورضاه (ثم اليه ترجعون) أى يوم القيامة فيكون الملك له أيضا حينئذ ثم ذكر تعالى نوعا آخر من أعمال المشركين القبيحة بقوله تعالى (واذا ذكر الله) أى الذى لا اله غيره (وحده) أى دون آلهتهم (اشمأزت) قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد يعنى انقبضت وقال قتادة استكبرت وأصل الاشمئزاز النفور والاستكبار أى نفرت واستكبرت (قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة) أى لايؤمنون بالبعث (واذا ذكر الذين من دونه) أى الاصنام (اذاهم يستبشرون) أى يفرحون لفرط افتتانهم ونسيانهم حق الله تعالى ولقد بالغ فى الامرين حق الغاية فيهما فان الاستبشار أن يمتلئ قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه والاشمئزاز ان يمتلئ غيظا وهما حتى ينقبض أديم وجهه قال مجاهد ومقاتل وذلك حين قرأ النبى صلى الله عليه وسلم سورة والنجم وألقى الشيطان فى أمنيته تلك الغرانيق العلا ففرح به المشركون وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة الحج *(تنبيه)* قال الزمخشرى فان قلت ما العامل فى اذا ذكر قلت العامل فى اذا المفاجأة تقديره وقت ذكر الذين من دونه فاجؤا وقت الاستبشار قال أبو حيان أما قول الزمخشرى فلا أعلمه من قول من ينتمى الى النحو وهو ان الظرفين معمولان لفاجؤا ثم قال اذا الاولى تنتصب على الظرفية والثانية على المفعول به * ولما حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفار هذا الامر العجيب الذى تشهد فطرة العقل بفساده أردفه بذكر الدعاء العظيم فقال تعالى (قل اللهم) أى يا الله (فاطر السموات والارض) أى مبدعهما من العدم أى التجئ الى الله تعالى بالدعاء لما تحيرت فى أمرهم وعجزت فى عنادهم وشدة شكيمتهم فانه القادر على الاشياء والعالم بالاحوال كلها (عالم الغيب والشهادة) وصف تعالى نفسه بكمال القدرة وكمال العلم (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) أى من أمر الدين وعن الربيع بن خيثم وكان قليل الكلام لما أخبر بقتل الحسين وسخط على قاتله وقالوا الآن يتكلم فما زاد على ان قال آه أو قد فعلوا وقرأ الآية وروى انه قال على اثرها أو قتل من كان يجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجره ويضع فاه على فيه وعن أبى سلمة قال سألت عائشة رضى الله عنها بم كان يفتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته بالليل قالت كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدى من تشاء الى صراط مستقيم * ولما حكى الله تعالى عنهم هذا المذهب الباطل ذكر فى وعيدهم أشياء أولها قوله تعالى (ولو أن للذين

ظلموا) أى أنفسهم بالكفر (مافى الارض جميعا) أى من الاموال (ومثله معه لافتدوا) اى اجتهدوا فى طلب ان يفدوا أنفسهم (به من سوء العذاب يوم القيامة) وهذا وعيد شديد واقناط كلى لهم من الخلاص روى الشيخان عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى لاهون أهل النار عذابا لو ان لك مافى الارض من شئ لكنت تفتدى به فيقول نعم فيقول الله قد أردت منك وفى رواية سألتك أهون من هذا وأنت فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيأ فأبيت الا أن تشرك بى شيأ قوله اردت أى فعلت معك فعل الآمر المريد وهو معنى قوله فى رواية قد سألتك ثانيها قوله تعالى (وبدا لهم من الله) أى الملك الاعظم (مالم يكونوا يحتسبون) أى ظهر لهم أنواع من العذاب لم تكن فى حسابهم وفى هذا زيادة مبالغة هو نظير قوله تعالى فى الوعد فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وقوله صلى الله عليه وسلم فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال مقاتل ظهر لهم حين بعثوا مالم يحتسبوا فى الدنيا أنه نازل بهم فى الآخرة وقال السدى ظنوا أن أعمالهم حسنات فبدلت لهم سيآت لانهم كانوا يتقربون الى الله تعالى بعبادة الاصنام ويظنونها حسنات فبدت لهم سيآت ثالثها قوله تعالى (وبدا لهم) أى ظهر ظهورا تاما (سيآت ما كسبوا) أى مساوى أعمالهم من الشرك وظلم أولياء الله تعالى (وحاق) أى نزل (بهم ما كانوا به يستهزؤن) أى يطلبون ويوجدون الهزء فى العذاب ثم حكى الله تعالى عنهم طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة بقوله تعالى (فاذا مس الانسان) أى الجنس (ضر) أى فقر أو مرض أو غير ذلك (دعانا) أى فى دفع ذلك (فان قيل) ما السبب فى عطف هذه الآية بالفاء وعطف مثلها فى أول السورة بالواو (أجيب) بأن السبب فى ذلك ان هذه وقعت مسببة عن قوله تعالى واذا ذكر الله وحده اشمأزت على معنى انهم يشمئزون عن ذكر الله ويستبشرون بذكر آلهتهم فاذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره دون من استبشر بذكره فقوله تعالى فاذا مس الانسان معطوف على قوله تعالى واذا ذكر الله وحده وما بينهما اعتراض مؤكد لانكار ذلك عليهم هذا محصل كلام الزمخشرى واعترضه أبو حيان بان أبا على يمنع الاعتراض بجملتين فكيف بهذه الجمل الكثيرة ثم قال والذى يظهر فى الربط أنه لما قال ولو أن للذين ظلموا الآية وكان ذلك اشعارا بما ينال الظالمين من شدة العذاب وانه يظهر لهم يوم القيامة العذاب أتبع ذلك بما يدل على ظلمه وبغيه اذ كان اذا مسه ضر دعا الله تعالى فاذا أحسن اليه لم ينسب ذلك اليه كما قال تعالى (ثم اذا خولناه) أى أعطيناه (نعمة منا) أى تفضلا فان التخويل يختص به (قال انما أوتيته) أى المنعم به (على علم) أى على علم من الله تعالى انى له أهل وقيل ان كان ذلك سعادة فى المال أو عافية فى النفس يقول انما حصل ذلك بجده واجتهاده وان كان صحة قال انما حصل ذلك بسبب العلاج الفلانى وان حصل مال يقول حصل بكسبى وهذا تناقض أيضا لانه لما كان عاجزا محتاجا أضاف الكل الى الله تعالى وفى حال السلامة والصحة قطعه عن الله تعالى وأسنده الى كسب نفسه وهذا تناقض قبيح (بل هى فتنة) أى بلية يبتلى بها العبد (فان قيل) كيف ذكر النعمة أولا فى قوله انما أوتيته

ثم أنثها ثانيا (أجيب) بأنه ذكر أولا لان النعمة بمعنى المنعم به كما مر وقيل تقديره شيأ من النعمة وأنث ثانيا اعتبارا بلفظها أولان الخبر لما كان مؤنثا أعنى فتنة ساغ تأنيث المبتدا لاجله لانه فى معناه كقولهم ماجاءت حاجتك وقيل هى أى الحالة أو القولة كما جرى عليه الجلال المحلى أو العطية أو النعمة كما قاله البقاعى (ولكن أكثرهم) أى أكثر هؤلاء القائلين هذا الكلام (لايعلمون) أن التخويل استدراج وامتحان (قدقالها) أى القولة المذكورة وهى قوله انما أوتيته على علم لانها كلمة أو جملة من القول (الذين من قبلهم) أى من الامم الماضية قال الزمخشرى هم قارون وقومه حيث قال انما أوتيته على علم عندى وقومه راضون به فكأنهم قالوها قال ويجوز أن يكون فى الامم الماضية آخرون قائلون مثلها (فما أغنى عنهم) أى أولئك الماضين (ما كانوا يكسبون) أى من متاع الدنيا ويجمعون منه (فأصابهم سيآت ما كسبوا) أى جزاؤها من العذاب ثم أوعد كفار مكة فقال تعالى (والذين ظلموا) أى بالعتو (من هؤلاء) أى من مشركى قومك ومن للبيان أو للتبعيض (سيصيبهم سيآت ما كسبوا) أى كما أصاب أولئك (وما هم بمعجزين) أى فائتين عذابنا فقتل صناديدهم يوم بدر وحبس عنهم الرزق فقحطوا سبع سنين فقيل لهم (أولم يعلموا أن الله) أى الذى له الجلال والكمال (يبسط الرزق) أى يوسعه (لمن يشاء) وان كان لاحيلة له ولا قوة امتحانا (ويقدر) أى يضيق الرزق لمن يشاء وان كان قويا شديد الحيلة ابتلاء فلا قابض ولا باسط الا الله تعالى ويدل على ذلك انا نرى الناس مختلفين فى سعة الرزق وضيقه فلا بد لذلك من حكمة وسبب وذلك السبب ليس هو عقل الانسان وجهله فانا نرى العاقل القادر فى أشد الضيق ونرى الجاهل الضعيف فى أعظم السعة وليس ذلك أيضا لاجل الطبائع والافلاك لان الساعة التى ولد فيها ذلك الملك السلطان القاهر قد ولد فيها عالم أيضا من الناس وعالم من الحيوان غير الانسان وتولد أيضا فى تلك الساعة عالم من النبات * فلما شاهدنا حدوث هذه الاشياء الكثيرة فى تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة فى السعادة والشقاوة علمنا ان الفاعل لذلك هو الله تعالى فصح بهذا البرهان العقلى القاطع صحة قوله تعالى الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر قال الشاعر

فلا السعد يقضى به المشترى * ولا النحس يقضى علينا زحل

ولكنه حكم رب السماء * وقاضى القضاة تعالى وجل

(ان فى ذلك) أى البيان الظاهر (لآيات) أى دلالات (لقوم يؤمنون) أى بأن الحوادث كلها من الله تعالى بوسط أو غيره * ولما ذكر تعالى الوعيد أردفه بشرح كمال رحمته فقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) يا محمد ربكم المحسن اليكم يقول (ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم) أى أفرطوا فى الجناية عليها بالاسراف فى المعاصى واضافة العباد تخصصه بالمؤمنين على ما هو عرف القرآن (لاتقنطوا) أى لاتيأسوا (من رحمة الله) أى اكرام المحيط بكل صفات الكمال فيمنعكم ذلك القنوط من التوبة التى هى باب الرحمة وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى ياعبادى بسكون الياء وتسقط فى الوصل وفتحها الباقون وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى

تقنطوا بكسر النون بعد القاف والباقون بفتحها (ان الله) أى المتفضل على عباده المؤمنين (يغفر الذنوب) لمن تاب من الشرك (جميعا) لمن يشاء كما قال تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وأما الكافر اذا أسلم فان الله تعالى لا يؤاخذه بما وقع من كفره قال تعالى قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف *(تنبيه)* فى هذه الآية أنواع من المعانى والبيان حسنة منها اقباله عليهم ونداؤهم ومنها اضافتهم اليه اضافة تشريف ومنها الالتفات من التكلم الى الغيبة فى قوله تعالى من رحمة الله ومنها اضافة الرحمة لاجل أسمائه الحسنى ومنها اعادة الظاهر بلفظه فى قوله تعالى ان الله ومنها ابراز الجملة فى قوله تعالى (انه هو) أى وحده (الغفور) أى البليغ الغفر يمحو الذنوب عمن يشاء عينا وأثرا فلا يعاقب ولا يعاتب (الرحيم) أى المكرم بعد المغفرة مؤكدة بان وبالفصل وباعادة الصفتين اللتين تضمنتهما الآية السابقة روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ناسا من أهل الشرك كانوا قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا ان الذى تدعو له لحسن لو تخبرنا ان لما عملنا كفارة فنزلت هذه الآية وروى عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس انها نزلت فى وحشى قاتل حمزة رضى الله تعالى عنهما حين بعث اليه النبى صلى الله عليه وسلم يدعوه الى الاسلام فأرسل اليه كيف تدعونى الى دينك وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة وأنا قد فعلت ذلك كله فأنزل الله سبحانه وتعالى الا من تاب وآمن وعمل صالحا فقال وحشى هذا شرط شديد لعلى لا أقدر عليه فهل غير ذلك فأنزل الله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فقال وحشى أرانى بعد فى شبهة فلا أدرى أيغفر لى أم لا فأنزل الله تعالى قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية قال نعم هذا فجاء فأسلم فقال المسلمون هذا له خاصة قال بل للمسلمين عامة وروى عن ابن عمر قال نزلت هذه الآية فى عياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا وكنا نقول لا يقبل الله من هؤلاء صرفا ولا عدلا أبدا قد أسلموا ثم تركوا دينهم لعذاب عذبوا فيه فأنزل الله تعالى هذه الآيات فكتبها عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بيده ثم بعثها الى عياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد والى اولئك النفر فاسلموا وهاجروا وروى عن ابن مسعود أنه دخل المسجد واذا قاص يقص وهو يذكر النار والاغلال فقام على رأسه فقال يا مذكر لم تقنط الناس ثم قرأ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله وعن أسماء بنت يزيد قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى وروى الطبرانى أنه صلى الله عليه وسلم قال ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية فقال رجل يا رسول الله ومن أشرك فسكت ساعة ثم قال ألا ومن أشرك ثلاث مرات وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال كان فى بنى اسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين انسانا ثم خرج يسأل فاذا راهب فسأله فقال هل لى توبة فقال لا فقتله وجعل يسأل

فقال له رجل ائت قرية كذا فأدركه الموت فنأى بصدره نحوها فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله تعالى الى هذه أن تقربي والى هذه أن تباعدي وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه الى هذه أقرب بشبر فغفر له وفي رواية فقال له اني قتلت تسعة وتسعين نفسا فهل لي من توبة فقال لا فقتله فكمل مائة ثم سأل عن أعلم أهل الارض فدل على عالم فقال انه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق الى أرض كذا الى ان قال فوجدوه أدنى الى الارض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة وعن ابن عمر قال كنا معشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نرى أو نقول ليس شيء من حسناتنا الا وهي مقبولة حتى نزلت أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم فلما نزلت هذه الآية قلنا ما هذا الذي يبطل أعمالنا فقيل لنا الكبائر والفواحش فكنا اذا رأينا من أصاب منها شيأ خفنا عليه ومن لم يصب منها شيأ رجونا له فانزل الله تعالى قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله وأراد بالاسراف ارتكاب الكبائر * ولما كان التقدير واقلعوا عن ذنوبكم فانها قاطعة عن الخير مبعدة عن الكمال عطف عليه استعطافا قوله تعالى (وأنيبوا) أي ارجعوا بكلياتكم وكلوا حوائجكم وأسندوا أموركم واجعلوا طريقكم (الى ربكم) أي الذي لم تروا احسانا الا وهو منه (واسلموا) أي وأخلصوا (له) أعمالكم (من قبل أن يأتيكم) أي وأنتم صاغرون (العذاب) أي القاطع لكل عذوبة المجرع لكل مرارة وصعوبة (ثم لا تنصرون) أي لا يتجدد لكم نوع نصر أبدا ان لم تتوبوا (واتبعوا) أي عالجوا أنفسكم وكلفوها ان تتبع (أحسن ما أنزل اليكم) أي على سبيل العدل كالاحسان الذي هو أعلى من العفو الذي هو فوق الانتقام باتباع هذا القرآن الذي هو أحسن ما نزل من كتب الله تعالى واتباع أحاسن ما فيه فتصل من قطعك وتعطي من حرمك وتحسن الى من ظلمك هذا في حق الخلائق ومثله في عبادة الخالق بأن تكون كانك تراه الذي هو أعلى من استحضار أنه يراك الذي هو أعلى من أداء تهامع الغفلة عن ذلك * ولما كان هذا شديدا على النفس رغب فيه بقوله تعالى بمظهر صفة الاحسان موضع الاضمار (من ربكم) أي الذي لم يزل يحسن اليكم وأنتم تبارزونه بالعظائم وقال الحسن رضي الله عنه معنى الآية الزموا طاعته واجتنبوا معصيته فان في القرآن ذكر القبيح لتجتنبه وذكر الادون لئلا ترغب فيه وذكر الاحسن لتؤثره وقيل الاحسن الناسخ دون المنسوخ لقوله تعالى ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها وقيل العزائم دون الرخص وقوله تعالى (من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) أي ليس عندكم شعور باتيانه بوجه من الوجوه فيه تهديد وتخويف * ولما خوفهم الله تعالى بهذا العذاب بين انهم بتقدير نزوله عليهم ماذا يقولون فحكى الله تعالى عنهم ثلاثة أنواع من الكلام الاول ما ذكره بقوله تعالى (ان) أي كراهة أن (تقول نفس) أي عند وقوع العذاب وافرادها وتنكيرها كاف في الوعيد لان كل أحد يجوز أن يكون هو المراد (يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله) قال الحسن قصرت في طاعة الله وقال مجاهد في أمر الله

وقال سعيد بن جبير في حق الله وقيل ضيعت في ذات الله وقيل معناه قصرت في الجانب الذي يؤدي الى رضا الله تعالى والعرب تسمي الجانب جنبا قال في الكشاف هذا من باب الكناية لانك اذا أثبت الامر في مكان الرجل وحيزه فقد أثبته فيه ألا ترى الى قول الشاعر

ان السماحة والمروءة والندى * في قبة ضربت على ابن الحشرج

أي فانه لم يصرح بثبوت هذه الصفات المذكورة لابن الحشرج بل كنى عن ذلك في قبة مضروبة عليه فأفاد اثباتها له والقبة تكون فوق الخيمة تتخذها الرؤساء وقرأ حمزة والكسائي بالامالة محضة والدوري عن أبي عمرو بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (وان) أي والحال اني (كنت) أي كان ذلك في طبعي (لمن الساخرين) أي المستهزئين المتكبرين المنزلين أنفسهم في غير منزلتها وذلك أنه ما كفاني المعصية حتى كنت أسخر من أهل الطاعة أي تقول هذا لعله يقبل منها ويعفى عنها على عادة المعترفين في وقت الشدائد لعلهم يعاودون الى أجمل العوائد الثاني من الكلمات التي حكاها الله تعالى عنهم بعد نزول العذاب عليهم ما ذكره الله تعالى بقوله سبحانه (أو تقول) أي تلك النفس المفرطة (لو أن الله) أي الذي له القدرة الكاملة والعلم الشامل (هداني) أي لبيان الطريق (لكنت من المتقين) أي الذين لا يقدمون على فعل الا ما يدلهم عليه دليل الثالث من الكلمات ما ذكره الله تعالى بقوله سبحانه (أو تقول) أي تلك النفس المفرطة (حين ترى العذاب) أي الذي واجهها عيانا (لو أن) أي ياليت (لي كرة) أي رجعة الى دار العمل (فأكون) أي يتسبب عن رجوعي اليها أن أكون (من المحسنين) أي العاملين بالاحسان الذي دعا اليه القرآن *(تنبيه)* في نصب فأكون وجهان أحدهما عطفه على كرة فانها مصدر فعطف مصدر مؤول على مصدر مصرح به كقولها

للبس عباءة وتقر عيني * أحب الي من لبس الشفوف

والثاني انه منصوب على جواب التمني المفهوم من قوله تعالى لو أن لي كرة والفرق بين الوجهين أن الاول يكون فيه الكون متمنى ويجوز أن تضمر أن وان تظهر والثاني يكون فيه الكون مترتبا على حصول المتمنى لا متمنى ويجب أن تضمر أن * ثم أجاب الله تعالى هذا القائل بقوله سبحانه (بلى قد جاءتك اياتي) أي القرآن وهي سبب الهداية (فكذبت بها) أي قلت ليست من عند الله (واستكبرت) أي تكبرت عن الايمان بها (وكنت من الكافرين) فان قيل هلا قرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله لو أن الله هداني ولم يفصل بينهما (أجيب) بأنه لا يخلو اما أن يقدم على اخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهن واما أن تؤخر القرينة الوسطى فلم يحسن الاول لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن واما الثاني فلما فيه من نقض الترتيب وهو التحسر على التفريط في الطاعة ثم التعلل بفقد الهداية ثم تمني الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب (فان قيل) كيف صح أن تقع بلى جوابا لغير منفي (أجيب) بأن قوله لو أن الله هداني بمعنى ما هديت (ويوم القيامة)

أى الذى لايصح فى الحكمة تركه (ترى) أى أيها المحسن (الذين كذبوا على الله) أى الحائز لجميع صفات الكمال بنسبة الشريك والولد اليه وقال الحسن هم الذين يقولون ان شئنا فعلنا وان شئنا لم نفعل قال البقاعى وكأنه عنى من المعتزلة الذين اعتزلوا مجلسه وابتدعوا قولهم انهم يخلقون أفعالهم قال ويدخل فيه من تكلم فى الدين بجهل وكل من كذب وهو يعلم أنه كاذب فى أى شئ كان فانه من حيث ان فعله فعل من يظن ان الله تعالى لايعلم كذبه أى ولا يقدر على جزائه كأنه كذب على الله وقوله تعالى (وجوههم مسودة) جملة من مبتدا وخبر فى محل نصب على الحال من الموصول لان الرؤية بصرية وقيل فى محل نصب مفعولا ثانيا لان الرؤية قلبية ورد بأن تعلق الرؤية البصرية بالاجسام وألوانها أظهر من تعلق القلبية بهما وذكر أن هذا السواد مخالف لسائر أنواع السواد (أليس فى جهنم مثوى) أى مأوى (للمتكبرين) أى الذين تكبروا على اتباع أمر الله تعالى وهو تقرير لانهم يرونه كذلك * ولما ذكر الله تعالى الذين أشقاهم اتبعهم حال الذين أسعدهم بقوله تعالى (وينجى الله) أى بفعل ماله من صفات الكمال فى نجاتهم فعل المبالغ فى ذلك (الذين اتقوا) أى بالغوا فى وقاية أنفسهم من غضبه فكما وقاهم فى الدنيا من المخالفات حماهم هنا من العقوبات (بمفازتهم) أى بسبب فلاحهم لان العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة ويجوز أن يسمى العمل الصالح فى نفسه مفازة لانه سببها وقرأ حمزة والكسائى وشعبة بالالف بعد الزاى جمعا على أن لكل متق مفازة والباقون بغير ألف بعد الزاى افرادا وقوله تعالى (لايمسهم السوء) جملة مفسرة لمفازتهم كأنه قيل وما مفازتهم فقال لايمسهم السوء فلا محل لها ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من الذين اتقوا ومعنى الكلام لايمسهم مكروه (ولاهم يحزنون) أى ولايطرق بواطنهم حزن على فائت لانه لايفوتهم شئ أصلا * ولما كان الخوف منه والحزون عليه جامعين لكل مافى الكون وكان لايقدر على دفعهما الا القادر المبدع القيوم قال تعالى مستأنفا أومعللا مظهرا الاسم الاعظم تعظيما للمقام (الله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما الذى نجاهم (خالق كل شئ) أى من خير وشر وايمان وكفر فلا يكون شئ أصلا الا بخلقه * ولما دل هذا على القدرة الشاملة وكان لابد معها من العلم الكامل قال تعالى (وهو على كل شئ) أى مع القهر والغلبة (وكيل) أى حفيظ لجميع مايريده قيوم لاعجز يلم بساحته ولاغفلة وقوله تعالى (له مقاليد السموات والارض) جملة مستأنفة والمقاليد جمع مقلاد مثل مفتاح ومفاتيح أو مقليد مثل منديل ومناديل أى هو مالك أمرها وحافظها وهى من باب الكناية لان حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذى يملك مقاليدها ومنه قولهم فلان ألقيت اليه مقاليد الملك وهى المفاتيح والكلمة أصلها فارسية (فان قيل) ما للكتاب المبين والفارسية (أجيب) بأن التعريب قد أحالها عربية كما أخرج استعمال المهمل عن كونه مهملا قال الزمخشرى سأل عثمان النبى صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى له مقاليد السموات والارض فقال ياعثمان ماسألنى أحد عنها قبلك تفسيرها لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله

وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة الا بالله هو الاول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شئ قدير اه وروى هذا الطبراني بسند ضعيف بل رواه ابن الجوزي في الموضوعات ثم قال الزمخشري وتأويله على هذا ان الله تعالى في هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهي مفاتيح خير السموات والارض من تكلم بها من المتقين أصابه وقال قتادة ومقاتل مفاتيح السموات والارض بالرزق والرحمة وقال الكلبي خزائن المطر والنبات * ولما وصف الله تعالى بالصفة الالهية والجلالة وهو كونه خالقا للاشياء وكونه مالكا لمقاليد السموات والارض باسرها قال بعده (والذين كفروا) أي لبسوا ما اتضح من الدلالات وجحدوا (بآيات الله) أي دلائل قدرته الظاهرة الباهرة (أولئك) أي البعداء البغضاء (هم الخاسرون) لانهم خسروا أنفسهم وكل شئ متصل بها على وجه النفع وقال الزمخشري والذين كفروا متصل بقوله وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم واعترض بينهما بأنه خالق الاشياء كلها وان له مقاليد السموات والارض واعترضه الرازي بأن وينجي جملة فعلية والذين كفروا جملة اسمية وعطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يجوز واعترض الآخر بأنه لا مانع من ذلك * ولما دعا كفار قريش النبي صلى الله عليه وسلم الى دين آبائهم قال الله تعالى (قل) أي لهم (أفغير الله) أي الملك الاعظم (تأمروني أعبد أيها الجاهلون) أي العريقون في الجهل لان الدليل القاطع قد قام بأن الله تعالى هو المستحق للعبادة فمن عبد غيره فهو جاهل وقرأ نافع بتخفيف النون وفتح الياء وابن كثير بتشديد النون وسكون الياء وابن عامر بنونين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة وسكون الياء والباقون بتشديد النون وسكون الياء (ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك) أي الذي عملته قبل الشرك (فان قيل) الموحى اليهم جماعة فكيف قال لئن أشركت على التوحيد (أجيب) بأن تقدير الآية أوحي اليك لئن أشركت ليحبطن عملك والى الذين من قبلك مثله أي أوحي اليك والى كل واحد منهم لئن أشركت كما تقول كسانا حلة أي كل واحد منا (فان قيل) كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم (أجيب) بأن قوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك قضية شرطية والقضية الشرطية لا يلزم من صدقها صدق جزئيها ألا ترى أن قولك لو كانت الخمسة زوجا لكانت منقسمة بمتساويين قضية صادقة مع أن كل واحد من جزأيها غير صادق قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ولم يلزم من هذا صدق ان فيهما آلهة وأنهما قد فسدتا وأن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره كما قاله أكثر المفسرين أو ان ذلك على سبيل الفرض المحال ذكر ليكون ردعا للاتباع * ولما كان السياق للتهديد وكانت العبارة شاملة لما تقدم على الشرك من الاعمال وما تأخر عنه لم يقيده بالاتصال بالموت اكتفاء بتقييده في آية البقرة وهي ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر قال تعالى (ولتكونن) أي لاجل حبوطه (من الخاسرين) فان من ذهب جميع عمله لا شك في خسارته اما من أسلم بعد ردته فانما يحبط ثواب عمله لا عمله كما نص عليه الشافعي *(تنبيه)* اللام الاولى موطئة للقسم

والاخر بان للجواب * ولما كان التقدير لا تشرك بنا عطف عليه قوله تعالى (بل الله) أى المتصف بصفات الكمال وحده (فاعبد) أى مخلصاله العبادة (وكن من الشاكرين) أى العريقين فى هذا الوصف لانه جعلك خيرالخلائق أجمعين * ولما حكى الله تعالى عن المشركين انهم أمروا الرسول بعبادة الاصنام ثم انه تعالى أقام الدلائل على فساد قولهم وأمر الرسول أن يعبد الله ولا يعبد سواه وبين انهم لو عرفوا الله تعالى حق معرفته لما جعلوا هذه الاشياء الخسيسة مشاركة له فى العبودية قال (وماقدروا الله) أى الملك الاعظم (حق قدره) أى ماعظموه حق عظمته حين أشركوا به غيره مع أنهم لو استغرقوا الزمان كله فى عبادته وخالص طاعته بحيث لم يخل شئ منه عنها لما كان ذلك حق قدره فكيف اذا خلا بعضه عنها فكيف اذا عدل به غيره ولما بين أنهم ماعظموه تعظيما لائقا به أردفه بما يدل على كمال عظمته بقوله تعالى (والارض جميعا قبضته) وهو مبتدأ وخبر فى محل نصب على الحال أى ماعظموه حق عظمته والحال انه موصوف بهذه القدرة الباهرة كقوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم أى كيف تكفرون بمن هذا وصفه وحال ملكه كذا وجميعا حال وهى دالة على أن المراد بالارض الارضون لان هذا التأكيد لا يحسن ادخاله الا على الجمع وقدم الارض على السموات لمباشرتهم لها ومعرفتهم بحقيقتها * ولما كان فى هذه الدنيا من يدعى الملك والقهر والعظمة والقدرة وكان الامر فى الآخرة بخلاف هذا لانقطاع الاسباب قال تعالى (يوم القيامة) ولا قبضة هناك لا حقيقة ولا مجازا وكذا الطى واليمين وانما هو تمثيل وتخييل لتمام القدرة * ولما كانوا يعلمون أن السموات سبع متطابقة بما يشاهدونه من سير النجوم جمع ليكون مع جمعها كالتصريح فى جمع الارض أيضا فى قوله تعالى (والسموات مطويات) أى مجموعات (بيمينه) قال الامام الرازى وههنا سؤالات الاول أن العرش أعظم من السموات السبع والارضين السبع ثم انه تعالى قال فى صفة العرش ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية فاذا وصف الملائكة بكونهم حاملين العرش العظيم فكيف يجوز تقرير عظمة الله عز وجل بكونه حاملا للسموات والارض وأجاب بأن مراتب التعظيم كثيرة فأولها تقرير عظمة الله بكونه قادرا على هذه الاجسام العظيمة كما أن حفظها وامساكها يوم القيامة عظيم ثم بعده تقرير عظمته بكونه قادرا على امساك أولئك الملائكة الذين يحملون العرش السؤال الثانى قوله تعالى والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه شرح حال لا تحصل الا فى القيامة والقوم ماشاهدوا ذلك فان كان هذا الخطاب مع المصدقين للانبياء فهم معترفون بأنه لا يجوز القول بجعل الاصنام شركاء لله فلا فائدة فى ايراد هذه الحجة عليهم وان كان الخطاب مع المكذبين بالنبوة فهم ينكرون قوله تعالى والارض جميعا قبضته يوم القيامة فكيف يمكن الاستدلال به على ابطال القول بالشرك وأجاب عنه بأن المقصود منه أن المتولى لابقاء السموات والارضين من وجوه العمارة فى هذا الوقت هو المتولى لتخريبها وافنائها يوم القيامة وذلك يدل على حصول قدرة تامة على الايجاد والاعدام ويدل أيضا على كونه قادرا غنيا على الاطلاق فانه

يدل على أنه اذا حاول تخريب الارض فكأنه يقبض قبضته وذلك يدل على كمال الاستغناء السؤال الثالث حاصل القول بالقبضة واليمين هو القدرة الكاملة الوافية بحفظ هذه الاجسام العظيمة فكما أن حفظها وامساكها يوم القيامة ليس الا بقدرته تعالى فكذلك الآن فما الفائدة في تخصيص هذه الاحوال بيوم القيامة وأجاب بأنه انما خصص تلك الحالة بيوم القيامة ليدل على أنه كما ظهر كمال قدرته في الايجاد عند عمارة الدنيا يظهر كمال قدرته في الاعدام عند خراب الدنيا * ولما كان هذا انما هو تمثيل بما يعهد والمراد به الغاية في القدرة نزه نفسه المقدس عما ربما نسب له الجسم والمشبه فقال تعالى (سبحانه) أي تنزه من هذه القدرة قدرته عن كل شائبة نقص (وتعالى) علو الايحاط به (عما يشركون) معه لانه لو كان له شريك ينازعه في هذه القدرة أو بعضها لمنعه شيأ منها وهذه معبوداتهم لا قدرة لها على شئ البتة روى البخاري في صحيحه في التوحيد وغيره عن عبد الله بن مسعود قال جاء حبر من الاحبار الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اذا كان يوم القيامة جعل الله تعالى السموات على اصبع والارضين على اصبع والماء والثرى على اصبع والخلائق على اصبع ثم يهزهن ثم يقول أنا الملك فلقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يضحك حتى بدت نواجذه تعجبا وتصديقا لقول الحبر ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم وما قدروا الله حق قدره الآية وانما ضحك صلى الله عليه وسلم وتعجب لانه لم يفهم منه الا ما فهم علماء البيان من غير تصور امساك ولا اصبع ولا هز ولا شئ من ذلك وانما يدل ذلك على القدرة الباهرة وأن الافعال العظام التي تتحير فيها الاذهان هينة عليه هوانا لا يصل السامع الى الوقوف عليه الا باجراء العبارة في مثل هذه الطريقة على التخييل وروى الشيخان عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبارة أين المتكبرون ثم يطوي الارضين ثم يأخذهن بشماله ثم يقول أنا الملك أين الجبارون اين المتكبرون وللبخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقبض الله الارض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الارض قال أبو سليمان الخطابي ليس فيما يضاف الى الله عز وجل من وصف اليدين شمال لان الشمال محل النقص والضعف وقد ورد كلتا يديه يمين وليس عندنا معنى اليد الجارحة وانما هي صفة جاء بها التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكيفها وننتهي حيث انتهى بنا الكتاب والاخبار المأثورة الصحيحة وهذا مذهب أهل السنة والجماعة رضي الله تعالى عنهم وقال سفيان ابن عيينة كل ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه انتهى وقد قدمنا أن السلف يجرون المتشابه على ما هو عليه وان الخلف يؤولونه والاول أسلم والثاني أحكم * ولما ذكر تعالى كمال قدرته وعظمته بما سبق ذكره أردفه بذكر طريق آخر يدل أيضا على كمال العظمة وهو شرح مقدمات يوم القيامة فقال (ونفخ في الصور) أي القرن النفخة الاولى لان نفخ الصور يكون قبل ذلك اليوم (فصعق) أي مات (من في السموات ومن

في الارض) واختلف فيمن استثنى الله تعالى بقوله سبحانه (الا من شاء الله) فقال الحسن هو الله وحده وقال ابن عباس جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت عليهم السلام ثم يميت الله تعالى ميكائيل واسرافيل وجبريل وملك الموت وقيل حملة العرش وقيل الحور والولدان وقيل الشهداء لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش وقال جابر هو موسى عليه السلام لانه صعق فلا يصعق ثانيا وقال قتادة الله أعلم بهم وليس في القرآن والاخبار ما يدل على أنهم من هم وهذا أسلم (ثم نفخ فيه) أي في الصور نفخة (أخرى) أي نفخة ثانية (فاذا هم) أي جميع الخلائق الموتى (قيام) أي قائمون (ينظرون) أي يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت اذا فاجأه خطب جسيم وقيل ينتظرون أمر الله تعالى فيهم وهذا يدل على أن هذه النفخة متأخرة عن النفخة الاولى لان لفظة ثم للتراخي وروى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما بين النفختين أربعون قالوا أربعون يوما قال أبو هريرة أبيت قالوا أربعون شهرا قال أبيت قالوا أربعون سنة قال أبيت قال ثم ينزل الله تعالى من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ليس من الانسان شئ الا يبلى الا عظم واحد وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة وقوله تعالى فاذا هم يدل على أن قيامهم يحصل عقب هذه النفخة الاخيرة في الحال من غير تراخ لان الفاء تدل على التعقيب * ولما ذكر تعالى اقامتهم بالحياة التي هي نور البدن اتبعه بنور أرض القيامة فقال (وأشرقت) أي اضاءت اضاءة عظيمة مالت بها الى الحمرة (الارض) أي التي أوجدت لحشرهم وليست بأرضنا الآن لقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض (بنور ربها) أي خالقها وذلك حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين خلقه قال صلى الله عليه وسلم ستروون ربكم وقال كما لا تضارون في الشمس في يوم الصحو وقال الحسن والسدي بعدل ربها (ووضع الكتاب) أي كتاب الاعمال للحساب لقوله تعالى وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا وقوله تعالى ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وقيل الكتاب اللوح المحفوظ تقابل به الصحف وقيل الكتاب الذي أنزل الى كل أمة تعمل به واقتصر على هذا البقاعي (وجيء بالنبيين) أي للشهادة على أممهم واختلف في قوله تعالى (والشهداء) فقال ابن عباس يعني الذين يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه لقوله تعالى جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس وقال عطاء ومقاتل يعني الحفظة لقوله تعالى وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد وقيل هم المستشهدون في سبيل الله * ولما بين تعالى أنه يوصل الى كل واحد حقه عبر عن هذا المعنى بأربع عبارات أولها قوله تعالى (وقضي بينهم) أي العباد (بالحق) أي العدل ثانيها قوله تعالى (وهم لا يظلمون) أي لا يزاد في سيآتهم ولا ينقص من حسناتهم ثالثها قوله تعالى (ووفيت كل نفس ما عملت) أي جزاء ما عملته رابعها قوله تعالى (وهو أعلم بما يفعلون) أي فلا يفوته شئ من أفعالهم ثم فصل التوفية بقوله تعالى مقدما أهل الغضب (وسيق الذين كفروا) أي بالعنف

والدفع (الى جهنم) كما قال تعالى يوم يدعون الى نار جهنم دعاً أى يدفعون اليها دفعا وقوله تعالى (زمراً) حال أى جماعات فى تفرقة بعضهم على اثر بعض كل أمة على حدة (حتى اذا جاؤها) أى على صفة الذل والصغار وأجاب اذا بقوله تعالى (فتحت أبوابها) أى السبعة وكانت مغلقة قبل ذلك وانما تفتح عند وصول الكفار اليها وقرأ الكوفيون فتحت وفتحت الآتية بالتخفيف والباقون بالتشديد على التكثير (وقال لهم خزنتها) انكاراً عليهم وتقريعا وتوبيخا (ألم يأتكم رسل منكم) أى من جنسكم لأن قيام الحجة بالجنس أقوى (يتلون) أى يتلون مرة بعد مرة وشيأ فى اثر شئ (عليكم آيات ربكم) أى المحسن اليكم من القرآن وغيره (وينذرونكم) أى يخوفونكم (لقاء يومكم) وقولهم (هذا) اشارة الى يوم البعث (فان قيل) لم أضيف اليهم اليوم (أجيب) بأنهم أرادوا لقاء وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة قال الزمخشرى وقد جاء استعمال اليوم والايام مستفيضا فى أوقات الشدة ويجوز أن يراد باليوم يوم البعث كله وجرى عليه البقاعى وهو أولى ولما قال لهم الخزنة ذلك (قالوا بلى) أتونا وتلوا علينا وحذرونا (ولكن حقت) أى وجبت (كلمة العذاب) أى التى سبقت فى الازل علينا هكذا كان الاصل ولكنهم قالوا (على الكافرين) تخصيصا بأهل هذا الوصف وبيانا لانه موجب دخولهم وهو تغطيتهم الانوار التى أتتهم بها الرسل عليهم الصلاة والسلام *(تنبيه)* فى الآية دليل على انه لا وجوب قبل مجيء الشرع لأن الملائكة بينوا لهم أنهم ما بقى لهم عذر ولا علة بعد مجيء الرسل عليهم الصلاة والسلام فلو لم يكن مجيء الرسل شرطا فى استحقاق العذاب لما بقى فى هذا الكلام فائدة وقيل كلمة العذاب هى قوله تعالى لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ثم كأنه قيل فماذا وقع بعد هذا التقريع (قيل) وقع أن الملائكة قالت لهم (ادخلوا أبواب جهنم) أى طبقاتها المتجهمة لداخلها (خالدين) أى مقدرين الخلود (فيها) ولما كان سبب كفرهم بالآيات هو التكبر قالوا لهم (فبئس مثوى) أى منزل ومقام (المتكبرين) أى الذين أوجب تكبرهم حقوق كلمة العذاب عليهم فلذلك تعاطوا أسبابها * ولما ذكر تعالى أحوال الكافرين أتبعه أحوال أضدادهم فقال عز من قائل (وسيق الذين اتقوا ربهم) أى الذين كلما ازدادوا احسانا ازدادوا له هيبة (الى الجنة) وقوله تعالى (زمراً) حال أى جماعات أهل الصلاة المستكثرين منها على حدة وأهل الصوم كذلك الى غير ذلك من الاعمال التى تظهر آثارها على الوجوه (فان قيل) السوق فى أهل النار معقول لأنهم لما أمروا بالذهاب الى موضع العذاب لابد وأن يساقوا اليه وأما أهل الثواب فاذا أمروا بالذهاب الى موضع السعادة والراحة فأى حاجة فيه الى السوق (أجيب) بأن المراد بسوق أهل النار طردهم اليها بالهوان والعنف كما يفعل بالاسارى والخارجين على السلطان اذا سيقوا الى حبس أو قتل والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لانه لا يذهب بهم الا راكبين مسرعا الى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك فشتان ما بين السوقين هذا سوق تشريف واكرام وذاك سوق اهانة وانتقام وهذا من بدائع أنواع البديع وهو أن

يأتى سبحانه بكلمة فى حق الكفار فتدل على هوانهم بعقابهم ويأتى بتلك الكلمة بعينها وهيئتها فى حق المؤمنين فتدل على اكرامهم بحسن ثوابهم فسبحان من أنزله معجز المبانى متمكن المعانى عذب الموارد والمثانى وقيل ان المحبة والصداقة باقية بين المتقين الى يوم القيامة كما قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين فاذا قيل لواحد منهم اذهب الى الجنة فيقول لا أدخلها الا مع أحبابى وأصدقائى فيتأخرون لهذا السبب فحينئذ يحتاجون الى السوق الى الجنة * ولما ذكر تعالى السوق ذكر غايته بقوله تعالى (حتى اذا جاؤها) اختلف فى جواب اذا على أوجه أحدها قوله تعالى (وفتحت أبوابها) والواو زائدة وهو رأى الكوفيين والاخفش وانما جىء هنا بالواو دون التى قبلها لان أبواب السجون مغلقة عادة الى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح له ثم تغلق عليه فناسب ذلك عدم الواو فيها بخلاف أبواب السرور والفرح فانها تفتح انتظار المن يدخلها فعلى هذا أبواب جهنم تكون مغلقة لا تفتح الا عند دخول أهلها فيها فأما أبواب الجنة ففتحها يكون مقدما على دخولهم اليها كما قال تعالى جنات عدن مفتحة لهم الابواب فلذلك جىء بالواو فكأنه قال حتى اذا جاؤها وقد فتحت أبوابها ثانيها قوله تعالى (وقال لهم خزنتها) أى بزيادة الواو أيضا أى حتى اذا جاؤها قال لهم خزنتها ثالثها قال الزجاج القول عندى ان الجواب محذوف تقديره دخلوها بعد قوله تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها أى حين الوصول (سلام عليكم) تعجيلا للمسرة بالبشارة بالسلامة التى لا عطب فيها (طبتم) أى صلحتم لسكناها لانها دار طهرها الله تعالى من كل دنس وطيبها من كل قذر فلا يدخلها الا مناسب لها موصوف بصفتها فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة وما أضعف سعينا فى اكتساب تلك الصفة الا أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحا تنقى أنفسنا من درن الذنوب وتميط وضر هذه القلوب ثم سببوا عن ذلك (فادخلوها خالدين) أى مقدرين الخلود وسمى بعضهم الواو فى قوله تعالى وفتحت واو الثمانية قال لان أبواب الجنة ثمانية وكذا قالوا فى قوله تعالى وثامنهم كلبهم وقيل تقدير الجواب حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها يعنى أن الجواب بلفظ الشرط ولكنه بزيادة تقييده بالحال فلذلك صح وقدره الجلال المحلى بقوله دخلوها وقال ان قوله تعالى (وقالوا) عطف على دخلوها المقدر (الحمد) أى الاحاطة بأوصاف الكمال (لله) أى الملك الاعظم (الذى صدقنا وعده) فى قوله تعالى تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا فطابق قوله الواقع الذى وجدناه فى هذه الساعة (وأورثنا) كما وعدنا (الارض) أى الارض التى لا أرض فى الحقيقة غيرها وهى أرض الجنة التى لا كدر فيها بوجه وفيها كل ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين وقولهم (نتبوأ) أى تنزل (من الجنة حيث نشاء) جملة حالية وحيث ظرف على بابها وقيل مفعول به وانما عبر عن أرض الجنة بالارض لوجهين أحدهما أن الجنة كانت فى أول الامر لآدم عليه السلام لانه تعالى قال فكلا منها رغدا حيث شئتما فلما عادت الجنة الى أولاد آدم عليه السلام كان ذلك سببا للارث ثانيهما ان الوارث يتصرف فيما ورثه كيف شاء من غير منازع فكذلك المؤمنون يتصرفون

في الجنة حيث شاؤا وأرادوا (فان قيل) كيف يتبوأ أحدهم مكان غيره (أجيب) بأن لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة فيتبوأ من جنته حيث شاء ولا يحتاج الى جنة غيره ولا يشتهي أحد الا مكانه مع أن في الجنة مقامات معنوية لا تمانع واردوها ولما كانت بهذا الوصف الجليل تسبب عنه مدحها بقوله (فنعم) أى أجرنا هكذا كان الاصل ولكنه قال (أجر العاملين) ترغيبا في الاعمال وحثا على عدم الاتكال ولما ذكر سبحانه الذين أكرمهم من المتقين وما وصلوا اليه من المقامات أتبعهم أهل الكرامات الذين لا شاغل لهم عن العبادات فقال تعالى صارفا الخطاب لعلو الخبر الى أعلى الخلق لانه لا يقوم بحق هذه الرؤية غيره (وترى الملائكة) أى القائمين بجميع ما عليهم من الحقوق وقوله تعالى (حافين) حال أى محدقين (من حول العرش) أى من جوانبه التى يمكن الحفوف بها بالقرب منها بسمع لحفوفهم صوت التسبيح والتحميد والتقديس والاهتزاز خوفا من ربهم فاد خال من يفهم مع كثرتهم الى حد لا يحصيه الا الله تعالى أنهم لا يعلون حوله وهذا أولى من قول البيضاوى ان من زائدة وقوله تعالى (يسبحون) حال من ضمير حافين (بحمد ربهم) أى متلبسين بحمده يقولون سبحان الله وبحمده فهم ذاكرون له بوصفى جلاله واكرامه تلذذا به وفيه اشعار بأن منتهى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق فى صفات الحق (وقضى بينهم) أى بين جميع الخلق (بالحق) أى العدل فيدخل المؤمن الجنة والكافر النار أو بين الملائكة باقامتهم فى منازلهم على حسب تفاضلهم (وقيل) أى وقال المؤمنون من المقضى بينهم والملائكة وطى ذكرهم لتعينهم وتعظيمهم (الحمد) أى الاحاطة بجميع أوصاف الكمال وعدل بالقول الى ما هو أحق بهذا المقام فقال (لله) ذى الجلال والاكرام علما ذلك فى هذا اليوم عين اليقين كما كنا فى الدنيا نعلمه علم اليقين * ولما كان هذا اليوم أحق الايام بمعرفة شمول الربوبية لاجتماع الخلائق وانفتاح البصائر وسعة الضمائر قال واصفاله سبحانه بأقرب الصفات الى الاسم الاعظم (رب العالمين) أى الذين ابتدأهم أول مرة من العدم وأقامهم ثانيا باعمار باهم به من التدبير وأعادهم ثالثا بعد افنائهم بأكل قضاء وتقدير وأبقاهم رابعا الا الى آخر وقيل ان الله تعالى ابتدأ ذكر الخلق بالحمد لله فى قوله سبحانه الحمد لله الذى خلق السموات والارض وختم بالحمد فى آخر الامر وهو استقرار الفريقين فى منازلهم فنبه بذلك على تحميده فى بداية كل امر وخاتمته والله أعلم بمراده واسرار كتابه وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءه يوم القيامة وأعطاه الله ثواب الخائفين حديث موضوع وقوله عن عائشة رضى الله عنها وعن أبيها انه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ كل ليلة بنى اسرائيل والزمر رواه الترمذى وغيره

سورة المؤمن مكية

قال الحسن الا قوله وسبح بحمد ربك لان الصلوات نزلت بالمدينة وقد قيل فى الحواميم انها كلها مكية عن ابن عباس وابن الحنفية وتسمى سورة الطول وسورة غافر وهى خمس وقيل ثنتان

وثمانون آية وألف ومائة وتسع وتسعون كلمة وأربعة آلاف وتسعمائة وستون حرفا
(بسم الله) الملك الاعظم الذى يعطى كلا من عباده ما يستحقه فلا يقدر أحد أن يناقض فى شئ من ذلك ولا يعارض (الرحمن) الذى عمهم برحمته فى الدنيا بالخلق والرزق والبيان الذى لا خفاء معه (الرحيم) الذى يخص برحمته من يشاء من عباده فيجعله حكيما وفى ملك الارض وملكوت السموات عليما وقوله تعالى (حم) قرأه ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى بامالة الحاء محضة وورش وأبو عمرو بين بين والباقون بالفتح وقد سبق الكلام فى حروف التهجى وقال ابن عباس حم اسم الله الاعظم وعنه قال الر وحم ون حروف الرحمن مقطعة وقيل حم اسم السورة وقيل الحاء افتتاح أسمائه حليم وحميد وحى وحكيم وحنان والميم افتتاح أسمائه ملك مجيد منان وقال الضحاك والكسائى معناه قضى ما هو كائن كأنهما أشارا الى أن معنى حم حم بضم الحاء وتشديد الميم وهل يجوز أن يجمع حم على حواميم نقل ابن الجوزى عن شيخه الجواليقى انه خطأ وليس بصواب بل الصواب أن يقول قرأت آل حم وفى الحديث عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم اذا وقعت فى آل حم وقعت فى روضات وقال الكميت

وجدنا لكم فى آل حم آية * تأولها منا تقى ومعرب

ومنهم من جوزه وروى فى ذلك أحاديث منها قوله صلى الله عليه وسلم الحواميم ديباج القرآن وقوله صلى الله عليه وسلم الحواميم سبع وأبواب جهنم سبع جهنم والحطمة ولظى والسعير وسقر والهاوية والجحيم فتجئ كل حم منهن يوم القيامة على باب من هذه الابواب فتقول لا يدخل النار من كان يؤمن بى ويقرؤنى وقوله صلى الله عليه وسلم لكل شئ ثمرة وثمرة القرآن ذوات حم هن روضات حسان مخصبات متجاورات فمن أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليقرأ الحواميم وقوله صلى الله عليه وسلم الحواميم فى القرآن كمثل الحبرات فى الثياب وقال ابن عباس لكل شئ لباب ولباب القرآن الحواميم قال ابن عادل فان صحت هذه الاحاديث فهى الفصل فى ذلك أى فتدل على جواز الجمع وقال البيضاوى فى حم السجدة ولعل افتتاح هذه السبع بحم وتسميتها به لكونها مصدرة ببيان الكتاب متشاكلة فى النظم والمعنى أى أخذا مما قيل ان حم اسم من أسماء القرآن وقوله تعالى (تنزيل الكتاب) أى الجامع من الحدود والاحكام والمعارف والاكرام اما خبر لحم ان كانت مبتدأ واما خبر لمبتدأ مضمر واما مبتدأ وخبره (من الله) أى الجامع لجميع صفات الكمال ولما كان النظر هنا من بين جميع الصفات الى العزة والعلم أكثر لاجل أن المقام لاثبات الصدق وعدا ووعيدا قال تعالى (العزيز) أى فى ملكه (العليم) بخلقه فبين تعالى انه بقدرته وعلمه أنزل القرآن الذى يتضمن المصالح والاعجاز ولولا كونه عزيزا عالما لما صح ذلك (غافر الذنب) أى بتوبة وغير توبة للمؤمن ان شاء وأما الكافر فلا بد من توبته بالاسلام (وقابل التوب) أى ممن عصاه وهو يحتمل أن يكون اسما مفردا مرادا به الجنس كالذنب وأن يكون جمعا لتوبة كتمر وتمرة (شديد العقاب) أى على الكافر (فان قيل) ان شديد صفة مشبهة فاضافته غير محضة بكل حال بخلاف اسم الفاعل اذا لم يرد به الحال ولا الاستقبال

كغافر الذنب وقابل التوب فان اضافته محضة تفيد التعريف قال سيبويه كل ما اضافته غير محضة يجوز أن تجعل محضة وتوصف به المعارف الا الصفة المشبهة ولم يستثن الكوفيون شيأ (أجيب) بأن شديد معناه مشدد كاذين بمعنى مأذون فتمحض اضافته أو الشديد عقابه فحذف اللام للازدواج مع أمن الالتباس أو بالتزام مذهب الكوفيين وهو أن الصفة المشبهة يجوز أن تمحض اضافتها أيضا فتكون معرفة يقولون في نحو حسن الوجه يجوز أن تصير اضافته محضة وقال الرازى لا نزاع في جعل غافر وقابل صفتين وانما كان كذلك لانهما يفيدان معنى الدوام والاستمرار فكذلك شديد العقاب لان صفاته منزهة عن الحدوث والتجدد فمعناه كونه بحيث يقال شديد عقابه وهذا المعنى حاصل أبدا فلا يوصف بأنه حصل بعد ان لم يكن قال ابو حيان وهذا كلام من لم يقف على علم النحو ولا نظر فيه ويلزمه ان يكون حكيم عليم ومليك مقتدر معارف لتنزيه صفاته عن الحدوث والتجدد ولانها صفات لم تحصل بعد ان لم تكن ويكون تعريف صفاته بأل وتنكيرها سواء وهذا لا يقوله مبتدئ في علم النحو فكيف من يصنف فيه ويقدم على تفسير كتاب الله تعالى اه قال الزمخشري فان قلت ما بال الواو في قوله وقابل التوب قلت فيها نكتة جليلة وهي افادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين بين ان يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات وان يجعلها محاءة للذنوب كان لم يذنب كأنه قال جامع المغفرة والقبول اه قال ابن عادل وبعد هذا الكلام الانيق وابراز هذه المعانى الحسنة قال ابو حيان وما أكثر تبجح هذا الرجل وشقشقته والذى افادته الواو الجمع وهذا معلوم من ظاهر علم النحو اه وانشد بعضهم

وكم من عائب قولا صحيحا * وآفته من الفهم السقيم

وقال آخر قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد * وينكر الفم طعم الماء من سقم

ولما أتم الترغيب بالعفو والترهيب بالعقوبة أتبعه التشويق الى الفضل فقال تعالى (ذى الطول) اى سعة الفضل والانعام والقدرة والغنى والسعة والمنة فلا يماثله في شئ من ذلك أحد ولا يدانيه قال ابن عباس غافر الذنب لمن قال لا اله الا الله وقابل التوب ممن قال لا اله الا الله شديد العقاب لمن لا يقول لا اله الا الله ذى الغنى عمن لا يقول لا اله الا الله وقال الحسن ذو الفضل وقال قتادة ذو النعم ثم علل تمكنه من كل شئ من ذلك بوحدانيته فقال تعالى (لا اله الا هو اليه) وحده (المصير) أى المرجع فلو جعل معه الها آخر يشاركه في صفة الرحمة والفضل لما كانت الحاجة الى عبوديته شديدة فكان الترغيب والترهيب الكاملان حاصلين بسبب هذا التوحيد وقوله تعالى اليه المصير مما يقوى الرغبة في الاقرار بالعبودية له روى أن عمر رضى الله تعالى عنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشأم فقيل له تتابع في هذا الشراب فقال عمر لكاتبه اكتب من عمر الى فلان سلام عليك وانا أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو بسم الله الرحمن الرحيم حم الى قوله تعالى اليه المصير وختم الكتاب وقال لرسوله لا تدفعه اليه حتى تجده صاحيا ثم امر من عنده بالدعاء له بالتوبة فلما أتته الصحيفة جعل يقرأها ويقول قد وعدنى الله أن يغفر لى وحذرنى عقابه فلم يبرح يرددها حتى بكى ثم نزع وأحسن النزوع وحسنت توبته فلما بلغ عمر امره قال هكذا

فاصنعوا اذا رأيتم اخاكم قدزل زلة فسددوه ووفقوه وادعوا له الله تعالى ان يتوب عليه ولا تكونوا اعوانا للشيطان عليه * ولما قرر تعالى ان القرآن كتاب انزله ليهتدى به فى الدين ذكر احوال من يجادل لغرض ابطاله فقال (ما يجادل) أى يخاصم ويمارى اى يفتل الامور الى مراده (فى آيات الله) اى فى ابطال انوار الملك الاعظم المحيط بصفات الكمال الدال كالشمس على انه تعالى اليه المصير بأن يغش نفسه بالشك فى ذلك (الا الذين كفروا) قال أبو العالية آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون فى القرآن قوله تعالى ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا وقوله تعالى وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ان جدالا فى القرآن كفر وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما يتمارون فى القرآن فقال انما أهلك من كان قبلكم انهم ضربوا كتاب الله بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوه وما جهلتم عنه فكلوه الى عالمه وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال هاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فسمعت أصوات رجلين اختلفا فى آية فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف فى وجهه الغضب فقال انما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى الكتاب * (تنبيه) * الجدال نوعان جدال فى تقرير الحق وجدال فى تقرير الباطل اما الاول فهو حرفة الانبياء عليهم الصلاة والسلام قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وجادلهم بالتى هى أحسن وحكى عن قوم نوح قولهم يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا وأما الثانى فهو مذموم وهو المراد بهذه الآية فجدالهم فى آيات الله هو قولهم مرة هذا سحر ومرة هذا شعر ومرة هو قول الكهنة ومرة أساطير الاولين ومرة انما يعلمه بشر واشباه هذا * ولما أثبت أن الحشر لابد منه وان الله تعالى قادر كامل القدرة لانه لا شريك له وهو محيط بجميع أوصاف الكمال تسبب عن ذلك قوله تعالى (فلا يغررك تقلبهم) أى تنقلهم بالتجارات والفوائد والجيوش والعساكر واقبال الدنيا عليهم (فى البلاد) كبلاد الشأم واليمن فانهم مأخوذون عما قريب بكفرهم أخذ من قبلهم كما قال تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح) وقد كانوا فى غاية القوة والقدرة على القيام بما يحاولونه وكانوا حزبا واحدا لم يفرقهم شئ ولما كان الناس من بعدهم قد كثروا وفرقهم اختلاف الالسنة والاديان وكان للاجمال من الردع فى بعض المواطن ما ليس للتفصيل قال تعالى (والاحزاب) أى الامم المتفرقة الذين لا يحصون عددا ودل على قرب زمان الكفر من الانجاء من الغرق بقوله (من بعدهم) كعاد وثمود (وهمت كل أمة) أى من هؤلاء (برسولهم) أى الذى أرسلناه اليهم (ليأخذوه) أى ليتمكنوا من اصابته بما أرادوه من تعذيب أو قتل ويقال للاسير أخيذ وقال ابن عباس ليقتلوه ويهلكوه (وجادلوا بالباطل) أى بالامر الذى لا حقيقة له وليس له من ذاته الا الزوال كما تفعل قريش ومن ضاهاهم من العرب ثم بين علة مجادلتهم بقوله تعالى (ليدحضوا) أى ليزيلوا (به الحق) أى الذى جاءت به الرسل عليهم السلام (فأخذتهم) أى أهلكتهم وهم صاغرون وقرأ ابن كثير وحفص باظهار الذال والباقون بالادغام (فكيف كان عقاب) لهم أى هو واقع موقعه وهم يمرون على ديارهم

ويرون

ويرون أثرهم وهذا تقريع فيه معنى التعجب * (تنبيه) * حذفت ياء المتكلم اشارة الى ان أدنى شيء من عذابه بأدنى نسبة كاف في المراد ولما كان التقدير فحقت عليهم كلمة الله تعالى عطف عليه (وكذلك) أي ومثل ما حقت عليهم كلمتنا بالاخذ (حقت كلمة ربك) أي المحسن اليك وهي لاملأن جهنم الآية (على الذين كفروا) لكفرهم وقرأ نافع وابن عامر بألف بعد الميم على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد وقوله (أنهم أصحاب النار) في محل رفع بدل من كلمة ربك أي مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار ومعناها كما وجب اهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل كذلك وجب هلاكهم بعذاب النار في الآخرة أو في محل نصب بحذف لام التعليل وايصال الفعل ولما بين تعالى أن الكفار بالغوا في اظهار العداوة للمؤمنين بقوله ما يجادل في آيات الله وما بعده بين تعالى أن الملائكة الذين هم حملة العرش والحافون حوله يبالغون في اظهار المحبة والنصر للمؤمنين فقال تعالى (الذين يحملون العرش) وهو مبتدأ وقوله (ومن حوله) عطف عليه وقوله تعالى (يسبحون) خبره (بحمد ربهم) أي المحسن اليهم قال شهر بن حوشب حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك فلك الحمد على حلمك بعد علمك وأربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك فلك الحمد على عفوك بعد قدرتك قال وكأنهم يرون ذنوب بني آدم وقيل انهم اليوم أربعة فاذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى بأربعة اخر كما قال تعالى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية وهم من أشراف الملائكة وأفضلهم اقربهم من محل رحمة ربهم قال ابن الخازن وجاء في الحديث أن لكل ملك منهم وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر ولكل واحد منهم أربعة أجنحة جناحان منها على وجهه مخافة أن ينظر الى العرش فيصعق وجناحان يهفو بهما في الهواء ليس لهم كلام غير التسبيح والتحميد والتكبير والتمجيد ما بين أظلافهم الى ركبهم كما بين سماء الى سماء وقال ابن عباس حملة العرش ما بين كعب أحدهم الى اسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام ويروى أن أقدامهم في تخوم الارض والارضون والسموات الى حجزتهم وهم يقولون سبحان ذي العزة والجبروت سبحان ذي الملك والملكوت سبحان الحي الذي لا يموت سبوح قدوس رب الملائكة والروح وقال ميسرة بن عرفة ارجلهم في الارض السفلى ورؤسهم خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وهم اشد خوفا من أهل السماء السابعة وأهل السماء السابعة أشد خوفا من أهل السماء التي تليها والتي تليها أشد خوفا من التي تليها وقال مجاهد بين الملائكة والعرش سبعون ألف حجاب من نور وسبعون ألف حجاب من ظلمة وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش ان ما بين شحمة اذنه الى عاتقه مسيرة سبعمائة عام وأما صفة العرش فقيل انه من جوهرة خضراء وهو من أعظم المخلوقات خلقا روى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده انه قال بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية خفقان الطائر المسرع ثلاثين ألف عام ويكسى العرش كل يوم سبعين ألف لون من نور ولا يستطيع أن ينظر اليه خلق من خلق الله تعالى كلها والاشياء كلها

فى العرش كحلقة فى فلاة وقال مجاهد بين السماء السابعة والعرش سبعون ألف حجاب حجاب نور وحجاب ظلمة وحجاب نور وحجاب ظلمة وقيل ان العرش قبلة أهل السماء كما أن الكعبة قبلة أهل الارض وأما من حول العرش فهم الكروبيون وهم سادات الملائكة قال وهب بن منبه ان حول العرش سبعين ألف صف من الملائكة صف خلف صف يطوفون بالعرش يقبل هؤلاء ويقبل هؤلاء فاذا استقبل بعضهم بعضا هلل هؤلاء وكبر هؤلاء ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام أيديهم على أعناقهم قد وضعوها على عواتقهم فاذا سمعوا تكبير هؤلاء وتهليلهم رفعوا أصواتهم فقالوا سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلك أنت الله لا اله غيرك أنت الاكبر الخلق كلهم لك راجعون ومن وراء هؤلاء وهؤلاء مائة ألف صف من الملائكة قد وضعوا اليمنى على اليسرى ليس منهم أحد الا يسبح بتحميد لا يسبحه الآخر ما بين جناحى احدهم مسيرة ثلثمائة عام وما بين شحمتى أذنيه الى عاتقه أربعمائة عام وقد احتجب الله عز وجل عن الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجابا من نار وسبعين حجابا من ظلمة وسبعين حجابا من نور وسبعين حجابا من در أبيض وسبعين حجابا من ياقوت أحمر وسبعين حجابا من زبرجد أخضر وسبعين حجابا من ثلج وسبعين حجابا من ماء وسبعين حجابا من برد وما لا يعلم علمه الا الله تعالى فسبحان من له هذا الملك العظيم ولما كان تعالى لا يحيط به علما أحد من خلقه أشار الى أنهم مع قربهم كغيرهم لا فرق فى ذلك بينهم وبين من فى الارض السفلى بقوله تعالى (ويؤمنون به) لان الايمان انما يكون بالغيب فهم يصدقون بأنه واحد لا شريك له ولا مثل له ولا نظير له (فان قيل) ما فائدة قوله تعالى ويؤمنون به ولا يخفى على أحد ان حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمده مؤمنون (أجيب) بأن فائدته اظهار شرف الايمان وفضله والترغيب فيه كما وصف الانبياء عليهم الصلاة والسلام فى غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى ثم كان من الذين آمنوا فأبان بذلك فضل الايمان ولما كانوا لقربهم أشد الخلق خوفا لانه على قدر القرب من تلك الحضرات يكون الخوف وكان أقرب ما يتقرب به الى الملك لتقربه الى أهل ودّه سبحانه بقوله تعالى (ويستغفرون) أى يطلبون محو الذنوب عينا وأثرا (للذين آمنوا) أى أوقعوا هذه الحقيقة فهم يستغفرون لمن فى مثل حالهم وصفتهم وفى ذلك تنبيه على ان الاشتراك فى الايمان يجب أن يكون أدعى شئ الى النصيحة وأبعث على امحاض الشفقة وان تفاوتت الاجناس وتباعدت الاماكن فانه لا تجانس بين ملك وانسان ولا بين سماوى وأرضى قط ولكن لما جاء جامع الايمان جاء معه التجانس الكلى والتناسب الحقيقى حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الارض قال تعالى ويستغفرون لمن فى الارض واستغفارهم بأن يقولوا (ربنا) أى أيها المحسن الينا بالايمان وغيره فهو معمول القول مضمر فى محل نصب على الحال من فاعل يستغفرون أو خبر بعد خبر (وسعت كل شئ رحمة وعلما) أى وسعت رحمتك كل شئ وعلمك كل شئ فأزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل الى صاحب الرحمة والعلم وأخرجا منصوبين على التمييز للاغراق فى وصفه بالرحمة والعلم كان ذاته رحمة وعلم واسعان

كل

كل شيء وأكثر ما يكون الدعاء بذكر الرب لأن الملائكة قالوا في هذه الآية وقال آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا وقال نوح عليه السلام رب ان قومي كذبون وقال رب اغفر لي ولوالدي وقال ابراهيم عليه السلام رب أرني كيف تحيي الموتى وقال ربنا واجعلنا مسلمين لك وقال يوسف عليه السلام رب قد آتيتني من الملك وقال موسى عليه السلام رب أرني انظر اليك وقال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي وقال سليمان عليه السلام رب اغفر لي وهب لي ملكا وقال عيسى عليه السلام ربنا أنزل علينا مائدة من السماء وقال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين (فان قيل) لفظ الله أعظم من لفظ الرب فلم خص لفظ رب بالدعاء (أجيب) بأن العبد يقول كنت في العدم المحض والنفي الصرف فأخرجتني الى الوجود وربيتني فاجعل تربيتك واحسانك سببا لاجابة دعائي (فاغفر للذين تابوا) أي رجعوا اليك عن ذنوبهم برحمتك لهم بأن تمحوها عينا وأثرا فلا عقاب ولا عتاب ولا ذكر لها (واتبعوا) أي كلفوا أنفسهم على ما لها من العوج ان لزموا (سبيلك) المستقيم الذي لا لبس فيه ولما كان الغفران قد يكون لبعض الذنوب وكان سبحانه وتعالى له ان يعذب من لا ذنب له وان يعذب من غفر ذنبه قالوا (وقهم عذاب الجحيم) أي اجعل بينهم وبينه وقاية بأن تلزمهم الاستقامة وتتم نعمتك عليهم فانك وعدت من كان كذلك بذلك ولا يبدل القول لديك وان كان يجوز أن تفعل ما تشاء وان الخلق عبيدك ولما طلبوا من الله سبحانه وتعالى ازالة العذاب عنهم وكان ذلك لا يستلزم الثواب قالوا مكررين صفة الاحسان زيادة في الرقة في طلب الامتنان (ربنا) أيها المحسن الينا (وأدخلهم جنات عدن) أي اقامة (التي وعدتهم) أي اياها وقولهم (ومن صلح) معطوف على هم في وعدتهم وقدموا قولهم (من آبائهم) على قولهم (وأزواجهم وذرياتهم) لان الآباء أحق الناس بالاجلال وقدموا الازواج في اللفظ على الذرية لانهم أشد التصاقا بالشخص وطلبوا لهم ذلك لان الانسان لا يتم نعيمه الا بأهله قال سعيد بن جبير يدخل الجنة المؤمن فيقول اين أبي أين ولدي وزوجتي فيقال له انهم لم يعملوا مثل عملك فيقول اني كنت أعمل لي ولهم فيقال ادخلوهم الجنة (انك أنت) أي وحدك (العزيز) أي فأنت تغفر لمن شئت (الحكيم) فكل فعلك في أتم مواضعه فلا يتهيأ لاحد نقضه ولا نقصه (وقهم السيآت) أي بأن تجعل بينهم وبينها وقاية بأن تطهرهم من الاخلاق الحاملة عليها (فان قيل) هذا مكرر مع قوله وقهم عذاب الجحيم (أجيب) بأن التفاوت حاصل من وجهين أحدهما أن يكون قولهم وقهم عذاب الجحيم دعاء مذكورا للاصول وقولهم وقهم السيآت دعاء مذكورا للفروع وهم الآباء والازواج والذريات ثانيهما أن يكون قوله وقهم عذاب الجحيم مقصورا على ازالة عذاب الجحيم وقوله وقهم السيآت يتناول عذاب الجحيم وعذاب موقف يوم القيامة والسؤال والحساب فيكون تعميما بعد تخصيص وهذا أولى وقال بعض المفسرين ان الملائكة طلبوا ازالة عذاب النار عنهم بقولهم وقهم عذاب الجحيم وطلبوا ايصال الثواب اليهم بقولهم وأدخلهم جنات عدن ثم طلبوا بعد ذلك أن يصونهم الله تعالى في الدنيا من العقائد الفاسدة بقولهم وقهم السيآت وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر

الميم والهاء وحمزة والكسائي بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم ثم قالت الملائكة (ومن تق السيآت) أي جزاءها كلها (يومئذ) أي يوم تدخل فريقا الجنة وفريقا النار المسببة عن السيآت وهو يوم القيامة (فقد رحمته) أي الرحمة الكاملة التي لا يستحق غيرها معها أن يسمى رحمة فان تمام النعيم لا يكون الا بالزوال التحاسد والتباغض والنجاة من النار باجتناب السيآت ولذلك قالوا (وذلك) أي الامر العظيم جدا (هو الفوز العظيم) أي النعيم الذي لا ينقطع في جوار ملك لا تصل العقول الى كنه عظمته واجلاله هذا آخر دعاء الملائكة للمؤمنين قال مطرف أنصح عباد الله تعالى للمؤمنين الملائكة وأغش الخلق للمؤمنين هم الشياطين ثم انه تعالى بعد ان ذكر أحوال المؤمنين عاد الى ذكر أحوال الكافرين المجادلين في آيات الله تعالى وهم المذكورون في قوله تعالى ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا فقال تعالى مستأنفا مؤكدا لانكارهم آيات الله تعالى (ان الذين كفروا) أي أوقعوا الكفر ولو لحظة (ينادون) يوم القيامة وهم في النار وقد مقتوا أنفسهم حين عرض عليهم سيآتهم وعاينوا العذاب فيقال لهم (لمقت الله) أي الملك الاعظم اياكم (أكبر) والتقدير لمقت الله لانفسكم أكبر (من مقتكم أنفسكم) فاستغنى بذكرها مرة وقوله تعالى (اذ تدعون الى الايمان فتكفرون) منصوب بالمقت الاول والمعنى انه يقال لهم يوم القيامة كان الله تعالى يمقت أنفسكم الامارة بالسوء والكفر حين كان يدعوكم الى الايمان فتأبون قبوله وتختارون عليه الكفر أشد مما تمقتونهن اليوم وأنتم في النار اذا وقعتم فيها باتباعكم هواهن وذكروا في تفسير مقتهم أنفسهم وجوها أولها أنهم اذا شاهدوا القيامة والجنة والنار مقتوا أنفسهم على اصرارهم على التكذيب بهذه الاشياء في الدنيا ثانيها ان الاتباع يشتد مقتهم للرؤساء الذين يدعونهم الى الكفر في الدنيا والرؤساء أيضا يشتد مقتهم للاتباع فعبر عن مقت بعضهم بعضا بأنهم مقتوا أنفسهم كقوله تعالى اقتلوا أنفسكم والمراد أن يقتل بعضكم بعضا ثالثها قال محمد بن كعب اذا خطبهم ابليس وهو في النار بقوله ما كان لي عليكم من سلطان الى قوله ولوموا أنفسكم ففي هذه الحالة مقتوا أنفسهم وأما الذين ينادون الكفار بهذا الكلام فهم خزنة جهنم وعن الحسن لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم فنودوا لمقت الله أكبر وقيل معناه لمقت الله اياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض كقوله تعالى يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا واذ تدعون تعليل والمقت أشد البغض وذلك في حق الله تعالى محال فالمراد منه أبلغ الانكار وأشده وعن مجاهد مقتوا أنفسهم حين رأوا أعمالهم ومقت الله تعالى اياهم في الدنيا اذ يدعون الى الايمان فيكفرون أكبر وقال الفراء معناه ينادون ان مقت الله يقال ناديت ان زيدا قائم وناديت لزيد قائم وقرأ أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي بادغام الذال في التاء والباقون بالاظهار ثم انه تعالى بين أن الكفار اذا خوطبوا بهذا الخطاب (قالوا ربنا) أي أيها المحسن الينا بما تقدم فيدار الدنيا (أمتنا اثنتين) اى اماتتين (وأحييتنا اثنتين) أى احياءتين قال ابن عباس

وقتادة والضحاك كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم فأحياهم الله تعالى في الدنيا ثم أماتهم الموتة الاولى التي لابد منها ثم أحياهم للبعث يوم القيامة فهما موتتان وحياتان وهو كقوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم وقال السدي أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في قبورهم للمسئلة ثم أميتوا في قبورهم ثم أحيوا في الآخرة وقيل واحدة عند انقضاء الاجال في الحياة الدنيا وأخرى بالصعق بعد البعث أو الارقاد بعد سؤال القبر ورد بأن الصعق ليس بموت ومافي البرازخ ليس بحياة حتى يكون عنه موت وانما هو اقدار على الكلام كما أقدر سبحانه الحصا على التسبيح والحجر على التسليم والضب على الشهادتين (فاعترفنا بذنوبنا) أي بكفرنا بالبعث (فهل الى خروج) من النار الى الدنيا فنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك (من سبيل) أي طريق ونظيره هل الى مرد من سبيل والمعنى أنهم لما عرفوا أن الذي كانوا عليه في الدنيا كان فاسدا باطلا تمنوا الرجوع الى الدنيا ليشتغلوا بالاعمال الصالحة (فان قيل) الفاء في قوله تعالى فاعترفنا بذنوبنا تقتضي أن تكون الامانة مرتين والاحياء مرتين سببا لهذا الاعتراف فما وجه هذه السببية (أجيب) بأنهم كانوا منكرين البعث فلما شاهدوا هذا الاحياء بعد الاماتة مرتين لم يبق لهم عذر في الاقرار بالبعث فلا جرم وقع هذا الاقرار كالمسبب عن تلك الاماتة والاحياء * ولما كان الجواب قطعا لا سبيل الى ذلك علله بقوله تعالى (ذلكم) أي القضاء النافذ العظيم العالي بتخليدكم في النار مقتا منه لكم (بأنه) أي كان بسبب أنه (اذا دعي الله) أي الملك الاعظم من أي داع وفي اعراب قوله تعالى (وحده) وجهان أحدهما انه مصدر في موضع الحال وجاز مع كونه معرفة لفظا لكونه في قوة النكرة كأنه قيل منفردا ثانيهما وهو قول يونس انه منصوب على الظرف والتقدير دعي على حدته وهو مصدر محذوف الزوائد والتقدير أوحدته ايحادا (كفرتم) بتوحيده (وان يشرك به) أي يجعل له تعالى شريك (تؤمنوا) أي تصدقوا بالاشراك (فالحكم) أي فتسبب عن القطع بأنه لا رجعة وأن الكفار ماضروا الا أنفسهم مع ادعائهم العقول الراجحة ونحو ذلك أن الحكم كله (لله) أي المحيط بصفات الكمال (العلي) أي عن أن يكون له شريك (الكبير) أي الذي لا يليق الكبر الا له * ولما قصر الحكم عليه دل على ذلك بقوله تعالى (هو) أي وحده (الذي يريكم) أي بالبصر والبصيرة (آياته) أي علاماته الدالة على تفرده بصفات الكمال وأنه لا يجوز جعل هذه الاحجار المنحوتة والخشب المصورة شركاء لله عز وجل في العبودية ومن آياته الدالة على كمال القدرة والعظمة قوله تعالى (وينزل لكم من السماء) أي جهة العلو الدالة على قهر ما نزل منها بامساكه الى حين الحكم بنزوله (رزقا) أي أسباب رزق كالمطر لاقامة أبدانكم لان أهم المهمات رعاية مصالح الاديان ومصالح الابدان والله تعالى راعى مصالح أديان العباد باظهار البينات والآيات وراعى مصالح أبدانهم بانزال الرزق من السماء فموقع الآيات من الاديان كموقع الارزاق من الابدان وعند حصولهما يكمل الانعام الكامل وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي والباقون بفتح النون وتشديد الزاي (وما يتذكر) ذلك تذكرا

تاماً فينعظ بهذه الآيات (الا من ينيب) أى يرجع الى الله تعالى ويقبل بكليته الى الله تعالى فى جميع أموره فيعرض عن غير الله تعالى ولهذا قال عز من قائل (فادعوا) وصرح بالاسم الاعظم فقال تعالى (الله) الذى له صفات الكمال أى فاعبدوه (مخلصين له الدين) أى الافعال التى يقع الجزاء عليها فمن كان يصدق بالجزاء وبأن ربه غنى لا يقبل الا الخالص اجتهد فى تصفية أعماله فيأتى بها فى غاية الخلوص عن كل ما يمكن أن يكدر من غير شائبة شرك جلى أو خفى كما أن معبوده واحد من غير شائبة نقص (ولو كره) أى الدعاء منكم (الكافرون) أى الساترون لانوار عقولهم * ولما ذكر تعالى من صفات كبريائه كونه مظهر الآيات ذكر ثلاثة أخرى من صفات الجلال والعظمة وهى قوله تعالى (رفيع الدرجات) وهذا يحتمل أن يكون المراد منه الرافع وأن يكون المراد منه المرتفع فان حملناه على الاول ففيه وجهان أولهما انه تعالى يرفع درجات الانبياء والاولياء ثانيهما يرفع درجات الخلق فى العلوم والاخلاق الفاضلة فجعل لكل أحد من الملائكة درجة معينة كما قال تعالى عنهم وما منا الا له مقام معلوم وجعل لكل واحد من العلماء درجة معينة فقال تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وعين لكل جسم درجة معينة فجعل بعضها سفلية كدرة وبعضها فلكية وبعضها من جواهر العرش والكرسى وأيضا جعل لكل واحد مرتبة معينة فى الخلق والخلق والرزق والاجل فقال تعالى وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات وجعل لكل واحد من السعداء والاشقياء فى الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة وفى الآخرة تظهر تلك الآثار وان حملنا الرفيع على المرتفع فهو سبحانه وتعالى أرفع الموجودات فى جميع صفات الكمال والجلال *(تنبيه)* فى رفيع وجهان أحدهما انه مبتدأ والخبر (ذو العرش) أى الكامل الذى لا عرش فى الحقيقة الا هو فهو محيط بجميع الاكوان ومادة لكل جماد وحيوان وعال بجلاله وعظمته عن كل ما يخطر فى الاذهان وقوله تعالى (يلقى الروح) أى الوحى سماه روحا لانه تحيا به القلوب كما تحيا الابدان بالارواح (من أمره) قال ابن عباس أى رضاه وقوله يلقى يجوز أن يكون خبرا ثانيا وأن يكون حالا ويجوز أن تكون الثلاثة أخبارا لقوله تعالى هو الذى يريكم آياته * ولما كان أمره تعالى عاليا على كل أمر أشار الى ذلك بأداة الاستعلاء فقال تعالى (على من يشاء) أى يختار (من عباده) للنبوة وفى هذا دليل على أنها عطائية وقوله (لينذر) أى يخوف غاية الانذار والفاعل هو الله تعالى أو الروح أو من يشاء أو الرسول والمنذر به محذوف تقديره لينذر العذاب (يوم التلاق) أى يوم القيامة فان فيه تتلاقى الارواح والاجساد وأهل السماء والارض وقال مقاتل يلتقى الخلق والخالق تعالى وقال ميمون بن مهران يلتقى الظالم والمظلوم وقيل يلتقى العابدون والمعبودون وقيل يلتقى فيه المرء مع عمله والاولى أن تفسر الآية بما يشمل الجميع (يوم هم بارزون) أى خارجون من قبورهم وقيل ظاهرون لا يسترهم شئ من جبل أو شجر أو تلال أو غير ذلك وقيل بارزون كناية عن ظهور حالهم وانكشاف أسرارهم كما قال تعالى يوم تبلى

قوله ويجوز أن تكون الثلاثة أخبار الخ يؤخذ منه الوجه الثانى اه

السرائر والاولى أيضا أن تفسر الآية بما يشمل الجميع كما قال تعالى (لا يخفى على الله) أى المحيط علما وقدرة (منهم) أى من أعمالهم وأحوالهم (شئ) وان دق وخفى ويقول الله تعالى فى ذلك اليوم بعد فناء الخلق (لمن الملك اليوم) أى يامن كانوا يعملون أعمال من يظن أنه لا يقدر عليه أحد فلا يجيبه أحد فيجيب نفسه فيقول تعالى (لله) أى الذى له جميع صفات الكمال ثم دل على ذلك بقوله تعالى (الواحد) أى الذى لا يمكن أن يكون له ثان بشركة ولا قسمة ولا غيرهما (القهار) أى الذى قهر الخلق بالموت وقيل يجيبونه بلسان الحال أو المقال فيقولون ذلك وقال الرازى لا يبعد أن يكون السائل والمجيب هو الله تعالى ولا يبعد أيضا أن يكون السائل جمعا من الملائكة والمجيب جمعا آخرين وليس على التعيين (فان قيل) الله تعالى لا يخفى عليه شئ منهم فى جميع الايام فما معنى تقييد هذا العلم بذلك اليوم (أجيب) بأنهم كانوا يتوهمون فى الدنيا أنهم اذا استتروا بالحيطان والحجب أن الله تعالى لا يراهم وتخفى عليه أعمالهم فهم فى ذلك اليوم صائرون من البروز والانكشاف الى حال لا يتوهمون فيها مثل ما يتوهمون فى الدنيا كما قال تعالى ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون وقال تعالى يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم وهو معنى قوله تعالى وبرزوا لله الواحد القهار ولما أخبر تعالى عن اذعان كل نفس بانقطاع الاسباب أخبرهم بما يزيد رعبهم ويبعث رغبتهم وهو نتيجة تفرده بالملك فقال تعالى (اليوم تجزى) أى تقضى وتكافأ (كل نفس بما) أى بسبب ما (كسبت) أى عملت لا تترك نفس واحدة لان العلم قد شملهم والقدرة قد أحاطت بهم وعمتهم والحكمة قد منعت من اهمال أحد منهم فيجزى المحسن باحسانه والمسئ باساءته (لا ظلم اليوم) أى بوجه من الوجوه (ان الله) أى التام القدرة الشامل للعلم (سريع الحساب) أى بليغ السرعة فيه لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره فى وقت حساب ذلك الغير ولا يشغله شأن عن شأن لانه تعالى لا يحتاج الى تكلف عد ولا يفتقر الى مراجعة كتاب ولا شئ فكان فى ذلك ترجية وتخويف الفريقين لان المؤمن يرجو اسراع البسط بالثواب والظالم يخشى اسراع الاخذ بالعذاب وعن ابن عباس اذا أخذ فى حسابهم لم يقل أهل الجنة الا فيها ولا أهل النار الا فيها * ثم نبه تعالى بقوله سبحانه (وأنذرهم يوم الآزفة) أى القيامة على أن يوم القيامة قريب ونظيره قوله تعالى اقتربت الساعة قال الزجاج انما قيل لها آزفة لانها قريبة وان استبعد الناس مداها لان ما هو كائن قريب والآزفة فاعلة من أزف الامر اذا دنا وحضر كقوله تعالى فى صفة القيامة أزفت الآزفة أى قربت قال النابغة * أزف الترحل غير ان ركابنا * لما تزل برحالنا وكان وقد

وقال كعب بن زهير

بان الشباب وهذا الشيب قد أزفا * ولا أرى لشباب بائن خلفا

* (تنبيه) * الآزفة نعت لمحذوف مؤنث كيوم القيامة الآزفة أو يوم المجازاة الآزفة قال القفال وأسماء القيامة تجرى على التأنيث كالطامة والحاقة لانها من جع معناها على الداهية ويوم القيامة له أسماء كثيرة تدل على أهوالها باعتبار مواقفه وأحواله منها يوم البعث وهو ظاهر

ومنها يوم التلاق للماس ومنها يوم التغابن لغبن أكثر من فيه وخسرانه وقيل المراد بيوم الآزفة مشارفتهم دخول النار فان عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارّها من شدة الخوف وقال أبو مسلم هو يوم حضور الاجل فان يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب * ولما ذكر تعالى اليوم هوّل أمره بما يحصل فيه من المشاق بقوله تعالى (اذ القلوب) أى من كل من حضره ترتفع (لدى) أى عند (الحناجر) أى حناجر المجموعين فيه وهو جمع حنجور وهو الحلقوم يعنى أنها زالت عن اماكنها صاعدة من كثرة الرعب حتى كادت تخرج * ثم أسند اليها ما يسند للعقلاء فقال تعالى (كاظمين) أى ممتلئين خوفا ورعبا وحزنا مكروبين فقد استدت مجارى أنفاسهم وأخذ بجميع احساسهم * ولما كان من المعهود أن الصداقات تنفع فى مثل ذلك والشفاعات قال تعالى مستأنفا (ما للظالمين) أى العريقين فى الظلم (من حميم) أى قريب صادق فى مودتهم مهتم بأمورهم مزيل لكروبهم (ولا شفيع يطاع) فيشفع لهم * (تنبيه) * احتج المعتزلة بهذه الآية على نفى الشفاعة عن المذنبين فقالوا نفى حصول شفيع لهم يطاع يوجب أن لا يحصل لهم هذا الشفيع وأجيبوا بوجوه أولها أنه تعالى نفى أن يحصل لهم شفيع يطاع وهذا لا يدل على نفى الشفيع كقولك ماعندى كتاب يباع لا يقتضى نفى الكتاب فهذا ينفى ان لهم شفيعا يطيعه الله تعالى مامن شفيع الامن بعد اذنه ثانيها أن المراد بالظالمين فى هذه الآية ههنا الكفار لانها وردت فى زجر الكفار قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم ثالثها أن لفظ الظالمين اما أن يفيد الاستغراق أولا فان كان المراد جميعهم فيدخل فيه الكفار وعندنا أنه ليس لهذا الجمع شفيعا لان بعضه كفار وليس لهم شفيع فحينئذ لا يكون لهذا الجمع شفيع وان لم يفد الاستغراق كان المراد من الظالمين بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم شفيع * ولما أمر الله تعالى بانذار يوم الآزفة وما يعرض فيه من شدة الغم والكرب وأن الظالم لا يجد من يحميه ولا يشفع له ذكر اطلاعه على جميع ما يصدر من الخلق سرا وجهرا فقال تعالى (يعلم خائنة الاعين) أى خيانتها التى هى أخفى ما يقع من أفعال الظاهر جعل الخيانة مبالغة فى الوصف وهو الاشارة بالعين قال أبو حيان من كسر عين وغمز ونظر يفهم المراد * ولما ذكر أخفى أفعال الظاهر أتبعه أخفى أفعال الباطن فقال تعالى (وما تخفى الصدور) أى القلوب فعلم من ذلك أن الله تعالى عالم بجميع أفعالهم لان الافعال على قسمين أفعال الجوارح وأفعال القلوب فأما أفعال الجوارح فأخفاها خيانة الاعين والله تعالى عالم بها فكيف الحال فى سائر الاعمال وأما أفعال القلوب فهى معلومة لله تعالى لقوله عز وجل وما تخفى الصدور وقوله تعالى (والله) أى المتصف بجميع صفات الكمال (يقضى بالحق) أى الثابت الذى لا ينتفى يوجب عظيم الخوف لان الحاكم اذا كان عالما بجميع الاحوال وثبت أنه لا يقضى الا بالحق فى كل دقيق وجل كان خوف المذنب منه فى الغاية القصوى ولما عوّل الكفار فى دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الاصنام بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة فقال تعالى (والذين يدعون) أى يعبدون (من دونه) وهم الاصنام (لا يقضون) لهم (بشئ) من الاشياء أصلا فكيف يكونون

شركاءالله تعالى وقرأ نافع وهشام تدعون بتاء الخطاب للمشركين والباقون بياء الغيبة اخبارا عنهم بذلك * ولما أخبر تعالى أنه لا فعل لشركائهم وأن الامر له وحده قال تعالى مؤكدا لاجل أن أفعالهم تقتضي انكار ذلك (ان الله) أي المنفرد بصفات الكمال (هو) أي وحده (السميع) أي لجميع أقوالهم (البصير) أي بجميع أفعالهم ففي ذلك تقرير لعلمه تعالى بخائنة الاعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون و يفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه فثبت أن الامر له وحده فما تنفعهم شفاعة الشافعين ولا تقبل فيهم من أحد شفاعة بعد الشفاعة العامة التي هي خاصة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهي المقام المحمود الذي يغبطه به الاولون والآخرون فان كل أحد يحجم عنها حتى يصل الامر اليه صلى الله عليه وسلم فيقول أنا لها أنا لها ثم يذهب الى المكان الذي أذن له فيه فيشفع فيشفعه الله تعالى فيفصل سبحانه وتعالى بين الخلائق ليذهب كل احد الى داره جنته أو ناره * ولما أوعدهم سبحانه بصادق الاخبار عن قوم نوح ومن تبعهم من الكفار وختمه بالانذار بما يقع في دار القرار للظالمين الاشرار أتبعه الوعظ والتخويف بالمشاهدة بمن تتبع الديار والاعتبار بما كان لهم فيها من عجائب الآثار فقال عز من قائل (أولم يسيروا في الارض) أي في أي أرض ساروا فيها (فينظروا) أي نظر اعتبار كما هو شأن أهل البصائر (كيف كان عاقبة) أي آخر أمر (الذين كانوا) أي كانا للارض عريقين في عمارتها (من قبلهم) أي قبل زمانهم من الكفار كعاد وثمود (كانوا هم) أي المتقدمون لما لهم من القوة الظاهرة والباطنة (أشد منهم) أي من هؤلاء (قوة) أي ذوات ومعاني واغا جيء بالفصل وحقه أنه يقع بين معرفتين لمضارعة أفعل من المعرفة في امتناع دخول اللام عليه وقرأ ابن عامر منكم بكاف والباقون بهاء الغيبة (و) أشد (آثارا في الارض) لان آثارهم لم يندرس بعضها الى هذا الزمان وقد مضى عليه ألوف من السنين وأما المتأخرون فتنطمس آثارهم في أقل من قرن ومع قوتهم (فأخذهم الله) أي الذي له صفات الكمال أخذ غلبة وقهر وسطوة (بذنوبهم) أي بسببها (وما كان لهم) من شركائهم الذين ضلوا بهم هؤلاء ومن غيرهم (من الله) أي المتصف بجميع صفات الكمال (من واق) أي يقيهم عذابه والمعنى ان العاقل من اعتبر بغيره وان الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء * ولما كذبوا رسلهم أهلكهم الله تعالى عاجلا وقرأ ابن كثير في الوقف بالياء بعد القاف والباقون بغير ياء واتفقوا على التنوين في الوصل ثم ذكر تعالى سبب أخذهم بقوله تعالى (ذلك) أي الاخذ العظيم (بأنهم) أي الذين كانوا من قبل (كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) أي الآيات الدالة على صدقهم دلالة هي من وضوح الامر بحيث لا يسع منصفا انكارها وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون بضمها * ولما كان مطلق الكفر كافيا في العذاب عبر بالماضي فقال تعالى (فكفروا) أي سببوا عن اتيان الرسل عليهم السلام اليهم الكفر بهم (فأخذهم الله) أي الملك الاعظم اخذ غضب (انه قوي) أي متمكن مما يريد غاية التمكن (شديد العقاب) لا يؤبه بعقاب دون عقابه * ولما سلى تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بذكر الكفار الذين

كذبوا الانبياء عليهم السلام قبله وبمشاهدة آثارهم سلاه أيضا بذكر قصة موسى عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد أرسلنا) أى على مالنا من العظمة (موسى بآياتنا) أى الدالة على جلالنا (وسلطان) أى أمر قاهر عظيم جدا لا حيلة لهم فى مدافعة شئ منه (مبين) أى بين فى نفسه يتبين لكل من يمكن اطلاعه عليه انه ظاهر وذلك الامر هو الذى كان يمنع فرعون من الوصول الى أذاه مع ماله من القوة والسلطان (الى فرعون) اى ملك مصر (وهامان) أى وزيره (وقارون) أى قريب موسى (فقالوا) أى هؤلاء ومن معهم هو (ساحر) لعجزهم عن مقاهرته اما من عدا قارون فأولا وآخرا بالقوة والفعل وأما قارون ففعله آخرا بين انه مطبوع على الكفر وان آمن أولا وان هذا كان قوله وان لم يقله بالفعل فى ذلك الزمان فقد قاله فى النية فدل ذلك على انه لم يزل قائلا به لانه لم يتب منه ثم وصفوه بقولهم (كذاب) لخوفهم من تصديق الناس له (فلما جاءهم بالحق) أى بالامر الثابت الذى لا طاقة لاحد بتغيير شئ منه كائنا (من عندنا) على مالنا من القهر فآمن معه طائفة من قومه (قالوا) أى فرعون وأتباعه (اقتلوا) أى قتلا حقيقيا بازالة الروح (أبناء الذين آمنوا) به أى فكانوا (معه) أى خصوهم بذلك واتركوا من عداهم فلعلهم يكذبونه (واستحيوا نساءهم) أى اطلبوا احياءهن بأن لا تقتلوهن قال قتادة هذا غير القتل الاول لان فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان فلما بعث موسى عليه السلام أعاد القتل عليهم فعناه أعيدوا عليهم القتل لئلا ينشؤا على دين موسى فيقوى بهم وهذه العلة مختصة بالبنين فلهذا أمر بقتل الابناء واستحياء نسائهم (وما) أى والحال انه ما (كيد الكافرين) تعميما وتعليقا بالوصف (الا فى ضلال) أى مجانبة للسداد الموصل الى الظفر والفوز لانه ما أفادهم أولا فى الحذر من موسى عليه السلام ولا آخرا فى صد من آمن به مرادهم بل كان فيه تبارهم وهلاكهم وكذا أفعال الفجرة مع أوليائه تعالى ما حفر أحد منهم لاحد منهم حفرة مكرا الا أركسه الله تعالى فيها (وقال فرعون) أى أعظم الكفرة فى ذلك الوقت لرؤساء أتباعه عندما علم انه عاجز عن قتله وملأه ما رأى منه خوفا دافعا عن نفسه ما يقال من انه ما ترك موسى عليه السلام مع استهانته به الا عجزا عنه موهما ان قومه هم الذين يردونه عنه وانه لولا ذلك لقتله (ذرونى) أى اتركونى على أى حالة كانت (أقتل موسى) وزاد فى الايهام للاغبياء والمناداة على نفسه عند البصراء بقوله (وليدع ربه) أى الذى يدعوه ويدعى احسانه اليه بما يظهر على يديه من هذه الخوارق وقيل كان فى خاصة قوم فرعون من يمنعه من قتل موسى وفى منعه من قتله وجوه أولها العلة كان فيهم من يعتقد بقلبه كون موسى صادقا فيتحيل فى منع فرعون من قتله وثانيها قال الحسن ان أصحابه قالوا له لا تقتله فانما هو ساحر ضعيف ولا يمكن ان يغلب سحرنا فان قتلته أدخلت الشبهة على الناس ويقولون انه كان محقا وعجزوا عن جوابه فقتلوه وثالثها أنهم كانوا يحتالون فى منعه من قتله لاجل ان يبقى فرعون مشغول القلب بموسى فلا يتفرغ لتأديب تلك الاقوام لان من شأن الامراء ان يشغلوا قلب ملكهم بخصم خارجى حتى يصيروا آمنين من قبل ذلك الملك

وقرأ ابن كثير بفتح الياء والباقون بالسكون * ثم ذكر فرعون السبب الموجب لقتل موسى عليه السلام وهو اما فساد الدين أو فساد الدنيا فقال (انى أخاف) أى ان تركته (أن يبدل دينكم أو ان يظهر فى الارض الفساد) أى لابد من وقوع أحد الامرين اما فساد الدين واما فساد الدنيا أما فساد الدين فلان القوم اعتقدوا ان الدين الصحيح هو دينهم الذى كانوا عليه فلما كان موسى عليه السلام ساعيا فى افساده اعتقدوا انه ساع فى افساد الدين الحق وأما فساد الدنيا فهو ان يجتمع عليه أقوام ويصير ذلك سببا فى وقوع الخصومات واثارة الفتن وبدأ فرعون بذكر الدين أولا لان حب الناس لاديانهم فوق حبهم لاموالهم * ولما توعد فرعون موسى عليه السلام بالقتل لم يأت فى دفع شره الا بأن استعان بالله واعتمد على فضله كما قال تعالى (وقال موسى انى عذت) أى اعتصمت عند ابتداء الرسالة (بربى) ورغبهم فى الاعتصام به ونبههم بقوله (وربكم) أى المحسن الينا أجمعين وأرسلنى لاستنقاذكم من أعداء الدين والدنيا (من كل متكبر) أى عات طاغ متعظم على الحق هذا وغيره (لايؤمن) أى لايتجدد له تصديق (بيوم الحساب) من ربه له وهو يعلم انه لابد من حسابه هو لمن تحت يده من رعاياه وعبيده فيحكم على ربه بما لايحكم به على نفسه وبهذين الامرين يقدم الانسان على اتقاء الناس لان المتكبر القاسى القلب قد يحمله طبعه عن ايذاء الناس الا انه اذا كان مقرا بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعاله عن الجرى على موجب تكبره فاذا لم يحصل له الايمان بالبعث والقيامة كان طبعه داعياله الى الايذاء لان المانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائل فلاجرم تعظم القسوة والايذاء * واختلف فى الرجل المؤمن فى قوله تعالى (وقال رجل مؤمن) أى راسخ الايمان (من آل فرعون) أى من وجوههم ورؤسائهم (يكتم ايمانه) أى يخفيه خفاء شديدا خوفا على نفسه فقال مقاتل والسدى كان قبطيا ابن عم فرعون وهو الذى حكى الله تعالى عنه وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى وقيل كان اسرائيليا وعن ابن عباس لم يكن فى آل فرعون غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذى أنذر موسى عليه السلام الذى قال ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الصديقون حبيب النجار مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون الذى قال أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله والثالث أبو بكر الصديق وهو أفضلهم وعن جعفر بن محمد ان مؤمن آل فرعون قال ذلك سرا وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه جهارا أتقتلون رجلا ان يقول ربى الله وروى عن عروة بن الزبير قال قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرنى بأشد ما صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة اذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا وقال له أنت الذى تنهانا عما كان يعبد آباؤنا قال أنا ذلك فأقبل أبو بكر رضى الله تعالى عنه فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم فكان أبو بكر أشد من ذلك وعن أنس بن مالك قال ضربوا رسول الله

صلى الله عليه وسلم حتى غشي عليه فقام أبو بكر فجعل ينادي ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله قالوا من هذا قيل هذا ابن أبي قحافة قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وأكثر العلماء كان اسم الرجل حزقيل وقال ابن اسحق جبريل وقيل حبيب * ولما حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام انه ما زاد في دفع فرعون وشره على الاستعاذة بالله تعالى بين أنه تعالى قيض له انسانا أجنبيا حتى ذب عنه بأحسن الوجوه وبالغ في تسكين تلك الفتنة فقال (أتقتلون رجلا) أي هو عظيم في الرجال حسا ومعنى ثم علل قتلهم له بما ينافيه فقال (أن) أي لاجل أن (يقول) قولا على سبيل الانكار (ربي) أي المربي والمحسن الي (الله) أي الجامع لصفات الكمال (وقد) أي والحال أنه قد (جاءكم بالبينات) أي الآيات الظاهرات من غير لبس (من ربكم) أي الذي لا احسان عندكم الا منه ثم ذكر ذلك المؤمن حجة ثانية على أن الاقدام على قتله غير جائز وهي حجة مذكورة على طريق التقسيم فقال (وان يك) أي هذا الرجل (كاذبا فعليه) أي خاصة (كذبه) أي كان وبال كذبه عليه وليس عليكم منه ضرر فاتركوه (وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم) أي العذاب عاجلا ولمصدقه ينفعه ولا ينفعكم شيأ (فان قيل) لم قال بعض الذي يعدكم وهو نبي صادق لابد لما يعدهم ان يصيبهم كله (أجيب) بأنه انما قال ذلك ليهضم موسى بعض حقه في ظاهر الكلام فيريهم انه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيا فضلا عن ان يتعصب له وهذا أولى من قول أبي عبيدة وغيره ان بعض بمعنى كل وأنشد قول لبيد

تراك أمكنة اذا لم أرضها * أو يرتبط بعض النفوس حمامها

وأنشد أيضا قول عمرو بن سهم

قد يدرك المتأني بعض حاجته * وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقال الآخر

ان الامور اذا الاحداث دبرها * دون الشيوخ ترى في بعضها خللا

وقوله (ان الله) أي الذي له مجامع العظمة (لا يهدي) الى ارتكاب ما ينفع واجتناب ما يضر (من هو مسرف) باظهار الفساد وبتجاوز الحدود (كذاب) فيه احتمالان أحدهما ان هذا اشارة الى الرمز والتعريض بعلو شأن موسى عليه السلام والمعنى ان الله تعالى هدى موسى عليه السلام الى الاتيان بالمعجزات الباهرة ومن هداه الله تعالى الى الاتيان بالمعجزات لا يكون مسرفا كذابا فدل على ان موسى عليه السلام ليس من المسرفين الكذابين ثانيهما أن يكون المراد أن فرعون مسرف في عزمه على قتل موسى عليه السلام كذاب في ادعائه الالهية والله تعالى لا يهدي من هذا شأنه وصفته بل يبطله ويهدم أمره * ولما استدل مؤمن آل فرعون على انه لا يجوز قتل موسى عليه السلام خوف فرعون وقومه ذلك العذاب الذي توعدهم به في قوله يصبكم بعض الذي يعدكم فقال (يا قوم) وعبر باسلوب الخطاب دون التكلم تصريحا بالمقصود فقال (لكم الملك) ونبه على ما يعرفونه من تقلبات الدهر بقوله (اليوم) وأشار الى ما عهدوه من الخذلان في بعض الازمان بقوله (ظاهرين) أي عالين على بني اسرائيل

وغيرهم ومازال أهل البلاء يتوقعون الرخاء وأهل الرخاء يتوقعون البلاء ونبه بقوله (في الارض) أي أرض مصر على الاحتياج ترهيبا لهم وعرّفها لانها كالارض كلها لحسنها وجمعها المنافع ثم حذرهم من سخط الله تعالى فقال (فمن ينصرنا) أي أنا وأنتم أدرج نفسه فيهم عند ذكر الشر بعد افراده لهم بالملك ابعاداً للتهمة وحثاً على قبول النصيحة (من بأس الله) أي الذي له الملك كله (ان جاءنا) أي غضب الهذا الذي يدعي أنه أرسله فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله تعالى بقتله فانه ان جاءنا لم يمنعنا منه أحد * ولما قال المؤمن هذا الكلام (قال فرعون) أي لقومه جوابا لما قاله هذا المؤمن (ما أريكم) من الآراء (الا ما أرى) أي انه صواب على قدر مبلغ علمي ولا أرى لكم الا ما أرى لنفسي وقال الضحاك ما أعلمكم الا ما أعلم (وما أهديكم) أي بما أشرت به عليكم من قتل موسى وغيره (الا سبيل الرشاد) أي الذي أرى أنه صواب لا أظهر شيأ وأبطن غيره ولما ظهر لهذا المؤمن أن فرعون ذل لكلامه ارتفع الى أصرح من الاسلوب الاول كما أخبرنا الله تعالى بقوله (وقال الذي آمن) أي بعد قول فرعون هذا الكلام الذي دل على عجزه وجهله وذله (يا قوم) وأكد لما رأى عندهم من انكار أمره وخاف منهم اتهامه فقال (اني أخاف عليكم) أي من المكابرة في أمر موسى عليه السلام (مثل يوم الاحزاب) أي أيام الامم الماضية يعني وقائعهم وجمع الاحزاب مع التفسير أغنى من جمع اليوم مع أن افراده أردع وأقوى في التخويف وأفظع للاشارة الى قوة الله تعالى وأنه قادر على اهلاكهم في أقل زمان ولما أجمل فصل وبين أو أبدل بعد أن هوّل بقوله (مثل دأب) أي عادة (قوم نوح) أي فيما دهمهم من الهلاك الذي محقهم فلم يطيقوه مع ما كان فيهم من قوة المجادلة والمقاومة لما يريدونه (وعاد وثمود) مع ما بلغكم من جبروتهم * (تنبيه) * لابد من حذف مضاف يريد مثل جزاء دأبهم * ولما كان هؤلاء أقوى الامم اكتفى بهم وأجمل من بعدهم فقال (والذين من بعدهم) أي بالقرب من زمانهم كقوم لوط (وما الله) أي الذي له الاحاطة بأوصاف الكمال (يريد ظلما للعباد) أي فلا يهلكهم الا بعد اقامة الحجة عليهم ولا يهلكهم بغير ذنب ولا يخلي الظالم منهم بغير انتقام وهو أبلغ من قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد من حيث ان المنفي فيه حدوث تعلق ارادته بالظلم * ولما أشرق من آفاق هذا الوعظ شمس البعث ونور الحشر قال (ويا قوم اني أخاف عليكم) وقوله (يوم التناد) أجمع المفسرون أنه يوم البعث وفي تسميته بهذا الاسم وجوه أولها أن أصحاب النار ينادون أصحاب الجنة وأصحاب الجنة ينادون أصحاب النار كما حكى الله تعالى عنهم ثانيها قال الزجاج هو قوله تعالى يوم ندعو كل أناس بامامهم ثالثها ينادي بعض الظالمين بعضا بالويل والثبور فيقولون ياويلنا رابعها ينادون الى المحشر خامسها ينادي المؤمن هاؤم اقرؤا كتابيه والكافر ياليتني لم أوت كتابيه سادسها ينادي باللعنة على الظالمين سابعها يجاء بالموت على صورة كبش أملح ثم يذبح بين الجنة والنار ثم ينادي يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ثامنها ينادي بالسعادة والشقاوة الا ان فلان بن فلان سعد سعادة لايشقى بعدها أبدا وفلان بن فلان شقي شقاوة لايسعد بعدها أبدا وهذه الامور كلها

تجتمع في هذا اليوم فلابد من تسميته بها كلها ولما كان عادة المتنادين الاقبال وصف ذلك
اليوم بضد ذلك لشدة الاهوال فقال تعالى مبدلا أو مبينا (يوم تولون) أى عن الموقف
(مدبرين) قال الضحاك اذا سمعوا زفير النار ندوا هربا فلا يأتون قطرا من الاقطار الا وجدوا
الملائكة صفوفا فيرجعون الى أماكنهم فذلك قوله تعالى والملك على ارجائها وقوله تعالى يامعشر
الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون الا
بسلطان وقال مجاهد فارين من النار غير معجزين وقيل منصرفين عن الموقف الى النار ثم
أكد التهديد بقوله تعالى (مالكم من الله) أى الملك الجبار الذى لا يذل (من عاصم) أى من فئة
تحميكم وتنصركم وتمنعكم من عذابه * ثم نبه على قوة ضلالهم وشدة جهالتهم فقال تعالى (ومن
يضلل الله) أى الملك المحيط بكل شئ (فماله من هاد) أى الى شئ ينفعه بوجه من الوجوه
(تنبيه) في قراءة هاد ما تقدم في قوله من واق * ولما قال لهم مؤمن آل فرعون ومن يضلل
الله فماله من هاد ذكر لهم مثالا بقوله تعالى (ولقد جاءكم) أى جاء آباءكم يامعشر القبط ولكنه عبر
بذلك دلالة على أنهم على مذهب الآباء كما جرت به العادة من التقليد ومن أنهم على طبعهم
لاسيما ان كانوا لم يفارقوا أماكنهم (يوسف) أى نبى الله ابن نبى الله يعقوب ابن نبى الله اسحق بن
خليل الله ابراهيم عليهم وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام (من قبل) أى قبل زمن موسى
عليه السلام (بالبينات) أى الآيات الظاهرات لاسيما في أمر يوم التناد (فمازلتم) أى
مابرحتم أنتم تبعا لآبائكم (في شك) أى محيط بكم لم تصلوا الى رتبة الظن (مما جاءكم به) من
التوحيد وقال ابن عباس من عبادة الله وحده لا شريك له فلم تنتفعوا البتة بتلك البينات
ودل على تمادى شككم بقوله تعالى (حتى اذا هلك) فهو غاية أى فمازلتم في شك حتى هلك (قلتم لن
يبعث الله) أى الذى له صفات الكمال (من بعده) أى يوسف عليه السلام (رسولا) أى أقمتم على
كفركم وظننتم أن الله لا يجدد عليكم الحجة وهذا ليس اقرارا منهم برسالته بل هو ضم منهم الى
الشك في رسالته والتكذيب برسالة من بعده وقوله تعالى (كذلك) خبر مبتدأ مضمر أى الامر
كذلك أو مثل هذا الضلال (يضل الله) أى بماله من صفات القهر (من هو مسرف) أى مشرك
متغال في الامور خارج عن الحدود (مرتاب) أى شاك فيما تشهد به البينات بغلبة الوهم
والانهماك في التقليد ثم بين تعالى ما لاجله بقوا في الشك والاسراف فقال سبحانه (الذين
يجادلون) وهو مبتدأ أى يخاصمون خصاما شديدا (في آيات الله) أى المحيط بأوصاف الكمال
لاسيما الآيات الدالة على يوم التناد فانها أظهر الآيات وكذا الآيات الدالة على وجوده سبحانه
وتعالى وعلى ما هو عليه من الصفات والافعال وما يجوز عليه أو يستحيل (بغير سلطان) أى
برهان (أتاهم) وقوله (كبر) أى جدالهم (مقتا) خبر المبتدأ ويجوز في الذين أوجه أيضا منها
أنه بدل من قوله تعالى من هو مسرف وانما جمع اعتبارا بمعنى من ومنها أن يكون بيانا له ومنها
أن يكون صفة له وجمع على معنى من أيضا ومنها أن ينتصب باضمار أعنى وقال الزجاج قوله الذين
يجادلون تفسير لمسرف مرتاب بمعنى هم الذين يجادلون في آيات الله أى في ابطالها بالتكذيب

بغير سلطان أتاهم كبر مقتا (عند الله) أى الملك الاعظم (و) كبر مقتا أيضا (عند الذين آمنوا) أى الذين هم خاصته ودلت الآية على انه يجوز وصفه تعالى بأنه مقت بعض عباده الا انها صفة واجبة التأويل فى حق الله تعالى كالغضب والحياء والعجب وقوله تعالى (كذلك) أى ومثل هذا الطبع العظيم (يطبع الله) أى الذى له جميع العظمة يدل على أن الكل من عند الله كما هو مذهب أهل السنة (على كل قلب متكبر) أى متكلف ماليس له وليس لاحد غير الله (جبار) أى ظاهر الكبر قويه قهار وقال مقاتل الفرق بين المتكبر والجبار ان المتكبر عن قبول التوحيد والجبار فى غير الحق قال الرازى كمال السعادة فى امرين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله فعلى قول مقاتل المتكبر كالمضاد للتعظيم لامر الله والجبار كالمضاد للشفقة على خلق الله وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان بتنوين الباء الموحدة ووصف القلب بالتكبر والتجبر لانه منبعهما كقولهم رأت عينى وسمعت أذنى أو على حذف مضاف أى على كل ذى قلب متكبر جبار فهى حينئذ مساوية لقراءة الباقين بغير تنوين ثم ان فرعون عليه اللعنة أعرض عن جواب المؤمن لانه لم يجد فيه مطعنا (وقال فرعون ياهامان) وهو وزيره (ابن) وعرفه بشدة اهتمامه بالاضافة اليه فى قوله (لى صرحا) أى بناء مكشوفا عاليا لايخفى على الناظر وان بعد من صرح الشئ اذا ظهر (لعلى أبلغ الاسباب) أى التى لاأسباب غيرها لعظمها وتعليله بالترجى الذى لايكون الا فى الممكن دليل على أنه كان يلبس على قومه وهو يعرف الحق فان عاقلا لايعد مارامه فى عداد الممكن العادى ولما كان بلوغها أمرا عظيما أورده على نمط مشوق اليه ليعطيه السامع حقه من الاهتمام تفخيما لشأنه ليتشوف السامع الى بيانه بقوله (أسباب السموات) أى الامور الموصلة اليها وكل ماأداك الى شئ فهو سبب اليه وقرأ الكوفيون بسكون الياء والباقون بالفتح وقرأ (فاطلع) حفص بنصب العين وفيه ثلاثة أوجه أحدها أنه جواب الامر فى قوله ابن لى فنصب بأن مضمرة بعد الفاء فى جوابه على قاعدة البصريين كقوله

يا ناق سيرى عنقا فسيحا * الى سليمان فنستريحا

وهذا أوفق لمذهب البصريين ثانيها قال أبو حيان انه منصوب على التوهم لان خبر لعل جاء مقرونا بأن كثيرا فى النظم وقليلا فى النثر فمن نصب توهم ان الفعل المرفوع الواقع خبرا منصوب بأن والعطف على التوهم كثير وان كان لاينقاس اه ثالثها على جواب الترجى فى لعل وهو مذهب كوفى والى هذا نحا الزمخشرى وتبعه البيضاوى قال وهو الاولى تشبيها للترجى بالتمنى والباقون بالرفع عطفا على أبلغ أى فلعله يتسبب عن ذلك ويتعقبه انى أتكلف الطلوع (الى اله موسى) ولعله أراد أن يبنى له صرحا فى موضع عال يرصد فيه أحوال الكواكب التى هى أسباب سماوية تدل على الحوادث الارضية فيرى هل فيها مايدل على ارسال الله تعالى اياه أو ان يرى فساد قول موسى فان اخباره عن اله السماء يتوقف على اطلاعه ووصوله اليه وذلك لايتأتى الا بالصعود الى السماء وهو مما لايقوى عليه الانسان وذلك لجهله بالله

تعالى وكيفية أسبابه (وانى لاظنه) أى موسى عليه السلام (كاذبا) فى دعوى الرسالة وفى ان له الها غيرى قال فرعون ذلك تمويها (وكذلك) أى مثل ذلك التزيين العظيم الشأن (زين) أى زين المزين النافذ الامر وهو الله تعالى حقيقة بخلقه والزامه لان كل مادخل فى الوجود من المحدثات فهو خلقه والشيطان مجازا بالتسبب بالوسوسة التى هى بخلق الله تعالى (لفرعون سوء عمله) فى جميع أمره فأقبل عليه راغبا فيه مع بعده عن عقل أقل ذوى العقول فضلا عن ذوى الهمم منهم فضلا عن الملوك وأطاعه فيه قومه وقرأ غير الكوفيين (وصد) بفتح الصاد أى نفسه ومنع غيره وقرأ الكوفيون بضمها أى منعه الله تعالى (عن السبيل) أى طريق الهدى وهى الموصلة الى الله تعالى (وما كيد فرعون) أى فى ابطال ماجاء به موسى عليه السلام (الافى تباب) أى خسار وهلاك عظيم محيط به لايقدر على الخروج منه * ولما كان فساد ماقال فرعون أظهر من أن يحتاج الى بيان أعرض المؤمن عنه (وقال الذى آمن) أى مشيرا الى وهن قول فرعون بالاعراض عنه بقوله (ياقوم) أى يامن لاقيام لى الابهم وأناغير متهم فى نصيحتهم (اتبعونى) أى كلفوا أنفسكم اتباعى لان السعادة غالبا تكون فيما يكره الانسان (أهدكم سبيل) أى طريق (الرشاد) أى الهدى لانه مع سهولته واتساعه موصل ولابد الى المقصود وأما ماقال فرعون مدعيا انه سبيل الرشاد فلا يوصل الا الى النار فهو تعريض به شبيه بالتصريح به وفى هذا اشارة الى انه ينبغى لا دنى أهل الايمان أن لايخلى نفسه عن الوعظ لغيره وقرأ ابن كثير باثبات الياء بعد النون وقفا ووصلا وأثبتها قالون وأبو عمرو وصلا لا وقفا وحذفها الباقون وصلا ووقفا ثم ان ذلك المؤمن زهدهم فى الدنيا وكرر (ياقوم) كما كرر ابراهيم عليه السلام ياأبت زيادة فى استعطافهم بقوله (انما هذه الحياة) وحقرها بقوله (الدنيا) اشارة الى دناءتها بقوله (متاع) اشارة الى انها جيفة لانها فى اللغة من جملة مدلولات المتاع فلا يتناول منها الا كما يتناول المضطر من الجيفة لانها دار النقلة والزوال والتزود والارتحال والاخلاد اليها هو أصل الشر كله ومنه تشعب جميع مايؤدى الى سخط الله تعالى ويجلب الشقاوة فى العاقبة ثم رغبهم فى الآخرة بقوله (وان الآخرة) أى لكونها مقصودة بالذات (هى دار القرار) أى التى لاتحول منها اصلا لانها الوطن المستقر قال بعض العارفين لو كانت الدنيا ذهبا فانيا والآخرة خزفا باقيا لكانت الآخرة خيرا من الدنيا فكيف والدنيا خزف فان والآخرة ذهب باق بل أشرف وأحسن وكما أن النعيم فيها دائم فكذلك العذاب فكان الترغيب فى نعيم الجنان والترهيب من عذاب النيران من اعظم وجوه الترغيب والترهيب والآية من الاحتباك ذكر المتاع أولا دليلا على حذف التوسع ثانيا والقرار ثانيا دليلا على حذف الارتحال أولا ثم قال ذلك المؤمن لقومه (من عمل سيئة) أى ماسوء من أى صنف كان الذكور والاناث المؤمنين والكافرين (فلا يجزى) أى من الملك الذى لاملك سواه (الا مثلها) عدلا منه لايزاد عليها مقدار ذرة ولا أصغر منها (ومن عمل صالحا) أى ولو قل (من ذكر أو أنثى وهو) أى والحال انه (مؤمن) اذ لايصح عمل بدون ايمان

(فاولئك)

(فأولئك) أى العالو الرتبة والهمة (يدخلون الجنة) أى بأمر من له الامر كله بعد ان تضاعف لهم أعمالهم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة بضم الياء وفتح الخاء والباقون بفتح الياء وضم الخاء (يرزقون فيها) أى الجنة من غير احتياج الى تحيل ولا الى أسباب (بغير حساب) لخروج مافيها لكثرته عن الحصر فان أدنى أهلها منزلة لو أضاف كل أهل الارض لكفاهم من غير أن ينقص من ملكه شئ وهذا من باب الفضل وفضل الله لا حد له ورحمته غلبت غضبه وأما جزاء السيئة فمن باب العدل فلذلك وقع الحساب فيها لئلا يقع الظلم قال الاصبهانى فاذا عارضنا عمومات الوعيد بعمومات الوعد ترجح الوعد بسبق الرحمة الغضب فانهدمت قواعد المعتزلة ثم كرر الوعظ عليهم بقوله (وياقوم ما) أى أى شئ من الحظوظ والمصالح (لى) فى أنى (أدعوكم الى النجاة) والجنة شفقة عليكم ورحمة لكم واعترافا بحقكم (وتدعوننى الى النار) والهلاك بالكفر فلا ية من الاحتباك ذكر النجاة الملازمة للايمان أولا دليلا على حذف الهلاك الملازم للكفران ثانيا والنار ثانيا دليلا على حذف الجنة أولا وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بفتح ياء مالى والباقون بسكونها واتفقوا على سكون الياء من تدعوننى * ولما أخبر ذلك المؤمن بقلة انصافهم اجمالا بينه بقوله (تدعوننى) أى توقعون دعائى الى معبوداتكم (لأكفر) أى لاجل ان أكفر (بالله) الذى له مجامع القهر والعز والعظمة والكبرياء (وأشرك به) أى أجعل له شريكا (ماليس لى به) أى بربوبيته (علم) أى نوع من العلم بصلاحيته لشئ من الشركة فهو دعاء الى الكذب فى شئ لا يحل الاقدام عليه الا بالدليل القطعى الذى لا يحتمل نوعا من الشرك فالمراد بنفى العلم نفى الاله كأنه قال وأشرك به ماليس باله وماليس باله كيف يعقل جعله شريكا لله * ولما بين أنهم يدعونه الى الكفر بين أنه يدعوهم الى الايمان بقوله (وأنا أدعوكم) أى أوقع دعاءكم الآن وقبله وبعده (الى العزيز) أى البالغ العزة الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ وأما فرعون فهو فى غاية العجز فكيف يكون الها وأما الاصنام فانها أحجار منحوتة فكيف يعقل كونها آلهة وقرأ نافع وأنا بالمد بعد النون وقالون بمد ويقصر وورش بالمد لاغير والباقون بغير مد وقوله (الغفار) أى الذى يتكرر منه دائما محو الذنوب عينا وأثرا اشارة الى انهم يجب عليهم أن لا ييأسوا من رحمة الله تعالى بسبب اصرارهم على الكفر مدة مديدة فان الاله العالم وان كان عزيزا لا يغلب قادرا لا يعارض لكنه غفار يغفر كفر سبعين سنة بايمان ساعة واحدة وقوله (لاجرم) رد لما دعوه اليه وجرم فعل بمعنى حق وفاعله (أنما) أى الذى (تدعوننى اليه) من هذه الانداد (ليس له دعوة) بوجه من الوجوه فانه لا ادراك له هذا ان أريد ما لا يعقل وان أريد شئ مما يعقل فلا دعوة له مقبولة بوجه فانه لا يقوم عليها دليل بل ولا شبهة موهمة (فى الدنيا) أى التى هى محل الاسباب الظاهرة (ولا فى الآخرة) أى ليس له استجابة دعوة فيهما فسمى استجابة الدعوة دعوة اطلاقا لاسم أحد المتضايفين على الآخر كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وكقولهم كما تدين تدان وقيل ليس له دعوة أى عبادة فى الدنيا لان الاوثان لا تدعى الربوبية ولا تدعوا الى عبادتها وفى الآخرة

تبرأ من عابديها ثم قال (وأن مردنا) أى مرجعنا (الى الله) أى الذى له الاحاطة بصفات الكمال فيجازى كل أحد بما يستحقه (وأن المسرفين) أى المجاوزين للحدود الغريقين فى هذا الوصف قال قتادة وهم المشركون لقوله تعالى (هم) أى خاصة (أصحاب النار) أى ملازموها وعن مجاهد هم السفاكون للدماء بغير حلها وقيل الذين غلب شرهم هم المسرفون * ولما بالغ هذا المؤمن فى هذا الشأن ختم كلامه بخاتمة لطيفة هى قوله (فستذكرون) أى قطعا بوعد لا خلف فيه مع القرب (ما أقول لكم) حين لا ينفعكم الذكر فى يوم الجمع الاعظم والزحام الذى يكون فيه القدم على القدم اذا رأيتم الاهوال والنكال والزلزال ان قبلتم نصحى أو لم تقبلوه * ولما خوفهم بذلك توعدوه وخوفوه بالقتل فعول فى دفع تخويفهم وكبرهم ومكرهم على الله تعالى بقوله (وأفوض) أى انا الآن بسبب انه لا دعوة لغيراقه (أمرى) أى فيما تمكرونه بى (الى الله) أى الذى أحاط بكل شئ قدرة وعلما فهو يحمى منكم من شاء وهو انما تعلم هذه الطريقة من موسى عليه السلام حين خوفه فرعون بالقتل فرجع موسى عليه السلام فى دفع ذلك الشر الى الله تعالى فقال انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون * ولما علق تفويضه بالاسم العلم الجامع المقتضى للاحاطة علل ذلك بقوله (ان الله) أى الذى لا يخفى عليه شئ (بصير) أى بالغ العلم (بالعباد) ظاهرا وباطنا فيعلم من يستحق النصرة فينصره لاتصافه بأوصاف الكمال ويعلم من يمكر فيرد مكره عليه بماله من الاحاطة قال مقاتل فلما قال هذه الكلمات قصدوا قتله (فوقاه الله) أى حصل له وقاية تنجيه منهم جزاء على تفويضه (سيآت) أى شدائد (ما مكروا) دينا ودنيا فنجا مع موسى عليه السلام قال قتادة وكان قبطيا تصديقا لوعده سبحانه بقوله تعالى أنتما ومن اتبعكما الغالبون * ولما كان المكر السيئ لا يحيق الا بأهله قال تعالى (وحاق) أى نزل محيطا بعدا حاطة الاغراق (بآل فرعون) اى فرعون وأتباعه لاجل اصرارهم على الكفر ومكرهم هذا ان قلنا ان الآل مشترك بين الشخص وأتباعه وان لم نقل ذلك فالاحاقة بفرعون من باب أولى لان العادة جرت انه لا يوصل الى جميع اتباع الانسان الابعد اذلاله وأخذه (سوء العذاب) أى الغرق فى الدنيا والنار فى الآخرة (فان قيل) قوله تعالى وحاق بآل فرعون سوء العذاب معناه انه رجع اليهم ما هموا به من المكر بالمسلمين كقول العرب من حفر لاخيه جبا وقع فيه منكبا فاذا فسر سوء العذاب بالغرق فى الدنيا ونار جهنم فى الآخرة لم يكن مكرهم راجعا اليهم لانهم لا يعذبون بذلك (أجيب) بأنهم هموا بشر فأصابهم ما وقع عليه اسم السوء ولا يشترط فى الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه وقوله تعالى (النار) فى اعرابه ثلاثة أوجه أحدها انه بدل من سوء العذاب قاله الزجاج ثانيها انه خبر مبتدإ محذوف أى هو أى سوء العذاب النار لانه جواب لسؤال مقدر وقوله تعالى (يعرضون) على هذين الوجهين يجوز ان يكون حالا من النار وان يكون حالا من آل فرعون ثالثها انه مبتدأ وخبره يعرضون (عليها غدوا وعشيا) أى صباحا ومساء قال ابن مسعود أرواح آل فرعون فى أجواف

طيور سود يعرضون على النار كل يوم مرتين تغدو وتروح الى النار ويقال يا آل فرعون هذه منازلكم حتى تقوم الساعة وقال قتادة تعرض روح كل كافر على النار بكرة وعشيا مادامت الدنيا وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ان كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وان كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى اليه يوم القيامة * ثم أخبر الله تعالى عن مستقر آل فرعون يوم القيامة بقوله سبحانه وتعالى (ويوم تقوم الساعة) يقال لهم (ادخلوا آل) أي يا آل (فرعون) أي هو بنفسه وأتباعه لاجل اتباعهم له فيما أضلهم به (أشد العذاب) وهو عذاب جهنم أجارنا الله تعالى نحن وأحباءنا منها فانه أشد مما كانوا فيه أو أشد عذاب جهنم وهذه الآية نص على اثبات عذاب القبر كما نقل عن عكرمة ومحمد بن كعب وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي بقطع الهمزة مفتوحة وكسر الخاء وصلا وابتداء على أمر الملائكة بادخالهم النار والباقون بوصل الهمزة وضم الخاء وصلا وفي الابتداء بضم الهمزة واختلف في العامل في قوله تعالى (واذ) على ثلاثة أوجه أحدها انه معطوف على غدوا فيكون معمولا ليعرضون على النار في هذه الاوقات كلها قاله أبو البقاء ثانيها انه معطوف على قوله اذ القلوب لدى الحناجر قاله الطبري وتطرفيه لبعد ما بينهما وثالثها انه منصوب باضمار اذكر أي واذكر يا أشرف الخلق لقومك اذ (يتحاجون) أي الكفار (في النار) أي يتخاصمون فيها أتباعهم ورؤساؤهم بما لا يغنيهم (فيقول الضعفاء) أي الاتباع (للذين استكبروا) أي طلبوا أن يكونوا كبراءهم الرؤساء (انا كنا لكم) أي دون غيركم (تبعا) أي أتباعا فتكبرتم على الناس بنا (فهل أنتم) أيها الكبراء (مغنون) أي كافون ومجزئون وحاملون (عنا نصيبا من النار) * (تنبيه) * تبعا اسم جمع لتابع ونحوه خادم وخدم قال البغوي والتبع يكون واحدا وجمعا في قول أهل البصرة واحده تابع وقال الكوفيون هو جمع لا واحد له وجمعه أتباع وقيل انه مصدر واقع موقع اسم الفاعل أي تابعين وقيل مصدر ولكنه على حذف مضاف أي ذوي تبع ونصيبا منصوب بفعل مقدر يدل عليه قولهم مغنون وتقديره هل أنتم دافعون عنا نصيبا وقيل منصوب على المصدر قال البقاعي كما كان شيأ كذلك ألا ترى الى قوله تعالى لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيأ في موضع غني فكذلك نصيبا ومن النار صفة لنصيبا (قال الذين استكبروا) أي من شدة ما هم فيه (انا كل) أي نحن وأنتم (فيها) فكيف نغني عنكم ولو قدرنا أغنينا عن أنفسنا (ان الله) أي المحيط بأوصاف الكمال (قد حكم) بالعدل (بين العباد) أي فادخل أهل الجنة دارهم وأهل النار دارهم فلا يغني أحد عن أحد شيأ فعند ذلك يحصل اليأس للاتباع من المتبوعين فيرجعون كلهم الى خزنة جهنم يسألونهم كما حكى الله عنهم بقوله سبحانه وتعالى (وقال الذين في النار) أي جميعا الاتباع والمتبوعون (لخزنة جهنم) أي لخزنتها فوضع جهنم موضع المضمر للتهويل أو لبيان محلهم فيها قال البيضاوي ويحتمل أن تكون جهنم أبعد دركاتها

من قولهم بئر جهنام أي بكسر الجيم والهاء وتشديد النون بعيد القعر وقال بعض أهل اللغة هي مشتقة من الجهومة وهي الغلظ سميت بذلك لغلظ عذابها وهي عجمية منعت من الصرف للتعريف والعجمة وقيل عربية ومنعت من الصرف للتعريف والتأنيث (ادعوا ربكم) أي المحسن اليكم بانكم لا تجدون ألما من النار (يخفف عنا يوما) أي قدر يوم (من العذاب) أي شيأ فيوما ظرف ليخفف ومفعول يخفف محذوف أي يخفف عنا شيأ من العذاب في يوم ويجوز أن يكون من العذاب هو المفعول ليخفف ومن تبعيضية ويوما ظرف فسألوا أن يخفف عنهم بعض العذاب لا كله في يوم ما لا في كل يوم ولا في يوم معين (قالوا) أي الخزنة لهم (أولم تك تأتيكم) على سبيل التجدد شيأ فى اثر شئ (رسلكم) أي الذين هم منكم وأنتم جديرون بالاصغاء اليهم والاقبال عليهم لان الجنس الى الجنس أميل والانسان من مثله أقبل (بالبينات) أي التي لا شئ أوضح منها أرادوا بذلك الزامهم الحجة وتوبيخهم على اضاعتهم أوقات الدعاء وتعطيلهم أسباب الاجابة وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون بضمها وكذلك رسلنا ورسلهم (قالوا) أي الكفار (بلى) أي أتونا كذلك (قالوا) أي الخزنة لهم (فادعوا) أي أنتم فانا لا نشفع لكافر (وما دعاء الكافرين) أي الذين ستروا مرائي عقولهم عن أنوار الحق (الا في ضلال) أي ذهاب في غير طريق موصل كما كانوا هم في الدنيا كذلك فان الدنيا مزرعة الآخرة من زرع شيأ في الدنيا حصده في الآخرة والآخرة ثمرة الدنيا لا تثمر الا من جنس ما غرس في الدنيا وفي هذا اقناطهم عن الاجابة * ولما ذكر تعالى وقاية موسى عليه السلام وذلك المؤمن من مكر فرعون وقومه من بقوله تعالى (انا) أي على ما لنا من العظمة (لننصر رسلنا) أي على من عاداهم (والذين آمنوا) أي اتسموا بهذا الوصف (في الحياة الدنيا) أي بالزامهم طريق الهدى الكفيلة بكل فوز بالحجة والغلبة وان غلبوا في بعض الاحيان فان العاقبة تكون لهم ولو بأن يقيض الله تعالى لاعدائهم من يقتص منهم ولو بعد حين وقل أن تمكن أعداؤهم من كل ما يريدون منهم (ويوم يقوم الاشهاد) وهو جمع شاهد كصاحب وأصحاب والمراد بهم من يقوم يوم القيامة للشهادة على الناس من الملائكة والانبياء والمؤمنين أما الملائكة فهم الكرام الكاتبون يشهدون للرسل بالتبليغ وعلى الكفار بالتكذيب وأما الانبياء عليهم الصلاة والسلام فقال تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وأما المؤمنون فقال تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس وقوله تعالى (يوم) بدل من يوم قبله أو بيان له أو نصب باضمار أعني يوم (لا تنفع الظالمين) أي الذين كانوا عريقين في وضع الاشياء في غير موضعها (معذرتهم) أي اعتذارهم (فان قيل) هذا يدل على انهم يذكرون الاعذار ولكن تلك الاعذار لا تنفعهم فكيف هذا مع قوله تعالى ولا يؤذن لهم فيعتذرون (أجيب) بأن هذا لا يدل على أنهم ذكروا الاعتذار بل ليس فيه الا ان ليس عندهم عذر مقبول وهذا لا يدل على أنهم ذكروه أم لا وأيضا يوم القيامة يوم طويل فيعتذرون في وقت ولا يعتذرون في وقت آخر وقرأ نافع والكوفيون بالياء التحتية والباقون بتاء الخطاب

(ولهم)

(ولهم) أى خاصة (اللعنة) أى البعد عن كل خير مع الاهانة بكل ضير (ولهم) أى خاصة (سوء الدار) أى الآخرة أى أشد عذابها * ولما بين تعالى انه ينصر الانبياء والمؤمنين فى الدنيا والآخرة ذكر نوعا من أنواع تلك النصرة فى الدنيا فقال تعالى (ولقد آتينا) أى بما لنا من العزة (موسى الهدى) أى ما يهتدى به فى الدنيا من المعجزات والصحف والشرائع (وأورثنا) أى بما لنا من العظمة (بنى اسرائيل) أى بعد ما كانوا فيه من الذل (الكتاب) أى الذى أنزلناه عليه وآتيناه الهدى به وهو التوراة ايتاء هو الارث لا ينازعهم فيه أحد توارثوه خلفا عن سلف ولا أهل له فى ذلك الزمان غيرهم وأورثناهم من بعد موسى عليه السلام حال كونه (هدى) أى بيانا عاما لكل من تبعه (وذكرى) أى عظة عظيمة (لاولى الالباب) أى القلوب الصافية والعقول الوافية الشافية * ولما بين تعالى أنه ينصر رسله وينصر المؤمنين فى الدنيا والآخرة وضرب المثال فى ذلك بحال موسى عليه السلام خاطب بعد ذلك محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (فاصبر) أى يا أشرف الخلق على أذى قومك كما صبر موسى عليه السلام على أذى فرعون (ان وعد الله) أى الذى له الكمال كله (حق) أى فى اظهار دينك واهلاك أعدائك قال الكلبى نسخت آية القتل آية الصبر وقوله تعالى (واستغفر لذنبك) اما أن يكون المصدر مضافا للمفعول أى لذنب أمتك فى حقك واما أن يكون ذلك تعبدا من الله تعالى ليزيده به درجة وليصير سنة يستن بها من بعده (وسبح بحمد ربك بالعشى) هو من بعد الزوال (والابكار) قال الحسن رضى الله عنه يعنى صلاة العصر وصلاة الفجر وقال ابن عباس رضى الله عنهما الصلوات الخمس وذلك أن العشى من زوال الشمس الى غروبها والابكار من طلوع الفجر الى طلوع الشمس ولما ابتدأ بالرد على الذين يجادلون فى آيات الله واتصل الكلام بعضه ببعض على الترتيب المتقدم الى هنا نبه تعالى على الماهية التى تحمل الكفار على تلك المجادلة فقال تعالى (ان الذين يجادلون) أى يناصبون العداوة (فى آيات الله) أى الملك الاعظم الدالة على تمام قدرته اللازم منه قدرته على البعث الذى فى تذكره صلاح الدين والدنيا (بغير سلطان) أى برهان (أتاهم ان) أى ما (فى صدورهم) أى بصدهم عن سواء السبيل قال ابن عادل ما حملهم على تكذيبك (الا كبر) أى تكبر عن الحق وتعظم عن التفكر والتعلم وآذن ذكر الصدور دون القلوب بعظمه جدا فانه قد ملأ القلوب وفاض منها حتى شغل الصدور التى هى مساكنها (ماهم ببالغيه) قال مجاهد ماهم ببالغى مقتضى ذلك الكبر لان الله تعالى مذلهم وقال ابن قتيبة ان فى صدورهم الا كبر على محمد صلى الله عليه وسلم وطمع أن يغلبوه وماهم ببالغى ذلك قال المفسرون نزلت فى اليهود وذلك أنهم قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ان صاحبنا المسيح بن داود يعنون الدجال يخرج فى آخر الزمان فيبلغ سلطانه البر والبحر ويرد الملك علينا قال الله تعالى (فاستعذ) أى اعتصم (بالله) أى المحيط بكل شئ من فتنة الدجال ومن كيد من يحسدك ويبغى عليك وغير ذلك كما عاذ به موسى عليه السلام لينجزلك ما وعدك به كما أنجزله ثم علل ذلك بقوله تعالى (انه هو) أى

وحده (السميع) أى لاقوالهم (البصير) أى لافعالهم ولما وصف تعالى جدالهم فى الآيات بانه بغير سلطان ولا حجة ذكر لهذا مثالا فقال (لخلق السموات) أى على عظمها وارتفاعها وكثرة منافعها واتساعها (والارض) أى على ماترون من عجائبها وكثرة منافعها (أكبر) عند كل من يعقل (من خلق الناس) أى خلق الله تعالى لهم لانهم شعبة يسيرة من خلقهما فعلم قطعا أن الذى قدر على ابتدائه مع عظمه قادر على اعادة الناس على حقارتهم (ولكن أكثر الناس) وهم الذين ينكرون البعث وغيره (لا يعلمون) أى لاعلم لهم أصلا بل هم كالبهائم لغلبة الغفلة عليهم * (تنبيه) * تقدير هذا الكلام ان الاستدلال بالشئ على غيره ينقسم ثلاثة أقسام أحدها أن يقال لما قدر على الاضعف وجب أن يقدر على الاقوى وهذا فاسد ثانيها أن يقال لما قدر على الشئ قدر على مثله فهذا الاستدلال صحيح لما ثبت فى الاصول ان حكم الشئ حكم مثله ثالثها أن يقال لما قدر على الاقوى الاكمل قدر على الاقل الارذل بالاولى وهذا الاستدلال فى غاية الصحة والقوة ولا يرتاب فيه عاقل البتة ثم ان هؤلاء القوم يسلمون ان خالق السموات والارض هو الله تعالى ويعلمون بالضرورة ان خلق السموات والارض أكبر من خلق الناس وكان من حقهم أن يقروا بأن القادر على خلق السموات والارض يكون قادرا على اعادة الانسان الذى خلقه أولا فهذا برهان كلى فى افادة هذا المطلوب ثم ان هذا البرهان على قوته صار لا يعرفه أكثر الناس والمراد منه الذين ينكرون الحشر والنشر فظهر بهذا المثال ان هؤلاء الكفار يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ولا حجة بل بمجرد الحسد والكبر والغضب * ثم لما بين تعالى ان الجدال المقرون بالكبر والحسد والجهل كيف يكون وان الجدال بالحجة والبرهان كيف يكون نبه تعالى على الفرق بين البابين بذكر مثال فقال تعالى (وما يستوى) أى بوجه من الوجوه من حيث البصر (الاعمى والبصير) أى وما يستوى المستدل والجاهل المقلد (والذين آمنوا) أى أوجدوا حقيقة الايمان (وعملوا الصالحات) أى تحقيقا لايمانهم (ولا المسئ) أى وما يستوى المحسن والمسئ فلا زائدة للتوكيد لانه لما طال الكلام بالصلة بعد قسم المؤمنين أعاد معه لا توكيدا والمراد بالاول التفاوت بين العالم والجاهل وبالثانى التفاوت بين الآتى بالاعمال الصالحة وبين الآتى بالاعمال السيئة الباطلة * ولما تقرر هذا على هذا النحو من الوضوح الذى لا مانع للانسان من فهمه ورسوخه قال تعالى (قليلا ما يتذكرون) أى يتعظ المجادلون وان كانوا يعلمون أن العلم خير من الجهل وأن العمل الصالح خير من العمل الفاسد الا أنه قليلا ما يتذكرون فبين فى النوع الاول المعنى من الاعتقاد أنه علم أو جهل وفى النوع الثانى المعنى من العمل انه عمل صالح أو فاسد * (تنبيه) * التقابل يأتى على ثلاث طرق احداها أن يجاور المناسب ما يناسبه كهذه الآية والثانية أن يتأخر المتقابلان كقوله تعالى مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع الثالثة أن يقدم مقابل الاول ويؤخر مقابل الآخر كقوله تعالى وما يستوى الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور وكل ذلك تفنن فى البلاغة وقدم الاعمى فى نفى

التساوي لحيثه بعد صفة الذم في قوله ولكن أكثر الناس لا يعلمون وقرأ الكوفيون بالتاء على تغليب المخاطب أو الالتفات للمذكورين بعد الاخبار عنهم أو أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمخاطبة والباقون بياء الغيبة نظرا لقوله تعالى ان الذين يجادلون وهم الذين التفت اليهم في قراءة الخطاب * ولما قرر الدليل على امكان وجود يوم القيامة أردفه بالاخبار عن وقوعها فقال تعالى (ان الساعة) أي القيامة التي يجادل فيها المجادلون (لآتية) أي للحكم بالعدل بين المسيء والمحسن لانه لا يسوغ في الحكمة عند أحد من الخلق أن يساوي بين محسن عبيده ومسيئهم (لا ريب) أي لا شك (فيها) أي في اتيانها * ولما حصل الحال في أمرها الى حد لا خفاء به أصلا نفى الايمان دون العلم فقال تعالى (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أي لا يصدقون بها وما ذاك الا لعناد بعضهم ولقصور نظر الباقين على الحس *(تنبيه)* يأتي قبل قيام الساعة فتن أعظمها فتنة المسيح الدجال فعن هشام بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين خلق آدم عليه السلام الى قيام الساعة أكبر من خلق الدجال معناه أكبر فتنة وأعظم شوكة من الدجال وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الدجال فقال انه أعور عين اليمنى كأنها عنبة طافية ولابي داود والترمذي عنه قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فأثنى على الله تعالى بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال اني أنذركموه وما من نبي الا أنذر قومه ولكن سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه تعلمون أنه أعور والله سبحانه ليس بأعور وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من نبي الا وأنذر قومه وأمته الاعور الدجال الا وانه أعور وان ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه كافر وفي رواية لمسلم بين عينيه ك ف ر يقرؤه كل مسلم وعن أسماء بنت يزيد الانصارية قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي فذكر الدجال فقال ان بين يديه ثلاث سنين سنة تمسك السماء ثلث قطرها والارض ثلث نباتها والثانية تمسك السماء ثلثي قطرها والارض ثلثي نباتها والثالثة تمسك السماء قطرها كله والارض نباتها كله فلا تبقى ذات ظلف ولا ذات ضرس من البهائم الا هلكت ومن أشد فتنته أن يأتي الاعرابي فيقول أرأيت ان أحييت لك ابلك ألست تعلم اني ربك فيقول بلى فيمثل له مثل ابله كأحسن ما تكون ضروعا وأسنمة ويأتي الرجل قد مات أخوه ومات أبوه فيقول ان أحييت لك أباك وأحييت لك أخاك ألست تعلم اني ربك فيقول بلى فيمثل له الشيطان نحو أبيه ونحو أخيه قالت ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم رجع والقوم في اهتمام وغم مما حدثهم فأخذ بلحمتي الباب فقال مهيم أسماء قلت يا رسول الله قد خلعت أفئدتنا بذكر الدجال قال ان يخرج وأنا حي فأنا حجيجه والا فربي خليفتي على كل مؤمن قالت فقلت يا رسول الله انا لنعجن عجيننا فما نخبزه حتى نجوع فكيف بالمؤمنين حينئذ قال يجزيهم ما يجزي أهل السماء من التسبيح والتقديس وروى البغوي بسنده عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يمكث الدجال في الارض أربعين سنة السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كاضطرام السعفة في النار انتهى والذي جاء في صحيح

سلم قالت قلت يارسول الله ما مكثه فى الارض قال أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يارسول الله فذلك اليوم الذى كسنة يكفينا فيه صلاة يوم قال لا اقدروا له قدرا قلنا يارسول الله وما اسراعه فى الارض قال كالغيث استدبرته الريح وفى رواية أبى داود فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف فانها جوازكم من فتنته ومنه ثم ينزل عيسى عليه السلام عند المنارة البيضاء شرقى دمشق فيدركه عند باب لد فيقتله وعن حذيفة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان مع الدجال اذا خرج ماء ونارا فأما الذى يرى الناس أنه نار فماء بارد وأما الذى يرى الناس أنه ماء فنار تحرق فمن أدرك ذلك منكم فليقع فى الذى يرى الناس أنه نار فانه ماء عذب بارد وعن أبى هريرة ألا أحدثكم حديثا عن الدجال ما حدث به نبى قومه انه أعور وانه يجىء بمثال الجنة والنار فالتى يقول انها الجنة هى النار وانى أنذركم كما أنذر نوح قومه وعن المغيرة بن شعبة قال ما سأل أحد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدجال أكثر ما سألته وانه قال لى ما يضرك قلت انهم يقولون ان معه جبال خبز ونهر ماء قال هو أهون على الله من ذلك اى أهون على الله من أن يجعل ما خلق الله بيده مضلا للمؤمنين ومشككا لقلوبهم بل انما جعله له ليزدادوا ايمانا وتثبت الحجة على الكافرين والمنافقين وليس معناه ليس معه شئ من ذلك لما مر فى الحديث ان معه ماء ونارا وذكر فيه أحاديث كثيرة وفى هذا القدر تذكرة لاولى الالباب أجارنا الله تعالى وأحبابنا من فتنته آمين * ولما بين تعالى ان القول بالقيامة حق وكان من المعلوم بالضرورة ان الانسان لا ينتفع فى يوم القيامة الا بطاعة الله والتضرع اليه لا جرم كان الاشتغال بالطاعة من أهم المهمات * ولما كان أشق انواع الطاعات الدعاء والتضرع لا جرم أمر الله تعالى به فقال سبحانه (وقال ربكم) اى المحسن اليكم بهدايتكم ووعدكم النصرة (ادعونى) اى اعبدونى دون غيرى (أستجب لكم) اى أثبكم واغفر لكم بقرينة قوله تعالى (ان الذين يستكبرون) اى يوجدون الكبر (عن عبادتى) اى عن الاستجابة لى فيما دعوت اليه من العبادة بالمجادلة فى آياتى والاعراض عن دعاتى (سيدخلون) اى بوعد لا خلف فيه (جهنم) فتلقاهم جزاء على كفرهم بالتجهم والعبوسة والكراهة (داخرين) أى صاغرين حقيرين ذليلين وان فسر الدعاء بالسؤال كان الاستكبار الصارف عنه منزلا منزلته للمبالغة والمراد بالعبادة الدعاء فانه من أبوابها وروى عن أنس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الدعاء مخ العبادة وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من لم يسأل الله تعالى يغضب عليه (فان قيل) انه صلى الله عليه وسلم قال حكاية عن ربه عز وجل من شغله ذكرى عن مسئلتى اعطيته أفضل ما أعطى السائلين فهذا يقتضى ان ترك الدعاء أفضل فكيف من لم يسأل الله يغضب (أجيب) بأنه ان كان مستغرقا فى الثناء على الله تعالى فهو أفضل من الدعاء لان الدعاء طلب الجنة والاستغراق فى معرفة الله تعالى وجلاله أفضل من طلب الجنة والا فالدعاء أفضل وعن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر الدعاء هو العبادة ثم قرأ الآية (فان قيل) كيف قال تعالى ادعوني أستجب لكم وقد يدعو الانسان كثيرا فلا يستجاب له (أجاب) الكعبي بأن الدعاء انما يصح بشرط ومن دعا كذلك استجيب له وذلك الشرط هو ان يكون المطلوب بالدعاء مصلحة وحكمة ثم سأل نفسه فقال ان الله تعالى يفعل ماهو الاصلح بغير دعاء فما فائدة الدعاء وأجاب عنه بان فيه الفزع والانقطاع الى الله تعالى وأجاب الرازى عن الاول بأن كل من دعا الله تعالى وفى قلبه ذرة من الاعتماد على ماله وجاهه وأصدقائه واجتهاده فهو فى الحقيقة مادعا الله تعالى الا باللسان وأما القلب فهو يعول فى تحصيل ذلك المطلوب على غير الله تعالى فهذا انسان مادعا ربه وأما اذا دعا فى وقت لا يكون القلب فيه ملتفتا الى غير الله تعالى فالظاهر أنه يستجاب له اه وقال القشيرى الدعاء مفتاح الاجابة واسنانه لقمة الحلال وقرأ ابن كثير وشعبة بضم ياء سيدخلون وفتح الخاء والباقون بفتح الياء وضم الخاء * ولما أمر الله تعالى بالدعاء فكأنه قيل الاشتغال بالدعاء لابد وأن يكون مسبوقا بحصول المعرفة فما الدليل على وجود الاله القادر فقال تعالى مفتتحا بالاسم الاعظم (الله) أى المحيط بصفات الكمال (الذى جعل لكم) لاغيره (الليل) أى مظلما (لتسكنوا فيه) راحة ظاهرة بالنوم الذى هو الموت الاصغر وراحة حقيقية بالعبادة التى هى الحياة الدائمة (والنهار مبصرا) لتنتشروا فيه باليقظة التى هى احياء بالمعنى فالآية من الاحتباك حذف الظلام أولا لكونه ليس من النعم المقصودة فى نفسها لما دل عليه من الابصار الذى هو المقصود من نعمة الضياء المقصود فى نفسه وحذف الانتشار لانه بعض ما ينشأ عن نعمة الابصار لما دل عليه من السكون الذى هو المقصود الاعظم من الليل للراحة لمن ارادها والعبادة لمن اعتمدها واستزادها (فان قيل) هلا قيل بحسب رعاية النظم هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه أو يقال جعل لكم الليل ساكنا والنهار مبصرا ولكنه لم يقل ذلك فما الحكمة فيه وفى تقديم ذكر الليل (أجيب) عن الاول بأن الليل والنوم فى الحقيقة طبيعة عدمية فهو غير مقصود بالذات وأما النور واليقظة فأمور وجودية مقصودة بالذات وقد بين الشيخ عبد القادر فى دلائل الاعجاز ان دلالة صيغة الاسم على التمام والكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليها فهذا هو السبب فى الفرق (وأجيب) عن الثانى بأن الظلمة طبيعة عدمية والنور طبيعة وجودية والعدم فى المحدثات مقدم على الوجود فلهذا السبب قال تعالى فى سورة الانعام وجعل الظلمات والنور (ان الله) أى ذا الجلال والاكرام (لذو فضل) أى عظيم جدا باختياره (على الناس) أى كافة باختلاف الليل والنهار وما يحتويان عليه من المنافع (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) الله فلا يؤمنون وينسبون افعاله سبحانه الى غيره جهلا ويعملون بما يسلب عنهم اسم الشكر من الشرك وغيره (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى ولكن أكثر الناس ولم يقل ولكن أكثرهم ولا يكرر ذكر الناس (أجيب) بأن فى هذا التكرار تخصيصا لكفران النعمة بهم وانهم هم الذين يكفرون فضل الله تعالى ولا يشكرونه كقوله تعالى ان الانسان لظلوم كفار * ولما بين تعالى بتلك الدلائل المذكورة وجود الاله القادر قال تعالى (ذلكم) اى

ايها المخاطبون (الله) أي الملك الاعظم المعلوم لكل احد المتميز عن كل شئ بالافعال التي لايشاركه فيها أحد (ربكم) أي المربي لكم المحسن اليكم (خالق كل شئ) أي بما ثبت من تمام قدرته لانه (لا اله الا هو) أي هو الجامع لهذه الاوصاف من الالهية والربوبية فهي أخبار مترادفة واذا كان خالق كل شئ (فأنى) أي فكيف ومن أي وجه (تؤفكون) أي تصرفون عن عبادته الى عبادة غيره (كذلك) أي مثل هذا الصرف البعيد عن مناهج العقلاء (يؤفك) أي يصرف (الذين كانوا) أي مطبوعين على أنهم (با يات الله) أي ذي الجلال والكمال (يجحدون) أي ينكرون عنادا ومكابرة * ولما كان دلائل وجوده تعالى اما أن تكون من دلائل الآفاق وهي غير الانسان وهي أقسام وذكر منها أحوال الليل والنهار كما تقدم ذكر أيضا منها ههنا الارض والسماء فقال تعالى (الله) أي الذي له الاحاطة الكاملة بكل شئ (الذي جعل) أي وحده (لكم الارض) أي مع كونها فراشا ممهدا (قرارا) مع كونها في غاية الثقل ولا ممسك لها سوى قدرته (والسماء) أي على علوها وسعتها مع كونها أفلاكا دائرة بنجوم طول الزمان سائرة ينشأ عنها الليل والنهار والاظلام (بناء) مظلة كالقبة من غير عماد وحامل * ثم ذكر دلائل النفس وهي دلالة أحوال بدن الانسان على وجود الصانع القادر الحكيم بقوله تعالى (وصوركم) والتصوير على غير نظام واحد لا يكون الا بقدرة قادر تام القدرة مختار (فأحسن صوركم) على أشكال وأحوال مع أنها أحسن الصور ليس في الوجود ما يشبهها لم يخلق الله تعالى حيوانا أحسن صورة من الانسان كما قال تعالى في أحسن تقويم قال ابن عباس رضي الله عنهما خلق الانسان قائما معتدلا يأكل ويتناول بيده وغير ابن آدم يتناول بفيه * ولما ذكر تعالى المساكن والساكن ذكر ما يحتاج اليه في مدة السكن فقال سبحانه (ورزقكم من الطيبات) أي المشتهية الملائمة للطباع وقيل هو ما خلق الله تعالى لعباده من المأكل والمشرب من غير رزق الدواب وعن الحسن انه قال لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام وذريته قالت الملائكة عليهم السلام ان الارض لا تسعهم قال الله تعالى فانه جاعل موتا قالوا اذا لا يهنأ لهم العيش قال تعالى فاني جاعل أملا * ولما دل هذا على التفرد قال تعالى على وجه الانتاج (ذلكم) أي الرفيع الدرجات (الله) أي المالك لجميع الملك (ربكم) أي المحسن اليكم لا غيره (فتبارك) أي ثبت ثباتا عظيما مع اليمن والخير وحسن المدد والفيض (الله) المختص بالكمال (رب العالمين) كلهم فهو المحسن اليهم بالتربية وغيرها * ثم نبه تعالى بقوله سبحانه (هو الحي) بما يفيد الحصر بأنه لا حي على الدوام الا هو ثم نبه تعالى على وحدانيته بقوله سبحانه (لا اله الا هو) ثم أمر العباد بالاخلاص في الدعاء فقال تعالى (فادعوه) أي اعبدوه (مخلصين له الدين) أي من كل شرك جلي أو خفي * ولما كان تعالى موصوفا بصفات الجلال والعزة استحق لذاته أن يقال له (الحمد) اي الاحاطة بأوصاف الكمال (لله) أي المسمى بهذا الاسم الجامع لجامع معاني الاسماء الحسنى (رب العالمين) أي الذي ربا هم هذه التربية وقال الفراء هو خبر وفيه اضمار الامر ومجازه فادعوه واحمدوه وعن ابن عباس

رضى الله عنهما من قال لا اله الا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين * ولما أورد على المشركين تلك الادلة الدالة على اثبات اله العالم أمره بقوله تعالى (قل) أى لهؤلاء الذين يجادلونك فى البعث مقابلا لانكارهم بالتوكيد (انى نهيت) أى ممن لا نهى لغيره نهيا عاما ببراهين العقول ونهيا خاصا بأدلة النقل (أن أعبد الذين تدعون) أى تعبدون (من دون الله) أى الذى له الكمال كله قال البقاعى ودل على أنه ما كان متعبدا قبل البعثة بشرع أحد بقوله (لما جاءنى البينات) أى الحجج وهى ما تقدم من الدلائل الدالة على أن اله العالم قد ثبت كونه موصوفا بصفات الجلال والعظمة وصريح العقل يشهد بأن العبادة لا تليق الا له وأما الاحجار المنحوتة والاخشاب المصورة فلا تصح أن تكون شركاء له * ثم نبه على أنه تعالى كما يستحق الافراد بالعبادة لذاته يستحقها شكرا لاحسانه بقوله (من ربى) أى المربى لى تربية خاصة هى أعلى من كل مخلوق سواى فانا أعبده عبادة تفوق عبادة كل عابد * ولما أمره عما ينهى عنه أمره بما يتحلى به فقال (وأمرت أن أسلم) أى حين دعى الى الكفر (لرب العالمين) لان كل ما سواه مربوب له فالاقبال عليه خسار واذا نهى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأمر بهذا فكون الآمر والناهى هو رب العالمين كان غيره مشاركا له فى ذلك لا محالة * ولما استدل تعالى على اثبات الالهية بدليل الآفاق وذكر منها الليل والنهار والارض والسماء ثم ذكر الدليل على اثبات الاله القادر بخلق الانفس وهو نوعان أحدهما حسن الصورة ورزق الطيبات ذكر النوع الثانى وهو كيفية تكوين البدن من ابتداء كونه نطفة وجنينا الى آخر الشيخوخة والموت فقال تعالى (هو) أى لا غيره (الذى خلقكم من تراب) أى بخلق أبيكم آدم عليه السلام منه قال الرازى وعندى لا حاجة الى ذلك لان كل انسان فهو مخلوق من المنى ومن دم الطمث والمنى مخلوق من الدم والدم انما يتولد من الاغذية والاغذية اما حيوانية واما نباتية والحال فى ذلك الحيوان كالحال فى تكوين الانسان فكانت الاغذية كلها منتهية الى النبات والنبات انما يكون من التراب والماء فثبت أن كل انسان متكون من التراب ثم ان ذلك التراب يصير نطفة كما قال تعالى (ثم من نطفة) أى من منى (ثم من علقة) أى دم غليظ متباعد حاله عن حال النطفة كما كان حال النطفة متباعدا عن حال التراب (ثم) بعد ان جرت شؤن أخرى (يخرجكم) أى يجدد اخراجكم شيأ بعد شئ (طفلا) أى أطفالا والتوحيد لارادة الجنس أو على تأويل كل واحد منكم لا تملكون شيأ ولا تعلمون شيأ (ثم) يدرجكم فى مدارج التربية صاعدين بالقوة فى أوج الكمال طورا بعد طور وحالا بعد حال (لتبلغوا أشدكم) أى تكامل قوتكم من الثلاثين سنة الى الاربعين وعن الشعبى صغر الغلام لسبع سنين ويحتلم لاربع عشرة وينتهى طوله لاحدى وعشرين وينتهى عقله لثمان وعشرين ويبلغ اشده لثلاث وثلاثين (ثم) يهبطكم بالضعف والوهن فى مهاوى السفول (لتكونوا شيوخا) ضعفاء غرباء قد ماتت قوتكم ووهنت أركانكم وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وحفص بضم الشين والباقون بكسرها (ومنكم من يتوفى) بقبض روحه (من قبل) أى قبل حال الشيخوخة أو قبل حال

الاشدية أوقبل هذه الاحوال اذا خرج *(تنبيه)* قوله تعالى لتبلغوا أشدكم متعلق قال الزمخشري بفعل محذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا أشدكم وكذلك لتكونوا وأماقوله (ولتبلغوا) أى كل واحد منكم (أجلا مسمى) فمعناه ويفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى وهو وقت الموت وقيل يوم القيامة (ولعلكم تعقلون) أى ما فى ذلك من العبر والحجج وتستدلون بهذه الاحوال العجيبة على وحدانية الله تعالى *ولما ذكر تعالى انتقال الاجسام من كونها ترابا الى ان بلغت الشيخوخة واستدل بهذه التقديرات على وجود الاله القادر أنتج قوله تعالى (هو) أى لاغيره (الذى يحيى ويميت) كما تشاهدونه فى أنفسكم فكما أن الانتقال من صفة الى صفة أخرى من الصفات المتقدمة يدل على الاله القادر فكذلك الانتقال من الحياة الى الموت وبالعكس يدل على الاله القادر * ولما كانت ارادته لاتكون الاتامة تسبب عن ذلك قوله تعالى (فاذا قضى أمرا) أى أراد أى أمر كان من القيامة أوغيرها (فانما يقول له كن فيكون) فلا يحتاج فى تكوينه الى عدة وتجشم كلفة وقرأ ابن عامر بنصب النون والباقون بالرفع وتقدم توجيه ذلك فى سورة البقرة ثم انه تعالى عاد الى ذم الذين يجادلون فى آيات الله مخاطبا بذلك نبيه صلى الله عليه وسلم فقال (ألم تر) أى ياأنور الناس قلبا وأصفاهم لبا (الى الذين يجادلون) أى بالباطل (فى آيات الله) أى الملك الاعظم (أنى) أى كيف ومن أى وجه (يصرفون) أى عن التصديق وتكرير ذم المجادلة بتعدد المجادل والمجادل فيه أو للتوكيد وقوله تعالى (الذين كذبوا) يجوز أن يكون بدلا من الموصول قبله أو بيانا أونعتا أو خبره مبتدا محذوف أومنصوبا على الذم (بالكتاب) أى بسببه فى جميع ماله من الشؤن التى تفوق الحصر وهو القرآن أو بجنس الكتب السماوية (وبما أرسلنا) أى على مالنا من العظمة (به رسلنا) أى من جميع الملل والشرائع بكتاب كان أو بغيره ولذا تسبب عنه تهديدهم فى قوله تعالى (فسوف يعلمون) أى بوعد صادق لاخلف فيه ما يحل بهم من سطواتنا وقوله تعالى (اذ الاغلال فى أعناقهم) ظرف ليعلمون (فان قيل) سوف للاستقبال واذ للماضى فهو مثل قولك سوف أصوم أمس (أجيب) بأن المعنى على اذا الا أن الامور المستقبلة لما كانت فى اخبار الله تعالى متيقنة مقطوعا بها عبر عنها بلفظ ما كان ووجد والمعنى على الاستقبال قالوا وكما تقع اذا موقع اذ فى قوله تعالى واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها كذلك تقع اذ موقعها وقوله تعالى (والسلاسل) عطف على الاغلال فتكون فى الاعناق والسلسلة معروفة أو مبتدأ خبره محذوف تقديره فى ارجلهم وخبره (يسحبون) والعائد محذوف أى بها والسحب الجر بعنف والسحاب من ذلك لان الريح تجره أو لانه يجر الماء (فى الحميم) أى الماء الحار الذى يكسب الوجوه سوادا والاعراض عارا والارواح عذابا والاجسام نارا (ثم فى النار يسجرون) أى يلقون فيها وتوقد بهم مكردسين كما يسجر التنور بالحطب كما قال تعالى وقودها الناس والحجارة والسجير الخليل الذى يسجر فى مودة خليله كقولهم فلان يحترق فى مودة فلان هذه كيفية عقابهم (ثم قيل لهم) تبكيتا أى بعد ان طال عذابهم وبلغ منهم كل مبلغ ولم يجدوا

قوله وأكد التعبير الخ كذا في النسخ ولا يخفى ما فيه اهـ

ناصرا يخلصهم ولا شافعا يخصصهم (أين) وأكد التعبير عنهم بأداة ما لا يعقل في قوله تعالى (ما كنتم) أي دائما (تشركون من دون الله) أي معه وهي الاصنام (قالوا ضلوا) أي غابوا (عنا) فلا نراهم كما ضللنا نحن في الدنيا عما ينفعنا وذلك قبل أن تقرن آلهتهم أو ضاعوا عنا فلم نجد منهم ما كنا نتوقع منهم (بل لم نكن ندعو) أي لم يكن ذلك في طباعنا (من قبل) أي قبل هذه الاعادة (شيأ) لنكون قد أشركنا به أنكروا عبادتهم اياها كقولهم في سورة الانعام والله ربنا ما كنا مشركين وقال الحسن بن الفضل أي لم نكن نصنع من قبل شيأ أي ضاعت عبادتنا لها كما يقول من ضاع عمله ما كنت أعمل شيأ ثم يقرنون بآلهتهم كما قال تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أي وقودها (كذلك) أي مثل اضلال هؤلاء المكذبين (يضل الله) أي المحيط علما وقدرة عن القصد النافع من حجة وغيرها (الكافرين) أي الذين ستروا مرائى بصائرهم لئلا ينجلي فيها الحق ثم صار لهم ذلك ديدنا (ذلكم) أي الجزاء العظيم (بما كنتم) أي دائما (تفرحون) أي تبالغون في السرور وتستغرقون فيه (في الارض بغير الحق) من الاشراك وانكار البعث فأشعر ذلك أن السرور لا ينبغي الا اذا كان مع كمال هذه الحقيقة وهي الثبات دائما للمفروح به وذلك لا يكون الا في الجنة (وبما) أي وبسبب ما (كنتم تمرحون) أي تبالغون في الفرح مع الاشر والبطر والنشاط الموجب للاختيال والتبختر والخفة بعدم احتمال الفرح *(تنبيه)* قوله تعالى تفرحون وتمرحون من باب التجنيس المحرف وهو أن يقع الفرق بين اللفظين بحرف * ولما كان السياق لذم الجدال وكان الجدال انما يكون عن الكبر قال تعالى (ادخلوا) أي أيها المكذبون (أبواب جهنم) أي الابواب السبعة المقسومة لكم قال تعالى لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وسميت جهنم لانها تلقى صاحبها بتكبر وعبوس وتجهم (خالدين فيها) أي مقدرين الخلود (فبئس مثوى) أي مأوى (المتكبرين) أي عن الحق والمخصوص بالذم محذوف أي مثواكم (فان قيل) كان قياس النظم أن يقول فبئس مدخل المتكبرين كما تقول زرت بيت الله فنعم المزار وصليت في المسجد فنعم المصلى (أجيب) بان الدخول لا يدوم وانما يدوم المثوى فلذلك خصه بالذم وان كان الدخول أيضا مذموما * ولما زيف تعالى طريقة المجادلين في آيات الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر بقوله (فاصبر) أي على أذاهم بسبب المجادلة وغيرها (ان وعد الله) أي الجامع لصفات الكمال (حق) أي بنصرتك في الدارين فلا بد من وقوعه (فاما نرينك) قال الزمخشري أصله فان نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ولذلك ألحقت النون بالفعل ألا ترى لا تقول ان تكرمني أكرمك ولكن اما تكرمني أكرمك قال أبو حيان وما ذكره من تلازم النون وما الزائدة ليس مذهب سيبويه انما هو مذهب المبرد والزجاج ونص سيبويه على التخيير (بعض الذي نعدهم) به من العذاب في حياتك وجواب الشرط محذوف أي فذاك (أو نتوفينك) أي قبل تعذيبهم (فالينا يرجعون) أي فنعذبهم أشد العذاب فالجواب المذكور للمعطوف فقط (ولقد أرسلنا) أي بما لنا من العظمة (رسلا)

أى بكثرة (من قبلك) الى أممهم ليبلغوا اعناما أمرناهم به (منهم من قصصنا) بما لنا من العظمة (عليك) أى أخبارهم وأخبار أممهم (ومنهم من لم نقصص عليك) لا أخبارهم ولا أخبار أممهم ولا ذكرناهم لك بأسمائهم وان كان لنا العلم التام والقدرة الكاملة روى ان الله تعالى بعث ثمانية آلاف نبى أربعة آلاف من بنى اسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس (وما) أى أرسلناهم والحال انه ما (كان لرسول) أصلا (أن يأتى باية) أى ملجئة أوغير ملجئة مما يطلب الرسول استعجالا للاتباع قومه له أواقتراحا من قومه عليه (الا باذن الله) أى بأمره وتمكينه فان له الاحاطة بكل شئ فلا يخرج شئ عن أمره وهم عبيد مربوبون * (تنبيه) * معنى الآية أن الله تعالى قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنت كالرسل من قبلك وقد ذكرنا حال بعضهم لك ولم نذكر حال الباقين وليس منهم أحد أعطاه الله آيات ومعجزات الا وقد جادله قومه وكذبوه فيها فصبروا وكانوا أبدا يقترحون على أنبيائهم عليهم السلام اظهار المعجزات الزائدة على الحاجة عنادا وعبثا وما كان لرسول أن يأتى باية الا باذن الله تعالى والله سبحانه علم الصلاح فى اظهار ما أظهروه دون غيره ولم يقدح ذلك فى نبوتهم فكذلك الحال فى اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة لما لم يكن اظهارها صلاحا لاجرم ما أظهرناها (فاذا جاء أمر الله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما بنزول العذاب على الكفار (قضى) أى بأمره على أيسر وجه وأسهله بين الرسل ومكذبيهم (بالحق) الامر الثابت (وخسر هنالك) أى فى ذلك الوقت العظيم (المبطلون) أى المنسوبون الى ايثار الباطل على الحق المعاندون الذين يجادلون فى آيات الله فيقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة تعنتا وعبثا وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل ورش وقنبل الهمزة الثانية وأبدلاها أيضا ألفا وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين * ولما ذكر تعالى الوعيد عاد الى ذكر ما يدل على وجود الاله القادر الحكيم والى ذكر ما يصلح أن يعد انعاما على العباد فقال تعالى (الله) أى الملك الاعظم (الذى جعل لكم) أى لا لغيره (الانعام) أى الازواج الثمانية بالتذلل والتسخير وقال الزجاج الانعام الابل خاصة (لتركبوا منها) وهى الابل مع قوتها ونفرتها وقد تركب البقر أيضا (ومنها) أى من الانعام كلها (تأكلون) ولما كان التصرف فيها غير منضبط أجمله بقوله تعالى (ولكم فيها) أى كلها (منافع) أى كثيرة بغير ذلك من الدر والوبر والصوف وغيرها (ولتبلغوا عليها) وهى فى غاية الذل والطواعية ونبههم على نقصهم وعظم نعمته عليهم بقوله تعالى (حاجة) أى جنس الحاجة وقوله تعالى (فى صدوركم) اشارة الى أن حاجة واحدة ضاقت عنها قلوب الجميع حتى فاضت منها فلا تمسكنها (وعليها) أى الابل فى البر (وعلى الفلك) أى فى البحر (تحملون) أى تحملون أمتعتكم الثقيلة من مكان الى مكان آخر وأما حمل الانسان نفسه فقدمر بالركوب (فان قيل) لم لم يقل وفى الفلك كما قال تعالى فى سورة هود قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين (أجيب) بأن كلمة على للاستعلاء فالشئ الذى يوضع على الفلك كما صح أن يقال وضع فيه صح أن يقال وضع عليه ولما صح

الوجهان كانت لفظة على أولى حتى تتم المزاوجة فى قوله تعالى وعليها وعلى الفلك تحملون وقال بعضهم ان لفظ فيها هنالك أليق لان سفينة نوح عليه السلام كما قيل مطبقة عليهم وهى محيطة بهم كالوعاء وأما غيرها فالاستعلاء فيه واضح لان الناس على ظهرها * ولما كانت هذه آية عظيمة جعلها الله سبحانه وتعالى مشتملة على آيات كثيرة قال تعالى (ويريكم) أى فى كل لحظة (آياته) أى دلائل قدرته (فأى آيات الله) أى المحيط بصفات الكمال الدالة على وحدانيته (تنكرون) حتى تتوجه لكم المجادلة فى آياته وهذا استفهام توبيخ * (تنبيه) * أى منصوب بتنكرون وقدم وجوبا لان له صدر الكلام وتذكيره أشهر من تأنيثه قال الزمخشرى وقولك فأية آيات الله قليل لان التفرقة بين المذكر والمؤنث فى الاسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب وهو فى أى أغرب لابهامه قال أبو حيان ومن قلة تأنيث أى قول الشاعر

بأى كتاب أم بأية سنة * ترى حبهم عارا على وتحسب

قال ابن عادل وقوله وهو فى أى أغرب ان عنى أيا على الاطلاق فليس بصحيح لان المستفيض فى النداء أن تؤنث فى نداء المؤنث كقوله تعالى يا أيتها النفس المطمئنة ولا نعلم أحدا ذكر تذكيرها فيه فيقول يا أيها المرأة الا صاحب البديع فى النحو وان عنى غير المناداة فكلامه صحيح يقل تأنيثها فى الاستفهام وموصولة وشرطية * ولما وصل الامر الى حد من الوضوح لا يخفى على أحد تسبب عنه لفت الخطاب عنهم دلالة على الغضب الموجب للعتاب المقتضى للرهب فقال تعالى (أفلم يسيروا) أى هؤلاء الذين هم أضل من الانعام لما حصل فى صدورهم من الكبر العظيم طلبا للرياسة والتقديم على الغير فى المال والجاه (فى الارض) أى أرض كانت سير اعتبار (فينظروا) نظر تفكر فيما سلكوه من سبلها ونواحيها (كيف كان عاقبة) أى آخر (الذين من قبلهم) أى مع قرب الزمان والمكان أو بعد ذلك (كانوا أكثر منهم) عددا وعددا ومالا وجاها (وأشد قوة) فى الابدان كقوم هود عليه السلام وبناء (وآثارا فى الارض) بنحت البيوت فى الجبال وحفر الآبار وبناء المصانع الجليلة وغير ذلك (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) بقوة أبدانهم وعظم عقولهم واحتيالهم وما رتبوا من المصانع لنجاتهم حين جاءهم الموت بل كانوا كأمس الذاهب * (تنبيه) * ما الاولى نافية أو استفهامية منصوبة بأغنى والثانية موصولة أو مصدرية مرفوعة به (فلما جاءتهم رسلهم) أى الذين قد أرسلناهم اليهم وهم يعرفون صدقهم وأمانتهم (بالبينات) أى المعجزات الظاهرات الدالة على صدقهم لا محالة واختلف فى عود ضمير فرحوا فى قوله تعالى (فرحوا بما عندهم من العلم) على وجهين أحدهما أنه عائد الى الكفار واختلف فى ذلك العلم الذى فرحوا به فقيل هو الاشياء التى كانوا يسمونها علما وهى الشبهات المحكية عنهم فى القرآن كقولهم ما يهلكنا الا الدهر وقولهم لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا وقولهم من يحيى العظام وهى رميم ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا فكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به علوم الانبياء كما قال تعالى كل حزب بما لديهم فرحون وقيل المراد علم الفلاسفة فانهم كانوا اذا سمعوا بوحى الله تعالى دفعوه وصغروا علوم الانبياء

عن علومهم كما روى عن بقراط أنه سمع بمجيء بعض الانبياء عليهم السلام فقيل له لو هاجرت اليه فقال نحن قوم مهتدون فلا حاجة بنا الى من يهدينا وقيل المراد علمهم بأمر الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كقوله تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ذلك مبلغهم من العلم فلما جاءت الرسل عليهم السلام بعلوم الديانات ومعرفة الله عز وجل ومعرفة المعاد وتطهير النفس من الرذائل لم يلتفتوا اليها واستهزؤا بها واعتقدوا أن لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به ويجوز أن يكون المراد علم الانبياء وفرح الكفار به ضحكهم واستهزاؤهم به ويؤيده قوله تعالى (وحاق) أى أحاط على وجه الشدة (بهم ما كانوا به يستهزؤن) أى من الوعيد الذى كانوا قاطعين ببطلانه والوجه الثانى أنه عائد على الرسل وفيه وجهان أحدهما أن تفرح الرسل اذا رأوا من قوم جهلا كاملا واعراضا عن الحق وعلموا سوء غفلتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واعراضهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله تعالى وحاق بالجاهلين جزاء جهلهم واستهزائهم الثانى أن المراد أن الرسل فرحوا بما عند الكفار من العلم فرح ضحك واستهزاء (فلما رأوا) أى عاينوا (بأسنا) أى عذابنا الشديد ومنه قوله تعالى بعذاب بئيس (قالوا آمنا بالله) أى الذى له مجامع العظمة ومعاقد العز ونفوذ الكلمة (وحده) لا نشرك به شيأ (وكفرنا بما كنا) أى جبلة وطبعا (به مشركين) يعنون الاصنام أى لانا علمنا أنه لا يغنى من دون الله شئ * ولما كان الكفر بالغيب سببا لعدم قبول الايمان عند الشهادة قال تعالى (فلم يك ينفعهم) أى لم يصح ولم يقبل بوجه من الوجوه (ايمانهم) أى لا يتجدد لهم نفعه بعد ذلك لانه ايمان الجاء واضطرار لا ايمان طواعية واختيار (لما رأوا) وأظهر موضع الاضمار زيادة فى الترهيب فقال تعالى شأنه (بأسنا) أى عذابنا لامتناع قبول الايمان حينئذ لانه لا يتحقق ولا يتصور الامع الغيب وأما عند الشهادة فقد كشفت سريرته على أنه قد فاتت حقيقته وصورته ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه (فان قيل) أى فرق بين قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم وبينه لو قيل فلم ينفعهم ايمانهم (أجيب) بأنه من كان فى نحو قوله تعالى ما كان لله أن يتخذ من ولد والمعنى فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم ايمانهم (فان قيل) كيف ترادفت هذه الفاآت (أجيب) بأن قوله تعالى فما أغنى عنهم نتيجة قوله تعالى كانوا أكثر منهم وأما قوله تعالى فلما جاءتهم رسلهم فجار مجرى البيان والتفسير لقوله تعالى فما أغنى عنهم كقولك رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن الى الفقراء وقوله تعالى فلما رأوا بأسنا تابع لقوله تعالى فلما جاءتهم كأنه قال فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا فكذلك فلم يك ينفعهم ايمانهم تابع لايمانهم لما رأوا بأس الله تعالى وقوله تعالى (سنت الله) أى الملك الاعظم يجوز انتصابها على المصدر المؤكد لمضمون الجملة أى الذى فعله الله تعالى بهم سنة سابقة من الله تعالى ويجوز انتصابها على التحذير أى احذروا سنة الله تعالى فى المكذبين (التى قد خلت فى عباده) وتلك السنة انهم اذا عاينوا العذاب آمنوا ولم ينفعهم ايمانهم (فائدة) رسمت سنة بتاء مجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو

والكسائي بالهاء والباقون بالتاء وأمال الكسائي الهاء في الوقف (وخسر) أي هلك أي تحقق وتبين أنه خسر (هنالك الكافرون) أي العريقون في هذا الوصف فلا انفكاك بينهم وبين الكفر *(تنبيه)* هنالك في الاصل اسم مكان قيل استعير هنا للزمان ولا حاجة له فالمكانية فيه ظاهرة وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن الا صلى عليه واستغفر له حديث موضوع وعن ابن سيرين رأى رجل في المنام سبع جوار حسان في مكان واحد لم ير أحسن منهن فقال لهن لمن أنتن فقلن لمن يقرأ آل حم

﴿سورة حم السجدة مكية﴾

وتسمى فصلت وهي أربع وخمسون آية وسبعمائة وتسعة وتسعون كلمة وثلاثة آلاف وثلثمائة وخمسون حرفا (بسم الله) الذي له أوصاف الكمال (الرحمن) الذي وسع كل شيء رحمة وعلما (الرحيم) الذي فصل الكتاب تفصيلا وبينه غاية البيان وتقدم الكلام على قوله تعالى (حم) ثم ان جعلتها اسما للسورة كانت في موضع الابتداء وخبره (تنزيل من الرحمن الرحيم) وان جعلتها تعديدا للحروف كان تنزيل خبرا لمبتدا محذوف أي هذا تنزيل وقال الاخفش تنزيل رفع بالابتداء وخبره (كتاب) فصلت وجرى على ذلك الجلال المحلي (فصلت) أي بينت (آياته) بالاحكام والقصص والمواعظ بيانا شافيا في اللفظ والمعنى حال كونه (قرآنا) أي جامعا التفصيل وهو مع جمع اللفظ وضبطه منثورا للؤلؤ منتشر المعاني لا الى حد ولا نهاية عند بل كلما دقق النظر جل المفهوم ولذلك قال تعالى (عربيا) لان لسان العرب أوسع الالسن ساحة وأعمقها عمقا وأغمرها باحة وأرفعها بناء وأفصحها لفظا وأبينها معنى وأجلها في النفوس وقعا وفي ذلك امتنان لسهولة قراءته وفهمه وقوله تعالى (لقوم يعلمون) أي العربية أو لاهل العلم وهو النظر وهو متعلق بفصلت أي فصلت لهؤلاء وبينت لهم لانهم هم المنتفعون بها وان كانت مفصلة في نفسها لجميع الناس أو بمحذوف صفة لقرآنا أي كائنا لهؤلاء خاصة لما تقدم من المعنى *(تنبيه)* حكم الله تعالى على هذه السورة بأشياء أولها كونها تنزيلا والمراد المنزل والتعبير عن المفعول بالمصدر مجاز مشهور كقولك هذا بناء الامير أي مبنيه وهذا الدرهم ضرب السلطان أي مضروبه ومعنى كونها منزلة أن الله تعالى كتبها في اللوح المحفوظ وأمر جبريل عليه السلام أن يحفظ الكلمات ثم ينزل بها على محمد صلى الله عليه وسلم ويؤديها اليه فلما حصل تفهم هذه الكلمات بواسطة جبريل عليه السلام سمي لذلك تنزيلا وثانيها كون ذلك التنزيل من الرحمن الرحيم وذلك يدل على أن ذلك التنزيل نعمة عظيمة من الله تعالى لان الفعل المقرون بالصفة لابد وأن يكون مناسبا لتلك الصفة فكونه تعالى رحمانا رحيما صفتان دالتان على كمال الرحمة والتنزيل المضاف الى هاتين الصفتين لابد وأن يكون دالا على أعظم وجوه الرحمة والنعمة والامر كذلك لان الخلق في هذا العالم كالمرضى

والمحتاجين والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج اليه المرضى من الادوية وعلى ما يحتاج اليه الاصحاء من الاغذية فكان أعظم النعم من الله تعالى على أهل هذا العالم انزال القرآن عليه وثالثها كونه كتابا وهذا الاسم مشتق من الكتب وهو الجمع فسمى كتابا لانه جمع فيه علوم الاولين والآخرين ورابعها قوله تعالى فصلت آياته أى ميزت وجعلت تفاصيل فى معان مختلفة فبعضها وصف ذات الله تعالى وصفات التنزيه والتقديس وشرح كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته وعجائب أحوال خلقه من السموات والكواكب وتعاقب الليل والنهار وعجائب أحوال النبات والحيوان والانسان وبعضها فى المواعظ والنصائح وبعضها فى تهذيب الاخلاق ورياضة النفس وبعضها فى قصص الانبياء عليهم السلام وتواريخ الماضين وبالجملة فمن أنصف علم أنه ليس فى بدء الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة مثل ما فى القرآن وخامسها قوله تعالى قرآنا وقد مر توجيه هذا الاسم وسادسها قوله تعالى عربيا أى انما نزل بلغة العرب ويؤيده قوله تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه وسابعها قوله تعالى لقوم يعلمون أى جعلناه قرآنا لاجل انا أنزلناه على قوم عرب بلغتهم ليفهموا منه المراد وثامنها وتاسعها قوله تعالى (بشيرا) أى لمن اتبع (ونذيرا) أى لمن امتنع وانقطع وعاشرها قوله تعالى (فأعرض أكثرهم) أى عن تدبره وقبوله (فهم) لذلك (لا يسمعون) أى يفعلون فعل من لم يسمع لانهم لا يسمعون سماع تأمل وطاعة فهذه صفات عشر وصف الله تعالى القرآن بها واحتج القائلون بخلق القرآن بهذه الآية من وجوه أولها أنه تعالى وصف القرآن بكونه منزلا وتنزيلا والمنزل والتنزيل مشعر بالتغير من حال الى حال فوجب أن يكون مخلوقا ثانيها أن التنزيل مصدر هو المفعول المطلق باتفاق النحويين ثالثها أن المراد بالكتاب اما الكتاب وهو المصدر الذى هو المفعول المطلق واما المكتوب الذى هو المفعول رابعها ان قوله تعالى فصلت آياته يدل على أن متصرفا تصرف فيه بالتفصيل وذلك لا يليق بالقديم خامسها انما سمى قرآنا لانه قرن بعض أجزائه ببعض وذلك يدل على كونه مفعول فاعل ومجعول جاعل سادسها وصفه بكونه عربيا وانما صحت هذه النسبة لان هذه الالفاظ انما دلت على هذه المعانى بحسب وضع العرب واصطلاحاتهم وما حصل بجعل جاعل وفعل فاعل فلابد وأن يكون محدثا ومخلوقا وأجاب أهل السنة بأن كل هذه الوجوه المذكورة عائدة الى اللغات والى الحروف والكلمات وهى حادثة وذهب قوم الى أن فى القرآن من سائر اللغات كالاستبرق والسجيل فانهما فارسيان والمشكاة فانها حبشية والقسطاس فانه من لغة الروم وهذا فاسد لقوله تعالى قرآنا عربيا وقوله تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه * ولما وصف الله تعالى القرآن بأنهم أعرضوا عنه ولم يلتفتوا اليه بين أنهم صرحوا بهذه النفرة وذكر ثلاثة أشياء مذكورة عنهم فى قوله تعالى (وقالوا) أى عند اعراضهم ممثلين فى عدم قبولهم (قلوبنا فى أكنة) أى أغشية محيطة بها والاكنة جمع كنان كأغطية جمع غطاء والكنان هو الذى تجعل فيه السهام والمعنى لا نفقه ما تقول (مما تدعونا) أيها المخبر بأنه نبى (اليه) فلا

سبيل الى الوصول اليها انفقه أصلا (فان قيل) هلا قالوا على قلوبنا أكنة كما قالوا (وفى آذاننا) أى التى نسمع بها وهى أحد الطرق الموصلة الى القلوب (وقر) أى ثقل قد أصمها عن سماعه ليكون على نمط واحد (أجيب) بأنه على نمط واحد لانه لافرق فى المعنى بين قولك قلوبنا فى أكنة وعلى قلوبنا أكنة والدليل عليه قوله تعالى انا جعلنا على قلوبهم أكنة ولو قيل انا جعلنا قلوبهم فى أكنة لم يختلف المعنى والمعنى انا فى ترك القبول عنك بمنزلة من لا يفهم ولا يسمع (ومن بيننا وبينك حجاب) أى حاجز من جبل أو نحوه فلا تلاقى ولا ترائى (فاعمل) أى على دينك (اننا عاملون) على ديننا أو فاعمل فى ابطال أمرنا اننا عاملون فى ابطال أمرك (فان قيل) هل لزيادة من فى قولهم من بيننا وبينك حجاب فائدة (أجيب) بنعم لانهم لو قالوا وبيننا وبينك حجاب لكان المعنى ان حجابا حاصل وسط بين الجهتين واما بزيادة من فالمعنى أن الحجاب ابتداء منا وابتداء منك فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك كلها مستوعبة بالحجاب لافراغ فيها * ولما أخبروا باعراضهم وعللوا بعدم فهمهم لما يدعو اليه أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بجواب يبين أنهم على محض العناد فقال تعالى (قل) اى لهؤلاء الذين عجزوا عن رد شئ من أمرك بشئ يقبله ذو عقل فادعوا ما ينادى عليهم بالعجز (انما أنا بشر مثلكم) أى لست غير بشر مما لا يرى كالملك والجنى بل واحد منكم والبشر يرى بعضهم بعضا ويسمعه ويبصره فلا وجه لما تقولونه أصلا (يوحى الى) أى بطريق تخفى عليكم ولولا الوحى ما دعوتكم (انما الهكم) أى الذى يستحق العبادة (اله واحد) لا غير واحد وهذا ما دلت عليه الفطرة الاولى السوية وقامت عليه الادلة العقلية وأيدتها فى كل عصر الطرق النقلية وانعقد عليه الاجماع فى أوقات الضرورة النفسانية قال الحسن علمه الله تعالى التواضع * ولما قطع حجتهم وأزال علتهم تسبب عن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم (فاستقيموا اليه) أى غير معوجين أصلا على نوع شرك بشفيع ولا غيره وعدى بالى لتضمنه معنى توجهوا والمعنى وجهوا استقامتكم اليه بطاعته ولا تميلوا عن سبيله (واستغفروه) أى اطلبوا منه غفران ذنوبكم وهو محوها عينا وأثرا حتى لا تعاقبوا عليها ولا تعاتبوا بالندم عليها والاقلاع عنها حالا ومآلا ثم هددعلى ذلك فقال (وويل) كلمة عذاب أو واد فى جهنم (للمشركين) أى من فرط جهالتهم واستخفافهم بالله تعالى (الذين لا يؤتون الزكاة) أى لبخلهم وعدم اشفاقهم على الخلق وذلك من أعظم الرذائل (وهم بالآخرة) أى الحياة التى بعد هذه ولا بعد لها (هم كافرون) واحتج من قال ان الكفار مخاطبون بفروع الشريعة بهذه الآية فقالوا ان الله تعالى توعدهم بأمرين أحدهما كونهم مشركين والثانى لا يؤتون الزكاة فوجب أن يكون لكل واحد من هذين تأثير فى حصول الوعيد وذلك يدل على ان لعدم ايتاء الزكاة مع الشرك تأثيرا عظيما فى زيادة الوعيد وهو المطلوب (فان قيل) لم خص تعالى من أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة (أجيب) بأن أحب شئ الى الانسان ماله وهو شقيق روحه فاذا بذله فى سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته

وصدق نيته ونصوح طويته ألا ترى الى قوله تعالى ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم أى يثبتون أنفسهم ويدلون على ثباتها بانفاق الاموال وماخدع المؤلفة قلوبهم الا بلظة من الدنيا فقرت عصبيتهم ولانت شكيمتهم وأهل الردة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتظاهروا الا بمنع الزكاة فنصبت لهم الحروب وجوهدوا وفيه بعث للمؤمنين على اداء الزكاة وتخويف شديد فى منعها حيث جعل المنع من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة وقال ابن عباس هم الذين لايقولون لا اله الا الله وهى زكاة الانفس والمعنى لايطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد وقال الحسن وقتادة لايقرون بالزكاة ولايرون ايتاءها واجبا وكان يقال الزكاة قنطرة الاسلام فمن قطعها نجا ومن تخلف عنها هلك وقال الضحاك ومقاتل لاينفقون فى الطاعة ولايتصدقون وقال مجاهد لايزكون أعمالهم * ولما ذكر تعالى ماللجاهلين وعيدا وتحذيرا ذكر ما لاضدادهم وعدا وتبشيرا فقال تعالى مجيبا لمن تشوّق لذلك مؤكدا لانكار من ينكره (ان الذين آمنوا) أى بما آتاهم الله تعالى من العلم النافع (وعملوا الصالحات) من الزكاة وغيرها من أنواع الطاعات (لهم أجر) أى عظيم (غير ممنون) أى غير مقطوع جزاء على سماحهم بالفانى اليسير من أموالهم فى الزكاة وغيرها وما أمر الله تعالى من أقوالهم وأفعالهم فى الآخرة والدنيا والممنون المقطوع من مننت الحبل اذا قطعته ومنه قولهم قد منه السفر أى قطعه وقال مقاتل غير منقوص ومنه المنون لانه ينقص منه الانسان وقوته وأنشدوا لذى الاصبع العدوانى

انى لعمرك ما بابى بذى غلق * على الصديق ولا أجرى بممنون

وقيل غير ممنون به عليهم لان عطاء الله تعالى لايمن به انما يمن المخلوق وقال السدى نزلت فى المرضى والزمنى اذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الاجر كاصح ما كانوا يعملون فيه روى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العبد اذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به اكتب له مثل عمله اذا كان طليقا حتى أطلقه أو ألفته الى ولما ذكر سبحانه وتعالى سفههم فى كفرهم بالآخرة شرع فى ذكر الادلة على قدرته عليها وعلى كل ما يريد كخلق الاكوان ومافيها الشامل لهم ولمعبوداتهم من الجمادات وغيرها الدال على أنه واحد لاشريك له فقال منكرا عليهم ومقررا بالوصف لانهم كانوا عالمين بأصل الخلق (قل) يا أشرف الرسل لمن أنكر الخلق منكرا عليه بقولك (أئنكم) وأكد لانكارهم التصريح بما يلزمهم من الكفر بقوله تعالى (لتكفرون) أى توجدون حقيقة الستر لانوار العقول الظاهرة (بالذى خلق الارض) أى على سعتها وعظمها من العدم (فى يومين) فتنكرون قدرته على اعادة ماخلقه منها ابتداء مع اعترافكم بأنه ابتدأ خلقها وخلق ذلك منها وهذان اليومان الاحد والاثنين كما قاله ابن عباس وعبد الله بن سلام قال ابن الجوزى والاكثرون قال ابن عباس ان الله خلق يوما فسماه الاحد ثم خلق ثانيا فسماه الاثنين ثم خلق ثالثا فسماه الثلاثاء ثم خلق رابعا فسماه الاربعاء ثم خلق خامسا فسماه الخميس فخلق الله الارض فى يوم

الاحد والاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء ولذلك يقول الناس انه يوم ثقيل وخلق مواضع الانهار والشجر والقرى يوم الاربعاء وخلق الطير والوحش والسباع والهوام والآفة يوم الخميس وخلق الانسان يوم الجمعة وفرغ من الخلق يوم السبت ولكن في حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الاحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من النهار فيما بين العصر الى الليل (فان قيل) الايام انما كانت بدوران الافلاك وانما كان ذلك بعد تمام الخلق بالفعل (أجيب) بأن المراد في مقدار يومين أو نوبتين خلق في كل نوبة ما خلق في أسرع ما يكون قال البيضاوي ولعل المراد من الارض ما في جهة السفل من الاجرام البسيطة ومن خلقها في يومين أنه خلق لها أصلا مشتركا ثم خلق لها صورا بها صارت أنواعها وكفرهم به الحادهم في ذاته تعالى وصفاته وقرأ قالون وأبو عمرو وهشام بتسهيل الثانية بخلاف عن هشام وأدخلوا بين الهمزة المحققة والمسهلة ألفا وورش وابن كثير بتسهيل الثانية من غير ادخال والباقون بتحقيقهما من غير ادخال * ولما ذكر كفرهم بالبعث وغيره عطف على تكفرون قوله تعالى (وتجعلون) أي مع هذا الكفر (له أندادا) من الخشب المنجور ومن الحجر المنحوت شركاء في المعبودية ولما بكتهم على قبح معتقدهم عظم ذلك بتعظيم شأنه سبحانه فقال تعالى (ذلك) أي الاله العظيم (رب العالمين) أي موجدهم ومربيهم وذلك يدل قطعا على جميع ماله من صفات الكمال * ولما ذكر تعالى ما هم به مقرون من ابداعها أتبعه بثلاثة أنواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك فالاول قوله تعالى (وجعل فيها رواسي) أي جبالا ثوابت وهو مستأنف ولا يجوز عطفه على صلة الموصول للفصل بينهما بأجنبي وهو قوله تعالى وتجعلون فانه معطوف على لتكفرون كما مر (فان قيل) ما الفائدة في قوله تعالى (من فوقها) ولم يقتصر على قوله وجعل فيها رواسي كما اقتصر على قوله تعالى وجعلنا فيها رواسي شامخات وقوله تعالى وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بكم وقوله تعالى وجعل فيها رواسي (أجيب) بأنه تعالى لو قال وجعل لها رواسي من تحتها لأوهم ذلك أن تلك الاساطين التحتانية هي التي أمسكت هذه الارض الثقيلة عن النزول ولكنه تعالى قال جعلت هذه الجبال الثقال فوق الارض ليرى الانسان بعينه أن الارض والجبال الثقال على أثقال وكلها مفتقرة الى ممسك وحافظ وما ذاك الحافظ المدبر الا الله تعالى * ولما عبأ الارض لما يراد منها ذكر ما أودعها وهو النوع الثاني بقوله تعالى (وبارك فيها) أي بما خلق من البحار والانهار والاشجار والثمار وغير ذلك وقال ابن عباس يريد شق الانهار وخلق الجبال وخلق الاشجار والثمار وخلق أصناف الحيوانات وكل ما يحتاج اليه من الحيوانات * النوع الثالث قوله تعالى (وقدر فيها أقواتها) أي أقوات أهلها بأن عين لكل نوع ما يصلحه ويعيش به وقال محمد بن كعب قدر الاقوات قبل أن يخلق الخلق والابدان

اى أقواتا تنشأ منها بأن خص حدوث كل قوت بقطر من أقطارها فأضاف القوت الى الارض لكونه متولدا من تلك الارض حادثا فيها لان النحاة قالوا يكفى فى جنس الاضافة أدنى سبب فالشئ يضاف الى فاعله تارة والى محله أخرى أى قدر الاقوات التى يختص حدوثها بها وذلك لانه تعالى جعل كل بلدة معدة لنوع من الاشياء المطلوبة حتى ان أهل هذه البلدة يحتاجون الى الاشياء المتولدة فى تلك البلدة وبالعكس فصار هذا المعنى سببا لرغبة الناس فى التجارات واكتساب الاموال لتنتظم عمارة الارض كلها باحتياج بعضهم الى بعض فكان جميع ما تقدم من ابداعها وايداعها ما ذكر من متاعها دفعة واحدة على مقدار لا يتعداه ومنهاج بديع دبره فى الازل وارتضاه وقدره فأمضاه لا ينقص عن حاجة المحتاجين أصلا وانما ينقص توصلهم أو توصل بعضهم اليه فلا يجد له حينئذ ما يكفيه وفى الارض أضعاف أضعاف كفايته ثم ذكر فذلكة خلق الارض وما فيها فقال تعالى (فى أربعة أيام) أى مع اليومين الماضيين كقولك بنيت بيتى فى يوم وأكملته فى يومين أى بالاول وقال أبو البقاء فى تمام أربعة أيام ولولا هذا التقدير لكانت ثمانية يومان فى الاول وهو قوله تعالى خلق الارض فى يومين ويومان فى الآخر وهو قوله تعالى فقضاهن سبع سموات فى يومين وأربعة فى الوسط وهو قوله تعالى فى أربعة أيام (فان قيل) انه تعالى ذكر خلق الارض فى يومين فلو ذكر انه خلق هذه الانواع الثلاثة الباقية فى يومين آخرين كان أبعد عن الشبهة وعن الغلط فلم ترك التصريح بذكر الكلام المجمل (أجيب) بأن قوله تعالى فى أربعة أيام (سواء) أى استوت الاربعة استواء لا يزيد ولا ينقص فيه فائدة زائدة على ما اذا قال خلقت هذه الثلاثة فى يومين لانه لو قال تعالى خلقت هذه الاشياء فى يومين لا يفيد هذا الكلام كون اليومين مستغرقين بتلك الاعمال لانه قد يقال عملت هذا العمل فى يومين مع أن اليومين ما كانا مستغرقين بذلك العمل بخلافه لما ذكر خلق الارض وخلق هذه الاشياء ثم قال فى أربعة أيام سواء دل على ان هذه الايام الاربعة صارت مستغرقة فى تلك الاعمال من غير زيادة ولا نقصان ولم يفعل تعالى ذلك فى أقل من لمح البصر مع تمام القدرة عليه لان هذا ادل على الاختيار وأدخل فى الابتلاء والاختبار ليضل به كثيرا ويهدى به كثيرا فيكون أعظم لاجورهم لانه أدل على تسليمهم وجعل مدة خلقها ضعف مدة خلق السموات مع كونها أصغر من السموات دلالة على انها هى المقصودة بالذات لما فيها من الثقلين الانس والجن فزادت لما فيها من كثرة المنافع وتباين أصناف الاعراض والجواهر لان ذلك أدخل فى المنة على سكانها والاعتناء بشأنهم وشأنها وزادت أيضا لما فيها من الابتلاء بالمعاصى والمجاهدات والمجادلات والمعالجات كل ذلك دلالة على أن المدة ماهى لاجل القدرة بل لاجل التنبيه على ما فى القدرة من المقدور وعجائب الامور قال البقاعى ولعل تخصيص السماء بقصر المدة دون العكس لاجراء أمرها على ما تعارفه من أن بناء السقف أخف من بناء البيت تنبيها على أنه بنى آمر دارنا هذه على الاسباب تعليما للتأنى وتدريبا للسكينة والبعد عن العجلة وقوله تعالى (للسائلين) فيه ثلاثة أوجه أحدها انه متعلق

بسواء بمعنى مستويات للسائلين ثانيها أنه متعلق بقدر أى قدر فيها أقواتها لاجل الطالبين لها المحتاجين المقتاتين ثالثها أنه متعلق بمحذوف كأنه قيل هذا الحصر لاجل من سأل فى كم خلقت الارض ومافيها ولما كانت السموات أعظم من الارض فى ذاتها باتساعها وزينتها ودوران أفلاكها وارتفاعها نبه على ذلك بالتعبير بأداة التراخى ولفظ الاستواء وحرف الغاية الدال على عظم الغاية فقال تعالى (ثم استوى) أى قصد قصدا هو القصد منتهيا قصده (الى السماء وهى) أى والحال أنها (دخان) قال المفسرون هذا الدخان بخار الماء وذلك أن عرش الرحمن كان على الماء قبل خلق السموات والارض كما قال تعالى وكان عرشه على الماء ثم ان الله تعالى أحدث فى ذلك الماء اضطرابا فأزبد وارتفع فخرج منه دخان فأما الزبد فبقى على وجه الماء فخلق منه اليبوسة وأحدث منه الارض وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السموات (فان قيل) هذه الآية مشعرة بأن خلق الارض كان قبل خلق السموات وقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها مشعر بأن خلق الارض بعد خلق السموات وذلك يوجب التناقض (أجيب) بأن المشهور أنه تعالى خلق الارض أولا ثم خلق بعدها السموات ثم بعد خلق السماء دحا الارض ومدها وحينئذ فلا تناقض قال الرازى وهذا الجواب مشكل لان الله تعالى خلق الارض فى يومين ثم انه فى اليوم الثالث جعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها وهذه الاحوال لا يمكن ادخالها فى الوجود الا بعد أن صارت الارض منبسطة ثم انه تعالى قال بعد ذلك ثم استوى الى السماء فهذا يقتضى أن الله تعالى خلق السماء بعد خلق الارض وبعد أن جعلها مدحوة وحينئذ يعود السؤال ثم قال والمختار عندى أن يقال خلق السماء مقدم على خلق الارض وتأويل الآية أن يقال الخلق ليس عبارة عن التكوين والايجاد والدليل عليه قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فلو كان الخلق عبارة عن الايجاد والتكوين لصار تقدير الآية أوجده من تراب ثم قال له كن فيكون وهذا محال فثبت أن الخلق ليس عبارة عن الايجاد والتكوين بل عبارة عن التقدير والتقدير فى حق الله تعالى هو كلمته بأن سيوجده واذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى خلق الارض فى يومين معناه أنه قضى بحدوثها فى يومين وقضاء الله تعالى أنه سيحدث كذا فى مدة كذا لا يقتضى حدوث ذلك الشئ فى الحال فقضاء الله تعالى بحدوث الارض فى يومين قد تقدم على احداث السماء وحينئذ يزول السؤال (فقال لها) أى السماء عقب الاستواء (وللارض ائتيا) أى تعاليا وأقبلا منقادتين وقوله تعالى (طوعا أوكرها) مصدران فى موضع الحال أى طائعتين أوكارهتين (قالتا أتينا) أى نحن ومافينا ومابيننا (طائعين) أى أتينا على الطوع لا على الكره والغرض تصوير أثر قدرته فى المقدورات لاغير من غير أن يحقق شيأ من الخطاب والجواب ونحو ذلك قول القائل قال الجدار للوتد لم تشقنى قال الوتد سل من يدقنى (فان قيل) هلا قال طائعتين على اللفظ أوطائعات على المعنى لانها سموات وأرضون (أجيب) بأنه لما جعلهن مخاطبات ومجيبات ووصفهن بالطوع

والكره قال طائعين في موضع طائعات نحو قوله ساجدين *(تنبيه)* جمع الامر لهما في الاخبار لايدل على جمعه في الزمان بل قد يكون القول لهما متعاقبا (فان قيل) ان الله تعالى أمر السماء والارض فأطاعتا كما أن الله تعالى أنطق الجبال مع داود عليه السلام فقال تعالى ياجبال أوبي معه والطير وانطق الايدي والارجل فقال تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون وقوله تعالى وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شئ واذا كان كذلك فكيف يستبعد أن يخلق الله تعالى في ذات السموات والارض حياة وعقلا ثم يوجه الامر والتكليف عليهما ووجه هذا بوجوه الاول أن الاصل حمل اللفظ على ظاهره الا أن يمنع منه مانع وههنا لامانع الثاني انه تعالى جمعهما جمع العقلاء فقال تعالى قالتا آتينا طائعين الثالث قوله تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وهذا يدل على كونها عارفة بالله تعالى عالمة بتوجه تكليف الله تعالى وأجاب الرازي عن هذا بأن المراد من قوله تعالى ائتيا طوعا أو كرها الاتيان الى الوجود والحدوث والحصول وعلى هذا التقدير فحال توجه هذا الامر كانت السموات والارض معدومة اذ لو كانت موجودة لم يجز فثبت أن حال توجه هذا الامر كانت السموات والارض معدومة واذا كانت معدومة لم تكن عارفة ولا فاهمة للخطاب فلم يجز توجه الامر اليها (فان قيل) روى مجاهد وطاوس عن ابن عباس انه قال قال الله للسموات والارض اخرجا مافيكما من المنافع لمصالح العباد أما أنت ياسماء فاطلعي شمسك وقمرك ونجومك وأنت ياأرض فشقي أنهارك وأخرجي ثمارك ونباتك وقال لهما افعلا ما أمرتكما طوعا والا ألجأتكما الى ذلك حتى تفعلاه وعلى هذا لايكون المراد من قوله أتينا طائعين حدوثهما في ذاتهما بل يصير المراد من هذا الامر ان يظهرا ماكان مودعا فيهما (أجيب) بأن هذا لم يثبت لانه تعالى قال (فقضاهن) أي خلقهن خلقا ابداعيا (سبع سموات) وهذا يدل على أن حصول السماء انما حصل بعد قوله ائتيا طوعا أو كرها *(تنبيه)* الضمير للسماء على المعنى كما قال تعالى طائعين ونحوه أعجاز نخل خاوية ويجوز أن يكون ضميرا مبهما مفسرا بسبع سموات وسبع سموات حال على الاول وتمييز على الثاني وقوله تعالى (في يومين) قال أهل الآثار ان الله تعالى خلق الارض يوم الاحد والاثنين وخلق سائر مافي الارض يوم الثلاثاء والاربعاء وخلق السموات ومافيها في يوم الخميس والجمعة وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم عليه السلام وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة ولذلك لم يقل هنا سواء ووافق هذا آيات خلق السموات والارض في ستة أيام وعن ابن عباس رضي الله عنه أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن خلق السموات والارض فقال خلق الله الارض يوم الاحد والاثنين وخلق الجبال ومافيهن من المنافع يوم الثلاثاء وخلق يوم الاربعاء الشجر والماء والمعايش والعمران والخراب فهذه أربعة وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة الى ثلاث ساعات بقين

منه

منه فخلق فى أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال حتى يموت من مات وفى الثانية التى الآفة على كل شئ مما ينتفع به وفى الثالثة خلق آدم فأسكنه الجنة وأمر ابليس بالسجود له وأخرجه منها فى آخر ساعة قالت اليهود ثم ماذا يا محمد قال ثم استوى على العرش قالوا قد أصبت لو أتممت قالوا ثم استراح فغضب النبى صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا فنزل ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون (فان قيل) اليوم عبارة عن النهار والليل وذلك انما يحصل بطلوع الشمس وغروبها وقبل حدوث السموات والشمس والقمر كيف يعقل حصول اليوم (أجيب) بأن معناه انه مضى من المدة ما لو حصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدار اليوم كما مر وقضاء الشئ اتمامه والفراغ منه قال ابن جرير وانما سمى الجمعة لان الله تعالى جمع فيه خلق آدم وخلق السموات والارض أى فرغ من ذلك وأتمه (وأوحى) أى ألقى بطريق خفى وحكم بثبوت قوى (فى كل سماء أمرها) أى الامر الذى دبرها ودبر منافعها به على نظام محكم لا يختل وزمام مبرم لا ينحل وقال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة وما فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلمه الا الله تعالى وقال السدى يعنى خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها ولله فى كل سماء بيت تحج اليه وتطوف به الملائكة كل واحد منها مقابل للكعبة بحيث لو وقعت منه حصاة لوقعت على الكعبة * ولما عم خص التى تلينا اشارة الى تشريفنا فقال تعالى صارفا القول الى مظهر العظمة تنبيها على ما فى هذه الآية من العظم (وزينا) أى بمالنا من العظمة (السماء الدنيا) أى القربى اليكم لاجلكم (بمصابيح) وهى النيرات التى خلقها الله فى السموات وخص كل واحدة بضوء معين وسير معين وطبيعة معينة لا يعلمها الا الله تعالى ولا ينافى كون الدنيا مزينة بذلك أن تكون النجوم فى غيرها انما هو أعلى منها لان السياق دل على أنها زينة وقوله تعالى (وحفظا) فى نصبه وجهان أحدهما أنه منصوب على المصدر بفعل مقدر أى وحفظناها بالثواقب من الكواكب حفظا والثانى أنه مفعول من أجله على المعنى فان التقدير وخلقنا الكواكب زينة وحفظا قال أبو حيان وهو تكلف وعدول عن السهل البين والمعنى وحفظناها من الشياطين الذين يسترقون السمع بالشهب أو من الآفات (ذلك) أى الامر الرفيع والشأن البديع (تقدير العزيز) أى الذى لا يغلبه شئ وهو يغلب كل شئ (العليم) أى المحيط علما بكل شئ فالعزيز اشارة الى كمال القدرة والعليم اشارة الى كمال العلم * ولما كان المتمادى على اعراضه كانه جدد اعراضا غير اعراضه الاول قال تعالى مفصلا بعد قوله تعالى فأعرض أكثرهم (فان أعرضوا) أى استمروا على اعراضهم بعد هذا الشأن أو أعرض غيرهم عن قبول ما جئتهم به من الذكر بعد هذا البيان الواضح فى هذه الآيات التى دلت على الوحدانية والعلم والقدرة وغيرها من صفات الكمال أتم دلالة (فقل) أى لهم (أنذرتكم صاعقة) أى خذرهم أن يصيبهم عذاب شديد الوقع كانه صاعقة (مثل صاعقة عاد وثمود) وقال المبرد الصاعقة المرة المهلكة لاى شئ كان والانذار التخويف وانما خص هاتين القبيلتين لان

قريشا كانوا يجزون على بلادهم * ثم علل ايقاع ذلك بقوله تعالى (اذ) يجوز أن يكون ظرفا
لصاعقة وظرفيته لا تنافى عليته أى حين (جاءتهم) أى عادا وثمود (الرسل) لان الزمان الطويل
يجوز نسبة ما وقع فى جزء منه اليه (من بين أيديهم) أى من قبلهم لان نذير الاول نذير لكل
من أتى بعده بأنه ان واقع ماواقعه أتاه ما عذب به (ومن خلفهم) وهم من أتى اليهم لانهم
لم يكونوا يعلمون اتيانهم فالخلف كناية عن الخفاء والقدام عن الجلاء وانهم أتوهم من كل جانب
واجتهدوا بهم فأعملوا فيهم كل حيلة فلم يروا منهم الا العتو والاعراض كما حكى الله تعالى عن
الشيطان لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم أى لآتينهم من كل جهة وعن الحسن انذروهم
من وقائع الله تعالى فيمن قبلهم من الامم وعذاب الآخرة لانهم اذا حذروهم ذلك فقد جاؤهم
بالوعظ من جهة الزمن الماضى وما جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل وما يجرى عليهم
وأتوهم مقبلين عليهم ومدبرين عنهم وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الذال
عند الجيم وأدغمها الباقون (أن) أى بأن (لا تعبدوا الا الله) أى الذى له صفات الكمال
جميعا (قالوا) أى الكفار لرسلهم (لو شاء ربنا) الذى ربانا أحسن تربية أن يرسل الينا رسولا
(لأنزل) الينا (ملائكة) فأرسلهم الينا بما يريده منا لكنه لم يرسل ملائكة فلم يشأ أن يرسل
رسولا (فانا بما) أى بسبب ما (أرسلتم به) أى على زعمكم بأنكم رسل (كافرون) اذ أنتم
بشر مثلنا لا فضل لكم علينا روى أن أبا جهل قال فى ملأ قريش التبس علينا أمر محمد
فلو التمستم لنا رجلا عالما بالسحر والشعر والكهانة وكلمه ثم أتانا ببيان من أمره فقال عتبة
ابن ربيعة والله لقد علمت الشعر والسحر والكهانة وعلمت من ذلك علما وما يخفى على فأتاه
فقال له يا محمد أنت خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله فلم تشتم آلهتنا
وتضلل آباءنا فان كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا وان كنت أردت الباءة
زوجناك عشر نسوة تختارهن من أى بنات قريش شئت وان كنت تريد المال جمعنا لك
ما تستغنى به على ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت فلما فرغ قال له رسول الله صلى الله
عليه وسلم أفرغت قال نعم قال فاسمع ثم ان النبى صلى الله عليه وسلم تعوذ ثم قرأ بسم الله الرحمن
الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته الى أن بلغ قوله تعالى فان أعرضوا فقل
أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم الا ما سكت ثم
رجع الى أهله ولم يخرج الى قريش فلما احتبس عنهم قالوا ما نرى عتبة الا قد صبأ فانطلقوا اليه
وقالوا يا عتبة ما حبسك عنا الا أنك قد صبأت الى محمد وأعجبك طعامه فان كان بك حاجة جمعنا لك
من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد فغضب عتبة وأقسم لا يكلم محمدا أبدا وقال والله لقد علمتم
أنى من أكثر قريش مالا ولكنى أتيته وقصصت عليه القصة وجاءنى بشئ والله ما هو شعر ولا كهانة
ولا سحر وقرأ السورة الى قوله تعالى فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود
فأمسكت بفيه وناشدته الرحم حتى سكت ولقد علمتم أن محمدا اذا قال شيأ لم يكذب فخفت أن
ينزل عليكم العذاب وفى رواية لمحمد بن كعب أنه قال انى سمعت قرآنا والله ما سمعت بمثله قط

ماهو شعر ولا سحر ولا كهانة يا معشر قريش أطيعوني خلوا بينكم و بين هذا الرجل و بين ماهو فيه فاعتزلوه والله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وان يظفر على العرب فلكه ملككم وعزه عزكم وأنتم أسعد الناس به قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه قال هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم * ولما جمعهم الله فيما اجتمعوا فيه حتى كأنهم تواصوا به فصلهم وفصل ما اختلفوا فيه فقال مسببا عما مضى من مقالاتهم (فأما عاد) أي قوم هود عليه السلام (فاستكبروا) أي طلبوا الكبر وأوجدوه (في الارض) أي كلها التي كانوا فيها بالفعل وغيرها بالقوة أو في الكل بالفعل لكونهم ملكوها كلها ثم بين كبرهم انه (بغير الحق) أي الذي لم يطابق الواقع ثم ذكر تعالى سبب الاستكبار بقوله تعالى (وقالوا من أشد منا قوة) وذلك أن هودا عليه السلام هددهم بالعذاب فقالوا نحن نقدر على دفع العذاب بفضل قوتنا وكانوا ذوي أجسام طوال طول الطويل منهم أربعمائة ذراع كما سيأتي في سورة الفجر قال الله تعالى ردا عليهم (أولم يروا) أي يعلموا علما هو كالمشاهدة (أن الله) أي المحيط بكل شيء قدرة وعلما (الذي خلقهم) ولم يكونوا شيئا (هو أشد منهم قوة) ومن علم أن غيره أقوى منه وكان عاقلا انقاد له فيما ينفعه ولا يضره وقوله تعالى (وكانوا بآياتنا يجحدون) أي يعرفون أنها حق و ينكرونها عطف على فاستكبروا (فأرسلنا) أي بسبب ذلك على ما لنا من العظمة (عليهم ريحا) أي عظيمة (صرصرا) أي شديدة البرد والصوت والعصوف حتى كانت تجهد البدن ببردها فتكون كأنها تصره أي تجمعه في موضع واحد فتمنعه التصرف بقوتها وتقطع القلب بصوتها فتقهر شجاعته وتعق بشدة بردها كل ما مرت عليه وقوله تعالى (في أيام نحسات) أي مشؤمات جمع نحسة وقرأ ابن عامر والكوفيون بكسر الحاء من نحس نحسا نقيض سعد سعدا فهو نحس والباقون بسكونها فهو اما مخفف نحس أو صفة على فعل أو وصف بمصدر قال الضحاك أمسك الله تعالى عنهم المطر ثلاث سنين وكانت الرياح عليهم من غير مطر روي أن الايام كانت آخر شوال من الاربعاء الى الاربعاء قال البيضاوي وما عذب قوم الا في يوم الاربعاء وعن عبد الله بن عباس انه قال الرياح ثمان أربع منها عذاب وهي العاصفة والصرصر والعقيم والقاصف وأربع منها رحمة وهي المبشرات والناشرات والمرسلات والذاريات وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى ما أرسل على عاد من الريح الاقدر خاتمي وفعلنا ذلك بهم (لنذيقهم عذاب الخزي) أي الذل والهوان (في الحياة الدنيا) كما استكبروا في الارض بغير الحق فيذلوا عند من تعظموا عليه في الدار التي اغتروا بها فتعظموا فيها فان ذلك أدل على القدرة عند من تقيد بالوهم (ولعذاب الآخرة) أي الذي أعد للمتكبرين في الآخرة بغير الحق (أخزى) أي أشد اهانة وهو في الاصل صفة المعذب وانما وصف به العذاب على الاسناد المجازي للمبالغة (وهم لا ينصرون) أي لا يوجد ولا يتجدد لهم نصر أبدا بوجه من الوجوه * ولما أنهى تعالى أمر صاعقة عاد شرع في بيان صاعقة ثمود فقال تعالى (وأما ثمود) وهم قوم صالح عليه السلام (فهديناهم) أي بينا لهم طريق الهدى من أنا قادرون على البعث

وعلى كل شئ فلا شريك لنا وكان بيان ذلك بالناقة غاية البيان فأبصروا ذلك بأبصارهم التي هي سبب ابصار بصائرهم غاية الابصار فكرهوا ذلك لما يلزمه من تركهم طريق آبائهم وأقبلوا على لزوم طريق آبائهم (فاستحبوا) أي اختاروا (العمى) أي الكفر (على الهدى) أي الايمان قال القشيري قيل انهم آمنوا وصدقوا ثم ارتدوا وكذبوا فأجراهم مجرى اخوانهم في الاستبدال فان قيل أليس معنى هديته حصلت فيه الهدى والدليل عليه قولك هديته فاهتدى وبمعنى تحصيل البغية وحصولها كما تقول ردعته فارتدع فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة (أجيب) بأنه لما مكنهم وأزاح عللهم ولم يبق لهم عذرا ولا علة فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها (فأخذتهم صاعقة العذاب) أي بسبب ذلك أخذ قهر وهوان (الهون) أي ذي الهون وهو الذي يهينهم (بما كانوا) أي دائما (يكسبون) أي من شركهم وتكذيبهم صالحا عليه السلام * ولما أنهى الله تعالى الخبر عن الكافرين من الفريقين أتبعه الخبر عن مؤمنيهم بشارة لمن اتبع النبي صلى الله عليه وسلم ونذارة لمن صد عنه فقال تعالى (ونجينا) أي تنجية عظيمة بما لنا من القدرة (الذين آمنوا) أي أوجدوا هذا الوصف من الفريقين (وكانوا) أي كونا عظيما (يتقون) أي يجددلهم هذا الوصف في كل حركة وسكون فلا يقدمون على شئ بغير دليل (فان قيل) كيف يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم أن ينذر قومه مثل صاعقة عاد وثمود مع العلم بأن ذلك لا يقع في أمته وقد صرح تعالى بذلك فقال عز من قائل وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وجاء في الحديث الصحيح ان الله تعالى رفع عن هذه الامة هذه الانواع (أجيب) بأنهم لما عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود في الكفر عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود في استحقاق مثل تلك الصاعقة وان السبب الموجب للعذاب واحد وربما يكون العذاب النازل من جنس ذلك العذاب وان كان أقل درجة وهذا القدر يكفي في التخويف * ولما بين تعالى كيفية عقوبة أولئك الكفار في الدنيا أردفه ببيان كيفية عقوبتهم في الآخرة ليحصل تمام الاعتبار في الزجر والتحذير فقال تعالى (ويوم) أي واذكر يوم (يحشر) أي يجمع بكره بأمر قاهر لا كلفة فيه (أعداء الله) أي الملك الاعظم (الى النار) وقرأ نافع بنون مفتوحة وضم الشين ونصب أعداء على البناء للفاعل وهو الله تعالى والباقون بياء الغيبة مضمومة رفتح الشين على البناء للمفعول ورفع أعداء اقيامه مقام الفاعل ووجه الاول أنه معطوف على نجينا فحسن أن يكون على وفقه في اللفظ ووجه الثاني موافقة قوله تعالى (فهم) أي بسبب حشرهم (يوزعون) أي يساقون ويدفعون الى النار وقال قتادة يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا أي يوقف سوابقهم حتى تصل اليهم تواليهم * ولما بين تعالى اهانتهم بالوزع بين غايتها بقوله تعالى (حتى اذا ما جاؤها) أي النار التي كانوا بها يكذبون وما زائدة تأكيدا لاتصال الشهادة بالحضور كما قال تعالى (شهد عليهم) وبين الشاهد وعدده بقوله تعالى (سمعهم) وأفرد السمع لعدم تفاوت الناس فيه (وأبصارهم) وجمعها لعظم تفاوت الناس فيها (وجلودهم بما كانوا يعملون) أي يجددون عمله مستمرين عليه * (تنبيه) * في كيفية تلك الشهادة ثلاثة

اقوال

أقوال أولها ان الله تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه ثانيها أنه تعالى يخلق فى تلك الاعضاء الاصوات والحروف الدالة على تلك المعانى ثالثها أن يظهر فى تلك الاعضاء احوالا تدل على صدور تلك الاعمال من ذلك الانسان وتلك الامارات تسمى شهادات كما يقال يشهد هذا العالم بتغيرات أحواله على حدوثه (فان قيل) ما السبب فى تخصيص هذه الاعضاء الثلاثة بالذكر مع ان الحواس خمسة وهى السمع والبصر والشم والذوق واللمس (أجيب) بأن الذوق داخل فى اللمس من بعض الوجوه لان ادراك الذوق انما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان مماسة لجرم الطعام وكذلك الشم لا يتأتى حتى تصير جلدة الانف مماسة لجرم المشموم فكانا داخلين فى جنس اللمس وقال ابن عباس رضى الله عنهما المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج وهو من باب الكنايات كما قال تعالى لا تواعدوهن سرا وأراد النكاح وقال تعالى أو جاء احد منكم من الغائط والمراد قضاء الحاجة وقال صلى الله عليه وسلم أول ما يتكلم من الآدمى فخذه وكفه وعلى هذا التقدير تكون الآية وعيدا شديدا فى اتيان الزنا لان مقدمة الزنا انما تحصل بالفخذ وقال مقاتل تنطق جوارحهم بما كتمت الانفس من عملهم وعن أنس ابن مالك قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال هل تدرون مم اضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه فيقول يارب ألم تجرنى من الظلم فيقول بلى قال فيقول فانى لا أجيز اليوم على نفسى الا شاهدا منى قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين عليك شهودا قال فيختم على فيه ويقال لاركانه انطقى فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل (وقالوا) أى الكفار الذين يحشرون الى النار (لجلودهم) مخاطبين لها مخاطبة العقلاء لما فعلت فعل العقلاء (لم شهدتم علينا) مع أنا كنا نحاجج عنكم (قالوا) مجيبين لهم معتذرين (أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ) أراد نطقه على وجه لم يقدر على التخلف عنه فليس بعجب من قدرة الله الذى له مجامع العز (وهو خلقكم أول مرة) والعلم القطعى حاصل عندكم بأنكم كنتم عدما ثم نطفا لا تقبل النطق فى مجارى العادات بوجه ثم طوركم فى أدوار الاطوار كذلك الى أن أوصلكم الى حيز الادراك فقسركم على النطق بحيث لو أردتم سلبه عن أنفسكم ما قدرتم (واليه) لا الى غيره (ترجعون) فينبئكم بما كنتم تعملون * (تنبيه) * اختلف فى قوله تعالى وهو خلقكم الآية فقيل هو من كلام الجلود وقيل هو من كلام الله تعالى كالذى بعده وموقعه تقريب ما قبله بأن القادر على انشائكم ابتداء وعلى اعادتكم بعد الموت أحياء قادر على انطاق جلودكم وأعضائكم (وما كنتم تستترون) أى عند ارتكابكم الفواحش خفية (ان يشهد عليكم سمعكم) وأكد بتكرير النافى فقال (ولا أبصاركم) جمع وأفرد لما مضى (ولا جلودكم) والمعنى انكم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش وما كان استتاركم ذلك خيفة أن تشهد عليكم جوارحكم لانكم كنتم غير عالمين بشهادتها عليكم بل كنتم جاحدين بالبعث جهلا منكم (ولكن) انما استتاركم لانكم (ظننتم) بسبب انكار البعث جهلا منكم (أن الله) الذى له جميع صفات الكمال

(لايعلم) أى فى وقت من الاوقات (كثيرا مما تعملون) وهو الخفيات من أعمالكم روى عن ابن مسعود قال كنت مستترا باستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر ثقفيان وقرشى أو قرشيان وثقفى كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فقال أحدهم أترون الله يسمع مانقول فقال الآخر يسمع ان جهرنا وقال الآخران كان يسمع اذا جهرنا يسمع اذا أخفينا فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى وماكنتم تستترون الآية قيل الثقفى عبد ياليل وختناه القرشيان ربيعة وصفوان بن أمية وقوله تعالى (وذلكم) اشارة الى ظنهم هذا وهو مبتدأ وقوله تعالى (ظنكم) بدل منه وقوله تعالى (الذى ظننتم بربكم) نعت البدل والخبر (أرداكم) أى أهلككم وفى هذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لايذهب عنه ولا يزول عن ذهنه أن عليه من الله تعالى عينا كالئة ورقيبا مهيمنا حتى يكون فى أوقاته وخلواته من ربه أهيب وأحسن احتشاما وأوفر تحفظا وتصوّنا منه مع الملا ولا ينبسط فى سره مراقبة من التشبه بهؤلاء الظانين * ولما كان الصباح محل رجاء للافراج فكان شر الاتراح ماكان فيه قال تعالى (فأصبحتم) أى بسبب ما أعطيتموه من النعم لتستنقذوا أنفسكم به من الهلاك كان سبب هلاككم (من الخاسرين) أى العريقين فى الخسارة المحكوم بخسارتهم فى جميع ذلك اليوم قال المحققون الظن قسمان أحدهما حسن والآخر فاسد فالحسن أن يظن بالله تعالى الرحمة والفضل والاحسان قال صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى وقال صلى الله عليه وسلم لايموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله والظن الفاسد أن يظن أن الله تعالى يعزب عن علمه بعض هذه الاحوال وقال قتادة الظن نوعان منجى ومردى فالمنجى قوله انى ظننت أنى ملاق حسابيه وقوله تعالى الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم اليه راجعون والمردى هو قوله تعالى وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم (فان يصبروا فالنار مثوى) أى منزل (لهم) أى ان أمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه لم يجدوا ذلك وتكون النار مقاما لهم (وان يستعتبوا) أى يسألوا العتبى وهو الرجوع لهم الى مايحبون جزعا مماهم فيه (فماهم من المعتبين) أى المجابين اليها ونحوه قوله عزوجل أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص * ولما ذكر وعيدهم فى الدنيا والآخرة أتبعه سبب كفرهم الذى هو سبب الوعيد فقال تعالى (وقيضنا) قال مقاتل هيأنا وقال الزجاج سببنا (لهم) أى للكفرة وأصل التقييض التيسير والتهيئة يقال قيضته للدواء هيأته له ويسرته وهذان ثوبان قيضان أى كل منهما مكافئ للآخر فى الثمن وقوله تعالى (قرناء) أى نظراء من الشياطين حتى أضلوهم جمع قرين قال تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين (فزينوا لهم) أى من القبائح (مابين أيديهم) أى من أمر الدنيا حتى آثروها على الآخرة (وماخلفهم) أى من أمر الآخرة فدعوهم الى التكذيب وانكار البعث وقال الزجاج زينوا لهم مابين أيديهم من أمر الآخرة أنه لابعث ولاجنة ولانار وماخلفهم من أمر الدنيا بأن الدنيا قديمة ولاصانع الا الطبائع والافلاك قال القشيرى اذا أراد الله بعبده سوأ قيض له اخوان سوء وقرناء سوء

يحملونه على المخالفات ويدعونه اليها ومن ذلك الشيطان وشر منه النفس وبئس القرين تدعو اليوم الى مافيه الهلاك وتشهد غدا عليه واذا أراد الله بعبده خيرا قيض له قرناء خير يعينونه على الطاعة ويحملونه عليها ويدعونه اليها وروى عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا أراد الله بعبد شرا قيض له قبل موته شيطانا فلا يرى حسنا الا قبحه عنده ولا قبيحا الا حسنه عنده وعن عائشة اذا أراد الله بالوالي خيرا قيض له وزير صدق ان نسي ذكره وان ذكر أعانه وان أراد غير ذلك جعل له وزير سوء ان نسي لم يذكره وان ذكر لم يعنه وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة الا كانت له بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تامره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله تعالى * (تنبيه) * في الآية دلالة على أنه تعالى يريد الكفر من الكافرين لانه تعالى قيض لهم قرناء سوء فزينوا لهم الباطل وهذا يدل على أنه تعالى أراد منهم الكفر ولكن لا يرضاه كما قال تعالى ولا يرضى لعباده الكفر (وحق) أي وجب وثبت (عليهم القول) أي كلمة العذاب وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائي بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم وقوله تعالى (في أمم) محله نصب على الحال من الضمير في عليهم أي حق عليهم القول كائنين في جملة أمم كثيرة وفي بمعنى مع (قد خلت) أي لم تتعظ أمة منهم بالاخرى (من قبلهم) أي في الزمان (من الجن والانس) قد عملوا مثل أعمالهم وقوله تعالى (انهم) أي جميع المذكورين منهم وممن قبلهم (كانوا خاسرين) تعليل لاستحقاقهم العذاب وقوله تعالى (وقال الذين كفروا) أصله وقالوا أي المعرضون ولكنه قال ذلك تنبيها على الوصف الذي أوجب اعراضهم (لا تسمعوا) أي شيأ من مطلق السماع (لهذا القرآن) وعينوه بالاشارة احترازا عن غيره من الكتب القديمة كالتوراة قال القشيري لانه مقلب القلوب وكل من استمع له صبا اليه (والغوا) أي اهزؤا (فيه) أي اجعلوه ظرفا للغو بأن تكثروا من الخرافات والهذيانات واللغط واللغو والتصدية أي التصفير والتصفيق وغيرها وقال ابن عباس كان بعضهم يعني قريشا يعلم بعضا اذا رأيتم محمدا يقرأ فعارضوه بالرجز والشعر واللغو وهو من باب لغي بالكسر يلغى بالفتح اذا تكلم بما لا فائدة فيه (لعلكم تغلبون) أي ليكون حالكم حال من يرجى له أن يغلب ويظفر بمراده في أن لا يميل اليه أحد ويسكت ونسي ما كان يقول وهذا يدل على انهم عارفون بأن من يسمعه مال اليه وأقبل بكليته عليه وقد فضحوا أنفسهم بهذا فضيحة لا مثل لها (فلنذيقن الذين كفروا) أظهر في موضع الاضمار اذ أصله فلنذيقنهم لكنه أظهر تعميما وتعليقا بالوصف (عذابا شديدا) في الدنيا بالحرمان وما يتبعه من فنون الهوان وفي الآخرة بالنيران (ولنجزينهم) أي بأعمالهم (أسوأ) أي سوء العمل (الذي كانوا يعملون) أي وواظبين عليه (ذلك) أي الجزاء الاسوأ العظيم جدا (جزاء أعداء الله) أي الملك الاعظم ثم بينه بقوله تعالى (النار) وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو في الوصل بابدال الهمزة الثانية المفتوحة واوا خالصة والباقون بتحقيقهما وأما الابتداء بالثانية فالجميع بالتحقيق ثم فصل بعض

ما فى النار بقوله تعالى (لهم فيها) أى النار (دار الخلد) أى فانها دار اقامة قال الزمخشرى فان قلت ما معنى قوله لهم فيها دار الخلد قال قلت ان النار فى نفسها دار الخلد كقوله تعالى لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة أى الرسول هو نفس الاسوة وقال البيضاوى هو كقولك فى هذه الدار دار سرور يعنى بالدار عينها على أن المقصود هو الصفة قال ابن عادل فى هذا نظر اذ الظاهر وهو معنى صحيح منقول أن فى النار دارا تسمى دار الخلد والنار محيطة بها اه وهذا أولى وقوله تعالى (جزاء) منصوب بالمصدر الذى قبله وهو جزاء أعداء الله والمصدر ينصب بمثله كقوله تعالى فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا (بما كانوا بآياتنا) أى على مالنا من العظمة (يجحدون) أى يلغون فى القراءة وسماه جحدا لانهم لما علموا أن القرآن بالغ الى حد الاعجاز خافوا من أنه لو سمعه الناس لآمنوا فاستخرجوا تلك الطريقة الفاسدة وذلك يدل على انهم علموا كونه معجزا وأنهم جحدوا حسدا * ولما بين تعالى أن الذى حملهم على الكفر الموجب للعذاب الشديد مجالسة قرناء السوء بين ما يقولون فى النار بقوله تعالى (وقال الذين كفروا) أى غطوا أنوار عقولهم داعين بما لا يسمع لهم فهو زيادة فى عقوبتهم وحكايته لها وعظ وتحذير (ربنا) أى يا أيها الذى لم يقطع قط احسانه عنا (أرنا) الصنفين (اللذين أضلانا) أى عن المنهج الموصل الى محل الرضوان (من الجن والانس) لان الشيطان على ضربين جنى وانسى قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن وقال تعالى الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس وقيل هما ابليس وقابيل بن آدم الذى قتل أخاه لان الكفر سنه ابليس والقتل بغير حق سنه قابيل فهما سنا المعصية وقرأ ابن كثير والسوسى وابن عامر وشعبة بسكون الراء من ارنا واختلس الدورى كسر الراء وكسرها الباقون وشدد ابن كثير النون من اللذين (نجعلهما تحت أقدامنا) فى النار اذلالا لهما كما جعلانا تحت أمرهما (ليكونا من الاسفلين) قال مقاتل أسفل منا فى النار وقال الزجاج ليكونا فى الدرك الاسفل من النار أى من أهل الدرك الاسفل وممن هو دوننا كما جعلانا كذلك فى الدنيا فى حقيقة الحال باتباعنا لهما وقال بعض الحكماء المراد باللذين اضلانا الشهوة والغضب والمراد بجعلهما تحت أقدامهم كونهما مسخرين للنفس مطيعين لها وأن لا يكونا مستولين عليها ظاهرين عليها * ولما ذكر تعالى الوعيد أردفه بذكر الوعد كما هو الغالب فقال تعالى (ان الذين قالوا) أى قولا حقيقيا مذعنين به بالجنان وناطقين باللسان تصديقا للداعى الله تعالى فى الدنيا (ربنا) أى المحسن الينا (الله) أى المختص بالجلال والاكرام وحده لا شريك له وثم فى قوله تعالى (ثم استقاموا) لتراخى الرتبة فى الفضيلة فان الثبات على التوحيد ومصاحبته الى الممات أمر فى علو رتبته لا يرام الا بتوفيق ذى الجلال والاكرام سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن الاستقامة فقال أن لا تشرك بالله شيأ وقال عمر رضى الله عنه الاستقامة ان تستقيم على الامر والنهى ولا تروغ روغان الثعلب وقال عثمان رضى الله عنه اخلصوا العمل لله وقال على رضى الله عنه أدوا الفرائض وقال ابن عباس رضى الله عنهما استقاموا على أمر الله تعالى بطاعته

واجتنبوا معصيته وقال مجاهد وعكرمة استقاموا على شهادة أن لا اله الا الله حتى لحقوا بالله وقال قتادة كان الحسن اذا تلا هذه الآية قال اللهم ربنا ارزقنا الاستقامة وقال سفيان بن عبد الله الثقفي قلت يا رسول الله اخبرني بأمر اعتصم به قال قل ربي الله ثم استقم فقلت ما أخوف ماتخاف على فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه فقال هذا قال أبو حيان قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه (تتنزل عليهم الملائكة) قال ابن عباس عند الموت وقال قتادة اذا قاموا من قبورهم وقال وكيع بن الجراح البشرى تكون في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث وهي (ألا تخافوا) قال مجاهد لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمر الآخرة (ولا تحزنوا) على ما خلفتم من أهل وولد فانا نخلفكم في ذلك كله وقال عطاء بن أبي رباح لا تخافوا من ذنوبكم ولا تحزنوا فاني أغفرها لكم والخوف غم يلحق لتوقع المكروه والحزن يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار والمعنى ان الله تعالى كتب لكم الامن من كل غم فلن تذوقوه أبدا *(تنبيه)* يجوز في أن أن تكون المخففة أو المفسرة أو الناصبة ولا ناهية على الوجهين الاولين ونافية على الثالث (وأبشروا) أي املؤا صدوركم سرورا يظهر أثره على بشرتكم بتهلل الوجه وبهم سائر الجسد (بالجنة التي كنتم) أي كونا عظيما على ألسنة الرسل عليهم السلام (توعدون) أي يتجدد لكم ذلك كل حين بالكتب والرسل *(تنبيه)* فيما ذكر دلالة على أن المؤمن عند الموت وفي القبر وعند البعث يكون فارغا من الاهوال والفزع الشديد (فان قيل) البشارة عبارة عن الخبر الاول بحصول المنافع فأما اذا أخبر الشخص بحصول المنفعة ثم أخبر ثانيا بحصولها كان الاخبار الثاني اخبارا ولا يكون بشارة والمؤمن قد يسمع بشارات الخير فاذا سمع المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب أن يكون هذا اخبارا ولا يكون بشارة فما السبب في تسمية هذا الخبر بشارة (أجيب) بأن المؤمن قد يسمع بشارات الخير ولم يعلم بأن له الجنة فيكون ذلك بشارة أما اذا علم أنه من أهل الجنة باخبار نبي فانه اذا سمع هذا الكلام من الملائكة فانه يكون اخبارا *ولما أثبتوا لهم الخير ونفوا عنهم الضير علاوه بقولهم (نحن أولياؤكم) أي أقرب الاقرباء اليكم فنحن نفعل معكم كل ما يمكن أن يفعله القريب (في الحياة الدنيا) فنجلب لكم المسرات وندفع عنكم المضرات ونحملكم على جميع الخيرات فنوقظكم من المنام ونحملكم على الصلاة والصيام ونبعدكم عن الآثام ضد ما تفعله الشياطين مع أوليائهم (وفي الآخرة) كذلك حيث تتعادى الاخلاء الا الاتقياء وقال السدي تقول الملائكة عليهم السلام نحن الحفظة الذين كنا معكم في الدنيا ونحن أولياؤكم في الآخرة أي لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة (ولكم فيها) أي في الآخرة اي في الجنة وقبل دخولها في جميع أوقات المحشر (ما تشتهي) ولو على أدنى وجوه الشهوات كما يرشد اليه حذف المفعول (أنفسكم) من اللذائذ لاجل ما منعتموها من الشهوات في الدنيا (ولكم فيها) أي في الآخرة (ما تدعون) أي تتمنون من الدعاء بمعنى الطلب وهو أعم من القول وقوله تعالى (نزلا) حال مما تدعون أي هذا كله يكون لكم نزلا كما يقدم الى الضيف

عند قدومه الى ان يهيأ له ما يضاف به وأما ما يعطون فهو مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر * ولما كان من حوسب عذب فلا يدخل أحد الجنة الا برحمة الله تعالى أشار الى ذلك بقوله تعالى (من) أى كائن ذلك النزل من (غفور) له صفة المحو للذنوب عينا وأثرا على غاية لا يمكن وصفها (رحيم) أى بالغ الرحمة وهو الله تعالى واختلف فى تفسير قوله تعالى (ومن أحسن قولا) أى من جهة القول (ممن دعا الى الله) أى الذى عم بصفات كماله جميع الخلق فقال ابن سيرين والسدى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الى شهادة أن لا اله الا الله وقال الحسن هو المؤمن الذى أجاب الله تعالى دعوته ودعا الناس الى ما أجاب اليه (وعمل) أى والحال أنه قد عمل (صالحا) فى نفسه ليكون ذلك أمكن لدعائه (وقال اننى من المسلمين) تفاخرا به وقطعا لطمع المفسدين وقال عكرمة هم المؤذنون وقالت عائشة رضى الله عنها ان هذه الآية نزلت فى المؤذنين وقال أبو أمامة الباهلى رضى الله تعالى عنه وعمل صالحا صلى ركعتين بين الاذان والاقامة وعن عبد الله بن مغفل رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بين كل أذانين صلاة ثلاث مرات ثم قال فى الثالثة لمن شاء وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال الدعاء بين الاذان والاقامة لا يرد (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) أى الصبر والغضب والحلم والجهل والعفو والاساءة فى الجزاء وحسن العاقبة * (تنبيه) * فى لا الثانية وجهان أحدهما أنها زائدة للتأكيد كقوله تعالى ولا الظل ولا الحرور لان الاستواء لا يكتفى بواحد الثانى أنها مؤسسة غير مؤكدة اذ المراد بالحسنة والسيئة الجنس اذ لا تستوى الحسنات فى أنفسها فانها متفاوتة ولا تستوى السيآت أيضا فرب واحدة أعظم من أخرى وهو مأخوذ من كلام الزمخشرى (ادفع) كل ما يمكن أن يضرك من نفسك ومن الناس (بالتى) أى بالخصال والاحوال التى (هى أحسن) على قدر الامكان من الاعمال الصالحات والعفو عن المسىء حسن والاحسان اليه أحسن منه (فاذا الذى بينك وبينه عداوة) عظيمة فاجأته حال كونه (كأنه ولى) أى قريب فاعل ما يفعله القريب (حميم) أى فى غاية القرب لا يدع مهما الا قضاه وسهله ويسره وشفى علله وقرب بعيده وأزال درنه كما يزيل الماء الحار الوسخ وقيل نزلت فى أبى سفيان بن حرب وكان عدوا مؤذيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وصار وليا مصافيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم * ثم نبه على عظيم فضل هذه الخصلة بقوله تعالى (وما يلقاها) أى على ما هى عليه من العظمة (الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم) من الفضائل النفسانية وقال قتادة الحظ العظيم الجنة أى وما يلقاها الا من وجبت له الجنة وقوله تعالى (واما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما الزائدة (ينزغنك من الشيطان نزغ) قال الزمخشرى النزغ والنسغ بمعنى واحد وهو شبه النخس والشيطان ينزغ الانسان كأنه ينخسه فيبعثه على ما لا ينبغى وجعل النزغ نازغا كما قيل جد جده أو أريد واما ينزغنك نازغ وصفا للشيطان بالمصدر أو تسويله والمعنى وان صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتى هى أحسن (فاستعذ بالله) أى استجر بالملك الاعلى من شر الشيطان واطلب من الله الدخول فى عصمته مبادرا الى ذلك وامض على شأنك ولا تطعه وتوكل

على

على الله تعالى (انه هو) أى وحده (السميع) أى لكل مسموع من استعاذتك وغيرها (العليم) اى بكل معلوم من نزغه وغيره فهو القادر على رد كيده وتوهين أمره ثم استدل على ذلك بقوله تعالى (ومن آياته) الدالة على وحدانيته وأنه سميع عليم (الليل والنهار) باختلاف هيئتهما على قدرته على البعث وكل مقدور وقدم الليل على ذكر النهار تنبيها على أن الظلمة عدم والنور وجود والعدم سابق على الوجود (والشمس والقمر) اللذان هما الليل والنهار وقدم الشمس على ذكر القمر لكثرة نفعها * ولما ثبت أنه تعالى المنفرد بالخلق قال سبحانه (لا تسجدوا للشمس) التى هى من أعظم أوثانكم وأعاد النافى تأكيدا فقال (ولا للقمر) فانهما دالان على وجود الاله مخلوقان مسخران فلا ينبغى السجود لهما لان السجود عبارة عن نهاية التعظيم وهو لا يليق الا بالذى أوجدهما من العدم كما قال تعالى (واسجدوا لله) أى الذى له كل كمال من غير شائبة نقص واختلف فى عود الضمير فى قوله تعالى (الذى خلقهن) على أوجه أولاها عوده للآيات الاربع كما جرى عليه الجلال المحلى وقيل يرجع لليل والنهار والشمس والقمر قال الزمخشرى لان حكم جماعة ما لا يعقل حكم الانثى والاناث يقال الاقلام بريتها وبريتهن وناقشه أبو حيان من حيث انه لم يفرق بين جمع القلة والكثرة فى ذلك لان الافصح فى جمع القلة أن يعامل معاملة الاناث وفى جمع الكثرة أن يعامل معاملة الانثى والافصح أن يقال الاجذاع كسرتهن والجذوع كسرتها وأجاب بعضهم بأن الزمخشرى ليس فى مقام بيان الفصيح من الافصح بل فى مقام كيف يجىء الضمير ضمير اناث بعد تقدم ثلاثة أشياء مذكرات وواحد مؤنث والقاعدة تغليب المذكر على المؤنث وقال البغوى انما قال خلقهن بالتأنيث لانه أجراها على طريق جمع التكسير ولم يجر على طريق التغليب للمذكر على المؤنث * ولما ظهر أن الكل عبيده وكان السيد لا يرضى باشراك عبده عبدا آخر فى عبادة سيده قال تعالى (ان كنتم اياه) أى خاصة بغاية الرسوخ (تعبدون) كما هو صريح قولكم فى الدعاء فى وقت الشدائد لاسيما فى البحر وفى الآية اشارة الى الحث على صيانة الآدميين عن أن يقع منهم سجود لغيره رفعا لمقامهم عن أن يكونوا ساجدين لمخلوق بعد ان كانوا مسجودا لهم فانه تعالى أمر الملائكة عليهم السلام الذين هم من أشرف خلقه بالسجود لآدم عليه السلام وهم فى ظهره فتكبر ابليس فأبد لعنته الى يوم القيامة (فان استكبروا) أى أوجدوا التكبر عن اتباعك فيما أمرتهم به من التوحيد فلم ينزهوا الله تعالى عن الشريك (فالذين عند ربك) أى من الملائكة قال الرازى ليس المراد بهذه العندية قرب المكان بل كما يقال عند الملك من الجند كذا وكذا ويدل عليه قوله تعالى انا عند ظن عبدى بى وأنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى (يسبحون له بالليل والنهار) أى دائما لقوله تعالى (وهم لا يسأمون) أى لا يملون ولقوله سبحانه وتعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون (فان قيل) اشتغالهم بهذا العمل على الدوام يمنعهم من الاشتغال بسائر الاعمال مع انهم ينزلون الى الارض كما قال تعالى نزل به الروح الامين على قلبك وقال تعالى عن الذين قاتلوا يوم بدر يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين (أجيب) بأن الذين ذكرهم الله تعالى ههنا

بكونهم مواظبين على التسبيح أقوام معينون من الملائكة *(تنبيه)* اختلف في مكان السجدة فقيل هو عند قوله تعالى اياه تعبدون وهو قول ابن مسعود والحسن رضي الله عنهما حكاه الرافعي عن أبي حنيفة وأحمد رضي الله تعالى عنهما لانه ذكر السجدة قبله والصحيح عند الشافعي رضي الله تعالى عنه عند قوله تعالى لا يسأمون وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد ابن المسيب وقتادة وحكاه الزمخشري عن أبي حنيفة رضي الله عنه لان عنده تم الكلام * ولما ذكر تعالى الدلائل الاربعة الفلكية أتبعها بذكر الدلائل الارضية فقال تعالى (ومن آياته) الدالة على قدرته ووحدانيته (أنك) أي أيها الانسان (ترى الارض) أي بعضها بحاسة البصر وبعضها بعين البصيرة قياسا على ما أبصرت (خاشعة) أي يابسة لانبات فيها والخشوع التذلل والتقاصر فاستعير لحال الارض اذا كانت قحطة لانبات فيها كما وصفها بالهمود في قوله تعالى وترى الارض هامدة وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو كما قال تعالى (فاذا أنزلنا) أي بما لنا من العظمة (عليها الماء) من الغمام أو غيره (اهتزت) أي تحركت حركة عظيمة كثيرة سريعة فكان كن يعالج ذلك بنفسه (وربت) أي تشققت فارتفع ترابها وخرج منها النبات وسما في الجو مغطيا لوجهها وتشعبت عروقه وغلظت سوقه فصار يمنع سلوكها على ما كانت فيه من السهولة وتزخرفت بذلك النبات كأنها بمنزلة المختال في زيه بعدما كانت قبل ذلك كالذليل الكاسف البال في الاطمار الرثة وقرأ السوسي ترى الارض في الوصل بالامالة بخلاف عنه والباقون بالفتح وفي الوقف أمال محضة أبو عمرو وحمزة والكسائي وورش بين بين والباقون بالفتح ثم استدل بذلك على القدرة على البعث فقال تعالى (ان الذي أحياها) أي بما أخرج من نباتها بعد أن كانت ميتة (لمحيي الموتى) كما فعل بالنبات من غير فرق (انه على كل شيء قدير) فهو قادر على احياء الارض بعد موتها وعلى احياء هذه الاجساد بعد موتها لان الممكنات بالنسبة الى القدرة متساوية فالقادر قدرة تامة على شيء منها قادر على غيره * ثم انه تعالى هدد من يجادل في آياته بالقاء الشبهات فيها بقوله تعالى (ان الذين يلحدون في آياتنا) أي القرآن على ما لها من العظمة بالطعن والتحريف والتأويل الباطل والالغاء فيها وقرأ حمزة بفتح الياء والحاء من لحد والباقون بضم الياء وكسر الحاء من ألحد يقال لحد الحافر وألحد اذا مال عن الاستقامة بحفر في شق فالملحد هو المنحرف ثم اختص في العرف بالمنحرف عن الحق الى الباطل قال مجاهد يلحدون في آياتنا بالمكاء والتصدية واللغو واللغط وقال السدي يعاندون ويشاقون (لا يخفون علينا) أي في وقت من الاوقات ونحن قادرون على أخذهم متى شئنا أخذنا ولا يعجل الا من يخشى الفوات قال مقاتل نزلت في أبي جهل وقوله تعالى (أفمن يلقى في النار) أي على وجهه بأيسر أمر (خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة) استفهام بمعنى التقرير والغرض منه التنبيه على أن الملحدين في الآيات يلقون في النار وأن المؤمنين بالآيات يأتون آمنين يوم القيامة حين يجمع الله تعالى عباده للعرض عليه للحكم بينهم بالعدل قال البغوي قيل هو حمزة وقيل هو عثمان وقيل عمار بن ياسر *(فائدة)* أم من في الرسم مقطوعة وقوله تعالى (اعملوا ما شئتم) أي فقد علمتم

مصيرالمسيء والمحسن تهديدفن أرادشيأ من الجزاءين فليعمل أعماله فانه ملاقيه وقوله تعالى (انه بما تعملون) أي في كل وقت (بصير) أي عالم بأعمالكم فيه وعيد بالمجازاة وقوله تعالى (ان الذين كفروا بالذكر) أي القرآن (لما جاءهم) بدل من قوله تعالى ان الذين يلحدون أو مستأنف وخبران محذوف مثل معاندون أو هالكون أو أولئك ينادون ولما بالغ تعالى في تهديد الملحدين في آيات القرآن أتبعه ببيان تعظيم القرآن فقال تعالى (وانه) أي والحال انه (لكتاب) أي جامع لكل خير (عزيز) أي فهو كثير النفع عديم النظير يغلب كل ذكر ولا يغلبه ذكر ولا يقرب منه ذلك ويعجز كل معارض ولا يعجز عن اقعاد مناهض وقال الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما كريم على الله تعالى وقال قتادة أعزه الله تعالى (لا يأتيه الباطل) لانه يمتنع منه بمتانة وصفه وجزالة نظمه وحلاوة معانيه فلا يلحقه تغيير (من بين يديه ولا من خلفه) أي لا يتطرق اليه الباطل من جهة من الجهات لان قدام أوضح ما يكون وخلف أخفى ما يكون فما بين ذلك من باب أولى والعبارة كناية عن ذلك لان صفة الله تعالى لا وراء لها ولا أمام لها على الحقيقة ومثل ذلك ليس وراء الله تعالى مرمى ولا دونه منتهى وقال قتادة والسدي الباطل هو الشيطان لا يستطيع أن يغيره أو يزيد فيه أو ينقص منه وقال الزجاج معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه وعلى هذا فمعنى الباطل الزيادة أو النقصان وقال مقاتل لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله ولا يأتي بعده كتاب فيبطله ثم علل ذلك بقوله تعالى (تنزيل) أي بحسب التدريج لاجل المصالح (من حكيم) أي بالغ الحكمة فهو يضع كل شيء منه في أتم محاله من وقت النزول وسياق النظم (حميد) أي بالغ الاحاطة بأوصاف الكمال من الحكمة وغيرها والتطهر والتقديس عن كل شائبة نقص يحمده كل خلقه بلسان حاله ان لم يحمده بلسان قاله (فان قيل) أما طعن فيه الطاعنون وتأوله المبطلون (أجيب) بان الله تعالى حماه عن تعلق الباطل به بأن قيض قوما عارضوهم بابطال تأويلهم وافساد أقاويلهم فلم يخلوا طعن طاعن الا ممحوقا ولا قول مبطل الا مضمحلا ونحو هذا قوله تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ثم سلى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (ما يقال) أي من الكفار أو من غيرهم (لك) يا أكرم الخلق مما يحصل به ضيق صدر وتشويش فكر (الا ما) أي شيء (قد قيل) أي حصل قوله على ذلك الوجه (للرسل من قبلك) فصبروا على ما أوذوا فاصبر كما صبروا (ان ربك) أي المحسن اليك بارسالك وانزال كتابه اليك ومن يكرم بمثل هذا لا ينبغي له ان يحزن لشيء يعرض له (لذو مغفرة) أي لمن تاب وآمن بك (وذو عقاب أليم) أي مؤلم لمن أصر على التكذيب وعلى هذا فقوله تعالى ان ربك الآية مستأنف وقيل مفسر للمقول كأنه قيل للرسل ان ربك لذو مغفرة وجرى على ذلك الزمخشري ونزل جوابا لقولهم هلا نزل القرآن بلغة العجم (ولو جعلناه) أي هذا الذكر بما لنا من العظمة (قرآنا) أي على ما هو عليه من الجمع (أعجميا) أي لا يفصح (لقالوا) أي هؤلاء المتعنتون (لولا) أي هلا ولم لا (فصلت) أي بينت (آياته) حتى نفهمها

وقولهم (أأعجمي) أي أقرآن أعجمي (و) نبي (عربي) استفهام انكار منهم وقال مقاتل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل على يسار غلام عامر بن الحضرمي وكان يهوديا أعجميا يكنى أبا فكيهة فقال المشركون انما يعلمه يسار غلام عامر فضربه سيده وقال انك تعلم محمدا فقال هو يعلمني فأنزل الله تعالى هذه الآية وقرأ قالون وأبو عمرو بتحقيق الهمزة الاولى وتسهيل الثانية وادخال ألف بينهما وورش وابن كثير وابن ذكوان وحفص بتسهيل الثانية ولا ادخال وأسقط هشام الاولى والباقون بتحقيقهما وقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل هو) أي هذا القرآن (للذين آمنوا) أي أردنا وقوع الايمان منهم (هدى) أي بيان لكل مطلوب (وشفاء) أي لما في صدورهم من داء الكفر والهوى وقيل من الاوجاع والاسقام متعلق كما قال الرازي بقولهم وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه الآية كأنه تعالى يقول هذا الكلام أرسلته اليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم فلا يمكنكم أن تقولوا قلوبنا في أكنة منه بسبب جهلنا هذه اللغة فكل من أعطاه الله تعالى طبعا مائلا الى الحق وقلبا داعيا الى الصدق فان هذا القرآن يكون في حقه هدى وشفاء وأما من غرق في بحر الخذلان وشغف بمتابعة الشيطان فهو في ظلمة وعمى كما قال تعالى (والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر) أي ثقل فلا يسمعون سماعا ينفعهم (وهو عليهم عمى) فلا يبصرون الداعي حق الابصار ثم قال الرازي وكل من أنصف علم ان التفسير على هذا الوجه الذي ذكرناه أولى مما ذكروه أي أنه متعلق بما قبله لان السورة تصير بذلك من أولها الى آخرها كلاما واحدا منتظما مسوقا لغرض واحد انتهى ولما بين بهذا بعدهم عن عليائه وطردهم عن فنائه قال تعالى (أولئك) أي البعداء البغضاء مثالهم مثال من (ينادون) أي يناديهم من يريد نداءهم غير الله تعالى (من مكان بعيد) أي هم كالمنادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يفهم ما ينادى به (ولقد آتينا) أي على ما لنا من العظمة (موسى الكتاب) أي التوراة (فاختلف) أي وقع الاختلاف (فيه) وجه تعلقه بما قبله كأنه قيل انا لما آتينا موسى الكتاب فقبله بعضهم وهم أصحاب الهدى ورده بعضهم فكذلك آتيناك الكتاب فقبله بعضهم وهم أصحابك ورده آخرون وهم الذين يقولون قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه (ولولا كلمة) أي ارادة (سبقت) في الازل (من ربك) أي المحسن اليك بتأخير الحساب والجزاء للخلائق الى يوم القيامة (لقضي بينهم) أي في الدنيا فيما اختلفوا فيه من انصاف المظلوم من ظالمه قال تعالى بل الساعة موعدهم ولكن نؤخرهم الى أجل مسمى (وانهم لفي شك) أي المكذبين محيط بهم (منه) أي القضاء يوم الفصل (مريب) أي موقع في الريب وهو التهمة والاضطراب بحيث لا يقدرون على التخلص من دائرته أصلا * ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (من عمل صالحا) أي كائنا من كان (فلنفسه) أي فنفع عمله لها لا لاحد يتعداها والنفس فقيرة الى التزكية بالاعمال الصالحة لانها محل النقائص فلذا عبر بها (ومن أساء) في عمله (فعليها) أي على نفسه خاصة ليس عليك منه شيء نخفف عن نفسك اعراضهم فانهم ان آمنوا

فنفع ايمانهم يعود اليهم وان كفروا فضرر كفرهم يعود اليهم والله سبحانه وتعالى يوصل الى كل احد ما يليق به من الجزاء (وماربك) أى المحسن اليك بارسالك لتتميم مكارم الاخلاق (بظلام) أى بذى ظلم (للعبيد) أى هذا الجنس فلا يتصور أن يقع ظلم لاحد منهم أصلا لان له الغنى المطلق والحكمة البالغة (اليه) أى المحسن اليك لا الى غيره (يرد علم الساعة) أى أى لا سبيل الى معرفة وقت ذلك اليوم ولا يعلمه الا الله تعالى وكذا العلم بحدوث الحوادث المستقبلة فى أوقاتها المعينة ليس الا عند الله ثم ذكر من أمثلة هذا الباب مثالين أحدهما قوله تعالى (وما تخرج من ثمرات) أى فى وقت من الاوقات وقرأ نافع وابن عامر وحفص بألف بعد الراء جمعا والباقون بغير ألف افرادا وقوله تعالى (من أكمامها) جمع كم وكامة قال البقاعى تبعا للزمخشرى بالكسر فيهما وهو وعاء الطلع وكل ما غطى على وجه الاحاطة شيأ من شأنه أن يخرج فهو كم وقال الراغب الكم ما يغطى البدن من القميص وما يغطى الثمرة وجمعه أكمام وهذا يدل على أنه مضموم الكاف أوجعله مشتركا بين كم القميص وكم الثمرة ولا خلاف فى كم القميص أنه بالضم فيجوز أن يكون فى وعاء الثمرة لغتان دون كم القميص جمعا بين القولين والمثال الثانى قوله تعالى (وما تحمل من أنثى) حملا ناقصا أوتاما وأكد النفى باعادة النافى ليشهد كل على حياله (ولا تضع) حملا حيا أوميتا (الا) حال كونه متلبسا (بعلمه) ولا علم لاحد غيره بذلك ومن ادعى علما به فليخبر بان ثمرة الحديقة الفلانية والبستان الفلانى والبلد الفلانى تخرج فى الوقت الفلانى أو لا تخرج العام شيأ والمرأة الفلانية تحمل فى الوقت الفلانى وتضع فى وقت كذا أو لا تحمل العام شيأ ومن المعلوم أنه لا يحيط بهذا علما الا الله تعالى (فان قيل) قد يقول الرجل الصالح من أصحاب الكشوف قولا فيصيب فيه وكذلك الكهان والمنجمون (أجيب) بأن أصحاب الكشوف اذا قالوا قولا فهو من الهام الله تعالى واطلاعه اياهم عليه فكان من علمه الذى يرد اليه وأما الكهان والمنجمون فلا يمكنهم القطع والجزم فى شئ مما يقولونه البتة وانما غايتهم ادعاء ظن ضعيف قلما يصيب وعلم الله تعالى هو العلم اليقين المقطوع به الذى لا يشاركه فيه أحد جل ربنا وعلا (ويوم يناديهم) أى المشركين بعد بعثهم من القبور ليفصل بينهم فى سائر الامور (أين شركائى) أى الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم فى هذا اليوم ويحمونكم من العتاب واللوم (قالوا) أى المشركون (آذناك) أى أعلمناك (ما منا) وأكدوا النفى بادخال الجار فى المبتدا (من شهيد) أى يشهد أن لك شريكا وذلك لما رأوا العذاب تبرؤا من الاصنام وقيل معناه ما منا أحد يشاهدهم لانهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم فلا يبصرونها فى ساعة التوبيخ وقيل هذا كلام الاصنام كان الله تعالى يحييها وأنها تقول ما منا من شهيد أى أحد يشهد بصحة ما أضافوا الينا من الشركة وعلى هذا التقدير فمعنى ضلالتهم عنهم انهم لا ينفعونهم فكأنهم ضلوا عنهم وهو معنى قوله تعالى (وضل) أى ذهب وغاب وخفى (عنهم ما كانوا) أى دائما (يدعون) فى كل حين على وجه العبادة (من قبل) فهم لا يرونه فضلا عن انهم يجدون نفعه (وظنوا) أى فى ذلك الحال (ما لهم) وأبلغ فى النفى

بادخال الجار على المبتدا المؤخر فقال (من محيص) أى مهرب ومهلجا ومعدل ولما بين تعالى من حال هؤلاء الكفار أنهم بعد أن كانوا مصرين على القول باثبات الشركاء والاضداد لله تعالى فى الدنيا تبرؤا عن تلك الشركاء فى الآخرة بين تعالى أن الانسان فى جميع الاوقات متغير الاحوال فان أحس بخير وقدرة تعاظم وان أحس ببلاء ومحنة ذل بقوله تعالى (لا يسأم) أى لا يمل ولا يعجز (الانسان) أى الآنس بنفسه الناظر فى اعطافه الذى لم يتأهل للمعارف الالهية والطرق الشرعية (من دعاء الخير) أى لا يزال يسأل ربه المال والصحة وغيرهما (وان مسه الشر) أى من فقر وشدة وغيرهما (فيؤس) من فضل الله تعالى (قنوط) من رحمة الله تعالى والمعنى ان الانسان فى حال الاقبال لا ينتهى الى درجة الا ويطلب الزيادة عليها وفى حال الادبار والحرمان يصير آيسا قانطا وهذه صفة الكافر لقوله تعالى لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون * (تنبيه) * فى قوله تعالى يؤس قنوط مبالغة من وجهين أحدهما من طريق فعول والثانى من طريق التكرار واليأس من صفة القلب والقنوط أن تظهر آثار اليأس فى الوجه والاحوال الظاهرة ثم بين تعالى حال هذا الذى صار آيسا قانطا بقوله تعالى (ولئن) اللام لام القسم (أذقناه) أى آتينا ذلك الانسان (رحمة) أى غنى وصحة (منا) أى بما لنا من العظمة والقدرة (من بعد ضراء) أى شدة وبلاء (مسته) فانه يأتى بثلاثة أنواع من الاقاويل الفاسدة الموجبة للكفر والبعد من الله تعالى الاول منها ما حكاه الله بقوله سبحانه (ليقولن) بمجرد ذوق تلك الرحمة على أنها ربما كانت بلاء عظيما لكونها استدراجا الى الهلاك (هذا) الامر العظيم (لى) أى حق مختص بى وصل الى لانى استوجبته بعلى وعملى ولا يعلم المسكين أن أحدا لا يستحق على الله تعالى شيأ لانه ان كان عاريا من الفضائل فكلامه ظاهر الفساد وان كان موصوفا بشئ من الفضائل والصفات الحميدة فهى انما حصلت بفضل الله واحسانه النوع الثانى من كلامه الفاسد قوله (وما أظن الساعة) أى القيامة (قائمة) أى ثابتا قيامها فقطع الرجاء منها سواء عبر عن ذلك بلسان قاله أو بلسان حاله لكونه يفعل أفعال الشاك فيها النوع الثالث من كلامه الفاسد قوله (ولئن) اللام لام القسم (رجعت) أى على سبيل الفرض أى ان هذا الكافر يقول لست على يقين من البعث وان كان الامر على ذلك ورددت (الى ربى) أى الذى أحسن الى بهذا الخير الذى أنا فيه (ان لى عنده للحسنى) أى الحالة الحسنى من الكرامة وهى الجنة فكما أعطانى فى الدنيا سيعطينى فى الآخرة ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الاقوال الثلاثة الفاسدة قال تعالى شأنه (فلننبئن) أى فلنخبرن (الذين كفروا) أى ستروا ما دلت عليه العقول وصرائح النقول (بما عملوا) لا ندع منه كثيرا ولا قليلا صغيرا ولا كبيرا فيرون عيانا ضد ما ظنوه فى الدنيا من أن لهم الحسنى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وقال ابن عباس رضى الله عنهما لنوقفنهم على مساوى أعمالهم (ولنذيقنهم) أى بعد اقامة الحجة عليهم بموازين القسط الوافية بمثاقيل الذر (من عذاب غليظ) أى شديد لا يدع جهة من أجسامهم الا أحاطها * ولما حكى الله تعالى أقوال الذى أنعم عليه بعد وقوعه

في

فى الآفات حكى أفعاله أيضا فقال (وإذا أنعمنا) أى بما لنا من العظمة (على الانسان) أى الواقف مع نفسه نعمة تليق بعظمتنا (أعرض) أى عن التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى (ونأى) أى أبعد بعدا جعل بيننا وبينه حجابا عظيما (بجانبه) أى ثنى عطفه متبخترا (وإذا مسه الشر) أى هذا النوع قليله وكثيره (فذو دعاء) أى فى كشفه وربما كان نعمة باطنة وهو لا يشعر ولا يدعو الا عند المس وقد كان ينبغى له أن يشرع فى الدعاء عند التوقع بل قبله تعرفا الى الله تعالى فى الرخاء ليعرفه فى الشدة وهو خلق شريف لا يفعله الا أفراد خصهم الله بلطفه (عريض) أى مديد العرض جدا وأما طوله فلا يسئل عنه وهذا كناية عن النهاية فى الكثرة تقول العرب أطال فلان الدعاء وأعرض أى أكثر ثم أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل) أى لهؤلاء المعرضين (أرأيتم) اى أخبرونى (ان كان) أى هذا القرآن (من عند الله) الذى له الاحاطة بجميع صفات الجلال والجمال (ثم كفرتم به) أى من غير نظر واتباع دليل (من أضل) منكم هكذا كان الاصل ولكنه قال (ممن هو فى شقاق) أى خلاف لاولياء الله تعالى (بعيد) أى عن الحق تنبيها على أنهم صاروا كذلك ومن صار كذلك فقد عرض نفسه لسطوات الله عز وجل (سنريهم آياتنا فى الآفاق) قال ابن عباس يعنى منازل الامم الخالية (وفى أنفسهم) أى بالبلايا والامراض وقال قتادة يعنى وقائع الله تعالى فى الامم الخالية وفى أنفسهم يوم بدر وقال مجاهد فى الآفاق ما يفتح الله تعالى من القرى على محمد صلى الله عليه وسلم وفى أنفسهم فتح مكة وقال عطاء فى الآفاق يعنى أقطار السموات والارض من الشمس والقمر والنجوم فى آفاق الليل والنهار والاضواء والظلال والظلمات والنبات والاشجار والانهار وفى أنفسهم من لطائف الصنعة وبديع الحكمة فى كيفية تكوين الاجنة فى ظلمات الارحام وحدوث الاعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة كقوله تعالى وفى أنفسكم أفلا تبصرون *(تنبيه)* قال النووى فى تهذيبه قال أهل اللغة الآفاق النواحى الواحد أفق بضم الهمزة والفاء وأفق باسكان الفاء * ولما كان التقدير ولا نزال نكرر عليهم هذه الدلائل عطف عليه (حتى يتبين لهم) غاية البيان بنفسه من غير اعمال فكر (أنه) أى القرآن (الحق) أى الكامل فى الحقية الذى يطابق الواقع المنزل من الله تعالى بالبعث والحساب والعقاب فيعاقبون على كفرهم به وبالجائى به وقيل الضمير فى انه لدين الاسلام وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم (أولم يكف بربك) أى المحسن اليك بهذا البيان المعجز للانس والجان شهادة بأن القرآن من عند الرحمن *(تنبيه)* الباء زائدة للتأكيد كأنه قيل أولم تحصل الكفاية به ولا تكاد تزاد فى الفاعل الا مع كفى وقوله تعالى (أنه على كل شئ شهيد) بدل من ربك والمعنى أولم يكفهم فى صدقك أن ربك لا يغيب عنه شئ ما وقد شهد لك فيه بالاعجاز لجميع الخلق بكل ما تضمنته آياته ونطقت به كلماته ففيه أعظم بشارة بتمام الدين وظهوره على المعتدين ولما لم يبق بعد هذا التعنت مقال ولا شبهة أصلا لضال قال تعالى مناديا على من جحد واستمر على عناده

(ألا انهم) أى هؤلاء الكفرة (فى مرية) أى جحد وجدال وشك وضلال عن البعث (من لقاء ربهم) أى المحسن اليهم بأن خلقهم ورزقهم لانكارهم البعث ثم كرر كونه قادرا على البعث وغيره بقوله تعالى (ألا انه) أى هذا المحسن اليهم (بكل شئ) أى من الاشياء جملتها وتفصيلها كلياتها وجزئياتها أصولها وفروعها غيبها وشهادتها ملكها وملكوتها (محيط) قدرة وعلما بكثير الاشياء وقليلها كلياتها وجزئياتها فيجازيهم بكفرهم وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر حسنات حديث موضوع

(سورة شورى مكية)

وهى ثلاث وخمسون آية وثمانمائة وست وستون كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وثمانية وثمانون حرفا

(بسم الله) الذى أحاط بصفات الكمال (الرحمن) الذى عمت رحمته سائر عباده (الرحيم) الذى خص أولياءه بما يرضاه الهيته من رحمته وقوله تعالى (حم عسق) تقدم الكلام فى أمثال هذه الفواتح وسئل الحسين بن الفضل لم قطع حم عسق ولم يقطع كهيعص فقال لانها سورة أولها حم فجرت مجرى نظائرها فكان حم مبتدأ وعسق خبره ولانهما عدا آيتين وأخواتها مثل كهيعص والمص والمر عدت آية واحدة وقيل لان أهل التأويل لم يختلفوا فى كهيعص وأخواتها أنها حروف تهجى لاغير واختلفوا فى حم فأخرجها بعضهم من حيز الحروف وجعلها فعلا وقيل معناها حم أى قضى ماهو كائن روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال ح حلمه م مجده ع علمه س سناؤه ق قدرته أقسم الله تعالى بها وقال شهر بن حوشب وعطاء بن أبى رباح ح حرب قريش يعز فيها الذليل ويذل فيها العزيز فى قريش م ملك يتحول من قوم الى قوم ع عدو لقريش يقصدهم س سنين كسنى يوسف تكون فيهم ق قدرة الله تعالى النافذة فى خلقه وروى عن ابن عباس أنه قال ليس من نبى صاحب كتاب الا أوحيت اليه حم عسق فلذلك قال تعالى (كذلك) أى مثل هذا الايحاء العظيم الشأن (يوحى اليك) أى مادمت حيا لاينقطع ذلك عنك (والى) أى وأوحى الى (الذين من قبلك) أى من الرسل الكرام والانبياء الاعلام ومن جملة ما أوحى اليهم أن أمتك أكثر الامم وأنك أشرف الانبياء وأخذ على كل منهم العهد باتباعك وأن يكونوا من أنصارك وأتباعك وقوله تعالى (الله) أى الذى له الاحاطة بأوصاف الكمال فاعل الايحاء * ولما كان نفوذ الامر دائرا على العزة والحكمة قال تعالى (العزيز) أى الذى يغلب كل شئ ولايغلبه شئ (الحكيم) الذى يصنع مايصنعه فى أتقن محاله فلذلك لايقدر أحد على نقض ما أبرمه ولانقص ما أحكمه *(تنبيه)* ماتقرر من أن الله تعالى فاعل الايحاء هو على قراءة كسر الحاء من يوحى وهى قراءة غير ابن كثير وأما على قراءة ابن كثير بفتح الحاء فيجوز أن يرتفع بفعل مضمر كأنه قيل من يوحيه فقيل الله كيسبح له فيها بالغدو والآصال رجال ويجوز أن يرتفع بالابتداء ومابعده خبر

والجملة قائمة مقام الفاعل وأن يكون العزيز الحكيم خبرين أونعتين والجملة من قوله تعالى (له مافى السموات) أى من الذوات والمعانى (ومافى الارض) كذلك خبر أول أو ثان على حسب ماتقدم فى العزيز الحكيم قال الزمخشرى لم يقل تعالى أوحى اليك ولكن قال يوحى اليك على لفظ المضارع ليدل على أن ايحاء مثله عادة وكونه عزيزا يدل على كونه قادرا على مالانهاية له وكونه حكيما يدل على كونه عالما بجميع المعلومات غنيا عن جميع الحاجات وقوله تعالى له مافى السموات ومافى الارض يدل على كونه متصفا بالقدرة الكاملة النافذة فى جميع أجزاء السموات والارض على عظمتها وسعتها بالايجاد والاعدام وأن مافى السموات ومافى الارض خلقه وملكه * ولما كان العلو مستلزما للقدرة قال تعالى (وهو العلى) على كل شئ علو رتبة وعظمة ومكانة لاعلو مكان وملابسة (العظيم) بالقدرة والقهر والاستعلاء وقوله تعالى (تكاد السموات) قرأه نافع والكسائى بالياء التحتية والباقون بالفوقية وقوله تعالى (يتفطرن) أى يتشققن قرأه شعبة وأبو عمرو بعد الياء بنون ساكنة وكسر الطاء مخففة والباقون بعد الياء بتاء فوقية مفتوحة وفتح الطاء مشددة وقوله تعالى (من فوقهن) فى ضميره ثلاثة أوجه أحدها أنه عائد على السموات أى كل واحدة منهن تتفطر فوق التى تليها من عظمة الله تعالى أو من قول المشركين اتخذ الله ولدا كما فى سورة مريم أى يبتدئ انفطارهن من هذه الجهة فمن لابتداء الغاية متعلقة بما قبلها الثانى أنه يعود على الارضين لتقدم ذكر الارض الثالث أنه يعود على فرق الكفار والجماعات الملحدين قاله الاخفش الصغير وقال الزمخشرى كلمة الكفر أى على التفسير الثانى انما جاءت من الذين تحت السموات فكان القياس أن يقال يتفطرن من تحتهن أى من الجهة التى جاءت منها الكلمة ولكنه بولغ فى ذلك فجعلت مؤثرة فى جهة الفوق كأنه قيل يكدن يتفطرن أى من الجهة التى فوقهن دون الجهة التى تحتهن ونظيره فى المبالغة قوله عز وجل يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به مافى بطونهم فجعل الحميم مؤثرا فى أجزائهم الباطنة اه * ولما بين تعالى أن سبب كيدودة انفطارهن جلال العظمة التى منها كثرة الملائكة وشناعة الكفر بين لها سببا آخر وهو عظم قول الملائكة فقال تعالى (والملائكة يسبحون) أى يوقعون التنزيه لله تعالى متلبسين (بحمد ربهم) أى باثبات الكمال للمحسن اليهم تسبيحا يليق بحالهم فلهم بذلك زجل وأصوات لاتحملها العقول ولاتثبت لها الجبال * (تنبيه) * عدل عن التأنيث ولم يقل يسبحن مراعاة للفظ التذكير وضمير الجمع الجمع اشارة الى قوة التسبيح وكثرة المسبحين (فان قيل) قوله تعالى (ويستغفرون لمن فى الارض) عام فيدخل فيه الكفار وقد لعنهم الله تعالى فقال سبحانه أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين فكيف يكونون لاعنين لهم ومستغفرين لهم (أجيب) بوجوه الاول أنه عام مخصوص بآية غافر ويستغفرون للذين آمنوا الثانى أن قوله تعالى لمن فى الارض لايفيد العموم لانه يصح أن يقال استغفروا لبعض من فى الارض دون البعض ولو كان صريحا فى العموم لما صح ذلك الثالث يجوز أن يكون المراد بالاستغفار أن لايعاجلهم

قوله استغفروا لبعض الخ الظاهر اسقاط لفظ بعض ومع اسقاطه ففيه نظر اه

بالعقاب كما فى قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا الى أن قال تعالى انه كان حليما غفورا الرابع يجوز أن يقال انهم يستغفرون لكل من فى الارض اما فى حق الكفار فبطلب الايمان لهم وأما فى حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيآتهم فانا نقول اللهم اهد الكفار وزين قلوبهم بنور الايمان وأزل عن خواطرهم وحشة الكفر وهذا استغفار فى الحقيقة وقوله تعالى (ألا ان الله) أى الذى له الاحاطة بصفات الكمال (هو) أى وحده (الغفور الرحيم) تنبيه على أن الملائكة وان كانوا يستغفرون للبشر الا أن المغفرة المطلقة لله تعالى وهذا يدل على أنه تعالى يعطى المغفرة التى طلبوها ويضم اليها الرحمة (والذين اتخذوا من دونه) أى غير الله تعالى (أولياء) أى أندادا وشركاء يعبدونهم كالاصنام (الله) أى المحيط بصفات الكمال (حفيظ) أى رقيب ومراع وشهيد (عليهم) أى على أعمالهم ولا يغيب عنه شئ من أعمالهم فهو ان شاء أبقاهم على كفرهم وجازاهم عليه بما أعد للكافرين وان شاء تاب عليهم ومحا ذلك عينا وأثرا ولم يعاقبهم وان شاء محاه عينا وأبقى الاثر حتى يعاقبهم (وما أنت) يا أشرف الرسل (عليهم بوكيل) أى حتى يلزمك أن تراعى جميع أحوالهم من أقوالهم وأفعالهم فتحفظها وتقسرهم على تركها ونحو ذلك مما يتولاه الوكيل بما يقوم فيه مقام الموكل سواء قالوا لاتسمعوا لهذا القرآن أم قالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وغير ذلك انما عليك الا البلاغ (وكذلك) أى ومثل ذلك الايحاء (أوحينا) أى بما لنا من العظمة (اليك قرآنا) أى جامعا لكل حكمة مع الفرق لكل ملتبس (عربيا) فهو بين الخطاب واضح الصواب معجز الجناب (لتنذر) أى به (أم القرى) أى أهل مكة التى هى أم الارض وأصلها منها دحيت أو لشرفها أوقع الفعل عليها عدالها عداد العقلاء أو غير ذلك انما عليك الا البلاغ وقوله تعالى (ومن حولها) معطوف على أهل المقدر قبل أم القرى والمفعول الثانى محذوف أى العذاب والمراد بمن حولها قرى الارض كلها من أهل البدو والحضر وأهل المدر والوبر والانذار التخويف (وتنذر) أى الناس (يوم الجمع) أى يوم القيامة يجمع الله تعالى فيه الاولين والآخرين وأهل السموات والارضين ويجمع الارواح بالاجساد ويجمع بين العامل وعمله ويجمع بين الظالم والمظلوم (لاريب) أى لاشك (فيه) لانه ركز فى فطرة كل أحد وقوله تعالى (فريق) يجوز فيه وجهان أحدهما أنه مبتدأ وساغ هذا فى النكرة لانه مقام تفصيل وخبره (فى الجنة) أى تفضلا منه ورحمة وهم الذين قبلوا الانذار وبالغوا فى الحذار ويجوز أن يكون الخبر مقدرا تقديره منهم فريق وساغ الابتداء بالنكرة حينئذ لشيئين تقديم خبرها جارا ومجرورا ووصفها بالجار بعدها والثانى أنه خبر مبتدا مضمر أى هم اى المجموعون فريق دل على ذلك قوله تعالى يوم الجمع وقوله تعالى (وفريق فى السعير) أى عدلا منه فيه مامر وهم الذين خذلهم الله تعالى ووكلهم الى أنفسهم (فان قيل) يوم الجمع يقتضى كون القوم مجتمعين والجمع بين الصنفين محال (أجيب) بأنهم يجتمعون أولا ثم يصيرون فريقين قال القشيرى كما أنهم فى الدنيا فريقان فريق فى راحات الطاعات وحلاوات العبادات

وفريق في ظلمات الشرك وعقوبات الجحود والشك فكذلك غداهم فريقان فريق هم أهل اللقاء وفريق هم أهل البلاء والشقاء روى الامام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم قابضا على كفيه ومعه كتابان فقال أتدرون ماهذان الكتابان قلنا لا يارسول الله فقال للذي في يده اليمنى هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا نطفا في الاصلاب وقبل أن يستقروا نطفا في الارحام اذهم في الطينة منجدلون فليس يزاد فيهم ولا ينقص منهم اجمال من الله عليهم الى يوم القيامة ثم قال للذي في يده اليسرى هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل النار وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا نطفا في الاصلاب وقبل أن يستقروا نطفا في الارحام اذهم في الطينة منجدلون فليس يزاد فيهم ولا ينقص منهم اجمال من الله تعالى عليهم الى يوم القيامة فقال عبد الله بن عمرو ففيم العمل اذن فقال اعملوا وسددوا وقاربوا فان صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وان عمل أي عمل وان صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وان عمل أي عمل ثم قال فريق في الجنة وفريق في السعير عدل من الله تعالى أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (ولو شاء الله) أي المحيط بجميع أوصاف الكمال (لجعلهم) أي المجموعين (أمة واحدة) للثواب أو للعذاب ولكنه لم يشأ ذلك بل شاء أن يكونوا فريقين مقسطين وظالمين ليظهر فضله وعدله وأنه الجبار واحد قهار لا يبالي بأحد وهو معنى قوله تعالى (ولكن يدخل من يشاء) ادخاله (في رحمته) بخلق الهداية في قلبه فتكون أفعالهم في مواضعها وهم المقسطون ويدخل من يشاء في نقمته بخلق الضلالة في قلوبهم فيكونوا ظالمين فلا تكون أفعالهم في مواضعها فالمقسطون مالهم من عدو ولا نكير (والظالمون) أي العريقون في الظلم الذين ساء ظلمهم وهم الكافرون فيدخلهم في لعنته (مالهم من ولي) أي يلي أمورهم فيجتهد في اصلاحها فيدفع عنهم العذاب (ولا نصير) ينصرهم من الهوان فيمنعهم من النار وعلى هذا التقدير فالآية من الاحتباك وهو ظاهر ذكر الرحمة أولا دليلا على اللعنة ثانيا والظلم ومامعه ثانيا دليلا على اضداده أولا وهذا تقرير لقوله تعالى الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل أي أنت لا تقدر أن تحملهم على الايمان ولو شاء الله تعالى لفعله لانه أقدر منك لكنه تعالى جعل البعض مؤمنا والبعض كافرا * ولما حكى الله تعالى عنهم أولا انهم اتخذوا من دونه أولياء ثم قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لست عليهم بوكيل أي لا يجب عليك أن تحملهم على الايمان فان الله تعالى لو شاء لفعله أعاد ذلك الكلام على سبيل الانكار بقوله تعالى (أم اتخذوا من دونه أولياء) كالاصنام وهذه أم المنقطعة فتقدر ببل التي للانتقال وبهمزة الانكار أو بالهمزة فقط أو ببل فقط أي ليس المتخذون أولياء (فالله) أي المختص بصفات الكمال (هو) وحده (الولي) قال ابن عباس وليك يا محمد وولي من اتبعك والفاء جواب الشرط المقدر كأنه قال ان أرادوا أولياء بحق فالله هو الولي لا ولي سواه وقيل هي لمجرد العطف وجرى على هذا الجلال المحلي وعلى الاول الزمخشري (وهو) أي ومن شأن هذا الولي (يحيي الموتى)

أي يجدد احياءها في كل وقت يشاؤه (وهو) وحده (على كل شيء قدير) فهو الحقيق بأن يتخذ وليا دون من لا يقدر على شيء * ولما منع تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يحمل الكفار على الايمان منع المؤمنين أن يشرعوا معهم في المخاصمات والمنازعات بقوله تعالى (وما اختلفتم) أي أنتم والكفار (فيه من شيء) أي من أمور الدنيا أو الدين (فحكمه الى الله) أي مفوض الى الذي هو الولي لا غيره يميز المحق من المبطل بالنصر والاثابة والمعاقبة وقيل وما اختلفتم فيه من تأويل المتشابه فارجعوا فيه الى المحكم من كتاب الله (ذلكم الله) أي المحيط بجميع صفات الكمال (ربي) أي الذي لا مربي لي غيره في ماض ولا حال ولا استقبال (عليه) اي وحده (توكلت) أسلمت جميع أمري (واليه) لا الى غيره (أنيب) أي أرجع بالتوبة اذا قصرت في شيء من فروع شرعه وأرجع الى كتابه اذا نابني أمر من الامور فأعرف منه حكمه فافعلوا أنتم كذلك واجعلوه الحكم تفلحوا ولا تعدلوا عنه في شيء من الاشياء تهلكوا وقوله تعالى (فاطر) أي مبدع (السموات والارض) خبر آخر لذلكم أو مبتدأ خبره (جعل لكم) أي بعد أن خلقكم من الارض (من أنفسكم أزواجا) حيث خلق حواء من ضلع آدم فيكون بالسكون اليها بقاء نوعكم (ومن) أي وجعل لكم أي لأجلكم من (الانعام) التي هي أموالكم وجمالكم وبها أعظم أقواتكم (أزواجا) أي ذكورا واناثا يكون بها أيضا بقاء نوعها (يذرؤكم) بالمعجمة أي يخلقكم ويكثركم من الذرء وهو البث (فيه) أي في هذا التدبير وهو جعل الناس والانعام أزواجا يكون بينهم توالد فانه كالمنبع للبث والتكثير فالضمير للاناسي والانعام بالتغليب واختلف في الكاف في قوله تعالى (ليس كمثله شيء) فجرى الجلال المحلي على انها زائدة لانه تعالى لا مثل له وجرى غيره على أنها ليست زائدة لانه اذا نفي عمن يناسبه ويسد مسده كان نفيه عنه أولى وحاصله كما قال التفتازاني ان قولنا ليس كذاته شيء وقولنا ليس كمثله شيء عبارتان كلاهما من معنى واحد وهو نفي المماثلة عن ذاته الاولى صريحا والثانية كناية مشتملة على مبالغة وهي أن المماثلة منفية عمن يكون مثله وعلى صفته فكيف عن نفسه وهذا لا يستلزم وجود المثل ألا ترى أن قولهم مثل الامير يفعل كذا ليس اعترافا بوجود المثل له فالمعنى هنا أن مثل مثله تعالى منفي فكيف عنه وأيضا مثل المثل مثل فيلزم من نفيه نفيهما وقال البغوي المثل صلة أي ليس كهو شيء فأدخل المثل للتوكيد كقوله تعالى فان آمنوا بمثل ما آمنتم به اه وهذا كالتأويل الاول وقيل ان المراد بالمثل الصفة وذلك أن المثل بمعنى المثل والمثل الصفة كقوله تعالى مثل الجنة فيكون المعنى ليس كصفته تعالى شيء من الصفات التي لغيره وأما قوله تعالى وله المثل الاعلى فمعناه أن له الوصف الاعلى الذي ليس لغيره مثله ولا يشاركه فيه أحد (وهو) أي والحال أنه هو لا غيره (السميع البصير) أي الكامل في السمع والبصر بكل ما يسمع ويبصر (فان قيل) هذا يفيد الحصر مع أن العباد أيضا موصوفون بكونهم سميعين بصيرين (أجيب) بأن السمع والبصر لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل الكمال كما أن الكمال في كل الصفات ليس الا لله تعالى فهذا هو المراد من هذا الحصر (له) أي

وحده (مقاليد السموات والارض) أي خزائنهما ومفاتيح خزائنهما من الامطار والانبات وغيرهما وقد ثبت أنه ابتدعهما وأن له جميع ما فيهما مما اتخذ من دونه وليا وغيره قال القشيري والمفاتيح الخزائن وخزائنه هي مقدوراته اه ولما حصر الامر فيه دل عليه بقوله تعالى (يبسط الرزق) أي يوسعه (لمن يشاء) امتحانا (ويقدر) أي يضيقه لمن يشاء ابتلاء كما وسع على فارس والروم وضيق على العرب وفاوت في الافراد بين افراد من وسع عليهم ومن ضيق عليهم فدل ذلك قطعا على أنه لا شريك له وانه هو المتصرف وحده فتقطع بذلك افكار الموقنين من عباده عن غيره ليقبلوا عليه ويتفرغوا له فان عبادته هي المقاليد بالحقيقة استغفروا ربكم انه كان غفارا الآيات ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الانهار ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا الفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيآتهم ولادخلناهم جنات النعيم الآية ثم علل ذلك بقوله تعالى (انه بكل شيء عليم) أي فلا فعل له الا وهو جار على أتقن ما يكون من قوانين الحكمة فيفعله على ما ينبغي * ولما نظم وحيه الى محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى كذلك يوحي اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ذكر تفصيل ذلك بقوله تعالى (شرع لكم) أي طرق وسن طريقا ظاهرا بينا واضحا لكم أيتها الامة الخاتمة من الطرق الظاهرة المستقيمة (من الدين) وهو ما يعمل فيجازى عليه (ما) الذي (وصى به) توصية عظيمة بعد اعلامه بأنه شرعه (نوحا) في الزمان الاقدم وهو أول أنبياء الشريعة قال مجاهد أوصيناك واياه يا محمد دينا واحدا (والذي أوحينا اليك) أي من القرآن وشرائع الاسلام (وما وصينا) أي بما لنا من العظمة الباهرة التي ظهرت بها تلك المعجزات (به ابراهيم) الذي نجيناه من كيد نمروذ بالنار وغيرها ووهبنا له على الكبر اسمعيل واسحق وقرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها والباقون بكسر الهاء وياء بعدها (وموسى) الذي أنزلنا عليه التوراة موعظة وتفصيلا لكل شيء (وعيسى) الذي أنزلنا عليه الانجيل هدى ونورا وموعظة وادخرناه في سمائنا لتأييد شريعة الفاتح الخاتم صلى الله عليه وسلم * ثم بين المشروع الموصى به والموحى الى محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (أن أقيموا) أي أيها المشروع لهم من هذه الامة الخاتمة ومن الامم الماضية (الدين) وهو الايمان بما يجب تصديقه والطاعة في أحكام الله تعالى ومحله النصب على البدل من مفعول شرع أو الرفع على الاستئناف كأنه جواب وما ذلك المشروع أو الجر على البدل من هاء به * ولما عظمه بالامر بالاجتماع أتبعه بالتعظيم بالنهي عن الافتراق بقوله تعالى (ولا تتفرقوا فيه) أي ولا تختلفوا في هذا الاصل أما فروع الشرائع المختلفة فقال تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا وقال قتادة الموصى به تحليل الحلال وتحريم الحرام وقال الحكم تحريم الامهات والبنات والاخوات وقال مجاهد لم يبعث الله تعالى نبيا الا وصاه باقامة الصلاة وايتاء الزكاة والاقرار لله تعالى بالطاعة فذلك دينه الذي شرعه وقيل هو التوحيد والبراءة من الشرك ويجري على هذا الجلال المحلى والكل يرجع اليه (كبر) أي عظم وشق (على المشركين) حتى

ضاقت به صدورهم (ما تدعوهم اليه) أيها النبي الفاتح الخاتم من الاجتماع ابداً على ما اجتمعوا عليه وقت الاضطرار من وحدانية الواحد القهار فلاجل كبره عليهم هم يسعون في تفرقكم فان تفرقتم كنتم تابعتم العدو الحسود وخالفتم الولي الودود * ثم نبه تعالى على أن الامور كلها بيده بقوله تعالى (الله) الذي له مجامع العظمة ونفوذ الامر (يجتبي) أي يختار (اليه) أي الى هذا الدين الذي تدعوهم اليه (من يشاء) اجتباءه (ويهدي اليه) بالتوفيق للطاعة (من ينيب) أي من يقبل الى طاعته * ولما بين تعالى أمر كل الانبياء عليهم السلام والامم بالاخذ بالدين المتفق عليه كان لقائل أن يقول فلماذا نجدهم متفرقين أجاب بقوله تعالى (وما تفرقوا) أي المشركون من قبلكم من أهل الكتاب وغيرهم (الا من بعد ما جاءهم العلم) أي بالتوحيد أو ببعث الرسول صلى الله عليه وسلم أو بأن التفرق ضلال متوعد عليه (بغياً بينهم) أي فعلوا ذلك للبغي وطلب الرياسة فحملتهم الحمية النفسانية على أن ذهبت كل طائفة الى مذهب ودعوا الناس اليه وقبحوا ما سواه طلباً للذكر والرياسة فصار ذلك سبباً لوقوع الاختلاف ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل الا أنه تعالى أخر عنهم العذاب لان لكل عذاب عنده أجلاً مسمى أي وقتاً معلوماً وهذا معنى قوله تعالى (ولولا كلمة) أي لا تبديل لها (سبقت) أي في الازل (من ربك) أي المحسن اليك بجعلك خير الخلائق وامامهم بتأخيرهم (الى أجل مسمى) ضربه لآجالهم ثم يجمعهم في الآخرة (لقضي) على أيسر وجه وأسهله (بينهم) حين الافتراق باهلاك الظالم وانجاء المحق قال ابن عباس والذين أريدوا بهذه الصفة هم اليهود والنصارى لقوله تعالى في آل عمران وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم وقوله تعالى في سورة لم يكن وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة وكذلك في قوله تعالى (وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم) أي المتفرقين هم اليهود والنصارى الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل هم هذه الامة الذين أورثوا القرآن ولما نسخ كتابهم ما تقدمه كان غيرهم كأنه مات فورثوه كما قال تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فكان حالهم في تمكنهم من التصرف في الكتاب بالحفظ والفهم وعدم المنازعة في ادعائه حال الوارث والموروث منه (لفي شك منه) أي من كتاب لا يعلمونه كما هو ولا يؤمنون به حق الايمان أو من القرآن فيقولون انه سحر وشعر وكهانة ونحو ذلك وقيل في شك من محمد صلى الله عليه وسلم وجرى على ذلك الجلال المحلي (مريب) أي موقع في التهمة (فلذلك) أي التوحيد (فادع) يا أشرف الخلق الناس (واستقم) أي على الدعوة (كما أمرت) أي أمرك الله تعالى (ولا تتبع) أي بعمل (أهواءهم) في شيء ما فان الهوى لا يدعو الى خير والمقصود من كل أحد أن يفعل ما أمر به (وقل) لجميع أهل الفرق وكل من يمكن له القول فانك أرسلت الى جميع الخلق (آمنت بما أنزل الله) أي الذي له العظمة الكاملة (من كتاب) أي جميع الكتب المنزلة لا كالكفار الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض روى أن رجلاً أتى علياً فقال يا أمير المؤمنين ما الايمان

أو كيف الايمان قال الايمان على أربع دعائم على الصبر واليقين والعدل والجهاد والصبر على أربع شعب على الشوق والشفق والزهادة والترقب فمن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ومن زهد فى الدنيا تهاون بالمصائب ومن ارتقب الموت سارع الى الخيرات واليقين على أربع شعب تبصرة الفطنة وتأويل الحكمة وموعظة العبرة وسنة الاولين فمن تبصر الفطنة تأول الحكمة ومن تأول الحكمة عرف العبرة ومن عرف العبرة عرف السنة ومن عرف السنة فكأنما كان فى الاولين والعدل على أربع شعب على غامض الفهم وزهرة الحلم وروضة العلم وعلم الحكم فمن فهم جمع العلم ومن علم لم يضل فى الحكم ومن علم عرف شرائع الحلم ومن حلم لم يفرط أمره وعاش فى الناس والجهاد على أربع شعب على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدق فى المواطن وشنآن الفاسقين فمن أمر بالمعروف شد ظهره ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافقين ومن صدق فى المواطن قضى الذى عليه ومن شنئ الفاسقين غضب لله تعالى وغضب الله تعالى له فقام الرجل وقبل رأسه (وأمرت) أى من له الامر كله (لاعدل) أى لاجل أن أعدل (بينكم) أيها المفترقون فى الاديان من العرب والعجم من الانس والجن ثم علل ذلك بقوله (الله) أى الذى له الملك كله (ربنا وربكم) أى موجدنا ومتولى جميع أمورنا فلهذا أمرنا بالعدل على سبيل العموم لان الكل عباده (لنا أعمالنا) خاصة بنا لا تعدونا الى غيرنا (ولكم أعمالكم) خاصة بكم لا تعدوكم الى غيركم فكل مجازى بعمله (لا حجة) أى لا خصومة (بيننا وبينكم) وهذا قبل أن يؤمر بالجهاد كما قاله الجلال المحلى وقال ابن الخازن هذه الآية منسوخة بآية القتال وكذا قال البغوى ولكن قال البيضاوى وليس فى الآية ما يدل على متاركته رأسا حتى تكون منسوخة بآية القتال (الله) أى الذى هو أحكم الحاكمين (يجمع بيننا) أى فى المعاد لفصل القضاء (واليه) أى لا الى غيره (المصير) أى المرجع حسا ومعنى لتمام عزته وشمول عظمته (والذين يحاجون فى الله) أى يوردون تشكيكا فى دين الملك الاعظم ليعيدوا الناس بعد ما دخلوا فى نور الهدى الى ظلام الضلال (من بعد ما استجيب له) أى استجاب الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فأظهر دينه على الدين كله قال قتادة هم اليهود قالوا كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فنحن خير منكم فهذه خصومتهم وتشكيكهم أو من بعد ما استجاب للرسول صلى الله عليه وسلم الناس فأسلموا ودخلوا فى دينه لظهور معجزته (حجتهم) أى التى زعموها حجة (داحضة) أى زائلة باطلة (عند ربهم) أى المحسن اليهم باضافة العقل الذى جعلهم به فى أحسن تقويم وقال الرازى تلك المخاصمة هى أن اليهود قالوا ألستم تقولون ان الاخذ بالمتفق عليه أولى من الاخذ بالمختلف فيه فنبوة موسى عليه السلام وحقية التوراة معلومة بالاتفاق ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ليست متفقا عليها فوجب الاخذ باليهودية فبين تعالى فساد هذه الحجة وذلك ان اليهود أجمعوا على انه انما وجب الايمان بموسى عليه السلام لاجل ظهور المعجزات على قوله وههنا ظهرت المعجزات على وفق قول محمد صلى الله عليه وسلم واليهود قد شاهدوا تلك المعجزات فان

كان ظهور المعجزة يدل على الصدق ههنا يجب الاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وان كان لا يدل على الصدق وجب فى حق موسى أن لا يقروا بنبوته بظهور المعجزات لانه يكون تناقضا *(تنبيه)* والذين يحاجون مبتدأ وحجتهم مبتدأ ثان وداحضة خبر المبتدا الثانى والثانى وخبره خبر الاول وأعرب مكى حجتهم بدلا من الموصول بدل اشتمال * ولما قرر تعالى هذه الدلائل خوف المنكرين بعذاب القيامة فقال (وعليهم) أى زيادة على قطع الاحسان (غضب) أى عقوبة تليق بحالهم المذموم وصفهم المذموم ومنه الطرد فهم مطرودون عن بابه مبعدون عن جنابه مهانون بحجابه (ولهم) مع ذلك (عذاب شديد) فى الآخرة لا تصلون الى حقيقة وصفه (الله) أى الذى له جميع الملك (الذى أنزل الكتاب) أى جنس الكتاب (بالحق) أى متلبسا على أكمل الوجوه بالامر الثابت الذى لا يبدل (والميزان) أى الشرع الذى توزن به الحقوق ويسوى بين الناس أو العدل قال مجاهد سمى العدل ميزانا لان الميزان آلة للانصاف والتسوية وقال ابن عباس أمر الله تعالى بالوفاء ونهى عن البخس فيجب على العاقل أن يجتهد فى النظر والاستدلال ويترك طريقة أهل الجهل والتقليد * ولما كان صلى الله عليه وسلم يتهددهم بيوم القيامة ولم يروا لذلك أثرا قالوا على سبيل السخرية متى تقوم الساعة وليتها قامت حتى يظهر لنا الحق أهو الذى نحن عليه أم الذى عليه محمد وأصحابه قال تعالى (وما يدريك) أى يا أكمل الخلق (لعل الساعة) أى التى يستعجلون بها (قريب) وذكر قريب وان كان صفة لمؤنث لان الساعة فى معنى الوقت أو البعث أو على معنى النسب أى ذات قرب أو على حذف مضاف أى مجىء الساعة قال مكى ولان تأنيثها مجازى وهذا ممنوع اذ لا يجوز الشمس طالع ولا القدر فائر *(تنبيه)* لعل معلق للفعل عن العمل أى ما بعده سد مسد المفعولين ولما ذكر النبى صلى الله عليه وسلم الساعة وعنده قوم من المشركين وقالوا مستهزئين متى الساعة تقوم نزل قوله تعالى (يستعجل بها) أى يطلب أن تكون قبل الوقت المضروب لها (الذين لا يؤمنون بها) أى لا يتجدد لهم ذلك أصلا وهم غير مشفقين منها ويظنون كذب القائل بها (والذين آمنوا) وان كانوا فى أول درجات الايمان (مشفقون) أى خائفون خوفا عظيما (منها) لان الله تعالى هداهم بايمانهم فصارت صدورهم معادن المعارف وقلوبهم منابع الانوار فأيقنوا ايمانا فيها من الاهوال الكبار فخافوا للطافتهم أن يكونوا مع صلاحهم من أهل النار (ويعلمون انها الحق) اعلاما بأنهم على بصيرة من أمرها فهم لا يستعجلون بها فالآية من الاحتباك ذكر الاستعجال أولا دليلا على حذف ضده ثانيا والاشفاق ثانيا دليلا على حذف ضده أولا *(فائدة)* روى ان رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم بصوت جهورى فى بعض أسفاره فناداه يا محمد فقال له صلى الله عليه وسلم نحوا من صوته هاؤم فقال متى الساعة فقال له صلى الله عليه وسلم ويحك انها كائنة فما أعددت لها فقال حب الله تعالى وحب رسوله فقال أنت مع من أحببت والغرض انه لم يجبه عن وقت الساعة بل أمره بالاستعداد لها ومن أحب الله تعالى ورسوله فعل ما أمر به واجتنب ما نهيا عنه فهى المحبة الكاملة نسأل الله الكريم من فضله أن يوفقنا وأحبابنا لطاعته

واجتناب معاصيه (الا ان الذين يمارون) أي يخاصمون ويجادلون (في الساعة) أي القيامة وما تحتوي عليه (لفي ضلال) أي ذهاب حائد عن الحق (بعيد) جدا عن الصواب فان ابهامن الادلة الظاهرة ما ألحقها بالمحسوسات كما قال القائل لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ولما أنزل الله عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة كان ذلك من لطف الله تعالى بعباده كما قال عزمن قائل (الله) أي الذي له الامر كله (لطيف) أي بالغ في اللطف والعلم وايقاع الاحسان (بعباده) وقال ابن عباس حفي بهم وقال عكرمة بار بهم وقال السدي رفيق بهم وقال القشيري اللطيف العالم بدقائق الامور وغوامضها وقال الرازي هو اسم مركب من علم ورحمة ورفق خفي أما لطفه بالمؤمنين فواضح وأما الكافر فأقل لطفه به أنه لا يعاجله في الدنيا ولا يعذبه فوق ما يستحق في الاخرى وقال مقاتل لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعا بمعاصيهم بدليل قوله تعالى (يرزق من يشاء) أي مهما شاء على سبيل من السعة والضيق او التوسعة لا مانع له من شيء من ذلك فكل من رزقه الله تعالى من مؤمن وكافر وذي روح فهو ممن يشاء الله تعالى أن يرزقه قال جعفر الصادق اللطف في الرزق من وجهين أحدهما انه جعل رزقك من الطيبات والثاني انه لم يدفعه اليك مرة واحدة (وهو القوي) أي القادر على ما يشاء (العزيز) فلا يقدر أحد أن يمنعه من شيء يريده ولما بين بهذا أن الرزق ليس الا بيده اتبعه ما يزهد في طلب رزق البدن ويرغب في رزق الروح فقال تعالى على سبيل الاستئناف (من كان) أي من شريف أودني (يريد) أي بعمله (حرث الآخرة) أي أعمالها والحرث في اللغة الكسب (نزد له) أي بعظمتنا التي لا يقدر أحد على تحويلها (في حرثه) قال مقاتل بأن يعينه على الاعمال الصالحة ويضاعف بالواحدة عشرة الى ما شاء الله تعالى من الزيادة وقال الزمخشري انه تعالى سمى ما يعمله العامل مما يطلب به الفائدة حرثا على سبيل المجاز (ومن كان) أي من قوي أو ضعيف (يريد) أي بعمله (حرث الدنيا) أي ارزاقها التي تطلب بالكد والسعي وتستغني به مكتفيا به مؤثراله على الآخرة (نؤته منها) أي ما قسمناه له ولو تهاون به ولم يطلبه لاتاه وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة بسكون الهاء واختلس قالون كسرة الهاء وعن هشام اختلاس الكسرة في الهاء والاشباع والباقون باشباع الكسرة (وما) أي والحال ان طالب الدنيا بعمله ما (له في الآخرة من نصيب) لان الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى روى أبي بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال بشر هذه الامة بالسناء والرفعة والنصرة والتمكن في الارض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب أي لان هذا تهاون بالآخرة فلم ينوها وهي أشرف من أن تقبل على من أعرض عنها فانها ضرة الدنيا وضدها فالدنيا بخساستها تقبل على من أعرض عنها وتبعد عمن أقبل عليها حتى تهلكه في مهاويها والآخرة تقبل على من أقبل عليها أضعاف اقباله وتنادي من أدبر عنها المنتهي عن غيه وضلاله فلما سمى الله تعالى كلا القسمين حرثا علمنا أن كل واحد منهما لا يحصل الا بتحمل المشاق والمتاعب وصرف هذه المتاعب الى ما يكون في الزائد الباقي أولى من صرفها الى ما يكون

فى التناقص والانقضاء قال الرازى فى اللوامع أهل الارادة على أصناف مريد الدنيا ومريد الآخرة ومريد الحق جل وعلا وعلامة ارادة الدنيا ان يرضى فى زيادة دنياه بنقص دينه والاعراض عن فقراء المسلمين وان تكون حاجاته فى الدنيا مقصورة على الدنيا وعلامة ارادة الآخرة بعكس ذلك وأما علامة ارادة الله تعالى كما قال تعالى يريدون وجهه فطرح الكونين والعزلة عن الخلق والخلاص من يد النفس انتهى وحاصله أن يستغرق أوقاته فى التوفية بحقوق الحق وحقوق الخلق وتزكية النفس لا طمعا فى جنة ولا خوفا من نار بل امتثالا لاجل الملك الاعلى لانه أهل لذلك مع اعترافه بأنه لن يقدر الله تعالى حق قدره ولما بين تعالى أعمال الآخرة والدنيا اتبعه بيان ما هو الاصل فى باب الضلالة والشقاوة فقال تعالى (أم) أى بل (لهم) أى كفار مكة (شركاء) أى على زعمهم وهم شياطينهم (شرعوا) أى سنوا بالتزيين (لهم) أى الكفار (من الدين) أى الفاسد فى العبادات والعادات (ما لم يأذن به الله) أى الملك الذى لا أمر لاحد معه كالشرك وانكار البعث والعمل للدنيا وقيل شركاؤهم أوثانهم وانما أضيفت اليهم لانهم هم الذين اتخذوها شركاء لله ولما كانت سببا لضلالهم جعلت شارعة لدين ضلالتهم كما قال ابراهيم عليه السلام رب انهن أضللن كثيرا من الناس وقال ابن عباس شرعوا لهم دينا غير دين الاسلام (ولولا كلمة الفصل) أى القضاء السابق بتأخير الجزاء أو ولولا الوعد بأن الفصل يكون بينهم يوم القيامة (لقضى بينهم) أى بين الذين امتثلوا أمره والتزموا شرعه وبين الذين اتبعوا ما شرعوه لمن سموهم شركاء فى أقرب وقت ولكنه قد سبق القضاء فى الازل بمقادير الاشياء وتحديدها على وجوه الحكمة فهى تجرى على ما حداها لا يتقدم شئ منها ولا يتأخر ولا يتبدل ولا يتغير وستنكشف لهم الامور وتظهر مخبآت المقدور فلا يقع الفصل الا فى الآخرة كما سبق به القضاء (وان الظالمين) بشرع ما لم يأذن به الله من الشرك وغيره (لهم عذاب أليم) أى مؤلم بليغ ايلامه ثم انه تعالى ذكر أحوال أهل العقاب وأحوال أهل الثواب مبتدئا بالاول منهما بقوله تعالى (ترى) أى فى ذلك اليوم (الظالمين) أى الواضعين الاشياء فى غير مواضعها (مشفقين) أى خائفين أشد الخوف كما هو حال من يحاسبه من هو أعلى منه وهو مقصر (مما كسبوا) أى عملوا معتقدين انه غاية ما ينفعهم (وهو) أى جزاؤه ووباله الذى من جنسه حتى كأنه هو (واقع بهم) لا محالة سواء أشفقوا أم لم يشفقوا ثم ذكر الثانى بقوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) وهى التى أذن الله تعالى فيها غير خائفين مما كسبوا لانهم مأذون لهم فى فعله وهو مغفور لهم ما فرطوا فيه (فى روضات الجنات) أى فى الدنيا بما يلذذهم به الله تعالى من لذائذ الاقوال والافعال والمعارف والاحوال وفى الآخرة حقيقة بلا زوال وروضة الجنة أطيب بقعة فيها وفيه تنبيه على أن عصاة المؤمنين من أهل الجنة لانه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم فى روضات الجنات وهى البقاع الشريفة من الجنة فالبقاع التى دون تلك الروضات لابد وان تكون مخصوصة بمن كان دون الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقوله تعالى (لهم ما يشاؤن عند ربهم) يدل على ان تلك الاشياء حاضرة عنده

مهيأة والعندية مجاز *(تنبيه)* عندربهم يجوز أن يكون ظرفا ليشاؤن قاله الحوفى أو للاستقرار والعامل فى لهم قاله الزمخشرى وقوله تعالى (ذلك) أى الجزاء العظيم الرتبة الجليل القدر (هو الفضل الكبير) أى الذى يصغر ما لغيرهم فى الدنيا يدل على أن الجزاء المرتب على العمل انما حصل بطريق الفضل من الله تعالى لا بطريق الوجوب والاستحقاق وقوله تعالى (ذلك) أى الجزاء العظيم من الجنة ونعيمها مبتدأ خبره (الذى يبشر الله) أى الملك الاعظم والعائد وهو به محذوف تفخيما للمبشر به لان السياق لتعظيمه بالاشارة وبجعلها بأداة البعد وبالوصف بالذى وذكر الاسم الاعظم والتعبير بلفظ العباد فى قوله تعالى (عباده) مع الاضافة الى ضميره سبحانه * ولما أشعر بصلاحهم بالاضافة نص عليه بقوله تعالى (الذين آمنوا) أى صدقوا بالغيب (وعملوا) تحقيقا لايمانهم (الصالحات) قرأ نافع وابن عامر وعاصم بضم الياء وفتح الباء الموحدة وكسر الشين مشددة والباقون بفتح الياء وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة من بشره * ولما كان كأنه قيل فما لطالب فى هذه البشارة لان الغالب أن المبشر وان لم يسأل يعطى بشارته كما وقع لكعب لما أذن الله تعالى بتوبته ركض راكض على فرس وسعى ساع على رجليه فأوفى على جبل سلع ونادى يا كعب بن مالك أبشر فقد تاب الله عليك فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءه الذى سمع صوته خلع عليه ثوبيه وهو لا يملك يومئذ غيرهما واستعار له ثوبين قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى لمن توهم فيك ما جرت به عادة المبشرين (لا أسألكم) أى الآن ولا فى مستقبل الزمان (عليه) أى البلاغ بشارة أو نذارة (أجرا) أى وان قل (الا) أى لكن أسألكم (المودة) أى المحبة العظيمة الواسعة (فى القربى) أى مظروفة فيها بحيث تكون القربى موضعا للمودة وظرفا لها لا يخرج شئ من محبتكم عنها *(تنبيه)* فى الآية ثلاثة أقوال أولها قال الشعبى أكثر الناس علينا فى هذه الآية فكتبنا الى ابن عباس نسأله عن ذلك فكتب ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وسط النسب من قريش ليس بطن من بطونهم الا وقد ولده وكان له فيهم قرابة فقال الله عز وجل قل لا أسألكم عليه أجرا على ما أدعوكم اليه الا أن تودوا القربى اى تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة والمعنى انكم قربى وأحق من أجابنى وأطاعنى فاذ قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى وصلوا رحمى ولا تؤذونى والى هذا ذهب مجاهد وقتادة وغيرهما ثانيها روى الكلبى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق وليس فى يده سعة فقالت الانصار ان هذا الرجل هداكم وهو ابن أختكم وجاركم فى بلدكم فاجمعوا له طائفة من أموالكم ففعلوا ثم أتوه بها فردها عليهم ونزل قوله تعالى قل لا أسألكم عليه أى على الايمان أجرا الا المودة فى القربى أى لا تؤذوا قرابتى وعترتى واحفظونى فيهم قاله سعيد بن جبير وعمرو ابن شعيب ثالثها قال الحسن معناه الا أن تودوا الله تعالى وتتقربوا اليه بالطاعة والعمل الصالح فالقربى على القول الاول القرابة التى بمعنى الرحم وعلى الثانى بمعنى الاقارب وعلى الثالث فعلى بمعنى القرب والتقرب والزلفى (فان قيل) طلب الاجر على تبليغ الوحى لا يجوز

لوجوه أحدها أنه تعالى حكى عن أكثر الانبياء التصريح بنفي طلب الاجر فقال تعالى في قصة نوح وما أسألكم عليه من أجر الآية وكذا في قصة هود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام ورسولنا أفضل الانبياء فأن لا يطلب الاجر على النبوة والرسالة أولى ثانيها انه صلى الله عليه وسلم صرح بنفي طلب الاجر فقال قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين وقل ما سألتكم من أجر فهو لكم ثالثها أن التبليغ كان واجبا عليه قال تعالى بلغ ما أنزل اليك من ربك الآية وطلب الاجر على أداء الواجب لا يليق بأقل الناس فضلا عن أعلم العلماء رابعها أن النبوة أفضل من الحكمة وقال تعالى ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ووصف الدنيا بأنها متاع قليل قال تعالى قل متاع الدنيا قليل فكيف يحسن بالعقل مقابلة أشرف الانبياء بأخس الاشياء خامسها أن طلب الاجر يوجب التهمة وذلك ينافي القطع بصحة النبوة فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطلب أجرا البتة على التبليغ والرسالة وههنا قد ذكر ما يجري مجرى طلب الاجر وهو المودة في القربى (أجيب) بأنه لا نزاع في أنه لا يجوز طلب الاجر على التبليغ وأما قوله تعالى الا المودة في القربى فالجواب عنه من وجهين الاول أن هذا من باب قوله

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

يعني أني لا أطلب منكم الا هذا وهذا في الحقيقة ليس أجرا لان حصول المودة بين المسلمين أمر واجب قال تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض وقال صلى الله عليه وسلم المؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا والآيات والاخبار في هذا كثيرة واذا كان حصول المودة بين المسلمين واجبا فحصولها في حق أشرف المرسلين أولى فقوله الا المودة في القربى تقديره والمودة في القربى ليست أجرا فرجع الحاصل الى أنه لا أجر البتة * الثاني أن هذا استثناء منقطع كما مر تقديره في الآية وتم الكلام عند قوله قل لا أسألكم عليه أجرا ثم قال الا المودة في القربى أي أذكركم قرابتي فيكم فكأنه في اللفظ أجر وليس بأجر واختلفوا في قرابته صلى الله عليه وسلم فقيل هم فاطمة وعلي وأبناؤهما وفيهم نزل انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا وروى زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اني تارك فيكم كتاب الله وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي قيل لزيد بن أرقم فمن أهل بيتي فقال هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس وروى ابن عمر عن أبي بكر رضي الله عنه قال ارقبوا محمدا في أهل بيته وقيل هم الذين تحرم عليهم الصدقة من أقاربه ويقسم فيهم الخمس وهم بنو هاشم وبنو المطلب الذين لم يفترقوا جاهلية ولا اسلاما وقيل هذه الآية منسوخة واليه ذهب الضحاك بن مزاحم والحسين بن الفضل قال البغوي وهذا قول غير مرضي لان مودة النبي صلى الله عليه وسلم وكف الاذى عنه ومودة أقاربه والتقرب الى الله تعالى بالطاعة والعمل الصالح من فرائض الدين * ولما كان التقدير فمن يقترف سيئة فعليه وزرها ولكنه طوى لان المقام للبشارة كما يدل عليه ختم الآية عطف عليه قوله تعالى (ومن يقترف) أي يكتسب

ويخالط ويعمل بجد واجتهاد وتعمد وعلاج (حسنة) أى ولو صغرت (نزد) بما لنا من العظمة (له فيها) أى فى الحسنة (حسنا) أى بمضاعفة الثواب ومن الزيادة أن يكون له مثل أجر من اقتدى به فيها الى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شئ قيل نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقيل المراد بها العموم فى أى حسنة كانت الا أنها لما ذكرت عقب ذكر المودة فى القربى دل ذلك على أن المقصود التأكيد فى تلك المودة (ان الله) أى الذى لا يتعاظمه شئ (غفور) لكل ذنب تاب منه صاحبه وكان غير الشرك وان لم يتب منه ان شاء فلا يصدن أحدا سيئة عملها عن الاقبال على الحبيب (شكور) أى فهو يجزى بالحسنة أضعافها وان قلت والشكور فى حق الله تعالى مجاز والمعنى أنه تعالى يحسن الى المطيعين فى ايصال الثواب اليهم وفى أن يزيد عليه أنواعا كثيرة من التفضيل * ثم ذكر الله تعالى الجواب عن طعن الكفرة فى النبى صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (أم) أى بل (يقولون افترى) أى محمد صلى الله عليه وسلم (على الله) الذى أحاط بصفات الكمال فله العلم الشامل لمن يتقول عليه والقدرة التامة على عقابه (كذبا) حين زعم أن هذا القرآن من عنده وأنه أرسله بهذا الدين (فان يشأ الله) أى الذى له الاحاطة بالكمال (يختم) أى يربط (على قلبك) بالصبر على أذاهم بهذا القول وغيره وقد فعل وقال قتادة يعنى يطبع على قلبك فينسيك القرآن وما آتاك فأخبرهم أنه لو افترى على الله كذبا لفعل به ما أخبر عنه فى هذه الآية أى أنه لا يجترئ على افتراء الكذب الا من كان فى هذه الحالة والمقصود من هذا الكلام المبالغة فى تقرير الاستبعاد ومثاله أن ينسب رجل بعض الامناء الى الخيانة فيقول الامين ذلك لعل الله خذلنى أعمى قلبى وهو لا يريد اثبات الخذلان وعمى القلب لنفسه وانما يريد استبعاد صدور الخيانة عنه وقوله تعالى (ويمح الله) أى الذى له الامر كله (الباطل) وهو قولهم افترى مستأنف غير داخل فى جزاء الشرط لانه تعالى يمحو الباطل مطلقا وسقطت الواو منه لفظا لالتقاء الساكنين فى الدرج وخطا حملا للخط على اللفظ كما كتبوا سندع الزبانية عليه وأما الحق فانه ثابت شديد مضاعف فلذا قال (ويحق) أى يثبت على وجه لا يمكن زواله (الحق) أى كل ما من شأنه الثبات لانه أذن فيه وأقره (بكلماته) أى التى لو كان البحر مدادا لها لنفد وقد فعل الله تعالى ذلك فمحا باطلهم وأعلى كلمة الاسلام عليهم (انه عليم) أى بالغ العلم (بذات الصدور) أى ماهو فيها مما يعلمه صاحبها ومما لا يعلمه فيبطل باطله ويثبت حقه وان كره الخلائق ذلك ولتعلمن نبأه بعد حين ولقد صدق الله تعالى فأثبت ببركة هذا القرآن كل ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم وأبطل بسيف هذا البرهان كل ما كانوا يخالفونه فيه ومن أصدق من الله قيلا قال ابن عباس لما نزل قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى وقع فى قلوب قوم منها شئ وقالوا يريد أن يحثنا على أقاربه من بعده فنزل جبريل عليه السلام فأخبره أنهم اتهموه فأنزل الله تعالى هذه الآية فقال القوم يارسول الله فانا نشهد أنك صادق فنزل (وهو) أى لا غيره (الذى يقبل التوبة عن عباده) بالتجاوز عما تابوا عنه سئل أبو الحسن البوشنجى عن التوبة فقال اذا ذكرت الذنب فلا تجد له حلاوة فى قلبك وروى جابر أن أعرابيا دخل مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فقال

اللهم انى أستغفرك وأتوب اليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له على رضى الله تعالى عنه ياهذا ان سرعة الاستغفار باللسان توبة الكذابين فقال ياأمير المؤمنين ما التوبة قال اسم يقع على ستة أشياء على الماضى من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الاعادة ورد المظالم واذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية واذابتها فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته وقال سهل بن عبد الله التوبة الانتقال من الاحوال المذمومة الى الاحوال المحمودة وقال بعضهم هى الندم على الماضى والترك فى الحال والعزم على أن لايعود اليه فى المستقبل وعن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول والله انى لاستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ياأيها الناس توبوا الى الله فانى أتوب اليه فى اليوم مائة مرة وعن أبى موسى الاشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار و يبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله جعل فى المغرب بابا عرضه مسيرة سبعين عاما للتوبة لايغلق حتى تطلع الشمس من مغربها وروى أن الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر ولما كان القبول قد يكون فى المستقبل مع الاخذ عما مضى قال الله تعالى تفضلا منه ورحمة (ويعفو عن السيئات) أى التى كانت التوبة منها صغيرة كانت أو كبيرة وعن غيرها فلا يؤاخذ بها ان شاء لان التوبة تجب ماقبلها كما أن الاسلام الذى هو توبة خاصة يجب ما كان قبله وروى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب اليه من أحدكم كان هو وراحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فايس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك اذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح (ويعلم) أى والحال أنه يعلم كل وقت (ما تفعلون) فيجازى و يتجاوز عن اتقان وحكمة وقرأ حمزة والكسائى وحفص بتاء الخطاب اقبالا على الناس عامة وهذا خطاب للمشركين وقرأ الباقون بالغيبة نظرا الى قوله تعالى عن عباده وقال تعالى بعد و يزيدهم من فضله ولما رغب بالعفو زاد بالاكرام فقال تعالى (ويستجيب) أى يوجد بغاية العناية والطلب اجابة (الذين آمنوا) أى دعاء الذين أقروا بالايمان فى كل ما دعوا به أو شفعوا عنده فيه لانه لولا ارادته لهم الاكرام بالايمان ما آمنوا وعدى الفعل بنفسه ولم يقل و يستجيب للذين آمنوا تنبيها على زيادة برهلهم ووصلهم به (وعملوا) تصديقا لدعواهم الايمان (الصالحات) فيثيبهم النعيم المقيم (ويزيدهم) أى مع مادعوا به مالم يدعوا به ولم يخطر على قلوبهم (من فضله) أى تفضلا منه عليهم ويجوز أن يكون الموصول فاعلا أى يجيبون ربهم اذا دعاهم كقوله تعالى استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم واستجاب كأجاب ومنه

وداع دعا يامن يجيب الى الندا • فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وقال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما معناه ويثيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات

ويزيدهم

ويزيدهم من فضله سوى ثواب أعمالهم تفضلا منه وروى أبو صالح عنه يشفعهم ويزيدهم من فضله قال فى اخوان اخوانهم ثم أتبع المؤمنين بذكر ضدهم فقال تعالى (والكافرون) أى العريقون فى هذا الوصف القاطع الذين منعتهم عراقتهم من التوبة والايمان (لهم عذاب شديد) بدل ماللمؤمنين من الثواب والتفضل ولا يجيب دعاءهم وما دعاء الكافرين الا فى ضلال فالآية من الاحتباك ذكر الاستجابة أولا دليلا على ضدها ثانيا والعذاب ثانيا دليلا على ضده أولا * ولما قال تعالى انه يجيب دعاء المؤمنين ورد سؤال وهو أن المؤمن قد يكون فى شدة وبلية وفقر ثم يدعو فلا يظهر أثر الاجابة فكيف الجمع بينه وبين قوله تعالى ويستجيب الذين آمنوا فأجاب تعالى عنه بقوله تعالى (ولو) أى وهو يقبل ويستجيب والحال أنه لو (بسط الله الرزق) لهم هكذا كان الاصل لكن قال (لعباده) لئلا يظن خصوصية ذلك بالتائبين اذ لا فرق بين التائب وغيره (لبغوا) أى طغوا (فى الارض) أى لصاروا يريدون كل مايشتهون فيكثر القتل والسلب والنهب ونحو ذلك من أنواع الفساد قال خباب بن الارت فينا نزلت هذه الآية وذلك انا نظرنا الى أموال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع وتمنيناها فنزلت وذكر فى كون بسط الرزق موجبا للطغيان وجوه الاول ان الله تعالى لو سوى فى الرزق بين الكل امتنع كون البعض محتاجا الى البعض وذلك موجب خراب العالم وتعطيل المصالح ثانيها أن هذه الآية مختصة بالعرب فانه كلما اتسع رزقهم ووجدوا من ماء المطر مايرويهم ومن الكلا ومن العشب مايشبعهم قدموا على النهب والغارة ثالثها أن الانسان متكبر بالطبع فان وجد الغنى والقدرة عاد الى مقتضى خلقته الاصلية وهو التكبر واذا وقع فى شدة وبلية ومكروه انكسر وعاد الى التواضع والطاعة وقال ابن عباس رضى الله عنهما بغيهم طلبهم منزلة بعد منزلة ومركبا بعد مركب وملبسا بعد ملبس (ولكن ينزل) أى لعباده من الرزق وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى (بقدر) أى بتقدير لهم (مايشاء) أى ما اقتضته مشيئته (انه) وقال تعالى (بعباده) ولم يقل بهم لئلا يظن ان الامر خاص بمن وسع عليهم أو ضيق عليهم (خبير بصير) يعلم جميع ظواهر أمورهم وبواطنها فيقيم كل أحد فيما يصلح له من صلاح وفساد وعدل وبغى روى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن الله عز وجل فى حديث طويل وفيه يقول الله عز وجل ماترددت فى شئ أنا فاعله ترددى فى قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه وان من عبادى المؤمنين من لا يصلح ايمانه الا الغنى ولو أفقرته لافسده ذلك وان من عبادى المؤمنين من لا يصلح ايمانه الا الفقر ولو أغنيته لافسده ذلك وان من عبادى المؤمنين من لا يصلح ايمانه الا الصحة ولو اسقمته لافسده ذلك وان من عبادى المؤمنين من لا يصلح ايمانه الا السقم ولو أصححته لافسده ذلك وذلك انى أدبر أمر عبادى بعلمى بقلوبهم انى عليم خبير وقرأ مايشاء انه نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية كالياء ولهم أيضا ابدالها واوا والباقون بتحقيقهما واذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفا مع المد والقصر والروم والاشمام (وهو)

أى لاغيره (الذى ينزل الغيث) أى المطر الذى يغاث به الناس وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائى بفتح النون وتشديد الزاى والباقون بسكون النون وتخفيف الزاى (من بعد ماقنطوا) أى يئسوا من نزوله وعلموا أنه لا يقدر على انزاله غيره ولا يتصدقيه سواه ليكون ذلك أدعى لهم الى الشكر وقال تعالى (وينشر رحمته) أى يبسط مطره كما قال تعالى وهو الذى يرسل الرياح نشرا بين يدى رحمته وان كان الاصل بنشره لانه بين أنه غيث فقال رحمته بيانا وتعميما فينزل من السحاب المحمول بالريح من الماء ماتواجتمع عليه الخلائق ماأطاقوا علمه فتصبح الارض مابين غدران وأنهار ونبات نجم وأشجار وزهر وحب وثمار وغير ذلك من المنافع الصغار والكبار فلله ماأعلى هذه القدرة الباهرة والآية الظاهرة فيخرج من الارض التى هى من صلابتها تعجز عنها المعاول نجما هو فى لينه ألين من الحرير وفى لطافته ألطف من النسيم ومن سوف الاشجار التى تنثنى فيها المناقير أغصانا ألطف من ألسنة العصافير فيا أجلف من ينكر اخراجه الموتى من القبور أو يحيد عن ذلك بنوع من الغرور (وهو) أى لاغيره (الولى) الذى لاأحد أقرب منه الى عباده فى شئ من الاشياء (الحميد) الذى يستحق مجامع الحمد مع أنه يحمد من يطيعه فيزيده من فضله ويصل حبله دائما بحبله (ومن آياته) أى العظيمة على استحقاقه لجميع صفات الكمال (خلق السموات) التى تعلمون أنها متعددة لماترون من أمور الكواكب (والارض) أى جنسها على ماهما عليه من الهيآت وما اشتملا عليه من المنافع والخيرات وقوله تعالى (ومابث) أى فرق ونشر يجوز أن يكون مجرورالمحل عطفا على السموات أو مرفوعه عطفا على خلق على حذف مضاف أى وخلق مابث قال أبوحيان وفيه نظر لانه يؤل الى جره بالاضافة لخلق المقدر فلايعدل عنه (فيهما) أى فى السموات والارض (من دابة) أى شئ فيه أهلية الدبيب بالحياة والحركة من الانس والجن والملائكة وسائر الحيوانات على اختلاف ألوانهم وأصنافهم وأشكالهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم وأقطارهم ونواحيهم (فان قيل) كيف يجوز اطلاق الدابة على الملائكة (أجيب) بوجوه أولها مامر من أن الدابة عبارة عمافيه الروح والحركة والملائكة لهم الروح والحركة ثانيها أنه قديضاف الفعل الى جماعة وان كان فاعله واحدا منهم ومنه قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ثالثها قال ابن عادل لايبعد ان يقال انه تعالى خلق فى السموات أنواعا من الحيوانات يمشون مشى الاناسى على الارض وروى العباس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والارض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والارض ثم فوق ذلك العرش الحديث (وهو) أى لاغيره (على جمعهم) أى هذه الدواب من ذوى العقول وغيرهم للحشر بعد تفريقهم بالقلوب والابدان بالموت وغيره (اذا) أى وقت (يشاء قدير) أى بالغ القدرة كما كان بالغ القدرة عند الايجاد من العدم بجمعهم فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ثم خاطب المؤمنين بقوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة) أى بلية وشدة (فبما كسبت أيديكم) أى من الذنوب وقرأ نافع وابن عامر بغير فاء والباقون بالفاء لان ماشرطية

أو مضمنة معناه وأما من أسقطها فقد استغنى بما فى الباء من معنى السببية (فان قيل) الكسب لا يكون باليد بل بالقدرة القائمة بها (أجيب) بأن المراد من لفظ اليد ههنا القدرة واذا كان هذا المجاز مشهورا مستعملا كان لفظ اليد فى حق الله تعالى يجب حمله على القدرة تنزيها لله تبارك وتعالى عن الاعضاء واختلفوا فيما يحصل فى الدنيا من الآلام والاسقام والقحط والغرق والمصائب هل هى عقوبات على ذنوب سلفت أولا فنهم من أنكر ذلك لوجوه أولها قوله تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت بين تعالى ان ذلك انما يحصل يوم القيامة وقال تعالى مالك يوم الدين أى يوم الجزاء وأجمعوا أن المراد منه يوم القيامة ثانيها مصائب الدنيا يشترك فيها الزنديق والصديق فيمتنع أن تكون عقوبة على الذنوب بل حصول المصائب للصالحين والمتقين أكثر منه للمذنبين ولهذا قال صلى الله عليه وسلم خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل ثالثها ان الدنيا دار تكليف فلو حصل الجزاء فيها لكانت دار تكليف ودار جزاء معا وهو محال وقال آخرون هذه المصائب قد تكون أجزية على ذنوب متقدمة لهذه الآية ولما روى الحسن قال لما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق الا بذنب وما يعفو الله أكثر وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله تعالى حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أصابكم من مصيبة الآية قال صلى الله عليه وسلم وسأفسرها لك يا على ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم والله سبحانه وتعالى أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة فى الآخرة وما عفا الله عنه فى الدنيا فانه أحلم من أن يعود بعد عفوه وتمسكوا أيضا بقوله تعالى بعد هذه الآية أو يوبقهن بما كسبوا وذلك تصريح بأن ذلك الاهلاك بسبب كسبهم قيل لابى سليمان الدارانى ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمن أساء اليهم قال انهم علموا ان الله تعالى انما ابتلاهم بذنوبهم وقرأ هذه الآية وأجاب الاولون بأن حصول هذه المصائب يكون من باب الامتحان فى التكليف لا من باب العقوبة كما فى حق الانبياء والاولياء بل ذلك لزيادة درجات وفضائل وخصوصيات لا يصلون اليها الا بها لان أعمالهم لم تبلغها فهى خير من الله تعالى لهم ويحمل قوله تعالى فبما كسبت أيديكم على ان الاصلح عند اتيانكم بذلك الكسب انزال هذه المصائب عليكم (ويعفو عن كثير) أى من الذنوب بفضله ورحمته فلا يعاقب عليها ولولا عفوه وتجاوزه ما ترك على ظهرها من دابة قال الواحدى بعد أن روى حديث على وهذه أرجى آية فى كتاب الله تعالى لان الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين صنف كفر عنهم بالمصائب وصنف عفا عنهم فى الدنيا وهو كريم لا يرجع فى عفوه فهذه سنة الله تعالى مع المؤمنين وأما الكافر فانه لا تعجل له عقوبة ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة (وما أنتم بمعجزين) أى فائتين ما قضى عليكم من المصائب فى الارض (وما لكم من دون الله) ولا فى شئ اراده سبحانه منكم كائنا ما كان (من ولى) أى يكون متوليا لشئ من أموركم بالاستقلال (ولا نصير) يدفع عنكم شيأ يريده سبحانه بكم (ومن آياته) أى الدالة على تمام قدرته واختياره ووحدانيته (الجوارى) أى

السفن الجارية (في البحر كالاعلام) أي كالجبال قالت الخنساء في مرثية أخيها صخر

وان صخرا لتأتم الهداة به * كأنه علم في رأسه نار

أي جبل في رأسه نار شبهت به أخاها روى أن النبي صلى الله عليه وسلم استنشد قصيدتها هذه فلما وصل الراوي هذا البيت قال قاتلها الله تعالى ما رضيت بتشبيهه بالجبل حتى جعلت في رأسه نارا وقال مجاهد الاعلام القصور واحدها علم وقال الخليل بن أحمد كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم (فان قيل) الصفة متى لم تكن خاصة بموصوفها امتنع حذف الموصوف فلا تقول مررت بماش لان المشي عام وتقول مررت بمهندس وكاتب والجري ليس من الصفات الخاصة فما وجه ذلك (أجيب) بأن قوله تعالى في البحر قرينة دالة على الموصوف فلذلك حذف ويجوز أن تكون هذه صفة غالبة كالابطح والابرق فوليت العوامل دون موصوفها وقرأ نافع وأبو عمرو باثبات الياء وصلا لا وقفا وابن كثير وهشام باثباتها وقفا بخلاف عن هشام والباقون بحذفها وقفا ووصلا وأمال الجواري محضة الدوري عن الكسائي وفتح الباقون (ان يشأ) أي الله الذي جعلكم فيها على ظهر الماء آية بينة سقط اعتبارها عندكم لشدة الفكم لها (يسكن الريح) الذي يسيرها وأنتم مقرون بأن أمرها ليس الا بيده وقرأ نافع بألف بعد الياء جمعا والباقون بغير ألف افرادا (فيظللن) أي فيتسبب عن ذلك أنهن يظللن أي يبقين في الاماكن أو نهارا (رواكد) أي ثوابت لا تجري (على ظهره) أي البحر (ان في ذلك) أي ما ذكر في حال السفن في سيرها وركودها بما لا يقدر عليه الا الله تعالى بدليل ما للناس كافة من الاجماع على التوجه في ذلك اليه خاصة والانخلاع عما سواه (لآيات) أي على احاطته سبحانه بجميع صفات الكمال (لكل صبار) أي على البلاء والشدة (شكور) أي على نعمائه وهو المؤمن الكامل يصبر في الشدة ويشكر في الرخاء فان الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر (أو) أي أو يشأ في كل وقت أراده (يوبقهن) أي يهلكهن بعصف الريح بأهلهن (بما كسبوا) أي أهلهن من الذنوب (ويعفو) أي ان يشأ (عن كثير) من ذنوبهم فلا يعاقب فينجيهم بعوم أو حمل على خشبة أو غير ذلك وان يشأ يرسل الريح طيبة فينجيها ويبلغها أقصى المراد الى غير ذلك من التقادير الداخلة تحت المشيئة وقوله تعالى (ويعلم) قرأه نافع وابن عامر برفع الميم مستأنفا والباقون بالنصب معطوف على تعليل مقدر أي ليغرقهم لينتقم منهم وليعلم (الذين يجادلون) أي عند النجاة بالعفو (في آياتنا) أي يكذبون القرآن أي علم ظهور للناس (ما لهم من محيص) أي مهرب من العذاب وجملة النفي سدت مسد مفعولي يعلم أو النفي معلق عن العمل وقوله تعالى (فما أوتيتم) خطاب للمؤمنين وغيرهم (من شيء) أي من أثاث الدنيا (فمتاع الحياة الدنيا) أي القريبة الدنية لا نفع فيه لاحد الا مدة حياته وذلك جدير بالاعراض عنه وعما يسببه من الاعمال الا ما يقرب الى الله تعالى (وما) أي والذي (عند الله) أي الملك الاعظم المحيط بكل شيء قدرة وعلما من نعم الدارين (خير) أي في نفسه وأشد خيرية من النعم الدنيوية المحضة لانقطاع نفعها فسماه متاعا تنبيها على قلته وحقارته وجعله من متاع الدنيا تنبيها على انقراضه وأما

الآخرة

الآخرة فهي خير (وأبقى) والباقي خير من الخسيس الفاني * ثم بين تعالى أن هذه الخيرية انما تحصل لمن كان موصوفا بصفات الصفة الاولى قوله سبحانه وتعالى (للذين آمنوا) أى أوجدوا هذه الحقيقة (وعلى) أى والحال أنهم على (ربهم) أى الذى لم يروا احسانا قط الا منه وحده عمار باهم من الاخلاص (يتوكلون) أى يحملون جميع أمورهم عليه كما يحمل غيرهم متاعه على من يتوسم منه قوة على الحمل ولا يلتفتون فى ذلك الى شئ غيره أصلا لينتفى عنهم بذلك الشرك الخفى كما انتفى بالايمان الشرك الجلى وهذا رد على من زعم أن الطاعة توجب الثواب لانه يتوكل على عمل نفسه لا على الله تعالى فلا يدخل تحت الآية الصفة الثانية قوله عز وجل (والذين يجتنبون) أى يكلفون أنفسهم أن يجانبوا (كبائر الاثم) أى جنس الفعال الكبائر التى لا توجد الا فى ضمن افرادها ويحصل بها دنس النفس فيوجب عقابها مع الجسم وعطف على كبائر قوله تعالى (والفواحش) وهى ما أنكره الشرع والعقل والطبع فالكبائر كل ذنب تعظم عقوبته كالقتل والزنا والسرقة والفواحش ما عظم قبحه من الاقوال والافعال وقال مقاتل ما يوجب الحد وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة النساء وقرأ حمزة والكسائى بكسر الباء الموحدة قبل الياء الساكنة وهى للجنس فهى بمعنى قراءة الجمع كما قرأ الباقون بفتح الموحدة وألف بعدها وبعد الالف همزة مكسورة والاولى أبلغ لشمولها المفردة الصفة الثالثة قوله تبارك وتعالى (واذا ما غضبوا) أى غضبا هو على حقيقته من أمر مغضب فى العادة وبين بضمير الفصل أن بواطنهم فى غفرهم كظواهرهم فقال تعالى (هم يغفرون) أى هم الاخصاء والاحقاء بأنهم كلما تجدد لهم غضب جددوا غفرا أى محوا للذنوب عينا وأثرا مع القدرة على الانتقام فسجاياهم تقتضى الصفح دون الانتقام مالم يكن من الظالم بغى لانه لا يؤاخذ على مجرد الغضب الا متكبر والتكبر لا يصلح لغير الاله وفى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم ما انتقم لنفسه قط الا أن تنتهك حرمات الله تعالى وروى ابن أبى حاتم عن ابراهيم النخعى قال كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا وكانوا اذا قدروا غفروا الصفة الرابعة قوله تعالى (والذين استجابوا) أى أوجدوا الاجابة بما لهم من العلم الهادى الى سبيل الرشاد (لربهم) أى الداعى لهم الى اجابة احسانه اليهم قال الرازى المراد من هذا تمام الانقياد (فان قيل) أليس أنه لما جعل الايمان فيه شرطا قد دخل فى الايمان اجابة الله تعالى (أجيب) بأنه يحمل هذا على الرضا بقضاء الله تعالى من صميم القلب وأن لا يكون فى قلبه منازعة الصفة الخامسة قوله سبحانه وتعالى (وأقاموا) أى أداموا (الصلاة) الواجبة (وأمرهم) أى كل ما ينوبهم مما يحوجهم الى تدبير (شورى بينهم) أى يتشاورون فيه مشاورة عظيمة مبالغين بما لهم من قوة الباطن ولا يعجلون فى أمورهم والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور الصفة السادسة قوله تعالى (ومما رزقناهم) أى أعطيناهم بعظمتنا من غير حول منهم ولا قوة (ينفقون) أى يديمون الانفاق فى سبيل الله تعالى كرما منهم وان قل ما بأيديهم اعتمادا على فضل الله تعالى لا يقبضون أيديهم كالمنافقين (والذين اذا أصابهم البغى) أى وقع بهم وأثر فيهم وهو التمادى على الرمى بالشر (هم ينتصرون)

أى ينتقمون ممن ظلمهم عنل ظلمه كما قال تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) سميت الثانية سيئة لمشابهتها للاولى فى الصورة قال مقاتل يعنى القصاص وهى الجراحات والدماء وقال مجاهد والسدى هو جواب القبيح اذا قال أخزاك الله يقول أخزاك الله واذا شتمك فاشتمه بمثلها من غير أن تعتدى قال سفيان بن عيينة سألت سفيان الثورى عن ذلك فقال ان شتمك رجل فتشتمه أو يفعل كذا فتفعل به فلم أجد عنده شيأ فسألت هشام بن حجر عن ذلك فقال الجارح اذا جرح يقتص منه وليس هو أن يشتمك وتشتمه وقد تكفلت هذه الجمل بأمهات الفضائل الثلاث العلم والعفة والشجاعة على أحسن الوجوه فالمدح بالاستجابة والصلاة دعاء الى العلم وبالنفقة الى العفة وبالانتصار الى الشجاعة حتى لا يظن أن اذعانهم لمامضى مجرد ذل والقصر على المماثلة دعاء الى فضيلة التقسيط بين الكل وهى العدل وهذه الاخيرة كافلة بالفضائل الثلاث فان من علم المماثلة كان عالما ومن قصد الوقوف عندها كان عفيفا ومن قسر نفسه على ذلك كان شجاعا وقد ظهر من المدح بالانتصار بعد المدح بالغفران أن الاول للعاجز والثانى للمتغلب المتكبر بدليل البغى (فان قيل) هذه الآية مشكلة لوجهين الاول انه لماذكر قبله واذا ماغضبوا هم يغفرون كيف يليق أن يذكر معه مايجرى مجرى الضدله وهو والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون الثانى أن جميع الآيات دالة على أن العفو أحسن قال تعالى وان تعفوا أقرب للتقوى وقال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما وقال تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (أجيب) بأن العفو على قسمين أحدهما أن يصير العفو سببا لتسكين الفتنة ورجوع الجانى عن جنايته والثانى أن يصير العفو سببا لمزيد جراءة الجانى وقوة غيظه وغضبه فآيات العفو محمولة على القسم الاول وهذه الآية محمولة على القسم الثانى وحينئذ يزول التناقض روى أن زينب أقبلت على عائشة تشتمها فنهاها النبى صلى الله عليه وسلم عنها فلم تنته فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم سبيها وأيضا فانه تعالى لم يرغب فى الانتصار بل بين أنه مشروع فقط ثم بين أن مشروعيته مشروطة برعاية المماثلة بقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها ثم بين أن العفو أولى بقوله تعالى (فمن عفا) أى باسقاط حقه كله أو بالنقص منه لتحقق البراءة عما حرم من المجاوزة (وأصلح) أى أوقع الاصلاح بين الناس بالعفو والاصلاح لنفسه ليصلح الله ما بينه وبين الناس فيكون بذلك منتصرا من نفسه لنفسه (فأجره على الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال فهو يعطيه على حسب مايقتضيه مفهوم هذا الاسم الاعظم وهذا سر لفت الكلام اليه عن مظهر العظمة وقوله صلى الله عليه وسلم مازاد الله بعفو الا عزا (انه لا يحب الظالمين) أى لا يكرم الواضعين للشئ فى غير محله فيترتب عليهم عقابه (ولمن انتصر) أى سعى فى نصر نفسه بجهده (بعد ظلمه) أى بعد ظلم الغير له وليس قاصدا التعدى عن حقه ولو استغرق انتصاره جميع زمان التعدى (فأولئك) أى المنتصرون لاجل دفع الظالم عنهم (ماعليهم) وأكد باثبات الجار فقال تعالى (من سبيل) أى عتاب ولا عقاب لانهم فعلوا ما أبيح لهم من الانتصار روى النسائى عن عائشة قالت ماعلمت حتى دخلت على زينب وهى غضبى فأقبلت على فأعرضت

عنها حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم دونك فانتصري فاقبلت عليها حين رأيتها قد يبس ريقها في فيها ماترد على شيأ فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتهلل وجهه واحتجوا بهذه الآية على أن سراية القود مهدرة لانه فعل مأذون فيه فيدخل تحت هذه الآية (انما السبيل) أي الطريق السالك الذي لامنع منه أصلا (على الذين يظلمون الناس) أي يوقعون بهم ظلمهم تعمدا عدوانا (ويبغون) أي يتجاوزون الحدود (في الارض) بما يفسدها بعد اصلاحها بتهيئتها للصلاح طبعا وعلما وعملا (بغير الحق) أي الكامل لان الفعل قد يكون بغيا وان كان معه بحق كالانتصار المقرون بالتعدى فيه (أولئك) أي البعداء من الله تعالى (لهم عذاب أليم) أي مؤلم بما يلامه أبدانهم وأرواحهم بما آلموا من ظلموه (ولمن صبر) أي عن الانتصار من غير انتقام ولاشكوى (وغفر) أي صرح باسقاط العقاب والعتاب بمحو عين الذنب وأثره (ان ذلك) أي الفعل الواقع منه البالغ في العلو حدا لايوصف (لمن عزم الامور) أي معزوماتها بمعنى المطلوبات شرعا روى أنه صلى الله عليه وسلم قال مامن عبد ظلم مظلمة فعفا عنها الا أعزه الله تعالى بها نصرا (ومن يضلل الله) أي الذي له صفات الكمال بأن لم يوفقه (فماله من ولي) أي يتولى أمره في الهداية بالبيان لما أخفاه الله تعالى عنه (من بعده) أي من بعد اضلال الله تعالى له وهذا صريح في جواز أن الاضلال من الله تعالى وأن الهداية ليست في مقدور أحد سوى الله تعالى وقال تعالى (وترى الظالمين) موضع وتراهم لبيان أن الضال لايضع شيأ في موضعه * ولما كان عذابهم حتما عبر عنه بالماضي فقال (لما رأوا العذاب) أي يوم القيامة المعلوم مصير الظالم اليه (يقولون) أي مكررين لما اعتراهم من الدهش وغلب على قلوبهم من الوجل (هل الى مرد) أي الى دار العمل (من سبيل) أي طريق فيتمنون حينئذ الرجوع الى الدنيا لتدارك مافات من الطاعات الموجبة للنجاة (وتراهم) أي في ذلك اليوم والضمير في قوله تعالى (يعرضون عليها) يعود على النار لدلالة العذاب عليها * ثم ذكر حالهم عند عرضهم على النار بقوله تعالى (خاشعين) أي خاضعين حقيرين بسبب ما لحقهم (من الذل) لانهم عرفوا اذلال ذنوبهم وانكشفت لهم عظمة من عصوه (ينظرون) أي يبتدئ نظرهم المكرر (من طرف) أي تحريك الاجفان (خفي) أي ضعيف النظر يسارقون النظر الى النار خوفا منها وذلة في أنفسهم كما ينظر المقتول الى السيف فلا يقدر على أن يملأ عينيه منه ولا يفتح عينه انما ينظر ببعضها ويصح أن تكون من بمعنى الباء أي بطرف خفي ضعيف من الذل (فان قيل) قد قال الله تعالى في صفة الكفار انهم يحشرون عميا فكيف قال تعالى هنا انهم ينظرون من طرف خفي (أجيب) بانهم يكونون في الابتداء هكذا ثم يصيرون عميا أو أن هذا في قوم وذاك في قوم آخرين وقيل ينظرون الى النار بقلوبهم والنظر بالقلب خفي * ولما وصف تعالى حال الكفار حكى ما يقوله المؤمنون فيهم فقال تعالى (وقال) أي في ذلك الموقف الاعظم على سبيل التعيير لهم والتبكيت والتوبيخ والتقريع (الذين آمنوا) أي أوقعوا هذه الحقيقة سواء كان ايقاعهم لها في أدنى الرتب أو أعلاها (ان الخاسرين) أي

الذين كملت خسارتهم (الذين خسروا أنفسهم) بما استغرقها من العذاب (وأهليهم) بمفارقتهم لهم اما في اطباق العذاب ان كانوا امثالهم في الخسران أو في دار الثواب ان كانوا من أهل الايمان (يوم القيامة) أي هو يوم فوت التدارك لانه للجزاء لا للعمل لفوات شرطه بفوات الايمان بالغيب لانكشاف الغطاء وهذا القول يحتمل أن يكون واقعا في الدنيا أو يوم القيامة اذا رأوهم على تلك الصفة وقوله تعالى (ألا ان الظالمين) أي الراسخين في هذا الوصف (في عذاب مقيم) أي دائم يحتمل أن يكون من تمام كلام المؤمنين وأن يكون تصديقا من الله تعالى لهم (وما كان) أي ماصح ووجد (لهم) وأغرق في النفي فقال تعالى (من أولياء) أي فمالهم من ولي لان النصرة اذا انتفت من الجمع انتفت من الواحد من باب أولى (ينصرونهم) أي يوجدون نصرهم في وقت من الاوقات (من دون الله) أي الملك الاعظم أي لا في الدنيا بان يقدروا على انقاذهم من وصف الظلم ولا في الآخرة بانقاذهم من العذاب (ومن يضلل الله) أي يوجد اضلاله ايجادا بليغا بما أفاده الفك على سبيل الاستمرار بعدم البيان أو بعدم التوفيق بعد البيان (فماله) بسبب اضلال من له جميع صفات الكمال وأغرق تعالى في النفي بقوله سبحانه (من سبيل) أي طريق الى الحق في الدنيا والى الجنة في الآخرة * ولما ذكر تعالى الوعد والوعيد ذكر بعده ماهو المقصود فقال تعالى (استجيبوا لربكم) أي أجيبوه بالتوحيد والعبادة فانه الذي لم تروا احسانا الا وهو منه (من قبل أن يأتي يوم) هو يوم القيامة (لامرد له من الله) أي الذي له جميع العظمة فانه اذا أتى به لا يرده واذا لم يكن له مرد منه لم يكن له مرد من غيره ومتى عدم ذلك أنتج قوله تعالى (مالكم) وأغرق في النفي بقوله تعالى (من ملجأ) أي تلجؤن اليه (يومئذ) أي في ذلك اليوم وزاد في التأكيد باعادة النافي وما في حيزه بلاغا في التحذير فقال تعالى (ومالكم من نكير) أي انكار لما اقترفتموه لانه مدون في صحائفكم تشهد عليه ألسنتكم وجوارحكم (فان أعرضوا) أي عن الاجابة فيما دعوتهم اليه (فما أرسلناك) أي بما لنا من العظمة (عليهم حفيظا) أي تقهرهم على امتثال ما أرسلناك به (ان عليك الا البلاغ) لما أرسلناك به وأما الهداية والاضلال فالينا وهذا كما قال الجلال المحلي قبل الامر بالجهاد (وانا اذا أذقنا) أي بالعظمة التي لا يمكن مخالفتها (الانسان) أي بما جبلناه عليه من النقص وعدم التمالك (منا رحمة) قال ابن عباس رضي الله عنهما نوعا من أنواع الاكرام من صحة أو غنى أو نحو ذلك (فرح بها) أي بتلك الرحمة وأفرد ضمير فرح نظرا للفظ الانسان اشارة الى أنه مطبوع على أنه ليس عليه الا من نفسه ولو كان أهل الارض كلهم على غير ذلك ونعمة الله تعالى عليهم وان كانت في الدنيا عظيمة الا أنها بالنسبة الى سعادات الآخرة كالقطرة بالنسبة الى البحر فلذلك سميت ذوقا فبين تعالى أن الانسان اذا حصل له هذا القدر الحقير في الدنيا فرح به وعظم غروره ووقع في العجب والكبر وظن أنه فاز بكل المنى ووصل الى أقصى السعادات وهذه طريقة من ضعف اعتقاده في سعادات الآخرة وجمع ضمير الانسان في قوله تعالى (وان تصبهم) باعتبار معناه (سيئة) أي شيء يسوءهم في الحال كالمرض والفقر والقحط (بما قدمت أيديهم) أي قدموه وعبر بالايدي

لان أكثر الافعال بها (فان الانسان) أى الآنس بنفسه المعرض عن غيره بما هو طبع له بسبب سيئة تضره (كفور) أى بليغ الكفران ينسى النعمة رأسا ويذكر البلية ويعظمها ولم يتأمل سببها وتصدير الشرطية الاولى باذا والثانية بان لان اذاقته النعمة محققة من حيث انها عادة مقتضية بالذات بخلاف اصابة البلية واقامة علة الجزاء مقامه ووضع الظاهر موضع الضمير فى الثانية للدلالة على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعمة فان كان فى نعمة أشر وبطر وان كان فى نقمة ايس وقنط فهذا حال الجنس من حيث هو ومن وفقه الله تعالى جنبه ذلك كما قال صلى الله عليه وسلم المؤمن ان أصابه سراء شكر فكان خيرا وان أصابه ضراء صبر فكان خيرا * ولما ذكر تعالى اذاقة الانسان الرحمة واصابته بعدها السيئة أتبع ذلك بقوله تعالى (لله) أى الملك الاعظم وحده (ملك السموات) كلها على علوها وتطابقها وكبرها وعظمها وتباعد أقطارها (والارض) جميعها على تباينها وتكاثفها واختلاف اقطارها وسكانها واتساعها (يخلق) أى على سبيل التجدد والاختيار والاستمرار (ما يشاء) وان كان على غير اختيار العباد لئلا يفتر الانسان بما ملكه من المال والجاه بل اذا علم أن الكل ملك لله وملكه وانما حصل له ذلك القدر انعاما من الله تعالى عليه فيصير ذلك حاملا له على مزيد الطاعة * ثم ذكر من أقسام تصرفه تعالى فى العالم أنه يخص بعض الناس بالاولاد الاناث والبعض بالذكور والبعض بهما والبعض محروم من الكل كما قال تعالى (يهب) أى يخلق (لمن يشاء) أولادا (اناثا) فقط ليس معهن ذكر (ويهب لمن يشاء الذكور) فقط ليس معهم أنثى وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية كالياء وتبدل أيضا واوا خالصة والباقون بتحقيقهما وفى الابتداء الجميع بالتحقيق واذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر ولهما أيضا تسهيلها مع المد والقصر والروم والاشمام (أو يزوجهم) أى الاولاد فيجعلهم أزواجا أى صنفين حال كونهم (ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما) أى لا يولد له قال الرازى وفى الآية سؤالات الاول أنه قدم الاناث فى الذكر على الذكور أولا ثم قدم الذكور على الاناث ثانيا فما السبب أى فما الحكمة فى هذا التقديم والتأخير الثانى أنه نكر الاناث وعرف الذكور وقال فى الصنفين معا أو يزوجهم ذكرانا واناثا الثالث أنه لما كان حصول الولد هبة من الله تعالى فيكفى فى عدم حصوله أن لا يهب فأى حاجة فى عدم حصوله الى قوله تعالى ويجعل من يشاء عقيما الرابع هل المراد بهذا الحكم جمع معينون أو الحكم على الانسان المطلق ثم قال والجواب عن الاول أن الكريم يسعى فى أن يقع الختم على الخير والراحة فاذا وهب الانثى أولا ثم أعطى الذكر بعدها فكأنه نقله من الغم الى الفرح وهذا غاية الكرم أما اذا أعطى الذكر أولا ثم أعطى الانثى ثانيا فكأنه نقله من الفرح الى الغم فذكر الله تعالى هبة الانثى أولا ثم ثنى بهبة الذكر حتى يكون قد نقله من الغم الى الفرح فيكون أليق بالكرم قيل من يمن المرأة تبكيرها بالانثى قبل الذكر لان الله تعالى بدأ بالاناث وأما تقديم ذكر الذكور على ذكر الاناث ثانيا فلان الذكر أكمل وأفضل من الانثى والافضل مقدم على المفضول وأما الجواب عن تنكير الاناث وتعريفهم

الذكور فهو أن المقصود منه التنبيه على ان الذكر أفضل من الانثى وأما قوله تعالى أو يزوجهم ذكرانا وانانا فهو أن كل شيئين يقترن أحدهما بالآخر فهما زوجان وكل واحد منهما يقال له زوج والكناية في يزوجهم عائدة على الاناث والذكور والمعنى يجعل الذكور والاناث أزواجا أى يجمع له بينهما فيولد له الذكور والاناث وأما الجواب عن قوله تعالى عقيما فالعقيم هو الذى لا يلد ولا يولد له يقال رجل عقيم وامرأة عقيم وأصل العقم القطع ومنه قيل الملك عقيم لانه تقطع فيه الارحام بالقتل والعقوق وأما الجواب عن الرابع فقال ابن عباس رضى الله عنهما يهب لمن يشاء اناثا يريد لوطا وشعيبا عليهما السلام لم يكن لهما الا البنات ويهب لمن يشاء الذكور يريد ابراهيم عليه السلام لم يكن له الا الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا يريد محمدا صلى الله عليه وسلم كان له من البنين ثلاثة على الصحيح القاسم وعبد الله وابراهيم ومن البنات أربعة زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ويجعل من يشاء عقيما يريد يحيى وعيسى عليهما السلام وقال أكثر المفسرين هذا على وجه التمثيل وانما الحكم عام فى كل الناس لان المقصود بيان نفاذ قدرة الله تعالى فى تكوين الاشياء كيف شاء فلا معنى للتخصيص ثم انه تعالى ختم الآية بقوله تعالى (انه عليم) أى بالغ العلم بمصالح العباد وغيرها (قدير) أى شامل القدرة على تكوين ما يشاء * ولما بين تعالى حال قدرته وعلمه وحكمته أتبعه ببيان انه كيف يخص أنبياءه بوحيه وكلامه فقال تعالى (وما كان) أى وما صح (لبشر) من الاقسام المذكورة وحل المصدر الذى هو اسم كان ليقع التصريح بالفاعل والمفعول على أتم الوجوه فقال تعالى (أن يكلمه) وأظهر موضع الاضمار اعظاما للوحى وتشريفا لمقداره فقال تعالى (الله) أى يوجد الملك الاعظم الجامع بصفات الكمال فى قلبه كلاما (الا) أن يوحى اليه (وحيا) أى كلاما خفيا يوجده فيه بغير واسطة بوجه خفى لا يطلع عليه أحد اما مشافهة كما ورد فى حديث المعراج واما بالهام أو رؤيا منام كما رأى ابراهيم عليه السلام فى المنام أن يذبح ولده أو بغير ذلك سواء خلق الله تعالى فى المتكلم قوة السماع له وهو أشرف هذه الاقسام أم لا ومن الثانى قوله تعالى وأوحينا الى أم موسى وأوحى ربك الى النحل وأوحى فى كل سماء أمرها (أو) الا (من وراء حجاب) أى من وجه لا يرى فيه المتكلم مع السماع للكلام على وجه الجهر كما وقع لموسى عليه السلام (أو يرسل رسولا) من الملائكة اما جبريل عليه السلام أو غيره * (تنبيه) * ذكر المفسرون أن اليهود قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ألا تكلم الله تعالى وتنظر اليه ان كنت نبيا كما كلمه موسى ونظر اليه فقال لم ينظر موسى الى الله عز وجل فأنزل الله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا (فيوحى) أى الرسول الى المرسل اليه أن يكلمه (باذنه) أى الله تعالى (ما يشاء) أى الله عز وجل وقرأ نافع برفع اللام من يرسل وسكون الياء من يوحى والباقون بنصب اللام والياء أما القراءة الاولى ففيها ثلاثة أوجه أحدها أنه رفع على اضمار مبتدأ أى هو يرسل ثانيها انه عطف على وحيا على أنه حال لان وحيا فى تقدير الحال أيضا فكانه قال الا موحيا اليه أو مرسلا ثالثها أن يعطف على ما يتعلق به

من وراء اذ تقديره أو يسمع من وراء حجاب ووحيا في موضع الحال عطف عليه ذلك المقدر المعطوف عليه أو يرسل والتقدير الاموحيا أو مسمعا من وراء حجاب أو مرسلا وأما القراءة الثانية ففيها ثلاثة أوجه أحدها أن يعطف على المضمر الذي يتعلق به من وراء حجاب اذ تقديره أو يكلمه من وراء حجاب وهذا الفعل المقدر معطوف على وحيا والمعنى الا بوحي أو سماع من وراء حجاب أو ارسال رسول ولا يجوز أن يعطف على أن يكلمه لفساد المعنى اذ يصير التقدير وما كان لبشر أن يرسل الله رسولا بل يفسد لفظا ومعنى وقال مكي لانه يلزم منه نفي الرسل ونفي المرسل اليهم ثانيها أن ينصب بأن مضمرة وتكون هي ومانصبته معطوفين على وحيا ووحيا حال فيكون هذا أيضا حالا والتقدير الاموحيا أو مرسلا ثالثها انه معطوف على معنى وحيا فانه مصدر مقدر بأن والفعل والتقدير الابأن يوحى اليه أو بأن يرسل ذكره مكي وأبو البقاء (انه) أى هذا الذي له هذا التصرف العظيم في هذا الوحي الكريم (علي) أى بالغ العلو جدا عن صفات المخلوقين (حكيم) يفعل ما تقتضيه حكمته فيكلم تارة بواسطة وتارة بغير واسطة اما عيانا واما من وراء حجاب (وكذلك) أى ومثل ايحائنا الى غيرك من الرسل (أوحينا) بما لنا من العظمة (اليك) يا أفضل الرسل (روحا) قال ابن عباس نبوة وقال الحسن رحمة وقال السدى وحيا وقال الكلبي كتابا وقال الربيع جبريل وقال مالك بن دينار القرآن وسمى الوحى روحا لانه مدبر الروح كما أن الروح مدبر للبدن وزاد عظمته بقوله تعالى (من أمرنا) أى الذي نوحيه اليك * ثم بين تعالى حال نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قبل الوحي بقوله سبحانه (ما كنت) أى فيما قبل الاربعين التي مضت لك وأنت بين ظهراني قومك (تدرى) أى تعرف قبل الوحى اليك (ما الكتاب) أى القرآن (ولا الايمان) أى تفصيل الشرايع على ما جددناه لك بما أوحيناه اليك وهو صلى الله عليه وسلم وان كان قبل النبوة قد كان مقرا بوحدانية الله تعالى وعظمته فانه كان يصلي ويحج ويعتمر ويبغض اللات والعزى ولا يأكل ما ذبح على النصب لكنه لم يكن يعلم الرسل على ما هم عليه ولا شك أن الشهادة له صلى الله عليه وسلم نفسه بالرسالة ركن الايمان ولم يكن له علم بذلك وكذلك الملائكة فصح نفي المنفى لفواته بفوات جزئه وقال محمد بن اسحق بن خزيمة الايمان هنا الصلاة لقوله تعالى وما كان الله ليضيع ايمانكم أى صلاتكم وقيل هذا على حذف ومعناه ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان حين كنت طفلا في المهد وقيل الايمان عبارة عن الاقرار بجميع ما كلف الله تعالى به وقال بعضهم صفات الله تعالى على قسمين منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقول ومنها ما لا يمكن معرفته الا بالدلائل السمعية فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة * (تنبيه) * ما الاولى نافية والثانية استفهامية والجملة الاستفهامية معلقة للدراية فهي في محل نصب لسدها مسد مفعولين والجملة المنفية بأسرها في محل نصب على الحال من الكاف في اليك وفي الآية دليل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن متعبدا قبل النبوة بشرع وفي المسئلة خلاف للعلماء فقيل كان يتعبد على دين ابراهيم عليه السلام وقيل غيره والضمير في قوله تعالى (ولكن جعلناه نورا) يعود اما للروح واما للكتاب واما لهما وهو أولى لانهما

مقصود واحد فهو كقوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه وقال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى الايمان وقال السدى يعنى القرآن (نهدى) على عظمتنا (به من نشاء) خاصة لا يقدر أحد على هدايته بغير مشيئتنا (من عبادنا) بخلق الهداية فى قلبه بالتوفيق فهذه لا يقدر عليها أحد غير الله تعالى وأما الهداية بالتبيين والارشاد فهى قوله تعالى (وانك) يا أفضل الخلق (لتهدى) أى تبين وترشد وأكده لانكارهم ذلك (الى صراط) أى طريق واضح جدا (مستقيم) أى شديد التقوم وهو دين الاسلام وقوله تعالى (صراط الله) أى الملك الاعظم الجامع لصفات الكمال وقرأ سراط فى الموضعين قنبل بالسين وخلف بالاشمام أى بين الصاد والزاى والباقون بالصاد الخالصة * ثم وصف سبحانه وتعالى نفسه بأنه مالك لما فى السموات والارض بقوله تعالى (الذى له ما فى السموات وما فى الارض) خلقا وملكا وعبيدا (ألا الى الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال الذى تعالى عن مثل وند وهو الكبير المتعال لا الى غيره (تصير) أى على الدوام وان كانت فى الظاهر فى ملك غيره بحيث يظن الجاهل ان ملكها مستقر له قال أبو حيان أخبر بالمضارع والمراد به الديمومة كقوله زيد يعطى ويمنع أى من شأنه ذلك ولا يراد به حينئذ حقيقة المستقبل (الامور) كلها من الخلق والامر معنى وحسا كما كانت الامور كلها مبتدأة منه وحده وفى ذلك وعد للمطيعين ووعيد للمجرمين فيجازى كلا منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب وما قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة حم عسق كان ممن تصلى عليه الملائكة ويستغفرون ويسترحمون له حديث موضوع

سورة الزخرف مكية

وهى تسع وثمانون آية وثمانمائة وثلاث وثلاثون كلمة وثلاثة آلاف وأربعمائة حرف

(بسم الله) أى الذى له مقاليد الامور كلها فهو يعطى من يشاء وان طال سؤله (الرحمن) الذى نال بره جميع خلقه على حسب منازلهم عنده (الرحيم) الذى يقرب اليه من يشاء زلفى وان وصل فى البعد الى الحد الاقصى وقد تقدم الكلام على قوله تعالى (حم) والواو فى قوله تعالى (والكتاب) أى القرآن (المبين) أى مظهر طريق الهدى وما يحتاج اليه من الشريعة عاطفة ان جعلت حم قسما والا كانت للقسم وقوله تعالى (انا جعلناه) أى أوجدنا هذا الكتاب (قرآنا عربيا) أى بلغة العرب جواب القسم وهذا عندهم من البلاغة وهو كون القسم والمقسم عليه من واد واحد كقول أبى تمام

وثناياك انها اغريض * (أى طلع وبرد وقيل كل أبيض طرى) ولآل توم وبرق وميض

والتوم جمع تومة وهى حبة تعمل من الفضة كالدرة والوميض مصدر ومض أى لمع لمعا خفيفا * (تنبيه) * احتج القائلون بحدوث القرآن بهذه الآية من وجوه الاول أنه يدل على أن القرآن مجعول والمجعول هو المصنوع المخلوق الثانى أنه وصفه بكونه قرآنا وهو انما سمى قرآنا لانه جعل بعضه مقرونا بالبعض وما كان كذلك كان مصنوعا الثالث

وصفه بكونه عربيا وانما يكون عربيا لان العرب اختصت بوضع ألفاظه فى اصطلاحهم وذلك يدل على أنه مجعول والتقدير حم ورب الكتاب المبين ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم يارب طه ويس ويارب القرآن العظيم وأجاب الرازى عن ذلك بأن هذا الذى ذكرتموه حق لانكم استدللتم بهذه الوجوه على كون الحروف المتواليات والكلمات المتعاقبة محدثة وذلك معلوم بالضرورة ومن الذى ينازعكم فيه (لعلكم) أى يا أهل مكة (تعقلون) أى لتكونوا على رجاء عند من يصح منه الرجاء من ان تفهموا معانيه وأحكامه وبديع وصفه ومعجز وضعه ونظامه فترجعوا عن كل ما أنتم عليه من المغالبة ولا بدأن يقع هذا التعقل فان القادر اذا عبر باداة الترجى حقق ما يقع ترجيه ليكون بين كلامه وكلام العاجز فرق وقوله تعالى (وانه) أى القرآن عطف على انا أى مثبت (فى أم الكتاب) أى أصل الكتب وهو اللوح المحفوظ وقال قتادة أم الكتاب أصل الكتاب وأم كل شئ أصله وقال ابن عباس أول ما خلق الله تعالى القلم فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق فالكتاب مثبت عنده فى اللوح المحفوظ كما قال تعالى بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ (فان قيل) ما الحكمة فى خلق هذا اللوح المحفوظ مع انه تعالى علام الغيوب يستحيل عليه السهو والنسيان أجيب بأنه تعالى لما أثبت فى ذلك أحكام حوادث المخلوقات ثم ان الملائكة اذا شاهدوا أن جميع الحوادث انما تحدث على موافقة ذلك المكتوب استدلوا بذلك على كمال حكمته وعلمه وقيل المراد بأم الكتاب الآيات المحكمة لقوله تعالى هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب والمعنى أن سورة حم واقعة فى الآيات المحكمة التى هى الاصل والام وقرأ حمزة والكسائى فى الوصل بكسر الهمزة والباقون بضمها واتفقوا فى الابتداء بالهمزة على الضم وقوله تعالى (لدينا) أى عندنا بدل من الجار قبله (لعلى) أى رفيع الشأن فى الكتب لكونه معجزا من بينها (حكيم) أى ذو حكمة بالغة أو محكم فى أبواب البلاغة والفصاحة (أفنضرب) أى انهملكم فنضرب أى ننحى مجاوزين (عنكم الذكر) أى القرآن وفى نصب قوله تعالى (صفحا) أوجه أحدها انه مصدر من معنى نضرب لانه يقال ضرب عن كذا وأضرب عنه بمعنى أعرض عنه وصرف وجهه عنه قال طرفة

اضرب عنك الهموم طارقها * ضربك بالسيف قونس الفرس

واضرب بفتح الباء أصله اضربن بنون التوكيد الخفيفة فحذفت النون وحركت الباء بالفتح والطارق ما يطرق بالليل والقونس منبت شعر الناصية وهو عظم نابت بين أذنى الفرس ثانيها انه منصوب على الحال أى صافحين ثالثها أن يكون مفعولا من أجله وقيل غير ذلك (أن) أى أنفعل ذلك لان (كنتم قوما مسرفين) أى مشركين لا نفعل ذلك وهو فى الحقيقة علة مقتضية لترك الاعراض وقرأ نافع وحمزة والكسائى بكسر الهمزة على ان الجملة شرطية مخرجة للمحقق مخرج المشكوك استجهالا لهم وما قبلها دليل الجزاء وقرأ الباقون بفتحها وذكر تعالى تأنيسا للنبى صلى الله عليه وسلم وتأسية وتعزية وتسلية قوله سبحانه وتعالى

(وكم أرسلنا) أي على ما للناس من العظمة (من نبي في الاولين) أي في الامم الماضية ثم حكى حالهم الماضية بقوله تعالى (وما) أي والحال انه ما (يأتيهم) وأغرق في النفي بقوله تعالى (من نبي) أي في أمة بعد أمة أو زمان بعد زمان (الا كانوا) أي خلقا وطبعا (به يستهزؤن) كما استهزأ قومك بك فلا ينبغي أن تتأذى من قومك بسبب تكذيبهم واستهزائهم لان المصيبة اذا عمت خفت *(تنبيه)* كم خبرية مفعول مقدم ومن نبي تمييز وفي الاولين متعلق بالارسال أو بمحذوف على انه صفة لنبي (فأهلكنا) أي فتسبب عن الاستهزاء بالرسل انا أهلكنا (أشد منهم) أي من قريش الذين يستهزؤن بك (بطشا) أي قوة وكان الاصل الاضمار ولكنه أظهر الضمير صارفا أسلوب الخطاب الى الغيبة اقبالا على نبيه صلى الله عليه وسلم تسلية له وابلاغا في وعيدهم (ومضى) أي سبق في آيات الله (مثل) أي صفة (الاولين) في الاهلاك وفي ذلك وعد للرسول صلى الله عليه وسلم ووعيد لهم مثل ما جرى على الاولين واللام في قوله تعالى (ولئن) لام قسم (سألتهم) أي سألت قومك (من خلق السموات) على علوها وسعتها (والارض) على كثرة عجائبها وعظمها وقوله تعالى (ليقولن) حذف منه نون الرفع لتوالي النونات وواو الضمير لالتقاء الساكنين (خلقهن) الذي هو موصوف بأنه (العزيز) أي الذي لا يغالب (العليم) بما كان وما يكون *(تنبيه)* هذا الجواب مطابق للسؤال من حيث المعنى اذ لو جاء على اللفظ لجيء فيه بجملة ابتدائية كالسؤال فكان الجواب هنا الله كما في غيره من الآيات لكنه عدل عنه الى المطابقة المعنوية مكررا للفعل تأكيدا لاغراقهم زيادة في توبيخهم وتنبيها على عظم غلطهم * ولما تم الاخبار عنهم ابتدأ الادلة على نفسه بذكر مصنوعاته فقال تعالى (الذي جعل لكم) ولو كان ذلك قولهم لقالوا لنا (الارض مهادا) أي فراشا قارة ثابتة كالمهد للصبي ولو شاء لجعلها مزلة لا يثبت فيها شيء كما ترون من بعض الجبال فالانتفاع بها انما حصل لكونها واقفة ساكنة فانها لو كانت متحركة ما أمكن الانتفاع بها في الزراعة والابنية وستر عيوب الاحياء والاموات ولان المهد موضع راحة الصبي فكانت الارض مهادا لكثرة ما فيها من الراحات وقرأ الكوفيون بفتح الميم وسكون الهاء والباقون بكسر الميم وفتح الهاء وألف بعد الهاء (وجعل لكم فيها سبلا) أي طرقا لكونها وذلك ان انتفاع الناس انما يكمل اذا سعوا في أقطار الارض فهيأ تعالى تلك السبل ووضع عليها علامات ليحصل الانتفاع ولو شاء لجعلها بحيث لا يسلك في مكان منها كما جعل بعض الجبال كذلك ثم ذكر الغاية في ذلك فقال تعالى (لعلكم تهتدون) أي لكي تهتدوا الى مقاصدكم في الاسفار وغيرها فتتوصلون بها الى الاقطار الشاسعة والاقاليم الواسعة أو لتهتدوا الى الحق في الدين (والذي نزل) أي بحسب التدريج ولولا قدرته تعالى الباهرة لكان دفعة واحدة أو قريبا منها (من السماء) أي المحل العالي (ماء) أي لزرعكم وغاركم وشرابكم بأنفسكم وأنعامكم (بقدر) أي بقدر حاجتكم اليه من غير زيادة ولا نقصان لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم (فأنشرنا) أي أحيينا (به) أي الماء (بلدة) أي مكانا يجتمع فيه للاقامة يتعاونون باحيائه

يتعاونون على دوام ابقائه (ميتا) أى كان قد يبس نباته وعجز أهله عن ايصال ماء اليه ليحيا به قال البقاعى ولعله أنث البلد وذكر الميت اشارة الى أن بلوغها فى الضعف والموت بلغ الغاية بضعف أرضه فى نفسها وضعف أهله عن احيائه (كذلك) أى مثل هذا الاخراج العظيم الذى شاهدتموه فى النبات (تخرجون) من قبوركم أحياء والمعنى ان هذا الدليل كما دل على قدرة الله تعالى وحكمته فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيامة ووجه التشبيه أنه جعلهم أحياء بعد الاماتة كهذه الارض التى انتشرت بعدما كانت ميتة وقيل بل وجه التشبيه أن يعيدهم ويخرجهم من الارض بماء كالمنى كما تنبت الارض بماء المطر قال ابن عادل وهذا ضعيف لان ظاهر لفظ الاشارة الاعادة فقط دون هذه الزيادة ثم شرع تعالى فى اكمال ما تقتضيه الحال من الاوصاف فقال عز من قائل (والذى خلق الازواج) أى الاصناف المتشاكلة التى لا يكمل شئ منها غاية الكمال الا بالآخر على ما دبره سبحانه فى نظم هذا الوجود (كلها) من النبات والحيوان وغير ذلك من سائر الاكوان لم يشاركه فى شئ منها أحد وقال ابن عباس رضى الله عنه الازواج الضروب والانواع كالحلو والحامض والابيض والاسود والذكر والانثى وقال بعض المحققين كل ما سوى الله تعالى فهو زوج كالفوق والتحت واليمين واليسار والقدام والخلف والماضى والمستقبل والذوات والصفات والصيف والشتاء والربيع والخريف وكونها أزواجا يدل على انها ممكنة الوجود فى ذواتها محدثة مسبوقة بالعدم فأما الحق تعالى فهو الفرد المنزه عن الضد والند والمقابل والمعاضد فلهذا قال تعالى والذى خلق الازواج كلها فهو مخلوق فدل هذا على ان خالقها فرد مطلق منزه عن الزوجية قال الرازى وأيضا علماء الحساب يثبتون ان الفرد أفضل من الزوج من وجوه الاول ان الاثنين لا توجد الا عند حصول وحدتين فالزوج محتاج الى الفرد والفرد هو الوحدة وهى غنية عن الزوج والغنى أفضل من المحتاج الثانى ان الزوج يقبل القسمة بقسمين متساويين والفرد لا يقبل القسمة وقبول القسمة انفعال وتأثر وعدم قبولها قوة وشدة فكان الفرد أفضل من الزوج ثم ذكر وجوها أخر تدل على ان الفرد افضل من الزوج واذا كان كذلك ثبت ان الازواج ممكنات ومخلوقات وأن الفرد هو القائم بذاته المستقل بنفسه الغنى عما سواه (وجعل لكم من الفلك) أى السفن العظام فى البحر (والانعام) كالابل فى البر (ما تركبون) وحذف العائد لفهم المعنى تغليبا للمتعدى بنفسه فى الانعام على المتعدى بواسطة فى الفلك والعائد مجرور فى الاول أى فيه منصوب فى الثانى وذكر الضمير وجمع الظهور فى قوله تعالى (لتستووا على ظهوره) نظرا للفظ ما ومعناها * ولما أتم النعمة بخلق ما تدعو اليه الحاجة وجعله على وجه دال على ماله من الصفات ذكر ما ينبغى أن تكون من غايتها على ما هو المتعارف بينهم من شكر المنعم فقال دالا على عظم قدر النعمة وبعد غايتها وعلو أمر الذكر بحرف التراخى (ثم تذكروا) أى بقلوبكم وصرف القول الى وجه التربية حثا على تذكر احسانه للانتهاء عن كفرانه والاقبال على شكرانه فقال تعالى (نعمة ربكم) أى الذى أحسن اليكم بنعمة تسخيرها

لكم وما تعرفونه من غيرها (إذا استويتم عليه) أي على ما تركبونه وذلك الذكر هو أن يعرف أن الله تعالى خلق البحر وخلق الرياح وخلق جرم السفينة على وجه يمكن الانسان من تصريف هذه السفينة الى أي جانب شاء فاذا تذكر ان خلق البحر وخلق الرياح وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصرف الانسان ولتحريكاته انما هو من تدبير الحكيم العليم القدير عرف ان ذلك نعمة من الله تعالى فيحمله ذلك على الانقياد لطاعة الله تعالى وعلى الاشتغال بالشكر لنعم الله تعالى التي لا نهاية لها ولما كان تذكر النعمة يبعث الجنان واللسان والاركان على الشكر لمن أسداها قال عز من قائل (وتقولوا) أي بألسنتكم جمعا بين القلب واللسان (سبحان الذي سخر) أي بعلمه الكامل وقدرته التامة (لنا هذا) أي الذي ركبناه سفينة كانت أو دابة (وما) أي والحال أنا ما (كنا له مقرنين) أي مطيقين والمقرن المطيق للشئ الضابط له من أقرنه أي أطاقه قال الواحدي كان اشتقاقه من قولك صرت له قرنا ومعنى قرن فلان أي مثله في الشدة وقيل ضابطين وقال أبو عبيدة قرن لفلان أي ضابط له والقرن الحبل ومعنى الآية ليس عندنا من القوة والطاقة ان نقرن هذه الدابة والفلك وان نطيقهما فسبحان من سخر لنا هذا بقدرته وحكمته روى الزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان اذا وضع رجله في الركاب قال بسم الله واذا استوى على الدابة قال الحمد لله على كل حال سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون وروى أحمد وأبو داود والترمذي وقال حسن صحيح عن علي رضي الله عنه انه وضع رجله في الركاب وقال فقال بسم الله فلما استوى على الدابة قال الحمد لله سبحان الذي سخر لنا هذا الآية ثم حمد ثلاثا وكبر ثلاثا ثم قال لا اله الا انت ظلمت نفسي فاغفر لي انه لا يغفر الذنوب الا انت ثم ضحك فقيل لم ضحكت يا أمير المؤمنين قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ما فعلت فقلنا ما يضحكك يا رسول الله قال ان ربك يعجب من عبده اذا قال العبد لا اله الا انت ظلمت نفسي فاغفر لي انه لا يغفر الذنوب الا انت ويقول علم عبدي انه لا يغفر الذنوب غيري وروى أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أردفه على دابة فلما استقر عليها كبر ثلاثا وحمد الله تعالى ثلاثا وسبح الله ثلاثا وهلل الله تعالى واحدة وضحك ثم أقبل عليه فقال ما من امرئ مسلم ركب دابة فصنع كما صنعت الا أقبل الله عليه يضحك اليه كما ضحكت اليك

• ولما كان راكب الفلك في خطر الهلاك وراكب الدابة كذلك أيضا لان الدابة قد يحصل لها ما يوجب هلاك الراكب وكذا السفينة قد تنكسر فوجب على الراكب أن يتذكر أمر الموت ويقول (وانا الى ربنا) خاصة لا اقتدار على هذه المنقلات على هذه المراكب لا الى غيره (لمنقلبون) أي لصائرون بالموت وما بعده الى الدار الآخرة انقلابا لا ايات معه الى هذه الدار فالآية منبهة بالسير الدنيوي على السير الاخروي وآكد لاجل انكارهم البعث

• ولما قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله (١) بين انهم مع اقرارهم بذلك جعلوا له من عباده جزأ كما قال تعالى (وجعلوا له من عباده) الذين أبدعهم كما أبدع غيرهم

(١) قوله ليقولن الله الذي في هذه السورة خلقهن العزيز العليم اه

(جزأ) أى ولدا هو لحصرهم فى الانثى أحد قسمى الاولاد وكل ولد فهو جزء من والده قال صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة منى ومن كان له جزء كان محتاجا فلم يكن الها وذلك لقولهم الملائكة بنات الله فثبت بذلك طيش عقولهم وسخافة آرائهم وقرأ شعبة بضم الزاى والباقون بسكونها وهما لغتان واذا وقف حمزة نقل حركة الهمزة الى الزاى * ولما كان هذا فى غاية الغلط من الكفر قال مؤكدا لانكارهم ان يكون كفرا (ان الانسان) أى هذا النوع الذى هو بعضه (لكفور مبين) أى بين الكفر فى نفسه منادا عليها بالكفر وقوله تعالى (أم اتخذ) أى أعالج هو نفسه فاخذ هو بعد المعالجة وهو خالق الخلق كلهم (مما يخلق) أى يجدد ابداعه فى كل وقت (بنات) استفهام توبيخ وانكار أى فلم يقدر بعد التكلف والتعب على غير البنات التى هى أبغض الجزأين اليكم ثم عطف على قوله تعالى اتخذ ليكون منفيا على أبلغ وجه لكونه فى حيز الانكار (وأصفاكم) وهو السيد الكامل وأنتم عبيده أى خصكم (بالبنين) اللازم من قولكم السابق ثم بين كون البنات أبغض اليهم بقوله تعالى (واذا) أى جعلوا ذلك والحال انه اذا (بشر) أى من أى مبشر كان (أحدهم) أى أحد هؤلاء البعداء البغضاء (بما ضرب) أى جعل (للرحمن) الذى لا نعمة على شئ من الخلق الا وهى منه (مثلا) أى شبها بنسبة البنات اليه لان الولد يشبه الوالد والمعنى اذا أخبر أحدهم بالبنت تولد له (ظل) أى صار (وجهه مسودا) أى شديد السواد لما يعتريه من الكآبة (وهو كظيم) أى ممتلئ غما فكيف تنسب البنات اليه تعالى هذا مالا يرضى عاقل ان يمر بفكره فضلا عن ان يتفوه به وقوله تعالى (أومن ينشأ) أى على ما جرت به عوائدكم (فى الحلية) يجوز فى من وجهان أحدهما أن تكون فى محل نصب مفعولا بفعل مقدر أى أو يجعلون من ينشأ فى الحلية والثانى انه مبتدأ وخبره محذوف تقديره أومن ينشأ جزء أو ولد أو جعلوه له جزأ والمعنى ان التى تتربى فى الحلية تكون ناقصة الذات لانه لولا نقصانها فى ذاتها لما احتاجت الى تزيين نفسها بالحلية وقرأ حمزة والكسائى وحفص بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين أى يربى والباقون بفتح الياء وسكون النون وتخفيف الشين واذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفا ولهما أيضا تسهيلها والروم والاشمام ثم بين نقصان حالها بطريق آخر بقوله تعالى (وهو) أى والحال انه وتقدم فى افادة الاهتمام قوله تعالى (فى الخصام) أى المجادلة اذا احتيج اليها فيها (غير مبين) أى مظهر حجته لضعفه عنها بالانوثة قال قتادة فى هذه الآية قلما تتكلم امرأة فتريد أن تتكلم بحجتها الا تكلمت بالحجة عليها ثم بين تعالى جرأتهم على ما لا ينبغى لعاقل أن يتفوه به بقوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم) متصفون بأشرف الاوصاف وهو انهم (عباد الرحمن) أى العام النعمة الذين ما عصوه طرفة عين (اناثا) وذلك أدنى الاوصاف خلقا وخلقا اذا ناوصفة فهذا كفر ثالث كالكفرين قبله وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بكسر العين وبعدها نون ساكنة ونصب الدال والباقون بعد العين بياء موحدة مفتوحة وبعدها الف ورفع الدال ثم قال تعالى تهكما بهؤلاء القائلين ذلك وتوبيخا لهم

وانكارا عليهم (أشهدوا) أى أحضروا (خلقهم) أى خلق اياهم فشاهدوهم اناثا فان ذلك مما يعلم بالمشاهدة وقرأ نافع بهمزتين الاولى مفتوحة والثانية مضمومة مسهلة كالواو وسكون الشين وادخل قالون بينهما ألفا ولم يدخل ورش والباقون بهمزة واحدة مفتوحة وفتح الشين (ستكتب) بكتابة من وكلناهم بهم من الحفظة الذين لا يعصوننا فنحن نقدرهم على جميع ما نأمرهم به (شهادتهم) أى قولهم فيهم انهم اناث الذى لا ينبغى أن يكون الا بعد تمام المشاهدة فهو قول ركيك سخيف ضعيف كما أشار اليه التأنيث (ويسئلون) عنها عند الرجوع الينا قال الكلبى ومقاتل لما قالوا هذا القول سألهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما يدريكم انهم اناث قالوا سمعنا من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا فقال تعالى ستكتب شهادتهم ويسئلون عنها فى الآخرة هذا يدل على أن القول بغير دليل منكر وأن التقليد حرام يوجب الذم العظيم قال المحققون هؤلاء الكفار كفروا فى هذا القول من ثلاثة أوجه أولها اثبات الولد ثانيها أن ذلك الولد بنت ثالثها الحكم على الملائكة بالانوثة * (تنبيه) * قال البقاعى يجوز أن يكون فى السين استعطاف الى التوبة قبل كتابة ما قالوا ولا علم لهم به فانه قد روى أبو أمامة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيآت على يسار الرجل وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيآت فاذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح الله أو يستغفره ثم نبه سبحانه على أنهم عبدوهم مع ادعاء الانوثة فيهم فقال تعالى معجبا منهم فى ذلك وفى جعل قولهم حجة دالة على صحة مذهبهم وهو من أوهى الشبه (وقالوا) أى بعد عبادتهم لهم ونهيهم عن عبادة غير الله تعالى (لو شاء الرحمن) أى الذى له عموم الرحمة (ما عبدناهم) أى الملائكة فعبادتنا اياهم بمشيئته فهو راض بها ولولا أنه راض بها لعجل لنا العقوبة فاستدلوا بنفى مشيئة عدم العبادة على الرضا بها وذلك باطل لان المشيئة ترجيح بعض الممكنات على بعض مأمورا كان أو منهيا حسنا كان أو غيره ولذلك جهلهم فقال تعالى (ما لهم بذلك) أى المقول من الرضا بعبادتها (من علم ان) أى ما (هم الا يخرصون) أى يكذبون فى هذه النتيجة التى زعموا أنها دالة على رضا الله تعالى بكفرهم فيترتب عليهم العقاب * ولما بين تعالى بطلان قولهم بالعقل أتبعه بطلان قولهم بالنقل فقال تعالى (أم آتيناهم) أى على ما لنا من العظمة (كتابا) أى جامعا لما يريدون اعتقاده من أقوالهم هذه (من قبله) أى القرآن أخبرناهم فيه أنا جعلنا الملائكة اناثا وانا لا نشاء الا ما هو حق نرضاه ونأمر به (فهم به) أى فتسبب عن هذا الاتيان أنهم به وحده (مستمسكون) أى موجدون الاستمساك به فيأخذون بما فيه لم يقع ذلك * ولما بين تعالى أنه لا دليل لهم على صحة قولهم البتة لا من العقل ولا من النقل بين أنه لا حامل لهم يحملهم عليه الا التقليد بقوله تعالى (بل قالوا انا وجدنا آباءنا) أى وهم أرجح منا عقولا وأصح منا أفهاما (على أمة) أى طريقة عظيمة يحق لها أن تقصد وتؤم ثم أكدوا قطع الرجاء المخالف عن لفتهم عن ذلك فقالوا (وانا على آثارهم) أى خاصة لا غيرها (مهتدون) أى متبعون فلم نأت بشئ من عند أنفسنا ولا غلطنا فى الاتباع

واقتفاء الآثار فلا اعتراض علينا بوجه هذا قولهم في الدين بل في أصوله التي من ضل في شيء منها هلك ولو ظهر لأحد منهم خلل في سعي أبيه الدنيوي الذي به يحصل الدينار والدرهم ما اقتدى به أصلا وخالفه أي مخالفة ماهذا الا قصور نظر ومحض عناد ثم أخبر تعالى أن غيرهم قال هذه المقالة بقوله سبحانه (وكذلك) أي ومثل هذه المقالة المتناهية في الشناعة فعلت الأمم الماضية مع اخوانك الأنبياء عليهم السلام ثم فسر ذلك بقوله تعالى (ما أرسلنا) أي مع مالنا من العظمة (من قبلك) أي في الأزمنة السالفة (في قرية) وأغرق في النفي بقوله تعالى (من نذير) وبين به أن موضع الكراهة والخلاف الانذار على مخالفة الأهواء (الا قال مترفوها) أي أهل الترفه بالضم وهي النعمة والطعام الطيب والشيء الظريف يكون خاصا بالمترف وذلك موجب لقلة الهم وللراحة والبطالة (انا وجدنا آباءنا) أي وهم أعرف منا بالأمور (على أمة) أي أمر جامع يستحق أن يقصد ويؤم ثم أكدوا كما أكد هؤلاء فقالوا (وانا على آثارهم) أي لا على غيرها (مقتدون) أي راكبون سنن طريقتهم لازمون لها ففي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم (قل) أي يا أفضل الخلق لهؤلاء البعداء البغضاء (أولو) أي أتبغون ذلك ولو (جئتكم بأهدى) أي بأمر أعظم في الهداية وأوضح في الدلالة (مما وجدتم) أي أيها المقتدون بالآباء (عليه آباءكم) أي كما تضمن قولكم انكم تقتفون في اتباعكم بالآثار في أعظم الأشياء وهو الدين الذي الخسارة فيه خسارة للنفس وأنتم تخالفونهم في أمر نفس الدنيا اذا وجدتم طريقا أهدى في التصرف فيها من طريقتهم ولو أمرا يسيرا ويفتخر أحدكم بأنه أدرك من ذلك ما لم يدرك أبوه فحصل من المال أكثر مما حصل فيه له من نظر ما أقصره ومتجر ما أخسره وقرأ ابن عامر وحفص قال بصيغة الماضي أي قال المنذر أو الرسول وهو النبي صلى الله عليه وسلم والباقون قل بصيغة الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم ثم أجابوه بأن (قالوا) مؤكدين ردا ما قطع به كل عاقل سمع هذا الكلام من أنهم يبادرون النظر في الدليل والرجوع الى سواء السبيل (انا بما أرسلتم به) أي أنت ومن قبلك (كافرون) أي ساترون ما ظهر من ذلك جهدنا حتى لا يظهر لأحد ولا يتبعكم فيه مخلوق وان كان أهدى مما كان عليه آباؤنا فعند هذا لم يبق لهم عذر فلهذا قال تعالى (فانتقمنا) أي بما لنا من العظمة التي استحقوا بها (منهم) فأهلكناهم بعذاب الاستئصال ثم عظم أمر النقمة بالأمر بالنظر فيها في قوله (فانظر) يا أفضل الرسل (كيف كان عاقبة) أي آخر أمر (المكذبين) لرسلنا فانهم أهلكوا أجمعون ونجا المؤمنون أجمعون فليحذر من رد رسالتك من مثل ذلك وهذا تهديد عظيم لكفار قريش * ثم بين تعالى وجها آخر يدل على فساد التقليد بقوله تعالى (واذ) أي واذكر يا أفضل الخلق اذ (قال ابراهيم) أي الذي هو أعظم آبائهم ومحط فخرهم والمجمع على محبته وحقية دينه منهم ومن أهل الكتاب وغيرهم (لأبيه) من غير أن يقلده كما قلدتم أنتم آباءكم (وقومه) الذين كانوا هم القوم في الحقيقة لاحتوائهم على ملك جميع الأرض (انني براء) أي بريء (مما تعبدون) أي في الحال والاستقبال (الا الذي فطرني)

أى خلقنى (فانه سيهدين) أى يرشدنى لدينه ويوفقنى لطاعته * (تنبيه) * فى هذا الاستثناء أوجه أحدها أنه استثناء منقطع لانهم كانوا عبدة أصنام فقط ثانيها أنه متصل لانه روى أنهم كانوا يشركون مع البارى غيره ثالثها أن تكون الاصفة بمعنى غير على أن تكون ما نكرة موصوفة قاله الزمخشرى قال أبو حيان وانما أخرجها فى هذا الوجه عن كونها موصولة لانه يرى أن الا بمعنى غير لا يوصف بها الا النكرة وفيها خلاف وعلى هذا يجوز أن تكون ما موصولة والا بمعنى غير صفة لها (وجعلها) أى ابراهيم (كلمة) أى كلمة التوحيد المفهومة من قوله انى الى سيهدين (باقية فى عقبه) أى ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى لانه عليه السلام مجاب الدعوة وقال ومن ذريتى ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم (لعلهم) أى أهل مكة (يرجعون) عما هم عليه الى دين أبيهم فانهم اذا ذكروا ان أباهم الاعظم الذى بنى لهم البيت وأورثهم الفخر قال ذلك تابعوه قال الله تعالى (بل متعت هؤلاء) أى الذين بحضرتك من المشركين وأعداء الدين (وآباءهم) أى مددت لهم فى الاعمار مع اسباغ النعم وسلامة الابدان من البلايا والنقم ولم أعاجلهم بالعقوبة فابطرتهم نعمتى وتمادى بهم ركوب ذلك الباطل (حتى جاءهم الحق) أى القرآن (ورسول مبين) أى مظهر لهم الاحكام الشرعية وهو محمد صلى الله عليه وسلم (ولما جاءهم الحق) أى الكامل فى حقيقته بمطابقة الواقع اياه من غير التباس ولا اشتباه وهو القرآن العظيم (قالوا) مكابرة وعنادا وحسدا من غير وقفة ولا تأمل (هذا) مشيرين الى الحق الذى يطابقه الواقع فلا شئ أثبت منه وهو القرآن الكريم (سحر) أى خيال لا حقيقة له (وانا به كافرون) أى عريقون فى ستره بخصوصه حتى لا يعرفه أحد ولا يكون له تابع ثم ذكر تعالى نوعا آخر من كفرهم بقوله تعالى (وقالوا لولا) أى هلا (نزل) يعنى من المنزل الذى ذكره محمد صلى الله عليه وسلم وعينوا مرادهم ونفوا اللبس فقالوا (هذا القرآن) أى الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وادعى أنه جامع لكل خير (على رجل من القريتين) أى مكة والطائف (عظيم) لانهم قالوا منصب الرسالة منصب شريف فلا يليق الا برجل شريف وصدقوا فى ذلك الا أنهم ضموا اليه مقدمة فاسدة وهى أن الرجل الشريف عندهم هو الذى يكون كثير المال والجاه ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس كذلك فلا تليق رسالة الله تعالى به وانما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال يعنون الوليد بن المغيرة بمكة وعروة بن مسعود بالطائف قال قتادة وقال مجاهد عتبة بن ربيعة من مكة وعبد ياليل الثقفى من الطائف وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو الوليد بن المغيرة من مكة ومن الطائف حبيب بن عمرو بن عمير الثقفى * (تنبيه) * قوله تعالى من القريتين فيه حذف مضاف قدره بعضهم من رجلى القريتين وقيل من احدى القريتين وقيل المراد عروة ابن مسعود الثقفى كان بالطائف وكان يتردد بين القريتين فنسب الى كليهما ثم رد الله تعالى عليهم اعتراضهم منكرا عليهم وموبخا لهم بما معناه أنه ليس الامر مردودا ولا موقوفا عليهم بل الى الله تعالى وحده والله أعلم حيث يجعل رسالاته بقوله تعالى (أهم) أى أهؤلاء الجهلة

المعجزة (يقسمون) أى على التجدد والاستمرار (رحمت ربك) أى اكرام المحسن اليك وانعامه وتشريفه بأنواع اللطف والبر واعظامه بما ربك لهم من تخصيصك بالارسال اليهم لانقاذهم من الضلال وجعلك وأنت أفضل العالمين الرسول اليهم فيفضلوا بفضيلتك مع أنك أشرفهم نسبا وأفضلهم حسبا وأعظمهم عقلا وأصفاهم لبا وأرحبهم قلبا ليتصرفوا فى تلك الرحمة التى هى روح الوجود وسر الامر لا بحسب شهواتهم وهم لا يقدرون على التصرف فى المتاع الزائل ثم علل ذلك كما قال تعالى (نحن قسمنا) بما لنا من العظمة (بينهم) أى فى الامر الزائل الذى يعمهم وبحسب تخصيص كل منهم بما لديه (معيشتهم) أى التى يعدونها رحمة ويقصرون عليها النعمة (فى الحياة الدنيا) التى هى أدنى الاشياء عندنا واشارة بتأنيثها الى انها حياة ناقصة لا يرضاها عاقل وأما الآخرة فعبر عنها بالحيوان لانالوتر كنا قسمها اليهم لتفانوا على ذلك فلم يبق منهم أحد فكيف يدخل فى الوهم أن نجعل اليهم شيأ من الكلام فى أمر النبوة التى هى روح الوجود وبها سعادة الدارين (ورفعنا) أى بما لنا من نفوذ الامر (بعضهم) وان كان ضعيف البدن قليل العقل (فوق بعض) وان كان قويا غزير العقل (درجات) فى الجاه والمال ونفوذ الامر وعظم القدر لينتظم حال الوجود فانه لابد فى انتظامه من تشارك الموجودين وتعاونهم فقاوتنا بينهم فى الجثث والقوى والهمم ليقتسموا الصنائع والمعارف ويكون كل ميسرا لما خلق له وجابحا الى ما هيئ لتعاطيه فلم يقدر أحد من دنى أو غنى ان يعدو قدره ويرتقى فوق منزلته ثم علل ذلك بما أثرته عمارة الارض بقوله تعالى (ليتخذ) أى بغاية جهده (بعضهم بعضا سخريا) أى ليستخدم بعضهم بعضا فيسخر الاغنياء بأموالهم الاجراء الفقراء بالعمل فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض هذا بماله وهذا بأعماله فيلتئم قوام العالم لان المقادير لو تساوت لتعطلت المعايش فلم يقدر أحد منهم أن ينفك عما جعلناه اليه من هذا الامر الدنىء فكيف يطمعون فى الاعتراض فى أمر النبوة أيتصور عاقل أن نتولى قسم الناقص ونكل العالى الى غيرنا قال ابن الجوزى فاذا كانت الارزاق بقدر الله تعالى لا بحول المحتال وهى دون النبوة فكيف تكون النبوة اه وهذا هو المراد بقوله تعالى صارفا القول عن مظهر العظمة الى الوصف بالاحسان اظهارا لشرف النبى صلى الله عليه وسلم (ورحمت ربك) أى المربى لك والمدبر لامرك بارسالك وانارة الوجود برسالتك التى هى أعظمها جديرة بان تضاف اليه ولا يسمى غيرها رحمة (خير مما يجمعون) من حطام الدنيا الفانى فانه وان تأتى فيه خير فى استعماله فى وجوه البر بشرطه فهو بالنسبة الى النبوة وما قاربها مما دعا الى الاعراض عن الدنيا متلاش وقيل المراد بالرحمة الجنة وجرى عليه البغوى وتبعه الجلال المحلى وابن عادل وجرى على الاول البيضاوى وتبعه البقاعى وهو الظاهر من الآية الكريمة * (فائدة) * اتفق القراء هنا على قراءة سخريا بضم السين ثم بين تعالى حقارة الدنيا وخستها التى يفتخرون بها بقوله تعالى (ولولا أن يكون الناس) أى أهل التمتع بالاموال بما فيهم من الاضطراب والانس بأنفسهم (أمة واحدة) أى فى الضلال بالكفر لاعتقادهم ان اعطاءنا

المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه لجهم الدنيا وجعلها محط أنظارهم وهمهم الامن عصمه الله تعالى (لجعلنا) أى فى كل زمان وكل مكان بالناس العظمة التى لا يقدر أحد على معارضتها لحقارة الدنيا عندنا وبغضنا لها (لمن يكفر) وقوله تعالى (بالرحمن) أى العام الرحمة دليل على حقارة الدنيا من جهة اعطائها الابعد الممقوت وعلى ان صفة الرحمة مقتضية لتناهى بسط النعم على الكافر لولا العلة التى ذكرها الله تعالى من الرفق بالمؤمنين وقوله تعالى (لبيوتهم) بدل من لمن بدل اشتمال باعادة العامل واللامان للاختصاص (سقفا من فضة) قال البقاعى كأنه خصها أى الفضة لافادتها النور وقرأ أبو عمرو وورش وحفص بضم الباء الموحدة والباقون بكسرها وقرأ ابن كثير وأبو عمرو سقفا بفتح السين وسكون القاف على ارادة الجنس والباقون بضمها جمعا وقوله تعالى (ومعارج) جمع معرج وهو السلم أى من فضة أيضا وسميت المصاعد من الدرج معارج لان المشى عليها مثل مشى الاعرج (عليها) خاصة لتيسر أمرها لهم (يظهرون) أى يعلون ويرتقون على ظهرها الى المعالى (ولبيوتهم أبوابا) اى من فضة أيضا وقوله تعالى (وسررا) أى من فضة جمع سرير ودل على هدو بالهم وصفاء أوقاتهم وأحوالهم بقوله تعالى (عليها يتكئون) ودل على ما هو أعظم من الفضة بقوله تعالى (وزخرفا) أى ذهبا وزينة كاملة عامة *(تنبيه)* زخرفا يجوز أن يكون منصوبا بجعل أى وجعلنا لهم زخرفا وجوز الزمخشرى أن ينتصب عطفا على محل من فضة كأنه قيل سقفا من فضة وذهب فلما حذف الخافض انتصب أى بعضها كذا وبعضها كذا وقيل الزخرف هو الذهب لقوله تعالى أو يكون لك بيت من زخرف فيكون المعنى ويجعل لهم مع ذلك ذهبا كثيرا وقيل الزخرف الزينة لقوله تعالى حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت فيكون المعنى نعطيهم زينة عظيمة فى كل باب (وان كل ذلك) أى البعيد من الخير لكونه فى الاغلب مبعدا عما رضينا (لما متاع الحياة الدنيا) أى التى اسمها دال على دناءتها يتمتع به فيها ثم يزول وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد الميم بعد اللام بمعنى الا وحكى سيبويه أنشدتك بالله لما فعلت بمعنى الا وتكون ان نافية أى وما كل ذلك الامتاع الحياة الدنيا وقرأ الباقون بالتخفيف فتكون ان هى المخففة من الثقيلة أى وانه كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا (والآخرة) أى الجنة التى لا دار تعدلها بل لا دار فى الحقيقة الاهى (عند ربك) أى المحسن اليك بأن جعلك أفضل الخلق (للمتقين) أى الذين هم دائما واقفون عن أدنى تصرف الا بدليل لا يشاركهم فيها غيرهم من الكفار ولهذا لما ذكر عمر رضى الله عنه كسرى وقيصر وما كانا فيه من النعم قال النبى صلى الله عليه وسلم ألا ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة وقال صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر قطرة ماء وروى المستورد بن شداد قال كنت فى الركب الذين وقفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على السخلة الميتة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أترى هذه هانت على أهلها حتى ألقوها قالوا من هوانها ألقوها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها أخرجه

الترمذى

الترمذي وقال حديث حسن وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وعن قتادة بن النعمان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا أحب الله عبده حماه من الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء قال البقاعي ولا يبعد أن يكون ما صار اليه الفسقة والجبابرة من زخرفة الابنية وتذهيب السقوف وغيرها من مبادي الفتنة بأن يكون الناس أمة واحدة في الكفر قرب الساعة حتى لا تقوم الساعة على من يقول الله أو في زمن الدجال لان من يبقى اذ ذاك على الحق في غاية القلة بحيث انه لا عداد لهم في جانب الكفرة لان كلام الملوك لا يخلو عن حقيقة وان خرج مخرج الشرط فكيف بملك الملوك سبحانه (فان قيل) لم بين تعالى انه لو فتح على الكافر أبواب النعم لصار ذلك سببا لاجتماع الناس على الكفر فلم يفعل ذلك بالمسلمين حتى يصير سببا لاجتماع الناس على الاسلام (أجيب) بأن الناس على هذا التقدير كانوا يجتمعون على الاسلام لطلب الدنيا وهذا الايمان ايمان المنافقين فاقتضت الحكمة أن لا يجعل ذلك للمسلمين حتى ان كل من دخل في الاسلام يدخل لمتابعة الدليل ولطلب رضوان الله تعالى (ومن يعش) أي يعرض (عن ذكر الرحمن) أي الذي عمت رحمته فلا رحمة على أحد الا وهي منه تعالى كما فعل هؤلاء حين متعناهم وآباءهم حتى أبطرهم ذلك وهو شيء يسير جدا فأعرضوا عن الآيات والدلائل فلم ينظروا فيها الا نظرا ضعيفا كنظر من عشا بصره وهو من ساء بصره بالليل والنهار (نقيض) أي نسبب (له) عقابا على اعراضه عن ذكر الله تعالى (شيطانا) أي شخصا ناريا بعيدا من الرحمة يكون غالبا عليه محيطا به مثل قيض البيضة وهو القشر الداخل (فهو له قرين) أي مشدود به لا يفارقه فلا يمكنه التخلص منه ما دام متعاميا عن ذكر الله تعالى فهو يزين له العمى ويخيل اليه أنه على عين الهدى كما أن من يستبصر بذكر الرحمن يحضر له ملك فهو له ولي يبشره الى كل خير فذكر الله تعالى حصن حصين من الشيطان الرجيم متى خرج العبد منه أسره العدو كما ورد في الحديث (وانهم) أي القرناء (ليصدونهم) أي العاشين (عن السبيل) أي الطريق الذي من حاد عنه هلك لانه لا طريق له في الحقيقة سواه (ويحسبون) أي العاشون مع سيرهم في المهالك لتزيين القرناء باحضار الحظوظ والشهوات وابعاد المواعظ (أنهم مهتدون) أي عريقون في هذا الوصف لما يستدرجون به من التوسعة عليهم والتضييق على الذاكرين *(تنبيه)* ذكر الانسان والشيطان بلفظ الجمع لان قوله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين يفيد الجمع وان كان اللفظ على الواحد قال أبو حيان الظاهر أن ضميري النصب في وانهم ليصدونهم عائدان على من من حيث معناها وأما لفظها أولا فأفرد في له وله ثم راعى معناها فجمع في قوله تعالى وانهم ليصدونهم والضمير المرفوع على الشيطان لان المراد به الجنس ولان كل كافر معه قرينه وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها وقرأ (حتى اذا جاءنا) نافع وابن عامر وأبو بكر بمد الهمزة بعد الجيم على التثنية أي جاء العاشي والشيطان

والباقون بغير مد افرادا أى جاء العاشى (قال) أى العاشى تندما وتحسرا الانتفاع له به لفوات محله وهو دار العمل (ياليت بينى وبينك) أى أيها القرين (بعد المشرقين) أى ما بين المشرق والمغرب على التغليب قاله ابن جرير وغيره أو مشرق الشتاء والصيف أى بعد أحدهما عن الآخر ثم سبب عن هذا التمنى قوله جامعا له أنواع المذام (فبئس القرين) والمخصوص بالذم محذوف أى أنت لانك الذى قد أضللتنى وأوصلتنى الى هذا العيش الضنك والمحل الدحض قال أبو سعيد الخدرى اذا بعث الكافر زوّج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصيرا الى النار وفى فاعل قوله تعالى (ولن ينفعكم اليوم) قولان أحدهما انه ملفوظ به وهو أنكم وما فى حيزها والتقدير ولن ينفعكم اشتراككم فى العذاب بالتأسى كما ينفعكم الاشتراك فى مصائب الدنيا فيتأسى المصاب بمثله ومنه قول الخنساء

ولولا كثرة الباكين حولى * على موتاهم لقتلت نفسى
وما يكون مثل أخى ولكن * أعزى النفس عنه بالتأسى

والثانى انه مضمر فقدره بعضهم ضميرا التمنى المدلول عليه بقوله ياليت بينى أى لن ينفعكم تمنيكم البعد وبعضهم اجتماعكم وبعضهم ظلمكم وجحدكم وعبارة من عبر بأن الفاعل محذوف مقصوده الاضمار المذكور ولا الحذف اذ الفاعل لا يحذف الا فى مواضع ليس هذا منها والمعنى ولن ينفعكم اليوم فى الآخرة (اذ ظلمتم) أى أشركتم فى الدنيا (انكم فى العذاب مشتركون) أى لا ينفعكم الاشتراك فى العذاب ولا يخفف الاشتراك عنكم لان لكل واحد من الكفار والشياطين الحظ الاوفر من العذاب وقال مقاتل لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم فأنتم وقرناؤكم اليوم مشتركون فى العذاب كما كنتم تشتركون فى الدنيا *(تنبيه)* استشكل المعربون هذه الآية ووجهه أن قوله تعالى اليوم ظرف حالى واذ ظرف ماضى وينفعكم مستقبل لاقترانه بلن التى لنفى المستقبل والظاهر أنه عامل فى الظرفين وكيف يعمل الحدث المستقبل الذى لم يقع الا بعد فى ظرف حالى وماض هذا مما لا يجوز (أجيب) عن اعماله فى الظرف الحالى على سبيل قربه منه لان الحال قريب من الاستقبال فيجوز فى ذلك قال تعالى فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا وقال الشاعر

سأسعى الآن اذ بلغت أناها * وهو اقناعى والا فالمستقبل يستحيل وقوعه فى الحال عقلا وأما قوله تعالى اذ ففيها للناس أوجه كثيرة قال ابن جنى راجعت أبا على فيها مرارا كثيرة فآخر ما حصلت منه ان الدنيا والآخرة متصلتان وهما سواء فى حكم الله تعالى وعلمه فاذ بدل من اليوم حتى كأنها مستقبلة أو كأن اليوم ماض والى هذا نحا الزمخشرى قال واذ بدل من اليوم وحمل الزمخشرى على معنى اذ تبين وصح ظلمكم ولم يبق لاحد ولا لكم شبهة فى انكم كنتم ظالمين ونظيره * اذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة * أى تبين انى ولد كريمة ولما وصفهم فى الآية المتقدمة بالعشى وصفهم بالصمم والعمى بقوله تعالى (أفأنت) أى وحدك من غير ارادة الله تعالى (تسمع الصم) وقد أصممناهم بما صببنا فى مسامع أفهامهم من رصاص الشقاء

(أو تهدى العمى) الذين أعميناهم بما غشينا به أبصار بصائرهم من أغشية الحسارة روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد فى دعاء قومه وهم لا يزيدون الا تصميما على الكفر وتماديا فى الغى فنزلت أى هم فى النفرة عنك وعن دينك بحيث اذا أسمعتهم القرآن كانوا كالصم واذا أريتهم المعجزات كانوا كالعمى وقوله تعالى (ومن كان) أى جبلة وطبعا (فى ضلال مبين) عطف على العمى باعتبار تغاير الوصفين وفيه اشعار بأن الموجب لذلك تمكنهم فى ضلال لا يخفى بين فى نفسه أنه ضلال وأنه محيط بالضال يظهر لكل أحد ذلك فهو بحيث لا يخفى على أحد فالمعنى ليس شئ من ذلك اليك بل هو الى الله تعالى القادر على كل شئ وأما أنت فليس عليك الا البلاغ فلا تتعب نفسك (فاما نذهبن بك) أى من بين أظهرهم بموت أو غيره وما مزيدة مؤكدة بمنزلة لام القسم فى استجلاب النون المؤكدة (فانا منهم) أى من الذين تقدم التعريض بأنهم صم عمى ضلال لم تنفعهم مشاعرهم • (منتقمون) أى بعد فراقك لان وجودك بين أظهرهم هو سبب تأخير العذاب عنهم (أو نرينك) وأنت بينهم (الذى وعدناهم) أى من العذاب وعبر فيه بالوعد ليدل على الخير بلفظه وعلى الشر بأسلوبه (فانا) أى بما لنا من العظمة التى أنت أعلم الخلق بها (عليهم) أى على عقابهم (مقتدرون) على كلا التقديرين وأكدهما لأن أفعالهم أفعال من ينكر قدرته وكذا بالاتيان بنون العظمة وصيغة الافتعال (فاستمسك) أى اطلب وأوجد بجد عظيم على كل حال من أحوال الامساك (بالذى أوحى اليك) من حين نبوتك الى الآن فى الانتقام منهم وفى غيره (انك على صراط) أى طريق واسع واضح جدا (مستقيم) أى موصل الى المقصود لا يصح أصلا أن يلحقه شئ من عوج (وانه) أى الذى أوحى اليك فى الدين والدنيا (لذكر) أى لشرف عظيم جدا وموعظة وبيان (لك ولقومك) قريش خصوصا لنزوله بلغتهم والعرب عموما وسائر من اتبعك ولو كان من غيرهم روى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا سئل لمن هذا الامر بعدك لم يخبر بشئ حتى نزلت هذه الآية فكان بعد ذلك اذا سئل لمن هذا الامر بعدك قال لقريش وروى ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال هذا الامر فى قريش ما بقى منهم اثنان وروى معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان هذا الامر فى قريش لا يعاديهم أحد الا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين وقال مجاهد القوم هم العرب فالقرآن لهم شرف اذ نزل بلغتهم ثم يختص بذلك الشرف الاخص فالاخص من العرب حتى يكون الاكثر لقريش ولبنى هاشم وقيل ذكر لك بما أعطاك من الحكمة ولقومك من المؤمنين بما هداهم الله تعالى به (وسوف تسئلون) أى عن القرآن يوم القيامة وعن قيامكم بحقه وكيف كنتم فى العمل به والاستجابة له وقال الكلبى تسئلون هل أديتم شكر انعامنا عليكم بهذا الذكر الجميل وقال مقاتل يقال لمن كذب به لم كذبت فيسئل سؤال توبيخ وقيل يسئلون هل عملتم بما دل عليه القرآن من التكاليف وروى عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال لما أسرى بالنبى صلى الله عليه وسلم الى المسجد الاقصى الى السموات العلى بعث له آدم وولده من

المرسلين عليهم السلام فأذن جبريل عليه السلام ثم أقام وقال يا محمد تقدم فصل بهم فلما فرغ من الصلاة قال له جبريل عليه السلام (واسأل من أرسلنا) أى على ما لنا من العظمة (من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن) أى غيره (آلهة يعبدون) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أسأل قد اكتفيت ولست شاكا فيه وهذا قول الزهرى وسعيد بن جبير وأبى زيد قالوا جمع له الرسل ليلة أسرى به وأمر أن يسألهم فلم يسأل ولم يشك وقال أكثر المفسرين سل مؤمنى أهل الكتاب الذين أرسلت اليهم الانبياء عليهم السلام هل جاءتهم الرسل الا بالتوحيد وهو قول مجاهد وقتادة والسدى ولم يسأل النبى صلى الله عليه وسلم على واحد من القولين لان المراد من الامر بالسؤال التقرير لمشركى قريش انه لم يأت رسول من الله تعالى ولا كتاب بعبادة غير الله تعالى * ولما طعن كفار قريش فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بكونه فقيرا عديم الجاه والمال بين الله تعالى أن موسى عليه السلام بعد أن أورد المعجزات القاهرة التى لا يشك فى صحتها عاقل أورد عليه فرعون هذه الشبهة التى ذكرها كفار قريش فقال تعالى (ولقد أرسلنا) أى بما ظهر من عظمتنا (موسى) أى الذى كان يرى فرعون انه أحق الناس بعظمته لانه رباه وكفله (بآياتنا) التى قهر بها عظماء الخلق وجبابرتهم فدل ذلك على صحة دعواه (الى فرعون) الذى ادعى أنه الرب الاعلى (وملائه) أى القبط (فقال) أى بسبب ارسالنا (انى رسول رب العالمين) أى مالكهم ومدبرهم ومربيهم فقالوا له ائت بآية فأتى بها (فلما جاءهم بآياتنا) أى بآيتى اليد والعصا اللتين شاهدوا فيهما عظمتنا ودلهم ذلك على قدرتنا على جميع الآيات (اذاهم) أى بأجمعهم (منها يضحكون) أى فاجؤا المجىء بها من غير توقف ولا تأمل بالضحك سخرية واستهزاء قيل انه لما ألقى عصاه صارت ثعبانا فلما أخذه وصار عصا كما كانت ضحكوا * ولما أعرض عليهم اليد البيضاء ثم عادت كما كانت ضحكوا (وما) أى والحال انا ما (نريهم) على ما لنا من الجلال والعلو وأغرق فى النفى باثبات الجار فقال تعالى (من آية) أى من آيات العذاب كالطوفان وهو ماء دخل بيوتهم ووصل الى حلوق الجالسين سبعة أيام والجراد وغير ذلك (الا هى أكبر) أى فى الرتبة (من أختها) أى التى تقدمت عليها بالنسبة الى علم الناظرين لها (وأخذناهم) أى أخذ قهر وغلبة (بالعذاب) أى أنواع العذاب كالدم والقمل والضفادع والبرد الكبار الذى لم يعهد مثله ملتهبا بالنار وموت الابكار فكانت آيات على صدق موسى عليه السلام عالها من الاعجاز وعذابا لهم فى الدنيا موصولا بعذاب الآخرة فيالها من قدرة باهرة وحكمة ظاهرة (لعلهم يرجعون) أى ليكون حالهم عندنا اذا نظرهم الجاهل بالعواقب حال من يرجى رجوعه (و) لما عاينوا العذاب (قالوا) لموسى أى قال فرعون بالمباشرة وأتباعه بالموافقة له (يا أيها الساحر) فنادوه بذلك فى تلك الحالة لشدة شكيمتهم وفرط حماقتهم أو لانهم كانوا يسمون العالم الماهر ساحرا (ادع لنا ربك) أى المحسن اليك بما يفعل معك من هذه الافعال التى نهيتنا بها اكراما لك (بما) أى بسبب ما (عهد عندك) أى من كشف العذاب عنا ان آمنا (اننا لمهتدون) أى مؤمنون (فلما كشفنا) أى على ما لنا من العظمة التى ترهب الجبال

قوله بعظمته أى بعظمة بالله ا ه

(عنهم)

(عنهم العذاب) أى الذى أنزلناه بهم (اذاهم ينكثون) أى فاجؤا الكشف بتجدد النكث بالخلاف بعد الخلاف (ونادى فرعون) أى زيادة على نكثه (فى قومه) أى الذين هم فى غاية القيام معه وأمر كلا منهم أن يشيع قوله اشاعة تم البعيد والقريب فتكون كانها منادا اعلاما بأنه مستمر على الكفر لئلا يظن بعضهم انه رجع فيرجعون * ولما كان كانه قيل بم نادى أجاب بقوله (قال) أى خوفا من اعيان القبط لما رأى من أن ماشاهدوه من باهر الآيات مثله يزلزل ويأخذ القلوب (ياقوم) مستعطفا لهم باعلامهم أنهم لحمة واحدة ومستنهضا بوصفهم بأنهم ذوقوة على مايحاولونه مقررا لهم على عذره فى نكثه بقوله (أليس لى) أى وحدى (ملك مصر) أى كله فلا اعتراض على من بنى اسرائيل ولا غيرهم (وهذه) أى والحال أن هذه (الانهار) أى أنهار النيل قال البيضاوى ومعظمها أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس وقال البقاعى كأنه كان قد أكثر من تشقيق الخلجان الى بساتينه وقصوره ونحو ذلك من أموره فقال (تجرى من تحتى) أى تحت قصرى أو أمرى أو بين يدى فى جنانى وزاد فى التقرير بقوله (أفلا تبصرون) أى هذا الذى ذكرته لكم فتعلوا ببصائر قلوبكم أنه لا ينبغى لاحد أن ينازعنى وهذا العمرى قول من ضعفت قواه وانحلت عراه (أم أنا خير) أى مع ماوصفت لكم من ضخامتى ومالى من القدرة على اجراء المياه التى بها حياة كل شئ (من هذا) وكنى باشارة القريب عن تحقيره ثم وصفه بمايبين مراده بقوله (الذى هو مهين) أى ضعيف حقير ذليل لانه يتعاطى أموره بنفسه وليس له ملك ولا قوة يجرى بها نهرا ولا ينفذ بها أمرا (ولا يكاد يبين) أى لا يقرب من أن يعرب عن معنى من المعانى لما فى لسانه من الحبسة فلا هو قادر فى نفسه ولا له قوة بلسانه على تصريف المعانى وتنويع البيان ليستجلب القلوب وينعش الالباب فتكثر أتباعه ويضخم أمره وقد كذب فى جميع قوله فقد كان موسى عليه السلام أبلغ أهل زمانه قولا وفعلا بتقدير الله تعالى الذى أرسله وأمره اياه ولكن اللعين استند هذا الى مابقى فى لسانه من الحبسة تخييلا لاتباعه لان موسى عليه السلام مادعا بازالة جميع حبسته بل بعقدة منها فانه قال واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى *(تنبيه)* فى أم من قوله أم أنا خير أقوال أحدها انها منقطعة فتقدر ببل التى للاضراب الانتقال وبالهمزة التى للانكار والثانى انها بمعنى بل فقط كقوله

بدت مثل قرن الشمس فى رونق الضحى * وصورتها أم أنت فى العين أملح

أى بل أنت الثالث أنها منقطعة لفظا متصلة معنى قال أبو البقاء أم هنا منقطعة فى اللفظ لوقوع الجملة بعدها فى اللفظ وهى فى المعنى متصلة معادلة اذ المعنى أنا خير منه أم لا وأينا خير قال ابن عادل وهذه عبارة غريبة أن تكون منقطعة لفظا متصلة معنى وذلك أنهما معنيان مختلفان فان الانقطاع يقتضى اضرابا اما ابطالا واما انتقالا ثم ان فرعون اللعين ظن ان القرب من الملوك والغلبة على الامور لا تكون الا بكثرة الاعراض الدنيوية والتحلى بحلى الملوك ولذا قال (فلولا)

أى فهلا (أُلقى عليه) من عند مرسله الذى يدعى انه الملك بالحقيقة (أساورة) وقرأ حفص بسكون السين ولا ألف بعدها كالاخرة والباقون بفتح السين وألف بعدها فاسورة جمع سوار كخمار وأخمرة وهو جمع قلة وأساورة جمع اسوار بمعنى سوار يقال سوار المرأة واسوارها والاصل أساوير بالياء فعوض من حرف المد تاء التأنيث كزنديق وزنادقة وبطريق وبطارقة (وقيل) بل هى جمع اسورة فهى جمع الجمع قاله الزجاج والسوار ما يوضع فى المعصم من الحلية (من ذهب) ليكون ذلك امارة له على صحة دعواه كما نفعل نحن عند انعامنا على أحد من عبيدنا بالارسال الى ناحية من النواحى لمهم من المهمات اذ كان من عادتهم انهم اذا جعلوا واحدا منهم رئيسا لهم سوّروه بسوار من ذهب وطوّقوه بطوق من ذهب فطلب فرعون من موسى عليه السلام مثل عادتهم (أو جاء معه) أى صحبته عند ما جاء الينا بهذا النبا الجسيم والملم العظيم (الملائكة) أى هذا النوع وأشار الى كثرتهم بما بين من الحال بقوله (مقترنين) أى يقارن بعضهم بعضا بحيث يملؤن الفضاء ويكونون فى غاية القرب منه بحيث يكون مقارنا لهم ليجاب الى هذا الامر الذى جاء يطلبه كما نفعل نحن اذا أرسلنا رسولا الى أمر يحتاج الى دفاع وخصام ونزاع فكان حاصل أمره كما ترى انه تعزز باجراء المياه فأهلكه الله تعالى بها ايماء الى أن من تعزز بشئ دون الله تعالى أهلكه الله به واستصغر موسى عليه السلام وعابه بالفقر والعى فسلطه الله تعالى عليه اشارة الى أنه ما استصغر أحد شيأ الا غلبه أفاده القشيرى (فاستخف) أى بسبب هذه الخدع التى سحرهم بها فى هذا الكلام الذى هو فى الحقيقة محقر له موهن لامره قاصم للملك عند من له لب (قومه) الذين لهم قوة عظيمة فحملهم بفرورة على ما كانوا مهينين له من خفة الحلم (فأطاعوه) أى بأن أقروا بملكه واعترفوا بربوبيته وردوا أمر موسى عليه السلام (انهم كانوا) أى بما فى جبلاتهم من الشر (قوما فاسقين) أى عريقين فى الخروج عن طاعة الله تعالى الى معصيته فلذلك أطاعوا ذلك الفاسق (فلما آسفونا) أى أغضبونا فى الافراط فى العناد والعصيان منقول من اسف اذا اشتد غضبه حكى ان ابن جريج غضب فى شئ فقيل له أتغضب يا أبا خالد فقال قد غضب الذى خلق الاحلام ان الله تعالى يقول فلما آسفونا أى أغضبونا (انتقمنا منهم) أى أوقعنا بهم على وجه المكافأة بما فعلوا برسولنا عليه السلام عقوبة عظيمة منكرة مكروهة كأنها بعلاج (فأغرقناهم أجمعين) أى اهلاك نفس واحدة لم يفلت منهم أحد على كثرتهم وقوتهم وشدتهم *(تنبيه)* ذكر لفظ الاسف فى حق الله تعالى وذكر لفظ الانتقام كل واحد منهما من المتشابهات التى يجب تأويلها فمعنى الغضب فى حق الله تعالى ارادة العذاب ومعنى الانتقام ارادة العقاب بجرم سابق وقال بعض المفسرين معنى آسفونا احزنوا أولياءنا (فجعلناهم) أى باخذنا لهم على هذه الصورة من الاغراق وغيره مما تقدمه (سلفا) أى متقدما للكل من يهلك بعدهم اهلاك غضب فى الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة أوقدوة لمن يريد العلو فى الارض فتكون عاقبته فى الهلاك فى الدارين أو احداهما عاقبتهم كما قال تعالى وجعلناهم أئمة يدعون

الى

الى النار (ومثلا) أى حديثا عجيب الشأن سائرا سير المثل (للآخرين) أى الذين خلفوا بعدهم من زمنهم الى آخر الدهر فيكون حالهم عظة للناس واضلالا للآخرين فمن أريد به الخير وفق لمثل خير يرده عن غيه ومن أريد به الشر اقتدى به فى الشر وقرأ حمزة والكسائى بضم السين واللام والباقون بفتحهما فأما الأولى فتحتمل ثلاثة أوجه أحدها أنه جمع سليف كرغيف ورغف وسمع القاسم بن معن من العرب سليف من الناس كالفريق منهم والثانى أنه جمع سالف كصابر وصبر والثالث انها جمع سلف كاسد وأسد وأما الثانية فتحتمل وجهين أحدهما أن يكون جمعا لسالف كحارس وحرس وخادم وخدم وهذا فى الحقيقة اسم جمع لا جمع تكسير اذ ليس فى ابنية التكسير صيغة فعل والثانى انه مصدر يطلق على الجماعة تقول سلف الرجل يسلف سلفا أى تقدم والسلف كل شئ قدمته من عمل صالح أو قرض وسلف الرجل آباؤه المتقدمون والجمع اسلاف وسلاف وقال طفيل سلفوا سلافا قصد السبيل عليهم صروف المنايا والرجال تقلب

قوله سلفوا السبز خزم اه

واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلا) فقال ابن عباس رضى الله عنهما وأكثر المفسرين نزلت فى مجادلة عبد الله بن الزبعرى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن عيسى عليه السلام لما نزل قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم كما تقدم فى سورة الانبياء والمعنى ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى بن مريم مثلا وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى اياه (اذا قومك) اى من قريش (منه) أى من هذا المثل (يصدون) أى يرفع لهم ضجيج فرحا بسبب ما رأوا من سكوت النبى صلى الله عليه وسلم فان العادة قد جرت بان أحد الخصمين اذا انقطع أظهر الخصم الثانى الفرح والضجيج وقال قتادة يقولون ما يريد محمد منا الا ان نعبده ونتخذه الها كما عبدت النصارى عيسى (وقالوا أآلهتنا) أى التى نعبدها من الاصنام (خير أم هو) قال قتادة يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم فنعبده ونطيعه ونترك آلهتنا وقال السدى وابن زيد يعنون عيسى عليه السلام قالوا انوهم محمد أن كل ما نعبد من دون الله فهو فى النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة فى النار قال الله تعالى (ما ضربوه) أى المثل (لك الا جدلا) أى خصومة بالباطل لعلمهم أن لفظ ما لغير العاقل فلا يتناول من ذكروه (بل هم قوم) أى أصحاب قوة على القيام فيما يحاولونه (خصمون) أى شديد والخصام روى الامام أحمد عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدال وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم يصدون بكسر الصاد والباقون بضمها وهما بمعنى واحد يقال صد يصد ويصد كعكف يعكف ويعكف وعرش يعرش ويعرش وقيل الضم من الصدود وهو الاعراض وقرأ الكوفيون أآلهتنا بتحقيق الهمزتين والباقون بتسهيل الثانية واتفقوا على ابدال الثانية ألفا ثم انه تعالى بين أن عيسى عبد من عبيده الذين أنعم عليهم بقوله تعالى (ان) أى ما (هو) أى عيسى عليه السلام (الا عبد) أى وليس هو باله (أنعمنا) أى بما لنا من العظمة (عليه) أى بالنبوة والاقدار على

الخوارق (وجعلناه) أى بما خرقنا به العادة فى ميلاده وغيرذلك من آياته (مثلا) أى أمرا عجيبا كالمثل لغرابته من أنثى فقط بلا واسطة ذكر كما خلقنا آدم من غير ذكر وأنثى وشرفناه بالنبوة (لبنى اسرائيل) الذين هم أعرف الناس به بعضهم بالمشاهدة وبعضهم بالنقل القريب المتواتر فيعرفون به قدرة الله تعالى على مايشاء حيث خلقه من غير أب (ولونشاء) أى على مالنا من العظمة (لجعلنا) ماهو أغرب مما صنعناه من أمر عيسى (منكم) أى جعلا مبتدأ منكم امابالتوالد كما جعلنا عيسى عليه السلام من أنثى من غير ذكر وجعلنا آدم عليه السلام من تراب من غير أنثى ولاذكر واما بالبدلية (ملائكة فى الارض يخلفون) أى يخلفونكم فى الارض والمعنى ان حال عيسى عليه السلام وان كانت عجيبة فالله تعالى قادر على ماهو أعجب من ذلك وان الملائكة مثلكم من حيث انها ذوات ممكنة يحتمل خلقها توليدا كما جاز خلقها ابداعا فمن أين لهم استحقاق الالوهية والانتساب الى الله تعالى (وانه) أى عيسى عليه السلام (لعلم للساعة) أى نزوله سبب للعلم بقرب الساعة التى هى تعم الخلائق كلهم بالموت فنزوله من أشراط الساعة يعلم به قربها قال صلى الله عليه وسلم يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عادلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية وتهلك فى زمنه الملل كلها الا الاسلام وروى انه ينزل على ثنية بالارض المقدسة يقال لها أنيق وبيده حربة وعليه ممصرتان وشعر رأسه دهين يقتل الدجال ويأتى بيت المقدس والناس فى صلاة العصر وروى فى صلاة الصبح فيتأخر الامام فيقدمه عيسى عليه السلام ويصلى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى الامن آمن به وقال النبى صلى الله عليه وسلم كيف أنتم اذا نزل ابن مريم فيكم وامامكم منكم وقال الحسن وجماعة وانه أى القرآن لعلم للساعة يعلمكم قيامها ويخبركم أحوالها وأهوالها (فلا تمترن بها) حذف منه نون الرفع للجزم وواو الضمير لالتقاء الساكنين من المرية وهى الشك أى لاتشكن فيها وقال ابن عباس لاتكذبوا بها (واتبعون) أى أوجدوا تبعكم لى (هذا) أى كل ما أمرتكم به من هذا أوغيره (صراط) أى طريق واضح (مستقيم) أى لاعوج له وقرأ أبو عمرو باثبات الياء فى الوصل دون الوقف والباقون بغير ياء وصلا ووقفا (ولا يصدنكم الشيطان) أى عن هذا الطريق الواضح الواسع المستقيم الموصل الى المقصود بايسر سعى (انه لكم) أى عامة وأكد الخبر لان أفعال التابعين له أفعال من ينكر عداوته (عدو مبين) أى واضح العداوة فى نفسه منادبها وذلك بابلاغه فى عداوة أبيكم آدم عليه السلام حتى أنزلكم بانزاله عن محل الراحة الى موضع النصب عداوة ناشئة عن الحسد فهى لاتنفك أبدا (ولما جاء عيسى) أى الى بنى اسرائيل (بالبينات) أى المعجزات أى بآيات الانجيل وبالشرائع الواضحات (قال) منبها لهم (قد جئتكم) بما يدلكم قطعا على انى آية من عند الله وكلمة منه (بالحكمة) أى الامر المحكم الذى لايستطاع نقضه ولايدفع بالمعاندة لاخلصكم بذلك مما وقعتم فيه من الضلال (ولابين لكم) أى بيانا واضحا

(بعض الذى تختلفون) أى الآن (فيه) ولا تزالون تجددون الخلاف بسببه (فان قيل) لم لم يبين لهم كل الذى يختلفون فيه (أجيب) بأنه بين لهم كل ما يكون من أمر الدين لا ما يتعلق بأمر الدنيا فان الانبياء لم تبعث لبيانه ولذلك قال نبينا صلى الله عليه وسلم أنتم أعلم بأمر دنياكم ويحتمل أن يكون المراد أنه يبين لهم بعض المتشابه وهو ما يكون بيانه كافيا فى ردّ بقية المتشابه الى المحكم بالقياس عليه فان الشأن فى كل كتاب أن يجمع المحكم والمتشابه فالمحكم ماليس فيه التباس والمتشابه ما يكون ملتبسا وفيه ما يردّه الى المحكم لكن على طريق الرمز والاشارة التى لا يذوقها الا أهل البصائر ليتبين بذلك الصادق من الكاذب فالصادق الذى رسخ علما وايمانا يردّ المتشابه منه الى المحكم أو يعجز فيقول الله أعلم بمراده ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ولا يتزلزل والكاذب يتبع المتشابه فيجريه على ظاهره كأهل الالحاد الجوامد المفتونين أو يؤوله بحسب هواه بما لا يمشى على قواعد العلم ولا يوافق المحكم فيفتتن * ولما بين لهم الاصول والفروع قال (فاتقوا الله) أى خافوا من له الملك الاعظم من الكفر والاعراض عن دينه لان له كل شئ منكم ومن غيركم ومن المعلوم لكل ذى عقل أنه لا يتصرّف فى ملك الغير بوجه من الوجوه الا باذنه (وأطيعون) أى فيما أبلغه عنه الحكم من التكاليف فطاعتى لامره بما يرضيه هو ثمرة التقوى وكلما زاد المتقى فى أعمال الطاعة زادت تقواه (انّ الله) أى الذى اختص بالجلال والجمال فكان أهلا لان يتقى (هو) أى وحده (ربى وربكم) أى المحسن الىّ واليكم (فاعبدوه) أى بما أمركم به لانه صدقنى فى أمركم باتباعى بما أظهره على يدى فصار هو الآمر لكم لا أنا (هذا) أى الامر العظيم الذى دعوتكم اليه (صراط) أى طريق واسع جدا واضح (مستقيم) لا عوج فيه * ولما كان الطريق الواضح القويم موجبا للاجتماع عليه والوفاق عند سلوكه بين تعالى أنهم اختلفوا فيه بقوله تعالى (فاختلف الاحزاب) أى الفرق المتحزبة (من بينهم) أى اختلافا ناشئا ابتداء من بنى اسرائيل فى عيسى أهو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة وقوله تعالى (فويل) كلمة عذاب (للذين ظلموا) أى وضعوا الشئ فى غير موضعه بما قالوه فى عيسى عليه السلام (من عذاب يوم أليم) أى مؤلم واذا كان اليوم مؤلما فما الظن بعذابه (هل ينظرون) أى هل ينظر كفار مكة أو الذين ظلموا (الا الساعة) أى ساعة الموت العام والبعث والقيامة فان ذلك لتحقق أمره كأنه موجود منظور اليه وقوله تعالى (أن تأتيهم) بدل من الساعة (فان قيل) قوله تعالى (بغتة) أى فجأة يفيد قوله تعالى (وهم لا يشعرون) أى بوقت مجيئها قبله (أجيب) بأنه يجوز أن تأتيهم بغتة وهم يعرفونه بسبب أنهم يشاهدونه (الاخلاء) أى الاحباء فى الدنيا على المعصية وقوله تعالى (يومئذ) أى يوم القيامة متعلق بقوله تعالى (بعضهم لبعض عدوّ) أى يتعادون فى ذلك اليوم لانقطاع العلق لظهور ما كانوا يتحابون له سببا للعذاب (الا المتقين) أى المتحابين فى الله على طاعة الله تعالى وهم الموحدون الذين يخالل بعضهم بعضا على الايمان والتقوى فان خلتهم لا تصير عداوة روى أبو ثور عن معمر عن قتادة عن أبى اسحق انّ عليا قال فى الآية خليلان مؤمنان وخليلان كافران فمات أحد المؤمنين فقال يارب انّ فلانا

كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ويخبرني أني ملاقيك يارب فلا تضله بعدي واهده كما هديتني وأكرمه كما أكرمتني فاذا مات خليله المؤمن جمع الله بينهما فيقول ليثن أحدكم على صاحبه فيقول نعم الاخ ونعم الخليل ونعم الصاحب قال ويموت أحد الكافرين فيقول يارب ان فلانا كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ويخبرني أني غير ملاقيك فبئس الاخ وبئس الخليل وبئس الصاحب ثم بين تعالى ما يتلقى به المؤمنين الذين قد تواددوا فيه سبحانه تشريفا لهم وتسكينا لما يقتضيه ذلك المقام من الاهوال بقوله تعالى (ياعباد) فأضافهم الى نفسه اضافة تشريف لان عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين المطيعين المتقين وفيه أنواع كثيرة توجب المدح أولها ان الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة وهذا تشريف عظيم بدليل أنه تعالى لما أراد تشريف نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى سبحان الذي أسرى بعبده وثانيها قوله تعالى (لاخوف) أي بوجه من الوجوه (عليكم اليوم) أي في يوم الآخرة مما يحويه من الاهوال والامور الشداد والزلزال وثالثها قوله تعالى (ولا أنتم تحزنون) أي لا يتجدد لكم حزن على شئ فات في وقت من الاوقات الآتية لانكم لا يفوتكم شئ تسرون به وقرأ شعبة بفتح الياء في الوصل وسكنها نافع وأبو عمرو وابن عامر وحذفها الباقون وقفا ووصلا وقوله تعالى (الذين آمنوا) أي أوجدوا هذه الحقيقة يجوز أن يكون نعتا لعبادي أو بدلا منه أو عطف بيان له أو مقطوعا منصوبا بفعل أي أعني الذين آمنوا أو مرفوعا وخبره مضمر تقديره يقال لهم ادخلوا الجنة قال مقاتل اذا وقع الخوف يوم القيامة نادى مناد يا عبادي لا خوف عليكم اليوم فاذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤسهم فيقول الذين آمنوا (بآياتنا) الظاهرة عظمتها في نفسها أولا وبنسبتها الينا ثانيا (وكانوا) أي دائما اهواءهم كالجبلة والخلق (مسلمين) أي منقادين للاوامر والنواهي أتم انقياد فبذلك يعدلون الى حقيقة التقوى فينكس أهل الاديان الباطلة رؤسهم فيعز حسابهم على أحسن الوجوه ثم يقال لهم (ادخلوا الجنة) ولما كان السرور لا يكمل الا بالرفيق السار قال تعالى (أنتم وأزواجكم) أي نساؤكم اللاتي كن مشاكلات لكم في الصفات وأما قرناؤهم من الرجال فدخلوا في قوله تعالى وكانوا مسلمين (تحبرون) أي تسرون وتنعمون والحبرة المبالغة في الاكرام على أحسن الوجوه وقوله تعالى (يطاف) قبله محذوف أي يدخلون يطاف (عليهم) أي المتقين الذين جعلناهم بهذا النداء ملوكا (بصحاف من ذهب) فيها من ألوان الاطعمة والفواكه والحلوى ما لا يدخل تحت الوهم والصحاف جمع صحفة كجفنة وجفان قال الجوهري الصحفة كالقصعة والجمع صحاف قال الكسائي أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة تليها تشبع العشرة ثم الصحفة تشبع الخمسة ثم المئكلة تشبع الرجلين والثلاثة ثم الصحيفة تشبع الرجل والصحيفة الكتاب والجمع صحف وصحائف * ولما كانت آلة الشرب في الدنيا أقل من آنية الاكل جرى على ذلك المعهود فعبر بجمع القلة في قوله تعالى (وأكواب) جمع كوب وهو كوز مستدير مدور الرأس لا عروة له ايذانا بأنه لا حاجة أصلا الى تعليق شئ لتبريد أو صيانة

عن اذى أونحو ذلك وقيل هو كالابريق الا أنه لاعروة له وقيل انه لاخرطوم له وقيل انه لاعروة له ولاخرطوم معا قال الجوالبقى ليتمكن الشارب من أين شاء فان العروة تمنع من ذلك وقال عدى

متكأ تصفق أبوابه * يطوف عليه العبد بالكوب

ثم انه تعالى لما ذكر التفصيل ذكر بيانا كليا فقال (وفيها) أى الجنة (ماتشتهى الانفس) من الاشياء المعقولة والمسموعة والملموسة جزاء لهم بما منعوا أنفسهم من الشهوات فى الدنيا (وتلذ الاعين) أى من الاشياء المبصرة التى أعلاها النظر الى وجهه الكريم جزاء ما تحملوه من مشاق الاشتياق روى أن رجلا قال يارسول الله أفى الجنة خيل فانى أحب الخيل فقال ان يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرسا من ياقوتة حمراء فتطير بك فى أى الجنة شئت الافعلت فقال أعرابى يارسول الله أفى الجنة ابل فانى أحب الابل فقال يا أعرابى ان أدخلك الله الجنة أصبت فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك وقرأ نافع وابن عامر وحفص بهاء بعد الياء باثبات العائد على الموصول كقوله تعالى الذى يتخبطه الشيطان من المس والباقون بغيرها بعد الياء كقوله تعالى أهذا الذى بعث الله رسولا وهذه القراءة مشبهة بقوله تعالى وما عملته أيديهم وهذه الهاء فى هذه السورة رسمت فى مصاحف المدينة والشام وحذفت من غيرها وقد وقع لابى عبد الله الفاسى شارح القصيدة وهم فسبق قلمه فكتب الهاء منه محذوفة فى مصاحف المدينة والشام مثبوتة فى غيرها فعكس * ولما كان ذلك لايكمل الا بالدوام قال تعالى عائدا الى الخطاب لانه أشرف وآكد (وأنتم فيها خالدون) لبقائها وبقاء كل ما فيها فلا كلفة عليهم أصلا من خوف من زوال ولا خوف من فوات * ثم أشار الى فخامتها باداة البعد فقال تعالى (وتلك الجنة) أى العالية المقام (التى أورثتموها) شبه جزاء العمل بالميراث لانه يخلفه عليه العامل وقرأ أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائى بادغام الثاء المثلثة فى المثناة وأظهرها الباقون (بما) أى بسبب ما (كنتم تعملون) أى مواظبين على ذلك لاتفترون لان العمل كان لهم كالجبلة التى جبلوا عليها فالمنة لربهم فى الحقيقة بما زكى لهم أنفسهم * ولما ذكر سبحانه الطعام والشراب ذكر الفاكهة فقال (لكم فيها فاكهة) أى ما يؤكل تفكها وان كان لحما أو خبزا (كثيرة) ودل على الكثرة وعلى دوام النعمة بقصد التفكه لكل شئ فيها بقوله تعالى (منها) أى لا من غيرها مما يحفظ فيه القوت (تأكلون) فلا تنفد أبدا ولا تتأثر بأكل الآكلين لانها على صفة الماء النابع لايؤخذ منها شىء الا خلف مكانه مثله فى الحال وورد فى الحديث أنه لاينزع رجل ثمرة الا نبت مكانها مثلاها * (تنبيه) * لما بعث الله تعالى نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام الى العرب وكانت فى ضيق شديد بسبب المأكول والمشروب والفاكهة ذكر الله تعالى هذه المعانى مرة بعد أخرى تكميلا لرغباتهم وتقوية لدواعيهم ومن فى قوله تعالى منها تأكلون تبعيضية أو ابتدائية وقدم الجار لاجل الفاصلة ولما ذكر سبحانه الوعد أردفه بالوعيد على الترتيب المستمر فى القرآن فقال تعالى (ان المجرمين) أى الراسخين فى قطع ما أمر الله به أن يوصل (فى عذاب جهنم)

قوله لانه علقه الخ أى أن الشىء ليس بيد العامل وبين جزائه مع العامل كالمرء

أى النار التى من شأنها القاء داخلها بالتجهم والكراهة والعبوسة كما كان يعمل عند قطعه لاولياء الله تعالى (خالدون) لان اجتراءهم كان طبعا لهم لا ينفكون عنه أصلا ما بقوا (لا يفتر عنهم) أى لا يقصد اضعافه بنوع من الضعف فنفى التفتر نفى للفتور ومن غير عكس قال البيضاوى وهو من فترت عنه الحمى اذا سكنت قليلا والتركيب للضعف (وهم فيه) أى العذاب (مبلسون) أى ساكتون سكوت يأس من النجاة والفرج وعن الضحاك يجعل المجرم فى تابوت من نار ثم يقفل عليه فيبقى خالدا لا يرى ولا يرى (وما ظلمناهم) نوعا من الظلم (ولكن كانوا) جبلة وطبعا وعملا وصنعا (هم الظالمين) لانهم بارزوا المنعم عليهم بالعظائم ونووا أنهم لا ينفكون عن ذلك ما بقوا والاعمال بالنيات * ولما كان مفهوم الابلاس السكوت بين تعالى انهم ايسوا اسكاتين دائما بقوله تعالى (ونادوا) ثم بين أن المنادى خازن النار بقوله تعالى مؤكدا البعد بأداته (يا مالك ليقض علينا) أى سل سؤالا حتما أن يقضى القضاء الذى لا قضاء مثله وهو الموت على كل واحد منا وجرا على عادتهم فى الغباوة والجلافة فقالوا (ربك) أى المحسن اليك فلم يروا الله تعالى عليهم احسانا وهم فى تلك الحالة ولا شك ان احسانه ما انقطع عن موجود أصلا وأقل ذلك انه لا يعذب أحدا منهم فوق استحقاقه ولذلك جعل النار دركات كما جعل الجنة درجات فأجاب مالك عليه السلام بان (قال) مؤكدا قطعا لاطماعهم لان كلامهم هذا هو بحيث يفهم الرجاء واعلاما بأن رحمة الله التى هى موضع الرجاء خاصة بغيرهم (انكم ماكثون) أى دائما أبدا لا خلاص لكم بموت ولا غيره وليس فى القرآن متى أجابهم هل أجابهم فى الحال أو بعد مدة لكن روى ابن عباس ان أهل النار يدعون مالكا خازن النار يقولون ليقض علينا ربك أى ليمتنا ربك فنستريح فيجيبهم مالك بعد ألف سنة انكم ماكثون أى مقيمون فى العذاب وعن عبد الله بن عمرو بن العاص يجيبهم بعد أربعين وعن غيره مائة سنة واختلفوا فى ان قولهم يا مالك ليقض علينا ربك على أى وجه طلبوه فقال بعضهم على التمنى وقال آخرون على وجه الاستغاثة والا فهم عالمون بأنه لا خلاص لهم من ذلك العذاب ثم انه تعالى ذكر ما هو كالعلة لذلك الجواب بقوله تعالى (لقد جئناكم) أى فى هذه السورة خصوصا وفى جميع القرآن عموما (بالحق) على لسان الرسل وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال عند الجيم والباقون بالادغام (ولكن أكثركم للحق كارهون) لما فيه من المنع من الشهوات فلذلك أنتم تقولون انه ليس بحق لا لاجل كراهتكم فقط لا لاجل ان فى حقيته نوعا من الخفاء (فان قيل) كيف قال ونادوا يا مالك بعد ان وصفهم بالابلاس (أجيب) بأنها أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة فتختلف بهم الاحوال فيسكتون أوقاتا لغلبة اليأس عليهم ويستغيثون أوقاتا لشدة ما بهم روى أنه يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيقولون ادعوا مالكا فيدعون يا مالك ليقض علينا ربك ولما ذكر تعالى كيفية عذابهم فى الآخرة ذكر بعده كيفية مكرهم وفساد باطنهم فى الدنيا فقال تعالى (أم أبرموا) أى أحكم كفار مكة (أمرا) أى فى المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم وفى رد أمرنا ومعاداة أوليائنا مع علمهم بانا مطلعون عليهم (فانا مبرمون)

أى محكمون أمراً فى مجازاتهم أى مبرمون كيدنا كما أبرموا كيدهم كقوله تعالى أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون قال مقاتل نزلت فى تدبيرهم المكر فى دار الندوة * (تنبيه) * أم منقطعة والابرام الاتقان وأصله فى الفتل يقال أبرم الحبل أى أتقن فتله وهو الفتل الثانى والاول يقال له سحيل قال زهير

لعمرى لنعم السيدان وجدتما * على كل حال من سحيل ومبرم

(أم يحسبون أنا) أى على مالنا من العظمة المقتضية لجميع صفات الكمال (لانسمع سرّهم) أى كلامهم الخفى ولو كان فى الضمائر فيما بعضنا والسرّ ماحدث به الشخص نفسه أو غيره فى مكان خال ولما كان ربما وقع فى الاوهام ان المراد بالسمع انما هو العلم لان السرّ مايخفى وهو يعلم مافى الضمائر وهى مما يعلم حقق أن المراد به حقيقته بقوله تعالى (ونجواهم) أى تناجيهم فى كلامهم المرتفع فيما بينهم حتى كأنه على نجوة أى مكان عال فعلم أن المراد حقيقة السمع وأنه تعالى يسمع كل مايمكن أن يسمع (بلى) نسمع الصنفين كليهما على حد سواء (ورسلنا) وهم الحفظة من الملائكة على الجميع السلام على ماهم من العظمة بنسبتهم الينا (لديهم) أى عندهم وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها (يكتبون) أى يجددون الكتابة كل مايتجدد مايقتضيها لان الكتابة أوقع فى التهديد لان من علم ان أعماله محصاة مكتوبة يجتنب مايخاف عاقبته وعن يحيى بن معاذ الرازى من ستر عن الناس ذنوبه وأبداها للذى لايخفى عليه شئ فى السموات فقد جعله أهون الناظرين اليه وهو من علامات النفاق ولما تقدم أول السورة تبكيتهم والتعجيب منهم فى ادعائهم لله ولداً من الملائكة وهددهم بقوله تعالى ستكتب شهادتهم ويسئلون أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم (قل) أى لهؤلاء البعداء البغضاء (ان كان للرحمن) أى العام الرحمة (ولد) أى على زعمكم والمراد به الجنس لادعائهم فى الملائكة وغيرهم (فأنا) أى فى الرتبة وقرأ نافع بمد الالف بعد النون والباقون بغير مدّ (أول العابدين) للرحمن العبادة التى هى العبادة ولايستحق غيرها أن يسمى عبادة وهى الخالصة أى فأنا الا أعبد غيره لا ولداً ولا غيره ولم يشأ لى الرحمن أن أعبد الولد ولا غيره أو يكون المعنى أنا أول العابدين للرحمن على وجه الاخلاص لم أشرك به شيأ أصلا فى وقت من الاوقات بما سميتموه ولداً أو شريكاً أو غيرهما ولو شاء ماعبدته على وجه الاخلاص ولاشك عندكم وعند غيركم ان من أخلص لاحد كان أولى من غيره برحمته فلو أن الاخلاص له ممنوع ماشاء لى ولولا أن عبادة غيره ممنوعة لشاءها لى ولو أن له ولداً لشاء لى عبادته فان عموم رحمته لكافة خلقه لكونهم خلقه وخصوصها بى لكونى عبده تمنع على زعمكم من أن يشقينى وأنا أخلص له فبطلت شبهتكم عنها بل بأقوى منها وهذا مما علق بشئ هو بنقيضه أولى وقال الزمخشرى ان كان للرحمن ولد وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم الى طاعته والانقياد له كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض وهو المبالغة فى نفى الولد والاطناب فيه وأن لايترك

الناطق به شبهة الاضمحلال مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم فى باب التوحيد وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهى محال فى نفسها فكان المعلق بها محالا مثلها فهو فى صورة اثبات الكينونة والعبادة وفى معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها ثم قال وقد تحمل الناس عما أخرجوه من هذا الاسلوب الشريف الملىء بالنكت والفوائد المستقل باثبات التوحيد على أبلغ وجوهه فقيل ان كان للرحمن ولد فى زعمكم فأنا أول العابدين الموحدين لله المكذبين قولكم باضافة الولد اليه وقيل ان كان للرحمن ولد فى زعمكم فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد اذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد اهـ وقال ابن عباس ان نافية أى ما كان له ولد فانى أول من عبده رتبة وما علمت له ولدا ولو كان له ولد الا العبدته تقربا اليه بعبادة ولده وروى أن النضر بن عبد الدار ابن قصى قال ان الملائكة بنات الله تعالى فنزلت فقال النضر ألا ترون انه قد صدقنى فقال له الوليد بن المغيرة ما صدقك ولكن قال ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له ثم أنه تعالى نزه نفسه فقال (سبحان رب) أى مبدع ومالك (السموات والارض) أى اللتين كل ما فيهما ومن فيهما مقهور مربوب محتاج لا يصح أن يكون له منه سبحانه نسبة بغير العبودية بالايجاد والتربية * ولما كانت خاصة الملك أن يكون له ما لا يصل اليه غيره بوجه أصلا قال محققا للملكة لجميع ماسواه ومن سواه وملكه له ولم يعد العطف لان العرش من السموات (رب العرش) أى المختص به لكونه خاصة الملك الذى وسع كرسيه السموات والارض (عما يصفون) أى يقولون من الكذب من أن له ولدا أو شريكا وذلك ان اله العالم يجب أن يكون واجب الوجود لذاته وكل ما كان كذلك فهو لا يقبل التجزى بوجه من الوجوه والولد عبارة عن أن ينفصل عن الشئ جزء فيتولد عن ذلك الجزء شخص مثله وهذا انما يعقل فيمن تكون ذاته قابلة للتجزى والتبعيض واذا كان ذلك محالا فى حق اله العالم امتنع اثبات الولد * ولما ذكر تعالى هذا البرهان القاطع قال تعالى مسببا عن ذلك (فذرهم) أى اتركهم على أسوأ أحوالهم (يخوضوا) أى يفعلوا فى باطلهم فعل الخائض فى الماء (ويلعبوا) أى يفعلوا فعل اللاعب فى دنياهم (حتى يلاقوا) أى يفعلوا بتصرم أعمارهم فى فعل ما لا ينفعهم فعل المجتهدين فى أن يلقوا (يومهم الذى يوعدون) أى يوعد لا خلف فيه وهو يوم القيامة فيظهر فيه وعيدهم والمقصود منه التهديد لانه تعالى ذكر الحجة القاطعة على فساد ما ذكروا فلم يلتفتوا اليها لاجل استغراقهم فى طلب المال والجاه والرياسة فاتركهم فى ذلك الباطل واللعب حتى يصلوا الى ذلك اليوم الموعود به ثم زاد فى التنزيه فقال تعالى (وهو الذى فى السماء اله) أى معبود لا شريك له (وفى الارض اله) تتوجه الرغبات اليه فى جميع الاحوال وتخلص اليه فى جميع أوقات الاضطرار فقد وقع الاجماع من جميع من فى السماء والارض على الهيته فثبت استحقاقه لهذه الرتبة وثبت اختصاصه باستحقاقها فى الشدائد فباقى الاوقات كذلك من غير فرق لانه لا مشارك له فى هذا الاستحقاق فعبادة غيره باطلة وقرأ قالون والبزى بتسهيلها مع المد والقصر وقرأ أبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل

الثانية وابدالها أيضاً ألفا وقرأ الباقون بتحقيقهما *(تنبيه)* كل من الظرفين متعلق بما بعده لان اله بمعنى معبود أى معبود فى السماء ومعبود فى الارض وحينئذ يقال الصلة لا تكون الا جملة أو ما فى تقديرها وهو الظرف وعديله ولا شئ منهما هنا أجيب بأن المبتدا حذف لدلالة المعنى عليه وذلك المحذوف هو العائد تقديره وهو الذى هو فى السماء اله وهو فى الارض اله وانما حذف لطول الصلة بالمعمول فان الجار متعلق باله ومثله ما أنا بالذى قائل لك سوأ (وهو الحكيم) أى البليغ الحكمة فى تدبير خلقه (العليم) أى البالغ فى علمه بمصالحهم (وتبارك) أى وثبت ثباتا لا يشبهه ثبات لانه لا زوال له مع اليمن والبركة وكل كمال فلا شبيه له حتى يدعى أنه ولده أو شريك ثم وصفه تعالى بما يبين تباركيته واختصاصه بالالوهية فقال عز من قائل (الذى له ملك السموات) أى كلها (والارض) كذلك (وما بينهما) اى وما بين كل اثنين منهما والدليل على هذا الاجماع القائم على توحيده عند الاضطرار (وعنده) أى وحده (علم الساعة) أى العلم بالساعة التى تقوم القيامة فيها (واليه) أى وحده لا الى غيره (ترجعون) بأيسر أمر تحقيقا للملك وقطعا للنزاع فى وحدانيته وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالفوقية على الالتفات للتهديد (ولا يملك) أى بوجه من الوجوه فى وقت ما (الذين يدعون) أى يعبدون أى الكفار (من دونه) أى الله تعالى (الشفاعة) كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله وقوله تعالى (الا من شهد بالحق) أى قال لا اله الا الله فيه قولان أحدهما أنه متصل ان أريد بالموصول كل ما عبد من دون الله والمعنى لا يقدر هؤلاء أن يشفعوا الا لاحد الا من شهد بالحق (وهم يعلمون) أى بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم وهم عيسى ومريم وعزير والملائكة فانهم يملكون ان يشفعوا للمؤمنين بتمليك الله تعالى اياهم لها والثانى هو منقطع ان خص بالاصنام (ولئن سألتهم) أى الكفار مع ادعائهم الشريك (من خلقهم) أى العابدين والمعبودين معا (ليقولن الله) أى الذى له جميع صفات الكمال لتعذر المكابرة من فرط ظهوره (فأنى) أى فكيف وأى جهة بعد أن أثبتوا له الخلق والامر (يؤفكون) أى يصرفون عن اتباع رسولنا الآمر لهم بتوحيدنا فى العبادة كما أنا توحدنا فى الخلق وقرأ (وقيله) أى قول محمد صلى الله عليه وسلم عاصم وحمزة بخفض اللام والهاء على معنى وعنده علم الساعة وعلم قيله والباقون بنصب اللام ورفع الهاء على المصدر بفعله المقدر أى وقال (يارب ان هؤلاء قوم) أى أقوياء على الباطل ولم يضفهم الى نفسه بأن يقول قومى ونحو ذلك من العبارات ولاسماهم باسم قبيلتهم لما شانه من حالهم (لا يؤمنون) أى لا يتجدد منهم هذا الفعل أصلا (فاصفح) أى اعف عفو من أعرض (عنهم) صفحا فلا تلتفت اليهم بغير التبليغ (وقل) أى لهم (سلام) أى شأنى الآن متاركتكم بسلامتكم منى وسلامتى منكم قال ابن عباس وهذا منسوخ بآية السيف وقال الرازى وعندى التزام النسخ فى مثل هذه المواضع مشكل لان الامر لا يقيد بالفعل الامرة واحدة فسقطت دلالة اللفظ فأى حاجة الى التزام النسخ وأيضا فاللفظ المطلق قد يتقيد بحسب العرف فاذا كان كذلك فلا حاجة الى التزام النسخ

اهـ وجرى على النسخ الجلال المحلي فقال وهذا قبل أن يؤمر بقتالهم وقوله تعالى (فسوف يعلمون) فيه تهديد لهم وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وقرأ نافع وابن عامر بتاء الخطاب التفاتا والباقون بياء الغيبة نظرا لما تقدم وما قاله البيضاوي تبعا للزمخشري من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون حديث موضوع

﴿ سورة الدخان مكية ﴾

وقيل الا قوله تعالى انا كاشفوا العذاب قليلا الآية وهي ست أو سبع أو تسع وخمسون آية وثلثمائة وست وأربعون كلمة وألف وأربعمائة واحد وثلاثون حرفا

(بسم الله) الملك الجبار الواحد القهار (الرحمن) الذي عم بنعمته سائر مخلوقاته (الرحيم) بأهل وداده وقوله تعالى (حم) قرأه ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بامالة الحاء محضة وقرأه ورش وأبو عمرو بالامالة بين بين والباقون بالفتح وتقدمت الاشارة الى شئ من أسرار أخواتها وقوله تعالى (والكتاب المبين) فيه احتمالان الاول أن يكون التقدير هذه حم والكتاب المبين كقولك هذا زيد والله الثاني أن يكون التقدير حم والكتاب المبين (انا أنزلناه) فيكون في ذلك تقدير قسمين على شئ واحد ويجوز أن يكون انا أنزلناه جواب القسم وأن يكون اعتراضا والجواب قوله تعالى انا كنا منذرين واختاره ابن عطية وقيل انا كنا مستأنف وفيها يفرق يجوز أن يكون مستأنفا وأن يكون صفة ليلة وما بينهما اعتراض *(تنبيه)* يجوز أن يكون المراد بالكتاب هنا الكتب المتقدمة المنزلة على الانبياء عليهم السلام كما قال تعالى لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب ويجوز أن يكون المراد به اللوح المحفوظ قال الله تعالى يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وقال تعالى وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ويجوز أن يكون المراد به القرآن واقتصر على ذلك البيضاوي وتبعه الجلال المحلي وعلى هذا فقد أقسم بالقرآن أنه أنزل القرآن في ليلة مباركة وهذا النوع من الكلام يدل على غاية تعظيم القرآن فقد يقول الرجل اذا أراد تعظيم الرجل له اليه حاجة أتشفع بك اليك وأقسم بحقك عليك وجاء في الحديث أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناء عليك والمبين هو المشتمل على بيان ما بالناس من حاجة اليه في دينهم ودنياهم فوصفه بكونه مبينا وان كانت حقيقة الابانة لله تعالى لان الابانة حصلت به كقوله تعالى أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون فوصفه بالتكلم اذ كان غاية في الابانة فكأنه ذو لسان ينطق مبالغة في وصفه واختلف في قوله سبحانه وتعالى (في ليلة مباركة) فقال قتادة وابن زيد وأكثر المفسرين هي ليلة القدر وقال عكرمة وطائفة انها ليلة البراءة وهي ليلة النصف من شعبان واحتج الاولون بوجوه الاول قوله تعالى انا أنزلناه في ليلة القدر فقوله تعالى انا أنزلناه في ليلة مباركة يجب أن تكون هي تلك الليلة

المسماة

المسماة بليلة القدر لئلا يلزم التناقض ثانيها قوله تعالى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن فقوله تعالى ههنا انا أنزلناه فى ليلة مباركة يجب أن تكون هذه الليلة المباركة فى رمضان فثبت انها ليلة القدر ثالثها قوله تعالى فى صفة ليلة القدر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر وقال تعالى ههنا فيها يفرق كل أمر حكيم وقال ههنا رحمة من ربك وقال تعالى فى ليلة القدر سلام هى واذا تقاربت الاوصاف وجب القول بأن احدى الليلتين هى الاخرى رابعها نقل محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره عن قتادة انه قال نزلت صحف ابراهيم فى أول ليلة من رمضان والتوراة لست ليال منه والزبور لثنتى عشرة ليلة مضت منه والقرآن لاربع وعشرين مضت من رمضان والليلة المباركة هى ليلة القدر خامسها ان ليلة القدر انما سميت بهذا الاسم لان قدرها وشرفها عند الله عظيم ومعلوم أن قدرها وشرفها ليس بسبب نفس الزمان لان الزمان شئ واحد فى الذات والصفات فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته فثبت أن شرفه وقدره بسبب أنه حصل فيه أمور شريفة لها قدر عظيم ومن المعلوم ان منصب الدين أعظم من مناصب الدنيا وأعظم الاشياء وأشرفها شعبا فى الدين هو القرآن لانه ثبت به نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبه ظهر الفرق بين الحق والباطل كما قال تعالى فى صفته ومهيمنا عليه وبه ظهرت درجات أرباب السعادات ودركات أرباب الشقاوات فعلى هذا لاشئ الا والقرآن أعظم قدرا وأعلى ذكرا وأعظم منصبا وحيث أطبقوا على أن ليلة القدر هى التى وقعت فى رمضان علمنا أن القرآن انما أنزل فى تلك الليلة وهذه أدلة ظاهرة واضحة واحتج الآخرون على أنها ليلة النصف من شعبان بوجوه أولها أن لها اربعة أسماء الليلة المباركة وليلة البراءة وليلة الصك وليلة الرحمة وقيل بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة وقيل فى تسميتها ليلة البراءة والصك ان البندار اذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة وكذلك الله تعالى يكتب لعباده المؤمنين البراءة فى هذه الليلة ثانيها انها مختصة بخمس خصال الاولى قال تعالى فيها يفرق كل أمر حكيم والثانية فضيلة العبادة فيها روى الزمخشرى أنه صلى الله عليه وسلم قال من صلى فى هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله تعالى اليه مائة ملك ثلاثون يبشرونه بالجنة وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا وعشرة يدفعون عنه مكايد الشيطان ثالثها نزول الرحمة قال صلى الله عليه وسلم ان الله يرحم أمتى فى هذه الليلة بعدد شعر أغنام بنى كلب رابعها حصول المغفرة فيها قال صلى الله عليه وسلم ان الله يغفر لجميع المسلمين فى تلك الليلة الا الكاهن والساحر ومدمن الخمر وعاق والديه والمصر على الزنا خامسها أنه تعالى أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الليلة تمام الشفاعة فى أمته قال الزمخشرى وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان فى أمته فأعطى الثلث منها ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطى الثلثين ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطى الجميع الا من شرد عن الله شرود البعير اه وروى أن عطية الحروري سأل ابن عباس عن قوله تعالى انا أنزلناه فى ليلة القدر كيف يصح ذلك مع أن الله تعالى أنزل القرآن فى جميع الشهور فقال ابن عباس يا ابن الاسود لو هلكت أنا ووقع فى نفسك هذا ولم

تحرجوابه اهلكت نزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ الى البيت المعمور فى السماء الدنيا ثم نزل بعد ذلك فى أنواع الوقائع حالا فحالا وقال قتادة وابن زيد أنزل الله تعالى القرآن فى ليلة القدر من أم الكتاب الى السماء الدنيا ثم نزل به جبريل عليه السلام على النبى صلى الله عليه وسلم نجوما فى عشرين سنة وقوله تعالى (انا) أى على مالنا من العظمة (كنا) أى دائما العباد نا (منذرين) أى مخوفين استئناف بين به المقتضى للانزال وكذلك قوله تعالى (فيها) أى الليلة المباركة سواء قلنا انها ليلة القدر أو ليلة النصف (يفرق) أى ينشر ويبين ويفصل ويوضح مرة بعد مرة (كل أمر حكيم) أى محكم الامر لا يستطاع أن يطعن فيه بوجه من جميع ما يوحى به من الكتب وغيرها والارزاق والآجال والنصر والهزيمة والخصب والقحط وغيرها من جميع أقسام الحوادث وجزئياتها فى أوقاتها وأماكنها ويبين ذلك للملائكة من تلك الليلة الى مثلها من العام المقبل فيجدونه سواء فيزدادون بذلك ايمانا قال ابن عباس يكتب فى أم الكتاب فى ليلة القدر ما هو كائن فى السنة من الخير والشر والارزاق والآجال حتى الحجاج يقال يحج فلان ويحج فلان وقال الحسن ومجاهد وقتادة يبرم فى ليلة القدر فى شهر رمضان كل عمل وأجل وخلق ورزق وما يكون فى تلك السنة وقال عكرمة ليلة النصف من شعبان يبرم فيها أمر السنة وتنسخ الاحياء من الاموات فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أحد قال صلى الله عليه وسلم تقطع الآجال من شعبان الى شعبان حتى ان الرجل لينكح النساء ويولد له وقد خرج اسمه فى ديوان الموتى وعن ابن عباس ان الله تعالى يقضى الاقضية فى ليلة النصف من شعبان ويسلمها الى أربابها فى ليلة القدر وروى أن الله تعالى أنزل القرآن من اللوح المحفوظ فى ليلة البراءة ووقع الفراغ فى ليلة القدر فدفع نسخة الارزاق الى ميكائيل ونسخة الحروب الى جبريل وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ونسخة الاعمال قال ابن عادل الى اسرافيل وقال الزمخشرى الى اسمعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب الى ملك الموت قال الزمخشرى وعن بعضهم يعطى كل عامل بركات أعماله فيلقى على ألسنة الخلق مدحه وعلى قلوبهم هيبته وقوله تعالى (أمرا) أى فرقا حال من فاعل أنزلناه أو من مفعوله أى أنزلناه آمرين أو مأمورا به كائنا (من عندنا) على مقتضى حكمتنا وقوله تعالى (انا كنا) أى أزلا وأبدا (مرسلين) جواب ثالث أو مستأنف أو بدل من قوله تعالى انا كنا منذرين أى انا صفة الارسال بالقدرة عليها فى كل حين والارسال لمصالح العباد لا بد فيه من الفرقان بالبشارة والنذارة وغيرهما حتى لا يكون لبس فلا يكون لاحد على الله تعالى حجة قال البقاعى وهذا الكلام المنتظم والقول الملتئم بعضه ببعض المتراصف أجل رصف فى وصف ليلة الانزال دال على انه لم ينزل صحيفة ولا كتابا الا فى هذه الليلة فيدل على أنها ليلة القدر وللاحاديث الواردة فى أن الكتب كلها نزلت فيها وكذلك قوله تعالى فى سورة القدر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر فان الوحى الذى هو مجمع ذلك هو روح الامر الحكيم ثم بين تعالى حال الرسالات بقوله تعالى (رحمة) وعدل لاجل

ما اقتضاه التعبير بالرحمة عما كان من أسلوب التكلم بالعظمة من قوله منا الى قوله تعالى (من ربك) أى المحسن اليك بارسالك وارسال كل نبى مضى من قبلك فان رسالاتهم كانت اب الانوار فى العبادات وتمهيد الشرائع فى البلاد حتى استنارت القلوب واطمأنت النفوس بما صارت تعهده من شرع الشرائع وتوطئة الاديان فتسهلت طرق الرب لتعميم رسالتك حتى ملأت أنوارك الآفاق فكنت نتيجة كل من تقدمك من الرفاق وقال ابن عباس معنى رحمة من ربك أى رأفة منى بخلقى ونعمة عليهم بما بعثنا اليهم من الرسل وقال الزجاج أنزلناه فى ليلة مباركة للرحمة (انه هو) أى وحده (السميع العليم) أى ان تلك الرحمة كانت رحمة فى الحقيقة لان المحتاجين اما أن يذكروا حاجاتهم بالسنتهم أو لم يذكروها فان ذكروها فانه سميع وان لم يذكروها فهو تعالى عالم بها (رب) أى مالك ومنشئ ومدبر (السموات) أى جميع الاجرام العالية (والارض وما بينهما) مما تشاهدون من هذا الفضاء وما فيه من الهواء وغيره مما تعلمون من اكتساب العباد وغيرها مما لا تعلمون ومن المعلوم انه ذو العرش والكرسى فعلم بهذا انه مالك الملك كله وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بخفض الباء الموحدة على البدل أو البيان أو النعت والباقون برفعها على اضمار مبتدا أو على انه مبتدأ خبره لا اله الا هو والمقصود من هذه الآية ان المنزل اذا كان موصوفا بهذه الجلالة والكبرياء كان المنزل الذى هو القرآن فى غاية الشرف والرفعة (فان قيل) ما معنى الشرط الذى هو قوله تعالى (ان كنتم موقنين) (أجيب) بأنهم كانوا يقرون بأن للسموات والارض ربا وخالقا فقيل لهم ان كنتم يا أهل مكة موقنين بأنه تعالى رب السموات والارض فأيقنوا بأن محمدا عبده ورسوله * ولما ثبت بهذا النظر الصافى ربوبيته وبعدم اختلال التدبير على طول الزمان وحدانيته أنتج ذلك قوله تعالى (لا اله الا هو) أى والا لنازعه فى أمرهما منازع أو أمكن أن ينازع فيكون محتاجا لا محالة والا لدفع عنه من يمكن نزاعه له وخلافه اياه فلا يكون صالحا للتدبير والقهر لكل من يخالف رسله والانجاء لكل من يوافقهم على ممر الزمان وتطاول الدهر ومر الحدثان على نظام مستمر وحال ثابت مستقر ولما ثبت انه لا مدبر للوجود غيره ثبت قوله تعالى (يحيى ويميت) لان ذلك من أجل ما فيهما من التدبير وهو تنبيه على تمام دلائل التوحيد لانه لا شئ ممن فيهما يبقى ليسند التدبير اليه ويحال شئ من الامر عليه فهما جملتان الاولى نافية لما أثبتوه من الشركة والثانية مثبتة لما نفوه من البعث (ربكم) أى الذى أفاض عليكم ما تشاهدونه من النعم فى الارواح وغيرها (ورب آبائكم الاولين) أى الذى أفاض عليهم ما أفاض عليكم ثم سلبهم ذلك كما تعلمون فلم يقدر أحد منهم على ممانعة ولا طمع فى منازعة بنوع مدافعة (بل هم) أى بضمائرهم (فى شك) أى من البعث (يلعبون) أى يفعلون دائما فعل التارك لما هو فيه من أخذ الجد الذى لا مرية فيه الى اللعب الذى لا فائدة فيه ولا ثمرة له بوجه استهزاء بك يا أشرف الرسل فقال صلى الله عليه وسلم اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف قال تعالى (فارتقب) أى انتظر بكل جهدك عاليا عليهم ناظرا لاحوالهم نظر من هو حارس

لها (يوم تأتى السماء بدخان مبين) أى ظاهر (يغشى الناس) أى المهتدين بهذا فقالوا اعتداءاً بأنه
(هذا عذاب أليم) أى يخلص وجعه الى القلب فيبالغ فى ألمه كما كنتم تولمون من يدعوكم الى الله
تعالى واختلف فى هذا الدخان فروى أبو الصفاء عن مسروق قال بينما رجل يحدث فى كندة
قال يجىء دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمن كهيئة الزكام
ففزعنا فأتينا ابن مسعود وكان متكئا فغضب فجلس فقال من علم فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم
فان من العلم أن تقول لما لا تعلم لا أعلم فان الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم قل ما أسألكم
عليه من أجر وما أنا من المتكلفين فان قريشا ابطؤا عن الاسلام فدعاهم النبى صلى الله عليه
وسلم فقال اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة
والعظام ويرى الرجل ما بين السماء والارض كهيئة الدخان فجاءه أبو سفيان فقال يا محمد جئت
تأمر بصلة الرحم وان قومك قد هلكوا فادع الله تعالى لهم فقرأ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان
مبين الى قوله تعالى عائدون وهذا قول ابن عباس ومقاتل ومجاهد واختيار الفراء والزجاج
وهو قول ابن مسعود وكان ينكر أن يكون الدخان الا هذا الذى أصابهم من شدة الجوع كالظلمة فى
أبصارهم حتى كانوا كأنهم يرون دخانا وذكر ابن قتيبة فى تفسير الدخان فى هذه الحالة وجهين
الاول ان فى سنة القحط يعظم يبس الارض فبسبب انقطاع المطر يرتفع الغبار الكثير ويظلم
الهواء وذلك يشبه الدخان ويقولون كان بيننا امر ارتفع له دخان ولهذا يقال للسنة المجدبة
الغبراء الثانى ان العرب يسمون الشئ الغالب بالدخان والسبب فيه ان الانسان اذا اشتد خوفه
أو ضعفه أظلمت عيناه ويرى الدنيا كالمملوأة من الدخان ونقل عن على بن أبى طالب انه دخان
يظهر فى العالم وهو احدى علامات القيامة ويروى أيضا عن ابن عباس فى المشهور عنه لما روى
عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أول الآيات الدخان ونزول عيسى بن مريم ونار تخرج من
قعر عدن تسوق الناس الى المحشر تبيت معهم اذا باتوا وتقيل معهم اذا قالوا قال حذيفة يا رسول
الله وما الدخان فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية وقال يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث
أربعين يوما وليلة أما المؤمن فيصيبه كالزكمة وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه
وأذنيه ودبره وتكون الارض كلها كبيت أوقد فيه النار وقال صلى الله عليه وسلم باكروا
بالاعمال ستا وذكر منها طلوع الشمس من مغربها والدخان والدابة رواه الحسن واحتج الاولون
بأنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون (ربنا اكشف عنا العذاب) ثم عللوا ذلك بما علموا انه
الموجب للكشف فقالوا مؤكدين (انا مؤمنون) أى عريقون فى وصف الايمان فاذا حمل
على القحط الذى وقع بمكة استقام فانه نقل ان الامر لما اشتد على أهل مكة مشى اليه أبو سفيان
فناشده الله والرحم وواعده ان دعا لهم وأزال عنهم تلك البلية أن يؤمنوا به فلما أزالها الله عنهم
رجعوا الى شركهم أما اذا حمل على ان المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة لم يصح ذلك
لان عند ظهور علامات القيامة لا يمكنهم أن يقولوا ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون
ولم يصح أيضا أن يقال انا كاشفو العذاب قليلا انكم عائدون قال البقاعى ويصح أن يراد به

طلوع

طلوع الشمس من مغربها روى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون وذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها ثم قرأ الآية (أنى) أى كيف ومن أين (لهم الذكرى) أى هذا التذكر العظيم الذى وصفوا به أنفسهم وقرأ حمزة والكسائى انى بالامالة محضة وقرأ أبو عمرو بالامالة بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وأمال الذكرى محضة أبو عمرو وحمزة والكسائى وأمال ورش بين بين والباقون بالفتح وكذلك الكبرى (وقد) أى والحال أنه قد (جاءهم) ماهو أعظم من ذلك وأدخل فى وجوب الطاعة (رسول مبين) أى ظاهر غاية الظهور وموضح غاية الايضاح وهو محمد صلى الله عليه وسلم وأظهر دال قد نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم وأدغمها الباقون (ثم تولوا عنه) أى أطاعوا مادعاهم الى الادبار عنه من دواعى الهوى ونوازع الشهوات والحظوظ (وقالوا) أى زيادة على اساءتهم بالتولى (معلم) أى علمه غيره القرآن من البشر قال بعضهم علمه غلام أعجمى لبعض ثقيف وقال آخرون انه (مجنون) أى يلقى الجن اليه هذه الكلمات حال مايعرض له الغشى (انا) أى على مالنا من العظمة (كاشفو العذاب) أى بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم فانه دعا فرفع عنهم القحط (قليلا) أى زمنا يسيرا قيل الى يوم بدر وقيل مابقى من أعمارهم (انكم عائدون) أى ثابت عودكم عقب كشفنا عنكم الى الكفران لما فى جبلاتكم من العوج وطباعكم من المبادرة الى الزلل فايمانكم هذا الذى أخبرتم برسوخه عرض زائل وخيال باطل وقوله تعالى (يوم نبطش) أى بمالنا من العظمة (البطشة الكبرى) أى يوم بدر منصوب باذكر أو بدل من يوم تأتى والبطش الاخذ بقوة (انا منتقمون) أى منهم فى ذلك اليوم وهو قول ابن عباس وأكثر العلماء وفى رواية عن ابن عباس انه يوم القيامة (ولقد فتنا) أى اختبرنا بمالنا من العظمة فعل الفاتن وهو المختبر الذى يريد أن يعلم حقيقة الحال بالابلاء والتمكين ثم الارسال (قبلهم) أى هؤلاء العرب ليكون ماضى من خبرهم عبرة لهم (قوم فرعون) أى مع فرعون لان ما كان فتنة لقومه كان فتنة له لان الكبير أرسخ فى الفتنة بما أحاط به من الدنيا وسيأتى التصريح به فى آخر القصة (وجاءهم) أى فرعون وقومه زيادة فى فتنتهم (رسول كريم) هو موسى عليه السلام قال الكلبى كريم على ربه بمعنى أنه تعالى أعطاه أنواعا كثيرة من الاكرام وقال مقاتل حسن الخلق وقال الفراء يقال فلان كريم قومه قيل مابعث نبى الامن أشراف قومه وأكرمهم ثم فسر مابلغهم من الرسالة بقوله (ان أدوا الى) ما أدعوكم اليه من الايمان أى أظهروا طاعتكم بالايمان لى يا (عباد الله) أو أطلقوا بنى اسرائيل ولا تعذبوهم وأرسلوهم معى كقوله فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم (انى لكم) أى خاصة بسبب ذلك (رسول) أى من عند الله الذى لا تكون الرسالة الكاملة الامنه (أمين) أى بالغ الامانة لان الملك الديان لا يرسل الا الامين كان كذلك وقوله عليه السلام (وأن لا تعلوا) معطوف على أن الاولى وأن هذه مقطوعة فى الرسم والمعنى لا تتكبروا (على الله) تعالى باهانة وحيه ورسوله (انى آتيكم بسلطان) أى برهان (مبين) أى بين على رسالتى فتوعدوه حين قال لهم ذلك بالرجم فقال

(وانى عذت) أى اعتصمت وامتنعت (بربى) الذى رباني على ما اقتضاه لطفه واحسانه الى (وربكم) الذى أعاذنى من تكبركم وقوة مكنتكم (أن ترجمون) أى أن يتجدد فى وقت من الاوقات قتل منكم لى فانى قلت انى أخاف أن يقتلون فقال تعالى سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا فى أعظم آياتى أن لا تصلوا مع قوتكم وكثرتكم الى قتلى مع أنه لا قوة لى بغير الله الذى أرسلنى وقال ابن عباس أن ترجمون بالقول وهو الشتم وتقولوا هو ساحر وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى عذت بادغام الذال فى التاء والباقون بالاظهار وقرأ ورش باثبات الياء بعد النون فى ترجمون فى الوصل دون الوقف والباقون بغير ياء وقفا ووصلا وكذلك فاعتزلون الآتى * ولما كان التقدير فان آمنتم بذلك وسلمتم لى أفلحتم عطف عليه قوله تعالى (وان لم تؤمنوا لى) أى تصدقوا الاجل ما أخبرتكم به (فاعتزلون) أى كونوا بمعزل منى لا على ولا لى فلا تتعرضوا الى بسوء فانه ليس جزاء دعائكم الى ما فيه فلاحكم والفاء فى قوله تعالى (فدعا) تدل على أنه متصل بمحذوف قبله وتأويله أنهم كفروا ولم يرضوا فدعا موسى عليه السلام (ربه) الذى أحسن اليه سياسته وسياسة قومه ثم فسر ما دعا به بقوله (ان هؤلاء) أى الحقيرين الاذلين الارذلين (قوم) لهم قوة على القيام فيما يحاولونه (مجرمون) أى موصوفون بالعراقة فى قطع ما أمرت به أن يوصل (فان قيل) الكفر أعظم حالا من الجرم فما السبب فى أنه جعل الكفار مجرمين حين أراد المبالغة فى ذمهم (أجيب) بأن الكافر قد يكون عدلا فى دينه وقد يكون فاسقا فى دينه والفاسق فى دينه أخس الناس ثم تسبب عن دعائه لانه ممن يستجاب دعاؤه قوله تعالى (فأسر بعبادى) أى بنى اسرائيل الذين أرسلناك لاسعادهم باستنقاذهم ممن يظلمهم وتفريغهم لعبادتى وقوله تعالى (ليلا) نصب على الظرفية والاسراء سير الليل فذكر الليل تأكيد بغير اللفظ وانما أمره بالسير بالليل لانه أوقع بالقبط موت الابكار ليلا فأمر موسى أن يخرج بقومه فى ذلك الوقت خوفا من أن يموتوا مع القبط * ولما علم الله تعالى أنهم ان تأخروا الى أن يطلع الفجر و يرتفع عنهم الموت منعوهم الخروج وان تأخروا الى آخر الليل أدركوهم قبل الوصول الى البحر فقتلوهم علل هذا الامر بقوله مؤكدا له لان حال القبط عندما أمرهم بالخروج كان حال من لا يتهيأ له الخروج فى قوله (انكم متبعون) أى مطلوبون بغاية الجهد من عدوكم فلا يغرنكم ما هم فيه عند أمركم بالخروج من الجزع من اقامتكم بين أظهرهم وسؤالهم لكم فى الخروج عنهم بسبب وقوع الموت الناشئ فيهم فان القلوب بيد الله تعالى فهو ينسى قلب فرعون بعد رؤية هذه الآيات حين يرتفع عنهم الموت ويفرغون من دفن موتاهم فيطلبكم لما دبرته فى القدم من سياستكم باغراقهم أجمعين ليظهر مجدى بذلك وأدفع عنكم روع مدافعتهم فانى أعلم أنه لا قوة لكم ولا طاقة بكم فلم أكلفكم بمباشرة شئ من أمرهم وقرأ نافع وابن كثير فاسر بوصل الهمزة بعد الفاء والباقون بقطعها قال الزمخشرى وفيه وجهان اضمار القول بعد الفاء أى فقال اسر بعبادى وجواب شرط مقدر كأنه قال ان كان الامر كما تقول فأسر بعبادى قال أبو حيان وكثيرا

مايدعى حذف الشرط ولايجوز الا لدليل واضح كان تقدمه الامر أو ما أشبهه يقال سرى وأسرى لغتان * ولما أمره بالاسراء أمره بما يفعل فيه فقال تعالى (واترك البحر) أى اذا سريت بهم وتبعك العدو ووصلت بعد اليه وأمرناك بضربه لينفتح لتدخلوا فيه فدخلتم ونجيتم (رهوا) بعد خروجكم منه بأجمعكم وفى الرهو وجهان أحدهما أنه الساكن أى اتركه ساكنا كما قال الاعشى

يمشين رهوا فلا الاعجاز خاذلة * ولا الصدور على الاعجاز تتكل

أى مشيا ساكنا على هينة قارا على حاله بحيث يبقى المرتفع من مائه مرتفعا والمنخفض منخفضا كالجدار وطريقه الذى سرتم به يابسا اذا سير سهل على الحالة التى دخلتم فيها الان موسى لما جاوز البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق فأمر أن يتركه ساكنا على هيئته قارا على حاله ليدخله القبط فاذا حصلوا فيه أطبقه الله تعالى عليهم والثانى أن الرهو الفجوة الواسعة وعن بعض العرب انه رأى جملا فالجا فقال سبحان الله رهو بين سنامين أى اتركه مفتوحا على حاله منفرجا (انهم جند مغرقون) أى متمكنون فى هذا الوصف وان كان لهم وصف القوة والتجمع الذى محطه النجدة الموجبة للعلو فى الامور * ولما أخبر تعالى عن غرقهم أخبر عن متخلفهم بقوله تعالى (كم تركوا) أى كثيرا ترك الذين سبق الحكم باغراقهم فغرقوا (من جنات) أى بساتين هى فى غاية ما يكون من طيب الارض وكثرة الاشجار وزكاء الثمار والنبات وحسنها الذى يستر الهموم ودل على كرم الارض بقوله تعالى (وعيون وزروع) أى ما هو دون الاشجار وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى بكسر العين والباقون بضمها ثم أخبر عن منازلهم بقوله تعالى (ومقام كريم) أى مجلس شريف هو أهل لان يقوم الانسان فيه لانه فى النهاية فيما يرضيه (ونعمة) وهى اسم للتنعم بمعنى الترفه والعيش اللين الرغد (كانوا فيها) أى دائما (فاكهين) أى فعلهم فى عيشهم فعل المتفكه المترفه لافعل من يضطر الى اقامة نفسه وقوله تعالى (كذلك) خبر لمبتدا مضمر أى الامر كما أخبرنا به من تنعمهم واخراجهم واغراقهم وانهم تركوا جميع ما كانوا فيه لم يغن عنهم شيء منه فلا يغتر أحد بما ابتليناه من النعم لئلا نصنع به من الاهلاك ما صنعناهم وقوله تعالى (وأورثناها) أى تلك الامور العظيمة عطف على تركوا (قوما) أى ناسا ذوى قوة فى القيام على ما يحاولونه وحقق انهم غيرهم تحقيقا لاغراقهم بقوله تعالى (آخرين) ليسوا منهم فى شيء وهم بنو اسرائيل وقيل غيرهم لانهم لم يعودوا الى مصر بل سكنوا الارض المقدسة ولما سكن القوم الآخرون بمصر ورثوا كنوزها وأموالها ونعمها ومقامها الكريم وقوله تعالى (فما بكت عليهم السماء والارض) مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم لهوانهم واذا لم تبك المساكن فما ظنك بالساكن الذى هو فيها تقول العرب اذا مات رجل خطير فى تعظيم مهلكه بكت عليه السماء والارض وبكته الريح وأظلمت له الشمس قال الفرزدق

فالشمس طالعة ليست بكاسفة * تبكى عليك نجوم الليل والقمر

وقالت الخارجية

أيا شجر الخابور مالك مورقا * كأنك لم تجزع على ابن طريف

وقال جرير

لما أتى خبر الزبير تواضعت * سور المدينة والجبال الخشع

وذلك على سبيل التخييل والتمثيل مبالغة فى وجوب الجزع والبكاء عليه قال الزمخشرى وكذلك ما روى عن ابن عباس من بكاء مصلى المؤمن وآثاره فى الارض ومصاعد عمله ومهابط رزقه فى السماء تمثيل ونفى ذلك عنهم فى قوله تعالى فما بكت عليهم السماء والارض تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده فيقال فيه بكت عليه السماء والارض اه وروى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال مامن مسلم الا وله فى السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله فاذا مات وفقداه بكيا عليه وتلا هذه الآية وقال على رضى الله عنه ان المؤمن اذا مات بكى عليه مصلاه من الارض ومصعد عمله من السماء وعن الحسن فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون بل كانوا بهلاكهم مسرورين يعنى فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الارض وقال عطاء بكاء السماء حمرة أطرافها وقال السدى لما قتل الحسين بن على رضى الله عنهما بكت عليه السماء وبكاؤها حمرتها وقرأ أبو عمرو عليهم فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضمهما والباقون بكسر الهاء وضم الميم وأما الوقف فحمزة بضم الهاء والباقون بالكسر (وما كانوا منظرين) أى لما جاء وقت هلاكهم لم يمهلوا الى وقت آخر لتوبة وتدارك تقصير * ولما كان انقاذ بنى اسرائيل من القبط أمرا باهرا لا يكاد يصدق فضلا عن أن يكون باهلاك أعدائهم أكد سبحانه الاخبار بذلك اشارة الى ما يحق له من العظمة تنبيها على أنه قادر أن يفعل بهذا النبى صلى الله عليه وسلم وأتباعه كذلك وان كانت قريش يرون ذلك محالا وانهم فى قبضتهم فقال تعالى (ولقد نجينا) أى بما لنا من العظمة تنجية عظيمة (بنى اسرائيل) عبدنا المخلص لنا (من العذاب المهين) أى من استعباد فرعون وقتله ابناءهم وقوله تعالى (من فرعون) بدل من العذاب على حذف المضاف أو جعله عذابا لافراطه فى التعذيب أو حال من المهين أى واقعا من جهته (انه كان عاليا) أى فى جبلته العراقة فى العلو (من المسرفين) أى العريقين فى مجاوزة الحدود (ولقد اخترناهم) أى بنى اسرائيل بمالنا من العظمة (على علم) أى عالمين بأنهم أحقاء بأن يختاروا ويجوز أن يكون المعنى مع علم منا بانهم يزيغون ويفرط منهم الفرطات فى بعض الاحوال * ثم بين المفضل عليه بعد ان بين المفضل بقوله تعالى (على العالمين) أى الموجودين فى زمانهم بما أنزلنا عليهم من الكتب وأرسلنا اليهم من الرسل وقيل على الناس جميعا لكثرة الانبياء منهم وقيل عام دخله التخصيص ثم بين آثار الاختيار بقوله تعالى (وآتيناهم) أى على مالنا من العظمة (من الآيات) أى العلامات الدالة على عظمتنا واختيارنا لهم من حين أتى موسى عبدنا عليه السلام فرعون الى أن فارقهم بالوفاة وبعد وفاته على أيدى الانبياء المقررين للشريعة عليهم السلام (مافيه بلاء) أى اختبار مثله يميل من ينظره أو يسمعه الى غير ما كان عليه وذلك بفرق البحر وتظليل الغمام وانزال المن

والسلوى وغير ذلك مما رأوه من الآيات التسع (مبين) أى بين فى نفسه موضح لغيره (ان هؤلاء) اشارة الى كفار قريش لان الكلام فيهم وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على انهم مثلهم فى الاصرار على الضلالة والانذار على مثل ما حل بهم (ليقولون) أى بعد قيام الحجة البالغة عليهم مبالغين فى الانكار (ان) أى ما (هى) وقولهم (الاموتتنا) على حذف مضاف أى ما الحياة الاحياة موتتنا (الاولى) التى كانت قبل نفخ الروح كاسيأتى ان شاء الله تعالى فى الجاثية ان هى الاحياتنا الدنيا وقال الجلال المحلى ان هى ما الموتة التى بعدها الحياة الاموتتنا الاولى أى وهم نطف وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وأبو عمرو بين بين و ورش بالفتح و بين اللفظين والباقون بالفتح (وما نحن بمنشرين) أى بمبعوثين بحيث نصير ذوى حركة اختيارية تنتشر بها بعد الموت يقال نشره وأنشره أحياه ثم احتجوا على نفى الحشر والنشر بقولهم (فأتوا) أى أيها الزاعمون أنا نبعث بعد الموت (بآبائنا) أى لكونهم نعرفهم ونعرف وفور عقولهم (ان كنتم صادقين) أى بانا صادقكم فى أنا نبعث يوم القيامة أحياء بعد الموت ثم خوفهم الله تعالى بمثل عذاب الامم الخالية فقال تعالى (أهم خير) أى فى الدين والدنيا (أم قوم تبع) أى ليسوا خيرا منهم فهو استفهام على سبيل الانكار قال أبو عبيدة ملوك اليمن كل واحد منهم يسمى تبعا لان أهل الدنيا كانوا يتبعونه وموضع تبع فى الجاهلية موضع الخليفة فى الاسلام وهم الاعاظم فى ملوك العرب وقال قتادة هو تبع الحميرى وكان من ملوك اليمن سمى بذلك لكثرة أتباعه وكان هذا يعبد النار فأسلم ودعا قومه وهم حمير الى الاسلام فكذبوه ولذلك ذم الله تعالى قومه ولم يذمه وعن النبى صلى الله عليه وسلم لا تسبوا تبعا فانه كان قد أسلم وعنه صلى الله عليه وسلم ما أدرى أكان تبع نبيا أو غير نبى وعن عائشة رضى الله عنها قالت لا تسبوا تبعا فانه كان رجلا صالحا وذكر عكرمة عن ابن عباس انه كان تبع الآخر وهو أبو كرب أسعد بن ملك وكان سار بالجيوش نحو المشرق وحير الحيرة وبنى قصر سمرقند وملك بقومه الارض طولها والعرض وكان أقرب المملكين الى قريش زمانا ومكانا وكان له بمكة المشرفة ما ليس لغيره من الآثار قال الرازى فى اللوامع هو أول من كسا البيت ونحر بالشعب ستة آلاف بدنة وأقام به ستة أيام وطاف به وحلق قال البغوى بعد أن ذكر قصته مع الانصار لما قتل ابنه غيلة فى المدينة الشريفة وما وعظه به اليهود فى الكف عن خراب المدينة لانها مهاجر نبى من قريش انه صدقهم واتبع دينهم وذلك قبل نسخه وعن الرياشى آمن تبع بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل ان يبعث بسبعمائة عام (فان قيل) ما معنى قوله تعالى أهم خير أم قوم تبع مع انه لا خير فى الفريقين (أجيب) بأن معناه أهم خير فى القوة والشوكة كقوله تعالى أكفاركم خير من أولئكم بعد ذكر آل فرعون ويجوز فى قوله تعالى (والذين من قبلهم) أى مشاهير الامم كمدين وأصحاب الايكة والرس وثمود وعاد ثلاثة أوجه أحدها أن يكون معطوفا على قوم تبع ثانيها أن يكون مبتدأ وخبره (أهلكناهم) أى بعظمتنا وان كانوا أصحاب مكنة وقوة وأما على الاول فأهلكناهم اما مستأنف واما حال من الضمير المستكن فى الصلة ثالثها أن يكون منصوبا بفعل مقدر يفسره أهلكناهم ولا محل لاهلكناهم حينئذ (انهم

كانوا) أى جبلة وطبعا (مجرمين) أى عريقين فى الاجرام فليحذر هؤلاء ان ارتكبوا مثل أفعالهم من مثل حالهم * ولما أنكر تعالى على كفار مكة قولهم ووصفهم بأنهم أضعف ممن كان قبلهم ذكر الدليل القاطع على صحة القول بالبعث والقيامة فقال تعالى (وما خلقنا السموات) أى على عظمها واتساع كل واحدة منها واحتوائها لما فيها وجمعها لان العمل كلما ازداد كان أبعد عن العبث * ولما كان الدليل على تطابق الارض دليلا دقيقا وحدها بقوله تعالى (والارض) أى على ما فيها من المنافع (وما بينهما) أى النوعين وبين كل واحدة منهما وما يليها (لاعبين) أى على ما لنا من العظمة التى يدرك من له أدنى عقل تعاليها عن اللعب لانه لا يفعله الا ناقص ولو تركنا الناس يبغى بعضهم على بعض كما تشاهدون ثم لا نأخذ لضعيفهم بحقه من قويهم لكان خلقنا لهم لعبا بل اللعب أخف منه ولم نكن على ذلك القدير مستحقين للصفة القدسية وقد تقدم تقرير هذا الدليل فى أول سورة يونس وفى آخر سورة المؤمنين عند قوله تعالى أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وفى ص عند قوله تعالى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا (ما خلقناهما) أى السموات والارض مع ما بينهما وقوله تعالى (الا بالحق) حال اما من الفاعل وهو الظاهر واما من المفعول أى الا محقين فى ذلك يستدل به على وحدانيتنا وقدرتنا وغير ذلك أو متلبسين بالحق (ولكن أكثرهم) أى هؤلاء الذين أنت بين أظهرهم وهم يقولون ان هى الا موتتنا الاولى وكذا من نحا نحوهم (لا يعلمون) أى انا خلقنا الخلق بسبب اقامة الحق عليهم فهم لاجل ذلك يجترون على المعاصى ويفسدون فى الارض لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا ولو تذكروا ما ذكرناه فى جبلاتهم لعلموا علما ظاهرا انه الحق الذى لا معدل عنه كما يتولى حكامهم المناصب لاجل اظهار الحكم بين رعاياهم ويشترطون الحكم بالحق ويؤكدون على أنفسهم انهم لا يتجاوزونه * ولما ذكر الدليل على اثبات البعث والقيامة ذكر عقبه يوم الفصل فقال تعالى (ان يوم الفصل) أى يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين العباد قال الحسن سمى بذلك لان الله تعالى يفصل فيه بين أهل الجنة والنار وقيل يفصل فيه بين المؤمن وما يكرهه وبين الكافر وما يريده (ميقاتهم) أى وقت موعدهم الذى ضرب لهم فى الازل وأنزلت فيه الكتب على ألسنة الرسل (أجمعين) لا يتخلف عنه أحد ممن مات من الجن والانس والملائكة وجميع الحيوانات وقوله تعالى (يوم لا يغنى) أى بوجه من الوجوه بدل من يوم الفصل أو منصوب باضمار أعنى أو صفة لميقاتهم ولا يجوز أن ينتصب بالفصل نفسه لما يلزم من الفصل بينهما بأجنبى وهو ميقاتهم (مولى) أى من قرابة أو غيرها (عن مولى) بقرابة أو غيرها أى لا يدفع عنه (شيأ) من الاشياء كثر أو قل (ولاهم) أى القسمان (ينصرون) أى ليس لهم ناصر يمنعهم من عذاب الله تعالى *(تنبيه)* المولى اما فى الدين أو فى النسب أو العتق وكل هؤلاء يسمون بالمولى فلما لم تحصل النصرة منهم فأن لا تحصل ممن سواهم أولى ونظير هذه الآية قوله تعالى واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيأ الى قوله تعالى ولاهم ينصرون وقال الواحدى المراد بقوله تعالى مولى عن مولى الكفار

لانه ذكر بعده المؤمن فقال تعالى (الامن رحم الله) أى أراد اكرامه الملك الاعظم وهم المؤمنون يشفع بعضهم لبعض باذن الله تعالى فى الشفاعة لاحدهم فيكرم الشافع فيه وقال ابن عباس يريد المؤمن فانه يشفع له الانبياء والملائكة *(تنبيه)* يجوز فى الامن رحم الله أوجه أحدها وهو قول الكسائى انه منقطع ثانيها أنه متصل تقديره لا يغنى قريب عن قريب الا المؤمنين فانهم يؤذن لهم فى الشفاعة فيشفعون فى بعضهم كما مرّ ثالثها أن يكون مرفوعا على البدلية من مولى الاول ويكون يغنى بمعنى ينفع قاله الحوفى رابعها أنه مرفوع المحل أيضا على البدل من واو ينصرون أى لا يمنع من العذاب الا من رحم الله (انه) أى وحده (هو العزيز) أى المنيع الذى لا يقدح فى عزته عفو ولا عقاب بل ذلك دليل على عزته فانه يفعل ما يشاء فيمن يشاء من غير مبالاة بأحد (الرحيم) أى الذى لا تمنع عزته أن يكرم من شاء * ولما وصف تعالى اليوم ذكر بعده وعيد الكفار فقال سبحانه (ان شجرت الزقوم) هى من أخبث الشجر المر بتهامة ينبتها الله تعالى فى الجحيم وقد مرّ الكلام عليها فى الصافات ورسمت بالتاء المجرورة فوقف عليها بالهاء أبو عمرو وابن كثير والكسائى ووقف الباقون بالتاء على الرسم (طعام الاثيم) أى المبالغ فى اكتساب الآثام حتى صارت به الى الكفر قال أكثر المفسرين هو أبو جهل (كالمهل) أى وهو ما يمهل فى النار حتى يذوب من ذهب أو فضة وكل ما فى معناهما من المنطبعات سواء كان من صفر أو حديد أو رصاص وقيل هو عكر القطران وقيل عكر الزيت وقرأ (يغلى فى البطون) أى من شدّة الحر ابن كثير وحفص بالياء التحتية على ان الفاعل ضمير يعود على طعام وجوز أبو البقاء أن يعود على الزقوم وقيل يعود على المهل نفسه والباقون بالتاء الفوقية على أن الفاعل ضمير الشجر (كغلى) أى مثل غلى (الحميم) أى الماء الذى تناهى حره غليا وقد تحته وعن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى الدنيا لافسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن تكون طعامه ويقال للزبانية (خذوه) أى هذا الاثيم أخذ قهر فلا تدعوه يملك من أمره شيأ (فاعتلوه) أى جروه بقهر بغلظة وعنف وسرعة الى العذاب والاهانة بحيث يكون كأنه محمول وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بضم التاء والباقون بكسرها وهما لغتان فى مضارع عتل قال البقاعى وقراءة الضم أدل على تناهى الغلظة والشدة من قراءة الكسر (الى سواء) أى وسط (الجحيم) أى النار التى هى غاية فى الاضطرام والتوقد وهو موضع خروج الشجرة التى هى طعامه (ثم صبوا فوق رأسه) أى ليكون المصبوب محيطا بجميع جسده (من عذاب الحميم) أى من الحميم الذى لا يفارقه العذاب فهو أبلغ مما فى آية يصب من فوق رؤسهم الحميم ويقال له توبيخا وتقريعا (ذق) أى العذاب (انك) وأكد بقوله (أنت) أى وحدك دون هؤلاء الذين يعبرون بحقارتك (العزيز الكريم) بزعمك وقولك ما بين جبليها أعز وأكرم منى وقرأ الكسائى بفتح الهمزة بعد القاف على معنى العلة أى لانك وقيل تقديره ذق عذاب الجحيم انك أنت العزيز والباقون بالكسر على الاستئناف المفيد للعلة فتتحد القراءتان معنى وهذا

الكلام الذى على سبيل التهكم أغيظ للمستهزأ به ومثله قول جرير لشاعر سمى نفسه زهرة اليمن

ألم يكن فى رسوم قد رسمت بها * من كان موعظة يا زهرة اليمن

وكان هذا الشاعر قد قال

أبلغ كليبا وأبلغ عنك شاعرها * أنى الاعز وأنى زهرة اليمن

ويقال لهم (انّ هذا) أى الذى ترون من العذاب (ما كنتم به) أى جبلة وطبعا (تمترون) أى تعالجون أنفسكم وتحملونها على الشك فيه وتردونها عما الهاما من الفطرة الاولى من التصديق بالممكن لا سيما من جرب صدقه وظهرت خوارق العادات على يده بحيث كنتم لشدة ردكم له كأنكم تخصونه بالشك * ولما ذكر سبحانه وتعالى وعيد الكفار أردفه بآيات الوعد فقال (انّ المتقين) أى العريقين فى هذا الوصف (فى مقام) أى موضع اقامة لا يريد الحال فيه تحولا عنه (أمين) أى يأمن صاحبه فيه من كل ما لا يعجبه وقرأ نافع وابن عامر بفتح الميم أى فى مجلس أمين والباقون بضمها على المصدر أى فى اقامة وقوله تعالى (فى جنات) أى بساتين تقصر العقول عن ادراك كل وصفها بدل من قوله تعالى فى مقام أمين أو خبر ثان وقرأ (وعيون) ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى بكسر العين والباقون بضمها * ولما كان لا يتم العيش الا بكسوة البدن أشار الى ذلك بقوله تعالى (يلبسون) ودل على الكثرة بقوله تعالى (من سندس) وهو مارق من الحرير يعمل وجوها (واستبرق) هو ما غلظ منه يعمل بطائن وسمى بذلك لشدة بريقه وقوله تعالى (متقابلين) أى فى مجلسهم ليستأنس بعضهم ببعض حال وقوله يلبسون حال من الضمير المستكن فى الجار أو خبر ثان فيتعلق الجار به أو مستأنف (فان قيل) الجلوس على هذه الهيئة موحش لانّ كل واحد منهم يصير مطلعا على ما يفعل الآخر وأيضا فقليل الثواب اذا اطلع على كثيره يتنغص عليه (أجيب) بأنّ أحوال الآخرة ليست كأحوال الدنيا وقد قال تعالى ونزعنا ما فى صدورهم من غل وقوله تعالى (كذلك) يجوز فيه وجهان أحدهما النصب نعتا لمصدر أى نفعل بالمتقين فعلا كذلك أى مثل ذلك الفعل ثانيهما الرفع على خبر مبتدا مضمر أى الامر كذلك * ولما كان ذلك لا يتم السرور به الا بالازواج قال تعالى (وزوّجناهم) أى قرناهم كما تقرن الازواج وليس المراد به العقد لانّ فائدة العقد الحل والجنة ليست بدار تكليف من تحليل أو تحريم (بحور) أى جوار بيض حسان نقيات الثياب (عين) أى واسعات الاعين قال البيضاوى واختلف فى انهنّ نساء الدنيا أو غيرهن * ولما كان الشخص فى الدنيا يخشى كلف النفقات وصف ما هنالك من سعة الخيرات فقال تعالى (يدعون) أى يطلبون طلبا هو غاية المسرة (فيها) أى الجنة أى يؤتون (بكل فاكهة) أى لا يمتنع عليهم صنف من الاصناف لبعد مكان ولا فقدان ولا غير ذلك من الشان وفى ذلك ايذان بأنه مع سعته ليس فيه شئ لاقامة البنية وانما هو للتفكه والتلذذ حال كونهم مع ذلك (آمنين) فى غاية الامن من كل مخوف (لا يذوقون فيها) أى الجنة (الموت) لانها دار خلود لا دار فناء وقوله تعالى (الا الموتة الاولى) فيه أوجه أحدها أنه استثناء منقطع أى لكن

الموتة الاولى قد ذاقوها ثانيها أنه متصل وتأولوه بأن المؤمن عند موته فى الدنيا يصير بلطف الله كأنه فى الجنة لاتصاله بأسبابها ومشاهدته اياها وما يعطاه من نعيمها فكأنه مات فيها ثالثها ان الا بمعنى سوى أى سوى الموتة التى ذاقوها فى الدنيا كما فى قوله تعالى ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف أى سوى ما قد سلف رابعها ان الا بمعنى بعد أى لا يذوقون فيها الموت بعد الموتة الاولى فى الدنيا واختاره الطبرى لكن نوزع بأن الا بمعنى بعد لم يثبت وقد يجاب بأن من حفظ حجة على من لم يحفظ خامسها قال الزمخشرى أريد أن يقال لا يذوقون فيها الموت البتة فوضع قوله الا الموتة الاولى موضع ذلك لان الموتة الماضية محال ذوقها فى المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنه قيل ان كانت الموتة الاولى يستقيم ذوقها فى المستقبل فانهم يذوقونها سادسها المراد بالمتقين أعم من الراسخين وغيرهم وان ضمير فيها يرجع للآخرة فالعاصى اذا أراد الله تعالى تعذيبه بالنار يذيقه فيها موتة أخرى كما جاء فى الاحاديث الصحيحة فيكون على المجموع سابعها أن الموتة الاولى فى الجنة انجازية فلا يكون ذلك بالمحال وذلك ان المتقى لم يزل فيها فى الدنيا قال بعض العلماء الدنيا اذا تحققت فى حق المؤمن التقى فانها جنة صغرى اتولية سبحانه اياه فيها وقربه منه ونظره اليه وذكره له وعبادته اياه وشغله به وهو معه أينما كان (فان قيل) أهل النار لا يذوقون الموت أبدا فلم بشر أهل الجنة بهذا مع ان أهل النار يشاركونهم فيه (أجيب) بأن البشارة ما وقعت بدوام الحياة فقط بل مع حصول تلك الخيرات والسعادات فافترقا (ووقاهم) أى المتقين (عذاب الجحيم) أى التى تقدم أنها الحل كنار أنتم وأما غير المتقين من العصاة فيدخل الله تعالى من أراد منهم النار فيعذب كلا منهم على قدر ذنوبه ثم يميتهم فيها ويستمرون الى أن يأذن الله تعالى فى الشفاعة فيهم فيخرجهم ثم يحييهم بما يرش عليهم من ماء الحياة ثم يدخلهم الله تعالى الجنة روى عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يدخل ناس فى النار حتى اذا صاروا فحما أدخلوا الجنة فيقول أهل الجنة من هؤلاء فيقال هؤلاء الجهنميون وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال يعذب ناس من أهل التوحيد فى النار حتى يكونوا فيها حمما ثم تدركهم الرحمة فيخرجون ويطرحون على أبواب الجنة فيرش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما ينبت الغثاء فى حمالة السيل ثم يدخلون الجنة وقوله تعالى (فضلا) مفعول لاجله أى فعل ذلك بهم لاجل الفضل وجعله أبو البقاء منصوبا بمقدر أى تفضلنا بذلك فضلا أى تفضلا *(تنبيه)* احتج اهل السنة بهذه الآية على أن الثواب يحصل من الله تعالى فضلا واحسانا وأن كل ما وصل اليه العبد من الخلاص من النار والفوز بالجنة فانما يحصل بفضل الله تعالى (من ربك) أى المحسن اليك بكمال احسانه الى اتباعك احسانا يليق بك قال الرازى فى اللوامع أصل الايمان رؤية الفضل فى جميع الاحوال * ولما عظمه الله تعالى باظهار هذه الصفة مضافة اليه صلى الله عليه وسلم زاد تعظيمه بالاشارة بأداة البعد فقال تعالى (ذلك) أى الفضل العظيم الواسع (هو) أى خاصة (الفوز) أى الظفر بجميع المطالب (العظيم) لانه خلاص عن المكاره ولم يدع جهة من الشرف الا ملأها وهذا يدل على أن

الفضل أعلى من درجات الثواب المستحق لانه تعالى وصفه بكونه فوزا عظيما وأيضا فان الملك العظيم اذا أعطى الاجير أجرته ثم خلع على انسان آخر فان تلك الخلعة أعلى من اعطاء تلك الاجرة * ولما بين تعالى الدليل وشرح الوعد والوعيد قال تعالى (فانما يسرناه) أى سهلنا القرآن سهولة كبيرة (بلسانك) أى هذا العربى المبين وهم عرب صحيتهم الفصاحة (لعلهم يتذكرون) أى يفهمونه فيتعظون به وان لم يتعظوا به ولم يؤمنوا به (فارتقب) أى فانتظر ما يحل بهم (انهم مرتقبون) أى منتظرون ما يحل بك فهو ولا الارتقاب محذوفان أى فارتقب النصر من ربك انهم مرتقبون بك ما يتمنونه من الدوائر والغوائل ولن يضرك ذلك وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ حم الدخان ليلة جمعة أصبح مغفورا له رواه الترمذى وزاد الزمخشرى من قرأ حم الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك ورواه البغوى عن أبى هريرة قال ابن عادل قال أبو أمامة رضى الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله له بيتا فى الجنة والله تعالى أعلم بالصواب

قوله وزاد الزمخشرى نسخة البيضاوى التى بأيدينا فيها الحديثان اللذان فى الكشاف بمخالفة يسيرة فلعلها نسخة وقعت للمؤلف اه

(سورة الجاثية مكية)

الا قل للذين آمنوا يغفروا الآية وهى سبع وثلاثون آية وأربعمائة وثمانون كلمة وألفان ومائة واحد وتسعون حرفا

(بسم الله) الذى تفرد بتمام العز والكبرياء (الرحمن) الذى أحكم رحمته بالبيان العام للسعداء والاشقياء (الرحيم) الذى خص بلابسة طاعته الاولياء وتقدم الكلام على قوله تعالى (حم) ثم ان جعلتها اسما مبتدأ مخبرا عنه بقوله تعالى (تنزيل الكتاب) أى الجامع لكل خير لم يكن بد من حذف مضاف تقديره تنزيل حم تنزيل الكتاب وقوله تعالى (من الله) أى المحيط بصفات الكمال صلة للتنزيل وان جعلتها تعديدا للحروف كان تنزيل الكتاب مبتدأ والظرف خبرا (العزيز) فى ملكه (الحكيم) فى صنعه * ولما كانت الحواميم كما روى أبو عبيدة فى كتاب الفضائل عن ابن عباس لباب القرآن حذف ما ذكر فى البقرة من قوله تعالى خلق ليكون ما هنا أشمل فقال تعالى (ان فى السموات) أى ذواتها بما لها من الدلالة على صانعها وخلقها على ما فيها من العبر بما فيهما من المنافع وعظيم الصنعة وما لهما من الشرف الدال على تعددها بما فيهما من الكواكب (والارض) كذلك وبما حوت من المعادن والمعاش (لآيات) أى دلالات على وجود الاله القادر الفاعل المختار فان من المعلوم أنه لابد لكل ذلك من صانع متصف بذلك وقال تعالى (للمؤمنين) لانهم برسوخهم فى هذا الوصف الشريف أهل للنظر لان ربهم يهديهم بايمانهم فشواهد الربوبية لهم منهما لائحة وأدلة الالهية فيهما واضحة * ولما ذكر سبحانه وتعالى النظر فى آيات الآفاق أتبعها آيات الانفس بقوله تعالى (وفى خلقكم) أى خلق كل منكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة الى أن صار انسانا مخالف لخلق الارض التى أنتم منها بالاختيار والعقل والانتشار والقدرة على السار والضار (وما) أى وخلق ما (يبث) أى ينشر ويفرق بالحركة الاختيارية على سبيل

التجدد

التجدد والاستمرار (من دابة) مما تعلمون ومما لا تعلمون بما في ذلك من مشاركتكم بالاختيار والهداية للمنافع بادراك الجزئيات ومخالفتكم في الصورة والعقل وادراك الكليات وغير ذلك من مخالفة الاشكال والطبائع والمنافع وغير ذلك (آيات) دالة على قدرة الله تعالى ووحدانيته وقرأ حمزة والكسائي آيات بكسر التاء حملا على اسم ان والباقون بالرفع حملا على محل ان واسمها ولما كانت آيات الانفس أدق وأدل على القدرة والاختيار بما لها من التجدد والاختلاف قال تعالى (لقوم) أي فيهم أهلية القيام بما يحاولونه (يوقنون) أي يتجدد لهم العروج في درجات الايمان الى أن يصلوا الى شرف الايقان فلا يخالجهم شك في وحدانيته (واختلاف الليل والنهار) بذهاب أحدهما ووجود الآخر بعد ذهابه على التعاقب آية متكررة للدلالة على القدرة على الايجاد بعد الاعدام بالبعث وغيره (وما أنزل الله) أي الذي عمت عظمته فنفذت كلمته (من السماء من رزق) أي مطر وغيره من الاسباب المهيئة لاخراج الرزق (فأحيى به) أي بسببه (الارض) أي الصالحة للحياة ولذلك قال تعالى (بعد موتها) أي يبسها وتهشيم ما كان فيها من النبات (وتصريف) أي تحويل (الرياح) باختلاف جهاتها وأحوالها وقرأ حمزة والكسائي بالتوحيد والباقون بالجمع وقوله تعالى (آيات) فيه القراءتان المتقدمتان أما الرفع فظاهر وأما الكسر ففيه وجهان أحدهما أنها معطوفة على اسم ان والخبر قوله وفي خلقكم كأنه قيل وان في خلقكم وما يبث من دابة آيات والثاني أن تكون كررت تأكيدا لآيات الاولى ويكون في خلقكم معطوفا على في السموات كرر معه حرف الجر توكيدا ونظيره أن تقول ان في بيتك زيدا وفي السوق زيدا فزيدا الثاني تأكيد للاول كأنك قلت ان زيدا في بيتك وفي السوق وليس في هذه عطف على معمولي عاملين البتة * ولما كانت هذه الآية أوضح دلالة من بقيتها على البعث قال تعالى فيها (لقوم يعقلون) الدليل فيؤمنون وأبدى بعض المفسرين معنى لطيفا فقال ان المنصفين اذا نظروا في السموات والارض وأنه لا بد لهما من صانع آمنوا واذا نظروا في خلق أنفسهم ونحوها ازدادوا ايمانا فأيقنوا فاذا نظروا في سائر الحوادث عقلوا واستحكم علمهم * ولما ذكر هذه الآيات العظيمات قال تعالى مشيرا الى علو رتبتها بأداة البعد (تلك) أي الآيات المذكورة (آيات الله) أي حجج المحيط بصفات الكمال التي لا شيء أجل منها الدالة على وحدانيته (نتلوها) أي نقصها (عليك) سواء أكانت مرئية أو مسموعة ملتبسة (بالحق) أي الامر الثابت الذي لا يستطاع تحويله لمرء بسحر ولا كذب (فبأي حديث) أي خبر عظيم صادق يتجدد علمه به يستحق أن يتحدث به واستغرق كل حديث فقال تعالى (بعد الله) أي حديث الملك الاعظم وهو القرآن (وآياته) أي حججه (يؤمنون) أي كفار مكة أي لا يؤمنون وقرأ ابن عامر وشعبة والكسائي بتاء الخطاب رأوا أن ذلك الخطاب صرف الى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى نتلوها عليك بالحق والباقون بياء الغيبة ردوه على قوله تعالى وفي خلقكم وهو أقوى تمكينا * ولما بين الآيات للكفار وبين أنهم اذا لم يؤمنوا بها بعد ظهورها فبأي حديث بعدها يؤمنون أتبعه

بوعيد عظيم لهم فقال تعالى (ويل لكل أفاك) أى مبالغ فى صرف الحق عن وجهه (أثيم) أى مبالغ فى اكتساب الاثم وهو أن يبقى مصرا على الانكار والاستكبار قال المفسرون يعنى النضر بن الحرث والآية عامة فمن كان موصوفا بهذه الصفة وفسره هذا بقوله تعالى (يسمع آيات الله) أى دلالات الملك الاعظم الظاهرة حال كونها (تتلى عليه) بجميع مافيها وهى القرآن من سهولة فهمها وعذوبة ألفاظها وظهور معانيها وجلالة مقاصدها مع الاعجاز وهى القرآن العظيم فكيف اذا كان التالى أشرف الخلق وقرأ حمزة والكسائى بامالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (ثم يصر) أى يدوم دواما عظيما على قبح ماهو فيه حال كونه (مستكبرا) أى طالبا للكبر عن الاذعان وموجداله (كأن) أى كأنه (لم يسمعها) أى حاله عند السماع وقبله وبعده على حد سواء (فبشره) أى على هذا الفعل الخبيث (بعذاب أليم) أى مؤلم والبشارة على الاصل أو التهكم وقرأ ابن كثير وحفص أليم بالرفع والباقون بالجر (واذا علم) أى بلغه (من آياتنا) أى القرآن (شيأ) وعلم أنه من آياتنا (اتخذها هزوا) أى مهزوابها *(تنبيه)* فى الضمير المؤنث وجهان أحدهما أنه عائد على آياتنا يعنى القرآن والثانى أنه يعود على شيأ وان كان مذكرا لانه بمعنى الآية كقول أبى العالية

نفسى بشئ من الدنيا معلقة * الله والقائم المهدى يكفيها

لانه أراد بشئ جارية يقال لها عتبة والمعنى اتخذ ذلك الشئ هزوا الا أنه تعالى قال اتخذها للاشعار بأن هذا الرجل اذا أحس بشئ من الكلام انه من جملة الآيات المنزلة على محمد صلى الله عليه وسلم خاض فى الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بذلك الواحد وقوله تعالى (أولئك لهم عذاب مهين) أى ذو اهانة اشارة الى معنى كل أفاك أثيم ليدخل فيه جميع الافاكين فحمل أولا على لفظها فأفرد ثم على معناها فجمع كقوله تعالى كل حزب بما لديهم فرحون ثم وصف تعالى كيفية ذلك العذاب فقال (من ورائهم) أى أمامهم لانهم فى الدنيا (جهنم) قال الزمخشرى والوراء اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف أوقدام قال

أليس ورائى ان تراخت منيتى * أدب مع الولدان أزحف كالنسر

ومنه قوله تعالى من ورائهم اى من قدامهم اه ثم بين تعالى أن ماملكوه فى الدنيا لا ينفعهم بقوله تعالى (ولا يغنى) اى ولا يدفع (عنهم ما كسبوا) من الاموال فى رحلهم ومتاجرهم والاولاد (شيأ) من الاغناء وقوله تعالى (ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) أى من الاوثان عطف على ما كسبوا وما فيهما امامصدرية أو بمعنى الذى أى لا يغنى عنهم كسبهم ولا اتخاذهم أو الذى كسبوه ولا الذى اتخذوه (ولهم عذاب عظيم) اى لا يدع جهة من جهاتهم ولا زمانا من أزمانهم ولا عضوا من أعضائهم الاملأه (فان قيل) قال تعالى فى الاول مهين وفى الثانى عظيم فما الفرق بينهما (أجيب) بأن كون العذاب مهينا يدل على حصول العذاب مع الاهانة وكونه عظيما يدل على كونه بالغا الى أقصى الغايات فى الضرر وقوله تعالى (هذا هدى) اشارة الى القرآن يدل عليه قوله تعالى (والذين كفروا بآيات ربهم) هى القرآن أى هذا القرآن كامل فى الهداية

كما تقول زيد رجل أى كامل فى الرجولية وأيما رجل (لهم عذاب) كائن (من رجز) أى شديد العذاب (أليم) أى بليغ الايلام * ولما ذكر تعالى ذكر الربوبية ذكر بعض آثارها وما فيها من آياته فقال مستأنفا دالا على عظمتها بالاسم الاعظم (الله) أى الملك الاعلى المحيط بجميع صفات الكمال (الذى سخر) أى وحده من غير حول منكم ولا قوة فى ذلك بوجه من الوجوه (لكم البحر) أيها الناس بركم وفاجركم بما جعل فيه مما لا يقدر عليه الا الواحد لا شريك له فاعل بالاختيار من القابلية للسير فيه من الرقة واللدونة (لتجرى الفلك) أى السفن (فيه بأمره) أى باذنه ولو كانت موقرة بأثقال الحديد الذى يغوص فيه أخف شئ منه كالابرة وما دونها وفى ذلك دلالة ظاهرة على وحدانيته لان جريان الفلك على وجه الماء لا يحصل الا بثلاثة أشياء أحدها الرياح التى توافق المراد وثانيها خلق وجه الماء على الملاسة التى تجرى عليها الفلك وثالثها خلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء ولا تغرق فيه وهذه الاحوال لا يقدر عليها أحد من البشر (ولتبتغوا) أى تطلبوا بشهوة نفس واجتهاد بما تحملون فيه من البضائع وتتوصلون اليه من الاماكن والمقاصد بالصيد والغوص على اللؤلؤ والمرجان وغير ذلك (من فضله) لم يصنع شيأ منه سواه (ولعلكم تشكرون) نعمه على ذلك (وسخر لكم ما فى السموات) من شمس وقمر ونجومها وغير ذلك بحيث لا يمكنكم الوصول اليه بوجه (وما فى الارض) من دابة وشجر ونبات وأنهار وغيره ولو شاء لجعله كما فى السماء لا وصول لكم اليه وقوله تعالى (جميعا) تأكيد لما دل عليه معنى ما من العموم وقيل حال من ما فى السموات وما فى الارض وقوله تعالى (منه) حال أى سخرها كائنة منه تعالى لا صنع لاحد غيره فى شئ من ذلك قال ابن عباس كل ذلك رحمة منه وقال الزجاج كل ذلك تفضل منه واحسان وقال بعض العارفين سخر لك الكل لئلا يسخرك الشئ منها فتكون مسخرا لمن سخر لك الكل وهو الله تعالى فانه يقبح بالمخدوم أن يخدم خادمه (ان فى ذلك) أى الامر العظيم من تسخيره لنا كل شئ فى الكون (لآيات) أى دلالات واضحات على أنهم فى الالتفات الى غيره فى ضلال مبين بعد تسخيره لنا ما لنا من الاعضاء والقوى على هذا الوجه البديع مع أن من هذا المسخر لنا ما هو أقوى منا (لقوم) أى ناس فيهم أهلية القيام بما يجعل اليهم (يتفكرون) فيعلمون أنه المتوحد باستحقاق الالهية فلا يشركون به شيأ واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (قل) أى يا أفضل الخلق (للذين آمنوا) ادعوا التصديق بكل ما جاءهم من الله تعالى (يغفروا) أى يستروا ستراً بالغا (للذين لا يرجون أيام الله) أى مثل وقائع الملك الاعظم المحيط بصفة الكمال فقال ابن عباس نزلت فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وذلك انهم نزلوا فى غزوة بنى المصطلق على بئر يقال لها المريسيع فأرسل عبد الله بن أبى غلامه ليستقى الماء فأبطأ عليه فلما أتاه قال له ما حبسك قال غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قرب النبى صلى الله عليه وسلم وقرب أبى بكر رضى الله عنه فقال عبد الله ما مثلنا ومثل هؤلاء الا كما قيل سمن كلبك يأكلك فبلغ ذلك عمر فاشتمل سيفه يريد التوجه اليه فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال مقاتل ان رجلا من بنى غفار شتم عمر

بمكة فهم عمر أن يبطش به فنزلت بالغفر والتجاوز وروى ميمون بن مهران ان فنحاص اليهودى لما نزل قوله تعالى من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا قال احتاج رب محمد فسمع ذلك عمر فاشتمل على سيفه وخرج فى طلبه فبعث النبى صلى الله عليه وسلم اليه فرده وقال القرطبى والسدى نزلت فى ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل مكة كانوا فى أذى كثير من المشركين قبل أن يؤمروا بالقتال فشكوا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ثم نسختها آية القتال قال الرازى وانما قالوا بالنسخ لانه يدخل تحت الغفران أن لا يقتلوا ولا يقاتلوا فلما أمر الله تعالى بالمقاتلة كان نسخا والاقرب أن يقال انه محمول على ترك المنازعة وعلى التجاوز فيما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية وقال ابن عباس لا يرجون أيام الله أى ثوابه ولا يخافون عقابه ولا يخشون مثل عذاب الامم الماضية وتقدم تفسير أيام الله عند قوله تعالى وذكرهم بأيام الله وقوله تعالى (ليجزى قوما بما كانوا يكسبون) علة للامر والقوم هم المؤمنون أو الكافرون أو كلاهما فيكون التنكير للتعظيم أو التحقير أو التنويع أو لكسب المغفرة أو الاساءة أو ما يعمهما وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بالنون لنجزى نحن بما لنا من العظمة والباقون بالياء التحتية أى ليجزى الله سبحانه وتعالى * ولما رغب سبحانه وتعالى ورهب وقرر انه لا بد من الجزاء زاد فى الترغيب والترهيب بأن النفع والضر لا يعدوهم فقال تعالى شارحا للجزاء (من عمل صالحا) قل أو جل (فلنفسه) أى خاصة عمله يرى جزاءه فى الدنيا والآخرة وهو مثل ضربه الله تعالى للذين يغفرون (ومن أساء) كذلك (فعليها) خاصة اساءته كذلك وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار الذين كانوا يؤذون الرسول والمؤمنين وذلك فى غاية الظهور لانه لا يسوغ فى عقل عاقل ان ملكا يدع عبيده من غير جزاء ولاسيما اذا كان حكيما وان كانت نقائص النفوس غطت على كثير من العقول ذلك (ثم) أى بعد الابتلاء بالاملاء فى الدنيا والحبس فى البرزخ (الى ربكم) أى الملك المالك لكم لا الى غيره (ترجعون) أى تصيرون فيجازى المصلح والمسىء (ولقد آتينا) أى على مالنا من العظمة (بنى اسرائيل الكتاب) أى الجامع للخيرات وهو يعم التوراة والانجيل والزبور وغيرها مما أنزل على أنبيائهم عليهم السلام (والحكم) أى العلم والعمل الثابتين ثبات الاحكام بحيث لا يتطرق اليهما فساد بما للعلم من الزينة بالعمل وللعمل من الاتقان بالعلم (والنبوة) التى تدرك بها الخيرات العظيمة التى لا يمكن ابلاغ الخلق اليها بلوغا اكتسابيا منهم فأكثرنا فيهم من الانبياء عليهم السلام (ورزقناهم) بما لنا من العظمة لاقامة أبدانهم (من الطيبات) أى الحلالات من المن والسلوى وغيرهما (وفضلناهم) أى بما لنا من العزة (على العالمين) قال أكثر المفسرين على عالمى زمانهم وقال ابن عباس لم يكن أحد من العالمين أكرم على الله ولا أحب اليه منهم أى لما آتاهم من الآيات المرئية والمسموعة وأكثر فيهم من الانبياء مما لم يفعله بغيرهم ممن سبق وكل ذلك فضيلة ظاهرة (وآتيناهم) مع ذلك (بينات من الامر) أى الموحى به الى أنبيائهم من الادلة القطعية والاحكام والمواعظ المؤيدة بالمعجزات ومن صفات الانبياء الآتين بعدهم وغير ذلك مما هو

في غاية الوضوح لمن قصدنا بسعادته وذلك أمر يقتضي الالفة والاجتماع وقد كانوا متفقين وهم في زمن الضلال لا يختلفون الا اختلافا يسيرا لا يضر مثله ولا يعد اختلافا فلما جاءهم العلم اختلفوا كما قال تعالى (فما اختلفوا) أى أوقعوا الاختلاف والافتراق بغاية جهدهم (الامن بعد ما جاءهم العلم) أى الذى من شأنه الجمع على المعلوم فكان ما هو سبب الاجتماع سببا لهم فى الافتراق (بغيا) أى للمجاوزة فى الحدود التى اقتضاها لهم طلب الرياسة والحسد وغيرهما من نقائص النفوس (بينهم) أى واقعا فيهم لم يعدهم الى غيرهم وقد كانوا قبل ذلك وهم تحت أيدى القبط فى غاية الاتفاق واجتماع الكلمة على الرضا بالذل ولذلك استأنف قوله تعالى الذى اقتضاه الحال على ما يشاهده العباد من أفعال الملوك فيمن خالف أمرهم مؤكدا لاجل انكارهم (ان ربك) أى المحسن اليك (يقضى بينهم) أى باحصاء الاعمال والجزاء عليها (يوم القيامة) أى الذى ينكره قومك الذين شرفناهم برسالتك (فيما كانوا) أى لما هو لهم كالجبلة (فيه يختلفون) بغاية الجهد والمعنى أنه لا ينبغى للمبطل أن يفرح بنعم الدنيا فانها وان ساوت نعم المحق أو زادت عليها فانه سيرى فى الآخرة ما يسوءه وذلك كالزجر لهم * ولما بين تعالى انهم أعرضوا عن الحق بغيا وحسدا أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعدل عن تلك الطريقة وأن يتمسك بالحق وأن لا يكون له غرض سوى اظهار الحق فقال تعالى (ثم) أى بعد فترة من رسلهم وتجاوزة رتب كثيرة عالية على رتبة شريعتهم (جعلناك) أى بما لنا من العزة والقدرة (على شريعة) أى طريقة واسعة عظيمة ظاهرة مستقيمة سهلة موصلة الى المقصود وهى جديرة بأن يشرع الناس فيها ويخالطوها مبتدأة (من الامر) أى أمر الدين الذى هو حياة الارواح كما أن الارواح حياة الاشباح (فاتبعها) أى اتبع بغاية جهدك شريعتك الثابتة بالحجج (ولا تتبع أهواء) أى آراء (الذين لا يعلمون) أى لا علم لهم أولهم علم لكنهم يعملون عمل من ليس لهم علم أصلا من كفار العرب وغيرهم قال الكلبى ان رؤساء قريش قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ارجع الى دين آبائك فهم كانوا أفضل منك وأسن فأنزل الله تعالى هذه الآية * ثم علل هذا النهى مهددا بقوله تعالى مؤكدا (انهم) وأكد النفى فقال عز من قائل (ان يغنوا عنك) أى لا يتجدد لهم نوع اغناء مبتدأ (من الله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (شيأ) أى من اغناء أى ان اتبعتهم كما انهم لن يقدروا لك على شئ من أذى ان خالفتهم وناصبتهم (وان الظالمين) أى العريقين فى هذا الوصف وهم الكفرة وكان الاصل وانهم ولكنه تعالى أظهر للاعلام بوصفهم (بعضهم أولياء بعض) اذ الجنسية علة الانضمام فلا تو الوهم باتباع أهوائهم (والله) أى الذى له صفات الكمال (ولى المتقين) أى الذين همهم الاعظم الاتصاف باتخاذ الوقايات المنجية لهم من سخط الله تعالى والمعنى ان الظالمين يتولى بعضهم بعضا فى الدنيا وأما فى الآخرة فلا ولى لهم ينفعهم فى ايصال الثواب وازالة العقاب وأما المتقون المهتدون فالله سبحانه وليهم وناصرهم (هذا) أى الوحى المنزل وهو القرآن (بصائر) أى معالم (للناس) أى فى الحدود والاحكام فيبصرون بها ما ينفعهم وما يضرهم (وهدى) أى قائد الى كل خير مانع من كل زيغ (ورحمة) أى كرامة وفوز ونعمة

(لقوم يوقنون) أى ناس فيهم قوة القيام بالوصول الى العلم الثابت وتجديد الترقى فى درجاته الى مالا نهاية له وقوله تعالى (أم حسب) منقطعة فتقدر ببل والهمزة أو ببل وحدها أو بالهمزة وحدها ومعنى الهمزة فيها انكار الحسبان (الذين اجترحوا) أى اكتسبوا ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله أى كاسبهم وقال تعالى ويعلم ما جرحتم بالنهار (السيآت) أى الكفر والمعاصى (أن نجعلهم) أى بما لنا من العظمة المانعة من الظلم المقتضية للحكمة (كالذين آمنوا وعملوا) تصديقا لاقرارهم (الصالحات) أى بأن نتركهم بغير حساب للفصل بين المحسن والمسىء * ولما كانت المماثلة مجملة بينها استئنافا بقوله تعالى (سواء) أى مستو استواء عظيما (محياهم ومماتهم) أى حياتهم وموتهم وزمان ذلك ومكانه فى الارتفاع والسفول واللذة والكدر وغير ذلك من الاعيان والمعانى وقرأ حمزة والكسائى وحفص سواء بالنصب على الحال من الضمير المستتر فى الجار والمجرور وهما كالذين آمنوا ويكون المفعول الثانى للجعل كالذين آمنوا أى أحسبوا أن نجعلهم مثلهم فى حال استواء محياهم ومماتهم ليس الامر كذلك وقرأه الباقون بالرفع على انه خبر ومحياهم ومماتهم مبتدأ ومعطوف والجملة بدل من الكاف والضميران للكفار والمعنى احسبوا أن نجعلهم فى الآخرة فى خير كالمؤمنين أى فى رغد من العيش مساو لعيشهم فى الدنيا حيث قالوا للمؤمنين لئن بعثنا لنعطى من الخير مثل ما تعطون قال تعالى على وفق انكاره بالهمزة (ساء ما يحكمون) أى ليس الامر كذلك فهم فى الآخرة فى العذاب على خلاف عيشهم فى الدنيا والمؤمنون فى الآخرة فى الثواب بأعمالهم الصالحات فى الدنيا من الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك وما مصدرية أى بئس حكما حكمهم هذا * ولما بين تعالى أن المؤمن لا يساويه الكافر فى درجات السعادة اتبعه بالدلائل الظاهرة على صحة ذلك فقال تعالى (وخلق الله) أى الذى له جميع أوصاف الكمال (السموات والارض) وقوله تعالى (بالحق) متعلق بخلق وقوله تعالى (ولتجزى) أى بأيسر أمر (كل نفس) أى منكم ومن غيركم معطوف على بالحق فى المعنى لان كلا منهما سبب فعطف العلة على مثلها أو انه معطوف على معلل محذوف والتقدير خلق هذا العالم اظهارا للعدل والرحمة وذلك لا يتم الا اذا حصل البعث والقيامة وحصل التفاوت بين الدرجات والدركات من المحقين والمبطلين (بما) أى بسبب ما (كسبت) من خير أو شر (وهم) أى والحال انهم (لا يظلمون) أى لا يوجد من موجد ما فى وقت من الاوقات جزاء لهم فى غير موضعه هذا على ما جرت به عوائدكم فى العدل والفضل ولو وجد منه سبحانه وتعالى غير ذلك لم يكن ظلما منه لانه المالك المطلق والملك الاعظم فلو عذب أهل سمواته وأهل أرضه كلهم لكان غير ظالم فى نفس الامر فهذا الخطاب انما هو على ما يتعارفونه من اقامة الحجة بمخالفة الامر ثم عاد سبحانه وتعالى الى شرح أحوال الكفار وقبائح طرائقهم فقال (أفرأيت) أى أعلمت علما هو فى تيقنه كالمحسوس بحاسة البصر التى هى أثبت الحواس (من اتخذ) أى بغاية جهده (الهه هواه) أى ما يهواه من حجر بعد حجر رآه أحسن روى عن أبى رجاء العطاردى وهو ثقة أدرك الجاهلية ومات سنة

خمس ومائة عن مائة وعشرين سنة قال كنا نعبد الحجر فاذا وجدنا حجرا أحسن منه ألقيناه وأخذنا الآخر فاذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب فحلبنا عليها ثم طفنا بها قال الاصفهاني سئل ابن المقفع عن الهوى فقال هوان سرقت نونه فنظمه من قال

نون الهوان من الهوى مسروقة * فأسير كل هوى أسير هوان

وقال آخر أيضا

ان الهوى لهو الهوان بعينه * فاذا هويت فقد لقيت هوانا

(وأضله الله) أى عامله معاملة من أضله (على علم) منه تعالى أى عالما بأنه من أهل الضلالة قبل خلقه (وختم) زيادة على الاضلال الخاص (على سمعه) فلا فهم له فى الآيات المسموعة (وقلبه) أى فهو لا يعى ما من حقه وعيه (وجعل على بصره غشاوة) أى ظلمة فلا يبصر الهوى ويقدر هنا المفعول الثانى لرأيت أى أيهتدى وقرأ حمزة والكسائى بفتح الغين وسكون الشين والباقون بكسر الغين وفتح الشين وألف بعد الشين واذا صار بهذه المثابة (فمن يهديه) وأشار تعالى الى قدرته عليه بقوله سبحانه وتعالى (من بعد الله) أى ان أراد الله اضلاله الذى له الاحاطة بكل شئ أى لا يهتدى (أفلا تذكرون) أى ألم يكن لكم نوع تذكر فتتعظوا وفيه ادغام احدى التاءين فى الذال (وقالوا) أى فى انكارهم البعث مع اعترافهم بأنه تعالى قادر على كل شئ (ماهى) أى الحياة (الا حياتنا) أى أيها الناس (الدنيا) أى هذه التى نحن فيها (نموت ونحيا) (فان قيل) الحياة متقدمة على الموت فى الدنيا فمنكرو القيامة كان يجب أن يقولوا نحيا ونموت فما السبب فى تقديم ذكر الموت على الحياة (أجيب) من وجوه أولها أن المراد بقولهم نموت أى حال كونهم نطفا فى أصلاب الآباء وأرحام الامهات وبقولهم ونحيا ما حصل بعد ذلك فى الدنيا ثانيها نموت نحن ونحيا بسبب بقاء أولادنا ثالثها قال الزجاج الواو للاجتماع والمعنى يموت بعض ويحيا بعض رابعها قال الرازى انه تعالى قدم ذكر الحياة فقال ان هى الاحياتنا الدنيا ثم قال بعده نموت ونحيا يعنى أن تلك الحياة منها ما يطرأ عليها الموت وذلك فى حق الذين ماتوا ومنها ما لا يطرأ عليه الموت بعد ذلك وهو فى حق الاحياء الذين لم يموتوا بعد وقال البيضاوى يحتمل انهم أرادوا به التناسخ أى وهو ان روح الشخص اذا خرجت تنتقل الى شخص آخر فيحيا بعد ان لم يكن فانه عقيدة أكثر عبدة الاصنام (وما يهلكنا) أى بعد الحياة (الا الدهر) أى مر الزمان الطويل بغلبته علينا وطول العمر واختلاف الليل والنهار من دهره اذا غلبه (وما) أى قالوه والحال انه ما (لهم بذلك) أى القول البعيد من الصواب وهو انه لا حياة بعد هذه وان الاهلاك منسوب الى الدهر على انه مؤثر بنفسه وأغرق فى النفى فقال تعالى (من علم) أى كثير ولا قليل (ان) أى ما (هم الا يظنون) أى بقرينة ان الانسان كلما تقدم فى السن ضعف وانه لم يرجع أحد من الموتى هذا ظنهم الفاسد روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى لا يقل ابن آدم يا خيبة الدهر فانى أنا الدهر أرسل الليل والنهار فاذا شئت قبضتهما وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسب أحدكم

الدهر فان الدهر هو الله تعالى ولا يقولن للعنب الكرم فان الكرم هو الرجل المسلم ومعنى الحديث ان العرب كان من شأنها ذم الدهر وسبه عند النوازل لانهم كانوا ينسبون اليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر كما أخبر الله تعالى عنهم فاذا أضافوا الى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها فكان يرجع سبهم الى الله تعالى اذ هو الفاعل في الحقيقة للامور التي يضيفونها الى الدهر فنهوا عن سبه (واذا تتلى) أي تتابع بالقراءة من أي تال كان (عليهم آياتنا) أي على مالها من العظمة في نفسها وبالاضافة الينا حال كونها (بينات) أي في غاية المكنة في الدلالة على البعث فلا عذر لهم في ردها (ما كان) أي بوجه من وجوه الكون (حجتهم) أي قولهم الذي ساقوه مساق الحجة (الا أن قالوا ائتوا بآبائنا) أي احياء (ان كنتم صادقين) أي في انا نبعث فهو لا يستحق أن يسمى شبهة فسمي حجة بزعمهم أو لان من كانت حجته هذه فليست له البتة حجة كقوله * تحية بينهم ضرب وجيع * ثم ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بقوله تعالى (قل الله) أي المحيط علما وقدرة (يحييكم) أي حين كنتم نطفا (ثم يميتكم) أي بأن يخرج أرواحكم من أجسادكم فتكونون كما كنتم قبل الاحياء كما تشاهدون (ثم يجمعكم) أي بعد التفرق فيعيد فيكم أرواحكم كما كانت بعد طول مدة الرقاد منتهين (الى يوم القيامة) أي القيام الاعظم لكونه عاما لجميع الخلائق (لا ريب) أي لا شك بوجه من الوجوه (فيه) بل هو معلوم علما قطعيا ضروريا (ولكن أكثر الناس) أي وهم القائلون ما ذكر (لا يعلمون) أي لا يتجدد لهم علم لما لهم من النفوس والتردد والسفول عن أوج العقل الى حضيض الجهل فهم واقفون مع المحسوسات لا يلوح لهم ذلك مع ماله من الظهور وقوله تعالى (ولله) أي الملك الاعظم وحده (ملك السموات) أي كلها (والارض) أي التي ابتدأ كم منها تعميم للقدرة بعد تخصيصها (ويوم تقوم الساعة) أي توجد وتتحقق تحقق القائم الذي هو على كمال تمكنه وتمام أمره الناهض بأعباء ما يريد ثم كرر للتأكيد والتهويل قوله تعالى (يومئذ) أي يوم تقوم يخسرون هكذا كان الاصل ولكنه قال تعالى للتعميم والتعليق بالوصف (يخسر المبطلون) أي الداخلون في الباطل العريقون في الاتصاف به الذين كانوا لا يرضون بتضائي * (تنبيه) * الحياة والعقل والصحة كأنها رأس مال والتصرف فيها بطلب السعادة الاخروية يجري مجرى تصرف التاجر في ماله لطلب الربح والكفار قد أتعبوا أنفسهم في تصرفاتهم بالكفر والاباطيل فلم يجدوا في ذلك اليوم الا الحرمان والخذلان ودخول النار وذلك في الحقيقة نهاية الخسران (وترى) أي في ذلك اليوم (كل أمة) أي أهل دين (جاثية) أي مجتمعة لا يخالطها غيرها وهي مع ذلك باركة على الركب رعبا واستيفازا لما لعلها تؤمر به جلسة المخاصم بين يدي الحاكم تنتظر القضاء الحاتم والامر الجازم اللازم لشدة ما يظهر لها من هول ذلك اليوم (كل أمة) من الجاثين (تدعى الى كتابها) أي الذي أنزل عليها وتعبدها الله تعالى به والذي نسخته الحفظة عليهم السلام من أعمالها ليطبق أحدهما بالآخر فمن وافق كتابه ما أمر به من كتاب ربه نجا ومن خالفه هلك ويقال لهم حالة الدعاء (اليوم تجزون) أي على وفق الحكمة بأيسر أمر (ما) أي عين الذي

(كنتم)

(كنتم) بما هو لكم كالجبلات (تعملون) أي مصرين عليه غير راجعين عنه من خير أو شر
(فان قيل) الجثو على الركب انما يليق بالخائف والمؤمنون لا خوف عليهم يوم القيامة (أجيب)
بأن الجاثي الآمن يشارك المبطل في مثل هذه الحالة الى أن يظهر كونه محقا (هذا كتابنا) أي
الذي أنزلناه على ألسنة رسلنا عليهم الصلاة والسلام (ينطق) أي يشهد شهادة هي في بيانها
كالنطق (عليكم بالحق) أي الامر الثابت الذي يطابقه الواقع من أعمالكم وذلك بأن يقول
من عمل كذا فهو عاص ومن عمل كذا فهو مطيع فينطبق ذلك على ما عملتموه سواء بسواء من
غير زيادة ولا نقصان وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ * ولما كانت العادة جارية في الدنيا
باقامة الحقوق بكتابة الوثائق وكانوا كأنهم يقولون ومن يحفظ أعمالنا على كثرتها مع طول
المدة وبعد الزمان قال تعالى مجيبا عما يتقرب الى عقل من يسأل عن ذلك (انا) أي على ما لنا
من العظمة المغنية عن الكتابة (كنا) على الدوام (نستنسخ ما كنتم) طبعا لكم وخلقا (تعملون)
قولا وفعلا ونية أي نأمر الملائكة عليهم السلام بكتبها واثباتها عليكم وقيل نستنسخ أي نأخذ
نسخه وذلك أن الملكين يرفعان عمل الانسان فيثبت الله تعالى منه ما كان له من ثواب أو عقاب
ويطرح منه اللغو نحو قولهم هلم واذهب والاستنساخ من اللوح المحفوظ تنسخ الملائكة
كل عام ما يكون من أعمال بني آدم والاستنساخ لا يكون الا من أصل كما ينسخ من كتاب
كتاب وقال الضحاك نستنسخ أي نثبت وقال السدي نكتب وقال الحسن نحفظ * ثم بين تعالى
أحوال المطيعين بقوله تعالى (فأما الذين آمنوا) أي من الامم الجاثية (وعملوا) أي تصديقا
لدعواهم الايمان (الصالحات) أي الطاعات فوصفهم بالعمل الصالح بعد وصفهم بالايمان
يدل على أن العمل الصالح مغاير للايمان زائد عليه (فيدخلهم) أي في ذلك اليوم (ربهم) أي
المحسن اليهم بالتوفيق بالايمان (في رحمته) التي من جملتها الجنة والنظر الى وجهه الكريم
الذي هو الغاية القصوى وتقول لهم الملائكة تشريفا سلام عليكم أيها المؤمنون ودل على
عظمة الرحمة بقوله تعالى (ذلك) أي الاحسان العالي المنزلة (هو) أي لا غيره (الفوز المبين)
أي الظاهر الذي لا يخفى على أحد شيء من أمره لانه لا يشوبه كدر أصلا ولا نقص بخلاف ما كان
من أسبابه في الدنيا فانها مع كونها كانت فوزا كانت خفية جدا على غير الموقنين * ثم بين تعالى
أحوال الفريق الآخر بقوله تعالى (وأما الذين كفروا) أي ستروا ما أمر الله تعالى به (أفلم) أي
فيقال لهم ألم (تكن) تأتيكم رسلي فلم تكن (آياتي) على ما لها من عظمة اضافتها الي وأعظمها
القرآن (تتلى) أي تواصل قراءتها من أي تال كان فكيف اذا كانت بواسطة الرسل تلاوة
مستعلية (عليكم) لا تقدرون على دفع شيء منها * (تنبيه) * حذف المقول المعطوف عليه كما تقرر
اكتفاء بالمقصود واستغناء بالقرينة (فاستكبرتم) أي فتسبب عن تلاوتها التي من شأنها ايراث
الخشوع والاخبات والخضوع ان طلبتم الكبر لانفسكم أو جدتموه على رسلي وآياتي (وكنتم
قوما) أي ذوي قيام وقدرة على ما تحاولونه (مجرمين) أي عريقين في قطع ما يستحق الوصل
وذلك هو الخسران المبين (واذا) أي وكنتم اذا (قيل) أي من أي قائل كان ولو على سبيل

التأكيد (ان وعد الله) أى الذى كل أحد يعلم أنه محيط بصفات الكمال (حق) أى ثابت لا محيد عنه مطابق للواقع من البعث وغيره لان أقل الملوك لا يرضى بأن يخلف وعده فكيف به سبحانه وتعالى فكيف اذا كان الاخلاف فيه مناقضا للحكم وقرأ (والساعة) حمزة بالنصب عطفا على وعد الله والباقون برفعها وفيه ثلاثة أوجه أحدها الابتداء ومابعدها من الجملة المنفية وهو قوله تعالى (لاريب) أى لاشك (فيها) خبرها ثانيها العطف على محل اسم ان لانه قبل دخولها مرفوع بالابتداء ثالثها انه عطف على محل ان واسمها معا لان بعضهم كالفارسى والزمخشرى يرون أن لان واسمها موضعا وهو الرفع بالابتداء (قلتم) أى راضين لانفسكم بحضيض الجهل (ماندرى) أى الآن دراية علم ولو بذلنا جهدنا فى محاولة الوصول اليه (ما الساعة) أى لانعرف حقيقتها فضلا عما تخبرونا به من أحوالها *(تنبيه)* الساعة هنا مرفوعة باتفاق (ان) أى ما (نظن) أى نعتقد ما تخبرونا به عنها (الاظنا) وأما وصوله الى درجة العلم فلا (ومانحن) وأكدوا النفى فقالوا (بمستيقنين) أى بموجود عندنا اليقين فى أمرها قال الرازى القوم كانوا فى هذه المسئلة على قولين منهم من كان قاطعا بنفى البعث والقيامة وهم المذكورون فى قوله تعالى وقالوا ماهى الا حياتنا الدنيا ومنهم من كان شاكا متحيرا فيه لانهم لكثرة ما سمعوه من الرسل عليهم السلام ولكثرة ما سمعوه من دلائل القول بصحته صاروا شاكين فيه وهم المذكورون فى هذه الآية ويدل على ذلك أنه حكى تعالى مذهب أولئك القاطعين ثم أتبعه بحكاية قول هؤلاء فوجب كون هؤلاء مغايرين للفريق الاول * ولما وصلوا الى حد عظيم من العناد التفت الى أسلوب الغيبة اعراضا عنهم ايذانا بشدة الغضب عليهم فقال تعالى (وبدا) أى ولم يزالوا يقولون ذلك الى أن بدت لهم الساعة بما فيها من الاوجال والزلازل والاهوال وظهر (لهم) غاية الظهور (سيآت ما عملوا) فى الدنيا فتمثلت لهم وعرفوا مقدار جزائها واطلعوا على جميع ما يلزم على ذلك (وحاق) أى أحاط (بهم) على حال القهر والغلبة قال أبو حيان ولا يستعمل الا فى المكروه (ما كانوا) جبلة وطبعا (به يستهزؤن) أى يوجدون الهزء به على غاية الشهوة واللذة ايجاد من هو طالب لذلك وهذا كالدليل على ان هذه الفرقة لما قالوا ان نظن الا ظنا انما ذكروه استهزاء وسخرية فصار هذا الفريق أشر من الفريق الاول لان الاولين كانوا منكرين وما كانوا مستهزئين وهؤلاء ضموا الى الاصرار على الانكار الاستهزاء وقرأ حمزة فى الوقف بتسهيل الهمزة بعد الزاى كالواو وله أيضا ابدالها ياء ونقل عنه أيضا غير ذلك (وقيل) أى لهم على أقطع الاحوال وأشدها قولا لا معقب له فكأنه بلسان كل قائل (اليوم ننساكم) أى نترككم فى العذاب (كما نسيتم لقاء يومكم هذا) أى كما تركتم الايمان والعمل للقائه وقيل نجعلكم منزلة الشئ المنسى غير المبالى به كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم هذا ولم تلتفتوا اليه (ومأواكم النار) ليس لكم براح عنها (ومالكم من ناصرين) ينقذونكم من ذلك بشفاعة ولا مقاهرة فجمع الله تعالى عليهم من وجوه العذاب ثلاثة أشياء قطع الرحمة عنهم وتصييرما وأهم النار وعدم الانصار لانهم أتوا

بثلاثة أنواع من الاعمال القبيحة وهى الاصرار على انكار الدين الحق والإستهزاء به والسخرية والاستغراق فى حب الدنيا وهو المراد بقوله تعالى (ذلكم) أى العذاب العظيم (بأنكم اتخذتم) أى بتكليف منكم لانفسكم (آيات الله) أى الملك الاعظم (هزوا) أى استهزاء بها ولم تتفكروا فيها وقرأ اتخذتم ابن كثير وحفص باظهار الذال عند التاء والباقون بالادغام (وغرتكم الحياة الدنيا) الدنيئة لضعف عقولكم فآثرتموها لكونها حاضرة وأنتم كالبهائم فقلتم لاحياة غيرها ولابعث ولاحساب ولو تعقلتم وصفكم لها الاداكم الى الاقرار بالآخرة (فاليوم) أى بعد ابوائهم فيها (لايخرجون منها) أى النار لان الله تعالى لايخرجهم ولا يقدر غيره على ذلك وقرأ حمزة والكسائى بفتح الياء التحتية وضم الراء والباقون بضم الياء وفتح الراء (ولاهم يستعتبون) أى لايطلب من طالب ما منهم الاعتاب وهو الاعتذار لانه لا يقبل ذلك اليوم عذر ولا توبة

* ولما تم الكلام فى المباحث الروحانية ختم السورة بتحميد الله تعالى فقال عز من قائل (فلله) اى الذى له الامر كله (الحمد) أى الاحاطة بجميع صفات الكمال (رب السموات) اى ذوات العلو والاتساع والبركات (ورب الارض) أى ذات القبول للواردات (رب العالمين) أى خالق ماذكر اذ الكل نعمة منه دال على كمال قدرته فاحمدوا الله الذى هو خالق السموات والارضين وخالق كل العالمين من الاجسام والارواح والذوات والصفات فان هذه توجب الحمد والثناء على كل من المخلوقين والمربوبين * ولما أفاد ذلك غناه الغنى المطلق وسيادته وانه لا كفء له عطف عليه بعض اللوازم لذلك تنبيها على مزيد الاعتناء به لدفع ما يتوهمونه من ادعاء الشركة التى لايرضونها لانفسهم فقال تعالى (وله) أى وحده (الكبرياء) أى الكبر الاعظم الذى لانهاية له (فى السموات) كلها (والارض) جميعا اللتين فيهما آيات الموقنين روى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما أدخلته النار وفى رواية عذبته وفى رواية قصمته (وهو) وحده (العزيز) الذى يغلب كل شئ ولايغلبه شئ (الحكيم) الذى يضع الاشياء فى مواضعها ولايضع شيأ الا كذلك كما أحكم أمره ونهيه وجميع شرعه وأحكم نظم هذا القرآن

جملا وآيات وفواصل وغايات بعد أن حرر معانيه وتنزيله فصار

معجزا فى نظمه ومعناه وما رواه البيضاوى تبعا

للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال

من قرأ سورة حم الجاثية ستر الله

عورته وسكن روعته يوم

الحساب حديث

موضوع

تم

(تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع أوله سورة الاحقاف)

فهرسة الجزء الثالث من تفسير الخطيب الشربيني

سورة الشعراء ٠٠٢	سورة النمل ٠٤١	سورة القصص ٧٩	سورة العنكبوت ١٢٣
سورة الروم ١٥٥	سورة لقمان ١٧٩	سورة السجدة ٢٠١	سورة الاحزاب ٢١٦
سورة سبأ ٢٧٧	سورة فاطر ٣١٠	سورة يس ٣٣٥	سورة الصافات ٣٦٨
سورة ص ٣٩٨	سورة الزمر ٤٣٠	سورة المؤمن ٤٦٥	سورة حم السجدة ٥٠١
سورة شورى ٥٢٦	سورة الزخرف ٥٥٢	سورة الدخان ٥٧٨	سورة الجاثية ٥٩٢

(تمت)

الجزء الرابع من السراج المنير في الاعانة على معرفة بعض
معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للشيخ الامام
الخطيب الشربيني قدس الله روحه
وعم بالرحمة ضريحه
آمين

م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سورة الاحقاف مكية﴾

الاقوله تعالى قل أرأيتم ان كان من عند الله الآية والافاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل الآية والاووصينا الانسان بوالديه الثلاث آيات وهى خمس وثلاثون آية وستمائة وأربع وأربعون كلمة وألفان وخمسمائة وخمسة وتسعون حرفا (بسم الله) الذى لايذل من والى ولايعز من عادى (الرحمن) الذى سبقت رحمته غضبه (الرحيم) الذى خص حزبه بعمل الابرار للفوز فى دار القرار وتقدم الكلام على قوله تعالى (حم) مرارا وقرأ ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى باماله الحاء محضة وقرأ ورش وأبو عمرو بامالتها بين بين وفتحها الباقون وقيل المراد بحم حكمة محمد صلى الله عليه وسلم التى هى النهاية فى الصواب والسداد أحكمها الذى أحاطت قدرته فهو لايخاف الميعاد وقوله تعالى (تنزيل الكتاب) أى الجامع لجميع الخيرات بالتدريج على حسب المصالح (من الله) أى الجبار المتكبر المختص بصفات الكمال (العزيز) فى ملكه (الحكيم) فى صنعه لانه لم يفعل شيأ الاقى أوفق محاله وأنه الخالق للخير والشر وأنه يعز أولياءه ويذل أعداءه (ماخلقنا) أى على مالنا من العظمة الموجبة للتفرد بالكبرياء (السموات والارض) على مافيهما من الآيات (ومابينهما الا) خلقا ملتبسا (بالحق) أى الامر الثابت من القدرة التامة والتصرف المطلق ليدل على قدرتنا ووحدانيتنا (وأجل) أى وبتقدير أجل (مسمى) ينتهى اليه وهو يوم القيامة (والذين كفروا عما أنذروا) أى خوفوا به من القرآن من هول ذلك اليوم الذى لابد لكل خلق من انتهائه اليه (معرضون) أى لايؤمنون به ولايهتمون للاستعداد له ثم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهؤلاء المعرضين أنفسهم لغاية الخطوب منكرا عليهم تبكيتا وتوبيخا

(أرأيتم)

(أرأيتم) أى أخبرونى عن حال آلهتكم بعد تأمل ورؤية باطنة (ماتدعون) أى تعبدون ثم نبه على سفولهم بقوله تعالى (من دون الله) أى المالك الاعظم الذى كل شئ دونه فلا كفء له مفعول أول وقوله تعالى (أرونى) أى أخبرونى تأكيد وقوله (ماذا خلقوا) مفعول ثان وقوله تعالى (من الارض) بيان لما أى ليصح ادّعاء أنهم شركاء فيها باختراع ذلك الجزء (أم لهم) أى الذين تدعونهم (شرك) أى مشاركة (فى) خلق (السموات) أى بنوع من أنواع الشركة مع الله تعالى وأم بمعنى همزة الانكار ولما كان الدليل أحد شيئين سمع وعقل قال تعالى (ائتونى بكتاب) أى منزل على دعواكم فى هذه الاصنام أنها خلقت شيأ أو أنها تستحق أن تعبد *(تنبيه)* أبدل ورش والسوسى الهمزة من ائتونى فى الوصل ياء وحققها الباقون وأما الابتداء بها فجميع القراء أبدلوها ياء بعد الابتداء بهمزة الوصل مكسورة (من قبل هذا) أى القرآن الذى أنزل على كالتوراة والانجيل والزبور وهذا من أعلام النبوّة فانها كلها شاهدة بالوحدانية لو أتى بها آت لشهدت عليه ولما ذكر تعالى الاعلى الذى لا يجب التكليف الا به وهو النقل القاطع سهل عليهم فنزل الى مادونه فقال (أو أثارة) أى بقية (من علم) يؤثر عن الاوّلين بصحة دعواكم فى عبادة الاصنام أنها تقربكم الى الله تعالى وقال المبرد أثارة ما يؤثر من علم كقولك هذا الحديث يؤثر عن فلان ومن هذا المعنى سميت الاخبار بالآثار يقال جاء فى الاثر كذا وكذا وقال الواحدى وكلام أهل اللغة فى هذا الحرف يدور على ثلاثة أقوال الاوّل الاثارة واشتقاقها من أثرت الشئ أثيره أثارة كأنها بقية تستخرج فتثار والثانى من الاثر الذى هو الرواية والثالث من الاثر بمعنى العلامة وقال الكلبى فى تفسير الاثارة أى بقية من علم يؤثر عن الاوّلين أى يسند اليهم وقال مجاهد وعكرمة ومقاتل رواية عن الانبياء قال الرازى وههنا قول آخر أو أثارة من علم هو علم الخط الذى يخط فى الرمل والعرب كانوا يخطونه وهو علم مشهور روى أنه صلى الله عليه وسلم قال كان نبىّ من الانبياء يخط فمن وافق خطه خطه علم علمه فعلى هذا الوجه معنى الآية ائتونى بعلم من قبل هذا الخط الذى تخطونه فى الرمل يدل على صحة مذهبكم فى عبادة الاصنام فان صح تفسير الآية بهذا الوجه كان ذلك من باب التهكم بهم وأقوالهم ودلائلهم ثم أشار الى تقريعهم بالكذب اذ لم يقيموا دليلا على دعواهم بقوله (ان كنتم صادقين) أى عريقين فى الصدق على ماتدعون لانفسكم ولما أبطل سبحانه قولهم فى الاصنام بعدم قدرتها أتبعه ابطاله بعدم علمها بقوله تعالى (ومن أضلّ) وهو استفهام بمعنى النفى أى لا أحد أضل (ممن يدعو) أى يعبد ما لا قدرة له ولا علم ومن انتفت قدرته وعلمه لم تصح عبادته ببديهة العقل وأرشد الى سفولها بقوله عز وجل (من دون الله) أى من أدنى رتبة من رتب الذى له صفات الكمال فهو يعلم كل شئ ويقدر على كل شئ فهو بحيث يجيب الدعاء ويكشف البلاء ويحقق الرجاء اذا شاء ويدبر عبده لما يعلم من سره وعلنه بما لا يقدر هو على تدبير نفسه به ويريد العبد فى كثير من الاشياء مالو وكل فيه الى نفسه وأجيب الى طلبته كان فيه حتفه فيدبره سبحانه بما تشتد كراهته له فيكشف الحال على أنه لم يكن له فرج الا فيه (من لا يستجيب له) أى لا توجد الاجابة ولا يطلب ايجادها من الاصنام وغيرها لانه لا أهلية له لذلك

والمعنى انه لا أحد أبعد عن الحق وأقرب الى الجدل ممن يدعو من دون الله الاصنام فيتخذها آلهة ويعبدها وهي اذا دعيت لا تسمع ولا تجيب لا في الحال ولا في المآل (الى يوم القيامة) وانما جعل ذلك غاية لان يوم القيامة قد قيل ان الله تعالى يحييها ويخاطب من يعبدها فلذلك جعله الله تعالى حدا وقيل المراد عبدة الملائكة وعيسى وأنهم يوم القيامة يظهرون عبادة هؤلاء العابدين (وهم عن دعائهم) أي دعاء المشركين اياهم (غافلون) أي لهم هذا الوصف لا ينفكون عنه لا يعلمون من يدعوهم ومن لا يدعوهم وعبر بالغفلة التي هي من أوصاف العقلاء للجماد تغليبا ان كان المراد أعم من الاصنام وغيرها مما عبدوه من عقلاء الانس وغيرهم ولما غيا سبحانه بيوم القيامة فأفهم أنهم يستجيبون لهم فيه بين ما يحيا ورونهم به اذ ذاك فقال تعالى (واذا حشر) أي جمع بكره على أيسر وجه وأسهل أمر (الناس) أي يوم القيامة (كانوا) أي المدعوون (لهم) أي الداعين (أعداء) ويعطيهم الله تعالى قوة الكلام فيخاطبونهم بكل ما يخاطب به العدو عدوه (وكانوا) أي المعبودون (بعبادتهم) أي الداعين وهم المشركون اياهم (كافرين) أي جاحدين لانهم كانوا عنها غافلين كما قال تعالى في سورة يونس عليه السلام وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون ثم بين تعالى أنهم في نهاية الغباوة بانكار ما لا شئ أبين منه بقوله سبحانه (واذا تتلى) أي تقرأ من أي قارئ كان على وجه المتابعة (عليهم) أي هؤلاء البعداء البغضاء (آياتنا) التي لا أعظم منها في أنفسها باضافتها الينا وهي القرآن وقوله تعالى (بينات) أي ظاهرات حال قالوا هكذا كان الاصل ولكنه تعالى بين الوصف الحامل لهم على القول فقال عز وجل (قال الذين كفروا) أي ستروا تلك الانوار التي أبرزتها تلك التلاوة لها هكذا كان الاصل ولكن قال تعالى (للحق) أي لاجله (لما) أي حين (جاءهم) أي من غير نظر وتأمل (هذا) أي الذي يتلى (سحر) اي خيال لا حقيقة له (مبين) أي ظاهر في أنه خيال باطل وقوله تعالى (أم يقولون افتراه) اضراب عن ذكر تسميتهم اياه سحرا الى ذكر ما هو أشنع وانكار له وتعجب ثم بين تعالى بطلان شبهتهم بقوله تعالى (قل) أي يا أشرف الخلق (ان افتريته) أي تعمدت كذبه على زعمكم وأنا انما أريد به نصيحتكم فالذي أفتري به عليه وأنسبه اليه يعاقبني على ذلك ولا يتركني أصلا وذلك هو معنى قوله (فلا تملكون) أي أيها المنصوحون بوجه من الوجوه ولا في وقت من الاوقات (لي من الله) أي المتكبر الحليم (شيأ) من الاشياء المانعة عن انتقامه لان الملك لا يترك من كذب عليه مطلق كذب فكيف من يتعمد الكذب عليه في الرسالة بأمور عظيمة ويلازمته مساء وصباحا فأي حامل لي حينئذ على افترائه ثم علل ما أفاده الكلام من وجوب الانتقام بقوله (هو) أي الله سبحانه (أعلم) أي منكم ومن كل أحد (بما تفيضون فيه) أي بما تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والقول فيه بأنه سحر (كفى به شهيدا) أي شاهدا بليغ الشهادة لانه أعلم بجميع أحوالنا (بيني وبينكم) أي أن القرآن جاء من عنده فيشهد لي بالصدق ولكم بالكذب وقد شهد بصدقي بعجزكم عن معارضة شئ من هذا الكتاب الذي أتيت به فثبت بذلك أنه كلامه لاني لا أقدر على ما تقدرون عليه فرادى ولا مجتمعين وأنتم عرب مثلي بل وأنا أمي وفيكم أنتم الكتبة والذين خالطوا العلماء وسمعوا أحاديث الامم وضربوا بعد بلاد العرب في بلاد

النجم فظهر بذلك ظهور الشمس أنكم كاذبون (وهو) أى وحده (الغفور) أى الذى من شأنه أن يمحو الذنوب أعيانها وآثارها فلا يعاقب عليها ولا يعاتب (الرحيم) أى الذى يكرم بعد المغفرة ويتفضل بالتوفيق لما يرضيه قال الزجاج هذا دعاء الى التوبة ومعناه غفور لمن تاب منكم رحيم به ولما حكى تعالى طعنهم فى كون القرآن معجزا بقولهم انه يختلقه من عند نفسه ثم ينسبه الى أنه كلام الله تعالى على سبيل الفرية حكى عنهم شبهة أخرى وهو انهم كانوا يقترحون عليه معجزات عجيبة ويطالبونه بأن يخبرهم عن المغيبات فأجاب الله تعالى عن ذلك بقوله عز وجل (قل) أى لهؤلاء الذين نسبوك الى الافتراء (ما كنت) أى كونا ما (بدعا) أى منشئا مبتدعا محدثا مخترعا بحيث أكون أجنبيا منقطعا (من الرسل) أى لم يتقدم لى منهم مثال فى أصل ما جئت به وهو التوحيد ومحاسن الاخلاق بل قد تقدمنى رسل كثيرون أتوا بمثل ما أتيت به ودعوا اليه كما دعوت اليه وصدقهم الله تعالى بمثل ما صدقنى به فثبت بذلك رسالتهم وسعد بهم من صدقهم من قومهم وشقى من كذبهم فانظروا الى آثارهم واسألوا عن سيرهم من أتباعهم وأنصارهم وأشياعهم * (تنبيه) * البدع والبديع من كل شئ المبدأ والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجودا قبله وفى الحديث كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار قال البقاعى معناه والله أعلم أنه يبتدع ما يخالف السنة اذا كانت البدعة ضد السنة فاذا أحدث ما يخالفها كان باحداثه ضالا مشركا وكان ما أحدث فى النار ولم يدخل تحت هذا ما يخترعه الانسان من أفعال البر يسمى بدعة لعدم فعله قبل ذلك فيخرج عما ذكر اهـ وقال ابن عبد السلام البدعة منقسمة الى واجبة ومحرمة ومندوبة ومكروهة ومباحة قال والطريق فى ذلك أن تعرض البدعة على قواعد الشريعة فان دخلت فى قواعد الايجاب فهى واجبة كالاشتغال بعلم النحو أو فى قواعد التحريم فمحرمة كمذهب القدرية والمجسمة والرافضة قال والرد على هؤلاء من البدع الواجبة أو فى قواعد المندوب فمندوبة كبناء الربط والمدارس وكل احسان لم يحدث فى العصر الاول كصلاة التراويح أو فى قواعد المكروه فمكروهة كزخرفة المساجد وتزويق المصاحف أو فى قواعد المباح فمباحة كالمصافحة عقب الصبح والعصر والتوسع فى المآكل والملابس وروى البيهقى باسناده فى مناقب الشافعى رضى الله تعالى عنه انه قال المحدثات ضربان أحدهما ما خالف كتابا أو سنة أو اجماعا فهو بدعة وضلالة والثانى ما أحدث من الخير فهو غير مذموم واختلف فى تفسير قوله تعالى عن قوله عليه الصلاة والسلام (وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم) على وجهين أحدهما أن يحمل ذلك على أحوال الدنيا والثانى أن يحمل على أحوال الآخرة أما الاول ففيه وجوه أحدها أن معناه لا أدرى ما يصير اليه أمرى وأمركم ومن الغالب منا ومن المغلوب ثانيها قال ابن عباس فى رواية الكلبى لما اشتد البلاء بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بمكة رأى فى المنام أنه يهاجر الى أرض ذات نخل وشجر وماء فقصها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا أن ذلك فرج مما بهم من أذى المشركين ثم انهم مكثوا برهة من الدهر لا يرون أثر ذلك فقالوا يا رسول الله ما رأينا الذى قلت متى تهاجر الى الارض التى رأيتها فى المنام فسكت النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى قل ما كنت بدعا من الرسل

وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم هو شئ رأيته فى المنام (ان) اى ما (أتبع) اى بغاية جهدى وجدى (الاما) أى الذى (يوحى) اى يجدد القاؤه من لا يوحى بحق سواه (الى) على سبيل التدريج لا يطلع عليه حق اطلاعه غيرى ثالثها قال الضحاك لا أدرى ما تؤمرون به ولا ما أومر به من التكاليف والشرائع ولا من الابتلاء والامتحان (وما أنا) اى باخبارى لكم عما يوحى الى (الا نذير مبين) أى بين الانذار رابعها كأنه يقول ما أدرى ما يفعل بى فى الدنيا أموت أو أقتل كما قتل الانبياء قبلى ولا أدرى ما يفعل بكم ايها المكذبون اترمون بالحجارة من السماء او يخسف بكم أو يفعل بكم ما يفعل بسائر الامم قال السدى ثم أخبره الله تعالى أنه يظهر دينه على الاديان بقوله تعالى هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وقال فى أمته وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فأخبره الله تعالى بما يصنع به وبأمته * وأما من حمل الآية على أحوال الآخرة فروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لما نزلت هذه الآية فرح المشركون والمنافقون واليهود وقالوا كيف نتبع نبيا لا يدرى ما يفعل به ولا بنا فأنزل الله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر الى قوله تعالى وكان ذلك عند الله فوزا عظيما فقالت الصحابة هنيألك يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك فما يفعل بنا فأنزل الله عز وجل ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار الآية وأنزل وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا فبين لهم ما يفعل به وبهم وبهذا قال أنس والحسن وعكرمة وقالوا انما قال هذا قبل أن يخبر بغفران ذنبه لانه انما أخبر به عام الحديبية فنسخ ذلك قال الرازى وأكثر المحققين استبعدوا هذا القول من وجهين أحدهما أن النبى صلى الله عليه وسلم لا بد وأن يعلم من نفسه ومتى علم كونه نبيا علم أنه لا تصدر عنه الكبائر وأنه مغفور له واذا كان كذلك امتنع كونه شاكا فى أنه هل هو مغفور له أولا ثانيهما أن الانبياء ارفع حالا من الاولياء وقد قال تعالى فى حقهم ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون فكيف يعقل أن يبقى الرسول الذى هو رئيس الانبياء وقدوة الاولياء شاكا فى انه هل هو من المغفور لهم فثبت ضعف هذا القول (قل) يا أفضل الخلق لهؤلاء المصرين على التكذيب (أرأيتم) أى أخبرونى (ان كان) أى هذا الذى أتيتكم به وهو القرآن (من عند الله) أى الملك الاعظم (وكفرتم به) أى أيها المشركون (وشهد شاهد) واحد أو أكثر (من بنى اسرائيل) أى الذى جرت عادتكم أن تستفتوهم وتثقوا بهم (على مثله) أى مثل ما فى القرآن من ان من وحد فقد آمن ومن أشرك فقد كفر وأن الله تعالى أنزل ذلك فى التوراة والانجيل وجميع أسفارهم فتطابقت عليه كتبهم وتظافرت به رسلهم وتواترت على الدعاء اليه والامر به أنبياؤهم عليهم الصلاة والسلام (فآمن) أى هذا الذى شهد هذه الشهادة (واستكبرتم) أى أوجدتم الكبر بالاعراض عنه طالبين بذلك الرياسة والفخر فكنتم بعد شهادة هذا الشاهد معاندين من غير شبهة فضللتم فوضعتم الشئ فى غير موضعه فانسد عليكم باب الهداية واختلف فى هذا الشاهد فقال قتادة والضحاك وأكثر المفسرين هو عبد الله بن سلام شهد بنبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم وآمن به واستكبرت اليهود فلم يؤمنوا به كما روى أنس

قال سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه فنظر الى وجهه فعلم أنه ليس وجه كذاب وتأمله فتحقق أنه النبي المنتظر فقال له انى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن الا نبي ما أول أشراط الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد الى أبيه أو الى أمه فقال صلى الله عليه وسلم أخبرني بهن جبريل آنفا قال جبريل قال نعم قال ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله ثم قال أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب وأما أول طعام تأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت واما الولد فاذا سبق ماء الرجل نزعه واذا سبق ماء المرأة نزعته فقال أشهد أنك لرسول الله حقا ثم قال يا رسول الله ان اليهود قوم بهت وان علموا باسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم أي رجل عبد الله فيكم فقالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا قال أفرأيتم ان أسلم عبد الله بن سلام فقالوا أعاذه الله من ذلك فخرج اليهم عبد الله فقال أشهد ان لا اله الا الله واشهد أن محمدا رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا وانتقصوه فقال هذا ما كنت أخاف منه يا رسول الله قال سعد بن أبي وقاص ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لاحد يمشي على الارض انه من أهل الجنة الا لعبد الله بن سلام وفيه نزلت هذه الآية وشهد شاهد من بني اسرائيل وقيل الشاهد هو موسى بن عمران قال الشعبي قال مسروق في هذه الآية والله ما نزلت في عبد الله بن سلام لان آل حم نزلت بمكة وانما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعامين فكيف يمكن حمل هذه الآية المكية على واقعة حدثت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وانما نزلت الآية في محاجة كانت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت بالمدينة وأجاب الكلبي بأن السورة مكية الا هذه الآية فانها مدنية وان الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يضعها في هذه السورة المكية في هذا الموضع المعين وقيل المراد بالشاهد موسى ومثل القرآن هو التوراة فشهد موسى على التوراة ومحمد على الفرقان فكل واحد يصدق الآخر لان التوراة مشتملة على البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن مصدق للتوراة وجواب الشرط ألستم ظالمين دل عليه قوله تعالى (ان الله) أي الملك الاعظم ذا العزة والحكمة (لا يهدي القوم) أي الذين لهم قوة على القيام بما يريدون (الظالمين) اى الذين من شأنهم وضع الامور في غير مواضعها فلاجل ذلك لا يهديكم اذ لا احد ارسخ منكم في الظلم الذي تسبب عنه هلاككم (وقال الذين كفروا) اى تعمدوا تغطية الحق (للذين) اى لاجل ايمان الذين (آمنوا) اى سبقوهم الى الايمان (لو كان) اى ايمانهم بالقرآن (خيرا) اى من جملة الخيور (ما سبقونا اليه) ونحن أشرف منهم وأكثر اموالا واولادا وأعلم بتحصيل العز والسودد الذي هو مناط الخير كما لم يسبقونا الى شئ من هذه الخيرات التي نحن فائزون بها وهم صفر منها لكن ليس بخير فلهذا سبقونا اليه (واذ) اى وحين (لم يهتدوا به) اى بالقرآن كما اهتدى به اهل الايمان (فسيقولون هذا) أي القرآن الذي سبقتم اليه (افك) اى شئ مصروف عن وجهه الى قضاه (قديم) اى افك غيره وعثر هو عليه فأتى به ونسبه الى الله تعالى كما

قالوا اساطير الاولين (ومن) اى قالوا ذلك والحال انه كان فى بعض الزمن الذى من (قبله) اى القرآن (كتاب موسى) كليم الله تعالى حال كون كتابه وهو التوراة (اماما) اى يستحق ان يؤتمه كل من سمع به (ورحمة) لما فيه من نعم الدلائل على الله تعالى والبيان الشافى وفى الكلام محذوف تقديره وتقدمه كتاب موسى اماما ورحمة ولم يهتدوا به كما قال تعالى فى الآية الاولى واذلم يهتدوا به (وهذا) اى القرآن (كتاب) أى جامع لجميع الخيرات (مصدق) اى لكتاب موسى عليه السلام وغيره من الكتب التى تصح نسبتها الى الله تعالى فى ان محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله تعالى وقوله تعالى (لسانا) حال من الضمير فى مصدق وقوله (عربيا) صفة للسانا وهو المسوغ لوقوع هذا الجامد حالا أى فى أعلى طبقات اللسان العربى مع كونه اسهل الكتب تناولا وابعدها عن التكلف ليس هو بحيث يمنعه علوه بفخامة الالفاظ وجلالة المعانى ودقة الاشارة عن سهولة الفهم وقرب التناول وقوله تعالى (لينذر) اى الكتاب بحسن بيانه وعظم شأنه (الذين ظلموا) اى سواء كانوا عريقين فى الظلم ام لا وقرأ نافع وابن عامر بالتاء خطابا اى ايها الرسول والباقون بالياء غيبة بخلاف عن البزى (وبشرى) أى كاملة (للمحسنين) أى المؤمنين بأن لهم الجنة * ولما قرر دلائل التوحيد والنبوة وذكر شبهات المتكبرين وأجاب عنها ذكر بعد ذلك طريقة المحقين فقال تعالى (ان الذين قالوا ربنا) أى خالقنا ومولانا والمحسن الينا (الله) وحده (ثم استقاموا) أى جمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم والاستقامة فى الامور التى هى منتهى العلم وثم للدلالة على تأخر رتبة العمل وتوقف اعتباره على التوحيد (فلا خوف عليهم) أى من لحوق مكروه (ولا هم يحزنون) أى على فوات محبوب والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط (أولئك) أى العالون الدرجات (أصحاب الجنة خالدين فيها) خلودا لا آخر له جوزوا بذلك (جزاء بما) أى بسبب ما (كانوا) طبعا وخلقا (يعملون) أى على سبيل التجديد المستمر * ولما كان رضا الله تعالى فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما كما ورد به الحديث حث عليه بقوله تعالى (ووصينا) أى بما لنا من العظمة (الانسان) أى هذا النوع الذى أنس بنفسه (بوالديه) وقرأ (حسنا) نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم الحاء وسكون السين وقرأ الكوفيون بسكون الحاء وقبلها همزة مكسورة وفتح السين وبعدها ألف فهو منصوب على المصدر بفعل مقدر أى وصيناه أن يحسن اليهما احسانا ومثله حسنا وقرأ (حملته أمه كرها) أى على مشقة (ووضعته كرها) أى بمشقة الكوفيون وابن ذكوان بضم الكاف فيهما والباقون بالفتح وهما لغتان بمعنى واحد مثل الضعف والضعف وقيل المضموم اسم والمفتوح مصدر وليس المراد ابتداء الحمل فان ذلك لا يكون بمشقة لقوله تعالى فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت فحينئذ حملته كرها ووضعته كرها *(تنبيه)* دلت الآية على أن حق الام أعظم لانه تعالى قال ووصينا الانسان بوالديه حسنا فذكرهما معا ثم خص الام بالذكر فقال حملته أمه كرها ووضعته كرها وذلك يدل على أن حقها اعظم وان وصول المشاق اليها بسبب الولد كثيرة والاخبار كثيرة فى هذا الباب (وحمله وفصاله) أى من الرضاع (ثلاثون شهرا) كل ذلك بيان لما تكابده الام فى تربية الولد ومبالغة فى الوصية

بها

بها وفى ذلك دلالة على أن اقل مدة الحمل ستة أشهر لانه لما كان مجموع مدة الحمل والرضاع ثلاثون
شهرا وقال تعالى والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين فاذا أسقطنا الحولين الكاملين
وهى أربعة وعشرون شهرا من ثلاثين بقى مدة الحمل ستة أشهر روى عكرمة عن ابن عباس
رضى الله عنهما قال اذا حملت المرأة تسعة أشهر أرضعت أحدا وعشرين شهرا واذا حملت ستة
أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا وروى عن أبى بكر ان امرأة دفعت اليه وقد ولدت لستة
اشهر فأمر برجمها فقال عمر لا رجم عليها وذكر الطريق المتقدمة وعن عثمان نحوه وأنه هم بذلك
فقرأ ابن عباس رضى الله عنهما عليه الآية وأما مدة اكثر الحمل فليس فى القرآن مايدل عليه
واختلاف الائمة فى ذلك فعند الشافعى أربع سنين وقوله تعالى (حتى اذا بلغ أشده) لابد فيه من
جملة محذوفة تكون حتى غاية لها أى عاش واستمرت حياته حتى اذا بلغ أشده قال ابن عباس
رضى الله عنهما فى رواية عطاء الاشد ثمان عشرة سنة وقيل نهاية قوته وغاية شبابه واستوائه وهو
مابين ثمانى عشرة سنة الى أربعين سنة فذلك قوله تعالى (وبلغ أربعين سنة) وقال السدى
والضحاك نزلت فى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وقيل نزلت فى أبى بكر الصديق
رضى الله عنه وأبيه أبى قحافة عثمان بن عمرو وامه أم الخير بنت صخر بن عمرو وقال على بن أبى
طالب رضى الله عنه الآية فى أبى بكر الصديق أسلم أبواه جميعا ولم يجتمع لاحد من المهاجرين
أبواه غيره أوصاه الله تعالى بهما ولزم ذلك من بعده وكان أبو بكر يصحب النبى صلى الله عليه
وسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة والنبى صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة فى تجارته الى الشام
فلما بلغ أربعين سنة وتنبأ النبى صلى الله عليه وسلم آمن به ثم آمن أبواه ثم ابنه عبد الرحمن وابن
عبد الرحمن أبو عتيق ثم ان أبا بكر دعا ربه بأن (قال رب أوزعنى) أى ألهمنى وقرأ ورش والبزى
بفتح الياء فى الوصل والباقون بسكونها (أن أشكر نعمتك التى أنعمت) أى بها (على) أى
وعلى أولادى (وعلى والدى) وهى التوحيد وأكثر المفسرين على أن الاشد ثلاث وثلاثون
قال الرازى مراتب الحيوان ثلاثة لان بدن الحيوان لا يكون الا برطوبة غريزية
وحرارة غريزية والرطوبة الغريزية زائدة فى أول العمر ناقصة فى آخره والانتقال من الزيادة
الى النقصان لا يعقل حصوله الا اذا حصل الاستواء فى وسط هاتين المدتين فثبت أن مدة العمر
منقسمة الى ثلاثة أقسام فأولها أن تكون الرطوبة الغريزية زائدة على الحرارة الغريزية
وحينئذ تكون الاعضاء عظيمة التمدد فى ذواتها وزيادتها فى الطول والعرض والعمق وهذا
هو سن النشء والثانية وهى المرتبة المتوسطة أن تكون الرطوبة الغريزية وافية بحفظ
الحرارة الغريزية من غير زيادة ولا نقصان وهذا هو سن الوقوف وهو حين الشباب والمرتبة
الثالثة أن تكون الرطوبة الغريزية ناقصة عن الوفاء بحفظ الحرارة الغريزية ثم هذا النقصان
على قسمين فالاول هو النقصان الخفى وهو سن الكهولة والثانى هو النقصان الظاهر وهو سن
الشيخوخة قال المفسرون لم يبعث نبى قط الا بعد الاربعين سنة قال الرازى وهذا يشكل بعيسى
عليه السلام فانه تعالى جعله نبيا من أول عمره الا أنه يجب أن يقال الاغلب انه ماجاء الوحى

الا بعد الاربعين وهكذا كان الامر فى حق نبينا صلى الله عليه وسلم ثم ان أبا بكر دعا أيضا فقال (وأن أعمل صالحا ترضاه) قال ابن عباس أجاب الله تعالى دعاء أبى بكر فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون فى الله تعالى منهم بلال ولم يرد شيأ من الخير الا أعانه الله عليه ودعا أيضا فقال (وأصلح لى فى ذريتى) فأجاب الله تعالى دعاءه فلم يكن له ولد الا آمن فاجتمع له اسلام أبويه وأولاده جميعا وأدرك أبواه وابنه عبد الرحمن وابن ابنه أبو عتيق النبى صلى الله عليه وسلم وهم مؤمنون ولم يكن ذلك لاحد من الصحابة * (تنبيه) * أصلح يتعدى بنفسه لقوله تعالى وأصلحنا له زوجه وانما تعدى بفى لتضمنه معنى الطف بى فى ذريتى أو لانه جعل الذرية ظرفا للاصلاح والمعنى هب لى الصلاح فى ذريتى وأوقعه فيهم (انى تبت) أى رجعت (اليك) عن كل ما يقدح فى الاقبال عليك وأكده اعلاما بأن حاله فى الاقبال على الشهوات حال من يبعد منه الاقلاع فينكر اخباره به وكذا قوله (وانى من المسلمين) أى الذين أسلموا ظواهرهم وبواطنهم فانقادوا أتم انقياد (أولئك) أى العالون الرتبة القائلون هذا القول أبو بكر وغيره (الذين يتقبل) بأسهل وجه (عنهم) وأشار بصيغة التفعل الى أنه يعمل فى قبوله عمل المعتنى والتقبل من الله هو ايجاب الثواب له على عمله وقوله تعالى (أحسن ما عملوا) أى أعمالهم الصالحة التى عملوها فى الدنيا (فان قيل) كيف قال الله تعالى أحسن والله تعالى يتقبل الاحسن وما دونه (أجيب) بوجهين أحدهما ان المراد بالاحسن الحسن كقوله تعالى واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم وكقوله الناقص والاشج أعدلا بنى مروان أى عادلا بنى مروان ثانيهما ان الحسن من الاعمال هو المباح الذى لا يتعلق به ثواب ولا عقاب والاحسن ما يغاير ذلك وهو المندوب أو الواجب ولما كان الانسان محل النقصان وان كان محسنا نبه على ذلك بقوله تعالى (ويتجاوز) أى بوعد لا خلف فيه (عن سيآتهم) أى فلا يعاقبهم عليها وقرأ حفص وحمزة والكسائى بنون مفتوحة قبل الفوقية من يتقبل ونصب أحسن ونون مفتوحة قبل الفوقية من يتجاوز والباقون بياء مضمومة قبل الفوقية من يتقبل ويتجاوز ورفع أحسن وقوله تعالى (فى أصحاب الجنة) فى محل الحال أى كائنين فى جملة أصحاب الجنة كقولك أكرمنى الامير فى أصحابه أى فى جملتهم وقيل خبر مبتدا مضمر أى هم فى أصحاب الجنة وقوله تعالى (وعد الصدق) مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة لان قوله تعالى أولئك الذين يتقبل عنهم فى معنى الوعد فيكون قوله تعالى يتقبل ويتجاوز وعدا من الله تعالى لهم بالتقبل والتجاوز والمعنى يعامل من صفته ما قدمنا بهذا الجزاء وذلك وعد من الله تعالى صدق لكونه مطابقا للواقع (الذى كانوا يوعدون) أى يقع لهم الوعد به فى الدنيا ممن لا أصدق منهم وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام حين أخبروا بقوله تعالى وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات * ولما وصف تعالى الولد البار بوالديه وصف الولد العاق لهما بقوله تعالى (والذى قال لوالديه أف لكما) والمراد به الجنس وقال ابن عباس والسدى نزلت فى عبد الله بن أبى وقيل فى عبد الرحمن بن أبى بكر قبل اسلامه كان أبواه يدعوانه الى الاسلام وهو يأبى وهو قوله أف لكما وقال الحسن وقتادة

انها نزلت فى كل كافر عاق لوالديه وعلى ثبوت انها نزلت فيمن تقدم لا ينافى ان المراد الجنس فان خصوص السبب لا يوجب التخصيص وفى أف قراآت ذكرت فى سورة بنى اسرائيل (أتعدانى) أى على سبيل الاستمرار بالتجديد فى كل وقت وقرأ هشام بادغام النون الاولى فى الثانية وفتح الياء نافع وابن كثير وسكنها الباقون (أن أخرج) أى من مخرج ما يخرج فى من الارض بعد أن غبت فيها وصرت ترابا بحيينى كما كنت أول مرة (وقد) اى والحال انه قد (خلت) أى مضت على سنن الموتى (القرون) أى الامم الكثيرة مع صلابتهم (من قبلى) أى قرنا بعد قرن وتطاولت الازمان ولم يخرج منهم أحد من القبور (وهما) أى والحال انهما كلما قال لهما ذلك (يستغيثان الله) أى يطلبان بدعائهما من له جميع صفات الكمال أن يغيثهما بالهامه قبول كلامهما ويقولان ان لم ترجع (ويلك) أى هلاكك بمعنى هلكت (آمن) أى أوقع الايمان الذى لا ايمان غيره وهو الذى ينقذ من كل هلكة ويوجب كل فوز بالتصديق بالبعث وبكل ما جاء عن الله تعالى ثم علّلا أمرهما على هذا الوجه مؤكدين فى مقابلة انكاره بقولهما (ان وعد الله) أى الملك المحيط بجميع صفات الكمال (حق) أى ثابت أعظم ثبات لانه لو لم يكن حقا لكان نقصا من جهة الاخلاف الذى لا يرضاه لنفسه أقل الملوك فكيف بملك الملوك (فيقول) مسببا عن قولهما ومعقباله (ماهذا) أى الذى تذكرانه من البعث (الا أساطير) أى أكاذيب (الاولين) التى كتبوها (أولئك) أى البعداء من العقل والمروأة وكل خير (الذين حق) أى ثبت ووجب (عليهم القول) أى الكامل فى بابه بأنهم أسفل السافلين وهذا كما قال البيضاوى يرد على من قال انها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر لانه يدل على أنه من أهل الذلك وقد جب عنه ان كان لاسلامه وقال البقاعى وهذا يكذب من قال انها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر فانه أسلم وصار من أكابر الصحابة فحقت له الجنة ولما أثبت لهم هذه الشنعة بين كثرة من شاركهم فيها بقوله تعالى (فى) أى كائنين فى (أمم) أى خلائق كانوا بحيث يقصدهم الناس ويتبع بعضهم بعضا (قد خلت) أى تلك الامم (من قبلهم) وكانوا قدوتهم وأدخل الجار لان المحكوم عليه بعض السالفين (من الجن) لان العرب كانت تستعظمهم وتستجيرهم وذلك لانهم يتظاهرون لهم ويؤذونهم ولم يقطع أذاهم لهم وتسلطهم عليهم ظاهرا وباطنا الا القرآن فانه أحرقهم بأنواره وجلاهم عن تلك البلاد بتجلى آثاره (والانس) ولا نفعتهم كثرتهم ولا أغنت عنهم قوتهم وقوله تعالى (انهم) أى كلهم (كانوا) أى جبلة وطبعا وخلقا لا يقدرون على الانفكاك عنه (خاسرين) أى عريقين فى هذا الوصف تعليل للحكم على الاستئناف (ولكل درجات مما عملوا) قال ابن عباس يريد من سبق الى الاسلام فهو أفضل ممن تخلف عنه ولو ساعة وقال مقاتل ولكل واحد من الفريقين يعنى البار بوالديه والعاق لهما درجات فى الايمان والكفر والطاعة والمعصية (فان قيل) كيف يجوز اطلاق لفظ الدرجات على أهل النار وقد روى الجنة درجات والنار دركات (أجيب) من وجوه أحدها ان ذلك على جهة التغليب وثانيها قال ابن زيد درج أهل الجنة تذهب علوا ودرج أهل النار تذهب هبوطا وثالثها المراد بالدرجات المراتب المتزايدة

فدرجات أهل الجنة فى الخيرات والطاعات ودرجات أهل النار فى المعاصى والسيآت وقوله تعالى (وليوفيهم أعمالهم) أى جزاءها معلله محذوف تقديره جازاهم بذلك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام وعاصم بالياء التحتية اى الله والباقون بالنون أى نحن وقوله تعالى (وهم لا يظلمون) أى شيأ بنقص للمؤمنين ولا بزيادة للكافرين اما استئناف واما حال مؤكدة (ويوم) أى واذكر يا أفضل الخلق لهؤلاء يوم يعرضون هكذا كان الاصل ولكنه تعالى أظهر الوصف الذى أوجب لهم الخزى بقوله تعالى (يعرض الذين كفروا على النار) أى يصلون لهيبها ويقلبون فيها كما يعرض اللحم الذى يشوى وقيل تعرض عليهم النار ليروا أهوالها مقولا لهم على سبيل التنديم والتقريع والتوبيخ والتشنيع لانهم لم يذكروه تعالى حق ذكره عند شهواتهم بل نالوها عند مخالفة أمره سبحانه وتعالى (أذهبتم طيباتكم) أى لذاتكم باتباعكم الشهوات وقرأ ابن كثير وابن عامر قبل الدال بهمزتين مفتوحتين الاولى محققة بلا خلاف والثانية مسهلة بخلاف عن هشام وأدخل هشام بينهما ألفا ولم يدخل ابن كثير وابن ذكوان والباقون بهمزة واحدة محققة (فى حياتكم الدنيا) أى القريبة الدنية المؤذن وصفها لمن يعقل بحياة أخرى بعدها فكان سعيكم فى حركاتكم وسكناتكم لاجلها حتى نلتموها (واستمتعتم) أى طلبتم وأوجدتم انتفاعكم (بها) وجعلتموها غاية حظكم فى رفعتكم ونعمتكم والمعنى أن ما قدر لكم من الطيبات والدرجات فقد استوفيتموه فى الدنيا فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شئ منها وعن عمر رضى الله عنه لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأحسنكم لباسا ولكنى أستبقى طيباتى قال الواحدى ان الصالحين يؤثرون التقشف والزهد فى الدنيا رجاء أن يكون ثوابهم فى الآخرة أكمل لان هذه الآية لا تدل على المنع من التمتع لانها وردت فى حق الكافر وانما وبخ الله تعالى الكافر لانه يتمتع بالدنيا ولم يؤد شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه ويدل على ذلك قوله تعالى قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق نعم لا ينكر ان الاحتراز عن التنعم أولى لان النفس اذا اعتادت التنعم صعب عليها الاحتراز والانقياد وحينئذ ربما حمل الميل الى تلك الطيبات على فعل ما لا ينبغى روى عمر قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو على رمال حصير قد أثر الرمال بجنبه فقلت يارسول الله ادع الله تعالى أن يوسع على أمتك فان فارس والروم قد وسع عليهم وهم يعبدون غير الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا وعن عائشة رضى الله عنها قالت ما شبع آل رسول الله صلى الله عليه وسلم من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنها أنها قالت كان يأتى علينا الشهر ما نوقد فيه نارا وما هو الا الماء والتمر وعن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالى المتتابعة طاويا وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم الشعير والاحاديث فى هذا كثيرة ولما كانت الاستهانة بالاوامر والنواهى استهانة بيوم الجزاء سبب عنه قوله تعالى (فاليوم تجزون) أى على اعراضكم عنا (عذاب الهون) أى الهوان العظيم المجتمع الشديد الذى فيه ذل وخزى (بما كنتم) أى جبلة وطبعا (تستكبرون)

أى تطلبون الترفع وتوجدونه على الاستقرار (فى الارض) التى هى لكونها ترابا موضوعة على الزوال والخراب أحق شئ بالتواضع والذل والهوان (بغير الحق) أى الامر الذى يطابقه الواقع وهو أوامرنا ونواهينا (وبما كنتم) أى على الاستقرار (تفسقون) أى بسبب الاستكبار الباطل والفسوق عن طاعة الله تعالى *(تنبيه)* دلت الآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة لان الله تعالى علل عذابهم بأمرين أولهما الكفر وثانيهما الفسق وهذا الفسق لابد وأن يكون مغايرا لذلك الكفر لان العطف يوجب المغايرة فثبت أن فسق الكفار يوجب العقاب فى حقهم ولا معنى للفسق الا ترك المأمورات وفعل المنهيات * ولما كان قوم عاد أكثر أموالا وقوة وجاها من أهل مكة ذكر تعالى قصتهم ليعتبروا فيتركوا الاغترار بما وجدوه فى الدنيا فقال عز من قائل (واذكر) يا أشرف الرسل لهؤلاء الذين لا يتعظون (أخا عاد) وهو أخوك هود عليه السلام الذى كان بين قوم أشد من قومك ولم يخف عاقبتهم وأمرهم ونهاهم ونجيناه منهم فهو لك قدوة وفيه اسوة واذ قومك فى قصدهم اياك بالاذى من أمره موعظة وقوله تعالى (اذ أنذر) بدل اشتمال من أخا (قومه) أى الذين لهم قوة على القيام فيما يحاولونه (بالاحقاف) قال ابن عباس واد بين عمان ومهرة وقال مقاتل كانت منازل عاد باليمن فى حضرموت بموضع يقال له مهرة اليها تنسب الابل المهرية وكانوا أهل عمد سيارة فى الربيع فاذا هاج العود رجعوا الى منازلهم وكانوا من قبيلة ارم قال قتادة ذكر لنا ان عادا كانوا احيا من اليمن كانوا أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر (وقد) أى والحال أنه قد (خلت النذر) أى مرت ومضت الرسل الكثيرون (من بين يديه) أى قبل هود كنوح وشيث وآدم عليهم السلام (ومن خلفه) أى بعده والمعنى أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو انذاره والجملة حال أو اعتراض ولما أشار الى كثرة الرسل ذكر وحدتهم فى أصل الدعاء فقال مفسرا للانذار معبرا بالنهى (أن لا تعبدوا) أى أيها العباد المنذرون بوجه من الوجوه شيأ من الاشياء (الا الله) أى الملك الذى لا ملك غيره ولا خالق سواه ولا منعم الا هو فانى أراكم تشركون به من لم يشركه فى شئ من تدبيركم والملك لا يقر على مثل هذا (انى أخاف عليكم) لكونكم قومى وأعز الناس على (عذاب يوم عظيم) أى لا يدع جهة الاملاء ها عذابه ان أصررتم على ما أنتم فيه من الشرك (قالوا) له فى جوابه منكرين عليه (أجئتنا) أى ياهود (لتأفكنا) أى لتصرفنا عن وجه أمرنا الى قفاه (عن آلهتنا) فلا نعبدها ولا نعتقدبها (فأتنا بما تعدنا) من العذاب سموا الوعيد وعدا (ان كنت) أى يقال عنك كونا ثابتا (من الصادقين) فى أنك رسول من الله وانه يأتينا بما تخافه علينا من العذاب ان أصررنا (قال) أى هود مكذبا لهم فى نسبتهم اليه ادعاء شئ من ذلك (انما العلم) أى المحيط بكل شئ عذابكم وغيره (عند الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال فهو ينزل علم ما توعدون به على من يشاء ان شاء ولا علم لى الى الآن ولا لكم بشئ من ذلك ولا قدرة (وأبلغكم) أى فى الحال والاستقبال وقرأ أبو عمرو بسكون الباء الموحدة وتخفيف اللام والباقون بفتح الموحدة وتشديد اللام

(ما أرسلت به) من لا مرسل فى الحقيقة غيره سواء أكان وعدا أم وعيدا أم غير ذلك ولم يذكر الغاية لان ما أرسل به صالح لهم ولغيرهم (ولكنى أراكم) أى أعلمكم علما كالرؤية وقرأ نافع والبزى وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها وأمال الالف بعد الراء ورش بين بين وأمالها أبو عمرو وحمزة والكسائى محضة والباقون بالفتح (قوما تجهلون) أى باستعجال العذاب فان الرسل بعثوا مبلغين منذرين لا مقترحين (فلما رأوه) أى العذاب الذى توعدهم به (عارضا) أى سحابا أسود بارزا فى الافق ظاهر الامر عند من له أهلية النظر حال كونه قاصدا اليهم (مستقبل أوديتهم) أى طالبا لان يكون مقابلا لها وموجدا لذلك (قالوا) على عادة جهلهم مشيرين اليه بأداة القرب الدالة على أنهم فى غاية الجهل لان جهلهم به استمر حتى كاد أن يواقعهم (هذا عارض) أى سحاب معترض فى عرض السماء أى ناحيتها (ممطرنا) قال المفسرون كان حبس عنهم المطر أياما فساق الله تعالى اليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا فقال الله تعالى (بل هو) أى هذا العارض الذى ترونه (ما استعجلتم به) أى طلبتم العجلة فى اتيانه وقوله تعالى (ريح) بدل من ما (فيها عذاب أليم) أى شديد الايلام وروى أنها كانت تحمل الفسطاط فترفعه فى الجو وتحمل الظعينة فى الجو فترفعها وهودجها حتى ترى كأنها جرادة وكانوا يرون ما كان خارجا عن منازلهم من الناس والمواشى تطير بهم الريح بين السماء والارض ثم تقذف بهم ثم وصف تلك الريح بقوله تعالى (تدمر) أى تهلك اهلاكا عظيما شديدا (كل شئ) أى أتت عليه من الحيوان والناس وغيرهما هذا شأنها فمن سلم منها كهود عليه السلام ومن آمن به فسلامته أمر خارق للعادة كما أن أمرها فى اهلاك كل ما مرت عليه أمر خارق للعادة (بأمر ربها) أى المبدع لها والمربى والمحسن بالانتقام من أعدائه (فان قيل) ما فائدة اضافة الرب الى الريح (أجيب) بأن فائدة ذلك الدلالة على أن الريح وتصريف أعنتها مما يشهد بعظيم قدرته لانها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده وذكر الامر وكونها مأمورة من جهته عز وعلا يعضد ذلك ويقويه فليس من تأثير الكواكب والقرانات قيل ان أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت رأيت ريحا فيها كشهب النار وروى أن أول ما عرفوا به انه عذاب أليم انهم رأوا ما كان فى الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير به الريح بين السماء والارض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الابواب وصرعتهم وأمال الله عليهم الاحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية ايام لهم أنين ثم أمر الله تعالى الريح فكشفت عنهم الرمال وحملتهم فرمت بهم فى البحر وروى ان هودا عليه السلام لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا الى جنب عين تنبع وكانت الريح التى تصيبهم ريحا طيبة هادية والريح التى تصيب قوم عاد ترفعهم من الارض وتطير بهم الى السماء وتضربهم على الارض وعن ابن عباس اعتزل هود ومن معه فى حظيرة ما يصيبهم من الريح الا ما يلين على الجلود وتلذه الانفس وانها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والارض وتدمغهم بالحجارة وأثر المعجزة انما ظهر فى تلك الريح

من هذا الوجه قال صلى الله عليه وسلم ما أمر الله تعالى خازن الريح أن يرسل على عاد الا مقدار الخاتم وذلك القدر أهلكهم بكليتهم كما قال تعالى (فأصبحوا لاترى الا مساكنهم) أى فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا بحيث لو حضرت بلادهم لاترى الا مساكنهم وقرأ عاصم وحمزة بالياء التحتية المضمومة ورفع النون من مساكنهم لقيامه مقام الفاعل والباقون بالتاء الفوقية مفتوحة مبنيا للفاعل ونصب مساكنهم مفعولا به وأمال الالف بعد الراء ورش بين بين وأبو عمرو وحمزة والكسائى محضة وكذلك من القرى (كذلك) أى مثل هذا الجزاء الهائل فى أصله أو جنسه أو نوعه أو شخصه من الاهلاك (نجزى) بعظمتنا دائما اذا شئنا (القوم المجرمين) أى العريقين فى الاجرام الذين يقطعون ما حقه الوصل وذلك الجزاء هو الاهلاك على هذا الوجه الشنيع وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا رأى الريح فزع وقال اللهم انى أسألك خيرها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به واذا رأى مخيلة أى سحابة قام وقعد وجاء وذهب وتغير لونه فنقول له يارسول الله ماتخاف فيقول انى أخاف أن يكون مثل قوم عاد حيث قالوا هذا عارض ممطرنا فاحذروا أيها العرب مثل ذلك ان لم ترجعوا (فان قيل) قال تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم فكيف يحصل التخويف (أجيب) بأن ذلك كان قبل نزول الآية ثم أخبر الله تعالى عن مكنة عاد بقوله سبحانه (ولقد مكناهم) أى تمكينا تظهر به عظمتنا (فيما) أى فى الذى (ان) نافية أى ما (مكناكم) يا أهل مكة (فيه) من قوة الابدان وطول الاعمار وكثرة الاموال وغيرها ثم انهم مع ذلك مانجوا من عذاب الله تعالى فكيف يكون حالكم *(تنبيه)* قال البقاعى وجعل النافى ان لانها أبلغ من ما لان ما تنفى تمام الفوت لتركبها من الميم والالف التى حقيقتها ادراكها فوت تمام الادراك وان تنفى أدنى مظاهر مدخولها فكيف بما وراءه من تمامه لان الهمزة أول مظهر لفوت الالف والنون لمطلق الاظهار هذا الى ما فى ذلك من عذوبة اللفظ وصونه عن ثقل التكرار الى غير ذلك من بديع الاسرار اه وقال الزمخشرى ان نافية أى فيما ما مكناكم فيه الا أن ان أحسن فى اللفظ لما فى مجامعة ما مثلها من التكرار المستبشع ومثله مجتنب ألا ترى أن الاصل فى مهما ماما فلبشاعة التكرير قلبوا الالف هاء ولقد أغث أبو الطيب فى قوله * لعمرك ما ما بان منك لضارب * وما ضره لو اقتدى بعذوبة لفظ التنزيل فقال * لعمرك ما ان بان منك لضارب * وقد جعلت ان صلة مثلها فيما أنشده الاخفش رحمه الله تعالى

يرجى المرء ما ان لايراه * وتعرض دون أدناه الخطوب

وتؤول بان مكناهم فى مثل ما مكناكم فيه والوجه هو الاول (وجعلنا لهم) أى على ما اقتضته عظمتنا (سمعا) وأفرده لقلة التفاوت فيه (وأبصارا) وجمعه لكثرة التفاوت فى أنوار الابصار وكذا فى قوله تعالى (وأفئدة) أى فتحنا عليهم أبواب النعم وأعطيناهم سمعا فما استعملوه فى سماع الدلائل وأعطيناهم أبصارا فما استعملوها فى دلائل ملكوت السموات والارض وأعطيناهم أفئدة أى قلوبا فما استعملوها فى طلب معرفة الله تعالى بل صرفوا كل هذه القوى الى طلب

الدنيا ولذاتها فلا جرم قال تعالى (فما أغنى عنهم) في حال ارسالنا اليهم الريح على لسان هود عليه السلام ثم النقمة بيد الريح (سمعهم) وأكد النفي بتكرير النافي بقوله تعالى (ولا أبصارهم) وكذا في قوله تعالى (ولا أفئدتهم) لما أردنا اهلاكهم وأكد باثبات الجار بقوله تعالى (من شئ) أي من الاشياء وان قل وقال الجلال المحلي ان من زائدة وقوله تعالى (اذ) معمولة لاغنى وأشربت معنى التعليل أي لانهم (كانوا) أي طبعا وخلقا (يجحدون) أي يكررون على ممر الزمان الجحد (بآيات الله) أي الانكار لما يعرب عن دلائل الملك الاعظم (وحاق) أي نزل (بهم ما كانوا به يستهزؤن) لانهم كانوا يطلبون نزول العذاب على سبيل الاستهزاء ولما تم المراد من الاخبار بهلاكهم على مالهم من المكنة العظيمة ليتعظ بهم من سمع أمرهم اتبعهم من كان مشاركا لهم في التكذيب فشاركهم في الهلاك فقال تعالى (ولقد أهلكنا) أي بما لنا من العظمة (ما حولكم) يا أهل مكة (من القرى) كحجر ثمود وعاد وأرض سدوم وسبا ومدين والايكة وقوم لوط وفرعون وأصحاب الرس وغيرهم ممن فيهم معتبر (وصرفنا) أي بينا (الآيات) أي الحجج البينات (لعلهم) أي الكفار (يرجعون) أي ليكونوا عند من يعرف حالهم في رؤية الآيات حال من يرجع عن الغي الذي كان يرتكبه لتقليد أو شبهة كشفتها الآيات وفضحتها الدلالات فلم يرجعوا فكان عدم رجوعهم سبب اهلاكهم (فلولا) أي فهلا ولم لا (نصرهم الذين) أي نصر هؤلاء المهلكين الذين (اتخذوا) أي اجتهدوا في صرف أنفسهم عن دواعي العقل حتى أخذوا (من دون الله) أي الملك الذي هو أعظم من كل عظيم (قربانا) أي متقربا بهم الى الله تعالى (آلهة) معه وهم الاصنام ومفعول اتخذوا الاول ضمير محذوف يعود على الموصول أي هم وقربانا المفعول الثاني وآلهة بدل منه (بل ضلوا) أي غابوا (عنهم) وقت نزول النقمة وقرأ الكسائي بادغام اللام في الضاد والباقون بالاظهار (وذلك) أي اتخاذهم الاصنام آلهة قربانا (افكهم) أي كذبهم (وما كانوا) أي على وجه الدوام لكونه في طباعهم (يفترون) أي يتعمدون كذبه لان اصرارهم عليه بعد مجيء الآيات لا يكون الا كذلك لان من نظر فيها مجردا نفسه عن الهوى اهتدى (واذ) أي واذكر اذ (صرفنا) أي أملنا (اليك نفرا) وهو اسم يطلق على ما دون العشرة وسيأتي في ذلك خلاف (من الجن) أي جن نصيبين اليمن أو جن نينوى (يستمعون القرآن) أي يطلبون سماع الذكر الجامع لكل خير الفارق بين كل ملبس وأنت في صلاة الفجر في نخلة تصلي بأصحابك (فلما حضروه) أي صاروا بحيث يسمعونه (قالوا) أي قال بعضهم لبعض ورضي الآخرون (أنصتوا) أي اسكتوا وميلوا بكليتكم واستمعوا حفظا للادب على بساط الخدمة وفيه تأدب مع العلم في تعلمه قال القشيري فأهل الحضور صفتهم الذبول والسكون والهيبة والوقار * (تنبيه) * ذكروا في كيفية هذه الواقعة قولين أحدهما قال سعيد بن جبير كان الجن تستمع فلما رجموا قالوا هذا الذي حدث في السماء انما حدث لشئ في الارض فذهبوا يطلبون السبب وكان قد اتفق أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أيس من أهل مكة أن يجيبوه خرج الى الطائف ليدعوهم الى الاسلام

فلما

فلما انصرف الى مكة وكان ببطن نخلة قام يقرأ القرآن فمر به نفر من أشراف جن نصيبين كان ابليس بعثهم ليعرف السبب الذى أوجب حراسة السماء بالرجم فسمعوا القرآن فعرفوا ان ذلك هو السبب والقول الثانى ان الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجن ويدعوهم الى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن فصرف الله تعالى اليه نفرا من الجن يستمعون منه القرآن وينذرون قومهم * روى أن الجن كانوا يهود الان فى الجن مللا كما فى الانس من اليهود والنصارى وعبدة الاوثان والمجوس وأطبق المحققون على أن الجن مكلفون * سئل ابن عباس هل للجن ثواب قال نعم لهم ثواب وعليهم عقاب يلبثون فى أبواب الجنة ويزدحمون على أبوابها وروى الطبرانى عن ابن عباس ان أولئك الجن كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلا الى قومهم وعن زر بن حبيش كانوا تسعة أحدهم زوبعة وعن قتادة ذكر لنا أنهم صرفوا اليه من نينوى وروى فى الحديث ان الجن ثلاثة أصناف صنف لهم أجنحة يطيرون فى الهواء وصنف حيات وكلاب وصنف يحلون ويظعنون واختلفت الروايات هل كان عبد الله بن مسعود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن أولا وروى عن أنس قال كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم وهو بظاهر المدينة اذ اقبل شيخ يتوكأ على عكازة فقال النبى صلى الله عليه وسلم انها لمشية جنى ثم أتى فسلم على النبى صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم انها لنغمة جنى فقال الشيخ أجل يارسول الله فقال له النبى صلى الله عليه وسلم من أى الجن أنت فقال يارسول الله أنا هام بن هيم بن لاقيس بن ابليس فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لا أرى بينك وبين ابليس الا أبوين قال أجل يارسول الله قال كم أتى عليك من العمر قال أكلت عمر الدنيا الا القليل كنت حين قتل هابيل غلاما ابن اعوام فكنت اتشرف على الآكام وأصطاد الهام وأورش بين الانام فقال النبى صلى الله عليه وسلم بئس العمل فقال يارسول الله دعنى من العتب فانى ممن آمن مع نوح عليه السلام وعاتبته فى دعوته فبكى وأبكانى وقال والله انى لمن النادمين واعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ولقيت هودا فعاتبته فى دعوته فبكى وأبكانى وقال والله انى لمن النادمين واعوذ بالله ان اكون من الجاهلين ولقيت ابراهيم وآمنت به وكنت بينه وبين الارض اذ رمى به فى المنجنيق وكنت معه فى النار اذ ألقى فيها وكنت مع يوسف اذ ألقى فى الجب فسبقته الى قعره ولقيت موسى بن عمران بالمكان الاثير وكنت مع عيسى بن مريم عليهما السلام فقال لى ان لقيت محمدا فاقرأ عليه السلام قال أنس فقال النبى صلى الله عليه وسلم وعليه السلام وعليك ياهام ما حاجتك قال ان موسى علمنى التوراة وان عيسى علمنى الانجيل فعلمنى القرآن قال أنس فعلمه النبى صلى الله عليه وسلم سورة الواقعة وعم يتساءلون واذا الشمس كورت وقل يا أيها الكافرون وسورة الاخلاص والمعوذتين (فلما قضى) أى فرغ من قراءته (ولوا) أى رجعوا (الى قومهم) الذين فيهم قوة القيام بما يحاولونه (منذرين) أى مخوفين لهم ومحذرين عواقب الضلال بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس جعلهم رسول الله صلى الله

عليه وسلم رسلا الى قومهم * ولما كان كأنه قيل ما قالوا لهم في انذارهم قيل (قالوا ياقومنا) مترفقين لهم ومترفقين بهم بذكر مايدل على أنهم منهم يهمهم مايهمهم (انا سمعنا) أي مابيننا وبين القارئ واسطة واشاروا الى انه لم ينزل بعد التوراة شئ جامع لجميع مايراد منه مغن عن جميع الكتب غير هذا وبذلك عرفوا أنه ناسخ لجميع الشرائع بقولهم (كتابا) أي ذكرا جامعا لا كما نزل بعد التوراة على بني اسرائيل (أنزل) أي ممن لامنزل غيره وهو ملك الملوك لان عليه من رونق الكتب الالهية مايوجب القطع لسامعه بأنه منها فكيف اذا انضم الى ذلك الاعجاز وعلموا قطعا بعربيته أنه عربي وبأنهم كانوا يضربون مشارق الارض ومغاربها ويسمعون قراءة الناس لما يحدثونه من الحكم والخطب والكهانة والرسائل والاشعار وأنه مباين لجميع ذلك (من بعد موسى) فلم يقيدوا بما أنزل بين هذا الكتاب وبين التوراة من الانجيل وماقبله لانه لايساوي التوراة في الجمع وروى عن عطاء والحسن انما قالوا ذلك لانهم كانوا يهودا وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان الجن ماسمعوا أمر عيسى فلذلك قالوا من بعد موسى ولما أخبروا بأنه منزل أتبعوه مايشهد له بالصحة بقولهم (مصدقا لما بين يديه) أي من جميع كتب بني اسرائيل الانجيل وماقبله ثم بينوا تصديقه بقولهم (يهدي الى الحق) الامر الثابت الذي يطابق الواقع فلا يقدر أحد على ازالة شئ مما يخبر به الكامل في جميع ذلك (والى طريق) موصل الى المقصود (مستقيم) لاعوج فيه (ياقومنا) الذين لهم قوة العلم والعمل (أجيبوا داعي الله) أي الملك الاعظم المحيط بصفات الكمال فان دعوة هذا الداعي عامة لجميع الخلق فالاجابة واجبة على كل من بلغه أمره وفي هذه الآية دلالة على انه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا الى الجن كما كان مبعوثا الى الانس (وآمنوا به) أي أوقعوا التصديق بسبب الداعي وهو النبي صلى الله عليه وسلم لابسبب آخر فان المفعول معه مفعول مع الله تعالى (فان قيل) قوله تعالى أجيبوا داعي الله أمر باجابته في كل ماامر به فيدخل فيه الامر بالايمان فكيف قال وآمنوا به (أجيب) بانه انما ذكر الايمان على التعيين لانه أهم الاقسام واشرفها وقد جرت العادة في القرآن العظيم بان يذكر اللفظ العام ثم يعطف عليه اشرف أنواعه كقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال وقوله تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح * ولما أمر تعالى بالايمان ذكر فائدته بقوله تعالى (يغفر لكم) أي الله تعالى (من ذنوبكم) أي بعضها من الشرك وماشابهه مما هو حق لله تعالى وكذا مايجازي به صاحبه في الدنيا بالعقوبات والنكبات والهموم ونحوها مما أشار اليه قوله تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير وأما المظالم فلا تغفر الا برضا أربابها وقيل من زائدة والتقدير يغفر لكم ذنوبكم وقيل بل فائدته أن كلمة من هنا لابتداء الغاية والمعنى أنه يقع ابتداء الغفران بالذنوب ثم ينتهي الى غفران ماصدر عنكم من ترك الاولى والاكمل (ويجركم) أي يمنعكم منع الجار لجاره لكونكم بالتميز الى داعيه صرتم من حزبه (من عذاب أليم) قال ابن عباس فاستجاب الله تعالى لهم من قومهم نحو سبعين رجلا من الجن فرجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوافوه في البطحاء فقرأ عليهم القرآن

وأمرهم ونهاهم * (تنبيه) * اختلفوا في أن الجن هل لهم ثواب أولا فقيل لا ثواب لهم الا النجاة من النار ويقال لهم كونوا ترابا مثل البهائم واحتجوا على ذلك بقوله تعالى ويجركم من عذاب أليم وهو قول أبي حنيفة والصحيح أن حكمهم حكم بني آدم يستحقون الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية وهو قول ابن أبي ليلى ومالك وتقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا نحو ذلك قال الضحاك يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون لان كل دليل دل على أن البشر يستحقون الثواب فهو بعينه قائم في حق الجن والفرق بينهما بعيد جدا وذكر النقاش في تفسيره حديثا أنهم يدخلون الجنة فقيل هل يصيبون من نعيمها قال يلهمهم الله تعالى تسبيحه وذكره فيصيبهم من لذته ما يصيب بني آدم من نعيم الجنة وقال أرطاة بن المنذر سألت ضمرة بن حبيب هل للجن ثواب قال نعم وقرأ لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان وقال عمر بن عبد العزيز ان مؤمني الجن حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها * ولما أفهم كلامهم أنهم ان لم يجيبوا ينتقم منهم بالعذاب الاليم أتبعوه ما هو أغلظ انذارا منه فقالوا (ومن لا يجب) أي لا يتجدد منه أن يجيب (داعي الله) أي الملك الذي لا كفء له (فليس بمعجز) أي لا يعجز الله عز وجل بالهرب منه (في الارض) فيفوته فانه أي مكان سلك فيها فهو في ملكه وملكه وقدرته محيطة به (وليس له من دونه) أي الله تعالى الذي لا مجير عليه (أولياء) يفعلون لاجله ما يفعل القريب مع قريبه من الذب عنه والاستشفاع له والافتداء (أولئك) البعيدون من كل خير (في ضلال مبين) ظاهر في نفسه أنه ضلال مظهر لكل أحد قبح احاطته بهم * (تنبيه) * ههنا همزتان مضمومتان من كلمتين ولا نظير لهما في القرآن العظيم قرأ قالون والبزي بتسهيل الاولى كالواو مع المد والقصر وسهل الثانية ورش وقنبل بعد تحقيق الاولى ولهما أيضا ابدال الثانية ألفا وأسقط الاولى أبو عمرو مع المد والقصر والباقون بتحقيقهما وهم على مراتبهم في المد (أولم يروا) أي يعلموا علما هو في الوضوح كالرؤية (أن الله) ودل على ما دل عليه هذا الاسم الاعظم بقوله تعالى (الذي خلق السموات) على ما احتوت عليه مما يعجز الوصف من العبر (والارض) على ما اشتملت عليه من الآيات المدركة بالعيان والخبر (ولم يعي) أي ولم يتعب ولم يعجز (بخلقهن) أي بسبب من الاسباب فانه لو حصل له شيء من ذلك أدى الى نقصان فيهما أو في احداهما * وأكد الانكار المتضمن للنفي بزيادة الجار في خبر ان فقال (بقادر) أي قدرة عظيمة (على أن يحيي) أي على سبيل التجديد مستمرا (الموتى) والامر فيهم لكونه اعادة وكونه جزأ يسيرا مما ذكر اختراعه أصغر شأنا وأسهل صنعا وأجاب بقوله تعالى (بلى) لان هذا الاستفهام الانكاري في معنى النفي أي قد علموا أنه قادر على ذلك علما هو في ايقانه كالبصر لانهم يعلمون أنه المخترع لذلك وأن الاعادة أهون من الابتداء في مجاري عاداتهم ولكنهم عن ذلك غافلون لانهم عنه معرضون * وقوله تعالى (انه على كل شيء قدير) تقرير للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود كأنه لما صدر السورة بتحقيق المبدا اراد ختمها باثبات المعاد * ولما أثبت البعث بما أقام من الدلائل ذكر بعض ما يحصل في يومه من الاهوال بقوله تعالى (ويوم) أي واذكر يوم (يعرض) أي بأيسر أمر

قوله ابدال الثانية الفا كذا في الاصول ولعله واوا ولتحرر القراءة اه مصححه

من أوامرنا (الذين كفروا) أي ستروا بغفلتهم وعنادهم الأدلة الظاهرة (على النار) عرض الجند على الملك فيسمعون من تغيظها وزفيرها ما لو قدر أن أحدا يموت في ذلك اليوم لماتوا من معاينته وهائل رؤيته ثم يقال لهم (أليس هذا) أي الأمر الذي كنتم به توعدون ولرسلنا في اخبارهم به تكذبون (بالحق) أي الأمر الثابت الذي يطابقه الواقع أم هو خيال وسحر (قالوا) أي مصدقين حيث لا ينفعهم التصديق (بلى) وما كفاهم البدار الى تكذيب أنفسهم حتى أقسموا عليه بقولهم (وربنا) أي انه لحق هو اثبت الاشياء وليس فيه شيء مما يقارب السحر

(تنبيه) المقصود من هذا الاستفهام التهكم والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله تعالى ووعيده (قال فذوقوا العذاب) أي باشروه مباشرة الذائق باللسان ومعنى الامر الاهانة بهم والتوبيخ لهم ثم صرح بالسبب فقال تعالى (بما كنتم) أي خلقا مستمرا (تكفرون) في دار العمل * ولما قرر تعالى المطالب الثلاثة وهي التوحيد والنبوة والمعاد وأجاب عن الشبهات أردفه بما يجري مجرى الوعظ والنصيحة لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لان الكفار كانوا يؤذونه ويوحشون صدره فقال تعالى (فاصبر) أي على مشاق ماترى في تبليغ الرسالة وعلى أذى قومك قال القشيري الصبر هو الوثوق بحكم الله تعالى والثبات من غير بث ولا استكراه (كما صبر أولوا العزم) أي الثبات والجد في الامور وقال ابن عباس رضي الله عنهما أولوا الحزم وقوله تعالى (من الرسل) يجوز فيه أن تكون من تبعيضية وعلى هذا فالرسل أولو عزم وغير أولي عزم ويجوز أن تكون للبيان وعليه جرى الجلال المحلي فكلهم على هذا أولو عزم قال ابن زيد كل الرسل كانوا أولي عزم وحزم ورأى وكمال عقل وانما أدخلت من للتجنيس لا للتبعيض كما يقال اشتريت أكسية من الخز وأردية من البز وقال بعضهم الانبياء كلهم أولوا العزم الا يونس لعلة كانت فيه ألا ترى أنه قيل لنبينا صلى الله عليه وسلم ولا تكن كصاحب الحوت وقال قوم هم نجباء الرسل وهم المذكورون في سورة الانعام وهم ثمانية عشر لقوله تعالى بعد ذكرهم أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وقال الكلبي هم الذين أمروا بالجهاد وأظهروا المكاشفة مع أعداء الله تعالى وقيل هم ستة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وهم المذكورون على النسق في سورة الاعراف والشعراء * وقال مقاتل هم ستة نوح صبر على أذى قومه وابراهيم صبر على النار واسحق صبر على الذبح ويعقوب صبر على فقد ولده وذهاب بصره ويوسف صبر في الجب والسجن وأيوب صبر على الضر وقال ابن عباس وقتادة هم نوح وابراهيم وموسى وعيسى أصحاب الشرائع فهم مع محمد صلى الله عليه وسلم خمسة ونظمهم بعضهم في بيت فقال

محمد ابراهيم موسى كليمه * فعيسى فنوح هم أولو العزم فاعلم

قال البغوي ذكرهم الله تعالى على التخصيص في قوله تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وفي قوله تعالى شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا الآية وعن مسروق قال قالت عائشة رضي الله عنها قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعائشة ان الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ياعائشة ان الله لم يرض من أولي العزم

الا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ولم يرض الا أن كلفني ما كلفهم قال تعالى فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل وانى والله لابد لى من طاعته والله لاصبرن كما صبروا ولاجهدن ولا قوة الا بالله * ولما أمره الله تعالى بالصبر الذى هو من أعلى الفضائل نهاه عن العجلة التى هى من أمهات الرذائل فقال عز من قائل (ولا تستعجل لهم) أى لا تطلب العجلة وتوجدها بأن تفعل شيأ مما يسوءهم فى غير حينه الاليق به فانه نازل بهم فى وقته لامحالة قيل ان النبى صلى الله عليه وسلم ضجر من قومه وأحب أن ينزل الله تعالى العذاب بمن أبى من قومه فأمر بالصبر وترك الاستعجال * ثم أخبر أن ذلك العذاب اذا نزل بهم يستقصرون مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار فقال تعالى (كأنهم يوم يرون ما يوعدون) أى من العذاب بهم فى الآخرة (لم يلبثوا) أى فى الدنيا (الا ساعة من نهار) استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا والبرزخ كأنه ساعة من نهار أو كأنه لم يكن لهول ما عاينوا ولان ما مضى وان كان طويلا صار كأنه لم يكن قال الشاعر

كأن شيأ لم يكن اذا مضى * كأن شيأ لم يكن اذا أتى

(تنبيه) تم الكلام ههنا وقوله تعالى (بلاغ) خبر مبتدا محذوف قدره بعضهم تلك الساعة بلاغ لدلالة قوله تعالى الا ساعة من نهار وبعضهم هذا أى القرآن بلاغ أى تبليغ من الله تعالى الحكيم وجرى عليه الجلال المحلى (فهل) أى لا (يهلك) أى بالعذاب اذا نزل (الا القوم) أى الذين هم أهل القيام بما يحاولونه من اللدد (الفاسقون) أى العريقون فى ادامة الخروج عن الانقياد والطاعة وهم الكافرون قال الزجاج تأويله لا يهلك مع فضل الله ورحمته الا القوم الفاسقون ولهذا قال قوم ما فى الرجاء لرحمة الله أقوى من هذه الآية * وما قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الاحقاف كتب الله له عشر حسنات بعدد كل رملة فى الدنيا حديث موضوع

(سورة محمد صلى الله عليه وسلم مكية)

وتسمى القتال والذين كفروا وهى ثمان وثلاثون آية وخمسمائة وتسع وثلاثون كلمة وألفان وثلثمائة وتسعة وأربعون حرفا

(بسم الله) الملك الاعظم الذى أقام جنده للذب عن حماه (الرحمن) الذى عمت رحمته تارة بالبرهان وتارة بالسيف والسنان (الرحيم) الذى خص حزبه بالحفظ فى طريق الجنان واختلف فى قوله تعالى (الذين كفروا) من هم فقيل هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر منهم أبو جهل والحرث ابنا هشام وعقبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم وقيل كفار قريش وقيل أهل الكتاب وقيل كل كافر لانهم ستروا أنوار الادلة وضلوا على علم (وصدوا) اى امتنعوا بأنفسهم ومنعوا غيرهم لعراقتهم فى الكفر (عن سبيل الله) أى الطريق الرحب المستقيم الذى شرعه الملك الاعظم (أضل) أى أبطل ابطالا عظيما يزيل العين والاثر (أعمالهم) كاطعام الطعام وصلة

الارحام وفك الاسارى وحفظ الجوار وغيرذلك فلا يرون لهافى الآخرة ثوابا ويجزى عليها في الدنيا من فضله تعالى * (تنبيه) * أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة * ولما ذكر تعالى أهل الكفر معبرا عنهم بأدنى طبقاتهم ليشمل من فوقهم ذكر أضدادهم كذلك ليعم من كان منهم من جميع الفرق بقوله تعالى (والذين آمنوا) أى أقروا بالايمان باللسان (وعملوا) تصديقا لدعواهم (الصالحات) أى الاعمال الكاملة فى الصلاح بتأسيسها على الايمان * ولما كان هذا الوصف لا يخص أتباع محمد صلى الله عليه وسلم خصهم بقوله تعالى (وآمنوا) أى مع ذلك (بما نزل) أى ممن لا منزل الا هو منجما مفرقا ليجددوا بعد الايمان به اجمالا الايمان بكل نجم منه (على محمد) النبى الامى العربى القرشى المكى المدنى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (وهو) أى هذا الذى نزل عليه صلى الله عليه وسلم موصوف بأنه (الحق) أى الكامل فى الحقيقة ينسخ ولا ينسخ كائنا (من ربهم) أى المحسن اليهم بارساله أما احسانه الى أمته فواضح وأما سائر الامم فبكونه هو الشافع فيهم الشفاعة العظمى يوم القيامة وأمته هى الشاهدة لهم جملة معترضة وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى وهو بسكون الهاء والباقون بضمها (كفر عنهم سيئاتهم) أى ستر أعمالهم السيئة بالايمان وعملهم الصالح (وأصلح بالهم) أى حالهم فى الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد (ذلك) أى الامر العظيم الذى ذكرهنا من جزاء الطائفتين (بأن) أى بسبب أن (الذين كفروا) أى ستروا مرائى عقولهم (اتبعوا) أى بغاية جهدهم ومعالجتهم (الباطل) من العمل الذى لا حقيقة له فى الخارج تطابقه وذلك هو الابتداع والميل مع الهوى فضلوا (وأن الذين آمنوا) أى ولو كانوا فى أقل درجات الايمان (اتبعوا) أى بغاية جهدهم (الحق) أى الذى له واقع يطابقه وذلك هو الحكمة وهو العلم بموافقة العمل وهو معرفة المعلوم على ماهو عليه (من ربهم) أى الذى أحسن اليهم بايجادهم وما سببه من حسن اعتقادهم فاهتدوا (كذلك) أى مثل هذا الضرب العظيم الشأن (يضرب الله) أى الذى له الاحاطة بجميع صفات الكمال (للناس) أى كل من فيه قوة الاضطراب والحركة (أمثالهم) أى امثال أنفسهم أو امثال الفريقين المتقدمين أو امثال جميع الاشياء التى يحتاجون الى بيان أمثالها مبينا لها مثل هذا البيان ليأخذ كل أحد من ذلك جزاء حاله فقد علم من هذا المثل أن من اتبع الباطل أضل الله تعالى عمله وفر سيئاته وأفسد باله ومن اتبع الحق عمل به ضد ذلك كائنا من كان وهو غاية الحث على طلب العلم فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والعمل بها * ولما بين تعالى أن الذين كفروا أضل أعمالهم وان اعتبار الانسان بالعمل ومن لا عمل له فهو همج اعدامه خير من وجوده سبب عنه قوله تعالى (فاذا لقيتم الذين كفروا) أيها المؤمنون فى المحاربة وقوله تعالى (فضرب الرقاب) أصله فاضربوا الرقاب ضربا فحذف الفعل وقدم المصدر فأنيب منابه مضافا الى المفعول ضما الى التأكيد الاختصار والحكمة فى اختيار ضرب الرقبة دون غيرها من الاعضاء أن المؤمن هنا ليس بدافع انما هو رافع وذلك لان من يدفع الصائل لا ينبغى أولا ان يقصد

مقتله

مقاتله بل يتدرج ويضرب غير المقتل فان اندفع فذاك ولا يرقى الى درجة الاهلاك فأخبر تعالى أنه ليس المقصود دفعهم عنكم بل المقصود دفعهم من وجه الارض فاذا ينبغي أن يكون قصدكم أولا الى قتلهم بخلاف دفع الصائل فالرقبة أظهر المقاتل وقطع الحلقوم والاوداج مستلزم للموت لكن في الحرب لايتهيأ ذلك والرقبة ظاهرة في الحرب ففي ضربها حز العنق وهو مستلزم للموت بخلاف سائر المواضع ولاسيما في الحرب وفي قوله تعالى لقيتم ما ينبئ عن مخالفتهم الصائل لان قوله تعالى لقيتم يدل على أن القصد من جانبهم بخلاف قولنا القيكم ولذلك قال تعالى في غير هذا الموضع فاقتلوهم حيث ثقفتموهم (حتى اذا أثخنتموهم) أي أكثرتم فيهم القتل وهذه غاية الامر بضرب الرقاب لالبيان غاية القتل (فشدوا) أي فأمسكوا عن القتل وأسروهم (الوثاق) أي مايوثق به الاسرى وقوله تعالى (فاما منا بعد) أي في جميع ازمان مابعد الاسر (واما فداء) فيه وجهان أشهرهما أنهما منصوبان على المصدر بفعل لايجوز اظهاره لان المصدر متى سيق تفصيلا لعاقبة جملة وجب نصبه باضمار فعل لايجوز اظهاره والتقدير فاما أن تمنوا منا أي باطلاقهم من غير شيء واما أن تفدوا فداء أي تفادوهم بمال أو أسرى مسلمين ومثل هذا قول القائل

لاجهدن فامادرء واقعة * تخشى واما بلوغ السؤل والامل

والثاني قاله أبو البقاء انهما مفعولان بهما العامل مقدر تقديره أولوهم منا واقبلوا منهم فداء قال أبو حيان وليس باعراب نحوي وقوله تعالى (حتى تضع الحرب أوزارها) أي أثقالها من السلاح وغيره بأن يسلم الكافر أو يدخل في العهد مجاز وقيل هو من مجاز الحذف أي أهل الحرب وهو غاية للقتل والاسر والمعنى أثخنوا المشركين بالقتل والاسر حتى تدخل الملل كلها في الاسلام ويكون الدين كله لله فلا يكون بعده جهاد ولاقتال وذلك عند نزول عيسى عليه السلام وجاء في الحديث الجهاد ماض منذ بعثني الله الى أن يقاتل آخر أمتي الدجال وقال الفراء حتى لايبقى الامسلم أو مسالم * (تنبيه) * اختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال قوم هي منسوخة بقوله تعالى فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم وبقوله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم واليه ذهب قتادة والضحاك والسدي وابن جريج وهو قول الاوزاعي وأصحاب الرأي وقالوا لايجوز المن على من وقع في الاسر من الكفار ولا الفداء وذهب آخرون الى ان الآية محكمة والامام بالخيار في الرجال العاقلين من الكفار اذا وقعوا في الاسر بين أن يقتلهم أو يسترقهم أو يمن عليهم فيطلقهم بغير عوض أو يفاديهم بالمال أو بأسارى المسلمين واليه ذهب ابن عمر وبه قال الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء وهو قول الثوري والشافعي وأحمد واسحق قال ابن عباس رضي الله عنهما لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى في الاسارى فاما منا بعد واما فداء وهذا هو الاصح والاختيار لانه عمل به صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن اثال فربطوه في سارية من

سوارى المسجد فخرج اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما عندك يا ثمامة فقال عندى خير يا محمد ان تقتلنى تقتل ذا دم وان تنعم تنعم على شاكر وان كنت تريد المال فسل ما شئت حتى كان الغد فقال له صلى الله عليه وسلم ما عندك يا ثمامة قال عندى ما قلت لك ان تنعم تنعم على شاكر فتركه حتى اذا كان بعد الغد قال ما عندك يا ثمامة قال عندى ما قلت لك قال أطلقوا ثمامة فانطلق الى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله والله ما كان على وجه الارض وجه أبغض الى من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه الى والله ما كان من دين أبغض الى من دينك فأصبح دينك أحب الدين الى والله ما كان من بلد أبغض الى من بلدك فقد أصبح بلدك أحب البلاد الى وان خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل صبوت قال لا ولكن أسلمت مع محمد صلى الله عليه وسلم وعن عمران بن حصين قال أسر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من عقيل فأوثقوه وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ففداه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف وقوله تعالى (ذلك) يجوز أن يكون خبر مبتدا مضمر أى الامر ذلك وان ينتصب باضمار افعلوا قال الرازى ويحتمل أن يقال ذلك واجب أو مقدم كما يقول القائل ان فعلت فذاك أى فذاك مقصود ومطلوب قال المفسرون ومعناه ذلك الذى ذكرت وبينت من حكم الكفار (ولو يشاء الله) أى الملك الاعظم الذى له جميع الكمال (لانتصر منهم) أى بنفسه من غير أحد انتصارا اعظاء فيهلكهم بأن لا يبقى منهم أحدا وكفاكم أمرهم بغير قتال (ولكن) أمركم بذلك (ليبلو) أى يختبر (بعضكم ببعض) أى يفعل فى ذلك فعل المختبر ليرتب عليه الجزاء فيصير من قتل من المؤمنين الى الجنة ومن قتل من الكافرين الى النار (فان قيل) فما فائدة الابتلاء مع حصول العلم عند المبتلى فاذا كان الله تعالى عالما بجميع الاشياء فأى فائدة فيه (أجيب) بأن هذا السؤال كقول القائل لم عاقب الكافر وهو مستغن ولم خلق النار محرقة وهو قادر على أن يخلقها بحيث تنفع ولا تضر وجوابه لا يسئل عما يفعل * ونزل يوم أحد لما فشا فى المسلمين القتل والجراحات (والذين قتلوا فى سبيل الله) أى لاجل تسهيل طريق الملك الاعظم المتصف بجميع صفات الكمال (فلن يضل) أى لا يضيع ولا يبطل (أعمالهم) وقرأ أبو عمرو وحفص بضم القاف وكسر التاء مبنيا للمفعول على معنى أنه أصاب القتل بعضهم كقوله تعالى قتل معه ربيون والباقون بفتح القاف والتاء وألف بينهما أى جاهدوا (سيهديهم) أى أيام حياتهم فى الدنيا الى أرشد الامور وفى الآخرة الى الدرجات بوعد لا خلف فيه (ويصلح بالهم) أى يرضى خصماءهم ويقبل أعمالهم (ويدخلهم الجنة) أى الكاملة فى النعيم (عرفها) أى أعلمها وبينها (لهم) أى بما يعلم به كل أحد منزلته ودرجته من الجنة قال مجاهد يهتدى أهل الجنة الى مساكنهم منها لا يخطؤن كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا يستدلون عليها وعن مقاتل ان الملك الذى وكل بحفظ عمله فى الدنيا يمشى بين يديه فيعرفه كل شئ أعطاه الله تعالى وعن ابن

عباس رضى الله عنهما عرفها لهم طيبها مشتق من العرف وهو الريح الطيبة يقال طعام معرف أى مطيب (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا بذلك (ان تنصروا الله) أى دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم (ينصركم) أى على عدوكم فانه الناصر لا غيره من عدد أو عدد (ويثبت أقدامكم) أى فى القيام بحقوق الاسلام والمجاهدة مع الكفار ولما بين تعالى ما لاهل الايمان بين ما لاهل الكفران بقوله تعالى (والذين كفروا) وهو مبتدأ أى ستروا ما دل عليه العقل وقادت اليه الفطرة الاولى وخبره تعسوا يدل عليه قوله تعالى (فتعسا لهم) أى هلاكا لهم وخيبة من الله تعالى وقال ابن عباس أى بعدا لهم وقيل التعس الجر على الوجه والنكس الجر على الرأس وقوله تعالى (وأضل أعمالهم) عطف على تعسوا أى أبطلها وان كانت ظاهرة الاتقان لاجل تضييع الاساس وهو الايمان وقوله تعالى (ذلك) يجوز أن يكون مبتدأ والخبر الجار بعده أو خبر مبتدا مضمر أى الامر ذلك (بأنهم) أى بسبب أنهم (كرهوا ما أنزل الله) أى الملك الاعظم الذى لا نعمة الا منه من القرآن وما أنزل الله تعالى فيه من التكاليف والاحكام لانهم قد ألفوا الاهمال واطلاق العنان فى الشهوات والملاذ فشق عليهم ذلك وتعاظمهم والذى أنزله من القرآن وغيره هو روح الوجود الذى لا بقاء بدونه فلما كرهوا الروح الاعظم بطلت أرواحهم فتبعتها أشباحهم وهو معنى قوله تعالى مسببا بيانا لما فى اضلال أعمالهم (فأحبط) أى أبطل ابطالا لا صلاح معه (أعمالهم) بسبب أنهم أفسدوها بنياتهم فصارت وان كانت صورها صالحة ليس لها أرواح لكونها واقعة على غير ما أمر به الله الذى لا أمر الا له ولا يقبل من العمل الا ما حده ورسمه ثم خوف الكفار بقوله تعالى (أفلم يسيروا فى الارض) أى التى فيها آثار الوقائع (فينظروا كيف كان عاقبة) أى آخر أمر (الذين من قبلهم دمر الله) أى أوقع الملك الاعظم الهلاك (عليهم) بما عم أهاليهم وأموالهم وكل من رضى أفعالهم أو مقالهم وعدل عن أن يقول ولهؤلاء الى قوله تعالى (وللكافرين) تعميما وتعليقا للحكم بالوصف وهو العراقة فى الكفر (أمثالها) أى أمثال عاقبة من قبلهم (ذلك) أى الامر العظيم وهو نصر المؤمنين وقهر الكافرين (بأن الله) أى بسبب أن الملك الاعظم المحيط بصفات الكمال (مولى) أى ولى وناصر (الذين آمنوا) فهو يفعل معهم بما له من الجلال والجمال ما يفعل القريب بقريبه الحبيب له قال القشيرى ويصح أن يقال أرجى آية فى القرآن هذه الآية لان الله تعالى لم يقل انه هادى العباد وأصحاب الاوراد والاجتهاد بل علق ذلك بالايمان (وان الكافرين) أى الغريقين فى هذا الوصف (لا مولى لهم) فيدفع العذاب عنهم وهذا لا يخالف قوله تعالى وردوا الى الله مولاهم الحق فان المولى فيه بمعنى المالك ثم ذكر سبحانه وتعالى مال الفريقين بقوله تعالى (ان الله) أى الذى له جميع الصفات (يدخل الذين آمنوا) أى أوقعوا التصديق (وعملوا) تصديقا لما ادعوا أنهم أوقعوه (الصالحات) أى الطاعات (جنات) أى بساتين عظيمة الشأن موصوفة بأنها (تجرى من تحتها) أى من تحت قصورها (الانهار) فهى دائمة النمو والبهجة والنضارة والثمرة (والذين كفروا يتمتعون) أى فى الدنيا بالملاذ كما تتمتع الانعام

ناسين ما أمر الله تعالى به معرضين عن كتابه (ويأكلون) على سبيل الاستمرار (كما تأكل الانعام) أى أكل التلذذ والمرح من أى موضع كان وكيف الأكل من غير تمييز الحرام من غيره اذ ليس لهم همة الا بطونهم وفروجهم لا يلتفتون الى الآخرة لان الله تعالى أعطاهم الدنيا ووسع عليهم فيها وفرغهم لها حتى شغلتهم عنه هوانا بهم وبغضا لهم فيدخلهم نارا وقودها الناس والحجارة كما قال تعالى (والنار مثوى لهم) أى منزل ومقام ومصير ولما ضرب الله تعالى لهم مثلا بقوله تعالى أفلم يسيروا فى الارض ولم ينفعهم مع ما تقدم من الدلائل ضرب للنبى صلى الله عليه وسلم مثلا تسلية له فقال تعالى (وكأين) أى وكم (من قرية) أريد أهلها أى كذبت رسولها (هى أشد قوة) وأكثر عددا (من قريتك) مكة أى أهلها وقوله تعالى (التى أخرجتك) روعى فيه لفظ قرية وقوله تعالى (أهلكناهم) أى بأنواع العذاب روعى فيه معنى قرية الاولى (فلا ناصر لهم) يدفع عنهم الهلاك كذلك نفعل بهم فاصبر كما صبر رسلهم قال ابن عباس لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى الغار التفت الى مكة وقال أنت أحب أرض الله الى الله وأحب بلاد الله الى ولو أن المشركين لم يخرجونى لم أخرج منك فأنزل الله تعالى هذه (أفمن كان) أى فى جميع أحواله (على بينة) أى حجة ظاهرة البيان فى أنها حق (من ربه) أى المربى والمدبر له المحسن اليه وهم النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون (كمن زين له) بتزيين الشيطان بتسليطنا له عليه (سوء عمله) فرآه حسنا وهم أبو جهل والكفار (واتبعوا أهواءهم) فى ذلك ولا شبهة لهم فى شئ من أعمالهم السيئة فضلا عن دليل * ولما تكرر ذكر الجنة فى هذه السورة بين صفتها بقوله تعالى (مثل) أى صفة (الجنة) أى البساتين العظيمة التى تستر داخلها من كثرة أشجارها (التى وعد المتقون) أى الذين جعلتهم تقواهم بعد الوقوف عن فعل لم يدل عليه دليل على أن اسمعوا منك فانتفعوا بما دللتهم عليه من أمور الدين * (تنبيه) * اختلف فى اعراب هذه الآية على أوجه أحدها أن مثل مبتدأ وخبره مقدر وقدره النضر ابن شميل مثل الجنة ما تسمعون فما تسمعون خبره وفيها أنهار مفسر له وقدره سيبويه فيما يتلى عليكم مثل الجنة والجملة بعدها أيضا مفسرة للمثل ثانيها أن مثل زائدة تقديره الجنة التى وعد المتقون (فيها أنهار) ونظير زيادة مثل هنا زيادة اسم فى قول القائل

الى الحول ثم اسم السلام عليكما * ثالثها ان مثل الجنة مبتدأ والخبر قوله تعالى كمن هو خالد فى النار فقدره ابن عطية أمثل أهل الجنة كمن هو خالد فقدر حرف الانكار ومضافا ليصح وقدره الزمخشرى أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد والجملة من قوله تعالى فيها أنهار حال من الجنة أى مستقرة فيها أنهار (من ماء) ولما كان ماء الدنيا مختلف الطعوم مع اتحاد الارض ببساطها وشدة اتصالها الدلالة على أن الفاعل ذلك قادر مختار وقد يكون آسنا أى متغيرا عن الماء الذى يشرب بريح منتنة من أصل خلقته أو من عارض عرض له من منبعه أو مجراه قال تعالى (غير آسن) أى ثابت له فى وقت ما شئ من الطعم أو اللون أو الريح بوجه من الوجوه وان طالت اقامته وان أضيف اليه غيره فانه لا يقبل التغير بوجه بخلاف ماء الدنيا فيتغير

للعارض وقرأ ابن كثير بقصر الهمزة والباقون بمدها وهما لغتان (وأنهار من لبن) ولما كان التغير غير محمود قال تعالى (لم يتغير طعمه) أى بنفسه عن أصل خلقته وان أقام مدى الدهر بخلاف لبن الدنيا لخروجه من الضرع وهذا يفهم أنهم لو أرادوا تغييره لشهوة اشتهوها تغيروانه مع طيبه على أنواع كثيرة كما كان فى الدنيا متنوعا (وأنهار من خمر) ولما كان الخمر يكره طعمها وانما يشربها شاربوها الاثرها وانه متى تغير طعمها زال اسمها عرف ان كل ما فى خمر الجنة فى غاية الحسن غير متعرض لطعم فقال تعالى (لذة) أى لذيذة (للشاربين) فى طيب الطعم وحسن العاقبة بخلاف خمر الدنيا فانها كريهة عند الشرب (وأنهار من عسل) ولما كان عسل الدنيا الايوجد الامخلوطا لخروجه من بطون النحل بالشمع وغيره من القذى قال تعالى (مصفى) أى هو صاف صفاء ما اجتهد فى تصفيته من ذلك وهذا الوصف ثابت له دائما لا انفكاك له فى وقت ما *(تنبيه)* قال أبو حيان فى حكمة ترتيب هذه الانهار انه بدأ بالماء الذى لا تستغنى عنه المشروبات ثم باللبن اذ كان يجرى مجرى المطعومات فى كثير من أوقات العرب ثم بالخمر لانه اذا حصل الرى والمطعم تشوقت النفس الى ما تلتذ به ثم بالعسل لان فيه الشفاء فى الدنيا مما يعرض من المطعوم والمشروب اهـ (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى فى الخمر لذة للشاربين ولم يقل فى اللبن لم يتغير طعمه للطاعمين ولا قال فى العسل مصفى للناظرين (أجاب) الرازى بأن اللذة تختلف باختلاف الاشخاص فرب طعام يلتذ به شخص ويعافه الآخر فقال لذة للشاربين بأسرهم ولان الخمر كريهة الطعم فى الدنيا فقال لذة أى لا يكون فى خمر الآخرة كراهة الطعم وأما الطعم واللون فلا يختلف باختلاف الناس فان الحلو والحامض وغيرهما يدركه كل أحد لكن قد يعافه بعض الناس ويلتذ به البعض مع اتفاقهم على أن له طعما واحدا وكذلك اللبن فلم يكن للتصريح بالتعميم حاجة *(فائدة)* روى عن كعب الاحبار أنه قال نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة ونهر الفرات نهر لبنهم ونهر مصر نهر خمرهم ونهر سيحان وجيحان نهر عسلهم وهذه الانهار الاربعة تخرج من نهر الكوثر وقال ابن عبد الحكم فى فتوح مصر ان كعب الاحبار سئل هل تجد لهذا النيل فى كتاب الله عز وجل خبرا فقال اى والذى فلق البحر لموسى انى لاجده فى كتاب الله تعالى ان الله عز وجل يوحى اليه فى كل عام مرتين يوحى اليه عند جريه ان الله يأمرك أن تجرى فيجرى ما كتب الله تعالى له ثم يوحى اليه بعد ذلك يانيل غر حميدا وعن كعب أيضا أنه قال أربعة أنهار من الجنة وضعها الله تعالى فى الدنيا فالنيل نهر العسل فى الجنة والفرات نهر الخمر فى الجنة وسيحان نهر الماء فى الجنة وجيحان نهر اللبن فى الجنة وعنه أيضا أنه قال النيل فى الآخرة يكون عسلا أغزر ما يكون من الانهار التى سمى الله عز وجل ودجلة فى الآخرة لبنا أغزر ما يكون من الانهار التى سمى الله عز وجل والفرات خمرا أغزر ما يكون من الانهار التى سمى الله عز وجل وجيحان ماء أغزر ما يكون من الانهار التى سمى الله عز وجل وأصل هذا كله ما فى الصحيح فى وصف الجنة عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال سيحان وجيحان والنيل والفرات من أنهار الجنة ولما كانت الثمار

ألذ مستطاب بعد منافع الشراب قال تعالى (ولهم فيها) وقوله تعالى (من كل الثمرات) فيه وجهان أحدهما ان هذا الجار صفة لمقدر ذلك المقدر مبتدأ وخبره الجار قبله وهو لهم وفيها متعلق بما تعلق به والتقدير ولهم فيها زوجان من كل الثمرات كأنه انتزعه من قوله تعالى فيهما من كل فاكهة زوجان وقدره بعضهم صنف والاول كما قال ابن عادل أليق ثانيهما أن من مزيدة فى المبتدا (ومغفرة من ربهم) فهو راض عنهم مع احسانه اليهم بما ذكر بخلاف سيد العبيد فى الدنيا فانه قد يكون مع احسانه اليهم ساخطا عليهم وقوله تعالى (كمن هو خالد فى النار) خبر مبتدا مقدر أى أمن هو فى هذا النعيم كمن هو مقيم اقامة لا انقطاع معها فى النار التى لا ينطفئ لهيبها ولا ينفك أسيرها ووحده لان الخلود يعم من فيها على حد سواء (وسقوا) أى عوض ماذكر من شراب أهل الجنة (ماء حميما) هو فى غاية الحرارة (فقطع امعاءهم) أى مصارينهم فخرجت من أدبارهم وهو جمع معى بالقصر وألفه عن ياء لقولهم معيان (ومنهم من يستمع اليك) أى فى خطب الجمعة وهم المنافقون والضمير فى قوله تعالى ومنهم يحتمل أن يعود الى الناس كما قال تعالى فى سورة البقرة ومن الناس من يقول آمنا بالله بعد ذكر الكفار ويحتمل أن يعود الى أهل مكة لان ذكرهم سبق فى قوله تعالى هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك ويحتمل أن يرجع الى معنى قوله تعالى هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما أى ومن الخالدين فى النار قوم يستمعون اليك (حتى اذا) أى واستمر جهلهم لانفسهم فى الاصغاء حتى اذا (خرجوا) أى المستمعون والسامعون (من عندك قالوا) أى الفريقان تعاميا واستهزاء (للذين أوتوا العلم) بسبب تهيئة الله تعالى لهم من صفاء الافهام بتجردهم عن النفوس والحظوظ وانقيادهم لما تدعو اليه الفطرة الاولى منهم ابن مسعود وابن عباس (ماذا قال) أى النبى صلى الله عليه وسلم (آنفا) أى قبل افتراقنا وخروجنا عنه روى مقاتل أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخطب ويعيب المنافقين فاذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود استهزاء ماذا قال محمد آنفا أى الساعة أى لا نرجع اليه وقرأ البزى بقصر الهمزة بخلاف عنه والباقون بالمد وهما لغتان بمعنى واحد وهما اسما فاعل كحاذر وحذر (أولئك) أى البعداء من كل خير (الذين طبع الله) أى الملك الاعظم (على قلوبهم) أى بالكفر فلم يفهموا فهم انتفاع لان مثل هذا الجود لا يكون الابذلك (واتبعوا) أى بغاية جهدهم (أهواءهم) أى فى الكفر والنفاق فلذلك هم يتهاونون بأعظم الكلام ويقبلون على جمع الحطام فهم أهل النار المشار اليهم قبل آية مثل الجنة بأنهم زين لهم سوء عملهم ثم ذكر تعالى اضداد هؤلاء بقوله سبحانه (والذين اهتدوا) أى اجتهدوا باستماعهم منك فى الايمان والتسليم والاذعان بأنواع المجاهدات وهم المؤمنون (زادهم) أى الله الذى طبع على قلوب الكفرة (هدى) بأن شرح صدورهم ونورها بأنوار المشاهدات فصارت أوعية للحكمة (وآتاهم تقواهم) أى ألهمهم ما يتقون به النار قال ابن برجان التقوى عمل الايمان كما أن اعمال الجوارح عمل الاسلام (فهل) أى ما (ينظرون) أى ينتظرون وجودها اشارة الى شدة

قربها

قربها (الا الساعة) وقوله تعالى (أن تأتيهم) أى الكافرين بدل اشتمال من الساعة أى ليس الامر الا أن تأتيهم (بغتة) أى فجأة من غير شعور بها ولا استعداد لها وقوله تعالى (فقد جاء اشراطها) جمع شرط بسكون الراء وفتحها قال أبو الاسود

فان كنت قد أزمعت بالصرم بيننا * فقد جعلت اشراط أوله تبدو

والاشراط العلامات ومنه اشراط الساعة وأشرط الرجل نفسه أى ألزمها أمورا قال أوس

فأشرط فيها نفسه وهو يقسم * فالقى بأسباب له وتوكلا

والشرط القطع أيضا مصدر شرط الجلد يشرطه شرطا قال السهيلى عن ابن سعد عن أنس قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم قال باصبعيه هكذا بالوسطى والتى تلى الابهام بعثت والساعة كهاتين وعن أنس قال لاحدثنكم بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان من اشراط الساعة أن يرفع العلم ويكثر الجهل ويكثر الربا ويشرب الخمر ويقل الرجال وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد وعن أبى هريرة قال بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم اذ جاءه أعرابى فقال متى الساعة فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال وقال بعضهم لم يسمع حتى اذا قضى حديثه قال أين السائل عن الساعة قال ها أنا يارسول الله قال اذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة فقيل كيف اضاعتها قال اذا وسد الامر لغير أهله فانتظروا الساعة ومن اشراطها انشقاق القمر المؤذن بآية الشمس فى طلوعها من مغربها وغير ذلك وما بعد مقدمات الشئ الا حضوره (فأنى) أى فكيف وأين (لهم) أى التذكر والاتعاظ والتوبة (اذا جاءتهم ذكراهم) أى الساعة لاتنفعهم نظيره قوله تعالى يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى ولما علم بذلك أن الذكرى غير نافعة اذا انقضت هذه الدار التى جعلت للعمل أوجاءت الاشراط المحققة الكاشفة لها سبب عنه أمر أعظم الخلق تكوينا ليكون لغيره تكليفا فقال (فاعلم أنه) أى الشأن العظيم (لا اله) أى لامعبود بحق (الا الله) أى اذا علمت سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية فانه النافع يوم القيامة وقيل الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره وقال الحسن بن الفضل فازدد علما الى علمك وقال أبو العالية وابن عيينة معناه اذا جاءتهم الساعة فاعلم أنه لاملجأ ولامفزع عند قيامها الا الى الله (واستغفر لذنبك) أى لاجله أمر بذلك مع عصمته لتستن به أمته وقد فعله قال صلى الله عليه وسلم انى لاستغفر الله فى اليوم مائة مرة وقيل معنى قوله لذنبك أى لذنب أهل بيتك وللمؤمنين والمؤمنات الذين ليسوا من أمتك بأهل بيت وقيل المراد النبى والذنب هو ترك الافضل الذى هو بالنسبة اليه ذنب وحسنات دون ذلك قال صلى الله عليه وسلم انه ليغان على قلبى وانى لاستغفر الله فى كل يوم مائة مرة وقيل هو كل مقام عال ارتفع منه الى أعلى منه وقوله تعالى (وللمؤمنين والمؤمنات) فيه اكرام من الله تعالى لهذه الامة حيث أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لذنوبهم (والله) المحيط بجميع صفات الكمال (يعلم متقلبكم) أى تصرفكم لاشغالكم بالنهار ومكانه وزمانه

(ومثواكم) أى مأواكم الى مضاجعكم بالليل أى هو عالم بجميع أحوالكم لا يخفى عليه شئ منها فاحذروه والخطاب للمؤمنين وغيرهم وقيل يعلم متقلبكم فى أعمالكم ومثواكم فى الجنة والنار ومثله حقيق بأن يخشى ويتقى وأن يستغفر ويسترحم وعن سفيان ابن عيينة أنه سئل عن فضل العلم فقال ألم تسمع قوله تعالى حين بدأ به فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك فأمر بالعمل بعد العلم وقال اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو الآية (ويقول الذين آمنوا) طلبا للجهاد (لولا) أى هلا ولا التفات الى قول بعضهم ان لا زائدة والاصل لو (نزلت سورة) أى سورة كانت نسر بسماعها ونتعبد بتلاوتها ونعمل بما فيها (فاذا أنزلت سورة) أى قطعة من القرآن تكامل نزولها كلها تدريجا أو جملة وزادت على مطلوبهم فى الحسن بأنها (محكمة) أى مبينة لا يلتبس شئ منها بنوع اجمال ولا بنسخ لكونه جامعا للمحاسن فى كل زمان ومكان وقال قتادة كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة وهى أشد القرآن على المنافقين (وذكر فيها القتال) أى الامر به (رأيت الذين فى قلوبهم مرض) أى شك وهم المنافقون (ينظرون اليك) شزرا بتحديق شديد كراهية منهم للجهاد وجبنا منهم عن لقاء العدو (نظر المغشى) والاصل نظرا مثل نظر المغشى (عليه من الموت) الذى هو نهاية الغشى فهو لا يطرف بعينه بل شاخص لا يطرف كراهية القتال من الجبن والخوف والمعنى أن المؤمن كان ينتظر نزول الاحكام والتكاليف ويطلب تنزيلها واذا تأخر عنه التكليف كان يقول هلا أمرت بشئ من العبادة خوفا من أن لا يؤهل لها وأما المنافق فاذا أنزلت السورة أو الآية وفيها تكليف شق عليه ذلك فحصل التباين بين الفريقين فى العلم والعمل وقوله تعالى (فأولى لهم) وعيد بمعنى فويل لهم وهو أفعل من الولى وهو القرب ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه وقوله تعالى (طاعة وقول معروف) مستأنف أى طاعة ومعروف خير لهم وأمثل أى لو أطاعوا وقالوا قولا معروفا لكان أمثل وأحسن وساغ الابتداء بالنكرة لانها وصفت بدليل قوله تعالى وقول معروف فانه موصوف فكأنه تعالى قال طاعة مخلصة وقول معروف خير وقيل يقول المنافقون قبل نزول السورة المحكمة طاعة رفع على الحكاية أى أمرنا طاعة أو منا طاعة وقول معروف حسن وقيل متصل بما قبله واللام فى قوله تعالى لهم بمعنى الباء أى فأولى بهم طاعة الله ورسوله وقول معروف بالاجابة أولى بهم وهذا قول ابن عباس فى رواية عطاء ثم سبب عنهما قوله تعالى مسندا الى الامر ما هو لاهله تأكيدا لمضمون الكلام (فاذا عزم الامر) أى فاذا أمر بالقتال الذى ذكر فى أول السورة وغيره من الاوامر أمر الجزوم ما به مقروحا عليه (فلو صدقوا الله) أى الملك الاعظم فى قولهم الذى قالوه فى طلب التنزيل (لكان) أى صدقهم له (خيرا لهم) أى من تعللهم وجملة لو جواب اذا نحو اذا جاءنى طعام فلو جئتنى لأطعمتك وقيل محذوف تقديره فاصدق كذا قدره أبو البقاء وعزم الامر على سبيل المجاز كقوله * قد جدت الحرب بجدوا * أو يكون على حذف مضاف أى عزم أهل الامر وقوله تعالى (فهل عسيتم) فيه التفات عن الغيبة أى لعلكم (ان توليتم) أى أعرضتم عن الايمان والجهاد (أن تفسدوا) أى

توقعوا الافساد العظيم الذى يستمر تجدده (فى الارض) بالمعصية والبغى وسفك الدماء الذى يسخط الله تعالى ويغضبه أشد غضب على فاعله وتكونوا فى غاية الجراءة عليه وترجعوا الى الفرقة بعد ما جمعكم الله بالاسلام وقرأ نافع بكسر السين والباقون بفتحها (وتقطعوا) أى تقطيعا كثيرا (أرحامكم) أى تعودوا الى أمر الجاهلية فى الاغارة من بعض على بعض وغير ذلك قال قتادة كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله تعالى ألم يسفكوا الدم الحرام وقطعوا الارحام وعصوا الرحمن وقال بعضهم هو من الولاية قال الفراء يقول فهل عسيتم ان توليتم أمر الناس أن تفسدوا فى الارض بالظلم نزلت فى بنى أمية وبنى هاشم (أولئك) أى المفسدون (الذين لعنهم الله) أى طردهم أشد الطرد الملك الاعظم لما ذكر من افسادهم وتقطيعهم ثم سبب عن لعنهم قوله تعالى (فأصمهم) أى عن الانتفاع بما سمعوه (وأعمى أبصارهم) أى عن الانتفاع بما يبصرون فليس سماعهم سماع ادراك ولا ابصارهم ابصار اعتبار فلا سماع ولا ابصار (أفلا يتدبرون) بقلوب منفتحة منشرحة ليهتدوا الى كل خير (القرآن) أى يجهدوا أنفسهم فى أن يتفكروا فى الكتاب الجامع لكل خير الفارق بين الحق والباطل حتى لا يجسروا على المعاصى (فان قيل) قال تعالى فأصمهم وأعمى أبصارهم فكيف يمكنهم التدبر فى القرآن وهو كقول القائل للاعمى أبصر وللاصم اسمع (أجيب) بثلاثة أوجه مترتبة بعضها أحسن من بعض الاول تكليف ما لا يطاق جائز والله تعالى أمر من علم منه بأنه لا يؤمن أن يؤمن فلذلك جاز أن يصمهم ويعميهم ويذمهم على ترك التدبر الثانى أن قوله أفلا يتدبرون القرآن المراد منه الناس الثالث أن يقال ان هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة كأنه تعالى قال أولئك الذين لعنهم الله أى أبعدهم عنه أو عن الصدق أو الخير أو غير ذلك من الامور الحسنة فأصمهم لا يسمعون حقيقة الكلام وأعماهم لا يبصرون طريقة الاسلام فاذاهم بين أمرين اما لا يتدبرون القرآن فيبعدون عنه لان الله تعالى لعنهم وأبعدهم عن الخير والصدق والقرآن منهما هو الصنف الاعلى بل النوع الاشرف واما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه فى قلوبهم لكونها مقفلة تقديره أفلا يتدبرون القرآن لكونهم ملعونين مبعدين (أم) أى بل (على قلوب) أى من قلوب الفاعلين لذلك (أقفالها) فلا تعى شيأ ولا تفهم أمرا ولا تزداد الاغباوة وعنادا لانها لا تقدر على التدبر قال القشيرى فلا يدخلها زواجر التنبيه ولا ينبسط عليها شعاع العلم فلا يحصل لهم فهم الخطاب والباب اذا كان مغلقا فكما لا يدخل فيه شئ لا يخرج ما فيه فلا كفرهم يخرج ولا الايمان الذى يدعون اليه يدخل اه (فان قيل) ما الفائدة فى تنكير القلوب (أجاب) الزمخشرى بقوله يحتمل وجهين أحدهما أن يكون للتنبيه على كونه موصوفا لان النكرة بالوصف أولى من المعرفة كأنه قال أم على قلوب قاسية أو مظلمة الثانى أن تكون للتبعيض كأنه قال أم على بعض القلوب لان النكرة لا تعم تقول جاءنى رجال فيفهم البعض وجاءنى الرجال فيفهم الكل والتنكير فى القلوب للتنبيه على الانكار الذى فى القلوب وذلك لان القلب اذا كان عارفا كان معروفا لان القلب خلق للمعرفة فاذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف قلبا

فلا يكون قلبا يعرف كما يقال للانسان المؤذى هذا ليس بانسان فكذلك يقال هذا ليس بقلب هذا حجر واذا علم هذا فالتعريف اما بالالف واللام واما بالاضافة وأن يقال على قلوبهم أقفالها وهى لعدم عود فائدة اليهم كأنها ليست لهم (فان قيل) قد قال تعالى ختم الله على قلوبهم وقال تعالى فويل للقاسية قلوبهم (أجيب) بأن الاقفال أبلغ من الختم فترك الاضافة لعدم انتفاعهم رأسا (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى أقفالها بالاضافة ولم يقل أقفال كما قال قلوب (أجيب) بأن الاقفال كأنها ليست الا لها ولم يضف القلوب اليهم لعدم نفعها اياهم وأضاف الاقفال اليها لكونها مناسبة لها أو يقال أراد به اقفالا مخصوصة هى اقفال الكفر والعناد * ولما أخبر تعالى باقفال قلوبهم بين منشأ ذلك فقال تعالى (ان الذين ارتدوا) أى من أهل الكتاب وغيرهم (على أدبارهم) أى رجعوا كفارا (من بعد ما تبين) أى غاية البيان (لهم الهدى) أى بالدلائل التى هى من شدة ظهورها غنية عن بيان مبين (الشيطان سول لهم) أى زين وسهل لهم اقتراف الكبائر (وأملى) أى ومد الشيطان (لهم) فى الآمال والامانى بارادته تعالى فهو المضل لهم وقرأ أبو عمرو بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء والباقون بفتح الهمزة واللام وسكون الالف المنقلبة وأمالها حمزة والكسائى محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح قال فى الكشاف فان قلت من هؤلاء قلت اليهود كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم من بعد ما تبين لهم الهدى وهو نعته فى التوراة وقيل هم المنافقون (ذلك) أى اضلالهم (بأنهم) أى بسبب انهم (قالوا) أى المنافقون (للذين كرهوا) أى وهم المشركون (ما) أى جميع ما (نزل الله) أى الملك الاعظم على التدريج بحسب الوقائع تنزيلا فى اعجاز الخلق فى بلاغة التركيب مع فصاحة المفردات وجزالة التهامع السهولة فى النطق والعذوبة فى السمع والملاءمة للطبع (سنطيعكم فى بعض الامر) أى أمر المعاونة على عداوة النبى صلى الله عليه وسلم وتثبيط الناس عن الجهاد معه قالوا ذلك سرا فاظهره الله تعالى (والله) أى قالوا ذلك والحال ان الملك الاعظم المحيط بكل شئ علما وقدرة (يعلم) أى على ممر الاوقات (اسرارهم) أى كلها هذا الذى أفشاه عليهم وغيره مما فى ضمائرهم مما لم يبرز على ألسنتهم واعلمهم لم يعلموه فضلا عن أقوالهم التى تحدثت بها أنفسهم فبان بذلك انه لا أديان لهم ولا عقول ولا مروآت وقرأ حمزة والكسائى وحفص بكسر الهمزة مصدرا والباقون بفتحها جمع سر (فكيف) أى حالهم (اذا توفتهم الملائكة) أى قبضت رسلنا وهم ملك الموت وأعوانه أرواحهم كاملة وقوله تعالى (يضربون وجوههم وأدبارهم) تصوير لتوفيهم بما يخافون منه ويجبنون عن القتال له وعن ابن عباس لا يتوفى أحد على معصية الا يضرب من الملائكة فى وجهه ودبره وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى التوفى الموصوف (بأنهم) أى بسبب انهم (اتبعوا) أى عالجوا فطرتهم الاولى فى أن اتبعوا (ما أسخط الله) أى الملك الاعظم وهو الكفر وكتمان نعت الرسول صلى الله عليه وسلم وعصيان الامر (وكرهوا) بالاشراك (رضوانه) بكراهتهم أعظم أسباب رضاه وهو الايمان فهم لما دونه بالقعود عن الطاعات أكره لان ذلك ظاهر غاية الظهور فى أن فاعله غير معذور فى ترك

النظر فيه (فأحبط) أى فلذلك تسبب عنه انه أفسد (أعمالهم) أى الصالحة فأسقطها بحيث لم يبق لها وزن أصلا لتضييع الاساس من مكارم الاخلاق من القرى والاخذ بيد الضعيف والتصدق والاعتاق وغير ذلك من وجوه الارفاق (أم حسب الذين) وكان الاصل أم حسبوا لضعف عقولهم كما أفهمه التعبير بالحسبان ولكنه عبر تعالى بما دل على الآفة التى أدتهم الى ذلك بقوله تعالى (فى قلوبهم) أى التى اذا فسدت فسد جميع أجسادهم (مرض) أى آفة لاطب لها حسبا ناهو فى غاية الثبات كما دل عليه التأكيد فى قوله تعالى (أن لن يخرج الله) أى يبرز من هو محيط بصفات الكمال للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على سبيل التجديد والاستمرار وقوله تعالى (أضغانهم) جمع ضغن وهى الاحقاد أى احقادهم على المؤمنين فيبديها حتى تعرفوا نفاقهم وكانت صدورهم تغلى حنقا عليهم (ولو نشاء لاريناكهم) من رؤية البصر وجاء على الافصح من اتصال الضميرين ولو جاء على اريناك اياهم جاز وقال الرازى الاراءة هنا بمعنى التعريف وقوله تعالى (فلعرفتهم) عطف على جواب لو (بسيماهم) أى بسبب علاماتهم التى نجعلها غالبة عليهم عالية لهم فى اظهار ضمائرهم غلبة لا يقدرون على مدافعتها بوجه ولم يذكرهم سبحانه بأسمائهم ابقاء على قراباتهم المخلصين من الفتن وقوله تعالى (ولتعرفنهم) جواب قسم محذوف (فى لحن القول) أى الصادر منهم ولحنه فحواه أى معناه ومايدل عليه ويلوح عليه من ميله عن حقائقه الى عواقبه ومايؤول اليه أمره مما يخفى على غيرك قال أنس ماخفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية شئ من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم وعن ابن عباس لحن القول هو قولهم مالنا ان أطعنا من الثواب ولا يقولون ماعلينا ان عصينا وقيل اللحن ان تلحن بكلامك أى تميله الى نحو من الانحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية قال

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا * واللحن يعرفه ذووا الالباب

وقيل للمخطئ لاحن لانه يعدل بالكلام عن الصواب وقال أبو حيان كانوا اصطلحوا على ألفاظ يخاطبون بها الرسول صلى الله عليه وسلم مما ظاهره حسن ويعنون به القبيح (والله) أى بماله من الكمال (يعلم أعمالكم) كلها الفعلية والقولية جليها وخفيها علما ثابتا غيبيا وعلما راسخا شهوديا يتجدد بحسب تجددها مستمرا باستمرار ذلك (ولنبلونكم) أى نعاملكم معاملة المبتلى بأن نخالطكم بمالنا من العظمة بالاوامر الشديدة على النفوس والنواهى الكريهة اليها (حتى نعلم) أى بالابتلاء علما شهوديا يشهده غيرنا مطابقا لما كنا نعلمه علما غيبيا فنستخرج من سرائركم ماجبلناكم عليه مما لا يعلمه أحد منكم بل ولا تعلمونه حق علمه (المجاهدين منكم) فى القتال وفى سائر الاعمال والشدائد والاهوال امتثالا للامر بذلك (والصابرين) أى على شدائد الجهاد وغيره من الانكاد قال القشيرى فبالابتلاء والامتحان تتبين جواهر الرجال فيظهر المخلص ويفتضح المماذق وينكشف المنافق اهـ وعن الفضيل انه كان اذا قرأ هذه الآية بكى وقال اللهم لاتبتلنا فانك ان بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا (ونبلو أخباركم) أى نخالطها

بأن نسلط عليها من يعرفها فيجعل حسنها قبيحا وقبيحها حسنا ليظهر للناس العامل لله والعامل للشيطان فان العامل لله اذا سمى قبيحه باسم الحسن علم ان ذلك احسان من الله تعالى اليه فيستحى منه ويرجع واذا سمى حسنه باسم القبيح وأشهر به علم ان ذلك لطف من الله تعالى به لكى لا يدركه العجب أو يهاجمه الرياء فيزيد فى احسانه والعامل للشيطان يزداد فى القبائح لان ثمرته عند الناس محط نظره ويرجع عن الحسن لانه لم يوصله الى ما أراد به من ثناء الناس عليه بالخير (ان الذين كفروا) أى غطوا ما دلتهم عليه عقولهم من ظاهر آيات الله لاسيما بعد ارسال الرسول صلى الله عليه وسلم المؤيد بواضح المعجزات (وصدوا) أى امتنعوا ومنعوا غيرهم زيادة فى كفرهم (عن سبيل الله) أى الطريق الواضح الذى نهجه الملك الاعظم (وشاقوا الرسول) أى الكامل فى الرسالة المعروف غاية المعرفة (من بعد ما تبين) أى غاية البيان بالمعجز (لهم الهدى) بحيث صار ظاهرا بنفسه غير محتاج ما أظهره الرسول من الآيات الظاهرة وهم قريظة والنضير والمطعمون يوم بدر (لن يضروا الله) أى ملك الملوك (شيأ) بما هم عليه من الكفر والصد أولن يضروا رسوله صلى الله عليه وسلم بمشاقته وحذف المضاف لتعظيمه وتفظيع مشاقته (وسيحبط) أى يفسد فيبطل بوعد لاخلف فيه (أعمالهم) من المحاسن لبنائها على غير أساس (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا بألسنتهم (أطيعوا الله) أى الملك الاعظم تصديقا لدعواكم طاعة لشدة الاجتهاد فيها أنها خالصة وعظم الرسول صلى الله عليه وسلم بافراده فقال تعالى (وأطيعوا الرسول) لان طاعته من طاعة الذى أرسله فاذا فعلتم ذلك حصنتم أنفسكم وأعمالكم فتكون صحيحة بنائها على الطاعة بتصحيح النيات وتصفيتها مع الاحسان للصورة فى الظاهر ليستكمل العمل صورة وروحا (ولا تبطلوا أعمالكم) قال عطاء بالشك والنفاق وقال الكلبى بالرياء والسمعة وقال الحسن بالمعاصى والكبائر وقال أبو العالية كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون انه لا يضر مع الايمان ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت هذه الآية فخافوا الكبائر ان تحبط الاعمال وقال مقاتل لا تمنوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبطلوا أعمالكم نزلت فى بنى أسد قال تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى وعن حذيفة فخافوا ان تحبط الكبائر أعمالهم وعن ابن عمر كنا نرى انه ليس شئ من حسناتنا الا مقبولا حتى نزل ولا تبطلوا أعمالكم فقلنا ما هذا الذى يبطل أعمالنا فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فكففنا عن القول فى ذلك فكنا نخاف على من اصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها وعن قتادة رحم الله عبدا لم يحبط عمله الصالح بعمله السئ وعن ابن عباس لا تبطلوا بالرياء والسمعة أعمالكم وعنه أيضا بالشك والنفاق وقيل بالعجب فان العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب (ان الذين كفروا) أى أوقعوا الكفر بفعلهم فعل الساتر لما دل عليه العقل من آيات الله المرئية والمسموعة (وصدوا عن سبيل الله) أى الملك الاعلى عن الواضح المستقيم الموصل الى كل ما ينبغى ان يقصد كل من أراده بتماديهم على باطلهم واذاهم لمن خالفهم (ثم ماتوا) بعد المدلهم فى مضمارهم بالتطويل فى أعمارهم (وهم) أى

والحال انهم (كفار فلن يغفر الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال الذى يمنع من تسوية المسيء بالمحسن (لهم) فلا يمحو ذنوبهم ولا يسترعيوبهم بل يفضح سرائرهم ويردهم على أعقابهم فى كل ما يتقلبون فيه لانهم قد أبطلوا أعمالهم بالخروج عن دائرة الطاعة فلم يبق لهم ما يغفر لهم بسببه وقد دلت هذه الآية على مادلت عليه آية البقرة من ان احباط العمل فى المرتد مشروط بالموت على الكفر قيل نزلت فى أصحاب القليب قال الزمخشرى والظاهر العموم ثم رغب تعالى فى لزوم الجهاد محذرا من تركه بقوله تعالى (فلا تهنوا) أى تضعفوا ضعفا يؤدى بكم الى الهوان والذل (وتدعوا) أعداءكم (الى السلم) أى المسالمة وهى الصلح (وأنتم) أى والحال انكم (الاعلون) أى الظاهرون الغالبون قال الكلبى آخر الامر لكم وان غلبوكم فى بعض الاوقات وأصل الاعلون الاعليون فأعل وقرأ حمزة وشعبة بكسر السين والباقون بفتحها ثم عطف على الحال قوله تعالى (والله) أى الملك الاعظم الذى لا يعجزه شئ ولا كفء له (معكم) أى بنصره ومعونته وجميع ما يفعله الكريم اذا كان مع عبده ومن علم انه سيده وعلم انه قادر على ما يريد لم يبال بشئ أصلا (ولن يتركم) أى ينقصكم (أعمالكم) أى ثوابها كما يفعل مع أعدائكم فى احباط أعمالهم لانكم لم تبطلوا أعمالكم بجعل الدنيا محط أمركم (انما الحياة) وأشار الى دناءتها تنفيرا عنها بقوله (الدنيا) أى الاشتغال بها (لعب) أى أعمال ضائعة سافلة تزيد فى السرور وما يسرع اضمحلاله فيبطل من غير ثمرة (ولهو) أى مشغلة يطلب بها اثارة اللذة كالغناء (وان تؤمنوا وتتقوا) أى تخافوا فتجعلوا بينكم وبين غضبه سبحانه وتعالى وقاية من جهاد أعدائه وذلك من أعمال الآخرة (يؤتكم) أى الله سبحانه الذى فعل ذلك من أجله فى الدار الآخرة (أجوركم) أى ثواب كل أعمالكم ببنائها على الاساس ولانه غنى لا ينقصه الاعطاء (ولا يسألكم) أى الله فى الدنيا (أموالكم) أى لنفسه ولا كلها لغيره بل يقتصر على جزء يسير مما تفضل به عليكم كربع العشر وعشره (ان يسألكموها) أى كلها (فيحفكم) أى يبالغ فى سؤالكم ويبلغ فيه الغاية حتى يستأصلها فيجهدكم بذلك فالاحفاء المبالغة وبلوغ الغاية فى كل شئ يقال احفاه فى المسئلة اذا لم يترك شيأ من الالحاح واحفى شاربه استأصله (تبخلوا) فلا تعطوا شيأ (ويخرج أضغانكم) أى ما تضغنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم والضمير فى يخرج لله تعالى أو الرسول أو السؤال أو البخل واقتصر عليه الجلال المحلى قال قتادة علم الله تعالى ان فى مسئلة الاموال خروج الاضغان يعنى ما طلبها ولو طلبها وألح عليكم فى الطلب لبخلتم كيف وأنتم تبخلون باليسير فكيف لا تبخلون بالكثير (ها أنتم) وحقر أمرهم بقوله تعالى (هؤلاء) أى أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون وقوله تعالى (تدعون لتنفقوا فى سبيل الله) أى الملك الاعظم الذى يرجى خيره ولا يخشى غيره استئناف مقرر لذلك أو صلة لهؤلاء على أنه بمعنى الذين وهو يعم نفقة الغزو والزكاة وغيرهما (فمنكم من يبخل) أى ناس يبخلون وحذف القسم الآخر وهو ومنكم من يجود لان المراد الاستدلال على ما قبله من البخل ولما كان بخله عمن اعطاه المال بجزء يسير منه انما طلبه لينفع المطلوب منه فقط زاد العجب بقوله تعالى (ومن) أى

والحال انه من (يبخل) بذلك (فانما يبخل) بماله بخلاف اضار (عن نفسه) فان نفع الانفاق وضر البخل عائدان اليه والبخل يعدى بعن وعلى لتضمنه معنى الامساك والتعدى فانه امساك عمن يستحق (والله) أى الملك الاعظم الذى له الاحاطة بجميع صفات الكمال (الغنى) وحده عن نفقتكم (وأنتم) أيها المكلفون خاصة (الفقراء) لاحتياجكم فى جميع أحوالكم اليه (وان تتولوا) عطف على وان تؤمنوا وتتقوا (يستبدل قوما غيركم) أى يخلق قوما سواكم على خلاف صفتكم راغبين فى الايمان والتقوى (ثم لا يكونوا أمثالكم) فى التولى عنه والزهد فى الايمان كقوله تعالى ويأت بخلق جديد قيل هم الملائكة وقيل الانصار وعن ابن عباس كندة والنخع وعن الحسن العجم وعن عكرمة فارس والروم وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القوم وكان سلمان الى جنبه فضرب على فخذه وقال هذا وقومه والذى نفسى بيده لو كان الايمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس رواه الترمذى والحاكم وصححاه وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة محمد كان حقا على الله تعالى ان يسقيه من أنهار الجنة حديث موضوع

(سورة الفتح مكية)

وهى تسع وعشرون آية وخمسمائة وستون كلمة وألفان وأربعمائة وثمانية وثلاثون حرفا (بسم الله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (الرحمن) الذى عم خلقه بنعمه (الرحيم) الذى خص أهل وداده بمزيد فضله روى زيد بن أسلم عن أبيه ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض اسفاره فسأله عمر عن شئ فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه قال عمر فحركت بعيرى حتى تقدمت امام الناس وخشيت أن يكون نزل فى قرآن فما نشبت ان سمعت صارخا يصرخ بى فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه فقال لقد أنزلت على الليلة سورة هى أحب الى مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ (انا فتحنا لك) أى بما لنا من العظمة التى لا تثبت لها الجبال (فتحا مبينا) أى لا لبس فيه على احد واختلفوا فى هذا الفتح فروى عن أنس انه فتح مكة وقال مجاهد فتح خيبر والاكثرون على أنه صلح الحديبية قال أنس نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم انا فتحنا لك الى آخر الآية عند مرجعه من الحديبية وأصحابه مخالطوا الحزن والكآبة فقال نزلت على آية هى أحب الى من الدنيا جميعها فلما تلاها نبى الله صلى الله عليه وسلم قال رجل من القوم هنيأ مريأ قد بين الله لك ما يفعل بك فماذا يفعل بنا فأنزل الله تعالى ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار حتى ختم الآية وقيل فتح الروم وقيل فتح الاسلام بالحجة والبرهان والسيف والسنان وقيل الفتح الحكم لقوله تعالى فافتح بيننا وبين قومنا بالحق وقوله تعالى ثم يفتح بيننا بالحق فمن قال هو فتح مكة قال لانه مناسب لآخر السورة التى قبلها من وجوه أحدها انه تعالى لما قال ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله الى ان قال ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه بين تعالى انه فتح لهم مكة وغنموا ديارهم وحصل

لهم اضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا الضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم الاعلى أنفسهم ثانيها ما قال تعالى والله معكم وقال تعالى وأنتم الاعلون بين برهانه بفتح مكة فانهم كانوا هم الاعلون ثالثها لما قال تعالى فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وكان معناه لا تسألوا الصلح بل اصبروا فانكم تسألوا الصلح كما كان يوم الحديبية فكان المراد فتح مكة حيث أتى صناديد قريش مستأمنين ومؤمنين ومسلمين ومستسلمين (فان قيل) ان كان المراد فتح مكة فمكة لم تكن فتحت فكيف قال تعالى فتحنا بلفظ الماضي (أجيب) من وجهين أحدهما فتحنا في حكمنا وتقديرنا ثانيهما ما قدره الله تعالى فهو كائن فأخبر بصيغة الماضي اشارة الى أنه أمر واقع لا دافع له وأما حجة قول الاكثرين على انه صلح الحديبية فلما روى البراء قال تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على شفيرها فدعا باناء فتوضأ ثم تمضمض ودعا وصبه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه وقيل جاش حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد وقال الشعبي في قوله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا قال فتح الحديبية غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر واطعموا نخل خيبر وبلغ الهدى محله وظهرت الروم على فارس ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس قال الزهري ولم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية وذلك ان المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الاسلام في قلوبهم واسلم في ثلاث سنين خلق كثير وكثر سواد الاسلام وقال البغوي انا فتحنا لك فتحا مبينا أي قضينا لك قضاء مبينا وقال الضحاك أي بغير مال وكان الصلح من الفتح واختلف قول المفسرين في معنى اللام في قوله تعالى (ليغفر لك الله) أي الملك الاعظم فقال البيضاوي علة للفتح من حيث انه مسبب عن جهاد الكفار والسعي في اعلاء الدين وازاحة الشرك وتكميل النفوس الناقصة وقال البغوي قيل اللام لام كي معناه انا فتحنا لك فتحا مبينا لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح وقال الجلال المحلي اللام للعلة الغائية فمدخولها مسبب لا سبب وقال بعضهم انها لام القسم والاصل ليغفرن فكسرت اللام تشبيها بلام كي وحذفت النون ورد هذا بأن اللام لا تكسر وبأنها لا تنصب المضارع قال ابن عادل وقد يقال ان هذا ليس بنصب وانما هو بقاء الفتح الذي كان قبل نون التوكيد بقي ليدل عليها ولكنه قول مردود وقال الزمخشري فان قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة قلت لم يجعل علة للمغفرة ولكن لاجتماع ما عدد من الامور الاربعة وهي المغفرة واتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز كأنه قال يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين واغراض الآجل والعاجل ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث انه جهاد للعدو سببا للمغفرة والثواب اه قال ابن عادل وهذا الذي قاله مخالف لظاهر الآية فان اللام داخلة على المغفرة فتكون المغفرة علة للفتح والفتح معلل بها فكان ينبغي أن يقول كيف جعل فتح مكة معللا بالمغفرة ثم يقول لم يجعل معللا اه وقيل غير ذلك والاسلم ما اقتصر عليه الجلال المحلي واختلف أيضا

في الذنب في قوله تعالى (ماتقدم من ذنبك) فقال البقاعى أى الذى تقدم فى القتال أمرك بالاستغفار له وهو ماتنتقل عنه من مقام كامل الى مقام فوقه أكمل منه فتراه بالنسبة الى أكملية المقام الثانى ذنبا وكذا قوله تعالى (وماتأخر) وقال الرازى المغفرة المعتبرة لهادرجات كما ان الذنوب لهادرجات حسنات الابرار سيئات المقربين وقال عطاء الخراسانى ماتقدم من ذنبك يعنى ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك وماتأخر ذنوب أمتك بدعوتك وقال سفيان الثورى ماتقدم ماعملت فى الجاهلية وماتأخر كل شئ لم تعمله قال البغوى ويذكر مثل ذلك على سبيل التأكيد كما يقال أعطى من رآه ومن لم يره وقيل ماتقدم من حديث مارية وماتأخر من امرأة زيد وقيل المراد به ترك الافضل وقيل الصغائر على طريق من جوز الصغائر على الانبياء وقيل المراد بالمغفرة العصمة ومعنى قوله تعالى وماتأخر قيل انه وعد للنبى صلى الله عليه وسلم بأنه لايذنب بعد النبوة وقيل ماتقدم على الفتح وماتأخر عنه وقيل المراد ذنب المؤمنين وقيل غير ذلك والاولى فى ذلك هو الاول واختلف أيضا فى النعمة فى قوله تعالى (ويتم نعمته عليك) فقال البقاعى بنقلك من عالم الشهادة الى عالم الغيب ومن عالم الكون والفساد الى عالم الثبات والصلاح الذى هو أخص بحضرته وأولى برحمته واظهار أصحابك من بعدك على جميع أهل الملل وقال البيضاوى باعلاء الدين وضم الملك الى النبوة وقال الجلال المحلى بالفتح المذكور وقيل ان التكاليف عند الفتح تمت حيث وجب الحج وهو آخر التكاليف والتكليف نعمة وقيل باجلاء الارض لك عن معانديك فان من يوم الفتح لم يبق للنبى صلى الله عليه وسلم عدو فان بعضهم قتل يوم بدر والباقون آمنوا واستأمنوا يوم الفتح وقيل ويتم نعمته عليك فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فباستجابة دعائك فى طلب الفتح وفى الآخرة بقبول شفاعتك وقيل غير ذلك والاول أولى واختلف أيضا فى معنى الهداية فى قوله تعالى (ويهديك صراطا) أى طريقا (مستقيما) أى واضحا جليا فقال البقاعى أى بهداية جميع قومك * ولما كانت هدايتهم من هدايته أضافها سبحانه اليه اعلاما له أنها هداية تليق بجنابه الشريف سرورا له وقال البيضاوى فى تبليغ الرسالة واقامة مراسم الرياسة وقيل يهدى بك وقيل يديمك على الصراط المستقيم وقيل جعل الفتح سبب الهداية الى الصراط المستقيم لانه سهل على المؤمنين الجهاد لعلمهم بفوائده العاجلة والآجلة وقيل المراد التعريف أى لتعرف انك على صراط مستقيم (وينصرك الله) أى على ملوك الامم نصرا يليق اسناده الى اسمه المحيط بسائر العظم (نصرا عزيزا) أى يغلب المنصور به كل من ناواه ولايغلبه شئ مع دوامه فلاذل بعده لان الامة التى تتصف به لايظهر عليها أحد والدين الذى قضاه لاجله لاينسخه شئ (فان قيل) ان الله تعالى وصف النصر بكونه عزيزا والعزيز من له النصر (أجيب) من وجهين أحدهما قال الزمخشرى انه يحتمل وجوها ثلاثة الاول معناه نصرا ذا عزة كقولك فى عيشة راضية أى ذات رضا ثانيها وصف النصر بما يوصف به المنصور اسنادا مجازيا يقال له كلام صادق كما يقال له متكلم صادق ثالثها المراد نصرا عزيزا صاحبه الوجه الثانى أن يقال انما يلزم ماذكره الزمخشرى اذا قلنا

العزة فى الغلبة والعزيز الغالب وأما اذا قلنا العزيز هو النفيس القليل النظير والمحتاج اليه القليل الوجود يقال عز الشئ فى سوق كذا أى قل وجوده مع انه محتاج اليه فالنصر كان محتاجا اليه ومثله لم يوجد وهو أخذ بيت الله تعالى من الكفار المقيمين فيه من غير عدد ولا عدد (هو) أى وحده (الذى أنزل) أى فى يوم الحديبية وغيره (السكينة) أى الثبات على الدين والطمأنينة (فى قلوب المؤمنين) أى الراسخين فى الايمان وهم أهل الحديبية بعد ان دهمهم فيها ما من شأنه ان يزعج النفوس ويزيغ القلوب من صد الكفار ورجوع الصحابة دون بلوغ مقصودهم فلم يرجع أحد منهم عن الايمان بعد ان هاج الناس وزلزلوا حتى عمر مع انه فاروق ومع وصفه فى الكتب السالفة بانه قرن من حديد فما الظن بغيره وكان عند الصديق من القدم الثابت والاصل الراسخ ما علم به انه لم يسابق ثم ثبتهم الله تعالى أجمعين وقال الرازى السكينة الثقة بوعد الله والصبر على حكم الله وقيل السكينة ههنا معنى يجمع فوزا وقوة وروحا يسكن اليه الخائف ويتسلى به الحزين وأثر هذه السكينة الوقار والخشوع وظهور الحزم فى الامور راه وقال أكثر المفسرين ان هذه السكينة غير السكينة المذكورة فى قوله تعالى يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ويحتمل أن تكون هى تلك لان المقصود منها على جميع الوجوه اليقين وثبات القلب (ليزدادوا) أى بتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال لهم انه لا بد أن تدخلوا مكة وتطوفوا بالبيت (ايمانا) عند التصديق بالغيب (مع ايمانهم) الثابت من قبل هذه الواقعة أو بشرائع الدين مع ايمانهم بالله واليوم الآخر وقال القشيرى بطلوع اقمار عين اليقين على نجوم علم اليقين ثم بطلوع شمس حق اليقين على بدر عين اليقين وقال ابن عباس بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم بشهادة ان لا اله الا الله فلما صدقوا زادهم الصلاة ثم الزكاة ثم الصيام ثم الحج ثم الجهاد حتى أكمل لهم دينهم فكلما أمروا بشئ فصدقوه ازدادوا تصديقا الى تصديقهم وقال الضحاك يقينا مع يقينهم وقيل ازدادوا ايمانا استدلاليا مع ايمانهم الفطرى (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى فى حق الكفار انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولم يقل مع كفرهم وقال فى حق المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم (أجيب) بأن كفر الكافر عنادى وليس فى الوجود كفر فطرى ولا فى الامكان كفر غير عنادى لينضم الى الكفر العنادى بل الكفر ليس الاعنادا وكذلك الكفر بالفروع لا يقال انضم الى الكفر بالاصول لان من ضرورة الكفر بالاصول الكفر بالفروع وليس من ضرورة الايمان بالاصول الايمان بالفروع بمعنى الطاعة والانقياد ولهذا قال تعالى ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم (ولله) أى الملك الاعظم الذى انزل السكينة فى قلوب المؤمنين (جنود السموات والارض) فهو قادر على اهلاك عدوه بجنوده بل بصيحة ولم يفعل بل أنزل السكينة على المؤمنين ليكون اهلاك أعدائه بأيديهم فيكون لهم الثواب وجنود السموات والارض الملائكة وقيل جنود السموات الملائكة وجنود الارض الجن والحيوانات وقيل الاسباب السماوية والارضية (وكان الله) أى الملك الاعظم أزلا وأبدا (عليما) أى بالذوات والمعانى (حكيما) فى اتقان ما يصنع وقوله تعالى (ليدخل) متعلق

بمحذوف أى امر بالجهاد ليدخل (المؤمنين والمؤمنات) الذين جبلتهم جبلة خير بجهاد بعضهم ودخول بعضهم فى الدين بجهاد المجاهدين ولوسلط على الكفار جنودهمن أول الامر فأهلكوهم أودمر عليهم بغير واسطة لفات دخول أكثرهم الجنة وهم من آمن منهم بعد صلح الحديبية (جنات) أى بساتين لايصل الى عقولكم من وصفها الاماتعرفونه بعقولكم وان كان الامر أعظم من ذلك (تجرى من تحتها الانهار) فأى موضع أردت أن تجرى منه نهرا قدرت على ذلك لان الماء قريب من وجه الارض مع صلابتها وحسنها (خالدين فيها) أى لاالى آخر (فان قيل) ما الحكمة فى انه تعالى ذكر فى بعض المواضع المؤمنين والمؤمنات وفى بعضها اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم كقوله تعالى قد أفلح المؤمنون وقوله تعالى وبشر المؤمنين (أجيب) بأنه فى المواضع التى فيها مايوهم اختصاص المؤمنين بالخير الموعود به مع مشاركة المؤمنات لهم ذكرهن الله تعالى صريحا وفى المواضع التى فيها مالايوهم ذلك اكتفى بدخولهم فى المؤمنين كقوله تعالى وبشر المؤمنين ولما كان ههنا قوله تعالى ليدخل المؤمنين متعلقا بالامر بالقتال والمرأة لاتقاتل فلاتدخل الجنة الموعود بها فصرح الله تعالى بذكرهن (ويكفر) أى يستر سترا بليغا (عنهم سيئاتهم) فلا يظهرها (فان قيل) تكفير السيئات قبل الادخال فكيف ذكره بعده (أجيب) بأن الواو لاتقتضى الترتيب وبأن تكفير السيئات والمغفرة من توابع كون المكلف من أهل الجنة فقدم الادخال فى الذكر بمعنى انه من أهل الجنة (وكان ذلك) أى الادخال والتكفير (عند الله) أى الملك الاعظم ذى الجلال والاكرام (فوزا عظيما) لانه منتهى مايطلب من جلب نفع ودفع ضر * (تنبيه) * عند متعلق بمحذوف على أنه حال من فوزا ولما كان من أعظم الفوز اقرار العين بالانتقام من العدو وكان العدو الكاتم أشد من الجاهر المراغم قال تعالى (ويعذب المنافقين) المخفين للكفر المظهرين للايمان أى فيزيل كل مالهم من العذوبة (والمنافقات) لما غاظهم من ازدياد الايمان (والمشركين والمشركات) أى المظهرين الكفر للمؤمنين وقدم المنافقين على المشركين فى كثير من المواضع لانهم كانوا أشد على المؤمنين من الكفار المجاهرين لان المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر ويخالط المنافق لظنه ايمانه وكان يفشى أسراره والى هذا اشار النبى صلى الله عليه وسلم بقوله أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك ولهذا قال الشاعر

احذر عدوك مرة * واحذر صديقك ألف مره
فلربما انقلب الصديق فكان أخبر بالمضره

وقوله تعالى (الظانين بالله) أى المحيط بصفات الكمال صفة للفريقين وأما قوله تعالى (ظن السوء) فقال أكثر المفسرين هو أن لاينصر محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ولايرجعهم الى مكة ظافرين (عليهم دائرة السوء) أى دائرة مايظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم لايتخطاهم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم السين والباقون بالفتح وهما لغتان كالكره والكره والضعف والضعف من ساء الا أن المفتوح غلب فى أن يضاف اليه مايراد ذمه من كل شئ

وأما السوء فجار مجرى الشر الذي هو نقيض الخير (وغضب الله) أي الملك الأعظم بما له من صفات الجلال والجمال فاستعلى غضبه (عليهم) وهو أنه تعالى يعاملهم معاملة الغضبان بما لا طاقة لهم به (ولعنهم) أي طردهم طردا نزلوا به أسفل السافلين فبعدوا به عن كل خير (وأعد) أي هيأ (لهم) الآن (جهنم) تلقاهم بالعبوسة والتغيظ والزفير والتجهم كما كانوا يتجهمون عباد الله مع ما فيها من العذاب والحر والبرد والاحراق وغير ذلك من أنواع المشاق (وساءت) أي جهنم (مصيرا) أي مرجعا وقوله تعالى (ولله) أي الملك الاعظم (جنود السموات والارض) تقدم تفسيره وفائدة الاعادة التأكيد وجنود السموات والارض منهم من هو للرحمة ومنهم من هو للعذاب وقدم ذكر جنود السموات والارض قبل ادخال المؤمنين الجنة ليكون مع المؤمنين ملائكة الرحمة فتبشرهم على الصراط وعند الميزان فاذا دخلوا الجنة أفضوا الى جوار الله تعالى ورحمته والقرب منه فلا حاجة لهم بعد ذلك الى شيء وأخر ذكر جنود السموات والارض بعد ذكر تعذيب الكفار والمنافقين ليكون معهم جنود السخط فلا يفارقونهم أبدا كما قال تعالى عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم (فان قيل) قال الله تعالى وكان الله عليما حكيما وقال هنا (وكان الله) أي الملك الذي لا أمر لاحد معه أزلا وأبدا (عزيزا) أي يغلب ولا يغلب (حكيما) أي يضع الشيء في أحكم مواضعه فلا يستطاع نقض شيء مما ينسب اليه (أجيب) بأنه لما كان في جنود السموات والارض من هو للرحمة ومن هو للعذاب وعلم الله تعالى ضعف المؤمنين ناسب أن تكون خاتمة الآية الثانية وكان الله عزيزا حكيما (انا) أي بما لنا من العز والحكمة (أرسلناك) أي بما لنا من العظمة الى الخلق كافة (شاهدا) على أفعالهم من كفر وايمان وطاعة وعصيان من كان بحضرتك فبنفسك ومن كان بعد موتك أو غاب عنك فبكتابك مع ما أيدناك به من الحفظة من الملائكة الكرام (ومبشرا) أي لمن أطاع بأنواع البشائر (ونذيرا) أي مخوفا لمن خالفك وعصى أمرك بالنار ثم بين تعالى فائدة الارسال بقوله سبحانه (لتؤمنوا بالله) أي لا يسوغ لاحد من خلقه والكل خلقه التوجه الى غيره (ورسوله) أي الذي أرسله من له كل شيء ملكا وخلقا الى جميع خلقه (ويعزروه) أي يعينوه وينصروه والتعزير نصر مع تعظيم (ويوقروه) أي يعظموه والتوقير التعظيم والتبجيل (ويسبحوه) من التسبيح الذي هو التنزيه عن جميع النقائص أو من السبحة وهي الصلاة قال الزمخشري والضمائر لله عز وجل والمراد بتعزير الله تعزير دينه ورسوله ومن فرق الضمائر فقد أبعد وقال غيره الكنايات في قوله ويعزروه ويوقروه راجعة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندها تم الكلام فالوقف على ويوقروه وقف تام ثم يبتدئ بقوله تعالى ويسبحوه (بكرة وأصيلا) أي غدوة وعشيا أي دائما وعن ابن عباس صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر على أن الكناية في ويسبحوه راجعة الى الله عز وجل وقال البقاعي الافعال الثلاثة يحتمل أن يراد بها الله تعالى لان من سعى في قمع الكفار فقد فعل فعل المعزز الموقر فيكون اما عائدا على المذكور واما أن يكون جعل الاسمين واحدا اشارة الى اتحاد المسميين

في الامر فلما اتحد أمرهما وحد الضمير اشارة الى ذلك اه فعنده أنه يصح رجوع الثلاثة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه فسر ويسبحوه بقوله ينزهوه عن كل وخيمة باخلاف الوعد بدخول مكة والطواف بالبيت الحرام ونحو ذلك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء في الاربعة على الغيبة رجوعا الى قوله تعالى ليدخل المؤمنين والمؤمنات والباقون بالتاء على الخطاب ولما بين تعالى أنه مرسل ذكر ان من بايع رسوله فقد بايعه فقال تعالى (ان الذين يبايعونك) يا أشرف الرسل بالحديبية على أن لا يفروا (انما يبايعون الله) أى الملك الاعظم لان عملك كله من قول أو فعل له تعالى وما ينطق عن الهوى وسميت مبايعة لانهم باعوا أنفسهم فيها من الله تعالى بالجنة قال الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة الآية وروى يزيد بن أبي عبيد قال قلت لسلمة بن الاكوع على أى شئ بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية قال على الموت وعن معقل بن يسار قال لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي صلى الله عليه وسلم يبايع الناس وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه ونحن أربعة عشر مائة قال لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفر قال أبو عيسى معنى الحديثين صحيح بايعه جماعة على الموت أى لا نزال نقاتل بين يديك ما لم نقتل وبايعه آخرون وقالوا لا نفر وقوله تعالى (يد الله) أى المتردى بالكبرياء (فوق أيديهم) أى في المبايعة يحتمل وجوها وذلك أن اليد في الموضعين اما أن تكون بمعنى واحد واما أن تكون بمعنيين فان كانت بمعنى واحد ففيه وجهان أحدهما قال الكلبي نعمة الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة كما قال تعالى بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ثانيهما قال ابن عباس ومجاهد يد الله بالوفاء بما وعدهم من النصر والخير أقوى وأعلى من نصرتهم اياه يقال اليد لفلان أى الغلبة والقوة وان كانت بمعنيين ففي حق الله تعالى بمعنى الحفظ وفي حق المبايعين بمعنى الجارحة قال السدي كانوا يأخذون بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبايعونه ويد الله تعالى فوق أيديهم في المبايعة وذلك أن المتبايعين اذا مد احدهما يده الى الآخر في البيع وبينهما ثالث يضع يده على أيديهما ويحفظ أيديهما الى أن يتم العقد ولا يترك أحدهما يترك يد الآخر لكي يلزم العقد ولا يتفاسخان فصار وضع اليد فوق الايدى سببا لحفظ البيعة فقال تعالى يد الله فوق أيديهم يحفظهم على البيعة كما يحفظ المتوسط أيدى المتبايعين قال البقاعي فلعنة الله على من حمله على الظاهر من أهل العناد بدعة الاتحاد وعلى من تبعهم على ذلك من الذين شاقوا الله ورسوله عليه الصلاة والسلام وسائر الائمة الاعلام ورضوا لانفسهم بأن يكونوا أتباع فرعون اللعين وناهيك به من ضلال مبين اه وقدمر ان التأويل في الآيات المتشابهات مذهب الخلف ومذهب السلف السكوت عن التأويل وامرارا لصفات على ما جاءت وتفسيرها قراءتها والايمان بها من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل (فمن نكث) اى نقض البيعة في وقت من الاوقات فجعلها كالكساء والحبل البالي الذي ينقض (فانما ينكث) أى يرجع وبال نقضه (على نفسه) أى فلا يضر الا هي (ومن اوفى) أى فعل الاتمام والاكثار والاطالة (بما عاهد) وقدم الظرف في قوله

(عليه

(عليه الله) أى الملك المحيط بكل شئ قدرة وعلما من هذه المبايعات وغيرها اهتماما به وقرأ حفص بضم الهاء قبل الاسم الجليل والباقون بكسر الهاء والترقيق (فسيؤتيه) بوعد مؤكد لاخلف فيه (أجرا عظيما) لاتسع عقولكم شرح وصفه قال ابن عادل والمراد به الجنة وقرأ أبو عمرو والكوفيون بالياء التحتية والباقون بالنون * ولما ذكر تعالى أهل بيعة الرضوان وأضافهم الى حضرة الرحمن ذكر من غاب عن ذلك الجناب وأبطأ عن حضرة تلك العمرة بقوله تعالى (سيقول) أى بوعد لاخلف فيه (لك) أى لانهم يعلمون شدة رحمتك ورفقك وشفقتك على عباد الله فهم يطمعون فى قبولك من فاسد عذرهم مالا يطمعون فيه من غيرك من خلص المؤمنين (المخلفون) أى الذين خلفهم الله تعالى عنك فلم يرضهم لصحبتك فى هذه العمرة فجعلهم كالشئ التافه الذى يخلفه الانسان لانه لافائدة فيه فلا يعبأ به وقال تعالى (من الاعراب) ليخرج من تخلف بالجسد من خلص الانصار وغيرهم ممن كان حاضرا معه صلى الله عليه وسلم بالقلب قال ابن عادل وابن عباس ومجاهد يعنى بالاعراب أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد المسير الى مكة عام الحديبية معتمرا استنفر من حول المدينة من الاعراب والبوادى ليخرجوا معه حذرا من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأحرم بالعمرة وساق معه الهدى ليعلم الناس أنه لايريد حربا فتثاقل كثير من الاعراب وتخلفوا واعتلوا بالشغل فأنزل الله تعالى فيهم سيقول لك المخلفون أى الذين خلفهم الله تعالى من الاعراب عن صحبتك اذا رجعت اليهم من عمرتك وعاتبتهم على التخلف (شغلتنا) أى عن اجابتك فى هذه العمرة (أموالنا وأهلونا) أى النساء والذرارى فانا لو تركناهم اضاعوا لانه لم يكن لنا من يقوم بهم وأنت قد نهيت عن ضياع المال والتفريط فى العيال ثم سببوا عن هذا القول المراد به السوء قولهم (فاستغفر) أى اطلب المغفرة (لنا) من الله تعالى ان كنا أخطأنا وقصرنا فكذبهم الله تعالى فى اعتذارهم بقوله سبحانه وتعالى (يقولون بألسنتهم) أى فى الشغل والاستغفار وأكد ما أفهمه ذكر اللسان من أنه قول ظاهرى نفيا للكلام الحقيقى الذى هو النفسى بكل اعتبار بقوله تعالى (ماليس فى قلوبهم) لانهم لم يكن لهم شغل ولا كانت لهم نية فى سؤال الاستغفار فانهم لايبالون استغفر لهم الرسول أم لا (قل) يا أشرف الرسل لهؤلاء الاغبياء واعظا لهم مسببا عن مخادعتهم لمن لايخفى عليه خافية اشارة الى أن العاقل يقبح عليه أن يقدم على ماهو بحيث تخشى عواقبه (فمن يملك لكم) أى أيها المخادعون (من الله) أى الملك الذى لاأمر لاحد معه لانه لا كفء له (شيأ) يمنعكم (ان أراد بكم ضرا) أى نوعا من أنواع الضر عظيما أو حقيرا فأهلك الاموال والاهلين وأنتم محتاطون فى حفظها فلم ينفعها حضوركم وأهلككم أنتم وقرأ حمزة والكسائى بضم الضاد والباقون بفتحها (أو أراد بكم نفعا) بحفظهما به فى غيبتكم فلا يضرهم بعدكم عنهم ويحفظكم فى أنفسكم (بل كان الله) أى المحيط ازلا وأبدا بكل شئ قدرة وعلما (بما تعملون) أى أيها الجهلة (خبيرا) يعلم بواطن أموركم هذه وغيرها كما يعلم ظواهرها (بل ظننتم) أى فأنتم واقفون مع الظنون الظاهرة ليس

لكم نفوذ الى البواطن وقرأ الكسائى بادغام اللام فى الظاء والباقون بالاظهار وأشار الى تأكد ظنهم على زعمهم بقوله تعالى (أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا) أى ظننتم ان العدو يستأصلهم ولا يرجعون لما فى قلوبكم من عظمة المشركين وحقارة المؤمنين فحملكم ذلك على أن قلتم ماهم فى قريش الا أكلة رأس (فان قيل) ما الفرق بين حرفى الاضراب (أجيب) بأن الاضراب الاول اضراب معناه رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوه واثبات الحسد والثانى اضراب عن وصفهم باضافة الحسد الى المؤمنين أى وصفهم بما هو أعم منه وهو الجهل وقلة الفقه (وزين ذلك) أى الامر القبيح الذى هو خراب الدنيا (فى قلوبكم) حتى قلتموه (وظننتم) أى بذلك وغيره مما يترتب عليه من اظهار الكفر وما يتفرع عنه (ظن السوء) أى الذى لم يدع شيأ مما يكره غاية الكراهة الا أحاط به وقوله تعالى (وكنتم قوما بورا) جمع بائر أى هالكين عند الله تعالى بهذا الظن وهذا بالنظر الى الجمع من حيث هو جمع لا بالنسبة الى كل فرد فانه قد أخلص منهم بعد ذلك كثير وثبتوا ولم يرتدوا (ومن لم يؤمن) أى منكم ومن غيركم (بالله) أى الذى لا موجود على الحقيقة سواه (ورسوله) أى الذى أرسله لاظهار دينه (فانا) على مالنا من العظمة (اعتدنا) أى له هكذا كان الاصل ولكنه قال تعالى معللا للحكم بالوصف (للكافرين) ايذانا بأنه لم يجمع الايمان بهما فهو كافر وأعدله (سعيرا) أى نارا شديدة (ولله) أى الملك الاعظم وحده (ملك السموات والارض) أى من الجنود وغيرها يدبر ذلك كله كيف يشاء (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) أى لا اعتراض لاحد عليه لانه لا يجب عليه شئ ولا يكافئه أحد وليس هو كالملوك الذين لا يتمكنون من مثل ذلك الكثرة الاكفاء المعارضين لهم فى الجملة وعلم من هذا أن منهم من يرتد فيعذبه ومنهم من يثبت على الاسلام فيغفر له لانه لا يعذب بغير ذنب وان كان له أن يفعل ذلك لانه لا يسئل عما يفعل وملكه تام فتصرفه فيه عدل كيف كان (وكان الله) أى المحيط بصفات الكمال أزلا وأبدا لم يتجدد له شئ لم يكن (غفورا) أى لذنوب المسيئين (رحيما) أى مكرما بعد الستر بما لا تسعه العقول وقدرته على الانعام كقدرته على الانتقام (سيقول) أى بوعد لا خلف فيه (المخلفون) أى الذين تخلفوا عن الحديبية (اذا انطلقتم) أى سرتم أيها المؤمنون (الى مغانم لتأخذوها) أى مغانم خيبر وذلك ان المؤمنين لما انصرفوا من الحديبية على صلح من غير قتال ولم يصيبوا من المغانم شيأ وعدهم الله تعالى فتح خيبر وجعل غنائمها لمن شهد الحديبية خاصة عوضا عن غنائم أهل مكة حيث انصرفوا عنهم ولم يصيبوا منهم شيأ (ذرونا) أى على أى حالة شئتم من الاحوال الدنيئة (نتبعكم) أى الى خيبر لنشهد معكم قتال أهلها وفى هذا بيان كذب المخلفين عن الحديبية حيث قالوا شغلتنا أموالنا وأهلونا اذ لم يكن لهم هذا الطمع فى الغنيمة وهنا قالوا ذرونا نتبعكم حيث كان لهم طمع فى الغنيمة (يريدون) أى بذهابهم معكم (أن يبدلوا كلام الله) أى يريدون أن يغيروا مواعيد الملك الاعظم لاهل الحديبية بغنيمة خيبر خاصة وهذا قول جمهور المفسرين وقال مقاتل يعنى أمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم حيث أمره أن لا يسير معه منهم أحد

الى

الى خيبر وقال ابن زيد هو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تخلف القوم أطلعه الله تعالى على ظنهم وأظهر له نفاقهم وقال للنبي صلى الله عليه وسلم فاذا استأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا وقرأ حمزة والكسائي بكسر اللام بعد الكاف ولا ألف بعد اللام والباقون بفتح اللام وألف بعدها (قل) يا أشرف الخلق لهؤلاء المبعدين اذا بلغك كلامهم أنت بنفسك فان غيرك لا يقوم مقامك في هذا الامر المهم قولا مؤكدا (لن تتبعونا) أي وان اجتهدتم في ذلك وساقه مساقة النفي وان كان المراد به النهي مع كونه آكد ليكون علما من أعلام النبوة وهو أزجر وأدل على استهانتهم (كذلكم) أي مثل هذا القول البديع الشأن العالي الرتبة (قال الله) أي الذي لا يكون الا ما يريد وليس هو كالملوك الذين لا قدرة لهم على الغفران لمن شاؤا والعقاب لمن شاؤا (من قبل) أي من قبل مرجعنا اليكم ان غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب * ولما كانوا منافقين لا يعتقدون شيأ من هذه الاقوال بل يظنون انها حيل على التوصل الى المرادات الدنيوية تسبب عن قوله لهم ذلك قوله تعالى تنبيها على جلافتهم وفساد ظنونهم (فسيقولون) ليس الامر كما ذكر مما ادعى أنه قول الله تعالى (بل) انما قلتم ذلك لانكم (تحسدوننا) فلا تريدون أن يصل الينا من مال الغنائم شئ وقرأ هشام وحمزة والكسائي بادغام اللام في التاء والباقون بالاظهار (بل كانوا) أي جبلة وطبعا (لا يفقهون) أي لا يفهمون فهم الحاذق الماهر (الا قليلا) أي في أمر دنياهم ومن ذلك اقرارهم باللسان لاجلها وأما أمور الآخرة فلا يفهمون منها شيأ (قل) أي يا أشرف الرسل (للمخلفين) وزاد في ذمهم بنسبتهم الى الجلافة بقوله تعالى (من الاعراب) اى أهل غلظ الاكباد (ستدعون) بوعد لا خلف فيه (الى قوم أولي) أي أصحاب (بأس شديد) أي شدة في الحرب وشجاعة قال ابن عباس ومجاهد هم أهل فارس وقال كعب الروم وقال الحسن فارس والروم وقال سعيد بن جبير هوازن وثقيف وقال قتادة هوازن وغطفان قوم حنين وقال الزهري ومقاتل وجماعة هم بنو حنيفة أصحاب اليمامة أصحاب مسيلمة الكذاب وقال رافع بن خديج كنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر الى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم وقال أبو هريرة لم يأت تأويل هذه الآية بعد قال ابن الخازن وأقوى هذه الاقوال قول من قال أنهم هوازن وثقيف لان الداعي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده قول من قال انهم بنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب وقوله تعالى (تقاتلونهم أو يسلمون) فيه اشارة الى وقوع أحد الامرين اما المقاتلة منكم واما الاسلام منهم فان لم يسلموا كان القتال لا غير وان أسلموا لم يكن قتال لان الغرض ليس الا اعلاء كلمة الله تعالى (فان تطيعوا) أي توقعوا الطاعة للداعي الى ذلك (يؤتكم الله) أي الذي له الاحاطة (أجرا حسنا) دنيا وهو الغنيمة وأخرى وهي الجنة (وان تتولوا) أي تعرضوا عن الجهاد (كما توليتم من قبل) أي عام الحديبية (يعذبكم) أي يحالطكم بعقوبة تزيل العذوبة في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما (عذابا أليما) لاجل تكرر ذلك منكم فلما أنزلت هذه الآية قال أهل الزمانة كيف بنا يا رسول الله فأنزل الله عز وجل

(ليس على الاعمى) أى فى تخلفه عن الدعاء الى الخروج مع النبى صلى الله عليه وسلم أو مع غيره من أئمة الهدى (حرج) أى ميل بثقل الاثم لانه لايمكنه الاقدام على العدو والطلب ولايمكنه الاحتراز منه ولا الهرب (ولا على الاعرج) وان كان نقصه أدنى من نقص الاعمى (حرج) وفى معنى الاعرج الزمن المقعد والاقطع (ولا على المريض) أى بأى مرض كان يمنعه (حرج) وفى معناه صاحب السعال الشديد والطحال الكبير والذين لايقدرون على الكر والفر فهذه أعذار مانعة من الجهاد ظاهرة ومن وراء ذلك أعذار أخر دون ماذكر كتمريض المريض الذى ليس له من يقوم مقامه عليه * (تنبيه) * جعل تعالى كل جملة مستقلة تأكيدا لهذا الحكم وقدم الاعمى على الاعرج لان عذر الاعمى مستمر لايمكن الانتفاع به فى حرس ولا غيره بخلاف الاعرج وقدم الاعرج على المريض لان عذره أشد من عذر المريض لامكان زوال المرض عن قرب (ومن يطع الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال المفيض من آثار صفاته على من يشاء ولو كان ضعيفا المانع منها من يشاء وان كان قويا (ورسوله) من المعذورين وغيرهم فيما ندبا اليه بأى طاعة كانت (يدخله) أى الله الملك الاعظم جزاء له (جنات تجرى من تحتها الانهار) أى من أى موضع أردت أجريت نهرا (ومن يتول) أى يعرض عن الطاعة ويستمر على الكفر والنفاق (يعذبه) أى على توليه فى الدارين أو احداهما (عذابا أليما) أى مؤلما وقرأ نافع وابن عامر ندخله ونعذبه بالنون فيهما والباقون بالياء التحتية ولما بين تعالى حال المخلفين بعد قوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله عاد الى حال بيان المبايعين بقوله تعالى (لقد رضى الله) أى الذى له الجلال والكمال (عن المؤمنين) أى الراسخين فى الايمان أى فعل بهم فعل الراضى بما جعل لهم من الفتح وما قدر لهم من الثواب وأفهم ذلك أنه لم يرض عن الكافرين فخذلهم فى الدنيا مع ما أعد لهم فى الآخرة فالآية تقرير لما ذكر من جزاء الفريقين بأمور مشاهدة وقوله تعالى (اذ) أى حين (يبايعونك) منصوب برضى واللام فى قوله تعالى (تحت الشجرة) للعهد الذهنى وكانت شجرة فى الموضع الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم نازلا به فى الحديبية ولاجل هذا الرضا سميت بيعة الرضوان وقصتها أن النبى عليه الصلاة والسلام حين نزل الحديبية بعث جواس بن أمية الخزاعى رسولا الى أهل مكة فهموا به فمنعه الاحابيش واحدها حبوش وهو الفوج من قبائل شتى فلما رجع دعا عمر ليبعثه فقال انى أخافهم على نفسى لما أعرف من عداوتى اياهم وما بمكة عدوى يمنعنى ولكنى أدلك على رجل هو أعز بها منى وأحب اليهم عثمان بن عفان فبعثه فخبرهم أنه لم يأت لحرب وانما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته فوقروه وقالوا ان شئت أن تطوف بالبيت فافعل فقال ما أفعل قبل أن يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتبس عندهم فأرجف انهم قتلوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لانبرح حتى تناجز القوم ودعا الناس الى البيعة فبايعوه تحت الشجرة روى البغوى من طريق الثعلبى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لايدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة وقال سعيد بن المسيب حدثنى أبى أنه كان فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت

الشجرة قال فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها وروى أن عمر مر بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة فقال أين كانت فجعل بعضهم يقول ههنا وبعضهم يقول ههنا فلما كثر اختلافهم قال سيروا قد ذهبت الشجرة وروى جابر بن عبد الله قال قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية أنتم خير أهل الارض وكنا ألفا وأربعمائة ولو كنت اليوم مبصرا لأريتكم مكان الشجرة وقيل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا فى أصل الشجرة وعلى ظهره غصن من أغصانها قال عبد الله بن المغفل وكنت قائما على رأسه وبيدى غصن من الشجرة اذب عنه فرفعت الغصن عن ظهره وبايعوه على الموت دونه على أن لا يفروا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم اليوم خير أهل الارض وكان عدد المبايعين ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين وروى سالم عن جابر قال كنا خمس عشرة مائة وقال عبد الله بن أبى أوفى كنا أصحاب الشجرة ألفا وثلثمائة ولما دل على اخلاصهم بما وصفهم سبب عنه قوله تعالى (فعلم) أى بماله من الاحاطة (مافى قلوبهم) أى من الصدق والوفاء فيما بايعوا عليه (فأنزل السكينة) أى الطمأنينة والامن بسبب الصلح (عليهم) أو بالتشجيع وسكون النفس فى كل حالة ترضى الله ورسوله فلم يخافوا عاقبة القتال لما ندبوا اليه وان كانوا فى كثرة الكفار كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الاسود (وأثابهم) أى أعطاهم جزاء لهم على ما وهبوه من الطاعة (فتحا قريبا) هو فتح خيبر عقب انصرافهم وعن الحسن فتح هجر ونبه تعالى بصيغة منتهى الجموع فى قوله تعالى (ومغانم) على أنها عظيمة ثم صرح بذلك بقوله تعالى (كثيرة تأخذونها) وهى مغانم خيبر وكانت أرضا ذات عقار وأموال فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم (وكان الله) أى الذى لا كفء له (عزيزا) يغلب ولا يغلب (حكيما) أى يقضى ما يريد فلا ينقض فحكم لكم بالغنائم ولاعدائكم بالهلاك على أيديكم لينيبكم عليه (وعدكم الله) أى الملك الاعظم (مغانم) وحقق معناها بقوله تعالى (كثيرة تأخذونها) أى فيما يأتى من بلدان شتى لا تدخل تحت حصر وابدى المغانم كل الثواب بل الجنة والنظر الى وجهه الكريم قدامهم وانما هى كعاجلة عجل بها ولهذا قال تعالى (فعجل لكم) أى من الغنائم (هذه) أى مغانم خيبر (وكف أيدى الناس عنكم) وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قصد خيبر وحاصر أهلها همت قبائل من أسد وغطفان أن يغيروا على عيال المسلمين وذراريهم بالمدينة فكف الله تعالى أيديهم بالقاء الرعب فى قلوبهم فنكصوا وقيل أيدى أهل مكة بالصلح وقوله تعالى (ولتكون) أى هذه المعجلة عطف على مقدر أى لتشكروه ولتكون (آية) أى علامة فى غاية الوضوح (للمؤمنين) أى أنهم من الله تعالى بمكان أو صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى وعدهم فتح خيبر فى حين رجوعه من الحديبية أو وعدهم الغنم أو عنوانا لفتح مكة (ويهديكم صراطا) أى طريقا (مستقيما) أى يثبتكم على الاسلام ويزيدكم بصيرة ويقينا بصلح الحديبية وفتح خيبر وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية أقام بالمدينة بقية ذى الحجة وبعض المحرم ثم خرج فى سنة سبع الى خيبر روى أنس بن مالك ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا غزا بنا قوما لم يكن

يغز وبنا حتى يصبح و ينظر فان سمع أذانا كف عنهم وان لم يسمع أذانا أغار عليهم قال فخرجنا الى خيبر فانتهينا اليهم ليلا فلما أصبح ولم يسمع أذانا ركب وركبنا وركبت خلف أبي طلحة وان قدمى لتمس قدم النبي صلى الله عليه وسلم قال فخرجوا الينا بمكاتلهم ومساحيهم فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا والله محمد والخميس أى الجيش فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله أكبر خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين وروى اياس بن سلمة قال حدثنى أبى قال خرجنا الى خيبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فجعل عمى عامر يرتجز بالقوم ثم قال

تالله لولا الله ما اهتدينا * ولا تصدقنا ولا صلينا

ونحن عن فضلك ما استغنينا * فثبت الاقدام ان لاقينا

* وأنزلن سكينة علينا *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا قال أنا عامر فقال غفر لك ربك وما استغفر رسول الله صلى الله عليه وسلم لاحد الا استشهد قال فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له يا نبى الله لولا متعتنا بعامر قال فلما قدمنا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه ويقول

قد علمت خيبر انى مرحب * شاكى السلاح بطل مجرب

* اذا الحروب أقبلت تلتهب *

قال فبرز له عامر بن عثمان فقال

قد علمت خيبر أنى عامر * شاكى السلاح بطل مقامر

فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب فى ترس عامر فرجع سيف عامر على نفسه فقطع أكحله فكانت فيها نفسه قال فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى فقلت يا رسول الله بطل عمل عامر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال ذلك قلت ناس من أصحابك قال من قال ذلك بل له أجره مرتين ثم أرسلنى الى على وهو أرمد فقال لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله فأتيت عليا فجئت به أقوده وهو أرمد حتى أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصق فى عينيه فبرئ وأعطاه الراية وخرج مرحب وقال

أنا الذى سمتنى أمى مرحب * شاكى السلاح بطل مجرب

فقال على كرم الله تعالى وجهه

أنا الذى سمتنى أمى حيدره * كليث غابات كريه المنظره

* أكيلكم بالسيف كيل السندره *

قال فضرب رأس مرحب فقتله ثم كان الفتح على يديه ومعنى * أكيلكم بالسيف كيل السندره أى أقتلكم قتلا واسعا ذريعا والسندرة مكيال واسع قيل يحتمل أن يكون اتخذ من السندرة وهى شجرة يعمل منها النبل والقسى والسندرة أيضا العجلة والنون زائدة قال ابن الاثير وذكرها الجوهرى فى هذا الباب ولم ينبه على زيادتها وروى فتح خيبر من طرق أخر فى بعضها

زيادات وفى بعضها نقصان عن بعض وقوله تعالى (وأخرى) صفة مغانم مقدرا مبتدأ وقيل هى مبتدأ والخبر (لم تقدروا عليها) وهى كما قال ابن عباس فارس والروم وما كانت العرب تقدر تقاتل فارس والروم بل كانوا خولا لهم حتى قدروا عليهما بالاسلام وقال الضحاك هى خيبر وعدها الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم قبل أن يصيبها ولم يكونوا يرجونها وقال قتادة هى مكة وقال عكرمة حنين وقال البقاعى هى والله أعلم غنائم هوازن التى لم يحصل قبلها ما يقاربها (قد أحاط الله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (بها) أى علم انها ستكون لكم (وكان الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال أزلا وأبدا (على كل شئ) منها ومن غيرها (قديرا) أى بالغ القدرة لانه بكل شئ عليم (ولو قاتلكم الذين كفروا) وهم أهل مكة ومن وافقهم وكانوا قد اجتمعوا وجمعوا الاحابيش ومن أطاعهم وقدموا خالد بن الوليد طليعة لهم الى كراع الغميم ولم يكن أسلم بعد (لولوا) أى بغاية جهدهم (الادبار) منهزمين (ثم) أى بعد طول الزمان وكثرة الاعوان (لا يجدون) أى فى وقت من الاوقات (وليا) أى من يفعل معهم فعل القريب من الشفقة (ولا نصيرا) ينصرهم ولما كانت هذه عادة جارية قديمة مع أولياء الله تعالى حيثما كانوا من الرسل وأتباعهم وان جندنا لهم الغالبون قال تعالى (سنة الله) أى سن المحيط بكل شئ علما غلبة أنبيائه وأتباعهم (التى قد خلت من قبل) أى فيمن مضى من الامم كما قال تعالى لاغلبن أنا ورسلى (ولن تجد) أيها السامع (لسنة الله) أى الذى لا يخلف قوله لانه محيط بجميع صفات الكمال (تبديلا) أى تغييرا من مغير ما يغيرها بما يكون بدلها ثم عطف على ما تقديره هو الذى سن هذه السنة العامة قوله تعالى (وهو الذى كف) أى وحده (أيديهم) أى الذين كفروا من أهل مكة وغيرهم فان الكف مشروع لكل أحد (عنكم وأيديكم) أيها المؤمنون (عنهم ببطن مكة) أى بالحديبية وقيل التنعيم وقيل وادى مكة وقيل داخل مكة (من بعد ان أظفركم) أى أظهركم (عليهم) وهذا تبيين لما تقدم من قوله تعالى ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار بتقدير انه كما كف أيديهم عنكم بالفرار وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم وتركهم روى ثابت عن أنس بن مالك ان ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأخذهم سلمان فاستحياهم فنزلت هذه الآية وقال عبد الله بن مغفل المزنى كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم بالحديبية فى أصل الشجرة التى قال الله فى القرآن وعلى ظهره غصن من أغصان تلك الشجرة فرفعته عن ظهره وعلى بن أبى طالب بين يديه يكتب كتاب الصلح فخرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا فدعا عليهم نبى الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الله أبصارهم فقمنا اليهم فأخذناهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم جئتم فى عهد أوهل جعل لكم أحد أمانا قالوا اللهم لا فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى هذه الآية وعن ابن عباس أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت وقيل ان ذلك كان يوم فتح مكة وبه استشهد أبو حنيفة على ان مكة فتحت عنوة لا صلحا (وكان الله) أى المحيط بالجلال والاكرام أزلا وأبدا وقرأ (بما يعملون) أبو عمرو بالياء

التحتية أى الكفار والباقون بالتاء الفوقية أى أنتم (بصيرا) أى محيط العلم ببواطن ذلك كما هو محيط بظواهره ولما كان مامضى من وصف الكفار يشمل كفار مكة وغيرهم عينهم بسبب كفهم النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن البيت الحرام بقوله تعالى (هم) أى أهل مكة ومن لاقهم (الذين كفروا) أى أوغلوا فى هذا الوصف ببواطنهم وظواهرهم (وصدوكم) زيادة على كفرهم فى عمرة الحديبية (عن المسجد الحرام) أى منعوكم الوصول الى مكة ونفس المسجد والكعبة للاحلال مما أنتم فيه من شعائر الاحرام بالعمرة روى الزهرى عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم كل منهما يصدق حديث صاحبه قالا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة عام الحديبية فى بضع عشرة مائة من أصحابه يريد زيارة البيت لايريد قتالا وساق معه سبعين بدنة والناس سبعمائة رجل وكانت كل بدنة عن عشرة نفر فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره وأحرم منها بعمرة وبعث عينا له من خزاعة يخبره عن قريش فسار النبى صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان بغدير الاشطاط قريبا من عسفان أتاه عتبة الخزاعى وقال ان قريشا قد جمعوا لك جموعا وقد جمعوا لك الاحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت الحرام فقال النبى صلى الله عليه وسلم أشيروا على أيها الناس أترون انى أميل على ذرارى هؤلاء الذين عاونوهم فنصيبهم فان قعدوا قعدوا موتورين وان نجوا تكن عنقا قطعها الله أو ترون نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه فقال أبو بكر يارسول الله انما جئت عامدا لهذا البيت لانريد قتال أحد ولا حرب فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه قال امضوا على اسم الله فنفروا وقال النبى صلى الله عليه وسلم ان خالد بن الوليد بالغميم فى خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين فوالله ماشعر بهم خالد حتى اذا هم بقترة الجيش فانطلق يركض نذيرا لقريش وسار النبى صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها بركت به راحلته فقال الناس حل حل فألحت فقالوا خلأت أى حرنت القصواء فقال النبى صلى الله عليه وسلم ماخلأت القصواء وماذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل ثم قال والذى نفسى بيده لاتدعونى قريش اليوم الى خطة يعظمون فيها حرمات الله وفيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها ثم زجرها فوثبت قال فعدل حتى نزل باقصى الحديبية على ثمد قليل من الماء يتبرضه الناس تبرضا فلم تلبث الناس ان نزحوه وشكا الناس الى النبى صلى الله عليه وسلم العطش فنزع سهما من كنانته وأعطاه رجلا من أصحابه يقال له ناجية بن عمير وهو سائق بدن النبى صلى الله عليه وسلم فنزل فى البئر فغرزه فى جوفه فوالله مازال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه فبينماهم كذلك اذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة فقال انى تركت كعب ابن لؤى وعامر بن لؤى نزلا مع جمع أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت الحرام فقال النبى صلى الله عليه وسلم انا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين وان قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فان شاؤا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس فان أظهر فان شاؤا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا والا فقد جموا وان أبوا

فوالذى نفسى بيده لاقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ولينفذن الله أمره فقال بديل
سأبلغهم ماتقول فانطلق حتى أتى قريشا فقال انا قد جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولا
فان شئتم ان نعرضه عليكم فعلنا فقال سفهاؤهم لاحاجة لنا أن تخبرنا عنه بشئ وقال ذوالرأى
منهم هات ماسمعته يقول قال سمعته يقول كذا وكذا فحدثهم بما قال النبى صلى الله عليه
وسلم فقام عروة بن مسعود الثقفى فقال أى قوم ألستم بالوالد قالوا بلى قال أولست بالولد قالوا بلى
فقال فهل تتهمونى قالوا لا قال ألستم تعلمون انى استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا على جئتكم
بأهلى وولدى ومن أطاعنى قالوا بلى قال فان هذا الرجل قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها
ودعونى آتيه قالوا ائته فأتاه فجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم
نحوا من قوله لبديل فقال عروة عند ذلك اى محمد أرأيت ان استأصلت قومك فهل سمعت أحدا
من العرب اجتاح أصله قبلك وان تكن الاخرى فوالله انى أرى وجوها وأشوابا من الناس
خليقا أن يفروا ويدعوك فقال له أبو بكر الصديق امصص بظر اللات والعزى أنحن نفر عنه
وندعه فقال من ذا قالوا أبو بكر فقال أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم أجزك
بها لاجبتك قال وجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم فكلما كلمه أخذ بلحيته والمغيرة قائم على
رأس النبى صلى الله عليه وسلم ومعه السيف وعليه المغفر فكلما أهوى عروة بيده الى لحية النبى
صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف وقال أخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه
وسلم فرفع عروة رأسه وقال من هذا قالوا المغيرة بن شعبة فقال أى غدر ألست أسعى فى غدرتك
وكان المغيرة صحب قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبى صلى الله عليه
وسلم أما الاسلام فهدم ماقبله وأما المال فلست منه فى شئ ثم ان عروة جعل يرمق أصحاب النبى
صلى الله عليه وسلم بعينيه قال فوالله ماتنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة الا وقعت
فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده واذا أمرهم ابتدروا أمره واذا توضأ كادوا
يقتتلون على وضوئه واذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ومايحدون النظر اليه تعظيما له فرجع
عروة الى أصحابه فقال أى قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى
والنجاشى والله ان أى مارأيت ملكا قط يعظمه أصحابه مايعظم أصحاب محمد محمدا والله ان أى
ماتنخم نخامة الا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده واذا أمرهم ابتدروا أمره
واذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه واذا تكلم خفضوا أصواتهم ومايحدون النظر اليه
تعظيما له وانه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها فقال رجل من بنى كنانة دعونى آتيه فقالوا ائته
فلما أشرف على النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال النبى صلى الله عليه وسلم هذا فلان من
قوم يعظمون البدن فابعثوها له فبعثوها له واستقبله الناس يلبون فلما رأى ذلك قال سبحان الله
ماينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت فلما رجع الى أصحابه قال رأيت البدن قد قلدت وأشعرت
فما أرى أن يصدوا عن البيت ثم بعثوا اليه الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الاحابيش فلما رآه
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان هذا من قوم يتألهون فابعثوا بالهدى فى وجهه حتى يراه

فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده قد أكل أوتاده من طول الحبس عن محله رجع الى قريش ولم يصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم اعظاما لما رأى فقال يا معشر قريش انى قد رأيت ما لا يحل صده الهدى فى قلائده قد أكل أوتاده من طول الحبس عن محله قالوا له اجلس فانما أنت رجل أعرابى لا علم لك فغضب الحليس عند ذلك وقال يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أن تصدوا عن بيت الله من جاءه معظما له والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالاحابيش نفرة رجل واحد فقالوا مه كف عنا يا حليس حتى نأخذ لانفسنا ما نرضى به فقام رجل يقال له مكرز بن حفص فقال دعونى آته فقالوا له ائته فلما أشرف عليهم قال النبى صلى الله عليه وسلم هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم فبينما هو يكلمه اذ جاء سهيل بن عمرو وقال عكرمة لما رآه النبى صلى الله عليه وسلم قال قد سهل لكم من أمركم قال الزهرى فى حديثه فجاء سهيل بن عمرو فقال هات نكتب بيننا وبينك كتابا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب فقال اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل أما الرحمن فلا أدرى ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب فقال المسلمون والله لا نكتبها الا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبى صلى الله عليه وسلم يا على اكتب باسمك اللهم ثم قال اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقال سهيل والله لو كنا نعلم انك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله انى لرسول الله وان كذبتمونى اكتب محمد بن عبد الله قال الزهرى وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله الا أعطيتهم اياها فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو واصطلحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن الناس فيه ويكف بعضهم عن بعض فقال له النبى صلى الله عليه وسلم وعلى ان تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل والله لا تتحدث العرب انا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل فكتب فقال سهيل وعلى أن لا يأتيك منا رجل وان كان على دينك الا رددته الينا فقال المسلمون سبحان الله كيف يرد الى المشركين وقد جاء مسلما وروى ابن اسحق عن البراء قصة الصلح وفيها قالوا لو نعلم انك رسول الله ما منعناك شيأ ولكن أنت محمد بن عبد الله قال أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله ثم قال لعلى امح رسول الله فقال والله لا أمحوك أبدا فقال فأرنيه فأراه اياه فمحاه النبى صلى الله عليه وسلم بيده وفى رواية فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب هذا ما قاضى محمد بن عبد الله قال البراء صالح على ثلاثة أشياء على أن من أتى من المشركين يرده اليهم ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم بها ثلاثة أيام ولا يدخلها بجلبان السلاح السيف والقوس ونحوه وروى فى صلح الحديبية طرق اخر فى بعضها زيادات وفى بعضها نقصان عن بعض وقوله تعالى (والهدى) معطوف على كم من صدوكم أى وصدوا الهدى وهو البدن التى ساقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت سبعين وقوله تعالى (معكوفا) أى محبوسا حال وقوله تعالى

(أن يبلغ محله) أى مكانه الذى ينحر فيه عادة وهو الحرم بدل اشتمال (ولولا رجال) أى مقيمون بين أظهر الكفار بمكة (مؤمنون) أى غريقون فى الايمان فكانوا لذلك أهلا للوصف بالرجولية (ونساء مؤمنات) أى كذلك حبس الكل عن الهجرة العذر لان الكفار لكثرتهم استضعفوهم فمنعوهم الهجرة على أن ذلك شامل لمن جبله الله تعالى على الخير وعلم منه الايمان وان كان فى ذلك الوقت كافرا (لم تعلموهم) أى لم يحط علمكم بهم من جميع الوجوه لتميزوهم بأعيانهم عن المشركين لانهم ليس لهم قوة التميز منهم وانتم لاتعرفون أماكنهم لتعاملوهم بما هم له أهل ولاسيما فى حال الحرب والطعن والضرب ثم أبدل من الرجال والنساء قوله تعالى (أن تطؤهم) أى تؤذوهم بالقتل أو ما يقارب به من الجراح والضرب والنهب ونحو ذلك ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم اشدد وطأتك على مضر (فتصيبكم) أى فيتسبب عن هذا الوطء أن تصيبكم (منهم) أى من جهتهم وبسببهم (معرة) أى مكروه كوجوب الدية والكفارة بقتلهم والتأسف عليهم وتعيير الكفار بذلك والاثم بالتقصير فى البحث مفعلة من عره اذا عراه ما يكرهه وقوله تعالى (بغير علم) متعلق بأن تطؤهم أى غير عالمين بهم وجواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه والمعنى ولولا كراهة أن تهلكوا أناسا مؤمنين بين أظهر الكافرين جاهلين بهم فيصيبكم باهلاكهم مكروه لما كف أيديكم عنهم (فان قيل) أى معرة تصيبهم اذا قتلوهم وهم لا يعلمون (أجيب) بأنهم يصيبهم وجوب الدية والكفارة وسوء قالة المشركين انهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز والمأثم اذا جرى منهم بعض التقصير وقوله تعالى (ليدخل الله) أى الذى له جميع صفات الكمال متعلق بمقدر أى كان انتفاء التسليط على أهل مكة وانتفاء العذاب ليدخل الله قال البغوى اللام فى ليدخل متعلق بمحذوف دل عليه معنى الكلام يعنى ليدخل الله (فى رحمته) أى فى اكرامه وانعامه (من يشاء) بعد الصلح قبل أن يدخلوها من المشركين بأن يعطفهم الى الاسلام ومن المؤمنين بأن يستنقذهم منهم على أرفق وجه وقوله تعالى (لو تزيلوا) يجوز أن يعود على المؤمنين فقط أو على الكافرين أو على الفريقين والمعنى لو تميز هؤلاء من هؤلاء (لعذبنا) أى بأيديكم بتسليطنا لكم عليهم بالقتل والسبى (الذين كفروا) أى أوقعوا ستر الايمان (منهم) أى أهل مكة (عذابا أليما) أى شديد الايجاع قال قتادة فى الآية ان الله تعالى يدفع بالمؤمنين عن الكافرين كما دفع بالمستضعفين من المؤمنين عن مشركى مكة ولما بين شرط استحقاقهم للعذاب بين وقته وفيه بيان العلة فقال تعالى (اذ) أى حين (جعل الذين كفروا) أى ستروا ما تراءى من الحق فى مرائى عقولهم وقوله تعالى (فى قلوبهم) أى فى قلوب أنفسهم يجوز أن يتعلق بجعل على انها بمعنى التى فتتعدى لواحد أى اذ ألقى الكافرون فى قلوبهم الحمية وأن يتعلق بمحذوف على أنه مفعول ثان قدم على أنها بمعنى صير (الحمية) أى المنع الشديد والاباء الذى هو فى شدة حره ونفوذه فى أشد الاجسام كالسم والنار وأنشدوا

ألا انى منهم وعرضى عرضهم * كذا الرأس يحمى أنفه أن يهشما

وقرأ أبو عمرو فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر

الهاء وضم الميم وأظهر الذال عند الجيم نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم وأدغمها الباقون وقوله تعالى (حمية الجاهلية) بدل من الحمية قبلها ووزنها فعيلة وهي مصدر يقال حميت من كذا حمية وحمية الجاهلية هي التي مدارها مطلق المنع سواء كان بحق أم باطل فتمنع من الاذعان للحق ومبناها على التشفي على مقتضى الغضب لغير الله فتوجب تخطي حدود الشرع ولذلك أنفوا من دخول المسلمين مكة المشرفة لزيارة البيت العتيق الذي الناس فيه سواء قال مقاتل قال أهل مكة قتلوا أبناءنا واخواننا ثم يدخلون علينا فتحدث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفنا واللات والعزى لايدخلونها علينا فهذه حمية الجاهلية التي دخلت قلوبهم (فأنزل الله) أي الذي لايغلبه شئ وهو يغلب كل شئ بسبب حميتهم (سكينته) أي الشئ اللائق اضافته اليه سبحانه من الفهم عن الله والروح الموجب لسكون القلب المؤثر للاقدام على العدو والنصر عليه انزالا كافيا (على رسوله) الذي عظمته من عظمته ففهم عن الله مراده في هذه القضية فجرى على أتم مايرضيه (وعلى المؤمنين) أي الغر يقين في الايمان لانهم اتباع رسوله وانصار دينه فألزمهم قبول أمره وحماهم من همزات الشياطين ولم يدخلهم مادخل الكفار من الحمية فيقاتلوا غضبا لانفسهم فيتعدوا حدود الشرع (وألزمهم) أي المؤمنين الزام اكرام وتشريف لا الزام اهانة وتعنيف (كلمة التقوى) فانها السبب الاقوى وهي كل قول أوفعل ناشئ عن التقوى وأعلاه كلمة الاخلاص المتقدمة في القتال وهي لا اله الا الله التي هي أحق الحق ولا بد من قول محمد رسول الله والالم يتم اسلامه وعن الحسن كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد ومعنى اضافتها الى التقوى انها سبب التقوى وأساسها وقيل كلمة أهل التقوى وقيل هي بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله (وكانوا) أي جبلة وطبعا (أحق بها) أي كلمة التقوى من الكفار (وأهلها) أي وكانوا أهلها في علم الله تعالى لان الله تعالى اختار لدينه وصحبة نبيه أهل الخير (وكان الله) أي المحيط علما وقدرة (بكل شئ) من ذلك وغيره (عليما) أي محيط العلم وروى أنه صلى الله عليه وسلم رأى في المنام في المدينة عام الحديبية قبل خروجه انه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين ويحلقون ويقصرون فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا فلما خرجوا معه وصدهم الكفار بالحديبية رجعوا وشق عليهم ذلك وراب بعض المنافقين فأنزل الله قوله تعالى (لقد صدق الله) أي الذي لا كفؤ له المحيط بجميع صفات الكمال (رسوله) الذي هو أعز الخلائق عنده وهو غني عن الاخبار عما لايكون أنه يكون فكيف اذا كان المخبر رسوله (الرؤيا) التي هي من الوحي أي صدقه في رؤياه ولم يكذبه تعالى الله عن الكذب وعن كل قبيح علوا كبيرا فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله تعالى صدقوا ماعاهدوا الله عليه وروى عن مجمع بن حارثة الانصاري قال شهدنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انصرفنا عنها اذا الناس يهزون الاباعر فقال بعضهم مابال الناس قالوا أوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فخرجنا نرجف فوجدنا النبي صلى الله عليه وسلم واقفا على راحلته على كراع الغميم فلما اجتمع عليه الناس قرأ انا فتحنا لك فتحا مبينا فقال عمر أوفتح هو يارسول الله قال نعم والذي نفسي بيده ففيه دليل على ان

المراد بالفتح صلح الحديبية وتحقيق الرؤيا كان فى العام المقبل فقال جل ذكره لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق أخبر ان الرؤيا التى أراه اياها فى مخرجه الى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام صدق وحق وقوله تعالى (بالحق) فيه أربعة أوجه أحدها انه يتعلق بصدق ثانيها أن يكون صفة مصدر محذوف أى صدقا ملتبسا بالحق أى بالغرض الصحيح والحكمة البالغة وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن المخلص وبين من فى قلبه مرض ثالثها ان يتعلق بمحذوف على أنه حال من الرؤيا أى ملتبسة بالحق رابعها انه قسم وجوابه (لتدخلن) أى بعد هذا دخولا قد تحتم أمره (المسجد) أى الذى يطاف فيه بالكعبة ولا يكون دخوله الا بدخول الحرم (الحرام) أى الذى أجاره من امتهان الجبابرة ومنعه من كل ظالم قال الزمخشرى وعلى تقديره قسما اما أن يكون قسما بالله تعالى فان الحق من أسمائه تعالى واما أن يكون قسما بالحق الذى هو نقيض الباطل (فان قيل) ما وجه دخول (ان شاء الله) أى الذى له الاحاطة بصفات الكمال (أجيب) بأوجه أحدها أنه تعالى ذكره تعليما لعباده الادب لان يقولوا فى عداتهم مثل ذلك متأدبين بآداب الله ومقتدين بسنته لقوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ثانيها أن يريد لتدخلن جميعا ان شاء الله ولم يمت منكم أحد ثالثها ان ذلك كان على لسان ملك فأدخل الملك ان شاء الله رابعها انها حكاية ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه وقص عليهم وقال أبو عبيدة ان بمعنى اذ مجازه اذ شاء الله كقوله تعالى ان كنتم تعلمون خامسها انها للتبرك وقيل هى متعلقة بآمنين فالاستثناء واقع على الامن لا على الدخول لان الدخول لم يكن فيه شك كقوله صلى الله عليه وسلم عند دخول المقبرة وانا ان شاء الله بكم لاحقون فالاستثناء راجع الى اللحوق لا الى الموت وقوله تعالى (آمنين) حال من فاعل لتدخلن وكذا (محلقين رؤسكم) أى كلها (ومقصرين) أى بعضها أى منقسمين بحسب التحليق والتقصير الى قسمين لا تخشون الا الله تعالى وفيه اشارة الى أنهم يتمون الحج من أوله الى آخره فقوله لتدخلن فيه اشارة الى الاول وقوله محلقين ومقصرين اشارة الى الآخر (فان قيل) محلقين حال الداخلين والداخل لا يكون الا محرما والمحرم لا يكون محلقا (أجيب) بأن قوله آمنين معناه متمكنين من أن تتموا الحج محلقين ومقصرين وأشار بصيغة التفعيل الى الكثرة فيهما غير أن التقديم يفهم ان الاول أكثر وقوله تعالى (لا تخافون) أى لا يتجدد لكم خوف بعد ذلك يجوز أن يكون مستأنفا وأن يكون حالا ثالثة اما من فاعل لتدخلن أو من ضمير آمنين أو محلقين أو مقصرين فان كانت حالا من آمنين أو حالا من فاعل لتدخلن فهى حال للتوكيد وآمنين حال مقارنة وما بعدها حال مقدرة الا قوله لا تخافون اذا جعل حالا فانها مقدرة أيضا (فان قيل) قوله تعالى لا تخافون معناه غير خائفين وذلك يحصل بقوله تعالى آمنين (أجيب) بأن فيه كمال الامن لان بعد الحلق يخرج الانسان عن الاحرام فلا يحرم عليه القتال وكان عند أهل مكة يحرم قتال من أحرم ومن دخل الحرم فقال تدخلون آمنين وتحلقون ويبقى أمنكم بعد خروجكم عن الاحرام (فعلم) أى الله فى الصلح من المصلحة (ما لم تعلموا) من المصالح فان الصلاح

كان فى الصلح وان دخولكم فى سنتكم سبب لوطء المؤمنين والمؤمنات وهو قوله تعالى ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات الآية (فان قيل) الفاء فى قوله تعالى فعلم فاء التعقيب فقوله تعالى فعلم وقع عقب ماذا (أجيب) بأنه ان كان المراد من فعلم وقت الدخول فهو عقب صدق وان كان المراد فعلم المصلحة فالمراد علم الوقوع والشهادة لاعلم الغيب والتقدير لما حصلت المصلحة فى العام القابل فعلم مالم تعلموا من المصلحة المتجددة (فجعل) أى بسبب احاطة علمه (من دون) أى أدنى رتبة من (ذلك) أى الدخول العظيم فى هذا العام (فتحا قريبا) يقويكم به من فتح خيبر ووضع الحرب بين العرب بهذا الصلح واختلاط بعض الناس ببعض بسبب ذلك بعض الموجب لاسلام ناس كثيرة تتقوون بهم فتكون تلك الكثرة والقوة بسبب هيبة الكفار المانعة لهم من القتال فقتل القتلى ترفقا بأهل حرم الله اكراما لهذا النبى الكريم صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (هو الذى أرسل رسوله) أى الذى لا رسول أحق منه باضافته اليه (بالهدى) أى الكامل الذى يقتضى ان يهتدى به أكثر الناس تأكيد ابيان صدق الله تعالى للرؤيا لانه لما كان مرسلا لرسوله ليهدى لا يريه مالا يكون فيحدث الناس فيظهر خلافه فيكون ذلك سببا للضلال (فان قيل) الرؤيا للواقع قد تقع لغير المرسل (أجيب) بأن ذلك قليل لا يقع لكل أحد * (تنبيه) * الهدى يحتمل أن يكون هو القرآن كقوله تعالى أنزل فيه القرآن هدى للناس وعلى هذا قوله تعالى (ودين الحق) هو مافيه من الاصول والفروع ويحتمل أن يكون الهدى هو المعجزة أى أرسله بالمعجزة فيكون قوله تعالى ودين الحق اشارة الى ماشرع والالف واللام فى الهدى يحتمل أن تكون للعهد وهو قوله تعالى ذلك هدى الله يهدى به من يشاء وأن تكون للتعريف أى كل ماهو هدى * (تنبيه) * دين الحق يحتمل أن يكون المراد دين الله لان الحق من أسماء الله تعالى ويحتمل أن يكون الحق نقيض الباطل فكأنه قال ودين الامر الحق (ليظهره) أى دينه (على الدين كله) أى جميع باقى الاديان (وكفى بالله) أى الذى له الاحاطة بجميع صفات الكمال (شهيدا) أى على أنك مرسل بما ذكر كما قال تعالى (محمد رسول الله) أى الملك الذى لا كفوله فهو الرسول الذى لا رسول يساويه فانه رسول الى جميع الخلق من أدرك زمانه بالفعل فى الدنيا ومن تقدمه بالقوة فيها وبالفعل فى الآخرة يوم يكون الكل تحت لوائه وقد أخذ على الانبياء كلهم الميثاق بأن يؤمنوا به ان أدركوه وأخذ ذلك الانبياء على أممهم وأشار بذكر هذا الاسم بخصوصه فى سورة الفتح الى أنه صلى الله عليه وسلم هو الخاتم بما أشارت اليه الميم التى مخرجها ختام المخارج واستنبط بعض العلماء من محمد ثلثمائة وأربعة عشر رسولا فقال فيه ثلاث ميمات واذا بسطت كل منها قلت فيه م ى م وعدتها بحساب الجمل الكبير تسعون فيحصل منها مائتان وسبعون واذا بسطت الحاء والدال قلت دال بخمسة وثلاثين وحاء بتسعة فالجملة ماذكر والاسم واحد فتم عدد الرسل كما قيل انهم ثلثمائة وخمسة عشر وقد تقدم الكلام على أولى العزم منهم فى سورة الاحقاف * (تنبيه) * يجوز أن يكون محمد خبر مبتدا مضمر لانه لما تقدم هو الذى أرسل رسوله دل على ذلك المقدر أى هو أى الرسول بالهدى

محمد رسول الله بدل أو بيان أو نعت وأن يكون محمد مبتدأ وخبره رسول الله وقيل غير ذلك ولما ذكر الرسول ذكر المرسل اليهم فقال تعالى (والذين معه) أى بصحبة الصحبة من الصحابة وحسن التبعية من التابعين لهم باحسان (أشداء) أى غلاظ (على الكفار) منهم لا تأخذهم بهم رأفة بل هم معهم كالاسد على فريسته لان الله تعالى أمرهم بالغلظة عليهم لا يرحمونهم (رحماء بينهم) أى متعاطفون متوادون كالولد مع الوالد كما قال تعالى أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وعن الحسن بلغ من تشددهم على الكفار انهم كانوا يتحرزون من ثيابهم ان تلزق بثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم وبلغ من تراحمهم فيما بينهم انه كان لا يرى مؤمن مؤمنا الا صافحه وعانقه ومن حق المسلمين فى كل زمان أن يراعوا هذا التذلل وهذا التعطف فيشددوا على من ليس من دينهم ويتحاموه ويعاشروا اخوانهم المؤمنين فى الاسلام متعطفين بالبر والصلة والمعونة وكف الاذى والاحتمال منهم * (تنبيه) * والذين معه مبتدأ خبره أشداء على الكفار ورحماء بينهم خبر ثان وقيل غير ذلك ثم بين تعالى الحامل لهم على ذلك بقوله سبحانه وتعالى (تراهم) أى أيها الناظر لهم (ركعا سجدا) أى دائمين الخشوع فأكثر أوقاتهم صلاة قد غلبت صفة الملكية على صفاتهم الحيوانية فكانت الصلاة آمرة بالخير مصينة عن كل نقص وضير ثم أشار الى اخلاصهم بقوله تعالى (يبتغون) أى يطلبون بذلك وغيره من جميع أحوالهم بغاية جهدهم تغليبا لعقولهم على شهواتهم وحظوظهم (فضلا) أى زيادة من الخير (من الله) أى الذى له الاحاطة بصفات الكمال من الجلال والجمال الذى أعطاهم ملكة العظمة على الكفار بما وهبهم من جلاله والرأفة على أوليائه (ورضوانا) أى رضا منه عظيما بما نالهم من رحمته التى هيأهم بها للاحسان الى عياله فنزعوا الهوى من صدورهم فصاروا يرونه وحده سيدهم المحسن اليهم لا يرون سيدا غيره ولا محسن سواه ثم بين كثرة صلاتهم بقوله تعالى (سيماهم) أى علامتهم التى لا تفارقهم (فى وجوههم) ثم بين تعالى العلامة بقوله (من أثر السجود) وهو نور وبياض فى وجوههم يوم القيامة كما قال تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه رواه عطية العوفى عن ابن عباس * وعن أنس هو استنارة وجوههم من كثرة صلاتهم وقال شهر بن حوشب تكون مواضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر * وقال مجاهد هو السمت الحسن والخشوع والتواضع والمعنى ان السجود أورثهم الخشوع والسمت الحسن الذى يعرفون به وقال الضحاك هو صفرة الوجه وقال الحسن اذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى وقال عكرمة هو أثر التراب على الجباه قال أبو العالية لانهم يسجدون على التراب لا على الثياب وقال عطاء استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل لان من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار قال بعضهم دخل فى هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس قال البقاعى ولا يظن ان من السيما ما يصنعه بعض المرائين من أثر هيئة السجود فى جبهته فان ذلك من سيما الخوارج وفى نهاية ابن الاثير فى تفسير الثفنات ومنه حديث أبى الدرداء انه رأى رجلا بين عينيه مثل ثفنة البعير فقال لو لم يكن هذا كان خيرا يعنى كان على جبهته أثر السجود

وانما كرهها خوفا من الرياء عليه وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انى لابغض الرجل وأكرهه اذا رأيت بين عينيه اثر السجود وعن بعض المتقدمين كان الرجل يصلى فلا يرى بين أعيننا شئ ونرى أحدنا الآن يصلى فيرى بين عينيه ركبة البعير فلا ندرى أثقلت الرؤس أم خشنت الارض وانما أراد بذلك من تعمد ذلك للنفاق ثم أشار تعالى الى علو مرتبة ذلك الوصف بقوله سبحانه (ذلك) اى هذا الوصف العالى جدا البديع المثال البعيد المنال (مثلهم) أى صفتهم (فى التوراة) وههنا تم الكلام فان مثلهم مبتدأ وخبره فى التوراة وقوله تعالى (ومثلهم فى الانجيل) أى الذى نسخ الله تعالى به بعض أحكام التوراة مبتدأ وخبره (كزرع) أى مثل زرع (أخرج شطأه) أى فراخه يقال أشطأ الزرع اذا افرخ وهل يختص ذلك بالحنطة فقط أو بها و بالشعير أو لا يختص خلاف مشهور قال الشاعر

أخرج الشطأ على وجه الثرى * ومن الاشجار أفنان الثمر

وقرأ ابن كثير وابن ذكوان بفتح الطاء والباقون باسكانها وهما لغتان كالنهر والنهر وأدغم أبو عمرو الجيم فى الشين بخلاف عنه ثم سبب عن هذا الاخراج قوله تعالى (فآزره) أى قواه وأعانه وقرأ ابن ذكوان بقصر الهمزة بعد الفاء والباقون بالمد (فاستغلظ) أى فطلب المذكور من الزرع والشطء الغلظ وأوجده فتسبب عن ذلك اعتداله (فاستوى) أى قوى واستقام وقوله تعالى (على سوقه) متعلق باستوى ويجوز أن يكون حالا أى كائنا على سوقه أى قائما عليها هذا مثل ضربه الله تعالى لاصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى الانجيل أنهم يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون قال قتادة مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى الانجيل مكتوب أنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقيل الزرع محمد صلى الله عليه وسلم والشطء أصحابه والمؤمنون وروى مبارك بن فضالة عن الحسن قال محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه أبو بكر الصديق أشداء على الكفار عمر بن الخطاب رحماء بينهم عثمان بن عفان تراهم ركعا سجدا على بن أبى طالب يبتغون فضلا من الله العشرة المبشرون بالجنة كمثل زرع محمد صلى الله عليه وسلم أخرج شطأه أبو بكر فآزره عمر فاستغلظ عثمان يعنى استغلظ عثمان بالاسلام فاستوى على سوقه على بن أبى طالب رضى الله عنه استقام الاسلام بسيفه (يعجب الزراع) قال المؤمنون (ليغيظ بهم الكفار) قول عمر لاهل مكة بعد ما أسلم لا يعبد الله سرا بعد اليوم روى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ارحم أمتى أبو بكر وأشدهم فى أمر الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأفرضهم زيد وأقرؤهم أبى وأعلمهم بالحرام والحلال معاذ بن جبل ولكل أمة أمين وأمين هذه الامة أبو عبيدة بن الجراح وفى رواية أخرى وأقضاهم على وروى بريدة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من مات من أصحابى بأرض كان نورهم وقائدهم يوم القيامة * (تنبيه) * يعجب حال أى معجبا وهنا تم الكلام وقوله تعالى ليغيظ بهم الكفار فيه أوجه أحدها أنه متعلق بمحذوف دل عليه تشبيههم بالزرع فى نمائهم وقوتهم قال الزمخشرى أى شبههم الله تعالى بذلك ليغيظ ثانيها أنه متعلق بما دل

عليه

عليه قوله تعالى أشداء متعلق على الكفار الخ أى جعلهم بهذه الصفات ليغيظ ثالثها أنه متعلق بقوله تعالى (وعد الله) أى الملك الاعظم (الذين آمنوا) لان الكفار اذا سمعوا بعزة المؤمنين فى الدنيا وما أعد الله لهم فى الآخرة غاظهم ذلك وقوله تعالى (وعملوا الصالحات) فيه اشارة الى تصديق دعواهم ومن فى قوله تعالى (منهم) للبيان لا للتبعيض لانهم كلهم كذلك فهى كقوله تعالى فاجتنبوا الرجس من الاوثان * ولما كان الانسان وان اجتهد مقصرا عما يجب لله تعالى من العبادة أشار الى ذلك بقوله تعالى (مغفرة) أى لما يقع منهم من الذنوب والهفوات (وأجرا عظيما) بعد ذلك الستر وهو الجنة وهما أيضا لمن بعدهم ممن يأتى * (فائدة) * قد جمعت هذه الآية الخاتمة لهذه السورة جميع حروف المعجم وفى ذلك بشارة تلويحية مع ما فيها من البشائر التصريحية باجتماع أمرهم وعلو نصرهم رضى الله عنهم وحشرنا معهم نحن ووالدينا ومحبينا وجميع المسلمين بمنه وكرمه قال وهذا آخر القسم الاول من القرآن وهو المطول وقد ختم كما ترى بسورتين هما فى الحقيقة للنبى صلى الله عليه وسلم وحاصلهما الفتح بالسيف والنصر على من قاتله ظاهرا كما ختم القسم الثانى المفصل بسورتين هما نصره له صلى الله عليه وسلم بالحال على من قصده بالضر باطنا اه وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة حديث موضوع وقال ابن عادل روى أن من قرأ فى أول ليلة من رمضان انا فتحنا لك فتحا مبينا فى التطوع حفظ فى ذلك العام ولم أره لغيره اه

(سورة الحجرات مدنية)

وهى ثمان عشرة آية وثلثمائة وثلاث وأربعون كلمة وألف وأربعمائة وستة وسبعون حرفا

(بسم الله) الجبار المتكبر الذى أعز رسوله صلى الله عليه وسلم (الرحمن) الذى من عموم رحمته الآداب للتوصل الى حسن المآب (الرحيم) الذى خص أولى الالباب بالاقبال على ما يوجب لهم دار الثواب * ولما نوه سبحانه فى القتال بذكر النبى صلى الله عليه وسلم وصرح فى ابتدائها باسمه الشريف وسمى السورة به وملأ سورة الفتح بتعظيمه وختمها باسمه ومدح اتباعه لاجله افتتح هذه السورة باشتراط الادب معه فى القول والفعل فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان (لا تقدموا) من قدم بمعنى تقدم أى لا تتقدموا وحذف المفعول ليعم كل ما يصح تقديمه فيذهب الوهم كل مذهب ويجوز أن يكون حذفه من غير قصد اليه أصلا بل يكون النهى موجها الى نفس التقدمة أى لا تتلبسوا بهذا الفعل (بين يدى الله) أى الملك الاعظم الذى لا يطاق انتقامه (ورسوله) أى الذى عظمته ظاهرة جدا لا نهاية له لان عظمته من عظمته ولذلك قرن اسمه باسمه واختلف فى سبب نزول ذلك فقال الشعبى عن جابر انه فى الذبح يوم الاضحى قبل الصلاة أى لا تذبحوا قبل أن يذبح النبى صلى الله عليه وسلم وذلك أن ناسا ذبحوا قبله صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يعيدوا الذبح وقال من ذبح قبل الصلاة فانما هو لحم عجله لاهله ليس من

النسك في شيء وعن مسروق عن عائشة رضي الله عنها انه في النهي عن صوم يوم الشك أي لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم وعن ابن الزبير أنه قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر أمّر القعقاع بن معبد بن زرارة وقال عمر بل أمّر الاقرع بن حابس فقال أبو بكر ما أردت الا خلافي فقال عمر ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت هذه الآية قال ابن الزبير فكان عمر لا يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه وعن ابن أبي مليكة نزل يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم وهذا أنسب وقال الضحاك يعني في القتال وشرائع الدين أي لا تقطعوا أمرا دون الله ورسوله قال الرازي والاصح أنه ارشاد عام يشمل الكل ومنع مطلق يدخل فيه كل افتيات وتقدم واستبداد بالامر واقدام على فعل غير ضروري من غير مشاورة *(تنبيه)* معنى بين يدي الله ورسوله أي بحضرتهما لان ما بحضرة الانسان فهو بين يديه ناظر اليه وحقيقة قولهم جلست بين يدي فلان أن يجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريبا منه فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعا كما يسمى الشيء باسم غيره اذا جاوره وداناه في غير موضع وقد جرت هذه العبارة هنا على ضرب من المجاز وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلا وقيل المراد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الله تعالى تعظيم له واشعار بأنه من الله تعالى بمكان يوجب اجلاله (واتقوا الله) اجعلوا بينكم وبين غضب الملك الاعظم وقاية فان التقوى مانعة من أن تضيعوا حقه وتخالفوا أمره أو تقدموا على شيء لم تعلموا رضاه فيه (ان الله) أي الذي له الاحاطة بصفات الكمال (سميع) لاقوالكم (عليم) بأعمالكم ونزل فيمن رفع صوته عند النبي عليه الصلاة والسلام (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم) أي في شيء من الاشياء عند النطق اذا نطقتم (فوق صوت النبي) اذا نطق *(تنبيه)* في اعادة النداء فوائد منها ان في ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد كقول لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله يا بني انها ان تك يا بني أقم الصلاة لان النداء تنبيه للمنادى ليقبل على استماع الكلام ويجعل باله منه فاعادته تفيد تجدد ذلك ومنها أن لا يتوهم أن المخاطب ثانيا غير المخاطب أولا فان من الجائز أن يقول القائل يا زيد افعل كذا وكذا يا عمرو فاذا أعاد مرة أخرى وقال يا زيد قل يا زيد قل كذا وقل كذا يعلم أن المخاطب أولا هو المخاطب ثانيا ومنها أن يعلم أن كل واحد من الكلامين مقصود ليس الثاني تأكيدا للاول كقولك يا زيد لا تنطق ولا تتكلم الا بالحق وانه لا يحسن أن يقول يا زيد لا تنطق يا زيد لا تتكلم كما يحسن عند اختلاف المطلوبين (ولا تجهروا له بالقول) أي اذا كلمتموه سواء كان ذلك مثل صوته أو أخفض من صوته فان ذلك غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء (كجهر بعضكم لبعض) أي ولا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم بل اجعلوا أصواتكم أخفض من ذلك فانكم ان لم تفعلوا ذلك لم يظهر فرق بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين غيره (فان قيل) ما الفائدة في ولا تجهروا بعد لا ترفعوا (أجيب) بأن المنع من رفع الصوت هو أن لا يجعل كلامه أو صوته أعلى من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وصوته والنهي عن الجهر منع من المساواة

أى لا تجهروا له بالقول كما تجهرون لنظرائكم بل اجعلوا كلمته عليا ثم حذرهم بقوله تعالى (أن) أى كراهة أن (تحبط) أى تفسد فتسقط (أعمالكم) التى هى الاعمال بالحقيقة وهى الحسنات كلها (وأنتم لا تشعرون) أى بأنها حبطت فان ذلك اذا اجترأ الانسان عليه استخف به واذا استخف واظب عليه واذا واظب عليه أوشك أن يستخف بالمخاطب فيكفر وهو لا يشعر روى أنس بن مالك قال لما نزل قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم الآية جلس ثابت بن قيس فى بيته وقال أنا من أهل النار واحتبس عن النبى صلى الله عليه وسلم فسأل النبى صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ فقال يا أبا عمرو ما شأن ثابت أشتكى فقال سعد انه لجارى وما علمت له شكوى قال فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ثابت نزلت هذه الآية وقد علمتم أنى من أرفعكم صوتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنا من أهل النار فذكر ذلك سعد للنبى صلى الله عليه وسلم فقال بل هو من أهل الجنة وروى لما نزلت هذه الآية قعد ثابت فى الطريق يبكى فمر به عاصم بن عدى فقال وما يبكيك يا ثابت قال هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت فى وأنا رفيع الصوت أخاف أن يحبط عملى وأكون من أهل النار فمضى عاصم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلب ثابتا البكاء فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبى ابن سلول فقال لها اذا دخلت بيت فرشى فسدى على الضبة بمسمار فضربت عليه بمسمار وقال لا أخرج حتى يتوفانى الله أو يرضى عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبره فقال اذهب فادعه لى فجاء عاصم الى المكان الذى رآه فيه فلم يجده فجاء الى أهله فوجده فى بيت الفرش فقال له ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك فقال اكسر الضبة فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ما يبكيك يا ثابت فقال أنا صيت فأخاف أن تكون هذه الآية نزلت فى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة فقال رضيت ببشرى الله ورسوله لا أرفع صوتى أبدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل (ان الذين يغضون) أى يخفضون ويلينون لما وقع عليهم من السكينة من هيبة حضرته قال الطبرى وأصل الغض الكف فى لين (أصواتهم) تخشعا وتخضعا ورعاية للادب وتوقيرا (عند رسول الله) أى الذى من شأنه أن يعلو كلامه على كل كلام لانه مبلغ عن الملك الاعظم وعبر بعند الذى للظاهر اشارة الى أن أهل حضرة الخصوصية لا يقع منهم الا أكمل الادب (أولئك) أى عالو الرتبة (الذين امتحن الله) أى فعل المحيط بجميع صفات الكمال فعل المختبر (قلوبهم للتقوى) أى اختبرها وأخلصها لتظهر منهم من امتحن الذهب اذا أذابه وميز ابريزه من خبثه فان الامتحان اختبار بليغ يؤدى الى خبر فالمعنى أنه طهر قلوبهم ونقاها كما يمتحن الصائغ الذهب والفضة بالاذابة والتنقية والتخليص من كل غش لاجل اظهار ما بطن فيها من التقوى ليصير معلوما للخلق فى عالم الشهادة كما كان له سبحانه فى عالم الغيب (لهم مغفرة) أى لهفواتهم وزلاتهم (وأجر عظيم) لغضهم وسائر

طاعاتهم والتنكير للتعظيم قال أنس فكنا أى بعد نزول هذه الآية فى حق ثابت ننظر الى رجل من أهل الجنة يمشى بين أيدينا فلما كان فى يوم حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار فانهزمت طائفة منهم فقال أف لهؤلاء ثم قال ثابت لسالم مولى أبى حذيفة ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ثم ثبتا وقاتلا حتى قتلا واستشهد ثابت وعليه درع فرآه رجل من الصحابة بعد موته فى المنام فقال له اعلم أن فلانا رجل من المسلمين نزع درعى فذهب بها وهى فى ناحية من العسكر عند فرس يستن فى طوله وقد وضع على درعى نوبه فائت أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقل له ان على دينا حتى يقضيه عنى وفلان من رقيقى عتيق فأخبر الرجل خالدا فوجد درعه والفرس على ما وصفه فاسترد الدرع وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤية فأجاز أبو بكر وصيته قال مالك بن أنس لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها الا هذه واختلف فى سبب نزول قوله عز وجل (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات) فقال ابن عباس رضى الله عنهما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية الى بنى العنبر وأمر عليهم عتيبة بن حصن الفزارى فلما علموا اهربوا وتركوا عيالهم فسباهم عتيبة وقدم بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءهم بعد ذلك رجالهم يفدون الذرارى فقدموا وقت الظهيرة ووافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا فى أهله فلما رأتهم الذرارى اجهشوا الى آبائهم يبكون وكان لكل امرأة من نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرة فعجلوا أن يخرج اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادون يا محمد اخرج الينا حتى أيقظوه من نومه فخرج اليهم فقالوا يا محمد فادنا عيالنا فنزل جبريل عليه السلام فقال ان الله تبارك وتعالى يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أترضون أن يكون بينى وبينكم شبرمة بن عمرو وهو على دينكم فقالوا نعم فقال شبرمة أنا لا أحكم بينهم وعمى شاهد وهو الاعور بن بسامة فرضوا به فقال الاعور أرى أن تفادى نصفهم وتعتق نصفهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رضيت ففادى نصفهم وأعتق نصفهم فأنزل الله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات جمع حجرة وهى ما تحجره من الارض بحائط ونحوه كان كل واحد منهم نادى خلف حجرة لانهم لم يعلموه فى أيها مناداة الاعراب بغلظة وجفاء (أكثرهم) أى المنادى والراضى دون الساكت لعذر (لا يعقلون) أى محلك الرفيع وما يناسبه من التعظيم فلم يصبروا بل فعلوا معه صلى الله عليه وسلم كما يفعل بعضهم ببعض (ولو أنهم) أى المنادى والراضى (صبروا) أى حبسوا أنفسهم ومنعوها عن مناداتهم والصبر حبس النفس عن أن تنازع الى هواها وهو حبس فيه شدة وصبر (حتى تخرج اليهم) من تلقاء نفسك عند فراغ ما أنت فيه مما يهمك من واردات الحق ومصالح الخلق (لكان) أى الصبر (خيرا لهم) أى من استعجالهم ايقاظك فى الهاجرة ومما لو قرعوا الباب بالاظافر كما كان يفعل غيرهم من الصحابة قال أبو عثمان الادب عند الاكابر يبلغ بصاحبه الى الدرجات العلا والخير فى الاولى والعقبى اه فانهم لو تأدبوا لهم لزادهم صلى الله عليه وسلم فى الفضل فأعتق جميع سبيهم

وأطلقهم بلا فداء (والله) أى المحيط بجميع صفات الكمال (غفور) أى ستور ذنب من تاب من جهله (رحيم) أى يعاملهم معاملة الراحم فيسبغ عليهم نعمه وقال قتادة نزلت فى ناس من أعراب تميم جاؤا الى النبى صلى الله عليه وسلم فنادوا على الباب اخرج الينا يا محمد فان مدحنا زين وذمنا شين فخرج اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول انما ذلكم الله الذى مدحه زين وذمه شين فقالوا نحن ناس من بنى تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت ولكن هاتوا فقام شاب منهم فذكر فضله وفضل قومه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن شماس وكان خطيب النبى صلى الله عليه وسلم قم فأجبه فاجابه وقام شاعر فذكر أبياتا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت أجبه فأجابه فقام الاقرع بن حابس فقال ان محمدا المولى تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولا وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر وأحسن قولا ثم دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يضرك ما كان من قبل هذا ثم أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكساهم وكان قد تخلف فى ركابهم عمرو بن الاهتم لحداثة سنه فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما اعطاهم فأزرى به بعضهم وارتفعت الاصوات وكثر اللغط عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل فيهم يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى الآيات الاربع الى قوله تعالى غفور رحيم وقال زيد بن أرقم جاء ناس من العرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض انطلقوا بنا الى هذا الرجل فان يكن نبيا فنحن أسعد الناس به وان يكن ملكا نعش فى جناحه فجاؤا فجعلوا ينادون من وراء الحجرات يا محمد فأنزل الله تعالى ان الذين ينادونك الآية وقيل المراد بأكثرهم كلهم لان العرب تذكر الاكثر وتريد الكل احترازا عن الكذب واحتياطا فى الكلام لان الكل مالا يحيط به علم الانسان فى بعض الاشياء فيقول الاكثر وفى اعتقاده الكل ثم ان الله تعالى مع احاطة علمه بالامور التى عايناسب كلامهم وفيه اشارة الى لطيفة وهى ان الله تعالى يقول مع احاطة علمى بكل شئ جريت على عادتكم استحسانا لتلك العادة وهى الاحتراز عن الكذب فلا تتركوها واجعلوا اختيارى ذلك فى كلامى دليلا قاطعا على رضاى بذلك منكم * (تنبيه) * جعل الزمخشرى أنهم من ولو أنهم فاعلا بفعل مقدر أى ولو ثبت صبرهم وجعل اسم كان ضميرا عائدا على هذا الفاعل ولكن مذهب سيبويه أنها فى محل رفع بالابتداء وحينئذ يكون اسم كان ضميرا عائدا على صبرهم المفهوم وجرى على الاول البيضاوى وعلى الثانى الجلال المحلى واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم) أى فى وقت من الاوقات (فاسق) أى خارج من ربقة الديانة (بنبأ) أى خبر يعظم خطبه فيشير شرا (فتبينوا) صدقه من كذبه فقال أكثر المفسرين نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط وهو أخو عثمان لامه وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم بعثه الى بنى المصطلق بعد الوقعة واليا ومصدقا أى يأخذ منهم الصدقة وكان بينه

وبينهم عداوة في الجاهلية فلما سمع به القوم تلقوه تعظيماً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم فرجع من الطريق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال انهم منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهمّ أن يغزوهم فبلغ القوم رجوعه فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي اليه ماقبلنا من حق الله فبدا له في الرجوع فخشينا أنه انما رده من الطريق كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا وانا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكره وأمره أن يخفي عليهم قدومه وقال انظر فان رأيت منهم مايدل على ايمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم وان لم تر ذلك فاستعمل فيهم ماتستعمل في الكفار ففعل ذلك خالد ووافاهم فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء فأخذ منهم صدقاتهم ولم ير منهم الا الطاعة والخير وانصرف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر فنزل قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا (أن تصيبوا) أي بأذى (قوماً) أي هم مع قوتهم النافعة لأهل الاسلام برآء مما نسب اليهم (بجهالة) أي مع الجهل بحال استحقاقهم لذلك (فتصبحوا) أي فتصيروا ولكنه عبر بذلك لأن أشنع الندم ما استقبل الانسان صباحاً وقت انتباهه وفراغه واقباله على لذاته (على مافعلتم) أي من اصابتهم (نادمين) أي غريقين في الأسف على مافات مما يوقع الله تعالى في نفوسكم من أمور ترجف القلوب وقال الرازي هذا ضعيف لأن الله تعالى لم يقل اني أنزلتها لكذا والنبي صلى الله عليه وسلم لم ينقل عنه أنه قال وردت الآية لبيان ذلك حسب غاية مافي الباب أنها نزلت في ذلك الوقت وهو مثل تاريخ نزول الآية ومما يصدق ذلك ويؤيده أن اطلاق لفظ الفاسق على الوليد بعيد لأنه توهم وظن فأخطأ والمخطئ لايسمى فاسقاً فكيف والفاسق في أكثر المواضع المراد به من خرج عن ربقة الايمان كقوله تعالى ان الله لايهدي القوم الفاسقين وقوله تعالى ففسق عن أمر ربه وقوله تعالى وأما الذين فسقوا فمأواهم النار الآية الى غير ذلك اهـ وقال ابن الخازن في تفسيره وقيل هو عام نزلت لبيان التثبت وترك الاعتماد على قول الفاسق وهذا أولى من حكم الآية على رجل بعينه *(تنبيه)* قوله تعالى أن تصيبوا مفعول له كقوله تعالى أن تحبط قال الرازي معناه على مذهب الكوفيين لئلا تصيبوا وعلى مذهب البصريين كراهة أن تصيبوا وقرأ حمزة والكسائي بعد التاء المثناة بثاء مثلثة وبعد الباء الموحدة بتاء مثناة فوق من التثبت أي فتوقفوا الى أن يتبين لكم الحال والباقون بعد التاء المثناة بباء موحدة وبعدها ياء تحتية وبعدها نون من البيان (واعلموا) أي أيتها الأمة (أن فيكم) أي على وجه الاختصاص بكم وياله من شرف (رسول الله) أي الملك الأعظم المتصف بالجلال والاكرام فلا تقولوا الباطل فان الله يخبره بالحال (لو يطيعكم) وهو لايحب عنتكم ولاشيأ يشق عليكم (في كثير من الأمر) أي الذي تريدونه على فعله من أنه يعمل في الحوادث على مقتضى مايعن لكم وتستصوبونه ليكون فعله معكم فعل المطواع لغيره التابع له فينقلب حينئذ الحال ويصير المتبوع تابعاً والمطاع طائعاً (لعنتم) أي

لاغنم دونه وهلكتم لان من أراد أن يكون أمر الرسول صلى الله عليه وسلم تابعا لامره فقد زين له الشيطان الكفران وقوله تعالى (ولكن الله) أى الملك الاعظم الذى يفعل ما يريد (حبب اليكم الايمان وزينه) أى حسنه (فى قلوبكم) فلزمتم طاعته وعشقتم متابعته استدراك من جهة المعنى لا من جهة اللفظ لبيان عذرهم وهو أنه من فرط حبهم للايمان وكراهتهم للكفر كما قال تعالى (وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان) حملهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد أو بصفة من لم يفعل ذلك منهم احماد الفعلهم وتعريضا بذم من فعل قال الرازى هذه الامور الثلاثة فى مقابلة الايمان الكامل المزين وهو التصديق بالجنان والاقرار باللسان والعمل بالاركان فقوله تعالى كره اليكم الكفر وهو التكذيب وهو فى مقابلة التصديق بالجنان وأما الفسوق فقيل هو الكذب كما قاله ابن عباس قال تعالى ان جاءكم فاسق بنبا فسمى الكاذب فاسقا وقال البيضاوى الكفر تغطية نعم الله بالجحود والفسوق الخروج عن القصد والعصيان الامتناع عن الانقياد وقال بعضهم الكفر ظاهر والفسوق هو الكبيرة والعصيان هو الصغيرة (أولئك) أى الذين أعلى الله تعالى مقاديرهم (هم الراشدون) أى الكاملون فى الرشد الثابتون الاستقامة وعلى دينهم وفى تفسير الاصفهانى الرشد هو الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه وقوله تعالى (فضلا) مصدر منصوب بفعله المقدر أى فضل وقيل تعليل لكره أو حبب وما بينهما اعتراض فهو امتنان عظيم ودرجة عالية (من الله) أى الملك الاعظم الذى بيده كل شئ (ونعمة) أى وعيشا حسنا ناعما وكرامة (والله) أى المحيط بصفات الكمال (عليم) أى محيط العلم يعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل (حكيم) أى بالغ الحكمة فهو يضع الاشياء فى أوفق محالها وأتقنها فكذلك وضع نعمته من الرسالة والايمان على حسب علمه وحكمته ونزل فى قضية (وان طائفتان من المؤمنين) الآية وهى أن النبى صلى الله عليه وسلم ركب حمارا ومر على ابن أبى فبال الحمار فسد ابن أبى أنفه فقال ابن رواحة لبول حماره أطيب ريحا من مسك فكان بين قومهما ضرب بالايدى والنعال والسعف وعن أنس قال قيل للنبى صلى الله عليه وسلم لو أتيت عبد الله بن أبى فانطلق اليه النبى صلى الله عليه وسلم وركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون معه وهو بأرض سبخة فلما أتاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال اليك عنى فوالله لقد آذانى نتن حمارك فقال رجل من الانصار منهم والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحا منك فغضب لعبد الله رجل من قومه فتشاتما فغضب لكل واحد منهما أصحابه فكان بينهما ضرب بالجريد والايدى والنعال فبلغنا انها نزلت فيهم ويروى انها لما نزلت قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصطلحوا وكف بعضهم عن بعض وعن قتادة نزلت فى رجلين من الانصار كان بينهما مداراة فى حق فقال أحدهما للآخر لآخذن حقى منك عنوة لكثرة عشيرته وان الآخر دعاه ليحاكمه الى النبى صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه فلم يزل الامر بينهما حتى تدافعوا وتناول بعضهم بعضا بالايدى والنعال ولم يكن قتال بالسيوف وعن سفيان عن السدى قال كانت امرأة

من الانصار فقال لها أم زيد تحت رجل وكان بينها وبين زوجها شئ فرقى بها الى علية وحبسها فبلغ ذلك قومها فجاؤا وجاء قومه واقتتلوا بالايدى والنعال فنزلت وجمع تعالى قوله سبحانه (اقتتلوا) نظرا للمعنى لان كل طائفة جماعة وثنى الضمير فى قوله تعالى (فأصلحوا) أى أوقعوا الاصلاح ليحصل الصلح (بينهما) نظرا للفظ أى أصلحوا بينهما بالنصح والدعاء الى حكم الله تعالى (فان بغت) أى أوقعت الارادات السيئة الكائنة من النفوس التى لا تأمر بخير (احداهما) أى الطائفتين (على الاخرى) فلم ترجع الى حكم الله الذى خرجت عنه ولم تقبل الحق (فقاتلوا) أى اطلبوا وأوجدوا مقاتلة (التى تبغى) أى توقع الارادة السيئة وتصر عليها وأديموا القتال لها (حتى تفىء) أى ترجع عما صارت اليه من حر القطيعة الذى كانه حر الشمس حتى نسخه الظل الى ما كانت فيه من البرد والخير الذى هو كالظل الذى نسخته الشمس وهو معنى قوله تعالى (الى أمر الله) أى التزام ما أمر به الملك الذى لا يهمل الظالم بل لا بد من أن يقاصصه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية كالياء والباقون بتحقيقهما (فان فاءت) أى رجعت الى ما كانت عليه من التمسك بأمر الله الذى هو العدل (فأصلحوا) أى اوقعوا الاصلاح (بينهما بالعدل) أى بالانصاف ولا يحملنكم القتال على الحقد على المقاتلين فتحيفوا (وأقسطوا) أى وأزيلوا القسط بالفتح وهو الجور بأن تفعلوا القسط بالكسر وهو العدل الذى لا جور فيه فى ذلك وفى جميع أموركم ثم علله ترغيبا فيه بقوله تعالى مؤكدا تنبيها على أنه من أعظم ما يتمادح به وردا على من لعله يقول انه لا يلزم نفسه الوقوف عنده الا ضعيف (ان الله) أى الذى بيده النصر والخذلان (يحب المقسطين) أى يفعل مع أهل العدل من الاكرام فعل المحب (انما المؤمنون) أى كلهم وان تباعدت أنسابهم وبلادهم (اخوة) أى فى الدين لانتسابهم الى أصل واحد هو الايمان ولما كانت الاخوة داعية ولا بد الى الاصلاح تسبب عنها قوله تعالى (فأصلحوا بين أخويكم) كما تصلحون بين أخويكم من النسب ووضع الظاهر موضع الضمير مضافا الى المأمور مبالغة فى التقرير والتحضيض وخص الاثنين بالذكر لانهما أقل من يقع بينهما الشقاق وعن أبى عثمان الحيرى ان اخوة الدين أثبت من اخوة النسب فان اخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين واخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب (واتقوا الله) أى الملك الاعظم فى مخالفة حكمه والاهمال فيه (لعلكم ترحمون) أى لتكونوا اذا فعلتم ذلك على رجاء عند أنفسكم أن يكرمكم الذى لا قادر على الاكرام فى الحقيقة غيره بأنواع الكرامات كما رحمتم اخوانكم باكرامكم عن افساد ذات البين وعن الزهرى عن سالم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يشتمه فمن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة *(تنبيه)* فى هاتين الآيتين دليل على أن البغى لا يزيل اسم الايمان لان الله تعالى سماهم اخوة مؤمنين مع كونهم باغين يدل عليه ما روى عن على بن أبى طالب وسئل وهو القدوة فى قتال أهل

البغي عن أهل الجمل وصفين أمشركون فقال لا من الشرك فروا فقيل أمنافقون هم فقال لا ان المنافقين لا يذكرون الله الا قليلا قيل فما حالهم قال اخواننا بغوا علينا والباغي في الشرع هو الخارج عن الامام العدل بتأويل محتمل وشوكة لهم ومطاع تحصل به قوة الشوكة وان لم يكن لهم امام والحكم فيهم أن يبعث اليهم الامام أمينا فطنا ناصحا ينصحهم ما ينقمون فان ذكروا مظلمة أو شبهة أزالها وان أصروا نصحهم ثم أعلمهم بالقتال فان استمهلوا اجتهد وفعل ما رآه صوابا والحكم في قتالهم أن لا يتبع مدبرهم ولا يقتل أسيرهم ويرد سلاحهم وخيلهم اليهم اذا انقضت الحرب وأمنت غائلتهم ولا يستعمل في قتال الا لضرورة ولا يقاتلون بعظيم كنار ومنجنيق الا لضرورة ولو أقاموا حدا أو أخذوا زكاة وجزية وخراجا وفرقوا سهم المرتزقة على جندهم صح ما فعلوه وما أتلفه باغ على عادل وعكسه ان كان بسبب قتال فلا ضمان على واحد منهما والا فعلى المتلف الضمان قال ابن سهل كانت في تلك الفتنة دماء يعرف في بعضها القاتل والمقتول وأتلف فيها أموال ثم صار الناس الى أن سكنت الحرب بينهم وجرى الحكم عليهم فما رأيته اقتص من أحد ولا أغرم ما لا أتلفه ولو أظهر قوم رأى الخوارج كترك الجماعات وتكفير ذي كبيرة ولم يقاتلوا فلا نتعرض لهم روى ان عليا سمع رجلا يقول في ناحية المسجد لا حكم الا لله تعالى فقال علي رضي الله عنه كلمة حق أريد بها باطل لكم علينا ثلاثة لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا ولا نبدؤكم بقتال فان قاتلوا فحكمهم حكم قطاع الطريق وتفريعات أحكام البغاة مذكورة في الفقه وفي هذا القدر كفاية واختلف في سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أي أوقعوا الاقرار بالتصديق (لا يسخر) أي لا يهزأ والسخرية هي أن لا ينظر الانسان الى أخيه بعين الاجلال ولا يلتفت اليه ويسقطه عن درجته (قوم) أي ناس فيهم قوة المحاولة وهم الرجال وفي التعبير بذلك تنبيه على قيام الانسان على نفسه وكفها عما تريده من النقائص منكرا لما أعطاه الله تعالى من القوة (من قوم) أي من رجال فان ذلك يوجب الشر لان أضعف الناس اذا استهزئ به قوي لما يثور عنده من حظ النفس فقال ابن عباس نزلت في ثابت بن قيس كان في أذنه وقر أي ثقل فكان اذا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سبقوه بالمجلس أوسعوا له حتى يجلس الى جنبه فيسمع ما يقول فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم من الصلاة أخذ أصحابه مجالسهم فضن أي بخل كل رجل منهم بمجلسه فلا يكاد يوسع أحد لاحد فكان الرجل اذا جاء فلم يجد مجلسا قام قائما فلما فرغ ثابت من صلاته أقبل نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخطى رقاب الناس ويقول تفسحوا تفسحوا فجعلوا يتفسحون حتى انتهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبينه وبينه رجل فقال له تفسح فقال الرجل قد أصبت مجلسا فاجلس فجلس ثابت خلفه مغضبا فلما انجلت الظلمة غمز ثابت الرجل فقال من هذا فقال له أنا فلان فقال له ثابت ابن فلانة ذكر أما له كان يعير بها في الجاهلية فنكس الرجل رأسه فاستحيا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال الضحاك نزلت في وفد تميم كانوا يستهزؤن

بفقراء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مثل عمار وخبيب وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة لما رأوا من رثاثة حالهم ومعنى الآية لاتحقروا اخوانكم ولاتستصغروهم ثم علل النهي بقوله تعالى (عسى) أي لانه جدير وخليق لهم (أن يكونوا) أي المستهزأ بهم (خيرامنهم) فينقلب الامر عليهم وتكون لهم سوء العاقبة قال ابن مسعود البلاء موكل بالقول لوسخرت من كلب خشيت أن أحول كلبا وقال القشيري مااستصغر أحد أحدا الاسلط عليه ولا ينبغي أن يغتر بظاهر أحوال الناس فان في الزوايا خبايا والحق سبحانه يستر أولياءه في حجاب الظنة وكذا في الخبركم من أشعث أغبر ذي طمرين لايؤبه له لوأقسم على الله لأبره (ولا) يسخر (نساء من نساء) ثم علل النهي بقوله تعالى (عسى) أي ينبغي أن يخفن من (أن يكن) أي المسخور بهن (خيرامنهن) أي الساخرات روى انها نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم عيرن أم سلمة بالقصر وروى عكرمة عن ابن عباس أنها نزلت في صفية بنت حيي ابن أخطب قال لها النساء يهودية بنت يهوديين *(تنبيهان)* أحدهما قال الرازي القوم اسم يقع على جمع من الرجال ولايقع على النساء ولاعلى الاطفال لانه جمع قائم والقائم بالامورهم الرجال وعلى هذا ففي افراد الرجال والنساء فائدة وهي أن عدم الالتفات والاستحقار أن يصدر في أكثر الامر من الرجال بالنسبة الى الرجال لان المرأة في نفسها ضعيفة قال صلى الله عليه وسلم النساء لحم على وضم فالمرأة لايوجد منها استحقار لرجل لانها مضطرة اليه في رفع حوائجها وأما الرجال بالنسبة الى الرجال والنساء بالنسبة الى النساء فانه يوجد فيهن ذلك (الثاني) في حكمة قوله تعالى عسى أن يكونوا خيرا منهم هي أنهم اذا وجدوا منهم التكبر المقتضي الى احباط العمل جعل نفسه خيرا منهم كما فعل ابليس حيث لم يلتفت الى آدم وقال أنا خير منه فصار هو خيرا منه ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى يكونوا أي يصيروا فان من استحقر انسانا لفقره أوضعفه لا يأمن أن يفتقر هو ويستغني الفقير ويقوى الضعيف (ولاتلمزوا) أي تعيبوا على وجه الخفية (أنفسكم) بأن يعيب بعضكم بعضا باشارة أو نحوها فكيف اذا كان على وجه الظهور فانكم في التواصل والتراحم كنفس واحدة أو يعمل الانسان مايعاب به فيكون الانسان قد لمز نفسه أو يلمز غيره فيكون لمزه له سببا لان يبحث عن عيوبه فيلمزه فيكون هو الذي لمز نفسه (ولاتنابزوا بالالقاب) أي ولايدع بعضكم بعضا بلقب السوء فان النبز يختص بلقب السوء واختلف في هذا اللقب فقال عكرمة هو قول الرجل للرجل يافاسق يامنافق ياكافر وقال الحسن كان اليهودي والنصراني يسلم فيقال له بعد اسلامه يايهودي يانصراني فنهوا عن ذلك وقال عطاء هو أن يقول الرجل لاخيه ياحمار ياخنزير وعن ابن عباس التنابز بالالقاب هو أن يكون الرجل عمل السيآت ثم تاب عنها فنهى أن يعير بما سلف من عمله والحاصل أنه يحرم تلقيب الشخص بمايكره وان كان فيه كالاعور والاعمش ويجوز ذكره بنية التعريف لمن لايعرفه الابه وأما ألقاب المدح فنعماهي فقد لقب الصديق بعتيق وعمر بالفاروق وحمزة بأسد الله وخالد بن الوليد بسيف الله ومازالت الالقاب

الحسنة فى الجاهلية والاسلام قال الزمخشرى الاما أحدثه الناس فى زماننا من التوسع حتى لقبوا السفلة بالالقاب العلية وهب أن العذر مبسوط فما أقول لمن ليس من الدين فى قبيل ولا دبير بفلان الدين لعمرى والله انها الغصة التى لا تساغ ومعنى اللقب اسم زائد على الاسم يشعر بضعة المسمى أو رفعته والمقصود به الشهرة فما كان مكروها نهى عنه ويسن أن يكنى أهل الفضل الرجال والنساء وان لم يكن لهم ولد وأما التكنى بأبى القاسم فهو حرام وقيل انما يحرم فى زمانه صلى الله عليه وسلم فقط وقيل انما يحرم على من اسمه محمد ولا يكنى كافر ولا فاسق ولا مبتدع لان الكنية للتكرمة وليسوا من أهلها بل أمرنا بالاغلاظ عليهم الا لخوف فتنة من ذكره باسمه أو تعريفه كما قيل به فى قوله تعالى تبت يدا أبى لهب واسمه عبد العزى ولا بأس بكنية الصغير ويسن أن يكنى من له أولاد بأكبر أولاده ويسن لولد الشخص وتلميذه وغلامه أن لا يسميه باسمه والادب أن لا يكنى الشخص نفسه فى كتاب أو غيره الا ان كان لا يعرف بغيرها أو كانت أشهر من الاسم *(تنبيه)* ذكر فى الآية ثلاثة أمور مرتبة بعضها دون بعض كما علم من تقريرها (بئس الاسم) أى المذكور من السخرية واللمز والتنابز وقوله تعالى (الفسوق) أى الخروج من ربقة الدين (بعد الايمان) بدل من الاسم لافادة انه فسق لتكرره عادة وروى ان الآية نزلت فى صفية بنت حيى أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان النساء يقلن لى يا يهودية بنت يهوديين فقال هلا قلت ان أبى هرون وعمى موسى وزوجى محمد صلى الله عليه وسلم (ومن لم يتب) أى يرجع عما نهى الله عنه فخفف على نفسه ما كان شدد عليها (فأولئك) أى البعداء من الله تعالى (هم الظالمون) أى العريقون فى وضع الاشياء فى غير مواضعها وأدغم أبو عمرو والكسائى الباء فى الفاء واختلف عن خلاد والباقون بالاظهار (يا أيها الذين آمنوا) أى اعترفوا بالايمان وان كانوا فى أول مراتبه (اجتنبوا) أى كلفوا أنفسكم أن تتركوا وتبعدوا وتجعلوا فى جانب بعيد عنكم (كثيرا من الظن) أى فى الناس وغيرهم واحتاطوا فى كل ظن ولا تمادوا معه حتى تجزموا بسببه *(تنبيه)* أفهم ذلك ان من الظن ما لا يجتنب كما فى الاجتهاد حيث لا قاطع وكما فى ظن الخير فى الله تعالى ففى الحديث أنا عند ظن عبدى بى فلا يظن بى الا خيرا بل قد يجب كما فى قوله تعالى لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقيل نزلت فى رجلين اغتابا رفيقهما وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج الى رجلين موسرين يخدمهما ويتقدم لهما الى المنزل فيهيء لهما طعامهما وشرابهما فضم سلمان الفارسى الى رجلين فى بعض أسفاره فتقدم سلمان الى المنزل فغلبته عيناه فلم يهيء لهما فلما قدما قالا له ما صنعت شيأ قال لا غلبتنى عيناى قالا له انطلق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطلب لنا منه طعاما فجاء سلمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله طعاما فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق الى أسامة بن زيد وقل له ان كان عندك فضل من طعام فليعطك وكان أسامة خازن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رحله فأتاه فقال ما عندى شئ فرجع سلمان اليهما

فأخبرهما فقالا كان عند أسامة ولكن بخل فبعثنا سلمان الى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيأ فلما رجع قالا له لو بعثناه الى بئر سميحة لغار ماؤها ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاآ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما قالا والله يارسول الله ماتناولنا يومنا هذا لحما قال ظللتم تأكلون لحم أسامة وسلمان فأنزل الله عزوجل يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن وقوله تعالى (ان بعض الظن اثم) تعليل مستأنف للامر قال صلى الله عليه وسلم اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث والاثم الذنب الذى يستحق العقوبة عليه وجعل الزمخشرى همزه بدلا من واو وقال لانه يثم الاعمال أى يكسرها قال ابن عادل وهذا غير مسلم بل تلك مادة أخرى قال سفيان الثورى الظن ظنان أحدهما اثم وهو أن يظن ويتكلم به والآخر ليس باثم وهو أن يظن ولا يتكلم به وقوله تعالى (ولا تجسسوا) حذف منه احدى التاءين أى لا تتبعوا عورات المسلمين ومعايبهم بالبحث عنها قال صلى الله عليه وسلم لا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا وقال عليه الصلاة والسلام يامعشر من آمن بلسانه ولم يفض الايمان الى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فانه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله ونظر ابن عمر يوما الى الكعبة فقال ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم عند الله حرمة منك وقيل لابن مسعود هل لك فى الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمرا فقال انا نهينا عن التجسس وان يظهر لنا شىء نأخذه به * (تنبيه) * قرأ ولا تنابزوا ولا تجسسوا ولتعارفوا البزى فى الوصل بتشديد التاء والباقون بغير تشديد ولما كانت الغيبة أعم من التجسس قال (ولا يغتب) أى ولا يتعمد أن يذكر (بعضكم بعضا) أى فى غيبته بما يكره قال القشيرى وليس تحصل الغيبة للخلق الا من الغيبة عن الحق وقال أبو حيان قال ابن عباس الغيبة ادام كلاب الناس وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره قيل أفرأيت ان كان فى أخى ما أقول قال ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه ما تقول فقد بهته وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنهم ذكروا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فقالوا لا يأكل حتى يطعم ولا يرحل حتى يرحل فقال النبى صلى الله عليه وسلم اغتبتموه فقالوا انما حدثنا بما فيه قال حسبك اذا ذكرت أخاك بما فيه وفى هذا اشارة الى وجوب حفظ عرض المؤمن فان تمزيق عرض الانسان كتمزيق أديمه ولحمه كما قال تعالى (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه) وقرأ (ميتا) نافع بتشديد الياء والباقون بالسكون ولما كان الجواب قطعا لا يحب أحد ذلك أشار اليه بما سببه من قوله تعالى (فكرهتموه) أى بسبب ما ذكر طبعا فأولى أن تكرهوا الغيبة المحرمة عقلا لان داعى العقل بصير عالم وداعى الطبع أعمى جاهل * (تنبيه) * فى هذا التشبيه اشارة الى أن عرض الانسان كدمه ولحمه لان الانسان يتألم قلبه من قرض العرض كما يتألم جسمه من قطع اللحم وهذا

من باب القياس الظاهر لان عرض الانسان أشرف من لحمه ودمه فاذا لم يحسن من العاقل أكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الاولى لان ذلك أشد ألما وقوله تعالى لحم أخيه آكد فى المنع لان العدو يحمله الغضب على مضغ لحم العدو وفى قوله تعالى ميتا اشارة الى دفع وهم وهو أن يقال ان الشتم فى الوجه يؤلم فيحرم وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه فلا يؤلم فيقال لحم الاخ وهو ميت أيضا لا يؤلم ومع هذا هو فى غاية القبح كما أنه لو اطلع عليه لتألم فان الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه وفيه معنى لطيف وهو أن الاغتياب أكل لحم الآدمى ميتا ولا يحل أكله الا للمضطر بقدر الحاجة والمضطر اذا وجد لحم الشاة الميتة ولحم الآدمى فلا يأكل لحم الآدمى فكذلك المغتاب اذا وجد لحاجته مدفعا غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب قال مجاهد لما قيل لهم أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا قالوا لا قيل فكرهتموه أى كما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائبا قال الزجاج تأويله ان ذكرك من لم يحضرك بسوء بمنزلة أكل لحمه وهو ميت لا يحس بذلك قال الرازى وفى ضمير فكرهتموه وجوه أظهرها أن يعود الى الاكل وثانيها أن يعود الى اللحم أى فكرهتم اللحم وثالثها أن يعود الى الميت فى قوله تعالى ميتا تقديره أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا متغيرا فكرهتموه فكأنه صفة لقوله ميتا ويكون فيه زيادة مبالغة فى التحذير يعنى الميتة ان أكلت فى الندرة تستطاب نادرا ولكن اذا أنتن وأروح وتغير لا يؤكل أصلا فكذلك ينبغى أن تكون الغيبة وذلك يحقق الكراهة ويوجب النفرة الى حد لا يشتهى الانسان أن يبيت فى بيت فيه ميت فكيف يقربه بحيث يأكله ففيه اذا كراهية شديدة وكذلك حال الغيبة وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لما عرج بى مررت بقوم لهم أظافير من نحاس يخمشون وجوههم ولحومهم فقلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم وقال ميمون بن سنان بينما أنا نائم اذا أنا بجيفة زنجى وقائل يقول لى كل هذا قلت يا عبد الله ولم آكل هذا قال انك اغتبت عبد فلان قلت والله ما ذكرت فيه خيرا ولا شرا قال ولكنك سمعت ورضيت فكان ميمون لا يغتاب أحدا ولا يدع أحدا يغتاب عنده وقوله تعالى (واتقوا الله) أى اجعلوا بينكم وبين الملك الاعظم وقاية بطاعته معطوف على ما تقدم من الاوامر والنواهى أى اجتنبوا واتقوا الله (ان الله) أى الملك الاعظم (تواب) أى مكرر للتوبة وهى الرجوع عن المعصية الى ما كان قبلها من معاملة التائب وان كرر الذنب فلا ييأس أحد وان كثرت ذنوبه وعظمت (رحيم) يزيده على ذلك بأن يكرمه غاية الاكرام * (تنبيه) * ختم سبحانه وتعالى الآيتين بذكر التوبة فقال فى الاولى ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون وقال ههنا ان الله تواب رحيم لكن لما كان الابتداء فى الآية الاولى بالنهى فى قوله تعالى لا يسخر قوم من قوم ذكر النفى الذى هو قريب من النهى وفى الثانية كان الابتداء بالامر فى قوله تعالى اجتنبوا كثيرا فذكر الاثبات الذى هو قريب من الامر وقوله تعالى (يا أيها الناس) أى كافة المؤمن وغيره (انا) أى على مالنا من العظمة (خلقناكم) أى أوجدناكم من العدم على ما أنتم عليه من المقادير

(من ذكر وأنثى) الآية مبين ومقرر لما تقدم لان السخرية من الغير وغيبته ان كان ذلك بسبب غير الدين والايمان فلا يجوز لان الناس بعمومهم كافرهم ومؤمنهم يشتركون فيما يفتخر به المفتخر لان التكبر والافتخار ان كان بسبب الغنى فالكافر قد يكون غنيا والمؤمن فقيرا وبالعكس وان كان بسبب النسب فالكافر قد يكون نسيبا والمؤمن مولى وعبدا أسود وبالعكس فالناس فيما ليس من الدين والتقوى متساوون ومتقاربون ولا يؤثر شئ من ذلك مع عدم التقوى كما قال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم فقوله تعالى يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى أي آدم وحواء فأنتم متساوون في النسب فلا تفاخر لبعض على بعض لكونهم ابناء رجل واحد وامرأة واحدة قال ابن عباس نزلت في ثابت بن قيس وقوله للرجل الذي لم يفسح له ابن فلانة فقال النبي صلى الله عليه وسلم من الذاكر فلانة قال ثابت أنا يا رسول الله فقال انظر في وجوه القوم فنظر فقال ما رأيت يا ثابت قال رأيت أبيض وأحمر وأسود قال فانك لا تفضلهم الا في الدين والتقوى فنزلت هذه الآية ونزل في الذي لم يفسح له يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا في المجالس الآية وقال قتادة لما كان فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا حتى علا على ظهر الكعبة فأذن فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيص الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم وقال الحرث بن هشام أما وجد محمد أغير من هذا الغراب الاسود مؤذنا وقال سهيل بن عمرو ان يرد الله شيأ يغيره وقال أبو سفيان اني لا أقول شيأ أخاف أن يخبره به رب العالمين رب السموات فأتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما قالوه فدعاهم وسألهم عما قالوا فاقروا فأنزل الله تعالى هذه الآية وزجرهم عن التفاخر بالانساب والتكاثر بالاموال والازدراء بالفقراء *(تنبيه)* الحكمة في اختيار النسب مع أن غيره من جملة أسباب التفاخر ولم يذكر الامور التي يفتخر بها في الدنيا وان كانت كثيرة لان النسب أعلاها لان المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار الغني المفتخر به عليه والسمن والحسن وغير ذلك لا يدوم والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له ذلك فاختاره الله تعالى للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة الى التقوى ليعلم منه بطلان غيره بطريق الاولى (فان قيل) اذا كان ورود الآية لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى فما فائدة قوله تعالى انا خلقناكم (أجيب) بأن فائدته أن كل شئ يترجح على غيره فاما أن يترجح بأمر فيه يلحقه ويترتب عليه بعد وجوده واما أن يترجح عليه بأمر قبله فالذي بعده كالحسن والقوة وغيرهما من الاوصاف المطلوبة من ذلك الشئ وأما الذي قبله فاما راجع الى أصله الذي وجد فيه أو الى الفاعل الذي أوجده فالاول كقولك هذا من نحاس وهذا من فضة والثاني كقولك هذا عمل فلان وهذا عمل فلان فقال تعالى لا ترجيح بالنسبة الى فاعلكم لانكم كلكم خلق الله تعالى فان كان عندكم تفاوت فهو بأمور تحصل لكم بعد وجودكم وأشرفها التقوى ولما كان تفصيلهم الى فرق كل منها يعرف به أمرا باهرا عبر فيه بنون العظمة فقال تعالى (وجعلناكم) أي بعظمتنا (شعوبا) جمع شعب بفتح الشين وهو أعلى طبقات الانسان مثل ربيعة ومضر والاوس والخزرج (وقبائل) أي تحت

الشعوب وذلك أن طبقات النسل التي عليها العرب سبعة الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة والعشيرة وكل واحد يدخل فيما قبله فالقبائل تحت الشعوب والعمائر تحت القبائل والبطون تحت العمائر والافخاذ تحت البطون والفصائل تحت الافخاذ والعشائر تحت الفصائل خزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصي بطن وعبد مناف فخذ وهاشم فصيلة والعباس عشيرة قال البغوي وليس بعد العشيرة حي يوصف اه وسمي الشعب شعبا لتشعب القبائل منه واجتماعهم به كتشعب أغصان الشجرة والشعب من الاضداد يقال شعب أي جمع ومنه شعب القدح وشعب أي فرق والقبائل واحدها قبيلة سميت بذلك لتقابلها شبهت بقبائل الرأس وهي قطع متقابلة وقيل الشعوب في العجم والقبائل في العرب والاسباط في بني اسرائيل وقيل الشعب النسب الابعد والقبيلة الاقرب والنسبة الى الشعب شعوبية بفتح الشين وهم جيل يبغضون العرب والعمائر واحدتها عمارة بفتح العين والبطون واحدتها بطن والفصائل واحدتها فصيلة والعشائر واحدتها عشيرة وقال أبو روق الشعوب الذين لا يعتزون الى أحد بل ينتسبون الى المدائن والقرى والقبائل العرب الذين ينتسبون الى آبائهم ثم ذكر تعالى علة الشعب بقوله تعالى (لتعارفوا) أي ليعرف الانسان من يقاربه في النسب ليصل من رحمه ما يحق له لا لتفاخروا (ان أكرمكم) أيها المتفاخرون (عند الله) أي الملك الذي لا أمر لاحد معه ولا كريم الا من أخبر كم بكرمه ولا كمال لاحد سواه (أتقاكم) أي أرفعكم منزلة عند الله أتقاكم قال قتادة في هذه الآية أكرم الكرم التقوى وألأم اللؤم الفجور وقال عليه الصلاة والسلام الحسب المال والكرم التقوى وقال ابن عباس كرم الدنيا الغنى وكرم الآخرة التقوى وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الاركان بمحجنه وهو عصا محنية الرأس فلما خرج لم يجد مناخا فنزل على أيدي الرجال ثم قام فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه فقال الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية يعني كبرها وفخرها الناس رجل تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله ثم تلا يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ثم قال أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم وعن أبي هريرة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الناس أكرم قال أكرمهم عند الله أتقاهم قالوا ليس عن هذا نسألك قال فأكرم الناس يوسف نبي الله بن نبي الله ابن نبي الله بن خليل الله قالوا ليس عن هذا نسألك قال فعن معادن العرب تسألوني قالوا نعم قال خياركم في الجاهلية خياركم في الاسلام اذا فقهوا بضم القاف على المشهور وحكي كسرها ومعناه اذا تعلموا أحكام الشرع وقال صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم قال الرازي في المراد بالآية وجهان الاول ان التقوى تفيد الاكرام الثاني ان الاكرام يورث التقوى كما يقال المخلصون على خطر والاول أشهر والثاني أظهر (فان قيل) التقوى من الاعمال والعلم أشرف لقوله صلى الله عليه وسلم افقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد (أجيب) بأن التقوى ثمرة العلم لقوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء فلا تقوى

الا للعالم فالتقى العالم أغزر علمه والعالم الذى لا يتقى كشجرة لا غرلها لكن الشجرة المثمرة أشرف من التى لا تثمر بل هى حطب قال الحسن البصرى انما الفقيه العامل بعلمه أى وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ومن قوله عز من قائل قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (فان قيل) خطاب الناس بقوله تعالى أكرمكم يقتضى اشتراك الكل فى الاكرام ولا كرامة لكافر فانه أضل من الانعام (أجيب) بأن ذلك غير لازم مع أنه حاصل بدليل قوله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم لان كل من خلق فقد اعترف بربه ثم من استمر عليه وزاد زيد فى كرامته ومن رجع عنه أزيل عنه أكثر الكرامة (ان الله) أى المحيط بكل شئ علما وقدرة (عليم) أى بالغ العلم بظواهركم يعلم أنسابكم (خبير) أى محيط العلم ببواطنكم لا تخفى عليه أسراركم فاجعلوا التقوى رداءكم ولما قال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم والاتقى لا يكون الا بعد حصول التقوى وأصله الايمان والاتقاء من الشرك (قالت الاعراب) أى أهل البادية من بنى أسد وغيرهم الذين هم معدن الغلظة والجفاء (آمنا) أى بجميع ما جئت به فامتثلنا ما أمرنا به فى هذه السورة ولنا النسب الخالص فنحن أشرف من غيرنا من أهل المدر (قل) يا أشرف الخلق تكذيبا لهم مع مراعاة الادب فى عدم التصريح بالتكذيب (لم تؤمنوا) أى لم تصدق قلوبكم لانكم لو آمنتم لم تمنوا لان الايمان التصديق بجميع ما لله من الكمال الذى منه انه لولا منه بالهداية لم يحصل الايمان فلله ولرسوله الذى كان ذلك على يديه المن والفضل (ولكن قولوا أسلمنا) أى أظهرنا الانقياد فى الظاهر للاحكام الظاهرة وأمنا من أن نكون حربا للمؤمنين وعونا للمشركين فأخبر الله تعالى ان حقيقة الايمان هو التصديق بالقلب وان الاقرار باللسان واظهار شرائعه بالابدان لا يكون ايمانا دون التصديق بالقلب والاخلاص فالاسلام هو الدخول فى السلم كما يقال أشتى اذا دخل فى الشتاء وأصاف اذا دخل فى الصيف وأربع اذا دخل فى الربيع فمن الاسلام ما هو طاعة على الحقيقة باللسان والابدان والجنان كقوله عز وجل لابراهيم أسلم قال أسلمت لرب العالمين ومنه ما هو انقياد باللسان دون القلب وذلك قوله تعالى ولكن قولوا أسلمنا (ولما يدخل الايمان) أى المعرفة التامة لم تدخل الى هذا الوقت (فى قلوبكم) فلا يعد اقرارا للسان ايمانا الا بمواطأة القلب قال ابن برجان فعموم الناس وأكثر أهل الغفلة مسلمون غير مؤمنين وعن سعد بن أبى وقاص قال أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم رهطا وأنا جالس فيهم فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا منهم لم يعطه وهو أعجبهم الى فقمت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فساررته فقلت ما لك عن فلان والله انى لاراه مؤمنا فقال صلى الله عليه وسلم أو مسلما ذكر ذلك سعد ثلاثا وأجابه بمثل ذلك ثم قال انى لاعطى الرجل وغيره أحب الى منه خشية أن يكب فى النار على وجهه وقال الرازى المسلم والمؤمن واحد عند أهل السنة فنقول الفرق بين العام والخاص ان الايمان لا يحصل الا بالقلب والانقياد قد يحصل بالقلب وقد يحصل باللسان فالاسلام أعم لكن العام فى صورة الخاص متحد مع الخاص ولا يكون أمرا آخر غيره مثاله الحيوان فى صورة الانسان أمر لا ينفك عن

الانسان فلا يجوز أن يكون ذلك الخصوان حيوانا ولا يكون انسانا فالعام والخاص مختلفان
في العموم متحدان في الوجود وكذلك المؤمن والمسلم وسيأتي زيادة تعلق ذلك في الذاريات
ان شاء الله تعالى . وقال الرازي في الآية اشارة الى بيان حال المؤلفة اذا أسلموا ويكون ايمانهم
ضعيفا فيقال لهم لم تؤمنوا لان الايمان ايقان وذلك بعد لم يدخل في قلوبهم وسيدخل باطلاعهم
على محاسن الاسلام انتهى بل الايمان دخل في قلوبهم ولكن لم يتألفوا بأهل الاسلام * (تنبيه) *
التعبير بلما يفهم انهم آمنوا بعد ذلك ويجوز أن يكون المراد بهذا النفي نفي التمكن في القلب
لا نفي مطلق الدخول بدليل انما المؤمنون دون انما الذين آمنوا (وان تطيعوا الله) أي الملك
الذي من خالفه لم يأمن عقوبته (ورسوله) أي الذي طاعته من طاعته على ما أنتم عليه من
الامر الظاهر فتؤمن قلوبكم (لا يألتكم) أي لا ينقصكم (من أعمالكم شيئا) بل يعطيكم
ما يليق به من الجزاء لان من حمل الى ملك فاكهة طيبة قدر قيمتها في السوق درهم فأعطاه الملك
درهما تنسب الملك الى البخل فهو يعطي ما تتوقعون بأعمالكم وزيادة من غير نقص فلا حاجة
الى اخباركم عن ايمانكم بغير ما يدل عليه من الاقوال والافعال وقرأ الدوري عن أبي عمرو بعد
الياء التحتية بهمزة ساكنة وأبدلها السوسي ألفا والباقون بغير همز ولا ألف ولما كان
الانسان مبنيا على النقص وان اجتهد غاية اجتهاده قال الله تعالى (ان الله) أي الذي له صفات
الكمال (غفور) أي ستور للهفوات والزلات لمن تاب وصحت نيته ولغيره ان شاء فلا عتاب
ولا عقاب (رحيم) أي يزيد على الستر عظيم الاكرام ثم بين تعالى لهم حقيقة الايمان بقوله
تعالى (انما المؤمنون) أي العريقون في الايمان الذي هو حياة القلوب قال القشيري والقلوب
لا تحيا الا بعد ذبح النفوس والنفوس لا تموت ولكنها تعيش (الذين آمنوا) أي صدقوا
معترفين (بالله) معتقدين جميع ماله من صفات الكمال (ورسوله) شاهدين برسالته وهذا الاثبات
هنا يدل على ان المنفي فيما قبل الكمال المطلق والا لقال تعالى انما الذين آمنوا (ثم لم يرتابوا)
أي لم يشكوا في دينهم وأيقنوا بأن الايمان ايقان * (تنبيه) * ثم للتراخي في الحكاية كأنه يقول
آمنوا ثم أقول شيأ آخر لم يرتابوا ويحتمل أن تكون للتراخي في الفعل أي آمنوا بالله ورسوله
ثم لم يرتابوا فيما نقل النبي صلى الله عليه وسلم من الحشر والنشر (وجاهدوا) أي أوقعوا
الجهاد بكل ما ينبغي أن تجهد النفوس فيه تصديقا لما ادعوه بألسنتهم من الايمان (بأموالهم)
وذلك هو البينة وقوله تعالى (وأنفسهم) أعم من النية وغيرها وذلك هو الشجاعة وقدم
الاموال لقلتها عند العرب (في سبيل الله) أي طريق الملك الاعظم بقتال الكفار وغيره
من سائر العبادات المحتاجة الى المال والنفس لا الذين يتخلفون ويقولون شغلتنا أموالنا
وأهلونا قال القشيري جعل الله تعالى الايمان مشروطا بخصال ذكرها وذكر بلفظ انما وهي
للتحقيق يقتضي الطرد والعكس فمن أفرد الايمان عن شرائطه التي جعلها له فمردود عليه قوله
(أولئك) أي العالو الرتبة (هم الصادقون) أي في قولهم وفعلهم انهم مؤمنون . ولما نزلت هاتان
الآيتان أتت الاعراب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلفون بالله أنهم مؤمنون صادقون

وعلم الله منهم غير ذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهؤلاء الاعراب مجهلا لهم ومبكتا (أتعلمون الله) أى أتخبرون اخبارا عظيما الملك الاعظم المحيط قدرة وعلما (بدينكم) أى بقولكم آمنا (والله) أى والحال ان الملك المحيط بكل شئ (يعلم ما فى السموات) كلها على عظمتها وكثرة ما فيها (وما فى الارض) كذلك (والله) أى الذى له الاحاطة الكاملة (بكل شئ) أى مما ذكر ومما لم يذكر (عليم) أى لا تخفى عليه خافية وهو تجهيل لهم وتوبيخ (يمنون عليك) أى يذكرون ذكر من اصطنع صنيعة وأسدى اليك نعمة (أن أسلموا) أى من غير قتال بخلاف غيرهم ممن أسلم بعد قتال منهم ولما كان المن هو القطع من العطاء الذى لا يراد عليه جزاء قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى فى جواب قولهم هذا (لا تمنوا على اسلامكم) لو فرض انكم كنتم متدينين بدين الاسلام الذى هو انقياد الظاهر مع اذعان الباطن أى لا تذكروا الامتنان أصلا لان الاسلام لا يطلب جزاؤه الا من الله تعالى فلا ينبغى عده صنيعة على أحد فان ذلك يفسده (بل الله) أى الملك الاعظم الذى له المنة على كل موجود ولا منة عليه بوجه (يمن عليكم) أى يذكر أنه أسدى اليكم نعمه (أن) أى بأن (هداكم للايمان) أى فهو المان عليكم لا أنتم عليه وعلى (فان قيل) كيف من عليهم بالهداية الى الايمان مع أنه تبين أنهم لم يؤمنوا (أجيب) بأوجه أحدها انه تعالى لم يقل بل الله يمن عليكم ان رزقكم الايمان بل قال أن هداكم للايمان ثانيها انه تعالى من عليهم بما زعموا فكأنه تعالى قال أنتم قلتم آمنا فذلك نعمة فى حقكم حيث تخلصتم من النار فقال تعالى هداكم فى زعمكم ولهذا قال تعالى (ان كنتم صادقين) أى فى قولكم آمنا فانه على تقدير الصدق انما هو بتوفيق الله تعالى وهو الذى خلق لكم قدرة الطاعة فهو الفاعل فى الحقيقة فله المنة عليكم قال القشيرى من لاحظ شيأ من أحواله فان رآها من نفسه كان مشركا وان رآها لنفسه كان مكرا فكيف يمن العبد بما هو شرك أو مكر والذى يجب عليه قبول المنة كيف يرى لنفسه على غيره منة هذا العمرى فضيحة والمنة تكدر الصنيعة اذا كانت من المخلوقين وبالمنة تطيب النعمة اذا كانت من قبل الله تعالى (ان الله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (يعلم غيب السموات) أى ما غاب فيها كلها (والارض) كذلك ولما أريد التعميم من غير تقييد بالخافقين أظهر ولم يضمر قوله تعالى (والله) أى الذى له الاحاطة بذلك وبغيره مما لا تعلمون (بصير) أى عالم أتم العلم (بما تعملون) أى من ظاهر اسلامكم فى الماضى والحاضر والآتى سواء أكان ظاهرا أم باطنا سواء أكان قد حدث فصار بحيث تعلمونه أنتم أو كان مغروزا فى جبلاتكم وهو خفى عنكم وقرأ ابن كثير بالياء التحتية على الغيبة نظرا لقوله تعالى يمنون وما بعده والباقون بالفوقية على الخطاب نظرا الى قوله تعالى لا تمنوا على اسلامكم الى آخره وفى هذه الآية اشارة الى أنه يبصر أعمال جوارحكم الظاهرة والباطنة لا يخفى عليه شئ وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحجرات أعطى من الاجر بعدد من أطاع الله وعصاه حديث موضوع

﴿ سورة ق مكية ﴾

الا قوله تعالى ولقد خلقنا السموات والارض الآية فمدنية وهي خمس وأربعون آية وثلثمائة وسبع وخمسون كلمة وألف وأربعمائة وأربعة وتسعون حرفا .

(بسم الله) أى الذى أحاط علمه بجميع خلقه العاكف منهم والبادى (الرحمن) أى الذى عم خلقه برحمته حين أرسل اليهم بشرائعه أصدق العباد (الرحيم) أى الذى خص بالفوز فى دار القرار أهل الرشاد واختلف فى تفسير قوله عز من قائل (ق) فقال ابن عباس هو قسم وقيل هو اسم للسورة وقيل اسم من أسماء القرآن وقال القرطبى هو مفتاح اسمه قدير وقادر وقاهر وقريب وقابض وقال عكرمة والضحاك هو جبل محيط بالارض من زمردة خضراء ومنه خضرة السماء والسماء مقبية عليه وعليه كنفاها ويقال هو وراء الحجاب الذى تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة وقيل متصلة عروقه بالصخرة التى عليها الارض والسماء كهيئة القبة وعليه كنفاها قال الرازى وهذا القول ضعيف لوجوه أحدها أن أكثر القراء يقف عليها ولو كان اسم جبل لما جاز الوقف فى الادراج لان من قال ذلك قال ان الله تعالى أقسم به ثانيها أنه لو كان كما ذكر لكان يكتب قاف مع الالف والفاء كما يكتب عين جارية ويكتب أليس الله بكاف عبده وفى جميع المصاحف تكتب حرف ق ثالثها ان الظاهر كون الامر فيه كالامر فى ص ون وحم وهى حروف لا كلمات فكذلك فى ق (فان قيل) هو منقول عن ابن عباس (نقول) المنقول عنه ان القاف اسم جبل وأما ان المراد ههنا ذلك فلا اه وقيل معناه قضى الامر وقضى ماهو كائن كما قالوا فى حم وفى ص صدق الله قال الرازى وقد ذكرنا أن الحروف تنبيهات قدمت على القرآن ليكون السامع بسببها يقبل على استماع ما يرد على الاسماع فلا يفوته شئ من الكلام الرائق والمعنى الفائق وذكرنا أيضا ان العبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جارحية ظاهرة ووجد فى الجارحية ما عقل معناه ووجد فيها ما لم يعقل معناه كأعمال الحج من الرمى والسعى وغيرهما ووجد فى القلبية ما عقل بالدليل وعلم كالتوحيد وامكان الحشر وصفات الله تعالى وصدق الرسل ووجد فيها ما لم يعقل ولا يمكن التصديق به لولا السمع كالصراط الممدود الاحد من السيف الارق من الشعر والميزان الذى توزن به الاعمال فكذلك ينبغى أن تكون الاذكار التى هى العبادة اللسانية فيها ما يعقل معناه كجميع القرآن الا قليلا منه وفيها ما لا يعقل ولا يفهم كحروف التهجى ليكون التلفظ به لمحض الانقياد للامر لا لما يكون فى الكلام من طيب الحكاية والقصد الى غرض كقولك ربنا اغفر لنا وارحمنا بل يكون النطق به تعبدا محضا ويؤيد هذا وجه آخر وهو ان هذه الحروف مقسم بها لان الله تعالى لما أقسم بالتين والزيتون كان تشريفا لهما فاذا أقسم بالحروف التى هى أصل الكلام الشريف الذى هو دليل المعرفة وآلة التعريف كان أولى واذا عرفت هذا فنقول القسم من الله تعالى وقع بأمر واحد كما فى قوله تعالى والعصر وقوله تعالى والنجم وبحرف واحد كما فى قوله تعالى ص ون ووقع بأمرين كما فى قوله تعالى والضحى والليل وفى قوله تعالى والسماء والطارق وبحرفين كما قال فى قوله تعالى

قوله كما قالوا فى حم الخ عبارته فى سورة المؤمن وقال الضحاك والكسائى معناه قضى ماهو كائن كأنهما أشارا الى أن معنى حم حم بضم الحاء وتشديد الميم اه

طه وطس وحم ووقع بثلاثة أمور كما فى قوله تعالى والصافات فالزاجرات فالتاليات وقوله تعالى والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود و بثلاثة أحرف كما فى قوله تعالى الم وطسم الر ووقع بأربعة أمور كما فى قوله تعالى والذاريات فالحاملات فالجاريات فالمقسمات وفى قوله تعالى والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين و بأربعة أحرف كما فى قوله تعالى المص والمر ووقع بخمسة أمور كما فى قوله تعالى والطور وكتاب مسطور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور وفى قوله تعالى والمرسلات فالعاصفات والناشرات فالفارقات فالملقيات وفى النازعات وفى الفجر و بخمسة أحرف كما فى قوله تعالى كهيعص وحم عسق ولم يقسم بأكثر من خمسة أشياء الا فى سورة واحدة وهى والشمس وضحاها ولما أقسم بالاشياء المعهودة ذكر حرف القسم وهو الواو فقال والطور والنجم والشمس وعند القسم بالحروف لم يذكر حرف القسم فلم يقل وحم وق لان القسم لما كان بنفس الحروف كان الحرف مقسما به فلم يورده فى موضع كونه آلة القسم تسوية بين الحرف وغيره ولم يدخل القسم بالحروف فى أثناء السورة لانه يخل بالنظم وقوله تعالى (والقرآن) أى الكتاب الجامع الفارق (المجيد) أى الذى له العلو والشرف والكرم والعظمة على كل كلام قسم وفى جوابه أوجه أحدها قوله تعالى قد علمنا ما تنقص الارض منهم ثانيها ما يدل القول لدى ثالثها ما يلفظ من قول رابعها ان فى ذلك لذكرى خامسها بل عجبوا وهو قول كوفى قالوا لان معناه قد عجبوا سادسها انه محذوف قدره الزجاج والمبرد والاخفش لتبعثن وغيرهم لقد جاءكم منذر وقدره الجلال المحلى بقوله ما آمن كفار مكة بمحمد صلى الله عليه وسلم * (تنبيه) * جوابات القسم سبعة ان المشددة كقوله تعالى والعصر ان الانسان لفى خسر وما النافية كقوله تعالى والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك واللام المفتوحة كقوله تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين وان الخفيفة كقوله تعالى تالله ان كنا لفى ضلال مبين ولا النافية كقوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت وقد كقوله تعالى والشمس وضحاها قد أفلح من زكاها وبل كقوله تعالى والقرآن المجيد (بل) أى ان تكذيبهم ليس لانكار شئ من مجدك ولا انكار صدقك بل لانهم (عجبوا) أى الكفار وأضمرهم قبل الذكر اشارة الى أنه اذا ذكر شئ خارج عن سنن الاستقامة انصرف اليهم والعجب تغير النفس لامر خارج عن العادة (ان جاءهم منذر منهم) أى رسول من أنفسهم يخوفهم بالنار بعد البعث واقتصر على الانذار لان المقام لتخويف من قدم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من عليه باسلام أو غيره ولتخويف من أنكر البعث والعجب منهم هو العجب لان العادة عندهم وعند جميع الناس انه اذا كان النذير منهم لم يداخلهم فى انذاره شك بوجه من الوجوه وهؤلاء خالفوا عادة الناس فى تعجبهم من كون النذير وهو أحدهم خص بالرسالة دونهم ولم يدركوا وجه الخصوصية لكونه مثلهم فلذلك أنكروا رسالته وفضل كتابه بألسنتهم تعاندا وحسدا لانهم كانوا معترفين بخصائصه التى رفعه الله تعالى بها عليهم قبل الرسالة فحطهم عجبهم ذلك الى الحضيض من دركات السفه

وخفة الاحلام لانهم عجبوا أن كان الرسول بشرا وأوجبوا أن يكون الاله حجرا وعجبوا أن يعادوا من تراب لم يكن له أصل فى الحياة ولذلك سبب عنه قوله تعالى (فقال) أى بسبب انذاره بالبعث (الكافرون) وصرح به فى موضع الاضمار ايذانا بأنهم لم يخف عليهم شئ من أمره ولكنهم ستروا تعديا برأى عقولهم الدالة على جميع أمره دلالة ظاهرة وعبر عادل على النذارة لانها المقصود الاعظم من هذه السورة وجميع سياق الجرات ظاهر فيها (هذا) أى كون النذير منا خصص بالرسالة من دوننا وكون ما أنذر به هو البعث بعد الموت (شئ عجيب) أى بليغ فى الخروج عن عادة اشكاله وقد كذبوا فى ذلك أما من جهة النذير فان أكثر الرسل من الطوائف الذين أرسلوا اليهم وقليل منهم من كان غريبا ممن أرسل اليه وأما من جهة البعث فان أكثر ما فى الكون مثل ذلك من اعادة كل من الملوين بعد ذهابه واحياء الارض بعد موتها واخراج النبات والاشجار والثمار وغير ذلك مما هو ظاهر جدا ولما كان المتعجب منه مجملا أوضحه بقوله تعالى حكاية عنهم مبالغين فى الانكار بافتتاح انكارهم باستفهام انكارى (أئذا متنا) ففارقت أرواحنا أبداننا (وكنا ترابا) لافرق بينه وبين تراب الارض ولما كان العامل فى الظرف ما تقديره نرجع دل عليه بقوله تعالى دالا بالاشارة بأداة البعد الى عظيم استبعادهم (ذلك) أى الامر الذى فى غاية البعد وهو مضمون الخبر رجوعنا (رجع) أى رد الى ما كنا عليه (بعيد) جدا لانه لايمكن تمييز ترابنا من بقية التراب وقرأ قالون وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية وهى المكسورة وادخال ألف بينها وبين الهمزة الاولى المفتوحة وقرأ ورش وابن كثير بتسهيل الثانية من غير ادخال وقرأ الباقون بتحقيقهما وأدخل هشام بينهما ألفا بخلاف عنه والباقون بغير ادخال وكسر الميم من متنا نافع وحفص وحمزة والكسائى والباقون بالضم وقوله تعالى (قد علمنا) أى بما لنا من العظمة (ما تنقص الارض منهم) أى تأكل من أجزائهم المتحللة من أبدانهم بعد الموت وقبله رد لاستبعادهم لان من لطف علمه حتى تغلغل الى ما تنقص الارض من أجزاء الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادرا على رجعهم أحياء كما كانوا وعنه عليه الصلاة والسلام كل ابن آدم يبلى الا عجب الذنب وعن السدى ما تنقص الارض منهم من يموت منهم ومن يبقى وهذه الآية تدل على جواز البعث وقدرته تعالى عليه لان الله تعالى عالم باجزاء كل واحد من الموتى لايشتبه عليه جزء واحد بجزء الآخر قادر على الجمع والتأليف فليس الرجع منه ببعيد وهذا كقوله تعالى وهو الخلاق العليم حيث جعل للعلم مدخلا فى الاعادة وهذا جواب ما كانوا يقولون أئذا ضللنا فى الارض أى انه تعالى كما يعلم أجزاءهم يعلم أعمالهم فيرجعهم ويعيدهم بما كانوا يقولون وبما كانوا يعملون (وعندنا) أى على ما لنا من الغنى عن كل شئ (كتاب) أى جامع لكل شئ (حفيظ) أى بالغ فى الحفظ لايشذ عنه شئ من الاشياء جل أودق وقيل محفوظ من الشياطين ومن أن يندرس او يغير وعلى الحالين الحفيظ هو اللوح المحفوظ قال الرازى والاول هو الاصح لان الحفيظ بمعنى الحافظ وارد فى القرآن قال الله تعالى وما أنت عليهم بحفيظ وقال تعالى حفيظ عليهم ولان الكتاب للتمثيل

ومعناه العلم عندي كما يكون في الكتاب فهو يحفظ الاشياء وهو مستغن عن أن يحفظ وقوله تعالى (بل كذبوا بالحق) أي الامر الثابت الذي لا أثبت منه اضراب ثان قال الزمخشري اضراب اتبع للاضراب الاول للدلالة على انهم جاؤا بما هو أفظع من تعجبهم وهو التكذيب بالحق (لما) أي حين (جاءهم) أي لما ثار عندهم من أجل تعجبهم من ارسال رسولهم من حظوظ النفوس حسدا منهم من غير تأمل لما قالوه ولا تدبر ولا نظر فيه ولا تذكر فلذلك قالوا ما لا يعقل من أن من قدر على ايجاد شئ من العدم وابدائه لا يقدر على اعادته بعد اعدامه له (فهم) اى لاجل مبادرتهم الى هذا القول السفساف (في أمر مريج) أي مضطرب جدا مختلط من المرج الذي هو اختلاط النبت بالانواع المختلفة فهم تارة يقولون سحر وتارة كهانة وتارة شعر وتارة كذب وتارة غير ذلك لا يثبتون على شئ واحد والاضطراب موجب للاختلاف وذلك أدل دليل على الابطال كما ان الثبات والخلوص موجب للاتفاق وذلك أدل دليل على الحقية قال الحسن ماترك قوم الحق الا مرج أمرهم وكذا قال قتادة وزاد والتبس عليهم دينهم ثم ذكر تعالى الدليل الذي يدفع قولهم ذلك رجع بعيد بقوله تعالى (أفلم ينظروا) أي بعين البصر والبصيرة (الى السماء) أي المحيطة بهم (فوقهم) فان غيرها انما هو فوق ناس منهم لا فوق الكل (كيف بنيناها) أي اوجدناها على مالنا من الجد والعزمبنية كالخيمة الا انها من غير عمد (وزيناها) أي بما فيها من الكواكب الكبار والصغار السيارة والثابتة (وما) أي والحال ان ما (لها) وأكد النفي بقوله تعالى (من فروج) أي فتوق وطاقات وشقوق بل هي ملساء متلاصقة الاجزاء (والارض) أي المحيطة بهم التي هم عليها (مددناها) أي بسطناها بمالنا من العظمة (وألقينا) أي بعظمتنا (فيها رواسي) اى جبالا ثوابت كانت سببا لثباتها وخالفت عادة المراسي في أنها من فوق والمراسي التي تعالجونها أنتم من تحت (وأنبتنا) أي بمالنا من العظمة (فيها) اى الارض وعظم قدرته بالتبعيض فقال تعالى (من كل زوج) أي صنف من النبات تزاوجت اشكاله (بهيج) أي هي في غاية الرونق والاعجاب فكان مع كونه رزقا منتزها (تبصرة) أي جعلنا هذه الاشياء كلها لاجل أن تنظروا بأبصاركم وتتفكروا ببصائركم فتعبروا منها الى صانعها فتعلموا ماله من العظمة (وذكرى) أي ولتذكروا بها تذكرا عظيما بمالكم من القوى والقدر فتعلموا بعجزكم عن كل شئ من ذلك ان صانعها لا يعجزه شئ وأنه محيط بجميع صفات الكمال وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش بالامالة بين بين والباقون بالفتح *(تنبيه)* قال الرازي يحتمل أن يكون الامران عائدين الى السماء والارض أي خلق السماء تبصرة وخلق الارض ذكرى ويدل على ذلك ان السماء وزينتها غير مستجدة في كل عام فهي كالشئ المرئي على ممر الزمان وأما الارض فهي كل سنة تأخذ زينتها وزخرفها فتذكر فالسماء تبصرة والارض تذكرة ويحتمل أن يكون كل واحد من الامرين موجودا في كل واحد من الامرين فالسماء تبصرة وتذكرة والارض كذلك والفرق بين التذكرة والتبصرة هو أن فيهما آيات مستمرة منصوبة في مقابلة البصائر وآيات متجددة مذكرة عند التناسي (لكل عبد) أي

لتبصر وتذكر كل عبد بماله من النقص ويعادل عليه هذا الصنع من الكمال أنه عبد مربوب لصانعه (منيب) اى رجاع عما حطه اليه طبعه الى مايغلبه عليه عقله فيرجع من شهود هذه الافعال الى شهود الصفات الى علم الذات ثم ذكر تعالى دليلا بقوله تعالى (ونزلنا من السماء) أى المحل العالى الذى لايمسك فيه الماء عن دوام التقاطر الا بقاهر (ماء) أى شيأ فشيأ فى أوقات وعلى سبيل التقاطر ولولا عظمتنا التى لا تضاهى لغلب بماله من الثقل والميوع والنفوذ فنزل دفعة واحدة فأهلك مانزل عليه فزالت المسرة وعادت المنفعة مضرة (مباركا) أى نافعا جدا كثير البركة وفيه حياة كل شئ وهو المطر فيكون الاستدلال بالسماء والارض ومابينهما وهو انزال الماء من فوق واخراج النبات من تحت (فأنبتنا) أى بمالنا من القدرة الباهرة (به جنات) من الشجر والثمر والزرع والريحان وغيره مما تجمعه البساتين فتجن أى تستر الداخل فيها (وحب الحصيد) أى النجم الذى من شأنه أنه يحصد كالبر والشعير ونحوهما وقوله تعالى (والنخل) منصوب عطفا على مفعول أنبتنا أى وأنبتنا النخل وقوله تعالى (باسقات) أى طوالا حال مقدرة لانها وقت الانبات لم تكن طوالا والبسوق الطول يقال بسق فلان على أصحابه أى طال عليهم فى الفضل ومنه قول ابن نوفل فى ابن هبيرة

يا ابن الذين بمجدهم * بسقتهم قيس فزاره

وهو استعارة والاصل استعماله فى بسقت النخلة تبسق بسوقا أى طالت قال الشاعر

لنا خمر وليست خمر كرم * ولكن من نتاج الباسقات

كرام فى السماء ذهبن طولا * وفات ثمارها أيدى الجناة

وبسقت الشاة ولدت وأبسقت الناقة وقع فى ضرعها اللبن قبل النتاج وقال سعيد بن جبير باسقات مستويات وأفردها بالذكر لفرط ارتفاعها (لها طلع) يجوز أن تكون الجملة حالا من النخل أو من الضمير فى باسقات ويجوز أن يكون الحال وحده لها وطلع فاعل به وقوله تعالى (نضيد) بمعنى منضود بعضها فوق بعض فى أكمامها كما فى سنبلة الزرع وهو عجيب فان الاشجار الطوال ثمارها بارزة بعضها على بعض لكل واحدة منها أصل يخرج منه كالجوز واللوز والطلع كالسنبلة الواحدة تكون على أصل واحد وقوله تعالى (رزقا) يجوز أن يكون حالا أى مرزوقا (للعباد) ويجوز أن يكون مفعولا له وللعباد اما صفة واما متعلق بالمصدر (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى عند ذكر خلق السماء والارض تبصرة وذكرى وفى الثمار قال رزقا والثمار أيضا فيها تبصرة وفى السماء والارض أيضا منفعة غير التبصرة والتذكرة (أجيب) بان الاستدلال وقع لوجود أمرين أحدهما الاعادة والثانى البقاء بعد الاعادة فان النبى صلى الله عليه وسلم كان يخبرهم بحشر وجمع يكون بعده الثواب الدائم والعقاب الدائم وأنكروا ذلك فقال أما الاول فالله القادر على خلق السموات والارض قادر على خلق الخلق بعد الفناء واما الثانى فلان البقاء فى الدنيا بالرزق والقادر على اخراج الارزاق من النخل والشجر قادر على أن يرزق بعد الحشر فكان الاول تبصرة وتذكرة بالخلق والثانى تذكرة بالبقاء والرزق ويدل على هذا الفصل بينهما بقوله تعالى

تبصرة وذكرى حيث ذكر ذلك بين الآيتين ثم بدأ بذكر الماء وانزاله وانباته النبات *(تنبيه)*
لم يقيد هنا العباد بالانابة وقيده في قوله تعالى تبصرة وذكرى لكل عبد منيب لان التذكرة
لاتكون الا للمنيب والرزق يعم كل أحد غير أن المنيب يأكل ذاكرا وشاكرا للانعام وغيره يأكل
كما تأكل الانعام فلم يخصص بقيد ولما كان في ذلك أعظم مذكر للبصراء بالبعث وبجميع صفات
الكمال اتبعه ما هو من التذكير بالبعث بخصوصه فقال تعالى (وأحيينا به) أى الماء بعظمتنا
(بلدة) وسمها بالتأنيث اشارة الى انها في غاية الضعف والحاجة الى النبات والخلو عنه وذكر
(ميتا) للزيادة في تقرير تمكن الحاجة فيها أو حملا على معنى المكان (فان قيل) ما الفرق بين هذا
الموضع وبين قوله تعالى وآية لهم الارض الميتة حيث أثبت الهاء هناك (أجيب) بأن الاصل
في الارض الوصف فقال الميتة لان معنى الفاعلية ظاهر هناك والبلدة الاصل فيها الحياة لان
الارض اذا صارت حية صارت آهلة وأقام بها القوم وعمروها فصارت بلدة فأسقط التاء لان
معنى الفاعلية غير ظاهر فتثبت فيه الهاء واذا كان معنى الفاعل لم يظهر لاتثبت فيه الهاء ويحقق
هذا القول قوله تعالى بلدة طيبة حيث أثبت الهاء حيث ظهر معنى الفاعل ولم يثبت حيث لم يظهر
(كذلك) أى مثل الاخراج العظيم (الخروج) من قبورهم على ما كانوا عليه في الدنيا اذ لافرق بين
خروج النبات بعدما تهشم وتفتت في الارض وصار ترابا كما كان من بين أصفره وأبيضه وأحمره
وأزرقه الى غير ذلك وبين اخراج ما تفتت من الموتى كما كانوا في الدنيا *(تنبيه)* قال أبو حيان
ذكر تعالى في السماء ثلاثة البناء والتزيين ونفى الفروج وفي الارض ثلاثة المد والقاء الرواسي
والانبات فقابل المد بالبناء لان المد وضع والبناء رفع والقاء الرواسي بالتزيين بالكواكب لارتكاب
كل واحد منهما أى على سطح ما هو فيه والانبات المترتب على الشق بانتفاء الفروج فلاشق فيها
ونبه فيما تعلق به الانبات على ما يقطف كل سنة ويبقى أصله وما يزرع كل سنة أو سنتين ويقطف كل
سنة وعلى ما اختلط من جنسين فبعض الثمار فاكهة لاقوت وأكثر الزرع قوت والثمر فاكهة
وقوت وقوله تعالى (كذبت قبلهم) الآية فيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتنبيه بأن حاله
كحال من تقدمه من الرسل كذبوا وصبروا فأهلك الله تعالى مكذبيهم ونصرهم ولما لم يكن لهؤلاء
المكذبين شهرة يعرفون بها قال تعالى (قوم نوح) الذين كان آخر أمرهم أنه التقى عليهم الماآن
نزل عليهم ماء السماء وطلع عليهم ماء الارض فأغرقهم ووسم الفعل بالتاء اشارة الى هوانهم
في جنب هذا المجد وأسقط الجار من قوله تعالى قبلهم اشارة الى أن هؤلاء الاحزاب لقوتهم
وكثرتهم كأنهم أهل الارض قد استغرقوا مكانها وزمانها ثم اتبع قوم نوح بمشابهيهم بقوله تعالى
(وأصحاب الرس) أى البئر كانوا مقيمين عليها بمواشيهم يعبدون الاصنام ونبيهم قيل حنظلة
ابن صفوان وقيل غيره فخسفت تلك البئر مع ما حولها فذهبت بهم وبكل ما لهم كما ذكرت قصتهم
في الفرقان ثم اتبع أصحاب الرس بقوم صالح عليه السلام فقال (وثمود) لان الرجفة التي
أخذتهم مبدأ الخسف ثم اتبع ثمود بقوم هود عليه السلام فقال تعالى (وعاد) لان الريح التي
أهلكتهم أثرت بها صيحة ثمود وقال تعالى (وفرعون) ولم يقل قوم فرعون لانه ليس في عادة هذه

الفرق كافر غيره والنص عليه يفهم عظمته وانه استخف قومه فأطاعوه (واخوان لوط) أى اصهاره الذين صار بينه وبينهم مع المصاهرة المناصرة بملوكهم على من قاواهم بنفسه وعمه خليل الله ابراهيم عليهما السلام ومع ذلك عاملوه بالخيانة والتكذيب (وأصحاب الايكة) أى الغيضة وهم قوم شعيب والغيضة الشجر الملتف بعضه على بعض ولما كان تبع الحميرى واسمه سعد وكنيته أبو كرب مع كونه فى قومه ملكا قاهرا وخالفوه مع ذلك وكان لقومه نار فى بلادهم يتصا كمون اليها فتأكل الظالم ختم بهم فقال تعالى (وقوم تبع) مع كونه ملكا ويدعوهم الى الله تعالى فلا يظن أن التكذيب مخصوص بمن كان قويا لمن كان مستضعفا بل هو واقع بمن شئنا من قوى وضعيف لا يخرج شئ عن مرادنا (كل) أى من هذه الفرق (كذب الرسل) أى كلهم بتكذيب رسولهم فان الكل متساوون فيما يوجب الايمان من اظهار المعجز والدعاء الى الله تعالى (فحق) أى فتسبب عن تكذيبهم لهم أن ثبت عليهم ووجب (وعيد) أى الذى كانوا يكذبون به عند انذارهم لهم اياه فجعلنا لهم منه فى الدنيا ما حكمنا به عليهم فى الازل فأهلكناهم اهلاكا عاما كاهلاك نفس واحدة على أنحاء مختلفة كما هو مشهور عند من له بامثاله عناية واتبعناه ما هو فى البرزخ وأخرنا ما هو فى القيامة الى يوم البعث فثبت باهلاكهم على تنافى ديارهم وتباعد أعصارهم وكثرة أعدادهم أن لنا الاحاطة البالغة فتسل باخوانك المرسلين وتأس بهم وليحذر قومك ما حل بمن كذبهم ان أصروا (أفعيينا بالخلق) أى أحصل لنا بما لنا من العظمة الاعياء وهو العجز بسبب الخلق فى شئ من ايجاده أو اعدامه (الاول) أى من السموات والارض وما بينهما حين ابتدأناه اختراعا من العدم ومن خلق الانسان وسائر الحيوان مجددا فى كل أوان فى الاطوار المشاهدة على هذه التدريجات المعتادة بعد أن خلقنا أصله على ذلك الوجه بما ليس له أصل فى الحياة ومن اعدامه بعد خلقه جملة كهذه الامم أو تدريجا كغيرهم (بل هم فى لبس) أى شك شديد وشبهة موجبة للتكلم بكلام مختلط لا يعقل له معنى بل السكوت عنه أجمل (من) أى لاجل (خلق جديد) أى بالاعادة ولما ذكر المنافقين أتبعه خلق ما هو جامع لجميع ما هو فيهما فقال تعالى (ولقد) أى والحال أنا قد (خلقنا) أى بما لنا من العظمة (الانسان) وهو أعجب خلقا وأجمع من جميع ما مضى ذكره بما فيه من الانس والطغيان والذكر والنسيان والجهل والعرفان والطاعة والعصيان وغير ذلك من عجيب الشان ووكلنا به من جنودنا من يحفظه فيضبط حركاته وسكناته وجميع أحواله (ونعلم) والحال انا نعلم بما لنا من الاحاطة (ما توسوس) أى تكلم على وجه الخفاء (به) أى الآن وفيما بعد ذلك (نفسه) مما لم يتقدح بعلمن خزائن الغيب الى سر النفس كما علمنا ما تكلم نفسه وهى الخواطر التى تعرض له حتى انه هو ربما عجز عن ضبطها فنحن نعلم أن قلوبهم عالمة بقدرتنا على أكمل ما نريد وبصحة القرآن واعجازه وصدق الرسول به صلى الله عليه وسلم وامتيازه وانما حملهم الحسد والنفاسة والكبر والرياسة على الانكار باللسان حتى صار لهم ذلك خلقا وعنادا وافيه حتى غطى على عقولهم فصاروا فى لبس محيط بهم من جميع الجوانب (ونحن) أى بما لنا من العظمة (أقرب اليه) أى قرب علم وشهود من غير

مسافة (من حبل الوريد) لان ابعاضه وأجزاءه يحجب بعضها بعضا ولا يحجب علم الله تعالى شئ والوريدان عرقان مكتنفان بصفحتي العنق في مقدمها متصلان من الرأس الى الوتين وهو عرق متصل بالقلب اذا قطع مات صاحبه وهذا مثل في فرط القرب واضافته مثل مسجد الجامع أى حبل العرق الوريد أولان الحبل أعم فأضيف للبيان نحو بئر ساقية أو يراد حبل العاتق وأضيف الى الوريد كما يضاف الى العاتق لانهما في عضو واحد وقال البغوى حبل الوريد عرق الفرق وهو عرق بين الحلقوم والعلباوين يتفرق في البدن والحبل هو الوريد فأضيف الى نفسه لاختلاف اللفظين قال القشيرى وفي هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم وروح وأنس وسكون قلب لقوم وقوله تعالى (اذ يتلقى) ظرف لاقرب ويجوز أن يكون منصوبا باذكر أى واذكر اذ يتلقى أى بغاية الاجتهاد والمراقبة والمراعاة من كل انسان خلقناه وأبرزناه الى هذا الوجود (المتلقيان) أى الملكان الموكلان بعمل الانسان ومنطقه يحفظانه ويكتبانه حال كونهما (عن اليمين) لكل انسان (وعن الشمال) اى أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله فالذى عن اليمين يكتب الحسنات والذى عن الشمال يكتب السيئات وقوله تعالى (قعيد) أى قاعدان مبتدأ وخبره ما قبله لان فعيلا يطلق على الواحد والمتعدد كقوله تعالى بعد ذلك ظهير قال ابن عادل والاجود أن يدعى حذف اما من الاول أى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد واما من الثانى فيكون قعيدا الملفوظ به للاول ومثله قوله رمانى بأمر كنت منه ووالدى * بريأ ومن أجل الطوى رمانى وقال مجاهد القعيد المرصد ونحن أعلم منهما وأقرب وانما استحفظناهما لاقامة الحجة بهما على مجارى عاداتكم وغير ذلك من الحكم (ما يلفظ) أى يرمى ويخرج المكلف من فيه وعم في النفى بقوله تعالى (من قول) جل أو قل (الالديه) أى الانسان أو القول على هيئة من القدرة والعظمة من أغرب المستغرب (رقيب) من حفظتنا شديد المراعاة في كل من أحواله (عتيد) أى حاضر مراقب غير غافل بوجه قال الجلال المحلى وكل منهما بمعنى المثنى أى رقيبان عتيدان روى أبو أمامة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيآت على يسار الرجل وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيآت فاذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر * (تنبيه) * اختلف فيما يكتبان فقال مجاهد يكتبان عليه حتى أنينه في مرضه وقال عكرمة لا يكتبان الا مايؤجر عليه أو يوزر فيه * (فائدتان) * احداهما قال الحسن ان الملائكة يجتنبون الانسان عند حالتين عند غائطه وعند جماعه الثانية قال الضحاك مجلسهما تحت الشعر على الحنك ومثله عن الحسن وكان الحسن يعجبه أن ينظف عنفقته (وجاءت) أى أتت وحضرت (سكرة الموت) أى حالته عند النزع وشدته وغمرته يصير المريض بها كالسكران لا يعى وتخرج بها أقواله وأفعاله عن قانون الاعتدال مجيأ ملتبسا (بالحق) أى الامر الثابت الذى يطابقه الواقع فلا حيلة في الاحتراس منه وقيل للميت بلسان الحال ان لم يكن بلسان المقال (ذلك) أى هذا الامر العظيم العالى الرتبة الذى يحق لكل أحد الاعتداد له بغاية الجهد (ما) أى الامر الذى (كنت) أى جبلة

وطبعا (منه تحيد) أى تميل وتنفر وتروغ وتهرب * (تنبيه) * قيل الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم قال الرازى وهو منكر وقيل مع الكافر قال ابن عادل والاقوى أن يقال هو خطاب عام مع السامع وهذا أولى وقوله تعالى (ونفخ فى الصور) عطف على قوله تعالى وجاءت سكرة الموت وهو القرن الذى ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام للموت العام والبعث العام عند التكامل وانقطاع أوان التعامل وهو بحيث لا يعلم قدر عظمه واتساعه الا الله تعالى وهو عليه السلام قد التقم الصور من حين بعث النبى صلى الله عليه وسلم وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر فيا لها من عظمة ما أغفلنا عنها وأنسانا لها والمراد بهذه نفخة البعث وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى الزمان المفهوم من قوله نفخ لان الفعل كما يدل على المصدر يدل على الزمان فكأنه تعالى قال ذلك الزمان العظيم الاهوال والاوجال (يوم الوعيد) أى للكفار بالعذاب (وجاءت) أى فيه (كل نفس) أى مكلفة (معها سائق) أى ملك يسوقها اليه (وشهيد) يشهد عليها بعملها قال الضحاك السائق من الملائكة والشاهد من أنفسهم وهو الايدى والارجل وغيرها وهى رواية العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقيل هما جميعا من الملائكة فالسائق كما قيل لا تعلق له بالشهادة لئلا تقول تلك النفس انه خصم والخصم لا تقبل شهادته وقيل السائق هو الذى يسوقه الى الموقف ومنه الى مقعده والشهيد هو الكاتب والسائق لازم للبرّ والفاجر أما البرّ فيساق الى الجنة وأما الفاجر فالى النار قال تعالى وسيق الذين كفروا وقال تعالى وسيق الذين اتقوا والشهيد يشهد عليها بما عملت * (تنبيه) * يجوز فى جملة معها سائق وشهيد أن تكون فى موضع جر صفة لنفس وأن تكون فى موضع رفع صفة لكل وأن تكون فى موضع نصب على الحال من كل ويقال للكافر (لقد كنت) أى كونا كأنه جبلة لك (فى غفلة) أى عظيمة محيطة بك ناشئة لك (من هذا) أى من تصور هذا اليوم على ما هو عليه من انقطاع الاسباب والجزاء بالثواب أو العقاب لانه على شدة جلائه خفى على من اتبع الشهوات (فكشفنا) بعظمتنا بالموت ثم البعث (عنك غطاءك) الذى كان فى الدنيا على قلبك وسمعك وبصرك من الغفلة بالآمال فى الحال والمآل وسائر الحظوظ والشهوات (فبصرك اليوم) أى بعد البعث (حديد) أى فى غاية الحدة والنفوذ فلذا تقر بما كنت تنكر فى الدنيا وقال مجاهد يعنى نظرك الى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك والمعنى أزلنا غفلتك فبصرك اليوم حديد وكان من قبل كليلا واختلف فى القرين فى قوله تعالى (وقال قرينه) فأكثر المفسرين على أنه الملك الموكل به فيقول (هذا ما) أى الذى (لدى عتيد) أى حاضر ونقل الكرمانى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه الشيطان الذى سلط على اغوائه واستدراجه الى ما يريد فزين له الكفر والعصيان ويدل لهذا قوله تعالى وقيضنا لهم قرناء وقال تعالى نقيض له شيطانا فهو له قرين وقال تعالى فبئس القرين فالاشارة بهذا الى المسوق المرتكب الفجور والفسوق والعتيد معناه المعدّ للنار ومعناه ان الشيطان يقول هذا العاصى هو شئ عندى معدّ لجهنم أعددته لها بالاغواء والاضلال وقوله تعالى (ألقيا فى جهنم) أى النار التى تلقى الملقى فيها بما كان يعامل به عباد الله تعالى من الكبر والعبوسة (كل كفار) خطاب من

الله تعالى للسائق والشهيد أو للملكين من خزنة النار أو الواحد وتثنية الفاعل منزل منزلة تثنية الفعل وتكريره كأنه قيل ألق ألق وقيل أراد ألقيا بالنون الخفيفة فأبدلها ألفا اجراء للوصل مجرى الوقف وقيل العرب تخاطب الواحد مخاطبة الاثنين تأكيدا كقوله

فان تزجراني يا ابن عفان أزدجر * وان تدعاني أحم عرضا ممنعا

قال ابن عادل وقيل المأمور مثنى وهذا هو الحق لان المراد ملكان يفعلان ذلك اهـ وهو القول المتقدم (عنيد) وهو المبالغ فى ستر الحق والمعاداة لاهله بغير حجة حمية وأنفة نظرا الى استحسان ما عنده والثبات عليه تجبرا وتكبرا على ما عند غيره ازدراءله كائنا من كان (مناع) أى كثير المنع (للخير) من المال وغيره من كل معروف يعلق بالمال والمقال والفعال وقيل المراد الاسلام فان الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة لما منع بنى أخيه عنه (معتد) أى مجاوز للحدود (مريب) أى داخل فى الريب وهو الشك والتهمة فى أهل الدين وقوله تعالى (الذى جعل مع الله) أى الذى له الاحاطة بجميع صفات الكمال (الها آخر) يجوز أن يكون منصوبا على الذم أو على البدل من كل وأن يكون مجرورا بدلا من كفار أو مرفوعا بالابتداء والخبر (فألقياه فى العذاب) أى الذى يزيل كل عذوبة (الشديد) ودخلت الفاء فى الخبر لتضمن المبتدا معنى الشرط ويجوز أن يكون خبر مبتدا مضمر أى هو الذى جعل ويكون فألقياه تأكيدا (قال قرينه) مناديا باسقاط الاداة كدأب أهل القرب ايهاما انه منهم (ربنا) أى أيها المحسن الينا أيتها الخلائق كلهم (ما أطغيته) أى ما أوقعته فيما كان فيه من الطغيان فانى لا سلطان لى عليه وأنت أعلم بذلك (ولكن كان) أى بجبلته وطبعه (فى ضلال بعيد) أى محيط به من جميع جوانبه لا يمكن رجوعه معه فلذلك كان يبادر الى كل ما يغضب الله تعالى * (تنبيه) * هذا جواب لكلام مقدر فان الكافر حين مايلقى فى النار يقول ربنا أطغانى شيطانى فيقول ربنا ما أطغيته بدليل قوله تعالى لا تختصموا لدى لان المخاصمة تستدعى كلاما من الجانبين ونظيره قوله تعالى فى سورة ص قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم الى قوله تعالى ان ذلك لحق تخاصم أهل النار قال الزمخشرى وهذا يدل على أن المراد بالقرين فى الآية المتقدمة هو الشيطان لا الملك الذى هو شهيد وقعيد قال الرازى وجاءت هذه الآية بلا واو وفى الاولى بواو عاطفة لان الاولى اشارة وقعت الى معنيين مجتمعين فان كل نفس فى ذلك الوقت تجىء ومعها سائق وشهيد فيقول الشهيد ذلك القول وفى الثانية لم يوجد هنالك معنيان مجتمعان حتى تذكر الواو فان الفاء فى قوله تعالى فألقياه فى العذاب لا تناسب قوله تعالى قال قرينه ربنا ما أطغيته فليس هنالك مناسبة مقتضية للعطف (فان قيل) كيف قال ما أطغيته مع انه قال لاغوينهم أجمعين (أجيب) بأن المراد من قوله لاغوينهم أى لادعينهم على الغواية كما أن الضال اذا قال له شخص أنت على الجادة فلا تتركها يقال انه يضله كذا هنا فقوله ما أطغيته أى ما كان ابتداء الطغيان منى وقوله تعالى (قال) أى الله تعالى المحيط علما وقدرة الذى حكم عليهم بذلك فى الازل (لا تختصموا) أى لا توقعوا الخصومة بهذا الجد والاجتهاد استئناف كأن قائلا يقول فماذا قال الله تعالى فأجيب بقال لا تختصموا وقوله تعالى (لدى) أى

فى دار الجزاء بهذه الحضرة التى هى فوق ما كنتم تدركونه من الاخبار عنها بكثير يفيد مفهومه أن الاختصام كان ينبغى أن يكون قبل الحضور والوقوف بين يدى وقوله تعالى (وقد قدمت اليكم بالوعيد) أى التهديد وهو التخويف العظيم على جميع ما ارتكبتموه من الكفر والعدوان جملة حالية ولا بد من تأويلها وذلك أن النهى فى الآخرة وتقدمه الوعيد فى الدنيا فاختلف الزمان فكيف يصح جعلها حالية وتأويلها هو أن المعنى وقد صح أنى قدمت وزمان الصحة وزمان النهى واحد وقدمت يجوز أن يكون بمعنى تقدمت فتكون الواو للحال ولابد من حذف مضاف أى وقد تقدم قولى لكم ملتبسا بالوعيد ويجوز أن يكون قدمت على حاله متعديا والباء مزيدة فى المفعول أى قدمت اليكم الوعيد كقوله تعالى تنبت بالدهن على قول من قال بزيادتها هناك وقيل الباء هنا للمصاحبة كقولك اشتريت الفرس بلجامه أى معه فكأنه قال تعالى قدمت اليكم ما يجب مع الوعيد على تركه والانذار (ما يبدل) أى يغير بوجه من الوجوه (القول لدى) أى الواصل اليكم من حضرتى التى لا يحيط بها أحد من خلقى وعبر بما التى هى للحاضر دون لا التى للمستقبل لان الاوقات كلها عنده حاضرة (وما أنا) وأكد النفى بقوله تعالى (بظلام للعبيد) فأعذبهم بغير ظلم (فان قيل) الظلام مبالغة فى الظلم ويلزم من انتفائه اثبات أصل الظلم فاذا قال القائل هو كذاب يلزم أن يكون كثيرا لكذب ولا يلزم من نفيه نفى أصل الكذب لجواز أن يقال ليس بكذاب كثير الكذب لكنه يكذب أحيانا فقوله تعالى ما أنا بظلام لا يفهم منه نفى أصل الظلم وأن الله ليس بظالم (أجيب) بأربعة أجوبة أحدها أن الظلام بمعنى الظالم كالتمار بمعنى التامر فتكون اللام فى قوله تعالى للعبيد لتحقيق النسبة لان الفعال حينئذ بمعنى ذى ظلم لقوله تعالى لا ظلم اليوم ثانيها قال الزمخشرى ان ذلك أمر تقديرى كأنه تعالى يقول لو ظلمت عبدى الضعيف الذى هو محل الرحمة لكان ذلك غاية الظلم وما أنا بذلك فيلزم من نفى كونه ظلاما نفى كونه ظالما ويحقق هذا الوجه اظهار لفظ العبيد حيث قال الله تعالى وما أنا بظلام للعبيد أى فى ذلك اليوم الذى أملأ فيه جهنم مع سعتها حتى تصيح وتقول لم يبق فى طاقة بهم ولم يبق فى موضع لهم فهل من مزيد استفهام استنكار ثالثها انه لمقابلة الجمع بالجمع والمعنى ان ذلك اليوم مع أنى ألقى فى جهنم عددا لا حصر له لا أكون بسبب كثرة التعذيب كثير الظلم لانه تعالى قال وما أنا بظلام للعبيد (يوم نقول) أى على ما لنا من العظمة (لجهنم) ولم يقل ما أنا بظلام فى جميع الازمان وخصص بالعبيد ولم يطلق فلذلك خصص النفى بنوع من أنواع الظلم ولم يطلق ولم يلزم منه أن يكون ظالما فى غير ذلك الوقت لان التخصيص بالذكر لا يدل على نفى ما عداه لانه نفى كونه ظلاما ولم يلزم منه كونه ظالما ونفى كونه ظلاما للعبيد ولم يلزم منه كونه ظلاما لغيرهم

* (تنبيه) * يحتمل أن يكون المراد بالعبيد الكفار كقوله تعالى يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الآية والمعنى أعذبهم وما أنا بظلام لهم ويحتمل أن يكون المراد منه المؤمنين والمعنى ان الله تعالى يقول لو بدلت قولى ورحمت الكافر لكنت فى تكليف العباد ظالما لعبادى المؤمنين لانى منعتهم من الشهوات لاجل هذا اليوم فلو كان ينال من لم يأت بما أتى به المؤمن ما يناله

المؤمن لكان اتيان المؤمن بما أتى به من الايمان والعبادة غير مفيد وهذا معنى قوله تعالى
لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ويحتمل أن يكون المراد التعميم وهذا أظهر وقوله تعالى
لجهنم أى التى هى دار العذاب مع الكراهة والعبوسة والتجهم (هل امتلأت) استفهام تحقيق
لوعده عليها وهو قوله تعالى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين (وتقول) بصورة
الاستفهام كالسؤال (هل من مزيد) أى قد امتلأت ولم يبق فىّ موضع لم يمتلئ فهو استفهام انكار
وقيل بمعنى الاستزادة رواه أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما وعلى هذا يكون السؤال
وهو قوله تعالى هل امتلأت قبل دخول جميع أهلها فيها وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن
الله تعالى سبقت كلمته لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين فلما سيق أعداء الله اليها لا يلقى فيها
فوج الا ذهب فيها ولا يملؤها فتقول ألست قد أقسمت لتملأنى فيضع قدمه عليها فيقول هل
امتلأت فتقول هل من مزيد قط قط قد امتلأت وليس فىّ مزيد وعن ابن عباس رضى الله عنهما
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب
العرش وفى رواية رب العزة فيها قدمه فينزوى بعضها الى بعض وتقول قط قط بعد ذلك ولا يزال
فى الجنة فضل حتى ينشئ الله تعالى لها خلقا فيسكنهم فضول الجنة ولأبى هريرة رضى الله عنه
نحوه ولا يظلم الله تعالى من خلقه أحدا * (تنبيه) * هذا الحديث من مشاهير أحاديث الصفات
وللعلماء فيه وفى أمثاله مذهبان أحدهما وهو مذهب جمهور السلف وطائفة من المتكلمين انه
لا يتكلم فى تأويلها بل تفوض بأنها حق على ما أراد الله ورسوله ونجريها على ظاهرها أو لها معنى
يليق بها وظاهرها غير مراد المذهب الثانى وهو قول جمهور المتكلمين انها تؤول بحسب ما يليق
بها فعلى هذا اختلفوا فى تأويل الحديث فقيل المراد بالقدم التقدم وهو شائع فى اللغة والمعنى
يضع الله تعالى فيها من قدمه لها من أهل العذاب وقيل المراد به قدم بعض المخلوقين فيعود الضمير
فى قدمه الى ذلك المخلوق المعلوم وقيل يحتمل أن فى المخلوقات من يسمى بهذه التسمية وخلقوا
لها قال القاضى عياض أظهر التأويلات أنهم استحقوها وخلقوا لها قال المتكلمون ولا بد من
صرفه عن ظاهره لقيام الدليل العقلى القطعى على استحالة الجارحة على الله تعالى وقولها قط قط
أى حسبى حسبى قد اكتفيت وفيها ثلاث لغات اسكان الطاء وكسرها منونة وغير منونة ولما ذكر
النار التى هى دار الفجار وقدمها لأن المقام للانذار اتبعها دار الابرار فقال تعالى سارا لهم باسقاط
مؤنة المسير وطى مشقة البعد (وأزلفت الجنة) أى قربت بأيسر أمر مع الدرجات والحياض
الممتلئة (للمتقين) أى الفريقين فى هذا الوصف فاذا رأوها تسابقوا اليها وتركوا ما كانوا فيه
فى الموقف من منابر النور وكثبان المسك ونحو هذا وأما غيرهم من أهل الايمان فقد يكون لهم
غير هذا الوصف فيساق اليها الذين اتقوا كما مضى فى الزمر وقوله تعالى (غير بعيد) يجوز أن يكون
حالا من الجنة ولم يؤنث لانها بمعنى البستان أو لأن فعيلا لا يؤنث لانه بزنة المصادر قاله الزمخشرى
ومنعه أبو حيان وتقدم الكلام على ذلك فى قوله تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين ويجوز
أن يكون منصوبا على الظرف المكانى أى مكانا غير بعيد ويجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف

اى

أى ازلافا غير بعيد وهو ظاهر عبارة الزمخشرى فانه قال أو شيأ غير بعيد (فان قيل) ما وجه التقريب والجنة مكان والامكنة يقرب منها وهى لاتقرب (أجيب) من أوجه أولها أن الجنة لاتزال ولا يؤمر المؤمن فى ذلك اليوم بالانتقال اليها مع بعدها لكن الله تعالى يطوى المسافة التى بين المؤمن والجنة فهو التقريب (فان قيل) فعلى هذا ليس ازلاف الجنة من المؤمن بأولى من ازلاف المؤمن من الجنة فما فائدة قوله تعالى أزلفت الجنة (أجيب) بأن ذلك اكرام للمؤمن وبيان لشرفه وانه ممن يمشى اليه ثانيها اقريب من الحصول فى الدخول لا بمعنى القرب المكانى ثالثها ان الله تعالى قادر على نقل الجنة من السماء الى الارض فيقربها للمؤمن ويحتمل انها ازلفت بمعنى جمعت محاسنها لانها مخلوقة واما بمعنى قرب الحصول لها لانها تنال بكلمة طيبة وحسنة وخص المتقين بذلك لانهم أحق بها وقوله تعالى (هذا) أى الازلاف والذى ترونه من كل مايسركم (ما) أى الامر الذى (توعدون) أى وقع الوعد لكم به فى الدنيا يجوز فيه وجهان أحدهما أن يكون معترضا بين البدل والمبدل منه وذلك أن (لكل أواب) أى رجاع الى طاعة الله تعالى بدل من المتقين باعادة العامل ثانيهما أن يكون منصوبا بقول مضمر ذلك القول منصوب على الحال أى مقولا لهم وقرأ ابن كثير بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ونسب أبو حيان قراءة الياء لابن كثير ولابى عمرو واغفاهى لابن كثير فقط وقال سعيد ابن المسيب الاواب هو الذى يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب وقال الشعبى ومجاهد هو الذى يذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر منها وقال ابن عباس رضى الله عنهما وعطاء هو المسبح من قوله تعالى ياجبال أوبى معه وقال قتادة هو المصلى وقوله تعالى (حفيظ) اختلف فيه فقال ابن عباس رضى الله عنهما هو الذى يحفظ ذنوبه حتى يرجع عنها ويستغفر منها وعن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا الحفيظ لامر الله وقال قتادة الحفيظ لما استودعه الله تعالى من حقه والاواب والحفيظ كلاهما من باب المبالغة أى يكون كثير الاوب شديد الحفظ ثم أبدل من كل تتميما لبيان المتقين قوله تعالى (من خشى) أى خاف ونبه على كثرة خشيته بقوله تعالى (الرحمن) لانه اذا خافه مع استحضار الرحمة العامة للمطيع والعاصى كان خوفه مع استحضار غيرها أولى وقال القشيرى التعبير بذلك للاشارة الى أنها خشية تكون مقرونة بالانس يعنى الرجاء كما هو المشروع قال ولذلك لم يقل الجبار أو القهار ويقال الخشية ألطف من الخوف فكانها قريبة من الهيبة وقوله تعالى (بالغيب) حال أى غائبا عنه فيحتمل أن يكون حالا من الفاعل او المفعول او منهما وقيل الباء للمصاحبة أى مصاحب له من غير أن يطلب آية أو امرا يصيره الى حد المكاشفة بل استغنى بالبراهين القطعية التى منها أنه مربوب وهو أيضا بيان لبليغ خشيته ويجوز أن يكون صفة لمصدر خشى أى خشيه خشية ملتبسة بالغيب ومعنى الآية من خاف الرحمن فأطاعه بالغيب ولم يره وقال الضحاك والسدى يعنى فى الخلوة حيث لايراه أحد وقال الحسن اذا أرخى الستور وأغلق الباب وقوله تعالى (وجاء) أى بعد الموت (بقلب منيب) أى راجع الى الله تعالى صفة مدح لان شأن الخائف أن يهرب فأما المتقى فجاء ربه لعلمه أنه

لا يبغى القرار منه والباء في بقلب اما للتعدية واما للمصاحبة واما للسببية والقلب المنيب كالقلب السليم في قوله تعالى اذ جاء ربه بقلب سليم أي سليم من الشرك والضمير في قوله تعالى (ادخلوها) عائد الى الجنة وقوله تعالى (بسلام) حال من فاعل ادخلوها أي سالمين من العذاب والهموم فهي حال مقارنة أو بسلام من الله تعالى وملائكته عليهم فهي حال مقدرة كقوله تعالى فادخلوها خالدين كذا قيل قال ابن عادل وفيه نظر اذ لا مانع من مقارنة تسليم الملائكة عليهم حال الدخول بخلاف فادخلوها خالدين فانه لا يعقل الخلود الا بعد الدخول (ذلك) أي اليوم الذي حصل فيه الدخول (يوم الخلود) أي الدوام في الجنة الذي لا آخر له ولا انفاد لشيء من لذاته أصلا ولذلك وصل به قوله تعالى جوابا لمن قال على أي وجه خلودهم (لهم) بظواهرهم وبواطنهم (ما يشاؤن) أي تجدد مشيئتهم أو يمكن مشيئتهم له (فيها) أي الجنة (ولدينا) أي عندنا من الامور التي هي في غاية الغرابة عندهم وان كان كل ما عندهم مستغربا (مزيد) أي مما لا يدخل تحت أوهامهم ليشاؤه فان سياق الامتنان يدل على ان تنوينه للتعظيم والتعبير بلدى يؤكد ذلك (فان قيل) ما الحكمة في أنه تعالى قال ادخلوها بسلام على المخاطبة ثم قال لهم ولم يقل لكم (أجيب) من وجوه أولها أن قوله تعالى ادخلوها فيه مقدر أي فيقال لهم ادخلوها فلا يكون التفاتا ثانيها انه التفات والحكمة الجمع بين الطرفين كأنه تعالى يقول غير مخل بهم في غيبتهم وحضورهم ففي حضورهم الحبور وفي غيبتهم الحور والقصور ثالثها أنه يجوز أن يكون قوله تعالى لهم كلاما مع الملائكة يقول للملائكة توكلوا بخدمتهم واعلموا أن لهم ما يشاؤن فيها فأحضروا بين أيديهم ما يشاؤن وأما أنا فعندي ما لا يخطر ببالهم ولا تقدرون أنتم عليه والمزيد يحتمل أن يكون معناه الزيادة كقوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ويحتمل أن يكون بمعنى المفعول أي عندنا ما نزيده على ما يرجون ويأملون قال أنس وجابر وهو النظر الى وجه الله الكريم قيل يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى في كل ليلة جمعة في دار كرامته فهذا هو المزيد ولما ذكر تعالى أول السورة تكذيب الامم السابقة ذكر هنا اهلاك قرون ماضية بقوله تعالى (وكم أهلكنا) أي بما لنا من العظمة (قبلهم من قرن) أي جيل هم في غاية القوة وزاد في بيان القوة قوله تعالى (هم أشد منهم) أي من قريش (بطشا) أي قوة وأخذا لما يريدونه بالعنف والسطوة والشدة * (تنبيه) * كم منصوب بما بعده وقدم اما لانه استفهام واما لان كم الخبرية تجري مجرى كم الاستفهامية في التصدير ومن قرن تمييز وهم أشد صفة اما لكم واما لقرن والفاء في قوله تعالى (فنقبوا) عاطفة على المعنى كأنه قيل اشتد بطشهم فنقبوا (في البلاد) والضمير في نقبوا اما للقرن المتقدم وهو الظاهر واما لقريش والتنقيب التنقير والتفتيش ومعناه التطواف في البلاد قال الحرث بن حلزة

نقبوا في البلاد من حذر المو * ت وجالوا في الارض كل مجال

* (وقال امرؤ القيس) *

وقد نقبت في الآفاق حتى * رضيت من الغنيمة بالاياب

ولما كان التقدير ولم يسلموا مع كثرة تنقيبهم توجه سؤال تنبيه للغافل الذاهل وتقريع وتبكيت للمعاند الجاهل بقوله تعالى (هل من محيص) أى معدل ومحيد ومهرب وان دق من قضائنا ليكون لهؤلاء وجه مانى ردّ أمرنا (انّ فى ذلك) أى فيما ذكر فى هذه السورة من الاساليب العجيبة والطرق الغريبة (لذكرى) أى تذكيرا عظيما جدّا (لمن كان) أى كونا عظيما (له قلب) أى عقل فى غاية العظمة فهو بحيث يفهم مايراه ويعتبر به ومن لم يكن كذلك فلا قلب له سليم بل له قلب لاه (أو ألقى السمع) أى استمع الوعظ بغاية اصغائه حتى كأنه يرمى بشئ ثقيل من علو الى سفل (وهو) أى والحال انه فى حال القائه (شهيد) أى حاضر بكليته فهو فى غاية مايكون من تصويب الفكر وجمع الخاطر فلا يغيب عنه شئ مما تلى عليه وألقى اليه فيتذكر وعطف على قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان قوله تعالى (ولقد خلقنا) أى بمالنا من العظمة التى لا يقدر قدرها ولا يطاق حصرها (السموات والارض) اى على ماهما عليه من الكبر وكثرة المنافع (وما بينهما) من الامور التى لا ينتظم الامر على قاعدة الاسباب والمسببات بدونها (فى ستة أيام) الارض فى يومين ومنافعها فى يومين والسموات فى يومين ولو شاء لكان ذلك فى أقل من لمح البصر ولكنه تعالى سنّ لنا التأنى بذلك (وما مسنا) لاجل مالنا من العظمة أدنى مس وعمم فى النفى فقال تعالى (من لغوب) أى اعياء فانه لو كان لاقتضى ضعفا فاقتضى فسادا فكان من ذلك شئ على غير ما أردناه فكان تصرفنا فيه غير تصرفنا فى الباقى وأنتم تشاهدون الامر فى الكل على حد سواء من نفوذ الامر وتمام التصرف (فاصبر) يا أشرف الخلق (على مايقولون) أى اليهود وغيرهم من انكار البعث والتشبيه وغير ذلك فانّ من قدر على خلق العالم بلا اعياء قدر على البعث وغيره (وسبح) أى أوقع التنزيه عن كل شائبة نقص ملتبسا (بحمد ربك) أى باثبات الاحاطة بجميع صفات الكمال للسيد المدبر المحسن اليك بجميع هذه البراهين التى خصك بها مفضلا لك على جميع الخلق وقوله تعالى (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) اشارة الى طرفى النهار وقوله تعالى (ومن الليل فسبحه) اشارة الى زلفى من الليل وتقريره أنه صلى الله عليه وسلم كان مشتغلا بأمرين أحدهما عبادة الله تعالى والثانى هداية الخلق فاذا لم يهتدوا قيل له أقبل على شغلك الآخر وهو العبادة قبل الطلوع وقبل الغروب لانهما وقتا اجتماعهم ويكون المراد بقوله تعالى ومن الليل أوله لانه أيضا وقت اجتماعهم وقال أكثر المفسرين قبل طلوع الشمس صلاة الصبح وقبل الغروب الظهر والعصر ومن الليل العشاآن والتهجد (وأدبار السجود) التنفل بعد المكتوبات وقيل الوتر بعد العشاء وقال مجاهد ومن الليل يعنى صلاة الليل أى وقت صلى وقرأ نافع وابن كثير وحمزة بكسر الهمزة على أنه مصدر قام مقام ظرف الزمان كقولهم آتيك خفوق النجم وخلافة الحجاج ومعنى وقت ادبار الصلاة أى انقضائها وتمامها والباقون بالفتح جمع دبر وهو آخر الليل وعقبها ومنه قول أوس

على دبر الشهر الحرام فأرضنا ❊ وماحولها جدب سنون تلمع

ولم يصلها وفي وادبار النجوم وقوله تعالى وأدبار معطوف اماعلى قبل الغروب واماعلى ومن الليل وقال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما ادبار السجود الركعتان بعد صلاة المغرب وادبار النجوم الركعتان قبل صلاة الفجر وهي رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما وروى عنه مرفوعا قال البغوي هذا قول أكثر المفسرين عن عائشة رضي الله عنها قالت ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم على شئ من النوافل أشد معاهدة منه على الركعتين أمام الصبح وعن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها يعني بذلك سنة الفجر وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ما أحصي ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الركعتين بعد المغرب والركعتين قبل الفجر بقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد وعن مجاهد وأدبار السجود هو التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سبح في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وكبر ثلاثا وثلاثين وحمد الله ثلاثا وثلاثين فذلك تسعة وتسعون ثم قال تمام المائة لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير غفرت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر وعنه أيضا ان فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم فقال صلى الله عليه وسلم وماذاك فقالوا صلوا كما صلينا وجاهدوا كما جاهدنا وأنفقوا من فضول أموالهم وليست لنا أموال قال أفلا أخبركم بأمر تدركون به من قبلكم وتسبقون من جاء بعدكم ولا يأتي أحد مثل ما جئتم به الا من جاء بمثله تسبحون في دبر كل صلاة عشرا وتحمدون عشرا وتكبرون عشرا وقوله تعالى (واستمع) اى لما أخبرك به من أحوال القيامة فيه تهويل وتعظيم للمخبر به والمحدث عنه كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سبعة أيام لمعاذ بن جبل يا معاذ اسمع ما أقول ثم حدثه بعد ذلك وقوله تعالى (يوم) ظرف لاستمع أي استمع ذلك في يوم (يناد المنادى) أى اسرافيل يقف على صخرة بيت المقدس فينادي بالحشر فيقول أيتها العظام البالية واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة ان الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء وقيل المنادى جبريل (من مكان قريب) بحيث يسمع الصوت من بعد كما يسمعه من قرب يكونون في السماع سواء لا تفاوت بينهم أصلا واختلف في ذلك المكان القريب فأكثر المفسرين انه صخرة بيت المقدس فانها أقرب الارض الى السماء باثني عشر ميلا وهي وسط الارض وقيل من تحت أقدامهم وقيل من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة أيتها العظام البالية وقوله تعالى (يوم يسمعون الصيحة) بدل من يوم ينادي والصيحة النفخة الثانية وقوله تعالى (بالحق) حال من الصيحة أى ملتبسة بالحق أو من الفاعل أي يسمعون ملتبسين بسماع حق (ذلك) أى اليوم العظيم الذي يظهر به الجد ويعلو بضعفاء المؤمنين الجد (يوم الخروج) أى الذي لا خروج أعظم منه وهو خروجهم من قبورهم من الارض التي خلقوا منها الى المحشر وهو من أسماء يوم القيامة (انا) أى بما لنا من العظمة (نحن) أى خاصة (نحيي ونميت) أى نجدد ذلك شيأ بعد شئ سنة مستقرة

وعادة مستمرة كما تشاهدونه فقد كان منا بالاحياء الاول المبدأ (والينا) أى خاصة بالاماتة ثم الاحياء (المصير) أى فى الآخرة وقيل تقديره نميت فى الدنيا ونحيي فى الآخرة للبعث والينا المصير بعد البعث وقوله تعالى (يوم) بدل من يوم قبله وما بينهما اعتراض وقرأ (تشقق الارض) نافع وابن كثير وابن عامر بتشديد الشين والباقون بالتخفيف (عنهم) أى مجاوزة لهم بعد أن كانوا فى بطنها فيخرجون منها أحياء كما كانوا على ظهرها أحياء حال كونهم (سراعا) أى اجابة مناديا وهو جمع سريع وأشار الى عظمة الامر بقوله تعالى (ذلك) أى الاخراج العظيم جدا (حشر) أى جمع بكره وزاد فى بيان عظمة هذا الامر بدلالته على اختصاصه بتقدم الجار فقال تعالى (علينا) أى خاصة (يسير) فكيف يتوقف فيه عاقل فضلا عن أن ينكره وأما غيرنا فلا يمكنه ذلك بوجه *(تنبيه)* علينا متعلق بيسير ففصل بمعمول الصفة بينها وبين موصوفها ولا يضر ذلك وقال الزمخشرى التقديم للاختصاص وهو ما أشرت اليه أى لا يتيسر ذلك الا على الله تعالى وحده وهو اعادة جواب قولهم ذلك رجع بعيد وقوله تعالى (نحن أعلم) أى عالمون (بما يقولون) أى فى الحال والاستقبال من التكذيب بالبعث وغيره تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم (وما أنت عليهم بجبار) أى بمسلط تجبرهم على الاسلام انما أنت منذر وقد فعلت ما أمرت به ونحن القادرون على ردهم بما لنا من العلم المحيط وهذا قبل الامر بالقتال (فذكر) أى بطريق البشارة والنذارة (بالقرآن) أى الجامع بجده لكل خير المحيط بكل صلاح (من يخاف وعيد) فانه لا ينتفع به غيره وهم المؤمنون وقرأ ورش باثبات الياء بعد الدال وصلا لا وقفا وحذفها الباقون وصلا ووقفا وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة ق هون الله عليه تارات الموت وسكراته حديث موضوع وتارات الموت بمثلثة وهمزة مفتوحة أهواله

﴿سورة الذاريات مكية﴾

وهى ستون آية وثلثمائة وستون كلمة وألف ومائتان وتسعة وثمانون حرفا

(بسم الله) أى المحيط بصفات الكمال فهو لا يخلف الميعاد (الرحمن) الذى عم الخلائق بنعمة الايجاد (الرحيم) الذى خص من اختاره بالتوفيق لما يرضاه من المراد ولما ختم الله سبحانه وتعالى ق بالتذكير بالوعيد افتتح هذه بالقسم البالغ على صدقه فقال عز من قائل مناسبا بين القسم والمقسم عليه (والذاريات) أى الرياح تذرو التراب وغيره وقيل النساء الوالدات فانهن يذرين الاولاد وقوله تعالى (ذروا) منصوب على المصدر المؤكد والعامل فيه فرعه وهو اسم الفاعل والمفعول محذوف اقتصارا يقال ذرت الريح التراب وأذرته (فالحاملات) أى السحب تحمل الماء وقيل الرياح الحاملة للسحاب وقيل النساء الحوامل وقوله تعالى (وقرا) أى ثقلا مفعول به بالحاملات كما يقال حمل فلان عدلا ثقيلا قال الرازى ويحتمل أن يكون اسما أقيم مقام المصدر كقوله ضربته سوطا (فالجاريات) أى السفن وقيل الرياح الجارية

قوله ويجوز أن يراد الخ هو ما نقله الامن الزمخشري اه

في مهابها وقيل الكواكب التي تجري في منازلها وقوله تعالى (يسرا) أي بسهولة مصدر في موضع الحال أي ميسرة (فالمقسمات) أي الملائكة التي تقسم الارزاق والامطار وغيرها بين العباد والبلاد وقوله تعالى (أمرا) يجوز أن يكون مفعولا به كقولك فلان قسم الرزق أو المال وأن يكون حالا أي مأمورة وهذه أشياء مختلفة فتكون الفاء على بابها من عطف المتغايرات والفاء للترتيب في القسم لا في المقسم به قال الزمخشري ويجوز أن يراد الرياح وحدها لانها تنشئ السحاب وتقله وتصرفه وتجري في الجو جريا سهلا وعلى هذا يكون من عطف الصفات والمراد واحد فتكون الفاء على هذا الترتيب الامور في الوجود وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال وهو على المنبر سلوني قبل أن لا تسألوني ولن تسألوا بعدي مثلي فقام ابن الكواء فقال ما الذاريات قال الرياح قال فالحاملات وقرا قال السحاب قال فالجاريات يسرا قال الفلك قال فالمقسمات أمرا قال الملائكة وكذا عن ابن عباس وعن الحسن المقسمات السحاب يقسم الله تعالى بها ارزاق العباد وقد حملت على الكواكب السبعة ويجوز أن يراد الرياح لاغير لانها تنشئ السحاب وتقله وتصرفه وتجري في الجو جريا سهلا وتقسم الامطار بتصريف السحاب (فان قيل) ان كان وقرا مفعولا فلم لم يجمع وقيل أوقارا (أجيب) بان جماعة من الرياح قد تحمل وقرا واحدا وكذا القول في المقسمات أمرا اذا قيل انه مفعول به لان جماعة من الملائكة قد تجتمع على أمر واحد * (فائدة) * أقسم الله تعالى بجمع السلامة المؤنث في خمس سور ولم يقسم بجمع السلامة المذكر في سورة أصلا فلم يقل والصالحين من عبادي ولا المقربين الى غير ذلك مع ان المذكر أشرف لان جموع السلامة بالواو والنون في الغالب لمن يعقل ولما كانوا يكذبون بالوعيد أكد الجواب بعد التأكيد بنفس القسم فقال تعالى (انما توعدون لصادق) أي مطابق الاخبار به للواقع وسترون مطابقته له * (تنبيه) * ما يجوز أن تكون اسمية وعائدها محذوف أي توعدونه وأن تكون مصدرية فلا عائد على المشهور وحينئذ يحتمل أن يكون توعدون مبنيا من الوعد وأن يكون مبنيا من الوعيد لانه يصلح أن يقال أوعدته فهو يوعد ووعدته فهو يوعد لا يختلف فالتقدير ان وعدكم أو ان وعيدكم (وان الدين) أي الجزاء لكل أحد بما كسب يوم البعث (لواقع) لابد منه وان انكرتم (والسماء ذات الحبك) قال ابن عباس وقتادة وعكرمة ذات الخلق الحسن المستوي يقال للنساج اذا نسج الثوب فأجاد ما أحسن حبكه وقال سعيد بن جبير ذات الزينة أي المزينة بزينة الكواكب قال الحسن حبكتها النجوم وقال مقاتل والكلبي والضحاك ذات الطريق كحبك الماء اذا ضربته الريح وحبك الرمل والشعر الجعد وهو آثار تثنيه وتكسره قال زهير

مكلل باصول النجم تنسجه * ريح خريق لضاحي مائه حبك

والحبك يحتمل أن يكون مفرده حبيكة كطريقة وطرق أو حباك نحو حمار وحمر قال الشاعر

كأنما جللها الحواك * طنفسة في وشيها حباك

وأصل الحبك احكام الشئ واتقانه ومنه يقال للدرع محبوكة وجواب القسم (انكم) يا معشر

قريش (لفي قول) محيط بكم في أمر القرآن والآتي به وجميع أمر دينكم وغيره مما تريدون به ابطال الدين الحق (مختلف) فتقولون في القرآن سحر وكهانة وأساطير الاولين وفي محمد صلى الله عليه وسلم ساحر وشاعر ومجنون وكاهن وكاذب (يؤفك) أي يصرف (عنه) أي عن النبي صلى الله عليه وسلم أو القرآن أي عن الايمان بذلك (من افك) أي صرف عن الهداية في علم الله تعالى ومعناه حينئذ الذم وقيل انه مدح للمؤمنين ومعناه يصرف عن القول المختلف من يصرف عن ذلك القول ويرشد الى القول المستوى (قتل) أي لعن (الخراصون) أي الكذابون وهم الذين لا يجزمون بأمر بل هم شاكون متحيرون وهم أصحاب القول المختلف ثم وصفهم الله تعالى فقال تعالى (الذين هم) أي خاصة (في غمرة) أي جهل يغمرهم (ساهون) أي غريقون في السهو وهو النسيان والغفلة والحيرة وذهاب القلب الى غير ما يهمه فقاعل ذلك ذو ألوان مختلفة من هول ما هو فيه وشدة كربه (يسألون) النبي استهزاء (أيان) أي متى وأي حين (يوم الدين) اى وقوع الجزاء الذي تخبرنا به ولولا أنهم بهذه الحالة لتذكروا من أنفسهم أنه ليس أحد منهم يترك عبيده واجراءه في عمل من الاعمال الا وهو يحاسبهم على أعمالهم وينظر قطعا في أحوالهم ويحكم بينهم في أقوالهم وأفعالهم فكيف الظن بأحكم الحاكمين أن يترك عبيده الذين خلقهم على هذا النظام المحكم وأبدع لهم هذين الخافقين وهيأ لاجلهم فيهما كل ما يحتاجون اليه فيتركهم سدى ويوجدهم عبثا وقوله تعالى (يوم هم) منصوب بمضمر أي الجزاء كائن يوم هم (على النار يفتنون) أي يعذبون فيها جواب لسؤالهم ايان يوم الدين وقال الرازي يحتمل وجهين أحدهما أن يكون جوابا عن قولهم ايان يقع فكما أنهم لم يسألوا سؤال مستفهم طالب للعلم كذلك لم يجبهم جواب معلم مبين بل قال يوم هم على النار يفتنون فجهلهم بالثاني أقوى من جهلهم بالاول ولا يجوز أن يكون الجواب بالاخفى فلو قال قائل متى يقدم زيد فلو أجيب بقوله يوم يقدم رفيقه ولا يعلم يوم قدوم الرفيق لم يصح هذا الجواب ثانيهما أن يكون ذلك ابتداء كلام تمامه في قوله تعالى (ذوقوا فتنتكم) أي تعذيبكم (فان قيل) هذا يفضي الى الاضمار (أجيب) بأن الاضمار لا بد منه لان قوله تعالى ذوقوا فتنتكم لا يتصل بما قبله الا باضمار يقال (هذا) أي العذاب الملون (الذي كنتم به تستعجلون) في الدنيا استهزاء ولما بين تعالى حال المجرمين بين بعده حال المتقين فقال تعالى (ان المتقين) أي الذين كانت التقوى لهم وصفا ثابتا (في جنات) أي بساتين عظيمة تجن داخلها أي تستره من كثرة ظلالها لكثرة أشجارها وعظمها (وعيون) جارية في خلال الجنان *(تنبيه)* المتقي له مقامات أدناها أن يتقي الشرك وأعلاها أن يتقي الدنيا والآخرة وأدنى درجات المتقي الجنة فما من مكلف اجتنب الكفر الا ويدخل الجنة وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين والباقون بالضم وقوله تعالى (آخذين) حال من الضمير في خبر ان وقوله تعالى (ما آتاهم ربهم) أي المحسن اليهم المدبر لهم بتمام علمه وشامل قدرته ان كان مما في الجنة فتكون حالا حقيقية وان كان مما آتاهم من امره ونهيه في الدنيا فتكون حالا محكية لاختلاف الزمانين *(تنبيه)* اعلم أن الله تعالى وحد الجنة

تارة قال تعالى مثل الجنة وأخرى جمعها كقوله تعالى هنا ان المتقين فى جنات وتارة ثناها قال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان والحكمة فيه ان الجنة فى توحيدها الاتصال المنازل والاشجار والانهار كجنة واحدة وأما جمعها فانها بالنسبة الى الدنيا وبالاضافة اليها جنات لا يحصرها عدد وأما تثنيتها فسيأتى الكلام عليها ان شاء الله تعالى فى سورة الرحمن وهو قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان فقيل جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته وقيل جنة لخائف الانس وجنة لخائف الجن فيكون من باب التوزيع قال الرازى غير أنا نقول ههنا ان الله تعالى عند الوعد وحد الجنة وكذلك عند الشراء فقال تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة وعند الاعطاء جمعها اشارة الى ان الزيادة فى الوعد موجودة بخلاف ما لو وعد بجنات ثم يقول انه فى جنة لانه دون الموعود ومعنى آخذين قابضين ما آتاهم شيأ فشيأ ولا يستوفونه بكماله لامتناع استيفاء ما لا نهاية له وقيل قابلين قبول رضا كقوله تعالى ويأخذ الصدقات أى يقبلها قاله الزمخشرى وقوله تعالى (انهم كانوا قبل ذلك محسنين) اشارة الى أنهم أخذوها بثمنها وملكوها بالاحسان فى الدنيا والاشارة بذلك اما الدخول الجنة واما الايتاء الله تعالى واما اليوم الدين والاحسان يكون فى معاملة الخالق والخلائق وقيل هو قول لا اله الا الله ولهذا قيل فى معنى كلمة التقوى انها لا اله الا الله وفى قوله تعالى ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وقوله تعالى هل جزاء الاحسان الا الاحسان هو الاتيان بكلمة لا اله الا الله ثم فسر احسانهم معبرا عنه بما هو فى غاية المبالغة بقوله تعالى (كانوا) أى لما عندهم من الاجلال له والحب فيه بحيث كانهم مطبوعون فيه (قليلا من الليل) الذى هو وقت الراحات وقضاء الشهوات (ما يهجعون) أى يفعلون الهجوع وهو النوم الخفيف القليل بالليل فما ظنك بما فوقه فما مزيدة ويهجعون خبر كان وقليلا ظرف أى ينامون فى زمن يسير من الليل ويصلون أكثره وقال ابن عباس رضى الله عنه كانوا اقل ليلة تمر بهم الا صلوا فيها شيأ اما من أولها أو من وسطها وعن أنس ابن مالك كانوا يصلون من المغرب الى العشاء وقال محمد بن على كانوا لا ينامون حتى يصلون العتمة وقال مطرف بن عبد الله قل ليلة أتت عليهم هجوعا كلها وقال مجاهد كانوا لا ينامون كل الليل ووقف بعضهم على قليلا ليواخى بها قوله تعالى وقليل ما هم وقليل من عبادى الشكور ويبتدئ من الليل ما يهجعون أى ما يهجعون من الليل والمعنى كانوا من الناس قليلا ثم ابتدأ فقال ما يهجعون من الليل وجعله جحدا أى لا ينامون بالليل البتة بل يقومون للصلاة والعبادة وهو قول الضحاك ومقاتل وقيل ان ما بمعنى الذى وعائدها محذوف تقديره كانوا قليلا من الليل الوقت الذى يهجعونه وهذا فيه تكلف ولما كان المحسن لا يرى نفسه الا مقصرا قال تعالى دالا على ذلك وعلى أن تهجدهم متصل بآخر الليل (وبالاسحار) قال ابن زيد السحر السدس الاخير من الليل (هم) أى دائما بظواهرهم وبواطنهم (يستغفرون) أى يعدون مع هذا الاجتهاد أنفسهم مذنبين ويسألون غفران ذنوبهم لوفور علمهم بالله تعالى وأنهم لا يقدرون على أن يقدروه حق قدره وان اجتهدوا لقول سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم لا أحصى ثناء

عليك

عليك وابراز الضمير دل على أن غيرهم لو فعل هذا الليلة لا عجب بنفسه ورأى أنه لا أحد أفضل منه وعلى أن استغفارهم فى الكثرة يقتضى أنهم يكونون بحيث يظن أنهم أحق بالتذلل من المصرين على المعاصى فان استغفارهم ذلك على بصيرة لانهم نظروا ماله سبحانه فى الآفاق وفى أنفسهم من الآيات والحكم البالغة فأقبلوا على الاستغفار عالمين بأنه تعالى لا يقدر حق قدره *(تنبيه)* بالاسحار متعلق بيستغفرون والباء بمعنى فى وقدم متعلق الخبر على المبتدا لجواز تقديم العامل وقال الكلبى ومجاهد وبالاسحار يصلون وذلك ان صلاتهم بالاسحار لطلب المغفرة روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ينزل الله الى السماء كل ليلة حتى يبقى ثلث الليل فيقول أنا الملك أنا الملك من الذى يدعونى فأستجيب له من الذى يسألنى فأعطيه من الذى يستغفرنى فأغفر له وهذا الحديث من أحاديث الصفات وفيه مذهبان معروفان أحدهما وهو مذهب السلف وغيرهم أنه يمر كما جاء من غير تأويل ولا تعطيل وترك الكلام فيه وفى أمثاله مع الايمان به وتنزيه الرب سبحانه عن صفات الاجسام المذهب الثانى وهو قول جماعة من المتكلمين وغيرهم ان الصعود والنزول من صفات الاجسام فالله تعالى منزه عن ذلك فعلى هذا يكون معناه نزول الرحمة والالطاف الالهية والاقبال على الداعين بالاجابة واللطف وتخصيصه بالثلث الاخير من الليل لان ذلك وقت التهجد والدعاء وغفلة أكثر الناس وعن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا قام من الليل يتهجد قال اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والارض ومن فيهن ولك الحمد أنت نور السموات والارض ومن فيهن ولك الحمد أنت ملك السموات والارض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ووعدك حق ولقاؤك حق وقولك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت واليك أنبت وبك خاصمت واليك حاكمت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وزاد فى رواية وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر لا اله الا أنت ولا اله غيرك زاد النسائى ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم * ولما ذكر تعالى معاملتهم للخالق أتبعه المعاملة للخلائق تكميلا لحقيقة الاحسان فقال تعالى (وفى أموالهم) أى كل أصنافها (حق) أى نصيب ثابت (للسائل) أى الذى ينبه على حاجته بسؤال الناس وهو المتكفف (والمحروم) وهو المتعفف الذى لا يجد ما يغنيه ولا يسأل الناس ولا يفطن له ليتصدق عليه وهذه صفة أهل الصفة رضى الله تعالى عنهم فالمحسنون يعرفون صاحب الوصف لما لهم من نافذ البصيرة ولله تعالى بهم العناية وقدم السائل لانه يعرف بسؤاله أو يكون اشارة الى كثرة العطاء فيعطى السؤال فاذا لم يجدهم يسأل عن المحتاجين فيكون سائلا ومسؤلا وقيل قدم السائل لتجانس رؤس الآى وقيل السائل هو الآدمى والمحروم كل ذى روح غيره من الحيوانات المحترمة قال صلى الله عليه وسلم فى كل كبد حراء أجر وهذا ترتيب حسن لان الآدمى مقدم على البهائم وقال ابن عباس وسعيد بن المسيب السائل الذى يسأل الناس والمحروم الذى ليس له فى الغنائم سهم ولا يجرى عليه من الفئ شئ وقال قتادة والزهرى المحروم

المتعفف الذى لايسأل الناس وقال زيد بن أسلم المحروم هو المصاب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته وهو قول محمد بن كعب القرظى قال المحروم صاحب الجائحة ثم قرأ انا لمغرمون بل نحن محرومون (وفى الارض) أى من الجبال والبحار والاشجار والثمار والنبات وغيرها (آيات) أى دلالات على قدرة الله تعالى ووحدانيته (للموقنين) أى الذين صار الايقان لهم غريزة ثابتة فهم لذلك يتفطنون لرؤية ما فيها قال القشيرى من الآيات فيها أنها تحمل كل شئ فكذلك العارف يحمل كل أحد ومن استثقل أحدا أو تبرم برؤية أحد فلغيبته عن الحقيقة ومطالعته الخلق بعين التفرقة وأهل الحقائق لايتصفون بهذه الصفة ومن الآيات فيها أنه يلقى عليها كل قذر وقمامة فتنبت كل زهر ونور فكذلك العارف يتشرب مايسقى من الجفاء ولا يترشح الا بكل خلق حسن على وشيمة زكية (وفى أنفسكم) آيات أيضا من مبدا خلقكم الى منتهاه وما فى تركيب خلقكم من العجائب (أفلا تبصرون) أى بأبصاركم و بصائركم فتتأملوا ما فى ذلك من الآيات فمن تأملها علم أنه عبد ومتى علم ذلك علم أن له ربا غير محتاج الى أحد (وفى السماء) أى جهة العلو (رزقكم) بما يأتى من المطر والرياح والحر والبرد وغير ذلك مما رتبه سبحانه وتعالى لمنافع العباد وقال ابن عباس يعنى بالرزق المطر لانه سبب الارزاق وقيل فى السماء رزقكم مكتوب وقيل تقدير الارزاق كلها من السماء ولولاه لما حصل فى الارض حبة قوت (وما توعدون) قال عطاء من الثواب والعقاب وقال مجاهد من الخير والشر وقال الضحاك من الجنة والنار ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه فقال عز من قائل (فورب) أى مبدع ومدبر (السماء والارض) أى وما أودع فيهما مما علمتموه ومالم تعلموه (انه) أى الذى توعدونه من الخير والشر والجنة والنار وماذكر من أمر الرزق وما تقدم الاقسام عليه (لحق) أى ثابت بطابقه الواقع (مثل ما أنكم تنطقون) أى مثل نطقكم كما انه لاشك فى أنكم تنطقون ينبغى لكم أن لاتشكوا فى تحقيق ذلك وقال بعض الحكماء معناه ان كل انسان ينطق بلسان نفسه ولا يمكن أن ينطق بلسان غيره كذلك كل أحد يأكل رزق نفسه الذى قسم له لايقدر أن يأكل رزق غيره وأنشدوا فى المعنى

ما لايكون فلا يكون بحيلة * أبدا وما هو كائن سيكون
سيكون ما هو كائن فى وقته * وأخو الجهالة مكمد مغبون

وقيل معناه ان القرآن لحق تكلم به الملك النازل من السماء مثل ما تتكلمون وقرأ حمزة والكسائى وشعبة برفع اللام على أنه نعت لحق وما مزيدة وانكم مضاف اليه أى لحق مثل نطقكم ولا يضر تقدير اضافتها لمعرفة لانها لاتتعرف بذلك لابهامها والباقون بالنصب على أنه نعت لحق أيضا كما فى القراءة الاولى واغا بنى الاسم لاضافته الى غير متمكن كما بناه القائل فى قوله

فتداعى منخراه بدم * مثل ما أثمر حماض الجبل

بفتح مثل مع أنها نعت لدم وقيل انها نعت لمصدر محذوف أى لحق حقا مثل نطقكم وقوله

تعالى (هل أتاك) أى يا أكمل الخلق (حديث ضيف ابراهيم المكرمين) تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتبشيرله بالفرج وسماهم ضيفا لانه حسبهم كذلك ويقع على الواحد والجمع لانه مصدر وسماهم مكرمين عند الله تعالى أولان ابراهيم عليه السلام أكرمهم بأن عجل قراهم وأجلسهم فى أكرم المواضع واختيار ابراهيم لكونه شيخ المرسلين وكون النبى صلى الله عليه وسلم مأمورا بأن يتبع ملته وكان ابراهيم عليه السلام أكرم الخليقة وضيف الكرام مكرمون وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد لان ابراهيم عليه السلام خدمهم بنفسه وعن ابن عباس سماهم مكرمين لانهم جاؤا غير مدعوين وقال صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه (فان قيل) اذا كان المراد من الآية التسلية والانذار فأى فائدة فى حكاية الضيافة (أجيب) بأن فى ذلك اشارة الى أن الفرج فى حق الانبياء والبلاء على الجهلة يأتى من حيث لم يحتسبوا كقوله تعالى فاتاهم العذاب من حيث لا يشعرون فلم يكن عند ابراهيم عليه السلام خبر من انزال العذاب مع ارتفاع منزلته قال القشيرى وقيل كان عددهم اثنى عشر ملكا وقيل جبريل عليه السلام وكان معه تسعة وقيل كانوا ثلاثة وقرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها والباقون بكسر الهاء وياء بعدها (اذ) أى حديثهم حين (دخلوا عليه) أى دخول استعلاء مخالف لدخول بقية الضيوف وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الذال عند الدال والباقون بالادغام * (تنبيه) * اختلف فى العامل فى اذ على أربعة أوجه أحدها أنه حديث أى هل أتاك حديثهم الواقع فى وقت دخولهم عليه ثانيها أنه منصوب بما فى ضيف من معنى الفعل لانه فى الاصل مصدر ولذلك استوى فيه الواحد المذكر وغيره كانه قيل الذين أضافهم فى وقت دخولهم عليه ثالثها أنه منصوب بالمكرمين ان أريد باكرامهم أن ابراهيم عليه السلام أكرمهم بخدمته لهم كانه تعالى يقول أكرموا اذ دخلوا رابعها أنه منصوب باضمار اذكر ولا يجوز نصبه بأتاك لاختلاف الزمانين (فان قيل) انما أرسلوا الى قوم لوط فما الحكمة فى مجيئهم الى ابراهيم عليه السلام (أجيب) من وجهين أحدهما أن ابراهيم عليه السلام شيخ المرسلين ولوط من قومه وعادة الملك اذا أرسل رسولا للملك وفى طريقه من هو أكبر منه يقول له اعبر على فلان الملك وأخبره برسالتك وخذ فيها رأيه ثانيهما أن ابراهيم عليه السلام كان شديد الشفقة حليما فكان يشق عليه اهلاك أمة عظيمة وكان ذلك مما يحزن ابراهيم عليه السلام شفقة منه على العباد فقال لهم بشروه بغلام يخرج من صلبه أضعاف من هلك ويكون من صلبه فروع الانبياء عليهم السلام (فقالوا سلاما) أى هذا اللفظ (قال سلام) أى هذا اللفظ والمشهور أن السلام الاول المراد به التحية أى نسلم سلاما وقيل ان سلاما معناه حسنا لانه كلام سلم به المتكلم من أن يلغو أو يأثم فكانهم قالوا قولا حسنا سليما من الاثم فيكون مفعولا به لانه فى معنى القول وأما رفع الثانى فالمشهور أنه التحية فهو مبتدأ وخبره محذوف أى عليكم وقيل انه السلامة أى أمرى سلام لانى لا أعرفكم وقرأ حمزة والكسائى بكسر السين وسكون اللام والباقون بفتح السين واللام وألف بعدها والمعنى واحد

وقوله تعالى (قوم منكرون) أى غرباء لا أعرفهم قال ذلك فى نفسه كما قاله ابن عباس خبر مبتدا
مقدر أى هؤلاء وقيل انما أنكر أمرهم لانهم دخلوا عليه من غير استئذان وقال أبو العالية
أنكر اسلامهم فى ذلك الزمان وفى تلك الارض (فراغ) أى ذهب فى خفية من ضيفه فان من
آداب المضيف أن يبادر بالقرى حذرا من أن يكفه الضيف أو يصير منتظرا (الى أهله) أى
الذين عندهم بقرة (فجاء بعجل) أى فتى من أولاد البقر لانه كان عامة ماله البقر (سمين)
قد شواه وأنضجه كما قال تعالى فى سورة هود حنيذ أى مشوى (فقربه اليهم) بأن وضعه
بين أيديهم ليأكلوا فلم يأكلوا (قال ألا تأكلون) والهمزة اما للانكار عليهم فى عدم أكلهم
واما للعرض واما للتحضيض فلم يجيبوا (فأوجس) أى أضمر فى نفسه (منهم خيفة) لما رأى
اعراضهم عن طعامه لظنه أنهم جاؤه لشر وقيل وقع فى نفسه أنهم ملائكة أرسلوا بعذاب
فلما عرفوا منه ذلك (قالوا) مؤنسين له (لا تخف) وأعلموه أنهم رسل الله (وبشروه بغلام)
يأتيه على شيخوخته ويأس امرأته بالطعن فى السن بعد عقمها وهو اسحق عليه السلام
(عليم) أى مجبول جبلة مهياة للعلم ولا يموت حتى يظهر علمه بالفعل فى أوانه فان جميع الانبياء
بعده من ذريته الا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فانه من ذرية اسمعيل عليه السلام *(تنبيه)*
ذكر ههنا من آداب الضيافة تسليم المضيف على الضيف ولقاءه بالوجه الحسن والمبالغة
فى الاكرام بقوله سلام وهو آكد وسلامهم بالمصدر فى قوله سلام بالرفع زيادة على ذلك ولم يقل
سلام عليكم لان الامتناع من الطعام يدل على العداوة والغدر لا يليق بالانبياء فقال سلام
أى امرى مسالمة ثم فيهما من آداب المضيف تعجيل الضيافة فان الفاء فى قوله فراغ تدل على
التعقيب واخفاؤها الان الروغان يقتضى الاخفاء وغيبة المضيف عن الضيف ليستريح ويأتى
بما ينعه الحياء منه ويخدم الضيف بنفسه ويختار الاجود لقوله سمين ويقدم الطعام للضيف
فى مكانه ولا ينقل الضيف للطعام لقوله قربه اليهم ويعرض الاكل عليه ولا يامره لقوله تعالى
قال ألا تأكلون ولم يقل كلوا ويسروره بأكله لا كما يوجد فى بعض البخلاء الذين يحضرون طعاما
كثيرا ويجعل نظره ونظر أهل بيته الى الطعام حتى يمسك الضيف يده عنه لقوله تعالى فأوجس منهم
خيفة لعدم أكلهم ومن آداب الضيف اذا حضر الطعام ولم يكن يصلح له لكونه مضرا به
أو يكون ضعيف القوة عن هضم ذلك الطعام أن لا يقول هذا طعام غليظ لا يصلح لى بل يأتى
بعبارة حسنة ويقول فى مانع من أكل الطعام لانهم أجابوه بقولهم لا تخف ولم يذكروا فى الطعام
شيأ ولانه يضر بهم بل بشروه بالولد اشعارا بأنهم ملائكة وبشروه بالاشرف وهو الذكر حيث
فهموه انهم ليسوا ممن يأكلون ثم وصفوه بالعلم دون المال والجمال لان العلم أشرف الصفات
ثم أدب آخر فى البشارة وهو أن لا يخبر الانسان بما يسره دفعة واحدة لانه يورث مرضا لانهم
جلسوا واستأنس بهم ابراهيم ثم قالوا نبشرك (فان قيل) قال تعالى فى سورة هود فلما رأى أيديهم
لا تصل اليه نكرهم فدل على أن انكاره حصل بعد تقريب العجل اليهم وههنا قال فقالوا سلاما
قال سلام قوم منكرون ثم قال فراغ الى أهله بفاء التعقيب وذلك يدل على أن تقريب الطعام منهم

بعد

بعد حصول انكاره فما وجهه (أجيب) بأن يقال لعلهم كانوا مخالفين لصفة الناس فى الشكل والهيئة ولذلك قال قوم منكرون أى عند كل أحد واشترك ابراهيم عليه السلام وغيره فيه ولهذا لم يقل أنكرتم بل قال أنتم منكرون فى أنفسكم عند كل أحد منا ثم لما امتنعوا من الطعام تأكد الانكار لان ابراهيم تفرد بمشاهدة امساكهم فنكرهم فوق الانكار الاول وحكاية الحال فى سورة هود أبسط مما ذكره ههنا فانه هنالم يبين المبشر به وهنالك ذكره باسمه وهو اسحق وههنا لم يقل ان القوم قوم من وهنالك قال قوم لوط ولما كانا بعيدين عن قبول الولد تسبب عن ذلك قوله تعالى دالا على أن الولد اسحق مع الدلالة على أن خفاء الاسباب لا يؤثر فى وجود المسببات (فأقبلت) أى من سماع هذا الكلام (امرأته) سارة قيل لم يكن ذلك اقبالا من مكان الى مكان بل كانت فى البيت فهو كقول القائل أقبل يفعل كذا اذا أخذ فيه وقوله تعالى (فى صرة) أى صيحة حال أى جاءت صائحة لانها قد امتلأت عجبا (فصكت) قال ابن عباس لطمت (وجهها) واختلف فى صفته فقيل هو الضرب باليد مبسوطة وقيل هو ضرب الوجه باطراف الاصابع فعل المتعجب وهى عادة النساء اذا أنكرن شيأ وأصل الصك ضرب الشئ بالشئ العريض وقيل جمعت أصابعها وضربت جبهتها عجبا وذلك من عادة النساء أيضا اذا أنكرن شيأ (وقالت) تريد أن تستبين الامر هل الولد منهما أو من غيرها (عجوز) قال القشيرى قيل انها كانت يومئذ ابنة ثمان وتسعين سنة ومع ذلك (عقيم) فهى حال شبابها لم تكن تقبل الحبل فلم تلد قط ولما قالت ذلك قالوا مجيبين لها (قالوا كذلك) أى مثل ماقلناه من هذه البشرى العظيمة (قال ربك) أى المحسن اليك بتأهيلك لذلك على ماذكرت من حالك وبتأهيلك من قبل الاتصال بخليله صلى الله عليه وسلم (انه هو) أى وحده (الحكيم) أى الذى يضع الاشياء فى أحق مواضعها (العليم) المحيط العلم فهو لذلك لا يعجزه شئ ثم بين سبحانه وتعالى ما كان من حال ابراهيم وحال الملائكة بعد ذلك بقوله تعالى (قال) أى ابراهيم عليه السلام مسببا عما رأى من حالهم وان اجتماع الملائكة على تلك الحالة لم يكن لهذه البشارة فقط (فما خطبكم) أى خبركم العظيم (أيها المرسلون) أى لامر عظيم وهذا أيضا من آداب المضيف اذا بادر الضيف بالخروج قال له ماهذه العجلة وما شأنك لان فى سكوته ما يوهم اشتغاله ثم انهم أتوا بماهو من آداب الصديق الذى لا يسر عن الصديق شيأ وكان ذلك باذن الله تعالى لهم فى اطلاع ابراهيم عليه السلام على اهلاكهم وجبر قلبه بتقديم البشارة بأبى الانبياء اسحق عليه السلام (فان قيل) فما الذى اقتضى ذكره بالفاء ولم لا قال ماهذا الاستعجال وما خطبكم المعجل لكم (أجيب) بأنه لما أوجس منهم خيفة لو خرجوا من غير بشارة وايناس فلما آنسوه قال فما خطبكم أى بعد هذا الانس العظيم ماهذا الايحاش الاليم (قالوا) قاطعين بالتأكيد بأن مضمون خبرهم حتم لابد منه ولا مدخل للشفاعة فيه (انا أرسلنا) أى بارسال من تعلم (الى قوم مجرمين) أى هم فى غاية القوة على مايحاولونه وقد صرفوا ما أنعم الله تعالى به عليهم من القوة فى قطع مايحق وصله ووصل مايحق قطعه يعنون قوم لوط (لنرسل عليهم) أى من السماء التى فيها

ماوعد العباد به وتوعدوا (حجارة من طين) أى مهيأ للاحراق والاحتراق (مسوّمة) أى معلمة بعلامة العذاب المخصوص عليها اسم من يرمى بها وقوله تعالى (عند ربك) أى المحسن اليك بهذه البشارة وغيرها ظرف لمسوّمة أى معلمة عنده (للمسرفين) أى المتجاوزين الحدود غير قانعين بما أبيح لهم فالمسرف المتمادى ولو فى الصغائر فهم مجرمون أى مسرفون والمجرم قال ابن عباس هو المشرك لان الشرك أعظم الذنوب * وهنا لطيفة * وهى أن الحجارة سوّمت للمصرّ المسرف الذى لا يترك الذنب فى المستقبل وذلك انما يعلمه الله تعالى فلذلك قال عند ربك للمسرفين ولما كان الاجرام ظاهرا قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين واللام فى المسرفين لتعريف العهد أى لهؤلاء المسرفين اذ ليس لكل مسرف حجارة مسوّمة واسرافهم بأنهم أتوا بما لم يسبقهم به أحد من العالمين وفى هذا دليل على رجم اللائط والفائدة فى ارسال جماعة من الملائكة لهذا الامر وان كان يكفى فيه الواحد منهم اذا الملك العظيم قد يهلك بالامر الحقير كما أهلك النمروذ بالبعوض وكما أهلك فرعون بالقمل والجراد بل بالريح التى بها الحياة اظهارا للقدرة وقد تكثر الاسباب كما فى يوم بدر أمر خمسة آلاف من الملائكة باهلاك أهل بدر مع قلتهم اظهارا العظيم قدرته * (تنبيه) * قوله تعالى من طين أى ليس من البرد والفاعل لذلك هو الله تعالى لا كما تقول الحكماء فانهم يقولون ان البرد يسمى حجارة فقوله تعالى من طين يدفع ذلك التوهم قال الرازى ان بعض من يدعى العقل يقول لا ينزل من السماء الا حجارة من طين مدوّرات على هيئة البرد وهيئة البنادق التى يتخذها الرماة قالوا وسبب ذلك أن الاعصار تصعد الغبار من الفلوات العظيمة التى لا عمارة فيها والرياح تسوقها الى بعض البلاد ويتفق ذلك الى هواء ندى فيصير ذلك طينا رطبا والرطب اذا نزل وتفرق استدار بدليل انك اذا رميت الماء الى فوق ثم نظرت اليه رأيته يقطر كرات مدوّرات كاللآلئ الكبار ثم فى النزول ان اتفق أن تضربه النيران التى فى الجو جعلته حجارة كالآجرّ المطبوخ فينزل فيصيب من هيأ الله تعالى هلاكه وقد ينزل كثيرا فى المواضع التى لا عمارة بها فلا يرى ولا يدرى به فلهذا قال من طين لان ما لا يكون من طين كالحجر الذى يكون فى الصواعق لا يكون كثيرا بحيث يمطر وهذا تعسف لان ذلك الاعصار لما وقع فان وقع لحادث آخر لزم التسلسل ولابد من الانتهاء الى محدث ليس بحادث فذلك المحدث لا بد وأن يكون فاعلا مختارا والمختار له أن يفعل ذلك وله أن يخلق الحجارة من طين على وجه آخر من غير نار ولا غبار لكن العقل لا طريق له الى الجزم بطريق احداثه وما لا يصل العقل اليه لا يؤخذ الا بالنقل والنص ومن المعلوم أن نزول حجارة الطين من السماء أغرب وأعجب من غيرها ولما أراد الله تعالى أن يهلك المجرمين ميز المؤمنين بقوله تعالى (فأخرجنا) أى بما لنا من العظمة بعد أن ذهبت رسلنا اليهم ووقعت بينهم وبين لوط عليه السلام محاورات معروفة لم يدع الحال هنا الى ذكرها (من كان فيها) أى قرى قوم لوط (من المؤمنين) أى المصدقين بقلوبهم لا بالالسن تسويهم بالمجرمين فخلصناهم من العذاب على قلتهم وضعفهم وقوة المخالفين وكثرتهم (فما وجدنا فيها) أى تلك القرى أسند الامر اليه تشريفا

لرسله واعلاما بأن فعلهم فعله تعالى (غير بيت) أى واحد وهو بيت ابن أخى ابراهيم عليهما السلام وقيل كانت عدة الناجين منهم ثلاثة عشر (من المسلمين) أى العريقين فى اسلام الظاهر والباطن لله تعالى من غير اعتراض أصلا وهم ابراهيم وآله عليهم السلام وانهم أول من وجد منهم الاسلام الاتم وتسموا به كما مر فى سورة البقرة وسموا به أتباعهم فكان هذا البيت الواحد صادقا عليه الايمان الذى هو التصديق والاسلام الذى هو الانقياد قال البغوى وصفهم الله تعالى بالايمان والاسلام جميعا لانه مامن مؤمن الا وهو مسلم يعنى لما بينهما من التلازم وان اختلف المفهومان وقال الاصفهانى وقيل كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر وقيل هم لوط وابنتاه وصفوا بالايمان والاسلام أى هم مصدقون بقلوبهم عاملون بجوارحهم الطاعات * (تنبيه) * فى الآية اشارة الى أن الكفر اذا غلب والفسق اذا فشا لاتنفع معه عبادة المؤمنين بخلاف مالو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويزنون ومثاله أن العالم كالبدن ووجود الصالحين كالاغذية الباردة والحارة والسموم الواردة عليه الضارة ثم ان البدن اذا خلا عن النافع وفيه الضار هلك وان خلا عن الضار وفيه النافع طاب ونما وان وجدا فيه معا فالحكم للاغلب واطلاق الخاص على العام لامانع منه لان المسلم أعم من المؤمن فاذا سمى المؤمن مسلما لايدل على اتحاد مفهوميهما فكأنه تعالى قال أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الاعم منهم الا بيتا من المسلمين ويلزم من هذا أن لايكون هناك غيرهم من المؤمنين (وتركنا) أى بما لنا من العظمة (فيها) أى تلك القرى بما أوقعنا بهامن العذاب (آية) أى علامة عبرة على هلاكهم كالحجارة أو الماء المنتن فانا قلعنا قراهم كلها وصعدت فى الجو كالغمام الى عنان السماء ولم يشعر أحد من أهلها بشئ من ذلك ثم قلبت واتبعت بالحجارة ثم خسف بها وغمرت بالماء الذى لايشبهه شئ من مياه الارض كما أن جنايتهم لم تكن تشبه جناية أحد ممن تقدمهم من أهل الارض (للذين يخافون العذاب الاليم) أى أن يحل بهم كما حل بهذه القرى فى الدنيا من رفع الملائكة لهم فى الهواء الذارى الى عنان السماء وقلبهم واتباعهم الحجارة المحرقة وغمرهم بالماء المناسب لفعلهم بنتنه وعدم نفعه وما ادخرلهم فى الآخرة أعظم وخص الذين يخافون بالذكر لانهم المعتبرون بها وقوله تعالى (وفى موسى) عطف على قوله تعالى فيها باعادة الجار لان المعطوف عليه ضمير مجرور فيتعلق بتركنا من حيث المعنى ويكون التقدير وتركنا فى قصة موسى آية (اذ أرسلناه) أى بما لنا من العظمة (الى فرعون بسلطان مبين) أى بحجة واضحة وهى معجزاته الظاهرة كاليد والعصا ومع ذلك لم ينتفع بها ولذلك سبب عنها وعقب بها قوله تعالى (فتولى) أى كلف نفسه الاعراض عنها بعد مادعاه علمها الى الاقبال اليها وأشار الى قواه بقوله تعالى (بركنه) أى بسبب مايركن اليه من القوة فى نفسه وبأعوانه وجنوده لانهم له كالركن وقيل بجميع بدنه كناية عن المبالغة فى الاعراض (وقال) معلما بعجزه عما أتاه به وهو لايشعر (ساحر) ثم ناقض كلما قاله فقال بجهله عما يلزم على قوله (أو مجنون) أى لاجترائه على مع مالى من عظيم الملك

بمثل هذا الذي يدعو اليه * (تنبيه) * أو هنا على بابها من الابهام على السامع أو للشك نزل نفسه مع أنه يعرفه نبياً حقاً منزلة الشاك في أمره تمويهاً على قومه وقال أبو عبيدة أو بمعنى الواو وقال لانه قد قالهما قال تعالى ان هذا الساحر عليم وقال في موضع آخر ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون ورد الناس عليه هذا وقالوا لا ضرورة تدعو الى ذلك وأما الآيتان فلا تدلان على أنه قالهما معاً في آن واحد وانما يفيدان انه قالهما أعم من أن يكونا معاً أو هذه في وقت وهذه في آخر ولما وقعت التسلية بهذا للاولياء قال تعالى محذراً للاعداء (فأخذناه) أي أخذ غضب وقهر بعظمتنا وقوله تعالى (وجنوده) يجوز أن يكون معطوفاً على مفعول أخذناه وهو الظاهر وأن يكون مفعولاً معه (فنبذناهم) أي طرحناهم طرح مستهين بهم كما تطرح الحصيات (في اليم) أي البحر الذي هو أهل لان يقصد بعد أن سلطنا الريح عليه ففرقته لما ضربه موسى عليه السلام بعصاه ونشفت أرضه وأيبست ما برزت فيه من الطرق لنجاة أوليائنا وهلاك أعدائنا (وهو) أي والحال ان فرعون (مليم) أي آت بما يلام عليه من تكذيب الرسول ودعوى الربوبية وغير ذلك ثم ذكر تعالى قصصاً أخر تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم احداها قوله تعالى (وفي عاد) أي اهلاكهم وهم قوم هود عليه السلام آية عظيمة (اذ) أي حين (أرسلنا) بعظمتنا (عليهم الريح) فأتتهم تحمل سحابة سوداء وهي تدر الرمل وترمي بالحجارة كما مرت الاشارة اليه على كيفية لا تطاق (العقيم) أي التي لا خير فيها لا تحمل المطر ولا تلقح الشجر وهي الدبور ثم بين عقمها واعقامها بقوله تعالى (ما تذر) أي تترك على حالة رديئة وأغرق في النفي فقال تعالى (من شئ أتت عليه) أي اتياناً أراد مرسلها اهلاكه بها (الا جعلته كالرميم) أي الشئ البالي الذي دهكته الايام والليالي الى حالة الدمار وهو في كلامهم ما يبس من نبات الارض وديس قاله ابن جرير (فان قيل) الجبال والصخور وغير ذلك أتت عليهم وما جعلتهم كالرميم (أجيب) بأن المراد أتت عليه قاصدة له وهو عاد وابنيتهم وعروشهم لانها كانت مأمورة بأمر من عند الله فكأنها كانت قاصدة لهم فما تركت شيأ من تلك الاشياء الا جعلته كالرميم ثانيها قوله تعالى (وفي ثمود) أي اهلاكهم وهم قوم صالح عليه السلام آية عظيمة (اذ) أي حين (قيل لهم) أي ممن لا يخلف الميعاد وقرأ هشام والكسائي بضم القاف والباقون بكسرها (تمتعوا) أي بلبن الناقة وغيره مما مكناهم فيه من الزروع والنخيل والابنية في الجبال والسهول وغير ذلك من جلائل الامور على الوجه الذي أمرناكم به ولا تطغوا (حتى حين) أي وقت ضربناه لآجالكم (فعتوا) أي أوقعوا بسبب احساننا اليهم العتو وهو التكبر والاباء (عن أمر ربهم) أي مولاهم الذي أعظم احسانه اليهم فعقروا ناقته وأرادوا قتل نبيه صالح عليه السلام (فأخذتهم) أي بسبب عتوهم أخذ قهر وعذاب (الصاعقة) أي الصيحة العظيمة التي حملتها الريح فأوصلتها الى مسامعهم بغاية العظمة ورجت ديارهم رجة أزالت أرواحهم بالصعق وقرأ الكسائي باسكان العين ولا ألف قبلها والباقون بكسر العين وقبلها ألف وقوله تعالى (وهم ينظرون) دال على أنها كانت في غمام وكان فيها

نار

نار ويجوز مع كونه من النظر أن يكون أيضا من الانتظار فانهم وعدوا نزول العذاب بعد ثلاثة أيام وجعل في كل يوم علامة وقعت بهم فتحققوا وقوعه في اليوم الرابع وقال بعض المفسرين المراد منه هو ما أمهلهم الله تعالى بعد عقرهم الناقة وهو ثلاثة أيام بقوله تعالى تمتعوا في داركم ثلاثة أيام وكان في تلك الايام تتغير ألوانهم فتحمر وتصفر وتسود قال الرازي وهذا ضعيف لان قوله تعالى فعتوا عن أمر ربهم بحرف الفاء دليل على أن العتو كان بعد قوله تعالى تمتعوا فاذا الظاهر أن المراد هو ما قدر الله تعالى للناس من الآجال فما من أحد الا وهو ممهل مدة الاجل انتهى ولحسن هذا فسرت الآية به (فما) أي فتسبب عن ذلك انهم ما (استطاعوا) أي تمكنوا وأكد النفي بقوله تعالى (من قيام) أي فما قاموا بعد نزول العذاب وما قدروا على نهوض قال قتادة لم ينهضوا من تلك الصرعة كقوله تعالى فأصبحوا في ديارهم جاثمين وقيل هو من قولهم ما يقوم به اذا عجز عن دفعه (وما كانوا) أي كونا ما (منتصرين) أي لم يكن فيهم أهلية الانتصار بوجه لا بأنفسهم ولا بناصر ينصرهم فيطاوعونه في النصرة لان تهيؤهم لذلك سقط بكل اعتبار ثالثها قوله تعالى (وقوم نوح) بالجر وهي قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي عطف على ثمود أي وفي اهلاكهم بماء السماء والارض آية وبالنصب وهي قراءة الباقين أي وأهلكنا قوم نوح (من قبل) أي من قبل اهلاك هؤلاء المذكورين ثم علل اهلاكهم بقوله تعالى (انهم كانوا) خلقا وطبعا لا حيلة لغيرنا من أهل الاسباب في صلاحهم (قوما) أي أقوياء (فاسقين) أي غريقين في الخروج عن حظيرة الدين ثم ذكر ما يدل على تمام القدرة على البعث بقوله تعالى (والسماء بنيناها) أي بما لنا من العظمة (بأييد) أي بقوة وشدة عظيمة لا يقدر قدرها * (فائدة) * رسمت بأييد بياءين بعد الالف (وانا) على عظمتنا بعد ذلك (لموسعون) أي أغنياء وقادرون ذو وسعة لا تتناهى ولذلك أوسعنا بقدر جرمها وما فيها من الرزق عن أهلها فالارض كلها على اتساعها كالنقطة في وسط دائرة السماء بما اقتضته صفة الالهية التي لا تصح معها الشركة أصلا فلسنا كمن تعرفون من الملوك لانهم اذا فعلوا شيأ لم يقدروا على أعظم منه وان قدروا كان ذلك منهم بكلفة ومشقة وسترون في اليوم الآخر ما يتلاشى ما ترون في جنبه ومن اتساعنا جعلها بلا عمد مع ما هي عليه من العظمة الى غير ذلك من الامور الخارقة للعوائد وعن الحسن لموسعون الرزق بالمطر وقيل جعلنا بينها وبين الارض سعة (والارض فرشناها) أي بسطناها ومهدناها بما لنا من العظمة فصارت ممهدة جديرة بأن تستقر عليها الاشياء وهي آية على تمهيد أرض الجنة وشققنا لانهارها وغرسنا لاشجارها (فنعم) أي فتسبب عن ذلك أن يقال في وصفنا انا (الماهدون) والمخصوص بالمدح محذوف لفهم المعنى أي نحن لكمال قدرتنا فما نزل من السماء شئ ولا نبع من الارض شئ الا بارادتنا واختيارنا وتقديرنا من الازل لانا اذا اصطنعنا شيأ علمنا ما يكون منه من حين انشائه الى حين افنائه ولا يكون شئ منه الا بتقديرنا وذلك تذكير بالجنة والنار فما فيهما من خير فهو آية على الجنة وما فيهما من شر فهو آية على النار وقوله تعالى (ومن كل شئ خلقنا) يجوز أن يتعلق بخلقنا أي خلقنا

من كل شئ (زوجين) وأن يتعلق بمحذوف على أنه حال من زوجين لانه فى الاصل صفة له اذ التقدير خلقنا زوجين كائنين من كل شئ أى صنفين كل منهما يزاوج الآخر من وجه وان خالفه من آخر ولا يتم نفع أحدهما الا بالآخر من الحيوان والنبات وغيرهما ويدخل فيه الاضداد من الغنى والفقر والحسن والقبح والحياة والموت والظلام والنور والليل والنهار والصحة والسقم والبر والبحر والسهل والجبل والشمس والقمر والحر والبرد اللذين هما من نفس جهنم آية بينة عليها وبناؤها على الاعتدال فى بعض الاحوال آية على الجنة مذكرة بها مشوقة اليها والايمان والكفر والسعادة والشقاوة والحق والباطل والحلو والمر قال الحسن كل اثنين منها زوج والله سبحانه وتعالى فرد لا مثل له (لعلكم تذكرون) أى فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الارض وخلق الازواج ارادة أن تتذكروا فتعلموا ان خالق هذه الاشياء واحد لا شريك له لا يعجزه حشر الاجساد وجمع الارواح وقرأ حفص والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد (ففروا) أى اقبلوا والجؤا (الى الله) أى الذى لا سمى له فضلا عن مكافئ وله الكمال كله فهو فى غاية العلو فلا يفر ويسكن أحد الى غير محتاج مثله فان المحتاج لا غنى عنده ولا يفر اليه سبحانه الا من تجرد عن حضيض عوائقه الجسمية الى أوج صفاته الروحانية وذلك من وعيده الى وعده اللذين دل عليهما بالزوجين فتكمل السياق بالتحذير والاستعطاف بالاستدعاء فهو من باب لا ملجأ منك الا اليك أعوذ بك منك قال القشيرى ومن صح فراره الى الله تعالى صح قراره مع الله تعالى قال البقاعى وهو بكمال المتابعة ليس عينا ومن فهم منه اتحادا بذات أو صفة فقد نابذ طريق القوم فعليه لعنة الله (انى لكم منه) أى لا من غيره (نذير) أى من أن يفر أحد الى غيره فانه لا يحصل له قصد (مبين) أى بين الانذار ففرار العامة من الجهل الى العلم عقدا وسعيا ومن الكسل الى التشمير حذرا وحزما ومن الضيق الى السعة ثقة ورجاء وفرار خاصة الخاصة مما دون الحق الى الحق استغراقا فى وحدانيته (ولا تجعلوا) أى باهوائكم (مع الله) وكرر الاسم الاعظم ولم يضمر تعيينا للمراد لانه لم يشاركه فى التسمية به أحد وتنبيها على ماله من صفات الكمال وتعميما لوجوه المقاصد لئلا يظن لو قيل معه ان المراد النهى عن الجعل من جهة الفرار لا من جهة غيرها (الها آخر) ثم علل النهى مع التأكيد بطعنهم فى نذارته فقال (انى لكم منه) أى لا من غيره فان غيره لا يقدر على شئ (نذير) أى محذر من الهلاك الابدى بالعقوبة التى لا خلاص معها ان فعلتم ذلك (مبين) أى لا أقول شيأ من واضح النقل الاودليله ظاهر (كذلك) أى مثل قول قومك المختلف العظيم الشناعة البعيد من الصواب بماله من الاضطراب وقع لمن قبلهم ودل على هذا المقدر بقوله تعالى مستأنفا (ما أتى الذين من قبلهم) أى كفار مكة وعمم النفى فقال تعالى (من رسول) أى من عند الله تعالى (الا قالوا ساحر أو مجنون) أى مثل تكذيبهم لك بقولهم ذلك لان الرسول يأتيهم بمخالفة مألوفاتهم التى قادتهم اليها أهواؤهم والهوى هو الذى أوجب لهم هذا التناقض الظاهر سواء كانت أو للتفصيل لان بعضهم قال واحدا وبعضهم

قال آخرا وكانت للشك لان الساحر يكون لبيبا فطنا آتيا بما يعجز عنه كثير من الناس والمجنون بالضد من ذلك (فان قيل) قوله تعالى الا قالوا يدل على انهم كلهم قالوا ذلك والامر ليس كذلك لان ما من رسول الا وآمن به قوم (أجيب) بأن ذلك ليس بعام فانه لم يقل الا قالوا كلهم وانما قال الا قالوا ولما كان كثير منهم قائلين قال تعالى الا قالوا (فان قيل) فلم لم يذكر المصدقين كما ذكر المكذبين وقال الا قال بعضهم صدقت وبعضهم كذبت (أجيب) بأن المقصود التسلية وهي أعلى التكذيب فكانه تعالى قال لا تأس على تكذيب قومك فان اقواما قبلك كذبوا ورسلا كذبوا ثم عجب منهم بقوله تعالى (أتواصوا به) فهو استفهام للتعجب والتوبيخ والضمير في به يعود على القول المدلول عليه بقالوا أي أتواصوا الاولون والآخرون بهذا القول المتضمن لساحر أو مجنون والمعنى كيف اتفقوا على معنى واحد كأنهم تواطؤا عليه وأوصى أولهم آخرهم بالتكذيب وقوله تعالى (بل هم قوم) أي ذو شماخة وكبر (طاغون) اضراب عن أن التواصي جامعهم لتباعد أيامهم الى أن الجامع لهم على هذا القول مشاركتهم في الطغيان الحامل عليه ثم ان الله تعالى سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (فتول) أي أعرض (عنهم) أي كف نفسك الاعراض عن الابلاغ في ابلاغهم ولا تأسف على تخلفهم عن الاسلام (فما أنت بملوم) لانك بلغتهم الرسالة وما قصرت فيما أمرت به قال المفسرون لما نزلت هذه الآية حزن النبي صلى الله عليه وسلم واشتد ذلك على أصحابه وظنوا ان الوحي قد انقطع وان العذاب قد حضر اذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتولى عنهم فأنزل الله تعالى (وذكر) أي ولا تدع التذكير والموعظة (فان الذكرى تنفع المؤمنين) فطابت أنفسهم والمعنى ليس التولي مطلقا بل تول وأقبل وأعرض وادع فلا التولي يضرك اذا كان عليهم ولا التذكير يضيع اذا كان مع المؤمنين وقال مقاتل معناه عظ بالقرآن كفار مكة فان الذكرى تنفع من علم الله تعالى انه مؤمن منهم وقال الكلبي عظ بالقرآن من آمن من قومك فان الذكرى تنفعهم * ولما بين حال من قبل النبي صلى الله عليه وسلم في التكذيب بين سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله تعالى الذي خلقهم للعبادة بقوله تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) واختلف في تفسير ذلك فأكثر المفسرين على أن المراد بهم العموم ولا ينافي ذلك عدم عبادة الكافرين لان الغاية لا يلزم وجودها كما في قولك بريت هذا القلم لاكتب به فانك قد لا تكتب به هكذا قال الجلال المحلي وأوضح منه ما قاله ابن عادل ان المعنى الا معدين للعبادة ثم منهم من يتأتى منه ذلك ومنهم من لا كقولك هذا القلم بريته للكتابة ثم قد لا تكتب به وقد تكتب انتهى أو ان المراد الا لامرهم بالعبادة وليقروا بها وهذا منقول عن علي بن أبي طالب أو ان المراد ليطيعوا وينقادوا والقضاء فالمؤمن يفعل ذلك طوعا والكافر يفعل ذلك كرها أو ان المراد الا ليوحدون فأما المؤمن فيوحد اختيارا في الشدة والرخاء وأما الكافر فيوحد اضطرارا في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء وقال مجاهد معناه الا ليعرفون قال البغوي وهذا أحسن لانه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده بدليل قوله تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله وقيل المراد به الخصوص أي

ما خلقت السعداء من الجن والانس الا لعبادتي والاشقيا منهم الا لمعصيتي قال زيد بن أسلم قال هو ما جبلوا عليه من السعادة والشقاوة ويؤيده قوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس وقيل وما خلقت الجن والانس المؤمنين وقيل الطائعين * (تنبيه) * استدل المعتزلة بهذه الآية على أن أفعال الله تعالى معللة بالاغراض وأجيبوا بوجوه منها ان اللام قد تثبت لغير الغرض كقوله تعالى أقم الصلاة لدلوك الشمس وقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن ومعناه المقارنة فيكون معناه قرنت الخلق بالعبادة أي خلقتهم وفرضت عليهم العبادة ومنها قوله تعالى الله خالق كل شئ ومنها ما يدل على أن الاضلال بفعل الله كقوله تعالى يضل من يشاء وأمثاله ومنها قوله تعالى لا يسئل عما يفعل وقوله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد (فان قيل) ما الحكمة في أنه لم يذكر الملائكة مع أنهم من أصناف المكلفين وعبادتهم أكثر من عبادة غيرهم من المكلفين قال تعالى بل عباد مكرمون وقال تعالى لا يستكبرون عن عبادته (أجيب) بوجوه أحدها ان الآية سيقت لبيان قبح ما يفعله الكفرة من ترك ما خلقوا له وهذا مختص بالجن والانس لان الكفر موجود فيهما دون الملائكة ثانيها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا الى الجن والانس فلما قال تعالى وذكر بين ما يذكر به وهو كون الخلق للعبادة وخصص أمته بالذكر أي ذكر الجن والانس ثالثها ان عباد الاصنام كانوا يقولون ان الله تعالى عظيم الشان خلق الملائكة وجعلهم مقربين فهم يعبدون الله تعالى وخلقهم لعبادته ونحن لنزول درجتنا لا نصلح لعبادة الله تعالى فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله تعالى كما قالوا ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى فقال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ولم يذكر الملائكة لان الامر فيهم كان مسلما من القوم فذكر المنازع فيه رابعها فعل الجن يتناول الملائكة لان أصل الجن من الاستتار وهم مستترون عن الخلق فذكر الجن لدخول الملائكة فيهم * ولما خص سبحانه خلقهم في ارادة العبادة صرح بهذا المفهوم بقوله تعالى (ما أريد منهم) أي في وقت من الاوقات وعم في النفي بقوله تعالى (من رزق) أي شئ من الاشياء على وجه ينفعني من جلب أو دفع لاني منزه عن لحاق نفع أو ضر كما يفعل غيري من الموالي مع عبيدهم فان ملاك العبيد انما كونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم فاما مجهز في تجارة ليبغي ربحا أو مرتب في فلاحة ليغتل أرضا أو مسلم في حرفة لينتفع بأجرته أو محتطب أو محتش أو مستق أو طابخ أو خابز وما أشبه ذلك من الاعمال والمهن التي هي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق لاني الغني المطلق وكل شئ مفتقر الي (وما أريد) أصلا (أن يطعمون) أي أن يرزقون رزقا خاصا هو الاطعام وفيه تعريض بأصنامهم فانهم كانوا يعملون معها ما ينفعها ويحضرون لها المأكل فربما أكلتها الكلاب ثم بالت على الاصنام ثم لا يصدهم ذلك عن عبادتها وقيل في الآية حذف مضاف أي وما أريد أن يطعموا أحدا من خلقي وانما أسند الاطعام الى نفسه لان الخلق كلهم عيال الله ومن أطعم عيال الله فقد أطعمه كما صح في الحديث عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل يقول

يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين قال أما علمت ان عبدي فلانا مرض فلم تعده أما تعلم انك لو عدته لوجدتني عنده يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت انك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني قال يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما علمت انك لو أسقيته لوجدت ذلك عندي (فان قيل) ما الفائدة في تكرير الارادتين مع أن من لا يريد من أحد رزقا لا يريد أن يطعمه (أجيب) بأن السيد قد يطلب من العبد المكتسب له الرزق وقد يكون للسيد مال وافر يستغنى به عن التكسب لكنه يطلب من العبد قضاء حوائجه واحضار الطعام بين يديه فقال لا أريد ذلك ولا هذا وقدم طلب الرزق على طلب الاطعام من باب الارتقاء من الادنى الى الاعلى (فان قيل) ما فائدة تخصيص الاطعام بالذكر مع أن المراد عدم طلب فعل منهم غير التعظيم (أجيب) بأنه لما عمم النفي في طلب الاول بقوله تعالى من رزق وذلك اشارة الى التعميم فذكر الاطعام ونفى الادنى ليتبعه بنفي الاعلى بطريق الاولى فكانه قال ما أريد منهم من غنى ولا عمل (فان قيل) المطالب لا تنحصر فيما ذكره فان السيد قد يشترى العبد لا لطلب رزق منه ولا للتعظيم بل يشتريه للتجارة (أجيب) بأن العموم في قوله تعالى ما أريد منهم من رزق يتناول ذلك ثم بين تعالى انه الرزاق لا غيره بقوله عز من قائل (ان الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال المنزه عن جميع صفات النقص (هو) أى لا غيره (الرزاق) أى على سبيل التكرار لكل حي وفي كل وقت (ذو القوة) أى التي لا تزول بوجه (المتين) أى الشديد الدائم (فان قيل) لم يقل انى رزاق بل قال على الحكاية عن الغائب ان الله هو الرزاق فما الحكمة (أجيب) بأن المعنى قل يا محمد ان الله هو الرزاق أو يكون من باب الالتفات من التكلم الى الغيبة أو يكون قل مضمرا عند قوله تعالى ما أريد منهم من رزق ولم يقل القوى بل قال ذو القوة لان المقصود تقرير ما تقدم من عدم ارادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير وقيد بالمتين لان ذو القوة لا يدل الا على أن له قوة ما فزاد في الوصف المتانة وهو الذى له ثبات لا يتزلزل والمعنى في وصفه سبحانه بالقوة والمتانة انه القادر البليغ الاقتدار على كل شئ * ولما أقسم سبحانه على الصدق في وعيدهم الى أن ختم بقوته التى لا حد لها سبب عن ذلك ايقاعه بالمتوعدين فقال تعالى مؤكدا لاجل انكارهم (فان للذين ظلموا) أى أوقعوا الاشياء في غير مواقعها (ذنوبا) أى نصيبا من العذاب طويل الشر كانه من طوله صاحب ذنب (مثل ذنوب أصحابهم) أى الذين تقدم ظلمهم بتكذيب الرسل من قوم نوح وعاد وثمود والذنوب في الاصل الدلو العظيمة المملوأة ماء ففى الحديث فأتى بذنوب من ماء فان لم تكن ملأى فهى دلو ثم عبر به عن النصيب قال عمرو ابن شاس

وفى كل حى قد خبطت بنعمة * فحق لشاس من نداك ذنوب

قال الملك نعم وأذنبة قال الزمخشرى وهذا تمثيل أصله في السقاة يتقسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا آخر قال الشاعر

لكم ذنوب ولنا ذنوب * فان أبيتم فلنا القليب

وقال الراغب الذنوب الدلو الذى له ذنب انتهى فراعى الاشتقاق والذنوب أيضا الفرس الطويل الذنب وهو صفة على فعول والذنوب لحم أسفل المتن ويقال يوم ذنوب أى طويل الشر استعارة من ذلك ويجمع فى القلة على أذنبة وفى الكثرة على ذنائب (فلا تستعجلون) أى تطلبوا أن آتيكم به قبل أوانه اللائق به فان ذلك لا يفعله الا ناقص وأنا متعال عن ذلك لا أخاف الفوت ولا يلحقنى عجز ولا أوصف به ولا بد أن أوقعه بهم فى الوقت الذى قضيت به فى الازل فانه أحق الاوقات بعقابهم لتكامل ذنوبهم (فويل) أى شدة عذاب (للذين كفروا) أى ستروا ما ظهر من هذه الادلة التى لا يسع عاقلا انكارها (من يومهم الذى يوعدون) أضافه اليهم لانه خاص بهم دون المؤمنين وهو يوم القيامة وقيل يوم بدر وحذف العائد لاستكمال شروطه أى يوعدونه وقرأ حمزة والكسائى فى الوصل بضم الهاء والميم وأبو عمرو بكسر الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم وأما الوقف عليها فالجميع بكسر الهاء وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والذاريات أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت فى الدنيا حديث موضوع والله أعلم

(سورة الطور مكية)

وهى تسع وأربعون آية وثلثمائة واثنتا عشرة كلمة وألف وخمسمائة حرف

(بسم الله) الملك الاعظم ذى الملك والملكوت (الرحمن) الذى عم خلقه بالرحموت (الرحيم) الحى الذى لا يموت وقوله تعالى (والطور) وما بعده أقسام جوابها ان عذاب ربك لواقع والواوات التى بعد الاولى عواطف لا حروف قسم كما قاله الخليل والطور هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام وهو بمدين أقسم الله تعالى به وقيل هو الجبل الذى قال الله تعالى وطور سينين وقيل هو اسم جنس * (تنبيه) * مناسبة هذه السورة لما قبلها من حيث الافتتاح بالقسم وبيان الحشر فيهما والمراد بالكتاب فى قوله تعالى (وكتاب مسطور) أى متقن الكتابة بسطور مصفوفة فى حروف مرتبة جامعة لكلمات متفقة هو كتاب موسى عليه السلام وهو التوراة وقيل القرآن وقيل اللوح المحفوظ وقيل صحائف أعمال الخلق قال تعالى ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا وقوله تعالى (فى رق) متعلق بمسطور أى مكتوب فى رق والرق الجلد الرقيق يكتب فيه وقال الراغب الرق ما يكتب فيه شبه كاغد اه فهو أعم من كونه جلدا وغيره (منشور) أى مبسوط مهيا للقراءة وقوله تعالى (والبيت المعمور) مختلف فى مكانه فقيل فى السماء العليا تحت العرش وقيل فى السماء الثالثة وقيل فى السادسة وعلى كل قول هو بحيال الكعبة يقال له الضراح حرمته فى السماء كحرمة الكعبة فى الارض يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يطوفون به ويصلون فيه ثم لا يعودون اليه أبدا ووصفه بالعمارة لكثرة الطائفين به من الملائكة وقيل هو بيت الله الحرام لكونه معمورا بالحجاج والعمار والمجاورين وقيل اللام

فى البيت

فى البيت المعمور لتعريف الجنس كأنه تعالى أقسم بالبيوت المعمورة والعمائر المشهورة وقوله تعالى (والسقف المرفوع) مختلف فيه أيضا فالاكثر على أنه السماء كما قال تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا وقيل المراد به سقف الكعبة وقيل سقف الجنة وهو العرش ونقل عن ابن عباس وقوله تعالى (والبحر المسجور) من الاضداد يقال بحر مسجور أى مملوء وبحر مسجور أى فارغ وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس أنه قال خرجت أمة لتستقى فقالت ان الحوض مسجور أى فارغ ويؤيد هذا ان البحار يذهب ماؤها يوم القيامة وقيل المسجور المسوك ومنه ساجور الكلب لانه يمسكه ويحبسه وقال محمد بن كعب القرظى يعنى بالمسجور الموقد المحمى بمنزلة التنور المسجور وهو قول ابن عباس لما روى انه تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة نارا فيزاد بها فى نار جهنم كما قال تعالى واذا البحار سجرت وعن على أنه سأل يهوديا أين موضع النار فى كتابكم قال فى البحر قال على ما أراه الاصادقا لقوله تعالى والبحر المسجور وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يركبن البحر رجل الا غازيا أو معتمرا أو حاجا فان تحت البحر نارا وتحت النار بحرا وقال الربيع بن أنس المختلط العذب بالملح وروى الضحاك عن المنزل بن سمرة عن على أنه قال البحر المسجور هو بحر تحت العرش عمقه كما بين سبع سموات الى سبع أرضين فيه ماء غليظ يقال له بحر الحيوان يمطر العباد منه بعد النفخة الاولى أربعين صباحا فينبتون فى قبورهم وهذا قول مقاتل (فان قيل) ما الحكمة فى القسم بهذه الثلاثة أشياء (أجيب) بأن هذه الاماكن الثلاثة وهى الطور والبيت المعمور والبحر المسجور كانت لثلاثة أنبياء للخلوة بربهم والخلاص من الخلق وخطابهم مع الله تعالى أما الطور فانتقل اليه موسى عليه السلام وخاطب الله سبحانه وتعالى هنالك وأما البيت المعمور فانتقل اليه محمد صلى الله عليه وسلم وقال لربه سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وأما البحر المسجور فانتقل اليه يونس عليه السلام ونادى فى الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فصارت هذه الاماكن شريفة بهذه الاسباب فأقسم الله تعالى بها وأما ذكر الكتاب فلان الانبياء كان لهم مع الله تعالى فى هذه الاماكن كلام والكلام فى الكتاب *(تنبيه)* أقسم الله تعالى فى بعض السور بجموع كقوله تعالى والذاريات والمرسلات والنازعات وفى بعضها بافراد كقوله تعالى والطور ولم يقل والاطوار والابحار قال الرازى والحكمة فيه ان فى أكثر الجموع أقسم عليها بالمتحركات والريح الواحدة ليست بثابتة بل هى متبدلة بافرادها مستمرة بأنواعها والمقصود منها لا يحصل الا بالتبدل والتغير فقال والذاريات اشارة الى النوع المستمر لا الى الفرد المعين المستقر وأما الجبل فهو ثابت غير متغير عادة فالواحد من الجبال دائم زمانا ودهرا فأقسم فى ذلك بالواحد وكذلك فى قوله تعالى والنجم ولو قال والريح لما علم المقسم به وفى الطور علم وقوله تعالى (ان عذاب ربك) أى الذى تولى تربيتك (لواقع) أى ثابت نازل بمستحقه جواب القسم كما مر (ماله من دافع) أى مانع لانه لا شريك لموقعه لما دلت عليه هذه الاقسام من كمال القدرة وجلال الحكمة قال جبير

ابن مطعم قدمت المدينة لا كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسارى بدر فدفعت اليه وهو يصلى باصحابه المغرب وصوته يخرج من المسجد فسمعته يقرأ والطور الى قوله تعالى ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع فكانما صدع قلبى حين سمعته ولم أكن أسلمت يومئذ فأسلمت خوفا من العذاب وما كنت أظن أنى أقوم من مكانى حتى يقع بى العذاب ثم بين تعالى أنه متى يقع بقوله تعالى (يوم تمور السماء) أى تتحرك وتضطرب وتجىء وتذهب وتدور دوران الرحى ويموج بعضها فى بعض وتتكفأ بأهلها تكفؤ السفينة وتختلف أجزاؤها بعضها فى بعض قال البغوى والمور يجمع هذه المعانى وهو فى اللغة الذهاب والمجىء والتردد والدوران والاضطراب قال الرازى وقيل تجىء وتذهب كالدخان ثم تضمحل (مورا) أى اضطرابا شديدا (وتسير الجبال) أى تنتقل من أمكنتها انتقال السحاب وحقق معناه بقوله تعالى (سيرا) فتصير هباء منثورا وتكون الارض قاعا صفصفا ثم بين من يقع عليه العذاب بقوله تعالى (فويل) أى شدة عذاب (يومئذ) أى يوم اذ يكون ماتقدم ذكره (للمكذبين) أى الغريقين فى التكذيب للرسل (الذين هم) من بين الناس بظواهرهم وبواطنهم (فى خوض) أى أقوالهم وأفعالهم أفعال الخائض فى الماء فهو لايدرى أين يضع رجله (يلعبون) فاجتمع عليهم أمران موجبان للباطل الخوض واللعب فهم بحيث لايكاد يقع لهم قول ولا فعل فى موضعه فلا يؤسس على بيان أوحجة (فان قيل) أهل الكفر لايكذبون فيقتضى ذلك انهم لايعذبون (أجيب) بأن ذلك العذاب لا يقع على أهل الكفر لقوله تعالى كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا فالمؤمن لا يلقى فيها القاء هوان وانما يدخل فيها للتطهير ادخالا مع نوع اكرام فالويل انما هو للمكذبين وقوله تعالى (يوم يدعون) بدل من يوم تمور السماء أومن يومئذ قبله تقديره فويل يومئذ يوم يدعون أى يدفعون دفعا عنيفا بجفوة وغلظة من كل من يقيمه الله تعالى لذلك ذاهبين ومتهيئين (الى نار جهنم) وهى الطبقة التى تلقاهم بالعبوسة والكراهة وأكد المعنى وحققه بقوله تعالى (دعا) قال البغوى وذلك ان خزنة جهنم يغلون أيديهم الى أعناقهم ويجمعون نواصيهم الى أقدامهم ثم يدفعون دفعا على وجوههم وزجا فى أقفيتهم ويقولا لهم تبكيتا وتوبيخا (هذه النار) أى الجسم المحرق المفسد لما أتى عليه الشاغل عن اللعب (التى كنتم بها) فى الدنيا (تكذبون) على التجدد والاستمرار وقوله تعالى (أفسحر) خبر مقدم وقوله تعالى (هذا) هو المبتدأ وقدم الخبر لانه المقصود بالانكار والتوبيخ وذلك أنهم كانوا ينسبون محمدا صلى الله عليه وسلم الى السحر وأنه يغطى الابصار بالسحر وان انشقاق القمر وأمثاله سحر فوبخوا به وقيل لهم أفسحر هذا أى الذى أنتم فيه من العذاب مع هذا الاحراق الذى تصلون فيه (أم أنتم) فى منام أونحوه (لاتبصرون) بالقلوب كما كنتم تقولون فى الدنيا قلوبنا فى أكنة ولا بالاعين كما كنتم تقولون للمنذر بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون (اصلوها) أى اذا لم يمكنكم انكارها وتحققتم أنه ليس بسحر ولا خلل فى أبصاركم فقاسوا شدتها (فاصبروا) على هذا الذى لاطاقة لكم به (أولا تصبروا) فانه لامحيص لكم عنه (سواء

عليكم

عليكم) أى الصبر والجزع فان صبركم لا ينفعكم وقوله تعالى (انما تجزون ما كنتم تعملون) تعليل للاستواء فانه لما كان الجزاء واجبا كان الصبر وعدمه سيين فى عدم النفع ولما ذكر ما للمكذبين من العذاب أتبعه ما لاضدادهم من الثواب فقال تعالى (ان المتقين) أى الذين صارت التقوى لهم صفة راسخة (فى جنات) أى بساتين أية بساتين دائما فى الدنيا حكما وفى الآخرة حقيقة (ونعيم) أى نعيم فى العاجل يعنى بما لهم فيه من الانس وفى الآجل بالفعل وزاد فى تحقيق التنعم بقوله تعالى (فاكهين) أى متلذذين معجبين ناعمين (بما آتاهم) أى أعطاهم (ربهم) الذى تولى تربيتهم بعملهم بالطاعات الى أن أوصلهم الى هذا النعيم (ووقاهم) أى قبل ذلك (ربهم) أى المتفضل بتربيتهم بكفهم عن المعاصى والقاذورات (عذاب الجحيم) اى النار الشديدة التوقد ولما كان من باشر النعمة وجانب النقمة فى غنى عظيم قال مترجما لذلك على تقدير القول (كلوا) أى أكلا هنيأ (واشربوا) أى شربا (هنيأ) وهو الذى لا تنغيص فيه فكل ما تتناولونه مأمون العاقبة من التخم والسقم وغيرهما (بما) أى بسبب ما (كنتم) أى كونا راسخا (تعملون) أى مجددين العمل على سبيل الاستمرار حتى كأنه طبع لكم ثم نبه على أنهم مع هذا النعيم مخدومون بقوله تعالى (متكئين) أى مستندين استناد راحة لانهم يخدمون فلا حاجة لهم الى الحركة (على سرر مصفوفة) أى منصوبة واحدا الى جنب واحد مستوية كأنها السطور على أحسن نظام وأبدعه ثم نبه على تمام سرورهم بالتمتع بالنساء بقوله تعالى (وزوجناهم) أى تزويجا يليق بما لنا من العظمة أى صيرناهم ممتعين (بحور) أى نساء هن فى شدة بياض العين وسوادها واستدارة حدقتها ورقة جفونها فى غاية حسن لا توصف (عين) أى واسعات الاعين فى رونق وحسن * (تنبيه) * اعلم انه تعالى بين أسباب التنعم على الترتيب فأول ما يكون المسكن وهو الجنان ثم الاكل والشرب ثم الفرش والبسط ثم الازواج فهذه أمور أربعة ذكرها الله تعالى على الترتيب وذكر فى كل واحد منها ما يدل على كماله فقوله جنات اشارة الى المسكن وقال فاكهين اشارة الى عدم التنغيص وعلو المرتبة لكونه مما آتاهم الله وقال كلوا واشربوا هنيئا أى مأمون العاقبة وترك ذكر المأكول والمشروب دلالة على تنوعهما وكثرتهما وقوله تعالى بما كنتم تعملون اشارة الى أنه تعالى يقول انى مع كونى ربكم وخالقكم وأدخلتكم الجنة بفضلى فلا منة لى عليكم اليوم وانما منتى عليكم كانت فى الدنيا هديتكم ووفقتكم للاعمال الصالحة كما قال تعالى بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان وأما اليوم فلا منة عليكم لان هذا انجاز الوعد وقوله تعالى (والذين آمنوا) أى أقروا بالايمان وان لم يبالغوا فى الاعمال الصالحة مبتدأ وقرأ أبو عمرو (وأتبعناهم) أى بما لنا من الفضل الناشئ عن العظمة بقطع الهمزة وسكون التاء الفوقية وسكون العين وبعد العين نون مفتوحة بعدها ألف والباقون بهمزة وصل محذوفة وتشديد التاء الفوقية وفتح العين وبعدها تاء فوقية ساكنة وهو معطوف على آمنوا (ذرياتهم) أى الصغار والكبار فالكبار بايمانهم بأنفسهم والصغار بايمان آبائهم فان الولد الصغير يحكم باسلامه تبعا لاحد أبويه (بايمان) أى بسبب ايمان حاصل منهم ولو كان فى أدنى درجات الايمان ولكنهم ثبتوا عليه الى

ان ماتوا وذلك شرط اتباعهم الذريات قال البقاعي ويجوز أن يراد وهو أقرب بسبب ايمان الذرية حقيقة ان كانوا كبارا أو حكما ان كانوا صغارا ثم أخبر عن الموصول المبتدا بقوله تعالى (ألحقنا بهم) تفضلا منا عليهم (ذرياتهم) وان لم يكن للذرية أعمال لانه

* لعين تجازى ألف عين وتكرم * والذريات هنا تصدق على الآباء وعلى الابناء وان المؤمن اذا كان عمله أكثر الحق به من دونه في العمل ابنا كان أو أبا وهو منقول عن ابن عباس وغيره ويلحق بالذرية من النسب الذرية بالسبب وهو المحبة فان كان معها أخذ لعلم أو عمل كانت أجدر فتكون ذرية الافادة كذرية الولادة وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب في جواب من سأل عمن يحب القوم ولما يلحق بهم وقرأ ذريتهم بايمان وألحقنا بهم ذرياتهم نافع بالقصر في الاولى والجمع في الثانية مع كسر التاء وقرأ ابن كثير والكوفيون بالقصر فيهما مع ضم التاء وقرأ أبو عمرو بالجمع فيهما مع كسر التاء وقرأ ابن عامر بالجمع فيهما الا أنه برفع التاء في الاولى ويكسرها في الثانية (فان قيل) قوله تعالى أتبعناهم ذرياتهم يفيد فائدة قوله تعالى ألحقنا بهم ذرياتهم (أجيب) بأن قوله تعالى ألحقنا بهم أي في الدرجات والاتباع انما هو في حكم الايمان وان لم يبلغوه كما مر ثم أشار الى عدم نقصان المتبوع بقوله تعالى (وما ألتناهم) أي ما نقصنا المتبوعين (من عملهم) وأكد النفي بقوله تعالى (من شئ) أي بسبب هذا الالحاق ولما بين تعالى اتباع الادنى للاعلى في الخير بين أن الادنى لا يتبع الاعلى في الشر بقوله تعالى (كل امرئ) من الذين آمنوا والمتقين وغيرهم (بما كسب) أي عمل من خير أو شر (رهين) أي مرهون يؤخذ بالشر ويجازى بالخير وقال مقاتل كل امرئ كافر بما عمل من الشرك رهين في النار والمؤمن لا يكون مرتهنا لقوله تعالى كل نفس بما كسبت رهينة الا أصحاب اليمين وقال الواحدي هذا يعود الى ذكر أهل النار وهو قول مجاهد أيضا قال الرازي وفيه وجه آخر وهو أن يكون الرهين فعيلا بمعنى الفاعل فيكون المعنى كل امرئ راهن أي دائم ان أحسن ففي الجنة مؤبدا وان أساء ففي النار مخلدا لان في الدنيا دوام الاعمال بدوام الاعيان فان العرض لا يبقى الا في جوهر ولا يوجد الا فيه وفي الآخرة دوام الاعيان بدوام الاعمال فان الله تعالى يبقي أعمالهم لكونها عند الله تعالى من الباقيات الصالحات وما عند الله باق والباقي يبقى مع عمله (وأمددناهم) أي الذين آمنوا والمتقين ومن ألحق بهم من ذرياتهم بما لنا من العظمة (بفاكهة) وقتا بعد وقت زيادة على ما تقدم ولما كانت الفاكهة ظاهرة فيما نعرفه في الدنيا وان كان عيش الجنة بجميع الاشياء تفكها ليس فيه شئ يقصد به حفظ البدن قال تعالى (ولحم مما يشتهون) من أنواع اللحمان والمعنى زدناهم مأكولا ومشروبا فالمأكول الفاكهة واللحم والمشروب الكاس وفي هذه اللطيفة وهي أنه تعالى لما قال وما ألتناهم من عملهم من شئ ونفي النقصان يصدق بحصول المساوي فقال ليس عدم النقصان بالاقتصار على المساوي بل بالزيادة والامداد وقوله تعالى (يتنازعون) في موضع نصب على الحال من مفعول أمددناهم ويجوز أن يكون مستأنفا وقوله تعالى (فيها) يجوز أن يعود الضمير للشرب بها ويجوز أن يعود للجنة

ومعنى

ومعنى يتنازعون يتعاطون و يحتمل أن يقال التنازع التجاذب ويكون تجاذبهم تجاذب ملاعبة لاتجاذب منازعة وفيه نوع لذة لانهم يفعلون ذلك هم وجلساؤهم من أقربائهم واخوانهم (كأسا) أى خمرا من رقة حاشيتها تكاد أن لاترى فى كأسها (لالغو) أى لاسقط حديث وهو مالا ينفع من الكلام ولا يضر (فيها) أى فى تنازعها ولا بسببها الانها لاتذهب بعقولهم فلا يتكلمون الا بالحسن الجميل بخلاف المتنادمين فى الدنيا على الشراب بسفههم وعربدتهم (ولاتأثيم) أى لايكون منهم مايؤثمهم وقال الزجاج لايجرى منهم مايلغى ولا مافيه اثم كما يجرى فى الدنيا الشربة الخمر قال الرازى ويحتمل أن يكون المراد من التأثيم السكر وقيل لايأثمون فى شربها وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بنصب لغو وتأثيم من غير تنوين والباقون بالرفع فيهما مع التنوين ولما كانت المعاطاة لايكمل بسطها ويعظم أنسها الابخدم وسقاة قال تعالى (ويطوف عليهم) بالكؤس وغيرها من أنواع التحف (غلمان) أى أرقاء ولما كان أحب مال الى الانسان مايختص به قال تعالى (لهم) ولم يقل تعالى غلمانهم لئلا يظن انهم الذين كانوا يخدمونهم فى الدنيا فيشفق كل من خدم أحدا فى الدنيا بقول أو فعل أن يكون خادما له فى الجنة فيحزن بكونه لايزال تابعا وأفاد التنكير ان كل من دخل الجنة و جدله خدما لم يعرفهم قبل ذلك (كأنهم) فى بياضهم وشدة صفائهم (لؤلؤ مكنون) أى مخزون مصون لم تمسه الايدى قال سعيد بن جبير يعنى فى الصدف لانه فيها أحسن منه فى غيره أو مصون فى الجنة لم تغيره العوارض قال عبد الله بن عمر ما من أحد من أهل الجنة الا يسعى عليه ألف غلام وكل غلام على عمل ما عليه صاحبه هذه صفة الخادم وأما المخدوم فروى عن الحسن انه لما تلا هذه الآية قال يارسول الله الخادم كاللؤلؤ المكنون فكيف المخدوم قال فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجيبه ألف ببابه لبيك لبيك وقرأ السوسى وشعبة لولو بالبدل والباقون بالهمز (وأقبل بعضهم) لما ازدهاهم من السرور واللذة والحبور (على بعض يتساءلون) أى يسأل بعضهم بعضا فى الجنة قال ابن عباس يتذاكرون ما كانوا فيه من التعب والخوف فى الدنيا (قالوا) أى قال كل منهم (انا كنا قبل) أى فى دار العمل (فى أهلنا) على مالهم من العدد والعدد والسعة وانسابهم من جوانب اللذة والدواعى الى اللعب (مشفقين) أى عريقين فى الخوف من الله تعالى لايلهينا عنه شئ مع لزومنا لما نقدر عليه من طاعته لعلمنا بأنا لانقدره لماله من العظمة والجلال والكبرياء والكمال حق قدره والمعنى انهم يسألون عن سبب ماوصلوا اليه تلذذا واعترافا بالنعمة فيقولون ذلك خشية الله تعالى أى كنا نخاف الله تعالى (فمن الله) الذى له جميع الكمال بسبب اشفاقنا منه (علينا) بالرحمة والتوفيق (ووقانا) أى وجنبنا بما سترنا به (عذاب السموم) قال الكلبى عذاب النار وقال الحسن السموم من أسماء جهنم والسموم فى الاصل الريح الحارة التى تتخلل المسام والجمع سمائم يقال سم يومنا أى اشتد حره وقال ثعلب السموم شدة الحر أو شدة البرد فى النهار وقال أبو عبيدة

السموم بالنهار وقد تكون بالليل والحرور بالليل وقد تكون بالنهار (انا كنا) أى ...
وهيئناله (من قبل) أى فى الدنيا (ندعوه) أى نسأله ونعبده بالفعل وأما خوفنا بال
فى كل حركة وسكون ثم عللوا دعاءهم اياه مؤكدين لان انعامه عليهم مع تقصيرهم ...
غيره فهو مما يتعجب منه غاية التعجب بقولهم (انه هو) أى وحده وقرأ نافع والـ
الهمزة والباقون بكسرها (البر) أى الواسع الجود الذى عطاؤه حكمة ومنعه
لا ينقصه اعطاء ولا يزيده منع فهو يبر عبده المؤمن بما يوافق نفسه فربما بره بالنعم
بالبؤس فهو يختار له من الاحوال ما هو خير له ليوسع له البر فى العقبى فعلى المؤ
ربه فى شئ من قضائه (الرحيم) أى المكرم لمن أراد من عباده باقامته فيما يرضا
ثم بافضاله عليه وان قصر فى خدمته ولما بين تعالى أن فى الوجود قوما يخافو
ويشفقون فى أهليهم والنبى صلى الله عليه وسلم مأمور بتذكير من يخاف الله تعالى
فذكر بالقرآن من يخاف وعيد فوجب التذكير فلذلك قال تعالى (فذكر) أى
الخلق بالقرآن ودم على ذلك ولا ترجع عنه لقول المشركين لك كاهن ومجنون (فـ
ربك) أى بسبب ما أنعم به عليك المحسن اليك من هذا الناموس الاعظم بعد تأهيلك
به من رجاحة العقل وعلو الهمة وكرم الفعال وجود الكف وطهارة الاخلاق و...
الناس عنصرا وأزكاهم نفسا وأزكاهم خلقا وهم معترفون لك بذلك قبل النبوة ...
بقوله تعالى (بكاهن) أى تقول كلاما مع كونه سجعا متكلفا أكثره فارغ وتحكم ...
من غير وحى (ولا مجنون) أى تقول كلاما لا انتظام له مع الاخبار ببعض المغيبات
قولهم هذا عن التذكير فانه قول باطل لا تلحقك به معرة أصلا وعما قليل يكـ
لا يغسله عنهم الا اتباعهم لك فمن اتبعك منهم غسل عاره ومن استمر على عناده استمر تبـ
(تنبيه) نزلت هذه الآية فى الذين اقتسموا اعقاب مكة يرمون رسول الله صلى الـ
بالكهانة والسحر والجنون والشعر (أم يقولون) أى هؤلاء المقتسمون (شاعر) ...
قال الثعلبى قال الخليل كل ما فى سورة والطور من أم فاستفهام وليس بعطف وقـ
أم فى هذه الآيات منقطعة وتقدم الخلاف فى المنقطعة هل تقدر ببل وحدها أو بـ
أو بالهمزة وحدها والصحيح الثانى وقال مجاهد فى قوله تعالى أم تأمرهم تقديره
(نتربص) أى ننتظر (به ريب المنون) أى حوادث الدهر وتقلبات الزمان لانها ...
حال كالريب وهو الشك فانه لا يبقى بل هو متزلزل قال الشاعر

تربص بها ريب المنون لعلها * تطلق يوما أو يموت حليلها

(وقال أبو ذئب)

أمن المنون وريبها تتوجع * والدهر ليس بمعتب من يجزع

والمنون فى الاصل الدهر وقال الراغب المنون المنية لانها تنقص العدد وتقطع الـ
بل يقولون يعنى هؤلاء المقتسمين الخراصين شاعر نتربص به ريب المنون حوا...

وصـ

وصروفه وذلك أن العرب كانت تحترز عن ايذاء الشعراء فان الشعر كان عندهم يحفظ ويدوّن فقالوا الانعارضه في الحال مخافة ان يغلبنا بقوة شعره وانما نصبر ونتربص موته ويهلك كما هلك من قبله من الشعراء وتتفرق أصحابه فان أباه مات شابا ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيه والمنون يكون بمعنى الدهر وبمعنى الموت سميا بذلك لانهما يقطعان الاجل ثم انه تعالى أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله (قل) أى لهؤلاء البعداء (تربصوا) أى انتظروا بى الموت ولم يعرج على محاججتهم فى قولهم هذا تنبيها على أنه من السقوط بمنزلة مالا يحتاج معه الى ردّ بمجادلة ثم سبب عن أمره لهم بالتربص قوله (فانى معكم من المتربصين) أى العريقين فى التربص وان ظننتم خلاف ذلك وأكده تنبيها على أنه يرجو الفرج بمصيبتهم كما يرجون الفرج بمصيبته وأشار بالمعية الى أنه مساولهم فى ذلك وان ظنوا لكثرتهم وقوتهم ووحدته وضعفه ان الامر بخلاف ذلك قال القشيرى جاء فى التفسير ان جميعهم اى الذين تربصوا به ماتوا قال ولا ينبغى لاحد أن يؤمل نفاق سوقه بموت أحد لتنتهى النوبة اليه فقل من تكون هذه صفاته الا وسبقته المنية ولا يدرك ما تمناه من الامنية (فان قيل) هذا أمر للنبى صلى الله عليه وسلم ولفظ الامر يوجب المأمور به أو يبيحه ويجوزه وتربصهم كان حراما (أجيب) بأن ذلك ليس بأمر وانما هو تهديد أى تربصوا ذلك فانى متربص الهلاك بكم كقول الغضبان لعبده افعل ماشئت فانى لست عنك بغافل (أم تأمرهم) أى تزين لهم تزيينا يصير مالهم اليه من الانبعاث كالامر (احلامهم) أى عقولهم التى يزعمون انهم اختصوا بجودتها دون الناس بحيث انه كان يقال فيهم أولوا الاحلام والنهى فأزرى الله تعالى بعقولهم حين لم تتم لهم معرفة الحق من الباطل وذلك أن الاشياء لايعبأ بها الا ان تزينت بعقل أو نقل فقال هل ورد أمر سمعى أم عقولهم تأمرهم (بهذا) أى قولهم له ساحر كاهن مجنون وقيل الى عبادة الاوثان وقيل الى التربص أى لاتأمرهم بذلك (أم) أى بل (هم) بظواهرهم وبواطنهم (قوم) ذووقوة على مايحاولونه فهم لذلك (طاغون) أى مفترون ويقولون مالادليل عليه سمعا ولامقتضى له عقلا والطغيان مجاوزة الحد فى العصيان وكذلك كل شئ مكروه ظاهر قال تعالى لما طغى الماء *(تنبيه)* اعلم ان قوله تعالى أم تأمرهم متصل تقديره أأنزل عليهم ذكر أم تأمرهم أحلامهم بهذا وفى هذه الآية اشارة الى أن كل مالا يكون على وفق العقل لا ينبغى أن يقال وانما ينبغى أن يقال مايجب قوله عقلا والاحلام جمع حلم وهو العقل فهما من باب واحد من حيث المعنى لان العقل يضبط المرء فيكون كالبعير المعقول لايتحرك من مكانه والحلم من الاحتلام وهو أيضا سبب وقار المرء وثباته لان الحلم فى أصل اللغة هو مايراه النائم فينزل ويلزم الغسل الذى هو سبب البلوغ وعنده يصير الانسان مكلفا فالله تعالى من لطيف حكمته قرن الشهوة بالعقل وعند ظهور الشهوة يكمل العقل ويكلف صاحبه فأشار تعالى الى العقل بالاشارة الى مايقارنه وهو الحلم ليعلم انه يريد به كمال العقل (أم يقولون) ماهو أفحش عارا من التناقض (تقوّله) أى تكلف قوله من عند نفسه كذبا وليس بشعر ولا كهانة ولا جنون وهم على كثرتهم والمام بعضهم بالعلم وعراقة آخرين

فى الشعر والخطب والترسل والسجع بجزوا عن مثله بل عن مثل شئ منه *(تنبيه)* التقول تكلف القول ولا يستعمل الا فى الكذب وهذا أيضا متصل بقوله تعالى أم يقولون شاعر تقديره أم يقولون شاعر أم يقولون تقوله والمعنى ليس الامر كما زعموا (بل لا يؤمنون) بالقرآن استكبارا ثم ألزمهم الحجة وأبطل جميع الاقسام فقال عز من قائل (فليأتوا) أى على أى تقدير أرادوه (بحديث) أى كلام مفرق مجدد اتيانه مع الازمان (مثله) أى القرآن فى البلاغة وصحة المعانى والاخبار بالمغيبات مما كان أو يكون على ما هى عليه لا انكلفهم أن يأتوا به جملة (فان قيل) الصفة تتبع الموصوف فى التعريف والتنكير والموصوف هنا حديث وهو منكر ومثله مضاف الى القرآن والمضاف الى القرآن معرف فكيف هذا (أجيب) بأن مثلا وغيرا لا يتعرفان بالاضافة وذلك أن غيرا ومثلا وأمثالهما فى غاية التنكير لانك اذا قلت مثل زيد يتناول كل شئ فان كل شئ مثل زيد فى شئ فالحمار مثله فى الجسم والحجم والامكان والنبات مثله فى النمو والنشء والذبول والفناء والحيوان مثله فى الحركة والادراك وغيرهما من الاوصاف وأما غير فهو عند الاضافة ينكر وعند قطع الاضافة ربما يتعرف فانك اذا قلت غير زيد صار فى غاية الابهام فانه يتناول أمورا لا حصر لها وأما اذا قطعت غير عن الاضافة فربما يكون الغير والمغايرة من باب واحد وكذلك التغير فتجعل الغير كاسماء الاجناس وتجعله مبتدأ أو تريد به معنى معينا *(تنبيه)* قالت المعتزلة الحديث محدث والقرآن سماه حديثا فيكون محدثا وأجيبوا بأن الحديث اسم مشترك يقال للمحدث والمنقول ولهذا يصح أن يقال هذا حديث قديم أى متقادم العهد لا بمعنى سلب الاولية وذلك لا نزاع فيه قال بعض العلماء وهذا أمر تعجيز قال الرازى والظاهر أن الامر ههنا على حقيقته لانه لم يقل ائتوا مطلقا بل قال تعالى (ان كانوا) أى كونا هم راسخون فيه (صادقين) أى فى أنه تقوله من عند نفسه كما يزعمون فهو أمر معلق على شرط اذا وجد ذلك الشرط يجب الاتيان به وأمر التعجيز كقوله تعالى فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر وفى هذا تشنيع عليهم سواء ادعوا أنه مجنون أم شاعر أم كاهن أم غير ذلك لان العادة تحيل ان يأتى واحد من قوم وهو مساو لهم بما لا يقدرون كلهم على مثله والعاقل لا يجزم بشئ الا وهو عالم به ويلزم من علمهم بذلك قدرتهم على مثل ما يأتى به فانه صلى الله عليه وسلم مثلهم فى الفصاحة والبلد والنسب وبعضهم يزيد عليه بالكتابة وقول الشعر ومخالطة العلماء ومزاولة الخطب والرسائل وغير ذلك فلا يقدر على ما يعجزون عنه الا بتأييد الهى وهو المراد من تكذيبهم (أم خلقوا) أى وقع خلقهم على هذه الكيفية المتقنة (من غير شئ) أى خالق خلقهم فوجدوا بلا خالق وذلك مما لا يجوز أن يكون لان تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم فان أنكروا الخالق لم يجز ان يوجدوا بلا خالق (أم هم الخالقون) لانفسهم وذلك فى البطلان أشد لان ما لا وجود له كيف يخلق فاذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقا وهو الله تعالى فلم لا يوحدونه ويؤمنون به وبرسوله وبكتابه وقال الزجاج معناه أخلقوا باطلا لا يحاسبون

ولا

ولايؤمنون وقال ابن كيسان أخلقوا عبثا وتركوا سدى لايؤمرون ولا ينهون كقول القائل فعلت كذا وكذا من غير شئ أى لغير شئ أم هم الخالقون لانفسهم فلا يجب عليهم لله أمر وقيل معناه أخلقوا من غير أب وأم * (تنبيه) * لاخلاف ان أم هذه ليست بمعنى بل لكن أكثر المفسرين على أن المراد مايقع في صدر الكلام من الاستفهام بالهمزة كانه يقول أخلقوا من غير شئ قال الرازى ويحتمل أن يقال هو على أصل الوضع للاستفهام الذى يقع فى أثناء الكلام وتقديره أخلقوا من غير شئ أم هم الخالقون (أم خلقوا) أى على وجه الشركة (السموات والارض) فهم بذلك عالمون بما فيهما على وجه الاحاطة واليقين حتى علموا أنك تقولته ليصير لهم رده والتحكم عليه (بل لايوقنون) أى ليس لهم نوع يقين والالآمنوا برسوله وكتابه (أم عندهم) أى خاصة دون غيرهم (خزائن ربك) أى المحسن اليك بارسالك فيعلموا ان هذا الذى أتيت به ليس من قول الله تعالى فيصح قولهم انك تقولته (أم هم) أى لاغيرهم (المسيطرون) أى الرقباء الحافظون المتسلطون الجبارون الرؤساء الحكام الكتبة ليكونوا ضابطين للاشياء كلها كما هو شأن كاتب السر عند الملوك فيعلمون انك تقولت هذا الذكر لانهم لم يكتبوا به اليك (أم لهم سلم) يصعدون به الى السماء (يستمعون) أى يتعمدون السماع لكل ما يكون فيها ومنها (فيه) أى صاعدين فى ذلك السلم الى كلام الملائكة ومايوحى اليهم من علم الغيب حتى يعلموا ماهو كائن (فليأت مستمعهم) أى مدعى الاستماع (بسلطان مبين) أى بحجة بينة واضحة واشبه هذا الزعم زعمهم ان الملائكة بنات الله قال تعالى (أم له البنات) أى بزعمكم (ولكم البنون) أى خاصة لتكونوا أقوى منه فتكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم وتردوا قوله من غير حجة فتكونوا آمنين من عذاب يأتيكم منه لضعفه وقوتكم (أم تسألهم) أى أيها الطاهر الشيم البعيد عن مواقع التهم (أجرا) على ابلاغ ما أتيتهم به (فهم من مغرم) أى غرم لك ولو قل والمغرم التزام مالايجب (مثقلون) فهم لذلك يكذبون من كان سببا فى هذا الثقل بغير مستند ليستريحوا مما جره لهم من الثقل (أم عندهم) أى خاصة بهم (الغيب) أى علم ماغاب عنهم (فهم يكتبون) أى يجددون للناس كتابة جميع ماغاب عنهم مما ينفعهم ويضرهم حتى يحسدوك فيما شاركتهم به منه فيردوه لذلك وينسبوك الى ما نسبوك اليه مما يعلم كل أحد نزاهتك عنه وبعدك منه وقال ابن عباس معناه أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون مافيه ويخبرون الناس به واللام فى الغيب لاللعهد ولا لتعريف الجنس بل المراد نوع الغيب كما تقول اشتر اللحم تريد بيان الحقيقة لا كل لحم ولا لحما معينا (أم يريدون) أى بهذا القول الذى يرمونك به (كيدا) أى مكرا أوضرراعظيما ليهلكوك به (فالذين كفروا) وكان الاصل فهم ولكنه قال تعميما وتعليقا للحكم بالوصف (هم) أى خاصة (المكيدون) أى المغلوبون المهلكون فانهم مكروا به فى دار الندوة فحفظه الله تعالى منهم ثم أهلكهم ببدر عند انتهاء سنين عدتها عدة ماهنا من أم وهى خمس عشرة مرة لان بدرا كانت فى الثانية من الهجرة وهى الخامسة عشر من النبوة فقد سبب الله تعالى فيها من الاسباب ما أوجب سعيهم الى

هلاكهم بأمور خارقة للعادة فلو كانت لهم بصائر لكفتهم فى الهداية والردع عن الضلالة والغواية (أم لهم اله) أى يمنعهم من التصديق بكتابنا أو يستندون اليه للامان من عذابنا (غير الله) اى الذى أحاط بجميع صفات الكمال (سبحان الله) الملك الاعظم الذى تعالى عن أن يدانى جنابه شائبة نقص (عما يشركون) من الاصنام وغيرها * (تنبيه) * الاستفهام بأم فى مواضعها للتقبيح والتوبيخ ولما بين تعالى فساد أقوالهم وسقوطها اشار الى أنهم لم يبق لهم عذر فان الآيات والحجج قد ظهرت ولم يؤمنوا فبعد ذلك استحقوا الانتقام وقوله تعالى (وان يروا) أى معاينة (كسفا) أى قطعة وقيل قطعا واحدتها كسفة مثل سدرة وسدر (من السماء) جهارا نهارا (ساقطا يقولوا) جواب لقولهم فأسقط علينا كسفا من السماء كان الله تعالى يقول لو عذبناهم بسقوط قطعة من السماء عليهم لم ينتهوا عن قولهم ويقولون لمعاندتهم هذا (سحاب) فان قيل لهم هو مخالف للسحاب بصلابته وغلظته قالوا (مركوم) أى مركب بعضه على بعض فتلبد وتصلب وقوله تعالى (فذرهم) اى اتركهم على شر أحوالهم كقوله تعالى فأعرض عنهم وقوله تعالى فتول عنهم الى غير ذلك فقيل كلها منسوخة بآية القتال قال ابن عادل وهو ضعيف وانما المراد التهديد كقول السيد لعبده الجانى لمن يصحبه دعه فانه سينال جنايته (حتى يلاقوا يومهم الذى فيه) أى لا فى غيره لان ما حكمنا به لا يتقدم ولا يتأخر (يصعقون) أى يموتون من شدة الاهوال وعظم الزلزال كما صعق بنو اسرائيل فى الطور ولكن لا نقيمهم كما أقمنا أولئك الا عند النفخ فى الصور لنحشرهم للحساب الذى يكذبون به قال البقاعى والظاهر ان هذا اليوم يوم بدر فانهم كانوا قاطعين بالنصر فيه فما أغنى أحد منهم عن أحد شيأ كما قال أبو سفيان بن الحرث ماهو الا أن القيناهم فمنحناهم اكتافنا يقتلوننا كيف شاؤا ويأسروننا كيف شاؤا وقوله تعالى (يوم لا يغنى) أى بوجه من الوجوه بدل من يومهم (عنهم كيدهم) أى الذى يرمونه بهذه الاقوال المتناقضة (شيأ) من الاغناء فى دفع شئ يكرهونه من الموت ولا غيره كما يظنون انه يغنى عنهم فى غير ذلك من أحوال هذه الدار (ولاهم ينصرون) أى يتجدد لهم نصر ما فى ساعة ما يمنعهم من العذاب وقوله تعالى (وان للذين ظلموا) يجوز أن يكون من ايقاع الظاهر موضع المضمر وأن لا يكون والمعنى وان للذين أوقعوا الاشياء فى غير مواقعها كما يقولونه فى القرآن ويفعلونه من العصيان ويعتقدونه من الشرك والبهتان (عذابا دون ذلك) أى غير عذاب ذلك اليوم قال ابن عباس يعنى القتل يوم بدر وقال الضحاك هو الجوع والقحط سبع سنين وقال البراء بن عازب عذاب القبر والآية تحتمل هذه المعانى كلها (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن العذاب نازل بهم (فاصبر) أى أوجد هذه الحقيقة لتصبر على ما أنت عليه من أداء الرسالة (لحكم ربك) أى المحسن اليك فانه هو المريد لذلك ولو لم يرده لم يكن شئ منه فهو احسان منه اليك وتدريب لك وترقية فى معارج الحكم وسبب عن ذلك قوله تعالى مؤكدا لما يغلب على الطبع البشرى فى بعض أوقات الامتحان من نوع نسيان (فانك بأعيننا) أى بمرأى منا نراك ونحفظك وجمع لما اقتضته نون العظمة التى هذا سياقها وهى

ظاهرة فى الجمع واشارة الى أنه محفوظ بالجنود الذين رؤيتهم من رؤيته سبحانه وتعالى (وسبح) ملتبسا (بحمد ربك) أى المحسن اليك فأثبت له كل كمال مع تنزيهك له عن كل نقص فلا يكون فى ملكه مالا يريد ولا يريد الا ما هو حكمة بالغة (حين تقوم) قال سعيد بن جبير وعطاء أى قل حين تقوم من مجلسك سبحانك اللهم وبحمدك فان كان المجلس خيرا ازددت احسانا وان كان غير ذلك كان كفارة له وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من جلس مجلسا وكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك الا كان كفارة لما بينهما أى من الذنوب الصغائر وقال ابن عباس معناه صل لله حين تقوم من مقامك وقال الضحاك والربيع اذا قمت الى الصلاة فقل سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك وقال الكلبي هو ذكر الله تعالى باللسان حتى تقوم من الفراش الى أن تدخل فى الصلاة لما روى عاصم بن حميد قال سألت عائشة بأى شئ كان يفتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم قيام الليل فقالت كان اذا قام كبر عشرا وحمد الله تعالى عشرا وهلل عشرا واستغفر عشرا وقال اللهم اغفرلى واهدنى وارزقنى وعافنى ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة وقيل حين تقوم لامر ما (ومن الليل) أى الذى هو محل السكون والراحة (فسبحه) أى صل له قال مقاتل يعنى صلاة المغرب والعشاء (وأدبار النجوم) أى صل الركعتين قبل صلاة الفجر وذلك حين تدبر النجوم أى تغيب بضوء الصبح هذا قول أكثر المفسرين وقال الضحاك هى فريضة صلاة الصبح وهذه الآية نظير قوله تعالى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وقد تقدم الكلام عليها قال الرازى قال تعالى هنا وأدبار النجوم وقال فى سورة ق وأدبار السجود فيحتمل أن يكون المعنى واحدا والمراد من السجود جمع ساجد والنجوم سجود قال تعالى والنجم والشجر يسجدان وقيل المراد من النجوم نجوم السماء وقيل النجم مالا ساق له من النبات قال الله تعالى ولله يسجد من فى السموات ومن فى الارض الآية أو المراد من النجوم الوظائف وكل وظيفة نجم فى اللغة أى اذا فرغت من وظائف الصلاة فقل سبحان الله كما مر وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والطور كان حقا على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه فى جنته حديث موضوع

(سورة النجم مكية)

ثنتان وستون آية وثلثمائة وستون كلمة وألف وأربعمائة وخمسة أحرف

(بسم الله) الذى أحاط بصفات الكمال (الرحمن) الذى عم الموجودات بصفة الجمال (الرحيم) الذى خص أهل وده بصالح الاعمال (والنجم اذا هوى) قال ابن عباس فى رواية العوفى يعنى الثريا اذا غابت وسقطت وهوت مغيبة والعرب تسمى الثريا نجما وجاء فى الحديث عن أبى هريرة مرفوعا ما طلع النجم قط وفى الارض شئ من العاهات الا رفع وأراد بالنجم الثريا وقال مجاهد هو نجم السماء كلها حين يغرب لفظه واحد ومعناه الجمع سمى الكوكب نجما لطلوعه وكل طالع

نجم يقال نجم السن والنبت والقرن اذا طلع وروى عكرمة عن ابن عباس أنها ما يرجم به الشياطين عند استراقهم السمع وقال أبو حمزة الثمالى هى النجوم اذا انتثرت يوم القيامة وقيل المراد بالنجم القرآن سمى نجما لانه نزل نجوما متفرقة فى عشرين سنة ويسمى التفريق تنجيما والمفرق منجما هذا قول ابن عباس فى رواية عطاء وقال الكلبى والهوى النزول من أعلى الى أسفل وقال الاخفش النجم هو النبت الذى لا ساق له ومنه قوله تعالى والنجم والشجر يسجدان وهويه سقوطه على الارض وقال جعفر الصادق يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم اذا نزل من السماء ليلة المعراج والهوى النزول يقال هوى يهوى هويا والكلام فى قوله تعالى والنجم كالكلام فى قوله تعالى والطور حيث لم يقل والنجوم والاطوار وقال والذاريات والمرسلات كما مر *(تنبيه)* أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها فانه تعالى قال فى آخر تلك وأدبار النجوم وقال تعالى فى أول هذه والنجم اذا هوى قال الرازى والفائدة فى تقييد القسم به فى وقت هويه أنه اذا كان فى وسط السماء يكون بعيدا عن الارض لا يهتدى به السارى لانه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال فاذا نزل عن وسط السماء تبين بنزوله جانب المغرب عن المشرق والجنوب عن الشمال وقوله تعالى (ماضل) أى عن طريق الهداية (صاحبكم) محمد صلى الله عليه وسلم وقتا من الاوقات جواب القسم وعبر بالصحبة لانها مع كونها أدل على القصد مرغبة لهم فيه ومقبلة بهم اليه ومقبحة عليهم اتهامه فى انذاره وهم يعرفون طهارة شمايله (وماغوى) أى وما مال أدنى ميل ولا كان مقصده مما يسوء فانه محروس من أسباب غواية الشياطين وغيرها *(تنبيه)* الغى جهل عن اعتقاد فاسد بخلاف الضلال وذهب أكثر المفسرين الى أن الغى والضلال بمعنى واحد وفرق بعضهم بينهما فقال الضلال فى مقابلة الهدى والغى فى مقابلة الرشد قال تعالى قد تبين الرشد من الغى وقال تعالى وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا قال الرازى وتحقيق القول فيه أن الضلال أعم استعمالا فى الوضع تقول ضل بعيرى ورحلى ولا تقول غى *(فائدة)* قد دافع الله سبحانه عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأما باقى الانبياء فدافعوا عن أنفسهم ليس بى ضلالة ليس بى سفاهة ونحو ذلك قاله القشيرى (فان قيل) كيف الجمع بين قوله تعالى ماضل صاحبكم وبين قوله تعالى ووجدك ضالا فهدى (أجيب) بأن المراد من الآية الآتية وجدك ضالا عما أنت عليه الآن من الشريعة فهداك اليها بخلاف هذه الآية (وماينطق) أى يجاوز نطقه فمه فى وقت من الاوقات لا فى هذا الحال ولا فى الاستقبال نطقا ناشئا (عن الهوى) أى عن أمره كالكهان الذين يغلب كذبهم صدقهم والشعراء وغيرهم وما يقول هذا القرآن من عند نفسه (ان) أى ما (هو) أى الذى يتكلم به من القرآن وكل أقواله وأفعاله وأحواله (الاوحى) اى من الله تعالى وأكده بقوله تعالى (يوحى) أى يجدد اليه ايحاؤه منا وقتا بعد وقت *(تنبيه)* استدل بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للانبياء (وأجيب) بأن الله تعالى اذا سوغ لهم الاجتهاد كان الاجتهاد وما يستند اليه كله وحيا لا نطقا عن الهوى (علمه) أى صاحبكم الوحى الذى أتاكم به ملك (شديد القوى)

فلا تعجبوا من هذه البحار الزاخرة فان معلمه بهذه الصفة التي هو بها بحيث ينفذ كل ما أمره الله تعالى به وهو جبريل عليه السلام فانه الواسطة في ابداء الخوارق روى أنه قلع قرى قوم لوط ورفعها الى السماء ثم قلبها وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين وكان هبوطه على الانبياء وصعوده في أوحى من رجعة الطرف ورأى ابليس يكلم عيسى على بعض عقاب الارض المقدسة فنفحه نفحة بجناحه فألقاه في أقصى بلاد الهند (ذومرّة) قال ابن عباس ذو منظر حسن وقال أكثر المفسرين ذو قوّة وقدرة عظيمة على الذهاب فيما أمر به والطاقة لحمله بغاية النشاط والحدة كأنه ذو مزاج غلبت عليه الحدة فهو صعب المراس في مزاولته ماض على طريقة واحدة على غاية من الشدة لا يوصف لا التفات له يوجه الى غير ما أمر به فهو مجتمع القوى مستحكم الشأن شديد الشكيمة لا يسأم في شئ يزاوله ومن جملة ما أعطى من القوّة القدرة على التشكل والى ذلك أشار بما تسبب عن هذا من قوله تعالى (فاستوى) أي فاستقام واعتدل بغاية ما يكون من قوته على أكمل حالاته في الصورة التي فطر عليها (وهو) أي والحال أنّ جبريل عليه السلام (بالافق الاعلى) أي عند مطلع الشمس وذلك أنّ جبريل عليه السلام كان يأتي النبيّ صلى الله عليه وسلم في صورة الآدميين كما كان يأتي الانبياء عليهم الصلاة والسلام قبله فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريه نفسه على صورته التي خلق عليها فأراه نفسه مرّتين مرّة في الارض ومرّة في السماء فأما التي في الارض ففي الافق الاعلى والمراد بالاعلى جانب المشرق وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان بحراء وكان جبريل واعده أن يأتيه وهو بحراء فطلع له جبريل من المشرق فسد الافق الى المغرب فخر صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه فنزل له جبريل عليه السلام في صورة الآدميين (ثم دنا) أي قرب منه (فتدلى) أي زاد في القرب (فكان) منه (قاب) أي قدر (قوسين) أي عربيتين (أو أدنى) من ذلك وضمه الى نفسه حتى أفاق وسكن روعه وجعل يمسح التراب عن وجهه وأما في السماء فعند سدرة المنتهى ولم يره أحد من الانبياء في صورته الحقيقية غير محمد صلى الله عليه وسلم * (تنبيه) * القاب والقيب والقاد والقيد والقيس المقدار وقد جاء التقدير بالقوس والرمح والسوط والذراع والباع والخطوة والشبر والفتر والاصبع ومنه لا صلاة الى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين وفي الحديث لقاب قوس أحدكم من الجنة وموضع قده خير من الدنيا وما فيها والقد السوط ويقال بينهما خطوات يسيرة وقال الشاعر * وقد جعلتني من خزيمة اصبعا

(فان قيل) كيف تقدير قوله فكان قاب قوسين (أجيب) بأنّ تقديره فكان مسافة قربه مثل قاب قوسين فحذفت هذه المضافات كما قال أبو علي في قوله * وقد جعلتني من خزيمة اصبعا أي ذا مقدار مسافة اصبع وروى الشيباني قال سألت زرا عن قوله تعالى فكان قاب قوسين أو أدنى قال أخبرنا عبد الله يعني ابن مسعود أنه محمد صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح وبهذا قال ابن عباس والحسن وقتادة وقال آخرون دنا الرب عز وجل من محمد صلى الله عليه وسلم فتدلى فقرب منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ومعنى دنوه تعالى قرب منزلة كقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه تبارك وتعالى من تقرب الى شبرا تقرّبت اليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا

تقربت اليه باعا ومن مشى الى أتيته هرولة وهذا اشارة الى المعنى المجازى قال البغوى وروينا
فى قصة المعراج من رواية شريك بن عبد الله بن أبى نمر عن أنس فدنا الجبار رب العزة فتدلى حتى
كان منه قاب قوسين أو أدنى وهذه رواية أبى سلمة عن ابن عباس وقال مجاهد دنا جبريل من ربه
وقد تقدمت الكلام على المعراج وعلى جواز رؤيته صلى الله عليه وسلم ربه فى أول الاسراء
وقال الضحاك دنا محمد صلى الله عليه وسلم من ربه عز وجل فتدلى فأهوى للسجود فكان منه قاب
قوسين أو أدنى وتقدم الكلام على القاب والقوس ما يرمى به فى قول مجاهد وعكرمة وعطاء عن
ابن عباس فأخبر أنه كان بين جبريل عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم مقدار قوسين وقال
مجاهد معناه حيث الوتر من القوس وهذا اشارة الى تأكيد القرب والاصل فى ذلك أن الحليفين
من العرب كانا اذا أرادا الصفاء والعهد خرجا بقوسيهما فالصقا بينهما يريدان بذلك أنهما
متظاهران يحامى كل واحد منهما عن صاحبه وقال عبد الله بن مسعود قاب قوسين قدر ذراعين
وهو قول سعيد بن جبير والقوس الذراع يقاس بها كل شئ أو أدنى بل أقرب وانما ضرب المثل
بالقوس لانها لا تختلف بالقاب (فأوحى) أى الله تعالى وان لم يجر له ذكر لعدم اللبس (الى عبده)
أى جبريل عليه السلام (ما أوحى) أى جبريل عليه السلام الى النبى صلى الله عليه وسلم ولم
يذكر الموحى تفخيما لشأنه وهذا التفسير ما جرى عليه الجلال المحلى وهو ظاهر وقيل فأوحى الى
جبريل بسبب هذا القرب وعقبه الى عبده أى عبد الله ما أوحى أى جبريل وقيل الضمائر كلها
لله تعالى وهو المعنى بشديد القوى كما فى قوله تعالى ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ودنوه منه
برفع مكانته وتدليه جذبه بكليته الى جانب القدس واختلف فى الموحى على أقوال الاول قال
سعيد بن جبير أوحى اليه ألم يجدك يتيما الى قوله تعالى ورفعنا لك ذكرك الثانى أوحى اليه
الصلاة الثالث أن أحدا من الانبياء لا يدخل الجنة قبلك وأن أمة من الامم لا تدخلها قبل أمتك
الرابع أنه مبهم لا يطلع عليه أحد وتعبدنا به على الجملة الخامس أن ما للعموم والمراد كل ما جاء به
جبريل (ما كذب الفؤاد) أى فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم (ما رأى) أى ما رآه ببصره
من صورة جبريل عليه السلام وهذا أيضا ما جرى عليه الجلال المحلى وقال البقاعى ما رأى
البصر أى حين رؤيته البصر كأنه حاشر القلب لأن رؤيته ببصر فقط يمكن فيها الخلو عن حضور
القلب وقال القشيرى ما معناه ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه ببصره على الوصف
الذى علمه قبل ان رآه فكان علمه حق اليقين وقرأ هشام بتشديد الذال والباقون بالتخفيف
وقوله تعالى (أفتمارونه) أى تجادلونه وتغلبونه (على ما يرى) خطاب للمشركين المكذبين رؤية
النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل وهذا ما قاله ابن مسعود وعائشة ومن قال ان المرئى هو الله تعالى
اختلفوا فى معنى الرؤية فقال بعضهم جعل بصره فى فؤاده فرآه بفؤاده وهو قول ابن عباس قال
رآه بفؤاده مرتين ما كذب الفؤاد ما رأى وقال أنس والحسن وعكرمة رأى محمد صلى الله عليه
وسلم ربه عز وجل بعينه وروى عكرمة عن ابن عباس قال ان الله تعالى اصطفى ابراهيم عليه
السلام بالخلة واصطفى موسى عليه السلام بالكلام واصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم بالرؤية

وكانت عائشة تقول لم ير محمد صلى الله عليه وسلم ربه وتحمل الرؤية على رؤية جبريل قال مسروق قلت لعائشة يا أمتاه هل رأى محمد ربه فقالت لقد قف شعري مما قلت أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب ثم قرأت لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت ومن حدثك انه كتم شيأ مما أنزل الله تعالى فقد كذب ثم قرأت يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك الآية ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين وروى أبو ذر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال نور اني أراه وحاصل المسئلة أن الصحيح ثبوت الرؤية وهو ما جرى عليه ابن عباس حبر الامة وهو الذي يرجع اليه في المعضلات وقد راجعه أبو عمرو فأخبره انه رآه ولا يقدح في ذلك حديث عائشة لانها لم تخبر أنها سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لم أره وانما اعتمدت على الاستنباط مما تقدم وجوابه ظاهر فان الادراك هو الاحاطة والله تعالى لا يحاط به واذا ورد النص بنفي الاحاطة لا يلزم منه نفي الرؤية بغير احاطة وأجيب عن احتجاجها بقوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الآية بأنه لا يلزم من الرؤية وجود الكلام حال الرؤية فيجوز وجود الرؤية من غير كلام وبأنه عام مخصوص بما تقدم من الادلة وأما قوله صلى الله عليه وسلم نور اني أراه فقال الماوردي الضمير في أراه عائد الى الله تعالى ومعناه أنه خالق النور المانع من رؤيته أي رؤية احاطة كما مر اذ من المستحيل أن تكون ذات الله نورا اذ النور من جملة الاجسام والله تعالى منزه عن ذلك (فان قيل) هلا قيل أفتماروه على ما رأى بصيغة الماضي لانهم انما جادلوه حين أسري به فقالوا صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عيرنا في الطريق وغير ذلك مما جادلوه به وما الحكمة في ابرازه بصيغة المضارع (أجيب) بأن التقدير أفتمارونه على ما يرى فكيف وهو قد رآه في السماء فماذا تقولون فيه والواو في قوله تعالى (ولقد رآه) يحتمل أن تكون عاطفة ويحتمل أن تكون للحال أي كيف تجادلونه فيما رآه وهو قد رآه (نزلة أخرى) على وجه لا شك فيه *(تنبيه)* قوله تعالى نزلة فعلة من النزول كجلسة من الجلوس فلا بد من نزول واختلفوا في ذلك النزول وفيه وجوه الاول أن الضمير في رآه عائد الى جبريل أي رأى جبريل نزلة أخرى أي رأى جبريل في صورته التي خلق عليها نازلا من السماء مرة أخرى وذلك أنه رآه في صورته مرتين مرة في الارض ومرة في السماء (عند سدرة المنتهى) قال الرازي ويحتمل أن تكون النزلة لمحمد صلى الله عليه وسلم الثاني أن الضمير عائد الى الله تعالى أي رأى الله نزلة أخرى وهذا قول من قال في قوله تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى هو الله تعالى وقد قيل ان النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بقلبه مرتين وعلى هذا في النزول وجهان أحدهما قول من يجوز على الله الحركة من غير تشبيه وثانيهما أن نزوله بمعنى القرب بالرحمة والفضل الثالث أن محمدا رأى الله تعالى نزلة أخرى والمراد من النزلة ضدها وهي العرجة كأنه قال رآه عرجة أخرى قال ابن عباس نزلة أخرى هو أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم عرجات في تلك الليلة لمسئلة التخفيف

فى الصلوات فيكون لكل عرجة نزلة فرأى ربه فى بعضها وروى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى ربه بفؤاده مرتين وعنه أنه رأى ربه بعينه وعلى أن المرئى هو الله تعالى فيكون قوله تعالى عند سدرة المنتهى ظرفا للرائى كما اذا قال القائل رأيت الهلال فيقال له أين رأيته فيقول على السطح وقد يقول عند الشجرة الفلانية وأما قول من قال بأن الله تعالى فى مكان فذلك باطل وان قيل بأن المرئى جبريل عليه السلام فظاهر * (تنبيه) * اضافة السدرة الى المنتهى تحتمل وجوها أحدها اضافة الشئ الى مكانه كقولك أشجار بلدة كذا فالمنتهى حينئذ موضع لا يتعداه ملك قال هلال بن كيسان سأل ابن عباس كعبا عن سدرة المنتهى وأنا حاضر فقال كعب انها سدرة فى أصل العرش على رؤس حملة العرش واليها ينتهى علم الخلائق وما خلفها غيب لا يعلمه الا الله تعالى وقيل ينتهى اليها ما هبط من فوقها ويصعد من تحتها وقال كعب تنتهى اليها الملائكة والانبياء وقال الربيع تنتهى اليها أرواح المؤمنين وثانيها اضافة الملك الى مالكه كقولك دار زيد وشجر زيد وحينئذ المنتهى فيه محذوف تقديره سدرة المنتهى اليه قال الله تعالى الى ربك المنتهى فالمنتهى اليه هو الله تعالى واضافة السدرة اليه حينئذ كاضافة البيت اليه للتشريف والتعظيم كما يقال فى التسبيح يا غاية رغبتاه ويا منتهى أملاه وثالثها اضافة المحل الى الحال فيه كقولك كتاب الفقه وعلى هذا فالتقدير سدرة عندها منتهى العلوم فتنلقى هنالك قال البقاعى وذلك والله أعلم ليلة الاسراء فى السنة الثالثة عشرة من النبوة قبل الهجرة بقليل بعد ان ترقى فى معارج الكمالات من السنين على عدد السموات وما بينهما من المسافات فانتهى الى منتهى سمع فيه صرير الاقلام وعظمها بقوله تعالى (عندها) أى السدرة (جنة المأوى) أى التى لا مأوى فى الحقيقة غيرها وهى الجنة التى وعدها المتقون كقوله تعالى دار المقامة وقيل هى جنة أخرى عندها تكون أرواح الشهداء تأوى اليها وقيل هى جنة الملائكة وقوله تعالى (اذ) معمول لرأى أى رأى من آيات ربه الكبرى حين (يغشى السدرة) وهى شجرة النبق وقوله تعالى (ما يغشى) تعظيم وتكثير لما يغشاها واختلفوا فيما يغشاها فقيل فراش أو جراد من ذهب وهو قول ابن عباس وابن مسعود والضحاك قال الرازى وهذا ضعيف لان ذلك لا يثبت الا بدليل سمعى فان صح فيه خبر والا فلا وجه له اهـ قال القرطبى ورواه ابن مسعود وابن عباس مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة ملكا قائما يسبح الله تعالى وذلك قوله عزمن قائل اذ يغشى السدرة ما يغشى وقيل ملائكة تغشاها كأنهم طيور يرتقون اليها متشوقين متبركين بها زائرين كما يزور الناس الكعبة وروى فى حديث المعراج عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذهب بى الى سدرة المنتهى واذا ورقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كقلال هجر قال فلما غشيها من أمر الله تعالى ما غشى تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يقدر ان ينعتها من حسنها فأوحى الى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة وقيل يغشاها أنوار الله تعالى لان النبى صلى الله عليه وسلم لما وصل اليها تجلى ربه لها كما تجلى للجبل

فظهرت الانوار لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت فجعل دكا ولم تتحرك الشجرة وخر موسى عليه السلام صعقا ولم يتزلزل محمد صلى الله عليه وسلم وقيل أبهمه تعظيما له والغشيان يكون بمعنى التغطية قال الماوردى فى معانى القرآن فان قيل لم اختيرت السدرة لهذا الامر دون غيرها من الشجر قلنا لان السدرة تختص بثلاثة أوصاف ظل مديد وطعم لذيذ ورائحة ذكية فشابهت الايمان الذى يجمع قولا وعملا ونية فظلها من الايمان بمنزلة العمل لتجاوزه وطعمها بمنزلة النية لكمونه وريحها بمنزلة القول لظهوره وروى أبو داود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من قطع سدرة صوب الله تعالى رأسه فى النار وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال هو مختصر يعنى من قطع سدرة فى فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثا وظلما بغير حق يكون له فيها صوب الله تعالى رأسه فى النار ثم أكد سبحانه الرؤية وقررها بقوله تعالى (ما زاغ) أى ما مال أدنى ميل (البصر) أى الذى لا بصر لمخلوق أكمل منه فما قصر عن النظر الى ما أذن له فيه وما زاد (وما طغى) أى تجاوز الحد الى ما لم يؤذن له فيه مع أن ذلك العالم غريب عن بنى آدم وفيه من العجائب ما يحير الناظر بل كانت له الصفة الصادقة المتوسطة بين الشره والزهادة على أتم قوانين العدل فأثبت ما رآه على حقيقته وكما هو قال السهروردى فى أول الباب الثانى والثلاثين من عوارفه وأخبر تعالى بحسن أدبه فى الحضرة بهذه الآية وهذه غامضة من غوامض الادب اختص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم *(تنبيه)* اللام فى البصر تحتمل وجهين أحدهما المعروف أى ما زاغ بصر محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا ان قيل بأن الغاشى للسدرة هو الجراد والفراش فمعناه لم يلتفت اليه ولم يشتغل به ولم يقطع نظره عن مقصوده فيكون غشيان الجراد والفراش ابتلاء وامتحانا لمحمد صلى الله عليه وسلم وان قيل ان الغاشى أنوار الله تعالى ففيه وجهان أحدهما لم يلتفت يمنة ولا يسرة بل اشتغل بمطالعتها الثانى ما زاغ البصر بصعقة بخلاف موسى عليه السلام فانه قطع النظر وغشى عليه ففى الاول بيان أدب محمد صلى الله عليه وسلم وفى الثانى بيان قوته الوجه الثانى أن اللام لتعريف الجنس أى ما زاغ بصره أصلا فى ذلك الموضع لعظم هيبته (فان قيل) لو كان كذلك لقال ما زاغ بصره فانه أدل على العموم فان النكرة فى معرض النفى تعم (أجيب) بأن هذا مثل قوله تعالى لا تدركه الابصار ولم يقل ولا يدركه بصر ولما كانوا قد أنكروا الاسراء انكارا لم يقع لهم فى غيره مثله زاد فى تأكيده على وجه يعم غيره فقال تعالى (لقد رأى) أى أبصر ما أهلناه له من الرسالة تلك الليلة ابصارا ساريا الى البواطن غير مقتصر على الظواهر (من آيات ربه) أى المحسن اليه بما لم يصل اليه أحد قبله ولا يصل اليه أحد بعده (الكبرى) أى العظام أى بعضها واختلف فى ذلك البعض فقيل جبريل عليه السلام رآه فى صورته له ستمائة جناح وقال الرازى والظاهر ان هذه الآيات غير تلك لان جبريل عليه السلام وان كان عظيما لكنه ورد فى الاخبار أن لله تعالى ملائكة أعظم منه والكبرى تأنيث الاكبر فكأنه تعالى قال رأى من آيات ربه آيات هن أكبر الآيات وقيل رأى رفرفا أخضر سد الافق وقيل أراد ما رأى فى تلك الليلة فى مسيره وعوده ومن اجتماعه تلك الليلة بالانبياء عليهم الصلاة

والسلام في السموات ولما اقرر تعالى الرسالة ذكر ما ينبغي أن يبتدئ به الرسول وهو التوحيد ومنع الخلق عن الاشراك بقوله تعالى (أفرأيتم اللات والعزى) اشارة الى ابطال قولهم كما اذا ادعى ضعيف الملك ثم رآه العقلاء في غاية البعد عما يدعيه يقولون انظروا الى هذا الذي يدعي الملك منكرين عليه غير مستدلين بدليل لظهور أمره فلذلك قال تعالى أفرأيتم اللات والعزى أي كما هما فكيف تشركونهما بالله سبحانه وتعالى واللات صنم ثقيف والعزى شجرة لغسان وهما أعظم أصنامهم اشتقوا لهما اسمين من أسماء الله تعالى فقالوا من الله اللات ومن العزيز العزى وقيل العزى تأنيث الاعز وعن ابن عباس كان اللات رجلا يلت السويق للحاج فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه وعن مجاهد أن العزى شجرة لغطفان كانوا يعبدونها فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها فجعل خالد يضربها بالفأس ويقول

يا عز كفرانك لا سبحانك * اني رأيت الله قد أهانك

فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية بويلها واضعة يدها على رأسها ويقال ان خالدا رجع الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال قد قلعتها فقال ما رأيت قال ما رأيت شيأ فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما فعلت فعاودها ومعه المعول فقلعها واجتث أصلها فخرجت منها امرأة عريانة فقتلها ثم رجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال تلك العزى ولن تعبد أبدا وقال الضحاك هي صنم لغطفان وضعها لهم سعد بن ظالم الغطفاني وذلك أنه لما قدم مكة فرأى الصفا والمروة ورأى أهل مكة يطوفون بهما فعاد الى نخلة وقال لقومه ان لاهل مكة الصفا والمروة وليستا لكم ولهم اله يعبدونه وليس لكم قالوا فما تأمرنا به قال انا أصنع لكم كذلك وأخذ حجرا من الصفا وحجرا من المروة ونقلهما الى نخلة فوضع الذي أخذ من الصفا وقال هذا الصفا ووضع الذي أخذ من المروة وقال هذه المروة ثم أخذ ثلاثة أحجار فاسندها الى شجرة فقال هذا ربكم فجعلوا يطوفون بين الحجرين ويعبدون الحجارة حتى افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فأمر برفع الحجارة وبعث خالد بن الوليد الى العزى فقطعها وقال ابن زيد هي بيت بالطائف كان تعبده ثقيف وأما قوله تعالى (ومناة) فقال قتادة هي صخرة كانت لخزاعة بقديد وقالت عائشة في الانصار كانوا يهلون لمناة فكانت حذو قديد وقال ابن زيد بيت بالمشلل تعبده بنو كعب وقال الضحاك مناة صنم لهذيل وخزاعة يعبده أهل مكة وقيل اللات والعزى ومناة أصنام من حجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها وقوله تعالى (الثالثة الاخرى) نعت لمناة اذ هي الثالثة للصنمين في الذكر وأما الاخرى فقال أبو البقاء توكيد لان الثالثة لا تكون الا الأخرى وقال الزمخشري الاخرى ذم وهي المتأخرة الوضيعة المقدار كقوله تعالى وقالت أخراهم أي وضعاؤهم لاولاهم أي لاشرافهم ويجوز أن تكون الاولية والتقدم عندهم اللات والعزى اهـ قال ابن عادل وفيه نظر لان الاخرى انما تدل على الغيرية وليس فيها تعرض لمدح ولا ذم فان جاء شيء فلقرينة خارجية اهـ ووجه الترتيب أن اللات كان وثنا على صورة آدمي والعزى شجرة نبات ومناة صخرة فهي جماد فهي في أخريات المراتب (فان قيل) ما فائدة الفاء في

قوله تعالى أفرأيتم وقد وردت في مواضع بغير فاء كقوله تعالى أرأيتم ما تعبدون من دون الله
أرأيتم شركاءكم (أجيب) بأنه تعالى لما تقدم عظمته في ملكوته وأن رسوله الى الرسل يسد
الآفاق ببعض أجنحته ويهلك المدائن بشدته وقوته ولا يمكنه مع هذا ان يتعدى السدرة في مقام
جلال الله وعزته قال أفرأيتم هذه الاصنام مع ذلتها وحقارتها شركاء الله تعالى مع ما تقدم فقال
بالفاء أي عقب ما سمعتم من عظمة آيات الله الكبرى ونفاذ علمه في الملا الاعلى وما تحت الثرى
انظروا الى اللات والعزى تعلموا فساد ما ذهبتم اليه * (تنبيه) * مفعول أرأيت الاول اللات
وما عطف عليه والثاني محذوف والمعنى أخبروني ألهذه الاصنام قدرة على شيء ما فتعبدونها
دون الله القادر على ما تقدم ذكره وقرأ ابن كثير مناءة بهمزة مفتوحة بعد الالف والباقون بغير
همز * ولما زعموا أيضا ان الملائكة بنات الله مع كراهتهم للبنات نزل (ألكم) أي خاصة (الذكر)
أي النوع الاعلى (وله) أي وحده (الانثى) أي النوع الاسفل (تلك) أي هذه القسمة البعيدة
عن الصواب (اذا) أي اذ جعلتم البنات له والبنين لكم (قسمة ضيزى) أي جائرة ظالمة ناقصة
فيها بخس للحق الى الغاية عوجاء غير معتدلة حيث خصصتم به ما أوصلتكم الكراهة له الى دفنه
حيا بل كان ينبغي أن تجعلوا الاعظم للعظيم والانقص للحقير فخالفتم العقل والنقل والعادة
(ان) أي ما (هي) أي هذه الاصنام (الا أسماء) أي لا حقائق لها فيما ادعيتم لها من الالهية ليس
لها من ذلك غير الاسماء وأكد ذلك بقوله تعالى (سميتموها) أي ابتدعتم تسميتها (فان قيل)
الاسماء لا تسمى وانما يسمى بها (أجيب) بأن التسمية وضع الاسم فكأنه قال أسماء وضعتموها
فاستعمل سميتموها استعمال وضعتموها (أنتم وآباؤكم) أي لا غير (ما أنزل الله) أي الذي له
جميع صفات الكمال (بها) أي باستحقاقها للاسماء أو لما سميتموها به من الالهية وأعرق
في النفي فقال (من سلطان) أي حجة تصلح مسلطا على ما يدعى فيها بل لمجرد الهوى لم تروا منها آية
ولا كلمتكم قط بكلمة تعتمدونها وعلى تقدير أن تتكلم الشياطين على ألسنتها فأي طريقة قويمة
شرعت لكم وأي كلام صالح أو بليغ برز اليكم منها وأي آية كبرى ارتكبوها (ان) أي
ما (يتبعون) أي في وقت من الاوقات في أمر هذه الاوثان بغاية جهدهم من انها آلهة وأنها
تشفع لهم أو تقربهم الى الله تعالى (الا الظن) أي وهو غاية أمرهم لمن يحسن الظن بهم والظن
ترجيح أحد الجائزين على زعم الظان * ولما كان الظن قد يكون موافقا للحق مخالفا للهوى قال
تعالى (وما تهوى الانفس) أي تشتهي وهي لما لها من النقص لا تشتهي أبدا الا ما يهوى بها
عن غاية أوجها الى أسفل حضيضها وأما المعالي وحسن العواقب فانما يسوق اليها العقل قال
القشيري فأما الظن الجميل بالله تعالى فليس من هذا الباب والتباس عواقب الشخص عليه
ليس من هذه الجملة بسبيل انما الظن المعلول في الله تعالى وأحكامه وصفاته اه ولهذا كان
كثير من الفقه ظنيا وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه أنا عند ظن عبدي بي (ولقد
جاءهم) أي العجب أنهم يقولون ذلك والحال أنهم قد جاءهم (من ربهم) المحسن اليهم
(الهدى) على لسان النبي صلى الله عليه وسلم بالبرهان القاطع أنها ليست بآلهة وان العبادة

لاتصلح الا لله الواحد القهار فلم يرجعوا عما هم عليه وقرأ حمزة والكسائى فى الوصل بضم الهاء والميم وقرأ أبو عمرو بكسرهما والباقون بكسر الهاء وضم الميم (أم للانسان) أى كل انسان منهم (ما تمنى) أى من اتباع ما يشتهى من جاه ومال وطول عمر ورفاهة عيش ومن أن الاصنام تشفع له ليس الامر كذلك (فلله) أى الملك الاعظم وحده (الآخرة) فهو لا يعطى ما فيها الا لمن تبع هداه وترك هواه (والاولى) أى الدنيا فهو لا يعطى جميع الامانى فيها لاحد أصلا كما هو مشاهد ولكنه يعطى منها ما يشاء لمن يريد وليس لاحد أن يتحكم عليه سبحانه فى شئ منها (وكم من ملك) أى كثير من الملائكة أى ممن يعبدهم هؤلاء الكفار ودل على زيادة قوتهم بشرف مسكنهم وهو قوله تعالى (فى السموات) أى وهم فى الكرامة والزلفى (لاتغنى شفاعتهم) أى عن أحد من الناس (شيأ) ثم قصر الامر عليه ورده بحذافيره اليه بقوله تعالى (الا من بعد أن يأذن) أى يمكن ويريد (الله) أى الملك الذى لا أمر أصلا لاحد معه (لمن يشاء) من عباده من الملائكة أو من الناس أن يشفع (ويرضى) أى ويراه أهلا لذلك فكيف تعبد الاصنام مع حقارتها للتشفع لهم (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى لا يصدقون ولا يقرون بالبعث وغيره من أحوال يوم القيامة (ليسمون الملائكة) أى كل واحد منهم (تسمية الانثى) بأن سموه بنتا وذلك أنهم كانوا يقولون الملائكة وجدوا من الله تعالى فهم أولاده بمعنى الايجاد ثم انهم رأوا فى الملائكة تاء التأنيث وصح عندهم أن يقال سجدت الملائكة فقالوا بنات الله فسموهم تسمية الاناث (فان قيل) كيف يقال انهم لا يؤمنون بالآخرة مع أنهم كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله وكان من عادتهم أن يربطوا مركوبا على قبر من يموت ويعتقدون أنه يحشر عليه (أجيب) بأنهم ما كانوا يجزمون به بل كانوا يقولون لا حشر فان كان فلنا شفعاء بدليل ما حكى الله تعالى عنهم وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى وبأنهم ما كانوا يعترفون بالآخرة على الوجه الذى وردت به الرسل (فان قيل) كيف قال تسمية الانثى ولم يقل تسمية الاناث (أجيب) بأن المراد بيان الجنس وهذا اللفظ أليق بهذا الموضع لمواخاة رؤس الآى (وما) أى والحال أنهم ما (لهم به) أى بما يقولون وقيل الضمير يعود الى ما تقدم من عدم قبول الشفاعة وقيل يعود الى الله تعالى أى ما لهم بالله تعالى (من علم) ثم بين تعالى الحامل لهم على ذلك بقوله تعالى (ان) أى ما (يتبعون) أى بغاية ما يمكنون من شهوة النفس فى ذلك وغيره (الا الظن) أى الذى يتخيلونه (وان) أى والحال ان (الظن) أى مطلقا فى هذا وفى غيره ولذلك أظهر فى موضع الاضمار (لا يغنى) أى اغناء مبتدأ (من الحق) أى الامر الثابت فى نفس الامر الذى هو حقيقة الشئ وذاته بحيث يكون الظن بدله والظن انما يعتبر فى العمليات لا فى العلميات ولا سيما الاصولية (شيأ) أى من الاغناء عن أحد من الخلق فانه لا يؤدى أبدا الى الجزم بالعلم بالشئ على ما هو عليه فى نفس الامر فهو ممنوع فى أصول الدين فان المقصود فيها تحقيق الامر على ما هو عليه فى الواقع وأما الفروع فان المكلف به فيها هو الظن لكن بشرطه المأذون فيه وهو رده الى الاصول المستنبط منها لعجز الانسان عن القطع فى جميع الفروع

تنبيها

تنبيهاً على عجزه وافتقاره الى الله تعالى ليقبل عليه ويتبرأ من حوله وقوته ليكشف له عن الحقائق ولما أن أصروا على الهوى بعد مجيء الهدى سبب عن ذلك قوله تعالى (فأعرض) أى يا أشرف الرسل (عمن تولى) أى كلف نفسه خلاف ما يدعو اليه العقل والفطرة الاولى (عن ذكرنا) أى القرآن الذى أنزلناه فلم يتله ولم يتدبر معانيه (ولم يرد) أى فى وقت من الاوقات (الا الحياة الدنيا) أى الحاضرة لتقيده بالمحسوسات كالبهائم مع العمى عن دناءتها وحقارتها قال الجلال المحلى وهذا قبل الامر بالجهاد قال الرازى وأكثر المفسرين يقولون بأن كل ما فى القرآن من قوله تعالى فأعرض منسوخ بآية القتال وهو باطل لان الامر بالاعراض موافق لآية القتال فكيف ينسخ بها وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم فى الاول كان مأمورا بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة فلما عارضوه بأباطيلهم أمر بازالة شبههم والجواب عن أباطيلهم وقيل له وجادلهم بالتى هى أحسن ثم لما لم ينفع قال له ربه أعرض عنهم ولا تقابلهم بالدليل والبرهان فانهم لا ينتفعون به ولا يتبعون الحق وقاتلهم والاعراض عن المناظرة شرط لجواز المقاتلة فكيف يكون منسوخا بها (ذلك) أى الامر المتناهى فى الجهل والقباحة (مبلغهم) أى نهاية بلوغهم وموضع بلوغهم والحاصل لهم وتهكم بهم بقوله تعالى (من العلم) أى غايتهم من العلم أنهم آثروا الدنيا على الآخرة والجملة اعتراض مقرر لقصور هممهم على الدنيا وقوله تعالى (ان ربك) أى المحسن اليك بالرسالة (هو أعلم) أى عالم (بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) أى ظاهرا وباطنا تعليل للامر بالاعراض أى انما يعلم الله من يجيب ممن لا يجيب فلا تتعب نفسك فى دعوتهم اذ ما عليك الا البلاغ وقد بلغت لان النبى صلى الله عليه وسلم كان كالطبيب للقلوب فأتى على ترتيب الاطباء فى أن المرض اذا أمكن اصلاحه بالغذاء لا يستعملون الدواء وما أمكن اصلاحه بالدواء الضعيف لا يستعملون الدواء القوى ثم اذا عجزوا عن المداواة بالمشروبات وغيرها عدلوا الى الحديد والكى كما قيل آخر الدواء الكى فالنبى صلى الله عليه وسلم أولا أمر القلوب بذكر الله تعالى فقط فان بذكر الله تطمئن القلوب كما أن بالغذاء تطمئن النفوس والذكر غذاء القلوب ولهذا قال صلى الله عليه وسلم أولا قولوا لا اله الا الله أمر بالذكر فانتفع مثل أبى بكر ومن لم ينتفع ذكر لهم الدليل وقال أولم يتفكروا قل انظروا أفلا ينظرون الى غير ذلك فلما لم ينتفعوا أتى بالوعيد والتهديد فلما لم ينفعهم قال أعرض عن المعالجة واقطع الفاسد لئلا يفسد الصالح (فان قيل) ان الله تعالى بين أن غايتهم ذلك فى العلم ولا يكلف الله تعالى نفسا الا وسعها والمجنون الذى لا علم له أو الصبى الذى لا يؤمر بما فوق احتماله فكيف يعاقبهم الله تعالى (أجيب) بأنه ذكر قبل ذلك أنهم تولوا عن ذكر الله فكان عدم علمهم لعدم قبولهم العلم وانما قدر الله تعالى توليهم ليضاف الجهل الى ذلك فيتحقق العقاب (ولله) أى الملك الاعظم وحده (ما فى السموات وما فى الارض) أى من الذوات والمعانى فيشمل ذلك السموات والارض معترض بين الآية الاولى وبين قوله تعالى (ليجزى الذين أساؤا) أى بالضلال (بما عملوا) أى بسببه أو بجنسه اما بواسطتك بسيوفك وبسيوف أتباعك اذا أذنت لكم

فى القتال واما بغير ذلك بالموت حتف الانف تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم ثم بعذاب الآخرة على جميع ذنوبهم من غير أن يكون عجل لهم فى الدنيا شئ ينقص بسببه عذاب الآخرة *(تنبيه)* اللام فى ليجزى يجوز أن تتعلق بقوله تعالى بمن ضل وبمن اهتدى واللام للصيرورة أى عاقبة أمرهم جميعا للجزاء بما عملوا قال معناه الزمخشرى وأن تتعلق بما دل عليه قوله تعالى أعلم بمن ضل أى حفظ ذلك ليجزى قاله أبو البقاء (ويجزى) أى ويثيب ويكرم (الذين أحسنوا) أى على ثباتهم على الدين وصبرهم عليه وعلى أذى أعدائهم (بالحسنى) أى بالمثوبة الحسنى وهى الجنة وبين المحسنين بقوله تعالى (الذين يجتنبون) أى يكلفون أنفسهم ويجهدونها على أن يتركوا (كبائر الاثم) أى ما عظم الشارع اثمه بعد تحريمه بالوعيد والحد وقرأ حمزة والكسائى بكسر الباء الموحدة وبعدها ياء ساكنة والباقون بفتح الموحدة وبعدها ألف وبعد الالف همزة مكسورة وعطف على كبائر قوله تعالى (والفواحش) والفاحشة من الكبائر ما كرهه الطبع وأنكره العقل واستخبثه الشرع والكبيرة صفة عائدة الى الكيفية وقوله تعالى (الا اللمم) فيه أوجه أحدها وهو المشهور أنه استثناء منقطع أى لكن اللمم لانه الصغائر فلم تندرج فيما قبلها ثانيها أنه صفة والا بمعنى غير كقوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا أى كبائر الاثم والفواحش غير اللمم ثالثها أنه متصل وهذا عند من يفسر اللمم بغير الصغائر قالوا ان اللمم من الكبائر والفواحش قالوا ان معنى الآية الا أن يلم بالفاحشة مرة ثم يتوب ويقع الوقعة ثم ينتهى وهو قول أبى هريرة ومجاهد والحسن ورواه عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال عبد الله ابن عمرو بن العاص اللمم ما دون الشرك قال السدى قال أبو صالح سئلت عن قول الله عز وجل الا اللمم فقلت هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده فذكرت ذلك لابن عباس رضى الله تعالى عنهما فقال لقد أعانك عليها ملك كريم وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال ما رأيت شيأ أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ولمسلم كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا يدرك ذلك لا محالة العينان زناهما النظر والاذنان زناهما الاستماع واللسان زناه النطق واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه *(تنبيه)* ذهب الجماهير من السلف والخلف من جميع الطوائف الى انقسام المعاصى الى كبائر وصغائر وقد تظاهرت على ذلك دلائل الكتاب والسنة وقد اختلف فى ضبط الكبيرة بالحد فقال جمع هى ما لحق صاحبها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة وقال جمع هى المعصية الموجبة للحد والاول أوجه لانهم عدوا الربا وأكل مال اليتيم وشهادة الزور ونحوها من الكبائر ولا حد فيها وقال امام الحرمين هى كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين وأما تعريفها بالعد فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى الى السبعين أقرب وقال سعيد بن جبير هى الى السبعمائة أقرب أى باعتبار أصناف أنواعها وما عدا الحدود من المعاصى فمن الصغائر ولا بأس بذكر شئ من النوعين

فمن الاول تقديم الصلاة أو تأخيرها عن وقتها بلا عذر ومنع الزكاة وترك الامر بالمعروف
والنهى عن المنكر مع القدرة ونسيان القرآن واليأس من رحمة الله تعالى وأمن مكر الله
تعالى وقتل النفس عمدا أو شبه عمد والفرار من الزحف وأكل الربا وأكل مال اليتيم
والافطار فى رمضان من غير عذر وعقوق الوالدين والزنا واللواط وشهادة الزور وشرب
الخمر وان قل والسرقة والغصب وقيده جماعة بما يبلغ ربع مثقال كما يقطع به فى السرقة
وكتمان الشهادة بلا عذر وضرب المسلم بغير حق وقطع الرحم والكذب على رسول الله صلى
الله عليه وسلم عمدا وسب الصحابة وأخذ الرشوة والسحر والنميمة وأما الغيبة فان كانت فى أهل
العلم وحملة القرآن فهى كبيرة والا فصغيرة ومن الصغائر النظر المحرم وكذب لا حد فيه
ولا ضرر والاشراف على سوآت الناس وهجر المسلم فوق ثلاث والضحك فى الصلاة المفروضة
والنياحة وشق الجيب فى المصيبة والتبختر فى المشى والجلوس بين الفساق ايناسا لهم وادخال
مجانين وصبيان ونجاسة يغلب تنجيسهم المسجد واستعمال نجاسة فى بدن أو ثوب لغير حاجة
والاصرار على صغيرة من نوع أو أنواع يصيرها كبيرة الا أن تغلب طاعاته معاصيه
كما أوضحت ذلك فى شرح المنهاج وغيره (ان ربك) أى المحسن اليك بارسالك رحمة للعالمين
والتخفيف عن أمتك (واسع المغفرة) يغفر الصغائر باجتناب الكبائر ويغفر الكبائر بالتوبة
وله ان يغفر ما شاء من الذنوب ما عدا الشرك صغيرها وكبيرها كما قال تعالى ان الله لا يغفر أن
يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء بخلاف غيره من الملوك فانه لا يغفر لمن تكررت ذنوبه اليه
وان صغرت قال البيضاوى ولعله عقب به وعيد المسيئين لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته
ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى اهـ ونزل فيمن كان يقول صلاتنا صيامنا حجنا (هو أعلم
بكم) أى بذواتكم وأحوالكم منكم بأنفسكم (اذ) أى حين (أنشأكم من الارض) أى التى
طبعها طبع الموت البرد واليبس بانشاء أبيكم آدم عليه السلام منها وتهيئتكم للتكوين بعد ان لم
يكن فيكم وأنتم تراب قابلية للحياة بقوة قريبة ولا بعيدة أصلا فميز التراب الذى يصلح لتكوينكم
منه والذى لا يصلح (واذ) أى وحين (أنتم أجنة) أى مستورون (فى بطون أمهاتكم) فهو يعلم
اذ ذاك ما أنتم صائرون اليه من خير وشر وان علمتم مدة من العمر بخلافه لانه يعلم ما جبلكم عليه
من ذلك وقرأ حمزة والكسائى فى الوصل بكسر الهمزة والباقون بضمها وكسر حمزة الميم وفتحها
الباقون وأما فى الابتداء بالهمزة فالجميع بضمها (فلا تزكوا) أى تمدحوا بالزكاة وهى البركة
والطهارة عن الدناءة (أنفسكم) أى حقيقة بأن يثنى الانسان على نفسه فان تزكيته لنفسه قال
القشيرى من علامات كونه محجوبا عن الله تعالى أى من مدح نفسه على سبيل الاعجاب أما على
سبيل الاعتراف بالنعمة فحسن أو مجازا بأن يثنى على غيره من اخوانه وانه كثيرا ما يثنى بشئ
فيظهر خلافه وربما حصل له الاذى بسببه وان العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه
وبينها الا باع أو ذراع الحديث ولذلك علل بقوله تعالى (هو أعلم) أى منكم ومن جميع الخلق
(بمن اتقى) أى فانه يعلم المتقى وغيره منكم قبل أن يخرجكم من صلب أبيكم آدم عليه السلام فمن

جاهد نفسه حتى حصل منه تقوى فهو يوصله فوق ما يؤمل من الثواب فى الدارين فكيف عن صارت له التقوى وصفا ثابتا * ولما بين جهل المشركين فى عبادة الاصنام ذكر واحدا منهم يسوء فعله فقال تعالى (أفرأيت الذى تولى) أى عن اتباع الحق والثبات عليه قال مجاهد وأبو زيد ومقاتل نزلت فى الوليد بن المغيرة كان قد اتبع النبى صلى الله عليه وسلم على دينه فعيره بعض المشركين وقال له تركت دين الاشياخ وضللتهم فقال انى خشيت عذاب الله تعالى فضمن الذى عاتبه ان هو أعطاه كذا من ماله ورجع الى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله فرجع الوليد الى الشرك وأعطى الذى عيره بعض ذلك الذى ضمن ومنعه تمامه فأنزل الله تعالى أفرأيت الذى تولى أى أدبر عن الايمان (وأعطى قليلا) أى من المال المسمى (وأكدى) أى منع الباقى مأخوذ من الكدية أرض صلبة كالصخرة تمنع حافر البئر اذا وصل اليها من الحفر فأكدى أصله من أكدى الحافر اذا حفر شيأ فصادف كدية منعته من الحفر ومثله أجبل اذا صادف جبلا منعه من الحفر وكديت أصابعه كلت من الحفر ثم استعمل فى كل من طلب شيأ فلم يصل اليه أو لم يتمه ولمن طلب شيأ ولم يبلغ آخره قال الحطيئة

وأعطى قليلا ثم أكدى عطاءه * ومن يفعل المعروف فى الناس يحمد

وقال السدى نزلت فى العاصى بن وائل السهمى وذلك انه ربما وافق النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الامور وقال محمد بن كعب القرظى نزلت فى أبى جهل وذلك انه قال والله ما يأمرنا محمد الا بمكارم الاخلاق فذلك قوله تعالى وأعطى قليلا وأكدى أى لم يؤمن به ومعنى أكدى قطع وروى ان عثمان رضى الله تعالى عنه كان يعطى ماله فى الخير فقال عبد الله بن سعد بن أبى سرح وهو أخوه من الرضاعة يوشك أن لا يبقى لك شئ فقال عثمان ان لى ذنوبا وخطايا وانى أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه فقال عبد الله أعطنى ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء فنزلت وقوله تعالى (أعنده علم الغيب) أى ما غاب هو المفعول الثانى لرأيت بمعنى أخبرنى والمفعول الاول محذوف اقتصارا لاعطى (فهو) أى فتسبب عن ذلك أنه (يرى) اى يعلم ان صاحبه يتحمل عنه ذنوبه (أم) أى بل (لم ينبأ) أى يخبر اخبارا عظيما متتابعا (بما فى صحف موسى) أى التوراة المنسوبة اليه بانزالها عليه وكذا ما تبعها من أسفار الانبياء الذين جاؤا بعده بتقريرها وقدم صحف موسى عليه السلام على قوله (وابراهيم) أى وصحفه لان كتاب موسى عليه السلام أعظم كتاب بعد القرآن مع انه موجود بين الناس تمكن مراجعته ثم مدح ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى (الذى وفى) أى أتم ما أمر به من ذلك تبليغ الرسالة واستقلاله بأعباء النبوة وقيامه بأضيافه وخدمتهم اياه بنفسه وانه كان يخرج كل يوم فيمشى فرسخا يرتاد ضيفا فان وافقه أكرمه والانوى الصوم وعن الحسن ما أمره الله تعالى بشئ الا وفى به وصبر على ما امتحن به وما قلق شيأ من قلق وصبر على حر ذبح الولد وعلى حر النار ولم يستعن بمخلوق بل قال لجبريل عليه السلام لما قال له ألك حاجة قال أما اليك فلا وقال الغزالى فى المناسك وروى عن النبى

صلى الله عليه وسلم انه قال ابراهيم الذى وفى أربع ركعات من أول النهار وهى صلاة الضحى وروى الا أخبركم لم سمى الله خليله الذى وفى كان يقول اذا أصبح وأمسى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الى تظهرون وقيل وفى سهام الاسلام وهى ثلاثون عشرة فى التوبة التائبون وعشرة فى الاحزاب ان المسلمين وعشرة فى المؤمنون قد أفلح المؤمنون وخص هذين النبيين لان الموعودين من بنى اسرائيل اليهود والنصارى يدعون متابعة موسى عليه السلام ومن العرب يدعون متابعة ابراهيم عليه السلام ومن عداهم لا متمسك لهم ولا سلف فى نبوة محققة ولا شريعة محفوظة وقرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها والباقون بكسر الهاء وياء بعدها ثم فسر تعالى الذى فى الصحف واستأنف بقوله تعالى (أن لا تزر) أى تأثم وتحمل (وازرة) أى نفس بلغت مبلغا تكون فيه حاملة لوزر (وزر أخرى) أى حملها الثقيل من الاثم وفى هذا ابطال قول من ضمن للوليد بن المغيرة أن يحمل عنه الاثم وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كانوا قبل ابراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره وكان الرجل يقتل بقتل أبيه وابنه وأخيه وعمه وخاله وامرأته والعبد بسيده حتى جاءهم ابراهيم عليه السلام فنهاهم عن ذلك وبلغهم عن الله عز وجل أن لا تزر وازرة وزر أخرى ولما نفى أن يضره اثم غيره نفى أن ينفعه سعى غيره بقوله تعالى (وأن ليس للانسان) كائنا من كان (الا ما سعى) فلا بد أن يعلم الحق فى أى جهة فيسعى فيه ودعاء المؤمنين للمؤمن من سعيه بموادته ولو بموافقته لهم فى الدين فقط وكذا الحج عنه والصدقة ونحوها وأما الولد فواضح فى ذلك وأما ما كان بسبب العلم والصدقة ونحوها فكذلك وتضحية النبى صلى الله عليه وسلم عن أمته أصل كبير فى ذلك فان من تبعه فقد وادّه وهو أصل فى التصدق عن الغير واهداء ماله من الثواب فى القراءة ونحوها اليه وقال ابن عباس رضى الله عنهما هذا منسوخ الحكم فى هذه الشريعة أى وانما هو فى صحف موسى وابراهيم عليهما السلام بقوله ألحقنا بهم ذرياتهم فأدخل الابناء الجنة بصلاح الآباء وقال عكرمة ان ذلك لقوم موسى وابراهيم عليهما السلام وأما هذه الامة فلهم ما سعوا وما سعى لهم غيرهم لما روى ان امرأة رفعت صبيا لها فقالت يارسول الله ألهذا حج فقال نعم ولك أجر وقال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم ان أمى افتلتت نفسها فهل لها أجر ان تصدقت عنها قال نعم قال الشيخ تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية من اعتقد ان الانسان لا ينتفع الا بعمله فقد خرق الاجماع وذلك باطل من وجوه كثيرة أحدها ان الانسان ينتفع بدعاء غيره وهو انتفاع بعمل الغير ثانيها ان النبى صلى الله عليه وسلم يشفع لاهل الموقف فى الحساب ثم لاهل الجنة فى دخولها ثم لاهل الكبائر فى الخروج من النار وهذا انتفاع بعمل الغير ثالثها ان كل نبى وصالح له شفاعة وذلك انتفاع بعمل الغير رابعها ان الملائكة يدعون ويستغفرون لمن فى الارض وذلك منفعة بعمل الغير خامسها ان الله تعالى يخرج من النار من لم يعمل خيرا قط بمحض رحمته وهذا انتفاع بغير عملهم سادسها ان أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم وذلك انتفاع بمحض عمل الغير سابعها قال تعالى فى قصة الغلامين اليتيمين وكان أبوهما صالحا

فانتفعا بصلاح أبيهما وليس هو من سعيهما ثامنها ان الميت ينتفع بالصدقة عنه وبالعتق بنص السنة والاجماع وهو من عمل الغير تاسعها ان الحج المفروض يسقط عن الميت بحج وليه بنص السنة وهو انتفاع بعمل الغير عاشرها ان الحج المنذور أو الصوم المنذور يسقط عن الميت بعمل غيره بنص السنة وهو انتفاع بعمل الغير حادى عشرها ان المدين الذى امتنع صلى الله عليه وسلم من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة وقضى دين الآخر على ابن أبى طالب وانتفع بصلاة النبى صلى الله عليه وسلم وبردت جلدته بقضاء دينه وهو من عمل الغير ثانى عشرها ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لمن صلى وحده ألا رجل يتصدق على هذا فيصلى معه فقد حصل له فضل الجماعة بفعل الغير ثالث عشرها أن الانسان تبرأ ذمته من ديون الخلق اذا قضاها قاض عنه وذلك انتفاع بعمل الغير رابع عشرها ان من عليه تبعات ومظالم اذا حلل منها سقطت عنه وهذا انتفاع بعمل الغير خامس عشرها ان الجار الصالح ينفع فى المحيا والممات كما جاء فى الاثر وهذا انتفاع بعمل الغير سادس عشرها ان جليس أهل الذكر يرحم بهم وهو لم يكن منهم ولم يجلس لذلك بل لحاجة عرضت له والاعمال بالنيات فقد انتفع بعمل غيره سابع عشرها الصلاة على الميت والدعاء له فى الصلاة انتفاع للميت بصلاة الحى عليه وهو عمل غيره ثامن عشرها ان الجمعة تحصل باجتماع العدد وكذلك الجماعة بكثرة العدد وهو انتفاع للبعض بالبعض تاسع عشرها ان الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وقال تعالى ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض فقد دفع الله تعالى العذاب عن بعض الناس بسبب بعض وذلك انتفاع بعمل الغير عشروها ان صدقة الفطر تجب عن الصغير وغيره ممن يمونه الرجل فينتفع بذلك من يخرج عنه ولا سعى لهما حادى عشريها ان الزكاة تجب فى مال الصبى والمجنون ويثاب على ذلك ولا سعى له ومن تأمل العلم وجد من انتفاع الانسان بما لم يعمله ما لا يكاد يحصى فكيف يجوز أن تتأول الآية على خلاف صريح الكتاب والسنة واجماع الامة والمراد بالانسان العموم وقال الربيع بن أنس ليس للانسان يعنى الكافر وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له وقيل ليس للكافر من الخير الا ما عمله يثاب عليه فى الدنيا حتى لا يبقى له فى الآخرة خير وروى ان عبد الله بن أبى كان أعطى العباس قميصا ألبسه اياه فلما مات أرسل النبى صلى الله عليه وسلم قميصه ليكفن فيه فلم تبق له حسنة فى الآخرة يثاب عليها (وان سعيه) أى من خير وشر (سوف يرى) أى فى ميزانه من غير شك يوم القيامة بوعد لا خلف فيه وان طال المدى من أريته الشئ أى يعرض عليه ويكشف له (فان قيل) العمل كيف يرى بعد وجوده ومضيه (أجيب) بأنه يرى على صورة جميلة ان كان العمل صالحا قال الرازى وذلك على مذهبنا غير بعيد فان كل موجود يرى والله تعالى قادر على اعادة كل ما عدم فبعيد الفعل فيرى وفيه بشارة للموحد وذلك ان الله تعالى يريه أعماله الصالحة ليفرح بها ويحزن الكافر بأعماله الفاسدة فيزداد غما (ثم يجزاه) أى السعى (الجزاء الاوفى) أى الاتم الأكمل والمعنى ان الانسان يجزى جزاء سعيه بالجزاء الاوفى يقال جزيت فلانا سعيه وبسعيه قال الرازى

الجزاء الاوفى يليق بالمؤمنين الصالحين لان جزاء الطالح وافر قال تعالى فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا وذلك ان جهنم ضررها أكثر من نفع الآثام فهى فى نفسها أوفر (وان الى ربك) أى المحسن اليك لا الى غيره (المنتهى) أى الانتهاء برجوع الخلائق ومصيرهم اليه فيجازيهم بأعمالهم وقيل منه ابتداء المنة واليه انتهاء الآمال وروى أبو هريرة مرفوعا تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق فان الله تعالى لا يحيط به الفكر وفى رواية لا تتفكروا فى الله فانكم لن تقدروا قدره قال القرطبى ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول له من خلق ربك فاذا بلغ ذلك فليستعذ بالله تعالى ولقد أحسن من قال

ولا تفكرن فى ذى العلاء عز وجهه * فانك تردى ان فعلت وتخذل

ودونك مخلوقاته فاعتبر بها * وقل مثل ما قال الخليل المبجل

وقيل المراد من الآية التوحيد وفى المخاطب وجهان أحدهما انه عام تقديره الى ربك أيها السامع أو العاقل والثانى انه خطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم فعلى الاول يكون تهديدا وعلى الثانى يكون تسلية لقلب النبى صلى الله عليه وسلم فعلى الاول تكون اللام فى المنتهى للعهد المعهود فى القرآن وعلى الثانى تكون للعموم أى الى ربك كل منتهى وقوله تعالى (وانه هو) أى لا غيره (أضحك وأبكى) يدل على ان كل ما يعمله الانسان فبقضاء الله تعالى وخلقه حتى الضحك والبكاء وروى انه صلى الله عليه وسلم مر على قوم من أصحابه وهم يضحكون فقال صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال يا محمد ان الله يقول لك وانه هو أضحك وأبكى أى قضى أسبابهما فرجع اليهم صلى الله عليه وسلم فقال ما خطوت أربعين خطوة حتى أتانى جبريل فقال ائت هؤلاء فقل لهم الله تعالى يقول هو أضحك وأبكى أى قضى أسباب الضحك والبكاء وقال بسام بن عبد الله أضحك اسنانهم وأبكى قلوبهم وأنشد يقول

السن تضحك والاحشاء تحترق * وانما ضحكها زور ومختلق

يا رب باك بعين لا دموع لها * ورب ضاحك سن ما به رمق

وقال مجاهد والكلبى أضحك أهل الجنة فى الجنة وأبكى أهل النار فى النار وقال الضحاك أضحك الارض بالنبات وأبكى السماء بالمطر وقال عطاء بن أبى مسلم يعنى أفرح وأحزن لان الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء وقيل ان الله تعالى خص الانسان بالضحك والبكاء من سائر الحيوان وقيل القرد وحده يضحك ولا يبكى وان الابل وحدها تبكى ولا تضحك وقال يونس بن الحسين سئل طاهر المقدسى اتضحك الملائكة فقال ما ضحكوا ولا كل من دون العرش منذ خلقت جهنم وعن عائشة قالت لا والله ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ان الميت يعذب ببكاء أحد ولكنه قال ان الكافر يزيده الله ببكاء أهله عذابا وان الله تعالى هو أضحك وأبكى *(تنبيه)* قوله تعالى وانه هو أضحك وأبكى وما بعده يسميه البيانيون الطباق المتضاد

وهو نوع من البديع وهو أن يذكر ضدان أونقيضان أو متنافيان بوجه من الوجوه وأضحك وأبكى لا مفعول لهما في هذا الموضع لانهما سيقا لقدرة الله تعالى لا لبيان المقدور فلا حاجة الى المفعول كقول القائل فلان بيده الاخذ والعطاء يعطى و يمنع ولا يريد ممنوعا ومعطى واختار هذين الموضعين المذكورين لانهما أمران لا يعللان فلا يقدر أحد من الطبائعيين يبين لاختصاص الانسان بالضحك والبكاء وجها ولا سببا واذا لم يعلل بأمر فلا بدله من موجد وهو الله تعالى بخلاف الصحة والسقم فانهم يقولون سببهما اختلال المزاج وخروجه عن الاعتدال ومما يدل على ذلك انهم اذا عللوا الضحك قالوا القوة التعجب وهو باطل لان الانسان ربما بهت عند رؤية الامور العجيبة ولا يضحك وقيل لقوة الفرح وليس كذلك لان الانسان قد يبكي لقوة الفرح كما قال بعضهم

هجم السرور على حتى انه * من عظم ما قد سرني أبكاني

(وانه هو) أي لا غيره (أمات وأحيي) وان رأيتم أسبابا ظاهرة فانها لا عبرة بها في نفس الامر بل هو الذي خلقها أي أمات في الدنيا وأحيا في البعث وقال القرطبي قضى أسباب الموت والحياة وقيل أمات الآباء وأحيا الابناء وقيل أمات الكافر بالكفر وأحيا المؤمن بالايمان (وانه خلق الزوجين) ثم فسرهما بقوله تعالى (الذكر والانثى) فانه لو كان ذلك في يد غيره لمنع البنات لانها مكروهة لغالب الناس وقوله تعالى (من نطفة اذا تمنى) أي تصب يشمل سائر الحيوانات لان ذلك مختص بآدم وحواء عليهما السلام لانهما ما خلقا من نطفة وهذا أيضا تنبيه على كمال القدرة لان النطفة جسم متناسب الاجزاء ويخلق الله تعالى منها أعضاء مختلفة وطباعا متباينة وخلق الذكر والانثى منها أعجب ما يكون ولهذا لم يقدر أحد على أن يدعى خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله وقال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله (فان قيل) ما الحكمة في قوله تعالى وانه خلق ولم يقل وانه هو خلق كما قال تعالى وانه هو أضحك وأبكى (أجيب) بأن الضحك والبكاء ربما يتوهم أنهما بفعل الانسان والاماتة والاحياء وان كان ذلك التوهم أبعد فيهما لكن ربما يقول به جاهل كما قال من حاج ابراهيم عليه السلام انا أحيي وأميت فأكد ذلك بالفصل وأما خلق الذكر والانثى من النطفة فلا يتوهم احد أنه يخلق أحد من الناس فلم يؤكد بالفصل ألا ترى الى قوله تعالى وأنه هو أغنى وأقنى حيث كان الاغناء عندهم غير مستند الى الله تعالى وكان في معتقدهم ان ذلك بفعلهم كما قال قارون انما أوتيته على علم عندي ولذلك قال هو رب الشعرى فأكد في مواضع استبعادهم الى الاسناد ولم يؤكد في غيره (وان عليه) أي خاصا به علما وقدرة (النشأة) أي الحياة (الاخرى) للبعث يوم القيامة بعد الحياة الاولى (فان قيل) الاعادة لا تجب على الله تعالى فما معنى عليه (أجيب) بأنه عليه بحكم الوعد فانه قال انا نحن نحيي الموتى فعليه بحكم الوعد لا بالعقل ولا بالشرع وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين وبعدها ألف ممدودة قبل الهمزة والباقون بسكون الشين وبعدها الهمزة المفتوحة واذا وقف حمزة نقل حركة

الهمزة الى الشين (وانه هو) أى وحده من غير نظر الى سعى ساع ولا غيره (أغنى) قال أبو صالح أغنى الناس بالاموال (وأقنى) أعطى القنية وأصول الاموال وما يدخرونه بعد الكفاية وقال الضحاك أغنى بالذهب والفضة وصنوف الاموال وأقنى بالابل والبقر والغنم وقال الحسن وقتادة اخدم وقال ابن عباس أغنى وأقنى أعطى فأرضى وقال مجاهد ومقاتل اقنى أرضى بما أعطى وقنع قال الراغب وتحقيقه انه جعل له قنية من الرضا وقال سليمان التيمى أغنى نفسه وأفقر خلقه اليه وقال ابن زيد أغنى أكثر وأقنى أقل وقرأ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وقال الاخفش أقنى أفقر وقال ابن كيسان أولد وقال الزمخشرى أقنى أعطى القنية وهى المال الذى تأثلته وعزمت على أن لا يخرج من يدك *(تنبيه)* حذف مفعولا أغنى وأقنى لان المراد نسبة هذين الفعلين اليه وكذلك باقيها وألف أقنى منقلبة عن ياء لانه من القنية قال الشاعر * الا ان بعد العدم للمرء قنية * ويقال قنيت كذا وأقنيته قال الشاعر * قنيت حياتى عفة وتكرما * (وانه هو) أى لا غيره (رب الشعرى) أى رب معبودهم وكانت خزاعة تعبد الشعرى وأول من سن ذلك رجل من اشرافهم يقال له أبو كبشة عبدها وقال لان النجوم تقطع السماء عرضا والشعرى تقطعها طولا فهى مخالفة لها فعبدها وعبدتها خزاعة وحمير وأبو كبشة أحد أجداد النبى صلى الله عليه وسلم من قبل أمهاته وبذلك كان مشركو قريش يسمون النبى صلى الله عليه وسلم بابن أبى كبشة حين دعا الى الله تعالى وخالف أديانهم تشبيها بذلك الرجل فى أنه أحدث دينا غير دينهم والشعرى فى لسان العرب كوكبان تسمى أحدهما الشعرى العبور وهى المرادة فى الآية الكريمة وهى تطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر ويقال لها مرزم الجوزاء وتسمى كلب الجبار أيضا وتسمى الشعرى اليمانية والثانية الشعرى الغميصاء وهى التى فى الذراع والمجرة بينهما وتسمى الشامية وسبب تسميتها بالغميصاء على ما زعمه العرب انهما كانا أختين أو زوجتين لسهيل فانحدر سهيل الى اليمن فاتبعته الشعرى العبور فعبرت المجرة فسميت العبور وأقامت الغميصاء تبكى حتى غمصت عينها ولذلك كانت أخفى من العبور وكان من لا يعبد الشعرى من العرب يعظمها ويعتقد تأثيرها فى العالم (وأنه أهلك عادا الاولى) وهم قوم هود عليه السلام هلكوا بريح صرصر والاخرى قوم صالح وقيل الاخرى ارم وقيل الاولى أول الخلق هلاكا بعد قوم نوح وقرأ نافع وأبو عمرو بتشديد اللام بعد الدال المفتوحة نقلا وهمز قالون الواو بعد اللام همزة ساكنة والباقون بتنوين الدال وكسر التنوين وسكون اللام وبعدها همزة مضمومة فاذا قرأ القارئ عادا الاولى لقالون وأبى عمرو فله فى الوصل أى وصل عادا بالاولى وجه واحد وهو النقل المذكور وقالون على أصله بالهمزة كما ذكر فاذا وقف على عادا وابتدأ بلولى فله الابتداء بهمزة الوصل وهو ألولى وله أيضا الابتداء بغير همز الوصل وهو لولى وقالون يهمز الواو فى الوجهين الاولين ولم يهمز فى الوجه الثالث الذى هو الاصل ووافقهما ورش فى الاوجه المذكورة فى الوصل

والابتداء لا فى الوجه الثالث الذى هو الاصل فانه ليس من مذهبه الا النقل (وثمودا) وهم قوم صالح أهلكهم الله تعالى بصيحة (فما أبقى) منهم أحدا . وقرأ عاصم وحمزة بغير تنوين للدال فى الوصل وسكون الدال فى الوقف والباقون بالتنوين فى الوصل والوقف على الالف (وقوم نوح) أى أهلكهم لاجل ظلمهم بالتكذيب (من قبل) أى قبل الفريقين (انهم) أى قوم نوح (كانوا) أى بما لهم من الاخلاق التى هى كالجبلات التى لا انفكاك عنها (هم) أى خاصة (أظلم) أى من الطائفتين المذكورتين (وأطغى) أى وأشد تجاوزا فى الظلم وعلوا واسرافا فى المعاصى وتجبرا وعتوا والتمادى دعوة نوح عليه السلام قريبا من ألف سنة ولانهم أطول أعمارا وأشد أبدانا وكانوا مع ذلك ملء الارض روى ان الرجل منهم كان يأخذ بيد ابنه فينطلق به الى نوح عليه السلام فيقول احذر هذا فانه كذاب وان أبى قدمشى بى الى هذا وقال لى ماقلت لك فيموت الكبير على الكفر وينشأ الصغير على وصية أبيه ولهذا قال نوح عليه السلام رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا وقوله تعالى (والمؤتفكة) منصوب بقوله تعالى (أهوى) وقدم لاجل الفواصل والمراد بالمؤتفكة قرى قوم لوط رفعها الى عنان السماء على جناح جبريل عليه السلام ثم أهواها الى الارض أى أسقطها وأتبعها بحجارة النار الكبريتية وهو قوله تعالى (فغشاها) أى أتبعها ماغطاها فكان لها بمنزلة الغشاء وهوله بقوله تعالى (ماغشى) أى أمرا عظيما من الحجارة المنضودة المسومة وغيرها مما لا تسع العقول وصفه (فبأى آلاء) أى أنعم (ربك) أى المحسن اليك (تتمارى) أى تشك أيها الانسان وقيل أراد الوليد بن المغيرة وقال ابن عباس تتمارى أى تكذب وقيل الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى تشك فى اجالة الخواطر فى فكرك فى ارادة هداية جميع قومك بحيث لاتريد ان أحدا منهم يهلك وقد حكم ربك باهلاك كثير منهم لما اقتضته حكمته فكان بعض خواطرك فى تلك الاجالة يشكك بعضها بعضا (هذا) أى النبى صلى الله عليه وسلم (نذير) أى محذر بليغ التحذير (من النذر الاولى) أى من جنسهم أى رسول كالرسل قبله أرسل اليكم كما أرسلوا الى أقوامهم وقال تعالى الاولى على تأويل الجماعة أو هذا القرآن نذير من النذر الاولى أى انذار من جنس الانذارات الاولى التى أنذر بها من قبلكم (أزفت الآزفة) أى قربت الموصوفة بالقرب فى قوله تعالى اقتربت الساعة وهو يوم القيامة (ليس لها من دون الله) أى من أدنى رتبة من رتبة الملك المحيط بكل شئ قدرة وعلما وقوله تعالى (كاشفة) يجوز أن يكون وصفا وأن يكون مصدرا فان كان وصفا احتمل أن يكون التأنيث لاجل انه وصف لمؤنث محذوف تقديره نفس كاشفة أو حال كاشفة أى مبينة متى تقوم كقوله تعالى لايجليها لوقتها الا هو أو ليس لها نفس كاشفة أى قادرة على كشفها اذا وقعت الا الله تعالى غير أنه تعالى لايكشفها أو ليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير وان كانت مصدرا فهى بمعنى الكشف كالعافية والمعنى ليس لها من دون الله كشف أى لايكشف عنها ولا يظهرها غيره (أفمن هذا الحديث) قال أكثر المفسرين المراد بالحديث القرآن

العظيم

العظيم الذى يأتى على سبيل التجدد بحسب الوقائع والحاجات (تعجبون) انكارا وهو فى غاية ما يكون من ترقيق القلوب وقرأ أبو عمرو بادغام المثلثة فى التاء المثناة بخلاف عنه (وتضحكون) أى استهزاء من هذا الحديث وتجددون ذلك فى كل وقت (ولا تبكون) أى كما هو حق من يسمعه لما فيه من الوعد والوعيد وغير ذلك وقال الرازى يحتمل أن يكون ذلك اشارة الى حديث ازفت الآزفة فانهم كانوا يتعجبون من حشر الاجساد والعظام البالية وقوله تعالى (وأنتم سامدون) جملة مستأنفة أخبر الله تعالى عنهم بذلك ويحتمل أن تكون حالا أى انتفى عنكم البكاء فى حال كونكم سامدين واختلف فى معنى السمود فقيل هو الاعراض والغفلة عن الشئ أى وأنتم معرضون غافلون عما يطلب منكم وقيل هو اللهو يقال دع عنا سمودك أى لهوك قاله الوالبى والعوفى عن ابن عباس وقال الشاعر

الأأيها الانسان انك سامد * كانك لاتفنى ولا انت هالك

فهذا بمعنى لاه لاعب وقيل هو الجمود وقيل هو الاستكبار قال الشاعر

رمى الحدثان نسوة آل سعد * بمقدار سمدن له سمودا

فرد شعورهن السود بيضا * ورد وجوههن البيض سودا

فهذا بمعنى الجمود والخشوع وقال عكرمة وأبو عبيدة السمود الغناء بلغة حمير يقولون يا جارية اسمدى لنا أى غنى فكانوا اذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا وقال مجاهد اشرون وقال الضحاك غضاب يتبرطمون وقال الراغب السامد اللاهى الرافع رأسه من قولهم بعير سامد فى سيره وقال الحسن السامد الواقف للصلاة قبل وقوف الامام لما روى أنه صلى الله عليه وسلم خرج والناس ينتظرونه قياما فقال مالى أراكم سامدين وتسميد الارض ان يجعل فيها السماد وهو سرجين ورماد وقوله تعالى (فاسجدوا) أى اخضعوا خضوعا كثيرا بالسجود (لله) أى الملك الاعظم يحتمل أن يكون المراد به سجود التلاوة وأن يكون المراد به سجود الصلاة (واعبدوا) أى اشتغلوا بكل أنواع العبادة ولم يقل واعبدوا الله اما لكونه معلوما من قوله تعالى فاسجدوا لله واما لان العبادة فى الحقيقة لاتكون الا لله ويقوى الاحتمال الاول ماروى عكرمة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم سجد فى النجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس وعن عبد الله بن مسعود قال أول سورة أنزلت فيها سجدة النجم قال فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه الا رجلا شيخا من قريش أخذ كفا من حصا أو تراب فرفعه الى جبهته وقال يكفينى هذا قال عبد الله فلقد رأيته بعد ذلك قتل كافرا وهو أمية بن خلف كما فى بعض الروايات وروى زيد بن ثابت قال قرأت على النبى صلى الله عليه وسلم والنجم فلم يسجد فيها وهذا يدل على ان سجود التلاوة غير واجب قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان الله تعالى لم يكتبها علينا الا أن نشاء وهو قول الشافعى وأحمد رضى الله عنهما أى فهى مستحبة وذهب قوم الى وجوبها على القارئ والمستمع جميعا وهو قول سفيان الثورى وأصحاب الرأى وذهب قوم الى انها فى المفصل غير مستحبة ومارواه البيضاوى

تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والنجم أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد صلى الله عليه وسلم وجحد به حديث موضوع

﴿سورة القمر وتسمى اقتربت مكية﴾

الا سيهزم الجمع ويولون الدبر الآيات وهى خمس وخمسون آية وثلثمائة واثنتان وأربعون كلمة وألف وأربعمائة وثلاثة وعشرون حرفا

(بسم الله) أى الذى أحاط علمه فتمت قدرته (الرحمن) الذى وسعت رحمته كل شئ فعمت الشقى والسعيد نعمته (الرحيم) الذى خص باتمام نعمته من اصطفاه فأسعدتهم رحمته (اقتربت الساعة) دنت القيامة وفى أول هذه السورة مناسبة لآخر ما قبلها وهو قوله تعالى ازفت الآزفة فكأنه أعاد ذلك مستدلا عليه بقوله تعالى ازفت الآزفة فهو حق اذ القمر انشق وقوله تعالى (وانشق القمر) ماض على حقيقته وهو قول عامة المسلمين الامن لا يلتفت الى قوله وقد صح فى الاخبار ان القمر انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين وعن ابن مسعود قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا وروى أنس بن مالك ان أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما وقال سنان عن قتادة فأراهم انشقاق القمر مرتين وقال أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله لم ينشق بمكة وقال مقاتل انشق القمر ثم التأم بعد ذلك وقيل انشق بمعنى سينشق يوم القيامة وأوقع الماضى موقع المستقبل وهو خلاف الاجماع وقيل انشق بمعنى انفلق عنه الظلام عند طلوعه كما يسمى الصبح فلقا وأنشد النابغة فلما أدبروا ولهم دوى * دعانا عند شق الصبح داع

وانما ذكرت ذلك تنبيها على ضعفه وروى أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت قريش سحركم ابن أبى كبشة فسلوا السفار فسألوهم فقالوا نعم قد رأيناه فأنزل الله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر (وان يروا) أى كفار قريش (آية) أى معجزة له صلى الله عليه وسلم كانشقاق القمر (يعرضوا) عنها (ويقولوا) هذا (سحر مستمر) أى ذاهب سوف يذهب ويبطل من قولهم مر الشئ واستمر اذا ذهب مثل قولهم قر واستقر قاله مجاهد وقتادة وقال أبو العالية والضحاك مستمر أى قوى شديد من قولهم مر الحبل اذا صلب واشتد وأمررته اذا أحكمت فتله واستمر الشئ اذا قوى واستحكم وقيل مستمر أى دائم فان محمدا صلى الله عليه وسلم كان يأتى كل زمان بمعجز فقالوا هذا سحر مستمر دائم لا يختلف بالنسبة الى شئ بخلاف سحر السحرة فان بعضهم يقدر على أمر وأمرين وثلاثة ويعجز عن غيرها وهو قادر على الكل قاله الزمخشرى ومنه قول الشاعر

الا انما الدنيا ليال وأعصر * وليس على شئ قديم بمستمر

وعن حذيفة انه خطب بالمدائن ثم قال الا ان الساعة قد اقتربت وان القمر قد انشق على عهد

نبيكم مستمر دائم مطرد وكل شئ قد انقادت طريقه ودامت حاله قيل فيه قد استمر وقال أبو حيان سبب نزولها ان مشركي قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ان كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين ووعدوا بالايمان ان فعل ذلك وقال ليلة بدر أى ليلة أربعة عشر فى الشهر فسأل ربه فانشق القمر فقالوا سحر مستمر ولم يؤمنوا (وكذبوا) بكون انشقاقه دالا على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وجزموا بالتكذيب عنادا (واتبعوا) أى بمعالجة فطرتهم الاولى المستقيمة فى دعائها الى التصديق (أهواءهم) فى أنه صلى الله عليه وسلم سحر القمر وأنه خسوف فى القمر وظهور شئ فى جانب آخر من الجو يشبه نصف القمر وأنه سحر أعيننا وأن القمر لم يصبه شئ فهذه أهواؤهم قال القشيري اذا حصل اتباع الهوى فمن شؤمه يحصل التكذيب لان الله تعالى يلبس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر الرشد واتباع الرضا مقرون بالتصديق لان الله تعالى ببركات الاتباع للحق يفتح عين البصيرة فيأتى بالتصديق (وكل أمر) أى من أموركم من الخير أو الشر (مستقر) أى بأهله فى الجنة أو النار وقال قتادة وكل أمر مستقر فالخير مستقر بأهل الخير والشر مستقر بأهل الشر وقيل مستقر قول المصدقين والمكذبين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب والعذاب وقيل كل أمر مستقر فى علم الله تعالى لا يخفى عليه شئ فهم كذبوا واتبعوا أهواءهم والانبياء صدقوا وبلغوا كقوله تعالى لا يخفى على الله منهم شئ (ولقد جاءهم) أى أهل مكة فى القرآن قبل الانشقاق (من الانباء) أى اخبار اهلاك الامم الماضية المكذبة رسلهم لان الانباء الاخبار العظام التى لها وقع كقول الهدهد وجئتك من سبا بنبا يقين لانه كان خبرا عظيما له وقع وخطر وقال تعالى ان جاءكم فاسق بنبا أى بأمر عظيم له خطر وانما يجب التثبت فيما يتعلق به حكم ويترتب عليه أمر ذو بال (مافيه) خاصة (مزدجر) أى عما هم فيه من الباطل ولكن لم يزدجر منهم الا من أراد الله تعالى * (تنبيه) * المزدجر اسم مصدر أى ازدجار أو اسم مكان أى موضع ازدجار والدال بدل من تاء الافتعال وازدجرته وزجرته نهيته بغلظة وما موصولة او موصوفة وقوله تعالى (حكمة) خبر مبتدا محذوف أو بدل من ما أو من مزدجر (بالغة) أى لها أعظم البلوغ الى أنهى غايات الحكمة لصحتها ووضوحها ففيها مع الزجر ترجئة ومواعظ وأحكام ودقائق (فما تغن) أى تنفع (النذر) أى الانذارات والمنذرون والامور المنذر بها ومنها انما المغنى بذلك هو الله تعالى فما شاءه كان ومالم يشأ لم يكن قال البقاعي ولعل الاشارة باسقاط ياتغنى باجماع المصاحف من غير موجب فى اللفظ الى أنه كما سقطت غاية أحرف الكلمة سقطت ثمرة الانذار وهو القبول * (تنبيه) * يجوز فى ما أن تكون استفهامية وتكون فى محل نصب مفعولا مقدما أى أى شئ تغنى النذر وأن تكون نافية أى لم تغن النذر شيأ والنذر جمع نذير والمراد به المصدر أو اسم الفاعل ولما كان صلى الله عليه وسلم شديد التعلق بطلب نجاتهم فهو لذلك ربما اشتهى اجابتهم الى مقترحاتهم تسبب عن ذلك قوله تعالى (فتول عنهم) أى كلف نفسك الاعراض عن تمنى ذلك فما عليك الا البلاغ وأما الهداية فالى الله تعالى وحده * (تنبيه) * قال أكثر المفسرين نسختها آية السيف وقال الرازى

ان قول المفسرين فى قوله تعالى فتول منسوخ ليس كذلك بل المراد منه لاتناظرهم بالكلام وقوله تعالى (يوم) منصوب باذكر أى واذكر يوم (يدع الداعى) وقيل منصوب بيخرجون بعده والداعى معرف كالمنادى فى قوله تعالى يوم ينادى المنادى لانه معلوم قد أخبر عنه فقيل ان منادياً ينادى وداعياً يدعو وقيل الداعى اسرافيل عليه السلام ينفخ قائماً على صخرة بيت المقدس قاله مقاتل وقيل جبريل عليه السلام وقيل ملك موكل بذلك والتعريف حينئذ لايقطع حد العلمية ويكون كقولنا جاء رجل فقال الرجل قاله الرازى وقرأ نافع وأبو عمرو بحذف الياء بعد العين وقفا واثباتها وصلا وابن كثير باثباتها وقفا ووصلا والباقون بحذفها وقفا ووصلا (الى شئ نكر) أى منكر فظيع لم يرمثله فينكرونه استعظاما (فان قيل) ماذلك الشئ المنكر (أجيب) بأنه الحساب أو النفخ أو النشر للجمع (فان قيل) النشر لايكون منكرا فانه احياء ولان الكافر من أين يعرف وقت النشر ما يجرى عليه لينكره (أجيب) بأنه يعلم ذلك لقوله تعالى عنهم ياويلنا من بعثنا من مرقدنا وقرأ ابن كثير بسكون الكاف والباقون بالرفع ولما بين تعالى دعاءه بما هال أمره بين حال المدعوين زيادة فى الهول فقال تعالى (خاشعاً أبصارهم) أى ينظرون نظر الخاضع الذليل السافل المنزلة المستوحش الذى هو شر حال ونسب الخشوع الى الابصار لان الذل والعز يتبين فى النظر والذل أن يرمى به صاحبه الارض مثلا مع هيبة يعرف منها ذلك كما قال تعالى خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بفتح الخاء وألف بعدها وكسر الشين والباقون بضم الخاء ولا ألف بعدها وفتح الشين مشددة أما القراءة الاولى فهى جارية على اللغة الفصحى من حيث ان الفعل وما يجرى مجراه اذا قدم على الفاعل وحد تقول تخشع أبصارهم ولا تقول تخشعن أبصارهم وأما القراءة الثانية فجاءت على لغة طى يقولون أكلونى البراغيث قال الزمخشرى ويجوز أن يكون فى خشعا ضميرهم ويقع أبصارهم بدلا عنه اه وتقدم نظير ذلك فى قوله تعالى فى الانبياء وأسروا النجوى الذين ظلموا وجملة خاشعاً أبصارهم حال من فاعل (يخرجون) أى الناس (من الاجداث) أى القبور (كأنهم جراد) أى فى كثرتهم وتراكم بعضهم على بعض وصغارهم وضعفهم وتوجههم يقال فى الجيش الكثير المائج بعضه فوق بعض جاؤا كالجراد وكالذباب (منتشر) أى منبث متفرق فى كل مكان لكثرتهم لايدرون أين يذهبون (مهطعين) أى مسرعين مادّى أعناقهم (الى الداعى) مصوبى رؤسهم اليه لايلتفتون الى سواه كما يفعل من ينظر فى ذل وخضوع وصمت واستكانة هذا حال الكل وأما الكافر فنبه عليه بقوله تعالى (يقول) أى على سبيل التكرار (الكافرون) أى الذين كانوا فى الدنيا عريقين فى ستر الادلة واظهار الاباطيل المضلة (هذا) أى الوقت الذى نحن فيه لما نرى فيه من الاهوال (يوم عسر) أى فى غاية العسر والصعوبة والشدة وذلك بحسب حالهم فيه كما قال تعالى فى سورة المدثر يوم عسير على الكافرين * ولما فرغ من حكاية كلام الكافرين ومن ذكر علامات الساعة أعاد ذكر بعض الانبياء فقال تعالى (كذبت) أى

أوقعت التكذيب العظيم الذى عموا به جميع الرسالات وجميع الرسل (قبلهم) أى أهل مكة (قوم نوح) مع ما كان بهم من القوة ولهم من الانتشار فى جميع الاقطار وأنث فعلهم تحقيرا لهم وتهوينا لامرهم فى جنب قدرته تعالى (فان قيل) الحاق الضمير المؤنث بالفعل قبل ذكر الفاعل جائز وحسن بالاتفاق والحاق ضمير الجمع بالفعل قبيح عند أكثرهم فلا يجوزون كذبوا قوم نوح ويجوزون كذبت فما الفرق (أجاب) الرازى بأن التأنيث انما جاز قبل الجمع لان الانوثة والذكورة للفاعل أمر لا يتبدل ولم تحصل الانوثة للفاعل بسبب فعله بخلاف الجمع لان الجمع للفاعل بسبب فعلهم (فكذبوا عبدنا) نوحا عليه السلام على ماله من العظمة بنسبته الينا مع تشريفنا اياه بالرسالة (وقالوا) زيادة على التكذيب (مجنون) أى فهذا الذى يصدر منه من الخوارق أمر من الجن (وازدجر) وهل هذا من مقولهم أى قالوا انه ازدجر أى ازدجرته الجن وذهبت بلبه قاله مجاهد أو هو من كلام الله تعالى أخبر الله تعالى عنه بانه انتهر وازدجر بالسب وأنواع الاذى وقالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين قال الرازى وهذا أصح لان المقصود تقوية قلب النبى صلى الله عليه وسلم بذكر من تقدمه وأيضا يترتب عليه قوله تعالى (فدعا ربه) وهذا الترتيب فى غاية الحسن لانهم لما زجروه وانزجر هو عن دعائهم دعا ربه الذى رباه بالاحسان اليه وبرسالته (أنى) أى بأنى (مغلوب) أى من قومى كلهم بالقوة والمنعة لا بالحجة وأكده ابلاغا فى الشكاية واظهارا للذل العبودية لان الله تعالى عالم بسر العبد وجهره فما شرع الدعاء فى أصله الا لاظهار التذلل وكذا الابلاغ فيه وقال ابن عطية غلبتنى نفسى وحملتنى على الدعاء عليهم قال ابن عادل وهو ضعيف (فانتصر) أى أوقع نصرتى عليهم أنت وحدك على أبلغ وجه فانتقم لى منهم (ففتحنا) أى بسبب دعائه فتحا يليق بعظمتنا (أبواب السماء) أى كلها فى جميع الاقطار وعبر بجمع القلة عن جمع الكثرة والمراد من الفتح والابواب والسماء حقائقها فان للسماء أبوابا تفتح وتغلق وقيل هذا على سبيل الاستعارة فان الظاهر ان الماء كان من السحاب فهو كقول القائل فى المطر الوابل جرت ميازيب السماء وفى قوله تعالى ففتحنا بيان بأن الله تعالى انتصر منهم وانتقم بماء لا بجند أنزله ومن العجب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم الله تعالى بمطلوبهم وقرأ ابن عامر بتشديد التاء بعد الفاء والباقون بالتخفيف وفى الباء فى قوله تعالى (بماء) وجهان أظهرهما انها للتعدية وذلك على المبالغة فى أنه جعل الماء كالآلة للفتح به كما تقول فتحت بالمفتاح والثانى أنها للحال أى فتحناها ملتبسة بماء (منهمر) أى منصب بأبلغ ما يكون من السيلان والصب كثرة وعظما ولذلك لم يقل بمطر لانه خارج عن تلك العادة واستمر ذلك أربعين يوما (وفجرنا) أى صدعنا بما لنا من العظمة وشققنا بعظمتنا وأسلنا (الارض عيونا) أى جميع عيون الارض ولكنه عدل عنه للتهويل بالابهام ثم البيان وافادة أن وجه الارض صار كله عيونا وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى بكسر العين والباقون بضمها (فالتقى الماء) أى المعهود وهو ماء السماء وماء الارض بسبب فعلنا هذا وزاد فى تعظيمه بأداة الاستعلاء فقال تعالى (على أمر) أى حال

(قدقدر) أى قضى أى فى الازل وهو هلاكهم غرقا بماء مقدر لا يزيد قطرة ولا يهلك غير من أمرناه باهلاكهم (وحملناه) أى نوحا عليه السلام تعميما لانتصاره (على ذات) أى سفينة صاحبة (ألواح) أى أخشاب نجرت حتى صارت عريضة (ودسر) جمع دسار ككتاب وهو ما تشد به السفينة من مسمار وحديد أو خشب أو من خيوط الليف ونحوها قال البقاعى ولعله عبر عن السفينة بما شرحها تنبيها على قدرته على ما يريد (تجرى) أى السفينة (بأعيننا) أى محفوظة من أن تدخل بحر الظلمات أو يأتى عليها غير ذلك من الآفات بحفظنا على مالنا من العظمة حفظ من ينظر الشئ بأعين كثيرة ولا يغيب عنه أصلا وجوزوا أن يكون جمع تكسير لعين الماء وقوله تعالى (جزاء) منصوب بفعل مقدر أى أغرقوا انتصارا (لمن كان كفر) وهو نوح عليه الصلاة والسلام أو البارى تعالى (ولقد تركناها) أى أبقينا هذه الفعلة العظيمة من جرى السفينة على هذا الوجه وابقاء نوع ها دالة على مالنا من العظمة وقيل تلك السفينة بعينها بقيت على الجودى حتى أدرك بقاياها أول هذه الامة (آية) أى علامة عظيمة على مالنا من العلم المحيط والقدرة التامة (فهل من مدكر) أى معتبر ومتعظ بها وأصله مذتكر أبدلت التاء دالا مهملة وكذا المعجمة وأدغمت فيها وقوله تعالى (فكيف كان) أى وجد وتحقق (عذابى) أى لمن كفر وكذب رسلى (ونذر) أى انذارى استفهام تقرير فكيف خبر كان وهى للسؤال عن الحال والمعنى حمل المخاطبين على الاقرار بوقوع عذابه تعالى بالمكذبين لنوح موقعه وقرأ ورش باثبات الياء بعد الراء وصلا لا وقفا جميع ما فى هذه السورة والباقون بغير ياء وقفا ووصلا قال البقاعى ولما كان هذا المفصل مما أنزل أول القرآن تيسيرا على الامة نبه على ذلك بقوله تعالى (ولقد يسرنا) أى على مالنا من العظمة (القرآن) أى على ماله من الجمع والفرق والعظمة المناسبة لكونه وصفالنا (للذكر) أى الاتعاظ والتذكر والتدبر والفهم والتشريف والحفظ لمن يراعيه قال ابن برجان أنزلناه باللسان العربى ونزلناه للافهام تنزيلا وضربنا لهم الامثال وأطلنا لهم فى هذه الاعمار ليتذكروا الميثاق المأخوذ عليهم وقال القشيرى يسر قراءته على ألسنة قوم وعلمه على قلوب قوم وفهمه على قلوب قوم وحفظه على قلوب قوم وكلهم أهل القرآن وخاصته وليس يحفظ من كتب الله تعالى عن ظهر قلب غيره قاله المحلى (فهل من مدكر) أى معتبر ومتعظ بها وتقدم أصله * ولما انقضت قصة نوح عليه السلام على هذا الهول العظيم ذكر قصة عاد لانها أعظم قصة جرت بعد قوم نوح فيما تعرفه العرب بقوله تعالى (كذبت عاد) أى أوقعت التكذيب العام المطلق الذى أوجب تكذيبهم برسولهم هود عليه الصلاة والسلام فى دعائه لهم الى الله وانذاره عذابى (فكيف) أى فعلى أى الاحوال لاجل تكذيبهم (كان عذابى) لهم (ونذر) أى وانذارى اياهم بلسان رسولى قبل نزوله أى وقع موقعه (فان قيل) لم لم يقل فكذبوا هودا كما قال تعالى فى قصة نوح فكذبوا عبدنا (أجيب) بأن تكذيب قوم نوح أبلغ لطول مقامه فيهم وكثرة عنادهم وأما الآن قصة عاد ذكرت مختصرة ثم بين عذابهم بقوله تعالى (انا أرسلنا) أى بما لنا من العظمة (عليهم ريحا)

وعبر بحرف الاستعلاء اعلاما بالنقمة ثم وصف الريح بقوله تعالى (صرصرا) أى شديدة الصوت من صرصر الباب أو القلم اذا صوت وقيل الشديدة البرد من الصر وهو البرد وقال مكى أصله صرّر من صر الشئ اذا صوت لكن أبدلوا من الراء المشددة صادا وهذا قول الكوفيين وقال الرازى الصرصر الدائمة الهبوب من أصر على الشئ اذا دام وثبت وأكد شؤمها بذم زمانها فقال تعالى (فى يوم نحس) أى شديد القباحة قيل كان ذلك يوم الاربعاء فى آخر الشهر وهو شوال لثمان بقين منه واستمر الى غروب شمس الاربعاء آخره فانه قال تعالى فى سورة الحاقة سبع ليال وثمانية أيام حسوما وقال تعالى فى حم السجدة فى أيام نحسات فالمراد باليوم هنا الوقت والزمان وقوله تعالى (مستمر) أى دائم الشؤم الى وقت نفاذ المراد منه يفيد ما تفيده الايام لان الاستمرار ينبئ عن امتداد الزمان كما تنبئ عنه الايام والحكاية مذكورة هنا على سبيل الاختصار فذكر الزمان ولم يذكر مقداره على سبيل الايجاز فاستمر عليهم بنحوسه ولم يبق منهم أحد الا أهلكه هذا وصفها فى ذاتها وأما وصفها بفعلها فيهم فذكره بقوله تعالى (تنزع) أى تأخذ (الناس) أى الذين هم صور لاثبات لهم بأرواح التقوى من الارض بعضهم من وجهها وبعضهم من حفر حفروها ليمتنعوا بها من العذاب فتطيرهم بين السماء والارض كأنهم الهباء المنثور فتقلع رؤسهم من جثثهم وقوله تعالى (كأنهم) أى حين ينزعون فيلقون لا أرواح فيهم (أعجاز نخل) أى أصول نخل قطعت رؤسها حال من الناس مقدرة وقوله (منقعر) صفة لنخل باعتبار الجنس وأنث فى الحاقة فقال نخل خاوية باعتبار معنى الجماعة قال ابن عادل وانما ذكر هنا وأنث هناك مراعاة للفواصل فى الموضعين وقال الرازى ذكر الله تعالى لفظ النخل فى مواضع ثلاثة ووصفها على الاوجه الثلاثة فقال تعالى والنخل باسقات وذلك حال عنها وهى كالوصف وقال تعالى نخل خاوية ونخل منقعر حيث قال منقعر كان المختار ذلك لان المنقعر فى حقيقة الامر كالمفعول لانه ورد عليه القعر فهو مقعور والخاوى والباسق فاعل واخلاء المفعول من علامة التأنيث أولى تقول امرأة قتيل وأما الباسقات فهى فاعلات حقيقة لان البسوق أمر قائم بها وأما الخاوية فهى من باب حسن الوجه لان الخاوى موضعها فكأنه قال نخل خاوية المواضع وهذا غاية الاعجاز حيث أتى بلفظ مناسب للالفاظ السابقة واللاحقة من حيث اللفظ * (تنبيه) * الاعجاز جمع عجز وهو مؤخر الشئ ومنه العجز لانه يؤدى الى تأخير الامور والمنقعر المنقلع من أصله يقال قعرت النخلة قلعتها من أصلها فانقعرت وقعرت البئر وصلت الى قعرها وقعرت الاناء شربت ما فيه حتى وصلت الى قعره وكرر قوله تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) للتهويل وقيل الاول لما حاق بهم فى الدنيا والثانى لما يحيق بهم فى الآخرة كما قال أيضا فى قصتهم لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وتقدم تفسير قوله تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وكرره ايذانا بأن تفسير القرآن مع اعجازه لا يكون الا بعظمة تفوت قوى البشر وتعجز عنها منهم القدرة ولما انقضت قصة عاد ذكر تعالى قصة ثمود لانها تلى

قصة عاد في الفظاعة فقال تعالى (كذبت ثمود) أي قوم صالح عليه السلام وقوله تعالى (بالنذر) جمع نذير بمعنى منذر أي بالانذارات التي أنذرهم بها نبيهم صالح عليه السلام ان لم يؤمنوا به ثم علل ذلك وعقبه بقوله تعالى (فقالوا) منكرين لما جاءهم من الله تعالى غاية الانكار (أبشرا) انكار الرسالة هذا النوع ليكون انكارا لنبوة نبيهم على أبلغ الوجوه وهو منصوب بفعل يفسره تتبعه الآتي وقولهم (منا) نعت له أي فلا فضل له علينا فأوجه اختصاصه بذلك من بيننا وقولهم (واحدا) نعت له أيضا ثم عظموا الانكار بقولهم (نتبعه) أي نجاهد أنفسنا في خلع مألوفنا وما كان عليه آباؤنا والاستفهام بمعنى النفي والمعنى كيف نتبعه ونحن أشد الناس قوة وكثرة وهو واحد منا ثم استنتجوا من هذا الانكار الشديد قولهم مؤكدين (انا اذا) أي ان اتبعناه (لفي ضلال) أي ذهاب عن الصواب محيط بنا (وسعر) أي ونيران جمع سعير فعكسوا عليه وقالوا ان اتبعناك كنا اذا كما تقول وقيل السعر الجنون يقال ناقة مسعورة قال الشاعر

كأن بها سعرا اذا العيس هزها * ذميل وارخاء من السير متعب

ثم استدلوا بأمر آخر ساقوه مساق الانكار فقالوا (أألقي) أي أنزل (الذكر) أي الوحي الذي يكون به الشرف الاعظم بغتة في سرعة (عليه) لانه لم يكن عندهم في مضمار هذا الشأن ولا توسموا فيه قبل اشارته به شيأ منه بل أتاهم به بغتة في غاية الاسراع ودلوا على وجه التعجب والانكار بالاختصاص بقولهم (من بيننا) أي وفينا من هو أولى بذلك منه سنا وشرفا وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الهمزة الاولى المفتوحة وتسهيل الثانية المضمومة كالواو وأدخل قالون وأبو عمرو بينهما ألفا بخلاف عن أبي عمرو ولم يدخل ورش وابن كثير ألفا وأما هشام فله تسهيل الثانية وتحقيقها وادخال الالف بينهما مع التحقيق والباقون بتحقيقهما مع عدم الادخال واذا وقف حمزة فله في الثانية التسهيل وابدالها واوا والتحقيق ثم أضربوا عن ذلك الاستفهام لانه بمعنى النفي بقولهم (بل هو كذاب) أي بليغ في الكذب في قوله انه أوحي اليه ما ذكر (أشر) أي متكبر بطر غلبت عليه البطالة حتى أعجبته نفسه فتجبر فهو يريد الترفع قال الله تعالى (سيعلمون) أي بوعد لا خلاف فيه (غدا) أي في الزمن الآتي القريب وهو يوم القيامة لان كل ما حقق اتيانه قريب عند نزول العذاب في الدنيا ويوم القيامة وقرأ ابن عامر وحمزة بعد السين بتاء الخطاب وفيه وجهان أحدهما أنه حكاية عن قول صالح عليه السلام لقومه والثاني أنه خطاب من الله تعالى على جهة الالتفات والباقون بياء الغيبة جريا على الغيب قبله في قوله تعالى فقالوا أبشرا واختار هذه القراءة مكي لان عليها الاكثر (من الكذاب الاشر) أي وهو هم بأن يعذبوا على تكذيبهم لنبيهم صالح صلى الله عليه وسلم وروى انهم تعنتوا عليه فسألوه أن يخرج لهم من صخرة ناقة حمراء عشراء فقال تعالى (انا) اي بما لنا من العظمة (مرسلو الناقة) أي موجدوها لهم ومخرجوها كما اقترحوا من حجر أهلناه لذلك وخصصناه من بين الاحجار دلالة على ارسالنا صالحا عليه السلام مخصصين له

من بين قومه وذلك انهم قالوا لصالح عليه السلام نريد أن نعرف المحق منا بان ندعوا آلهتنا وتدعو الهك فمن أجابه الهه علم أنه المحق فدعوا أوثانهم فلم تجبهم فقالوا ادع انت فقال فما تريدون قالوا تخرج لنا من هذه الصخرة ناقة عشراء وبراء فأجابهم الى ذلك بشرط الايمان فوعدوه بذلك وأكدوا فكذبوا بعدما كذبوا فى أن آلهتهم تجيبهم وصدق هو عليه السلام فى كل ما قال فأخبره ربه سبحانه أنه يجيبهم الى اخراجها (فتنة لهم) أى امتحانا يخالطهم به فيميلهم عن حالتهم التى وعدوا بها ويخليهم عنها لان المعجزة فتنة لان بها يتميز المثاب من المعذب فالمعجزة تصديق وحينئذ يفترق المصدق من المكذب أو يقال اخراج الناقة من الصخرة معجزة ودورانها بينهم وقسمة الماء كان فتنة ولهذا قال تعالى انا مرسلوا الناقة ولم يقل مخرجو (فارتقبهم) أى كلف نفسك انتظارهم فيما يكون لهم جزاء على أعمالهم انتظار من يحرسهم (واصطبر) أى عالج نفسك واجتهد فى الصبر عليهم وأصل الطاء فى اصطبر تاء فتحولت طاء لتكون موافقة للصاد فى الاطباق (ونبئهم) أى أخبرهم اخبارا عظيما بأمر عظيم وهو (أن الماء) أى الذى يشربونه وهو ماء بئرهم (قسمة بينهم) أى بين قوم صالح عليه السلام والناقة فغلب العاقل عليها والمعنى أنا اذا بعثناها كان لهم يوم لا تشاركهم فيه ولها يوم لا تدع فى البئر قطرة يأخذها أحد منهم وتوسع الكل بدل الماء لبنا (كل شرب) أى نصيب من الماء (محتضر) أى فالناقة تحضر الماء يوم وردها وتغيب عنهم يوم وردهم قاله مقاتل وقال مجاهد ان ثمود يحضرون الماء يوم غبها فيشربون ويحضرون اللبن يوم وردها فيحتلبون *(تنبيه)* الحكمة فى قسمة الماء اما لان الناقة عظيمة الخلق فتنفر منها حيواناتهم فكان يوم للناقة ويوم لهم واما لقلة الماء فلا يحملهم واما لان الماء كان مقسوما بينهم لكل فريق يوم فيوم ورد الناقة على هؤلاء يرجعون على الآخرين وكذلك الآخرون فيكون النقصان على الكل ولا تختص الناقة بجميع الماء روى انهم كانوا يكتفون فى يوم وردها بلبنها وليس فى الآية الا القسمة دون كيفيتها وظاهر قوله تعالى كل شرب محتضر يعضد الوجه الثالث وحضر واحتضر بمعنى واحد وقوله تعالى (فنادوا صاحبهم) فيه حذف قبله أى فتمادوا على ذلك ثم ملوه فعزموا على عقرها فنادوا صاحبهم وهو قدار بن سالف الذى انتدبوه بطرا وأشرا القتل الناقة وكذبا فى وعدهم الايمان واكرامها بالاحسان وكان أشجعهم وقيل كان رئيسهم (فتعاطى) أى فاجترأ على تعاطى الامر العظيم غير مكترث به (فعقر) أى فتسبب عن ذلك عقرها وقيل فتعاطى الناقة فعقرها أو فتعاطى السيف فقتلها والتعاطى تفاعل الشئ بتكلف قال محمد بن اسحق كمن لها فى أصل شجرة على طريقها فرماها فانتظم به عضلة ساقها ثم شد عليها بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاءة واحدة ثم نحرها وقال ابن عباس كان الذى عقرها أحمر أزرق أشقر أكشف أقعى يقال له قدار بن سالف والعرب تسمى الجزار قدارا تشبيها بقدار بن سالف مشؤم آل ثمود (فكيف كان عذابى) أى كان على حال ووجه هو أهل لان يجتهد فى الاقبال على تعرفه والسؤال عنه (ونذر) أى انذارى لهم بالعذاب قبل نزوله

أي وقع موقعه وبينه بقوله تعالى (انا) أي بما لنا من العظمة (أرسلنا) أي ارسالا عظيما (عليهم
صيحة) وحقر شأنهم بالنسبة الى عظمة عذابه بقوله تعالى (واحدة) صاح بها عليهم جبريل عليه
السلام فلم يكن لهم بصيحته هذه التي هي واحدة طاقة كما قال تعالى (فكانوا كهشيم المحتظر)
وهو الذي يجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر والشوك يحفظهن فيها من الذئاب والسباع
وما سقط من ذلك فداسته هو الهشيم والهشيم المهشوم المكسور ومنه سمي هاشم لهشمه
الثريد في الجفان غير أن الهشيم يستعمل كثيرا في الحطب المتكسر اليابس قال المفسرون كانوا
كالخشب المتكسر الذي يخرج من الحظائر بدليل قوله تعالى هشيما تذروه الرياح وهو من
باب اقامة الصفة مقام الموصوف وتشبيههم بالهشيم اما لكونهم يابسين كالموتى الذين ماتوا
من زمان أو لانضمام بعضهم الى بعض فاجتمعوا بعضهم فوق بعض كما يجمع الحاطب الحطب
يضعه شيأ فوق شيء منتظرا حضور من يشترى منه قال ابن عادل ويحتمل أن يكون ذلك لبيان
كونهم في الجحيم أي كانوا كالحطب اليابس الذي للوقيد كقوله تعالى انكم وما تعبدون
من دون الله حصب جهنم وقوله تعالى فكانوا لجهنم حطبا * (تنبيهات) * أحدها أنه تعالى ذكر
فكيف كان عذابي ونذر في ثلاثة مواضع ذكرها في حكاية نوح عليه السلام بعد بيان العذاب
وذكرها ههنا قبل بيان العذاب وذكرها في حكاية عاد قبل بيانه وبعد بيانه فحيث ذكر قبل بيان
العذاب فللبيان كقول العارف حكاية لغير العارف هل تعلم كيف كان أمر فلان وغرضه
أن يقول أخبرني عنه وحيث ذكرها بعد بيان العذاب ذكرها للتعظيم كقول فلان أي ضرب
وأي ضرب ويقول ضربته وكيف ضربته أي قويا وفي حكاية عاد ذكرها مرتين للبيان
والاستفهام ثانيها أنه تعالى ذكر في حكاية نوح عليه السلام الذي للتعظيم وفي حكاية ثمود
ذكر الذي للبيان لأن عذاب قوم نوح كان بأمر عظيم عام وهو الطوفان الذي عم العالم
ولا كذلك عذاب قوم هود فانه كان مختصا بهم ثالثها أنه تعالى ذكر في هذه السورة خمس قصص
وجعل القصة المتوسطة مذكورة على أتم وجه لأن حال صالح عليه السلام كان أتم مشابهة
بحال محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أتى بأمر عجيب أرضي وكان أعجب مما جاء به الانبياء عليهم
الصلاة والسلام لأن عيسى عليه السلام أحيا الميت لكن الميت كان محلا للحياة فقامت
الحياة باذن الله تعالى في محل كان قابلا لها وموسى عليه السلام انقلبت عصاه ثعبانا فأثبت الله
تعالى له في الخشب الحياة باذنه سبحانه لكن الخشبة نبات كان له قوة في النمو فأشبه الحيوان
في النمو وصالح عليه السلام كان الظاهر في يده خروج الناقة من الحجر والحجر جماد ليس محلا
للحياة ولا محلا للنمو ونبينا صلى الله عليه وسلم أتى بأعجب من الكل وهو التصرف في الجرم
السماوي الذي يقول المشرك لا وصول لأحد الى السماء وأما الارضيات فقالوا انها أجسام
مشتركة المواد تقبل كل واحدة منها صورة الاخرى والسماويات لا تقبل ذلك فلما أتى
بما اعترفوا بأنه لا يقدر على مثله آدمي كان أتم وأبلغ من معجزة صالح عليه السلام التي هي أتم
من معجزة سائر الانبياء غير محمد صلى الله عليه وسلم (ولقد يسرنا) أي على ما لنا من العظمة

(القرآن) أي الكتاب الجامع لكل خير الفارق بين كل ملبس (للذكر) أي الحفظ والتذكر والتدبر وحصول الشرف في الدارين (فهل من مدكر) أي من ناظر بعين الانصاف والتجرد عن الهوى ليرى كل ما أخبرنا به فيعينه عليه * ولما انقضت قصة ثمود بما تعرفه العرب بالاخبار ورؤية الآثار قال تعالى (كذبت قوم لوط) أي وهم في قوة عظيمة على ما يحاولونه وان كانوا في تكذيبهم هذا أضعف من عقول النساء عن التجرد عن الهوى بما دل عليه تأنيث الفعل بالتاء وكذا ما قبلها من القصص (بالنذر) أي بالامور المنذرة لهم على لسان نبيهم لوط عليه السلام ودل على تناهي القباحة في مرتكبهم بتقديم الاخبار عن عذابهم فقال تعالى مؤكدا توعدا لمن استمر على التكذيب (انا) أي بما لنا من العظمة (أرسلنا عليهم حاصبا) أي ريحا شديدة ترميهم بالحصباء وهي صغار الحجارة الواحد دون ملء الكف فهلكوا (الا آل لوط) وهم من آمن به فكان اذا رأيته فكانك رأيت لوطا عليه السلام لما يلوح عليه من أفعاله والمشي على منواله في أقواله وأفعاله (نجيناهم) أي تنجية عظيمة (بسحر) أي بآخر ليلة من الليالي وهي الليلة التي عذب فيها قومه وانصرف لانه نكرة لانا لا نعرف تلك الليلة بعينها ولو قصد به وقت بعينه لمنع الصرف للتعريف والعدل عن أل هذا هو المشهور وزعم صدر الافاضل أنه مبني على الفتح كأمس مبنيا على الكسر (تنبيه) * قال الجلال المحلي وهل أرسل الحاصب على آل لوط أولا قولان وعبر عن الاستثناء على الاول بأنه متصل وعلى الثاني بأنه منقطع وان كان من الجنس تسمحا وقوله تعالى (نعمة) اما مفعول له واما مصدر بفعل من لفظها أو من معنى نجيناهم لان تنجيتهم انعام فالتأويل اما في العامل واما في المصدر وقوله تعالى (من عندنا) متعلق بنعمة أو بمحذوف صفة لها (كذلك) أي مثل هذا الانجاء العظيم الذي جعلناه جزاء لهم (نجزي من شكر) أي من آمن بالله تعالى واطاعه قال بعض المفسرين وهو وعد لامة محمد صلى الله عليه وسلم بأنه يصونهم عن الهلاك العام وقال الرازي ويمكن أن يقال هو وعد لهؤلاء بالثواب يوم القيامة كما أنجاهم في الدنيا من العذاب لقوله تعالى ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين وقال مقاتل من وحد الله تعالى لم يعذبه مع المشركين (ولقد أنذرهم) أي رسولنا لوط عليه السلام (بطشتنا) أي أخذتنا المقرونة من الشدة بما لنا من العظمة وهي العذاب الذي نزل بهم وقيل هي عذاب الآخرة لقوله تعالى يوم نبطش البطشة الكبرى (فتماروا) أي تجادلوا وكذبوا (بالنذر) أي بانذاره فكان سببا للاخذ (ولقد راودوه عن ضيفه) أي أرادوا أن يخلي بينهم وبين القوم الذين أتوه في صورة الاضياف ليخبثوا بهم وكانوا ملائكة في صورة شباب مرد وأفرد لان المراد الجنس (فطمسنا) أي فتسبب عن مراودتهم ان طمسنا بعظمتنا (أعينهم) أي أعميناها وجعلناها بلا شق كباقي الوجه بأن صفقها جبريل عليه السلام بجناحه وقال أهل اللغة بل أعماهم الله تعالى فلم يروا الرسل وقالوا قد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا فرجعوا فلم يروهم وهذا قول ابن عباس وروى أنهم صارت أعينهم مع وجوههم كالصفحة الواحدة وقال

القشيرى مسح بجناحه على وجوههم فعموا ولم يهتدوا للخروج قال ابن جرير والعرب تقول طمست الريح الاعلام اذا دفنتها بما تسفى عليها فانطلقوا هاربين مسرعين الى الباب لا يهتدون اليه ولا يقعون عليه بل يصادمون الجدران خوفا مما هو أعظم من ذلك وهم يقولون عند ذلك لوط سحر الناس وما أدتهم عقولهم الى أن يؤمنوا فينجوا أنفسهم قال القشيرى وكذلك أجرى الله تعالى سنته فى أوليائه بأن يطمس على قلوب أعدائهم حتى يلتبس عليهم كيف يؤذون أولياءه ويخلصهم من كيدهم وقوله تعالى (فذوقوا عذابى ونذر) أى انذارى وتخويفى خطاب لهم أى قلنا لهم على لسان الملائكة فذوقوا فهو خطاب مع كل مكذب أى ان كنتم تكذبون فذوقوا قال القرطبى والمراد من هذا الامر الخبر أى فأذقتهم عذابى الذى أنذرهم به لوط عليه السلام (فان قيل) النذر كيف تذاق (أجيب) بأن المراد غرته وفائدته (فان قيل) اذا كان المراد بقوله تعالى عذابى هو العذاب العاجل وبقوله تعالى ونذر هو العذاب الآجل فهما لم يكونا فى زمان واحد فكيف قال تعالى فذوقوا (أجيب) بان العذاب الآجل أوله متصل بآخر العذاب العاجل فهما كالواقع فى زمان واحد وهو قوله تعالى أغرقوا فأدخلوا نارا (ولقد صبحهم) أى أتاهم وقت الصباح وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال عند الصاد والباقون بلا اظهار وحقق المعنى بقوله تعالى (بكرة) أى فى أول نهار العذاب وانصرف بكرة لانه نكرة ولو قصد به وقت بعينه امتنع الصرف للتأنيث والتعريف (عذاب) أى فقلع بلادهم ورفعها ثم قلبها وحصبها بحجارة النار وخسفها وغمرها بالماء المنتن الذى لا يعيش به حيوان (مستقر) أى ثابت عليهم غير زائل ليس بخيال ولا سحر كما قالوا عند الطمس فانه أهلكهم فاتصل بعذاب البرزخ المتصل بعذاب القيامة المتصل بالعذاب الاكبر فى الطبقة التى تناسب أعمالهم من عذاب النار فقال لهم لسان الحال ان لم ينطق لسان المقال (فذوقوا) أى بسبب أفعالكم الخبيثة (عذابى ونذر) *(تنبيه)* قد علم من تكرير هذا أن سبب العذاب التكذيب بالانذار لاى رسول كان وكان استئناف كل قصة منبها على انهم أهل على حدتها لان يتعظ بها (ولقد يسرنا) أى على ما لنا من العظمة (القرآن) أى الجامع الفارق بين الحق والباطل ولو شئنا لاعليناه بما لنا من القدرة الى حد تعجز القوى عن فهمه كما أعليناه الى رتبة وقفت القوى عن معارضته (للذكر فهل من مدكر) أى فيخلص نفسه من مثل هذا الذى أوقع فيه هؤلاء أنفسهم ظنا منهم ان الامر لا يصل الى ما وصل اليه جهلا منهم وعدم اكتراث بالعواقب * ولما انقضت قصة لوط عليه السلام أتبعها قصة موسى عليه السلام لانها بعد قوم لوط بقوله تعالى (ولقد جاء آل فرعون) أى فرعون ملك القبط بمصر وقومه الذين اذا رآهم أحد كان كأنه فيهم لشدة قربهم منه وتخلقهم باخلاقه (النذر) أى الانذار على لسان موسى وهرون عليهما السلام فلم يؤمنوا بل (كذبوا) أى تكذيبا عظيما مستهزئين (بآياتنا) التى أتاهم بها موسى عليه السلام (كلها) أى التسع التى أوتيها وهى العصا واليد والسنين والطمس والطوفان والجراد والقمل

والضفادع والدم (فان قيل) كيف قال ولقد جاء ولم يقل في غيره جاء (أجيب) بأن موسى عليه السلام لما جاء كان غائبا عن القوم فقدم عليهم كما قال تعالى فلما جاء آل لوط المرسلون وقال تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم لانه جاءهم من عند الله من السموات بعد المعراج كما جاء موسى قومه من الطور والنذر الرسل ولقد جاءهم يوسف وبنوه الى أن جاءهم موسى عليه السلام وقيل النذر الانذارات *(تنبيه)* ههنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ أبو عمرو وقالون باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل ورش وقنبل الهمزة الثانية ولهما أيضا ابدالها ألفا وورش على أصله في الهمزة المسهلة ومد بعد الجيم حمزة وابن ذكوان والباقون بالفتح واذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر (فأخذناهم) أي بما لنا من العظمة بنحو ما أخذنا به قوم نوح من الاغراق (أخذ عزيز) أي لا يغلبه شئ وهو يغلب كل شئ (مقتدر) أي لا يعجل بالاخذ لانه لا يخاف الفوت ولا يخشى معقبا لحكمه بالغ القدرة الى حد لا يدرك الوصف كنهه ثم خوف كفار مكة فقال تعالى (أكفاركم) أي الراسخون منكم يا أهل مكة في الكفر الثابتون عليه يا أيها المكذبون لهذا النبي الكريم الساترون لشموس دينه (خير) في الدنيا بالقوة والكثرة أو في الدين عند الله أو عند الناس (من أولئكم) أي المذكورين من قوم نوح الى فرعون الذين وعظناكم بهم في هذه السورة وهذا استفهام بمعنى الانكار أي ليسوا بأقوى منهم فمعناه نفي أي ليس كفاركم خيرا من كفار من تقدم من الامم الذين أهلكوا بكفرهم *(تنبيه)* قوله تعالى خير مع أنه لا خير فيهم اما أن يكون كقول حسان * فشركما لخيركما الفداء * أو هو بحسب زعمهم واعتقادهم أو المراد بالخير شدة القوة أو لان كل ممكن فلا بد وأن يكون له صفات محمودة فالمراد تلك الصفات (أم لكم) أي يا أهل مكة (براءة في الزبر) أي أنزل لكم من الكتب السماوية أن من كفر منكم فهو في أمان من عذاب الله تعالى والاستفهام هنا أيضا بمعنى النفي أي ليس الامر كذلك (أم يقولون) أي كفار قريش (نحن جميع) أي جمع واحد مبالغ في اجتماعه فهو في الغاية من الضم فلا افتراق له (منتصر) أي على كل من يعاديه لانهم على قلب رجل واحد ولم يقل منتصرون لموافقة رؤس الآي ولما قال أبو جهل يوم بدر انا جميع منتصر نزل (سيهزم الجمع) بأيسر أمر يوءده لا خلف فيه وقال مقاتل ضرب أبو جهل يوم بدر فرسه فتقدم من الصف وقال نحن ننتصر اليوم على محمد وأصحابه فأنزل الله تعالى أم يقولون نحن جميع منتصر وقال سعيد بن المسيب سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لما نزلت سيهزم الجمع ويولون الدبر كنت لا أدري أي جمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب في درعه ويقول سيهزم الجمع (ويولون الدبر) فهزموا ببدر ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل الادبار لموافقة رؤس الآي (بل الساعة) أي القيامة التي يكون فيها الجمع الاكبر والهول الاعظم (موعدهم) أي للعذاب (والساعة أدهى) أي من كل ما يفرض وقوعه في الدنيا وأدهى أفعل تفضيل من الداهية وهي أمر هائل لا يهتدي لدوائه فهي أمر عظيم يقال دهاه أمر كذا أي أصابه دهوا ودهيا

قوله كنت لا أدري الخ عبارة الكشاف لما نزلت هذه الآية قال عمر أي جمع يهزم فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع ويقول سيهزم الجمع عرف تأويلها اهـ

وقال ابن السكيت دهته داهية دهواء ودهيا وهي توكيدلها وقرأ حمزة والكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (وأمر) لان عذابها للكفار غير مفارق ولا جزايل فهي أعظم نائبة وأشد مرارة من الاسر والقتل يوم بدر وفي رواية ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يثب في درعه ويقول اللهم ان قريشا جادلتك وتجاهر رسولك بفخرها بخيلها فأخنهم الغداة يقال أخنى عليه الدهر أي غلبه وأهلكه ومنه قول النابغة

أخنى عليها الذي أخنى على لبد * وأخنيت عليه أفسدت . ثم قال سيهزم الجمع ويولون الدبر قال عمر فعرفت تأويلها وهذا من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه أخبر عن غيب فكان كما أخبر قال ابن عباس كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين فالآية على هذا مكية وفي البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة واني لجارية ألعب بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر وعن ابن عباس انه صلى الله عليه وسلم قال وهو في قبة له يوم بدر أنشدك عهدك ووعدك اللهم ان شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا فأخذ أبو بكر بيده وقال حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك وهو في الدرع فخرج وهو يقول سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم يريد يوم القيامة والساعة أدهى وأمر مما لحقهم يوم بدر (ان المجرمين) أي المشركين القاطعين لما أمر الله تعالى ان يوصل (في ضلال) أي هلاك بالقتل في الدنيا (وسعر) أي نار مسعرة أي مهيجة في الآخرة وقيل في ضلال أي عمى عن القصد بتكذيبهم بالبعث وسعر قال الضحاك أي نار تسعر عليهم وقيل ضلال ذهاب عن طريق الجنة في الآخرة وسعر جمع سعير نار مسعرة وقال الحسين بن الفضل ان المجرمين في ضلال في الدنيا ونار في الآخرة وقال قتادة في عناء وعذاب ثم بين عذابهم في الآخرة بقوله تعالى (يوم يسحبون) أي في القيامة اهانة لهم من أي ساحب كان (في النار) أي الكاملة النارية (على وجوههم) لانهم في غاية الذل والهوان جزاء بما كانوا يذلون أولياء الله تعالى مقولا لهم من أي قائل اتفق (ذوقوا) لانه لا منعة لهم ولا حمية بوجه (مس سقر) أي حر النار وألمها فان مسها سبب للتألم بها وسقر علم لجهنم مشتقة من سقرته الشمس أو النار أي لوحته ويقال صقرته بالصاد وهي مبدلة من السين قال ذو الرمة

اذا ذابت الشمس اتقى صقراتها * بافنان مربوع الصريمة معبل

وعدم صرفها للتعريف والتأنيث وقال بعض المفسرين ان هذه الآية نزلت في القدرية لما روى انه صلى الله عليه وسلم قال مجوس هذه الامة القدرية وهم المجرمون الذين سماهم الله تعالى في قوله سبحانه ان المجرمين في ضلال وسعر وفي مسلم عن أبي هريرة قال جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت هذه الآية الى آخرها قال الرازي والقدري هو الذي ينكر القدر وينسب الحوادث لاتصالات الكواكب لما مر ان قريشا خاصموا النبي صلى الله عليه وسلم في القدر ومذهبهم ان الله تعالى مكن العبد من الطاعة والمعصية وهو قادر على خلق ذلك في العبد وقادر على أن يطعم الفقير ولهذا قالوا انطعم من لو

يشاء

بشاء الله أطعمه منكرين لقدرته تعالى على الاطعام وقوله صلى الله عليه وسلم القدرية مجوس هذه الامة ان أريد بالامة المرسل اليهم مطلقا كالقوم فالقدرية فى زمانه صلى الله عليه وسلم هم المشركون المنكرون قدرته على الحوادث فلا يدخل فيهم المعتزلة وان كان المراد بالامة من آمن به صلى الله عليه وسلم فمعناه ان نسبة القدرية اليهم كنسبة المجوس الى الامة المتقدمة فان المجوس أضعف الكفرة المتقدمين شبهة وأشد مخالفة للعقل وكذا القدرية فى هذه الامة وكونهم كذلك لا يقتضى الجزم بكونهم فى النار فالحق ان القدرى هو الذى ينكر قدرة الله تعالى وقد رد عليهم بالكتاب والسنة أما من الكتاب فقوله تعالى (انا) أى بما لنا من العظمة (كل شئ) من الاشياء المخلوقة صغيرها وكبيرها (خلقناه بقدر) أى قضاء وحكم وقياس مضبوط وقسمة محدودة وقوة بالغة وتدبير محكم فى وقت معلوم ومكان محدود مكتوب ذلك فى اللوح قبل وقوعه وأما من السنة فما روى عبد الله بن عمرو بن العاص انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كتب الله مقادير الخلائق كلها قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف عام قال وعرشه على الماء وعن طاوس اليمانى قال أدركت ماشاء الله تعالى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون كل شئ بقدر الله تعالى قال وسمعت من عبد الله ابن عمر يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شئ بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز وعن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يؤمن بالله عبد حتى يؤمن بأربع يشهد أن لا اله الا الله وانى رسول الله بعثنى بالحق ويؤمن بالموت وبالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر وزاد عبد الله خيره وشره * (تنبيه) * كل شئ منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر ولما بين سبحانه وتعالى ان كل شئ بفعله بين يسر ذلك وسهولته عليه بقوله تعالى (وما أمرنا) فى كل شئ أردناه وان عظم أمره (الا واحدة) أى فعلة يسيرة لا معالجة فيها وليس هناك احداث قول لانه قديم بل تعلق القدرة بالمقدور على وفق الارادة الازلية وقيل الا كلمة واحدة وهى قوله تعالى كن كما قال تعالى اذا أردناه أن نقول له كن فيكون ثم مثل لنا ذلك بأسرع ما نعقله واخفه بقوله تعالى (كلمح بالبصر) واللمح النظر بالعجلة وفى الصحاح لمحه وألمحه اذا أبصره بنظر خفيف أى فكما ان لمح أحدكم بصره لا كلفة عليه فيه فكذلك الافعال كلها عندنا بل أيسر وعن ابن عباس معناه وما أمرنا بمجئ الساعة فى السرعة الا كطرف البصر (ولقد أهلكنا) أى بما لنا من العظمة (أشياعكم) أى اشباهكم ونظراءكم فى الكفر من الامم السابقة والقدرة عليكم كالقدرة عليهم فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم ولذلك سبب عنه قوله تعالى (فهل من مدكر) أى بما وقع لهم انه مثل من مضى بل أضعف وان قدرته تعالى عليه كقدرته تعالى عليهم ليرجع عن غيه خوفا من سطوته والاستفهام بمعنى الامر أى اذكروا واتعظوا (وكل شئ فعلوه) قال الجلال المحلى أى العباد وقال أكثر المفسرين أى الاشياع لانه هو المتقدم ذكره (فى الزبر) أى مكتوب فى دواوين الحفظة وقيل فى اللوح المحفوظ وقيل فى أم الكتاب فليحذروا من أعمالهم فانها غير منسية هذا ما أطبق

عليه القراء بما أدى الى هذا المعنى من رفع كل لانه لو نصب لاوهم تعلق الجار بالفعل فيوهم انهم فعلوا فى الزبر كل شئ من الاشياء وهو فاسد (وكل صغير وكبير) أى من الخلق وأعمالهم وآجالهم (مستطر) أى مكتوب فى اللوح المحفوظ ولما وصف الكفار وصف المؤمنين مؤكدا ردا على المنكر فقال عز من قائل (ان المتقين) أى العريقين فى وصف الخوف من الله الذى وفقهم لطاعته (فى جنات) أى خلال بساتين ذات أشجار تستر داخلها وقوله تعالى (ونهر) أريد به الجنس لان فيها أنهارا من ماء وعسل ولبن وخمر أفرده لموافقة رؤس الآى ولشدة اتصال بعضها ببعض فكأنها شئ واحد والمعنى انهم يشربون من أنهارها وقيل هو السعة والصفاء من النهار وكما جعل للمتقين فى تلك الدار ذلك جعل لهم فى هذه الدار أيضا جنات العلوم وأنهار المعارف ولهذا كانوا (فى مقعد صدق) أى حق لا لغو فيه ولا تأثيم ولم يقل فى مجلس صدق لان القعود جلوس فيه مكث ومنه قواعد البيت والقواعد من النساء ولذا قال (عند مليك) أى ملك تام الملك (مقتدر) أى قادر لا يعجزه شئ وهو الله تعالى وعند اشارة للرتبة والكرامة والمنزلة من فضله تعالى جعلنا الله تعالى ومحبينا منهم وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة القمر فى كل غب أى يقرأ يوما ويترك يوما بعثه الله تعالى يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر حديث موضوع

(سورة الرحمن وتسمى عروس القرآن)

لانها مجمع النعم والجمال والبهجة فى نوعها والكمال مكية كلها فى قول الحسن وعروة وابن الزبير وعطاء وجابر وقال ابن عباس الا آية منها وهى قوله تعالى يسأله من فى السموات والارض الآية وقال ابن مسعود ومقاتل هى مدنية كلها قال ابن عادل والاول أصح لما روى عروة بن الزبير قال أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبى صلى الله عليه وسلم ابن مسعود وذلك ان الصحابة قالوا ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط فمن رجل يسمعهموه فقال ابن مسعود أنا فقالوا نخشى عليك وانما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه فأبى ثم قام عند المقام فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم الرحمن علم القرآن ثم تمادى بها رافعا صوته وقريش فى أنديتها فتأملوا وقالوا ما يقول ابن أم عبد قالوا هو يقول الذى يزعم محمد انه أنزل عليه ثم ضربوه حتى أثروا فى وجهه وصح ان النبى صلى الله عليه وسلم قام يصلى الصبح بنخلة فقرأ بسورة الرحمن ومر النفر من الجن فآمنوا به وهى سبع وثمانون آية وثلثمائة واحدى وخمسون كلمة وألف وستمائة وستة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذى ظهرت احاطة كماله بما ظهر من عجائب مخلوقاته (الرحمن) الذى ظهر عموم رحمته بما بهر من بدائع مصنوعاته (الرحيم) الذى ظهر اختصاصه لاهل طاعته بما تحققوا من الذل المفيد للعز بلزوم عباداته ولما كانت هذه السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والاخروية صدرها بقوله تعالى (الرحمن علم) أى من شاء (القرآن) وقدم من نعمه الدينية ما هو أعلى مراتبها وأقصى مراقبها وهو انعامه تعالى بالقرآن العظيم وتنزيله وتعليمه لانه أعظم

وحى الله تعالى رتبة وأعلاها منزلة وأحسنه فى أبواب الدين أثرا وهو سنام الكتب السماوية ومصداقها والعيار عليها *(تنبيه)* أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها الآن آخر تلك مليك مقتدر وأول هذه انه رحمن قال سعيد بن جبير وعامر والشعبى الرحمن فاتحة ثلاث سور اذا جمعن كن اسما من اسماء الله تعالى الر وحم ون فيكون مجموع هذه الرحمن ولله تبارك وتعالى رحمتان رحمة سابقة بها خلق الخلق ورحمة لاحقة بها أعطاهم الرزق والمنافع فهو رحمن باعتبار السابقة رحيم باعتبار اللاحقة ولما اختص بالايجاد لم يقل لغيره رحمن ولما خلق بعض خلقه الصالحين بعض اخلاقه بحسب الطاقة البشرية فأطعم ونفع جاز أن يقال له رحيم وفى اعراب الرحمن ثلاثة أوجه أحدها انه خبر مبتدا مضمر أى الله الرحمن الثانى انه مبتدأ وخبره مضمر أى الرحمن ربنا الثالث انه مبتدأ خبره علم القرآن (فان قيل) كيف يجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى وما يعلم تأويله الا الله (أجيب) بأنا ان قلنا بعطف الراسخين على الله فهو ظاهر وان قلنا بالوقف على الله ويبتدأ بقوله تعالى والراسخون فلان من علم كتابا عظيما فيه مواضع مشكلة قليلة وتأملها بقدر الامكان فانه يقال فلان يعلم الكتاب الفلانى وان كان لم يعلم مراد صاحب الكتاب بيقين فى تلك المواضع القليلة وكذا القول فى تعليم القرآن أو يقال المراد لا يعلمه من تلقاء نفسه بخلاف الكتب التى تستخرج بقوة الذكاء والفكر واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال أكثر المفسرين نزلت حين قالوا وما الرحمن وقيل نزلت جوابا لاهل مكة حين قالوا انما يعلمه بشر وهو رحمان اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فأنزل الله تعالى الرحمن علم القرآن أى سهله ليذكر ويقرأ كما قال تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر ولما كان كأنه قيل كيف يعلمه وهو صفة من صفاته ولمن علمه قال تعالى مستأنفا ومعللا (خلق الانسان) أى الجنس بأن قدره وأوجده على هذا الشكل المعروف والتركيب الموصوف منفصلا عن جميع الجمادات وأصله منها ثم عن سائر الناميات ثم عن غيره من الحيوانات وخلقه له دليل على خلقه لكل شئ موجود انا كل شئ خلقناه بقدر وقيل علم القرآن جعله علامة وآية (علمه البيان) أى القوة الناطقة وهى الادراك للامور الكلية والجزئية والحكم على الحاضر والغائب بقياسه على الحاضر وغير ذلك مما أودعه له سبحانه مع تعبيره عما أدركه مما هو غائب فى ضميره وافهامه لغيره تارة بالقول وتارة بالفعل نطقا وكتابة واشارة وغيرها فصار بذلك ذا قدرة فى نفسه والتكميل لغيره فهذا تعليم البيان الذى مكن من تعليم القرآن وقال ابن عباس وقتادة والحسن يعنى آدم عليه السلام علم أسماء كل شئ وقيل علمه اللغات كلها وكان آدم يتكلم بسبعمائة ألف لغة أفضلها العربية وعن ابن عباس أيضا وابن كيسان المراد بالانسان ههنا محمد صلى الله عليه وسلم والمراد من البيان الحلال والحرام والهدى من الضلال وقيل ما كان وما يكون لانه بين عن الاولين والآخرين وعن يوم الدين وقال الضحاك البيان الخير والشر وقال الربيع بن أنس هو ما ينفعه وما يضره وقال السدى علم كل قوم لسانهم الذى يتكلمون به وقيل بيان الكتابة والخط بالقلم نظيره قوله تعالى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم

قوله بسبعمائة ألف لغة فى حاشية لعل بسبعمائة لغة اه مصححه

(فان قيل) لم قدم تعليم القرآن للانسان على خلقه وهو متأخر عنه في الوجود (أجيب) بأن التعليم هو السبب في ايجاده وخلقه (فان قيل) كيف صرح بذكر المفعولين في علمه البيان ولم يصرح بهما في علم القرآن (أجيب) بأن في ذلك اشارة الى ان النعمة في التعميم لا في تعليم شخص دون شخص وبأن المراد من قوله تعالى علمه البيان تعديد النعم على الانسان واستدعاء الشكر منه ولم يذكر الملائكة لان المقصود ذكر ما يرجع الى الانسان وقيل تقديره علم جبريل القرآن وقيل علم محمدا صلى الله عليه وسلم وقيل علم الانسان وهذا أولى لعمومه * (تنبيه) * هذه الجمل من قوله تعالى علم القرآن الى هنا جيء بها من غير عاطف لانها سيقت لتعديد نعمه كقولك فلان أحسن الى فلان أكرمه اشاد ذكره رفع قدره فلشدة الوصل ترك العاطف وهي أخبار مترادفة للرحمن ولما ذكر تعالى خلق الانسان وانعامه عليه بتعليمه البيان ذكر نعمتين عظيمتين بقوله تعالى (الشمس) وهي آية النهار (والقمر) وهو آية الليل (بحسبان) فانهما على قانون واحد وحساب لا يتغيران وبذلك تتم منفعتهما للزراعات وغيرها ولولا الشمس والقمر لفات كثير من المنافع الظاهرة بخلاف غيرهما من الكواكب فان نعمهما لا تظهر لكل أحد مثل ظهور نعمتهما وانهما بحسبان لا يتغير أبدا ولو كان سيرهما غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها ومعرفة فصول السنة والمعنى يجريان بحسبان معلوم فأضمر الخبر قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك يجريان بحسبان في منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها وقال ابو زيد وابن كيسان بهما تحسب الاوقات والاعمار ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب شيأ ان كان الدهر كله ليلا أو نهارا وقال السدي بحسبان تقدير آجالهما أي يجريان بآجال كآجال الناس فاذا جاء أجلهما هلكا نظيره كل يجري الى أجل مسمى (والنجم) أي النبات الذي ينجم أي يطلع من الارض ولا ساق له كالبقول (والشجر) أي الذي له ساق كشجر الرمان وتقدم الجواب عن قوله تعالى وأنبتنا عليه شجرة من يقطين في سورة الصافات (يسجدان) أي ينقادان لله تعالى فيما يريده طبعا انقياد الساجد من المكلفين طوعا وقال الضحاك سجودهما سجود ظلالهما وقال الفراء سجودهما انهما يستقبلان اذا طلعت الشمس ثم يميلان معها حتى ينكسر الفيء وقال الزجاج سجودهما دوران الظل معهما كما قال تعالى يتفيأ ظلاله وقال الحسن ومجاهد النجم نجم السماء وسجوده في قول مجاهد دوران ظله وقيل سجود النجم أفوله وسجود الشجر امكان الاجتناء لثمارها حكاه الماوردي وقال النحاس أصل السجود في اللغة الاستسلام والانقياد لله عز وجل فهو من الموات كلها استسلامها لامر الله عز وجل وانقيادها له ومن الحيوان كذلك (فان قيل) كيف اتصلت هاتان الجملتان بالرحمن (أجيب) بأنه استغنى فيهما عن الوصل اللفظي بالوصل المعنوي لما علم ان الحسبان حسبانه والسجود له لا لغيره كأنه قيل الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له (فان قيل) أي تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسط بينهما العاطف (أجيب) بأن الشمس والقمر سماويان والنجم والشجر أرضيان فبين القبيلين تناسب من

حيث التقابل فان السماء والارض لا تزالان تذكران قرينتين وان جرى الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لامر الله تعالى فهو مناسب لسجود النجم والشجر (والسماء) أى ورفع السماء ثم فسر ناصبها فيكون كالمذكور مرتين اشارة الى عظيم تدبيره لشدة ما فيها من الحكم فقال تعالى (رفعها) أى حسا قال البقاعى بعدما كانت ملتصقة بالارض ففتقها وأعلاها عنها وقال الزمخشرى وتبعه البيضاوى خلقها مرفوعة قال البيضاوى محلا ورتبة وقال الزمخشرى حيث جعلها منشأ احكامه ومصدر قضاياه ومتنزل أوامره ونواهيه ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحى على أنبيائه ونبه بذلك على كبرياء شأنه وملكه وسلطانه (ووضع الميزان) أى العدل الذى دبر به الخافقين من الموازنة وهى المعادلة لتنتظم أمورنا كما قال صلى الله عليه وسلم بالعدل قامت السموات والارض وقال السدى وضع فى الارض العدل الذى أمر به يقال وضع الله الشريعة ووضع فلان كذا أى ألقه وقيل على هذا الميزان القرآن لان فيه بيان ما يحتاج اليه وهو قول الحسين بن الفضل وقال الحسن وقتادة والضحاك هو الميزان الذى يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض وهو خبر بمعنى الامر بالعدل يدل عليه قوله تعالى وأقيموا الوزن بالقسط والقسط هو العدل وقيل هو الحكم وقيل المراد وضع الميزان فى الآخرة لوزن الاعمال (ان) أى لاجل ان (لا تطغوا) أى تتجاوزوا الحدود (فى الميزان) فمن قال الميزان العدل قال طغيانه الجور ومن قال انه الميزان الذى يوزن به قال طغيانه البخس قال ابن عباس لا تخونوا من وزنتم له وعنه انه قال يامعشر الموالى وليتم أمرين بهما هلك الناس المكيال والميزان ومن قال انه الحكم قال طغيانه التحريف وقيل فيه اضمار أى وضع الميزان وأمركم أن لا تطغوا فيه (فان قيل) اذا كان المراد به ما يوزن به فأى نعمة عظيمة فيه حتى يعد فى الآلاء (أجيب) بأن النفوس تأبى الغبن ولا يرضى أحد أن يغلبه غيره ولو فى الشئ اليسير ويرى ان ذلك استهانة به فلا يترك خصمه يغلبه فوضع الله تعالى معيارا بين به التساوى ولا تقع به البغضاء بين الناس وهو الميزان وهو كل ما توزن به الاشياء بين الناس ويعرف مقاديرها به من ميزان ومكيال ومقياس فهو نعمة كاملة ولا ينظر الى عدم ظهور نعمته وكثرته وسهولة الوصول اليه كالهواء والماء اللذين لا يتبين فضلهما الا عند فقدهما (وأقيموا الوزن بالقسط) اى افعلوه مستقيما بالعدل وقال أبو الدرداء أقيموا لسان الميزان بالعدل وقال ابن عيينة الاقامة باليد والقسط بالقلب وقال مجاهد القسط العدل بالرومية (ولا تخسروا الميزان) أى لا تنقصوا الموزون أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذى هو اعتداء وزيادة وعن الخسران الذى هو تطفيف ونقصان وكرر لفظ الميزان تشديد التوصية وتقوية للامر باستعماله والحث عليه وقيل كرره لحال رؤس الآى وقيل كرره ثلاث مرات الاول بمعنى الآلة وهو قوله تعالى ووضع الميزان والثانى بمعنى المصدر أى لا تطغوا فى الوزن والثالث للمفعول أى لا تخسروا الموزون قال ابن عادل وبين القرآن والميزان مناسبة فان القرآن فيه العلم الذى لا يوجد فى غيره من الكتب والميزان به يقام العدل الذى لا يقام بغيره من

الآلات ولما ذكر انعامه الدال على اقتداره برفع السماء ذكر على ذلك الوجه مقابلها بعد ان وسط بينهما ما أقام به من العدل تنبيها على شدة العناية والاهتمام به فقال تعالى (والارض) أى ووضع الارض ثم فسر ناصبها كما فعل فى قوله تعالى والسماء رفعها فقال تعالى (وضعها) أى دحاها وبسطها على الماء (للانام) أى كل من فيه قابلية النوم أو قابلية الونيم وهو الصوت وقيل هو الحيوان وقيل بنو آدم خاصة وهو مروى عن ابن عباس ونقل النووى فى التهذيب عن الزبيدى الانام الخلق قال ويجوز الانيم وقال الواحدى قال الليث الانام ما على ظهر الارض من جميع الخلق وقال الحسن هم الانس والجن (فيها) أى الارض (فاكهة) أى ما يتفكه به الانسان من ألوان الثمار ونكرها لان الانتفاع بها دون الانتفاع بما ذكر بعدها فهو من باب الترقى من الادنى الى الاعلى اذ التنكير فيها للتعظيم والتكثير نبه عليه بتعريف فرع منها ونوه به لان فيه مع التفكه التقوت وهو أكثر ثمار العرب المقصودين بهذا الذكر بالقصد الاول فقال تعالى (والنخل) ودل على تمام القدرة بقوله تعالى (ذات) أى صاحبة (الاكمام) أى أوعية ثمرها وهو الطلع قبل أن ينفتق بالثمر والاكمام جمع كم بالكسر قال الجوهرى والكم بالكسر والكمامة وعاء الطلع وغطاء النور والجمع كمام وأكمة واكمام والكمامة ما يكم به فم البعير لئلا يعض وكم القميص بالضم والجمع اكمام وكممة والكمة القلنسوة المدورة لانها تغطى الرأس (والحب) أى جميع الحبوب التى يقتات بها كالحنطة والشعير (ذو العصف) قال ابن عباس تبن الزرع وورقه الذى يعصفه الريح وقال مجاهد ورق الشجر والزرع وقال سعيد بن جبير بقل الزرع الذى أول ما ينبت منه وهو قول الفراء والعرب تقول خرجنا نعصف الزرع اذا قطعوا منه قبل أن يدرك وقيل العصف حطام النبات (والريحان) وهو فى الاصل مصدر ثم أطلق على الرزق قال ابن عباس ومجاهد والضحاك هو الرزق بلغة حمير كقولهم سبحان الله وريحانه نصبوهما على المصدر يريدون تنزيهاً له واسترزاقا وعن ابن عباس أيضا والضحاك وقتادة انه الريحان الذى يشم وهو قول ابن زيد وقال سعيد بن جبير هو ما قام على ساق وقال الفراء العصف المأكول من الزرع والريحان ما لا يؤكل وقال الكلبى العصف الورق الذى يؤكل والريحان هو الحب المأكول وقيل كل بقلة طيبة الريح سميت ريحانا لان الانسان يراح لها رائحة طيبة أى يشم وفى الصحاح والريحان نبت معروف والريحان الرزق تقول خرجت ابتغى ريحان الله وفى الحديث الولد من ريحان الله وقرأ ابن عامر بنصب الحب وذا والريحان بخلق مضمرا أى وخلق الحب وذا العصف والريحان وقرأ حمزة والكسائى برفع الحب وذو عطفا على فاكهة وجر الريحان عطفا على العصف والباقون برفع الثلاثة عطفا على فاكهة أى وفيها أيضا هذه الاشياء ولما دخل فى قوله تعالى والارض وضعها للانام الجن والانس خاطبهما بقوله تعالى (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المحسن اليكما المدبر لكما الذى لا مدبر ولا سيد لكما غيره (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها وكرر هذه الآية فى هذه السورة فى احد وثلاثين

قوله الونيم وهو الصوت لم يذكره القاموس اه

موضعا

موضعا تقريرا للنعمة وتأكيدا فى التذكير وفصل بين كل نعمتين بما ينبههم عليها ليفهمهم النعم ويقررهم بها كما تقول لمن تتابع عليه احسانك وهو يكفره وينكره ألم تكن فقيرا فأغنيتك أفتنكر هذا ألم تكن خاملا فعززتك أفتنكر هذا ألم تكن راجلا فحملتك أفتنكر هذا والتكرير حسن فى مثل هذا قال القائل * كم نعمة كانت لكم كم وكم * وقال آخر

لا تقتلى مسلما ان كنت مسلمة * اياك من دمه اياك اياك

(وقال آخر)

لا تقطعن الصديق ما طرفت * عيناك من قول كاشح أشر

ولا تملن يوما زيارته * زره وزره وزر وزر وزر

وقال الحسين بن الفضل التكرير طرد للغفلة وتأكيد للحجة قال بعض العلماء والتكرير ههنا كما تقدم فى قوله تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر وكقوله تعالى فى المرسلات ويل يومئذ للمكذبين وذهب جماعة منهم ابن قتيبة الى أن التكرير لاختلاف النعم فلذلك كرر التوقيف مع كل واحدة وقال الرازى وذكره بلفظ الخطاب على سبيل الالتفات والمراد به التقرير والزجر وذكر لفظ الرب لانه يشعر بالرحمة قال وكررت هذه اللفظة فى هذه السورة نيفا وثلاثين مرة اما للتأكيد ولا يعقل لخصوص العدد معنى وقيل الخطاب مع الانس والجن والنعمة منحصرة فى دفع المكروه وتحصيل المقصود وأعظم المكروهات نار جهنم ولها سبعة أبواب وأعظم المقاصد نعيم الجنة ولها ثمانية أبواب فالمجموع خمسة عشر وذلك بالنسبة للانس والجن ثلاثون والزائد لبيان التأكيد وروى جابر بن عبد الله قال قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال مالى أراكم سكوتا للجن كانوا أحسن منكم ردا ماقرأت عليهم هذه الآية من مرة فبأى آلاء ربكما تكذبان الا قالوا ولا بشئ من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد وقرأ ورش فبأى آلاء على أصله بالمد والتوسط والقصر جميع ما فى هذه السورة * ولما ذكر تعالى خلق العالم الكبير من السماء والارض وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته ذكر خلق العالم الصغير فقال تعالى (خلق الانسان) أى آدم عليه السلام (من صلصال) أى من طين يابس له صلصلة أى صوت اذا نقر (كالفخار) أى كالخزف المصنوع المشوى بالنار وقيل هو طين خلط برمل وقيل هو الطين المنتن من صل اللحم وأصل اذا أنتن *(تنبيه)* قال تعالى هنا من صلصال كالفخار وقال تعالى فى الحجر من حما مسنون وقال تعالى فى الصافات من طين لازب وقال تعالى فى آل عمران كمثل آدم خلقه من تراب وكله متفق المعنى وذلك أنه أخذه من تراب الارض فعجنه بالماء فصار طينا ثم تركه حتى صار حمأ مسنونا ثم منتنا ثم صوره كما يصور الابريق وغيره من الاوانى ثم أيبسه حتى صار فى غاية الصلابة فصار كالخزف الذى اذا نقر صوت صوتا يعلم منه هل فيه عيب أولا فالمذكور هنا آخر تخليقه وهو أنسب بالرحمانية وفى غيرها تارة مبدؤه وتارة أثناؤه فالارض أمه والماء أبوه ممزوجين بالهواء الحامل للجزء الذى هو من فيح جهنم من التراب جسده ونفسه ومن الماء روحه

وعقله ومن النار غوايته وحدته ومن الهواء حركته وتقلبه في محامده ومذامه فالغالب في جبلته التراب فلهذا نسب اليه وان خلق من العناصر الاربع كما أن الجان خلق من العناصر الاربع لكن الغالب في جبلته النار فنسب اليها كما قال تعالى (وخلق الجان) أي أبا الجن وهو ابليس وقيل هو أبوهم وليس هو بابليس وقيل هو اسم جنس كالانسان (من مارج من نار) وهو لهبها الخالص من الدخان وقال القشيري هو اللهب المختلط بسواد النار فالنار أغلب عناصره وقال الليث المارج الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد وعن ابن عباس أنه اللهب الذي يعلو النار فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر وهو مشاهد في النار ترى الالوان الثلاثة مختلطا بعضها ببعض ونحوه عن مجاهد وقال أبو عبيدة والحسن المارج المختلط من النار وأصله من مرج اذا اضطرب واختلط قال القرطبي يروى ان الله تعالى خلق نارين فرج احداهما بالاخرى فأكلت احداهما الاخرى وهي نار السموم فخلق منها ابليس * (تنبيه) * من مارج من نار من الاولى لابتداء الغاية وفي الثانية وجهان أحدهما أنها للبيان والثاني أنها للتبعيض (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) الناشئة عن مبدئكما ومربيكما وسيدكما (تكذبان) أي بما أفاض عليكما في أطوار خلقتكما حتى صيركما أفضل المركبات وخلاصة الكائنات (رب) أي خالق ومدبر (المشرقين) أي مشرق الشتاء ومشرق الصيف (ورب المغربين) كذلك (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) أي الذي دبر لكما هذا التدبير العظيم (تكذبان) أي بما في ذلك من الفوائد التي لا تحصى كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل فيه الى غير ذلك (مرج) أي أرسل الرحمن (البحرين) أي العذب والملح فجعلهما مضطربين من طبعهما الاضطراب حال كونهما (يلتقيان) أي يتماسان على وجه الارض بلا فصل بينهما في رؤية العين وقال ابن عباس بحر السماء وبحر الارض قال سعيد ابن جبير يلتقيان في كل عام وقيل يلتقي طرفاهما وقال الحسن وقتادة بحر فارس والروم وقال ابن جريج البحر المالح والانهار العذبة وقيل بحر المشرق وبحر المغرب وقيل بحر اللؤلؤ وبحر المرجان (بينهما برزخ) أي حاجز عظيم فعلى القول بأنهما بحر السماء وبحر الارض فالحاجز الذي بينهما هو ما بين السماء والارض قاله الضحاك وعلى الاقوال الباقية قال الحسن وقتادة هو الارض وقال بعضهم هو القدرة الالهية وهذا أولى (لا يبغيان) اختلف فيه فقال قتادة لا يبغيان على الناس فيغرقانهم كما طغيا فأهلكا من على الارض في أيام نوح عليه السلام فجعل بينهما وبين الناس اليبس وقال مجاهد وقتادة أيضا لا يبغي أحدهما على صاحبه فيغلبه وقيل البرزخ ما بين الدنيا والآخرة أي بينهما مدة قدرها الله تعالى وهي مدة الدنيا فهما لا يبغيان فاذا أذن الله تعالى في انقضاء الدنيا صار البحران شيأ واحدا وهو كقوله تعالى واذا البحار فجرت وقال سهل بن عبد الله البحران طريق الخير والشر والبرزخ الذي بينهما التوفيق والعصمة وقال الرازي معنى الآية ان الله تعالى أرسل بعض البحرين الى بعض ومن شأنهما الاختلاط فحجزهما ببرزخ من قدرته فهما لا يبغيان أي لا يتجاوز كل واحد منهما ما حده له خالقه

لا فى الظاهر ولا فى الباطن فتى حفرت على جنب الملح فى بعض الاماكن وجدت الماء العذب وان قربت الحفرة منه قال البقاعى بل كلما قربت كان أحلى فخلطهما سبحانه فى رأى العين وحجزهما فى غيب القدرة هذا وهما جمادان لانطق لهما ولا ادراك فكيف يبغى بعضكم على بعض أيها المدركون العقلاء (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى الموجد لكما والمربى (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها فهلا اعتبرتم بهذه الاصول من أنواع الموجودات فصدقتم بالآخرة لعلكم تنجون من عذاب الله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ) وهو كبار الجوهر (والمرجان) وهو صغار الجوهر قاله على وابن عباس والضحاك وقيل بالعكس وقيل المرجان حجر أحمر وقيل حجر شديد البياض والمرجان أعجمى أى بمخالطة العذب المالح من غير واسطة أو بواسطة السحاب فصار ذلك كالذكر والانثى وقال الرازى فيكون العذب كاللقاح للملح وقال أبو حيان قال الجمهور انما يخرج من الاجاج فى المواضع التى تقع فيها الانهار والمياه العذبة فأسند ذلك اليهما وهذا مشهور عند الغواصين قال مكى كما قال على رجل من القريتين عظيم أى من احدى القريتين وحذف المضاف كثير شائع وقيل هو كقوله تعالى نسيا حوتهما وانما الناسى فتاه ويعزى لابى عبيدة قال البغوى وهذا جائز فى كلام العرب ان يذكر شيآن ثم يخص أحدهما بفعل كقوله تعالى يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم وكانت الرسل من الانس وقيل يخرج من أحدهما اللؤلؤ ومن الآخر المرجان وقيل بل يخرجان منهما جميعا وقال ابن عباس تكون هذه الاشياء فى البحر بنزول المطر والصدف تفتح أفواهها للمطر وقد شاهده الناس فيكون تولده من بحر السماء وبحر الارض وهذا قول الطبرى وقال الزمخشرى فان قلت لم قال منهما وانما يخرجان من الملح قلت لما التقيا وصارا كالشئ الواحد جاز أن يقال يخرجان منهما كما يقال يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر وانما يخرجان من بعضه وتقول خرجت من البلد وانما خرجت من محلة من محاله بل من دار واحدة من دوره وقيل لا يخرجان الا من ملتقى الملح والعذب اه وقال بعضهم كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من كلام بعض الناس فمن الجائز أنه يسوقهما من البحر العذب الى الملح واتفق أنهم لم يخرجوهما الا من الملح واذا كان فى البر أشياء تخفى على التجار المترددين القاطعين المفاوز فكيف بما فى قعر البحر قال ابن عادل والجواب عن هذا ان الله تعالى لا يخاطب الناس ولا يمتن عليهم الا بما يألفون ويشاهدون وقرأ نافع وأبو عمرو يخرج بضم الياء وفتح الراء مبنيا للمفعول والباقون بفتح الياء وضم الراء مبنيا للفاعل على المجاز وقرأ السوسى وشعبة بابدال الهمزة الساكنة واوا وصلا ووقفا واذا وقف حمزة أبدل الاولى والثانية (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى الملك الاعظم المالك لكما (تكذبان) أبكثرة النعم من خلق المنافع فى البحار وتسليطكم عليها واخراج الحلى العجيبة أم بغيرها (وله) أى لا لغيره (الجوارى) أى السفن الكبار والصغار الفارغة والمشحونة فلا تغتروا بالاسباب الظاهرة فتقفوا معها فتسندوا شيأ من ذلك اليها وقرأ (المنشآت) حمزة وأبو بكر بخلاف عنه بكسر

الشين بمعنى أنها تنشئ الموج بجريها أو تنشئ السير اقبالا وادبارا أو التي رفعت شراعها أي قلوعها والشراع القلع وعن مجاهد كل ما رفعت قلعها فهي من المنشآت والا فليست منها ونسبة الرفع اليها مجاز كما يقال أنشأت السحابة المطر وقرأ الباقون بفتح الشين وهو اسم مفعول أي أنشأها الله تعالى أو الناس أو رفعوا شراعها *(تنبيه)* الجواري جمع جارية وهي اسم أو صفة للسفينة وخصها بالذكر لان جريها في البحر لا صنع للبشر فيه وهم معترفون بذلك فيقولون لك الفلك ولك الملك واذا خافوا الغرق دعوا الله وحده وسميت السفينة جارية لان شأنها ذلك وان كانت واقفة في الساحل كما سماها في موضع آخر بالجارية كما قال تعالى انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية وسماها بالفلك قبل ان لم تكن كذلك فقال تعالى لنوح عليه السلام واصنع الفلك بأعيننا ثم بعدما عملها سماها سفينة فقال تعالى فأنجيناه وأصحاب السفينة قال الرازي فالفلك أولا ثم السفينة ثم الجارية اهـ والمرأة المملوكة تسمى أيضا جارية لان شأنها الجري والسعي في حوائج سيدها بخلاف الزوجة فهي من الصفات الغالبة والسفينة فعيلة بمعنى فاعلة عند ابن دريد كأنها تسفن الماء وفعيلة بمعنى مفعولة عند غيره بمعنى مسفونة وقوله تعالى (في البحر) متعلق بالمنشآت وقوله تعالى (كالاعلام) حال اما من الضمير المستكن في المنشآت واما من الجواري وكلاهما بمعنى واحد والاعلام الجبال والعلم الجبل الطويل علما على الارض قال القائل *اذا قطعنا علما بدا الناعلم * وقال آخر

ربما أوفيت في علم * ترفعن ثوبي شمالات

وقالت الخنساء في أخيها صخر

وان صخرا لتأتم الهداة به * كأنه علم في رأسه نار

أي جبل فالسفن في البحر كالجبال في البر وجمع الجواري ووحد البحر وجمع الاعلام اشارة الى عظمة البحر (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) العظمى التي عمت خلقه (تكذبان) أبتلك النعم من خلق مواد السفن والارشاد الى أخذها وكيفية تركيبها واجرائها في البحر وأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها غيره أم غيرها وقوله تعالى (كل من عليها فان) أي هالك غلب فيه من يعقل على غيره وجميعهم مرادوا الضمير في عليها للارض قال بعضهم وان لم يجر لها ذكر كقوله تعالى حتى توارت بالحجاب ورد هذا بأنه قد تقدم ذكرها في قوله تعالى والارض وضعها وقيل الضمير عائد الى الجواري قال ابن عباس لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلكت أهل الارض فنزل كل شئ هالك الا وجهه فأيقنت الملائكة بالهلاك (فان قيل) الكلام في تعدد النعم فأين النعمة في فناء الخلق (أجيب) بأنها التسوية بينهم في الموت والموت سبب للنقل الى دار الجزاء والثواب (ويبقى) أي بعد فناء الكل بقاء مستمرا الى ما لا نهاية له (وجه ربك) أي ذاته فالوجه عبارة عن وجود ذاته قال ابن عباس الوجه عبارة عنه (فان قيل) كيف خاطب الاثنين بقوله فبأي آلاء ربكما تكذبان وخاطب ههنا الواحد فقال ويبقى وجه ربك ولم يقل وجه

ربكما

ربكما (أجيب) بأن الاشارة ههنا وقعت الى كل أحد فقال ويبقى وجه ربك أيها السامع ليعلم كل أحد ان غيره فان فلو قال ويبقى وجه ربكما لكان كل أحد يخرج نفسه ورفيقه المخاطب عن الفناء (فان قيل) فلو قال ويبقى وجه الرب من غير خطاب كان أدل على فناء الكل (أجيب) بأن كاف الخطاب فى الرب اشارة الى اللطف والابقاء اشارة الى القهر والموضع موضع بيان اللطف وتعديد النعم فلهذا قال بلفظ الرب وكاف الخطاب * ولما ذكر تعالى مبا ينته للمخلوقات ووصف نفسه بالاحاطة الكاملة فقال تعالى (ذو الجلال) أى العظمة التى لا ترام وهو صفة ذاته التى تقتضى اجلاله عن كل ما لا يليق به (والاكرام) أى الاحسان العام وهو صفة فعله مع جلاله وعظمته (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المربى لكما على هذا الوجه الذى مآله الى العدم الى أجل مسمى (تكذبان) أبتلك النعم من بقاء الرب وفناء الكل والحياة الدائمة والنعيم المقيم أم بغيرها وقوله تعالى (يسأله من فى السموات) أى كلها كلهم (والارض) كذلك مستأنف وقيل حال من وجه والعامل فيه يبقى أى يبقى مسؤلا من أهل السموات والارض بلسان الحال أو المقال أو بهما قال ابن عباس وأبو صالح أهل السموات يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق وأهل الارض يسألونهما جميعا وقال ابن جريج يسأله الملائكة الرزق لاهل الارض فكانت المسئلتان جميعا من أهل السماء وأهل الارض لاهل الارض كما فى الحديث قال القرطبى وفى الحديث ان من الملائكة ملكا له أربعة أوجه وجه كوجه الانسان يسأل الله تعالى الرزق لبنى آدم ووجه كوجه الاسد وهو يسأل الله تعالى الرزق للسباع ووجه كوجه الثور وهو يسأل الله تعالى الرزق للبهائم ووجه كوجه النسر وهو يسأل الله تعالى الرزق للطير وقال ابن عطاء انهم يسألونه القوة على العبادة وقوله تعالى (كل يوم) منصوب بالاستقرار الذى تضمنه الخبر وهو قوله تعالى (هو فى شان) والشان الامر روى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال كل يوم هو فى شان قال من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربة ويرفع أقواما ويضع آخرين وعن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يغفر ذنبا ويكشف كربا ويجيب داعيا وقال أكثر المفسرين من شأنه أنه يحيى ويميت ويرزق ويعز قوما ويذل قوما ويشفى قوما ويفرج مكروبا ويجيب داعيا ويعطى سائلا ويغفر ذنبا الى ما لا يحصى من أفعاله واحداثه فى خلقه ما يشاء وروى البغوى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال ان مما خلق الله عز وجل لوحا من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور ينظر الله تعالى فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة يخلق ويرزق ويحيى ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء فذلك قوله تعالى كل يوم هو فى شان وقال سفيان بن عيينة الدهر كله عند الله تعالى يومان أحدهما اليوم الذى هو مدة عمر الدنيا فشأنه فيه أى فى كل يوم من أيامها الامر والنهى والاماتة والاحياء والاعطاء والمنع والثانى يوم القيامة وشأنه فيه الجزاء والحساب والثواب والعقاب وقال أبو سليمان الدارانى فى هذه الآية له فى كل يوم الى العبيد بر جديد وقال بعض المفسرين شأنه تعالى أنه يخرج فى كل يوم وليلة ثلاثة عساكر عسكرا من أصلاب الآباء الى أرحام الامهات وعسكرا من الارحام الى الدنيا وعسكرا

من الدنيا الى القبور ثم يرتحلون جميعا الى الله تعالى وقيل نزلت فى اليهود حين قالوا ان الله لا يقضى يوم السبت شيأ وسأل بعض الملوك وزيره عن هذه الآية فاستمهله الى الغد وذهب كئيبا يتفكر فيها فقال له غلام أسود يا مولاى أخبرنى ما أصابك لعل الله تعالى يسهل لك على يدى فأخبره فقال أنا أفسرها للملك فأعلمه فقال أيها الملك شأن الله تعالى أن يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويشفى سقيما ويسقم صحيحا ويبتلى معافى ويعافى مبتلى ويعز ذليلا ويذل عزيزا ويفقر غنيا ويغنى فقيرا فقال الامير أحسنت وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة فقال يا مولاى هذا من شأن الله تعالى وعن عبد الله بن طاهر أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له أشكلت على ثلاث آيات دعوتك لتكشف لى قوله تعالى فأصبح من النادمين وقد صح أن الندم توبة وقوله تعالى كل يوم هو فى شان وصح أن القلم جف بما هو كائن الى يوم القيامة وقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى فمعناه ليس له الا ما سعى فما بال الاضعاف قال الحسين يجوز أن لا يكون الندم توبة فى تلك الامة ويكون فى هذه الامة لان الله تعالى خص هذه الامة بخصائص لم تشاركهم فيها الامم وقيل ان ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله وأما قوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى فمعناه انه ليس له الا ما سعى عدلا ولى أن أجزيه بواحدة ألفا فضلا وأما قوله تعالى كل يوم هو فى شان فانها شؤن يبديها لا شؤن يبتديها فقام عبد الله فقبل رأسه وسوّغ خراجه (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) المدبر لكما هذا التدبير العظيم (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها (سنفرغ لكم) أى سنقصد لحسابكم وجزائكم وقرأ حمزة والكسائى بعد السين بالياء التحتية والباقون بالنون (أيه الثقلان) أى الانس والجن وذلك يوم القيامة فانه تعالى لا يفعل ذلك فى غيره قال القرطبى يقال فرغت من الشغل أفرغ فراغا وفروغا وتفرغت لكذا واستفرغت مجهودى فى كذا أى بذلت وليس بالله تعالى شغل يفرغ منه وانما المعنى سنقصد لمجازاتكم ومحاسبتكم فهو وعيد لهم وتهديد قاله ابن عباس والضحاك كقول القائل لمن يريد تهديده اذا أتفرغ لك أى أقصدك وأنشد ابن الانبارى لجرير

الان وقد فرغت الى نمير * فهذا حين كنت لهم عذابا

يريد وقد قصدت وأنشد الزجاج والنحاس * فرغت الى العبد المقيد فى الحجل * وفى حديث النبى صلى الله عليه وسلم انه لما بايع الانصار ليلة العقبة صاح الشيطان يا أهل الجباجب هذا مذمم يبايع بنى قيلة على حربكم فقال النبى صلى الله عليه وسلم هذا أزب العقبة أما والله يا عدو الله لا تفرغن لك أى أقصد الى ابطال أمرك وهذا اختيار الكسائى وغيره قال ابن الاثير الازب فى اللغة الكثير الشعر وهو ههنا شيطان اسمه أزب العقبة وهو الحية وقيل ان الله تعالى وعد على التقوى وأوعد على الفجور ثم قال تعالى سنفرغ لكم أيها الثقلان أى ما وعدناكم ونوصل كلا الى ما وعدناه أقسم ذلك وأتفرغ منه قاله الحسن ومقاتل وابن زيد * (تنبيه) * رسم أيه بغير ألف فاذا وقف عليها وقف أبو عمرو والكسائى أيها بالالف ووقف الباقون على الرسم أيه وفى

الوصل قرأ ابن عامر أيه برفع الهاء والباقون بنصبها * (فائدة) * سمى الانس والجن بالثقلين لعظم شأنهما بالاضافة الى ما فى الارض من غيرهما بسبب التكليف وقيل سموا بذلك لانهما ثقلا الارض أحياء وأمواتا قال الله تعالى وأخرجت الارض أثقالها ومنه قولهم اعطه ثقله أى وزنه وقال بعض أهل المعانى كل شئ له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل ومنه قيل لبيض النعام ثقل لان واجده وصائده يفرح به اذا ظفر به وقال جعفر الصادق سميا ثقلين لانهما مثقلان بالذنوب وقيل الثقل الانس لشرفهم وسمى الجن بذلك مجازا للمجاورة والتغليب كالقمرين والعمرين والثقل العظيم الشريف قال صلى الله عليه وسلم انى تارك فيكم ثقلين كتاب الله عز وجل وعترتى (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المحسن اليكما بهذا الصنيع المحكم (تكذبان) أى أبتلك النعم من اثابة أهل طاعته وعقوبة أهل معصيته أم بغيرها (يامعشر الجن) أى ياجماعة فيهم الأهلية والعشرة والتصادق (والانس) أى الخواص والمستأنسين والمأنوسين المبنى أمرهم على الاقامة والاجتماع (ان استطعتم) أى وجدت لكم اطاعة الكون فى (أن تنفذوا) أى تسلكوا بأجسامكم وتمضوا من غير مانع يمنعكم (من أقطار) أى نواحى (السموات والارض) هاربين من الله تعالى من أنواع الجزاء بينكم أو عصيانا عليه فى قبول أحكامه وجرى مراداته وأقضيته عليكم من الموت وغيره وقوله تعالى (فانفذوا) أمر تعجيز والمعنى ان استطعتم أن تجوزوا نواحى السموات والارض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا يعنى لا مهرب لكم ولا خروج لكم عن ملك الله تعالى أينما تولوا فثم ملك الله عز وجل (فان قيل) ما الحكمة فى تقديم الجن على الانس ههنا وتقديم الانس على الجن فى قوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن (أجيب) بأن النفوذ من أقطار السموات والارض بالجن أليق ان أمكن والاتيان بمثل القرآن بالانس أليق ان أمكن فقدم فى كل موضع ما يليق به (فان قيل) لم جمع فى قوله تعالى سنفرغ لكم وفى قوله تعالى ان استطعتم وثنى فى قوله أيه الثقلان (أجيب) بأنهما فريقان فى حال الجمع كقوله تعالى فاذا هم فريقان يختصمون وهذان خصمان اختصموا فى ربهم (لا تنفذون) أى لا تقدرون على النفوذ (الا بسلطان) أى الا بقوة وقهر وأنى لكم ذلك وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال معناه ان استطعتم أن تعلموا ما فى السموات والارض فاعلموا ولن تعلموا الا بسلطان أى بينة من الله تعالى * (تنبيه) * فى هذه الآيات والتى فى الاحقاف وفى قل أوحى دليل على أن الجن مكلفون مخاطبون مأمورون منهيون مثابون معاقبون كالانس سواء مؤمنهم كمؤمنهم وكافرهم ككافرهم (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) المحسن اليكما المربى لكما بما تعرفون به قدرته على ما يريد (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها وقال البغوى وفى الخبر يحاط على الخلق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون يامعشر الجن والانس ان استطعتم الآية فذلك قوله تعالى (يرسل عليكما) أى أيها المعاندون قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما حين يخرجون من القبور لسوقهم الى المحشر (شواظ من نار) قال مجاهد هو اللهب الاخضر المنقطع من النار وقال ابن عباس

رضى الله تعالى عنهما هو اللهب الخالص الذى لادخان له وقال الضحاك هو الدخان الذى يخرج من اللهب ليس كدخان الحطب وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما اذا خرجوا من قبورهم ساقهم شواظ الى المحشر وقيل هو اللهب الاحمر وقال عمرو هو النار والدخان جميعا وحكاه الاخفش عن بعض العرب قال حسان

هجونك فاختضعت لها بذل * بقافية تأجج كالشواظ

وقرأ ابن كثير بكسر الشين والباقون بضمها وهما لغتان بمعنى واحد مثل صوار من البقر وصوار وهو القطيع من البقر واختلف فى قوله سبحانه وتعالى (ونحاس) فقيل هو الصفر المعروف يذيبه الله تعالى ويعذبهم به وقيل هو الدخان الذى لا لهب معه قاله الخليل وهو معروف فى كلام العرب وأنشد الاعشى

تضئ كضوء سراج السليط لم يجعل الله فيه نحاسا

وقال ابن برحان والعرب تسمى الدخان نحاسا بضم النون وكسرها وأجمع القراء على ضمها اه وقال الضحاك هو دردى الزيت المغلى وقال الكسائى التى لها ريح شديد (فلا تنتصران) أى فلا تمتنعان ولا ينصر بعضكم بعضا من ذلك بل يسوقكم الى المحشر (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المدبر لكما هذا التدبير المتقن (تكذبان) أبتلك النعم فان التهديد لطف والتمييز بين المطيع والعاصى بالجزاء والانتقام من الكفار فى عداد الآلاء أم بغيرها (فاذا انشقت السماء) أى انفرجت فكانت أبوابا لنزول الملائكة (فكانت وردة) أى محمرة مثل الوردة (كالدهان) أى كالاديم الاحمر على خلاف العهد بها الشدة حرنار جهنم وقال مجاهد والضحاك وغيرهما الدهان الدهن والمعنى صارت فى صفاء الدهن والدهان على هذا جمع دهن وقال سعيد بن جبير وقتادة المعنى تصير فى حمرة الورد وجريان الدهن أى تذوب مع جريان الدهن حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم وتصير مثل الدهن لرقتها وذوبانها وقال الحسن كصب الدهن فانك اذا صببته ترى فيه ألوانا وجواب اذا محذوف أى أعظم الهول (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى الخالق والرازق لكما (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها مما يكون بعد ذلك (فيومئذ) أى فتسبب عن يوم اذ انشقت السماء أنه (لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان) أى سؤال تعرف واستعلام بل سؤال تقريع وتوبيخ وملام وذلك أنه لا يقال له هل فعلت كذا بل يقال له لم فعلت كذا على أن ذلك اليوم طويل وهو ذو ألوان تارة يسئل فيه وتارة لا يسئل والامر فى غاية الشدة وكل لون من تلك الالوان يسمى يوما فيسئل فى بعض ولا يسئل فى بعض وقيل المعنى لا يسئلون اذا استقروا فى النار وقال الحسن وقتادة لا يسئلون عن ذنوبهم لان الله تعالى حفظها عليهم وكتبتها الملائكة رواه العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما وعن الحسن ومجاهد لا تسأل الملائكة عنهم لانهم يعرفونهم بسيماهم دليله قوله تعالى يعرف المجرمون بسيماهم ورواه مجاهد عنه أيضا فى قوله تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين وقوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان قال لا يسألهم ليعرف ذلك منهم ولكنه يسألهم لم عملتموها سؤال توبيخ وقال أبو العالية لا يسئل

غير المجرم عن ذنب المجرم وقال قتادة يسئلون قبل الختم على أفواههم ثم يختم على أفواههم
وتتكلم جوارحهم شاهدة عليهم *(تنبيه)* الجان هنا وفيما يأتى بمعنى الجنى والانس بمعنى
الانسى (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى الذى ربى كلا منكما الا مطمع فى انكاره ولا خفاء فيه
(تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها مما أنعم الله تعالى على عباده المؤمنين فى هذا اليوم (يعرف)
أى لكل أحد (المجرمون) أى العريقون فى هذا الوصف (بسيماهم) أى العلامات التى
صور الله تعالى ذنوبهم فيها فجعلها ظاهرة بعد أن كانت باطنة وظاهرة الدلالة عليهم كما يعرف الآن
الليل اذا جاء لا يخفى على أحد أصلا وكذا النهار ونحوهما الغير الاعمى قال البقاعى وتلك السيمى
والله أعلم زرقة العيون وسواد الوجوه والعمى والصمم والمشى على الوجوه ونحو ذلك وكما يعرف
المحسنون بسيماهم من بياض الوجوه واشراقها وتبسمها والغرة والتحجيل ونحو ذلك وسبب عن
هذه المعرفة قوله تعالى مشيرا بالبنا للمفعول الى سهولة الاخذ من أى آخذ كان (فيؤخذ
بالنواصى) أى منهم وهى مقدمات الرؤس (والاقدام) بعد أن يجمع بينهما فيسحبون بها
سحبا من كل ساحب أقامه الله تعالى لذلك لا يقدرون على الامتناع بوجه فيلقون فى النار
وقال الضحاك يجمع بين ناصيته وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره وعنه يؤخذ برجلى الرجل
فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندق ظهره ثم يلقى فى النار وفعل بالكافر ذلك ليكون أشد لعذابه
وقيل تسحبه الملائكة الى النار تارة تأخذ بناصيته وتجره على وجهه وتارة تأخذ بقدميه وتسحبه
على وجهه (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المنعم عليكما الذى دبر مصالحكم بعد أن أوجدكم
(تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها مما وعد ان يفعل من الجزاء فى الآخرة لكل شخص بما كان
يعمل فى الدنيا أو غير ذلك من الفضل (هذه جهنم) أى يقال لهم اذا ألقوا فيها هذه جهنم (التى
يكذب) أى ماضيا وحالا ومآلا استهانة ولو ردوا الى الدنيا بعد ادخالهم اياها لعادوا لما نهوا
عنه (بها المجرمون) أى المشركون الحقيقون بالاجرام وهو قطع ما من حقه أن يوصل وهو
ما أمر الله تعالى به وخص هذا الاسم اشارة الى أنها تلقاهم بالتجهم والعبوسة والكلاحة
والفظاعة كما كانوا يفعلون مع الصالحين عند الاجرام المذكور (يطوفون بينها) أى بين دركات
النار (وبين حميم آن) أى حار متناه فى الحرارة وهو منقوص كقاض يقال أنى يأنى فهو آن كقضى
يقضى فهو قاض والمعنى أنهم يسعون بين الحميم والجحيم فاذا استغاثوا من النار جعل عذابهم
الحميم الآن الذى صار كالمهل وهو قوله تعالى وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل وقال كعب
الاحبار واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم فى الاغلال فيغمسون فيه
حتى تنخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله تعالى لهم خلقا جديدا فيلقون فى النار
فذلك قوله تعالى يطوفون بينها وبين حميم آن (فان قيل) هذه الامور ليست نعمة فكيف قال عز
وجل (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المحسن أيها الثقلان اليكما (تكذبان) (أجيب) من
وجهين أحدهما أن ما وصف من هول يوم القيامة وعقاب المجرمين فيه زجر عن المعاصى
وترغيب فى الطاعات وهذا من أعظم النعم روى أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى على شاب يقرأ فى

الليل فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان فوقف الشاب وخنقته العبرة وجعل يقول ويحى من يوم تنشق فيه السماء ويحى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ويحك يافتى مثلها فوالذى نفسى بيده لقد بكت ملائكة السماء من بكائك الثانى أن المعنى ان كذبتم بالنعمة المتقدمة استحقيتم هذه العقوبات وهى دالة على الايمان بالغيب وهو من أعظم النعم * ولما عرف ما للمجرم المجترئ على العظائم وقدمه لما اقتضاه مقام التكذيب من الترهيب وجعله سابعا اشارة الى أبواب النار السبع عطف عليه ما للخائف الذى أداه خوفه الى الطاعة وجعله ثامنا على عدد أبواب الجنة الثمانية فقال تعالى (ولمن خاف) أى من الثقلين ووحد الضمير مراعاة للفظ من اشارة الى قلة الخائفين (مقام ربه) أى قيامه بين يدى ربه للحساب بترك المعصية والشهوة قال القرطبى ويجوز ان يكون المقام للعبد ثم يضاف الى الله تعالى وهو كالاجل فى قوله تعالى فاذا جاء أجلهم وقوله تعالى فى موضع آخر ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر وقال مجاهد هو الذى يهم بالمعصية فيذكر الله تعالى فيدعها من مخافته عز وجل (جنتان) أى لكل خائف جنتان على حدة قال مقاتل جنة عدن وجنة النعيم وقال محمد بن على الترمذى جنة بخوف ربه وجنة بترك شهوته وقال ابن عباس من خاف مقام ربه بعد أداء الفرائض وقيل جنتان لجميع الخائفين وقيل جنة لخائف الانس واخرى لخائف الجن فيكون من باب التوزيع وقيل مقام هنا مقحم كما تقول أخاف جانب فلان وفعلت هذا لمكانك وأنشد ونفيت عنه * مقام الذئب كالرجل اللعين يريد ونفيت عنه الذئب قال ابن عادل وليس بجيد لان زيادة الاسم ليست بالسهلة وقيل ان الجنتين جنته التى خلقت له وجنة ورثها وقيل احدى الجنتين منزله والاخرى منزل أزواجه كما يفعل رؤساء الدنيا وقيل احدى الجنتين مسكنه والاخرى بستانه وقيل احدى الجنتين أسافل القصور والاخرى أعاليها وقال الفراء انها جنة واحدة وانما ثنى مراعاة لرؤس الآى وأنكر القتيبى هذا وقال لا يجوز أن يقال خزنة النار عشرون وانما قال تسعة عشر مراعاة لرؤس الآى وقيل جنة واحدة وانما ثنى تأكيدا كقوله تعالى ألقيا فى جهنم وعن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل الا ان سلعة الله تعالى الا ان سلعة الله تعالى الجنة أخرجه الترمذى قوله أدلج الادلاج مخففا سيرأول الليل ومثقلا سير آخر الليل والمراد من الادلاج التشمير والجد والاجتهاد فى أول الامر فان من سار فى أول الليل كان جديرا ببلوغ المنزل وروى البغوى بسنده عن أبى الدرداء أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص على المنبر وهو يقول ولمن خاف مقام ربه جنتان قلت وان زنى وان سرق يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت الثانية وان زنى وان سرق يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الثالثة ولمن خاف مقام ربه جنتان قلت الثالثة وان زنى وان سرق يارسول الله قال وان زنى وان سرق على رغم انف أبى الدرداء * (فائدة) * قال القرطبى فى هذه الآية دليل على أن من قال لزوجته ان لم أكن من أهل الجنة فأنت طالق انه لا يحنث ان كان هم بالمعصية وتركها خوفا من الله تعالى وحياء منه وقاله سفيان الثورى وأفتى به هذا ومذهب

الشافعي أنه لا يحنث اذا كان مسلما ومات على الاسلام وقال عطاء نزلت هذه الآية في أبي بكر حين ذكر ذات يوم الجنة حين أزلفت والنار حين أبرزت وقال الضحاك بل شرب ذات يوم لبنا على ظما فأعجبه فسأل عنه فأخبر عنه أنه من غير حل فاستقاءه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر اليه فقال رحمك الله لقد أنزلت فيك آية وتلا عليه الآية (فبأى الاء) أى نعم (ربكما) المربى لكما باحسانه الكبار التى لا يقدر أحد على شئ منها (تكذبان) أبتلك النعمة أم بغيرها من نعمه التى لا تحصى ثم وصف الجنتين بقوله تعالى (ذواتا) أى صاحبتا أو خبر لمبتدا محذوف أى هما ذواتا وفى تثنية ذات لغتان الرد الى الاصل فان أصلها ذوية فالعين واو واللام ياء لانها مؤنثة ذوو الثانية التثنية على اللفظ فيقال ذاتا وقوله تعالى (أفنان) فيه وجهان أحدهما أنه جمع فنن كطلل وهو الغصن المستقيم طولا تكون به الزينة بالورق والثمر وكمال الانتفاع قال النابغة الذبيانى

بكاء حمامة تدعو هديلا * مفجعة على فنن تغنى

وفى الحديث أهل الجنة مرد مكحولون أولو أفانين يريد الافانين وهو جمع أفنان وأفنان جمع فنن من الشعر شبه بالغصن ذكره الهروى وقال قتادة ذواتا أفنان أى ذواتا سعة وفضل على سواهما والوجه الثانى أنه جمع فن واليه أشار ابن عباس والمعنى ذواتا أنواع واشكال وقال الضحاك ألوان من الفاكهة واحدها فن الا أن الكثير فى فن أن يجمع على فنون وقال عطاء كل غصن فنون من الفاكهة ولذا سبب عنه قوله تعالى (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المحسن اليكما والمدبر لكما (تكذبان) أبتلك النعم من وصف الجنة الذى جعل لكم من أمثاله ما تعتبرون به أم بغيرها * ولما كانت الجنان لا تقوم الا بانهار قال تعالى (فيهما عينان تجريان) أى فى كل واحدة منهما عين جارية قال ابن عباس تجريان ماء بالزيادة والكرامة من الله تعالى على أهل الجنة وعن ابن عباس أيضا والحسن تجريان بالماء الزلال احدى العينين التسنيم والاخرى السلسبيل وقال عطية احدهما من ماء غير آسن والاخرى من خمر لذة للشاربين وقيل تجريان من جبل من مسك قال أبو بكر الوراق فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه فى الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل فتجريان فى أى مكان شاء صاحبهما وان علا مكانه كما تصعد المياه فى الاشجار فى كل غصن منها وان زاد علوها (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المالك لكما والمحسن اليكما (تكذبان) أبتلك النعم التى ذكرها وجعل لها فى الدنيا أمثالا كثيرة أم بغيرها (فيهما) أى الجنتين (من كل فاكهة) أى تعلمونها أولا تعلمونها (زوجان) أى صنفان ونوعان قيل معناه أن فيهما من كل ما يتفكه به ضربين رطبا ويابسا وقال ابن عباس ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة الا وهى فى الجنة حتى الحنظل الا أنه حلو فان قيل قوله تعالى ذواتا أفنان وفيهما عينان تجريان وفيهما من كل فاكهة زوجان كلها أوصاف للجنتين فما الحكمة فى فصل بعضها عن بعض بقوله تعالى فبأى آلاء ربكما تكذبان مع أنه تعالى لم يفصل حين ذكر العذاب بين الصفات بل قال تعالى يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران مع أن ارسال الشواظ غير ارسال النحاس (أجيب) بأنه تعالى جمع

العذاب جملة وفصل آيات الثواب ترجيحا لجانب الرحمة على جانب العذاب وتطييبا للقلب وتهييجا للسامع فان اعادة ذكر المحبوب وتطويل الكلام في اللذات مستحسن (فان قيل) ما وجه توسط آية العينين بين ذكر الافنان وآية الفاكهة والفاكهة انما تكون على الاغصان فالمناسبة ان لا يفصل بين آية الاغصان والفاكهة (أجيب) بأن ذلك على عادة المتنعمين اذا خرجوا متفرجين في البستان فأول قصدهم الفرجة بالخضرة والماء ثم يكون الاكل تبعا (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) التي ادخرها الموجد لكما المحسن اليكما (تكذبان) أبتلك النعم ام بغيرها مما وضعه اليكم من سائر النعم التي لا تحصى * ولما كان التفكه لا يكمل حسنه الامع التنعم من طيب الفرش وغيره قال تعالى مخبرا عن هؤلاء الذين يخافون مقام ربهم (متكئين) أى لهم ماذكر حال الاتكاء والعامل في الحال محذوف أى يتنعمون متكئين (على فرش) وعظمها بقوله تعالى مخاطبا للمكلفين بما يحتمل عقولهم والا فليس في الجنة ما يشبهه على الحقيقة شئ من الدنيا (بطائنها من استبرق) وهو ما غلظ من الديباج قال ابن مسعود وأبو هريرة اذا كانت البطائن التي تلي الارض هكذا فما ظنك بالظهارة وقيل لسعيد بن جبير البطائن من استبرق فما الظواهر قال هذا مما قال الله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وقال ابن عباس انما وصف لكم بطائنها لتهتدي اليه قلوبكم فأما الظواهر فلا يعلمها الا الله تعالى ونظير ذلك في الجنة قوله تعالى عرضها السموات والارض وأما الطول فلا يعلمه الا الله عز وجل لكن قال القرطبي وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ظواهرها نور يتلألأ وقيل الظهائر من السندس وعن الحسن البطائن هي الظواهر وهو قول الفراء وروى عن قتادة والعرب تقول للبطن ظهرا فيقولون هذا بطن السماء وظهر الارض وقال الفراء قد تكون البطانة الظهارة والظهارة البطانة لان كل واحد منهما يكون وجها والعرب تقول هذا ظهر السماء وهذا بطن السماء لظاهرها الذي نراه وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا وقالوا لا يكون هذا الا في الوجهين المتساويين اذا ولى كل واحد منهما قوم كالحائط بينك وبين قوم وعلى أديم السماء وقال ابن عباس وصف البطائن وترك الظواهر لانه ليس في الارض أحد يعرف ما الظواهر * (تنبيه) * قال الرازي الاستبرق معرب وهو الديباج الثخين أى وهذا ومثله لا يخرج القرآن عن كونه عربيا لان العربي ما نطقت به العرب وضعا واستعمالا من لغة غيرها وذلك كله سهل عليهم وبه يحصل الاعجاز بخلاف ما لم يستعملوه من كلام العجم لصعوبته عليهم وذكر الاتكاء لانه حال الصحيح الفارغ القلب المتنعم البدن بخلاف المريض والمهموم (وجنى الجنتين) أى ثمرها (دان) أى قريب قال ابن عباس تدنو الشجرة حتى يجنيها ولي الله تعالى ان شاء قائما وان شاء قاعدا وان شاء مضطجعا وقال قتادة لا يرد يده بعد ولا شوك قال الرازي جنة الآخرة مخالفة لجنة الدنيا من ثلاثة أوجه أحدها أن الثمرة على رؤس الشجر في الدنيا بعيدة على الانسان المتكئ وفي الجنة هو متكئ والثمرة تتدلى اليه وثانيها ان الانسان في الدنيا يسعى الى الثمرة ويتحرك اليها وفي الآخرة هي تدنو اليهم وتدور عليهم وثالثها أن الانسان في الدنيا اذا قرب من ثمرة شجرة بعد عن غيرها وثمار

الجنة كلها تدنو اليهم في وقت واحد ومكان واحد (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) أي المربي لكما الذي يقدر على كل ما يريده (تكذبان) أمن قدرته على عطف الاغصان وتقريب الثمار أم من غيرها ولما كان ما ذكر لا تتم نعمته الا بالنسوان الحسان قال تعالى (فيهن) أي الجنان التي علم مما مضى ان لكل فرد من الخائفين منها جنتين فصح الجمع وقال الزمخشري فيهن في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى أو في الجنتين لاشتمالهما على أماكن وقصور ومجالس اه قال أبو حيان وفيه أي الاول بعد لان الاستعمال أن يقال على الفراش كذا ولا يقال في الفراش كذا الا بتكلف ولذلك جمع الزمخشري مع الفرش غيرها حتى صح له ان يقول ذلك وقيل يعود على الجنتين لان أقل الجمع اثنان وقال الفراء كل موضع في الجنة جنة فلذلك صح ان يقال فيهن (قاصرات الطرف) أي الاعين على أزواجهن المتكئين من الانس والجن قال الرازي وقوله قاصرات الطرف أي نساء أو أزواج فحذف الموصوف لنكتة وهي أنه تعالى لم يذكرهن باسم الجنس وهو النساء بل بالصفات فقال تعالى حور عين كواعب أترابا قاصرات الطرف حور مقصورات ولم يقل نساء عربا ولا نساء قاصرات لوجهين اما على عادة العظماء كبنات الملوك انما يذكرن بأوصافهن واما لانهن لما كملن كانهن خرجن عن جنسهن وقوله تعالى قاصرات الطرف يدل على عفتهن وعلى حسن المؤمنين في أعينهن فيحببن أزواجهن حبا شديدا يشغلهن عن النظر الى غيرهم قال ابن زيد تقول لزوجها وعزة ربي ما أرى في الجنة أحسن منك فالحمد لله الذي جعلك زوجي وجعلني زوجك ويدل أيضا على الحياء لان الطرف حركة الجفن والحيية لا تحرك جفنها ولا ترفع رأسها *(تنبيه)* انظر الى حسن هذا الترتيب فانه تعالى بين أولا المسكن وهو الجنة ثم بين ما يتنزه به وهو البستان والاعين الجارية ثم ذكر المأكول فقال تعالى فيهما من كل فاكهة ثم ذكر موضع الراحة بعد الاكل وهو الفراش ثم ذكر ما يكون في الفراش معه ولما كان الاختصاص بالشيء من أعظم الملذات لاسيما المرأة قال تعالى (لم يطمثهن) أي لم يجامعهن ويتسلط عليهن يقال طمثت المرأة كضرب وفرح حاضت وطمثها الرجل افتضها وأيضا جامعها (انس قبلهم) أي المتكئين (ولا جان) فكأنه قال هن أبكار لم يخالطهن أحد فان هذا جمع كل من يمكن منه جماع وفي ذلك دليل على أن الجني يغشى كما يغشى الانسي ويدخل الجنة ويكون لهم فيها جنتان قال ضمرة للمؤمنين منهم أزواج من الحور فالانسيات للانس والجنيات للجن وقال مقاتل لانهن خلقن في الجنة فعلى قوله يكونون من حور الجنة وقال الشعبي من نساء الدنيا لم يمسهن منذ أنشئن خلق وهو قول الكلبي أي لم يجامعهن في هذا الخلق الذي أنشئن فيه انس ولا جان وأما في الدنيا فقال مجاهد اذا جامع الرجل ولم يسم ينطوي الجني على احليله فيجامع معه وقال القرطبي لم يطمثهن لم يصبهن بالجماع قبل أزواجهن أحد وهذا شامل لنساء الجنة ولنساء الدنيا بعد انشائهن خلقا جديدا وقرأ الكسائي يطمثهن بضم الميم في الموضعين بخلاف عنه وتخييرا في أحدهما وهما لغتان يقال طمثها يطمثها ويطمثها اذا جامعها (فبأي آلاء) أي نعم (ربكما) المدبر مصالحكما (تكذبان)

أى بأى نوع من أنواع هذا الاحسان أم غيره (كأنهن الياقوت) أى صفاء (والمرجان) أى اللؤلؤ بياضا والياقوت جوهر نفيس يقال ان النار لا تؤثر فيه والمرجان صغار اللؤلؤ وأشده بياضا وقيل شبه لونهن ببياض اللؤلؤ مع حمرة الياقوت لان أحسن الالوان البياض المشرب بحمرة قال ابن الخازن والاصح انه شبههن بالياقوت لصفائه فانه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استضأته لرأيت السلك من ظاهره لصفائه قال عمرو بن ميمون ان المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من وراء الحلل كما يرى الشراب الاحمر من الزجاجة البيضاء يدل على صحة ذلك ما روى عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها وذلك لان الله تعالى يقول كأنهن الياقوت والمرجان فأما الياقوت فانه حجر لو ادخلت فيه سلكا ثم استضأته لرأيته من ورائه وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر زاد فى رواية ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء اضاءة لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون آنيتهم الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب ومجامرهم الالوة أى بخورهم العود ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء لحمهما من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب رجل واحد (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المالك الملك المربى ببدائع التربية (تكذبان) أبما جعله منالا لما ذكر من وصفهن أم بغيره (هل جزاء الاحسان) أى بالطاعة من الانس والجن وغيرهما (الا الاحسان) أى بالثواب وقال ابن عباس هل جزاء من قال لا اله الا الله وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم الا الجنة وعن أنس بن مالك قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هل جزاء الاحسان الا الاحسان ثم قال أتدرون ما قال ربكم قالوا الله ورسوله اعلم قال يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد الا الجنة وروى الواحدى بغير سند عن ابن عمر وابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى هذه الآية يقول الله عز وجل هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتى وتوحيدى الا أن أسكنه جنتى وحظيرة قدسى برحمتى (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) الكريم الرحيم الجامع لاوصاف الكمال (تكذبان) أبشئ من هذه النعم الجزيلة أم بغيرها (ومن دونهما) أى من أدنى مكان ورتبة تحت جنتى هؤلاء المحسنين المقربين (جنتان) أى لكل واحد ممن دون هؤلاء المحسنين من الخائفين وهم أصحاب اليمين وقال أبو موسى الاشعرى جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من فضة للتابعين وقال ابن جريج هى أربع جنان جنتان للمقربين السابقين فيهما من كل فاكهة زوجان وجنتان لاصحاب اليمين والتابعين فيهما فاكهة ونخل ورمان وقال الكسائى ومن دونهما أى أمامهما وقبلهما يدل عليه قول الضحاك الجنتان الاوليان من ذهب وفضة والاخريان من ياقوت وعلى هذا فهما أفضل من الاوليين والى هذا القول ذهب أبو عبد الله الترمذى الحكيم فى نوادر الاصول وقال ومعنى ومن دونهما جنتان أى دون هذا الى العرش أى أقرب وأدنى الى العرش وقال مقاتل الجنتان الاوليان جنة عدن وجنة النعيم والاخريان جنة الفردوس وجنة المأوى

(فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المحسن بنعمه لجميع خلقه (تكذبان) أبشئ مما تفضل به عليكم أم بغيره ثم وصف تلك الجنتين بقوله تعالى (مدهامتان) قال ابن عباس رضى الله عنهما خضراوان وقال مجاهد سوداوان لان الخضرة اذا اشتدت تضرب الى السواد وهذا مشاهد بالنظر ولذلك قالوا سواد العراق لكثرة شجره وزرعه والارض اذا اخضرت غاية الخضرة تضرب الى سواد قال الرازى والتحقيق فيه ان ابتداء الالوان هو البياض وانتهاءها هو السواد فان الابيض يقبل كل لون والاسود لا يقبل شيأ من الالوان (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى المحسن اليكما بالرزق وغيره (تكذبان) أبشئ من تلك النعم أم بغيرها ثم وصف تلك الجنتين أيضا بقوله تعالى (فيهما) أى فى جنتى كل شخص منهم (عينان نضاختان) قال ابن عباس أى فوارتان بالماء والنضخ بالخاء المعجمة أكثر من النضح بالحاء المهملة لان النضح بالمهملة الرشح والرش وبالمعجمة فوران الماء وقال مجاهد المعنى نضاختان بالخير والبركة وعن ابن مسعود تنضخ على أولياء الله تعالى بالمسك والكافور والعنبر فى دور أهل الجنة كما ينضخ رش المطر وقال سعيد بن جبير بانواع الفواكه والماء (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) المربى البليغ الحكمة فى التربية (تكذبان) أبتلك النعمة أم بغيرها ثم وصف الجنتين أيضا بقوله تعالى (فيهما فاكهة) وخص أشرفها وأكثرها وجودا فى الخريف والشتاء كما فى جنان الدنيا التى جعلت مثالا لهاتين بقوله تعالى (ونخل ورمان) فان كلا منهما فاكهة وادام فلهذا خصا تشريفا وتنبيها على ما فيهما من التفكه وأولهما أعم نفعا وأعجب خلقا ولذا قدمه فعطفهما على الفاكهة من باب ذكر الخاص بعد العام تفضيلا له كقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال وقوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقال بعض العلماء ليس ذلك من الفاكهة ولهذا قال أبو حنيفة اذا حلف لا يأكل الفاكهة فأكل رطبا أو رمانا لم يحنث وخالفه صاحباه وقال القرطبى وقيل انما كررها لان النخل والرمان كانا عندهم فى ذلك الوقت بمنزلة البر عندنا لان النخل عامة قوتهم والرمان كالثمرات فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم اليه وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التى يعجبون بها فانما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة الى مكة الى ما والاها من أرض اليمن فأخرجهما من الذكر من الفواكه وأفرد الفواكه على حدتها وقيل أفردا بالذكر لان النخل ثمره فاكهة وطعام والرمان فاكهة ودواء فلم يخلصا للتفكه قال البغوى وعن ابن عباس قال نخل الجنة جذوعها زمرذ أخضر وورقها ذهب أحمر وسعفها كسوة أهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم وثمرها امثال القلال والدلاء أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد ليس له عجم وروى أن الرمانة من رمان الجنة مل ء جلد البعير المقتب وقيل ان نخل الجنة نضيد وثمرها كالقلال كلما نزعت عادت مكانها أخرى العنقود منها اثنا عشر ذراعا (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) المحسن الى الثقلين بجليل التربية (تكذبان) أبتلك النعم أم بغيرها مما أحسن به اليكم (فيهن) أى الجنان الاربع أو الجنتين وقصورهما (خيرات حسان) أى نساء الواحدة خيرة على معنى ذوات خير وقيل خيرات بمعنى خيرات خفف كهين ولين روى الحسن عن أمه عن

أم سلمة قالت قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى خيرات حسان قال خيرات الاخلاق حسان الوجوه وقال أبو صالح لانهن عذارى ابكار قال الحكيم الترمذى فالخيرة ما اختارهن الله تعالى فأبدع خلقهن باختياره فاختيار الله تعالى لا يشبه اختيار الآدميين فوصفهن بالحسن فاذا وصف الله تبارك وتعالى خالق الحسن شيأ بالحسن فانظر ما هناك وقال الرازى فى باطنهن الخير وفى ظاهرهن الحسن (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) أى الكامل الاحسان اليكما (تكذبان) أبنعمة ما جعل لكم من الفواكه أم غيرها ثم زاد فى وصفهن بقوله تعالى (حور) جمع حوراء وهى الشديدة سواد العين الشديدة بياضها (مقصورات) والمقصورات المحبوسات المستورات (فى الخيام) وهى الحجال فلسن بالطوافات فى الطرق قاله ابن عباس والنساء تمدح بملازمتهن البيوت كما قال قيس بن الاسلت

وتكسل عن جيرانها فيزرنها ❊ وتعتل من اتيانهن فتعذر

ويقال امرأة مقصورة وقصيرة وقصورة بمعنى واحد قال كثير عزة

وأنت التى حببت كل قصيرة ❊ الىّ ولم يعلم بذاك القصائر

عنيت قصيرات الحجال ولم أرد ❊ قصار الخطا شر النساء البحاتر

والخيام جمع خيمة وهى أربعة أعواد تنصب وتسقف بشيء من نبات الارض وجمعها خيم كتمرة وتمر وتجمع الخيم على خيام فهو جمع الجمع وأما ما يتخذ من شعر أو وبر أو نحوه فيقال له خباء وقد يطلق عليه خيمة تجوزا وقال عمر الخيمة درة مجوفة وقاله ابن عباس قال وهى فرسخ فى فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب وفى الحديث ان فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا فى كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذى قال بلغنا أن سحابة أمطرت من العرش فخلقن أى الحور العين من قطرات الرحمة ثم ضرب على كل واحدة خيمة على شاطئ الانهار سعتها أربعون ميلا وليس لها باب حتى اذا دخل ولى الله تعالى بالخيمة انصدعت الخيمة عن باب ليعلم ولى الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها فهى مقصورة قد قصرها الله عن أبصار المخلوقين وقال مجاهد معناه قصرن اطرافهن وأنفسهن على أزواجهن فلا يبغين بدلا وقال صلى الله عليه وسلم لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على أهل الارض لاضاءت ما بينهما وللأت ما بينهما ريحا ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها ❊ (فائدة) ❊ اختلفوا أيما أكثر حسنا وأتم جمالا الحور أم الآدميات فقيل الحور لما ذكر فى وصفهن فى القرآن والسنة ولقوله صلى الله عليه وسلم فى دعائه فى صلاة الجنازة وأبدله زوجا خيرا من زوجه وقيل الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف روى ذلك مرفوعا وقيل ان الحور العين المذكورات فى القرآن هن المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يخلقن فى الآخرة على أحسن صورة قاله الحسن البصرى قال ابن عادل والمشهور ان الحور العين لسن من نساء أهل الدنيا انما هن مخلوقات فى الجنة لان الله تعالى قال لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات اهـ لكن مرّ أنه

لم يطمثهن بعد انشائهن خلقا آخر وعلى هذا الادليل فى ذلك (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) الذى صوّركم فأحسن صوركم (تكذبان) أبهذه النعم أم بغيرها (لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان) كحور الجنتين الاولين وضميرهم فى قبلهم لاصحاب الجنتين (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) الذى جعل لكم فى الجنة مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (تكذبان) أبهذه النعم أم بغيرها (متكئين) أى لهم ماذكر حالة الاتكاء والعامل فى الحال محذوف أى ينعمون متكئين (على رفرف) أى ثياب ناعمة وفرش رقيقة النسج من الديباج لينة ووسائد عظيمة ورياض باهرة وبسط لها أطراف فاضلة وهو جمع رفرفة لان الله تعالى وصفه بالجمع بقوله (خضر) ووصفه بذلك لان الخضرة أحسن الالوان وأبهجها وقال الجوهرى هو ثياب خضر تتخذ منها المحابس الواحدة رفرفة واشتقاقه من رف الطائر أى ارتفع فى الهواء ورفرف بجناحيه اذا نشرهما للطيران وقيل الرفرف طرف الفسطاط والخباء الواقع على الارض دون الاطناب والاوتاد وفى الخبر فى وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فرفع الرفرف فرأينا وجهه كأنه ورقة أى رفع طرف الفسطاط وقال الحكيم الترمذى فى نوادر الاصول الرفرف أعظم خطرا من الفرش فذكر فى الاولين متكئين على فرش بطائنها من استبرق وقال هنا متكئين على رفرف خضر فالرفرف هو مستقر الولى على شئ اذا استوى عليه الولى رفرف به أى طار به حيثما يريد كالمرجاح وروى فى حديث المعراج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ سدرة المنتهى جاء الرفرف فتناوله من جبريل وطار به الى سند العرش فذكر أنه قال طار بى يخفضنى ويرفعنى حتى وقف بى على ربى أى فى محل تنزلات رحمة ربى ثم لما جاء الانصراف تناوله فطار به خفضا ورفعا يهوى به حتى أداه الى جبريل عليه السلام فالرفرف خادم من الخدم بين يدى الله تعالى له خواص الامور من الدنوّ والقرب كما أن البراق دابة تركبها الانبياء عليهم السلام مخصوصة بذلك وهذا الرفرف الذى سخر لاهل الجنتين الدانيتين هو متكؤهما وفرشهما يرفرف بالولى على حافات تلك الانهار حيث يشاء الى خيام أزواجه وقوله تعالى (وعبقرى) منسوب الى عبقر تزعم العرب انه اسم بلد الجن فينسبون اليه كل شئ عجيب قال فى القاموس عبقر موضع كثير الجن وقرية ثيابها فى غاية الحسن والعبقرى الكامل من كل شئ وقال الخليل هو كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم وقال قطرب ليس هو من المنسوب بل هو بمنزلة كرسى وبختى اهـ والمراد به الجنس ولذلك قال تعالى (حسان) حملا على المعنى أى هى فى غاية من كمال الصنعة وحسن المنظر لا توصف (فبأى آلاء) أى نعم (ربكما) المحسن الواحد الذى لا محسن غيره ولا احسان الا منه (تكذبان) أبشئ من هذه النعم ام بغيرها ولما دل ماذكر فى هذه السورة من النعم على احاطة مبدعها بأوصاف الكمال وختم نعم الدنيا بقوله تعالى ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام وفيه اشارة الى ان الباقى هو الله تعالى وأن الدنيا فانية ختم نعيم الآخرة بقوله عز من قائل (تبارك) قال ابن برجان تفاعل من البركة ولا يكاد يذكره جل ذكره الا عند أمر معجب اهـ ومعناه ثبت ثباتا لا تسع العقول وصفه ولما كان تعظيم الاسم أبلغ فى تعظيم المسمى قال تعالى (اسم ربك)

أى الحسن اليك بانزال هذا القرآن الذى جبلك على متابعته فصرت مظهراله وصار خلقالك فصار احسانه اليك فوق الوصف وقيل لفظ اسم زائد وجرى عليه الجلال المحلى والاول أولى (ذى الجلال) أى العظمة الباهرة (والاكرام) قال القرطبي كانه يريد به الاسم الذى افتتح به السورة فقال الرحمن فافتتح بهذا الاسم فوصف خلق الانسان والجن وخلق السموات والارض وصنعه وانه تعالى كل يوم هو فى شان ووصف تدبيره فيهم ثم وصف يوم القيامة وأهوالها وصفة النار ثم ختمها بصفة الجنان ثم قال فى آخر الصفة تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام أى هذا الاسم الذى افتتح به هذه السورة كانه يعلمهم ان هذا كله خرج لكم من رحمتى فمن رحمتى خلقتكم وخلقت لكم السماء والارض والخليقة والجنة والنار فهذا كله لكم من اسم الرحمن فمدح اسمه فقال تعالى تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام أى جليل فى ذاته كريم فى أفعاله وقرأ ابن عامر بالواو رفعا صفة للاسم والباقون بالياء خفضا صفة لرب فانه هو الموصوف بذلك روى الثعلبي عن على أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لكل شئ عروس وعروس القرآن سورة الرحمن جل ذكره وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الرحمن أدى شكر ما أنعم الله عليه حديث موضوع

﴿سورة الواقعة مكية﴾

فى قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء وقال ابن عباس وقتادة الا آية منها نزلت بالمدينة وهى قوله تعالى وتجعلون رزقكم انكم تكذبون وقال الكلبي مكية الا أربع آيات منها آيتان أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون نزلتا فى سفره الى مكة وقوله تعالى ثلة من الاولين وثلة من الآخرين نزلتا فى سفره الى المدينة وقدمنا أن فى المدنى والمكى اصطلاحين وان المشهور أن المكى ما نزل قبل الهجرة والمدنى ما نزل بعدها وهى ست وتسعون آية قال الجلال المحلى وهى ست أو سبع أو تسع وتسعون آية اهـ وثلثمائة وثمان وتسعون كلمة وألف وسبعمائة وثلاثة أحرف

(بسم الله) الذى له الكمال كله فتفاوت بين الناس فى الاحوال (الرحمن) الذى عم بنعمة البيان وفاضل فى قبولها بين أهل الادبار وأهل الاقبال (الرحيم) الذى قرب أهل حزبه ففازوا بمحاسن الاقوال والافعال ولما قسم سبحانه الناس فى تلك السورة الى ثلاثة أصناف مجرمين وسابقين ولاحقين شرح أحوالهم فى هذه السورة وبين الوقت الذى يظهر فيه اكرامه وانتقامه بقوله تعالى (اذا وقعت الواقعة) أى التى لابد من وقوعها ولا واقع يستحق أن يسمى الواقعة بلام الكمال وتاء المبالغة غيرها وهى النفخة الثانية التى يكون عنها البعث الاكبر الذى هو القيامة الجامعة لجميع الخلق فسميت واقعة لتحقق وقوعها وقيل لكثرة ما يقع فيها من الشدائد وانتصاب اذا بمحذوف مثل اذكر أو كان كيت وكيت وقال الجرجانى اذا صلة كقوله تعالى اقتربت الساعة وأتى أمر الله وهو كما يقال جاء الصوم أى دنا وقرب وقوله تعالى (ليس لوقعتها

كاذبة) مصدر بمعنى الكذب والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر كقوله تعالى لا يسمع فيها لاغية أى لغوا والمعنى ليس لها كذب قاله الكسائى أو صفة والموصوف محذوف أى ليس لوقعتها حال كاذبة أى كل من يخبر عن وقعتها صادق أو نفس كاذبة بأن تنفيها كما نفتها فى الدنيا وقال الزجاج ليس لوقعتها كاذبة أى لا يردها شئ وقيل ان قيامها جد لا هزل وقوله تعالى (خافضة رافعة) تقرير لعظمتها وهو خبر لمبتدا محذوف أى هى قال عكرمة ومقاتل خفضت الصوت فأسمعت من دنا ورفعت الصوت فأسمعت من نأى يعنى أسمعت القريب والبعيد وعن السدى خفضت المتكبرين ورفعت المستضعفين وقال قتادة خفضت أقواما فى عذاب الله تعالى ورفعت أقواما الى طاعة الله تعالى وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه خفضت أعداء الله تعالى فى النار ورفعت أولياء الله تعالى فى الجنة وقال ابن عطاء خفضت قوما بالعدل ورفعت آخرين بالفضل ولا مانع أن كل ذلك موجود فيها والرفع والخفض يستعملان عند العرب فى المكان والمكانة والعز والاهانة ونسب سبحانه وتعالى الخفض والرفع الى القيامة توسعا ومجازا على عادة العرب فى اضافتها الفعل الى المحل والزمان وغيرهما مما لا يمكن منه الفعل يقولون ليل قائم ونهار صائم وفى التنزيل بل مكر الليل والنهار والخافض والرافع فى الحقيقة هو الله تعالى واللام فى قوله تعالى لوقعتها اما للتعليل أى لا تكذب نفس فى ذلك اليوم لشدة وقعتها واما للتعدية كقولك ليس لزيد ضارب فيكون التقدير اذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها أمر يوجد لها كاذب اذا أخبر عنه قال الرازى وعلى هذا لا تكون ليس عاملة فى اذا وهو بمعنى ليس لها كاذب (اذا رجت الارض) أى كلها على سعتها وثقلها بأيسر أمر (رجا) أى حركت تحريكا شديدا بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل قال بعض المفسرين ترتج كما يرتج الصبى فى المهد حتى ينهدم ما عليها وينكسر كل شئ عليها من الجبال وغيرها والرجرجة الاضطراب وارتج البحر وغيره اضطرب وفى الحديث من ركب البحر حين يرتج فلا ذمة له يعنى اذا اضطربت أمواجه والظرف متعلق بخافضة أو بدل من اذا وقعت * ولما ذكر حركتها المزعجة أتبعها غايتها بقوله تعالى (وبست الجبال بسا) أى فتتت حتى صارت كالسويق الملتوت من بس السويق اذا لته قال ابن عباس ومجاهد كما يبس الدقيق أى يلت والبسيسة السويق أو الدقيق يلت بالسمن أو الزيت ثم يؤكل ولا يطبخ وقد يتخذ زادا قال الراجز

لا تخبزا خبزا وبسا بسا * ولا تطيلا بمناخ حبسا

أو سيقت وسيرت من بس الغنم اذا ساقها وبست الابل وأبسستها لغتان اذا زجرتها وقلت بس بس قاله أبو زيد وقال الحسن بست قلعت من أصلها فذهبت ونظيرها ينسفها ربى نسفا وقال عطية بسطت بالرمل والتراب (فكانت) أى بسبب ذلك (هباء) أى غبارا هو فى غاية الانسحاق والى شدة لطافته أشار بصفته فقال تعالى (منبثا) أى منتشرا متفرقا بنفسه من غير حاجة الى هواء يفرقه فهو كالذى يرى فى شعاع الشمس اذا دخل من كوة وعن ابن عباس هو ما تطاير من النار اذا أضرمت يطير منها شرر فاذا وقع لم يكن شيأ (وكنتم) أى قسمتم بما كان فى جبلاتكم

وطبائعكم فى الدنيا (أزواجا) أى أصنافا (ثلاثة) كل صنف يشاكل ما هو منه كما يشاكل الزوج الزوجة قال البيضاوى وكل صنف يكون أو يذكر مع صنف آخر زوج ثم بين من هم بقوله تعالى (فأصحاب الميمنة) وهم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم مبتدأ وقوله تعالى (ما) استفهام فيه تعظيم مبتدأ ثان وقوله تعالى (أصحاب الميمنة) خبر المبتدا الثانى والجملة خبر الاول وتكرير المبتدا هنا بلفظه مغن عن الضمير ومثله الحاقة ما الحاقة القارعة ما القارعة ولا يكون ذلك الا فى مواضع التعظيم * ولما ذكر الناجين بقسميهم أتبعهم اضدادهم بقوله تعالى (وأصحاب المشأمة) أى الشمال وهم الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم وقوله تعالى (ما أصحاب المشأمة) تحقير لشأنهم بدخولهم النار وقال السدى أصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين الى الجنة وأصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال الى النار والمشأمة الميسرة وكذا الشأمة والعرب تقول لليد الشمال الشؤمى وللجانب الشمال الاشأم وكذلك يقال لما جاء عن اليمين اليمن ولما جاء عن الشمال الشؤم قال البغوى ومنه سمى الشأم واليمن لان اليمن عن يمين الكعبة والشأم عن شمالها وقال ابن عباس رضى الله عنهما أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه فقال الله تعالى لهم هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وقال زيد بن أسلم هم الذين أخذوا من شق آدم الايمن وقال ابن جريج أصحاب الميمنة هم أصحاب الحسنات وأصحاب المشأمة هم أصحاب السيئات وفى صحيح مسلم من حديث الاسراء من أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال فلما علونا السماء الدنيا فاذا رجل عن يمينه اسودة وعن يساره أسودة قال فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى قال فقال مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال آدم عليه السلام وهذه الاسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فاهل اليمين أهل الجنة والاسودة التى عن شماله أهل النار وذكر الحديث وقال المبرد أصحاب الميمنة أصحاب التقدم وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر والعرب تقول اجعلنى فى يمينك ولا تجعلنى فى شمالك أى اجعلنى من المتقدمين ولا تجعلنى من المتأخرين * (تنبيه) * الفاء فى قوله تعالى فأصحاب تدل على التقسيم وبيان ما ورد عليه التقسيم كأنه قال أزواجا ثلاثة أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون ثم بين حال كل قسم فقال فأما أصحاب الميمنة وترك التقسيم أولا واكتفى بما يدل عليه بأن ذكر الاقسام الثلاثة مع أحوالها (فان قيل) ما الحكمة فى اختيار لفظ المشأمة فى مقابلة الميمنة مع انه قال فى بيان أحوالهم وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال (أجيب) بأن اليمين وضع للجانب المعروف واستعملوا منه الفاظا فى مواضع فقالوا هذا ميمون تيمنا به ووضعوا مقابلة اليمين اليسار من الشئ اليسير اشارة الى ضعفه واستعملوا منه ألفاظا تشاؤما به فذكر المشأمة فى مقابلة الميمنة وذكر الشمال فى مقابلة اليمين فاستعمل كل لفظ مع مقابله ولما ذكر تعالى القسمين وكان كل منهما قسمين ذكر أعلى أهل القسم الاول ترغيبا فى حسن حالهم ولم يقسم أهل المشأمة ترهيبا فى سوء حالهم فقال تعالى (والسابقون) أى الى أعمال الطاعة مبتدأ وقوله تعالى (السابقون) تأكيد عن المهدوى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال السابقون الذين

اذا أعطوا الحق قبلوه واذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لانفسهم وقال محمد بن كعب القرظى هم الانبياء عليهم السلام وقال الحسن وقتادة السابقون الى الايمان من كل أمة وقال محمد بن سيرين هم الذين صلوا الى القبلتين قال تعالى والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار وقال مجاهد والضحاك هم السابقون الى الجهاد وأول الناس رواحا الى الصلاة وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه هم السابقون الى الصلوات الخمس وقال سعيد بن جبير الى التوبة وأعمال البر قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم ثم أثنى عليهم فقال تعالى أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون وقال ابن عباس رضى الله عنهما هم أربعة منهم سابق أمة موسى عليه السلام وهو حزقيل مؤمن آل فرعون وسابق أمة عيسى عليه السلام وهو حبيب النجار صاحب انطاكية وسابقا أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهما أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وقال سميط بن عجلان الناس ثلاثة رجل ابتكر الخير فى حداثة سنه ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق المقرب ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم طول الغفلة ثم رجع بتوبته حتى ختم له بها فهذا من أصحاب اليمين ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى ختم له بها فهذا من أصحاب الشمال وروى عن كعب قال هم أهل القرآن المتوجون يوم القيامة وقيل هم أول الناس رواحا الى المسجد وأولهم خروجا فى سبيل الله وخبر المبتدا (أولئك) أى العالو الرتبة جدا (المقربون) أى الذين قربت درجاتهم فى الجنة من العرش وأعليت مراتبهم واصطفاهم الله تعالى للسبق فأرادهم لقربه ولولا فضله فى تقريبهم لم يكونوا سابقين قال الرازى فى اللوامع المقربون تخلصوا من نفوسهم وأعمالهم كلها لله تعالى دينا ودنيا من حق الله تعالى وحق الناس وكلاهما عندهم حق الله تعالى والدنيا عندهم آخرتهم لانهم يراقبون ما يبدو لهم من ملكوته فيتلقونه بالرضا والانقياد وهم صنفان صنف قلوبهم فى جلاله وعظمته هائمة قد ملكتهم هيبته فالحق يستعملهم فى وصف آخر قد أرخى من عنانه والامر عليه أسهل لانه قد جاوز بقلبه هذه الخطة ومحله اعلى فهو امين الله تعالى فى أرضه فيكون عليه أوسع اه ثم بين تقريبه لهم بقوله تعالى (فى جنات النعيم) أى الذى لا كدر فيه بوجه ولا منغص ولما ذكر السابقين فصلهم بقوله تعالى (ثلة) أى جماعة وقيدها الزمخشرى بالكثيرة وأنشد

وجاءت اليهم ثلة خندفية ۞ تجيش كتيار من السيل مزبد

قال ابن عادل ولم يقيدها غيره بل صرح بانها الجماعة قلت أو كثرت ثم قال والكثرة التى فهمها الزمخشرى قد تكون من السياق اه لكن قال البغوى والثلة جماعة غير محصورة العدد (من الاولين) أى من الامم السابقة من لدن آدم الى محمد صلى الله عليه وسلم من النبيين عليهم السلام ومن آمن بهم (وقليل من الآخرين) وهم من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد كان الانبياء عليهم السلام مائة ألف ونيفا وعشرين ألفا وكان من خرج مع موسى عليه السلام من مصر وهو مؤمن به من الرجال المقاتلين ممن هو فوق العشرين ودون الثمانين ستمائة ألف فما ظنك بمن عداهم من الشيوخ ومن دون العشرين من البالغين والصبيان ومن النساء فكيف بمن عداه من سائر النبيين عليهم السلام المجددين من بنى اسرائيل وغيرهم قال البيضاوى ولا يخالف ذلك

(حاشية الجانب) بعض الحواشي : بخط اليد غير مقروء

قوله عليه الصلاة والسلام أمتي يكثرون سائر الامم لجواز أن يكون سابقو سائر الامم أكثر من سابق هذه الامة وتابعو هذه الامة أكثر من تابعيهم قيل لما نزلت هذه الآية شق على اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت ثلة من الاولين وثلة من الآخرين فقال النبي صلى الله عليه وسلم اني لارجو أن تكونوا ربع أهل الجنة بل نصف اهل الجنة وتقاسمونهم في النصف الثاني رواه ابو هريرة رضي الله عنه ذكره الماوردي وغيره ومعناه ثابت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود وكأنه اراد أنها منسوخة قال الرازي وهذا في غاية الضعف لان عدد أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان في ذلك الزمان بل الى آخر الزمان بالنسبة الى ما مضى في غاية القلة والمراد بالاولين الانبياء وكبار أصحابهم وهم اذا اجتمعوا كانوا أكثر من السابقين من هذه الامة ولان هذا خبر والخبر لا ينسخ وقال الحسن سابقو من مضى أكثر من سابقينا فلذا قال تعالى وقليل من الآخرين وقال في اصحاب اليمين وهم سوى السابقين ثلة من الاولين وثلة من الآخرين ولذا قال صلى الله عليه وسلم اني لأرجو أن تكون أمتي شطر أهل الجنة ثم تلا ثلة من الاولين وثلة من الآخرين وروى الطبراني أن الثلة والقليل كلاهما من هذه الامة فتكون الصحابة كلهم من هذه الثلة وكذا من تبعهم باحسان الى رأس القرن الثالث وهم لا يحصيهم الا الله تعالى ومن المعلوم أنه تناقص الامر بعد ذلك الى أن صار السابق في الناس أقل من القليل لرجوع الاسلام الى الحال التي بدأ عليها من الغربة بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء أى وهم الذين اذا فسد الناس صلحوا كما فسر به النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وقال أبو بكر كلا الثلتين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فمنهم من هو في أول أمته ومنهم من هو في آخرها وهو مثل قوله تعالى فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات وقيل المراد بالاولين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبالآخرين ذرياتهم الملحقون بهم في قوله تعالى واتبعناهم ذرياتهم بايمان ألحقنا بهم ذرياتهم واشتقاق الثلة وهي مبتدأ من الثل وهو القطع والخبر (على سرر) جمع سرير وهو ما يجعل للانسان من المقاعد العالية المصنوعة للراحة والكرامة (موضونة) قال ابن عباس رضي الله عنهما منسوجة بالذهب وقال عكرمة مشبكة بالدر والياقوت وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا موضونة أى مصفوفة لقوله تعالى في موضع آخر على سرر مصفوفة وقيل منسوجة بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت والموضونة المنسوجة وأصله من وضنت الشئ أى ركبت بعضه على بعض ومنه قيل للدرع موضونة لتركب حلقها قال الاعشى

ومن نسج داود موضونة * تسير مع الحي عيرا فعيرا

ومنه أيضا وضين الناقة وهو حزامها المتراكب طاقاته قال عمر رضي الله عنه وهو مار بوادي محسر

اليك تعدو قلقا وضينها * معترضا في بطنها جنينها

* مخالفا دين النصارى دينها *

رواه البيهقي ومعناه ان ناقتي تعدو اليك مسرعة في طاعتك قلقا وضينها وهو حبل كالحزام من كثرة السير والاقبال التام والاجتهاد البالغ في طاعتك والمراد صاحب الناقة فيسن للمار

بوادى محسر أن يقول هذا الكلام الذى قاله عمر رضى الله تعالى عنه ولما ذكر تعالى السرر وبين عظمتها ذكر غايتها فقال سبحانه (متكئين عليها) أى السرر على الجنب أو غيره كحال من يكون على كرسى فيوضع تحته شئ آخر للاتكاء عليه (متقابلين) فلا ينظر بعضهم الى قفا بعض وقال مجاهد وغيره هذا فى المؤمن وزوجته وأهله أى يتكؤن متقابلين قال الكلبى طول كل سرير ثلثمائة ذراع فاذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت فاذا جلس عليها ارتفعت وقيل انهم صاروا أرواحا نورانية صافية ليس لهم أدبار ولا ظهور * (تنبيه) * متكئين عليها متقابلين حالان من الضمير فى على سرر ويجوز أن تكون حالا متداخلة فيكون متقابلين حالا من ضمير متكئين ثم بين تعالى انهم فى غاية الراحة بقوله تعالى (يطوف عليهم) أى لكفاية كل ما يحتاجون اليه (ولدان) أى على أحسن صورة وزى وهيئة (مخلدون) قد حكم الله تعالى ببقائهم على ما هم عليه من الهيئة على شكل الاولاد قال الحسن والكلبى لا يهرمون ولا يتغيرون ومنه قول امرئ القيس

وهل ينعمن الا سعيد مخلد * قليل الهموم ما يبيت بأوجال

وقال سعيد بن جبير مخلدون مقرطون يقال للقرط الخلد والقرط ما يجعل فى الاذنين من الحلق وقيل مقرطقون أى ممنطقون من المناطق والمنطقة ما يجعل فى الوسط وأكثر المفسرين انهم على سن واحد أنشأهم الله تعالى لاهل الجنة يطوفون عليهم نشؤا من غير ولادة فيها الآن الجنة لا ولادة فيها وقال على بن أبى طالب والحسن البصرى رضى الله عنهم الولدان ههنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا ولا حسنة لهم ولا سيئة وقال سلمان الفارسى أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة قال الحسن لم تكن لهم حسنات يجازون بها ولا سيآت يعاقبون عليها فوضعوا هذا الموضع والمقصود أن أهل الجنة على أتم السرور والنعمة وقوله تعالى (بأكواب) متعلق بيطوفون والاكواب جمع كوب وهى كيزان مستديرة الافواه بلا عرى ولا خراطيم لا يعوق الشارب منها عائق عن شرب من أى موضع أراد منها فلا يحتاج أن يحول الاناء عن الحالة التى تناوله بها ليشرب وقوله تعالى (وأباريق) جمع ابريق وهى أوان لها عرى وخراطيم فيها من أنواع المشارب ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين سمى بذلك لبريق لونه من صفائه (وكأس) أى اناء شراب الخمر (من معين) أى خمر صافية صفاء الماء ليس يتكلف عصرها جارية من منبع لا ينقطع أبدا (فان قيل) كيف جمع الاكواب والاباريق وأفرد الكأس (أجيب) بأن ذلك على عادة أهل الشرب فانهم يعدون الخمر فى أوان كثيرة ويشربون بكأس واحد وفيها مباينتهم لاهل الدنيا من حيث انهم يطوفون بالاكواب والاباريق ولا تثقل عليهم بخلاف أهل الدنيا (لا يصدعون عنها) أى بسببها قال الزمخشرى وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها والصداع هو الداء المعروف الذى يلحق الانسان فى رأسه والخمر تؤثر فيه قال علقمة بن عبدة فى وصف الخمر

تشفى الصداع ولا يؤذيك صالبها * ولا يخالطها فى الرأس تدويم

قال أبو حيان هذه صفة خمر الجنة كذا قال لى الشيخ أبو جعفر بن الزبير والمعنى لا تتصدع رؤسهم من شربها فهى لذة بلا أذى بخلاف خمر الدنيا (وقيل) لا يتفرقون عنها (ولا ينزفون) أى تذهب

بعقولهم بوجه من الوجوه أى يفرغ شرابهم من نزفت البئر اذا نزح ماؤها كله وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بكسر الزاى والباقون بفتحها (وفاكهة مما يتخيرون) أى يختارون مايشتهون من الفواكه لكثرتها وقيل المعنى وفاكهة متخيرة مرضية والتخير الاختيار (ولحم طير مما يشتهون) أى يتمنون قال ابن عباس رضى الله عنهما يخطر على قلبه لحم الطير فيصير ممثلا بين يديه على ما اشتهى ويقال انه يقع على صحفة الرجل فيأكل منه مايشتهى ثم يطير فيذهب (فان قيل) ما الحكمة فى تخصيص الفاكهة بالتخير واللحم بالاشتهاء (أجيب) بأن اللحم والفاكهة اذا حضرا عند الجائع تميل نفسه الى اللحم واذا حضرا عند الشبعان تميل نفسه الى الفاكهة فالجائع مشته والشبعان غير مشته بل هو مختار وأهل الجنة انما يأكلون لامن جوع بل للتفكه فميلهم للفاكهة أكثر فيتخيرونها ولهذا ذكرت فى مواضع كثيرة فى القرآن بخلاف اللحم واذا اشتهاه حضر بين يديه على مايشتهيه فتميل نفسه اليه أدنى ميل ولهذا قدم الفاكهة على اللحم (فان قيل) الفاكهة واللحم لا يطوف بهما الولدان والعطف يقتضى ذلك (أجيب) بأن الفاكهة واللحم فى الدنيا يطلبان فى حال الشرب فجاز أن يطوف بهما الولدان فيناولونهم الفواكه الغريبة واللحوم العجيبة لا للاكل بل للاكرام كما يضع المكرم للضيف أنواع الفواكه بيده أو يكون معطوفا على المعنى فى قوله جنات النعيم أى مقربون فى جنات النعيم وفاكهة ولحم أى فى هذا النعيم يتقلبون * ولما لم يكن بعد الاكل والشراب أشهى من النساء قال تعالى (وحور) أى نساء شديدات سواد العيون وبياضها (عين) أى ضخام العيون وقرأ حمزة والكسائى بخفض الاسمين عطفا على سرر فان النساء فى معنى المتكا لانهن يسمين فراشا والباقون بالرفع عطفا على ولدان (كأمثال اللؤلؤ المكنون) أى المخزون فى الصدف المصون الذى لم تمسه الايدى ولم تقع عليه الشمس والهواء فيكون فى نهاية الصفاء قال البغوى ويروى أنه يسطع نور فى الجنة فيقولون ما هذا فيقال ثغر حوراء ضحكت فى وجه زوجها ويروى أن الحوراء اذا مشت يسمع تقديس الخلاخل من ساقيها وتمجيد الاسورة من ساعديها وأن عقد الياقوت يضحك فى نحرها وفى رجليها نعلان من ذهب شراكهما من لؤلؤ يصران بالتسبيح ولما بالغ فى وصف جزائهم بالحسن والصفاء دل على أن أعمالهم كانت كذلك لان الجزاء من جنس العمل فقال تعالى (جزاء) أى فعل ذلك لهم لاجل الجزاء (بما كانوا يعملون) أى يجددون عمله على جهة الاستمرار قالت المعتزلة هذا يدل على أن ايصال الثواب واجب على الله تعالى لان الجزاء لا يجوز الاخلال به وأجيبوا بأنه لو صح ماذكروه لما كان فى الوعد بهذه الاشياء فائدة لان العقل اذا حكم بأن ترك الجزاء قبيح وعلم بالعقل أن القبيح من الله تعالى لا يوجد علم ان الله تعالى يعطى هذه الاشياء لانها جزاؤه وايصال الجزاء واجب فكان لا يصح القدح به (لا يسمعون فيها لغوا) أى شيأ مما لا ينفع واللغو الساقط (ولا تأثيما) أى ما يحصل به الاثم أو النسبة الى الاثم بل حركاتهم وسكناتهم كلها فى رضا الله تعالى وقال ابن عباس رضى الله عنهما باطلا وكذبا قال محمد بن كعب ولا تأثيما أى لا يؤثم بعضهم بعضا وقال مجاهد لا يسمعون شتما ولا مأثما وقوله تعالى (الا قيلا) فيه قولان أحدهما أنه

استثنا منقطع وهذا واضح لانه لم يندرج تحت اللغو والتأثيم والثانى أنه متصل وفيه بعد قال ابن عادل فكان هذا رأى أن الاصل لا يسمعون فيها كلاما فاندرج عنده فيه * ثم بين تعالى ذلك بقوله (سلاما سلاما) أى قولا سلاما قال عطاء يحيى بعضهم بعضا بالسلام أو تحييهم الملائكة أو يحييهم ربهم ودل على دوامه تكريره فقال تعالى سلاما ففيه اشارة الى كثرة السلام عليهم ولهذا لم يكرر فى قوله تعالى سلام قولا من رب رحيم وقال القرطبى السلام الثانى بدل من الاول والمعنى الا قولا يسلم فيه من اللغو * ولما بين حال السابقين شرع فى بيان حال أصحاب اليمين فقال تعالى (وأصحاب اليمين) ثم فخم أمرهم وأعلى مدحهم لتعظيم جزائهم فقال تعالى (ما أصحاب اليمين) فان قيل ما الحكمة فى ذكرهم بلفظ أصحاب الميمنة عند تقسيم الازواج الثلاثة وبلفظ أصحاب اليمين عند ذكر الانعام (أجيب) بأن ذلك تفنن فى العبارة والمعنى واحد (فى سدر) أى شجر نبق (مخضود) أى لا شوك فيه كأنه خضد شوكه أى قطع ونزع منه قال ابن المبارك أخبرنا صفوان عن سليم بن عامر قال كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يقولون انا لينفعنا الاعراب ومسائلهم قال أقبل أعرابى يوما فقال يارسول الله لقد ذكر الله تعالى فى القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما هى قال السدر فان له شوكا مؤذيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوليس يقول سدر مخضود خضض الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة فانها تنبت ثمرا على اثنين وسبعين لونا من الطعام ما فيه لون يشبه الآخر وقال أبو العالية والضحاك نظر المسلمون الى وج وهو واد بالطائف مخصب فأعجبهم سدره فقالوا ياليت لنا مثل هذا فنزلت قال أمية بن أبى الصلت يصف الجنة وما فيها

ان الحدائق فى الجنان ظليلة * فيها الكواعب سدرها مخضود

قال مجاهد فى سدر مخضود هو الموقر حملا الذى تنثنى أغصانه كثرة حمله من خضض الغصن اذا ثناه وهو رطب وقال سعيد بن جبير ثمرها أعظم من القلال (وطلح منضود) أى منظوم بالحمل من أعلاه الى أسفله ليست له ساق بارزة متراكم يتركب بعضه على بعض على ترتيب هو فى غاية الاعجاب والطلح جمع الطلحة قال على وابن عباس رضى الله عنهم وأكثر المفسرين الطلح شجر الموز واحده طلحة وقال الحسن ليس هو موزا ولكنه شجر له ظل بارد رطب وقال الفراء وأبو عبيدة شجر عظيم كثير الشوك والطلح كل شجر عظيم له شوك وقال الزجاج هو شجر أم غيلان قال مجاهد ولكن ثمرها أحلى من العسل وقال الزجاج لها نور طيب جدا خوطبوا ووعدوا بما يحبون مثله الا أن فضله على ما فى الدنيا كفضل سائر ما فى الجنة على ما فى الدنيا وقال السدى طلح الجنة يشبه طلح الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل وقال مسروق أشجار الجنة من عروقها الى أفنانها نضيدة ثمر كله كلما أكلت ثمرة عاد مكانها أحسن منها (وظل ممدود) أى دائم لا يزول ولا تنسخه الشمس لقوله تعالى ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس وقيل الظل ليس ظل أشجار بل ظل يخلقه الله تعالى قال الربيع بن أنس رضى الله عنه يعنى ظل العرش وقال عمرو بن ميمون رضى الله عنه مسيرة سبعين ألف سنة وقال أبو عبيدة تقول العرب للدهر

الطويل والعمر الطويل والشئ الذى لا ينقطع ممدود قال الشاعر

غلب العزاء وكان غير مغلب * دهر طويل دائم ممدود

وفى صحيح الترمذى وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها واقرؤا ان شئتم وظل ممدود وفى هذا الحديث رد على من يقول ان الاشجار لا ظل لها وقد سئل السبكى عن الرجل الذى هو آخر أهل الجنة دخولا اذا تراءت له شجرة يقول يارب أدنى من هذه لاستظل فى ظلها الحديث من أى شئ يستظل والشمس قد كورت أجاب بقوله تعالى وظل ممدود وبقوله تعالى هم وأزواجهم فى ظلال اذ لا يلزم من تكوير الشمس عدم الظل لانه مخلوق لله تعالى وليس بعدم بل أمر وجودى له نفع باذن الله تعالى فى الابدان وغيرها فليس الظل عدم الشمس كما قد يتوهم وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى وظل ممدود قال شجرة فى الجنة يخرج اليها أهل الجنة فيتحدثون ويشتهى بعضهم لهو الدنيا فيرسل الله تعالى عليهم ريحا من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو فى الدنيا (وماء مسكوب) أى جار فى منازلهم فى غير أخدود لا يحتاجون فيه الى جلب ماء من الاماكن البعيدة ولا ادلاء فى بئر كأهل البوادى فان العرب كانت أصحاب بادية وبلاد حارة وكانت الانهار فى بلادهم عزيزة لا يصلون الى الماء الا بالدلو والرشاء فوعدوا فى الجنة خلاف ذلك (وفاكهة كثيرة) أى أجناسها وأنواعها وأشخاصها (لا مقطوعة ولا ممنوعة) قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تنقطع اذا جنيت ولا تمتنع من أحد اذا أراد أخذها وقال بعضهم لا مقطوعة بالازمان ولا ممنوعة بالاثمان كما تنقطع أكثر ثمار الدنيا اذا جاء الشتاء ولا يتوصل اليها الا بالثمن وقيل لا يمنع من أرادها شوك ولا بعد ولا حائط بل اذا اشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها قال تعالى قطوفها دانية وجاء فى الحديث ما قطع من ثمار الجنة الا أبدل الله تعالى مكانها ضعفين * ولما كان التفكه لا يكمل الالتذاذ به الامع الراحة قال تعالى (وفرش مرفوعة) أى رفيعة القدر يقال ثوب رفيع أى عزيز مرتفع القدر والثمن بدليل قوله تعالى متكئين على فرش بطائنها من استبرق فكيف ظهائرها أو مرفوعة فوق السرر بعضها فوق بعض روى الترمذى عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى وفرش مرفوعة قال ارتفاعها كما بين السماء والارض مسيرة خمسمائة عام قال حديث غريب وقيل هى كناية عن النساء كما كنى عنهن باللباس أى ونساء مرتفعات الاقدار فى حسنهن وكمالهن والعرب تسمى المرأة فراشا ولباسا على الاستعارة دليل هذا التأويل قوله تعالى (انا) أى بما لنا من العظمة التى لا يتعاظمها شئ (أنشأناهن) أى الفرش التى معناها النساء من أهل الدنيا بعد الموت بالبعث وزاد فى التأكيد فقال تعالى (انشاء) أى خلقا جديدا من غير ولادة بل جعلناهن من التراب كسائر بنى آدم ليكونوا كأبيهم آدم عليه السلام فى خلقه من تراب لتكون الاعادة كالبداءة ولذلك يكون الكل عند دخول الجنة على شكله عليه السلام وروى الجصاص باسناده أن أم سلمة سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى انا أنشأناهن انشاء فقال هن اللواتى قبضن فى الدنيا عجائز شمطا عمشا

رمصا جعلهن الله تعالى بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد فى الاستواء وروى أنس بن مالك رضى الله عنه رفعه فى قوله تعالى انا أنشأناهن انشاء قال هن العجائز العمش الرمص كن فى الدنيا عمشا رمصا وعن المسيب بن شريك عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى انا أنشأناهن انشاء قال هن عجائز الدنيا أنشأهن الله تعالى خلقا جديدا كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا فلما سمعت عائشة رضى الله عنها ذلك قالت وا وجعاه فقال النبى صلى الله عليه وسلم ليس هناك وجع وعن الحسن رضى الله عنه قال أتت عجوز النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ادع الله تعالى أن يدخلنى الجنة فقال يا أم فلان ان الجنة لا يدخلها عجوز قال فولت تبكى فقال أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز ان الله تعالى يقول انا أنشأناهن انشاء (فجعلناهن) أى الفرش المنشآت وغيرهن بعظمتنا المحيطة بكل شئ (أبكارا) أى عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن عذارى ولا وجع وذكر المسيب عن غيره انهن فضلن على الحور العين بصلاتهن فى الدنيا وقال مقاتل وغيره هن الحور العين أنشأهن الله تعالى لم تقع عليهن الولادة وقوله تعالى (عربا) جمع عروب كصبور وصبر وهى الغنجة المحببة الى زوجها وقال الرازى فى اللوامع الفطنة بمراد الزوج كفطنة العرب وقيل الحسناء وقيل المحسنة لكلامها وقال ابن عباس رضى الله عنهما هن العواتق وأنشدوا وفى الخباء عروب غير فاحشة * ريا الروادف يعشى دونها البصر وقرأ حمزة وشعبة بسكون الراء والباقون بضمها كرسل ورسل وفرش وفرش وقوله تعالى (أترابا) جمع ترب وهو المساوى لك فى سنك لانه يمس جلدهما التراب فى وقت واحد وهو آكد فى الائتلاف وهو من الاسماء التى لا تتعرف بالاضافة لانه فى معنى الصفة اذ معناه مساويك ومثله خدنك لانه بمعنى مصاحبك قال القرطبى سن واحد وهو ثلاث وثلاثون سنة يقال فى النساء أتراب وفى الرجال أقران وكانت العرب تميل الى من جاوزت حد الفتى من النساء وانحطت عن الكبر وقال مجاهد الاتراب الامثال والاشكال وقال السدى أتراب فى الاخلاق لا تباغض فيهن ولا تحاسد وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يدخل أهل الجنة الجنة جردا مردا بيضا مكحلين أبناء ثلاثين أو قال ثلاثا وثلاثين على خلق آدم عليه السلام ستون ذراعا فى سبعة أذرع وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال من مات من أهل الجنة من صغير وكبير يردون بنى ثلاثين سنة فى الجنة لا يزيدون عليها أبدا وكذلك أهل النار وعن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال أدنى أهل الجنة الذى له ثمانون ألف خادم واثنان وسبعون ألف زوجة وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء ينظر وجهه فى خدها أصفى من المرآة وان أدنى لؤلؤة عليها تضىء ما بين المشرق والمغرب وانه ليكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان أدنى أهل الجنة منزلة وما منهم دنى لمن يغدو عليه ويروح عشرة آلاف خادم مع كل واحد منهم طريفة ليست مع صاحبه وفى تعلق اللام فى قوله تعالى (لاصحاب اليمين) وجهان أحدهما انها متعلقة بأنشأناهن أى لاجل أصحاب اليمين والثانى انها متعلقة بأترابا كقولك هذا ترب لهذا اى مساوله ثم بينهم

بقوله تعالى (ثلة من الاولين) اى من أصحاب اليمين (وثلة) اى منهم (من الآخرين) فلم يبين
فيهم قلة ولا كثرة قال البقاعى والظاهران الآخرين أكثر فان وصف الاولين بالكثرة لا ينافى
كون غيرهم اكثر ليتفق مع قول النبى صلى الله عليه وسلم ان هذه الامة ثلثا اهل الجنة فانهم
عشرون ومائة صف هذه الامة منهم ثمانون صفا واربعون من سائر الامم وعن عروة بن رويم
قال لما نزل قوله تعالى ثلة من الاولين وقليل من الآخرين بكى عمر وقال يا نبى الله آمنا برسول الله
وصدقناه ومن ينجو منا قليل فأنزل الله تعالى ثلة من الاولين وثلة من الآخرين فدعا رسول
الله صلى الله عليه وسلم عمر فقال قد انزل الله تعالى فيما قلت فقال عمر رضينا عن ربنا وتصديق نبينا
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آدم الينا ثلة ومنا الى يوم القيامة ثلة ولا يستتمها الا سودان
من رعاة الابل ممن قال لا اله الا الله وعن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه قال عرضت على الامم
فجعل يمر النبى معه الرجل والنبى معه الرجلان والنبى معه الرهط والنبى ليس معه احد ورفع الى
سواد عظيم فقلت انهم امتى فقيل لى هذا موسى وقومه ولكن انظر الى الافق فنظرت فاذا سواد
عظيم فقيل لى هذه امتك ومعهم سبعون الفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فتفرق الناس
ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا اما نحن
فولدنا فى الشرك ولكنا آمنا بالله ورسوله ولكن هؤلاء هم ابناؤنا فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم
ذلك فقال هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة
ابن محصن فقال ادع الله تعالى أن يجعلنى منهم فقال أنت منهم ثم قام رجل آخر فقال ادع الله أن
يجعلنى منهم فقال سبقك بها عكاشة والرهط دون العشرة وقيل الى الاربعين وعن عبد الله
ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال عرضت على الانبياء الليلة باتباعها حتى أتى على
موسى فى كبكبة بنى اسرائيل فلما رأيتهم اعجبونى فقلت أى رب من هؤلاء قيل هو اخوك موسى
ومن معه من بنى اسرائيل قلت يا رب واين امتى قيل انظر عن يمينك فنظرت فاذا ظراب مكة قد
سد بوجوه الرجال فقال هؤلاء امتك ارضيت فقلت رضيت رب قيل انظر عن يسارك فنظرت فاذا
الافق قد سد بوجوه الرجال فقيل هؤلاء أمتك أرضيت قلت رب رضيت فقيل ان مع هؤلاء سبعين
الفا يدخلون الجنة لا حساب عليهم فقال صلى الله عليه وسلم ان استطعتم ان تكونوا من السبعين
فكونوا وان عجزتم وقصرتم فكونوا من اهل الظراب فان عجزتم فكونوا من اهل الافق فانى قد
رأيت اناسا يتهاوشون كثيرا وعن عبد الله بن مسعود قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
فى قبة نحوا من اربعين فقال اترضون ان تكونوا ربع اهل الجنة قلنا نعم قال اترضون أن تكونوا
ثلث اهل الجنة قلنا نعم قال والذى نفسى بيده انى لارجو أن تكونوا نصف اهل الجنة وذلك ان
الجنة لا يدخلها الا نفس مسلمة وما أنتم فى أهل الشرك الا كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الاسود
أو كالشعرة السوداء فى جلد الثور الاحمر وتقدم فى الحديث المار انهم ثلثا أهل الجنة ولا منافاة
لانه صلى الله عليه وسلم أخبر أولا بالقليل ثم أطلعه الله تعالى على الزيادة * ولما أتم وصف أصحاب
الجنة اتبعه اضدادهم بقوله تعالى (وأصحاب الشمال) أى الجهة التى تتشاءم العرب بها ويعبر بها

عن الشق الاخس والحظ الانقص قال البقاعى والظاهر أنهم أدنى أصحاب المشأمة كما ان أصحاب اليمين دون السابقين من أصحاب الميمنة ثم عظم ذمهم ومصابهم فقال تعالى (ما أصحاب الشمال) أى انهم بحال من الشؤم هو جدير بأن يسأل عنه وسماهم بذلك لانهم يأخذون كتبهم بشمالهم ثم بين متقلبهم وما أعد لهم من العذاب فقال تعالى (فى سموم) أى ريح حارة من النار تنفذ فى المسام (وحميم) أى ماء حار بالغ فى الحرارة الى حد تذيب اللحم (وظل من يحموم) أى دخان أسود كالحم أى الفحم شديد السواد وقيل النار سوداء وأهلها سود وكل شئ فيها أسود وقيل اليحموم اسم من أسماء النار قال الرازى وفى الامور الثلاثة اشارة الى كونهم فى العذاب دائما لانهم ان تعرضوا لمهب الهواء أصابهم السموم وان استكنوا كما يفعل الذى يدفع عن نفسه السموم بالاستكنان بالكن يكونون فى ظل من يحموم وان أرادوا التبرد بالماء من حر السموم يكون الماء من حميم فلا انفكاك لهم من العذاب أو يقال ان السموم تضربه فيعطش وتلتهب نار السموم فى احشائه فيشرب الماء فيقطع أمعاءه فيريد الاستظلال بظل فيكون ذلك الظل اليحموم وذكر السموم والحميم دون النار تنبيها بالادنى على الاعلى كأنه قال أبرد الاشياء فى الدنيا حار عندهم فكيف أحرها وقوله تعالى (لا بارد) أى ليروح النفس (ولا كريم) أى ليؤنس به ويلجأ اليه صفتان للظل كقوله تعالى من يحموم وقال الضحاك لا بارد أى كغيره من الظلال بل حار لانه من دخان شفير جهنم ولا كريم عذب وقال سعيد بن المسيب ولا حسن منظره وكل شئ لا خير فيه ليس بكريم فسماه ظلا ونفى عنه برد الظل وروحه ونفعه من يأوى اليه من أذى الحر وذلك كرمه ليمحو ما فى مدلول الظل من الاسترواح اليه والمعنى انه ظل حار ضار الا ان للنفى فى نحو هذا شأنا ليس للاثبات وفيه تهكم بأصحاب المشأمة وأنهم لا يستأهلون الظل البارد الكريم الذى هو لاضدادهم فى الجنة * ثم بين استحقاقهم لذلك بقوله تعالى (انهم كانوا) أى فى الدنيا (قبل ذلك) أى الامر العظيم الذى وصلوا اليه (مترفين) أى انهم انما استحقوا هذه العقوبة لانهم كانوا فى الدنيا فى سعة من العيش متمكنين فى الشهوات مستمتعين بها متمكنين منها (وكانوا يصرون) أى يقيمون ويديمون على سبيل التجديد لما لهم من الميل الجبلى الى ذلك (على الحنث) أى الذنب ويعبر بالحنث عن البلوغ ومنه قولهم لم يبلغوا الحنث وانما قيل ذلك لان الانسان عند بلوغه اليه يؤاخذ بالحنث أى الذنب وتحنث فلان أى جانب الحنث وفى الحديث كان يتحنث بغار حراء أى يتعبد لمجانبة الاثم نحو تحرج فتفعل فى هذه كلها للسلب * ولما كان ذلك قد يكون من الصغائر التى تغفر قال تعالى (العظيم) اى وهو الشرك قاله الحسن والضحاك وقال مجاهد هو الذنب الذى لا يتوبون منه وقال الشعبى هو اليمين الغموس وهو من الكبائر يقال حنث فى يمينه اى لم يبرها ورجع فيها وكانوا يقسمون ان لا بعث وان الاصنام انداد الله تعالى فذلك حنثهم (فان قيل) الترفه هو التنعم وذلك لا يوجب ذما (اجيب) بأن الذم انما حصل بقوله تعالى وكانوا يصرون على الحنث العظيم فان صدور المعاصى ممن كثرت النعم عليه أقبح القبائح وفى الآية مبالغات لان قوله تعالى يصرون يقتضى ان ذلك عادتهم والاصرار مداومة المعصية ولان الحنث ابلغ من الذنب لان الذنب يطلق

على الصغيرة ويدل على ذلك قولهم بلغ الحنث اى بلغ مبلغا تلحقه فيه الكبيرة ووصفه بالعظيم يخرج الصغائر فانها لا توصف بذلك قال الرازى والحكمة فى ذكره سبب عذابهم ولم يذكر فى اصحاب اليمين سبب ثوابهم فلم يقل انهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين وذلك تنبيه على أن الثواب منه فضل والعقاب منه عدل والفضل سواء ذكر سببه أو لم يذكر لا يتوهم بالتفضل نقص وظلم وأما العدل ان لم يعلم سبب العقاب يظن ان هذا الظلم ويدل على ذلك انه تعالى لم يقل فى حق أصحاب اليمين جزاء بما كانوا يعملون كما قال فى السابقين لان أصحاب اليمين نجوا بالفضل العظيم لا بالعمل بخلاف من كثرت حسناته يحسن اطلاق الجزاء فى حقه (وكانوا) أى زيادة على ما ذكر (يقولون) أى انكارا مجددين لذلك دائما عنادا (أئذا) أى أنبعث اذا (متنا وكنا) أى كونا ثابتا (ترابا وعظاما) ثم أعادوا الاستفهام تأكيدا الانكارهم فقالوا (أئنا لمبعوثون) أى كائن وثابت بعثنا ساعة من الدهر واكدوا ليكون انكارهم لما دون ذلك بطريق الاولى وقرأ قالون أئذا بتحقيق الهمزة الاولى المفتوحة وتسهيل الثانية المكسورة وادخال الف بينهما وكسر الميم من متنا وهمزة واحدة مكسورة فى أئنا وقرأ ورش بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية ولا ادخال بينهما وكسر ميم متنا وهمزة واحدة مكسورة فى أئنا مع النقل عن اصله وقرأ ابن كثير وابو عمرو بالاستفهام فيهما مع تسهيل الثانية الا ان اباعمرو يدخل بينهما الفا فيهما وابن كثير لا يدخل الفا وضما ميم متنا (أوآباؤنا) اى اوتبعث آباؤنا (الاولون) اى الذين قد بليت مع لحومهم عظامهم فصاروا كلهم ترابا ولا سيما ان حلتهم السيول فتفرقت اعضاؤهم وذهبت بها فى الآفاق (فان قيل) كيف حسن العطف على المضمر فى لمبعوثون من غير تأكيد بنحن (أجيب) بأنه حسن للفاصل الذى هو الهمزة كما حسن فى قوله تعالى ما اشركنا ولا آباؤنا الفصل لا المؤكدة للنفى وقرأ قالون وابن عامر بسكون الواو ومن اوو الباقون بفتحها ثم رد الله تعالى عليهم قولهم ذلك بقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) اى لهؤلاء ولكل من كان مثلهم واكد لانكارهم (ان الاولين) اى الذين جعلتم الاستبعاد فيهم وهم الآباء (والآخرين) وهم الابناء (لمجموعون) اى فى المكان الذى يكون فيه الحساب (الى ميقات يوم) اى زمان (معلوم) اى معين عند الله تعالى وهو يوم القيامة اذ هو من شأنه ان يعلم بما عليه من الامارات والميقات ما وقت به الشئ من زمان أو مكان الى حد (ثم انكم) اى بعد هذا الجمع (أيها الضالون) اى الذين غلبت عليهم الغباوة فهم لا يفهمون فضلوا عن الهدى ثم اتبع ذلك ما اوجب الحكم عليهم بالضلال فقال تعالى (المكذبون) بالبعث والخطاب لاهل مكة ومن فى مثل حالهم (لآكلون من شجر من زقوم) وهو من اخبث الشجر المر بتهامة ينبتها الله تعالى فى الجحيم فهو فى غاية الكراهة وبشاعة المنظر ونتن الرائحة وقدمر الكلام على ذلك فى الصافات * (تنبيه) * من الاولى لابتداء الغاية والثانية لبيان الشجر (فمالؤن) أى ملاء هو فى نهاية الثبات وأنتم فى غاية الاقبال عليه مع ما هو عليه من عظيم الكراهة (منها) أى الشجر وأنثه لانه جمع شجرة وهو اسم جنس قال البقاعى وهم يكرهون الاناث فتأنيثه والله اعلم زيادة فى تنفيرهم وقال الزمخشرى أنث ضمير الشجر على المعنى وذكره على اللفظ فى قوله منها وعليه وهو

لف ونشر مرتب (البطون) أى يضطركم الى تناول هذا الكريه حتى تملؤا بطونكم منه ثم لما بين مأ كلهم أتبعه مشربهم فقال تعالى (فشاربون عليه) أى الاكل أو الزقوم (من الحميم) لاجل مرارته وحرارته يحتاجون الى شرب الماء فيشربون من الماء الحار (فشاربون) أى منه (شرب الهيم) أى الابل العطاش وهو جمع هيمان للذكر وهيمى للانثى كعطشان وعطشى والهيام داء معطش تشرب الابل منه الى أن تموت أو تسقم سقما شديدا وقيل انه جمع هائم وهائمة من الهيام أيضا الا ان جمع فاعل وفاعلة على فعل قليل نحو نازل ونزل وعائذ وعوذ وقيل انه جمع هيام بفتح الهاء وهو الرمل غير المتماسك الذى لا يروى من الماء أصلا فيكون مثل سحاب وسحب بضمتين ثم خفف باسكان عينه ثم كسرت فاؤه لتصح الياء كما فعل بالذى قبله والمعنى أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم الى أكل الزقوم الذى هو كالمهل فاذا ملؤا منه البطون سلط عليهم من العطش ما يضطرهم الى شرب الحميم الذى يقطع أمعاءهم فيشربون منه شرب الهيم (فان قيل) كيف صح عطف الشاربين على الشاربين وهما الذوات متفقة وصفتان متفقتان فكان عطفا للشئ على نفسه (أجيب) بأنهما ليستا بمتفقتين من حيث ان كونهم شاربين الحميم على ما هو عليه من تناهى الحرارة وقطع امعائهم أمر عجيب فشربهم له على ذلك كما يشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضا فكانتا صفتين مختلفتين وقرأ نافع وعاصم وحمزة بضم الشين والباقون بفتحها (هذا) أى ما ذكر (نزلهم) أى ما يعدلهم أول قدومهم مكان ما يعد للضيف أول حلوله كرامة له (يوم الدين) أى الجزاء الذى هو حكمة القيامة واذا كان هذا نزلهم فما ظنك بما يأتى بعد ما استقروا فى الجحيم وفى هذا تهكم كما فى قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم فان النزل ما يعد للنازل تكرمة له ثم استدل على منكرى البعث بقوله تعالى (نحن) أى لا غيرنا (خلقناكم) أى بما لنا من العظمة (فلولا) تحضيض أى فهلا (تصدقون) أى بالبعث فان الاعادة أسهل من الابتداء وقيل نحن خلقنا رزقكم فهلا تصدقون ان هذا طعامكم ان لم تؤمنوا ومتعلق التصديق محذوف تقديره فلولا تصدقون بخلقنا (أفرأيتم) أى أخبرونى هل رأيتم بالبصر والبصيرة (ما تمنون) أى تصبون من المنى فى أرحام النساء (أأنتم تخلقونه) أى توجدونه مقدرا على ما هو عليه من الاستواء والحكمة بعد خلقه من صورة النطفة الى صورة العلقة ثم من صورة العلقة الى صورة المضغة ثم منها الى صورة العظام والاعصاب (أم نحن) أى خاصة (الخالقون) أى الثابت لنا ذلك وقرأ أفرأيتم فى الثلاثة مواضع نافع بتسهيل الهمزة التى هى عين الكلمة ولورش وجه ثان وهو ابدالها ألفا وأسقطها الكسائى والباقون بالتحقيق وقرأ أأنتم فى الثلاثة المواضع نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية بخلاف عن هشام وأدخل بينهما ألفا قالون وأبو عمرو وهشام ولم يدخل بينهما ورش وابن كثير ولورش وجه ثان وهو ابدال الثانية ألفا والباقون بتحقيقهما مع عدم الادخال بينهما ولما كان الجواب قطعا أنت الخالق وحدك أكد ذلك بقوله تعالى (نحن) أى بما لنا من العظمة لا غيرنا (قدرنا) اى تقديرا عظيما لا يقدر سوانا على نقص شئ منه (بينكم الموت) أى قسمناه عليكم فلم نترك أحدا منكم بغير حصة منه واقتنا موت كل بوقت معين لا يتعداه فقصر ناعمر هذا وربما كان

فى الاوج من قوة البدن وصحة المزاج فلو اجتمع الخلق كلهم على اطالة عمره ماقدروا أن يؤخروه لحظة وأطلنا عمر هذا وربما كان فى الحضيض من ضعف البدن واضطراب المزاج فلو تمالؤا على تقصيره طرفة عين لعجزوا وقرأ ابن كثير بتخفيف الدال والباقون بالتشديد (ومانحن) أى على مالنا من العظمة (بمسبوقين) أى بالموت أى لاعاجزين ولامغلوبين (على) أى عن (أن نبدل) أى تبديلا عظيما (أمثالكم) أى صوركم وأشخاصكم (وننشئكم) أى انشاء جديدا بعد تبديل ذواتكم (فى مالاتعلمون) فان بعضكم تأكله الحيتان أو السباع أو الطيور فننشئ أبدانه منها وبعضهم يصير ترابا فربما نشأ منه نبات فأكلته الدواب فنشأت منه أبدانها وربما صار ترابه من معادن الارض الذهب والفضة والحديد والنحاس والحجر ونحو ذلك وقد لمح الى ذلك قوله تعالى قل كونوا حجارة أو حديدا الى آخرها ويكون المعنى كما قال البغوى نأت بخلق مثلكم بدلا منكم ونخلقكم فيما لاتعلمون من الصور أى بتغيير أوصافكم وصوركم الى صور أخرى بالمسخ ومن قدر على ذلك قدر على الاعادة وقال الطبرى معنى الآية نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم ومانحن بمسبوقين فى آجالكم أى لايتقدم متأخر ولايتأخر متقدم وننشئكم فيما لاتعلمون من الصور والهيآت قال الحسن أى نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم وقيل المعنى ننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا فنجمل المؤمن ببياض وجهه ونقبح الكافر بسواد وجهه * (فائدة) * فى مامقطوعة فى الرسم (ولقد علمتم النشأة الاولى) أى الترابية لابيكم آدم عليه السلام واللحمية لامكم حواء رضى الله عنها والنطفية لكم وكل منها تحويل من شئ الى آخر غيره فما الذى شاهدتم قدرته على ذلك لايقدر على تحويلكم بعد أن تصيروا ترابا الى ماكنتم عليه أولا من الصور ولهذا سبب عما تقدم قوله تعالى (فلولا) أى فهلا ولم لا (تذكرون) أى تذكرا عظيما تكرهون أنفسكم عليه فتعلمون أن من قدر على النشأة الاولى قدر على الثانية فانها أقل صنعا لحصول المواد وتخصيص الاجزاء وسبق المثال وفيه دليل على صحة القياس وفى الخبر عجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة الاولى وعجبا للمصدق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور وقرأ ابن كثير وأبو عمرو النشاءة بفتح الشين وبعدها ألف قبل الهمزة والباقون بسكونها ولاألف بعدها فاذا وقف حمزة نقل حركة الهمزة الى الشين وخفف ذال تذكرون حمزة والكسائى وحفص وشددها الباقون ثم ذكرلهم حجة أخرى بقوله تعالى (أفرأيتم) أى أخبرونى هل رأيتم بالبصر والبصيرة مانبهنا كم عليه فيما تقدم فتسبب عن تنبيهكم لذلك انكم رأيتم (ماتحرثون) أى تجددون حرثه على الاستمرار من أراضيكم فتطرحون فيه البذر (أأنتم تزرعونه) أى تنشئونه بعد طرحكم وتجعلونه زرعا فيكون فيه السنبل والحب (أم نحن) خاصة (الزارعون) أى المنبتون له والحافظون روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لايقولن أحدكم زرعت وليقل حرثت قال أبو هريرة أرأيتم الى قوله تعالى أفرأيتم الآية * ولما كان الجواب قطعا أنت الفعال لذلك وحدك قال تعالى موضحا لانه مازرعه غيره (لونشاء) أى لو عاملناكم بصفة العظمة

(لجعلناه)

(لجعلناه) اى بتلك العظمة (حطاما) أى مكسورا مفتتا لاحب فيه قبل النبات حتى لا يقبل الخروج أو بعده ببرد مفرط أو حر مهلك أو غير ذلك فلا ينتفع به (فظلتم) أى فأقمتم بسبب ذلك نهارا فى وقت الاشغال العظيمة وتركتم ما يهمكم (تفكهون) حذفت منه احدى التاءين فى الاصل تخفيفا أى تتعجبون مما نزل بكم فى زرعكم وقيل تندمون على ما سلف منكم من المعاصى التى أوجبت تلك العقوبة قال الزمخشرى ومنه الحديث مثل العالم كمثل الحمة يأتيها البعداء ويتركها القرباء فبينماهم اذ غار ماؤها فانتفع بها قوم وبقى قوم يتفكهون أى يتندمون وقال الكسائى التفكه التلهف على ما فات من الاضداد تقول العرب تفكهت أى تنعمت وتفكهت أى حزنت وتقولون (انا لمغرمون) بحذف القول ومعنى الغرم ذهاب المال بغير عوض من الغرام وهو الهلاك ومن مجىء الغرام بمعنى الهلاك قول القائل

ان يعذب يكن غراما وان يعـ * ـط جزيلا فانه لا يبالى

وقال ابن عباس الغرام العذاب أى عذبوا بذهاب أموالهم والمعنى ان غرمنا الحب الذى بذرناه فذهب بغير عوض ومن الغرام بمعنى العذاب قول القائل

وثقت بأن الحلم منك سجية * وأن فؤادى مبتلى بك مغرم

وقرأ شعبة أئنا بهمزة مفتوحة بعدها همزة مكسورة على الاستفهام والباقون بهمزة واحدة مكسورة على الخبر (بل نحن) أى خاصة (محرومون) أى ممنوعون رزقنا حرمنا من لا يرد قضاؤه فلا حظ لنا فى الاكتساب فلو كان الزارع ممن له حظ لا فلح زرعه ثم ذكر تعالى لهم حجة أخرى بقوله تعالى (أفرأيتم الماء) أى أخبرونى هل رأيتم بالبصر والبصيرة ما نبهنا عليه فيما مضى من المطعم وغيره فرأيتم الماء (الذى تشربون) فتحيوا به أنفسكم وتسكنوا به عطشكم ذكرهم بنعمه التى أنعم بها عليهم بانزال المطر الذى لا يقدر عليه أحد الا الله عز وجل (أأنتم أنزلتموه من المزن) أى السحاب وهو اسم جنس واحده مزنة قال القائل

فلا مزنة ودقت ودقها * ولا أرض أبقل ابقالها

وعن ابن عباس والثورى المزن السماء والسحاب وقال أبو زيد المزنة السحابة البيضاء أى خاصة وهى أعذب ماء والجمع مزن والمزنة المطرة (أم نحن) أى خاصة (المنزلون) أى له بمالنا من العظمة (لو نشاء) أى حال انزاله وبعده قبل أن ينتفع به (جعلناه) أى بما تقتضيه صفة العظمة (أجاجا) أى ملحا مرا محرقا كأنه فى الاحشاء لهيب النار المؤجج فلا يبرد عطشا ولا ينبت نبتا ينتفع به وقال ابن عادل الاجاج المالح الشديد الملوحة (فلولا) أى فهلا ولم لا (تشكرون) أى تجددون الشكر على سبيل الاستمرار باستعمال ما أفادكم ذلك من القوى فى طاعة الله الذى أوجده لكم ومكنكم منه ثم ذكر تعالى لهم حجة أخرى بقوله تعالى (أفرأيتم النار) أى أخبرونى هل رأيتم بالبصر والبصيرة ما تقدم فرأيتم النار (التى تورون) أى تخرجون من الشجر الاخضر (أأنتم أنشأتم) أى اخترعتم وأوجدتم وأحييتم وربيتم ورفعتم (شجرتها) أى التى يقدح منها النار وهى المرخ والعفار وهما شجرتان يقدح منهما النار وهما رطبتان وقيل أراد جميع

الشجر الذي توقدبه النار (أم نحن) أي خاصة وأكد بقوله تعالى (المنشؤن) أي لها بما لنا من العظمة على تلك الهيئة فمن قدر على ايجاد النار التي هي أيبس ما يكون في الشجر الاخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها كان أقدر على اعادة الطراوة في تراب الجسد الذي كان غضا طريا فيبس * ولما كان الجواب قطعا أنت وحدك قال تعالى دالا على ذلك تنبيها على عظم هذا الخبر (نحن) أي خاصة (جعلناها) أي لما اقتضته عظمتنا (تذكرة) أي شيأ يتذكر به تذكرا عظيما جليلا كما أخبرنا به من البعث وعذاب النار الكبرى وما ينشأ فيها من شجرة الزقوم وغير ذلك وقيل موعظة يتعظ بها المؤمن وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ناركم التي توقدون جزء من سبعين جزأ من نار جهنم قالوا والله ان كانت لكافية يا رسول الله قال فانها فضلت عليها بتسعة وستين جزأ كلها مثلها مثل حرها (ومتاعا) أي بلغة ومنفعة (للمقوين) أي المسافرين والمقوي النازل في أرض القوا بالكسر والقصر والمد وهي القفر البعيدة من العمران والمعنى أنه ينتفع بها أهل البوادي والاسفار فان منفعتهم بها أكثر من المقيم فانهم يوقدونها بالليل لتهرب السباع ويهتدي الضال الى غير ذلك من المنافع وقال مجاهد للمقوين أي المنتفعين بها من الناس أجمعين يستضيؤن بها في الظلمة ويصطلون بها من البرد وينتفعون بها في الطبخ والخبز الى غير ذلك من المنافع ويتذكر بها نار جهنم فيستجار بالله تعالى منها وقال ابن زيد للجائعين في اصلاح طعامهم يقال أقويت منذ كذا وكذا أي ما أكلت شيأ قال الشاعر وانى لاختار القوى طاوي الحشى * محافظة من أن يقال لئيم

وقال قطرب المقوي من الاضداد يقال للفقير مقو لخلوه من المال ويقال للغني مقو لقوته على ما يريد والمعنى فيها متاعا ومنفعة للفقراء والأغنياء لاغنى لاحد عنها وقال المهدوي الآية تصلح للجميع لان النار يحتاج اليها المسافر والمقيم والغني والفقير * ولما ذكر تعالى ما يدل على وجوب وحدانيته وقدرته وانعامه على سائر الخلق خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم أو كل أحد من الناس بقوله تعالى (فسبح) أي أوقع التنزيه العظيم من كل شائبة نقص من ترك البعث وغيره ولاسيما بعد بلوغ هذه الادلة (باسم) أي ملتبسا بذكر اسم (ربك) أي المحسن اليك بهذا البيان الاعظم * (فائدة) * أثبتوا ألف الوصل هنا في اسم ربك لانه لم يكثر دوره كثرته في البسملة وحذفوه منها لكثرة دورها وهم شأنهم الايجاز وتقليل الكثير اذا عرف معناه وهذا معروف لايجهل واثبات ما أثبت من اشكاله مما لا يكثر دليل على الحذف منه ولذا لا تحذف مع غير الباء في اسم الله ولا مع الباء في غير الجلالة الكريمة من الاسماء وقد أوضحت ذلك في مقدمتي على البسملة والحمدلة * ولما كان المقام للعظمة قال الله تعالى (العظيم) أي الذي ملأ الاكوان كلها عظمة فلا شئ منها الا وهو مملوء بعظمته تنزيها عن أن يلحقه شائبة نقص أو يفوته شئ من كمال فالعظيم صفة للاسم أو الرب والاسم قيل بمعنى الذات وقيل زائد أي فسبح ربك واختلف في لا في قوله تعالى (فلا أقسم) فقال أكثر المفسرين معناه فاقسم ولا صلة مؤكدة بدليل قوله تعالى بعد ذلك وانه لقسم ومثلها في قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب والتقدير

ليعلم

ليعلم وقال بعضهم انها حرف نفي وان المنفي بها محذوف وهو كلام الكافر الجاهل والتقدير فلا حجة بما يقوله الكافر ثم ابتدأ قسما بما ذكر وضعف هذا بأن فيه حذف اسم لا وخبرها قال أبو حيان ولا ينبغي فان القائل بذلك مثل سعيد بن جبير تلميذ حبر القرآن وهو عبد الله ابن عباس ويبعد أن يقوله سعيد الا بتوقيف وقال بعضهم انها لام الابتداء والاصل فلأقسم فأشبعت الفتحة فتولد منها ألف كقول بعضهم أعوذ بالله من العقراب قال الزمخشري ولا يصح أن تكون اللام لام القسم لامرين أحدهما ان حقها أن تقرن بها النون المؤكدة والاخلال بها ضعيف قبيح والثاني ان لافعلن في جواب القسم للاستقبال وفعل القسم يجب أن يكون للحال واختلف أيضا في معنى قوله عز وجل (بمواقع النجوم) فقال أكثر المفسرين بمساقطها لغروبها قال الزمخشري ولعل لله تعالى في آخر الليل اذا انحطت النجوم الى المغرب أفعالا عظيمة مخصوصة وللملائكة عبادات موصوفة أولانه وقت قيام المجتهدين والمبتهلين اليه من عباده الصالحين ونزول الرحمة والرضوان عليهم فلذلك أقسم بمواقعها واستعظم ذلك بقوله تعالى (وانه لقسم لو تعلمون عظيم) وقال عطاء بن رباح أراد بمواقعها منازلها قال الزمخشري وله في ذلك من الدليل على عظيم القدرة والحكمة مالا يحيط به الوصف وقال الحسن مواقعها انكدارها وانتثارها يوم القيامة وقال ابن عباس والسدى المراد نجوم القرآن أي أوقات نزولها وقال الضحاك هي الانواء التي كانت الجاهلية تقول اذا مطروا مطرنا بنوء كذا وقال القشيري هو قسم ولله أن يقسم بما يريد وليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى وصفاته القديمة (فان قيل) لو تعلمون جوابه ماذا أجيب بأنه مقدر تقديره لعظمتموه أي لو كنتم من ذوي العلم لعلمتم عظم هذا القسم ولكنكم ما عظمتموه فعلم أنكم لاتعلمون وقرأ بموقع حمزة والكسائي بسكون الواو ولا ألف بعدها والباقون بفتح الواو وألف بعدها وقوله تعالى (انه) أي القرآن الذي أفهمته النجوم بعموم افهامها (لقرآن) أي جامع سهل ذو أنواع جليلة (كريم) أي بالغ الكرم منزه عن كل شائبة لؤم ودناءة هو المقسم عليه وفي الكلام اعتراضان أحدهما الاعتراض بقوله تعالى وانه لقسم بين القسم والمقسم عليه والثاني الاعتراض بقوله تعالى لو تعلمون بين الصفة والموصوف *(تنبيه)* من كرم هذا القرآن العظيم كونه من الملك الاعلى الى خير الخلق بسفارة روح القدس مشتملا على أصول العلوم المهمة في اصلاح المعاش والمعاد وبلسان العرب الذين اتفقت علماء الفرق على أن لسانهم أفصح الالسن وعلى وجه أعجز العرب كافة وبقية الخلق أجمعين واختلف في معنى قوله تعالى (في كتاب) أي مكتوب (مكنون) أي مصون فالذي عليه الاكثر أنه المصحف سمي قرآنا لقرب الجوار على الاتساع ولان النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يسافر بالقرآن الى أرض العدو وأراد به المصحف وقوله تعالى (لا يمسه) خبر بمعنى النهي ولو كان باقيا على خبريته لزم منه الخلف لان غير المطهر يمسه وخبر الله تعالى لا يقع فيه خلف لان المراد بقوله تعالى (الا المطهرون) لا المحدثون وهو قول عطاء وطاوس وسالم والقاسم وأكثر أهل العلم وبه قال مالك والشافعي رضي الله عنهما وقال

ابن عادل والصحيح ان المراد بالكتاب المصحف الذى بأيدينا لما روى مالك وغيره ان كتاب عمرو ابن حزم لايمس القرآن الا طاهر وقال ابن عمر قال النبى صلى الله عليه وسلم لاتمس القرآن الا وأنت طاهر وقالت أخت لعمر عند اسلامه وقد دخل عليها ودعا بالمصحف لايمسه الا المطهرون فقام فاغتسل وأسلم وعلى هذا قال قتادة وغيره معناه لايمسه الا المطهرون من الاحداث والانجاس انتهى وقال ابن عباس مكنون محفوظ عن الباطل والكتاب هنا كتاب فى السماء وقال جابر هو اللوح المحفوظ أى لقوله تعالى بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ وقال عكرمة التوراة والانجيل فيهما ذكر القرآن وقال السدى الزبور وقيل لا من لايمسه نافية والضمة فى لايمسه ضمة اعراب وعلى هذا ففى الجملة وجهان أحدهما ان محلها الجر صفة لكتاب والمراد به اما اللوح المحفوظ والمطهرون حينئذ الملائكة أو المراد به المصحف والمراد بالمطهرون الملائكة كلهم والثانى محلها رفع صفة لقرآن والمراد بالمطهرين الملائكة فقط أى لايطلع عليه لان نسبة المس الى المعانى متعذرة وقيل انها ناهية والفعل بعدها مجزوم لانه لوفك عن الادغام لظهر ذلك فيه كقوله تعالى لم يمسسهم سوء ولكنه أدغم ولما أدغم حرك بالضم لاجل هاء ضمير المذكر الغائب وفى الحديث انا لم نرده عليك الا انا حرم بضم الدال وان كان القياس يقتضى جواز فتحها تخفيفا وبهذا ظهر فساد رد من رد بأن هذا لو كان نهيا كان يقال لايمسه بالفتح لانه خفى عليه جواز ضم ماقبل الهاء فى هذا النحو بل لايجوز سيبويه غيره * واختلفوا فى المس المذكور فى الآية فقال أنس وسعيد ابن جبير لايمس ذلك الا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة وقال أبو العالية وابن زيد هم الذين طهروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بنى آدم وقال الكلبى هم السفرة الكرام البررة وهذا كله قول واحد وهو اختيار مالك وقال الحسن هم الملائكة الموصوفون فى سورة عبس فى قوله تعالى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام بررة وقيل معنى لايمسه لا ينزل به الا المطهرون أى الا الرسل من الملائكة على الرسل من الانبياء ولايمس اللوح المحفوظ الذى هو الكتاب المكنون الا الملائكة المطهرون ولو كان المراد طهر الحدث لقال المتطهرون أو المطهرون بتشديد الطاء ومن قال بالاول قال المطهرون يعنى المتطهرون

(تنبيه) اختلف العلماء فى مس المصحف وحمله على غير وضوء فالجمهور على المنع من مسه على غير طهارة لحديث عمرو بن حزم وهو مذهب على وابن مسعود وسعد بن أبى وقاص وسعيد ابن زيد وعطاء والزهرى والنخعى والحكم وحماد وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعى وأما الحمل فلانه أبلغ من المس سواء حمله بعلاقته أم فى كمه أم على رأسه وسواء مس نفس الاسطر أم مابينها أم الحواشى أم الجلد أم العلاقة أم الخريطة أم الصندوق اذا كان المصحف فيهما وسواء مس بأعضاء الوضوء أم بغيرها وقال جماعة بجواز مسه وحمله واحتجوا بأن النبى صلى الله عليه وسلم كتب الى هرقل كتابا فيه قرآن وهرقل محدث يمسه هو وأصحابه وبأن الصبيان يحملون الالواح محدثين بلا انكار وبأنه اذا لم تحرم القراءة فالحمل والمس أولى وبأنه يجوز له

فى أمتعة وأجيب عن الاول بأن ذلك الكتاب كان فيه آيات ولايسمى مصحفا ولا مافى معناه وبأنه لو كان كتابا قد تضمن مع القرآن دعاء الى الاسلام فلم يكن القرآن بانفراده مقصودا فجاز تغليبا للمقصود فيه وعن الثانى بأنه أبيح للصبيان للضرورة لانهم غير مكلفين وعن الثالث بأن القراءة أبيحت للحاجة وعسر الوضوء لها كل وقت وبأنا لانسلم الاولوية المذكورة بدليل أن الكافر لايمنع من القراءة ويمنع من حمل المصحف ومسه وعن الرابع بأن جواز حمل المصحف فى الامتعة محله اذا لم يكن المصحف مقصودا بالحمل وقال آخرون بحرمة المس دون الحمل واحتجوا بأن المحرم يحرم عليه مس الطيب دون حمله وأجيب عنه بأنه غير صحيح لان حمل المصحف أبلغ فى الاستيلاء عليه من مسه فلما حرم الادنى كان تحريم الاعلى أولى ولان تحريم المصحف انما هو لحرمته فاستوى فيه مسه وحمله بخلاف طيب المحرم فان تحريمه مقصور على الاستمتاع به وليس فى حمله استمتاع به ولو لف كمه على يده وقلب به أوراق المصحف حرم عليه لان القلب يقع باليد لا بالكم بخلاف قلب ذلك بعود ويحرم كتب شئ من القرآن أو من أسمائه تعالى بنجس أو على نجس ومسه به اذا كان غير معفو عنه ولو خاف على المصحف من حرق أو غرق أو وقوع نجاسة عليه أو وقوعه فى يد كافر جاز حمله مع الحدث بل يجب ذلك صيانة للمصحف ولو لم يجد من يودعه المصحف وعجز عن الوضوء فله حمله مع الحدث ويلزمه أن يتيمم ان وجد التراب ولا تجوز المسافرة بالمصحف الى أرض الكفار اذا خيف وقوعه فى أيديهم للنهى عنه فى الصحيحين وخرج بالمصحف غيره نحو كتب الفقه والحديث وكتب التفسير فلا يحرم حملها ولا مسها الا أن يكون القرآن أكثر من التفسير أو مساويا له فيحرم الحمل والمس لانه حينئذ فى معنى المصحف وفى ذلك زيادة ذكرتها فى شرح المنهاج وغيره وقوله تعالى (تنزيل) أى منزل النجم بالتدريج بحسب الوقائع والتقريب للافهام والتأنى والترقية من حال الى حال وحكم الى حكم بوسايط الرسل من الملائكة (من رب العالمين) أى الخالق العالم بتربيتهم صفة القرآن أى القرآن منزل من عند رب العالمين سمى المنزل تنزيلا على اتساع اللغة كقوله تعالى هذا خلق الله وأوثر المصدر لان تعلق المصدر بالفاعل أكثر وفى ذلك رد على قول من قال بأن القرآن شعر أو سحر أو كهانة (أفبهذا الحديث) أى القرآن الذى تقدمت أوصافه العالية وهو يتجدد النجم انزاله وقتا بعد وقت (أنتم مدهنون) أى متهاونون كمن يدهن فى الامر أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا به قال ابن برجان الادهان والمداهنة الملاينة فى الامور والتغافل والركون الى التجاوز اه قال البقاعى فهو على هذا انكار على من سمع أحدا يتكلم فى القرآن بما لا يليق ثم لا يجاهره بالعداوة وأهل الاتحاد كابن عربى الطائى صاحب الفصوص وابن الفارض صاحب التائية أول من صوبت اليه هذه الآية فانهم تكلموا فى القرآن على وجه يبطل الدين أصلا ورأسا ويحله عروة عروة فهم أضر الناس على هذا الدين ومن يتأول لهم أو ينافح عنهم أو يعتذر لهم أو يحسن الظن بهم مخالف لاجماع الامة أنجس حالا منهم فان مراده ابقاء كلامهم الذى لا أفسد للاسلام منه من غير ان يكون لابقائه مصلحة ما بوجه من الوجوه اه وجرى ابن المقرى فى روضه على

كفر من شك فى كفر طائفة ابن العربى الذين ظاهر كلامهم عند غيرهم الاتحاد وهو بحسب
مافهمه من ظاهر كلامهم ولكن كلام هؤلاء جار على اصطلاحهم اذ اللفظ المصطلح عليه
حقيقة فى معناه الاصطلاحى مجاز فى غيره والمعتقد منهم لمعناه معتقد لمعنى صحيح وأما من اعتقد
ظاهره من جهلة الصوفية الذين لاعلم عندهم بل أكثرهم يدعى ان العلم حجاب ومدعى ذلك
هو المحجوب فانه يعرف فان استمر على ذلك بعد معرفته صار كافرا فنسأل الله تعالى التوفيق
والعصمة * ولما كان هذا القرآن متكفلا بسعادة الدارين قال تعالى (وتجعلون رزقكم) أى
حظكم ونصيبكم وجميع ماتنتفعون به من هذا الكتاب وهو نفعكم كله (أنكم تكذبون)
فتضعون الكذب مكان الشكر كقوله تعالى وما كان صلاتهم عند البيت الامكاء وتصدية
أى لم يكونوا يصلون ولكنهم كانوا يصفرون ويصفقون مكان الصلاة قال القرطبى وفيه بيان
أن ما أصاب العباد من خير فلا ينبغى أن يروه من قبل الوسايط التى جرت العادة بأن تكون أسبابا
بل ينبغى أن يروه من قبل الله تعالى ثم يقابلونه بشكر ان كان نعمة أو صبر ان كان مكروها تعبدا له
وتذللا وعن ابن عباس ان المراد به الاستسقاء بالانواء وهو قول العرب مطرنا بنوء كذا
ورواه على بن أبى طالب عن النبى صلى الله عليه وسلم وفى صحيح مسلم عن ابن عباس
قال مطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم أصبح
من الناس شاكر ومنهم كافر فقال بعضهم هذه رحمة الله تعالى وقال بعضهم لقد صدق نوء
كذا قال فنزلت هذه الآية فلا أقسم بمواقع النجوم حتى بلغ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون
وفيه أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج فى سفر فعطشوا فقال النبى صلى الله عليه وسلم
أرأيتم ان دعوت الله تعالى لكم فسقيتم لعلكم أن تقولوا هذا المطر بنوء كذا فقالوا يارسول
الله ماهذا بحين الانواء فصلى ركعتين ودعا الله تعالى فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فمطروا
فمر النبى صلى الله عليه وسلم ومعه عصابة من أصحابه برجل يغترف بقدح له وهو يقول سقينا بنوء
كذا ولم يقل هذا من رزق الله تعالى فنزلت وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون أى شكر الله
على رزقه اياكم أنكم تكذبون بالنعمة وتقولون سقينا بنوء كذا كقول القائل جعلت احسانى
اليك اساءة منك الى وجعلت انعامى لديك أن اتخذتنى عدوا قال الشافعى لا أحب لاحد
أن يقول مطرنا بنوء كذا وان كان النوء عندنا الوقت لا يضر ولا ينفع ولا يمطر ولا يحبس شيأ
من المطر والذى أحب أن يقول مطرنا وقت كذا كما يقول مطرنا شهر كذا ومن قال مطرنا بنوء
كذا وهو يريد ان النوء أنزل الماء كما يقول أهل الشرك فهو كافر حلال دمه ان لم يتب
وحاصله ان اعتقد أن النوء هو الفاعل حقيقة فهو كافر والا فيكره له ذلك كراهة تنزيه وسبب
الكراهة انها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بقائلها ولانها من شعار الجاهلية
ومن سلك مسلكهم ثم بين سبحانه أنه لا فاعل لشئ فى الحقيقة سواه بقوله تعالى (فلولا) وهى أداة
تفهم طلبا بزجر وتوبيخ وتقريع بمعنى فهلا ولم لا (اذا بلغت الحلقوم) أى بلغت الروح منكم
ومن غيركم عند الاحتضار الحلقوم أضمرت من غير ذكر لدلالة الكلام عليها دلالة ظاهرة

وفى

وفي الحديث ان ملك الموت له أعوان يقطعون العروق ويجمعون الروح شيأ فشيأ حتى تنتهى الى الحلقوم فيتوفاها ملك الموت والحلقوم مجرى الطعام فى الحلق والحلق مساغ الطعام والشراب معروف فكان الحلقوم أدنى الحلق الى جهة اللسان (وأنتم) أى والحال أنكم أيها العاكفون حول المحتضر المتوجعون له (حينئذ) أى بلغت الروح ذلك الموضع (تنظرون) أى الى أمرى وسلطانى أو الى الميت ولا حيلة لكم ولا فعل بغير النظر ولم يقل تبصرون لئلا يظن ان لهم ادراكا بالبصر لشئ من البواطن من حقيقة الروح ونحوها (ونحن) أى والحال أنا نحن بما لنا من العظمة (أقرب اليه) أى المحتضر بعلمنا وقدرتنا (منكم) على شدة قربكم منه قال عامر بن قيس ما نظرت الى شئ الا رأيت الله أقرب الى منه (ولكن لا تبصرون) من البصيرة أى لا تعلمون ذلك (فلولا) أى فهلا (ان كنتم) أيها المكذبون بالبعث (غير مدينين) أى مربوبين من دان السلطان الرعية اذا ساسهم أو مقهورين مملوكين مجزيين محاسبين بما عملتم فى دار البلاء التى أقامكم فيها أحكم الحاكمين من دانه اذا ذله واستعبده وأصل تركيب دان للذل والانقياد قاله البيضاوى (ترجعونها) أى الروح الى ما كانت عليه (ان كنتم) كونا ثابتا (صادقين) فيما زعمتم فلولا الثانية تأكيد للاولى واذ ظرف لترجعون المتعلق به الشرطان والمعنى أنكم فى جحودكم أفعال الله تعالى وآياته فى كل شئ ان أنزل عليكم كتابا معجزا قلتم سحر وافتراء وان أرسل اليكم رسولا صادقا قلتم ساحر كذاب وان رزقكم مطرا يحييكم به قلتم صدق نوء كذا على مذهب يؤدى الى الاهمال والتعطيل فمالكم لا ترجعون الروح الى البدن بعد بلوغه الحلقوم ان لم يكن ثم قابض وكنتم صادقين فى تعطيلكم وكفركم بالمحيى المميت المبدئ المعيد * ثم ذكر تعالى طبقات الخلق عند الموت وبين درجاتهم فقال عز من قائل (فأما ان كان) المتوفى (من المقربين) السابقين الذين اجتذبهم الحق من أنفسهم فقربهم منه فكانوا مرادين قبل أن يكونوا مريدين وليس القرب قرب مكان لانه تعالى منزه عنه وانما هو بالتخلق بالصفات الشريفة على قدر الطاقة البشرية ليصير الانسان روحا خالصا كالملائكة لا سبيل الى الحظوظ والشهوات عليها وقوله تعالى (فروح) مبتدأ خبره مقدر قبله أى فله روح أى راحة ورحمة وما ينعشه من نسيم الريح وقال سعيد بن جبير فله فرح وقال الضحاك مغفرة ورحمة (وريحان) أى رزق عظيم ونبات حسن بهيج وأزاهير طيبة الرائحة وقال مقاتل هو بلسان حمير رزق يقال خرجت أطلب ريحان الله أى رزقه وقيل هو الريحان الذى يشم قال أبو العالية لا يفارق أحد من المقربين الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيشمه ثم تقبض روحه وقال أبو بكر الوراق الروح النجاة من النار والريحان دخول دار القرار (وجنت) أى بستان جامع الفواكه والرياحين (نعيم) أى ذات تنعم ليس فيها غيره واهله مقصور عليهم * (تنبيه) * جنت هنا مجرورة التاء ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائى فالكسائى بالامالة فى الوقف على أصله والباقون بالتاء على المرسوم (وأما ان كان) المتوفى (من أصحاب اليمين) أى الذين هم فى الدرجة الثانية من أصحاب الميمنة (فسلام لك) أى يا صاحب اليمين

(من) اخوانك (أصحاب اليمين) أى يسلمون عليك كقوله تعالى الا قيلا سلاما سلاما وقال القرطبي فسلام لك من أصحاب اليمين أى لست ترى منهم الا ما تحب من السلامة فلا تهتم لهم فانهم يسلمون من عذاب الله تعالى وقيل المعنى سلام لك منهم أى أنت سالم من الاغتمام لهم والمعنى واحد وقيل أصحاب اليمين يدعون لك يا محمد بأن يصلى الله عليك ويسلم وقيل معناه سلمت أيها العبد مما تكره فانك من أصحاب اليمين فحذف انك وقيل انه يحيي بالسلام تكرما وعلى هذا فى محل السلام ثلاثة أقوال أحدها عند قبض روحه فى الدنيا يسلم عليه ملك الموت قاله الضحاك وقال ابن مسعود اذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال ربك يقرئك السلام الثانى عند مسئلته فى القبر يسلم عليه منكر ونكير الثالث عند بعثه فى القيامة تسلم عليه الملائكة قبل وصوله اليها قال القرطبي ويحتمل أن يسلم عليه فى المواطن الثلاثة ويكون ذلك اكراما بعد اكرام * ولما ذكر تعالى الصنفين الناجيين أتبعهما الهالكين جامعا لهم فى صنف واحد لان من أريدت له السعادة يكفيه ذلك ومن ختم له بالشقاوة والعياذ بالله تعالى لا ينفعه الاغلاظ والاكثار فقال تعالى (وأما ان كان) المتوفى (من المكذبين) الذى أخذناه من أصحاب المشأمة وأنتم حوله تتقطع أكبادكم له ولا تقدرون له على شئ أصلا (الضالين) أى عن الهدى وطريق الحق (فنزل من حميم) كما قال تعالى ثم انكم أيها الضالون المكذبون الى أن قال فشاربون شرب الهيم وقال تعالى ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم أى ماء متناه فى الحرارة بعد ما نالوا من العطش كما يرد أصحاب الميمنة الحوض كما يبادر به للقادم ليبرد به غلة عطشه ويغسل به وجهه ويديه (وتصلية جحيم) أى ونزل من تصلية جحيم والمعنى ادخال فى النار وقيل اقامة فى الجحيم ومقاساة لانواع عذابها يقال اصلاه النار وصلاه أى جعله يصلاها والمصدر هنا مضاف الى المفعول كما يقال لفلان اعطاء ماله أى يعطى المال (ان هذا) أى الذى ذكر فى هذه السورة من أمر البعث الذى كذبوا به فى قولهم أئنا لمبعوثون ومن قيام الادلة عليه (لهو حق اليقين) أى حق الخبر اليقين أى لما عليه من الادلة القطعية المشاهدة كأنه مشاهد مباشر وقيل انما جاز اضافة الحق الى اليقين وهما واحد لاختلاف لفظهما وذلك من باب اضافة المترادفين ولما حقق له تعالى هذا اليقين سبب عن أمره لنبيه صلى الله عليه وسلم بالتنزيه عما وصفوه به مما يلزم منه وصفه بالعجز فقال تعالى (فسبح) أى أوقع التنزيه كله عن كل شائبة نقص بالاعتقاد والقول والفعل بالصلاة وغيرها بأن تصفه بكل ما وصف به نفسه من الاسماء الحسنى وتنزهه عن كل ما نزه نفسه عنه (باسم ربك) أى المحسن اليك بما خصك به مما لم يعطه أحدا غيرك واذا كان هذا الاسم فكيف بما هو له (العظيم) الذى ملأت عظمته جميع الاقطار والاكوان وزادت على ذلك بما لا يعلمه حق العلم سواه لان من له هذا الخلق على هذا الوجه المحكم وهذا الكلام الاعز الاكرم لا ينبغى لشائبة نقص أن تلم بجنابه أو تدنو من فناء بابه وعن عقبة بن عامر قال لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال النبى صلى الله عليه وسلم اجعلوها فى ركوعكم ولما نزلت سبح اسم ربك الاعلى قال النبى صلى الله عليه وسلم اجعلوها فى سجودكم خرجه أبو داود وعن

أبي ذر قال قال لي عليه الصلاة والسلام ألا أخبرك بأحب الكلام الى الله تعالى سبحان الله وبحمده. وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم هذا الحديث آخر حديث في البخاري وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة وروى أبو طيبة عن عبد الله بن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا ورواه البيهقي وغيره وكان أبو طيبة لا يدعها أبدا وأخرجه ابن الاثير في كتابه جامع الاصول ولم يعزه

(سورة الحديد مكية او مدنية)

وهي تسع وعشرون آية وخمسمائة وأربع وأربعون كلمة وألفان وأربعمائة وستة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذي أحاطت هيبته بجميع الموجودات (الرحمن) الذي وسعهم بجوده في جميع الحركات والسكنات (الرحيم) الذي خص أهل ولايته بما يرضيه من العبادات ولما ختمت الواقعة بالامر بتنزيهه عما أنكره الكفرة من البعث جاءت هذه لتقرير ذلك التنزيه فقال تعالى (سبح لله) أي الملك المحيط بجميع صفات الكمال (ما في السموات) أي الاجرام العالية والذي فيها (والارض) والذي فيها أي نزهه كل شيء فاللام مزيدة وجيء بما دون من تغليبا للاكثر (وهو) أي وحده (العزيز) الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء (الحكيم) أي الذي أتقن كل شيء صنعه وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بضمها (له) أي وحده (ملك السموات والارض) وما فيهما وما بينهما ظاهرا وباطنا فالملك الظاهر ماهو الآن موجود في الدنيا من أرض مدحية وسماء مبنية وكواكب مضيئة وأفلاك ورياح وسحاب مرئية وغير ذلك مما يحيط به علمه تعالى والملك الباطن الغائب عنا وأعظمه المضاف الى الآخرة وهو الملكوت (يحيي) أي له صفة الاحياء فيحيي ما شاء من الخلق بأن يوجده على صفة الحياة كيف شاء في أطوار يقلبها كيف شاء وبما شاء (ويميت) أي له هاتان الصفتان على سبيل الاختيار والتجدد والاستمرار فهو قادر على البعث بدليل ما ثبت له من صفة الاحياء (وهو على كل شيء) أي من الاحياء والاماتة وغيرهما من كل ممكن (قدير) أي بالغ القدرة (هو) أي وحده (الاول) بالازلية قبل كل شيء فلا أول له والقديم الذي منه وجود كل شيء وليس وجوده من شيء لان كل ما نشاهده متأثر لانه متغير وكل ما كان كذلك فلا بد له من موجد غير متأثر ولا متغير (والآخر) أي بالابدية الذي ينتهي اليه وجود كل شيء في سلسلة الترقي وهو بعد فناء كل شيء باق فلا آخر له لانه يستحيل عليه نعت العدم لان كل ماسواه متغير وكل ما تغير بنوع من التغير جاز اعدامه وما جاز اعدامه فلا بد له من معدم يكون بعده ولا يمكن اعدامه (والظاهر) أي الغالب العالي على كل شيء (والباطن) أي العالم بكل شيء هذا معنى قول ابن عباس وقال يمان هو الاول القديم والآخر الرحيم والظاهر

الحكيم والباطن العليم وقال السدى هو الاول ببره اذعرفك توحيده والآخر بجوده اذعرفك التوبة على ماجنيت والظاهر بتوفيقه اذوفقك للسجودله والباطن بستره اذ عصيته فستر عليك وقال الجنيد هو الاول بشرح القلوب والآخر بغفران الذنوب والظاهر بكشف الكروب والباطن بعلم الغيوب وسأل عمر كعبا عن هذه الآية فقال معناها ان علمه بالاول كعلمه بالآخر وعلمه بالظاهر كعلمه بالباطن (وهو بكل شئ عليم) أى لكون الاشياء عنده على حد سواء والبطون والظهور راجعاهو بالنسبة الى الخلق وأما هو سبحانه وتعالى فلا باطن من الخلق عنده بل هم فى غاية الظهور لديه لانه الذى أوجدهم (فان قيل) مامعنى هذه الواوات (أجيب) بأن الواو الاولى معناها الدلالة على انه الجامع بين الصفتين الاولية والآخرية والثالثة انه الجامع بين الظهور والخفاء وأما الوسطى فعلى انه الجامع بين الصفتين الاولين ومجموع الصفتين الاخريين فهو المستمر الوجود فى جميع الاوقات الماضية والحاضرة والآتية وهو فى جميعها ظاهر و باطن جامع للظهور بالادلة والخفاء فلا يدرك بالحواس قال الزمخشرى وفى هذا حجة على من جوز ادراكه فى الآخرة بالحاسة وهذا على رأيه الفاسد وهو على رأى المعتزلة المنكرين رؤية الله تعالى فى الآخرة وأما أهل السنة فانهم يثبتون الرؤية للاحاديث الدالة على ذلك من غير تشبيه ولا تكييف تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وعن سهل قال كان أبو صالح يأمرنا اذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الايمن ثم يقول اللهم رب السموات والارض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شئ فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والانجيل والفرقان أعوذبك من شركل شئ أنت آخذ بناصيته اللهم أنت الاول فليس قبلك شئ وأنت الآخر فليس بعدك شئ وأنت الظاهر فليس فوقك شئ وأنت الباطن فليس دونك شئ اقض عنا الدين وأغننا من فضلك وكان يروى ذلك عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم (هو) أى وحده (الذى خلق السموات) وجمعها لعلم العرب بتعددها (والارض) أى الجنس الشامل للكل وأفردها لعدم توصلهم الى العلم بتعددها وقال تعالى (فى ستة أيام) أى من أيام الدنيا أولها الاحد وآخرها الجمعة سنا للتأنى فى الامور وتقديرا للايام التى أوترها سابعها الذى خلق فيه الانسان الذى دل يوم خلقه باسمه الجمعة على أنه المقصود بالذات وبأنه السابع نهاية المخلوقات وقوله تعالى (ثم استوى على العرش) أى السرير كناية عن انفراده بالتدبير واحاطة قدرته وعلمه كما يقال فى ملوكنا جلس فلان على سرير الملك بمعنى أنه انفرد بالتدبير لا يكون هناك سرير فضلا عن جلوس وأتى باداة التراخى تنبيها على عظمته (يعلم مايلج) أى يدخل دخولا يغيب فيه (فى الارض) اى من النبات وغيره من أجزاء الاموات وغيرها وان كان ذلك فى غاية البعد فان الاماكن كلها بالنسبة اليه تعالى على حد سواء فى القرب والبعد (ومايخرج منها) كذلك *(تنبيه)* فى التعبير بالمضارع دلالة على ما أودع فى الخافقين من القوى فصارا بحيث يتجدد منهما ذلك بخلقه تجددا مستمرا الى حين خرابهما (ومايزل من السماء) من الوحى والامطار والحر والبرد وغيرها من الاعيان والمنافع التى يوجدها سبحانه وتعالى

من

من مقادير أعمار بنى آدم وأرزاقهم وغيرها من جميع شؤنهم (ومايعرج) أى يصعد و يرقى ويغيب (فيها) كالابخرة والانوار والكواكب والاعمال وغيرها ولم يجمع السماء لان المقصود حاصل بالواحدة مع افهام التعبير بها الجنس الشامل للكل (وهو معكم) بالعلم والقدرة أيها الخلق (أينما كنتم) لا ينفك علمه وقدرته عنكم بحال فهو عالم بجميع أموركم وقادر عليكم تعالى الله عن اتصال بالعالم ومماسة أو انفصال عنه بغيبة أو مسافة (والله) أى المحيط بجميع صفات الكمال (بما تعملون) أى على سبيل التجدد والاستمرار (بصير) أى عالم بجليله وحقيره فيجازيكم به وقدم الجار لمزيد الاهتمام والتنبيه على تحقيق الاحاطة (له) أى وحده (ملك السموات) وجمع لاقتضاء المقام له (والارض) وأفرد لخفاء تعددها عليهم مع ارادة الجنس ودل على ارادة ملكه واحاطته بقوله تعالى (والى الله) أى الملك الذى لا كفؤ له وحده (ترجع) بكل اعتبار على غاية السهولة (الامور) أى كلها حسابا بالبعث ومعنى بالابتداء والافناء ودل على ذلك بقوله تعالى (يولج) أى يدخل ويغيب بالنقص والمحو (الليل فى النهار) فاذا هو قد قصر بعد طوله وقد انمحى بعد شخوصه وحلوله وزاد النهار وملأ الضياء الاقطار بعد ذلك الظلام (ويولج النهار) الذى عم الكون ضياؤه (فى الليل) الذى كان قد غاب فى علمه فاذا الظلام قد طبق الآفاق فيزيد الليل والطول الذى كان فى النهار قد صار نقصا (وهو) أى وحده (عليم) أى بالغ العلم (بذات الصدور) أى بما فيها من الاسرار والمعتقدات على كثرة اختلافها وتغيرها وان خفيت على أصحابها ولما قامت الادلة على تنزيهه سبحانه قال تعالى آمرا بالاذعان له ولرسوله صلى الله عليه وسلم (آمنوا) أى أيها الثقلان (بالله) أى الملك الاعظم الذى لا مثل له (ورسوله) الذى عظمته من عظمته ونزل فى غزوة العسرة وهى غزوة تبوك (وأنفقوا) أى فى سبيل الله (مما جعلكم مستخلفين فيه) أى من الاموال التى فى أيديكم فانها أموال الله تعالى لانه بخلقه وانشائه لها وانما مولكم اياها وخولكم بالاستمتاع بها وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها فليست هى بأموالكم فى الحقيقة وما أنتم فيها الا بمنزلة الوكلاء والنواب فأنفقوا منها فى حقوق الله تعالى وليهن عليكم الانفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره اذا أذن له فيه أو جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيما فى أيديكم بتوريثه اياكم فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم اليكم وسينتقل منكم الى من بعدكم فلا تبخلوا به وانفعوا بالانفاق منها أنفسكم ولما أمر تعالى بالانفاق ووصفه بما سهله سبب عنه ما رغب فيه فقال تعالى (فالذين آمنوا منكم وأنفقوا) من أموالهم فى الوجوه التى ندب اليها على وجه الاصلاح على مادل عليه التعبير بالانفاق (لهم أجر كبير) أى لا تبلغ عقولكم حقيقة كبره فاغتنموا الانفاق فى أيام استخلافكم قبل عزلكم واتلافكم وخصهم بالذكر بقوله تعالى منكم لضيق فى زمانهم وقيل ان ذلك اشارة الى عثمان فانه جهز جيش العسرة وقوله تعالى (وما) أى وأى شئ (لكم) من الاعذار أو غيرها فى أنكم أو حال كونكم (لا تؤمنون بالله) أى تجددون الايمان تجديدا مستمرا بالملك الاعلى أى الذى له الملك كله والامر كله

خطاب للكفار أى لامانع لكم بعد سماعكم ماذكر (والرسول) أى والحال ان الذى له الرسالة العامة (يدعوكم) فى الصباح والمساء (لتؤمنوا) أى لاجل أن تؤمنوا (بربكم) الذى أحسن تربيتكم بأن جعلكم من أمة هذا النبى الكريم فشرفكم به (وقد) أى والحال انه قد (أخذ ميثاقكم) أى وقع أخذه فصار فى غاية القباحة تركه التوثق بسبب نصب الادلة والتمكين من النظر بابداع العقول وذلك كله منضم الى أخذ الذرية من ظهور آدم عليه السلام حين أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى وقرأ أبو عمرو بضم الهمزة وكسر الخاء ورفع القاف على البناء للمفعول ليكون المعنى من أى آخذ كان من غير نظر الى معين وقرأ الباقون بفتح الهمزة والخاء ونصب القاف على البناء للفاعل والآخذ هو الله القادر على كل شئ العالم بكل شئ والحاصل انهم نقضوا الميثاق فى الايمان فلم يؤاخذهم حتى أرسل الرسل (ان كنتم مؤمنين) أى مريدين الايمان فبادروا اليه (هو) أى لاغيره (الذى ينزل) أى على سبيل التدريج والموالاة بحسب الحاجة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى (على عبده) الذى هو أحق الناس بحضرة جلاله واكرامه وهو محمد صلى الله عليه وسلم (آيات) أى علامات هى من ظهورها حقيقة أن يرجع اليها ويتعبد بها (بينات) أى واضحات وهى آيات القرآن الكريم (ليخرجكم) أى الله بالقرآن أو عبده بالدعوة (من الظلمات) التى أنتم منغمسون فيها من الحظوظ والنقائص التى جبل عليها الانسان والغفلة الكاملة على تراكم الجهل فمن آتاه الله تعالى العلم والايمان فقد أخرجه من هذه الظلمات التى طرأت عليه (الى النور) الذى كان له وصفا لروحه وفطرته الاولى السليمة (وان الله) أى الذى له صفات الكمال (بكم لرؤف رحيم) أى حيث نبهكم بالرسل والآيات ولم يقتصر على مانصب لكم من الحجج العقلية وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى بقصر الهمزة والباقون بالمد وورش على أصله بالمد والتوسط والقصر وليس قصره كقصر أبى عمرو ومن معه وانما قصره كمد قالون ومن وافقه (وما) أى وأى شئ يحصل (لكم) فى (أن لاتنفقوا) أى توجدوا الانفاق للمال (فى سبيل الله) أى فى كل مايرضى الملك الاعظم الذى له صفات الكمال ليكون لكم به وصلة فيخصكم بالرأفة التى هى أعظم الرحمة فانه مايخل أحد عن وجه خير الاسلط الله عليه غرامة فى وجه شر (ولله) أى الذى له صفات الكمال لاسيما صفة الارث المقتضية للزهد فى الموروث (ميراث السموات والارض) أى يرث كل شئ فيهما فلا يبقى لاحد مال فمن تأمل أنه زائل هو وكل مافى يده والموت من ورائه وطوارق الحوادث مطبقة به وعما قليل ينتقل مافى يده الى غيره هان عليه الجود بنفسه وماله ثم بين تعالى التفاوت بين المنفقين منهم فقال تعالى (لايستوى منكم من أنفق) أى أوجد الانفاق فى ماله وجميع قواه ومايقدر عليه (من قبل الفتح) أى الذى هو فتح جميع الدنيا فى الحقيقة وهو فتح مكة الذى كان سببا لظهور الدين الحق (وقاتل) سعيا فى انفاق نفسه لمن آمن به قبل الاسلام وقوة أهله ودخول الناس فى دين الله أفواجا وقلة الحاجة الى القتال والنفقة فيه ومن أنفق من بعد

الفتح فحذف لوضوحه ودلالة مابعده عليه وفضل الاول لما ناله انذاك بالانفاق من كثرة المشاق لضيق المال حينئذ وفي هذا دليل على فضل أبي بكر فانه أول من أنفق لم يسبقه في ذلك أحد وخاصم الكفار حتى ضرب ضربا شديدا أشرف منه على الهلاك روى محمد بن فضيل عن الكلبي ان هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعن ابن عمر قال كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أبو بكر الصديق عليه عباءة قد خلها في صدره بخلال فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلها بخلال فقال انفق ماله علي قبل الفتح قال فان الله عز وجل يقول اقرأ عليه السلام وقل له أراض انت عني في فقرك هذا أم ساخط فقال أبو بكر اسخط على ربي اني عن ربي راض (أولئك) أي المنفقون المقاتلون وهم السابقون الاولون من المهاجرين والانصار الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه لمبادرتهم الى الجود بالنفس والمال (أعظم درجة) وتعظيم الدرجة يكون لعظم صاحبها (من الذين أنفقوا من بعد) أي من بعد الفتح (وقاتلوا) أي من بعد الفتح (وكلا) أي وكل واحد من الفريقين (وعد الله) أي الذي له الجلال والاكرام (الحسنى) أي المثوبة الحسنى وهي الجنة مع تفاوت الدرجات وقرأ ابن عامر برفع اللام على الابتداء أي وكل وعده ليطابق ما عطف عليه والباقون بنصبها أي وعد كلا (والله) اي الذي له الاحاطة الكاملة بجميع صفات الكمال (بما تعملون) أي تجددون عمله على الاوقات (خبير) اي عالم بباطنه وظاهره علما لامزيد عليه بوجه فهو يجعل جزاء الاعمال على قدر النيات التي هي أرواح صورها * (تنبيه) * التقدم والتأخر قد يكون في أحكام الدين وقد يكون في أحكام الدنيا فأما التقدم في أحكام الدين فقالت عائشة أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم وأعظم المنازل مرتبة الصلاة وقد قال صلى الله عليه وسلم في مرضه مروا أبابكر فليصل بالناس وقال يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله وقال فليؤمكما أكبركما وأما أحكام الدنيا فهي مرتبة على أحكام الدين فمن قدم في الدين قدم في الدنيا وفي الحديث ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا وفي الحديث ما أكرم شاب شيخا لسنه الاقيض الله له عند سنه من يكرمه ثم رغب في الانفاق بقوله تعالى (من) وأكد بالاشارة بقوله تعالى (ذا) لاجل ما للنفوس من الشح (الذي يقرض الله) أي يعطي الذي له جميع صفات الجلال والاكرام شبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز لانه اذا أعطى المستحق ماله لوجه الله تعالى فكأنه أقرضه اياه (قرضا حسنا) أي طيبا خالصا مخلصا فيه متحريا به أفضل الوجوه من غير من وكدر بتسويف وغيره (فيضاعفه له) أي يؤتي أجره من عشرة الى أكثر من سبعمائة كما ذكره في البقرة الى ماشاء الله تعالى من الاضعاف وقيل القرض الحسن أن يقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وقال زيد بن أسلم هو النفقة على الاهل وقال الحسن التطوع بالعبادات وقرأ ابن عامر وعاصم بنصب الفاء بعد العين والباقون بالرفع وقرأ ابن كثير وابن عامر بغير ألف بعد الضاد وتشديد العين والباقون بألف بعد الضاد وتخفيف العين (وله) أي للقرض زيادة

على ذلك (أجر) لا يعلم قدره الا الله تعالى وهو معنى وصفه بقوله تعالى (كريم) أى حسن طيب زاك تام وقوله تعالى (يوم) ظرف لقوله تعالى وله أجر كريم أو منصوب باضمار اذكر أى واذكر يوم (ترى) أى بالعين (المؤمنين والمؤمنات) أى الذين صار الايمان لهم صفة راسخة (يسعى نورهم) أى ما يوجب نجاتهم وهدايتهم الى الجنة (بين أيديهم وبأيمانهم) لان السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين كما ان الاشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم فيجعل النور فى الجهتين شعارا لهم وآية لانهم هم الذين بحسناتهم سعدوا وبصحائفهم البيض أفلحوا فاذا ذهب بهم الى الجنة ومروا على الصراط يسعون يسعى معهم ذلك النور جنيبا لهم ومتقدما والاول نور الايمان والمعرفة والاعمال المقبولة والثانى نور الانفاق لانه بالايمان نبه عليه الرازى وقال قتادة ذكر لنا ان نبى الله صلى الله عليه وسلم قال من المؤمنين من يضىء نوره من المدينة الى عدن ودون ذلك حتى ان من المؤمنين من لا يضىء نوره الا موضع قدميه وقال عبد الله بن مسعود يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم وأدناهم نورا نوره على ابهامه فيطفأ مرة ويتقد أخرى ويقول لهم الذين يتلقونهم من الملائكة (بشراكم اليوم) أى بشارتكم العظيمة فى جميع ما يستقبلكم من الزمان *(تنبيه)* بشراكم اليوم مبتدأ واليوم ظرف وقوله تعالى (جنات) خبره على حذف مضاف أى دخول جنات وهو المبشر به ثم وصفها بما لا تكمل اللذة الا به بقوله (تجرى من تحتها الانهار) ثم آمنهم من خوف الانقطاع بقوله تعالى (خالدين فيها) أى خلودا لا آخر له لان الله تعالى أورثهم ذلك فلا يورث عنه لان الجنة لا موت فيها (ذلك) أى هذا الامر العظيم المتقدم من النور والبشرى بالجنات المخلدة (هو الفوز العظيم) أى الذى ملأ بعظمته جميع جهاتهم ولما شرح تعالى حال المؤمنين فى موقف القيامة أتبع ذلك بشرح حال المنافقين بقوله (يوم يقول المنافقون والمنافقات) وهم المظهرون الايمان المبطنون الكفر *(تنبيه)* يوم بدل من يوم ترى أو منصوب باذكر (للذين آمنوا) أى ظاهرا وباطنا (انظرونا) أى انتظرونا لانه يسرع بهم الى الجنة كالبرق الخاطف على ركاب تزف بهم وهؤلاء مشاة أو انظروا الينا لانهم اذا نظروا اليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيؤن به وقرأ حمزة بقطع الهمزة فى الوصل وكسر الظاء والباقون بوصل الهمزة ورفع الظاء وأما الوقف على آمنوا والابتداء بانظرونا فحمزة على حاله كما يقرأ فى الوصل والباقون بضم همزة الوصل فى الابتداء والظاء على حالها من الضم (نقتبس) أى نستضىء (من نوركم) أى هذا الذى نراه لكم ولا يلحقنا منه شىء كما كان فى الدنيا نرى ايمانكم بما نرى من ظواهركم ولا نتعلق من ذلك بشىء جزاء وفاقا وذلك لان الله تعالى يضىء للمؤمنين نورا على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط ويعطى المنافقين أيضا نورا خديعة لهم وهو قوله تعالى وهو خادعهم فبينما هم يمشون اذ بعث الله ريحا وظلمة فاطفأت نور المنافقين فذلك قوله تعالى يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه الآية مخافة ان يسلبوا نورهم كما سلب نور المنافقين والقبس الشعلة من النار أو السراج قال ابن عباس

وأبو امامة يغشى الناس يوم القيامة ظلمة قال الماوردى أظنها بعد فصل القضاء ثم يعطون نورا يمشون فيه وقال الكلبي بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور فاذا سبقهم المؤمنون وبقوا في الظلمة قالوا للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم قيل لهم جوابا لسؤالهم قال ابن عباس يقول لهم المؤمنون أى قول رد وتوبيخ وتهكم وتنديم (ارجعوا وراءكم) أى ارجعوا الى الموقف حيث أعطينا النور (فالتمسوا نورا) هنالك فمن ثم يقتبس أو ارجعوا الى الدنيا فالتمسوا نورا بتحصيل سببه وهو الايمان أو ارجعوا خائبين وتنحوا عنا والتمسوا نورا آخر فلا سبيل لكم الى هذا النور وقد علموا أن لا نور وراءهم وانما هو تخييب واقناط لهم وقال قتادة تقول لهم الملائكة ارجعوا وراءكم من حيث جئتم وقرأ هشام والكسائي بضم القاف والباقون بكسرها ولما كان التقدير فرجعوا أو فأقاموا في الظلمة سبب عنه وعقب قوله تعالى (فضرب بينهم) أى بين المؤمنين والمنافقين (بسور) أى حائط حائل بين شق الجنة وشق النار (له) أى لذلك السور (باب) موكل به حجاب لا يفتحون الا لمن أذن له الله تعالى من المؤمنين لما يهديهم اليه من نورهم الذى بين أيديهم بشفاعة أو نحوها (باطنه) أى ذلك السور أو الباب وهو الشق الذى يلى الجنة من جهة الذين آمنوا جزاء لايمانهم الذى هو غيب (فيه الرحمة) وهى ما لهم من الكرامة لانه يلى الجنة التى هى ساترة تبطن من فيها بأشجارها وبأستارها كما كانت بواطنهم ملآنة رحمة (وظاهره) أى ما ظهر لاهل النار (من قبله) أى من عنده ومن جهته (العذاب) وهو الظلمة والنار لانه يليها لاقتصار اهلها على الظواهر من غير أن يكون لهم نفوذ الى باطن وروى عن عبد الله بن عمر ان السور الذى ذكر الله تعالى فى القرآن هو سور بيت المقدس الشرقى باطنه فيه المسجد وظاهره من قبله العذاب وادى جهنم وقال ابن سريج كان كعب يقول فى الباب الذى يسمى باب الرحمة فى بيت المقدس انه الباب الذى قال الله تعالى فضرب بينهم بسور له باب الآية وقيل السور عبارة عن منع المنافقين عن طلب المؤمنين (ينادونهم) أى ينادى المنافقون الذين آمنوا ويترققون لهم (ألم نكن معكم) أى فى الدنيا نصلى ونصوم فنستحق المشاركة فيما صرتم اليه بسبب ذلك الذى كنا معكم فيه (قالوا) أى الذين آمنوا (بلى) أى كنتم معنا فى الظاهر (ولكنكم فتنتم أنفسكم) أهلكتموها بالنفاق والكفر واستعملتموها فى المعاصى والشهوات وكلها فتنة (وتربصتم) أى بالايمان والتوبة وبمحمد صلى الله عليه وسلم وقلتم يوشك أن يموت فنستريح منه (وارتبتم) أى شككتم فى الدين وفى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفيما وعدكم به (وغرتكم الامانى) أى ما تمنون من الارادات التى معها شهوة عظيمة من الاطماع الفارغة التى لا سبب لها غير شهوة النفس اياها بما كنتم تتوقعون لنا من دوائر السوء (حتى جاء أمر الله) أى قضاء الملك المتصف بجميع صفات الكمال فلا كفؤ له ولا خلف وقرأ قالون وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وأيضا لهما ابدالها والباقون بتحقيقهما وأمال الالف بعد الميم حمزة وابن ذكوان والباقون

بالفتح واذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة الثانية مع المد والتوسط والقصر (وغركم بالله) أى الملك الذى له جميع العظمة (الغرور) أى من لا صنع له الا الكذب وهو الشيطان فانه يزين لكم بغروره التسويف ويقول ان الله غفور رحيم وعفو كريم وماذا عسى أن تكون ذنوبكم عنده وهو عظيم ومحسن وحليم ونحو ذلك فلا يزال حتى يوقع الانسان فاذا أوقعه واصل عليه مثل ذلك حتى يتمادى فاذا تمادى صار الباعث له حينئذ من قبل نفسه فصار طوع يده (فاليوم) أى بسبب أفعالكم تلك (لا يؤخذ منكم فدية) أى نوع من أنواع الفداء وهو البدل والعوض للنفس على أى حال كان من قلة أو كثرة لان الاله غنى وقد فات محل العمل الذى شرعه لكم لانقياد أنفسكم وقرأ ابن عامر بالتاء الفوقية على التأنيث والباقون بالتحتية على التذكير (ولا من الذين كفروا) أى الذين أظهروا كفرهم ولم يستروه كما ستروه أنتم لما واتكم لهم فى الكفر وانما عطف الكافر على المنافق وان كان المنافق كافرا فى الحقيقة لان المنافق أبطن الكفر والكافر أظهره فصار غير المنافق فحسن عطفه على المنافق (مأواكم النار) أى منزلكم ومسكنكم لا مقر لكم غيرها تحرقكم كما كنتم تحرقون قلوب الاولياء باقبالكم على الشهوات واضاعة حقوق ذوى الحاجات وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وورش لا يبدل هذه الهمزة ثم أكد ذلك بقوله تعالى (هى) أى لا غيرها (مولاكم) أى هى أولى بكم وأنشد قول لبيد

فغدت كلا الفرجين تحسب انه * مولى المخافة خلفها وأمامها

والشاهد فى مولى المخافة فولى بمعنى أولى والفرجان الجانبان وهو الخلف والقدام وهو وصف بقرة وحشية أى غدت على حالة كلا جانبيها مخوف وحقيقته فى الآية محراكم بحاء مهملة وراء أى مكانكم الذى يقال فيه هو أولى بكم كما قيل هو مئنة للكرم أى مكان كقول القائل انه لكريم ويجوز أن يراد هى ناصركم أى لا ناصر لكم غيرها والمراد نفى الناصر على البتات وقيل تتولاكم كما توليتم فى الدنيا أعمال أهل النار ولما كان التقدير بئس المولى هى عطف عليه قوله تعالى (وبئس المصير) أى هذه النار واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ألم يأن) أى يحن ويدرك وينتهى الى الغاية (للذين آمنوا) أى أقروا بالايمان (أن تخشع) أى تلين وتسكن وتخضع وتذل وتطمئن (قلوبهم لذكر الله) أى الملك الاعظم الذى لا خير الا منه فيصدق فى ايمانه من كان كاذبا ويقوى فى الدين من كان ضعيفا فيعرض عن الفانى ويقبل على الباقى ولا يطلب لداء دينه دواء ولا لمرض قلبه شفاء فى غير القرآن فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن وعن ابن مسعود رضى الله عنه ما كان بين اسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية الا أربع سنين وعن الحسن أما والله لقد استبطأهم وهم يقرؤن من القرآن أقل مما تقرؤن فانظروا فى طول ما قرأتم منه وما ظهر فيكم من الفسق وقيل كانوا مجدبين بمكة فلما هاجروا وأصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت وعن أبى بكر رضى الله عنه ان هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة

فبكوا بكاء شديدا فنظر اليهم وقال هكذا كنا حتى قست القلوب وقال الشاعر

ألم يأن لى ياقلب أن تترك الجهلا * وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلا

وقوله تعالى (وما نزل من الحق) أى القرآن عطف على الذكر عطف أحد الوصفين على الآخر لان القرآن جامع للامرين للذكر والموعظة أو أنه حق نازل من السموات ويجوز أن يراد بالذكر أن يذكر الله تعالى وقرأ نافع وحفص بتخفيف الزاى والباقون بالتشديد وقوله تعالى (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل) أى قبل ما نزل اليكم وهم اليهود والنصارى معطوف على تخشع والمراد النهى عن مماثلة أهل الكتاب فيما حكى عنهم بقوله تعالى (فطال عليهم الامد) أى الاجل لطول أعمارهم وآمالهم أو ما بينهم وبين أنبيائهم (فقست) أى بسبب الطول (قلوبهم) أى صلبت واعوجت بحيث لا تنفعل بالطاعات والخير فكانوا كل حين فى تعنت جديد على أنبيائهم عليهم السلام يسألونهم المقترحات وأما بعد أنبيائهم فابعدوا فى القساوة فمالوا الى دار الكدر واعرضوا عن دار الصفاء فانجروا الى الهلاك باتباع الشهوات قال القشيرى وقسوة القلب انما تحصل باتباع الشهوة فان الشهوة والصفوة لا يجتمعان وعن أبى موسى الاشعرى أنه بعث الى قراء البصرة فدخل عليه ثلثمائة رجل قد قرؤا القرآن فقال أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاقرؤه ولا تطاولوا عليكم الامد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم (وكثير منهم) أخرجته قساوته عن الدين أصلا ورأسا فهم (فاسقون) أى عريقون فى صفة الاقدام على الخروج من دائرة الحق التى حدها لهم الكتاب حتى تركوا الايمان بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وقوله تعالى (اعلموا أن الله) أى الملك الاعظم الذى له الكمال كله فلا يعجزه شئ (يحيى) أى على سبيل التجديد والاستمرار كما تشاهدونه (الارض) أى بالنبات (بعد موتها) أى يبسها تمثيل لاحياء الاموات بجميع أجسادهم وافاضة الارواح عليها كما فعل بالنبات وكما فعل بالاجسام أول مرة ولاحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة فاحذروا سطوته واخشوا غضبه وارجوا رحمته لاحياء القلوب فانه قادر على احيائها بروح الوحى كما أحيا الارض بروح الماء لتصير باحيائها بالذكر خاشعة بعد قسوتها كما صارت الارض رابية بعد خشوعها وموتها * ولما انكشف الامر بهذه غاية الانكشاف أنتج قوله تعالى (قد بينا) اى على مالنا من العظمة (لكم الآيات) أى العلامات النيرات (لعلكم تعقلون) أى لتكونوا عند من يعلم ذلك ويسمعه من الخلائق على رجاء من حصول العقل لكم بما يتجدد لكم من فهمه على سبيل التواصل الدائم بالاستمرار وقرأ (ان المصدقين) أى العريقين فى هذا الوصف من الرجال (والمصدقات) أى من النساء ابن كثير وشعبة بتخفيف الصاد فيهما من التصديق بالايمان والباقون بالتشديد فيهما من التصدق أدغمت التاء فى الصاد أى الذين تصدقوا وقوله تعالى (وأقرضوا الله) أى الذى له الكمال كله عطف على معنى الفعل فى المصدقين لان اللام بمعنى الذين واسم الفاعل بمعنى اصدقوا كانه قيل ان الذين اصدقوا وأقرضوا الله (قرضا حسنا) أى بغاية ما يكون من طيب النفس واخلاص النية والنفقة

في سبيل الخير وحسنه كما قاله الرازى أن يصرف بصره عن النظر الى فعله والنفقة والامتنان به وطلب العوض عليه (يضاعف) أى ذلك القرض (لهم) من عشرة الى سبعمائة كما مر لان الذى كان له العرض كريم وقرأ ابن كثير وابن عامر بتشديد العين ولا ألف بينها وبين الضاد والباقون بتخفيف العين وبينها وبين الضاد ألف (ولهم) أى مع المضاعفة (أجر كريم) أى ثواب حسن وهو الجنة والنظر الى وجهه الكريم ثم بين سبحانه وتعالى الحامل على الصدقة ترغيبا فيه وهو الايمان فقال تعالى (والذين آمنوا) أى أوجدوا هذه الحقيقة العظيمة فى أنفسهم (بالله) أى الملك الاعلى الذى له الجلال والاكرام (ورسله) أى كلهم لاجل مالهم من النسبة اليه فمن كذب واحدا منهم لم يكن مؤمنا بالله تعالى (أولئك) أى هؤلاء العالو الرتبة (هم الصديقون) أى الذين هم فى غاية الصدق والتصديق لما يحق له أن يصدقه من سمعه وقال القشيرى الصديق من استوى ظاهره وباطنه ويقال هو الذى يحمل الامر على الاشق ولا ينزل الى الرخص ولا يجنح للتأويلات وقال مجاهد كل من آمن بالله تعالى ورسله عليهم السلام فهو صديق وتلا هذه الآية وقال الضحاك الآية خاصة فى ثمانية نفر من هذه الامة سبقوا أهل الارض فى زمانهم الى الاسلام أبو بكر وعلى وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة وتاسعهم عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ألحقه الله تعالى بهم لما عرف من صدق نيته صلى الله عليه وسلم وعلى آله واختلف فى نظم قوله تعالى (والشهداء عند ربهم) أى المحسن اليهم بالتربية لمثل تلك الرتبة العالية فمنهم من قال هى متصلة بما قبلها والواو للنسق وأراد بالشهداء المؤمنين المخلصين وقال الضحاك هم التسعة الذين سميناهم رضى الله عنهم وقال مجاهد كل مؤمن صديق وشهيد وتلا هذه الآية وقال قوم تم الكلام عند قوله تعالى هم الصديقون ثم ابتدأ بقوله تعالى والشهداء فهو مبتدأ وخبره (لهم أجرهم) أى جعله ربهم لهم (ونورهم) أى الذى زادهموه من فضله برحمته قالوا والواو للاستئناف وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما ومسروق وجماعة ثم اختلفوا فيهم فمنهم من قال هم الانبياء عليهم الصلاة والسلام الذين يشهدون على الامم يروى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو قول مقاتل بن حيان وقال مقاتل بن سليمان هم الذين استشهدوا فى سبيل الله عز وجل * ولما ذكر تعالى أهل السعادة جعلنا الله تعالى ووالدينا ومحبينا منهم جامعا الاصناف فهم اتبعهم أهل الشقاوة لذلك بقوله تعالى (والذين كفروا) أى ستروا مادلت عليه الادلة (وكذبوا بآياتنا) أى على مالها من العظمة بنسبتها الينا (أولئك) أى هؤلاء البعداء من كل خير (أصحاب الجحيم) أى النار التى هى غاية فى توقدها وفى ذلك دليل على ان الخلود فى النار مخصوص بالكفار من حيث ان التركيب يشعر بالاختصاص والصحبة تدل على الملازمة عرفا وأما غيرهم من العصاة فدخولهم فيها ليس على وجه الصحبة الدالة على الملازمة ولما ذكر تعالى حال الفريقين فى الآخرة حقر امر الدنيا بقوله تعالى (اعلموا) أى أيها العباد المبتلون بحب الدنيا (انما الحياة الدنيا) أى الحاضرة التى رغب فى الزهد فيها والخروج عنها بالصدقة والقرض الحسن وما مزيدة للتأكيد أى الحياة فى هذه الدار (لعب) أى لعب لا ثمرة له فهو باطل كلعب الصبيان (ولهو) أى

شئ يفرح به الانسان فيلهيه أى يشغله عما يعنيه ثم ينقضى كلهو الفتيان ثم أتبع ذلك أعظم مايلهى فى الدنيا بقوله تعالى (وزينة) أى شئ يبهج العين ويسر النفس كزينة النسوان وأتبعها غرتها بقوله تعالى (وتفاخر بينكم) أى كتفاخر الاقران يفتخر بعضهم على بعض فيجر ذلك الى الحسد والبغضاء وأتبع ذلك بما يحصل به الفخر بقوله تعالى (وتكاثر) أى من الجانبين كتكاثر الرهبان (فى الاموال) أى التى لايفتخر بها الا أحمق لكونها مائلة (والاولاد) أى التى لايفتخر بها الاسفيه لانها زائلة وآفاتها هائلة وانما هى فتنة وابتلاء يظهر بها الشاكر من غيره ثم ذلك كله قد يكون ذهابه عن قريب فيكون على اضداد ما كان عليه فيكون أشد فى الحسرة ثم فى آخر ذلك يموت فاذا هو قد اضمحل أمره ونسى عما قليل ذكره وصار ماله لغيره وزينته مقتعا بها سواه فالدنيا حقيرة وأحقر منها طالبها لانها جيفة وطالب الجيفة ليس له خطر وأخسهم من يبخل بها وقال على لعمار لاتحزن على الدنيا فان الدنيا ستة أشياء مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة وأكثر شرابها الماء ويستوى فيه جميع الحيوان وأفضل ملبوسها الديباج وهو نسج دودة وأفضل مشمومها المسك وهو دم فأرة وأفضل المركوب الفرس وعليها تقتل الرجال وأما المنكوح فهو النساء وهو مبال فى مبال والله ان المرأة لتزين أحسنها فيراد منها أقبحها اهـ ويناسب بعض ذلك قول الشاعر

نفيس لباسها نسجات دود * وخير شرابها قىء الذباب
وأشهى ماينال المرء فيها * مبال فى مبال مستطاب

قال القشيرى وهذه الدنيا المذمومة هى مايشغل العبد عن الآخرة فكل مايشغله عن الآخرة فهو الدنيا اهـ أى وأما الطاعات ومايعين عليها فمن أمور الآخرة * ثم ضرب الله للدنيا مثلا بقوله تعالى (كمثل) أى هذا الذى ذكرته من أمرها يشبه مثل (غيث) أى مطر حصل بعد جدب وسوء حال (أعجب الكفار) أى الزراع الذين حصل منهم الحرث والبذر الذى يستره الحارث كما يستر الكافر حقيقة أنوار الايمان بما يحصل منه من الجحد والطغيان (نباته) أى نبات ذلك الغيث كما يعجب الكافر فى الغالب بسط الدنيا له استدراجا من الله تعالى (ثم يهيج) أى ييبس فيتم جفافه فيصير حصاده (فتراه) أى عقب كل ذلك وبالقرب منه (مصفرا) أى على حالة لا نمو بعدها (ثم) أى بعد تناهى الجفاف (يكون) أى كونا كأنه مطبوع عليه (حطاما) أى فتاتا يضمحل بالرياح * ولما ذكر تعالى الظل الزائل ذكر اثره الثابت الدائم مقسما له الى قسمين فقال تعالى (وفى الآخرة عذاب شديد) أى على من آثر الدنيا وأخذها بغير حقها معرضا عن ذكر الله تعالى وعن الآخرة هذا أحد القسمين وأما القسم الآخر فهو ماذكره بقوله تعالى (ومغفرة) أى ولمن أقبل على الآخرة ورفض الدنيا ولم تشغله عن ذكر الله تعالى مغفرة (من الله) أى الملك الاعظم (ورضوان) أى فى جنة عالية تفضلا منه تعالى ورحمة * وقوله تعالى جل وعلا (وما الحياة الدنيا) أى لكونها تشغل بزينتها مع أنها زائلة (الامتاع الغرور) أى هو فى نفسه غرور لا حقيقة له

الا ذلك لانه لا يسر بقدر ما يضر تأكيد لما سبق قال سعيد بن جبير الدنيا متاع الغرور اذا ألهتك عن طلب الآخرة فاما اذا دعتك الى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة * ثم أرشدهم الله تعالى الى المسابقة الى الخيرات لان الدنيا خيال ومحال والآخرة بقاء وكمال بقوله تعالى (سابقوا) أى سارعوا مسارعة المسابقين فى المضمار (الى مغفرة) أى ستر لذنوبكم عينا وأثرا (من ربكم) أى المحسن اليكم بأنواع الخيرات التى توجب المغفرة لكم من ربكم وقال الكلبى سارعوا بالتوبة لانها تؤدى الى المغفرة وقال مكحول هى التكبيرة الاولى مع الامام وقيل الصف الاول (وجنة) أى وبستان هو من عظم أشجاره واطراد انهاره بحيث يستر داخله (عرضها كعرض السماء والارض) أى السموات السبع والارضين السبع لو جعلت صفائح والزق بعضها ببعض لكان عرض الجنة فى قدرها جميعا وقال ابن عباس رضى الله عنهما يريد ان لكل واحد من المطيعين جنة بهذه السعة وقال مقاتل ان السموات السبع والارضين السبع لو جعلت صفائح والزق بعضها الى بعض لكانت عرض جنة واحدة من الجنان وسأل عمر ناس من اليهود اذا كانت الجنة عرضها ذلك فأين النار فقال لهم أرأيتم اذا جاء الليل أين يكون النهار واذا جاء النهار أين يكون الليل فقالوا انه لمثلها فى التوراة ومعناه انه حيث شاء الله وهذا عرضها ولا شك ان الطول أزيد من العرض فذكر العرض تنبيها على ان طولها اضعاف ذلك وقيل ان هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه ويقع فى انفسهم وأفكارهم وأكثر ما يقع فى أنفسهم مقدار السموات والارض فشبه عرض الجنة بما تعرفه الناس (أعدت) أى هيئت هذه الجنة الموعود بها وفرغ من أمرها بأيسر أمر (للذين آمنوا) أى أوقعوا هذه الحقيقة (بالله) أى الذى له جميع العظمة لاجل ذاته مخلصين له الايمان (ورسله) فلم يفرقوا بين أحد منهم وفى هذا أعظم رجاء وأقوى أمل لانه ذكر ان الجنة أعدت لمن آمن بالله ورسله ولم يذكر مع الايمان شيأ آخر يدل عليه قوله تعالى فى سياق الآية (ذلك) أى الفضل العظيم جدا (فضل الله) أى الملك الذى لا كفؤ له فلا اعتراض عليه (يؤتيه من يشاء) فبين أنه لا يدخل أحد الجنة الا بفضل الله لا بعمله لما روى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يدخل الجنة أحدا منكم عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا ان يتغمدنى الله بفضل رحمته ولا ينافى ذلك قوله تعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون لان الباء فى الحديث عوضية وفى الآية سببية (فان قيل) يلزم على هذا ان يقطع بحصول الجنة لجميع العصاة وان يقطع بأنه لا عقاب عليهم (أجيب) بانا نقطع بحصول الجنة ولا نقطع بنفى العقاب عنهم لانهم اذا عذبوا مدة ثم نقلوا الى الجنة بقوا فيها أبد الآباد فكانت معدة لهم (والله) أى والحال ان الملك المختص بجميع صفات الكمال فله الامر كله (ذو الفضل العظيم) أى الذى جل أن تحيط بوصفه العقول (ما أصاب من مصيبة فى الارض) أى من قحط المطر وقلة النبات ونقص الثمرات وغلاء الاسعار وتتابع الجوائح وغير ذلك (ولا فى أنفسكم) أى من الامراض والفقر وذهاب الاولاد وضيق العيش وغير ذلك (الا فى كتاب) أى مكتوبة فى اللوح مثبتة فى علم الله تعالى

(من قبل ان نبرأها) أى نخلق ونوجد ونقدر المصيبة فى الارض والانفس وهذا دليل على ان اكتساب العباد بخلقه سبحانه وتعالى وتقديره (ان ذلك) أى الامر الجليل وهو علمه بالشئ وكتبه له على تفاصيله قبل أن يخلقه (على الله) أى الملك الذى له من الاحاطة بصفات الكمال (يسير) لان علمه محيط بكل شئ فقدرته شاملة لا يعجزه فيها شئ ثم بين ثمرة اعلامه بذلك بقوله تعالى (لكيلا) أى أعلمناكم بانا على ما لنا من العظمة قد فرغنا من التقدير فلا يتصور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا تغيير لا الحزن يدفعه ولا السرور يجلبه ويجمعه كما قال صلى الله عليه وسلم يا معاذ ليقل همك ما قدر يكن لاجل أن لا (تأسوا) أى تحزنوا حزنا كبيرا زائدا على ما فى اصل الجبلة فربما جر ذلك الى السخط وعدم الرضا بالقضاء (على ما فاتكم) أى من المحبوبات الدنيوية (ولا تفرحوا) أى تسروا سرورا يوصلكم الى البطر بالتمادى على ما فى أصل الجبلة وقوله تعالى (بما آتاكم) قرأه أبو عمرو بقصر الهمزة أى جاءكم منه والباقون بالمد أى اعطاكم قال جعفر الصادق رضى الله عنه مالك تأسف على مفقود ولا يرده عليك الفوت ومالك تفرح بموجود ولا يتركه فى يدك الموت اه واقد عزى الله تعالى المؤمنين رحمة بهم فى مصائبهم وزهدهم فى رغائبهم بان اسفهم على فوت المطلوب لا يعيده وفرحهم بحصول المحبوب لا يفيده وبان ذلك لا مطمع فى بقائه الا بادخاره عند الله تعالى وذلك بأن يقول المصيبة قدر الله تعالى وما شاء فعل ويصبر وفى النعمة هكذا قضى وما أدرى ما آله هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر ام أكفر فلا يزال خائفا عند النعمة قائلا فى الحالين ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن وأكل من هذا أن يكون مسرورا بذكر ربه فى كلتا الحالتين وقيمة الرجال انما تعرف بالواردات المغيرة فمن لم يتغير بالمضار ولم يتأثر بالمسار فهو سيد وقته كما أشار اليه القشيرى وقال ابن عباس رضى الله عنهما ليس من أحد الا وهو يحزن ويفرح ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبرا وغنيمته شكرا والحزن والفرح المنهى عنهما هما اللذان تتعدى فيهما الى ما لا يجوز (والله) أى الذى له صفات الكمال (لا يحب) أى لا يفعل فعل المحب بان يكرم (كل مختال) أى متكبر نظرا الى ما فى يده من الدنيا (فخور) أى به على الناس قال القشيرى الاختيال من بقايا النفس ورؤيتها والفخر من رؤية خطر ما به يفتخر وقوله تعالى (الذين يبخلون) بدل من كل مختال فخور فان المختال بالمال يضن به غالبا (ويأمرون الناس) أى كل من يعرفونه (بالبخل) ارادة أن يكونوا لهم رفقاء يعملون بأعمالهم الخبيثة أو مبتدأ خبره محذوف مدلول عليه بقوله تعالى (ومن يتول) أى يكلف نفسه الاعراض ضد ما فى فطرته من محبة الخير والاقبال على الله تعالى (فان الله) الذى له جميع صفات الكمال (هو) أى وحده (الغنى الحميد) لان معناه ومن يعرض عن الانفاق فان الله غنى أى عن ماله وعن انفاقه وكل شئ مفتقر اليه وهو مستحق للحمد سواء أحمده الحامدون أم لا (لقد أرسلنا) أى بما لنا من العظمة (رسلنا) أى الذين لهم نهاية الجلال بما لهم بنا من الاتصال من الملائكة الى الانبياء على جميعهم أفضل الصلاة والسلام ومن الانبياء الى الامم (بالبينات) أى الحجج القواطع (وأنزلنا) أى بعظمتنا التى لا شئ أعلى منها (معهم الكتاب)

أي الكتب المتضمنة للاحكام وشرائع الدين (والميزان) أي العدل وقيل الآلة روى أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه الى نوح عليه السلام وقال مر قومك يزنوا به (ليقوم الناس بالقسط) اى ليتعاملوا بينهم بالعدل (وأنزلنا) أي خلقنا خلقا عظيما بما لنا من القوة (الحديد) أي المعروف على وجه من القوة والصلابة واللين فلذلك سمي ايجاده انزالا وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال نزل آدم عليه السلام من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد وروى من آلة الحدادين السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والابرة وحكاه القشيري قال والميقعة ما يحدد به يقال وقعت الحديدة أقعها أي حددتها وفي الصحاح الميقعة الموضع الذي يألفه البازي فيقع عليه وخشبة القصار التي يدق عليها والمطرقة والمسن الطويل وروى ومعه المبرد والمسحاة وعن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء الى الارض أنزل الحديد والنار والماء والملح وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال أنزل ثلاثة أشياء مع آدم عليه السلام الحجر الاسود وكان أشد بياضا من الثلج وعصا موسى عليه السلام وكانت من آس طولها عشرة أذرع مع طول موسى وعن الحسن وأنزلنا الحديد خلقناه كقوله تعالى وأنزل لكم من الانعام وذلك ان أوامره تنزل من السماء وقضاياه وأحكامه (فيه بأس) أي قوة وشدة (شديد) أي قوة شديدة فمنه جنة وهي آلة الدفع ومنه سلاح وهو آلة الضرب (ومنافع للناس) بما يعمل منه من مرافقهم لتقوم أحوالهم بذلك قال البيضاوي ما من صنعة الا والحديد آلتها وقال مجاهد يعني جنة وقيل انتفاع الناس بالماعون الحديد كالسكين والفاس ونحو ذلك وروى ان الحديد أنزل في يوم الثلاثاء فيه بأس شديد أي مهراق الدماء ولذلك نهى عن الفصد والحجامة في يوم الثلاثاء لانه يوم يجري فيه الدم وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ان في يوم الثلاثاء ساعة لا يرقأ فيها الدم وقوله تعالى (وليعلم الله) أي الذي له جميع العظمة علم شهادة لأجل اقامة الحجة بما يليق بعقول الخلق فيكون الجزاء على العمل لا على العلم عطف على قوله تعالى ليقوم الناس أي لقد أرسلنا رسلنا وفعلنا كيت وكيت ليقوم الناس وليعلم الله (من ينصره) أي ينصر دينه بآلات الحرب من الحديد وغيره وقوله تعالى (ورسله) عطف على مفعول ينصره أي وينصر رسله وقوله تعالى (بالغيب) حال من هاء ينصره أي غائبا عنهم في الدنيا قال ابن عباس رضي الله عنهما ينصرونه ولا يبصرونه (ان الله) أي الذي له العظمة كلها (قوي) أي فهو قادر على اهلاك جميع أعدائه وتأييد من ينصره من أوليائه (عزيز) فهو غير مفتقر الى نصرة أحد وانما دعا عباده الى نصرة دينه ليقيم الحجة عليهم فيرحم من أراد بامتثال المأمور ويعذب من يشاء بارتكاب المنهي لبناء هذه الدار على حكمة ربط المسببات بالاسباب * ولما أجمل الرسل في قوله تعالى لقد أرسلنا رسلنا فصل هنا ما أجمل من ارسال الرسل بالكتب فقال تعالى (ولقد أرسلنا) أي بما لنا من العظمة (نوحا) وهو الاب الثاني وجعلنا الاغلب على رسالته مظهر الجلال (وابراهيم) وهو أبو العرب والروم وبني اسرائيل الذي أكثر الانبياء من نسله وجعلنا الاغلب على رسالته تجلي الاكرام (وجعلنا) أي بما لنا من العظمة (في ذريتهما النبوة)

فلا يوجد في الامن نسلهما (والكتاب) أى الكتب الاربعة وهى التوراة والانجيل والزبور والفرقان وعن ابن عباس رضى الله عنهما الكتاب الخط بالقلم يقال كتب كتابا وكتابة والضمير فى قوله تعالى (فنهم مهتد) يعود على الذرية لتقدم ذكرها لفظا وقيل يعود على المرسل اليهم لدلالة أرسلنا أى هو بعين الرضا منا وهو من لزم طريقة الاصفياء وان كان من أولاد الاعداء (وكثير منهم) أى المذكورين (فاسقون) أى هم بعين السخط وان كانوا من أولاد الاصفياء والمراد بالفاسق ههنا الكافر لانه جعل الفساق ضد المهتدين وقيل هو الذى ارتكب الكبيرة سواء أكان كافرا أم لم يكن لاطلاق هذا الاسم وهو يشمل الكافر وغيره (ثم قفينا) أى اتبعنا بعالنا من العظمة (على آثارهم) أى الابوين المذكورين ومن مضى قبلهما من الرسل أو عاصرهما منهم (برسلنا) أى فارسلناهم واحدا فى اثر واحد كموسى والياس وداود وغيرهم ولا يعود الضمير على الذرية لانها باقية مع الرسل وبعدهم وأيضا الرسل المقفى بهم من الذرية (وقفينا) أى اتبعنا بعالنا من العظمة على آثارهم قبل أن تندرس (بعيسى بن مريم) وهو من ذرية ابراهيم من جهة أمه وهو آخر من جاء قبل النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام فامته أولى الامم باتباعه صلى الله عليه وسلم (وآتيناه) أى بعالنا من العظمة (الانجيل) كتابا ضابطا لما جاء به مقيما للملة مبشرا بالنبى العربى موضحا الامر مكثرا من ذكره (وجعلنا) أى بعالنا من العظمة (فى قلوب الذين اتبعوه) أى على دينه بغاية جهدهم فكانوا على منهاجه (رأفة) أى أشد رقة على من كان يتسبب الى الاتصال بهم (ورحمة) أى رقة وعطفا على من لم يكن له سبب فى الاتصال بهم كما كان الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين رحماء بينهم حتى كانوا أذلة على المؤمنين مع ان قلوبهم فى غاية الصلابة فهم أعزة على الكافرين متوادين بعضهم لبعض وقوله تعالى (ورهبانية) منصوب بفعل مقدر يفسره الظاهر وهو قوله تعالى (ابتدعوها) قال أبو على ابتدعوا رهبانية ابتدعوها فتكون المسئلة من باب الاشتغال والى هذا نحا الفارسى والزمخشرى وأبو البقاء وجماعة الا أن هذا يقال انه اعراب المعتزلة وذلك أنهم يقولون ما كان من فعل الانسان فهو مخلوق له فالرحمة والرأفة لما كانتا من فعل الله تعالى نسب خلقهما اليه والرهبانية لما لم تكن من فعل الله تعالى بل من فعل العبد يستقل بفعلها نسب ابتداعها اليه وقيل ان رهبانية معطوفة على رأفة ورحمة وجعل اما بمعنى خلق أو بمعنى صيروا بتدعوها على هذا صفة الرهبانية وانما خصت بذكر الابتداع لان الرأفة والرحمة فى القلب أمر غريزى لا تكلف للانسان فيهما بخلاف الرهبانية فانها أفعال البدن وللانسان فيها تكسب لكن أبو البقاء منع هذا بأن ما جعله الله تعالى لا يبتدعونه وجوابه ما تقدم من انه لما كانت مكتسبة صح ذلك فيها والمراد من الرهبانية ترهبهم فى الجبال فارين من الفتنة فى الدين مخلصين كافا زائدة على العبادات التى كانت واجبة عليهم من الخلو واللباس الخشن والاعتزال عن النساء والتعبد فى الكهوف والغيران روى ان ابن عباس رضى الله عنهما قال فى أيام الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم غير الملوك التوراة والانجيل فساح نفر وبقى نفر قليل فترهبوا وتبتلوا قال الضحاك

ان ملوكا بعد عيسى عليه السلام ارتكبوا المحارم ثلثمائة سنة فأنكرها عليهم من كان بقى على منهاج عيسى فقتلوهم فقال قوم بقى بعدهم نحن اذا نهيناهم قتلونا فليس يسعنا المقام بينهم فاعتزلوا الناس واتخذوا الصوامع وقال قتادة الرهبانية التى ابتدعوها رفض النساء واتخاذ الصوامع وفى خبر مرفوع هى لحوقهم بالبرارى والجبال وقوله تعالى (ما كتبناها) صفة رهبانية ويجوز أن يكون استئناف اخبار بذلك قال ابن زيد معناه مافرضناها (عليهم) ولا أمرناهم بها فى كتابهم ولا على لسان رسولهم وقوله تعالى (الا ابتغاء رضوان الله) اى الملك الاعظم استثناء منقطع أى ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله وقيل متصل بما هو مفعول من أجله والمعنى ما كتبناها عليهم لشئ من الاشياء الالابتغاء مرضاة الله ويكون كتب بمعنى قضى فصار المعنى كتبناها عليهم ابتغاء مرضاة الله (فما رعوها حق رعايتها) أى ما قاموا بها حق القيام بل ضموا اليها التثليث وكفروا بدين عيسى ودخلوا فى دين ملكهم وبقى على دين عيسى كثير منهم وآمنوا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم (فآتينا) اى بما لنا من صفات الكمال (الذين آمنوا) أى بالنبى صلى الله عليه وسلم (منهم أجرهم) أى اللائق بهم وهو الرضوان المضاعف (وكثير منهم) أى من هؤلاء الذين ابتدعوها فضيعوا (فاسقون) أى عريقون فى وصف الخروج عن الحدود التى حدها الله تعالى وهم الذين تركوا الرهبانية وكفروا بدين عيسى عليه السلام روى البغوى بسنده عن ابن مسعود أنه قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا ابن مسعود اختلف من كان قبلكم على اثنتين وسبعين فرقة نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم فرقة غزت الملوك وقاتلوهم على دين عيسى وفرقة لم يكن لهم طاقة بمعاداة الملوك ولا أن يقيموا بين أظهرهم فدعوهم الى دين الله تعالى ودين عيسى عليه السلام فساحوا فى البلاد فترهبوا وهم الذين قال الله عز وجل ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم من آمن بى وصدقنى واتبعنى فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بى فأولئك هم الهالكون وعن ابن مسعود أيضا قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار فقال يا ابن أم عبد هل تدرى من اين اتخذت بنو اسرائيل الرهبانية فقلت الله ورسوله أعلم قال ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بالمعاصى فغضب أهل الايمان فقاتلوهم فهزموا أهل الايمان ثلاث مرار فلم يبق منهم الا القليل فقالوا ان ظهرنا لهؤلاء قتلونا ولم يبق للدين أحد يدعو اليه فتعالوا نتفرق فى الارض الى أن يبعث الله تعالى النبى الذى وعدنا عيسى عليه السلام يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم فتفرقوا فى غيران الجبال وأحدثوا الرهبانية فنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ثم تلا هذه الآية ورهبانية ابتدعوها الى قوله تعالى فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم يعنى من ثبت عليها أجرهم ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم يا ابن أم عبد أتدرى ما رهبانية أمتى قلت الله ورسوله أعلم قال الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الامة الجهاد فى سبيل الله تعالى وعن ابن عباس قال كانت ملوك بنى اسرائيل بعد عيسى عليه السلام بدلوا التوراة والانجيل

وكان فيهم مؤمنون يقرؤن التوراة والانجيل ويدعونهم الى دين الله تعالى فقيل لملوكهم لو جمعتم هؤلاء الذين شقوا عليكم فقتلتموهم اودخلوا فيما نحن فيه فجمعهم ملكهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والانجيل والانعابدلوا منهما فقالوا نحن نكفيكم انفسنا فقالت طائفة ابنوا لنا اسطوانة ثم ارفعونا اليها ثم اعطونا شيأ نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم وقالت طائفة دعونا نسيح فى الارض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش فان قدرتم علينا بأرض فاقتلونا وقالت طائفة ابنوا لنا دورا فى الفيافى ونحتفر الآبار ونحترث البقول فلا نرد عليكم ولا نراكم ففعلوا بهم ذلك فمضى أولئك على منهاج عيسى عليه السلام وخلف قوم من بعدهم ممن غير الكتاب فجعل الرجل يقول نكون فى مكان فلان فنتعبد كما تعبد ونسيح كما ساح فلان ونتخذ دورا كما اتخذ فلان وهم على شركهم لا علم لهم بايمان الذين اقتدوا بهم فذلك قوله عز وجل ورهبانية ابتدعوها ابتدعها هؤلاء الصالحون فما رعوها حق رعايتها يعنى الآخرين الذين جاؤا من بعدهم فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم يعنى الذين ابتدعوها ابتغاء مرضاة الله وكثير منهم فاسقون هم الذين جاؤا من بعدهم قال فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم ولم يبق منهم الا القليل انحط رجل من صومعته وجاء سائح من سياحته وصاحب دير من ديره فآمنوا وصدقوا فقال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى بموسى وعيسى عليهما السلام ايمانا صحيحا (اتقوا الله) أى خافوا عقاب الملك الاعظم (وآمنوا برسوله) محمد صلى الله عليه وسلم ايمانا مضموما الى ايمانكم بمن تقدمه هذا اذا كان خطابا لمؤمنى أهل الكتاب واما اذا كان خطابا للمؤمنين من أهل الكتاب وغيرهم فالمعنى آمنوا برسوله ايمانا مضموما الى ايمانكم بالله تعالى فانه لا يصح الايمان بالله الا مع الايمان برسوله صلى الله عليه وسلم (يؤتكم) أى يثبكم على اتباعه (كفلين) أى نصيبين ضخمين (من رحمته) يحصنانكم من العذاب كما يحصن الكفل الراكب من الوقوع وهو كساء يعقد على ظهر البعير فيلقى مقدمه على الكاهل ومؤخره على العجز وهذا التحصين لاجل ايمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلم وايمانكم بمن تقدمه مع خفة العمل ورفع الآصار ولا يبعد ان يثابوا على دينهم السابق وان كان منسوخا ببركة الاسلام وقيل الخطاب للنصارى الذين كانوا فى عصره صلى الله عليه وسلم وقال أبو موسى الاشعرى كفلين ضعفين بلسان الحبشة وقال ابن زيد كفلين أجر الدنيا وأجر الآخرة وعن أبى موسى الاشعرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ثلاث يؤتون أجرهم مرتين رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها ورجل من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وعبد أحسن عبادة الله ونصح سيده (ويجعل لكم) أى مع ذلك (نورا) مجازيا فى الدنيا من العلوم والمعارف القلبية وحسيا فى الآخرة بسبب العمل (تمشون به) أى مجازا فى الدنيا بالتوفيق للعمل وحقيقة فى الآخرة بسبب العمل وقال مجاهد النور هو البيان والهدى وقال ابن عباس هو القرآن وقال الزمخشرى هو النور المذكور فى قوله تعالى نورهم يسعى وقيل يمشون فى الناس يدعونهم الى الاسلام فيكونون رؤساء فى دين الاسلام لا تزول عنكم رياستكم فيه وذلك أنهم خافوا ان تزول

رياستهم لو آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم واتباعه كان يفوتهم اخذ رشوة يسيرة من الضعفة بتحريف أحكام الله تعالى لا الرياسة الحقيقية في الدين (ويغفر لكم) أى ما فرط منكم من سهو وعمد وهزل وجد (والله) أى المحيط بجميع صفات الكمال (غفور) أى بليغ المحو للذنوب عينا وأثرا (رحيم) أى بليغ الاكرام لمن يغفر له ويوفقه للعمل بما يرضيه ولما بلغ من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين قالوا للمسلمين اما من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين لايمانه بكتابكم وبكتابنا ومن لم يؤمن منا فله أجره كأجوركم فما فضلكم علينا فأنزل الله تعالى (لئلا يعلم) أى ليعلم ولا زائدة للتأكيد (أهل الكتاب) الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم (أن) مخففة من الثقيلة اسمها ضمير الشان والمعنى انهم (لا يقدرون على شئ) فى زمن من الازمان (من فضل الله) أى الملك الاعلى فلا أجر لهم ولا نصيب فى فضله ان لم يؤمنوا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقال قتادة حسد الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب المؤمنين منهم فنزلت هذه الآية وقال مجاهد قالت اليهود يوشك ان يخرج منا نبى يقطع الايدى والارجل فلما خرج من العرب كفروا به فنزلت الآية وروى أن مؤمنى أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين وادعوا الفضل عليهم فنزلت وقيل المراد من فضل الله الاسلام وقيل الثواب وقال الكلبى من رزق الله وقيل نعم الله تعالى التى لا تحصى (وان) أى وليعلموا أن (الفضل) أى الذى لا يحتاج اليه من هو عنده (بيد الله) الذى له الامر كله (يؤتيه من يشاء) لانه قادر مختار فآتى المؤمنين منهم أجرهم مرتين (والله) أى الذى أحاط بجميع صفات الكمال (ذو الفضل العظيم) أى مالكه ملكا لا ينفك ولا ملك لاحد فيه معه ولا تصرف بوجه أصلا فلذلك يخص من يشاء بما يشاء روى البخارى عن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر انما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الامم كما بين صلاة العصر الى غروب الشمس أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فاعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطى أهل الانجيل الانجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين قال أهل التوراة ربنا هؤلاء أقل عملا وأكثر أجرا قال هل ظلمتكم من أجركم شيأ قالوا لا قال فذلك فضلى أوتيه من أشاء وفى رواية فغضبت اليهود والنصارى وقالوا ربنا الحديث وفى رواية انما أجلكم فى أجل من كان قبلكم خلا من الامم كما بين صلاة العصر الى غروب الشمس وانما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقال من يعمل لى الى نصف النهار على قيراط قيراط فعملت اليهود الى نصف النهار على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لى من نصف النهار الى صلاة العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى من نصف النهار الى العصر على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لى من صلاة العصر الى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين الا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر الى مغرب الشمس ألا لكم الاجر مرتين فغضبت اليهود والنصارى وقالوا نحن أكثر عملا وأقل عطاء قال الله تعالى هل ظلمتكم من حقكم شيأ قالوا لا قال فانه فضلى أوتيه من شئت وعن أبى موسى الاشعرى

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوما يعملون له عملا يوما الى الليل على أجر معلوم فعملوا الى نصف النهار فقالوا لا حاجة لنا الى أجرك الذى شرطت لنا وما عملنا باطل فقال لهم لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملا فأبوا وتركوا واستأجر آخرين من بعدهم فقال أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذى شرطت لهم من الاجر فعملوا حتى اذا كان حين صلاة العصر قالوا ما عملنا باطل ولك الاجر الذى جعلت لنا فيه فقال أكملوا بقية عملكم فان ما بقى من النهار شئ يسير فأبوا فاستأجر آخرين على أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كلاهما فذلك مثلهم ومثل ما بقوا من هذا النور * ومارواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسله حديث موضوع

﴿سورة المجادلة مدنية﴾

فى قول الجميع الا رواية عن عطاء الا العشر الاول منها مدنى وباقيها مكى وقال الكلبى نزل جميعها بالمدينة غير قوله تعالى ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم نزلت بمكة وهى ثنتان وعشرون آية وأربعمائة وثلاث وسبعون كلمة وألف وسبعمائة واثنان وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى تمت قدرته وكملت جميع صفاته (الرحمن) الذى شمل الخلائق جوده بالايجاد وارسال الهداة (الرحيم) الذى خص أصفياءه فتمت عليهم نعمة رضاه ونزل فى خولة بنت ثعلبة وكانت تحت أوس بن الصامت وكان قد ظاهر منها (قد سمع الله) أى أجاب بعظيم فضله الذى أحاط بجميع صفات الكمال فوسع سمعه الاصوات (قول التى تجادلك) أى تراجعك أيها النبى (فى زوجها) المظاهر منها روى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه مر بها فى خلافته وهو على حمار والناس معه فاستوقفته طويلا ووعظته وقالت يا عمر قد كنت تدعى عميرا ثم قيل لك عمر ثم قيل لك أمير المؤمنين فاتق الله يا عمر فانه من أيقن بالموت خاف الفوت ومن أيقن بالحساب خاف العذاب وهو واقف يسمع كلامها فقيل له يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الموقف فقال والله لو حبستنى من أول النهار الى آخره لا زلت الا للصلاة المكتوبة أتدرون من هذه العجوز هى خولة بنت ثعلبة سمع الله تعالى قولها من فوق سبع سموات أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر وعن عائشة تبارك الذى وسع سمعه كل شئ انى لا سمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى تقول يا رسول الله أكل شبابى ونثرت له بطنى حتى اذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى اللهم انى أشكو اليك فما برحت حتى نزل بهذه الآية قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها الآية وروى أنها كانت حسنة الجسم فرآها زوجها ساجدة فنظر عجيزتها فأعجبه أمرها فلما انصرفت أرادها فأبت فغضب عليها قال عروة وكان امرأ به لمم فأصابه بعض لممه فقال لها أنت على كظهر أمى وكان الايلاء والظهار من الطلاق فى الجاهلية فسألت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت

ان أوسا تزوجني وأنا شابة مرغوب في فلما علا سني ونثرت بطني أي كثر ولدي جعلني عليه كأمه فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم حرمت عليه فقالت والله ما ذكر طلاقا وانه أبو ولدي وأحب الناس الي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمت عليه فقالت أشكو الى الله فاقتي ووحدتي فقد طالت صحبتي ونفضت له بطني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أراك الا حرمت عليه أو أومر في شأنك بشيء فجعلت تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمت عليه هتفت وقالت أشكو الى الله فاقتي وشدة حالي وان لي صبية صغارا ان ضممتهم الي جاعوا وان ضممتهم اليه ضاعوا وجعلت ترفع رأسها الى السماء وتقول اللهم اني أشكو اليك فأنزل على لسان نبيك وكان هذا أول ظهار في الاسلام فأنزل الله تعالى قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها الآية فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى زوجها وقال ما حملك على ما صنعت قال الشيطان فهل من رخصة فقال نعم وقرأ عليه الاربع آيات فقال له هل تستطيع العتق فقال لا والله فقال هل تستطيع الصوم فقال لا والله اني ان أخطأني أن آكل في اليوم مرة أو مرتين لكل بصري ولظننت أني أموت قال فأطعم ستين مسكينا قال ما أجد الا أن تعينني منك بعون وصلة فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعا وأخرج أوس من عنده مثله فتصدق به على ستين مسكينا وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال لها مريه أي يعتق رقبة فقالت أي رقبة والله لا يجد رقبة وماله خادم غيري فقال مريه ان يصوم شهرين فقالت والله ما يقدر على ذلك انه يشرب في اليوم كذا كذا مرة فقال مريه فليطعم ستين مسكينا فقالت أنى له ذلك (وتشتكي) أي تتعمد بتلك المجادلة الشكوى منتهية (الى الله) أي سؤال الملك الاعظم الرحمة الذي أحاط بكل شيء علما (فان قيل) ما معنى قد في قوله تعالى قد سمع (أجيب) بأن معناها التوقع لان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله تعالى مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرج عنها لصدقها في شكواها وقطع رجائها في كشف ما بها من غير الله ان الله تعالى يكشف كربتها (والله) أي والحال أن الذي وسعت رحمته كل شيء لان له الامر كله (يسمع تحاوركما) أي تراجعكما الكلام وهو على تغليب الخطاب (ان الله) أي الذي أحاط بجميع صفات الكمال (سميع) أي بالغ السمع لكل مسموع (بصير) اي بالغ البصر لكل ما يبصر فهما صفتان كالعلم والقدرة والحياة والارادة وهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه متصفا بهما * ولما أتم تعالى الخبر عن احاطة العلم استأنف الاخبار عن حكم الامر المجادل بسببه فقال تعالى (الذين يظهرون) أي يوجدون الظهار في أي زمان كان وقوله تعالى (منكم) أي أيها العرب المسلمون توبيخ لهم وتهجين لعادتهم لان الظهار كان خاصا بالعرب دون سائر الامم فنبه تعالى على أن اللائق بهم أن يكونوا أبعد الناس عن هذا الكلام لان الكذب لم يزل مستهجنا عندهم في الجاهلية ثم زاده الاسلام استهجانا (من نسائهم) أي يحرمون نساءهم على أنفسهم تحريم الله تعالى عليهم ظهور أمهاتهم والظهار لغة مأخوذ من الظهر لان صورته الاصلية أن يقول لزوجته أنت علي كظهر أمي وخصوا الظهر دون البطن

والفخذ ونحوهما لانه موضع الركوب والمرأة مركوب الزوج وقيل من العلو قال تعالى فما اسطاعوا أن يظهروه أى أن يعلوه وكان طلاقا فى الجاهلية وقيل فى أول الاسلام ويقال كان فى الجاهلية اذا كره أحدهم امرأته ولم يرد أن تتزوج بغيره آلى منها أو ظاهر فتبقى لا ذات زوج ولا خلية تنكح غيره فغير الشارع حكمه الى تحريمها بعد العود ولزوم الكفارة كما سيأتى وحقيقته الشرعية تشبيه الزوجة غير البائن بأنثى لم تكن حلاله وسمى هذا المعنى ظهارا لتشبيه الزوجة بظهر الام وله أركان أربعة مظاهر ومظاهر منها وصيغة ومشبه به وشرط فى المظاهر كونه زوجا يصح طلاقه وشرط فى المشبه به كونه كل أنثى محرم أو جزء أنثى محرم لم تكن حلاله كبنته وأخته وشرط فى الصيغة لفظ يشعر بالظهار صريح كانت أورأسك أو بدنك كظهر أمى أو كجسمها أو بدنها أو كناية كانت أمى أو كعينها أو غيرها مما يذكر للكرامة كرأسها أو روحها ويصح تأقيته وتعليقه وأصل يظهرون يتظهرون أدغمت التاء فى الظاء وقرأ الذين يظاهرون والذين يظاهرون عاصم بضم الياء وتخفيف الظاء وبعدها ألف وتخفيف الهاء مكسورة وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح الياء وتشديد الظاء وتخفيف الهاء مع فتحها وبين الظاء والهاء ألف والباقون بفتح الياء وتشديد الظاء والهاء ولا ألف بينهما (ماهن) اى نساؤهم (أمهاتهم) أى على الحقيقة (ان) أى ما (أمهاتهم) أى حقيقة (الا اللائى ولدنهم) ونساؤهم لم يلدنهم فلا يحرمن عليهم حرمة مؤبدة للاكرام والاحترام ولاهن ممن ألحق بالامهات بوجه يصح كأزواج النبى صلى الله عليه وسلم فانهن أمهات لما لهن من حق الاكرام والاحترام والاعظام لان النبى صلى الله عليه وسلم أعظم فى أبوة الدين من أبى النسب وكذا المرضعات لما لهن من حق الرضاع الذى هو وظيفة الام بالاصالة وأما الزوجة فباينة لجميع ذلك وقرأ قالون وقنبل بالهمزة المكسورة ولا ياء بعدها وقرأ ورش والبزى وأبو عمرو بتسهيل الهمزة مع المد والقصر وللبزى وأبى عمرو أيضا موضع الهمزة ياء ساكنة مع المد والباقون بهمزة مكسورة وبعدها ياء وهم على مراتبهم فى المد (وانهم) أى المظاهرون (ليقولون) أى فى هذا التظهر على كل حالة (منكرا من القول) اذ الشرع أنكره وهو حرام اتفاقا كما نقل عن الرافعى فى باب الشهادات (وزورا) أى قولا مائلا عن السداد منحرفا عن القصد لان الزوجة معدة للاستمتاع الذى هو فى الغاية من الامتهان والام فى نهاية البعد عن ذلك (فان قيل) المظاهر انما قال أنت على كظهر أمى فشبه بامه ولم يقل انها أمه فما معنى أنه منكر من القول وزورا والزور الكذب وهذا ليس بكذب (أجيب) بأن قوله هذا ان كان خبرا فهو كذب وان كان انشاء فهو كذلك لانه جعله سببا للتحريم والشرع لم يجعله سببا لذلك وأيضا فانما وصف بذلك لان الام مؤبدة التحريم والزوجة لا يتأبد تحريمها بالظهار فهو زور محض (فان قيل) قوله تعالى الا اللائى ولدنهم يقتضى ان لا أم الا الوالدة وهذا مشكل بقوله تعالى وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وقوله تعالى وأزواجه أمهاتهم (أجيب) بأن الشارع ألحقهن بالوالدات لما مر (وان الله) أى الملك الاعظم الذى لا أمر لاحد معه فى شرع ولا غيره (لعفو) أى من صفاته ان يترك عقاب من شاء (غفور) أى من صفاته ان يمحو عين الذنب وأثره

* ثم بين احكام الظهار بقوله تعالى (والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا) والعود في ظهار غير موقت من غير رجعية ان يمسكها بعد ظهاره مع علمه بوجود الصفة في المعلق زمن امكان فرقة ولم يفارق لان العود للقول مخالفته يقال قال فلان قولا ثم عاد له وعاد فيه أي خالفه ونقضه وهو قريب من قولهم عاد في هبته ومقصود الظهار وصف المرأة بالتحريم وامساكها يخالفه فلو اتصل بظهاره جنونه أو اغماؤه أو فرقة بموت أو فسخ من أحدهما بمقتضيه كعيب بأحدهما أو بطلاق بائن أو رجعي ولم يراجع فلا عود والعود في ظهار غير موقت من رجعية سواء أطلقها عقب الظهار أم قبله ان يراجع ولو ارتد متصلا بالظهار بعد الدخول ثم أسلم في العدة فلا عود بالاسلام بل بعده والفرق أن الرجعة امساك في ذلك النكاح والاسلام بعد الردة تبديل للدين الباطل بالحق والحل تابع له فلا يحصل به امساك وانما يحصل بعده فالعود في ظهار موقت يحصل بتغييب حشفة أو قدرها من فاقدها في المدة ويجب في العود به وان حل نزع لما غيبه كما لو قال ان وطئتك فأنت طالق لحرمة الوطء قبل التكفير كما سيأتي وانقضاء المدة واستمرار الوطء وطء ولما كان المبتدأ الموصول يتضمن معنى الشرط أدخل الفاء في خبره لقصد السببية فيتكرر الوجوب بتكرر سببه فقال عز من قائل (فتحرير) أي فعليهم بسبب هذا الظهار والعود تحرير (رقبة) مؤمنة فلا تجزئ كافرة قال تعالى في كفارة القتل فتحرير رقبة مؤمنة والحق بها غيرها قياسا عليها بجامع حرمة سببيهما من القتل والظهار أو حملا للمطلق على المقيد كما في حمل المطلق في قوله تعالى واستشهدوا شهيدين من رجالكم على المقيد في قوله تعالى وأشهدوا ذوي عدل منكم بلا عوض وبلا عيب يخل بعمل فيجزئ صغير ولو ابن يوم وأقرع وأعرج يمكنه تباع مشي بأن يكون عرجه غير شديد وأعور لم يضعف عوره بصر عينه السليمة ضعفا يخل بالعمل وأصم وأخرس يفهم الاشارة وتفهم عنه وأخشم وفاقد أنفه وأذنيه وأصابع رجليه لا فاقد رجل أو خنصر وبنصر من يد أو أنملتين من كل منهما أو فاقد أنملتين من اصبع غيرهما أو فاقد أنملة ابهام لاخلال كل من الصفات المذكورة بالعمل ولا يجزئ مريض لا يرجى برؤه ولم يبرأ كمسلول وهرم بخلاف من يرجى برؤه ومن لا يرجى برؤه اذا برئ ولا مجنون افاقته أقل من جنونه تغليبا للاكثر ويجزئ معلق عتقه بصفة بأن ينجز عتقه بنية الكفارة أو معلقه كذلك بصفة أخرى وتوجد قبل الاولى ويجزئ نصفا رقيقين أعتقهما عن كفارة باقيهما أو في أحدهما كما استظهره بعضهم ويجزئ اعتاق رقيقيه عن كفارتيه لا جعل العتق المعلق كفارة عند وجود الصفة ولا مستحق عتق كأم ولد وصحيح كتابة (من قبل أن يتماسا) أي يتجدد بينهما مس روى أبو داود وغيره أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل ظاهر من امرأته وواقعها لا تقربها حتى تكفر وكالتكفير مضي مدة الموقت لانتهائه بها وحمل التماس هنا لشبه الظهار بالحيض على التمتع بما بين السرة والركبة ومن حمله على الوطء الحق به التمتع بغيره فيما بينهما ولو ظاهر من أربع بكلمة كانتن كظهر أمي فان أمسكهن فأربع كفارات لوجود سببها أو ظاهر منهن بأربع كلمات ولو متوالية فعائد من غير أخيرة ولو كرر في امرأة متصلا لا تعدد الظهارات قصد استئنافا ويصير المظاهر بالاستئناف عائدا

(ذلكم)

(ذلكم) أى ذلك الحكم بالكفارة (توعظون به) أى ان غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ولا تعاودوه (والله) أى الذى له الاحاطة بالكمال (بما تعملون) أى تجددون فعله (خبير) أى عالم بظاهره وباطنه فهو عالم بما يكفره فافعلوا بما أمر به وقفوا عند حدوده وانما يلزم الاعتاق عن الكفارة من ملك رقبة أو ثمنه فاضلا عن كفاية ممونه من نفسه وغيره قال الرافعى وسكتوا عن تقدير مدة ذلك ويجوز أن تقدر بالعمر الغالب وان تقدر بسنة اه والذى عليه الجمهور هو الاول ولا يلزمه بيع عقار ورأس تجارة وماشية لا يفضل دخلها عن غلة العقار وربح مال التجارة وفوائد الماشية من نتاج وغيره عن كفاية ممونه ولا بيع مسكن ورقيق نفيسين ألفهما ولا يلزمه شراء بغبن (فمن لم يجد) أى الرقبة بأن عجز المكفر عن الاعتاق حسا أو شرعا وقت اداء الكفارة (فصيام) أى فعليه صيام (شهرين متتابعين) عن كفارته فالرقيق لا يكفر الا بالصوم لانه معسر لا يملك شيأ وليس لسيده منعه من الصوم ان ضره وانما اعتبرا العجز وقت الاداء لا وقت الوجوب قياسا على سائر العبادات ولو ابتدأ الصوم ثم وجد الرقبة لم يلزمه الانتقال عنه لانه أمر به حيث دخل فيه وقال أبو حنيفة يعتق قياسا على الصغيرة المعتدة بالشهور واذا رأت الدم قبل انقضاء عدتها فانها تستأنف الحيض اجماعا ويكفيه نية صوم الكفارة وان لم ينو الولاء فان انكسر الشهر الاول أتمه من الثالث ثلاثين لتعذر الرجوع فيه الى الهلال وينقطع التتابع بفوات يوم ولو بعذر كمرض أو سفر فيجب الاستئناف ولو كان الفائت اليوم الأخير أو اليوم الذى نسيت النية له بخلاف ما اذا فات بجنون أو اغماء مستغرق لمنافاة ذلك الصوم (من قبل أن يتماسا) كما مر فى العتق فان جامع ليلا عصى ولم ينقطع التتابع لانه ليس محلا للصوم بخلافه نهارا وقال أبو حنيفة ومالك يبطل بكل حال ويجب عليه ابتداء الكفارة لقوله تعالى من قبل أن يتماسا (فمن لم يستطع) بأن عجز عن صوم أو ولاء لمرض يدوم شهرين بالظن المستفاد من العادة فى مثله أو من قول الاطباء أو لمشقة شديدة تلحقه بالصوم أو بولائه ولو كانت المشقة لشدة شهوة الوطء أو خوف زيادة مرض (فاطعام) أى فعليه اطعام (ستين مسكينا) أى من قبل أن يتماسا حملا للمطلق على المقيد بأن يملك كل مسكين من أهل الزكاة مدا من جنس الفطرة كبر وشعير واقط ولبن فلا يجزئ لحم ودقيق وسويق وخرج بأهل زكاة غيره فلا يجزئ دفعها لكافر ولا لهاشمى ومطلبى ولا لمواليهما ولا لمن تلزمه مؤنته ولا لرقيق لانها حق الله تعالى فاعتبر فيها صفات الكمال (ذلك) أى الترخيص العظيم لكم والرفق بكم والبيان الشافى من أمر الله الذى هو موافق للحنيفية السمحة ملة أبيكم ابراهيم عليه السلام (لتؤمنوا) أى ليتحقق ايمانكم (بالله) أى الملك الذى لا أمر لاحد معه فتطيعوا بالانسلاخ عن أمر الجاهلية (ورسوله) أى الذى تعظيمه من تعظيمه * ولما رغب فى هذا الحكم رهب فى التهاون به بقوله تعالى (وتلك) أى هذه الاحكام العظيمة المذكورة (حدود الله) أى أوامر الملك الاعظم ونواهيه التى يجب امتثالها والتعبد بها الترعى حق رعايتها فالتزموها وقفوا عندها ولا تعتدوها فانه لا يطاق انتقامه اذا تعدى نقضه وابرامه (وللكافرين) أى العريقين فى الكفر رجا أو نسوة

من شرا ئعه (عذاب أليم) اى بما آلموا المؤمنين به من الاعتداء فان عجز عن جميع خصال الكفارة لم تسقط الكفارة عنه بل هى باقية فى ذمته الى أن يقدر على شئ منها فاذا قدر على خصلة من خصالها فعلها ولا يتبعض العتق ولا الصوم بخلاف الاطعام حتى لو وجد بعض مد أخرجه لانه لا بدل له وبقى الباقى فى ذمته قال الزمخشرى فان قلت فاذا امتنع المظاهر من الكفارة هل للمرأة ان تدافعه قلت لها ذلك وعلى القاضى أن يجبره على أن يكفر وان يحبسه ولا شئ من الكفارات يجبر عليه ويحبس الا كفارة الظهار وحدها لانه يضربها فى ترك التكفير والامتناع بحق الاستمتاع فيلزم أبداؤها (فان قلت) فان مس قبل ان يكفر (قلت) عليه ان يستغفر ولا يعود حتى يكفر لما روى أن سلمة بن صخر البياضى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرت من امرأتى ثم أبصرت خلخالها فى ليلة قمراء فواقعتها فقال عليه الصلاة والسلام استغفر ربك ولا تعد حتى تكفر اه والمراد بالاستغفار هنا التوبة * ولما ذكر تعالى المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين المخالفين لها بقوله تعالى (ان الذين يحادون الله) أى يغالبون الملك الاعلى على حدوده ليجعلوا حدودا غيرها وذلك صورته صورة العداوة لان المحادة المعاداة والمخالفة فى الحدود وهو كقوله تعالى ومن يشاق الله (ورسوله) أى الذى عزه من عزه وقيل يحادون الله أى أولياء الله كما فى الخبر من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة والضمير فى قوله تعالى ان الذين يحادون الله ورسوله يحتمل أن يرجع الى المنافقين فانهم كانوا يوادون الكافرين ويظاهرونهم على النبى صلى الله عليه وسلم فأذلهم الله تعالى ويحتمل أن يرجع لجميع الكفار فأعلم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم انهم (كبتوا) أى أذلوا وقال أبو عبيدة والاخفش أهلكوا وقال قتادة أخذوا وقال ابو زيد عذبوا وقال السدى لعنوا وقال الفراء أغيظوا يوم الخندق وقيل يوم بدر (كما كبت الذين من قبلهم) أى المحادين المخالفين رسلهم كقوم نوح ومن بعدهم ممن أصر على العصيان قال القشيرى ومن ضيع لرسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو أحدث فى دينه بدعة انخرط فى هذا السلك (وقد أنزلنا) أى بما لنا من العظمة عليكم وعلى من قبلكم (آيات بينات) أى دلالات عظيمة هى فى غاية البيان لذلك ولكل ما يتوقف عليه الايمان كترك المحادة وتحصيل الاذعان (وللكافرين) اى الراسخين فى الكفر بالآيات أو بغيرها من أوامر الله تعالى (عذاب مهين) بما تكبروا واعتدوا على أولياء الله تعالى وشرائعه يهينهم ذلك العذاب ويذهب عزهم وشماختهم ويتركون به محادتهم وقوله تعالى (يوم) منصوب باذكر كما قاله الزمخشرى قال تعظيما لليوم أو بلهم أى بالاستقرار الذى تضمنه لوقوعه خبرا أو بفعل مقدر وقدره أبو البقاء يهانون أو يعذبون أو استقر ذلك يوم (يبعثهم الله) أى الملك الاعظم (جميعا) أى حال كونهم مجتمعين الكافرين المصرح بهم والمؤمنين المشار اليهم الرجال والنساء أحياء كما كانوا لا يترك منهم أحد وقيل مجتمعين فى حال واحد (فينبئهم) أى يخبرهم اخبارا عظيما مستقصى (بما عملوا) تخجيلا وتوبيخا وتشهيرا لحالهم (أحصاه الله) أى أحاط به عددا كما وكيفا وزمانا ومكانا بما له من صفات الكمال والجلال (ونسوه) لانهم تهاونوا به حيث ارتكبوه ولم يبالوا به لضراوتهم بالمعاصى وانما تحفظ

معظمات الامور أو لخروجه عن الحذق الكثرة فكيف كل واحد على انفراده (والله) أى بماله من القدرة الشاملة والعلم المحيط (على كل شئ) أى على الاطلاق (شهيد) أى حفيظ حاضر لا يغيب ورقيب لا يغفل ثم انه تعالى أكد بيان كونه عالما بكل المعلومات فقال جل ذكره (ألم تر) أى تعلم علما هو فى وضوحه كالرؤية بالعين (أن الله) أى الذى له صفات الكمال كلها (يعلم ما فى السموات) كلها (وما فى الارض) كذلك كليات ذلك وجزئياته لا يغيب عنه شئ منه بدليل أن تدبيره محيط بذلك على أتم ما يكون وهو يخبر من شاء من أنبيائه وأصفيائه بما يشاء من أخبار ذلك القاصية والدانية والماضية والآتية فيكون كما أخبر وقوله تعالى (ما يكون من نجوى) يكون فيه من كان التامة ومن نجوى فاعلها ومن مزيدة فيه أى ما يقع من تناجى (ثلاثة) ويجوز أن يقدر مضاف أى أهل نجوى فيكون ثلاثة صفة لاهل وان يؤول نجوى بمتناجين جعلوا نجوى مبالغة فيكون ثلاثة صفة لنجوى واشتقاقها من النجوة وهى ما ارتفع من الارض فان السر يرتفع الى الذهن لا يتيسر لكل أحد أن يطلع عليه وقوله تعالى (الا هو رابعهم) استثناء من أعم الاحوال أى ما يوجد شئ من هذه الاشياء فى حال من الاحوال الا هو يعلم نجواهم كانه حاضر معهم وشاهدهم كما تكون نجواهم عند الرابع الذى يكون معهم (ولا خمسة) أى من نجواهم (الا هو سادسهم) أى يعلم نجواهم كما مر (فان قيل) ما الداعى الى تخصيص الثلاثة والخمسة (أجيب) بوجهين أحدهما أن قوما من المنافقين تحلقوا للتناجى فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون الى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم مغايظة للمؤمنين على هذين العددين ثلاثة وخمسة فقيل ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة كما ترونهم يتناجون (ولا أدنى من ذلك) أى من عددهم (ولا أكثر) أى من ذلك (الا هو معهم) يسمع ما يقولون (أينما) أى فى أى مكان (كانوا) فانه لا مسافة بينه وبين شئ فقد روى عن ابن عباس أنها نزلت فى ربيعة وحبيب ابنى عمرو وصفوان بن أمية كانوا يوما يتحدثون فقال أحدهم أترى أن الله يعلم ما نقول فقال الآخر يعلم بعضا ولا يعلم بعضا وقال الثالث ان كان يعلم بعضه فهو يعلم كله وصدق لان من علم بعض الاشياء بغير سبب فقد علمها كلها الان كونه عالما بغير سبب ثابت له مع كل معلوم والوجه الثانى انه قصد ان يذكر ما جرت عليه العادة من اعداد أهل النجوى والمتخالين للشورى والمندوبون لذلك ليسوا بكل أحد وانما هم طائفة مجتباة من أولى النهى والاحلام ورهط من أهل الرأى والتجارب وأول عددهم اثنان فصاعدا الى خمسة الى ستة الى ما اقتضته الحال وحكم به الاستصواب ألا ترى الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه كيف ترك الامر شورى بين ستة ولم يتجاوز بها الى سابع فذكر عز وجل الثلاثة والخمسة وقال ولا أدنى من ذلك فدل على الاثنين والاربعة وقال ولا أكثر فدل على ما يلى هذا العدد ويقاربه وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال فى خطبته الكبرى أخرجها الحرث ابن أبى أسامة رقى المنبر وقال يا أيها الناس ادنوا واسعوا لمن خلفكم ثلاث مرات فدنا الناس وانضم بعضهم الى بعض والتفتوا فلم يروا أحدا فقال رجل منهم بعد الثالثة لمن نسمع

قوله وروى انه الخ غير مستقيم اه

يارسول الله الملائكة فقال لا انهم اذا كانوا معكم لم يكونوا بين أيديكم ولا خلفكم ولكن عن ايمانكم وعن شمائلكم وعلى ذلك فليسوا فى مكان الايمان هنا والشمائل بل فى المكانة من ذلك فالله جل جلاله أعلى وأجل وأنزه مكانة وأكرم استواء (ثم ينبئهم) أى يخبر أصحاب النجوى اخبارا عظيما (بما عملوا) دقيقه وجليله (يوم القيامة) الذى هو المراد الاعظم من الوجود لاظهار الصفات العلا فيه أتم اظهار (ان الله) الذى له الكمال كله (بكل شئ) أى مما ذكر وغيره (عليم) أى بالغ العلم فهو على كل شئ شهيد وهذا تحذير من المعاصى وترغيب فى الطاعات واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ألم تر) أى تعلم علما هو كالرؤية (الى الذين نهوا عن النجوى) فقيل فى اليهود وقيل فى المنافقين وقيل فى فريق من الكفار وقيل فى فريق من المسلمين لما روى أبو سعيد الخدرى قال كنا ذات ليلة نتحدث اذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم ما هذه النجوى فقلنا تبنا الى الله تعالى يا رسول الله انا كنا فى ذكر المسيح يعنى الدجال فرقا منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بما هو أخوف عندى منه قلنا بلى يا رسول الله قال الشرك الخفى أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل ذكره الماوردى وقال ابن عباس نزلت فى اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم يوهمون المؤمنين انهم يتناجون فيما يسوءهم فيحزنون لذلك ويقولون ما نراهم الا وقد بلغهم من اخواننا الذين خرجوا فى السرايا قتل أو موت أو هزيمة فيقع ذلك فى قلوبهم ويحزنهم فلما طال ذلك عليهم وأشكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا الى مناجاتهم فأنزل الله تعالى ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى (ثم يعودون) أى على سبيل الاستمرار لانه وقع مرة وبادروا الى التوبة منها أو فلتة معفوا عنها (لما نهوا عنه) أى من غير أن يعتدوا لما يتوقع من جهة الناهى من الضرر عنده (ويتناجون) أى يقبل بعضهم على المناجاة اقبالا واحدا فيفعل كل منهم منها ما يفعله الآخر مرة بعد أخرى على سبيل الاستمرار وقرأ حمزة بعد الياء بنون ساكنة وبعدها تاء فوقية مفتوحة ولا ألف قبل الجيم وضم الجيم والباقون بتاء فوقية مفتوحة وبعدها نون مفتوحة وبعد النون ألف وفتح الجيم (بالاثم) أى بالشئ الذى لا يثبت عليهم به الذنب وبالكذب وبما لا يحل (والعدوان) أى العدوان الذى هو نهاية فى قصد الشر بالافراط فى مجاوزة الحدود (ومعصيت الرسول) أى مخالفة النبى الذى جاء اليهم من الملأ الاعلى وهو كامل فى الرسالة لكونه مرسلا الى جميع الخلق وفى كل الازمان فلا نبى بعده فهو لذلك مستحق غاية الاكرام *(فائدة)* رسمت معصية فى الموضعين بالتاء المجرورة واذا وقف عليها فأبو عمرو وابن كثير والكسائى بالهاء فى الوقف والكسائى بالامالة فى الوقف على أصله ووقف الباقون بالتاء على الرسم واتفقوا فى الوصل على التاء (واذا جاؤك) أى يا أشرف الخلق (حيوك) أى واجهوك بما يعدونه تحية (بما لم يحيك به الله) أى الملك الاعلى الذى لا أمر لاحد معه وذلك ان اليهود كانوا يدخلون على النبى صلى الله عليه وسلم ويقولون السام عليك والسام

الموت

الموت وهم يوهمون انهم يقولون السلام عليك وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرد عليهم فيقول وعليكم فقالت السيدة عائشة السام عليكم ولعنة الله وغضبه عليكم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلا ياعائشة عليك بالرفق واياك والعنف والفحش فقالت أولم تسمع ماقالوا يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أولم تسمعي ماقلت رددت عليهم فيستجاب لى فيهم ولايستجاب لهم فى وقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك اذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليك ماقلت فأنزل الله تعالى واذا جاؤك حيوك بمالم يحيك به الله وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال اذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم بالواو وقال بعض العلماء ان الواو العاطفة تقتضى التشريك فيلزم منه أن ندخل معهم فيما دعوا به علينا من الموت أو من سآمة ديننا وهو الملال يقال سئم يسأم سأمة وسأما وقال بعضهم الواو زائدة كما زيدت فى قول الشاعر * فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى * أى لما أجزنا انتحى فزاد الواو وقال آخرون هى للاستئناف كانه قيل والسام عليكم وقال آخرون هى على بابها من العطف ولايضرنا ذلك لانا نجاب عليهم ولايجابون علينا كما تقدم فى قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة * (تنبيه) * اختلف العلماء فى رد السلام على أهل الذمة فقال ابن عباس والشعبى وقتادة هو واجب لظاهر الامر بذلك وقال مالك ليس بواجب فان رددت فقل وعليك وعندنا يجب أن يقول له وعليك لما مر فى الحديث وقال بعضهم يقول فى الرد علاك السلام أى ارتفع عنك وقال بعض المالكية يقال فى الرد السلام عليك بكسر السين يعنى الحجارة * ولما كانوا يخفون ذلك جهدهم ويظنون باملاء الله تعالى لهم أنه صلى الله عليه وسلم لايطلع عليه وان اطلع عليه لم يقدر أن ينتقم منهم عبر عن ذلك بقوله تعالى (ويقولون فى أنفسهم) من غير أن يطلع عليه أحد (لولا) أى هلا ولم لا (يعذبنا الله) أى الذى له الاحاطة بكل شئ (بما نقول) أى لو كان نبيا لعذبنا الله بما نقول وقيل قالوا انه يرد علينا ويقول وعليكم السام فلو كان نبيا لاستجيب له فينا ومتنا وهذا موضع تعجب منهم فانهم كانوا أهل الكتاب وكانوا يعلمون ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يغضبون فلايعاجلون من يغضبهم بالعذاب (حسبهم) أى كافيهم فى الانتقام (جهنم) أى الطبقة التى تلقاهم بالتجهم والعبوسة والفظاظة فان حصل لهم فى الدنيا عذاب كان زيادة على الكفاية فاستعجالهم بالعذاب محض رعونة (يصلونها) أى يقاسون عذابها دائما فانا قد أعددناها لهم (فبئس المصير) أى مصيرهم (ياأيها الذين آمنوا) أى ادعوا أنهم أوجدوا هذه الحقيقة (اذا تناجيتم) أى أطلع كل منكم الكلام من نفسه فرفعه وكشفه لصاحبه سرا (فلا تتناجوا) أى توجدوا هذه الحقيقة (بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول) أى الكامل فى الرسالة كفعل المنافقين واليهود وقال مقاتل أراد تعالى بقوله آمنوا المنافقين آمنوا بلسانهم وقال عطاء يريد الذين آمنوا بزعمهم وقيل ياأيها الذين آمنوا بموسى (وتناجوا بالبر والتقوى) أى الطاعة والعفاف عما نهى الله تعالى عنه (واتقوا الله) أى اقصدوا قصدا يتبعه العمل بأن تجعلوا بينكم وبين سخط الملك الاعظم وقاية (الذى اليه) خاصة (تحشرون) أى تجمعون

بأيسر أمر وأسهله بقهر وكره وهو يوم القيامة فيتجلى فيه سبحانه للحكم بين الخلق والانصاف بينهم بالعدل ومحاسبتهم على النقير والقطمير لا تخفى عليه خافية ولا تقى منه واقية (انما النجوى) أى المعهودة وهى المنهى عنها (من الشيطان) أى مبتدئة وممتدة من المحترق بطرده عن رحمة الله تعالى فانه الحامل عليها بتزيينها ففاعلها تابع لاعدى أعدائه مخالف لاعظم أوليائه (ليحزن) أى الشيطان (الذين آمنوا) أى ليوهمهم أنها بسبب شئ وقع مما يؤذيهم والحزن هم غليظ وتوجع يدق يقال حزنه وأحزنه بمعنى قال فى القاموس أو أحزنه جعله حزينا وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى من أحزنه والباقون بفتح الياء وضم الزاى من حزن والقراءة الاولى أشد فى المعنى على ما فى القاموس (وليس) أى الشيطان أو ما حمل عليه من التناجى (بضارهم) أى الذين آمنوا (شيأ) من الضرر وان قل (الا باذن الله) أى بمشيئة الملك المحيط علما وقدرة (فان قيل) كيف لا يضرهم ذلك ولا يحزنهم الا باذن الله (أجيب) بانهم كانوا يوهمون المؤمنين فى نجواهم وتغامزهم ان غزاتهم غلبوا وان أقاربهم قتلوا فقال تعالى لا يضرهم الشيطان والحزن بذلك الموهم الا باذن الله تعالى أى بمشيئته وهو أن يقضى الموت على أقاربهم والغلبة على الغزاة (وعلى الله) أى الملك الذى لا كفء له لا على أحد غيره (فليتوكل المؤمنون) أى الراسخون فى الايمان فى جميع أمورهم فانه القادر وحده على اصلاحها وافسادها فلا يحزنوا من أحد أن يكيدهم بسره ولا بجهره فانهم توكلوا عليه وفوضوا أمورهم اليه وخص الراسخين لامكان ذلك منهم فى العادة وأما أصحاب البدايات فلا يكون ذلك منهم الا خرق عادة روى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث الا باذنه فان ذلك يحزنه وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى يختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه فبين فى هذا الحديث غاية المنع وهو أن يجد الثالث من يتحدث معه كما فعل ابن عمر وذلك أنه كان يتحدث مع رجل فجاء آخر يريد أن يناجيه فلم يناجه حتى دعا رابعا فقال له وللاول تأخرا وناجى الرجل الطالب للمناجاة خرجه فى الموطا ونبه على العلة بقوله من أجل أن يحزنه أى يقع فى نفسه ما يحزن لاجله وعلى هذا يستوى فى ذلك كل الاعداد فلا يتناجى أربعة دون واحد ولا عشرة ولا ألف مثلا لوجود ذلك المعنى فى حقه بل وجوده فى العدد الكثير أمكن وأوقع فيكون بالمنع أولى وانما خص الثلاثة بالذكر لانه أول عدد يتأتى ذلك فيه قال القرطبى وظاهر الحديث يعم جميع الازمان والاحوال وذهب اليه ابن عمر ومالك والجمهور وسواء أكان التناجى فى واجب أو مندوب أو مباح فان الحزن ثابت به وقد ذهب بعض الناس الى أن ذلك كان فى أول الاسلام لان ذلك كان حال المنافقين فيتناجى المنافقون دون المؤمنين فلما فشا الاسلام سقط ذلك وقال بعضهم ذلك خاص بالسفر وفى المواضع التى لا يأمن الرجل فيها صاحبه فأما فى الحضر وبين العمارة فلا لانه يجد من يغيثه بخلاف السفر فانه مظنة الاغتيال وعدم الغوث ولما نهى المؤمنين عما يكون سببا للتباغض والتنافر أمرهم الآن بما يصير سببا للزيادة

المحبة والمودة بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى الذين اتصفوا بهذا الوصف (اذا قيل لكم) أى من أى قائل كان فان الخير يرغب فيه لذاته (تفسحوا) أى توسعوا أى كلفوا أنفسكم فى اتساع المواضع (فى المجالس) أى الجلوس أو مكانه لاجل من يأتى فلا يجد مجلسا يجلس فيه قال قتادة ومجاهد كانوا يتنافسون فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض وقال ابن عباس المراد بذلك مجالس القتال اذا اصطفوا للحرب قال الحسن وزيد بن أبى حبيب كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الاول فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة فى القتال والشهادة فنزلت فيكون كقوله تعالى مقاعد للقتال وقال مقاتل كان النبى صلى الله عليه وسلم فى الصفة وكان فى المكان ضيق وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والانصار فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا الى المجلس فقاموا قبل النبى صلى الله عليه وسلم على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحملهم على القيام وشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لمن حوله من غير أهل بدر قم يا فلان بعدد القائمين من أهل بدر فشق ذلك على من قام وعرف النبى صلى الله عليه وسلم الكراهة فى وجوههم فقال المنافقون والله ما عدل على هؤلاء ان قوما أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ فنزلت الآية يوم الجمعة وروى عن ابن عباس قال نزلت الآية فى ثابت بن قيس بن شماس وذلك أنه دخل المسجد وقد أخذ القوم مجالسهم وكان يريد القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم للوقر أى الصمم الذى كان فى أذنيه فوسعوا له حتى قرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ضايقه بعضهم وجرى بينه وبينهم كلام فنزلت وقد تقدمت قصته فى سورة الحجرات وقرأ عاصم بفتح الجيم وألف بعدها جمعا لان لكل جالس مجلسا أى فليفسح كل واحد فى مجلسه والباقون بسكون الجيم ولا ألف افرادا قال البغوى لان المراد منه مجلس النبى صلى الله عليه وسلم وقال القرطبى الصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير وللاجر سواء كان مجلس حرب أو ذكر أو مجلس يوم الجمعة وان كل واحد أحق بمكانه الذى سبق اليه قال صلى الله عليه وسلم من سبق الى ما لم يسبق اليه فهو أحق به ولكن يوسع لاخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق من موضعه فيكون المراد بالمجلس الجنس ويؤيده قراءة الجمع (فافسحوا) أى وسعوا فيه عن سعة صدر (يفسح الله) أى الذى له الامر كله (لكم) فى كل ما تكرهون ضيقه من الدارين وقال الرازى هذا مطلق فيما يطلب الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة قال ولا ينبغى للعاقل أن يقيد الآية بالتفسح فى المجلس بل المراد منه ايصال الخير الى المسلم وادخال السرور فى قلبه (واذا قيل) أى من أى قائل كان كما مضى اذا كان يريد الاصلاح والخير (انشزوا) أى ارتفعوا وانهضوا الى الموضع الذى تؤمرون به أو يقتضيه الحال للتوسعة أو غيرها من الاوامر كالصلاة والجهاد (فانشزوا) أى فارتفعوا وانهضوا (يرفع الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (الذين آمنوا) وان كانوا غير علماء (منكم) أى أيها

المأمورون بالتفسح السامعون للاوامر المبادرون اليها بطاعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيامهم فى مجلسهم وتوسعهم لاخوانهم (والذين أوتوا العلم درجات) يجوز أن يكون معطوفا على الذين آمنوا فهو من عطف الخاص على العام فان الذين أوتوا العلم بعض المؤمنين ويجوز أن يكون والذين أوتوا العلم من عطف الصفات أى تكون الصفتان لذات واحدة كأنه قيل يرفع الله المؤمنين العلماء درجات مفعول ثان وقال ابن عباس تم الكلام عند قوله تعالى منكم وينتصب الذين أوتوا بفعل مضمر أى ويخص الذين أوتوا العلم درجات أو ويرفع درجات قال المفسرون فى هذه الآية ان الله تعالى رفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم قال ابن مسعود مدح الله تعالى العلماء فى هذه الآية والمعنى ان الله تعالى يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات فى دينهم اذا فعلوا بما أمروا به وقال تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقال تعالى وقل رب زدنى علما وقال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء والآيات فى ذلك كثيرة معلومة وأما الاحاديث فكثيرة مشهورة منها من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وروى أن عمر رضى الله عنه كان يقدم عبد الله ابن عباس على الصحابة رضى الله تعالى عنهم فكلموه فى ذلك فدعاهم ودعاه فسألهم عن تفسير اذا جاء نصر الله والفتح فسكتوا فقال ابن عباس هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله اياه فقال عمر ما أعلم منها الا ما تعلم ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال لا حسد الا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها والمراد بالحسد الغبطة وهى أن تتمنى مثله ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال لعلى كرم الله وجهه لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال من جاءه أجله وهو يطلب العلم ليحيى به الاسلام لم يفضله النبيون الا بدرجة واحدة ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وفى رواية كفضلى على أدناكم ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله أوحى الى ابراهيم عليه الصلاة والسلام انى عليم أحب كل عليم ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال يشفع يوم القيامة ثلاثة الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء فأعظم بمنزلة هى واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنها أنه صلى الله عليه وسلم مر بمجلسين فى مسجده أحد المجلسين يدعون الله تعالى ويرغبون اليه والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا المجلسين على خير واحدهما أفضل من صاحبه أما هؤلاء فيدعون الله عز وجل ويرغبون اليه وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه ويعلمونه الجاهل فهؤلاء أفضل وانما بعثت معلما ثم جلس فيهم والاحاديث فى ذلك كثيرة جدا وأما أقوال السلف فلا تحصر فمنها ما قاله ابن عباس ان سليمان عليه السلام خير بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه وما قاله بعض الحكماء ليت شعرى أى شئ أدرك

من فاته العلم وأى شئ فات من أدرك العلم وما قاله الاحنف كاد العلماء يكونون أربابا وكل عز لم يؤكد بعلم فالى ذل ما يصير وما قاله الزبيرى العلم ذكر فلا يحبه الاذكورة الرجال وما قاله أبو مسلم الخولانى مثل العلماء فى الارض مثل النجوم فى السماء اذا برزت للناس اهتدوا بها واذا خفيت عنهم تحيروا وما قاله معاذ تعلم العلم فان تعلمه لك حسنة وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة وبذله لاهله قربة وما قاله على العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالانفاق وما قاله ابن عمر مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة وما قاله الشافعى من أن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة وقال ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم وقال من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم فانه يحتاج اليه فى كل منهما وقد ذكرت فى أول شرح المنهاج من الاحاديث ومن أقوال السلف مايسر الناظر الراغب فى الخير وفيما ذكرته هنا كفاية لاولى الابصار (والله) أى والحال ان المحيط بكل شئ علما وقدرة (بما تعملون) أى حال الامر وغيره (خبير) أى عالم بظاهره وباطنه فان كان العلم مزينا بالعمل بامتثال الاوامر واجتناب النواهى وتصفية الباطن كانت الرفعة على حسبه وان كان على غير ذلك فكذلك واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى ادعوا أنهم أوجدوا هذه الحقيقة أغنياء كانوا أو فقراء (اذا ناجيتم الرسول) أى أردتم مناجاة الذى لا أكمل منه فى الرسالة الآية فقال ابن عباس ان المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية فكف كثير من الناس وقال الحسن ان قوما من المسلمين كانوا يستخلون بالنبى صلى الله عليه وسلم يناجونه فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم فى النجوى فشق عليهم ذلك فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن استخلائه وقال زيد بن أسلم ان المنافقين واليهود كانوا يناجون النبى صلى الله عليه وسلم ويقولون انه أذن يسمع كل ما قيل له وكان لا يمنع أحدا من مناجاته فكان ذلك يشق على المسلمين لان الشيطان كان يلقى فى أنفسهم أنهم يناجون أن جموعا اجتمعت لقتال فنزلت يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول أى أردتم مناجاته (فقدموا) أى بسبب هذه الارادة وقوله تعالى (بين يدى نجواكم) استعارة ممن له يدان والمعنى قبل نجواكم التى هى سركم الذى تريدون أن ترفعوه (صدقة) لقول عمر من أفضل ما أوتيت العرب الشعر يقدمه الرجل امام حاجته فيستمطر به الكريم ويستنزل به اللئيم يريد قبل حاجته والصدقة تكون لكم برهانا على اخلاصكم كما ورد أن الصدقة برهان فهى مصدقة لكم فى دعوى الايمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وبكل ما جاء به عن الله تعالى * (تنبيه) * ظاهر الآية يدل على أن تقديم الصدقة كان واجبا لان الامر للوجوب ويؤكد ذلك قوله تعالى بعده فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم وقيل كان مندوبا لقوله تعالى (ذلك) أى التصدق (خير لكم وأطهر) أى لانفسكم من الريبة وحب المال وهذا

انما يستعمل فى التطوع لا فى الواجب ولانه لو كان واجبا لما أزيل وجوبه والكلام متصل به وهو قوله تعالى فان لم تجدوا الآية وأجيب عن الاول بأن المندوب كما يوصف بأنه خير وأطهر فكذلك أيضا يوصف بهما الواجب وعن الثانى بأنه لا يلزم من اتصال الآيتين فى التلاوة كونهما متصلتين فى القول كما قيل فى الآية الدالة على وجوب الاعتداد أربعة أشهر وعشرا انها ناسخة للاعتداد بحول وان كان الناسخ متقدما فى التلاوة وعن على أنه قال لما نزلت دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما تقول فى دينار قلت لا يطيقونه قال كم قلت حبة أو شعيرة قال انك لزهيد فلما رأوا ذلك اشتد عليهم فارتدعوا أما الفقير فلعسرته وأما الغنى فلشحه واختلف فى مقدار تأخر الناسخ عن المنسوخ فى هذه الآية فقال الكلبى ما بقى ذلك التكليف الا ساعة من نهار ثم نسخ وقال مقاتل وابن حبان بقى ذلك التكليف عشرة أيام ثم نسخ لما روى عن على أنه قال ان فى كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى كان لى دينار فصرفته فكنت اذا ناجيته تصدقت بدرهم وفى رواية عنه فاشتريت به عشرة دراهم وكلما ناجيت النبى صلى الله عليه وسلم قدمت بين يدى نجواى درهما ثم نسخت فلم يعمل بها أحد وعن ابن عباس رضى الله عنهما انهم نهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا فلم يناج أحد الا على تصدق بدينار وعدم عمل غيره لا يقدح فيه لاحتمال أن يكون لم يجد عند المناجاة شيأ أو أن لا يكون احتاج الى المناجاة ثم نزلت الرخصة وعن ابن عمر رضى الله عنه كان لعلى ثلاث لو كان لى واحدة منهن كانت أحب الى من حمر النعم تزويجه فاطمة واعطاؤه الراية يوم خيبر وآية النجوى واختلف فى الناسخ لذلك فقيل هى منسوخة بالزكاة وأكثر المفسرين انها منسوخة بالآية التى بعدها وهى أأشفقتم كما سيأتى وكان على يقول وخفف عن هذه الامة (فان لم تجدوا) أى ما تقدمونه (فان الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (غفور رحيم) أى له صفتا الستر للمساوى والاكرام باظهار المحاسن على الدوام فهو يعفو ويرحم تارة بتقدم العقاب للعاصى وتارة بالتوسعة للضيق بأن ينسخ ما يشق الى ما يخف وقوله تعالى (أأشفقتم) أى خفتم العيلة لما يعدكم به الشيطان من الفقر خوفا كاد أن يفطر قلوبكم (أن تقدموا) أى باعطاء الفقراء وهم اخوانكم (بين يدى نجواكم) أى النبى صلى الله عليه وسلم (صدقات) وجمع لانه أكثر توبيخا من حيث انه يدل على أن النجوى تتكرر استفهام معناه التقرير وهو الناسخ عند الاكثر كما مر وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بتسهيل الثانية بخلاف عن هشام وأدخل بينهما ألفا قالون وأبو عمرو وهشام والباقون بتحقيقهما ولا ادخال والاولى محققة بلا خلاف (فاذ) أى حين (لم تفعلوا) أى ما أمرتكم به من الصدقة للنجوى بسبب هذا الاشفاق (وتاب الله) أى الملك الاعلى (عليكم) أى رجع بكم عنها بأن نسخها عنكم تخفيفا عليكم (فأقيموا) أى بسبب العفو عنكم شكرا أى على هذا الكرم والحلم (الصلوة) التى هى طهرة لارواحكم وصلة لكم بربكم (وآتوا الزكوة) التى هى براءة لابدانكم وتطهير ونماء لاموالكم وصلة لكم باخوانكم ولا تفرطوا فى شئ من ذلك فتهملوه فالصلاة نور يهدى الى المقاصد الدنيوية والاخروية ويعين على نوائب الدارين والصدقة برهان على صحة القصد فى الصلاة

ثم عم بعد ان خصص أشرف العبادات البدنية واعلى المناسك المالية بقوله تعالى (وأطيعوا الله) أى الذى له الكمال كله (ورسوله) أى الذى عظمته من عظمته فى سائر ما يأمركم به فانه تعالى ما أمركم لاجل اكرام رسولكم صلى الله عليه وسلم الا بالحنيفية السمحة (والله) أى الذى أحاط بكل شئ علما وقدرة (خبير بما تعملون) أى يعلم بواطنكم كما يعلم ظواهركم لا تخفى عليه خافية (ألم تر) أى تنظر يا أشرف الخلق (الى الذين تولوا) أى تكلفوا بغاية جهدهم وهم المنافقون أى جعلوا أولياءهم الذين يتولون لهم أمورهم (قوما) وهم اليهود ابتغوا عندهم العزة اغترارا بما يظهر لهم منهم من القوة (غضب الله) أى الملك الاعلى الذى لا نده له (عليهم) أى المتولى والمتولى لهم (ما هم) أى المنافقون (منكم) أى المؤمنين (ولا منهم) أى اليهود بل هم مذبذبون وزاد فى الشناعة عليهم بأقبح الاشياء بقوله تعالى (ويحلفون) أى المنافقون يجددون الحلف على الاستمرار ودل بأداة الاستعلاء على انهم فى غاية الجراءة على استمرارهم على الايمان الكاذبة بأن التقدير مجترئين (على الكذب) فى دعوى الاسلام وغير ذلك مما يقعون فيه من عظائم الآثام فاذا عوتبوا عليه بادروا الى الايمان (وهم يعلمون) انهم كاذبون متعمدون روى أن عبد الله بن نبتل كان يجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يرفع حديثه الى اليهود فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجرة من حجره اذ قال لاصحابه يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان فدخل ابن نبتل وكان أزرق العينين أسمر قصيرا خفيف اللحية فقال له النبى صلى الله عليه وسلم علام تشتمنى أنت وأصحابك فحلف بالله ما فعل فقال النبى صلى الله عليه وسلم فعلت فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فنزلت (أعد الله) أى الذى له العظمة الباهرة فلا كفء له (لهم عذابا) أى أمرا قاطعا لكل عذوبة (شديدا) أى لا طاقة لهم به * ثم علل عذابهم بما دل على انه واقع فى أتم مواقعة بقوله تعالى مؤكدا تقبيحا على من كان يستحسن فعالهم (انهم ساء) أى بلغ الغاية بما يسوء ودل على أن ذلك لهم كالجبلة بقوله تعالى (ما كانوا يعملون) أى يجددون عمله مستمرين عليه لا ينفكون عنه قال الزمخشرى أوهى حكاية ما يقال لهم فى الآخرة (اتخذوا أيمانهم) أى الكاذبة التى لا تهون على من فى قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان (جنة) وقاية وسترة من كل ما يفضحهم من النفاق كائنا ما كان (فصدوا) أى كان قبول ذلك منهم وتأخير عقابهم سببا لايقاعهم الصد (عن سبيل الله) أى شرع الملك الاعلى الذى هو طريق الى رضوانه الذى هو سبب الفوز العظيم فانهم كانوا يثبطون من لقواعن الدخول فى الاسلام ويوهنون أمره ويحقرونه ومن رآهم قد خلصوا من المكاره بأيمانهم الحانثة ودرت عليهم الارزاق استدراجا وحصلت لهم الرفعة عند الناس بما يرضونه من أقوالهم المؤكدة بالايمان غره ذلك فاتبع سنتهم فى أقوالهم وأفعالهم ونسج على منوالهم غرورا بظاهر أمرهم معرضا عما توعدهم الله تعالى عليه من جزاء خداعهم وأمرهم وأجرى الامر على أسلوب التهكم باللام التى تكون فى المحبوب فقال تعالى (فلهم) أى فتسبب عن صدهم انه كان لهم (عذاب مهين) جزاء بما طلبوا بذلك الصد اعزاز أنفسهم واهانة أهل الاسلام (لن

تغني) أي بوجه من الوجوه (عنهم أموالهم) أي في الدنيا ولا في الآخرة بالافتداء ولا بغيره (ولا أولادهم) أي بالنصرة والمدافعة (من الله) أي اغناء مبتدأ من الملك الاعلى (شيأ) ولو قل جدا فهما أراد بهم سبحانه كان ونفذ ومضى لا يدفعه شيء تكذيبا لمن قال منهم لئن كان يوم القيامة لنكونن أسعد فيه منكم كما نحن الآن ولننصرن بأنفسنا وأموالنا وأولادنا (أولئك) أي البعداء من كل خير (أصحاب النار هم) أي خاصة (فيها) أي خاصة (خالدون) أي دائمون لازمون الى غير نهاية وقوله تعالى (يوم) منصوب باذكر أي واذكر يوم (يبعثهم الله) أي الذي له جميع صفات الكمال (جميعا) فلا يترك أحدا منهم ولا من غيرهم الا أعاده الى ما كان قبل موته (فيحلفون) أي فيتسبب عن ظهور القدرة التامة لهم ومعاينة ما كانوا يكذبون به انهم يحلفون (له) أي لله في الآخرة انهم مسلمون فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين ونحو ذلك (كما يحلفون لكم) في الدنيا انهم مثلكم وقال ابن عباس رضي الله عنهما يحلفون لله تعالى يوم القيامة كذبا كما حلفوا لاوليائه في الدنيا وهو قولهم والله ربنا ما كنا مشركين (ويحسبون) أي في القيامة بأيمانهم الكاذبة (انهم على شيء) أي يحصل لهم به نفع بانكارهم وحلفهم وقيل يحسبون في الدنيا انهم على شيء لانهم في الآخرة يعلمون الحق باضطرار والاول أظهر والمعنى انهم لشدة توغلهم في النفاق ظنوا يوم القيامة انهم يمكنهم ترويج كذبهم بالايمان الكاذبة على علام الغيوب واليه الاشارة بقوله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ينادي مناد يوم القيامة أين خصماء الله تعالى فتقوم القدرية مسودة وجوههم مزرقة أعينهم مائل شقهم يسيل لعابهم فيقولون والله ما عبدنا من دونك شمسا ولا قمرا ولا صنما ولا اتخذنا من دونك الها قال ابن عباس رضي الله عنهما صدقوا والله أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون ثم تلا ويحسبون أنهم على شيء وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها (ألا انهم هم الكاذبون) المحكوم بكذبهم في حسبانهم هم والله القدرية ثلاثا (استحوذ) أي استولى (عليهم الشيطان) مع انه طريد ومحترق ووصل منهم الى ما يريده وملكهم ملكا لم يبق لهم معه اختيار فصاروا رعيته وصار هو محيطا بهم من كل جهة غالبا عليهم ظاهرا وباطنا من قولهم حذت الابل وحذتها اذا استوليت عليها والحوذ أيضا السوق السريع ومنه الاحوذي الخفيف في الشيء لحذقه واستحوذ مما جاء على الاصل وهو ثبوت الواو دون قلبها ألفا (فأنساهم) أي فتسبب عن استحواذه عليهم ان أنساهم (ذكر الله) أي الذي له الاسماء الحسنى والصفات العليا (أولئك) أي البعداء البغضاء (حزب الشيطان) أي أتباعه وجنوده وطائفته وأصحابه (ألا ان حزب الشيطان) أي الطريد المحترق (هم الخاسرون) أي العريقون في هذا الوصف لانهم لم يظفروا بغير الطرد والاحتراق (ان الذين يحادون الله) أي يفعلون مع الملك الاعظم الذي لا كفؤ له فعل من ينازع آخر في الارض فيغلب على طائفة فيجعل لها حدا لا يتعداه خصمه (ورسوله) أي الذي عظمته من عظمته (أولئك) أي البعداء البغضاء (في الاذلين) أي في جملة من هو أذل خلق الله تعالى واختلف في معنى قوله عز وجل (كتب الله) أي الملك الذي لا كفؤ له

قوله هم والله القدرية الخ كذا في النسخ ولعله من تقديم وتأخير ويكون من كلام ابن عباس عقب قوله صدقوا

فقال أكثر المفسرين أى قضى الله عزوجل (لأغلبن) وقال قتادة كتب فى اللوح المحفوظ وقال الفراء كتب بمعنى قال وقوله تعالى (أنا) تأكيد (ورسلى) أى من بعث منهم بالحرب ومن بعث منهم بالحجة فاذا انضم الى الغلبة بالحجة الغلبة بالحرب كان أغلب وأقوى وقال مقاتل قال المؤمنون لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجونا أن يظهرنا الله تعالى على فارس والروم فقال عبد الله بن أبى ابن سلول أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التى غلبتم عليها والله انهم لأكثر عددا وأشد بطشا من أن تظنوا فيهم فنزل لأغلبن أنا ورسلى ونظيره قوله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون وقرأ نافع وابن عامر بفتح الياء والباقون بالسكون (ان الله) أى الذى له الامر كله (قوى) أى على نصر أوليائه (عزيز) أى لا يغلب عليه فى مراده ثم نهى تعالى عن موالاة أعداء الله تعالى بقوله سبحانه (لا تجد) أى بعد هذا البيان (قوما) أى ناسا لهم قوة على ما يريدون (يؤمنون) أى يجددون الايمان ويديمونه (بالله) أى الذى له صفات الكمال (واليوم الآخر) الذى هو موضع الجزاء لكل عامل بكل ما عمل الذى هو محط الحكمة (يوادون) أى يحصل منهم ود لا ظاهرا ولا باطنا (من حاد الله) أى عادى بالمناصبة فى حدود الملك الاعلى (ورسوله) فان من حاده فقد حاد الذى أرسله بل لا تجدهم الا يحادونهم لا أنهم يوادونهم وزاد ذلك تأكيدا بقوله تعالى (ولو كانوا آباءهم) أى الذين أوجب الله تعالى على الأبناء طاعتهم فى المعروف وذلك كما فعل أبو عبيدة بن الجراح حيث قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد (أو أبناءهم) أى الذين جبلوا على محبتهم ورحمتهم كما فعل أبو بكر فانه دعا ابنه يوم بدر الى المبارزة وقال دعنى يا رسول الله أكن فى الرعلة الاولى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم انك عندى بمنزلة سمعى وبصرى (أو اخوانهم) أى الذين هم أعضادهم كما فعل مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد وخرف سعد بن أبى وقاص غير مرة فراغ منه روغان الثعلب فنهاه النبى صلى الله عليه وسلم عنه وقال أتريد أن تقتل نفسك وقتل محمد بن سلمة الانصارى أخاه من الرضاع كعب بن الاشرف اليهودى رأس بنى النضير (أو عشيرتهم) أى الذين هم أنصارهم وأمدادهم كما قتل عمر خاله العاصى وهشام بن المغيرة يوم بدر وعلى وحمزة وعبيدة بن الحرث قتلوا يوم بدر بنى عمهم عتبة وشيبة ابنى ربيعة والوليد بن عتبة وعن الثورى ان السلف كانوا يرون أن الآية نزلت فيمن يصحب السلطان اهـ ومدار ذلك على أن الانسان يقطع رجاءه من غير الله تعالى وان لم يكن كذلك لم يكن مخلصا فى ايمانه * (تنبيه) * قدم الآباء أولا لانهم تجب طاعتهم على أبنائهم ثم ثنى بالابناء لانهم أعلق بالقلوب وهم حياتها ثم ثلث بالاخوان لانهم هم الناصرون بمنزلة العضد من الذراع قال الشاعر

أخاك أخاك ان من لا أخاله * كساع الى الهيجا بغير سلاح
وان ابن عم المرء فاعلم جناحه * وهل ينهض البازى بغير جناح

ثم ربع بالعشيرة لان بها يستغاث وعليها يعتمد والمعنى أن الميل الى هؤلاء أعظم أنواع المحبة ومع

هذا فيجب أن يكون هذا الميل مطروحا بسبب الدين قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح لما قتل أباه وعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قتل خاله العاصي ابن هشام يوم بدر وروى انها نزلت في أبي بكر وذلك ان أبا قحافة سب النبي صلى الله عليه وسلم فصكه صكة سقطت منها أسنانه ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال أوفعلت قال نعم قال لاتعد اليه فقال والذى بعثك بالحق نبيا لو كان السيف مني قريبا لقتلته فهؤلاء لم يوادوا أقاربهم قال القرطبي استدل مالك بهذه الآية على معاداة القدرية وترك مجالستهم قال القرطبي وفي معنى أهل القدر جميع أهل الظلم وعن عبد العزيز بن أبي دواد أنه لقي المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلا الآية وقال صلى الله عليه وسلم اللهم لا تجعل لفاجر عندي نعمة فاني وجدت فيما أوحيت الي لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر الآية (أولئك) أي العالو الهمة (كتب) أي أثبت قاله الربيع بن أنس رضي الله عنه وقيل خلق وقيل جعل كقوله تعالى فاكتبنا مع الشاهدين أي اجعلنا وقوله تعالى فسأكتبها للذين يتقون وقيل كتب (في قلوبهم الايمان) بما وفقهم فيه وشرح له صدرهم أي على قلوبهم كقوله تعالى في جذوع النخل وخص القلوب بالذكر لانها موضع الايمان قال البيضاوى وهو دليل على خروج العمل من مفهوم الايمان فان جزءه الثابت في القلب يكون ثابتا فيه وأعمال الجوارح لا تثبت فيه (وأيدهم) أي وقواهم وشددهم وشرفهم (بروح) أي نور شريف جدا يفهمون به ما أودع في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من نور العلم والعمل (منه) أي من الله تعالى أحياهم به فلا انفكاك لذلك عنهم في وقت من الاوقات فأغرلهم استقامة المناهج ظاهرا وباطنا فعملوا الاعمال الصالحة فكانوا للدنيا كالسرج فلا تجد شيأ أدخل في الاخلاص من موالاة أولياء الله تعالى ومعاداة أعدائه بل هو عين الاخلاص ومن جنح الى منحرف عن دينه أو داهن مبتدعا في عقيدته نزع الله تعالى نور التوحيد من قلبه قال الزمخشري ويجوز أن يكون الضمير للايمان أي بروح من الايمان على انه في نفسه روح لحياة القلوب به وقال ابن عباس رضي الله عنهما نصرهم على عدوهم وسمى تلك النصرة روحا لان بها يحيا أمرهم وقال الربيع بن أنس رضي الله عنه بالقرآن وحججه وقال ابن جريج بنور وبرهان وهدى وقيل برحمة وقيل أيدهم بجبريل عليه السلام (ويدخلهم جنات) أي بساتين تستر داخلها من كثرة أشجارها وأخبر عن ريها بقوله تعالى (تجري من تحتها) أي قصورها (الانهار) فهي بذلك كثيرة الرياض والاشجار وقال تعالى (خالدين فيها) لان ذلك لا يلذ الا بالدوام وقال تعالى (رضي الله) أي الملك الاعظم (عنهم) لان ذلك لا يتم الا برضا مالكها الذى له الملك كله (ورضوا عنه) أي لانه أعطاهم فوق ما يؤملون (أولئك) أي الذين هم في الدرجات العلى من العظامة لكونهم قصروا ودهم على الله تعالى علما منهم بأنه ليس الضر والنفع الابيده (حزب الله) أي جند الملك الذى أحاط بجميع صفات الكمال (ألا ان حزب الله) اى جند الملك الاعلى وهم هؤلاء الموصوفون ومن والاهم (هم المفلحون) اى الذين حازوا الظفر بكل ما يؤملون في الدارين وقد علم من الرضا من الجانبين والحزبية والافلاح عدم الانفكاك عن السعادة فأغنى

ذلك

ذلك عن تقييد الخلود بالتأبيد * (فائدة) * هذه السورة نصف القرآن عددا وليس فيها آية الا وفيها ذكر الجلالة الكريمة مرة أو مرتين أو ثلاثا وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله تعالى يوم القيامة حديث موضوع والله تعالى اعلم

(سورة الحشر مدنية)

فى قول الجميع وهى أربع وعشرون آية وأربعمائة وخمس وأربعون كلمة وألف وتسعمائة وثلاثة عشر حرفا (بسم الله) الملك الاعظم الذى لا خلف لميعاده (الرحمن) الذى عمت نعمة ايجاده (الرحيم) الذى خص أهل وده بالتوفيق فهم أهل السعادة ولما ختمت المجادلة بأنه يعز أهل طاعته ويذل أهل معصيته تنزه عن النقائص تأييدا للوعد بنصرهم فقال تعالى (سبح) أى أوقع التنزيه الاعظم عن كل شائبة نقص (لله) الذى أحاط بجميع صفات الكمال (ما فى السموات) أى كلها (وما فى الارض) أى كذلك وقيل ان اللام مزيدة أى نزهه وأتى بما تغليبا للاكثر وجمع السماء لانها أجناس قيل بعضها من فضة وبعضها من غير ذلك وأفرد الارض لانها جنس واحد (وهو) اى والحال أنه وحده (العزيز) الذى يغلب كل شئ ولا يمتنع عليه شئ (الحكيم) الذى نفذ علمه فى الظواهر والبواطن وأحاط بكل شئ فأتقن ما أراد فكل ما خلقه جعله على وحدانيته دليلا والى بيان ماله من العزة والحكمة سبيلا وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بضمها قال المفسرون نزلت هذه السورة فى بنى النضير وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما دخل المدينة صالحه بنو النضير على أن لا يكونوا عليه ولا له فلما غزا بدرا وظهر على المشركين قالوا هو النبى الذى نعته فى التوراة لا ترد له راية فلما غزا أحدا وهزم المسلمون ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ونقضوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وركب كعب بن الاشرف فى أربعين راكبا من اليهود الى مكة فأتوا قريشا فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل أبو سفيان فى أربعين وكعب فى أربعين من اليهود المسجد وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين أستار الكعبة ثم رجع كعب وأصحابه الى المدينة فنزل جبريل عليه السلام وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بما عاقد عليه كعب وأبو سفيان فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل كعب ابن الاشرف فقتله محمد بن مسلمة فلما قتل كعب بن الاشرف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر الناس بالمسير الى بنى النضير وكانوا بقرية يقال لها زهرة فلما سار اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدهم ينوحون على كعب وقالوا يا محمد واعية على اثر واعية وباكية على اثر باكية قال نعم قالوا ذرنا نبكى شجونا ثم ائتمر أمرك فقال النبى صلى الله عليه وسلم اخرجوا من المدينة فقالوا الموت اقرب الينا من ذلك ثم تنادوا بالحرب وآذنوا بالقتال ودس المنافقون عبد الله بن ابى واصحابه اليهم ان لا تخرجوا من الحصن فان قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنكم ولئن

خرجتم لنخرجن معكم فدربوا على الازقة وحصنوها ثم انهم اجمعوا الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلوا اليه ان اخرج فى ثلاثين رجلا من اصحابك ويخرج منا ثلاثون حتى نلتقى بمكان نصف بيننا وبينك فيسمعون منك فان صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا فخرج النبى صلى الله عليه وسلم فى ثلاثين من اصحابه وخرج اليه ثلاثون حبرا من اليهود حتى اذا كانوا فى براز من الارض قال بعض اليهود لبعض كيف تخلصون اليه ومعه ثلاثون من رجال اصحابه كلهم يحب الموت قبله ولكن أرسلوا اليه كيف نفهم ونحن ستون رجلا اخرج فى ثلاثة من اصحابك ونخرج اليك فى ثلاثة من علمائنا فيسمعون منك فان آمنوا بك آمنا كلنا بك وصدقناك فخرج النبى صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة من أصحابه واشتملوا على الخناجر وارادوا الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلت امرأة ناصحة من بنى النضير الى اخيها وهو رجل مسلم من الانصار فأخبرته بما اراد بنوا النضير من الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل أخوها سريعا حتى أدرك النبى صلى الله عليه وسلم فساره بخبرهم فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتائب فحاصرهم احدى وعشرين ليلة فقذف الله فى قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر المنافقين فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح فأبى عليهم الا أن يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به النبى صلى الله عليه وسلم فقبلوا ذلك فصالحهم على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الابل من أموالهم الا الحلقة وهى السلاح وعلى أن يخلوا لهم ديارهم وعقارهم وسائر أموالهم قال ابن عباس رضى الله عنهما على أن يحمل كل أهل بيت على بعير ما شاؤا من متاعهم وللنبى صلى الله عليه وسلم ما بقى وقال الضحاك على كل ثلاثة نفر بعيرا ووسقا من طعام ففعلوا ذلك وخرجوا من المدينة الى الشأم الى أذرعات وأريحاء الا أهل بيتين من آل بنى الحقيق وآل حيى بن أخطب فانهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة فذلك قوله تعالى (هو) أى وحده من غير ايجاف خيل ولا ركاب (الذى أخرج) أى على وجه القهر (الذين كفروا) أى ستروا ما فى كتبهم من الشواهد لمحمد صلى الله عليه وسلم بأنه النبى الخاتم وما فى فطرتهم الاولى من اتباع الحق (من أهل الكتاب) أى الذى أنزله الله تعالى على رسوله موسى صلى الله عليه وسلم وهم بنوا النضير وفى التعبير بكفروا اشعار بأنهم الذين أزالوا بالتبديل والاخفاء ما قدروا عليه مما بقى من التوراة (من ديارهم) أى مساكنهم بالمدينة عقوبة لهم لان الوطن عديل الروح لانه للبدن كالبدن للروح فكان الخروج منه فى غاية العسر قال ابن اسحق كان اجلاء بنى النضير مرجع النبى صلى الله عليه وسلم من أحد وفتح قريظة عند مرجعه من الاحزاب وبينهما سنتان (لاول الحشر) هو حشرهم الى الشأم وآخره أن جلاهم عمر فى خلافته الى خيبر وقال مرة الهمدانى كان أول الحشر من المدينة والحشر الثانى من خيبر وجميع جزيرة العرب الى أذرعات وأريحا من الشام فى أيام عمر وقال القرطبى الحشر الجمع وهو على أربعة أضرب حشران فى الدنيا وحشران فى الآخرة أما الذى فى الدنيا فقوله تعالى هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر كانوا من سبط لم يصبهم جلاء وكان الله تعالى قد كتب عليهم الجلاء فلولا ذلك لعذبهم فى الدنيا وكان أول حشر فى الدنيا الى

قوله على كل الخ كذا فى النسخ ولعله على ان لكل الخ

الشام

الشام قال ابن عباس وعكرمة رضي الله عنهم من شك أن المحشر في الشأم فليقرأ هذه الآية وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم اخرجوا قالوا الى أين قال الى أرض المحشر قال قتادة هذا أول الحشر قال ابن عباس رضي الله عنهما هو أول من حشر من أهل الكتاب وأخرج من داره وأما الحشر الثاني فحشرهم قرب القيامة قال قتادة تأتي نار تحشر الناس من المشرق الى المغرب تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا وتأكل من تخلف منهم وهذا ثابت في الصحيح وذكروا أن تلك النار ترى بالليل ولا ترى بالنهار وقال ابن العربي للحشر أول ووسط وآخر فالاول جلاء بني النضير والاوسط جلاء خيبر والآخر حشر يوم القيامة وعن الحسن هم بنو قريظة وخالفه بقية المفسرين وقالوا بنو قريظة ما حشروا ولكنهم قتلوا حكاه الثعلبي (ما ظننتم) أيها المؤمنون (أن يخرجوا) أي يوقعوا الخروج من شيء أورثتموه منهم لما كان لكم من الضعف ولهم من القوة لكثرتهم وشدة بأسهم وقرب بني قريظة منهم واهل خيبر ايضا غير بعيدين عنهم وكلهم اهل ملتهم والمنافقون من انصارهم فخابت ظنونهم في جميع ذلك (وظنوا أنهم) وقوله تعالى (مانعتهم حصونهم) فيه وجهان احدهما ان تكون حصونهم مبتدأ ومانعتهم خبرا مقدما والجملة خبر انهم الثاني ان تكون مانعتهم خبر انهم وحصونهم فاعل به نحو ان زيدا قائم ابوه وان عمرا قائمة جاريته وجعله أبو حيان اولى لان في نحو قائم زيد على ان يكون خبرا مقدما ومبتدأ مؤخرا خلافا والكوفيون يمنعونه فمحل الوفاق اولى وقال الزمخشري فان قلت اي فرق بين قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم او مانعتهم وبين النظم الذي جاء عليه قلت في تقديم الخبر على المبتدا دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها اياهم وفي تصيير ضميرهم اسما لان واسناد الجملة اليه دليل على اعتقادهم في انفسهم انهم في عزة ومنعة لا يبالي معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم وليس ذلك في قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم اه وهذا الذي ذكره انما يتأتى على الاعراب الاول وقد تقدم انه مرجوح ودل على ضعف عقولهم بأن عبر عن جنده باسمه الاعظم بقوله تعالى (من الله) اى الملك الاعظم الذي لاعز الا له (فأتاهم الله) اى جاءهم الملك الاعظم الذي لا يحتملون مجيئه (من حيث لم يحتسبوا) عاصوا ولهم من حقارة انفسهم على حسبها وهي خذلان المنافقين رعبا كرعبهم وقرأ حمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بفتحها (وقذف) اى انزل انزالا كأنه قذف بحجارة فثبت (في قلوبهم الرعب) اى الخوف الذي سكنها بعد ان كان الشيطان زين لهم غير ذلك وملأ قلوبهم من الاطماع الفارغة وقرأ في قلوبهم الرعب وعليهم الجلاء ولاخوانهم الذين حمزة والكسائي في الوصل بضم الهاء والميم وابو عمرو بكسرهما والباقون بكسر الهاء وضم الميم وحرك العين بالضم ابن عامر والكسائي والباقون بالسكون ثم بين تعالى حالهم عند ذلك وفسر قذف الرعب بقوله تعالى (يخربون بيوتهم) اى ليستقلوا ما استحسنوه منها من خشب وغيره وقرأ أبو عمرو بفتح الخاء وتشديد الراء والباقون بسكون الخاء وتخفيف الراء وهما بمعنى لان خرب عداه ابو عمرو بالتضعيف وهم بالهمزة وعن ابي عمرو انه فرق بمعنى آخر فقال خرب بالتشديد هدم وأفسد وأخرب بالهمزة ترك الموضع خرابا وذهب عنه وهو

قول الفراء قال المبرد ولا أعلم لهذا وجها وزعم سيبويه انهما متعاقبان في بعض الكلام فيجري كل واحد مجرى الآخر نحو فرحته وافرحته وقرأ ورش وابو عمرو وحفص بيوتهم بضم الباء الموحدة والباقون بكسرها (بأيديهم وايدي المؤمنين) قال الزهري وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم لما صالحهم على ان لهم ما أقلت الابل كانوا ينظرون الى الخشبة في منازلهم فيهدمونها وينزعون ما استحسنوه منها فيحملونه على ابلهم ويخرب المؤمنون باقيها وقال قتادة والضحاك كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا واليهود من داخل ليبنوا ما خرب من حصنهم وقال مقاتل ان المنافقين أرسلوا اليهم أن لا تخرجوا ودربوا عليهم الازقة وكان المسلمون سائر الجوانب (فان قيل) ما معنى تخريبها لهم بأيدي المؤمنين (أجيب) بأنهم لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوهم اياه وقال أبو عمرو بن العلاء بأيديهم في تركهم لها وبأيدي المؤمنين في اجلائهم عنها ولما كان في غاية الغرابة أن يعمل الانسان في نفسه كما يفعل فيه عدوه تسبب عن ذلك قوله (فاعتبروا) أي اجلوا أنفسكم بالامعان في التأمل في عظيم قدرة الله تعالى والاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شيء الى شيء ولهذا سميت العبرة عبرة لانها تنتقل من العين الى الخد وسمي علم التعبير لان صاحبه ينتقل من التخيل الى المعقول وسميت الالفاظ عبارات لانها تنقل المعاني عن لسان القائل الى عقل المستمع ويقال السعيد من اعتبر بغيره لانه ينتقل عقله من حال ذلك الغير الى حال نفسه ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره ولهذا قال القشيري الاعتبار هو النظر في حقائق الاشياء وجهات دلالاتها ليعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها ثم بين ان الاعتبار لا يحصل الا للكمل بقوله تعالى (يا أولي الابصار) بالنظر بابصارهم وبصائرهم في غريب هذا الصنع لتحققوا به ما وعدكم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من اظهار دينه واعزاز نبيه ولا تعتمدوا على غير الله تعالى كما اعتمد هؤلاء على المنافقين فان من اعتمد على مخلوق أسلمه ذلك الى صغاره ومذلته (ولولا أن كتب الله) أي فرض فرضا حتما الملك الذي له الامر كله (عليهم الجلاء) أي الخروج من ديارهم والجولان في الارض فأما معظمهم فأجلاهم بختنصر من بلاد الشام الى العراق وأما هؤلاء فحماهم الله تعالى بمهاجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك الجلاء وجعله على يده صلى الله عليه وسلم فأجلاهم فذهب بعضهم الى خيبر وبعضهم الى الشام مرة بعد مرة *(تنبيه)* قال الماوردي الجلاء أخص من الخروج لانه لا يقال الا للجماعة والاخراج يكون للجماعة والواحد وقال غيره الفرق بينهما ان الجلاء ما كان مع الاهل والولد بخلاف الاخراج فانه لا يستلزم ذلك (لعذبهم) أي بالقتل والسبي (في الدنيا) كما فعل بقريظة من اليهود (ولهم) أي على كل حال أجلوا أو تركوا (في الآخرة) التي هي دار البقاء (عذاب النار) وهو العذاب الاكبر (ذلك) أي الامر العظيم الذي فعله بهم من الجلاء ومقدماته في الدنيا ويفعله بهم في الآخرة (بأنهم شاقوا الله) أي الملك الاعلى الذي له الاحاطة التامة فكانوا في شق غير شقه بان صاروا في شق الاعداء المحاربين بعدما كانوا الموادعين (و) شاقوا (رسوله) أي

الذى اجلاله من اجلاله (ومن يشاق الله) أى يوقع فى الباطن مشاقة الملك الاعلى الذى لا كفؤ له فى الماضى والحال والاستقبال (فان الله) أى المحيط بجميع العظمة (شديد العقاب) وذلك كما فعل ببنى قريظة بعد هذا حيث نقضوا عهدهم وأظهروا المشاقة فى غزوة الاحزاب وكما فعل بأهل خيبر وقوله تعالى (ما) شرطية فى موضع نصب بقوله تعالى (قطعتم) وقوله تعالى (من لينة) بيان له واختلف فى معنى قوله تعالى من لينة فاكثر المفسرين على انها هى النخلة مطلقا كأنهم اشتقوها من اللين قال ذو الرمة

كان قتودى فوقها عش طائر * على لينة سوقاتهفو جنوبها

وقال الزهرى هى النخلة مالم تكن عجوة ولا برنية وقال جعفر بن محمد هى العجوة خاصة وذكر ان العتيق والعجوة كانا مع نوح عليه الصلاة والسلام فى السفينة والعتيق الفحل وكانت العجوة أصل الاناث كلها فلذلك شق على اليهود قطعها حكاه الماوردى وقال سفيان هى ضرب من النخل يقال لثمرها اللون وهو شديد الصفرة يرى نواه من خارجة ويغيب فيه الضرس النخلة منها أحب اليهم من وصيف وقيل هى النخلة الكريمة أى القريبة من الارض وقيل هى الفسيلة أى بالفاء وهى صغار النخل لانها ألين من النخلة وقيل هى الاشجار كلها للينها بالحياة وقال الاصمعى هى الدقل قال ابن العربى والصحيح ماقاله الازهرى ومالك وجمع اللينة لين لانه من باب اسم الجنس كتمرة وتمر وقد تكسر على ليان وهو شاذ لان تكسير مايفرق بتاء التأنيث شاذ كرطبة ورطب وأرطاب والضمير فى قوله تعالى (أوتركتموها قائمة) عائد على معنى ما ولما كان الترك يصدق بيقائها مغروسة أومقطوعة قال تعالى (على أصولها فباذن الله) أى فقطعها بتمكين الملك الاعظم روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل بنى النضير وتحصنوا بحصونهم أمر بقطع نخيلهم واحراقها فجزع أعداء الله تعالى عند ذلك وقالوا يامحمد زعمت أنك تريد الصلاح أفمن الصلاح عقر الشجر وقطع النخل وهل وجدت فيما زعمت انه أنزل عليك الفساد فى الارض فوجد المسلمون فى أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فسادا واختلفوا فى ذلك فقال بعضهم لاتقطعوا فانه مما أفاء الله علينا وقال بعضهم بل نغيظهم بقطعه فأنزل الله تعالى هذه الآية بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الاثم وان ذلك كان باذن الله وعن ابن عمر قال حرق رسول الله صلى الله عليه وسلم نخل بنى النضير وقطع واللام فى قوله تعالى (وليخزى الفاسقين) متعلقة بمحذوف أى وأذن فى قطعها ليخزى اليهود فى اعتراضهم بأن قطع الشجر المثمر فساد وليسر المؤمنين ويعزهم وليخزى الفاسقين (فان قيل) لم خصت اللينة بالقطع (أجيب) بأنه ان كانت من الالوان فليستبقوا لانفسهم العجوة والبرنية وان كانت من كرام النخل فليكون غيظ اليهود أشد واحتجوا بهذه الآية على ان حصون الكفرة وديارهم يجوز هدمها وتحريقها وتغريقها وان ترمى بالمناجيق وكذا اشجارهم وعن ابن مسعود انهم قطعوا منها ما كان موضع القتال وروى ان رجلين كانا يقطعان أحدهما العجوة والآخر اللون فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذا تركتها لرسول الله صلى

الله عليه وسلم وقال هذا قطعتها غيظا للكفار وقد استدل به على جواز الاجتهاد وعلى جوازه بحضور النبي صلى الله عليه وسلم لانهما بالاجتهاد فعلا ذلك واحتج به من يقول كل مجتهد مصيب وقال الكيا الطبري وان كان الاجتهاد يبعد في مثله مع وجود النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ولا شك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ذلك وسكت فتلقوا الحكم من تقريره فقط قال ابن العربي وهذا باطل لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معهم ولا اجتهاد مع حضوره صلى الله عليه وسلم وانما يدل على اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم فيما لم ينزل عليه أخذا بعموم الادلة للكفار ودخولا للاذن في الكل بما يقضي عليهم بالبوار وذلك قوله تعالى وليخزي الفاسقين (وما أفاء الله) أي رد الملك الذي له الامر كله ردا سهلا بعد ان كان في غاية العسر والصعوبة (على رسوله) فصيره في يده بعد ان كان خروجه عنها بوضع أيدي الكفرة عليه ظلما وعدوانا كما دل عليه التعبير بالفيء الذي هو عود الظل الى الناحية التي كان ابتدأ منها (منهم) أي ردا مبتدأ من الفاسقين فبين تعالى ان هذا فيء لا غنيمة ويدخل في الفيء أموال من مات منهم بلا وارث وكذا الفاضل عن وارث له غير حائز وكذا الجزية وعشر تجاراتهم وما جلوا أي تفرقوا عنه ولو لغير خوف كضر أصابهم وأما الغنيمة فهي ما حصل لنا من الحربيين مما هو لهم بايجاف حتى ما حصل بسرقة أو التقاط وكذا ما انهزموا عنه عند التقاء الصفين ولو قبل شهر السلاح أو اهداه الكافر لنا والحرب قائمة ولم تحل الغنائم لاحد قبل الاسلام بل كانت الانبياء اذا غنموا مالا جمعوه فتأتي نار من السماء فتأخذه ثم أحلت لنبينا صلى الله عليه وسلم وكانت في صدر الاسلام له خاصة لانه كالمقاتلين كلهم نصرة وشجاعة بل أعظم ثم نسخ ذلك واستقر الامر على ما هو في سورة الانفال في قوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شيء الآية وأما الفيء فهو مذكور هنا بقوله تعالى (فما أوجفتم) أي أسرعتم يا مسلمين (عليه) ومن في قوله تعالى (من خيل) مزيدة أي خيلا وأكد باعادة النافي دفعا لظن من ظن انه غنيمة لاحاطتهم به بقوله تعالى (ولا ركاب) والركاب الابل غلب ذلك عليها من بين المركوبات واحدها راكبة ولا واحد لها من لفظها وقال الرازي العرب لا يطلقون لفظ الراكب الاعلى راكب البعير ويسمون راكب الفرس فارسا والمعنى لم تقطعوا اليها شقة ولا لقيتم بها حربا ولا مشقة فانها كانت من المدينة على ميلين قاله الفراء فمشوا اليها مشيا ولم يركبوا اليها خيلا ولا ابلا الا النبي صلى الله عليه وسلم ركب جملا وقيل حمارا مخطوما بليف فافتتحها صلحا قال الرازي ان الصحابة طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم ان يقسم الفيء بينهم كما قسم الغنيمة بينهم فذكر الله تعالى الفرق بين الامرين وأن الغنيمة هي التي تعبتم أنفسكم في تحصيلها وأما الفيء فلم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فكان الامر مفوضا فيه الى النبي صلى الله عليه وسلم يضعه حيث يشاء (ولكن الله) أي الذي له العز كله فلا كفؤ له (يسلط رسله) أي له هذه السنة في كل زمن (على من يشاء) بجعل ما آتاهم سبحانه من الهيبة رعبا في قلوب أعدائه (والله) أي الملك الذي له الكمال كله (على كل شيء) يصح أن تتعلق المشيئة به وهو كل ممكن من التسليط وغيره (قدير)

أي

أى بالغ القدرة الى أقصى الغايات فلا حق لكم فيه ويختص به النبى صلى الله عليه وسلم ومن ذكر معه فى الآية الثانية من الاصناف الاربعة على ما كان عليه القسمة من ان لكل منهم خمس الخمس وله صلى الله عليه وسلم الباقى يفعل فيه مايشاء ثم بين تعالى مصرف الفىء بقوله تعالى (ما أفاء الله) أى الذى اختص بالعزة والقدرة والحكمة (على رسوله من أهل القرى) أى قرية بنى النضير وغيرها من وادى القرى والصفراء وينبع وماهنالك من قرى العرب التى تسمى قرى عربية فيخمس ذلك خمسة أخماس وان لم يكن فى الآية تخميس فانه مذكور فى آية الغنيمة فحمل المطلق على المقيد وكان صلى الله عليه وسلم يقسم له أربعة أخماسه وخمس خمسه ولكل من الاربعة المذكورين معه خمس خمس وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح فقوله تعالى (فلله) أى الملك الاعلى الذى كله بيده ذلك للتبرك فان كل أمر لا يبدأ فيه به فهو أجذم (وللرسول) أى الذى عظمته من عظمته تعالى وقد تقدم ما كان له صلى الله عليه وسلم وأما بعده صلى الله عليه وسلم فيصرف ما كان له من خمس الخمس لمصالح المسلمين وسد ثغور وقضاة وعلماء بعلوم تتعلق بمصالح المسلمين كتفسير وقراءة والمراد بالقضاة غير قضاة العسكر أما قضاته وهم الذين يحكمون لاهل الفىء فى مغزاهم فيرزقون من الاخماس الاربعة لامن خمس الخمس يقدم وجوبا الاهم فالاهم وأما الاربعة المذكورة معه صلى الله عليه وسلم فأولها المذكور فى قوله تعالى (ولذى القربى) أى منه وهم مؤمنو بنى هاشم وبنى المطلب لاقتصاره صلى الله عليه وسلم فى القسم عليهم مع سؤال غيرهم من بنى عميهم نوفل وعبد شمس له ولقوله صلى الله عليه وسلم أما بنو هاشم وبنو المطلب فشىء واحد وشبك بين أصابعه فيعطون ولو أغنياء لانه صلى الله عليه وسلم أعطى العباس وكان غنيا ويفضل الذكر على الانثى كالارث فله سهمان ولها سهم لانه عطية من الله تعالى يستحق بقرابة الاب كالارث سواء الكبير والصغير والعبرة بالانتساب الى الآباء فلا يعطى أولاد البنات من بنى هاشم والمطلب شيأ لانه صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير وعثمان مع ان أم كل منهما كانت هاشمية وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين وأبو عمرو بين بين والباقون بالفتح وخالفهم أبو عمرو فى واليتامى ثانيها المذكور فى قوله تعالى (واليتامى) أى الفقراء منا لان لفظ اليتيم يشعر بالحاجة لانه مال أو نحوه أخذ من الكفار فاختص كسهم المصالح واليتيم صغير ولو أنثى لخبر لا يتم بعد احتلام رواه أبو داود وحسنه النووى وان ضعفه غيره لا أب له وان كان له أم وحد اليتيم فى البهائم من فقد أمه وفى الطير من فقد أباه وأمه ومن فقد أمه فقط من الآدميين يقال له منقطع ثالثها المذكور فى قوله تعالى (والمساكين) الصادقين بالفقراء وهم أهل الحاجة منا وتقدم تعريفهما فى سورة الانفال وكذا تعريف الرابع المذكور فى قوله تعالى (وابن السبيل) أى الطريق الفقير منا ذكورا كانوا أو اناثا ولو اجتمع فى واحد من هذه الاصناف يتم ومسكنة أعطى باليتم فقط لانه وصف لازم والمسكنة زائلة وللامام التسوية والتفضيل بحسب الحاجة ويعم الامام ولو بنائبه الاصناف الاربعة الاخيرة بالاعطاء وجوبا لعموم الآية فلا يخص

الحاضر بوضع حصول الفئ ولا من فى كل ناحية منهم بالحاصل فيها ثم لو كان الحاصل لا يسد مسدا بالتعميم قدم الاحوج فالاحوج ولا يعم للضرورة ومن فقد من الاربعة صرف نصيبه للباقين منهم وأما الاخماس الاربعة فهى للمرتزقة وهم المرصدون للجهاد بتعيين الامام لهم بعمل الاولين به بخلاف المتطوعة فلا يعطون من الفئ بل من الزكاة عكس المرتزقة ويشترط المرتزقة قضاتهم كأمرَّ وأئمتهم ومؤذنوهم وعمالهم ويجب على الامام أن يعطى كلا من المرتزقة بقدر حاجة ممونه من نفسه وغيرها كزوجاته ليتفرغ للجهاد ويراعى فى الحاجة الزمان والمكان والرخص والغلاء وعادة الشخص مروأة وضدها ويزاد ان زادت حاجته بزيادة ولد أو حدوث زوجة فأكثر ومن لا عبد له يعطى من العبيد ما يحتاجه للقتال معه أو لخدمته ان كان ممن يخدم ويعطى مؤنته ومن يقاتل فارسا ولا فرس له يعطى من الخيل ما يحتاجه للقتال ويعطى مؤنته بخلاف الزوجات يعطى لهن مطلقا لانحصارهن فى أربع ثم ما يدفعه اليه لزوجته وولده الملك فيه لهما حاصل من الفئ وقيل يملكه هو ويصير اليهما من جهته فان مات أعطى الامام أصوله وزوجاته وبناته الى أن يستغنوا ويسن أن يضع الامام ديوانا وهو الدفتر الذى يثبت فيه أسماء المرتزقة وأول من وضعه عمر رضى الله عنه وأن ينصب لكل جمع عريفا وان يقدم فى اسم واعطاء قريشا لشرفهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ولخبر قدموا قريشا وأن يقدم منهم بنى هاشم وبنى المطلب فبنى عبد شمس فبنى عبد العزى فسائر بطون العرب الاقرب فالاقرب الى النبى صلى الله عليه وسلم فسائر العرب فالعجم ولا يثبت فى الديوان من لا يصلح ومن مرض فكصحيح وان لم يرج برؤه ويمحى اسم كل من لم يرج وما فضل عنهم وزع عليهم بقدر مؤنتهم وللامام صرف بعضه فى ثغور وسلاح وخيل ونحوها وله وقف عقار فئ أو بيعه وقسم غلته أو ثمنه كقسم المنقول أربعة أخماسه للمرتزقة وخمسه للمصالح وله أيضا قسمه كالمنقول لكن خمس الخمس الذى للمصالح لا سبيل الى قسمته ولما حكم سبحانه هذا الحكم فى الفئ المخالف لما كانوا عليه فى الجاهلية من اختصاص الاغنياء به بين علته المظهرة لعظمته بقوله تعالى (كى لا يكون) أى الفئ الذى يسره الله تعالى بقوته من قذف الرعب فى قلوب أعدائه ومن حقه ان يعطاه الفقراء (دولة) أى متداولا (بين الاغنياء منكم) أى يتداوله الاغنياء ويدور بينهم كما كان فى الجاهلية فانهم كانوا يقولون من عز بز ومنه قول الحسن اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا يريد من غلب منهم أخذه واستأثر به وقرأ هشام بخلاف عنه تكون بالتأنيث دولة بالرفع والباقون بالتذكير والنصب فأما الرفع فعلى ان كان تامة وأما التأنيث والتذكير فواضحان لانه تأنيث مجازى وأما النصب فعلى انها الناقصة واسمها ضمير عائد على الفئ والتذكير واجب لتذكير المرفوع ودولة خبرها وقيل دولة عائد على ما اعتبارا بلفظها وكى لا هنا مقطوعة فى الرسم (وما آتاكم الرسول) أى وكل شئ أحضره لكم الكامل فى الرسالة من الغنيمة أو مال الفئ أو غيره (فخذوه) أى فاقبلوه لانه حلال لكم وتمسكوا به فانه واجب الطاعة (وما نهاكم عنه) أى من جميع الاشياء (فانتهوا) لانه لا ينطق عن الهوى ولا يقول

ولا يفعل الا ما أمر به ربه عز وجل *(تنبيه)* هذه الآية تدل على أن كل ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم أمر من الله تعالى لان الآية وان كانت في الغنائم فجميع أوامره صلى الله عليه وسلم ونواهيه داخل فيها قال عبد الرحمن بن زيد لقي ابن مسعود رجلا محرما وعليه ثيابه فقال انزع عنك هذا فقال الرجل تقرأ على بهذا آية من كتاب الله تعالى قال نعم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وقال عبد الله بن محمد بن هرون الفريابي سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول سلوني عما شئتم أخبركم من كتاب الله تعالى وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم قال فقلت له أصلحك الله ما تقول في المحرم يقتل الزنبور قال فقال بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن خراش عن حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام عن قيس بن اسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب انه أمر بقتل الزنبور وهذا الجواب في غاية الحسن أفتى بقتل الزنبور في الاحرام وبين انه يقتدى فيه بعمر وان النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالاقتداء به وان الله تعالى أمر بقبول ما يقوله صلى الله عليه وسلم فجواز قتله من الكتاب والسنة وسئل عكرمة عن أمهات الاولاد هل هن احرار فقال في سورة النساء في قوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم وفي صحيح مسلم وغيره عن علقمة عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله تعالى فبلغ ذلك امرأة من بني اسد يقال لها أم يعقوب فجاءت فقالت بلغني أنك لعنت كيت وكيت فقال ومالي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله تعالى فقالت لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول فقال لئن كنت قرأتيه فقد وجدتيه أما قرأت وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا قالت بلى قال فانه قد نهى عنه الحديث *(فائدة)* الوشم هو غرز العضو من الانسان بالابرة ثم يحشى بالكحل والمستوشمة هي التي تطلب أن يفعل بها ذلك والنامصة هي التي تنتف الشعر من الوجه والمتفلجة هي التي تتكلف تفريج ما بين ثناياها بصناعة وقيل تتفلج في مشيها في كل شئ منهي عنه وقرأ حمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح والهمزة ممدودة بلا خلاف لانها بمعنى الاعطاء (واتقوا الله) أي واجعلوا لكم بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاية من عذاب الملك الاعظم المحيط علما وقدرة وعلل ذلك بقوله تعالى (ان الله) أي الذي له الجلال والاكرام على الاطلاق (شديد العقاب) أي العذاب الواقع بعد الذنب قال البقاعي ومن زعم ان شيأ مما في هذه السورة نسخ بشئ مما في سورة الانفال فقد أخطأ لان الانفال نزلت في بدر وهي قبل هذه بمدة وقوله تعالى (للفقراء) أي الذين كان الانسان منهم يعصب الحجر على بطنه من الجوع ويتخذ الحفرة في الشتاء لتقيه البرد وماله دثار غيرها بدل من لذي القربى وما عطف عليه

قاله الزمخشري والذي منع الابدال من الله وللرسول والمعطوف عليهما وان كان المعنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم لان الله تعالى أخرج رسوله صلى الله عليه وسلم من الفقراء في قوله تعالى وينصرون الله ورسوله ولانه تعالى يترفع برسوله صلى الله عليه وسلم عن تسميته بالفقير وقال غيره انه خبر لمبتدا محذوف أي ولكن الفيء للفقراء وقيل تقديره ولكن يكون للفقراء وقيل تقديره اعجبوا للفقراء واقتصر على هذا التقدير الجلال المحلي وانما جعله الزمخشري بدلا من لذي القربى لانه حنفي والحنفية يشترطون الفقر في اعطاء ذوي القربى من الفيء ولذا قال البيضاوي ومن أعطى أغنياء ذوي القربى أي كالشافعي خصص الابدال بما بعده أو الفيء بفيء بني النضير اه أو انهم كانوا عند نزول الآية كذلك ثم خصص بالوصف بقوله تعالى (المهاجرين) وقيد ذلك بقوله تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم) لان الهجرة قد تطلق على من هجر أهل الكفر من غير مفارقة الوطن وقوله تعالى (وأموالهم) اشارة الى ان المال لما كان يستره الانسان كان كأنه ظرف له ولما كان طلب الدنيا من النقائص بين أنه اذا كان من الله لم يكن كذلك وأنه لا يكون قادحا في الاخلاص فقال تعالى (يبتغون) أي اخرجوا حال كونهم يطلبون على وجه الاجتهاد وبين انه لا يجب عليه سبحانه لاحد شيء بقوله تعالى (فضلا من الله) اى الملك الاعظم الذى لا كفء له لانه المختص بجميع صفات الكمال فيغنيهم بفضله عمن سواه (ورضوانا) بأن يوفقهم لما يرضيه عنهم ولا يجعل رغبتهم في العوض منه قادحا في الاخلاص فيوصلهم الى دار كرامته وقرأ شعبة بضم الراء والباقون بكسرها (وينصرون) أي على سبيل التجديد والاستمرار (الله) أي دين الملك الاعظم (ورسوله) الذي عظمته من عظمته بأنفسهم وأموالهم ليضمحل حزب الشيطان (أولئك) أي العالو الرتبة في الاخلاق الفاضلة (هم الصادقون) أي العريقون في هذا الوصف لان مهاجرتهم لما ذكر وتركهم لما وصف دل على كمال صدقهم فيما ادعوه من الايمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم حيث نابذوا من عاداهما ووالوا أولياءهما وان بعدت دارهم وشط مزارهم ثم اتبع ذكر المهاجرين بذكر الانصار الذين كانوا في كل حال معه صلى الله عليه وسلم كالميت بين يدي الغاسل مهما شاء فعل ومهما أراد منهم صاروا اليه بقوله تعالى (والذين تبوؤا) أي جعلوا بغاية جهدهم (الدار) أي الكاملة في الدور التي جعلها الله تعالى في الازل للهجرة وهيأها للنصرة وجعلها محل اقامتهم وفي قوله تعالى (والايمان) أوجه أحدها أنه ضمن تبوؤا معنى لزموا فيصح عطف الايمان عليه اذ الايمان لا يتبوأ ثانيها أنه منصوب بمقدر أي واعتقدوا أو وألفوا أو وأحبوا أو وأخلصوا كقول القائل * علفتها تبنا وماء باردا * وقول الآخر * ومقلدا سيفا ورمحا * ثالثها انه يتجوز في الايمان فيجعل لاختلاطه بهم وثباتهم عليه كالمكان المحيط بهم فكأنهم نزلوه وعلى هذا فيكون جمع بين الحقيقة والمجاز في كلمة واحدة وفيه خلاف مشهور رابعها أن يكون الاصل دار الهجرة ودار الايمان فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف اليه وحذف المضاف من دار الايمان ووضع المضاف اليه مقامه خامسها أن يكون سمى المدينة به

لانها

لانها دار الهجرة ومكان ظهور الايمان قال هذين الوجهين الزمخشري وليس فيه الاقيام أل مقام المضاف اليه وهو محل خلاف وهو ان أل هل تقوم مقام الضمير المضاف اليه فالكوفيون يجوزونه كقوله تعالى فان الجنة هي المأوى أى مأواه والبصريون يمنعونه ويقولون الضمير محذوف أى المأوى له وأما كونها عوضا عن المضاف اليه فقال ابن عادل لانعرف فيه خلافا سادسها انه منصوب على المفعول معه أى مع الايمان قال وهب سمعت مالكا يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق فقال ان المدينة تبوّئت بالايمان والهجرة وان غيرها من القرى افتتحت بالسيف ثم قرأ والذين تبوّؤا الدار والايمان (من قبلهم) أى وهم الانصار (يحبون) أى على سبيل التجديد والاستمرار (من هاجر) وزادهم محبة فيهم بقوله تعالى (اليهم) لان القصد الى الانسان يوجب حقه عليه لانه لولا كمال محبته له ما خصه بالقصد اليه (ولا يجدون في صدورهم) أى التي هي مساكن قلوبهم فضلا عن أن تنطق ألسنتهم (حاجة) قال الحسن حسدا وحزازة وغيظا (مما أوتوا) أى آتى النبي المهاجرين من أموال بني النضير وغيرهم وأطلق لفظ الحاجة على الحسد والغيظ والحزازة لان هذه الاشياء لا تنفك عن الحاجة فأطلق اسم اللازم على الملزوم على سبيل الكناية فعلى هذا يكون الضمير الاول للجائين بعد المهاجرين وفي أوتوا للمهاجرين وقيل ان الحاجة هنا على بابها من الاحتياج الا انها واقعة موقع المحتاج اليه والمعنى ولا يجدون طلب محتاج اليه مما أوتي المهاجرون من الفيء وغيره والمحتاج اليه يسمى حاجة تقول خذ منه حاجتك وأعطاه من ماله حاجته قاله الزمخشري والضميران على ما تقدم وقال أبو البقاء مس حاجة أى انه حذف المضاف للعلم به وعلى هذا فالضميران للذين تبوّؤا الدار والايمان قال القرطبي كان المهاجرون في دور الانصار فلما غنم صلى الله عليه وسلم أموال بني النضير دعا الانصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين في انزالهم اياهم منازلهم واشراكهم في الاموال ثم قال صلى الله عليه وسلم ان أحببتم قسمت ما أفاء الله علي من بني النضير بينكم وبينهم وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم وان أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ بل تقسمه بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا ونادت الانصار رضينا وسلمنا يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارحم الانصار وأبناء الانصار واعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين ولم يعط الانصار الا ثلاثة نفر محتاجين أبا دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحرث بن الصمة ولما أخبر تعالى عن تخليهم عن الرذائل أتبعه الاخبار بتحليهم بالفضائل فقال عز من قائل (ويؤثرون على أنفسهم) فيبذلون لغيرهم كائنا من كان ما في أيديهم فان الايثار تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية رغبة في الحظوظ الاخروية وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة والصبر على المشقة وذكر النفس دليل على انهم في غاية النزاهة عن الرذائل فان النفس اذا طهرت كان القلب أطهر وأكد ذلك بقوله تعالى (ولو كان) أى كونا هو في غاية المكنة (بهم) أى خاصة لا بالمؤثر (خصاصة) أى فقر وحاجة الى ما يؤثرون به روى عن أبي هريرة ان رجلا بات به ضيف

ولم يكن عنده الاقوته وقوت صبيانه فقال لامرأته نومي الصبية وأطفئي السراج وقربي للضيف
ماعندك فنزلت هذه الآية وعنه أيضا قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال انى مجهود
فأرسل الى بعض نسائه فقالت والذي بعثك بالحق ماعندي الاماء فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم من يضيف هذا الليلة رحمه الله فقام رجل من الانصار فقال أنا يارسول الله فانطلق به
الى رحله فقال لامرأته هل عندك شئ قالت لا الاقوت صبياني قال فعلليهم بشئ فاذا دخل ضيفنا
فأطفئي السراج وذكر نحو الحديث الاول وفي رواية فقام رجل من الانصار يقال له أبو طلحة
فانطلق به الى رحله وذكر المهدوي أنها نزلت في ثابت بن قيس ورجل من الانصار يقال له أبو
المتوكل ولم يكن عنده الاقوته وذكر القشيري قال أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم رأس شاة فقال ان أخي فلانا وعياله أحوج الى هذا منا فبعثها اليهم فلم يزل يبعث
بها واحد الى آخر حتى تناولها سبعة أبيات حتى رجعت الى الاول فنزلت الآية وذكر القرطبي
عن أنس قال أهدي لرجل من الصحابة رأس شاة وكان مجهودا فوجه بها الى جار له فتداولها
سبعة أنفس في سبعة أبيات ثم عادت الى الاول فنزلت (فان قيل) قد صح في الخبر النهي عن
التصدق بجميع مايملكه المرء (أجيب) بان محل النهي فيمن لا يوثق منه بالصبر على الفقر وخاف
أن يتعرض للمسئلة اذا فقد ماينفقه فاما الانصار الذين أثنى الله تعالى عليهم بالايثار على
أنفسهم فكانوا كما قال تعالى والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس فكان الايثار فيهم
أفضل من الامساك والامساك لمن لا يصبر ويتعرض للمسئلة أولى من الايثار كما روى ان رجلا
جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم بمثل البيضة من الذهب فقال هذه صدقة فرماه بها وقال
يأتي أحدكم بجميع مايملكه فيتصدق به ثم يقعد يتكفف الناس والايثار بالنفس فوق الايثار
بالمال وان عاد الى النفس ومن الامثال * والجود بالنفس أعلى غاية الجود * وأفضل من الجود
بالنفس الجود على حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم ففي الصحيح ان أباطلحة ترس على رسول
الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتطلع ليرى القوم فيقول له
أبو طلحة لا تشرف يارسول الله لا يصيبونك نحري دون نحرك ووقى بيده رسول الله صلى الله
عليه وسلم فشلت وقال حذيفة الدوري انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي فاذا برجل
يقول آه آه فأشار الى ابن عمي ان انطلق اليه فاذا هو هشام بن العاصي فقلت أسقيك فأشار
ان نعم فسمع آخر يقول آه آه فأشار هشام ان انطلق اليه فجئت اليه فاذا هو قدمات فرجعت
الى هشام فاذا هو قدمات فرجعت الى ابن عمي فاذا هو قدمات وقال أبو يزيد البسطامي
ماغلبني أحد ماغلبني شاب من أهل بلخ قدم الينا حاجا فقال لي يا أبا يزيد ماحد الزهد عندكم
فقلت اذا وجدنا أكلنا واذا فقدنا صبرنا فقال هكذا كلاب بلخ فقلت وماحد الزهد
عندكم فقال اذا فقدنا شكرنا واذا وجدنا آثرنا وسئل ذو النون ماحد الزهد قال ثلاث
تفريق المجموع وترك طلب المفقود والايثار عند القوت وحكي عن أبي الحسن الانطاكي
انه اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلا بقرية من قرى الري وبينهم أرغفة معدودة لا تشبع

بجميعهم

جميعهم فكسروا الرغفان وأطفؤا السراج وجلسوا للطعام فلما فرغوا فاذا الطعام بحاله لم يأكل أحد منهم شيأ ايثار الصاحبه على نفسه (ومن يوق شح نفسه) أى يجعل بينه وبين اخلاقه الذميمة المشار اليها بالنفس وقاية تحول بينه وبينها فلا يكون مانعا لما عنده حريصا على ما عند غيره حسدا قال ابن عمر الشح أن تطمح عين الرجل فيما ليس له قال صلى الله عليه وسلم اتقوا الشح فانه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم وقال القرطبى الشح والبخل سواء وجعل بعض أهل اللغة الشح أشد من البخل وفى الصحاح الشح البخل مع حرص والمراد بالشح فى الآية الشح بالزكاة وما ليس بفرض من صلة ذوى الارحام والضيافة وما شاكل ذلك وليس بشحيح ولا بخيل من انفق فى ذلك وان أمسك عن نفسه ومن وسع على نفسه ولم ينفق فيما ذكر من الزكاة والطاعات فلم يوق شح نفسه روى الاموى عن ابن مسعود ان رجلا أتاه فقال انى أخاف ان أكون قد هلكت قال وماذاك قال سمعت الله يقول ومن يوق شح نفسه وأنا رجل شحيح لا أكاد أخرج من يدى شيأ فقال ابن مسعود ليس ذلك الذى ذكر الله تعالى انما الشح أن تأكل مال أخيك ظلما ولكن ذلك البخل وبئس الشئ البخل ففرق بين الشح والبخل وقال طاوس البخل أن يبخل الانسان بما فى يده والشح أن يشح بما فى أيدى الناس يحب أن يكون له ما فى أيديهم بالحل والحرام فلا يقنع وقال بعضهم ليس الشح أن يمنع الرجل ماله انما الشح ان تطمح عين الرجل فيما ليس له وقال ابن جبير الشح منع الزكاة وادخار الحرام وقال ابن عيينة الشح الظلم وقال الليث ترك الفرائض وانتهاك المحارم وقال ابن عباس رضى الله عنهما من اتبع هواه ولم يقبل الايمان فذلك الشحيح وقال ابن زيد من لم يأخذ شيأ نهاه الله تعالى عنه ولم يمنع شيأ أمره الله تعالى باعطائه فقد وقاه الله تعالى شح نفسه وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال برئ من الشح من أدى الزكاة وأقرى الضيف وأعطى فى النائبة وعنه ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو اللهم انى أعوذ بك من شح نفسى واسرافها وسوأتها وقال ابن الهياج الاسدى رأيت رجلا فى الطواف يدعو اللهم قنى شح نفسى لا يزيد على ذلك فقلت له فقال اذا وقيت شح نفسى لم اسرق ولم أزن ولم أقتل فاذا الرجل عبد الرحمن بن عوف قال القرطبى ونزل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبدا وقال كسرى لاصحابه أى شئ أضر بابن آدم قالوا الفقر فقال الشح أضر من الفقر لان الفقير اذا وجد شبع والشحيح اذا وجد لم يشبع أبدا (فأولئك) أى العالو المنزلة (هم المفلحون) أى الكاملون فى الفوز بكل مراد قال القشيرى وتجرد القلب من الاعراض والاملاك صفة السادة والاكابر لامن أسرته الاخطار * ولما أثنى سبحانه وتعالى على المهاجرين والانصار بما هم عليه وأهله أتبعهم ذكر التابعين لهم باحسان الى يوم الدين فقال تعالى (والذين جاؤا) أى من أى طائفة كانوا (من بعدهم) أى بعد المهاجرين والانصار وهم من آمن

بعد انقطاع الهجرة بالفتح وبعد ايمان الانصار الذين أسلموا مع النبى صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة (يقولون) على سبيل التجديد والاستمرار تصديقا لايمانهم بدعائهم (ربنا) أى أيها المحسن الينا بايجادمن مهد الذين قبلنا (اغفرلنا) أى أوقع ستر النقائص آثارها وأعيانها (ولاخواننا) أى فى الدين فانهم أعظم اخوة وبينوا العلة بقولهم (الذين سبقونا بالايمان) قال ابن أبى ليلى الناس على ثلاثة منازل المهاجرين والذين تبوّؤا الدار والايمان والذين جاؤا من بعدهم فاجتهد أن لا تخرج من هذه المنازل وقال بعضهم كن مهاجرا فان قلت لا أجد فكن أنصاريا فان لم تجد فاعمل بأعمالهم فان لم تستطع فأحبهم واستغفر لهم كما أمر الله تعالى وقال مصعب بن سعد الناس على ثلاث منازل فضت منزلتان وبقيت منزلة فاحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التى بقيت وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه جاءه رجل فقال له يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقول فى عثمان فقال له يا أخى أنت من قوم قال الله تعالى فيهم للفقراء المهاجرين الآية قال لا قال فأنت من قوم قال الله تعالى فيهم والذين تبوّؤا الدار والايمان الآية قال لا قال فوالله ان لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجن من الاسلام وهى قوله تعالى والذين جاؤا من بعدهم الآية وروى أن نفرا من أهل العراق جاؤا الى محمد بن على بن الحسين فسبوا أبا بكر وعمر وعثمان فأكثروا فقال لهم أمن المهاجرين الاولين أنتم فقالوا لا فقال امن الذين تبوّؤا الدار والايمان قالوا لا قال فقد تبرأتم من هذين الفريقين أنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله تعالى والذين جاؤا من بعدهم قوموا فعل الله بكم وفعل *(تنبيه)* هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين لانه جعل لمن بعدهم حظا فى الفىء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم ومن أبغضهم أو واحدا منهم أو اعتقد فيهم شرا أنه لا حق له فى الفىء قال مالك من كان يبغض أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كان فى قلبه لهم غل فليس له حق فى فىء المسلمين ثم قرأ والذين جاؤا من بعدهم الآية وهى عامة فى جميع التابعين الآتين بعدهم الى يوم القيامة يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج الى المقبرة فقال السلام عليكم دار قوم مؤمنين وانا ان شاء الله بكم لاحقون وددت لو رأيت اخواننا فقالوا يارسول الله ألسنا اخوانك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أنتم أصحابى واخواننا الذين لم يأتوا بعد وأنا فرطهم على الحوض فبين صلى الله عليه وسلم أن اخوانه كل من أتى بعدهم كما قال السدى والكلبى انهم الذين هاجروا بعد ذلك وعن الحسن أيضا ان الذين جاؤا من بعدهم من قصد الى النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة بعد انقطاع الهجرة وانما بدؤا فى الدعاء بأنفسهم لقوله صلى الله عليه وسلم ابدأ بنفسك وقال الشعبى تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة سئلت اليهود من خير أهل ملتكم فقالوا أصحاب موسى وسئلت النصارى من خير أهل ملتكم فقالوا أصحاب عيسى وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم فقالوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم وعن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تذهب هذه الامة حتى يلعن

آخرها أولها أعاذنا الله تعالى ومحبينا من الاهواء المضلة (ولا تجعل فى قلوبنا غلا) أى ضغنا وحسدا وحقدا وهو حرارة وغليان يوجب الانتقام (للذين آمنوا) أى أقروا بالايمان وان كانوا فى أدنى درجاته وقيدوا بالقلب لان رذائل النفس قل أن تنفك وأنها ان كانت مع صحة القلب أوشك أن لا تؤثر (ربنا) أى أيها المحسن الينا بتعليم مالم نكن نعلم وأكدوا اعلاما بأنهم يعتقدون ما يقولون بقولهم (انك رؤف) أى راحم أشد الرحمة لمن كانت له بك وصلة بفعل من أفعال الخير (رحيم) مكرم غاية الاكرام لمن أردت ولو لم يكن له وصلة فأنت جدير بأن تجيبنا لانا بين أن تكون لنا وصلة فنكون من أهل الرأفة أولا فنكون من أهل الرحمة فقد أفادت هذه الآية ان من كان فى قلبه غل على أحد من الصحابة فليس ممن عنى الله تعالى بهذه الآية وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى بكسر الهمزة والباقون بعدها *ولما ذكر حال المؤمنين اتبعهم بذكر حال المنافقين فقال تعالى (ألم تر) أى تعلم علما هو فى غاية الجزم كالمشاهدة يا أعلى الخلق وبين بعدهم عن جنابه العالى ومنصبه الشريف العالى بأداة الانتهاء فقال تعالى (الى الذين نافقوا) أى أظهروا غير ما أضمروا وبالغوا فى اخفاء عقائدهم وهم عبد الله بن أبى ابن سلول وأصحابه قالوا والنفاق لفظ اسلامى لم تكن العرب تعرفه قبله وهو استعارة من الضب فى نافقائه وقاصعائه وصور حالهم بقوله تعالى (يقولون لاخوانهم الذين كفروا) أى غطوا أنوار المعارف التى دلتهم على الحق (من أهل الكتاب) وهم اليهود من بنى قريظة والنضير والاخوان هم الاخوة وهى هنا تحتمل وجوها أحدها الاخوة فى الآخرة لان اليهود والمنافقين اشتركوا فى عموم الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وثانيها الاخوة بسبب المصادقة والموالاة والمعاونة وثالثها الاخوة بسبب اشتراكهم فى عداوة محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا لليهود (لئن أخرجتم) أى من مخرج ما من المدينة (لنخرجن معكم) أى منها (ولا نطيع فيكم) أى فى خذلانكم (أحدا) أي يريد خذلانكم من الرسول والمؤمنين وأكدوا بقولهم (أبدا) أى مادمنا نعيش وبمثل هذا العزم يستحق الكافر الخلود الابدى فى العذاب (وان قوتلتم) أى من أى مقاتل كان يقاتلكم ولم تخرجوا (لننصرنكم) أى لنعيننكم ولنقاتلن معكم *ولما كان قولهم هذا كلاما يقضى عليه سامعه بالصدق من حيث كونه مؤكدا مع كونه مبتدأ من غير سؤال فيه بين حاله سبحانه بقوله تعالى (والله) أى يقولون ذلك والحال ان المحيط بكل شئ قدرة وعلما (يشهد انهم) أى المنافقين (لكاذبون) أى فيما قالوا ووعدوا وهذا من أعظم دلائل النبوة لانه اخبار بغيب بعيد عن العادة ثم أخبر تعالى عن حال المنافقين بقوله تعالى (لئن أخرجوا) أى بنو النضير من أى مخرج كان (لا يخرجون) أى المنافقون (معهم) أى حمية لهم لاسباب يعلمها الله تعالى (ولئن قوتلوا) أى اليهود من أى مقاتل كان فكيف بأشجع الخلق وأعلمهم صلى الله عليه وسلم (لا ينصرونهم) أى المنافقون ولقد صدق الله تعالى وكذبوا فى الامرين معا القتال والاخراج لا نصروهم ولا خرجوا معهم فكان ذلك من أعلام النبوة وعلم به من كان شاكا فضلا عن الموفقين (ولئن نصروهم) أى المنافقون فى وقت من الاوقات (ليولن) أى

المنافقون ومن ينصرونه وحقرهم بقوله تعالى (الادبار) أى ولو قدر وجود نصرهم لولوا الادبار منهزمين (ثم لا ينصرون) أى لا يجدد لفريقيهم ولا لواحد منهم مانصرة فى وقت من الاوقات ولم يزل المنافقون واليهود فى الذل (لا نتم) أيها المؤمنون (أشد رهبة) أى خوفا (فى صدورهم) أى اليهود ومن ينصرهم (من الله) أى لتأخير عذابه وأصل الرهبة والرهب الخوف الشديد مع حزن واضطراب والمعنى أنهم يرهبونكم ويخافون منكم أشد الخوف وأشد من رهبتهم من الله المامر (ذلك) أى الامر الغريب وهو خوفهم الثابت اللازم من مخلوق مثلهم ضعيف لرؤيتهم له وعدم خوفهم من الخالق على ماله من العظمة فى ذاته ولكونه غنيا عنهم (بأنهم قوم) أى على مالهم من القوة (لا يفقهون) أى لا يجدد لهم بسبب كفرهم واعتمادهم على مكرهم فى وقت من الاوقات فهم يشرح صدورهم ليدركوا به أن الله تعالى هو الذى ينبغى أن يخشى لا غيره بل هم كالانعام لا نظر لهم الى الغيب انما هم مع المحسوسات والفقه هو العلم بفهوم الكلام ظاهره الجلى وغامضه الخفى بسرعة فطنة وجودة قريحة (لا يقاتلونكم) أى اليهود والمنافقون (جميعا) أى قتالا تقصدونه مجاهرة وهم مجتمعون كلهم فى وقت من الاوقات ومكان من الاماكن (الا فى قرى محصنة) أى ممتنعة بحفظ الدروب وهى السكك الواسعة بالابواب والخنادق ونحوها (أو من وراء جدار) أى محيط بهم سواء كان بقربه أم بغيرها لشدة خوفهم وقد أخرج هذا ما حصل من بعضهم عن ضرورة كالاسير ومن كان ينزل من أهل خيبر من الحصن يبارز ونحو ذلك فانه لم يكن عن اجتماع أو يكون هذا خاصا ببنى النضير فى هذه الكرة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الجيم وفتح الدال وألف بعدها وامال الالف أبو عمرو والباقون بضم الجيم والدال (بأسهم) أى حربهم (بينهم شديد) أى بعضهم فظ على بعض وعداوة بعضهم بعضا شديدة وقيل بأسهم بينهم من وراء الحيطان والحصون شديد فاذا خرجوا اليكم فهم أجبن خلق الله تعالى (تحسبهم) أى اليهود والمنافقين يا أعلى الخلق أو يا أيها الناظر وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائى بكسر السين والباقون بفتحها (جميعا) لما هم فيه من اجتماع الاشباح (وقلوبهم شتى) أى متفرقة أشد افتراقا وموجب هذا الشتات اختلاف الاهواء التى لا جامع لها من نظام العقل كالبهائم وان اجتمعوا فى عداوة أهل الحق كاجتماع البهائم فى الهرب من الذئب قال القشيرى اجتماع النفوس مع تنافر القلوب واختلافها أصل كل فساد وموجب كل تخاذل ومقتض لتجاسر العدو واتفاق القلوب والاشتراك فى الهمة والتساوى فى القصد موجب كل ظفر وكل سعادة وقرأ شتى الحسن وحمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين وأبو عمرو بين بين والباقون بالفتح وهى على وزن فعلى (ذلك) أى الامر الغريب من الافتراق بعد الاتفاق الذى يحيل الاجتماع (بانهم قوم) أى مع شدتهم (لا يعقلون) فلا دين لهم مثلهم فى ترك الايمان (كمثل الذين من قبلهم قريبا) أى بزمن قريب وهم كما قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بنو قينقاع من أهل دينهم اليهود أظهروا بأسا شديدا عندما قصدهم النبى صلى الله عليه وسلم فى اثر غزوة بدر فوعظهم وحذرهم بأس الله تعالى

فقالوا

فقالوا لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم اما والله لو قاتلنا لعلمت أنا نحن الناس ثم مكروا بامرأة من المسلمين فراودوها عن كشف وجهها فأبت فعقدوا طرف ثوبها من تحت خمارها فلما قامت انكشف سوقها فصاحت فغار لها شخص من الصحابة فقتل اليهودى الذى عقد ثوبها فقتلوه فانتقض عهدهم فأنزل الله النبى صلى الله عليه وسلم بساحتهم فأذلهم الله تعالى ونزلوا من حصنهم على حكمه صلى الله عليه وسلم وقد كانوا حلفاء ابن أبى ولم يغن عنهم شيأ غير أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم فى أن لا يقتلهم وألح عليه حتى كف عن قتلهم فذهبوا عن المدينة الشريفة بأنفسهم من غير حشر لهم بالالزام بالجلاء (ذاقوا وبال أمرهم) أى عقوبته فى الدنيا من القتل وغيره (ولهم عذاب أليم) أى مؤلم فى الآخرة ومثلهم أيضا فى سماعهم من المنافقين وتخلفهم عنهم (كمثل الشيطان) أى البعيد من كل خير لبعده من الله تعالى المحترق بعذابه والشيطان هنا مثل المنافقين (اذ قال للانسان) وهو هنا مثل اليهود (اكفر) أى بالله بما زين له ووسوس اليه من اتباعه الشهوات القائم مقام الامر (فلما كفر) أى أوجد الانسان الكفر على أى وجه ودلت الفاء على اسراعه فى متابعة تزيينه (قال) أى الشيطان الذى هو هنا عبارة عن المنافقين (انى برىء منك) أى ليس بينى وبينك علاقة فى شىء أصلا ظنا منه ان هذه البراءة تنفعه شيأ مما استوجبه المأمور بقبوله لأمره وذلك مثل ضربه الله تعالى للمنافقين واليهود فى تخاذلهم وعدم الوفاء فى نصرتهم وحذف حرف العطف ولم يقل وكمثل الشيطان لان حذف العطف كثير كقولك أنت عاقل أنت كريم أنت عالم وقوله كمثل الشيطان كالبيان لقوله تعالى كمثل الذين من قبلهم روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الانسان الذى قال له الشيطان راهب نزلت عنده امرأة أصابها لمم ليدعو لها فزين له الشيطان فوطئها فحملت ثم قتلها خوفا من أن يفتضح فدل الشيطان قومها على موضعها فجاؤا فاستنزلوا الراهب ليقتلوه فجاءه الشيطان فوعده ان سجد له أنجاه منهم فسجد له فتبرأ منه وروى عطاء وغيره عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال كان راهب يقال له برصيصا تعبد فى صومعة له سبعين سنة لم يعص الله تعالى فيها طرفة عين وان ابليس أعياه فى أمره الحيل فجمع ذات يوم مردة الشياطين فقال ألا أجد فيكم من يكفينى برصيصا فقال له الابيض وهو صاحب الانبياء عليهم الصلاة والسلام وهو الذى تصدى للنبى صلى الله عليه وسلم وجاءه فى صورة جبريل عليه السلام ليوسوس اليه على وجه الوحى فدفعه جبريل عليه السلام الى أقصى أرض الهند فقال الابيض لابليس انا أكفيك أمره فانطلق فتزيا بزى الرهبان وحلق وسط رأسه وأتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه وكان لا ينفتل عن صلاته الا فى كل عشرة أيام مرة ولا يفطر فى كل عشرة أيام الا مرة فلما رآه الابيض أنه لا يجيبه أقبل على العبادة فى أصل صومعته فلما انفتل برصيصا اطلع من صومعته فرأى الابيض قائما يصلى فى هيئة حسنة من هيئة الرهبان فلما رأى ذلك من حاله ندم على نفسه حين لم يجبه فقال له انك حين ناديتنى كنت مشتغلا عنك فما حاجتك قال حاجتى انى أحببت أن أكون معك فأتأدب بأدبك واقتبس من علمك ونجتمع على العبادة

وتدعو لي وادعو لك فقال برصيصا اني لفي شغل عنك فان كنت مؤمنا فان الله سيجعل لك فيما أدعو لمؤمنين نصيبا ان استجاب الله لي ثم أقبل على صلاته وترك الابيض فأقبل الابيض يصلي فلم يلتفت اليه برصيصا أربعين يوما فلما التفت بعدها رآه قائما يصلي فلما رأى برصيصا شدة اجتهاد الابيض قال له ما حاجتك قال حاجتي ان تأذن لي ان ارتفع اليك فأذن له فارتفع اليه في صومعته فأقام حولا يتعبد فلا يفطر الا في كل أربعين يوما مرة ولا ينفتل من صلاته الا كذلك وربما مد الى الثمانين فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت اليه نفسه واعجبه شأن الابيض فلما حال الحول قال الابيض لبرصيصا ان لي صاحبا غيرك ظننت انك اشد اجتهادا مما رأيت وكان بلغنا عنك انك غير الذي رأيت فدخل من ذلك على برصيصا أمر شديد وكره مفارقته للذي رآه من شدة اجتهاده فلما ودعه الابيض قال له ان عندي دعوات اعلمكها تدعو بهن فهن خير مما أنت فيه يشفي الله تعالى بها المريض ويعافي بها المبتلي والمجنون قال برصيصا اني اكره هذه المنزلة لان في نفسي شغلا واني اخاف ان علم به الناس يشغلوني عن عبادة ربي عز وجل فلم يزل به الابيض حتى علمه ثم انطلق حتى أتى ابليس فقال والله قد أهلكت الرجل فانطلق الابيض فتعرض لرجل فخنقه ثم جاءه في صورة رجل مطبب فقال لاهله ان بصاحبكم جنونا افاعالجه قالوا نعم فقال اني لا أقوى على جنيته ولكن سأرشدكم الى من يدعو الله تعالى فيعافيه انطلقوا الى برصيصا فان عنده الاسم الذي اذا دعا به أجيب فانطلقوا به اليه فسألوه فدعا بتلك الكلمات فذهب عنه الشيطان فكان الابيض يفعل ذلك بالناس ويرشدهم الى برصيصا فيدعو لهم فيعافون فانطلق الابيض فتعرض لجارية من بنات ملوك بني اسرائيل وكان لها ثلاثة اخوة وكان أبوهم هو الملك فلما مات استخلف أخاه فكان عمها ملك بني اسرائيل فصدلها وخنقها ثم جاءهم في صورة رجل مطبب فقال افأعالجها قالوا نعم قال ان الذي عرض لها مارد لا يطاق ولكن سارشدكم الى رجل تثقون به تدعونها عنده اذا جاءها شيطانها دعا لها حتى تعلموا أنها قد عوفيت فتردونها صحيحة قالوا ومن هو قال برصيصا قالوا كيف لنا ان يجيبنا الى هذا وهو أعظم شأنا من ذلك قال ابنوا صومعة الى جنب صومعته ولتكن لزيق صومعته حتى يشرف عليها فان قبلها والا فضعوها في صومعتها ثم قولوا له هي امانة عندك فاحتسب امانتك فانطلقوا اليه فسألوه ذلك فأبى فبنوا صومعة على ما أمرهم به الابيض ووضعوا الجارية في صومعتها وقالوا يا برصيصا هذه أختنا أمانة عندك فاحتسب فيها ثم انصرفوا فلما انفتل برصيصا من صلاته عاين الجارية وما هي عليه من الجمال فوقعت في قلبه ودخل عليه أمر عظيم فجاءها الشيطان فخنقها فكانت تكشف عن نفسها وتتعرض لبرصيصا فجاء الشيطان وقال ويحك واقعها فلم تجد مثلها وستتوب بعد ذلك ويتم لك ما تريد من الامر فلم يزل به حتى واقعها فلم يزل على ذلك يأتيها حتى حملت وظهر حملها فقال له الشيطان ويحك يا برصيصا قد افتضحت فهل لك أن تقتلها وتتوب فان سألوك فقل ذهب بها شيطانها ولم أقو عليه فدخل فقتلها ثم انطلق بها فدفنها الى جانب الجبل فجاء الشيطان وهو يدفنها ليلا فأخذ بطرف ازارها فبقى خارجا من التراب ثم

رجع برصيصا الى صومعته وأقبل على صلاته اذ جاء اخوتها يتعهدون أختهم وكانوا يجيئون في بعض الايام يسألون عنها ويوصونه بها فلما لم يجدوها قالوا يابرصيصا مافعلت أختنا قال قد جاء شيطانها فذهب بها ولم أطقه فصدقوه وانصرفوا فلما أمسوا مكروبين جاء الشيطان الى أكبرهم في منامه فقال ويحك ان برصيصا فعل بأختك كذا وكذا وانه دفنها في موضع كذا وكذا فقال الاخ هذا حلم وهو من عمل الشيطان برصيصا خير من ذلك فتابع عليه ثلاث ليال فلم يكترث فانطلق الى الاوسط بمثل ذلك فقال الاوسط له ماقال الاكبر ولم يخبر به احدا فانطلق الى أصغرهم بمثل ذلك فقال الاصغر لاخويه والله لقد رأيت كذا وكذا فقال الاوسط أنا والله رأيت مثله وقال الاكبر أنا والله رأيت مثله فانطلقوا الى برصيصا وقالوا له مافعلت بأختنا فقال أليس قد أعلمتكم بحالها فكانكم قد اتهمتموني فقالوا والله لانتهمك واستحيوا منه وانصرفوا فجاءهم الشيطان وقال ويحكم انها مدفونة في موضع كذا وكذا وان طرف ازارها خارج من التراب فانطلقوا فرأوا أختهم على مارأوا في النوم فذهبوا اليه ومعهم غلمانهم ومواليهم بالفوس والمساحي فهدموا صومعة برصيصا وأنزلوه منها وكتفوه ثم أتوا به الى الملك فأقر على نفسه وذلك أن الشيطان أتاه فقال تقتلها ثم تكابر فيجتمع عليك أمران قتل ومكابرة اعترف فلما اعترف أمر الملك بقتله وصلبه على خشبة فلما صلب أتاه الابيض فقال يابرصيصا تعرفني قال لا قال أنا صاحبك الذي علمتك الدعوات فاستجيب لك ويحك أما اتقيت الله تعالى في الامانة خنت أهلها وانك زعمت انك أعبد بني اسرائيل أما استحييت فلم يزل يعيره ثم قال ألم يكفك ماصنعت حتى أقررت على نفسك وفضحت نفسك وأشباهك من الناس فان مت على هذه الحالة فلم يفلح أحد من نظائرك قال فكيف أصنع قال تطيعني في خصلة واحدة حتى أنجيك مما أنت فيه فآخذ بأعينهم وأخرجك من مكانك قال وماهي قال تسجد لي قال أفعل فسجد له فقال يابرصيصا هذا الذي أردت منك صارت عاقبة أمرك الى أن كفرت بربك اني بريء منك (اني أخاف الله) أي الملك الذي لاأمر لاحد معه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها (رب العالمين) أي الذي أوجدهم من العدم ورباهم بمايدل على جميع الاسماء الحسنى والصفات العليا فلا يغني أحد من خلقه عن أحد شيأ الا باذنه (فكان) أي فتسبب عن قوله ذلك انه كان (عاقبتهما) أي الغار والمغرور (أنهما في النار) حال كونهما (خالدين فيها) لانهما ظلما ظلما لافلاح معه (وذلك) أي العذاب الاكبر (جزاء الظالمين) أي كل من وضع العبادة في غير موضعها أوهم الكافرون لقوله تعالى ان الشرك لظلم عظيم قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ضرب الله تعالى هذا المثل ليهود بني النضير والمنافقين من أهل المدينة فدس المنافقون اليهم وقالوا لاتجيبوا محمدا الى مادعاكم اليه ولاتخرجوا من دياركم فان قاتلكم فانا معكم فأجابوهم وان أخرجوكم خرجنا معكم فأجابوهم فدربوا على حصونهم وتحصنوا في ديارهم رجاء نصر المنافقين فناصبوهم الحرب فخذلوهم وتبرؤا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصا وخذله فكان عاقبة الفريقين في النار قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وكانت الرهبان بعد ذلك

فى بنى اسرائيل لايعيشون الابالتقية والكتمان وطمع أهل الفسوق فى الاحبار ورموهم بالبهتان حتى وكان أمر جريج الراهب فلما برأه الله تعالى مما رموه به انبسطت بعده الرهبان وظهروا للناس وكانت قصة جريج ماروى عن أبي هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لم يتكلم فى المهد الاثلاثة عيسى ابن مريم وصاحب جريج وكان جريج رجلا عابدا فاتخذ صومعة فكان فيها فأتت أمه وهو يصلى فقالت ياجريج فقال رب أمى وصلاتى وأقبل على صلاته فانصرفت فلما كان من الغد أتته فقال مثل مقالته الاولى فقالت اللهم لاتمته حتى ينظر فى وجوه المومسات فتذاكر بنو اسرائيل جريجا وعبادته وكانت امرأة بغى يتمثل بحسنها فقالت ان شئتم لافتننه لكم قال فتعرضت له فلم يلتفت اليها فأتت راعيا كان يأوى الى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت فلما ولدت قالت هو من جريج فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه فقال ماشأنكم فقالوا زنيت بهذه البغى فحملت منك فقال أين الصبى فجاؤا به فقال دعونى حتى أصلى فلما انصرف من صلاته أتى الصبى وطعن فى بطنه وقال ياغلام من ابوك فقال فلان الراعى قال فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا نبنى لك صومعتك من ذهب قال لا أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا والثالث كلم أمه وهى ترضعه فى قصة مشهورة (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان باللسان (اتقوا الله) أى اجعلوا لكم وقاية تقيكم سخط الملك الاعظم باتباع أوامره واجتناب نواهيه واحذروا عقوبته بسبب التقصير فيما حده لكم من أمر أونهى (ولتنظر نفس ماقدمت لغد) أى فى يوم القيامة لان هذه الدنيا كلها كيوم واحد يجيء فيه ناس ويذهب آخرون والموت والآخرة لابد من كل منهما وكل مالابد منه فهو فى غاية القرب والعرب تكنى عن المستقبل بالغد وقيل ذكر الغد تنبيها على أن الساعة قريبة كقول القائل * وان غدا الناظره قريب * وقال الحسن وقتادة قرب الساعة حتى جعلها كغد لان كل آت قريب والموت لامحالة آت ومعنى ماقدمت أى من خير أو شر ونكر النفس لاستقلال الانفس التى تنظر فيما قدمت للآخرة كأنه قال ولتنظر نفس واحدة فى ذلك ونكر الغد لتعظيمه وابهام أمره كأنه قال الغد لاتعرف كنهه لعظمته وقوله تعالى (واتقوا الله) أى الجامع لجميع صفات الكمال تأكيد وقيل كرر لتغاير متعلق التقويين فتعلق الاولى أداء الفرائض لاقترانه بالعمل والثانية ترك المعاصى لاقترانه بالتهديد والوعيد قال معناه الزمخشرى (ان الله) أى الذى له الاسماء الحسنى والصفات العليا (خبير) أى عظيم الاطلاع على ظواهركم وبواطنكم والاحاطة (بما تعملون) فلا تعملون عملا الا كان بمرأى منه ومسمع فاستحيوا منه (ولاتكونوا) أيها المحتاجون الى التحذير وهم الذين آمنوا (كالذين نسوا الله) أى أعرضوا عن أوامر ونواهى الملك الاعظم وتركوها ترك الناسين لمن برزت عنه مع ماله من صفات الجلال والاكرام (فأنساهم) أى فتسبب عن ذلك ان أنساهم بماله من الاحاطة بالظواهر والبواطن (أنفسهم) أى فلم يقدموا الها ماينفعها وان قدموا شيأ كان مشوبا بالمفسدات من الرياء والعجب فكانوا ممن قال فيه تعالى وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة

الآية لانهم لم يدعوا بابا من أبواب الفسق فان رأس الفسق الجهل بالله ورأس العلم ومفتاح الحكمة معرفة النفس فأعرف الناس بنفسه أعرفهم بربه (أولئك) أى البعداء من كل خير (هم الفاسقون) أى العريقون فى المروق من دائرة الدين (لا يستوى) أى بوجه من الوجوه (أصحاب النار) أى التى هى محل الشقاء الاعظم (وأصحاب الجنة) أى التى هى دار النعيم الاكبر لا فى الدنيا ولا فى الآخرة واستدل بهذه الآية على ان المسلم لا يقتل بالكافر (أصحاب الجنة هم الفائزون) أى الناجون من كل مكروه المدركون لكل محبوب وأصحاب النار هم الهالكون فى الدارين كما وقع فى هذه الغزوة لفريقى المؤمنين وبنى النضير ومن والاهم من المنافقين فشتان ما بينهما (لو أنزلنا) أى بعظمتنا التى أبانها هذا الانزال (هذا القرآن) أى الجامع لجميع العلوم الفارق بين كل ملتبس المبين لجميع الحكم (على جبل) أى جبل كان أو جبل فيه تمييز كالانسان (لرأيته) يا أشرف الخلق وان لم يتأهل غيرك لتلك الرؤية (خاشعا) أى متذللا باكيا (متصدعا) أى متشققا غاية التشقق (من خشية الله) أى من الخوف العظيم ممن له الكمال كله وفى هذا حث على تأمل مواعظ القرآن وتدبر آياته (وتلك الامثال) أى التى لا يضاهيها شئ (نضربها للناس لعلهم يتفكرون) فيؤمنون والمعنى أنا لو أنزلنا هذا القرآن على الجبل لخشع لوعده وتصدع لوعيده وأنتم أيها المقهورون باعجازه لا ترغبون فى وعده ولا ترهبون من وعيده والغرض من هذا الكلام التنبيه على قساوة قلوب هؤلاء الكفار وغلظ طباعهم ونظيره ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وقيل الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت وتصدع من نزوله عليه وقد أنزلناه عليك وثبتناك له فيكون ذلك امتنانا عليه أن ثبته لما لم تثبت له الجبال وقيل انه خطاب للامة والمعنى لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدعت من خشية الله تعالى والانسان أقل قوة وأكثر ثباتا فهو يقوم بحقه ان أطاع ويقدر على رده ان عصى لانه موعود بالثواب ومزجور بالعقاب * ولما وصف تعالى القرآن بالعظم ومعلوم ان عظم الصفة تابع لعظم الموصوف أتبع ذلك بوصف عظمته تعالى فقال عز من قائل (هو) أى الذى وجوده من ذاته فلا عدم له بوجه من الوجوه فلا شئ يستحق الوصف بهو غيره لانه الموجود دائما أزلا وأبدا فهو حاضر فى كل ضمير غائب بعظمته عن كل حس فلذلك تصدع الجبل من خشيته * ولما عبر عنه بأخص أسمائه أخبر عنه لطفا بنا وتنزلا لنا بأشهرها الذى هو مسمى الاسماء كلها بقوله تعالى (الله) أى المعبود الذى لا تنبغى العبادة والالوهية الا له (الذى لا اله الا هو) فانه لا مجانس له ولا يليق ولا يصح ولا يتصور أن يكافئه أو يدانيه شئ والاله أول اسم لله تعالى فلذلك لا يكون أحد مسلما الا بتوحيده فتوحيده فرض وهو أساس كل فريضة (عالم الغيب) أى الذى غاب عن جميع خلقه (والشهادة) أى الذى وجد فكان يحسه ويطلع عليه بعض خلقه وقال ابن عباس معناه عالم السر والعلانية وقيل ما كان وما يكون وقال سهل عالم بالآخرة والدنيا وقيل استوى فى علمه السر والعلانية والموجود والمعدوم وقوله تعالى (هو الرحمن

الرحيم) معناه ذو الرحمة ورحمة الله تعالى ارادته الخير والنعمة والاحسان الى خلقه وقيل ان رحمن أشد مبالغة من رحيم ولهذا قيل هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة لانه تعالى باحسانه في الدنيا يعم المؤمن والكافر وفي الآخرة يختص انعامه واحسانه بالمؤمنين (هو الله) أي الذي لا يقدر على تعميم الرحمة لمن أراد وتخصيصها بمن شاء الا هو (الذي لا اله) أي لا معبود بحق (الا هو الملك) أي فلا ملك في الحقيقة الا هو لانه لا يحتاج الى شئ لانه مهما أراد كان فهو متصرف بالامر والنهي في جميع خلقه فهم تحت ملكه وقهره وارادته (القدوس) أي البليغ في النزاهة عن كل وصم يدركه حس أو يتصوره خيال أو يسبق اليه وهم أو يختلج اليه ضمير ونظيره السبوح وفي تسبيح الملائكة سبوح قدوس رب الملائكة والروح (السلام) أي الذي سلم من النقائص وكل آفة تلحق الخلق فهو بمعنى السلامة ومنه دار السلام وسلام عليكم وصف به مبالغة في وصف كونه سليما من النقائص أو في اعطائه السلامة (المؤمن) قال ابن عباس هو الذي أمن الناس من ظلمه وأمن من آمن به عذابه وقيل هو المصدق لرسله باظهار المعجزات لهم والمصدق للمؤمنين بما وعدهم من الثواب وبما أوعد الكافرين من العذاب وقال مجاهد المؤمن الذي وحد نفسه لقوله تعالى شهد الله أنه لا اله الا هو وقال ابن عباس اذا كان يوم القيامة أخرج أهل التوحيد من النار وأول من يخرج من وافق اسمه اسم نبي حتى اذا لم يبق فيها من وافق اسمه اسم نبي قال الله تعالى لباقيهم أنتم المسلمون وأنا السلام وأنتم المؤمنون وأنا المؤمن فيخرجهم من النار ببركة هذين الاسمين (المهيمن) قال ابن عباس أي الشهيد على عباده بأعمالهم الذي لا يغيب عنه شئ وقيل هو القائم على خلقه بقدرته وقيل هو الرقيب الحافظ لكل شئ مفيعل من الامن قلبت همزته هاء (العزيز) أي الذي لا يوجد له نظير وقيل هو الغالب القاهر (الجبار) الذي جبر خلقه على ما أراده أو جبر حالهم بمعنى أصلحه والجبار في صفة الله صفة مدح وفي صفة الناس صفة ذم وكذا قوله تعالى (المتكبر) أي الذي تكبر على كل ما يوجب حاجة أو نقصا وهو في حقه تعالى صفة مدح لانه له جميع صفات العلو والعظمة وفي صفة الناس صفة ذم لان المتكبر هو الذي يظهر من نفسه التكبر وذلك نقص في حقه لانه ليس له كبر ولا علو بل له الحقارة والذلة فاذا أظهر الكبر كان كذابا في فعله (سبحان الله) أي تنزه الملك الاعلى الذي اختص بجميع صفات الكمال تنزها لا تدرك العقول منه أكثر من أنه علا عن أوصاف الخلق فلا يدانيه شئ من نقص تعالى (عما يشركون) أي من هذه المخلوقات من الاصنام وغيرها مما في الارض أو في السماء من صغير وكبير وجليل وحقير (هو) أي الذي لا شئ يستحق أن يطلق عليه هذا الضمير غيره لان وجوده من ذاته ولا شئ غيره الا وهو ممكن * ولما ابتدأ بهذا الغيب المحض الذي هو أظهر الاشياء أخبر عنه بأشهر الاشياء الذي لم يقع فيه شركة بوجه فقال تعالى (الله) أي الذي ليس له سمي فلا كفء له فهو المعبود بالحق فلا شريك له بوجه (الخالق) أي المقدر للاشياء على مقتضى حكمته (البارئ) أي المخترع المنشئ للاشياء من العدم الى الوجود بريأ من التفاوت وقوله تعالى (المصور) أي الذي يخلق

صور الاشياء على ما يريد بكسر الواو ورفع الراء اما صفة واما خبر واحترزت بهذا الضبط عن قراءة أمير المؤمنين على بن أبى طالب والحسن فانهما قرآ بفتح الواو ونصب الراء وهى قراءة شاذة وانما تعرضت لها لأبين وجهها وهو أن تخرج هذه القراءة على أن يكون المصور منصوبا بالبارئ والمصور هو الانسان اما آدم واما هو وبنوه وعلى هذه القراءة يحرم الوقف على المصور بل يجب الوصل ليظهر النصب فى الراء والا فقد يتوهم منه فى الوقف ما لا يجوز (له) أى خاصة (الاسماء الحسنى) التسعة والتسعون الوارد فيها الحديث وقد ذكرتها فى سورة الاسراء والحسنى تأنيث الاحسن (يسبح) أى يكرر التنزيه الاعظم عن كل شئ من شوائب النقص على سبيل التجدد والاستمرار (له) أى على وجه التخصيص (ما فى السموات) أى السموات وما فيها (والارض) وما فيها (وهو) أى والحال أنه وحده (العزيز) أى الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الحكيم) أى الجامع الكمالات بأسرها فانها راجعة الى الكمال فى القدرة والعلم وعن معقل بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ الثلاث آيات من سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى وان مات فى ذلك اليوم مات شهيدا ومن قاله حين يمسى كان كذلك أخرجه الترمذى وقال حسن غريب وعن أبى هريرة أنه قال سألت خليلى أبا القاسم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الاعظم فقال عليك بآخر سورة الحشر فأكثر قراءتها فأعدت عليه فأعاد على وقال جابر بن زيد ان اسم الله الاعظم هو الله لمكان هذه الآية وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحشر غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر حديث موضوع

(سورة الممتحنة مدنية)

وهى ثلاث عشرة آية وثلثمائة وثمان وأربعون كلمة وألف وخمسمائة وعشرة أحرف

(بسم الله) الذى من تولاه أغناه عمن سواه (الرحمن) الذى شمل برحمة البيان من حاطه بالعقل ورعاه (الرحيم) الذى خص بالتوفيق من أحبه وارتضاه * ونزل فى حاطب بن أبى بلتعة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى) أى وأنتم تدعون موالاتى (وعدوكم) أى العريق فى عداوتكم ما دمتم على مخالفته فى الدين (أولياء) وذلك ما روى ان مولاة لابى عمرو بن صيفى يقال لها سارة أتت النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يتجهز للفتح فقال لها أمسلمة جئت قالت لا قال أفمهاجرة جئت قالت لا قال فما جاء بك قالت كنتم الاهل والموالى والعشيرة وقد ذهبت الموالى تعنى قتلوا يوم بدر فاحتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطونى وتكسونى فقال صلى الله عليه وسلم فأين أنت عن شباب أهل مكة وكانت مغنية نائحة قالت ما طلب منى شئ بعد وقعة بدر فحث رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب على اعطائها فكسوها وحملوها وزودوها فأتاها حاطب بن أبى بلتعة وأعطاها عشرة دنانير وكساها بردا واستحملها

كتابا لاهل مكة نسخته من حاطب بن أبي بلتعة الى أهل مكة اعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حذركم وقد توجه اليكم بجيش كالليل وأقسم بالله لولم يسر اليكم الا وحده لاظفره الله تعالى بكم وأنجزله موعده فيكم فالله وليه وناصره فخرجت سارة ونزل جبريل عليه السلام بالخبر فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وعمارا وعمر وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وكانوا فرسانا وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاب من حاطب الى أهل مكة فخذوه منها وخلوها فان أبت فاضربوا عنقها فادركوها فجحدت وحلفت مامعها كتاب ففتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتابا فهموا بالرجوع فقال علي والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسل سيفه وقال أخرجي الكتاب والا والله لاجردنك ولاضربن عنقك فلما رأت الجد أخرجته من عقاص شعرها فخلوا سبيلها ورجعوا بالكتاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمن جميع الناس يوم الفتح الا أربعة هي أحدهم فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا وقال له هل تعرف هذا الكتاب قال نعم قال فما حملك عليه فقال يارسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم ولكني كنت امرأ ملصقا في قريش وروى عزيزا فيهم أي غريبا ولم أكن من أنفسها وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيري فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يدا وقد علمت ان الله تعالى ينزل عليهم بأسه وان كتابي لايغني عنهم شيأ فصدقه وقبل عذره فقال عمر دعني يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال ومايدريك ياعمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم ففاضت عينا عمر وقال الله ورسوله أعلم واضافة العدو الى الله تعالى تغليظا في خروجهم وهذه السورة أصل في النهي عن موالاة الكفار وتقدم نظيره في قوله تعالى لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم روى أن حاطبا لما سمع يا أيها الذين آمنوا غشي عليه من الفرح بخطاب الايمان ثم انه تعالى استأنف بيان هذا الاتخاذ بقوله تعالى مشيرا الى غاية الاسراع والمبادرة الى ذلك بالتعبير بقوله تعالى (تلقون) أي جميع ماهو في حوزتكم مما لاتطمعون فيه القاء الشئ الثقيل من علو (اليهم) على بعدهم منكم حسا ومعنى (بالمودة) أي بسببها قال القرطبي تلقون اليهم بالمودة يعني بالظاهر لان قلب حاطب كان سليما بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أما صاحبكم فقد صدق هذا نص في اسلامه وسلامة فؤاده وخلوص اعتقاده وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها وقوله تعالى (وقد كفروا) أي غطوا جميع مالكم من الادلة (بما) أي بسبب ما (جاءكم من الحق) أي الامر الثابت الكامل في الثبات الذي لاشئ أعظم ثباتا منه فيه أوجه أحدها الاستئناف ثانيها الحال من فاعل تتخذوا ثالثها الحال من فاعل تلقون أي لاتتولوهم ولاتوادوهم وهذه حالهم وقوله تعالى (يخرجون الرسول) يجوز أن يكون مستأنفا وأن يكون تفسيرا لكفرهم فلا محل له على هذين وان يكون حالا

من فاعل كفروا وقوله تعالى (وإياكم) عطف على الرسول وقدم عليهم تشريفاً له صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (أن تؤمنوا) أى توقعوا حقيقة الايمان مع التجدد والاستمرار (بالله) أى الذى اختص بجميع صفات الكمال (ربكم) أى المحسن اليكم تعليل ليخرجون والمعنى يخرجون الرسول ويخرجونكم من مكة لأن تؤمنوا بالله أى لاجل ايمانكم بالله قال ابن عباس وكان حاطب ممن أخرج مع النبى صلى الله عليه وسلم وفى ذلك تغليب المخاطب والالتفات من التكلم الى الغيبة للدلالة على ما يوجب الايمان (ان كنتم خرجتم) أى عن أوطانكم وقوله تعالى (جهادا فى سبيلى) أى بسبب ارادتكم تسهيل طريقى التى شرعتها لعبادى أن يسلكوها (وابتغاء مرضاتى) أى ولاجل تطلبكم أعظم الرغبة لرضاى علة للخروج وعمدة للتعليق وجواب الشرط محذوف دل عليه لا تتخذوا وقرأ الكسائى بالامالة محضة والباقون بالفتح وقوله تعالى (تسرون) أى توجدون جميع ما يدل على مناصحتكم اياهم والتودد (اليهم بالمودة) أى بسببها بدل من تلقون قاله ابن عطية قال ابن عادل ويشبه أن يكون بدل اشتمال لان القاء المودة يكون سرا وجهرا أو استئناف واقتصر عليه الزمخشرى (وأنا) أى والحال أنى (أعلم) أى من كل أحد حتى من نفس الفاعل وقرأ نافع بمد الالف بعد النون (بما أخفيتم وما أعلنتم) قال ابن عباس بما أخفيتم فى صدوركم وما أظهرتم بألسنتكم أى فأى فائدة لاسراركم ان كنتم تعلمون انى عالم به وان كنتم تتوهمون أنى لا أعلمه فهى القاصمة (ومن يفعله) أى يوجد اسرار خبر اليهم ويكاتبهم (منكم) أى فى وقت من الاوقات (فقد ضل) أى عمى ومال وأخطأ (سواء السبيل) أى قويم الطريق الواسع الموصل الى القصد قويمه وعدله قال القرطبى هذا كله معاتبة لحاطب وهو يدل على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق ايمانه فان المعاتبة لا تكون الا من محب لحبيب كما قال القائل

اذا ذهب العتاب فليس ود * ويبقى الود ما بقى العتاب

وقرأ قالون وابن كثير وعاصم باظهار الدال عند الضاد والباقون بالادغام (ان يثقفوكم) أى يظفروا بكم فى وقت من الاوقات ومكان من الاماكن (يكونوا لكم أعداء) أى ولا ينفعكم القاء المودة اليهم (ويبسطوا اليكم) أى خاصة وان كان هناك فى ذلك الوقت من غيرمن قتل أعز الناس عليهم (أيديهم) أى بالضرب ان استطاعوا (وألسنتهم) أى بالشتم مضمومة الى فعل أيديهم فعل من ضاق صدره بما تجرع من آخر من الغصص حتى أوجب له غاية السفه (بالسوء) أى بكل ما من شأنه أن يسوء (وودوا) أى تمنوا قبل هذا (لو تكفرون) لان مصيبة الدين أعظم فهم اليها أسرع لان دأب العدو القصد الى أعظم ضرر يراه لعدوه وعبر بما يفهم التمنى الذى يكون فى المحالات ليكون المعنى انهم أحبوا ذلك غاية الحب وتمنوه وفيه بشرى بأنه من قبيل المحال وقدم الاول لانه أبين فى العداوة وان كان الثانى أنكى * ولما كانت عداوتهم معروفة وانما غطاها محبة القرابات لان الحب للشئ يعمى ويصم خطأ رأيهم فى موالاتهم بما أعلمهم به من حالهم فقال تعالى مستأنفا اعلاما بأنها خطأ على كل حال

قوله وان كان هناك فى ذلك الوقت من غير من قبل أعز الناس عليهم ا

(لن تنفعكم) بوجه من الوجوه (أرحامكم) أى قراباتكم الحاملة لكم على وحشتكم والعطف عليهم (ولا أولادكم) أى الذين هم أخص أرحامكم ان واليتم أعداء الله تعالى لاجلهم فينبغى ان لا تعدوا قربهم منكم بوجه أصلا ثم علل ذلك وبينه بقوله تعالى (يوم القيامة) أى القيام الاعظم (يفصل) أى يوقع الفصل وهو الفرقة العظيمة بانقطاع جميع الاسباب وقرأ عاصم بفتح الياء واسكان الفاء وكسر الصاد مخففة وقرأ ابن عامر بضم الياء وفتح الفاء وفتح الصاد مشددة وحمزة والكسائى كذلك الا أنهما يكسران الصاد والباقون بضم الياء وسكون الفاء (بينكم) أى أيها الناس فيدخل من يشاء من أهل طاعته الجنة ومن يشاء من أهل معصيته النار فلا ينفع أحد أحدا منكم بشئ من الاشياء الا ان كان قد أتى الله تعالى بقلب سليم فأذن الله تعالى فى اكرامه بذلك (والله) أى الذى له الاحاطة التامة (بما تعملون) أى من كل عمل فى كل وقت (بصير) فيجازيكم عليه فى الدنيا والآخرة * ولما نهى تعالى عن موالاة الكفار ذكر قصة ابراهيم عليه الصلاة والسلام وأن من سيرته التبرى من الكفار بقوله تعالى (قد كانت) أى وجدت وجودا تاما وكان تأنيث الفعل اشارة الى الرضا بها ولو كانت على أدنى الوجوه (لكم) أى أيها المؤمنون (اسوة) أى موضع اقتداء وتأسية فى ابراهيم وطريقة مرضية وقرأ اسوة فى الموضعين عاصم بضم الهمزة والباقون بكسرها (حسنة) أى يرغب فيها (فى ابراهيم) أى فى قول أبى الانبياء عليهم الصلاة والسلام (والذين معه) أى ممن كان قبله من الانبياء قاله القشيرى وممن آمن به فى زمانه كابن أخته لوط عليه الصلاة والسلام وهم قدوة أهل الجهاد والهجرة وقيل المراد بمن معه أصحابه من المؤمنين وقرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها والباقون بكسر الهاء وبعدها ياء أى فاقتدوا به الا فى استغفاره لأبيه قال القرطبى الآية نص فى الامر بالاقتداء بابراهيم عليه الصلاة والسلام فى فعله وذلك يدل على أن شرع من قبلنا شرع لنا فيما أخبر الله ورسوله وقيل انه شرع لنا اذا ورد فى شرعنا ما يقرره وقيل ليس بشرع لنا مطلقا وهو الاصح عندنا (اذ) أى حين (قالوا) وقد كان من آمن به أقل منكم وأضعف (لقومهم) أى الكفرة وقد كانوا أكثر من عدوكم وأقوى وكان لهم فيهم أرحام وقرابات ولهم فيهم رجاء بالقيام والمحاولات (انا برآء) أى متبرؤن تبرئة عظيمة (منكم) وان كنتم أقرب الناس الينا ولا ناصر لنا منهم غيركم (ومما تعبدون) أى توجدون عبادته فى وقت من الاوقات (من دون الله) أى الملك الاعظم (كفرنا بكم) أى جحدناكم وأنكرنا دينكم (وبدا) أى ظهر ظهورا عظيما (بيننا وبينكم العداوة) وهى المباينة فى الافعال بأن يعدو كل أحد على الآخر (والبغضاء) وهى المباينة بالقلوب للبغض العظيم * ولما كان ذلك قد يكون سريع الزوال قالوا (أبدا) أى على الدوام وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فى الوصل بابدال الهمزة الثانية المفتوحة بعد المضمومة واوا خالصة والباقون بتحقيقها وهم على مراتبهم فى المد واذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة الفا مع المد والتوسط والقصر ولهما أيضا التسهيل مع المد والقصر والروم معهما * ولما كان ذلك مؤيسا من صلاح

الحال وقد يكون لحظ النفس ينوا غايته بقولهم (حتى تؤمنوا بالله) أى الملك الذى له الكمال كله (وحده) أى تكونوا مكذبين بكل ما يعبد من دون الله تعالى وقوله تعالى (الا قول ابراهيم لابيه) فيه أوجه أحدها انه استثناء متصل من قوله تعالى فى ابراهيم ولكن لابد من حذف مضاف ليصح الكلام تقديره فى مقالات ابراهيم الا قوله كيت وكيت ثانيها انه مستثنى من اسوة حسنة واقتصر على ذلك الجلال المحلى وجاز ذلك لان القول أيضا من جملة الاسوة لان الاسوة الاقتداء بالشخص فى أقواله وأفعاله فكأنه قيل لكم فيه اسوة فى جميع أحواله من قول وفعل الا قوله كذا وهو أوضح لانه غير محوج الى تقدير مضاف وغير مخرج للاستثناء من الاتصال الذى هو أصله الى الانقطاع ولذلك لم يذكر الزمخشرى غيره ثالثها قال ابن عطية ويحتمل أن يكون الاستثناء من التبرى والقطيعة التى ذكرت أى لم تبق صلة الا كذا رابعها أنه استثناء منقطع أى لكن قول ابراهيم وهذا بناء من قائله على أن القول لم يندرج تحت قوله اسوة وهو ممنوع قال القرطبى معنى قوله تعالى الا قول ابراهيم لابيه (لأستغفرن لك) أى فلا تتأسوا به فى الاستغفار فتستغفروا للمشركين فانه كان عن موعدة منه له قاله قتادة ومجاهد وغيرهما وقيل معنى الاستثناء ان ابراهيم هجر قومه وباعدهم الا فى الاستغفار لابيه ثم بين عذره فى سورة التوبة وفى هذا دلالة على تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على سائر الانبياء لانا حين أمرنا بالاقتداء به أمرنا أمرا مطلقا فى قوله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وحين أمرنا بالاقتداء بابراهيم استثنى بعض أفعاله وهذا مما يجرى لانه ظن انه أسلم فلما بان أنه لم يسلم تبرأ منه وعلى هذا فيجوز الاستغفار لمن يظن انه أسلم وأنتم لم تجدوا مثل هذا الظن فلم توالونهم وقوله (وما أملك لك من الله) أى من عذاب أو ثواب الملك الاعلى المحيط بنعوت الجلال (من شئ) من تمام قوله المستثنى ولا يلزم من استثناء المجموع استثناء جميع أحواله وقوله (ربنا) أى أيها المحسن الينا (عليك) أى لا على غيرك (توكلنا) أى فوضنا أمرنا اليك يجوز أن يكون من مقول ابراهيم عليه الصلاة والسلام والذين معه فهو من جملة الاسوة الحسنة وفصل بينهما بالاستثناء ويجوز أن يكون منقطعا عما قبله على اضمار قول وهو تعليم من الله تعالى لعباده كأنه قال لهم قولوا ربنا عليك توكلنا (واليك) أى وحدك (أنبنا) أى رجعنا بجميع ظواهرنا وبواطننا (واليك) أى وحدك (المصير) أى الرجوع فى الآخرة (ربنا) أى أيها المربى لنا والمحسن الينا (لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) أى بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نحتمله أو فيظنوا انهم على حق فيفتتنوا بذلك وقيل لا تعذبنا بعذاب من عندك فيقولون لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ذلك وقيل لا تسلط عليهم الرزق دوننا فان ذلك فتنة لهم (واغفر لنا) أى استر ما وقع منا من الذنوب وامح عينه وأثره (ربنا) أى أيها المحسن الينا وأكدوا علاما بشدة رغبتهم فى حسن الثناء عليه فقالوا (انك أنت) أى وحدك لا غيرك (العزيز) أى الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الحكيم) أى الذى يضع الاشياء فى أوفق محالها فلا يستطاع نقضها ومن كان كذلك فهو حقيق بأن يعطى من أمله ما طلب وقوله

تعالى (لقد كان لكم) أى يا أمة محمد جواب قسم مقدر (فيهم) أى ابراهيم ومن معه من الانبياء والاولياء (أسوة حسنة) أى فى التبرى من الكفار وكرر للتاكيد وقيل نزل الثانى بعد الاول بمدة قال القرطبى وما أكثر المكررات فى القران على هذا الوجه وقوله تعالى (لمن كان يرجو الله) أى الملك المحيط بجميع صفات الكمال (واليوم الآخر) أى الذى يحاسب فيه على النقير والقطمير بدل من الضمير فى لكم بدل بعض من كل وفى ذلك بيان أن هذه الاسوة لمن يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة (ومن يتول) أى يوقع الاعراض عن أوامر الله تعالى فيو الى الكفار (فان الله) أى الذى له الاحاطة الكاملة (هو) أى خاصة (الغنى) أى عن كل شئ (الحميد) أى الذى له الحمد المحيط لاحاطته بأوصاف الكمال فهو حميد فى نفسه وصفاته أو حميد الى أوليائه وأهل طاعته * ولما نزلت الآية الاولى عادى المسلمون أقرباءهم من المشركين فعلم الله تعالى شدة وجد المسلمين فى ذلك فنزل (عسى الله) أى أنتم جديرون بأن تطمعوا فى الملك الاعلى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (أن يجعل) أى بأسباب لا تعلمونها (بينكم وبين الذين عاديتم منهم) أى كفار مكة (مودة) أى بأن يلهمهم الايمان فيصيروا لكم أولياء وقد جعل ذلك عام الفتح تحقيقا لما رجاه سبحانه لان عسى من الله تعالى وعد وهو لا يخلف الميعاد (والله) أى الذى له كمال الاحاطة (قدير) أى بالغ القدرة على كل ما يريده فهو يقدر على تقليب القلوب وتيسير العسير (والله) أى الذى له جميع صفات الكمال (غفور) أى محاء لاعيان الذنوب وآثارها (رحيم) يكرم الخاطئين اذا أراد بالتوبة ثم بالجزاء غاية الاكرام فيغفر لما فرط منكم فى موالاتهم من قبل وما بقى فى قلوبكم من ميل الرحم وقوله تعالى (لا ينهاكم الله) أى الذى اختص بالجلال والاكرام (عن الذين لم يقاتلوكم) أى بالفعل (فى الدين) الآية رخصة من الله تعالى فى صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم قال ابن زيد هذا كان فى أول الاسلام عند الموادعة وترك الامر بالقتال ثم نسخ قال قتادة نسخها فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقال ابن عباس نزلت فى خزاعة وذلك أنهم صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدا فرخص الله تعالى فى برهم وقال أكثر أهل التأويل انها محكمة واحتجوا بأن أسماء بنت أبى بكر قدمت أمها وهى مشركة عليها المدينة بهدايا فقالت أسماء لا أقبل منك هدية ولا تدخلى على بيتا حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تدخل منزلها وأن تقبل هديتها وتكرمها وتحسن اليها وفى ذلك اشارة الى الاقتصار فى العداوة والولاية كما قال صلى الله عليه وسلم أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما وروى عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه ان أبا بكر الصديق رضى الله عنه طلق امرأته قتيلة فى الجاهلية وهى أم أسماء بنت أبى بكر فقدمت عليهم فى المدة التى كانت فيها المهادنة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش فأهدت الى أسماء بنت أبى بكر قرطا وأشياء فكرهت ان تقبل منها حتى أتت رسول الله صلى الله

عليه وسلم فذكرت ذلك له فأنزل الله تعالى لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين (ولم يخرجوكم من دياركم أن) أي لا ينهاكم عن أن (تبروهم) بنوع من أنواع البر الظاهرة فان ذلك غير صريح في قصد المودة (وتقسطوا اليهم) أي تعطوهم قسطا من أموالكم على وجه الصلة قال ابن العربي وليس يريد به من العدل فان العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل وحكي أن القاضي اسمعيل بن اسحق دخل عليه ذمي فأكرمه فأخذ عليه الحاضرون في ذلك فتلا عليهم هذه الآية (ان الله) أي الذي له الكمال كله (يحب) أي يثيب (المقسطين) أي الذين يزيلون الجور ويوقعون العدل (انما ينهاكم الله) أي الذي له الاحاطة الكاملة علما وقدرة (عن الذين قاتلوكم) أي جاهدوكم متعمدين اقتالكم (في الدين) أي عليه فليس شيء من ذلك خارجا عنه (وأخرجوكم من دياركم) أي بأنفسهم لبغضكم وهم عتاة أهل مكة (وظاهروا) أي عاونوا غيرهم (على اخراجكم) وهم مشركو مكة وقوله تعالى (ان تولوهم) بدل اشتمال من الذين أي تتخذوهم أولياء وقرأ البزي بتشديد التاء والباقون بالتخفيف ولما كان التقدير فمن أطاع فأولئك هم المفلحون عطف عليه قوله تعالى (ومن يتولهم) أي يكلف نفسه الحمل على غير ما تدعو اليه الفطرة الاولى من المنابذة وأطلق ولم يقيد بمنكم ليعم المهاجرين وغيرهم والمؤمنين وغيرهم (فأولئك) أي الذين أبعدوا عن العدل (هم الظالمون) أي الغريقون في ايقاع الاشياء في غير مواضعها ولما أمر المسلمين بترك موالاة المشركين اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين من بلاد الشرك الى بلاد الاسلام وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة فبين أحكام مهاجرة النساء بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أي أقروا بالايمان (اذا جاءكم المؤمنات) أي بأنفسهن (مهاجرات) أي من الكفار بعد الصلح معهم في الحديبية (فامتحنوهن) أي بالحلف انهن ما هاجرن الا رغبة في الاسلام لا بغضا في أزواجهن الكفار ولا عشقا لرجال من المسلمين كذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلفهن قيل ان سبب الامتحان انه كان من أرادت منهن اضرار زوجها قالت سأهاجر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم بامتحانهن (الله) أي المحيط بكل شيء قدرة وعلما (أعلم) أي منكم ومن أنفسهن (بايمانهن) هل هو كائن أم لا على وجه الرسوخ أم لا فانه المحيط بما غاب كاحاطته بما شوهد وانما وكل الامر اليكم في ذلك سترا للناس (فان علمتموهن مؤمنات) أي العلم الممكن لكم وهو الظن المؤكد بالامارات الظاهرات بالحلف وغيره (فلا ترجعوهن) أي بوجه من الوجوه (الى الكفار) وان كانوا أزواجا قال ابن عباس لما جرى الصلح مع مشركي قريش عام الحديبية على ان من أتاه من أهل مكة رده اليهم جاءت سبيعة بنت الحرث الاسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية بعد فأقبل زوجها وكان كافرا وكان صيفي بن الراهب وقيل مسافر المخزومي فقال يا محمد اردد على امرأتي فأنت شرطت ذلك وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد فأنزل الله تعالى هذه الآية وروى ان أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط جاءت للنبي صلى الله عليه وسلم فجاء أهلها

يسألونه أن يردها وقيل هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعها أخواها عمارة والوليد فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم أخويها وحبسها فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ردها علينا للشرط فقال صلى الله عليه وسلم كان الشرط في الرجال لا في النساء فأنزل الله تعالى هذه الآية وعن عروة قال كان مما اشترط سهل بن عمرو على النبي صلى الله عليه وسلم في الحديبية أن لا يأتيك منا أحد وان كان على دينك الارددته الينا وخليت بيننا وبينه فكره المؤمنون ذلك وأبى سهل الاذلك فكاتبه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك فرد يومئذ أبا جندل الى أبيه سهل ابن عمرو ولم يأته أحد من الرجال الارده في تلك المدة وان كان مسلما حتى أنزل الله تعالى في المؤمنات ما أنزل وهذا يومى الى ان الشرط في رد النساء نسخ بذلك وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن وقال بعض العلماء كله منسوخ بالقرآن وقالت طائفة لم يشترط ردهن في العقد لفظا وانما أطلق العقد في رد من أسلم فكان ظاهر العموم اشتماله عليهن مع الرجال فبين الله تعالى خروجهن عن عمومه وفرق بينهن وبين الرجال لامرين أحدهما انهن ذوات فروج تحرم عليهن الثاني انهن أرق قلوبا وأسرع تقلبا منهم فأما المقيمة منهن على شركها فمردودة عليهم (لاهن) أي المؤمنات (حل) أي موضع حل ثابت (لهم) أي الكفار باستمتاع ولا غيره وقوله تعالى (ولاهم) أي رجال الكفار (يحلون لهن) أي المؤمنات تأكيد للاول لتلازمهما وقال البيضاوي والتكرير للمطابقة والمبالغة والاولى لحصول الفرقة والثانية للمنع عن الاستئناف وقيل أراد استمرار الحكم بينهم فيما يستقبل كما هو في الحال ماداموا مشركين وهن مؤمنات والمعنى لم يحل الله تعالى مؤمنة لكافر في حال من الاحوال وهذا أدل دليل على ان الذى أوجب فرقة المسلمة من زوجها الكافر اسلامها لاهجرتها وقال أبو حنيفة الذى فرق بينهما هو اختلاف الدارين والصحيح كما قال ابن عادل الاول لان الله تعالى بين العلة وهو عدم الحل بالاسلام لا باختلاف الدار ولما نهى عن الرد وعلله أمر بما قدم من الاقساط اليهم فقال تعالى (وآتوهم) أي اعطوا الازواج (ما أنفقوا) أي عليهن من المهور فان المهر في نظير أصل العشرة ودوامها وقد فوتتها المهاجرة فلا يجمع عليه خسارتان الزوجية والمالية وأما الكسوة والنفقة فانهما لما يتجدد من الزمان *(تنبيه)* أمر الله تعالى برد ما أنفقوا الى الازواج وان المخاطب بهذا الامام وهل يجب ذلك أو يندب ظاهر الآية الوجوب ولكن رجح الندب وعليه الشافعي لان البضع ليس بمال فلا يشمله الامان كما لا يشمل زوجته والآية وان كان ظاهرها الوجوب محتملة للندب الصادق بعدم الوجوب الموافق للاصل وقال مقاتل يرد المهر للذى يتزوجها من المسلمين وليس لزوجها الكافر شئ وقال قتادة الحكم في رد الصداق انما هو في نساء أهل الذمة فأما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يرد عليهم الصداق قال القرطبي والامر كما قال (ولا جناح) أي حرج وميل (عليكم) يا أيها المشرفون بالخطاب (ان تنكحوهن) أي تجددوا زواجكم بهن بعد الاستبراء وان كان أزواجهن من الكفار لم يطلقوهن لزوال العلق عنهن لان الاسلام فرق بينهم قال

الله تعالى ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ولما كان قد أمر برد مهور الكفار فكان ربما ظن انه مغن عن تجديد مهر لهن اذا نكحهن المسلم نفى ذلك بقوله (اذا آتيتموهن) أى لاجل النكاح (أجورهن) أى مهورهن وفى شرط ايتاء المهر فى نكاحهن ايذان بأن ما أعطى أزواجهن لا يقوم مقام المهر (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) جمع عصمة وهى هنا عقد النكاح أى من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها فقد انقطعت عصمتها فلا يكن بينكم وبينهن عصمة ولا علقة زوجية والكوافر جمع كافرة كضوارب فى ضاربة قال النخعى المراد بالآية هى المرأة المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر وكان الكفار يتزوجون المسلمات والمسلمون يتزوجون المشركات ثم نسخ ذلك بهذه الآية فطلق عمر بن الخطاب حينئذ امرأتين له بمكة مشركتين قريبة بنت أبى أمية فتزوجها معاوية بن أبى سفيان وهما على شركهما بمكة وأم كلثوم بنت عمرو الخزاعية أم عبد الله بن المغيرة فتزوجها أبو جهم بن حذافة وهما على شركهما بمكة فلما ولى عمر قال أبو سفيان لمعاوية طلق قريبة فلا يرى عمر سلبه فى بيتك فأبى معاوية وكانت عند طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب ففرق الاسلام بينهما ثم تزوجها فى الاسلام خالد بن سعيد بن العاص وكانت ممن فر الى النبى صلى الله عليه وسلم من نساء الكفار فحبسها وزوجها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية وقال الشعبى كانت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة أبى العاص بن الربيع أسلمت ولحقت بالنبى صلى الله عليه وسلم وأقام أبو العاص بمكة مشركا ثم أتى المدينة وأسلم فردها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم روى أبو داود عن عكرمة عن ابن عباس بالنكاح الاول ولم يحدث شيأ قال محمد بن عمرو فى حديث بعد ست سنين وقال الحسن بن على بعد سنتين قال أبو عمر فان صح هذا فلا يخلو من وجهين اما انها لم تحض حتى اسلم زوجها واما ان الامر فيها منسوخ بقوله تعالى وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك يعنى فى عدتهن وهذا مما لا اختلاف فيه انه عنى به العدة قال الزهرى فى قصة زينب هذه كانت قبل أن تنزل الفرائض وقال قتادة كان هذا قبل ان تنزل سورة براءة بقطع العهود بينهم وبين المشركين *(تنبيه)* المراد بالكوافر هنا عبدة الاوثان ومن لا يجوز ابتداء نكاحها وقيل هى عامة نسخ منها نساء أهل الكتاب فعلى الاول اذا اسلم وثنى أو مجوسى ولم تسلم امرأته فرق بينهما وهو قول بعض أهل العلم منهم مالك والحسن وطاوس وعطاء وعكرمة وقتادة لقوله تعالى ولا تمسكوا بعصم الكوافر وقال بعضهم ينتظر بها تمام العدة وهو قول الزهرى والشافعى وأحمد واحتجوا بأن أبا سفيان بن الحرث أسلم قبل هند بنت عتبة امرأته وكان اسلامه بمر الظهران ثم رجع الى مكة وهند بها كافرة مقيمة على كفرها فأخذت بلحيته وقالت اقتلوا الشيخ الضال ثم أسلمت بعده بأيام فاستقرا على نكاحهما لان عدتها لم تكن انقضت قالوا ومثله حكيم بن حزام أسلم قبل امرأته ثم أسلمت بعده فكانا على نكاحهما قال الشافعى ولا حجة لمن احتج بقوله تعالى بعصم الكوافر لان نساء المؤمنين محرمات على الكفار كان المسلمين لا تحل لهم الكوافر الوثنيات ولا المجوسيات لقوله تعالى

لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن ثم بينت السنة ان مراد الله تعالى من قوله هذا أنه لا يحل بعضهم لبعض الا ان أسلم الثانى منهما فى العدة وقال أبو حنيفة وأصحابه فى الكافرين الذميين اذا أسلمت المرأة عرض على الزوج الاسلام فان أسلم والا فرق بينهما قالوا ولو كانا حربيين فهى امرأته حتى تحيض ثلاث حيض اذا كانا جميعا فى دار الحرب أو فى دار الاسلام وان كان أحدهما فى دار الحرب والآخر فى دار الاسلام انقطعت العصمة بينهما وقد تقدم ان اعتبار الدار ليس بشئ وهذا الخلاف انما هو فى المدخول بها فأما غير المدخول بها فلا نعلم خلافا فى انقطاع العصمة بينهما اذ لا عدة عليها وكذا يقول مالك فى المرأة ترتد وزوجها المسلم تنقطع العصمة بينهما لقوله تعالى ولا تمسكوا بعصم الكوافر وهو قول الحسن البصرى والحسن ابن صالح وقال الشافعى وأحمد ينتظر بها تمام العدة فان كان الزوجان نصرانيين فاسلمت الزوجة فذهب مالك والشافعى وأحمد الى تمام العدة وهو قول مجاهد وكذا الوثنى تسلم زوجته ان أسلم فى عدتها فهو أحق بها كما ان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل أحق بزوجتيهما لما أسلما فى عدتهما لما ذكر مالك فى الموطا قال بعض العلماء كان بين اسلام صفوان وبين اسلام امرأته نحو من شهر قال ولم يبلغنا ان امرأة هاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجها كافر مقيم بدار الحرب الا فرقت هجرتها بينها وبين زوجها الا أن يقدم زوجها مهاجرا قبل ان تنقضى عدتها وقال بعضهم ينفسخ النكاح بينهما لما روى يزيد بن علقمة قال أسلم جدى ولم تسلم جدتى ففرق بينهما ع ر وهو قول طاوس وعطاء والحسن وعكرمة قالوا لا سبيل له عليها الا بخطبة (واسألوا) أى أيها المؤمنون الذين ذهبت زوجاتهم الى الكفار مرتدات (ما أنفقتم) أى من مهور نسائكم (وليسألوا) أى الكفار (ما أنفقوا) أى من مهور أزواجهم اللاتى أسلمن قال المفسرون كان من ذهب من المسلمات مرتدات الى الكفار من اهل العهد يقال للكفار هاتوا مهرها ويقال للمسلمين اذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة ردوا الى الكفار مهرها وكان ذلك نصفا وعدلا بين الحالين (ذلكم) أى الحكم الذى ذكر فى هذه الآيات البعيد تعلق الريبة عن كل سفيه (حكم الله) أى الملك الذى له صفات الكمال فلا تلحقه شائبة نقص (يحكم) أى الله اذ حكمه على سبيل المبالغة (بينكم) أى فى هذا الوقت وفى غيره على هذا المنهاج البديع وذلك لاجل الهدنة التى كانت وقعت بين النبى صلى الله عليه وسلم وبينهم وأما قبل الحديبية فكان النبى صلى الله عليه وسلم يمسك النساء ولا يرد الصداق (والله) أى الذى له الاحاطة التامة (عليم) أى بالغ العلم لا يخفى عليه شئ (حكيم) أى فهو لتمام علمه يحكم كل أموره غاية الاحكام فلا يستطيع أحد نقض شئ منها روى ان المسلمين قالوا رضينا بما حكم الله تعالى وكتبوا الى المشركين فامتنعوا فنزل قوله تعالى (وان فاتكم شئ من أزواجكم) أى واحدة فأكثر منهن أو شئ من مهورهن بالذهاب (الى الكفار) مرتدات (فعاقبتم) فغزوتم وغنمتم من أموال الكفار فجاءت نوبة ظفركم بأداء المهر الى اخوانكم طاعة وعدلا عقب نوبتهم التى اقتطعوا فيها ما أنفقتم ظلما (فآتوا) أى فاحضروا

واعطوا من مهر المهاجرة (الذين ذهبت أزواجهم) أى منكم من الغنيمة (مثل ما أنفقوا) أى لفواته عليهم من جهة الكفار روى الزهرى عن عروة عن عائشة انها قالت حكم الله تعالى بينهم فقال جل ثناؤه واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا فكتب اليهم المسلمون قد حكم الله تعالى بيننا بانه ان جاءتكم امرأة منا أن توجهوا الينا صداقها وان جاءتنا امرأة منكم وجهنا اليكم بصداقها فكتبوا أما نحن فلا نعلم لكم عندنا شيأ فان كان لنا عندكم شئ فوجهوا به فأنزل الله تعالى وان فاتكم شئ من أزواجكم الآية وقال ابن عباس فى قوله تعالى ذلكم حكم الله أى بين المسلمين والكفار من أهل العهد من أهل مكة يرد بعضهم على بعض قال الزهرى ولولا العهد لامسك النساء ولم يرد عليهم صداقا وقال قتادة ومجاهد انما أمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفيء والغنيمة وقالا هى فيمن بيننا وبينه عهد وقالا فعني فعاقبتم فاقتصصتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل مثل ما أنفقوا أى من المهور وقال ابن عباس معنى الآية ان لحقت امرأة مؤمنة بكفار أهل مكة وليس بينكم وبينهم عهد ولها زوج مسلم قبلكم فغنمتم فاعطوا هذا الزوج المسلم مهره من الغنيمة قبل ان تخمس وقال الزهرى يعطى من مال الفيء وعنه يعطى من صداق من لحق بها *(تنبيه)* محصل مذهب الشافعى فى هذه الآية ان الهدنة لو عقدت بشرط ان يردوا من جاءهم منا مرتدا صح ولزمهم الوفاء به سواء أكان رجلا أو امرأة حرا أو رقيقا فان امتنعوا من رده فناقضون للعهد لمخالفتهم الشرط أو عقدت على أن لا يردوه جاز ولو كان المرتد امرأة فلا يلزمهم رده لانه صلى الله عليه وسلم شرط ذلك فى مهادنة قريش حيث قال لسهل بن عمرو وقد جاء رسولا منهم من جاءنا منكم رددناه ومن جاءكم منا فسحقا سحقا ومثله مالو أطلق العقد كما فهم بالاولى ويغرمون فيهما مهر المرتدة (فان قيل) لم غرموا مهر المرتدة و لم نغرم نحن مهر المسلمة على ما تقدم من الخلاف (أجيب) بأنهم قد فوتوا عليه الاستتابة الواجبة علينا وأيضا المانع جاء من جهتها والزوج غير متمكن منها بخلاف المسلمة الزوج متمكن منها بالاسلام وكذا يغرمون قيمة رقيق ارتد دون الحر فان عاد الرقيق المرتد الينا بعد أخذنا قيمته رددناها عليهم بخلاف نظيره فى المهر لان الرقيق بدفع القيمة يصير ملكا لهم والنساء لا يصرن زوجات (فان قيل) كونه يصير ملكا لهم مبنى على جواز بيع المرتد للكافر والصحيح خلافه (أجيب) بأن هذا ليس مبنيا عليه لان هذا ليس بيعا حقيقة فاغتفر ذلك لاجل المصلحة وان شرطنا عدم الرد (فان قيل) هل يغرم الامام لزوج المرتدة ما أنفق من صداقها لانا بعقد الهدنة حلنا بينه وبينها ولولاه لقاتلناهم حتى يردوها (أجيب) بأن هذا ينبنى على ان الامام هل يغرم لزوج المسلمة المهاجرة ما أنفق وقد تقدم الكلام على ذلك *(فائدة)* روى عن ابن عباس انه قال لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة أم الحكم بنت أبى سفيان وكانت تحت شداد بن عياض الفهرى وفاطمة بنت أبى أمية بن المغيرة أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدت وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان وعزة بنت عبد العزيز

ابن نضلة وزوجها عمرو بن عبدود وهند بنت أبي جهل بن هشام كانت تحت هشام بن العاص ابن وائل وأم كلثوم بنت جرول كانت تحت عمر بن الخطاب رجعن عن الاسلام فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجهن مهور نسائهم من الغنيمة ولما كان التحرى فى مثل ذلك عسرا فات المهور تتفاوت تارة وتتساوى أخرى قال تعالى (واتقوا) أى فى الاعطاء والمنع وغير ذلك (الله) الذى له صفات الكمال وقد أمركم بالتخلق بصفاته على قدر ما تطيقون (الذى أنتم به مؤمنون) أى متمكنون فى رتبة الايمان ولما خاطب المؤمنين الذين هم موضع الحماية والنصرة للدين أمر النبى صلى الله عليه وسلم بعد الحكم بايمانهن بمبايعتهن بقوله تعالى (يا أيها النبى) مخاطباله بالوصف المقتضى للعلم (اذا جاءك المؤمنات) جعل اقبالهن عليه صلى الله عليه وسلم لاسيما مع الهجرة مجيئا لاطلاق الهجرة عليهن (يبايعنك على أن لا يشركن) أى كل واحدة منهن تبايعك على عدم الاشراك فى وقت من الاوقات (بالله) أى الملك الذى لا كفوله (شيأ) أى من اشراك على الاطلاق (ولا يسرقن) أى يأخذن مال الغير بغير استحقاق فى خفية (ولا يزنين) أى يمكن أحدا من وطئهن بغير عقد صحيح (ولا يقتلن أولادهن) أى بالوأد كما كان يفعل فى الجاهلية من وأد البنات أى دفنهن احياء خوفا العار والفقر (ولا يأتين ببهتان) أى بولد ملقوط أو شبهة بأن (يفترينه) أى يتعمدن كذبه بأن ينسبنه للزوج ووصفه بصفة الولد الحقيقى بقوله تعالى (بين أيديهن) أى بالحمل فى البطون لان بطنها التى تحمل فيها الولد بين يديها (وأرجلهن) أى بالوضع من الفروج لان فرجها الذى تلد منه بين رجليها أولان الولد اذا وضعته سقط بين يديها ورجليها وقيل بين أيديهن ألسنتهن بالنميمة ومعنى بين أرجلهن فروجهن وقيل ما بين أيديهن من قبلة أو جسة وبين أرجلهن الجماع وروى ان هندا لما سمعت ذلك قالت والله ان البهتان لامر قبيح وما يأمر الا بالارشد ومكارم الاخلاق (ولا يعصينك) أى على حال من الاحوال (فى معروف) وهو ما وافق طاعة الله تعالى كترك النياحة وتمزيق الثياب وجز الشعر وشق الجيب وخمش الوجه (فبايعهن) أى التزم لهن بما وعدن على ذلك من اعطاء الثواب فى نظير ما الزمن أنفسهن من الطاعة فبايعهن صلى الله عليه وسلم بالقول ولم يصافح واحدة منهن قالت عائشة رضى الله عنها والله ما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على النساء قط الا بما أمر الله عز وجل وما مست كف رسول الله صلى الله عليه وسلم كف امرأة قط وروى انها قالت كان النبى صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية أن لا يشركن بالله شيأ الى آخرها قالت وما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة الا امرأة يملكها وقالت أميمة بنت رقيقة بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسوة فقال فيما استطعتن وأطعتن فقلت رسول الله صلى الله عليه وسلم ارحم بنا من أنفسنا وقلت يا رسول الله صافحنا فقال انى لا أصافح النساء انما قولى لامرأة كقولى لمائة امرأة وروى انه صلى الله عليه وسلم بايع النساء وبين يديه وأيديهن ثوب وكان يشترط عليهن وقالت أم عطية لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جمع نساء الانصار فى بيت ثم أرسل الينا

عمر بن الخطاب فقام على الباب فسلم فرددن عليه السلام فقال أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم اليكن أن لا تشركن بالله شيأ الآية فقلن نعم فمد يده من خارج البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت ثم قال اللهم اشهد وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا بايع النساء دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه فغمسن أيديهن فيه وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما فرغ من بيعة الرجال يوم الفتح لمكة وهو على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل منه وهو يبايع النساء بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبلغهن عنه أن لا يشركن بالله شيأ وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنقبة متنكرة مع النساء خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها لما صنعت بحمزة يوم أحد فقالت والله انك لتأخذ علينا أمرا ما رأيتك أخذته على الرجال وكان بايع الرجال يومئذ على الاسلام والجهاد فقط فقال النبي صلى الله عليه وسلم ولا يسرقن فقالت هند ان أبا سفيان رجل شحيح واني أصيب من ماله قوتنا فلا أدري أيحل لي أم لا فقال أبو سفيان ما أصبت من شيء فيما مضى وما غبر فهو لك حلال فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها فقال لها وانك لهند بنت عتبة قالت نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك وروى انها قالت يا رسول الله ان أبا سفيان رجل مسيك فهل على حرج ان أخذت ما يكفيني وولدي قال لا الا بالمعروف فخشيت هند ان تقتصر على ما يعطيها فتضيع أو تأخذ أكثر من ذلك فتكون سارقة ناكثة للبيعة المذكورة فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم ذلك أي لا حرج عليك فيما أخذت بالمعروف يعني من غير استطالة الى أكثر من الحاجة ثم قال ولا يزنين فقالت هند أو تزني الحرة فقال ولا يقتلن أولادهن أي بالوأد ولا يسقطن الاجنة فقالت هند ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا وأنت وهم أعلم وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن فقالت والله ان البهتان لامر قبيح وما تأمرنا الا بالرشد ومكارم الاخلاق فقال ولا يعصينك في معروف فقالت والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا ان نعصيك في شيء قال أكثر المفسرين معناه لا يلحقن بأزواجهن ولدا من غيرهن وكانت المرأة تلتقط ولدا تلحقه بزوجها وتقول هذا ولدي منك فكان هذا من البهتان والافتراء وهذا عام في الاتيان بولد والحاقه بالزوج وان سبق النهي عن الزنا *(تنبيه)* ذكر تعالى في هذه الآية لرسوله صلى الله عليه وسلم في صفة البيعة خصالا ستا صرح فيهن بأركان النهي ولم يذكر أركان الامر وهي ست أيضا الشهادة والزكاة والصلاة والصيام والحج والاغتسال من الجنابة وذلك لان النهي دائم في كل زمان وكل الاحوال فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد وقيل ان هذه المناهي كانت في النساء كثيرا ممن يرتكبها ولا يحجزهن عنها شرف النسب فخصت بالذكر لهذا ونحو هذا قوله صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس وأنهاكم عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت فنبههم على ترك المعصية في شرب الخمر دون سائر المعاصي لانها كانت شهوتهم وعادتهم واذا ترك المرء شهوته من المعاصي هان عليه ترك سائرها مما لا شهوة له فيها ولما كان

الانسان محل النقصان لاسيما النسوان رجاهن سبحانه بقوله تعالى (واستغفر) أى اسأل (لهن الله) أى الملك الاعظم ذا الجلال والاكرام فى الغفران ان وقع منهن تقصير وهو واقع لانه لا يقدر أحد أن يقدر الله تعالى حق قدره (ان الله) أى الذى له صفات الكمال (غفور) أى بالغ الستر للذنوب عينا وأثرا (رحيم) أى بالغ الاكرام بعد الغفران تفضلا منه واحسانا وروى ان ناسا من فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم فنهاهم الله عن ذلك بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا) أى لا تعالجوا أنفسكم أن تتوالوا (قوما) أى ناسا لهم قوة على ما يحاولونه فغيرهم من باب أولى (غضب الله) أى أوقع الملك الاعلى الغضب (عليهم) لاقبالهم على ما أحاط بهم من الخطايا فهو عام فى كل من اتصف بذلك يتناول اليهود تناولا أوليا (قد يئسوا) أى تحققوا عدم الرجاء (من الآخرة) اى من ثوابها مع ايقانهم بها لعنادهم النبى صلى الله عليه وسلم مع علمهم أنه الرسول المبعوث فى التوراة (كما يئس الكفار من أصحاب القبور) أى من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء وقيل من أصحاب القبور بيان للكفار أى كما يئس الكفار الذين قبروا من خير الآخرة اذ تعرض عليهم مقاعدهم من الجنة لو كانوا آمنوا وما يصيرون اليه من النار فيتبين لهم قبح حالهم وسوء منقلبهم وما قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة حديث موضوع

(سورة الصف مدنية)

فى قول الاكثرين وذكر النحاس عن ابن عباس انها مكية وهى أربع عشرة آية ومائتان واحدى وعشرون كلمة وتسعمائة حرف

(بسم الله) الملك الاعظم الذى لا كفء له (الرحمن) الذى عم بفضله كل أحد من خلقه (الرحيم) الذى خص من شاء من عباده فهيأه لعبادته وأهله (سبح لله) أى أوقع التنزيه الاعظم للملك الاعظم (ما فى السموات) من جميع الاشياء من الملائكة وغيرها كالافلاك والنجوم (وما فى الارض) كذلك من الآدميين وغيرهم كالشجر والثمار وقيل اللام مزيدة أى نزه الله وأتى بما دون من قال الجلال المحلى تغليبا للاكثر اه (فان قيل) ما الحكمة فى أنه تعالى قال فى بعض السور سبح لله بلفظ الماضى وفى بعضها يسبح بلفظ المضارع وفى بعضها فسبح بلفظ الامر (أجيب) بأن الحكمة فى ذلك تعليم العبد ان يسبح الله تعالى على الدوام كما ان الماضى يدل عليه فى الماضى من الزمان والمستقبل يدل عليه فى المستقبل من الزمان والامر يدل عليه فى الحال (فان قيل) هلا قيل سبح لله السموات والارض وما فيهما وهو أكثر مبالغة (أجيب) بأن المراد بالسماء جهة العلو فيشمل السماء وما فيها وبالارض جهة السفل فيشمل الارض وما فيها (وهو) أى وحده (العزيز) أى الغالب على غيره أى شئ كان ذلك الغير ولا يمكن ان يغلب عليه غيره (الحكيم) أى الذى يضع الاشياء فى اتقن مواضعها روى الدارمى

فى مسنده قال أنبانا محمد بن كثير عن الاوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن عبد الله بن سلام قال قعدنا مع نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا فقلنا لو نعلم أى الاعمال أحب الى الله تعالى لعملناه فأنزل الله تعالى سبح لله ما فى السموات وما فى الارض وهو العزيز الحكيم (يا أيها الذين آمنوا) أى ادعوا الايمان (لم تقولون ما لا تفعلون) حتى ختمها قال عبد الله فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ختمها قال أبو سلمة قرأها علينا عبد الله بن سلام حتى ختمها قال يحيى فقرأها علينا أبو سلمة فقرأها علينا أبو يحيى فقرأها علينا الاوزاعى فقرأها علينا محمد فقرأها علينا الدارمى انتهى ولى بقراءتها سند متصل الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال عبد الله بن عباس قال عبد الله بن رواحة لو علمنا أحب الاعمال الى الله تعالى لعملناه فلما نزل الجهاد كرهوه وقال الكلبى قال المؤمنون يا رسول الله لو علمنا أحب الاعمال الى الله تعالى لسارعنا اليه فنزل هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم فمكثوا زمانا يقولون لو نعلمها لاشتريناها بالاموال والانفس والاهلين فدلهم الله تعالى عليها بقوله تعالى تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله الآية فابتلوا يوم أحد ففروا فنزلت هذه الآية تعييرا لهم بترك الوفاء وقال محمد بن كعب لما أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بثواب شهداء بدر قالت الصحابة اللهم اشهد لئن لقينا قتالا لنفرغن فيه وسعنا ففروا يوم أحد فعيرهم الله تعالى بذلك وقال قتادة والضحاك نزلت فى قوم كانوا يقولون نحن جاهدنا وأبلينا ولم يفعلوا وقيل قد آذى المسلمين رجل ونكى فيهم فقتله صهيب وانتحل قتله آخر فقال عمر لصهيب اخبر النبى صلى الله عليه وسلم انك قتلته فقال انما قتلته لله ولرسوله فقال عمر يا رسول الله قتله صهيب قال كذلك يا أبا يحيى قال نعم فنزلت فى المنتحل وقال ابن زيد نزلت فى المنافقين ونداؤهم بالايمان تهكم بهم وبايمانهم وكانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ان خرجتم وقاتلتم خرجنا معكم وقاتلنا فلما خرجوا نكصوا عنهم وتخلفوا وقال القرطبى هذه الآية توجب على كل من الزم نفسه عملا فيه طاعة ان يفى به وفى صحيح مسلم عن أبى موسى أنه بعث الى قراء أهل البصرة فدخل عليه ثلثمائة رجل قد قرؤا القرآن فقال أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاتلوه ولا تطولن عليكم الامد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من قبلكم وانا كنا نقرأ سورة فشبهها فى الطول والشدة ببراءة فأنسيتها غير أنى قد حفظت منها لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب وكنا نقرأ سورة فشبهها باحدى المسبحات فأنسيتها غير انى حفظت منها يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادة فى أعناقكم فتسئلون عنها يوم القيامة قال ابن العربى وهذا كله ثابت فى الدين لفظا ومعنى فى هذه السورة واما قوله شهادة فى أعناقكم فتسئلون عنها يوم القيامة فمعنى ذلك ثابت فى الدين فان من التزم شيأ لزمه شرعا وقال القرطبى ثلاث آيات منعتنى ان أقضى على الناس أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وما أريد ان أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ويا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون وعن أنس بن مالك قال قال رسول صلى الله عليه وسلم أتيت ليلة أسرى بى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت عادت قلت من هؤلاء

يا جبريل قال هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون ويقرؤن كتاب الله ولا يعملون به

(تنبيه) قوله تعالى لم تقولون ما لا تفعلون استفهام على وجه الانكار والتوبيخ على ان يقول الانسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله اما فى الماضى فيكون كذبا واما فى المستقبل فيكون خلفا وكلاهما مذموم قال الزمخشرى لم هى لام الاضافة داخلة على ما الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر فى قولك بم وفيم ومم وعم والام وعلام وانما حذفت الالف لان ما والحرف كشئ واحد ووقع استعمالهما كثيرا فى كلام المستفهم وقد جاء استعمال الاصل قليلا والوقف على زيادة هاء السكت أو الاسكان ومن أسكن فى الوصل فلاجرائه مجرى الوقف كما سمع ثلاثه أربعه بالهاء والقاء حركة الهمزة عليها محذوفة اهـ ووقف البزى لمه بهاء السكت بخلاف عنه (كبر) أى عظم وقوله تعالى (مقتا) تمييز والمقت أشد البغض وزاد فى تشنيعه زيادة فى التنفير منه بقوله تعالى (عند الله) أى الملك الاعظم الذى يحقر عنده كل متعاظم وقيل ان كبر من أمثلة التعجب وقد عده ابن عصفور فى التعجب المبوب له فى النحو فقال صيغة ما أفعله وأفعل به وفعل نحو كرم الرجل واليه نحا الزمخشرى فقال هذا من أفصح الكلام وأبلغه فى معناه قصد فى كبر التعجب من غير لفظه كقوله *غلت ناب كليب بواؤها* ومعنى التعجب تعظيم الامر فى قلوب السامعين لان التعجب لا يكون الا من شئ خارج عن نظائره وإشكاله وقوله تعالى (ان تقولوا) أى عظم من تلك الجهة ان يقع فى وقت من الاوقات أو حال من الاحوال قولكم (مالا تفعلون) فاعل كبر قال الرازى وجه تعلق هذه السورة بما قبلها هو ان فى السورة التى قبلها بين الخروج الى الجهاد فى سبيل الله وابتغاء مرضاته بقوله تعالى ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى وفى هذه السورة بين ما يحمل المؤمن ويحثه على الجهاد بقوله تعالى (ان الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (يحب) أى يفعل فعل المحب مع (الذين يقاتلون) أى يوقعون القتال (فى سبيله) أى بسبب تسهيل طريقه الموصلة الى رضاه وقوله تعالى (صفا) حال أى مصطفين حتى كأنهم فى اتحاد المراد على قلب واحد كما كانوا فى التساوى فى الاصطفاف كالبدن الواحد (كأنهم) من شدة التراص والمساواة بالصدور والمناكب والثبات فى المركز (بنيان) وزاد فى التأكيد بقوله تعالى (مرصوص) اى ملزوق بعض الى بعض ثابت كثبوت البناء وقال ابن عباس يوضع الحجر على الحجر ثم يرص باحجار صغار ثم يوضع اللبن عليه فيسميه أهل مكة المرصوص وقال الرازى يجوز أن يكون المعنى على أن يستوى شأنهم فى حرب عدوهم حتى يكونوا فى اجتماع الكلمة وموالاة بعضهم بعضا كالبنيان المرصوص قال القرطبى استدل بعضهم بهذه الآية على ان قتال الراجل أفضل من قتال الفارس لان الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة قال المهدوى وذلك غير مستقيم لما جاء فى فضل الفارس من الاجر والغنيمة ولا يخرج الفرسان من معنى الآية لان معناها الثبات ولهذا يحرم الخروج من الصف ان قاومناهم الا متحرفا لقتال كمن ينصرف ليكمن فى موضع ويهجم أو ينصرف من مضيق ليتبعه العدو الى متسع سهل للقتال أو متحيزا الى فئة يستنجد بها ولو بعيدة قليلة أو كثيرة فيجوز انصرافه لقوله تعالى الا متحرفا

لقتال وتجوز المبارزة لكافر لم يطلبها بلا كره وندب لقوى أذن له الامام أو نائبه لاقراره صلى الله عليه وسلم عليها وهى ظهور اثنين من الصفين للقتال من البروز وهو الظهور فان طلبها كافر سنت للقوى المأذون له للامر بها فى خبر أبى داود ولان فى تركها حينئذ اضعافا لنا وتقوية لهم والا كرهت * ولما ذكر تعالى الجهاد ذكر قصة موسى وعيسى عليهما السلام تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم ليصبر على أذى قومه مبتدئا بقصة موسى عليه السلام لتقدمه فقال تعالى (واذ) أى واذكر يا أشرف الخلق اذ (قال موسى لقومه) أى بنى اسرائيل وقوله (ياقوم) استعطاف لهم واستنهاض الى رضا ربهم (لم تؤذوننى) أى تجددون أذاى مع الاستمرار وذلك حين رموه بالادرة كما مر فى سورة الاحزاب ومن الاذى ما ذكر فى قصة قارون أنه دس الى امرأة تدعى على موسى الفجور ومن الاذى قولهم اجعل لنا الها كما لهم آلهة وقولهم فاذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون وقولهم أنت قتلت هرون وغير ذلك وقوله تعالى (وقد تعلمون) جملة حالية أى علمتم علما قطعيا مع تجدده لكم كل وقت بتجدد أسبابه بما آتيتكم به من المعجزات والكتاب الحافظ لكم من الزيغ (انى رسول الله) الملك الاعظم الذى لا كفوء له (اليكم) ورسوله يعظم ويحترم لا أنه تنتهك جلالته ويحترم وأنا لا أقول لكم شيأ الا عنه ولا أنطق عن الهوى (فلما زاغوا) أى عدلوا عن الحق بمخالفة أوامر الله تعالى وبايذائه وقرأ حمزة بالامالة والباقون بالفتح (أزاغ الله) أى الملك الذى له الامر كله (قلوبهم) أى أمالها عن الهدى على وفق ما قدره فى الازل (والله) أى الذى له الحكمة البالغة لانه المستجمع لصفات الكمال (لا يهدى) أى بالتوفيق بعد هداية البيان (القوم الفاسقين) أى العريقين فى الفسق الذين لهم قوة المحاولة فلم يحملهم على الفسق ضعف فاحذروا ان تكونوا مثلهم فى العزائم فتساووهم فى عقوبات الجرائم وهذا تنبيه على عظم ايذاء الرسل حتى ان اذاهم يؤدى الى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى ثم ذكر القصة الثانية بقوله تعالى (واذ) أى واذكر يا أشرف المرسلين اذ (قال عيسى) ووصفه بقوله (ابن مريم) ليعلم أنه من غير أب وثبتت نبوته بالمعجزات (يا بنى اسرائيل) فذكرهم بما كان عليه أبوهم من الدين وما أوصى به بنيه من التمسك بالاسلام ولم يقل ياقوم كما قال موسى عليه السلام لانه لا أب له فيهم وان كانت أمه منهم فان النسب انما هو من جهة الاب وأكد لانكار بعضهم فقال (انى رسول الله) أى الملك الاعظم (اليكم) أى لا الى غيركم (مصدقا لما بين يدى) أى قبلى (من التوراة) التى تعلمون ان الله تعالى أنزلها على موسى عليه السلام وهى أول الكتب التى نزلت بعد الصحف وحكم بها النبيون فتصديقى لها مع تأييدى بها مؤيد لان ما أقمت من الدلائل حق ومبين انها دليلى فيما لم أنسخه منها كما يستدل بما تقدمه من الاعلام وبراعته بيصره وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان والكسائى بالامالة محضة وقرأ حمزة ونافع بين بين بخلاف عنه عن قالون والباقون بالفتح (ومبشرا) فى حال تصديقى للتوراة (برسول) أى الى كل من شملته الربوبية (يأتى من بعدى) أى يصدق بالتوراة فكأنه قبل ما اسمه قال (اسمه أحمد) والمعنى أرسلت اليكم فى حال تصديقى ما تقدمنى من التوراة وفى حال تبشيرى برسول

يأتى من بعدى يعنى ان دينى التصديق بكتب الله تعالى وأنبيائه جميعا ممن تقدم وتأخر (فان قيل) بم انتصب مصدقا ومبشرا أبما فى الرسول من معنى الارسال أم باليكم (أجيب) بأنه بمعنى الارسال لان اليكم صلة للرسول فلا يجوز ان يعمل شيأ لان حروف الجر لا تعمل بانفسها ولكن بما فيها من معنى الفعل فاذا وقعت صلات لم تتضمن معنى فعل فمن أين تعمل وعن كعب ان الحواريين قالوا لعيسى يا رسول الله هل بعدنا من أمة قال نعم أمة احمد حكماء علماء ابرار أتقياء كانهم من الفقه انبياء يرضون من الله باليسير من الرزق ويرضى الله منهم باليسير من العمل وعن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لى خمسة اسماء انا محمد وانا احمد وانا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وانا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وانا العاقب الذى ليس بعدى نبى وقد سماه الله تعالى رؤفا رحيما وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال اسمى فى التوراة احيد لانى أحيد امتى عن النار واسمى فى الزبور الماحى محا الله بى عبدة الاوثان واسمى فى الانجيل احمد وفى القرآن محمد لانى محمود فى اهل السماء والارض بل ذكر بعض العلماء أن له الف اسم قال البغوى والالف فى احمد للمبالغة فى الحمد وله وجهان احدهما انه مبالغة من الفاعل اى ومعناه ان الانبياء حمادون لله تعالى وهو اكثر حمدا من غيره والثانى أنه مبالغة من المفعول اى ومعناه ان الانبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة وهو اكثر مبالغة واجمع للفضائل والمحاسن والاخلاق التى يحمد بها اه وعلى كلا الوجهين منعه من الصرف للعلمية والوزن الغالب الا انه على الاحتمال الاول يمتنع معرفة وينصرف نكرة وعلى الثانى يمتنع تعريفا وتنكيرا لانه يخلف العلمية الصفة واذا نكر بعد كونه علما جرى فيه خلاف سيبويه والاخفش وهى مسئلة مشهورة بين النحاة وأنشد حسان يمدحه وصرفه

صلى الاله ومن يحف بعرشه * والطيبون على المبارك أحمد

أحمد بدل أو بيان للمبارك وأما محمد فمنقول من صفة أيضا وهو فى معنى محمود ولكن فى معنى المبالغة والتكرار فاحمد هو الذى حمد مرة بعد مرة قال القرطبى كما ان المكرم من اكرم مرة بعد مرة وكذلك الممدح ونحو ذلك واسم محمد مطابق لمعناه والله سبحانه وتعالى سماه قبل ان يسمى به نفسه فهذا علم من اعلام نبوته وكان اسمه صادقا عليه فهو محمود فى الدنيا لما هدى اليه ونفع به من العلم والحكمة وهو محمود فى الآخرة بالشفاعة فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضى اللفظ ثم انه لم يكن محمدا حتى كان أحمد حمد ربه فنبأه وشرفه فلذلك تقدم اسم أحمد على الاسم الذى هو محمد فذكره عيسى فقال اسمه أحمد وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه تلك أمة أحمد فقال اللهم اجعلنى من أمة محمد فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد لان حمده لربه كان قبل حمد الناس له فلما وجد وبعث كان محمدا بالفعل وكذلك فى الشفاعة يحمد ربه بالمحامد التى يفتحها عليه فيكون أحمد الناس لربه ثم يشفع فيحمد على شفاعته فدل ذلك على انه صلى الله عليه وسلم أشرف الانبياء فاتحا لهم وخاتما عليهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة بفتح الياء والباقون بالسكون وقوله تعالى (فلما جاءهم) يحتمل ان يعود فيه الضمير لاحمد أى جاء الكفار واقتصر على ذلك الجلال المحلى

ويحتمل

ويحتمل عوده لعيسى أى جاء لبنى اسرائيل (بالبينات) اى من المعجزات العظيمة التى لا يسوغ لعاقل الا التسليم لها ومن الكتاب المبين (قالوا) اى عند مجيئها من غير نظرة لتأمل (هذا) اى الماتى به من البينات أو الآتى بها على المبالغة (سحر) فكانوا أول كافر به لان هذا وصف لهم لازم سواء بلغهم ذلك أم لا (مبين) اى فى غاية البيان فى سحريته وقرأ حمزة والكسائى بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء وهذه القراءة مناسبة للتفسير الثانى والباقون بكسر السين وسكون الحاء وهذه مناسبة للتفسير الاول (ومن) اى لا احد (أظلم) أى أشد ظلما (ممن افترى) أى تعمد (على الله) أى الملك الاعلى (الكذب) أى بنسبة الشريك والولد اليه ووصف آياته بالسحر ووصف أنبيائه بالسحرة (وهو) أى والحال أنه (يدعى) أى من أى داع كان (الى الاسلام) اى الذى هو أحسن الاشياء فان له فيه سعادة الدارين فجعل مكان اجابته افتراء الكذب على الله تعالى (والله) أى الذى له الامر كله فلا أمر لاحد معه (لا يهدى القوم) أى لا يخلق الهداية فى قلوب من فيهم قوة المجادلة للامور الصعاب (الظالمين) أى الذين يخبطون فى عقولهم خبط من هو فى الظلام (يريدون) أى يوقعون ارادة ردهم للرسالة بافترائهم (ليطفئوا) اى لاجل أن يطفئوا (نور الله) أى الملك الذى لا شئ يكافئه (بأفواههم) أى بما يقولون من كذب لا منشأ له غير الافواه لانه لا اعتقاد له فى القلوب *(تنبيه)* الاطفاء هو الاخماد يستعملان فى النار وفيما يجرى مجراها من الضياء والظهور ويفرق بين الاطفاء والاخماد من حيث ان الاطفاء يستعمل فى القليل فيقال أطفأت السراج ولا يقال أخمدت السراج وفى هذه اللام أوجه أحدها أنها تعليلية كما مر ثانيها أنها مزيدة فى مفعول الارادة وقال الزمخشرى أصله يريدون ان يطفئوا كما فى سورة التوبة وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الارادة توكيدا له لما فيها من معنى الارادة فى قولك جئتك لاكرامك كما زيدت اللام فى لا أب لك تأكيدا لمعنى الاضافة فى لا أباك قال الماوردى وسبب نزول هذه الآية ما حكاه عطاء عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم أبطأ عليه الوحى أربعين يوما فقال كعب بن الاشرف يا معشر يهود أبشروا فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه وما كان ليتم امره فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله تعالى هذه الآية واتصل الوحى بعدها واختلف فى المراد بالنور فقال ابن عباس هو القرآن أى يريدون ابطاله وتكذيبه بالقول وقال السدى الاسلام أى يريدون رفعه بالكلام وقال الضحاك انه محمد صلى الله عليه وسلم أى يريدون هلاكه بالاراجيف وقال ابن جريج حجج الله تعالى ودلائله يريدون ابطالها بانكارهم وتكذيبهم وقيل انه مثل مضروب أى من أراد اطفاء نور الشمس بفيه فوجده مستحيلا ممتنعا كذلك من أراد اطفاء الحق (والله) أى الذى لا مدافع له لتمام عظمته (متم نوره) فلا يضره ستر أحد له بتكذيبه ولا ارادة اطفائه وزاد ذلك بقوله تعالى (ولو كره) اى اتمامه له (الكافرون) اى الراسخون فى جهة الكفر المجتهدون فى المعاماة عنه (هو) اى الذى ثبت أنه جامع لصفات الكمال والجلال وحده من غير ان يكون له شريك أو وزير (الذى أرسل رسوله) اى الحقيق

بان يعظمه كل من بلغه أمره لان عظمته من عظمته ولم يذكر حرف الغاية اشارة الى عموم الارسال الى كل من شمله الملك كما مضى (بالهدى) اى البيان الشافى بالقرآن او المعجزة (ودين الحق) أى والملة الحنيفية (ليظهره) أى يعليه مع الشهرة واذلال المنازع (على الدين) اى جنس الشريعة التى ستجعل ايجازى من يسلكها ومن يزغ عنها بما يشرع فيها من الاحكام (كله) فلا يبقى دين الا كان دونه وانمحق به وذل أهله ذلا لا يقاس به ذل (ولو كره) اى اظهاره (المشركون) أى المعاندون فى كفرهم الراسخون فى سلك المعاندة (فان قيل) قال أولا ولو كره الكافرون وقال ثانيا ولو كره المشركون فما الحكمة فى ذلك (أجيب) بأنه تعالى أرسل رسوله وهو من نعم الله تعالى والكافرون كلهم فى كفران النعم سواء فلهذا قال ولو كره الكافرون لان لفظ الكافر أعم من لفظ المشرك فالمراد من الكافرين هنا اليهود والنصارى والمشركون فلفظ الكافر اليق به وأما قوله تعالى ولو كره المشركون فذلك عند انكارهم التوحيد واصرارهم عليه لانه صلى الله عليه وسلم فى ابتداء الدعوة أمر بالتوحيد بلا اله الا الله فلم يقولوها فلهذا قال ولو كره المشركون واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى اقروا بالايمان (هل أدلكم) أى وأنا المحيط علما وقدرة فهى ايجاب فى المعنى ذكر بلفظ الاستفهام تشريفا ليكون أوقع فى النفس (على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) أى مؤلم فقال مقاتل نزلت فى عثمان بن مظعون قال يارسول الله لو أذنت لى طلقت خولة وترهبت واختصيت وحرمت اللحم ولا أنام بليل أبدا ولا أفطر بنهار أبدا فقال صلى الله عليه وسلم ان من سنتى النكاح ولا رهبانية فى الاسلام انما رهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله وخصاء أمتى الصوم ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ومن سنتى أنام وأقوم وأفطر وأصوم فمن رغب عن سنتى فليس منى فقال عثمان والله لوددت يارسول الله أى التجارة أحب الى الله تعالى فأتجر فيها فنزلت. وقيل أدلكم أى سأدلكم والتجارة الجهاد قال الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم الآية وهذا خطاب لجميع المؤمنين وقيل نزل هذا حين قالوا لو نعلم أى الاعمال أحب الى الله تعالى لعملنا به قال البغوى وجعل هذا بمنزلة التجارة لانهم يربحون بها رضا الله تعالى ونيل جنته والنجاة من النار وقرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد الجيم والباقون بسكون النون وتخفيف الجيم ثم بين سبحانه تلك التجارة بقوله تعالى (تؤمنون) أى تدومون على الايمان (بالله) أى الذى له جميع صفات الكمال وعلى هذا فلا ينافى ذلك قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا وقيل المراد من هذه الآية المنافقون وهم الذين آمنوا فى الظاهر وقيل أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فانهم آمنوا بالكتب المتقدمة (ورسوله) الذى تصديقه آية الاذعان للعبودية (وتجاهدون) بيانا لصحة ايمانكم على سبيل التجديد والاستمرار (فى سبيل الله) أى الملك الاعظم الذى لا أمر لغيره (بأموالكم وأنفسكم) وقدم الاموال لعزتها فى ذلك الزمان ولانها قوام الانفس فمن بذل ماله كله لم يبخل بنفسه لان المال قوامها وقال القرطبى ذكر الاموال أولا لانها التى يبدأ بها فى الانفاق (ذلكم) أى الامر العظيم من الايمان وتصديقه بالجهاد (خير لكم) اى من أموالكم

وأنفسكم

وأنفسكم (ان كنتم تعلمون) أى ان كان يمكن ان يتجدد لكم علم فى وقت فأنتم تعلمون ان ذلك
خير لكم فاذا علمتم أنه خير أقبلتم عليه فكان لكم به أمر عظيم وان كانت قلوبكم قد طمست
طمس الارجاء لصلاحه فصلوا على أنفسكم صلاة الموت وقوله تعالى (يغفر لكم) فيه أوجه أحدها
أنه مجزوم على جواب الخبر بمعنى الامر أى آمنوا وجاهدوا والثانى أنه مجزوم فى جواب
الاستفهام كما قاله الفراء والثالث أنه مجزوم بشرط مقدر أى ان تؤمنوا يغفر لكم قال القرطبى
وأدغم بعضهم فقرأ يغفر لكم والاحسن ترك الادغام فان الراء متكرر قوى فلا يحسن الادغام فى
اللام لان الاقوى لا يدغم فى الاضعف اهـ وتقدم فى آخر سورة البقرة مثل ذلك للزمخشرى
والبيضاوى ورد عليهما (ذنوبكم) أى يمحو أعيانها وآثارها كلها (ويدخلكم) أى بعد التزكية
بالمغفرة رحمة لكم (جنات) أى بساتين (تجرى من تحتها) أى من تحت أشجارها وغرفها وكل
متنزه فيها (الانهار) فهى لا تزال غضة زهراء ولم يحتج هذا الاسلوب الى ذكر الخلود لاغناء ما بعده
عنه ودل على الكثرة المفرطة فى الدور بقوله فى صيغة منتهى الجموع (ومساكن طيبة) روى
الحسن قال سألت عمران بن حصين وأبا هريرة عن قوله تعالى ومساكن طيبة فقالا على الخبير
سقطت سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال قصر من لؤلؤة فى الجنة فى ذلك القصر
سبعون دارا من ياقوتة حمراء فى كل دار سبعون بيتا من زبرجدة خضراء فى كل بيت سبعون
سريرا فى كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش سبعون امرأة من الحور العين فى
كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام فى كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة
فيعطى الله تعالى المؤمن من القوة فى غداة واحدة ما يأتى على ذلك كله (فى جنات عدن) أى
بساتين هى أهل للاقامة بها لا يحتاج فى اصلاحها الى شئ خارج يحتاج فى تحصيله الى الخروج
عنها قال حمزة الكرمانى فى كتابه جوامع التفسير هى أى جنات عدن قصبة الجنان ومدينة الجنة
أقربها الى العرش (ذلك) أى الامر العظيم جدا (الفوز العظيم) أى السعادة الدائمة الكبيرة
وأصل الفوز الظفر بالمطلوب * ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم فى الآخرة بشرهم بنعمته فى الدنيا بقوله
تعالى (وأخرى تحبونها) أى ولكم الى هذه النعمة المذكورة نعمة أخرى عاجلة محبوبة وفى
تحبونها تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل وقوله تعالى (نصر من الله) أى الذى
أحاطت عظمته بكل شئ خبر مبتدا مضمر أى تلك النعمة أو الخصلة الاخرى نصر من الله (وفتح
قريب) أى غنيمة فى عاجل الدنيا قيل فتح مكة قال الكلبى هو النصر على قريش وقال ابن عباس
يريد فتح فارس والروم وقوله تعالى (وبشر المؤمنين) عطف على محذوف مثل قل يا أيها الذين
آمنوا وبشر أو على يؤمنون فانه فى معنى الامر كأنه قال آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون وبشرهم
يا أشرف الرسل بالنصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا بذلك (كونوا)
أى بغاية جهدكم (أنصار الله) أى لدينه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو أنصارا بالتنوين وجر
اللام من الاسم الجليل وترقيقها والباقون بغير تنوين وتفخيم اللام (كما) أى كونوا لاجل انى
ندبتكم أنا بقولى من غير واسطة ولذذتكم بخطابى مثل ما كان الحواريون أنصار الله حين (قال

عيسى بن مريم) حين أرسلته الى بنى اسرائيل ناسخا لشريعة موسى عليه السلام (للحواريين) أى خلص أصحابه وخاصته منهم (من أنصارى الى الله) أى المحيط بكل شئ أى انصروا دين الله تعالى مثل نصرة الحواريين لما قال لهم عيسى عليه السلام من أنصارى الى الله أى من ينصرنى مع الله تعالى (قال الحواريون) معلمين انهم جادون فى ذلك جد الامر يدعليه لعلمهم أن اجابته اجابة الله تعالى لانه لا ينطق عن الهوى فليس كلامه الا عن الله تعالى (نحن) أى بأجمعنا وكانوا اثنى عشر رجلا وهم أول من آمن بعيسى (أنصار الله) أى الملك الاعلى القادر على تمام نصرنا ولو كان عدونا كل أهل الارض * ولما كان التقدير ثم دعوا كل من خالفهم من بنى اسرائيل وبارزهم تسبب عنه قوله تعالى (فآمنت) أى به (طائفة) أى ناس منهم أهل الاستدارة لما لهم من الكثرة (من بنى اسرائيل) قومه (وكفرت طائفة) أى منهم وأصل الطائفة القطعة من الشئ وذلك أنه لما رفع تفرق قومه ثلاث فرق فرقة قالوا كان الله فارتفع وفرقة قالوا كان ابن الله فرفعه اليه وفرقة قالوا كان عبد الله ورسوله فرفعه اليه وهم المؤمنون واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس فاقتتلوا وظهرت الفرقتان الكافرتان على الفرقة المؤمنة حتى بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرة فذلك قوله تعالى (فأيدنا) أى قوينا بعد رفع عيسى عليه السلام (الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان الخالص (على عدوهم) أى الذين عادوهم لاجل ايمانهم (فأصبحوا) أى صاروا بعدما كانوا فيه من الذل (ظاهرين) أى عالين غالبين قاهرين فى أقوالهم وأفعالهم لا يخافون أحدا ولا يستخفون منه وروى المغيرة عن ابراهيم قال فأصبحت حجة من آمن بعيسى عليه السلام ظاهرة بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم أن عيسى عليه السلام كلمة الله وعبده ورسوله وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الصف كان عيسى مصليا عليه مستغفرا له مادام فى الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه حديث موضوع

(سورة الجمعة مدنية)

وهى احدى عشرة آية ومائة وثمانون كلمة وسبعمائة وعشرون حرفا

روى مسلم عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة الا فى يوم الجمعة وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن الآخرون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب الاول من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فهدانا الله تعالى لما اختلفوا فيه من الحق باذنه فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه هدانا الله له وقال يوم الجمعة فاليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى (بسم الله) الذى أحاط علمه بكل معلوم فتم بيانه (الرحمن) الذى عمت نعمة بيانه فهو العظيم شانه (الرحيم) الذى خص حزبه بالتوفيق فثبت عندهم حبه وايمانه (يسبح) أى يوقع التنزيه الاعظم الانهى الاكمل (لله) أى الملك المحيط بكل شئ قدرة وعلما (ما فى السموات) أى من جميع الاشياء من الملائكة وغيرها كالافلاك والنجوم (وما فى الارض)

كذلك من الآدميين وغيرهم كالشجر والثمار وقيل اللام مزيدة أى ينزه الله وأتى بما دون من
قال الجلال المحلى تغليبا للاكثر ويحتمل أن يكون المراد بالسماء جهة العلو فيشمل السماء وما فيها
وبالارض جهة السفل فيشمل الارض وما فيها (الملك) أى الذى ثبت له جميع الكمالات فهو
ينصر من يشاء من جنده ولو كان ذليلا فيصبح ظاهرا (القدوس) أى المنزه عما لا يليق به وعن
احاطة أحد من الخلق بعلمه وادراك كنه ذاته فليس فى أيدى الخلق الا التردد فى شهود افعاله
والتدبير لمفاهيم نعوته وجلاله وأحقهم بالقرب والعداد فى حزبه المتخلق بأوصافه على قدر
اجتهاده فينبغى للمؤمن التنزه عن ان يقول مالا يفعل أو يبنى شيأ من أموره على غير احكام
(العزيز) أى الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الحكيم) أى الذى يوقع كل ما أراد فى أحكم
مواقعه وأتمها واتقنها (هو) أى وحده (الذى بعث فى الاميين) أى العرب لان أكثرهم
لا يكتبون ولا يقرؤن والامى من لا يقرأ ولا يكتب (رسولا منهم) أى من جملتهم أميا مثلهم وهو
محمد صلى الله عليه وسلم وما من حى من العرب الا وله صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة وقد ولدوه قال
ابن اسحق الا بنى تغلب فان الله تعالى طهر نبيه صلى الله عليه وسلم منهم فلم يجعل لهم عليه ولادة
وكان أميا لم يقرأ من كتاب ولم يتعلم صلى الله عليه وسلم علمه الله مالم يكن يعلم من غير تطلب
فكانت آثار البشرية عنه مندرسة وأنوار الحقائق عليه لائحة وذلك لئلا يتوهم الافتقار الى
الاستعانة بالكتب لان مشاكلته لحال من بعث فيهم أقرب الى مساواتهم له لو أمكنهم فيكون
معنى عدم امكان المساواة أدل على الاعجاز وبعثه الى العرب لا ينفى بعثه الى غيرهم لا سيما مع
ماورد فيه من صرائح الدلائل القطعية فذكر موضع البعث وابتداء فتكون الغاية مطلقة
تقديرها الى عامة الخلق (يتلو) أى يقرأ قراءة يتبع بعضها بعضا على وجه الكثرة والعلو
والرفعة (عليهم) مع كونه أميا مثلهم (آياته) أى يأتيهم بها على سبيل التجدد والمواصلة وهى
القرآن الذى أعجز الجن والانس ان يأتوا بسورة من مثله (ويزكيهم) أى يطهرهم من الشرك
والاخلاق الرذيلة والعقائد الزائغة فكانت تزكيته لهم مدة حياته بنظره الشريف اليهم
وتعليمه لهم وتلاوته عليهم فربما نظر الى الانسان نظرة محبة فزكاه الله تعالى بها بحسب
القابليات والامور التى قضى الله تعالى أن تكون مهيآت فكان له أعشق فكان لاتباعه ألزم
فكان فى كتاب الله وسنته أرسخ (ويعلمهم الكتاب) أى القران المنزل عليه الجامع لكل خير
دينى ودنيوى فى الاولى والاخرى (والحكمة) وهى غاية الحكم للكتاب فى قوة فهمه والعمل
به فهى العمل المزين بالعلم المتقن به وقال الحسن الكتاب القرآن والحكمة السنة وقال ابن
عباس الكتاب الخط بالقلم والحكمة السنة لان الخط انما فشا فى العرب بالشرع لما أمروا
بالتقييد بالخط وقال مالك بن أنس الحكمة الفقه فى الدين (وان) أى والحال أنهم (كانوا)
أى كونا هو كالجبلة لهم (من قبل) أى قبل ارساله اليهم (لفى ضلال) أى بعد عن
المقصود (مبين) أى ظاهر فى نفسه مناد لغيره انه ضلال باعتقادهم الاباطيل الظاهرة وظنهم
انهم على شئ وعموم الجهل لهم ورضاهم به واختيارهم له وقوله تعالى (وآخرين منهم) فيه

وجهان أحدهما انه مجرور عطفا على الاميين أى وبعث فى الآخرين من الاميين أى الموجودين والآتين منهم بعدهم (لما) أى لم (يلحقوا بهم) فى السابقة والفضل والثانى انه منصوب عطفا على الضمير المنصوب فى يعلمهم أى ويعلم آخرين لما يلحقوا بهم وسيلحقون وكل من تعلم شريعة محمد صلى الله عليه وسلم الى آخر الزمان فرسول الله صلى الله عليه وسلم معلمه بالقوة لانه أصل ذلك الخير العظيم والفضل الجسيم * (تنبيه) * الذين لم يلحقوا بهم هم الذين لم يكونوا فى زمنهم وسيجيئون بعدهم قال ابن عمر وسعيد بن جبير هم العجم وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال كنا جلوسا عند النبى صلى الله عليه وسلم اذ نزلت عليه سورة الجمعة فلما قرأ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم قال رجل من هؤلاء يا رسول الله فلم يراجعه النبى صلى الله عليه وسلم حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثا قال وفينا سلمان الفارسى قال فوضع النبى صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال لو كان الايمان عند الثريا لتناوله رجل من هؤلاء وفى رواية لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجال من فارس أو قال من أبناء فارس حتى تتناوله وقال عكرمة هم التابعون وقال مجاهد هم الناس كلهم يعنى من بعد العرب الذين بعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم وقال ابن زيد ومقاتل بن حيان هم من دخل فى الاسلام بعد النبى صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة وروى سهل بن سعد الساعدى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان فى أصلاب أمتى رجالا ونساء يدخلون الجنة بغير حساب ثم تلا وآخرين منهم لما يلحقوا بهم قال ابن عادل والقول الاول أثبت وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال رأيتنى أسقى غنما سودا ثم اتبعتها غنما عفرا أولها يا أبا بكر قال يا نبى الله أما السود فالعرب وأما العفر فالعجم تتبعك بعد العرب فقال النبى صلى الله عليه وسلم كذلك أولها الملك يعنى جبريل عليه الصلاة والسلام رواه ابن أبى ليلى عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وهو على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه (وهو) أى والحال انه وحده (العزيز) أى الذى يقدر على كل ما أراده ولا يغلبه شئ فهو يزكى من يشاء ويعلمه ما أراد من أى طائفة كان ولو كان أجهل أهل تلك الطائفة لان الاشياء كلها بيده (الحكيم) فهو اذا أراد شيأ موافقا لشرعه وأمره جعله على أتقن الوجوه وأوثقها فلا يستطاع نقضه ومهما أراده كيف كان فلا بد من انفاذه فلا يطاق رده بوجه * ولما كان هذا أمرا باهرا عظمه بقوله تعالى على وجه الاستئثار من قدرته (ذلك) الامر العظيم الرتبة من تفضيل الرسول وقومه وجعلهم متبوعين بعد أن كان العرب اتباعا لا وزن لهم عند غيرهم من الطوائف (فضل الله) أى الذى له جميع صفات الكمال والفضل ما لم يكن مستحقا بخلاف الفرض (يؤتيه من يشاء) قال ابن عباس حيث ألحق العجم بقريش وقال الكلبى يعنى الاسلام فضل الله يؤتيه من يشاء وقال مقاتل يعنى الوحى والنبوة وقيل انه المال ينفق فى الطاعة لما روى أبو صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه ان فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم فقال وماذا ذلك فقالوا يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

أفلا أعلمكم شيأ تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم الا من صنع مثل ماصنعتم قالوا بلى يارسول الله قال تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة قال أبو صالح فرجع فقراء المهاجرين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا سمع اخواننا من أهل الاموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وقيل انه انقياد الناس الى تصديق النبي صلى الله عليه وسلم ودخولهم في دينه ونصرته (والله) الملك المحيط بكل شئ قدرة وعلما (ذو الفضل العظيم) ولما ترك اليهود العمل بالتوراة ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ضرب الله تعالى لهم مثلا بقوله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة) أي كلفوا والزموا حمل الكتاب الذي آتاه الله تعالى لبني اسرائيل على لسان موسى عليه الصلاة والسلام بأن علمهم اياها سبحانه وكلفهم حفظ ألفاظها عن التغيير والنسيان ومعانيها عن التحريف والتلبيس وحدودها وأحكامها عن الاهمال والتضييع (ثم لم يحملوها) أي بأن حملوا ألفاظها ولم يعملوا بما فيها من الوصية باتباع عيسى عليه الصلاة والسلام اذا جاءهم ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم اذا جاء فهي ضارة لهم بشهادتها عليهم فاذا لهم النار من غير نفع أصلا (كمثل) أي مثل مثل (الحمار) أي الذي هو أبلد الحيوان فهو مثل في الغباوة حال كونه (يحمل أسفارا) أي كتبا كبارا من كتب العلم جمع سفر وهو الكتاب الكبير المسفر عما فيه في عدم الانتفاع بها لانه يمشي ولا يدري منها الا ما يضر بجنبيه وظهره من الكد والتعب وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله ومثل ذلك قول الشاعر

زوامل للاسفار لا علم عندهم * بجيدها الا كعلم الاباعر
لعمرك ما يدري البعير اذا غدا * باحماله أوراح ما في الغرائر

من انشاد الشيخ ابن الخباز (بئس مثل القوم) أي الذين لهم قوة شديدة على محاولة ما يريدون (الذين كذبوا) أي تعمدا على علم (بآيات الله) أي دلالات الملك الاعظم على رسله ولاسيما محمد صلى الله عليه وسلم والمخصوص بالذم محذوف تقديره هذا المثل (والله) أي الذي له جميع صفات الكمال (لا يهدي القوم) أي لا يخلق الهداية في قلوب الذين تعمدوا الزيغ (الظالمين) أي الذين تعمدوا الظلم بمنابذة الهدى الذي هو البيان الذي لم يدع لبسا حتى صار الظلم لهم صفة راسخة * ولما ادعت اليهود الفضيلة وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه نزل قوله تعالى (قل) أي يا أشرف الرسل (يا أيها الذين هادوا) أي تدينوا باليهودية (ان زعمتم) أي قلتم قولا هو معرض للتكذيب ولذلك أكذبتموه (انكم أولياء لله) أي الملك الاعلى الذي لا أمر لاحد معه خصكم بذلك خصوصية مبتدأة (من دون) أي أدنى رتبة من رتب (الناس) فلم تنفذ الولاية وتلك الرتبة في الدنيا الى أحد منهم غيركم بل خصكم بذلك عن كل من فيه أهلية الحركة لاسيما الاميين (فتمنوا الموت) وأخبروا عن أنفسكم بذلك للنقلة من دار البلاء الى محل الكرامة والآلاء (ان كنتم) أي كونا راسخا (صادقين) أي عريقين عند أنفسكم في الصدق فان من علامات المحبة الاشتياق الى المحبوب ومن المقطوع به ان من كان في كدر

وكان له ولى قد وعده عند الوصول اليه الراحة التى لا يشوبها ضرر تمنى النقلة الى وليه روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم والذى نفسى بيده لا يقولها أحد منكم الاغص بريقه فلم يقلها منهم أحد علما منهم بصدقه صلى الله عليه وسلم فلم يقولوا ولم يؤمنوا اعنادا منهم ثم أخبر الله تعالى عنهم انهم لا يتمنونه فى المستقبل أيضا بقوله تعالى (ولا يتمنونه) أى فى المستقبل (أبدا بما قدمت أيديهم) أى بسبب ما قدموا من الكفر والمعاصى التى أحاطت بهم فلم تدع لهم حظا فى الآخرة *(تنبيه)* قال تعالى هنا ولا يتمنونه وفى البقرة ولن يتمنوه قال الزمخشرى لا فرق بين لا ولن فى أن كل واحدة منهما نفى للمستقبل الا أن فى لن تأكيدا وتشديدا ليس فى لا فأتى مرة بلفظ التأكيد ولن يتمنوه ومرة بغير لفظه ولا يتمنونه قال أبو حيان وهذا رجوع منه عن مذهبه وهو أن لن تقتضى النفى على التأبيد الى مذهب الجماعة وهى أنها لا تقتضيه قال بعضهم وليس فيه رجوع غاية ما فيه انه سكت عنه وتشريكه بين لا ولن فى نفى المستقبل لا ينفى اختصاص لن بمعنى آخر اه ودعواهم الولاية الى التوسل الى الجنة لا يلزم منها الاختصاص بالنعم بدليل ان الدنيا ليست خالصة للاولياء المحقق لهم الولاية بل البر والفاجر مشتركون فيها (والله) أى الذى له الاحاطة بكل شئ قدرة وعلما (عليم) بالغ العلم محيط بهم هكذا كان الاصل ولكنه تعالى قال (بالظالمين) تعميما وتعليقا بالوصف لا بالذات فالمعنى انه عالم بأصحاب هذا الوصف الراسخين فيه منهم ومن غيرهم فهو مجازيهم على ظلمهم (قل) أى لهؤلاء يا أشرف الرسل (ان الموت الذى تفرون منه) بالكف عن التمنى (فانه ملاقيكم) أى لا تفوتونه لاحق بكم *(تنبيه)* فى هذه الفاء وجهان أحدهما انها داخلة لما تضمنه الاسم من معنى الشرط وحكم الموصوف بالموصول حكم الموصول فى ذلك قال الزجاج لا يقال ان زيدا فمنطلق وههنا قال فانه ملاقيكم لما فى معنى الذى من الشرط والجزاء أى ان فررتم منه فانه ملاقيكم ويكون مبالغة فى الدلالة على انه لا ينفع الفرار منه الثانى انها مزيدة محضة لا للتضمن المذكور* ولما كان الحبس فى البرزخ أمر الابد منه مهولا نبه عليه وعلى طوله بأداة التراخى فقال تعالى (ثم تردون الى عالم الغيب) أى السر (والشهادة) أى العلانية أو كل ما غاب عن الخلق وكل ما شوهد (فينبئكم) أى يخبركم اخبارا عظيما مستقصى مستوفى (بما كنتم) أى بما هو لكم كالجبلة (تعملون) أى بكل جزء منه بما برز الى الخارج وبما كان فى جبلاتكم ولو بقيتم لفعلتموه ليجازيكم (يا أيها الذين آمنوا) أى اقروا بألسنتهم بالايمان (اذا نودى) أى من أى مناد كان من أهل النداء (للصلاة) أى صلاة الجمعة (من) أى فى (يوم الجمعة) كقوله تعالى أرونى ماذا خلقوا من الارض أى فى الارض والمراد بهذا النداء الاذان عند قعود الامام على المنبر للخطبة لانه لم يكن فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء سواه كان اذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر أذن بلال وعن السائب بن يزيد قال كان النداء يوم الجمعة أوله اذا جلس الامام على المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثانى على الدور زاد فى رواية فثبت الامر على ذلك وعن أبى داود قال كان يؤذن بين يدى رسول الله

صلى

صلى الله عليه وسلم اذا جلس يوم الجمعة على المنبر على باب المسجد وروى انه كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن واحد فكان اذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد فاذا نزل أقام الصلاة ثم كان أبو بكر وعمر وعلي بالكوفة على ذلك حتى اذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد أذانا آخر فأمر بالتأذين الاول على داره التي تسمى زوراء فاذا سمعوا أقبلوا حتى اذا جلس عثمان على المنبر أذن الأذان الثاني الذي كان على زمن النبي صلى الله عليه وسلم فاذا نزل أقام الصلاة فلم يعب ذلك عليه لقوله صلى الله عليه وسلم عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي قال الماوردي أما الاذان الاول فمحدث فعله عثمان بن عفان ليتأهب الناس لحضور الخطبة عند اتساع المدينة وكثرة أهلها وكان عمر أمر أن يؤذن في السوق قبل المسجد ليقوم الناس عن سوقهم فاذا اجتمعوا أذن في المسجد فجعله عثمان أذانين في المسجد قال ابن العربي وفي الحديث الصحيح ان الاذان كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدا فلما كان زمن عثمان زاد النداء الثالث على الزوراء وسماه في الحديث ثالثا لانه أضافه الى الاقامة كقوله صلى الله عليه وسلم بين كل أذانين صلاة لمن شاء يعني الاذان والاقامة وتوهم بعض الناس انه أذان أصلي فجعلوا المؤذنين ثلاثة قال ابن عادل فكان وهما ثم جمعوهم في وقت واحد فكان وهما على وهم واختلفوا في تسمية هذا اليوم جمعة فمنهم من قال لان الله تعالى جمع فيه خلق آدم عليه الصلاة والسلام روى مالك عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه الصلاة والسلام وفيه أهبط وفيه مات وفيه تاب الله عليه وفيه تقوم الساعة وهو عند الله يوم المزيد وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال أتاني جبريل وفي كفه مرآة بيضاء وقال هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيدا ولامتك من بعدك وهو سيد الايام عندنا ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد ومنهم من قال لان الله تعالى فرغ من خلق الاشياء فاجتمعت فيه المخلوقات ومنهم من قال لاجتماع الجماعات فيه للصلاة وقيل أول من سمى هذا اليوم جمعة كعب بن لؤي قال أبو سلمة أول من قال أما بعد كعب بن لؤي وكان أول من سمى الجمعة جمعة وكان يقال له يوم العروبة وعن ابن سيرين قال جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وقبل أن تنزل الجمعة وهم الذين سموها الجمعة وقيل ان الانصار قالوا لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام وللنصارى مثل ذلك فهلموا نجعل لنا يوما نجتمع فيه فنذكر الله تعالى فيه ونصلي فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الاحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا الى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ثم أنزل الله تعالى آية الجمعة فهي أول جمعة كانت في الاسلام وروى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه كعب انه كان اذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة فقلت له اذا سمعت النداء ترحمت لأسعد ابن زرارة قال لانه أول من جمع بنا في هزم النبت من حرة بني بياضة في بقيع يقال له بقيع الخضمات قلت له كم كنتم يومئذ قال أربعين أخرجه أبو داود وأما أول جمعة جمعها النبي

صلى الله عليه وسلم بأصحابه فقال أهل السير لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم مهاجرا نزل قباء على بني عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين اشتد الضحى ومن تلك السنة يعد التاريخ فأقام بها الى يوم الخميس وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة عامدا المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم قد اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجدا فجمع بهم وخطب وهي أول خطبة خطبها بالمدينة وقال فيها الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكفره وأعادي من يكفر به وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة والحكمة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الاجل من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا أوصيكم بتقوى الله فان خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله واحذروا ما حذركم الله من نفسه فان تقوى الله لمن عمل بها على وجل ومخافة من ربه عنوان صدق على ما تبغون من الآخرة ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي به الا وجه الله يكن له ذكرا في عاجل أمره وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء الى ما قدم وما كان مما سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤف بالعباد وهو الذي صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك فانه يقول ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية فانه من يتق الله يكفر عنه سيآته ويعظم له أجرا ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما وان تقوى الله توقي مقته وتوقي عقوبته وتوقي سخطه وان تقوى الله تبيض الوجه وترضي الرب وترفع الدرجة خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله فقد علمكم في كتابه وأوضح لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين وأحسنوا كما أحسن الله اليكم وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ولا حول ولا قوة الا بالله فأكثروا ذكر الله تعالى واعملوا لما بعد الموت فانه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه ويملك من الناس ولا يملكون منه الله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم قال بعضهم قد أبطل الله تعالى قول اليهود في ثلاث افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم في قوله فتمنوا الموت ان كنتم صادقين وبأنهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم فشبههم الله بالحمار يحمل أسفارا وبالسبت وأنه ليس للمسلمين مثله فشرع الله تعالى لهم يوم الجمعة *(تنبيه)* سمى الله تعالى الجمعة ذكر الله قال أبو حنيفة ان اقتصر الخطيب على مقدار يسمى ذكر الله كقوله الحمد لله سبحان الله جاز وعن عثمان أنه صعد المنبر فقال الحمد لله فارتج عليه فقال ان أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا وانكم الى امام فعال أحوج منكم الى امام قوال وستأتيكم الخطب ثم نزل وكان ذلك بحضرة الصحابة فلم ينكر

عليه أحمد وعند صاحبيه والشافعى لابدّ من كلام يسمى خطبة ولها أركان وشروط مذكورة فى الفقه (فان قيل) كيف يفسر ذكر الله بالخطبة وفيها ذكر غير الله (أجيب) بأنّ ما كان من ذكر رسوله والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو فى حكم ذكر الله وأمّا ما عدا ذلك من ذكر الظلمة والقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم وهم أحق بعكس ذلك فمن ذكر الشيطان وهو من ذكر الله على مراحل فانّ المنصت للخطبة اذا قال لصاحبه صه فقد لغا أفلا يكون الخطيب الغالى فى ذلك لاغيا نعوذ بالله من غربة الاسلام ومن نكد الايام وقد خاطب الله تعالى المؤمنين بالجمعة دون الكافر بن تشريفا لهم وتكريما فقال يا أيها الذين آمنوا ثم خصه بالنداء وان كان قد دخل فى عموم قوله تعالى واذا ناديتم الى الصلاة ليدل على وجوبه وتأكد فرضه وقال بعض العلماء كون الصلاة الجمعة ههنا معلوم بالاجماع لا من نفس اللفظ وقال ابن العربى وعندى انه معلوم من نفس اللفظ بنكتة وهى قوله تعالى من يوم الجمعة وذلك يفيده لانّ النداء الذى يختص بذلك اليوم هو نداء تلك الصلاة وأمّا غيرها فهو عام فى سائر الايام ولو لم يكن المراد به نداء الجمعة لما كان لتخصيصه بها واضافته اليها معنى فلا فائدة فيه واختلف فى معنى قوله تعالى (فاسعوا) أى لتكونوا أولياء الله ولا تتهاونوا فى ذلك فقال الحسن والله ما هو سعى على الاقدام ولكنه سعى بالقلوب والنية وقال الجمهور السعى العمل لقوله تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن وقوله تعالى انّ سعيكم لشتى وقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى وعن أبى هريرة أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ولكن ائتوها تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا واختلفوا أيضا فى معنى قوله تعالى (الى ذكر الله) أى الملك الاعظم فقال سعيد بن المسيب هو موعظة الامام وقال غيره الخطبة والصلاة المذكرة بالملك الاعظم الذى من انقطع عن خدمته هلك * ولما أمر بالمبادرة الى تجارة الآخرة قال تعالى ناهيا عن تجارة الدنيا التى تعوق عن الجمعة (وذروا البيع) أى اتركوا البيع والشراء لانّ اسم البيع يتناولهما جميعا وانما يحرم البيع والشراء عند الاذان الثانى وقال الزهرى عند خروج الامام وقال الضحاك اذا زالت الشمس حرم البيع والشراء وانما خص البيع من بين الامور الشاغلة عن ذكر الله تعالى لانّ يوم الجمعة يوم تهبط الناس فيه من بواديهم وقراهم وينصبون الى المصر من كل أوب ووقت هبوطهم واجتماعهم واختصاص الاسواق بهم اذا انتفخ النهار وتعالى الضحى ودنا وقت الظهيرة وحينئذ تحز التجارة ويتكاثر البيع والشراء فلما كان ذلك الوقت مظنة للذهول بالبيع عن ذكر الله والمضى الى المسجد قيل بادروا تجارة الآخرة واتركوا تجارة الدنيا واسعوا الى ذكر الله (ذلكم) أى الامر العالى الرتبة من فعل السعى وترك الاشتغال بالدنيا (خير لكم) لانّ الامر الذى أمركم به الذى له الامر كله وهو يريد تطهيركم فى أديانكم وأبدانكم وأموالكم وبيده اسعادكم واشقاؤكم (فان قيل) اذا كان البيع فى هذا الوقت محرما فهل هو فاسد (أجيب) بأنّ عامة العلماء على أنّ ذلك لا يوجب فساد البيع قالوا

لان البيع لم يحرم لعينه ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب فهو كالصلاة فى الارض المغصوبة والثوب المغصوب والوضوء بماء مغصوب وعن بعض الناس انه فاسد وزاد فى الحث على ذلك بقوله تعالى (ان كنتم) أى بما هو لكم كالجبلة (تعلمون) أى يتجدد لكم علم فى يوم من الايام فأنتم ترون ذلك خيرا فاذا علمتموه خيرا أقبلتم عليه فكان ذلك خيرا لكم وصلاة الجمعة فرض عين تجب على كل من جمع الاسلام والبلوغ والعقل والحرية والذكورة والاقامة اذا لم يكن له عذر مما ذكره الفقهاء ومن تركها استحق الوعيد قال صلى الله عليه وسلم لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله تعالى على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاونا بها طبع الله تعالى على قلبه قال ابن عادل ونقل عن بعض الشافعية ان الجمعة فرض على الكفاية أما من به عذر يعذر به فى ترك الجماعة مما يتصور هنا فلا تجب عليه وتجب على أعمى وجد قائدا وشيخ هرم وزمن وجدا مركبا لا يشق ركوبه عليهما واختلف أهل العلم فى موضع اقامة الجمعة وفى العدد الذى تنعقد به الجمعة وفى المسافة التى يجب أن يؤتى منها فذهب قوم الى أن كل قرية اجتمع فيها أربعون رجلا بالصفة المتقدمة تجب عليهم اقامة الجمعة فيها وهو قول عبد الله بن عمر وعمر ابن عبد العزيز وبه قال الشافعى وأحمد واسحق قالوا لا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين رجلا على هذه الصفة وشرط عمر بن عبد العزيز مع الاربعين أن يكون فيهم وال وعند أبى حنيفة تنعقد بأربعة والوالى شرط ولا تقام عنده الا فى مصر جامع وقال الاوزاعى وأبو يوسف تنعقد بثلاثة ان كان فيهم وال وقال الحسن وأبو ثور تنعقد باثنين كسائر الصلوات وقال شعبة تنعقد باثنى عشر رجلا ولا تجب الجمعة على أهل البوادى الا اذا سمعوا النداء من موضع تقام فيه الجمعة فيلزمهم الحضور وان لم يسمعوا فلا جمعة عليهم وبه قال الشافعى وأحمد واسحق والشرط أن يبلغهم نداء مؤذن جهورى الصوت فى وقت تكون الاصوات هادئة والرياح ساكنة فكل قرية تكون من موضع الجمعة فى القرب على هذا القدر يجب على أهلها حضور الجمعة وقال سعيد بن المسيب تجب الجمعة على من آواه المبيت قال الزهرى تجب على من كان على ستة أميال وقال ربيعة على أربعة أميال وقال مالك والليث على ثلاثة أميال وقال أبو حنيفة لا جمعة على أهل البوادى سواء كانت القرية قريبة أم بعيدة دليل الشافعى ومن وافقه ماروى البخارى عن ابن عباس أن أول جمعة جمعت بعد جمعة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد عبد القيس بجوائا من البحرين ولابى داود نحوه وفيه بجوائا قرية من قرى البحرين *(تنبيه)* فضل يوم الجمعة مشهور وأحاديثه كثيرة مشهورة تقدم بعضها ومنها ان الله يعتق فى كل جمعة ستمائة عتيق من النار وعن كعب ان الله تعالى فضل من البلدان مكة ومن الشهور رمضان ومن الايام الجمعة وقال صلى الله عليه وسلم من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر وفى الحديث اذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المساجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب يكتبون الاول فالاول على مراتبهم قال

الزمخشرى وكانت الطرقات فى أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر مغتصة بالمبكرين الى الجمعة يمشون بالسرج وقيل أول بدعة أحدثت فى الاسلام ترك البكور الى الجمعة وعن ابن مسعود أنه بكر فرأى ثلاثة نفر سبقوه فاغتم وأخذ يعاتب نفسه ويقول أراك رابع أربعة وما رابع أربعة ببعيد وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة أى مثل غسلها ثم راح فى الساعة الاولى كان كمن قرب بدنة ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة فاذا خرج الامام حضرت الملائكة يستمعون الذكر وروى النسائى فى الخامسة كالذى يهدى عصفورا وفى السادسة بيضة فمن جاء فى أول ساعة منها ومن جاء فى آخرها مشتركان فى تحصيل البدنة مثلا لكن بدنة الاول أكمل من بدنة الآخر وبدنة المتوسط متوسطة وهذا فى حق غير الامام أما هو فيسن له التأخير الى وقت الخطبة اتباعا للنبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه ويسن اكثار الدعاء يومها وليلتها أما يومها فلرجاء أن يصادف ساعة الاجابة وهى ساعة خفية وأرجاها من جلوس الخطيب الى آخر الصلاة كما فى خبر مسلم قال النووى وأما خبر يوم الجمعة ثنتا عشرة ساعة فيه ساعة لا يوجد مسلم يسأل الله شيأ الا أعطاه اياه فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر فيحتمل ان هذه الساعة منتقلة تكون يوما فى وقت ويوما فى آخر كما هو المختار فى ليلة القدر وأما ليلتها فبالقياس على يومها وقد قال الشافعى بلغنى ان الدعاء يستجاب فى ليلة الجمعة ويسن اكثار الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى يومها وليلتها لخبر أكثروا على من الصلاة ليلة الجمعة ويوم الجمعة فمن صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا واكثار قراءة سورة الكهف يومها وليلتها لخبر من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق وخبر من قرأها يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين وفى هذا القدر كفاية ولما حث على الصلاة وأرشد الى أن وقتها لا يصلح لطلب شئ غيرها بين انهم وقت المعاش بقوله تعالى (فاذا قضيت الصلاة) أى وقع الفراغ منها على أى وجه كان (فانتشروا) أى فدبوا وتفرقوا مجتهدين (فى الارض) أى جميعها للتجارة والتصرف فى حوائجكم ان شئتم لا جناح عليكم ولا حرج رخصة من الله تعالى لكم (وابتغوا) أى اطلبوا الرزق (من فضل الله) أى الذى بيده كل شئ ولا شئ لغيره وهذا أمر اباحة كقوله تعالى واذا حللتم فاصطادوا قال ابن عباس ان شئت فاخرج وان شئت فاقعد وان شئت فصل الى العصر وقيل فانتشروا فى الارض ليس لطلب دنيا ولكن لعيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ فى الله تعالى وقال الحسن وسعيد بن جبير ومكحول وابتغوا من فضل الله هو طلب العلم (واذكروا الله) أى الذى له الامر كله (كثيرا) أى بحيث لا تغفلون عنه بقلوبكم أصلا ولا بألسنتكم حتى عند الدخول الى الخلاء وعند أول الجماع واستثنى من الثانى وقت التلبس بالقذر كوقت قضاء الحاجة والجماع (لعلكم تفلحون) أى تفوزون بالجنة والنظر الى وجهه الكريم وعن جابر بن عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخطب قائما يوم الجمعة

لجاءت عير من الشأم فانفتل الناس اليها حتى لم يبق الا اثنا عشر رجلا وفى رواية أنا فيهم فأنزل الله تعالى (واذا رأوا تجارة) أى حمولا هى موضع للتجارة (أو لهوا) أى ما يلهى عن كل نافع (انفضوا) أى نفروا متفرقين من العجلة (اليها) اى التجارة لانها مطلوبهم دون اللهو وأيضا العطف بأو فافراد الضمير أولى وقال الزمخشرى تقديره اذا رأوا تجارة انفضوا اليها أو لهوا انفضوا اليه فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه وذكر الكلبى وغيره ان الذى قدم بها دحية بن خليفة الكلبى من الشأم عن مجاعة وغلاء سعر وكان معه جميع ما تحتاج اليه الناس من بر ودقيق وغيره فنزل عند احجار الزيت وضرب الطبل ليؤذن الناس بقدومه فخرج الناس الا اثنى عشر رجلا وقيل احد عشر رجلا وقال ابن عباس فى رواية الكلبى لم يبق فى المسجد الا ثمانية رهط وقال الحسن وأبو مالك أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر فقدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة فلما رأوه قاموا اليه بالبقيع خشوا ان يسبقوا اليه فلم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم الا رهط منهم أبو بكر وعمر فنزلت هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم والذى نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادى نارا وقال مقاتل بن حبان ومقاتل بن سليمان بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة اذ قدم دحية بن خليفة الكلبى من الشام بالتجارة وكان اذا قدم المدينة لم يبق بالمدينة عاتق الا أتته وكان يقدم بكل ما يحتاج اليه من دقيق وغيره فينزل عند أحجار الزيت وكانت فى سوق المدينة ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فخرج اليه الناس ليتبايعوا منه فقدم ذات جمعة وكان ذلك قبل أن يسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر يخطب فخرج اليه الناس ولم يبق فى المسجد الا اثنا عشر رجلا وامرأة فقال النبى صلى الله عليه وسلم لولا هؤلاء لرميت عليهم الحجارة من السماء وأنزل الله تعالى هذه الآية والمراد باللهو الطبل وقيل كانت العير اذا قدمت المدينة استقبلوا بالطبل والتصفيق وقال علقمة سئل عبد الله أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب قائما أو قاعدا فقال أما تقرأ وتركوك قائما وعن جابر بن عبد الله قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة خطبتين قائما يفصل بينهما بجلوس وذكر أبو داود فى مراسيله السبب الذى ترخصوا لانفسهم فى ترك سماع الخطبة وقد كانوا خليقا لفضلهم أن لا يفعلوا فقال حدثنا محمد بن خالد قال حدثنا الوليد قال أخبرنى أبو معاذ بكير بن معروف انه سمع مقاتل بن حبان قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى الجمعة قبل الخطبة كالعيدين حتى كان يوم جمعة والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب وقد صلى الجمعة فدخل رجل يقال له دحية بن خليفة قدم بتجارة وكان دحية اذا قدم تلقاه اهله بالدفوف فخرج الناس فلم يظنوا الا أنه ليس فى ترك الخطبة شئ فأنزل الله تعالى هذه الآية فقدم النبى صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة الخطبة وأخر الصلاة وكان لا يخرج أحد لرعاف او حدث بعد النهى حتى يستأذن النبى صلى الله عليه وسلم يشير اليه باصبعه التى تلى الابهام فيأذن له النبى صلى الله عليه وسلم ثم يشير اليه بيده فكان فى المنافقين من تثقل عليه الخطبة والجلوس فى المسجد فكان

اذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق الى جنبه مستترا به حتى يخرج فأنزل الله تعالى قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا الآية قال السهيلي وهذا الخبر وان لم ينقل من وجه ثابت فالظن الجميل بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يوجب أن يكون صحيحا وقال قتادة وبلغنا انهم فعلوه ثلاث مرات كل مرة عير تقدم من الشام وكل ذلك يوافق يوم الجمعة وقيل ان خروجهم لقدوم دحية بتجارته ونظرهم الى العير وهي عيرا لهو لا فائدة فيه الا أنه كان مما لا اثم فيه لو وقع على ذلك الوجه ولكنه لما اتصل به الاعراض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والانفضاض عن حضرته غلظ وكبر ونزل فيه من القرآن وتهجينه باسم اللهو ما نزل وقوله تعالى (وتركوك) أى تخطب حتى بقيت فى اثنى عشر رجلا قال جابر أنا أحدهم (قائما) جملة حالية من فاعل انفضوا وقد مقدرة عند بعضهم *(تنبيه)* فى قوله تعالى قائما تنبيه على مشروعيته فى الخطبتين وهو من الشروط للقادر على القيام وأما أركانهما فخمسة حمد الله تعالى وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بلفظهما ووصية بتقوى الله وهذه الثلاثة فى كل من الخطبتين وقراءة آية مفهمة ولو فى احداهما والاولى أولى ودعاء للمؤمنين والمؤمنات فى ثانية ومن الشروط كونهما عربيتين وكونهما فى الوقت وولاء وطهر وستر كالصلاة (قل) يا أشرف الخلق للمؤمنين (ما عند الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال (خير) ما موصولة مبتدأ وخير خبرها (من اللهو ومن التجارة) والمعنى ما عند الله تعالى من ثواب صلاتكم خير من لذة لهوكم وفائدة تجارتكم وقيل ما عند الله من رزقكم الذى قسمه لكم خير مما اقتسمتموه من لهوكم وتجارتكم (والله) أى ذو الجلال والاكرام وحده (خير الرازقين) أى خير من رزق وأعطى فاطلبوا منه واستعينوا بطاعته على نيل ما عنده من خيرى الدنيا والآخرة وما قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الجمعة أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة ومن لم يأتها فى أمصار المسلمين حديث موضوع

﴿سورة المنافقين مدنية﴾

(وهى احدى عشرة آية ومائة وثمانون كلمة وسبعمائة وستة وسبعون حرفا)

(بسم الله) الذى له الاحاطة العظمى علما وقدرة (الرحمن) الذى ستر بعموم رحمته من أراد من عباده (الرحيم) الذى وفق أهل وده لما يحبه ويرضاه (اذا جاءك) يا أيها الرسول المبشر بك فى التوراة والانجيل وقرأ حمزة وابن ذكوان بالامالة والباقون بالفتح واذا وقف حمزة سهل الهمزة مع المد والقصر وله أيضا ابدالها الفا مع المد والقصر (المنافقون) أى الغريقون فى وصف النفاق وهم عبد الله بن أبى ابن سلول وأصحابه (قالوا) مؤكدين لاجل استشعارهم تكذيب من يسمعهم لما عندهم من الارتياب (نشهد) قال الحسن هو بمنزلة اليمين كأنهم قالوا نقسم (انك لرسول الله) أى الملك الذى له الاحاطة الكاملة فوافقوا الحق بظاهر

أحوالهم وخالفوا بقلوبهم وأفعالهم وقوله تعالى (والله يعلم) أى وعلمه هو العلم فى الحقيقة واكد سبحانه بحسب انكار المنافقين فقال تعالى (انك لرسوله) سواء أشهد المنافقون بذلك أم لا فالشهادة بذلك حق ممن يطابق لسانه قلبه جملة معترضة بين قولهم نشهد انك لرسول الله و بين قوله تعالى والله يشهد لفائدة قال الزمخشرى لو قال قالوا نشهد انك لرسول الله والله يشهد انهم لكاذبون لكان يوهم ان قولهم هذا كذب فوسط بينهما قوله والله يعلم انك لرسوله ليميط هذا الايهام (والله) أى المحيط بجميع صفات الكمال (يشهد) شهادة هى الشهادة لانها محيطة بدقائق الظاهر والباطن (ان المنافقين) أى الراسخين فى وصف النفاق (لكاذبون) أى فى اخبارهم عن أنفسهم انهم يشهدون لان قلوبهم لا تطابق ألسنتهم فهم لا يعتقدون ذلك ومن شرط قول الحق ان يتصل ظاهره بباطنه وسره بعلانيته ومتى تخالف ذلك فهو كذب ألا ترى انهم كانوا يقولون بألسنتهم نشهد انك لرسول الله وسماه الله تعالى كذبا لان قولهم خالف اعتقادهم (اتخذوا أيمانهم) أى كلها من شهادتهم وكل يمين سواها (جنة) أى سترة عن أموالهم ودمائهم روى البخارى عن زيد بن أرقم قال كنت مع عمى فسمعت عبد الله بن أبى ابن سلول يقول لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا وقال لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل فذكرت ذلك لعمى فذكره عمى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عبد الله بن أبى وأصحابه فحلفوا ما قالوا فصدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبنى فأصابنى هم لم يصبنى مثله فجلست فى بيتى فأنزل الله عز وجل اذا جاءك المنافقون الى قوله تعالى هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله وقوله ليخرجن الاعز منها الاذل فأرسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ان الله قد صدقك وروى الترمذى عن زيد بن أرقم قال غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان معنا أناس من الاعراب فكنا نبتدر الماء وكان الاعراب يسبقونا فيسبق الاعرابى أصحابه فيملأ الحوض و يجعل حوله حجارة و يجعل النطع عليه حتى يجىء أصحابه قال فأتى رجل من الانصار أعرابيا فأرخى زمام ناقته لتشرب فأبى ان يدعه فانتزع حجرا ففاض الماء فرفع الاعرابى خشبة فضرب بها رأس الانصارى فشجه فأتى عبد الله بن أبى رأس المنافقين فأخبره وكان من أصحابه فغضب عبد الله بن أبى ثم قال لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله يعنى الاعراب وكانوا يحضرون رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الطعام فقال عبد الله اذا انفضوا من عند محمد فأتوا محمدا بالطعام فليأكل هو ومن عنده ثم قال لاصحابه لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل قال زيد وأنا ردف عمى فسمعت عبد الله بن أبى فأخبرت عمى فانطلق فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلف وجحد قال فصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبنى قال فجاء عمى الى فقال ما أردت الا ان مقتك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبك المنافقون قال فوقع على من جراءتهم مالم يقع على أحد قال فبينما أنا أسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر قد خفقت

رأسي من الهم اذ أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرك اذني وضحك في وجهي فكان ما يسرني ان لي بها الخلد في الدنيا ثم ان أبا بكر لحقني فقال ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت ما قال لي شيأ الا أنه عرك اذني وضحك في وجهي فقال أبشر ثم لحقني عمر فقلت له مثل قولي لابي بكر فلما أصبحنا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة المنافقين قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وروى انه صلى الله عليه وسلم حين لقي بني المصطلق على المريسيع وهو ماؤهم وهزمهم وقتل منهم ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر يقود فرسه وسنان الجهني حليف لعبد الله بن أبي واقتتلا فصرخ جهجاه بالمهاجرين وسنان بالانصار فاعان جهجاها جعال من فقراء المهاجرين ولطم سنانا فقال عبد الله لجعال وأنت هناك وقال ما صحبنا محمدا الا لنلطم وجوهنا والله ما مثلنا ومثلهم الا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل عنى بالاعز نفسه وبالاذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لقومه ماذا فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولاوشكوا ان يتحولوا عنكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد فسمع بذلك زيد بن أرقم وهو حدث فقال أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك ومحمد في عز من الرحمن وقوة من المسلمين فقال عبد الله اسكت فانما كنت ألعب فاخبر زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر دعني اضرب عنق هذا المنافق يارسول الله فقال اذن ترعد أنف كثيرة بيثرب قال فان كرهت ان يقتله مهاجري فأمر به انصاريا قال فكيف اذا تحدث الناس ان محمدا يقتل أصحابه وقال صلى الله عليه وسلم لعبد الله أنت صاحب الكلام الذي بلغني قال والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيأ من ذلك وان زيدا لكاذب فهو قوله تعالى اتخذوا ايمانهم جنة فقال الحاضرون يارسول الله شيخنا وكبيرنا لاتصدق عليه كلام غلام عسى أن يكون قد وهم وروى انه صلى الله عليه وسلم قال له لعلك غضبت عليه قال لا قال فلعله أخطأ سمعك قال لا قال فلعله شبه عليك قال لا فلما نزلت لحق صلى الله عليه وسلم زيدا من خلفه فعرك اذنه وقال وعت اذنك ياغلام ان الله قد صدقك وكذب المنافقين *(تنبيه)* سئل حذيفة بن اليمان عن المنافق فقال الذي يصف الايمان ولا يعمل به وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان وروى عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها اذا ائتمن خان واذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر وروى عن الحسن انه ذكر هذا الحديث فقال ان بني يعقوب حدثوا فكذبوا ووعدوا فأخلفوا وائتمنوا فخانوا انما هذا القول من النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل الانذار للمسلمين والتحذير لهم ان يعتادوا هذه الخصال شفقة ان تفضي بهم الى النفاق وليس المعنى أن من ندرت منه هذه الخصال من غير اختيار واعتياد انه منافق وقال عليه الصلاة والسلام المؤمن اذا حدث صدق واذا وعد نجز واذا ائتمن وفى

والمعنى المؤمن الكامل (فصدوا) أى فسبب لهم اتخاذهم هذا ان أعرضوا بأنفسهم مع سوء البواطن وحرارة ما فى الصدور وحملوا غيرهم على الاعراض (عن سبيل الله) أى عن طريق الملك الاعظم الذى شرعه لعباده ليصلوا به الى محل رضوانه ووصلوا الى ذلك بخداعهم ومكرهم بجراءتهم على الايمان الخائنة (انهم ساء ما كانوا) أى جبلة وطبعا (يعملون) أى يجددون عمله مستمرين عليه بما هو كالجبلة من جراءتهم على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وخلص عباده بالايمان الخائنة ولما كانت المعاصى تعمى القلوب فكيف بأعظمها علله بقوله تعالى (ذلك) أى سوء عملهم (بأنهم آمنوا ثم كفروا) (فان قيل) ان المنافقين لم يكونوا الا على الكفر الثابت الدائم فما معنى قوله تعالى آمنوا ثم كفروا (أجيب) بثلاثة أوجه أحدها آمنوا أى نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل من يدخل فى الاسلام ثم كفروا أى ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما اطلع عليه من قولهم ان كان ما يقول محمد حقا فنحن حمير وقولهم فى غزوة تبوك أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر هيهات ونحوه قوله يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم أى وظهر كفرهم بعد ان أسلموا ونحوه لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم والثانى آمنوا أى نطقوا بالايمان عند المؤمنين ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالاسلام بقوله تعالى واذا لقوا الذين آمنوا الى قوله انما نحن مستهزؤن وهذا اعلام من الله تعالى بأن المنافقين كفار الثالث ان يراد ان ذلك فى قوم آمنوا ثم ارتدوا (فطبع) أى فحصل الطبع وهو الختم مع أنه معلوم أنه لا يقدر على ذلك غيره سبحانه (على قلوبهم) أى لاجل اجترائهم على ما هو أكبر الكبائر على وجه النفاق (فهم) أى فتسبب عن ذلك انهم (لا يفقهون) أى لا يقع لهم فقه فى شئ من الاشياء فهم لا يميزون صوابا من خطا ولا حقا من باطل (واذا رأيتهم) أى أيها الرسول على مالك من الفطنة ونفوذ الفراسة أو أيها الرائى كائنا من كان بعين البصر (تعجبك أجسامهم) لضخامتها وصباحتها فان عنايتهم كلها باصلاح ظواهرهم وترفيه أنفسهم فهم أشباح وقوالب ليس وراءها ألباب وحقائق قال ابن عباس كان ابن أبى جسيما صحيحا فصيحا ذلق اللسان وقوم من المنافقين فى مثل صفته وهم رؤساء المدينة وكانوا يحضرون مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ويستندون فيه ولهم جهارة المناظر وفصاحة الالسن وكان النبى صلى الله عليه وسلم ومن حضر يعجبون بهيا كلهم (وان يقولوا) أى يوجد منهم قول فى وقت من الاوقات (تسمع لقولهم) أى لفصاحته فيلذ السمع ويروق الفكر (كأنهم) أى فى حسن ظواهرهم وسوء بواطنهم وفى عدم الانتفاع بهم فى شئ (خشب) جمع كثرة لخشبة وهو دليل على كثرتهم (مسندة) أى قطعت من مغارسها ممالة الى الجدار وقرأ أبو عمرو والكسائى بسكون الشين والباقون بضمها (يحسبون) أى لضعف عقولهم وكثرة ارتيابهم لكثرة ما يباشرون من سوء أعمالهم (كل صيحة) أى من نداء مناد فى انشاد ضالة أو انفلات دابة أو نحو ذلك واقعة (عليهم) وضارة لهم لجبنهم وهلعهم لما فى قلوبهم من الرعب ان ينزل فيهم ما يبيح دماءهم ومنه أخذ الاخطل

ما زلت تحسب كل شئ بعدهم * خيلا تكر عليهم ورجالا
ومنه قول الآخر

كأن بلاد الله وهى عريضة * على الخائف المطلوب كفة حابل
يخال اليه ان كل ثنية * تيممها ترمى اليه بقاتل

(هم العدو) أى الكامل العداوة وعادل عليه الاخبار بالمفرد الذى يقع على الجمع اشارة الى انهم فى شدة عداوتهم للاسلام وأهله وكمال قصدهم وشدة سعيهم فيه على قلب رجل واحد وان أظهروا التودد فى الكلام والتقرب به الى أهل الاسلام فان ألسنتهم معكم اذا لقوكم وقلوبهم عليكم مع أعدائكم فهم عيون لهم عليكم (فاحذرهم) لان أعدى عدوك من يعاشرك وتحت ضلوعه الداء لكنه يكون بلطف الله دائم الخذلان منكوسا فى أكثر تقلباته بيد القهر والحرمان لسر قوله تعالى (قاتلهم الله) أى أحلهم الملك المحيط قدرة وعلما محل من يقاتله عدو قاهر له أشد مقاتلة على عادة الفعل الذى يكون بين اثنين وقال ابن عباس أى لعنهم الله وقال أبو مالك هى كلمة ذم وتوبيخ وقد تقول العرب قاتله الله ما أشعره فيضعونه موضع التعجب (أنى) أى كيف ومن أى جهة (يؤفكون) أى يصرفهم عن قبح ماهم عليه صارف مّا كائن ما كان ليرجعوا عماهم عليه وقال ابن عباس أنى يؤفكون أى يكذبون وقال مقاتل أى يعدلون عن الحق وقال الحسن يصرفون عن الرشد وقيل معناه كيف تضل عقولهم عن هذا مع وضوح الدلائل وهو من الافك (واذا قيل لهم) اى من أى قائل كان (تعالوا) أى ارفعوا أنفسكم مجتهدين فى ذلك بالمجىء الى أشرف الخلق الذى لا يزال مكانه عاليا لعلو مكانته (يستغفر لكم) أى يطلب الغفران لاجلكم خاصة من أجل هذا الكذب أى الذى أنتم مصرون عليه (رسول الله) أى أقرب الخلق الى الملك الاعظم الذى لا شبيه لوجوده (لووا رؤسهم) أى فعلوا اللى بغاية الشدة والكثرة وهو الصرف الى جهة أخرى اعراضا وعتوا واظهارا للبغض والنفرة (ورأيتهم) أى بعين البصيرة (يصدون) أى يعرضون اعراضا قبيحا عما دعوا اليه مجددين لذلك كلما دعوا اليه والجملة فى موضع المفعول الثانى لرأيت (وهم مستكبرون) أى ثابتو الكبر عما دعوا اليه وعن احلال أنفسهم فى محل الاعتذار فهم لشدة غلظهم لا يدركون قبح ماهم عليه ولا يهتدون الى دوائه واذا أرشدهم غيرهم ونبههم لا ينتبهون فقد روى انه لما نزل القرآن فيهم أتاهم عشائرهم من المؤمنين وقالوا ويحكم افتضحتم وأهلكتم أنفسكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوبوا اليه من النفاق واسألوه أن يستغفر لكم فلووا رؤسهم أى حركوها اعراضا واباء قاله ابن عباس وعنه انه كان لعبد الله بن أبى موقف فى كل سبت يحض على طاعة الله وطاعة رسوله فقيل له وما ينفعك ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليك غضبان فأته يستغفر لك فأبى وقال لا أذهب اليه وروى ان ابن أبى رأسهم لوى رأسه وقال لهم أشرتم على بالايمان فآمنت وأشرتم على بأن أعطى زكاة مالى ففعلت ولم يبق الا أن تأمرونى بالسجود لمحمد فنزل واذا قيل لهم تعالوا الآية ولم يلبث الا أياما قلائل حتى اشتكى

ومات ولما كان صلى الله عليه وسلم يحب صلاحهم فهو يحب أن يستغفر لهم وربما ندبه الى ذلك بعض أقاربهم قال تعالى منبها على أنهم ليسوا بأهل للاستغفار لانهم لا يؤمنون (سواء عليهم أستغفرت لهم) استغنى بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل (أم لم تستغفر) الله (لهم) أى سواء عليهم الاستغفار وعدمه لانهم لا يلتفتون اليه ولا يعتدون به لكفرهم (لن يغفر الله) أى الملك الاعظم (لهم) لرسوخهم فى الكفر (ان الله) أى الذى له كمال الصفات (لا يهدى القوم) أى الناس الذين لهم قوة فى أنفسهم على ما يريدونه (الفاسقين) أى لانهم لا عذر لهم فى الاصرار على الفسق وهو المروق من حصن الاسلام بخرقه وهتكه مرة بعد مرة والقرن عليه حتى استحكم فهم راسخون فى النفاق والخروج عن مظنة الاصلاح (هم) أى خاصة بخالص بواطنهم (الذين يقولون) أى أوجدوا هذا القول للانصار ولا يزالون يجددونه لانهم كانوا مربوطين بالاسباب محجوبين عن شهود التقدير (لا تنفقوا) أى أيها المخلصون فى النصرة (على من) أى الذين (عند رسول الله) أى الملك المحيط بكل شئ وهم فقراء المهاجرين (حتى ينفضوا) أى يتفرقوا فيذهب كل أحد منهم الى أهله وشغله الذى كان له قبل ذلك قال البقاعى وما درى الاجلاف أنهم لو فعلوا ذلك أتاح الله تعالى غيرهم للانفاق أو أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا فى الشئ اليسير فصار كثيرا أو كان بحيث لا ينفد أو أعطى كلا يسيرا من طعام على كيفية لا ينفد معها كتمر أبى هريرة وشعير عائشة وعكة أم أيمن وغير ذلك كما روى غير مرة ولكن من يضلل الله فماله من هاد ولذلك عبر فى الرد عليهم بقوله تعالى (ولله) أى قالوا ذلك واستمروا على تجديد قوله والحال ان للملك الذى لا أمر لغيره (خزائن السموات) أى كلها (والارض) كذلك من الاشياء المعدومة الداخلة تحت مقدوره انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون ومن الاشياء التى أوجدها فهو يعطى من يشاء منها حتى مما فى أيديهم لا يقدر أحد على منع شئ من ذلك لا مما فى يده ولا مما فى يد غيره ونبه على سوء غباوتهم وأنهم تقيدوا بالوهم حتى سفلوا عن رتبة البهائم كما قال بعضهم ان كان محمد صادقا فنحن شر من البهائم بقوله تعالى (ولكن المنافقين) أى العريقين فى وصف النفاق (لا يفقهون) أى لا يتجدد لهم فهم أصلا كالبهائم بل هم أضل لان البهائم اذا رأت شيأ ينفعها يوما فى مكان طلبته مرة أخرى وهؤلاء رأوا غير مرة ما أخرج الله تعالى من خوارق البركات على يد رسوله صلى الله عليه وسلم فلم ينفعهم ذلك ودل على عدم نفعهم بقوله تعالى (يقولون) أى يوجدون هذا القول ويجددونه مؤكدين لاستشعارهم بأن أكثر قومهم ينكره (لئن رجعنا) أى أيتها العصابة المنافقة (الى المدينة) أى من غزاتنا هذه وهى غزوة بنى المصطلق حى من هذيل خرج اليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد الى الساحل (ليخرجن الاعز) يعنون أنفسهم (منها) أى المدينة (الاذل) يعنون النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم كاذبون فى هذا الكون لهم قصور والشدة غباوتهم ان العزة لهم وانهم يقدرون على اخراج المؤمنين (ولله) أى والحال ان كل من له نوع بصيرة يعلم ان الملك الاعلى هو الذى له وحده

(العزة)

(العزة) أى الغلبة كلها (ولرسوله) لان عزته من عزته (وللمؤمنين) فعزة الله قهره من دونه وكل من عداه دونه وعزة رسوله اظهار دينه على الاديان كلها وعزة المؤمنين نصر الله تعالى اياهم على أعدائهم (ولكن المنافقين) أى الذين استحكم فيهم مرض القلوب (لايعلمون) اى لا يوجد لهم علم الآن ولا يتجدد فى حين من الاحيان فلذلك هم يقولون مثل هذا الخراف وروى انه لما نزلت هذه الآية جاء عبد الله ولد عبد الله بن أبى ابن سلول الذى نزلت هذه الآيات بسببه كما مر الى أبيه وذلك فى غزوة المريسيع ابنى المصطلق فأخذ بزمام ناقته وقال أنت والله الذليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز ولما أراد أن يدخل المدينة عبد الله بن أبى اعترضه ابنه حباب وهو عبد الله غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه وقال ان حبابا اسم شيطان وكان مخلصا وقال وراءك والله لا تدخلها حتى تقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الاعز وأنا الاذل فلم يزل حبيسا فى يده حتى أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخليته وروى أنه قال لئن لم تقر لله ولرسوله بالعزة لاضربن عنقك فقال ويحك أفاعل أنت قال نعم فلما رأى منه الجد قال أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فقال النبى صلى الله عليه وسلم لابنه جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا (فان قيل) ما الحكمة فى أنه تعالى ختم الآية الاولى بقوله تعالى لايفقهون وختم الثانية بقوله تعالى لايعلمون (أجيب) بأنه ليعلم بالاولى قلة كياستهم وفهمهم وبالثانية حماقتهم وجهلهم ويفقهون من فقه يفقه كعلم يعلم اومن فقه يفقه كعظم يعظم فالاول لحصول الفقه بالتكلف والثانى لا بالتكلف فالاول علاجى والثانى مزاجى ثم نهى الله تعالى المؤمنين عن التشبه بالمنافقين فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا) اى اقروا بالايمان وقلوبهم مذعنة كطواهرهم (لاتلهكم) اى لاتشغلكم (أموالكم ولا اولادكم) سواء كان ذلك فى اصلاحها او التمتع بها بحيث تغفلون (عن ذكر الله) أى الملك الاعظم حذر المؤمنين اخلاق المنافقين أى لاتشتغلوا بأموالكم كما فعل المنافقون اذ قالوا لاجل الشح بأموالهم لاتنفقوا على من عند رسول الله وقوله تعالى عن ذكر الله قال الضحاك أى عن الصلوات الخمس نظيره قوله تعالى لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وقال الحسن عن جميع الفرائض كأنه قال عن طاعة الله تعالى وقيل عن الحج والزكاة وقيل عن قراءة القرآن وقيل عن ادامة الذكر وقيل هذا خطاب للمنافقين أى آمنتم بالقول فآمنوا بالقلب ولما كان التقدير فان انتهى فهو من الفائزين عطف عليه قوله تعالى (ومن يفعل) أى يوقع فى زمن من الازمان على سبيل التجديد والاستمرار فعل (ذلك) أى الامر البعيد عن أفعال ذوى الهمم من الانقطاع الى الاشتغال بالفانى والاعراض عن الباقى (فأولئك) البعداء عن الخير (هم الخاسرون) أى العريقون فى الخسارة فى تجارتهم حيث باعوا العظيم الباقى بالحقير الفانى حتى كأنهم مختصون بها دون الناس وذلك بضد ما أرادوا (وأنفقوا) أى ما أمرتم به من واجب أو مندوب كما قاله بعض المفسرين وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد زكاة الاموال وهو ظاهر الامر ثم ان الله تعالى زاد فى الترغيب بالرضا منهم بالبسير بقوله تعالى (مما رزقناكم) أى بعضنا قال الزمخشرى من فى مما رزقناكم للتبعيض والمراد الانفاق

الواجب اهـ ثم قال تعالى محذرا من الاغترار بالتسويف في أوقات السلامة (من قبل ان يأتي أحدكم الموت) أي يرى دلائله وأماراته وكل لحظة مرت فهي دلائله وأماراته قال القرطبي وهذا دليل على وجوب تعجيل اخراج الزكاة ولا يجوز تأخيرها أصلا أي بلا عذر وكذا سائر العبادات إذا دخل وقتها وقال الرازي وبالجملة فقوله تعالى لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله تنبيه على المحافظة على الذكر قبل الموت وقوله تعالى وأنفقوا مما رزقناكم تنبيه على الشكر كذلك ولما كانت الشدة تقتضي الاقبال الى الله تعالى سبب عن ذلك قوله تعالى (فيقول) أي سائلا في الرجعة وأشار الى ترقيقها للقلوب بقوله (رب لولا) أي هلا ولم لا (أخرتني) أي أخرت موتي امهالا (الى أجل) أي زمان وقوله (قريب) بين به أن مراده استدراك مافات ليس الا وقيل لا زائدة ولو للتمني أي لو أخرتني الى أجل قريب (فأصدق) أي للتزود في سفري هذا الطويل الذي أنا مستقبله وعن ابن عباس رضي الله عنهما تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل وعنه ما يمنع أحدكم اذا كان له مال أن يزكي واذا أطاق الحج أن يحج من قبل أن يأتيه الموت فيسأل ربه الكرة فلا يعطاها وعنه أنها نزلت في مانعي الزكاة ووالله لو رأى خيرا ماسأل الرجعة فقيل له أما تتقي الله يسأل المؤمنون الكرة قال نعم أنا أقرأ عليكم قرآنا يعني انها نزلت في المؤمنين وهم المخاطبون بها وكذا عن الحسن مامن أحد لم يزك ولم يصم ولم يحج الا سأل الرجعة وقال الضحاك لا ينزل بأحد لم يحج ولم يؤد الزكاة الموت الا وسأل الرجعة وعن عكرمة نزلت في أهل القبلة وقيل نزلت في المنافقين ولهذا نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال هذه الآية تدل على أن القوم لم يكونوا من أهل التوحيد لانه لا يتمنى الرجوع الى الدنيا والتأخير فيها أحد له عند الله تعالى خير في الآخرة أي اذا لم يكن بالصفة المتقدمة قال القرطبي الا الشهيد فانه يتمنى الرجوع حتى يقتل لما يرى من الكرامة وقرأ (وأكون من الصالحين) أي العريقين في هذا الوصف بالتدارك أبو عمرو بواو بعد الكاف ونصب النون عطفا على فأصدق والباقون بحذف الواو ولالتقاء الساكنين وجزم النون واختلفت عبارات الناس في ذلك فقال الزمخشري عطفا على محل فأصدق كأنه قيل ان أخرتني أصدق وأكن وقال ابن عطية عطفا على الموضع لان التقدير ان أخرتني أصدق وأكن هذا مذهب أبي علي الفارسي وقال القرطبي عطفا على موضع الفاء لان قوله فأصدق لو لم تكن الفاء لكان مجزوما أي أصدق ثم زاد تعالى في الحث على المبادرة بالطاعات قبل الفوات بقوله تعالى مؤكدا لاجل عظم الرجاء من هذا المحتضر بالتأخير عاطفا على ما تقديره فلا يؤخره الله فيفوته ما أراد (ولن يؤخر الله) أي الملك الاعظم الذي لا كفء له فلا اعتراض عليه (نفسا) أي نفس كانت وحقق الاجل بقوله تعالى (اذا جاء أجلها) أي وقت موتها الذي حده الله تعالى لها فلا يؤخر الله تعالى نفس هذا القائل لانها من جملة النفوس التي شملها النفي وقرأ قالون والبزي وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية بعد تحقيق الاولى ولهما أيضا ابدالها ألفا والباقون بتحقيقهما (والله) أي الذي له الاحاطة الشاملة علما وقدرة (خبير) أي

بالغ

بالغ الخبرة والعلم ظاهرا وباطنا (بما تعملون) أى توقعون عمله فى الماضى والحال والمآل كله باطنه وظاهره وقرأ شعبة بالياء التحتية على الغيبة على الخبر عمن مات وقال هذه المقالة والباقون بالفوقية على الخطاب وما قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المنافقين برئ من النفاق حديث موضوع

﴿سورة التغابن مدنية﴾

فى قول الاكثرين وقال الضحاك مكية وقال الكلبى مدنية ومكية وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن سورة التغابن نزلت بمكة الا آيات من آخرها نزلت بالمدينة فى عوف بن مالك الاشجعى شكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم جفاء أهله وولده فأنزل الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم الى آخرها وهى ثمانى عشرة آية ومائتان واحدى وأربعون كلمة وألف وسبعون حرفا

(بسم الله) مالك الملك فلا كفء له ولا مثيل (الرحمن) الذى وسع الخلائق بره الجليل (الرحيم) الذى خص من عمه فوفقهم للجميل (يسبح) أى يوقع التنزيه التام مع التجديد والاستمرار (لله) أى الذى له الاحاطة بأوصاف الكمال (ما فى السموات) أى كلها (وما فى الارض) كذلك وقيل اللام زائدة أى ينزه الله تعالى قال الجلال المحلى وأتى بما دون من تغليبا للاكثر (له) أى وحده (الملك) أى كله مطلقا فى الدنيا والآخرة (وله) أى وحده (الحمد) أى الاحاطة بأوصاف الكمال كلها فلذلك نزهه جميع مخلوقاته وقدم الظرفين ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله تعالى وذلك بأن الملك على الحقيقة له لانه مبدئ كل شئ ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه وكذا الحمد لان أصول النعم وفروعها منه وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده (وهو على كل شئ قدير) هو أى وحده (الذى خلقكم) اى أنشأكم على ما أنتم عليه (فمنكم) أى فتسبب عن خلقه لكم وتقديره (كافر) أى عريق فى صفة الكفر (ومنكم مؤمن) أى راسخ فى الايمان فى حكم الله تعالى فى الازل قال ابن عباس رضى الله عنهما ان الله خلق بنى آدم مؤمنا وكافرا ويعيدهم فى القيامة مؤمنا وكافرا وروى ابو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية فذكر شيأ مما يكون فقال تولد الناس على طبقات شتى يولد الرجل مؤمنا ويعيش مؤمنا ويموت مؤمنا ويولد الرجل كافرا ويعيش كافرا ويموت كافرا ويولد الرجل كافرا ويعيش كافرا ويموت مؤمنا أى وسكت عن القسم الآخر وهو أن يولد الرجل مؤمنا ويعيش مؤمنا ويموت كافرا اكتفاء بالمقابل وقال ابن مسعود رضى الله عنه قال النبى صلى الله عليه وسلم خلق الله تعالى فرعون فى بطن أمه كافرا وخلق يحيى بن زكريا عليهما السلام فى بطن أمه مؤمنا وفى الصحيح من حديث ابن مسعود رضى الله عنه وان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع او باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها وان احدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع او باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل

الجنة فيدخلها وفى صحيح مسلم عن سهل بن سعد الساعدى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الرجل ليعمل عمل اهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار وان الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من اهل الجنة قال القرطبى قال علماؤنا والمعنى تعلق العلم الازلى بكل معلوم فيجرى ما علم واراد وحكم فقد يريد ايمان شخص على عموم الاحوال وقد يريده الى وقت معلوم وكذلك الكفر وقيل فى الكلام محذوف تقديره فمنكم مؤمن ومنكم كافر ومنكم فاسق فحذف لما فى الكلام من الدلالة عليه قاله الحسن وقال غيره لا حذف لان المقصود ذكر الطرفين وقيل انه خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا والتقدير هو الذى خلقكم ثم وصفهم فقال فمنكم كافر ومنكم مؤمن كقوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء ثم قال تعالى فمنهم من يمشى على بطنه الآية قالوا فانه خلقهم والمشى فعلهم وهذا اختيار الحسين بن الفضل قال لو خلقهم مؤمنين وكافرين لما وصفهم بفعلهم فى قوله تعالى فمنكم كافر ومنكم مؤمن واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه قال البغوى وروينا عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن أبىّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الغلام الذى قتله الخضر طبع على الكفر وقال تعالى ولا يلدوا الا فاجرا كفارا وروى أنس رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال وكل الله بالرحم ملكا فيقول أى رب نطفة أى رب علقة أى رب مضغة فاذا أراد الله أن يقضى خلقها قال يا رب ذكر أم أنثى شقىّ أم سعيد فما الرزق فما الاجل فيكتب ذلك فى بطن أمه وقال الضحاك فمنكم كافر فى السر مؤمن فى العلانية كالمنافق ومنكم مؤمن فى العلانية والسرّ كعمار وزيد وقال عطاء بن أبى رباح فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب يعنى فى شأن الانواء كما جاء فى الحديث قال القرطبى وقال الزجاج وهو أحسن الاقوال والذى عليه الائمة ان الله خلق الكافر وكفره فعل له وكسب واختيار وخلق المؤمن وايمانه فعل له وكسب واختيار وكسبه واختياره بتقدير الله ومشيئته فالمؤمن بعد خلق الله اياه يختار الايمان لان الله تعالى اراد ذلك منه وقدره عليه وعلمه منه والكافر بعد خلق الله اياه يختار الكفر لان الله تعالى قدره عليه وعلمه منه ولا يجوز ان يوجد من كل منهما غير الذى قدره عليه وعلمه منه لان وجود خلاف المقدور عجز ووجود خلاف المعلوم جهل فلا يليقان بالله تعالى قال البغوى وهذا طريق اهل السنة من سلكه اصاب الحق وسلم من الجبر والقدر قال الرازى فان قيل انه تعالى حكيم وقد سبق فى علمه انه تعالى اذا خلقهم لم يفعلوا الا الكفر فأى حكمة دعت الى خلقهم فالجواب اذا علمنا انه تعالى حكيم علمنا ان أفعاله كلها على وفق الحكمة فيكون خلقه تعالى هذه الطائفة على وفق الحكمة ولا يلزم من عدم علمنا بذلك أن لا يكون كذلك بل اللازم أن يكون خلقهم على وفق الحكمة (والله) أى الذى له الاحاطة الكاملة (بما تعملون) أى توقعون عمله كسبا (بصير) أى بالغ العلم بذلك فهو الذى خلق جميع أعمالكم التى نسب كسبها اليكم وهو خالق جميع الاستعدادات والصفات كما خلق الذوات خلافا للقدرية لانه لا يتصور أن يخلق

الخالق مالا يعلمه ولو سئل الانسان كم مشى فى يومه من خطوة لم يدر فكيف لو سئل أين موضع مشيه ومتى زمانه فكيف وانه ليمشى أكثر مشيه وهو غافل عنه ومن جهل أفعاله كما وكيفا وأينا وغير ذلك لم يكن خالقا لها بوجه * ولما ذكر المظروف ذكر ظرفه دالا على تمام احاطته بالبواطن والظواهر وقوله تعالى (خلق السموات) أى على علوها وكبرها (والارض) على سعتها (بالحق) أى بالامر الذى يطابقه الواقع لما أراد (وصوركم) أى آدم عليه السلام خلقه بيده كرامة له قال مقاتل وقيل جميع الخلائق على صور لا توافق شيئا من صور العلويات ولا السفليات ولا فيها صور توافق الاخرى من كل وجه (فاحسن صوركم) فجعلها أحسن الحيوانات كلها كما هو مشاهد وبدليل أن الانسان لا يتمنى أن يكون على خلاف ما يرى من سائر الصور ومن حسن صورته أن خلقه منتصبا غير منكب كما قال تعالى لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم كما يأتى ان شاء الله تعالى (فان قيل) قد يوجد فى افراد هذا النوع من كل مشوه الخلقة سمج الصورة (أجيب) بأنه لا سماجة لان الحسن فى المعانى وهو على طبقات ومراتب فانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقه لا يمنع حسنه فهو داخل فى حيز الحسن غير خارج عن حده فقبح القبيح منه انما هو بالنسبة الى أحسن منه ولذا قال الحكماء شيئان لا غاية لهما الجمال والبيان فقدرة الله سبحانه وتعالى لا تتناهى قال البقاعى فاياك أن تصغى لما وقع فى كتب الغزالى انه ليس فى الامكان أبدع مما كان فان ذلك يصل الى أنه سبحانه لا يقدر أن يخلق أحسن من هذا العالم وهذا لا يقوله أحد اه وهو لا ينقص مقدار الغزالى فان كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه كما قال الامام مالك وعزاه الغزالى نفسه الى ابن عباس رضى الله عنهما وقال الشافعى صنفت هذه الكتب وما ألوت فيها جهدا وانى لاعلم أن فيها الخطأ لان الله تعالى يقول ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا * ولما كان التقدير فكان منه سبحانه المبدأ عطف عليه قوله تعالى (واليه) وحده (المصير) أى المرجع بعد البعث فيجازى كلا بعمله (يعلم) أى علمه حاصل فى الماضى والحال والمآل (ما) أى كل شئ (فى السموات) أى كلها (والارض) كذلك (ويعلم) أى على سبيل الاستمرار (ما تسرون) أى تخفون (وما تعلنون) أى تظهرون من الكليات والجزئيات (والله) أى الذى له الاحاطة التامة (عليم) أى بالغ العلم (بذات) أى صاحبة (الصدور) من الاسرار والخواطر التى لم تبرز فى الخارج سواء كان صاحب الصدر قد علمها أم لا وعلمه لكل ذلك على حد سواء لا تفاوت فيه بين علم الخفى وعلم الجلى نبه بعلمه ما فى السموات والارض ثم بعلم ما يسره العباد ويعلنونه ثم بعلمه ذوات الصدور ان شيأ من الجزئيات والكليات غير خاف عليه ولا عازب عنه ولا يجترأ على شئ مما يخالف رضاه وتكرير العلم فى معنى تكرير الوعيد وكل ما ذكره بعد قوله فمنكم كافر ومنكم مؤمن كما ترى فى معنى الوعيد على الكفر وانكار أن يعصى الخالق ولا تشكر نعمته (ألم يأتكم) أيها الناس ولا سيما الكفار (نبأ) أى خبر (الذين كفروا من قبل) كقوم نوح وهود وصالح (فذاقوا) أى باشروا مباشرة الذائق (وبال أمرهم) أى ضرر كفرهم فى الدنيا وأصله الثقل ومنه الوبيل لطعام يثقل على المعدة والوابل المطر الثقيل القطر (ولهم عذاب أليم)

أى مؤلم فى البرزخ ثم يوم القيامة التى هى موضع الفصل الأعظم (ذلك) أى الأمر العظيم من الوبال الدال قطعا على أن الكفر أبطل الباطل وأنه مما يغضب الخالق (بأنه) أى بسبب ان الشأن العظيم البالغ فى الفظاعة (كانت تأتيهم) على عادة مستمرة (رسلهم) أى رسل الله الذين أرسلهم اليهم (بالبينات) أى الحجج الظاهرات على الايمان (فقالوا) أى الكل لرسلهم منكرين غاية الانكار تكبرا وقولهم (أبشر يهدوننا) يجوز أن يرتفع بشر على الفاعلية ويكون من الاشتغال وهو الارجح لان الاداة تطلب الفعل ويجوز أن يكون مبتدأ وخبرا وجمع الضمير فى يهدوننا اذ البشر اسم جنس وقد يأتى الواحد بمعنى الجمع فيكون اسما للجنس وقد يأتى الجمع بمعنى الواحد كقوله تعالى ما هذا بشرا فانكروا على الملك الاعظم ارساله لهم (فكفروا) أى بهذا القول اذ قالوه استصغارا ولم يعلموا أن الله يبعث من يشاء الى عباده (وتولوا) عن الايمان (فان قيل) قوله تعالى فكفروا تعميم يفهم منه التولى فما الحاجة الى ذكره (أجيب) بأنهم كفروا وقالوا أبشر يهدوننا وهذا فى معنى الانكار والاعراض بالكلية وهذا هو التولى فكأنهم كفروا وقالوا قولا يدل على التولى فلهذا قال فكفروا وتولوا وقيل كفروا بالرسل وتولوا بالبرهان وأعرضوا عن الايمان والموعظة ونبه بقوله تعالى (واستغنى الله) أى الملك الاعظم الذى لا أمر لاحد معه على أن هذا انما هو لمصالح الخلق فهو غنى عن كل شئ (فان قيل) قوله تعالى وتولوا واستغنى الله يوهم وجود التولى والاستغناء معا والله تعالى لم يزل غنيا (اجيب) بأن معناه وظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم الى الايمان ولم يضطرهم اليه مع قدرته على ذلك (والله) اى المستجمع الصفات الكمال (غنى) عن خلقه (حميد) اى محمود فى أفعاله (زعم الذين كفروا) اى اوقعوا الستر لما دلت عليه العقول من وحدانية الله تعالى ولو على أدنى الوجوب وزعم قال ابن عربى كنية الكذب وقال الزمخشرى الزعم ادعاء العلم ومنه قوله عليه الصلاة والسلام زعموا مطية الكذب وعن شريح لكل شئ كنية وكنية الكذب زعموا وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه عند أبى داود بئس مطية الرجل زعموا (أن لن يبعثوا) أى من أى باعث ما بوجه من الوجوه (قل) أى يا أشرف الرسل لهؤلاء البعداء (بلى) أى لتبعثن ثم أكد بصريح القسم فقال (وربى) اى المحسن الى بالانتقام ممن كذب بى (لتبعثن) أى بأهون شئ وأيسر أمر (ثم لتنبؤن) اى تخبرن اخبارا عظيما من يقيمه الله تعالى لاخباركم (بما عملتم) اى بأعمالكم لتجزون عليها (وذلك) اى الامر العظيم عندكم من البعث والحساب (على الله) أى المحيط بصفات الكمال وحده (يسير) اذ الاعادة أسهل من الابتداء (فان قيل) كيف يفيد القسم فى اخباره عن البعث وهم قد أنكروا الرسالة (أجيب) بأنهم أنكروا الرسالة لكنهم يعتقدون انه يعتقد ربه اعتقادا جازما فيعلمون أنه لا يقدم على القسم بربه الا وأن يكون الاخبار عنده صدقا أظهر من الشمس فى اعتقاده ثم انه أكد الخبر باللام والنون فكأنه قسم بعد قسم ثم انه تعالى لما أخبر عن البعث والاعتراف بالبعث من لوازم الايمان قال تعالى (فآمنوا بالله) أى الملك الذى له الاحاطة الكاملة بكل شئ (ورسوله) أى كل من أرسله ولا سيما محمدا صلى الله عليه وسلم (والنور) أى القرآن (الذى أنزلنا)

أى بما الناس من العظمة لأنه نور يهتدى به من ظلمة الضلالة كما يهتدى بالنور فى الظلمات (فان قيل) هلا قيل ونوره بالاضافة كما قال ورسوله (أجيب) بأن الالف واللام فى النور بمعنى الاضافة فكأنه قال ورسوله ونوره (والله) أى المحيط علما وقدرة (بما تعملون خبير) أى بالغ العلم بما تسرون وما تعلنون فراقبوه فى السر والعلانية وقوله تعالى (يوم يجمعكم) منصوب بقوله تعالى لتنبؤن عند النحاس وبخبير عند الحوفى لما فيه من معنى الوعيد كأنه قال والله يعاقبكم يوم يجمعكم وباذكر مضمرا عند الزمخشرى فيكون مفعولا به أو بما دل عليه الكلام أى تتفاوتون يوم يجمعكم قاله أبو البقاء (ليوم الجمع) أى لاجل ما يقع فى ذلك اليوم وهو يوم القيامة الذى يجمع الله تعالى فيه الاولين والآخرين من الانس والجن وجميع أهل السماء والارض وقيل يوم يجمع الله بين كل عبد وعمله وقيل يجمع فيه بين الظالم والمظلوم وقيل يجمع فيه بين كل نبى وأمته وقيل يجمع فيه ثواب أهل الطاعة وعقاب أهل المعاصى بل هو جامع لجميع ما ذكر (ذلك) أى اليوم العظيم (يوم التغابن) والتغابن مستعار من تغابن القوم فى التجارة وهو أن يغبن بعضهم بعضا لنزول السعداء منازل الاشقياء التى كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ونزول الاشقياء منازل السعداء التى كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء وفيه تهكم بالاشقياء لان نزولهم ليس بغبن ولهذا قيل التفاعل هنا من واحد لا من اثنين وفى الحديث ما من عبد أدخل الجنة الا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا وما من عبد يدخل النار الا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة وهو معنى ذلك يوم التغابن وقد يتغابن الناس فى غير ذلك اليوم استعظاما له وأن تغابنه هو التغابن فى الحقيقة لا التغابن فى أمور الدنيا وان جلت وعظمت وذكر فى بعض التفاسير أن التغابن هو أن يكتسب الرجل مالا من غير وجهه ليرثه غيره فيعمل فيه بطاعة الله فيدخل الاول النار والثانى الجنة بذلك المال فذلك هو الغبن البين والمغابن ما انثنى من البدن نحو الابطين والفخذين والمغبون من غبن فى أهله ومنازله فى الجنة ويظهر يومئذ غبن كل كافر بتركه الايمان وغبن كل مؤمن بتقصيره فى الاحسان وبضيعه الايام قال الزجاج ويغبن من ارتفعت منزلته فى الجنة بالنسبة الى من هو أعلى منزلة منه (فان قيل) فأى معاملة وقعت بينهم حتى يقع الغبن فيها (أجيب) بأنه تمثيل للغبن فى الشراء والبيع كقوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم فلما ذكر أن الكفار اشتروا الضلالة بالهدى وما ربحوا فى تجارتهم بل خسروا ذكر أيضا انهم غبنوا وذلك ان أهل الجنة اشتروا الآخرة بترك الدنيا واشترى أهل النار الدنيا بترك الآخرة وهذا نوع مبادلة اتساعا ومجازا وقد فرق الله تعالى الخلق فريقين فريقا للجنة وفريقا للنار وقال الحسن وقتادة بلغنا أن التغابن على ثلاثة أصناف رجل علم علما فضيعه ولم يعمل به فشقى به ورجل علم علما وعمل به فنجا به ورجل اكتسب مالا من وجوه يسأل عنها وشح عليه وفرط فى طاعة ربه بسببه ولم يعمل فيه خيرا وتركه لوارث لا حساب عليه فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه ورجل كان له عبد فعمل ذلك العبد بطاعة ربه فسعد وعمل السيد بمعصية ربه فشقى وروى القرطبى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى يقيم الرجل والمرأة يوم القيامة

بين يديه فيقول الله تعالى لهما قولا ما أتيتما قائلان فيقول الرجل يارب أوجبت نفقتها على فنفقتها من حرام ومن حلال وهؤلاء الخصوم يطلبون ذلك ولم يبق لى ما أوفى فتقول المرأة يارب وما عسى أن يقول اكتسبه حراما وأكلته حلالا وعصاك فى مرضاتى ولم أرض له بذلك فبعدا له وسحقا فيقول الله تعالى قد صدقت فيؤمر به الى النار ويؤمر بها الى الجنة فتطلع عليه من طبقات الجنة فتقول له غبنا السعد نا بما شقيت أنت به فذلك يوم التغابن وقال بعض علماء الصوفية ان الله تعالى كتب الغبن على الخلق أجمعين فلا يلقى أحد ربه الا مغبونا لانه لا يمكنه الاستيفاء للعمل حتى يحصل له استيفاء الثواب قال صلى الله عليه وسلم لا يلقى الله أحد الا نادما ان كان مسيأ ان لم يحسن وان كان محسنا ان لم يزدد * (تنبيه) * استدل بعض العلماء بقوله تعالى ذلك يوم التغابن انه لا يجوز الغبن فى المعاملات الدنيوية لان الله تعالى خصص التغابن بيوم القيامة فقال تعالى ذلك يوم التغابن وهذا الاختصاص يفيد أن لا غبن فى الدنيا فكل من اطلع على غبن فى مبيع فانه مردود اذا زاد على الثلث واختاره البغداديون واحتجوا عليه بقوله صلى الله عليه وسلم لحبان بن منقذ اذا بايعت فقل لا خلابة ولك الخيار ثلاثا ولان الغبن فى الدنيا ممنوع منه بالاجماع فى حكم الدين اذ هو من باب الخداع المحرم شرعا فى كل ملة لكن اليسير منه لا يمكن الاحتراز عنه فمضى فى البيوع اذ لو حكمنا برده ما نفذ بيع أبدا لانه لا يخلو منه فاذا كان كثيرا أمكن الاحتراز عنه فوجب الرد به والفرق بين القليل والكثير فى الشريعة غير معلوم فقدر بالثلث وهذا الحد اعتبره الشارع فى الوصية وغيرها ويكون معنى الآية على هذا يوم التغابن الجائز مطلقا من غير تفصيل وذلك يوم التغابن الذى لا يستدرك أبدا (ومن يؤمن) أى يوقع الايمان ويجدده على سبيل الاستمرار (بالله) أى الملك الاعظم الذى لا كفء له (ويعمل) تصديقا لايمانه (صالحا) أى عملا هو مما ينبغى الاهتمام بتحصيله لانه لا مثل له فى جلب المصالح ودفع المضار (يكفر عنه سيئاته) التى غلبه عليها نقصان الطبع واتبع ذلك الحامل الآخر وهو التوجيه بجلب المسار لان الانسان يطير الى ربه سبحانه بجناحى الخوف والرجاء والرهبة والرغبة والنذارة والبشارة (ويدخله) أى رحمة له واكراما وفضلا (جنات) أى بساتين ذات أشجار عظيمة وأغصان ظليلة تستر داخلها ورياض مديدة متنوعة الازاهير عطرة النشر بهيج ريها وأشار الى دوام ريها بقوله تعالى (تجرى من تحتها) أى من تحت قصورها وأشجارها (الانهار) وقرأ نكفر عنه وندخله نافع وابن عامر بالنون فيهما أى نحن بما لنا من العظمة والباقون بالياء التحتية أى الله الواحد القهار (خالدين) أى مقدرين الخلود (فيها) وأكده بقوله (أبدا) فلا خروج لهم منها (ذلك) أى الامر العالى جدا من الغفران والاكرام (الفوز العظيم) لانه جامع لجميع المصالح ودفع المضار وجلب المسار ومن جملة ذلك النظر الى وجه الله الكريم ولما ذكر تعالى الفائز بلزومه التقوى ترغيبا اتبعه بضده ترهيبا فقال عز من قائل (والذين كفروا) أى غطوا أدلة ذلك اليوم فكانوا فى الظلام (وكذبوا) أى أوقعوا جميع التغطية وجميع التكذيب (بآياتنا) أى بسببها مع ما لها من العظمة باضافتها الينا وهى القرآن

قلم

فلم يعملوا به (أولئك) أى البعداء البغضاء (أصحاب النار خالدين) أى مقدرين الخلود (فيها وبئس المصير) هى قال الرازى فان قيل قال تعالى فى حق المؤمنين ومن يؤمن بالله بلفظ المستقبل وفى الكفار قال والذين كفروا بلفظ الماضى فالجواب أن تقدير الكلام ومن يؤمن بالله من الذين كفروا وكذبوا بآياتنا يدخله جنات ومن لم يؤمن منهم أولئك أصحاب النار اهـ (فان قيل) قال تعالى يؤمن بلفظ الوحدان وخالدين فيها بلفظ الجمع (أجيب) بأن ذلك بحسب اللفظ وهذا بحسب المعنى (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى وبئس المصير بعد قوله تعالى خالدين فيها وذلك بئس المصير (أجيب) بأن ذلك وان كان فى معناه فهو تصريح بما يؤكده كما فى قوله أبدا (ما أصاب) أحدا (من مصيبة) أى مصيبة كانت دينية أو دنيوية فى نفس أو مال أو قول أو فعل تقتضى هما أو توجب عقابا آجلا أو عاجلا (الا باذن الله) أى بتقدير الملك الاعظم وقال الفراء يريد الا بأمر الله وقيل الا بعلم الله وقيل سبب نزول هذه الآية ان الكفار قالوا لو كان ما عليه المسلمون حقا لصانهم الله تعالى عن المصائب فى الدنيا فبين الله تعالى ان ما أصاب من مصيبة الا بقضائه وقدره (فان قيل) بم يتصل قوله تعالى ما أصاب من مصيبة الا باذن الله (أجيب) بأنه يتعلق بقوله تعالى فآمنوا بالله ورسوله (ومن يؤمن بالله) يصدق بأنه لا تصيبه مصيبة الا بقضاء الله الملك الاعظم وتقديره واذنه (يهد قلبه) قال ابن عباس رضى الله عنهما هو أن يجعل فى قلبه اليقين حتى يعلم ان ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه أى فيسلم لقضاء الله وقدره وقال الكلبى هو اذا ابتلى صبر واذا أنعم عليه شكر واذا ظلم غفر وقيل يهد قلبه الى نيل الثواب فى الجنة وقيل يثبته على الايمان وقال أبو عثمان الحيرى من صح ايمانه يهد الله قلبه لاتباع السنة وقيل يهد قلبه عند المصيبة فيقول انا لله وانا اليه راجعون قاله ابن جبير (والله) أى الملك الذى لا نظير له (بكل شئ) مطلقا من غير استثناء (عليم) فلا يخفى عليه تسليم من انقاد لامره فاذا تحقق من هدى قلبه ذلك زاح عنه كل اعتقاد باطل من كفر أو بدعة أو صفة خبيثة (وأطيعوا الله) أى الملك الاعلى الذى له الامر كله (وأطيعوا الرسول) أى هونوا على أنفسكم المصائب واشتغلوا بطاعة الله تعالى واعملوا بكتابه وأطيعوا الرسول فى العمل بسنته (فان توليتم) أى عن الطاعة (فانما على رسولنا) أضافه اليه على وجه الكمال تعظيما له وتهديدا لمن يتولى عنه (البلاغ المبين) أى الظاهر فى نفسه المظهر لكل أحد انه أوضح له غاية الايضاح ولم يدع لبسا وليس اليه خلق الهداية فى القلوب (الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال (لا اله الا هو) فهو القادر على خلق الهداية فى القلوب والاقبال بها لا يقدر على ذلك غيره (وعلى الله) أى الذى له الامر لا على غيره (فليتوكل المؤمنون) أى لان ايمانهم بأن الكل منه يقتضى ذلك وقال الزمخشرى هذا بعث لرسول الله صلى الله عليه وسلم على التوكل عليه والتقوى به فى أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم) أى وان أظهرن غاية المودة (وأولادكم) أى وان أظهروا غاية الشفقة (عدوا لكم) فقال ابن عباس نزلت بالمدينة فى عوف بن مالك

الاشجعي شكا الى النبي صلى الله عليه وسلم جفاء أهله وولده فنزلت ذكره النحاس وحكاه الطبري عن عطاء بن يسار قال نزلت سورة التغابن كلها بمكة الا هؤلاء الآيات يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فانها نزلت في عوف بن مالك الاشجعي كان ذا أهل وولد وكان اذا أراد الغزو بكوه ورققوه وقالوا الى من تدعنا فيرق فيقيم فنزلت هذه الآية الى آخر السورة بالمدينة وروى الترمذي عن ابن عباس وسئل عن هذه الآية قال هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فلما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم رأوا الناس قد تفقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله تعالى هذه الآية حديث حسن صحيح وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الشيطان قعد لابن آدم في طريق الايمان فقال له أتؤمن وتذر دينك ودين آبائك فخالفه فآمن ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له أتهاجر وتترك أهلك ومالك فخالفه فهاجر ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له أتجاهد فتقتل نفسك فتنكح نساؤك ويقسم مالك فخالفه فجاهد فقتل فحق على الله أن يدخله الجنة وقعود الشيطان يكون بوجهين أحدهما يكون بالوسوسة والثاني أن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب قال تعالى وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وفي حكمة عيسى عليه الصلاة والسلام من اتخذ أهلا ومالا وولدا كان في الدنيا عبدا وقال عليه الصلاة والسلام تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس عبد القطيفة ولا دناءة أعظم من دناءة الدينار والدرهم ولا أخس من همة ترتفع بثوب جديد ويدخل في قوله تعالى ان من أزواجكم الذكر والانثى فكما أن الرجل تكون زوجته عدوا له كذلك المرأة يكون زوجها عدوا لها بهذا المعنى (فاحذروهم) أي أن تطيعوهم في التخلف عن الخير ولا تأمنوا غوائلهم (وان تعفوا) أي توقعوا المجاوزة عن ذنوبهم بعدم العقاب عليها فانه لا فائدة في ذلك فان من طبع على شئ لا يرجع عنه وانما النافع الحذر الذي أرشد اليه تعالى لئلا يكون سببا للذم المنهي عنه (وتصفحوا) أي بالاعراض عن المقابلة بالتثريب باللسان (وتغفروا) أي بأن تستروا ذنوبهم سترا تاما شاملا للعين والاثر بالتجاوز (فان الله) أي الجامع لصفات الكمال (غفور) أي بالغ المحو لاعيان الذنوب وآثارها جزاء لكم على غفرانكم لهم وهو جدير بان يصلحهم لكم بسبب غفرانكم (رحيم) فيكرمكم بعد ذلك الستر بالانعام فتخلقوا بأخلاقه تعالى يزدكم من فضله (انما أموالكم) أي عامة (وأولادكم) كذلك (فتنة) أي اختبار من الله تعالى لكم وهو أعلم بما في نفوسكم منكم لكي ليظهر في عالم الشهادة من يعله ذلك فيكون عليه نقمة ممن لا يعله فيكون عليه نعمة فربما رام الانسان صلاح ماله وولده فبالغ فأفسد نفسه ثم لا يصلح ذلك ماله ولا ولده روى أبو نعيم في الحلية في ترجمة سفيان الثوري رضي الله عنه أنه قال يؤتى برجل يوم القيامة فيقال أكل عياله حسناته وعن بعض السلف العيال سوس الطاعات ويكفي في فتنة المال قصة ثعلبة بن حاطب أحد من نزل فيه قوله تعالى ومنهم من عاهد الله وعن ابن

سعود لا يقولن أحدكم اللهم اعصمني من الفتنة فانه ليس أحد منكم يرجع الى مال ولا ولد الا وهو مشتمل على فتنة ولكن ليقل اللهم انى أعوذ بك من مضلات الفتن وقال الحسن فى قوله تعالى ان من أزواجكم وأولادكم أدخل من للتبعيض لانهم كلهم ليسوا اعداء ولم يذكر فى قوله تعالى انما أموالكم وأولادكم فتنة لانهم لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما روى الترمذى وغيره عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يخطب فجاء الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما وعليهما قميصان أحمران يعثران ويعثران فنزل صلى الله عليه وسلم فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال صدق الله عز وجل انما أموالكم وأولادكم فتنة نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما ثم أخذ فى خطبته * (تنبيه) * قدم الاموال على الاولاد لان فتنة المال أكثر وترك ذكر الازواج فى الفتنة قال البقاعى لان منهن من يكون صلاحا وعونا على الآخرة (والله) أى ذو الجلال (عنده) وناهيك بما يكون منه بسبيل جلاله وعظمته (أجر) ثم وصفه بقوله تعالى (عظيم) أى لمن ائتمر بأوامره التى أمره بها وقوله تعالى (فاتقوا الله) أى الملك الاعلى (ما استطعتم) أى جهدكم ووسعكم ناسخ لقوله تعالى اتقوا الله حق تقاته قاله قتادة والربيع ابن أنس والسدى وذكر الطبرى عن ابن زيد فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته قال جاء أمر شديد قال ومن يعرف قدر هذا ويبلغه فلما علم الله تعالى أنه قد اشتد عليهم نسخه عنهم وجاء بهذه الآية الاخرى فقال فاتقوا الله ما استطعتم وقال ابن عباس وهى محكمة لا نسخ فيها ولكن حق تقاته أن يجاهدوا فيه حق جهاده ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم (فان قيل) اذا كانت الآية غير منسوخة فكيف الجمع بين الآيتين وما وجه الامر باتقائه حق تقاته مطلقا من غير تخصيص ولا مشروطا بشرط والامر باتقائه بشرط الاستطاعة (أجيب) بأن قوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم معناه فاتقوا الله أيها الناس وراقبوه فيما جعله فتنة لكم من أموالكم وأولادكم أن تغلبكم فتنتهم وتصدكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من أرض الكفر الى أرض الاسلام فتتركوا الهجرة وأنتم مستطيعون وذلك أن الله تعالى قد عذر من لم يقدر على الهجرة بتركها بقوله تعالى ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم الى قوله تعالى فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم فأخبر تعالى انه قد عفا عمن لا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلا بالاقامة فى دار الشرك فكذلك معنى قوله تعالى ما استطعتم فى الهجرة من دار الشرك الى دار الاسلام أن تتركوها فتنة أموالكم وأولادكم ويدل على صحة هذا أن قوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم عقب قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ولا خلاف بين علماء التأويل فى أن هذه الآيات نزلت بسبب قوم كفار تأخروا عن الهجرة من دار الشرك الى دار الاسلام بتثبيط أولادهم اياهم عن ذلك كما تقدم وهذا اختيار الطبرى وقال ابن جبير قوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم أى فيما تطوع به من نافلة أو صدقة فانه لما نزل

قوله تعالى اتقوا الله حق تقاته اشتدت على القوم فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وقرحت جباههم فأنزل الله تعالى تخفيفا فيهم فاتقوا الله ما استطعتم فنسخت الاولى قال الماوردى ويحتمل أن يثبت هذا النقل لان المكره على المعصية غير مؤاخذ بها لانه لا يستطيع اتقاءها (واسمعوا) أى سماع اذعان وتسليم لما توعظون به وجميع أوامره (وأطيعوا) أى وصدقوا ذلك الاذعان بمباشرة الافعال الظاهرة فى الاسلاميات من القيام بأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله فى كل أمر ونهى على حسب الطاقة وحذف المتعلق ليصدق الامر بكل طاعة (وأنفقوا) أى أوقعوا الانفاق كما حد لكم فيما وجب أو ندب اليه والانفاق لا يخص نوعا بل يكون بكل ما رزق الله من الذاتى والخارجى وقوله تعالى (خيرا لانفسكم) فى نصبه أوجه أحدها قال سيبويه انه مفعول بفعل مقدر دل عليه وأنفقوا تقديره قدموا خيرا لانفسكم كقوله تعالى انتهوا خيرا لكم الثانى تقديره يكن الانفاق خيرا فهو خبر كان المضمرة وهو قول أبى عبيدة الثالث أنه نعت مصدر محذوف وهو قول الكسائى والفراء أى انفاقا خيرا لانفسكم فان الله يعطى خيرا منه فى الدنيا مع ما تزكى به النفس ويدخر عليه من الجزاء فى الآخرة مما لا يدرى كنهه فلا يغرنكم عاجل شئ من ذلك فانما هو زخرف * ولما ذكر ما فى الانفاق من الخير عم فى جميع الاوامر بقوله تعالى (ومن يوق شح نفسه) فيفعل فى ماله جميع ما أمر به موقنا به مطمئنا اليه حتى يرتفع عن قلبه الاخطار ويتحرر عن رق المكونات والشح خلق باطنى هو الداء العضال والبخل فعل ظاهر ينشأ عن الشح والنفس تارة تشح بترك الشهوة من المعاصى فتفعلها وتارة باعطاء الاعضاء فى الطاعات فتتركها وتارة بانفاق المال ومن فعل ما فرض عليه خرج من الشح * ولما كان الواقى هو الله تعالى سبب عن وقايته قوله تعالى (فأولئك) أى العالو الرتبة (هم المفلحون) أى الفائزون الذين حازوا جميع المرادات بما اتقوا الله فيه ثم رغب فى الانفاق بقوله تعالى (ان تقرضوا الله) أى الملك الاعلى ذا الغنى المطلق الحائز لجميع صفات الكمال (قرضا حسنا) والقرض الحسن هو التصدق من الحلال مع طيب النفس ومع الاخلاص والمبادرة (يضاعفه لكم) أى لاجلكم خاصة أقل ما يكون بالواحد عشرا الى ما لا يتناهى على حسب النيات قال القشيرى يتوجه الخطاب بهذا على الاغنياء فى بذل أموالهم وعلى الفقراء فى اخلاء أيامهم وأوقاتهم من مرادتهم وايثار مراد الحق على مراد أنفسهم فالغنى يقال له آثر حكمى على مرادك فى مالك وغيره والفقير يقال له آثر حكمى فى نفسك وقلبك ووقتك * ولما كان الانسان لما له من النقصان وان اجتهد لا يبلغ جميع ما أمر به لان الدين وان كان يسيرا فهو متين لن يشاده أحد الا غلبه قال تعالى (ويغفر لكم) أى يوقع الغفران وهو محو ما فرط عينه وأثره (والله) أى الذى لا تقاس عظمته بشئ (شكور) أى بليغ الشكر لمن يعطى لاجله ولو كان قليلا فيثيبه ثوابا جزيلا خارجا عن الحصر وهو ناظر الى المضاعفة (حليم) فلا يعجل بالعقوبة على ذنب من الذنوب وان عظم بل يمهل طويلا ليتذكر العبد الاحسان مع العصيان فيتوب ولا يهمل ولا يغتر بحلمه فان غضب الحليم لا يطاق وهو

راجع الى الغفران (عالم الغيب) وهو ماغاب عن الخلق كلهم فيشمل ماهو داخل القلب مما تؤثره الجبلة ولا علم لصاحب القلب به فضلا عن غيره (والشهادة) وهو كل ماظهر وكان بحيث يعلمه الخلق وهذا الوصف داع الى الاحسان من حيث انه موجب للمؤمن ترك ظاهر الاثم وباطنه وكل قصور وفتور وغفلة وتهاون فيعبد الله تعالى كأنه يراه (العزيز) أى الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الحكيم) أى بالغ الحكمة التى يعجز عن ادراكها الخلائق وقال ابن الانبارى الحكيم هو المحكم لخلق الاشياء فصرف عن مفعل الى فعيل ومنه قوله تعالى الم تلك آيات الكتاب الحكيم معناه المحكم فصرف عن مفعل الى فعيل وماقاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة التغابن رفع عنه موت الفجأة حديث موضوع

(سورة الطلاق مدنية)

وهى احدى عشرة آية وقيل اثنتا عشرة آية وقيل ثلاث عشرة آية ومائتان وتسع وأربعون كلمة وألف وستون حرفا

(بسم الله) الذى له جميع صفات الكمال (الرحمن) الذى عم برحمته والنوال (الرحيم) الذى خص بتمام النعمة ذوى الهمم العوال وقرأ (يا أيها النبي) نافع بالهمزة وسهل الهمزة من اذا وأبدلها أيضا واوا وخصه صلى الله عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب لان النبى امام أمته وقدوتهم كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم يافلان افعلوا كيت وكيت اظهارا لتقدمته واعتبارا لرآسته وانه لسان قومه والذى يصدرون عن رأيه ولا يستبدون بأمر دونه فكان هو وحده فى حكم كلهم وسادا مسد جميعهم وقيل انه على اضمار قول أى يا أيها النبى قل لامتك (اذا طلقتم النساء) أى أردتم طلاق هذا النوع واحدة منهن فأكثر وقيل انه خطاب له ولامته والتقدير يا أيها النبى وأمته فحذف المعطوف لدلالة مابعده عليه كقوله اذا حذفته رجلها أى ويدها وكقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر وقيل انه خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم خوطب بلفظ الجمع تعظيما له كقوله

فان شئت حرمت النساء سواكم * وان شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

قال الرازى وجه تعلق أول هذه السورة بآخر التى قبلها هو أنه تعالى أشار فى آخر التى قبلها الى كمال علمه بقوله تعالى عالم الغيب والشهادة وفى أول هذه السورة اشارة الى كمال علمه بمصالح النساء والاحكام المخصوصة بطلاقهن فكأنه بين ذلك الكلى بهذه الجزئيات وروى ابن ماجه عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ثم راجعها وعن أنس قال طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة فأتت أهلها فأنزل الله تعالى يا أيها النبى اذا طلقتم النساء وقيل له راجعها فانها صوامة قوامة وهى من أزواجك فى الجنة ذكره الماوردى والقشيرى وزاد القشيرى ونزل فى خروجها الى أهلها قوله تعالى لا تخرجوهن من بيوتهن وقال الكلبى سبب نزول هذه الآية غضب رسول الله صلى الله عليه

وسلم على حفصة لما أسر اليها حديثا فاظهرته لعائشة فطلقها تطليقة فنزلت وقال السدى نزلت في عبد الله بن عمر طلق امرأته حائضا تطليقة واحدة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بأن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر فان شاء أمسكها وان شاء طلقها قبل أن يجامع فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء وهو قوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) أى فى الوقت الذى يشرعن فيه فى العدة وقد قيل ان رجالا فعلوا مثل مافعل عبد الله بن عمر منهم عبد الله بن عمرو بن العاص وعمر بن سعيد بن العاص وعتبة بن غزوان فنزلت الآية فيهم وروى الدارقطنى عن ابن عباس أنه قال الطلاق على أربعة وجوه وجهان حلالان ووجهان حرامان فأما الحلال فأن يطلقها طاهرا عن غير جماع وأن يطلقها حاملا مستبينا حملها وأما الحرام فأن يطلقها حائضا أو أن يطلقها حين يجامعها لا يدرى اشتمل الرحم على ولد أم لا *(تنبيه)* الطلاق ينقسم الى سنى وبدعى ولا ولا فطلاق موطوأة ولو فى دبر تعتد باقراء سنى ان ابتدأتها الاقراء عقب الطلاق ولم يطأها فى طهر طلقها فيه أو علق طلاقها بمضى بعضه ولا وطئها فى نحو حيض قبله ولا فى نحو حيض طلق مع آخره أو علق بآخره وذلك لاستعقابه الشروع فى العدة وعدم الندم فيمن ذكرت والا فبدعى وان سألته طلاقا بلا عوض وطلاق غير الموطوأة المذكورة بأن لم توطأ أو كانت صغيرة أو آيسة أو حاملا منه وخلع زوجته فى زمن حيض بعوض لاسنى ولا بدعى والبدعى حرام للنهى عنه وقسم جماعة الطلاق الى واجب كطلاق المولى أى واجب مخير ان لم يكن عذر ومعين ان كان عذر شرعى كالاحرام ومندوب كطلاق غير مستقيمة الحال كسيئة الخلق ومكروه كمستقيمة الحال وحرام كطلاق البدعة وأشار الامام الى المباح بطلاق من لا يهواها ولا تسمح نفسه بمؤنتها من غير تمتع بها وروى الثعلبى من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من أبغض الحلال الى الله الطلاق وعن على عن النبى عليه الصلاة والسلام قال تزوجوا ولا تطلقوا فان الطلاق يهتز منه العرش وعن أبى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يامعاذ ما خلق الله تعالى شيأ على وجه الارض أحب اليه من العتاق ولا خلق الله تعالى شيأ أبغض اليه من الطلاق وعن معاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحل الله شيأ أبغض اليه من الطلاق واختلفوا فى الاستثناء فى الطلاق والعتق فقالت طائفة بجوازه وهو مروى عن طاوس وبه قال حماد الكوفى والشافعى وأبو ثور وأصحاب الرأى وقال مالك والاوزاعى لا يجوز الاستثناء فى الطلاق والعتق وقال قتادة لا يجوز الاستثناء فى الطلاق خاصة قال ابن المنذر وبالقول الاول أقول * ولما كان نظر الشارع الى العدة شديدا صرح بصيغة الامر فقال تعالى (وأحصوا) أى اضبطوا ضبطا كانه فى اتقانه محسوس (العدة) ليعرف زمان الرجعة والنفقة والسكنى وحل النكاح لاخت المطلقة مثلا ونحو ذلك من الفوائد الجليلة (واتقوا) أى فى ذلك (الله) أى الملك الاعظم الذى له الخلق والامر (ربكم) أى لاحسانه فى تربيتكم فى حملكم على الحنيفية السمحة ورفع جميع الآصار عنكم (لا تخرجوهن) أى أيها الرجال

فى حال العدة (من بيوتهن) أى المساكن التى وقع الفراق فيها وهى مساكنهن التى يسكنها قبل العدة وهى بيوت الازواج وأضيفت اليهن لاختصاصها بهن من حيث السكنى وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء الموحدة والباقون بكسرها (ولا يخرجن) أى من بيوتهن حتى تنقضى عدتهن ولو وافق الزوج على ذلك وعلى الحاكم المنع منه لان فى العدة حقا لله تعالى وقد وجبت فى ذلك المسكن وقوله تعالى (الا أن يأتين بفاحشة مبينة) مستثنى من الاول والمعنى الا أن تبذو على الزوج فانه كالنشوز فى اسقاط حقها وقال ابن عباس الفاحشة المبينة أن تبذو على أهل زوجها فيحل اخراجها لسوء خلقها وقال ابن مسعود أراد بالفاحشة المبينة أن تزنى فتخرج لاقامة الحد عليها ثم ترد الى منزلها وقال قتادة الفاحشة النشوز وذلك أن يطلقها على النشوز فتحول عن بيته ويجوز أن يكون مستثنى من الثانى للمبالغة فى النهى والدلالة على أن خروجها فاحشة هذا كله عند عدم العذر أما العذر كشراء غير من لها نفقة على المفارق نحو طعام كقطن وكتان نهارا وغزلها ونحوه كحديثها وتأنيسها عند جارتها ليلا وترجع وتبيت ببيتها فانه جائز للحاجة الى ذلك وكخوف على نفس أو مال من نحو هدم وغرق وفسقة مجاورين لها وشدة تأذيها بجيران وشدة تأذيهم بها للحاجة الى ذلك بخلاف الاذى اليسير اذ لا يخلو منه أحد ومن الجيران الاحماء وهم أقارب الزوج نعم ان اشتد أذاها بهم أو عكسه وكانت الدار ضيقة نقلهم الزوج عنها وخرج بالجيران مالو طلقت بيت أبويها وتأذت بهما أو هما بها فلا نقل لان الوحشة لا تطول بينهما ولو انتقلت لبلد أو مسكن باذن زوجها فوجبت العدة ولو قبل وصولها اليه اعتدت فيه لانها مأمورة بالمقام فيه فان انتقلت لذلك بلا اذن فتعتد فى الاول وان وجبت العدة بعد وصولها الثانى لعصيانها بذلك نعم ان أذن لها بعد انتقالها أن تقيم فى الثانى فكما لو انتقلت بالاذن ولو أذن لها فى الانتقال فوجبت العدة قبل خروجها اعتدت فى الاول ولو سافرت باذن زوجها فوجبت فى الطريق فعودها أولى من مضيها فان مضت وجب عودها بعد انقضاء حاجتها ان سافرت لها أو بعد انقضاء مدة الاذن ان قدر لها مدة أو مدة اقامة المسافر ان لم تقدر لها مدة فى سفر غير حاجتها ولو خرجت فطلقها وقال ما أذنت فى الخروج أو قال وقد قالت أذنت فى نقلى أذنت لا للنقلة صدق بيمينه ولو كان المسكن ملكا له ويليق بها تعين لان تعتد فيه كما مر ويصح بيعه فى عدة أشهر كالمكترى أو كان مستعارا أو مكرى وانقضت مدة الكراء انتقلت منه ان امتنع المالك وان كان ملكا لها تخيرت بين الاستمرار فيه باعارة أو اجارة والانتقال منه كما لو كان المسكن خسيسا ويخيرهو ان كان نفيسا وسكنى المعتدة عن فرقة واجب على الزوج حيث تجب نفقتها عليه لو لم تفارق سواء أكانت الفرقة بطلاق أو فسخ أو وفاة لقوله تعالى اسكنوهن من حيث سكنتم وقيس به الفسخ بأنواعه بجامع فرقة النكاح فى الحياة ولخبر فريعة بنت مالك فى الوفاة ان زوجها قتل فسألت النبى صلى الله عليه وسلم أن ترجع الى أهلها وقالت ان زوجى لم يتركنى فى منزل يملكه فأذن لها فى الرجوع قالت فانصرفت حتى اذا كنت فى الحجرة أو فى المسجد دعانى فقال اسكنى فى بيتك

حتى يبلغ الكتاب أجله قالت فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرا صححه الترمذي وغيره وقرأ ابن كثير وأبو بكر بفتح الياء التحتية والباقون بكسرها (وتلك) أى الاحكام العالية جدا لما فيها من الجلالة وبانتسابها الى الملك الاعلى من هذا الذى ذكر فى هذه السورة وغيرها (حدود الله) أى الملك الاعظم (ومن يتعد) اى يقع منه فى وقت من الاوقات انه تعمد أن يعدو (حدود الله) أى الملك الذى لا كفء له أو بعضها كأن طلق بدعيا (فقد ظلم نفسه) أى عرضها للعقاب وقرأ قالون وابن كثير وعاصم باظهار الدال عند الظاء والباقون بالادغام (لاتدرى) أى النفس أو أنت يا أيها النبى أو المطلق (لعل الله) أى الذى بيده القلوب ومقاليد جميع الامور (يحدث) أى يوجد شيأ حادثا لم يكن ايجادا ثابتا لا تقدر الخلق على التسبب فى زواله (بعد ذلك) أى الحادث من الاساءة والبغض (أمرا) بأن يقلب قلبه من بغضها الى محبتها ومن الرغبة عنها الى الرغبة فيها ومن عزيمة الطلاق الى الندم عليه فيراجعها وقال أكثر المفسرين أراد بالامر هنا الرغبة فى الرجعة ومعنى الكلام التحريض على طلاق الواحدة والنهى عن الثلاث وهذا أحسن الطلاق وأحله فى السنة وأبعده عن الندم ويدل عليه ماروى عن ابراهيم النخعى ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون ان لا يطلقوا للسنة الا واحدة ثم لا يطلقون غير ذلك حتى تنقضى العدة وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثا فى ثلاثة أطهار وقال مالك بن أنس لا أعرف طلاق السنة الا واحدة وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو مفرقة وأما أبو حنيفة وأصحابه فانما كرهوا مازاد على الواحدة فى طهر واحد فأما مفرقا فى الاطهار فلا لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عمر حين طلق امرأته وهى حائض ماهكذا أمر الله انما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا وتطلقها لكل قرء تطليقة وروى أنه قال لعمر مر ابنك فليراجعها ثم ليدعها تحيض ثم تطهر ثم ليطلقها ان شاء فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء وعند الشافعى لا بأس بارسال الثلاث وقال لا أعرف فى عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح ومالك يراعى فى طلاق السنة الواحدة والوقت وأبو حنيفة يراعى التفريق والوقت والشافعى يراعى الوقت وحده قال الزمخشرى (فان قلت) هل يقع الطلاق المخالف للسنة (قلت) نعم وهو آثم لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن رجلا طلق امرأته ثلاثا بين يديه فقال أتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم وفى حديث ابن عمر أنه قال يارسول الله أرأيت لو طلقتها ثلاثا فقال له اذا عصيت وبانت منك امرأتك وعن عمر رضى الله عنه أنه كان لا يؤتى برجل طلق امرأته ثلاثا الا أوجعه ضربا وأجاز ذلك عليه وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين ان من خالف السنة فى الطلاق فأوقعه فى حيض أو ثلث لم يقع وشبهوه بمن وكل غيره بطلاق السنة فخالف (فان قيل) قوله تعالى اذا طلقتم النساء عام يتناول المدخول بهن وغير المدخول بهن من ذوات الاقراء والآيسات والصغائر والحوامل فكيف صح تخصيصه بذوات الاقراء المدخول بهن (أجيب) بأنه لا عموم ثم ولا خصوص ولكن النساء اسم جنس للاناث من الانس وهذه الجنسية معنى قائم فى كلهن

وفى بعضهنّ مجازأن يراد بالنساء هذا وذاك فلما قيل فطلقوهن لعدتهنّ علم أنه أطلق على بعضهنّ وهنّ المدخول بهنّ من المعتدات بالحيض * ولما حدّ سبحانه مايفعل فى العدّة أتبعه مايفعل عند انقضائها بقوله تعالى (فاذا بلغن) أى المطلقات (أجلهنّ) أى شارفن انقضاء العدّة مشارفة عظيمة (فأمسكوهنّ) أى بالمراجعة وهذا يدل على أنّ الاولى من الطلاق مادون البائن لاسيما الثلاث (بمعروف) أى حسن عشرة لالقصد المضارة بطلاق آخر لاجل ايجاب عدّة أخرى أوغيرذلك (أوفارقوهنّ) بعدم المراجعة لتتم العدّة فتملك نفسها (بمعروف) أى بايفاء الحق مع حسن الكلام وكل أمر حسنه الشرع فلا يقصد أذاها بتفريقها عن ولدها مثلا أوعنه ان كانت عاشقة له لقصد الاذى فقط من غيرمصلحة وكذا ماأشبه ذلك من أنواع الضرر بالفعل والقول فقد تضمنت الآية بافصاحها الحث على فعل الخيرات وبافهامها اجتناب المنكرات *(تنبيه)* قال بعض العلماء فى قوله تعالى فأمسكوهنّ بمعروف أوفارقوهنّ بمعروف وقوله تعالى فامساك بمعروف أوتسريح باحسان انّ الزوج له حق فى بدن الزوجة ولها حق فى بدنه وذمته فكل من له دين فى ذمة غيره سواء أكان مالا أومنفعة من ثمن أومثمن أوأجرة أوبدل متلف أوضمان مغصوب أونحو ذلك فعليه أن يؤدّى ذلك الحق الواجب باحسان وعلى صاحب الحق أن يتبع باحسان كما قال تعالى فى آية القصاص فمن عفى له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان وكذا الحق الثابت فى بدنه مثل حق الاستمتاع والاجارة على عينه ونحو ذلك فالطالب يطلب بمعروف والمؤدّى يؤدّى باحسان * ولما كان الاشهاد أقطع للنزاع قال تعالى حاثا على الكيس واليقظة والبعد عن أفعال المغفلين العجزة (وأشهدوا) أى على الرجعة أوالمفارقة وقيل المعنى واشهدوا عند الرجعة والفرقة جميعا (ذوى عدل منكم) قطعا للنزاع وهذا الاشهاد مندوب اليه عند الجمهور كقوله تعالى واشهدوا اذا تبايعتم وأوجب الاشهاد فى الرجعة الامام أحمد فى احدى الروايتين عنه والشافعى كذلك لظاهر الامر وقال مالك وأبو حنيفة وأحمد والشافعى فى القول الآخر انّ الرجعة لاتفتقر الى القبول فلم تفتقر الى الاشهاد كسائر الحقوق واذا جامع أوقبل أوباشر يريد بذلك الرجعة فليس براجع وقال أبو حنيفة وأصحابه اذا قبل أوباشر أولمس بشهوة فهو رجعة وكذا النظر الى الفرج رجعة وقال الشافعى وأبو ثور اذا تكلم بالرجعة فهى رجعة وقيل وطؤه مراجعة على كل حال نواها أولم ينوها وهو مذهب أحمد واليه ذهب الليث وبعض المالكية قال القرطبى وكان مالك يقول اذا وطئ ولم ينو الرجعة فهو وطء فاسد ولايعود الى وطئها حتى يستبرئها من مائه الفاسد وله الرجعة فى بقية العدّة الاولى وليست له الرجعة فى هذا الاستبراء *(تنبيه)* قوله تعالى منكم قال الحسن من المسلمين وعن قتادة من أحراركم وذلك يوجب اختصاص الشهادة على الرجعة بالذكور دون الاناث لانّ ذوى للمذكر وقوله تعالى (وأقيموا) أى أيها المأمورون حيث كنتم شهودا (الشهادة) التى تحملتموها بأدائها على أكمل أحوالها (لله) أى مخلصين لوجه الملك الاعلى لا لاجل المشهود له والمشهود عليه ولاشئ سوى وجه الله تعالى

وفيه حث على أداء الشهادة لما فيه من العسر على الشاهد بترك مهماته وعسر لقاء الحاكم الذى يؤدى عنده وربما بعد مكانه وكان للعدل فى الاداء وأتق أيضا (ذلكم) أى الذى ذكرت لكم أيتها الامة من هذه الامور البديعة النظام العالية المرام وأولاها بذلك هذا الاشهاد وإقامة الشهادة (يوعظ) أى يلين ويرق (به من كان) أى كونا راسخا من جميع الناس (يؤمن بالله) أى الذى له الكمال كله (واليوم الآخر) فانه المحط الاعظم للترقيق وأما من لم يكن متصفا بذلك فكأنه لقساوة قلبه ما وعظ به لانه لم ينتفع به وقوله تعالى (ومن يتق الله) أى يخف الملك الاعظم فيجعل بينه وبين ما يسخطه وقاية بما يرضيه وهو اجتلاب ما أمر به واجتناب ما نهى عنه من الطلاق وغيره ظاهرا أو باطنا لان التقوى اذا انفردت فى القرآن عن مقارن عمت الامر والنهى وان اقترنت بغيرها نحو احسان أو رضوان خصت المناهى (يجعل) أى بسبب التقوى (له مخرجا) جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق بالوعد على اتقائه عما نهى عنه صريحا أو ضمنا من الطلاق فى الحيض والاضرار بالمعتدة واخراجها من المسكن وتعدى حدود الله تعالى روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عمن طلق ثلاثا أو ألفا هل له من مخرج فتلاها وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما والشعبى والضحاك هذا فى الطلاق خاصة أى من طلق كما أمره الله تعالى يكن له مخرج فى الرجعة فى العدة وأن يكون كأحد الخطاب بعد العدة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أيضا يجعل له مخرجا ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة وقيل المخرج هو أن يقنعه الله بما رزقه قاله على بن صالح وقال الكلبى ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجا من النار الى الجنة وقال الحسن مخرجا مما نهى الله عنه وقال أبو العالية مخرجا من كل شدة وقال الربيع بن خيثم مخرجا من كل شئ ضاق على الناس وقال الحسين بن الفضل ومن يتق الله فى أداء الفرائض يجعل له مخرجا من العقوبة (ويرزقه) أى الثواب (من حيث لا يحتسب) أى يبارك له فيما آتاه وقال سهل بن عبد الله ومن يتق الله فى اتباع السنة يجعل له مخرجا من عقوبة البدع ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب وقال أبو سعيد الخدرى ومن تبرأ من حوله وقوته بالرجوع الى الله تعالى يجعل له مخرجا مما كلفه الله بالمعونة له وتأول ابن مسعود ومسروق الآية على العموم وهذا هو الذى يقوى عندى وقال أبو ذر قال النبى صلى الله عليه وسلم انى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم وتلا ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب قال مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة وقال أكثر المفسرين نزلت فى عوف بن مالك الاشجعى أسر المشركون ابناله يسمى سالما فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتكى اليه الفاقة وقال ان العدو أسر ابنى وجزعت الام فما تأمرنى فقال صلى الله عليه وسلم اتق الله واصبر وآمرك واياها أن تكثرا من قول لا حول ولا قوة الا بالله فعاد الى بيته وقال لامرأته ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى واياك أن نكثر من قول لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فقالت نعم ما أمرنا به فجعلا يقولان فغفل العدو عن ابنه فساق غنمهم وجاء بها الى المدينة وهى أربعة آلاف شاة فنزلت الآية وجعل النبى صلى الله عليه وسلم تلك الاغنام له وروى

قوله وأن يكون كأحد الخطاب هكذا فى النسخ والظاهر ويكن الخ اه

أنه جاء وقد أصاب ابلا من العدو وكان فقيرا فقال الكلبي انه أصاب خمسين بعيرا وفي رواية فأفلت ابنه من الاسر وركب ناقة لقوم فمر بسرح لهم فاستاقه وقال مقاتل أصاب غنما ومتاعا فقال أبوه للنبي صلى الله عليه وسلم أيحل لي أن آكل مما أتى به ابني قال نعم ونزل ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وروى الحسن عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من انقطع الى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها وقال الزجاج اى اذا اتقى وآثر الحلال والصبر على أهله فتح الله عليه ان كان ذا ضيقة ورزقه من حيث لا يحتسب وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب (ومن يتوكل) أي يسند أموره كلها معتمدا فيها (على الله) أي الملك الذي بيده كل شئ ولا كفء له (فهو) أي الله في غيبه فضلا عن الشهادة بسبب توكله (حسبه) اى كافيه ما أهمه وحذف المتعلق للتعميم وحرف الاستعلاء للاشارة الى أنه كان حمل أموره كلها عليه سبحانه لانه القوى العزيز الذي يدفع عنه كل ضار ويجلب له كل سار الى غير ذلك من المعاني الكبار فلا يبدوله في عالم الشهادة شئ يشينه وقيل من اتقى الله وجانب المعاصي وتوكل عليه فله فيما يعطيه في الآخرة من ثوابه كفايته ولم يرد الدنيا لان المتوكل قد يصاب في الدنيا وقد يقتل وفي الحديث لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ويؤخذ من هذا أن التوكل يكون مع مباشرة الاسباب لانه صلى الله عليه وسلم قال تغدو وتروح وهي من المقامات العظيمة قال البقاعي نقلا عن المولوي والا كان اتكالا وليس بمقام بل خسة همة وعدم مروأة لانه ابطال حكمة الله التي أحكمها في الدنيا من ترتب المسببات على الاسباب اه ولما كان ذلك أمرا لا يكاد يحيط به الوهم علله بقوله تعالى مهولا له بالتأكيد والاظهار في موضع الاضمار (ان الله) أي المحيط بكل كمال المنزه عن كل شائبة نقص (بالغ أمره) أي جميع ما يريده فلا بد من نفوذه سواء حصل توكل أم لا قال مسروق يعني قاض أمره فيمن توكل عليه وفيمن لم يتوكل عليه الا أن من توكل عليه يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا وقرأ حفص بالغ بغير تنوين وأمره بالجر مضاف اليه على التخفيف والباقون بالتنوين وأمره بنصب الراء وضم الهاء قال ابن عادل وهو الاصل خلافا لابي حيان (قد جعل الله) أي الملك الذي لا كفء له ولا معقب لحكمه جعلا مطلقا من غير تقييد بجهة ولا حيثية (لكل شئ) كرخاء وشدة (قدرا) أي تقديرا لا يتعداه في مقداره وزمانه وجميع عوارضه وأحواله وان اجتهد جميع الخلائق في أن يتعداه فمن توكل استفاد الاجر وخفف عنه الالم وقذف في قلبه السكينة ومن لم يتوكل لم ينفعه ذلك وزاد ألمه وطال غمه بشدة سعيه وخيبة أسبابه التي يعتقد أنها هي المنجية فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط جف القلم فلا يزاد في المقادير شئ ولا ينقص منها شئ ويحكى أن رجلا أتى عمر فقال أولني مما أولاك الله فقال أتقرأ القرآن قال لا قال انا لا نولي من لا يقرأ القرآن فانصرف الرجل واجتهد حتى تعلم القرآن رجاء أن يعود الى عمر فيوليه فلما تعلم

القرآن تخلف عن عمرفرآه ذات يوم فقال ياهذا أهجرتنا فقال ياأمير المؤمنين لست من يهجر ولكني تعلمت القرآن فاغناني الله عن عمر وعن باب عمر قال فأي آية أغنتك قال قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا فمن توكل على غيره سبحانه ضاع لانه لايعلم المصالح وان علم لايعلم كيف يستعملها وهو سبحانه المنفرد بعلم ذلك كله ولا يعلمه حق علمه غيره * (تنبيه) * الآية تفهم ان من لم يتق الله يقتر عليه وهو موافق لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لايرد القدر الا الدعاء ولايزيد في العمر الا البر وان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وتفهم ان من لم يتوكل لم يكف شيأ من الاشياء وقال عبد الله بن رافع لما نزل قوله تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه قال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فنحن اذا توكلنا عليه نرسل ما كان لنا ولا نحفظه فنزل ان الله بالغ أمره فيكم وعليكم وقال الربيع بن خيثم ان الله قضى على نفسه ان من توكل عليه كفاه ومن آمن به هداه ومن أقرضه جازاه ومن وثق به نجاه ومن دعاه أجاب له وتصديق ذلك في كتاب الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم واذا سألك عبادى عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان * ولما بين تعالى أمر الطلاق والرجعة في التي تحيض وكانوا قد عرفوا عدة ذوات الاقراء عرفهم في هذه السورة عدة التي لاترى الدم قال أبو عثمان عمر بن سليمان نزلت عدة النساء في سورة البقرة في المطلقة والمتوفى عنها زوجها قال أبي بن كعب يارسول الله ان ناسا يقولون قد بقي من النساء من لم يذكر فيهن شئ الصغار والكبار وذوات الحمل فنزل (واللائي يئسن) أي من المطلقات (من المحيض) أي الحيض الآية وقال مقاتل لما ذكر قوله تعالى والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء قال خلاد بن النعمان يارسول الله فما عدة التي لم تحض وعدة التي انقطع حيضها وعدة الحبلى فنزلت وقيل ان معاذ بن جبل سأل عن عدة الكبيرة التي يئست فنزلت وقال مجاهد الآية واردة في المستحاضة لاتدري دم حيض هو أودم علة واختلف في سن اليأس فالذي عليه الاكثر أنه اثنان وستون سنة وقيل خمس وخمسون وقيل ستون وقيل سبعون * ولما كان هذا الحكم خاصا بازواج المسلمين لحرمة فرشهم وحفظ أنسابهم قال تعالى (من نسائكم) أي أيها المسلمون سواء كن مسلمات أومن أهل الكتاب (ان ارتبتم) أي شككتم في عدتهن (فعدتهن ثلاثة أشهر) كل شهر يقوم مقام حيضة لان أغلب عوائد النساء أن يكون كل قرء في شهر (واللائي لم يحضن) أي لصغرهن أولانهن لاحيض لهن أصلا وان كن بالغات فعدتهن ثلاثة أشهر أيضا هذا كله في غير المتوفى عنهن أزواجهن اماهن فعدتهن مافي آية يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا وقرأ واللائي في الموضعين ابن عامر والكوفيون بالهمز وياء بعده وقرأ قالون وقنبل بالهمز ولاياء بعده وللبزى وأبي عمرو أيضا ابدال الهمزة ياء ساكنة مع المد لاغير * ولما فرغ من ذكر الحوائل أتبعه ذكر الحوامل بقوله تعالى (وأولات الاحمال) أي من جميع الزوجات المسلمات والكافرات المطلقات والمتوفى عنهن (أجلهن) أي لمنتهى العدة سواء كان لهن مع الحمل حيض أم لا (أن

بضعن

يضعن حملهن) وهذا على عمومه مخصص لآية يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا لان المحافظة على عمومه اولى من المحافظة على عموم ذاك فى قوله تعالى أزواجا لان عموم هذه بالذات لان الموصول من صيغ العموم وعموم أزواجا بالعرض لانه بدل لا يصلح لجميع الازواج فى حال واحد والحكم معلل هنا بوصف الحملية بخلاف ذاك ولان هذه الآية متأخرة النزول عن آية البقرة فتقديمها على تلك تخصيص وتقديم تلك فى العمل بعمومها رفع لما فى الخاص من الحكم فهو نسخ والاول هو الراجح للوفاق ولان سبيعة بنت الحرث وضعت حملها بعد وفاة زوجها بليال فأذن لها النبى صلى الله عليه وسلم ان تتزوج * (تنبيه) * اذا وضعت المرأة ما فى بطنها من علقة أو مضغة حلت عند مالك وقال الشافعى وأحمد وأبو حنيفة لا تحل الا بوضع ما يتبين فيه شئ من خلق الانسان فان كانت حاملا بتوأمين لم تنقض عدتها حتى تضع الثانى منهما ولا بد أن يكون الحمل منسوبا الى ذى العدة أما اذا كان من زنا فلا حرمة له والعدة بالحيض * ولما كانت أمور النساء فى المعاشرة والمفارقة فى غاية المشقة كرر بالحث على التقوى اشارة الى ذلك وترغيبا فى لزوم ما حده سبحانه فقال عاطفا على ما تقديره فمن لم يحفظ هذه الحدود عسر الله تعالى عليه أموره (ومن يتق الله) أى يوجد الخوف من الملك الاعظم ايجادا مستمرا ليجعل بينه وبين سخطه وقاية من طاعته امتثالا بالمأمور واجتنابا للمنهى (يجعل له) أى يوجد ايجادا مستمرا باستمرار التقوى ان الله لا يمل حتى تملوا (من أمره) أى كله فى النكاح وغيره (يسرا) أى سهولة وفرجا وخيرا فى الدارين بالدفع والنفع وذلك أعظم من مطلق الخروج المتقدم فى الآية الاولى وقال مقاتل ومن يتق الله فى اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسرا فى توفيقه لطاعته (ذلك) أى الامر المذكور من جميع هذه الاحكام العالية المراتب (أمر الله) أى الملك الاعلى الذى له الكمال كله (أنزله اليكم) وبينه لكم (ومن يتق الله) أى الذى لا أمر لاحد معه فى احكامه فيراعى حقوقها (يكفر) أى يغط تغطية عظيمة (عنه سيآته) ليتخلى عن المبعدات فان الحسنات يذهبن السيآت (ويعظم له أجرا) بأن يبدل سيآته حسنات ويوفيه أجرها فى الدارين مضاعفة فيتحلى بالقربات وهذا أعظم من مطلق اليسر المتقدم (أسكنوهن) قال الرازى أسكنوهن وما بعده بيان لما شرط من التقوى فى قوله تعالى ومن يتق الله كأنه قيل كيف نعمل بالتقوى فى شأن المعتدات فقيل أسكنوهن وقوله تعالى (من حيث سكنتم) فيه وجهان أحدهما ان من للتبعيض قال الزمخشرى مبعضها محذوف معناه أسكنوهن مكانا من حيث سكنتم أى بعض مكان سكناكم كقوله تعالى يغضوا من أبصارهم أى بعض أبصارهم قال قتادة ان لم يكن الا بيت واحد أسكنها فى بعض جوانبه قال الرازى وقال الكسائى من صلة والمعنى أسكنوهن حيث سكنتم والثانى أنها لابتداء الغاية قاله الحوفى وأبو البقاء قال أبو البقاء والمعنى تسببوا الى اسكانهن من الوجه الذى تسكنون أنفسكم ودل عليه قوله تعالى (من وجدكم) أى من وسعكم أى مما تطيقونه وفى اعرابه وجهان أحدهما انه عطف بيان لقوله تعالى من حيث سكنتم واليه ذهب الزمخشرى وتبعه البيضاوى قال ابن عادل أظهرهما أنه بدل من قوله من حيث بتكرار

العامل واليه ذهب أبو البقاء كانه قيل اسكنوهن من وسعكم (ولا تضاروهن) أي حال السكنى في المسكن ولا في غيره (لتضيقوا عليهن) حتى تلجؤهن الى الخروج (وان كن) أي المطلقات (أولات حمل) أي من الازواج من طلاق بائن أو رجعي (فانفقوا عليهن) وان مضت الاشهر (حتى يضعن حملهن) فيخرجن من العدة وهذا يدل على اختصاص استحقاق النفقة بالحامل من المعتدات البوائن والاحاديث تؤيده قال القرطبي اختلف العلماء في المطلقة ثلاثا على ثلاثة أقوال فمذهب مالك والشافعي ان لها السكنى ولا نفقة لها ومذهب ابي حنيفة واصحابه ان لها السكنى والنفقة ومذهب أحمد واسحق وأبي ثور لا نفقة لها ولا سكنى لحديث فاطمة بنت قيس قالت دخلت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعي اخو زوجي فقلت ان زوجي طلقني وان هذا يزعم ان ليس لي سكنى ولا نفقة قال بل لك السكنى والنفقة فقال ان زوجها طلقها ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم انما السكنى والنفقة لمن له عليها رجعة فلما قدمت الكوفة طلبني الاسود ابن يزيد ليسألني عن ذلك فان أصحاب عبد الله يقولون ان لها السكنى والنفقة وعن الشعبي قال لقيني الاسود بن يزيد فقال ياشعبي اتق الله وارجع عن حديث فاطمة بنت قيس فان عمر كان يجعل لها السكنى والنفقة فقلت لا أرجع عن شئ حدثتني فاطمة بنت قيس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولانه لو كان لها سكنى لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم وأجيب عن ذلك بما روت عائشة أنها قالت كانت فاطمة في مكان وحش فخيف على ناحيتها وقال سعيد بن المسيب انما نقلت فاطمة لطول لسانها على احمائها وقال قتادة وابن أبي ليلى لا سكنى الا للرجعية لقوله تعالى لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا وقوله تعالى اسكنوهن راجع لما قبله وهي المطلقة الرجعية (فان أرضعن لكم) أي بعد انقضاء علقة النكاح (فآتوهن اجورهن) أي على ذلك الارضاع وللرجل ان يستأجر امرأته للرضاع كما يستأجر اجنبية ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه الاستئجار اذا كان الولد منهن مالم تبن ويجوز عند الشافعي مطلقا وقوله تعالى (وائتمروا) خطاب للازواج والزوجات أي ليأمر بعضكم بعضا في الارضاع والاجر فيه وغير ذلك وليقبل بعضكم أمر بعض وقال الكسائي ائتمروا تشاوروا وتلا قوله تعالى ان الملأ يأتمرون بك وأنشد قول امرئ القيس * ويعدو على المرء ما يأتمر * وزادهم رغبة في ذلك بقوله تعالى (بينكم) أي ان هذا الخير لا يعدوكم وأكد ذلك بقوله تعالى (بمعروف) ونكره سبحانه تخفيفا على الامة بالرضا بالمستطاع وهو يكون مع الاخلاق بالاتصاف ومع النفس بالخلاف (وان تعاسرتم) أي طلب كل منكم ما يعسر على الآخر كأن طلبت المرأة الاجرة وطلب الزوج ارضاعها مجانا (فسترضع له) أي الاب (أخرى) أي مرضعة غير الام ويغني الله تعالى عنها وليس له أن يكرهها على ذلك نعم اذا لم يقبل ثدي غيرها أو لم يوجد غيرها أجبرت على ذلك بالاجرة وهذا الحكم لا يختص بالمطلقة بل المنكوحة كذلك واختلفوا فيمن يجب عليه رضاع الولد فقال مالك رضاع الولد على الزوجة مادامت الزوجية الا لشرفها وموضعها فعلى الاب رضاعه حينئذ في ماله وقال أبو حنيفة لا يجب على الام بحال وقيل يجب

عليها بكل حال ولو طلبت الام اجرة المثل وهناك أجنبية ترضع بدون اجرة المثل أو متبرعة تخير الاب بينهما ولا يضيق على الاب بدفع الاجرة لانه صلى الله عليه وسلم ما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما أو قطيعة رحم وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش بين بين والباقون بالفتح (لينفق ذو سعة) أى مال واسع ولم يكلفه تعالى جميع وسعه بل قال تعالى (من سعته) أى لينفق الزوج على زوجته وولده الصغير على قدر وسعه فيوسع اذا كان موسعا عليه (ومن قدر) أى ضيق (عليه رزقه) فعلى قدر ذلك فيقدر النفقة بحسب حال المنفق والحاجة من المنفق عليه بالاجتهاد على مجرى العادة قال تعالى وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف وقال صلى الله عليه وسلم لهند خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف لكن نفقة الزوجة مقدرة عند الشافعى محدودة فلا اجتهاد للحاكم ولا للمفتى فيها وتقديرها هو بحسب حال الزوج وحده من يسار واعسار ولا اعتبار بحالها فيجب لابنة الخليفة ما يجب لابنة الحارس فيلزم الزوج الموسر مدان والمتوسط مد ونصف والمعسر مد لظاهر قوله تعالى لينفق ذو سعة من سعته فجعل الاعتبار بالزوج فى اليسر والعسر ولان الاعتبار بحالها يؤدى الى الخصومة لان الزوج يدعى أنها تطلب فوق كفايتها وهى تزعم أنها تطلب قدر كفايتها فقدرت قطعا للخصومة وقوله تعالى (فلينفق) أى وجوبا على المرضع وغيرها من كل ما أوجبه الله تعالى عليه (مما آتاه الله) أى الملك الذى لا ينفد ما عنده ولو من رأس المال ومتاع البيت (لا يكلف الله) أى الذى له الملك كله (نفسا) أى نفس كانت (الا ما آتاها) أى أعطاها من المال (سيجعل الله) أى الملك الذى له الكمال كله فلا خلف لوعده (بعد عسر) أى بعد كل عسر (يسرا) وقد صدق الله وعده فيمن كانوا موجودين بعد نزول الآية ففتح عليهم جميع جزيرة العرب ثم فارس والروم حتى صاروا أغنى الناس وصدق الآية دائم غير انه فى الصحابة رضى الله تعالى عنهم ونفعنا بهم آمين لان ايمانهم أتم قال القشيرى وانتظار اليسر من الله صفة المتوسطين فى الاحوال الذين انحطوا عن درجة الرضا وارتقوا عن حد اليأس والقنوط ويعيشون فى افناء الرجال ويتعللون بحسن المواعيد اهـ ⁕ ولما ذكر الاحكام والمواعظ والترغيب لمن اطاع حذر من خالف بقوله تعالى (وكأين) هى كاف الجر دخلت على اى بمعنى كم (من قرية) أى وكثير من القرى وقرأ ابن كثير بالالف بعد الكاف وبعد الالف همزة مكسورة وقفا ووصلا وقرأ الباقون فى الوصل بهمزة مفتوحة بعد الكاف وبعد الهاء ياء تحتية مكسورة مشددة وعبر عن أهل القرية بها مبالغة فقال (عتت) أى استكبرت وجاوزت الحد فى عصيانها وطغيانها فأعرضت عنادا (عن أمر ربها) أى الذى أحسن اليها ولا يحسن اليها غيره (ورسله) فلم تقبل منهم ما جاؤا به عن الله تعالى فات طاعتهم من طاعته (فحاسبناها) أى فى الآخرة وان لم تجئ لتحقق وقوعها (حسابا شديدا) أى بالمناقشة والاستقصاء (وعذبناها عذابا نكرا) أى منكرا فظيعا وهو عذاب النار وقيل العذاب فى الدنيا فيكون على حقيقته أى جازيناها بالعذاب فى الدنيا وعذبناها عذابا نكرا فى الآخرة وقيل فى الكلام تقديم وتأخير أى فعذبناها عذابا نكرا فى الدنيا بالجوع والقحط

والسيف والخسف والمسخ وسائر المصائب وحاسبناها حسابا شديدا في الآخرة وقرأ نافع وابن ذكوان وشعبة بضم الكاف والباقون بسكونها (فذاقت) أي فتسبب عن ذلك أنها ذاقت (وبال) أي عقوبة (أمرها) أي كفرها (وكان عاقبة أمرها خسرا) أي في الدنيا بالأسر وضرب الجزية وغير ذلك وفي الآخرة بعذاب النار فان من زرع الشوك كما قال القشيري لا يجني الورد ومن أضاع حق الله تعالى لا يطاع في حظ نفسه ومن احترف بمخالفة أمر الله تعالى فليصبر على عقوبته ثم استأنف الجواب عمن يقول هل لها غير هذا في غير هذه الدار بقوله تعالى (أعد الله) أي الملك الأعظم (لهم) بعد الموت وبعد البعث (عذابا شديدا) وفي ذلك تكرير للوعيد وبيان لما يوجب التقوى المأمور بها (فاتقوا الله) أي الذي له الأمر كله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه (يا أولي الألباب) أي يا أصحاب العقول الصافية النافذة من الظواهر إلى البواطن وقوله تعالى (الذين آمنوا) منصوب بإضمار أعني بيانا للمنادى في قوله تعالى يا أولي الألباب أو يكون عطف بيان للمنادى أو نعتا له أي خلصوا من دائرة الشرك وأوجدوا الإيمان حقيقة (قد أنزل الله) أي الذي له صفات الكمال (إليكم ذكرا) هو القرآن وفي نصب (رسولا) أوجه أحدها قال الزجاج والفارسي انه منصوب بالمصدر المنون قبله لانه ينحل لحرف مصدري وفعل كأنه قيل أن ذكر رسولا ويكون ذكره الرسول قوله محمد رسول الله والمصدر المنون عامل كقوله تعالى أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما الثاني جعل نفس الذكر مبالغة فأبدل منه ويكون محمولا على المعنى كأنه قال قد أظهر لكم ذكرا رسولا فيكون من باب بدل الشيء من الشيء وهو هو الثالث أنه بدل منه على حذف مضاف من الأول تقديره أنزل ذا ذكر رسولا الرابع أنه بدل منه على حذف مضاف من الثاني أي ذكرا ذكر رسول الخامس أنه منصوب بفعل مقدر أي وأرسل رسولا (يتلو عليكم آيات الله) هي دلائل الملك الأعظم الظاهرة جدا حال كونها (مبينات) أي لا لبس فيها بوجه واختلف الناس في رسولا هل هو النبي صلى الله عليه وسلم أو جبريل الأكثر على الأول واقتصر عليه الجلال المحلي واقتصر الزمخشري على الثاني وهو قول الكلبي وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بكسر الياء بعد الموحدة والباقون بالفتح (ليخرج الذين آمنوا) أي أقروا بالشهادتين (وعملوا) تصديقا لما قالوه بألسنتهم وتحقيقا لانه من قلوبهم (الصالحات) أي ليحصل لهم ما هم عليه الآن من الإيمان والعمل الصالح أو ليخرج من علم أو قدر أنه مؤمن (من الظلمات) أي الضلالة (إلى النور) أي الهدى (ومن يؤمن بالله) أي يجدد في كل وقت على الدوام الإيمان بالملك الأعلى بأن لا يزال في ترق في معارج معارفه (ويعمل) على التجديد المستمر (صالحا) لله وفي الله فله دوام النعماء وهو معنى ادخاله الجنة كما قال تعالى (يدخله) أي عاجلا مجازا بما يفتح الله له من لذات المعارف ويفتح له من الانس وآجلا حقيقة (جنات) أي بساتين هي في غاية ما يكون من جمع جميع الأشجار وحسن الدار وبين دوام ريها بقوله تعالى (تجري من تحتها) أي من تحت غرفها (الأنهار) فهي في غاية الري بحيث ان ساكنها يجري في أي موضع أراد نهرا وقرأ نافع وابن عامر ندخله بالنون والباقون بالياء التحتية (خالدين فيها)

وأكد معنى الخلود بقوله تعالى (أبدا) ليفهم الدوام بلا انقضاء وقوله تعالى (قد أحسن الله) أى الملك الاعلى ذو الجلال والاكرام (له) أى خاصة (رزقا) أى عظيما عجيبا فيه تعجب وتعظيم لما رزقوا من الثواب وقال القشيرى الحسن ما كان على حد الكفاية لا نقصان فيه يتعطل عن أموره بسببه ولا زيادة تشغله عن الاستمتاع بما رزق لحرصه كذلك أرزاق القلوب أحسنها أن يكون له من الاحوال ما يستقل بها من غير نقصان ولا زيادة لا يقدر على الاستمرار عليها * ثم بين كمال قدرته بقوله تعالى (الله) أى الذى له جميع صفات الكمال التى القدرة الشاملة احداها (الذى خلق) أى أوجد وحده من العدم بقدرته على وفق ما دبر بعلمه على هذا المنوال الغريب البديع (سبع سموات) أى وأنتم تشهدون عظمة ذلك وتشهدون أنه لا يقدر عليه الا تام القدرة والعلم الكامل (ومن الارض مثلهن) أى سبعا أما كون السموات سبعا بعضها فوق بعض فلا خلاف فيه لحديث الاسراء وغيره وأما الارضون فقال الجمهور انها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والارض وفى كل أرض سكان من خلق الله وقال الضحاك انها سبع أرضين ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات قال القرطبى والاول أصح لان الاخبار دالة عليه كما روى البخارى وغيره روى أبو مروان عن أبيه ان كعبا حلف له بالله الذى فلق البحر لموسى أن صهيبا حدثه أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم ير قرية يريد دخولها الا قال حين يراها اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الارضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما أذرين انا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر من فيها وروى مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من ظلم قيد شبر من أرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين قال البقاعى رأيت فى التعدد حقيقة حديثا صريحا لكن لا أدرى حاله ذكره ابن برجان فى اسمه تعالى الملك من شرحه الاسماء الحسنى قال ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أتدرون ما تحت هذه الارض قالوا الله ورسوله أعلم قال هواء أتدرون ما تحت ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال أرض أتدرون ما تحت ذلك قالوا الله ورسوله أعلم حتى عد سبع أرضين ثم رأيته فى الترمذى عن أبى رزين العقيلى ولفظه هل تدرون ما الذى تحتكم قالوا الله ورسوله أعلم قال انها الارض ثم قال أتدرون ما تحت ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال ان تحتها أرضا أخرى خمسمائة سنة حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة ثم رأيت فى الفردوس عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما بين السماء الى السماء خمسمائة عام وعرض كل سماء وثخانة كل سماء خمسمائة عام وما بين السماء السابعة وبين الكرسى والعرش مثل ذلك وما بين السماء الى الارض مسيرة خمسمائة عام والارضون وعرضهن وثخانتهن مثل ذلك اهـ قال الماوردى وعلى أنها سبع ارضين تختص دعوة الاسلام بأهل الارض العليا ولا تلزم من فى غيرها من الارضين وان كان فيها من يعقل من خلق مميز وفى مشاهدتهم السماء واستمدادهم الضوء منها قولان أحدهما أنهم يشاهدون السماء من كل جانب من ارضهم ويستمدون الضياء منها قال

ابن عادل وهذا قول من جعل الارض مبسوطة الثاني انهم لا يشاهدون السماء وأن الله تعالى خلق لهم ضياء يشاهدونه قال ابن عادل وهذا قول من جعل الارض كرية وحكي الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما انها سبع ارضين منبسطة ليس بعضها فوق بعض تفرق بينها البحار وتظل جميعهم السماء فعلى هذا ان لم يكن لاحد من أهل الارض وصول الى أرض أخرى اختصت دعوة الاسلام بهذه الارض وان كان لقوم منهم وصول الى أرض أخرى احتمل أن تلزمهم دعوة الاسلام لامكان الوصول اليهم لان فصل البحار اذا أمكن سلوكها لا يمنع من لزوم ما عم حكمه واحتمل أن لا تلزمهم دعوة الاسلام لانها لو لزمتهم لكان النص بها واردا ولكان النبي صلى الله عليه وسلم بها مأمورا وقال بعض العلماء السماء في اللغة عبارة عما علاك فالاولى بالنسبة الى السماء الثانية أرض وكذلك السماء الثانية بالنسبة الى الثالثة أرض وكذا البقية بالنسبة الى ما تحته سماء وبالنسبة الى ما فوقه أرض فعلى هذا تكون السموات السبع وهذه الارض الواحدة سبع سموات وسبع أرضين (يتنزل) أي بالتدريج (الامر) قال مقاتل وغيره أي الوحي وعلى هذا يكون قوله تعالى (بينهن) اشارة الى ما بين هذه الارض العليا التي هي أولاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها والاكثرون على أن الامر هو القضاء والقدر فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى بينهن اشارة الى ما بين الارض السفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها فيجري أمر الله وقضاؤه بينهن وينفذ حكمه فيهن وعن قتادة في كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه وقيل هو ما يدبر فيهن من عجائب تدبيره وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع ابن الازرق سأله هل تحت الارض من خلق قال نعم قال فما الخلق قال اما ملائكة أو جن وقال مجاهد يتنزل الامر من السموات السبع الى الارضين السبع وقال الحسن بين كل سماءين أرض وأمر وقيل يتنزل الامر بينهن بحياة بعض وموت بعض وغنى قوم وفقر قوم وقيل ما يدبر فيهن من عجيب تدبيره فينزل المطر ويخرج النبات ويأتي بالليل والنهار والصيف والشتاء ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيآتها فينقلهم من حال الى حال قال ابن كيسان وهذا على اتساع اللغة كما يقال للموت أمر الله وللريح والسحاب ونحوها وقوله تعالى (لتعلموا) متعلق بمحذوف أي اعلمكم بذلك الخلق والانزال لتعلموا (أن الله) اي الملك الاعلى الذي له الاحاطة كلها (على كل شئ) اي من غير هذا العالم يمكن ان يدخل تحت المشيئة (قدير) بالغ القدرة فيأتي بعالم آخر مثل هذا العالم وابدع منه وابدع من ذلك الى ما لا نهاية له بالاستدلال بهذا العالم فان من قدر على ايجاد ذرة من العدم قدر على ايجاد ما هو دونها ومثلها وفوقها الى ما لا نهاية له لانه لا فرق في ذلك بين قليل وكثير وجليل وحقير ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت قال البقاعي واياك ان تصغي الى من قال انه ليس في الامكان ابدع مما كان فانه مذهب فلسفي خبيث والآية نص في ابطاله وان نسبه بعض الملحدين الى الغزالي فاني لا اشك انه مدسوس عليه وان مذهبه فلسفي خبيث بشهادة الغزالي كما بينت ذلك في كتابي دلائل البرهان على ان في الامكان أبدع مما كان قال ومع كونه مذهب الفلاسفة

أخذه أكفر العارفين ابن عربي وأودعه في فصوصه وغير ذلك من كتبه وأسنده في بعضها للغزالي والغزالي بريء منه بشهادة ما وجد من عقائده في الاحياء وغيره انتهى والبقاعي ممن يقول بكفر ابن عربي وابن المقري يقول بكفره وكفر طائفته وقد تقدم الكلام على كلامهم (وان الله) أي الذي له جميع صفات الكمال (قد أحاط) لتمام قدرته (بكل شيء) مطلقا (علما) فله الخبرة التامة بما يأمر به من الاحكام في العالم بمصالحه ومفاسده فلا يخرج شيء عن علمه وقدرته فعاملوه معاملة من يعلم أنه رقيب عليه تسلموا في الدنيا وتسعدوا في الآخرة * (تنبيه) * علما منصوب على المصدر المؤكد لان أحاط بمعنى علم وقيل بمعنى والله أحاط احاطة علما وما قاله البيضاوي تبعا للزمخشري من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث موضوع

(سورة التحريم مكية)

وهي ثنتا عشرة آية ومائتان وأربعون كلمة وألف وستون حرفا

(بسم الله) الذي له الكمال كله على الدوام (الرحمن) الذي عم عباده بعظيم الانعام (الرحيم) الذي أتم على خواصه نعمة الاسلام واختلف في سبب نزول قوله تعالى (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله) أي الذي لا أمر لأحد معه (لك) فقالت عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم كان عند زينب بنت جحش فشرب عندها عسلا قالت فتواطيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل اني أجد منك ريح مغافير فدخل على احداهما فقالت له ذلك فقال بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له فنزل لم تحرم ما أحل الله لك الى قوله تعالى ان تتوبا الى الله لعائشة وحفصة وعنها أيضا قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلوا والعسل فكان اذا صلى العصر دار على نسائه فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت اليها امرأة من قومها عكة عسل فسقت رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شربة فقلت أما والله لنحتالن له فذكرت ذلك لسودة وقلت لها اذا دخل عليك فانه سيدنو منك فقولي له يا رسول الله أكلت مغافير فانه سيقول لك لا فقولي ما هذه الريح وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه أن يوجد منه الريح فانه سيقول لك سقتني حفصة شربة عسل فقولي له جرست نحله العرفط وسأقول ذلك له وقولي أنت يا صفية ذلك فلما دخل على سودة قالت سودة والله الذي لا اله غيره لقد كدت أن أباديه بالذي قلت وانه لعلى الباب فرقا منك فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت له يا رسول الله أكلت مغافير قال لا قلت فما هذه الريح قال سقتني حفصة شربة عسل قالت جرست نحله العرفط فلما دخل علي قلت له مثل ذلك ثم دخل على صفية فقالت مثل ذلك فلما دخل على حفصة قالت يا رسول الله الا أسقيك منه قال لا حاجة لي به قالت تقول سودة سبحان الله لقد حرمناه منه قالت فقلت لها اسكتي ففي هذه الرواية أن التي شرب عندها النبي صلى الله عليه وسلم حفصة وفي الاولى زينب وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله

عنهما أنه شربه عند سودة وقيل انما هي أم سلمة رواه اسباط عن السدي وقاله عطاء بن أبي مسلم *(تنبيه)* شرح غريب ألفاظ الحديثين وما يتعلق بهما قولها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلوا بالمد والقصر قاله في المصباح وهو على كل شيء حلو وذكر العسل بعدها وان كان داخلا في جملة الحلوا تنبيها على شرفه ومرتبته وهو من باب الخاص بعد العام وقولها فتواطيت أنا وحفصة هكذا وقع في الرواية وأصله فتوطأت بالهمز أي اتفقت أنا وحفصة وقولها انى لاجد منك ريح مغافير هو بغين معجمة وفاء بعدها ياء وراء وهو صمغ حلو كالناطف وله ريح كريهة ينضحه شجر يقال له العرفط بضم العين المهملة والفاء يكون بالحجاز وقيل العرفط نبات له ورق يفرش على الارض له شوك وثمره خبيث الرائحة وقال أهل اللغة العرفط من شجر العضاه وهو كل شجر له شوك وقيل رائحته كرائحة النبيذ وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكره أن توجد منه رائحة كريهة قولها جرست نحله العرفط بالجيم والراء وبالسين المهملتين ومعناه أكلت نحله العرفط فصار منه العسل قال القاضي عياض والصواب أن شرب العسل كان عند زينب بنت جحش ذكره النووي في شرح مسلم وكذا ذكره أيضا القرطبي وقال أكثر المفسرين في سبب نزول ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقسم بين نسائه فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في زيارة أبيها فأذن لها فلما خرجت أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جاريته مارية القبطية فادخلها بيت حفصة فوقع عليها فلما رجعت حفصة وجدت الباب مغلقا فجلست عند الباب فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه يقطر عرقا وحفصة تبكي فقال صلى الله عليه وسلم ما يبكيك فقالت انما أذنت لي من أجل ذلك أدخلت أمتك بيتي ثم وقعت عليها في يومي على فراشي أما رأيت لي حرمة وحقا ما كنت تصنع هذا بامرأة منهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس هي جاريتي قد أحلها الله لي فهي حرام على ألتمس بذلك رضاك فلا تخبري بهذا امرأة منهن فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت ألا أبشرك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرم عليه أمته مارية وان الله قد أراحنا منها وأخبرت عائشة بما رأت وكانتا متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فغضبت عائشة فلم يزل نبي الله صلى الله عليه وسلم حتى حلف أن لا يقربها وعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له أمة يطؤها فلم تزل عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه فأنزل الله تعالى يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك الآية أخرجه النسائي (فان قيل) قوله تعالى لم تحرم ما أحل الله لك يوهم أن الخطاب بطريق العتاب وخطاب النبي صلى الله عليه وسلم ينافي ذلك لما فيه من التشريف والتعظيم (اجيب) بأنه ليس بطريق العتاب بل بطريق التنبيه على أن ما صدر منه لم يكن على ما ينبغي (فان قيل) تحريم ما احل الله غير ممكن فكيف قال لم تحرم ما أحل الله لك (اجيب) بأن المراد بهذا التحريم هو الامتناع من الانتفاع بالازواج لا اعتقاد كونه حراما بعدما احله الله تعالى والنبي صلى الله عليه وسلم امتنع من الانتفاع بها مع اعتقاد كونها حلالا لان من اعتقد أن هذا التحريم هو تحريم ما احل الله فقد كفر فكيف

يضاف

يضاف الى النبي صلى الله عليه وسلم (تبتغي) اى تريد ارادة عظيمة من مكارم اخلاقك وحسن صحبتك (مرضاة ازواجك) اى الاحوال والامور والمواضع التى يرضين بها وهن أولى بأن يبتغين رضاك وكذا جميع الخلق لتتفرغ لما يوحى اليك من ربك لكن ذلك للزوجات آكد (والله) اى الملك الاعلى (غفور رحيم) اى محاء ستور لما يشق على خاص عباده مكرم لهم فقد غفر لك هذا التحريم ثم علل وبين ذلك بقوله تعالى (قد فرض الله) اى قدر ذو الجلال والاكرام الذى لا شريك له ولا امر لاحد معه وعبر بالفرض حثا على قبول الرخصة اشارة الى أن ذلك لا يقدح فى الورع ولا يخل بحرمة اسم الله تعالى لان اهل الهمم العوالى لا يجوزون النقلة من عزيمة الى رخصة بل من رخصة الى عزيمة اوعزيمة الى مثلها * ولما كان التخفيف على أمته تعظيما له صلى الله عليه وسلم قال تعالى (لكم) أيتها الامة التى أنت رأسها (تحلة) اى تحليل (أيمانكم) بالكفارة المذكورة فى سورة المائدة وقيل قد شرع الله لكم الاستثناء فى أيمانكم من قولك حلل فلان فى يمينه اذا استثنى بمعنى استثن فى يمينك اذا أطلقتها بأن تقول ان شاء الله متصلا بحلفك وتنويه قبل الفراغ منه واختلف اهل العلم فى لفظ التحريم فقال قوم هو ليس بيمين فان قال لزوجته انت حرام أو حرمتك فان نوى به طلاقا فهو طلاق وان نوى به ظهارا فهو ظهار وان نوى تحريم ذاتها واطلق فعليه كفارة يمين وان قال لطعام حرمته على نفسى فلا شئ عليه وهذا قول ابن مسعود رضى الله عنه واليه ذهب الشافعى وروى الدارقطنى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه اتاه رجل فقال انى جعلت امرأتى على حراما فقال كذبت ليست عليك بحرام وتلا هذه الآية وذهب جماعة الى أنه يمين فان قال ذلك لزوجته اوجاريته فلا تجب الكفارة مالم يقربها كما لو حلف لا يأكله فلا كفارة عليه مالم يأكله يروى ذلك عن ابى بكر وعائشة وبه قال الاوزاعى وابو حنيفة وعند ابى حنيفة ان نوى الطلاق بالحرام كان بائنا وان قال كل حلال عليه حرام فعلى الطعام والشراب اذا لم ينو والا فعلى ما نوى نقله الزمخشرى وعن عمر اذا نوى الطلاق فرجعى وعن على ثلاث وعن زيد واحدة بائنة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال اذا حرم الرجل امرأته فهى يمين يكفرها وقال لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة قال مقاتل فأعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الواقعة رقبة قال زيد بن أسلم وعاد الى مارية وقال الحسن لم يكفر عليه السلام لانه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وكفارة اليمين فى هذه السورة انما أمر بها الامة قال ابن عادل والاول أصح وأن المراد بذلك النبى صلى الله عليه وسلم ثم الامة تقتدى به فى ذلك (والله) اى والحال أن المختص بأوصاف الكمال (مولاكم) أى يفعل معكم فعل القريب الصديق فهو سيدكم ومتولى أموركم (وهو) أى وحده (العليم) أى البالغ العلم بمصالحكم وغيرها الى ما لا نهاية له (الحكيم) أى الذى يضع كل ما يصدر عنه لكم فى أتقن محاله بحيث لا يقدر غيره أن يغيره ولا شيأ منه والعامل فى قوله تعالى (واذ) اذكر فهو مفعول به لا ظرف والمعنى اذكر اذ (أسر النبى) أى الذى شأنه أن يرفعه الله تعالى دائما فانه ما ينطق عن الهوى (الى بعض أزواجه) وأبهمها ولم يعينها تشريفا له صلى الله عليه وسلم ولها وهى حفصة صيانة لهن لان

حرمتهن من حرمته صلى الله عليه وسلم (حديثا) ليس هو من شأن الرسالة ولو كان من شأنها العم به ولم يخص به ولا أسره وذلك هو تحريمه فتاته على نفسه وقوله لحفصة لاتخبرى بذلك أحدا وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أسر أمر الخلافة بعده فحدثت حفصة وقال الكلبى أسر اليها ان اباك وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتى من بعدى وقال ميمون بن مهران اسر أن أبا بكر خليفتى من بعدى (فلما نبأت) اى أخبرت (به) عائشة ظنا منها انه لاحرج عليها فى ذلك (وأظهره الله) اى أطلعه الملك الذى له الاحاطة بكل شئ (عليه) أى الحديث على لسان جبريل عليه السلام بانه قد أفشى مناصحة له فى اعلامه بما يقع فى غيبته ليحذره ان كان شرا ويثبت عليه ان كان خيرا وقيل أظهر الله الحديث على النبى صلى الله عليه وسلم من الظهور (عرف) أى النبى صلى الله عليه وسلم التى اسر اليها (بعضه) أى بعض ما فعلت (وأعرض عن بعض) أى اعلام بعض تكرما منه أن يستقصى فى العبارات وحياء وحسن عشرة قال الحسن ما استقصى كريم قط وقال سفيان مازال التغافل من فعل الكرام وانما عاتبها على ذكر الامامة واعرض عن ذكر الخلافة خوفا من أن ينتشر فى الناس فربما أثار حسد بعض المنافقين واورث الحسود للصديق كيدا وقال بعض المفسرين انه أسر الى حفصة شيأ فحدثت به غيرها فطلقها مجازاة على بعضه ولم يؤاخذها بالباقى وهو من قبيل قوله تعالى وما تفعلوا من خير يعلمه الله أى يجازيكم عليه وقيل المعرف حديث الامامة والمعرض عنه حديث مارية وروى انه قال لها ويلك ألم أقل لك اكتمى على قالت والذى بعثك بالحق نبيا ما ملكت نفسى فرحا بالكرامة التى خص الله تعالى بها أباها (فلما نبأها به) أى بما فعلت على وجه لم يغادر من ذلك الذى عرفها به شيأ منه ولا من عوارضه لتزداد بصيرة روى أنها قالت لعائشة سرا فأنا اعلم انه لا تظهره قاله الملوى وهو معنى قوله تعالى (قالت) اى ظنا منها أن عائشة افشت عليها (من أنبأك هذا) اى من اخبرك أنى أفشيت السر (قال نبأنى) وحذف المتعلق اختصارا للفظ وتكثيرا للمعنى بالتعميم اشارة انه اخبره بجميع ما دار بينها وبين عائشة على أتم ما كان (العليم) اى المحيط العلم (الخبير) اى المطلع على الضمائر والظواهر فهو أولى ان يحذر فلا يتكلم سرا وجهرا الا بما يرضيه وقوله تعالى (ان تتوبا الى الله) اى الملك الاعظم شرط وفى جوابه وجهان احدهما قوله تعالى (فقد صغت قلوبكما) والمعنى ان تتوبا فقد وجد منكما ما يوجب التوبة وهو ميل قلوبكما عن الواجب فى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حب ما يحب وكراهة ما يكره وصغت مالت وزاغت عن الحق قال القرطبى وليس قوله فقد صغت قلوبكما جواب الشرط لان هذا الصغو كان سابقا فجزاء الشرط محذوف للعلم به اى ان تتوبا كان خيرا لكما اذ قد صغت قلوبكما الثانى أن الجواب محذوف تقديره فذلك واجب عليكما أو فتاب الله عليكما قاله ابو البقاء ودل على المحذوف فقد صغت لان اصغاء القلب الى ذلك ذنب قال بعضهم وكأنه زعم أن ميل القلب ذنب وكيف يحسن ان يكون جوابا وقد غفل عن المعنى المصحح لكونه جوابا • (تنبيه) • قوله تعالى قلوبكما من افصح الكلام حيث اوقع الجمع موقع المثنى استثقالا لمجىء تثنيتين لو قيل قلباكما ومن شأن العرب اذا ذكروا الشيئين

قوله روى الخ كذا فى الاصول وهو غير مسلم اهـ

من اثنين جمعوهما لانه لا يشكل والاحسن فى هذا الباب الجمع ثم الافراد ثم التثنية كقوله

فتخالسا نفسيهما بنوافذ الـ * ـعبط الذى من شأنه لم يرقع

وقال ابن عصفور لا يجوز الافراد الا فى ضرورة كقوله

حمامة بطن الواديين ترنمى * سقاك من الغر الغوادى مطيرها

وتبعه ابو حيان وغلط ابن مالك فى كونه جعله احسن من التثنية قال ابن عادل وليس بغلط لكراهة توالى تثنيتين مع امن اللبس وقوله تعالى ان تتوبا فيه التفات من الغيبة الى الخطاب والمراد بهذا الخطاب امّا المؤمنتان بنتا الشيخين الكريمين عائشة وحفصة حثهما على التوبة على ما كان منهما من الميل الى خلاف محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهما كرها ما أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم من احباب جاريته واحباب العسل وكان صلى الله عليه وسلم يحب العسل والنساء وقال ابن زيد مالت قلوبكما بأن سرّهما أن يحتبس عن أمّ ولده فسرّهما ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل قد مالت قلوبكما الى التوبة روى مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له حتى خرج حاجا فخرجت معه فلما رجع وكان ببعض الطريق عدل الى الاراك لحاجة له فوقفت حتى فرغ ثم سرت معه باداوة ثم جاء فسكبت على يديه منها فتوضأ فلما رجع قلت يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبى صلى الله عليه وسلم فقال تلك حفصة وعائشة قال فقلت له والله ان كنت لاريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك قال فلا تفعل ما ظننت أنّ عندى من علم فسلنى عنه فان كنت أعلمه أخبرتك وفى رواية قال واعجبا لك يا ابن عباس قال الزهرى كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه قال هما عائشة وحفصة ثم اخذ يسوق الحديث قال كنت أنا وجار لى من الانصار وكان منزلى فى بنى أمية وهم من عوالى المدينة وكنا نتناوب النزول على النبى صلى الله عليه وسلم فينزل يوما وأنزل يوما فاذا نزلت جئته بما حدث من خبر ذلك اليوم من الوحى أو غيره واذا نزل فعل مثل ذلك وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة على الانصار اذا هم قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم فصخبت على امرأتى فراجعتنى فأنكرت أن تراجعنى قالت لم تنكر أن أراجعك فوالله ان ازواج النبى صلى الله عليه وسلم ليراجعنه وانّ احداهنّ لتهجره اليوم حتى الليل فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت لها اى حفصة اتغاضب احداكن النبى صلى الله عليه وسلم اليوم حتى الليل قالت نعم فقلت قد خبت وخسرت أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله لا تراجعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسأليه شيأ وسلينى ما بدا لك ولا يغرنك ان كانت جارتك هى اوسم واحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عائشة رضى الله عنها قال عمر وكنا قد تحدثنا ان غسان تنعل الخيل لتغزونا فنزل الانصارى يوم نوبته ثم اتانى عشاء فضرب بابى ضربا شديدا ففزعت فخرجت اليه فقال قد حدث اليوم امر عظيم قلت ما هو أجاء غسان قال لا بل أعظم من ذلك وأهول طلق النبى صلى الله عليه وسلم نساءه فقلت خابت حفصة وخسرت قد كنت اظن هذا يوشك ان يكون حتى اذا صليت

الصبح شددت على ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت اطلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت لا أدري ها هو ذا معتزل في المشربة فأتيت غلاما له أسود فقلت استأذن لعمر فدخل ثم خرج الي فقال قد ذكرتك له فصمت ثم انطلقت حتى أتيت المنبر فاذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم فجلست قليلا ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت استأذن لعمر فدخل ثم خرج فقال ذكرتك له فصمت فوليت مدبرا فاذا الغلام يدعوني فقال ادخل فقد أذن لك فدخلت فسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو مضطجع على رمال حصير وليس بينه وبينه فراش قد أثر الرمال بجنبه متكئا على وسادة من أدم حشوها ليف ثم قلت وأنا قائم يا رسول الله أطلقت نساءك فرفع الي بصره وقال لا فقلت الله أكبر ثم قلت وأنا قائم لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ثم قلت يا رسول الله لو رأيتني دخلت على حفصة فقلت لها لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عائشة فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم تبسمة أخرى فجلست حين رأيته تبسم فرفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت فيه شيأ يرد البصر غير أهبة ثلاثة فقلت يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك فان فارسا والروم قد وسع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله فجلس النبي صلى الله عليه وسلم وكان متكئا وقال أوفي هذا أنت يا ابن الخطاب ان أولئك قوم عجلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا فقلت يا رسول الله استغفر الله لي فاعتزل النبي صلى الله عليه وسلم من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة الى عائشة تسعا وعشرين ليلة وكان قال ما أنا بداخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله تعالى فلما مضت تسع وعشرون ليلة دخل على عائشة فبدأ بها فقالت له عائشة يا رسول الله انك كنت أقسمت أن لا تدخل علينا شهرا وانما أصبحت من تسع وعشرين ليلة أعدها عدا فقال الشهر تسع وعشرون وكان ذلك الشهر تسعا وعشرين ليلة قالت عائشة ثم أنزل الله التخيير فبدأبي أول امرأة من نسائه فاخترته ثم خيرهن فقلن مثلها وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه قالت فبدأبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اني ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه قالت ثم قال ان الله تعالى قال يا أيها النبي قل لأزواجك الى تمام الآيتين فقلت أوفي هذا استأمر أبوي فاني أريد الله ورسوله والدار الآخرة وفي رواية ان عائشة قالت له لا تخبر نساءك اني اخترتك فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله أرسلني مبلغا وفي رواية قال دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء فان كنت طلقتهن فان الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك وقلما تكلمت وأحمد الله بكلام الا رجوت أن الله يصدق قولي الذي أقول ونزلت هذه الآية عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن وان تظاهرا عليه الآية وفي رواية انه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يخبر الناس انه لم يطلق نساءه فأذن له وانه قام على باب

المسجد ونادى بأعلى صوته لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه * (شرح بعض ألفاظ هذا الحديث) * قوله فعدلت معه أى قلت معه بالاداوة أى الركوة والعوالى جمع عالية وهى اماكن بأعلى أرض المدينة وقوله لايغرنك ان كانت جارتك يريد بها الضرة وهى عائشة وأوسم منك أى أكثر حسنا وقوله فكنا نتناوب النزول التناوب هو أن يفعله الانسان مرة و يفعله آخر بعده والمشربة بضم الراء وفتحها الغرفة وقوله فاذا هو متكئ على رمال حصير يقال رملت الحصير اذا ظفرته ونسجته والمراد أنه لم يكن على السرير وطاء سوى الحصير وقوله ما رأيت فيه ما يرد البصر الا أهبة ثلاث الاهبة والاهب جمع اهاب وهو الجلد وقوله من شدة موجدته الموجدة الغضب وقرأ (وان تظاهرا) الكوفيون بتخفيف الظاء والباقون بتشديدها أى تتعاونا (عليه) أى النبى صلى الله عليه وسلم فيما يكرهه (فان الله) أى الملك الاعظم الذى لا كفء له وقوله تعالى (هو) يجوز أن يكون فصلا وقوله (مولاه) الخبر وان يكون مبتدأ ومولاه خبره والجملة خبران والمعنى فان الله وليه وناصره فلا يضره ذلك التظاهر منهما وقوله تعالى (وجبريل وصالح المؤمنين) معطوف على محل اسم ان فيكونون ناصريه ويجوز ان يكون جبريل مبتدأ وما بعده عطف عليه وظهير خبر الجميع فتختص الولاية بالله واختلف فى صالح المؤمنين فقال عكرمة هو أبو بكر وعمر وقال المسيب بن شريك هو أبو بكر وقال سعيد بن جبير هو عمر وعن أسماء بنت عميس هو على بن أبى طالب وقال الطبرى هو خيار المؤمنين وصالح اسم جنس كقوله تعالى ان الانسان لفى خسر وقال قتادة هم الانبياء وقال ابن زيد هم الملائكة وقال السدى هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والاولى أن يشمل هذه الاقوال كلها (والملائكة) أى كلهم (بعد ذلك) اى الامر العظيم الذى تقدم ذكره (ظهير) أى ظهراء أعوان له فى نصره عليكما * (تنبيه) * أخبر عن الجمع باسم الجنس اشارة الى أنهم على كلمة واحدة ومنهم جبريل عليه السلام فهو مذكور خصوصا وعموما ثلاث مرات على القول بأن صالح المؤمنين هم الملائكة ان قلنا بالعموم وذلك اظهار لشدة محبته وموالاته للنبى صلى الله عليه وسلم وهذه الآية عكس آية البقرة وهى قوله تعالى من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فانه ذكر الخاص بعد العام تشريفا له وهنا ذكر العام بعد الخاص قال ابن عادل ولم يذكر الناس الا القسم الاول وفى جبريل لغات تقدم ذكرها فى البقرة * ولما كان أشد ما على المرأة أن تطلق ثم اذا طلقت ان يستبدل بها ثم يكون البدل خيرا منها قال تعالى محذرا لهن (عسى ربه) أى المحسن اليه بجميع أنواع الاحسان التى عرفتموها وما لم تعرفوه منها أكثر جدير وحقيق ووسط بين عسى وخبرها اهتماما وتخويفا قوله تعالى (ان طلقكن) أى بنفسه من غير اعتراض عليه جميعكن أو بعضكن قيل كل عسى فى القرآن واجب الا هذه الآية وقيل هو واجب ولكن الله تعالى علقه بشرط وهو التطليق ولم يطلقهن فان طلقكن شرط معترض بين اسم عسى وخبرها وجوابه محذوف أو متقدم اى ان طلقكن فعسى ربه وقوله تعالى (ان يبدله) اى بمجرد طلاقه وقرأ نافع وابو عمرو بفتح الباء وتشديد الدال والباقون بسكون الموحدة وتخفيف الدال (أزواجا خيرا منكن) خبر عسى والجملة جواب الشرط ولم يقع التبدل

لعدم وجود الشرط (فان قيل) كيف تكون المبدلات خيرا منهن ولم يكن على وجه الارض
خيرا منهن لانهن أمهات المؤمنين (أجيب) بأنه اذا طلقهن رسول الله صلى الله عليه
لعصيانهن وايذائهن اياه كان غيرهن من الموصوف بالصفات الآتية مع الطاعة له صلى الله
وسلم خيرا وأن هذا على سبيل الفرض وهو عام فى الدنيا والآخرة فلا يقتضى وجود
خير منهن مطلقا وان قيل بوجوده فى خديجة لما جرب من تحاملها على نفسها فى حقه صلى
عليه وسلم و بلوغها فى حبه والادب معه ظاهرا وباطنا الغاية القصوى ومريم أحسن
كانت من القانتين فذلك فى الآخرة وتعليق تطليق الكل لايدل على أنه لم يطلق حفصة فقد
أنه طلقها ولم يزدها ذلك الافضلا لان الله تعالى أمره ان يراجعها لانها صوامة قوامة
تعالى الخيرية بقوله تعالى (مسلمات) الى آخره وهو اما نعت أو حال أو منصوب على الاختصاص
قال سعيد بن جبير مسلمات يعنى مخلصات وقيل مسلمات لامر الله عز وجل وأمر رسو
خاضعات لله تعالى بالطاعات (مؤمنات) أى مصدقات بتوحيد الله تعالى وقيل مصدقة
أمرن به ونهين عنه وقيل مسلمات مقرات بالاسلام مؤمنات مخلصات (قانتات) أى مط
والقنوت الطاعة وقيل داعيات (تائبات) أى راجعات من الهفوات والزلات سريعا
منهن شئ من ذلك وقيل راجعات الى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم تاركات لمحاب أنف
(عابدات) أى كثيرات العبادات لله تعالى وقال ابن عباس كل عبادة فى القرآن فهو التو
(سائحات) قال ابن عباس صائمات وقال الحسن مهاجرات وقال ابن زيد وليس فى أمة محمد
الله عليه وسلم سياحة الا الهجرة والسياحة الجولان فى الارض وقال الفراء وغيره سمى ا
سائحالان السائح لازاد معه فلا يزال ممسكا الى أن يجد مايطعمه فشبه به الصائم فى امسا
أن يجئ وقت افطاره وقيل ذاهبات فى طاعة الله تعالى من ساح الماء اذا ذهب (ثيبات) جمع
وهى التى تزوجت ثم بانت بوجه من الوجوه أو زالت بكارتها بوطء من غير نكاح (وأبـ
أى عذارى جمع بكر وهى ضد الثيب وسميت بذلك لانها على أول حالها التى خلقت بها
الثيبات لانهن أخبر بالعشرة التى هذا سياقها ووسط الواو بين الثيبات والابكار لتنافى الو
دون سائر الصفات (فان قيل) كيف ذكر الثيبات فى مقام المدح وهن من جملة ما يقل رغبة ا
فيهن (أجيب) بأنه يمكن ان يكون بعض الثيبات خيرا من كثير من الابكار لاختصاصهن
والجمال * ولما بالغ سبحانه فى عتاب نساء النبى صلى الله عليه وسلم مع صيانتهن عن التشبه أكـ
صلى الله عليه وسلم أتبع ذلك أمر الامة بالتأسى به فى هذه الاخلاق الكاملة فقال تعالى
لهن بالموعظة الخاصة بموعظة عامة دالة على وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر للا
فالاقرب (ياأيها الذين آمنوا) أى اقروا بذلك (قوا أنفسكم) أى اجعلوا لها وقاية بالتأ
صلى الله عليه وسلم وترك المعاصى وفعل الطاعات وفى أدبه مع الخالق والخالق (وأهليكم
النساء والاولاد وكل من يدخل فى هذا الاسم قوهم (نارا) بالنصح والتأديب ليكونوا متأ
بأخلاق أهل النبى صلى الله عليه وسلم كما روى الطبرانى عن سعيد بن العاص مانحل والد

أفضل من أدب حسن وفي الحديث رحم الله رجلا قال يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعل الله يجمعكم معهم في الجنة وقيل ان أشد الناس عذابا يوم القيامة من جهل أهله وقال صلى الله عليه وسلم رحم الله امرأ قام من الليل فصلى فأيقظ أهله فان لم تقم رش على وجهها الماء ورحم الله امرأة قامت من الليل تصلي وأيقظت زوجها فان لم يقم رشت على وجهه من الماء وقال بعض العلماء لما قال قوا أنفسكم دخل فيه الاولاد لان الولد بعض منه كما دخلوا في قوله تعالى ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم وقوله عليه الصلاة والسلام ان أحل ما أكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه فلم يفرد بالذكر افراد سائر القرابات فيعلمه الحلال والحرام وقال عليه الصلاة والسلام حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويعلمه الكتابة ويزوجه اذا بلغ * ثم بين تعالى وصف تلك النار بقوله عز وجل (وقودها) أي الذي توقد به (الناس) أي الكفار (والحجارة) كأصنامهم منها وعن ابن عباس أنها حجارة الكبريت وهي أشد الاشياء حرا اذا أوقد عليها والمعنى أنها مفرطة الحرارة تتقد بما ذكر لا كنار الدنيا تتقد بالحطب ونحوه (عليها ملائكة) خزنتها عدتهم تسعة عشر كما سيأتي ان شاء الله تعالى في سورة المدثر (غلاظ) أي غلاظ القلوب لا يرحمون اذا استرحموا خلقوا من الغضب وحبب اليهم عذاب الخلق كما حبب لبني آدم أكل الطعام والشراب (شداد) أي شداد الابدان وقيل غلاظ الاقوال شداد الافعال يدفع واحدهم بالدفعة الواحدة سبعين ألفا في النار لم يخلق الله فيهم الرحمة وقيل في أخذهم أهل النار شداد عليهم يقال فلان شديد على فلان أي قوي عليه يعذبه بأنواع العذاب وقيل غلاظ أجسامهم ضخمة شداد أي أقوياء قال ابن عباس ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة وقال صلى الله عليه وسلم في خزنة جهنم ما بين منكبي كل واحد منهم كما بين المشرق والمغرب (لا يعصون الله) أي الملك الاعلى في وقت من الاوقات وقوله تعالى (ما أمرهم) بدل من الجلالة أي لا يعصون أمر الله وقوله تعالى (ويفعلون ما يؤمرون) تأكيد هذا ما جرى عليه الجلال المحلي وقال الزمخشري (فان قلت) أليست الجملتان في معنى واحد قلت لا فان معنى الاولى أنهم يقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها ومعنى الثانية أنهم يؤدون ما يؤمرون به لا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه وقيل لا يعصون الله ما أمرهم فيما مضى ويفعلون ما يؤمرون فيما يستقبل وصدر بهذا البيضاوي (فان قيل) انه تعالى خاطب المشركين في قوله تعالى فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين فجعلها معدة للكافرين فما معنى مخاطبته للمؤمنين بذلك (أجيب) بأن الفساق وان كانت دركاتهم فوق دركات الكفار فانهم مع الكفار في دار واحدة فقيل للذين آمنوا قوا أنفسكم باجتناب الفسوق مساكنة الذين أعدت لهم هذه الدار الموصوفة ويجوز أن يأمرهم بالتوقي عن الارتداد والندم على الدخول في الاسلام وان يكون خطابا للذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون قال الزمخشري ويعضد ذلك قوله تعالى على الاثر (يا أيها الذين كفروا) أي بالاخلال بالادب مع النبي صلى الله عليه وسلم فأداهم ذلك الى الاخلال بالادب مع الله تعالى وبالادب مع

سائر خلقه (لا تعتذروا) أى تبالغوا فى اظهار العذر وهو ايساغ الحيلة فى وجه يزيل ماظهر من التقصير (اليوم) فانه يوم الجزاء لا يوم الاعتذار وقد فات زمان الاعتذار وصار الامر الى ماصار وهذا النهى لتحقق اليأس (انما تجزون) أى فى هذا اليوم (ماكنتم) أى بما هو لكم كالجبلة والطبع (تعملون) فى الدنيا ونظيره فاليوم لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم قال البقاعى ولا يبعد على الله فى أن يصور لكل انسان صورة عمله بحيث لا يشك انه عمله ثم يجعل تلك الصورة عذابه الذى يجد فيه من الالم ماعلم الله تعالى انه بمقدار استحقاقه * ولما بين تعالى أن المعذرة لا تنفع فى ذلك اليوم أمر بالتوبة فى الدنيا بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا توبوا) أى ارجعوا رجوعا تاما (الى الله) أى الملك الذى لا نظير له (توبة) وقوله (نصوحا) صيغة مبالغة أسند النصح اليها مجازا وهى من نصح الثوب اذا خاطه فكان التائب يرقع بالمعصية وقيل من قولهم ناصح اى خالص وقرأ شعبة بضم النون والباقون بفتحها *(تنبيه)* أمرهم بالتوبة وهى فرض على الاعيان فى كل الاحوال وفى كل الازمان واختلفوا فى معناها فقال عمر ومعاذ التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود الى الذنب كما لا يعود اللبن فى الضرع وقال الحسن هى أن يكون العبد نادما على مامضى مجمعا على أن لا يعود فيه وقال الكلبى ان يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن وعن حوشب أن لا يعود ولو حز بالسيف وأحرق بالنار وعن سماك أن تنصب الذنب الذى أقللت فيه الحياء من الله تعالى امام عينيك وتتبعه نظرك وعن السدى لا تصح الا بنصيحة النفس ونصيحة المؤمنين لان من صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله وقال سعيد بن المسيب توبة ينصحون فيها أنفسهم وقال القرطبى يجمعها أربعة أشياء الاستغفار باللسان والاقلاع بالابدان واضمار ترك العود بالجنان ومهاجرة سيئ الاخوان وقال الفقهاء التوبة التى لا تعلق لحق آدمى فيها لها ثلاثة شروط أحدها أن يقلع عن المعصية وثانيها أن يندم على مافعله وثالثها أن يعزم على أن لا يعود اليها فاذا اجتمعت هذه الشروط فى التوبة كانت نصوحا وان فقد شرط منها لم تصح توبته وان كانت تتعلق بآدمى فشروطها أربعة هذه الثلاثة المتقدمة والرابع ان يبرأ من حق صاحبها فان كانت المعصية مالا ونحوه رده الى مالكه وان كانت حد قذف ونحوه مكنه من نفسه أو طلب العفو منه وان كانت غيبة استحله منها قال العلماء التوبة واجبة من كل معصية كبيرة أو صغيرة على الفور ولا يجوز تأخيرها وتجب من جميع الذنوب وان تاب من بعضها صحت توبته عما تاب منه وبقى عليه الذى لم يتب منه هذا مذهب أهل السنة والجماعة وقد قال صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس توبوا الى الله فانى أتوب اليه فى اليوم مائة مرة وعن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة وعن أبى موسى الاشعرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها وعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر وعن على انه سمع اعرابيا يقول

اللهم انى أستغفرك وأتوب اليك فقال ياهذا ان سرعة الاستغفار بالتوبة توبة الكذابين قال وما التوبة قال يجمعها ستة أشياء على الماضى من الذنوب الندامة وللفرائض الاعادة ورد المظالم واستحلال الخصوم وان تعزم على ان لاتعود وان تذيب نفسك فى طاعة الله كما أذبتها فى المعصية وان تذيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصى وعن حذيفة بحسب الرجل من الشر أن يتوب من الذنب ثم يعود فيه وقوله تعالى (عسى ربكم) أى المحسن اليكم (أن يكفر) أى يغطى تغطية عظيمة (عنكم سيآتكم) أى مابدا منكم مما يسوء بالتوبة اطماع من الله لعباده فى قبول التوبة وذلك تفضلا وتكرما لا وجوبا عليه واذا كان التائب على خطر فما ظنك بالمصر ولكن الفضل واسع * ولما ذكر نفع التوبة فى دفع المضار ذكر نفعها فى جلب المسار بقوله تعالى (ويدخلكم) أى يوم الفصل (جنات) أى بساتين كثيرة الاشجار تستر داخلها (تجرى من تحتها) أى تحت غرفها وأشجارها (الانهار) فهى لاتزال زيا وقوله تعالى (يوم لايخزى الله) اى الملك الاعظم (النبى) اى الذى نبأه الله تعالى بما أوجب له الرفعة التامة من الاخبار التى هى فى غاية العظمة منصوب بيدخلكم أو باضمار اذكر ومعنى يخزى هنا يعذب أى لايعذبه وقوله تعالى (والذين آمنوا معه) يجوز فيه وجهان أحدهما ان يكون منسوقا على النبى أى ولا يخزى الذين آمنوا معه وعلى هذا يكون قوله تعالى (نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم) مستأنفا أو حالا الثانى ان يكون مبتدأ وخبره نورهم يسعى الى آخره وقوله تعالى (يقولون) خبر ثان أو حال *(تنبيه)* التقييد بالايمان لاينفى ان لهم نورا عن شمائلهم بل لهم نور لكن لايلتفتون اليه لانهم اما من السابقين واما من أهل اليمين فهم يمشون فى هاتين الجهتين ويؤتون صحائف أعمالهم منهما وأما أصحاب الشمال فيعطونها من وراء ظهورهم ومن شمائلهم وهم بمالهم من النوران قالوا سمع لهم وان شفعوا (ربنا) أى أيها المتفضل علينا بهذا النور وبكل خير كنا ونكون فيه (أتمم لنا نورنا) أى الذى مننت به علينا حتى يكون فى غاية التمام قال ابن عباس يقولون ذلك اذا طفئ نور المنافقين اشفاقا وعن الحسن الله متمه لهم ولكنهم يدعون تقربا الى الله كقوله تعالى واستغفر لذنبك وهو مغفور له وقيل يقوله أدناهم منزلة لانهم يعطون من النور قدر ما يبصرون مواطئ اقدامهم لان النور على قدر الاعمال فيسألون اتمامه تفضلا وقيل السابقون الى الجنة يمرون مثل البرق على الصراط وبعضهم كالريح وبعضهم حبوا وزحفا أولئك الذين يقولون ربنا أتمم لنا نورنا (واغفر لنا) أى وامح عنا كل نقص كان يميل بنا الى أحوال المنافقين عينه وأثره وهذا النور من صور أعمالهم فى الدنيا لان الآخرة تظهر فيها حقائق الاشياء وتتبع الصور معانيها وهو شرع الله الذى شرعه وهو الصراط الذى يضرب بين ظهرانى جهنم لان الفضائل فى الدنيا متوسطة بين الرذائل فكل فضيلة يكتنفها رذيلتان افراط وتفريط فالفضيلة هى الصراط المستقيم والرذيلتان ما كان من جهنم عن يمينه وشماله فمن كان يمشى فى الدنيا على ما أمر به سواء من غير افراط ولا تفريط كان نوره تاما ومن امالته الشهوات طفئ نوره فى بعض الاوقات واختطفته كلاليب هى صور الشهوات فتميل به فى النار بقدر ميله اليها والمنافق يظهر له نور

اقراره بكلمة التوحيد فاذا مشى طفئ لان اقراره لا حقيقة له (انك) أى وحدك (على كل شئ) يمكن دخول المشيئة فيه (قدير) أى بالغ القدرة * ولما ذكر ما تقدم من لينه صلى الله عليه وسلم لاضعف الناس وحسن أدبه وكرم عشرته لانه مجبول على الشفقة على عباد الله والرحمة لهم أمره سبحانه بالغلظة والشدة على اعدائه بقوله تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار) اى بكل ما يجهدهم فيكفهم من السيف ومادونه من المواعظ الحسنة والدعاء الى الله تعالى ليعرف أن ذلك اللين لاهل الله تعالى انما هو من تمام عقلك وغزير علمك وفضلك (والمنافقين) أى جاهدهم بما يليق بهم من الحجة والسيف ان احتيج اليه ان أبدوا نوع مظاهرة وعرفهم أحوالهم فى الآخرة وانهم لانور لهم يجوزون به على الصراط مع المؤمنين وقال الحسن وجاهدهم باقامة الحدود عليهم (واغلظ عليهم) بالفعل والقول بالتوبيخ والزجر والابعاد والهجر فالغلظة عليهم من اللين لله تعالى كما ان اللين لاهل الله من خشية الله تعالى وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها (ومأواهم) اى فى الآخرة (جهنم وبئس المصير) اى هى * ولما كان للكفار قرابات بالمسلمين ربما توهموا انها تنفعهم وللمسلمين قرابات بالكفار توهم انها تضرهم ضرب لكل مثلا وبدأ بالاول فقال تعالى (ضرب الله) أى الملك الذى أحاط بكل شئ قدرة وعلما (مثلا) يعلم به من فيه قابلية العلم ويتعظ به من له أهلية الاتعاظ (للذين كفروا) أى غطوا الحق على أنفسهم وعلى غيرهم وقوله تعالى (امرأت نوح) عليه السلام الذى أهلك الله تعالى من كذب به بالغرق (وامرأت لوط) عليه السلام الذى أهلك الله تعالى من كذب به بالحصب والخسف يجوز أن يكون بدلا من قوله مثلا على تقدير حذف المضاف أى ضرب الله مثلا مثل امرأة نوح وامرأة لوط ويجوز ان يكونا مفعولين وضرب الله تعالى هذا المثل تنبيها على انه لا يغنى أحد عن قريب ولا نسيب فى الآخرة اذا فرق بينهما الدين قال مقاتل وكان اسم امرأة نوح والهة واسم امرأة لوط والعة وقال الضحاك عن عائشة ان جبريل عليه السلام نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره أن اسم امرأة نوح واعلة واسم امرأة لوط والهة * (تنبيه) * رسمت امرأت فى الثلاثة وابنت بالتاء المجرورة فوقف عليهن بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائى ووقف الباقون بالتاء وقوله تعالى (كانتا) اى مع كونهما كافرتين (تحت عبدين) جملة مستأنفة كانها مفسرة لضرب المثل ولم يأت بضميرهما فيقال تحتهما أى تحت نوح ولوط لما قصد من تشريفهما بهذه الاضافة الشريفة قال القائل

لا تدعنى الا بياعبدها * فانه أشرف أسمائى

ودل على كثرة عبيده تنبيها على غناه بقوله تعالى (من عبادنا) ووصفهما بأجل الصفات وهو قوله تعالى (صالحين) واختلف فى معنى قوله تبارك وتعالى (فخانتاهما) فقال عكرمة والضحاك بالكفر وعن ابن عباس كانت امرأة نوح تقول للناس انه مجنون واذا آمن به أحد أخبرت الجبابرة من قومه وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه وعن ابن عباس ما بغت امرأة نبى قط وانما كانت خيانتهما فى الدين وكانتا مشركتين وقيل كانتا منافقتين وقيل خيانتهما النميمة اذا أوحى اليهما شئ أفشتاه الى المشركين قاله الضحاك وقيل كانت امرأة لوط اذا نزل به ضيف

دخنت لتعلم قومها انه قد نزل به ضيف لما كانوا عليه من اتيان الرجال (فلم) أى فتسبب عن ذلك ان العبدين الصالحين لم (يغنيا عنهما) أى المرأتين بحق النكاح (من الله) أى من عذاب الملك الذى له الامر كله فلا أمر لغيره (شيأ) أى من اغناء لاجل خيانتهما (وقيل) أى للمرأتين ممن أذن له فى القول النافذ الذى لا مرد له (ادخلا النار) أى قيل لهما ذلك عند موتهما أو يوم القيامة (مع الداخلين) أى مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الانبياء فلم يغن نوح ولوط عن امرأتيهما شيأ من عذاب الله تعالى وفى هذا المثل تعريض بأمى المؤمنين عائشة وحفصة وما فرط منهما وتحذير لهما على أعلى وجه وأشده وفيه تنبيه على أن العذاب يدفع بالطاعة لا بالوسيلة وقيل ان كفار مكة استهزؤا وقالوا ان محمدا يشفع لنا فبين تعالى ان الشفاعة لا تنفع كفار مكة وان كانوا أقرباء كما لا ينفع نوح امرأته ولا لوط امرأته مع قربهما لهما لكفرهما * ثم شرع تعالى فى ضرب المثل الثانى فقال تعالى (وضرب الله) أى الملك الاعلى الذى له صفات الكمال (مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون) واسمها آسية وهى بنت مزاحم آمنت وعملت صالحا فلم تضرها الوصلة بالكافر بالزوجية التى هى من أعظم الوصل ولا نفعه ايمانها كل امرئ بما كسب رهين وأثابها ربها تعالى أن جعلها فى الآخرة زوجة خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم فى دار كرامته بصبرها على عبادة الله تعالى وهى فى حبالة عدوه وأسقط وصفه بالعبودية دليلا على تحقيره وعدم رحمته له لانه من أعدى أعدائه وقوله تعالى (اذ قالت) ظرف للمثل المحذوف أى مثلهم مثلها حين قالت (رب) أى أيها المحسن الى بالهداية وأنا فى حبالة هذا الكافر الجبار (ابن لى عندك بيتا) وبينت مرادها بالعندية فقالت (فى الجنة) أى دار المقربين وقد أجابها سبحانه بان جعلها زوجة أكمل خلقه محمد صلى الله عليه وسلم فكانت معه فى منزله الذى هو أعلى المنازل (ونجنى من فرعون) أى فلا أكون عنده (وعمله) فلا تسلطه على بما يضرنى عندك فى الآخرة فلا أعلق بشئ من عمله وهو شركه وقال ابن عباس جماعه (ونجنى) اعادت العامل تأكيدا (من القوم الظالمين) أى الناس الاقوياء العريقين الذين يضعون أعمالهم فى غير موضعها فاستجاب الله تعالى دعاءها وأحسن اليها لاجل محبتها للمحبوب وهو كليم الله موسى عليه السلام كما يقال * صديق صديقى داخل فى صداقتى * وذلك أن موسى عليه السلام لما غلب السحرة آمنت به فلما تبين لفرعون ايمانها أوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها فى الشمس فاذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة وفى القصة ان فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها فلما أتوها بالصخرة قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة فأبصرته من مرمرة بيضاء فانتزعت روحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه ولم تجد ألما وقال الحسن وابن كيسان رفع الله تعالى امرأة فرعون الى الجنة فهى فيها تأكل وتشرب وقوله تعالى (ومريم ابنت عمران) عطف على امرأة فرعون تسلية للارامل (التى أحصنت فرجها) اى عفت عن السوء وجميع مقدماته كانت كالحصن العظيم المانع من العدو فاستمرت على حالها الى الممات فزوجها الله تعالى فى الجنة جزاء لها بخير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم وقال بعض المفسرين أراد بالفرج هنا الجيب لقوله تعالى (فنفخنا)

أى ء بالنافخ من العظمة بواسطة ملكنا جبريل عليه السلام (فيه) اى فى جيب درعها قال البقاعى أو فى فرجها الحقيقى وعلى هذا فلا حاجة الى التأويل (من روحنا) أى من روح خلقناه بلا توسط أصل وهو روح عيسى عليه السلام (وصدقت بكلمات ربها) أى المحسن اليها واختلف فى تلك الكلمات فقال مقاتل يعنى بالكلمات عيسى وأنه نبى وعيسى كلمة الله وقال البغوى يعنى الشرائع التى شرعها الله تعالى للعباد بكلماته المنزلة وقيل هى قول جبريل عليه السلام انها انما أنا رسول ربك الآية وعلى كل قول استحقت ان تسمى لذلك صديقه وقرأ (وكتبه) أبو عمرو وحفص بضم الكاف والتاء جمعا والباقون بكسر الكاف وفتح التاء وبعدها ألف افرادا والمراد منه الكثرة فالمراد به الجنس فيكون فى معنى كل كتاب أنزله الله تعالى على ولدها أو غيره وقوله تعالى (وكانت من القانتين) يجوز فى من وجهان أحدهما انه لابتداء الغاية والثانى انها للتبعيض وقد ذكرهما الزمخشرى فقال فمن للتبعيض ويجوز أن تكون لابتداء الغاية على انها ولدت من القانتين لانها من أعقاب هرون أخى موسى صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهما وعليها وعلى سائر الانبياء وآلهم أجمعين قال الزمخشرى فان قلت لم قيل من القانتين على التذكير قلت لان القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين فغلب ذكوره على اناثه وقيل أراد من القوم القانتين ويجوز أن يرجع هذا الى أهل بيتها فانهم كانوا مطيعين لله والقنوت الطاعة وقال عطاء من المصلين بين المغرب والعشاء وعن معاذ بن جبل ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لخديجة وهى تجود بنفسها اذا قدمت على ضراتك فأقرئيهن منى السلام مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وعن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كمل من نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون وروى الشيخان عن أبى موسى الاشعرى كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام وما قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبة نصوحا حديث موضوع

(سورة الملك مكية)

وتسمى الواقية والمنجية وتدعى فى التوراة المانعة لانها تقى وتنجى من عذاب القبر وعن ابن شهاب انه كان يسميها المجادلة لانها تجادل عن صاحبها فى القبر وهى ثلاثون آية وثلثمائة وثلاثون كلمة وألف وثلثمائة حرف

(بسم الله) الذى خضعت لكمال عظمته الملوك (الرحمن) الذى عم بنعمة الايجاد كل من فى الوجود (الرحيم) الذى خص أولياءه بالنعيم بدار الخلود (تبارك) أى تكبر وتقدس وتعالى وتعاظم وثبت ثباتا لا مثل له مع اليمن والبركة وقيل دام فهو الدائم الذى لا أول لوجوده ولا آخر لدوامه (الذى بيده) أى بقدرته وتصرفه لا بقدرة غيره (الملك) أى له الامر والنهى

وملك السموات في الدنيا والآخرة وقال ابن عباس بيده الملك يعز من يشاء ويذل من يشاء ويحيي ويميت ويغني ويفقر ويعطي ويمنع قال الرازي وهذه الكلمة تستعمل لتأكيد كونه تعالى ملكا ومالكا كما يقال بيد فلان الامر والنهي والحل والعقد وذكر اليد انما هو تصوير للاحاطة ولتمام القدرة لانها محلها مع التنزه عن الجارحة وعن كل ما يفهم حاجة أوشبهها (وهو على كل شيء) أي من الممكنات (قدير) أي تام القدرة *(تنبيه)* احتج أهل السنة بهذه الآية على أنه لا يؤثر الا قدرة الله تعالى وابطلوا القول بالطبائع كقول الفلاسفة وابطلوا القول بالمتولدات كقول المعتزلة وابطلوا القول بكون العبد موجد الافعال نفسه لقوله تعالى وهو على كل شيء قدير ودلت هذه الآية على الوحدانية لانا لو قدرنا الها ثانيا فاما أن يقدر على ايجاد شيء أولا فان لم يقدر على ايجاد شيء لم يكن الها وان قدر كان مقدور ذلك الاله الثاني شيأ فيلزم كون ذلك الشيء مقدورا للاله الاول لقوله وهو على كل شيء قدير فيلزم وقوع مخلوق من خالقين وانه محال لانه اذا كان كل واحد منهما مستقلا بالايجاد يلزم أن يستغني كل واحد منهما عن كل واحد منهما فيكون محتاجا اليهما وغنيا عنهما وذلك محال وقرأ وهو على كل شيء قدير وهو العزيز الغفور وهو اللطيف وما أشبه ذلك أبو عمرو وقالون والكسائي بسكون الهاء والباقون بضمها وخرج بقولنا من الممكنات أنه تعالى ليس قادرا على نفسه وأجاب بعضهم بأن هذا عام مخصوص ودل على تمام قدرته قوله تعالى (الذي خلق) أي قدر وأوجد (الموت والحياة) قيل خلق الموت في الدنيا والحياة في الآخرة وقدم الموت على الحياة لان الموت الى القهر أقرب كما قدم البنات على البنين فقال يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور وقيل قدمه لانه أقدم لان الاشياء في الابتداء كانت في حكم الموت كالنطف والتراب ونحوه وقال قتادة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله أذل بني آدم بالموت وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء وعن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه الفقر والمرض والموت وقيل انما قدم الموت على الحياة لان من نصب الموت بين عينيه كان أقوى الدواعي الى العمل وحكى عن ابن عباس والكلبي ومقاتل ان الموت والحياة جسمان والموت في هيئة كبش لا يمر بشيء ولا يجد ريحه الا مات وخلق الحياة على صورة فرس أنثى بلقاء وهي التي كان جبريل عليه السلام والانبياء عليهم السلام يركبونها خطوتها مد البصر فوق الحمار ودون البغل لا تمر بشيء ولا يجد ريحها الاحيي ولا تطأ على شيء الاحيي وهي التي أخذ السامري من أثرها فألقاه على العجل حكاه الثعلبي والقشيري عن ابن عباس وعن مقاتل خلق الموت يعني النطفة والعلقة والمضغة وخلق الحياة يعني خلق انسانا فنفخ فيه الروح فصار انسانا قال القرطبي وهذا حسن يدل عليه قوله تعالى (ليبلوكم) أي يعاملكم وهو أعلم بكم من أنفسكم معاملة المختبر لاظهار ما عندكم من العمل بالاختيار (أيكم أحسن عملا) أي من جهة العمل أي عمله أحسن من عمل غيره

وروى عن عمر مرفوعا أحسن عملا أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله
وقال الفضيل بن عياض أحسن عملا أخلصه وأصوبه وقال العمل لا يقبل حتى يكون خالصا
صوابا فالخالص اذا كان لله والصواب اذا كان على السنة وقال الحسن أيكم أزهد فى الدنيا
وأترك لها وقال السدى أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن استعدادا وأشد خوفا وحذرا
وقيل يعاملكم معاملة المختبر فيبلو العبد بموت من يعز عليه ليبين صبره وبالحياة ليبين شكره
وقيل خلق الله تعالى الموت للبعث والجزاء وخلق الله الحياة للابتلاء (فان قيل) الابتلاء هو
التجربة والامتحان حتى يعلم أنه هل يطيع أو يعصى وذلك فى حق الله تعالى العالم بجميع
الاشياء محال (أجيب) بأن الابتلاء من الله تعالى هو ان يعامل عبده معاملة تشبه المختبر كما
مرت الاشارة اليه (وهو) أى والحال أنه وحده (العزيز) أى الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه
شئ (الغفور) أى الذى مع ذلك يفعل فى محو الذنوب عينا وأثرا فعل المبالغ فى ذلك ويتلقى
من أقبل اليه أحسن تلق كما قال تعالى فى الحديث القدسى ومن أتانى يمشى أتيته هرولة وقوله
تعالى (الذى خلق) أى أبدع على هذا التقدير من غير مثال سبق (سبع سموات) يجوز أن
يكون تابعا للعزيز الغفور نعتا أو بيانا أو بدلا وأن يكون منقطعا عنه خبر مبتدا محذوف أو
مفعول فعل مقدر وقوله تعالى (طباقا) صفة لسبع وفيه ثلاثة أوجه أحدها انه جمع طبق
نحو جبل وجبال والثانى أنه جمع طبقة نحو رحبة ورحاب والثالث أنه مصدر طابق يقال
طابق مطابقة وطباقا ثم اما أن يجعل نفس المصدر مبالغة واما على حذف مضاف أى ذات
طباق واما أن ينتصب على المصدر بفعل مقدر أى طوبقت طباقا من قولهم طابق النعل
أى جعله طبقة فوق طبقة أخرى وروى عن ابن عباس طباقا أى بعضها فوق بعض قال البقاعى
بحيث يكون كل جزء منها مطابقا للجزء من الاخرى ولا يكون جزء منها خارجا عن ذلك قال
وهى لا تكون كذلك الا أن تكون الارض كرة والسماء الدنيا محيطة بها احاطة قشر
البيضة من جميع الجوانب والثانية محيطة بالدنيا وهكذا الى أن يكون العرش محيطا بالكل
والكرسى الذى هو أقربها بالنسبة اليه كحلقة ملقاة فى فلاة فما ظنك بما تحته وكل سماء فى التى
فوقها بهذه النسبة وقد قرر أهل الهيئة انها كذلك وليس فى الشرع ما يخالفه بل ظواهره
توافقه ولاسيما التشبيه بالحلقة الملقاة فى فلاة فسبحان اللطيف الخبير ولاشك أن من تفكر
فى هذه العظمة مع ما ألطف بنا فيها فيها أفيها الناس من المنافع آثره سبحانه بالحب وأفرده عن كل ضد
فانقطع بالتجاء اليه ولم يعول الا عليه فى كل دفع ونفع وسارع فى مرضاته ومحابه فى كل
خفض ورفع * (تنبيه) * دلت هذه الآية على القدرة من وجوه أحدها من حيث بقاؤها فى جو
الهواء معلقة بلا عماد ولا سلسلة ثانيها ان كلا منها اختص بحركة خاصة متقدرة بقدر معين
من السرعة والبطء الى جهة معينة ثالثها كونها فى ذاتها محدثة وكل ذلك يدل على
اسنادها الى قادر تام القدرة وقوله تعالى (ماترى فى خلق الرحمن) أى للسموات ولغيرها خطاب
للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل مخاطب وكذا القول فى قوله تعالى فارجع البصر ثم ارجع

البصر

البصر ينقلب اليك البصر (من تفاوت) أى من اعوجاج ولا تناقض ولا تباين بل هى مستقيمة مستوية دالة على خالقها وان اختلف صورة وقيل المراد بذلك السموات خاصة أى ماترى فى خلق السموات من عيب وأصله من الفوت وهو ان يفوت بعضها بعضا فيقع الخلل لعدم استوائها يدل عليه قول ابن عباس من تفرق وقال السدى أى من اختلاف وعيب يقول الناظر لو كان كذا لكان أحسن وقيل المراد من التفاوت الفطور لقوله تعالى بعد ذلك فارجع البصر هل ترى من فطور ونظيره قوله تعالى ومالها من فروج قال القفال ويحتمل أن يكون المعنى ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فى الدلالة على حكمة الصانع وأنه لم يخلقها عبثا *(تنبيه)* دلت هذه الآية على كمال علم الله تعالى وذلك ان الحس دل على ان هذه السموات السبع أجسام مخلوقة على وجه الاحكام والاتقان وكل فاعل كان فعله محكما متقنا فلابد وأن يكون عالما فدلت الآية على كونه تعالى عالما بالمعلومات فقوله تعالى ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت اشارة الى كونها محكمة متقنة وقرأ ماترى وهل ترى أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بين بين والباقون بالفتح وأدغم لام هل فى التاء أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائى وقرأ من تفوت حمزة والكسائى بغير ألف بعد الفاء وتشديد الواو والباقون بألف بعد الفاء وتخفيف الواو وقوله تعالى (فارجع البصر) مسبب عن قوله تعالى ماترى وقوله تعالى (هل ترى من فطور) جملة يجوز أن تكون معلقة لفعل محذوف يدل عليه فارجع البصر أى فارجع البصر فانظر هل ترى وأن يكون فارجع البصر مضمنا معنى انظر لأنه بمعناه فيكون هو المعلق والفطور جمع فطر وهو الشق يقال فطره فانفطر ومنه فطر ناب البعير كما يقال شق ومعناه شق اللحم وطلع قال المفسرون الفطور الصدوع والشقوق قال القائل

شققت القلب ثم ذررت فيه * هواك فليط فالتام الفطور

(ثم ارجع البصر) وقوله تعالى (كرتين) نصب على المصدر كمرتين وهو مثنى لا يراد به حقيقته بل التكثير بدليل قوله تعالى (ينقلب اليك البصر خاسئا) أى صاغرا ذليلا بعيدا عن اصابة المطلوب كأنه طرد عنه طردا بالصغار (وهو حسير) أى كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة وهذان الوصفان لا يأتيان بنظرتين ولا ثلاث وانما المعنى كرات وهذا كقولهم لبيك وسعديك وحنانيك ودواليك وهذاذيك لا يريدون بهذه التثنية تشفيع الواحد انما يريدون التكثير أى اجابة لك بعد اجابة والا لتناقض الغرض والتثنية تفيد التكثير لقرينة كما يفيده أصلها وهو العطف لقرينة كقوله * لوعد قبر وقبر كنت أكرمه * أى قبور كثيرة ليتم المدح وقال ابن عطية كرتين معناه مرتين ونصبهما على المصدر وقيل الاولى لترى حسنها واستواءها والثانية ليبصر كواكبها فى سيرها وانتهائها وهذا بظاهره يفهم التثنية فقط وروى البغوى عن كعب أنه قال السماء الدنيا موج مكفوف والثانية مرمرة بيضاء والثالثة حديد والرابعة صفر أو قال نحاس والخامسة فضة والسادسة ذهب والسابعة ياقوتة حمراء وبين

السماء السابعة والحجب السبعة صحارى من نور ثم ذكر تعالى دلالة أخرى بعد تلك الدلالة تدل على تمام قدرته بقوله تعالى (ولقد زينا) بما لنا من العظمة (السماء الدنيا) أى القربى لأنها أقرب السموات الى الارض وهى التى تشاهدونها (بمصابيح) جمع مصباح وهو السراج أى بنجوم متقدة عظيمة جدا تفوت الحصر ظاهرة سائرة مضيئة ظاهرة زاهرة وهى الكواكب التى تنور الارض بالليل انارة السرج التى تنورون بها سقوف دوركم وسمى الكواكب مصابيح لاضاءتها وزينة لان الناس يزينون مساجدهم ودورهم بالمصابيح فكأنه قال ولقد زينا سقف الدار التى اجتمعتم فيها بمصابيح والتزين بها لايمنع أن تكون مركوزة فيما فوقها من السموات وهى تتراءى بحسب الشفوف وبما الاجرام السموات من الصفاء ولتلك المصابيح من شدة الاضاءة (وجعلناها) أى المصابيح بما لنا من العظمة مع كونها زينة واعلاما للهداية (رجوما للشياطين) أى الذين يحق لهم الطرد من الحق لما لهم من الاحتراق حراسة للسماء التى هى محل تنزل أمرنا بالقضاء والقدر وانزال هذا الذكر الحكيم لئلا يفسدوا باستراق السمع فيها على الناس دينهم الحق ويلبسوا عليهم أمرهم بخلط الحق الذى قد ختمنا به الاديان بالباطل والرجوم جمع رجم وهو مصدر فى الاصل أطلق على المرجوم به كضرب الامير ويجوز أن يكون باقيا على مصدريته ويقدر مضاف أى ذات رجوم وجمع المصدر باعتبار أنواعه والشهاب المرجوم به منفصل من نار الكوكب وهو قار فى فلكه على حاله كقبس النار يؤخذ منها وهى باقية لاتنقص وذلك مسوغ لتسميتها بالنجوم فمن لحقه الشهاب منهم قتله أو وضع أمره وخبله وقال أبو على جوابا لمن قال كيف تكون زينة وهى رجوم لاتنفى كيفية الرجم أن يؤخذ نار من ضوء الكوكب يرمى بها الشيطان والكوكب فى مكانه لايرجم به وقيل الرجوم هنا الظنون والشياطين شياطين الانس كما قال القائل * وماهو عنها بالحديث المرجم * فيكون المعنى جعلناها ظنونا ورجوما بالغيب لشياطين الانس وهم المنجمون يتكلمون بها رجما بالغيب فى أشياء من عظيم الابتلاء وعن قتادة خلقت النجوم لثلاث زينة للسماء ورجوما للشياطين وعلامات يهتدى بها فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وتكلف مالاعلم له به وتعدى وظلم (وأعتدنا) أى هيأنا فى الآخرة مع هذا الذى فى الدنيا بما لنا من العظمة (لهم) أى للشياطين (عذاب السعير) أى التى فى غاية الاتقاد فى الآخرة قال المبرد سعرت النار فهى مسعورة وسعير مثل مقتولة وقتيل وهذه الآية تدل على ان النار مخلوقة الآن لأن قوله تعالى وأعتدنا لهم خبر عن الماضى ولما أخبر تعالى عن تهيئة العذاب لهم بالخصوص أخبر عن تهيئته لكل عامل بأعمالهم على وجه اندرجوا هم فيه فقال عز من قائل (وللذين كفروا) أى أوقعوا التغطية لما من حقه أن يظهر ويشهر من الاذعان للاله (بربهم) أى الذى تفرد بايجادهم والاحسان اليهم فأنكروا ايجاده لهم بعد الموت كفرا بما شاهدوا من اختراعه لهم من العدم (عذاب جهنم) أى الدركة النارية التى تلقاهم بالتجهم والعبوسة والغضب (وبئس المصير) أى هى (اذا ألقوا) أى طرح الكفار (فيها) أى فى نار جهنم من أى طارح أمرناه بطرحهم كما يطرح الحطب فى النار العظيمة (سمعوا لها)

أى جهنم منها (شهيقا) أى صوتا هائلا أشد نكارة من أول صوت الحمار لشدة توقدها وغليانها قال ابن عباس الشهيق لجهنم عند القاء الكفار فيها كشهيق البغلة للشعير أولا هلها على حذف مضاف كما قال عطاء الشهيق للكفار أى سمعوا من أنفسهم شهيقا كقوله تعالى لهم فيها زفير وشهيق قال القرطبى الشهيق فى الصدر والزفير فى الحلق وقد مضى فى سورة هود (وهى تفور) أى تغلى بهم ومنه قول حسان

تركتم قدركم لا شئ فيها * وقدر القوم حامية تفور

قال ابن عباس تغلى بهم كغلى المراجل وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بكسرها (تكاد تميز) أى تقرب من أن ينفصل بعضها من بعض كما يقال يكاد فلان ينشق من غيظه وفلان غضب فطارت شقة منه فى الارض وشقة فى السماء كناية عن شدة الغضب وقرأ البزى بتشديد التاء من تميز فى الوصل والسوسى على أصله بادغام الدال فى التاء (من الغيظ) أى عليهم وقال سعيد بن جبير تكاد تميز من الغيظ يعنى ينقطع وينفصل بعضها من بعض وقال ابن عباس تمزق من شدة الغيظ على أعداء الله تعالى وذلك كله لغضب سيدها وتأتى يوم القيامة تقاد الى المحشر بألف زمام لكل زمام سبعون ألف ملك يقودونها به وهى من شدة الغيظ تقوى على الملائكة وتحمل على الناس فتقطع الازمة جميعا وتحطم أهل المحشر فلا يردها عنهم الا النبى صلى الله عليه وسلم يقابلها بنوره فترجع مع ان لكل ملك من القوة مالو أمر أن يقلع الارض وما عليها من الجبال ويصعد بها فى الجو فعل من غير كلفة وهذا كما أطفأها فى الدنيا بنفخه روى أبو داود عن ابن عمر أنه قال انكسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر صلاته الى أن قال ثم نفخ فى آخر سجوده فقال اف اف ألم تعدنى أن لا تعذبهم وأنا فيهم ألم تعدنى أن لا تعذبهم وهم يستغفرون ولما ذكر تعالى حالها أتبعه حالهم فقال تعالى (كلما ألقى فيها) أى فى جهنم بدفع الزبانية لهم (فوج) أى جماعة فى غاية الاسراع والافواج الجماعات فى تفرقة ومنه قوله تعالى فتأتون أفواجا والمراد هنا بالفوج جماعة من الكفار (سألهم) أى ذلك الفوج (خزنتها) أى النار وهم مالك وأعوانه سؤال توبيخ وتقريع (ألم يأتكم) أى فى الدنيا (نذير) أى رسول يخوفكم هذا اليوم حتى تحذروا قال الزجاج وهذا التوبيخ زيادة لهم فى العذاب (قالوا بلى) قرأه حمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح والوقف عليها كما فى الوصل (قد جاءنا نذير) أى محذر بليغ التحذير * (تنبيه) * فى ذلك دليل على جواز الجمع بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها اذ لو قالوا بلى لفهم المعنى ولكنهم أظهروه تحسرا وزيادة فى غمهم على تفريطهم فى قبول قول النذير وليعطفوا عليه قولهم (فكذبنا) أى فتسبب عن مجيئه انا أوقعنا التكذيب بكل ما قاله النذير (وقلنا) أى زيادة فى التكذيب (ما نزل الله) أى الذى له الكمال كله عليكم ولا على غيركم (من شئ) لا وحيا ولا غيره وما كفانا هذا الفجور حتى قلنا مؤكدين (ان) أى ما (أنتم) أى أيها النذر المذكورون فى نذير المراد به الجنس (الا فى ضلال) أى بعد عن الطريق (كبير) فبالغنا فى التكذيب والسفه

بالاستفهام والاستخفاف وقيل قوله تعالى ان أنتم الا فى ضلال كبير من كلام الملائكة للكفار حين أخبروا بالتكذيب (وقالوا) أى الكفار زيادة فى توبيخ أنفسهم (لو كنا) أى بما لنا من الغريزة (نسمع) أى كلام الرسل فنقبله جملة من غير بحث وتفتيش اعتمادا على مالاح من صدقهم بالمعجزات (أو نعقل) أى بما أدته الينا حاسة السمع فنفكر فى حكمه ومعانيه تفكر المستبصرين (ما كنا) أى كونا دائما (فى أصحاب السعير) أى فى عداد من أعدت له النار التى هى فى غاية الايقاد *(تنبيه)* فى الآية أعظم فضيلة للعقل روى عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لكل شئ دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته أما سمعتم قول الفجار لو كنا نسمع أو نعقل الآية (فاعترفوا) أى بالغوا فى الاعتراف حيث لا ينفعهم الاعتراف (بذنبهم) أى فى دار الجزاء كما بالغوا فى التكذيب فى دار العمل والذنب لم يجمع لانه فى الأصل مصدر والمراد به تكذيب الرسل (فسحقا) أى فبعدا لهم من رحمة الله تعالى وهو دعاء عليهم مستجاب (لاصحاب السعير) أى الذين قضت عليهم أعمالهم بملازمتها وقال سعيد بن جبير وأبو صالح هو واد فى جهنم يقال له السحق وقرأ الكسائى بضم الحاء والباقون بسكونها ولما ذكر أصحاب السعير أتبعهم ذكر أضدادهم بقوله تعالى (ان الذين يخشون) أى يخافون (ربهم) أى المحسن اليهم خوفا أرق قلوبهم وأرق أعينهم بحيث لا يقر لهم قرار من توقعهم العقوبة كلما ازدادوا طاعة ازدادوا خشية يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة (بالغيب) أى حال كونهم غائبين عن عذابه سبحانه أو وعيده غائبا عنهم أو وهم غائبون عن أعين الناس فهم مع الناس يتكلمون وقلوبهم تلتظى بنيران الخوف وتكلم بسيوف الهيبة فيتركون المعصية حيث لا يراهم أحد من الناس ولا يكون لهم هذا الا برياضة عظيمة فعلى العاقل أن يطوع نفسه لترجع مطمئنة بأن ترضى بالله ربا بالتدخل فى رق العبودية وبالاسلام دينا ليصير غريقا فيها فلا ينازع الملك فى ردائه الكبرياء وازاره العظمة وتاجه الجلال وحلته الجمال ولا ينازعه فيما يدبره من الشرائع ويظهره من المعارف ويحكم به على عبيده من قضائه وقدره (لهم مغفرة) أى عظيمة تأتى على جميع ذنوبهم (وأجر) أى من فضل الله تعالى (كبير) يكون لهم به من الاكرام ما ينسيهم ما قاسوه فى الدنيا من شدائد الايلام ويصغر فى جنبه لذائذ الدنيا العظام (وأسروا) أى أيها الخلائق (قولكم) أى خيرا كان أو شرا (أو اجهروا به) فانه يعلمه ويجازيكم به اللفظ لفظ الامر والمراد به الخبر يعنى ان أخفيتم كلامكم فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم أو غيره أو جهرتم به فسواء (انه) أى ربكم (عليم) أى بالغ العلم (بذات الصدور) أى بحقيقتها وكنهها وحالها وجبلتها وما يحدث عنها من الخير والشر وقال ابن عباس نزلت فى المشركين كانوا ينالون من النبى صلى الله عليه وسلم فيخبره جبريل عليه السلام فقال بعضهم لبعض أسروا قولكم كى لا يسمع رب محمد فأسروا قولكم أو اجهروا به يعنى وأسروا قولكم فى محمد صلى الله عليه وسلم وقال غيره انه خطاب عام لجميع الخلق فى جميع الاعمال والمراد أن قولكم وعملكم على أى سبيل وجد

فالحال واحد فى علمه تعالى فاحذروا من المعاصى سرا كما تحذرون عنها جهرا فان ذلك لا يتفاوت بالنسبة الى علم الله تعالى ولما قال تعالى انه عليم بذات الصدور ذكر الدليل على انه عالم فقال تعالى (ألا يعلم من خلق) أى من خلق لابد وأن يكون عالما بما خلقه لان الخلق هو الايجاد والتكوين على سبيل القصد والقاصد الى الشئ لابد وأن يكون عالما بحقيقة ذلك المخلوق كيفية وكمية والمعنى ألا يعلم السر من خلق السر يقول أنا خلقت السر فى القلب أفلا أكون عالما بما فى قلوب العباد قال أهل المعانى ان شئت جعلته من أسماء الخالق تعالى ويكون المعنى ألا يعلم الخالق خلقه وان شئت جعلته من أسماء المخلوق والمعنى ألا يعلم الله من خلقه ولابد أن يكون الخالق عالما بما خلقه وما يخلقه قال ابن المسيب بينما رجل واقف بالليل فى شجر كثير وقد عصفت الريح فوقع فى نفس الرجل أترى الله يعلم ما يسقط من هذا الورق فنودى من جانب الغيضة بصوت عظيم ألا يعلم من خلق (وهو) أى والحال انه هو (اللطيف) الذى يعلم ما ثبته فى القلوب (الخبير) أى البالغ العلم بالظواهر والبواطن فكيف يخفى عليه شئ من الاشياء وقال أبو اسحق الاسفرايني من أسماء صفات الذات ما هو للعلم منها العليم ومعناه تعميم جميع المعلومات ومنها الحكيم ويختص بأن يعلم دقائق الاوصاف ومنها الشهيد ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر ومعناه أن لا يغيب عنه شئ ومنها الحافظ ويختص بأنه لا ينسى شيأ ومنها المحصى ويختص بأنه لا يشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النور واشتداد الريح وتساقط الاوراق فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات فى كل ورقة وكيف لا يعلم وهو الذى يخلق وقد قال ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ولما كان هذا أمرا غامضا دل عليه بأمر مشاهد أبدعه بلطفه وأتقنه بخبره فقال مستأنفا (هو) أى وحده (الذى جعل لكم الارض) على سعتها وعظمتها وحزونة كثير منها (ذلولا) أى مسخرة لا تمتنع ان توصلوا الى منافعكم فيها قابلة للانقياد لما تريدون منها من مشى وزرع حبوب وغرس أشجار وغير ذلك وقيل ثبتها بالجبال لئلا تزول بأهلها ولو كانت متمايلة لما كانت منقادة لنا وقيل لو كانت مثل الذهب والحديد لكانت تسخن جدا فى الصيف وتبرد جدا فى الشتاء * (تنبيه) * فى ذكر هذه الآية بعد الآية المتقدمة تهديد للكفرة كقول السيد لعبده الذى أساء اليه سرا يا فلان أنا أعرف سرك وعلانيتك فاجلس فى هذه الدار التى وهبتها لك وكل هذا الخبز الذى هيأته لك ولا تأمن مكرى وتأديبى فكأنه تعالى يقول يا أيها الكفار أنا عالم بسركم وجهركم وضمائركم فخافونى فان الارض التى هى قراركم أنا ذللتها لكم ولو شئت خسفت بكم وقوله تعالى (فامشوا) أى الهوينا مكتسبين وغير مكتسبين ان شئتم من غير صعوبة توجب لكم وثوبا أو حبوا (فى مناكبها) مثل لفرط التذلل ومجاوزته الغاية لان المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شئ من البعير وأنباه عن ان يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه فاذا جعلها فى الذل بحيث يمشى فى مناكبها لم يترك شيأ وهذا أمر اباحة وفيه اظهار الامتنان وقيل خبر بلفظ الامر أى لكى تمشوا فى اطرافها ونواحيها وآكامها وجبالها وقال ابن عباس وبشير بن كعب وقتادة فى مناكبها فى جبالها وتذليلها أدل على

تذليل غيرها وليكن مشيكم فيها وتصرفاتكم بذل واخبات وسكون استصغار الانفسكم وشكرا لمن سخر لكم ذلك وروى أن بشير بن كعب كانت له سرية فقال لها ان أخبرتيني ما مناكب الارض فأنت حرة فقالت مناكبها جبالها فقال لها صرت حرة فأراد ان يتزوجها فسأل أبا الدرداء فقال دع ما يريبك الى ما لا يريبك وقال مجاهد في اطرافها وعنه أيضا في طرقها وفجاجها وهو قول السدي والحسن وقال الكلبي في جوانبها ومنكبا الرجل جانباه (فائدة) حكى قتادة عن أبي الجلد ان الارض أربعة وعشرون ألف فرسخ للسودان اثنا عشر ألفا وللروم ثمانية آلاف وللفرس ثلاثة آلاف وللعرب ألف ثم ذكرهم تعالى بأنه سهل لهما الاخراج البركات بقوله تعالى (وكلوا) ودل على ان الرزق فوق الكفاية بقوله تعالى (من رزقه) الذي أودعه لكم فيها قال الحسن مما أحل لكم وقيل مما خلقه الله لكم رزقا في الارض (واليه) أي وحده (النشور) وهو اخراج جميع الحيوانات التي أكلتها الارض وأفسدتها يخرجها سبحانه في الوقت الذي يريده على ما كان كل منها عليه عند الموت كما أخرج تلك الارزاق لا فرق بين هذا وذا غير انكم لا تتأملون فيا فوز من شكر ويا هلاك من كفر فعودوا أنفسكم بالخيرات لعلها تنقاد كما قيل * هي النفس ما عودتها تتعود * ولما كان لم يكن بعد الاستعطاف الا الانذار قال تعالى مهددا للمكذبين (أأمنتم) قرأ قنبل في الوصل بابدال الهمزة بعد راء النشور واوا وسهل الهمزة الثانية نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه وحققها الباقون وأدخل بينهما ألفا قالون وأبو عمرو وهشام والباقون بغير ادخال وقوله تعالى (من في السماء) فيه وجوه أحدها من ملكوته في السماء لانها مسكن ملائكته وثم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ومنها ينزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه والثاني أن ذلك على حذف مضاف أي أأمنتم خالق من في السماء والثالث ان في بمعنى على أي على السماء كقوله ولاصلبنكم في جذوع النخل أي على جذوع النخل وانما احتاج القائل بهذين الوجهين الى ذلك لانه اعتقد أن من واقعة على الباري تعالى شأنه وهو الظاهر وثبت بالدليل القطعي أنه ليس بمتحيز لئلا يلزم التجسيم ولا حاجة الى ذلك فان من هنا المراد بها الملائكة سكان السماء وهم الذين يتولون الرحمة والنقمة والرابع أنهم خوطبوا بذلك على اعتقادهم فان القوم كانوا مجسمة مشبهة وأنه في السماء وأن الرحمة والعذاب نازلان منه وكانوا يدعونه من جهتها فقيل لهم على حسب اعتقادهم أأمنتم من في السماء أي من تزعمون أنه في السماء قال الرازي هذه الآية لا يمكن اجراؤها على ظاهرها باجماع المسلمين لان ذلك يقتضي احاطة السماء به من جميع الجوانب فيكون أصغر منها والعرش أكبر من السماء بكثير فيكون حقيرا بالنسبة الى العرش وهو باطل بالاتفاق ولانه تعالى قال قل لمن ما في السموات والارض قل لله فلو كان فيها لكان مالكا لنفسه فالمعنى اما من في السماء عذابه واما ان ذلك بحسب ما كانت العرب تعتقده واما من في السماء سلطانه وملكه وقدرته كما قال تعالى وهو الله في السموات وفي الارض فان الشئ الواحد لا يكون دفعة في مكانين والغرض من ذكر السماء تفخيم سلطان الله سبحانه وتعظيم قدرته والمراد الملك الموكل بالعذاب وهو جبريل عليه السلام وقوله تعالى

(ان

(أن يخسف بكم الارض) بدل من من فى السماء بدل اشتمال وقال القرطبي يحتمل أن يكون المعنى أأمنتم خالق من فى السماء أن يخسف بكم الارض كما خسفها بقارون وقرأ من فى السماء ان نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية المفتوحة بعد الكسرة ياء فى الوصل والباقون بتحقيقهما (فاذا هى) أى الارض التى أنتم عليها (تمور) أى تضطرب وهى تهوى بكم وتجرى هابطة فى الهواء وتتكفأ الى حيث شاء سبحانه قال فى القاموس المور الاضطراب والجريان على وجه الارض والتحرك وقال الرازى ان الله تعالى يحرك الارض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها يذهبون والارض فوقهم تمور فتقلبهم الى أسفل السافلين وقال القرطبي قال المحققون أأمنتم من فوق السماء كقوله تعالى فسيحوا فى الارض اى فوقها لا بالمماسة والتحيز بل بالقهر والتدبير والاخبار فى هذا صحيحة كثيرة منتشرة مشيرة الى العلو لا يدفعها الا ملحد أو جاهل أو معاند والمراد بها توقيره وتنزيهه عن السفل والتحت ووصفه بالعلو والعظمة لا بالاماكن والجهات والحدود لانها صفات الاجسام وانما ترفع الايدى بالدعاء الى السماء لان السماء مهبط الوحى ومنزل القطر ومحل القدس ومعدن المطهرين من الملائكة واليها ترفع أعمال العباد وفوقها عرشه وجنته كما جعل الله تعالى الكعبة قبلة للصلاة ولانه تعالى خلق الامكنة وهو غير متحيز وكان فى أزله قبل خلق المكان والزمان ولا مكان له ولا زمان وهو الآن على ما عليه كان وقوله تعالى (أم أمنتم) أى أيها المكذبون (من فى السماء أن يرسل) بدل من من فى السماء بدل اشتمال (عليكم) أى من السماء (حاصبا) قال ابن عباس رضى الله عنهما أى حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل وقيل ريح فيها حجارة وحصباء كأنها تقلع الحصباء لشدتها وقوتها وقيل هى سحاب فيها حجارة (فستعلمون) أى عن قريب بوعد لا يخلف عند معاينة العذاب (كيف نذير) أى انذارى البليغ اذا شاهدتم العذاب وهو بحيث لا يستطاع ولا تتعلق الاطماع بكشف له ولا دفاع قال البقاعى وحذف الياء منه ومن نكير اشارة الى أنه وان كان خارجا عن الطوق ليس منتهى مقدوره بل لديه مزيد لا غاية له بوجه ولا تحزر أى على قراءة اكثر القراء فقد قرأ ورش بالياء فى الوصل فيهما دون الوقف والباقون بغير ياء وقفا ووصلا (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) أى انكارى عليهم لما أصبتهم به من العذاب ولما ذكر تعالى ما تقدم من الوعيد ذكر البرهان على كمال قدرته بقوله تعالى (أولم يروا) أجمع القراء على القراءة بالغيب لان السياق للرد على المكذبين بخلاف ما فى النحل وأشار الى بعد الغاية بحرف النهاية فقال تعالى (الى الطير) وهو جمع طائر (فوقهم) أى فى الهواء وقوله تعالى (صافات) أى باسطات أجنحتهن يجوز أن يكون حالا من الطير وأن يكون حالا من فوقهم اذا جعلناه حالا فتكون متداخلة وفوقهم ظرف لصافات على الاول أو ليروا وقوله تعالى (ويقبضن) عطف الفعل على الاسم لانه بمعناه أى وقابضات فالفعل هنا مؤول بالاسم عكس قوله تعالى ان المصدقين والمصدقات وأقرضوا فان الاسم هنالك مؤول بالفعل وقال ابو حيان وعطف الفعل على الاسم لما كان فى معناه ومثله قوله تعالى فالمغيرات صبحا فأثرن عطف الفعل على الاسم

لما كان المعنى فاللاتى أغرن فأثرن ومثل هذا العطف فصيح وكذا عكسه الا عند السهيلى فانه قبيح وقال الزمخشرى صافات باسطات أجنحتهن فى الجو عند طيرانها لانهن اذا بسطنها صففن قوادمها صفا او يقبضن ويضممنها اذا ضربن بها جنوبهن (فان قلت) لم قال ويقبضن ولم يقل قابضات (قلت) لان اصل الطيران هو صف الاجنحة لان الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء والاصل فى السباحة مد الاطراف وبسطها وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجىء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل على معنى انهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح اهـ وقال أبو جعفر النحاس يقال للطائر اذا بسط جناحيه صاف واذا ضمهما فأصابا جنبيه قابض لانه يقبضهما وقيل ويقبضن أجنحتهن بعد بسطها اذا وقفن عن الطيران (ما يمسكهن) أى عن الوقوع فى حال البسط والقبض (الا الرحمن) أى الملك الذى رحمته عامة لكل شئ بأن هيأهن بعد ان أفاض عليهن رحمة الايجاد على اشكال مختلفة وخصائص مفترقة هيأهن للجرى فى الهواء (انه) أى الرحمن سبحانه (بكل شئ بصير) أى بالغ البصر والعلم بظواهر الاشياء وبواطنها فهما أراد كان والمعنى أولم يستدلوا بثبوت الطير فى الهواء على قدرتنا أن نفعل بهم ما تقدم وغيره من العذاب وقوله تعالى (أمن) مبتدأ وقوله تعالى (هذا) خبره وقوله تعالى (الذى) بدل من هذا وقوله تعالى (هو جند) أى أعوان (لكم) صلة الذى وقوله تعالى (ينصركم) صفة جند (من دون الرحمن) أى غيره يدفع عنكم عذابه أى لا ناصر لكم وقال ابن عباس رضى الله عنهما جند لكم أى حزب ومنعة لكم ولفظ الجند يوحد ولذلك قال تعالى هذا الذى هو جند لكم وهو استفهام انكارى أى لا جند لكم يدفع عنكم عذاب الله من دون الرحمن أى من سوى الرحمن وقرأ أبو عمرو بسكون الراء والدورى اختلاس الضمة أيضا والباقون بالرفع (ان الكافرون) أى ما الكافرون (الا فى غرور) أى من الشيطان يغرهم بأن لا عذاب ولا حساب قال بعض المفسرين كان الكفار يمتنعون عن الايمان ويعاندون النبى صلى الله عليه وسلم معتمدين على شيئين أحدهما قوتهم بمالهم وعددهم والثانى اعتقادهم أن الاوثان توصل اليهم جميع الخيرات وتدفع عنهم جميع الآفات فأبطل الله تعالى عليهم الاول بقوله تعالى أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم الآية ورد عليهم الثانى بقوله تعالى (أمن هذا الذى يرزقكم) أى على سبيل التجدد والاستمرار (ان أمسك رزقه) بامساك الاسباب التى ينشأ عنها كالمطر ولو كان الرزق موجودا وكثيرا وسهل التناول فوضع الاكل فى فمه فأمسك الله تعالى عنه قوة الازدراد عجز أهل السموات والارض عن أن يسوغوه تلك اللقمة وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أى فمن يرزقكم أى لا رازق لكم غيره (بل لجوا) أى تمادوا سفاهة لا احتياطا وشجاعة قال الرازى فى اللوامع واللجاج تقحم الامر مع كثرة الصوارف عنه (فى عتو) أى مظروفين لعناد وتكبر عن الحق وخروج الى فاحش الفساد (ونفور) أى تباعد عن الحق واستولى ذلك عليهم حتى أحاط بهم مع انه لا قوة لاحد منهم فى جلب سار ولا دفع ضار والداعى الى ذلك الشهوة والغضب (أفمن يمشى مكبا) أى واقعا (على

وجهه أهدى أمن يمشي سويا) أي معتدلا (على صراط) أي طريق (مستقيم) وخبر من الثانية محذوف دل عليه خبر الاولى أي أهدى والمثل في المؤمن والكافر أي أيهما أهدى وقيل المراد بالمكب الأعمى فانه يتعسف فينكب وبالسوي البصير وقيل المكب هو الذي يحشر على وجهه الى النار ومن يمشي سويا الذي يحشر على قدميه الى الجنة وقال ابن عباس والكلبي رضي الله عنهم عني بالذي يمشي مكبا على وجهه أبا جهل وبالذي يمشي سويا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل أبو بكر وقيل حمزة وقيل عمار بن ياسر قال عكرمة وقيل عام في الكافر والمؤمن أي أن الكافر لا يدري أعلى حق هو أم على باطل أي أهذا الكافر أهدى أم المسلم الذي يمشي سويا معتدلا يبصر الطريق وهو على صراط مستقيم وهو الاسلام وقرأ قنبل بالسين وقرأ خلف بالاشمام أي بين الصاد والزاي والباقون بالصاد الخالصة (قل) أي يا أشرف الخلق وأشفقهم عليهم مذكرا لهم بما رفع عنهم الملك من المفسدات وجمع لهم من المصلحات ليرجعوا اليه ولا يعولوا في حال من أحوالهم الا عليه (هو) أي الذي شرفكم بهذا الذكر وبين لكم هذا البيان (الذي أنشأكم) أي أوجدكم ودرجكم في مدارج التربية حيث طوركم في أطوار المختلفة في الرحم ويسر لكم بعد الخروج اللبن حيث كانت المعدة ضعيفة عن أكثف منه (وجعل لكم السمع) أي لتسمعوا ما تعقله قلوبكم فيهديكم ووحده لقلة التفاوت فيه ليظهر سر تصرفه سبحانه في القلوب بغاية المفاوتة مع أنه أعظم الطرق الموصلة للمعاني اليها (والابصار) لتنظروا صنائعه فتعتبروا وتزدجروا عما يرديكم (والافئدة) أي القلوب التي جعلها سبحانه في غاية التوقد بالادراك لما لا يدركه بقية الحيوان لتتفكروا فتقبلوا على ما يعليكم وجمعهما لكثرة التفاوت في نور الابصار وادراك الافئدة (قليلا ما تشكرون) أي باستعمالها فيما خلقت لاجله وما مزيدة والجملة مستأنفة مخبرة بقلة شكرهم جدا على هذه النعم وهم يدعون أنهم أشكر الناس للاحسان وأعلاهم في العرفان (قل هو) أي وحده (الذي ذرأكم) أي خلقكم وبثكم ونشركم وكثركم وأنشأكم بعد ما كنتم كالذر أطفالا ضعفاء (في الارض) التي تقدم انه ذللها لكم ورزقكم منها النبات وغيره (واليه) أي وحده بعد موتكم (تحشرون) شيأ فشيأ الى البرزخ ودفعة واحدة يوم البعث للحساب فيجازي كلا بعمله (ويقولون) أي يجددون هذا القول تجديدا مستمرا استهزاء وتكذيبا (متى هذا) وزادوا في الاستهزاء بقولهم (الوعد) أي يوم القيامة والعذاب الذي توعدوننا به (ان كنتم صادقين) أي في أنه لا بد لنا منه وأنكم مقربون عند الله فلو كان لهم ثبات الصبر لما كانوا طاشوا هذا الطيش بابراز هذا القول القبيح ثم انه تعالى أجاب عن هذا السؤال بقوله عز وجل (قل) أي يا أكرم الخلق لهؤلاء البعداء (انما العلم) أي علم وقت قيام الساعة ونزول العذاب (عند الله) أي الذي له الاحاطة بجميع صفات الكمال فهو الذي يكون عنده وبيده جميع ما يراد منه لا يطلع عليه غيره (وانما أنا نذير) أي كامل في أمر النذارة التي يلزم منها البشارة لمن أطاع النذير لا وظيفة لي عند الملك الاعظم غير ذلك فلا وصول لي الى سؤاله عما لا يؤذن لي في السؤال عنه (مبين) أي بين الانذار باقامة الادلة حتى يصير ذلك كأنه مشاهدة لمن له قبول

العلم (فلما رأوه) أى العذاب بعد الحشر (زلفة) أى ذا قرب عظيم منهم (سيئت) قال ابن عباس رضى الله عنهما أى اسودت (وجوه) وأظهر فى موضع الاضمار تعميما وتعليقا للحكم بالوصف فقال تعالى (الذين كفروا) أى أظهروا السوء وغاية الكراهة فى وجوه من أوقع هذا الوصف ● (تنبيه) ● الاصل ساء أى احزن وجوههم العذاب ورؤيته ثم بنى للمفعول وساء هنا ليست المرادفة لبئس وأشم كسرة السين نافع وابن عامر والكسائى والباقون باخلاص الكسرة (وقيل) أى قال لهم الخزنة تقريعا وتوبيخا (هذا الذى كنتم) اى جبلة وطبعا (به) اى بسببه ومن اجله (تدعون) اى تتمنون وتسألون وتزعمون انكم لا تبعثون وهذه حكاية حال تأتى عبر عنها بطريق المضى لتحقق وقوعها وقرأ هشام والكسائى بضم القاف والباقون بكسرها (قل) اى يا اكرم الخلق لهؤلاء الذين طال تضجرهم منك وهم يتمنون هلاكك كما قال تعالى ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون (أرأيتم) أى أخبرونى خبرا انتم فى الوثوق به على ما هو كالرؤية (ان اهلكنى الله) اى اماتنى بعذاب او غيره الذى له من الجلال والاكرام ما يعصم به وليه ويقصم عدوه وقرأ قل ارأيتم فى الموضعين نافع بتسهيل الهمزة بعد الواو ولورش ايضا ابدالها الفا واسقطها الكسائى والباقون بالتحقيق واذا وقف حمزة سهل الهمزة وقرأ ان اهلكنى الله حمزة بسكون الياء والباقون بفتحها ومن سكن الياء رقق اللام من الاسم الجليل ومن فتحها فخم (ومن معى) اى من المؤمنين (او رحمنا) اى بالنصر واظهار الاسلام كما نرجو فأنجانا بذلك من كل سوء ووقانا كل محذور وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وابن عامر وحفص بفتح الياء والباقون بالسكون (فمن يجير الكافرين) اى العريقين فى الكفر بأن يدفع عنهم ما يدفع الجار عن جاره (من عذاب اليم) اى لا مجير لهم منه (قل) أى يا خير الخلق (هو) اى الله وحده (الرحمن) اى الشامل الرحمة (آمنا به) أى أنا ومن معى (وعليه) أى وحده (توكلنا) أى لانه لا شئ فى يد غيره والا لرحم من يريد عذابه أو عذب من يريد رحمته فكل ما جرى على أيدى خلقه من رحمة أو نقمة فهو الذى أجراه لانه الفاعل بالذات المستجمع لما يليق به من الصفات فنحن نرجو خيره ولا نخاف غيره (فستعلمون) أى عند معاينة العذاب عما قليل بوعد لا خلف فيه (من هو فى ضلال مبين) أى بين أنحن أم أنتم وقرأ الكسائى بعد السين بياء الغيبة نظرا الى قول الكافرين والباقون بتاء الخطاب اما على الوعيد واما على الالتفات من الغيبة المرادة فى قراءة الكسائى وهو تهديد لهم (قل) أى يا اعظم خلقنا وأعلمهم بنا (أرأيتم) أى أخبرونى اخبارا لا لبس فيه (ان أصبح ماؤكم) أى الذى تعدونه فى أيديكم بما نبهت عليه الاضافة (غورا) أى غائرا ذاهبا فى الارض لا تناله الدلاء وكان ماؤهم من بئرين بئر زمزم وبئر ميمونة (فمن يأتيكم) على ضعفكم حينئذ وانخلاع قلوبكم واضطراب أفكاركم (بماء معين) أى دائم لا ينقطع وظاهر للاعين سهل المأخذ وقال ابن عباس رضى الله عنهما بماء معين أى ظاهر تراه العيون فهو مفعول وقيل هو من معن الماء أى كثر فهو على هذا فعيل وعن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا أن المعنى فمن يأتيكم بماء عذب أى لا يأتيكم به الا الله فكيف تنكرون أن يبعثكم ويستحب أن يقول القارئ عقب معين الله رب العالمين كما فى الحديث

قوله والباقون بتاء الخطاب الخ عبارة الجمل بالتاء أى نظرا للخطاب فى قوله قل أرأيتم اهـ

وتليت

وتليت هذه الآية عند بعض المتجبرين فقال تأتى به الفؤس والمعاول فذهب ماء عينيه وعمى نعوذ بالله من الجراءة على الله وعلى آياته وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان سورة من كتاب الله ماهى الا ثلاثون آية شفعت لرجل يوم القيامة فأخرجته من النار وأدخلته الجنة وهى سورة تبارك وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال اذا وضع الميت فى قبره يؤتى من قبل رجليه فيقال ليس لكم عليه سبيل لانه قد كان يقوم بسورة الملك ثم يؤتى من قبل رأسه فيقول لسانه ليس لكم عليه سبيل كان يقرأ بى سورة الملك ثم قال هى المانعة من عذاب الله وهى فى التوراة سورة الملك من قرأها فى ليلة فقد أكثر وأطيب وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وددت أن تبارك الملك فى قلب كل مؤمن وأما مارواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الملك فكأنما أحيا ليلة القدر فحديث موضوع

سورة ن وتسمى القلم مكية

فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر وقال ابن عباس وقتادة رضى الله عنهم من أولها الى قوله تعالى سنسمه على الخرطوم مكى ومن بعد ذلك الى قوله تعالى يعلمون مدنى ومن بعد ذلك الى قوله تعالى فهم يكتبون مكى ومن بعد ذلك الى قوله تعالى من الصالحين مدنى وباقيها مكى قاله الماوردى وهى اثنتان وخمسون آية وثلثمائة كلمة وألف ومائتان وستة وخمسون حرفا

(بسم الله) أى الذى له الاحاطة الكاملة فهو بكل شئ عليم (الرحمن) الذى عمت نعمة ايجاده لاهل معاده البرىء منهم والسقيم (الرحيم) الذى اتم تلك النعمة على من وفقه لطاعته فألزمه صراطه المستقيم وقوله تعالى (ن) كقوله تعالى ص والقرآن وجواب القسم الجملة المنفية بعدها واختلفوا فى تفسير ذلك فقال ابن عباس رضى الله عنهما هو الحوت الذى على ظهره الارض وهو قول مجاهد ومقاتل والسدى والكلبى وروى أبو ظبيان عن ابن عباس رضى الله عنهما قال أول ماخلق الله تعالى القلم فجرى بما هو كائن الى يوم القيامة ثم خلق النون فبسط الارض على ظهره فتحرك النون فمادت الارض فأثبتت بالجبال فان الجبال لتفخر على الارض ثم قرأ ابن عباس ن الآية واختلفوا فى اسمه فقال الكلبى ومقاتل يهموت وقال الواقدى ليوثا وقال كعب لوثا وقال على تلهوت وقال الرواة لما خلق الله تعالى الارض وفتقها بعث من تحت العرش ملكا فهبط الى الارض حتى دخل تحت الارضين حتى ضبطها فلم يكن لقدميه موضع قرار فأهبط الله عز وجل من الفردوس ثورا له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة وجعل قرار قدم الملك على سنامه فلم تستقر قدماه فأخذ الله تعالى ياقوتة خضراء من أعلى درجة الفردوس غلظها خمسمائة عام ووضعها بين سنام الثور الى أذنه فاستقرت عليها قدماه وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الارض ومنخراه فى البحر فهو يتنفس كل يوم نفسا فاذا تنفس يمد البحر واذا رد نفسه جزر البحر فلم يكن لقوائم الثور موضع قرار فخلق الله تعالى صخرة كغلظ سبع سموات وسبع أرضين

فاستقرت قوائم الثور عليها وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه فتكن في صخرة ولم يكن للصخرة مستقر فخلق الله تعالى نونا وهو الحوت العظيم ووضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال والحوت على البحر والبحر على متن الريح والريح على القدرة تقل الدنيا كلها بما عليها حرفان قال لها الجبار كوني فكانت قال كعب الاحبار ان ابليس تغلغل الى الحوت الذي على ظهره الارض فوسوس اليه فقال له أتدري ما على ظهرك يا لويثا من الامم والدواب والشجر والجبال لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك فهم لويثا أن يفعل فبعث الله تعالى دابة فدخلت منخره فوصلت الى دماغه فعج الحوت الى الله تعالى منها فأذن الله تعالى لها فخرجت فو الذي نفسي بيده انه لينظر اليها وتنظر اليه ان هم بشئ من ذلك عادت اليه كما كانت وقال بعضهم نون آخر حروف الرحمن وهي رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال الحسن وقتادة والضحاك النون الدواة وهو مروي أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال القرطبي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أول ما خلق الله القلم ثم خلق النون وهي الدواة ومنه قول الشاعر

* اذا ما الشوق برح بي اليهم * ألقت النون بالدمع السجام *

ويكون على هذا أقسم بالدواة والقلم فان المنفعة بهما عظيمة بسبب الكتابة فان التفاهم يحصل تارة بالنطق وتارة بالكتابة وقيل النون لوح من نور تكتب فيه الملائكة ما يؤمرون به رواه معاوية ابن قرة مرفوعا وقيل النون هو المداد الذي تكتب به الملائكة وقال عطاء وأبو العالية هو افتتاح اسمه تعالى نصير ونور وناصر وقال محمد بن كعب أقسم الله تعالى بنصرة المؤمنين وقال الزمخشري هذا الحرف من حروف المعجم وأما قولهم هو الدواة فما أدري أهو وضع لغوي أم شرعي ولا يخلو اذا كان اسما للدواة من أن يكون جنسا أو علما فان كان جنسا فأين الاعراب والتنوين وان كان علما فأين الاعراب وأيهما كان فلا بد له من موقع في تأليف الكلام فان قلت هو مقسم به وجب ان كان جنسا أن تجره وتنونه ويكون القسم بدواة منكرة مجهولة كأنه قيل ودواة (والقلم) وان كان علما أن تصرفه وتجره أو لا تصرفه وتفتحه للعلمية والتأنيث وكذلك التفسير بالحوت اما أن يراد نون من النينان أو يجعل علما لليهموت الذي يزعمون والتفسير باللوح من نور وذهب والنهر في الجنة نحو ذلك اه * (تنبيه) * في القلم المقسم به قولان أحدهما أن المراد به الجنس وهو واقع على كل قلم يكتب به في السماء والارض قال تعالى وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ولانه ينتفع به كما ينتفع بالنطق قال تعالى خلق الانسان علمه البيان فالقلم يبين كما يبين اللسان في المخاطبة بالكتابة للغائب والحاضر والثاني انه القلم الذي جاء في الخبر عن ابن عباس رضي الله عنهما أول ما خلق الله تعالى القلم ثم قال له اكتب قال ما أكتب قال ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثر فجرى القلم بما هو كائن الى يوم القيامة قال ثم ختم فم القلم فلم ينطق ولا ينطق الى يوم القيامة قال وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والارض وروى مجاهد أول ما خلق الله تعالى القلم فقال اكتب المقدر فكتب ما هو كائن الى يوم القيامة وانما يجري في الناس على أمر قد فرغ منه قال ابن عادل قال القاضي هذا الخبر يجب حمله على المجاز

لان القلم آلة مخصوصة للكتابة لايجوز أن يكون حياعاقلا فيؤمر وينهى فان الجمع بين كونه حيوانامكلفا وبين كونه آلة للكتابة محال بل المراد منه انه تعالى أجراه بكل ما يكون وهو قوله تعالى اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون فانه ليس هناك أمر ولا تكليف بل هو مجرد نفاذ القدرة فى المقدور من غير منازعة ولا مدافعة اه وقوله فان الجمع الى قوله محال ممنوع فان الله تعالى خلق فيه ذلك كما قال تعالى للسموات والارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين وقال الزمخشرى أقسم بالقلم تعظيما له لما فى خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة ولما فيه من المنافع والفوائد التى لا يحيط بها الوصف وقيل القلم المذكور ههنا هو العقل وانه شئ كالأصل لجميع المخلوقات قالوا والدليل عليه انه روى فى الاخبار أول ما خلق الله تعالى القلم وفى خبر آخر أول ما خلق الله تعالى العقل فقال الجبار ما خلقت خلقا أعجب الى منك وعزتى وجلالى لأكملنك فيمن أحببت ولأنقصنك فيمن أبغضت قال ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل الناس عقلا أطوعهم لله وأعلمهم بطاعته وفى خبر آخر أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر اليها بعين الهيبة فذابت وسخنت فارتفع منها دخان وزبد فخلق من الدخان السموات ومن الزبد الارض قالوا وهذه الاخبار بمجموعها تدل على أن القلم والعقل وتلك الجوهرة التى هى أصل المخلوقات شئ واحد والاحصل التناقض وقال البغوى القلم هو الذى كتب الله به الذكر وهو قلم من نور طوله ما بين السماء والارض ويقال أول ما خلق الله تعالى القلم ونظر اليه فانشق نصفين ثم قال اجر بما هو كائن الى يوم القيامة فجرى على اللوح المحفوظ بذلك وقرأ قالون وابن كثير وأبو عمرو وحفص وحمزة وورش بخلاف عنه باظهار النون عند الواو وهنا والباقون بالادغام (وما يسطرون) أى الملائكة من الخير والصلاح وقيل وما تكتبه الملائكة الحفظة من أعمال بنى آدم وقيل ما يكتبون أى الناس ويتفاهمون به وقال ابن عباس رضى الله عنهما معنى وما يسطرون وما يعملون وما موصولة أو مصدرية قال الزمخشرى ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه فيكون الضمير فى يسطرون لهم كأنه قيل وأصحاب القلم ومسطوراتهم أو وسطرهم ويراد بهم كل من يسطر أو الحفظة وقال البقاعى وما يسطرون أى قلم القدرة وجمعه وأجراه مجرى أولى العلم للتعظيم لانه فعل أفعالهم أو الاقلام على ارادة الجنس ويجوز أن يكون الاسناد الى الكاتبين به لما دل عليهم من ذكره واما الملائكة ان كان المراد ما كتب فى الكتاب المبين واللوح المحفوظ وغيره مما يكتبونه واما كل من يكتب منهم ومن غيرهم وقوله تعالى (ما أنت) أى يا أعلى المتأهلين لخطابنا (بنعمة) أى بسبب انعام (ربك) أى المربى لك بمثل تلك الهمم العالية والسجايا الكاملة بأن خصك بالقرآن الذى هو الجامع لكل علم وحكمة (بمجنون) جواب القسم وهو نفى قال الزجاج أنت هو اسم ما وبمجنون الخبر وقوله تعالى بنعمة ربك كلام وقع فى الوسط أى انتفى ذلك الجنون بنعمة ربك كما يقال أنت بحمد ربك عاقل بل الذى وصفك بهذا هو الحقيق باسم الجنون وقال البغوى ما أنت بنعمة ربك بنبوة ربك بمجنون أى انك لا تكون مجنونا وقد أنعم الله تعالى عليك بالنبوة والحكمة وقيل بعصمة ربك وقيل هو كما يقال ما أنت بمجنون والحمد لله وقيل معناه ما أنت

بمجنون والنعمة لربك كقولهم سبحانك اللهم وبحمدك أى والحمد لك وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم غاب عن خديجة الى حرا فطلبته فلم تجده فاذا به ووجهه متغير امتلاء غبارا فقالت له مالك فذكر جبريل عليه السلام وأنه قال له اقرأ باسم ربك فهو أول ما نزل من القرآن قال ثم نزل بى الى قرار الأرض فتوضأ وتوضأت ثم صلى وصليت معه ركعتين وقال هكذا الصلاة يا محمد فذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لخديجة فذهبت به خديجة الى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان قد خالف دين قومه ودخل فى النصرانية فسألته فقال أرسلى الى محمدا فأرسلته فقال هل أمرك جبريل عليه السلام أن تدعو أحدا قال لا فقال والله لئن بقيت الى دعوتك لانصرنك نصرا عزيزا ثم مات قبل دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ووقعت تلك الواقعة فى السنة كفار قريش فقالوا انه مجنون وأقسم الله تعالى على أنه ليس بمجنون وهو خمس آيات من أول هذه السورة وقال ابن عباس أول ما نزل قوله تعالى سبح اسم ربك الاعلى وهذه الآية هى الثانية نقله الرازى وذكر القرطبى ان المشركين كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم مجنون به شيطان وهو قولهم يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون فأنزل الله تعالى ردا عليهم وتكذيبا لقولهم ما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أى برحمة ربك والنعمة ههنا الرحمة وقال عطاء وابن عباس يريد بنعمة ربك عليك بالايمان والنبوة وقال القرطبى يحتمل أن النعمة ههنا قسم تقديره ما أنت ونعمة ربك بمجنون لان الواو والباء من حروف القسم وقال الرازى انه تعالى وصفه بصفات ثلاث الاولى نفى الجنون عنه ثم قرن بهذه الدعوى ما يكون كالدلالة القاطعة على صحتها لان قوله بنعمة ربك يدل على أن نعم الله تعالى ظاهرة فى حقه من الفصاحة التامة والعقل الكامل والسيرة المرضية والبراءة من كل عيب والاتصاف بكل مكرمة واذا كانت هذه النعم المحسوسة ظاهرة ووجودها ينافى حصول الجنون فالله تعالى نبه على ان هذه الدقيقة جارية مجرى الدلالة اليقينية على كذبهم فى قولهم مجنون الصفة الثانية قوله تعالى (وان لك) أى على ما تحملت من أثقال النبوة وعلى صبرك عليهم فيما يرمونك به وهو تسلية له صلى الله عليه وسلم (لاجرا) أى ثوابا (غير ممنون) أى مقطوع ولا منقوص فى دنيا ولا آخرة يقال مان الشئ اذا ضعف ويقال مننت الحبل اذا قطعته وحبل منين اذا كان غير متين قال لبيد عبسا كواسب لا يمن طعامها * أى لا يقطع يصف كلابا ضارية ونظيره قوله تعالى غير مجذوذ وقال مجاهد ومقاتل والكلبى غير ممنون أى غير محسوب عليك قال الزمخشرى لانه ثواب تستحقه على عملك وليس بتفضل ابتداء وانما تمن الفواضل لا الاجور على الاعمال انتهى وهذا قول المعتزلة فان الله تعالى لا يجب عليه شئ وقال الحسن غير مكدر بالمن وقال الضحاك رضى الله تعالى عنه اجرا بغير عمل واختلفوا فى هذا الاجر على أى شئ حصل فقيل معناه ما مر وقيل معناه ان لك على احتمال هذا الطعن والقول القبيح أجرا عظيما دائما وقيل ان لك فى اظهار النبوة والمعجزات وفى دعاء الخلق الى الله تعالى وفى بيان الشرع لهم هذا الاجر الخالص الدائم فلا تمنعك نسبتهم اياك الى الجنون عن الاشتغال بهذا المهم العظيم فان لك بسببه المنزلة

العالية الصفة الثالثة قوله تعالى (وانك لعلى خلق عظيم) استعظم خلقه لفرط احتمال المضات من قومه وحسن مخالقته ومداراته اهم قال ابن عباس ومجاهد على دين عظيم من الاديان ليس دين أحب الى الله تعالى ولا أرضى عنده منه وروى مسلم عن عائشة ان خلقه كان القرآن وقال على هو أدب القرآن وقيل رفقه بأمته واكرامه اياهم وقال قتادة هو ما كان يأمر به من الله وينتهى عنه بما نهى الله تعالى عنه وقيل انك على طبع كريم وقيل هو الخلق الذى أمر الله تعالى به فى قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وقال الماوردى حقيقة الخلق فى اللغة ما يأخذه الانسان فى نفسه من الادب سمى خلقا لانه يصير كالخلقة فيه فأما ما طبع عليه من الادب فهو الخيم فيكون الخلق الطبع المتكلف والخيم الطبع الغريزى قال القرطبى ما ذكره مسلم فى صحيحه عن عائشة أصح الاقوال وسئلت أيضا عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقرأت قد أفلح المؤمنون الى عشر آيات قال الرازى وهذا اشارة الى ان نفسه القدسية الشريفة كانت بالطبع منجذبة الى عالم الغيب والى كل ما يتعلق به وكانت شديدة التعرى عن اللذات البدنية والسعادات الدنيوية بالطبع ومقتضى الفطرة وقالت ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته الا قال لبيك ولذلك قال الله تعالى وانك لعلى خلق عظيم ولم يذكر خلق محمود الا وكان للنبى صلى الله عليه وسلم منه الحظ الاوفر وقال الجنيد سمى خلقه عظيما لاجتماع مكارم الاخلاق فيه بدليل قوله صلى الله عليه وسلم ان الله بعثنى لتمام مكارم الاخلاق وتمام محاسن الافعال وعن أبى اسحق قال سمعت البراء يقول كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسن الناس خلقا ليس بالطويل البائن ولا بالقصير وعن أنس بن مالك قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى اف قط وما قال لشئ صنعته لم صنعته ولا لشئ تركته لم تركته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا ولا مسست خزا قط ولا حريرا ولا شيأ كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت مسكا ولا عنبرا كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن فاحشا ولا متفحشا وكان يقول خياركم أحسنكم أخلاقا وعن أنس ان امرأة عرضت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريق من طرق المدينة فقالت يارسول الله ان لى اليك حاجة فقال يا أم فلان اجلسى فى أى سكك المدينة شئت أجلس اليك قال ففعلت فقعد اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قضيت حاجتها وعن أنس بن مالك قال كانت الامة من اماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت وعن أنس أيضا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا صافح رجلا لم ينزع يده حتى يكون هو الذى يصرف وجهه عن وجهه ولم ير مقدما ركبتيه بين يدى جليس له وعن عائشة قالت ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده شيأ قط الا ان يجاهد فى سبيل الله تعالى ولا ضرب خادما ولا امرأة وعنها قالت ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرين قط الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما

فان كان اثما كان أبعد الناس منه وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه فى شئ قط الا ان تنتهك حرمة الله فينتقم وعن أنس قال كنت أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية فأدركه أعرابى فجبذه جبذة شديدة حتى نظرت الى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ثم قال مر لى من مال الله الذى عندك فالتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك وأمر له بعطاء وعنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا وكان لى أخ يقال له أبو عمير وهو فطيم كان اذا جاءنا قال يا أبا عمير مافعل النغير لنغير كان يلعب به والنغير طائر صغير يشبه العصفور الا أنه أحمر المنقار وعن الاسود قال سألت عائشة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل فى بيته قالت كان فى مهنة أهله فاذا حضرت الصلاة توضأ وخرج الى الصلاة والمهنة الخدمة وعن عبد الله بن الحرث قال مارأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أم الدرداء قالت عن أبى الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أثقل شئ يوضع فى ميزان المؤمن يوم القيامة خلق حسن وان الله يبغض الفاحش البذئ وعن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه أتدرون أكثر مايدخل الناس النار قالوا الله ورسوله أعلم قال فان أكثر مايدخل الناس النار الاجوفان الفرج والفم أتدرون أكثر مايدخل الناس الجنة قالوا الله ورسوله أعلم قال فان أكثر مايدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق وعن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان المؤمن يدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار (فستبصر) أى فستعلم عن قرب بوعد لاخلف فيه علما أنت فى تحققه كالمبصر بالحس الباصر (ويبصرون) أى يعلم الذين رموك بالبهتان علما هو كذلك وقوله تعالى (بأيكم المفتون) فيه أربعة أوجه أحدها ان الباء مزيدة فى المبتدا والتقدير أيكم المفتون فزيدت كزيادتها فى نحو بحسبك زيد والى هذا ذهب قتادة قال ابن عادل الا أنه ضعيف من حيث ان الباء لاتزاد فى المبتدا الا فى حسبك فقط الثانى ان الباء بمعنى فى فهى ظرفية كقولك زيد بالبصرة أى فيها والمعنى فى أى فرقة وطائفة منكم المفتون أى المجنون أفى فرقة الاسلام أم فى فرقة الكفر واليه ذهب مجاهد والفراء الثالث انه على حذف مضاف أى بأيكم فتن المفتون فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه واليه ذهب الاخفش وتكون الباء سببية الرابع ان المفتون مصدر جاء على مفعول كالمقتول والميسور والتقدير بأيكم الفتنة وقيل المفتون المعذب من قول العرب فتنت الذهب بالنار اذا أحميته قال تعالى يوم هم على النار يفتنون أى يعذبون وقيل الشيطان لانه مفتون فى دينه وكانوا يقولون انه به شيطان وعنوا بالمجنون هذا فقال تعالى سيعلمون غدا بايهم الشيطان الذى يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل * (فائدة) * بأيكم رسمت ههنا بياءين (ان ربك) أى الذى رباك أحسن تربية وفضلك على سائر الخلائق (هو) أى وحده (أعلم) أى من كل أحد (بمن ضل) أى حاد (عن سبيله) أى دينه وسلك غير سبيل القصد واخطأ موضع الرشد (وهو) أى

وحده (أعلم بالمهتدين) أى الثابتين على الهدى وهم أولوا الاحلام والنهى أى اذو علم بمعنى عالم *(تنبيه)* قوله تعالى وهو أعلم وهو مكظوم وهو مذموم قرأه قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بضمها وقوله تعالى (فلا تطع المكذبين) أى الفريقين فى التكذيب وهم مشركو مكة فانهم كانوا يدعونه الى دين آبائه فنهاه ان يطيعهم بتهييج التصميم على معاداتهم (ودوا) أى تمنوا وأحبوا محبة واسعة متجاوزة للحد قد يعامع الاستمرار على ذلك (لو) مصدرية (تدهن فيدهنون) قال الضحاك لو تكفر فيكفرون وقال الكلبى لو تلين لهم فيلينون لك وقال الحسن لو تصانعهم فى دينك فيصانعونك فى دينهم وقال زيد بن أسلم لو تنافق وترائى فينافقون ويراؤن وقال ابن قتيبة أرادوا أن يعبد آلهتهم مدة ويعبدون الله مدة وقال ابن العربى ذكر المفسرون فى ذلك نحو عشرة أقوال كلها دعاوى على اللغة والمعنى وأمثلها ودوا لو تكذب فيكذبون ودوا لو تكفر فيكفرون وقال القرطبى كلها ان شاء الله تعالى صحيحة على مقتضى اللغة والمعنى *(تنبيه)* فى رفع فيدهنون وجهان أحدهما انه عطف على تدهن فيكون داخلا فى حيز لو والثانى انه خبر مبتدا مضمر أى فهم يدهنون وقال الزمخشرى فان قلت لم رفع فيدهنون ولم ينصب باضمار ان وهو جواب التمنى قلت قد عدل به الى طريق آخر وهو أن جعل خبر مبتدا محذوف أى فهم يدهنون كقوله تعالى فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا على معنى ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ أو ودوا ادهانك فهم الآن يدهنون لطمعهم فى ادهانك *واختلفوا فى سبب نزول قوله تعالى (ولا تطع كل حلاف) أى كثير الحلف بالباطل فقال مقاتل يعنى الوليد بن المغيرة عرض على النبى صلى الله عليه وسلم مالا وحلف له ان يعطيه ان رجع عن دينه وقال ابن عباس هو أبو جهل بن هشام وقال عطاء هو الاخنس بن شريق لانه حليف ملحق فى بنى زهرة فلذلك سمى زنيما وقال مجاهد هو الاسود بن عبد يغوث (مهين) أى ضعيف حقير قيل هو فعيل من المهانة وهى قلة الرأى والتمييز وقال ابن عباس كذاب وهو قريب من الاول لان الانسان انما يكذب لمهانة نفسه عليه وقال الحسن وقتادة هو المكثار فى الشر وقال الكلبى المهين العاجز (هماز) أى كثير العيب للناس فى غيبتهم وقال الحسن هو الذى يغمز بأخيه فى المجلس وقال ابن زيد الهماز الذى يهمز الناس بيده ويضربهم واللماز باللسان وقيل الهماز الذى يذكر الناس فى وجوههم واللماز الذى يذكرهم فى غيبتهم وقال مقاتل بالعكس وقال مرة هما سواء ونحوه عن ابن عباس وقتادة (مشاء) أى كثير المشى (بنميم) أى قتات يلقى النميمة بين الناس ليفسد بينهم فينقل ما قاله الانسان فى آخر واذا عسر لا يريد صاحبه اظهاره على وجه الافساد البين مبالغ فى ذلك (مناع) أى كثير المنع شديده (للخير) أى كل خير من المال والايمان وغيرهما من نفسه وغيره من الدين والدنيا وقال ابن عباس مناع للخير أى الاسلام يمنع ولده وعشيرته من الاسلام وكان له عشرة من الولد يقول لئن دخل أحد منكم فى دين محمد لا أنفعه بشئ أبدا (معتد) أى ثابت التجاوز للحدود فى كل ذلك (أثيم) أى مبالغ فى ارتكاب ما يوجب الاثم فيترك الطيبات ويأخذ الخبائث يرغب فى المعاصى

ويتطلبها ويدع الطاعات ويزهد فيها (عتل) العتل الغليظ الجافى وقال الحسن هو الفاحش الخلق السيئ الخلق وقال الفراء هو الشديد الخصومة فى الباطل وقال الكلبى هو الشديد فى كفره وكل شديد عند العرب عتل وأصله من العتل وهو الدفع بالعنف وقال أبو عبيدة بن عمير العتل الاكول الشروب القوى الشديد الذى لا يزن فى الميزان شعيرة يدفع الملك من أولئك سبعين ألفا دفعة واحدة (بعد ذلك) أى مع ذلك يريد مع ما وصفناه به (زنيم) وهو الدعى الملصق بالقوم وليس منهم وقال عطاء عن ابن عباس يريد مع هذا هو دعى فى قريش وقال مرة الهمدانى انما ادعاه ابوه بعد ثمانى عشرة سنة وقيل الزنيم الذى له زنمة كزنمة الشاة وروى عكرمة عن ابن عباس انه قال فى هذه الآية نعت فلم يعرف حتى قيل زنيم فعرف وكانت زنمة فى عنقه يعرف بها وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها وقال مجاهد زنيم كانت له ستة أصابع فى يده فى كل ابهام له اصبع زائدة وقال ابن قتيبة لا نعلم ان الله تعالى وصف أحدا ولا ذكر من عيوبه ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة فالحق به عارا لا يفارقه فى الدنيا والآخرة وعن حارثة بن وهب الخزاعى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أخبركم باهل الجنة كل ضعيف متضعف لو يقسم على الله لابره الا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر وفى رواية كل جواظ زنيم متكبر الجواظ الجموع المنوع وقيل الكثير اللحم المختال فى مشيته وقيل القصير البطين وقال عكرمة هو ولد الزنا الملحق فى النسب بالقوم وكان الوليد دعيا فى قريش ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة سنة من مولده قال الشاعر فيه

زنيم ليس يعرف من أبوه * بغى الام ذو حسب لئيم

قيل بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت الآية وهذا لان الغالب ان النطفة اذا خبثت خبث الولد كما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة ولد زنا ولا ولده ولا ولد ولده وقال عبد الله بن عمر ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان أولاد الزنا يحشرون يوم القيامة فى صور القردة والخنازير ولعل المراد به الدخول مع السابقين والا فمن مات مسلما دخل الجنة وقالت ميمونة سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لا تزال أمتى بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا فاذا فشا فيهم ولد الزنا أوشك أن يعمهم الله بعذابه وقال عكرمة اذا كثر ولد الزنا قحط المطر قال القرطبى ومعظم المفسرين على ان هذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة وكان يطعم أهل منى حيسا ثلاثة أيام وينادى الا لا يوقدن أحد تحت برمة الا لا يدخلن أحد بكراع الا من أراد الحيس فليأت الوليد بن المغيرة وكان ينفق فى الحجة الواحدة عشرين ألفا وأكثر ولا يعطى المسكين درهما واحدا وقيل مناع للخير وفيه نزل وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ولما كان حطام هذه الدنيا كله عرضا فانيا وظلا متقلصا زائلا لا يفتخر به ولا يلتفت اليه الا من كان بهذه الاوصاف فاذا كان ذلك أكبر همه ومبلغ علمه أثمر له الترفع على الحقوق والتكبر على العباد قال الله تعالى (أن) أى لاجل ان (كان) أى هذا الموصوف (ذا مال) أى مذكور بالكثرة (وبنين) أنعمنا عليه بهما فصار يطاع لاجلهما فكان بحيث يجب عليه شكر نابسببهما

(اذا تتلى) أى تذكر على سبيل المتابعة (عليه) ولو كان ذلك على سبيل الخصوص له (آياتنا) أى العلامات الدالة دلالة هى فى غاية الظهور على الملك الاعلى وعلى ماله من صفات العظمة (قال) أى مفاجأة من غير تأمل ولا توقف عوضا عن شكرنا (أساطير) جمع سطور جمع سطر (الاولين) أى أشياء سطروها ودونوها وفرغوا منها لخمله ودنىء طبعه على تكثره بالمال فورطه فى التكذيب بأعظم ما يمكن سماعه فجعل الكفر موضع الشكر ولم يستح من كونه يعرف كذبه كل من سمعه فأعرض عن الشكر ووضع موضعه الكفر فكان هذا دليلا على جميع تلك الصفات السابقة مع التعليل بالاستناد الى ما هو عند العاقل أوهى من بيت العنكبوت والاستناد اليه وحده كاف فى الاتصاف بالرسوخ فى الدناءة وقرأ ابن عامر وشعبة وحمزة بهمزتين مفتوحتين وابن عامر يسهل الثانية وشعبة وحمزة يحققهما وهشام على أصله يدخل بينهما ألفا والباقون بهمزة واحدة مفتوحة قال القرطبى فمن قرأ بهمزة مطولة أو بهمزتين محققتين فهو استفهام والمراد به التوبيخ ويحسن له أن يقف على زنيم ويبتدئ أن كان على معنى ألأن كان ذا مال وبنين تطيعه ويجوز أن يكون التقدير الأن كان ذا مال وبنين اذا تتلى عليه اياتنا قال أساطير الاولين ويجوز أن يكون التقدير ألأن كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر ودل عليه ما تقدم من الكلام فصار كالمذكور بعد الاستفهام ومن قرأ أن كان بغير استفهام فهو مفعول من أجله والعامل فيه فعل مضمر والتقدير يكفر لأن كان ذا مال وبنين ودل على هذا الفعل اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الاولين ولا يعمل فى اذا تتلى ولا قال لان ما بعد اذا لا يعمل فيما قبلها لان اذا تضاف الى الجمل التى بعدها ولا يعمل المضاف اليه فيما قبل المضاف وقال جواب الجزاء ولا يعمل فيما قبل الجزاء اذ حكم العامل أن يكون قبل المعمول فيه وحكم الجواب أن يكون بعد الشرط فيصير مقدما ومؤخرا فى حال واحد ويجوز أن يكون المعنى لا تطعه لان كان ذا يسار وعدد قال ابن الانبارى ومن قرأ بلا استفهام لم يحسن أن يقف على زنيم لان المعنى لأن كان ذا مال كان فأن متعلقة بما قبلها وقال غيره يجوز ان تتعلق بقوله تعالى مشاء بنميم والتقدير يمشى بنميم لان كان ذا مال وبنين وأجاز أبو على ان تتعلق بعتل ومعنى أساطير الاولين أباطيلهم وترهاتهم (سنسمه) أى نجعل له سمة أى علامة يعرف بها (على الخرطوم) أى الانف يعير بها ما عاش قال ابن عباس سنسمه سنخطمه بالسيف قال وقد خطم الذى نزلت فيه يوم بدر بالسيف فلم يزل مخطوما الى ان مات والتعبير عن الانف بهذا للاستهانة والاستخفاف وقال قتادة سنسمه يوم القيامة على أنفه سمة يعرف بها وقال الكسائى سنكويه على وجهه وقال أبو العالية ومجاهد سنسمه على الخرطوم أى على أنفه ونسود وجهه فى الآخرة فيعرف بسواد وجهه قال تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فهى علامة ظاهرة ونحشر المجرمين يومئذ زرقا وهذه علامة أخرى ظاهرة وأفادت هذه الآية علامة ثالثة وهى الوسم على الانف بالنار وهذا كقوله تعالى يعرف المجرمون بسيماهم قال القرطبى والخرطوم الانف من الانسان ومن

السباع موضع الشفة وخراطيم القوم ساداتهم قال الفراء وان كان الخرطوم قد خص بالسمة فانه فى معنى الوجه لان بعض الشئ يعبر به عن الكل وقال القرطبي نبين أمره تبيانا واضحا فلا يخفى عليهم كما لا تخفى السمة على الخراطيم وهذا كله نزل فى الوليد بن المغيرة ولا شك ان المبالغة العظيمة فى ذمة بقيت على وجه الدهر ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغ منه فألحق به عارا لا يفارقه فى الدنيا ولا فى الآخرة كالوسم على الخرطوم وقيل ما ابتلاه الله تعالى به فى الدنيا فى نفسه وأهله وماله من سوء وذل وصغار وقال النضر بن شميل المعنى سنحده على شرب الخمر والخرطوم الخمر وجمعه خراطيم قال الرازى كالزمخشرى وهذا تعسف اه وقيل للخمر الخرطوم كما قيل لها السلافة وهى ما سلف من عصير العنب أو لانها تطير فى الخياشيم * (تنبيه) * الانف أكرم موضع فى الوجه لتقدمه له ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الانفة وقالوا الانف فى الانف وحمى أنفه وفلان شامخ العرنين وقالوا فى الذليل جدع أنفه ورغم أنفه فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الاذلال والاهانة لان السمة على الوجه شين واذلال فكيف بها على أكرم موضع منه ولقد وسم العباس أباعره فى وجوهها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرموا الوجوه فوسمها فى جواعرها ولما ذكر تعالى فى أول الملك انه خلق الموت والحياة للابتلاء فى الاعمال وختم هذا بعيب من يغتر بالمال والبنين وهو يعلم ان الموت وراءه أعاد ذكر الابتلاء وأكده بقوله تعالى (انا) أى بما لنا من القهر والعظمة (بلوناهم) أى عاملنا أهل مكة بما وسعنا عليهم به معاملة المختبر مع علمنا بالظاهر والباطن فغرهم ذلك وظنوا انهم أحباب ومن قترنا عليهم من أوليائنا أعداء واستهانوا بهم ونسبوهم لاجل تقللهم من الدنيا الى السفه والجنون وكان ابتلاؤنا لهم بالقحط الذى دعا عليهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أكلوا الجيف (كما بلونا) أى اختبرنا (أصحاب الجنة) بأن عاملناهم معاملة المختبر مع علمنا بالظاهر وحاصله انه استخراج ما فى البواطن ليعلمه العباد فى عالم الشهادة كما يعلم الخالق فى عالم الغيب أو أنه كناية عن الجزاء وعرف الجنة لانها كانت شهيرة عندهم وهى بستان عظيم كان دون صنعاء بفرسخين يقال له الضروان يطؤه أهل الطريق كان صاحبه ينادى الفقراء وقت الصرام ويترك لهم ما أخطأ المنجل أو ألقته الريح أو بعد عن البساط الذى يبسط تحت النخلة وكان يجتمع لهم شئ كثير فلما مات شح بنوه بذلك وقالوا ان فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الامر ونحن ذوو عيال فحلفوا على ان يجذوها قبل الشمس حتى لا تأتى الفقراء الا بعد فراغهم وذلك معنى قوله تعالى (اذ) أى حين (اقسموا) ودل على تأكيد القسم بالتأكيد فقال (ليصرمنها) عبر به عن الجذاذ لدلالته على القطع البائن المستأصل المانع للفقراء من الصريم الذى يعرض على فم الجدى لئلا يرضع أو من الصرماء للمفازة التى لا ماء بها والناقة القليلة اللبن (مصبحين) داخلين فى أول وقت الصباح لئلا تشعر بهم المساكين فلا يعطوهم منها لما كان أبوهم يتصدق به عليهم منها (ولا) أى والحال انهم لا (يستثنون) فى يمينهم أى ولا يقولون ان شاء الله (فان قيل) لم سمى استثناء وانما هو شرط

(أجيب) بأنه سمى استثناء لانه اخراج لشئ يكون حكمه غير المذكور أولا وكان الاصل فيه الا ان يشأ الله فالحق به ان شاء الله لرجوعه اليه فى اتحاد الحكم (فطاف) أى فتسبب عن فعلهم هذا أن طاف (عليها) أى جنتهم (طائف) أى عذاب مهلك محيط وهو نارا حرقتها البلا لم تدع منها شيا والطائف غلب فى الشر وقال الفراء هو الامر الذى يأتى ليلا ورد عليه بقوله اذا مسهم طائف من الشيطان وذلك لا يختص بليل ولا نهار وقوله تعالى (من ربك) يجوز ان يتعلق بطاف وان يتعلق بمحذوف صفة لطائف (وهم) أى والحال ان أصحاب الجنة المقسمين (نائمون) وقت ارسال الطائف (فأصبحت) أى فتسبب عن هذا الطائف الذى ارسله القادر الذى لا يغفل ولا ينام على حال من لا يزال أسير العجز والنوم فعلا أو قوة (كالصريم) أى كالاشجار التى صرم عنها ثمرها أو كالليل المظلم الاسود لانه يقال الصريم لسواده والصريم أيضا النهار وقيل الصبح لانه انصرم من الليل قاله الاخفش وهو من الاضداد وقيل كالرماد الاسود ليس بها ثمرة بلغة خزيمة قاله ابن عباس لان ذلك الطائف أتلفها لم يدع فيها شيأ لانهم طلبوا الكل فلم يزكوه بما يمنع عنه الطوارق لضد ما كان لابيهم من ثمرة عمله الصالح من الدفع عن ماله والبركة فى جميع أحواله قال القرطبى والآية دليل على ان العزم مما يؤاخذ به الانسان لانهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم ونظيره قوله تعالى ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم اذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال انه كان حريصا على قتل صاحبه وهذا محمول على العزم المصمم أما ما كان يخطر بالبال من غير عزم فلا يؤاخذ به (فتنادوا مصبحين) أى فى حال أول دخولهم فى الاصباح وقوله تعالى (أن اغدوا) أى بكروا جدا مقبلين ومستولين وقادرين ويجوز أن تكون ان المفسرة لانه تقدمها ما هو بمعنى القول (على حرثكم) أى محل فائدتكم الذى أصلحتموه وتعبتم فيه فلا يستحقه غيركم قال مقاتل لما أصبحوا قال بعضهم لبعض اغدوا على حرثكم يعنى بالحرث الثمار والزروع والاعناب ولذلك قال صارمين لانهم أرادوا قلع الثمار من الاشجار قال الزمخشرى (فان قلت) هلا قال اغدوا الى حرثكم وما معنى على قلت لما كان الغدو اليه ليصرموه ويقطعوه كان غدوا عليه كما تقول غدا عليهم العدو قال الزمخشرى ويجوز ان يضمن الغدو معنى الاقبال أى فأقبلوا على حرثكم (ان كنتم صارمين) أى مريدين القطع وجواب الشرط دل عليه ما قبله أى فاغدوا ويجوز أن تكون أن المصدرية أى تنادوا بهذا الكلام * (تنبيه) * مقتضى كلام الزمخشرى ان غدا متعد فى الاصل بالى فاحتاج الى تأويل فقدره بعلى قال ابن عادل وفيه نظر لورود تعديه بعلى فى غير موضع كقوله

وقد أغدو على ثبة * نشاوى واجدين لما نشاء

واذا كانوا قد عدوا امر ادفه بعلى فليعدوه وقرأ أن اغدوا أبو عمرو وعاصم وحمزة فى الوصل بكسر النون والباقون بضمها واتفقوا على الابتداء بالهمزة بالضم (فانطلقوا) أى فتسبب عن هذا الحث عقبه كأنهم كانوا استيقنين (وهم) أى والحال انهم (يتخافتون) أى يقولون فى حال انطلاقهم قولا

هو في غاية السر كأنهم ذاهبون الى سرقة من دار هي في غاية الحراسة من الخفوت وهو الهمود وخفا وخفت وخفد ثلاثتها في معنى الكتم ومنه الخفدود للخفاش ثم فسر ما يتخافتون به بقوله تعالى (أن لا يدخلنها) وأن لا ههنا مقطوعة كما ترى وأكدوه لانه لا يصدق ان أحدا يصل الى هذه الوقاحة وان جد اذا يخلو من سائل (اليوم) أى في جميع النهار بما دل عليه نزع الخافض لتكروا عليه مرارا وتفتشوه فلا تدعوا به ثمرة واحدة ولا موضعا يطمع فيه أحد في قصدكم (عليكم) وأنتم بها (مسكين) وهى نهى للمسكين في اللفظ للمبالغة في نهى أنفسهم أن لا يدعوه يدخل عليهم أى لا يمكنوه من الدخول حتى يدخل كقولك لا أرينك ههنا فقال لهم أوسطهم سنا وخيرهم نفسا وأعدلهم طبعا بما يدل عليه ما يأتى لا تقولوا هكذا واصنعوا من الاحسان ما كان يصنع أبوكم قال البقاعى وكأنه طواه سبحانه لانه مع الدلالة عليه بما يأتى لم يؤثر شيأ (وغدوا) أى ساروا اليها غدوة (على حرد) أى منع للمساكين قال أبو عبيدة على حرد أى منع من حاردت الابل حرادا أى قل لبنها والحرود من النوق القليلة الدر وحاردت السنة قل مطرها وخيرها وقال الشعبى وسفيان على حنق وغضب من المساكين وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما على قدرة (قادرين) عند أنفسهم على جنتهم وثمارها لا يحول بينهم وبينها أحد أى بدليل عدم استثنائهم فان الجزم على الفعل في المستقبل فضلا عن أن يكون مع الحلف فعل من لا كفء له وقال الحسن وقتادة على جد وجهد وقال القرطبى وعكرمة على أمر مجتمع ودل على قربها من منزلتهم بالفاء فقال تعالى (فلما رأوها) أى بعد سير يسير وليس للزرع ولا للثمر بها أثر (قالوا انا لضالون) عن طريق جنتنا لانها صارت لسوء حالها من ذلك الطائف بعيدة عن حال ما كانت عليه عند تواعدهم وتغيرياتهم فأدهشهم منظرها وحيرهم خبرها وأكدوا الان ضلالهم لا يصدق مع قرب عهدهم وكثرة ملابستهم لها وقوة معرفتهم بها ولما انجلى ما أدهشهم في الحال قالوا مضربين عن الضلال (بل نحن محرومون) أى ثابت حرماننا ما كان فيه من الخير الذى لم نغب عنه الا سواد الليل فحرمنا الله تعالى اياه بما عزمنا عليه من حرمان المساكين ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم وقرأ الكسائى بادغام اللام في النون والباقون بالاظهار (قال أوسطهم) أى رأيا وعقلا وسنا وفضلا منكرا عليهم (ألم أقل لكم) أى ما فعلتموه لا ينبغى وان الله تعالى بالمرصاد لمن غير ما في نفسه وحاد (لولا) أى هلا ولم لا (تسبحون) أى تستثنون فكان استثناؤهم تسبيحا قال مجاهد وغيره وهذا يدل على ان هذا الاوسط كان يأمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه قال أبو صالح كان استثناؤهم سبحان الله فقال لهم هلا تسبحون الله أى تقولون سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم وقال النحاس أصل التسبيح التنزيه لله عز وجل فجعل مجاهد التسبيح في موضع ان شاء الله لان المعنى تنزيه الله أن يكون شئ الا بمشيئته وقال الرازى التسبيح عبارة عن تنزيهه عن كل سوء فلو دخل شئ في الوجود على خلاف ارادة الله تعالى لنسب النقص الى قدرة الله تعالى فقولك ان شاء الله يزيل هذا النقص فكان ذلك تسبيحا وقيل المعنى هلا تستغفرونه من فعلكم وتتوبون اليه من خبث نيتكم قيل ان القوم لما عزموا

على منع الزكاة فاغتروا بالمال والقوة قال لهم أوسطهم توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العذاب فلما رأوا العذاب ذكرهم أوسطهم كلامه الاول وقال ألم أقل لكم لولا تسبحون فحينئذ اشتغلوا بالتوبة بأن (قالوا) أى من غير تلعثم بما عاد عليهم من بركة أبيهم (سبحان ربنا) أى تنزه المحسن الينا التنزيه الاعظم أن يكون وقع منه فيما فعل بنا ظلم وأكدوا قباحة فعلهم هضما لانفسهم وخضوعا لربهم وتحقيقا لتوبتهم بقولهم (انا كنا) أى بما فى جبلاتنا من الفساد (ظالمين) أى مجاوزين الحدود فيما فعلنا من التقاسم على منع المساكين وعلى جذنها فى الصباح من غير استثناء (فأقبل بعضهم) أى فى الحال مبادرة فى الخضوع (على بعض يتلاومون) أى يلوم بعضهم بعضا يقول هذا لهذا انت أشرت علينا بهذا الرأى ويقول ذلك لهذا أنت الذى خوفتنا بالفقر ويقول الثالث لغيره أنت رغبتنى فى جمع المال ثم نادوا على أنفسهم بالويل بأن (قالوا) منادين لما شغلهم قربه منهم وملازمته لهم عن كل شئ (ياويلنا) أى هذا وقت حضورك أيها الويل ايانا ومنادمتك لنا فانه لانديم لنا الآن غيرك والويل الهلاك والاشراف عليه (انا كنا) أى جبلة وطبعا (طاغين) أى عاصين بمنع حق الفقراء وترك الاستثناء وقال ابن كيسان طاغين نعم الله فلم نشكرها كما شكرها آباؤنا من قبل ثم رجعوا الى أنفسهم فقالوا (عسى ربنا) أى الذى أحسن الينا بتربية هذه الجنة واهلاك ثمرها الآن تأديبا لنا (أن يبدلنا) من جنتنا شيأ (خيرا منها) بقيم لنا أمر معايشنا فتنقلب أحوالنا هذه التى نحن فيها من الهموم والبذاذة بسرور ولذاذة وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال والباقون بسكون الموحدة وتخفيف الدال (انا الى ربنا) أى المحسن الينا والمربى لنا بالايجاد ثم الابقاء خاصة لا الى غيره (راغبون) أى ثابتة رغبتنا ورجاؤنا الخير والاكرام وقد قيل ان الله تعالى قبل رجوعهم وأخلف عليهم فأبدلهم جنة يقال لها الحيوان كان القطف الواحد منها يحمله وحده من كبره البغل رواه البغوى عن ابن مسعود وقال أبو خالد اليمانى دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الاسود القائم وقال الحسن قول أهل الجنة انا الى ربنا راغبون لا أدرى ايمانا كان ذلك منهم أو على حد ما يكون من المشركين اذا أصابتهم الشدة فتوقف فى كونهم مؤمنين وسئل قتادة عن أصحاب الجنة أهم من أهل الجنة أم من أهل النار قال لقد كلفتنى تعبا والاكثرون يقولون انهم تابوا وأخلصوا حكاه القشيرى * ولما كان المقام لترهيب من ركن الى ماله واحتقر الضعفاء من عباد الله تعالى ولم يجلهم بجلاله طوى ذكر ما أنعم به عليهم وذكر ما يخوفهم فقال تعالى مرهبا (كذلك) أى مثل هذا الذى بلونا به أصحاب الجنة من اهلاك ما كان عند أنفسهم فى غاية القدرة عليه والثقة به مع الاستحسان لفعلهم والاستصواب وهددنا به أهل مكة فلم يبادروا الى المتاب (العذاب) أى الذى نحذرهم منه ونخوفهم به فى الدنيا فاذا تم الاجل الذى قدرناه له أخذناهم به غير مستعجلين ولا مفرطين لانه لا يعجل الا ناقص يخاف الفوت (ولعذاب الآخرة) أى الذى يكون فيها للعصاة (أكبر) أى من كل ما يتوهمون (لو كانوا) أى الكفار (يعلمون) أى لو كان لهم علم بشئ من غرائزهم فى وقت من الاوقات لرجعوا عما هم فيه * ولما ذكر

مالاهل الجود الذين لايجوزون المسكنات ذكر تعالى أضدادهم فقال تعالى مؤكدا لاجل انكارهم (ان للمتقين) أى العريقين فى صفة التقوى (عند ربهم) أى المحسن اليهم فى موضع دوم أولئك وجنة آمالهم (جنات) جمع جنة وهى لغة البستان الجامع وفى عرف الشرع مكان اجتمع فيه جميع السرور وانتفى عنه جميع الشرور (النعيم) أى جنات ليس فيها الا النعيم الخالص لايشوبه ماينغصه كما يشوب جنات الدنيا قال مقاتل لما نزلت هذه الآية قال كفار مكة للمسلمين ان الله تعالى فضلنا عليكم فى الدنيا فلا بد وأن يفضلنا عليكم فى الآخرة فان لم يحصل التفضيل فلا أقل من المساواة فأجابهم الله تعالى بقوله سبحانه (أفنجعل المسلمين) أى الذين هم عريقون فى الانقياد لاوامرنا والصلة لما أمرنا بوصله طلبا لمرضاتنا فلا اختيار لهم معنا فى نفس ولاغيرها لحسن جبلاتهم (كالمجرمين) أى الراسخين فى قطع ما أمرنا به أن يوصل وأنتم لاتقرون بمثل هذا ففى ذلك انكار لقول الكفرة فانهم كانوا يقولون أيضا ان صح انا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يفضلونا بل نكون أحسن حالا منهم كما نحن عليه فى الدنيا وقوله تعالى (مالكم) أى أى شئ يحصل لكم من هذه الاحكام الجائرة البعيدة عن الصواب (كيف تحكمون) أى أى عقل دعاكم الى هذا الحكم الذى يتضمن التسوية من السيدين المحسن من عبيده والمسئ مع التفاوت فيه تعجب من حكمهم واستبعاد له واشعار بأنه صادر عن اختلال فكر واعوجاج رأى (أم) أى بل أ (لكم كتاب) أى سماوى معروف أنه من عند الله خاص بكم (فيه) أى لا فى غيره من أساطير الاولين (تدرسون) أى تقرؤن قراءة أيقنتكم (ان لكم) أى خاصة على وجه التأكيد الذى لا رخصة فى تركه (لما تخيرون) أى ما تختارونه وتشتهونه وكسرت وكان حقها الفتح لولا اللام لان ما بعدها هو المدروس ويجوز أن تكون الجملة حكاية للمدروس وأن تكون استئنافية (أم لكم أيمان) أى عهود ومواثيق (علينا) قد حلفنا لكم اياها (بالغة) أى واثقة نعت لأيمان وقوله تعالى (الى يوم القيامة) متعلق بما تعلق به لكم من الاستقرار أى ثابتة لكم الى يوم القيامة أى مبالغة أى تبلغ الى ذلك اليوم وتنتهى اليه وقوله تعالى (ان لكم لما تحكمون) جواب القسم لان معنى أم لكم أيمان علينا أى أقسمنا لكم * ولما عجب منهم وتهكم بهم ذيل ذلك بتهكم أعلى منه يكشف عوارهم غاية الكشف فقال تعالى (سلهم) يا أشرف الرسل (أيهم بذلك) أى الامر العظيم الذى يحكمون به لانفسهم من أنهم يعطون فى الآخرة أفضل من المؤمنين (زعيم) أى كفيل وضامن أو سيد أو رئيس أو متكلم بحق أو باطل التزم فى ادعائه صحة ذلك (أم لهم شركاء) موافقون لهم فى هذا القول يكفلونه لهم فان كانوا كذلك (فليأتوا بشركائهم) أى الكافلين لهم به (ان كانوا صادقين) أى عريقين فى هذا الوصف كما يدعونه وقوله تعالى (يوم) منصوب بقوله تعالى فليأتوا أى فليأتوا بشركائهم يوم (يكشف) أى يحصل الكشف فيه بنى للمفعول لان المخيف وقوع الكشف الذى هو كناية عن تفاقم الامر وخروجه عن حد الطوق لا كونه من معين مع أنه من المعلوم أنه لافاعل هنالك غيره سبحانه وتعالى (عن ساق) أى يشتد فيه الامر غاية الاشتداد لان من اشتد

عليه

عليه الامر وجد فى فصله شمر عن ساقه لاجله وشمرت حرمه عن سوقهن غير محتشمات فهو كناية عن هذا ولذلك نذكره تهويلا له وتعظيما نقل هذا التأويل عن ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما وعن انكشاف جميع الخلائق وظهور الجلائل فيه والدقائق من الاهوال وغيرها كما كشفت هذه الآيات جميع الشبه فتركت السامع لها فى مثل ضوء النهار ويجوز أن يكون منصوبا باضمار اذكر فيكون على هذا مفعولا به وعلى الاول لا يوقف على صادقين *(تنبيه)* علم مما تقرر ان كشف الساق كناية عن الشدة قال الراجز

عجبت من نفسى ومن اشفاقها * ومن طرادى الطير عن أرزاقها
فى سنة قد كشفت عن ساقها * حمراء تبرى اللحم عن عراقها

(وقال الطائى)

أخو الحرب ان عضت به الحرب عضها * وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا

(وقال آخر)

قد شمرت عن ساقها فشدوا * وجدت الحرب بكم فجدوا

وقال أبو عبيدة اذا اشتد الامر أو الحرب قيل كشف الامر عن ساقه والاصل فيه أن من وقع فى شئ يحتاج فيه الى الجد شمر عن ساقه فاستعير الساق والكشف عنها فى موضع الشدة وقال القرطبى وأما ماروى أن الله تعالى يكشف عن ساقه فانه تعالى متعال عن الاعضاء والابعاض وأن ينكشف ويتغطى ومعناه أن يكشف عن العظيم من أمره وقيل يكشف عن نوره عز وجل وروى أبو موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى عن ساق قال يكشف عن نور عظيم يخرون له سجدا وروى أبو بردة عن أبى موسى قال حدثنى أبو موسى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كان يوم القيامة مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون فى الدنيا فيذهب كل قوم الى ما كانوا يعبدون ويبقى أهل التوحيد فيقال لهم ما تنتظرون وقد ذهب الناس فيقولون ان لنا ربا كنا نعبده فى الدنيا ولم نره قال أو تعرفونه اذا رأيتموه فيقولون نعم فيقال فكيف تعرفونه ولم تروه قالوا انه لا شبيه له فيكشف لهم الحجاب فينظرون الله تعالى فيخرون له سجدا ويبقى أقوام ظهورهم كصياصى البقر فينظرون الى الله تعالى فيريدون السجود فلا يستطيعون فذلك قوله تعالى يوم يكشف عن ساق (ويدعون) أى من داعى الملك الديان (الى السجود) توبيخا على تركه الآن وتنديما وتعنيفا لا تعبدا وتكليفا فيريدونه ليفدوا أنفسهم مما يرون من المخاوف (فلا) أى فتسبب عن ذلك انهم لا (يستطيعون) لانهم غير سالمين لا أعضاء لهم تنقاد به مع شدة معالجتهم لانفسهم فيقول الله تعالى أى للساجدين عبادى ارفعوا رؤسكم فقد جعلت بدل كل رجل منكم رجلا من اليهود والنصارى فى النار قال أبو بردة فحدثت هذا الحديث عمر ابن عبد العزيز فقال لى والله الذى لا اله الا هو لقد حدثك أبوك بهذا الحديث فحلف له ثلاثة أيمان فقال ما سمعت فى أهل التوحيد حديثا هو أحب الى من هذا الحديث وأما غير الساجدين فعن ابن مسعود تعقم أصلابهم أى ترد عظامها بلا مفاصل لا تنثنى عند الرفع والخفض

وفي الحديث وتبقى أصلابهم طبقا واحدا أي فقارة واحدة وقوله تعالى (خاشعة) حال من مرفوع يدعون وقوله تعالى (أبصارهم) فاعل به ونسب الخشوع للابصار لان ما في القلب يعرف في العين وذلك ان المؤمنين يرفعون رؤسهم من السجود ووجوههم أضوأ من الشمس ووجوه الكافرين والمنافقين سود مظلمة (ترهقهم) أي تغشاهم (ذلة) أي عظيمة لانهم استعملوا الاعضاء التي أعطاهموها الله سبحانه ليتقربوا بها اليه في دار العمل في غير طاعته (وقد) أي والحال انهم قد (كانوا يدعون الى السجود) أي في الدنيا من كل داع يدعو الينا وقال ابراهيم التيمي أي يدعون بالاذان والاقامة فيأبون وقوله تعالى (وهم سالمون) أي معافون أصحاء حال من مرفوع يدعون الثانية وقال سعيد بن جبير كانوا يسمعون حي على الفلاح فلا يجيبون وقال كعب الاحبار والله ما نزلت هذه الآية الا في الذين يتخلفون عن الجماعات

* ولما خوف الكفار بعظمة يوم القيامة زاد في التخويف بما عنده وفي قدرته فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (فذرني) أي اتركني على أي حالة اتفقت (ومن يكذب) أي يوقع التكذيب لمن يتلو ما جددت انزاله من كلامي القديم على أي حالة كان ايقاعه وأفرد الضمير نصا على تهديد كل واحد من المكذبين (بهذا الحديث) أي القرآن أي خل بيني وبينهم لا تشغل قلبك به فاني أكفيك أمره لانه لا مانع منه فلا تهتم به أصلا (سنستدرجهم) أي سنأخذهم بعظمتنا على التدريج لا على غرة الى عذاب لا شك فيه (من حيث) أي من جهات (لا يعلمون) أي لا يتجدد لهم علم ما في وقت من الاوقات فعذبوا يوم بدر وقال أبو روق كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار وقال سفيان الثوري نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر وقال الحسن كم مستدرج بالاحسان اليه وكم مفتون بالثناء عليه وكم مغرور بالستر عليه وقال ابن عباس سنمكر بهم وروى أن رجلا من بني اسرائيل قال يا رب كم أعصيك وأنت لا تعاقبني فأوحى الله الى نبي زمانهم أن قل له كم من عقوبة لي عليك وأنت لا تشعر ان جمود عينيك وقساوة قلبك استدراج مني وعقوبة لو عقلت والاستدراج ترك المعاجلة وأصله النقل من حال الى حال كالتدرج ومنه قيل درجات وهي منزلة بعد منزلة واستدرج فلان فلانا أي استخرج ما عنده قليلا قليلا ويقال درجه الى كذا واستدرجه معناه أدناه منه على التدريج فتدرج ومعنى الآية انا لما أنعمنا عليهم اعتقدوا ان ذلك الانعام تفضيل لهم على المؤمنين وهو في الحقيقة والواقع سبب لهلاكهم (وأملي لهم) أي أمهلهم وأطيل المدة كقوله تعالى انما نملي لهم ليزدادوا اثما والملاوة المدة من الدهر وأملى الله له أي أطال له والملوان الليل والنهار وقيل لا أعاجلهم بالموت والمعنى واحد والملا مقصورا الارض الواسعة سميت بها لامتدادها (ان كيدي) أي ستري لاسباب الهلاك عمن أريد اهلاكه وابدائي ذلك له في ملابس الاحسان (متين) أي قوي شديد فلا يفوتني أحد وسمي احسانه كيدا كما سماه استدراجا لكونه في صورة الكيد ووصفه بالمتانة لقوة أثره في التسبب للهلاك (أم تسألهم) أي أنت يا أعف الخلق وأعلاهم هما (أجرا) على تبليغ الرسالة (فهم) أي فتسبب عن ذلك وتعقب انهم (من مغرم) أي غرامة

كأنتم بها (مثقلون) أى تثقل حمل الغرامات عليهم فى بذل المال فثبطهم ذلك عن الايمان والمعنى ليس عليهم كلفة فى متابعتك بل يستولون بالايمان على خزائن الارض ويصلون الى جنات النعيم (أم عندهم) أى خاصة (الغيب) أى علمه من اللوح المحفوظ أو غيره (فهم) أى بسبب ذلك (يكتبون) أى مايريدون منه ليكونوا قد اطلعوا على أن هذا الذكر ليس من عند الله أو أنهم لا ادراك عليهم فى التكذيب به فقد علم من هذا أنهم لا شبهة لهم فى ذلك عادية ولا شبهة وانما كيدهم مجرد خبث طباع وظلمة نفوس وأمانى فارغة وأطماع (فاصبر) أى أوقع الصبر وأوجده على كل مايقولونه فيك وعلى غير ذلك من كل مايقع منهم ومن غيرهم من مرّ القضاء (لحكم ربك) أى القضاء الذى قضاه وقدره المحسن اليك الذى أكرمك بما أكرمك به من الرسالة وألزمك بما ألزمك من البلاغ وخذلهم بالتكذيب ومدّلهم على ذلك فى الأجل وأسبغ عليهم النعم وأخرما وعدك به من النصر وقال ابن بحر فاصبر لنصر ربك وقيل ان ذلك منسوخ بآية السيف وقال قتادة ان الله تعالى يعزى نبيه صلى الله عليه وسلم ويأمره بالصبر ولا يعجل (ولا تكن) أى ولا يكن حالك يا أشرف الخلق فى الضجر والعجلة (كصاحب) أى كحال صاحب (الحوت) وهو يونس عليه السلام وقوله تعالى (اذ) منصوب بمضاف محذوف أى ولا يكن حالك كحاله أو قصتك كقصته حين (نادى) أى ربه فى الظلمات من بطن الحوت وظلمة ما يحيط به من الجثة وظلمة اللجج لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين ويدل على المحذوف ان الذوات لا ينصب عليها النهى انما ينصب على أحوالها وصفاتها وقوله تعالى (وهو مكظوم) جملة حالية من الضمير من نادى والمكظوم الممتلئ حزنا أو غيظا ومنه كظم السقاء اذا ملأه قال ذو الرمة

وأنت من حب مىّ مضمر حزنا * عانى الفؤاد قريح القلب مكظوم

وقال القرطبى ومعنى وهو مكظوم أى مملوء غما وقيل كربا فالاول قول ابن عباس ومجاهد والثانى قول عطاء وأبى مالك قال الماوردى والفرق بينهما ان الغم فى القلب والكرب فى الانفاس وقيل مكظوم محبوس والكظم الحبس ومنه قولهم كظم غيظه أى حبس غضبه والمعنى لا يوجد منك ماوجد منه من الضجر والمغاضبة فتبلى ببلائه * ولما تشوف السامع الى ما كان من أمره بعد هذا الامر العجيب قال تعالى (لولا أن تداركه) أى أدركه ادراكا عظيما (نعمة) أى عظيمة جدا * (تنبيه) * حسن تذكير الفعل لفصل الضمير فى تداركه (من ربه) أى الذى أحسن اليه بارساله وتهذيبه للرسالة والتوبة عليه والرحمة وقال الضحاك النعمة هنا النبوة وقال ابن جبير عبادته التى سلفت وقال ابن زيد نداؤه بقوله لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين وقال ابن بحر اخراجه من بطن الحوت وقوله تعالى (لنبذ) أى لولا هذه الحالة السنية التى أنعم الله تعالى عليه بها لطرح طرحا هينا جدا (بالعراء) أى الارض القفراء الواسعة التى لا بناء فيها ولا جبال ولا نبات البعيدة عن الانس جواب لولا وقيل جوابها مقدر أى لولا هذه النعمة لبقى فى بطن الحوت (وهو) أى والحال انه (مذموم) أى ملوم على الذنب وقيل مبعد

من كل خير وقال الرازى وهو مذموم على كونه فاعلا للذنب قال والجواب من ثلاثة أوجه الاول ان كلمة لولا دالة على أن هذه المذمومية لم تحصل الثانى لعل المراد من المذمومية ترك الافضل فان حسنات الابرار سيآت المقربين الثالث لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوة لقوله تعالى (فاجتباه) أى اختاره لرسالته (ربه) والفاء للتعقيب قيل ان هذه الآية نزلت بأحد حين حل برسول الله صلى الله عليه وسلم ما حل فأراد أن يدعو على الذين انهزموا وقيل حين أراد أن يدعو على ثقيف ثم سبب عن اجتبائه قوله تعالى (فجعله من الصالحين) أى الذين رسخوا فى رتبة الصلاح فصلحوا فى أنفسهم للنبوة والرسالة وصلح بهم غيرهم فنبذ حينئذ بالعراء وهو محمود قال ابن عباس رد الله تعالى اليه الوحى وشفعه فى نفسه وفى قومه وقبل توبته وجعله من الصالحين بأن أرسله الى مائة ألف أو يزيدون بسبب صبره فمن صبر أعظم من صبره كان أعظم أجرا من أجره وأنت كذلك فأنت أشرف العالمين * (تنبيه) * استدل أهل السنة على أن فعل العبد خلق لله تعالى بقوله سبحانه فجعله من الصالحين لان الصلاح انما حصل بجعل الله تعالى وخلقه وقال الجبائى يحتمل أن يكون معنى جعل انه أخبر بذلك ويحتمل أن يكون لطف به حتى صلح اذ الجعل يستعمل فى اللغة فى هذه المعانى والجواب أن ذلك مجاز والاصل فى الكلام الحقيقة (وان) هى المخففة أى وانه (يكاد الذين كفروا) أى ستروا ما قدروا عليه مما جئت به من الدلائل وأظهر موضع الاضمار تعميما وتعليقا للحكم بالوصف * ولما كانت ان مخففة أتى باللام التى هى علمها فقال (ليزلقونك بأبصارهم) أى ينظرون اليك نظرا شديدا يكاد أن يصرعك من قامتك الى الارض كما يزلق الانسان فينطرح لما يتراءى فى عيونهم أو يهلكونك من قولهم نظر الى نظرا يكاد يصرعنى و يكاد يأكلنى أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الاكل لفعل قال القائل

يتقارضون اذا التقوا فى موطن * نظرا يزل مواطئ الاقدام

وقيل أرادوا أن يصيبوه بالعين فنظر اليه قوم من قريش وقالوا ما رأينا مثله ولا مثل حججه وقيل كانت العين فى بنى اسرائيل فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يعز به شئ فيقول لم أر كاليوم مثله الا عانه حتى ان البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول ياجارية خذى المكتل والدرهم فأتينا من لحم هذه الناقة فما تبرح الناقة حتى تقع للموت فتنحر وقال الكلبى كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيأ يومين أو ثلاثة ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الابل أو الغنم فيقول لم أر كاليوم ابلا ولا غنما أحسن من هذه فلا تذهب الا قليلا حتى تسقط منها طائفة هالكة فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبى صلى الله عليه وسلم بالعين فأجابهم فلما مر النبى صلى الله عليه وسلم أنشد

قد كان قومك يحسبونك سيدا * واخال انك سيد معيون

فعصم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ونزلت هذه الآية وذكر الماوردى ان العرب كانت اذا أراد أحدهم أن يصيب أحدا بعين فى نفسه أو ماله يجوع ثلاثة أيام ثم يتعرض لنفسه وماله

فيقول

فيقول تالله مارأيت أقوى منه ولا أشجع ولا أكبر منه ولا أحسن فيصيبه بعينه فيهلك هو وماله فأنزل الله تعالى هذه الآية وروى أبو نعيم أنه صلى الله عليه وسلم قال ان العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر وعن أسماء بنت عميس قالت يا رسول الله ان بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم قال نعم فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين وقال الحسن دواء الاصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية وقرأ نافع بفتح الياء والباقون بضمها وهما لغتان يقال زلقه يزلقه زلقا وأزلقه يزلقه ازلاقا وقال ابن قتيبة ليس يريد أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه وانما أراد أنهم ينظرون اليك (لما سمعوا الذكر) أي القرآن نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك وقال الزجاج يعني من شدة عداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك (ويقولون) أي قولا لا يزالون يجددونه حسدا وبغضا على أنهم لم يزدهم تمادي الزمان الا حنقا (انه لمجنون) أي ينسبونه الى الجنون اذا سمعوه يقرأ القرآن فأجابهم الله تعالى بقوله سبحانه (وما هو) أي القرآن (الا ذكر للعالمين) قال ابن عباس موعظة للمؤمنين قال الجلال المحلي الانس والجن وظاهره اخراج الملائكة وهو ما جرى عليه في شرحه على جمع الجوامع وظاهر الآية انه أرسل لجميع الخلائق وهو كما قال بعض المتأخرين الظاهر ويدل له قول البيضاوي لما جننوه لاجل القرآن بين أنه ذكر عام لا يدركه ولا يتعاطاه الا من كان أكمل الناس عقلا وأمتنهم رأيا وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة القلم أعطاه الله ثواب الذين حسن الله أخلاقهم حديث موضوع

(سورة الحاقة مكية)

وهي اثنان وخمسون آية وألف وأربعة وستون حرفا

(بسم الله) اي الذي له الكمال كله (الرحمن) الذي عم العالمين جوده (الرحيم) الذي خص أهل وده بالوقوف عند حدوده وقوله تعالى (الحاقة) مبتدأ وقوله تعالى (ما الحاقة) مبتدأ وخبر والجملة خبر الاول والاصل الحاقة ماهي أي أي شيء هي تفخيما لشأنها وتعظيما لهولها فوضع الظاهر موضع المضمر لانه أهول لها والحاقة الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء التي هي آتية لا ريب فيها أو التي فيها حواق الامور من البعث والحساب والثواب والعقاب أو التي تحق فيها الامور أي تعرف على الحقيقة من قولك لا أحق هذا أي لا أعرف حقيقته جعل الفعل لها وهو لاهلها وقيل سميت القيامة بذلك لانها أحقت لاقوام الجنة ولاقوام النار وقوله تعالى (وما أدراك) أي أي شيء أعلمك (ما الحاقة) زيادة تعظيم لشأنها فما الاولى مبتدأ وما بعدها خبره وما الثانية وخبرها في محل المفعول الثاني لادري يعني انك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها على أنه من العظم والشدة بحيث لا تبلغه دراية أحد ولا وهمه والنبي صلى الله عليه وسلم كان عالما بالقيامة ولكن لا علم له بكنهها وصفتها فقيل له ذلك تفخيما لشأنها كأنك لست تعلمها اذ لم تعاينها وقال يحيى بن سلام بلغني ان كل شيء في القرآن وما أدراك فقد دراه

وعلمه وكل شيء قال ومايدريك فانه عمالم يعلمه وقال سفيان بن عيينة كل شيء قال فيه وما أدراك فانه أخبربه وكل شيء قال فيه ومايدريك فانه لم يخبربه وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي وابن ذكوان بخلاف عنه بالامالة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح * ولماذكر الساعة وفخمها أتبع ذلك ذكر من كذب بها وماحل بهم بسبب التكذيب تذكيرا لاهل مكة وتخويفا لهم من عاقبة تكذيبهم فقال تعالى (كذبت ثمود) قدمهم لان بلادهم أقرب الى قريش وواعظ القرب أكبر واهلاكهم بالصيحة وهي أشبه بصيحة النفخ في الصورة المبعثرة لما في القبور (وعاد بالقارعة) أي القيامة سميت بذلك لانها تقرع قلوب العباد بالمخافة أو لانها تقرع الناس بأهوالها يقال أصابتهم قوارع الدهر أي أهواله وشدائده وقوارع القرآن الآيات التي يقرؤها الانسان اذا فزع من الانس أو الجن نحو آية الكرسي كانه يقرع الشيطان بها وقال المبرد القارعة مأخوذة من القرعة من رفع قوم وحط آخرين وقوارع القيامة انفطار السماء بانشقاقها والارض والجبال بالدك والنسف والنجوم بالطمس والانكدار ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع في الحاقة زيادة في وصف شدتها وقيل عنى بالقارعة العذاب الذي نزل بهم في الدنيا وكان نبيهم يخوفهم بذلك فيكذبونه وثمود قوم صالح وكانت منازلهم بالحجر فيما بين الشأم والحجاز قال ابن اسحق وهو وادي القرى وكانوا عربا وأما عاد فقوم هود وكانت منازلهم بالاحقاف رمل بين عمان الى حضرموت واليمن كله وكانوا عرباذوي بسطة في الخلق (فأما ثمود فأهلكوا) أي بأيسر أمر من أوامرنا (بالطاغية) أي الواقعة التي جاوزت الحد في الشدة فرجفت منها القلوب واختلف فيها فقيل الرجفة وعن ابن عباس الصاعقة وعن قتادة بعث الله تعالى عليهم صيحة فأهمدتهم وقال مجاهد بالذنوب وقال الحسن بالطغيان فهو مصدر كالكاذبة والعاقبة أي أهلكوا بطغيانهم وكفرهم قال الزمخشري وليس بذاك لعدم الطباق بينها وبين قوله تعالى بريح صرصر لكن قال ابن عادل ويوضحه كذبت ثمود بطغواها أهلكوا بها ولاجلها قال والباء سببية على الاقوال كلها الا على قول قتادة فانها فيه للاستعانة كعملت بالقدوم (وأما عاد فأهلكوا) أي بأشق مايكون عليهم وبأيسر مايكون علينا (بريح صرصر) أي شديدة الصوت لها صرصرة وقيل هي الباردة من الصر كانها التي كرر فيها البرد وكثر فهي تحرق بشدة بردها وقال مجاهد هي الشديدة السموم (عاتية) أي مجاوزة للحد في شدة عصفها والعتو استعارة أو عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيلة من استتار ببناء أو لياذ بجبل أو اختفاء في حفرة فانها كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم وقيل عتت على خزانها فخرجت بلا كيل ولاوزن وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ما أرسل الله تعالى سفينة من ريح الا بمكيال ولا قطرة من مطر الا بمكيال الا يوم عاد ويوم نوح فان الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه سبيل ثم قرأ انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية وان الريح يوم عاد عتت على الخزان فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ بريح صرصر عاتية (سخرها) أرسلها (عليهم) وقال مقاتل رضي الله عنه سلطها عليهم (سبع ليال) أي لاتفتر فيها الريح لحظة (وثمانية أيام) كذلك قال وهب هي الايام

التى تسميها العرب العجوز ذات برد وريح شديدة قيل سميت عجوزا لانها فى عجز الشتاء وقيل سميت بذلك لان عجوزا من قوم عاد دخلت سربا فتبعتها الريح فقتلتها اليوم الثامن من نزول العذاب وانقطع العذاب (حسوما) قال مجاهد وقتادة رضى الله عنهما متتابعة ليس فيها فترة فعلى هذا هو من حسم الكى وهو أن يتابع على موضع الداء المكواة حتى يبرأ ثم قيل لكل شئ يقطع حاسم وجمعه حسوم مثل شاهد وشهود وقال الكلبى حسوما دائما وقال النضر بن شميل حسمتهم قطعتهم وأهلكتهم والحسم القطع والمنع ومنه حسم الداء وقال عطية حسوما شؤما كأنها حسمت الخير عن أهلها * (تنبيه) * فى اعراب حسوما أوجه أحدها أن ينتصب نعتا لما قبله ثانيها أن ينتصب على الحال أى ذات حسوم ثالثها أن ينتصب على المصدر بفعل من لفظها أى تحسمهم حسوما واختلفوا فى أولها فقال السدى غداة يوم الاحد وقال الربيع بن أنس رضى الله عنه غداة يوم الجمعة وقال يحيى بن سلام ووهب بن منبه رضى الله عنهم غداة يوم الاربعاء وهو اليوم النحس المستمر قيل كان آخر أربعاء فى السنة وآخرها يوم الاربعاء وقال البقاعى وهى من صبيحة الاربعاء لثمان بقين من شوال غروب الاربعاء الآخر وهو آخر الشهر وقد لزم من زيادة عدد الايام أن الابتداء كان بها قطعا والا لم تكن الليالى سبعا فتأمل ذلك اه وهو ظاهر * ولما كان الحاسم المهلك تسبب عنه قوله تعالى مصورا لحالهم الماضية (فترى القوم) أى الذين هم غاية فى القدرة على مايحاولونه (فيها) أى تلك المدة من الايام والليالى لم يتأخر أحد منهم عنهم (صرعى) أى مجندلين على الارض موتى جمع صريع وهى حال نحو قتيل وقتلى وجريح وجرحى والضمير فيها للايام والليالى كما مر أو للبيوت أو للريح قال ابن عادل والاول أظهر لقربه (كأنهم أعجاز) أى أصول (نخل) قد شاخت وهرمت فهى فى غاية العجز (خاوية) أى متأكلة الاجواف ساقطة من خوى النجم اذا سقط للغروب ومن خوى المنزل اذا خلا من قطانه قالوا كانت تدخل من أفواههم فتخرج مافى أجوافهم من الحشو من أدبارهم والوصف بذلك لعظم أجسامهم وتقطيع الريح لهم وقطعها لرؤسهم وخلوهم من الحياة وتسويدها لهم (فهل ترى) أى أيها المخاطب الخبير بالناس فى جميع الاقطار (لهم) أى خصوصا وأغرق فى النفى وعبر بالمصدر الملحق بالهاء مبالغة فقال تعالى (من باقية) فيكون المراد بالباقية البقاء كالطاغية بمعنى الطغيان أى من باق والاحسن أن تكون صفة لفرقة أو لطائفة أو نفس أو بقية أو نحو ذلك وقيل فاعلة بمعنى المصدر كالعافية والباقية قال المفسرون والمعنى هل ترى لهم أحدا باقيا قال ابن جريج كانوا سبع ليال وثمانية أيام أحياء فى عذاب الله تعالى من الريح فلما أمسوا فى اليوم الثامن ماتوا فاحتملتهم الريح فألقتهم فى البحر فذلك قوله تعالى فهل ترى لهم من باقية وقوله تعالى فأصبحوا لاترى الامساكنهم ونجى الله تعالى صالحا عليه السلام ومن آمن به من بين ثمود ولم تضرهم الصاعقة وهودا عليه السلام ومن آمن به من عاد ولم يهلك منهم أحد فدل ذلك دلالة واضحة على أن له تعالى تمام العلم بالجزئيات كما أن له تمام الاحاطة بالكليات وعلى قدرته واختياره وحكمته فلا يجعل المسلم كالمجرم ولا المسئ كالمحسن وجواب هل لم يبق

منهم أحد (وجاء فرعون) أي الذي ملك كنا طائفة من الارض وتجبر وادّعى الالهية ناسيا نعمتنا وقدرتنا وقوله تعالى (ومن قبله) قرأه أبو عمرو والكسائي بكسر القاف وفتح الباء الموحدة أي ومن عنده من اتباعه وقرأه الباقون بفتح القاف وسكون الباء الموحدة على أنه ظرف أي ومن تقدمه من الامم الكافرة (والمؤتفكات) أي أهلكها وهي قرى قوم لوط أي المنقلبات بأهلها حتى صار عاليها سافلها لما حصل لاهلها من الانقلاب (بالخاطئة) أي بالفعلات ذات الخطا الذي يتخطى منها الى نفس الفعل القبيح من اللواط والصفع والضراط مع الشرك وغير ذلك من أنواع الفسق * ولما كانت الرسل كالفرد الواحد لاتفاقهم وتعاضدهم في الدعاء الى الله تعالى والحمل على طاعته قال مسببا عن مجيئهم بذلك موحدا في اللفظ ماهو صالح لكثير بإرادة الجنس (فعصوا) اي خالفوا (رسول ربهم) أي خالفت كل أمة من أرسله المحسن اليها بابداعها من العدم وايداعها القوى وترزيقها وبعث رسولها الارشادها اغترارا باحسانه ولم يجوزوا أن المحسن يقدر على الضر كما قدر على النفع لانه الضار كما أنه النافع فللتنبيه على مثل ذلك لايجوز فصل أحد الاسمين عن الآخر وسبب عن العصيان قوله تعالى (فأخذهم) أي ربهم أخذ قهر وغضب (أخذة) لم تبق من أمة منهم أحدا ممن كذب الرسول فلم يكن كمن ينصر على عدو من المؤمنين لابدان يفوته كثير منهم وان اجتهد في الطلب وماذاك الالتمام علمه سبحانه بالجزئيات والكليات وشمول قدرته وتلك الاخذة مع كونها بهذه العظمة من أنها أخذتهم كنفس واحدة جعلها سبحانه (رابية) أي عالية عليهم زائدة في الشدة على غيرها وعلى عذاب الامم يقال ربا الشئ يربو اذا زاد ومنه الربا اذا أخذ في الذهب والفضة أكثر مما اعطى والمعنى أنها كانت زائدة في الشدة على عقوبات سائر الكفار كما ان أفعالهم كانت زائدة في القبح على أفعال سائر الكفار وقيل لان عقوبة آل فرعون متعلقة بعذاب الآخرة لقوله تعالى اغرقوا فادخلوا نارا وعقوبة الآخرة أشد من عقوبة الدنيا فتلك العقوبة كانت كأنها تنمو وتربو * ثم ذكر تعالى قصة قوم نوح عليه السلام وهي قوله تعالى (انا) أي على عظمتنا (لما طغى الماء) أي زاد على الحد حتى علا على اعلى جبل في الارض بقدر ما يغرق من كان عليه حين أغرقنا قوم نوح عليه السلام به فلم يطيقوا ضبطه ولا فوره بوجه من الوجوه وقال صلى الله عليه وسلم طغى على خزانه من الملائكة غضبا لربه تعالى فلم يقدروا على حبسه قال المفسرون زاد على كل شئ خمسمائة ذراع وقال ابن عباس رضي الله عنهما طغى الماء زمن نوح عليه السلام على خزانه فكثر عليهم فلم يدروا كم خرج وليس من الماء قطرة تنزل قبله ولا بعده الا بكيل معلوم غير ذلك اليوم والمقصود من قصص هذه الامم وذكر ما حل بهم من العذاب زجر هذه الامة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول ثم من الله عليهم بأن جعلهم ذرية من نجى من الغرق بقوله تعالى (حملناكم) اي في ظهور آبائكم (في الجارية) اي السفينة التي جعلناها بحكمتنا عريقة في الجريان حتى كأنه لا جارية غيرها على وجه الماء الذي جعلنا من شأنه الاغراق والمحمول في الجارية انما هو نوح عليه السلام واولاده وكل من على وجه الارض من نسل أولئك والجارية من اسماء السفينة ومنه قوله تعالى وله الجوار المنشآت في

البحر كالاعلام وغلب استعمال الجارية فى السفينة كقولهم فى بعض الالغاز

رأيت جارية فى بطن جارية * فى بطنها رجل فى بطنه جمل

ونوح عليه السلام اول من صنع السفينة وانما صنعها بوحى من الله تعالى وحفظه له قال اجعلها كهيئة صدر الطائر ليكون ما يجرى فى الماء مقاربا لما يجرى فى الهواء واغرقنا سوى من كان فى تلك السفينة من جميع اهل الارض من آدمى وغيره (لنجعلها) أى هذه الفعلة العظيمة وهى انجاء المؤمنين بحيث لا يهلك منهم بهذا العذاب أحد واهلاك الكافرين بحيث لا يشذ منهم أحد وكذا السفينة التى حملنا فيها نوحا عليه السلام ومن معه (لكم) ايها الناس (تذكرة) أى عبرة ودلالة على قدرته تعالى وعظمته ورحمته وقهره فيقودكم ذلك اليه وتقبلوا بقلوبكم عليه وقوله تعالى (وتعيها) عطف منصوب على لنجعلها اى ولتحفظ قصة السفينة وغيرها مما تقدم حفظا ثابتا مستقرا كأنه محوى فى وعاء (أذن) اى عظيمة النفع (واعية) اى من شأنها ان تحفظ ما ينبغى حفظه من الاقوال والافعال الالهية والاسرار الربانية لنفع عباد الله تعالى كما كان نوح عليه السلام ومن معه وهم قليل سببا لادامة النسل والبركة فيه حتى امتلأت منه الارض والوعى الحفظ فى النفس والايعاء الحفظ فى الوعاء قال الزمخشرى فان قلت لم قيل اذن واعية على التوحيد والتنكير قلت للايذان بان الوعاة فيهم قلة ولتوبيخ الناس بقلة من يعى منهم وللدلالة على ان الاذن الواحدة اذا وعت وعقلت عن الله تعالى فهو السواد الاعظم عند الله وأن ماسواها لا يبالى بهم بالة وان ملؤا ما بين الخافقين اه وقرأ نافع بسكون الذال والباقون بضمها ولما ذكر تعالى القيامة وهول أمرها بالتعبير بالحاقة وغيرها شرع سبحانه وتعالى فى تفاصيل أحوالها وبدأ بذكر مقدماتها بقوله تعالى (فاذا نفخ) وبنى الفعل للمجهول دلالة على هوان ذلك عليه وأن ما يتأثر عنه لا يتوقف على نافخ معين بل من أقامه لذلك من جنده تأثر عنه ما يريده (فى الصور) أى القرن الذى ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام قال البقاعى كأنه عبر عنه به دون القرن مثلا لانه يتأثر عنه تارة اعدام الصورة وتارة ايجادها وردها الى اشكالها وسعته كما بين السماء والارض (نفخة واحدة) للفصل بين الخلائق قال الزمخشرى فان قلت هما نفختان فلم قيل واحدة قلت معناه انها لا تثنى فى وقتها ثم قال فان قلت فأى النفختين هى قلت الاولى لان عندها فساد العالم وهكذا الرواية عن ابن عباس رضى الله عنهما وقد روى عنه انها الثانية اه قال البقاعى وظاهر السياق أنها الثانية التى بها البعث وخراب ما ذكر بعد قيامهم انسب لانه أهيب وكونها الثانية احدى الروايتين عن ابن عباس رضى الله عنهما اه واقتصر البيضاوى على أنها الاولى والجلال المحلى على أنها الثانية وهو الانسب كما قاله البقاعى ثم ان الزمخشرى سأل سؤالا على انها النفخة الاولى بقوله فان قلت أما قال بعد يومئذ تعرضون والعرض انما هو عند النفخة الثانية قلت جعل اليوم اسما للحين الواسع الذى تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب فلذلك قيل يومئذ تعرضون كما تقول جئتك عام كذا وانما كان مجيئك فى وقت واحد من أوقاته اه * ولما ذكر التأثير فى الاحياء اتبعه التأثير فى الجمادات وبدأ منها بالسفليات الملابسة للانسان

فتكون عوته بها أكثر فقال تعالى (وحملت الارض والجبال) أى التى بها اثباتها حملتهما الريح أو الملائكة أو القدرة من أماكنهما (فدكتا) أى مسحت الجملتان الارض وأوتادها وبسطت ودق بعضها ببعض (دكة واحدة) أى فصارتا كثيبا مهيلا بأيسر أمر فلم يميز شئ منهما عن الآخر بل صارتا فى غاية الاستواء ومنه اندك سنام البعير اذا انفرش فى ظهره وقال الفراء لم يقل فدككن لانه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة والارض كالجملة الواحدة ومثله أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما ولم يقل كن وهذا الدك كالزلزلة لقوله تعالى اذا زلزلت الارض زلزالها وقوله تعالى (فيومئذ) منصوب بوقعت وقوله تعالى (وقعت الواقعة) لابد فيه من تأويل وهو أن تكون الواقعة صارت علما بالغلبة على القيامة او الواقعة العظيمة والا فقام القائم لا يجوز اذ لا فائدة فيه والتنوين فى يومئذ للعوض من الجملة تقديره يوم اذ نفخ فى الصور ونوع تعالى أسماء القيامة بالحاقة والواقعة والقارعة تهويلا لها * ولما ذكر تأثير العالم السفلى ذكر العلوى بقوله تعالى (وانشقت السماء) اى ذلك الجنس لشدة هول ذلك اليوم اى انصدعت وتفطرت وقيل انشقت لنزول الملائكة بدليل قوله تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا (فهى يومئذ واهية) اى ضعيفة متساقطة خفيفة لا تماسك كالعهن المنفوش بعدما كانت محكمة يقال وهى البناء يهى وهيا فهو واه اذا ضعف جدا ويقال كلام واه اى ضعيف وقيل واهية اى متخرقة مأخوذ من قولهم وهى السقاء اذا تخرق ومن أمثالهم

خل سبيل من وهى سقاؤه * ومن هريق بالفلاة ماؤه

أى من كان ضعيف العقل لا يحفظ نفسه وقرأ أبو عمرو وقالون والكسائى بسكون الهاء والباقون بكسرها (والملك) أى هذا النوع (على أرجائها) أى نواحى السماء وأطرافها وحواشى مالم ينشق منها قال الضحاك يكونون بها حتى يأمرهم الله تعالى فينزلون فيحيطون بالارض ومن عليها وقال سعيد بن جبير رضى الله عنه المعنى والملك على حافات الدنيا أى ينزلون الى الارض ويحرسون أطرافها وقيل اذا صارت السماء قطعا تقف الملائكة على تلك القطع التى ليست متشققة فى أنفسها والارجاء فى اللغة النواحى والاقطار بلغة هذيل واحدها رجا مقصور وتثنيته رجوان مثل عصا وعصوان قال القائل

فلا يرمى بى الرجوان انى * أقل القوم من يغنى مكانى

قال ابن عادل ورجا هنا يكتب بالالف عكس رحى لانه من ذوات الواو (فان قيل) الملائكة يموتون فى الصعقة الاولى لقوله تعالى فصعق من فى السموات ومن فى الارض فكيف يقال لهم انهم يقفون على أرجاء السماء (أجيب) من وجهين الاول انهم يقفون لحظة على أرجاء السماء ثم يموتون والثانى المراد الذين استثنوا فى قوله تعالى الا من شاء الله وقيل ان الناس اذا رأوا جهنم هالهم امرها فيندوا كما تند الابل فلا يأتون قطرا من أقطار الارض الا رأوا الملائكة فيرجعوا من حيث جاؤا وقيل على ارجائها ينتظرون ما يؤمرون به فى أهل النار من السوق اليها وفى أهل الجنة من التحية والكرامة وهذا كله يرجع الى قول ابن جبير رضى الله عنه ويدل عليه

قوله تعالى ونزل الملائكة تنزيلا قال الزمخشري فان قلت ما الفرق بين قوله والملك وبين أن يقال والملائكة قلت الملك أعم من الملائكة الاترى أن قولك مامن ملك الا وهو شاهد أعم من قولك مامن ملائكة اه قال أبو حيان ولا يظهر أن الملك أعم من الملائكة لان المفرد المحلى بالالف واللام قصاراه أن يكون مرادا به الجمع المحلى ولذلك صح الاستثناء منه ثم قال ولان قوله على أرجائها يدل على الجمع لان الواحد لا يمكن أن يكون على أرجائها في وقت واحد بل في أوقات والمراد والله أعلم ان الملائكة على أرجائها الا انه ملك واحد ينتقل على أرجائها في أوقات * ولما كان الملك يظهر في يوم العرض سرير ملكه ومحل عزه قال تعالى (ويحمل عرش ربك) أى المحسن اليك بكل ماتريد لاسيما في ذلك اليوم بما يقع من رفعتك على سائر الخلق والضمير في قوله تعالى (فوقهم يومئذ) أى في يوم وقعت الواقعة يجوز أن يعود على الملك لانه بمعنى الجمع كما تقدم وأن يعود على الحاملين في قوله تعالى (ثمانية) وقيل يعود على جميع العالم اى ان الملائكة تحمل عرش الله تعالى فوق العالم كله واختلف في هذه الثمانية فقال ابن عباس رضى الله عنهما ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم الا الله تعالى وقال ابن زيد هم ثمانية أملاك وعن الحسن رضى الله عنه الله أعلم كم هم أثمانية أم ثمانية آلاف أم ثمانية صفوف وفي الحديث انه صلى الله عليه وسلم قال ان حملة العرش اليوم أربعة فاذا كان يوم القيامة أمدهم الله تعالى بأربعة أخرى فكانوا ثمانية على صورة الاوعال وفي رواية ثمانية أوعال من أظلافهم الى ركبهم كما بين سماء الى سماء وفي حديث آخر لكل ملك منهم وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر وكل وجه منها يسأل الله الرزق لذلك الجنس (فان قيل) اذا لم يكن فيهم صورة الوعل فكيف سموا أوعالا (أجيب) بأن وجه الثور اذا كانت له قرون أشبه الوعل وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال أذن لى أن احدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش ان ما بين شحمة أذنه الى عاتقه مسيرة سبعمائة عام أخرجه أبو داود باسناد صحيح وعن ابن عباس رضى الله عنهما حملة العرش ما بين أخمص أحدهم الى كعبه مسيرة خمسمائة عام ومن كعبه الى ركبته خمسمائة ومن ترقوته الى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال الذين يحملون العرش ما بين سوق أحدهم الى مؤخر عينه خمسمائة عام وفي الخبران فوق السماء السابعة ثمانية اوعال بين اظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء الى سماء وفوق ظهورهن العرش وفي حديث مرفوع أن حملة العرش ثمانية املاك على صورة الاوعال ما بين أظلافها الى ركبها مسيرة سبعين عاما للطائر المسرع وروى أن أرجلهن في الارض السابعة واضافة العرش الى الله تعالى كاضافة البيت اليه وليس البيت للسكنى فكذلك العرش ليس للجلوس تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا فانه الخالق للعرش ولحملة العرش ولا تحيط به جهة وهو العلى العظيم وعن شهر بن حوشب قال حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك وأربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك * ولما بلغ تعالى النهاية في تحذير العباد من يوم التناد وكان لهم حالتان عامة وخاصة فالعامة العرض والخاصة التقسيم الى محسن ومسىء مناده عنهما

بقوله تعالى (يومئذ) أى اذ كان جميع ما تقدم (تعرضون) على الله للحساب كما يعرض السلطان الجند لينظر فى أمرهم ليختار منهم المصلح للتقريب والاكرام والمفسد للابعاد والتعذيب عبر بالعرض عن الحساب الذى هو جزؤه والمحسن لا يكون له غير ذلك والمسىء يناقش (لا تخفى منكم) أى فى ذلك اليوم على أحد بوجه من الوجوه وقرأ حمزة والكسائى بالياء التحتية لان التأنيث مجازى والباقون بالتاء وهو ظاهر (خافية) أى من السرائر التى كان من حقها أن تخفى فى دار الدنيا فانه عالم بكل شئ من أعمالكم ونظيره قوله تعالى لا يخفى على الله منهم شئ قال الرازى والعرض للمبالغة فى التهديد يعنى تعرضون على من لا تخفى عليه خافية قال القرطبى هذا هو العرض على الله تعالى ودليله وعرضوا على ربك صفا وليس ذلك عرضا ليعلم ما لم يكن عالما به بل ذلك العرض عبارة عن المحاسبة والمساءلة وتقرير الاعمال عليهم للمجازاة قال صلى الله عليه وسلم يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الايدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله قال تعالى (فأما من أوتى كتابه بيمينه) أى الذى أثبتت فيه أعماله (فيقول) لما رأى من سعادته تبجحا بحاله واظهارا لنعمة ربه لان الانسان مطبوع على أن يظهر ما آتاه الله تعالى من خير تكميلا للذته قيل انه تكتب سيآته فى باطن صحيفته وحسناته فى ظاهرها فيقرأ الباطن ويقرأ الناس الظاهر فاذا أتمها قيل له قد غفرها الله تعالى اقلب الصحيفة فحينئذ يكون قوله (هاؤم اقرؤا) أى خذوا اقرؤا (كتابيه) يقول ذلك ثقة بالاسلام وسرورا بنجاته لان اليمين عند العرب من دلائل الفرح قال الشاعر

اذا ما راية رفعت لمجد ✽ تلقاها عرابة باليمين

قال ابن عباس رضى الله عنهما أول من يعطى كتابه بيمينه من هذه الامة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وله شعاع كشعاع الشمس قيل فأين أبو بكر قال هيهات زفته الملائكة الى الجنة وقال ابن زيد معنى هاؤم تعالوا فيتعدى بالى وقال مقاتل هلم وقال غيره خذوا ومنه الحديث فى الربا الا هاء وهاء اى يقول كل اصاحبه خذ وهذا هو المشهور ولذلك فسرت به الآية الكريمة وقيل هى كلمة وضعت لاجابة الداعى عند الفرح والنشاط وفى الحديث انه صلى الله عليه وسلم ناداه أعرابى بصوت عال فأجابه النبى صلى الله عليه وسلم هاؤم بصولة صوته وقيل معناها اقصروا وزعم هؤلاء انها مركبة من ها التنبيه وأموا أمر من الام وهو القصد فصيره التخفيف والاستعمال الى هاؤم وقيل الميم ضمير جماعة الذكور وزعم العتبى أن الهمزة بدل من الكاف قال ابن عادل فان عنى أنها تحل محلها فصحيح وان عنى البدل الصناعى فليس بصحيح ✽ (تنبيه) ✽ كتابيه منصوب بهاؤم عند الكوفيين وعند البصريين باقرؤا لانه أقرب العاملين والاصل كتابى فادخل الهاء لتبين فتحة الياء والهاء فى كتابيه وحسابيه وسلطانيه وماليه للسكت وكان حقها أن تحذف وصلا وتثبت وقفا وانما أجرى الوصل مجرى الوقف أو وصل بنية الوقف فى كتابيه وحسابيه اتفاقا فأثبت الهاء وكذا فى ماليه وسلطانيه وماهيه فى القارعة عند القراء كلهم الا حمزة فانه حذف الهاء من هذه الكلم الثلاثة وصلا وأثبتها وقفا لانها فى الوقف يحتاج اليها لتحصين حركة الموقوف

عليه وفى الوصل مستغنى عنها (فان قيل) فلم لم يفعل ذلك فى كتابيه وحسابيه (أجيب) بأنه جمع بين اللغتين (انى ظننت) قال ابن عباس رضى الله عنهما أى أيقنت وعلمت وقيل ظننت أن يؤاخذنى الله بسيآتى فقد تفضل على بعفوه ولم يؤاخذنى بها وقال الضحاك كل ظن من المؤمن فى القرآن فهو يقين ومن الكافر فهو شك وقال مجاهد رضى الله عنه ظن الآخرة يقين وظن الدنيا شك وقال الحسن رضى الله عنه فى هذه الآية ان المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل وان المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل (انى ملاق) أى ثابت لى ثباتا لا ينفك أنى ألقى (حسابيه) أى فى الآخرة ولم ينكر البعث يعنى انه ما نجا الا بخوفه من يوم الحساب لانه تيقن ان الله تعالى يحاسبه فعمل للآخرة فحقق الله تعالى رجاءه وأمن خوفه فعلم الآن انه لا يناقش الحساب وانما حسابه بالعرض وهو الحساب اليسير فضلا من الله تعالى ونعمة (فهو فى عيشة) أى حالة من العيش وقوله تعالى (راضية) فيه ثلاثة أوجه أحدها انه على النسب أى ذات رضا نحو لابن وتامر لصاحب اللبن والتمر أى ثابت لها الرضا ودائم لها لانها فى غاية الحسن والكمال والعرب لا تعبر عن أكبر السعادات بأكثر من العيشة الراضية بمعنى ان أهلها راضون بها والمعتبر فى كمال اللذة الرضا الثانى انه على المجاز جعل العيشة راضية لمحلها وحصولها فى مستحقها وانه لو كان للعيشة عقل لرضيت لنفسها بحالتها الثالث قال أبو عبيدة والفراء ان هذا مما جاء فيه فاعل بمعنى مفعول نحو ماء دافق بمعنى مدفوق كما جاء مفعول بمعنى فاعل كما فى قوله تعالى حجابا مستورا أى ساترا وقال صلى الله عليه وسلم انهم يعيشون فلا يموتون أبدا ويصحون فلا يمرضون أبدا وينعمون فلا يرون بأسا أبدا ويشبون فلا يهرمون أبدا (فى جنة) أى بساتين جامعة لجميع ما يراد منها (عالية) أى مرتفعة فى المكان والمكانة والابنية والدرجات والاشجار وكل اعتبار وقوله تعالى (قطوفها) جمع كثرة لقطف بالكسر وهو فعل بمعنى مفعول كالذبح وهو ما يجتنيه الجانى من الثمار وأما القطف بالفتح فالمصدر والقطاف بالفتح والكسر وقت القطف (دانية) أى قريبة المأخذ سهلة التناول جدا للراكب والقائم والقاعد والمضطجع كل ذلك على حد سواء دائما من غير انقطاع لا كلفة على أحد فى تناوله شيأ من ذلك وقوله تعالى (كلوا واشربوا) على اضمار القول أى يقال لهم ذلك وجمع الضمير للمعنى لان قوله تعالى فأما من أوتى كتابه يتضمن معنى الجمع وهذا أمر امتنان لا أمر تكليف (هنيئا) أى أكلا طيبا لذيذا شهيا مع البعد عن كل أذى وسلامة العاقبة بكل اعتبار ولا فضلة هناك من بول ولا غائط ولا بصاق ولا مخاط ولا عرق ولا وهن ولا صداع ولا ثقل والباء فى قوله تعالى (بما أسلفتم) سببية وما مصدرية أو اسمية أى بما قدمتم من الاعمال الصالحة (فى الايام الخالية) أى الماضية فى الدنيا التى انقضت وذهبت واسترحتم من تعبها وعن مجاهد رضى الله عنه أيام الصيام أى كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله تعالى وروى يقول الله تعالى يا أوليائى طالما نظرت اليكم فى الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الاشربة وغارت أعينكم وخمصت بطونكم فكونوا اليوم فى نعيمكم وكلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الايام الخالية ولما كانت العادة جارية بأن أهل العرض ينقسمون الى مقبول

ومردود وذكر سبحانه المقبول بادنا نه تشويقا الى حاله وتغبيطا بعاقبته وحسن حاله أتبعه المردود تنفيرا عن أعماله بما ذكر من قبائح أحواله فقال تعالى (وأما من أوتى كتابه) أى صحيفة حسابه (بشماله فيقول) أى لما يرى من سوء عاقبته التى كشف له عنها الغطاء حتى لم يشك فيها لما رأى من قبائحه التى قدمها (ياليتنى) تمنيا للمحال (لم أوت) أى من أى مؤت ما (كتابيه) أى هذا الذى ذكرنى خبائث أعمالى وعرفنى بجزاءها (ولم) أى ويا ليتنى لم (أدر ما) حقيقة (حسابيه) من ذكر العمل وذكر جزائه بل استمريت جاهلا لذلك كما كنت فى الدنيا ثم تمنى الموت ويقول (ياليتها) أى الموتة الاولى وان لم تكن مذكورة الا أنها لظهورها كانت كالمذكورة (كانت القاضية) أى القاطعة لحياتى بأن لا أبعث بعدها ولم ألق ما وصلت اليه قال قتادة رضى الله عنه تمنى الموت ولم يكن فى الدنيا عنده شئ أكره من الموت وشر من الموت ما يطلب منه الموت قال الشاعر

وشر من الموت الذى ان لقيته * تمنيت منه الموت والموت أعظم

والمعنى ياليت هذه الحالة كانت الموتة التى قضيت على وقوله (ما أغنى عنى ماليه) يجوز أن يكون نفيا تأسفا على فوات ما كان يرجو من نفعه والمفعول على هذا التقدير محذوف للتعميم ويجوز أن يكون استفهام توبيخ لنفسه حيث سولت له ما أثر له كل سوء وكل محال أى أى شئ أغنى ما كان لى من اليسار الذى منعت منه حق الفقراء وتعظمت به على عباد الله تعالى (هلك عنى سلطانيه) أى ملكى وتسلطى على الناس وبقيت فقيرا ذليلا وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذه الآية نزلت فى الاسود بن عبد الاشد وعن فناخسرة الملقب بالعضد انه لما قال

عضد الدولة وابن ركنها * ملك الاملاك غلاب القدر

لم يفلح بعده وجن فكان لا ينطق لسانه الا بهذه الآية وقال ابن عباس رضى الله عنهما ضلت عنى حجتى ومعناه بطلت حجتى التى كنت أحتج بها فى الدنيا وذكر الضحاك ان الآية الاولى فى أخى الاسود عبد الله بن عبد الاسد المخزومى * ولما كان كأنه قيل هذا ما قال فما يقال له أجيب بأنه يقال للزبانية على رؤس الاشهاد (خذوه) أى أيتها الزبانية الذين كان يستهزئ بهم عند سماع ذكرهم (فغلوه) أى اجمعوا يديه الى عنقه ورجليه الى وراء قفاه الى ناصيته (ثم الجحيم) أى النار العظمى التى تجحم على من يريد دفاعها ويجحم عنها من رآها لانها فى غاية الحر والتوقد والتغيظ والتشدد (صلوه) أى بالغوا فى تصليته اياها وكرروها بغمسة فى النار كالشاة المصلية مرة بعد أخرى لانه كان يتعاظم على الناس فناسب أن يصلى أعظم النيران وعبر أيضا بأداة التراخى اعلاما برتبة مدخولها فقال مؤذنا بعدم الخلاص وتقديم المفعول يفيد الاختصاص عند بعضهم ولذلك قال الزمخشرى ثم لا يصلوه الا الجحيم قال أبو حيان وليس ما قاله مذهبا لسيبويه ولا لحذاق النحاة اه لكن كلام النحاة لا يأبى ما قاله (ثم فى سلسلة) أى عظيمة جدا وقوله تعالى (ذرعها سبعون ذراعا) يحتمل أن يكون هذا العدد حقيقة وعلى هذا قال ابن عباس رضى الله عنهما سبعون ذراعا بذراع الملك فتدخل فى دبره وتخرج من منخره وقيل تدخل من فيه وتخرج من دبره وقال نوف البكالى سبعون ذراعا كل ذراع سبعون باعا كل باع أبعد مما بينك وبين مكة وكان

فى رحبة الكوفة وقال سفيان كل ذراع سبعون ذراعا وقال الحسن رضى الله عنه الله أعلم أى ذراع هو ويحتمل أن يكون مبالغة كما قال تعالى ان تستغفر لهم سبعين مرة يريد مرات كثيرة لانها اذا طالت كان الارهاق أشد والذى يدل على هذا مارواه الترمذى وقال اسناده حسن عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو أن رصاصة مثل هذه وأشار الى مثل الجمجمة أرسلت من السماء الى الارض وهى مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الارض قبل الليل ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفا الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها وقعرها وعن كعب رضى الله عنه أنه قال لو جمع حديد الدنيا ما وزن حلقة منها أجارنا الله تعالى ومحبينا منها وجميع المسلمين فأشار سبحانه الى ضيقها على ما تحيط به من بدنه بتعبيره بالسلك فقال تعالى (فاسلكوه) أى أدخلوه بحيث يكون كأنه السلك أى الخيط الذى يدخل فى ثقب الخرزة بعسر لضيق ذلك الثقب اما باحاطتها بعنقه أو بجميع بدنه بأن تلف قال الزمخشرى والمعنى فى تقديم السلسلة على السلك مثله فى تقديم الجحيم على التصلية أى لاتسلكوه الا فى هذه السلسلة كأنها أفظع من سائر مواضع الارهاق فى الجحيم ومعنى ثم الدلالة على تفاوت مابين الغل والتصلية وما بينهما وبين السلك فى السلسلة لاعلى تراخى المدة اه * ولما ذكر سبحانه على الاجمال عقابه أتبعه أسبابه فقال تعالى (انه كان) أى جبلة وطبعا وان أظهر شيأ يلبس به على الضعفاء ويدلس على الاغبياء (لايؤمن) أى الآن ولا فى مستقبل الزمان (بالله) أى الملك الاعلى الذى يعلم السر وأخفى (العظيم) أى الكامل العظم وهذا تعليل على طريق الاستئناف وهو أبلغ كأنه قيل ماله يعذب هذا العذاب الشديد أجيب بذلك وفى قوله تعالى (ولا يحض) أى يحث (على) بذل (طعام المسكين) دليلان قويان على عظم الجرم فى حرمان المسكين أحدهما عطفه على الكفر وجعله قرينة له والثانى ذكر الحض دون الفعل ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل وما أحسن قول القائل

اذا نزل الاضياف كان عذورا * على الحى حتى تستقل مراجله

يريد حضهم على القرى واستعجالهم وعن أبى الدرداء رضى الله عنه انه كان يحض امرأته على تكثير المرق لاجل المساكين وكان يقول خلعنا نصف السلسلة بالايمان أفلا نخلع نصفها الثانى بالطعام وقيل هو منع الكفار وقولهم أنطعم من لو يشاء الله أطعمه والمعنى على بذل طعام المسكين * ولما وصفه سبحانه بأقبح العقائد وأشنع الرذائل تسبب عنه قوله تعالى (فليس له اليوم ههنا) أى فى مجمع القيامة كله (حميم) أى صديق خالص يحميه من العذاب لانهم كلهم له أعداء كما أنه كان لايرق على الضعفاء لماهم فيه من الاقلال من حطام الاموال (ولا طعام الا من غسلين) أى غسالة أهل النار وصديدهم وقيحهم فعلين من الغسل (لا يأكله الا الخاطئون) أى أصحاب الخطايا من خطئ الرجل اذا تعمد الذنب وهم المشركون لامن الخطا المضاد للصواب وهذا الطعام يغسل ما فى بطونهم من الاعيان والمعانى التى بها قوام صاحبها وهى بمنزلة ما كانوا يشحون من أموالهم التى أبطنوها وادخروها فى خزائنهم واستأثروا بها على الضعفاء (فلا أقسم) أى لا يقع منى اقسام (بما

تبصرون) من المخلوقات (وما لا تبصرون) منها أى بكل الموجودات واجبها وجائزها معقولها ومحسوسها لانها لا تخرج عن قسمين مبصر وغير مبصر وقيل الدنيا والآخرة والاجسام والارواح والانس والجن والخلق والخالق والنعم الظاهرة والباطنة لان الامر أوضح من أن يحتاج الى اقسام وان كنت أقسم فى غير هذا الموضع بما شئت ولو قيل بهذا فى الواقعة لكان حسنا وقيل لا زائدة وجرى على ذلك الجلال المحلى (انه) أى القرآن (لقول) أى تلاوة (رسول) أى أنا أرسلته به وعنى أخذه وليس فيه شئ من تلقاء نفسه انما هو كله رسالة واضحة جدا أنا شاهد بها بما له من الاعجاز الذى يشهد أنه كلامى (كريم) أى على الله تعالى فهو فى غاية الكرم الذى هو البعد من مساوى الاخلاق باظهار معاليها الشرف النفس وشرف الآباء وهو محمد صلى الله عليه وسلم وكرم الشئ اجتماع الكمالات فيه اللائقة به وقيل هو جبريل عليه السلام قاله الحسن والكلبى رضى الله عنهما القوله تعالى رسول كريم ذى قوة واستدل للاول بقوله تعالى (وما هو بقول شاعر) أى يأتى بكلام مقفى موزون بقصد الوزن قال مقاتل رضى الله عنه سبب نزول هذه الآية أن الوليد بن المغيرة قال ان محمدا صلى الله عليه وسلم ساحر وقال أبو جهل شاعر وقال عقبة كاهن فرد الله تعالى عليهم بذلك (فان قيل) كيف يكون كلام الله تعالى ولجبريل عليه السلام ولمحمد صلى الله عليه وسلم (أجيب) بأن الاضافة يكفى فيها أدنى ملابسة فالله سبحانه وتعالى أظهره فى اللوح المحفوظ وجبريل عليه السلام بلغه للنبى صلى الله عليه وسلم وهو بلغه للامة (قليلا ما تؤمنون) منصوب نعتا لمصدر أو زمان محذوف أى ايمانا قليلا أو زمانا قليلا والناصب يؤمنون وما مزيدة للتأكيد وقال ابن عطية ونصب قليلا بفعل مضمر يدل عليه يؤمنون وما يحتمل أن تكون نافية فينتفى ايمانهم البتة ويحتمل أن تكون مصدرية وتتصف بالقلة فهو الايمان اللغوى لا الشرعى لانهم قد صدقوا بأشياء يسيرة لا تغنى عنهم شيأ وهو اخلاصهم بالوحدانية عند الاضطرار وافرادهم الخالق بالخلق والربوبية (ولا بقول كاهن) وهو المنجم الذى يخبر عن الاشياء وأغلبها ليس له صحة وقوله تعالى (قليلا ما تذكرون) يأتى فيه ما تقدم فى قليلا ما تؤمنون وقال البغوى أراد بالقليل نفى اسلامهم أصلا كقولك لمن لا يزورك قلما تأتينا وأنت تريد ما تأتينا أصلا وقرأ قليلا ما يؤمنون قليلا ما يذكرون ابن كثير وابن عامر بخلاف عن ابن ذكوان بالياء التحتية فيهما والباقون بالفوقية وخفف الذال حمزة والكسائى وحفص وشددها الباقون وقوله تعالى (تنزيل) خبر لمبتدا مضمر أى هو تنزيل على وجه التنجيم قال البقاعى وأشار الى الرسالة الى جميع الخلق من أهل السموات والارض بقوله تعالى (من رب العالمين) أى موجدهم ومدبرهم بالاحسان اليهم بما يفهم كل منهم من هذا الذكر الذى رباهم به ورتب سبحانه نظمه على وجه سهل على كل منهم يكفى فى هدايته اه وهذا يدل على انه صلى الله عليه وسلم أرسل للملائكة وهو الذى ينبغى وان لم يكونوا مكلفين تشريفا لهم زيادة فى شرفه بارساله صلى الله عليه وسلم اليهم (ولو تقوّل) أى كلف نفسه أن يقول مرة من الدهر كذبا (علينا) أى على ما لنا من العظمة (بعض الاقاويل) أى التى لم نقلها أو قلناها ولم نأذن له فيها قال الزمخشرى التقوّل افتعال القول لان فيه

تكلفا من المفتعل وسمى الاقوال المنقولة أقاويل تصغير الها وتحقيرا كقولك الاعاجيب والاضاحيك كأنها جمع افعولة من القول والمعنى لو نسب الينا قولا لم نقله أولم نأذن له في قوله (لاخذنا) أى لنلنا (منه) أى عقابا (باليمين) أى بالقوة والقدرة * (تنبيه) * الباء على أصلها غير مزيدة والمعنى لاخذناه بقوة منا فالباء حالية والحال من الفاعل وتكون منه فى حكم الزائدة واليمين هنا مجاز عن القوة والغلبة فان قوة كل شئ فى ميامنه وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد رضى الله عنهم ومنه قول الشماخ

اذا ما راية رفعت لمجد * تلقاها عرابة باليمين

وقال أبو جعفر الطبرى هذا الكلام خرج مخرج الاذلال على عادة الناس فى الاخذ بيد من يعاقب ويجوز أن تكون الباء مزيدة والمعنى لاخذنا منه يمينه والمراد باليمين الجارحة كما يفعل بالمقتول صبرا يؤخذ بيمينه ويضرب بالسيف فى جيده مواجهة وهو أشد عليه وقال الحسن رضى الله عنه لقطعنا يده اليمنى وقال الزمخشرى المعنى ولو ادعى علينا شيأ لم نقله لقتلناه صبرا كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول وهو أن يؤخذ بيده فتضرب رقبته وخص اليمين عن اليسار لان القتال اذا أراد أن يوقع الضرب فى قفاه أخذه بيساره واذا أراد أن يوقعه فى جيده وأن يكفحه بالسيف وهو أشد على المصبور لنظره الى السيف أخذ بيمينه اه وقال نفطويه المعنى لقبضنا بيمينه عن التصرف وقال السدى ومقاتل رضى الله عنهما المعنى انتقمنا منه بالحق واليمين على هذا بمعنى الحق كقوله تعالى انكم كنتم تأتوننا عن اليمين أى من قبل الحق (ثم لقطعنا) أى بما لنا من العظمة قطعا يتلاشى عنده كل قطع (منه الوتين) أى نياط القلب وهو يتصل من الرأس اذا انقطع مات صاحبه قال أبو زيد وجمعه الوتن وثلاثة أوتنة والموتون الذى قطع وتينه وقال الكلبى هو عرق بين العلباء والحلقوم وهما علباوان بينهما العرق والعلباء عصب العنق وقيل عرق غليظ تصادفه شفرة الناحر وقال مجاهد رضى الله عنه هو حبل القلب الذى فى الظهر وهو النخاع فاذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه وقال محمد بن كعب رضى الله عنه انه القلب ومراقه وما يليه وقال عكرمة رضى الله عنه ان الوتين اذا قطع لا ان جاع عرف ولا ان شبع عرف وقيل الوتين من مجمع الوركين الى مجمع الصدر بين الترقوتين ثم تنقسم منه سائر العروق الى سائر الجسد ولا يمكن فى العادة الحياة بعد قطعه وقال ابن قتيبة لم يرد أنا نقطعه بعينه بل المراد أنه لو كذب لامتناه فكان كمن قطع وتينه ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم مازالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان انقطاع أبهرى والابهر عرق متصل بالقلب فاذا انقطع مات صاحبه فكأنه قال هذا أوان يقتلنى السم وحينئذ صرت كمن انقطع أبهره (فما منكم) أى أيها الناس وأغرق فى النفى فقال (من أحد عنه) أى القتل (حاجزين) أى لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويدفعه عنه أى الرسول صلى الله عليه وسلم أى لا تقدرون أن تحجزوا عنه القاتل وتحولوا بينه وبينه * (تنبيه) * من احدا اسم ما ومن زائدة لتأكيد النفى ومنكم حال من أحد وعنه حاجزين خبرما وجمع لان أحدا فى سياق النفى بمعنى

الجمع وضميرعنه للقتل أو النبي كامر (وانه) أى القرآن (لتذكرة للمتقين) أى لانهم المنتفعون به لاقبالهم عليه اقبال مستفيد (وانا) أى بما لنا من العظمة (لنعلم) أى علما عظيما محيطا (أن منكم) اي أيها الناس (مكذبين) بالقرآن ومصدقين فأنزلنا الكتب وأرسلنا الرسل لنظهر منكم الى عالم الشهادة ما كنا نعلم فى الازل غيبا من تكذيب وتصديق فتستحقون بذلك الثواب والعقاب فلذلك وجب فى الحكمة أن نعيد الخلق الى ما كانوا عليه من أجسامهم قبل الموت لنحكم بينهم فنجازى كلا بما يليق به اظهارا للعدل (وانه) أى القرآن (لحسرة) أى ندامة (على الكافرين) أى اذا رأوا ثواب المصدقين وعقاب المكذبين به (وانه) أى القرآن أو الجزاء يوم الجزاء (لحق اليقين) أى الامر الثابت الذى لا يقبل الشك فهو يقين مؤكد بالحق من اضافة الصفة الى الموصوف وهو فوق علم اليقين وقال ابن عباس رضى الله عنهما انما هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين (فسبح) أى أوقع التنزيه الكامل عن كل شائبة نقص (باسم) أى بسبب علمك بصفات (ربك) أى الموجد والمربى لك والمحسن اليك بأنواع الاحسان (العظيم) أى الذى ملأت الاقطار كلها عظمته وزادت على ذلك بما شاء سبحانه مما لا تسعه العقول وقال ابن عباس رضى الله عنهما أى فصل لربك العظيم وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الحاقة حاسبه الله حسابا يسيرا حديث موضوع

(سورة المعارج مكية)

وهى أربع وأربعون آية ومائتان وست عشرة كلمة وألف واحد وستون حرفا

(بسم الله) أى الذى تنقطع الاعناق والآمال دون عليائه (الرحمن) الذى لا مطمع لاحد فى حصر أوصافه (الرحيم) الذى اصطفى من عباده من وفقه فكان من أوليائه (سال سائل) أى دعا داع (بعذاب واقع) فضمن سأل معنى دعا فلذلك عدى تعديته وقيل الباء بمعنى عن كقوله تعالى فاسأل به خبيرا أى عنه أى سأل سائل عن عذاب واقع والاول أولى لان التجوز فى الفعل أولى منه فى الحرف لقوته واختلف فى هذا الداعى فقال ابن عباس رضى الله عنهما هو النضر ابن الحرث حيث قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزل سؤاله وقتل يوم بدر صبرا هو وعتبة بن أبى معيط لم يقتل صبرا غيرهما وقيل هو الحرث بن النعمان وذلك أنه لما بلغه قول النبى صلى الله عليه وسلم فى على من كنت مولاه فعلى مولاه ركب ناقته فجاء حتى أناخ راحلته بالابطح ثم قال يا محمد أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله فقبلناه منك وأن نصلى خمسا ونزكى أموالنا فقبلناه منك وأن نصوم شهر رمضان فى عام فقبلناه منك وأن نحج فقبلناه منك ثم لم ترض حتى فضلت ابن عمك علينا أفهذا شئ منك أم من الله تعالى فقال النبى صلى الله عليه وسلم والذى لا اله الا هو ما هو الا من الله فولى الحرث وهو يقول اللهم ان كان ما يقول محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فوالله ما وصل الى ناقته حتى رماه الله تعالى بحجر فوقع على دماغه فخرج من دبره

فقتل فنزلت وقال الربيع هو أبو جهل وقيل انه قول جماعة من كفار قريش وقيل هو نوح عليه
السلام سأل العذاب على الكافرين وقيل هو نبينا صلى الله عليه وسلم استعجل بعذاب الكافرين
ويدل عليه قوله تعالى بعد ذلك فاصبر صبرا جميلا أى لا تستعجل فانه قريب وقرأ نافع وابن عامر
بغير همز بعد السين والباقون بهمزة مفتوحة بعد السين * (تنبيه) * ما تقدم من الوجهين فى
كون سأل ضمن أو ان الباء بمعنى عن هو على القراءة بالهمز وأما على عدمه ففيه وجهان أحدهما
أنه لغة فى السؤال يقال سال يسال كخاف يخاف وعين الكلمة واو قال الزمخشرى وهى من
لغة قريش والثانى انه من السيل ومعناه اندفع عليهم واد بعذاب وقيل سال واد من أودية جهنم
وقوله تعالى (للكافرين) فيه أوجه أحدها أنه يتعلق بسال مضمنا معنى دعا كما مر أى دعا لهم
بعذاب واقع الثانى انه يتعلق بواقع واللام للعلة أى نازل لاجلهم الثالث أن يتعلق بمحذوف
صفة ثانية للعذاب أى كائن للكافرين الرابع أن يكون جوابا للسائل فيكون خبر مبتدا مضمر
أى هو للكافرين الخامس أن تكون اللام بمعنى على أى واقع على الكافرين (ليس له) أى
بوجه من الوجوه ولا حيلة من الحيل (دافع) برده وقوله تعالى (من الله) أى الملك الاعلى الذى
لا كفوله يجوز أن يتعلق بدافع بمعنى ليس له دافع من جهته اذا جاء وقته لتعلق ارادته به وأن
يتعلق بواقع وبه بدأ الزمخشرى أى واقع من عنده (ذى المعارج) أى المصاعد وهى الدرجات التى
يصعد فيها الكلم الطيب والعمل الصالح أو يترقى فيها المؤمنون فى سلوكهم أو فى دار ثوابهم أو
مراتب الملائكة أو السموات قال ابن عباس رضى الله عنهما أى ذى السموات سماها معارج
الملائكة لان الملائكة يعرجون فيها فوصف نفسه بذلك أو ذى العلو والدرجات الفواضل والنعم
لانها تصل الى الناس على مراتب مختلفة قاله ابن عباس وقتادة رضى الله عنهم فالمعارج مراتب
انعامه على الخلق وقيل ذى العظمة والعلا وقيل المعارج الغرف أى انه ذو الغرف أى جعل
لاوليائه الجنة غرفا وقرأ (تعرج الملائكة) الكسائى بالياء التحتية والباقون بالتاء الفوقية
وأدغم جيم المعارج فى تاء تعرج هنا السوسى واستضعف بعضهم ذلك من حيث ان مخرج الجيم
بعيد من مخرج التاء وأجيب عن ذلك بأن الادغام يكون لمجرد الصفات وان لم يتقاربا فى المخرج
والجيم تشارك التاء فى الاستفال والانفتاح والشدة والجملة من تعرج مستأنفة وقوله تعالى
(والروح) من عطف الخاص على العام ان أريد بالروح جبريل عليه السلام كما قاله ابن عباس
رضى الله عنهما لقوله تعالى نزل به الروح الامين أو ملك آخر من جنسهم عظيم الخلقة وقال
أبو صالح انه خلق من خلق الله كهيئة الناس وليس بالناس وقال قبيصة بن ذؤيب انه روح الميت
حين يقبض (اليه) أى مهبط أمره من السماء وقيل هو كقول ابراهيم عليه السلام انى ذاهب
الى ربى أى الى الموضع الذى أمرنى به وقيل الى عرشه وعلق بالعروج أو بواقع قوله تعالى (فى يوم)
أى من أيامكم وبين عظمه بقوله تعالى (كان) أى كونا هو فى غاية الثبات (مقداره) أى لو كان
الصاعد فيه آدميا (خمسين ألف سنة) أى من سنى الدنيا وذلك أنه يصعد من منتهى أمر الله تعالى
من أسفل الارض السابعة روى عن مجاهد رضى الله عنه أن مقدار هذا خمسين ألف سنة وقال

محمد بن اسحق لو سار بنو آدم من الدنيا الى موضع العرش ساروا خمسين ألف سنة وقال عكرمة وقتادة رضى الله عنهما هو يوم القيامة وأراد أن موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سنى الدنيا ليس يعنى به أن مقدار طوله هكذا دون غيره لان يوم القيامة ليس له أول وليس له آخر لانه يوم ممدود ولو كان له آخر لكان منقطعا وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال يوم القيامة يكون على الكافرين مقدار خمسين الف سنة وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه انه قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كان مقداره خمسين الف سنة فما أطول هذا اليوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا وقيل معناه لو ولى محاسبة العباد فى ذلك اليوم غير الله تعالى لم يفرغ منه فى خمسين ألف سنة قال عطاء رضى الله عنه ويفرغ الله تعالى فى مقدار نصف يوم من أيام الدنيا وقيل فيه خمسون موطنا على الكافر كل موطن ألف سنة وما ورد ذلك على المؤمن الا كما بين الظهر والعصر وروى عن الكلبى انه قال يقول الله تعالى لو وليت حساب ذلك الملائكة والانس والجن وطوقتهم محاسبتهم لم يفرغوا منه فى خمسين ألف سنة وأنا أفرغ منه فى ساعة من النهار وقال يمان هو يوم القيامة فيه خمسون موطنا كل موطن ألف سنة وفيه تقديم وتأخير كأنه قال ليس لهدافع من الله ذى المعارج فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح اليه (فان قيل) كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى فى سورة السجدة فى يوم كان مقداره ألف سنة (أجيب) بأنه يحتمل أن من اسفل العالم الى أعلى العرش خمسين الف سنة ومن أعلى سماء الدنيا الى الارض الف سنة لان عرض كل سماء خمسمائة سنة ومابين اسفل الى قرار الارض خمسمائة فقوله فى يوم من ايام الدنيا هو مقدار ألف سنة لو صعدوا فيه الى سماء الدنيا ومقدار خمسين ألف سنة لو صعدوا الى أعلى العرش وقوله تعالى (فاصبر صبرا جميلا) متعلق كما قال الرازى بسأل سائل لان استعجالهم بالعذاب كان على وجه الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصبر والمعنى جاء العذاب لقرب وقوعه فاصبر على أذى قومك والصبر الجميل هو الذى لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله تعالى وقيل أن يكون صاحب المصيبة فى القوم لا يدرى من هو وقال ابن زيد والكلبى رضى الله عنهم هذه الآية منسوخة بالامر بالقتال (انهم) أى الكفار (يرونه) أى ذلك اليوم الطويل أو عذابه (بعيدا) أى زمن وقوعه لانهم يرونه غير ممكن أو يفعلون أفعال من يستبعده (ونراه) أى لما لنا من العظمة التى قضت بوجوده وهو علينا هين (قريبا) سواء أريد بذلك قرب الزمان أو قرب المكان فهو هين على قدرتنا وهو آت لا محالة وكل آت قريب والقريب والبعيد عندنا على حد سواء وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وورش بين بين والباقون بالفتح وقوله تعالى (يوم تكون السماء) متعلق بمحذوف أى يقع فيه من الاهوال (كالمهل) أى كدردى الزيت وعن ابن مسعود رضى الله عنه كالفضة البيضاء فى تلونها (وتكون الجبال) أى التى هى أشد الارض وأثقل ما فيها (كالعهن) أى كالصوف فى الخفة والطيران بالريح وقيل أول ما تتفرق الجبال تصير رملا ثم عهنا منفوشا ثم هباء منثورا منبثا

(ولا يسأل) أى من شدة الاحوال (حميم حميما) أى قريب فى غاية القرب والصداقة قريبا مثله عن شئ من الاشياء لفرط الشواغل ولانه قد كشفت لهم انه لا تغنى نفس عن نفس شيأ وانه قد تقطعت الاسباب وتلاشت الانساب وعلم انه لا عز الا بالتقوى (يبصرونهم) أى يبصرهم بهم مبصر فلا يخفى أحد على أحد وان بعد مكانه (يود المجرم) أى يتمنى الكافر أو هذا النوع سواء كان كافرا أم مسلما عاصيا علم أنه يعذب بعصيانه (لو) بمعنى أن (يفتدى) أى يفدى نفسه (من عذاب يومئذ) أى يوم اذ كانت هذه المخاوف وقرأ نافع والكسائى بفتح الميم والباقون بكسرها (ببنيه) أى بأقرب الناس اليه وأعلقهم بقلبه لشدة ما يرى * ولما ذكر ألصق الناس بالفؤاد وأعزمن يلزمه نصره والذب عنه اتبعه ما يليه فى الرتبة والمودة بقوله تعالى (وصاحبته) أى زوجه التى يلزمه الذب عنها لا سيما عند العرب من أقبح العار وكونه دائما معها * ولما ذكر الصاحبة لما لها من تمام الوصلة أتبعها الشقيق الذى هو عليه شفيق بقوله تعالى (وأخيه) أى الذى له به النصرة على من يريد قال الشاعر

أخاك أخاك ان من لا أخاله * كسار الى الهيجاء بغير سلاح

* ولما كان من بقى من الاقارب بعد ذلك متقاربين فى الرتبة ذكر أقربهم بقوله تعالى (وفصيلته) أى عشيرته الذين هم أقرب من فصل عنه وقال ثعلب الفصيلة الآباء الادنون وقال أبو عبيدة رضى الله عنه الفخذ وقال مجاهد وابن زيد رضى الله عنهم عشيرته الاقربون (التى تؤويه) أى تضمه اليها عند الشدائد وتحميه لانه أقرب الناس اليها وأعزهم عليها * ولما خص عم بقوله تعالى (ومن فى الارض) أى من الثقلين وغيرهم سواء كان فيهم صديق لا صبر عنه ولا بد فى كل حال منه أم لا ثم أكد ذلك بقوله تعالى (جميعا) وقوله تعالى (ثم ينجيه) أى ذلك الافتداء عطف على يفتدى وقوله تعالى (كلا) ردع وزجر لما يوده وقال القرطبى وانها تكون بمعنى حقا وبمعنى لا وهى هنا تحتمل الامرين فاذا كانت بمعنى حقا كان تمام الكلام ينجيه واذا كانت بمعنى لا كان تمام الكلام عليها اذ ليس من عذاب الله افتداء * ولما كان الاضمار قبل الذكر لتعظيم ذلك المضمر أشار الى أنه مستحضر فى الذهن لا يغيب قال تعالى (انها) أى النار وان لم يجر لها ذكر لدلالة لفظ عذاب عليها وقيل الضمير للقصة وقيل مبهم يفسره قوله تعالى (لظى) أى ذات اللهب الخالص المتناهى فى الحر اسم لجهنم تتلظى أى تتوقد فتأكل بسببه بعضها بعضا ان لم تجد ما تأكله وتأكل كل ما وجدته كائنا ما كان وقوله تعالى (نزاعة للشوى) جمع شواة وهى جلدة الرأس أى شديدة النزع لجلود الرؤس وقال فى القاموس اليدان والرجلان والاطراف وقحف الرأس وما كان غير مقتل اه وقرأ حفص بالنصب على الاختصاص والحال المؤكدة والمستقلة على ان لظى متلظية والباقون بالرفع على انها خبران (تدعو من أدبر وتولى) عن الايمان تقول الى يا مشرك الى يا فاسق ونحو هذا ثم تلتقطهم التقاط الطير للحب * ولما كانت الدنيا والآخرة ضرتين فكان الاقبال على أحدهما دالا على الاعراض عن الاخرى قال تعالى دالا على ادباره بقلبه (وجمع) أى كل ما كان منسوبا الى الدنيا (فأوعى) أى جعل ما جمعه فى وعاء وكنزه حرصا وطول

أمل ولم يعط حق الله تعالى منه فكان همه الاعطاء لا ابطاء ما وجب من الحق اقبالا على الدنيا واعراضا عن الآخرة وقرأ لظى وللشوى وتولى فأوعى حمزة والكسائي بالامالة محضة وورش وأبو عمرو بين بين والفتح عن ورش قليل والباقون بالفتح (ان الانسان) أى الجنس عبر به لما له من الانس بنفسه والرؤية لمحاسنها والنسيان لربه ولدينه (خلق هلوعا) أى جبل جبلة هو فيها بليغ الهلع وهو أفحش الجزع مع شدة الحرص وقلة الصبر والشح على المال والسرعة فيما لا ينبغي وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه الحريص على ما لا يحل له وروى عنه أن تفسيره ما بعده وهو قوله تعالى (اذا مسه) أى أدنى مس (الشر) أى هذا الجنس وهو ما تطاير شرره من الضرر (جزوعا) أى عظيم الجزع وهو ضد الصبر بحيث يكاد صاحبه ينقد نصفين ويتفتت (واذا مسه) كذلك (الخير) هذا الجنس وهو ما يلائمه فيجمعه من السعة فى المال وغيره من أنواع الرزق (منوعا) أى مبالغا فى الامساك عما يلزمه من الحقوق للانهماك فى حب العاجل وقصور النظر عليه وقوقامع المحسوس لغلبة الجمود والبلادة وهذا الوصف ضد الايمان لانه نصفان شكر وصبر (فان قيل) حاصل هذا الكلام انه نفور عن المضار طالب للراحة وهذا هو اللائق بالعقل فلم ذمه الله تعالى عليه (أجيب) بأنه انما ذمه عليه لقصور نظره على الامور العاجلة والواجب عليه أن يكون شاكرا راضيا فى كل حال وقوله تعالى (الا المصلين) استثناء للموصوفين بالصفات الآتية من المطبوعين على الاحوال المذكورة قبل مضادة تلك الصفات لها من حيث انها دالة على الاستغراق فى طاعة الحق والاشفاق على الخلق والايمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وايثار العاجل على الآجل وتلك ناشئة عن الانهماك فى حب العاجل وقصور النظر عليها (الذين هم) أى بكلية ضمائرهم وظواهرهم (على صلاتهم) أى التى هى معظم دينهم وهى النافعة لهم لا لغيرهم بما أفادته الاضافة والمراد الجنس الشامل لجميع الانواع الا أن معظم المقصود الفرض ولذلك عبر بالاسم الدال على الثبات فى قوله تعالى (دائمون) أى لا فتور لهم عنها ولا انفكاك لهم منها وقال عقبة بن عامر هم الذين اذا صلوا لم يلتفتوا يمينا ولا شمالا والدائم الساكن ومنه نهى عن البول فى الماء الدائم أى الساكن وقال ابن جريج والحسن هم الذين يكثرون فعل التطوع منها (فان قيل) كيف قال تعالى على صلاتهم دائمون وقال تعالى فى موضع آخر على صلواتهم يحافظون (أجيب) بأن دوامهم عليها أن لا يتركوها فى وقت ومحافظتهم عليها ترجع الى الاهتمام بحالها حتى تأتى على أكمل الوجوه من المحافظة على شرائطها والاتيان بها فى الجماعة وفى المساجد الشريفة وفى تفريغ القلب عن الوسواس والرياء والسمعة وأن لا يلتفت يمينا ولا شمالا وأن يكون حاضر القلب فاهما للاذكار مطلعا على حكم الصلاة متعلق القلب بدخول أوقات الصلاة * ولما ذكر تعالى زكاة الروح أتبعه زكاة عديلها فقال تعالى مبينا للرسوخ فى الوصف بالعطف بالواو (والذين فى أموالهم) التى من الله سبحانه بها عليهم (حق معلوم) أى من الزكوات وجميع النفقات الواجبة وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما من أدى زكاة ماله فلا جناح عليه أن لا يتصدق (للسائل) اى الذى

يسأل (والمحروم) أى الذى لايسأل فيحسب غنيا فيحرم فهو يتلظى بناره فى ليله ونهاره ولامفزع له بعذر به المالك لعلانيته وسرّه الا الى افاضة مدامعه بذلة وانكسار وهذا من الله تعالى حث على تفقد أرباب الضرورات ممن لا كسب له ومن افتقر بعد الغنى وقد كان السلف الصالح فى هذا قصب السبق حكى عن زين العابدين انه لما مات وجد فى ظهره آثار سواد كانها السيور فعجبوا منها فقال بعد موته نسوة أرامل كان شخص يأتى الينا ليلا بقرب الماء على ظهره وأجربة الدقيق ففقدناه واحتجنا فعلموا أنه هو وان تلك السيور من ذلك وحكى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما ان شخصا رآه ماشيا فى زمن خلافته فى الليل فتبعه فجاء الى بيت نسوة أرامل فقال أعندكن ماء والا املأ لكن فأعطينه جرة فأخذها وذهب فملأها على كتفه وأتى بها اليهن والحكايات عنهم فى هذا كثيرة (والذين يصدقون) أى يوقعون التصديق لمن يخبرهم ويجددونه كل وقت (بيوم الدين) أى الجزاء الذى ما مثله يوم وهو يوم القيامة الذى يقع الحساب فيه على النقير والقطمير والتصديق به حق التصديق الاستعداد له بالاعمال الصالحة فالذين يعملون لذلك اليوم هم العمال وأما المصدقون بمجرد الاقوال فلهم الوبال وان أنفقوا أمثال الجبال (والذين هم) أى بجميع ضمائرهم وظواهرهم (من عذاب ربهم) أى المحسن اليهم لامن عذاب غيره فان المحسن أولى بأن يخشى ولو من قطع احسانه (مشفقون) أى خائفون فى هذه الدار خوفا عظيما هو فى غاية الثبات من أن يعذبهم فى الآخرة أو فى الدنيا أو فيهما فهم لذلك لا يفعلون الا ما يرضيه سبحانه (ان عذاب ربهم) أى الذى هم مغمورون باحسانه وهم عارفون بأنه قادر على الانتقام ولو بقطع الاحسان (غير مأمون) أى لا ينبغى لاحد أن يأمنه بل يجوز أن يحل به وان بالغ فى الطاعة لان الملك مالك وهو تام الملك له أن يفعل ما شاء ومن جوز وقوع العذاب أبعد عن موجباته غاية الابعاد ولم يزل مترجحا بين الخوف والرجاء (والذين هم) أى بواطنهم الغالبة على ظواهرهم (لفروجهم) أى سواء أكانوا ذكورا أم اناثا (حافظون) أى حفظا ثابتا دائما عن كل ما نهى الله تعالى عنه (الا على أزواجهم) أى من الحرائر بعقد النكاح وقدمهن لشرفهن وشرف الولد بهن ثم أتبعه قوله تعالى (أو ما ملكت ايمانهم) أى من السرارى التى هى محل الحرث والنسل واللاتى هن أقل عقلا من الرجال ولهذا عبر بما التى هى فى الاغلب لغير العقلاء وفى ذلك اشارة الى اتساع النطاق فى احتمالهن (فانهم) أى بسبب اقبالهم بالفروج عليهن وازالة الحجاب من اجل ذلك (غير ملومين) أى فى الاستمتاع بهن من لائم ما كما نبه عليه البناء للمفعول فهم يحجبونهن للتعفف وصون النفس وابتغاء الولد للتعاون على طاعة الله تعالى واكتفى فى مدحهم بنفى اللوم لاقباله على تحصيل ماله من المرام (فمن ابتغى) أى طلب وعبر بصيغة الافتعال لان ذلك لا يقع الا عن اقبال عظيم من النفس واجتهاد فى الطلب وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (وراء ذلك) أى شيأ من هذا خارجا عن هذا الامر الذى أحله الله تعالى له والذى هو أعلى المراتب فى أمر النكاح وقضاء اللذة وأحسنها وأجلها (فأولئك) أى الذين هم

فى الحضيض من الدناءة وغاية البعد عن مواطن الرحمة (هم) أى بضمائرهم وظواهرهم (العادون) اى المختصون بالخروج عن الحد المأذون فيه (والذين هم لاماناتهم) أى من كل ما ائتمنهم الله تعالى عليه من حقه وحق غيره وقرأ ابن كثير بغير ألف بعد النون على التوحيد والباقون بالالف على الجمع (وعهدهم) أى ما كان من الامانات بربط وتوثيق (راعون) أى حافظون لها معترفون بها على وجه نافع غير ضار (والذين هم) أى بغاية ما يكون من توجه القلوب (بشهاداتهم) التى شهدوا بها أو يستشهدون بها بطلب أو غيره وتقديم المعمول اشارة الى أنهم فى فرط قيامهم بها ومراعاتهم لها كأنهم لا شاغل لهم سواها (قائمون) أى يتحملونها ويؤدونها على غاية القيام والحسن أداء من هو متهيئ لها واقف فى انتظارها وقرأ حفص بألف بعد الدال على الجمع اعتبارا بتعدد الانواع والباقون بغير ألف على التوحيد اذ المراد الجنس قال الواحدى والافراد أولى لانه مصدر فيفرد كما تفرد المصادر وان أضيف الى الجمع كصوت الحمير قال أكثر المفسرين يقومون بالشهادة على من كانت عليه من قريب وبعيد يقومون بها عند الحكام ولا يكتمونها وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بشهاداتهم أن الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله (والذين هم على صلاتهم) أى من الفرض والنفل (يحافظون) أى يبالغون فى حفظها ويجددونه حتى كأنهم يبادرونها الحفظ ويسابقونها فيه فيحفظونها ويحفظهم ويسابقون غيرهم فى حفظها وتقدم ان المداومة غير المحافظة فدوامهم عليها محافظتهم على أوقاتها وشروطها وأركانها ومستحباتها فى ظواهرها وبواطنها من الخشوع والمراقبة وغير ذلك من خلال الاحسان التى اذا فعلوها كانت ناهية لفاعلها ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فتحمل على جميع هذه الاوامر وتبعد عن أضدادها فالدوام يرجع الى نفس الصلاة والمحافظة الى أحوالها ذكره القرطبى * ولما ذكر تعالى خلالهم أتبعه ما أعطاهم فقال عز من قائل مستأنفا أو منتجا من غير فاء اشارة الى أن رحمته هى التى أوصلتهم الى ذلك من غير سبب منهم فى الحقيقة (أولئك) أى الذين فى غاية العلو لما لهم من الاوصاف العالية (فى جنات) أى فى الدنيا والآخرة أما فى الآخرة فواضح وأما فى الدنيا فلانهم لما جاهدوا فيه باتعاب أنفسهم فى هذه الاوصاف حتى تخلقوا بها أعطاهم بمباشرتها لذاذات من أنس القرب وحلاوة المناجاة لا يساويها شئ اصلا والجنة محل اجتمع فيه جميع الراحات والمستلذات والسرور وانتفى عنه جميع المكروهات والشرور وضدها النار وزادهم على ذلك بقوله تعالى (مكرمون) معبرا باسم المفعول اشارة الى عموم الاكرام من الخالق والخلق الناطق وغيره لانه سبحانه قضى بأن يعلى مقدارهم فيكرمهم بأنواع الكرامات فيتلقاهم بالبشرى حين الموت وفى قبورهم ومن حين قيامهم من قبورهم الى دخولهم الى قصورهم هذا حال المؤمنين وأما حال الكافرين فقال الله تعالى فى حقهم (فما للذين كفروا) وقف أبو عمرو على الالف بعد الميم والكسائى يقف على الالف وعلى اللام ووقف الباقون على اللام وأما الابتداء فالجميع يبتدؤن أول الكلمة أى أى شئ من السعادات للذين ستروا مرائى عقولهم عن الاقرار بما يعلمون هذا

الكلام الذى هو أوضح من الشمس حال كونهم (قبلك) أى فى جهتك أيها الرسول الكريم وفيما أقبل عليك (مهطعين) أى مسرعين مع مد الاعناق وادامة النظر اليك فى غاية العجب من مقالك هيئة من يسعى الى أمر لا حياة له بدونه (عن) أى متجاوزين اليك مكانا عن جهة (اليمين) أى منك حيث يتيمنون به (وعن الشمال) أى منك وان كانوا يتشاءمون به وقوله تعالى (عزين) حال من الذين كفروا وقيل من الضمير فى مهطعين فتكون حالا متداخلة أى جماعات جماعات وحلقا حلقا متفرقين فرقا شتى أفواجا أفواجا يتمهلون ليأتوا جميعا جمع عزة وأصلها عزوة لان كل فرقة تعتزى الى غير ما تعتزى اليه الاخرى فهم متفرقون قال الكميت

ونحن وجندل باغ تركنا ۞ كتائب جندل شتى عزينا

وجمع عزة جمع سلامة شذوذا وقيل كان المستهزؤن خمسة أرهط روى ان المشركين كانوا يجتمعون حول النبى صلى الله عليه وسلم يستمعون كلامه ويستهزؤن به ويكذبونه ويقولون ان دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فندخلها قبلهم فرد الله تعالى عليهم بقوله عز من قائل (أيطمع) أى هؤلاء البعداء البغضاء وعبر بالطمع اشارة الى أنهم بلغوا الغاية فى السفه لكونهم طلبوا أعز الاشياء من غير سبب تعاطوه له ولما كان اتيانهم على هيئة التفرق من غير انتظار جماعة لجماعة قال تعالى (كل امرئ منهم) أى على انفراده (أن يدخل) أى وهو كافر من غير ايمان يزكيه كما يدخل المسلم فيستوى المسىء والمحسن (جنة نعيم) أى لاشىء فيها غير النعيم وقوله تعالى (كلا) ردع لهم عن طمعهم ودخولهم الجنة أى لا يكون ما طمعوا فيه أصلا لان ذلك تمن فارغ لا سبب له يعادل عليه التعبير بالطمع دون الرجاء ثم علل ذلك بقوله تعالى (انا خلقناهم) أى بالقدرة التى لا يقدر أحد أن يقاومها (مما يعلمون) اى انهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة كما خلق سائر جنسهم فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة وانما تستوجب بالايمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى وقيل كانوا يستهزؤن بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم فقال تعالى انا خلقناهم مما يعلمون أى من القذر وهو منصبهم الذى لا منصب أوضع منه ولذلك أبهم وأخفى اشعارا بأنه منصب يستحيا من ذكره فلا يليق بهم هذا التكبر ويدعون التقدم ويقولون ندخل الجنة قبلهم قال قتادة فى هذه الآية انما خلقت يا ابن آدم من قذر فاتق الله وروى ان مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب بن أبى صفرة يتبختر فى مطرف خز وجبة خز فقال له يا عبد الله ما هذه المشية التى يبغضها الله تعالى فقال له أتعرفنى قال نعم أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وانت فيما بين ذلك تحمل العذرة فمضى المهلب وترك مشيته ۞ (فائدة) ۞ قال ابن عربى فى الفتوحات خلق الله الناس على أربعة أقسام قسم لا من ذكر ولا من أنثى وهو آدم عليه السلام وقسم من ذكر فقط وهو حواء وقسم من أنثى فقط وهو عيسى عليه السلام وقسم من ذكر وأنثى وهو بقية الناس (فلا) زيدت فيه لا (أقسم برب) أى سيد ومبدع ومدبر (المشارق) أى التى تشرق الشمس والقمر والكواكب السيارة كل يوم فى موضع منها على المنهاج الذى دبره والطريق والقانون الذى أتقنه وحضره ستة أشهر صاعدة وستة أشهر هابطة

(والمغارب) كذلك وهي التي نشأ عنها الليل والنهار والفصول الاربعة فكان بها اصلاح العالم بمعرفة الحساب واصلاح المآكل والمشارب وغير ذلك من المآرب فيوجد كل من الملوين بعد ان لم يكن والنبات من النجم والشجر كذلك عادة مستمرة دالة على انه تعالى قادر على الايجاد والاعدام لكل ما يريده كما يريده من غير كلفة ما كما قال تعالى (انا) أي على مالنا من العظمة (لقادرون على أن نبدل) أي تبديلا عظيما بما لنا من الجلالة عوضا عنهم (خيرا منهم) أي بالخلق أو بتحويل الوصف فيكونون أشد بطشا في الدنيا وأكثر أموالا وأولادا وأعلى قدرا وأكثر حشما وجاها وخدما فيكونون عندك على قلب واحد في سماع قولك وتوقيرك وتعظيمك والسعي في كل ما يشرح صدرك بدل ما يعمل هؤلاء من الهزء والتصفيق والصفير وكل ما يضيق به صدرك وقد فعل ذلك سبحانه بالمهاجرين والانصار والتابعين لهم باحسان بالسعة في الرزق بأخذ أموال الجبارين من كسرى وقيصر والتمكين في الارض حتى كانوا ملوك الدنيا مع العمل بما يوجب لهم ملك الآخرة ففرجوا الكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلوا في مرضاته الانفس والاموال (وما نحن بمسبوقين) أي لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر نريده بوجه من الوجوه (فذرهم) أي اتركهم ولو على أسوأ أحوالهم (يخوضوا) أي في باطلهم من مقالهم وفعالهم (ويلعبوا) أي يفعلوا في دنياهم فعل اللاعب الذي لا فائدة لفعله الا ضياع الزمان واشتغل أنت بما أمرت به (حتى يلاقوا) أي يلقوا (يومهم الذي يوعدون) وهو يوم كشف الغطاء الذي أول مجيئه عند الغرغرة وتناهيه النفخة الثانية ودخول كل من الفريقين في داره ومحل استقراره وهذه الآية منسوخة بآية السيف كما قاله البقاعي وابن عادل وقوله تعالى (يوم يخرجون) يجوز أن يكون بدلا من يومهم أو منصوبا باضمار أعني (من الاجداث) أي القبور التي صاروا بتغيبهم فيها تحت وقع الحوافر والخف فهم بحيث لا يدفعون شيأ يفعل بهم بل هم كلحم في فم ماضغ فان الجدث القبر والجدثة صوت الحافر والخف ومضغ اللحم وقوله تعالى (سراعا) أي نحو صوت الداعي ذاهبين الى المحشر حال من فاعل يخرجون جمع سريع كظراف في ظريف وقرأ قوله تعالى (كأنهم الى نصب) ابن عامر وحفص بضم النون والصاد والباقون بفتح النون واسكان الصاد على أنه مصدر بمعنى المفعول كما تقول هذا نصب عيني وضرب الامير والنصب كل ما نصب فعبد من دون الله (يوفضون) أي يسرعون الى الداعي مستبقين كما كانوا يستبقون الى أنصابهم وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الى نصب أي الى غاية وهي التي تنصب اليها بصرك وقال الكلبي هو شيء منصوب علم أو راية وقال الحسن كانوا يبتدرون اذا طلعت الشمس الى نصبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى لا يلوي أولهم على آخرهم وقوله تعالى (خاشعة) حال اما من فاعل يوفضون وهو أقرب أو من فاعل يخرجون وفيه بعد منه وفيه تعدد الحال لذي حال واحدة وفيه الخلاف المشهور وقوله تعالى (أبصارهم) فاعل والمعنى ذليلة خاضعة لا يرفعونها لما يتوقعونه من عذاب الله تعالى (ترهقهم) أي تغشاهم فتعمهم وتحمل عليهم فتكلفهم كل عسر وضيق على وجه الاسراع عليهم (ذلة) أي ضد ما كانوا عليه في الدنيا

لان

لان من تعزز فى الدنيا على الحق ذل فى الآخرة ومن ذل للحق فى الدنيا عز فى الآخرة (ذلك) أى الامر الذى هو فى غاية ما يكون من علو الرتبة فى العظمة (اليوم الذى كانوا يوعدون) أى يوعدون فى الدنيا ان لهم فيه العذاب وأخرج الخبر بلفظ الماضى لأن ما وعد الله تعالى به فهو حق كائن لامحالة وهذا هو العذاب الذى سألوا عنه اول السورة فقد رجع آخرها على أولها وما قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة سأل سائل أعطاه الله تعالى ثواب الذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون حديث موضوع .

(سورة نوح عليه السلام مكية)

وهى سبع وعشرون آية ومائتان وأربع وعشرون كلمة وتسعمائة وتسعة وعشرون حرفا

(بسم الله) ذى الجلال والاكرام (الرحمن) الذى عم بما أفاضه من ظاهر الانعام (الرحيم) الذى حفظ أولياءه من الابتداء الى الختام ولما ختمت سأل بالانذار للكفار وكانوا عبادا أوثان بعذاب الدنيا والآخرة أتبعها أعظم عذاب كان فى الدنيا على تكذيب الرسل بقصة نوح عليه السلام فقال تعالى (انا) أى بما لنا من العظمة البالغة (أرسلنا نوحا الى قومه) أى الذين كانوا فى غاية القوة على القيام بما يحاولونه وهم بصدد أن يجيبوه ويكرموه لما بينهم من القرب بالنسب واللسان وكانوا جميع أهل الارض من الآدميين روى قتادة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أول نبى أرسل نوح عليه السلام وأرسل الى جميع أهل الارض ولذلك لما كفروا أغرق الله تعالى أهل الارض جميعا وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو ادريس بن يرد بن مهلاييل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم عليه السلام قال وهب وكل مؤمنون أرسل الى قومه وهو ابن خمسين سنة وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وهو ابن أربعين سنة وقال عبد الله بن شداد بعث وهو ابن ثلثمائة وخمسين سنة ويجوز فى قوله تعالى (أن أنذر) أى حذر تحذيرا عظيما (قومك) أى الاستمرار على الكفر أن تكون أن مفسرة فلا يكون لها موضع من الاعراب لان فى الارسال معنى الامر فلا حاجة الى اضمار ويجوز أن تكون المصدرية أى أرسلناه بالانذار وقال الزمخشرى والمعنى أرسلناه بأن قلنا له أنذر قومك أى أرسلناه بالامر بالانذار اه وهذا الذى قدره جواب عن سؤال وهو أن قولهم ان أن المصدرية يجوز أن توصل بالامر مشكل لانه ينسبك منها ومما بعدها مصدر وحينئذ فتفوت الدلالة على الامر ألا ترى أنك اذا قدرت كتبت اليه بأن قم كتبت اليه القيام تفوت الدلالة على الامر حال التصريح بالمصدر فينبغى أن يقدر كما قاله الزمخشرى أى كتبت اليه بأن قلت له قم أى كتبت اليه بالامر بالقيام وقال القرطبى أى بأن أنذر قومك (من قبل أن يأتيهم) أى على ماهم عليه من الاعمال الخبيثة (عذاب أليم) أى عذاب الآخرة أو الطوفان (قال) أى نوح عليه السلام (يا قوم) فاستعطفهم بتذكيرهم انه أحدهم يهمه ما يهمهم (انى لكم نذير) أى مبالغ فى انذاركم (مبين) أى أمرى بين فى نفسه بحيث انه صار فى شدة وضوحه كأنه مظهر لما يتضمنه

منادٍ بذلك للقريب والبعيد والفطن والغبي ويجوز في قوله تعالى (أن اعبدوا الله) أي الملك الأعظم الذي له جميع الكمال أن تكون أن تفسيرية للنذير وأن تكون مصدرية والكلام فيها كما تقدم في أختها وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة في الوصل بكسر النون والباقون بالضم والمعنى وحدوا الله (واتقوه) أي اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية تمنعكم من عذابه بالانتهاء عن كل ما يكرهه فلا تتحركوا حركة ولا تسكنوا سكنة إلا في طاعته وهذا هو العمل الواقي من كل سوء (وأطيعون) أي لأعرفكم ما تقصر عنه عقولكم من صفات معبودكم ودينكم ودنياكم ومعادكم وأدلكم على اجتلاب آداب تهديكم واجتناب شبه ترديكم ففي طاعتي فلاحكم برضا الملك عنكم وقوله (يغفر لكم) جواب الأمر وفي من في قوله (من ذنوبكم) أوجه أحدها أنها تبعيضية الثاني أنها لابتداء الغاية الثالث أنها مزيدة قال ابن عطية وهو مذهب كوفي ورد بأن مذهبهم ليس ذلك لأنهم يشترطون تنكير مجرورها ولا يشترطون غيره والأخفش لا يشترط شيأ فالقول بزيادتها هاهنا ماشٍ على قوله لا على قولهم قاله القرطبي وقيل لا يصح كونها زائدة لأن من لا تزاد في الموجب وإنما هي هنا للتبعيض وهو بعض الذنوب وهو ما لا يتعلق بحقوق المخلوقين (ويؤخركم) أي بلا عذاب تأخيرا ينفعكم (إلى أجل مسمى) أي قد سماه الله تعالى وعلمه قبل إيجادكم فلا يزاد فيه ولا ينقص منه فيكون موتكم على العادة أو يأخذكم جميعا فالأمور كلها قد قدرت وفرغ من ضبطها لإحاطة العلم والقدرة فلا يزاد فيها ولا ينقص ليعلم أن الإرسال إنما هو مظهر لما قدره في الأزل ولا يظن أنه قالب للأعيان بتغيير ما سبق به القضاء من الطاعة والعصيان وقرأ ويؤخركم ولا يؤخر ورش بإبدال الهمزة واوا وقفا ووصلا وحمزة في الوقف دون الوصل والباقون بالهمز (إن أجل الله) أي الذي له الكمال كله فلا راد لأمره (إذا جاء لا يؤخر) أي إذا جاء الموت لا يؤخر بعذاب كان أو بغير عذاب وأضاف الأجل إليه سبحانه لأنه الذي أثبته وقد يضاف إلى القوم كقوله تعالى إذا جاء أجلهم لأنه مضروب لهم (لو كنتم تعلمون) أي لو كنتم من أهل العلم والنظر لعلمتم ذلك ولكنكم لانهماككم في حب الدنيا كأنكم شاكون في الموت ● ولما كان عليه السلام أطول الأنبياء عمرا وكان قد طال نصحه لهم ولم يزدادوا إلا طغيانا وكفرا (قال) مناديا لمن أرسله لأنه تحقق أن لا قريب منه غيره (رب) أي يا سيدي وخالقي (إني دعوت) أي أوقعت الدعاء إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة (قومي) أي الذين هم جديرون بإجابتي لمعرفتهم بي وقربهم مني وفيهم قوة المحاولة لما يريدون (ليلا ونهارا) أي دائما متصلا لا أفتر عن ذلك وقيل معناه سرا وجهرا (فلم يزدهم دعائي) أي شيأ من أحوالهم التي كانوا عليها (إلا فرارا) أي بعدا وإعراضا عن الإيمان كأنهم حمر مستنفرة استثناء مفرغ وهو مفعول ثان وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بسكون الياء والباقون بفتحها وهم على مراتبهم في المد (وإني كلما) أي على تكرار الأوقات وتعاقب الساعات (دعوتهم) أي إلى الإقبال إليك بالإيمان بك والإخلاص لك (لتغفر لهم) أي ليؤمنوا فتمحو ما فرطوا فيه في حقك فأفرطوا لأجله في التجاوز في المحو بالغا فلا يبقى لشيء من ذلك عين ولا أثر حتى لا تعاقبهم عليه ولا تعاتبهم

(جعلوا أصابعهم) كراهة منهم واحتقارا للداعى (فى آذانهم) حقيقة لئلا يسمعوا الدعاء اشارة الى أنا لا نريد أن نسمع ذلك منك فان ابيت الا الدعاء فانا لا نسمع لسد أسماعنا ودل على الافراط فى كراهة الدعاء بما ترجم عنه قوله (واستغشوا ثيابهم) أى أوجدوا التغطية لرؤسهم بثيابهم لئلا يبصروه كراهة للنظر الى وجه من ينصحهم فى دين الله تعالى وهكذا حال النصحاء مع من ينصحونه دائما (وأصروا) أى اكبوا على الكفر وعلى المعاصى من أصر الحمار على العانة وهى القطيع من الوحش اذا صر أذنيه وأقبل عليها يكدمها ويطردها (واستكبروا) أى أوجدوا الكبر طالبين له راغبين فيه وأكد ذلك بقوله (استكبارا) تنبيها على أن فعلهم منابذ للحكمة وقد أفادت هذه الآيات بالصريح فى غير موضع انهم عصوا نوحا عليه السلام وخالفوه مخالفة لا أقبح منها ظاهرا بتعطيل الاسماع والابصار وباطنا بالاصرار والاستكبار (ثم انى دعوتهم جهارا) أى معلنا بالدعاء قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بأعلى صوتى (ثم انى أعلنت لهم) أى كررت لهم الدعاء معلنا وقرأ نافع وابن كثير بفتح الياء والباقون بسكونها (وأسررت لهم اسرارا) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد الرجل بعد الرجل أكلمه سرا بينى وبينه أدعوه الى عبادتك وتوحيدك (فقلت) أى فى دعائى لهم (استغفروا ربكم) أى اطلبوا من المحسن اليكم المبدع لكم المدبر لاموركم أن يمحو ذنوبكم أعيانها وآثارها بأن تؤمنوا بالله وتتقوه (انه كان) أى أزلا وأبدا ودائما سرمدا (غفارا) أى متصفا بصفة الستر على من رجع اليه (يرسل السماء) أى المظلة لان المطر منها ويجوز أن يراد السحاب والمطر (عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين) أى ويكثر أموالكم وأولادكم وذلك أن قوم نوح عليه السلام لما كذبوه زمانا طويلا حبس الله تعالى عنهم المطر وعقم أرحام نسائهم أربعين سنة فهلكت أموالهم ومواشيهم فقال لهم نوح استغفروا ربكم من الشرك أى استدعوا المغفرة بالتوحيد يرسل السماء عليكم مدرارا روى الشعبى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما خرج يستسقى بالناس فلم يزد على الاستغفار فلما نزل قيل يا أمير المؤمنين ما رأيناك استسقيت فقال لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التى بها يستنزل القطر ثم قرأ هذه الآية شبه الاستغفار بالانواء الصادقة التى لا تخطئ وعن الحسن أن رجلا شكا اليه الجدب فقال استغفر الله وشكا اليه آخر الفقر وآخر قلة النسل وآخر قلة ريع أرضه فأمرهم كلهم بالاستغفار فقال له الربيع بن صبيح أتاك رجال يشكون أبوابا ويسألون أنواعا فأمرتهم كلهم بالاستغفار فتلا الآية وقال القشيرى من وقعت له حاجة الى الله تعالى فلن يصل الى مراده الا بتقديم الاستغفار وقال ان عمل قوم نوح كان بضد ذلك كلما ازداد نوح عليه السلام فى الضمان ووجوه الخير والاحسان ازدادوا فى الكفر والنسيان (ويجعل لكم) أى فى الدارين (جنات) أى بساتين عظيمة وأعاد العامل للتأكيد فقال (ويجعل لكم أنهارا) أى يخصكم بذلك عمن لم يفعل ذلك فان من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا وقال تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض وقال تعالى ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم

ومن تحت أرجلهم وقال تعالى وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا (ما لكم لا ترجون لله) أى الملك الذى له الامر كله (وقارا) أى ما لكم لا تأملون له توقيرا أى تعظيما والمعنى ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله اياكم فى دار الثواب ولله بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة الوقار فات بالمعرفة تزكوا الاعمال وتصلح الاقوال انما سبق أبو بكر رضى الله عنه بشئ وقر فى صدره وانما يصح تعظيمه سبحانه بأن لا ترى لك عليه حقا ولا تنازع له اختيارا وتعظم أمره ونهيه بعدم المعارضة (وقد) أى والحال أنه قد أحسن اليكم مرة بعد مرة بما لا يقدر عليه غيره فدل ذلك على تمام قدرته ثم لم يقطع احسانه عنكم فاستحق أن تؤمنوا به لانه هل جزاء الاحسان الا الاحسان ورجاء لدوام احسانه وخوفا من قطعه لانه (خلقكم) أى أوجدكم من العدم مقدرين (أطوارا) أى تارات عناصر أولا ثم مركبات تغذى الحيوانات ثم اخلاطا ثم نطفا ثم علقا ثم مضغا ثم عظاما ولحوما وأعصابا ودماء ثم خلقا آخر تاما ناطقا ذكرانا وأناثا الى غير ذلك من الامور الدالة على قدرته على كل مقدور ومن قدر على هذا ابتداء كان على الاعادة أعظم قدرة (ألم تروا) أى أيها القوم (كيف خلق الله) أى الذى له العلم التام والقدرة البالغة والعظمة الكاملة (سبع سموات) هن فى غاية العلو والسعة والاحكام والزينة (طباقا) أى متطابقة بعضها فوق بعض وكل واحدة فى التى تليها محيطة بها ما لها من فروج ولا يكون تمام المطابقة كذلك الا بالاحاطة من كل جانب (وجعل القمر) أى الذى ترونه (فيهن نورا) أى لامعا منتشرا كاشفا للمرئيات أحد وجهيه يضئ لاهل الارض والثانى لاهل السموات قال الحسن يعنى فى السماء الدنيا كما تقول أتيت بنى فلان وانما أتيت بعضهم وفلان متوار فى دور بنى فلان وهو فى دار واحدة وبدأ به لقربه وسرعة حركته وقطعه جميع البروج فى كل شهر وغيبوبته فى بعض الليالى ثم ظهوره وذلك أعجب فى القدرة ولما كان نوره مستفادا من نور الشمس قال تعالى (وجعل) أى فيها (الشمس) أى فى السماء الرابعة (سراجا) أى نورا عظيما كاشفا لظلمة الليل عن وجه الارض وهى فى السماء الرابعة كما مر وقيل فى الخامسة وقيل فى الشتاء فى الرابعة وفى الصيف فى السابعة روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وابن عمر أن الشمس والقمر وجوههما مما يلى السماء وأقفيتهما الى الارض وجعلهما سبحانه آية على رؤية عباده المؤمنين له فى الجنة (والله) أى الملك الاعظم الذى له الامر كله (أنبتكم) أى بخلق أبيكم آدم عليه السلام (من الارض) أى كما ينبت الزرع وعبر بذلك تذكيرا لنا بما كان من خلق أبينا آدم عليه السلام لانه أدل على الحدوث والتكون من الارض (نباتا) أى أنشأكم منها انشاء فاستعير الانبات له لانه أدل على الحدوث والتكون وأصله أنبتكم فنبتم نباتا فاختصر اكتفاء بالدلالة الالتزامية (ثم يعيدكم) على التدريج (فيها) أى الارض بالموت والاقبار وان طالت الآجال (ويخرجكم) أى منها بالاعادة وأكد بالمصدر الجارى على الفعل اشارة الى شدة العناية به وتحتم وقوعه لانكارهم له فقال تعالى (اخراجا) أى غريبا ليس هو كما تعلمون بل تكونون به فى غاية ما يكون من الحياة الباقية تلابس أرواحكم بها أجسامكم ملابسة

لا انفكاك لبعدها الاحكاعن الآخر (والله) أى المستجمع لجميع الجلال والاكرام (جعل لكم) أى نعمة عليكم اهتماما بأمركم (الارض بساطا) أى سهل عليكم التصرف فيها والتقلب عليها سهولة التصرف فى البساط ثم علل ذلك بقوله تعالى (لتسلكوا) أى متخذين (منها) أى الارض مجددين لذلك (سبلا) أى طرقا واضحة مسلوكة بكثرة (فجاجا) أى ذوات اتساع لتوصلوا الى البلاد الشاسعة برا وبحرا فيعم الانتفاع بجميع البقاع فالذى قدر على احداثكم وأقدركم على التصرف فى أصلكم مع ضعفكم قادر على اخراجكم من أجداثكم التى لم تزل طوع أمره ومحل عظمته وقهره * ولما أكثروا مع نوح عليه السلام الجدال ونسبوه الى الضلال وقابلوه بأشنع الاقوال والافعال (قال نوح) أى بعد رفقه بهم ولينه لهم (رب) أى أيها المحسن الىّ المدبر لى المتولى لجميع أمرى (انهم) أى قومى الذين دعوتهم اليك مع صبرى عليهم ألف سنة الا خمسين عاما (عصونى) أى فيما أمرتهم به ودعوتهم اليه فأبوا أن يجيبوا دعوتى وشردوا عنى أشد شراد وخالفونى أقبح مخالفة (واتبعوا) أى بغاية جهدهم نظرا الى المظنون العاجل (من) أى رؤساءهم البطرين بأموالهم المغترين بولدانهم وفسرهم بقوله تعالى (لم يزده) أى شيأ من الاشياء (ماله) أى كثرته (وولده) كذلك (الا خسارا) أى بالبعد من الله تعالى فى الدنيا والآخرة وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح الواوين واللام والباقون بضم الواو الثانية واسكان اللام (ومكروا) أى هؤلاء الرؤساء فى تنفير الناس عنى (مكرا) وزاده تأكيدا بصيغة هى النهاية فى المبالغة بقوله (كبارا) فانه أبلغ من كبار المخفف الابلغ من كبير واختلفوا فى معنى مكرهم فقال ابن عباس قالوا قولا عظيما وقال الضحاك افتروا على الله تعالى وكذبوا رسله وقيل منع الرؤساء أتباعهم عن الايمان بنوح عليه السلام فلم يدعوا أحدا منهم بذلك المكر يتبعه وحرشوهم على قتله (وقالوا) أى لهم (لا تذرن) أى تتركن (آلهتكم) أى عبادتها على حالة من الحالات لا قبيحة ولا حسنة وأضافوها اليهم تحبيبا فيها ثم خصوا بالتسمية زيادة فى الحث وتصريحا بالمقصود فقالوا مكررين النهى والعامل تأكيدا (ولا تذرن ودا) قرأ نافع بضم الواو والباقون بفتحها وأنشدوا بالوجهين قول الشاعر

حياك ود من هداك لفتية * وحرص بأعلى ذى فضالة منجد

وقال القرطبى قال الليث ودا بفتح الواو صنم كان لقوم نوح وودا بالضم صنم لقريش وبه سمى عمرو بن ود وفى الصحاح والود بالفتح الوتد فى لغة أهل نجد كأنهم سكنوا التاء وأدغموها فى الدال اه ثم أعادوا النفى تأكيدا فقالوا (ولا سواعا) وأكدوا هذا التأكيد وأبلغوا فيه فقالوا (ولا يغوث) * ولما بلغ التأكيد نهايته وعلم ان القصد النهى عن كل فرد فرد لا عن المجموع تركوا التأكيد فى قولهم (ويعوق ونسرا) للعلم بارادته واختلف المفسرون فى هذه الاسماء فقال ابن عباس وغيره هى أصنام وصور كان قوم نوح يعبدونها ثم عبدتها العرب وهذا قول الجمهور وقيل انها للعرب لم يعبدها غيرهم وكانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم فلذلك خصوها بالذكر بعد قولهم لا تذرن آلهتكم وقال عروة بن الزبير اشتكى آدم عليه السلام وعنده

بنوه ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وكان ود أكبرهم وأبرهم به قال محمد بن كعب كان لآدم عليه السلام خمسة بنين ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وكانوا عبادا فمات رجل منهم فحزنوا عليه فقال الشيطان أنا أصور لكم مثله اذا نظرتم اليه ذكرتموه قالوا افعل فصوره في المسجد من صفر ورصاص ثم مات آخر فصوره حتى ماتوا كلهم وصورهم وتناقصت الاشياء كما تناقصت اليوم الى أن تركوا عبادة الله تعالى بعد حين فقال لهم الشيطان ما لكم لا تعبدون شيأ قالوا وما نعبد قال آلهتكم وآلهة آبائكم ألا ترون أنها في مصلاكم فعبدوها من دون الله تعالى حتى بعث الله نوحا عليه السلام فقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا الآية وقال محمد بن كعب أيضا ومحمد بن قيس بل كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح عليهما السلام وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا زين لهم ابليس أن يصوروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم وليتسلوا بالنظر اليها فصوروهم فلما ماتوا جاء آخرون فقالوا ليت شعري ما هذه الصور التي كان يعبدها آباؤنا فجاءهم الشيطان فقال كان آباؤكم يعبدونها فترحمهم وتسقيهم المطر فعبدوها فابتدئ عبادة الاوثان من ذلك الوقت وبهذا المعنى فسر ما جاء في الصحيحين من حديث عائشة ان أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بأرض الحبشة تسمى مارية فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أولئك كانوا اذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة وروى عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام كان يحرس جسد آدم عليه السلام على جبل الهند فيمنع الكافرين أن يطوفوا بقبره فقال لهم الشيطان ان هؤلاء يفخرون عليكم ويزعمون أنهم بنو آدم دونكم وانما هو جسد وأنا أصور لكم مثله تطوفون به فصور لهم هذه الاصنام الخمسة وحملهم على عبادتها فلما كان أيام الطوفان دفنها الطين والتراب والماء فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب وكان للعرب أصنام أخر فاللات كانت لقديد واساف ونائلة وهبل كانت لاهل مكة وكان اساف حيال الحجر الاسود ونائلة حيال الركن اليماني وكان هبل في جوف الكعبة وقال الماوردي أما ود فهو أول صنم معبود فسمي ودا لودهم له وكان بعد قوم نوح لكليب بدومة الجندل في قول ابن عباس وعطاء وأما سواع فكان لهذيل بساحل البحر في قولهم وقال الرازي وسواع لهمدان وأما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجرف من سبا في قول قتادة وقال المهدوي لمراد ثم لغطفان وقال أبو عثمان الهندي رأيت يغوث وكان من رصاص وكانوا يحملونه على جمل أجرد ويسيرون معه ولا يهيجونه حتى يبرك بنفسه فاذا برك نزلوا وقالوا قد رضي لكم المنزل وأما يعوق فكان لهمدان وقيل لمراد وأما نسر فكان لذي الكلاع من حمير في قول قتادة ومقاتل وقال الواقدي كان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر من الطير قال البقاعي ولا يعارض هذا انهم صور لناس صالحين لان تصويرهم لهم يمكن أن يكون منتزعا من معانيهم فكان ود كاملا في الرجولية وكان سواع امرأة

كاملة فى العبادة وكان يغوث شجاعا وكان يعوق سابقا قويا وكان نسر عظيما طويل العمر اه ولما ذكرهم مكرهم وما أظهروا من قولهم عطف عليه ما توقع السامع من أمرهم فقال تعالى (وقد أضلوا) أى الرؤساء أو الاصنام وجمعهم جمع العقلاء معاملة لهم معاملة العقلاء كقوله رب انهن أضللن (كثيرا) من عبادك الذين خلقتهم على الفطرة السليمة من أهل زمانهم وممن أتى بعدهم فانهم أول من سن هذه السنة السيئة فعليهم وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة وقول نوح عليه السلام (ولا تزد الظالمين) أى الراسخين فى الوصف الموجب للنار (الا ضلالا) أى طبعا على قلوبهم حتى يعموا عن الحق عطف على قد أضلوا دعاء عليهم بعد ما أعلمه الله تعالى أنهم لا يؤمنون بقوله تعالى انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن وكذلك دعا موسى وهرون عليهما السلام فى الشد على قلوب فرعون وملئه لئلا يؤمنوا فى حال ينفعهم فيه وما فى قوله تعالى (مما خطاياهم) أى من أجل خطيئاتهم مزيدة للتأكيد والتفخيم وقرأ أبو عمرو بفتح الطاء وبعدها ألف وبعد الالف ياء وبعد الياء ألف وضم الهاء على وزن قضاياهم والباقون بكسر الطاء وبعدها ياء تحتية ساكنة وبعد الياء همزة مفتوحة بعدها ألف وبعد الالف تاء فوقية مكسورة وكسر الهاء على وزن قضياتهم (أغرقوا) أى بالطوفان طاف عليهم جميع الارض السهل والجبل فلم يبق منهم أحد وكذا الكلام فيما تسبب عنه وتعقبه فى قوله (فأدخلوا) فى الآخرة التى أولها البرزخ يعرضون فيه على النار بكرة وعشيا (نارا) أى عظيمة جدا أخفها ما يكون من مباديها فى البرزخ قال الملوى عذبوا فى الدنيا بالغرق وفى الآخرة بالحرق وقال الضحاك فى حالة واحدة كانوا يغرقون من جانب ويحترقون فى الماء من جانب بقدرة الله تعالى (فلم يجدوا لهم) أى عندما أناخ الله بهم سطوته وأحل بهم نقمته (من دون الله) أى الملك الاعظم الذى تضمحل المراتب تحت رتبة عظمته وتذل لعزه وجليل سطوته (أنصارا) تنصرهم على من أراد بهم ذلك ليمنعوه مما أراده سبحانه من اغراقهم من غير أن يتخلف منهم أحد على كثرتهم وقوتهم لكونهم أعداءه وانجاء نبيه عليه السلام ومن آمن معه على ضعفهم وقلتهم لم يفقد منهم أحد لكونهم أولياءه كما أنه لم يسلم ممن أراد اغراقهم أحد على كثرتهم وقوتهم قال البقاعى فمن قال عن عوج ما تقوله القصاص فهو ضلال أشد ضلال قال وقائل ذلك هو ابن عربى صاحب الفصوص الذى لم يرد بتصنيفه الا هدم الشريعة وزاد فى الحط عليه وعلى ابن الفارض وعلى الحلاج وعلى من شابههم وأمر هؤلاء الى الله تعالى فانه العالم بحقائق الامور وما تخفى الصدور (وقال نوح) وأسقط الاداة كما هو عادة أهل الحضرة فقال (رب لا تذر) أى لا تترك (على الارض) أى كلها (من الكافرين) أى الراسخين فى الكفر (ديارا) أى أحدا يدور فيها وهو من ألفاظ العموم التى تستعمل فى النفى فيعال من الدور أو الدار لا فعال والا لكان دوارا قال قتادة دعا عليهم بعد أن أوحى الله تعالى اليه أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فأجاب الله تعالى دعوته وأغرق أمته وهذا كقول النبى صلى الله عليه وسلم اللهم منزل الكتاب وهازم الاحزاب اهزمهم وزلزلهم وقيل سبب دعائه ان رجلا من قومه حمل ولدا صغيرا على كتفه فمر بنوح

عليه السلام فقال احذر هذا فانه يضلك فقال يا أبت أنزلني فأنزله فرماه فشجه فحينئذ غضب ودعا عليهم (فان قيل) ما فعل صبيانهم حين أغرقوا (أجيب) بأنهم أغرقوا معهم لا على وجه العقاب ولكن كما يموتون بالانواع من أسباب الموت وكم منهم من يموت بالغرق والحرق وكان ذلك زيادة في عذاب الآباء والامهات اذا أبصروا أطفالهم يغرقون ومنه قوله صلى الله عليه وسلم يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى وعن الحسن أنه سئل عن ذلك فقال علم الله تعالى براءتهم فأهلكهم بغير عذاب وقال محمد بن كعب ومقاتل انما قال هذا حين أخرج الله تعالى كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم وأعقم أرحام أمهاتهم وأيبس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعين سنة وقيل بسبعين سنة فأخبر الله تعالى نوحا عليه السلام انهم لا يؤمنون ولا يلدون مؤمنا كما قال تعالى انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فحينئذ دعا عليهم فأجاب الله تعالى دعاءه فأهلكهم كلهم ولم يكن فيهم صبي وقت العذاب لان الله تعالى قال وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم ولم يوجد التكذيب من الاطفال وقال ابن عربي دعا نوح عليه السلام على الكافرين أجمعين ودعا النبي صلى الله عليه وسلم على من تحزب على المؤمنين وكفى بهذا أصلا في الدعاء على الكافرين في الجملة وأما كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يدعى عليه لان مآله عندنا مجهول وربما كان عند الله معلوم الخاتمة بالسعادة وانما خص النبي صلى الله عليه وسلم عتبة وشيبة وأصحابه لعلمه بمآلهم وما كشف الله له من الغطاء عن حالهم

* ولما كان الرسل عليهم السلام لا يقولون ولا يفعلون الا ما كان فيه مصلحة الدين علل دعاءه بقوله (انك) أي يا رب (ان تذرهم) أي تتركهم على أي حالة كانت في ابقائهم سالمين على وجه الارض ولو كانت حالة دنيئة (يضلوا عبادك) أي الذين آمنوا بك وبي والذين يولدون على الفطرة السليمة (ولا يلدوا) أي ان قدرت بقاءهم (الا فاجرا) أي مارقا عن كل ما ينبغي الاعتصام به (كفارا) أي بليغ الستر لما يجب اظهاره من آيات الله (فان قيل) بم علم أن أولادهم يكفرون وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة (أجيب) بأنه لبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما فعرف طباعهم وأحوالهم وكان الرجل ينطلق بابنه اليه ويقول احذر هذا فانه كذاب وان أبي حذرنيه فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك وقد أخبر الله تعالى أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ومعنى ولا يلدوا الا فاجرا كفارا لم يلدوا الا من سيفجر ويكفر فوصفهم بما يصيرون اليه كقوله صلى الله عليه وسلم من قتل قتيلا فله سلبه

* ولما دعا على أعداء الله تعالى دعا لاوليائه وبدأ بنفسه فقال مسقط الاداة على عادة أهل الخصوص (رب) أي أيها المحسن الي باتباع من اتبعني وتجنب من تجنبني (اغفر لي) أي فانه لا يسعني وان كنت معصوما الا حلمك وعفوك ومغفرتك (ولوالدي) وكانا مؤمنين يريد أبويه اسم أبيه ملك بن متوشلخ وأمه شمخا بنت أنوش وعن ابن عباس لم يكفر لنوح عليه السلام أب فيما بينه وبين آدم عليه السلام وقيل هما آدم وحواء وأعاد الجار اظهارا للاهتمام فقال (ولمن دخل بيتي) أي منزلي وقيل مسجدي وقيل سفينتي (مؤمنا) أي مصدقا بالله تعالى فمؤمنا حال وعن ابن عباس أي دخل في ديني (فان قيل) على هذا يصير قوله مؤمنا

تكرارا (أجيب) بأن من دخل في دينه ظاهرا قد يكون مؤمنا وقد لا يكون فالمعنى ولمن دخل دخولا مع تصديق القلب (وللمؤمنين والمؤمنات) خص نفسه أولا بالدعاء ثم من يتصل به لانهم أولى وأحق بدعائه ثم عم المؤمنين والمؤمنات الى يوم القيامة قاله الضحاك وقال الكلبي من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل من قومه والاول أولى وأظهر ثم ختم الكلام مرة أخرى بالدعاء على الكافرين فقال (ولا تزد الظالمين) أى العريقين فى الظلم فى حال من الاحوال (الا تبارا) أى هلاكا مدمرا والمراد بالظالمين الكافرون فهى عامة فى كل كافر ومشرك وقيل أراد مشركى قومه وتبارا مفعول ثان والاستثناء مفرغ وقيل الهلاك الخسران وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح عليه السلام حديث موضوع

(سورة الجن وتسمى سورة قل اوحى مكية)

وهى ثمان وعشرون آية ومائتان وخمس وثمانون كلمة وثمانمائة وسبعون حرفا

(بسم الله) المحيط بالكمال (الرحمن) الذى عم برحمته الناس بالارسال (الرحيم) الذى خص من بين أهل الدعوة من شاء بمحاسن الاعمال * ولما كان نوح عليه السلام أول رسول أرسله الله تعالى الى المخالفين من أهل الارض وكان نبينا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فهو آخر رسول بعثه الله تعالى الى أهل الارض وغيرهم ناسب ذكره بعد نوح فقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أى يا أشرف الرسل للناس (أوحى الىّ) وقال ابن عباس قل يا محمد لامتك أوحى الىّ على لسان جبريل (أنه استمع نفر من الجن) والنفر الجماعة ما بين الثلاثة الى العشرة قال البغوى وكانوا تسعة من جن نصيبين وقيل كانوا سبعة وفى هذه العبارة دليل على أنه صلى الله عليه وسلم ما رآهم ولا قرأ عليهم وانما اتفق حضورهم عند قراءته ففى صحيح مسلم عن ابن عباس قال انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسل عليهم الشهب فرجعت الشياطين الى قومهم فقالوا ما لكم قالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب فقالوا ما ذاك الا من شئ حدث فاضربوا مشارق الارض ومغاربها فانظروا ما هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء فانطلقوا يضربون مشارق الارض ومغاربها فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهو وأصحابه بنخلة قاصدين سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له قالوا هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء وهل هذا الاستماع هو المذكور فى الاحقاف أو غيره قال أبو حيان المشهور أنه هو وقيل غيره والجن الذين أتوه جن نصيبين والذين أتوه بنخلة جن نينوى والسورة التى استمعوها قال عكرمة العلق وقيل الرحمن ولم يذكر هنا ولا فى الاحقاف انه رآهم وعن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال أمرت أن أتلو القرآن على الجن فمن يذهب فسكتوا ثم قال الثانية فسكتوا ثم قال الثالثة فقلت أنا أذهب معك يا رسول الله قال فانطلق حتى جاء الحجون عند شعب ابن أبى ذئب خط علىّ خطا فقال لا تجاوزه ثم مضى الى الحجون فانحدروا عليه

أمثال الجبل كأنهم رجال الزط قال ابن الأثير في النهاية الزط قوم من السودان والهنود وكان وجوههم المكاكي يقرعون في دفوفهم كما تقرع النسوة في دفوفها حتى غشوه فغاب عن بصري فقمت فأومأ الى بيده ان اجلس ثم تلا القرآن فلم يزل صوته يرتفع ولصقوا بالارض حتى صرت لا أراهم وفي رواية أخرى قالوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم من أنت قال أنا نبي قالوا فمن يشهد لك على ذلك فقال هذه الشجرة تعالى يا شجرة فجاءت تجر عروقها لها قعاقع حتى انتصبت بين يديه فقال على ماذا تشهدي في قالت أشهد أنك رسول الله قال اذهبي فرجعت كما جاءت حتى صارت كما كانت قال ابن مسعود فلما عاد الى قال أردت أن تأتيني قلت نعم يا رسول الله قال ما كان ذلك لك هؤلاء الجن أتوا يستمعون القرآن ثم ولوا الى قومهم منذرين فسألوني الزاد فزودتهم العظم والبعر فلا يستطيبن أي يستنجي أحدكم بعظم ولا بعر وفي رواية أنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ وضع رأسه على حجر ابن مسعود فرقد ثم استيقظ فقال هل من وضوء قال لا الا أن معي اداوة نبيذ فقال هل هو الا تمر وماء فتوضأ منه قال الرازي وطريق الجمع بين رواية ابن عباس ورواية ابن مسعود من وجوه أحدها العمل بما ذكره ابن عباس وقع أولا فأوحى الله تعالى اليه بهذه السورة ثم أمر بالخروج اليهم بعد ذلك كما روى عن ابن مسعود أي فالواقعة متعددة ثانيها انها واقعة واحدة الا أنه صلى الله عليه وسلم ما رآهم ولا عرف ماذا قالوا ولا أي شئ فعلوا فالله تعالى أوحى اليه انه كان كذا وكذا وقالوا كذا وكذا ثالثها أنها كانت واحدة وأنه صلى الله عليه وسلم رآهم وسمع كلامهم وهم آمنوا به ثم رجعوا الى قومهم قالوا لهم على سبيل الحكاية إنا سمعنا قرآنا عجبا وكان كذا وكذا فأوحى الله تعالى الى نبيه صلى الله عليه وسلم ما قالوه لقومهم قال ابن عربي ابن مسعود أعرف من ابن عباس لانه شاهده وابن عباس سمعه وليس الخبر كالمعاينة وقال القرطبي ان الجن أتوا النبي صلى الله عليه وسلم دفعتين احداهما بمكة وهي التي ذكرها ابن مسعود والثانية بنخلة وهي التي ذكرها ابن عباس وقال البيهقي الذي حكاه ابن مسعود انما هو في أول ما سمعت الجن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وعلمت بحاله وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه ابن عباس ثم أتاه داعي الجن مرة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه ابن مسعود وقال القشيري لما رجم ابليس بالشهب فرق ابليس جنوده لعلم ذلك فأتى سبعة منهم بطن نخلة فاستمعوا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فآمنوا ثم أتوا قومهم فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يعني ولم يرجعوا الى ابليس لما علموه من كذبه وسفاهته وجاؤا الى النبي صلى الله عليه وسلم في سبعين من قومه فأسلموا فذلك قوله تعالى واذ صرفنا اليك نفرا الآيات (فقالوا) أي فتسبب عن استماعهم ان قالوا (انا سمعنا) أي حين تعمدنا الاصغاء وألقينا اليه أفهامنا (قرآنا) أي كلاما هو في غاية الانتظام في نفسه والجمع لجميع ما يحتاج اليه وقرأ ابن كثير بالنقل وقفا ووصلا وحمزة في الوقف دون الوصل والباقون بغير نقل وقفا ووصلا ثم وصفوا القرآن بالمصدر مبالغة في أمره فقالوا (عجبا) أي بديعا خارجا عن عادة أمثاله من جميع الكتب الالهية فضلا عن جميع الناس في جلالة النظم واعجاز التركيب (يهدي) أي يبين

غاية

غاية البيان (الى الرشد) أى الحق والصواب (فآمنا) أى كل من استمع منا لم يتخلف منا أحد ولا توقف بعد الاستماع (به) أى القرآن أى فاهتدينا به وصدقنا انه من عند الله (ولن نشرك بربنا أحدا) أى لا نرجع الى ابليس ولا نطيعه ولا نعود الى ما كنا عليه من الاشراك وهذا يدل على أن أولئك الجن كانوا مشركين قال الرازى واعلم أن قوله تعالى قل أمر لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يظهر لاصحابه ما أوحى اليه فى واقعة الجن وفيه فوائد أحدها أن يعرفوا بذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الى الجن كما بعث الى الانس ثانيها أن تعلم قريش ان الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن وعرفوا اعجازه آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ثالثها أن يعلم القوم ان الجن مكلفون كالانس رابعها أن يعلم ان الجن يستمعون كلامنا ويفهمونه من لغتنا خامسها ان يظهر المؤمن منهم بدعوى غيره من الجن الى الايمان وفى هذه الوجوه مصالح كثيرة اذا عرفها الناس * (تنبيهات) * أحدها اختلف العلماء فى أصل الجن فروى عن الحسن البصرى ان الجن ولد ابليس والانس ولد آدم ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون وهم شركاء فى الثواب والعقاب فمن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان وروى الضحاك عن ابن عباس ان الجن هم ولد الجان وليسوا شياطين ومنهم المؤمن ومنهم الكافر والشياطين ولد ابليس لا يموتون الا مع ابليس وروى أن ذلك النفر كانوا يهودا وذكر الحسن ان منهم يهودا ونصارى ومجوسا ومشركين * ثانيها اختلفوا فى دخول الجن الجنة على حسب الاختلاف فى أصلهم فمن زعم انهم من الجان لا من ذرية ابليس قال يدخلون الجنة بايمانهم ومن قال انهم من ذرية ابليس فلهم فيهم قولان أحدهما وهو قول الحسن يدخلونها والثانى وهو رواية مجاهد لا يدخلونها * ثالثها قال القرطبى قد أنكر جماعة من كفرة الاطباء والفلاسفة الجن وقالوا انهم بسائط ولا يصح طعامهم اجتراء على الله تعالى والقرآن والسنة يردان عليهم وليس فى المخلوقات بسيط بل مركب مزدوج انما الواحد الواحد سبحانه وغيره مركب ليس بواحد وليس بممتنع أن يراهم النبى صلى الله عليه وسلم فى صورهم كما يرى الملائكة وأكثر ما يتصورون لنا فى صور الحيات ثم عطفوا على قولهم انا سمعنا (وأنه) أى الشان العظيم قال الجن (تعالى) أى انتهى فى العلو الى حد لا يستطاع (جد) أى عظمة وسلطان وكمال غنى (ربنا) يقال جد الرجل اذا عظم ومنه قول أنس كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا أى عظم قدره وقال السدى جد ربنا أى أمر ربنا وقال الحسن غنى ربنا ومنه قيل الحظ جد ورجل مجدود أى محظوظ وفى الحديث ولا ينفع ذا الجد منك الجد قال أبو عبيد والخليل أى ذا الغنى منك الغنى انما تنفعه الطاعة وقال ابن عباس قدرة ربنا وقال الضحاك فعله وقال القرطبى آلاؤه ونعماؤه على خلقه وقال الاخفش علا ملك ربنا والاولى جميع هذه المعانى وقرأ وانه تعالى جد ربنا وما بعده الى قوله تعالى وانا منا المسلمون وهى اثنا عشر موضعا ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى بفتح الهمزة فى الجميع والباقون بالكسر * ولما وصفوه بهذا التعالى الاعظم المستلزم للغنى المطلق والتنزه عن كل شائبة نقص بينوه بنفى ما ينافيه من قولهم ابطالا للباطل

(ما اتخذ صاحبة) أى زوجة لان الصاحبة لابد وأن تكون من نوع صاحبها ومن له نوع فهو مركب تركيبا عقليا من صفة مشتركة وصفة مميزة (ولا ولدا) لان الولد لابد وأن يكون جزأ منفصلا عن والده ومن له أجزاء فهو مركب تركيبا حسيا ومن المقطوع به ان ذلك لا يكون الا لمحتاج وان الله تعالى متعال عن ذلك من تركيب حسى أو عقلى قال القشيرى ويجوز اطلاق لفظ الجد فى حق الله تعالى اذ لو لم يجز لما ذكر فى القرآن غير أنه لفظ موهم فتجنبه أولى أى لانه قيل انهم عنوا بذلك الجد الذى هو أبو الاب ويكون ذلك من قول الجن قال ابن جعفر الصادق ليس لله تعالى جد وانما قاله الجن للجهالة فلم يؤاخذوا به وقال القرطبى معنى الآية وأنه تعالى جد ربنا أن يتخذ ولدا أو صاحبة للاستئناس بهما أو الحاجة اليهما والرب تعالى عن ذلك كما تعالى عن الانداد والنظراء (وانه) أى وقالوا ان الشان هذا على قراءة الكسر وآمنا بأنه على قراءة الفتح (كان يقول) أى قولا هو فى عراقته فى الكذب بمنزلة الجبلة (سفيهنا) هو للجنس فيتناول ابليس رأس الجنس تناولا أوليا وكل من تبعه ممن لم يعرف الله تعالى لان ثمرة العقل العلم وثمرة العلم معرفة الله تعالى فمن لم يعرفه فهو الذى يقول (على الله) الذى له صفات الكمال المنافية لقول هذا السفيه (شططا) أى كذبا وعدوانا وهو وصفه بالشريك والولد والشطط والاشطاط الغلو فى الكفر وقال أبو مالك هو الجور وقال الكلبى هو الكذب وأصله البعد فعبر به عن الجور لبعده عن العدل وعن الكذب لبعده عن الصدق (وانا) أى يا معشر المسلمين من الجن (ظننا) أى حسبنا بسلامة فطرتنا (أن) أى أنه وزادوا فى التأكيد فقالوا (لن تقول) وبدؤا بأفضل الجنسين فقالوا (الانس) وأتبعوهم قرناءهم فقالوا (والجن على الله) أى الملك الاعلى الذى بيده النفع والضر (كذبا) أى قولا هو لعراقته فى مخالفة الواقع نفس الكذب وانما كانظنهم صادقين فى قولهم ان لله صاحبة وولدا حتى سمعنا القرآن وتبينا به الحق قيل انقطع الاخبار عن الجن ههنا (وانه) أى الشان (كان رجال) أى ذوو قوة وبأس (من الانس) أى النوع الظاهر فى عالم الحس (يعوذون) أى يلتجؤن ويعتصمون خوفا على أنفسهم وما معهم اذا نزلوا واديا (برجال من الجن) أى القبيل المستتر عن الابصار وذلك ان القوم منهم كانوا اذا نزلوا واديا أو غيره من القفر تعبث بهم الجن فى بعض الاحيان لانه لا مانع لهم منهم من ذكر الله ولا دين صحيح ولا كتاب من الله تعالى صريح فحملهم ذلك على أن يستجيروا بعظمائهم فكان الرجل يقول عند نزوله أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه فيبيت فى أمن وفى جوارهم حتى يصبح فلا يرى الا خيرا وربما هدوه الى الطريق وردوا عليه ضالته قال مقاتل كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن من بنى حنيفة ثم فشا ذلك فى العرب فلما جاء الاسلام عاذوا بالله تعالى وتركوهم وقال كرم بن أبى السائب الانصارى خرجت مع أبى الى المدينة فى حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فآوانا المبيت الى راعى غنم فلما انتصف النهار جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم فوثب الراعى وقال يا عامر الوادى جارك فنادى مناد لا نراه يا سرحان أرسله فأتى الحمل يشتد حتى دخل الغنم ولم تصبه كدمة فكان ذلك فتنة للانس

باعتقادهم

باعتقادهم في الجن غير ما هم عليه فتبعوهم في الضلال وفتنة للجن بأن يغتروا بأنفسهم ويقولوا سدنا الانس والجن فيضلوا ويضلوا ولذلك سبب عنه قوله تعالى (فزادوهم) أي الانس والجن باستعاذتهم (رهقا) أي ضيقا وشدة وغشيا نا لجاهم فيه من أحوال الضلال التي يلزم منها الضيق والشدة وقال مجاهد الرهق الاثم وغشيان المحارم ورجل رهق اذا كان كذلك ومنه قوله تعالى وترهقهم ذلة وقال الاعشى

لا شئ ينفعني من دون رؤيتها * هل يشتفي عاشق ما لم يصب رهقا

يعني اثما وقال مجاهد أيضا زادوهم أي ان الانس زادوا الجن طغيانا بهذا التعوذ حتى قالت الجن سدنا الانس والجن وقيل لا يطلق لفظ الرجال على الجن فالمعنى وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الانس من شر الجن فكان الرجل مثلا يقول أعوذ بحذيفة بن بدر من جن هذا الوادي قال القشيري وفي هذا تحكم اذ لا يبعد اطلاق لفظ الرجل على الجن * (تنبيه) * قوله تعالى من الانس صفة لرجال وكذا قوله من الجن (وانهم) أي الانس (ظنوا) والظن قد يصيب وقد يخطئ وهو أكثر (كما ظننتم) أي أيها الجن ويجوز العكس (أن) مخففة أي انه (لن يبعث الله) اي الذي له الاحاطة الكاملة علما وقدرة (أحدا) أي بعد موته لما لبس به ابليس عليهم حتى رأوا حسنا ما لبس بالحسن أو أحدا من الرسل يزيل به عماية الجهل وقد ظهر بالقرآن ان هذا الظن كاذب وانه لابد من البعث في الامرين قال الجن (وانا لمسنا السماء) اي زمن استراق السمع منها قال الكلبي السماء الدنيا أي التمسنا أخبارها على ما كان من عادتنا من استماع ما تغوى به الانس واللمس المس فاستعير للطلب لان الماس طالب متعرف والمعنى طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها (فوجدناها) في وجد وجهان أظهرهما انها متعدية لواحد لان معناها أصبنا وصادفنا وعلى هذا فالجملة من قوله (ملئت) في موضع نصب على الحال على اضمار قد والثاني انها متعدية لاثنين فتكون الجملة في موضع المفعول الثاني ويكون (حرسا) منصوبا على التمييز نحو امتلأ الاناء ماء والحرس اسم جمع لحارس نحو خدم لخادم وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع ويجمع تكسيرا على احراس والحارس الحافظ الرقيب والمصدر الحراسة (وشديدا) صفة لحرس على اللفظ ولو جاء على المعنى لقيل شدادا بالجمع لان المعنى ملئت ملائكة شدادا كقولك السلف الصالح يعني الصالحين قال القرطبي ويجوز أن يكون حرسا مصدرا على معنى حرست حراسة شديدة (وشهبا) جمع شهاب ككتاب وكتب وهو انقضاض الكواكب المحرقة لهم المانع لهم عن استراق السمع (وانا كنا) أي فيما مضى (نقعد منها) أي السماء (مقاعد) أي كثيرة قد علمناها لا حرس فيها صالحة (للسمع) أي أن نسمع منها بعض ما تتكلم به الملائكة مما أمروا بتدبيره وقد جاء في الخبران صفة قعودهم هو ان يكون الواحد منهم فوق الآخر حتى يصلوا الى السماء فكانوا يسترقون الكلمة فيلقونها الى الكهان فيزيدون معها الكذب (فمن يستمع الآن) أي في هذا الوقت وفيما يستقبل لأنهم أرادوا وقت قولهم فقط (يجد له) أي لاجله (شهابا) أي شعلة من نار ساطعة تحرقه (رصدا) أي أرصد به ليرمي به

(تنبيه) اختلفوا هل كانت الشياطين تقذف قبل البعث او ذلك أمر حدث بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم فقال قوم لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام خمسمائة عام وانما كان من أجل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فلما بعث منعوا من السموات كلها وحرست بالملائكة والشهب وقال عبد الله بن عمر لما كان اليوم الذي نبئ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم منعت الشياطين ورموا بالشهب قال الزمخشري والصحيح انه كان قبل البعث وقد جاء شعره في أهل الجاهلية قال بشر بن أبي حازم

والعير يرهقها الغبار وجحشها * ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

ولكن الشياطين كانت تسترق السمع في بعض الاحوال فلما بعث صلى الله عليه وسلم كثر الرجم وازداد زيادة ظاهرة حتى تنبه لها الانس والجن ومنع الاستراق أصلا وعن معمر قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية قال نعم قلت أرأيت قوله تعالى وانا كنا نقعد منها مقاعد قال غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم وروى الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من الانصار اذ رمى بنجم فاستنار فقال ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية فقالوا كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم فقال صلى الله عليه وسلم انها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا تبارك وتعالى اذا قضى أمرا في السماء سبح حملة العرش ثم سبح أهل كل سماء حتى ينتهي التسبيح الى هذه السماء فيسأل أهل السماء حملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم وتخبر أهل كل سماء حتى ينتهي الخبر الى أهل هذه السماء وهذا يدل على أن هذه الشهب كانت موجودة قال ابن عادل وهذا قول الاكثرين (فان قيل) كيف تتعرض الجن لاحتراق أنفسها بسبب سماع خبر بعد أن صار ذلك معلوما لهم (أجيب) بأن الله تعالى ينسيهم ذلك حتى تعظم المحنة قال القرطبي والرصد قيل من الملائكة أي ورصدا من الملائكة والرصد الحافظ للشئ والجمع أرصاد وقيل الرصد هو الشهاب أي شهاب قد أرصد له ليرجم به فهو فعل بمعنى مفعول * واختلف فيمن قال (وانا لا ندري) أي بوجه من الوجوه (أشر أريد) أي بعدم استراق السمع (بمن في الارض أم أراد بهم ربهم) اي المحسن اليهم المدبر لهم (رشدا) أي خيرا فقال ابن زيد معنى الآية ان ابليس قال لا ندري هل أراد الله بهذا المنع ان ينزل على أهل الارض عقابا أو يرسل اليهم رسولا وقيل هو من قول الجن فيما بينهم قبل ان يستمعوا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم أي لا ندري أشر أريد بمن في الارض بارسال محمد صلى الله عليه وسلم اليهم فانهم يكذبونه ويهلكون بتكذيبه كما هلك من كذب من الامم أم أراد أن يؤمنوا فيهتدوا فالشر والرشد على هذا الكفر والايمان وعلى هذا كان عندهم علم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ولما سمعوا قراءته علموا أنهم منعوا من السماء حراسة للوحي وقيل قالوا لقومهم بعد أن انصرفوا اليهم منذرين أي لما آمنوا أشفقوا أن لا يؤمن كثير من أهل الارض فقالوا انا لا ندري أيكفر أهل الارض بما آمنا به أم يؤمنون قال الجن (وانا منا الصالحون) أي العريقون في صفة الصلاح قال الجلال المحلي بعد استماع القرآن (ومنا دون ذلك) أي قوم غير صالحين (كنا) أي

كونا هو كالجبلة (طرائق قددا) أى جماعات متفرقين واصنافا مختلفة قال سعيد بن المسيب معنى الآية كنا مسلمين ويهودا ونصارى ومجوسا وقال الحسن والسدى الجن أمثالكم فنهم قدرية ومرجئة ورافضة وخوارج وشيعة وسنية وقال ابن كيسان شيعا وفرقا لكل فرقة هوى كأهواء الناس وقال سعيد بن جبير الوانا شتى وقال أبو عبيدة اصنافا وقيل منا الصالحون ومنا المؤمنون لم يتناهوا فى الصلاح قال القرطبى والاول أحسن لانه كان فى الجن من آمن بموسى وعيسى وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم قالوا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه وهذا يدل على ايمان قوم منهم بالتوراة *(تنبيه)* القدد جمع قدة والمراد بها الطريقة وأصلها السيرة يقال قدة فلان حسنة اى سيرته وهو من قد السير أى قطعه فاستعير للسيرة المعتدلة قال الشاعر القابض الباسط الهادى بطلعته * فى فتنة الناس اذ أهواؤهم قدد
وقال لبيد يرثى اخاه

لم تبلغ العين كل نهمتها * يوم تمشى الجياد بالقدد

والقد بالكسر سير يقد من جلد غير مدبوغ ويقال ماله قد ولا قحف فالقد اناء من جلد والقحف اناء من خشب (وانا ظننا أن لن نعجز الله) أى وانا علمنا وتيقنا بالتفكر والاستدلال فى آيات الله انا فى قبضة الملك وسلطانه لن نفوته بهرب ولا غيره لما له من الاحاطة بكل شئ علما وقدرة لانه واحد لا مثل له *(تنبيه)* أطلقوا الظن على العلم اشارة الى أن العاقل ينبغى له أن يتجنب ما يتخيله ضارا ولو بادنى أنواع التخيل فكيف اذا تيقن وقولهم (فى الارض) حال وكذلك هربا فى قولهم (ولن نعجزه) أى بوجه من الوجوه (هربا) فانه مصدر فى موضع الحال تقديره لا نفوته كائنين فى الارض أوهاربين منها الى السماء فليس لنا مهرب الا فى قبضته فأين أم الى أين المهرب (وانا لما سمعنا) أى من النبى صلى الله عليه وسلم (الهدى) أى القرآن الذى له من العراقة التامة فى صفة البيان والدعاء الى الخير ما سوغ ان يطلق عليه نفس الهدى (آمنا به) وبالله وصدقنا محمدا صلى الله عليه وسلم على رسالته وكان صلى الله عليه وسلم مبعوثا الى الانس والجن قال الحسن بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم الى الانس والجن ولم يبعث الله تعالى قط رسولا من الجن ولا من أهل البادية ولا من النساء وذلك لقوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا يوحى اليهم من أهل القرى وفى الصحيح وبعثت الى الاحمر والاسود أى الانس والجن وفى ارساله الى الملائكة خلاف قدمنا الكلام عليه (فمن يؤمن بربه) أى المحسن اليه منا ومن غيرنا (فلا) أى فهو خاصة لا (يخاف بخسا ولا رهقا) قال ابن عباس لا يخاف أن ينقص من حسناته ولا أن يزاد فى سيآته لان البخس النقصان والرهق العدوان وغشيان المحارم (وانا منا) أى الجن (المسلمون) أى المخلصون فى صفة الاسلام (ومنا القاسطون) أى الجائرون اى وانا بعد سماع القرآن مختلفون فمنا من أسلم ومنا من كفروا لقاسط الجائر لانه عدل عن الحق والمقسط العادل الى الحق قسط اذا جار واقسط اذا عدل فقسط الثلاثى بمعنى جار وأقسط الرباعى بمعنى عدل وعن سعيد بن جبير أن الحجاج قال له حين أراد قتله ما تقول فى قال قاسط عادل فقال القوم

ما أحسن ما قال حسبو انه يصفه بالقسط والعدل فقال الحجاج يا جهلة انما سماني ظالما مشركا وتلا لهم قوله تعالى وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ثم الذين كفروا بربهم يعدلون (فمن أسلم) أي أوقع الاسلام كله بأن أسلم ظاهره وباطنه من الجن وغيرهم (فأولئك) أي العالو الرتبة (تحروا) أي توخوا وقصدوا واجتهدوا (رشدا) أي صوابا عظيما وسدادا كان لما عندهم من النقائص شاردا عنهم فعالجوا أنفسهم حتى ملكوه فجعلوه لهم منزلا (وأما القاسطون) أي العريقون في صفة الجور عن الصواب من الانس والجن فأولئك اهملوا أنفسهم فلم يتحروا الهدى فضلوا فأبعدوا عن الطريق القويم فوقعوا في المهالك التي لا منجى منها (فكانوا لجهنم) أي النار البعيدة القعر التي تلقاهم بالتجهم والكراهة والعبوسة (حطبا) أي توقد بهم النار فهي في اتقاد ما داموا أحياء مادامت تتقد لا يموتون فيستريحون ولا يحيون فينتعشون *(تنبيه)* قوله تعالى فكانوا أي في علم الله عز وجل (فان قيل) لم ذكروا عقاب القاسطين ولم يذكروا ثواب المسلمين (أجيب) بأنهم في مقام الترهيب فذكروا ما يحذروه وما يجب للعلم به لان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا بل لا بد ان يزيد عليه تسعة اضعافه وعنده المزيد أو انهم ذكروه بقولهم تحروا رشدا أي تحروا رشدا عظيما لا يعلم كنهه الا الله تعالى ومثل هذا لا يتحقق الا في الثواب (فان قيل) ان الجن مخلوقون من النار فكيف يكونون حطبا للنار (أجيب) بأنهم وان خلقوا منها لكنهم يتغيرون عن تلك الكيفية فيصيرون لحما ودما هكذا قيل وهذا آخر كلام الجن وأن في قوله تعالى (وأن) هي المخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي وأنهم وهو معطوف على أنه استمع أي وأوحى الى أن الشأن العظيم (لو استقاموا على الطريقة) أي طريقة الاسلام (لأسقيناهم) أي لجعلنا لهم بما لنا من العظمة (ماء غدقا) أي لو آمن هؤلاء الكفار لوسعنا عليهم في الدنيا ولبسطنا لهم في الرزق وضرب الماء الغدق مثلا لان الخير والرزق كله في المطر كما قال تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم الآية وقال تعالى ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم الآية وقال تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا الآية وقال تعالى استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا الى قوله ويمددكم بأموال وبنين الآية (لنفتنهم) أي نعاملهم معاملة المختبر بما لنا من العظمة (فيه) اى في ذلك الماء الذي يكون عندهم أنواع النعم لينكشف حال الشاكر والكافر قال الرازي وهذا بعدما حبس عنهم المطر سنين اه قال الجلال المحلي سبع سنين وقال عمر رضي الله تعالى عنه أينما كان الماء كان المال وأينما كان المال كانت الفتنة وقال الحسن وغيره كانوا سامعين مطيعين ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر ففتنوا بها فوثبوا بامامهم فقتلوه يعني عثمان رضي الله تعالى عنه قال البقاعي ويجوز ان يكون مستعارا للعلم وأنواع المعارف الناشئة عن العبادات التي هي للنفوس كالنفوس للابدان وتكون الفتنة بمعنى التخليص من الهموم والرذائل في الدنيا والنعم في الآخرة من فتنت الذهب اذا خلصته من غشه (ومن يعرض) اى اعراضا مستمرا الى الموت (عن ذكر ربه) أي مجاوزا عن عبادة المحسن اليه المربي له الذي لا احسان عنده من غيره وقيل المراد بالذكر

القرآن

القرآن وقيل الوحى وقيل الموعظة (نسلكه) اى ندخله (عذابا) يكون مظروفا فيه كالخيط فى ثقب الخرزة فى غاية الضيق (صعدا) أى شاقا شديدا يعلوه ويغلبه ويصعد عليه ويكون كل يوم أعلى مما قبله جزاء وفاقا وقال ابن عباس هو جبل فى جهنم قال الخدرى كلما جعلوا أيديهم عليه ذابت وعن ابن عباس أن المعنى مشقة من العذاب لان الصعد فى اللغة هو المشقة تقول تصعدنى الامر اذا شق عليك ومنه قول عمر ماتصعدنى شئ ماتصعدنى فى خطبة النكاح يريد ماشق على وماغلبنى والمشى فى الصعود يشق وقال عكرمة هو صخرة ملساء فى جهنم يكلف صعودها فاذا انتهى الى أعلاها احدر الى جهنم وقال الكلبى يكلف الوليد بن المغيرة أن يصعد جبلا فى النار من صخرة ملساء يجذب من أمامه بسلاسل ويضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها ولا يبلغ فى أربعين سنة فاذا بلغ أعلاها أحدر الى أسفلها ثم يكلف أيضا الصعود فذلك دأبه أبدا وهو قوله تعالى سأرهقه صعودا وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالياء التحتية على الغيبة لاعادة الضمير على الله تعالى والباقون بالنون على الالتفات وهذا كما فى قوله تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ثم قال باركنا حوله لنريه من آياتنا واتفقوا على فتح الهمزة فى قوله تعالى (وأن) أى وأوحى الى أن (المساجد لله) أى مختصة بالملك الاعظم والمساجد قيل جمع مسجد بالكسر وهو موضع السجود وقال الحسن أراد بها كل البقاع لان الارض جعلت كلها مسجدا للنبى صلى الله عليه وسلم يقول أينما كنتم فصلوا وأينما صليتم فهو مسجد وقيل انه جمع مسجد بالفتح مرادا به الاعضاء الواردة فى الحديث الجبهة والانف والركبتان واليدان والقدمان وهو قول سعيد بن المسيب وابن حبيب والمعنى ان هذه الاعضاء أنعم الله تعالى بها عليك فلا تسجد لغيره فتجحد نعمة الله قال عطاء مساجدك اعضاؤك التى أمرت بالسجود عليها لاتذللها لغير خالقها قال صلى الله عليه وسلم أمرت أن أسجد على سبعة أعظم وذكر الحديث وقال صلى الله عليه وسلم اذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب قال ابن الاثير الآراب الاعضاء وهذا القول اختاره ابن الانبارى وقيل بل جمع مسجد وهو مصدر بمعنى السجود ويكون الجمع لاختلاف الانواع وقال القرطبى المراد بها البيوت التى تبنيها أهل الملل للعبادة قال سعيد بن جبير قالت الجن كيف لنا ان نأتى المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناؤن عنك فنزلت وأن المساجد لله أى بنيت لذكر الله تعالى وطاعته وقال ابن عباس المساجد هنا مكة التى هى القبلة وسميت مكة مساجد لان كل أحد يسجد اليها قال القرطبى والقول بأنها البيوت المبنية للعبادة أظهر الاقوال ان شاء الله تعالى وهو مروى عن ابن عباس واضافة المساجد الى الله تعالى اضافة تشريف وتكريم وخص منها المسجد العتيق بالذكر فقال تعالى وطهر بيتى وهى وان كانت لله ملكا وتشريفا قد تنسب الى غيره تعريفا قال صلى الله عليه وسلم صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام وفى رواية ان صلاة فيه خير من مائة صلاة فى مسجدى هذا قال القرطبى وهذا حديث صحيح وفى حديث سابق صلى الله عليه وسلم بين الخيل التى لم تضمر من الثنية الى مسجد بنى زريق ويقال مسجد فلان لانه حبسه ولا خلاف بين الامة فى تحبيس

المساجد والقناطر والمقابر وان اختلفوا فى تحبيس غير ذلك (فلا تدعوا) اى فلا تعبدوا أيها المخلوقون (مع الله) الذى له جميع العظمة (أحدا) وهذا توبيخ للمشركين فى دعواهم مع الله تعالى غيره فى المسجد الحرام وقال مجاهد كانت اليهود والنصارى اذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فأمر الله تعالى نبيه والمؤمنين ان يخلصوا لله الدعوة اذا دخلوا المساجد كلها يقول فلا تشركوا فيها صنما أو غيره مما يعبد وقيل المعنى أفردوا المساجد لذكر الله تعالى ولا تجعلوا لغير الله تعالى فيها نصيبا وفى الصحيح من نشد ضالة فى المسجد فقولوا لا ردها الله عليك فان المساجد لم تبن لهذا وقال الحسن من السنة اذا دخل رجل المسجد أن يقول لا اله الا الله لان قوله تعالى فلا تدعوا مع الله أحدا فى ضمنه أمر بذكر الله تعالى ودعائه وروى الضحاك عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا دخل المسجد قدم رجله اليمنى وقال وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا اللهم عبدك وزائرك وعلى كل مزور حق وأنت خير مزور وفأسئلك برحمتك أن تفك رقبتى من النار فاذا خرج من المسجد قدم رجله اليسرى وقال اللهم صب على الخير صبا ولا تنزع عنى صالح ما أعطيتنى أبدا ولا تجعل معيشتى كدا واجعل لى فى الارض جدا أى غنى وقرأ (وانه) نافع وشعبة بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بالفتح أى وأوحى الى انه (لما قام عبد الله) اى عبد الملك الاعلى الذى له الجلال كله والجمال فلا موجود يدانيه بل كل موجود من فائض فضله وعبد الله هو محمد صلى الله عليه وسلم حين كان يصلى ببطن نخلة ويقرأ القرآن (فان قيل) هلا قيل رسول الله أو النبى (أجيب) بأن تقديره وأوحى فلما كان واقعا فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه جىء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل أو لان المعنى ان عبادة عبد الله ليست بأمر مستبعد عن العقل ولا مستنكر حتى تكونوا عليه لبدا ومعنى (يدعوه) أى يعبده وقال ابن جريج يدعوه أى قام اليهم داعيا الى الله تعالى فهو فى موضع الحال أى موحدا له (كادوا) أى قرب الجن المستمعون لقراءته (يكونون عليه) أى على عبد الله (لبدا) أى متراكبين بعضهم على بعض من شدة ازدحامهم حرصا على سماع القرآن وقيل كادوا يركبونه حرصا قاله الضحاك وقال ابن عباس رغبة فى سماع القرآن وروى عن مكحول ان الجن بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الليلة وكانوا سبعين ألفا وفرغوا من بيعته عند انشقاق الفجر وعن ابن عباس أيضا ان هذا من قول الجن لما رجعوا الى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وائتمامهم به فى الركوع والسجود وقال الحسن وقتادة وابن زيد يعنى لما قام عبد الله محمد بالدعوة تلبدت الانس والجن على هذا الامر ليبطلوه فأبى الله تعالى الا ان ينصره ويتم نوره واختار الطبرى ان يكون كادت العرب يجتمعون على النبى صلى الله عليه وسلم ويتظاهرون على اطفاء النور الذى جاء به وقرأ هشام بضم اللام والباقون بكسرها فالاولى جمع لبدة بضم اللام نحو غرفة وغرف وقيل بل هو اسم مفرد صفة من الصفات وعليه قوله تعالى مالا لبدا واما الثانية فجمع لبدة بالكسر نحو قربة وقرب واللبدة واللبدة الشئ الملبد أى المتراكب بعضه على بعض ومنه لبدة الاسد كقول زهير

لدى أسد شاكي السلاح مقذف * له لبد أظفاره لم تقلم

ومنه اللبد لتلبد بعضه فوق بعض * ولما قال كفار قريش للنبي صلى الله عليه وسلم انك جئت بأمر عظيم وقد عاديت الناس كلهم فارجع عن هذا فنحن نجيرك (قال) صلى الله عليه وسلم مجيبا لهم (انما أدعو ربي) أي الذي أوجدني ورباني ولا نعمة عندي الا منه وحده لا أدعو غيره حتى تجيبوا مني (ولا أشرك به) أي الآن ولا في مستقبل الزمان بوجه من الوجوه (أحدا) من ود وسواع ويغوث ويعوق وغيرها من الصامت والناطق وقرأ عاصم وحمزة قل بصيغة الامر التفاتا أي قل يا محمد والباقون قال بصيغة الماضي والخبر اخبارا عن عبد الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم قال الجحدري وهو في المصحف كذلك وقد تقدم لذلك نظائر في قل سبحان ربي في آخر الاسراء وكذا في أول الانبياء وآخرها وآخر المؤمنين (قل) أي يا أشرف الخلق لهؤلاء الذين خالفوك (اني لا أملك لكم) أي الآن ولا بعده بنفسي من غير اقدار الله تعالى لي (ضرا ولا رشدا) أي لا أقدر أن أدفع عنكم ضرا ولا أسوق اليكم خيرا وقيل لا أملك لكم ضرا أي كفرا ولا رشدا أي هدى لانه لا يؤثر شيء من الاشياء الا الله تعالى وانما علي البلاغ وقيل الضر الموت والرشد الحياة (قل) أي لهؤلاء (اني) وزاد في التأكيد لان ذلك في غاية الاستقرار في النفوس فقال (لن يجيرني) أي فيدفع عني ما يدفع المجير عن جاره (من الله) اي الذي له الامر كله ولا أمر لاحد معه (أحد) أي كائن من كان ان أرادني سبحانه بسوء (ولن أجد) أي أصلا (من دونه) أي الله تعالى (ملتحدا) أي معدلا وموضع ميل وركون ومدخلا وملتجأ وحيلة وان اجتهدت كل الجهد والملتحد الملجأ وأصله المدخل من اللحد وقيل محيصا ومعدلا وقوله (الا بلاغا) فيه أوجه أحدها أنه استثناء منقطع أي لكن ان بلغت عن الله رحمني لان البلاغ عن الله لا يكون داخلا تحت قوله ولن أجد من دونه ملتحدا لانه لا يكون من دون الله بل يكون من الله تعالى وباعانته وتوفيقه الثاني انه متصل وتأويله أن الاستجارة مستعارة من البلاغ اذ هو سببها وسبب رحمته تعالى والمعنى لن أجد شيأ أميل اليه واعتصم به الا أن أبلغ وأطيع فيجيرني واذا كان متصلا جاز نصبه من وجهين أرجحهما أن يكون بدلا من ملتحدا لان الكلام غير موجب وهو اختيار الزجاج الثاني انه منصوب على الاستثناء الثالث انه مستثنى من قوله لا أملك فان التبليغ ارشاد وانتفاع وما بينهما اعتراض مؤكد لنفي الاستطاعة وقوله (من الله) أي الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلما فيه وجهان أحدهما ان من بمعنى عن لان بلغ يتعدى بها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم الا بلغوا عني والثاني أنه متعلق بمحذوف على انه صفة لبلاغا قال الزمخشري من ليست بصلة للتبليغ وانما هي بمنزلة من في قوله تعالى براءة من الله بمعنى بلاغا كائنا من الله وقوله (ورسالاته) فيه وجهان أحدهما انه منصوب نسقا على بلاغا كأنه قيل لا أملك لكم الا التبليغ والرسالات ولم يقل الزمخشري غيره والثاني أنه مجرور نسقا على الجلالة أي الا بلاغا عن الله تعالى وعن رسالاته كذا قدره أبو حيان وجعله هو الظاهر ويجوز فيه جعل من بمعنى عن والتجوز في الحروف مذهب كوفي ومع ذلك فغير منقاس عندهم (ومن يعص الله) أي الذي له العظمة كلها (ورسوله) الذي

ختم به النبوة والرسالة فجعل رسالته محيطة بجميع الملل فى التوحيد وغيره على سبيل الجبر (فان له) اى خاصة (نار جهنم) اى التى تلقاه بالعبوسة والغيظ وقوله تعالى (خالدين فيها أبدا) حال مقدرة من الهاء فى له والمعنى مقدر خلودهم والعامل الاستقرار الذى تعلق به هذا الجار وحمل على معنى من فعل ذلك فوحد أولا للفظ وجمع للمعنى وأكد بقوله تعالى (فيها) ردا على من يدعى الانقطاع قال البقاعى وأما من يدعى أنها لا تحرق وان عذابها عذوبة فليس احدا جن منه الا من تابعه على ضلاله وغيه ومحاله وليس لهم دواء الا السيف فى الدنيا والعذاب فى الآخرة بما سموه عذوبة وهم صائرون اليه وموقوفون عليه وحتى فى قوله تعالى (حتى اذا رأوا) ابتدائية فيها معنى الغاية لمقدر قبلها أى لا يزالون على كفرهم الى أن يروا (ما يوعدون) من العذاب فى الآخرة أو فى الدنيا كوقعة بدر (فسيعلمون) اى فى ذلك اليوم بوعد لا خلف فيه (من اضعف ناصرا) أى من جهة الناصر أنا وان كنت فى هذا الوقت وحيدا مستضعفا أوهم (وأقل عددا) وان كانوا الآن بحيث لا يحصيهم عدد الا الله تعالى فيالله ما أعظم كلام الرسل حيث يستضعفون أنفسهم ويذكرون قوتهم من جهة مولاهم الذى بيده الملك وله جنود السموات والارض بخلاف الجبابرة فانهم لا كلام لهم الا فى تعظيم أنفسهم وازدراء غيرهم قال مقاتل لما سمعوا قوله تعالى حتى اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا قال النضر بن الحرث متى يكون هذا الذى توعدنا به قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهؤلاء فى جوابهم باتيانهم العذاب وسألوا استهزاء عن وقت وقوعه (ان) أى ما (أدرى) بوجه من الوجوه (أقريب ما توعدون) أى فيكون الآن أو قريبا من هذا الاوان بحيث يتوقع عن قرب وقوله (أم يجعل) اى أم بعيد يجعل (له) أى لهذا الوعد (ربى) اى المحسن الى ان قدمه أو أخره (أمدا) أى أجلا مضروبا فلا يتوقع دون ذلك الامد فهو فى كل حال متوقع فكونوا على غاية الحذر لانه لابد من وقوعه لا كلام فيه وانما الكلام فى تعيين وقته وليس الى (فان قيل) أليس انه صلى الله عليه وسلم قال بعثت أنا والساعة كهاتين فكان عالما بقرب وقوع القيامة فكيف قال ههنا لا أدرى أقريب ام بعيد (اجيب) بأن المراد بقرب وقوعه هو ان ما بقى من الدنيا اقل مما انقضى فهذا القدر من القرب معلوم فأما معرفة مقدار القرب المرتب وعدم ذلك فغير معلوم * (تنبيه) * أقريب خبر مقدم وما توعدون مبتدأ مؤخر ويجوز ان يكون قريب مبتدأ لاعتماده على الاستفهام وما توعدون فاعل به أى أقريب الذى توعدون نحو أقائم أبواك وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها وقوله تعالى (عالم الغيب) بدل من ربى أو بيان أو خبر مبتدأ مضمر أى هو عالم الغيب كله وهو ما لم يبرز الى عالم الشهادة فهو مختص بعلمه سبحانه فلذلك سبب عنه قوله تعالى (فلا يظهر) اى بوجه من الوجوه فى وقت من الاوقات (على غيبه) الذى غيبه عن غيره فهو مختص به (أحدا) لعزة علم الغيب ولانه خاصة الملك (الا من ارتضى) وقوله تعالى (من رسول) تبيين لمن ارتضى أى الا من يصطفيه لرسالته ونبوته فيظهره على ما يشاء من الغيب وتارة يكون ذلك الرسول ملكا وتارة يكون بشرا وتارة يظهره على ذلك بواسطة ملك وتارة بغير واسطة

كموسى عليه السلام فى أوقات المناجاة ومحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فى العالم الاعلى فى حضرة قاب قوسين أو أدنى وقال القرطبى المعنى فلا يظهر على غيبه أحدا الامن ارتضى من رسول فانه يظهره على مايشاء من غيبه لان الرسل مؤيدون بالمعجزات ومنها الاخبار عن بعض المغيبات كما ورد فى التنزيل فى قوله تعالى وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم وقال الزمخشرى فى هذه الآية ابطال الكرامات لان الذين تضاف اليهم وان كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل وقد خص الله تعالى الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وفيها ابطال الكهانة والتنجيم لان أصحابهما أبعد شىء من الارتضاء وأدخله فى السخط اه وانكار الكرامات مذهب المعتزلة وأما مذهب أهل السنة فيثبتونها فانه يجوز أن يلهم الله تعالى بعض أوليائه وقوع بعض الوقائع فى المستقبل فيخبر به وهو من اطلاع الله اياه على ذلك ويدل على صحة ذلك ماروى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لقد كان فيمن قبلكم من الامم ناس محدثون من غير أن يكونوا أنبياء وان يكن فى أمتى أحد فانه عمر أخرجه البخارى قال ابن وهب تفسير محدثون ملهمون ولمسلم عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان يقول فى الامم قبلكم محدثون فان يكن فى أمتى منهم أحد فان عمر بن الخطاب منهم ففى هذا اثبات كرامات الاولياء فان قيل لو جازت الكرامة للولى لما تميزت معجزة النبى من غيرها وانسد الطريق الى معرفة الرسول من غيره (أجيب) بأن معجزة النبى أمر خارق للعادة مع عدم المعارضة مقترن بالتحدى ولا يجوز للولى ان يدعى خرقا للعادة مع التحدى اذ لو ادعاه الولى لكفر من ساعته فبان الفرق بين المعجزة والكرامة وأما الكهانة وماضاهاها فقال القرطبى ان العلماء قالوا لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ثم استثنى من ارتضاه من الرسل فأعلمهم ماشاء من غيبه بطريق الوحى اليهم وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم وليس المنجم ومن ضاهاه ومن يضرب بالحصا وينظر فى الكواكب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على مايشاء من غيبه بل هو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه قال بعض العلماء وليت شعرى ما يقول المنجم فى سفينة ركب فيها ألف انسان مختلفى الاحوال والرتب فيهم الملك والسوقة والعالم والجاهل والغنى والفقير والكبير والصغير مع اختلاف طوالعهم وتباين مواليدهم ودرجات نجومهم فعمهم حكم الغرق فى ساعة واحدة فان قال قائل انما أغرقهم الطالع الذى ركبوا فيه فيكون على مقتضى ذلك ان هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلها على اختلافها عند ولادة كل واحد منهم وما يقتضيه طالعه المخصوص به فلا فائدة اذا فى عمل المواليد ولا دلالة فيها على شقى وسعيد ولم يبق الا معاندة القرآن الكريم ولقد أحسن القائل

حكم المنجم ان طالع مولدى * يقضى على بميتة الغرق
قل للمنجم صبحة الطوفان هل * ولد الجميع بكوكب الغرق

وقيل لعلى رضى الله عنه لما أراد لقاء الخوارج تلقهم والقمر فى العقرب فقال فأين قمرهم

وكان ذلك فى آخر السنة فانظر الى هذه الكلمة التى أجاب بها وما فيها من المبالغة فى الرد على من يقول بالنجم وقال له مسافر بن عوف يا أمير المؤمنين لا تسر فى هذه الساعة وسر بعد ثلاث ساعات تمضين من النهار فقال له على ولم قال له انك ان سرت فى هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد وان سرت فى الساعة التى أمرتك بها ظهرت وظفرت وأصبت ما طلبت فقال على ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم منجم ولا لنا من بعده ثم قال نحن صدقك فى هذا القول لم آمن عليه أن يكون اتخذ من دون الله ندا أو ضدا اللهم لا طير الا طيرك ولا خير الا خيرك ثم قال للمتكلم نكذبك ونخالفك ونسير فى الساعة التى تنهانا عنها ثم أقبل على الناس فقال يا أيها الناس اياكم وتعلم النجوم الا ما تهتدون به فى ظلمات البر والبحر انما المنجم كالكافر والكافر فى النار والمنجم كالساحر والساحر فى النار والله لئن بلغنى أنك تنظر فى النجوم أو تعمل بها لاخلدنك فى الحبس ما بقيت وبقيت ولاحرمنك العطاء ما كان لى سلطان ثم سافر فى الساعة التى نهاه عنها فلقى القوم فقتلهم وهى وقعة النهروان الثابتة فى صحيح مسلم ثم قال لو سرنا فى الساعة التى أمرنا بها وظفرنا وظهرنا لقال انما كان ذلك بتنجيمى وما لمحمد منجم وما لنا بعده وقد فتح الله تعالى علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان ثم قال يا أيها الناس توكلوا على الله وثقوا به فانه يكفى عمن سواه (فانه) أى الله سبحانه يظهر ذلك الرسول على ما يريد من ذلك الغيب وذلك أنه اذا أراد اظهاره عليه (يسلك) أى يدخل ادخال السلك فى الجوهرة فى تقومه ونفوذه من غير أدنى تعويج الى غير المراد (من بين يديه) أى الجهة التى يعلمها ذلك الرسول (ومن خلفه) أى الجهة التى تغيب عن علمه فصار ذلك كناية عن كل جهة قال البقاعى ويمكن أن يكون ذكر الجهتين دلالة على الكل وخصهما لان العدو متى أعريت واحدة منهما أتى منها ومتى حفظتا لم يأت من غيرهما لانه يصير بين الاولين والآخرين (رصدا) أى حرسا من جنوده يحرسونه ويحفظونه من الشياطين أن يسترقوا السمع من الملائكة ويحفظونه من الجن أن يسمعوا الوحى فيلقوه الى الكهنة قبل الرسول فيطردونهم عنه ويعصمونه من وساوسهم حتى يبلغ ما يوحى اليه وقال مقاتل وغيره كان الله اذا بعث رسولا أتاه ابليس فى صورة ملك يخبر فيبعث الله تعالى من بين يديه ومن خلفه رصدا من الملائكة يحرسونه ويطردون الشياطين فاذا جاءه شيطان فى صورة ملك أخبروه بأنه شيطان فاحذره واذا جاءه ملك قالوا له هذا رسول ربك وعن الضحاك ما بعث نبى الا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك (ليعلم) أى الله علم ظهور كقوله تعالى حتى نعلم المجاهدين (أن) مخففة من الثقيلة أى أنه (قد أبلغوا) أى الرسل (رسالات ربهم) وحد أولا على اللفظ فى قوله تعالى من بين يديه ومن خلفه ثم جمع على المعنى كقوله تعالى فان له نار جهنم خالدين فيها والمعنى ليبلغوا رسالات ربهم كما هى محروسة من الزيادة والنقصان وقيل ليعلم محمد صلى الله عليه وسلم أن جبريل قد بلغ رسالات ربه وقيل ليعلم محمد صلى الله عليه وسلم أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم (وأحاط بما لديهم) أى بما عند الرسل من الحكم والشرائع لا يفوته منها شئ ولا ينسى منها حرفا فهو مهيمن عليها حافظ لها (وأحصى)

أى

أى الله سبحانه وتعالى (كل شىء) أى من القطر والرمل وورق الاشجار وزبد البحر وغير ذلك (عددا) ولو على أقل مقادير الذر فيما لم يزل وفيما لا يزال فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه وقال ابن جبير رضى الله عنه ليعلم الرسل أن ربهم قد أحاط بما لديهم فيبلغوا رسالاته *(تنبيه)* هذه الآية تدل على أنه تعالى عالم بالجزئيات وبجميع الموجودات وعددا يجوز أن يكون تمييزا منقولا من المفعول به والاصل أحصى عدد كل شىء كقوله تعالى وفجرنا الارض عيونا أى عيون الارض وأن يكون منصوبا على الحال أى وضبط كل شىء معدودا محصورا وأن يكون مصدرا فى معنى الاحصاء وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جنى صدق محمدا وكذب به عتق رقبة حديث موضوع

(سورة المزمل مكية)

فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر وقال ابن عباس رضى الله عنهما الا آيتين منها واصبر على ما يقولون والتى تليها ذكره الماوردى وقال الثعلبى ان ربك يعلم أنك تقوم الى آخر السورة فانه نزل بالمدينة وهى تسع عشرة أو عشرون آية ومائتان وخمس وثمانون كلمة وثمانمائة وثمانية وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذى من توكل عليه كفاه فى جميع الاحوال (الرحمن) الذى عم بنعمة الايجاد المهتدى والضال (الرحيم) الذى خص حزبه بالسداد فى الافعال والاقوال وقوله تعالى (يا أيها المزمل) أصله المتزمل فأدغمت التاء فى الزاى يقال تزمل يتزمل تزملا فاذا أريد الادغام اجتلبت همزة الوصل وهذا الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وفيه ثلاثة أقوال الاول قال عكرمة يا أيها المزمل بالنبوة والملتزم للرسالة وعنه يا أيها الذى ازمل هذا الامر أى حمله ثم فتر والثانى قال ابن عباس رضى الله عنهما يا أيها المزمل بالقرآن والثالث قال قتادة رضى الله عنه يا أيها المزمل بثيابه قال النخعى كان متزملا بقطيفة عائشة بمرط طوله أربعة عشر ذراعا قالت عائشة رضى الله عنها كان نصفه على وأنا نائمة ونصفه على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلى والله ما كان خزا ولا قزا ولا مرعزى ولا ابريسما ولا صوفا كان سداه شعرا ولحمته وبرا ذكره الثعلبى ولحمة الثوب بفتح اللام وضمها والفتح أفصح ولحمة النسب كذلك والضم أفصح ولحمة البازى بالضم لا غير لانها كاللقمة قال القرطبى وهذا القول من عائشة رضى الله عنها يدل على أن السورة مدنية فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يبن بها الا بالمدينة والقول بأنها مكية لا يصح وقال الضحاك تزمل لمنامه وقيل بلغه من المشركين قول سوء فيه فاشتد عليه فتزمل وتدثر فنزلت يا أيها المزمل ويا أيها المدثر وقيل كان هذا فى ابتداء ما أوحى اليه فانه صلى الله عليه وسلم لما جاءه الوحى فى غار حراء رجع الى خديجة رضى الله عنها زوجته يرجف فؤاده فقال زملونى زملونى لقد خشيت على نفسى أى أن يكون هذا مبادى شعر أو كهانة وكل ذلك من الشيطان أو أن يكون الذى ظهر له بالوحى ليس الملك وكان صلى الله عليه وسلم يبغض الشعر والكهانة غاية البغضة فقالت له وكانت وزيرة صدق

رضى الله تعالى عنها كلا والله لا يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ونحو هذا من الكمال الذى ينبت وقيل انه صلى الله عليه وسلم كان نائما فى الليل متزملا فى قطيفة فنبه ونودى بما يهجن تلك الحالة التى كان عليها من التزمل فى قطيفته فقيل له يا أيها المزمل (قم الليل) أى الذى هو وقت الخلوة والخفية والستر فصل لنا فى كل ليلة من هذا الجنس وقف بين يدينا بالمناجاة والانس بما أنزل عليك من كلامنا فانا نريد اظهارك واعلاء قدرك فى البر والبحر والسر والجهر وقيام الليل فى الشرع معناه الصلاة فلذا لم يقيده وهى جامعة لانواع الاعمال الظاهرة والباطنة وهى عمادها فذكرها دال على ما عداها * ولما كان للبدن حظ فى الراحة قال تعالى مستثنيا من الليل (الا قليلا) أى من كل ليلة فان الاشتغال بالنوم فعل من لا يهمه أمر ولا يعنيه شأن ألا ترى الى قول ذى الرمة

وكائن تخطت ناقتى من مفازة * ومن نائم عن ليلها متزمل

يريد الكسلان المتقاعس الذى لا ينهض فى معاظم الامور وكفايات الخطوب ولا يحمل نفسه المشاق والمتاعب ونحوه * سهدا اذا ما نام ليل الهوجل * ومن أمثالهم

أوردها سعد وسعد مشتمل * ماهكذا توردياسعد الابل

فذمه بالاشتمال بكسائه وجعل ذلك خلاف الجلد والكيس وأمر بأن يختار على الهجود التهجد وعلى التزمل التشمر والتخفف للعبادة والمجاهدة فى الله لاجرم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تشمر لذلك مع أصحابه حق التشمر وأقبلوا على احياء لياليهم ورفضوا له الرقاد والدعة وتجاهدوا فيه حتى انتفخت أقدامهم واصفرت ألوانهم وظهرت السيما فى وجوههم وتراقى أمرهم الى حد رحمهم له ربهم فخفف عنهم وقال الكلبى انما تزمل صلى الله عليه وسلم بثيابه ليتهيأ للصلاة وهو اختيار الفراء فهو على هذا ليس بتهجين بل هو ثناء عليه وتحسين لحاله التى كان عليها وأمر بأن يدوم على ذلك ويواظب عليه وعن عكرمة رضى الله عنه أن المعنى يا أيها الذى زمل أمرا عظيما أى حمله والزمل الحمل قال البغوى قال الحكماء كان هذا الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم فى أول الوحى قبل تبليغ الرسالة ثم خوطب بعد بالنبى والرسول وقال السهيلى ليس المزمل من أسماء النبى صلى الله عليه وسلم كما ذهب اليه بعض الناس وعدوه فى أسمائه صلى الله عليه وسلم وانما المزمل اسم مشتق من حاله التى كان عليها حين الخطاب وكذلك المدثر وفى خطابه بهذا الاسم فائدتان احداهما الملاطفة فان العرب اذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التى هو عليها كقول النبى صلى الله عليه وسلم لعلى حين غاضب فاطمة رضى الله تعالى عنهما فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له قم أبا تراب اشعارا له بأنه غير عاتب عليه وملاطفة له وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لحذيفة قم يا نومان وكان نائما ملاطفة له واشعارا بترك العتب والتأنيب فقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم يا أيها المزمل قم فيه تأنيس له وملاطفة ليستشعر أنه غير عاتب عليه والفائدة الثانية التنبيه لكل متزمل راقد ليله لأن يتنبه الى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه لان الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من

عمل ذلك العمل وانصف بثلث الصفة والليل مدة من غروب الشمس الى طلوع الفجر قال القرطبي
واختلف هل كان قيامه فرضا ونفلا والدلائل تقوى أن قيامه كان فرضا الان المندوب لا يقع
على بعض الليل دون بعض لان قيامه ليس مخصوصا بوقت دون وقت * واختلف هل كان فرضا
على النبي صلى الله عليه وسلم وحده أو عليه وعلى من كان قبله من الانبياء أو عليه وعلى أمته على
ثلاثة أقوال الاول قول سعيد بن جبير رضى الله عنه لتوجه الخطاب اليه الثانى قول ابن عباس
رضى الله عنهما قال كان قيام الليل فريضة على النبى صلى الله عليه وسلم والانبياء قبله الثالث
قول عائشة وابن عباس رضى الله عنهم أيضا انه كان فرضا عليه وعلى أمته لما روى مسلم أن
هشام بن عامر قال لعائشة رضى الله عنها أنبئينى عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت
ألست تقرأ يا أيها المزمل فقلت بلى فقالت فان الله عز وجل افترض قيام الليل فى أول هذه
السورة فقام نبى الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا وأمسك الله عز وجل خاتمتها اثنى عشر
شهرا فى السماء حتى أنزل الله عز وجل فى آخر هذه السورة التخفيف فصار قيام الليل تطوعا
بعد فريضة وقيل عسر عليهم تمييز القدر الواجب فقاموا الليل كله وشق عليهم فنسخ بقوله تعالى
آخرها فاقرؤا ما تيسر من القرآن وكان بين الوجوب ونسخه سنة وقيل نسخ التقدير بمكة وبقى
التهجد حتى نسخ بالمدينة وروى وكيع ويعلى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما نزلت يا أيها
المزمل كانوا يقومون نحوا من قيامهم فى شهر رمضان حتى نزل آخرها وكان بين نزول
أولها وآخرها نحوا من سنة وقال سعيد بن جبير رضى الله عنه مكث النبى صلى الله عليه وسلم
وأصحابه عشر سنين يقومون الليل فنزلت بعد عشر سنين ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من
ثلثى الليل فخفف الله تعالى عنهم وقيل كان قيام الليل واجبا ثم نسخ بالصلوات الخمس والصحيح
أنه صلى الله عليه وسلم بعث يوم الاثنين فى رمضان وهو ابن أربعين سنة وقيل ثلاث وأربعين
وآمنت به خديجة رضى الله عنها ثم بعدها قيل على رضى الله عنه وهو ابن تسع سنين وقيل ابن
عشر وقيل أبو بكر وقيل زيد بن حارثة ثم أمر بتبليغ قومه بعد ثلاث من مبعثه فأول ما فرض
عليه صلى الله عليه وسلم بعد الانذار والدعاء الى التوحيد من قيام الليل ما ذكر فى أول
السورة ثم نسخ بما فى آخرها ثم نسخ بايجاب الصلوات الخمس ليلة الاسراء الى بيت المقدس بمكة
بعد النبوة بعشر سنين وثلاثة أشهر ليلة سبع وعشرين من رجب هذا ما ذكره النووى
فى روضته وقال فى فتاويه بعد النبوة بخمس أو ست وجمع لى الليلة من ربيع الاول ونحوه
فى شرح مسلم وجزم بأنها من ربيع الآخر وقلد فيها القاضى عياضا والذى عليه الاكثر
ما فى الروضة واستمر يصلى الى بيت المقدس مدة اقامته بمكة وبعد الهجرة ستة عشر شهرا
أو سبعة عشر ثم أمر باستقبال الكعبة ثم فرض الصوم بعد الهجرة بسنتين تقريبا وفرضت
الزكاة بعد الصوم وقيل قبله وفى السنة الثانية قيل فى نصف شعبان وقيل فى رجب حولت
القبلة وفيها فرضت صدقة الفطر وفيها ابتدأ صلى الله عليه وسلم صلاة عيد الفطر ثم عيد
الاضحى ثم فرض الحج سنة ست وقيل سنة خمس ولم يحج صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة الا حجة

الوداع واعتمر أربعا وتوفي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من شهر ربيع الاول سنة احدى عشرة من الهجرة * (فائدة) * الانبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم معصومون قبل النبوة من الكفر وفي المعاصي خلاف وبعدها من الكبائر وكذا من الصغائر ولو سهوا عند المحققين وقوله تعالى (نصفه) بدل من قليلا وقلته بالنظر الى الكل (أو انقص منه) أي من النصف (قليلا) أي الثلث (أو زد عليه) أي على النصف الى الثلثين وأو للتخيير فكان صلى الله عليه وسلم مخيرا بين هذه المقادير الثلاثة وكان صلى الله عليه وسلم يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب وكذا بعض أصحابه واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم وقد تقدم أن ذلك نسخ بايجاب الصلوات الخمس فصار قيام الليل تطوعا فينبغي للمتعبد المواظبة عليه خصوصا في الوقت الذي يبارك الله تعالى بالتجلي فيه فانه صح أنه ينزل سبحانه عن ان تشبه ذاته شيأ أو نزوله نزول غيره بل هو كناية عن فتح باب السماء الذي هو كناية عن وقت استجابة الدعاء حتى يبقى ثلث الليل وفي رواية حتى يبقى شطر الليل الآخر الى سماء الدنيا فيقول سبحانه هل من سائل فأعطيه هل من تائب فأتوب عليه هل من كذا هل من كذا حتى يطلع الفجر * ولما أمر بالقيام وقدر وقته وعينه أمر بهيئة التلاوة التي هي روح الصلاة على وجه عام فقال تعالى (ورتل القرآن) أي اقرأه على ترسل وتؤدة وتبيين حروفه واشباع حركاته بحيث يتمكن السامع من عدها ويجيء المتلو منه شبيها بالثغر المرتل وهو المفلج المشبه بنور الاقحوان وأن لا يهذه هذا ولا يسرده سردا كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه شر السير الحقحقة وشر القراءة الهذرمة وقال ابن مسعود رضي الله عنه ولا تنثروه نثر الدقل ولا تهذوه هذ الشعر ولكن قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة وقوله تعالى (ترتيلا) تأكيد في الامر به وأنه لا بد منه للقارئ وعن ابن عباس رضي الله عنهما اقرأ على هينتك ثلاث آيات أو أربعا أو خمسا وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قام حتى أصبح بآية والآية ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم وسئلت عائشة رضي الله عنها عن قراءته صلى الله عليه وسلم فقالت لا كسردكم هذا لو أراد السامع ان يعد حروفها لعدها وسئل أنس رضي الله عنه كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم قال كانت مدا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم وجاء رجل الى ابن مسعود رضي الله عنه فقال قرأت المفصل الليلة في ركعة فقال هذا كهذ الشعر لقد عرفت النظائر التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرن بينهن فذكر عشرين سورة من المفصل كل سورتين في ركعة وروى الحسن رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم مر برجل يقرأ آية ويبكي فقال ألم تسمعوا الى قول الله عز وجل ورتل القرآن ترتيلا هذا الترتيل وروى أبو داود عن عبد الرحمن بن عوف قال قال النبي صلى الله عليه وسلم يؤتى بقارئ القرآن يوم القيامة فيوقف في أول درج الجنة ويقال له اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرؤها وندب اصغاء اليه وبكاء عند القراءة وتحسين صوت بها وتعوذ بها جهرا واعادته لفصل طويل وجلوس لها واستقبال وتدبر وتخشع وكرهت

بقسم نجس وجازت بحمام وهى نظرا فى المصحف أفضل منها على ظهر قلب ثم ان زاد خشوعه وحضور قلبه فى القراءة عن ظهر قلب فهى أفضل فى حقه وهى أفضل من ذكر لم يخص بمحل وحرم توسد مصحف وندب كتبه وايضاحه ونقطه وشكله ويحرم كتبه بنجس ومسه بنجس غير معفو عنه وتحرم القراءة بالشواذ وهى ما نقل آحادا وبعكس الآى وكره العكس فى السور الا فى تعليم وندب ختم القرآن أول نهار وأول ليل وختمه فى الصلاة أفضل من ختمه خارجها وندب صيام يوم الختم الا أن يصادف يوما نهى الشرع عن صيامه وندب الدعاء بعده وحضوره والشروع بعده فى ختمة أخرى وندب كثرة تلاوته ونسيانه كبيرة وكذا نسيان شئ منه ويحرم تفسيره بلا علم (انا) أى بما لنا من العظمة (سنلقى) أى بوعد لا خلف فيه (عليك قولا) أى قرآنا واختلف فى معنى قوله تعالى (ثقيلا) فقال قتادة رضى الله عنه ثقيل والله فرائضه وحدوده وقال مجاهد رضى الله عنه حلاله وحرامه وقال محمد بن كعب رضى الله عنه ثقيلا على المنافقين لانه يهتك أسرارهم ويبطل أديانهم وقيل على الكفار لما فيه من الاحتجاج عليهم والبيان لضلالهم وسب آلهتهم قال السدى رضى الله عنه ثقيلا بمعنى كريم مأخوذ من قولهم فلان ثقل على أى كرم على وقال الفراء ثقيلا أى رزينا وقال الحسن بن الفضل ثقيلا أى لا يحمله الا قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مزينة بالتوحيد وقال ابن زيد هو والله ثقيل مبارك كما ثقل فى الدنيا ثقل فى الميزان يوم القيامة وقيل ثقيل أى ثابت كثبوت الثقيل فى محله ومعناه انه ثابت الاعجاز لا يزول اعجازه أبدا وقيل ثقيلا بمعنى ان العقل الواحد لا يفى بادراك فوائده ومعانيه بالكلية فالمتكلمون غاصوا فى بحار معقولاته والفقهاء بحثوا فى أحكامه وكذا أهل اللغة والنحو وأرباب المعانى ثم لا يزال كل متأخر يفوز منه بفوائد ما وصل اليها المتقدمون فعلنا أن الانسان الواحد لا يقوى على الاستقلال بحمله فصار كالجبل الثقيل الذى يعجز الخلق عن حمله والاولى أن تحمل هذه المعانى كلها فيه وقيل المراد هو الوحى كما جاء فى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا أوحى اليه وهو على ناقته وضعت جرانها أى صدرها على الارض فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه وعن الحرث بن هشام أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحى فقال النبى صلى الله عليه وسلم أحيانا يأتينى فى مثل صلصلة الجرس وهذا أشد على فيفصم عنى وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول قالت عائشة رضى الله عنها ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا أى يجرى عرقه كما يجرى الدم من الفاصد وقوله فيفصم عنى أى ينفصل عنى ويفارقنى وقد وعيت أى حفظت ما قال وقال القشيرى القول الثقيل هو قول لا اله الا الله لانه ورد فى الخبر لا اله الا الله خفيفة على اللسان ثقيلة فى الميزان وقال الزمخشرى هذه الآية اعتراض ثم قال وأراد بهذا الاعتراض أن ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التى ورد بها القرآن لان الليل وقت السبات والراحة والهدو فلا بد لمن أحياه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه اه فالاعتراض من حيث المعنى لا من حيث الصناعة وذلك أن قوله تعالى (ان ناشئة الليل) أى القيام بعد النوم (هى أشد وطأ) أى مواطأة

السمع للقلب على تفهم القرآن هي أشد مطابق لقوله قم الليل فكأنه شابه الاعتراض من حيث دخوله بين هذين المناسبين والمعنى سنلقى عليك بافتراض صلاة الليل قولا ثقيلا يثقل حمله لأن الليل للمنام فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك الا بحمل مشقة شديدة على النفس ومجاهدة الشيطان فهو أمر ثقيل على العبد * ولما كان التهجد يجمع القول والفعل وبين ما في الفعل لانه أشق فكان بتقديم الترغيب بالمدحة أحق أتبعه القول فقال (وأقوم قيلا) أى وأعظم سدادا من جهة القيل فى فهمه ووقعه فى القلوب لحضور القلب لأن الاصوات هادية والدنيا ساكنة فلا يضطرب على المصلى ما يقرؤه وقال قتادة ومجاهد رضى الله عنهم أصوب للقراءة وأثبت للقول لانه زمان التفهم لرياقة الليل بهدو الاصوات وتجلى الرب سبحانه بحصول البركات وأخلص من الرياء فبين الله تعالى بهذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار وأن الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن أعظم للاجر وأجلب للثواب كان على بن الحسين رضى الله عنه يصلى بين المغرب والعشاء ويقول هو ناشئة الليل وقال عطاء وعكرمة رضى الله عنهم هو بدء الليل وقال فى الصحاح ناشئة الليل أول ساعاته وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما هى الليل كله لانه ينشأ بعد النهار وهو اختيار مالك قال ابن عربى وهو الذى يعطيه اللفظ وتقتضيه اللغة وقالت عائشة وابن عباس أيضا ومجاهد رضى الله عنهم انما الناشئة القيام بالليل بعد النوم ومن قام قبل النوم فما قام ناشئة وقال يمان بن كيسان هو القيام من آخر الليل وأما قوله تعالى أشد وطأ أى أثقل على المصلى من ساعات النهار لأن الليل وقت منام وراحة فاذا قام الى صلاة الليل فقد تحمل المشقة العظيمة هذا على قراءة كسر الواو وفتح الطاء وبعدها ألف ممدودة وهمزة منونة وهى قراءة أبى عمرو وابن عامر وقرأ الباقون بفتح الواو وسكون الطاء وبعدها همزة منونة فهى مصدر وطئت وطأ ومواطأة أى وافقت على الامر من الوفاق تقول فلان يواطئ اسمه اسمى أى يوافقه فالمعنى أشد موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان لانقطاع الاصوات والحركات قاله مجاهد وغيره قال تعالى ليواطؤا عدة ما حرم الله أى ليوافقوا ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم اشدد وطأتك على مضر وقيل أشد مهادا للتصرف فى الفكر والتدبر وقيل أشد ثباتا من النهار فان الليل يخلو فيه الانسان بما يعمله فيكون ذلك أثبت للعمل والوطء الثبات تقول وطئت الارض بقدمى وفى الجملة عبادة الليل أشد نشاطا وأتم اخلاصا وأكثر بركة وأبلغ فى الثواب (ان لك) أى أيها المتهجد ويا أكرم الخلق ان كان الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم (فى النهار) الذى هو محل السعى فى مصالح الدنيا (سبحا طويلا) أى تصرفا وتقلبا واقبالا وادبارا فى حوائجك وأشغالك والسبح مصدر سبح استعير للتصرف فى الحوائج من السباحة فى الماء وهى البعد فيه وقال القرطبى السبح الجرى والدوران ومنه السباحة فى الماء لتقلبه بيديه ورجليه وفرس سابح شديد الجرى وقيل السبح الفراغ أى ان لك فراغا لحاجات النهار وعن ابن عباس رضى الله عنهما سبحا طويلا يعنى فراغا طويلا لنومك وراحتك فاجعل ناشئة الليل لعبادتك وقيل ان فاتك من الليل شئ فلك فى النهار فراغ تقدر به على تداركه فيه (واذكر اسم ربك)

أى المحسن اليك والموجد والمدبر لك بكل ما يكون ذكرا من اسم وصفة وثناء وخضوع وتسبيح وتحميد وصلاة وقراءة ودعاء واقبال على علم شرعى وادب مرعى ودم على ذلك فى ليلك ونهارك واحرص عليه فاذا عظمت الاسم بالذكر فقد عظمت المسمى بالتوحيد والاخلاص وذلك عون للمعلى مصالح الدارين أما الآخرة فواضح وأما الدنيا فقد أرشد النبى صلى الله عليه وسلم أعز الخلق عليه فاطمة ابنته رضى الله تعالى عنها لما سألته خادما يقيها التعب الى التسبيح والتحميد والتكبير عند النوم (وتبتل) أى اجتهد فى قطع نفسك عن كل شاغل والاخلاص فى جميع أعمالها بالتدريج قليلا قليلا منتهيا (اليه) ولا تزل على ذلك حتى يصير ذلك لك خلقا فتكون نفسك كأنها منقطعة بغير قاطع وقوله تعالى (تبتيلا) مصدر تبتل جىء به رعاية للفواصل وهو ملزوم التبتيل قال الزمخشرى فان قلت كيف قيل تبتيلا مكان تبتلا قلت لان معنى تبتل بتل نفسه فجىء به على معناه مراعاة لحق الفواصل اه والتبتيل الانقطاع ومنه امرأة بتول أى منقطعة عن النكاح وفى الحديث انه نهى عن التبتل وقال يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة أى مؤن النكاح فليتزوج والمراد به فى الآية الكريمة الانقطاع الى عبادة الله تعالى كما مرت الاشارة اليه دون ترك النكاح والتبتل فى الاصل الانقطاع عن الناس والجماعات وقيل ان أصله عند العرب التفرد قاله ابن عرفة وقال ابن العربى هذا فيما مضى وأما اليوم فقد مرجت عهود الناس وخفت أماناتهم واستولى الحرام على الحطام فالعزلة خير من الخلطة والعزبة أفضل من التأهل ولكن معنى الآية وانقطع عن الاوثان والاصنام وعن عبادة غير الله تعالى وكذلك قال مجاهد رضى الله عنه معناه أخلص له العبادة ولم يرد التبتيل فصار التبتل مأمورا به فى القرآن منهيا عنه فى السنة ومتعلق الامر غير متعلق النهى فلا يتناقضان وانما بعث لتبيين ما أنزل اليهم فالتبتل المأمور به الانقطاع الى الله تعالى باخلاص العبادة كما قال تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين والتبتل المنهى عنه هو سلوك مسلك النصارى فى ترك النكاح والترهب فى الصوامع لكن عند فساد الزمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواضع القطر يفر بدينه من الفتن * ولما كان الواجب على كل أحد شكر المنعم بين سبحانه الذى أنعم بسكن الليل الذى أمرنا بالتهجد فيه ومنتشر النهار الذى أمر بالسبح فيه فقال تعالى (رب المشرق) أى موجد محل الانوار التى بها ينمحى هذا الليل الذى أنت قائم فيه ويضىء بها الصباح وعند الصباح يحمد القوم السرى قال العلامة تقى الدين بن دقيق العيد

كم ليلة فيك وصلنا السرى * لا تعرف الغمض ولا نستريح
واختلف الاصحاب ماذا الذى * يزيل من شكواهم أو يريح
فقيل تعريسهم ساعة * وقلت بل ذكراك وهو الصحيح

(والمغرب) أى الذى يكون عنده الليل الذى هو موضع السكون ومحل الخلوات ولذيذ المناجاة فلا تغرب شمس ولا قمر ولا نجم الا بتقديره (لا اله) أى لا معبود بحق (الا هو) اى ربك الذى دلت تربيته لك على مجامع العظمة وأبهى صفات الكمال والتنزه عن كل شائبة نقص وقرأ ابن

ابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائي بكسر الباء على البدل من ربك وعن ابن عباس رضي الله عنهما على القسم باضمار حرف القسم كقولك الله لافعلن وجوابه لا اله الا هو كما تقول لا أحد في الدار الا زيد والباقون برفعها على انه خبر مبتدا محذوف أو مبتدا خبره لا اله الا هو (فاتخذه) أي خذه بجميع جهدك وذلك بافرادك اياه بكونه (وكيلا) أي على كل من خالفك بأن تفوض جميع أمورك اليه فانه يكفيكها كلها فانه المنفرد بالقدرة عليها ولا شيء في يد غيره فلا تهتم بشيء أصلا قال البقاعي وليس ذلك بأن يترك الانسان كل عمل فان ذلك طمع فارغ بل بالاجمال في طلب كل ما ندب الانسان الى طلبه ليكون متوكلا في السبب لا من دون سبب فانه يكون حينئذ كمن يطلب الولد من غير زوجة وهو مخالف لحكمة هذه الدار المبنية على الاسباب ولو لم يكن في افراده بالوكالة الا أنه يفارق الوكلاء بالعظمة والشرف والرفق من جميع الوجوه فان وكيلك من الناس دونك وأنت تتوقع أن يكلمك كثيرا في مصالحك وربك أعظم العظماء وهو يأمرك بأن تكلمه كثيرا في مصالحك وتسأله طويلا ووكيلك من الناس اذا حصل مالك سألك الاجرة وهو سبحانه يوفر مالك ويعطيك الاجر ووكيلك من الناس ينفق عليك من مالك وهو سبحانه يرزقك وينفق عليك من ماله ومن تمسك بهذه الآية عاش حرا كريما ومات خالصا شريفا ولقي الله تعالى عبدا صافيا مختارا تقيا ومن شرط الموحد أن يتوجه الى الواحد ويقبل عليه ويذلل له نفسه ويفوض اليه أمره ويترك التدبير ويثق به ويركن اليه ويتذلل لربوبيته ويتواضع لعظمته (واصبر على ما يقولون) أي المخالفون المفهومون من الوكالة من الاذى والسب والاستهزاء ولا تجزع من قولهم ولا تمتنع من دعواهم وفوض أمرهم الي فاني اذا كنت وكيلا لك أقوم باصلاح أمرك أحسن من قيامك بأمور نفسك (واهجرهم) أي أعرض عنهم (هجرا جميلا) أي لا تتعرض لهم ولا تشتغل بمكافأتهم فان ذلك ترك للدعاء الى الله تعالى وكان هذا قبل الامر بالقتال فانه صلى الله عليه وسلم منع في أول الاسلام من قتال الكفار وأمر هو وأصحابه بالصبر على أذاهم بقوله تعالى لتبلون في أموالكم الآية ثم أمر به اذا ابتدؤا بقوله تعالى وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ثم أبيح له ابتداؤه في غير الاشهر الحرم ثم أمر به مطلقا من غير تقييد بشرط ولا زمان بقوله تعالى واقتلوهم حيث ثقفتموهم (وذرني) أي اتركني (والمكذبين) أي لا تحتاج الى الظفر بمرادك ومشتهاك الآن خل بيني وبينهم بأن تكل أمرهم الي وتستكفينيه فان في تما يفرغ بالك ويجلي همك وليس ثم منع حتى تطلب اليه ان تذره وإياه الا ترك الاستكفاء والتفويض كأنه اذا لم يكل اليه أمره فكأنه منعه منه فاذا وكله اليه فقد أزال المنع وتركه واياه وفيه دليل على الوثوق بأنه يتمكن من الوفاء بأقصى ما تدور حوله أمنية المخاطب ويجازيه عليه واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل نزلت في المطعمين يوم بدر وهم عشرة فلم يكن الا يسيرا حتى قتلوا ببدر وقال يحيى بن سلام انهم بنو المغيرة وقال سعيد بن جبير أخبرت انهم اثنا عشر رجلا وقال البغوي نزلت في صناديد قريش ورؤسا مكة من المستهزئين وقوله تعالى (أولي النعمة)

نعت للمكذبين أى أصحاب التنعم والترفه * (فائدة) * النعمة بالفتح التنعم وبالكسر الانعام وبالضم المسرة (ومهلهم) أى اتركهم برفق وتأن وتدريج ولا تهتم بشأنهم وقوله تعالى (قليلا) نعت لمصدر أى تمهيلا قليلا أو لظرف زمان محذوف أى زمانا قليلا فقتلوا بعد يسير ببدر وقوله تعالى (ان لدينا أنكالا) جمع نكل بالكسر وهو القيد الثقيل الذى لا ينفك أبدا وقال الكلبى أغلالا من حديد (وجحيما) أى نارا حامية جدا شديدة الاتقاد عما كانوا يتقيدون به من تبريد الشراب والتنعم برقيق اللباس وتكلف أنواع الراحة (وطعاما ذا غصة) أى يغص به فى الحلق وهو الزقوم أو الضريع أو الغسلين أو الشوك من نار لا يخرج ولا ينزل (وعذابا أليما) أى مؤلما ومعنى الآية ان لدينا فى الآخرة ما يضاد تنعمهم فى الدنيا وهى هذه الامور الاربعة النكال والجحيم والطعام الذى يغص به والعذاب الاليم والمراد به سائر أنواع العذاب وروى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فصعق وعن الحسن أنه أمسى صائما فأتى بطعام فعرضت له هذه الآية فقال ارفعه ووضع عنده الليلة الثانية فعرضت له فقال ارفعه وكذلك الليلة الثالثة فأخبر ثابت البنانى و يزيد الضبى ويحيى البكاء فجاؤا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق وقوله تعالى (يوم ترجف) منصوب بالاستقرار المتعلق به لدينا والرجفة الزلزلة والزعزعة الشديدة فتزلزل (الارض) أى كلها (والجبال) أى التى هى أشدها (وكانت) أى وتكون (الجبال) التى هى مراسى الارض وأوتادها وعبر عن شدة الاختلاط والتلاشى بالتوحيد فقال تعالى (كثيبا) أى رملا مجتمعا من كثب الشئ اذا جمعه كأنه فعيل بمعنى مفعول فى أصله ومنه الكثبة من اللبن (مهيلا) قال ابن عباس رملا سائلا يتناثر وقال الكلبى هو الذى اذا أخذت منه شيأ تبعك ما بعده قال القرطبى وأصله مهيول وهو مفعول من قولك هلت عليه التراب أهيله اهالة وهيلا اذا صببته يقال مهيل ومهيول ومكيل ومكيول ومدين ومديون ومعين ومعيون قال الشاعر

قد كان قومك يحسبونك سيدا * واخال انك سيد معيون

وقال عليه الصلاة والسلام حين شكوا اليه الجدوبة أتكيلون أم تهيلون قالوا نهيل قال كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه وأصل مهيل مهيول استثقلت الضمة على الياء فنقلت الى الهاء فالتقى ساكنان فسيبويه واتباعه حذفوا الواو وكانت أولى بالحذف لانها زائدة وان كانت القاعدة أن ما يحذف لالتقاء الساكنين الاول ثم كسروا الهاء لتصح الياء ووزنه حينئذ مفعل والكسائى ومن تبعه حذفوا الياء لان القاعدة حذف الاول كما مر ولما خوف تعالى المكذبين أولى النعمة بأهوال يوم القيامة خوفهم بعد ذلك بأهوال الدنيا فقال تعالى (انا) أى بما لنا من العظمة (أرسلنا اليكم) يا أهل مكة شرفا لكم خاصة والى كل من بلغته الدعوة عامة (رسولا) أى عظيما جدا وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وامامهم وأجلهم وأفضلهم قدرا (شاهدا عليكم) أى بما تصنعون ليؤدى الشهادة عند طلبها منه يوم تنزع من كل أمة شهيدا وهو يوم القيامة (كما أرسلنا) أى بما لنا من العظمة (الى فرعون) أى ملك مصر

(رسولا) وهو موسى عليه الصلاة والسلام وهذا تهديد لاهل مكة بالاخذ الوبيل قال مقاتل وانما ذكر موسى وفرعون دون سائر الرسل لان أهل مكة ازدروا محمدا صلى الله عليه وسلم واستخفوا به لانه ولد فيهم كما أن فرعون ازدرى بموسى عليه السلام لانه رباه ونشأ فيما بينهم كما قال تعالى حكاية عن فرعون ألم نربك فينا وليدا وذكر الرازى السؤال والجواب قال ابن عادل وهو ليس بالقوى لان ابراهيم عليه السلام ولد ونشأ فيما بين قوم نمروذ وكان آزر وزير نمروذ على ما ذكره المفسرون وكذا القول فى هود ونوح وصالح ولوط لقوله تعالى فى قصة كل واحد منهم لفظة أخاهم لانه من القبيلة التى بعث اليها انتهى وقد يقال الجامع بين محمد وموسى عليهما الصلاة والسلام التربية فان أبا طالب تربى عنده النبى صلى الله عليه وسلم وموسى عليه السلام تربى عند فرعون ولم يكن ذلك لغيرهما (فعصى فرعون الرسول) انما عرفه لتقدم ذكره وهذه أل العهدية والعرب اذا قدمت اسما ثم أتوا به ثانيا أتوا به معرفا بال أو أتوا بضميره لئلا يلتبس بغيره نحو رأيت رجلا فأكرمت الرجل أو فأكرمته ولو قلت فأكرمت رجلا لتوهم أنه غير الاول وقال المهدوى ودخلت الالف واللام فى الرسول لتقدم ذكره ولذا اختير فى أول الكتب سلام عليكم وفى آخرها السلام عليكم ثم تسبب عن عصيانه قوله تعالى (فأخذناه) أى فرعون بما لنا من العظمة وبين انه أخذ قهر وغضب بقوله تعالى (أخذا وبيلا) أى ثقيلا شديدا وضرب وبيل وعذاب وبيل أى شديد قاله ابن عباس ومجاهد ومنه مطر وابل أى شديد قاله الاخفش وقال الزجاج أى ثقيلا غليظا ومنه قيل للمطر وابل وقيل مهلكا والمعنى عاقبناه عقوبة غليظة وفى ذلك تخويف لاهل مكة ثم خوفهم يوم القيامة فقال تعالى (فكيف تتقون ان كفرتم) أى توجدون الوقاية التى تقى أنفسكم اذا كفرتم فى الدنيا والمعنى لا سبيل لكم الى التقوى اذا رأيتم القيامة وقيل معناه فكيف تتقون العذاب يوم القيامة اذا كفرتم فى الدنيا وقوله تعالى (يوما) مفعول تتقون أى عذابه أى بأى حصن تتحصنون من عذاب الله يوم (يجعل الولدان) وقوله تعالى (شيبا) جمع أشيب والاصل فى الشين الضم وكسرت لمجانسة الياء ويقال فى اليوم الشديد يوم يشيب نواصى الاطفال وهو مجاز ويجوز أن يراد فى الآية الحقيقة والمعنى يصيرون شيوخا شمطا من هول ذلك اليوم وشدته وذلك حين يقال لآدم عليه السلام قم فابعث بعث النار من ذريتك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك وسعديك وفى رواية والخير فى يديك فينادى بصوت ان الله يأمرك ان تخرج من ذريتك بعثا الى النار قال يا رب وما بعث النار قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم قالوا يا رسول الله أينا ذلك الرجل فقال النبى صلى الله عليه وسلم ابشروا فان من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد ثم قال أنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الابيض أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الاسود وفى رواية كالرقمة فى ذراع الحمار وهى بفتح الراء وسكون القاف الاثر

الذى

الذى فى بطن عضد الحمار وانى لارجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبر القوم ثم قال فثلث أهل الجنة فكبروا ثم قال شطر أهل الجنة فكبروا وفى هذا اشارة الى الاعتناء بهم لان اعطاء الانسان مرة بعد مرة دليل على الاعتناء به ودوام ملاحظته وفى هذا أيضا حملهم على تجديد شكر الله تعالى وحمده على انعامه عليهم وهو تكبيرهم لهذه البشارة العظيمة ثم وصف هول ذلك اليوم بقوله تعالى (السماء منفطر) اى ذات انفطار أى انشقاق (به) أى بسبب ذلك اليوم لشدته فالباء سببية وجوز الزمخشرى أن تكون للاستعانة فانه قال والباء فى به مثلها فى قولك فطرت العود بالقدوم فانفطر به وقال القرطبى معنى به أى فيه أى فى ذلك اليوم وقيل به أى بالامر أى السماء منفطر بما يجعل الولدان شيبا وقيل منفطر بالله أى بأمره * (تنبيه) * انما لم تؤنث الصفة لوجوه منها قال ابو عمرو بن العلاء لانها بمعنى السقف تقول هذا سماء البيت قال تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا ومنها أنها على النسبة أى ذات انفطار نحو امرأة مرضع وحائض أى ذات ارضاع وذات حيض ومنها أنها تذكر وتؤنث أنشد الفراء

فلو رفع السماء اليه قوما * لحقنا بالسماء وبالسحاب

ومنها أنه اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء فيقال سماءة واسم الجنس يذكر ويؤنث ولهذا قال أبو على الفارسى هو كقوله تعالى منتشر وأعجاز نخل منقعر يعنى فجاء على أحد الجائزين أولان تأنيثها ليس بحقيقى وما كان كذلك جاز تذكيره قال الشاعر * والمها * بالاثمد الحبرى مكحول والضمير فى قوله تعالى (كان وعده مفعولا) يجوز أن يكون لله وان لم يجر له ذكر للعلم به فيكون المصدر مضافا لفاعله ويجوز أن يكون لليوم فيكون مضافا للمفعول والفاعل وهو الله تعالى مقدر قال المفسرون كان وعده بالقيامة والحساب والجزاء مفعولا كائنا لا شك فيه ولا خلف وقال مقاتل كان وعده بأن يظهر دينه على الدين كله (ان هذه) أى الآيات الناطقة بالوعيد الشديد أو السورة (تذكرة) أى تذكير عظيم هو أهل لان يتعظ به ويعتبر به المعتبر ولاسيما ما ذكر فيها لاهل الكفر من العذاب ولما كان سبحانه قد جعل للانسان عقلا يدرك به الحسن والقبيح واختيارا يتمكن به من اتباع ما يريد فلم يبق له مانع من جهة اختيار الاصلح والاحسن الا القهر بالمشيئة التى لا اطلاع له عليها ولا حيلة له فيها سبب عن ذلك قوله تعالى (فمن شاء اتخذ) أى بغاية جهده (الى ربه) أى المحسن اليه خاصة لا الى غيره (سبيلا) أى طريقا الى رضاه ورحمته فليرغب فقد أمكن له لانه أظهر له الحجج والدلائل قيل نسخت بآية السيف وكذلك قوله تعالى فمن شاء ذكره قال الثعلبى والاشبه أنه غير منسوخ (ان ربك) أى المدبر لامرك على ما يكون احسانا اليك ورفقا بك (يعلم أنك تقوم) أى فى الصلاة كما أمرت به أول السورة (أدنى) أى زمانا أقل والادنى مشترك بين الاقرب والادون الانزل رتبة لان كلا منهما يلزم عنه قلة المسافة (من ثلثى الليل) وقرأ (ونصفه وثلثه) ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائى بنصب الفاء بعد الصاد ونصب المثلثة بعد اللام ورفع الهاء فيهما عطف على أدنى والباقون بكسر الفاء والمثلثة وكسر الهاء فيهما عطف على ضميره تقوم وقيامه كذلك مطابق لما وقع التخيير فيه أول السورة من قيام النصف

تمامه أو الناقص منه وهو الثلث أو الزائد عليه وهو الثلثان أو الاقل من الاقل من النصف وهو الربع وقوله تعالى (وطائفة من الذين معك) عطف على ضمير تقوم وجاز من غير تأكيد للفصل وقيام طائفة من أصحابه كذلك للتأسي به ومنهم من كان لا يدرى كم يصلى من الليل وكم بقى منه فكان يقوم الليل كله احتياطا فقاموا حتى انتفخت اقدامهم سنة وا كثر فخفف عنهم بقوله تعالى (والله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (يقدر) أى تقديرا عظيما هو فى غاية التحرير (الليل والنهار) أى هو العالم بمقادير الليل والنهار فيعلم القدر الذى تقومون من الليل والذى تنامون منه (علم أن) مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أى انه (لن تحصوه) أى الليل لتقوموا فيما يجب القيام فيه الا بقيام جميعه وذلك يشق عليكم (فتاب عليكم) أى رجع بكم الى التخفيف بالترخص لكم فى ترك القيام المقدر أول السورة وقوله تعالى (فاقرؤا ما تيسر) أى سهل (من القرآن) فيه قولان أحدهما أن المراد بهذه القراءة القراءة فى الصلاة وذلك أن القراءة أحد أجزاء الصلاة فأطلق اسم الجزء على الكل والمعنى فصلوا ما تيسر عليكم قال الحسن يعنى فى صلاة المغرب والعشاء قال قيس بن أبي حازم صليت خلف ابن عباس بالبصرة فقرأ فى أول ركعة بالحمد وأول آية من البقرة ثم ركع ثم قام فى الثانية فقرأ بالحمد والآية الثانية من البقرة ثم ركع فلما انصرف أقبل علينا فقال ان الله تعالى يقول فاقرؤا ما تيسر منه قال القشيرى والمشهور أن نسخ قيام الليل كان فى حق الامة وبقيت الفريضة فى حق النبي صلى الله عليه وسلم وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه بل نسخ بالكلية فلا تجب صلاة الليل أصلا واذا ثبت أن القيام ليس فرضا فقوله تعالى فاقرؤا ما تيسر من القرآن معناه اقرؤا ان تيسر عليكم ذلك وصلوا ان شئتم والقول الثانى أن المراد بقوله تعالى فاقرؤا ما تيسر من القرآن دراسته وتحصيل حفظه وأن لا يعرض للنسيان سواء كان فى صلاة أم غيرها قال كعب من قرأ فى ليلة مائة آية كتب من القانتين وقال سعيد خمسين آية قال القرطبى قول كعب أصح لقوله صلى الله عليه وسلم من قام بعشر آيات من القرآن لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين خرجه أبو داود والطيالسى وروى أنس ابن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من قرأ خمسين آية فى يوم أو فى ليلة لم يكتب من الغافلين ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين ومن قرأ مائتى آية لم يحاجه القرآن يوم القيامة ومن قرأ خمسمائة آية كتب له قنطار من الاجر فقوله من المقنطرين أى أعطى قنطارا من الاجر وجاء فى الحديث أنه ألف ومائتا أوقية والاوقية خير مما بين السماء والارض وقال أبو عبيدة القناطير واحدها قنطار ولا تجد العرب تعرف وزنه ولا واحد للقنطار من لفظه وقال ثعلب المعول عليه عند العرب أنه أربعة آلاف دينار فاذا قالوا قناطير مقنطرة فهى اثنا عشر ألف دينار وقيل ان القنطار ملء جلد ثور ذهبا وقيل ثمانون ألفا وقيل هو جملة كثيرة مجهولة من المال نقله ابن الاثير قال القرطبى والقول الثانى أصح حملا للخطاب على ظاهر اللفظ والقول الاول مجاز لانه من تسمية الشئ ببعض ما هو من أعماله واذا كان ذلك على قيام الا فى

قدر القراءة فلا دليل فيه على أن الفاتحة لا تتعين في الصلاة بل هي متعينة في كل ركعة لخبر الصحيحين لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب ولخبر لا تجزي صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب رواه ابنا خزيمة وحبان في صحيحيهما ولفعله صلى الله عليه وسلم كما في مسلم مع خبر البخاري صلوا كما رأيتموني أصلي ويحمل قوله تعالى فاقرؤا ما تيسر منه مع خبر ثم اقرأ بما تيسر معك من القرآن على الفاتحة أو على العاجز عنها جمعا بين الادلة ولما كان هذا نسخا لما كان واجبا من قيام الليل أول السورة لعلمه سبحانه بعدم احصائه فسر ذلك العلم المجمل بعلم مفصل بيانا لحكمة أخرى للنسخ فقال تعالى (علم أن) مخففة من الثقيلة أي أنه (سيكون) أي بتقدير لا بد منه (منكم مرضى) جمع مريض وهذه السورة من أول ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم ففي ذلك اشارة بأن أهل الاسلام يكثرون جدا (وآخرون) غير المرضى (يضربون) أي يوقعون الضرب (في الارض) أي يسافرون لان الماشي يجد ويضرب برجله في الارض (يبتغون) أي يطلبون طلبا شديدا (من فضل الله) أي بعض ما أوجده الملك الاعظم لعباده بالتجارة وغيرها (وآخرون) أي منكم أيها المسلمون (يقاتلون) أي يطلبون ويوقعون قتل أعداء الله تعالى ولذلك بينه بقوله تعالى (في سبيل الله) أي الملك الاعظم وكل من الفرق الثلاث يشق عليهم ما ذكر في قيام الليل وسوى سبحانه في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين للمال الحلال لنفقته على نفسه وعياله والاحسان فكان هذا دليلا على ان كسب المال بمنزلة الجهاد لانه جمعه مع الجهاد في سبيل الله قال صلى الله عليه وسلم ما من جالب يجلب طعاما من بلد الى بلد فيبيعه بسعر يومه الا كانت منزلته عند الله منزلة الشهداء ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله وقال ابن مسعود أيما رجل جلب شيأ الى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء وقرأ وآخرون الآية وقال ابن عمر ما خلق الله تعالى موتة أموتها بعد الموت في سبيل الله احب الي من الموت بين شعبتي رجل ابتغي من فضل الله ضاربا في الارض وقال طاوس الساعي على الارملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وأعاد قوله تعالى (فاقرؤا ما تيسر منه) أي من القرآن للتأكيد (وأقيموا الصلاة) أي المكتوبة وهي خمس بجميع الامور التي تقوم بها من أركانها وشروطها وأبعاضها وهيآتها (وآتوا الزكاة) أي زكاة اموالكم وقال عكرمة وقتادة صدقة الفطر لان زكاة الاموال وجبت بعد ذلك وقيل صدقة التطوع وقيل كل فعل خير وقال ابن عباس طاعة الله تعالى والاخلاص (واقرضوا الله) أي الملك الاعلى الذي له جميع صفات الكمال التي منها الغنى المطلق من أبدانكم وأموالكم في أوقات صحتكم ويساركم (قرضا حسنا) من نوافل الخيرات كلها برغبة تامة وعلى هيئة جميلة في ابتدائه وانتهائه وقال زيد بن أسلم القرض الحسن النفقة على الاهل وقيل صلة الرحم وقرى الضيف وقال عمر بن الخطاب هو النفقة في سبيل الله (وما تقدموا لانفسكم) أي خاصة سلفا لاجل ما بعد الموت حيث لا تقدرون على الاعمال (من خير) أي

خير كان من عبادات البدن والمال (تجدوه) أي محفوظا لكم (عند الله) أي المحيط بكل شيء قدرة وعلما (هو) أي لا غيره (خيرا) أي لكم وجاز ضمير الفصل بين غير معرفتين لان أفعل منه كالمعرفة ولذلك يمتنع دخول أداة التعريف عليها والمعنى هو خير من الذي تدخرونه الى الوصية عند الموت قاله ابن عباس وقال الزجاج خيرا لكم من متاع الدنيا وروى البغوى بسنده عن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أيكم ماله أحب اليه من مال وارثه قالوا يا رسول الله ما منا من أحد الا ماله أحب اليه من مال وارثه قال اعلموا ما تقولون قالوا ما نعلم الا ذلك يا رسول الله قال انما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر (وأعظم أجرا) قال أبو هريرة يعني الجنة ويحتمل أن يكون أعظم أجرا الاعطائه بالجنة أجرا ولما كان الانسان اذا عمل ما يمدح عليه ولا سيما اذا كان المادح له ربه ربما أدركه الاعجاب بين له أنه لا يقدر بوجه على ان يقدر الله تعالى حق قدره فلا يزال مقصرا فلا يسعه الا العفو فقال عز من قائل (واستغفروا الله) أي اطلبوا وأوجدوا ستر الملك الاعظم الذي لا تحيطون بمعرفته فكيف بأداء حق خدمته لتقصيركم عينا وأثرا بفعل ما يرضيه واجتناب ما يسخطه (ان الله) أي الملك الاعظم (غفور) أي بالغ الستر لاعيان الذنوب وآثارها حتى لا يكون عنها عقاب ولا عتاب (رحيم) أي بالغ الاكرام بعد الستر افضالا واحسانا وتشريفا وامتنانا وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المزمل دفع الله عنه العسر في الدنيا والآخرة حديث موضوع

(سورة المدثر مكية)

(وهي خمس أو ست وخمسون آية ومائتان وخمس وخمسون كلمة وألف وعشرة أحرف)

(بسم الله) الملك الواحد القهار (الرحمن) الذي عم برحمته الابرار والفجار (الرحيم) الذي خص أصفياءه بما يوصلهم الى دار القرار ولما ختمت المزمل بالبشارة لارباب البصارة بعد ما بدئت بالاجتهاد في الخدمة المهيئ للقيام بأعباء الدعوة افتتحت هذه بمحط حكمة الرسالة وهي النذارة فقال تعالى (يا أيها المدثر) روى عن يحيى بن أبي كثير قال سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال يا أيها المدثر قلت يقولون اقرأ باسم ربك الذي خلق فقال أبو سلمة سألت جابر بن عبد الله عن ذلك وقلت له مثل ذلك الذي قلت فقال لي جابر لا أحدثك الا مثل ما حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جاورت بحراء شهرا فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيأ ونظرت عن شمالي فلم أر شيأ ونظرت عن خلفي فلم أر شيأ فرفعت رأسي فرأيت شيأ فأتيت خديجة فقلت دثروني وصبوا على ماء باردا قال فنزل يا أيها المدثر الآية وذلك قبل ان تفرض الصلاة وفي رواية فلما قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي وذكر نحوه وفيه فاذا قاعد على عرش في الهواء يعني جبريل عليه السلام فأخذتني رجفة شديدة وعن جابر من رواية الزهري عن أبي سلمة عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه

وسلم

وسلم يحدث عن فترة الوحى فقال لى فى حديثه فبينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والارض فجئثت منه رعبا فقلت زملونى زملونى فدثرونى فأنزل الله عز وجل يا أيها المدثر الى قوله فاهجر وفى رواية فجئثت منه حتى هويت الى الارض فجئت الى أهلى وذكره ثم حمى الوحى وتتابع (فان قيل) ان هذا الحديث دال على أن سورة المدثر أول ما نزل ويعارضه حديث عائشة المخرج فى الصحيحين فى بدء الوحى وسيأتى فى موضعه ان شاء الله تعالى وفيه فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق حتى بلغ ما لم يعلم فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده الحديث (أجيب) بأن الذى عليه العلماء ان أول ما نزل من القرآن على الاطلاق اقرأ باسم ربك الذى خلق كما صرح به فى حديث عائشة ومن قال ان سورة المدثر أول ما نزل من القرآن فضعيف وانما كان نزولها بعد فترة الوحى كما صرح به فى رواية الزهرى عن أبى سلمة عن جابر ويدل عليه ما فى الحديث وهو يحدث عن فترة الوحى الى أن قال وأنزل الله تعالى يا أيها المدثر ويدل عليه قوله أيضا فاذا الملك الذى جاءنى بحراء وحاصله ان أول ما نزل من القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة اقرأ باسم ربك وان أول ما نزل بعد فترة الوحى سورة المدثر وبهذا يحصل الجمع بين الحديثين * قوله فاذا هو قاعد على عرش بين السماء والارض يريد به السرير الذى يجلس عليه وقوله يحدث عن فترة الوحى أى عن احتباسه وعدم تتابعه وتواليه فى النزول وقوله فجئثت منه روى بجيم مضمومة ثم همزة مكسورة ثم ثاء مثلثة ساكنة ثم تاء الضمير وروى بثاءين مثلثتين بعد الجيم ومعناها فرعبت منه وفزعت وقوله حمى الوحى وتتابع أى كثر نزوله وازداد بعد فترته من قولهم حميت الشمس والنار اذا ازداد حرها وقوله وصبوا على ماء باردا فيه أنه ينبغى لمن فزع أن يصب عليه الماء ليسكن فزعه وأصل المدثر المتدثر وهو الذى يتدثر فى ثيابه ليستدفئ بها وأجمعوا على أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما سمى مدثرا لوجوه أحدها قوله صلى الله عليه وسلم دثرونى وثانيها أنه صلى الله عليه وسلم كان نائما متدثرا بثيابه فجاءه جبريل عليه السلام وأيقظه صلى الله عليه وسلم وقال يا أيها المدثر (قم فانذر) أى حذر الناس من العذاب ان لم يؤمنوا والمعنى قم من مضجعك واترك التدثر بالثياب واشتغل بهذا المنصب الذى نصبك الله عز وجل له وثالثها ان الوليد بن المغيرة وأبا جهل وأبا لهب والنضر بن الحرث اجتمعوا وقالوا ان وفود العرب يجتمعون فى أيام الحج وهم يسألون عن أمر محمد وقد اختلفتم فى الاخبار عنه فمن قائل هو مجنون وقائل ساحر وقائل كاهن وتعلم العرب ان هذا كله لا يجتمع فى رجل واحد فيستدلون باختلاف الاجوبة على أنها أجوبة باطلة سموا محمدا باسم واحد تجتمعون عليه وتسميه العرب به فقام رجل منهم فقال انه شاعر فلما سمع صلى الله عليه وسلم ذلك اشتد عليه ورجع الى بيته محزونا فتدثر بقطيفة فأنزل الله تعالى يا أيها المدثر وقيل انه ليس المراد التدثر بالثياب وعلى هذا ففيه وجوه أيضا أحدها قال عكرمة المعنى يا أيها المدثر بالنبوة والرسالة من قولهم ألبسه الله لباس التقوى وزينه برداء العلم قال ابن العربى

وهذا مجاز بعيد لانه لم يكن نبيا بعد أى على القول بأنها أول سورة نزلت وأما على أنها نزلت بعد فترة الوحى فليس ببعيد وثانيها ان المدثر بالثوب يكون كالمختفى فيه وهو صلى الله عليه وسلم كان فى جبل حراء كالمختفى من الناس فكانه قال يا أيها المدثر بدثار الاختفاء قم بهذا الامر واخرج من زاوية الخمول واشتغل بانذار الخلق والدعوة الى معرفة الحق وثالثها أنه تعالى جعله رحمة للعالمين فكانه قيل له يا أيها المدثر بأثواب العلم العظيم والخلق الكريم والرحمة الكاملة قم فانذر عذاب ربك وعلى كلا القولين فى ندائه بذلك ملاطفة فى الخطاب من الكريم الى الحبيب اذ ناداه بحاله وعبر عنه بصفته ولم يقل يا محمد (وربك) أى خاصة (فكبر) أى عظمه عما يقول عبدة الاوثان وصفه بأنه أكبر من أن تكون له صاحبة أو ولد وفى الحديث انهم قالوا بم نفتتح الصلاة فنزل وربك فكبر أى صفه بأنه أكبر قال ابن العربى وهذا القول وان كان يقتضى بعمومه تكبير الصلاة فانه يرادفه تكبير التقديس والتنزيه بخلع الانداد والاصنام دونه ولا يتخذ وليا غيره ولا يعبد سواه وروى أن أبا سفيان قال يوم أحد اعل هبل وهو اسم صنم كان لهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم قولوا الله أعلى وأجل وقد صار هذا اللفظ بعرف الشرع فى تكبير العبادات كلها أذانا وصلاة وذكرا بقول الله أكبر وحمل عليه لفظ النبى صلى الله عليه وسلم الوارد على الاطلاق موارده منها قوله تحريمها التكبير وتحليلها التسليم والشرع يقتضى بعرفه ما يقتضى بعزمه ومن موارده أوقات الاهلال بالله تعالى تخليصا له من الشرك واعلاما باسمه بالنسك وافراد الما شرع من أمره بالنسك والمنقول عن النبى صلى الله عليه وسلم فى التكبير فى الصلاة هو لفظ الله أكبر وقال المفسرون لما نزل قوله تعالى وربك فكبر قام النبى صلى الله عليه وسلم وقال الله أكبر فكبرت خديجة رضى الله تعالى عنها وفرحت وعلمت انه وحى من الله تعالى ذكره القشيرى وقال مقاتل هو أن يقال الله أكبر وقيل المراد منه التكبير فى الصلاة (واستشكل) ذلك على القول بأنها أول سورة نزلت فان الصلاة لم تكن فرضت (وأجيب) بأنه يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم كان له صلوات تطوع فأمر أن يكبر فيها * (تنبيه) * دخلت الفاء فى قوله تعالى فكبر وفيما بعده لافادة معنى الشرط كانه قيل وما يكن فكبر ربك أو للدلالة على أن المقصود الاول من الامر بالقيام أن يكبر ربه عن الشرك والتشبيه فان أول ما يجب معرفة الصانع وأول ما يجب بعد العلم بوجوده تنزيهه والقوم كانوا مقرين به (وثيابك فطهر) أى من النجاسات لان طهارة الثياب شرط فى صحة الصلاة لا تصح الا بها وهى الاولى والأحب فى غير الصلاة وقبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثا قال الرازى اذا حملنا التطهير على حقيقته ففى الآية ثلاث احتمالات الاول قال الشافعى المقصود من الآية الاعلام بأن الصلاة لا تجوز الا فى ثياب طاهرة من الانجاس وثانيها روى أنهم ألقوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم سلا شاة فشق عليه فرجع الى بيته حزينا وتدثر فى ثيابه صلى الله عليه وسلم فقيل يا أيها المدثر قم فانذر ولا تمنعك تلك السفاهة عن الانذار وربك فكبر على أن لا ينتقم منهم وثيابك فطهر عن تلك النجاسات والقاذورات وثالثها قال عبد الرحمن بن زيد بن

أسلم كان المشركون لايصونون ثيابهم عن النجاسات فأمره الله تعالى بأن يصون ثيابه عنها وقيل هو أمر بتقصيرها ومخالفة العرب فى تطويلهم الثياب وجرهم الذيول وذلك مما لايؤمن معه اصابة النجاسة قال صلى الله عليه وسلم ازار المؤمن الى أنصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين وما كان أسفل من ذلك ففى النار فجعل صلى الله عليه وسلم الغاية فى لباس الازار الكعب وتوعد على ماتحته بالنار فما بال رجال يرسلون أذيالهم ويطيلون ثيابهم ثم يتكلفون رفعها بأيديهم وهذه حالة الكبر وقال صلى الله عليه وسلم لاينظر الله الى من جر ثوبه خيلاء وفى رواية من جر ازاره خيلاء لم ينظر الله اليه يوم القيامة قال أبو بكر رضى الله عنه يارسول الله ان أحد شق ازارى يسترخى الا أنى أتعاهد ذلك منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لست ممن يصنعه خيلاء وقيل هو أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الافعال ويستهجن من العادات يقال فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب والذيل اذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدانس الاخلاق وفلان دنس الثياب للغادر وذلك لان الثوب يلابس الانسان ويشتمل عليه فكنى به عنه ألا ترى الى قولهم أعجبنى زيد ثوبه كما تقول أعجبنى زيد عقله وخلقه ويقولون المجد فى ثوبه والكرم تحت حلته ولان الغالب أن من طهر باطنه ونقاه عنى بتطهير الظاهر وتنقيته وأبى الا اجتناب الخبيث وايثار الطهر فى كل شئ وقال عكرمة سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن قوله تعالى وثيابك فطهر فقال لاتلبسها على معصية ولا على غدر ثم قال أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفى

وانى بحمد الله لاثوب فاجر * لبست ولا من غدرة أتقنع

والعرب تقول فى وصف الرجل بالصدق والوفاء طاهر الثياب ويقولون لمن غدر انه لدنس الثياب وقال أبى بن كعب لاتلبسها على غدر ولا على ظلم ولا على اثم البسها وأنت بر طاهر وقال الحسن والقرطبى وخلقك فحسن وقال سعيد بن جبير وقلبك وبيتك فطهر وقال مجاهد وابن زيد وعملك فاصلح وروى منصور عن أبى رزين قال يقول وعملك أصلح قال واذا كان الرجل خبيث العمل قالوا ان فلانا خبيث الثياب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم يحشر المرء فى ثوبيه اللذين مات عليهما يعنى عمله الصالح والطالح ذكره الماوردى وقيل المراد بالثياب الاهل أى طهرهم من الخطايا بالموعظة والتأديب والعرب تسمى الاهل ثوبا ولباسا وازارا قال تعالى هن لباس لكم وأنتم لباس لهن وقيل المراد به الدين أى ودينك فطهر جاء فى الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال رأيت الناس وعليهم ثياب منها مايبلغ الثدى ومنها مادون ذلك ورأيت عمر بن الخطاب وعليه ازار يجره قالوا يارسول الله فما أولت ذلك قال الدين وقوله تعالى (والرجز) فسره النبى صلى الله عليه وسلم بالاوثان (فاهجر) أى دم على هجره وقيل الزاى فيه منقلبة من السين والعرب تعاقب بين السين والزاى لقرب مخرجيهما دليل هذا التأويل قوله تعالى فاجتنبوا الرجس من الاوثان وروى عن ابن عباس ان معناه اترك المآثم وقرأ حفص بضم الراء والباقون بكسرها وهما لغتان ومعناهما واحد وقال أبو العالية الرجز بضم الراء الصنم

وبالكسر النجاسة والمعصية وقال الضحاك يعني الشرك وقال الكلبي يعني العذاب قال البغوي ومجاز الآية اهجر ما أوجب لك العذاب من الاعمال وقوله تعالى (ولا تمنن تستكثر) مرفوع منصوب المحل على الحال أي لا تعط مستكثرا رائيا لما تعطيه كثيرا وأبعد له خالصا لله تعالى ولا تطلب عوضا أصلا ومعنى تستكثر أي طالبا الكثرة كارها أن ينقص المال بسبب العطاء فيكون الاستكثار هنا عبارة عن طلب العوض كيف كان ليكون عطاؤه صلى الله عليه وسلم خاليا عن انتظار العوض والتفات النفس اليه وقيل لا تعط شيأ طالبا الكثير نهى عن الاستقرار وهو أن يهب شيأ وهو يطمع أن يعوض من الموهوب له أكثر من الموهوب وهذا جائز ومنه الحديث المستغزر يثاب من هبته وفيه وجهان أحدهما أن يكون نهيا خاصا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ظاهر الآية لان الله تعالى اختار له أشرف الآداب وأحسن الاخلاق والثاني أنه نهي تنزيه لا تحريم له ولامته وقيل انه تعالى لما أمره بأربعة أشياء انذار القوم وتكبير الرب وتطهير الثياب وهجر الرجز ثم قال ولا تمنن تستكثر أي لا تمنن على ربك بهذه الاعمال الشاقة كالمستكثر لما تفعله (ولربك فاصبر) أي على الاوامر والنواهي متقربا بذلك اليه غير ممتن به عليه وقال الحسن بحسناتك تستكثرها وقال ابن عباس ولا تعط عطية ملتمسا بها أفضل منها وقيل لا تمنن على الناس بما تعلمهم من أمر الدين والوحي مستكثرا بذلك الانعام فانك انما فعلت ذلك بأمر الله تبارك وتعالى فلا منة لك به عليهم ولهذا قال تعالى ولربك فاصبر وقيل لا تمنن عليهم بنبوتك لتستكثر أي لا تأخذ منهم أجرا على ذلك تستكثر به مالك وقال مجاهد والربيع لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير فانه مما أنعم الله تعالى به عليك وقال ابن كيسان لا تستكثر عملك فتراه من نفسك انما عملك منة من الله تعالى عليك اذ جعل لك الله تعالى سبيلا الى عبادته وقال زيد بن أسلم اذا أعطيت عطية فأعطها لربك لا تقل دعوت فلم يستجب لي وقيل لا تفعل الخير لترائي به الناس * ولما ذكر تعالى ما يتعلق بارشاد النبي صلى الله عليه وسلم ذكر بعده وعيد الاشقياء بقوله تعالى (فاذا نقر) أي نفخ (في الناقور) أي في الصور وهو القرن النفخة الثانية فاعول من النقر من أي التصويت وأصله القرع الذي هو سبب الصوت والفاء للسببية كأنه قال تعالى اصبر على زمان صعب تلقى فيه عاقبة صبرك وأعداؤك عاقبة ضرهم واذا ظرف لما دل عليه قوله تعالى (فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين) لان معناه عسر الامر على الكافرين وذلك اشارة الى وقت النقر وهو مبتدأ خبره يوم عسير ويومئذ بدل أو ظرف لخبره اذ التقدير فذلك الوقت وقوع يوم عسير وقرأ على الكافرين وأصحاب النار أبو عمرو والدوري عن الكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش بين اللفظين والباقون بالفتح * ولما كان العسر قد يطلق على الشيء وفيه يسر من بعض الجهات أو يعالج فيرجع يسيرا بين أنه ليس كذلك بقوله تعالى (غير يسير) فجمع فيه بين اثبات الشيء ونفي ضده تحقيقا لامره ودفعا للمجاز عنه وتقييده بالكافرين يشعر بيسره على المؤمنين فانهم لا يناقشون الحساب ويحشرون بيض الوجوه ثقال الموازين قال الرازي ويحتمل أنه عسير على المؤمنين والكافرين الا أنه على

الكافرين

الكافرين أشد * (تنبيه) * قال الحليمي سمى الصور باسمين فان كان هو الذى ينفخ فيه النفختان فان نفخة الاصعاق بخلاف نفخة الاحياء وجاء فى الاخبار أن فى الصور ثقبا بعدد الارواح كلها وأنها تجمع فى تلك الثقب فى النفخة الثانية فتخرج عند النفخ من كل ثقبة روح الى الجسد الذى نزعت منه فيعود الجسد حيا باذن الله تعالى (ذرنى) أى اتركنى على أى حالة اتفقت (ومن خلقت) معطوف على المفعول أو مفعول معه وقوله تعالى (وحيدا) فيه أوجه أحدها أنه حال من الياء فى ذرنى أى ذرنى وحدى معه فأنا أكفيك فى الانتقام منه الثانى أنه حال من التاء فى خلقت أى خلقته وحدى لم يشركنى فى خلقه أحد فأنا أهلكه الثالث أنه حال من عائد المحذوف أى خلقته وحيدا فوحيدا على هذا حال من ضمير المفعول المحذوف أى خلقته فى بطن أمه وحيدا لا مال له ولا ولد ثم أعطيته بعد ذلك ما أعطيته قاله مجاهد الرابع أن ينتصب على الذم لانه يقال ان وحيدا كان لقبا للوليد بن المغيرة المخزومى ومعنى وحيدا ذليلا قيل انه كان يزعم انه وحيد فى فضله وماله وليس فى ذلك ما يقتضى صدق مقالته لان هذا اللقب له شهرة به وقد يلقب الانسان بما لا يتصف به واذا كان لقبا تعين نصبه على الذم قال ابن عباس كان الوليد يقول أنا الوحيد بن الوحيد ليس لى فى العرب نظير ولا لابى المغيرة نظير قال الرازى ورد هذا القول بعضهم بأنه تعالى لا يصدقه فى دعواه تلك بأنه وحيد لا نظير له ذكره الواحدى وهو ضعيف من وجوه ثلاثة لانه قد يكون الوحيد علما فيزول السؤال لان اسم العلم لا يفيد فى المسمى صفة بل هو قائم مقام الاشارة الثانى أن يكون ذلك بحسب ظنه واعتقاده كقوله عز وجل ذق انك أنت العزيز الكريم الثالث أنه وحيد فى كفره وعناده وخبثه لان لفظ الوحيد ليس فيه أنه وحيد فى العلو والشرف الرابع قال أبو سعيد الوحيد الذى لا أب له كما تقدم فى الزنيم (وجعلت له) أى بأسباب أوجدتها أنا وحدى لا بحول منه ولا قوة بدليل أن غيره أقوى منه بدنا وقلبا وأوسع فكرا وعقلا وهو دونه فى ذلك (مالا ممدودا) أى مالا واسعا كثيرا قال ابن عباس هو ما كان للوليد بمكة والطائف من الابل والبقر والغنم والخيل والجنان والعبيد والجوارى واختلفوا فى مبلغه فقال مجاهد وسعيد بن جبير ألف دينار وقال قتادة ستة آلاف دينار وقال سفيان الثورى مرة أربعة آلاف دينار ومرة ألف ألف دينار وقال ابن عباس تسعة آلاف مثقال فضة وقال الرازى الممدود هو الذى يكون له مدد يأتى منه الجزء بعد الجزء دائما ولذلك فسره عمر غلة شهر بشهر وقال النعمان الممدود بالزيادة كالزروع والضروع وأنواع التجارات وقال مقاتل كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره شتاء ولا صيفا (وبنين) أى وجعلت له بنين (شهودا) أى حضورا معه لغناهم عن الاسفار بكثرة المال وانتشار الخدم وقوة الاعوان وهم مع حضورهم فى الذروة من الحضور بتمام العقل وقوة الحذق فهم فى غاية المعرفة ومع ذلك فهم أعيان المجالس وصدور المحافل كأنه لا شاهد به غيرهم قال مجاهد وقتادة كانوا عشرة وقال السدى والضحاك كانوا اثنى عشر رجلا وعن الضحاك سبعة ولدوا بمكة وخمسة بالطائف وقال مقاتل كانوا سبعة ولعله اقتصر على من ولد بمكة وعلى كل قول أسلم منهم ثلاثة خالد الذى

من الله تعالى على المسلمين باسلامه فكان سيف الله وسيف رسوله صلى الله عليه وسلم وهشام وعمارة (ومهدت) أى بسطت (له) العيش والعمر والولد والتمهيد عند العرب التوطئة والتهيئة ومنه مهد الصبي وقال ابن عباس أى وسعت له ما بين اليمن الى الشأم وعن مجاهد انه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش فلم يرع هذه النعمة العظيمة وقوله تعالى (تمهيدا) تأكيد (ثم) أى بعد الامر العظيم الذى ارتكبه من تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم (يطمع) أى بغير سبب يدلى به مما جعلناه سبب المزيد من الشكر (ان أزيد) أى فيما آتيته فى دنياه أوفى آخرته وهو يكذب رسولنا صلى الله عليه وسلم وقال الحسن ثم يطمع أن أدخله الجنة وكان الوليد يقول ان كان محمد صادقا فما خلقت الجنة الالى فقال الله تعالى ردا عليه وتكذيبا له (كلا) أى وعزتنا وجلالنا لا تكون له زيادة على ذلك أصلا وأما النقصان فسيرى ان استمر على تكذيبه فليرتدع عن هذا الطمع ولينزجر وليرتجع فانه حق محض وزخرف بحت وغرور وصرف قالوا فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية فى نقصان من ماله وولده حتى هلك فقيرا * (تنبيه) * كلا قطع للرجاء عما كان يطمع فيه من الزيادة فيكون متصلا بالكلام الاول وقيل كلا بمعنى حقا ويبتدأ بقوله تعالى (انه) أى هذا الموصوف (كان) أى بخلق كأنه جبلة له وطبع لا يقدر على الانفكاك عنه (لآياتنا) على مالها من العظمة خاصة لكونها هادية الى الوحدانية لا الى غيرها من الشبه القائدة الى الشرك (عنيدا) قال قتادة أى جاحدا وقال مقاتل معرضا وقال مجاهد انه المجانب للحق وجمع العنيد عند مثل رغيف ورغف والعنيد بمعنى المعاند والعناد كما قال الملوى من كبر فى النفس ويبس فى الطبع وشراسة فى الاخلاق أوخبل فى العقل وقد جمع ذلك كله ابليس لعنه الله تعالى لانه خلق من نار وهى من طبعها اليبوسة وعدم الطواعية * (تنبيه) * فى الآية اشارة الى أن الوليد كان معاندا فى أمور كثيرة منها انه كان يعاند فى دلائل التوحيد وصحة النبوة وصحة البعث ومنها ان كفره كان عنادا لانه كان يعرف هذه الاشياء بقلبه وينكرها بلسانه وكفر العناد أفحش أنواع الكفر ومنها أن قوله تعالى كان يدل على أن هذه حرفته من قديم الزمان (سأرهقه) أى أكلفه (صعودا) أى مشقة من العذاب لا راحة له فيها وروى الترمذى عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى وفى رواية أنه كلما وضع يده فى معالجة الصعود ذابت فاذا رفعها عادت وكذا رجله وقال الكلبى انه صخرة ملساء فى النار يكلف أن يصعدها يجذب من أمامه بسلاسل الحديد ويضرب من خلفه بمقامع الحديد فيصعدها فى أربعين عاما فاذا بلغ ذروتها أسقط الى أسفلها ثم يكلف أن يصعدها فذلك دأبه أبدا (انه) أى هذا العنيد (فكر) أى ردد فكره وأداره تابعا لهواه لاجل الوقوع على شئ يطعن به فى القرآن أو النبى صلى الله عليه وسلم (وقدر) أى أوقع تقدير الامور التى يطعن بها وقاسها فى نفسه لعله أنها أقرب الى القبول وذلك ان الله تعالى لما أنزل على النبى صلى الله عليه وسلم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم الى قوله تعالى المصير قام النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبى

صلى الله عليه وسلم لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه في مخزوم فقال والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ماهو من كلام الانس ولا من كلام الجن ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وانه يعلو ولا يعلى عليه ثم انصرف الى منزله فقالت قريش صبأ والله الوليد والله لتصبأن قريش كلهم فقال أبو جهل أنا أكفيكموه فانطلق فقعد الى جنب الوليد حزينا فقال له الوليد مالى أراك حزينا يا ابن أخى قال وما يمنعنى أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد وانك داخل على ابن أبى كبشة وابن أبى قحافة تسأل من فضل طعامهم فغضب الوليد وقال ألم تعلم انى من أكثرهم مالا وولدا وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل ثم قام مع أبى جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يخنق قط قالوا اللهم لا قال تزعمون انه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن فقالوا اللهم لا قال تزعمون انه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط قالوا اللهم لا قال تزعمون انه كذاب فهل جربتم عليه شيأ من الكذب قالوا اللهم لا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الامين قبل النبوة من صدقه فقالت قريش للوليد فما هو فتفكر فى نفسه وقدر ما أمر قال الله تعالى (فقتل) أى هلك وطرد ولعن فى دنياه هذه (كيف قدر) أى على أى كيفية أوقع تقديره هذا (ثم قتل) أى هلك ولعن هذا العنيد هلاكا ولعنا هو فى غاية العظمة فيما بعد الموت فى البرزخ والقيامة (كيف قدر) فثم للدلالة على أن الثانية أبلغ من الاولى ونحوه قوله * ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى * ومعنى قول القائل قتله الله ما أشجعه وأخزاه الله ما أشعره للاشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك وأما ثم المتوسطة بين الافعال التى بعدها فهى للدلالة على أنه تأنى فى التأمل وتمهل وكان بين الافعال المتناسقة تراخ وتباعد وقوله تعالى (ثم نظر) عطف على فكر وقدر والدعاء اعتراض بينهما والنظر اما فى وجوه قومه واما فيما يقدح به فى القرآن (ثم عبس) أى قبض وجهه وكلحه ونظر مع تقبض جلد ما بين العينين بكراهة شديدة كالمهتم للتفكر فى شئ وهو لا يجد فيه فرجا لانه ضاقت عليه الحيل لكونه لم يجد فيما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم مطعنا وقيل عبس وجهه فى وجوه المؤمنين وذلك أنه لما قال لقريش ان محمدا ساحر مر على جماعة من المسلمين فدعوه الى الاسلام فعبس فى وجوههم وقيل عبس على النبى صلى الله عليه وسلم حين دعاه (وبسر) أى زاد فى القبض والكلح يقال وجه باسر أى منقبض أسود كالح متغير اللون قاله قتادة (ثم) اى بعد هذا التروى العظيم (أدبر) أى عما أداه اليه فكره من الايمان بسلامة المنظور فيه وعلوه عن المطاعن حادا عن وجوه الافكار الى أقفيتها (واستكبر) أى أوجد الكبر عن الاعتراف بالحق ايجاد من هو فى غاية الرغبة فيه (فقال) أى عقب ما جره اليه طبعه الخبيث من ايقاع الكبر على هذا الوجه لكونه رآه نافعا لهم فى الدنيا (ان) أى ما (هذا) أى الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم (الاسحر) أى أمور تخييلية لا حقائق لها وهى لدقتها بحيث تخفى أسبابها آثارا يتوهم يفرق

بين الرجل وأهله وماله وولده ومواليه فما هو الا سحر (يؤثر) أى من شأنه أن ينقله السامع عن غيره فهو ينقله من مسيلمة وأهل بابل كما قال (ان) أى ما (هو) أى القرآن (الا قول البشر) أى ليس فيه شئ عن الله تعالى فلا يغتر أحد به ولا يعرج عليه فارتج النادى فرحا ثم تفرقوا معجبين بقوله متعجبين منه قيل وهذا شبيه بما قال بعضهم

لو قيل كم خمس وخمس لاغتدى * يوما وليلته يعد ويحسب
ويقول معضلة عجيب أمرها * ولئن فهمت لها الامرى أعجب
خمس وخمس ستة أو سبعة * قولان قالهما الخليل وثعلب

فكان قوله هذا سبب هلاكه فكان كما قال بعضهم

احفظ لسانك أيها الانسان * لا يلدغنك انه ثعبان
كم فى المقابر من قتيل لسانه * كانت تهاب لقاءه الشجعان

وقوله تعالى (سأصليه) أى أدخله (سقر) أى جهنم بوعد لا بد منه عن قريب بدل من سأرهقه صعودا وقوله تعالى (وما أدراك ما سقر) تعظيم لشأنها وقوله تعالى (لا تبقى ولا تذر) بيان لذلك أو حال من سقر والعامل فيها معنى التعظيم والمعنى لا تبقى شيأ يلقى فيها الا أهلكته فاذا أهلكته لم تذره هالكا حتى يعاد ولا تبقى على شئ ولا تدعه من الهلاك بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة وسميت سقر من سقرته الشمس اذا أذابته ولا تنصرف للتعريف والتأنيث قال ابن عباس سقر اسم للطبقة السادسة فان دركات النار سبعة جهنم ولظى والحطمة والسعير والجحيم وسقر والهاوية (لواحة) من لوح الهجير قال

تقول ما لاحك يا مسافر * يا ابنة عمى لاحنى الهواجر

(للبشر) أى محرقة لظاهر الجلد فتدعه أشد سوادا من الليل قال تعالى تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون والبشر اعالى البشرة وهو جمع بشرة وجمع البشر أبشار وعن الحسن تلوح للناس كقوله تعالى ثم لترونها عين اليقين وقيل اللوح شدة العطش يقال لاحه العطش ولوحه أى غيره وقال الاخفش والمعنى انها معطشة للبشر أى لاهلها وأنشد

سقتنى على لوح من الماء شربة * سقاها من الله الرهام الغواديا

يعنى باللوح شدة العطش والرهام جمع رهمة بالكسر وهى المطرة الضعيفة وأرهمت السحابة أتت بالرهام (عليها تسعة عشر) أى من الملائكة وهم خزنتها مالك ومعه ثمانية عشر وقيل التسعة عشر نقباء وقال أكثر المفسرين تسعة عشر ملكا بأعيانهم وقيل تسعة عشر ألف ملك قال ابن جريج نعت النبى صلى الله عليه وسلم خزنة جهنم فقال أعينهم كالبرق الخاطف وأنيابهم كالصياصى وأشعارهم تمس أقدامهم يخرج لهب النار من أفواههم ما بين منكبى أحدهم مسيرة سنة نزعت منهم الرحمة يدفع أحدهم سبعين ألفا فيرميهم حيث أراد من جهنم قال عمرو بن دينار واحد منهم يدفع بالدفعة الواحدة فى جهنم أكثر من ربيعة ومضر قال ابن الاثير الصياصى قرون البقر قال ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت هذه الآية قال

أبو

أبو جهل لقريش ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبر أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم يعني الشجعان أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من خزنة جهنم فقال أبو الاشدين كلدة بن خلف الجمحي أنا أكفيكم منهم سبعة عشر عشرة على ظهري وسبعة على بطني فاكفوني أنتم اثنين ويروى أنه قال أنا أمشي بين أيديكم على الصراط فادفع عشرة بمنكبي الايمن وسبعة بمنكبي الايسر في النار ونمضي فندخل الجنة فأنزل الله عز وجل (وما جعلنا) أي بما لنا من العظمة وان خفي وجه العظمة فيه على من عمي قلبه (أصحاب النار) أي خزنتها (الاملائكة) أي لم نجعلهم رجالا فتغالبونهم وانما جعلناهم ملائكة لانهم خلاف جنسي الفريقين من الجن والانس فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرحمة والرأفة ولانهم أشد بأسا وأقوى بطشا فقوتهم أعظم من قوة الانس والجن ولذلك جعل الرسول الى البشر من جنسهم ليكون له رأفة ورحمة بهم (فان قيل) ثبت في الاخبار أن الملائكة مخلوقون من النور فكيف تطيق المكث في النار (أجيب) بأن الله تعالى قادر على كل الممكنات فكما أنه لا استبعاد في أنه يبقي الحي في مثل ذلك العذاب الشديد أبد الآباد ولا يموت فكذا لا استبعاد في ابقاء الملائكة هنالك من غير ألم (وما جعلنا) أي بما لنا من العظمة (عدتهم) أي مذكورة ومحصورة (الافتنة) أي بلية (للذين كفروا) وقال ابن عباس رضي الله عنهما ضلالة وفتنة مفعول ثان على حذف مضاف أي الاسبب فتنة وللذين صفة الفتنة وليست فتنة مفعولا له وقول البيضاوي وما جعلنا عددهم الا العدد الذي اقتضى فتنتهم وهو التسعة عشر تبعا للزمخشري قال أبو حيان انه تحريف لكتاب الله اذ زعم أن معنى الافتنة للذين كفروا الا تسعة عشر وهذا لا يذهب اليه عاقل ولا من له أدنى ذكاء وقال الرازي انما صار هذا العدد سببا لفتنة الكفار من وجهين الاول ان الكفار يستهزؤن ويقولون لم لا يكونون عشرين وما المقتضي لتخصيص هذا العدد والثاني ان الكفار يقولون هذا العدد القليل كيف يكونون وافين بتعذيب أكثر العالم من الجن والانس من أول ما خلق الله الى قيام الساعة (وأجيب) عن الاول بأن هذا السؤال لازم على كل عدد يفرض وعن الثاني بأنه لا يبعد أن الله تعالى يرزق ذلك العدد القليل قوة تفي بذلك فقد اقتلع جبريل عليه السلام مدائن قوم لوط على أحد جناحيه ورفعها الى السماء حتى سمع أهل السماء صياح ديكتهم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها وأيضا فأحوال القيامة لا تقاس بأحوال الدنيا ولا للعقل فيها مجال وذكر أرباب المعاني في تقرير هذا العدد وجهين أحدهما ما قاله أرباب الحكمة أن سبب فساد النفس الانسانية في قوتها النظرية والعملية هو القوى الحيوانية والطبيعية فالقوى الحيوانية هي الخمسة الظاهرة والخمسة الباطنة والشهوة والغضب فهذه اثنا عشر وأما القوى الطبيعية فهي الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة فالمجموع تسعة عشر فلما كانت هذه منشئات لاجرم كان عدد الزبانية هكذا ثانيهما أن أبواب جهنم سبعة فستة منها للكفار وواحد للفساق ثم ان الكفار يدخلون النار لامور ثلاثة ترك الاعتقاد وترك الاقرار وترك العمل فيكون لكل باب من تلك الابواب الستة ثلاثة فالمجموع ثمانية عشر وأما باب الفساق

فليس هنالك الاترك العمل والخضوع تسعة عشر مشغولة بغير العبادة فلا جرم صار عدد الزبانية تسعة عشر وقوله تعالى (ليستيقن الذين) متعلق بجعلنا الا فتنة وقيل بفعل مضمر أى فعلنا ذلك ليستيقن الذين (أوتوا الكتاب) أى أعطوا التوراة والانجيل فانه مكتوب فيهما أنه تسعة عشر فذلك موافقة لما عندهم (ويزداد الذين آمنوا) أى من أهل الكتاب (ايمانا) أى تصديقا لموافقة النبي صلى الله عليه وسلم لما فى كتبهم (ولا يرتاب) أى يشك (الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) فى عددهم (فان قيل) قد أثبت الاستيقان لاهل الكتاب وزيادة الايمان للمؤمنين فما فائدة ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون (أجيب) بأن الانسان اذا اجتهد فى أمر غامض دقيق الحجة كثير الشبه فحصل له اليقين فربما غفل عن مقدمة من مقدمات ذلك الدليل الدقيق فيعود الشك فاثبات اليقين فى بعض الاحوال لا ينافى طريان الارتياب بعد ذلك ففائدة هذه الجملة نفى ذلك الشك وأنه حصل لهم يقين جازم لا يحصل عقبه شك البتة (وليقول الذين فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق وان قل ونزول هذه السورة قبل وجود المنافقين فهو علم من أعلام النبوة فانه اخبار بمكة عما سيكون بالمدينة بعد الهجرة ولا ينكر جعل الله تعالى بعض الامور علة اصلاح ناس وفساد آخرين لانه لا يسئل عما يفعل على أن العلة قد تكون مقصودة لشئ بالقصد الاول ثم يترتب عليها شئ آخر يكون قصده بالقصد الثانى تقول خرجت من البلد لمخافة الشر ومخافة الشر لا يتعلق بها الغرض (والكافرون) أى ويقول الراسخون فى الكفر الجازمون بالتكذيب الساترون لما دلت عليه الادلة من الحق (ماذا) أى أى شئ (أراد الله) أى الملك الذى له جميع العظمة (بهذا) اى العدد القليل فى جنب عظمته (مثلا) قال الجلال المحلى سموه لغرابته بذلك وأعرب حالا وقال الليث المثل الحديث ومنه مثل الجنة التى وعد المتقون أى حديثها والخبر عنها وقال الرازى انما سموه مثلا لانه لما كان هذا العدد عددا عجيبا ظن القوم انه ربما لم يكن مراد الله تعالى منه ما أشعر به ظاهره بل جعله مثلا لشئ آخر وتنبيها على مقصود آخر لا جرم سموه مثلا على سبيل الاستعارة لانهم لما استغربوه ظنوا أنه ضرب مثلا لغيره ومثلا تمييزا وحال وتسمية هذا مثلا على سبيل الاستعارة لغرابته ولما كان التقدير أراد بهذا اضلال من ضل وهو لا يبالى وهداية من اهتدى وهو لا يبالى كان كأنه قيل هل يفعل مثل ذلك فى غير هذا فقال تعالى (كذلك) أى مثل هذا المذكور من الاضلال والهداية (يضل الله) أى الذى له مجامع العظمة ومعاقد العز (من يشاء) بأى كلام شاء كاضلال الله تعالى أبا جهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم (ويهدى) بقدرته التامة (من يشاء) بنفس ذلك الكلام أو بغيره كهداية أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وهذه الآية تدل على مذهب أهل السنة لانه تعالى قال فى أول الآية وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا الخ ثم قال تعالى كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء (وما يعلم جنود ربك) أى المحسن اليك بأنواع الاحسان المدبر لامرك (الا هو) أى الله سبحانه وتعالى قال مقاتل رضى الله عنه وهذا جواب لابى جهل حيث قال ما لمحمد أعوان الا تسعة عشر وقال مجاهد رضى الله عنه وما يعلم جنود ربك يعنى من الملائكة الذين خلقهم

لتعذيب

لتعذيب أهل النار ولا يعلم عدتهم الا الله تعالى والمعنى أن تسعة عشر هم خزنة النار ولهم من الاعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلم عدتهم الا الله تعالى ولو أراد لجعل الخزنة أكثر من ذلك فقد روى أن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة لا تعود لهم نوبة أخرى وروى أن الارض فى السماء كحلقة ملقاة فى فلاة وكل سماء فى التى فوقها كذلك وورد فى الخبر أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع وفى رواية موضع قدم الا وفيه ملك قائم يصلى وفى رواية ساجد وانما خص هذا العدد لحكم لا يعلمها الا هو * ثم رجع الى ذكر سقر فقال تعالى (وماهى) أى النار التى هى من أعظم جنوده (الا ذكرى للبشر) أى ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة الله وأنه سبحانه لا يحتاج الى أعوان وأنصار وللبشر مفعول بذكرى واللام فيه مزيدة وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بين بين والباقون بالفتح وقوله تعالى (كلا) ردع لمن أنكرها أو انكار لان يتذكروا بها قاله البيضاوى وقال البغوى هذا قسم يقول حقا وقال الجلال المحلى استفتاح بمعنى الا (والقمر) أى الذى هو آية الليل الهادية من ضل بظلامه (والليل اذ أدبر) أى مضى فانقلب راجعا من حيث جاء فانكشف ظلامه وقرأ نافع وحمزة وحفص بسكون الذال المعجمة والدال المهملة بعدها وهمزة قطع مفتوحة بين المعجمة والمهملة الساكنين والباقون بفتح الذال المعجمة وبعدها ألف وفتح المهملة بعد الالف فالقراءة الاولى اذ أدبر والثانية اذا دبر وكلاهما لغة يقال دبر الليل وأدبر اذا ولى مدبرا ذاهبا قال أبو عمرو ودبر لغة قريش وقال قطرب دبر أى أقبل تقول العرب دبرنى فلان أى جاء خلفى فالليل يأتى خلف النهار وقوله تعالى (والصبح اذا أسفر) أى أضاء وتبين وقوله تعالى (انها لاحدى الكبر) جواب للقسم أو تعليل لكلا والقسم معترض للتوكيد والكبر جمع الكبرى جعلت ألف التأنيث كالتاء فلما جمعت فعلة على فعل جمعت فعلى عليها ونظير ذلك القواصع فى جمع القاصعاء كأنها جمع فاعلة أى لاحدى البلايا والدواهى الكبر ومعنى كونها احداهن أنها من بينهن واحدة فى العظم لا نظير لها كما تقول هو أحد الرجال وهى احدى النساء وقوله تعالى (نذيرا) تمييز من احدى على معنى انها لاحدى الدواهى انذارا كما تقول هى احدى النساء عفافا وقيل هى حال وقيل هو متصل بأول السورة أى قم نذيرا (للبشر) قال الزمخشرى وهو من بدع التفاسير وقوله تعالى (لمن شاء) أى بارادته (منكم) بدل من البشر (أن يتقدم) أى الى الخير أو الى الجنة بالايمان (أو يتأخر) أى الى الشر أو النار بالكفر (كل نفس) أى ذكر أو أنثى على العموم (بما كسبت) أى خاصة لا بما كسب غيرها (رهينة) أى مرهونة مأخوذة وليست بتأنيث رهين فى قوله تعالى كل امرئ بما كسب رهين لتأنيث النفس لانه لو قصدت الصفة لقيل رهين لان فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث وانما هى اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم كأنه قيل كل نفس بما كسبت رهن ومنه بيت الحماسة

أبعد الذى بالنعف نعف كويكب * رهينة رمس ذى تراب وجندل

كأنه قال رهن والمعنى كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك (الا أصحاب اليمين) وهم المؤمنون

فانهم فكوا رقابهم بإيمانهم وبما أحسنوا من أعمالهم وقيل هم الملائكة وروى عن على أنهم أطفال المسلمين وقال مقاتل رضى الله عنه هم أهل الجنة الذين كانوا على يمين آدم يوم الميثاق حين قال لهم الله هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وعنه أيضا هم الذين أعطوا كتبهم بأيمانهم وقال الحسن رضى الله عنه هم المسلمون المخلصون وقال القاسم كل نفس مأخوذة بكسبها خيرا وشرا الا من اعتمد على الفضل فكل من اعتمد على الكسب فهو رهين به ومن اعتمد على الفضل فهو غير مأخوذ ولما أخرجهم من حكم الارتهان الذى أطلق على الاهلاك لانه سببه استأنف بيان حالهم فقال تعالى (فى جنات) أى بساتين فى غاية العظم لانهم أطلقوا أنفسهم وفكوا رقابهم فلم يرتهنوا (يتساءلون) أى فيما بينهم يسأل بعضهم بعضا أو يسألون غيرهم (عن المجرمين) أى عن أحوالهم ويقولون لهم بعد اخراج الموحدين من النار (ما) محتملة للاستفهام والتعجب والتوبيخ (سلككم) أى أدخلكم أيها المجرمون ادخالا هو فى غاية الضيق حتى كأنكم السلك فى الثقب وقرأ السوسى بادغام الكاف فى الكاف والباقون بالاظهار (فى سقر) فأجابوا بأن (قالوا لم نك من المصلين) أى صلاة يعتد بها فكان هذا تنبيها على أن رسوخ القدم فى الصلاة مانع من مثل حالهم وعلى أنهم معاقبون على فروع الشريعة وان كانت لا تصح منهم فلو فعلوها قبل الايمان لم يعتد بها وعلى أن الصلاة أعظم الاعمال وأن الحسنات بها تتقدم على غيرها (ولم نك نطعم المسكين) أى نعطيه ما يجب علينا اعطاؤه له (وكنا نخوض) أى نوجد الكلام الذى هو فى غير مواقعه ولا علم لنا به ايجاد المشى من الخائض فى ماء غمر (مع الخائضين) بحيث صار لنا هذا وصفا راسخا فنقول فى القرآن انه سحر وانه شعر وانه كهانة وغير هذا من الاباطيل لا نتورع عن شئ من ذلك ولا نقف مع عقل ولا نرجع الى صحيح نقل فليأخذ الذين يبادرون الى الكلام فى كل ما يسألون عنه من أنواع العلم من غير تثبت منزلتهم من هنا (وكنا نكذب) أى بحيث صار ذلك وصفا ثابتا (بيوم الدين) أى بيوم البعث والجزاء (حتى أتانا اليقين) أى الموت أو مقدماته الذى قطعنا عن دار العمل قال الله تعالى حتى يأتيك اليقين (فان قيل) لم أخر التكذيب وهو أخس الخصال الاربع (أجيب) بأنهم بعد اتصافهم بتلك الامور الثلاثة كانوا مكذبين بيوم الدين والغرض تعظيم الذنب كقوله تعالى كان من الذين آمنوا ولما أقروا على أنفسهم بما أوجب العذاب الدائم فكانوا ممن فسد مزاجه فتعذر علاجه سبب عنه قوله تعالى (فما تنفعهم) أى فى حال اتصافهم بهذه الصفات (شفاعة الشافعين) أى لا شفاعة لهم فلا انتفاع بها وليس المراد أن ثم شفاعة غير نافعة كقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهذه الآية تدل على صحة الشفاعة للمذنبين من المؤمنين بمفهومها لان تخصيص هؤلاء بأنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين يدل على أن غيرهم تنفعهم شفاعة الشافعين قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يشفع نبيكم عليه الصلاة والسلام رابع أربعة جبرائيل ثم ابراهيم ثم موسى أو عيسى ثم نبيكم صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ثم الملائكة ثم النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ويبقى قوم فى جهنم يقال لهم ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين الى قوله تعالى فما تنفعهم شفاعة الشافعين

قال

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فهؤلاء الذين في جهنم (فما لهم عن التذكرة معرضين) أي فما لأهل مكة قد أعرضوا وولوا عن القرآن قال مقاتل رضي الله عنه معرضين عن القرآن من وجهين أحدهما الجحود والانكار والثاني ترك العمل بما فيه وقيل المراد بالتذكرة العظة بالقرآن وغيره من المواعظ ومعرضين حال من الضمير في الجار الواقع خبرا عن ما الاستفهامية ومثل هذه الحال تسمى حالا لازمة وعن التذكرة متعلق به أي أي شيء حصل لهم في اعراضهم عن الاتعاظ (كأنهم) في اعراضهم عن التذكرة من شدة النفر (حمر) أي من حمر الوحش وهي أشد الاشياء نفارا ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب في وصف الابل بسرعة السير بالحمر في عدوها اذا وردت ماء فأحست بما يريبها (مستنفرة) أي موجدة للنفار بغاية الرغبة حتى كأنها تطلبه من أنفسها لانه شأنها وطبعها وقرأ ابن عامر ونافع بفتح الفاء على انه اسم مفعول أي نفرها القناص والباقون بكسرها بمعنى نافرة (فرت من قسورة) قال مجاهد رضي الله عنه هي جماعة الرماة الذين يتصيدونها لا واحد له من لفظه وهي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه هو القناص وعن زيد بن أسلم فريق من رجال أقوياء وكل ضخم شديد عند العرب قسور وقسورة وعن أبي المتوكل هي لغط القوم وأصواتهم وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال حبال الصيادين وقال أبو هريرة رضي الله عنه هي الاسد وهو قول عطاء والكلبي وذلك ان الحمر الوحشية اذا عاينت الاسد هربت كذلك هؤلاء المشركون اذا سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن هربوا وعن عكرمة رضي الله عنه ظلمة الليل ويقال لسواد الليل قسورة وفي تشبيههم بالحمر مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم بين كما في قوله تعالى كمثل الحمار يحمل أسفارا شهادة عليهم بالبله وقلة العقل * ولما كان الجواب قطعا لا شيء لهم في اعراضهم هذا أضرب عنه بقوله تعالى (بل يريد) أي على دعواهم في زعمهم (كل امرئ منهم) أي المعرضين من ادعائه الكمال في المروأة (أن يؤتى) أي من السماء (صحفا) أي قراطيس مكتوبة (منشرة) أي مفتوحة وذلك ان أبا جهل وجماعة من قريش قالوا يا محمد لن نؤمن بك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه من رب العالمين الى فلان بن فلان ونؤمر فيه باتباعك ونظيره لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه وعن ابن عباس رضي الله عنهما كانوا يقولون ان كان محمد صادقا فليصبح عند رأس كل واحد منا صحيفة فيها براءته من النار وقال الكلبي رضي الله عنه ان المشركين قالوا يا محمد بلغنا أن الرجل من بني اسرائيل كان يصبح مكتوبا عند رأسه ذنبه وكفارته فائتنا بمثل ذلك وقالوا اذا كانت ذنوب الانسان تكتب عليه فما لنا لا نرى ذلك قال البغوي والصحف جمع الصحيفة ومنشرة منشورة قال الله تعالى (كلا) أي لا يؤتون الصحف وقيل حقا قال البغوي وكل ما ورد عليك منه فهذا وجهه قال ابن عادل والاول أجود لانه رد لقولهم * ثم بين تعالى سبب اعراضهم بقوله تعالى (بل لا يخافون) أي في زمن من الازمان (الآخرة) فهذا هو السبب في اعراضهم وقوله تعالى (كلا) استفتاح قاله الجلال المحلي وقال البيضاوي ردع عن اعراضهم وقال البغوي وتبعه ابن عادل حقا (انه) أي القرآن (تذكرة) أي عظيمة توجب ايجابا

عظيما اتباعه وعدم الانفكاك عنه بوجه فليس لاحد أن يقول أنا مغرور ولم أجد مذكرا ولا معترفا فان عنده أعظم مذكر وأشرف معرّف (فمن شاء) أى أن يذكره (ذكره) أى اتعظ به وجعله نصب عينيه وعلم معناه وتخلق به فمن فعل ذلك سهل عليه لفظه وبعض معانيه فانه كالبحر الفرات فمن شاء اغترف (وما يذكرون) أى فى وقت من الاوقات (الا أن يشاء الله) أى الملك الاعظم الذى لا أمر لاحد معه ذكرهم أو مشيئتهم كقوله تعالى وما تشاؤن الا أن يشاء الله وهو تصريح بأن فعل العبد بمشيئة الله تعالى وقرأ نافع بتاء الخطاب وهو التفات من الغيبة الى الخطاب والباقون بياء الغيبة حملا على ما تقدم من قوله تعالى كل امرئ (هو) أى الله سبحانه وتعالى وحده (أهل التقوى) أى أن يتقيه عباده ويحذروا غضبه بكل ما تصل قدرهم اليه لما له من الجلال والعظمة والقهر وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وأبو عمرو بين بين وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين (وأهل المغفرة) أى وحقيق أن يطلب غفرانه للذنوب لاسيما اذا اتقاه المذنب لان له الجمال واللطف وهو القادر ولا قدرة لغيره فلا ينفعه شئ ولا يضره روى الترمذى وأحمد والحاكم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى هذه الآية هو أهل التقوى وأهل المغفرة يقول الله تعالى أنا أهل أن أتقى فمن اتقى أن يشرك بى غيرى فأنا أهل أن أغفر له ووقف الكسائى على أهل المغفرة بالامالة على أصله وورش بترقيق الراء وقفا ووصلا على أصله وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المدثر أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وكذب به حديث موضوع

(سورة القيامة مكية)

وهى تسع وثلاثون آية ومائة وسبع وتسعون كلمة وستمائة واثنان وخمسون حرفا

(بسم الله) الذى له الجلال والكمال (الرحمن) الذى عم بنعمة الايجاد أهل الهدى والضلال (الرحيم) الذى سدد أهل العناية فى الافعال والاقوال * واختلف فى لا فى قوله تعالى (لا أقسم) على أوجه أحدها انها نافية لكلام المشركين المنكرين للبعث أى ليس الامر كما زعموا ثم ابتدأ أقسم (بيوم القيامة) قال القرطبى ان القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار فجاء الاقسام بالرد عليهم كقولك لا والله لا أفعل فلا رد لكلام قد مضى كقولك لا والله ان القيامة لحق كأنك أكذبت قوما أنكروه الثانى انها مزيدة مثلها فى لئلا يعلم أهل الكتاب واعترضوا هذا بأنها انما تزاد فى وسط الكلام لا فى أوله وأجيب بأن القرآن فى حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض يدل على ذلك انه قد يجىء ذكر الشئ فى سورة ويذكر جوابه فى سورة أخرى كقوله تعالى يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون وجوابه فى سورة أخرى ما أنت بنعمة ربك بمجنون واذا كان كذلك كان أول هذه السورة جاريا مجرى الوسط ورد هذا بأن القرآن فى حكم السورة الواحدة فى عدم التناقض لا أن تقرن سورة بما بعدها فذلك غير جائز الثالث قال الزمخشرى ادخال لا النافية على فعل القسم مستفيض فى كلامهم وأشعارهم قال امرؤ القيس

لا وأبيك ابنة العامرى * لا يدعى القوم انى أفر

وفائدتها توكيد القسم ثم قال الزمخشرى بعد ان ذكر وجه الزيادة والاعتراض والجواب كما تقدم والوجه أن يقال هى للنفى والمعنى فى ذلك انه لا يقسم بالشئ الا اعظاما له يدل عليه قوله تعالى فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم فكأنه بادخال حرف النفى يقول ان اعظامى له بأقسامى به كلا اعظام يعنى انه يستأهل فوق ذلك قال بعضهم قول الزمخشرى والوجه أن يقال الى آخره تقرير لقوله ادخال لا النافية فيه على فعل القسم مستفيض الى آخره وحاصل كلامه يرجع الى انها نافية وأن النفى متسلط على فعل القسم بالمعنى الذى شرحه وليس فيه دفع لفظا ولا معنى وقرأ ابن كثير بخلاف عن البزى بغير ألف بعد اللام والهمزة مضمومة والباقون بالالف ويعبر عن قراءة ابن كثير بالقصر وعن قراءة الباقين بالمد ولا خلاف فى قوله تعالى (ولا أقسم بالنفس اللوامة) فى المد والكلام فى لا المتقدمة وجرى الجلال المحلى على انها زائدة فى الموضعين واختلف فى النفس اللوامة فقيل هى نفس المؤمن الذى لا تراه يلوم الا نفسه تقول ما أردت بكذا ولا تراه يعاتب الا نفسه وقال الحسن رضى الله عنه هى والله نفس المؤمن ما ترى المؤمن الا يلوم نفسه ما أردت بكلامى ما أردت بأكلى ما أردت بحديثى والفاجر لا يحاسب نفسه وقال مجاهد رضى الله عنه هى التى تلوم على ما فات فتلوم نفسها على الشر لم فعلته وعلى الخير لم لا تستكثر منه وقيل تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها وقيل المراد آدم عليه السلام لم يزل لائما نفسه على معصيته التى أخرج بها من الجنة وقيل هى الملومة فتكون صفة ذم وهو قول من نفى أن تكون قسما وعلى الاول صفة مدح فيكون القسم بها سائغا وقال مقاتل رضى الله عنه هى نفس الكافر يلوم نفسه ويتحسر فى الآخرة على ما فرط فى جنب الله تعالى وجواب القسم محذوف اى لتبعثن دل عليه قوله تعالى (أيحسب الانسان) أى هذا النوع الذى جبل على الانس بنفسه والنظر فى عطفه وأسند الفعل الى النوع كله لان أكثرهم كذلك لغلبة الحظوظ على العقل الامن عصم الله تعالى وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها (ألن) أى انا لا (نجمع) أى على ما لنا من العظمة (عظامه) أى التى هى قالب بدنه فنعيدها كما كانت بعد تفرقها وتفتتها للبعث والحساب وقيل نزلت فى عدى بن ربيعة حليف بنى زهرة ختن الاخنس ابن شريق الثقفى وذلك ان عديا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد حدثنى عن القيامة متى تقوم وكيف أمرها وحالها فأخبره النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فقال لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أومن بك أو يجمع الله العظام بعد تفرقها ورجوعها رميما ورفاتا مختلطا بالتراب وبعد ما نسفتها الرياح وطيرتها فى أباعد الارض ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول اللهم اكفنى جارى السوء عدى بن ربيعة والاخنس بن شريق وقيل نزلت فى عدو الله أبى جهل أنكر البعث بعد الموت وذكر العظام والمراد نفسه كلها لان العظام قالب الخلق *(تنبيه)* ألن هنا موصولة وليس بين الهمزة واللام نون فى الرسم كما ترى وقوله تعالى (بلى) ايجاب لما بعد النفى المنسحب عليه الاستفهام وهو وقف حسن ثم يبتدئ بقوله تعالى (قادرين) وقيل المعنى بل

نجمعها قادرين مع جمعها (على أن نسوى بنانه) أى أصابعه وسلامياته وهى عظامه الصغار التى فى يديه خصها بالذكر لانها أطرافه وآخر ما يتم به خلقه أى نجمع بعضها على بعض على ما كانت عليه قبل الموت لانا قدرنا على تفصيل عظامه وتفتيتها فنقدر على جمعها وتوصيلها وقدرنا على جمع صغار العظام فنحن على جمع كبارها أقدر وقال ابن عباس وأكثر المفسرين على أن نسوى بنانه أى نجعل أصابع يديه ورجليه شيأ واحدا كخف البعير أوكحافر الحمار أوكظلف الخنزير فلا يمكنه أن يعمل بها شيأ ولكنا فرقنا أصابعه حتى يفعل بها ما شاء وقيل نقدر أن نصير الانسان فى هيئة البهائم فكيف فى صورته التى كان عليها وهو كقوله تعالى وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون وقوله تعالى (بل يريد الانسان) عطف على أيحسب فيجوز أن يكون استفهاما وأن يكون جوابا لجواز أن يكون الاضراب عن المستفهم وعن الاستفهام (ليفجر أمامه) أى ليدوم على فجوره فيما يستقبله من زمان لا يبرح عنه ولا يتوب هذا قول مجاهد رضى الله عنه وقال سعيد بن جبير رضى الله عنه يقدم الذنب ويؤخر التوبة فيقول سوف أتوب سوف أعمل حتى يأتيه الموت على أشر أحواله وأسوأ أعماله وقال الضحاك رضى الله عنه هو الامل يقول أعيش فأصيب من الدنيا كذا وكذا ولا يذكر الموت وقال ابن عباس رضى الله عنهما يكذب بما أمامه من البعث والحساب وأصل الفجور الميل وسمى الكافر والفاسق فاجرا لميله عن الحق (يسأل) أى سؤال استهزاء واستبعاد (أيان) أى أى وقت يكون (يوم القيامة) * ولما كان الجواب يوم يكون كذا وكذا اعدل عنه الى ما سبب عن استبعاده لانه أهول فقال تعالى (فاذا برق البصر) اى شخص ووقف لما يرى مما كان يكذب به هذا على قراءة نافع بفتح الراء وأما على قراءة كسرها فالمعنى تحير ودهش مما يرى وقيل هما لغتان فى التحير والدهشة (وخسف القمر) أى أظلم وذهب ضوءه وقد اشتهر أن الخسوف للقمر والكسوف للشمس وقيل يكونان فيهما يقال خسفت الشمس وكسفت وخسف القمر وكسف وقيل الكسوف أوله والخسوف آخره ولم تلحق علامة التأنيث فى قوله تعالى (وجمع الشمس والقمر) لان التأنيث مجازى وقيل لتغليب التذكير ورد لانه لا يقال قام هند وزيد عند الجمهور من العرب وقال الكسائى حمل على جمع النيران وقال الفراء لم يقل جمعت لان المعنى جمع بينهما قال الفراء والزجاج جمع بينهما فى ذهاب ضوئهما فلا ضوء للشمس كالاضوء للقمر بعد خسوفه وقال ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم قرن بينهما فى طلوعهما من المغرب أسودين مكورين مظلمين مقرنين كأنهما ثوران عقيران فى النار وقال عطاء بن يسار رضى الله عنه يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان فى البحر فيكونان نار الله الكبرى وقيل يجمعان فى نار جهنم لانهما قد عبدا من دون الله تعالى ولا تكون النار عذابا لهما لانهما جماد وانما يفعل ذلك بهما زيادة فى تبكيت الكفار وحسرتهم وقوله تعالى (يقول الانسان) أى لشدة روعه بحريا مع طبعه جواب اذا من قوله تعالى فاذا برق البصر (يومئذ) أى اذا كانت هذه الاشياء وقوله تعالى (أين المفر) منصوب المحل بالقول والمفر مصدر بمعنى الفرار قال الماوردى ويحتمل وجهين أحدهما أين المفر من الله تعالى استحياء منه والثانى

أين المفر من جهنم حذرا منها ويحتمل هذا القول من الانسان وجهين أحدهما أن يكون من الكافر خاصة في عرصة القيامة دون المؤمن لثقة المؤمن ببشرى ربه تعالى والثاني أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوا منها وقيل أبو جهل خاصة وقوله تعالى (كلا) ردع عن طلب المفر (لا وزر) أى لا ملجأ ولا حصن استعير من الجبل قال السدى كانوا في الدنيا اذا فزعوا تحصنوا في الجبال فقال الله تعالى لهم لا وزر يعصمكم منى يومئذ واشتقاقه من الوزر وهو الثقل (الى ربك) أى المحسن اليك بأنواع الاحسان لا الى شئ غيره (يومئذ) اى اذ كانت هذه الامور (المستقر) أى استقرار الخلق كلهم ناطقهم وصامتهم ومكان قرارهم وزمانه الى حكمه سبحانه ومشيئته ظاهرا وباطنا لا حكم لغيره بوجه من الوجوه في ظاهر ولا باطن كما هو في الدنيا وقال ابن مسعود المصير والمرجع قال الله تعالى الى ربك الرجعى واليه المصير وقال السدى المنتهى نظيره وان الى ربك المنتهى (ينبأ) أى يخبر تخبيرا عظيما (الانسان يومئذ) أى اذا كان الزلزال الاكبر (بما قدم) قال ابن مسعود وابن عباس رضى الله تعالى عنهم بما قدم قبل موته من عمل صالح وسيء (وأخر) بعد موته من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها وقال ابن عطية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بما قدم من المعصية وأخر من الطاعة وقال قتادة بما قدم من طاعة الله وأخر من حق الله فضيعه وقال مجاهد بأول عمله وآخره وقال عطاء بما قدم في أول عمره وما أخر في آخر عمره وقال زيد بن اسلم بما قدم من أموال نفسه وما أخر خلفه للورثة والاولى أن يقال ينبأ بجميع ذلك اذ لا منافاة بين هذه الاقوال (بل الانسان) أى كل واحد من هذا النوع (على نفسه) أى خاصة (بصيرة) أى حجة بينة على أعماله والهاء للمبالغة يعنى أنه في غاية المعرفة بأحوال نفسه فيشهد عليه بعمله سمعه وبصره وجوارحه قال الله تعالى كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا قال البغوى ويحتمل أن يكون معناه بل للانسان على نفسه يعنى جوارحه فحذف حرف الجر كقوله تعالى وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم أى لاولادكم ويجوز أن يكون نعتا لاسم مؤنث أى بل الانسان على نفسه عين بصيرة (ولو ألقى) أى ذكر بغاية السرعة ذلك الانسان من غير تلعثم دلالة على غاية الصدق والاهتمام والتملق وقوله تعالى (معاذيره) جمع معذرة على غير قياس قاله الجلال المحلى أى لو جاء بكل معذرة ما قبلت منه وقال الزمخشرى المعاذير ليس بجمع معذرة وانما هو اسم جمع لها ونحوه المناكير في المنكر اه قال أبو حيان وليس هذا البناء من ابنية أسماء الجموع وانما هو من أبنية جموع التكسير اه وقيل معاذير جمع معذار وهو الستر والمعنى ولو أرخى ستوره والمعاذير الستور بلغة اليمن قاله الضحاك وحكى الماوردى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ولو ألقى معاذيره أى ولو تجرد عن ثيابه * ولما كان صلى الله عليه وسلم اذا لقن الوحى نازع جبريل عليه السلام القراءة ولم يصبر الى أن يتمها مسارعة الى الحفظ وخوفا من أن تنفلت منه أمره الله تعالى بأن ينصت له ملقيا اليه بقلبه وسمعه حتى يقضى الله تعالى وحيه ثم يعقبه بالدراسة الى أن يرسخ فيه بقوله تعالى (لا تحرك به) أى بالقرآن (لسانك) ما دام جبريل عليه السلام يقرؤه (لتعجل به) أى

لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك فان هذه العجلة وان كانت من الكمالات بالنسبة اليك والى اخوانك من الانبياء عليهم السلام كما قال موسى عليه السلام وعجلت اليك رب لترضى نقل صلى الله عليه وسلم من مقام كامل الى أكمل منه ثم علل النهى عن العجلة بقوله تعالى (ان علينا) أى بما لنا من العظمة لا على أحد سوانا (جمعه) أى فى صدرك حتى تثبته وتحفظه (وقرآنه) أى قراءتك اياه يعنى جريانه على لسانك (فاذا قرأناه) عليك بقراءة جبريل عليه السلام (فاتبع) أى بغاية جهدك بالقاسمعك واحضار قلبك (قرآنه) أى قراءته مجموعة على حسب ما أداه رسولنا وجمعناه لك فى صدرك وكرر تلاوته حتى يصير لك به ملكة عظيمة ويصير لك خلقا فيكون قائدك الى كل خير وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى لا تحرك به لسانك لتعجل به قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل جبريل بالوحى كان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه وكان يعرف منه فأنزل الله تعالى الآية التى فى لا أقسم بيوم القيامة لا تحرك به لسانك الآية فكان صلى الله عليه وسلم اذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق فاذا ذهب قرأه كما وعده الله تعالى قال سعيد بن جبير قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فأنا أحركهما لك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما فأنزل الله عز وجل الآية (ثم ان علينا) أى بما لنا من العظمة (بيانه) أى بيان ألفاظه ومعانيه لك سواء أسمعته من جبريل عليه السلام على مثل صلصلة الجرس أم بكلام الناس المعتاد بالصوت والحروف ولغيرك على لسانك وعلى ألسنة العلماء من أمتك والآية مشيرة الى ترك مطلق العجلة لانه اذا نهى عنها فى أعظم الاشياء وأهمها كان غيره بطريق الاولى والمناسبة بين هذه الآية وما قبلها ان تلك تضمنت الاعراض عن آيات الله تعالى وهذه تضمنت المبادرة اليها بحفظها وقوله تعالى (كلا) استفتاح بمعنى ألا وقال الزمخشرى ردع للنبى صلى الله عليه وسلم عن عادة العجلة وقال جماعة من المفسرين حقا والاول جرى عليه الجلال المحلى وهو أظهر (بل يحبون) متجددة على تجدد الزمان (العاجلة) بدليل أنهم يقبلون غاية الاقبال عليها وحبها أوجب لهم ارتكاب ما يعلمون قبحه فان الآخرة والاولى ضرتان من تقرب من أحدهما الا بعد من تباعده عن الاخرى فان حبك للشئ يعمى ويصم (ويذرون) أى يتركون على أى وجه كان ولو أنه غير مستحسن (الآخرة) لانهم يبغضونها لارتكابهم ما يضرهم فيها وجمع الضمير وان كان مبنى الخطاب مع الانسان للمعنى وقرأ يحبون ويذرون ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بياء الغيبة فيهما حملا على لفظ الانسان المذكور أولا لان المراد به الجنس لان الانسان بمعنى الناس والباقون بتاء الخطاب فيهما اما خطابا بالكفار قريش أى تحبون يا كفار قريش العاجلة أى الدار الدنيا والجاه فيها وتتركون الآخرة والعمل لها واما التفاتا عن الاخبار عن الجنس المتقدم والاقبال عليه بالخطاب * ولما ذكر تعالى الآخرة التى أعرضوا عنها ذكر ما يكون فيها بيانا لجهلهم وسفههم وقلة عقولهم وترهيبا لمن أدبر عنها وترغيبا لمن أقبل عليها لطفا بهم ورحمة لهم فقال تعالى (وجوه) أى من المحشورين وهم جميع الخلائق (يومئذ) أى اذ تقوم الساعة (ناضرة) من النضرة بالضاد

وهى النعمة والرفاهية أى هى بهية مشرقة عليها أثر النعمة بحيث يدل ذلك على نعمة أصحابها (الى ربها) أى الحسن اليها خاصة باعتبار أن عد النظر الى غيره كلا نظر (ناظرة) أى دائما هم يحدقون أبصارهم لا غفلة لهم عن ذلك فاذا رفع الحجاب عنهم أبصروه بأعينهم بدليل التعدى بالى وذلك النظر جهرة من غير اكتنام ولا تضام ولا زحام كما قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهم وأكثر المفسرين وجميع أهل السنة وروى عن النبى عليه الصلاة والسلام فى الاحاديث الصحيحة من وجوه كثيرة بحيث اشتهر غاية الشهرة وتكون الرؤية كما مثلت فى الاحاديث كما يرى القمر ليلة البدر أى كل من يريد رؤيته من بيته يراه مجليا له هذا وجه الشبه لا أنه فى جهة ولا فى حالة لها شبيه تعالى الله الكريم عن التشبيه فمن تلك الاحاديث ماروى عن جرير بن عبد الله قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الى القمر ليلة البدر فقال صلى الله عليه وسلم انكم سترون ربكم عيانا كما ترون القمر لا تضامون فى رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا ثم قرأ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وفى كتاب النسائى عن وهب قال ينكشف الحجاب فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم شيأ أحب اليهم من النظر ولا أقر لاعينهم وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجلى ربنا عز وجل حتى ننظر الى وجهه فيخرون له سجدا فيقول تعالى ارفعوا رؤسكم فليس هذا يوم عبادة وقدم الجار الدال على الاختصاص اشارة الى أن هذا النظر مباين للنظر الى غيره فلا يعد ذلك نظرا بالنسبة اليه وعبر بالوجوه عن أصحابها لانها أدل ما يكون على السرور وليكون ذكرها أصرح فى أن المراد بالنظر حقيقته روى مسلم فى قوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة كان ابن عمر يقول أكرم أهل الجنة على الله من ينظر الى وجهه غدوة وعشية ثم تلا هذه الآية وأنكر الرؤية المعتزلة واحتجوا بقوله تعالى لا تدركه الابصار ويقولون النظر المقرون بالى ليس اسما للرؤية بل لمقدمة الرؤية وهى تقليب الحدقة نحو المرئى التماسا لرؤيته ونظر العين بالنسبة الى الرؤية كنظر القلب بالنسبة الى المعرفة وكالاصغاء بالنسبة الى السمع ويدل على ذلك قوله تعالى وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون فأثبت النظر حال عدم الرؤية فتكون الرؤية غاية النظر وان النظر يحصل والرؤية غير حاصلة قالوا ويمكن أن يكون معنى قوله تعالى ناظرة منتظرة كقولك انا أنظر اليك فى حاجتى وأجيب عن استدلالهم بقوله تعالى لا تدركه الابصار بأن لا تدركه بالاحاطة والجهة فلا يكون ذلك مانعا للرؤية على هذا الوجه وعن بقية استدلالهم بما ذكروه بجوابين أحدهما أن نقول النظر هو الرؤية لقول موسى عليه السلام أرنى أنظر اليك فلو كان المراد تقليب الحدقة نحو المرئى لاقتضت الآية اثبات الجهة والمكان ولانه أخر النظر عن الاراءة فلا يكون تقليب الحدقة الجواب الثانى سلمنا ما ذكرتموه من ان النظر تقليب الحدقة لكن تعذر حمله على الحقيقة فيجب حمله على الرؤية اطلاقا لاسم السبب على المسبب وهو أولى من حمله على الانتظار لعدم الملازمة لان تقليب الحدقة كالسبب للرؤية ولا تعلق بينه وبين الانتظار وأما قولهم بحمله على الانتظار فأجيب عنه أيضا بأن الذى هو بمعنى الانتظار فى القرآن

غير مقرون بالى كقوله تعالى انظرونا نقتبس من نوركم هل ينظرون الا أن والذى ندعيه ان النظر المقرون بالى ليس الا بمعنى الرؤية لان وروده بمعنى الرؤية ظاهر فلا يكون بمعنى الانتظار دفعا للاشتراك * ولما ذكر تعالى أهل النعمة أتبعه أضدادهم من أهل النقمة فقال سبحانه وتعالى (ووجوه يومئذ) أى فى ذلك اليوم بعينه (باسرة) أى شديدة العبوس والكلوح والتكره لما هى فيه من الغم كأنها قد غرقت فيه وقال السدى باسرة متغيرة (تظن) أى تتوقع أربابها بما ترى من المخايل (أن يفعل بها) أى بهم فانه اذا أصيب الوجه الذى هو أشرف ما فى الجملة كان ما عداه أولى (فاقرة) وهى الداهية العظيمة قال أبو عبيدة سميت بذلك لانها تكسر فقار الظهر يقال فقرته الفاقرة أى كسرت فقار ظهره ومنه سمى الفقير لانكسار فقاره من القل وقال قتادة الفاقرة الشر وقال السدى الهلاك وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما دخول النار وقال الكلبى هى أن تحجب عن رؤية الرب عز وجل وقوله تعالى (كلا) ردع عن ايثار الدنيا على الآخرة قاله البيضاوى تبعا للزمخشرى وزاد الزمخشرى كأنه قيل ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا الى ما بين أيديكم من الموت الذى عنده تنقطع العاجلة عنكم وتنقلبون الى الآجلة التى تبقون فيها مخلدين (اذا بلغت) النفس (التراقى) وأضمر النفس وان لم يجر لها ذكر لان الكلام الذى وقعت فيه يدل عليها كما قال حاتم

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى * اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

وتقول العرب أرسلت يريدون جاء المطر ولا تكاد تسمعهم يذكرون السماء والتراقى جمع ترقوة وهى العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال ولكل انسان ترقوتان قال البقاعى واطلاق جمع المثنى اشارة الى شدة انتشارها بغاية الجهد لما فيه من الكرب لاجتماعها من أقاصى البدن الى هناك اهـ وهذا كناية عن الاشفاء على الموت ذكرهم صعوبة الموت وهو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقى ويدنا زهوقها (وقيل) أى قال حاضرو صاحبها وهو المحتضر بعضهم لبعض (من راق) أى أيكم يرقيه مما به ليحصل له الشفاء وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو من كلام ملائكة الموت أى أيكم يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب فالاول اسم فاعل من رقى يعنى الرقية بالفتح فى الماضى والكسر فى المضارع والثانى الذى بمعنى الصعود بالكسر فى الماضى والفتح فى المضارع (وظن) أى أيقن المحتضر لما لاح له من أنوار الآخرة وقيل القائل من راق من أهله (انه) أى الشأن العظيم الذى هو فيه (الفراق) لما كان أى فيه من محبوب العاجلة الذى هو الفراق الاعظم الذى لا فراق مثله وفى الخبر ان العبد ليعالج كرب الموت وسكراته وان مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول السلام عليك تفارقنى وأفارقك الى يوم القيامة وسمى اليقين هنا بالظن لان الانسان ما دامت روحه متعلقة ببدنه فانه يطمع فى الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة ولا ينقطع رجاؤه عنها أو لان المراد الظن الغالب اذ لا يحصل يقين الموت مع رجاء الحياة وقيل سماه بالظن تهكما قال الرازى وهذه الآية تدل على ان الروح جوهر قائم بنفسه باق بعد موت البدن لانه تعالى سمى الموت فراقا والفراق انما يكون

اذا كانت الروح باقية فان الفراق والوصال صفة والصفة تستدعى وجود الموصوف (والتفت الساق بالساق) أى اجتمعت احداهما بالاخرى اذ الالتفاف الاجتماع قال تعالى جئنا بكم لفيفا ومعنى الكلام اتصلت شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما والحسن وغيرهما وقال الشعبى التفت ساق الانسان عند الموت من شدة الكرب قال قتادة أما رأيته اذا أشرف على الموت يضرب برجله على الاخرى وقال سعيد بن المسيب هما ساقا الانسان اذا التفتا فى الكفن وقال زيد بن أسلم التفت ساق الكفن بساق الميت وقال الضحاك الناس يجهزون جسده والملائكة يجهزون روحه وقال السدى لايخرج من كرب الاجاه أشد منه وأول الاقوال كما قال النحاس أحسنها والعرب لاتذكر الساق الا فى الشدائد والمحن العظام ومنه قولهم قامت الحرب على ساق قال أهل المعانى لان الانسان اذا دهمته شدة شمر لها عن ساقيه فقيل للامر الشديد ساق قال الجعدى

أخو الحرب ان عضت به الحرب عضها * وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا

ولما صور وقت تأسفه على الدنيا واعراضه عنها ذكر غاية ذلك فقال تعالى مفردا النبى صلى الله عليه وسلم بالخطاب اشارة الى أنه لايفهم هذا حق فهمه غيره (الى ربك) أى المحسن اليك بجميع ماأنت فيه (يومئذ) أى اذ وقع هذا الامر (المساق) أى السوق الى حكمه تعالى فقد انقطعت عنه أحكام الدنيا فاما أن تسوقه الملائكة الى سعادة واما الى شقاوة والضمير فى قوله تعالى (فلا صدق) راجع للانسان المذكور فى أيحسب الانسان أى فلا صدق النبى صلى الله عليه وسلم فيما أخبره به مما كان يعمل من الاعمال الخبيثة ولا فى ماله بالانفاق فى وجوه الخير التى ندب اليها واجبة كانت أو مندوبة وحذف المعمول لانه أبلغ فى التعميم (ولا صلى) أى ما أمر به من فرض وغيره فلا تمسك بحبل الخالق ولا وصل حبل الخلائق وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يصدق بالرسالة ولا صلى أى دعا لربه عز وجل وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقال قتادة فلا صدق بكتاب الله تعالى ولا صلى لله جل ذكره (ولكن) أى فعل ضد ما أمر به بأن (كذب) أى بما أتاه به النبى صلى الله عليه وسلم من قرآن وغيره (وتولى) أى أعرض عنه وهذا الاستدراك واضح اذ لا يلزم من نفى التصديق والصلاة التكذيب والتولى وقال القرطبى معناه كذب بالقرآن وتولى عن الايمان وقيل نزلت فى أبى جهل (ثم ذهب) أى هذا الانسان او أبو جهل (الى أهله) غير متفكر فى عاقبة ما فعل من التكذيب حالة كونه (يتمطى) أى يتبختر افتخارا بتكذيبه واعراضه عجبا لاتمه بذلك وأصله يتمطط أى يتمدد لان المتبختر يمد خطاه وانما أبدلت الطاء الثانية ياء كراهة اجتماع الامثال وقيل هو من المطا وهو الظهر لانه يلويه تبخترا فى مشيته وقوله تعالى (أولى لك) فيه التفات عن الغيبة والكلمة اسم فعل واللام للتبيين أى وليك ماتكره (فأولى) أى فهو أولى بك من غيرك وقوله تعالى (ثم أولى لك فأولى) تأكيد وقيل هذه الكلمة تقولها العرب لمن قاربه المكروه وأصلها من الولى وهو القرب قال الله تعالى قاتلوا الذين يلونكم وقال قتادة ذكر لنا أن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية أخذ بمجامع ثوب

أبي جهل بالبطحاء وقال له أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى فقال أبو جهل أتوعدني يا محمد فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيأ وإني والله لأعز من مشى بين جبليها فلما كان يوم بدر صرعه الله شر مصرع وقتله أسوأ قتلة قال وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لكل أمة فرعون وان فرعون هذه الامة أبو جهل (أيحسب) أي يجوز لقلة عقله (الانسان) أي الذي هو عبد مربوب ضعيف عاجز محتاج بما يرى من نفسه وأبناء جنسه (أن يترك) أي يكون تركه بالكلية (سدى) أي هملا لاغيا لا يكلف ولا يجازى ولا يعرض على الملك الاعظم الذي خلقه فيسأله عن شكره فيما أسدى اليه فان ذلك مناف للحكمة فانها تقتضي الامر بالمحاسن والنهي عن المساوي والجزاء على كل منهما وأكثر الظالمين والمظلومين يموتون من غير جزاء فاقتضت الحكمة أنه لابد من البعث للجزاء (ألم يك) أي الانسان (نطفة) أي شيأ يسيرا (من مني) أي ماء من صلب الرجل وترائب المرأة (تمنى) أي تصب في الرحم بسبب الله تعالى للانسان المعالجة في اخراجها بما ركب فيه من الشهوة وجعل له من الزوج التي يسر لها القضاء وطره حتى ان وقت صبها في الرحم تصب منه بغير اختياره حتى كأنه لا فعل له فيها أصلا (فان قيل) ما فائدة تمنى بعد قوله تعالى من مني (أجيب) بأن فيه اشارة الى حقارة حاله كأنه قيل انه مخلوق من المني الذي يجري على مجرى النجاسة فلا يليق بمثل هذا أن يتمرد عن طاعة الله تعالى الا أنه عبر عن هذا المعنى على سبيل الرمز كما في قوله تعالى في عيسى عليه السلام وأمه مريم كانا يأكلان الطعام والمراد منه قضاء الحاجة (ثم كان) أي كونا محكما (علقة) أي دما أحمر غليظا شديد الحمرة والغلظ (فخلق) أي قدر سبحانه عقب ذلك لحمه وعظامه وعصبه وغير ذلك من جواهره وأعراضه (فسوى) أي عدل من ذلك خلقا آخر غاية التعديل شخصا مستقلا (فجعل) أي بسبب النطفة (منه) أي من المني الذي صار علقة أي قطعة دم ثم مضغة أي قطعة لحم (الزوجين) أي النوعين (الذكر والانثى) يجتمعان تارة وينفرد كل منهما عن الآخر تارة قال القرطبي وقد احتج بهذه الآية من رأى اسقاط الخنثى وأجيب بأن هذه الآية وقرينتها خرجت مخرج الغالب أو أنه في نفس الامر ذكر أو أنثى (أليس ذلك) أي الخالق المسوي الاله الاعظم الذي قدر على تمييز ما يصلح من ذلك للذكر وما يصلح منه للانثى (بقادر على أن يحيي الموتى) أي ان يعيد هذه الاجسام كهيئتها للبعث بعد البلا روي أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأها قال سبحانك اللهم بلى رواه أبو داود والحاكم وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من قرأ سبح اسم ربك الاعلى اماما كان أو غيره فليقل سبحان ربي الاعلى ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة الى آخرها فليقل سبحانك اللهم بلى اماما كان أو غيره وروى البغوي بسنده من طريق أبي داود عن اعرابي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ منكم والتين والزيتون فانتهى الى آخرها أليس الله بأحكم الحاكمين فليقل بلى وانا على ذلك من الشاهدين ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى الى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى فليقل بلى ومن قرأ والمرسلات فبلغ فبأي حديث بعده يؤمنون فليقل آمنا بالله وروى ان رجلا كان يصلي فوق بيته فكان اذا قرأ أليس ذلك بقادر على أن يحيي

الموتى قال سبحانك اللهم بلى فسألوه عن ذلك فقال سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة القيامة شهدت له أنا وجبريل يوم القيامة أنه كان مؤمنا بها حديث موضوع

﴿ سورة الانسان ﴾

وتسمى هل أتى والامشاج والدهر مكية أو مدنية وهى احدى وثلاثون آية ومائتان وأربعون كلمة وألف وأربعة وخمسون حرفا

واختلف فيها هل هى مكية أو مدنية فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ومقاتل والكلبى مكية وجرى عليه البيضاوى والزمخشرى وقال الجمهور مدنية وقال الجلال المحلى مكية أو مدنية ولم يجزم بشئ وقال الحسن وعكرمة هى مدنية الا آية وهى قوله تعالى فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا وقيل فيها مكى من قوله تعالى انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا الى آخر السورة وما تقدمه مدنى

(بسم الله) الذى له الاسماء الحسنى (الرحمن) الذى عم بنعمه الذكر والانثى (الرحيم) الذى خص منهم من شاء بمقام الاسنى * ولما تم الاستدلال على البعث والقدرة عليه تلاه بهذا الاستفهام وهو قوله تعالى (هل أتى) قال الزمخشرى بمعنى قد فى الاستفهام خاصة والاصل أهل بدليل قول الشاعر

سائل فوارس يربوع بشدتنا * أهل رأونا بسفح القاع ذى الاكم

فالمعنى أقد أتى على التقرير والتقريب جميعا أى أتى (على الانسان) قبل زمان قريب (حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورا) أى كان شيأ منسيا غير مذكور نطفة فى الاصلاب اهـ فقوله على التقرير يعنى المفهوم من الاستفهام وقوله والتقريب يعنى المفهوم من قد التى وقع موقعها هل ومعنى قوله فى الاستفهام خاصة أن هل لا تكون بمعنى قد الا ومعها استفهام لفظا كالبيت المتقدم أو تقديرا كالآية الكريمة ولو قلت هل جاء زيد بمعنى قد جاء من غير استفهام لم يجز وغيره جعلها بمعنى قد من غير هذا القيد وجرى عليه الجلال المحلى واعترض على الزمخشرى بأنه لم يذكر غير كونها بمعنى قد وبقى قيد آخر وهو أن يقول فى الجمل الفعلية لانها متى دخلت على جملة اسمية استحال كونها بمعنى قد لان قد مختصة بالافعال وأجيب عنه بأن هذا لا يحتاج اليه لانه تقرر ان قد لا تباشر الاسماء واختلف فى المراد من الانسان فقال قتادة وعكرمة والشعبى هو آدم عليه السلام مرت عليه أربعون سنة قبل أن تنفخ فيه الروح وهو ملقى بين مكة والطائف وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى رواية الضحاك أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة ثم من حمأ مسنون أربعين سنة ثم من صلصال أربعين سنة ثم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ثم نفخ فيه الروح وحكى الماوردى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان الحين المذكور هنا هو الزمن الطويل الممتد الذى لا يعرف مقداره وقال الحسن خلق الله

كل الاشياء مايرى ومالا يرى من دواب البر والبحر فى الايام الست التى خلق الله تعالى فيها السموات والارض وآخرها خلق آدم عليه السلام فهو قوله تعالى لم يكن شيأ مذكورا روى ان أبا بكر رضى الله عنه لما قرأ هذه الآية قال ليتها تمت فلا نبتلى أى ليت هذه المدة التى أتت على آدم عليه السلام لم يكن شيأ مذكورا تمت على ذلك فلا يلد ولا تبتلى أولاده وسمع عمر رجلا يقرأ لم يكن شيأ مذكورا قال عمر ليتها تمت يقول ليته بقى على ما كان هذا وهما ضجيعاه صلى الله عليه وسلم ولكن بقدر القرب يكون الخوف (فان قيل) ان الطين والصلصال والحمأ المسنون قبل نفخ الروح فيه ما كان انسانا والآية تقتضى أنه مضى على الانسان حال كونه انسانا حين من الدهر مع انه فى ذلك الحين ما كان شيأ مذكورا (أجيب) بأن الطين والصلصال اذا كان مصورا بصورة الانسان ويكون محكوما عليه بأنه سينفخ فيه الروح ويصير انسانا صح تسميته بأنه انسان وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى لم يكن شيأ مذكورا لا فى السماء ولا فى الارض بل كان جسدا مصورا ترابا وطينا لا يذكر ولا يعرف ولا يدرى ما اسمه ولا ما يراد به ثم نفخ فيه الروح فصار مذكورا قال ابن سلام لم يكن شيأ لانه خلقه بعد خلق الحيوان كله ولم يخلق بعده حيوانا وقال الزمخشرى وتبعه جماعة من المفسرين ان المراد بالانسان جنس بنى آدم بدليل قوله تعالى (انا خلقنا الانسان) أى بعد خلق آدم عليه السلام (من نطفة) أى مائة هى شئ يسير جدا من الرجل والمرأة وكل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة كقول عبد الله بن رواحة يعاتب نفسه

مالى اراك تكرهين الجنة * هل أنت الا نطفة فى شنه

وعلى هذا فالمراد بالحين المدة التى هو فيها فى بطن أمه لم يكن شيأ مذكورا اذ كان علقة ومضغة لانه فى هذه الحالة جماد لا خطر له وقوله تعالى (أمشاج) أى أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة المختلطين الممتزجين نعت لنطفة ووقع الجمع نعتا لمفرد لانه فى معنى الجمع كقوله رفرف خضر أو جعل كل جزء من النطفة نطفة فوصفت بالجمع وقال الزمخشرى نطفة أمشاج كبرمة أعشار وبرد أكياش وهى ألفاظ مفردة غير جموع ولذلك وقعت صفات للافراد ويقال أيضا نطفة مشيج قال الشماخ

طوت أحشاء مرتجة لوقت * على مشج سلالته مهين

ولا يصح امشاج أن يكون تكسيراله بل هما مثلان فى الافراد لوصف المفرد بهما اه فقد منع أن يكون امشاجا جمع مشج بالكسر قال أبو حيان وقوله مخالف لنص سيبويه والنحويين على أن افعالا لا يكون مفردا وأجاب بعضهم بأن الزمخشرى انما قال يوصف به المفرد ولم يجعل افعالا مفردا فكأنه يجعل كل قطعة من البرمة برمة وكل قطعة من البرد بردا فوصفهما بالجمع والمعنى من نطفة قد امتزج فيها الماآن وكل منهما مختلف الاجزاء متباين الاوصاف فى الرقة والثخن والقوام والخواص يجمع من الاخلاط وهى العناصر الاربعة وماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا كان الشبه له وعن ابن عباس رضى الله

تعالى

تعالى عنهما قال يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد فما كان من عصب وعظم وقوة فمن نطفة الرجل وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة قال القرطبي وقد روى هذا مرفوعا ذكره البزار وعن قتادة أمشاج ألوان وأطوار يريد أنها تكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم خلقا آخر وعن ابن مسعود رضي الله عنه هي عروق النطفة وقال مجاهد نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وصفراء والغرض من هذا التنبيه على أن الانسان محدث فلا بد له من محدث قادر على تصويره وقد صوره على صور مختلفة فمنها صغير وكبير وطويل وقصير ومستدير وعريض ولما كان الانسان محتاجا الى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه جعل بين العظام مفاصل ثم أوصلها بأوتار وعروق ولحم ودوّر الرأس وشق في جانبيه السمع وفي مقدمه البصر والانف والفم وشق في البدن سائر المنافذ ثم مد اليدين والرجلين وقسم رؤسها بالاصابع وركب الاعضاء الباطنة من القلب والمعدة فسبحان من خلق تلك الاشياء من نطفة ضعيفة أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى * وقوله تعالى (نبتليه) يجوز فيه وجهان أحدهما أنه حال من فاعل خلقنا أي خلقناه حال كوننا مبتلين له والثاني أنه حال من الانسان وصح ذلك لان في الجملة ضميرين كل منهما يعود على ذي الحال ثم هذه الحال يجوز أن تكون مقارنة ان كان المعنى نبتليه نصرّفه في بطن أمه نطفة ثم علقة كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وأن تكون مقدرة ان كان المعنى نبتليه نختبره بالتكليف لانه وقت خلقه غير مكلف وفيما نختبره به وجهان أحدهما قال الكلبي نختبره بالخير والشر والثاني قال الحسن نختبر شكره في السراء وصبره في الضراء وقيل نبتليه نكلفه بالعمل بعد الخلق قال مقاتل رضي الله عنه وقيل نكلفه ليكون مأمورا بالطاعة ومنهيا عن المعاصي (فجعلناه) أي بما لنا من العظمة بسبب ذلك (سميعا بصيرا) أي عظيم السمع والبصر والبصيرة ليتمكن من مشاهدة الدلائل ببصره وسماع الآيات بسمعه ومعرفة الحجج ببصيرته فيصح تكليفه وابتلاؤه فقدم العلة الغائية لانها متقدمة في الاستحضار على التابع لها المصحح لورودها وقدم السمع لانه أنفع في المخاطبات ولان الآيات المسموعة أبين من الآيات المرئية وخصهما بالذكر لانهما أنفع الحواس ولان البصر يفهم البصيرة وهي تتضمن الجميع وقال بعضهم في الكلام تقديم وتأخير والاصل انا جعلناه سميعا بصيرا نبتليه أي جعلنا له ذلك للابتلاء وقيل المراد بالسميع المطيع كقولك سمعا وطاعة وبالبصير العالم يقال لفلان بصر في هذا الامر (انا) أي بما لنا من العظمة (هديناه السبيل) أي بيناه وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر ببعثة الرسل وقال مجاهد رضي الله عنه بيناه السبيل الى السعادة والشقاوة وقال السدي رضي الله عنه السبيل هنا خروجه من الرحم وقيل منافعه ومضاره التي يهتدي اليها بطبعه وكمال عقله قال الرازي والآية تدل على أن العقل متأخر عن الحواس قال وهو كذلك وقوله تعالى (اما شاكرا) أي لانعام ربه عليه (واما كفورا) أي بليغ الكفر بالاعراض والتكذيب نصب على الحال وفيه وجهان أحدهما أنه حال من مفعول

هديناه أى هديناه مبينا له كتابا لسبيه والثانى انه حال من السبيل على المجاز قال الزمخشرى ويجوز أن يكونا حالين من السبيل أى عرفناه السبيل اما سبيلا شاكرا واما سبيلا كفورا كقوله تعالى وهديناه النجدين فوصف السبيل بالشكر والكفر مجازا وروى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه الحديث وعن جابر رضى الله عنه كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه اما شاكرا واما كفورا * ولما قسمهم الى قسمين ذكر جزاء كل فريق فقال تعالى (انا) أى على مالنا من العظمة (أعتدنا) أى هيأنا وأحضرنا بشدة وغلظة (للكافرين) أى العريقين فى الكفر خاصة وقدم الاسهل فى العذاب فالاسهل فقال تعالى (سلاسل) جمع سلسلة أى يقادون ويوثقون بها (وأغلالا) أى فى أعناقهم تشد فيها السلاسل فتجمع أيديهم الى أعناقهم (وسعيرا) أى نارا حامية جدا شديدة الاتقاد وقرأ نافع وهشام وشعبة والكسائى سلاسلا وصلا بالتنوين والباقون بغير تنوين وأما الوقف على الثانية فوقف عليها بغير ألف قنبل وحمزة ووقف البزى وابن ذكوان وحفص بغير ألف وبالالف ووقف الباقون بالالف ولا وقف على الاولى والرسم بالالف اما من نون سلاسل فوجه بأوجه منها انه قصد بذلك التناسب لان ما قبله وما بعده منون منصوب ومنها ان الكسائى وغيره من أهل الكوفة حكوا عن بعض العرب انهم يصرفون جميع مالا ينصرف الا أفعل منك وقال الاخفش سمعنا من العرب من يصرف كل مالا ينصرف لان الاصل فى الاسماء الصرف وترك الصرف لعارض فيها وروى عن بعضهم انه يقول رأيت عمرا بالالف يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأيضا هذا الجمع قد جمع وان كان قليلا قالوا صواحب وصواحبات وفى الحديث انكن صواحبات يوسف ومنها أنه مرسوم فى الامام أى مصحف الحجاز والكوفة بالالف رواه أبو عبيدة ورواه قالون عن نافع وروى بعضهم ذلك عن مصاحف البصرة أيضا وقال الزمخشرى فيه وجهان أحدهما أن يكون هذا التنوين بدلا من حرف الاطلاق ويجرى الوصل مجرى الوقف والثانى أن يكون صاحب هذه القراءة ممن ضرى برواية الشعر ومرن لسانه على صرف غير المنصرف اه قال بعض المفسرين وفى هذه العبارة فظاظة وغلظة لاسيما على مشايخ الاسلام وأئمة العلماء الاعلام وأما من لم ينونه فوجهه ظاهر لانه على صيغة منتهى الجموع وقولهم قد جمع نحو صواحبات لا يقدح لان المحذور جمع التكسير وهذا جمع تصحيح وأما من لم يقف بالالف فواضح * ولما أوجز فى جزاء الكافر أتبعه جزاء الشاكر وأطنب تأكيدا للترتيب فقال تعالى (ان الابرار) جمع بر كأرباب جمع رب أو بار كأشهاد جمع شاهد وفى الصحاح وجمع البار البررة وهم الصادقون فى ايمانهم المطيعون لربهم الذين سمت همتهم عن المستحقرات فظهرت فى قلوبهم ينابيع الحكمة وروى ابن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال انما سماهم الله تعالى الابرار لانهم بروا الآباء والابناء كما أن لوالديك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق وقال الحسن رضى الله عنه البر الذى لا يؤذى الذر وقال قتادة رضى الله عنه الابرار الذين يؤدون حق الله ويوفون بالنذر وفى الحديث الابرار الذين لا يؤذون

احدا

أحدا (يشربون من كأس) هو اناء شرب الخمر وهي فيه والمراد من خمر تسمية للحال باسم المحل ومن للتبعيض (كان مزاجها) أي ماتمزج به (كافورا) لبرده وعذوبته وطيب عرفه وذكر فعل الكون يدل على أن لهشأنا في المزج عظيما يكون فيه كأنه من نفس الجبلة لا كما يعهد والكافور نبت معروف وكان اشتقاقه من الكفر وهو الستر لانه يغطي الاشياء برائحته والكافور أيضا كمام الشجر الذي هو غرتها والكافر البحر والكافر الليل والكافر الساتر لنعم الله تعالى والكافر الزارع لتوريته الحب في الارض قال الشاعر

وكافرمات على كفره * وجنة الفردوس للكافر

والكفارة تغطية الاثم في اليمين الفاجرة والنذور الكاذبة بالمغفرة والكافور ماء جوف الشجر مكفور فيغرزونه بالحديد فيخرج الى ظاهر الشجر فيضربه الهواء فيجمد وينعقد كالصمغ الجامد على الاشجار (فان قيل) مزج الكافور بالمشروب لا يكون لذيذا فما السبب في ذكره (أجيب) بأوجه أحدها قال ابن عباس رضي الله عنهما الكافور اسم عين في الجنة يقال لها عين الكافور أي يمازجها ماء هذه العين التي تسمى كافورا في بياض الكافور ورائحته وبرده ولكن لا يكون فيه طعمه ولا مضرته ثانيها أن رائحة الكافور عرض والعرض لا يكون الا في جسم فخلق الله تعالى تلك الرائحة في جرم ذلك الشراب فسمي ذلك الجسم كافورا وان كان طعمه طيبا فيكون الكافور ريحها لاطعمها ثالثها ان الله تعالى يخلق الكافور في الجنة مع طعم طيب لذيذ ويسلب عنه ما فيه من المضرة ثم انه تعالى يمزجه بذلك الشراب كما انه تعالى يسلب عن جميع المأكولات والمشروبات ما معها في الدنيا من المضار وقال سعيد عن قتادة رضي الله عنهم يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك وقيل يخلق فيها رائحة الكافور وبياضه فكأنها مزجت بالكافور وقوله تعالى (عينا) في نصبه أوجه أحدها انه بدل من كافورا لان ماءها في بياض الكافور وفي رائحته وبرده واقتصر على هذا الجلال المحلي الثاني انه بدل من محل من كاس قاله مكي ولم يقدر حذف مضاف وقدر الزمخشري على هذا الوجه حذف مضاف قال كانه قيل يشربون خمرا خمر عين الثالث انه نصب على الاختصاص قاله الزمخشري الرابع أنه باضمار أعني قاله القرطبي وقيل غير ذلك (يشرب بها) قال الجلال المحلي منها وقال البقاعي أي عزابها وقال الزمخشري بها الخمر قال كما تقول شربت الماء بالعسل والاول أوضح (عباد الله) أي أولياؤه (فان قيل) الكفار عباد الله وهم لا يشربون منها بالاتفاق (أجيب) بأن لفظ عباد الله مختص بأهل الايمان ولكن يشكل بقوله تعالى ولا يرضى لعباده الكفر فانه يصير تقدير الآية ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفر مع أنه سبحانه لا يرضى الكفر للكافر ولا لغيره وقد يجاب بأن هذا أكثري لا كلي أو يقال حيث أضيف العباد أو العبد الى اسم الله الظاهر سواء كان بلفظ الجلالة أم لا فالمراد به المؤمن وان أضيف الى ضميره تعالى فيكون بحسب المقام فتارة يختص بالمؤمن كقوله تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وتارة يعم كقوله تعالى ولا يرضى لعباده الكفر وقوله تعالى نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم (يفجرونها) أي يجرونها حيث شاؤا من منازلهم وان علت (تفجيرا) سهلا لا يمتنع عليهم

* ولما ذكر جزاءهم ذكر وصفهم الذي يستحقون عليه ذلك بقوله تعالى (يوفون بالنذر) وهذا يجوز أن يكون مستأنفا ويجوز أن يكون خبرا لكان مضمرة قال الفراء التقدير كانوا يوفون بالنذر في الدنيا وكانوا يخافون وقال الزمخشري يوفون جواب من عسى يقول مالهم يرزقون ذلك قال أبو حيان واستعمل عسى صلة لمن وهو لا يجوز وأتى بالمضارع بعد عسى غير مقرون بأن وهو قليل أو في الشعر والوفاء بالنذر مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات لان من وفى بما أوجبه هو على نفسه لوجه الله تعالى كان بما أوجبه الله تعالى عليه أوفى وقال الكلبي يوفون بالنذر أي يتمون العهود لقوله تعالى وأوفوا بعهد الله أوفوا بالعقود أمروا بالوفاء بها لانهم عقدوها على أنفسهم باعتقادهم الايمان قال القرطبي والنذر حقيقة ما أوجبه المكلف على نفسه من شيء يفعله وان شئت قلت في حده هو ايجاب المكلف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه * ولما دل وفاؤهم على سلامة طباعهم قال تعالى عاطفا دلالة على جمعهم للامرين المتعاطفين فهم يفعلون الوفاء لا لاجل شيء بل لكرم الطبع (ويخافون) أي مع فعلهم للواجبات (يوما) قال ابن عبد السلام شر يوم أو أهوال يوم (كان) أي كونا هو في جبلته (شره) أي ما فيه من الشدائد (مستطيرا) أي فاشيا منتشرا غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر وهو أبلغ من طار وقال قتادة رضي الله عنه كان شره فاشيا في السموات فانشقت وتناثرت الكواكب وكورت الشمس والقمر وفزعت الملائكة ونسفت الجبال وغارت المياه وتكسر كل شيء على الارض من جبل وبناء وفي ذلك اشعار بحسن عقيدتهم واحسانهم واجتنابهم عن المعاصي فان الخوف أدل دليل على عمارة الباطن قالوا ما فارق الخوف قلبا الا خرب ومن خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل (فان قيل) لم قال تعالى كان شره ولم يقل سيكون (أجيب) بأنه كقوله تعالى أتى أمر الله فما قيل في ذلك يقال هنا (ويطعمون الطعام) أي على حسب ما يتيسر لهم من عال ودون وقوله تعالى (على حبه) حال اما من الطعام أي كائنين على حبهم اياه فهو في غاية المكنة منهم والاستعلاء على قلوبهم لقلته وشهوتهم له وحاجتهم اليه كما قال تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ليفهم انهم للفضل أشد بذلا ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في حق الصحابة رضي الله عنهم لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه لقلة الموجود اذ ذاك وكثرته بعد واما من الفاعل والضمير في حبه لله أي على حب الله وعلى التقديرين فهو مصدر مضاف للمفعول وقال الفضيل بن عياض على حب اطعام الطعام (مسكينا) أي محتاجا احتياجا يسيرا فصاحب الاحتياج الكثير أولى (ويتيما) أي صغيرا لا أب له (وأسيرا) أي في أيدي الكفار وخص هؤلاء بالذكر لان المسكين عاجز عن الاكتساب بنفسه عما يكفيه واليتيم مات من يكتسب له وبقي عاجزا عن الكسب لصغره والاسير لا يملك لنفسه نصرا ولا حيلة وقال مجاهد وسعيد بن جبير رضي الله عنهم الاسير المحبوس فيدخل في ذلك المملوك والمسجون والكافر الذي في أيدي المسلمين وقد نقل في غزوة بدر أن بعض الصحابة رضي الله عنهم كان يؤثر

أسيره على نفسه بالخبز وكان الخبز اذ ذاك عزيزا حتى كان ذلك الاسير يتعجب من مكارمهم حتى كان ذلك مما دعاه الى الاسلام وذلك لان النبي صلى الله عليه وسلم لما دفعهم اليهم قال استوصوا بهم خيرا وقيل الاسير المملوك وقيل المرأة لقول النبي صلى الله عليه وسلم اتقوا الله في النساء فانهن عندكم عوان أى أسرى وقوله تعالى (انما نطعمكم) على اضمار القول أى يقولون بلسان المقال أو الحال انما نطعمكم أيها المحتاجون (لوجه الله) أى لذات الملك الذى استجمع الجلال والاكرام لكونه أمر بذلك وعبر بالوجه لان الوجه يستحى منه ويرجى ويخشى عند رؤيته (لا نريد منكم) لاجل ذلك (جزاء) أى لنا من اعراض الدنيا (ولا شكورا) أى لشئ من قول ولا فعل روى أن عائشة رضى الله تعالى عنها كانت تبعث بالصدقة الى أهل بيت ثم تسأل المبعوث ما قالوا فان ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصا عند الله تعالى ثم عللوا قولهم هذا على وجه التأكيد بقولهم (انا نخاف من ربنا) أى الخالق لنا المحسن الينا (يوما) أى أهوال يوم هو فى غاية العظمة وبينوا عظمته بقولهم (عبوسا) قال ابن عباس رضى الله عنهم ووصف اليوم بالعبوس مجاز على طريقين أن يوصف بصفة أهله من الاشقياء كقولك نهارك صائم روى أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران وأن يشبه فى شدته وضرره بالاسد العبوس أو بالشجاع الباسل (قمطريرا) قال ابن عباس رضى الله عنهما طويلا وقال مجاهد وقتادة رضى الله عنهم القمطرير الذى يقبض الوجوه والجباه بالتعبس وقال الكلبى العبوس التى لا انبساط فيه والقمطرير الشديد وقال الاخفش القمطرير أشد ما يكون من الايام وأطوله فى البلاء يقال يوم قمطرير وقماطير اذا كان شديدا كريها ولما كان فعلهم هذا خالصا لله تعالى سبب عنه جزاءهم فقال تعالى (فوقاهم الله) أى الملك الاعظم بسبب خوفهم (شر ذلك اليوم) أى العظيم ولا بد لهم من نعيم ظاهر وباطن ومسكن يقيمون فيه وملبس وقد أشار الى الاول بقوله تعالى (ولقاهم) أى أعطاهم (نضرة) أى حسنا دائما فى وجوههم وأشار الى الثانى بقوله تعالى (وسرورا) أى فى قلوبهم دائما فى مقابلة خوفهم فى الدنيا وأشار الى الثالث بقوله تعالى (وجزاهم بما صبروا) أى بسبب ما أوجدوا من الصبر على العبادة من لزوم الطاعة واجتناب المعصية ومنع أنفسهم الشهوات وبذل المحبوبات (جنة) أى ادخلوا بستانا جامعا يأكلون منه ما يشتهون جزاء على ما كانوا يطعمون وان كان غيرهم يشاركهم فى ذلك دونهم فى الجزاء وأشار الى الرابع بقوله تعالى (وحريرا) أى ألبسوه أى هو فى غاية العظمة وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى عن ابن عباس أن الحسن والحسين رضى الله عنهما مرضا فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ناس فقالوا يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك فنذر على وفاطمة وفضة جارية لهما صوم ثلاثة أيام ان برئا فشفيا وما معهما شئ فاستقرض على من شمعون اليهودى الخيبرى ثلاثة آصع من شعير وطحنت فاطمة صاعا واختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال السلام عليكم أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين أطعمونى أطعمكم الله من موائد الجنة فآثروه وباتوا لم يذوقوا

الا الماء وأصبحوا صياما فلما أمسوا وضعوا الطعام بين أيديهم فوقف عليهم يتيم فآثروه ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك زاد في الكشاف فلما أصبحوا أخذ علي رضي الله تعالى عنه بيد الحسن والحسين فأقبلوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبريل عليه السلام وقال خذها يا محمد أي السورة هنأك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة حديث موضوع ثم بين حالهم فيها بقوله تعالى (متكئين فيها) أي الجنة واختلفوا في اعراب متكئين فقال الجلال المحلي حال من مرفوع ادخلوها المقدر وقال أبو البقاء يجوز أن يكون حالا من المفعول في جزاهم وأن يكون صفة واعترض عليه في كونه صفة بأنه لا يجوز عند البصريين لانه كان يلزم الضمير فيقال متكئين هم فيها لجريان الصفة على غير من هي له وقيل انه من فاعل صبروا واعترض أن الصبر كان في الدنيا والاتكاء في الآخرة وأجيب بأنه يصح أن يكون حالا مقدرة لان مآلهم بسبب صبرهم الى هذه الحالة * ثم أشار الى زيادة راحتهم بقوله تعالى (على الارائك) أي السرر في الحجال ولا تكون أريكة الامع وجود الحجلة وقيل الارائك الفرش على السرر وقوله تعالى (لا يرون فيها) أي الجنة حال ثانية على الخلاف المتقدم في الاولى ومن جوز أن تكون الاولى صفة جوزه في الثانية وقيل انها حال من الضمير المرفوع المستكن في متكئين فتكون حالا متداخلة (شمسا) أي حرا (ولا) يرون فيها (زمهريرا) أي بردا شديدا فالآية من الاحتباك دل بنفي الشمس أولا على نفي القمر ودل بنفي الزمهرير الذي هو سبب البرد ثانيا على نفي الحر الذي سببه الشمس فأفاد هذا ان الجنة غنية عن النيرين لانها نيرة بذاتها وأهلها غير محتاجين الى معرفة زمان اذ لا تكليف فيها بوجه وأنها ظليلة معتدلة دائما بخلاف الدنيا فان فيها الحاجة الى ذلك والحر والبرد فيهما من فيح جهنم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتكت النار الى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فجعل لها نفسين نفسا في الشتاء ونفسا في الصيف فشدة ما تجدونه من البرد من زمهريرها وشدة ما تجدونه من الحر من سمومها وقيل الزمهرير القمر بلغة طيء وأنشدوا

وليلة ظلامها قد اعتكر * قطعتها والزمهرير ما زهر

ويروى ما ظهر (ودانية) أي قريبة مع الارتفاع (عليهم ظلالها) أي شجرها من غير أن يحصل منها ما يزيل الاعتدال واختلف في نصب دانية فقال البغوي عطف على متكئين وقال الجلال المحلي عطف على محل لا يرون وذكره البغوي بعد الاول بصيغة قيل قال البيضاوي أو عطف على جنة أي وجنة أخرى دانية لانهم وعدوا جنتين لقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان (فان قيل) ان الظل انما يوجد حيث يوجد الشمس والجنة لا شمس فيها فكيف يحصل الظل (أجيب) بأن أشجار الجنة تكون بحيث لو كان هناك شمس لكانت تلك الاشجار مظلة منها وان كان لا شمس ولا قمر كما أن أمشاطهم الذهب والفضة وان كان لا وسخ ولا شعث (وذللت قطوفها) جمع قطف بالكسر وهو العنقود واسم للثمار المقطوفة أي الجنية (تذليلا) أي سهل تناولها تسهيلا عظيما لا يرد اليد

عنها بعد ولا شوك لكل من يريد أخذها على أي حالة كانت من اتكاء وغيره فان كانوا قعودا أو مضطجعين تدلت اليهم وان كانوا قياما وكانت على الارض ارتفعت اليهم وقال البراء ذللت لهم فهم يتناولون منها كيف شاؤا فمن أكل قائما لم يؤذه ومن أكل جالسا لم يؤذه ومن أكل مضطجعا لم يؤذه وهذا جزاؤهم على ما كانوا يذللون أنفسهم لامر الله تعالى * ولما وصف تعالى طعامهم ولباسهم وسكنهم وصف شرابهم بقوله تعالى (ويطاف) أي من أي طائف كان لكثرة الخدم (عليهم بآنية) جمع اناء كسقاء وأسقية وجمع الآنية أوان وهي ظروف للمياه ومعنى يطاف أي يدور على هؤلاء الابرار الخدم اذا أرادوا الشرب ثم بين تلك الآنية بقوله تعالى (من فضة) قال ابن عباس رضي الله عنهما ليس في الدنيا شيء مما في الجنة الا الاسماء أي الذي في الجنة أشرف وأعلى ولم ينف الآنية الذهبية بل المعنى يسقون في الاواني الفضة وقد يسقون في الاواني الذهب كما قال تعالى سرابيل تقيكم الحر أي والبرد فنبه بذكر أحدهما على الآخر * ولما جمع الآنية خص فقال تعالى (وأكواب) جمع كوب وهو كوز لا عروة له فيسهل الشرب منه من كل موضع فلا يحتاج عند التناول الى ادارة (كانت) أي تلك الاكواب كونا هو من جبلتها (قوارير) أي كانت بصفة القوارير من الصفاء والرقة والشفوف والاشراق جمع قارورة وهي ما أقر فيه الشراب ونحوه من كل اناء رقيق صاف وقيل هو خاص بالزجاج * ولما كان رأس آية وكان التعبير بالقوارير ربما أفهم انها من الزجاج وكان في الزجاج من النقص سرعة الانكسار لافراط الصلابة قال تعالى معيدا اللفظ أول الآية الثانية تأكيدا للاتصاف بالصالح من أوصاف الزجاج وبيانا لنوعها (قوارير من فضة) أي قد جمعت صفتي الجوهرين المتباينين صفاء الزجاج وشفوفه وبريقه وبياض الفضة وشرفها ولينها وقال الكلبي ان الله تعالى جعل قوارير كل قوم من تراب ارضهم وان أرض الجنة من فضة فجعل منها قوارير يشربون منها (٣) وقرأ نافع وشعبة والكسائي وصلا بالتنوين فيهما ووافقهم ابن كثير في الاول دون الثاني والباقون بغير تنوين وأما الوقف فمن نون وقف بالالف ومن لم ينون وقف بغير ألف الا هشاما فانه وقف على الثاني بالالف وفي الوصل لم ينون فالقراآت حينئذ على خمس مراتب احداها تنوينهما معا والوقف عليهما بالالف الثانية مقابله وهو عدم تنوينهما وعدم الوقف عليهما بالالف الثالثة عدم تنوينهما والوقف عليهما بالالف الرابعة تنوين الاول دون الثاني والوقف على الاول بالالف وعلى الثاني بدونها الخامسة عدم تنوينهما معا والوقف على الاول بالالف وعلى الثاني بدونها وأما من نونهما فلما مر في تنوين سلاسل لانهما صيغة منتهى الجموع ذاك على مفاعل وذا على مفاعيل والوقف بالالف التي هي بدل التنوين فأما عدم تنوينهما وعدم الوقف بالالف فظاهر وأما من نون الاول دون الثاني فانه ناسب بين الاول وبين رؤس الآي ولم يناسب بين الثاني وبين الاول والوجه في وقفه على الاول بالالف وعلى الثاني بغير ألف ظاهر وأما من لم ينونهما ووقف على الاول بالف وعلى الثاني بدونها فلان الاول رأس آية فناسب بينه وبين رؤس الآي في الوقف بالالف وفرق بينه وبين الثاني لانه ليس برأس آية وأما من لم ينونهما ووقف عليهما بالالف فانه ناسب بين الاول

(٣) قوله وقرأ نافع
عبارة الجمل واع
أن القراء فيهما
خمس مراتب ا
تنوينهما معا والو
عليهما بالالف لـ
والكسائي وأبي
الثانية مقابله
وهي عدم تنوينه
وعدم الوقف عل
بالالف لحمزة و
الثالثة عـ
تنوينهما والوق
عليهما بالالف لهـ
وحده الرابعة تنو
الاول دون الثا
والوقف على الاو
بالالف وعلى الثـ
بدونها لابن كـ
وحده الخامسة
تنوينهما معا والو
على الاول بالا
وعلى الثاني بدو
لابي عمرو وا
ذكوان وحفص
اه المراد منه وبه
يتضح ما في عبار
المفسر

وبين رؤس الآي وناسب بين الثاني وبين الاول وقال الزمخشري وهذا التنوين بدل من ألف الاطلاق لانها فاصلة وفي الثاني لاتباعه الاول يعني انهم يأتون بالتنوين بدلا من حرف الاطلاق الذي للترنم كقوله * ياصاح ماهاج العيون الذرفن * وقوله تعالى (قدروها تقديرا) صفة لقوارير من فضة وفي الواو في قدروها وجهان أحدهما أنه للطاف عليهم ومعنى تقديرهم لها انهم قدروها في أنفسهم أن تكون على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم فجاءت كما قدروا والثاني انه للطائفين بها دل عليه قوله تعالى ويطاف عليهم على انهم قدروا شرابها على قدر الري وهو ألذ للشارب لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنه ولا يعجز وعن مجاهد رضي الله عنه لا تفيض ولا تغيض وعن ابن عباس رضي الله عنهما قدروها على ملء الكف حتى لا تؤذيهم بثقل أو بافراط صغر وجوز أبو البقاء أن تكون الجملة مستأنفة (ويسقون) أي ممن أرادوه من خدمهم الذين لا يحصون كثرة (فيها) أي في الجنة أو تلك الاكواب (كأسا) أي خمرا في اناء (كان مزاجها) أي ماتمزج به على غاية الاحكام (زنجبيلا) أي غاية اللذة وكانت العرب تلتذ بالشراب الممزوج به لهضمه وتطييبه الطعم والزنجبيل نبت معروف وسمى الكأس بذلك لوجود طعم الزنجبيل فيها قال الاعشى كأن القرنفل والزنجبيل باتا بفيها وأريا مشورا

وقال المسيب بن علس

وكان طعم الزنجبيل به * اذا ذقته وسلافة الخمر

وقوله تعالى (عينا فيها) أي الجنة بدل من زنجبيلا وكون الزنجبيل عينا فيه خرق للعوائد لان الزنجبيل عندنا شجر يحتاج في تناوله الى علاج فبين انه هنالك عين لا يحتاج في صيرورته زنجبيلا الى ان تحيله الارض بتخميره فيها حتى يصير شجرا التحول عن طعم الماء الى طعم الزنجبيل (تسمى) أي تلك العين لسهولة اساغتها ولذة طعمها وسمو وصفها (سلسبيلا) والمعنى ان ماء تلك العين كالزنجبيل الذي تلتذ به العرب سهل المساغ في الحلق فليس هو كزنجبيل الدنيا يلذع في الحلق فتصعب اساغته والسلسبيل والسلسل والسلسال ما كان من الشراب غاية في السلاسة زيدت فيه الباء زيادة في المبالغة في هذا المعنى وقال مقاتل وابن حبان رضي الله عنهما سميت سلسبيلا لانها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم تنبع من أصل العرش من جنة عدن الى أهل الجنان قال البغوي وشراب الجنة في برد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك من غير لذع وقال مقاتل رضي الله عنه يشربها المقربون صرفا وتمزج لسائر أهل الجنة * ولما ذكر تعالى المطوف به لانه الغاية المقصودة وصف الطائف لما في طوافه من العظمة المشهودة بقوله تعالى (ويطوف عليهم) أي بالشراب وغيره من الملاذ والمحاب (ولدان) أي غلمان هم في سن من هو دون البلوغ لان الفقهاء قالوا الناس غلمان وصبيان وأطفال وذراري الى البلوغ ثم هم بعد البلوغ شبان وفتيان الى الثلاثين ثم هم بعدها كهول الى الاربعين ثم بعدها شيوخ واستنبط بعضهم ذلك من القرآن في حق بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام قال الله تعالى في حق يحيى وآتيناه الحكم صبيا وفي حق عيسى يكلم الناس في المهد وكهلا وعن ابراهيم قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له

ابراهيم وعن يعقوب ان له أباشيخا كبيرا قالوا وأقل أهل الجنة من يخدمه ألف غلام و يعطى في الجنة قدر الدنيا عشر مرّات وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها * ثم وصف تعالى تلك الغلمان بقوله تعالى (مخلدون) أى قد حكم من لا يرد حكمه بأن يكونوا كذلك دائما من غير علة ولا ارتفاع عن ذلك الحد مع انهم مزينون بالحلى وهو الحلق والاساور والقرط والملابس الحسنة (اذا رأيتهم) أى ياأعلى الخلق وأنت أثبت الناس نظرا أو أيها الرائى الشامل لكل راء فى أى حالة رأيتهم فيها (حسبتهم) أى من بياضهم وصفاء ألوانهم وانتشارهم فى الخدمة (لؤلؤا منثورا) أى من سلكه أو من صدفه وهو أحسن منه فى غير ذلك قال بعض المفسرين هم غلمان ينشئهم الله تعالى لخدمة المؤمنين وقال بعضهم أطفال المؤمنين لانهم ماتوا على الفطرة وقال ابن برجان وأرى والله أعلم انهم من علم الله تعالى ايمانه من أولاد الكفار وتكون خدما لاهل الجنة كما كانوا لنا فى الدنيا سبيا وخداما وأما أولاد المؤمنين فيلحقون بآبائهم سنا وملكا سرورا لهم ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم فى ابنه ابراهيم عليه السلام ان له لظئرا تتم رضاعه فى الجنة فانه يدل على انتقال شانه فيما هنالك وكتنقله فى الاحوال فى الدنيا ولا دليل على خصوصيته بذلك وقرأ السوسى وشعبة بابدال الهمزة الاولى الساكنة وقفا ووصلا واذا وقف حمزة أبدل الاولى والثانية * ولما ذكر المخدوم والخدم ذكر المكان بقوله تعالى (واذا رأيت) أى وجدت منك الرؤية (ثم) أى هنالك فى أى مكان كان فى الجنة وأى شئ كان فيها وقوله تعالى (رأيت) جواب اذا أى رأيت (نعيما) أى ليس فيه كدر بوجه من الوجوه ولا يقدر على وصفه واصف (وملكا كبيرا) أى لم يخطر على باله مما هو فيه من السعة وكثرة الموجود والعظمة قال سفيان الثورى بلغنا ان الملك الكبير تسليم الملائكة عليهم وقيل كون التيجان على رؤسهم كما تكون على رؤس الملوك وقال الحكيم الترمذى هو ملك التكوين اذا ارادوا شيأ قالوا له كن فيكون وفى الخبر ان الملك الكبير هو ان أدناهم منزلة أى وما فيهم دنىء الذى فى ملكه مسيرة ألف عام ويرى أقصاه كما يرى أدناه وان أعظمهم منزلة من ينظر الى وجه ربه سبحانه وتعالى كل يوم أى قدر يوم من أيام الدنيا مرّتين * ولما ذكر الدار وساكنيها من مخدوم وخدم ذكر لباسهم بقوله تعالى (عاليهم) أى فوقهم (ثياب سندس) هو مارق من الحرير (خضر واستبرق) وهو ماغلظ من الديباج فهو البطائن والسندس الظهائر وقرأ نافع وحمزة عاليهم بسكون الياء بعد اللام وكسر الهاء والباقون بفتح الياء وضم الهاء لان الياء لما سكنت كسرت الهاء ولما تحركت ضمت الهاء فأما قراءة نافع وحمزة ففيها أوجه أظهرها أن يكون خبرا مقدما وثياب مبتدأ مؤخر وأما قراءة الباقين ففيها أيضا أوجه أظهرها أن يكون خبرا مقدما وثياب مبتدأ مؤخرا كانه قال فوقهم ثياب قال أبو البقاء لان عاليهم بمعنى فوقهم والضمير المتصل به للمطوف عليهم أو للخادم والمخدوم جميعا وان كانت تتفاوت بتفاوت الرتب وقرأ نافع وحفص خضر واستبرق برفعهما وقرأ حمزة والكسائى بخفضهما وقرأ أبو عمرو وابن عامر برفع خضر وجر استبرق وقرأ ابن كثير وشعبة بجر خضر ورفع استبرق وحاصل القراآت

فى ذلك أربع مراتب الاولى رفعهما الثانية خفضهما الثالثة رفع الاول وخفض الثانى الرابعة عكس ذلك فأما القراءة الاولى فان رفع خضر على النعت لثياب ورفع استبرق نسق على الثياب ولكن على حذف مضاف أى وثياب استبرق وأما القراءة الثانية فيكون بجر خضر على النعت لسندس ثم استشكل على هذا وصف المفرد بالجمع فقال مكى هو اسم جمع وقيل هو جمع سندسة كتمر وتمرة ووصف اسم الجنس بالجمع صحيح قال تعالى وينشئ السحاب الثقال وأعجاز نخل منقعر ومن الشجر الاخضر واذا كانوا قد وصفوا المحلى لكونه مرادا به الجنس بالجمع فى قولهم أهلك الناس الدينار الحمر والدرهم البيض وفى التنزيل أو الطفل الذين فلأن يوجد ذلك فى أسماء الجموع أو أسماء الاجناس الفارق بينها وبين واحدها تاء التأنيث بطريق الاولى وجر استبرق نسقا على سندس لان المعنى ثياب من سندس وثياب من استبرق وأما القراءة الثالثة فرفع خضر نعتا الثياب وجر استبرق نسقا على سندس أى ثياب خضر من سندس ومن استبرق فعلى هذا يكون الاستبرق أيضا أخضر وأما القراءة الرابعة فجر خضر على أنه نعت لسندس ورفع استبرق على النسق على ثياب بحذف مضاف أى وثياب استبرق * ثم أخبر تعالى عن تحليتهم بقوله سبحانه (وحلوا) أى المخدوم والخادم (أساور من فضة) وان كانت تتفاوت بتفاوت الرتب وهى بالغة من الاعضاء ما يبلغه التحجيل فى الوضوء كما قال صلى الله عليه وسلم الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء فلذلك كان أبو هريرة يرفع الى المنكبين والى الساقين *(تنبيه) * قال هنا أساور من فضة وفى سورة فاطر يحلون فيها من أساور من ذهب وفى سورة الحج يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ فقيل حلى الرجال الفضة وحلى النساء الذهب وقيل تارة يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضة وقيل يجمع فى يدى أحدهم سواران من ذهب وسواران من فضة وسواران من لؤلؤ ليجتمع لهم محاسن الجنة قاله سعيد بن المسيب وقيل يعطى كل أحد ما يرغب فيه ويميل نفسه اليه وقيل اسورة الفضة انما تكون للولدان واسورة الذهب للنساء وقيل هذا للنساء والصبيان وقيل هذا يكون بحسب الاوقات والاعمال (وسقاهم ربهم) أى الموجد لهم المحسن اليهم المدبر لمصالحهم (شرابا طهورا) أى ليس هو كشراب الدنيا سواء أكان من الخمر أم من الماء أم من غيرهما فهو بالغ الطهارة وقال على رضى الله عنه اذا توجه أهل الجنة الى الجنة مروا بشجرة يخرج من ساقها عينان فيشربون من احداهما فتجرى عليهم نضرة النعيم فلا تتغير أبشارهم ولا تشعث شعورهم أبدا ثم يشربون من الاخرى فيخرج ما فى بطونهم من الاذى ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقال النخعى وأبو قلابة هو اذا شربوه بعد أكلهم طهرهم وصار ما أكلوه وشربوه رشح مسك وضمرت بطونهم وقال مقاتل هو من عين ماء على باب الجنة تنبع من ساق شجرة من شرب منها نزع الله تعالى ما كان فى قلبه من غش وغل وحسد وما كان فى جوفه من أذى وعلى هذا فيكون فعول للمبالغة وقال الرازى قوله تعالى طهورا فى تفسيره احتمالات أحدها أن لا يكون نجسا كخمر الدنيا وثانيها المبالغة فى البعد عن الامور المستقذرة لانه لم يعصر فتمسه الايدى الوضرة

وتدويسه الارجل الدنسة ولم يجعل فى الابدان والاباريق التى لم يعن بتنظيفها وثالثها أنه لايؤل الى النجاسة لانها ترشح عرقا من أبدانهم له ريح كريح المسك وعلى هذين الوجهين يكون الطهور مطهرا لانه يطهر بواطنهم من الاخلاق الذميمة والاشياء المؤذية (فان قيل) هل هذا نوع آخر غير ماذكر قبل ذلك من أنهم يشربون من الكافور والزنجبيل والسلسبيل أم لا (أجيب) بأنه نوع آخر لوجوه أولها رفع ثانيها انه تعالى أضاف هذا الشراب الى نفسه بقوله تعالى وسقاهم ربهم شرابا طهورا وذلك يدل على فضل هذا دون غيره ثالثها ماروى انه تقدم اليهم الاطعمة والاشربة فاذا فرغوا منها أتوا بالشراب الطهور فيشربون فيطهر ذلك بطونهم ويفيض عرقا من جلودهم مثل ريح المسك وهذا يدل على أن ذلك الشراب مغاير لتلك الاشربة ولان هذا الشراب يهضم سائر الاشربة ثم ان له مع هذا الهضم تأثيرا عجيبا وهو أنه يجعل سائر الاطعمة والاشربة عرقا يفوح منه ريح كريح المسك ويطهر شاربه عن الميل الى اللذات الحسية والركون الى ماسوى الحق فيتجرد لمطالعة جلاله متلذذا بلقائه باقيا ببقائه وهو منتهى درجات الصديقين وكل ذلك يدل على المغايرة وقوله تعالى (ان) على اضمار القول أى ويقال لهم ان (هذا كان لكم جزاء) أى على أعمالكم التى كنتم تجاهدون فيها أنفسكم عن هواها الى مايرضى ربكم والاشارة الى ماتقدم من عطاء الله تعالى لهم (وكان) أى على وجه الثبات (سعيكم مشكورا) أى لانضيع شيأ منه ونجازى بأكثر منه أضعافا مضاعفة * ولما بين تعالى بهذا القرآن العظيم الوعد والوعيد ذكر سبحانه أنه من عنده وليس هو بسحر ولا كهانة ولا شعر بقوله تعالى (انا نحن) أى على مالنا من العظمة التى لانهاية لها الاغيرنا (نزلنا عليك) وأنت أعظم الخلق انزالا استعلى حتى صار المنزل خلقا لك (القرآن) أى الجامع لكل هدى (تنزيلا) قال ابن عباس متفرقا آية بعد آية ولم ينزل جملة واحدة قال الرازى والمقصود من هذه الآية تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم وشرح صدره فيما نسبوه اليه صلى الله عليه وسلم من كهانة وسحر فذكر تعالى ان ذلك وحى من الله تعالى فكأنه تعالى يقول ان كان هؤلاء الكفار يقولون ان ذلك كهانة فأنا الله الملك الحق أقول على سبيل التأكيد ان ذلك وحى حق وتنزيل صدق من عندى وفى ذلك فائدتان الاولى ازالة الوحشة الحاصلة بسبب طعن الكفار لان الله تعالى عظمه وصدقه الثانية تقويته على تحمل مشاق التكليف فكأنه تعالى يقول له انى مانزلت القرآن عليك متفرقا الا لحكمة بالغة تقتضى تخصيص كل شئ بوقت معين وقد اقتضت تلك الحكمة تأخير الاذن فى القتال (فاصبر لحكم ربك) أى المحسن اليك قال ابن عباس اصبر على أذى المشركين ثم نسخ بآية القتال وقيل اصبر لما يحكم عليك به من الطاعات أو انتظر حكم الله اذ وعدك بالنصر عليهم ولاتستعجل فانه كائن لامحالة (ولاتطع منهم) أى الكفرة الذين هم ضد الشاكرين (آثما) أى داعيا الى اثم سواء كان مجردا عن مطلق الكفر أو مصاحباله (أو كفورا) أى مبالغا فى الكفر وداعيا اليه وان كان كبيرا وعظيما فى الدنيا فان الحق أكبر من كل كبير وقال قتادة أراد بالآثم والكفور أباجهل وذلك أنه

قوله أولها رفع هكذا فى النسخ ولعله أولها مارفع يعنى ماتقدم فى قوله وقال على الخ اه

لما فرضت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم نهاه أبو جهل عنها وقال لئن رأيت محمدا يصلي لأطأن على عنقه وقال مقاتل أراد بالآثم عتبة بن ربيعة وبالكفور الوليد بن المغيرة وكانا أتيا النبي صلى الله عليه وسلم يعرضان عليه الاموال والتزويج على أن يترك ذكر النبوة عرض عليه عتبة ابنته وكانت من أجمل النساء وعرض عليه الوليد أن يعطيه من الاموال حتى يرضى ويترك ما هو عليه فقرأ عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر آيات من أول حم السجدة الى قوله تعالى فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فانصرفا عنه وقال أحدهما ظننت ان الكعبة ستقع علي (فان قيل) كانوا كلهم كفرة فما معنى القسمة في قوله آثما أو كفورا (أجيب) بأن معناه ولا تطع منهم راكبا لما هو اثم داعيا لك اليه أو فاعلا لما هو كفر داعيا لك اليه لانهم اما أن يدعوه الى مساعدتهم على فعل هو اثم أو كفر أو غير اثم ولا كفر فنهى أن يساعدهم على الاثنين دون الثالث ثم قال (فان قيل) معنى أو ولا تطع أحدهما فهلا جيء بالواو ليكون نهيا عن اطاعتهما جميعا (أجيب) بأنه لو قال ولا تطعهما لجاز أن يطيع أحدهما واذا قيل ولا تطع أحدهما علم أن الناهي عن طاعة أحدهما أنهى عن طاعتهما جميعا كما اذا نهى أن يقول لابويه أف علم أنه نهى عن ضربهما بطريق الاولى (فان قيل) انه صلى الله عليه وسلم ما كان يطيع أحدا منهم فما فائدة هذا النهي (أجيب) بأن المقصود بيان أن الناس محتاجون الى التنبيه والارشاد لاجل ما ركب فيهم من الشهوة الداعية الى الفساد وان الواحد لو استغنى عن توفيق الله تعالى وارشاده لكان أحق الناس به هو رسول الله صلى الله عليه وسلم المعصوم دائما أبدا ومتى ظهر لك ذلك عرفت ان كل مسلم لا بد له من الرغبة الى الله تعالى والتضرع اليه أن يصونه عن الشهوات (واذكر) أي في الصلاة (اسم ربك) أي المحسن اليك بكل جميل (بكرة) أي الفجر (وأصيلا) أي الظهر والعصر (ومن الليل) أي بعضه والباقي للراحة بالنوم (فاسجد له) أي المغرب والعشاء (وسبحه ليلا طويلا) أي صل التطوع فيه كما تقدم من ثلثيه أو نصفه أو ثلثه أو اذكره بلسانك بكرة عند قيامك من منامك الذي هو الموتة الصغرى وتذكر انه يحيي الموتى ويحشرهم جميعا وأصيلا أي عند انقراض نهارك وتذكر انقراض دنياك وطي هذا العالم لاجل يوم الفصل وفي ذكر الوقتين اشارة الى دوام الذكر وذكر اسمه لازم لذكره والذي عليه أكثر المفسرين الاول قال ابن عباس وسفيان كل تسبيح في القرآن فهو صلاة لان الصلاة أفضل الاعمال البدنية لانها أعظم الذكر لانها ذكر اللسان والجنان والاركان فوظفت فيها أركان لسانية وحركات وسكنات على هيآت مخصوصة من عادتها أن لا تفعل الا بين يدي الملوك * ولما خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتعظيم والامر والنهي عدل سبحانه الى شرح أحوال الكفار والمتمردين فقال تعالى (ان هؤلاء) أي الذين يغفلون عن الله من الكفار والمتمردين (يحبون) أي محبة تتجدد عندهم زيادتها في كل وقت (العاجلة) لقصور نظرهم وجمودهم على المحسوسات التي الاقبال عليها منشأ البلادة والقصور ومعدن

الامراض للقلوب التى فى الصدور ومن تعاطى أسباب الامراض مرض وسمى كفورا ومن تعاطى ضد ذلك شفى وسمى شاكرا (ويذرون) أى ويتركون (وراءهم) أى قدامهم على وجه الاحاطة بهم وهم عنه معرضون كما يعرض الانسان عما وراءه أو خلف ظهورهم لا يعبؤن به وقوله تعالى (يوما) مفعول يذرون لا ظرف وقوله تعالى (ثقيلا) وصف له استعير له الثقل لشدته وهوله من الشئ الثقيل الباهظ لحامله ونحوه ثقلت فى السموات والارض (نحن خلقناهم) أى بما لنا من العظمة لا غيرنا (وشددنا) أى قوينا (أسرهم) أى توصيل عظامهم بعضها ببعض وتوثيق عظامهم بالاعصاب بعد أن كانوا نطفا أمشاجا فى غاية الضعف وأصل الاسر الربط والتوثيق ومنه أسر الرجل اذا أوثق بالقد وهو الاسار وفرس مأسور الخلق (واذا شئنا) أى بما لنا من العظمة أن نبدل ما نشاء من صفاتهم أو ذواتهم (بدلنا أمثالهم) أى جئنا بأمثالهم بدلا منهم اما بأن نهلكهم ونأتى ببدلهم ممن يطيع واما بتغيير صفاتهم كما شوهد فى بعض الاوقات من المسخ وغيره وقوله تعالى (تبديلا) تأكيد قال الجلال المحلى ووقعت اذا موقع ان نحو ان يشأ يذهبكم لانه تعالى لم يشأ ذلك واذا لما يقع وفى ذلك رد لقول الزمخشرى وحقه أن يجئ بان لا باذا كقوله وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ان يشأ يذهبكم (ان هذه) أى السورة أو الآيات القريبة (تذكرة) أى عظة للخلق فان فى تصفحها تنبيهات للغافلين وفى تدبرها وتذكرها فوائد جمة للطالبين السالكين ممن ألقى سمعه وأحضر قلبه وكانت نفسه مقبلة على ما ألقى اليه سمعه (فمن شاء) أى بأن اجتهد فى وصوله الى ربه (اتخذ) أى أخذ بجهده فى مجاهدة نفسه ومغالبة هواه (الى ربه) أى المحسن اليه الذى ينبغى له أن يحبه بجميع جوارحه وقلبه ويجتهد فى القرب منه (سبيلا) أى طريقا واضحا سهلا واسعا بأفعال الطاعة التى أمر بها لانا بينا الامور غاية البيان وكشفنا اللبس وأزلنا جميع موانع الفهم فلم يبق مانع من استطراق الطريق غير مشيئتنا (وما تشاؤن) أى فى وقت من الاوقات شيأ من الاشياء وقرأ أبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب واذا وقف حمزة سهل الهمزة مع المد والقصر وله أيضا ابدالها واوا مع المد والقصر (الا) وقت (أن يشاء الله) أى الملك الاعلى الذى له الامر كله والملك كله على حسب ما يريد ويقدر وقد صح بهذا ما قال الاشعرى وسائر أهل السنة من أن للعبد مشيئة تسمى كسبا لا تؤثر الا بمشيئة الله تعالى وانتفى مذهب القدرية الذين يقولون انا نخلق أفعالنا ومذهب الجبرية القائلين لا فعل لنا أصلا ومثل المولى ذلك بمن يريد قطع بطيخة فحدد سكينة وهيأها وأوجد فيها أسباب القطع وأزال عنها موانعه ثم وضعها على البطيخة فهى لا تقطع دون أن يتحامل عليها التحامل المعروف لذلك ولو وضع عليها ما لا يصلح للقطع كخشبة مثلا لم تقطع ولو تحامل فالعبد كالسكين خلقه الله تعالى وهيأه بما أعطاه من القدرة للفعل فمن قال أنا أخلق فعلى مستقلا به فهو كمن قال السكين تقطع بمجرد وضعها من غير تحامل ومن قال الفاعل هو الله من غير نظر الى العبد أصلا كان كمن قال هو يقطع البطيخة بتحامل يده أو قصبة ملساء من غير سكين والذى يقول انه باشر بقدرته المهيأة لفعل

يخلقه الله تعالى لها فى ذلك الفعل كمن قال ان السكين قطعت بالتحامل عليها بهذا أجرى الله سبحانه وتعالى عادته فى الناس ولو شاء غير ذلك فعل ولا يخفى ان هذا هو الحق الذى لا مرية فيه ثم علل ذلك باحاطته بمشيئتهم بقوله تعالى (ان الله) أى المحيط علما وقدرة (كان) أى أزلا وأبدا (عليما) أى بما يستأهل كل أحد (حكيما) أى بالغ الحكمة فهو يمنع منعا محكما من أن يشاء غيره مالم يأذن فيه فمن علم فى جبلته خيرا أعانه عليه ومن علم منه الشر ساقه اليه وحمله عليه وهو معنى قوله تعالى (يدخل من يشاء) أى ممن علمه من أهل السعادة (فى رحمته) أى جنته وهم المؤمنون وقوله تعالى (والظالمين) أى الكافرين منصوب بفعل يفسره قوله تعالى (أعد لهم) مثل أوعد وكافأ ليطابق الجمل المعطوف عليها (عذابا أليما) أى مؤلما فهم فيه خالدون أبد الآبدين وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على الله جنة وحريرا حديث موضوع

(سورة والمرسلات عرفا مكية)

فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر وقال ابن عباس وقتادة الا آية منها وهى قوله تعالى واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون فمدنية

وقال ابن مسعود نزلت والمرسلات عرفا على النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ونحن معه نسير حتى أوينا الى غار بمنى فنزلت فبينما نحن نتلقاها منه وان فاه رطب بها اذ وثبت حية فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت فقال النبى صلى الله عليه وسلم وقيتم شرها كما وقيت شركم اهـ والغار المذكور مشهور فى منى وقد زرته ولله الحمد وعن كريب مولى ابن عباس قال قرأت سورة والمرسلات عرفا فسمعتنى أم الفضل امرأة العباس فبكت وقالت والله يا بنى لقد أذكرتنى بقراءتك هذه السورة انها لآخر ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فى صلاة المغرب وهى خمسون آية واحدى وثمانون كلمة وثمانمائة وستة عشر حرفا (بسم الله) الملك الحق المبين (الرحمن) المنعم على الخلق أجمعين (الرحيم) الذى خص بكرامته عباده المؤمنين (والمرسلات عرفا) أى الرياح متتابعة كعرف الفرس يتلو بعضها بعضا ونصبها على الحال هذا ما عليه الجمهور من أنها الرياح قال تعالى وأرسلنا الرياح وقال تعالى ويرسل الرياح وروى مسروق عن عبد الله قال هى الملائكة أرسلت بالعرف من أمر الله تعالى ونهيه والخبر والوحى وهو قول أبى هريرة ومقاتل والكلبى وقال ابن عباس رضى الله عنهما هم الانبياء عليهم السلام أرسلوا بلا اله الا الله وقال أبو صالح هم الرسل ترسل بما يعرفون به من المعجزات وقيل المراد السحاب لما فيها من نعمة ونقمة عارفة بما أرسلت اليه ومن أرسلت اليه (فالعاصفات) أى الرياح الشديدة (عصفا) أى عظيما بما لها من النتائج الصالحة وقيل الملائكة شبهت لسرعتها بجريها فى أمر الله تعالى بالرياح وقيل الملائكة تعصف بروح الكافر يقال عصف بالشئ اذا أباده وأهلكه وناقة عصوف أى تعصف براكبها فتمضى كأنها ريح فى السير عصفة

وعصفت الحرب بالقوم أي ذهبت بهم وقيل يحتمل أنها الآيات المهلكة كالزلازل والخسوف (والناشرات نشرا) أي الرياح اللينة تنشر المطر وقال الحسن هي الرياح التي يرسلها الله تعالى بين يدي رحمته وقيل الامطار لانها تنشر النبات بمعنى تحييه وروى عن السدي أنها الملائكة تنشر كتب الله تعالى وروى الضحاك انها الصحف تنشر على الله تعالى بأعمال العباد *(تنبيه)* انما قال الله تعالى والناشرات بالواو لانه استئناف قسم آخر (فالفارقات فرقا) أي الرياح تفرق السحاب وتبدده قاله مجاهد وعن ابن عباس هي الملائكة تفرق الاقوات والارزاق والآجال وقيل هم الرسل فرقوا بين ما أمر الله تعالى به وما نهى عنه أي بينوا ذلك وقيل آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام (فالملقيات ذكرا) أي الملائكة تنزل بالوحي الى الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وقيل هو جبريل عليه السلام وحده سمي باسم الجمع تعظيما (فان قيل) ما المناسبة على هذا بين الرياح والملائكة في القسم (أجيب) بان الملائكة روحانيون فهم بسبب لطافتهم وسرعة حركاتهم كالرياح وقيل المراد به الرسل يلقون الى أممهم ما أنزل عليهم وذكرا مفعول به ناصبه الملقيات (عذرا أو نذرا) مصدران من عذر اذا محا الاساءة ومن أنذر اذا خوف على فعل كالكفر والشكر ويجوز أن يكون جمع عذير بمعنى المعذور وجمع نذير بمعنى الانذار و بمعنى العاذر والمنذر ونصبهما اما على البدل من ذكرا على الوجهين الاولين أو على المفعول له واما على الوجه الثالث فعلى الحال بمعنى عاذرين أو منذرين وقرأ أو نذرا نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة بضم الذال والباقون بسكونها وقوله تعالى (انما توعدون لواقع) جواب القسم ومعناه ان الذي توعدونه من مجيء القيامة كائن لا محالة وقال الكلبي المراد ان كل ما توعدون به من الخير والشر لواقع ثم بين وقت وقوعه فقال تعالى (فاذا النجوم) أي على كثرتها (طمست) أي محي نورها أو ذهب نورها ومحقت ذواتها وهو موافق لقوله تعالى انتثرت وانكدرت قال الزمخشري ويجوز أن يمحق نورها ثم تنتثر ممحوقة النور (واذا السماء) أي على عظمها (فرجت) أي فتحت وشققت فكانت أبوابا والفرج الشق ونظيره اذا السماء انشقت (واذا الجبال) أي على صلابتها (نسفت) أي ذهب بها كلها بسرعة من نسفت الشيء اذا اختطفته أو نسفت كالحب اذا نسف بالمنسف ونحوه وبست الجبال بسا وكانت الجبال كثيبا مهيلا (واذا الرسل) أي الذين أنذروا الناس ذلك اليوم فكذبوا (أقتت) قال مجاهد والزجاج المراد بهذا التأقيت تبيين الوقت الذي فيه يحضرون للشهادة على أممهم أي جمعت لميقات يوم معلوم وهو يوم القيامة والوقت الاجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر اليه فالمعنى جعل لها وقت أجل للفصل والقضاء بينهم وبين الامم كقوله تعالى يوم يجمع الله الرسل وقرأ أبو عمرو بواو مضمومة والباقون بهمزة مضمومة وهما لغتان والعرب تعاقب بين الواو والهمزة كقولهم وكدت وأكدت وقوله تعالى (لاي يوم) أي عظيم متعلق بقوله تعالى (أجلت) وهذه الجملة معمولة لقول مضمر أي يقال لاي يوم أجلت وهذا القول المضمر يجوز أن يكون جوابا لاذا وأن يكون حالا من مرفوع

أقتت أى مقولا فيها الاى يوم أجلت أى أخرت وهذا تعظيم لذلك اليوم وتعجيب له وقوله تعالى (ليوم الفصل) بيان ليوم التأجيل وقيل اللام بمعنى الى ذكره مكى قال ابن عباس يوم فصل الرحمن بين الخلائق كقوله تعالى ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ثم أتبع هذا التعظيم تعظيما آخر بقوله تعالى (وما أدراك ما يوم الفصل) أى ومن أين تعلم كنهه ولم تر مثله فى شدته ومهابته وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى وابن ذكوان بخلاف عنه بالامالة محضة وقرأ ورش بين بين والباقون بالفتح ثم أتبعه تهويلا ثالثا بقوله تعالى (ويل يومئذ) أى اذ يكون يوم الفصل (للمكذبين) أى بذلك قال القرطبى ويل عذاب وخزى لمن كذب بالله تعالى وبرسله وكتبه وبيوم الفصل وهو وعيد وكرره فى هذه السورة عند كل آية كانه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم فان لكل مكذب بشئ عذابا سوى عذاب تكذيبه بشئ آخر ورب شئ كذب به هو أعظم جرما من تكذيبه لغيره لانه أقبح فى تعظيمه وأعظم فى الرد على الله تعالى وانما يقسم له من الويل على قدر ذلك وعلى قدر وفاقه وهو قوله تعالى جزاء وفاقا وقيل كرر لمعنى تكرار التخويف والوعيد وروى عن النعمان بن بشير قال ويل واد فى جهنم فيه ألوان العذاب وقاله ابن عباس وغيره وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال عرضت على جهنم فلم أر فيها واديا أعظم من الويل وروى أيضا أنه مجمع ما يسيل من قيح أهل النار وصديدهم وانما يسيل الشئ فيما سفل من الارض وقد علم العباد فى الدنيا ان شر المواضع ما استنقع فيها مياه الادناس والاقذار والغسالات والجيف وماء الحمامات فذكر أن الوادى مستنقع صديد أهل الكفر والشرك ليعلم العاقل انه لا شئ أقذر منه قذارة ولا أنتن منه نتنا * (تنبيه) * ويل مبتدأ وسوغ الابتداء به الدعاء ويومئذ ظرف للويل وللمكذبين خبره وقال الزمخشرى فان قلت كيف وقع النكرة مبتدأ قلت هو فى أصله مصدر منصوب ساد مسد فعله لكنه عدل به الى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه ونحوه سلام عليكم واعترض بأن الذى ذكره ليس من المسوغات التى ذكرها النحويون وانما المسوغ كونه دعاء وفائدة العدول الى الرفع ما ذكره (ألم نهلك) أى بما لنا من العظمة (الاولين) من لدن آدم عليه السلام الى زمن محمد صلى الله عليه وسلم كقوم نوح وعاد وثمود بتكذيبهم أى أهلكناهم (ثم نتبعهم الآخرين) أى ممن كذبوا ككفار مكة فنهلكهم كما أهلكنا الاولين ونسلك بهم سبيلهم لانهم كذبوا مثل تكذيبهم (كذلك) أى مثل ذلك الفعل الشنيع (نفعل بالمجرمين) أى بكل من أجرم فيما يستقبل اما بالسيف واما بالهلاك (ويل يومئذ) أى اذ يوجد ذلك الفعل (للمكذبين) أى بآيات الله وأنبيائه قال البيضاوى فليس تكرارا وكذا ان أطلق التكذيب أو علق فى الموضعين بواحد لان الويل الاول لعذاب الآخرة وهذا للاهلاك فى الدنيا مع أن التكرير للتوكيد حسن شائع فى كلام العرب (ألم نخلقكم) أى أيها المكذبون بما لنا من العظمة التى لا تقدر ها عظمة (من ماء مهين) أى ضعيف حقير وهو المنى وهذا نوع آخر من تخويف الكفار وهو من وجهين الاول انه تعالى ذكرهم عظيم انعامه عليهم وكل ما كان نعمه عليه أكثر كانت جنايته فى حقه أقبح وأفحش الثانى

أنه تعالى ذكرهم انه قادر على الابتداء والقادر على الابتداء قادر على الاعادة فكما أنكروا هذه الدلالة الظاهرة لا جرم قال تعالى في حقهم ويل يومئذ للمكذبين وهذه الآية نظير قوله تعالى ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين وقرأ كل القراء بادغام القاف في الكاف وابقاء الصفة ولهم أيضا ادغام الصفة مع الحذف (فجعلناه) أي بما لنا من القدرة والعظمة بالانزال للماء في الرحم (في قرار) أي مكان (مكين) أي حريز وهو الرحم (الى قدر معلوم) أي وهو وقت الولادة كقوله تعالى ان الله عنده علم الساعة الى قوله ويعلم ما في الارحام (فقدرنا) أي ذلك دون غيرنا (فنعم القادرون) نحن وقرأ نافع والكسائي بتشديد الدال فيصح على هذه القراءة أن يكون المعنى فقدرناه والباقون بالتخفيف وقال علي كرم الله وجهه ولا يبعد أن يكون المعنى في التخفيف والتشديد واحدا لان العرب تقول قدر وقدر عليه الموت (ويل يومئذ) أي اذ كان ذلك (للمكذبين) أي بقدرتنا على ذلك أو على الاعادة وقوله تعالى (ألم نجعل) أي نصير بما لنا من العظمة (الارض كفاتا) مصدر كفت بمعنى ضم وعاء ضامة (أحياء) أي على ظهرها في الدور وغيرها (وأمواتا) أي في بطنها في القبور وغيرها وقيل الاحياء والاموات ترجع الى الارض أي الارض منقسمة الى حي وهو الذي ينبت والى ميت وهو الذي لا ينبت وقيل كفاتا جمع كافت كصيام وقيام جمع صائم وقائم وقال الخليل تقليب الشئ ظهر البطن أو بطنا لظهر ويقال انكفت القوم الى منازلهم أي انقلبوا فمعنى الكفات انهم يتصرفون على ظهرها وينقلبون اليها فيدفعون فيها (وجعلنا) أي بما لنا من القدرة التامة (فيها) أي الارض (رواسي) أي جبالا لولاها لمادت بأهلها ومن العجائب مراسيها من فوقها خلافا لمراسي السفن (شامخات) أي مرتفعات جمع شامخ وهو المرتفع جدا ومنه شمخ بأنفه اذا تكبر جعل كناية عن ذلك كثني العطف وصعر الخد كما قال لقمان لابنه ولا تصعر خدك للناس (وأسقيناكم) أي بما لنا من العظمة (ماء) أي من الانهار والعيون والغدران والآبار وغير ذلك (فراتا) أي عذبا تشربون منه ودوابكم وتسقون منه زرعكم وهذه الامور أعجب من البعث روي في الارض من الجنة سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة (ويل يومئذ) أي اذ تقوم الساعة (للمكذبين) أي بأمثال هذه النعم وقوله تعالى (انطلقوا) على ارادة القول اي يقال للمكذبين يوم القيامة انطلقوا (الى ما كنتم به تكذبون) من العذاب يعني النار فقد شاهدتموها عيانا (انطلقوا الى ظل) أي ظل دخان جهنم لقوله تعالى وظل من يحموم (ذي ثلاث شعب) أي تتشعب لعظمه كما ترى الدخان العظيم يتفرق ذوائب وقيل يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كالسرادق ويتشعب من دخانها ثلاث شعب فتظلهم حتى يفرغ حسابهم والمؤمنون في ظل العرش وقيل ان الشعب الثلاث هي الضريع والزقوم والغسلين لانها أوصاف النار وقوله تعالى (لا ظليل) أي كنين يظلهم من حر ذلك اليوم تهكم بهم ورد لما يوهم لفظ الظل (ولا يغني) أي ولا يرد عنهم شيأ (من اللهب) أي لهب النار فليس كالظل الذي يقي حر الشمس وهذا تهكم بهم وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين واللهب ما يعلو

على النار اذا اضطربت من أحمر وأصفر وأخضر (انها) أي النار (ترمي) أي من شدة الاشتعال (بشرر) وهو ما تطاير من النار (كالقصر) أي كل شررة كالقصر من البناء في عظمه وارتفاعه قال ابن مسعود يعني الحصون وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ترمي بشرر كالقصر قيل هي الخشب العظام المقطعة قال وكنا نعمد الى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه ندخرها للشتاء فكنا نسميها القصر وقال سعيد بن جبير والضحاك هي أصول النخل والشجر العظام واحدتها قصرة مثل جمرة وجمر وقوله تعالى (كأنه) أي الشرر (جمالات) قرأه حمزة والكسائي وحفص بغير ألف بعد اللام على التوحيد والباقون بالالف على الجمع جمع جمالة وهي التي قرأبها أولا وهي جمع جمل مثل حجارة وحجر وقوله تعالى (صفر) جمع أصفر أي في هيئتها ولونها وفي الحديث شرار النار أصفر كالقير والعرب تسمي سود الابل صفرا لشوب سوادها بصفرة فقيل صفر في الآية بمعنى سود لما ذكروا في شعر عمران بن حطان الخارجي

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم * بمثل الجمال الصفر نزاعة الشوى

قال الترمذي وهذا القول ضعيف ومحال في اللغة أن يكون من يشوبه شيء قليل فينسب كله الى ذلك الشائب فالعجب ممن قد قال هذا وقد قال الله تعالى جمالات صفر فلا نسلم من هذا شيأ في اللغة وقيل شبه الشرر بالجمالات لسرعة سيرها وقيل لمتابعة بعضها بعضا (ويل يومئذ) أي اذ يكون ذلك (للمكذبين) أي بهذه الامور العظام (هذا) أي يوم القيامة (يوم لا ينطقون) أي بشيء من فرط الدهشة والحيرة وهذا نوع آخر من أنواع تخويف الكفار بين أنه ليس لهم عذر ولا حجة فيما أتوا به من القبائح وهذا في بعض المواقف فان يوم القيامة يوم طويل ذو مواطن ومواقيت ينطقون في وقت ولا ينطقون في وقت ولذلك ورد الامران في القرآن الكريم ففي بعضها يختصمون ويتكلمون وفي بعضها يختم على أفواههم فلا ينطقون وروى عكرمة أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما سأله ابن الازرق عن قوله تعالى هذا يوم لا ينطقون ولا تسمع الاهمسا وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون فقال ان الله تعالى يقول وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون فان لكل مقدار من هذه الايام لونا من هذه الالوان وقال الحسن فيه اضمار أي هذا يوم لا ينطقون فيه بحجة نافعة فجعل نطقهم كلا نطق لانه لا ينفع ولا يسمع ومن نطق بما لا ينفع فكأنه ما نطق كما يقال لمن تكلم بكلام لا يفيد ما قلت شيأ وقيل ان هذا وقت جوابهم اخسؤا فيها ولا تكلمون (ولا يؤذن لهم) أي في العذر وقوله تعالى (فيعتذرون) عطف على يؤذن من غير تسبب عنه فهو داخل في حيز النفي أي لا اذن فلا اعتذار (ويل يومئذ) أي اذ كان هذا الموقف (للمكذبين) أي الذين لا تقبل منهم معذرة (هذا يوم الفصل) وهذا نوع آخر من أنواع تهديد الكفار وتخويفهم أي يقال لهم هذا اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق فيتبين الحق من المبطل (جمعناكم) أيها المكذبون من هذه الامة بما لنا من العظمة (والاولين) من المكذبين قبلكم فتحاسبون وتعذبون جميعا قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما جمع الذين كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم والذين كذبوا النبيين من قبل وقوله تعالى (فان كان لكم

كيد) أى حيلة فى دفع العذاب عنكم (فكيدون) أى فاحتالوا لانفسكم وقاوون ولن تجدوا ذلك تقريع لهم على كيدهم لدين الله تعالى وذويه وتسجيل عليهم بالعجز وقيل ان ذلك من قول النبى صلى الله عليه وسلم فيكون كقول هود عليه السلام فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون (ويل يومئذ) أى اذ يقال لهم هذا الكلام فيكون زيادة فى عذابهم (للمكذبين) أى الراسخين فى التكذيب فى ذلك * ثم ذكر ضد المكذبين بقوله تعالى (ان المتقين) أى الذين اتقوا الشرك لانهم فى مقابلة المكذبين (فى ظلال) أى تكاثف أشجار اذ لاشمس يظل من حرها (وعيون) أى من ماء وعسل ولبن وخمر كما قال تعالى فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وحفص بضم العين والباقون بكسرها (وفواكه مما يشتهون) فى هذا اعلام بأن المأكل والمشرب فى الجنة بحسب شهواتهم بخلاف الدنيا فبحسب ما يجد الناس فى الاغلب وقوله تعالى (كلوا واشربوا) فى موضع الحال من ضمير المتقين فى الظرف الذى هو فى ظلال أى هم مستقرون فى ظلال مقولا لهم ذلك وقوله تعالى (هنيئا) حال أى متهنئين (بما) أى بسبب ما (كنتم تعملون) من طاعات الله تعالى (انا) أى بما لنا من العظمة (كذلك) أى كما جزينا المتقين هذا الجزاء العظيم (نجزى المحسنين) أى نثيب الذين أحسنوا فى تصديقهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وأعمالهم فى الدنيا (ويل يومئذ) أى اذ يكون هذا النعيم للمتقين المحسنين (للمكذبين) أى يمحض لهم العذاب المخلد ضد النعيم المؤبد وقوله تعالى (كلوا وتمتعوا) خطاب للكفار فى الدنيا (قليلا) أى من الزمان وغايته الى الموت وهو زمان قليل لانه زائل مع قصر مدته فى زمن الآخرة وفى هذا تهديد لهم ويجوز أن يكون ذلك خطابا لهم فى الآخرة ايذانا بأنهم كانوا فى الدنيا احقاء بان يقال لهم وكانوا من أهله تذكيرا بحالهم السمجة بما جنوا على أنفسهم من ايثار المتاع القليل على النعيم والملك الخالد وهذا ما جرى عليه الزمخشرى أولا وذكر الاول ثانيا واقتصر الجلال المحلى على ماذكرته أولا وهو أولى قال بعض العلماء التمتع بالدنيا من افعال الكافرين والسعى لها من افعال الظالمين والاطمئنان اليها من افعال الكاذبين والسكون فيها على حد الاذن والاخذ منها على قدر الحاجة من أفعال عوام المؤمنين والاعراض عنها من أفعال الزاهدين وأهل الحقيقة أجل خطرا من أن يؤثر فيهم حب الدنيا وبغضها وجمعها وتركها ثم علل ذلك مؤكدا بقوله تعالى لانهم ينكرون وصفهم بذلك (انكم مجرمون) ففيه دلالة على أن كل مجرم يتمتع أياما قلائل ثم البقاء فى الهلاك أبدا (ويل يومئذ) أى اذ تعذبون بأجرامكم (للمكذبين) حيث عرضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل (واذا قيل لهم) أى لهؤلاء المجرمين من أى قائل كان (اركعوا) أى صلوا الصلاة التى فيها الركوع كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما وأطلقوه عليها تسمية لها باسم جزئها وخص هذا الجزء لانه يقال على الخضوع والطاعة ولانه خاص بصلاة المسلمين (لا يركعون) أى لايصلون قال الرازى وهذا ظاهر لان الركوع من أركانها فبين تعالى ان هؤلاء الكفار من صفتهم أنهم اذا دعوا الى الصلاة لايصلون ويجوز أن يكون اركعوا بمعنى

اخشعوا وتواضعوا لله بقبول وحيه واتباع دينه واطرحوا هذا الاستكبار لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ويصرون على استكبارهم وأن يكون بمعنى اركعوا في الصلاة اذ روى أنها نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة فقالوا لا نجبي فانها مسبة علينا فقال صلى الله عليه وسلم لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود قال في القاموس جبى تجبية وضع يديه على ركبتيه أو على الارض أو انكب على وجهه والتجبية أن تقوم قيام الراكع واستدل بهذه الآية على ان الكفار مخاطبون بفروع الشريعة وأنهم حال كفرهم يستحقون الذم والعقاب بترك الصلاة لان الله تعالى ذمهم حال كفرهم وعلى أن الامر للوجوب لان الله تعالى ذمهم بمجرد ترك المأمور به وهو يدل على ان الامر للوجوب (فان قيل) انما ذمهم لكفرهم (أجيب) بأنه تعالى ذمهم على كفرهم من وجوه الا أنه تعالى انما ذمهم في هذه الآية لتركهم المأمور به وقرأ هشام والكسائي بضم القاف والباقون بكسرها (ويل يومئذ) أي اذ يكون الفصل (للمكذبين) أي بما أمروا به قال الرازي انه تعالى لما بالغ في زجر الكفار من أول هذه السورة الى آخرها بهذه الوجوه العشرة المذكورة وحث على التمسك بالنظر والاستدلال والانقياد للدين الحق ختم السورة بالتعجب من الكفار وبين أنهم اذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل القطعية مع تجليها ووضوحها (فبأي حديث بعده) أي القرآن (يؤمنون) أي لا يمكن ايمانهم بغيره من كتب الله تعالى بعد تكذيبهم به لاشتماله على الاعجاز الذي لم يشتمل عليه غيره واستدل بعض المعتزلة بهذه الآية على ان القرآن حادث لان الله تعالى وصفه بأنه حديث والحديث ضد القديم والضدان لا يجتمعان فاذا كان حديثا وجب أن لا يكون قديما وأجيب بأن المراد منه هذه الالفاظ ولا نزاع في أنها محدثة وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والمرسلات كتب الله تعالى له أنه ليس من المشركين حديث موضوع

❖ (سورة عم يتساءلون) ❖

وتسمى سورة النبأ مكية وهي أربعون أو احدى وأربعون آية ومائة وثلاثة وسبعون كلمة وسبعمائة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذي له الملك كله (الرحمن) الذي عم الوجود بفضله (الرحيم) الذي تمحضت أولياؤه جنته وقوله تعالى (عم) أصله عن ما على أنه حرف جر دخل على ما الاستفهامية وأدغمت النون في الميم وحذفت ألف ما كقوله فيم واستعمال الاصل قليل ومنه قول حسان

على ما قام يشتمني لئيم * كخنزير تمرغ في رماد

ومعنى هذا الاستفهام تفخيم الشأن كأنه قال عن أي شيء (يتساءلون) ونحوه قولك زيد ما زيد جعلته لانقطاع قرينه وعدم نظيره كأنه شيء خفي عليك فأنت تسأل عن جنسه وتفحص عن جوهره كما تقول ما الغول وما العنقاء تريد أي شيء هو من الاشياء هذا أصله ثم جرد للعبارة عن التفخيم حتى وقع في كلام من لا تخفى عليه خافية ولذا المأوقف البزي ألحق الميم هاء السكت بخلاف قنبل عنه والضمير في يتساءلون لأهل مكة كانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم وذلك أن النبي

صلى

صلى الله عليه وسلم لما دعاهم الى التوحيد وأخبرهم بالبعث بعد الموت وتلا عليهم القرآن جعلوا يتساءلون بينهم فيقولون ماذا جاء به محمد ويسألون الرسول والمؤمنين عنه استهزاء وقيل الضمير للمسلمين والكافرين جميعا وكانوا جميعا يتساءلون عنه أما المسلم فليزداد خشية واستعدادا وأما الكافر فليزداد استهزاء * ثم ذكر أن تساؤلهم عماذا فقال تعالى (عن النبا العظيم) قال مجاهد والاكثرون هو القرآن دليله قوله تعالى قل هو نبأ عظيم وقال قتادة هو البعث (فان قيل) اذا كان الضمير يرجع للكافر فكيف يكون قوله تعالى (الذى هم) أى بضمائرهم مع ادعائهم أنها أقوى الضمائر (فيه مختلفون) مع ان الكفار كانوا متفقين على انكار البعث (أجيب) بأنا لانسلم اتفاقهم على ذلك بل كان فيهم من يثبت المعاد الروحانى وهم جمهور النصارى وأما المعاد الجسمانى فنهم من يقطع القول بانكاره ومنهم من يشك وأما اذا كان المتساءل عنه القرآن فقد اختلفوا فيه كثيرا وقيل المتساءل عنه نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (كلا) ردع للمتسائلين هزؤا (سيعلمون) ما يحل بهم على انكارهم له وقوله تعالى (ثم كلا سيعلمون) تأكيد وجيء فيه بثم للايذان بان الوعيد الثانى أشد من الاول وقال الضحاك الاولى للكفار والثانية للمؤمنين أى سيعلم الكافرون عاقبة تكذيبهم وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم * ثم أومأ تعالى الى القدرة على البعث بقوله تعالى (ألم نجعل) أى بما لنا من العظمة (الارض مهادا) أى فراشا كالمهد للصبى وهو ما يمهد له فينوم عليه تسمية للممهود بالمصدر كضرب الامير (والجبال) أى التى تعرفون شدتها وعظمها (أوتادا) أى تثبت بها الارض كما تثبت الخيام بالاوتاد والاستفهام للتقرير فيستدل بذلك على قدرته على جميع الممكنات واذا ثبت ذلك ثبت القول بصحة البعث وانه قادر على تخريب الدنيا بسمواتها وكواكبها وأرضها وعلى ايجاد عالم الآخرة * (تنبيه) * مهادا مفعول ثان لان الجعل بمعنى التصيير ويجوز أن يكون بمعنى الخلق فتكون حالا مقدرة (وخلقناكم) أى بما دل على ذلك من مظاهر العظمة (أزواجا) أى أصنافا ذكورا واناثا وقيل ألوانا (وجعلنا) أى بما لنا من العظمة (نومكم سباتا) أى راحة لابدانكم قال الزجاج السبات أن ينقطع عن الحركة والروح فيه وقيل معناه جعلنا نومكم قطعا لاعمالكم وقيل المسبوت الميت من السبت وهو القطع لانه مقطوع عن الحركة والنوم أحد التوفيتين وقوله تعالى (وجعلنا) أى بما لنا من العظمة (الليل) أى بعد ذهاب الضياء حتى كانه لم يكن (لباسا) فيه استعارة أى يستركم عن العيون بظلمته كما اذا أردتم هربا من عدو أو بياتا له أو اخفاء ما لاتحبون الاطلاع عليه من كثير من الامور قال الشاعر

وكم لظلام الليل عندى من يد * تخبر أن المانوية تكذب

ولما جعل النوم موتا جعل اليقظة معاشا فقال تعالى (وجعلنا) أى بما لنا من القدرة التامة (النهار) أى الذى آيته الشمس (معاشا) أى حياة تبعثون فيه عن نومكم أو وقت معاش تتقلبون فيه فى حوائجكم ومكاسبكم لتحصيل ما تعيشون به فعاشا على هذا اسم زمان (وبنينا) بما لنا من الملك التام (فوقكم سبعا) أى سبع سموات وقوله تعالى (شدادا) جمع شديدة أى قوية

محكمة لا يؤثر فيها مر الزمان لافطور فيها ولا فروج ونظيره قوله تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا (وجعلنا) أي بما لنا من العظمة مما لا يقدر عليه غيرنا (سراجا) أي منيرا ممتلئا لتا (وهاجا) أي وقادا وهي الشمس (وأنزلنا) أي بما لنا من كمال الأوصاف (من المعصرات) أي السحاب اذا أعصرت أي شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر كقولك أجز الزرع أي حان أن يجز وأعصرت الجارية اذا دنت أن تحيض وعن الحسن وقتادة هي السموات وتأويله ان الماء ينزل من السماء الى السحاب فكأن السموات عصرن وقيل من الرياح التي حان لها ان تعصر السحاب وقيل الرياح ذوات الاعاصير وانما جعلت مبدأ للانزال لانها تنشئ السحاب وتدر أخلافه (ماء ثجاجا) أي منصبا بكثرة يقال ثجه وثج بنفسه وفي الحديث أفضل الحج العج والثج أي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدي وكان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مثجا يسيل غربا يعني يثج الكلام ثجا في خطبته (لنخرج) أي بعظمتنا التي ربطنا بها المسببات بالاسباب (به) أي بذلك الماء (حبا) أي نجما ذا حب مما يقوت به كالحنطة والشعير والارز (ونباتا) أي ما يعتلف به كالتبن والحشيش كما قال تعالى كلوا وارعوا أنعامكم والحب ذو العصف والريحان (وجنات) أي بساتين تجمع أنواع الاشجار والنبات المقتات وغيره (ألفافا) أي ملتفة بالشجر جمع لفيف كشريف وأشراف وقيل هو جمع الجمع يقال جنة لفاء وجمعها لف بضم اللام وجمع الجمع ألفاف وقيل لا واحد له كالاوزاع والاخياف وقيل الواحد لف قال صاحب الاقليد أنشدني الحسن بن علي الطوسي

جنة لف وعيش مغدق * وندامى كلهم بيض زهر

وقال الزمخشري ولو قيل هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولا وجيها (ان يوم الفصل) أي بين الخلائق (كان) أي في علم الله تعالى وفي حكمه كونا لا بد منه (ميقاتا) أي وقتا للثواب والعقاب أو وقتا توقت به الدنيا وتنتهي عنده مع ما فيها من الخلائق وقوله تعالى (يوم ينفخ في الصور) أي القرن بدل من يوم الفصل أو بيان له والنافخ اسرافيل عليه السلام أو من أذن الله تعالى له في ذلك (فتأتون) أي بعد القيام من القبور الى الموقف (أفواجا) أي جماعات مختلفة وعن معاذ أنه سأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا معاذ سألت عن أمر عظيم من الامور ثم أرسل عينيه باكيا وقال تحشر عشرة أصناف من أمتي بعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها وبعضهم عميا وبعضهم صما بكما وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلبون على جذوع من نار وبعضهم أشد نتنا من الجيف وبعضهم ملبسون جبابا سابغة من قطران لازقة بجلودهم ثم فسرهؤلاء بقوله فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس يعني النمام وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت وأما المنكسون على وجوههم فأكلة الربا وأما العمي فالذين يجورون في الحكم وأما الصم البكم فالمعجبون بأعمالهم وأما الذين

يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين خالف قولهم فعلهم وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون الجيران وأما المصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس الى السلطان وأما الذين أشد نتنا من الجيف فالذين يتمتعون الشهوات واللذات ويمنعون حق الله تعالى فى أموالهم وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء اهـ وقد تكلم فى صحة هذا الحديث نعوذ بالله تعالى من هؤلاء ونسأله التوفيق لنا ولاحبابنا فانه كريم جواد لا يرد من سأله (وفتحت السماء) أى شققت لنزول الملائكة (فكانت أبوابا) فان قيل هذه الآية تقتضى ان السماء بجملتها تصير أبوابا أجيب بوجوه أولها أن تلك الابواب لما كثرت صارت كأنها ليست الا أبوابا مفتحة كقوله تعالى وفجرنا الارض عيونا كأن كلها عيون تتفجر ثانيها أنه على حذف مضاف أى فكانت ذات أبواب ثالثها أن الضمير فى قوله تعالى فكانت أبوابا يعود الى مضمر والتقدير فكانت تلك المواضع المفتوحة أبوابا وقيل الابواب الطرق والمسالك أى تكشط فينفتح مكانها وتصير طرقا لا يسدها شئ وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بتخفيف التاء بعد الفاء والباقون بتشديدها (وسيرت الجبال) أى ذهب بها عن أماكنها (فكانت سرابا) أى لا شئ كما ان السراب كذلك يظنه الرائى ماء وليس بماء قال الرازى ان الله تعالى ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفة ويمكن الجمع بينها بأن نقول أول أحوالها الاندكاك وهو قوله تعالى وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة والحالة الثانية أن تصير كالعهن المنفوش وهو قوله تعالى وتكون الجبال كالعهن المنفوش والحالة الثالثة أن تصير كالهباء وهو قوله تعالى وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا الحالة الرابعة أن تنسف لانها مع الاحوال المتقدمة قارة فى مواضعها فترسل عليها الرياح فتنسفها عن وجه الارض فتطيرها فى الهواء وهو قوله تعالى ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا الحالة الخامسة ان تصير سرابا أى لا شئ كما يرى السراب من بعد وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بادغام تاء التأنيث فى السين والباقون بالاظهار (ان جهنم) أى النار التى تلقى أصحابها متجهمة لهم بغاية ما يكرهون (كانت مرصادا) أى ترصد الكفار أو موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار أو خزنة الجنة المؤمنين ليحرسوهم من فيحها فى مرورهم عليها وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان على جسر جهنم سبع محابس يسئل العبد عند أولها عن شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فان جاء بها تامة جاز الى الثانى فيسئل عن الصلاة فان جاء بها تامة جاز الى الثالث فيسئل عن الزكاة فان جاء بها تامة جاز الى الرابع فيسئل عن الصوم فان جاء به تاما جاز الى الخامس فيسئل عن الحج فان جاء به تاما جاز الى السادس فيسئل عن العمرة فان جاء بها تامة جاز الى السابع فيسئل عن المظالم فان خرج منها والا فيقال انظروا ان كان له تطوع أكملوا أعماله فاذا فرغ انطلق به الى الجنة وأما الكافر فهو مستقر فيها كما قال تعالى (للطاغين) أى الكافرين (مآبا) اى مرجعا يرجعون اليه وقرأ حمزة (لابثين فيها) بغير ألف بين اللام والباء الموحدة والباقون بألف وهما لغتان والاولى أبلغ قاله البيضاوى وقوله تعالى (أحقابا) جمع حقب والحقب الواحد

ثمانون سنة كل سنة اثنا عشر شهرا كل شهر ثلاثون يوما كل يوم ألف سنة روى ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال مجاهد الاحقاب ثلاثة وأربعون حقبا وقال الحسن ان الله تعالى لم يجعل لاهل النار مدة بل قال لابثين فيها أحقابا فوالله ماهو الا أنه اذا مضى حقب دخل آخر الى الابد فليس للاحقاب عدة الا الخلود روى عن عبد الله انه قال لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا وقال مقاتل بن حيان الحقب الواحد سبعة عشر ألف سنة قال وهذه الآية منسوخة نسختها فلن نزيدكم الا عذابا يعني ان العدد قد ارتفع والخلود قد دخل وعلى تقدير عدم النسخ فهو من قبيل المفهوم فلا يعارض المنطوق الدال على خلود الكفار ويجوز أن يراد لابثين فيها أحقابا (لا يذوقون) أي غير ذائقين (فيها) أي النار (بردا ولا شرابا الا حميما وغساقا) ثم يبدلون بعد الاحقاب غير الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب ويجوز أن يكون جمع حقب من حقب عامنا اذا قل مطره وخيره وحقب فلان اذا أخطأ الرزق فهو حقب وجمعه أحقاب فينتصب حالا عنهم يعني لابثين فيها حقبين جهدين وقوله تعالى لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا تفسير له والاستثناء منقطع يعني لا يذوقون فيها بردا قال عطاء والحسن أي راحة وروحا أي ينفس عنهم حر النار ولا شرابا يسكن من عطشهم ولكن يذوقون فيها حميما أي ماء حارا غاية الحرارة وغساقا وهو ما يسيل من صديد أهل النار فانهم يذوقونه وروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان البرد النوم ومثله قال الكسائي وأبو عبيدة تقول العرب منع البرد البرد أي أذهب البرد النوم قال الشاعر

فلو شئت حرمت النساء سواكم * وان شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

وقرأ حمزة والكسائي وجعفر بتشديد السين والباقون بتخفيفها وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الغساق الزمهرير يحرقهم ببرده جوزوا بذلك (جزاء وفاقا) أي موافقا لعملهم قال مقاتل وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الكفر ولا عذاب أعظم من النار وقوله تعالى (انهم كانوا لا يرجون حسابا) بيان لما وافقه هذا الجزاء أي لا يخافون أن يحاسبوا والمعنى أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث ولا أنهم يحاسبون (وكذبوا بآياتنا) أي بما جاءت به الانبياء عليهم السلام وقيل القرآن وقرأ (كذابا) غير الكسائي بالتشديد أي تكذيبا قال الفراء وهي لغة يمانية فصيحة يقولون في مصدر التفعيل فعال وقال الزمخشري وفعال في باب فعل كله فاش في كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره وسمعني بعضهم أفسر آية فقال لقد فسرتها فسارا ما سمع بمثله وقرأ الكسائي بالتخفيف مصدر كذب بدليل قول الشاعر

فصدقتها وكذبتها * والمرء ينفعه كذابه

قال الزمخشري وهو مثل قوله أنبتكم من الارض نباتا يعني وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابا أو تنصبه بكذبوا لانه يتضمن معنى كذبوا لانه كل مكذب بالحق كاذب وان جعلته بمعنى المكاذبة فمعناه وكذبوا بآياتنا فكاذبوا مكاذبة أو كذبوا بها مكاذبين لانهم اذا كانوا عند المسلمين كاذبين

وكان المتسارون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة أو لانهم يتكلمون بما هو افراط فى التكذيب فعل من يغالب فى أمر فيبلغ فيه أقصى جهده (وكل شئ) أى من الاعمال وغيرها (أحصيناه) أى ضبطناه وقوله تعالى (كتابا) فيه وجهان أحدهما انه مصدر فى موضع احصاء والاحصاء والكتب يتشاركان فى معنى الضبط ثانيهما أن يكون حالا بمعنى مكتوبا فى اللوح المحفوظ كقوله تعالى وكل شئ أحصيناه فى امام مبين وقيل أراد ما تكتبه الملائكة الموكلون بالعباد بأمر الله تعالى اياهم بالكتابة لقوله تعالى وان عليكم لحافظين كراما كاتبين والجملة اعتراض وقوله تعالى (فذوقوا فلن نزيدكم) أى شيأ من الاشياء فى وقت من الاوقات (الا عذابا) تسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات قال الرازى وفى هذه الآية مبالغات منها لن للتأكيد ومنها الالتفات ومنها اعادة قوله تعالى فذوقوا بعد ذكر العذاب قال أبو بردة سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن أشد آية فى القرآن فقال صلى الله عليه وسلم قوله تعالى فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا اى كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب وكلما خبت زدناهم سعيرا * ولما ذكر تعالى ما للكافرين أتبعه بذكر ما للمؤمنين فقال تعالى (ان للمتقين مفازا) أى مكان فوز فى الجنة وقوله تعالى (حدائق) أى بساتين فيها أنواع الاشجار المثمرة بدل من مفازا بدل الاشتمال أو البعض أو بيان له وقوله تعالى (وأعنابا) أى كروما عطف على مفازا (وكواعب) أى جوارى تكعبت ثديهن جمع كاعب (أترابا) أى على سن واحد جمع ترب بكسر التاء وسكون الراء وقيل الاتراب اللذات (وكأسا دهاقا) أى خمرا مالئة محالها وفى القتال وأنهار من خمر والدهاق المترعة ودهق الحوض ملأه حتى قال قطنى وقال ابن عباس مترعة مملوأة وقال عكرمة صافية (لا يسمعون فيها) أى الجنة فى وقت ما عند شرب الخمر وغيره من الاحوال (لغوا) اى لغطا يستحق أن يلغى بأن يكون ليس له معنى وقوله تعالى (ولا كذابا) قرأه بالتخفيف الكسائى وبالتشديد الباقون أى تكذيبا من واحد لغيره بخلاف ما يقع فى الدنيا عند شرب الخمر (جزاء من ربك) أى المحسن اليك بما أعطاك جزاهم بذلك جزاء وقوله تعالى (عطاء) بدل من جزاء وهو اسم مصدر وجعله الزمخشرى منصوبا بجزاء نصب المفعول به وردّه أبو حيان بأنه جعل جزاء مصدرا مؤكدا لمضمون الجملة التى هى ان للمتقين قال والمصدر المؤكد لا يعمل لانه لا ينحل لحرف مصدرى والفعل ولا نعلم فى ذلك خلافا (حسابا) أى كافيا وافيا يقال أحسبت فلانا أى أعطيته ما يكفيه حتى قال حسبى وقال ابن قتيبة أى عطاء كثيرا وقيل جزاء بقدر أعمالهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (رب السموات والارض وما بينهما الرحمن) برفع رب والرحمن وابن عامر وعاصم بخفضهما والآخران بخفض الاول ورفع الثانى أما رفعهما ففيه أوجه أحدها أن يكون رب خبر مبتدا مضمر أى هو رب والرحمن كذلك أو مبتدأ خبره لا يملكون ثانيها أن يجعل رب مبتدأ والرحمن خبره ولا يملكون خبرا ثانيا أو مستأنفا ثالثها أن يكون رب مبتدأ والرحمن نعته ولا يملكون خبر رب رابعها أن يكون رب مبتدأ والرحمن مبتدأ ثان ولا يملكون خبره والجملة خبر الاول وحصل الربط بتكرير المبتدأ بمعناه وهو

فأى الاخفش ويجوز أن يكون لايملكون حالا وتكون لازمة وأما جرهما فعلى البيان والنعت أو يجعل رب السموات تابعا للاول والرحمن تابعا للثانى واما جر الاول فعلى التبعية للاول ورفع الثانى فعلى الابتداء والخبر الجملة الفعلية وهى لايملكون أى الخلق (منه) أى من الله تعالى (خطابا) والضمير فى لايملكون لاهل السموات والارض أى ليس فى أيديهم مايخاطب به الله ويأمر به فى أمر الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك فيزيدون فيه أو ينقصون منه أو لايملكون أن يخاطبوا بشئ من نقص العذاب أو زيادة فى الثواب الا أن يهب لهم ذلك ويأذن لهم فيه وقوله تعالى (يوم) متعلق بلايملكون أو لايتكلمون (يقوم الروح والملائكة) وقوله تعالى (صفا) حال أى مصطفين والروح أعظم خلقا من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو ملك عظيم ماخلق الله تعالى بعد العرش خلقا أعظم منه فاذا كان يوم القيامة قام هو وحده صفا وقامت الملائكة كلهم صفا واحدا فيكون عظم خلقه مثلهم وقال الشعبى هو جبريل عليه السلام وقيل ملك موكل على الارواح وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال الروح ملك أعظم من السموات ومن الجبال ومن الملائكة وهو فى السماء الرابعة يسبح كل يوم اثنى عشر ألف تسبيحة يخلق من كل تسبيحة ملك يجىء يوم القيامة صفا وحده وقال مجاهد وقتادة رضى الله عنهم الروح خلق على صورة بنى آدم وليسوا بناس يقومون صفا والملائكة صفا هؤلاء جند وهؤلاء جند وروى مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال خلق على صورة بنى آدم وماينزل من السماء ملك الا معه واحد منهم وقال الحسن رضى الله عنه هو بنو آدم ورواه قتادة عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال هذا مما كان يكتمه ابن عباس وقيل هو جند من جنود الله تعالى ليسوا ملائكة لهم رؤس وأيد وأرجل يأكلون الطعام وقيل أرواح بنى آدم وقال زيد بن أسلم هو القرآن وقرأ وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا واذا كان هؤلاء (لايتكلمون) وهم من أفضل الخلق وأشرفهم وأكثرهم طاعة وأقربهم منه تعالى لايملكون التكلم فما ظنك بمن عداهم من أهل السموات والارض ويجوز رجوع الضمير للخلق أجمعين (الامن أذن له) أى فى الكلام اذنا خاصا (الرحمن) أى الملك الذى لاتكون النعمة الا منه (وقال) قولا (صوابا) فى الدنيا أى حقا من المؤمنين والملائكة وهما شريطتان أن يكون المتكلم مأذونا له فى الكلام وأن يتكلم بالصواب فلا يشفع لغير مرتضى لقوله تعالى ولايشفعون الالمن ارتضى وقيل القول الصواب لااله الا الله (ذلك) أى المشار اليه لبعد مكانته وعظم رتبته وعلو منزلته (اليوم الحق) أى الكائن لامحالة وهو يوم القيامة (فمن شاء اتخذ الى ربه) أى المحسن اليه (مآبا) أى مرجعا وسبيلا لطاعته ليسلم من العذاب فى ذلك اليوم فان الله تعالى جعل لهم قوة واختيارا ولكن لايقدر أحد منهم على مشيئة شئ الا بمشيئة الله تعالى (انا) أى على مالنا من العظمة (أنذرناكم) أى يا كفار مكة (عذابا قريبا) أى عذاب يوم القيامة الآتى وكل آت قريب وقوله تعالى (يوم) ظرف لعذابا بصفته (ينظر المرء) أى كل امرئ سواء كان مؤمنا أو كافرا انتظر الامر يقضيه (ما) أى الذى (قدمت يداه) أى كسبه فى الدنيا من خير وشر

وقال الحسن رضي الله عنه أراد بالمرء المؤمن أي يجد لنفسه عملا وأما الكافر فلا يجد لنفسه عملا فيتمنى أن يكون ترابا ولانه تعالى قال (ويقول الكافر) فعلم انه أراد بالمرء المؤمن وقيل هو الكافر لقوله تعالى انا أنذرناكم فيكون الكافر ظاهرا وضع موضع الضمير لزيادة الذم ومعنى ماقدمت يداه من الشر كقوله تعالى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وما يجوز أن تكون استفهامية منصوبة بقدمت أي ينظر أي شيء قدمت يداه أو موصولة منصوبة بينظر يقال نظرته بمعنى نظرت اليه والراجع الى الصلة محذوف وقال مقاتل رضي الله عنه نزل قوله تعالى يوم ينظر المرء ماقدمت يداه في أبي سلمة بن عبد الاسد المخزومي ويقول الكافر (ياليتني كنت ترابا) في أخيه الاسود بن عبد الاسد وقال الثعلبي سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول الكافر هنا ابليس وذلك انه عاب آدم عليه السلام بأنه خلق من تراب وافتخر بأنه خلق من نار فاذا عاين يوم القيامة مافيه آدم وبنوه من الثواب والراحة ورأى ماهو فيه من الشدة والعذاب تمنى انه كان بمكان آدم فيقول ياليتني كنت ترابا قال ورأيته في بعض التفاسير قال البغوي قال أبو هريرة رضي الله عنه فيقول التراب لا ولا كرامة لكل من جعلك مثلي وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه انه قال يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر وانسان ثم يقال للبهائم والطير كونوا ترابا فعند ذلك يقول الكافر ياليتني كنت ترابا أي فلا أعذب وقيل معنى ياليتني كنت ترابا أي لم أبعث وقال ابو الزناد اذا قضى بين الناس وامر بأهل الجنة الى الجنة واهل النار الى النار قيل لسائر الامم ولمؤمني الجن عودوا ترابا فيعودون ترابا فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم ياليتني كنت ترابا وقال ليث بن ابي سليم مؤمنو الجن يعودون ترابا وقال عمر بن عبد العزيز ومجاهد وغيرهما مؤمنو الجن حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها والذي عليه الاكثر أنهم مكلفون مثابون ومعاقبون كبني آدم وقيل يحشر الله تعالى الحيوان غير المكلف حتى يقتص للجماء من القرناء ثم يرده ترابا فيود الكافر حاله وما قاله البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة عم سقاه الله تعالى برد الشراب يوم القيامة حديث موضوع

(سورة النازعات مكية)

وهي خمس أو ست وأربعون آية ومائة وسبعون كلمة وسبعمائة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذي أحاط علمه بالكائنات (الرحمن) الذي أنعم على سائر الموجودات (الرحيم) الذي خص أولياءه بالجنات (والنازعات) أي الملائكة تنزع أرواح الكفار (غرقا) أي تنزع أرواحهم من أجسادهم بشدة كما يغرق النازع في القوس ليبلغ بها غاية المد بعد ما نزعها حتى اذا كادت تخرج ردها الى جسده فهذا عملهم بالكفار وقال علي وابن مسعود رضي الله عنهما يريد نفس الكفار ينزعها ملك الموت من أجسادهم من تحت كل شعرة ومن تحت الاظافير وأصول القدمين نزعا كالسفود ينزع من الصوف الرطب ثم يغرقها أي يرجعها الى أجسادهم ثم ينزعها فهذا عمله في الكفار وقال السدي رضي الله عنه والنازعات هي النفوس حين تغرق

في الصدور وقال مجاهد رضي الله عنه هي الموت ينزع النفوس وقال الحسن وقتادة رضي الله عنهم هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق تطلع ثم تغيب وقال عطاء وعكرمة رضي الله عنهم هي القسي وقيل الغزاة *(تنبيه)* غرقا يجوز أن يكون مصدرا على حذف الزوائد بمعنى إغراقا وانتصابه بما قبله لملاقاته في المعنى وأن يكون على الحال أي ذوات إغراق يقال أغرق في الشيء يغرق فيه إذا أوغل وبلغ أقصى غايته (والناشطات نشطا) أي الملائكة تنشط أرواح المؤمنين أي تسلها برفق فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير إذا حل عنه وفي الحديث كأنما أنشط من عقال وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي أنفس المؤمنين تنشط للخروج عند الموت لما ترى من الكرامة لأن الجنة تعرض عليهم قبل الموت وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه هي الملائكة تنشط أرواح الكفار مما بين الجلد والأظفار حتى تخرجها من أفواههم بالكد والغم والنشط الجذب والنزع يقال نشط الدلو نشطا انتزعها وقال السدي رضي الله عنه هي النفس تنشط من بين القدمين أي تجذب وقال قتادة رضي الله عنه هي النجوم تنشط من أفق إلى أفق أي تذهب يقال نشط من بلد إلى بلد إذا خرج في سرعة ويقال حمار ناشط ينشط من بلد إلى بلد وقال الجوهري يعني النجوم تنشط من برج إلى برج كالثور الناشط من بلد إلى بلد (والسابحات سبحا) أي الملائكة تسبح من السماء بأمره أي ينزلون من السماء مسرعين كالفرس الجواد يقال له سابح إذا أسرع في جريه وقال علي رضي الله عنه هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين قال الكلبي كالذي يسبح في الماء فأحيانا ينغمس وأحيانا يرتفع يسلونها سلا رفيقا بسهولة ثم يدعونها حتى تستريح وعن مجاهد رضي الله عنه السابحات الموت يسبح في نفوس بني آدم وقال قتادة والحسن رضي الله عنهم هي النجوم تسبح في أفلاكها وكذا الشمس والقمر قال تعالى كل في فلك يسبحون وقال عطاء هي السفن في الماء وقال ابن عباس رضي الله عنهما أرواح المؤمنين تسبح شوقا إلى لقاء الله تعالى ورحمته حتى تخرج وقيل هي خيل الغزاة قال عنترة

والخيل تعلم حين تسبح في حياض الموت سبحا

(فالسابقات سبقا) أي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة وقال مجاهد رضي الله عنه هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح وقال ابن مسعود رضي الله عنه هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها شوقا إلى لقاء الله تعالى وكرامته وقد عاينت السرور وقال قتادة رضي الله عنه هي النجوم يسبق بعضها بعضا في السير وقال عطاء هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد وقيل هي ما يسبق من الأرواح قبل الأجساد إلى جنة أو نار قال الجرجاني ذكر السابقات بالفاء لأنها مسببة عن الذي قبلها أي واللاتي يسبحن فيسبقن قال الواحدي وهذا غير مطرد في قوله تعالى (فالمدبرات أمرا) أي الملائكة تدبر أمر الدنيا أي تنزل بتدبيره قال الرازي ويمكن الجواب بأنها لما أمرت سبحت فسبقت فدبرت ما أمرت بتدبيره فتكون هذه أفعالا يتصل بعضها ببعض وقال ابن عباس رضي الله عنهما المدبرات هي الملائكة وكلوا بأمور عرفهم الله العمل بها قال عبد الرحمن بن سابط يدبر الأمر في الدنيا أربعة من الملائكة جبريل

وميكائيل وملك الموت واسرافيل عليهم السلام فأما جبريل فوكل بالرياح والجنود وأما ميكائيل فوكل بالقطر والنبات وأما ملك الموت فوكل بقبض الارواح وأما اسرافيل فهو ينزل بالامر عليهم وليس في الملائكة أقرب منه وبينه وبين العرش خمسمائة عام وقيل هي الكواكب السبع حكى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه وفي تدبيرها الامور وجهان أحدهما تدبير طلوعها وأفولها والثاني في تدبير ما قضى الله تعالى فيها من تقلب الاحوال أقسم سبحانه وتعالى بهذه الامور على قيام الساعة والبعث واغا حذف لدلالة ما بعده عليه ولله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه وأما العباد فلا يصح لهم أن يقسموا بغير الله تعالى وصفاته وقوله تعالى (يوم ترجف) أي تضطرب اضطرابا كثيرا منزعجا (الراجفة) أي الصيحة منصوب بالجواب أي لتبعثن يا كفار مكة يوم ترجف الراجفة وهي النفخة الاولى بها يرجف كل شئ أي يتزلزل ويتحرك لها كل شئ ويموت منها جميع الخلائق فوصفت بما يحدث منها (تتبعها الرادفة) أي الصيحة التابعة لها وهي النفخة الثانية ردفت الاولى وبينهما أربعون سنة والجملة حال من الراجفة واليوم واسع للنفختين وغيرهما فصح ظرفيته للبعث الواقع عقب الثانية وقال قتادة رضي الله عنه هما صيحتان فالاولى تميت كل شئ والاخرى تحيي كل شئ باذن الله سبحانه وتعالى وقال عطاء الراجفة القيامة والرادفة البعث روى عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ذهب ربع الليل قام وقال يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه (قلوب يومئذ) أي اذ قام الخلائق بالصيحة التابعة للاولى (واجفة) أي خائفة قلقة مضطربة من الوجيف وهو صفة القلوب وقال مجاهد رضي الله عنه وجلة وقال السدى زائلة عن أماكنها نظيره اذ القلوب لدى الحناجر (أبصارها) أي أبصار أصحابها فهو من الاستخدام (خاشعة) أي ذليلة من الخوف ولذا أضافها الى القلوب كقوله تعالى خاشعين من الذل (يقولون) أي أرباب القلوب والابصار في الدنيا استهزاء وانكارا للبعث (أئنا لمردودون) أي بعد الموت (في الحافرة) أي في الحياة التي كنا فيها قبل الموت وهي حالتنا الاولى فنصير أحياء بعد الموت كما كنا تقول العرب رجع فلان في حافرته أي رجع من حيث جاء والحافرة عندهم اسم لابتداء الشئ وأول الشئ وقال بعضهم الحافرة وجه الارض التي تحفر فيها قبورهم سميت حافرة بمعنى المحفورة كقوله تعالى عيشة راضية أي مرضية وقيل سميت حافرة لانها مستقر الحوافر أي انا لمردودون الى الارض فنبعث خلقا جديدا نمشي عليها وقال ابن زيد الحافرة النار (أئذا كنا) أي كونا مما يجعله لنا (عظاما نخرة) أي بالية متفتتة صيابعد ذلك وقرأ أئنا واذا نافع وابن عامر والكسائي بالاستفهام في الاول والخبر في الثاني والباقون بالاستفهام فيهما وسهل نافع وابن كثير وأبو عمرو والباقون بالتحقيق وأدخل بين الهمزتين قالون وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه ألفا والباقون بغير ادخال وقرأ نخرة حمزة وشعبة والكسائي بالالف بعد النون والباقون بغير ألف وهما لغتان مثل الطمع والطامع والحذر والحاذر ومعناهما البالية وفرق قوم بينهما فقالوا النخرة البالية والناخرة المجوفة التي تمر فيها الريح فتنخر أي تصوت (قالوا) أي المنكرون

لنبعث (تلك) أى رجعتنا العجيبة الى الحياة (اذا) اى ان صحت (كرة) اى رجعة (خاسرة) اى ذات خسران أو خسار أصحابها والمعنى ان صحت فنحن اذا خاسرون شكذيبنا وهو استهزاء منهم وعن الحسن رضى الله عنه ان خاسرة بمعنى كاذبة اى ليست كائنة قال الله تعالى (فانما هى) اى الرادفة التى يتبعها البعث (زجرة) أى صيحة بانتهار تتضمن الامر بالقيام والسوق الى المحشر والمنع من التخلف (واحدة) عبر بالزجرة لانه أشد من النهى لانها صيحة لا يتخلف عنها القيام أصلا فكان كأنه بلسان قال عن تلك الصيحة أيها الاجساد البالية انتهى عن الرقاد وقومى الى المعاد بما حكمنا به من المعاد فقد انتهى زمن الحصاد وآن أوان الاجتناء لما قدم من الزاد فيا خسارة من ليس له زاد (فاذاهم) أى فتسبب عن تلك النفخة وهى الثانية ان كل الخلائق (بالساهرة) أى صاروا على وجه الارض بعد ما كانوا فى جوفها والعرب تسمى الفلاة ووجه الارض ساهرة قال بعض أهل اللغة تراهم سموها ساهرة لان فيها نوم الحيوان وسهرهم قال سفيان رضى الله عنه هى أرض الشأم وقال قتادة رضى الله عنه هى جهنم (فان قيل) بم يتعلق فانما هى زجرة واحدة (اجيب) بأنه متعلق بمحذوف معناه لا تستصعبوها فانما هى زجرة واحدة يعنى لاتحسبوا تلك الكرة صعبة على الله تعالى فانها سهلة هينة فى قدرته تعالى وقال الزمخشرى الساهرة الارض البيضاء المستوية سميت بذلك لان السراب يجرى فيها من قولهم عين ساهرة أى جارية الماء وفى ضدها نائمة قال الاشعث بن قيس

وساهرة يضحى السراب مجللا * لاقطارها قد جبتها متلثما

أو لان سالكها لاينام خوف الهلكة وقال الراغب هى وجه الارض وقيل أرض القيامة وحقيقتها التى يكثر الوطء بها كأنها سهرت من ذلك والاسهران عرقان فى الانف والساهور غلاف القمر الذى يدخل فيه عند كسوفه وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال الساهرة أرض من فضة لم يعص الله عليها قط جعلها حينئذ وقيل الساهرة اسم للارض السابعة يأتى بها الله تعالى فيحاسب عليها الخلائق وذلك حين تبدل الارض غير الارض وقال وهب بن منبه جبل بيت المقدس وقال عثمان بن أبى العاتكة انه اسم مكان من الارض بعينه بالشأم وهو الصقع الذى بين جبل اريحاء وجبل حسان يمده الله تعالى كيف شاء ثم ان الله تعالى سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (هل أتاك) يا أشرف الخلق (حديث موسى) اى أليس قد أتاك حديثه فيسليك على تكذيب قومك ويهددهم عليه بأن يصيبهم مثل ما أصاب من هو أعظم منهم فانه كان أقوى أهل الارض بما كان له من كثرة الجنود فلما أصر على التكذيب ولم يرجع ولا أفاده التأديب أغرقناه وآله ولم نبق منهم أحدا وقد كانوا لا يحصون عددا بحيث قيل ان طليعته كانت على عدد بنى اسرائيل ستمائة ألف فكيف بقومك الضعاف وقوله تعالى (اذ) أى حين (ناداه) منصوب بحديث لا بأتاك (ربه) أى المحسن اليه بالرسالة وغيرها (بالوادى المقدس) أى المطهر غاية الطهر بتشريف الله تعالى له بانزال النبوة المفيضة للبركات وقوله تعالى (طوى) اسم الوادى وهو الذى طوى فيه الشر عن بنى اسرائيل ومن أراد الله تعالى من خلقه وتشرفه

بركات النبوة على جميع أهل الارض المسلم باسلامه وغيره برفع عذاب الاستئصال عنه فان العلماء قالوا ان عذاب الاستئصال ارتفع حين أنزلت التوراة وهو واد بالطور بين ايلة ومصر وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو بغير تنوين فى الوصل والباقون بالتنوين وقوله تعالى (اذهب الى فرعون) أى ملك مصر الذى كان يستعبد بنى اسرائيل على ارادة القول (انه طغى) أى تجاوز الحد فى الكفر وعلا وتكبر وقال الرازى لم يبين أنه طغى فى اى شئ فقيل تكبر على الله تعالى وكفر به وقيل تكبر على الخلق واستعبدهم وروى عن الحسن رضى الله عنه قال كان فرعون علجا من همدان وقال مجاهد رضى الله عنه كان من أهل اصطخر وعن الحسن أيضا كان من أصبهان يقال له ذو الظفر طوله أربعة أشبار وقوله تعالى (فقل) أى له (هل لك) أى هل لك سبيل (الى أن تزكى) أى تتطهر من الكفر والطغيان قال ابن عباس رضى الله عنهما بأن تشهد أن لا اله الا الله وقال أبو البقاء لما كان المعنى أدعوك جاء بالى وقال غيره يقال هل لك فى كذا وهل لك الى كذا كما تقول هل ترغب فيه وهل ترغب اليه وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الزاى والاصل تتزكى والباقون بتخفيفها (وأهديك الى ربك) أى وأنبهك على معرفة المحسن اليك (فتخشى) لان الخشية لا تكون الا بالمعرفة قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء أى العلماء به وذكر الخشية لانها ملاك الامر من خشى الله تعالى أتى منه كل خير ومن أمن اجترأ على كل شر ومنه قوله صلى الله عليه وسلم من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل بدأ بمخاطبته بالاستفهام الذى معناه العرض كما يقول الرجل لضيفه هل لك أن تنزل بنا وأردفه الكلام الرفيق ليستدعيه للتلطف فى القول ويستنزله بالمداراة من علوه كما أمر بذلك فى قوله تعالى فقولا له قولا لينا الآية وقال الرازى سائر الآيات تدل على انه تعالى لما نادى موسى عليه السلام ذكر له اشياء كثيرة نودى أنا ربك الى قوله تعالى لنريك من آياتنا الكبرى اذهب الى فرعون انه طغى فدل قوله تعالى اذهب الى فرعون انه طغى أنه من جملة ما ناداه به لا كل ما ناداه به وأيضا فليس الغرض انه عليه السلام كان مبعوثا الى فرعون فقط بل الى كل من كان فى الطور الا أنه خصه بالذكر لان دعوته جارية مجرى كل القوم والفاء فى قوله تعالى (فأراه) عاطفة على محذوف يعنى فذهب فأراه (الآية الكبرى) كقوله تعالى اضرب بعصاك الحجر فانفجرت اى فضرب فانفجرت واختلفوا فى الآية الكبرى أى العلامة العظمى وهى المعجزة فقال عطاء وابن عباس رضى الله عنهم هى العصا وقال مقاتل والكلبى رضى الله عنهما هى اليد البيضاء تبرق كالشمس والاول أولى لانه ليس فى اليد الا انقلاب لونها وهذا حاصل فى العصا لانها لما انقلبت حية لا بد وأن يتغير اللون الاول فاذن كل ما فى اليد فهو حاصل فى العصا وأمور أخر وهى الحياة فى الجرم الجمادى وتزايد أجزائه وحصول القدرة الكبيرة والقوة الشديدة وابتلاعها أشياء كثيرة وزوال الحياة والقدرة عنها وذهاب تلك الاجزاء التى عظمت وزوال ذلك اللون والشكل اللذين صارت العصا بهما حية وكل واحد من هذه الوجوه كان معجزا مستقلا فى نفسه فعلمنا أن الآية الكبرى هى العصا وقال مجاهد رضى الله عنه هى مجموع العصا واليد وقيل فلق البحر وقيل جميع آياته التسع (فكذب) أى فتسبب عن رؤيته ذلك

أن كذب موسى عليه السلام (وعصى) الله تعالى بعد ظهور الآية وتحقق الأمر وقيل كذب بالقول وعصى بالتمرد والتجبر (ثم أدبر) أي تولى وأعرض عن الايمان بعد المهل والاناة اعراضا عظيما بالتمادي على أعظم ما كان فيه من الطغيان بعد خطوب جليلة ومشاهد طويلة حال كونه (يسعى) أي يعمل بالفساد في الارض أو انه لما رأى الثعبان أدبر مرعوبا يسعى أي يسرع في مشيته قال الحسن رضي الله عنه كان رجلا طياشا خفيفا وتولى عن موسى عليه السلام يسعى ويجتهد في مكايدته أو أريد ثم أقبل يسعى كما تقول أقبل فلان يفعل كذا بمعنى أنشأ يفعل فوضع أدبر موضع أقبل لئلا يوصف بالاقبال (فحشر) أي فتسبب عن ادباره انه جمع السحرة للمعارضة وجنوده للقتال (فنادى) حينئذ بأعلى صوته قال حمزة الكرماني قال له موسى عليه السلام ان ربي أرسلني اليك لئن آمنت بربك تكون أربعمائة سنة في النعيم والسرور ثم تموت فتدخل الجنة فقال حتى أستشير هامان فاستشاره فقال أتصير عبدا بعدما كنت ربا فعند ذلك جمع بعث الشرط وجمع السحرة والجنود فلما اجتمعوا قام عدو الله على سريره (فقال أنا ربكم الاعلى) أي لا رب فوقي وقيل أراد ان الاصنام أرباب وأنا ربها وربكم وقيل أمر مناديا فنادى في الناس بذلك وقيل قام فيهم خطيبا فقال ذلك (فأخذه الله) أي أهلكه بالغرق الملك الاعظم الذي لا كفء له (نكال) أي عقوبة (الآخرة) أي هذه الكلمة وهي قوله أنا ربكم الاعلى (والاولى) وهي قوله ما علمت لكم من اله غيري قال ابن عباس رضي الله عنهما وكان بين الكلمتين أربعون سنة والمعنى أمهله في الاولى ثم أخذه في الآخرة فعذبه بكلمتيه وقال الحسن رضي الله عنه نكال الآخرة والاولى هو ان أغرقه في الدنيا وعذبه في الآخرة وعن قتادة رضي الله عنه الآخرة هي قوله أنا ربكم الاعلى والاولى تكذيبه لموسى عليه السلام ثم انه تعالى ختم هذه القصة بقوله تعالى (ان في ذلك) أي الامر العظيم الذي فعله فرعون والذي فعل به حين كذب وعصى (لعبرة) أي لعظة (لمن يخشى) أي لمن يخاف الله تعالى لان الخشية أساس الخير كما مرت الاشارة اليه ثم خاطب تعالى منكري البعث بقوله تعالى (أأنتم) أي أيها الاحياء مع كونكم خلقا ضعيفا (أشد خلقا) أي أخلقكم بعد الموت أشد في تقديركم (أم السماء) أي فمن قدر على خلق السماء على عظمها من السعة والكبر والعلو والمنافع قدر على الاعادة وهذا كقوله تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس والمقصود من الآية الاستدلال على منكري البعث ونظيره قوله تعالى أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم ومعنى الكلام التقريع والتوبيخ وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية والباقون بتحقيقهما وأدخل بينهما ألفا قالون وأبو عمرو وهشام والباقون بغير ادخال وقوله تعالى (بناها) بيان لكيفية خلقه اياها فالوقف على السماء والابتداء بما بعدها وقوله تعالى (رفع سمكها) جملة مفسرة لكيفية البناء والسمك الارتفاع أي جعل مقدار ارتفاعها في سمت العلو مديدا رفيعا مسيرة خمسمائة عام (فسواها) أي فعدلها مستوية بلا شقوق ليس فيها تفاوت ولا فطور أو فتممها بما علم انها تتم به وأصلحها من قولك سوى فلان أمر فلان (وأغطش) أي أظلم (ليلها) أي

جعله مظلما بغياب شمسها فأخفى ضياءها بامتداد ظل الارض على كل ما كانت الشمس ظهرت عليه فصار لا يهتدى معه الى ما كان فى حال الضياء وأضاف الليل الى السماء لان الليل يكون بغروب الشمس والشمس تضاف الى السماء ويقال نجوم الليل لان ظهورها بالليل وقوله تعالى (وأخرج ضحاها) فيه حذف أى ضحى شمسها وأضاف الليل والضحى اليها للملابسة التى بينها وبينهما لان الليل ظلها والشمس هى السراج المنقب فى جوها وانما عبر عن النهار بالضحى لان الضحى أكمل أجزاء النهار بالنور والضوء (والارض بعد ذلك) اى بعد المذكور كله (دحاها) اى بسطها ومهدها للسكنى وبقية المنافع وكانت مخلوقة قبل السماء من غير دحو فلا معارضة بينها وبين آية فصلت لانه خلق الارض أولا غير مدحوة ثم خلق السماء ثم دحا الارض قال ابن عباس رضى الله عنهما خلق الله تعالى الارض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء فسوّاها سبع سموات ثم دحا الارض بعد ذلك وقيل معناه والارض مع ذلك دحاها كقوله تعالى عتل بعد ذلك اى مع ذلك ومنه قولهم انت احمق وانت بعد هذا سيئ الخلق وقيل بعد بمعنى قبل كقوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أى من قبل وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال خلق الله تعالى الكعبة ووضعها على الماء على اربعة اركان قبل ان يخلق الدنيا بألفى عام ثم دحيت الارض من تحت البيت (اخرج منها) اى الارض (ماءها) اى بتفجير عيونها واضافتها اليها دليل على أنه مودوع فيها (ومرعاها) اى النبات الذى يرعى مما يأكله الناس والانعام من العشب والشجر والثمر والحب حتى النار والملح لان النار من العيدان قال تعالى أفرأيتم النار التى تورون الآية والملح من الماء واستعير الرعى للانسان كما استعير الرتع فى قوله تعالى عن اخوة يوسف عليه السلام نرتع ونلعب والمرعى فى الاصل موضع الرعى * (تنبيه) * اخرج حال باضمار قد أى مخرجا واضمار قد هو قول الجمهور وخالف الكوفيون والاخفش (والجبال ارساها) اى اثبتها على وجه الارض لتسكن ونظيره قوله تعالى والجبال اوتادا وقوله تعالى (متاعا) مفعول له لمقدر أى فعل ذلك منفعة أو مصدر لعامل مقدر اى متعكم تمتيعا (لكم) وقوله تعالى (ولانعامكم) جمع نعم وهى الابل والبقر والغنم وذكر الانعام لكثرة الانتفاع بها (فاذا جاءت الطامة الكبرى) أى الداهية التى تطم على الدواهى أى تعلو وتغلب وفى أمثالهم جرى الوادى فطم على القرى قال ابن عباس وهى النفخة الثانية التى يكون معها البعث وقال الضحاك هى القيامة سميت بذلك لانها تطم على كل شئ فتغمره وقال القاسم بن الوليد الهمدانى هى الساعة التى تساق فيها أهل الجنة الى الجنة وأهل النار الى النار وقوله تعالى (يوم يتذكر) أى تذكرا عظيما (الانسان) أى الخلق الآنس بنفسه الغافل عما خلق له بدل من اذا (ماسعى) فى الدنيا من خير أو شر يعنى اذا رأى اعماله مدونة فى كتابه تذكرها وكان قد نسيها كقوله تعالى أحصاه الله ونسوه وما فى ماسعى موصولة أو مصدرية (وبرزت الجحيم) أى أظهرت النار المحرقة اظهارا بينا مكشوفا (لمن يرى) أى لكل راء كقولهم قد تبين الصبح لذى عينين يريدون لكل من له بصر وهو مثل فى الامر المنكشف الذى لا يخفى على أحد لكن الناجى لا ينصرف بصره اليها فلا يراها كما قال تعالى لا يسمعون

حتى نسيها وجواب اذا قوله (فأمّا من طغى) أى تجاوز الحد فى العدوان حتى كفر بربه (وآثر) أى قدم واختار (الحياة الدنيا) أى انهمك فيها ولم يستعد للآخرة بالعبادة وتهذيب النفس (فانّ الجحيم) أى النار الشديدة التوقد العظيمة (هى) أى خاصة (المأوى) أى مأواه كما تقول للرجل غض الطرف تريد طرفك وليست الالف واللام بدلا عن الاضافة ولكن لما علم أن الطاغى هو صاحب المأوى وانه لا يغض الرجل طرف غيره تركت الاضافة * (تنبيه) * هى يجوز أن تكون فصلا أو مبتدأ (وأمّا من خاف مقام ربه) أى قيامه بين يديه لعلمه بالمبدا وبالمعاد وقال مجاهد خوفه فى الدنيا من الله تعالى عند مواقعة الذنب فيقلع عنه نظيره ولمن خاف مقام ربه جنتان (ونهى النفس) أى الامارة بالسوء (عن الهوى) وهو اتباع الشهوات وزجرها عنها وضبطها بالصبر والتوطين على ايثار الخير (فانّ الجنة) أى البستان لكل ما يشتهى (هى) أى خاصة (المأوى) أى ليس له سواها مأوى وحاصل الجواب أن العاصى فى النار والطائع فى الجنة قال الرازى هذان الوصفان مضادان للوصفين المتقدمين فقوله تعالى فأما من خاف مقام ربه ضد قوله تعالى فأما من طغى ونهى النفس عن الهوى ضد قوله تعالى وآثر الحياة الدنيا فكما دخل فى ذينك الوصفين جميع القبائح دخل فى هذين الوصفين جميع الطاعات وقال عبد الله بن مسعود أنتم فى زمان يقود الحق الهوى وسيأتى زمان يقود الهوى الحق فتعوذوا بالله من ذلك الزمان * (تنبيه) * اختلف فى سبب نزول هاتين الآيتين فقيل نزلتا فى مصعب بن عمير وأخيه روى الضحاك عن ابن عباس قال أما من طغى فهو أخو مصعب بن عمير أسر يوم بدر وأخذته الانصار فقالوا من أنت قال أنا أخو مصعب بن عمير فلم يشدوه فى الوثاق وأكرموه وبيتوه عندهم فلما أصبحوا حدثوا مصعب بن عمير حديثه فقال ما هو لى بأخ شدوا أسيركم فان أمه أكثر أهل البطحاء حليا ومالا فأوثقوه حتى تبعث أمه فداءه وأما من خاف مقام ربه فمصعب بن عمير وقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يوم أحد حين تفرق الناس عنه حتى نفذت المشاقص فى جوفه والمشاقص جمع مشقص وهو السهم العريض فلما رآه صلى الله عليه وسلم متشحطا فى دمه قال صلى الله عليه وسلم عند الله احتسبك وقال صلى الله عليه وسلم لاصحابه لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما وان شراك نعله من ذهب وعن ابن عباس أيضا نزلت فى رجلين ابى جهل بن هشام ومصعب بن عمير وقال السدى نزلت الآية الثانية فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقال الكلبى هما عامتان ولما سمع المشركون أخبار القيامة ووصفها بالاوصاف الهائلة مثل الطامة الكبرى والصاخة والقارعة وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء متى تكون الساعة نزل (يسئلونك) يا أشرف الخلق (عن الساعة) أى البعث الآخر لكثرة ما تتوعدهم به من أمرها (أيان مرساها) أى فى أى وقت ارساؤها أى اقامتها أرادوا متى يقيمها الله تعالى ويثبتها ويكونها أو أيان منتهاها ومستقرها كما أن مرسى السفينة مستقرها حيث تنتهى اليه فأجابهم الله تعالى بقوله سبحانه (فيم) أى فى أى شئ (أنت من ذكراها) أى من أن تذكروقتها لهم وتعلمهم به * (تنبيه) * فيم خبر مقدم وأنت مبتدأ مؤخر ومن ذكراها متعلق بما تعلق به الخبر والمعنى أنت فى أى شئ من ذكراها أى ما أنت من

ذكراها لهم وتبيين وقتها في شيء وعن عائشة رضي الله عنها لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت فهو على هذا تعجب من كثرة ذكره لها كأنه قيل في أي شغل واهتمام أنت من ذكراها والسؤال عنها والمعنى انهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها (الى ربك) أي المحسن اليك بأنواع النعم (منتهاها) أي منتهى علمها لم يؤت علمها أحدا من خلقه كقوله تعالى انما علمها عند ربي وقوله تعالى ان الله عنده علم الساعة قال القرطبي ويجوز أن يكون انكارا على المشركين في مسئلتهم أي فيم أنت من ذلك حتى يسألونك بيانه ولست ممن يعلمه روى معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما وقيل الوقف على قوله تعالى فيم وهو خبر مبتدا مضمر أي فيم هذا السؤال ثم يبتدأ بقوله تعالى أنت من ذكراها أي أرسلناك وأنت خاتم الانبياء وآخر الرسل المبعوث في نسم الساعة ذكر من ذكراها وعلامة من علاماتها فكفاهم بذلك دليلا على دنوها ومشارفتها ووجوب الاستعداد لها ولا معنى لسؤالهم عنها (انما أنت) أي يا أشرف الرسل (منذر) أي انما بعثت لانذار (من يخشاها) أي لتخويف من يخاف هولها وهو لا يناسب تعيين الوقت وتخصيص من يخشى لانه المنتفع به أي انما ينفع انذارك لمن يخافها وان كنت منذرا لكل مكلف (كأنهم) قال البغوي يعني كفار قريش (يوم يرونها) أي يعلمون قيام الساعة علما هو كالرؤية ويرون ما يحدث فيها بعد سماع الصيحة وقيامهم من القبور مع علمهم بما مر من زمانهم وما أتى فيه (لم يلبثوا) أي في الدنيا أو في القبور (الا عشية) أي من الزوال الى غروب الشمس (أو ضحاها) أو ضحى عشية من العشايا وهو البكرة الى الزوال والعشية بعد ذلك اضيف اليها الضحى لانهما من النهار والاضافة تحصل بأدنى ملابسة وهي هنا كونهما من نهار واحد فالمراد ساعة من نهار من أوله أو آخره لم يستكملوا نهارا تاما ولم يجمعوا بين طرفيه وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم ما الدنيا في الآخرة الا كما يجعل أحدكم اصبعه في اليم فلينظر بم يرجع (فان قيل) هلا قال الا عشية أو ضحى وما فائدة الاضافة (أجيب) بأن ذلك للدلالة على ان مدة لبثهم كأنها لم تبلغ يوما كاملا ولكن ساعة منه عشيته أو ضحاه فلما ترك اليوم اضافه الى عشيته فهو كقوله تعالى لم يلبثوا الا ساعة من نهار وحسن الاضافة وقوع الكلمة فاصلة * (تنبيه) * قرأ حديث موسى طوى طغى تزكى فتخشى وعصى يسعى فنادى الاعلى والاولى يخشى ماسوى طغى الدنيا المأوى عن الهوى المأوى حمزة والكسائي بالامالة محضة وورش وابو عمرو بين بين وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين وقرأ فأراه الآية الكبرى الطامة الكبرى لمن يرى من ذكراها ابو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش بين اللفظين والباقون بالفتح في الجميع وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والنازعات كان ممن حبسه الله تعالى في القبر والقيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة مكتوبة حديث موضوع

(سورة عبس مكية وتسمى سورة السفرة)

وهي اثنان وأربعون آية ومائة وثلاثون كلمة وثلثمائة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الواحد القهار (الرحمن) الذي عم بانعامه الابرار والفجار (الرحيم) الذي خص أولياءه برحمته في دار القرار (عبس) أي كلح وجهه النبي صلى الله عليه وسلم (وتولى) أي أعرض بوجهه لاجل (أن جاءه الاعمى) وهو ابن أم مكتوم وأم مكتوم أم أبيه واسمها عاتكة بنت عامر ابن مخزوم واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي وذلك أنه جاءه وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم الى الاسلام رجاء أن يسلم أولئك الاشراف الذين كان يخاطبهم فيتأيد بهم الاسلام ويسلم باسلامهم أتباعهم فتعلو كلمة الله تعالى فقال يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله تعالى وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه وقال في نفسه يقول هؤلاء الصناديد انما أتبعه العميان والعبيد والسفلة فعبس وجهه وأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم فأنزل الله تعالى هذه الآيات فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه واذا رآه قال مرحبا بمن عاتبني فيه ربي ويبسط له رداءه ويقول له هل لك من حاجة واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما قال أنس بن مالك رأيته يوم القادسية راكبا وعليه درع وله راية سوداء (وما يدريك) أي أي شيء يجعلك داريا بحاله (لعله) أي الاعمى (يزكى) فيه ادغام التاء في الاصل في الزاي أي يتطهر من الذنوب بما يسمع منك وفي ذلك ايماء بأن اعراضه كان لتزكية غيره (أو يذكر) فيه ادغام التاء في الذال أي يتعظ وتسبيب عن تزكيته وتذكره قوله تعالى (فتنفعه الذكرى) أي العظة المسموعة منك وقرأ عاصم بنصب العين والباقون برفعها فمن رفع فهو نسق على قوله تعالى أو يذكر ومن نصب فعلى جواب الترجي كقوله تعالى في غافر فأطلع الى اله موسى وقال ابن عطية في جواب التمني لان قوله تعالى أو يذكر في حكم قوله تعالى لعله يزكى واعترض عليه أبو حيان بأن هذا ليس تمنيا وانما هو ترج وأجيب عنه بأنه انما يريد التمني المفهوم وقت الذكرى وقرأ الذكرى ابو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح وقيل الضمير في لعله للكافر يعني أنك طمعت في أن يتزكى بالاسلام او يذكر فتقربه الذكرى الى قبول الحق وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن (أما من استغنى) أي بالمال وقال ابن عباس رضي الله عنهما استغنى عن الله وعن الايمان بما له من المال (فأنت له) أي دون الاعمى (تصدى) أي تتعرض له بالاقبال عليه والمصادة المعارضة وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الصاد بادغام التاء الثانية في الاصل فيها والباقون بالتخفيف (وما) أي فعلت ذلك والحال انه ما (عليك) أي وليس عليك بأس (ألا يزكى) أي في أن لا يتزكى بالاسلام حتى يبعثك الحرص على اسلامه الى الاعراض عمن أسلم ان عليك الا البلاغ (وأما من جاءك) حال كونه (يسعى) أي يسرع في طلب الخير وهو ابن أم مكتوم (وهو) أي والحال انه (يخشى) أي الله أو الكفار في أذاهم على الاتيان اليك وقيل جاء وليس معه قائد فهو يخشى الكبوة وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بضمها (فأنت عنه تلهى) فيه حذف التاء الآخرة في الاصل أي تتشاغل وقرأ وتولى الاعمى يزكى من استغنى تصدى يزكى يسعى يخشى

تلها فى حمزة والكسائى بالامالة محضة وورش وأبو عمرو بين بين والفتح عن ورش قليل والباقون بالفتح وقوله تعالى (كلا) ردع عن العاتب عليه وعن معاودة مثله (فان قيل) مافعله ابن أم مكتوم كان يستحق عليه التأديب والزجر فكيف عاتب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على تأديبه لانه وان كان اعمى فقد سمع مخاطبته صلى الله عليه وسلم لاولئك الكفار وكان بسماعه يعرف شدة اهتمام النبى صلى الله عليه وسلم بشأنهم فكان اقدامه على قطع كلامه صلى الله عليه وسلم لغرض نفسه قبل تمام كلام النبى صلى الله عليه وسلم معصية عظيمة وأيضا فان الاهم يقدم على المهم وكان قد أسلم وتعلم مايحتاج من أمر الدين وأما أولئك الكفار فلم يكونوا أسلموا وكان اسلامهم سببا لاسلام غيرهم فكان كلام ابن ام مكتوم كالسبب فى قطع ذلك الخير العظيم لغرض قليل وذلك يحرم وأيضا فان الله تعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات بمجرد ندائهم فهذا النداء الذى هو كالصارف للكفار عن الايمان أولى أن يكون ذنبا وأيضا فمع هذا الاعتناء كيف لقب بالاعمى وأيضا فالنبى صلى الله عليه وسلم له أن يؤدب أصحابه بما يراه مصلحة والتعبيس من ذلك القبيل (أجيب) بأن مافعله ابن أم مكتوم كان من سوء الادب لو كان عالما بأن النبى صلى الله عليه وسلم مشغول بغيره وأنه يرجو اسلامهم ولكنه لم يعلم بذلك وأيضا الله سبحانه وتعالى انما عاتبه على ذلك حتى لاتنكسر قلوب الضعفاء وليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغنى الكافر وقال ابن زيد انما عبس النبى صلى الله عليه وسلم لابن أم مكتوم وأعرض عنه لانه أشار الى الذى كان يقوده أن يكفه فدفعه ابن أم مكتوم وأبى الا أن يتكلم مع النبى صلى الله عليه وسلم فكان فى هذا نوع جفاء منه ومع هذا نزل فى حقه ذلك وأما ذكره بلفظ الاعمى فليس للتحقير بل كان بسبب عماه يستحق أن يزيده تعطفا وترؤفا وتقريبا وترحيبا ولقد تأدب الناس بأدب الله تعالى فى هذا تأدبا حسنا فقد روى عن سفيان الثورى رضى الله عنه أن الفقراء كانوا بمجلسه أمراء وأما كونه صلى الله عليه وسلم كان مأذونا له فى تأديب أصحابه فلان تقديمهم ربما أوهم ترجيح تقديم الاغنياء على الفقراء فلهذا السبب عوتب قال الحسن رضى الله عنه لما تلا جبريل عليه السلام على النبى صلى الله عليه وسلم هذه الآيات عاد وجهه كأنما أسف فيه الرماد ينتظر ما يحكم الله تعالى عليه فلما قال كلا سرى عنه أى لاتفعل مثل ذلك وقد بينا نحن ان ذلك محمول على ترك الاولى ثم قال الله تعالى (انها) أى هذه السورة وقال مقاتل رضى الله عنه آيات القرآن وقيل القرآن وأنثه لتأنيث خبره وهو قوله تعالى (تذكرة) أى عظة للخلق يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها (فمن شاء ذكره) أى كان حافظا له غير ناس وذكر الضمير لان التذكرة فى معنى الذكر والوعظ ثم ان الله تعالى أخبر عن جلالة ذلك عنده فقال سبحانه (فى صحف) أى منتسخة من اللوح المحفوظ وقيل هى كتب الانبياء عليهم السلام دليله قوله تعالى ان هذا لفى الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى (مكرمة) أى عند الله تعالى (مرفوعة) أى فى السماء السابعة أو مرفوعة المقدار (مطهرة) أى منزهة عن أيدى الشياطين لايمسها الا أيدى ملائكة كرام مطهرين كما قال تعالى (بأيدى سفرة) أى كتبة ينسخونها من اللوح المحفوظ وهم الملائكة الكرام الكاتبون

واحدهم سافر يقال سفرت أي كتبت ومنه قيل للكتاب سفر وجمعه أسفار وقيل هم الرسل من الملائكة واحدهم سفير وهو الرسول وسفير القوم هو الذي يسعى بينهم بالصلح وسفرت بين القوم اذا أصلحت بينهم ثم أثنى تعالى عليهم بقوله سبحانه (كرام) أي على الله تعالى وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في كرام قال مكرمون أن يكونوا مع ابن آدم الا اذا خلا بزوجته أو برز لغائط وقيل يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم وقوله (بررة) جمع بار كساحر وسحرة وفاجر وفجرة والبار هو الصادق المطيع ومنه بر فلان في يمينه أي صدق وفلان يبر خالقه أي يطيعه فمعنى بررة مطيعين صادقين لله تعالى في أعمالهم * ولما ذكر تعالى ترفع صناديد قريش على فقراء المسلمين عجب عباده المؤمنين من ذلك فقال سبحانه (قتل الانسان) أي لعن الكافر وقوله تعالى (ما أكفره) استفهام توبيخ أي ما أشد تغطيته للحق وجحده له وعناده فيه لانكاره البعث واشراكه بربه وغير ذلك مما حمله على الكفر وقوله تعالى (من أي شئ خلقه) استفهام تقرير ثم بينه بقوله تعالى (من نطفة) أي ماء يسير جدا الا من غيره (خلقه) أي أوجده مقدرا على ماهو عليه من التخطيط (فقدره) أي علقة ثم مضغة الى آخر خلقه فكأنه قيل وأي سبب في هذا الترفع مع أن أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة وهو فيما بين الوقتين حامل عذرة فان خلقة الانسان تصلح أن يستدل بها على وجود الصانع لانه يستدل بها على أحوال البعث والحشر قيل نزلت في عتبة بن أبي لهب والظاهر العموم (فان قيل) الدعاء على الانسان انما يليق بالعاجز فالقادر على الكل كيف يليق به ذلك والتعجب أيضا انما يليق بالجاهل بسبب الشئ فالعالم به كيف يليق به ذلك (أجيب) بأن ذلك ورد على أسلوب كلام العرب لبيان استحقاقهم لاعظم العقاب حيث أتوا بأعظم القبائح كقولهم اذا تعجبوا من شئ قاتله الله ما أحسنه وأخزاه الله ما أظلمه والمعنى اعجبوا من كفر الانسان بجميع ماذكرنا بعد هذا وقيل الاستفهام استفهام تحقير له فذكر أول مراتبه وهو قوله تعالى من نطفة خلقه ولاشك أن النطفة شئ حقير مهين ومن كان أصله ذلك كيف يتكبر وقوله تعالى فقدره أي أطوارا وقيل سواه كقوله تعالى ثم سواك رجلا او قدر كل عضو في الكيفية والكمية بالقدر اللائق لمصلحته كقوله تعالى وخلق كل شئ فقدره تقديرا ثم ذكر المرتبة الوسطى بقوله تعالى (ثم) بعد انتهاء المدة (السبيل) أي طريق خروجه من بطن أمه (يسره) أي سهل له أمره في خروجه بأن فتح له الرحم وألهمه الخروج منه ولاشك أن خروجه من أضيق المسالك من أعجب العجائب يقال انه كان رأسه في بطن أمه من فوق ورجلاه من تحت فاذا جاء وقت الخروج انقلب فمن الذي أعطاه ذلك الالهام المراد ومنه قوله تعالى وهديناه النجدين أي التمييز بين الخير والشر وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال سبيل الشقاء والسعادة وقال ابن زيد سبيل الاسلام قال أبو بكر بن طاهر يسر على كل أحد ما خلقه له وقدر عليه لقوله صلى الله عليه وسلم كل ميسر لما خلق له * ثم ذكر المرتبة الاخيرة بقوله تعالى (ثم أماته) وأشار الى ايجاب المبادرة بالتجهيز بالفاء المعقبة في قوله تعالى (فأقبره) أي جعله في قبر يستره اكراما له ولم يجعله مما يلقى على وجه الارض تأكله الطير وغيرها (ثم اذا شاء أنشره) أي أحياه بعد موته للبعث ومفعول شاء

محذوف

محذوف أي شاء انشاءه وانشره جواب اذا وقرأ قالون وأبو عمرو والبزى باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل الثانية ورش وقنبل ولهما أيضا ابدالها ألفا والباقون بتحقيقهما وقوله تعالى (كلا) ردع للانسان عما هو عليه وقيل معناه احقا قال الاول الزمخشرى وتبعه البيضاوى وقال الثانى الجلال المحلى (لما يقض) أى يفعل (ما أمره) به ربه من الايمان وترك التكبر وقيل لم يوف بالميثاق الذى أخذ عليه فى صلب آدم عليه السلام وقيل المعنى ان ذلك الانسان الكافر لم يقض ما أمره به من التأمل فى دلائل الله تعالى والتدبر فى عجائب خلقه ولما كانت عادة الله تعالى جارية فى القرآن انه كلما ذكر دلائل الانسان ذكر عقبها دلائل الآفاق فبدأ من ذلك بما يحتاج اليه الانسان بقوله تعالى (فلينظر الانسان) أى يوقع النظر التام بكل شئ يقدر على النظر به من بصره وبصيرته (الى طعامه) أى الذى هو قوام حياته كيف هيأله أسباب المعاش ليستعد بها للمعاد قال الحسن ومجاهد فلينظر الى طعامه الى مدخله ومخرجه وروى عن الضحاك انه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ضحاك ما طعامك قلت يا رسول الله اللحم واللبن قال فثم ماذا قلت الى ما قد علمته قال فان الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا وروى عن ابن عمر ان الرجل يدخل الخلاء فينظر ما يخرج منه فيأتيه الملك فيقول انظر الى ما تجليت به الام صار وقرأ (انا صببنا) أى بما لنا من العظمة (الماء) عاصم وحمزة والكسائى بفتح الهمزة على أنه بدل اشتمال بمعنى أن صب الماء سبب فى اخراج الطعام فهو مشتمل عليه بهذا التقدير أو انه على تقدير لام العلة أى فلينظر لانا ثم حذف الخافض وقال البغوى انا بالفتح على تكرير الخافض مجازه فلينظر الى أنا وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف تعديد النعمة تعالى عليه وقوله تعالى (صبا) تأكيد والمراد بالماء المطر ولما كان الانسان محتاجا الى جميع ما فى الوجود ولو نقص منه شئ اختل امره وبدأ أولا بالسماوى لانه اشرف وبالماء الذى هو حياة كل شئ تنبيها على ابتداء خلقه ثنى بالارض التى هى كالانثى بالنسبة الى السماء فقال تعالى (ثم) اى بعد مهلة من انزال الماء (شققنا) اى بما لنا من العظمة (الارض) أى بالنبات الذى هو فى غاية الضعف عن شق اضعف الاشياء فكيف بالارض اليابسة وقوله تعالى (شقا) تأكيد ثم سبب عن الشق ما هو كالتفسير له فقال تعالى (فأنبتنا) أى بما لنا من القدرة التامة (فيها) اى بسبب الشق (حبا) أى قمحا وشعيرا وسلتا وسائر ما يحصد ويدخر وقدم ذلك لانه كالاصل فى التغذية (وعنبا) وذكره بعد الحب لانه غذاء من وجه وفاكهة من وجه (وقضبا) قال ابن عباس رضى الله عنهما هو الرطب لانه يقضب من النخل أى يقطع ورجحه بعضهم لذكره بعد العنب لانهما يقترنان كثيرا وقيل القت الرطب وقيل كل ما يقضب من البقول لبنى آدم وقيل هو الرطبة والمقضاب أرضه سمى بمصدر قضبه اذا قطعه لانه يقضب مرة بعد اخرى وقال الحسن القضب العلف للدواب (وزيتونا) وهو ما يعصر منه الزيت يكون فيه حرافة وغضاضة فيه اصلاح المزاج وقوله تعالى (ونخلا) جمع نخلة وكل من هذه الاشجار مخالف للآخر فى الشكل والاكل وغير ذلك مع المرافقة فى الارض والسقى وقوله تعالى (وحدائق غلبا) جمع أغلب وغلباء

يكمر في أحمر وحمراء أي بساتين كثيرة الاشجار والاصل في الوصف بالغلب الرقاب يقال رجل أغلب وامرأة غلباء غليظا الرقبة فاستعير قال عمرو بن معديكرب

يمشي بها غلب الرجال كأنهم * بزل كسين من الكحيل جلالا

وقال مجاهد ومقاتل الغلب الملتفة الشجر بعضه في بعض وقال ابن عباس رضي الله عنهما الطوال وقيل غلاظ الاشجار (وفاكهة) وهي ما تأكله الناس من ثمار الاشجار كالتين والخوخ قال النووي في منهاجه ويدخل في فاكهة رطب وعنب ورمان وأترج ورطب ويابس أي كالتمر والزبيب قال قلت وليمون ونبق وبطيخ ولب فستق وبندق وغيرها في الاصح (وأبا) وهو ما تأكله الدواب لانه يؤب أي يؤم وينتجع اليه وقال عكرمة الفاكهة ما يأكله الناس والأب ما تأكله الدواب وقيل التبن وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سئل عن الأب فقال أي سماء تظلني وأي أرض تقلني اذا قلت في كتاب الله تعالى ما لا علم لي به وعن عمر رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية فقال كل هذا عرفنا فما الأب ثم رفض عصا كانت بيده ثم قال هذا لعمر الله التكلف وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الأب ثم قال اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه (فان قيل) هذا يشبه النهي عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته (أجيب) بأنه لم يذهب الى ذلك ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على العمل وكان التشاغل بشيء من العلم الذي لا يعمل به تكلفا عندهم فأراد أن الآية مسوقة عندهم في الامتنان على الانسان بطعمه واستدعاء شكره وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبته الله تعالى للانسان متاعا له أو لانعامه فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر لله تعالى على ما بين لك ولم يشكل مما عدد من نعمه ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له واكتف بالمعرفة الجلية الى أن يتبين لك من مشكلات القرآن (متاعا) أي العشب أي منفعة أو تمتيعا كما تقدم في السورة قبلها (لكم) أي الفاكهة (ولانعامكم) وتقدم أيضا في السورة التي قبلها معرفة الانعام والحكمة في الاقتصار عليها * ولما ذكر تعالى هذه الاشياء وكان المقصود منها ثلاثة أولها الدلائل الدالة على التوحيد وثانيها الدلائل الدالة على القدرة والمعاد وثالثها أن هذا الاله الذي أحسن الى عبيده بهذه الانواع العظيمة من الاحسان لا يليق بالعاقل أن يتمرد على طاعته وأن يتكبر على عبيده أتبع ذلك بما يكون كالمؤكد لهذه الاغراض وهو شرح أحوال القيامة فان الانسان اذا سمعها خاف فيدعوه ذلك الخوف الى التأمل في الدلائل والايمان بها والاعراض عن الكفر ويدعوه أيضا الى ترك التكبر على الناس والى اظهار التواضع فقال تعالى (فاذا جاءت) أي كانت ووجدت لان كل ما هو كائن لاقيك وجاء اليك (الصاخة) أي صيحة القيامة وهي النفخة الثانية التي تصخ الاذن أي تصمها لشدة وقعتها مأخوذة من صخه بالحجر أي صكه به وقال الزمخشري صخ لحديثه مثل أصاخ فوصفت النفخة بالصاخة مجازا لان الناس يصخون لها وقال ابن العربي الصاخة التي تورث الصمم وانها لمسمعة وهذا من بديع الفصاحة كقوله

أصمّى سرّهم أيام فرقتهم * وهل معمتم بسرّ يورث الصمما

وجواب اذا محذوف دل عليه قوله تعالى فاذا جاءت الصاخة اى اشتغل كل واحد بنفسه وقوله تعالى (يوم يفرّ المرء) بدل من اذا (من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته) أى زوجته (وبنيه) لاشتغاله بما هو مدفوع اليه ولعله أنهم لا يغنون عنه شيأ كقوله تعالى يوم لا يغنى مولى عن مولى شيأ فيفرّ المرء من هؤلاء الذين كان يفرّ اليهم فى دار الدنيا ويستجير بهم لكثرة ما يشغله وبدأ بالاخ لانه أدناهم رتبة فى الحب والذب ثم بالام لانها كانت مشاركة له فى الالف ويلزم من حمايتها أكثر مما يلزم للاخ وهو لها آلف وعليها أحنّ وعليها أرق وأعطف ثم بالاب لانه أعظم منها فى الالف لانه أقرب منها فى النوع وللولد عليه من المعاطفة ماله من مزيد النفع أكثر ممن قبله ثم بالصاحبة لانّ الزوجة التى هى أهل لان تصحب ألصق بالفؤاد وأعرق فى الوداد وكان الانسان أذب عنها عند الشدائد ثم بالولد لانه من المحبة والمعاطفة بالسرور والمشاورة فى الامر ماليس لغيره ولذلك يضيع عليه رزقه وعمره فقدّم أدناهم مرتبة فى الحب والذب فأدناهم على سبيل الترقى وأخر الاوجب فى ذلك فالا وجب بخلاف ما فى سورة سأل فكأنه قيل يفرّ المرء من أخيه بل من أمّه بل من أبيه بل من صاحبته بل من بنيه وقيل يفرّ منهم حذرا من مطالبتهم بالتبعات يقول الاخ لم تواسنى بمالك والابوان قصرت فى برّنا والصاحبة أطعمتنى الحرام وفعلت وصنعت والبنون لم تعلمنا ولم ترشدنا وقيل أول من يفرّ من أخيه هابيل ومن أبويه ابراهيم عليه السلام ومن صاحبته نوح ولوط ومن ابنه نوح * ولما ذكر الفرار أتبعه سببه فقال تعالى (لكل امرئ) وان كان أعظم الناس مروءة (منهم يومئذ) أى اذ تكون هذه الدواهى العظام والشدائد والآلام (شأن) أى أمر عظيم وقوله تعالى (يغنيه) حال أى يشغله عن شأن غيره وعن سودة رضى الله تعالى عنها زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث الناس حفاة عراة غرلا أى بالقلفة قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان فقلت يارسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا الى بعض فقال صلى الله عليه وسلم قد شغل الناس لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه وقال قتيبة يغنيه أى يصرفه عن قرابته ومنه يقال أغن عنى وجهك أى اصرفه وقال أهل المعانى يغنيه أى ذلك الهمّ الذى حصل له قد ملأ صدره فلم يبق فيه متسع لهم آخر فصار شبيها بالغنى فى أنه ملك شيأ كثيرا * ولما ذكر تعالى حال القيامة فى الهول بين انّ المكلفين على قسمين سعداء وأشقياء فوصف سبحانه السعيد بقوله تعالى (وجوه يومئذ) أى اذ كان ما تقدم من الفرار وغيره (مسفرة) أى مضيئة متهللة من أسفر الصبح اذا أضاء وعن ابن عباس من قيام الليل لما روى فى الحديث من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار وعن الضحاك من آثار الوضوء وقيل من طول ما اغبرّت فى سبيل الله تعالى (ضاحكة) أى مسرورة فرحة قال الكلبى يعنى بالفراغ من الحساب (مستبشرة) أى بما آتاها الله تعالى من الكرامة ثم وصف الشقى بقوله تعالى (ووجوه يومئذ) أى اذ وجد ما ذكر (عليها غبرة) أى غبار (ترهقها) اى تعلوها (قترة) أى سواد كالدخان ولا يرى أوحش من

اجتماع الغبرة والسواد في الوجه كما يرى في وجوه الزنوج اذا اغبرت (أولئك) أى البعداء البغضاء الذين يصنع بهم هذا (هم) أى خاصة (الكفرة الفجرة) جمع الكافر والفاجر وهو الكاذب والمفترى على الله تعالى فجمع تعالى الى سوادوجوههم الغبرة كما جمعوا الفجور الى الكفر وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة عبس وتولى جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر حديث موضوع وكان من حق البيضاوى أن لا يعبر بقال بل بعن كالزمخشرى أو نحوها ويأتى مثله فى نظائره

﴿سورة التكوير مكية﴾

وهى تسع وعشرون آية ومائة وأربع كلمات وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذى أحاط علمه بالكائنات (الرحمن) الذى عم بجوده سائر البريات (الرحيم) الذى خص حزبه بنعيم الجنات واختلف فى معنى قوله تعالى (اذا الشمس) أى التى هى أعظم آيات السماء الظاهرة وأوضحها للحس (كورت) فقال ابن عباس أظلمت وقال قتادة ذهب ضوءها وقال سعيد بن جبير غورت وقال مجاهد اضمحلت وقال الزجاج لفت كما تلف العمامة يقال كرت العمامة على رأسى أكورها كورا وكورتها تكويرا اذا لففتها وأصل التكوير جمع بعض الشئ الى بعض فمعناه أن الشمس يجمع بعضها الى بعض ثم تلف فاذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها قال ابن عباس يكور الله تعالى الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة فى البحر ثم يبعث عليها ريحا دبورا فتضرمها فتصير نارا وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الشمس والقمر يكوران يوم القيامة * (تنبيه) * ارتفاع الشمس على الفاعلية ورافعها فعل مضمر يفسره كورت لان اذا تطلب الفعل لما فيها من معنى الشرط (واذا النجوم) أى كلها كبارها وصغارها (انكدرت) أى انقضت وتساقطت على الارض قال تعالى واذا الكواكب انتثرت والاصل فى الانكدار الانصباب قال العجاج فى مدحه لعمرو بن معديكرب

اذا الكرام ابتدروا الباع ابتدر * تقضى البازى اذا البازى كسر

* أبصر خربان فضاء فانكدر *

أى فانقض وسقط والخربان جمع خرب وهو ذكر الحبارى والباع يستعمل فى الكرم يقال فلان كريم الباع والمعنى أن الكرام اذا ابتدروا فعل المكرمات بدرهم عمرو أى أسرع كانقضاض البازى وروى عن ابن عباس أن النجوم قناديل معلقة بين السماء والارض بسلاسل من نور بأيدى الملائكة عليهم السلام فاذا مات من فى السموات ومن فى الارض تساقطت تلك الكواكب من أيدى الملائكة لانه مات من كان يمسكها (واذا الجبال) التى هى فى العالم السفلى كالنجوم فى العالم العلوى وهى أصلب ما فى الارض (سيرت) أى ذهب بها عن وجه الارض فصارت هباء منبثا وصارت الارض قاعا صفصفا (واذا العشار) أى النوق الحوامل جمع عشراء كالنفاس جمع نفساء وهى التى أتى على حملها عشرة أشهر ثم هو اسمها الى

ان

أن تضع أتمام السنة وهى أنفس ما يكون عند أهلها روى أنه صلى الله عليه وسلم مرّ فى أصحابه
بعشار من النوق فغض بصره فقيل له هذه أنفس أموالنا فلم لا تنظر إليها فقال قد نهانى الله
عن ذلك ثم تلا ولا تمدن عينيك الآية (عطلت) أى تركت مسيبة مهملة بلا راع أو عطلها أهلها
عن الحلب والصر لاشتغالهم بأنفسهم أو السحاب عطلت عن المطر والعرب تشبه السحاب
بالحامل والأول على وجه المثل لأن فى القيامة لا تكون ناقة عشراء والمعنى أن يوم
القيامة بحالة لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها واشتغل بنفسه (وإذا الوحوش)
أى دواب الأرض التى لا تأنس بأحد التى تظن أنها لا عبرة بها ولا التفات إليها فما ظنك بغيرها
(حشرت) أى جمعت بعد البعث ليقتص لبعضها من بعض ثم تصير ترابا قال قتادة يحشر
كل شئ حتى الذباب للقصاص وقيل إذا قضى بينها ردت ترابا فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور
لبنى آدم وإعجاب بصورته كالطاوس ونحوه وعن ابن عباس حشرها موتها يقال إذا
أجحفت السنة بالناس وأموالهم حشرتهم السنة وقرأ (وإذا البحار سجرت) أى على
كثرتها ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الجيم والباقون بتشديدها قال ابن عباس أوقدت
فصارت نارا تضطرم وقال مجاهد فجر بعضها فى بعض العذب والملح فصارت البحار كلها بحرا
واحدا وقال القشيرى يرفع الله تعالى الحاجز الذى ذكر فإذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه
البحار فعمت الأرض كلها وصارت بحرا واحدا وروى أبو العالية عن أبى بن كعب قال ست
آيات قبل يوم القيامة بينا الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس فبينما هم كذلك إذ تناثرت
النجوم فبينماهم كذلك إذ وقعت الجبال على الأرض فتحركت واضطربت وفزعت الجن إلى
الإنس والإنس إلى الجن واختلطت الدواب والطير والوحش وماج بعضهم فى بعض فذلك قوله
تعالى وإذا الوحوش حشرت أى اختلطت وإذا البحار سجرت قال الجن للإنس نحن نأتيكم
بالخبر فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تتأجج قال فبينماهم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة
واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا فبينماهم كذلك إذ جاءتهم الريح
فأماتتهم وعن ابن عباس قال هى اثنتا عشرة خصلة ستة فى الدنيا وستة فى الآخرة وهى ما ذكر
من بعد (وإذا النفوس) أى من كل ذى نفس من الناس وغيرهم (زوجت) أى قرنت بأجسادها
وروى أن عمر سئل عن هذه الآية فقال يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة
ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار وقال الحسن وقتادة ألحق كل امرئ
بشيعته اليهود باليهود والنصارى بالنصارى وقال عطاء زوجت نفوس المؤمنين بالحور العين
وقرنت نفوس الشياطين بالكافرين (وإذا الموؤدة) أى الجارية المدفونة حية كان الرجل
فى الجاهلية إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم
فى البادية وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية فيقول لأمها طيبيها وزينيها حتى أذهب
بها إلى أحمائها وقد حفر لها بئرا فى الصحراء فيذهب بها إلى البئر فيقول لها انظرى فيها ثم يدفعها
من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوى بالأرض وقال ابن عباس كانت الحامل

اذا قربت ولادتها حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فاذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة واذا ولدت ولدا حبسته وكانوا يفعلون ذلك تخوف لحوق العار بهم من أجلهن أو الخوف من الاملاق كما قال تعالى ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق وكانوا يقولون ان الملائكة بنات الله فألحقوا البنات به فهو أحق بهن وكان صعصعة بن ناجية ممن منع الوأد وفيه افتخر الفرزدق فى قوله

ومنا الذى منع الوائدات * واحيا الوئيد فلم توأد

(سئلت بأى) أى بسبب أى (ذنب) يا أيها الجاهلون (قتلت) أى استحقت به عندكم القتل وهى لم تباشر سوأ لكونها لم تصل الى حد التكليف (فان قيل) ما معنى سؤالها عن ذنبها الذى قتلت به وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها (أجيب) بأن سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها نحو التبكيت فى قوله تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى ان أقول ما ليس لى بحق وروى أن قيس بن عاصم جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انى وأدت ثمان بنات كن لى فى الجاهلية فقال صلى الله عليه وسلم أعتق عن كل واحدة منهن رقبة قال يا رسول الله انى صاحب ابل فقال له صلى الله عليه وسلم أهد عن كل واحدة منهن بدنة ان شئت وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان المرأة التى تقتل ولدها تأتى يوم القيامة متعلقا ولدها بيدها ملطخا بدمائه فيقول يا رب هذه أمى وهذه قتلتنى (واذا الصحف نشرت) أى فتحت بعد أن كانت مطوية والمراد صحف الاعمال التى كتبت الملائكة فيها أعمال العباد من خير وشر تطوى بالموت وتنشر فى القيامة فيقف كل انسان على صحيفته فيعلم ما فيها فيقول ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وروى عن عمر أنه كان اذا قرأها قال اليك يساق الامر يا ابن آدم وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال يحشر الناس حفاة عراة فقالت أم سلمة كيف بالنساء فقال شغل الناس يا أم سلمة قالت وما يشغلهم قال نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بتخفيف الشين والباقون بتشديدها على تكرير النشر للمبالغة فى تقريع العاصى وتبشير المطيع وقيل لتكرير ذلك من الانسان (واذا السماء) أى هذا الجنس كله أفرده لانه يعلم بالقدرة على بعضه القدرة على الباقى (كشطت) أى نزعت عن أماكنها كما ينزع الجلد عن الشاة والغطاء عن الشئ قال القرطبى يقال كشطت البعير كشطا نزعت جلده ولا يقال سلخت لان العرب لا تقول فى البعير الا كشطته أو جلدته والمعنى أزيلت عما فوقها وقال القرطبى طويت (واذا الجحيم) أى النار الشديدة التأجج (سعرت) أى أججت فأضرمت للكفار وزيد فى احمائها يقال سعرت النار وأسعرتها روى أنه صلى الله عليه وسلم قال أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهى سوداء مظلمة واحتج بهذه الآية من قال النار مخلوقة الآن لانه يدل على أن سعيرها معلق بيوم القيامة وقرأ نافع وابن ذكوان وعاصم بتشديد العين والباقون بتخفيفها (واذا الجنة) أى البستان

ذو الاشجار الملتفة والرياض المعجبة (أزلفت) أى قربت لاهلها ليدخلوها وقال الحسن
انهم يقربون منها الا أنها تزول عن موضعها وقال عبد الله بن زيد زينت والزلفى فى كلام العرب
القربة وقوله تعالى (علمت نفس) جواب اذا أول السورة وما عطف عليها أى علمت كل نفس من
النفوس وقت هذه المذكورات وهو يوم القيامة فالتنكير فيه مثله فى تمرة خير من جرادة ودلالة
هذا السياق للهول على ذلك يوجب اليقين فيه (ما) أى كل شئ (أحضرت) من خير وشر روى
عن ابن عباس وعمر أنهما قرآ فلما بلغا علمت نفس ما أحضرت قالا لهذا أجريت القصة قال
الرازى ومعلوم ان العمل لا يمكن احضاره فالمراد اذن ما أحضرته فى صحائفها أو ما أحضرته
عند المحاسبة وعند الميزان من آثار تلك الاعمال وعن ابن مسعود أن قارئا قرأها عنده
فلما بلغ علمت نفس ما أحضرت قال واقطع ظهراه (فلا أقسم) لا مزيدة أى أقسم (بالخنس
الجوار الكنس) هى النجوم الخمسة زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد تخنس
بضم النون أى ترجع فى مجراها وراءها بينا ترى النجم فى آخر البرج اذ كر راجعا الى أوله
وتكنس بكسر النون تدخل فى كناسها أى تغيب فى المواضع التى تغيب فيها فخنوسها رجوعها
وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس وقيل هى جميع الكواكب تخنس بالنهار فتغيب
عن العيون وتكنس بالليل أى تطلع فى أماكنها كالوحش فى كنسها (والليل) أى الذى هو محل
ظهور النجوم وزوال خنوسها وذهاب كنوسها (اذا عسعس) قال البغوى قال الحسن أقبل
بظلامه وقال آخرون أدبر تقول العرب عسعس الليل وسعسع اذا أدبر ولم يبق منه الا القليل
(والصبح اذا تنفس) أى امتد حتى يصير نهارا بينا يقال للنهار اذا زاد تنفس ومعنى التنفس
خروج النسيم من الجوف وفى كيفية المجاز قولان الاول انه اذا أقبل الصبح أقبل باقباله
روح ونسيم فجعل ذلك نفساله على المجاز فقيل تنفس الصبح الثانى أنه شبه الليل المظلم
بالمكروب المحزون الذى حبس بحيث لا يتحرك فاذا تنفس وجد راحة فهنا لما طلع الصبح فكأنه
تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس وقوله تعالى (انه) أى القرآن (لقول رسول كريم)
هو المقسم عليه والمعنى انه لقول رسول عن الله تعالى كريم على الله تعالى أى انتفت عنه وجوه
المذام كلها وثبت له وجوه المحامد كلها وهو جبريل عليه السلام وأضاف الكلام اليه لانه قاله
عن الله عز وجل (ذى قوة) أى شديد القوى روى الضحاك عن ابن عباس أنه قال من قوته
قلعه مدائن قوم لوط بقوادم جناحه فرفعها الى السماء ثم قلبها وأبصر ابليس يكلم عيسى عليه
السلام على بعض عقاب الارض المقدسة فنفخه بجناحه نفخة ألقاه الى أقصى جبل بالهند
وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ويهبط من السماء الى الارض ويصعد فى أسرع من
الطرف (عند ذى العرش) أى الملك الاعلى المحيط عرشه بجميع الاكوان الذى لا عند
فى الحقيقة الا له وهو الله سبحانه وتعالى وقوله تعالى (مكين) أى ذى مكانة متعلق به عند أى
ذى منزلة ومكانة ليس عندية جهة بل عندية اكرام وتشريف كقوله تعالى أنا عند المنكسرة
قلوبهم وقيل قوى فى أداء طاعة الله تعالى وترك الاخلال بها (مطاع ثم) أى فى السموات

قال الحسن فرض الله تعالى على أهل السموات طاعة جبريل عليه السلام كما فرض على أهل الارض طاعة محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس من طاعة جبريل عليه السلام الملائكة أنه لما أسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم قال جبريل عليه السلام لرضوان خازن الجنان افتح له ففتح فدخلها فرأى ما فيها (أمين) أى بليغ الامانة على الوحى الذى يجىء به وقيل الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم فالمعنى حينئذ ذى قوة على تبليغ الوحى مطاع أى يطيعه من أطاع الله تعالى (وما صاحبكم) أى الذى طالت صحبته لكم وأنتم تعلمون أنه فى غاية الكمال حتى انه ليس له وصف عندكم الا الامين وهو محمد صلى الله عليه وسلم وهذا عطف على انه الى آخر المقسم عليه وأغرق فى النفى فقال تعالى (بمجنون) أى كما زعمتم بتهم فى قوله بل جاء بالحق وصدق المرسلين فما القرآن الذى يتلوه عليكم قول مجنون ولا قول متوسط فى العقل بل قول أعقل العقلاء وأكمل الكمل *(تنبيه)* استدل بذلك بعضهم على فضل جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم حيث عدّ فضائل جبريل عليه السلام واقتصر على نفى الجنون عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو كما قال البيضاوى ضعيف اذ المقصود منه نفى قولهم انما يعلمه بشر وقولهم أفترى على الله كذبا وقولهم أم به جنة لا تعديد فضله والموازنة بينهما (ولقد رآه) أى رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام على صورته التى خلق عليها وله ستمائة جناح (بالافق المبين) أى البين وهو الافق الاعلى الذى عند سدرة المنتهى حيث لا يكون لبس أصلا ولا يكون للشيطان على ذلك المكان سبيل فعرفه حق المعرفة وقال مجاهد وقتادة بالافق الاعلى من ناحية المشرق وعن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام انى أحب أن أراك على صورتك التى تكون فيها فى السماء قال لن تقوى على ذلك قال بلى قال فأين تشاء أن أتخيل لك قال بالابطح قال لا يسعنى قال فبمنى قال لا تسعنى قال فبعرفات قال ذلك بالحرى أن يسعنى فواعده فخرج النبى صلى الله عليه وسلم للوقت فاذا هو بجبريل قد أقبل من جبل عرفات بخشخشة وكلكلة قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ورأسه فى السماء ورجلاه فى الارض فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم خرّ مغشيا عليه قال فتحوّل جبريل عن صورته فضمه الى صدره وقال يا محمد لا تخف فكيف لو رأيت اسرافيل ورأسه تحت العرش ورجلاه فى التخوم السابعة وان العرش لعلى كاهله وانه ليتضاءل احيانا من مخافة الله تعالى حتى يصير مثل الوصع يعنى العصفور حتى ما يحمل عرش ربنا الا عظمته وقيل ان محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه عز وجل بالافق المبين وهو قول ابن مسعود وقد مرّ ذلك فى سورة النجم (وما) أى والحال انه ما (هو) أى محمد صلى الله عليه وسلم (على الغيب) أى ما غاب من الوحى وخبر السماء ورؤيته جبريل وغير ذلك مما أخبر به وقرأ (بظنين) ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالظاء المشالة من الظنة وهى التهمة أى فليس بمتهم والباقون بالضاد موافقة للمرسوم من الضن وهو البخل أى فليس بخيل بالوحى فيزوى بعضه أو يبدل تعليمه فلا يعلمه كما يكتم الكاهن ما عنده حتى يأخذ عليه حلوانا وهو فى مصحف عبد الله بالظاء وفى مصحف أبى بالضاد وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ

بهما قال الزمخشري واتقان الفصل بين الضاد والظاء واجب ومعرفة مخرجيهما مما لابد منه للقارئ فان أكثر العجم لا يفرقون بين الحرفين وان فرقوا ففرقا غير صواب وبينهما بون بعيد فان مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الاضراس من يمين اللسان أو يساره وكان عمر بن الخطاب أضبط يعمل بكلتا يديه وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه وهي أحد الاحرف الشجرية أخت الجيم والشين وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا وهي أحد الاحرف الذولقية أخت الذال والثاء ولو استوى الحرفان لما ثبتت في هذه الكلمة قراءتان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب فان قلت فان وضع المصلي أحد الحرفين مكان صاحبه قلت هو كوضع الذال مكان الجيم والثاء مكان السين لان التفاوت بين الضاد والظاء كالتفاوت بين أخواتهما اه كلامه بحروفه (وما هو) أي القرآن الذي من جملة معجزاته الاخبار بالمغيبات وأغرق في النفي بالتأكيد بالباء فقال تعالى (بقول شيطان) أي مسترق للسمع فيوحيه اليه كما يوحيه الى بعض الكهنة (رجيم) أي مرجوم مطرود بعيد من الرحمة وذلك ان قريشا كانوا يقولون ان هذا القرآن يجيء به شيطان فيلقيه على لسانه يريدون بالشيطان الابيض الذي كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة جبريل يريد أن يفتنه فنفى الله تعالى ذلك وقوله تعالى (فأين) منصوب بقوله تعالى (تذهبون) لانه ظرف مبهم وقال أبو البقاء أي الى أين فحذف الجار أي فأي طريق تسلكون في انكاركم القرآن واعراضكم عنه وفي هذا استضلال لهم فيما يسلكون من أمر النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن كقولك لتارك الجادة أين تذهب (ان) أي ما (هو) أي القرآن الذي أتاكم به الرسول (الا ذكر) أي عظة وشرف (للعالمين) من انس وجن وملك وقوله تعالى (لمن شاء منكم) بدل من العالمين باعادة الجار (أن يستقيم) باتباع الحق قال أبو جهل الامر الينا ان شئنا استقمنا وان شئنا لم نستقم وهذا هو القدر وهو رأس القدرية فنزل (وما تشاؤن) الاستقامة على الحق (الا أن يشاء الله) أي الا وقت أن يشاء الملك الاعظم الذي بيده كل شيء مشيئتكم الاستقامة عليه (رب العالمين) أي مالك الخلق وفي هذا اعلام ان أحدا لا يعمل خيرا الا بتوفيق الله تعالى ولا شرا الا بخذلانه ونقل البغوي في أول السورة باسناده الى ابن عمر رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال من أحب أن ينظر في يوم القيامة فليقرأ اذا الشمس كورت وأما قول البيضاوي تبعا للزمخشري أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة التكوير أعاذه الله أن يفضحه حين تنشر صحيفته فحديث موضوع

(سورة الانفطار مكية)

وهي تسع عشرة آية وثمانون كلمة وثلثمائة وسبعة وعشرون حرفا

(بسم الله) الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا (الرحمن) الذي دبر الكائنات تدبيرا (الرحيم) الذي أرسل رسوله للخلق نذيرا (اذا السماء) أي على شدة احكامها واتساقها وارتفاعها (انفطرت)

أى انشقت لنزول الملائكة كقوله تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام (وإذا الكواكب) أى النجوم الصغار والكبار كلها الغراء الزاهرة المتوقدة توقد النار المرصعة ترصيع المسامير (انتثرت) أى تساقطت متفرقة لأن عند انتقاض تركيب السماء تنتثر النجوم على الارض (وإذا البحار) المتفرقة فى الارض وهى ضابطة لها أتم ضبط لنفع العباد على كثرتها (فجرت) أى فتح بعضها فى بعض فاختلط العذب بالملح وزال البرزخ الذى بينها فصارت البحار بحرا واحدا وروى أن الارض تنشف الماء بعد امتلاء البحار فتصير مستوية وهو معنى التسجير عند الحسن فى قوله تعالى وإذا البحار سجرت وقال هنا فجرت بغت (وإذا القبور) أى مع ذلك كله (بعثرت) أى قلبت يقال بعثره وبحثره بالعين والحاء قال الزمخشرى وهما مركبان من البعث والبحث مع راء مضمومة اليهما أى فهما بمعنى والمعنى قلب أعلاها أسفلها وقلب باطنها ظاهرها وخرج ما فيها من الموتى احياء وقيل التبعثر اخراج ما فى بطنها من الذهب والفضة ثم تخرج الموتى بعد ذلك وجواب اذا أول السورة وما عطف عليه (علمت نفس) أى كل نفس وقت هذه المذكورات وهو يوم القيامة (ما قدمت) من عمل (وأخرت) أى جميع ما عملت من خير أو شر أو غيرهما (فان قيل) أى وقت من القيامة يحصل هذا العلم قال الرازى أما العلم الاجمالى فيحصل فى أول زمان الحشر لأن المطيع يرى آثار السعادة والعاصى يرى آثار الشقاوة فى أول الامر وأما العلم التفصيلى فانما يحصل عند قراءة الكتب والمحاسبة وقوله تعالى (يا أيها الانسان) أى البشر الآنس بنفسه الناسى لما يعنيه خطاب لمنكرى البعث وروى عطاء عن ابن عباس أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة وقال الكلبى ومقاتل نزلت فى أبى الشريق ضرب النبى صلى الله عليه وسلم فلم يعاقبه الله تعالى فى أول أمره وقيل تتناول جميع العصاة لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (ما غرك بربك) أى ما خدعك وسوّل لك الباطل حتى تركت ما أوجب عليك المحسن اليك وأتيت بالمحرمات (الكريم) أى الذى له الكمال كله المقتضى لأن لا يهمل الظالم ولا يسوى بين المحسن والمسىء هذا اذا حملنا الانسان على جميع العصاة فان حملناه على الكافر وهو ظاهر الآية فالمعنى ما الذى دعاك الى الكفر وانكار الحشر والنشر (فان قيل) كونه كريما يقتضى أن يغتر الانسان بكرمه لأنه جواد مطلق والجواد الكريم يستوى عنده طاعة المطيع وعصيان المذنب وهذا يوجب الاغترار كما روى عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه صيح بغلام له مرات فلم يلبه فنظر فاذا هو بالباب فقال له لم لا تجيبنى فقال لثقتى بحلمك وأمنى عقوبتك فاستحسن جوابه وأعتقه وقالوا أيضا من كرم ساء أدب غلمانه واذا ثبت أن كرمه يقتضى الاغترار به فكيف جعله ههنا مانعا من الاغترار (أجيب) بأن حق الانسان أن لا يغتر بكرم الله تعالى عليه حيث خلقه حيا وتفضل عليه فهو من كرمه لا يعاجل بالعقوبة بسطا فى مدة التوبة وتأخير الجزاء الى أن يجمع الناس للجزاء فالحاصل أن تأخير العقوبة لأجل الكرم وذلك لا يقتضى الاغترار بهذا التفضيل فانه منكر خارج عن حد الحكمة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تلاها غره جهله وقال عمر غره حمقه وجهله وقال الحسن

غرّه والله شيطانه الخبيث أى زين له المعاصى وقال له افعل ما شئت فربك الكريم الذى تفضل عليك بما تفضل به أوّلا وهو متفضل عليك آخرا حتى ورّطه وقيل للفضيل بن عياض ان أقامك الله يوم القيامة وقال لك ما غرّك بربك الكريم ماذا تقول له قال أقول غرّنى ستورك المرخاة وهذا على سبيل الاعتراف بالخطاء فى الاغترار بالستر وليس باعتذار كما يظنه الطماع ويظن به قصاص الحشوية ويروون عن أئمتهم انما قال بربك الكريم دون سائر صفاته ليلقن عبده الجواب حتى يقول غرّنى كرم الكريم وقال مقاتل غرّه عفو الله حيث لم يعاقبه أوّل مرّة وقال السدى غرّه رفق الله تعالى به وقال قتادة سبب غرور ابن آدم تسويل الشيطان وقال ابن مسعود ما منكم من أحد الا سيخلو الله تعالى به يوم القيامة فيقول ما غرّك بى يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين (الذى خلقك) أى أوجدك من العدم مهيأ بتقدير الاعضاء (فسوّاك) عقب تلك الاطوار بتصوير الاعضاء والمنافع بالفعل (فعدلك) أى جعل كل شئ من ذلك سليما مودعا فيه قوّة المنافع التى خلقه الله تعالى لها ● (تنبيه) ● قوله تعالى الذى يحتمل الاتباع على البدل والبيان والنعت والقطع الى الرفع والنصب ● واعلم أنه سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بالكرم ذكر هذه الامور الثلاثة كالدلالة على تحقيق ذلك الكرم فقوله سبحانه الذى خلقك أى بعد أن لم تكن لا شك أنه كرم لانه وجود والوجود خير من العدم والحياة خير من الموت كما قال تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم وقوله تعالى فسوّاك أى جعلك مستوى الخلقة سالم الاعضاء غاية فى الكرم كما قال تعالى أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلا أى معتدل الخلق والاعضاء وقال ذو النون المصرى أى سخر لك المكوّنات أجمع وما جعلك مسخرا لشئ منها ثم أنطق لسانك بالذكر وقلبك بالعقل وروحك بالمعرفة ومدّك بالايمان وشرفك بالامر والنهى وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلا وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بتخفيف الدال والباقون بالتشديد بمعنى جعلك متناسب الاطراف فلم يجعل احدى يديك أو رجليك أطول ولا احدى عينيك أوسع فهو من التعديل وهو كقوله تعالى بلى قادرين على أن نسوّى بنانه وقال عطاء عن ابن عباس جعلك قائما معتدلا حسن الصورة لا كالبهيمة المنحنية وقال أبو على الفارسى عدلك خلقك فى أحسن تقويم مستويا على جميع الحيوان والنبات وواصلا فى الكمال الى ما لم يصل اليه شئ من أجسام هذا العالم وأما قراءة التخفيف فتحتمل هذا اى عدل بعض اعضائك ببعض ويحتمل أن يكون من العدول اى صرفك الى ما شاء من الهيآت والاشكال ونقل القفال عن بعضهم انهما لغتان بمعنى واحد (فى أى صورة) اى من الصور التى تعرفها والتى لا تعرفها من الدواب والطيور وغير ذلك من الحيوان وغيره وما فى قوله تعالى (ما شاء) مزيدة وفى أى متعلق بركب فى قوله تعالى (ركبك) اى ركبك فى اى صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة فى الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والانوثة والشبه ببعض الاقارب وخلاف الشبه (فان قيل) هلا عطفت هذه الجملة كما عطفت ما قبلها (اجيب) بأنها بيان لعدلك ويجوز أن تتعلق بمحذوف اى ركبك حاصلا فى بعض

الصور ومحله النصب على الحال ان علق بمحذوف ويجوز ان يتعلق بعدلك ويكون فى أى بمعنى التعجب أى فعدلك فى صورة عجيبة ثم قال ماشاء ركبك من التراكيب يعنى تركيبا حسنا وقوله تعالى (كلا) ردع عن الاغترار بكرم الله تعالى والتعلق به وهو موجب الشكر والطاعة الى عكسهما الذى هو الكفر والمعصية وقوله تعالى (بل تكذبون) أى يا كفار مكة (بالدين) اضراب الى ماهو السبب الاصلى فى اغترارهم والمراد بالدين الجزاء على الاعمال والاسلام (وان) أى والحال ان (عليكم) أى ممن أقناهم من جندنا من الملائكة (لحافظين) أى على أعمالكم بحيث لايخفى عليهم منها جليل ولاحقير (كراما) أى على الله تعالى (كاتبين) أى لهذه الاعمال فى الصحف كما تكتب الشهود منكم العهود ليقع الجزاء على غاية التحرير * (تنبيه) * هذا الخطاب وان كان خطاب مشافهة الا ان الامة أجمعت على عموم هذا الخطاب فى حق المكلفين وقوله تعالى حافظين جمع يحتمل أن يكونوا حافظين لجميع بنى آدم من غير أن يختص واحد من الملائكة بواحد من بنى آدم ويحتمل أن يكون الموكل بكل واحد منهم غير الموكل بالآخر ويحتمل ان يكون الموكل بكل واحد منهم جماعة من الملائكة كما قيل اثنان بالليل واثنان بالنهار او كما قيل انهم خمسة واختلفوا فى الكفار هل عليهم حفظة فقيل لا لان أمرهم ظاهر وعملهم واحد قال تعالى يعرف المجرمون بسيماهم وقيل عليهم حفظة وهو ظاهر قوله تعالى بل تكذبون بالدين وان عليكم لحافظين وقوله تعالى وأما من أوتى كتابه بشماله وقوله تعالى وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فأخبر أن لهم كتابا وأن عليهم حفظة (فان قيل) فأى شئ يكتب الذى عن يمينه ولا حسنة له (أجيب) بأن الذى عن شماله يكتب باذن صاحبه ويكون صاحبه شاهدا على ذلك وان لم يكتب وفى هذه الآية دلالة على أن الشاهد لايشهد الابعد العلم لوصف الملائكة بكونهم حافظين كراما كاتبين (يعلمون) أى على التجدد والاستمرار (ماتفعلون) فدل على أنهم يكونون عالمين بها حتى انهم يكتبونها فاذا كتبوها يكونون عالمين عند أداء الشهادة وفى تعظيم الكتبة تعظيم لامر الجزاء فانه عند الله من جلائل الامور ولولا ذلك لما وكل بضبط مايحاسب عليه وفيه انذار وتهويل للعصاة ولطف بالمؤمنين وعن الفضيل انه كان اذا قرأها قال ماأشدها من آية على الغافلين * ولما وصف تعالى الكرام الكاتبين لاعمال العباد ذكر أحوال العاملين وقسمهم قسمين وبدأ بقسم أهل السعادة فقال تعالى (ان الابرار) أى المؤمنين الصادقين فى ايمانهم بأداء فرائض الله تعالى واجتناب معاصيه (لفى نعيم) أى محيط بهم أبد الآبدين وهو نعيم الجنة الذى لانهاية له * ثم ذكر قسم أهل الشقاوة بقوله تعالى (وان الفجار) الذين من شأنهم الخروج عما ينبغى الاستقرار فيه من رضا الله تعالى الى سخطه وهم الكفار (لفى جحيم) أى نار محرقة تتوقد غاية التوقد فهم فيها أبد الآبدين (يصلونها) أى يدخلونها ويقاسون حرها (يوم الدين) أى يوم الجزاء وهو يوم القيامة (وماهم عنها) أى الجحيم (بغائبين) أى بمخرجين ويجوز ان يراد يصلون النار يوم الدين ومايغيبون عنها قبل ذلك فى قبورهم وقيل أخبر الله تعالى فى هذه السورة أن لابن آدم ثلاث حالات حالة الحياة التى يحفظ فيها عمله وحالة الآخرة التى يجازى فيها وحالة البرزخ وهو قوله تعالى وماهم

عنها

عنها بغائبين وروى أن سليمان بن عبد الملك قال لأبي حازم المدني ليت شعري مالنا عند الله قال اعرض عملك على كتاب الله تعالى فانك تعلم مالك عند الله تعالى قال فأين أجد ذلك في كتاب الله قال عند قوله تعالى ان الابرار لفي نعيم الآية قال سليمان فأين رحمة الله تعالى قال قريب من المحسنين ثم عظم سبحانه وتعالى ذلك اليوم فقال (وما أدراك) أي وما أعلمك وان اجتهدت في تطلب الدراية به (مايوم الدين) أي أي شيء هو في طوله وهوله وفظاعته وزلزاله ثم كرره تعجيباً لشأنه فقال تعالى (ثم ما أدراك) أي كذلك (مايوم الدين) أي ان يوم الدين الذي بحيث لا تدرك دراية دارك كنهه في الهول والشدة وكيفما تصورته فهو فوق ذلك وعلى أضعافه والتكرير لزيادة التهويل ثم أجمل تعالى القول في وصفه فقال سبحانه (يوم لا تملك) أي بوجه من الوجوه في وقت ما (نفس) أي أي نفس كانت (لنفس شيأ) أي قل أو جل وقرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع يوم على أنه خبر مبتدا مضمر أي هو يوم وجوز الزمخشري أن يكون بدلا مما قبله يعني يوم الدين والباقون بالفتح باضمار أعني أو اذكر (والامر) أي كله (يومئذ) أي اذ كان البعث للجزاء (لله) أي ملك الملوك لا امر لغيره فيه فلا يملك الله تعالى في ذلك اليوم أحدا شيأ كما ملكهم في الدنيا وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة انفطرت كتب الله له بعدد كل قطرة من السماء حسنة وبعدد كل قبر حسنة حديث موضوع

﴿سورة المطففين مدنية﴾

في قول الحسن وعكرمة ومقاتل قال مقاتل وهي أول سورة نزلت بالمدينة وقال ابن عباس وقتادة مدنية الاثمان آيات وهي قوله تعالى ان الذين أجرموا الى آخرها فهو مكي وقال الكلبي وجابر بن زيد نزلت بين مكة والمدينة ولعل هذا هو سبب الاختلاف وقال ابن مسعود والضحاك مكية وهي ست وثلاثون آية ومائة وتسع وتسعون كلمة وسبعمائة وثمانون حرفا

(بسم الله) الذي من توكل عليه كفاه (الرحمن) الذي عم جوده الابرار والعصاة (الرحيم) الذي خص أهل طاعته بهداه (ويل) مبتدأ وسوغ الابتداء به كونه دعاء وهو اما كلمة عذاب أو هلاك ثابت عظيم في كل حال من أحوال الدنيا والآخرة أو واد في جهنم وقوله تعالى (للمطففين) خبره والتطفيف البخس في الكيل والوزن لان ما يبخس شيء طفيف حقير قال الزجاج وانما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف لانه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان الا الشيء اليسير الطفيف وروى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وكانوا من أبخس الناس كيلا فنزلت فأحسنوا الكيل فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم وقال خمس بخمس قيل يارسول الله ما خمس قال ما نقض قوم العهد الا سلط الله تعالى عليهم عدوهم ولا حكموا بغير ما أنزل الله الا فشا فيهم الفقر ولا ظهرت فيهم الفاحشة الا فشا فيهم الموت ولا طففوا المكيال الا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة الا حبس عنهم المطر وقال السدي قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وبها رجل يعرف بأبي جهينة ومعه صاعان

يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر فنزلت وقيل كان أهل المدينة تجارا يطففون وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة فنزلت وعن علي أنه مر برجل يزن الزعفران وقد أرجح فقال له أقم الوزن بالقسط ثم أرجح بعد ذلك ما شئت كأنه أمر بالتسوية أولا ليعتادها ويفصل الواجب من النفل وعن ابن عباس انكم معشر الاعاجم وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم المكيال والميزان وخص الاعاجم لانهم يجمعون الكيل والوزن جميعا وكانا مفترقين في الحرمين كان أهل مكة يزنون وأهل المدينة يكيلون وعن ابن عمر أنه كان يمر بالبائع فيقول اتق الله وأوف الكيل فان المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن حتى ان العرق ليلجمهم الى انصاف آذانهم وعن عكرمة أشهد أن كل كيال ووزان في النار فقيل له ان ابنك كيال أو وزان فقال أشهد أنه في النار وعن أبي لا تلتمس الحوائج ممن رزقه في رؤس المكاييل وألسن الموازين * ثم بين تعالى المطففين من هم بقوله تعالى (الذين اذا اكتالوا) أي عاملوا الكيل (على الناس) أي كائنين من كانوا لا يخافون شيأ ولا يراعون أحدا بل صارت الخيانة والوقاحة لهم ديدنا (يستوفون) أي اذا كالوا منهم وأبدل على مكان من للدلالة على أن اكتيالهم من الناس اكتيال يضرهم ويتحامل فيه عليهم ويجوز أن يتعلق على بيستوفون ويقدم المفعول على الفعل لافادة الخصوصية أي يستوفون على الناس خاصة وأما أنفسهم فيستوفون لها وقال الفراء من وعلى يتعاقبان في هذا الموضع لانه حق عليه فاذا قال اكتلت عليك فكأنه قال أخذت ما عليك واذا قال اكتلت منك فكقوله استوفيت منك (واذا كالوهم) اى كالوا الناس أي حقهم اى مالهم من الحق (أو وزنوهم) اى وزنوا لهم فحذف الجار وأوصل الفعل كما قال القائل

ولقد جنيتك أكمؤا وعساقلا * ولقد نهيتك عن بنات الاوبر

وقال آخر والحريص يصيدك لا الجواد بمعنى جنيت لك ويصيد لك ويقال وزنتك حقك وكلتك طعامك أي وزنت لك وكلت لك ونصحتك ونصحت لك وكسبتك وكسبت لك والاكؤ جمع كمأة والعساقل ضرب منها وأصله عساقيل لان واحدها عسقول كعصفور فحذفت الياء للضرورة وبنات أوبر ضرب من الكمأة ردىء (يخسرون) جواب اذا وهو يتعدى بالهمزة يقال خسر الرجل وأخسرته أنا ومفعوله محذوف أي يخسرون الناس متاعهم وقيل يخسرون أي ينقصون بلغة فارس أي ينقصون الكيل أو الوزن وقوله تعالى (ألا يظن أولئك) أي الاخساء البعداء الأراذل (أنهم مبعوثون ليوم) أي لاجله أو فيه وزاد التهويل بقوله تعالى (عظيم) انكارا وتعجيبا من حالهم في الاجتراء على التطفيف كأنهم لا يخطرون ببالهم ولا يخمنون تخمينا انهم مبعوثون ومحاسبون على مقدار الذرة والخردلة وقيل الظن بمعنى اليقين وقوله تعالى (يوم) يجوز نصبه بمبعوثون أو باضمار اعني أو بدل من محل ليوم فناصبه يبعثون (يقوم الناس) أي من قبورهم (لرب العالمين) أي الخلائق لاجل أمره وجزائه وحسابه وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه الى انصاف أذنيه وعن المقداد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من

العبد حتى تكون قيد ميل أو اثنين قال سليم لا أدرى أى الميلين يعنى مسافة الارض أو الميل الذى تكتحل به العين قال فتصهرهم الشمس فيكونون فى العرق بقدر أعمالهم فمنهم من يأخذه الى عقبيه ومنهم من يأخذه الى ركبتيه ومنهم من يأخذه الى حقويه ومنهم من يلجمه الجاما فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يشير بيده الى فيه يقول الجمه الجاما وعن قتادة أوف يا ابن آدم كما تحب أن يوفى لك واعدل كما تحب ان يعدل لك وعن الفضيل بخس الميزان سواد الوجوه يوم القيامة وعن عبد الملك بن مروان أن اعرابيا قال له قد سمعت ما قال الله فى المطففين أراد بذلك أن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذى سمعت به فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن وفى هذا الانكار والتعجيب وكلمة الظن ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس فيه لله تعالى خاضعين ووصفه ذاته برب العالمين بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الاثم فى التطفيف وفيما كان فى مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط والعمل على السوية والعدل فى كل أخذ واعطاء بل فى كل قول وعمل وعن ابن عمر أنه قرأ هذه السورة فلما بلغ قوله تعالى يوم يقوم الناس لرب العالمين بكى نحيبا وامتنع من قراءة ما بعده وعن بعض المفسرين أن لفظ التطفيف يتناول التطفيف فى الوزن والكيل وفى اظهار العيب واخفائه وفى طلب الانصاف والانتصاف ويقال من لم يرض لاخيه المسلم ما يرضاه لنفسه فليس بمنصف والمعاشرة والصحبة فى هذه المادة والذى يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه من هذه الجملة ومن طلب حق نفسه من الناس ولا يعطيهم حقوقهم كما يطلبه وقوله تعالى (كلا) ردع أى ليس الامر على ما هم عليه فليرتدعوا وههنا تم الكلام وقال الحسن كلا ابتداء متصل بما بعده على معنى حقا وجرى الجلال المحلى وأكثر المفسرين على الاول (ان كتاب الفجار) أى كتب اعمال الكفار وأظهر موضع الاضمار تعميما وتعليقا للحكم بالوصف واختلف فى معنى قوله سبحانه وتعالى (لفى سجين) فقيل هو كتاب جامع وهو ديوان الشر دون الله تعالى فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والانس وقيل هو مكان تحت الارض السابعة وهو محل ابليس وجنوده وقال عبد الله بن عمر سجين فى الارض السابعة السفلى فيها أرواح الكفار وعن البراء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سجين أسفل سبع أرضين وعليون فى السماء السابعة تحت العرش وقال الكلبى هو صخرة تحت الارض السابعة خضراء خضرة السموات منها يجعل كتاب الفجار فيها وقال وهب هى آخر سلطان ابليس وعن كعب الاحبار ان روح الفاجر يعنى الكافر يصعد بها الى السماء فتأبى السماء ان تقبلها ثم يهبط بها الى الارض فتأبى الارض أن تقبلها فتدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهى بها الى سجين وهو موضع جند ابليس وذلك استهانة بها ويشهدها الشياطين المدحورون كما يشهد ديوان الخير الملائكة المقربون وقال عكرمة لفى سجين أى فى خسار وضلال (وما أدراك) أى جعلك داريا وان اجتهدت فى ذلك (ما سجين) وقال الزجاج أى ليس لك ذلك ما كنت تعلمه أنت ولا قومك وقوله تعالى (كتاب مرقوم) ليس تفسيرا لسجين بل هو بيان للكتاب المذكور فى قوله تعالى ان كتاب الفجار أى هو كتاب مرقوم أى مسطور

بين الكتابة مكتوب فيه أعمالهم مثبت عليهم كالرقم في الثوب لا ينسى ولا يمحى حتى يجازون به أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه وقيل الرقم الختم بلغة حمير واقتصر على هذا الجلال المحلي وقال قتادة رقم عليه بشر كأنه علم بعلامة يعرف بها أنه كافر والمعنى ان ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان وسمي سجينا فعيلا من السجن وهو الحبس والتضييق في جهنم أولانه مطروح تحت الارض كما مر (فان قيل) سجين هل هو اسم أو صفة (أجيب) بأنه اسم علم منقول من وصف كحاتم وهو منصرف لانه ليس فيه الا سبب واحد وهو التعريف (ويل) أي أعظم الهلاك (يومئذ) أي اذ تقوم الناس لما تقدم (للمكذبين) أي بذلك أو بالحق وقوله تعالى (الذين يكذبون بيوم) أي بسبب الاخبار بيوم (الدين) أي الجزاء الذي هو سر الوجود بدل أو بيان للمكذبين * ثم أخبر عن صفة من يكذب بيوم الدين بثلاث صفات ذكر أولها بقوله تعالى (وما) أي والحال أنه ما (يكذب به) أي بذلك اليوم (الا كل معتد) أي متجاوز عن النظر غال في التقليد حتى استقصر قدرة الله تعالى وعلمه فاستحال منه الاعادة * ثم ذكر الصفة الثانية بقوله تعالى (أثيم) أي منهمك في الشهوات المخرجة بحيث اشتغل عما وراءها وحملته على الانكار لما عداها * ثم ذكر الصفة الثالثة بقوله تعالى (اذا تتلى عليه آياتنا) أي القرآن (قال أساطير الاولين) أي الحكايات سطرت قديما جمع أسطور بالضم وذلك لفرط جهله واعراضه عن الحق فلا تنفعه شواهد النقل كما لا تنفعه دلائل العقل وهذا عام في كل موصوف بذلك وقال الكلبي هو الوليد بن المغيرة وقيل هو النضر بن الحرث وقوله تعالى (كلا) ردع وزجر أي ليس هو أساطير الاولين وقال الحسن معناها حقا كما مر (بل ران) أي غلب وأحاط وغطى تغطية الغيم السماء (على قلوبهم) أي كل من قال هذا القول (ما كانوا يكسبون) أي كما يركب الصدأ من اصرارهم على الكبائر وتسويف التوبة حتى طبع على قلوبهم فلا تقبل الخير ولا تميل اليه روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان المؤمن اذا أذنب ذنبا نكتت نكتة سوداء في قلبه فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها واذا زادت حتى تعلو قلبه فذلكم الران الذي ذكره الله تعالى في كتابه المبين وقال أبو معاذ الران أن يسود القلب من الذنوب والطبع أن يطبع على القلب وهو أشد من الران والاقفال أشد من الطبع وهو أن يقفل على القلب قال تعالى أم على قلوب أقفالها وقال الحسن هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب ويغشى فيموت القلب قال صلى الله عليه وسلم اياكم والمحقرات من الذنوب فان الذنب على الذنب يوقد على صاحبه جحيما ضخمة وعن الحسن الذنب بعد الذنب يسود القلب يقال ران عليه الذنب وغان عليه رينا وغينا والغين الغيم ويقال ران فيه النوم رسخ فيه ورانت به الخمرة ذهبت به وقرأ حمزة وشعبة والكسائي بالامالة محضة والباقون بالفتح وسكت حفص على اللام وقفة لطيفة من غير قطع والباقون بغير سكت وقوله تعالى (كلا) ردع عن الكسب الرائن على قلوبهم وقيل بمعنى حقا كما مر (انهم عن ربهم) أي المحسن اليهم (يومئذ لمحجوبون) أي فلا يرونه بخلاف المؤمنين فانهم يرونه كما ثبت ذلك في الاحاديث الصحيحة وقال الحسن لو علم الزاهدون والعابدون أنهم لا يرون ربهم في المعاد

لزهقت

لزهقت أنفسهم في الدنيا وسئل مالك عن هذه الآية فقال لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه وفي قوله تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون دلالة على أن أولياء الله يرون الله تعالى ومن نفى الرؤية كالزمخشري جعله تمثيلا للاستخفاف بهم واهانتهم لانه لا يؤذن على الملوك الا الا للوجهاء والمكرمين لديهم ولا يحجب عنهم الا الاذناب المهانون عندهم وعن ابن عباس وقتادة محجوبون عن رحمته وعن ابن كيسان عن كرامته (ثم انهم) أي بعد ماشاء الله تعالى من امهالهم (لصالوا الجحيم) أي لداخلوا النار المحرقة (ثم يقال) أي تقول لهم الخزنة (هذا) اى العذاب (الذى كنتم به تكذبون) أي في دار الدنيا وقوله تعالى (كلا) ردع عن التكذيب وقيل معناها حقا كما مر وقال البيضاوي تكرير للاول ليعقب بوعد الابرار كما عقب بوعيد الفجار اشعارا بأن التطفيف فجور والايفاء بر وردع عن التكذيب (ان كتاب الابرار) اى كتب اعمال المؤمنين الصادقين في ايمانهم (لفى عليين) وعليون علم لديوان الخير الذى دون فيه كل ما عملته صلحاء الثقلين منقول من جمع فعيل من العلو كسجين من السجن سمي بذلك اما لانه سبب الارتفاع الى أعالي الدرجات في الجنة واما لانه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون تكريما له وتعظيما وروى ان الملائكة لتصعد بعمل العبد فيستقبلونه فاذا انتهوا به الى ماشاء الله من سلطانه أوحى اليهم انكم الحفظة على عبدى وأنا الرقيب على ما في قلبه وانه أخلص عمله فاجعلوه في عليين وقد غفرت له وانها لتصعد بعمل العبد فيزكونه فاذا انتهوا به الى ماشاء الله أوحى اليهم أنتم الحفظة على عبدى وأنا الرقيب على قلبه وانه لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين وعن البراء مرفوعا عليين في السماء السابعة تحت العرش وقال ابن عباس هو لوح من زبرجدة خضراء معلق تحت العرش أعمالهم مكتوبة فيها وقال كعب وقتادة هو قائمة العرش اليمنى وقال عطاء عن ابن عباس هو الجنة وقال الضحاك سدرة المنتهى وقال بعض أهل المعاني علو بعد علو وشرف بعد شرف ولذلك جمعت بالياء والنون قال الفراء هو اسم موضع على صيغة الجمع لا واحد له من لفظه مثل عشرين وثلاثين (وما أدراك) أي جعلك داريا وان بالغت في الفحص (ما عليون) أي ما كتاب عليين هو (كتاب) أي عظيم (مرقوم) أي فيه ان فلانا امن من النار رقما باله من رقم ما أبهاه وأجله (يشهده المقربون) يحضرونه فيشهدون على ما فيه يوم القيامة أو يحفظونه ولما عظم كتابهم عظم منزلتهم بقوله تعالى (ان الابرار لفى نعيم) أي في الجنة ثم بين ذلك النعيم بأمور ثلاثة أولها قوله تعالى (على الارائك) أي الاسرة في الحجال ولا يسمى اريكة الا اذا كان كذلك والحجال بكسر الحاء جمع حجلة وهي بيت يزين بالثياب والستور والاسرة قاله الجوهري (ينظرون) أي الى ماشاؤا مدّ أعينهم اليه من مناظر الجنة والى ما أولاهم الله تعالى من النعمة والكرامة والى أعدائهم يعذبون في النار وما تحجب الحجال أبصارهم عن الادراك وقال الرازي ينظرون الى ربهم بدليل قوله تعالى (تعرف) أي أيها الناظر اليهم (في وجوههم) عند رؤيتهم (نضرة النعيم) أي بهجته وحسنه ورونقه كما ترى في وجوه الاغنياء وأهل الترفه أو الخطاب اما للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل ناظر وقال الحسن النضرة في الوجه والسرور في

القلب وهذا هو الامر الثانى وأما الثالث فهو قوله تعالى (يسقون من رحيق) أى خمر صافية طيبة وقال مقاتل الخمر البيضاء وقال الرازى لعله الخمر الموصوف بقوله تعالى لا فيها غول (مختوم) أى ختم ومنع من أن تمسه يد الى أن يفك ختمه الابرار وقال القفال يحتمل أن يكون ختم عليه تكريما بالصيانة على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان وهناك خمر أخرى تجرى أنهارا لقوله تعالى وأنهار من خمر لذة للشاربين الا أن هذا المختوم أشرف من الجارى (ختامه مسك) أى آخر شربه يفوح منه مسك فالمختوم الذى له ختام أى آخر شربه وختم كل شىء الفراغ منه وقال قتادة يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك وقال ابن زيد ختامه عند الله مسك وقيل طينه مسك وقيل تختم أوانيه من الاكواب والاباريق بمسك مكان الطينة (وفى ذلك) أى الامر العظيم البعيد التناول وهو العيش والنعيم أو الشراب الذى هذا وصفه (فليتنافس) أى فليرغب غاية الرغبة بجميع الجهد والاختيار (المتنافسون) أى الذين من شأنهم المنافسة وهو أن يطلب كل منهم ان يكون ذلك المتنافس فيه لنفسه خاصة دون غيره لانه نفيس جدا والنفيس هو الذى تحرص عليه نفوس الناس وتتغالى فيه والمنافسة فى مثل هذا بكثرة الاعمال الصالحة والنيات الخالصة وقال مجاهد فليعمل العاملون نظيره قوله تعالى لمثل هذا فليعمل العاملون وقال مقاتل ابن سليمان فليسارع المتسارعون وقال عطاء فليستبق المستبقون وقال الزمخشرى فليرتقب المرتقبون والمعنى فى الجميع واحد وأصله من الشئ النفيس الذى تحرص عليه نفوس الناس ويريده كل أحد لنفسه وينفس فيه على غيره أى يضن (ومزاجه) أى ما يمزج به ذلك الرحيق (من تسنيم) وهو علم لعين بعينها سميت بالتسنيم الذى هو مصدر سنمه اذا رفعه لانها تأتيهم من فوق على ما روى انها تجرى فى الهواء مسنمة فتصب فى أوانى أهل الجنة على مقدار الحاجة فاذا امتلأت أمسكت وقوله تعالى (عينا) نصب على المدح وقال الزجاج نصب على الحال (يشرب بها) اى بسببها على طريقة المزج منها (المقربون) وضمن يشرب معنى يلتذ فهم يشربونها صرفا وتمزج سائر أهل الجنة (ان الذين أجرموا) اى قطعوا ما امر الله به ان يوصل وهم رؤساء قريش (كانوا من الذين آمنوا) وهم فقراء الصحابة عمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين (يضحكون) اى استهزاء بهم (واذا مروا) اى المؤمنون (بهم) اى بالذين اجرموا (يتغامزون) اى يشير المجرمون الى المؤمنين بالجفن والحاجب استهزاء بهم وقيل يغمز بعضهم بعضا ويشيرون باعينهم قيل جاء على بن ابى طالب رضى الله عنه فى نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ثم رجعوا الى أصحابهم فقالوا رأينا اليوم الاصلع وضحكوا منه فنزلت قبل أن يصل على الى النبى صلى الله عليه وسلم (واذا انقلبوا) أى رجع الذين أجرموا برغبتهم فى الرجوع واقبالهم عليه من غير تكره (الى أهلهم) اى منازلهم التى هى عامرة بجماعتهم وقرأ حمزة والكسائى فى الوصل بضم الهاء والميم وأبو عمرو بكسر الهاء والباقون بكسر الهاء وضم الميم (انقلبوا) حالة كونهم (فاكهين) اى متلذذين بما كان من مكنتهم ورفعتهم التى أوصلتهم الى الاستهزاء بغيرهم قال ابن برجان روى عنه عليه الصلاة والسلام ان الدين بدأ غريبا وسيعود

غريبا

غريبا كما بدأ يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر وفي أخرى يكون المؤمن فيهم أذل من الأمة وفي أخرى العالم فيهم أنتن من جيفة حمار فالله المستعان وقرأ حفص بغير ألف بين الفاء والكاف والباقون بالألف قيل هما بمعنى وقيل فكهين فرحين وفاكهين ناعمين وقيل فاكهين أصحاب فاكهة ومزاح (وإذا رأوهم) أي رأى المجرمون المؤمنين (قالوا) أي المجرمون (إن هؤلاء) أي المؤمنين (لضالون) أي لإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم يرون أنهم على شيء وهم على ضلال في تركهم التنعيم الحاضر بسبب شيء لا يدري هل له وجود أم لا قال الله تعالى (وما) أي والحال أنهم ما (أرسلوا) أي الكفار (عليهم) أي على المؤمنين (حافظين) أي موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم ويهيمنون على أعمالهم ويشهدون برشدهم وضلالهم وهذا تهكم بهم وقيل هو من جملة قول الكفار وأنهم إذا رأوا المسلمين قالوا إن هؤلاء لضالون وإنهم لم يرسلوا عليهم حافظين انكارا لصدهم إياهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام وجدهم في ذلك وقوله تعالى (فاليوم) منصوب بيضحكون ولا يضر تقديمه على المبتدأ لأنه لو تقدم العامل هنا لجاز إذ لا لبس بخلاف زيد قام في الدار لا يجوز في الدار زيد قام ومعنى فاليوم أي في الآخرة (الذين آمنوا) ولو كانوا في أدنى درجات الإيمان (من الكفار يضحكون) وفي سبب هذا الضحك وجوه منها أن الكفار كانوا يضحكون على المؤمنين في الدنيا بسبب ما هم فيه من الضر والبؤس وفي الآخرة يضحك المؤمنون على الكافرين بسبب ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر ومن ألوان العذاب بعد النعيم والترفه ومنها أنهم علموا أنهم كانوا في الدنيا على غير شيء وأنهم باعوا الباقي بالفاني ومنها أنهم يرون أنفسهم قد فازوا بالنعيم المقيم ونالوا بالتعب اليسير راحة الأبد ومنها قال أبو صالح يقال لأهل النار وهم فيها اخرجوا وتفتح لهم أبوابها فإذا رأوها وقد فتحت أبوابها أقبلوا إليها يريدون الخروج والمؤمنون ينظرون إليهم فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم يفعل ذلك بهم مرارا فذلك سبب الضحك ومنها أنهم إذا دخلوا الجنة وأجلسوا على الأرائك ينظرون إلى الكفار كما قال تعالى (على الأرائك) أي الأسرة العالية (ينظرون) إليهم كيف يعذبون في النار ويرفعون أصواتهم بالويل والثبور ويلعن بعضهم بعضا * (تنبيه) * ينظرون حال من يضحكون أي يضحكون ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان وقال كعب بين الجنة والنار كوى إذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو له كان في الدنيا اطلع عليه من تلك الكوى كما قال تعالى فاطلع فرآه في سواء الجحيم فإذا اطلعوا من الجنة على أعدائهم وهم يعذبون في النار ضحكوا قال الله تعالى (هل ثوب الكفار) أي هل جوزوا (ما كانوا يفعلون) أي جزاء استهزائهم بالمؤمنين ومعنى الاستفهام ههنا التقرير وثوبه وأثابه بمعنى واحد إذا جازاه قال أوس

سأجزيك أو يجزيك عني مثوب * وحسبك أن يثنى عليك وتحمدي

وقرأ الكسائي وهشام بإدغام اللام في الثاء والباقون بالإظهار وقول البيضاوي تبعا للزمخشري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة المطففين سقاه الله تعالى من الرحيق المختوم يوم القيامة حديث موضوع

﴿سورة الانشقاق مكية﴾

وهي ثلاث أو خمس وعشرون آية ومائة وسبع كلمات وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذي شقق الارض بالنبات (الرحمن) الذي عم جوده أهل الارض والسموات (الرحيم) الذي خص أهل طاعته بالجنات وقوله تعالى (اذا السماء) أي على مالها من الاحكام والعظمة (انشقت) كقوله تعالى اذا الشمس كورت في اضمار الفعل وعدمه وفي اذا هذه احتمالان أحدهما أن تكون شرطية والثاني أن تكون غير شرطية فعلى الاول في جوابها أوجه أحدها أنه محذوف ليذهب المقدر كل مذهب أو اكتفاء بما علم في مثلها من سورتي التكوير والانفطار وهو قوله تعالى علمت نفس الثاني جوابها مادل عليه فملاقيه الثالث أنه يا أيها الانسان على حذف الفاء وعلى كونها غير شرطية فهي مبتدأ وخبرها اذا الثانية والواو مزيدة تقديره وقت انشقاق السماء وقت مد الارض أي يقع الامران في وقت قاله الاخفش وقيل انه منصوب مفعولا به باضمار اذكر وانشقاقها بالغمام وهو من علامات القيامة كقوله تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام وعن علي تنشق من المجرة قال ابن الاثير المجرة هي البياض المعترض في السماء والسراب من جانبها (وأذنت) أي سمعت وأطاعت في الانشقاق (لربها) أي لتأثير قدرته حين أراد انشقاقها انقياد المطواع الذي ورد عليه الامر من جهة المطاع فأنصت له وأذعن ولم يأب ولم يمتنع كقوله أتينا طائعين (وحقت) أي حق لها أن تسمع وتطيع بأن تنقاد ولا تمتنع يقال حق بكذا فهو محقوق وحقيق (واذا الارض) أي على مالها من الصلابة (مدت) أي زيد في سعتها كمد الاديم ولم يبق عليها بناء ولا جبل كما قال تعالى فاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا وعن ابن عباس مدت مد الاديم العكاظي لان الاديم اذا مد زال كل انثناء فيه وأمت واستوى (وألقت) أي أخرجت (مافيها) من الكنوز والموتى كقوله تعالى وأخرجت الارض أثقالها (وتخلت) أي خلت منها حتى لم يبق في بطنها شيء وذلك يؤذن بعظم الامر كما تلقي الحامل مافي بطنها عند الشدة ووصفت الارض بذلك توسعا والا فالتحقيق أن الله تعالى هو المخرج لتلك الاشياء من الارض وقوله تعالى (وأذنت لربها وحقت) تقدم تفسيره وهذا ليس بتكرار لان الاول في السماء وهذا في الارض وتقدم جواب اذا ومن جملة ماقيل فيه وماعطف عليه أنه محذوف دل عليه مابعده تقديره لقي الانسان عمله وذلك كله يوم القيامة * واختلف في الانسان في قوله تعالى (يا أيها الانسان) أي الآنس بنفسه الناسي لامر ربه (انك كادح) فقيل المراد جنس الانسان كقولك يا أيها الرجل فكأنه خطاب خص به أحد من الناس قال القفال وهو أبلغ من العموم لانه قائم مقام التنصيص على مخاطبة كل واحد منهم على التعيين بخلاف اللفظ العام وقيل المراد منه رجل بعينه فقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى انك كادح في ابلاغ رسالات الله تعالى وارشاد عباده وتحمل الضرر من الكفار فابشر فانك تلقى الله تعالى بهذا العمل وقال

ابن

ابن عباس هو أبي بن خلف وكدحه هو جده واجتهاده فى طلب الدنيا وايذاء النبى صلى الله عليه
وسلم والاصرار على الكفر والكدح جهد النفس فى العمل والكد فيه حتى يؤثر فيها من كدح
جلده اذا خدشه ومعنى كادح (الى ربك) أى جاهد الى لقائه وهو الموت اى هذا الكدح يستمر
الى هذا الزمن وقال القفال تقديره انك كادح فى دنياك (كدحا) تصير الى ربك وقوله تعالى
(فملاقيه) يجوز أن يكون عطفا على كادح والسبب فيه ظاهر وأن يكون خبر مبتدا مضمر أى
فأنت ملاقيه وقيل جواب اذا والضمير فى ملاقيه اما للرب اى ملاق حكمه لا مفر لك منه واما
للكدح الا أن الكدح عمل وهو عرض لا يبقى فلاقاته ممتنعة فالمراد جزاء كدحك من خير أو
شر وقال الرازى المراد ملاقاة الكتاب الذى فيه بيان تلك الاعمال ويؤكد هذا قوله
تعالى بعده (فأما من أوتى كتابه) اى كتاب عمله الذى كتبته الملائكة (بيمينه) أى من أمامه وهو
المؤمن المطيع (فسوف يحاسب) أى يقع حسابه بوعد لا خلف فيه وان طال الامد لاظهار
الجبروت والكبرياء والقهر (حسابا يسيرا) هو عرض عمله عليه كما فسر فى حديث الصحيحين
وفيه من نوقش الحساب هلك وفى رواية من حوسب عذب قالت عائشة اليس يقول الله تعالى
فسوف يحاسب حسابا يسيرا فقال انما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب عذب وانما
حوسب حسابا سهلا لانه كان يحاسب نفسه فلا تقع له المخالفة الا ذهولا فلاجل ذلك تعرض
أعماله فيقبل حسنها ويعفى عن سيئها (وينقلب) أى يرجع بنفسه من غير مزعج برغبة وقبول
(الى أهله) أى الذين أهلهم فى الجنة من الحور العين والآدميات والذريات اذا كانوا مؤمنين
(مسرورا) أى قد أوتى جنة وحريرا فانه كان فى الدنيا فى أهله مشفقا من العرض على الله
يحاسب نفسه حسابا عسيرا مع ما هو فيه من نكد الاهل وضيق العيش (وأما من أوتى كتابه
وراء ظهره) وهو الكافر تغل يمناه الى عنقه وتجعل يسراه وراء ظهره فيأخذ بها كتابه (فسوف
يدعو) أى بوعد لا خلف فى وقوعه (ثبورا) يقول يا ثبوراه والثبور الهلاك كقوله تعالى دعوا
هنالك ثبورا (ويصلى سعيرا) أى يدخل النار الشديدة وقرأ أبو عمرو وعاصم بفتح الياء
وسكون الصاد وتخفيف اللام والباقون بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام وقرأ حمزة
والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين واذا فتح ورش غلظ اللام واذا أمال
رقق والباقون بالفتح (انه كان) أى بما هو له كالجبلة (فى أهله) أى عشيرته فى الدنيا (مسرورا)
قال القفال أى منعما مستريحا من التعب بأداء العبادات واحتمال مشقة الفرائض من
الصلاة والجهاد مقدما على المعاصى آمنا من الحساب والثواب والعقاب لا يخاف الله تعالى
ولا يرجوه فأبدله الله تعالى بذلك السرور غما باقيا لا ينقطع وقيل ان قوله تعالى انه كان فى أهله
مسرورا كقوله تعالى واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فاكهين أى متنعمين فى الدنيا معجبين
بما هم عليه من الكفر بالله تعالى والتكذيب بالبعث يضحكون ممن آمن بالله تعالى وصدق
بالحساب كما قال صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (انه ظن) أى لضعف
نظره (أن) مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أى أنه (لن يحور) أى لن يرجع الى الله تعالى

تكذيبا بالمعاد يقال لا يحور ولا يحول أي لا يرجع ولا يتغير قال لبيد

وما المرء الا كالشهاب وضوئه * يحور رمادا بعد اذ هو ساطع

وعن ابن عباس ما كنت أدري ما معنى يحور حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها حوري أي ارجعي وقوله تعالى (بلى) ايجاب لما بعد النفي في ان يحور أي بلى ليحورن (ان ربه) أي الذي ابتدأ انشاءه ورباه (كان) أي أزلا وأبدا (به بصيرا) أي من يوم خلقه الى يوم بعثه أو بأعماله لا ينساها وقال عطاء بصيرا بما سبق عليه في أم الكتاب من الشقاوة * واختلفوا في الشفق في قوله تعالى (فلا أقسم بالشفق) فقال مجاهد هو النهار كله وقال عكرمة ما بقي من النهار وقال ابن عباس وأكثر المفسرين هو الحمرة التي تبقى في الافق بعد غروب الشمس وقال قوم هو البياض الذي يعقب تلك الحمرة * (تنبيه) * سمي بذلك لرقته ومنه الشفقة على الانسان رقة القلب عليه واللام في لا أقسم مزيدة للتأكيد (والليل) أي الذي يغلبه ويذهبه (وما وسق) أي ما جمع وضم يقال وسقه فاتسق واستوسق قال الشاعر * مستوسقات لو يجدن سائقا * ونظيره في وقوع افتعل واستفعل مطاوعين اتسع واستوسع ومعناه وما جمعه وستره وآوى اليه من الدواب وغيرها (والقمر) أي الذي هو آيته (اذا اتسق) أي اذا اجتمع واستوى ليلة أربع عشرة وقال قتادة استدار وهو افتعل من الوسق * (تنبيه) * قد اختلف العلماء في القسم بهذه الاشياء هل هو قسم بها أو بخالقها فذهب المتكلمون الى أن القسم واقع بربها وان كان محذوفا لان ذلك معلوم من حيث ورود الحظر بأن يقسم بغير الله تعالى أو بصفة من صفاته وقدمر أن ذلك يكره في حق الانسان فان الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه وجواب القسم (لتركبن) أي أيها الناس أصله تركبونن حذفت نون الرفع لتوالي الامثال والواو لالتقاء الساكنين وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بفتح الباء الموحدة على خطاب الانسان والباقون بضمها على خطاب الجمع وهو معنى الانسان اذ المراد به الجنس أي لتركبن أيها الانسان (طبقا) مجاوزا (عن طبق) أي حالا بعد حال قال عكرمة رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم شيخ وعن ابن عباس الموت ثم البعث ثم العرض وعن عطاء مرة فقيرا ومرة غنيا وقال أبو عبيدة لتركبن سنن من كان قبلكم وأحوالهم لما روي انه صلى الله عليه وسلم قال لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن وقوله تعالى (فما لهم) أي الكفار (لا يؤمنون) استفهام انكار أي أي مانع لهم من الايمان أو أي حجة لهم في تركه بعد وجود براهينه (و) مالهم (اذا قرئ) أي من أي قارئ قراءة مشروعة (عليهم القرآن) أي الجامع لكل ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم الفارق بين كل ملتبس (لا يسجدون) أي لا يخضعون بأن يؤمنوا به لاعجازه أو لا يصلون قاله مقاتل أو لا يسجدون لتلاوته لما روي أنه صلى الله عليه وسلم قرأ واسجد واقترب فسجد ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق رؤوسهم فنزلت وعن أبي هريرة أنه قال سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في اقرأ باسم ربك واذا السماء انشقت وعن نافع قال صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ

قوله فان الله تعالى يقسم الخ هذا لا يصلح الا تعليلا لمقابل القول الذي ذكره فليتأمل اه

اذا السماء انشقت فسجد فقلت ما هذه قال سجدت بها خلف أبي القاسم صلى الله عليه وسلم فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه وليس في ذلك دلالة على وجوبها فهي مندوبة وعن الحسن هي واجبة واحتج أبو حنيفة على وجوب السجود بأنه تعالى ذم من سمعه ولم يسجد. وعن ابن عباس ليس في المفصل سجدة وما روى عن أبي هريرة يخالفه وعن أنس صليت خلف أبي بكر وعمر وعثمان فسجدوا (بل الذين كفروا يكذبون) أي بالقرآن والبعث (والله أعلم بما يوعون) أي بما يجمعون في صدورهم ويضمرون من الكفر والحسد والبغي والبغضاء أو بما يجمعون في صحفهم من الكفر والتكذيب وأعمال السوء ويدخرون لانفسهم من أنواع العذاب. وقوله تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) أي مؤلم استهزاء بهم أو ان البشارة بمعنى الاخبار أي أخبرهم وقوله تعالى (الا) استثناء منقطع أي لكن (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) تحقيقا لايمانهم (لهم أجر غير ممنون) أي غير مقطوع ولا منقوص ولا ممنون به عليهم وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ اذا السماء انشقت أعاذه الله تعالى ان يعطيه كتابه وراء ظهره حديث موضوع

﴿سورة البروج مكية﴾

وهي اثنتان وعشرون آية ومائة وتسع كلمات وأربعمائة وثمانية وخمسون حرفا

(بسم الله) الذي أحاط علمه بالكائنات (الرحمن) الذي عم بجوده سائر المخلوقات (الرحيم) الذي خص أهل السعادة بالجنات وقوله تعالى (والسماء) أي العالية غاية العلو المحكمة غاية الاحكام (ذات البروج) قسم أقسم الله تعالى به وتقدم الكلام على ذلك مرارا وفي البروج أقوال فقال مجاهد هي البروج الاثنا عشر شبهت بالقصور لانها تنزلها السيارات وقال الحسن هي النجوم وقيل هي منازل القمر. وقال عكرمة هي قصور في السماء وقيل عظام الكواكب سميت بروجا لظهورها وقيل أبواب السماء وقوله تعالى (واليوم الموعود) قسم آخر وهو يوم القيامة قال ابن عباس وعد أهل السماء وأهل الارض أن يجتمعوا فيه واختلفوا في قوله سبحانه وتعالى (وشاهد ومشهود) فقال أبو هريرة وابن عباس الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة وروى مرفوعا اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة خرجه الترمذي في جامعه قال القشيري فيوم الجمعة يشهد على عامله بما عمل فيه قال القرطبي وكذا سائر الايام والليالي لما روى أبو نعيم الحافظ عن معاوية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليس من يوم يأتي على العبد الا ينادي فيه يا ابن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل عليك شاهد فاعمل في خيرا أشهد لك به غدا فاني اذا مضيت لم ترني أبدا ويقول الليل مثل ذلك حديث غريب وحكى القشيري عن عمر أن الشاهد يوم الاضحى وقال ابن المسيب الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفة وروى عن علي الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم النحر وقال مقاتل أعضاء الانسان هي الشاهد لقوله تعالى يوم تشهد عليهم

ألسنتهم الآية وقال الحسين بن الفضل الشاهد هذه الامة والمشهود سائر الامم لقوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا الآية وقيل الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى انا أرسلناك شاهدا وقيل آدم وقيل الحفظة الشاهد والمشهود أولاد آدم وقيل غير ذلك وكل ذلك صحيح * واختلف في جواب القسم فقال الجلال المحلي جواب القسم محذوف صدره أي لقد (قتل) أي لعن (أصحاب الاخدود) وقال الزمخشري محذوف ويدل عليه قوله قتل أصحاب الاخدود وكأنه قيل أقسم بهذه الاشياء أنهم ملعونون يعني كفار قريش كما لعن أصحاب الاخدود فان السورة وردت لتثبيت المؤمنين على أذاهم وتذكيرهم بما جرى على من قبلهم واستظهر هذا البيضاوي والاخدود هو الشق المستطيل في الارض كالنهر وجمعه أخاديد واختلف فيهم فعن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك اني قد كبرت فابعث الي غلاما أعلمه السحر فبعث اليه غلاما وكان في طريقه اذا سلك اليه راهب فقعد اليه وسمع كلامه فأعجبه فكان اذا أتى الساحر مر بالراهب فقعد اليه فاذا أتى الساحر ضربه واذا رجع من عند الساحر قعد الى الراهب وسمع كلامه فاذا أتى أهله ضربوه فشكا الى الراهب فقال اذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي واذا خشيت اهلك فقل حبسني الساحر فبينما هو كذلك اذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال اليوم أعلم الراهب أفضل أم الساحر فأخذ حجرا ثم قال اللهم ان كان أمر الراهب أحب اليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى تمضي الناس فرماها فقتلها ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب أي بني انت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى وانك ستبلى فان ابتليت فلا تدل علي فكان الغلام يبرئ الاكمه والابرص ويداوي الناس من سائر الادواء فسمع جليس الملك وكان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال هذا لك أجمع ان أنت شفيتني فقال اني لا أشفي أحدا انما يشفي الله فان آمنت به دعوت الله تعالى فشفاك فآمن بالله فشفاه الله تعالى فأتى الملك فجلس اليه كما كان يجلس فقال له الملك من رد عليك بصرك قال ربي قال ولك رب غيري قال ربي وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فجيء بالغلام فقال له الملك أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الاكمه والابرص وتفعل وتفعل قال اني لا أشفي أحدا انما يشفي الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجيء بالراهب فقال ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ثم جيء بجليس الملك فقيل له ارجع عن دينك فأبى ففعل به كالراهب ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدفعه الى نفر من أصحابه وقال اذهبوا به الى جبل كذا فاصعدوا به فاذا بلغتم ذروته فان رجع عن دينه والا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللهم اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي الى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك فقال كفانيهم الله فدفعه الى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به فاحملوه في قرقور وتوسطوا به البحر فان رجع عن دينه والا فاقذفوه فذهبوا به فقال اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت السفينة بهم فغرقوا وجاء يمشي

الى الملك فقال له الملك مافعل أصحابك فقال كفانيهم الله تعالى فقال للملك انك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك قال وماهو قال تجمع الناس فى صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهما من كنانتي ثم ضع السهم فى كبد القوس وقل بسم الله رب الغلام ثم ارمني فانك اذا فعلت ذلك قتلتني فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته ووضع السهم فى كبد القوس ثم قال بسم الله رب الغلام ثم رماه فوقع السهم فى صدغه فوضع يده على صدغه موضع السهم فمات فقال الناس آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام ثلاثا فأتى الملك فقيل له أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس فأمر بالاخدود بأفواه السكك فخدت واضرم النيران وقال من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها أوقيل له اقتحم قال ففعلوا حتى جاءت امرأة معها صبي لها فتقاعست ان تقع فيها فقال الصبي يا أماه اصبري فانك على الحق فاقتحمت قال البغوي هذا حديث صحيح وقيل ان الصبي قال لها قعي ولا تقاعسي وقيل ماهي الاغميضة فصبرت وذكر محمد بن اسحق عن وهب بن منبه أن رجلا كان قد بقي على دين عيسى فوقع على نجران فأجابوه فسار اليه ذو نواس اليهودي بجنود من حمير وخيرهم بين النار واليهودية فأبوا عليه فخد الاخاديد وأحرق اثنى عشر ألفا فى الاخاديد وقيل سبعين ألفا ثم غلب ارياط على اليمن فخرج ذو نواس هاربا واقتحم البحر بفرسه فغرق قال الكلبي وذو نواس قتل عبد الله بن التامر رضى الله عنه وقال محمد بن اسحق عن عبد الله بن أبي بكر ان خربة احترقت فى زمن عمر فوجدوا عبد الله بن التامر واضعا يده على ضربة فى رأسه اذا اميطت يده عنها أنبعث دما واذا تركت ارتدت مكانها وفى يده خاتم من حديد فيه ربي الله فبلغ ذلك عمر فكتب ان أعيدوا عليه الذى وجدتم عليه * وعن ابن عباس قال كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس بن شرحبيل فى الفترة قبل أن يولد النبي صلى الله عليه وسلم بسبعين سنة وكان فى بلاده غلام يقال له عبد الله بن تامر وكان أبوه سلمه الى معلم يعلمه السحر فكره ذلك الغلام ولم يجد بدا من طاعة أبيه فجعل يختلف الى المعلم وكان فى طريقه راهب حسن الصوت فأعجبه ذلك وذكر قريبا من معنى حديث صهيب الى ان قال الغلام للملك انك لاتقدر على قتلي الا أن تفعل ما أقول قال فكيف اقتلك قال تجمع أهل مملكتك وأنت على سريرك فترميني بسهم على اسم الهي ففعل الملك فقتله فقال الناس لا اله الا اله عبد الله بن التامر لادين الادينه فغضب الملك وأغلق باب المدينة واخذ أفواه السكك واخذ أخدودا وملأه نارا ثم عرضهم رجلا رجلا فمن رجع عن الاسلام تركه ومن قال ديني دين عبد الله بن تامر ألقاه فى الاخدود وأحرقه وكان فى مملكته امرأة فأسلمت فيمن أسلم ولها أولاد ثلاثة أحدهم رضيع فقال لها الملك ارجعي عن دينك والا ألقيتك وأولادك فى النار فأبت فأخذ ابنها الاكبر فألقاه فى النار ثم قال لها ارجعي فأبت فأخذوا الصبي منها ليلقوه فى النار فهمت المرأة بالرجوع فقال لها الصبي يا أماه لاترجعي عن الاسلام فانك على الحق ولا بأس عليك فألقي الصبي فى النار وألقيت أمه على اثره * وعن علي أنهم حين اختلفوا فى أحكام المجوس قال هم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم وكانت الخمر قد أحلت لهم

قتنا ولهابعض ملوكهم فسكر فوقع على أخته فلما صحا ندم وطلب المخرج فقالت له المخرج ان تخطب الناس فتقول يا أيها الناس ان الله تعالى أحل لكم نكاح الاخوات ثم تخطبهم بعد ذلك أن الله تعالى حرمه فخطب فلم يقبلوا منه فقالت ابسط فيهم السوط فلم يقبلوا فأمرت بالاخاديد وايقاد النيران وطرح من أبى فيها فهم الذين أرادهم الله تعالى بقوله قتل أصحاب الاخدود وعن مقاتل كانت الاخاديد ثلاثة واحدة بنجران باليمن وأخرى بالشأم وأخرى بفارس حرقوا بالنار أما التى بالشأم فهو ابطاموس الرومى وأما التى بفارس فبختنصر وأما التى بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس فأما التى بفارس والشأم فلم ينزل الله تعالى فيهما قرآنا وأنزل فى التى كانت بنجران وذلك ان رجلا مسلما ممن يقرأ الانجيل أجر نفسه فى عمل وجعل يقرأ الانجيل فرأت بنت المستاجر النور يضىء من قراءة الانجيل فذكرت ذلك لابيها فرمقه فرآه فسأله فلم يخبره فلم يزل به حتى أخبره بالدين والاسلام فتابعه هو وسبعة وثمانون انسانا ما بين رجل وامرأة وهذا بعدما رفع عيسى عليه السلام الى السماء فسمع ذلك يوسف ذو نواس فخدلهم فى الارض وأوقد فيها فعرضهم على الكفر فمن أبى أن يكفر قذفه فى النار ومن رجع عن دين عيسى لم يقذفه وأن امرأة جاءت ومعها ولد صغير لا يتكلم فلما قامت على شفير الخندق نظرت الى ابنها فرجعت عن النار فضربت حتى تقدمت فلم تزل كذلك ثلاث مرات فلما كانت فى الثالثة ذهبت ترجع فقال لها ابنها يا أماه انى أرى أمامك نارا لا تطفأ فلما سمعت ذلك قذفا جميعا أنفسهما فى النار فجعلها الله وابنها فى الجنة فقذف فى النار فى يوم واحد سبعة وسبعون انسانا فذلك قوله تعالى قتل أصحاب الاخدود وقوله تعالى (النار) بدل اشتمال من الاخدود وقوله تعالى (ذات الوقود) وصف لها بأنها نار عظيمة لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وابدان الناس واللام فى الوقود للجنس وقوله تعالى (اذهم عليها قعود) ظرف لقتل أى لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها ومعنى عليها على ما يدنو منها من حافات الاخدود كقوله

وبات على النار الندى والمحلق * وكما تقول مررت عليه تريد مستعليا المكان الذى يدنو منه فكانوا يقعدون حولها على الكراسى وقال القرطبى عليها (وهم على ما يفعلون بالمؤمنين) بالله من تعذيبهم بالالقاء فى النار ان لم يرجعوا عن ايمانهم (شهود) أى يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به أو شهود بمعنى حضور اذ روى ان الله تعالى أنجى المؤمنين الملقين فى النار بقبض أرواحهم قبل وقوعهم فيها وخرجت النار الى القاعدين فأحرقتهم قال الرازى يمكن أن يكون المراد بأصحاب الاخدود القاتلين ويمكن أن يكون المراد بهم المقتولين والمشهور أن المقتولين هم المؤمنون وروى ان المقتولين هم الجبابرة روى انهم لما ألقوا المؤمنين فى النار عادت النار على الكفرة فأحرقتهم ونجى الله المؤمنين منها سالمين والى هذا القول ذهب الربيع بن أنس والواحدى وتأولوا قوله تعالى فلهم عذاب جهنم أى فى الآخرة ولهم عذاب الحريق أى فى الدنيا فان فسر أصحاب الاخدود بالقاتلين فيكون قوله تعالى قتل أصحاب الاخدود دعاء عليهم كقوله تعالى قتل الانسان ما أكفره وان فسر بالمقتولين كان المعنى

قوله وقال القرطبى عليها كذا فى جميع النسخ وفيه سقط فراجعه

ان المؤمنين قتلوا بالنار فيكون ذلك خبرا لا دعاء والمقصود من هذه الآية تثبيت قلوب المؤمنين واخبارهم بما كان يلقاه من قبلهم من الشدائد وذكر لهم النبي صلى الله عليه وسلم قصة الغلام ليصبروا على ما يلقون من أذى الكفار ليتأسوا بهذا الغلام في صبره على الأذى والصلب وبذل نفسه في اظهار دعوته ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وكذلك صبر الراهب على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار وكذلك أكثر الناس لما آمنوا بالله تعالى (وما نقموا) أي وما انكروا وكرهوا (منهم) من الخلات وكان ذنبا ونقصا (الا أن يؤمنوا) أي يجددوا الايمان مستمرين عليه (بالله) أي الذي له الكمال كله (العزيز) في ملكه الذي يغلب من أراد ولا يغلبه شيء (الحميد) أي المحيط بجميع صفات الكمال فهو يثيب من أطاعه أعظم ثواب وينتقم ممن عصاه بأشد العذاب وهذا استثناء على طريقة قول القائل

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

أي من ضرابها والكتائب بالتاء المثناة جمع كتيبة وهي الجيش وقال ابن الرقيات

ما نقموا من بني أمية الا أنهم يحلمون ان غضبوا

ونظيره قوله تعالى هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله * ولما ذكر تعالى الاوصاف التي يستحق بها أن يؤمن به ويعبد وهو كونه عزيزا غالبا قادرا يخشى عقابه حميدا منعما يجب الحمد على نعمه ويرجى ثوابه قرر ذلك بقوله تعالى (الذي له) أي خاصة (ملك السموات والارض) أي على جهة العموم مطلقا فكل من فيهما يحق عليه عبادته والخشوع له تقريرا لان ما نقموا منهم هو الحق الذي لا ينقمه الا مبطل منهمك في الغي وان الناقمين أهل لانتقام الله تعالى منهم بعذاب لا يعدله عذاب (والله) الملك الاعظم الذي له الاحاطة الكاملة (على كل شيء شهيد) فلا يغيب عنه شيء وهذا لان الله علم ما فعلوا وهو مجازيهم عليه * ولما ذكر قصة أصحاب الاخدود أتبعها ما يتفرع من أحكام الثواب والعقاب فقال تعالى (ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) أي أحرقوهم بالنار يقال فتنت الشيء اذا أحرقته والعرب تقول فتن فلان الدرهم والدينار اذا أدخله الكور لينظر جودته ونظيره يوم هم على النار يفتنون قال الرازي ويحتمل أن يكون المراد كل من فعل ذلك قال وهذا أولى لان اللفظ عام والحكم عام والتخصيص ترك للظاهر من غير دليل * ولما كانت التوبة مقبولة قبل الغرغرة ولو طال الزمان عبر سبحانه بأداة التراخي فقال تعالى (ثم لم يتوبوا) أي عن كفرهم وعما فعلوا (فلهم عذاب جهنم) أي بكفرهم (ولهم عذاب الحريق) أي عذاب احراقهم المؤمنين في الآخرة وقيل في الدنيا بأن خرجت النار فأحرقتهم كما تقدم ومفهوم الآية أنهم لو تابوا لخرجوا من هذا الوعيد وذلك يدل على أن الله تعالى يقبل التوبة من القاتل المتعمد خلاف ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما * ولما ذكر سبحانه وعيد المجرمين ذكر ما أعد للمؤمنين بقوله تعالى (ان الذين آمنوا) أي أقروا بالايمان من المقذوفين في النار وغيرهم من كل طائفة في كل زمان (وعملوا الصالحات) تحقيقا لايمانهم (لهم جنات) أي بساتين تفضلا منه تعالى (تجري من تحتها) أي تحت غرفها وأسرتها وجميع أماكنها (الانهار) يتلذذون ببردها

فى نظير ذلك الحر الذى صبروا عليه فى الدنيا ويزول عنهم برؤية ذلك مع خضرة الجنان بجميع المضار والاحزان (ذلك) أى الامر العالى الدرجة العظيم البركة (الفوز) أى الظفر بجميع المطالب (الكبير) وهو رضا الله تعالى لا دخول الجنة وقال تعالى ذلك الفوز ولم يقل تلك لان ذلك اشارة الى اخبار الله تعالى بحصول الجنان وتلك اشارة الى الجنة الواحدة واخبار الله تعالى عن ذلك يدل على كونه راضيا (ان بطش ربك) أى أخذ المحسن اليك المربى لك المدبر لامرك الجبابرة والظلمة (لشديد) كقوله تعالى وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد قال المبرد ان بطش ربك جواب القسم والبطش هو الاخذ بعنف فاذا وصف بالشدة فقد تضاعف * ولما كان هذا البطش لا يتأتى الا لكامل القدرة دل على كمال قدرته واختصاصه بذلك بقوله تعالى مؤكدا لماله من الانكار (انه هو) أى وحده (يبدئ) أى يوجد ابتداء أى خلق أراد الى أى هيئة أراد (ويعيد) أى ذلك المخلوق عند البعث وروى عكرمة قال عجب الكفار من أحياء الله تعالى الاموات أى فنزلت وقال ابن عباس رضى الله عنهما يبدئ لهم عذاب الحريق فى الدنيا ثم يعيده عليهم فى الآخرة وهذا اختيار الطبرى وقيل يبدئ البطش ويعيده فيبطش بهم فى الدنيا والآخرة أودل باقتداره على الابداء والاعادة على شدة بطشه أو أوعد الكفرة بأن يعيدهم كما بدأهم ليبطش بهم اذ لم يشكروا نعمة الابداء وكذبوا بالاعادة (وهو) أى وحده (الغفور) أى الستور لعباده المؤمنين وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بضمها وقوله تعالى (الودود) مبالغة فى الود قال ابن عباس رضى الله عنهما هو المتودد لعباده بالمغفرة وعن المبرد هو الذى لا ولد له وأنشد

وأركب فى الروع عريانة * ذلول الجماع لقاحا ودودا

أى لا ولد لها تحن اليه وقيل هو فعول بمعنى مفعول كالركوب والحلوب بمعنى المركوب والمحلوب وقيل يغفر ويود أن يغفر (ذو العرش) أى خالقه ومالكه أى ذو الملك والسلطان كما يقال فلان على سرير ملكه وان لم يكن على سرير ويقال ثل عرشه أى ذهب سلطانه أو السرير الدال على اختصاص الملك بالملك وانفراده بالتدبير والسيادة والسياسة الذى به قوام الامور وقرأ (المجيد) حمزة والكسائى بجر الدال على انه نعت للعرش أو لربك فى قوله تعالى ان بطش ربك قال مكى وقيل لا يجوز أن يكون نعتا للعرش لانه من صفات الله تعالى اه وهذا ممنوع لان مجد العرش علوه وعظمه كما قاله الزمخشرى وقد وصف العرش بالكريم فى آخر المؤمنين وقرأ الباقون برفع الدال على أنه خبر بعد خبر وقيل هو نعت لذو واستدل بعضهم على تعدد الخبر بهذه الآية ومن منع قال لانها فى معنى خبر واحد أى جامع بين هذه الاوصاف الشريفة أو كل منها خبر لمبتدا مضمر والمجد هو النهاية فى الكرم والفضل والله سبحانه موصوف بذلك وتقدم وصف عرشه بذلك (فعال) أى على سبيل التكرار والمبالغة (لما يريد) قال القفال أى يفعل ما يريد على ما يراه لا يعترض عليه أحد ولا يغلبه غالب فيدخل أولياءه الجنة لا يمنعه مانع ويدخل أعداءه النار لا ينصرهم منه ناصر ويمهل العصاة على ما يشاء الى أن يجازيهم ويعاجل بعضهم بالعقوبة اذا شاء

فهو يفعل ما يريد وعن أبي السفر دخل ناس من الصحابة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه يعودونه فقالوا ألا نأتيك بطبيب قال قد رآني قالوا فما ذا قال لك قال قال اني فعال لما أريد وقال الزمخشري فعال خبر مبتدأ محذوف وانما قال فعال لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة وقال الطبري رفع فعال وهو نكرة محضة على وجه الاتباع لاعراب الغفور الودود * (تنبيه) * دلت هذه الآية أن جميع أفعال العباد مخلوقة لله تعالى قال بعضهم ودلت على أن الله تعالى لا يجب عليه شيء لأنها دالة على أنه يفعل ما يريد (هل) أي قد (أتاك) أي يا أشرف الرسل (حديث) أي خبر (الجنود) أي الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم وقوله تعالى (فرعون وثمود) يجوز أن يكون بدلا من الجنود واستشكل كونه بدلا لانه لم يكن مطابقا للمبدل منه في الجمعية وأجيب بأنه على حذف مضاف أي جنود فرعون وأن المراد فرعون وقومه واستغنى بذكره عن ذكرهم لانهم أتباعه ويجوز أن يكون منصوبا باضمار أعني لانه لما لم يطابق ما قبله وجب قطعه والمعنى انك قد عرفت ما فعل الله تعالى بهم حين كذبوا رسلهم كيف هلكوا بكفرهم فقومك ان لم يؤمنوا بك فعل بهم كما فعل بهؤلاء فاصبر كما صبر الانبياء قبلك على أممهم (بل الذين كفروا) أي من هؤلاء الذين لا يؤمنون بك (في تكذيب) لك لا يرعوون عنه ومعنى الاضراب أن حالهم أعجب من حال هؤلاء فانهم سمعوا قصتهم ورأوا آثار هلاكهم وكذبوا أشد من تكذيبهم وانما خص فرعون وثمود لأن ثمود في بلاد العرب وقصتهم عندهم مشهورة وان كانوا من المتقدمين وأمر فرعون كان مشهورا عند أهل الكتاب وغيرهم وكان من المتأخرين في الهلاك فدل بهما على أمثالهما وقوله تعالى (والله) أي والحال ان الملك الذي له الكمال كله (من ورائهم محيط) وفيه وجوه أحدها أن المراد وصف اقتداره عليهم وأنهم في قبضته وحصره كالمحاط اذا أحيط به من ورائه بسد عليه مسلكه فلا يجد مهربا يقول الله تعالى فهم كذا في قبضتي وأنا قادر على اهلاكهم ومعاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم اياك فلا تجزع من تكذيبهم اياك فليسوا يفوتونني اذا أردت الانتقام منهم ثانيها أن يكون المراد من هذه الاحاطة قرب اهلاكهم كقوله تعالى وظنوا أنهم أحيط بهم فهو عبارة عن مشارفة الهلاك ثالثها انه تعالى محيط بأعمالهم أي عالم بها فيجازيهم عليها (بل هو) أي هذا القرآن الذي كذبوا به وهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (قرآن) أي جامع لكل منفعة جليلة بالغ الذروة العليا في كل شرف (مجيد) أي شريف وحيد في اللفظ والمعنى وليس كما زعم المشركون انه شعر وكهانة (في لوح) هو في الهواء فوق السماء السابعة وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال ان في صدر اللوح لا اله الا الله وحده دينه الاسلام ومحمد عبده ورسوله فمن آمن بالله عز وجل وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة قال واللوح لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والارض وعرضه ما بين المشرق والمغرب وحافتاه الدر والياقوت ودفتاه ياقوتة حمراء وقلمه نور وكلامه نور معقود بالعرش وأصله في حجر ملك وقرأ (محفوظ) بالرفع نافع على انه نعت لقرآن والباقون بالجر على انه نعت للوح وقال مقاتل اللوح المحفوظ عن يمين العرش وقال البغوي وهو أم الكتاب ومنه تنسخ الكتب محفوظ من الشياطين ومن الزيادة فيه

والنقصان وقول البيضاوي تبعا للزمخشري انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة البروج أعطاه الله تعالى بعدد كل يوم جمعة وكل يوم عرفة يكون في الدنيا عشر حسنات حديث موضوع

﴿سورة الطارق مكية﴾

وهي سبع عشرة آية واثنتان وسبعون كلمة ومائتان واحدى وسبعون حرفا

(بسم الله) مالك الخلق أجمعين (الرحمن) الذي عم جوده المؤمنين والكافرين (الرحيم) الذي وخص رحمته بعباده المؤمنين وقوله تعالى (والسماء والطارق) قسم أقسم الله تعالى به وقد أكثر الله تعالى في كتابه العزيز ذكر السماء والشمس والقمر لان أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة * ولما كان الطارق يطلق على غير النجم أبهمه أولا ثم عظم القسم به بقوله تعالى (وما أدراك) أي أعلمك يا أشرف خلقنا وان حاولت معرفة ذلك وبالغت في الفحص عنه (ما الطارق) وهذا مبتدأ وخبر في محل المفعول الثاني لأدرى وما بعد ما الاولى خبرها وفيه تعظيم لشأن الطارق وأصله كل آت ليلا ومنه النجوم لطلوعها ليلا وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وشعبة وابن ذكوان بخلاف عنه بالامالة محضة وقرأ ورش بين اللفظين والباقون بالفتح ثم فسر الطارق بقوله تعالى (النجم الثاقب) أي المضيء لثقبه الظلام بضوئه فينفذ فيه كما قيل دري لانه يدرؤه أي يدفعه والمراد جنس النجوم أو جنس الشهب التي يرجم بها وقال محمد بن الحسين هو زحل وقال ابن زيد هو الثريا وقال ابن عباس رضي الله عنهما هو الجدي وقال علي هو نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم فاذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها ثم يرجع الى مكانه من السماء السابعة فهو طارق حين ينزل وحين يرجع وفي الصحاح الطارق النجم الذي يقال له كوكب الصبح قال الماوردي وأصل الطرق الدق ومنه سميت المطرقة وسمي النجم طارقا لانه يطرق الجني أي يقتله روى أن أبا طالب أتى النبي صلى الله عليه وسلم بخبز ولبن فبينما هو جالس يأكل اذ انحط نجم فامتلأت الارض نورا ففزع أبو طالب وقال أي شيء هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا نجم رمي به وانه آية من آيات الله تعالى فعجب أبو طالب فنزلت السورة وقال مجاهد الثاقب المتوهج وجواب القسم (ان كل نفس) أي من الانفس مطلقا لاسيما نفوس الناس (لما عليها) أي بخصوصها (حافظ) وقرأ ابن عامر وعاصم بتشديد الميم والباقون بتخفيفها فعلى تخفيفها تكون ما مزيدة وان مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي انه واللام فارقة وعلى تشديدها فان نافية * ولما بمعنى الا والحافظ هو المهيمن الرقيب وهو الله تعالى وكان الله على كل شيء رقيبا وكان الله على كل شيء مقيتا أو ملك يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكسب من خير وشر وروى الزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه كما يذب أحدكم عن قصعة العسل الذباب ولو وكل العبد الى نفسه طرفة عين اختطفته الشياطين * ولما ذكر تعالى أن على كل نفس حافظا أتبعه بوصية الانسان بالنظر في حاله فقال تعالى (فلينظر الانسان) أي الآنس بنفسه الناظر في عطفه نظرا اعتبار في أمره ونشأته

الاولى حتى يعلم أن من أنشأه قادر على اعادته فيعمل ليوم الاعادة والجزاء ولا يملى على حافظه الاما يسره فى عاقبته وقوله تعالى (مم خلق) استفهام أى من أى شئ وجوابه (خلق) أى الانسان على أيسر وجه وأسهله بعد خلق أبيه آدم عليه السلام من تراب وأمه حواء رضى الله تعالى عنهما من ضلعه (من ماء دافق) أى مدفوق فاعل بمعنى مفعول كقوله تعالى عيشة راضية أو دافق على النسب أى ذى دفق أو اندفاق وقال ابن عطية يصح أن يكون الماء دافقا لأن بعضه يدفق بعضا أى يدفعه فمنه دافق ومنه مدفوق والدفق الصب أى مصبوب فى الرحم ولم يقل تعالى من ماءين فانه من ماء الرجل وماء المرأة لأن الولد مخلوق منهما لامتزاجهما فى الرحم فصارا كالماء الواحد واتحادهما حين ابتدئ فى خلقه (يخرج من بين الصلب) أى للرجل وهو عظام الظهر (والترائب) أى للمرأة جمع تريبة وهى عظام الصدر حيث تكون القلادة وعن عكرمة الترائب ما بين ثدييها وقيل الترائب التراقى وقيل أضلاع الرجل التى أسفل الصدر وحكى الزجاج أن الترائب أربعة أضلاع من يمنة الصدر وأربعة أضلاع من يسرة الصدر وقال ابن عادل جاء فى الحديث أن الولد يخلق من ماء الرجل يخرج من صلبه العظم والعصب ومن ماء المرأة يخرج من ترائبها اللحم والدم وحكى القرطبى أن ماء الرجل ينزل من الدماغ ثم يجتمع فى الانثيين وهذا لا يعارضه قوله تعالى من بين الصلب والترائب لانه ينزل من الدماغ الى الصلب ثم يجتمع فى الانثيين قال المهدوى ومن جعل يخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة فالضمير للانسان والضمير فى قوله تعالى (انه) للخالق المدلول عليه بخلق لانه معلوم أن لا خالق سواه سبحانه وتعالى وفى الضمير فى قوله تعالى (على رجعه) وجهان أحدهما انه ضمير الانسان أى بعثه بعد موته (لقادر) وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما والثانى انه ضمير الماء أى يرجع المنى فى الاحليل أو الصلب وهذا قول مجاهد وعن الضحاك أن المعنى انه على رد الانسان من الكبر الى الشباب ومن الشباب الى الكبر وقال ابن زيد انه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر وقال الماوردى يحتمل انه قادر على أن يعيده الى الدنيا بعد بعثه الى الآخرة لأن الكفار يسألون فيها الرجعة وقوله تعالى (يوم) منصوب برجعه ومن يجعل الضمير فى رجعه للماء وفسره برجعه الى مخرجه من الصلب والترائب أو الاحليل وحاله الاولى نصب الظرف بمضمر أى واذكر يوم (تبلى) تختبر وتكشف (السرائر) أى ما أسر فى القلوب من العقائد والنيات وغيرهما وما أخفى من الاعمال وذلك يوم القيامة وبلاؤها تعرفها وتصفحها والتمييز بين ما طاب منها وما خبث وعن الحسن انه سمع رجلا ينشد

سيبقى لها فى مضمر القلب والحشا * سريرة ود يوم تبلى السرائر

فقال ما أغفله عما فى والسماء والطارق وقال عطاء بن رباح ان السرائر فرائض الاعمال كالصوم والصلاة والوضوء والغسل من الجنابة فانها سرائر بين الله تعالى وبين العبد ولو شاء العبد لقال صمت ولم يصم وصليت ولم يصل واغتسلت ولم يغتسل فيختبر حتى يظهر من أداها ممن ضيعها وقال ابن عمر يبدى الله تعالى كل سر فيكون زينا فى وجوه وشينا فى وجوه يعنى فمن أداها كان وجهه مشرقا ومن لم يؤدها كان وجهه أغبر (فماله) أى لهذا الانسان المنكر للبعث الذى

أخرجت سرائره * وأعرق فى النفى والتعميم فقال تعالى (من قوة) أى منعة فى نفسه يمتنع بها (ولا ناصر) أى ينصره من عذاب الله تعالى فيدفعه عنه ثم ذكر تعالى قسما آخر فقال تعالى (والسماء) أى التى تقدم الاقسام بها وصفها بما يؤكد العلم بالبعث فقال تعالى (ذات الرجع) أى التى ترجع بالدوران الى الموضع الذى تتحرك عنه فترجع الاحوال التى كانت وتصرمت من الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب والفصول من الشتاء وما فيه من برد ومطر والصيف وما فيه من حر وصفاء وسكون وغير ذلك وقيل ذات النفع وقيل ذات الملائكة الرجوعهم فيها بأعمال العباد وقيل ذات المطر لعوده كل حين أولما قيل من ان السحاب تحمل الماء من البحار ثم ترجعه الى الارض وعلى هذا يجوز أن يراد بالسماء السحاب (والارض) أى مسكنكم الذى أنتم ملابسوه ومعاينوه كل وقت (ذات الصدع) أى تتصدع عن النبات والشجر والثمار والانهار والعيون نظيره قوله تعالى ثم شققنا الارض شقا الآية والصدع بمعنى الشق لانه يصدع الارض فتنصدع به فكأنه قال تعالى والارض ذات النبات وقال مجاهد ذات الطرق التى تصدعها المشاة وقيل ذات الحرث لانه يصدعها وقيل ذات الاموات لاصداعهم عنها للنشور قال الرازى واعلم انه تعالى كما جعل كيفية خلقة الحيوان دليلا على معرفة المبدا والمعاد ذكر فى هذا القسم كيفية خلقة النبات فقوله تعالى والسماء ذات الرجع كالاب وقوله تعالى والارض ذات الصدع كالام وكلاهما من النعم العظام لان نعم الدنيا موقوفة على ما ينزل من السماء مكررا وعلى ما ينبت من الارض كذلك ثم أردف هذا القسم بالمقسم عليه وهو قوله تعالى (انه لقول فصل) وفى هذا الضمير قولان أحدهما ما قاله القفال وهو أن المعنى ان ما أخبرتكم به من قدرتى على احيائكم يوم تبلى السرائر قول فصل وحق والثانى انه عائد على القرآن أى القرآن فاصل بين الحق والباطل كما قيل له فرقان قال الرازى والاول أولى لان عود الضمير الى المذكور السالف أولى انتهى وأكثر المفسرين على الثانى والفصل الحكم الذى ينفصل به الحق من الباطل ومنه فصل الخصومات وهو قطعها بالحكم الجزم ويقال هذا قول فصل قاطع للشر والنزاع معناه جد لقوله تعالى (وما هو) أى فى باطنه ولا ظاهره (بالهزل) أى باللعب والباطل بل هو جد كله لا هوادة فيه ومن حقه وقد وصفه الله تعالى بذلك أن يكون مهيبا فى الصدور معظما فى القلوب يترفع به قارئه وسامعه أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح وأن يلقى ذهنه الى أن جبار السموات والارض يخاطبه فيأمره وينهاه ويعده ويوعده حتى ان لم يستفزه الخوف ولم تتبالغ فيه الخشية فأدنى أمره أن يكون جادا غير هازل فقد نفى الله تعالى عن المشركين ذلك فى قوله تعالى وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون والغوا فيه هذا على عود الضمير للقرآن وعلى جعله للاول فيكون الشخص خائفا وجلا من ذلك الذى تبلى فيه السرائر (انهم) أى الكفار أعداء الله تعالى (يكيدون كيدا) أى يمكرون بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكرا واختلف فى ذلك الكيد فقيل القاء الشبهات كقولهم ان هى الا حياتنا الدنيا من يحيى العظام وهى رميم أجعل الآلهة الها واحدا وما أشبه ذلك وقيل قصدهم قتله لقوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا

الآية

الآية وأما قوله تعالى (وأكيد) أى أنا بانتقام اقتدارى (كيدا) فاختلف فيه أيضا فقيل معناه أجازيهم جزاء كيدهم وقيل هو ما أوقع الله تعالى بهم يوم بدر من القتل والاسر وقيل استدراجهم من حيث لا يعلمون وقيل كيد الله تعالى لهم بنصره وإعلاء درجته تسمية لاحد المتقابلين باسم الآخر كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وقول الشاعر

الا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وكقوله تعالى نسوا الله فنسيهم يخادعون الله وهو خادعهم * ولما كان هذا معلما بأنهم عدم لا اعتبار بهم قال تعالى مسببا عنه تهديدا لهم (فمهل الكافرين) أى فمهل يا أشرف الخلق هؤلاء البعداء ولا تستعجل بالانتقام منهم ولا بالدعاء عليهم باهلاكهم فانا لا نعجل لان العجلة وهي ايقاع الشئ فى غير وقته الا ليق به نقص وقوله تعالى (أمهلهم) تأكيد حسنه مخالفة اللفظ أى أنظرهم (رويدا) أى قليلا وهو مصدر مؤكد لمعنى العامل مصغر رودا وارواد على الترخيم وقد أخذهم الله تعالى ببدر ونسخ الامهال بالامر بالجهاد والقتال وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الطارق أعطاه الله تعالى بعدد كل نجم فى السماء عشر حسنات حديث موضوع

(سورة الاعلى مكية)

فى قول الجمهور وقال الضحاك مدنية قال النووى وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحبها لكثرة ما اشتملت عليه من العلوم والخيرات وهى تسع عشرة آية واثنتان وسبعون كلمة ومائتان وأربعة وثمانون حرفا

(بسم الله) عالم الغيب فلا تخفى عليه خافية (الرحمن) الذى عم جوده كل انس وجن وملك ودابة (الرحيم) الذى خص أولياءه بعرفتهم احسانه * واختلف فى قوله سبحانه وتعالى (سبح اسم ربك) فالاكثرون على ان المعنى نزه ربك المحسن اليك بعدا يجادلك على صفة الكمال عما لا يليق به فاسم زائد كقول لبيد * الى الحول ثم اسم السلام عليكما * وقيل عظم ربك (الاعلى) والاسم زائد كما مر قصد به تعظيم المسمى وذكر الطبرى ان المعنى نزه اسم ربك الاعلى عن أن تسمى به أحدا سواه وقيل نزه تسمية ربك وذكرك اياه أن تذكره الا وأنت خاشع معظم لذكره وقال الرازى معنى سبح اسم ربك الاعلى أى نزهه عن كل ما لا يليق به فى ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه أما فى ذاته فان تعتقد أنها ليست من الجواهر والاعراض وأما فى صفاته فان تعتقد أنها ليست محدثة ولا متناهية ولا ناقصة وأما فى أفعاله فان تعتقد أنه سبحانه مالك مطلق لا اعتراض لاحد عليه فى أمر من الامور وأما فى أسمائه فأن لا تذكره سبحانه الا بالاسماء التى لا توهم نقصا بوجه من الوجوه سواء ورد الاذن فيها أم لم يرد وأما فى أحكامه سبحانه فأن تعلم أنه ما كلفنا لنفع يعود اليه بل لمحض المالكية قال البغوى ويحتج بهذا من يجعل الاسم والمسمى واحدا لان أحدا لا يقول سبحان الله وسبحان اسم ربنا انما يقول سبحان الله وسبحان ربنا فكان معنى سبح اسم

وربك سبح ربك اه وكون الاسم عين المسمى أو غيره قد ذكرتهما في مقدمتي على البسملة والحمدلة وعن ابن عباس رضي الله عنهما سبح أي صل بأمر ربك وذهب جماعة من الصحابة والتابعين على ان المراد قل سبحان ربي الاعلى وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سبح اسم ربك الاعلى فقال سبحان ربي الاعلى وعن عقبة بن عامر انه لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اجعلوها في ركوعكم ولما نزل سبح اسم ربك الاعلى قال اجعلوها في سجودكم وروى انه صلى الله عليه وسلم كان يقول ذلك وروى ان أول من قال سبحان ربي الاعلى ميكائيل * ولما أمر تعالى بالتسبيح فكان سائلا قال الاشتغال بالتسبيح انما يكون بعد المعرفة فما الدليل على وجود الرب تعالى فقال تعالى (الذى خلق) أي اوجد من العدم فله صفة الايجاد لكل ما اراده لا يعسر عليه شئ (فسوّى) اى مخلوقه وقال الرازي يحتمل ان يريد الناس خاصة ويحتمل ان يريد الحيوان ويحتمل ان يريد كل شئ خلقه تعالى فمن حمله على الانسان ذكر للتسوية وجوها أحدها اعتدال قامته وحسن خلقه كما قال تعالى لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم وأثنى على نفسه بسبب خلقه اياه بقوله تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين ثانيها كل حيوان مستعد لنوع واحد من الاعمال فقط وأما الانسان فانه خلق بحيث يمكنه أن يأتي بجميع الاعمال بواسطة الآلات ثالثها انه تعالى هيأه للتكليف والقيام بأداء العبادات وقال بعضهم خلق في أصلاب الآباء وسوّى في أرحام الامهات ومن حمله على جميع الحيوانات فمعناه انه أعطى كل حيوان ما يحتاج اليه من الآلات والاعضاء ومن حمله على جميع المخلوقات كان المراد من التسوية هو انه تعالى قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات يخلق ما أراد على وفق ارادته موصوفا بالاحكام والاتقان مبرأ عن النقص والاضطراب وقرأ (والذى قدر) الكسائي بتخفيف الدال والباقون بالتشديد قال البغوي وهما بمعنى واحد أي أوقع تقديره في أجناس الاشياء وأنواعها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها وغير ذلك من أحوالها فجعل البطش لليد والمشي للرجل والسمع للاذن والبصر للعين ونحو ذلك (فهدى) قال مجاهد هدى الانسان لسبيل الخير والشر والسعادة والشقاوة وهدى الانعام لمراعيها وقال مقاتل والكلبي في قوله تعالى فهدى عرف خلقه كيف يأتي الذكر الانثى كما قال تعالى في سورة طه أعطى كل شئ خلقه ثم هدى أي الذكر للانثى وقال عطاء جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له وقيل قدر أقواتهم وأرزاقهم وهداهم لمعاشهم ان كانوا اناسا ولمراعيهم ان كانوا وحوشا وقال السدّي قدر مدة الجنين في الرحم ثم هداه الى الخروج من الرحم ومن ذلك هدايات الانسان الى مصالحه من أغذيته وأدويته وأمور دنياه ودينه والهامات البهائم والطيور وهوام الارض الى معايشها ومصالحها يقال ان الافعى اذا أتى عليها ألف سنة عميت وقد ألهمها الله تعالى أن تمسح عينيها بورق الرازيانج الغض فيرد اليها بصرها فربما كانت في برية بينها وبين الريف مسيرة أيام فتطوى تلك المسافة على طولها وعماها حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها فتحك بها عينيها فترجع باصرة باذن الله تعالى وقيل فهدى اى دلهم بافعاله على توحيده وكونه عالما قادرا

والاستدلال

والاستدلال بالخلق والهداية معتمد الانبياء قال ابراهيم عليه السلام الذى خلقنى فهو يهدين وقال موسى عليه السلام لفرعون ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى * ولما ذكر سبحانه ما يختص بالناس اتبعه ما يختص بالحيوان فقال تعالى (والذى أخرج المرعى) أى أنبت ما ترعاه الدواب وقال ابن عباس رضى الله عنهما المرعى الكلأ الاخضر (فجعله) أى بعد أطوار من زمن اخراجه بعد خضرته (غثاء) أى جافا هشيما (أحوى) اى أسود يابسا قال الزمخشرى ويجوز أن يكون أحوى حالا من المرعى أى أخرجه أحوى أى اسود من شدة الخضرة والرى فجعله غثاء بعد حويه وقال ابن زيد هذا مثل ضربه الله تعالى للكفار لذهاب الدنيا بعد نضارتها وقوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى) بشارة من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم باعطاء آية بينة وهى أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحى وهو أمى لا يكتب ولا يقرأ فيحفظه ولا ينساه فهو نفى أخبر الله تعالى أن نبيه صلى الله عليه وسلم لا ينسى وقيل نهى والالف مزيدة للفاصلة كقوله تعالى السبيلا أى فلا تغفل قراءته وتكريره لئلا تنساه ومنعه مكى لانه لا ينهى عما ليس باختياره (وأجيب) بأن هذا غير لازم اذ المعنى النهى عن تعاطى أسباب النسيان وهو شائع قال الرازى وهذه الآية تدل على المعجزة من وجهين الاول انه كان رجلا أميا فحفظه لهذا الكتاب المطول من غير دراسة ولا تكرار خارق للعادة فيكون معجزا الثانى ان هذه السورة من أول ما نزل بمكة فهذا اخبار عن أمر عجيب مخالف للعادة سيقع فى المستقبل وقد وقع فكان هذا اخبارا فيكون معجزا وفى المشيئة فى قوله تعالى (الا ما شاء الله) أى الملك الذى له الامر كله وجوه أحدها التبرك بهذه الكلمة كقوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله فكأنه تعالى يقول انى عالم بجميع المعلومات وعالم بعواقب الامور على التفصيل ومع ذلك لا أخبر بوقوع شئ فى المستقبل الا مع هذه الكلمة فأنت وأمتك يا أشرف الخلق أولى بها ثانيها قال الفراء انه تعالى ما شاء أن ينسى محمدا صلى الله عليه وسلم شيأ الا ان المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان انه تعالى لو أراد أن يصيره ناسيا لذلك لقدر عليه كقوله تعالى ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك ثم انا نقطع انه تعالى ما شاء ذلك ونظيره قوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك مع انه صلى الله عليه وسلم ما أشرك البتة ففائدة هذا الاستثناء ان الله تعالى يعرفه قدرته حتى يعلم ان عدم النسيان من فضل الله تعالى واحسانه لا من قوته ثالثها ان الله تعالى لما ذكر هذا الاستثناء جوز صلى الله عليه وسلم فى كل ما ينزل عليه من الوحى أن يكون ذلك هو المستثنى فلا جرم بالغ فى التثبت والتحفظ فى جميع المواضع فكان المقصود من ذكر الاستثناء بقاءه صلى الله عليه وسلم على التيقظ فى جميع الاحوال رابعها أن ينساه بنسخ تلاوته وحكمه وكان صلى الله عليه وسلم يجهر بالقراءة مع قراءة جبريل عليه السلام خوف النسيان فكأنه قيل له لا تعجل بها انك لا تنسى ولا تتعب نفسك بالجهر بها (انه) أى الذى مهما شاء كان (يعلم الجهر) أى القول والفعل (وما يخفى) أى منهما وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما فى قلبك ونفسك وقال محمد بن حاتم يعلم اعلان الصدقة واخفاءها وقيل الجهر ما حفظته من القرآن فى صدرك وما يخفى ما نسخ من صدرك وقوله تعالى (ونيسرك

لليسرى) عطف على سنقرئك فهو داخل في حيز التنفيس وما بينهما من الجملة اعتراض قال الضحاك واليسرى هي الشريعة اليسرى وهي الحنيفية السهلة وقال ابن مسعود اليسرى الجنة أي نيسرك الى العمل المؤدي الى الجنة وقيل اليسرى الطريقة اليسرى وهي أعمال الخير والامر في قوله تعالى (فذكر) للنبي صلى الله عليه وسلم أي فذكر بالقرآن (ان نفعت الذكرى) أي الموعظة وان شرطية وفيه استبعاد لتذكرهم ومنه قول القائل

لقد أسمعت لو ناديت حيا * ولكن لاحياة لمن تنادي

ولانه صلى الله عليه وسلم قد استفرغ مجهوده في تذكيرهم وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى الاعتوا وطغيانا وكان صلى الله عليه وسلم يتلظى حسرة وتلهفا ويزداد جهدا في تذكيرهم وحرصا عليه فقيل ان نفعت الذكرى وذلك بعد الزام الحجة بتكرير التذكير وقيل ان بمعنى اذ كقوله تعالى وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين أي اذ كنتم مؤمنين وقيل بعده شيء محذوف تقديره ان نفعت الذكرى وان لم تنفع كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر أي والبرد قاله الفراء والنحاس وقيل ان بمعنى ما لا بمعنى الشرط لان الذكرى باقية بكل حال * ثم بين تعالى من تنفعه الذكرى بقوله سبحانه (سيذكر) أي بوعد لا خلف فيه (من يخشى) أي يخاف الله تعالى فهي كآية فذكر بالقرآن من يخاف وعيد وان كان النبي صلى الله عليه وسلم يجب عليه تذكيرهم نفعتهم الذكرى أم لم تنفعهم وقال ابن عباس نزلت في ابن أم مكتوم وقيل في عثمان بن عفان قال الماوردي وقد تذكر من يرجوه الا أن تذكر الخاشع أبلغ فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء وقال القشيري المعنى عمم أنت بالتذكير والوعظ وان كان الوعظ انما ينفع من يخشى ولكن يحصل لك ثواب الدعاء (فان قيل) التذكير انما يكون بشيء قد علم وهؤلاء لم يزالوا كفارا معاندين (أجيب) بأن ذلك لظهوره وقوة دليله كأنه معلوم لكنه يزول بسبب التقليد والفساد * (تنبيه) * السين في قوله تعالى سيذكر يحتمل أن تكون بمعنى سوف وسوف من الله تعالى واجب كقوله تعالى سنقرئك فلا تنسى ويحتمل أن يكون المعنى ان من خشي فانه يتذكر وان كان بعد حين بما يستعمله من التدبر والنظر * ولما بين تعالى من ينتفع بالذكرى بين من لا ينتفع بها بقوله تعالى (ويتجنبها) أي الذكرى أي يتركها جانبا لا يلتفت اليها (الاشقى الذي يصلى النار) وهو الكافر (فان قيل) الاشقى يستدعي وجود شقي فكيف قال هذا القسم (أجيب) بأن لفظ الاشقى من غير مشاركة كقوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا وقوله تعالى وهو أهون عليه وقال الرازي الفرق ثلاثة العارف والمتوقف والمعاند فالسعيد هو العارف والمتوقف له بعض الشقاوة والاشقى هو المعاند وقال الزمخشري الاشقى هو الكافر لانه أشقى من الفاسق أو الذي هو أشقى الكفرة لتوغله في معاداة النبي صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة وعقبة بن ربيعة واختلف في قوله تعالى (الكبرى) أي العظمى على وجوه أحدها قال الحسن هي نار جهنم والصغرى نار الدنيا ثانيها ان في الآخرة نيرانا ودركات متفاضلة فكما ان الكافر أشقى العصاة فكذلك يصلى أعظم النيران ثالثها ان النار الكبرى هي النار السفلى فهي نصيب

الكفار كما قال تعالى ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار (فان قيل) قوله تعالى (ثم لا يموت فيها ولا يحيى) يقتضي ان ثم حالة غير الحياة والموت وذلك غير معقول (أجيب) عن ذلك بوجهين أحدهما لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه كما قال تعالى لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها وهذا جاء على مذهب العرب يقولون للمبتلى بالبلاء الشديد لا هو حي ولا هو ميت ثانيهما ان نفس أحدهم في النار في حلقة لا تخرج فيموت ولا ترجع الى موضعها فيحيا *(تنبيه)* قوله تعالى ثم للتراخي بين الرتب في الشدة * ولما ذكر تعالى وعيد من أعرض عن النظر في دلائل الله تعالى أتبعه بالوعد لضده فقال تعالى (قد أفلح) أي فاز بكل مراد (من تزكى) أي تطهر من الكفر بالايمان لما روى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قد أفلح من تزكى أي شهد أن لا اله الا الله وخلع الانداد وشهد أني رسول الله وقيل تطهر للصلاة وأدى الزكاة (وذكر اسم ربه) أي بقلبه ولسانه مكبرا (فصلى) أي الصلوات الخمس قال الزمخشري وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح وعلى أنها ليست من الصلاة لان الصلاة معطوفة عليها وقال قتادة تزكى عمل صالحا وعن عطاء نزلت في صدقة الفطر قال ابن سيرين قد أفلح من تزكى قال خرج فصلى بعدما أدى زكاة الفطر وصلى صلاة العيد قال بعضهم لا أدري ما وجه هذا التأويل فان هذه السورة مكية ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر وأجاب البغوي بأنه يجوز أن يكون النزول سابقا على الحكم كقوله تعالى وأنت حل بهذا البلد والسورة مكية وظهر أثر الحل يوم الفتح قال صلى الله عليه وسلم أحلت لي ساعة من نهار وقيل المراد زكاة الاعمال لا زكاة الاموال أي زكى أعماله من الرياء والتقصير وروى عن عطاء أنه قال ان هذه الآية نزلت في عثمان وذلك انه كان بالمدينة منافق له نخلة مائلة الى دار رجل من الانصار اذا هبت الريح تساقط منها بسر ورطب في دار الانصاري فيأكل هو وعياله من ذلك فخاصمه المنافق فذكر الانصاري ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأرسل خلف المنافق وهو لا يعلم نفاقه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ان أخاك الانصاري ذكر ان بسرك ورطبك يقع في منزله فيأكل هو وعياله منه فهل لك أن أعطيك نخلة في الجنة بدلها قال أبيع عاجلا بآجل لا أفعل فذكروا ان عثمان قد أعطاه حائطا من نخل بدل نخلته يقول فيه قد أفلح من تزكى وفي المنافق ويتجنبها الاشقى وقال الضحاك نزلت في أبي بكر وقرأ (بل تؤثرون الحياة الدنيا) أبو عمرو بياء الغيبة والباقون بتاء الخطاب ومعناه على القراءة الاولى بل يؤثرون الاشقون وعلى القراءة الثانية بل تؤثرون أيها المسلمون الاستكثار من الدنيا الدنية بالعز الحاضر مع أنها شر وفانية اشتغالا بها لاجل حضورها كالحيوانات التي هي مقيدة بالمحسوسات على الاستكثار من الثواب (والآخرة) أي والحال ان الدار التي هي غاية القصد المبرأة عن العيب المنزهة عن الخروج عن الحكمة (خير) أي من الدنيا (وأبقى) لانها تشتمل على السعادة الجسمانية والروحانية والدنيا ليست كذلك فالآخرة خير من الدنيا ولان الدنيا لذاتها مخلوطة بالآلام والآخرة ليست كذلك ولان الدنيا فانية والآخرة باقية والباقي خير من الفاني وعن عمر

ما الدنيا فى الآخرة الا كنفجة أرنب وعن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية فقال أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة قلنا لا قال لان الدنيا أحضرت وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها وان الآخرة نعتت لنا وزويت عنا فأحببنا العاجل وتركنا الآجل والاشارة فى قوله تعالى (ان هذا لفى الصحف الاولى) الى قوله قد أفلح من تزكى الى قوله خير وأبقى أى هذا الكلام وارد فى تلك الصحف وقيل الى ما فى السورة كلها وهو رواية عكرمة عن ابن عباس وقال الضحاك ان هذا القرآن لفى الصحف الاولى ولم يرد ان هذه الالفاظ بعينها فى تلك الصحف وانما معناه ان معنى هذا الكلام فى تلك الصحف ثم بين تلك الصحف وهى المنزلة قبل القرآن بقوله تعالى (صحف ابراهيم) وقدمه لان صحفه أقرب الى الوعظ كما نطق به حديث أبى ذر (وموسى) وختم به لان الغالب على كتابه الاحكام والمواعظ فيه قليلة ومنها الزواجر البليغة كاللعن لمن خالف أوامر التوراة التى أعظمها البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وروى عن أبى بن كعب أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كم أنزل الله تعالى من كتاب فقال مائة وأربعة كتب منها على آدم عشر صحف وعلى شيث خمسون صحيفة وعلى اخنوخ وهو ادريس ثلاثون صحيفة وعلى ابراهيم عشر صحائف والتوراة والانجيل والزبور والفرقان وقيل فى صحف ابراهيم ينبغى للعاقل أن يكون حافظا للسانه عارفا بزمانه مقبلا على شانه وعن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الركعتين اللتين يوتر بعدهما بسبح اسم ربك الاعلى وقل يا أيها الكافرون وفى الوتر بقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وقرأ الاعلى فسوى فهدى المرعى أحوى فلا تنسى وما يخفى من يخشى الاشقى ولا يحيى من تزكى فصلى الدنيا وأبقى الاولى وموسى حمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش وأبو عمرو بين بين والفتح عن ورش قليل أما الاعلى الذى والاشقى الذى اذا وقف عليهما فالامالة وان وصلا فلا امالة والباقون بالفتح وقرأ الذكرى الكبرى أبو عمرو والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بين اللفظين والباقون بالفتح وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الاعلى أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله تعالى على ابراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام حديث موضوع

(سورة الغاشية مكية بالاجماع)

وهى ست وعشرون آية واثنان وتسعون كلمة وثلثمائة وواحدى وثمانون حرفا

(بسم الله) علام الغيوب (الرحمن) كاشف الكروب (الرحيم) الذى خص أولياءه بالعفو عن الذنوب وقوله سبحانه وتعالى (هل أتاك حديث الغاشية) فيه وجهان أحدهما ان هل بمعنى قد أى قد جاءك يا أشرف الخلق حديث الغاشية كقوله تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر قال قطرب والثانى انه استفهام على حاله وتسميه أهل البيان التشويق والمعنى ان لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك وهو معنى قول الكلبى والغاشية الداهية التى تغشى الناس

بشدائدها وتلبسهم أهوالها وهي القيامة من قوله يوم يغشاهم العذاب وقيل هي النار من قوله تعالى وتغشى وجوههم النار ومن فوقهم غواش وقيل المراد النفخة الثانية للبعث لانها تغشى الخلق وقيل الغاشية أهل النار يغشونها ويقتحمون فيها (وجوه) أي كثيرة جدا كائنة (يومئذ) أي يوم اذ غشيت (خاشعة) أي ذليلة من الخجل والفضيحة والخوف من العذاب والمراد بالوجوه في الموضعين أصحابها (عاملة ناصبة) أي ذات نصب وتعب قال سعيد بن جبير عن قتادة تكبرت في الدنيا عن طاعة الله تعالى فأعملها الله تعالى وأنصبها في النار بجر السلاسل الثقال وحمل الاغلال والوقوف حفاة عراة في العرصات في يوم كان مقداره ألف سنة وقال ابن مسعود تخوض في النار كما تخوض الابل في الوحل وقال الحسن لم تعمل لله في الدنيا ولم تنصب له فأعملها وأنصبها في جهنم وقال ابن عباس هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله تعالى على الكفر مثل عبدة الاوثان والرهبان وغيرهم لا يقبل الله تعالى منهم الا ما كان خالصا له وعن علي أنهم الخوارج الذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وأعمالكم مع أعمالهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية الحديث وقرأ (تصلى) أبو عمرو وشعبة بضم التاء الفوقية على ما لم يسم فاعله والباقون بفتحها على تسمية الفاعل والضمير على كلتا القراءتين للوجوه والمعنى تدخل (نارا حامية) أي شديدة الحر قد أحميت وأوقدت مدة طويلة ومنه حمي النهار بالكسر أي اشتد حره وحكى الكسائي اشتد حمي الشمس وحموها بمعنى قال صلى الله عليه وسلم أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة وقيل المصلى عند العرب أن يحفروا حفيرا فيجمعون فيه جمرا كثيرا ثم يعمدوا الى شاة فيدسوها وسطه فاما ما شوى فوق الجمر او على المقلى أو في التنور فلا يسمى مصليا * ولما بين تعالى مكانهم ذكر شرابهم فقال تعالى (تسقى من عين آنية) أي شديدة الحرارة كقوله تعالى من حميم آن أي متناه في الحرارة روى انه لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لاذابتها * ولما ذكر تعالى شرابهم أتبعه بذكر طعامهم فقال تعالى (ليس لهم طعام الا من ضريع) قال مجاهد هو نبت ذو شوك لاطئ بالارض تسميه قريش الشبرق فاذا هاج سموه الضريع وهو أخبث طعام وأبشعه قال الكلبي لا تقربه دابة اذا يبس وقال ابن زيد اما في الدنيا فان الضريع الشوك اليابس الذي ليس له ورق وهو في الآخرة شوك من نار وجاء في الحديث عن ابن عباس يرفعه الضريع شئ في النار يشبه الشوك أمر من الصبر وأنتن من الجيفة وأشد حرا من النار قال أبو الدرداء والحسن ان الله تعالى يرسل على أهل النار الجوع حتى يعدل عندهم ما هم فيه من العذاب فيستغيثون فيغاثون بالضريع ذي غصة فيذكرون انهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالماء فيستسقون فيعطشهم ألف سنة ثم يسقون من عين آنية لا هنيئة ولا مريئة فلما أدنوه من وجوههم سلخ جلود وجوههم وشواها فاذا وصل بطونهم قطعها فذلك قوله تعالى وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم قال بعض المفسرين فلما نزلت هذه

الآية قال المشركون ان ابلنا لتسمن على الضريع وكذبوا في ذلك فان الابل انما ترعاه مادام رطبا ويسمى شبرقا فاذا يبس لا يأكله شئ قال ذو يب يصف حمارا

رعى الشبرق الريان حتى اذا ذوى * وصار ضريعا بان عنه النحائص

والنحوص من الاتن التي لا لبن لها * ولما قالوا ذلك أنزل الله تعالى تكذيبا لهم (لا يسمن ولا يغنى) أى يكفى كفاية مبتداة (من جوع) فلا يحفظ الصحة ولا يمنع الهزال فنفى السمن والشبع عنه وعلى تقدير أن يصدقوا فيكون المعنى ان طعامكم من ضريع ليس من جنس ضريعكم انما هو ضريع غير مسمن ولا مغن من جوع (فان قيل) كيف قيل ليس لهم طعام الا من ضريع وفي الحاقة ولا طعام الا من غسلين (أجيب) بأن العذاب ألوان والمعذبون طبقات فنهم أكلة الزقوم ومنهم أكلة الغسلين ومنهم أكلة الضريع لكل باب منهم جزء مقسوم * ولما ذكر تعالى وعيد الكفار اتبعه بشرح أحوال المؤمنين فقال تعالى (وجوه يومئذ) أى يوم تغشى الناس ووصفها بصفات الاولى قوله تعالى (ناعمة) أى ذات بهجة وحسن كقوله تعالى تعرف في وجوههم نضرة النعيم أو متنعمة قال مقاتل في نعمة وكرامة الصفة الثانية قوله تعالى (لسعيها) أى في الدنيا بالاعمال الصالحة (راضية) أى في الآخرة بثواب سعيها حين رأت ما أداهم اليه من الكرامة الصفة الثالثة قوله تعالى (في جنة) ثم وصف الجنة بصفات الاولى قوله تعالى (عالية) أى علية المحل والقدر الصفة الثانية قوله تعالى (لا يسمع فيها لاغية) قرأ بالتاء الفوقية نافع مضمومة لاغية بالرفع وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء التحتية مضمومة لاغية بالرفع لقيامها مقام الفاعل والباقون بالتاء الفوقية مفتوحة لاغية بالنصب فيجوز أن تكون التاء للخطاب أى لا تسمع أنت وأن تكون للتأنيث أى لا تسمع الوجوه واللغو قال ابن عباس الكذب والبهتان والكفر بالله تعالى وقال قتادة لا باطل ولا اثم وقال الحسن هو الشتم وقال الفراء الحلف الكاذب والاولى كما قيل لا يسمع في كلامهم كلمة ذات لغو وانما يتكلمون بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم وهذا أحسن الاقوال قاله القفال وقال الكلبي لا يسمع في الجنة حالف بيمين لا برة ولا فاجرة الصفة الثالثة قوله تعالى (فيها) أى الجنة (عين جارية) قال الزمخشري يريد عيونا في غاية الكثرة كقوله تعالى علمت نفس وقال القفال فيها عين شراب جارية على وجه الارض في غير اخدود وتجرى لهم كما أرادوا الصفة الرابعة قوله تعالى (فيها سرر مرفوعة) أى عالية في الهواء قال ابن عباس ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعة في السماء مالم يجئ أهلها فاذا أرادوا أن يجلسوا عليها تواضعت ثم ترتفع الى مواضعها الصفة الخامسة قوله تعالى (وأكواب موضوعة) جمع كوب وهي الكيزان التي لا عرى لها قال قتادة فهي دون الابريق وفي قوله تعالى موضوعة وجوه أحدها انها معدة لاهلها كالرجل يلتمس من الرجل شيأ فيقول هو ههنا موضوع بمعنى معد ثانيها موضوعة على حافات العين الجارية كلما أرادوا الشرب وجدوها مملوءة من الشراب ثالثها موضوعة بين أيديهم لاستحسانهم اياها بسبب كونها من ذهب أو فضة أو من جواهر

وتلذذهم

وتلذذهم بالشرب فيها رابعها أن يكون المراد موضوعة عن حد الكبر أي هي أوساط بين الكبر والصغر كقوله قدروها تقديرا الصفة السادسة قوله تعالى (ونمارق) وهي الوسائد واحدها نمرقة بضم النون والراء وكسرهما لغتان أشهرهما الاولى وهي وسادة صغيرة قالت

نحن بنات طارق * نمشي على النمارق

(مصفوفة) أي واحدة الى جنب واحدة أخرى قال الشاعر

كهولا وشبانا حسانا وجوههم * لهم سرر مصفوفة ونمارق

الصفة السابعة قوله تعالى (وزرابي) وهي جمع زربية بفتح الزاي وكسرها لغتان مشهورتان وهي بسط عراض فاخرة وقال ابن عباس هي الطنافس التي لها خمل أي وبر رقيق واختلف في قوله تعالى (مبثوثة) فقال قتادة مبسوطة وقال عكرمة بعضها فوق بعض وقال الفراء كثيرة وقال القتيبي مفرقة في المجالس قال القرطبي وهذا أصح فهي كثيرة متفرقة ومنه قوله تعالى وبث فيهما من كل دابة * ولما ذكر تعالى أمر الدارين تعجب الكفار من ذلك فكذبوه وأنكروه فذكرهم الله تعالى صنعه وقدرته بقوله تعالى (أفلا ينظرون) أي المنكرون لقدرته سبحانه وتعالى على الجنة وما ذكر فيها والنار وما ذكر فيها أي نظر اعتبار (الى الابل) ونبه على أنه عجيب خلقها مما ينبغي أن تتوفر الدعاوى على الاستفهام والسؤال عنه بأداة الاستفهام فقال تعالى (كيف خلقت) أي خلقا عجيبا دالا على كمال قدرته وحسن تدبيره حيث خلقها للنهوض بالاثقال وجرها الى البلاد النائية فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر ثم تنهض بما حملت وسخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمتها لا تعارض ضعيفا ولا تنازع صغيرا وبرأها طوال الاعناق لتنوء بالاوقار وعن بعض الحكماء انه حدث عن البعير وبديع خلقه وقد نشأ في بلاد لا ابل بها فتفكر ثم قال يوشك أن تكون طوال الاعناق وحين أراد بها أن تكون سفائن البر صبرها على احتمال العطش حتى ان ظماءها لتصبر على عشر فصاعدا ليتأتى لها قطع البراري والمفاوز مع ما لها من منافع أخر ولذلك خصت بالذكر لبيان الآيات المبثوثة في الحيوانات التي هي أشرف المركبات وأكثرها صنعا ولانها أعجب ما عند العرب من هذا النوع لانها ترعى كل شئ نابت في البراري والمفاوز مما لا ترعاه سائر البهائم وعن سعيد بن جبير قال لقيت شريحا القاضي فقلت له أين تريد قال أريد الكناسة قلت وما تصنع بها قال انظر الى الابل كيف خلقت

(تنبيه) الابل اسم جمع واحده بعير وناقة وجمل ولا واحد لها من لفظها وقال المبرد الابل هنا القطع العظيمة من السحاب قال الثعلبي ولم أجد لذلك أصلا في كتب الأئمة وقال الماوردي وفي الابل وجهان أظهرهما انها الابل والثاني انها السحاب فان كان المراد بها السحاب فلما فيها من الآيات والدلالات الدالة على قدرته والمنافع العامة لجميع خلقه وان كان المراد بها الابل فلان الابل أجمع للمنافع من سائر الحيوانات لان ضروب الحيوان أربعة حلوبة وركوبة وأكولة وحمولة والابل تجمع هذه الخلال الاربع فكانت النعمة بها أعم وظهور القدرة فيها أتم وقيل للحسن الفيل أعظم في الاعجوبة فقال العرب بعيدة العهد بالفيل

ثم هو لا يؤذي كل لحمه ولا يركب ظهره ولا يحلب درّه (والى السماء) التي هي من جملة مخلوقاتنا (كيف رفعت) أي رفعا بعيدا بلا امساك وبغير عمد على ما لها من السعة والكبر والثقل والاحكام وما فيها من الكواكب والغرائب والعجائب (والى الجبال) أي الشامخة وهي أشد الارض (كيف نصبت) نصبا ثابتا فهي راسية لا تميل ولا تزول كما قال تعالى وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بكم (والى الارض) أي على سعتها (كيف سطحت) سطحا بتمهيد وتوطئة فهي مهاد للتقلب عليها واستدل بعضهم بذلك على أن الارض ليست بكرة قال الرازي وهو ضعيف لان الكرة اذا كانت في غاية العظمة تكون كل قطعة منها كالسطح (فان قيل) كيف حسن ذكر الابل مع السماء والجبال والارض ولا مناسبة (أجيب) بان من فسرها بالسحاب فالمناسبة ظاهرة وذلك على طريق التشبيه والمجاز ومن فسرها بالابل فالمناسبة بينها وبين السماء والارض والجبال من وجهين أحدهما ان القرآن نزل على العرب وكانوا يسافرون كثيرا ويسيرون عليها في أوديتهم وبواديهم مستوحشين ومنفردين عن الناس والانسان اذا انفرد أقبل على التفكر في الاشياء لانه ليس معه من يحادثه وليس هناك ما يشغل به سمعه وبصره فلا بد من أن يجعل دأبه التفكر فاذا تفكر في تلك الحال فأول ما يقع بصره على البعير الذي هو راكبه فيرى منظرا عجيبا وان نظر الى فوق لم ير غير السماء وان نظر يمينا وشمالا لم ير غير الجبال وان نظر الى تحت لم ير غير الارض فكانه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة والانفراد حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر ثانيهما ان جميع المخلوقات دالة على الصانع جلت قدرته الا أنها قسمان منها ما للشهوة فيه حظ كالوجه الحسن والبساتين النزهة والذهب والفضة فهذه مع دلالتها على الصانع قد يمنع استحسانها عن كمال النظر فيها ومنها ما لاحظ فيه للشهوة كهذه الاشياء فأمر بالنظر فيها اذ لا مانع من اكمال النظر فيها وقال عطاء عن ابن عباس كأن الله تعالى يقول هل يقدر أحد أن يخلق مثل الابل أو يرفع مثل السماء أو ينصب مثل الجبال أو يسطح مثل الارض غيري * ولما بين تعالى الدلائل على صحة التوحيد والمعاد قال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم (فذكر) أي بنعم الله تعالى ودلائل توحيده وعظهم بذلك وخوفهم بأشرف الخلق (انما أنت مذكر) فلا عليك أن لا ينظروا ولم يذكروا اوما عليك الا البلاغ كما قال تعالى ان عليك الا البلاغ (لست عليهم بمسيطر) أي بمسلط فتقتلهم وتكرههم على الايمان كقوله تعالى وما أنت عليهم بجبار وهذا قبل الامر بالجهاد وقرأ هشام بالسين وقرأ حمزة بخلاف عن خلف باشمام الصاد كالزاي والباقون بالصاد الخالصة وقوله تعالى (الا من تولى) استثناء منقطع أي لكن من تولى عن الايمان (وكفر) أي بالقرآن (فيعذبه الله) أي الذي له الكمال كله بسبب تكبره عن الحق ومخالفته لامرك (العذاب الاكبر) اى عذاب الآخرة لانهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والاسر وقيل استثناء متصل فان جهاد الكفار وقتلهم تسليط فكانه أوعدهم بالجهاد في الدنيا وعذاب النار في الآخرة وقيل هو استثناء من قوله تعالى فذكر الامن انقطع طمعك من ايمانه وتولى فاستحق العذاب

الاكبر

الاكبر وما بينهما اعتراض (ان الينا) أى خاصة بما لنا من العظمة (ايابهم) أى رجوعهم بعد البعث (ثم ان علينا) أى خاصة بما لنا من القدرة والتنزه عن نقص العيب والجور وكل نقص لا على غيرنا (حسابهم) أى جزاءهم فلا نتركه أبدا وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فانه كان يشق عليه تكذيبهم (فان قيل) ما معنى تقديم الظرف (أجيب) بأن معناه التشديد فى الوعيد وان ايابهم ليس الا الى الجبار المقتدر على الانتقام وان حسابهم ليس الا عليه وهو الذى يحاسب على النقير والقطمير وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ الغاشية حاسبه الله حسابا يسيرا حديث موضوع

(سورة الفجر مكية)

وقيل مدنية وهى تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية ومائة وتسع وثلاثون كلمة وخمسمائة وسبعة وتسعون حرفا

(بسم الله) الملك المعبود (الرحمن) الذى عم خلقه بالكرم والجود (الرحيم) الذى سدد أهل عنايته بفضله فهو الحليم الودود وقوله تعالى (والفجر) أى فجر كل يوم قسم كما أقسم بالصبح فى قوله تعالى والصبح اذا أسفر والصبح اذا تنفس وقال قتادة هو فجر أول يوم من المحرم تتفجر منه السنة وقال الضحاك فجر ذى الحجة وقيل ذلك على مضاف محذوف أى وصلاة الفجر وقيل ورب الفجر وتقدم ان الله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته واختلف فى قوله تعالى (وليال عشر) فقال مجاهد وقتادة هو عشر ذى الحجة وقال الضحاك هو العشر الاول من رمضان وعن ابن عباس انه العشر الاخير من رمضان وعن يمان بن رباب هو العشر الاول من المحرم التى عاشرها يوم عاشوراء ولصومه فضل عظيم (فان قيل) لم نكر الليالى من بين ما أقسم به (أجيب) بأن ذلك للتعظيم (والشفع) أى الزوج (والوتر) أى الفرد وقيل الشفع الخلق كلهم قال الله تعالى وخلقناكم أزواجا والوتر هو الله تعالى قاله أبو سعيد الخدرى وقال مجاهد ومسروق الشفع الخلق كله قال الله تعالى ومن كل شئ خلقنا زوجين الكفر والايمان والهدى والضلال والسعادة والشقاوة والليل والنهار والسماء والارض والبر والبحر والشمس والقمر والجن والانس والوتر هو الله تعالى قل هو الله أحد وقال قتادة هما الصلوات منها شفع ومنها وتر روى ذلك عن عمران بن حصين مرفوعا وعن ابن عباس الشفع صلاة الغداة والوتر صلاة المغرب وقال الحسين بن الفضل الشفع درجات الجنة لانها ثمان والوتر دركات النار لانها سبع دركات وسئل أبو بكر الوراق عن الشفع والوتر فقال الشفع تضاد أوصاف المخلوقين من العز والذل والقدرة والعجز والقوة والضعف والعلم والجهل والبصر والعمى والوتر انفراد صفات الله سبحانه وتعالى عز بلا ذل وقدرة بلا عجز وقوة بلا ضعف وعلم بلا جهل وحياة بلا موت وعن عكرمة الوتر يوم عرفة والشفع يوم النحر واختاره النحاس وقال هو الذى صح عن النبى صلى الله عليه وسلم فيوم عرفة وتر لانه تاسعها ويوم النحر شفع لانه عاشرها

وقال ابن الزبير الشفع الحادي عشر والثاني عشر من أيام منى والوتر الثالث عشر وقال الضحاك الشفع عشر ذي الحجة والوتر أيام منى الثلاثة وقيل الشفع والوتر آدم عليه السلام كان وترا فشفع بزوجته حواء حكاه القشيري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقرأ حمزة والكسائي بكسر الواو والباقون بفتحها وهما لغتان الفتح لغة قريش ومن والاها والكسر لغة تميم وقوله تعالى (والليل اذا يسر) قسم خامس بعد ما أقسم بالليالي العشر على الخصوص أقسم به على العموم ومعنى يسر سار وذهب كما قال الله تعالى والليل اذ أدبر وقال قتادة اذا جاء وأقبل وقيل معنى يسر أي يسرى فيه كما يقال ليل نائم ونهار صائم ومنه قوله تعالى بل مكر الليل والنهار وقرأ نافع وأبو عمرو باثبات الياء بعد الراء وصلا لا وقفا وأثبتها ابن كثير في الحالين وحذفها الباقون في الحالين لسقوطها في خط المصحف الكريم واثباتها هو الاصل لانها لام فعل مضارع مرفوع ومن فرق بين حالتي الوقف والوصل فلان الوقف محل استراحة وسئل الاخفش عن العلة في سقوط الياء فقال الليل لا يسري ولكن يسرى فيه فهو مصروف فلما صرفه بخسه حظه من الاعراب كقوله تعالى وما كانت أمك بغيا ولم يقل بغية لانه صرفه عن باغية وهذه الاسماء كلها مجرورة بالقسم والجواب محذوف تقديره لتعذبن يا كفار مكة بدليل قوله تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد الى قوله تعالى فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد وما بينهما اعتراض وقوله تعالى (هل في ذلك) أي القسم والمقسم به (قسم) أي حلف أو محلوف (لذي حجر) استفهام معناه التقرير كقولك ألم أنعم عليك اذا كنت قد أنعمت أو المراد منه التأكيد لما أقسم به واقسم عليه كمن ذكر حجة بالغة ثم قال هل فيما ذكرته حجة والمعنى ان من كان ذا لب علم ان ما أقسم الله تعالى به من هذه الاشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه والحجر العقل لانه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغي كما يسمى عقلا ونهية لانه يعقل وينهى وحصاة من الاحصاء وهو الضبط وقال الفراء يقال انه لذو حجر اذا كان قاهرا لنفسه ضابطا لها وقوله تعالى (ألم تر) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولكن المراد به العموم والمراد بالرؤية العلم أي ألم تعلم يا أشرف رسلنا (كيف فعل ربك) أي المحسن اليك بأنواع النعم (بعاد ارم) وهو ابن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام ثم انهم جعلوا لفظ عاد اسما للقبيلة كما يقال لبني هاشم هاشم ولبني تميم تميم ثم قيل للاولين منهم عاد الاولى وارم تسمية لهم باسم جدهم ولمن بعدهم عاد الاخيرة فارم في قوله تعالى عاد ارم عطف بيان لعاد وايذان بأنهم عاد الاولى القديمة وقيل ارم بلدتهم وأرضهم التي كانوا فيها وقوله تعالى (ذات) أي صاحبة (العماد) فينظر فيه ان كانت صفة للقبيلة فالمعنى انهم كانوا بدويين أهل عمد وطوال الاجسام على تشبيه قدودهم بالاعمدة وقيل ذات البناء الرفيع وان كانت صفة للبلدة فالمعنى انها ذات أساطين وروي انه كان لعاد ابنان شداد وشديد فملكا وقهرا ثم مات شديد وخلص الامر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فقال أبني مثلها فبنى ارم في بعض صحاري عدن في ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وهي مدينة عظيمة قصورها من

الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الاشجار والانهار المطردة ولما تم بناؤها سار اليها بأهل مملكته فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم صيحة من السماء فهلكوا وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج فى طلب ابل له فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما ثم وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث الى كعب فسأله فقال هى ارم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال يخرج فى طلب ابل له ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال هذا والله ذلك الرجل وقوله تعالى (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) صفة أخرى لارم فان كانت للقبيلة فلم يخلق مثل عاد فى البلاد عظم أجرام وقوة قال الزمخشرى كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع وكان يأتى الصخرة العظيمة فيحملها فيقلبها على الحى فيهلكهم وروى عن مالك انه كانت تمر بهم مائة سنة لا يرون فيها جنازة وان كانت للبلدة فلم يخلق مثل مدينة شداد فى جميع بلاد الدنيا والمقصود من هذه الحكاية زجر الكفار فان الله تعالى بين انه أهلكهم بما كفروا وكذبوا الرسل مع الذى اختصوا به من هذه الوجوه فلان تكونوا مثل ذلك أيها الكفار اذا أقمتم على كفركم مع ضعفكم أولى وقد ذكر كم الله تعالى ثلاث قصص هذه القصة الاولى وأما الثانية فهى فى قوله تعالى (وثمود الذين جابوا) أى قطعوا (الصخر) جمع صخرة وهى الحجر واتخذوها بيوتا كقوله تعالى وتنحتون من الجبال بيوتا (بالواد) أى وادى القرى قيل أول من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود وبنوا ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة وقيل سبعة آلاف مدينة كلها من الحجارة * (تنبيه) * أثبت الياء ورش وابن كثير وصلا وأثبتها وقفا ابن كثير بخلاف عن قنبل وأما القصة الثالثة فهى فى قوله تعالى (وفرعون) أى وفعل بفرعون (ذى الاوتاد) واختلف فى تسميته بذلك على وجهين أحدهما انه سمى بذلك على كثرة جنوده ومضاربهم التى كانوا يضربونها اذا نزلوا والثانى انه كان يتد أربعة أوتاد يشد اليها يدى ورجلى من يعذبه وعن عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان فرعون انما سمى ذا الاوتاد لانه كانت امرأة وهى امرأة خازنه حزقيل وكان مؤمنا كتم ايمانه مائة سنة وكانت امرأته ماشطة بنت فرعون فبينما هى ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون اذ اسقط المشط من يدها فقالت تعس من كفر بالله فقالت بنت فرعون وهل لك اله غير أبى فقالت الهى واله أبيك واله السموات والارض واحد لا شريك له فقامت فدخلت على أبيها وهى تبكى قال ما يبكيك فقالت الماشطة امرأة خازنك تزعم ان الهك والهها واله السموات والارض واحد لا شريك له فأرسل اليها فسألها عن ذلك فقالت صدقت فقال لها ويحك اكفرى بالهك وأقرى بأنى الهك قالت لا أفعل فمدها بين أربعة أوتاد ثم أرسل عليها الحيات والعقارب وقال لها اكفرى بالله والا عذبتك بهذا العذاب شهرين فقالت له لو عذبتنى سبعين شهرا ما كفرت بالله وكان لها ابنتان فجاء بابنتها الكبرى فذبحها على فيها وقال لها اكفرى بالله والا ذبحت الصغرى على فيك وكانت رضيعا فقالت لو ذبحت من فى الارض على فى ما كفرت بالله عز وجل فأتى بابنتها فلما اضجعت على صدرها وأراد ذبحها جزعت المرأة

فأنطق الله تعالى لسان ابنتها فتكلمت وهى من الاربعة الذين تكلموا أطفالا وقالت يا أماه لا تجزعى فان الله تعالى قد بنى لك بيتا فى الجنة فاصبرى فانك تفضين الى رحمة الله تعالى وكرامته فذبحت فلم تلبث ان ماتت فاسكنها الله تعالى الجنة قال وبعث فى طلب زوجها حزقيل فلم يقدروا عليه فقيل لفرعون انه قد زوى فى موضع كذا فى جبل كذا فبعث رجلين فى طلبه فأتيها اليه وهو يصلى ويليه صفوف من الوحوش خلفه يصلون خلفه فلما رأيا ذلك انصرفا فقال حزقيل اللهم أنت تعلم انى كتمت ايمانى مائة سنة ولم يظهر على أحد فأيما هذين الرجلين أظهر على فعجل عقوبته فى الدنيا واجعل مصيره فى الآخرة الى النار فانصرف الرجلان الى فرعون فأما أحدهما فاعتبر وآمن وأما الآخر فأخبر فرعون بالقصة على رؤس الملا فقال له فرعون وهل معك غيرك قال نعم فلان فدعى به فقال حق ما يقول هذا قال لا ما رأيت كما قال شيأ فأعطاه فرعون فأجزل وأما الآخر فقتله ثم صلبه قال وكان فرعون قد تزوج امرأة من أجمل نساء بنى اسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم فرأت ما صنع فرعون بالماشطة فقالت وكيف يسعنى أن أصبر على ما يأتى من فرعون وأنا مسلمة وهو كافر فبينما هى كذلك تؤامر نفسها اذ دخل عليها فرعون فجلس قريبا منها فقالت يا فرعون أنت أشر الخلق وأخبثه عمدت الى الماشطة فقتلتها فقال لعل بك الجنون الذى كان بها قالت ما بى من جنون وان الهى والهها والهك واله السموات والارض واحد لا شريك له فمزق ثيابها وضربها وأرسل الى أبويها فدعاهما فقال لهما ألا تريان أن الجنون الذى كان بالماشطة أصابها قالت أعوذ بالله من ذلك انى أشهد أن ربى وربك ورب السموات والارض واحد لا شريك له فقال أبوها يا آسية ألست من خير نساء العماليق وزوجك اله العماليق قالت أعوذ بالله من ذلك ان كان ما يقول حقا فقولا له أن يتوجنى تاجا تكون الشمس امامه والقمر خلفه والكواكب حوله فقال لهما فرعون أخرجاها عنى فمدها بين أربعة أوتاد يعذبها ففتح الله لها بابا الى الجنة ليهون عليها ما يصنع بها فرعون فعند ذلك قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله فقبض الله تعالى روحها وأدخلها الجنة وروى عن أبى هريرة ان فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد وجعل على صدرها رحا واستقبل بها عين الشمس فرفعت رأسها الى السماء وقالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ففرج الله تعالى عن بيتها فى الجنة فرأته وقوله تعالى (الذين طغوا) أى تجبروا (فى البلاد) فى محل نصب على الذم ويجوز أن يكون مرفوعا على هم الذين طغوا فى البلاد أو مجرورا على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون فالضمير يرجع لعاد وثمود وفرعون وقيل يرجع الى فرعون خاصة (فأكثروا) أى طغاتهم (فيها الفساد) أى بالقتل والكفر والمعاصى قال القفال وبالجملة فالفساد ضد الصلاح فكما ان الصلاح يتناول جميع أقسام البر فالفساد يتناول جميع أقسام الاثم فمن عمل بغير أمر الله تعالى وحكم فى عباده بالظلم فهو مفسد (فصب) أى أنزل انزالا هو فى غاية القوة (عليهم) أى فى الدنيا (ربك) أى المحسن اليك بكل جميل (سوط) أى نوع (عذاب) وقال قتادة يعنى ألوانا من العذاب صبه عليهم وقال أهل المعانى هذا على

الاستعارة لان السوط عندهم غاية العذاب وقال الفراء هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب وأصل ذلك ان السوط هو عذابهم الذي يعذبون به فجرى الى كل عذاب اذا كان فيه غاية العذاب وقال الزجاج جعل سوطهم الذي ضربهم به العذاب وعن الحسن انه كان اذا أتى على هذه الآية قال ان الله تعالى عنده أسواط كثيرة فأخذهم بسوط منها وقال قتادة كل شيء عذب الله تعالى به فهو سوط عذاب وشبه بصب السوط الذي يتواتر على المضروب فيهلكه (ان ربك) أي المحسن اليك بالرسالة (لبالمرصاد) أي يرصد أعمال العباد لا يفوته منها شيء ليجازيهم عليها والمرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصد مفعال من رصده كالميقات من وقته وهذا مثل لارصاد العصاة بالعقاب وانهم لا يفوتونه وعن بعض العرب انه قيل له أين ربك فقال بالمرصاد وعن عمرو بن عبيد انه قرأ هذه السورة عند المنصور حتى بلغ هذه فقال ان ربك لبالمرصاد يا أبا جعفر عرض له في هذا النداء بانه بعض من توعده بذلك من الجبابرة قال الزمخشري فلله دره أي أسد فراس كان بين ثوبيه يدق الظلمة بانكاره ويقصع أهل الأهواء والبدع باحتجاجه وقوله تعالى (فأما الانسان) متصل بقوله تعالى ان ربك لبالمرصاد فكأنه قيل ان الله تعالى يريد من الانسان الطاعة والسعي للعاقبة وهو لا يهمه الا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها (اذا ما ابتلاه) أي اختبره بالنعمة (ربه) أي الذي أبدعه وأحسن اليه بما يحفظ وجوده ليظهر شكره أو كفره (فأكرمه) أي جعله عزيزا بين الناس وأعطاه ما يكرمونه به من الجاه والمال (ونعمه) أي جعله متلذذا مترفها بما وسع الله تعالى عليه وقوله تعالى (فيقول) أي سرورا بذلك وافتخارا (ربي أكرمن) أي فضلني بما أعطاني خبر المبتدا الذي هو الانسان ودخول الفاء لما في اما من معنى الشرط والظرف المتوسط بين المبتدا والخبر في تقدير التأخير كأنه قيل فأما الانسان فقائل ربي أكرمن وقت الابتداء بالانعام فيظن ان ذلك عن استحقاق فيرتفع به وكذا قوله تعالى (وأما اذا ما ابتلاه فقدر) أي ضيق (عليه رزقه) التقدير وأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه أي بالفقر ليوازي قسيمه (فيقول) أي الانسان بسبب الضيق (ربي أهانن) فيهتم لذلك ويضيق به ذرعا ويكون أكبر همه وهذا في حق الكافر لقصور نظره وسوء فكره فيرى الكرامة والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته وقال الكلبي ومقاتل نزلت في أمية بن خلف الجمحي الكافر وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في عتبة بن ربيعة وقيل أبي بن خلف (فان قيل) كيف سمى كلا الامرين من بسط الرزق وتقتيره ابتلاء (أجيب) بأن كل واحد منهما اختبار للعبد فاذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر واذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع فالحكمة فيهما واحدة ونحوه قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة (فان قيل) هلا قال فأهانه وقدر عليه رزقه كما قال فأكرمه ونعمه (أجيب) بأن البسط اكرام من الله تعالى لعبده بانعامه عليه متفضلا من غير سابقة وأما التقتير فليس باهانة له لان الاخلال بالتفضل لا يكون اهانة ولكن تركا للكرامة وقد يكون المولى مكرما ومهينا وغير مكرم ولا مهين واذا أهدى لك زيد هدية قلت أكرمني بالهدية ولا تقول أهانني ولا أكرمني اذا لم يهد اليك (فان

قيل) فقد قال تعالى فأكرمه فصحح اكرامه وأثبته ثم أنكر قوله ربي أكرمن وذمه عليه كما أنكر قوله أهانن وذمه عليه (أجيب) بوجهين أحدهما انما أنكر قوله ربي اكرمن وذمه عليه لانه قاله على قصد خلاف ما صححه الله تعالى عليه وأثبته وهو قصده الى أن الله تعالى أعطاه ما أعطاه اكراما له مستحقا ومستوجبا على عادة افتخارهم وجلالة اقدارهم عندهم كقوله انما أوتيته على علم عندي وانما أعطاه الله تعالى على وجه التفضل من غير استيجاب منه له ولا سابقة مما لا يعتد الله تعالى الا به وهو التقوى دون الانساب والاحساب التي كانوا يفتخرون بها ويرون استحقاق الكرامة من أجلها ثانيهما ان نساق الانكار والذم الى قوله ربي أهانن يعني انه اذا تفضل عليه بالخير وأكرم به اعترف بتفضل الله واكرامه واذا لم يتفضل عليه يسمى ترك التفضل هوانا وليس بهوان قال الزمخشري ويعضد هذا الوجه ذكر الاكرام في قوله تعالى فأكرمه وقرأ ما بتلاه في الموضعين حمزة بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقرأ ربي أكرمن ربي أهانن نافع باثبات الياء فيهما وصلا لا وقفا وقرأ البزي باثباتها فيهما وقفا ووصلا وعن أبي عمرو فيهما في الوصل الاثبات والحذف عنه في الوصل أعدل والباقون بالحذف وقفا ووصلا وقرأ ابن عامر فقدر عليه رزقه بتشديد الدال والباقون بتخفيفها وهما لغتان معناهما ضيق وقيل قدر بمعنى قتر وقدر أعطاه ما يكفيه ثم رد الله تعالى على من ظن ان سعة الرزق اكرام وان الفقر اهانة بقوله تعالى (كلا) أي ليس الاكرام بالغنى والاهانة بالفقر انما هما بالاطاعة والمعصية وكفار مكة لا ينتبهون لذلك (بل) أهم فعل أشر من هذا القول وهو انهم (لا يكرمون اليتيم) أي لا يحسنون اليه مع غناهم أو لا يعطونه حقه من الميراث قال مقاتل كان قدامة بن مظعون يتيما في حجر أمية بن خلف فكان يدفعه عن حقه فنزلت (ولا يحضون) أي يحثون حثا عظيما (على طعام) أي اطعام (المسكين) فيكون اسم مصدر بمعنى الاطعام ويجوز أن يكون على حذف مضاف أي على بذل أو على اعطاء وفي اضافته اليه اشارة الى انه شريك الغني في ماله بقدر الزكاة (ويأكلون) على سبيل التجدد والاستمرار (التراث) أي الميراث والتاء في التراث بدل من واو لانه من الوراثة (أكلا لما) أي ذا لم واللم الجمع الشديد يقال لممت الشيء لما أي جمعته جمعا قال الحطيئة

اذا كان لما يتبع الذم ربه * فلا قدس الرحمن تلك الطواحنا

والجمع بين الحلال والحرام فانهم كانوا يورثون النساء والصبيان ويأكلون انصباءهم ويأكلون ماجمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك فيلمون في الاكل بين حلاله وحرامه ويجوز أن يذم الوارث الذي ظفر بالمال مهلا مهلا من غير أن يعرق فيه جبينه فيسرف في انفاقه ويأكله أكلا واسعا جامعا بين ألوان المشتهيات من الاطعمة والاشربة والفواكه كما يفعل البطالون * ولما دل على حب الدنيا بأمر خارجي دل عليه في الانسان فقال تعالى (ويحبون) أي على سبيل الاستمرار (المال) أي هذا النوع من أي شيء كان وأكده بالمصدر والوصف فقال تعالى (حبا جما) أي كثيرا شديدا مع الحرص والشره ومنع الحقوق وقوله تعالى (كلا) ردع لهم عن

ذلك ليتبوأ انكار تعظيمهم * ثم أخبر تعالى عن تلهفهم على ما سلف منهم حين لا ينفعهم فقال عز من قائل (اذا دكت الارض) أى حصل دكها ورجها وزلزالها لتسويتها فتكون كالاديم الممدود بشدة المط لا عوج فيها بوجه (دكا دكا) أى مرة بعد مرة وكسر كل شئ على ظهرها من جبل وبناء وشجر فلم يبق على ظهرها شئ وينعدم (وجاء ربك) قال الحسن أمره وقضاؤه (والملك) أى الملائكة وقوله تعالى (صفا صفا) حال أى مصطفين أى ذوى صفوف كثيرة فتنزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف محدقين بالجن والانس (وجئ) أى بأسهل أمر (يومئذ) أى اذ وقع ما ذكر (بجهنم) أى النار التى تتجهم من يصلاها كقوله تعالى وبرزت الجحيم ويروى انها لما نزلت تغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرف فى وجهه حتى اشتد على أصحابه فاخبروا عليا فجاء فاحتضنه من خلفه وقبل ما بين عاتقيه ثم قال يا نبى الله بأبى أنت وامى ما الذى حدث اليوم وما الذى غيرك فتلا عليه الآية فقال له على كيف يجاء بها قال يجىء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام فتشرد شردة لو تركت لاحرقت أهل الجمع ثم تعرض لى جهنم فتقول مالك ولى يا محمد ان الله تعالى قد حرم لحمك على فلا يبقى أحد الا قال نفسى نفسى الا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول رب أمتى أمتى وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه تقاد جهنم بسبعين ألف زمام كل زمام بيد ألف ملك لها تغيظ وزفير حتى تنصب على يسار العرش وقوله تعالى (يومئذ) أى يوم يجاء بجهنم بدل من اذ وجوابها (يتذكر الانسان) أى يتذكر الكافر ما فرط أو يتعظ لانه يعلم قبح معاصيه فيندم عليها (وأنى له الذكرى) أى ومن أين له منفعة الذكرى قال الزمخشرى لابد من حذف مضاف والا فبين يتذكر وبين وأنى له الذكرى تناف وتناقض *(تنبيه)* انى خبر مقدم والذكرى مبتدأ مؤخر وله متعلق بما تعلق به الظرف وقرأ وانى حمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين وقرأ الدورى عن أبى عمرو بالامالة بين بين والباقون بالفتح وقرأ الذكرى أبو عمرو وحمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بين بين والباقون بالفتح (يقول) أى يقول مع تذكره (يا) للتنبيه (ليتنى قدمت لحياتى) أى فى حياتى فاللام بمعنى فى أو قدمت الاعمان والخير لحياة لا موت فيها أو وقت حياتى فى الدنيا (فيومئذ) أى يوم يقول الانسان ذلك وقرأ (لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) الكسائى بفتح الذال والثاء على البناء للمفعول والباقون بكسرهما على البناء للفاعل فأما قراءة الكسائى فضمير عذابه ووثاقه للكافر والمعنى لا يعذب أحد مثل تعذيبه ولا يوثق مثل ايثاقه وأما على قراءة الباقين فالضمير فيهما لله تعالى أى لا يكل عذابه الى غيره أو الزبانية المتولين العذاب بأمر الله تعالى * ولما وصف الله تعالى حال من اطمأن الى الدنيا وصف حال من اطمأن الى معرفته وعبوديته وسلم أمره اليه فقال تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة) قال الحسن أى المؤمنة الموقنة وقال مجاهد الراضية بقضاء الله تعالى وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بثواب الله تعالى وقال ابن كيسان المخلصة وقال ابن زيد التى بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع ويقال لها عند الموت (ارجعى الى ربك) أى الى أمره وارادته وقال ابن عباس رضى الله تعالى

مقام ابراهيم مصلى وحرم صيده وجعل البيت المعمور بازائه ودحيت الارض من تحته فهذه الفضائل وأكثر منها انما اجتمعت في مكة لاجرم أقسم الله تعالى بها (وأنت) أي يا أشرف الخلق (حل) أي حلال لك مالم يحل لغيرك من قتل من تريد ممن يدعى أنه لا قدرة لاحد عليه (بهذا البلد) بأن يحل لك فتقاتل فيه وقد أنجز الله له هذا الوعد يوم الفتح وأحلها له وما فتحت على أحد قبله ولا أحلت له فأحل ماشاء وحرم ماشاء فقتل ابن خطل وهو متعلق باستار الكعبة ومقيس بن صبابة وغيرهما وحرم دار أبي سفيان ثم قال ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض فهي حرام الى أن تقوم الساعة لم تحل لاحد قبلي ولن تحل لاحد بعدي ولم تحل لي الا ساعة من نهار فلا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها الا لمنشدها فقال العباس يارسول الله الا الاذخر فانه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا فقال صلى الله عليه وسلم الا الاذخر ونظير وأنت حل في معنى الاستقبال قوله تعالى انك ميت وانهم ميتون ومثله واسع في كلام العرب تقول لمن تعده الاكرام والحباء لانت مكرم محبو وهو في كلام الله تعالى واسع لان الاحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة وكفاك دليلا قاطعا على انه للاستقبال وان تفسيره بالحال محال أن السورة بالاتفاق مكية وأين الهجرة من وقت نزولها فما بال الفتح والجملة اعتراض بين المقسم به وما عطف عليه واختلف في قوله تعالى (ووالد وما ولد) فقال الزمخشري هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ولده اقسم ببلده الذي هو مسقط رأسه وحرم ابيه ابراهيم ومنشأ أبيه اسمعيل وبمن ولده وبه وقال البغوي هما آدم وذريته وقيل كل والد وولده (فان قيل) هلا قيل ومن ولد (أجيب) بأن فيه مافي قوله تعالى والله أعلم بما وضعت أي بأي شيء وضعت يعني موضوعا عجيب الشأن أو ان ما بمعنى من والذي عليه أكثر المفسرين هما آدم وذريته لانهم أعجب ماخلق الله تعالى على وجه الارض لما فيهم من البيان والنطق والتدبير واستخراج العلوم وفيهم الانبياء والدعاة الى الله تعالى والانصار لدينه وأمر الملائكة بالسجود لآدم وعلمه الاسماء كلها ولقد قال الله تعالى ولقد كرمنا بني آدم وقيل هما آدم والصالحون من ذريته وأما الطالحون فكأنهم بهائم كما قال تعالى ان هم الا كالانعام بل هم أضل صم بكم عمي فهم لا يرجعون والمقسم عليه قوله تعالى (لقد خلقنا الانسان) أي الجنس (في كبد) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أي شدة ونصب وعنه أيضا في شدة من حمله وولادته ورضاعه ونبت اسنانه وسائر أحواله وعن عكرمة منتصبا في بطن أمه والكبد الاستواء والاستقامة فهذا امتنان عليه في الحقيقة ولم يخلق الله تعالى دابة في بطن أمها الا منكبة على وجهها الا ابن آدم فانه منتصب انتصابا وقال ابن كيسان منتصبا في بطن أمه فاذا أراد الله تعالى أن يخرجه من بطن أمه قلب رأسه الى رجلي أمه وقال الحسن يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة وقال يمان لم يخلق الله تعالى خلقا يكابد ما يكابد ابن آدم وهو مع ذلك أضعف الخلق قال بعض العلماء أول ما يكابد قطع سرته ثم اذا قمط قماطا وشد رباطا يكابد الضيق والتعب ثم يكابد الارتضاع ولو فاته لضاع ثم يكابد نبت اسنانه ثم يكابد الفطام الذي هو أشد من اللطام ثم يكابد

الخفقان والاوجاع ثم المعلم وصولته والمؤدب وسياسته والاستاذ وهيبته ثم يكابد شغل التزويج وشغل الاولاد والخدم وشغل المسكن والجيران ثم الكبر والهرم وضعف الركب والقدم في مصائب يكثر تعدادها من صداع الرأس ووجع الاضراس ورمد العين وهم الدين ووجع السن وألم الاذن ويكابد محنا في المال والنفس من الضرب والحبس ولا يمضي عليه يوم الا يقاسي فيه شدة ثم يكابد بعد ذلك مشقة الموت ثم بعده سؤال الملك وضغطة القبر وظلمته ثم البعث والعرض على الله تعالى الى أن يستقر به القرار اما في الجنة واما في النار فدل هذا على أن له خالقا دبره وقضى عليه بهذه الاحوال ولو كان الامر اليه ما اختار هذه الشدائد فليمتثل أمر خالقه وقال ابن زيد المراد بالانسان هنا آدم عليه السلام وقوله تعالى في كبد أي في وسط السماء وقال مقاتل في كبد أي في قوة نزلت في أبي الاشدين واسمه أسيد بن كلدة بن جمح وكان شديدا قويا يضع الاديم العكاظي تحت قدميه فيقول من أزالني عنه فله كذا وكذا فيجذبه عشرة فيتمزق الاديم من تحت قدميه ولا تزول قدماه ويبقى موضع قدميه وكان من اعداء النبي صلى الله عليه وسلم وفيه نزل (أيحسب) اي أيظن الانسان قوي قريش وهو ابو الاشدين بقوته (أن) مخففة من الثقيلة واسمها محذوف اي انه (لن يقدر عليه) اي خاصة (أحد) اي من اهل الارض او السماء فيغلبه حتى انه يعاند خالقه والله تعالى قادر عليه في كل وقت وقيل نزلت في المغيرة بن الوليد المخزومي (يقول) أي يفتخر بقوته وشدته (أهلكت) أي على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم (مالا لبدا) اي كثيرا بعضه على بعض (أيحسب) اي هذا الانسان العنيد بقلة عقله (أن) اي انه (لم يره أحد) قال سعيد بن جبير أي أيظن ان الله تعالى لم يره ولا يسأله عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وقال الكلبي انه كان كاذبا في قوله انه أنفقه ولم ينفق جميع ما قال والمعنى أيظن ان الله تعالى لم ير ذلك منه فيعلم مقدار نفقته وقرأ أيحسب في الموضعين ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها * ثم ذكر نعمه عليه ليعتبر بقوله تعالى (ألم نجعل) أي بما لنا من القدرة التامة (له عينين) يبصر بهما المرئيات والا لتعطل عليه أكثر ما يريد شققناهما وهو في الرحم في ظلمات ثلاث على مقدار مناسب لا تزيد احداهما على الاخرى شيأ وقدرنا البياض والسواد والشهلة والزرقة وغير ذلك على ما ترون وأودعناهما البصر على كيفية يعجز الخلق عن ادراكها (ولسانا) يترجم به عن ضمائره (وشفتين) يستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والاكل والشرب والنفخ وغير ذلك قال قتادة نعم الله تعالى عليه متظاهرة فيقرره بها كي يشكره قال البغوي وجاء في الحديث ان الله تعالى يقول يا ابن آدم ان نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق وان نازعك بصرك الى بعض ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق وان نازعك فرجك الى بعض ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق (وهديناه) أي آتيناه من العقل (النجدين) قال اكثر المفسرين بينا له طريق الخير والشر والهدى والضلال والحق والباطل كقوله تعالى انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا وصار بما جعلناه له من ذلك سميعا بصيرا عالما صالحا لموضع التكليف روى الطبراني أنه صلى الله عليه وسلم قال يا أيها

قوله أبي الاشدين هكذا في النسخ بصيغة التثنية وفي حاشية الجمل والاشد هكذا بالافراد في كثير من نسخ هذا الشرح وكثير من عبارات المفسرين وفي بعض نسخ هذا الشرح وكثير من التفاسير الاشدين بصيغة التثنية فليحرر اه

الناس هلموا الى ربكم فان ما قل وكفى خير مما كثر وألهى يا أيها الناس انما هما نجدان نجد خير ونجد شر فلم يجعل نجد الشر أحب اليكم من نجد الخير قال المنذرى النجد هنا الطريق وقال ابن عباس رضى الله عنهما بيناه الثديين وهو قول سعيد بن المسيب والضحاك وأصله المكان المرتفع (فلا اقتحم العقبة) أى فهلا أنفق ماله فيما يجوز به العقبة من فك الرقاب واطعام المساكين والايتام بل غمط النعم وكفر بالمنعم والمعنى ان الانفاق على هذا الوجه هو الانفاق المرضى النافع عند الله تعالى لا أن يهلكها لبدا فى الرياء والفخر وعداوة النبى صلى الله عليه وسلم فيكون على هذا الوجه كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم الآية وقيل معناه لم يقتحمها ولا جاوزها والاقتحام الدخول فى الامر الشديد وذكر العقبة مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان فى أعمال البر فجعله كالذى يتكلف صعود العقبة يقول الله تعالى لم يحمل على نفسه المشقة بعتق الرقبة والاطعام وهذا معنى قول قتادة وقيل انه شبه ثقل الذنوب على مرتكبها بعقبة فاذا أعتق رقبة وأطعم المساكين كان كمن اقتحم العقبة وجاوزها وروى عن ابن عمر أن هذه العقبة جبل فى جهنم وقال الحسن هى عقبة شديدة فى النار دون الجسر فاقتحموها بطاعة الله تعالى ومجاهدة النفس وقال مجاهد هى الصراط يضرب على متن جهنم كحد السيف مسيرة ثلاثة آلاف سنة صعودا وهبوطا واستواء وان بجنبيه كلاليب وخطاطيف كأنها شوك السعدان فناج مسلم وناج مخدوش ومكردس فى النار منكوس وفى الناس من يمر كالبرق الخاطف ومنهم من يمر كالريح العاصف ومنهم من يمر كالرجل يعدو ومنهم من يمر كالرجل يسير ومنهم من يزحف زحفا ومنهم الزالون ومنهم من يكردس فى النار وقال ابن زيد فهلا سلك طريق النجاة وقوله تعالى (وما أدراك) أى أعلمك أيها السامع لكلامنا الراغب فيما عندنا (ما العقبة) تعظيم لشأنها والجملة اعتراض قال سفيان بن عيينة كل شئ قال فيه وما أدراك فانه أخبره به وما كان قال وما يدريك فانه لم يخبره به ثم بين سبب جوازها بقوله تعالى (فك) أى الانسان (رقبة) أى خلصها من الرق وذلك بأن يعتق رقبة فى ملكه أو يعطى مكاتبا ما يصرفه فى فك رقبته روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى فرجه بفرجه وقال الزمخشرى وفى الحديث أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم دلنى على عمل يدخلنى الجنة قال تعتق النسمة وتفك الرقبة قال أوليسا سواء قال لا اعتاقها أن تنفرد بعتقها وفكها أن تعين فى تخليصها من قود أو غرم والعتق والصدقة من أفضل الاعمال وعن أبى حنيفة أن العتق أفضل من الصدقة وعن صاحبيه الصدقة أفضل قال الزمخشرى والآية أدل على قول أبى حنيفة لتقديم العتق على الصدقة وقال عكرمة يعنى فك رقبته من الذنوب وقال الماوردى ويحتمل أنه أراد فك رقبته وخلاص نفسه باجتناب المعاصى وفعل الطاعات ولا يمنع الخبر من هذا التأويل وهو أشبه بالصواب (أو أطعم) أى دفع الاطعام لشئ له قابلية ذلك (فى يوم ذى مسغبة) أى مجاعة والسغب الجوع (يتيما) أى انسانا صغيرا لا أب له (ذا مقربة) أى ذا القرابة لك بأن كان بينك وبينه قرابة يقال فلان ذو قرابتى وذو مقربتى (أو مسكينا)

وهو من له مال أو كسب يقع موقعا من كفايته ولا يكفيه (ذا متربة) أى لصوق بالتراب لفقره يقال ترب اذا افتقر ومعناه التصق بالتراب وأما أترب فاستغنى أى صار ذا مال كالتراب فى الكثرة كما قيل أثرى وعنه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ذا متربة الذى مأواه المزابل قال ابن عباس رضى الله عنهما هو المطروح على الطرق الذى لا بيت له وقال مجاهد هو الذى لا يقيه من التراب لباس ولا غيره وقال قتادة انه ذو العيال واحتج بهذه الآية على أن المسكين يملك شيأ لانه لو كان لا يملك شيأ لكان تقييده بقوله تعالى ذا متربة تكريرا وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة برفع الكاف وجر رقبة وكسر همزة اطعام وفتح العين وبعدها ألف ورفع الميم منونة والباقون فك بنصب الكاف رقبة بالنصب أطعم بفتح الهمزة والعين والميم بغير تنوين ولا ألف بين العين والميم (فان قيل) قوله تعالى فلا اقتحم العقبة الى آخره ذكر لا مرة واحدة قال الفراء والزجاج والعرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضى حتى تعيد لا كقوله تعالى فلا صدق ولا صلى (أجيب) بأنه انما أفردها لدلالة آخر الكلام على معناه فيجوز أن يكون قوله تعالى (ثم كان من الذين آمنوا) قائما مقام التكرير فكأنه قال فلا اقتحم العقبة ولا آمن وقال الزمخشرى هى متكررة فى المعنى لان معنى فلا اقتحم العقبة فلا فك رقبة ولا أطعم مسكينا ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك قال ابو حيان ولا يتم له هذا الا على قراءة فك فعلا ماضيا وعن مجاهد ان قوله تعالى ثم كان من الذين آمنوا يدل على أن لا بمعنى لم ولا يلزم التكرير مع لم فان كررت لا كقوله تعالى فلا صدق ولا صلى فهو كقوله تعالى لم يسرفوا ولم يقتروا * (تنبيه) * ثم كان معطوف على اقتحم وثم للترتيب الذكرى والمعنى كان وقت الاقتحام من الذين آمنوا وقال الزمخشرى جاء بثم لتراخى الايمان وتباعده فى الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لا فى الوقت لان الايمان هو السابق المقدم على غيره ولا يثبت عمل صالح الا به (وتواصوا) أى وصبروا وأوصى بعضهم بعضا (بالصبر) أى على الطاعة وعن المعصية والمحن التى يبتلى بها المؤمن (وتواصوا بالمرحمة) أى بالرحمة على عباده بأن يكونوا متراحمين متعاطفين أى بما يؤدى الى رحمة الله تعالى (أولئك) أى الموصوفون بهذه الصفات (أصحاب الميمنة) أى الجانب الذى فيه اليمن والبركة والنجاة من كل هلكة قال محمد بن كعب أى الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم وقال يحيى بن سلام لانهم ميامين على أنفسهم وقال ابن زيد لانهم أخذوا من شق آدم الايمن وقال ميمون بن مهران لان منزلتهم عن اليمين وقال الزمخشرى الميمنة اليمين أو اليمن (والذين كفروا) أى ستروا ما ظهر لهم من آثار بصائرهم من العلم (بآياتنا) أى على ما لها من العظمة بالاضافة الينا والظهور الذى لا يمكن خفاؤه من القرآن وغيره (هم أصحاب المشأمة) أى الخصلة المكسبة للشؤم والحرمان قال محمد بن كعب أى الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم وقال يحيى بن سلام لانهم مشائيم على أنفسهم وقال ابن زيد لانهم أخذوا من شق آدم الايسر عليه السلام وقال ميمون لان منزلتهم عن اليسار وقال الزمخشرى المشأمة الشمال أو الشؤم قال القرطبى ويجمع هذه الاقوال أصحاب الميمنة هم أصحاب الجنة وأصحاب المشأمة هم أصحاب النار (عليهم) أى خاصة (نار مؤصدة) أى مطبقة وقرأ أبو عمرو وحفص وحمزة بالهمزة والباقون بغير

همزة أى بوا وساكنة وهما لغتان يقال أصدت الباب وأوصدته اذا أغلقته وأطبقته وقيل معنى المهموز المطبقة وغير المهموز المغلقة واذا وقف حمزة أبدل على أصله وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة لا أقسم بهذا البلد أعطاه الله الامان من غضبه يوم القيامة حديث موضوع

(سورة والشمس مكية)

وهى خمس عشرة آية وأربع وخمسون كلمة ومائتان وسبعة وأربعون حرفا

(بسم الله) الذى له الاسماء الحسنى (الرحمن) الذى يعلم السر وأخفى (الرحيم) الذى خص خواصه بالفردوس الاعلى وقوله تعالى (والشمس) أى الجامعة بين النفع والضر بالنور والحر (وضحاها) قسم وقد تقدم الكلام على أن الله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته وقيل التقدير ورب الشمس الى تمام القسم * واختلف فى قوله تعالى وضحاها فقال مجاهد والكلبى ضوءها وقال قتادة هو النهار كله وقال مقاتل هو حرها وقال لقوله تعالى فى طه ولا تضحى أى لا يؤذيك الحر وقال اليزيدى انبساطها قال الرازى انما أقسم بالشمس لكثرة ما يتعلق بها من المصالح فان أهل العالم كانوا كالاموات فى الليل فلما ظهر الصبح فى المشرق صار ذلك الضوء كالروح الذى تنفخ فيه الحياة فصارت الاموات أحياء ولا تزال تلك الحياة فى القوة والزيادة الى غاية كمالها وقت الضحوة وذلك يشبه استقرار أهل الجنة (والقمر) أى المكتسب من نورها كما ان أنوار النفوس من أنوار العقول (اذا تلاها) أى تبعها وذلك اذا سقطت رؤى الهلال قال الليث يقال تلوت فلانا اذا تبعته وقال ابن زيد اذا غربت الشمس فى النصف الاول من الشهر تلاها القمر بالطلوع وفى آخر الشهر يتلوها بالغروب وقال الفراء تلاها أى أخذ منها يعنى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس وقال الزجاج تلاها أى حين استوى ودار وكان مثلها فى الضياء والنور وذلك فى الليالى البيض (والنهار) أى الذى هو محل الانتشار فيما جرت به الاقدار (اذا جلاها) أى الشمس بارتفاعه لان الشمس تنجلى فى ذلك الوقت تمام الانجلاء وقيل الضمير للظلمة أو للدنيا أو للارض وان لم يجر لها ذكر كقولهم أصبحت باردة يريدون الغداة وأرسلت يريدون السماء (والليل) أى الذى هو ضد النهار فهو محل السكون والانقباض (اذا يغشاها) أى يغطيها بظلمته فتغيب وتظلم الآفاق وقيل الكناية للارض أى يغشى الدنيا بالظلمة فتظلم الآفاق فالكناية ترجع الى غير مذكور وجىء يغشاها مضارعا دون ماقبله ومابعده مراعاة للفواصل اذ لو أتى به ماضيا لكان التركيب اذا غشيها فتفوت المناسبة اللفظية بين الفواصل والمقاطع * (تنبيه) * اذا فى الثلاثة لمجرد الظرفية والعامل فيها فعل القسم (والسماء وما) أى ومن (بناها) أى خلقها على هذا السقف المحكم أقسم تعالى بنفسه وبأعظم مخلوقاته وقوله تعالى (والارض) أى التى هى فراشكم (وما) أى ومن (طحاها) أى بسطها وسطحها على الماء كذلك وكذا قوله تعالى (ونفس) أى أى نفس جمع فيها سبحانه العالم بأسره (وما) أى ومن (سواها) أى عدلها على هذا القانون الاحكم فى أعضائها وما فيها من

الجواهر والاعراض والمعاني وغير ذلك (فان قيل) لم نكرت النفس (أجيب) بوجهين أحدهما
انه يريد نفسا خاصة من بين النفوس وهي نفس آدم عليه السلام كأنه قال تعالى وواحدة من
النفوس ثانيهما انه يريد كل نفس ونكره للتكثير على الطريقة المذكورة في قوله تعالى علمت
نفس وانما أوثرت ما على من فيما ذكر لارادة الوصفية بما ضمنا وان لم يوصف بلفظها اذ المراد
انها تقع على نوع من يعقل وعلى صفته ولذلك مثلوا بقوله تعالى فانكحوا ما طاب لكم وقدروها
بانكحوا الطيب وهذا تنفرد به ما دون من وهذه الاسماء كلها مجرورة على القسم أقسم الله تعالى
بأنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها لان الذي يقسم
الله تعالى به يحصل به روح في القلب فتكون الدواعي الى تأمله أقرب (فألهمها) أي النفس
(فجورها وتقواها) قال ابن عباس رضي الله عنهما بين لها الخير والشر وعنه علمها الطاعة
والمعصية وعن ابي صالح عرفها ما تأتي وما تتقي وقال سعيد بن جبير ألزمها فجورها وتقواها وقال
ابن زيد جعل فيها ذلك بتوفيقه اياها للتقوى وخذلانه اياها للفجور واختار الزجاج هذا وحمل
الالهام على التوفيق والخذلان قال البغوي وهذا يبين أن الله تعالى خلق في المؤمن التقوى
وفي الكافر الفجور وعن أبي الاسود الديلي قال قال لي عمران بن حصين أرأيت ما يعمل الناس
اليوم ويكدحون فيه أشئ قضي عليهم ومضى عليهم من قدر سبق أو فيما يستقبلونه مما أتاهم به
نبيهم صلى الله عليه وسلم وثبتت الحجة عليهم قلت بل شئ قضي عليهم ومضى عليهم فقال أفلا يكون
ظلما قال ففزعت منه فزعا شديدا وقلت انه ليس شئ الا وهو خلقه وملك يده لا يسئل عما يفعل
وهم يسئلون فقال لي سددك الله انما سألتك لا ختبر عقلك ان رجلا من جهينة أو مزينة أتى
النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس ويكادحون فيه أشئ قضي
الله عليهم من قدر سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وأكدت به الحجة فقال في شئ قد مضى
عليهم قال فقلت ففيم العمل الآن قال من كان الله خلقه لاحدى المنزلتين يهيئه الله لها وتصديق
ذلك في كتاب الله تعالى ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها وعن جابر قال جاء سراقة
ابن مالك بن جعشم فقال يا رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيم العمل اليوم فيما جفت
به الاقلام وجرت به المقادير أو فيما يستقبل قال بل فيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير
قال ففيم العمل قال اعملوا وكل ميسر لما خلق له واختلف في جواب القسم فأكثر
المفسرين على أنه (قد أفلح) أي ظفر بجميع المرادات والاصل لقد وانما حذفت لطول الكلام
وقيل انه ليس بجواب وانما جئ به تابعا لقوله تعالى فألهمها فجورها وتقواها على سبيل
الاستطراد وليس من جواب القسم في شئ والجواب محذوف تقديره ليدمدمن الله عليهم أي
أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود لانهم قد كذبوا صالحا أو
لتبعثن وقيل هو على التقديم والتأخير من غير حذف والمعنى قد أفلح (من زكاها) أي طهرها من
الذنوب ونماها وأصلحها وصفاها فصفت عظيمة بما يسره الله تعالى له من العلوم النافعة والاعمال
الصالحة (وقد خاب) أي خسر (من دساها) أي أغواها اغواء عظيما وأفسدها وأهلكها

بخباثث الاعتقادات ومساوى الاعمال وقبائح السيآت والشمس وضحاها وفاعل زكاها ودساها ضمير من وقيل ضمير البارى سبحانه أى قد أفلح من زكاها بالطاعة وقد خاب من دساها أى خسرت نفس دساها الله تعالى بالمعصية وأنكر الزمخشرى على صاحب هذا القول لمنافرته مذهبه ولكن قال بعض المفسرين الحق انه خلاف الظاهر لا كما قاله الزمخشرى وقال ابن عباس رضى الله عنهما خابت نفس أضلها الله تعالى وأغواها وأصل الزكاة النمو والزيادة ومنه زكى الزرع اذا كثر ريعه ومنه تزكية القاضى الشاهد لانه يرفعه بالتعديل وأصل دساها دسسها من التدسيس وهو اخفاء الشئ فأبدل من السين الثانية ياء والمعنى أخملها وأخفى محلها بالكفر والمعصية وعن زيد بن أرقم قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انى أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والجبن والهم وفى رواية والهرم وعذاب القبر اللهم آت نفسى تقواها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن نفس لا تشبع ومن قلب لا يخشع ومن دعوة لا يستجاب لها (كذبت ثمود) وهم قوم صالح كذبوا رسولهم صالحا عليه السلام وأنث فعلهم لضعف أثر تكذيبهم لان كل سامع له يعرف ظلمهم فيه لوضوح آيتهم (بطغواها) أى أوقعت التكذيب لرسولها بكل ما أتى به عن الله تعالى أى طغيانها وقيل ان الباء للاستعانة قال الزمخشرى مثلها فى كتبت بالقلم والطغوى من الطغيان فصلوا بين الاسم والصفة فى فعلى من بنات الياء بأن قلبوا الياء واوا فى الاسم وتركوا القلب فى الصفة فقالوا امرأة خزيا وصديا يعنى فعلت التكذيب بطغيانها كما تقول ظلمنى بجراءته على الله تعالى وقيل كذبت بما أوعدت به من عذاب ذى الطغوى كقوله تعالى فأهلكوا بالطاغية (اذ) أى تحقق تكذيبهم أو طغيانهم بالفعل حين (انبعث أشقاها) أى قام وأسرع وذلك انهم لما كذبوا بالعذاب وكذبوا صالحا عليه السلام انبعث أشقى القوم وهو قدار بن سالف وكان رجلا أشقر أزرق قصيرا فعقر الناقة وعن عبد الله بن زمعة أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يخطب فذكر الناقة والذى عقرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع فى أهله مثل أبى زمعة وقوله عارم أى شديد ممتنع قال الزمخشرى ويجوز أن يكونوا جماعة والتوحيد لتسويتك فى افعل التفضيل اذا أضفته بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث * (تنبيه) * اذ منصوب بكذبت أو بطغواها (فقال لهم) أى بسبب الانبعاث أو التكذيب الذى دل على قصدهم لها بالاذى (رسول الله) أى صالح عليه السلام وعبر بالرسول لان وظيفته الابلاغ والتحذير الذى ذكر هنا ولذلك قال تعالى مشيرا بحذف العامل الى ضيق الحال عن ذكره لعظم الهول وسرعة التعذيب عند مسها بالاذى وزاد فى التعظيم باعادة الجلالة (ناقة الله) أى الملك الاعظم الذى له الامر كله وهى منصوبة على التحذير كقولك الاسد الاسد والصبى الصبى باضمار اتقوا أو احذروا ناقة الله (وسقياها) أى شربها فى يومها وكان لها يوم ولهم يوم لانهم لما اقترحوا الناقة فأخرجها لهم من الصخرة جعل لهم شرب يوم من بئرهم ولها شرب يوم فشق عليهم واضافة الناقة الى الله تعالى اضافة تشريف كبيت الله (فكذبوه) أى صالحا عليه السلام بطغيانهم

في وعيدهم بالعذاب (فعقروها) أي عقرها الاشقى بسبب ذلك التكذيب وأضيف الى الكل لانهم رضوا بفعله وان كان العاقر جماعة فواضح وقال قتادة بلغنا انه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم وقال الفراء عقرها اثنان والعرب تقول هذان أفضل الناس وهذان خير الناس وهذه المرأة أشقى القوم ولهذا لم يقل أشقياها (فدمدم) أي فأطبق (عليهم ربهم) أي الذي أحسن اليهم فغمرهم احسانه فقطعه عنهم بسبب تكذيبهم فأهلكهم وأطبق عليهم العذاب يقال دمدمت عليه القبر أطبقته عليه (بذنبهم) أي بسبب كفرهم وتكذيبهم وعقرهم الناقة وروى عن ابن عباس رضي الله عنه ما دمدم عليهم ربهم بذنبهم أي بجرمهم وقال القشيري وقيل دمدمت على الميت التراب أي سويته عليه فالمعنى على هذا فجعلهم تحت التراب (فسواها) أي فسوى عليهم الارض فجعلهم تحت التراب وعلى الاول فسوى الدمدمة عليهم أي عمهم بها فلم يفلت منهم احدا وقرأ (ولا يخاف) نافع وابن عامر بالفاء والباقون بالواو والفاء تقتضي التعقيب والواو يجوز أن تكون للحال وأن تكون للاستئناف الاخباري وضمير الفاعل في يخاف الاظهر عوده على الله تعالى لانه أقرب مذكور وهو قول ابن عباس ويؤيده قراءة الفاء المسببة عن الدمدمة والتسوية والهاء في قوله تعالى (عقباها) ترجع الى الفعلة وذلك لانه تعالى يفعل ذلك بحق وكل من فعل فعلا بحق فانه لا يخاف عاقبة فعله وقيل المراد تحقيق ذلك الفعل والله تعالى أجل من أن يوصف بذلك وقيل المعنى انه تعالى بالغ في الانذار اليهم مبالغة كمن لا يخاف عاقبة عذابهم وقيل يرجع ذلك الى رسولهم صالح عليه السلام أي لا يخاف عقبى هذه العقوبة لانذاره اياهم ونجاه الله وأهلكهم وقال السدي يرجع الضمير الى أشقاها أي انبعث لعقرها والحال انه غير خائف عاقبة هذه الفعلة الشنعاء وقرأ الكسائي جميع رؤس آي هذه السورة بالامالة محضة وقرأها أبو عمرو بين بين وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين وأمال حمزة مثل الكسائي الا تلاها وضحاها ففتحهما والباقون بالفتح واتفقوا على فتح فعقروها وقول البيضاوي تبعا للزمخشري انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والشمس فكأنما تصدق بكل شئ طلعت عليه الشمس والقمر حديث موضوع

﴿سورة والليل مكية﴾

وهي احدى وعشرون آية واحدى وسبعون كلمة وثلثمائة وعشرة أحرف

(بسم الله) الملك الحق المبين (الرحمن) الذي عم رزقه العالمين (الرحيم) الذي خص بجنته المؤمنين وقوله تعالى (والليل) أي الذي هو آلة الظلام (اذا يغشى) قسم وقدمنا الكلام على ذلك ولم يذكر تعالى مفعولا للعلم به فقيل يغشى بظلمته كل ما بين السماء والارض وقيل يغشى النهار وقيل الارض وقيل الخلائق قال قتادة أول ما خلق الله تعالى النور والظلمة ثم ميز بينهما فجعل الظلمة ليلا أسود مظلما والنور نهارا مضيئا مبصرا وقوله تعالى (والنهار) أي الذي هو سبب انكشاف الامور (اذا تجلى) أي تكشف وظهر قسم آخر قال الرازي أقسم بالليل الذي يأوي

فيه كل حيوان الى مأواه وتسكن الخلق عن الاضطراب ويغشاهم النوم الذى جعله الله تعالى راحة لابدانهم وغذاء لارواحهم ثم أقسم بالنهار اذا تجلى لان النهار اذا جاء انكشف بضوئه ما كان فى الدنيا من الظلمة وجاء الوقت الذى تحرك فيه الناس لمعايشهم وتحرك الطير من أوكارها والهوام من مكانها فلو كان الدهر كله ليلا لتعذر المعاش ولو كان كله نهارا لبطلت الراحة لكن المصلحة فى تعاقبهما كما قال تعالى وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة وقال تعالى وسخر لكم الليل والنهار (وما) بمعنى من أى ومن (خلق الذكر والانثى) أى فيكون قد أقسم بنفسه أو مصدرية أى وخلق الله الذكر والانثى وجاز اضمار اسم الله تعالى لانه معلوم لانفراده بالخلق اذلا خالق سواه والذكر والانثى آدم وحواء عليهما السلام أو كل ذكر وأنثى من سائر الحيوانات والخنثى وان أشكل أمره عندنا فهو عند الله تعالى غير مشكل معلوم بالذكورية أو الانوثة فلو حلف بالطلاق أنه لم يلق يومه ذكرا ولا أنثى وقد لقى خنثى مشكلا كان حانثا لانه فى الحقيقة ذكر أو أنثى وان كان مشكلا عندنا وقيل كل ذكر وأنثى من الآدميين فقط لاختصاصهم بولاية الله تعالى وطاعته وقوله تعالى (ان سعيكم) أى عملكم (لشتى) جواب القسم والمعنى ان أعمالكم لمختلف فعامل للجنة بالطاعة وعامل للنار بالمعصية ويجوز أن يكون محذوفا كما قيل فى نظائره المتقدمة وشتى واحده شتيت مثل مريض ومرضى وانما قيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعضه أى ان عملكم المتباعد بعضه من بعض لشتى لان بعضه ضلال وبعضه هدى أى فيكم مؤمن وبر وكافر وفاجر ومطيع وعاص وقيل لشتى أى لمختلف الجزاء فمنكم مثاب بالجنة ومعاقب بالنار وقيل لمختلف الاخلاق فمنكم راحم وقاس وحليم وطائش وجواد وبخيل قال بعض المفسرين نزلت هذه الآية فى أبى بكر وأبى سفيان بن حرب وروى أبو مالك الاشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها أى مهلكها وقوله تعالى (فأما من أعطى) أى وقع منه اعطاء على ما حدده له وأمره به (واتقى) أى ووقعت منه التقوى وهى ايجاد الوقايات من الطاعات واجتناب المعاصى خوفا من سطواتنا (وصدق بالحسنى) تفصيل مبين لتشتيت المساعى واختلف فى الحسنى فقال ابن عباس أى بلا اله الا الله وقال مجاهد بالجنة لقوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وقال زيد ابن أسلم الصلاة والزكاة والصوم (فسنيسره) أى نهيئه بما لنا من العظمة بوعد لا خلف فيه (لليسرى) أى لاسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه فعلها وقال زيد بن أسلم لليسرى أى للجنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من نفس منفوسة الا كتب الله تعالى مدخلها فقال القوم يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال صلى الله عليه وسلم بل اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما من كان من أهل السعادة فانه ميسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فانه ميسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى (وأما من بخل) أى أوجد هذه الحقيقة الخبيثة فمنع ما أمر به وندب اليه (واستغنى) أى طلب الغنى عن الناس وعما وعد به من الثواب أو وجده بما زعمت له نفسه الخائنة

ويظنونه الكاذبة فلم يحسن الى الناس ولا عمل للعقبى (وكذب) أى أوقع التكذيب لمن يستحق التصديق (بالحسنى) أى فأنكرها وكان عامدا مع المحسوسات كالبهائم (فسنيسره) أى نهيئه (للعسرى) أى للخلة المؤدية الى العسرة والشدة كدخول النار وعن ابن عباس قال نزلت فى أمية بن خلف وعنه فسنيسره للعسرى أى سأحول بينه وبين الايمان بالله ورسوله وعنه أيضا وأما من بخل أى بماله واستغنى عن ربه وكذب بالحسنى أى بالخلف الذى وعده الله تعالى فى قوله سبحانه وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وقال مجاهد وكذب بالحسنى أى بالجنة وعنه بلا اله الا الله ويجوز فى ما فى قوله تعالى (وما يغنى عنه ماله) أن تكون نافية أى لا يغنى عنه ماله شيأ وأن تكون استفهاما انكاريا أى أى شئ يغنى عنه ماله (اذا تردى) قال أبو صالح أى اذا سقط فى جهنم وقيل هو كناية عن الموت كما قال القائل

نصيبك مما تجمع الدهر كله * رداآن تطوى فيهما وحنوط

* ولما عرفهم سبحانه أن سعيهم شتى وبين ما للمحسنين من اليسرى وما للمسيئين من العسرى أخبرهم بأن عليه بيان الهدى من الضلال بقوله تعالى (ان علينا) أى بما لنا من القدرة والعظمة (للهدى) أى للارشاد الى الحق بموجب قضائنا أو بمقتضى حكمتنا فنبين طريق الهدى من طريق الضلال ليمتثل أمرنا بسلوك الاول ونهينا عن ارتكاب الثانى وقال الفراء معناه ان علينا للهدى والاضلال فحذف المعطوف كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر وهو معنى قول ابن عباس يريد أرشد أوليائى للعمل بطاعتى وأحول بين أعدائى أن يعملوا بطاعتى وهو معنى الاضلال وقيل معناه من سلك سبيل الهدى فعلى الله تعالى سبيله كقوله تعالى وعلى الله قصد السبيل (وان لنا للآخرة والاولى) أى لنا ما فى الدنيا والآخرة فنعطى فى الدارين ما نشاء لمن نشاء فمن طلبهما من غيرنا فقد أخطأ الطريق وعن ابن عباس قال ثواب الدنيا والآخرة وهو كقوله تعالى من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة (فأنذرتكم) أى حذرتكم وخوفتكم يا أيها المخالفون للطريق الذى بينته (نارا تلظى) بحذف احدى التاءين من الاصل أى تتلهب وتتوقد وتتوهج يقال تلظت النار تلظيا ومنه سميت جهنم لظى وقرأ البزى فى الوصل بتشديد التاء وهو عسر لالتقاء الساكنين على غير حدهما وهو نظير قوله تعالى اذ تلقونه والباقون بغير تشديد (لا يصلاها) أى لا يقاسى شدتها على طريق اللزوم والانغماس (الا الاشقى) أى الذى هو فى الذروة من الشقاوة وهو الكافر فان الفاسق وان دخلها لم يلزمها ولذلك سماه أشقى ووصفه بقوله تعالى (الذى كذب) النبى صلى الله عليه وسلم (وتولى) أى عن الايمان أو كذب الحق وأعرض عن الطاعة أو الاشقى بمعنى الشقى كقوله لست فيها بأوحد أى بواحد والحصر مؤول لقوله تعالى ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فيكون المراد الصلى المؤبد (وسيجنبها) أى النار الموصوفة بوعد لا خلف فيه (الاتقى) أى الذى اتقى الشرك والمعاصى فانه لا يدخلها فضلا أن يدخلها ويصلاها ومفهوم ذلك على التفسير الاول أن من اتقى الشرك دون المعصية لا يجنبها ولا يلزم ذلك صليها ولا يخالف الحصر السابق أو الاتقى

يعنى التقى على وزان مامرّ (الذى يؤتى ماله) أى يصرفه فى وجوه الخير (قوله تعالى (يتزكى)
فانه بدل من يؤتى أوحال من فاعله فعلى الأول لامحل له لانه داخل فى حكم الصلة والصلة
لامحل لها وعلى الثانى محله نصب قال البغوى يعنى أبا بكر الصديق رضى الله عنه فى قول
الجميع قال ابن الزبير كان يبتاع الضعفة فيعتقهم فقال له أبوه أى بنى لو كنت تبتاع من يمنع
ظهرك فقال منع ظهرى أريد فأنزل الله تعالى وسيجنبها الاتقى الى آخر السورة وذكر محمد
ابن اسحق قال كان بلال لبعض بنى جمح وهو بلال بن رباح واسم أمه حمامة وكان صادق
الاسلام طاهر القلب وكان أمية بن خلف يخرجه اذا حميت الشمس فيطرحه على ظهره ببطحاء
مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد
فيقول وهو فى ذلك أحد أحد قال محمد بن اسحق عن هشام بن عروة عن أبيه قال مرّ به أبو بكر
يوما وهم يصنعون به ذلك وكانت دار أبى بكر فى بنى جمح فقال لامية ألا تتقى الله تعالى فى هذا
المسكين قال أنت أفسدته فأنقذه مما ترى قال أبو بكر أفعل عندى غلام أسود أجلد منه وهو
على دينك أعطيكه قال قد فعلت فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذه فأعتقه وكان قد أعتق ست
رقاب على الاسلام قبل أن يهاجر وبلال سابعهم وهم عامر بن هبيرة شهد بدرا وأحدا وقتل
يوم بئر معونة شهيدا وأعتق أم عميس فأصيب بصرها حين أعتقها فقالت قريش ما أذهب
بصرها الا اللات والعزى فقالت كذبوا وبيت الله ماتضر اللات والعزى ولا تنفعان فرد الله
تعالى بصرها وأعتق النهدية وابنتها وكانتا لامرأة لبنى عبد الدار فمرّ بهما وقد بعثتهما سيدتهما
يحتطبان لها وهى تقول لهما والله لاأعتقكما أبدا فقال أبو بكر كلا ياأم فلان فقالت كلا أنت
أفسدتهما فأعتقهما قال فبكم قالت بكذا وكذا قال قد أخذتهما وهما حرتان ومرّ بجارية
من بنى المرسل وهى تعذب فابتاعها فأعتقها وقال سعيد بن المسيب بلغنى ان أمية بن خلف
قال له أبو بكر فى بلال أتبيعه قال نعم أبيعه بقسطاس عبد لابى بكر صاحب عشرة آلاف دينار
وغلمان وجوار ومواش وكان مشركا حمله أبو بكر على الاسلام على أن يكون ماله له فأبى فأبغضه
أبو بكر فلما قال له أمية أبيعه بغلامك قسطاس اغتنمه أبو بكر وباعه به وروى الضحاك عن
ابن عباس قال عذب المشركون بلالا وبلال يقول أحد أحد فمرّ النبى صلى الله عليه وسلم فقال
أحد يعنى الله تعالى ينجيك ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم لابى بكر ياأبا بكر ان بلالا يعذب فى الله
فعرف أبو بكر الذى يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف الى منزله فأخذ رطلا من ذهب
ومضى به الى أمية بن خلف فقال له أتبيعنى بلالا قال نعم فاشتراه فأعتقه فقال المشركون مافعل
ذلك أبو بكر ببلال الا ليد كانت لبلال عنده فأنزل الله تعالى (وما لاحد عنده) أى أبى بكر
(من نعمة تجزى) أى يد يكافئه عليها وقوله تعالى (الا ابتغاء) استثناء منقطع أى لم يفعل ذلك
مجازاة لاحد بيد كانت له عنده لكن فعله ابتغاء (وجه ربه) أى المحسن اليه (الاعلى) وطلب
رضاه ويجوز أن يكون متصلا عن محذوف مثل لايؤتى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى لالمكافأة
نعمة (ولسوف يرضى) أى بما يعطى من الثواب فى الجنة وروى عن على قال قال رسول الله

قوله ابن هبيرة هكذا فى النسخ والذى فى حاشية الجمل ابن فهيرة بالفاء والهاء اهـ

صلى الله عليه وسلم رحم الله أبا بكر زوجني ابنته وحملني الى دار الهجرة وأعتق بلالا والآية تشمل من فعل مثل فعله فيبعد عن النار ويثاب وقرأ حمزة والكسائي يغشى تجلى والانثى لشقى من أعطى واتقى وصدق بالحسنى واستغنى بالحسنى تردى للهدى والاولى تلظى الاشقى وتولى الاتقى يتزكى تجزى الاعلى يرضى بالامالة محضة في جميع ذلك وأمال ورش جميع ذلك بين بين والفتح عنه قليل وله في من أعطى الفتح وبين اللفظين سواء وأمال أبو عمرو بين بين الامن أعطى لانه ليس برأس آية والباقون بالفتح وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي لليسرى للعسرى بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح وأمال حمزة والكسائي يصلاها محضة ولورش الفتح وبين اللفظين واذا فتح غلظ اللام واذا أمال رققها وأما الاشقى والاتقى فلا عمالان الا في الوقف دون الوصل وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والليل أعطاه الله تعالى حتى يرضى وعافاه من العسر ويسر له اليسر حديث موضوع

(سورة والضحى مكية)

وهي احدى عشرة آية وأربعون كلمة ومائة وسبعون حرفا ولما نزلت كبر النبي صلى الله عليه وسلم فسن التكبير آخرها وروى الامر به خاتمها وخاتمة كل سورة بعدها وهو الله أكبر أو لا اله الا الله والله أكبر

(بسم الله) الملك ذي الجلال والاكرام (الرحمن) الذي عم بنعمته الخاص والعام (الرحيم) الذي خص أهل وده باتمام الانعام وقوله تعالى (والضحى) قسم وقدم الكلام على ذلك وخصه بالقسم لانها الساعة التي كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام وألقى السحرة فيها سجدا وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى شعاعها لقوله تعالى وأن يحشر الناس ضحى وقال البغوي أراد النهار كله بدليل أنه قابله بالليل في قوله تعالى (والليل) أي الذي به تمام الصلاح (اذا سجى) أي سكن وركد ظلامه يقال ليلة ساجية ساكنة الريح وقيل معناه سكون الناس والاصوات فيه وسجى البحر سكنت أمواجه وطرف ساج فاتر وقال قتادة أقسم بالضحى الذي كلم الله تعالى فيه موسى وبليلة المعراج التي عرج فيها النبي صلى الله عليه وسلم (فان قيل) ما الحكمة في أنه تعالى قدم هنا الضحى وفي السورة التي قبلها الليل (أجيب) بأن لكل منهما أثرا عظيما في صلاح العالم وللليل فضيلة السبق لقوله تعالى وجعل الظلمات والنور وللنهار فضيلة النور فقدم سبحانه هذا تارة وهذا أخرى كالركوع والسجود في قوله تعالى اركعوا واسجدوا وقوله تعالى واسجدي واركعي مع الراكعين أو أنه قدم الليل في سورة أبي بكر لان أبا بكر سبقه كفر وقدم الضحى في سورة محمد صلى الله عليه وسلم لانه نور محض ولم يتقدمه ذنب أو أن سورة والليل سورة أبي بكر وسورة والضحى سورة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يجعل بينهما واسطة ليعلم أنه لا واسطة بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين أبي بكر رضي الله تعالى عنه (فان قيل) ما الحكمة في كونه تعالى ذكر الضحى وهو ساعة وذكر الليل بجملته (أجيب) بأن في ذلك

اشارة الى ان ساعة من نهار توازن جميع الليل كما أن محمدا صلى الله عليه وسلم يوازن جميع الانبياء عليهم السلام وأيضا الضحى وقت السرور والليل وقت الوحشة ففيه اشارة الى أن سرور الدنيا أقل من شرورها وان هموم الدنيا أدوم من سرورها فان الضحى ساعة والليل ساعات ويروى أن الله تعالى لما خلق العرش أظلت غمامة سوداء ونادت ماذا أمطر فأجيبت أن امطرى السرور ساعة فلهذا ترى الهموم والاحزان دائمة والسرور قليلا ونادرا وقدم ذكر الضحى وأخر الليل لانه يشبه الموت وقوله تعالى (ماودعك) أى تركك يا أشرف الرسل تركا تحصل به فرقة كفرقة المودع ولو على أحسن الوجوه الذى هو مراد المودع (ربك) أى المحسن اليك جواب القسم (وماقلى) أى وما أبغضك بغضا ما وترك الكاف لانه رأس آية كقوله تعالى والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أى الله * (تنبيه) * اختلفوا فى سبب نزول هذه الآية على ثلاثة أقوال أحدها ماروى البخارى عن جندب بن سفيان قال اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلتين أو ثلاثا فجاءت أم جميل امرأة أبى لهب فقالت يا محمد انى لارجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث فنزلت ثانيها ماروى أبو عمرو قال أبطأ جبريل عليه السلام على النبى صلى الله عليه وسلم حتى شق عليه فجاءه وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو وأنزل عليه الآية ثالثها ماروى أن خولة كانت تخدم النبى صلى الله عليه وسلم فقالت ان جروا دخل البيت فدخل تحت السرير فمات فمكث النبى صلى الله عليه وسلم أياما لا ينزل عليه الوحى فقال صلى الله عليه وسلم يا خولة ماحدث فى بيتى ان جبريل عليه السلام لا يأتينى قالت خولة فكنست فأهويت بالمكنسة تحت السرير فاذا جرو ميت فأخذته فألقيته خلف الجدار فجاء نبى الله صلى الله عليه وسلم ترعد لحياه وكان اذا نزل عليه الوحى استقبلته الرعدة فقال يا خولة دثرينى فأنزل الله تعالى هذه السورة * ولما نزل جبريل عليه السلام سأله النبى صلى الله عليه وسلم عن التأخير فقال أما علمت أنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة رابعها ماروى ان اليهود سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن الروح وذى القرنين وأصحاب الكهف فقال صلى الله عليه وسلم سأخبركم غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس عنه الوحى الى أن نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله فأخبره بما سئل عنه وفى هذه القصة نزلت ماودعك ربك واختلفوا فى مدة احتباس الوحى عنه فقال ابن جريج اثنا عشر يوما وقال ابن عباس خمسة عشر يوما وقال مقاتل أربعون يوما قالوا وقال المشركون ان محمدا ودعه ربه وقلاه فأنزل الله تعالى هذه السورة فقال النبى صلى الله عليه وسلم يا جبريل ماجئت حتى اشتقت اليك فقال جبريل عليه السلام انى كنت اليك أشد شوقا ولكنى عبد مأمور وأنزل الله تعالى وما نتنزل الا بأمر ربك (وللآخرة) التى هى المقصود من الوجود بالذات لانها باقية خالصة عن شوائب الكدر (خير لك) أى لما فيها من الكرامات لك (من الاولى) أى الدنيا الفانية التى لا سرور فيها خالص وقيد تعالى بقوله سبحانه لك لانها ليست خيرا لكل أحد قال البقاعى ان الناس على أربعة أقسام منهم من له

الخير في الدارين وهم أهل الطاعة الاغنياء ومنهم من له الشر فيهما وهم الكفرة الفقراء ومنهم من له صورة خير في الدنيا وشر في الآخرة وهم الكفرة الاغنياء ومنهم من له صورة شر في الدنيا وخير في الآخرة وهم المؤمنون الفقراء وروى البغوي بسنده عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا (ولسوف يعطيك) أي بوعد لاخلف فيه وان تأخر وقته بما أفهمته الاداة (ربك) أي المحسن اليك بسائر النعم في الآخرة من الخيرات عطاء جزيلا (فترضى) أي به فقال صلى الله عليه وسلم اذا لا أرضى وواحد من أمتي في النار وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم رفع يديه وقال اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله تعالى يا جبريل اذهب الى محمد فقل له انا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك وعن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته واني اختبأت دعوتي شفاعة لامتي يوم القيامة فهي نائلة من مات لا يشرك بالله شيأ وعن عوف بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتاني آت من عند ربي يخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة فهي نائلة من مات ولم يشرك بالله شيأ وعن شريح قال سمعت أبا جعفر محمد بن علي يقول انكم معشر أهل العراق تقولون أرجى آية في القرآن قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله وانا أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله ولسوف يعطيك ربك فترضى وفي هذا موعد لما أعطاه الله تعالى في الدنيا من الفتح والظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة ودخول الناس في الدين أفواجا والغلبة على قريظة والنضير واجلائهم وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الارض من المدائن وهدم بأيديهم من ممالك الجبابرة وأنهبهم من كنوز الاكاسرة وما قذف في قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيب الاسلام وفشو الدعوة واستيلاء المسلمين ولما أعطاه في الآخرة من الثواب الذي لا يعلم كنهه الا الله تعالى قال ابن عباس له في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك (فان قيل) ما هذه اللام الداخلة على سوف (أجيب) بأنها لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة والمبتدا محذوف تقديره ولانت سوف يعطيك وذلك أنها لا تخلو من أن تكون لام قسم أو ابتداء فلام القسم لا تدخل على المضارع الا مع نون التوكيد فبقي أن تكون لام ابتداء ولام الابتداء لا تدخل الا على الجملة من المبتدا والخبر فلا بد من تقدير مبتدا وخبر وأن يكون أصله ولانت سوف يعطيك (فان قيل) ما معنى الجمع بين حرفي التأكيد والتأخير (أجيب) بأن معناه ان العطاء كائن لا محالة وان تأخر لما في التأخير من المصلحة على أنه تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بالحال التي كان عليها فقال جل ذكره (ألم يجدك) وهو استفهام تقرير أي وجدك (يتيما) وذلك ان أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر وقيل مات قبل ولادته وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين (فآوى) أي بأن ضمك الى عمك أبي طالب فأحسن تربيتك وعن مجاهد هو من قول العرب درة يتيمة اذا لم يكن لها نظير فالمعنى ألم يجدك

يتيما واحدا فى شرفك لانظيرلك فآوالك الله تعالى بأصحاب يحفظونك ويحوطونك وهذا خلاف الظاهر من الآية ولهذا قال الزمخشرى ومن بدع التفاسير انه من قولهم درة يتيمة وأن المعنى ألم يجدك واحدا فى قريش عديم النظير فآواك (فان قيل) كيف ان الله تعالى يمن بنعمه والمن بها لا يليق ولهذا ذم فرعون فى قوله لموسى عليه السلام ألم نربك فينا وليدا (أجيب) بأن ذلك يحسن اذا قصد به تقوية قلبه ووعده بدوام النعمة فامتنان الله تعالى زيادة نعمة بخلاف امتنان الآدمى واختلفوا فى قوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى) فأكثر المفسرين على أنه كان ضالا عما هو عليه الآن من الشريعة فهداه الله تعالى اليها وقيل الضلال بمعنى الغفلة كقوله تعالى لا يضل ربى ولا ينسى أى لا يغفل وقال تعالى فى حق نبيه صلى الله عليه وسلم وان كنت من قبله لمن الغافلين وقال الضحاك المعنى لم تكن تدرى القرآن وشرائع الاسلام فهداك الى القرآن وشرائع الاسلام وقال السدى وجدك ضالا أى فى قوم ضلال فهداهم الله تعالى بك أو فهداك الى ارشادهم وقيل وجدك ضالا عن الهجرة فهداك اليها وقيل ناسيا شأن الاستثناء حين سئلت عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح فذكرك كقوله تعالى أن تضل احداهما وقيل وجدك طالبا للقبلة فهداك اليها كقوله تعالى قد نرى تقلب وجهك فى السماء الآية ويكون الضلال بمعنى الطلب لان الضال طالب وقيل وجدك ضائعا فى قومك فهداك اليهم ويكون الضلال بمعنى المحبة كما قال تعالى قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم أى فى محبتك قال الشاعر

هذا الضلال أشاب منى المفرقا * والعارضين ولم أكن متحققا
عجبا لعزة فى اختيار قطيعتى * بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وروى الضحاك عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم ضل فى شعاب مكة وهو صبى صغير فرآه أبو جهل منصرفا من أغنامه فرده الى عبد المطلب وقال سعيد بن المسيب خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمه أبى طالب فى قافلة ميسرة عبد خديجة فبينما هو راكب ذات ليلة مظلمة ناقة فجاء ابليس فأخذ بزمام الناقة فعدل بها عن الطريق فجاء جبريل عليه السلام فنفخ ابليس نفخة وقع منها الى أرض الحبشة ورده الى القافلة فمن الله تعالى عليه بذلك وقيل وجدك ضالا نفسك لا تدرى من أنت فعرفك نفسك وحالك وقال كعب ان حليمة لما قضت حق الرضاع جاءت برسول الله صلى الله عليه وسلم لترده على عبد المطلب فسمعت عند باب مكة هنيأ لك يا بطحاء مكة اليوم يرد اليك النور والبهاء والجمال قالت فوضعته لاصلح شأنى فسمعت هدة شديدة فالتفت فلم أره فقلت معشر الناس أين الصبى فقالوا لم نر شيأ فصحت وا محمداه فاذا شيخ فان يتوكأ على عصا فقال اذهبى الى الصنم الاعظم فان شاء أن يرده اليك فعل ثم طاف الشيخ بالصنم وقبل رأسه وقال يارب لم تزل منتك على قريش وهذه السعدية تزعم أن ابنها قد ضل فرده ان شئت فانكب على وجهه وتساقطت الاصنام وقالت اليك عنا أيها الشيخ فهلاكنا على يد محمد فألقى الشيخ عصاه وارتعد وقال ان لابنك ربا لا يضيعه فاطلبيه

على ابى جهل فانحشرت قريش الى عبد المطلب وطلبوه فى جميع مكة فلم يجدوه فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعا وتضرع الى الله تعالى أن يرده وقال

يارب رد ولدى محمدا * اردده ربى واصطنع عندى يدا

فسمعوا مناديا ينادى من السماء معاشر الناس لاتضجوا فان لمحمد ربا لايخذله ولايضيعه وان محمدا بوادى تهامة عند شجرة السمرة فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل فاذا النبى صلى الله عليه وسلم قائم تحت شجرة يلعب بالاغصان وبالورق وفى رواية مازال عبد المطلب يردد البيت حتى أتاه أبو جهل على ناقة ومحمد صلى الله عليه وسلم بين يديه وهو يقول ألا تدرى ماذا يجرى من ابنك فقال عبد المطلب ولم فقال انى أنخت الناقة وأركبته خلفى فأبت الناقة أن تقوم فلما أركبته أمامى قامت الناقة قال ابن عباس رده الله تعالى الى جده بيد عدوه كما فعل بموسى عليه السلام حين حفظه عند فرعون وقيل وجدك ضالا ليلة المعراج حين انصرف عنك جبريل وأنت لاتعرف الطريق فهداك الى ساق العرش وقال بعض المتكلمين اذا وجدت العرب شجرة منفردة من الارض لاشجر معها سموها ضالة فيهتدى بها الى الطريق فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ووجدك ضالا أى لا أحد على دينك بل أنت وحيد ليس معك أحد فهديت بك الخلق الى وقيل الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره فقوله تعالى ووجدك ضالا فهدى أى وجد قومك ضلالا فهداهم بك وقيل غير ذلك قال الزمخشرى ومن قال كان على أمر قومه أربعين سنة فان أراد أنه كان على خلوهم من العلوم السمعية فنعم وان اراد انه كان على كفرهم ودينهم فمعاذ الله والانبياء عليهم الصلاة والسلام يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة فما بال الكفر والجهل بالصانع ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ وكفى بالنبى نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر (ووجدك عائلا) أى فقيرا (فأغنى) قال مقاتل فرضاك بما أعطاك من الرزق واختاره الفراء وقال لم يكن غنى عن كثرة المال ولكن الله تعالى أرضاه بما أعطاه وذلك حقيقة الغنى قال صلى الله عليه وسلم ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس وقال صلى الله عليه وسلم قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه وقيل أغناك بمال خديجة وتربية أبى طالب ولما اختل ذلك أغناه بمال أبى بكر ولما اختل ذلك أمره بالجهاد وأغناه بالغنائم وروى الزمخشرى أنه صلى الله عليه وسلم قال جعل رزقى تحت ظل رمحى وقال الرازى العائل ذو العيلة ثم أطلق على الفقير ويجوز أن يراد ووجدك ذا عيال لاتقدر على التوسعة عليهم فأغناك بما جعل لك من ربح التجارة ثم من كسب الغنائم وروى البغوى باسناد الثعلبى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت ربى مسئلة وددت انى لم أكن سألته قلت يارب انك آتيت سليمان بن داود ملكا عظيما وآتيت فلانا كذا وفلانا كذا قال يا محمد ألم أجدك يتيما فآويتك قلت بلى يارب قال ألم أجدك ضالا فهديتك قلت بلى يارب قال ألم أجدك عائلا فأغنيتك قلت بلى يارب وفى رواية ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك قلت بلى يارب ثم أوصاه باليتامى والمساكين

والفقراء فقال تعالى (فأما اليتيم) أى هذا النوع (فلا تقهر) قال مجاهد لا تحتقر اليتيم فقد كنت يتيما وقال الفراء لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه كما كانت العرب تفعل فى أموال اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن اليه وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء اليه ثم قال باصبعيه أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا وهو يشير باصبعيه * (تنبيه) * اليتيم منصوب بتقهر وبه استدل ابن مالك على أنه لا يلزم من تقديم المعمول تقديم العامل ألا ترى ان اليتيم منصوب بالمجزوم وقد تقدم على الجازم ولو تقدم على لا لامتنع لان المجزوم لا يتقدم على جازمه كالمجرور لا يتقدم على جاره وفى الآية دلالة على اللطف باليتيم وبره والاحسان اليه وقال صلى الله عليه وسلم من ضم يتيما وكان فى نفقته وكفاه مؤنته كان له حجابا من النار يوم القيامة وقال من مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة وقال قتادة كن لليتيم كالاب الرحيم (فان قيل) ما الحكمة فى أن الله تعالى اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم اليتم (أجيب) بوجوه أحدها أن يعرف حرارة اليتم فيرفق باليتيم ثانيها يشاركه فى الاسم فيكرمه لاجل ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم اذا سميتم الولد محمدا فأكرموه ووسعوا له فى المجلس ثالثها ليستند من أول عمره على الله تعالى فيشبه ابراهيم عليه السلام فى قوله حسبى من سؤالى علمه بحالى رابعها ان اليتيم تظهر عيوبه فلما لم يجدوا عيبا لم يجدوا فيه مطعنا خامسها جعله يتيما ليعلم كل أحد ان فضيلته ابتداء من الله تعالى لا من تعليم لان من له أب فانه يؤدبه ويعلمه سادسها اليتم والفقر نقص فى العادة فكونه صلى الله عليه وسلم مع هذين الوصفين من أكرم الخلق كان ذلك قلبا للعادة فيكون معجزة (وأما السائل) أى الذى أحوجته العيلة أو غيرها الى السؤال (فلا تنهر) أى فلا تزجر يقال نهره وانتهره اذا زجره وأغلظ عليه القول ولكن رده ردا جميلا قال ابراهيم بن أدهم نعم القوم السؤال يحملون زادنا الى الآخرة وقال ابراهيم النخعى السائل بريدنا الى الآخرة يجيء الى باب أحدكم فيقول هل تبعثون الى أهليكم بشئ وقيل المراد بالسائل هنا الذى يسأل عن الدين وروى الزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا رددت السائل ثلاثا فلم يرجع فلا عليك ان تزبره وقيل أما انه ليس السائل المستجدى ولكن طالب العلم اذا جاءك فلا تنهره (وأما بنعمة ربك) أى المحسن اليك بالنبوة وغيرها (فحدث) بها فان التحدث بها شكرها وانما يجوز لغيره صلى الله عليه وسلم مثل هذا اذا قصد به اللطف وأن يقتدى به غيره وأمن على نفسه الفتنة والستر أفضل ولو لم يكن فى الذكر الا التشبه بأهل الرياء والسمعة لكفى والمعنى انك كنت يتيما وضالا وعائلا فآواك الله وهداك وأغناك فهما يكن من شئ فلا تنس نعمة الله عليك فى هذه الثلاث واقتد بالله فتعطف على اليتيم وآوه فقد ذقت اليتم وهوانه ورأيت كيف فعل الله تعالى بك وترحم على السائل وتفقده بمعروفك ولا تزجره عن بابك كما رحمك ربك فأغناك بعد الفقر وحدث بنعمة الله كلها ويدخل تحته هدايته الضلال وتعليمه الشرائع والقرآن مقتديا بالله تعالى فى أن هداه من الضلالة وقال مجاهد تلك النعمة هى القرآن والتحديث به أن يقرأه ويقرئ غيره وعنه أيضا تلك النعمة هى النبوة أى بلغ ما أنزل اليك من ربك وقيل تلك

النعمة هي ان وفقك الله سبحانه وتعالى فراعيت حق اليتيم والسائل فحدث بها ليقتدى بك غيرك وعن الحسن بن على قال اذا عملت خيرا فحدث به اخوانك ليقتدوا بك الا ان هذا لا يحسن الا اذا لم يتضمن رياء وظن ان غيره يقتدى به كما علم مما مر وروى ان شخصا كان جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فرآه رث الثياب فقال له صلى الله عليه وسلم ألك مال قال نعم فقال له صلى الله عليه وسلم اذا آتاك الله مالا فليرأثره عليك وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ان الله جميل يحب الجمال ويحب ان يرى أثر النعمة على عبده (فان قيل) ما الحكمة في أن الله تعالى أخر حق نفسه عن حق اليتيم والسائل (أجيب) بكأنه يقول أنا أغنى الاغنياء وهما محتاجان وحق المحتاج أولى بالتقديم واختار قوله سبحانه وتعالى فحدث على قوله تعالى فأخبر ليكون ذلك حديثا عنه لا ينساه ويعيده مرة بعد أخرى وقرأ والضحى سجى قلى الاولى فترضى فآوى فهدى فأغنى حمزة والكسائي بامالة محضة لكن حمزة لم يمل سجى وأمال ورش وأبو عمرو بين بين والفتح عن ورش قليل والباقون بالفتح وروى أبي بن كعب ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا بلغ الضحى كبر بين كل سورتين الى أن يختم القرآن ويفصل بينهما بسكتة وكان المعنى في ذلك ان الوحي تأخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما فقال ناس من المشركين قد ودعه صاحبه وقلاه فنزلت هذه السورة فقال صلى الله عليه وسلم الله أكبر قال مجاهد قرأت على ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فأمرني به وأخبر أنه صلى الله عليه وسلم أمر به وبعض القراء لا يكبر لان ذلك ذريعة الى الزيادة في القرآن وقال القرطبي القرآن ثبت نقله بالتواتر سوره وآياته وحروفه بغير زيادة ولا نقصان فالتكبير ليس بقرآن وقول البيضاوي تبعا للزمخشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة والضحى جعله الله فيمن يرضى لمحمد أن يشفع له وعشر حسنات يكتبها الله له بعدد كل يتيم وسائل حديث موضوع

(سورة ألم نشرح مكية)

وهي ثمان آيات وتسع وعشرون كلمة ومائة وثلاثة أحرف

(بسم الله) الظاهر الباطن الملك العلام (الرحمن) الذى عم المخلوقين بالانعام (الرحيم) الذى خص أولياءه بدار السلام وقوله تعالى (ألم نشرح) استفهام تقرير أى شرحنا بما يليق بعظمتنا (لك) يا أشرف الخلق (صدرك) بالنبوة وغيرها حتى وسع مناجاتنا ودعوة الخلق أو فسحناه بما أودعنا فيه من الحكم والعلوم وأزلنا عنه الضيق والحرج الذى كان يكون معه العمى والجهل وعن الحسن ملئ حكمة وعلما وقيل انه اشارة الى ما روى ان جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم في صباه أو في يوم الميثاق فاستخرج قلبه فغسله ثم ملأه ايمانا وعلما (فان قيل) لم قال تعالى صدرك ولم يقل قلبك (أجيب) بان محل الوسوسة هو الصدر كما قال تعالى يوسوس في صدور الناس فأزال تلك الوسوسة وأبدلها بدواعي الخير فلذلك خص الشرح بالصدر دون القلب وقال محمد بن على الترمذي القلب محل العقل والمعرفة والشيطان يجيء الى الصدر الذى

هو حصن القلب فاذا وجده سالكا أغار فيه وثبت جنده فيه وبث فيه الهموم والغموم والحرص فيضيق القلب حينئذ ولا يجد للطاعة لذة ولا للاسلام حلاوة فاذا طرد العدو في الابتداء حصل الامن وانشرح الصدر (فان قيل) لم قال تعالى ألم نشرح لك صدرك ولم يقل ألم نشرح صدرك (أجيب) بوجهين أحدهما كأنه تعالى يقول لام بلام فأنت انما تفعل جميع الطاعة لاجلى وأنا ايضا جميع ما أفعله لاجلك ثانيهما ان فيه تنبيها على ان منافع الرسالة عائدة اليك لاجلك لا لاجلنا واختلف في قوله تعالى (ووضعنا) أي بما لنا من العظمة (عنك وزرك) فقال الحسن ومجاهد حططنا عنك الذي سلف منك في الجاهلية وهو قوله تعالى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وقال الحسين بن الفضل يعني الخطأ والسهو وقيل ذنوب أمتك وأضافها اليه لاشتغال قلبه بها (الذي أنقض) أي أثقل (ظهرك) قال أبو عبيدة خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بها حتى لا تثقل عليك وقيل كان في الابتداء يثقل عليه الوحي حتى يكاد يرمي نفسه من شاهق الى ان جاءه جبريل عليه السلام وأزال عنه ما كان يخاف من تغير العقل وقيل عصمناك من احتمال الوزر وحفظناك قبل النبوة في الاربعين من الادناس حتى نزل عليك الوحي وأنت مطهر (ورفعنا) أي بما لنا من القدرة التامة (لك ذكرك) روى الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال يقول الله عز وجل لا ذكرت الا ذكرت معي في الاذان والاقامة والتشهد ويوم الجمعة على المنابر ويوم الفطر ويوم الاضحى ويوم عرفة وأيام التشريق وعند الجمار وعلى الصفا والمروة وفي خطبة النكاح ومشارق الارض ومغاربها ولو أن رجلا عبد الله تعالى وصدق بالجنة والنار وكل شيء ولم يشهد ان محمدا رسول الله لم ينتفع بشيء وكان كافرا وقيل أعلينا ذكرك فذكرناك في الكتب المنزلة على الانبياء قبلك وأمرناهم بالبشارة بك ولا دين الا ودينك يظهر عليه وقيل رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء وفي الارض عند المؤمنين ونرفع في الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود وكرائم الدرجات وقال الضحاك لا تقبل صلاة الا به ولا تجوز خطبة الا به وقال مجاهد يعني التأذين وفيه يقول حسان بن ثابت

أغر عليه للنبوة خاتم * من الله مشهور يلوح ويشهد
وضم الاله اسم النبي الى اسمه * اذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله * فذو العرش محمود وهذا محمد

وقيل رفع ذكره بأخذ ميثاقه على النبيين والزامهم الايمان به والاقرار بفضله وقيل عام في كل ما ذكر وهذا أولى وكم من موضع في القرآن يذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه وقوله تعالى ومن يطع الله ورسوله فقد فاز وقوله تعالى وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولما كان المشركون يعيرونه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالفقر والضيقة حتى سبق الى وهمه انهم رغبوا عن الاسلام لافتقار أهله واحتقارهم ذكر ما أنعم الله به عليه من جلائل النعم ثم وعده اليسر والرخاء بعد الشدة فقال تعالى (فان مع العسر) أي ضيق الصدر والوزر المنقض للظهر وضلال القوم وايذائهم (يسرا) أي كالشرح والوضع والتوفيق

للاعتداء والطاعة فلا تيأس من روح الله اذا عراك ما يهمك فان مع العسر الذى أنتم فيه يسرا (فان قيل) ان مع للصحبة فما معنى اصطحاب العسر واليسر (أجيب) بأن الله تعالى أراد أن يصيبهم بيسر بعد العسر الذى كانوا فيه بزمان قريب فقرب اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر زيادة فى التسلية وتقوية القلوب وقوله تعالى (ان مع العسر يسرا) استئناف وعد الله تعالى بأن العسر متبوع بيسر آخر كثواب الآخرة كقولك للصائم فرحة ثم فرحة أى فرحة عند الافطار وفرحة عند لقاء الرب ويجوز أن يراد باليسرين ما تيسر من الفتوح فى أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وما تيسر لهم أيام الخلفاء وقيل تكرير (فان قيل) ما معنى قول ابن عباس رضى الله عنه وابن مسعود رضى الله عنهما لن يغلب عسر يسرين وقد روى مرفوعا انه صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم وهو يضحك ويقول لن يغلب عسر يسرين (أجيب) بأن هذا حمل على الظاهر وبناء على قوة الرجاء وان موعد الله لا يحمل الا على أوفى ما يحتمله اللفظ وأبلغه والقول عنه أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تكريرا للاولى كما كرر فى قوله تعالى ويل يومئذ للمكذبين لتقرير معناها فى النفوس وتمكينها فى القلوب وكما تكرر المفرد فى قولك زيد زيد وأن تكون الاولى عدة بأن العسر مردف بيسر لا محالة والثانية عدة مستأنفة بأن العسر متبوع بيسر فهما يسران على تقدير الاستئناف وانما كان العسر واحدا لانه لا يخلو اما أن يكون تعريفه للعهد وهو العسر الذى كانوا فيه فهو هو لان حكمه حكم زيد فى قولك ان مع زيد مالا ان مع زيد مالا وأما أن يكون للجنس الذى يعلمه كل أحد فهو هو أيضا وأما اليسر فمنكر متناول لبعض الجنس فاذا كان الكلام الثانى مستأنفا غير مكرر فقد تناول بعضا غير البعض الاول بغير اشكال أو بأن لن يغلب عسر الدنيا اليسر الذى وعد الله المؤمنين فيها واليسر الذى وعدهم فى الآخرة انما يغلب أحدهما وهو يسر الدنيا فأما يسر الآخرة فدائم غير زائل أى لا يجتمعان فى الغلبة كقوله صلى الله عليه وسلم شهرا عيد لا ينقصان أى لا يجتمعان فى النقصان (فان قيل) فما معنى هذا التنكير (أجيب) بأنه للتفخيم كأنه قيل ان مع العسر يسرا عظيما وأى يسر روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان العسر فى جحر ضب لتبعه اليسر حتى يخرجه وللطبرانى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان العسر فى جحر لدخل اليسر حتى يخرجه ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية ولما عدد تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم نعمه السابقة ووعده الآنفة حثه على الشكر والاجتهاد فى العبادة بقوله تعالى (فاذا فرغت) قال ابن عباس رضى الله عنهما فرغت من صلاتك المكتوبة (فانصب) أى انصب فى الدعاء وقال ابن مسعود رضى الله عنه فاذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل وقال الشعبى اذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك وقال الحسن وزيد بن أسلم اذا فرغت من جهاد عدوك فانصب فى عبادة ربك وصل وقال ابن حبان عن الكلبى اذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب استغفر لذنبك وللمؤمنين قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه انى أكره أن أرى أحدكم فارغا لا فى عمل الدنيا ولا فى عمل الآخرة (والى ربك) أى المحسن اليك بفضائل النعم

خصوصا

خصوصا عاذكر فى هاتين السورتين (فارغب) أى اجعل رغبتك اليه خصوصا ولا تسأل الا فضله متوكلا عليه وقيل تضرع اليه راغبا فى الجنة راهبا من النار عصمنا الله تعالى وأحبابنا منها بمحمد صلى الله عليه وسلم وآله وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ ألم نشرح فكأنما جاءنى وأنا مغتم ففرج عنى حديث موضوع

(سورة والتين والزيتون مكية)

وقال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة مدنية وهى ثمان آيات وأربع وثلاثون كلمة ومائة وخمسون حرفا

(بسم الله) الذى له الملك كله (الرحمن) الذى وسع الخلائق عدله (الرحيم) الذى خص أولياءه بتوفيقه فظهر عليهم جوده وفضله وقوله تعالى (والتين والزيتون) قسم وتقدم نظائر ذلك أقسم بهما لانهما عجيبتان من بين أصناف الاشجار المثمرة روى أنه أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم طبق من تين فأكل منه وقال لاصحابه كلوا فلو قلت ان فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لان فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فانها تقطع البواسير وتنفع من النقرس ومر معاذ بن جبل بشجرة الزيتون فأخذ منها قضيبا واستاك به وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفرة وسمعته يقول هى سواكى وسواك الانبياء من قبلى وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو تينكم هذا الذى تأكلون وزيتونكم هذا الذى تعصرون منه الزيت وقال عكرمة هما جبلان من الارض المقدسة يقال لهما بالسريانية طور تينا وطور زيتا لانهما منبتا التين والزيتون وقيل التين جبال ما بين حلوان وهمدان والزيتون جبال الشام لانهما منابتهما كأنه قيل ومنابت التين والزيتون وقال محمد بن كعب التين مسجد أصحاب الكهف والزيتون مسجد ايليا وقال الضحاك مسجدان بالشام وقال ابن زيد التين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس وحسن القسم بهما لانهما موضع الطاعة وقيل التين مسجد نوح عليه السلام الذى بناه على الجودى والزيتون مسجد بيت المقدس (وطور سينين) أى الجبل الذى ناجى عليه موسى عليه السلام ربه عز وجل وسينين وسينا اسمان للموضع الذى هو فيه فأضيف الجبل الى المكان الذى هو فيه وقال مقاتل والكلبى سينين كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين وسينا بلغة النبط ولم ينصرف سينين كما لا ينصرف سينا لانه جعل اسما للبقعة أو الارض ولو جعل اسما للمكان أو للمنزل أو اسم مذكر لانصرف لانك سميت مذكرا بمذكر وانما أقسم بهذا الجبل لانه بالشام وهى الارض المقدسة وقد بارك فيها قال الله تعالى الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله ولا يجوز أن يكون سينين نعتا للطور لاضافته اليه (وهذا البلد الامين) أى الآمن من أمن الرجل أمانة فهو أمين وهى مكة حرسها الله تعالى لانها الحرم الذى يأمن الناس فيه فى الجاهلية والاسلام لا ينفر صيده ولا يعضد ورقه أى شجره ولا تلتقط لقطته الا لمنشد أو المأمون فيه يأمن فيه من دخله قال الزمخشرى ومعنى القسم بهذه

الاشياء الابانة عن شرف البقاع المباركة وماظهر منها من الخير والبركة بسكنى الانبياء والصالحين فنبت التين والزيتون مهاجر ابراهيم عليه السلام ومولد عيسى عليه السلام ومنشؤه والطور المكان الذى نودى منه موسى عليه السلام ومكة البيت الذى هو هدى للعالمين ومولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعثه اه وقوله تعالى (لقد خلقنا) أى قدرنا وأوجدنا بما لنا من العظمة والقدرة التامة (الانسان) جواب القسم والمراد بالانسان الجنس الذى جمع فيه الشهوة والعقل وفيه من الانس بنفسه ما نسيه أكثرهم مع الشامل لآدم عليه السلام وذريته وقيل نزلت فى منكرى البعث وقيل فى الوليد بن المغيرة وقيل كلدة بن أسيد وقوله تعالى (فى أحسن تقويم) صفة لمحذوف أى فى تقويم أحسن تقويم وقال أبو البقاء فى أحسن تقويم فى موضع الحال من الانسان وأراد بالتقويم القوام لان التقويم فعل وذلك وصف الخالق لا للمخلوق ويجوز أن يكون التقدير فى أحسن قوام التقويم فحذف المضاف ويجوز أن تكون فى زائدة أى قومناه أحسن تقويم اه وأحسن التقويم أعدله لانه تعالى خلق كل شئ منكبا على وجهه وخلق الانسان مستويا وله لسان ذلق ويد وأصابع يقبض بها قال ابن العربى ليس لله تعالى خلق أحسن من الانسان فان الله تعالى خلقه حيا عالما قادرا مريدا متكلما سميعا بصيرا مدبرا حكيما وهذه صفات الله تعالى وعبر عنها بعض العلماء ووقع البيان بقوله ان الله تعالى خلق آدم على صورته يعنى على صفاته المتقدم ذكرها وفى رواية على صورة الرحمن ومن أين يكون للرحمن صورة شخصية فلم تكن الا معانى روى أن عيسى بن يوسف الهاشمى كان يحب زوجته حبا شديدا فقال لها يوما أنت طالق ثلاثا ان لم تكونى أحسن من القمر فنهضت واحتجبت عنه وقالت طلقتنى فبات بليلة عظيمة فلما اصبح غدا الى دار المنصور فأخبره الخبر فاستحضر الفقهاء واستشارهم فقال جميع من حضر قد طلقت الا رجلا واحدا من أصحاب أبى حنيفة فانه كان ساكتا فقال له المنصور مالك لا تتكلم فقال الرجل بسم الله الرحمن الرحيم والتين والزيتون الى قوله تعالى لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم يا أمير المؤمنين فالانسان أحسن الاشياء ولا شئ أحسن منه فقال المنصور لعيسى الامر كما قال الرجل فأقبل على زوجتك فأرسل المنصور اليها أطيعى زوجك فما طلقك وهذا يدل على ان الانسان أحسن خلق الله تعالى ولذلك قيل انه العالم الاصغر اذ كل ما فى المخلوقات اجتمع فيه (ثم رددناه) أى بعض افراده بما لنا من القدرة الكاملة (أسفل سافلين) أى الى الهرم وارذل العمر فيضعف بدنه وينقص عقله والسافلون هم الضعفاء والزمنى والاطفال والشيخ الكبير أسفل من هؤلاء جميعا لانه لا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلا فتقوس ظهره بعد اعتداله وابيض شعره بعد اسوداده وكل بصره وسمعه وكانا حديدين وتغير كل شئ منه فمشيه دليف وصوته خفات وقوته ضعف وشهامته خرف وقيل ثم رددناه الى النار لانها دركات بعضها أسفل من بعض فقوله تعالى (الا الذين آمنوا وعملوا) أى تصديقا لدعواهم الايمان (الصالحات) أى الطاعات استثناء متصل على الثانى على ان المعنى رددناه أسفل من سفل خلقا وتركيبا يعنى أقبح من قبح صورة

وأشوهه خلقة وهم أهل النار وأسفل من سفل من أهل الدركات فالاتصال على هذا واضح وعلى الاول منقطع أى لكن الذين كانوا صالحين من الهرمى (فلهم) أى فتسبب عن ذلك أن كان لهم (أجر غير ممنون) أى ثواب دائم غير منقطع على طاعاتهم وصبرهم على ابتلاء الله تعالى لهم بالشيخوخة والهرم وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة على تخاذل نهوضهم وفى الحديث اذا بلغ المؤمن من الكبر ما يعجز عن العمل كتب له ما كان يعمل وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال الا الذين قرؤا القرآن وقال من قرأ القرآن لم يرد الى أرذل العمر ثم قال تعالى الزاما للحجة (فما يكذبك) أى أيها الانسان الكافر (بعد) أى بعد ماذكر من خلق الانسان من نطفة وتقويمه بشرا سويا وتدريجه فى مراتب الزيادة الى أن يستوى ويكمل ويصير فى أحسن تقويم ثم رده الى أرذل العمر الدال على القدرة على البعث فيقول ان الذى فعل ذلك قادر على أن يعيدنى ويحاسبنى فما سبب تكذيبك أيها الانسان (بالدين) أى الجزاء بعد هذا الدليل القاطع وقيل الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وعلى هذا يكون المعنى فما الذى يكذبك فيما تخبر به من الجزاء والبعث بعد هذه العبر التى توجب النظر فيها صحة ما قلت وقوله تعالى (أليس الله) أى الملك الاعظم على ماله من صفات الكمال (بأحكم الحاكمين) أى بأقضى القاضين وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما هم أهله وفى الحديث من قرأ التين الى آخرها فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والتين أعطاه الله تعالى خصلتين العافية واليقين مادام فى دار الدنيا واذا مات أعطاه الله من الاجر بعدد من قرأ هذه السورة حديث موضوع

﴿سورة العلق مكية﴾

وهى عشرون آية واثنتان وسبعون كلمة ومائتان وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى له صفة الكمال المستحق للالهية (الرحمن) الذى عم جوده سائر البرية (الرحيم) الذى خص أهل طاعته بالطافه السنية وعن ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد أن أول سورة نزلت من القرآن (اقرأ باسم ربك) وأول ما نزل خمس آيات من أولها الى قوله تعالى مالم يعلم وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها أنها قالت أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة ولمسلم الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وفى رواية حتى فجئه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال له اقرأ قال ما أنا بقارئ قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ قال فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ قال فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ باسم ربك حتى بلغ مالم يعلم فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم

يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي فقالت له خديجة كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الانجيل بالعبرانية ماشاء الله تعالى أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمي فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذي أنزل على موسى ياليتني أكون فيها جذعا ياليتني أكون حيا اذ يخرجك قومك فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أومخرجي هم فقال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودي وان يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي زاد البخاري قال وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا حتى يتردى من رؤس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل عليه السلام فقال له يا محمد انك لرسول الله حقا فيسكن لذلك جاشه وتقر نفسه فيرجع فاذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فاذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك ففي هذا الحديث دليل صحيح على أن سورة اقرأ أول مانزل من القرآن وفيه رد على من قال ان المدثر أول مانزل من القرآن وعلى من قال ان الفاتحة أول مانزل ثم سورة القلم وهذا الحديث من مراسيل الصحابة ومرسل الصحابي حجة عند جميع العلماء الا ما انفرد به الاستاذ أبو اسحق الاسفرايني وانما ابتدئ صلى الله عليه وسلم بالرؤيا لئلا يفجأه الملك فيأتيه بصريح النبوة بغتة فلا تحملها القوى البشرية فبدئ بأوائل علامة النبوة توطئة للوحي *(تنبيه)* محل باسم ربك النصب على الحال أي اقرأ مفتتحا باسم ربك أو مستعينا به قل بسم الله ثم اقرأ وقال أبو عبيدة مجازه اقرأ اسم ربك يعني ان الباء زائدة والمعنى اذكر اسمه أمر أن يبتدئ القراءة باسم الله تعالى تأديبا وقيل الباء بمعنى على أي اقرأ على اسم ربك كما في قوله تعالى وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها قاله الاخفش (فان قيل) كيف قدم هذا الفعل على الجار وقدم مؤخرا في بسم الله الرحمن الرحيم أي على سبيل الاولوية كما في اياك نعبد واياك نستعين ولانه تعالى مقدم ذاتا لانه قديم واجب الوجود لذاته فيقدم ذكرا (أجيب) بأن هذا في ابتداء القراءة وتعليمها المأمور أنها أول سورة نزلت فكان الامر بالقراءة أهم باعتبار هذا العارض وان كان ذكر الله تعالى أهم في نفسه وذكرت أجوبة غير هذا في مقدمتي على البسملة والحمدلة وقوله تعالى (الذي خلق) يجوز أن لا يقدر له مفعول ويراد أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه وأن يقدر له مفعول ويراد خلق كل شيء فيتناول كل مخلوق لانه مطلق فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض وقوله تعالى (خلق الانسان) أي هذا الجنس الذي من شأنه الانس بنفسه وما رأى من أخلاقه وحسنه وما ألفه من أبناء

جنسه تخصيص بالذكر من بين ما يتناوله الخلق لان التنزيل اليه وهو أشرف ما على الارض ويجوز أن يراد الذى خلق الانسان كما قال تعالى الرحمن علم القرآن خلق الانسان فقيل الذى خلق مبهما ثم فسره بقوله تعالى خلق الانسان تفخيما لخلق الانسان ودلالة على عجيب فطرته وقوله تعالى (من علق) جمع علقة وهى الدم الجامد فاذا جرى فهو المسفوح * ولما كان الانسان اسم جنس فى معنى الجمع جمع العلق ولمشاكلة رؤس الآى أيضا وقوله تعالى (اقرأ) تكرير للمبالغة أو الاول مطلق والثانى للتبليغ أو فى الصلاة قال البيضاوى ولعله لما قيل له اقرأ باسم ربك قال ما أنا بقارئ فقيل له اقرأ (وربك الاكرم) أى الزائد فى الكرم على كل كريم فانه ينعم على عباده النعم التى لاتحصى ويحلم عنهم ولا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهى فى اطراحهم الاوامر ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم فما لكرمه غاية ولا أمد وكأنه ليس وراء التكرم بافادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال الاكرم (الذى علم) أى بعد الحلم عن معاجلتهم بالعقاب جودا منه تعالى من غير مانع من خوف عاقبة ولا رجاء منفعة (بالقلم) أى الخط بالقلم (علم الانسان ما لم يعلم) فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموه ونقلهم من ظلمة الجهل الى نور العلم ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها الا هو وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الاولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة الا بالكتابة ولولاهى لما استقامت أمور الدين والدنيا ولو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالى ولطيف تدبيره دليل الا أمر القلم والخط لكفى به ولبعضهم فى صفة القلم

ورواقم رقش كمثل اراقم * قطف الخطا نيالة أقصى المدى
سود القوائم ما يجد مسيرها * الا اذا لعبت بها بيض المدى

وقال قتادة القلم نعمة من الله تعالى ولولا ذلك لم يقم دين ولم يصلح عيش فدل على كمال كرمه تعالى وروى عبد الله بن عمر قال قلت يا رسول الله أكتب ما أسمع منك من الحديث قال نعم فاكتب فان الله تعالى علم بالقلم ويروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتا عن الكلام فقال ريح لا يبقى قال فما قيده قال الكتابة وعن عمر قال خلق الله تعالى أربعة أشياء بيده ثم قال تعالى لسائر الحيوان كن فكان وهى القلم والعرش وجنة عدن وآدم عليه السلام وفيمن علم بالقلم ثلاثة أقوال أحدها قال كعب أول من كتب بالقلم آدم عليه الصلاة والسلام ثانيها قال الضحاك ادريس عليه السلام ثالثها انه جميع من كتب بالقلم لانه ما علم الا بتعليم الله تعالى وقال القرطبى الاقلام ثلاثة فى الاصل القلم الاول الذى خلقه الله تعالى بيده وأمره أن يكتب فى اللوح المحفوظ والثانى قلم الملائكة الذى يكتبون به المقادير والكوائن والثالث أقلام الناس يكتبون بها كلامهم ويصلون بها الى مآربهم وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتسكنوا نساءكم الغرف ولاتعلموهن الكتابة قال بعض العلماء وانما حذرهم صلى الله عليه وسلم عن ذلك لان فى اسكانهن الغرف تطلعا الى الرجال وليس فى ذلك تحصين لهن ولا تستر وذلك انهن لايملكن أنفسهن حين يشرفن على الرجال فتحدث الفتنة فحذر من ذلك وكذلك تعليم الكتابة ربما كان سببا للفتنة

لانها قد تكتب لمن تهوى والكتابة عين من العيون بها يبصر الشاهد الغائب والخط اشارة اليد وفيها تعبير عن الضمير عما لا ينطق به اللسان فهى أبلغ من اللسان فأحب صلى الله عليه وسلم أن يقطع عن المرأة أسباب الفتنة تحصينا لها وقوله تعالى (كلا) ردع لمن كفر بنعمة الله تعالى بطغيانه وان لم يذكر لدلالة الكلام عليه فانه تعالى قد عدد مبدأ أمر الانسان ومنتهاه اظهارا لما أنعم عليه من أن نقله من أخس المراتب الى أعلاها تقريرا لربوبيته وتحقيقا لاكرميته (ان الانسان) أى هذا النوع الذى من شأنه الانس بنفسه والنظر فى عطفه (ليطغى) أى من شأنه الا من عصمه الله تعالى أن يزيد على الحد الذى لا ينبغى له مجاوزته (أن رآه) أى رأى نفسه (استغنى) أى وجد له الغنى بالمال وقيل أن يرتفع عن منزلته فى اللباس والطعام وغير ذلك نزلت فى أبى جهل كان اذا زاد ماله زاد فى ثيابه ومركبه وطعامه فذلك طغيانه وعن ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون أتاه أبو جهل فقال يا محمد أتزعم أن من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة ذهبا لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك قال فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد خيرهم فى ذلك فان شاؤا فعلنا بهم ما أرادوا فان لم يفعلوا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء ابقاء لهم وقيل ان رآه استغنى بالعشيرة والانصار والاعوان وحذف اللام من قوله تعالى أن رآه كما يقال انكم لتطغون أن رأيتم غناكم فرأى علمية واستغنى مفعول ثان وأن رآى مفعول له (ان الى ربك) أى المحسن اليك بالرسالة التى رفع بها ذكرك لا الى غيره (الرجعى) مصدر كالبشرى بمعنى الرجوع ففى ذلك تخويف للانسان بأن يجازى العاصى بما يستحقه وقوله تعالى (أرأيت) فى مواضعها الثلاث للتعجب (الذى ينهى) أى على سبيل التجدد والاستمرار وهو أبو جهل (عبدا) أى من العبيد وهو النبى صلى الله عليه وسلم (اذا صلى) أى خدم سيده الذى لا يقدر أحد أن يشكر سيادته بايقاع الصلاة التى هى أعظم العبادات نزلت فى أبى جهل وذلك انه نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم فقالوا نعم فقال واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لاطأن على رقبته ولاعفرن وجهه فى التراب قال فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ليطأ على رقبته فنكص على عقبيه وهو يتقى بيده فقيل له مالك فقال ان بينى وبينه خندقا من النار وهولا وأجنحة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا فأنزل الله تعالى هذه الآية وفى رواية لو فعله لاخذته الملائكة زاد الترمذى عيانا وعن الحسن انه أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة وفائدة التنكير فى قوله تعالى عبدا الدلالة على انه كامل العبودية كأنه قيل ينهى أشد الخلق عبودية عن العبادة وهذا عين الجهل وقيل ان هذا الوعيد يلزم كل من ينهى عن الصلاة وعن طاعة الله تعالى ولا يدخل فى ذلك المنع من الصلاة فى الدار المغصوبة وفى الاوقات المكروهة لانه قد ورد النهى عن ذلك فى الاحاديث الصحيحة ولا يدخل أيضا منع السيد عبده والرجل زوجته عن صوم التطوع وقيام الليل والاعتكاف لان ذلك مصلحة الا أن يأذن

فيه السيد والزوج (أرأيت ان كان) أى المنهى وهو النبى صلى الله عليه وسلم (على الهدى) وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء وعن ورش ابدالها ألفا وأسقطها الكسائى والباقون بالتحقيق وقوله تعالى (أوأمر بالتقوى) أى الاخلاص والتوحيد للتقسيم * (تنبيه) * قوله تعالى أرأيت تكرير للاول وكذا الذى فى قوله (أرأيت ان كذب) وهو أبو جهل (وتولى) عن الايمان (ألم يعلم) أى يقع له علم يوما من الايام (بأن الله) الذى له صفات الكمال (يرى) ويطلع على أحواله من هداه وضلاله فيجازيه على حسب ذلك أى اعجب منه يا مخاطب فى نهيه عن الصلاة من حيث ان المنهى على الهدى آمر بالتقوى وفى وجه التعجب وجوه أحدها انه صلى الله عليه وسلم قال اللهم أعز الاسلام اما بأبى جهل واما بعمر بن الخطاب وهو ينهى عبدا اذا صلى الثانى انه يلقب بأبى الحكم فقيل أيلقب بهذا وهو ينهى عن الصلاة فيتعجب منه ومن حيث ان الناهى مكذب متول عن الايمان الثالث انه كان يأمر وينهى ويعتقد وجوب طاعته ثم انه ينهى عن طاعة الله تعالى وقوله تعالى (كلا) ردع للناهى (لئن لم ينته) أى عما هو فيه واللام لام قسم (لنسفعا بالناصية) أى لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها الى النار والسفع القبض على الشئ وجذبه بشدة قال عمرو ابن معديكرب

قوم اذا نقع الصريخ رأيتهم * مابين ملجم مهره أوسافع

والنقع الصوت * ولما علم انها ناصية المذكور اكتفى باللام عن الاضافة والآية وان كانت فى أبى جهل فهى عظة للناس وتهديد لمن يمنع غيره عن طاعة الله تعالى وقوله تعالى (ناصية) بدل من الناصية قال الزمخشرى وجاز بدلها عن المعرفة وهى نكرة لانها وصفت أى بـ (كاذبة خاطئة) واستقلت بفائدة واعترض عليه بأن هذا مذهب الكوفيين فانهم لا يجيزون ابدال نكرة من معرفة الابشرط وصفها أو كونها بلفظ الاول ومذهب البصريين لا يشترط شئ والمعنى لنأخذن بناصية أبى جهل الكاذبة فى قولها الخاطئة فى فعلها والخاطئ معاقب مأخوذ والمخطئ غير مأخوذ ووصفت الناصية بالكاذبة الخاطئة كوصف الوجوه بالنظر فى قوله تعالى الى ربها ناظرة وانما وصفت الناصية بالكاذبة لانه كان يكذب على الله تعالى فى أنه لم يرسل محمدا صلى الله عليه وسلم وعلى رسوله فى أنه ساحر وليس بنبى ووصفت بأنها خاطئة لان صاحبها تمرد على الله تعالى كما قال تعالى لا يأكله الا الخاطئون فهى لما فى الحقيقة لصاحبها وفيه من الحسن والجزالة ماليس فى قولك ناصية كاذب خاطئ وروى أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فقال ألم أنهك فأغلظ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أتنهرنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا فوالله لاملأن عليك هذا الوادى ان شئت خيلا جردا ورجالا مردا فأنزل الله تعالى (فليدع) أى دعاء استغاثة (ناديه) أى أهل ناديه ليعينوه فهو على حذف مضاف لان النادى هو المجلس الذى ينتدى فيه القوم قال تعالى وتأتون فى ناديكم المنكر أى يتحدثون فيه أو على التجوز لانه مشتمل على الناس كقوله تعالى واسأل القرية ولا يسمى المكان ناديا حتى يكون فيه أهله والمعنى فليدع عشيرته فليستنصر بهم (سندع) أى بوعد لا خلف فيه (الزبانية) قال ابن عباس رضى الله عنهما

يريد زبانية جهنم سموا بها لانهم يدفعون أهل النار اليها بشدة جمع زبنى مأخوذ من الزبن وهو الدفع وقال الزمخشرى الزبانية فى كلام العرب الشرط الواحد زبنية وقال الزجاج هم الملائكة الغلاظ الشداد قال ابن عباس رضى الله عنهما لو دعا ناديه لاخذته زبانية الله تعالى وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة وبلغ الى قوله تعالى لنسفعا بالناصية قال أبو جهل أنا أدعو قومى حتى يمنعوا عنى ربك قال الله تعالى فليدع ناديه سندع الزبانية فلما ذكر الزبانية رجع فزعا فقيل له خشيت منه قال لا ولكن رأيت عنده فارسا وهددنى بالزبانية فلا أدرى الزبانية ومال الى الفارس فخشيت منه أن يأكلنى قال ابن عباس رضى الله عنهما والله لو دعا ناديه لاخذته ملائكة العذاب من ساعته وقوله تعالى (كلا) ردع لابى جهل أى ليس الامر على مايظنه أبو جهل (لا تطعه) أى فيما دعاك اليه من ترك الصلاة كقوله تعالى ولا تطع المكذبين وقوله تعالى (واسجد) يحتمل أن يكون بمعنى السجود فى الصلاة وأن يكون سجود التلاوة فى هذه السورة ويدل لهذا ما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال سجدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اذا السماء انشقت وفى اقرأ باسم ربك الذى خلق سجدتين وهذا نص أن المراد سجود التلاوة ويدل للاول قوله تعالى أرأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى الى قوله تعالى كلا لا تطعه واسجد أى ودم على سجودك قال الزمخشرى يريد الصلاة لانه لا يرى سجود التلاوة فى المفصل والحديث عليه (واقترب) أى وتقرب الى ربك بطاعته وبالدعاء اليه قال صلى الله عليه وسلم أما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقمن أى حقيق أن يستجاب لكم وكان صلى الله عليه وسلم يكثر فى سجوده من البكاء والتضرع حتى قالت عائشة رضى الله عنها قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء فى السجود وما هذا الجهد الشديد قال أفلا أكون عبدا شكورا وفى رواية أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء وقرأ ليطغى استغنى اذا صلى على الهدى بالتقوى وتولى حمزة والكسائى جميع ذلك بالامالة محضة وورش وابو عمرو بين بين والفتح عن ورش قليل والباقون بالفتح وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة العلق أعطى من الاجر كأنما قرأ المفصل كله حديث موضوع

﴿ سورة القدر مدنية ﴾

فى قول أكثر المفسرين وحكى الماوردى عكسه وذكر الواحدى انها أول سورة نزلت بالمدينة وهى خمس آيات وثلاثون كلمة ومائة واثنا عشر حرفا

(بسم الله) الملك الاعظم الذى لا يعبد الا اياه (الرحمن) الذى عم بجوده جميع خلقه أقصاه وأدناه (الرحيم) الذى قرب أهل طاعته وأبعد من عداهم وأشقاه وقوله تعالى (انا أنزلناه) أى بمالنا من العظمة أى القرآن فيه تعظيم له من ثلاثة أوجه أحدها انه أسند انزاله اليه وجعله مختصا به دون غيره والثانى انه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن

التقسيم عليه والثالث الرفع من مقدار الوقت الذى أنزل فيه وهو قوله تعالى (فى ليلة القدر وما أدراك) أى أعلمك يا أشرف الخلق (ما ليلة القدر) فان فى ذلك تعظيما لشأنها روى انه أنزله جملة واحدة فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا وأملاه جبريل عليه السلام على السفرة ثم كان ينزله على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحاجة اليه وحكى الماوردى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه نزل فى شهر رمضان وفى ليلة القدر وفى ليلة مباركة جملة واحدة من اللوح المحفوظ الى السفرة الكرام الكاتبين فى السماء الدنيا فنجمته السفرة على جبريل عليه السلام عشرين سنة ونجمه جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم عشرين سنة قال ابن العربى وهذا باطل ليس بين جبريل وبين الله تعالى واسطة ولا بين جبريل وبين محمد صلى الله عليه وسلم واسطة وعن الشعبى أنا ابتدأنا انزاله فى ليلة القدر وقيل المعنى أنزل فى شأنها وفضلها فليست ظرفا وانما هو كقول عمر رضى الله عنه خشيت أن ينزل فى قرآن وقول عائشة رضى الله عنها لانا أحقر فى شأنى أن ينزل فى قرآن وسميت ليلة القدر لان الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره الى السنة القابلة من أمر الموت والاجل والرزق وغيره ويسلمه الى مدبرات الامور من الملائكة وهم اسرافيل وميكائيل وعزرائيل وجبرائيل عليهم السلام كقوله تعالى فيها يفرق كل أمر حكيم وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان الله تعالى يقضى الاقضية فى ليلة نصف شعبان ويسلمها الى أربابها فى ليلة القدر وهذا يصلح أن يكون جمعا بين القولين فى قوله تعالى فيها يفرق كل أمر حكيم فانه قيل انها ليلة النصف من شعبان وقيل ليلة القدر وحينئذ لاخلاف وقيل سميت بذلك لتضمنها بالملائكة قال الخليل لان الارض تضيق فيها بالملائكة كقوله تعالى ومن قدر عليه رزقه وقيل سميت بذلك لعظمها وشرفها وقدرها من قولهم لفلان قدر أى شرف ومنزلة قاله الازهرى وغيره وقيل سميت بذلك لان للطاعة قدرا عظيما وثوابا جزيلا وقيل لانه أنزل فيها كتابا ذا قدر على رسول ذى قدر الى أمة ذات قدر ومعنى أن الله تعالى يقدر الآجال والارزاق انه يظهر ذلك للملائكة ويأمرهم بفعل ما هو من سعتهم وضيقهم بأن يكتب لهم ما قدره فى تلك السنة ويعرفهم اياه وليس المراد أنه يحدث فى تلك الليلة لان الله تعالى قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والارض فى الازل قيل للحسين بن الفضل أليس قد قدر الله تعالى المقادير قبل أن يخلق السموات والارض قال نعم قيل له فما معنى ليلة القدر قال سوق المقادير الى المواقيت وتنفيذ القضاء المقدر واختلفوا هل هى باقية أولا فقيل انها كانت مرة ثم انقطعت وقيل انها رفعت بعد النبى صلى الله عليه وسلم والصحيح انها باقية الى يوم القيامة وروى عن عبد الله بن محسن مولى معاوية قال قلت لابى بكر زعموا أن ليلة القدر قد رفعت قال كذب من قال ذلك قلت هى فى كل شهر رمضان أستقبله قال نعم وعن سعيد بن المسيب أنه سئل عن ليلة القدر أهى شئ كان فذهب أم هى فى كل عام فقال بل هى لامة محمد صلى الله عليه وسلم ما بقى منهم اثنان واستدل من قال برفعها بقوله صلى الله عليه وسلم حين تلاحى الرجلان انى خرجت لاخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت وعسى أن يكون خيرا لكم وهذا غفلة من هذا

القائل فني آخر الحديث فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة فلو كان المراد رفع وجودها لم يأمر بالتماسها واختلفوا في وقتها فأكثر أهل العلم انها مختصة برمضان واحتجوا بقوله تعالى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن وقال تعالى انا انزلناه في ليلة القدر فوجب أن لا تكون ليلة القدر الا في رمضان لئلا يلزم التناقض وروى عن أبي بن كعب أنه قال والله الذي لا اله الا هو انها لفي رمضان حلف بذلك ثلاث مرات وعن ابن عمر قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أسمع عن ليلة القدر فقال هي في كل رمضان وقيل هي دائرة في جميع السنة لا تختص برمضان حتى لو علق طلاق امرأته أو عتق عبده بليلة القدر لا يقع مالم تنقض سنة من حين حلف يروى ذلك عن أبي حنيفة وعن ابن مسعود أنه قال من يقم الحول يصبها وذكر عن أبي الحسن الشاذلي انه قال من أراد أن يعرف ليلة القدر فلينظر الى غرة رمضان أي الى أوله فان كان يوم الاحد فليلة القدر ليلة تسع وعشرين وان كان يوم الاثنين فليلة القدر احدى وعشرين وان كان يوم الثلاثاء فليلة سبع وعشرين وان كان يوم الاربعاء فليلة تسعة عشر وان كان يوم الخميس فليلة خمس وعشرين وان كان ليلة الجمعة فليلة سبعة عشر وان كان يوم السبت فليلة ثلاث وعشرين وعلى القول الاول هل هي في كل رمضان أو في العشر الاخير قولان أحدهما انها في كل شهره واختلفوا في أي ليلة منه فقال ابن رزين هي الليلة الاولى من رمضان وقال الحسن البصري السابعة عشر وقال أنس التاسعة عشر وقال محمد بن اسحق الحادية والعشرون وقال ابن عباس الثالثة والعشرون وقال ابي بن كعب السابعة والعشرون وقيل التاسعة والعشرون وقيل ليلة الثلاثين وكل استدل على قوله بما يطول الكلام عليه والقول الثاني وهو ما عليه الاكثرون انها مختصة بالعشر الاخير منه واستدل لذلك بأشياء منها ماروى عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلة القدر فقال في رمضان فالتمسوها في العشر الاواخر ومنها ماروى عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتمسوها في العشر الاواخر من رمضان وعن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد في العشر الاواخر مالا يجتهد في غيرها وعنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله واختلفوا في انها أي ليلة من العشر هل في ليلة من ليالي العشر كله أو في أوتاره فقط وهل تلزم ليلة بعينها أو تنتقل في جميعه أقوال والذي عليه الاكثر أنها في جميعه ولكن أرجاها أوتاره وأرجى الاوتار عند امامنا الشافعي رضي الله عنه ليلة الحادي والعشرين أو الثالث والعشرين يدل للاول خبر الصحيحين وللثاني خبر مسلم وأنها تلزم عنده ليلة بعينها وقال المزني صاحب الشافعي وابن خزيمة انها منتقلة في ليالي العشر جمعا بين الاحاديث قال النووي وهو قوي وقال في مجموعه انه الظاهر المختار وخصها بعض العلماء بأوتار العشر الاواخر وبعضهم باشفاعه وقال ابن عباس وأبي هي ليلة سبع وعشرين وهو مذهب أكثر أهل العلم واستنبط ذلك بعضهم من أن ليلة القدر ذكرت ثلاث مرات وهي تسعة أحرف واذا ضربت تسعة في ثلاثة تكن سبعة وعشرين وبعضهم استنبط ذلك من عدد كلمات السورة

وقال انها ثلاثون كلمة وفاقا وقوله تعالى هي السابع والعشرون وهي كناية عن هذه الليلة فبان أنها ليلة السابع والعشرين وهو استنباط لطيف وليس بدليل كما قيل وفيها نحو الثلاثين قولا وبضع وعشرون حديثا وأفردت بالتصنيف وفيما ذكرناه كفاية وذكروا للسبب في اخفائها عن الناس وجوها احدها انه تعالى أخفاها ليعظموا جميع السنة على القول بأنها فيها أو جميع رمضان على القول به أو جميع العشر الاخير على القول به كما أخفى رضاه في الطاعات ليرغبوا في كلها وأخفى غضبه في المعاصي ليحذروها كلها وأخفى وليه في المسلمين ليعظموهم كلهم وأخفى الاجابة في الدعاء ليبالغوا في الدعوات وأخفى ساعة الاجابة في يوم الجمعة ليجتهدوا في العبادة في جميع أوقاته في غير الاوقات المنهي عنها طمعا في ادراكها وأخفى الاسم الاعظم ليعظموا كل أسمائه تعالى وأخفى الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكل وأخفى التوبة ليواظب المكلف على جميع أقسامها وأخفى قيام الساعة ليكونوا على وجل من قيامها بغتة ثانيها ان العبد اذا لم يتيقن ليلة القدر اجتهد في الطاعة رجاء أن يدركها فيباهي الله تعالى به ملائكته ويقول تقولون فيهم يفسدون ويسفكون الدماء وهذا جده واجتهاده في الليلة المظنونة فكيف ولو جعلتها معلومة فحينئذ يظهر اني أعلم مالا تعلمون ثالثها ليجتهدوا في طلبها والتماسها فينالوا بذلك أجر المجتهدين في العبادة بخلاف مالو عينت في ليلة بعينها لحصل الاقتصار عليها ففاتت العبادة في غيرها * ثم ذكر الله تعالى فضلها من ثلاثة أوجه أحدها ماذكره بقوله سبحانه (ليلة القدر) أي التي خصصناها بانزالنا له فيها (خير من ألف شهر) ليس فيها ليلة القدر فالعمل الصالح فيها خير منه في ألف شهر ليست فيها ليلة قدر وعن ابن عباس رضي الله عنهما ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بني اسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر فعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك وتمنى ذلك لامته فقال يارب جعلت أمتي أقصر الامم أعمارا وأقلها أعمالا فأعطاه الله تعالى ليلة القدر فقال تعالى ليلة القدر خير من ألف شهر التي حمل فيها الاسرائيلي السلاح في سبيل الله لك ولامتك الى يوم القيامة أي فهي من خصائص هذه الامة وعن مالك أنه سمع من يثق به من أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرى أعمار الناس قبله فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل مثل الذي بلغ غيرهم فأعطاه الله تعالى ليلة القدر التي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر وقيل ان الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله تعالى ألف شهر فأعطوا ليلة ان أحيوها كانوا أحق بان يسموا عابدين من أولئك العباد وهي أفضل ليالي السنة ويدخل في ذلك ليلة الاسراء فهي افضل منها ان لم تكن ليلة الاسراء ليلة القدر كما قيل ان الاسراء كان في رمضان وانما كان كذلك لما يريد الله تعالى فيها من المنافع فيكتب فيها جميع خير السنة وشرها ورزقها وأجلها وبلائها ورخائها ومعاشها الى مثلها من السنة ولا يشكل ذلك بما قيل ان الآجال تقطع من شعبان الى شعبان حتى ان الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه في الموتى لما ورد ان الله تعالى يامر بنسخ ما يكون في السنة من الآجال والامراض والارزاق ونحوها في ليلة النصف من شعبان فاذا كان ليلة القدر فيسلمها

الى أربابها وقيل يقدر فى ليلة النصف من شعبان الآجال والامراض وفى ليلة القدر الامور التى فيها الخير والبركة والسلامة * الوجه الثانى من فضائلها ماذكره الله تعالى فى قوله جل ذكره (تنزل) أى تتنزل متدرجا متواصلا على غاية ما يكون من الخفة والسرعة بما أشار اليه حذف التاء (الملائكة) أى الى الارض وروى انه اذا كان ليلة القدر تنزل الملائكة وهم سكان سدرة المنتهى (والروح) أى جبريل عليه السلام (فيها) أى فى الليلة ومعه أربعة ألوية فينصب لواء على قبر النبى صلى الله عليه وسلم ولواء على ظهر بيت المقدس ولواء على ظهر المسجد الحرام ولواء على ظهر طور سيناء ولا يدع بيتا فيه مؤمن ولا مؤمنة الا دخله وسلم عليهم يقول يا مؤمن ويا مؤمنة السلام يقرئك السلام الا على مدمن خمر وقاطع رحم وآكل لحم خنزير وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا كان ليلة القدر نزل جبريل عليه السلام فى كبكبة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى وهذا يدل على أن الملائكة كلهم لا ينزلون وظاهر الآية نزول الجميع وجمع بين ذلك بما روى انهم ينزلون فوجا فوجا كما ان اهل الحج يدخلون الكعبة فوجا بعد فوج وان كانت لا تسعهم دفعة واحدة كما ان الارض لا تسع الملائكة دفعة واحدة ولذلك ذكر بلفظ تنزل الذى يقتضى المرة بعد المرة أى ينزل فوج ويصعد فوج والله أعلم بذلك وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان الملائكة فى تلك الليلة أكثر من عدد الحصى وقال بعضهم الروح ملك تحت العرش ورجلاه فى تخوم الارض السابعة وله ألف رأس كل رأس أعظم من الدنيا وفى كل رأس ألف وجه وفى كل وجه ألف فم وفى كل فم ألف لسان يسبح الله تعالى بكل لسان ألف نوع من التسبيح والتحميد والتمجيد ولكل لسان لغة لا تشبه لغة أخرى فاذا فتح أفواهه بالتسبيح خرت ملائكة السموات السبع سجدا مخافة أن تحرقهم أنوار أفواهه وانما يسبح الله تعالى غدوة وعشية فينزل فى ليلة القدر لشرفها وعلو شأنها فيستغفر للصائمين والصائمات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بتلك الافواه كلها الى طلوع الفجر وعن على أنه صلى الله عليه وسلم قال رأيت ليلة أسرى بى ملكا رجلاه جاوزت من الارض السابعة السفلى ورأسه من السماء السابعة العليا ومن لدن رأسه الى قدميه وجوه وأجنحة فى كل وجه فم ولسان يسبح الرحمن تسبيحا لا يسبحه العضو الآخر ولو أمره الله تعالى أن يلتقم السموات السبع والارضين السبع لقمة واحدة كما يلتقم أحدكم اللقمة لأطاق ذلك ثم لم تكن تلك فى فيه الا كلقمة أحدكم فى فيه ولو سمع أهل الدنيا صوته بالتسبيح لصعقوا ما بين شحمة أذنه الى منكبه خفقان الطير السريع سبعة آلاف سنة وهو رأس الملائكة وقيل الروح طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة الا فى تلك الليلة ينزلون من لدن غروب الشمس الى طلوع الفجر (باذن ربهم) أى بأمر المحسن اليهم المربى لهم (من كل أمر) أى قضاه الله تعالى فيها لتلك السنة الى قابل وتقدم الجمع بينها وبين ليلة النصف من شعبان ومن سببية بمعنى الباء * الوجه الثالث فضائلها ماذكره تعالى بقوله سبحانه (سلام) أى عظيم جدا وهو خبر مقدم والمبتدأ (هى) جعلت سلاما لكثرة السلام فيها من الملائكة لا يمرون بمؤمن ولا مؤمنة الا سلموا عليه ويستغفرون

على

على ذلك من غروب الشمس (حتى) أى الى (مطلع الفجر) أى وقت مطلعه أى طلوعه وقرأ الكسائى بكسر اللام على انه كالمرجع او اسم زمان على غير قياس كالمشرق والباقون بفتحها * ومن فضائلها أن من قامها غفرت له ذنوبه ففى الصحيحين من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه قال النووى فى شرح مسلم ولا ينال فضلها الا من اطلعه الله تعالى عليها فلو قامها انسان ولم يشعر بها لم ينل فضلها قال الاذرعى وكلام المتولى ينازعه حيث قال يستحب التعبد فى كل ليالى العشر حتى يحوز الفضيلة على اليقين اه وهذا أولى نعم حال من اطلق أكمل اذا قام بوظائفها وعن أبى هريرة مرفوعا من صلى العشاء الاخيرة فى جماعة من رمضان فقد أدرك ليلة القدر أى أخذ حظا منها ويسن لمن رآها أن يكتمها ويسن أن يكثر من الدعاء والتعبد فى ليالى رمضان وأن يكون من دعائه اللهم انك عفو كريم تحب العفو فاعف عنى ومن علاماتها أن الشمس تطلع صبيحتها لا شعاع لها رواه مسلم عن أبى بن كعب وعن ابن مسعود قال ان الشمس تطلع كل يوم بين قرنى شيطان الا صبيحة ليلة القدر فانها تطلع يومئذ بيضاء ليس لها شعاع (فان قيل) لا فائدة فى هذه العلامة فانها قد انقضت (أجيب) بأنه يستحب أن يجتهد فى ليلتها ويبقى يعرفها كما مر عن الشافعى أنها تلزم ليلة واحدة وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القدر أعطى من الاجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر حديث موضوع

(سورة لم يكن)

وتسمى القيمة وتسمى المنفكين مكية فى قول يحيى بن سلام ومدنية فى قول الجمهور وهى ثمان آيات وأربع وتسعون كلمة وثلثمائة وتسعون حرفا

(بسم الله) الذى لا يخرج شئ عن مراده (الرحمن) الذى عم بنعمه جميع عباده (الرحيم) الذى خص أولياءه باسعاده * ولما كان الكفار جنسين أهل كتاب ومشركين ذكرهم الله تعالى فى قوله سبحانه (لم يكن الذين كفروا) أى فى مطلق الزمان الماضى والحال والاستقبال (من أهل الكتاب) أى من اليهود والنصارى الذين كان أصل دينهم حقا فألحدوا فيه بالتبديل والتحريف والاعوجاج فى صفات الله تعالى ثم نسخه الله تعالى بما شرع من مخالفته فى الفروع وموافقته فى الاصول فكذبوا (والمشركين) أى بعبادة الاصنام والنار والشمس ونحو ذلك ممن هم عريقون فى دين لم يكن له أصل فى الحق بأن لم يكن لهم كتاب *(تنبيه)* من للبيان وقوله تعالى (منفكين) خبر يكن أى منفصلين وزائلين عما كانوا عليه من دينهم انفكاكا يزيلهم عنه بالكلية بحيث لا تبقى لهم به علقة وينبتون على ذلك الانفكاك وأصل الفك الفتح والانفصال لما كان ملتصما من فك الكتاب والختم والعظم اذا أزيل ما كان ملتصقا أو متصلا به أو عن الموعد باتباع الحق اذا جاءهم الرسول المبشر به فان أهل الكتاب كانوا يستفتحون به والمشركين كانوا يقسمون بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من

احدى الامر (فان قيل) لم قال تعالى كفروا بلفظ الماضى وذكر المشركين باسم الفاعل (أجيب) بأن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الامر لانهم كانوا مصدقين بالتوراة والانجيل وبمبعث محمد صلى الله عليه وسلم بخلاف المشركين فانهم ولدوا على عبادة الاوثان وذلك يدل على الثبات على الكفر وقوله تعالى (حتى) أى الى أن (تأتيهم البينة) متعلق بيكن أو بمنفكين والبينة الآية التى هى فى البيان كالفجر المنير الذى لا يزداد بالتمادى الا ظهورا وضياء ونورا وذلك هو الرسول صلى الله عليه وسلم وما معه من الآيات التى أعظمها الكتاب وهو القرآن وقوله تعالى (رسول) أى عظيم جدا بدل من البينة بنفسه أو بتقدير مضاف أى سنة رسول أو مبتدأ وزاد عظمته بقوله تعالى واصفاله (من الله) أى الذى له الجلال والاكرام وهو محمد صلى الله عليه وسلم لانه فى نفسه بينة وحجة ولذلك سماه الله تعالى سراجا منيرا ولان اللام فى البينة للتعريف أى هو الذى سبق ذكره فى التوراة والانجيل على لسان موسى وعيسى عليهم السلام وقد يكون التعريف للتفخيم اذ هو البينة التى لا مزيد عليها والبينة كل البينة وكذا التنكير وقد جمعهما الله تعالى ههنا فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم ونظيره قوله تعالى حين أثنى على نفسه ذو العرش المجيد فعال لما يريد فنكر بعد التعريف وقال أبو مسلم المراد من البينة مطلق الرسول وما معه من الآيات التى أعظمها الكتاب سواء التوراة أو الزبور أو الانجيل أو القرآن وعبر بالمضارع لتجدد البيان فى كل وقت بتجدد الرسالة والتلاوة وقال البغوى لفظه مستقبل ومعناه الماضى أى حتى أتتهم البينة وتبعه على ذلك الجلال المحلى وقوله تعالى (يتلو صحفا) صفة الرسول أو خبره والرسول صلى الله عليه وسلم وان كان أميا لكنه لما تلا مثل ما فى الصحف كان كالتالى لها وقيل المراد جبريل عليه السلام وهو التالى للصحف المنتسخة من اللوح التى ذكرت فى سورة عبس ولا بد من مضاف محذوف وهو الوحى والصحف جمع صحيفة وهى القرطاس والمراد ما فيها عبر بها عنه لشدة المواصلة (مطهرة) أى فى غاية الطهارة والنزاهة من كل قذر مما جعلناها من البعد عن الادناس بأن الباطل من الشرك بالاوثان وغيرها من كل زيغ لا يأتيها من بين يديها ولا من خلفها وأنها لا يمسها الا المطهرون (فيها) أى تلك الصحف (كتب) أى أحكام مكتوبة (قيمة) أى مستقيمة ناطقة بالحق والعدل الذى لا مرية فيه ليس فيه شرك ولا عوج بنوع من الانواع (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب) أى عما كانوا عليه وخص أهل الكتاب بالتفرق دون غيرهم وان كانوا مجموعين مع الكافرين لانهم يظنون بهم علما فاذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل فى هذا الوصف (الا من بعد ما جاءتهم البينة) أى أتتهم البينة الواضحة والمعنى به محمد صلى الله عليه وسلم أتى بالقرآن موافقا للذى فى أيديهم من الكتاب بنعته وصفته وذلك أنهم كانوا مجمعين على نبوته فلما بعث صلى الله عليه وسلم جحدوا نبوته وتفرقوا فمنهم من كفر بغيا وحسدا ومنهم من آمن كقوله تعالى وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم وقال تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وقد كان مجيء البينة يقتضى اجتماعهم على الحق لا تفرقهم

فيه وقرأ حمزة وابن ذكوان بامالة الالف بعد الجيم محضة والباقون بالفتح * ولما كان حال
من أضل على علم أشنع زاد فى فضيحتهم فقال تعالى (وما أمروا) أى هؤلاء الكفار فى التوراة
والانجيل (الا ليعبدوا الله) أى يوحدوا الاله الذى له الامر كله ولا أمر لاحد غيره واللام بمعنى
ان كقوله تعالى يريد الله ليبين لكم وقوله تعالى (مخلصين له الدين) فيه دليل على وجوب النية
فى العبادات لان الاخلاص من عمل القلب وهو أن يراد به وجه الله تعالى لا غيره ومن ذلك قوله
انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين (حنفاء) أى مائلين عن الاديان كلها الى دين الاسلام
وأصل الحنف فى اللغة الميل وخصه العرف بالميل الى الخير وسموا الميل الى الشر الحادا والحنيف
المطلق الذى يكون متبرئا عن أصول الملل الخمسة اليهود والنصارى والصابئين والمجوس
والمشركين وعن فروعها من جميع النحل الى الاعتقادات وعن توابعها من الخطا والنسيان
الى العمل الصالح وهو مقام التقى وعن المكروهات الى المستحبات وهو المقام الاول من الورع
وعن الفضول شفقة على خلق الله وهو ما لا يعنى الى ما يعنى وهو المقام الثانى من الورع
وعما يجر الى الفضول وهو مقام الزهد فالآية جامعة لمقامى الاخلاص الناظر أحدهما الى الحق
والثانى الى الخلق * ولما ذكر أصل الدين أتبعه الفروع وبدأ بأعظمها الذى هو مجمع الدين
وموضع التجرد عن العوائق فقال عز من قائل (ويقيموا) أى يعدلوا من غير اعوجاج بجميع
الشرائط والاركان والحدود (الصلاة) لتصير بذلك أهلا بأن تقوم بنفسها وهى من التعظيم
لامر الله تعالى ولما ذكر تعالى صلة الخالق أتبعها صلة الخلائق بقوله تعالى (ويؤتوا الزكاة)
أى يدفعوها لمستحقيها شفقة على خلق الله تعالى اعانة على الدين أى ولكنهم حرفوا ذلك وبدلوه
بطباعهم المعوجة وتدخل الزكاة عند أهل الله تعالى فى كل ما رزق الله من عقل وسمع وبصر
ولسان ويد ورجل وجاه وغير ذلك كما هو واضح من قوله تعالى ومما رزقناهم ينفقون (وذلك)
أى والحال ان هذا الموصوف من العبادة على الوجه المذكور (دين القيمة) أى الملة المستقيمة
وأضاف الدين الى القيمة وهى نعته لاختلاف اللفظين وأنث القيمة ردا بها الى الملة وقيل الهاء
للمبالغة فيه وقيل القيمة هى الكتب التى جرى ذكرها أى وذلك دين الكتب القيمة فيما تدعو
اليه وتأمر به كما قال تعالى وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وقال
النضر بن شميل سألت الخليل بن أحمد عن قوله تعالى وذلك دين القيمة فقال القيمة جمع القيم
والقيم والقائم واحد قال البغوى ومجاز الآية وذلك دين القائمين لله تعالى بالتوحيد ثم ذكر
تعالى ما للفريقين فقال سبحانه (ان الذين كفروا) اى وقع منهم الستر لمرائى عقولهم بعدم صرفها
للنظر الصحيح فضلوا واستمروا على ذلك وان لم يكونوا عريقين فيه (من أهل الكتاب) أى اليهود
والنصارى (والمشركين) أى العريقين فى الشرك (فى نار جهنم) أى النار التى تلقاهم بالتجهم
والعبوسة (خالدين فيها) أى يوم القيامة أو فى الحال لسعيهم لموجباتها واشتراك الفريقين
فى جنس العذاب لا يوجب التساوى فى النوع بل يختلف بحسب اشتداد الكفر وخفته
(أولئك) أى هؤلاء البعداء البغضاء (هم) أى خاصة بما أضمروا من الخبث (شر البرية) أى

الخليقة الذين أهملوا اصلاح أنفسهم وفرطوا فى حوائجهم ومآربهم وهذا يحتمل أن يكون على التعميم وأن يكون بالنسبة لعصر النبى صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى وانى فضلتكم على العالمين أى عالمى زمانهم ولا يبعد أن يكون فى كفار الامم قبل من هو شر منهم مثل فرعون وعاقر ناقة صالح * ولما ذكر تعالى الاعداء وبدأ بهم لان ذلك أردع لهم أتبعه الاولياء فقال تعالى مؤكدا لما للكفار من الانكار (ان الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان (وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) أى هذا النوع (أولئك) أى هؤلاء العالو الدرجات (هم) أى خاصة (خير البرية) أى على التعميم أو برية عصرهم يأتى فيه ما مر وقرأ نافع وابن ذكوان بالهمز فى الحرفين لانه من قولهم برأ الله الخلق والباقون بالياء المشددة بعد الراء كالذرية ترك همزه فى الاستعمال ثم ذكر ثوابهم بقوله تعالى (جزاؤهم) أى على طاعاتهم وعظمه بقوله تعالى (عند ربهم) أى المربى لهم والمحسن اليهم (جنات عدن) أى اقامة لا يحولون عنها (تجرى) أى جريا دائما لا انقطاع له (من تحتها) أى تحت أشجارها وغرفها (الانهار خالدين فيها) أى يوم القيامة أو فى الحال لسعيهم فى موجباتها وأكد معنى الخلود تعظيما لجزائهم بقوله تعالى (أبدا رضى الله) أى بما له من نعوت الجلال والجمال (عنهم) أى بما كان سبق لهم من العناية والتوفيق (ورضوا عنه) لانهم لم يبق لهم أمنية الا أعطاهموها مع علمهم انه تفضل فى جميع ذلك لا يجب عليه لاحد شئ ولا يقدره أحد حق قدره فلو آخذ الخلق بما يستحقونه لاهلكهم كما قال تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة وقال ابن عباس ورضوا عنه بثواب الله عز وجل (ذلك) أى الامر العالى الذى جوزوا به (لمن خشى ربه) أى خاف المحسن اليه خوفا يليق به فلم يركن الى التسويف والتكاسل فان الخشية ملاك الامر والباعث على كل خير وهى للعارفين فان الانسان اذا استشعر عذابا يأتيه لحقته حالة يقال لها الخوف وهى انخلاع القلب عن طمأنينته فان اشتد سمى وجلا لجولانه فى نفسه فان اشتد سمى رهبا لادائه الى الهرب وهى حالة المؤمنين الفارين الى الله تعالى ومن غلب عليه الحب لاستغراقه فى شهود الجماليات لحقته حالة تسمى مهابة ووراء هذا الخشية انما يخشى الله من عباده العلماء فمن خاف ربه هذا الخوف انفك عن جميع ما عنده مما لا يليق بجنابه تعالى وما فارق الخوف قلبا الا خرب روى أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لابى بن كعب ان الله أمرنى أن أقرأ عليك لم يكن الذين كفروا قال أبى وسمانى لك قال النبى صلى الله عليه وسلم نعم فبكى أبى قال البقاعى سبب تخصيصه بذلك أنه وجد اثنين من الصحابة قد خالفاه فى القراءة فرفعهما الى النبى صلى الله عليه وسلم فأمرهما فعرضا عليه فحسن لهما ما قال فسقط فى نفسى من التكذيب أشد ما يكون فى الجاهلية فضرب صلى الله عليه وسلم فى صدرى ففضت عرقا وكأنما أنظر الى الله فرقا أى خوفا ثم قص على خبر التخفيف بالسبعة الاحرف وكانت السورة التى وقع فيها الخلاف النحل وفيها انه تعالى يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم يوم البعث شهيدا وانه نزل عليه الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وأنه نزل عليه روح القدس بالحق ليثبت الذين آمنوا

وان اليهود اختلفوا فى السبت وسورة لم يكن على قصرها حاوية اجمالا لكل ما فى النحل على طولها وزيادة وفيها التحذير من الشك بعد البيان وتقبيح حال من فعل ذلك وأن حاله يكون كحال الكفرة من أهل الكتاب فى العناد فيكون شر البرية فقرأها صلى الله عليه وسلم عليه تذكيرا له بذلك كله على وجه أبلغ وأخصر ليكون أسرع له تصورا فيكون أرسخ فى النفس وأثبت فى القلب وأعشق للطبع فاختصه الله بالتثبيت وأراد له الثبات فكان من المريدين المرادين لما وصل الى قلبه بركة ضربة النبى صلى الله عليه وسلم لصدره وصار كلما قرأ هذه السورة الجامعة غائبا عن تلاوة نفسه مصغيا باذن قلبه الى روح النبوة يتلو عليه ذلك فيدوم له حال الشهود الذى وصل اليه بسر تلك الضربة ولثبوته فى هذا المقام قال صلى الله عليه وسلم اقرؤكم أبى قال القرطبى وفيه من الفقه قراءة العالم على المتعلم وقال بعضهم انما قرأ النبى صلى الله عليه وسلم على أبى ليعلم الناس التواضع لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على من دونه فى المنزلة وقيل ان أبيا كان أسرع أخذا الالفاظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد بقراءته عليه أن يأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليه ويعلم غيره وفيه فضيلة عظيمة لابى اذ أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقرأ عليه وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة لم يكن كان يوم القيامة مع خير البرية مساء ومقيلا حديث موضوع

﴿ سورة الزلزلة مدنية ﴾

فى قول ابن عباس وقتادة ومكية فى قول ابن مسعود وعطاء وجابر وهى ثمان آيات وخمس وثلاثون كلمة ومائة وتسع وأربعون حرفا

(بسم الله) المحيط بكل شئ قدرة وعلما (الرحمن) الذى عم الخلق بنعمته الظاهرة قسما (الرحيم) الذى أتم النعمة على خواصه حقيقة عينا واسما ولما قال تعالى للمؤمنين جزاؤهم عند ربهم جنات عدن كان المكلف قال متى يكون ذلك فقيل له (اذا زلزلت الارض) أى تحركت واضطربت لقيام الساعة فالعاملون كلهم يكونون فى الخوف وأنت فى ذلك الوقت تنال جزاءك وتكون آمنا لقوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون (زلزالها) أى تحريكها الشديد المناسب لعظم جرم الارض وعظمة ذلك وذلك كما تقول أكرم التقى اكرامه وأهن الفاسق اهانته تريد ما يستوجبانه من الاكرام والاهانة * ولما كان الاضطراب العظيم يكشف عن المخفى فى المضطرب قال تعالى (وأخرجت الارض) أى كلها ولم يضمر تحقيقا للعموم (أثقالها) أى ما هو مدفون فيها من الكنوز والاموات قال أبو عبيدة والاخفش اذا كان الميت فى بطن الارض فهو ثقل لها واذا كان فوقها فهو ثقل عليها وقال ابن عباس ومجاهد أثقالها أمواتها تخرجهم فى النفخة الثانية ومنه قيل للجن والانس الثقلان وقيل أثقالها كنوزها ومنه الحديث تلقى الارض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب والفضة فيجئ القاتل فيقول

في هذا قتلت ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيأ فيعطيها الله تعالى قوة اخراج ذلك كله كما كان يعطيها قوة أن تخرج النبات الصغير اللطيف الطري الذي هو أنعم من الحرير فتشق الارض الصلبة التي تكل عنها المعاول بل شق النواة مع ما لها من الصلابة التي استعصت بها على الحديد فتنفلق نصفين وينبت منها ساق يريده سبحانه وتعالى فالذي قدر على ذلك قادر على تكوين الموتى في بطن الارض واعادتهم على ما كانوا عليه كما يكون الجنين في البطن ويشق جميع منافذه من السمع والبصر والفم وغير ذلك من غير أن يدخل هناك بيكار ولا منشار ثم يخرج من البطن هكذا اخراج الموتى من غير فرق كل ذلك عليه هين سبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه (وقال الانسان) أي هذا النوع الصادق بالقليل والكثير لما له من النسيان لما أكد عنده من أمر البعث بما له من الانس بنفسه والنظر في عطفه على سبيل التعجب أو الدهش والحيرة أو الكافر كما يقول من بعثنا من مرقدنا فيقول له المؤمن هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون (مالها) أي أي شيء ثبت للارض في هذه الزلزلة الشديدة التي لم يعهد مثلها ولفظت ما في بطنها (يومئذ) أي اذ كان ما ذكر من الزلزال وما لزم عنه وقوله تعالى (تحدث أخبارها) جواب اذا وهو الناصب لها عند الجمهور ومعنى تحدث أي تخبر الارض بما عمل عليها من خير أو شر يومئذ ثم قيل هو من قول الله تعالى وقيل من قول الانسان أي يقول الانسان مالها تحدث أخبارها متعجبا روى الترمذي عن أبي هريرة أنه قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية يومئذ تحدث أخبارها قال أتدرون ما أخبارها قالوا الله ورسوله أعلم قال فان أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا وكذا كذا وكذا قال فهذه أخبارها * (تنبيه) * في تحديثها بأخبارها ثلاثة أقوال أحدها أن الله تعالى يقلبها حيوانا ناطقا فتتكلم بذلك ثانيها أن الله تعالى يحدث فيها الكلام ثالثها أن يكون فيها بيان يقوم مقام الكلام وقيل في الآية تقديم وتأخير تقديره يومئذ تحدث أخبارها فيقول الانسان مالها أي تخبر الارض بما عمل عليها (بأن ربك) متعلق بتحدث ويجوز أن يتعلق بنفس أخبارها والباء سببية أي تحدث بسبب أن ربك المحسن اليك بأنواع النعم (أوحى لها) أي أذن لها أن تتكلم بذلك المذكور بالقال أو بالحال على ما مر قال البقاعي وعدل عن قوله اليها الى قول الله تعالى لها ايذانا بالاسراع في الايحاء وقال البغوي أوحى لها وأوحى اليها واحد وقرأ حمزة والكسائي بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقوله تعالى (يومئذ) بدل من يومئذ قبله أو منصوب بقوله تعالى (يصدر) أو باذكر مقدرا أي واذكر يوم اذ كان ما تقدم وهو حين يقوم الناس من القبور يصدر (الناس) أي يرجعون من قبورهم الى ربهم الذي كان لهم بالمرصاد ليفصل بينهم وقرأ حمزة والكسائي باشمام الصاد بين الصاد والزاي والباقون بالصاد الخالصة (أشتاتا) أي متفرقين بحسب مراتبهم في الذوات والاحوال من مؤمن وكافر وآمن وخائف ومطيع وعاص وعن ابن عباس متفرقين على قدر أعمالهم أهل الايمان على حدة أو متفرقين فأخذ ذات اليمين

الى الجنة واخذذات الشمال الى النار (ليروا) أي يرى الله تعالى المحسن منهم والمسيء بواسطة من شاء من جنوده أو بغير واسطة حين يكلم سبحانه كل أحد من غير ترجمان ولا واسطة كما أخبر بذلك رسوله صلى الله عليه وسلم (أعمالهم) فيعلموا اجزاءها أو صادرين عن الموقف كل الى داره ليرى جزاء عمله ثم سبب عن ذلك قوله تعالى مفصلا الجملة التي قبله (فمن يعمل) من محسن أو مسيء مسلم أو كافر (مثقال ذرة خيرا) أي من جهة الخير (يره) أي يرى ثوابه حاضرا لا يغيب عنه شيء منه لان المحاسب له الاحاطة علما وقدرة (ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) فالمؤمن يراه ليشتد سروره به والكافر يوقف على عمله انه أحبط لبنائه على غير أساس الايمان أو على انه جوزي في الدنيا فهو صورة بلا معنى ليشتد ندمه وتبقى حسرته وعن ابن عباس من يعمل من الكفار خيرا يره في الدنيا ولا يثاب عليه في الآخرة ومن يعمل مثقال ذرة من شر عوقب عليه في الآخرة مع عقاب الشرك ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يره في الدنيا ولا يعاقب عليه في الآخرة اذا تاب ويتجاوز عنه وان عمل مثقال ذرة من خير يقبل منه ويضاعف في الآخرة وفي بعض الاحاديث ان الذرة لا زنة لها وهذا مثل ضربه الله تعالى ليبين انه لا يغفل عن عمل ابن آدم صغيرا ولا كبيرا وهو كقوله تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة وذكر بعض أهل اللغة ان الذران يضرب الرجل يده على الارض فما علق من التراب فهو الذر وعن ابن عباس اذا وضعت يدك على الارض ورفعتها فكل واحدة مما لزق من التراب ذرة وفسرها بعضهم بالنملة الصغيرة وبعضهم بالهباءة التي ترى طائرة في الشعاع الداخل من الكوة وقال محمد بن كعب القرظي فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله تعالى خير ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله تعالى شر ودليله ماروى أنس أن هذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يأكل فأمسك وقال يارسول الله وانا لنرى ما عملنا من خير وشر فقال صلى الله عليه وسلم يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا مما تكره فمثاقيل ذر الشر ويدخر لكم مثاقيل ذر الخير حتى تعطوه يوم القيامة قال أبو ادريس ان مصداقه من كتاب الله عز وجل وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم وقال مقاتل نزلت في رجلين أحدهما كان يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير كالكذبة والغيبة والنظرة ويقول انما وعد الله تعالى النار على الكبائر فنزلت هذه الآية لترغبهم في القليل من الخير يعطوه ولهذا قال صلى الله عليه وسلم اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة وتحذرهم من اليسير من الذنب ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لعائشة اياك ومحقرات الذنوب فان لها من الله تعالى طالبا وقال ابن مسعود هذه الآية أحكم آية في القرآن وأصدق وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية وقال كعب الاحبار لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم آيتان أحصتا ما في التوراة والانجيل والزبور والصحف فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وكان صلى الله عليه وسلم يسمي هذه الجامعة الفاذة

حين سئل عن زكاة الحمير فقال ما نزل على فيها شئ غير هذه الآية الجامعة الفاذة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وروى مالك فى الموطأ ان مسكينا استطعم عائشة رضى الله عنها و بين يديها عنب فقالت لانسان خذ حبة فأعطه اياها فجعل ينظر اليها ويتعجب فقالت أتعجب كم ترى فى هذه الحبة من مثقال ذرة وكذا تصدق عمر رضى الله عنه وانما فعلا ذلك لتعليم الغير والا فهما من كرماء الصحابة قال الربيع بن خيثم مر رجل بالحسن وهو يقرأ هذه الآية فلما بلغ آخرها قال حسبى قد انتهت الموعظة *(تنبيه)* قوله تعالى يره جواب الشرط فى الموضعين وقرأ هشام بسكون هاء يره وصلا فى الحرفين والباقون بضمها وصلا وساكنة وقفا كسائر هاء الكناية وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ اذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله رواه الثعلبى بسند ضعيف لكن يشهد له ما رواه ابن أبى شيبة مرفوعا اذا زلزلت تعدل ربع القرآن

(سورة والعاديات مكية)

فى قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء ومدنية فى قول ابن عباس وأنس ابن مالك وقتادة وهى احدى عشرة آية وأربعون كلمة ومائة وثلاثة وستون حرفا

(بسم الله) الذى له الامر كله فلا يسئل عما يفعل (الرحمن) الذى نعمته أتم نعمة وأشمل (الرحيم) الذى خص أولياءه بتوفيقه وأتم نعمته عليهم وأكمل وقوله سبحانه وتعالى (والعاديات ضبحا) قسم أقسم الله سبحانه بخيل الغزاة تعدو فتضبح والضبح صوت أنفاسها اذا عدون وعن ابن عباس أنه حكاه فقال أح أح قال عنترة

والخيل تكدح حين تضـ * ـبح فى حياض الموت ضبحا

وانتصاب ضبحا على يضبحن ضبحا أو بالعاديات كأنه قيل والضابحات ضبحا لان الضبح يكون مع العدو أو على الحال أى ضابحات والعاديات جمع عادية وهى الجارية بسرعة من العدو وهو المشى بسرعة وعن ابن عباس كنت جالسا فى الحجر فجاء رجل فسألنى عن العاديات ضبحا ففسرتها بالخيل فذهب الى على رضى الله عنه وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت فقال ادعه لى فلما وقفت على رأسه قال تفتى الناس بما لا علم لك به والله ان كانت لاول غزوة فى الاسلام بدر وما كان معنا الا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد العاديات ضبحا الابل من عرفة الى المزدلفة ومن المزدلفة الى منى قال الزمخشرى فان صحت الرواية فقد استعير الضبح للابل كما استعير المشافر والحافر للانسان والشفتان للمهر وما أشبه ذلك قال ابن عباس وليس شئ من الحيوان يضبح غير الفرس والكلب والثعلب ونقل غيره ان الضبح يكون فى الابل والاسود من الحيات والبوم والصرد والارنب والثعلب والفرس ثم اتبع عدوها ما ينشأ عنه فقال تعالى عاطفا بأداة التعقيب (فالموريات قدحا) قال عكرمة والضحاك هى الخيل توري النار بحوافرها اذا سارت فى الحجارة لاسيما عند سلوك الاوعار وقدحا منصوب بما انتصب به ضبحا قال

الزمخشري ففيه الثلاثة أوجه المتقدمة وعن ابن عباس أورت بحوافرها غبارا وهذا انما يناسب من فسر العاديات بالابل وقال ابن مسعود هي الابل تطأ الحصى فتخرج منه النار وأصل القدح الاستخراج ومنه قدحت العين اذا أخرجت منها الماء الفاسد وعن قتادة وابن عباس أيضا ان الموريات قدحا مكر الرجال في الحرب والعرب تقول اذا أرادوا أن الرجل يمكر بصاحبه والله لامكرن بك ثم لاورين لك وعن ابن عباس أيضا هم الذين يغزون فيورون نيرانهم بالليل لحاجتهم وطعامهم وعنه أيضا انها نيران المجاهدين اذا كثرت ارهابا لنطنهم العدو كثيرا قال القرطبي وهذه الاقوال مجاز كقولهم فلان يورى زناد الضلالة والاول الحقيقة وان الخيل من شدة عدوها تقدح النار بحوافرها قال مقاتل تسمى تلك النار نار أبي حباب وأبو حباب كان شيخا من مضر في الجاهلية من أبخل الناس وكان لا يوقد نارا لخبز ولا غيره حتى تنام العيون فيوقد نويرة تقد مرة وتخمد أخرى فان استيقظ لها أحد أطفأها كراهة أن ينتفع بها أحد فشبهت العرب هذه النار بناره لانه لا ينتفع بها * ولما ذكر العدو وما يتأثر عنده ذكر نتيجته وغايته بقوله تعالى (فالمغيرات) أي باغارة أهلها عليها وقوله تعالى (صبحا) ظرف أي التي تغير وقت الصبح يقال أغار يغير اغارة اذا باغت عدوه لنهب أو قتل أو أسر قال الشاعر

فليت لي بهم قوما اذا ركبوا * شنوا الاغارة فرسانا وركبانا

وغار لغية (فأثرن) أي فهيجن (به) أي بفعل الاغارة ومكانها وزمانها من شدة العدو (نقعا) أي غبار الشدة حركتهن والنقع الغبار * (تنبيه) * عطف الفعل وهو فأثرن على الاسم لانه في تأويل الفعل لوقوعه صلة لأل وقال الزمخشري معطوف على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه لان المعنى واللاتي عدون فأورين فأغرن فأثرن (فوسطن به) أي بذلك النقع أو العدو أو الوقت (جمعا) من العدو أي صرن وسط العدو وهو الكتيبة يقال وسطت القوم بالتخفيف ووسطتهم بالتشديد وتوسطتهم بمعنى واحد وقال القرطبي يعني جمع منى وهو من دلالة فوجه القسم على هذا ان الله تعالى أقسم بالابل لما فيها من المنافع الكثيرة وتعريضه بابل الحج للترغيب فيه وفيه تعريض على من لم يحج بعد القدرة عليه كما في قوله تعالى ومن كفر أي من لم يحج فان الله غني عن العالمين وجواب القسم قوله تعالى (ان الانسان) أي هذا النوع بماله من الانس بنفسه والنسيان لما ينفعه (لربه) المحسن اليه بابداعه ثم بابقائه وتدبيره وتربيته (لكنود) قال ابن عباس لكفور جحود لنعم الله تعالى وقال الكلبي هو بلسان ربيعة ومضر الكفور وبلسان كندة وحضرموت العاصي وقال الحسن هو الذي يعد المصائب وينسى النعم وقال أبو عبيدة هو قليل الخير والارض الكنود التي لا تنبت شيأ وفي الحديث عن أبي أمامة هو الذي يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده وقال الفضيل بن عياض الكنود الذي أنسته الخصلة الواحدة من الاساءة الخصال الكثيرة من الاحسان والشكور الذي أنسته الخصلة الواحدة من الاحسان الخصال الكثيرة من الاساءة (وانه) أي الانسان (على ذلك)

أى الكنود العظيم حيث أقدم على مخالفة الملك الاعظم المحسن مع الكفر لاحسانه (لشهيد) أى يشهد على نفسه ولا يقدر أن يجحده لظهور أثره عليه أوان الله تعالى على كنوده لشاهد على سبيل الوعيد (وانه) أى الانسان من حيث هو (لحب) أى لاجل حب (الخير) أى المال الذى لا يعد غيره لجهله خيرا (لشديد) أى بخيل بالمال ضابط له ممسك عليه أو بليغ القوة فى حبه لان منفعته فى الدنيا وهو متقيد بالعاجل الحاضر المحسوس مع علمه بان أقل مافيه أنه يشغله عن حسن الخدمة لربه تعالى ومع ذلك فهو لحب المال وايثار الدنيا وطلبها قوى مطيق وهو لحب عبادة ربه وشكر نعمته ضعيف متقاعس ثم سبب عن ذلك قوله تعالى (أفلا يعلم) أى هذا الانسان الذى أنساه أنسه بنفسه (اذا بعثر) أى اثير بغاية السهولة وأخرج (مافى القبور) أى من الموتى قال أبو عبيدة بعثرت المتاع جعلت أسفله أعلاه قال محمد بن كعب ذلك حين يبعثون (فان قيل) لم قال مافى القبور ولم يقل من ثم قال بعد ذلك ان ربهم بهم (أجيب) عن الاول بأن مافى الارض غير المكلفين أكثر فأخرج الكلام على الاغلب أو أنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء بل يصيرون كذلك بعد البعث فلذلك كان الضمير الاول ضمير غير العقلاء والضمير الثانى ضمير العقلاء (وحصل) أى أخرج وجمع بغاية السهولة (مافى الصدور) من خير وشر مما يظن مضمره انه لا يعلمه أحد أصلا وظهر مكتوبا فى صحائف الاعمال وهذا يدل على أن النيات يحاسب عليها كما يحاسب على مايظهر من آثارها وتخصيص الصدور بذلك لانه محل القلب (ان ربهم) أى المحسن اليهم بخلقهم وخلقهم وتربيتهم (بهم يومئذ) أى اذ كانت هذه الامور وهو يوم القيامة (لخبير) أى لمحيط بهم من جميع الجهات عالم غاية العلم ببواطن أمورهم فكيف بظواهرها ومعنى علمه بهم يوم القيامة مجازاته لهم والا فهو خبير بهم فى ذلك اليوم وفى غيره فكيف ينبغى للعاقل أن يعلق آماله بالمال فضلا عن أن يؤثره على الباقى وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والعاديات أعطى من الاجر حسنات بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعا حديث موضوع

﴿سورة القارعة مكية﴾

وهى احدى عشرة آية وست وثلاثون كلمة ومائة واثنان وخمسون حرفا

(بسم الله) الملك الاعلى (الرحمن) الذى عمت نعمة ايجاده جميع الورى (الرحيم) الذى خص أولياءه بالتوفيق لما يحب ويرضى * ولما ختم العاديات بالبعث ذكر صيحته بقوله تعالى (القارعة) أى الصيحة أو القيامة التى تقرع القلوب باهوالها والاجرام الكثيفة بالتشقق والانفطار والاشياء الثابتة بالانتشار وقوله تعالى (ما القارعة) تهويل لشانها وهما مبتدأ وخبر خبر القارعة وأكد تعظيمها اعلاما بأنه مهما خطر فى بالك من عظمها فهى أعظم منه فقال تعالى (وما أدراك) أى أعلمك (ما القارعة) أى انك لاتعرفها لانك لم تعهد مثلها وما الاولى مبتدأ ومابعدها خبره وما الثانية وخبرها فى محل المفعول الثانى لادرى واختلف فى ناصب (يوم) على

وجهين أحدهما أنه بمضمر دل عليه القارعة أي تقرعهم يوم وقيل تقديره تأتي القارعة يوم (يكون الناس) والثاني انه اذكر مقدرا فهو مفعول به لا ظرف وقوله تعالى (كالفراش المبثوث) يجوز أن يكون خبرا للناقصة وأن يكون حالا من فاعل التامة أي يؤخذون ويحشرون شبه الفراش شبههم في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير الى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش الى النار والفراش طائر معروف قال قتادة الفراش الطير الذي يتساقط في النار والسراج الواحدة فراشة وقال الفراء هو الهمج من البعوض والجراد وغيرهما وبه يضرب المثل في الطيش والهوج يقال أطيش من فراشة وأنشدوا

فراشة الحلم فرعون العذاب وان * تطلب نداه فكلب دونه كلب

وفي أمثالهم أضعف من فراشة وأذل وأجهل وسمي فراشا لتفرشه وانتشاره وروى مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي وفي تشبيه الناس بالفراش مبالغات شتى منها الطيش الذي يلحقهم وانتشارهم في الارض وركوب بعضهم بعضا والكثرة والضعف والذلة والمجيء من غير ذهاب والقصد الى الداعي من كل جهة والتطاير الى النار قال جرير

ان الفرزدق ما علمت وقومه * مثل الفراش غشين نار المصطلي

والمبثوث المتفرق وقال تعالى في موضع آخر كأنهم جراد منتشر (فان قيل) كيف شبه الشيء الواحد بالصغير والكبير معا لانه شبههم بالجراد المنتشر والفراش المبثوث (أجيب) بأن التشبيه بالفراش في ذهاب كل واحد الى غير جهة الآخر وأما التشبيه بالجرادة فبالكثرة والتتابع (وتكون الجبال) على ما هي عليه من الشدة والصلابة وانها صخور راسخة (كالعهن) أي الصوف المصبوغ ألوانا لانها ملونة قال تعالى ومن الجبال جدد بيض وحمر أي وغير ذلك (المنفوش) أي المندوف المفرق الاجزاء فتراها لذلك متطايرة في الجو كالهباء المنثور كما قال تعالى في موضع آخر هباء منبثا حتى تعود الارض كلها لا عوج فيها ولا أمتا ثم سبب عن ذلك قوله تعالى مفصلا لهم (فأما من ثقلت موازينه) أي برجحان الحسنات وفي الموازين قولان أحدهما أنه جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله تعالى وهذا قول الفراء والثاني قال ابن عباس انه جمع ميزان له لسان وكفتان لا يوزن فيه الا الاعمال فتوزن فيه الصحف المكتوبة فيها الحسنات والسيآت أو الاعمال أنفسها فيؤتى بحسنات المؤمن في أحسن صورة فتوضع في كفة الميزان فاذا رجحت فالجنة له ويؤتى بسيآت الكافر في أقبح صورة فيخف ميزانه فيدخل النار وقيل انما توزن أعمال المؤمنين فمن ثقلت حسناته على سيآته دخل الجنة ومن ثقلت سيآته على حسناته دخل النار فيقتص منه على قدرها ثم يخرج منها فيدخل الجنة أو يعفو الله عنه فيدخل الجنة بفضله ورحمته وأما الكافر فقد قال الله تعالى في حقه فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ثم قيل انه ميزان واحد بيد جبريل

عليه السلام يزن به أعمال بني آدم فعبر عنه بلفظ الجمع وقيل موازين لكل حادثة ميزان وقيل الموازين الحجج والدلائل قاله عبد العزيز بن يحيى واستشهد بقول الشاعر

قد كنت قبل لقائكم ذا مرة * عندي لكل مخاصم ميزانه

(فهو) أي بسبب رجحان حسناته (في عيشة) أي حياة يتقلب فيها قال البقاعي واعله ألحقها بالهاء الدالة على الوحدة والمراد العيش ليفهم أنها على حالة واحدة في الصفاء واللذة وليست ذات ألوان كحياة الدنيا (راضية) أي ذات رضا أو مرضية لانه ثمه جنة عالية (وأما من خفت) أي طاشت (موازينه) أي غلبت سيآته أو لم تكن له حسنة لاتباعه الباطل وخفته عليه في الدنيا (فأمه) أي التي تؤويه وتضمه اليها كما يقال للارض أم لانها تقصد لذلك ويسكن اليها كما يسكن الى الام وكذا المسكن (هاوية) أي نار نازلة سافلة جدا فهو بحيث لايزال يهوي فيها نازلا فهو في عيشة ساخطة فالآية من الاحتباك ذكر العيشة أولا دليلا على حذفها ثانيا وذكر الام ثانيا دليلا على حذفها أولا والهاوية اسم من أسماء جهنم وهي المهواة لا يدرك قعرها وقال قتادة هي كلمة عربية كان الرجل اذا وقع في أمر شديد يقال هوت أمه وقيل أراد أم رأسه يعني انهم يهوون في النار على رؤسهم والى هذا التأويل ذهب قتادة وأبو صالح وروي عن أبي بكر أنه قال وانما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباع الحق وثقله في الدنيا وحق لميزان لايوضع فيه الا الحسنات أن يثقل وانما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل وخفته في الدنيا وحق لميزان لايوضع فيه الا السيآت أن يخف (وما أدراك) أي وأي شيء أعلمك وان اشتد تكلفك (ماهيه) أي الهاوية والاصل ماهي فدخلت الهاء للسكت وقرأ حمزة في الوصل بغيرها بعد الياء التحتية ووقف بها والباقون باثباتها وصلا ووقفا (فان قيل) قال هنا وما أدراك ماهيه وقال أول السورة وما أدراك ما القارعة ولم يقل وما أدراك ما الهاوية (أجيب) بأن كونها قارعة أمر محسوس وكونها هاوية ليس كذلك فظهر الفرق وقوله تعالى (نار حامية) خبر مبتدإ مضمر أي هي أي الهاوية نار شديدة الحرارة روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ناركم هذه التي توقد جزء من سبعين جزأ من حر جهنم قالوا وانها لكافية يا رسول الله قال فانها فضلت عليها بتسعة وستين جزأ كلها مثل حرها وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القارعة ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة حديث موضوع

(سورة التكاثر مكية)

وهي ثمان آيات وثمانية وعشرون كلمة ومائة وعشرون حرفا

(بسم الله) ذي الجلال والاكرام (الرحمن) الذي عم بالايجاد بعد الاعدام (الرحيم) الذي خص أولياءه بتمام الانعام * ولما ختم القارعة بالشقي افتتح هذه بفعل الشقاوة ومبتدإ الحشر ليزجر السامع فقال تعالى (ألهاكم التكاثر) أي شغلكم المباهاة والمفاخرة والمكاثرة بكثرة

المال والعدد عن طاعة ربكم وما ينجيكم من سخطه (حتى زرتم المقابر) أى ألهاكم التكاثر بالاموال والاولاد الى أن متم وقبرتم منفقين أعماركم فى طلب الدنيا والاستباق اليها والتهالك عليها الى أن أتاكم الموت لاهم لكم غيرها عما هو أولى بكم من السعى لعاقبتكم والعمل لآخرتكم وزيارة القبر عبارة عن الموت قال الاخطل

لن يخلص العام خليل عشرا ٭ ذاق الضماد أو يزور القبرا

٭(تنبيه)٭ حتى غاية لقوله تعالى ألهاكم وهو عطف عليه والمعنى حتى أتاكم الموت فصرتم فى المقابر زوارا ترجعون منها كرجوع الزائر الى منزله من جنة أو نار يقال لمن مات قد زار قبره (فان قيل) شأن الزائر أن ينصرف قريبا والاموات ملازمون للقبور فكيف يقال انه زار القبر وأيضا حتى زرتم اخبار عن الماضى فكيف يحمل على المستقبل (أجيب) عن الاول بأن سكان القبور لابد أن ينصرفوا عنها فان كل آت قريب وعن الثانى لتحققه عبر عنه بالماضى كقوله تعالى أتى أمر الله وقال أبو مسلم ان الله تعالى يتكلم بهذه السورة يوم القيامة تعييرا للكفار وهم فى ذلك الوقت قد تقدمت منهم زيارة القبور وقال مقاتل والكلبى نزلت فى حيين من قريش بنى عبد مناف وبنى سهم تفاخروا أيهم أكثر عددا فكثرهم بنو عبد مناف وقالت بنو سهم ان البغى أهلكنا فى الجاهلية فعادونا بالاحياء والاموات فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات لانهم كانوا فى الجاهلية أكثر عددا والمعنى انكم تكاثرتم بالاحياء حتى استوعبتم عددهم ثم صرتم الى المقابر فتكاثرتم بالاموات عبر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة القبور تهكما بهم وانما حذف الملهى عنه وهو ما يعنيهم من أمر الدين للتعظيم والمبالغة وقال قتادة فى اليهود قالوا نحن أكثر من بنى فلان وبنو فلان أكثر من بنى فلان شغلهم ذلك حتى ماتوا ضلالا أو أنهم كانوا يزورون المقابر فيقولون هذا قبر فلان وهذا قبر فلان عند تفاخرهم والمعنى ألهاكم ذلك وهو مما لا يعنيكم ولا يجدى عنكم فى دنياكم وآخرتكم عما يعنيكم من أمر الدين الذى هو أهم وأعنى من كل مهم من المقابر والمقابر جمع مقبرة بفتح الباء وضمها ويسمى سعيد المقبرى لانه كان يسكن المقابر قال القرطبى لم يأت فى التنزيل ذكر المقابر الا فى هذه السورة واعترضه ابن عادل بأن الله تعالى قال فى سورة أخرى ثم أماته فأقبره وهذا ممنوع فانه قال المقابر فلفظ هذه الآية غير لفظ تلك وزيارة القبور من أعظم الادوية للقلب القاسى لانها تذكر الموت والآخرة وذلك يحمل على قصر الامل والزهد فى الدنيا وترك الرغبة فيها قال صلى الله عليه وسلم كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن زوارات القبور فتكره لهن لقلة صبرهن وكثرة جزعهن نعم زيارة النبى صلى الله عليه وسلم سنة لهن ويلحق به بقية الانبياء والاولياء والعلماء وينبغى لمن زار القبور أن يتأدب بآدابها ويحضر قلبه فى اتيانها ولا يكون حظه منها الطواف عليها فقط فان هذه حالة يشاركه فيها البهائم بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى واصلاح فساد قلبه ونفع الميت بما يتلوه عنده من القرآن والدعاء ويجتنب الجلوس عليها ويسلم اذا دخل المقابر فيقول السلام عليكم

دار قوم مؤمنين وانا ان شاء الله بكم لاحقون واذا وصل الى قبر ميته الذي يعرفه سلم عليه أيضا وأتاه من قبل وجهه لانه فى زيارته كمخاطبه حيا ثم يعتبر بمن صار تحت التراب وانقطع عن الاهل والاحباب ويتأمل حال من مضى من اخوانه كيف انقطعت آمالهم ولم تغن عنهم أموالهم ومحى التراب على محاسنهم ووجوههم وافترقت فى التراب أجزاؤهم وترمل من بعدهم نساؤهم وشمل ذل اليتم أولادهم وأنه لابد صائر الى مصيرهم وأن حاله كحالهم وماله كمآلهم وعن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال انتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية قال يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك الا ما تصدقت فأمضيت أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت وعن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله وقرأ الهاكم حمزة والكسائى بالامالة محضة وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقوله تعالى (كلا) ردع وتنبيه على انه لا ينبغى للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ولا يهتم بدينه وقوله تعالى (سوف تعلمون) انذار ليخافوا فينتبهوا عن غفلتهم وقوله تعالى (ثم كلا سوف تعلمون) تكرير للتأكيد وثم للدلالة على أن الثانى أبلغ من الاول وأشد كما يقال للمنصوح أقول لك لا تفعل والمعنى سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه اذا عاينتم ما قدامكم من هول لقاء الله تعالى وان هذا التنبيه نصيحة لكم ورحمة عليكم وعن على كرم الله وجهه ورضى الله عنه كلا سوف تعلمون فى الدنيا ثم كلا سوف تعلمون فى الآخرة فعلى هذا يكون غير مكرر لحصول التغاير بينهما لاجل تغاير المتعلقين وثم على بابها من المهلة وعن ابن عباس كلا سوف تعلمون ما ينزل بكم من العذاب فى القبور ثم كلا سوف تعلمون فى الآخرة اذا حل بكم العذاب فالتكرار للحالتين وروى زر بن حبيش عن على كنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت هذه السورة فأشار الى أن قوله تعالى كلا سوف تعلمون فى القبور وقيل كلا سوف تعلمون اذا نزل بكم الموت وجاءتكم رسل ربكم بنزع أرواحكم ثم كلا سوف تعلمون فى القيامة انكم معذبون وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث وحشر وعرض وسؤال الى غير ذلك من أهوال القيامة وقال الضحاك كلا سوف تعلمون يعنى الكفار ثم كلا سوف تعلمون أيها المؤمنون فالاول وعيد والثانى وعد ولما كان هذا أمرا صادقا أشار تعالى الى انه يكفى هذه الامة المرحومة التأكيد بمرة واحدة فقال سبحانه مرددا الامر بين تأكيد الردع تاليا بالاداة الصالحة له ولان يكون بمعنى حقا كما يقوله أئمة القراءة (كلا) أى ليشتد ارتداعكم عن التكاثر فانه أساس كل بلاء فانكم (لو تعلمون) أى أيها الكافرون (علم اليقين) أى لو يقع لكم علم على وجه اليقين مرة من الدهر لعلمتم ما بين ايديكم فلم يلهكم التكاثر ولضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم الى الصعدات تجأرون فحذف الجواب أخوف ليذهب الوهم معه كل مذهب ولا يجوز أن يكون (لترون الجحيم) جوابها لان هذا مثبت وجواب لو يكون منفيا ولانه تعالى عطف عليه ثم لتسألن وهو مستقبل لابد من وقوعه وحذف جواب لو كثير قال الاخفش التقدير لو تعلمون علم اليقين لما ألهاكم بل هو جواب قسم محذوف أكد به الوعيد وأوضح به

ما أنذرهم منه بعد ابهامه تفخيما وقوله تعالى (ثم لترونها) تكرير للتأكيد والاولى اذا رأتهم من مكان بعيد والثانية اذا وردوها او المراد بالاولى المعرفة والثانية الابصار (عين اليقين) أى الرؤية التى هى نفس اليقين فان علم المشاهدة أعلى مراتب اليقين قال الرازى واليقين مركب الاخلاص فى هذا الطريق وهو غاية درجات العامة وأول خطرة الخاصة قال صلى الله عليه وسلم خير ما ألقى فى القلب اليقين وعلمه قبول ما ظهر من الحق وقبول ما غاب للحق والوقوف على ما قام بالحق وقال قتادة اليقين هنا الموت وعنه أيضا البعث أى لو تعلمون علم الموت أو البعث فعبر عن الموت باليقين والعلم من أشد البواعث على العمل وقيل لو تعلمون اليوم فى الدنيا علم اليقين بما امامكم مما وصفت لترون الجحيم بعيون قلوبكم فان علم اليقين يريك الجحيم بعين فؤادك وقرأ لترون ابن عامر والكسائى بضم التاء والباقون بالفتح (ثم لتسئلن) حذف منه نون الرفع لتوالى النونات والواو لالتقاء الساكنين (يومئذ) أى يوم رؤيتها (عن النعيم) وهو ما يلتذ به فى الدنيا من الصحة والفراغ والامن والمطعم والمشرب وغير ذلك والمراد بذلك ما يشغله عن الطاعة للقرينة والنصوص الكثيرة كقوله تعالى قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده وقوله تعالى كلوا من الطيبات وقال الحسن لا يسأل عن النعيم الا أهل النار لان أبا بكر رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية قال يا رسول الله أرأيت أكلة أكلتها معك فى بيت أبى الهيثم من خبز شعير ولحم وبسر وماء عذب أيكون من النعيم الذى يسأل عنه فقال صلى الله عليه وسلم انما ذلك للكفار ثم قرأ صلى الله عليه وسلم وهل يجازى الا الكفور ولان ظاهر الآية يدل على ذلك لان الكفار ألهاهم التكاثر بالدنيا والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله تعالى والاشتغال بشكره فالله تعالى يسألهم عنها يوم القيامة حتى يظهر لهم أن الذى ظنوه اسعادتهم كان من أعظم الاسباب لشقاوتهم وقيل السؤال عام فى حق المؤمن والكافر لقوله صلى الله عليه وسلم أول ما يسأل العبد يوم القيامة عن النعيم فيقال له ألم نصحح جسمك ألم نروك من الماء البارد وقيل الزائد على ما لابد منه وقيل غير ذلك قال الرازى والاولى على جميع النعم لان الالف واللام تفيد الاستغراق وليس صرف اللفظ الى البعض أولى من صرفه الى الباقى فيسأل عنها هل شكرها أم كفرها واذا قيل ان هذا السؤال للكافر فقيل هو فى موقف الحساب وقيل بعد دخول النار يقال لهم انما حل بكم هذا العذاب لاشتغالكم فى الدنيا بالنعيم عن العمل الذى ينجيكم من هذه النار ولو صرفتم عمركم الى طاعة ربكم لكنتم اليوم من أهل النجاة وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ ألهاكم التكاثر لم يحاسبه الله بالنعيم الذى أنعم به عليه فى دار الدنيا واعطى من الاجر كانما قرأ ألف آية حديث موضوع الا آخره فرواه الحاكم بلفظ ألا يستطيع أحدكم ان يقرأ ألف آية فى كل يوم قالوا ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية قال أوما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر

(سورة العصر مكية)

وروى عن ابن عباس وعبادة انها مدنية وهى ثلاث آيات وأربع عشرة كلمة وثمانية وستون حرفا

(بسم الله) الذى كل شئ هالك الا وجهه (الرحمن) الذى عم الوجود بانعامه فليس شئ يشبهه (الرحيم) الذى أعز أولياءه فكانوا الدهر غرة ولاهله جبهه وقوله تعالى (والعصر) قسم واختلف فى المراد به فقال ابن عباس والدهر أقسم به لان فيه عبرة للناظر بتصرف الاحوال وتبدلها وما فيها من الدلالة على الصانع وقيل معناه ورب العصر ومر الكلام فى امثاله وقال ابن كيسان أراد بالعصر الليل والنهار يقال لهما العصران وقال الحسن بعد زوال الشمس الى غروبها وقال قتادة آخر ساعة من ساعات النهار وقال مقاتل أقسم بصلاة العصر وهى الصلاة الوسطى وهذا أشبه قال صلى الله عليه وسلم من فاتته الصلاة الوسطى فكأنما وتر أهله وماله ولان التكليف فى ادائها أشق لتهافت الناس فى تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بعشائهم ونقل ابن عادل عن مالك أن من حلف أن لا يكلم الرجل عصرا لم يكلمه سنة قال ابن العربى انما حمل مالك يمين الحالف على السنة لانه أكثر ما قيل فيه ونقل عن الشافعى يبر بساعة الا أن تكون له نية وجواب القسم (ان الانسان) أى الجنس (لفى خسر) أى نقص بحسب مساعيهم فى أهوائهم وصرف أعمارهم فى اغراضهم لما لهم بالطبع من الميل الى الحاضر والاعراض عن الغائب والاغترار بالفانى *(تنبيه)* تنكير خسر يحتمل التهويل والتحقير فان حمل على الاول وهو الظاهر كان المعنى ان الانسان لفى خسر عظيم لا يعلم كنهه الا الله تعالى لان الذنب يعظم اما لعظم من فى حقه الذنب أو لانه وقع فى مقابلة النعم العظيمة فلذلك كان الذنب فى غاية العظم وان حمل على الثانى كان المعنى ان خسران الانسان دون خسران الشيطان ولما كان الحكم على الجنس حكما على الكل لانهم ليس لهم من ذواتهم الا ذلك وكان فيهم من خلصه الله تعالى عما طبع عليه الانسان وحفظه عن الميل استثناهم بقوله عز من قائل (الا الذين آمنوا) أى أوجدوا الايمان وهو التصديق بما علم بالضرورة مجىء النبى صلى الله عليه وسلم به من توحيده سبحانه والتصديق بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر (وعملوا) أى تصديقا لما أقروا به من الايمان (الصالحات) أى هذا الجنس من ايقاع الاوامر واجتناب النواهى واشتروا الآخرة بالدنيا فلم يلههم التكاثر ففازوا بالحياة الابدية والسعادة السرمدية فلم يلحقهم شئ من الخسران وقال ابن عباس فى رواية أبى صالح المراد بالانسان الكافر وقال فى رواية الضحاك يريد به جماعة من المشركين الوليد بن المغيرة والعاصى بن وائل والاسود بن عبد المطلب وقيل لفى خسر غبن وقال الاخفش لفى هلكة وقال الفراء لفى عقوبة وقال ابن زيد لفى شر وروى ابن عوف عن ابراهيم قال أراد ان الانسان اذا عمر فى الدنيا وأهرم لفى ضعف ونقص وتراجع الا المؤمنين فانه يكتب لهم أجورهم التى كانوا يعملونها فى حال شبابهم ونظيره قوله تعالى لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا ولما كان الانسان بعد كماله فى نفسه بالاعمال لا ينتفى عنه مطلق الخسر الا بتكميل غيره وحينئذ كان وارثا لان الانبياء عليهم الصلاة والسلام بعثوا للتكميل قال تعالى مخصصا لما دخل فى الاعمال الصالحة منبها على عظمه (وتواصوا) أى أوصى بعضهم بعضا بلسان الحال والمقال (بالحق) أى الامر الثابت وهو كل ما

حكم

حكم الشرع بجهته ولا يسوغ انكاره وهو الخير كله من توحيد الله تعالى وطاعته واتباع كتبه ورسله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة (وتواصوا) أيضا (بالصبر) عن المعاصي وعلى الطاعات وعلى ما يبتلي الله به عباده من الامراض وغيرها ويروى عن أبي بن كعب انه قال قرأت على النبي صلى الله عليه وسلم والعصر ثم قلت ما تفسيرها يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم والعصر قسم من الله أقسم ربكم بآخر النهارات الانسان لفي خسر أبو جهل الا الذين آمنوا أبو بكر وعملوا الصالحات عمر وتواصوا بالحق عثمان وتواصوا بالصبر علي وهكذا خطب ابن عباس على المنبر موقوفا عليه وقال قتادة بالحق أي بالقرآن وقال السدي الحق هنا الله عز وجل وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والعصر غفر الله له وكان ممن تواصى بالحق وتواصى بالصبر حديث موضوع

(سورة الهمزة مكية)

وهي تسع آيات وثلاثون كلمة ومائة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الحكم العدل (الرحمن) الذي عم جوده أهل الجهل وأولي العدل (الرحيم) الذي خص أولياءه بزيادة الفضل وقوله تعالى (ويل) فيه قولان أحدهما انه كلمة عذاب والثاني انه واد في جهنم (لكل همزة لمزة) قال ابن عباس هم المشاؤن بالنميمة المفرقون بين الاحبة الباغون للبراء العيب فعلى هذا هما بمعنى وقال صلى الله عليه وسلم شر عباد الله المشاؤن بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون للبراء العيب وقال مقاتل الهمزة الذي يعيبك في الغيب واللمزة الذي يعيبك في الوجه وقال أبو العالية والحسن الهمزة الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل واللمزة الذي يغتابه من خلفه وهذا اختيار النحاس ومنه قوله تعالى ومنهم من يلمزك في الصدقات وقال سعيد بن جبير الهمزة الذي يأكل لحوم الناس ويغتابهم واللمزة الطعان عليهم وقال ابن زيد الهمزة الذي يهمز الناس بيده ويضربهم واللمزة الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم وقال سفيان الثوري يهمز بلسانه ويلمز بعينه وقال ابن كيسان الهمزة الذي يؤذي جليسه بسوء اللفظ واللمزة الذي يكسر عينه ويشير برأسه ويرمز بحاجبه وحاصل هذه الاقاويل يرجع الى أصل واحد وهو الطعن واظهار العيب ويدخل في ذلك من يحاكي الناس بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا منهم وأصل الهمز الكسر واللمز الطعن ثم خصا بالكسر من أعراض الناس والطعن فيهم حتى صار ذلك عادة لانه خلق ثابت في جبلتهم والذي دل على الاعتياد صيغة فعلة بضم ففتح كما يقال ضحكة للذي يفعل الضحك كثيرا حتى صار عادة له وضري به واختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية فقال الكلبي نزلت في الاخنس بن شريق الثقفي كان يقع في الناس ويغتابهم وقال محمد بن اسحق ما زلنا نسمع أن سورة الهمزة نزلت في أمية بن خلف الجمحي وقال مقاتل نزلت في الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبي صلى الله عليه وسلم من ورائه ويطعن عليه في وجهه وقال مجاهد هي عامة في حق من هذه صفته وقوله تعالى (الذي جمع مالا) بدل من كل

أو ذم منصوب أو مرفوع وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بتشديد الميم على المبالغة والتكثير ولانه يوافق قوله تعالى (وعدده) والباقون بتخفيفها وهى محتملة للتكثير وعدمه ومعنى عدده أحصاه وجعله عدة للحوادث وقال الضحاك أعد ماله لمن يرثه من أولاده وقيل فاخر بعدده وكثرته والمقصود الذم على امساك المال عن سبيل الطاعة كقوله تعالى مناع للخير وقوله تعالى جمع فأوعى (يحسب) أى يظن لجهله (أن ماله أخلده) اى أوصله الى رتبة الخلد فى الدنيا فيصير خالدا فيها لايموت اويعمل من تشييد البنيان الموثق بالصخر والآجر وغرس الاشجار وعمارة الارض عمل من يظن أن ماله أبقاه حيا أو هو تعريض بالعمل الصالح وانه هو الذى أخلد صاحبه فى النعيم فأما المال فما أخلد أحدا فيه وروى أنه كان للاخنس أربعة آلاف دينار وقيل عشرة آلاف دينار وعن الحسن أنه عاد موسرا فقال ما تقول فى ألوف لم أفتد بها من لئيم ولا تفضلت بها على كريم قال لماذا قال لنبوة الزمان وجفوة السلطان ونوائب الدهر ومخافة الفقر قال اذا تدعه لمن لايحمدك وترد على من لايعذرك وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها وقوله تعالى (كلا) ردع له عن حسبانه وقيل معناه حقا وقوله تعالى (لينبذن) جواب قسم محذوف أى ليطرحن بعد موته (فى الحطمة) أى الطبقة من جهنم التى من شأنها أن تحطم أى تكسر بشدة وعنف كل ما طرح فيها فيكون أخسر الخاسرين ويقال للرجل الاكول انه لحطمة (وما أدراك) أى وأى شئ أعلمك ولو بمحاولة منك للعلم واجتهاد فى التعرف مع كونك اعلم الحكماء (ما الحطمة) أى الدركة النارية التى سميت هذا الاسم بهذه الخاصة وانه ليس فى الوجود الذى شاهد تموه ما يقاربها ليكون مثالا لها ثم فسرها بقوله تعالى (نار الله) أى الملك الاعظم الذى له الملك كله (الموقدة) أى التى وجد وتحتم ايقادها ومن الذى يطيق محاولة ما أوقده فهى لايزال لها هذا الاسم ثابتا روى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهى سوداء مظلمة (التى تطلع) أى اطلاعا شديدا (على الافئدة) جمع فؤاد وهو القلب الذى يكاد يحترق من شدة ذكائه فكان ينبغى أن يجعل ذكاءه فى أسباب الخلاص واطلاعها عليه بأن تعلو وسطه وتشتمل عليه اشتمالا بليغا وخص بذلك لشدة توقده وخص لانه ألطف ما فى البدن واشد تألما بادنى شئ من الاذى ولانه منشأ العقائد الفاسدة ومعدن حب المال الذى هو منشأ الفساد والضلال وعنه تصدر الافعال القبيحة وقيل معنى تطلع على الافئدة أى تعلم ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب يقال اطلع على كذا أى علمه * ثم أشار الى خلودهم فيها بقوله تعالى مؤكدا لانهم يكذبون بها (انها عليهم مؤصدة) قال الحسن مطبقة أى بغاية الضيق وقال مجاهد مغلقة بلغة قريش يقال أصدت الباب أى أغلقته ومنه قول عبد الله بن قيس

ان فى القصر لو دخلنا غزالا * مفتنا موصدا عليه الحجاب

ثم بين حال عذابهم بقوله تعالى (فى) أى فى حال كونهم موثقين فى (عمد) قرأ حمزة والكسائى وشعبة بضم العين والميم جمع عمود كرسول ورسل وقيل جمع عماد ككتاب وكتب والباقون

بقصهما فقيل هو اسم جمع لعمود وقيل بل هو جمع له قال الفراء كأديم وأدم وقال أبو عبيدة هو جمع عماد (ممددة) أى معترضة كأنها موضوعة على الارض فهى فى غاية المكنة فلا يستطيع الموثوق بها على نوع حيلة فى أمرها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يبعث عليهم ملائكة باطباق من نار ومسامير من نار وعمد من نار فيطبق عليهم بتلك الاطباق وتسد بتلك المسامير وتمد بتلك العمد فلا يبقى فيها خلل يدخل منه روح ولا يخرج منه غم فيكون كلامهم فيها زفيرا وشهيقا وقال قتادة عمد تعذبون بها واختاره الطبرى وقال ابن عباس ان العمد الممددة اغلال فى أعناقهم وقال أبو صالح قيود فى أرجلهم وقال القشيرى العمد أوتاد الاطباق وقيل المعنى فى دهور ممدودة لا انقطاع لها وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه حديث موضوع

(سورة الفيل مكية)

وهى خمس آيات وعشرون كلمة وستة وتسعون حرفا

(بسم الله) الذى قدرته فى كل شئ عاملة (الرحمن) الذى له النعمة الشاملة (الرحيم) الذى يخص أهل الاصطفاء بالنعمة الكاملة وقوله تعالى (ألم تر) استفهام تعجب أى اعجب (كيف فعل ربك) أى المحسن اليك (بأصحاب الفيل) فهو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وهو وان لم يشهد تلك الواقعة لكن شاهد آثارها وسمع بالتواتر أخبارها فكأنه رآها وانما قال تعالى كيف دون ما لان المراد ذكر ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله وقدرته وعزة بيته وشرف رسوله صلى الله عليه وسلم * وكانت قصة الفيل ماروى أن ابرهة بن الصباح الاشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشى بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس واراد أن يصرف اليها الحاج وكتب الى النجاشى انى قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يبن الملك مثلها ولست منتهيا حتى أصرف اليها حج العرب فسمع بذلك رجل من بنى مالك بن كنانة فخرج اليها فدخلها ليلا فقعد فيها ولطخ بالعذرة قبلتها فبلغ ذلك أبرهة فقال من اجترأ على فقيل صنع ذلك رجل من العرب من أهل ذلك البيت سمع الذى قلت فحلف أبرهة عند ذلك ليسيرن الى الكعبة حتى يهدمها فكتب الى النجاشى يخبره بذلك وسأله أن يبعث اليه بفيله وكان له فيل يقال له محمود وكان فيلا لم ير مثله عظما وجسما وقوة فبعث به اليه فخرج أبرهة فى الحبشة سائرا الى مكة وخرج معه بالفيل واثنى عشر فيلا غيره وقيل ثمانية عشر وقيل كان معه ألف فيل وقيل كان وحده فسمعت العرب بذلك فأعظموه ورأوا جهاده حقا عليهم فخرج ملك من ملوك اليمن يقال له ذو نفر بمن أطاعه من قومه فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ ذا نفر فقال له أيها الملك استبقنى فان استبقائى خير لك من قتلى فاستبقاه فأوثقه وكان ابرهة رجلا حليما ثم سار حتى اذا دنا من بلاد خثعم خرج له نفيل بن حبيب الخثعمى فى خثعم ومن اجتمع اليه من قبائل اليمن فقاتلوه فهزمهم وأخذ نفيلا فقال نفيل أيها الملك انى دليل بارض العرب وهاتان

يداى على قومى بالسمع والطاعة فاستبقاه وخرج معه يدله حتى اذا مر بالطائف خرج اليه مسعود ابن معتب فى رجال من ثقيف فقال أيها الملك نحن عبيدك ليس عندنا خلاف لك انما تريد البيت الذى بمكة نحن نبعث معك من يدلك عليه فبعثوا ابا رغال مولى لهم فخرج حتى اذا كان بالمغمس مات أبو رغال وهو الذى يرجم قبره وبعث ابرهة من المغمس رجلا من الحبشة يقال له الاسود بن مسعود على مقدمة خيله وأمره بالغارة على نعم الناس فجمع الاسود اليه أموال الحرم وأصاب لعبد المطلب مائتى بعير ثم ان أبرهة بعث حناطة الحميرى الى أهل مكة فقال سل عن شريفها ثم أبلغه ما أرسلك به اليه أخبره أنى لم آت لقتال انما جئت لاهدم هذا البيت فانطلق حتى دخل مكة فلقى عبد المطلب بن هاشم فقال ان الملك أرسلنى اليك لاخبرك انه لم يأت لقتال انما جئت لاهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم فقال عبد المطلب ماله عندنا قتال ولا لنا به يدانا سنخلى بينه وبين ما جاء اليه فان هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم عليه السلام فان يمنعه فهو بيته وحرمه وان يخل بينه وبين ذلك فوالله ما لنا به قوة قال فانطلق معى الى الملك قال بعض العلماء انه أردفه على بغلة كان عليها وركب معه بعض بنيه حتى قدم العسكر وكان ذو نفر صديقا لعبد المطلب فأتاه فقال ياذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا فقال ما غناء رجل أسير لا يأمن أن يقتل بكرة أو عشيا ولكن سأبعث الى أنيس سائس الفيل فانه لى صديق فأسأله ان يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير ويعظم خطرك ومنزلتك عنده فارسل الى أنيس فأتاه فقال له ان هذا سيد قريش صاحب عير مكة يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رؤس الجبال وقد أصاب الملك له مائتى بعير فان استطعت ان تنفعه عنده فانفعه فانه صديق لى أحب ما وصل اليه من الخير فدخل أنيس على ابرهة فقال أيها الملك هذا سيد قريش وصاحب عير مكة يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رؤس الجبال يستأذن عليك وأنا أحب أن تأذن له فيكلمك وقد جاء غير ناصب لك ولا مخالف عليك فأذن له وكان عبد المطلب رجلا جسيما وسيما فلما رآه أبرهة أعظمه وأكرمه وكره ان يجلس معه على السرير وان يجلس تحته فهبط الى البساط فجلس عليه ثم دعاه فأجلسه معه ثم قال لترجمانه قل له ما حاجتك الى الملك فقال الترجمان ذلك فقال عبد المطلب حاجتى الى الملك ان يرد الى مائتى بعير اصابها لى فقال ابرهة لترجمانه قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ولقد زهدت فيك قال لم قال جئت الى بيت هو دينك ودين آبائك وهو شرفكم وعصمتكم لاهدمه لم تكلمنى فيه وتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها قال عبد المطلب أنا رب هذه الابل وللبيت رب سيمنعه قال ما كان ليمنعه منى قال فأنت وذاك فأمر بابله فردت عليه وقيل عرض عليه عبد المطلب أموال تهامة ليرجع فابى فلما ردت الابل على عبد المطلب خرج فأخبر قريشا الخبر وأمرهم ان يتفرقوا فى الشعاب ويتحرزوا فى رؤس الجبال تخوفا عليهم من معرة الجيش ففعلوا وأتى عبد المطلب الكعبة فأخذ بحلقة الباب وجعل يقول

يارب لا ارجو لهم سواكا • يارب فامنع منهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكا • امنعهم أن يخربوا قراكا

وقال أيضا

* لاهم ان المرء يمـ ـنع رحله فامنع حلالك *

* لا يغلبن صليبهم * ومحالهم عدوا محالك *

جروا جموع بلادهم * والفيل كي يسبوا عيالك

عمدوا حماك بكيدهم * جهلا وما رقبوا جلالك

ان كنت تاركهم وكعـ ـبتنا فأمر ما بدا لك *

ثم ترك عبد المطلب الحلقة وتوجه في بعض تلك الوجوه مع قومه فأصبح ابرهة بالمغمس قد تهيأ للدخول وهيأ جيشه وهيأ فيله فأقبل نفيل الى الفيل الاعظم ثم أخذ باذنه وقال ابرك محمود وارجع راشدا من حيث جئت فانك في بلد الله الحرام فبرك الفيل فبعثوه فأبى فضربوه بالمعول في رأسه فأبى فوجهوه راجعا الى اليمن فقام مهرولا فوجهوه الى الشام ففعل مثل ذلك ووجهوه الى المشرق ففعل مثل ذلك فضربوه الى الحرم فبرك وأبى أن يقوم وخرج عبد المطلب يشتد حتى صعد الجبل فارسل الله تعالى عليهم ما قصه في قوله سبحانه (ألم يجعل) أي جعل عاله من الاحسان الى العرب لاسيما قريش (كيدهم) أي في هدم الكعبة (في تضليل) أي خسارة وهلاك (وارسل عليهم) أي خاصة من بين ماهنالك من كفار العرب (طيرا) أي طيورا سودا وقيل خضرا وقيل بيضا (أبابيل) أي جماعات بكثرة متفرقة يتبع بعضها بعضا من نواحي شتى فوجا فوجا وزمرة زمرة امام كل فرقة منها طائر يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق وقيل أبابيل كالابل المؤبلة قال الفراء لا واحد لها من لفظها وقيل واحدها ابالة وقال الكسائي كنت أسمع النحويين يقولون واحدها ابول كعجول وعجاجيل وقال ابن عباس كانت طيرا لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب وقال عكرمة لها رؤس كرؤس السباع وقال سعيد ابن جبير طير خضر لها مناقير صفر وقال قتادة طير سود (ترميهم) أي الطير (بحجارة) أي عظيمة في الكثرة والفعل صغيرة في المقدار والحجم مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجليه اكبر من العدسة وأصغر من الحمصة وعن ابن عباس انه رأى منها عند أم هانئ نحو قفيز مخططة بالحمرة كالجزع الظفاري فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره وعلى كل حجر اسم من يقع عليه ففروا فهلكوا في كل طريق ومنهل وأما أبرهة فتساقطت أنامله كلها كلما سقطت أنملة أتبعها مدة وقيح ودم فانتهى الى صنعاء وهو مثل فرخ الطير وما مات حتى انصدع صدره من قلبه وانفلت وزيره ابو يكسوم وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتا بين يديه لان تلك الحجارة كانت (من سجيل) أي طين متحجر مصنوع للعذاب في موضع هو في غاية العلو ولما تسبب عن هذا الرمى هلاكهم وكان ذلك بفعل الله تعالى لانه الذي خلق الاثر قطعا لان مثله لا ينشأ عنه ما نشأ من الهلاك قال الله تعالى (فجعلهم) أي ربك المحسن اليك باحسانه الى قومك لاجلك بذلك (كعصف مأكول) أي كورق زرع أكلته فراشه فيبس وتفرقت أجزاؤه شبه قطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث قال مجاهد العصف ورق الحنطة وقال قتادة هو التبن وقال عكرمة كالحب اذا أكل وصار أجوف لان الحجر كان يأتي في الرأس فيخرق

قوله وخرج عبد المطلب يشتد في نسخة حاشية الجمل تفعل وهو الظاهر اه

بما له من الحرارة وشدة الوقع كلما مر به حتى يخرج من الدبر ويصير موضع تجويفه أسود لما له من النارية وقال ابن عباس هو القشر الخارج الذى يكون على حب الحنطة كهيئة الغلاف له وروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما فى جوفه فيبقى كقشر الحنطة اذا خرجت منه الحبة وعن عكرمة من أصابه جدره وهو أول جدرى ظهر وعن أبى سعيد الخدرى انه سئل عن الطير فقال حمام مكة منها وقيل جاءت عشية ثم صبحتهم واختلف فى تاريخ عام الفيل فقيل كان قبل مولد النبى صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة وقيل بثلاث وعشرين سنة والاكثرون على انه كان فى العام الذى ولد فيه النبى صلى الله عليه وسلم وعن عائشة قالت رأيت سائس الفيل وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس وقال عبد الملك بن مروان لعتاب بن أسيد أنت أكبر أم النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم أكبر منى وأنا أسن منه ولد صلى الله عليه وسلم عام الفيل وأنا أدركت سائسه وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس بل قيل لم يكن بمكة أحد الارأى قائد الفيل وسائسه أعميين يتكففان الناس لان عائشة مع صغر سنها رأتهما وقال ابن اسحق لما رد الله تعالى الحبشة عن مكة المشرفة عظمت العرب قريشا وقالوا أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم فكان ذلك نعمة من الله عليهم وقال بعض العلماء كانت قصة الفيل مما نعده من معجزاته صلى الله عليه وسلم وان كانت قبله لانها كانت توكيدا لامره وتمهيدا لشأنه وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفيل أعفاه الله أيام حياته من الخسف والمسخ حديث موضوع

(سورة قريش مكية)

فى قول الجمهور ومدنية فى قول الضحاك والكلبى وهى أربع آيات
وسبع عشرة كلمة وثلاثة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى له جميع الكمال (الرحمن) ذى النعم والافضال (الرحيم) الذى خص أولياءه بالقرب والاجلال وقوله تعالى (لايلاف قريش) فى متعلقه أوجه أحدها أنه ما فى السورة قبلها من قوله تعالى فجعلهم كعصف مأكول قال الزمخشرى وهذا بمنزلة التضمين فى الشعر وهو أن يتعلق معنى البيت بالذى قبله تعلقا لا يصح الا به وهما فى مصحف أبى سورة واحدة بلا فصل وعن عمر أنه قرأهما فى الثانية من صلاة المغرب وقرأ فى الاولى والتين اه والى هذا ذهب الاخفش وقال الرازى المشهور أنهما سورتان ولا يلزم من التعلق الاتحاد لان القرآن كسورة واحدة ثانيها أنه مضمر تقديره فعلنا ذلك وهو ابقاؤهم للايلاف وهو الفهم لبلدهم الذى نشأ عنه طمأنينتهم وهيبة الناس لهم وقيل تقديره اعجبوا لايلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وتركهم عبادة رب هذا البيت ثالثها أنه متعلق بقوله تعالى فليعبدوا أمرهم أن يعبدوه لاجل ايلافهم الرحلتين لانهما أظهر نعمة عليهم وهذا هو الذى صدر به الزمخشرى كلامه وفى هذا اشارة الى تمام قدرته سبحانه وانه اذا أراد شيأ يسر سببه لان التدبير كله له يخفض من يشاء وان عز

ويرفع

ويرفع من يشاء وان ذل وقريش هم ولد النضر بن كنانة ومن ولده النضر فهو قرشي ومن لم يلده النضر فليس بقرشي قال صلى الله عليه وسلم ان الله اصطفى كنانة من بني اسمعيل واصطفى من بني كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم وأخرج الحاكم وصححه البيهقي عن أم هانئ بنت أبي طالب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فضل الله قريشا بسبع خلال أني منهم وأن النبوة فيهم وأن الله نصرهم على الفيل وأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده غيرهم وان الحجابة والسقاية فيهم وأن الله انزل فيهم سورة من القرآن وسموا قريشا من القرش وهو التكسب والجمع يقال فلان يقرش لعياله ويقترش أي يكتسب وهم كانوا تجارا حراصا على جمع المال وقال أبو ريحانة سأل معاوية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لم سميت قريش قريشا قال لدابة تكون في البحر من أعظم دوابه تعبث بالسفن ولا تطاق الا بالنار يقال لها القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين الا أكلته وهي تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلى قال وهل تعرف العرب ذلك في أشعارها قال نعم فأنشده شعر الجمحي

وقريش هي التي تسكن البحـ * ـر بها سميت قريش قريشا
تأكل الغث والسمين فلا تتـ * ـرك فيه لذي الجناحين ريشا
هكذا في الكتاب حي قريش * يأكلون البلاد أكلا كميشا
ولهم آخر الزمان نبي * يكثر القتل فيهم والخموشا

وقيل هو من تقرش الرجل اذا تنزه عن مدانس الامور أو من تقارشت الرماح في الحرب اذا دخل بعضها في بعض وقوله تعالى (الافهم) بدل من الايلاف الاول وقرأ ابن عامر لالاف بغير ياء بعد الهمزة والباقون لايلاف بياء بعدها وأجمع الكل على اثبات الياء في الثاني وهو ايلافهم بالياء بعد الهمزة قال ابن عادل ومن غريب ما اتفق في هذين الحرفين ان القراء اختلفوا في سقوط الياء وثبوتها في الاول مع اتفاق المصاحف على اثباتها خطا واتفقوا على اثبات الياء في الثاني مع اتفاق المصاحف على سقوطها منها خطا وهذا أدل دليل على ان القراء متبعون الاثر والرواية لا مجرد الخط وقوله تعالى (رحلة الشتاء) منصوب بايلافهم مفعول به كما نصب يتيما باطعام وهي التي يرحلونها في زمنه الى اليمن لانها بلاد حارة ينالون منها متاجر الحبوب (والصيف) التي يرحلونها الى الشأم في زمنه لانها بلاد باردة ينالون فيها منافع الثمار وهم آمنون من سائر العرب لاجل عزهم بالحرم المعظم وبيت الله والناس يتخطفون من حولهم ولا يجترئ أحد عليهم والايلاف من قولك آلفت المكان أولفه ايلافا اذا بلغته فأنا مؤلف والاصل رحلتي الشتاء والصيف ولكنه أفرد ليشمل كل رحلة كما هو شأن المصادر وأسماء الاجناس وفي ذلك اشارة الى انهم يتمكنون من الرحلة الى أي بلاد أرادوا لشمول الامن لهم قال مالك الشتاء نصف السنة والصيف نصفها وقال قوم الزمان أربعة أقسام شتاء وربيع وصيف وخريف وقيل شتاء وصيف وقيظ وخريف قال القرطبي والذي قاله مالك أصح لان الله تعالى قسم الزمان قسمين ولم يجعل لهما ثالثا وروى عكرمة عن ابن

عباس رضى الله عنهما أنهم كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف وقال آخرون كانت لهم رحلتان فى كل عام للتجارة احداهما فى الشتاء الى اليمن لانها أدفأ * والاخرى فى الصيف الى الشأم وكان الحرم واديا جدبا لازرع فيه ولاضرع وكانت قريش تعيش بتجارتهم ورحلتهم ولولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة ولولا الامن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف وأول من سن لهم الرحلة هاشم بن عبد مناف وكانوا يقسمون ربحهم بين الغنى والفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم وفى ذلك يقول الشاعر

قل للذى طلب السماحة والندى * هلا مررت بآل عبد مناف
هلا مررت بهم تريد قراهم * منعوك من ضر ومن اتلاف
الرائشين وليس يوجد رائش * والقائلين هلم للاضياف
والخالطين فقيرهم بغنيهم * حتى يكون فقيرهم كالكافى
والقائلين بكل وعد صادق * والراحلين برحلة الايلاف
عمرو العلا هشم الثريد لقومه * ورجال مكة مسنتون عجاف
سفرين سنهما له ولقومه * سفر الشتاء ورحلة الاصياف

وتبع هاشما على ذلك اخوته فكان هاشم يؤالف الى الشأم وعبد شمس الى الحبشة والمطلب الى اليمن ونوفل الى فارس وكان تجار قريش يختلفون الى هذه الامصار بجاه هذه الاخوة أى بعهودهم التى أخذوها بالامان لهم من ملك كل ناحية من هذه النواحى * ولما كان هذا التدبير الهم من الله تعالى كافيا لهموم مهم الظاهرة بالغنى والباطنة بالامن وكان شكر المنعم واجبا قال تعالى (فليعبدوا) أى قريش على سبيل الوجوب شكرا على هذه النعمة خاصة ان لم يشكروه على جميع نعمه التى لاتحصى لانهم يدعون أنهم أشكر الناس للاحسان وأبعدهم عن الكفران (رب هذا البيت) أى الموجد له والمحسن الى أهله بحفظه من كل طاغ وباذلال الجبابرة له ليكمل احسانه اليهم وعطفه عليهم باكمال اعزازه لهم فى الدنيا والآخرة والمراد به الكعبة عبر عنها بالاشارة تعظيما لشأنها * ثم وصف نفسه الاقدس بما هو ثمرة الرحلتين ويظهر لزيادة شرف البيت بقوله تعالى (الذى أطعمهم) أى قريشا بحمل الميرة الى مكة بالرحلتين اطعاما مبتدأ (من جوع) أى عظيم فيه غيرهم من العرب أو كانوا هم فيه قبل ذلك لان بلدهم ليس بذى زرع فهم عرضة للفقر الذى ينشأ عنه الجوع فكفاهم ذلك وحده ولم يشركه أحد فى كفايتهم فليس من الشكر اشراكهم غيره معه فى عبادته ولامن البر بأبيهم ابراهيم عليه السلام الذى دعا لهم بالرزق بقوله عليه السلام وارزقهم من الثمرات ونهى أشد النهى عن عبادة الاصنام ولم يقل أشبعهم لانه ليس كلهم كان يشبع ولان من كان يشبع منهم طالب لا كثر مما هو عنده ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب (وآمنهم) أى تخصيصا لهم (من خوف) أى شديد جدا من أصحاب الفيل الذين أرادوا خراب البيت الذى به نظامهم ومما ينال من حولهم من التخطف بالقتل والنهب والغارات ومن الجذام بدعوة أبيهم ابراهيم عليه السلام

ومن الطاعون والدخان بتأمين النبي صلى الله عليه وسلم وعن ابن زيد كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضهم بعضا فأمنت قريش ذلك لمكان الحرم وقيل شق عليهم السفر في الشتاء والصيف فألقى الله تعالى في قلوب الحبشة أن يحملوا اليهم طعاما في السفن فحملوا فخافت قريش منهم وظنوا أنهم قدموا لحربهم فخرجوا اليهم متحرزين فاذا هم قد جلبوا اليهم الطعام وأعانوهم بالاقوات فكان أهل مكة يخرجون الى جدة بالابل والحمر فيشترون الطعام على مسيرة ليلتين وقيل ان قريشا لما كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف فاشتد القحط فقالوا يا محمد ادع الله لنا فانا مؤمنون فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخصبت تبالة وجرش من بلاد اليمن فحملوا الطعام الى مكة وأخصب أهلها وقال الضحاك والربيع في قوله تعالى وآمنهم من خوف اى من خوف الحبشة وقال علي وآمنهم من خوف أن تكون الخلافة الا فيهم قال الزمخشري ومن بدع التفاسير وآمنهم من خوف أن تكون الخلافة في غيرهم اهـ لكن ان ثبت ذلك عن علي كرم الله وجهه فليس كما قال وقيل كفاهم أخذ الايلاف من الملوك وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة لايلاف قريش أعطاه الله عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها حديث موضوع

﴿سورة الدين وتسمى سورة الماعون مكية﴾

في قول عطاء وجابر وأحد قولي ابن عباس رضي الله عنهما ومدنية في قول له آخر وهو قول قتادة وغيره وهي سبع آيات وخمس وعشرون كلمة ومائة وثلاثة وعشرون حرفا

(بسم الله) الذي له كل كمال (الرحمن) الذي عم جميع عباده بالنوال (الرحيم) الذي خص اولياءه بنعمة الافضال وقوله تعالى (أرأيت) استفهام معناه التعجب وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء ولورش أيضا ابدالها ألفا وأسقطها الكسائي قال الزمخشري وليس بالاختيار لان حذفها مختص بالمضارع ولم يصح عن العرب ريت ولكن الذي سهل من أمرها وقوع حرف الاستفهام في أول الكلام ونحوه

صاح هل ريت أو سمعت براع * رد في الضرع ماقرى في الحلاب

وحققها الباقون والمعنى أرأيت (الذي يكذب) أي يوقع التكذيب لمن يخبره كائنا من كان (بالدين) أي بالجزاء والحساب أي هل عرفته أم لم تعرفه (فذلك) بتقدير هو بعد الفاء أي البغيض البعيد المبعد من كل خير (الذي يدع) أي يدفع دفعا عظيما بغاية القسوة (اليتيم) ولا يحث على اكرامه لان الله تعالى نزع الرحمة من قلبه ولا ينزعها الا من شقي لانه لا حامل على الاحسان اليه الا الخوف من الله تعالى فكان التكذيب بجزائه سببا للغلظة عليه وقال قتادة يقهره ويظلمه فانهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار ويقولون انما يحوز المال من يطعن بالسنان ويضرب بالحسام وقال صلى الله عليه وسلم من ضم يتيما من المسلمين حتى يستغني فقد وجبت له

الجنة واختلف فيمن نزل ذلك فيه فقال مقاتل في العاصي بن وائل السهمي وقال السدي في الوليد بن المغيرة وقال الضحاك في عمرو بن عابد المخزومي وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في رجل من المنافقين وقيل في أبي جهل (ولا يحض) أي يحث نفسه ولا غيره (على طعام المسكين) أي بذله واطعامه اياه بل يمقته ولا يكرمه ولا يرحمه وقد تضمن هذا أن علامة التكذيب بالبعث ايذاء الضعيف والتهاون بالمعروف * ولما كان هذا حاله مع الخلائق أتبعه حاله مع الخالق بقوله تعالى (فويل) أي عذاب أو واد في جهنم (للمصلين الذين هم) أي بضمائرهم وخالص سرائرهم (عن صلاتهم) التي هي جديرة بأن تضاف اليهم لوجوبها عليهم وايجابها الاجل مصالحهم ومنافعهم بالتزكية وغيرها (ساهون) أي عريقون في الغفلة عنها وتضييعها وعدم المبالاة بها وقلة الالتفات اليها وروى البغوي بسنده أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية فقال هو اضاعة الوقت وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال هم المنافقون يتركون الصلاة اذا غابوا عن الناس ويصلونها في العلانية مع الناس اذا حضروا لقوله تعالى (الذين هم) أي بجملة سرائرهم (يراؤن) أي بصلاتهم وغيرها الناس لانهم يفعلون الخير ليراهم الناس لا لرجاء الثواب ولا لخوف العقاب من الله تعالى ولذلك يتركون الصلاة اذا غابوا عن الناس وقال ابراهيم هو الذي يلتفت في صلاته وقال قطرب هو الذي لا يقرأ ولا يذكر الله تعالى وقال ابن عباس رضي الله عنهما لو قال في صلاتهم ساهون لكانت في المؤمنين وقال عطاء الحمد لله الذي قال تعالى عن صلاتهم ساهون ولم يقل في صلاتهم فدل على أن الآية في المنافقين وقال قتادة ساه عنها لا يبالي صلى أم لم يصل وقال مجاهد غافلون عنها متهاونون بها وقال الحسن هو الذي ان صلاها صلاها رياء وان فاتته لم يندم وقيل هم الذين يسهون عنها قلة مبالاة بها حتى تفوتهم أو يخرج وقتها أو لا يصلونها كما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف ولكن ينقرونها نقرا من غير خشوع ولا اجتناب لما يكره فيها من العبث باللحية والثياب وكثرة التثاؤب والالتفات لا يدري الواحد منهم عن كم انصرف ولا ما قرأ من السورة وكما ترى صلاة أكثر من ترى من الذين عادتهم الرياء بأعمالهم ومنع حقوق أموالهم والمعنى ان هؤلاء أحق أن يكون سهوهم عن الصلاة التي هي عماد الدين والفارق بين الايمان والكفر والرياء الذي هو شعبة من الشرك ومنع الزكاة التي هي شقيقة الصلاة وقنطرة الاسلام علما على أنهم مكذبون بالدين وكم ترى من المتسمين بالاسلام بل بالعلم من هو منهم على هذه الصفة فيا مصيبتاه (فان قيل) كيف جعل المصلين قائما مقام ضمير الذي يكذب وهو واحد (أجيب) بأن معناه الجمع لان المراد به الجنس (فان قيل) أي فرق بين قوله تعالى عن صلاتهم وقولك في صلاتهم (أجيب) بأن معنى عن انهم ساهون عنها سهو ترك وقلة التفات اليها وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشياطين من المسلمين ومعنى في أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع له السهو في صلاته فضلا عن غيره ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم وعن أنس الحمد لله على أن لم يقل في صلاتهم وقد مرت

الاشارة الى بعض ذلك (فان قيل) ما معنى المراآة (أجيب) بأنها مفاعلة من الاراءة لان المرائى يرى الناس عمله وهم يرونه الثناء عليه والاعجاب به ولا يكون الرجل مرائيا باظهار العمل الصالح ان كان فريضة فمن حق الفرائض الاعلان بها وتشهيرها لقوله صلى الله عليه وسلم ولا غمة فى فرائض الله لانها أعلام الاسلام وشعائر الدين ولان تاركها يستحق الذم والمقت فوجب اماطة الهمة بالاظهار وان كان تطوعا فحقه أن يخفى لانه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه فان أظهره قاصدا للاقتداء به كان جميلا وانما الرياء أن يقصد بالاظهار أن تراه الاعين فتثنى عليه بالصلاح وعن بعضهم انه رأى رجلا فى المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها فقال ما أحسن هذا لو كان فى بيتك وانما قال هذا لانه توسم فيه الرياء والسمعة على أن اجتناب الرياء صعب الا على المرتاضين بالاخلاص ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء فى الليلة المظلمة على المسح الاسود ثم بين أن من هو بهذه الصفة يغلب عليه الشح بقوله تعالى (ويمنعون) أى على تجدد الاوقات (الماعون) أى حقوق الاموال والشئ اليسير من المنافع وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه الماعون الفأس والدلو والقدر وأشباه ذلك وهى رواية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال مجاهد الماعون أعلاها الزكاة المفروضة وأدناها عارية المتاع وعن على انها الزكاة وقال محمد بن كعب والكلبى الماعون المعروف كله الذى يتعاطاه الناس فيما بينهم وقال قطرب أصل الماعون من القلة تقول العرب ماله سعنة ولا معنة أى شئ قليل فسمى الزكاة والصدقة والمعروف ماعونا لانه قليل من كثير وقيل الماعون ما لا يحل منعه مثل الماء والملح والنار وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة أرأيت غفر له ان كان للزكاة مؤديا حديث موضوع

(سورة الكوثر وتسمى سورة النحر مكية)

فى قول ابن عباس رضى الله عنهما والكلبى ومقاتل ومدنية فى قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة وهى ثلاث آيات وعشر كلمات واثنان وأربعون حرفا

(بسم الله) الذى لا حد لفائض فضله (الرحمن) الذى شمل الخلائق بجوده فلا راد لامره (الرحيم) الذى خص حزبه بالاعتصام بحبله وقوله تعالى (انا) أى بما لنا من العظمة (أعطيناك) أى خولناك مع التمكين العظيم يا أشرف الخلق (الكوثر) أى نهرا فى الجنة هو حوضه صلى الله عليه وسلم ترد عليه أمته لما روى عن أنس أنه قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا اذ غفا اغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا ما أضحكك يا رسول الله قال أنزل على آنفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم انا أعطيناك الكوثر الى آخرها ثم قال أتدرون ما الكوثر قلنا الله ورسوله أعلم قال فانه نهر وعدنيه ربى خير كثير هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فأقول رب انه من أمتى فيقول ما تدرى ما أحدث بعدك وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدر

والياقوت تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلت الجنة فاذا أنا بنهر يجرى بياضه بياض اللبن وأحلى من العسل وحافتاه خيام الدر فضربت بيدى فاذا الثرى مسك أذفر فقلت لجبريل ماهذا قال الكوثر أعطاكه الله تعالى وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حوضى مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منها لايظمأ أبدا وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا فرطكم على الحوض وليرفعن الى رجال منكم حتى اذا أهويت اليهم لاناولهم اختلجوا دونى فأقول أى رب أصحابى فيقال انك لاتدرى ما أحدثوا بعدك وعن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن عرضه فقال من مقامى الى عمان وسئل عن شرابه فقال أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يرد على يوم القيامة رهط من أصحابى أو قال من أمتى فيجلون عن الحوض فأقول أى رب أصحابى فيقول انه لاعلم لك بما أحدثوا بعدك انهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى ولمسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ترد على أمتى الحوض وانا أذود الناس عنه كما يذود الرجل ابل الرجل عن ابله قالوا يانبى الله تعرفنا قال نعم لكم سيما ليست لاحد غيركم تردون على غرا محجلين من آثار الوضوء وليصدن عنى طائفة منكم فلا يصلون فأقول يارب هؤلاء من أصحابى فيجيبنى فيقول وهل تدرى ما أحدثوا بعدك وأحاديث الحوض كثيرة وفيما ذكرناه كفاية لأولى الالباب فنسأل الله تعالى أن يروينا منه نحن وأحبابنا ويدخلنا واياهم الجنة بغير حساب قال القاضى عياض أحاديث الحوض صحيحة والايمان به فرض والتصديق به من الايمان وقال ابن عادل وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة لايتأول ولايختلف فيه وحديثه متواتر النقل رواه خلائق من الصحابة اه وقيل الكوثر القرآن العظيم وقيل هو النبوة والكتاب والحكمة وقيل هو كثرة أتباعه وقيل الكوثر الخير الكثير الذى أعطاه الله تعالى اياه وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما الكوثر الخير الكثير قال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير ان ناسا يزعمون ان الكوثر نهر فى الجنة فقال سعيد النهر الذى فى الجنة من الخير الكثير الذى أعطاه الله تعالى اياه وأصل الكوثر فوعل من الكثرة والعرب تسمى كل شئ كثير فى العدد أو كثير القدر والخطر كوثرا قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر آب ابنك قالت آب بكوثر وقال الشاعر

وأنت كثير يا ابن مروان طيب * وكان أبوك ابن العقائل كوثرا

وقيل الكوثر الفضائل الكثيرة التى فضلها على جميع الخلائق *(تنبيه)* لامنافاة بين هذه الاقوال كلها فقد أعطيها النبى صلى الله عليه وسلم أعطى صلى الله عليه وسلم النبوة والحكمة والعلم والشفاعة والحوض المورود والمقام المحمود وكثرة الاتباع واظهاره على الاديان كلها والنصر على الاعداء وكثرة الفتوح فى زمنه وبعده الى يوم القيامة وأولى الاقاويل فى الكوثر وهو الذى

عليه جمهور العلماء انه نهر في الجنة * ولما كل له سبحانه من النعم ما لا يأتي عليه حصر ولا يناسب أدناه نعيم الدنيا بجملتها سبب عنه قوله تعالى آمرا باعلاء وجامع لمجامع الشكر (فصل) أي بقطع العلائق عن الخلائق بالوقوف بين يدي الله تعالى في حضرة المراقبة شكرا الاحسان المنعم خلافا للساهي عنها والمرائي فيها (لربك) أي المحسن اليك بأنواع النعم مراغما من شئت فلا سبيل لاحد عليك (وانحر) أي أنفق له الكوثر من المال على المحاويج خلافا لمن يدعهم ويمنعهم الماعون والنحر أفضل نفقات العرب لان الجزور الواحد يغني مائة مسكين واذا أطلق العرب المال انصرف الى الابل وقال محمد بن كعب ان ناسا كانوا يصلون لغير الله تعالى وينحرون لغير الله فأمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يصلي وينحر لله عز وجل وقال عكرمة وعطاء وقتادة فصل لربك صلاة العيد يوم النحر وانحر نسكك واقتصر على هذا الجلال المحلي وقال سعيد بن جبير ومجاهد فصل الصلاة المفروضة بجمع أي مزدلفة وانحر البدن بمنى وعن ابن عباس رضي الله عنهما وضع اليمين على الشمال في الصلاة عند النحر وعن علي أن معناه أن يرفع يديه في التكبير الى نحره وقال الكلبي استقبل القبلة بنحرك وعن عطاء أمره أن يستوي بين السجدتين جالسا حتى يبدو نحره (ان شانئك) أي مبغضك والشانئ المبغض يقال شنأه يشنؤه أي أبغضه (هو الابتر) أي المنقطع عن كل خير وأما أنت فقد أعطيت ما لا غاية لكثرته من خير الدارين الذي لم يعطه أحد غيرك فمعطي ذلك كله هو الله رب العالمين فاجتمعت لك العطيتان السنيتان اصابة أشرف عطاء وأوفره من أكرم معط وأعظم منعم أو المنقطع العقب لا أنت لان كل من يولد الى يوم القيامة من المؤمنين فهم أعقابك وأولادك وذكرك مرفوع على المنابر والمنائر وعلى لسان كل عالم وذاكر الى آخر الدهر يبدأ بذكر الله تعالى ويثنى بذكرك ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف فمثلك لا يقال له أبتر انما الابتر هو شانئك المنسي في الدنيا والآخرة وقال الرازي هذه السورة كالمقابلة للتي قبلها فانه ذكر في الاولى البخل وترك الصلاة والرياء ومنع الماعون وذكرهنا في مقابلة البخل انا أعطيناك الكوثر وفي مقابلة الصلاة فصل أي دم على الصلاة وفي مقابلة الرياء لربك أي لرضاه خالصا وفي مقابلة منع الماعون وانحر أي تصدق بلحم الاضاحي ثم ختم السورة بقوله تعالى ان شانئك هو الابتر أي ان المنافق الذي أتى بتلك الافعال القبيحة سيموت ولا يبقى له أثر وأما أنت فيبقى لك في الدنيا الذكر الجميل وفي الآخرة الثواب الجزيل واختلف المفسرون في الشانئ فقيل هو العاص بن وائل وكانت العرب تسمي من كان له بنون وبنات ثم مات البنون وبقي البنات أبتر فقيل ان العاص وقف مع النبي صلى الله عليه وسلم يكلمه فقال له جمع من صناديد قريش مع من كنت واقفا فقال مع ذلك الابتر وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان أهل الجاهلية اذا مات ابن الرجل قالوا بتر فلان فلما توفي عبد الله ابن النبي صلى الله عليه وسلم خرج أبو جهل الى أصحابه فقال بتر محمد فنزلت وقال السدي ان قريشا كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده قد بتر فلان فلما مات لرسول الله صلى الله عليه وسلم القاسم بمكة وابراهيم بالمدينة قالوا بتر محمد

فليس له من يقوم بأمره من بعده فنزلت وقيل لما أوحى الله تعالى الى النبي صلى الله عليه وسلم دعا قريشا الى الايمان قالوا ابترمنا محمد أى خالفنا وانقطع عنا فنزلت * (تنبيه) * قال أهل العلم قد احتوت هذه السورة على قصرها على معان بليغة وأساليب بديعة منها دلالة استهلال السورة على انه تعالى أعطاه كثيرا من كثير ومنها اسناد الفعل الى المتكلم المعظم نفسه ومنها ايراده بصيغة الماضي تحقيقا لوقوعه كما في قوله تعالى أتى أمر الله ومنها تأكيد الجملة بان ومنها بناء الفعل على الاسم ليفيد الاسناد مرتين ومنها الاتيان بصيغة تدل على مبالغة الكثرة ومنها حذف الموصوف بالكوثر لان في حذفه من فرط الشياع والابهام ماليس في اثباته ومنها تعريفه بأل الجنسية الدالة على الاستغراق ومنها فاء التعقيب الدالة على السبب فان الانعام سبب للشكر والعبادة ومنها التعريض بمن كانت صلاته ونحره لغير الله تعالى ومنها ان الامر بالصلاة اشارة الى الاعمال الدينية التى الصلاة قوامها وأفضلها والامر بالنحر اشارة الى الاعمال البدنية التى النحر أسناها ومنها حذف متعلق انحر اذ التقدير فصل لربك وانحر له ومنها مراعاة السجع فانه من صناعة البديع العارى عن التكلف ومنها قوله تعالى لربك في الاتيان بهذه الصفة دون سائر صفاته الحسنى دلالة على أنه المربى له والمصلح بنعمه فلا يلتمس كل خير الا منه ومنها الالتفات من ضمير المتكلم الى الغائب في قوله تعالى لربك ومنها الامر بترك الاهتمام بشانئه للاستئناف وجعله خاتمة للاعراض عن الشانئ ولم يسمه ليشمل كل من اتصف بهذه الصفة القبيحة ولو كان المراد شخصا معينا لعينه الله تعالى ومنها التنبيه بذكر هذه الصفة القبيحة على أنه لم يتصف الا بمجرد قيام الصفة به من غير أن تؤثر فيمن يشنؤه شيأ البتة لان من يشنأ شخصا قد يؤثر فيه شنؤه شيأ ومنها تأكيد الجملة بان المؤذنة بتأكيد الخبر ولذلك يتلقى بها القسم وتقدير القسم يصلح هنا ومنها الاتيان بضمير الفصل المؤذن بالاختصاص والتأكيد ان جعلنا هو فصلا وان جعلناه مبتدأ فكذلك يفيد التأكيد اذ يصير الاسناد مرتين ومنها تعريف الابتر بال المؤذنة بالخصوصية بهذه الصفة كانه قيل الكامل في هذه الصفة ومنها اقباله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بالخطاب من أول السورة الى آخرها وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكوثر سقاه الله من كل نهر في الجنة ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد في يوم النحر أو يقربونه حديث موضوع

(سورة الكافرون مكية)

في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة ومدنية في أحد قولى ابن عباس وقتادة والضحاك وتسمى أيضا سورة المعابدة والاخلاص لانها في اخلاص العبادة والدين كما أن قل هو الله أحد في اخلاص التوحيد واجتماع النفاق فيهما محال لمن اعتقدهما وعمل بهما ويقال لها ولسورة الاخلاص المقشقشتان أى المبرئتان من النفاق قال الشاعر

أعيذك بالمقشقشتين مما * أحاذره ومن نظر العيون

وهى ست آيات وستة وعشرون كلمة وأربعة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى لايستطيع أحد أن يقدره حق قدره (الرحمن) الذى عم برحمته من أوجب عليهم شكره (الرحيم) الذى وفق أهل وده فالتزموا نهيه وأمره وقوله تعالى (قل) أى يا أشرف الخلق (يا أيها الكافرون) الى آخر السورة نزل فى رهط من قريش منهم الحرث بن قيس السهمى والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة والاسود بن عبد يغوث والاسود بن المطلب بن أسد وأمية ابن خلف قالوا يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك ونشركك فى أمرنا كله تعبد آلهتنا سنة ونعبد الهك سنة فان كان الذى جئت به خيرا كنا قد شركناك فيه وأخذنا حظا منه وان كان الذى بأيدينا خيرا كنت قد شركتنا فى أمرنا وأخذت بحظك منه فقال معاذ الله أن نشرك به غيره قالوا فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد الهك قال حتى انظر ما يأتى الى من ربى فأنزل الله تعالى هذه السورة فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رؤسهم ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السورة فأيسوا منه عند ذلك وآذوه وأصحابه وفى مناداتهم بهذا الوصف الذى يسترذلونه فى بلدهم ومحل عزهم وحميتهم ايذان بأنه محروس منهم علم من أعلام النبوة (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى فى التحريم يا أيها الذين كفروا وههنا قال قل يا أيها الكافرون (أجيب) بأن فى سورة التحريم انما يقال لهم يوم القيامة وثم لا يكون رسولا اليهم فأزال الواسطة فيكونون فى ذلك الوقت مطيعين لا كافرين فلذلك ذكره تعالى بلفظ الماضى وأما هنا فكانوا موصوفين بالكفر وكان الرسول رسولا اليهم فقال تعالى قل يا أيها الكافرون أى الذى قد حكم بثباتهم على الكفرة فلا انفكاك لهم عنه فستروا ما تدل عليه عقولهم من الاعتقاد الحق لو جرد وها من ادناس الحظ وهم كفرة مخصوصون وهم من حكم بموته على الكفر بما طابقه من الواقع ودل عليه التعبير بالوصف دون الفعل واستغرق اللام كل من كان على هذا الوصف فى كل مكان وكل زمان والتعبير بالجمع الذى هو أصل فى القلة وقد يستعار للكثرة اشارة الى البشارة بقلة المطبوع على قلبه من العرب المخاطبين بهذا فى حياته صلى الله عليه وسلم وقال الله تعالى له قل يا أيها الكافرون لانه صلى الله عليه وسلم كان مأمورا بالرفق واللين فى جميع الامور كما قال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك وقال تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم وقال تعالى بالمؤمنين رؤف رحيم ثم كان مأمورا بأن يدعوهم الى الله تعالى بالوجه الاحسن فلذا خاطبهم بيا أيها فكانوا يقولون كيف يليق هذا التغليظ بذلك الرفق فأجاب بأنى مأمور بهذا الكلام لا أنى ذكرته من عند نفسى * ولما كان القصد اعلامهم بالبراءة منهم من كل وجه وأنه لا يبالى بهم بوجه لانه محفوظ منهم قال (لا أعبد) أى الآن (ما تعبدون) من دون الله من المعبودات الظاهرة والباطنة بوجه من وجوه العبادات فى سر ولا علن لانه لا يصلح للعبادة بوجه (ولا أنتم عابدون) أى الآن (ما أعبد) وهو الله تعالى وحده (ولا أنا عابد) أى فى الاستقبال (ما عبدتم) من دون الله تعالى (ولا أنتم عابدون) أى فى الاستقبال (ما أعبد) وهو الله وحده لا شريك له وهذا خطاب لمن علم الله تعالى

منهم أنهم لا يؤمنون واطلاق ما على الله تعالى على جهة المقابلة وبهذا زال التكرار ووجه التكرار كما قال أكثر أهل المعاني هو ان القرآن نزل بلسان العرب وعلى مجاري خطابهم ومن مذاهبهم التكرار لارادة التأكيد والافهام كما أن من مذاهبهم الاختصار لارادة التخفيف والايجاز فالقائل بالتأكيد يقول قوله تعالى ولا أنا عابد ما عبدتم تأكيد لقوله تعالى لا أعبد ما تعبدون وقوله تعالى ولا أنتم عابدون ما أعبد ثانيا تأكيد لقوله تعالى ولا أنتم عابدون ما أعبد ومثله فبأي آلاء ربكما تكذبان وويل يومئذ للمكذبين في سورتيهما وكلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون وفي الحديث فلا اذن ثم لا اذن انما فاطمة بضعة مني وفائدة التأكيد هنا قطع أطماع الكفار وتحقيق الاخبار وهو اقامتهم على الكفر وأنهم لا يسلمون أبدا وعلى الاول قد تقيدت كل جملة بزمان غير الزمان الآخر قال ابن عادل وفيه نظر كيف يقيد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفي عبادته لما يعبدون بزمان وهذا مما لا يصح اهـ وقد يرد هذا بأنه صلى الله عليه وسلم نفى في الجملة الاولى الحال وفي الثانية الاستقبال وقول البيضاوي فان لا لا تدخل الا على مضارع بمعنى الاستقبال كما ان ما لا تدخل الا على المضارع بمعنى الحال جرى على الغالب فيهما ولما أيس منهم صلى الله عليه وسلم قال (لكم دينكم) أي الذي أنتم عليه من الشرك (ولي دين) أي الذي أنا عليه من التوحيد وهو دين الاسلام وفي هذا معنى التهديد كقوله تعالى لنا أعمالنا ولكم أعمالكم أي ان رضيتم بدينكم فقد رضينا بديننا وهذا كما قال الجلال المحلي قبل أن يؤمر بالحرب وقيل السورة كلها منسوخة وقيل ما نسخ منها شيء لانها خبر ومعنى لكم دينكم أي جزاء دينكم ولي دين أي جزاء ديني وسمى دينهم دينا لانهم اعتقدوه وقيل المعنى لكم جزاؤكم ولي جزائي لان الدين الجزاء وحذفت ياء الاضافة من ديني للتبعية وقفا ووصلا وقرأ نافع وهشام وحفص والبزي بخلاف عنه بفتح الياء والباقون باسكانها *(فائدة)* قال الرازي جرت العادة بأن الناس يتمثلون بهذه الآية عند المتاركة وذلك غير جائز لانه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به بل ليتدبر فيه فيعمل بموجبه وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكافرين فكأنما قرأ ربع القرآن وتباعدت منه مردة الشياطين وبرئ من الشرك ويعافى من الفزع الاكبر حديث موضوع الا الجملة الاولى منه فرواها الترمذي

(سورة النصر مدنية)

بالاجماع وتسمى سورة التوديع وهي ثلاث آيات وستة عشرة كلمة وتسعة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذي له الامر كله فهو العليم الحكيم (الرحمن) الذي أرسلك رحمة من الله العلي العظيم (الرحيم) الذي خص أهل وده بفضله العميم وقوله تعالى (اذا) منصوب بسبح (جاء نصر الله) أي الملك الاعظم الذي لا مثل له ولا أمر لاحد معه باظهاره اياك على أعدائك ومعنى جاء استقر وثبت في المستقبل بمجيء وقته المضروب له في الازل وزاد في تعظيمه بالاضافة ثم بكونها

الى اسم الذات وقرأ حمزة وابن ذكوان بامالة الالف بعد الجيم محضة والباقون بالفتح والاعلام به قبل كونه من اعلام النبوّة روى أنها نزلت فى أيام التشريق بمنى فى حجة الوداع (والفتح) أى فتح مكة وهو الفتح الذى يقال له فتح الفتوح وقصته مشهورة فى البغوى وغيره فلا نطيل بذكرها وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف من المهاجرين والانصار وطوائف العرب وأقام بها خمس عشرة ليلة ثم خرج الى هوازن وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ثم قال يا أهل مكة ما ترون انى فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ثم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الله تعالى قد أمكنه من رقابهم عنوة وكانوا له فيأ فلذلك سمى أهل مكة الطلقاء ثم بايعوه على الاسلام فى دين الله تعالى فى ملة الاسلام التى لا دين له يضاف اليه غيرها ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وقيل المراد جنس نصر الله تعالى المؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم (فان قيل) ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف عليه (أجيب) بأن النصر الاعانة والاظهار على العدوّ ومنه نصر الله تعالى الارض أغاثها قال الشاعر

اذا انسلخ الشهر الحرام فودّعى * بلاد تميم وانصرى آل عامر

وروى اذا دخل الشهر الحرام فجاوزى * بلاد تميم وانصرى أرض عامر

والفتح فتح البلاد وقال الرازى الفرق بين النصر والفتح أن الفتح هو الاعانة على تحصيل المطلوب الذى كان متعلقا به والنصر كالسبب للفتح فلهذا بدأ بذكر النصر وعطف الفتح عليه (فان قيل) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان دائما منصورا بالدلائل والمعجزات فما المعنى بتخصيص لفظ النصر بفتح مكة (أجيب) بأن المراد من هذا النصر هو النصر الموافق للطبع (فان قيل) النصر لا يكون الا من الله تعالى قال الله تعالى وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم فما فائدة التقييد بنصر الله (أجيب) بأن معناه نصر لا يليق الا بالله تعالى كما يقال هذا صنعة زيد اذا كان مشهورا باحكام الصنعة والمقصود منه تعظيم حال تلك الصنعة فكذا ههنا (فان قيل) الذين أعانوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة هم أصحابه من المهاجرين والانصار ثم انه تعالى سمى نصرتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم نصر الله فما السبب فى ذلك (أجيب) بأن النصر وان كان على يد الصحابة لكن لا بدّ له من داع وباعث وهو من الله تعالى (فان قيل) فعلى هذا الجواب يكون فعل العبد مقدّما على فعل الله تعالى وهذا بخلاف النصر لانه تعالى قال ان تنصروا الله ينصركم فجعل نصره مقدّما على نصره لنا (أجيب) بأنه لا امتناع فى أن يكون فعل العبد سببا لفعل آخر يصدر عن الله تعالى فان أسباب الحوادث ومسبباتها على ترتيب عجيب تعجز عن ادراكه العقول البشرية * ولما عبر عن المعنى بالمجئ عبر عن المرئى بالرؤية فقال تعالى (ورأيت) أى ببصرك (الناس) أى العرب الذين كانوا احقر ين عند جميع الامم فصاروا بك هم الناس كما دلت عليه لام

الكمال وصار سائر أهل الارض لهم اتباعا وبالنسبة اليهم رعاعا حال كونهم (يدخلون) شيأ فشيأ متجددا دخولهم مستمرا (في دين الله) أى شرع من لم تزل كلمته هى العليا (أفواجا) أى جماعات كثيفة كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعدما كانوا يدخلون فيه واحدا واحدا واثنين اثنين وعن جابر بن عبد الله أنه بكى ذات يوم فقيل له فى ذلك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دخل الناس فى دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا وقال عكرمة ومقاتل أراد بالناس أهل اليمن وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة انسان مؤمنين طائعين بعضهم يؤذنون وبعضهم يقرؤن القرآن وبعضهم يهللون فسر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك قال أبو هريرة لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أكبر جاء نصر الله والفتح وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم الايمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية وقال أجد نفس ربكم من قبل اليمن وفى هذا تأويلات أحدها انه الفرج لتتابع اسلامهم أفواجا الثانى ان الله تعالى نفس الكرب من نبيه صلى الله عليه وسلم بأهل اليمن وهم الانصار وعن الحسن لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا أما اذ ظفر بأهل الحرم فليس به يدان وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ومن كل من أرادهم فكانوا يدخلون فى الاسلام أفواجا من غير قتال أمة بعد أمة قال الضحاك والامة أربعون رجلا *(تنبيه)* دين الله تعالى هو الاسلام لقوله تعالى ان الدين عند الله الاسلام وقال تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه واضافة الدين الى الاسم الدال على الالهية اشارة الى أنه يجب ان يعبد لكونه الها وللدين اسماء أخر منها الصراط قال تعالى صراط الله ومنها النور يريدون ليطفؤا نور الله ومنها الهدى قال تعالى هدى الله يهدى به من يشاء ومنها العروة الوثقى قال تعالى ومن يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ومنها الحبل المتين قال تعالى واعتصموا بحبل الله ومنها صبغة الله ومنها فطرة الله *(تنبيه)* جمهور الفقهاء وأكثر المتكلمين على أن ايمان المقلد صحيح واحتجوا بهذه الآية قالوا ان الله تعالى حكم بصحة ايمان أولئك الافواج وجعله من أعظم المنن على نبيه صلى الله عليه وسلم فلو لم يكن ايمانهم صحيحا لما ذكره فى هذا المعرض ثم انا نعلم قطعا انهم ما كانوا يعرفون حدوث الاجسام بالدليل ولا اثبات كونه تعالى عالما بجميع المعلومات التى لا نهاية لها ولا اثبات الصفات والتنزيهات بالدليل والعلم بأن أولئك الاعراب ما كانوا عالمين بهذه الدقائق ضرورى فعلمنا ان ايمان المقلد صحيح (فان قيل) انهم كانوا عالمين بأصول دلائل هذه المسائل لان أصول هذه الدلائل ظاهرة بل كانوا جاهلين بالتفاصيل (أجيب) بأن الدليل لا يقبل الزيادة والنقصان فان الدليل اذا كان مثلا من عشر مقدمات فمن علم تسعة منها وكان فى المقدمة العاشرة مقلدا كان فى النتيجة مقلدا لا محالة * ولما كمل الدين أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يشتغل بنفسه فقال عز من قائل (فسبح) أى نزه بقولك وفعلك بالصلاة وغيرها تسبيحا ملتبسا (بحمد ربك) أى الذى أنجزلك الوعد باكمال الدين وقمع المعتدين المحسن اليك بجميع ذلك لان هذا كله لكرامتك والا فهو عزيز

حمد على كل حال تعجبا لتيسير الله تعالى لهذا الفتح الذي لم يخطر ببال أحد حامدا له عليه أو فصل له حامدا على نعمه قاله ابن عباس روى أنه صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة بدأ بالسجود فدخل الكعبة وصلى ثمان ركعات (واستغفره) أي اطلب غفرانه لتقتدي بك أمتك في المواظبة على الامان الثاني فان الامان الاول الذي هو وجودك بين أظهرهم قد دنا رجوعه الى معدنه في الرفيق الاعلى والمحل الاقدس وفي ذلك اشارة الى أنه لا يقدر أحد أن يقدر الله تعالى حق قدره كما أشار الى ذلك الاستغفار عقب الصلاة التي هي أعظم العبادات وفي الصحيحين عن عائشة أنها قالت ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه سورة اذا جاء نصر الله والفتح الا يقول أستغفر الله وأتوب اليه قال فاني أمرت بها ثم قرأ اذا جاء نصر الله والفتح الى آخرها وقال عكرمة لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قط أشد اجتهادا في أمور الآخرة ما كان عند نزولها وقال مقاتل لما نزلت قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه وفيهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص والعباس ففرحوا واستبشروا وبكى العباس فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما يبكيك يا عم قال نعيت اليك نفسك قال انه كما قلت فعاش بعدها ستون يوما ما رؤي فيها ضاحكا مستبشرا وقيل نزلت في منى بعد أيام التشريق في حجة الوداع فبكى عمر والعباس فقيل لهما هذا يوم فرح فقالا بل فيه نعي النبي صلى الله عليه وسلم وعن ابن عمر نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع ثم نزل اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي فعاش صلى الله عليه وسلم بعدها ثمانين يوما ثم نزلت آية الكلالة فعاش بعدها خمسين يوما ثم نزلت لقد جاءكم رسول من أنفسكم فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوما ثم نزل واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فعاش بعدها أحدا وعشرين يوما وقال مقاتل سبعة أيام وقيل غير ذلك وقال الرازي اتفق الصحابة على ان هذه السورة دلت على نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك لوجوه أحدها انهم عرفوا ذلك لما خطب صلى الله عليه وسلم عقب السورة وذكر التخيير وهو قوله صلى الله عليه وسلم في خطبته لما نزلت هذه السورة ان عبدا خيره الله بين الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء الله فقال أبو بكر رضي الله عنه فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا ثانيها انه لما ذكر حصول النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجا دل ذلك على حصول الكمال والتمام وذلك يستعقبه الزوال كما قيل

اذا تم أمر بدا نقصه * توقع زوالا اذا قيل تم

ثالثها انه تعالى أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقا واشتغاله بذلك يمنعه من الاشتغال بأمر الامة فكان هذا كالتنبيه على ان أمر التبليغ قد تم وكمل وذلك يقتضي انقضاء الاجل اذ لو بقي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لكان كالمعزول من الرسالة وذلك غير جائز وعن ابن عباس ان عمر كان يدنيه ويأذن له مع أهل بدر فقال عبد الرحمن أتأذن لهذا الفتى معنا وفي أبنائنا من هو مثله فقال انه من قد علمتم قال ابن عباس فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم فسألهم عن قول الله تعالى اذا جاء نصر الله والفتح ولا أراه سألهم الا من أجلي فقال بعضهم أمر الله

تعالى نبيه اذا فتح عليه ان يستغفره و يتوب اليه فقلت ليس كذلك ولكن نعيت اليه نفسه فقال عمر ما أعلم منها الا مثل ما تعلم ثم قال كيف تلوموني عليه بعد ما ترون وروى أنه صلى الله عليه وسلم دعا فاطمة رضى الله عنها فقال يا بنتاه انى نعيت الى نفسى فبكت فقال لا تبكى فانك أول أهلى لحوقا بى وعن عائشة كان صلى الله عليه وسلم يكثر قبل موته ان يقول سبحانك اللهمّ و بحمدك أستغفرك وأتوب اليك وعنها أيضا ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت اذا جاء نصر الله والفتح الا يقول فيها سبحانك اللهمّ وبحمدك اللهمّ اغفرلى وقالت أم سلمة رضى الله عنها كان النبىّ صلى الله عليه وسلم آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يجىء ولا يذهب الا قال سبحان الله و بحمده أستغفر الله وأتوب اليه قال فانى أمرت بها ثم قرأ اذا جاء نصر الله والفتح الى آخرها وقيل استغفره هضما للنفس واستصغارا للعمل واستدراكا لما فرط منك بالالتفات الى غيره وعنه عليه الصلاة والسلام انى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة وقيل استغفر لامتك وتقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار على طريق النزول من الخالق الى الخلق كما قيل ما رأيت شيأ الا ورأيت الله قبله * ولما أمره الله تعالى بالتسبيح والاستغفار أرشده الى التوبة بقوله تعالى (انه) أى المحسن اليك بالنصر والفتح وغير ذلك مما لا يدخل تحت الحصر (كان) أى ولم يزل (توابا) أى رجاعا بمن ذهب به الشيطان من أهل رحمته فهو الذى رجع بأنصارك عما كانوا عليه من الاجتماع على الكفر والاختلاف والعداوات فأيدك الله تعالى بدخولهم فى الدين شيأ فشيأ الى ان دخلت مكة بعشرة آلاف وهو أيضا يرجعك الى الحالة التى يزداد بها ظهورك وعظمتك فى الرفيق الاعلى قال الله تعالى وللآخرة خير لك من الاولى فتفوز بتلك السعادات العالية وعن ابن مسعود ان هذه السورة تسمى سورة التوديع قال قتادة ومقاتل عاش النبىّ صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة سنتين وهذا بناء على انها نزلت قبل فتح مكة وهو قول الاكثر فان الفتح كان فى سنة ثمان وأما من قال عاش دون ذلك كما مر فبناء على انها نزلت بمنى فى حجة الوداع كما مر أيضا *(تنبيه)* فى الآية سؤالات أحدها ان قوله تعالى كان توابا يدل على الماضى وحاجتنا الى قبوله فى المستقبل ثانيها هلا قال غفارا كما قال فى سورة نوح عليه السلام ثالثها انه قال تعالى نصر الله وقال تعالى فى دين الله وقال تعالى بحمد ربك ولم يقل بحمد الله (وأجيب) عن الاول بوجوه أحدها أن هذا أبلغ كأنه يقول انى تبت على من هو أقبح فعلا منكم كاليهود فانهم بعد ظهور المعجزات العظيمة كفلق البحر ونتق الجبل ونزول المنّ والسلوى عصوا ربهم وأتوا بالقبائح ولما تابوا اقبلت توبتهم فاذا كنت قابلا لتوبة أولئك وهم دونكم أفلا أقبل توبتكم وأنتم خير أمة أخرجت للناس ثانيها انى شرعت فى توبة العصاة والشروع ملزم على قول النعمان فكيف فى كرم الرحمن ثالثها كنت توابا قبل أمركم بالاستغفار أفلا أقبل وقد أمرتكم بالاستغفار رابعها كأنه أشار الى تخفيف جناياتهم أى لستم أول من جنى وتاب والمعصية اذا عمت خفت خامسها كأنه نظير ما يقال لقد أحسن الله اليك فيما مضى كذلك يحسن اليك فيما بقى (وأجيب) عن الثانى

بوجهين

بوجهين أحدهما انه خص هذه الامة بزيادة الشرف لانه لا يقال فى صفات العبد غفار ويقال تواب اذا كان آتيا بالتوبة فيقول تعالى كنت لى سميا من أول الامر أنت مؤمن وأنا مؤمن وان كان المعنى مختلفا فتب حتى تصير سميالى فى آخر الامر وأنت تواب وأنا تواب ثم التواب فى حق الله تعالى انه يقبل التوبة كثيرا فيجب على العبد أن يكون اتيانه بالتوبة كثيرا ثانيهما انه تعالى انما قال توابا لان القائل قد يقول أستغفر الله وليس بتائب كقوله عليه الصلاة والسلام المستغفر بلسانه المصر بقلبه كالمستهزئ بربه (فان قيل) قد يقول أتوب وليس بتائب (أجيب) بأن ذا يكون كاذبا لان التوبة اسم للرجوع والندم بخلاف الاستغفار فانه لا يكون كاذبا فيه فصار تقدير الكلام واستغفره بالتوبة وفيه تنبيه على أن خواتيم الاعمال يجب أن تكون بالتوبة والاستغفار فكذا خواتيم الاعمار (وأجيب) عن الثالث بأنه تعالى راعى العدل فذكر اسم الذات مرتين وذكر اسم الفعل مرتين أحدهما الرب والثانى التواب ولما كانت التربية تحصل أولا والتوبة آخرا لا جرم ذكر اسم الرب أولا واسم التوبة آخرا فنسأل الله تعالى من فضله وكرمه ان يمن علينا بتوبة نصوح لا تنكث بعدها أبدا فانه كريم رحيم وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة اذا جاء نصر الله أعطى من الاجر كمن شهد مع محمد يوم فتح مكة حديث موضوع

(سورة تبت مكية)

وهى خمس آيات وثلاث وعشرون كلمة وسبعة وسبعون حرفا

(بسم الله) المتكبر الجبار المضل الهاد (الرحمن) الذى عم خلقه بنعمه بعد الاكرام بالايجاد (الرحيم) الذى خص بتوفيقه أهل الوداد وقوله تعالى (تبت يدا أبى لهب) دعاء عليه وسبب نزول ذلك ماروى عن ابن عباس أنه قال لما نزل قوله تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين صعد صلى الله عليه وسلم الصفا وجعل ينادى يا بنى فهر يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا عنده فجعل الرجل اذا لم يستطع أرسل رسولا لينظر ماهو فجاء أبو لهب وقريش فقال أرأيتم لو أخبرتكم ان العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقون قالوا بلى قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب تبالك لهذا دعوتنا جميعا فنزلت وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم خرج الى البطحاء فصعد الجبل ونادى ياصباحاه فاجتمعت اليه قريش وذكر نحوه وفى رواية فصعد الصفا فهتف ياصباحاه فقالوا من هذا الذى يهتف فقالوا محمد فاجتمعوا اليه فقال صلى الله عليه وسلم أرأيتم لو أخبرتكم ان خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقى قالوا ماجربنا عليك كذبا قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب تبالك أما جمعتنا الا لهذا فنزلت وعن أبى زيد ان أبا لهب أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ماذا أعطى ان آمنت بك يا محمد فقال صلى الله عليه وسلم كما يعطى المسلمون فقال مالى عليهم فضل فقال صلى الله عليه وسلم وأى شئ تبتغى قال تبا لهذا من دين أن أكون وهؤلاء سواء فنزلت ومعنى تبت قال ابن عباس خابت وقال قتادة خسرت وقال عطاء ضلت وقال ابن جبير هلكت والتباب الهلاك ومنه قولهم

اشابة أم تابة أي هالكة من الهرم والتحجيز والمعنى هلكت يداه لانه فيما يروى أخذ حجرا ليرمى به النبي صلى الله عليه وسلم وقيل رماه به فأدمى عقبه فلهذا ذكرت اليد وان كان المراد جملة البدن فهو كقولهم خسرت يده وكسبت يده فأضيفت الافعال الى اليد وذلك على عادة العرب في التعبير ببعض الشئ عن كله وجميعه أو عبر باليدين لان الغالب ان الاعمال تزاول بهما وقال عيان بن رياب صفرت من كل خير حكى الاصمعي عن أبي عمرو بن العلاء انه لما قتل عثمان سمع الناس هاتفا يقول لقد خلوك وانصرفوا * فما آبوا ولا رجعوا

ولم يوفوا نذورهم * فتبا للذي صنعوا

وقيل المراد باليدين دينه ودنياه أو أولاه وعقباه أو المراد بأحدهما جر المنفعة وبالاخرى دفع المضرة أو لان اليمين سلاح واليسرى جنة وأبو لهب هو ابن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم واسمه عبد العزى (فان قيل) لماذا كنى بذلك ولم يكن له ولد اسمه لهب وأيضا فالتكنية من باب التعظيم (أجيب) عن الاول بأن الكنية قد تكون اسما كما سمي أبو سفيان وأبو طالب ونحو ذلك فان هؤلاء أسماؤهم كناهم أو لتلهب وجنتيه وكان مشرق الوجه أحمره (وأجيب) عن الثاني بوجوه أحدها أنه لما كان اسما خرج عن افادة التعظيم ثانيها ان اسمه كان عبد العزى كما مر فعدل عنه الى كنيته لقبح اسمه لأن الله تعالى لم يضف العبودية في كتابه الى صنم ثالثها انه لما كان من أهل النار ومآله الى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته فكان جديرا بان يذكر بها كقولهم أبو الخير وأبو الشر لصدورهما منه أو لان الكنية كانت أغلب من الاسم أو لانها أنقص منه ولذلك ذكر الانبياء عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم دون كناهم وقال الزمخشري فان قلت لما كناه والكنية تكرمة ثم ذكر ثلاثة أجوبة اما الشهرته بكنيته واما لقبح اسمه كما تقدم واما لانه لما كان من أهل النار ومآله الى نار ذات لهب وافقت حالته كنيته اه وهذا يقتضي ان الكنية أشرف من اللقب لا أنقص وهو عكس قول تقدم وقرأ ابن كثير باسكان الهاء والباقون بفتحها وهما لغتان بمعنى نحو النهر والنهر وقوله تعالى (وتب) خبر كما يقال أهلكه الله وقد هلك فالاول أخرج مخرج الدعاء عليه والثاني أخرج مخرج الخبر فتحقق به ما أريد من الاسناد الى اليدين من الكناية عن الهلاك الذي لا بقاء بعده وقيل المراد بالاول ماله وملكه كما يقال فلان قليل ذات اليد يعنون به المال وبالثاني نفسه * ولما دعا صلى الله عليه وسلم أقربيه الى الله تعالى وخوفهم النار قال أبو لهب ان كان ما يقول ابن أخي حقا فاني أفتدي نفسي بمالي وولدي فأنزل الله تعالى (ما أغنى عنه) أي عن أبي لهب (ماله) أي الكثير الذي جرت العادة أنه منج من الهلاك فانه كان صاحب مواش كثيرة (وما كسب) أي من الولد والاصحاب والعز بعشيرته التي كان يؤذي بها النبي صلى الله عليه وسلم وكان ابنه عتبة شديد الاذى للنبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم سلط عليه كلبا من كلابك فكان أبو لهب يعرف أن هذه الدعوة لابد أن تدركه فسافر الى الشام فأوصى به الرفاق لينجوه من هذه الدعوة فكانوا يحدقون به اذا نام ليكون وسطهم والحول محيطة به وهم محيطون بها والركاب محيطة

بهم فلم ينفعه ذلك بل جاء الاسد فتشمم الناس حتى وصل اليه فاقتلع رأسه وانما كان الولد من الكسب لقوله صلى الله عليه وسلم أطيب ما يأكل أحدكم من كسبه وان ولده من كسبه
(تنبيه) ما في ما أغنى يجوز فيها النفي والاستفهام فعلى الاستفهام تكون منصوبة المحل بما بعدها التقدير أي شيء أغنى المال وقدم لكونه له صدر الكلام ويجوز في ما في قوله تعالى وما كسب أن تكون بمعنى الذى فالعائد محذوف وأن تكون مصدرية أي وكسبه وأغنى بمعنى يغنى ثم أوعده سبحانه بالنار فقال تعالى (سيصلى) أي عن قريب بوعد لا خلف فيه (نارا) يندس فيها وتنعطف عليه وتحيط به (ذات لهب) أي لا تسكن ولا تخمد أبدا لان ذلك مدلول الصحبة المعبر عنها بذات وذلك بعد موته ولما أخبر تعالى عنه بكمال التباب الذى هو نهاية الخسار زاده تحقيرا بذكر من يصونها بأزرى صورة وأشنعها بقوله تعالى (وامرأته) وهو عطف على ضمير يصلى سوغه الفصل بالمفعول وصفته وهى أم جميل وهى أخت أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى مثل زوجها في التباب والصلى من غيران يغنى عنها شيء من مال ولا حسب ولا نسب وعدل عن ذكرها بكنيتها الان صفتها القباحة وهى ضد كنيتها قال البقاعى ومن هنا يؤخذ كراهة التلقيب بناصر الدين ونحوها لمن ليس متصفا بما دل عليه لقبه وقوله تعالى (حمالة الحطب) فيه وجهان أحدهما هو حقيقة قال قتادة وكانت تعير النبي صلى الله عليه وسلم بالفقر ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها فعيرت بالبخل وقال ابن زيد كانت تحمل العضاه والشوك تلقيه في الليل في طريق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكان النبي صلى الله عليه وسلم يطؤه كما يطأ الحرير وقال مرة الهمدانى كانت أم جميل تأتى في كل يوم بابالة من الحسك فتطرحها في طريق المسلمين فبينما هى ذات ليلة حاملة حزمة عييت فقعدت على حجر تستريح فجذبها الملك من خلفها فأهلكها الوجه الثانى ان ذلك مجاز عن المشى بالنميمة ورمى الفتن بين الناس ويقال للمشاء بين الناس بالنمائم المفسد بين الناس يحمل الحطب منهم أي يوقد بينهم النائرة ويثير الشر قال الشاعر

من البيض لم تصطد على ظهر لأمة * ولم تمش بين الناس بالحطب الرطب

جعله رطبا ليدل على التدخين الذى هو زيادة في الشر وقال سعيد بن جبير حمالة الخطايا والذنوب من قولهم فلان يحتطب على ظهره قال تعالى يحملون أوزارهم على ظهورهم وقرأ عاصم بنصب التاء من حمالة على الشتم قال الزمخشرى وأنا أستحب هذه القراءة وقد توسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب شتم أم جميل اه والباقون برفعها على أنها صفة امرأته فانها مرفوعة باتفاق اما بالعطف على الضمير في سيصلى كما مر ويكون قوله تعالى (في جيدها حبل) حالا من امرأته أو على الابتداء ففي جيدها حبل هو الخبر وحبل فاعل به ويجوز أن يكون في جيدها خبرا مقدما وحبل مبتدأ مؤخرا والجملة حالية أو خبر ثان والجيد العنق ويجمع على أجياد وقوله تعالى (من مسد) صفة لحبل والمسد ليف المقل وقيل الليف مطلقا وقال أبو عبيد هو حبل يكون من صوف وقال الحسن هى حبال من شجر ينبت باليمن يسمى المسد وكانت تفتله

وقال الضحاك وغيره هذا فى الدنيا وكانت تعير النبى صلى الله عليه وسلم بالفقر وهى تحتطب فى حبل تجعله فى جيدها من ليف فخنقها الله عز وجل به فأهلكها وهو فى الآخرة حبل من نار (فان قيل) ان كان ذلك حبلها فكيف يبقى فى النار (أجيب) بأن الله تعالى قادر على تجديده كلما احترق كما يبقى اللحم والعظم والجلد أبدا فى النار وعن ابن عباس قال هو سلسلة ذرعها سبعون ذراعا تدخل فيها وتخرج من أسفلها ويلوى سائرها على عنقها وقال قتادة هو قلادة من ودع وقال الحسن انما كان خرزا فى عنقها وقال سعيد بن المسيب كانت لها قلادة فاخرة من جوهر فقالت واللات والعزى لانفقنها فى عداوة محمد ويكون ذلك عذابا فى جيدها يوم القيامة وقيل ان ذلك اشارة الى الخذلان يعنى انها مربوطة عن الايمان لما سبق لها من الشقاء كالمربوط فى جيده بحبل من مسد والمسد الفتل يقال مسد حبله يمسده مسدا أى أجاد فتله والجمع امساد وروى أنها لما سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر وفى يدها فهر من حجارة تريد أن ترميه به فلما وقفت عليه أخذ الله تعالى بصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى الا أبا بكر فقالت يا أبا بكر أين صاحبك قد بلغنى أنه يهجونى والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه والله انى لشاعرة

مذمما عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا

ثم انصرفت فقال أبو بكر يا رسول الله أما ترى ما رأتك قال صلى الله عليه وسلم ما رأتنى لقد أخذ الله تعالى بصرها عنى وكانت قريش انما تسمى محمدا صلى الله عليه وسلم مذمما ثم يسبونه وكان صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبوا لما صرف الله تعالى عنى من أذى قريش يهجون مذمما وأنا محمد انظر كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل هذا الاذى ويحلم عليهم فينبغى لغيره أن يكون له به اسوة قال الله تعالى لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة *(تنبيه)* احتج أهل السنة على تكليف ما لا يطاق بأنه تعالى كلف أبا لهب بالايمان بتصديق الله تعالى فى كل ما أخبر عنه ومما أخبر عنه انه لا يؤمن فانه من أهل النار فانه قد صار مكلفا بأن يؤمن بأنه لا يؤمن وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين وهو محال وذلك مذكور فى أصول الفقه وقد تضمنت هذه الآيات الاخبار عن الغيب بثلاثة أوجه أحدها الاخبار عنه بالتباب والخسران وقد كان ذلك ثانيها الاخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده وقد كان ذلك ثالثها الاخبار عنه بأنه من أهل النار وقد كان ذلك لانه مات على الكفر هو وامرأته ففى ذلك معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم وامرأته خنقها الله تعالى بحبلها كما مر وأبو لهب رماه الله تعالى بالعدسة بعد وقعة بدر بسبع ليال فمات وأقام ثلاثة أيام لا يدفن حتى أنتن ثم ان ولده غسله بالماء قذفا من بعيد مخافة عدوى العدسة وكانت قريش تتقيها كما تتقى الطاعون ثم احتملوه الى أعلى مكة وأسندوه الى جدار ثم رضموا عليه الحجارة وقيل ان الله تعالى يدخل امرأته جهنم على الصورة التى كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الحطب ولا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من أصل شجرة الزقوم أو من الضريع وفى جيدها حبل من مسد من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله فى جرمه وقول

البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه و بين أبى لهب فى دار واحدة حديث موضوع

سورة الاخلاص مكية

فى قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة ومدنية فى أحد قولى ابن عباس وقتادة والضحاك والسدى وهى أربع آيات وخمس عشرة كلمة وسبعة وأربعون حرفا

(بسم الله) الذى له جميع الكمال ذى الجلال والجمال (الرحمن) الذى أفاض على جميع خلقه عموم الافضال (الرحيم) الذى خص أهل وداده من نور الانعام بالاتمام والاكمال * واختلف فى سبب نزول سورة (قل هو الله أحد) فروى أبو العالية عن أبى بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انسب لنا ربك فنزلت وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أتيا النبى صلى الله عليه وسلم فقال عامر الى من تدعنا يا محمد فقال الى الله تعالى قال صفه لنا أمن ذهب هو أم من فضة أم من حديد أم من خشب فنزلت وأهلك الله تعالى أربد بالصاعقة وعامر بن الطفيل بالطاعون وقال الضحاك وقتادة ومقاتل جاء ناس من أحبار اليهود الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك فان الله تعالى أنزل صفته فى التوراة فأخبرنا من أى شئ هو وهل يأكل و يشرب ومن ورث ومن يرثه فنزلت * (تنبيه) * هو ضمير الشأن وهو مبتدأ وخبره الله وأحد بدل أو خبر ثان يدل على مجامع صفات الجلال كما دل الله تعالى على جميع صفات الكمال اذ الواحد الحقيق ما يكون منزه الذات عن التركيب والتعدد وما يستلزم أحدهما كالجسمية والتحيز والمشاركة فى الحقيقة وخواصها كوجوب الوجود والقدرة الذاتية والحكمة التامة المقتضية للالوهية * (فائدة) * جاء فى الواحد عن العرب لغات كثيرة يقال واحد وأحد ووحد ووحيد ووحاد وأحاد وموحد وأوحد وهذا كله راجع الى معنى الواحد وان كان فى ذلك معان لطيفة ولم يجئ فى صفات الله تعالى الا الواحد والاحد وقوله تعالى (الله) أى الذى ثبتت الهيته وأحديته لا غيره مبتدأ خبره (الصمد) واخلى هذه الجملة عن العاطف لانها كالنتيجة للاولى أو الدليل عليها والصمد السيد المصمود اليه فى الحوائج والمعنى هو الله الذى تعرفونه وتقرون بأنه خالق السموات والارض وخالقكم وهو واحد متوحد بالالوهية لا يشارك فيها وهو الذى يصمد اليه كل مخلوق لا يستغنون عنه وهو الغنى عنهم وعن ابن عباس رضى الله عنهما الصمد هو الذى لا جوف له وقال الشعبى هو الذى لا يأكل ولا يشرب وقال الربيع هو الذى لا تعتريه الآفات وقال مقاتل بن حبان هو الذى لا عيب فيه وقال قتادة هو الباقى بعد فناء خلقه وقال سعيد بن جبير هو الكامل فى جميع صفاته وأفعاله وقال السدى هو المقصود اليه فى الرغائب المستغاث به عند المصائب تقول العرب صمدت فلانا أصمده صمدا بسكون الميم اذا قصدته وعن أبى بن كعب هو الذى (لم يلد) لان من يلد سيموت ومن يرث يورث عنه ففسر الصمد بما بعده و ينبغى أن تجعل هذه

التفاسير كلها تفسيرا واحدا فانه متصف بجميعها فكونه لم يلد لانه لم يجانس ولم يفتقر الى من يعينه أو يخلف عنه لامتناع الحاجة والفناء عليه لدوامه فى أبديته والاقتصار على الماضى لوروده ردّا على من قال الملائكة بنات الله أو العزير أو المسيح أو غيره * ولما بين أنه لا فصل له ظهر أنه لا جنس له فدل عليه بقوله تعالى (ولم يولد) لانه لو تولد عنه غيره تولد هو عن غيره كما هو المعهود والمعقول فهو قديم لا أوّل له بل هو الاوّل الذى لم يسبقه عدم لانّ الولادة لا تكون ولا تتشخص الا بواسطة المادّة وعلاقتها وكل ما كان ماديا أو كان له علاقة بالمادّة كان متولدا عن غيره والله سبحانه وتعالى منزه عن جميع ذلك (ولم يكن) أى لم يتحقق ولم يوجد بوجه من الوجوه ولا بتقدير من التقادير (له) أى خاصة (كفوا) أى مثلا ومساويا (أحد) على الاطلاق أى لا يساويه فى قوّة الوجود لانه لو ساواه فى ذلك لكانت مساواته باعتبار الجنس والفصل فيكون وجوده متولدا عن الازدواج الحاصل من الجنس الذى يكون كالامّ والفصل الذى يكون كالاب وقد ثبت انه لا يصح بوجه من الوجوه أن يكون فى شئ من الولادة لانّ وجوب وجوده لذاته فانتفى أن يساويه شئ وكان الاصل ان يؤخر الظرف لانه صلة لكن لما كان المقصود نفى المكافأة عن ذاته تعالى قدم تقديما للاهم ويجوز أن يكون حالا من المستكن فى كفوا أو خبرا أو يكون كفوا حالا من أحد وعطف هاتين الجملتين على الجملة التى قبلهما لانّ الثلاث شرح الصمدية النافية لاقسام الامثال فهى كالجملة الواحدة روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأمّا تكذيبه اياى يقول لن يعيدنى كما بدأنى وليس أوّل الخلق بأهون علىّ من اعادته وأما شتمه اياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الاحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد وقرأ حمزة بسكون الفاء والباقون بضمها وقرأ حفص كفوا بالواو وقفا ووصلا واذا وقف حمزة وقف بالواو وورد فى فضائل هذه السورة أحاديث كثيرة منها مارواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رجلا سمع رجلا يقرأ قل هو الله أحد يردّدها فلما أصبح أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له وكان الرجل يتقالها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده انها لتعدل ثلث القرآن (فان قيل) لم كانت تعدل ثلث القرآن (أجيب) بأن القرآن أنزل أثلاثا ثلث أحكام وثلث وعد ووعيد وثلث أسماء وصفات فجمعت هذه السورة أحد الاثلاث وهو الاسماء والصفات وقيل انها تعدل القرآن كله مع قصر متنها وتقارب طرفيها وما ذاك الا لاحتوائها على صفات الله تعالى وعدله وتوحيده وكفى بذلك دليلا لمن اعترف بفضلها ومنها مارواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سرية فكان يقرأ فى صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سلوه لاى شئ يصنع ذلك فسألوه فقال لانها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها فقال صلى الله عليه وسلم أخبروه ان الله تعالى يحبه * ومنها مارواه الترمذى عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقرأ قل هو الله أحد فقال صلى الله عليه وسلم وجبت قلت ما وجبت قال الجنة * ومنها ماروى أنس أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال من قرأ قل هو الله أحد خمسين مرة غفرت ذنوبه * ومنها ما روى سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ قل هو الله أحد عشر مرات بنى الله له قصرا فى الجنة ومن قرأها عشرين مرة بنى الله له قصرين فى الجنة ومن قرأها ثلاثين مرة بنى الله له ثلاث قصور فى الجنة فقال عمر أذن تكثر قصورنا فقال صلى الله عليه وسلم الله أوسع من ذلك * ومنها ما رواه الطبرانى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ قل هو الله أحد بعد صلاة الصبح اثنى عشرة مرة فكأنما قرأ القرآن أربع مرات وكان أفضل أهل الارض يومئذ اذا اتقى وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ قل هو الله أحد فى مرضه الذى يموت فيه لم يفتن فى قبره وأمن من ضغطة القبر وحملته الملائكة بأكفها حتى تجيزه من الصراط الى الجنة وقد أفردت أحاديثها بالتأليف وفى هذا القدر كفاية لأولى الالباب ولها أسماء كثيرة وزيادة الاسماء تدل على شرف المسمى أحدها أنها سورة التفريد ثانيها سورة التجريد ثالثها سورة التوحيد رابعها سورة الاخلاص خامسها سورة النجاة سادسها سورة الولاية سابعها سورة النسبة لقولهم انسب لنا ربك ثامنها سورة المعرفة تاسعها سورة الجمال عاشرها سورة المقشقشة حادى عشرها سورة المعوذة ثانى عشرها سورة الصمد ثالث عشرها سورة الاساس قال أسست السموات السبع والارضين السبع على قل هو الله أحد رابع عشرها المانعة لانها تمنع فتنة القبر ونفحات النار خامس عشرها سورة المحضر لان الملائكة تحضر لاستماعها اذا قرئت سادس عشرها المنفرة لان الشياطين تنفر عند قراءتها سابع عشرها سورة البراءة لانها براءة من الشرك ثامن عشرها المذكرة لانها تذكر العبد خالص التوحيد تاسع عشرها سورة النور لانها تنور القلب المكمل للعشرين سورة الانسان قال صلى الله عليه وسلم اذا قال العبد الله قال الله دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابى فنسأل الله تعالى أن يجيرنا من عذابه ويدخلنا الجنة نحن وجميع الاحباب بغير حساب لانه كريم حليم وهاب وما رواه البيضاوى من انها تعدل ثلث القرآن فرواه البخارى ومن انه صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقرؤها الخ فرواه الترمذى والنسائى وغيرهما

﴿سورة الفلق مكية﴾

فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ومدنية فى قول ابن عباس وقتادة
وهى خمس آيات وثلاث وعشرون كلمة وأربعة وسبعون حرفا

(بسم الله) الذى له جميع الحول (الرحمن) الذى استجمع كمال الطول (الرحيم) الذى أتم على أهل وده جميع النول واختلف فى سبب نزول سورة (قل أعوذ برب الفلق) فقال ابن عباس وعائشة رضى الله عنهم كان غلام من اليهود يخدم النبى صلى الله عليه وسلم فدنت اليه اليهود فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبى صلى الله عليه وسلم وعدة أسنان من مشطه وأعطاها اليهود فسحروه فيها وتولى ذلك لبيد بن الاعصم رجل من اليهود فنزلت هذه وقل أعوذ برب الناس فيه

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم طب أى سحر حتى كأنه يخيل اليه أنه صنع شيأ وما صنعه وأنه دعى ربه ثم قال أشعرت ان الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه فقالت عائشة رضى الله عنها وماذاك يا رسول الله قال جاءنى رجلان فجلس أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال أحدهما لصاحبه ماوجع الرجل فقال الآخر مطبوب قال من طبه قال لبيد بن الاعصم قال فيماذا قال فى مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر قال فأين هو قال فى ذروان وذروان بئر فى بنى زريق قالت عائشة رضى الله عنها فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رجع الى عائشة فقال والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رؤس الشياطين قالت فقلت يا رسول الله هل أخرجته قال أما أنا فقد شفانى الله وكرهت أن أثير على الناس منه شرا وعن زيد بن ارقم قال سحر النبى صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فاشتكى ذلك أياما فأتاه جبريل عليه السلام فقال ان رجلا من اليهود سحرك وعقد لك عقدا فى بئر كذا وكذا فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا فاستخرجها فجاء بها فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال قال فماذكر ذلك اليهودى ولا رأى وجهه قط وروى انه كان تحت صخرة فى البئر فرفعوا الصخرة وأخرجوا جف الطلعة فاذا فيها مشاطة من رأسه صلى الله عليه وسلم وأسنان مشطه وعن مقاتل والكلبى كان ذلك فى وتر عقد عليه أحدى عشرة عقدة وقيل كانت مغروزة بالابرة فأنزل الله هاتين السورتين وهما احدى عشرة آية سورة الفلق خمس آيات وسورة الناس ست آيات كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى انحلت العقد كلها فقام صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال وروى انه لبث فيه ستة أشهر واشتد عليه ثلاث ليال فنزلت المعوذتان وروى انه كان يخيل له أنه يطأ زوجاته وليس بواطئ قال سفيان وهذا أشد ما يكون من السحر وعن أبى سعيد الخدرى أن جبريل عليه السلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد اشتكيت قال نعم قال بسم الله أرقيك من كل شئ يؤذيك ومن شر كل نفس أو عين حاسد والله يشفيك بسم الله أرقيك (فان قيل) المستعاذ منه هل هو بقضاء الله وقدره أو لا فان كان بقضاء الله وقدره فكيف أمر بالاستعاذة مع أن ما قدر لابد واقع وان لم يكن بقضاء الله وقدره فذلك قدح فى القدرة (أجيب) بأن كل ما وقع فى الوجود فهو بقضاء الله وقدره والاستشفاء بالتعوذ والرقى من قضاء الله يدل على صحة ذلك ما روى الترمذى عن أبى خزامة عن أبيه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أرأيت رقى نسترقى بها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل يرد من قضاء الله شيأ قال هو من قدر الله قال الترمذى هذا حديث حسن وعن عمر نفر من قدر الله الى قدر الله ومعنى أعوذ أستجير وألتجئ وأعتصم وأحترز والفلق الصبح فى قول الاكثرين ومنه قوله تعالى فالق الاصباح لانه ظاهر فى تغير الحال ومحاكاة يوم القيامة الذى هو أعظم فلق يشق ظلمة الفناء والهلاك بالبعث والاحياء وقال الملوى الفلق بالسكون والحركة كل شئ انفلق عنه ظلمة العدم وأوجد من الكائنات جميعا وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سجن فى جهنم وقال الكلبى واد فى جهنم وقال الضحاك يعنى الخلق وقيل المطمئن من الارض وجمعه فلقان مثل

خلق وخلقان وقيل الفلق الجبال والصخور تنفلق بالمياه أي تنشق وقيل هو التفليق بين الجبال لانها تنشق من خوف الله تعالى ولفظ الرب هنا أوقع من سائر أسمائه تعالى لان الاعاذة من المضار تربية * ولما كانت الاشياء قسمين عالم الخلق وعالم الامر وكان عالم الامر خيرا كله فكان الشر منحصرا في عالم الخلق خصه بالاستعاذة فقال تعالى معمما فيها (من شر ما خلق) فخص عالم الخلق بالاستعاذة منه لانحصار الشر فيه والشر يكون اختياريا من العاقل الداخل تحت مدلول ما وغيره من سائر الحيوانات كالكفر والظلم ونهش السباع ولدغ ذوات السموم وتارة طبيعيا كاحراق النار واهلاك السموم وقيل المراد به ابليس خاصة لانه لم يخلق الله خلقا اشر منه ولان السحر لا يتم الا به وباعوانه وجنوده وقيل من شر كل ذي شر وقوله تعالى (ومن شر غاسق اذا وقب) فيه أوجه أحدها ماروى عن عائشة قالت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر الى القمر فقال يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا فان هذا هو الغاسق اذا وقب أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح حسن فعلى هذا المراد به القمر اذا خسف واسود وذهب ضوءه أو اذا دخل في المحاق وهو آخر الشهر وفي ذلك الوقت يتم السحر المؤثر للتمريض وهذا مناسب لسبب نزول هذه السورة ثانيها ماروى عن ابن عباس أن الغاسق الليل اذا وقب أي أقبل بظلمته من المشرق وسمي الليل غاسقا لانه أبرد من النهار والغسق البرد وانما أمرنا بالتعوذ من الليل لان فيه تنتشر الآفات ويقل الغوث ومنه قولهم الليل أخفى للويل وقولهم اعذر الليل لانه اذا أظلم كثر فيه العدو وفيه يتم السحر وأسند الشر اليه لملابسته له من حدوثه فيه ثالثها انه الثريا اذا سقطت وغابت ويقال ان الاسقام تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها فلهذا أمرنا بالتعوذ من الثريا عند سقوطها رابعها انه الاسود من الحيات ووقبه ضربه ونقبه والوقب النقب ومنه وقبت الثريد ولما كان السحر اعظم ما يكون لما فيه من تفريق المرء من زوجه وأبيه وابنه ونحو ذلك عقب ذلك بقوله تعالى (ومن شر النفاثات في العقد) أي النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللواتي تعقد عقدا في خيوط وينفثن عليها ويرقين عليها والنفث النفخ مع ريق وقال أبو عبيدة النفاثات من بنات لبيد بن أعصم اليهودي سحرن النبي صلى الله عليه وسلم (فان قيل) مامعنى الاستعاذة من شرهن (أجيب) بثلاثة أوجه أحدها انه يستعاذ من عملهن الذي هو صنعة السحر ومن اثمهن في ذلك ثانيها ان يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن ثالثها ان يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن قال الزمخشري ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله تعالى ان كيدكن عظيم تشبيها لكيدهن بالسحر والنفث في العقد أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن كأنهن يسحرنهم بذلك * (تنبيه) * اختلف في النفث في الرقى فجوزه الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ويدل عليه حديث عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذتين وروى محمد بن حاطب أن يده احترقت فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل ينفث عليها ويتكلم بكلام زعم انه لم يحفظه وروى ان قوما لدغ رجل منهم فأتوا أصحاب النبي صلى الله عليه

وسلم فقالوا هل فيكم من راق قالوا الاحق تجعلوا لنا شيأ فجعلوا لهم قطيعا من الغنم فجعل رجل منهم يقرأ فاتحة الكتاب ويرقى ويتفل حتى برئ فأخذوه فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال وما يدريك أنها رقية خذوا واضربوا لي معكم بسهم وأنكر جماعة النفث والتفل في الرقى وأجازوا النفخ بلا ريق وقال عكرمة لا ينبغي للراقي أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد وقيل ان النفث في العقد انما يكون مذموما اذا كان سحرا مضرا بالارواح والابدان واذا كان النفث لاصلاح الارواح والابدان فلا يضر وليس بمذموم ولا مكروه بل هو مندوب اليه * ولما كان أعظم حامل على السحر وغيره من أذى الناس الحسد وهو تمني زوال نعمة المحسود للحاسد أو غيره قال تعالى (ومن شر حاسد) أي ثابت الاتصاف بالحسد معروف فيه وأعظم الحساد الشيطان الذي ليس له دأب الا السعي في ازالة نعم العبادات عن الانسان بالغفلات ثم قيد ذلك بقوله تعالى (اذا حسد) أي اذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود لانه اذا لم يظهر أثر ما أضمر فلا ضرر يعود منه على من حسده بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره وعن عمر بن عبد العزيز لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من حاسد وفي اشعار الآية ادعاء بما يحسد عليه من نعم الدارين لان خير الناس من عاش محسودا ومات محسودا (فان قيل) لم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه (أجيب) بأن النفاثات عرفت لانه كل نفاثة شريرة ونكر غاسق لان كل غاسق لا يكون فيه الشر انما يكون في بعض دون بعض وكذلك كل حاسد لا يضر ورب حسد محمود وهو الحسد في الخيرات ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لا حسد الا في اثنتين الحديث وقال أبو تمام

* وما حاسد في المكرمات بحاسد * وقال آخر * ان العلا حسن في مثلها الحسد * (فائدة) * قال بعض الحكماء الحاسد بارز ربه من خمسة أوجه أولها أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره ثانيها أنه ساخط لقسمة ربه كأنه يقول لم قسمت هذه القسمة ثالثها انه ضاد فعل الله تعالى ان فضل الله يؤتيه من يشاء وهو يبخل بفضل الله تعالى رابعها أنه خذل أولياء الله تعالى أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم خامسها انه أعان عدو الله ابليس والحاسد لا ينال في المجالس الا ندامة ولا ينال عند الملائكة الا لعنة ولا ينال في الدنيا الا جزعا وغما ولا ينال في الآخرة الا حزنا واحتراقا ولا ينال من الله تعالى الا بعدا ومقتا وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاثة لا يستجاب دعاؤهم آكل الحرام ومكثر الغيبة ومن كان في قلبه غل أو حسد للمسلمين وقيل المراد بالحاسد في الآية اليهود فانهم كانوا يحسدون النبي صلى الله عليه وسلم (فان قيل) قوله تعالى من شر ما خلق تعميم في كل ما يستعاذ منه فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد (أجيب) بأنه قد خص شر هؤلاء من كل شر لخفاء أمرهم وانه يلحق الانسان من حيث لا يعلم كأنما يغتال به وقالوا شر العداة المداجي الذي يكيدك من حيث لا تشعر وأخرج الامام احمد عن الزبير بن العوام أنه صلى الله عليه وسلم قال دب اليكم داء الامم قبلكم الحسد والبغضاء ألا والبغضاء هي الحالقة فنسأل الله تعالى ان يحفظنا ويحمينا منه انه كريم جواد وروى مسلم انه صلى الله عليه وسلم قال لقد أنزلت على سورتان ما أنزل مثلهما وروى ابن ماجه انه صلى الله عليه وسلم قال وانك ان تقرأ سورتين

لاحب

لا أحب ولا أرضى عند الله منهما يعني المعوذتين وعن عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون قلت بلى يارسول الله قال صلى الله عليه وسلم قال قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وما رواه الزمخشري ولم يذكره البيضاوي هنا لكن قال في آخر السورة الآتية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى حديث موضوع

﴿ سورة الناس مكية ﴾

وهي ست آيات وعشرون كلمة وتسعة وتسعون حرفا

(بسم الله) المحيط بكل باطن كاحاطته بكل ظاهر (الرحمن) الذي عمت نعمته كل باد وحاضر (الرحيم) الذي خص أهل وده بإتمام النعمة في جميع أمورهم الاول منها والاثناء والآخر ولما أمر الله تعالى نبيه بالاستعاذة مما تقدم أمره أن يستعيذ من شر الوسواس بقوله تعالى (قل) أي يا أشرف المرسلين (أعوذ) أي اعتصم والتجئ (برب) أي مالك وخالق (الناس) وخصهم بالذكر وان كان رب جميع المحدثات لامرين أحدهما ان الناس يعظمون فأعلم بذكرهم أنه رب لهم وان عظموا الثاني انه أمر بالاستعاذة من شرهم فاعلم بذكرهم انه هو الذي يعيذ منهم قال الملوي والرب من له ملك الرق وجلب الخيرات من السماء والارض وانقاذها ودفع الشرور ورفعها والنقل من النقص الى الكمال والتدبير العام العائد بالحفظ والتتميم على المربوب وقوله تعالى (ملك الناس) اشارة الى أن له كمال التصرف ونفوذ القدرة وتمام السلطان فاليه المفزع وهو المستغاث والملجأ والمنجا والمعاذ وقوله تعالى (اله الناس) اشارة الى انه تعالى كما انفرد بربوبيتهم وملكهم لم يشركه في ذلك أحد فكذلك هو وحده الههم لا يشركه في ألوهيته أحد وقد اشتملت هذه الاضافات الثلاث على جميع قواعد الايمان وتضمنت معاني أسمائه الحسنى فان الرب هو القادر الخالق الى غير ذلك مما يتوقف الاصلاح والرحمة والقدرة الذي هو معنى الربوبية عليه من أوصاف الجمال والملك هو الآمر الناهي المعز المذل الى غير ذلك من الاسماء العائدة الى العظمة والجلال وأما الاله فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال فيدخل فيه جميع الاسماء الحسنى ولتضمنها لجميع معاني الاسماء الحسنى كان المستعيذ جديرا بأن يعاذ وقد وقع ترتيبها على الوجه الاكمل الدال على الوحدانية لان من رأى ما عليه من النعم الظاهرة والباطنة علم ان له مربيا فاذا درج في العروج في درج معارفه سبحانه علم أنه غني عن الكل والكل اليه محتاج وعن أمره تعالى تجري أمورهم فيعلم انه ملكهم ثم يعلم بانفراده بتدبيرهم بعد ابداعهم انه المستحق للالهية بلا مشارك له فيها * (فائدة) * قد أجمع جميع القراء في هذه السورة على اسقاط الالف من مالك بخلاف الفاتحة كما مضى لان المالك اذا أضيف الى اليوم أفهم اختصاصه بجميع ما فيه من جوهر وعرض وانه لا أمر لاحد معه ولا مشاركة في شيء من ذلك وهو معنى الملك بالضم وأما اضافة المالك الى الناس فانها لا تستلزم أن يكون ملكهم فلو قرئ به هنا لنقص المدح بالضم وأطبقوا في آل

عمران على اثبات الالف في المضاف وحذفهما من المضاف اليه لان المقصود من السياق أنه سبحانه يعطي الملك من يشاء ويمنعه من يشاء والملك بكسر الميم أليق بهذا المعنى واسرار كلام الله تعالى أعظم من أن تحيط بها العقول وانما غاية أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها *(تنبيه)* يجوز في ملك الناس واله الناس أن يكونا وصفين لرب الناس وان يكونا بدلين وأن يكونا عطف بيان واقتصر عليه الزمخشري قال كقولك سيرة أبي حفص عمر الفاروق بين بملك الناس ثم زيد بيانا باله الناس لانه قد يقال لغيره رب الناس كقوله تعالى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله وقد يقال ملك الناس وأما اله الناس فخاص لا شركة فيه فجعل غاية للبيان (فان قيل) هلا اكتفى باظهار المضاف اليه الذي هو الناس مرة واحدة (أجيب) بأن عطف البيان للبيان فكان مظنة للاظهار دون الاضمار (من شر الوسواس) وهو اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة وأما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال والمراد به شيطان سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه لانها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه او أريد ذو الوسواس والوسوسة الصوت الخفي ويقال لحس الصائد والكلاب وأصوات الحلي وسواس والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم كما في الصحيح فهو الذي يوسوس بالذنب سرا ليكون احلى ولا يزال يزينه ويثير الشهوة الداعية اليه حتى يوقع الانسان فاذا أوقعه وسوس لغيره ان فلانا فعل كذا حتى يفضحه بذلك فاذا افتضح ازداد جراءة على امثال ذلك كأنه يقول قد وقع ما كنت أحذر من ايقاعه فلا يكون شئ غير الذي كان فيجترئ على الذنب * ولما كان الله تعالى لم ينزل داء الا أنزل له دواء غير السام وهو الموت وكان قد جعل دواء الوسوسة ذكره تعالى فانه يطرد الشيطان وينير القلب ويصفيه وصف سبحانه الموسوس عند استعماله الدواء بقوله تعالى (الخناس) أي الذي عادته ان يخنس أي يتوارى ويتأخر ويختفي بعد ظهوره مرة بعد مرة كلما كان الذكر خنس وكلما بطل عاد الى وسواسه فالذكر له كالمقامع التي تقمع المفسد فهو شديد النفور منه ولهذا كان شيطان المؤمن هزيلا كما حكي عن بعض السلف أن المؤمن يضني شيطانه كما يضني الرجل بعيره في السفر قال قتادة الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب وقيل كخرطوم الخنزير في صدر الانسان فاذا ذكر العبد ربه خنس ويقال رأسه كرأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب يمسه ويحدثه فاذا ذكر الله تعالى خنس ورجع ووضع راسه فذلك قوله تعالى (الذي يوسوس) أي يلقي المعاني الضارة على وجه الخفاء والتكرير (في صدور الناس) أي المضطربين اذا غفلوا عن ذكر ربهم من غير سماع وقال مقاتل ان الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن آدم مجرى الدم في عروقه سلطه الله تعالى على ذلك وقال القرطبي وسوسته هي الدعاء الى اطاعته بكلام خفي يصل مفهومه الى القلب من غير سماع صوت *(تنبيه)* يجوز في محل الذي يوسوس الحركات الثلاث فالجر على الصفة والرفع والنصب على الشتم ويحسن ان يقف القارئ على الخناس ويبتدئ الذي يوسوس على أحد هذين الوجهين وقوله تعالى (من الجنة) أي الجن الذين هم في غاية الشر والتمرد والخفاء (والناس) أي أهل الاضطراب والذبذبة بيان

للذى يوسوس على ان الشيطان ضربان جنى وأنسى كما قال تعالى شياطين الانس والجن ويجوز أن يكون بدلا من الذى يوسوس أى الموسوس من الجن والانس وأن يكون حالا من الضمير فى يوسوس اى حال كونه من هذين الجنسين وقيل غير ذلك قال الحسن هما شيطانان لنا أما شيطان الجن فيوسوس فى صدور الناس وأما شيطان الانس فيأتى علانية وقال قتادة ان من الجن شياطين وان من الانس شياطين فنعوذ بالله من شياطين الجن والانس وعن أبى ذر قال لرجل هل تعوذت بالله من شيطان الانس فقال أو من الانس شياطين قال نعم لقوله تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن الآية وذهب قوم الى أن المراد بالناس هنا الجن سموا ناسا كما سموا رجالا فى قوله تعالى وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن وكما سموا نفرا فى قوله تعالى قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن وكما سموا قوما نقل الفراء عن بعض العرب أنه قال وهو يحدث جاء قوم من الجن فوقفوا فقيل من أنتم فقالوا ناس من الجن فعلى هذا يكون والناس عطفا على الجنة ويكون التكرير لاختلاف اللفظين والجنة جمع جنى كما يقال انس وانسى والهاء لتأنيث الجماعة وقيل ان ابليس يوسوس فى صدور الجن كما يوسوس فى صدور الناس فعلى هذا يكون فى صدور الناس عاما فى الجميع ومن الجنة والناس بيانا لما يوسوس فى صدورهم وقيل معنى من شر الوسواس الوسوسة التى تكون من الجنة والناس وهو حديث النفس قال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى تجاوز لامتى عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به وعن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألم تر آيات نزلت الليلة لم ير مثلهن قط أعوذ برب الفلق وأعوذ برب الناس وعنه أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذ قلت بلى قال قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وعن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أوى الى فراشه كل ليلة جمع كفيه فنفث فيهما وقرأ قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يصنع ذلك ثلاث مرات وعنها أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده وجاء بركتها وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حسد الا فى اثنين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار وعن ابن عباس قال قال رجل يا رسول الله أى الاعمال أحب الى الله تعالى قال الحال المرتحل قال وما الحال المرتحل قال الذى يضرب من أول القرآن الى آخره كلما حل ارتحل وعن أبى هريرة أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول ما أذن الله لاحد ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به * (لطيفة) * نختم بها كما ختم بها الفخر الرازى رحمه الله تعالى تفسيره وهى ان المستعاذ به فى السورة الاولى مذكور بصفة واحدة وهى أنه رب الفلق والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات وهى الغاسق والنفاثات والحاسد وأما فى هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاث وهى الرب والملك والاله

قوله بدلا من الذى الخ كذا فى النسخ وهو غير ظاهر والصواب حالا من الذى اه

والمستعاذ منه آفة واحدة وهي الوسوسة والفرق بين الموضعين ان الثناء يجب ان يقدر بقدر المطلوب فالمطلوب في السورة الاولى سلامة النفس والبدن والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين وهذا تنبيه على ان مضرة الدين وان قلت أعظم من مضار الدنيا وان عظمت ﴿ وهذا آخر مايسره الله تعالى من السراج المنير في الاعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير فدونك تفسيرا كأنه سبيكة عسجد أودرمنضد جمع من التفاسير معظمها ومن القراآت متواترها ومن الاقاويل أظهرها ومن الاحاديث صحيحها وحسنها محررالدلائل في هذا الفن مظهر الدقائق استعملنا الفكر فيها اذا الليل جن فاذا ظفرت بفائدة شاردة فادع لي بالتجاوز والمغفرة اوبزلة قلم أولسان فافتح لها باب التجاوز والمعذرة

فلابد من عيب فان تجدنه * فسامح وكن بالستر أعظم مفضل

فمن ذا الذي ماساء قط ومن له الـ * ـحسنى قدتمت سوى خير مرسل

وأنا أعوذ بجميع كلمات الله الكاملة التامة وألوذ بكنف رحمته الشاملة العامة من كل مايكلم الدين ويثلم اليقين أويعود في العاقبة بالندم أويقدح في الايمان المسوط باللحم والدم وأساله بخضوع العنق وخشوع البصر ووضع الخد لجلاله الاعظم الاكبر مستشفعا اليه بنوره الذي هو الشيبة في الاسلام متوسلا اليه بسيد الانام عليه الصلاة والسلام وبالتوبة الممحصة للآثام وبما عنيت به من مصابرتي على تواكل من القوى وتخاذل من الخطا ثم أسأله بحق صراطه المستقيم وقرآنه المجيد الكريم وبما لقيت من كدح اليمين وعرق الجبين في عمل هذا التفسير المبين عن حقائقه الخاص عن مضايقه المطلع على غوامضه المثبت في مداحضه المكتنز بالفوائد التي لاتوجد الافيه المحيط بمالايكتنه من بديع الفاظه ومعانيه مع الايجاز الحاذف للفضول وتجنب المستكره المملول متوسط الحجم وخير الامور أوساطها لاتفريطها ولا افراطها هذا ولسان التقصير في طول مدحه قصير

أعيذه بالمصطفى * من حاسد قدهما

بذمه وقد غدا * من أجله مهتما

فليس يبغي ذمه * الا بغيض أعمى

كفاه ربي شرهم * وزان منه الرسما

وزاد في تدبيرهم * تدميرهم والغما

وردهم بغيظهم * فلم ينالوا غنما

وزاده سعادة * ولازمته النعمى

فنسأل الله الكريم الذي به الضر والنفع والاعطاء والمنع أن يجعله لوجهه خالصا وان يداركني بالطافه اذا الظل أضحى في القيامة قالصا وأن يتجاوز عني انه هو السميع العليم وأن يرفع به درجتي في جنات النعيم وان يجعله ذخيرة لي عنده انه ذو الفضل العظيم وأن ينفع به من تلقاه بالقبول انه جواد كريم وان يخفف عني كل تعب ومؤنه وأن يمدني بحسن المعونه وان يهبه

في خاتمة الخير ويقيني مصارع السوء وان يتجاوز عن فرطاتي يوم التناد ولا يفضحني بها على رؤس الاشهاد أنا ووالدي وأولادي وأقاربي ومشايخي وأحبابي ويحلنا دار المقام من فضله بواسع طوله وسابغ نوله انه هو الجواد الكريم الرؤف الرحيم وهذا شيء ما كان في قدرتي فاني والله معترف بقصر الباع وكثرة الزلل ولكن فضل الله وكرمه لا يعلل بشيء من العلل فلهذا رجوت ان أكون متصفا باحدى الخصال الثلاث التي اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا منها بل أرجو من الله الكريم اجتماعها انه جواد كريم حليم (قال) المؤلف رحمه الله تعالى وكان الفراغ من تأليفه يوم الاثنين المبارك ثالث عشر صفر الخير من شهور سنة ثمان وستين وتسعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام على يد مؤلفه فقير رحمة ربه القريب محمد بن أحمد الشربيني الخطيب غفر الله تعالى له ذنوبه وستر في الدارين عيوبه والمسلمين والحمد لله رب العالمين وصلاة الله وسلامه على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين والصحابة والتابعين أجمعين وتابعيهم باحسان الى يوم الدين

يقول المتوسل الى الله بالجاه الصديقي ابراهيم عبد الغفار الدسوقي مصحح دار الطباعه جمل الله طباعه قد تم طبع السراج المنير بعون الملك القدير وهذا الكتاب العجيب المنسوب للامام الخطيب قد اعتنت بتحريره دار الطباعه وبذلت في تنقيره غاية الاستطاعه فازالت عنه ربقة التحريف وأطلقته من أسر التصحيف بمراجعة اصول اساليبه والبحث عن صواب تراكيبه فحصلت بركاته وعمت نفحاته وأنار الآفاق بدر وجوده وروى الظماء قاموس فضله وجوده وتحلت بصحاح جواهر معانيه اجياد مباشريه ومتابعيه ثم ان تمام بيعه في اثنا طبعه أول دليل على عموم نفعه وهذا كما يقع في خلدي ويقيني من كرامات مؤلفه محمد بن أحمد الشربيني وكان تمام طبعه بدار الطباعة العامرة الكائنة ببولاق مصر القاهرة على ذمة هذه المصلحة الميمونة التي هي بطالع السعد مقرونه في سنة خمس وثمانين ومائتين وألف من هجرة من خلقه الله على أكمل وصف مشمولا بنظر المجد في نفع أوطانه الباذل مروأته في قضاء حاج اخوانه من عليه احاسن اخلاقه تثنى حضرة حسين بك حسني فانه لا يزال باحثا عن عموم المنافع عند وجود المقتضيات وزوال الموانع في ظل من تعطرت الافواه بطيب ثنائه وبلغ من كل وصف جميل حد انتهائه ومحا ظلم الظلم بسنا صورته وأثبت مراسم العدل بحسن سيرته وأفاض على أهل مملكته غيوث انعامه واحسانه وشملهم بعظيم رأفته ومزيد امتنانه وبسط لهم بساط عدله وحلاهم بحلي جوده وفضله عزيز الديار المصريه وسامي حوزتها النيليه بشدة بأسه وعزمه الجلي سعادة أفندينا اسمعيل بن ابراهيم بن محمد على لا زال ملحوظا بعين العناية الالهيه موفقا لسائر الآراء الخيريه محفوظ الجناب مقصود الاعتاب مسرورا بسائر الانجال بجاه خاتم رسل ذي الجلال وما تهيأ التمام والكمال

وليس من حسن الطابع حلة الجمال انطلق لسان اليراع بتقريظه وبين الاطراء بلفظه فقال

كلام الله أفضل مارواه * رسول الله عن جبريل قطعا
عجائبه بحار اللب فيها * وليست تنقضى بدعا وصنعا
وخادمه بتفسير المعانى * أجل الناس منقبة ووضعا
ولاسيما الخطيب أبو المعالى * مبين الآى أفذاذا وشفعا
هو التفسير ايضاحا وبسطا * ومتبعوه أرق الناس طبعا
ولما تم حسنا قلت أرخ * وفى أوب الخطيب وتم طبعا

٩٦ ٩ ٦٥٣ ٤٤٦ ٨٣

١٢٨٥

فالحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على المؤيد
بباهر المعجزات وعلى أصحابه الكرام البررة وآل بيته
المتخيرين الخيرة ماتوالى الجديدان
وتعاقب النيران *

تم

(فهرسة الجزء الرابع من تفسير الخطيب الشربيني)

صحيفة	
٠٢	سورة الاحقاف
٢١	سورة محمد صلى الله عليه وسلم
٣٦	سورة الفتح
٥٩	سورة الحجرات
٧٧	سورة ق
٩٣	سورة الذاريات
١١٠	سورة الطور
١٢١	سورة النجم
١٤٢	سورة القمر
١٥٦	سورة الرحمن
١٧٨	سورة الواقعة
٢,٠١	سورة الحديد
٢١٩	سورة المجادلة
٢٣٧	سورة الحشر
٢٥٩	سورة الممتحنة
٢٧٢	سورة الصف
٢٨٠	سورة الجمعة
٢٩١	سورة المنافقين
٢٩٩	سورة التغابن
٣٠٩	سورة الطلاق
٣٢٣	سورة التحريم
٣٣٦	سورة الملك
٣٨٩	سورة ن (٣٤٩)

صحيفة	
٣٦٧	سورة الحاقة
٣٨٠	سورة المعارج
٣٨٩	سورة نوح عليه السلام
٣٩٧	سورة الجن
٤١١	سورة المزمل
٤٢٤	سورة المدثر
٤٣٨	سورة القيامة
٤٤٧	سورة الانسان
٤٦٢	سورة والمرسلات عرفا
٤٦٨	سورة عم يتساءلون
٤٧٥	سورة النازعات
٤٨٣	سورة عبس
٤٩٠	سورة التكوير
٤٩٥	سورة الانفطار
٤٩٩	سورة المطففين
٥٠٦	سورة الانشقاق
٥٠٩	سورة البروج
٥١٦	سورة الطارق
٥١٩	سورة الاعلى
٥٢٤	سورة الغاشية
٥٢٩	سورة الفجر
٥٣٦	سورة البلد

صحيفة	
٥٤١	سورة والشمس
٥٤٤	سورة والليل
٥٤٨	سورة والضحى
٥٥٤	سورة ألم نشرح
٥٥٧	سورة والتين
٥٥٩	سورة العلق
٥٦٤	سورة القدر
٥٦٩	سورة لم يكن
٥٧٣	سورة الزلزلة
٥٧٦	سورة والعاديات
٥٧٨	سورة القارعة
٥٨٠	سورة التكاثر
٥٨٣	سورة العصر
٥٨٥	سورة الهمزة
٥٨٧	سورة الفيل
٥٩٠	سورة قريش
٥٩٣	سورة الدين
٥٩٥	سورة الكوثر
٥٩٨	سورة الكافرون
٦٠٠	سورة النصر
٦٠٥	سورة تبت
٦٠٩	سورة الاخلاص
٦١١	سورة الفلق
٦١٥	سورة الناس

(تمت)